المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

الجزء الأول

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الأول

○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وهو في الواقع كتاب جديد ، يختلف عن كتابي السابق الذي ظهرت منه ثمانية أجزاء. يختلف عنه في إنشائه، وفي تبويبه وترتيبه ، وفي كثير من مادته أيضاً ، فقد ضمّنته مادة جديدة،خلا منها الكتاب السابق ، تهيأت لي من قراءاتي لكتابات جاهلية عُثر عليها بعد نشر ما نشرت منه ، ومن صور كتابات أو ترجماتها أو نصوصها لم تكن قد نشرت من قبل ، ومن مراجعاتي لموارد نادرة لم يسبق للحظ أن سعد بالظفر بها أو الوقوف عليها ، ومن كتب ظهرت حديثاً بعد نشر هذه الأجزاء ، فرأيت إضافتها كلها الى معارفي السابقة التي جسدتها في ذلك الكتاب .

وقد رأى أستاذي العالم الفاضل السيد محمد بهجت الأثري تسميته : « المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » ، لما فيه من تفصيل لم يرد في الكتاب السابق ، فوجدت في اقتراحه رأياً صائباً ينطبق كل الانطباق على ما جاء فيه ، فسميته بما سماه به ، مقدماً إليه شكري الجزيل على هذا التوجيه الجميل .

وكتاباي هذان ، هما عمل فرد عليه جمع المادة بنفسه ، والسهر في تحريرها وتحبيرها ،وعليه الإنفاق من ماله الخاص على شراء موارد غير متيسرة في بلاده ، أو ليس في استطاعته مراجعتها بسبب القيود المفروضة على إعارة الكتب،أو لاعتبارات أخرى ، ثم عليه البحث عن ناشر يوافق على نشر الكتاب ، ثم عليه تصحيح المسودات بنفسه بعد نجاحه في الحصول على ناشر ، الى غير ذلك من أمور تسلبه راحته وتستبد به وتضنيه . ولولا الولع الذي يتحكم في المؤلفين في هذه البلاد ، لما أقدم انسان على تأليف كتاب .

وإن عملاً يتم بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة ، لا يمكن أن يرضي المؤلف أو يسعده ، لأنه عمل يعتقد أنه مهما انفق فيه من جهد وطاقة واجتهاد ، فلن يكون على الشكل الذي يتوخاه أو يريده ، والصورة التي رسمها في فكره وتصورها له . ولولا طمع المؤلف في كرم القراء بتبرعهم في تقويم عوجه وإصلاح أغلاطه وارشاده الى خير السبل المؤدية الى التقويم والإصلاح ، ولولا اعتقاده أن في التردد أو الاحجام سلبية لا تنفع ، بل إن فيها ضرراً ، وان كتاباً يؤلف وينشر على ما يجمع من عيوب ونقائص خير من لا شيء ، أقول: لولا هذه الاعتبارات لما تجرأت ، فأخرجت كتاباً وعددتني مؤلفاً من المؤلفين .

وأنا إذ أقول هذا القول وأثبته ، لا أريد أن أكون مرائياً لابساً ثوب التواضع لأتظاهر به على شاكلة كثير من المرائين . وإنما أقول ذلك حقاً وصدقاً ، فأنا رجل أعتقد أن الانسان مهما حاول أن يتعلم ، فانه يبقى الى خاتمة حياته جاهلاً ، كل ما يصل اليه من العلم هو نقطة من بحر لا ساحل له . ثم اني ما زلت أشعر أني طالب علم ، كلما ظننت أني انتهيت من موضوع ، وفرحت بانتهائي منه ، أدرك بعد قليل أن هناك علماً كثيراً فاتني ، وموارد جمة لم أتمكن من الظفر بها ، فأتذكر الحكمة القديمة « العجلة من الشيطان » .

وقد رأيت في هذا الكتاب شأني في الكتاب السابق، ألا انصب نفسي حاكماً تكون وظيفته اصدار أحكام قاطعة ، وابداء آراء في حوادث تاريخية مضى زمن طويل عليها ، بل أكتفي بوصف الحادث وتحليله كما يبدو لي . وقد لا تعجب طريقتي هذه كثيراً من القراء ، وعذري أني لا أكتب لإرضاء الناس ، ولا أدون لشراء العواطف ، وإنما أكتب ما أعتقده وأراه بحسب علمي وتحقيقي ، والرأي عندي أن التأريخ تحليل ووصف لما وقع ويقع ، وعلى المؤرخ أن يجهد نفسه كل الإجهاد للإحاطة به ، بالتفتيش عن كل ما ورد عنه ، ومناقشة ذلك مناقشة تمحيص ونقد عميقين ، ثم تدوين ما يتوصل اليه بجده واجتهاده تدويناً صادقاً على نحو ما ظهر له وما شعر به، متجنباً إبداء الأحكام والآراء الشخصية القاطعة على قدر الاستطاعة .

لقد قلت في مقدمة الجزء الأول من كتابي السابق : « والكتاب بحث ، أردت جهد طاقتي أن يكون تفصيلياً ، وقد يعاب علي ذلك ، وعذري في هذا

التفصيل أني أريد تمهيد الجادة لمن يأتي بعدي فيرغب في التأليف في هذا الموضوع، وأنني أكتب للمتتبعين والمتخصصين ، ومن حق هؤلاء المطالبة بالمزيد . وقد فعلت في هذا الكتاب ما فعلته في الأجزاء الثمانية من الكتاب السابق من تقصي كل ما يرد عن موضوع من الموضوعات في الكتابات وفي الموارد الأخرى ، وتسجيله وتدوينه ، ليقدم للقارىء أشمل بحث وأجمع مادة في موضوع يطلبه ، لأن غايتي من هذا الكتاب أن يكون « موسوعة » في الجاهلية والجاهليين ، لا أدع شيئاً عنها أو عنهم الا ذكرته في محله ، ليكون تحت متناول يد القارىء . فكتابي هذا وذاك هما للمتخصصين وللباحثين الذين يطمعون في الوقوف على حياة الجاهلية بصورة تفصيلية ، ولم يكتبا للذين يريدون الإلمام بأشياء مجملة عن تلك الحياة .

والكتاب لذلك سيخرج في أجزاء ، لا أستطيع تحديد عددها الآن ، ولكني أقول بكل تأكيد انها ستزيد على العشرة ، وانها ستتناول كل نواحي الحياة عند الجاهليين : من سياسية ، واجتماعية ، ودينية ، وعلمية ، وأدبية ، وفنية ، وتشريعية .

لقد أشار عليّ بعض الأصدقاء أن أدخل في العرب كل الساميين ، وأن أتحدث عنهم في كتابي هذا كما أتحدث عن العرب ، لأن وطن الساميين الأول هو جزيرة العرب ، ومنه هاجروا الى الأماكن المعروفة التي استقروا فيها ، فهم في ذلك مثل القبائل العربية التي تركت بلاد العرب ، واستقرت في العراق وفي بادية الشام وبلاد الشام ، لا يختلفون عنهم في شيء . ثم قالوا : فإذا كنتَ قد تحدثت عن تلك القبائل المهاجرة على أنها قبائل عربية ، فلمَ تسكت عن اولئك الساميين ، ولم تجعلهم من العرب ؟

وجوابي أن القبائل العربية المهاجرة هي قبائل معروفة الأصل وقد نصّت الكتابات والموارد الأخرى على عروبتها ، ونسبت نفسها الى جزيرة العرب ، ولهجاتها لهجات عربية ، لا ريب في ذلك ولا نزاع ، وثقافتها عربية . أما الشعوب السامية ، فليس بين العلماء، كما سنرى، اتفاق على وطنها الأول ، وليس بينها شعب واحد نسب نفسه الى العرب ، وليس في الموارد التأريخية الواصلة الينا مورد واحد يشير الى أنها عربية ، ولهجاتها وان اشتركت كلها في أمور ،

فانها تختلف أيضاً في أمور كثيرة ، هي أكثر من مواطن الاشتراك والالتقاء . ففرقٌ كبير اذن بين هذه الشعوب وبين القبائل العربية من حيث العروبة . ثم ان العروبة في نظري ليس بها حاجة الى ضم هذه الشعوب اليها ، لاثبات أنها ذات أصل تؤول اليه ، فقد أعطى الله تلك الشعوب تاريخاً ثم محاه عنهم ، وأعطى العرب تاريخاً أينع في القديم واستمر حتى اليوم، ثم إن لهم من الحضارة الاسلامية ما يغنيهم عن التفتيش عن مجد غيرهم وعن تركاتهم ، لإضافتها اليهم . فليس في العرب مركب نقص حتى نضيف اليهم من لم يثبت انهم منهم ، لمجرد أنهم كانوا أصحاب حضارة وثقافة ، وأن جماعة من العلماء ترى أنهم كانوا من جزيرة العرب . والرأي عندي أن العرب لو نبشوا تربة اليمن وبقية الترب لما احتاجوا الى دعوة من يدعو الى هذا الترقيع . فأنا من أجل هذا لا أستطيع ان أضم أحداً من هؤلاء الى الأسرة العربية بالمعنى الاصطلاحي المعروف المفهوم، من لفظة العرب عندنا ، إلا اذا توافرت الأدلة ، وثبت بالنص أنهم من العرب حقاً ، وأنهم كانوا في جزيرة العرب حقاً .

نعم ، لقد قلت إن مصطلح الشعوب العربية هو أصدق اصطلاح يمكن اطلاقه على تلك الشعوب ، وإن الزمان قد حان لاستبدال مصطلح «عربي» و «عربية» بـ « سامي » و « سامية » ، وقلت أشياء أخرى شرحتها في الجزء الثاني من الكتاب السابق في تعليل ترجيح هذه التسمية [1] . ولكني لم أقصد ولن أقصد أن تلك الشعوب هي قبائل عربية مثل الشعوب والقبائل العربية المعروفة . فالسامية وحدة ثقافية ، اصطلح عليها اصطلاحاً ، والعروبة وحدة ثقافية وجنسية وروابط دموية وتأريخية ، وبين المفهومين فرق كبير .

إن مما يثير الأسف والله في النفوس ان نرى الغربيين يعنون بتأريخ الجاهلية ويجدّون في البحث عنه والكشف عن مخلفاته وتركاته في باطن الأرض ، ونشره بلغاتهم ، ولا نرى حكوماتنا العربية ولا سيما حكومات جزيرة العرب، إلا منصرفة عنه ، لا تعنى بالآثار العناية اللازمة لها ، ولا تسأل الخبراء رسمياً وباسمها البحثَ عن العاديات والتنقيب في الخرائب الجاهلية لاستخراج ما فيها من كنوز، وجمعها في دار للمحافظة عليها ولاطلاع الناس عليها . وقد يكون عذر هذه الحكومات

---

١ (ص ٢٨٧)

أن الناس هناك ينظرون الى التماثيل نظرتهم الى الأصنام والأوثان ، والى استخراج الآثار والتنقيب عن العاديات نظرتهم الى بعث الوثنية واحياء معالم الشرك ، وهي من أجل هذا تخشى الرأي العام ، واني على كل حال أرجو أن تزول هذه الأحوال في المستقبل القريب ، وأن يدرك عرب الجزيرة أهمية الآثار في الكشف عن تأريخ هذه الأمة العربية القديم .

كذلك أرجو أن تنتبه حكومات جزيرة العرب لأهمية موضوع التخصص بتأريخ العرب القديم ، وأن تكلف شبانها دراسة علم الآثار ودراسة لهجات العرب قبل الإسلام والأقلام العربية الجاهلية ، ليقوموا هم أنفسهم بالبحث والتنقيب في مواطن العاديات المنبثة في مواطن كثيرة من الجزيرة .

ورجاء آخر أتمنى على جامعة الدول العربية والدول العربية أن يحققوه ، وهو ارسال بعثات من المتخصصين بالآثار وباللهجات والأقلام العربية القديمة الى مواطن الآثار في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية والمواضع الأخرى من جزيرة العرب للتنقيب عن الآثار ، والكشف عن تأريخ الجزيرة المطمور تحت الأتربة والرمال ، ونشره نشراً علمياً ، بدلاً من أن يكون اعتمادنا في ذلك على الغربيين . أفلا يكون من العار علينا أن نكون عالة عليهم في كل أمر ، حتى في الكشف عن تأريخنا القديم !

وأضيف الى هذا الرجاء رجاء آخر هو أن تقوم أيضاً بتدوين معجم في اللهجات العربية الجاهلية ، تستخرجه من الكتابات التي عُثر عليها،وبتأليف كتب في نحوها وصرفها ، وترجمة الكتب الأمهات التي وضعها المؤلفون الأجانب في تأريخ الجاهلية ، ترجمة دقيقة تنأى عن المسخ الذي وقع في ترجمة بعض تلك المؤلفات فأشاع الغلط ونشر التخريف .

لقد راجعت بعض المستشرقين الباحثين في تأريخ العرب القديم ، وسألت بعض من ساح في جزيرة العرب في هذه الأيام ، وبعض الشركات العاملة فيها ، في آخر ما توصلوا اليه من بحوث ، وعثروا عليه من عاديات ، فوجدت منهم كل معونة ، وأرسلوا وما برحوا يرسلون أجوبتهم إليّ بكل ترحاب ولطف ، وكتبت الى بعض حكومات جزيرة العرب والى بعض المسؤولين من أصحاب المكانة فيها والنفوذ مراراً ، أسألها وأسألهم عن العاديات وعن الآثار التي عثر عليها

حديثاً في بلادهم ، فلم أسمع من الاثنين جواباً ، وإني اذ أكتب هذه الملاحظة المرّة المؤسفة ، إنما أرمي بها إلى التنبيه ولفت أنظار أولي الأمر أصحاب الحكم والسلطان . فمن واجب المسؤول اجابة السائل ، ولا سيما أن القضية قضية تخص البلاد المذكورة بالذات والعرب عموماً ، وقبيح أن ينبري الغريب ، فيساعد طالب بحث عن تأريخ أمتـه واخوته ، ويستنكف المسؤولون من أبناء هذه الأمة عن تنفيذ طلب لا يكلفهم شيئاً ، وهو خطير يتعلق بتأريخ هذه الأمـة قبل الإسلام واذاعته أولاً ، وهو واجب من واجباتهم التي نصبوا من أجلها ثانياً .

لقـد تمكن الباحثون في التأريخ الجاهلي ، من سياح وعلماء ، من الارتقاء بتأريخ الجاهلية بمئات من السنين قبل الميلاد ، وذلك على وجه صحيح لا مجال للشك فيه ، مع أن بحوثهم هذه لم تنزل سوى أمتار في باطن الآثار وفي أماكن محدودة معينة . وسوف يرتفع مدى هذا التأريخ الى مئات أخرى ، وربما يتجاوز الألفي سنة أو أكثر قبل الميـلاد اذا أتيحت الفرص للعلماء في الحفر في مواضع الآثار حفراً علميـاً بالمعنى الحديث المفهوم من (الحفر) . وأنا لا أستبعد بلوغ هذا التأريخ الجاهلي في يوم من الأيام التأريخ الذي وصل اليه العلماء في مصر وفي العراق ، أو في أمـاكن أخرى عرفت بقدم تأريخها ، بل لا أستبعد أيضاً أن يتقدم هذا التأريخ تأريخ بعض الأماكن المذكورة .

وبعد هذا ، لا بد لي هنا من الاعتراف بفضل رجل ، له على هذا الكتاب وعلى الكتاب الأول يد ومنة ، وله كذلك على مؤلفهما فضل سابق ، يسبق زمن تأليف كتابيه بأمد طويل، هو فضل الارشاد والتوجيه والتعليم . وأريد به الاستاذ العلامة الفاضل السيد محمد بهجت الأثري ، العضو العامل في مجمع اللغة العربيـة بالقاهرة وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، وعضو المجلس الأعلى الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . فقد كان لي ولأمثالي من الدارسـين والباحثين ولا يزال مرشداً وموجهاً ومشوقاً لدراسة التراث العربي والتراث الإسلامي والتأليف في ذلك ، مذ كنت تلميذه في الإعدادية المركزية ببغداد أتلقى عنه في جملة من كانوا يتلقون عنـه الأدب العربي ، فكان يشوقنا بأسلوبه الجذاب ، وبتأثيره القوي المعروف ، الى التوسع في دراسة الأدب العربي وتأريخ الأمـة العربية ، وهو ما برح يحثني على الاسراع في اتمام هذا الكتاب واخراجه للنـاس ، قارئاً مسوداته ، ومبـدياً آراءه وارشاداته وملاحظاته القيمة ، التي أفادتني ، والحق

أقول ، كثيراً . وهما فضلان لن ينساهما تلميذ يقدّر الفضل لأستاذ كريم يفني نفسه في تربية الأجيال ونشر الأدب والعلم .

وبعد ، فهذا الكتاب هو جمعي وترتيبي ، فأنا المسؤول عنه وحدي، وليس لأحد محاسبة غيري عليه ، اجتهدت ألا اضمّنه الا الحق والصواب من العلم على قدر طاقتي واجتهادي ، فإن أكن قد وفقت فيما قصدت اليه وأردته ، فذلك حسبي وكفى ، لا أريد عليه حمداً ولا شكراً ، لأني قمت بواجب، وعملت عن شوق ورغبة وولع قديم بهذا الموضوع يرجع الى أيام دراستي الأولى ، فليس لي فضل ولا منّة ، وإن كان فيه حسناً فهو للعلماء الذين اعتمدت عليهم وأخذت منهم ، وليس لي فيه غير الجمع والتأليف . وإن أخفقت فيه فذلك مبلغ علمي واجتهادي ، أديته بعد تعب،لا أملك أكثر منه ، وبغيّي حسن التوجيه والإرشاد وتقويم الأود ، وتصحيح الأغلاط ، فالنقد العلمي الحق إنشاء وبناء ، والمدح والإطراء في نظري ابعاد لطالبي العلم من أمثالي عن العمل والتقدم،وسبب يؤدي الى الخيلاء والضلال ، وفوق كل ذي علم عليم .

جواد علي

الفصل الأول

تحديد لفظة العرب

نطلق لفظة « العرب » اليوم على سكّان بلاد واسعة ، يكتبون ويؤلفون وينشرون ويخاطبون بالإذاعة و « التلفزيون » بلغة واحدة ، نقول لها لغة العرب أو لغة الضاد أو لغة القرآن الكريم . وإن تكلموا وتفاهموا وتعاملوا فيما بينهم وفي حياتهم اليومية أدّوا ذلك بلهجات محلية متباينة ، ذلك لأن تلك اللهجات إذا أرجعت رجعت الى أصل واحد هو اللسان العربي المذكور ، وإلى ألسنة قبائل عربية قديمة ، وإلى ألفاظ أعجمية دخلت تلك اللهجات بعوامل عديدة لا يدخل البحث في بيان أسبابها في نطاق هذا البحث .

ونحن إذْ نطلق لفظة (عرب) و (العرب) على سكان البلاد العربية ، فإنما نطلقها اطلاقاً عاماً على البدو وعلى الحضر ، لا نفرق بين طائفة من الطائفتين ، ولا بين بلد وبلد . نطلقها بمعنى جنسية وقومية وعلم على رسٍّ له خصائص وسمات وعلامات وتفكير يربط الحاضرين بالماضين كما يربط الماضي بالحاضر .

واللفظة بهذا المعنى وبهذا الشكل ، مصطلح يرجع الى ما قبل الإسلام،ولكنه لا يرتقي تأريخياً الى ما قبل الميلاد ، بل لا يرتقي عن الإسلام الى عهد جدّ بعيد . فأنت إذا رجعت الى القرآن الكريم ، والى حديث رسول الله ، وجدت للفظة مدلولاً يختلف عن مدلولها في النصوص الجاهلية التي عُثر عليها حتى الآن، أو في التوراة والإنجيل والتلمود وبقية كتب اليهود والنصارى وما بقي من مؤلفات

يونانية ولاتينية تعود الى ما قبل الإسلام . فهي في هذه أعراب أهل وبر ، أي طائفة خاصة من العرب . أما في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، وفي الشعر المعاصر للرسول ، فإنها علـَم على الطائفتين واسم للسان الذي نزل به القرآن الكريم ، لسان أهل الحضر ولسان أهل الوبر على حد سواء . «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشرٌ . لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين[1] » ، « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته أعجمي وعربي . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادَون من مكان بعيد[2] » .

وإذا ما سألتني عن معنى لفظة (عرب) عند علماء العربية ، فإني أقول لك: إن لعلماء العربية آراء في المعنى ، تجدها مسطورة في كتب اللغة وفي المعجمات . ولكنها كلها من نوع البحوث المألوفة المبنية على أقوال وآراء لا تعتمد على نصوص جاهلية ولا على دراسات عميقة مقارنة ، وُضعت على الحدس والتخمين ، وبعد حيرة شديدة في ايجاد تعليل مقبول فقالوا ما قالوه مما هو مذكور في الموارد اللغوية المعروفة ، وفي طليعتها المعجمات وكتب الأدب . وكل آرائهم في تفسير اللفظة وفي محاولة ايجاد أصلها ومعانيها ، هو اسلامي ، دوّن في الاسلام .

وترى علماء العربية حيارى في تعيين أول من نطق بالعربية ، فبينما يذهبون الى أن(يعرب) كان أول من أعرب في لسانه وتكلم بهذا اللسان العربي ،ثم يقولون : ولذلك عرف هذا اللسان باللسان العربي ، تراهم يجعلون العربية لسان أهل الجنة ولسان آدم ، أي انهم يرجعون عهده الى مبدأ الخليقة ، وقد كانت الخليقة قبل خلْق (يعرب) بالطبع بزمان طويل . ثم تراهم يقولون : أول من تكلم بالعربية ونَسِي لسان أبيه اسماعيل . ألهم اسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً . وكان أول من فُتق لسانه بالعربية المبينة ، وهو ابن أربع عشرة سنة[3] . واسماعيل هو جدّ العرب المستعربة على حد قولهم .

والقائلون إن (يعرب) هو أول من أعرب في لسانه ، وانه أول من نطق

---

١ سورة النحل . رقم ١٦ الآية ١٠٣ .

٢ سورة فصلت . رقم ٤١ الآية ٤٤ .

٣ تاج العروس (٢ / ٣٥٢) ، « طبعة الكويت » « عرب » ، اللسان (٢ / ٧٥) المزهر (١ / ٣٠ فما بعدها) ، ابن خلدون (٢ / ٨٦) .

بالعربية ، وان العربية إنما سميت به ، فأخذت من اسمه ، انما هم القحطانيون . وهم يأتون بمختلف الروايات والأقوال لإثبات أن القحطانيين هم أصل العرب ، وأن لسانهم هو لسان العرب الأول ، ومنهم تعلّم العدنانيون العربية ، ويأتون بشاهد من شعر (حسان بن ثابت) على اثبات ذلك ، يقولون : انه قاله ، وان قوله هذا هو برهان على ان منشأ اللغة العربية هو من اليمن . يقولون انه قال :

تعلمتمُ من منطق الشيخ يعرب أبينا ، فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما بكم غير عجمة كلام ، وكنتم كالبهائم في القفر[1]

ولم يكن يخطر ببال هؤلاء أن سكان اليمن قبل الإسلام كانوا ينطقون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم ، وأن من سيأتي بعدهم سيكتشف سر «المسنَد» ، ويتمكن بذلك من قراءة نصوصه والتعرف على لغته ، وأن عربيته هي عربية تختلف عن هذه العربية التي ندوّن بها ، حتى ذهب الأمر بعلماء العربية في الاسلام بالطبع الى اخراج الحميرية واللهجات العربية الجنوبية الأخرى من العربية ، وقصْر العربية على العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وعلى ما تفرع منها من لهجات كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد . وهو رأي يمثل رأي العدنانيين خصوم القحطانيين .

والقائلون إن يعرب هو جدّ العربية وموجدها ، عاجزون عن التوفيق بين رأيهم هذا ورأيهم في أن العربية قديمة قدم العالم ، وأنها لغة آدم في الجنة ، ثم هم عاجزون أيضاً عن بيان كيف كان لسان أجداد (يعرب) ، وكيف اهتدى (يعرب) الى استنباطه لهذه اللغة العربية ، وكيف تمكن من ايجاده وحده لها من غير مؤازر ولا معين ؟ الى غير ذلك من أسئلة لم يكن يفطن لها أهل الأخبار في ذلك الزمن . وللأخباريين بعد كلام في هذا الموضوع طويل ، الأشهر منه القولان المذكوران ، ووفق البعض بينهما بأن قالوا : إن (يعرب) أول من نطق

---

1 كتاب الاكليل ، (١١٦/١) تحقيق (محمد بن علي الاكوع الحوالي) ، القاهرة سنة ١٩٦٣ (مطبعة السنة المحمدية) ، المكتبة اليمنية (٢) ، الاصمعي .

عنطق العربية ، واسماعيل هو أول من نطق بالعربية الخالصة الحجازية التي أنزل عليها القرآن[1] .

أما المستشرقون وعلماء التوراة المحدثون ، فقد تتبعوا تأريخ الكلمة ، وتتبعوا معناها في اللغات السامية، وبحثوا عنها في الكتابات الجاهلية وفي كتابات الآشوريين والبابليين واليونان والرومان والعبرانيين وغيرهم ، فوجدوا أن أقدم نصّ وردت فيه لفظة (عرب) هو نص آشوري من أيام الملك (شلمنصر الثالث) (الثاني؟) ملك آشور[2] . وقد تبين لهم أن لفظة (عرب) لم تكن تعني عند الآشوريين ما تعنيه عندنا من معنى ، بل كانوا يقصدون بها بداوة وإمارة « مشيخة » كانت تحكم في البادية المتاخمة للحدود الآشورية ، كان حكمها يتوسع ويتقلص في البادية تبعاً للظروف السياسية ولقوة شخصية الأمير ، وكان يحكمها أمـير يلقب نفسه بلقب « ملك » يقال له (جنديبو) أي (جندب) وكانت صلاته سيئة بالآشوريين .

ولما كانت الكتابة الآشورية لا تحرك المقاطع ، صعُب على العلماء ضبط الكلمة، فاختلفوا في كيفية المنطق بها، فقرئت : (Aribi) و (Arubu) و (Aribu) و (Arub) و (Arabi) و (Urbi) و (Arbi) الى غير ذلك من قراءات[3] . والظاهر أن صيغة (Urbi) كانت من الصيغ القليلة الاستعمال ، ويغلب على الظن أنها استعملت في زمن متأخر[4] ، وأنها كانت بمعنى (أعراب) على نحو ما يقصد من كلمي (عُربي) و (أعربي) في لهجة أهل العراق لهذا العهد . وهي تقابل كلمة (عرب) التي هي من الكلمات المتأخرة كذلك على رأي بعض المستشرقين . وعلى كل حال فإن الآشوريين كانوا يقصدون بكلمة (عربي) على اختلاف أشكالها بداوة ومشيخة كانت تحكم في أيامهم البادية تمييزاً لها عن قبائل أخرى كانت مستقرة في تخوم البادية[5] .

---

١ تاج العروس (٢ / ٣٥٢) ، « طبعة الكويت » .

٢ Margoliouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to the rise of Islam, P. 3, The Jewish Encyclopedia, New York, 1902, P. 41, Reallexikon der Assyriologie, erster Band, Zweite Lieferung, S., 125, James A. Montgomery, Arabia and the Bible, PP. 27.

٣ Erich Ebling und Bruno Meissner, Reallexikon der Assyriologie, Erster Band, Berlin and leipzig 1922, P. 125.

٤ Ency, Bibl. Vol., I, P. 273, E. Schrader Keilinschriften und Geschichtforschung, PP. 100, Fr. Delityech, wo lag das Paradise?, P. 295, 304, F, Caussin de Perceval, Histoire des Arabes I, P., 4ff.

٥ ENCYCLOPEDIA BIBLICA, by cheyne, vol, I, p. 273.

ووردت في الكتابات البابليــة جملة « ماتواربي » (Matu A-Ra-bi) ، (Matu Arabaai) ومعنى (ماتو) (متو) أرض ، فيكون المعنى (أرض عربي) ، أي (أرض العرب) ، أو (بلاد العرب) ، أو (العربية) ، أو (بلاد الأعراب) بتعبير أصدق وأصح . اذ قصد بهـا البادية ، وكانت تحفل بالأعراب[1] . وجاءت في كتابة (بهستون) (بيستون)[2] (Behistun) لدارا الكبير (داريوس)[3] لفظة (اربابة) (عربابة) (Arabaya)[4] وذلك في النص الفارسي المكتوب باللغة (الأخمينية) ، ولفظة (Arpaya) (M Ar Payah) في النص المكتوب بلهجة أهل السوس (Susian) (Susiana) وهي اللهجـة

---

1 W. Muss Arnolt, , assyrisch — english — Deutsches handwort-erbuch, Berlin, 1903, s., 616, Winckler, A.O.F., Band, 2, S., 465, Margoliouth, The relations between Arabs and israelites prior to the rise of islam, London, 1924, p., 3.

٢ (بهستون) و (بسيستون) . « بهستون (بالفتح ثم الكسر) : قرية بين همذان وحلوان ، اسمها ساسباتان ، بينها وبين همـذان اربع مراحل ، وبينها وبين قرميسين ثمانية فراسخ . وجبل بهستون ، عال مرتفع ممتنع ، لا يرتقى الى ذروته ، وطريق الحاج تحته سواء ، ووجهه من أعلاه الى اسفله املس كانه منحوت ، ومقدار قامات كثيرة من الارض قد نحت وجهه وملس . فزعم بعض الناس ان الاكاسرة اراد ان يتخذ حول هذا الجبل موضع سوق ليدل به على عزته وسلطانه . وعلى ظهر الجبل بقرب الطريق مكان يشبه الغار وفيه عين ماء جارية ، وهناك صورة دابة كأحسن ما يكون من الصور ، زعموا انها صورة دابة كسرى المسماة شبديز ، وعليها كسرى ، وقد ذكرته مبسوطا في باب الشين » ، البلـدان (٢ / ٣١٥) ، (طبعـة وستفلـد) (٧٦٩/١) (شيـداز : بـكسر اولــه وسكـون ثانيــه ثم دال مهملـة وآخره زاي . ويقال : شبديز بالياء المثناة من تحت .... منزل بين حلوان وقرميسين في لحف جبل بيستون ، سمي باسم فرس كان لكسرى ، وقد وصف ياقـوت الحموي الموضع ، وذكر آراء الناس فيه والقصص التي كانت تروى عـن الصور ، البلدان (٥ / ٢٢٨) .

٣ يعرف في الكتب العربية بـ (دارا) ، كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ص (٢٠) ، مـروج الذهـب (١٩٦/١ ، ٢٢٥) ، (دارا الكبيـر) (دارا الاكبر) تاريخ الطبري (٦٨٧/١ ، ٧٠٦ ، ٧١٩) طبعة اوروبة .

٤ The Sculptures and inscription of Darius the great on the Rock of Behistun in persia, London, 1907, p., XIVIII, 161 Ency. Bibli., 273, Hastings, Dictionary of the Bible, p., 46 Hastings : وسيكون رمزه :

العيلامية لغة عيلام[1] .

ومراد البابليين أو الآشوريين أو الفرس من (العربية) أو (بلاد العرب) ، البادية التي في غرب نهر الفرات الممتدة الى تخوم بلاد الشام .

وقد ذكرت (العربية) بعد آشور وبابل وقبل مصر في نص (دارا) المذكور[2]، فحمل ذلك بعض العلماء على ادخال طور سيناء في جملة هذه الأرضين[3] . وقد عاشت قبائل عربية عديدة في منطقة سيناء قبل الميلاد .

وبهــذا المعنى أي معنى البداوة والأعرابية والجفاف والقفر ، وردت اللفظة في العبرانية وفي لغات سامية أخرى . ويدل ذلك على أن لفظة (عرب) في تلك اللغات المتقاربة هو البداوة وحياة البادية ، أي بمعنى (أعراب) . واذا راجعنا المواضع التي وردت فيها كلمة (عربي) و (عرب) في التوراة ، نجدها بهذا المعنى تماماً . ففي كل المواضع التي وردت فيها في سفر (أشعيـاء) (Isaiah) مثلاً نرى أنها استعملت بمعنى بداوة وأعرابية ، كالذي جاء فيه : (ولا يخيم هناك أعرابي[4]) و(وحي من جهة بلاد العرب ،في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين[5]) . فقصد بلفظــة (عرب) في هذه الآية الأخيرة البادية موطن العزلة والوحشة والخطر ، ولم يقصد بها قومية وعلمية لمجلس معين بالمعنى المعروف المفهوم .

ولم يقصد بجملة (بلاد العرب) في الآية المذكورة والتي هي ترجمة (مسّا

---

١ (السوس بضم اوله وسكون ثانيه وسين مهملة اخرى . بلفظ السوس الــذي يقع في الصوف : بلدة بخوزستان ، فيها قبر دانيال عليه السلام . قال حمزة : السوس تعريب الشوش بنقط الشين ، ومعناه الحسن والنزه والطيب . . . قال ابن المقفع : اول سور وضع في الارض بعد الطوفان سور السوس وتستر ولا يدرى من بنى السوس وتستر والابلة . وقال ابن الكلبي : السوس بن سام بن نوح) ، البلدان (٥ / ١٧١ وما بعدها)

٢ Sculp. P., 4, 95, 161.

٣ Ency., Bibli., P., 273, Hastings, P. 46.' Encyclopaedia Biblica, by Cheyne, I, PP., 267, J. Hastings, A Dictionary of the Bible, I, P., 131, J. Hastings, A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents, p., 84.

٤ الاصحاح الثالث عشر ، آية ٢٠ (ولا يضرب أعرابي فيها خباء) ، الترجمة الكاثوليكية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠ .

٥ الاصحاح الحادي والعشرين ، الآية ١٣ ،
J. Simons, The Georgraphical and Topographical Texts of the Old Testament, Leiden, 1959, P., 4.

هـ – عراب) (Massa ha-Arab) ، المعنى المفهوم من (بلاد العرب) في الزمن الحاضر أو في صدر الإسلام ، وإنما المراد بها البادية ، التي بين بلاد الشام والعراق وهي موطن الأعراب[1] .

وبهذا المعنى أيضاً وردت في (أرميا) ، ففي الآية (وكل ملوك العرب) الواردة في الاصحاح الخامس والعشرين[2] ، تعني لفظة « العرب » «الأعرابي» ، أي « عرب البادية » . والمراد من « وكل ملوك العرب » و « كل رؤساء العرب » و « مشايخهم » ، رؤساء قبائل ومشايخ ، لا ملوك مدن وحكومات. وأما الآية : « في الطرقات جلست لهم كأعرابي في البرية »[3] ، فإنها واضحة ، وهي من الآيات الواردة في (أرميا) . والمراد بها أعرابي من البادية، لا حضري من أهل الحاضرة . فالمفهوم اذن من لفظة (عرب) في اصحاحات (أرميا) إنما هو البداوة والبادية والأعرابية ليس غير .

ومما يؤيد هذا الرأي ورود (ها عرابة ha 'Arabah) في العبرانية ، ويراد بها ما يقال له : (وادي العربة) ، أي الوادي الممتد من البحر الميت أو من بحر الجليل الى خليج العقبة[4] . وتعني لفظة (عرابة) في العبرانية الجفاف وحافة الصحراء وأرض محروقة ، أي معاني ذات صلة بالبداوة والبادية . وقد أقامت في هذا الوادي قبائل بدوية شملتها لفظة (عرب) . وفي تقارب لفظة (عرب) و (عرابة) ، وتقارب معناهما ، دلالة على الأصل المشترك للفظتين . ويعدّ وادي (العربة) وكذلك (طورسيناء) في بلاد العرب . وقصد بـ (العربية) برية سورية في (رسالة القديس بولس الى أهل غلاطية)[5] .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢ / ٨٨ فما بعدها) ،
A Religios Encyclopaedia or Dictionary of Biblical, Historical Doctorinal, and Practical Theology, by, Philip Schaff, 1894, Vol., I, P., 122.

٢ الاية ٢٤ ، The Bible Dictionary, I, P., 98

٣ الاصحاح الثالث ، الاية الثانية .

٤ Ency. Bibli., I, P., 271.

٥ « مكتوب انه كان لابراهيم ابنان : احدهما من الامة ، والآخر من الحرة . غير ان الذي من الامة ولد بقوة الجسد ، اما الذي من الحرة فبقوة الموعد . وذلك انما هو رمز ، لان هاتين هما الوصيتان احداهما من طورسيناء تلد للعبودية ، فهي هاجر ، فان سيناء هو جبل في ديار العرب ، ويناسب اورشليم الحالية ، لان هذه حاصلة في العبودية مع بنيها) ، رسالة القديس بولس الى اهل غلاطية) ، الرسالة الرابعة ، ٢٢ فما بعدها، قاموس الكتاب المقدس (٢/٨٩).

وقد عرف علماء العربية هذه الصلة بين كلمة (عرب) و (عرابة) أو (عربة) ، فقالوا : (إنهم سمّوا عرباً باسم بلدهم العربات . وقال إسحاق بن الفرج : عربة باحة العرب ، وباحة دار أبي الفصاحة إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام)[1] . وقالوا : (وأقامت قريش بعربة فتنخت بها ، وانتشر سائر العرب في جزيرتها ، فنسبوا كلهم الى عربة ، لأن أباهم اسماعيل ، صلى الله عليه وسلم ، نشأ وربى أولاده فيها فكثروا . فلما لم تحتملهم البلاد ، انتشروا ، وأقامت قريش بها[2] . وقد ذهب بعضهم الى أن عربة من تهامة[3] ، وهذا لا ينفي على كل حال وجود الصلة بين الكلمتين .

ورواية هؤلاء العلماء ، مأخوذة من التوارة ، أخذوها من أهل الكتاب ، ولا سيما من اليهود، وذلك باتصال المسلمين بهم ، واستفسارهم منهم عن أمور عديدة وردت في التوراة ، ولا سيما في الأمور التي وردت مجملاً في القرآن الكريم والأمور التي تخص تأريخ العرب وصلاتهم بأهل الكتاب .

ويرى بعض علماء التوراة أن كلمة (عرب) إنما شاعت وانتشرت عند العبرانيين بعد ضعف (الاشماعيليين) (الاسماعيليين) وتدهورهم وتغلب الأعراب عليهم حتى صارت اللفظة مرادفة عندهم لكلمة (اشماعيليين) . ثم تغلبت عليهم ، فصارت تشملهم ، مع أن (الاشماعيليين) كانوا أعراباً كذلك ، أي قبائل بدوية تتنقل من مكان الى مكان ، طلباً للمرعى والماء . وكانت تسكن أيضاً في المناطق التي سكنها الأعراب ، أي أهل البادية. ويرى أولئك العلماء ان كلمة (عرب) لفظة متأخرة ، اقتبسها العبرانيون من الآشوريين والبابليين ، بدليل ورودها في النصوص الآشورية والبابلية ، وهي نصوص يعود عهدها الى ما قبل التوراة . ولشيوعها بعد لفظة (اشماعيليين) ، ولأدائها المعنى ذاته المراد من اللفظة ، ربط بينها وبين لفظة (اشماعيليين) ، وصارت نسباً ، فصُير جد هؤلاء العرب (اشماعيل) ، وعدّوا من أبناء إسماعيل[4] .

---

١ اللسان (٢ / ٧٢) ، القاموس المحيط (١ / ١٠٢) .
٢ اللسان (٧٢/٢) ، تاج العروس (٣٤٤/٣) ، « طبعة الكويت » .
٣ اللسان (٧٦/٢) ، تاج العروس (٣٤٤/٣) ، « الكويت » .
٤ راجع الالفاظ : (عرب) و (يشماعيل) في معجمات التوراة .

هذا ما يخص التوراة ، أما (التلمود) ، فقد قصدت بلفظة (عرب) و (عربيم) ('Arbim) (عربئيم) ('Arbi'im) الأعراب كذلك ، أي المعنى نفسه الذي ورد في الأسفار القديمة ، وجعلت لفظة (عربي) مرادفة لكلمة (اسماعيلي) في بعض المواضع[1] .

وقبل أن أنتقل من البحث في مدلول لفظة (عـرب) عند العبرانيين الى البحث في مدلولها عند اليونان ، أود أن أشير الى أن العبرانيين كانوا اذا تحدثوا عن أهل المدر ، أي الحضر ذكروهم بأسمائهم . وفي سلاسل النسب الواردة في التوراة ، أمثلة كثيرة لهذا النوع ، سوف أتحدث عنها .

وأول من ذكر العرب من اليونان هو (أسكيلوس ، أسخيلوس) « أشيلس » « أخيلوس » (Aeschylus) ، (٥٢٥ – ٤٥٦ قبل الميلاد) من أهل الأخبار منهم ، ذكرهم في كلامه على جيش (أحشويرش) (Xerxes) ، وقال : انه كان في جيشه ضابط عربي من الرؤساء مشهور[2] . ثم تلاه (هيرودوتس) شيخ المؤرخين (نحو ٤٨٤ – ٤٢٥ قبل الميلاد) ، فتحدث في مواضيع من تأريخه عن العرب حديثاً يظهر منه انه كان على شيء من العلم بهم . وقد أطلق لفظة (Arabae) على بلاد العرب ، البادية وجزيرة العرب والأرضين الواقعة الى الشرق من نهر النيل[3] . فأدخل (طور سيناء) وما بعدها الى ضفاف النيل في بلاد العرب .

فلفظة (العربية) (Arabae) عند اليونان والرومان ، هي في معنى (بلاد العرب) . وقد شملت جزيرة العرب وبادية الشام. وسكانها هم عرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم ، على سبيل التغليب ، لاعتقادهم ان البداوة كانت هي الغالبة على هذه الأرضين ، فأطلقوها من ثم على الأرضين المذكورة .

وتدل المعلومات الواردة في كتب اليونان واللاتين المؤلفة بعد (هيرودوتس) على تحسن وتقدم في معارفهم عن بلاد العرب ، وعلى أن حدودها قد توسعت في مداركهم فشملت البادية وجزيرة العرب وطور سيناء في أغلب الأحيان، فصارت لفظة (Arabae) عندهم علماً على الأرضين المأهولة بالعرب والتي تتغلب عليها

---

١ موعيد قطان ٢٤ أ

٢ Ency. Bibli., I, P., 273.

٣ Ency. Bibli., I, P., 271.

الطبيعة الصحراوية ، وصارت كلمــة (عربي) عندهم علماً للشخص المقيم في تلك الأرضين ، من بدو ومن حضر ، إلاّ أن فكرتهم عن حضر بلاد العرب لم تكن ترتفع عن فكرتهم عن البدوي ، بمعنى انهم كانوا يتصورون أن العرب هم أعراب .

ووردت في جغرافية (سترابون) كلمة (أرمبي) (Erembi) ، ومعناها اللغوي الدخول في الأرض أو السكنى في حفر الأرض وكهوفها ، وقــد أشار الى غموض هــذه الكلمة وما يقصد بهـــا ، أيقصد بها أهل (طرغلوديته) (Troglodytea) أي (سكان الكهوف) أم العرب ؟ ولكنــه ذكر أن هناك من كان يريد بها العرب ، وانها كانت تعني هذا المعنى عنــد بعضهم في الأيام المتقدمة ، ومن الجائز أن تكون تحريفاً لكلمة (Arabi) فأصبحت بهذا الشكل[1].

أما الإرميون ، فلم يختلفوا عن الأشوريين والبابليين في مفهوم (بلاد العرب)، أي ما يسمى بـ (بادية الشام) وبادية السماوة . وهي البادية الواسعة الممتدة من نهر الفرات الى تخوم الشام . وقد أطلقوا على القسم الشرقي من هــذه البادية ، وهو القسم الخاضع لنفــوذ الفرس ، اسم (بيت عرباية) (Beth ‘Arb‘aya) و (باعربابة) (Ba ‘Arabaya) ،ومعناها (أرض العرب) . وقــد استعملت هذه التسمية في المؤلفات اليونانيــة المتأخرة[2] . وفي هــذا الاستعمال أيضاً معنى الأعرابية والسكنى في البادية .

ووردت لفظة « عرب » في عدد من كتابات « الحضر » . وردت مثلاً في النص الذي وسم بـ « ٧٩ » حيث جاء في السطرين التاسع والعاشر « وبجندا دعرب » ، أي « وبجنود العرب » . وفي السطر الرابع عشر : « وبحطــر وعرب » ، أي « وبالحضر وبالعرب »[3] . ووردت في النص : « ١٩٣ » : « ملكادي عرب » ، أي « ملك العــرب » وفي النص « ١٩٤ » وفي نصوص أخرى[4] . وقد وردت اللفظة في كل هذه النصوص بمعنى « أعراب » ، ولم ترد علماً على قوم وجنس ، أي بالمعنى المفهوم من اللفظة في الوقت الحاضر[5] .

---

١ Strabo, Vol., 3, P., 215.

٢ Ency. Bibll., Vol., I, P., 273, Hastings, P., 46, Schrader, Keilinschr. und Gesch. S., 100, Delitzsch, Wo lag das Paradies? S., 295.

وسيكون رمزه Delitmych

٣ مجلة سومر ، السنة ١٩٦١ ، Die Araber, IV, S., 243. ff.

٤ سومر ، ١٩٦١ ، Die Araber, IV, S., 261.

٥ Die Araber, IV, S., 269.

هذا ، وليست لدينا كتابات جاهلية من النوع الـذي يقول له المستشرقون (كتابات عربية شمالية) ، فيها اسم (العرب) ، غير نص واحد، هو النص الذي يعود الى (امرىء القيس بن عمرو) . وقد ورد فيه : « مر القيس بر عمرو ، ملك العرب كله ، ذو اسرالتج وملك الأسدين ونزروا وملوكهم وهرب ملحجو ... »[1] . ولورد لفظة (العرب) في هذا النص الذي يعود عهده الى سنة (٣٢٨ م) شأن كبير « غير اننا لا نستطيع ان نقول : ان لفظة (العرب) هنا ، يراد بها العرب بدواً وحضراً ، أي يراد بها العلم على قومية ، بل يظهر من النص بوضوح وجلاء انه قصد (الأعراب) ، أي القبائل التي كانت تقطن البادية في تلك الأيام .

أما النصوص العربية الجنوبية ، فقد وردت فيهـا لفظـة (اعرب) بمعنى (أعراب) ، ولم يقصد بها قومية ، أي علم لهذا الجنس المعروف،الذي يشمل كل سكان بلاد العرب من بدو ومن حضر ، فورد : (واعرب ملك حضرموت) ، أي (وأعراب ملك حضرموت)[2] ، وورد : (واعـرب ملك سبا) ، أي (وأعراب ملك سبأ)[3] . وكالذي ورد في نص (أبرهة) ، نائب ملك الحبشة على اليمن[4] . ففي كل هذه المواضع ومواضع أخرى ، وردت بمعنى أعراب[5] . أما أهل المدن والمتحضرون ، فكانوا يعرفون بمدنهم أو بقبائلهم،وكانت مستقرة في الغالب . ولهذا قيل (سبأ) و (هَمْدان) و (حِمْيَرْ) وقبائل أخرى ، بمعنى انها قبائل مستقرة متحضرة ، تمتاز عن القبائل المتنقلة المسماة (اعرب) في النصوص العربية الجنوبية ، مما يدل على أن لفظة (عرب) و (العرب) لم

---

١ Ephemeris, 2-34, Nabla, P., 4, Plate, 2, Dussaud, in rev. Archeologique, II, (1902), 409, ff., Arabes en Syrie avant L'Islam, P., 34, Montgomery, Arabia and the Bible, P., 28.

وسيكون رمزه Montgomery .

٢ لما كان المسند لا يعرف الحركات ، صعب علينا قراءة الكلمات قراءة صحيحة فتجوز قراءة كلمة « اعرب » مثلا : (اعرب) وتجوز قراءتها (اعراب) .

٣ نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ، بقلم الدكتور خليل يحي نامي (ص ٩٢) ، النقش ٧١ سطر ٢ ، وسأشير اليه بـ : نشر ، (ص ٩٣) نص رقم ٧٢ ، و ٧٣ .

٤ Glaser, Zwei Inschriften über den Dammbruch von Marib, S., 33, Ency, Bibli., I, P., 275, Cis, 541 Glasser, 618.

٥ Albert Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Biqis Baltimore, 1962, P., 445

تكن تؤدي معنى الجنس والقومية وذلك في الكتابات العربية الجنوبية المدونة والواصلة الينا الى قبيل الإسلام بقليل (٤٤٩ م) (٥٤٢ م)[١] . والرأي عندي ان العرب الجنوبيين لم يفهموا هذا المعنى من اللفظة الا بعد دخولهم في الإسلام ، ووقوفهم على القرآن الكريم ، وتكلمهم باللغة التي نزل بها ، وذلك بفضل الإسلام بالطبع. وقد وردت لفظة (عرب) في النصوص علماً لأشخاص[٢] .

وقد عرف البدو ، أي سكان البادية ، بالأعراب في عربية القرآن الكريم . وقد ذكروا في مواضع من كتاب الله ، وقد نعتوا فيه بنعوت سيئة[٣] ، تدل على أثر خلق البادية فيهم . وقد ذكر بعض العلماء ان الأعراب بادية العرب ، وانهم سكان البادية[٤] .

والنص الوحيد الذي وردت فيه لفظة (العرب) علماً على العرب جميعاً من حضر وأعراب ، ونعت فيه لسانهم باللسان العربي ، هو القرآن الكريم . وقد ذهب (د . ه . مار) الى أن القرآن الكريم هو الذي خصص الكلمة وجعلها علماً لقومية تشمل كل العرب . وهو يشك في صحة ورود كلمة (عرب) علماً لقومية في الشعر الجاهلي، كالذي ورد في شعر لامرىء القيس ، وفي الأخبار المدونة في كتب الأدب على ألسنة بعض الجاهليين[٥] . ورأي (ملر) هذا ، رأي ضعيف لا يستند الى دليل ، اذ كيف تعقل مخاطبة القرآن قوماً بهذا المعنى لو لم يكن لهم علم سابق به ؟ وفي الآيات دلالة واضحة على أن القوم كان لهم إدراك لهذا المعنى قبل الاسلام ، وانهم كانوا ينعتون لسانهم باللسان العربي ، وانهم كانوا يقولون للألسنة الأخرى ألسنة أعجمية : (أأعجمي وعربي ؟ قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء)[٦] . (وكذلك أنزلناه حكماً

---

١ Margoliouth, The Relations, P., 2, Glaser, 554, 2, MVAG., VI, 7, CIH. 79. 9. CIH, 343, 397, 7. CIH, IV, Pars Himyaritica, Nos, 79, 343, 397 Montgomery. P. 27.

٢ نشر (ص ٨٩) نص ٦٩ ،
Ansaldi, Cesare il Yemen, Nella Storia e nella Legenda,. Roma, 1933, Nr., 17, 69, Ryckmans, in Le Muséon, Vol., I, Part., 3, (1937), Nr. 180.

٣ التوبة ، الآية ٩٧ ، ١٠١ ، الفتح ، الاية ١١ ، الحجرات ، الاية ١٤ .

٤ بلوغ الارب (١٣/١) ، تاج العروس (٣٣٣/٣ فما بعدها) .

٥ D.H. Muller, in Neue Freie Presse, (1894), 20th April, Ency. Bibl., I, P., 274.
(قرى عربيات) ، الاغاني (٩ / ١٩) ، (١٠ / ١٤٩) .

٦ سورة فصلت رقم ٤١ ، الاية ٤٤ .

عربياً)[1] . (وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا)[2] . (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين)[3] . ففي هذه الآيات وآيات أخرى غيرها دلالة على أن الجاهليين كانوا يطلقون على لسانهم لساناً عربياً ، وفي ذلك دليل على وجود الحس بالقومية قبيل الإسلام[4] .

ونحن لا نزال نميز الأعراب عن الحضر ، ونعتدهم طبقة خاصة تختلف عن الحضر ، فنطلق عليهم لفظة : (عرب) في معنى بدو وأعراب ، أي بالمعنى الأصلي القديم ، ونرى ان عشيرة (الرولة) وعشائر أخرى تقسم سكان الجزيرة الى قسمين : حضر و (عرب) . وتقصد بالعرب أصحاب الخيام أي المتنقلين. وتقسم العرب ، أي البدو الى (عرب القبيلة) ، و (عرب الديرة) ، وهم العرب المقيمون على حافات البوادي والأرياف ، أي في معنى (عرب الضاحية) و (عرب الضواحي) في اصطلاح القدامى .

ثم تقسم الحضر وتسميهم أيضاً بـ (أهل الطين) الى (قارين) ، والواحد (قروني)،وهم المستقرون الذين لهم أماكن ثابتة ينزلونها أبداً ، والى (راعية) والمفرد راع ، وهم أصحاب أغنام وشبه حضر ، ويقال لهم (شوّاية) و (شيّان) و (شاوية) و (رحم الديرة) بحسب لغات القبائل[5] .

وأشبه مصطلح من المصطلحات القديمة بمصطلح (شوّاية) و « شاوية » ، هو (الأرحاء) ، وهي القبائل التي لا تنتجع ولا تبرح مكانها ، إلا ان ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجدب[6] .

وخلاصة ما تقدم ان لفظة (ع ر ب) ، (عرب) ، هي بمعنى التبدي والأعرابية في كل اللغات السامية ، ولم تكن تفهم إلا بهذا المعنى في أقدم

---

١ سورة الرعد رقم ١٣ ، الاية ٣٧

٢ سورة الاحقاف ، رقم ٤٦ الاية ١٢

٣ النحل ، السورة رقم ١٦ ، الاية ١٠٣

٤ سورة يوسف الاية ٢ ، سورة طه الاية ١١٣ ، سورة الزمر ، الاية ٢٨ ، سورة الشورى ، الاية ٧ ، سورة الزخرف ، الاية ٣ .

٥ B.R. 527 (Restricted), Geographical Handbook Series for Official use only, Western Arabia and the Red Sea, June 1946, Naval Intelligence Division, PP., 398. « شاوية » .

٦ العقد الفريد (٣ / ٣٣٥) .

النصوص التاريخية التي وصلت الينا ، وهي النصوص الآشورية . وقد عنت بها البدو عامة ، مهما كان سيدهم أو رئيسهم . وبهذا المعنى استعملت عند غيرهم. ولما توسعت مدارك الأعاجم وزاد اتصالهم واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب ، توسعوا في استعمال اللفظة ، حتى صارت تشمل أكثر العرب على اعتبار انهم أهل بادية وان حياتهم حياة أعراب . ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم ، فصارت علمية عند اولئك الأعاجم على بلاد العرب وعلى سكانها ، وأطلق لذلك كتبة اللاتين واليونان على بلاد العرب لفظة (Arabae) (Arabia) أي (العربية) بمعنى بلاد العرب .

لقد أوقعنا هذا الاستعمال في جهل بأحوال كثير من الشعوب والقبائل،ذكرت بأسمائها دون أن يشار الى جنسها . فحرنا في أمرها ، ولم نتمكن من ادخالها في جملة العرب ، لأن الموارد التي نملكها اليوم لم تنص على أصلها . فلم تكن من عادتها ، ولم يكن في مصطلح ذلك اليوم كما قلت اطلاق لفظة (عرب) إلا على الأعراب عامة ، وذلك عند جهل اسم القبيلة ، وكانت تلك القبيلة بادية غير مستقرة،وقد رأينا ان العرب أنفسهم لم يكونوا يسمون أنفسهم قبل الميلاد ، إلا بأسمائهم ، ولولا وجودهم في جزيرة العرب ولولا عثورنا على كتابات أو موارد أشارت اليهم ، لكان حالهم حال من ذكرنا ، أي لما تمكنا من ادخالهم في العرب . ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً تجاه القبائل المذكورة ، وليس لنا إلا الانتظار ، فلعل الزمن يبعث نصاً يكشف عن حقيقة بعض تلك القبائل .

هذا ويلاحظ أن عدداً من القبائل العربية الضاربة في الشمال والساكنة في العراق وفي بلاد الشام ، تأثرت بلغة بني إرم ، فكتبت بها ، كما فعل غيرهم من الناس الساكنين في هذه الأرضين ، مع انهم لم يكونوا من بني إرم . ولهذا حسبوا على بني إرم ، مع أن أصلهم من جنس آخر . وفي ضمن هؤلاء قبائل عربية عديدة ، ضاع أصلها ، لأنها تثقفت بثقافة بني إرم ، فظن لذلك انها منهم .

الآن وقد انتهيت من تحديد معنى (عرب) وتطورها الى قبيل الإسلام ، أرى لزاماً عليّ أن أتحدث عن ألفاظ أخرى استعملت بمعنى (عرب) في عهد من العهود ، وعند بعض الشعوب . فقد استعمل اليونان كلمة (Saraceni)

و (Saracenes) ، واستعملها اللاتين على هـذه الصورة (Saracenus) ، وذلك في معنى (العرب)[1] وأطلقوها على قبائل عربية كانت تقيم في بادية الشأم[2] وفي طور سيناء[3] ، وفي الصحراء المتصلة بأدوم[4] . وقد توسع مدلولها بعد الميلاد ، ولا سيما في القرن الرابع والخامس والسادس ، فأطلقت على العرب عامة ، حتى أن كتبة الكنيسة ومؤرخي هذا العصر قلما استعملوا كلمة (عرب) في كتبهم ، مستعيضين عنها بكلمة (Saraceni)[5] . وأقدم من ذكرها هو (ديوسقوريدس (Dioscurides of Anazarbos) الذي عاش في القرن الأول للميلاد[6] . وشاع استعمالها في القرون الوسطى حيث أطلقها النصارى على جميع العرب ، وأحياناً على جميع المسلمين[7] . ونجد الناس يستعملونها في الانكليزية في موضع (عرب) ومسلمين حتى اليوم .

وقد أطلق بعض المؤرخين من أمثال « يوسبيوس » « أويسبيوس » (Eusebius) و (هيرونيموس) (Hieronymus) هذه اللفظة على (الاشماعيليين) الذين كانوا يعيشون في البراري في (قادش) في برية (فاران) ، أو مدين حيث جبل (حوريب)[8] . وقد عرفت أيضاً بـ (الهاجرين) (Hagerene) ثم دعيت بـ (Saracenes)[9] .

ولم يتحدث أحد من الكتبة اليونان والرومان والسريان عن أصل لفظة (Saraceni) (Sarakenoi) . ولم يلتفت العلماء الى البحث في أصل التسمية إلا بعد النهضة العلمية الأخيرة ، ولذلك اختلفت آراؤهم في التعليل ، فزعم بعضهم انه مركب من (سارة) زوج ابراهيم ، ولفظ آخر ربما هو (قين) ،

---

١ Forster, Vol., 2, P., 9, Webester's New International Dictionary of English Language, Vol., 2, P., 2216, Ency. Brita., Vol., 19, P. 987

٢ Ency. Brita., Vol., 19, P., 987

٣ Forster, Band, 2, S., 9, Ptolemy, 5, 16, Ency. of Islam, Vol., 4, P. 155.

٤ Forster, Vol., P. 20. f.

٥ Ency. of Islam, Vol., 4, P., 156.

وسيكون الرمز : Ency

٦ Ency., Vol., 4, P., 155, Bretzl, Botanische Forschungen des Alx Alexanderzuges, S., 282.

٧ Ency. Vol, 4 P., 155.

٨ قاموس الكتاب المقدس (١ / ٣٩٥) .

٩ Ency., Vol., 4, P., 156, Eusebius, (ed. Schoene), II, 13, Chron. Pasch., 94, 18.

فيكون المعنى (عبيد سارة)[١] . وقال آخـــرون : انه مشتق من (سرق) ، فيكون المواد من كلمة (Saraceni) (سراكين) (السراقين) أو (السارقين) اشارة الى غزوهم وكثرة سطوهم[٢] . أو من (Saraka) بمعنى (Sherk) أي (شرق)[٣] ، ويراد بذلك الأرض التي تقع الى شرق النبط . وقال (ونكلر) انه من لفظة (شرقو) ، وتعني (سكان الصحراء) أو (أولاد الصحراء) . استنتج رأيه هذا من ورود اللفظة في نص من ايام (سرجون)[٤] . ويرى آخرون انه تصحيف (شرقين) ، أو (شارق)[٥] على نحو ما يفهم من كلمة (قدموني) (Qadmoni) في التوراة ، بمعنى شرقي ، أو أبناء الشرق (Bene Kedem) (Bene Qedhem)[٧] . وكانت تطلق خاصة على القبائـــل التي رجع النسابون العبرانيون نسبها الى (قطورة)[٨] .

وقد مال الى هذا الرأي الأخير اكثر من بحث في هذه التسمية من المستشرقين، فعندهم ان (سرسين) أو (سركين) أو (Sarakenoi) من (شرق) ، وان (Bene Kedem) و (Qadmoni) العبرانيتـــين همـــا ترجمتان للفظـــة (Saraceni)[٩] . ولهذا يرجحون هذا الرأي ويأخذون به .

---

١ الهلال السنة السادسة ، الجزء (١٥ دسمبر) ١٨٩٧ ، ص ٢٩٦ ، المشرق : السنة السابعة ، الجزء ٧ ، ص ٣٤٠ ، حيث راى (الاب انستاس مـــاري الكرملي) ان Sarrasins من (سرحة) ، وهو مخلاف باليمـــن . وعلى هذا فهم (السرحيون) . (وسمعتهم يقولون : سراكنـــو ، سراكنـــو ، ومعناه المسلمون) ، رحلة ابن بطوطة (٢ / ٤٤١) (طبعة اوربة) ، تحفـــة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار : تهذيب رحلة ابن بطوطة ، بقلـــم احمد العوامري بك ومحمد احمد جاد المولى بك ، (بولاق ١٩٣٤) ، (١ / ٢٨٨) ، (قل لهذا السركنو يعني المسلـــم) (ص ٢٩٣) ، (وكانت الـــروم تسمي العرب سارقيوس ، يعني ذوي سارة ، بسبب هاجر أم اسماعيل) ، ابـــن الاثير : الكامل (١ / ١١٧) .

٢ الهلال : السنة ٦ (جـ ٨) (١٨٩٧) ص ٢٩٦ .

٣ Musil, Arabia Deserta, P., 311, Stephen of Byzantium, Ethnica, P., 656, (Meineke),

٤ Ency., Vol., 4, P., 156, Winckler, Altorient. Forschungen, II, Ser., I, 77f.

٥ الهلال : الجزء المذكور ، ص ٢٩٦ ، مجلة لغة العرب ، الجـــزء ٤ السنـــة ٧ (١٩٢٩) ص ٢٩٣ ، Ency., Vol., 4, P., 156

٦ التكوين : الاصحاح الخامس عشر ، الاية ١٩ .

٧ قاموس الكتاب المقدس (٢ / ٢٠٦) Hastings, P., 512,

٨ التكوين ٢٥ ، الاية ١ ـــ ٦ Hastings, P., 512,

٩ Musil, Deserta, P., 494.

والقائلون ان (سارقين) من أصل لفظتين (سارة) ، زوج ابراهيم، ومن (قين) بمعنى (عبد) وان المعنى هو (عبيد سارة) ، متأثرون برواية التوراة عن سارة وبالشروح الواردة عنها[1] . وليست لأصحاب هذا الرأي أية ادلة أخرى غير هذا التشابه اللفظي الذي نلاحظه بين (سرسين) وبين (سارقين)، وهو من قبيل المصادفة والتلاعب بالألفاظ ولا شك ، وغير هذه القصة الواردة في التوراة : قصة (سارة) التي لا علاقة لها بالسرسين .

هذا وما زال أهل العراق يطلقون لفظة (شروك) و (شروكية) على جماعة من العرب هم من سكان (لواء العمارة) والأهوار في الغالب ، وينظرون اليهم نظرة خاصة ، ولا شك عندي ان لهذه التسمية علاقة بتلك التسمية القديمة.

ويستعمل اهل العراق في الوقت الحاضر لفظة اخرى ، هي (الشرجية) ، أي (الشرقية) ، ويقصدون بها جهة المشرق . وتقابل لفظة (بني قديم) في العبرانية،وهي من بقايا المصطلحات العراقية القديمة التي تعبر عن مصطلح(شركوني) و (بني قديم) .

هذا وقد عرف العرب ان الروم يسمونهم (ساراقينوس) ، فقد ذكر (المسعودي) ان الروم الى هذا الوقت (أي الى وقته) تسمي العرب(ساراقينوس). وذكر خبراً طريفاً عن ملك الروم (نقفور) المعاصر لـ (هارون الرشيد) . فقد زعم انه (أنكر على الروم تسميتهم العرب ساراقينوس . تفسير ذلك عبيد ساره ، طعناً منهم على هاجر وابنها اسماعيل ، وانها كانت امة لسارة ، وقال: تسميتهم عبيد سارة ، كذب[2] .

وقد كانت منازل (القدمونيين) ، (هقدمني) ، (هاقدموني) (Kadmonites) ، في المناطق الشرقية لفلسطين ، أي في بادية الشام . ولما كان (قيدما) (Kedemeh) هو أحد أبناء اسماعيل في اصطلاح (التوراة)، فيكون أبناء (قيدما) من العرب الاسماعيليين[3] . وقد ذكر في موضع من التوراة انهم كانوا يقطنون المناطق الشرقية لفلسطين قرب (البحر الميت) المعروف في

---

١ لغة العرب ج ٤ ، من السنة ٧ ، ص ٢٩٤ .

٢ التنبيه (ص ١٤٣) (طبعة عبد الله اسماعيل الصاوي) .

٣ Hastings, P., 512, Hastings, A Dictionary of the Bible, I, P., 633.

العبرانية بـ (هايم هقدموني) ، أي (البحر القدموني) (البحر الشرقي)[1] .

وقد كان (القدمونيون) ، أي (بنو قديم) أعراباً يقطنون في بادية الشام، وأشباه أعراب ، أي رعاة وأشباه حضريين ، واللفظة لا تعني قبيلة واحدة معينة، أي علمية ، ولا تعني قبائل معينة ، وإنما هي لفظة عامة أطلقت على الساكنين في الأماكن الشرقية بالنسبة الى العبرانيين[2] .

ونجد في الكتب اليونانية لفظة لها علاقة بطائفة من العرب،هي (Skenitae) (Scenitae) ، وقد أطلقت خاصة على أعراب بادية الشام . وقصد بها الأعراب سكان الخيام ، أي (أهل الوبر) في اصطلاح العرب . وقد ذهب بعض العلماء الى أنها من (الخيمة) التي هي منزل الأعرابي ، لأن الخيمة هي (Skene) (Skynai) في اليونانية . فالمعنى إذن (سكان الخيام)[3] .

وقد ذكـــر (سترابون) ان الـ (Scenitae) كانوا نازلين عـــلى حدود (سورية) الشرقية ، كما ذكر ان منهم من كان ينزل شمال (العربية السعيدة) وهم سكان خيام[4] . وقد فرّق (سترابون) بينهم وبين البدو تفريقاً ظاهراً ، وميزهم عن غيرهم من الأعراب بسكناهم في الخيـــام . وقال عنهم في موضع آخر : انهم يمثلون بصورة عامة (بدو) العراق[5] . وانهم يعتنون بتربية الإبل. وقد ذكرهم أيضاً في اثناء كلامه على ساحل (Maranitae) فقال : انه مأهول بالفلاحين وبالـ (Scenitae) وأراد بهم الأعراب الذين لا يسكنون إلا الخيام ويعيشون على تربية الإبل ، وقد ذكر انهم كانوا قبائل ومشيخات[6] .

وقد ذكرهم (بلينيوس) كذلك ، فدعاهم بـ (Scenitae)[7] . وقـــد كانوا يقيمون في البادية . وقـــد حاربهم (سبتيموس سفيروس) ، وسأتحدث

---

١ حزقيال ، الاصحاح ٤٤ ، الاية ١٨ Hastings, A Dictionary, I, P., 8311,

٢ J. Simons, The Geographical and Topographical Texts of the Old Testament, P., 13.

٣ Webester's New International Dictionary of the Englisch Language, Vol, 2, P. 2233, Strabo, XVI, 2 : 2, Vol., I, P., 63, 196, 441, Vol., 2, P. 219, 252. Vol. 3. P. 160. 166, ,185, 190, 204, (Hamilton).

٤ Strabo, Vol., I, P., 196, 441.

٥ Musil, Palmyrena, p., 209, Strabo, Vol., 3, P., 166, 190, 204.

٦ راجع المواضع المشار اليها من جغرافية (سترابون) ، Dio., P., 254, A Cyclopaedia of Biblical Literature, by, John Kitto, I, P., 184.

٧ Pliny, 6, 143, Der Araber, 1, 178.

عن ذلك فيما بعد ، كما أشار غــيره اليهم . والظاهــر ان لفظة (Nomas)
(Nomadas) التي تعني (البدو) لا تؤدي معنى (Scenitae) أي سكان الخيام.
اذ فرّق الكتبة اليونان في مؤلفاتهم بين اللفظتين . وأغلب ظني ان المراد بسكان
الخيام الأعراب المستقرون بعض الاستقرار ، أي الذين عاشوا في مضارب عيشة
شبه مستقرة ، لهم خيامهم وإبلهم وحيواناتهم على مقربة من الريف والحضارة .
أما الـ (نومادس) (Nomades) (Nomadas) فقد كانوا قبائل رحــلا
يعيشون في البوادي لا يستقرون في مكان واحد ، متى وجدوا فرصة اغتنموها
فأغاروا على من يجدونهم أمامهم ، للعيش على ما يقع في أيديهم . ولذلك كانت
ظروف ضعف الحكومات أو انشغالها بالحروب من أحسن الفرص المناسبـة لهم .
ومن هنا فرّق الكتبة اليونان وغيرهم بين الجماعتين[١] .

إننا لا نستطيع أن نحدد الزمان الذي ظهر فيه مصطلح (سكينيته) بين اليونان
واللاتين . وقد يكون ترجمة للفظة أخذوها من الفرس أو الآشوريين أو غيرهم
من الشعوب . ومصطلح (أهل الوبر) ، هــو مصطلح يقابل جملة (سكان
الخيام) في نظري . أما مصطلح (أهل بادية) أو (أعراب بادية) أو (سكان
البوادي) ، فانه تعبير يقابل (Nomadas) عند اليونان .

وعرف العرب عند الفرس وعند بني إرم بتسمية أخرى ، هي: (Tayayo)
و (Taiy) . أما علماء عهــد التلمود من العبرانيين ، فأطلقوا عليهم لفظــة
(ط ي ي ع ا) (طيعا) و (طيايا) (طياية)[٢] وأصل الكلمتين واحد على ما
يظهر ، أخذ من لفظة (طيء) اسم القبيلة العربية الشهيرة على رأي أكثر العلماء[٣].
وكانت تنزل في البادية في الأرضين المتاخمة لحدود امبراطوريـة الفرس ، وكانت
من أقوى القبائل العربية في تلك الأيام ، ولهذا صار اسمها مرادفاً للفظة (العرب)
(عرب) . وقــد ذكر (برديصـــان) اسم (Tayaye) (Tayoye) مع
(Sarakoye)[٤] .

---

١ Der Araber, I, S., 178.

٢ The Uni. Jew. Ency., Vol., 2, P., 43, Margoliouth, P., 57, Ency, Vol. 4. p. 598.

٣ Ency., Vol., 4, P., 598,

٤ Ency., Vol., 4, P., 598, Cureton, Spicil. Syr., P., 16, Noldeke, in ZDMG. IXIX. 713, Margoliouth, The Relations, P., 57, Kraus, in ZDMG, IXX, 321, foll.

وقد شاعت هذه التسمية قرب الميلاد ، وانتشرت في القرون الأولى للميلاد ، كما يتبين ذلك من الموارد السريانية والموارد اليهودية [1] .

واستعملت النصوص (الفهلويـة) (Pahlawi) لفظـة (تاجـك) (Tadgik) (Tachik) (Tashik) في مقابل (عرب) ، كما استعملت الفارسية لفظة (تازي) بهذا المعنى أيضاً . واستعمل الأرمن كلمة (تجـك) (Tachik) في معنى عرب ومسلمين ، واستعمـل الصينيون لفظة (تشي) (Tashi) لهذه التسمية . وقد عرف سكان آسية الوسطى الذين دخلوا في الإسلام بهذه التسمية ، كما أطلق الأتراك على الايرانيين لفظـة (تجك) ، من تلك التسمية ، حتى صارت لفظة (تجك) تعني (الإيراني) في اللغة التركية [2] .

ويرى بعض العلماء ان (تاجك) و (تجك) و (تازك) ، هي من الأصل المتقدم . من أصل لفظة (طيء)[3] . ولكلمـة (تازي) في الفارسيـة معنى (صحراوي) ، من (تاز) (Taz) ، بمعنى الأرض المقفرة الخالية ،ولذلك نسب بعض الباحثين كلمة (تازي) الى هذا المعنى ، فقالوا انها أطلقت على العرب لما اشتهر عنهم أنهم صحراويون[4] .

وقد زعم (حمزة الأصفهاني) ان الفرس أطلقوا على العرب لفظة(تاجيان) ، نسبـة الى (تاج بن فروان بن سيامك بن مشى بن كيومرث) ، وهو جد العرب[5] .

وبعض هذه التسميات المذكورة ، لا يزال حياً مستعملاً ، ولكنه لم يبلـغ مبلغ لفظة (عرب) و (العرب) في الشهرة والانتشار . فقد صارت لفظـة (عرب) ، علماً على قوميـة وجنس معلوم ، له موطن معلوم ، وله لسان

---

١ O'Leary, Arabia, P., 18, J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonien, S., 233. f.

٢ Ency., Vol., 4, P., 598.

٣ Ency., Vol., 4, P., 598.

٤ الرسالة : الجزء ٦٥٤ ، السنة ١٩٤٦ ، تعليق بقلم (ح. م. ع) من النجف على كلمة « تاجك » ، وكنت قد كتبت فيها في مجلة الرسالة المصرية قبل هذا الجزء .

٥ حمزة (٢٤) .

خاص به يميزه عن سائر الألسنة،من بعد الميلاد حتّى اليوم . وقد وسع الاسلام رقعة بلاد العرب ، كما وسع مجال اللغة العربية ، حتّى صارت بفضله لغة عالمية خالدة ذات رسالة كبيرة ، غمرت بفضل الاسلام بعض اللغات مثــل الفارسية والتركية والأردية ولغات اخرى، فزودتّها بمادة غزيرة من الألفاظ ، دخلت فيها حتّى صارت جزءاً من تلك اللغات ، يظن الجاهل انها منها لاستعماله لها ، ولكنها في الواقع من أصل عربي .

وربّ سائل يقول:لقد كان للعرب قبل الإسلام لغات ، مثل المعينيـة والسبئية والحميرية والصفوية والثمودية واللحيانية وأمثالها ، اختلفت عن عربية القرآن الكريم اختلافاً كبيراً ، حتّى إن أحدنا إذا قرأ نصاً مدوناً بلغة من تلك اللغـات عجز عن فهمه ، وظن إذا لم يكن له علم بلغات العرب الجاهليين أنه لغـة من لغات البرابرة أو الأعاجم ، فماذا سيكون موقفنـــا من أصحاب هذه اللغات ، وهل نعدهم عرباً ؟

والجواب أن هؤلاء ، وإن اختلفت لغتهم عن لغتنا وباينت ألسنتهم ألسنتنا ، فإنهم عرب لحماً ودماً، ولدوا ونشأوا في بلاد العرب ، لم يردوا اليها من الخارج، ولم يكونوا طارئين عليها من أمة غريبة . فهم إذن عرب مثـل غيرهم ، وكل لغات العرب هي لغات عربية ، وإن اختلفت وتباينت ، وما اللغة التي نزل بها القرآن الكريم إلاّ لغة واحدة من تلك اللغات ، ميزت من غيرهـا ، واكتسبت شرف التقــدم والتصدر بفضل الإسلام ، وبفضل نزول الكتاب بهـا ، فصارت (اللغة العربية الفصحى) ولغة العرب أجمعين .

وحكمنا هـــذا ينطبق على النبط أيضاً وعلى من كان على شاكلتهم ، وإن عدهم علماء النسب والتاريخ واللغـــة والأخبار من غير العرب ، وأبعدوهم عن العرب والعربية،فقد كان أولئك وهؤلاء عرباً أيضاً ، مثل عرب اليمن المذكورين ومثل ثمود والصفويين واللحيانيين ، لهم لهجاتهم الخاصة ؛ وإن تأثروا بالإرمية وكتبوا بها ، فقد تكلم اليهود بالإرمية ونسي كثير منهم العبرانية ، ولكن نسيان أولئك اليهود العبرانية ، لم يخرجهم مع ذلك عن العبرانيين .

وسترد في بحثنا عن تاريخ الجاهلية أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة لا عهـــد للإسلاميين بها ، ولا علم لهم عنها ، ذكروا في التوراة وفي كتب اليهود الأخرى

وفي الموارد اللاتينية واليونانية والكتابات الجاهلية . واذا جاز لأحد الشك في أصل بعض القبائل المذكورة في كتب اليهود أو في مؤلفات الكتبة (الكلاسيكين) على اعتبار أنها أخطأت في ادخالها في جماعة العرب ، فإن هذا الجواز يسقط حتماً بالنسبة الى القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية ، وبالنسبة الى القبائل التي دونت تلك الكتابات . فهي كتابات عربية ، وإن اختلفت عن عربيتنا وباينت لغتها لغتنا ، لأنها لهجة قوم عاشوا في بلاد العرب ونبتوا فيها ، وقد كان لسانهم هذا اللسان العربي المكتوب .

فسبيلنا في هذا الكتاب إذن ، هو البحث في كل العرب : العرب الذين تعارف العلماء الإسلاميون على اعتبارهم عرباً ، فنحوهم شهادة العروبة ، بحسب طريقتهم في تقسيمهم الى طبقات ، وفي وضعهم في أشجار نسب ومخططات ؛ والعرب المجهولين الذين لم يمنحوا هذه الشهادة بل حرموا منها ، ونص على إخراجهم من العرب كالنبط على ما ذكرت ، والعرب المجهولين كل الجهل الذين لم يكن للمسلمين علم ما بهم ، ولم يكن لهم علم حتى بأسمائهم . سنتحدث عن هؤلاء جميعاً ، على اعتبار أنهم عرب ، جهلهم العرب ، لأنهم بادوا قبل الإسلام ،أو لأنهم عاشوا في بقاع معزولة نائية ، فلم يصل خبرهم إلى الإسلاميين ، فلما شرع المسلمون في التدوين ، لم يعرفوا عنهم شيئاً ، فأهملوا ، ونسوا مع كثير غيرهم من المنسيين .

سئل أحد علماء العربية عن لسان حمير ، فقال : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[1] . ولكن علماء العربية لم يتنصلوا من عروبة حمير ، ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان آخر مخالف للساننا ، بل عدّوهم من صميم العرب ومن لبّها ، ونحن هنا لا نستطيع أن ننكر على الأقوام العربية المنسية عروبتها ، لمجرد اختلاف لسانها عن لساننا ، ووصول كتابات منها مكتوبة بلغة لا نفهمها . فلغتها هي لغة عربية ، ما في ذلك شك ولا شبهة ، وإن اختلفت عن لسان يعرب أو أي جدّ آخر يزعم أهل الأخبار أنه كان أول من أعرب في لسانه ، فتكلم بهذه العربية التي أخذت تسميتها من

---

١ الجمحي : طبقات الشعراء (ص ٤ وما بعدها) .

ذلك الإعراب .

وبعد أن عرفنـــا معنى لفظة العرب والألفاظ المرادفة لها ، أقول إن بـــلاد العرب أو (العربية) ، هي البوادي والفلوات التي أطلق الآشوريون ومن جاء بعدهم على أهلها لفظة (الأعراب)، وعلى باديتهم (Arabeae) و (Arabae) وما شاكل ذلك . وهي جزيرة العرب وامتدادها الذي يكون بادية الشام حتى نهايتها عند اقتراب الفرات من أرض بلاد الشام ، فالفرات هو حدها الشرقي . أما حدها الغربي ، فأرض الحضر في بـــلاد الشام . وتدخل في العربية بادية فلسطين و (طور سيناء) الى شواطىء النيل . وقد أطلق بعض الكتـــاب اليونان على الأرضين الواقعـــة شرق الـ (Araxe) ، أي الخابور اسم (Arabia)[1] كما أدخل (هيرودوتس) أرض طور سيناء الى شواطىء نهر النيل في (العربية) (Arabia) أي بلاد العرب[2] .

أما الآن ، وقد عرفنا لفظة عرب ، وكيف تحـــددت ، وتطورت ، أرى لزاماً علينا الدخول في صلب موضوعنا وهو تاريخ العرب ، مبتدئين بمقدمة عن الجاهلية وعن الموارد التي استقينا منها أخبارها ، ثم بمقدمات عن جزيرة العرب وعن طبيعتها وعن الساميين وعقليتهم وعن العقلية العربية، تليها بحوث في أنساب العرب ، ثم ندخل بعد ذلك في التاريخ السياسي للعرب ، ثم بقية أقسام تاريـــخ العرب من حضارة ومدنية ودينية واجتماعية ولغوية .

ولما كان الاسلام أعظم حادث نجم على الاطلاق في تاريخ العرب، أخرجهم من بلادهم الى بلاد أخرى واسعة فسيحة ، وميزهم أمة تؤثر تأثيراً خطيراً في حياة الناس .. صار ظهوره نهاية لدور ومبدأً لتاريخ دور ، ونهاية ايام عرفت بـ (الجاهلية) وبداية عهد عرف بـ (الاسلام) ما زال قائمـــاً مستمراً ، وسيستمر الى ما شاء الله ، به أرخ تاريخ العرب ، فما وقع قبل الاسلام،عرف بتاريخ العرب قبل الاسلام ، وما وقع بعده قيل له : تاريخ العرب بعد الاسلام .

وسيكون بحثنا هنا ، أعني في هـــذه الأجزاء المتتاليـــة في القسم الأول من

---

١ Xenophon, An., I, 5, I, Der Araber, In der Alten Welt, I, S., 165.

٢ Heredot, 2, 15, Der Araber, I, S., 166.

تاريخ العرب ، وهو قسم تاريخ العرب قبل الاسلام ، أما القسم الثاني ، وهو تاريـخ العرب في الاسلام ، فستأتي أجزاؤه بالتتالي أيضاً بعد الانتهاء من هذا القسم .

وبعد هذه المقدمة ، فلنطو صفحات هذا الفصل ، ولننتقل الى فصل جديد ، هو الفصل الثاني من هذه الفصول ، فصل : الجاهلية ومصادر التاريـخ الجاهلي .

الفصل الثاني

الجاهلية ومصادر التاريخ الجاهلي

اعتاد الناس أن يسموا تأريخ العرب قبل الاسلام (التأريخ الجاهلي) ، أو (تأريخ الجاهلية) ، وان يذهبوا الى ان العرب كانت تغلب عليهم البداوة ، وانهم كانوا قد تخلفوا عمن حولهم في الحضارة ، فعاش أكثرهم عيشة قبائل رحّل ، في جهل وغفلة ، لم تكن لهم صلات بالعالم الخارجي ، ولم يكن للعالم الخارجي اتصال بهم ، أميّون ، عبدة أصنام ، ليس لهم تاريخ حافل ، لذلك عرفت تلك الحقبة التي سبقت الاسلام عندهم بـ (الجاهلية) .

و (الجاهلية) اصطلاح مستحدث ، ظهر بظهور الاسلام ، وقد أطلق على حال قبل الاسلام تمييزاً وتفريقاً لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة ، على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم من اطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة ، والكيانات الموجودة بعد ظهور أحداث تزلزلها وتتمكن منها ، وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود التي قد تسميها أيضاً بتسميات جديدة [1] . وفي التسميات التي تطلق على العهود السابقة ، ما يدل ضمناً على شيء من الازدراء والاستهجان للأوضاع السابقة في غالب الأحيان .

وقد سبق للنصارى ان أطلقوا على العصور التي سبقت المسيح والنصرانية

---

١ (وفي كتاب ليس لابن خالويه أن لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة) ، المزهر (١٧٦) ، بلوغ الارب (١ / ١٥) .

(الجاهلية) ، أي (ايام الجاهلية) ، أو (زمان الجاهلية) ، استهجاناً لأمر تلك الأيام ، وازدراءً بجهل أصحابها لحالة الوثنية التي كانوا عليها ، ولجهالة الناس اذ ذاك وارتكابهم الخطايا التي أبعدتهم ، في نظر النصرانية ، عن العلم ، وعن ملكوت الله . (وقد أغضى الله عن أزمنة هذا الجهل فيبشر الآن جميع الناس في كل مكان الى ان يتوبوا)[1] .

وقد وردت لفظة (الجاهلية) ، في القرآن الكريم،وردت في السور المدنية[2] ، دون السور المكية ، فدل ذلك على أن ظهورها كان بعد هجرة الرسول الى المدينة ، وان اطلاقها بهذا المعنى كان بعد الهجرة ، وان المسلمين استعملوها منذ هذا العهد فما بعده .

وقد فهم جمهور من الناس أن الجاهلية من الجهل الذي هو ضد العلم أو عدم اتباع العلم،ومن الجهل بالقراءة والكتابة ، ولهذا ترجمت اللفظة في الانكليزية بـ (The Time of Ignorance) ، وفي الألمانية بـ (Zeit der Unwissenheit)[3] وفهمها آخرون أنها من الجهل بالله وبرسوله وبشرائع الدين وباتباع الوثنية والتعبد لغير الله ، وذهب آخرون الى أنها من المفاخرة بالأنساب والتباهي بالأحساب والكبر والتجبر وغير ذلك من الخلال التي كانت من أبرز صفات الجاهليين[4] .

ويرى المستشرق (كولدتزهير) (Goldziher) أن المقصود الأول من الكلمة

---

١ اعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ، الاية ٣٠

٢ آل عمران ، الاية ١٥٤ ، المائدة ، الاية ٥٠ ، الاحزاب ، الاية ٣٣ ، الفتح ، الآية ٢٦ .

٣ Ency., Vol., I, P., 999, Zwemer, Arabia the Cradle of Islam, P., 158.

٤ لسان العرب (١٣ / ١٣٧) ، اساس البلاغة (١ / ١٤٥) ، صحاح الجوهري، (٢ / ١٦٩) ، القاموس المحيط (٣ / ٢٥٣) (الطبعة الرابعة) ، ذيل اقرب الموارد (ص ١٤٧) ، شرح المعلقات السبع للزوزني (١٧٦) ، شرح ديوان عنترة بن شداد ، (ص ١٢٦) ، الاغاني (٢١ / ٢٠٧) ، بلوغ الارب (١ / ١٦) ، فجر الاسلام (١ / ٨٧) .
لامية العرب ، للشنفرى ، « ولا يزدهي الاجهال حلمي » ، ٥٣ فجر الاسلام ص ٨٦ ، (الطبعة الثالثة) ، الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٣ ، (وهذا يؤيد قول المستشرق كولدزهير الذي اثبت أن الجهل ضد الحلم ، لا ضد العلم) ،
Ency., Vol., P., 999, Muh. Stu., I,S., 219. ff., Nicholson, A. Literary, 1941 P. 30.

(السفه) الذي هو ضد الحلم ، والأنفة والخفة والغضب وما إلى ذلك من معان، وهي أمور كانت جد واضحة في حياة الجاهليين ، ويقابلها الاسلام ، الذي هو مصطلح مستحدث أيضاً ظهر بظهور الاسلام ، وعمادة الخضوع لله والانقياد له[1] ونبذ التفاخر بالأحساب والأنساب والكبر وما إلى ذلك من صفات نهى عنها القرآن الكريم والحديث .

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم في مواضع منه[2]،منها آية سورة الفرقان: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً)[3] ، وآية سورة البقرة : (قالوا أتخذنا هزواً ؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)[4] ، وآية سورة الأعراف : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[5] ، وآية هود : (اني أعظك أن تكون من الجاهلين)[6]. وفي كل هذه المواضع ما ينم على أخلاق الجاهلية . وقد ورد في الحديث : (اذا كان أحدكم صائماً ، فلا يرفث ولا يجهل)[7] ، وورد أيضاً : (إنك امرؤ فيك جاهلية)[8] وبهذا المعنى تقريباً وردت الكلمة في قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[9]

أي : لا يسفه أحد علينا ، فنسفه عليهم فوق سفههم ، أي نجازيهم جزاء يربي عليه .

---

١ فجر الاسلام (ص ٨٧) ، Ency., Vol., I, P., 999, Muh. Stud.,, Bd., I, S. 244 f.

٢ راجع فهارس القرآن الكريم

٣ سورة الفرقان ، اية ٦٣ ، تفسير الطبري (١٩ / ٢١) (انهم يمشون عليها بالحلم ، لا يجهلون على من جهل عليهم) ، بلوغ الارب (١ / ١٦) .

٤ سورة البقرة ، اية ٦٧ .

٥ سورة الاعراف ٧ اية ١٩٨ ، تفسير الطبري (٩/ ١٠٤) ، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ، هامش تفسير الطبري (٩ / ١٠٥) .

٦ سورة هود ١١ اية ٤٦ .

٧ بلوغ الارب (١ / ١٦) .

٨ ذيل اقرب الموارد (٣ / ١١٥) ، فجر الاسلام (١ / ٨٧) ، بلوغ الارب (١ / ١٦ فما بعدها) .

٩ بلوغ الارب (١ / ١٦) ، محيط المحيط ص ٣٠٩ ، اساس البلاغة (١ / ١٤٥) فجر الاسلام (١ /٨٧) ، شرح المعلقات السبع للزوزني ١٥١ .

واستعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كثير[1] .

وجاء في سورة المائدة : (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[2] أي أحكام الملة الجاهلية وما كانوا عليه من الضلال والجور في الأحكـــام والتفريق بين الناس في المنزلة والمعاملة[3] .

وأطلقوا على (الجاهلية الجهلاء) ، والجهلاء صفة للأولى يراد بها التوكيد، وتعني (الجاهلية القديمة)[4] . وكانوا اذا عابوا شيئاً واستبشعوه ، قالوا : (كان ذلك في الجاهلية الجهلاء)[5] . و (الجاهلية الجهلاء) هي الوثنيـة التي حاربها الاسلام . وقد أنب القرآن المشركين على حميتهم الوثنية،فقال : « اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية »[6] .

والرأي عندي ان الجاهلية من السفه والحمق والأنفة والخفة والغضب وعـدم الانقياد لحـكم وشريعة وارادة إلهية وما الى ذلك من حالات انتقصها الاسلام . فهي في معنى (اذهب يا جاهل) نقولها في العراق لمـن يتسفه ويتحمق وينطق بكلام لا يليق صدوره من رجل ، فلا يبالي أدباً ولا يراعي عرفاً ، و (رجل جاهل) نطلقه على من لا يهتم بمجتمع ودين ، ولا يتورع من النطق بأفحش الكلام . ولا يشترط بالطبع أن يكون ذلك الرجل جاهـلاً أمياً ، أي ليس له علم ، وليس بقارىء كاتب .

وقد اختلف المفسرون في المراد من الجاهلية الأولى في قوله تعالى : (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)[7] ، فقيل : (الجاهلية الأولى التي

---

١ بلوغ الارب (١ / ١٦) .
٢ سورة المائدة ٥ اية ٥٠ تفسير الخازن (١ / ٥١٦) ، مدارك التنزيل وحقائق التاويل للنسـفي ، حاشية على الخازن (١ / ٥١٦) .
٣ محيط المحيط (٣٠٩) ، تفسير الخازن (١ / ٥١٦) .
٤ محيط المحيط ٣٠٩ ، اساس البلاغـة (١ / ١٤٥) ، صحاح الجوهـري (٢ / ١٦٩) ، اقرب الموارد ص (١٤٧) (وقالوا الجاهلية الجهلاء فبالغـوا) ، لسان العرب (١٣ / ١٣٧) شمس العلوم ، (ج ١ ي ٢ ، ص ٣٦٨)
٥ اقـرب الموارد ١٤٧ .
٦ سورة الفتح ٤٨ اية ٢٦ . عن الجاهلية والجهل وما ورد بهذا المعنى في القرآن الكريم ، راجع تفصيل ايات القرآن الحكيم ، تاليف جون لابوم ، نقلـه الـى العربية محمد فؤاد عبد الباقي ص ٦٢١ .
٧ سورة الاحزاب رقم ٣٣ ، اية ٣٣

ولد فيها ابراهيم ، والجاهلية الأخرى التي ولد فيها محمد)[1] . وقيل (الجاهلية الأولى بين عيسى ومحمد)[2] ، وقد أدى اختلافهم في مفهوم هذه الآية الى تصور وجود جاهليتين جاهلية قديمة ، وجاهلية أخرى هي التي كانت عند ولادة الرسول[3] .

واختلف العلماء في تحديد مبدأ الجاهلية ، أو العصر الجاهلي ، فذهب بعضهم الى أن الجاهلية كانت فيما بين نوح وإدريس[4] . وذهب آخرون الى أنها كانت بين آدم ونوح ، أو انها بين موسى وعيسى ، أو الفترة التي كانت ما بين عيسى ومحمد[5] . وأما منتهاها ، فظهور الرسول ونزول الوحي عند الأكثرين ، أو فتح مكة عند جماعة[6] . وذهب ابن خالويه الى أن هذه اللفظة اطلقت في الإسلام على الزمن الذي كان قبل البعثة[7] .

والذي يفهم خاصة من كتب الحديث أن أصحاب الرسول كانوا يعنون بـ (الجاهلية) الزمان الذي عاشوا فيه قبل الإسلام ، وقبل نزول الوحي، فكانوا يسألون الرسول عن أحكامها ، وعن موقفهم منها بعد اسلامهم ، وعن العهود التي قطعوها على أنفسهم في ذلك العهد ، وقد أقر الرسول بعضها ، ونهى عن بعض آخر[8] ، وذلك يدل على أن هذا المعنى كان قد تخصص منذ ذلك الحين،

---

١ طبقات ابن سعد (٨/١٤٣ ، ١٤٥) .

٢ بلوغ الارب (١/١٧) ، مفتاح كنوز السنة (تاليف فنسنك) ص ١٠٩ .

٣ (وليس المعنى أن ثم جاهلية اخرى ، وقد اوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التي قبل الاسلام كما لا يخفى) بلوغ الارب (١/١٨) .

٤ تاريخ الطبري (١/٨٣) ، الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٢ .

٥ بلوغ الارب (١/١٦ فما بعدها) ، (والفترة ما بين كل نبيين . وفي الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة ، وفي الحديث فترة ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام) ، لسان العرب (١٣/١٣٧) .

٦ بلوغ الارب (١ / ١٦ فما بعدها) .

٧ بلوغ الارب (١ / ١٥) ، المزهر ١٧٦ وفي (كتاب ليس) لابن خالويه : ان لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة) .

٨ صحيح مسلم (١ / ٧٩) ، صحيح البخاري ك ٢٤ ب ٢٤ ، ك ٣٤ ب ١٠٠ ،ك ٤٩ ب ١٢ ، ك ٧٨ ب ١٦، ك ٨٨ ب ١ ، ك ٣٣ب ٥ ، ١٥ ،ك ٦٤، ب ٥٤ ، (قال صلى الله عليه وسلم : أربع في امتي من امر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالاحساب ، والطعن في الانساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة) ، بلوغ الارب (١ / ١٧) ، مسند احمد بن حنبل (٢ / ١١ ، ١٠٣ ، ١٨٧ ، ٣ / ٤٢٥) ، مفتاح كنوز السنة ص ١٠٨ .

وأصبح للفظة (الجاهلية) مدلول خاص في عهد الرسول .

وأطلق بعض العلماء على الذين عاشوا بين الميلاد ورسالة الرسول (أهل الفترة) وهم في نظرهم جماعة من أهل التوحيد ممن يقر بالبعث ، ذكروا منهم:(حنظلة ابن صفوان) نبي (أصحاب الرّس) وأصحاب الأخدود ، وخـالد بن سنان العبسي ، و(وثاب السني) وأسعد أبا كرب الحميري ، وقس بن ساعدة الإيادي وأمية بن أبي الصلت ، وورقة بن نوفل ، وعداس مولى عتبة بن أبي ربيعة ، وأبا قيس صرمة بن أبي أنس من الأنصار ، وأبا عامر الأوسي ، وعبدالله بن جحش وآخرين[1] . فهم اذن طبقة خاصة من الجاهليين ، ميزوا عن غيرهم بهذه السمة ، لأنهم لم يكونوا على ملة أهل الجاهلية من عبادة الأصنام والأوثان .

فلفظة (الجاهلية) اذن نعت اسلامي ، من نوع النعوت التي تطلق في العهود السابقة على حركة ما أو انقلاب . أطلقه المسلمون على ذلك العهد ، كما نطلق اليوم نعوتاً وأسماء على العهود الماضية التي يثور الناس عليها ، من مثل مصطلح (العهد المباد) الذي أطلق في العراق على العهد الملكي منذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، ومثل المصطلحات الأخرى الشائعة في الأقطار العربية الأخرى ، والتي اطلقت على العهود السابقة للثورات والانقلابات .

موارد التاريخ الجاهلي :

تاريخ الجاهلية هو أضعف قسم كتبه المؤرخون العرب في تاريخ العرب ، يعوزه التحقيق والتدقيق والغربلة . وأكثر ما ذكروه على انه تاريخ هذه الحقبة، هو أساطير ، وقصص شعبي ، وأخبار أخذت عن أهل الكتاب ولا سيما اليهود، وأشياء وضعها الوضاعون في الاسلام ، لمآرب اقتضتها العواطف والمؤثرات الخاصة .

وقد تداول العلماء وغير أصحاب العلم هذه الأخبار على انها تاريخ الجاهلية حتى القرن التاسع عشر . فلما انتهت الى المستشرقين ، شكّوا في أكثرها ، فتناولوها بالنقد . استناداً الى طرق البحث الحديثة التي دخلت على العلوم النظرية، وتفتحت بذلك آفاق واسعة في عالم التاريخ الجاهلي لم تكن معروفة، ووضعوا الأسس للجادات التي ستوصل عشاق التاريخ الى البحث في تاريخ جزيرة العرب .

---

١ مروج الذهب (١ / ٣٨ فما بعدها) .

وكان أهم عمل رائع قام به المستشرقون هو البحث عن الكتابات العربية التي دوّنها العرب قبل الاسلام ، وتعليم الناس قراءتها بعد أن جهلوها مدة تنيف على ألف عام . وقد فتحت هذه النصوص باب تاريخ الجاهلية ، ومن هذا الباب يجب أن نصل الى التاريخ الجاهلي الصحيح .

لقد كلف البحث عن هذه الكتابات العلماء والسياح، ثمناً غالياً كلفهم حياتهم في بعض الأحيان ، ولم يكن من السهل تجول هؤلاء الأوروبيين بأزياء مختلفة في أماكن تغلب عليها الطبيعة الصحراوية للحصول على معلومات عن الخرائب والعاديات والحصول على ما يمكن الحصول عليه من نقوش وكتابات .

والتاريخ الجاهلي مع ذلك في أول مرحلة من مراحله وفي الدرجات الأولى من سلم طويل متعب . ولا يُنتظر التقدم أكثر من ذلك،إلا إذا سهّل للعلماء التجوال في بلاد العرب ، لدراستها من جميع الوجوه ، وللبحث عن العاديات ، ويسرت لهم سبل البحث ، ووضعت أمـــامهم كل المساعدات الممكنة التي تأخذ بأيديهم الى الكشف عن مواطن ذلك التاريخ والبحث عن مدافن كنوز الآثار تحت الأتربة واستخراجها وحلّ رموزها،لجعلها تنطق بأحوالها في تلك الأيام . وتلك مسؤولية لن تُفهم الاّ اذا فهم العرب وعلى رأسهم الحاكمون منهم أن من واجبهم المحافظة على تأريخ العرب القديم بصيانة مواطن الآثار ومنع الاعتداء عليها ، بانزال أشد العقوبات فيمن يحطم تمثالاً ، لاعتقاده بأنه صنم ، أو يهدم أثراً للاستفادة من حجره ، أو ما شابه ذلك من هدم وتخريب .

لم يطمئن المستشرقون الى هذا المرويّ في الكتب العربية عن التاريخ الجاهلي ولم يكتفوا به ، بل رجعوا الى مصادر وموارد ساعدتهم في تدوين هذا الذي نعرفه عن تاريخ الجاهلية ، وهو شيء قليل في الواقع ، ولكنه مع ذلك خير من هذا القديم المتعارف وأقرب منه الى التأريخ ، وقد تجمعت مادته من هذه الموارد :

(١) النقوش والكتابات .

(٢) التوراة والتلمود والكتب العبرانية الأخرى .

(٣) الكتب اليونانية واللاتينية والسريانية ونحوها .

(٤) المصادر العربية الاسلامية .

١ — النقوش والكتابات :

تعد النقوش والكتابات في طليعة المصادر التي تكوّن التاريخ الجاهلي ، وهي وثائق ذات شأن ، لأنها الشاهد الناطق الحي الوحيد الباقي من تلك الأيام، وأريد أن أقسمها الى قسمين : نقوش وكتابات غير عربية تطرقت الى ذكر العرب كبعض النصوص الآشورية أو البابلية ، ونصوص وكتابات عربية كتبت بلهجات مختلفة، منها ما عثر عليه في العربية الجنوبية ، ويدخل ضمنها تلك التي وجدت في مصر أو في بعض جزر اليونان أو في الحبشة ، وهي من كتابات المعينين والسبئيين ، ومنها ما عثر عليه في مواضع أخرى من جزيرة العـــرب ، مثل أعالي الحجاز وبلاد الشام والعربية السعودية والكويت ومواضع أخرى ، وكل ما عثر أو سيعثر عليه من نصوص في جزيرة العرب مدوناً بلهجة من اللهجات التي تعارف علماء العرب أو المستشرقون على اعتدادها من لغات العرب .

وأغلب الكتابات الجاهلية التي عثر عليها هي ويا للأسف في امور شخصية ، ولذلك انحصرت فوائدها في نواح معينة ، في مثل الدراسات اللغوية ، وأقلهـــا النصوص التي تتعرض لحالة العرب السياسية ، أو الأحوال الاجتماعية أو العلمية او الدينية أو النواحي الثقافية والحضاريـــة الأخرى ، ولهـــذا بقيت معارفنا في هذه النواحي ضحلة غير عميقة . وكل أملنا هو في المستقبل ، فلعله سيكون سخيـــاً كريماً ، فيمدنا بفيض من مدونات لها صلة وعلاقة بهذه الأبواب، وينقذنا بذلك من هذا الجهل الفاضح الذي نحن فيه ، بتاريخ العرب قبل الاسلام .

بل حتى النصوص العربية الجنوبية التي عثر عليها حتى الآن ، هي في امور شخصية في الغالب ، من مثل انشاء بيت ، او بناء معبد ، او بناء سور ، او شفاء من مرض ، ولكنها أفادتنا ، مع ذلك ، فائدة كبيرة في تدوين تاريـــخ العرب الجنوبيين ، فقد أمدتنا بأسماء عدد من الملوك ، ولولاها لما عرفنـا عنهم شيئاً . ونظراً الى ما نجده في بعض النصوص من اشارات الى حروب[1] ، ومن صلات بين ملوك الدول العربية الجنوبية ، ونظراً الى كون بعض الكتابات أوامر ملكية وقوانين في تنظيم الضرائب وتعيين حقوق الغرباء وفي امور عامة أخرى لها

---

[1] Reportoire D'Epigraphie Semitique, Nr., 2633, 2687, 3943.

علاقة بصلة الحكومات بشعوبها ، ونظراً الى ما عرفنـــاه من ميل الى الحضارة والاستقرار والعمل والبناء ، وفي حكوماتهم من تنظيم وتنسيق في الأعمال ، فاننا نأمل الحصول في المستقبل على وثائق،تعطينا مادة مهمة جديدة عن تأريخ العرب

كتابة عثر عليها في ظفار بعمان ، ويعود عهدها الى القرن الثاني بعد الميلاد
من كتاب Qataban and Sheba (ص ٣٠٤).

الجنوبيين وعن صلاتهم ببقية العـــرب او بالعالم الخارجي ، لأن جماعة تهتم هذا الاهتمام بالأمور المذكورة ، لا يمكن ان تكون في غفلة عن اهمية تدوين التاريخ.

وتختلف الكتابات العربية الجنوبية طولاً وقصراً تبعاً للمناسبات وطبيعة الموضوع،

وتتشابه في المضمون وفي انشائها في الغالب ، لأنها كتبت في أغراض شخصية متماثلة . ومن النصوص الطويلة المهمة ، نص رقمه العلماء برقم : (C.I.H. 1450) وقد كتب لمناسبة الحرب التي نشبت بين قبائل حاشد وقبائل حمير في مدينة (ناعط)[١]، ونص رقمه (C.I.H. 4334) ، وقد أمر بتدوينه الملك (شعر أوتر بن علهان نهفان) (شعر أوتر بن علهن نهفن) ، (٨٠ - ٥٠ ق.م)[٢] ، ونص (أبرهة) نائب ملك الحبشة على اليمن (عزلي) ، وهو يحوي كتابة مهمة تتألف من (١٣٦) سطراً ، يرتقي تاريخها الى سنة ٦٥٨ الحميرية أو ٥٤٣ م وقد كتب بحميرية رديئة ركيكة ، ونص يرتقي تاريخه الى سنة ٥٥٤ م .

أما الكتابات المكتوبة باللهجات التي يطلق عليها المستشرقون اللهجات العربية الشمالية ، فقليلة . ويراد بهذه اللهجات القريبة من عربية القرآن الكريم . وأما الكتابات التي وجد أنها مكتوبة بالثمودية أو اللحيانية أو الصفوية ، فإنها عديدة، وهي قصيرة ، وفي أمور شخصية ، وقد أفادتنا في استخراج أسماء بعض الأصنام وبعض المواضع وفي الحصول على أسماء بعض القبائل وأمثال ذلك .

تأريخ الكتابات :

والكتابات المؤرخة قليلة . هذا أمر يؤسف عليه ، اذ يكون المؤرخ في حيرة من أمره في ضبط الزمن الذي دوّن فيه النص ، ولم نتمكن حتى الآن من الوقوف على تقويم ثابت كان يستعمله العرب قبل الإسلام ، مدة طويلة في جزيرة العرب . والذي تبين لنا حتى الآن هو أنهم استعملوا جملة طرق في تأريخهم للحوادث ، وتثبيت زمانها ، فأرخوا بحكم الملوك ، فكانوا يشيرون الى الحادث بأنه حدث في أيام الملك فلان ، أو في السنة كذا في حكم الملك فلان . وأرخوا كذلك بأيام الرؤساء وسادات القبائل وأرباب الأسر وهي طريقة عرفت عند المعينيين والسبئيين والقتبانيين وعند غيرهم في مختلف أنحاء جزيرة العرب .

---

١ Margoliouth, Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930, P., 29
وسارمز اليه بـ Lectures P., 30

٢ ، « شعراوتي » ، (شاعر اوتر) (شاعر اوتار) . وقد ورد الاسم في كتاب (الاكليل) مكتوبا كتابة صحيحة (شعرم اوتر) في طبعة نبيه فارس ، واخطأ فيه انستاس الكرملي فكتبه (سعوان أوثر) ، كما ورد في احدى المخطوطات التي اعتمد عليها ، طبعة الكرملي ٢٤ .

والكتابات المؤرخة بهذه الطريقة ، وان كانت أحسن حالاً من الكتابات المهملة التي لم يؤرخها أصحابها بتاريخ ، الا اننا قلما نستفيد منها فائدة تذكر ، اذ كيف يستطيع مؤرخ أن يعرف زمانها بالضبط ، وهو لا يعرف شيئاً عن حياة الملك الذي أرخت به الكتابة او حكمه ، أو زمانه ، او زمان الرجال الذين أرخ بهم ؟ لقد فات أصحاب هذه الكتابات أن شهرة الانسان لا تدوم ، وأن الملك فلاناً ، أو رب الأسرة فلاناً ، أو الزعيم فلاناً ربما لا يعرف بعد أجيال ، وقد يصبح نسياً منسياً ، لذلك لا يجدي التأريخ به شيئاً ، وذاكرة الانسان لا تعي إلا الحوادث الجسام . لهذا السبب لم نستفد من كثير من هذه الكتابات المؤرخة على وفق هذه الطريقة ، وأملنا الوحيد هو أن يأتي يوم قد نستفيد فيه منها في تدوين التاريخ .

وترد التواريخ في الكتابات العربية الجنوبية ، ولا سيما الكتابات القتبانية ، على هذه الصورة : (ورخس ذو سحر خرف ....)[١] ، او (ورخس ذو تمنع خرف ....)[٢] ، أي : (وأرخ في شهر سحر من سنة ....) و (أرخ في شهر تمنع من سنة ....) . ويلاحظ ان (ورخ) و (توريخ) ، مثل (أرخ) و (تاريخاً) ، هما قريبتان من استعمال تميم ، اذ هي تقول : (ورخت الكتاب توريخاً) أي : (أرخت الكتاب تأريخاً)[٣] . وأما حرف (السين) اللاحق بكلمة (ورخ) ، فانه أداة التنكير . ويلي التاريخ اسم الشهر ، مثل شهر (ذو تمنع) و (ذو صحر) وغير ذلك . وقد تجمعت لدينا أسماء عدد من الشهور في اللهجات العربية الجنوبية المختلفة تحتاج الى دراسة لمعرفة ترتيبها بالنسبة الى الموسم والسنة . ثم تلي الشهور في العادة كلمة (خرف) أي (خريف) ، وهي في العربية الجنوبية ، السنة أو العام او الحول . وعندئذ يذكر اسم الملك او الرجل الذي أرخ به ، فيقال : (خرف شهر يكل) أي سنة(شهريكول) ، وهو ملك من ملوك قتبان . وهكذا بالنسبة الى الملوك او غيرهم .

نرى من ذلك ان التاريخ بأعوام الرجال كان يتضمن شهوراً . غير اننا لا

---

١ N. Rhodokanakis, Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, Bd., I, S., 128.
وسارمز اليه بـ : KTB

٢ Glaser 1395 — 1604, Se 84. Glaser 1412 — 1612, SE81, KTB, BD., 130.

٣ بلوغ الارب (٣ / ٢١٤)

نستطيع أن نجزم بأن هذه الشهور كانت ثابتة لا تتغير بتغير الرجال ، او انهـا كانت تتبدل بتبدل الرجال . والرأي الغالب هو أنهـا وضعت في وضع يلائم المواسم وأوقات الزراعة . ويظهر انهم كانوا يستعملون أحياناً مـع هذا التقويم تقويماً آخر هو التقويم الحكومي ، وكان يستند الى السنين المالية ،أي سني جمع الضرائب . وتختلف أسماء شهور هذا التقويم عن اسماء شهور التقاويم التي تؤرخ بالرجال[١].

ويظهر أن العرب الجنوبيين كانوا يستعملون التقويم الشمسي في الزراعة ، كما كانوا يستعملون التقويم القمري والتقويم النجمي أي التقويم الذي يقوم على رصد النجوم [٢] .

وقد اتخذ الحميريون منذ سنة (١١٥ ق. م) تقويماً ثابتاً يؤرخون به، وهي السنة التي قامت فيها الدولة الحميرية – على رأي بعض العلماء – فأخذ الحميريون يؤرخون بهـذا الحادث ، واعتدوه مبدأً لتقويمهم . وقد درسه المستشرقون ، فوجدوه يقابل السنة المذكورة قبل الميلاد.والكتابات المؤرخة بموجب هذه الطريقة، لها فائدة كبيرة جداً في تثبيت التاريخ .

وقد ذهب بعض الباحثين حديثاً الى أن مبدأ تأريخ حمير يقابل السنة (١٠٩ق.م) اي بعد ست سنوات تقريباً من التقدير المذكور ، وهو التقدير المتعارف عليه . والفرق بين التقديرين غير كبير[٣] .

ومن النصوص المؤرخة ، نص تأريخه سنة ٣٨٥ من سني التقويم الحميري . وإذا ذهبنا مذهب الغالبية التي تجعل بداية هذا التقويم سنة (١١٥ق. م)، عرفنا أن تاريخ هذا النص هو سنة ٢٧ م تقريباً ، وصاحبه هو الملك (يسر يهنعم)

---

١ KTB., I, S., 81. f.

٢ N. Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsudarabischen, 2 BD., BD., 2, S., 145.

وسارمز اليه بـ : LEXI

Sab, Denkm., 21, Glaser, Zwei Inschriften, 47, note 7, ZDMG., 46, Glaser Die Sternkunde der Südarabischen Qabylen, in SBWA, Winckler, AOF., 2, 35. ff.

٣ للوقوف على مبدا التقويم الحميري ، راجع :

Glaser, Skizze, I, S., 3. ff., F. Hommel, Geschichte Südarabiens, 1, 1937, S. 96. Ryckmans, Chronologie Sabéenne, C. Rend. Ac. Inscr. et Belles. Lettres, 1943, P., 236 — 246, Le Muséon, 1964, 3 — 4, P., 407 — 427, 429. f.

«ياسر يهنعم» (ياسر ينعم) ملك سبأ وذو ريدان وابنه (شمر يهرعش)[1] .
وللملك (ياسر يهنعم) نص آخر يعود تاريخه الى سنة ٣٧٤ من سني التقويم

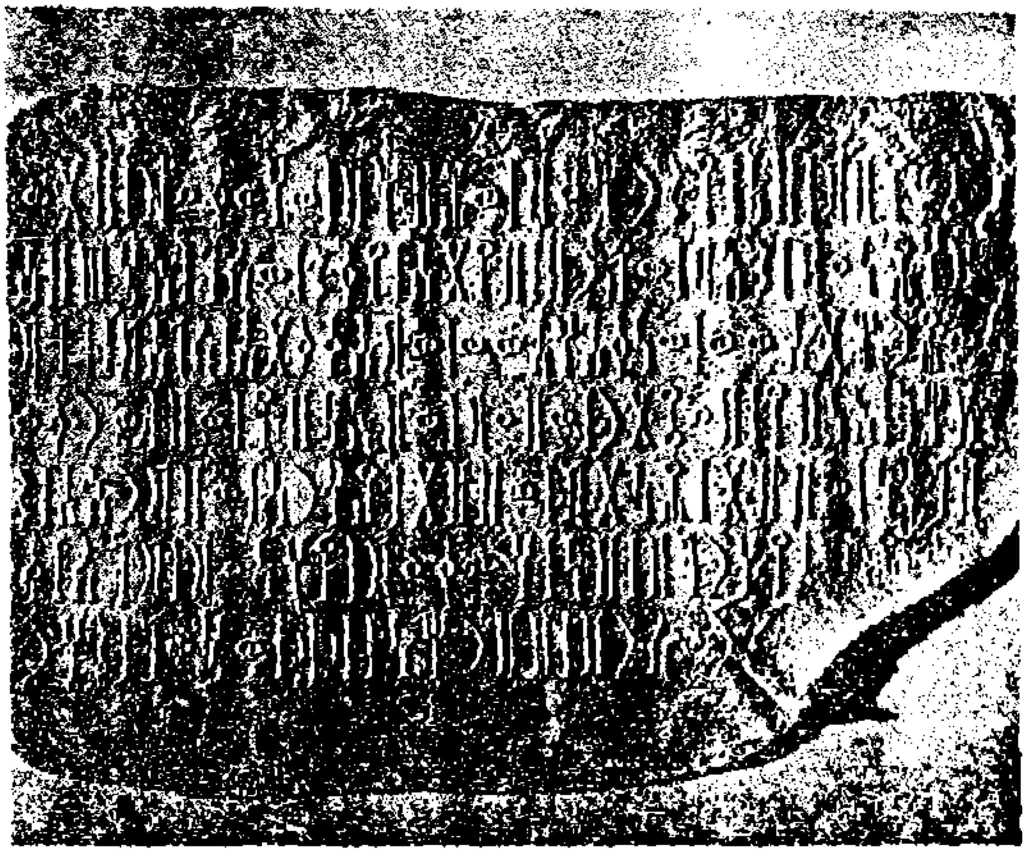

كتابة قتبانية عثر عليها في تمنع وهي لرجل اسمه ثويب
من كتاب Qataban صفحة (١٠٢)

الحميري ، أي الى سنة (٢٩٥ م)[2] . (ولشمر يهرعش)[3] كتابة أمر بتدوينها سنة ٣٩٦ للتقويم الحميري ، اي سنة ٢٨١م[4] . وقد ورد

---

١ نص رقم C.I.H. 46, Hartmann, Arabische Frage, S., 174, Rhodokanakis, WZKM, XXXVII, S., 148, J.H. Mordtmann und EUgen Mittwoch, Sabaische Inschriften, Hamburg, 1931, S., I. ff.
وسأرمز اليه بـ : Sab. Inschr.

٢ يعرف في الكتب العربية بـ (ياسر أنعم) (ياسر انعم الحميري) ، (ياسر ناشر النعم) (مالك ناشر النعم) ، الاكليل (٨ / ٢٠٧ فما بعدها) (طبعة نبيه) ،التيجان . ١٧ فما بعدها ، ١١٩ فما بعدها ، الطبري (١ / ٦٨٣ فما بعدها) ، (١ / ٥٦٦) (طبعة دار المعارف) (تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم) .

٣ ويعرف بـ (شمر يرعش) في الموارد العربية ، الاكليل ٨ (٢٠٨) ، التيجان (ص ٢٢٢ فما بعدها) ، الاكليل (١٠ / ١٩ ، ٣٣) .

٤ MMI50 — C.I.H. 448.

اسمه في نصوص أخرى ، وقد لقّب نفسه بلقب (ملك سبأ وذو ريدان) ، ولقّب نفسه في مكان آخر بلقب (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت)، مما يدل على أنه كان قد وسّع ملكه ، وأخضع الأرضين المذكورة لحكمه[1] ، وهي نصوص متأخرة بالنسبة الى النصوص الأخرى .

ولما أراد الملك (شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد) (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في الجبال والسواحل) بناء السدّ ، أمر بنقش تاريخ البناء على جداره . وقد عثر عليه ، واذا به يقول : إن العمل كان في سنة ٥٦٤ – ٥٦٥ الحميرية ، وهذا يوافق عامي ٤٤٩ – ٤٥٠ من الأعوام الميلادية[2] . وبعد ثماني سنوات من هذا التأريخ ، أي في عام ٤٥٧ – ٤٥٨ من التأريخ الميلادي (٥٧٢ – ٥٧٣ حميري) ، وضع عبد كلال نصاً تاريخياً يذكر فيه اسم (الرحمن)،ولهذين النصين أهمية عظيمة جداً من الناحية الدينية . يذكر النص الأول (إله السماوات والأرضين) ، ويذكر الثاني (الرحمن) . وتظهر من هذه الاشارة فكرة التوحيد على لسان ملوك اليمن وزعمائها[3] .

وقد عُثر على نصين آخرين ورد فيهما اسم الملك « شرحب آل يكف » و « شرحبيل يكيف » . تأريخ أحدهما عام ٥٨٢ الحميري (٤٦٧ م) ، وتأريخ النص الثاني هو سنة ٥٨٥ الحميرية ، الموافقة لسنة ٤٧٠ م[4] .

ومن النصوص الآثارية المهمة ، نص حصن غراب . وهذا النص أمر بكتابته (السميفع أشوى) (السميفع أشوع) وأولاده، تخليداً لذكرى انتصار الأحباش على اليمانين في عام ٥٢٥ م (سنة ٦٤٠ الحميرية)[5] . ويليه النص الذي أمر أبرهة حاكم اليمن في عهد الأحباش بوضعه على جدران سدّ مأرب لما قام بترميم السدّ واصلاحه في عام ٦٥٧ الحميري ، الموافق لعام ٥٤٢ م[6] .

وآخر ما نجده من نصوص مؤرخة ، نص وضع في عام ٦٦٩ لتقويم حمير (يوافق عام ٥٥٤ م)[7] . ولم يعثر المنقبون بعد هذا النص على نص آخر يحمل

---

١ راجع النصوص : C.I.H. 628, C.I.H. 353, 407, 430, 431, 438

٢ Sab. Inschr., S., 2, CIH 540.

٣ BOASOR, 83 (1941), PP., 22, Sab. Inschr., S., 2.

٤ CIH 537, 644, Sab. Inschr., S., 2.

٥ Sab. Inschrl., S., 2.

٦ Sab. Inschr., S., 2, CIH 541, Margoliouth, P., 32.

٧ Sab. Inschr., S., 2, CIH 325.

تأريخاً . نعم ، عثروا على نصوص كثيرة تشابه في مضمونها وعباراتها وألفاظها النصوص التي أقيمت في الفترة بين ٤٣٩م وسنة ٥٥٤ م ، وهذا يبعث على احتمال كون هذه النصوص مكررة ، وأنها من هذا العهد الذي بحثنا عنه آنفاً [١].

هذا ، وإن مما يلاحظ على الكتابات العربية الجنوبيـة أن التي ترجع منها إلى العهود القديمة من تأريخ جنوب بلاد العرب ، قليلـة . وكذلك الكتابات التي ترجع الى العصور الحميرية المتأخرة،أي القريبة المتصلة بالإسلام . ولذلك أصبحت أكثر الكتابات التي عثر عليها حتى الآن من العهود الوسطى المحصورة بين أقدم عهد من عهود تأريخ اليمن وبين أقرب عهود اليمن إلى تأريخ الإسلام. وأكثرها خِلو من التأريخ غير عدد منها يرد فيه أسماء ملوك وملكـات أرخت بأيامهم . لكننا لا نستطيع تعيين تأريخ مضبوط لزمانهم ، لعدم وجود سلسلة لمن حكم أرض اليمن ، ولعدم وجود جداول بمدد حكمهم،ولفقدان الإشارة إلى من كان يعاصرهم من الملوك والأجانب .

وقد كان ما قدمناه يتعلق بالكتابات العربية الجنوبية المؤرخة . أمـا الكتابات العربية الشمالية المؤرخة ، فهي معدودة ، وهي لا تعطينا لهذا السبب فكرة علمية عن تأريخ الكتابات في الأقسام الشماليـة والوسطى من بلاد العرب . وقد أرخ شاهد قبر (امرىء القيس) في يوم ٧ بكسلول من سنة ٢٢٣ (٣٢٨م) . وهذه السنة هي من سني تقويم بصرى Bostra ، وكان أهـل الشام وحوران ومـا يليها ، يؤرخون بهـذا التقويم في ذلك العهد ، ويبدأ بدخول بصرى في حوزة الروم سنة ١٠٥ م [٢] .

وعثر على كتابة في خرائب (زبد) بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقي حلب ، كتبت بثلاث لغات : اليونانية والسريانية والعربية ، يرجع تأريخهـا الى سنة (٨٢٣ للتقويم السلوقي) ، الموافقة لسنـة ٥١٢ م . والمهم عندنا ، هو النص العربي ، ولا سيا قلمه العربي . أما من حيث مادته اللغوية ، فان أكثر ما ورد فيه أسماء الرجال الذين سعوا في بناء الكنيسة التي وضعت فيها الكتابة [٣] .

---

١ Sab. Inschr., S., 2, CIH 541, CIH 45, KTB, S., 140.

٢ العرب قبل الاسلام ٢٠٣ ، مجلة سومر ، الجزء الاول ، كانون الثاني ، ١٩٤٧ المجلد الثالث ، ص ١٣١ .

٣ Dussaud, Les Arabes en Syrie, PP., 34, Nabia, P., 4.
Grund., I, S., 156, Edward Sachau, Eine Dreisprachige Inschrift aus Zebed, Monatsbericht der Preussiche Akademi der Wissenschaften, Berlin, 10 Febr., 1881, S., 169 — 190, zur Triliguis Zebedaea, in ZDMG., 36 (1882) S., 345 — 352.

وأرخت كتابة (حرّان) اليونانية بسنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقطية الأولى ، وهي تقابل سنة ٥٦٨ م ، والأندقطية ، هي دائرة ثماني سنين عند الرومانيين ، وكانت تستعمل في تصحيح تقويم السنة[١] . أما النص العربي ،فقد أرخ (بسنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم) (عام)[٢] . ورأى الاستاذ (ليتمن) أن عبارة (بعد مفسد خيبر بعم)،تشير إلى غزوة قام بها أحد أمراء غسان لخيبر[٣]. وفي استعمال هــذه الجملة التي لم ترد في النص اليوناني ، دلالة على أن العرب الشماليين كانوا يستعملون التواريخ المحلية ، كما كانوا يؤرخون بالحوادث الشهيرة التي تقع بينهم .

أما الكتابات الصفوية والثمودية واللحيانية ، فإن من بينها كتابات مؤرخة ، إلا أن تورخها لم يفدنا شيئاً أيضاً . فقد أرخت على هذا الشكل : (يوم نزل هذا المكان) أو (سنة جاء الروم) . ومثل هذه الحوادث مبهمة ، لا يمكن أن يستفاد منها في ضبط حادث ما .

هذا وقد أشار (المسعودي) إلى طرق للجاهليين في توريخ الحوادث ، تتفق مع ما عثر عليه في الكتابات الجاهلية المؤرخة ، فقال : (وكانت العرب قبــل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة ، فأما حمير وكهلان ابنا سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطــان بأرض اليمن ، فإنهم كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من التبابعة وغيرهم)[٤] ، ثم ذكر أنهم أرخوا أيضاً بما كان يقع لديهم من أحداث جسيمة في نظرهم ، مثل (نار صوان) ، وهي نار كانت تظهر ببعض الحرار من أقاصي بلاد اليمن ، ومثل الحروب التي وقعت بين القبائل والأيام الشهيرة . وقد أورد جريدة بتواريخ القبائل الى ظهور الإسلام[٥] . وذكر (الطبري) أن العرب « لم يكونوا يؤرخون بشيء من قبل ذلك ، غير أن قريشاً كانوا – فيما ذكر – يؤرخون قبل الإسلام بعام الفيل ، وكان سائر العرب يؤرخون بأيامهم المذكورة ، كتأريخهم بيوم جبلة وبالكلاب الأول والكلاب الثاني »[٦] .

---

١ ولغنستون ، تاريخ اللغات السامية ص ١٩٢ ، وسارمز اليه بـ : السامية .
٢ السامية ١٩٢ ، سومر ، العدد المذكور ص ١٣٢ .
٣ Rivista degli Studi Orientali, 1911, P., 195,
السامية ١٩٢ .
٤ التنبيه والاشراف (ص ١٧٢) (القاهره ١٩٣٨) (دار الصاوي)
٥ التنبيه والاشراف (ص ١٧٢ وما بعدها)
٦ الطبرى (١ / ١٩٣) (طبعة دار المعارف) .

وقد ذكر المسعودي أن قدوم أصحاب الفيل مكة ، كان يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمئة واثنتين وثمانين سنة للاسكندر ، وست عشرة سنة ومئتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة العدد[1] (حجة الغدر)[2] ، ولسنة أربعين من ملك كسرى أنوشروان[3] . ولم يشر المسعودي الى العرب الذين أرّخوا بالتقويم المذكور ، غير أننا نستطيع أن نقول إن (المسعودي) قصد بهم أهل مكة ، لأن حملة (أبرهة) كانت قد وجهت الى مدينتهم ، وأن الحملة المذكورة كانت حادثاً تاريخياً بالنسبة اليهم ، ولذلك أرّخوا بوقت وقوعها .

ويرى كثير من المستشرقين والمشتغلين بالتقاويم وبتحويـل السنين وبتثبيتها ، وفقاً لها ، أن عام الفيل يصادف سنة (٥٧٠) أو (٥٧١) للميلاد ، وبذلك يمكن اتخاذ هذا العام مبدءاً نؤرخ به على وجه التقريب الحوادث التي وقعت في مكة أو في بقية الحجاز والتي أرّخت بالعام المذكور .

٢ – التوراة والتلمود والتفاسير والشروح العبرانية :

وقد جاء ذكر العرب في مواضع من أسفار التوراة تشرح علاقات العبرانيين بالعرب . والتوراة مجموعة أسفار ، كتبها جماعة من الأنبياء في أوقات مختلفة ، كتبوا أكثرها في فلسطين . وأما ما تبقى منها ، مثل حزقيال والمزامير ، فقد كتب في وادي الفرات أيام السبي ، وأقدم أسفار التوراة هو سفر (عاموس) (Amos) ، ويظن أنه كتب حوالي سنة ٧٥٠ ق. م[4] .

---

١ (حجة العدد) مروج الذهب (١ / ٢٨٢) ، (حجة العـدد) ، مـروج (٢ / ١٧٠) (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) (سنة ثمـان مئـة والنتين وثلاثين سنة للاسكندر ، مروج (٢/٨) (تحقيق محمد محي الدين)

٢ (حجة الفدر) ، البدء والتاريخ (٤ / ١٣١ وما بعدها)

٣ مروج (٢ / ١٧٠) (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) (وسنة اربـع واربعين من ملك انوشروان بن قباذ) ، البدء والتاريخ (٤ / ١٣١) .

٤ احد الانبياء ، وكان راعيا في (تقوع) (تقوعة) مدينة صغيرة جنوبي يهوذا على بعد نحو « ١٢ » ميلا من جنوب القدس . عاش في ايام عزيا ملك يهوذا ويربعام ملك اسرائيل نحو سنة ٨٠٠ ق . م . وسفر عاموس هو الثلاثون مـن اسفار التوراة ، قاموس الكتاب المقدس (ترجمة الدكتور جورج بوست) ٢ / ٥٩

Hastings, Dictionary of the Bible, p., 27,

وسارمز اليـه بـ Hastings

Encyclopaedia of the Bible, P., 147,

وسارمز اليـه بـ Ency. Bibli.

وأما آخر ما كتب منها ، فهو سفر (دانيال) (Daniel) والإصحاحان الرابع والخامس من سفر (المزامير) . وقد كتبت هذه في القرن الثاني قبل المسيح[1] .

فما ذكر في التوراة عن العرب يرجع تاريخه اذن الى ما بين سنة ٧٥٠ والقرن الثاني قبل المسيح .

وقد وردت في التلمود (Talmud) اشارات الى العرب كذلك . وهناك نوعان من التلمود الفلسطيني أو التلمود الأورشليمي (Yeruschalmi) كما يسميه العبرانيون اختصاراً ، والتلمود البابلي نسبة الى (بابل) بالعراق، ويعرف عندهم باسم (بابلي) اختصاراً .

أما التلمود الفلسطيني ، فقد وضع ، كما يفهم من اسمه ، في فلسطين . وقد تعاونت على تحبيره المدارس اليهودية (Academies) في الكنائس (الكنيس) . وقد كانت هذه مراكز الحركة العلمية عند اليهود في فلسطين ، وأعظمها هو مركز (طبرية) (Tiberias) ، وفي هذا المحل وضع الحبر (رابي يوحان) (Rabbi Jochanan) التلمود الأورشليمي في أقدم صورة من صوره في أواسط القرن الثالث الميلادي وتلاه بعد ذلك الأحبار الذين جاؤوا بعد (يوحنان)، وهم الذين وضعوا شروحاً وتفاسير عدة تكون منها هذا التلمود الذي اتخذ هيأته النهائية في القرن الرابع الميلادي .

وأما التلمود البابلي ، فقد بدأ بكتابته – على ما يظهر – الحبر (آشي) (Rabbi Ashi) المتوفى عام ٤٣٠ م ، وأكمله الأحبار من بعده ، واشتغلوا به

---

١ (التلمود) (تعليم) Learning راجع عن التلمود المصادر الاتية :
Hastings, P., 890, Ency. Britani., Vol., 21, P. 769, J.Z.
Lauterbach, Mishna and W. Bacher, Talmud, In Jew. Ency., Funk, Entstehung des Talmud, Leipzig, 1910, Rodkinson, History of the Talmud, New York, 1903, Strack, Einleitung in den Talmud, 1908.
ويتالف التلمود من (المشنة) Mishnah ، وهو الموضوع ومن (جمارة) (كماره Gemara) ، وهو التفسير . فالمشنة (التكرار) عبارة عن مجموع تقاليد اعطيت لموسى حين كان على الجبل ثم تداولها هارون واليعازر ويشوع، وسلموها للانبياء ثم انتقلت عن الانبياء الى اعضاء المجمع العظيم وخلفائهم حتى القرن الثاني بعد المسيح حينما جمعها الحاخام (يهوذا) وكتبها ، ومن ثم صار يعد جامعا للمشنة . و (الجمارة) (الكمارة) (التعليم) ، وهو مجموع المناظرات والتعليم والتفاسير التي جرت في المدارس العالية بعد انتهاء المشنة .
قاموس الكتاب المقدس (١ / ٢٩٠) ، Pirqe Aboth, 1, 1.

حتى اكتسب صيغته النهائية في أوائل القرن السادس للميلاد[١] . ولكل تلمود من التلمودين طابع خاص به ، هو طابع البلد الذي وضع فيه ، ولذلك يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث . وأما التلمود البابلي ، فيظهر عليه الطابع العراقي الحر وفيه عمق في التفكير ، وتوسع في الأحكام والمحاكمات ، وغنى في المادة . وهذه الصفات غير موجودة في التلمود الفلسطيني[٢] .

وبهذا يكمل التلمود أحكـام التوراة ، وتفيدنا إشاراته من هذه الناحية في تدوين تأريخ العرب . أما الفترة بـين الزمن الذي انتهي فيه من كتابة التوراة والزمن الذي بدأ فيه بكتابة التلمود ، فيمكن أن يستعان في تدوين تأريخها بعض الاستعانة بالأخبار التي ذكرها بعض الكتاب ، ومنهم المؤرخ اليهودي (يوسف فلافيوس) (جوسفوس فلافيوس) (Josephus Flavius) الذي عـاش بين سنة ٣٧ و ١٠٠ للمسيح تقريباً . ولـه كتاب باللغة اليونانية في تأريخ عاديات اليهود (Joudaike Archaioloigia) ، تنتهي حوادثه بسنة ٦٦ للميلاد ، وكتاب آخر في تأريخ حروب اليهود (Peri tou Joudiakou Polemou)[٣] مـن استيلاء (انطيوخس ابيفانوس) (Antiochus Epiphanos) على القدس سنة ١٧٠ قبل الميلاد الى الاستيلاء عليها مرة ثانية في عهد (طيطس)(Titus) سنة ٧٠ بعـد الميلاد ، وكان شاهد عيان لهذه الحادثة. وقد نال تقدير (فسبازيان) (Vespasian) و (طيطس) وأنعم عليه بالتمتع بحقوق المواطن الروماني[٤] .

وفي كتبه معلومات ثمينة عن العرب ، وأخبار مفصلة عن العرب الأنباط ، لا نجدها في كتاب ما آخر قديم . وكان الأنباط في أيامه يقطنون في منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات ، فتتاخم بلاد الشام ، ثم تنزل حتى تتصل بالبحر الأحمر[٥]. وقد عاصرهم هذا المؤرخ ، غير أنه لم يهتم بهـم الا من ناحية علاقة الأنباط بالعبرانيين ، ولم تكن بلاد العرب عنده الا مملكة الأنباط[٦] .

---

١ Hastings, P., 891.

٢ Hastings, P., 891.

٣ Peri tou Joudaikon Polemou, De Bello Judiaco.

٤ Harvey, The Oxford Companion to Classical Literature, P., 228, Simon Dubnow, Weltgeschichte des Judischen Volkes, BD., 2, s., 83. ff., BD. 3, s., 105, Ency. Brita., Vol., 13, P., 153.

٥ Josephus, Antiquities, BK., XIV, Ch., 14, I, The Jewish War, BK., I, ch. 1. 3. Ch. 4. 2.

٦ Hastings, P., 68.

هذا وان للشروح والتفاسير المدونة على التوراة والتلمود قديماً وحديثاً، وكذلك للمصطلحات العبرانية القديمة على اختلاف أصنافها أهمية كبيرة في تفهم تاريخ الجاهلية ، وفي شرح المصطلحات الغامضة التي ترد في النصوص العربية التي تعود الى ما قبل الإسلام ، لأنها نفسها وبتسمياتها ترد عند العبرانيين في المعاني التي وضعها الجاهليون لها . وقد استفدت كثيراً من الكتب المؤلفة عن التوراة مثل المعجمات في تفهم أحوال الجاهلية ، وفي زيادة معارفي بها ، ولهذا أرى أن من اللازم لمن يريد درس أحوال الجاهلية ، التوغل في دراسة تلك الموارد وجميع أحوال العبرانيين قبل الإسلام .

٣ ـ الكتب الكلاسيكية :

وأقصد بالكتب (الكلاسيكية) الكتب اليونانية واللاتينية المؤلفة قبل الإسلام. ولهذه الكتب ــ على ما فيها من خطأ ــ أهمية كبيرة ، لأنها وردت فيها أخبار تاريخية وجغرافية كبيرة الخطورة ، ووردت فيها أسماء قبائل عربية كثيرة لولاها لم نعرف عنها شيئاً . وقد استقى مؤلفوها وأصحابها معارفهم من الرجال الذين اشتركوا في الحملات التي أرسلها اليونان أو الرومان الى بلاد العرب ،ومن السياح الذين اختلطوا بقبائل يلاد العرب أو أقاموا مدة بين ظهرانيهم ، ولا سيما في بلاد الأنباط ، ومن التجار وأصحاب السفن الذين كانوا يتوغلون في البحار وفي بلاد العرب للمتاجرة . وتعد الاسكندرية من أهم المراكز التي كانت تعنى عناية خاصة بجمع الأخبار عن بلاد العرب وعادات سكانها وما ينتج فيها لتقديمها الى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط . وقد استقى كثير من الكتّاب(الكلاسيكيين) معارفهم عن بلاد العرب من هذه المصادر التجارية العالمية .

وتتحدث الكتب الكلاسيكية جازمةً عن وجود علاقات قديمة كانت بين سواحل بلاد العرب وبلاد اليونان والرومان ، وتتجاوز بعض هذه الكتب هذه الحدود فتتحدث عن نظرية قديمة كانت شائعة بين اليونان ، وهي وجود أصل دموي مشترك بين بعض القبائل العربية واليونان . وتفصح هذه النظرية ، على ما يبدو منها من سذاجة ، عن العلاقات العريقة في القِدَم التي كانت تربط سكان

البحر المتوسط الشماليين بسكان الجزيرة الغربية[1] .

ومن أقدم من ذكر العرب من اليونانيين (أخيلس) (Aescylus) (٥٢٥ — ٤٥٦ ق. م) ، و (هيرودتس) (٤٨٠ — ٤٢٥ ق. م) وقد زار مصر، وتتبع شؤون الشرق وأخباره بالمشاهدة والسماع ، ودوّن ما سمعه ، ووصف ما شاهده في كتاب تاريخي . وهو أول أوروبي ألّف كتاباً بأسلوب منمق مبوب في التاريخ ووصل مؤلفه الينا ، وقد لقّبه (شيشرون) (Cicero) الشهير بلقب (أبي التأريخ) .

تناول « هيرودتس » تاريخ الصراع بين اليونان والفرس ، وان شئت فسمّه (النزاع الأوروبي الآسيوي) ، فألّف عن تاريخه . والظاهر أنه لم يتمكن من إتمامه ، ففيه فصول وضعت بعد وفاته . وهو أول كاتب يوناني اتخذ من الماضي موضوعاً للحاضر ومادة للمناقشة ، بعد أن كان البحث في أخبار الأيام السالفة مقصوراً على ذكر الأساطير والقصص الشعبية والدينية . وهو مع حرصه على النقد والمحاكمة ، لم يتمكن أن يكون بنجوة من الأفكار الساذجة التي كانت تغلب على ذلك العالم الابتدائي في ذلك العهد[2] ، فحشر في كتابه قصصاً ساذجاً وحكايات لا يصدقها العقل ، متأثراً بعقلية زمانه في التصديق بأمثال هذه الأمور.

ومنهم (ثيوفراستوس) (Theophrastus) ، (حوالي ٣٧١ — ٢٨٧ ق. م)، مؤلف كتاب (Historia Plantarum) وكتاب (De Causis Plantarum) . وفي خلال حديثه عن النبات تطرّق الى ذكر البقاع العربية التي كانت تنمو بها مختلف الأشجار،ولا سيما المناطق الجنوبية التي كانت تصدّر التمر واللبان والبخور والأفاويه[3] . و (ايراتو ستينس) (Eratosthenes) (٢٧٦ — ١٩٤ ق. م) . وقد استفاد الكتّاب اليونانيون الذين جاؤوا من بعده من كتاباته،ونجد في مواضع مختلفة من جغرافية (سترابون أقوالاً معزوّة اليه[4]).

---

١ Agatharchides, De Rubro Mari, Opud Geograph, Vet Script minton, I, P., 59, ed., Oxon, 1698, Ch. Forster, The Historical Geography of Arabia, in two Vol., Vol., I, PP., XXXVI,

وسأرمز اليه بـ : Forster :

Pliny, Nat. History, Vol., VI, P., 32, Vol., 2, PP., 718. ed. Paris. 1828. 8 Vol.

٢ اعتمدت على ترجمة George Rawlinson الانكليزية ،

The History of Herodotus, Translated by George Rawlinson, in 2 Vol., London, 1920

٣ Theopheophrastus, Historia Plantarum, Ed., Hort, 1916.

٤ H. Berger, Die Geogr. Fragmente des Eratosthenes, 1880.

ونضيف إلى من تقدموا (ديودورس الصقلي) (Diodorus Siculus) (٤٠ق.م).
وقد ألف باللغة اليونانية تأريخاً عاماً سمّاه (المكتبة التأريخية) (Bibliotheke Historike) ، تناول تأريخ العالم من عصر الأساطير حتى فتح (يوليوس قيصر) لأقليم (الغال) . وهو في أربعين جزءاً ، لم يبق منها سوى خمسة عشر جزءاً، تبحث في الحقبة المهمة التي تبتدىء بسنة ٤٨٠ ق. م. وتنتهي بسنة ٣٢٣ ق.م[١].

ويعوز هـذا المؤرخ النقد ، لأنه جمع في كتابه كل ما وجده في الكتب القديمة من أخبار ولم يمحصها ، وقد امتلأ كتابه بالأساطير ، والعالم مع ذلك مدين له الى حد كبير بمعرفة أخبار الماضين ، ولا سيا الأساطير الدينية القديمة.

ومن المؤلفين الكلاسيكيين، (سترابون) (سترابو) (Strabon) (Strabo) (٦٤ ق. م — ١٩ م) وهو رحالة كتب كتاباً مهماً باللغة اليونانية في سبعة عشر جزءاً سمّاه (جغرافيا) (Geographica)[٢] . وقد وصف فيه الأحوال الجغرافية الطبيعية لمقاطعات الأمبراطورية الرومانية الرئيسية ، وتأريخها ، وحالات سكانها ، وغريب عاداتهم وعقائدهم . وللكتاب شأن كبير ، اذ اشتمل على كثير من الأخبار التي لا تتيسر في كتاب آخر . وقد اعتمد فيه على ما ذكره الكتّاب السابقون .

وقد أفرد (سترابون) في جغرافيته فصلاً خاصاً من الكتاب السادس عشر ببلاد العرب ، ذكر فيه مدائن العرب وقبائلهم في عهده ، ووصف أحوالهم التجارية والاجتماعية والاقتصادية ، وحملة (أوليوس غالوس) (أوليوس كالوس) (Aelius Gallus) المعروفة لفتح بلاد العرب وما كان من اخفاقه . ولأخبار هذه الحملة التي دوّنها (سترابون) في جغرافيته ، أهمية خاصة ، اذ جاءت بمعلومات عن نواحي من تأريخ العرب نجهلها ، وقد شارك هو نفسه في الحملة، وقد كان صديقاً لقائدها ، فوصفه وصف شاهد عيان[٣] . وقد استهل وصف

---

١ Diodorus Siculus, Bibliotheca Historica, Vol., 1-3, Edited by Friedrich Vogel, Vol., 4 and 5, Edited by C.T. Fischer, in Bibliotheca Scriptorum Graeco rum et Romanum Teubnerlana, Leipzig, 1888-1906.

٢ وقيل (٦٦ ق . م — ٢٤ م) ، اعتمدت على ترجمة : Hamilton
The Geography of Strao, Translated by Hamilton, London, 1912, in 3 Vols., Strabo, Geographia, Edited by August Meineke, in 3 Vols. Leipzig, 1907-1913.

٣ Strabo, BK., 16, Cha., I, ed. Hamiton, Vol., 3, PP., 170, 209.

الحملة بهذه العبارة : (لقد علمتنا الحملة التي قام بها الرومان على بلاد العرب بقيادة أوليوس غالوس في أيامنا هذه أشياء كثيرة عن تلك البلاد[1] .

ومن تحدث عن العرب (بلينيوس) (بليني الأقدم) (Pliny the Elder) (Galus Plinius Secundus) المتوفى سنة ٧٩ م ، ومن كتبه المهمة كتابه (التأريخ الطبيعي) (Naturalis Historia) في سبعة وثلاثين قسماً ، وقد نقل في كتابه عمن تقدمه ، ولا سيا معلوماته عن بلاد العرب والشرق وجمع ما أمكنه جمعه ، غير أنه أتى في أماكن متعددة من كتابه بأخبار لم يرد لها ذكر من كتب المؤرخين الآخرين[2] .

وهناك مؤلف يوناني مجهول، وضع كتاباً،سماه (الطواف حول بحر الأريتريا) (Periplus Maris Erythraei) (The Periplus of the Erythraean Sea)[3] أتمه في نهاية القرن الأول للمسيح في رأي بعض العلماء ، أو بعد ذلك في حوالي النصف الأول من القرن الثالث للميلاد في راي بعض آخر[4] ، وقد وصف فيه تطوافه في البحر الأحمر وسواحل البلاد العربية الجنوبية . والظاهر أنه كان عالماً بأحوال الهند وشواطىء أفريقية الشرقية ، ولعله كان تاجراً من التجار الذين كانوا يطوفون في هذه الأنحاء للاتجار ، ولم يعن إلا بأحوال السواحل . أما الأقسام الداخلية من جزيرة العرب ، فيظهر أنه لم يكن ملماً بها إلماماً كافياً .

وقد ذهب (البرايت) إلى أن الكتاب المذكور قد ألف في حوالي السنة (٨٠) بعد الميلاد[5] . وذهب آخرون إلى أن مؤلفه قد ألفه في حوالي السنة (٢٢٥) أو (٢١٠) بعد الميلاد[6] .

---

١ Strabo, Vol., 3, PP., 209, O'Leary, Arabia, P., 75 Strabo. BK. 16 Ch. 4. 22.

٢ Pliny, Naturalis Historia, edited by, C. Mayerhoff, Teubner Series, 1882-1909, 2end Edition, 6 Vols., Leipzig, 1892-1909, D. Detlefson Die Geographischen Bucher (II.242 VI Schluss), Der Naturalis Historia des G. Plinius mit Vollstandigen Kritischen Appart., Edited by W. Sieglin, Vol., 9, Berlin, 1904.

٣ The Periplus of the Erythraean Sea, Translated by W. H. Schof, New York, 1912.

٤ Franz Altheim und Ruth Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964, Bd., I, 108.

٥ BASOR., Num. 176, 1964, P., 51.

٦ J. Pirenne, La Date du Periple de la Mer Erythree, Journal Asiatique, 1961, PP., 441., F. Altheim, Geschichte der Hunnen, V. Berlin, 1962, PP., II, Le Museon, 1964, 3-4, P., 478.

وهناك طائفة من الكتّاب الذين تركوا لنا آثاراً وردت فيها اشارات الى العرب والبلاد العربية ، مثل (أبولودورس) (Apollodorus) (المتوفى سنة ١٤٠ بعد المسيح) . و (بطلميوس) (Claudius Ptolemaes) الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثاني للمسيح . وهو صاحب مؤلفات في الرياضيات منها (كتاب المجسطي) المعروف في اللغة العربية . وله كتاب مهم في الجغرافية سمّاه (Geographike Hyphegesis) ، ويعرف باسم (جغرافية بطلميوس)[١] . ولهذا الكتاب شهرة واسعة ، وقد درّس في أكثر مدارس العالم الى ما بعد انتهاء القرون الوسطى . جمع فيه بطلميوس ما عرفه العلماء اليونان وما سمعه هو بنفسه وما شاهده هو بعينه ، وقسّم الأقاليم بحسب درجات الطول والعرض . وقد تكلم في كتابه على مدن البلاد العربية وقبائلها وأحوالها ، وزيّن الكتاب بالخارطات التي تصور وجهة نظر العلم الى العالم في ذلك العهد[٢] .

ويرى بعض الباحثين أن ما ذكره (بطلميوس) عن حضرموت يشير الى أن المنبع الذي أخذ منه كان يعلم شيئاً عنها ، وانه كان قد أقام مدة في (شبوة) العاصمة . ويرون أن ذلك المنبع قد يكون تاجراً رومياً ، أو أحد المبعوثين الرومان في تلك المدينة ، لأن وصف (بطلميوس) للأودية والأماكن الحضرمية يشير إلى وجود معرفة بالأماكن عند صاحبه . أما ما ذكره (بطلميوس) عن أرض (سبأ) والسبئيين ، فانه لا يدل،على حد قول المذكورين،على علم بالأماكن ، وإجادة لأسمائها ، وأن الذي أخذ منه (بطلميوس) لم يكن قد شاهدها[٣] .

ومن الذين أوردوا شيئاً عن أحوال بلاد العرب (أريان) (Arrian) (Flavius Arrianus) (٩٥ — ١٧٥ م) ، وقد ألف كتباً عديدة . منها

---

١ Geographia, Edited by C.F. Nobbe, 3 Vols, Leipzig, 1843-1845, Vol., I, Part, I, Carolus Mullerus, Paris, 1884, Vol., I, P., 2, by C. Th. Fisher, Paris, 1901.

٢ (قال المسعودي : وقد ذكر بطليموس في الكتاب المعروف بجغرافيا صفة الارض ومدنها وجبالها وما فيها من البحار والجزائر والانهار والعيون ، ووصف المدن المسكونة والمواضع العامرة ، وا عددها اربعة آلاف وخمس مئة وثلاثين مدينة في عصره وسماها مدينة مدينة في اقليم اقليم ....) ، مروج الذهب (١ / ٧٣) .

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P., 466.

كتابه (Anabasis of Alexander the Great) في خمسة عشر قسماً ، وصف في سبعة منها حملات الإسكندر الكبـــير ، وفي الثانية الأخرى وصف الهند وأحوال الهنود ورحلة القائد (Nearchus) (نيرخس) (أميرال الإسكندر في الخليج العربي[1] . ومنهم (هـيروديان) (Herodianus) (١٦٥ — ٢٥٠ ب. م) ، وهو مؤرخ سرياني ألف في اليونانية كتاباً في تأريخ قياصرة الروم من وفاة القيصر (ماركوس أوريليوس) إلى سنة ٢٣٨ م[2] .

الموارد النصرانية :

وللمواد النصرانية أهمية كبيرة في تدوين تأريخ انتشار النصرانية في بلاد العرب وتأريخ القبائل العربية ، وعلاقات العرب باليونان والفرس ، وقـد كُتب أغلبها باليونانية والسريانية . ولها في نظري قيمة تأريخية مهمة لأنها عند عرضها للحوادث تربطهـــا بتأريخ ثابت معين ، مثل المجامع الكنيسية ، أو تواريخ القديسين ، والحروب وأوقاتها في الغالب مضبوطة مثبتة .

ومن أشهر هـــذه الموارد مؤلفات المؤرخ الشهـــير (أويسبيوس) المعروف بـ (أويسبيـــوس القيصري) (Eusebius of Caesarea) (٢٦٣ — ٣٤٠م) (٢٦٥ — ٣٤٠ م) وبـ (أبي التأريخ الكنائسي) (Father of Ecclesiastical History) . وبـ (هيرودتس النصارى)[3] . وكان عـلى اتصال بكبار رجال الحكومة وبروساء الكنيسة ، فاستطاع بذلك أن يقف على كثير من أسرار الدولة وأن يراجع المخطوطات والوثائق الثمينة التي كانت تحويها خزائن الحكومة وخزائن كتب الرؤساء والأغنياء .

وكان قد ألّف كتاباً في التاريخ باللغة اليونانية، عرف بـ (The Chronicon) ، حوى بالاضافة الى التاريخ العام تقاويم وجداول بالحوادث التي حدثت في أيامه .

---

١ Anabasis, Edited by, A.G. Ross, Leipzig, 1907, C. Muller, Paris, 1846, Historia Indica, Edited by Carl Muller, in his Geographi Graeci Minoris, Vol., I, Paris, 1861, PP., 306-369.

٢ Herodianus, Ab Excessu divi marci libri Octo, Edited by L. Mendelssohn, Leipzig, 1883.

٣ William Smith, A Dictionary of the Bible, Vol., 3, P., 107.

وقد أفاد هذا الكتاب فائدة كبيرة في معرفة تاريخ اليونان والرومان حتى سنة ٣٢٥م، ولم يبق من أصله غير قطع صغيرة . غير أن له ترجمة باللاتينية عملها (جيروم) (Jerome) ، وأخرى باللغة الأرمنية ، وقد سدّ (جوزيف سكالكر) (Joseph Scaliger) النقص الذي طرأ على النسخة الأصلية ، باستفادته من هاتين الترجمتين[1] .

ولهذا الأسقف كتب مهمة أخرى ، في مقدمتها كتاب (التاريخ الكنائسي) (Ecclesiastical History) ، وهو في عشرة كتب ، يبدأ بأيام المسيح ، وينتهي بوفاة الامبراطور (Licinius) سنة ٣٢٤ م . وقد استقى كتابه هذا من مصادر قديمة ، وأورد فيه أموراً انفرد بها[2] . ومن مؤلفاته : كتاب (شهداء فلسطين) (The Martyrs of Palastine) تحدّث فيه عن تعذيبهم واستشهادهم في أيام (Diocletian) و (Maximin) (٣٠٣ – ٣١٠ م) ، وكتاب (سيرة قسطنطين) (The Life of Constantine) ، وكتاب في فلسفة اليونان وديانتهم[3] .

ومن مؤرخي الكنيسة : (Athanasius) (حوالي ٢٩٦ – ٣٧١ م) و (Gelasius) (حوالي ٣٢٠ – ٣٩٤ م) أسقف قيصرية ، وله تتمة لتاريخ (Eusebius) . و (روفينوس تيرانيوس) (Rufinus Tyranius) المتوفى سنة ٤١٠ م ، وصاحب كتاب (Historiae Ecclesiaticae) . وقد ضمّنه أقساماً من تاريخ (أويسبيوس) و (ايرينوس) (Irenaeus) (٤٤٤م) ، وكان أسقفاً على (صور) (Tyre) ، وقد كتب مؤلفاً عن مجمع (أفسوس) للنظر في النزاع مع النساطرة ، وكان يميل اليهم . والمؤرخ (سقراط) (Socrates) ، وهو من الفقهاء في الكنيسة ، وقد اعتمد في تواريخه على من كتب قبله من المؤرخين ، وقد وردت في ثناياها أخبار عن بلاد

---

١ Eusebius, Chronicorum, Edited by Alfred Schoene, in 2 Vols., Berlin, 1866-1875, Onomastikon der Biblischen Ortsnamen, by Erich Klostermann, Vol., II, Part, I, Eusebius, Vol., 3, Part, I, Leipzig, 1904.

٢ تاريخ الكنيسة ، تأليف يوسابيوس القيصري ، ترجمة القس مرقس داود ، الناشر ، دار الكرنك ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣ Smith, A dictionary, Vol., 3, P., 40, 107.

العرب[1] . والمؤرخ (سوزومينوس) (Sozomenus) (٤٠٠ – ٤٤٣) وله كتاب في التأريخ الكنائسي[2] ، و (ثيودوريت) (Theodoret) المتوفى حوالى سنة ٤٥٧ للميلاد . و (زوسيموس) (Zosimus) ، وهو مؤرخ يوناني ألّف في تاريخ الامبراطورية الرومانية – اليونانية ، فأشار الى العرب وعلاقاتهم بها[3] . و (شمعون الأرشامسي) (Simeon of Beit Arsham) ، وهو صاحب (رسائل الشهـــداء الحميريين)[4] التي تبحث في تعذيب ذي نواس للنصارى في نجران ، وقد جمع أخبارهم (على ما يدعيه) من بلاط ملك الحيرة أيام أوفده اليه امبراطوار الروم في مهمة رسمية . و (بروكوبيوس) (Procopius) من رجال القرن السادس للميلاد ، وكان أمين سر القائد (بليزاريوس) (Belisarius) أعظم قوّاد (يوسطنيانوس)[5] ، وقد رافقه عدة سنين في بلاد فارس وشمال أفريقية وجزيرة صقليـــة . ومن مؤلفاتـــه مؤلف في تأريخ زمانه ، لا سيما حروب (يوسطنيانوس) ، وكتاب (De Bello Persico) وقد وردت فيه أخبار ذات بال بالنسبة لبلاد العرب[6] .

ومن هؤلاء (زكريا) (Zacharias) ،المتوفى حوالى سنة ٥٦٨م[7] . و يوحنا)

---

١ Smith, A Dictionary, Vol., 3, P., 107. ff., Socrates, Ecclesiastical History, Oxon., 1844

٢ Sozomenos, Ecclesiasticae Histria, in, J.P., Migne Patrologiae, 67, 1859, Smith, A. Dictionary, P., 107. ff.

٣ Zosimus, Historia Nova, Edited by L. Mendelssohn, Leipzig, 1887.

٤ Simeon of Bejt Arsham, (524), Letter on the Himiarite Martyrs, by Ign. Guidi, entitled, La Lettra di Semeone Vescova di Beth Arsham (524), Spora 1 Lincai atti, Anno, CCIXXVIII, Storiche e Filologiche, Vol., 7, Rome, 1881, PP., 471-515.

٥ (يوسطنيانس) حمزة الاصفهاني في كتابه تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، (طبع مطبعة كاوياني ببرلين) ، ص ٤٧ ، (يوسطانيوس) ، مروج الـذهب (١ / ٢٧٧) ، (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) .

٦ J. Haury, Procopius De Bello Persico, in Bibliotheca Scriptorum Graecarum et Romanorum, Leipzig, 1905.

٧ Zacharias, Historia Miscellanea, Edited by J.P.N. Land, Entitled Zacharia Episcopi mitylenes Aliorumuae Scripta Historica Graece Plerumque deperdita, Constituting J.P.N. Land, Anecdata Syriaca, Vol., 3, Leiden, 1870. Zachariah of Mtiylene, The Syriac Chronicle, Translated by Hamilton and Brooks, London, 1899. وربما توفي ما بين ٥٣٦ – ٥٥٣ للميلاد .

ملالا) (John Malalas) المتوفى سنة ٥٧٨ م[١]. و (ميننذر) (Menandar)
Protector) المتوفى حوالي سنة ٥٨٢م[٢] . و (يوحنـا الأفسي) (John of
Ephesus) وقد ولد في حوالي سنة ٥٠٥م ، وتوفى سنة ٥٨٥م تقريباً ، وله مؤلفات عديدة منها كتابه : (التـأريخ الكنائسي) (Ecclesiastica Historia) ، وهو في ثلاثـــة أقسام يبتدىء بأيام (يوليوس قيصر) وينتهي بسنة ٥٨٥م[٤] . وكتاب (تأريخ القديسين الشرقيين) ، وقد فرغ من تأليفه سنة ٥٦٩م[٣] . ومن هؤلاء (اسطيفان البيزنطي) (Stephanus Byzantinus) المتوفي سنة ٦٠٠م[٥]. و (ايواكريوس) (Evagrius) المعروف بـ (Scholasticus) أي (المدرسي) المتوفي سنة ٦٠٠م . وهو صاحب كتـــاب (التأريخ الكنائسي) (Historiae Ecclesiasticae) في ستة أقسام . يبتدى بذكر (المجمع الأفسوسي) المنعقـــد عام ٤٣١م وينتهي بسنة ٥٩٣م . وهو من الكتب المهمة ، لأن مؤلفه لم يكتب عن هوى ، شأن أكثر مؤرخي الكنيسة . وقد استعان بالنصوص الأصلية وبالكتب المؤلفة سابقاً[٦] .

ومن هؤلاء أيضاً (ثيوفليكت) (Theophylactus Simocatta) المتوفي سنة ٦٤٠م[٧] و (ثيوفانس) (Theophanes the Confessor) المتوفي سنة ٨١٨م[٨] . و (ايليا النصيبي) (Elijah (Elis) of Nisibis) [٩] ، (وميخائيل السوري)[١٠].

١ John Malades, Chronographia, in J.P. Migne Patrologiae cursus Completus, Series Graeca, Vol., 97, Paris, 1865, Cols., 65-716, Also, Dindorf, Bonn 1831.

٢ Menander Protector, (582), De Legationibus, in J.P. Migne, Patrologiae Cursus Completus, Series Graeca, Vol., 113, Paris, 1864, Cols 791-928.

٣ John of Ephesus, Ecclesiastical History, Part, 3, Edited by William Cureton, Oxford, 1853.

٤ Land, Anecdata Syriaca, 3 Vols., Leiden, 1862-1870, 1-288.

٥ Ethnica, by August Meineke, Ethnicorum Quae Supersunt, Vol. 1, Berlin, 1879.

٦ Evagrius Scholasticus, Historia Ecclesiasticae, Libri sex, in J.P. Migne, Petrologiae Graeca, Vol., 86, Part, 2, Paris, 1865, Cols, 2405-2906, Bury, Byzant. Texts, London, 1898.

٧ Historiae, Edited by, C. De Boor, Leipzig, 1887.

٨ Theophanes the Confessor, Chronographia, in J. P. Migne, Patrologiae Cursus Completus, Series Graea, Vol., 108, Paris, 1863, Cols, 1-1010, Also Edited by C. De Boor, Leipzig, 1887.

٩ Elijah of Nisibis, Opus Chronologicum, Edited and Translated by, F.W. Brooks, (Part) and J.P. Chabot, (Part 2), in Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, Ser., 3, Vol., 7 and 8, Paris, 19091911.

١٠ Michael the Syrian, Chronicle, by J.B. Chabot, Chronique de Michel le Syrien, Patriarche Jacobite D'Antioche (1166-1199), 4 Vols, Paris, 1899-1906.

وفي قائمة المخطوطات السريانية في المتحف البريطاني أسماء مخطوطات تأريخية ودينية أخرى ذات فائدة كبيرة في هذا الباب[1] . وفي مجموعة الكتابات اليونانية واللاتينية[2] وفي المجموعات التي تبحث في أعمال القديسين وفي انتشار النصرانية ، اشارات مهمة الى بـلاد العرب . وهناك كتاب نشره المستشرق (كارل مولر Carl Muller) لمؤلف مجهول اسمه (Glaucus) يبحث في(آثار بلاد العرب)[3].

وهناك طائفة من المؤرخين النصارى من روم وسريان عاشوا في أيام الدولة الأموية والدولة العباسية، ألفوا في التأريخ العام وفي تواريخ النصرانية الى أيامهم، فتحدثوا لذلك عن العرب في الجاهلية وفي الإسلام . ومؤلفات هؤلاء مفيدة من ناحية ورود معارف فيها لا ترد في المؤلفات الإسلامية عن الجاهلية والإسلام ، تفيد في سدّ الثغر في التأريخ الجاهلي وفي الوقوف على النصرانية بين العرب وعلى صلات الروم والفرس بالعرب .

وأكثر الموارد المذكورة هي ، ويا للأسف ، مخطوطـة ، ليس من المتيسر الاستفادة منها ، أو مطبوعة ولكنها نادة،لأنها طبعت منذ عشرات من السنين ، فصارت نسخها محدودة معدودة لا توجد الا في عدد قليل من المكتبات . ثم أنها في اليونانية أو اللاتينية أو السريانية ، أي في لغاتها الأصلية ، ولهذا صعب على من لا يتقن هذه اللغات الاستفادة منها ، ولهذه الأمور ولأمثالها ، لم يستفد منها الراغبون في البحث في التاريخ الجاهلي حتى المستشرقون منهم استفادة واسعة ، فحرمنا الوقوف على أمور كثيرة من أخبار الجاهلية كان في الامكان الوقوف عليها لو تيسرت لنا هذه الكنوز .

الموارد العربية الإسلامية :

وأعني بها الموارد التي دوّنت في الإسلام وقد جمعت مادتها عن الجاهلية من

---

١ Wright, W., Catalogue of the Syriac Manuscripts in the British Museum, in 3 Vols, London, 1870-1872.

٢ Corpus Inscriptionum Latinarum, Consilio et Auctoritate Academiae Litterarum Regiae Porussicae, Berlin, 1862, (15 Vols).

٣ Glaucus, Archaelogia Arabica, by, Carl Muller, in Fragmenta Historicorum Graecorum, Vol., 4, Paris, 1861, P., 409.

الأفواه ، خلا ما يتعلق منها بأخبار صلات الفرس بالعرب وبأخبار آل نصر وآل غسان وبأخبار اليمن المتأخرة، فقد أخذت من موارد مرتبة يظهر أنها كانت مكتوبة كما سأتحدث عن ذلك .

والموارد المذكورة كثيرة ، منها مصنفات في التاريخ ، ومنها مصنفات في الأدب بنوعيه : من نثر ونظم ، ومنها كتب في البلدان والرحلات والجغرافيا وفي موضوعات أخرى عديدة،هي وإن كانت في أمور لا تعد من صميم التاريخ، إلا أنها مورد من الموارد التي يجب الاستعانة بها في تدوين تاريخ الجاهلية، لأنها تتضمن مادة غزيرة تتعلق بتاريخ الجاهلية القريبة من الإسلام والمتصلة به ، لا نجد لها ذكراً في كتب التاريخ ، فلا بد لمؤرخ الجاهلية من الأخذ منها لاتمام التاريخ .

الحق ، اننا إذا أردنا البحث عن مورد يصور لنا أحوال الحياة الجاهلية ، ويتحدث لنا عن تفكير أهل الحجاز عند ظهور الإسلام، فلا بد لنا من الرجوع الى القرآن الكريم ولا بد من تقديمه على سائر المراجع الإسلامية ، وهو فوقها بالطبع . ولا أريد أن أدخله فيها،لأنه كتاب مقدس ، لم ينزل كتاباً في التاريخ أو اللغة أو ما شاكل ذلك ، ولكنه نزل كتاباً عربياً ، لغته هي اللغة العربية التي كان يتكلم بها أهل الحجاز،وقد خاطب قوماً نتحدث عنهم في هذا الكتاب، فوصف حالتهم ، وتفكيرهم وعقائدهم ، ونصحهم وذكّرهم بالأمم والشعوب العربية الخالية[١] ، وطلب منهم ترك ما هم عليه ، وتطرق الى ذكر تجاراتهم ، وسياساتهم وغير ذلك . وقد مثّلهم أناس كانت لهم صلات بالعالم الخارجي ، واطلاع على أحوال من كان حولهم . وفيه تفنيد لكثير من الآراء المغلوطة التي نجدها في المصادر العربية الإسلامية . فهو مرآة صافية للعصر الجاهلي،وهو كتاب صدق لا سبيل الى الشك في صحة نصه .

وفي القرآن الكريم ذكر لبعض أصنام أهل الحجاز،وذكر لجدلهم مع الرسول

---

١ سورة هود سورة ١١ اية ٩٥ ، سورة الحج ، سورة ٢٢ اية ٤٢ ، سورة الشعراء ، سورة ٢٦ اية ١٤١ ، سورة الحاقة ، سورة ٦٩ اية ٤ ، سورة ق ، سورة ٥٠ اية ١٤ ، سورة الدخان ، سورة ٤٤ اية ٣٧ ، سورة الفيل ، سورة ١٠٥ ، اية ١ ، سورة البروج ، سورة ٨٥ اية ٤ .

في الإسلام وفي الحياة وفي المثل الجاهلية. وفيه تعرّض لنواح من الحياة الاقتصادية والسياسية عندهم ، وذكر تجارتهم مع العالم الخارجي ، ووقوفهم على تيارات السياسة العالمية ، وانقسام الدول الى معسكرين ، وفيه أمور أخرى تخص الجاهلية وردت فيه على قدر ما كان لها من علاقة بمعارضة قريش للقرآن والإسلام . وفي كل ما ورد فيه دليل على أن صورة الإخباريين التي رسموها للجاهلية ، لم تكن صورة صحيحة متقنة ، وأن ما زعموه من عزلة جزيرة العرب ، وجهل العرب وهمجيتهم في الجاهلية الجهلاء ، كان زعماً لا يؤيده القرآن الكريم الذي خالف كثيراً مما ذهبوا اليه .

والتفسير ، مصدر آخر من المصادر المساعدة لمعرفة تأريخ العرب قبل الإسلام. وفي كتب التفسير ثروة تأريخية قيمة تفيد المؤرخ في تدوين هذا التأريخ ، تشرح ما جاء مقتضباً في كتاب الله ، وتبسط ما كان عالقاً بأذهان الناس عن الأيام التي سبقت الإسلام ، وتحكي ما سمعوه وما وعوه عن القبائل العربية البائدة التي ورد لها ذكر مقتضب في السور،وما ورد عندهم من أحكام وآراء ومعتقدات .

ولكن كتب التفاسير – ويا للأسف – غير مفهرسة ولا مطبوعة طبعاً حديثاً، وهي في أجزاء ضخمة عديدة في الغالب ، ولهذا صعب على الباحثين الرجوع اليها لاستخراج ما يُحتاج اليه من مادة عن التأريخ الجاهلي ، حتّى ان المستشرقين المعروفين بصبرهم وبجلدهم وبعدم مبالاتهم بالتعب ، لم يأخذوا من معينها إلا قليلاً،مع أن فيها مادة غنية عن نواح كثيرة من أمور الجاهلية المتصلة بالإسلام .

وكتب الحديث وشروحها ، هي أيضاً مورد غني من الموارد التي لا بد منها لتدوين أخبار الجاهلية المتصلة بالإسلام ، اذ نجد فيها أموراً تتحدث عن نواح عديدة من أحوال الجاهلية لا نجدها في مورد آخر . فلا مندوحة من الرجوع اليها والأخذ منها في تدوين تأريخ الجاهلية . ولكن أكثر من بحث في التأريخ الجاهلي لم يغرف من هذا المنهل الغزير ، بسبب عدم انتباههم لأهميته في تدوين تأريخ عرب الحجاز عند ظهور الإسلام ، فعلينا نحن اليوم واجب الأخذ منه ، لنزيد علمنا بتأريخ هذه الجاهلية المتصلة بالإسلام .

والشعر الجاهلي ، مورد آخر من الموارد التي تساعدنا في الوقوف على تأريخ الجاهلية والاطلاع على أحوالها ، وقديماً قيل فيه إنه (ديوان العرب) . « عن عكرمة . قال : ما سمعت ابن عبّاس فسّر آية من كتاب الله ، عز وجلّ ،

إلاّ نزع فيها بيتاً من الشعر ، وكان يقول : إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب ، وبه حُفظت الأنساب ، وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله وغريب حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحديث صحابته والتابعين »[1] .

« وعن ابن سيرين . قال : قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »[2] . وقال الجمحي فيه ، أي في الشعر الجاهلي : (وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم،ومنتهى حكمهم ، به يأخذون،وإليه يصيرون[3] .)

وقد جُمع الشعر الجاهلي في الإسلام ، جمعه رواة حاذقون ، تخصصوا برواية شعر العرب . قال (محمد بن سلام الجمحي) : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ، حمّاد الراوية ، وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره، ويزيد في الأشعار »[4] . واشتهر بجمعه أيضاً (أبو عمرو بن العلاء) المتوفى سنة (١٥٤) للهجرة[5]،وخلف بن حيّان أبو محرز الأحمر[6] ، وأبو عبيدة ، والأصمعي ، والمفضّل بن محمد الضبّي الكوفي[7] صاحب المفضليات ، وهي ثمان وعشرون قصيدة ، قد تزيد وقد تنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية[8].

---

١ المزهر (٢/٤٧٠) ، (وأخرج أبو بكر الانباري في (كتاب الوقف) من طريق عكرمة عن ابن عباس ، قال : اذا سألتم عن شيء من غريب القرآن ، فالتمسوه في الشعر فان الشعر ديوان العرب) ، المزهر (٢/٣٠٢) ، التبريزي ، شرح الحماسة (١/٣) .

٢ الجمحي : طبقات الشعراء (ص ١٠) (طبعة لندن).

٣ طبقات الشعراء (ص ١٠) .

٤ طبقات الشعراء (ص ١٤) ، توفي حماد سنة ١٥٦ للهجرة ، الفهرست (ص ١٤٠) .

٥ البيان والتبيين (١/٣٢١) ، المزهر (٢/٣٠٤) ، الفهرست (ص ٤٨).

٦ (وكان من امرس الناس لبيت شعر ، وكان شاعرا يعمل الشعر على لسان العرب وينحله اياهم ... وله من الكتب : كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر) ، الفهرست (ص ٨٠)

٧ طبقات الشعراء (ص ٩) ، الفهرست (ص ١٠٨) .

٨ الفهرست (ص ١٠٨) .

وأبو عمرو اسحاق بن مرار الشيباني المتوفي سنة ٢٠٦ للهجرة[١]، قيل : إنه جمع أشعار العرب ، فكانت نيفاً وثمانين قبيلة[٢] . وأبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابي، المتوفي سنة ٢٣١ للهجرة[٣] ، وأبو محمد جنّاد بن واصل الكوفي[٤] ، وخلاّد بن يزيد الباهلي[٥] ، وغيرهم ممن تفرغوا له ، وصرفوا جلّ وقتهم في جمعه وحفظه وروايته .

(قال ابن عوف عن ابن سيرين . قال : عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنـه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغزوا فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم أكثره)[٦] . وورد عن (أبي عمرو بن العلاء) انه قال : (ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير)[٧] . ولا جدال بين العلماء حتّى اليوم في موضوع ذهاب أكثر الشعر الجاهلي ، وفي أن الباقي الذي وصل الينـا مدوناً في الكتب ، هو قليل من كثير . وقد عللوا سبب اندثار أكثره وذهابه بسبب عدم تدوين الجاهليين له ، واكتفائهم بروايته حفظاً،فضاع بتقادم الزمان، وبموت الرواة ، وبانطماس أثره من الذاكرة ، وبانشغال الناس بأمور أخرى عن روايته ، ولا سيما رواية القديم منه الذي لم يعد يؤثر في العواطف تأثير الجديد منه الذي قيل قبيل الإسلام .

نعم جاء في الأخبار أنه (قد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار

---

١ (واخذ عند دواويـن اشعار القبائل كلها) ، (قيل مات في اليوم الذي مات فيه ابو العتاهية وابراهيم الموصلي سنة ثلاث عشرة ومائتيـن) ، الفهرست (ص ١٠٧ وما بعدها)
٢ الفهرست (ص ١٠٧) .
٣ الفهست (ص ١٠٨ وما بعدها) .
٤ (كان مـن اعلم الناس بأشعار العرب وأيامها) الفهرست (ص ١٤١) .
٥ الفهرست (ص ١٦٢) .
٦ طبقات الشعراء (ص ١٠) .
٧ المصدر نفسـه .

الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بـني مروان أو ما صار منه »[1] . وورد عن «حمّاد الراوية» أنه ذكر أن النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب في الطّنوج ، وهي الكراريس ، فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض . فلما كان المختار بن أبي عبيد ، قيل له : إنّ تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار[2] .

ووردت عنه أيضاً حكاية أهل مكة للمعلقات على الكعبة[3] . ووردت أخبار أخرى تدل على وجود تدوين للشعر عند الجاهليين . الا اننا لا نجد حماداً ولا غير حماد ينص على أنه نقل ما دوّنه من تلك الموارد المدونة أو من غيرها مما وجده مدوّناً . وهذا ما حدا بالعلماء قديماً وحديثاً إلى البحث في هذا الموضوع: موضوع الشعر الجاهلي من ناحية وجود تدوين له ، أو عدم وجود تدوين له . وأثر ذلك على درجة ذلك الشعر من حيث الصحة والأصالة والصفاء والنقاء[4] .

وفي الشعر الجاهلي الواصل الينا ، شعر صحيح وشعر موضوع منحول حمل على الشعراء . وقد شخص أهل الفراسة بالشعر الصحيح منه ونصوا على أكثر الفاسد منه . ولم يقل أحد منهم أن الشعر الجاهلي موضوع كله ، فاسد لا أصل له . فدعوى مثل هذه ، هي دعوى كبيرة لا يمكن ان يقولها أحد . إنما اختلفوا في درجة نسبة الصحيح إلى الفاسد ، أو نسبة الفاسد إلى الصحيح .

« وكان ممن هجّن الشعر وأفسده وحمل كل غُثاء ، محمد بن اسحاق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف . وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ، ويقول لا علم لي بالشعر انما أوتى به فأحمله،

---

١ طبقات الشعراء (ص ١٠) ، المزهر (٤٧٤/٢) .

٢ تاج العروس (٧٠/٢) ، لسان العرب (١٤٢/٣) الخصائص لابن جني (٣٩٢/١ وما بعدها) .

٣ المزهر (٤٨٠/٢) ، ياقوت ، ارشاد الاديب (١٤٠/٤) .

٤ طه حسين ، في الشعر الجاهلي ، ١٩٢٦ ، ثم في الادب الجاهلي ، مصطفى صادق الرافعي : تاريخ اداب العرب ، وتحت راية القران، محمد الخضري : محاضرات في بيان الاخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، محمد احمد الغمراوي: النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي ، محمد فريد وجدي : نقد كتاب الشعر الجاهلي ، محمد لطفي جمعة : الشهاب الراصد .

ولم يكن ذلك له عذراً ، فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قطّ ، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود أفلا يرجع الى نفسه : فيقول من حمل هذا الشعر ، ومن أداه منذ ألوف من السنين ، والله يقول : (وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى) . وقال في عاد : (فهل ترى لهم من باقية). وقال : (وعاداً وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلاّ الله)[1] .

واتّهم (حمّاد الرواية) بالكذب وبوضع الشعر على ألسنة الشعراء ، فقيل فيه : (وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار)[2] . وقال (أبو جعفر النحاس) المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة في أمر (المعلقات) : (إن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة)[3] ، واتهم غيره ممن ذكرت من جهابذة حفظة الشعر الجاهلي بالوضع كذلك . وقد نصوا في كثير من الأحايين على ما وضعوه ، وحملوه على الجاهليين . وذكروا أسباب ذلك بتفصيل[4] ، كالذي فعله مصطفى صادق الرافعي في (تأريخ آداب العرب)[5] .

وبعد هذه الكلمة القصيرة في الشعر الجاهلي — الذي سأتحدث عنه بإطناب في الجزء الخاص باللغة — أقول : إن اليه يعود فضل بقاء كثير من الأخبار المتعلقة بالجاهلية ، فلولاه لم نعرف من أمرها شيئاً . ولست مبالغاً اذا قلت ان كثيراً من الأخبار قد ماتت لموت الشعر الذي قيل في مناسباتها ، وان أخباراً خلقت خلقاً ، لأن واضع الشعر أو راويه اضطر الى ذكر المناسبة التي قيل فيها ، فعمد الى الخلق والوضع . وهو من ثم صار سبباً في تخليد الأخبار[6] ، لسهولة حفظه ، ولاضطرار راويه الى قص المناسبة التي قيل فيها .

وما قلته في أهمية الشعر الجاهلي بالقياس الى عمل مؤرخ الجاهلية ، ينطبق

---

١ طبقات الشعراء (ص ٤) .
٢ طبقات الشعراء (ص ١٤) .
٣ المزهر (٢/٤٨٠) .
٤ طبقات الشعراء (ص ١٥، ٦٠، ٦١ وما بعدها ، ومواضع عديدة اخرى)
٥ راجع الصفحات ٢٧٧ فما بعدها .
٦ دائرة المعارف الاسلامية ، مادة (تاريخ) (ص ٤٨٤) ، الترجمة العربية ،

أيضاً على أهمية شعر الشعراء المخضرمين بالقياس الى عمل هذا المؤرخ ، فقد أسهم أكثر الشعراء المخضرمين في أحداث وقعت في الجاهلية ، وكان منهم من جالس (آل نصر) و (آل غسان) ، وبقيـة سادات العرب ، فورد في شعرهم أخبارهم وأحوالهم وطباعهم وغير ذلك . كما نجد في شعرهم مادة عن الحياة العقلية والمادية في أيامهم . ثم ان حياتهم اتصلت بالإسلام ، فلم يكن شعرهم وما قالوه ورووه ببعيدٍ عهدٍ عن أهل الأخبار ورواة الشعر ، وهو من ثم أقرب الى المنطق والواقع من شعر الجاهليين لبعدهم عن الرواة بعض البعد .

ولم ينج هذا الشعر أيضاً من الوضع ، فحمل على بعض الشعراء مثل (حسان ابن ثابت) بعض الشعر لأغراض ، منها العصبية القبيلية ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد. وفي الجملة إن المؤرخ الحاذق الناقد لن تفوته هذه الملاحظة حين رجوعه الى هذا الشعر والى ما ورد على ألسنة الشرّاح .

وتعرضت كتب السِيَر والمغازي لأخبار الجاهلية بقـدر ما كان للجاهلية من صلة بتاريخ الرسول ، كما تعرضت لهـا كتب الأدب وكتب الأنساب والمثالب والبيوتات ومجامع الأمثال والكتب التي ألفت في أخبار المعمرين ، وفي الأيام ، وفي البلدان ، وفي المعجمات والجغرافية والسياحات وغير ذلك ، فورد في ثناياها أخبار قيّمة عن هذه الجاهلية المتصلة بالإسلام . وهي موارد عظيمة الأهمية لمؤرخ هذه الحقبة ، كثيرة العدد ، هيأها عدد كبير من العلماء ، لا يمكن استقصاؤهم في هذه المقدمة ، ولا التحدث عن مؤلفاتهم ، وهو حديث يحتاج الى فصول .

على أنّا يجب أن نأخذ بعض هذه الموارد المذكورة بحذر جدّ شديد ، ولا سيما كتب (الأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب) ، فإنّ مجال الوضع والصنعة بها واسع كبير ، لما للعواطف القبيلية فيها من يد ودخل ، وللحزبيـة والأغراض فيها من تأثير . وطالما نسمع أن فلاناً وضع كتاباً في مثالب القبيلة الفلانية أو في مدحها ترضية لرجال تلك القبيلة ، أو لحصوله على مال منها . ومن هنا وجب الاحتراس كل الاحتراس من هذه الموارد ، ووجوب نقد كل رواية فيها قبل الاعتماد عليها والأخذ بها كمورد صحيح دقيق .

وفي كتب الأدب ثروة تأريخية قيمة ، مبثوثة في صفحاتها ، لا نجد لها مثيلاً ولا مكاناً في كثير من الأحايين في كتب أهل التأريخ عن التأريخ الجاهلي، حتى اني لأستطيع أن أقـول إن ما أورده رجال الأدب عنه هو أضعاف ما

رواه المؤرخون عن ذلك التأريخ ، وأن ما جاءت به كتب الأدب عن ملوك الحيرة وعن الغساسنة وعن ملوك كندة وعن أخبار القبائل العربية ، هو أكثر بكثير مما جاءت به كتب التأريخ ، بل هو أحسن منها عرضاً وصفاءً ، وأكثر منها دقة . ويدل عرضه بأسلوبه الأدبي المعروف على أنه مستمد من موارد عربية خالصة ، وقد أخذ من أفواه شهود عيان ، شهدوا ما تحدثوا عنه . وقد أفادنا كثيراً في تدوين تأريخ الجاهلية الملاصقة للإسلام ، ولشأنه هذا أودّ أن ألفت أنظار من يريد تدوين تأريخ هذه الحقبة اليه ، وأن يرعاه بالرعاية والعناية وبالنقد ، وسيحصل عندئذ على رأي لا يستطيع العثور عليه في كتب أهل التاريخ .

وقد صارت كتب المؤرخين المسلمين لذلك ضعيفة جداً في باب تأريخ العرب قبل الإسلام ، ومادتها عن الجاهلية هزيلة جداً قليلة بالقياس الى ما نجده في كتب التفسير والحديث والفقه والأدب وشروح دواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والموارد الأخرى . والغريب أن تلك الكتب اكتفت في الغالب بإيراد جريدة لأسماء ملوك الحيرة أو الغساسنة أو كندة أو حمير ، مع ذكر بعض ما وقع لهم في بعض الأحيان ، على حين نجد كتب الأدب تتبسط في الحديث عنهم، وتتحدث عن حوادث وأمور لا نجد لها ذكراً في كتب المؤرخين ، بل نجد فيها أسماء ملوك لم تعرفها كتب التاريخ ، مما صيرها في نظري أكثر فائدة وأعظم نفعاً لتأريخ الجاهلية من كتب المؤرخين .

المؤرخون المسلمون :

لا نتمكن من الاطمئنان الى هذه الأخبار والروايات المدونة في الموارد الإسلامية عن الجاهلية ، الا اذا وقفنا بها الى حدود القرن السادس للميلاد أو القرن الخامس على أكثر تقدير . أما ما روي على أنه فوق ذلك، فإننا لا نتمكن من الاطمئنان اليه ، لأنه لم يرد به سند مدون ، ولم يؤخذ من نص مكتوب ، وانما أخذ من أفواه الرجال ، ولا يؤتمن على مثل هذا النوع من الرواية ، لأننا حتى اذا سلمنا ان رواة تلك الأخبار كانوا منزهين عن الميول والعواطف ، وانهم كانوا صدوقين في كل ما رووا ، وكانوا أصحاب ملكة حسنة ذات قدرة في النقد وفي

التمييز بين الصحيح والفاسد، فإننا لا نتمكن من أن نسلم أن في استطاعة الذاكرة أن تحافظ على صفاء الرواية وان تروي القصة وما فيها من كلام وحديث بالنص والحرف حقبة طويلة. لذا وجب علينا الحذر في الاعتماد على هذه الموارد وتمحيص هذا المدون الوارد ، وان تكاثر واشتهر وتواتر، فقد كان من عادة رواة الأخبار رواية الخبر الواحد دون الإشارة الى منبعه ، ويُتداول في الكتب ، فيظهر وكأنه من النوع المتواتر في حين انه من الأخبار الآحاد في الأصل .

ولا أدري كيف يمكن الاطمئنان الى نص قصة طويلة فيها كلام وحوار أو قصيدة طويلة زعم ان التبع فلاناً نظمها ، في حين أننا نعلم أن الذاكرة لا يمكن أن تحفظ نصاً بالحرف الواحد إذا لم يكن مدوناً مكتوباً ، ولهذا جوّز أهل الحديث رواية حديث الرسول بالمعنى ، إذا تعذرت روايته بالنص . ولا أعتقد ان عناية العرب المسلمين بحديث رسول الله كانت أقل من عنايتهم برواية ما جرى مثلاً بين النعمان بن المنذر وبين كسرى من كلام ، أو من رواية ذلك الكلام المنمق والحديث الطويل العذب ، الذي جرى بين وفد النعمان الذي اختاره من خيرة ألسنة القبائل المعروفة بالكلام ، وبين كسرى المذكور[1] .

ومن هذا القبيل نصوص المفاخرات والمنافرات ، فإن مجال لعب العاطفة فيها واسع رحيب . وكذلك كل الأخبار والروايات التابعة عن الخصومات والمنافسات بين القبائل أو الأشخاص ، فإن الوضع والافتعال فيها شائع كثير ، ولا مجال للكلام عليه في هذا الموضع ، لأنه يخرجنا من حدود التاريخ الجاهلي ، الى موضوع آخر ، هو نقد الروايات والأخبار والرواة ، وهو خارج عن هذا الموضوع .

لقد تحدث أهل الأخبار عن عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وغيرهم من الأمم البائدة ، وتكلموا على المباني (العادية) وعن جن سليمان وأسلحة سليمان ، ورووا شعراً ونثراً نسبوه الى الأمم المذكورة والى التبابعة ، بل نسبوا شعراً إلى آدم ، زعموا أنه قاله حين حزن على ولده وأسف على فقده ، ونسبوا شعراً الى (ابليس) ، قالوا إنه نظمه في الردّ على شعر (آدم) المذكور ، وأنه أسمعه

---

1 راجع النصوص في بلوغ الارب (١٤٧/١ فما بعدها) .

(آدم) بصوته دون أن يراه[1] . ورووا أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل .

ولكن هل يمكن الاطمئنان إلى قصص كهذا يرجع أهل الأخبار زمانــه إلى مئات من السنين قبل الإسلام ، والى أكثر من ذلك ، ونحن نعلم ، بتجاربنـا معهم ، أن ذاكرتهم اختلفت في أمور وقعت قبيـل الإسلام ، واضطربت في تذكر حوادث حدثت في السنين الأولى من الإسلام . كيف يمكننا الاطمئنان الى ما ذكروه عن التبابعة وعن أناس زعموا أنهم عاشوا دهراً طويلاً قبل الإسلام ، ونحن نعلم من كتابات المسند ومن المؤلفات اليونانية والسريانية ، أنهم لم يكونوا على ما ذكروه عنهم ، وأنهم عاشوا في أيام لم تبعد بعداً كبيراً عن الإسلام ، وأنهم كانوا يكتبون بالمسند وبلسان يختلف عن هذا اللسان الذي نزل به القرآن. ثم خذ ما ذكروه عن حملة (أبرهة) على مكة وعن أبرهة نفسه ، وعن (أبي رغال) ، وعن حادث نجران وذي نواس ، وعن خراب سدّ مأرب ، وعن أمثال ذلك من حوادث وأشخاص سيرد الكلام عليهـا في أجزاء هذا الكتاب ، تجد أن ما ذكروه عنها وعنهم يتحدث بجلاء وبكل وضوح عن جهـل بالواقع وعن عدم فهم لما وقع ، وعن عدم ادراك للزمان والمكان ، وعن عدم معرفة بالأشخاص . فرفعوا تواريخ بعض تلك الحوادث إلى مئات من السنين ، وخلطوا في بعض منها ، وفي كل ذلك دلالة على أن ما حفظته الذاكرة ، لم يكن نقياً خالصاً من الشوائب ، وأن الذاكرة لا يمكن أن تحافظ على ما تحفظه أمداً طويلاً وأن آفات النسيان وتلاعب الزمان بالحفظ لا بد أن يغير من طبائع المحفوظ .

والاخباريون إذْ رووا ذلك ودوّنوه ، لم يكونوا أول من وضع وصنع وافتعل وجاء بالقصص والأساطير على أنهـا باب من أبواب التأريخ ، فقد فعل فعلهم اليونان والرومان والعبرانيون وسائر الشعوب الأخر ، يوم أرادوا تدوين تواريخ العصور التي سبقت عندهم عصور الكتابة والتدوين ، إذ لم يجدوا أمامهم غير هذا النوع من الروايات الشفوية البدائية التي عبث بصفائها الزمان كلما طال أجلها الى زمن التدوين ، فدوّنوه ورووه ، إلى أن وصل الينـا على النحو المكتوب .

وللسبب المذكور نرى في الأخبار الواردة عن ملوك الحيرة ، أو عن صلات الفرس بالعرب أخباراً قريبة الى منطق التاريخ والى الواقع يمكن أن نأخذ بها وأن

---

1 مروج الذهب (١/٢٦ وما بعدها) ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)

نستعين بها في تدوين تاريخ الحيرة وتاريخ الساسانيين مع العرب . ويعود سبب ذلك الى رجوع الرواة الى موارد مدونة ، أو الى شهود عيان أدركوا أنفسهم الحوادث ، وكلها من الحوادث القريبة من الإسلام والتي وقع بعضها في أيام الرسول . أما حوادث آل نصر ، أو أخبار الفرس مع العرب البعيدة ، فلا نجد فيها هذا الصفاء والنقاء ، بل نجد فيها قترة وغبرة ، لنقلها بالسماع والمشافهة وتقادم العهد على السماع . وهكذا صار تاريخ الحيرة المروي في التواريخ غيوماً تتخللها فجوات متبعثرة تنبعث منها أشعة الشمس .

نعم جاء أن أهل الحيرة كانوا يُعنون بتدوين أخبارهم وأنساب ملوكهم وأعمار من ملك منهم ، وكانوا يضعون ذلك في بيع الحيرة[1] . وورد ان النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ، وهي الكراريس ، فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض . فلما كان المختار بن أبي عبيدة ، قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار[2] . وذكر ابن سلام الجُمَحِي انه (كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بني مروان ، أو ما صار منه)[3] .

ولكنني على الرغم من ورود هذه الأخبار لا أستطيع أن أقف منها الآن موقفاً ايجابياً،إذ لم أسمع أن أحداً من رواة الشعر ذكر أنه رجع الى تلك الطّنوج والدواوين فأخذ منها ، أو أن بني مروان عرضوها على أحد . ولو كانت تلك الدواوين موجودة ، لم يسكت عنها رواة الشعر الجاهلي وطلابه الذين كانوا يبحثون عنه في كل مكان . ثم إن الأخباريين يذكرون ان (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) ، كان يرسل الى (حمّاد) رسلاً ليأتوا اليه بما يريد الوقوف عليه من الشعر الجاهلي ، وأنه (جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك وردّ الديوان الى حمّاد وجناد)[4] ، وأنه أحضره الى الشام ، واستنشده أشعار (بَلِيّ) وأشعاراً أخرى[5] ، ولو كان لدى(بني

---

١ الطبري (٣٧/٢) .
٢ تاج العروس (٧٠/٢) ، لسان العرب (١٤٢/٣) ، ابن جني ، الخصائص (٣٩٢/١ وما بعدها)
٣ طبقات فحول الشعراء (ص ١٠) ، المزهر (٤٧٤/٢) .
٤ الفهرست (ص ١٤٠)
٥ الاغاني (٩٤/٦) .

مروان)ديوان(النعمان بن المنذر)الذي جمع فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، لما احتاج (الوليد) الى أن يسأل حماداً وجناداً ليرسلا اليه ديوان العرب ، وهو ديوان لا ندري اليوم من أمره شيئاً ، ولم يذكر (ابن النديم) صاحب الخبر ، ما علاقة الرجلين المذكورين بذلك الديوان . هل كانا اشتركا معاً في جمعه،أو أن كل واحد منهما قد جمع بنفسه الأشعار في ديوان ، فأرسل الوليد اليهما يطلب منهما ما جمعاه ، ليجمعه مع ما عنده في ديوان .

ثم إننا لم نسمع أحداً يقول: (كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ابن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم ، لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها)[1] ، غير الراوية (هشام بن محمد الكلبي) . فلِمَ وقف (ابن الكلبي) وحده على تلك الكنوز ، ولم يلجأ غيره الى بيع الحيرة ، ليأخذ منها أخبار نصر ؟ ألم يعلم بوجودها أحد غيره ؟ ثم لم اختلفت روايات (ابن الكلبي) وتناقضت في أمور من تأريخ الحيرة ، ما كان من الواجب وقوع اختلاف فيها،ولِمَ لجأ أيضاً الى رواية القصص والأساطير عن منشأ (الحيرة) ، وعن (عمرو بن عدي) ، وعن جذيمة ، وعن (قصر الخورنق) وعن غير ذلك ، ليقصها على أنها تأريخ آل نصر[2] . أيعد هذا دليلاً على أخذه من موارد قديمة مكتوبة مدوّنة ؟ نعم ، من الجائز أن يكون قد أخذ من صحف كانت قد دوّنت أسماء آل نصر المتأخرين ، وبعض الأخبار المتعلقة بهم ، أما أنه أخذ أخبارهم كاملة مدوّنة من كتاب أو من كتب تأريخ بالمعنى المفهوم من الكتاب ، فذلك ما أشك فيه ، لأن الذي ينقل أخباره من كتاب في التأريخ لا يروي تاريخ تلك الأسرة وتاريخ عربها على الشكل الذي رواه.

قال (الطبري) : (وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمّالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة ، متعالماً ، مثبتاً عندهم في كنائسهم وأسفارهم)[3] ، وتدل هذه الملاحظة التي تؤيد رواية (ابن الكلبي) المتقدمة — ولعلّ (الطبري) أخذها من رواية لابن

---

١ الطبري (٦٢٨/١) (طبعة دار المعارف بمصر) .
٢ الطبري (٦٠٩/١ وما بعدها) (طبعة دار المعارف بمصر) .
٣ الطبري (٦٢٨/١) (طبعة دار المعارف بمصر) .

الكلبي ، دون أن يشير اليه ، — على وجود أسفار في تواريخ أهــل الحيرة ، إلاّ أني أعود فأقول إن أكثر المروي عنهم ، لا يدل على أنه منقول من موارد مدوّنة ، لما فيه من اضطراب وتناقض ، ولغلبة طابع الروايات الشفويـة عليه . والأخبار الوحيدة التي تمكن أن تكون منقولة من موارد مدوّنـة ، هي الأخبار المتأخرة التي تعود الى أواخر أيام الحيرة ، الأيام المقاربة للإسلام الى زمن فتح المسلمين لها . ثم إن لقربها من زمن التدوين علاقة بوضوح هذه الأخبار المتأخرة وبلدرجة صفائها .

ولا تعني هذه الملاحظات اننا ننكر وجود مدوّنات عند أهل الحيرة في التاريخ أو في الشعر أو في أي موضوع آخر ، ولا أعتقد أن في استطاعة أحـد نكران وجود التأليف عندهم . فقد ورد في التواريخ الكنائسية أسماء رجال من أهــل الحيرة ساهموا في المجالس الكنائسية التي انعقدت للنظر في أمور الكنيسة ومشكلاتها، ومنهم من برز وألّف في موضوعات دينية وتاريخية ، كما ورد في أخبار أهل الأخبار أن أهل الحيرة كانوا يتداولون قصص رستم واسفنديار وملوك فارس ، وأن (النضر بن الحارث) الذي كان يعارض الرسول،تعلّم منهم،وكان يحدّث أهل مكة بأخبارهم معارضاً رسول الله ، ويقول : أينا أحسن حديثاً ؟ أنا أم محمد[1] ؟

ولا بد أن يكون معين القصص الذي تعلمه (النضر بن الحارث هو في هذا المعين المدون في كتب الفرس . وقــد كانت للفرس كتب في سير ملوكهم وآدابهم ترجم بعضها في الإسلام ، مثل كتاب (سير العجم)[2] ، أو (كتاب خداي نامه)[3] ، أو كتاب (سير الملوك) أو (سير ملوك العجم) ، ترجمـة (عبدالله بن المقفع) و (كتاب التاج)[5] للمترجم نفسه ، وكتب أخرى لم تترجم

---

١ سيرة ابن هشام (٣٨١/١) ، (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) .

٢ ابن قتيبة : عيون الاخبار (١١٧/١) .

٣ الفهرست (ص ١٧٢) ، (خداي نامه ، وهو الكتاب الذي لما نقل من الفارسية الى العربية سمي كتاب تاريخ ملوك الفرس) ، حمزة (ص ١٥) ، (وهو في حكاية جمل ما في خداى نامة لم يحكها ابن المقفع ولا ابن الجهم ، فجئت بهـا في اخـر هذا الكتاب ....) ، (كتاب خدينامه في السير) ، حمزة (ص ٤٣) .

٤ عيون الاخبار (١١٧/١) .

٥ عيون الاخبار (٥/١) ، (كتاب التاج في سيرة انوشروان) ، الفهرست (ص ١٧٢)

كانت شائعة عند الفرس معروفة ، يحافظون عليها ويتداولونها ، منها استمد المؤرخون العرب الإسلاميون أخبار الفرس ومن حكم منهم من ملوك[1] .

ولقد قال (كولد تزهير) و (بروكلمن) بوجود أثر فارسي في ظهور علم التأريخ عند المسلمين[2] . أما أثر الموارد الفارسية في مادة الفصول المدونة عن الفرس وعن ملوك الحيرة ، فواضح ظاهر ، ولا يمكن لأحد الشك فيه ، وأما أثرها فيما عدا ذلك ، ولا سيما في كيفية عرض التأريخ وفي أسلوب تدوينه وتبويبه ، فدعوى أراها غير صحيحة ، لأن طريقة الابتداء بالزمان ثم ابتداء الخلق وعدد أيام الخلق وخلق آدم ثم التحدث عن الأنبياء بحسب تسلسل رسالاتهم ، وهي الطريقة التي سار عليها من دوّن في التأريخ العام من المسلمين مثلاً ، كما فعل (الطبري) في تأريخه ، طريقة لا يمكن أن تكون فارسية ، لأن الفرس مجوس ، والمجوس لا يعتقدون بهؤلاء الرسل والأنبياء . والصحيح ، انها طريقة المؤرخين الذين جاؤوا بعد الميلاد ، فهم الذين روّجوا الأسلوب المذكور في تدوين التأريخ . ويمكن ادراك ذلك من المقابلة بين الأسلوبين : الأسلوب الإسلامي في تدوين التأريخ وفي كيفية تبويبه وتصنيفه وأسلوب الكتب التأريخية المدونة في اليونانية وفي السريانية الى زمن تدوين التأريخ عند المسلمين .

والرأي عندي أن علمنا بأسلوب التأريخ عند الفرس : كيفية عرضه وطرقه وتبويبه علم نزر ، لأن ما وصل الينا من كتبهم معدود محدود ، وما ورد فيه سيَر ملوكهم وأيامهم وما نجده مترجماً ومنشوراً في المؤلفات العربية ، هو من نوع القصص الذي يغلب عليه الطابع الأدبي ، فيه أدب السلوك ومواعظ الحكم وأقوال في الحكمة ، وحتى القسم المتصل منه بالتأريخ قد وضع بأسلوب عاطفي أدبي . ومن هنا ابتعد عن أسلوب المؤرخين اليونان واللاتين ، وعن أسلوب المؤرخين الذين ظهروا بعد الميلاد . وقد يكون لاختلاف الذوق دخل في اختلاف الأسلوبين . ومهما يكن من أمر فأنا لا أريد أن أكون متسرعاً عجولاً في اصدار حكم على فن التأريخ عند الفرس ، فأبغض الأشياء إليّ التسرع في اصدار الأحكام

---

١ المسعودي : مروج (١/١٤٦) ، (وقد ذكر ابو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، عن عمر كسرى في كتاب له في اخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم ممن سلف وخلف ...) ، المروج (١/١٩٩) ، التنبيه والاشراف (ص ٩٢) .

٢ الموسوعة الاسلامية ، مادة : تاريخ .

في التأريخ ، ومن الحكمة وجوب التريث والانتظار ، فلعل الأيام تتحفنا بتواريخ فارسية ، ترينا أن للفرس رأياً أصيلاً في التأريخ ، وأن لهم طريقة المؤرخين في تدوين تأريخ العالم وتأريخ بلادهم وفي تدوين سير الملوك والأشخاص ، وأنهم كانوا قد عينوا مراسلين يلازمون جيوشهم لتدوين أخبار الحروب ، كما فعل الروم ، ولكن بعقلية مستقلة لم تتأثر بطريقة اليونان واللاتين .

ويكاد يكون أكثر ما دوّن عن (الغساسنة) في المؤلفات العربية الإسلامية مأخوذاً من الروايات الواردة عن ملوك الحيرة وعرب الحيرة ، أنداد الغساسنة ، ولذلك لم تكن في جانبهم ، وتكاد تلك الأخبار ترجع في الغالب إلى شخص واحد ، تخصص بأخبار الحيرة وملوك الفرس ، هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وهو الذي روى هذه الأخبار اعتماداً على بحوثه الخاصة ، وعلى البحوث والدراسات التي قام بها والده من قبله . ويجب أن نجعل لهذه الملاحظات الاعتبار الأول في تدوين تاريخ الغساسنة . وقد وردت أخبارهم في الطبري مع أخبار ملوك الحيرة والفرس لهذا السبب . وأما في سائر الأصول التاريخية الأخرى، فهي مقتضبة ، وقد اكتفى بعض المؤرخين بايراد جريدة بأسماء الملوك ، وهو عمل ينبئك بقلة بضاعة القوم في تاريخ عرب الشام . وعلى كل حال ، فاننا نجد في كتب الأدب وفي دواوين الشعر عوناً لنا في تدوين ، تاريخ غسان ، قد يسد بعض الفراغ في تاريخ هذه الإمارة ، وان كان ذلك كلّه لا يكفي ، بل لا بد من الاستعانة بأصول أعجمية من يونانية وسريانية ، ففيها مواد عن نواح مجهولة من هذا التاريخ ، كما أنها تصحح شيئاً مما ورد في الموارد العربية من أغلاط[1] .

ولقد تأثرت روايات (ابن الكلبي) بطابع التعصب لأهل الحيرة على الغساسنة، لاعتماده على روايات أهل الحيرة وعلى أهل الكوفة في سرد تاريخ الغساسنة ،وقد كان ملوك الحيرة أنداداً لملوك الغساسنة ، ولهذا تتعارض رواياته وروايات من استقى من هذا المورد مع روايات علماء اللغة والأدب والشعر التي وردت استطراداً عن أهل الحيرة أو الغساسنة ، وذلك في أثناء شرحهم لفظة أو بيت شعر أو قصيدة أو ديواناً أو حياة شاعر كانت له علاقة بالحيرة أو بالغساسنة ، أو عن

---

١ امراء غسان لنولدكه ، ترجمة الدكتور قسطنطين زريق والدكتور بندلي جوزي ، (بيروت سنة ١٩٣٣) (ص ١ — ٢) .

قصة من القصص، وما شاكل ذلك . ومرجع أولئك الروايات العربية الخالصة، وقد استمدت من رجال كانوا شاهدي عيان،أو رووا ما سمعوه من أفواه الناس، ويمكن ادراك اتجاهها وميولها بوضوح ، ولهذا تجب الموازنة بين الروايتين .

أما روايات أهـل (يثرب) أي (المدينة) ، فهي في مصلحة الغساسنة في الأكثر ، وقد كانوا على اتصال دائم بهم،ولهم تجارات معهم ، وكان شعراؤهم يفتخرون بانتسابهم هم وآل غسان إلى أصل واحد ودوحة واحـدة هي الأزد . ولهذا يستحسن التفكير في هذا الأمر بالنسبة الى روايات أهل المدينة ، ولا سيما أخبار حسان بن ثابت الأنصاري عن آل غسان .

ومما يؤسف عليه أن المؤرخين المسلمين لم يغرفوا من المناهل اليونانية واللاتينية والسريانية لتدوين أخبارهم عن تأريخ العرب قبل الإسلام ، لا قبل الميلاد ولا بعده ، مع أنها أضبط وأدق من الأصول الفارسية ، ومن الروايات الّتي تعتمد على المشافهة بالطبع.وقد كان من عادة اليونان إلحاق عدد من المخبرين والمسجلين الرسميين بالحملات لتسجيل أخبارها ، كما حوت الموارد السريانية بصورة خـاصة والموارد اليونانية المؤلفة بعد الميلاد أموراً كثيرة فيما يخص انتشار النصرانيـة بين العرب ، وفيما يخص المجامع الكنائسية الّتي حضرها أساقفة من العرب ، وكذلك الآراء والمذاهب النصرانية الّتي ظهرت بين نصارى العرب .

نعم لقد وقف المؤرخون على تواريخ عامة وخاصة مدونة بالرومية والسريانية كانت عند جماعة من المشتغلين بالتأريخ من أهل الكتاب . وقد فسّروهـا ، أو فسروا بعضها لهم ، ولا سيما ما يتعلق منها بموضوعات لها صلة بالقرآن الكريم، مثل كيفية الخلق والزمان والمكان وقصص الرسل والأنبياء والملوك ، نجد طابعها ومادّتها وأسلوبها في هذا المدوّن عن قبل الإسلام ، والذي صار مقدمـة لتاريخ الإسلام ، درج المشتغلون في التأريخ العام على وضعها قبل تاريخ الرسالة . وقد استفاد من بعضها بعض المؤرخين ، مثل المسعودي[1] وحمزة الأصفهاني وآخرين ،

مروج الذهب (١/١٨٧/٢٠٣) ، التنبيه (ص ١٣٢) ، (وهذه التواريخ اخذتها عن رجل رومي) ، وقال وكيع : نقلت هذه التواريخ من كتاب ملك من ملـوك الروم ، تولى نقله الى العربية بعض التراجمة) ، حمزة : كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء (ص ٤٨ ، ٥٢) .

في تدوين تاريخ ملوك الروم ، وقد صارت طريقتهم كما قلت سابقاً أنموذجاً للمؤرخين ساروا عليه في عرض التأريخ وفي تدوينه ، غير أن هذا النقل لم يكن ويا للأسف قد تجاوز هذا الحد ، فكان ضيق المجال محدود المساحة ، وقد كان من الواجب عليهم الاستعانة بتلك الموارد في علاقات العرب بالروم وفي موضوع النصرانية في بلاد العرب على الأقل،وهي موارد فيها مادة مفيدة في هذا الباب .

وأود أن أشير الى الخدمة التي أداها علماء الأخبار برجوعهم الى الشيّب والى حفظة أخبار القبائل من مختلف القبائل لجمع أخبار القبائل وأيامها وحوادثها قبل الإسلام . وقد وضعت في ذلك جملة مؤلفات ضاع أكثرها ويا للأسف ، ولم يبق منها الا الاسم،ولكننا نجد مع ذلك مادة غنية واسعة منها في كتب الأدب، أستطيع أن أقول انها أوسع وأنفع بكثير من هذه المواد المدونة المجموعة في كتب التأريخ . وهذا شيء غريب ، اذ المأمول أن تكون كتب التأريـخ أوسع مادة منها في هذا الباب ، وأن تأخذ لب ما ورد فيها مما يخص التأريخ لتضيفه الى ما تجمّع عندها من مادة . والظاهر ان المؤرخين ، ولا سيما المتزمتين منهم المتقيدين بالتأريخ على أنه حوادث – مضبوطة مقرونة بوقت وبمكان وبعيدة عن أسلوب الأيام والقصص ، رأوا أن ذلك المروي عن أخبار القبائل والأنساب وحوادث الشعراء هو ذو طابع أدبي أو طابع خاص لا علاقة له بالحكومات والملوك ، فلم يأخذوا به ، وتركوه ، لأنه خارج حدود موضوع التأريخ كما فهموه . وهو فهم خاطىء لمفهوم التأريخ ولمفهوم الموارد التي يجب أن يستعان بها لتدوينه . فأضاعوا بذلك مادة غزيرة لم يدركوا أهميتها وفائدتها اذ ذاك . واهمالهم لتلك الموارد هو من جملة مواطن الضعف التي نجدها عند أولئك المؤرخين . أما نحن، فقد وجدنا فيه ثروة تزيد كثيراً على الثروة الواردة في مؤلفات المؤرخين . واهمال المؤرخين لتلك الموارد هو من أسباب الضعف التي نجدها في فهمهم للمنابع التي يجب أن يستعان بها في تدوين التأريخ .

واذا كان القدامى قد أخطأوا في فهم معنى التأريخ ، ووقعوا من ثم في خطأ بالنسبة الى الموارد التي يجب أن يرجع اليهـا في تدوين تأريخ الجاهلية ، فعلينا يقع في الزمن الحاضر وعلى القادمين من بعدنا بصورة خاصة واجب مراجعة الموارد الأخرى من كتب في التفسير وفي الحديث وفي الفقه وفي الأدب وغير ذلك، لاستخراج ما فيها من مادة عن الجاهلية ، لأنها كما قلت أغزر مادة وأقرب الى

المنطق في بعض الأحيان في فهم الحوادث من كتب المؤرخين .

والغريب أن المستشرقين الذين عُرفوا بجدهم وبحرصهم على الاحاطة بكل ما يرد عن حادث ، أهملوا مع ذلك شأن الموارد المذكورة ، ولم يأخذوا منها الا في القليل . ولو راجعوها ، لكان ما جاؤوا به عن الجاهلية أضعاف أضعاف ما جاؤوا به وكتبوه ، ولكانت بحوثهم أدق وأعمق مما هي عليه الآن .

وفي طليعة من اشتغل برواية أخبار ما قبل الإسلام : عبيد بن شرية، ووهب ابن منبه ، ومحمد بن السائب الكلبي ، وابنه أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وآخرون . وبعض هؤلاء مثل عبيد بن شرية وكعب الأحبار ووهب ابن منبه ، قصاص أساطير ، ورواة خرافات ، وسمر مستمد من أساطير يهود، وأولئك وأمثالهم هم منبع الإسرائيليات في الإسلام .

فأما عبيد بن شرية ، فقد كان من أهل صنعاء (في رواية) أو من سكان الرقة (في رواية أخرى)[1] . وكان معروفاً عند الناس بالقصص والأخبار ، فطلبه معاوية ، فصار يحدثه بأخبار الماضين[2] . ومن الكتب المنسوبة اليه : كتاب الأمثال[3] ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين ، وقد طبع في ذيل (كتاب التيجان في ملوك حمير) المطبوع بحيدراباد دكن بالهند بعنوان (أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها)[4] وقد وضع الكتاب على الطريقة

---

١ الفهرست (ص ١٣٨) ، السجستاني : كتاب المعمرين (ص ٤٠) ، ياقوت : ارشاد (١٠/٥) و
Brockelmann, Bd., I, S., 64, Suppl., Bd., I, S., 100
Von Kremer Sudarabische Sage, 16-32, Muh. Stud., Bd., I, S., 183.

٢ (فامر به معاوية ، فانزله في قربه ، واخدمه ، وامر من يجري وظيفته ، ووسع عليه ، والطفه فاذا كان في وقت السمر فهو سميره في خاصته من أهل بيته . وكان يقص عليه ليله ، ويذهب عنه همومه ، وانساه كل سمير كان قبله ، ولم يخطر على قلبه شيء قط الا وجد عنده شيئا وفرحا ومرحا ، فاذا كان يحدثه وقائع العرب واشعارها واخبارها امر اهل ديوانه ان يوقعوه ويدونوه في الكتب . . .)، اخبار عبيد بن شرية الجرهمي في اخبار اليمن واشعارها وانسابها (ص ٣١٢ فما بعدها) .

٣ (كتاب الامثال نحو خمسين ورقة رايته) ، الفهرست (١٣٨) ، ارشاد (١٩٠/١٢) .

٤ طبع سنة ١٣٤٧ هـ ، ويرى المستشرق (كرنكو) ، ان الجامع له ابن هشام ، راجع ملحوظة ١ ص ٣١٢ .

التي تروى بها الأسمار وأيام العرب ، وفيه أشعار كثيرة وضعت على لسان عاد وثمود ولقمان وطسم وجديس والتبابعة[1] ، وفيه قصص اسرائيلي وشعبي يمثل في جملته السذاجة وضعف ملكة النقد ، وبساطة القص والقصة ، ومبلغ علم الناس في ذلك الوقت بأخبار الأوائل[2] .

وقد حصل (كتاب الملوك وأخبار الماضين) على شهرة بعيدة ، وطلب في كل مكان ، وكثرت نسخه ، ومع هذه الكثرة اختلفت نسخـــه ، حتى صعب العثور على نسختين متشابهتين منه[3] . وقد نقل الهمداني (المتوفى سنة ٣٣٤ للهجرة) بعض الأخبار المنسوبة الى عبيد[4] . ولما نقله ، أهمية كبيرة في تثبيت مؤلفات عبيد ، اذ يمكن مقابلته بما نشر ، ومطابقته بما طبع ، فيمكن عندئذ معرفة ما اذا كان هناك اتفاق أو اختلاف . ويمكن عندئذ تعيين هوية المطبوع .

والطابع الظاهر على أخبار عبيد ، هو طابع السمر والقصص والأساطير المتأثرة بالاسرائيليات . وأما الشعر الكثير الذي روي على أنه من نظم التبابعة وغيرهم ، وفيه قصائد طويلة ، فلا ندري أمن نظمه أم من نظم أشخاص آخرين قالوها على لسان من زعموا أنهم نظموها ، أو أنها اضيفت فيما بعد الى الكتاب ونسبت روايتها الى عبيد ؟ وعلى كل فإنها تستحق توجيه عناية الباحثين الى البحث عن زمن ظهورها وأثرها في عقلية أهل ذلك الزمن .

وأما (وهب بن منبه) ، فقد كان من أهل (ذمار)،وكان قاصاً أخبارياً ، من الأبناء ، ويقال انه كان من أصل يهودي ، واليه ترجع أكثر الاسرائيليات المنتشرة في المؤلفات العربية . وقد زعم أنه كان ينقـــل من التوراة ومن كتب بني اسرائيل ، وانه كان يقول : (قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعـــين كتاباً) ، وانه كان يتقن اليونانية والسريانية والحميرية ، ويحسن قراءة الكتابات القديمة الصعبة التي لا يقدر أحد على قراءتهـــا[5] . قال المسعودي : (وُجد في

---

١ Muh. Stud., Bd., 2, S., 204.

٢ دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية (ص ٤٨٣) .

٣ مروج الذهب (١٥٣/٢) (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد)
Muh. Stud., Bd., I, S., 182. f., Brockelmann, Bd., I, S., 64. Wustenfeld Geschichte. S., 5, Lidsbarski, De Propheticis qu. d. Legendis Arabicis, Leipzig, 1893, 1-2.

٤ الاكليل (طبعة الكرملي) ، (١٨،٧١/٨ ، ٢١٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ومواضع اخـــرى) .

٥ ارشاد الاريب (٢٣٢/٧)

حائط المسجد[1] لوح من حجارة ، فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته ، فوجّه به الى وهب بن منبه ، فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان بن داوود ، عليهما السلام ، فقرأه ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن آدم ، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك ، لزهدت فيما بقي من طول أملك ، وقصرت عن رغبتك وحيلك ، وانما تلقي قدمك ندمك اذا زلّت بك قدمك ، وأسلمك أهلك ، وانصرف عنك الحبيب ، وودعك القريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب ، فلا أنت الى أهلك عائد ، ولا في عملك زائد ، فاغتنم الحياة قبل الموت ، والقوة قبل الفوت ، وقبل أن يؤخذ منك بالكظم ، ويحال بينك وبين العمل . وكتب في زمن سليمان بن داوود[2]) .

وفي كتاب (التيجان في ملوك حمير) رواية ابن هشام نماذج لقراءته ، وهي على هذا النسق الذي يدل على سخريته بعقول سامعيه ان كان ما نسب اليه حقاً، وأنه قرأه عليهم صدقاً ، ومن يدري ؟ فلعله كان لا يعرف حروف اليونانية ، ولا يميز بينها وبين الأبجديات الأخرى . ثم هل يعجز أهل دمشق عن قراءة نص يوناني أو سرياني أو عبراني وقد كان فيها في أيام وهب بن منبه علماء فطاحل حذقة بهذه اللغات هم نفر من أهل الكتاب ؟

والذي يهمنا من أمر (وهب بن منبه) أخباره عن الجاهلية . ولوهب أخبار عن اليمن والأقوام العربية البائدة ، ونجد روايته عن نصارى نجران وتعذيب (ذي نواس) إياهم ، وقصة الراهب (فيميون) مطابقة للروايات النصرانية ولما جاء في كتاب (شمعون الأرشامي) عن هذا الحادث[3] . والظاهر أنه كان قد أخذها من المؤلفات النصرانية أو من أشخاص كانوا قد سمعوا بما ورد عن حادث (نجران) من أخبار . وقد ذكر أن وهباً كان يستعين بالكتب ، وأن أخاه (همام بن منبه بن كامل بن شيخ اليماني) أبا عقبة الصنعاني الأبناوي ، كان يشتري الكتب لأخيه[4] . ولعله استقى أخباره عن بعض الأمور المتعلقة

---

١ يعني مسجد دمشق ، وذلك في ايام الخليفة الوليد .
٢ مروج الذهب (١٥١/٢ وما بعدها) . (طبعة عبد الرحمن محمد) .
٣ راجع الطبري (١٠٣/٢) ، ايضا ما كتبته فيه في الجزء الاول من مجلة المجمع العلمي العراقي في (موارد تاريخ الطبري) سنة ١٩٥٠ م .
٤ تهذيب التهذيب (٦٧/١١) ، ابن سعد (٣٩٥/٥) .

بالنصرانية مثل مولد وحياة المسيح من تلك الموارد ، أو من اتصاله بالنصارى[1]. أما ما ذكره عن التبابعة والعرب البائدة ، فإنه قصص . وأما علمه بأخبار العرب الآخرين ، فيكـــاد يكون صفراً ، فلا نجد في رواياته شيئاً يعد تأريخاً لعرب الحيرة أو الغساسنة أو عرب نجد . فهو في هذا الباب مثل (عبيد بن شرية) من طبقة القصاص . لم يصل الى مستوى أهل الأخبار ، ولعله وجد نفسه ضعيفاً في التأريخ وفي أخبار العرب ، فمال إلى شيء آخر لا يدانيه فيه أحـــد ، وهو مرغوب فيه مطلوب ، وهو القصص الإسرائيلي ، ومـــا يتعلق بأقوام ماضين ، ذُكروا في القرآن الكريم ، وكانت بالمسلمين الأولين حاجة إلى من يتحدث لهم عن ذلك القصص وأولئك الأقوام .

ومن الكتب المنسوبـــة الى وهب (كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم)[2] ، وقـــد تناول أخبار التبابعة . والظـــاهر أن (كتاب التيجان في ملوك حمير) الذي طبع في الهند[3] ، رواية ابن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (المتوفى سنة ٢١٣ أو ٢١٨ هـ) قـــد استند اليه ، بعـــد أن أضاف اليه أخباراً أخذها من مؤلفات محمد بن السائب الكلبي[4] وأبي مخنف لوط بن يحيى[5] وزياد بن عبدالله بن الطفيل العامري أبي محمد الكوفي المعروف بالبكائي رواية ابن اسحاق[6]. وهو خليط من الإسرائيليات والقصص

---

١ تفسير الطبـــري (١٤٧/٣ ، ١٧٧) ، (مولـــد المسيح وحياتـــه) ، (٤٣/١٦) (الحمل) ، المذاهب الاسلامية في تفسير القران تأليف (كولدتزهير) ، ترجمة علي حسن عبد القادر ، ص ٨٨ ، تاريخ الطبري (١٠٢/١) ، تفسير الطبري (٤٣/١٦) ، مجلة المجمع العلمي العراقي (١٩٠/١) ، Ency., Vol., 4, P., 1084

٢ ارشاد (٢٣٢/٧) ، (كتاب الملوك المتوجة من حمير واخبارهم وغير ذلـــك) ، وعثر على مجموعة من اوراق مخطوطة في خزانة كتب (هايدلبرك) بالمانية ، راى (بيكر) انها جزء من كتاب في المغازي ، ينسب الى وهب بن منبه ،
C.H. Becker, Papyri Schott-Reinhardt, I., 8, Fuck, Muhammad ibn Ishaq, S., 4, Ency., Vol. 4, P., 1084. f.

٣ في حيدرآباد دكن سنة ١٣٤٧ هـ ، وبذيله (كتاب اخبار عبيد بن شرية الجرهمي في اخبار اليمن واشعارها وانسـابها) ، وقد مر ذلك .

٤ التيجان ص ١٣٢ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ومواضع اخرى .

٥ التيجان ص ١٢٥ ، ١٨٠ ومواضع اخرى .

٦ التيجان ص ٧٥،٦٦ ، ومواضع اخرى . راجع عن البكائـــي : لسان الميـــزان (٨٣٦/٦) ، سيرة ابن هشام (تحقيق محمد محـي الدين عبـــد الحميـــد) ، (١٦/١) ، وكتاب الكنى والالقاب (٨٢/٢) لعباس بن محمـــد رضا القمـــي ، طبع مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٥٨ هـ .

اليماني ومن مواد أخرى قد تكون من وضعه ، أو من صنعة آخرين ، صنعوها قبله ، فأخذها من ألسنة الناس ، مثل تلك القصائد والأشعار الكثيرة المنسوبة الى التبابعة وغيرهم . وقد أورد في الكتاب أسماء أخذت من التوراة ذكرها بنصها كما تلفظ بالعبرانية ، مما يبعث على الظن أنها أخذت من مورد يهودي[1] . وأما سائر الأخبار الواردة في الكتاب ، فالغالب عليها السذاجة ، اذ لا نجد فيها عمقاً ولا مادة تأريخية غزيرة كالمادة التي نجدها في مؤلفات ابن الكلبي ، وفي مؤلفات الهمداني الذي عاش بعده .

وأودّ أن ألفت أنظار العلماء الى أهمية روايات (وهب بن منبه) وأخباره بالنسبة الى من يريد الوقوف على الدراسات التوراتية والتلمودية في ذلك العهد ، ففيها فقرات كثيرة زعم (وهب) أو آخرون قالوا ذلك على لسانه ، أنها قراءات أي ترجمات أخذت من التوراة ومن كتب الله الأخرى . واذا ثبت بعد مقابلتها بنصوص التوراة والتلمود والمشنا وغيرها من كتب اليهود ، انها من تلك الكتب حقاً ، وانها ترجمات صحيحة ، فنكون قد حصلنا بذلك على نماذج قديمة لمواضع من تلك الكتب قد تفيد في ارشادنا الى ترجمات أقدم منها ، كما تعيننا في الوقوف على النواحي الثقافية للعرب في ذلك العهد .

ولأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦هـ، فضل كبير على دراسات تأريخ العرب قبل الإسلام ، فأغلب معارفنا عن هذا العهد تعود اليه[2] . وقد سلك مسلكاً جعله في طليعة الباحثين في الدراسات الآثارية

---

١ راجع ما كتبه (كرنكو) عن الكتابين : كتاب التيجان وكتاب اخبار عبيد، في مجلة: (The Islamic Culture) المجلد الثاني بعنوان : (The Two Oldest Books on Arabic Folklore) ، دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ص ٤٨٤ مادة : (تأريخ) .

٢ والده ابو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ هـ ، من علماء الكوفة بالتفسير والاخبار والانساب ، الفهرست ١٣٩ ، الاغاني (١٦/٩) ، (٤٨/١١) (١٦١/١٨) ، ابن سعد : الطبقات (٢٥٠/٦) ، ابن خلكان : وفيات (١٣٤/٣ وما بعدها) ، ارشاد (٢٥٠/٧) ، تذكرة الحفاظ (٣١٣/١) ، تاريخ بغداد (٤٥/١٤ وما بعدها) ، انباري : نزهة الالباء في طبقات الادباء (١١٦) ، تهذيب التهذيب (١٧٨/٩) ، كتاب الاصنام ، تحقيق احمد زكي باشا ، Ency., vol., 2, P., 689, Muh. Stud., I, S., 186, Noldeke Gesch. der Araber und Perser, S., XXVII, ZDMG., XLIII, Brockelmann, Bd., I, S., 211.

عند المسلمين ، برجوعه الى الأصول ، واعتماده على المراجع التأريخية ، متبعاً سبيلاً تختلف عن سبيل أهل اللغة في البحث ، وهو ــ بطريقته هذه ــ قريب من طريقة المؤرخين في تدوين التأريخ[1] .

ولكنه لم يخل مع ذلك من مواطن الضعف التي تكون عادة في الأخباريين ، مثل سرعة التصديق ، ورواية الخبر على علاته دون نقد أو تمحيص . وقد اتهم بالوضع والكذب[2] . ولذلك تجنب جماعة من العلماء الرواية عنه ، وقالوا عن بعض أسانيده أنها سلسلة الكذب[3] . وذهب (بروكلمن) الى أن ما اتهم عليه ابن الكلبي لم يكن كله صحيحاً ، وأن البحوث العلمية التي قام بها المستشرقون دلتهم على أن الحق كان في جانبه في كثير من المواضع التي اتهم عليها[4] .

وأنا لا أريد أن ابرئه من الوضع أو من تهمة أخذه كل ما يقال له ، ولا سيا إذا كان القائل من أهل الكتاب ، دون مناقشة ولا ابداء رأي . ففي المنسوب اليه شيء كثير من الإسرائيليات والقصص الممسوخ الذي يدل على جهل قائله أو استخفافه بعقل السامع وعلمه ، مثل اختراع سلاسل من النسب زعم أنها واردة في التوراة،أو عند أهل النسب ، مع ان الوضع فيها بيّن واضح،وهي غير واردة في التوراة ولا في التلمود . ولعلّ حرصه على الظهور بمظهر العالم المحيط بكل شيء من أخبار الماضين ، هو الذي حمله على الوضع ، وقد وضع غيره من أقرانه شعراً ونثراً ، وصنع قصصاً ، ليتفوق بذلك على أقرانه وخصومه،وليظهر بمظهر العالم الذي لا يفوته شيء من العلم .

---

١ Brockelmann, Bd., I, S., 138.

٢ لسان الميزان (٦/١٩٦ فما بعدها) ، تذكرة الحفاظ (١/٣١٣) ، الاغاني (٩/١٩) ، (وهذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبي ، والتوليد فيه بين ، وشعره شعر ركيك غث لا يشبه اشعار القوم ، وانما ذكرته لئلا يخلو الكتاب من شيء قد روي) ، الاغاني (١٨/١٦١) .

٣ مثل سنده عن ابي صالح عن ابن عباس ، ووجد من دافع عنه ، ارشاد (٢/١٥٨) .

٤ Brockelmann, I, S., 139, Noldeke, Ubers. d. Tabari, XXVII, Ency., 2, P., 689.

وقد عالج بعض الباحثين زعم « ابن الكلبي » أنه كان يستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ومبالغ أعمار من عمل منهم ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة ، فرأى أن كتابات أهل الحيرة كانت بالكتابة النبطية وبالأرقام النبطية ، كما أثبت ذلك نص « النمارة » أيضاً ، وأن « ابن الكلبي » لم يكن يحسن قراءة النبطية ولم يفهمها ، وعندما حاول قراءتها لم يتمكن من ذلك فوقع في أوهام ، وجاء بأمثلة على ذلك تتعلق بما ذكره « ابن الكلبي » من مدد حكم أولئك الملوك ، فوجد أنه لم يميز مثلاً بين الرقم « ٢٠ » والرقم « ١٠٠ » وذلك لتشابه شكل الرقم الأول مع شكل الرقم الثاني في النبطية ، فقرأ العشرين مئة ، فزاد سني حكم الملوك . ومن هنا أخطأ في ضبط مدد حكم ملوك الحيرة ، ولا سيما بالنسبة للقدامى منهم ، لأن الكتابات النبطية المتقدمة لم تكن مثل الكتابات النبطية المتأخرة في قربها من الأبجدية العربية القديمة[١] .

هذا ولم يُبحث موضوع أخذ « ابن الكلبي » من بيع الحيرة حتى الآن بحثاً علمياً مركزاً . وهو موضوع أرى أنه جدير بالدراسة والعناية . وحري بأن يقارن ما ذكره « ابن الكلبي » بما جاء في الموارد النصرانية عن « آل نصر » ، لنرى مقدار الصحة من الخطأ في فهم « ابن الكلبي » لتلك الموارد التي ذكر أنه قرأها وانه استعان بها في جمع تأريخ عرب العراق قبل الإسلام .

ولم يبق من القائمة الطويلة التي ضمنها (ابن النديم) مؤلفات ابن الكلبي غير قليل[٢] . وهي في المآثر والبيوتات والمنافرات والمؤودات وأخبار الأوائل ، وفيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية ، وفي أخبار الشعر وأيام العرب ، والأخبار والأسماء والأنساب[٣] .

وهناك بعض الشبه بين بحوث أبي عبيدة (المتوفى سنة عشر

١ Die Araber, IV, S., 3. f.

٢ الفهرست ١٤٠ ، ارشاد (٢٥١/٧) ،
Brockelmann, I, S., 138, Suppl., I, S., 211. f.

٣ الفهرست ١٤٠ ، وفيات الاعيان (٢٥٨/٢) ، (قال ياقوت في معجم البلدان ٢ : ١٥٨ : لله دره ما تنازع العلماء في شيء من أمور العرب ، الا وكان قوله اقوى حجة ، وهو معذلك مظلوم وبالقوارض مكلوم) ، تأريخ الادب العربي لكارل بروكلمان (٣١/٣) ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

ومائتين)[1] الذي كان له علم بالجاهلية،ومصنفات وبحوث في القبائل والأنساب[2] ، وبين ابن الكلبي في اتجاهه ومناحيه . ولكنــه دونه في أخباره عن الجاهلية ، ومؤلفاته في أمور الجاهلية لا تعدّ شيئاً بالنسبة الى ما ينسب الى ابن الكلبي من مؤلفات ، كما ان أخباره ورواياته عنها قليلة بالنسبــة الى أخبار ابن الكلبي ورواياته .

وهناك عــدد آخر من العلماء ، كالأصمعي ، و (الشرقي بن القطامي)[3] ، وسائر من اشتغل بالأنساب واللغة والأدب ، كان لهم فضل كبير في جمع أخبار الجاهليــة المتصلة بالإسلام ، وقد تولدت من شروحهم وأماليهم وكتبهم ثروة تاريخية قيمة لم ترد في كتب التاريخ . ولكن عرض أسمائهم هنا وذكر بحوثهم ومؤلفاتهم يضطرنا الى كتابة فصول طويلة عن جهودهم وأتعــابهم وعن ضعف رواياتهم أو قوتها ، وذلك يخرجنا عن حــدود كتابنا ، ولهذا اكتفي هنا بمـا كتبت وذكرت ، عــلى أن أتعرض لآراء الباقين في المواضع التي ترد فيها ، فأشير الى صاحبها والى روايته عن الحادث . ولكن لا بـد لي من التحدث عن عالمين من علماء اليمن ، ألّفا في تأريخ اليمن القديم ، وجاءا بمعلومات ساعدتنا كثيراً في توسيع معارفنا بالأماكن الأثرية هناك،إذْ أشارا الى أسماء أبنية ومواضع ، وشخصا أمكنة ، ووصفا عاديات رأياها ، فأفادنا بذلك فائدة كبيرة .

أما أحدهمـا ، فهو الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمــد بن يعقوب بن يوسف المتوفى سنة ٣٣٤هـ[4] . أو بعد ذلك كما ذهب الى ذلك الحوالي[5] . وأما

---

١ (وقيل احدى عشرة ، وقال ابو سعيد : سنة ثمان ، وقيــل سنة تســع .) ، (أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي) ، (وقيل : كان شعوبيا يطعن في الانساب) الفهرست (ص ٧٩) ، ارشاد (١٦٥/٧) .

٢ Ency., Vol., I, S., 195, Flugel, Die Grammatischen Schulen, S., 68, Brockelmann, 1, S., 103.

٣ وقد اتهم بالوضع والتلفيق ، الفهرست (ص ١٣٢) .

٤ واجع عن الهمداني : تأريخ اداب اللغة العربية (٢٠٤/٢) ، ابن القفطي : تأريخ الحكماء (اخبار الحكماء) ، (طبعة Lippert) ، ١١٣ ، ارشاد (٩/٣) ، السيوطي :بغية الوعاة (٢١٧) ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : الجزء الاول من المجلد الخامس والعشرين سنة ١٩٥٠ ص ٦٢ ، مقالة للسيد حمـد الجاسر بعنوان : (الجزء العاشر من الاكليل) . Brockelmann, I, S., 229, Suppl., I, S., 409, Ency., 2 P., 246, Muller, Sudarab. Stud., 170. واشتهر بـ (ابن الحائك) وبـ (ابن أبي الدمينة) ، الاكليل (٢٩٧/٨) طبعــة الكرملــي .

٥ محمد بن علي الاكوع الحوالي ، محقق الجزء الاول من كتاب الاكليل للهمــداني الاكليل (٦٠/١) .

الآخر ، فهو (نشوان بن سعيد الحميري) ، المتوفى سنة ٥٧٣ ﻫ .

لقد بذل الهمداني مجهوداً يقدر في تأليف كتبه وفي اختيار موضوعاته،وسلك في بحوثه سبيلاً حسناً بذهابه بنفسه الى الأماكن الآثارية وبوصفه لها في كتبه ، فأعطانا بذلك صوراً لكثير من العاديات التي ذهب أثرها واختفى رسمها ، بل طمست حتى أسماء بعضها . وبمحاولته قراءة المسند وترجمته الى عربيتنا،للوقوف على معناها ومضمونها ، يكون قد استحق التقدير والثناء ، لأن عمله هذا يدل على ادراكه لأهمية الكتابات في استنباط التواريخ . على أننا يجب أن نذكر أيضاً أن الهمداني لم يكن أول من عمد الى هذه الطريقة ، طريقة قراءة الكتابات لاستنباط التواريخ منها ، فقد سبقه غيره في هذه القراءات ، وكانوا مثله يبغون الوقوف على ما جاء فيها ، ومعرفة تواريخها . وقد أشار (الهمداني) نفسه اليهم وذكرهم بأسمائهم ، مثل (أحمد بن الأغر الشهابي من كندة) و (محمد ابن أحمد الأوساني) و (مسلمة بن يوسف بن مسلمة الخيواني) وغيرهم[١] . فهم مثله يستحقون الثناء والتقدير أيضاً ، وهم بطريقتهم هذه في جمع مادة التأريخ يكونون على شاكلة الآثاريين المحدثين في ادراك أهمية دراسات الآثار والكتابات بالنسبة الى اكتشاف تواريخ العاديات ، وهم بطريقتهم هذه يكونون قد فاقوا غيرهم من المؤرخين العرب في الأمكنة الأخرى بهذه الطريقة ، فقلما نجد مؤرخين في الأماكن الأخرى لجأوا الى دراسة الآثار ودراسة الكتابات ووصف الأمكنة الآثارية لاستنباط التواريخ منها كما يفعل الآثاريون في الزمن الحاضر .

وقد أثنى الهمداني بصورة خاصة على أستاذ له أخذ منه ، فوسمه بأنه (شيخ حمير ، وناسبها ، وعلامتها ، وحامل سفرها ، ووارث ما ادخرته ملوك حمير خزائنها من مكنون علمها ، وقارىء مساندها ، والمحيط بلغاتها)[٢] وسمّاه (أبا نصر محمد بن عبدالله اليهري) . وقال انه كان مرجعه فيما كان يشكل عليه من أخبار أهل اليمن ، والمنبع الذي غرف منه علمه بأحوال الماضين ، الى أن قال: (وكان بحاثة ، قد لقي رجلاً وقرأ زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية ، فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل،فخففتها العرب ،

---

١ الاكليل (١٠/١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ١١١) .
٢ الاكليل (١/٩) .

وأبدلت فيها الحروف الذلقية ، وسمع بها النـــاس مخففة مبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفّر ، خال الجاهل انه غير ذلك الاسم ، وهو هو . فما أخذته عنه ، ما أثبته هنا في كتابي هذا من أنساب بني الهميسع بن حمير وعدة الأذواء وبعض ما يتبع ذلك من أمثال حمير وحكمها ، إلا ما أخذته عن رجال حمير وكهلان من سجل خولان القديم بصعدة ، ومن علماء صنعاء وصعدة ونجـران والجوف وخيوان وما أخبرني به الآباء والأسلاف)[1] .

وللاحظة (الهمْداني) على الأسماء اليمانية القديمة ، وثقلها عـلى ألسنة الناس في أيامه وقبل أيامه ، شأن كبير ، إذْ ترينا أن لسان أهل اليمن كان قد تغير وتبدل ، وأن ذلك التغير قد تناول حتى الأسماء ، فصارت الأسماء القـديمة ثقيلة على أسماعهم ، غليظة الوقع عليهم ، فخففوها أو بدّلوها ، والواقع أننا نشعر من المسانـد المتأخرة التي وصلت الينا وقد دُونت في عهود لا تبعـد كثيراً عن الإسلام ، ومن الموارد الإسلامية أن الأسماء اليمانية المدوّنة في كتابات المسند التي يرجع عهدها الى ما قبل الميلاد ، هي أسماء أخذت تقل في كتابات المسند المدونة بعد الميلاد إلى قبيل الإسلام ، وأن أسماء أخرى جديدة أخف على السمع حلت محل الأسماء المركبة القديمة . وفي هذا التطور ، دلالة على حدوث تغير في عقلية أهل اليمن بعد الميلاد ، وعلى حصول تقارب بين لغتهم ولغة أهل الحجاز وبقية العرب الذين يسميهم المستشرقون (العرب الشماليين) .

وقـد حملني قول الهمداني إنه أخذ أخبار رجال حمير وكهلان من (سجل خولان القديم بصعدة)[2] ، على مراجعة متن الجزء الأول من الاكليل للوقوف على الأماكن التي اعتمد فيها على هـذا السجل ، لأتمكن بها من تكوين رأي عنه ، ومن الحصول على فكرة عما جاء فيه . وقد وجدته يقول في موضع منه: (وقرأت في السجل الأول : أولد قحطان بن هود أربعة وعشرين رجـلاً ، وهم : يعرب ، والشلف الكبرى ، ويشجب ، وأزال وهو الذي بنى صنعاء ، ويكلي الكبرى ، بكسر اليـاء ، وخولان : خولان رداع التي في القفـاعة ، والحارث وغوثـا ، والمرتاد ، وجُرهما ، وجديسا ، والمتمنع ، والملتمس ، والمتغشمر ، وعبادا ، وذا هوزن ، ويمنا ، وبه سميت اليمن ، والقطـاميّ ،

---

١ الاكليل (١/١٣ فما بعدها) .
٢ المصدر نفسه

ونبانة ، وحضرموت ، فدخلت فيها حضرموت الصغرى ، وسماكاً ، وظـالماً ، وخياراً ، والمشفتر[1]) . ووجدته يقول في موضع آخر :(وأصحاب السجل يقولون مثل قول بعض الناس فيما بين عدنان واسماعيل)[2] ، ووجدته يقـول : (وفي سجل خولان وحمير بصعدة : أولد مهرة الآمري ، والدين ، ونادغم،وبيدع...)[3] ويقول في (باب نسب خولان بن عمرو) ، (فهذه الآن بطونها على ما روى رجال خولان وحمير بصعدة . وقد سكنت بها عشرين سنة ، فأطللت على أخبار خولان وأنسابها ، ورجالها كما أطللت على بطن راحتي ، وقرأت بها سجل محمد ابن أبان الخنفري المتوارث من الجاهلية ، فن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب، ومنها ما دخل في كتاب الأيام)[4] . وقال في موضع : (وقال بعض وضعـة السجل ونساب الهميسع)[5] . ويتبين من هذه الملاحظات أن السجل المشار اليه هو مجموعة أجزاء ، وضعها جملة أشخاص،كل جزء سجل قائم بذاته في الأنساب، وهو متفاوت الأزمنة ، ويشمل القبائل والناس . وقد جمعت جمعاً ، على طريقة رواة النسب في رواية الأنساب . ولا استبعد أن يكون السجل قد وضع في صدر الإسلام ، حينما شرع في أيام (عمر) بتسجيل النسب في ديوان . فدوّنت عندئذ أنساب القبائل ، ورجع في ذلك إلى ما كان متعارفاً عليه من النسب في الجاهلية الملاصقة للإسلام وفي صـدر الإسلام ، ثمّ أكمل على مرور الأيام . ولذلك تعددت الأيدي في كتابته ، وصار على شكل فصول في أنساب القبـائل ، كل سجل في نسب قبيلة وما يتفرع منها . والطابع البارز عليه هو الطابع اليماني المحلّي المتأثر بالروايات التوراتية عن(اليقطانيين) ، الذين صُيروا قحطانيين بتأثير روايات أهل اليمن من أهل الكتاب وعلى رأسهم كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وربما من أناس آخرين سبقوهم ، ومن الروايات اليمانية المحلية التي تعارف عليها أهل اليمن في أنساب قبائلهم آنئذ . ولهذا نجد الطابع اليماني المحلي بارزاً في مؤلفـات أهل اليمن التي نقل منها الهمداني وأمثاله ، ولا نجدها على هذا النحو في مؤلفات

---

1 الاكليل (١/١٣١ وما بعدها)
2 الاكليل (١/١٣٦) .
3 الاكليـل (١/١٩٣) .
4 الاكليل (١/١٩٩) .
5 الاكليل (١/٣٥٥) ، « قال أهل السجل » ، الاكليل (٢/١٦١) .

النسابين الشماليين الذين ينسبون أنفسهم الى اليمن مثل (ابن الكلبي) وأضرابه ، لأنهم كانوا بعيـــدين عن اليمن ، فعلمهم بالروايات اليمانية ، ولا سيما روايات أهل حمير وصعدة وخولان وصنعاء وغيرهم من النسابين المحليين، لذلك ، قليل .

وقد أورد الهمداني في الجزء الثاني من كتابه « الإكليل » جملة تدل على أن « السجل القديم » الذي يشير اليه في كتابـــه ، كان سجـــل نسّابة عرف بـ « ابن أبان » ، اذ يقول : « قال الهمداني : قال علماء الصعديين وأصحاب السجل القديم : سجل ابن أبان »[1] . ولعـل « ابن أبان » كان قد وضعـــه وجمعه في أبواب ، ثم جاء جمع من النسّابين فأضافوا عليه فصولاً جديدة في الأنساب ، وعرف الكتاب كله وبجميـــع فصوله بـ « السجل » . وقد كان أصحاب السجل من أهل صعدة ، لما ذكره الهمداني من قوله : « عن الصعديين من أصحاب السجل »[2] .

وكان « الهمداني » ، قد نص في الجزء الأول من « الإكليـل » على أن ذلك السجل ، هو سجل « محمد بن أبان الخنفري » ، وذلك في أثناء حديثـه على بطون « صعدة » ، إذ قال : «فهذه الآن بطونها على ما روى رجال خولان وحمير بصعدة . وقد سكنت بها عشرين سنة، فأطلت على أخبار خولان وأنسابها ورجالها، كما أطلت على بطن راحتي ، وقرأت بها سجل محمد بن أبان الخنفري المتوارث من الجاهلية ، فمن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب ، ومنها ما دخل في كتاب الأيام »[3] . ويفهم من هذا النص ، أن السجل المذكور هو سجـــل « محمد بن أبان » وكان يحفظه ، وقد ورثه من الجاهلية .

ويظهر من اشارات « الهمداني » اليه ، انـه قصد بهذا السجل « السجـــل القديم » ، وأما السجلات الأخرى ، فقد كانت من وضع علماء آخرين من علماء النسب كانوا بمدينة صعدة ، وقد جمعوا أنساب خولان وحمير وقبائل أخرى ، وأضافوها على شكل مشجرات نسب الى ذلك الديوان ، فصار مجموعة سجلات . ولهذا كان ينبّه « الهمداني » الى الموارد التي كان يستقي منها من غـــير ذلك السجل ، كالذي ذكره من « أنساب بني الهميسع بن حمير » ، اذ قال : « الا

١ الاكليل (٢/ ١٤) .
٢ الاكليل (٢/ ١٦) .
٣ الاكليل (١/ ١٩٩) ، « وفي سجل خولان وحمير بصعدة » (١/ ١٩٣) .

ما أخذته عن رجال حمير وكهلان من سجل خولان القديم بصعدة وعن علماء صنعاء وصعدة ونجران والجوف وخيوان وما أخبرني به الآباء والأسلاف »[1] .

وأما ما يذكره « الهمداني » من أن أصل السجل القديم وأساسه جاهلي ، فأمر لا أريد أن أبتّ فيه الآن . لا أريد أن أنفيه ، ولا أريد أن أثبته أيضاً . بل أقف منه موقف المحايد الحذر ، لأني لا أجد في المنقول منه في كتاب « الاكليل » ما يشير الى جاهلية وأصل جاهلي ، فالمشجرات المذكورة هي من هذا النوع المألوف الذي نراه في كتب الأنساب المؤلفة في الإسلام، وبعضه متأثر بروايات التوراة ، ولهذا فأنا لا أستطيع أن أرجعه الى ما قبل الإسلام ، ولا أستطيع أن أتبحر فيه وفي أصله ما دمت لا أملك « السجل » نفسه ، لا القديم منه ولا الجديد ، أو نصوصاً طويلة أخذت منه ، حتى يسهل عليّ الحكم من قراءتي لما ورد ومن دراسته على أصل ذلك الكتاب وصحة نسبته الى الجاهلية .

وأما « الخنفري » ، صاحب السجل ، فهو : « محمد بن أبان بن ميمون ابن حريز الخنفري »[2] . ولد في ولاية معاوية بن أبي سفيان في سنة خمسين ، وتوفي في سنة خمس وتسعين ومائة ، ودفن في رأس « حدبة صعدة »[3] . هذا ما رواه « الهمداني » عنه . وذكر « الهمداني » انه عاش « ١٢٥ » سنة ، ولو أخذنا بهذا الرقم الذي ذكره « الهمداني » ، فيجب أن تكون سنة وفاته « ١٧٥ » ، لا « ١٩٥ » للهجرة . ولذلك ، فيجب أن يكون في تأريخ المولد أو الوفاة وربما في مدة عمر « الخنفري » خطأ . واني أشك في طول ما ذكره عن عمره .

وكان لغير أهل صعدة كتب في الأنساب أيضاً ، دوّنوا فيها أنسابهم ، كما كان هنالك نسابون حفظوا أنساب قبائلهم أشار « الهمداني » اليهم في مواضع من كتابه[4] . وهم من غير أصحاب السجل . وكان بعض منهم قد قابل بين ما دوّنه عن القبائل وبين ما دوّن في السجل عنها، كما كان أهل السجل يعرضون

---

١ الاكليل (١٣/١ فما بعدها) .
٢ اكليل (١٩٩/١ ، ٢٢٧) ، الاكليل (١١٨/٢) .
٣ الاكليل (١١٩/٢) .
٤ الاكليل (١٠٢/٢ ، ١٩٤) ، « قال الهمداني : فخبرني محمد بن احمد القهبي السمسار وكان خبيرا بالخطيين » ، الاكليل (٦٥/٢) .

ما دوّنوه عن القبائل على نسّابيها لبيان رأيهم فيها . قال الهمداني « بطون الصدف، من الصعديين من أصحاب السجل، مقروء على بعض نسّابة الصدف »[1] .

ونجد في الجزء الثامن من الإكليل مواضع ذكر فيها الهمداني (أبا نصر) أيضاً . وقد راجعتها وراجعت الأماكن التي أشير فيها اليه في الجزء الأول، فتبين لي أن علم (أبي نصر) بتأريخ اليمن القديم هو على هذا الوجه : احاطة بأنساب القبائل اليانية على النحو الذي كان شائعاً ومتعارفاً في أيامه ومسجلاً في سجلات الأنساب في تلك الأيام ، ورواية للأساطير التي راجت عن التبابعة ، وأخذ من موارد تورانية ظهرت في اليمن من وجود اليهود فيها قبل الإسلام .

أما علمه بالمساند ومدى وقوفه عليها ، فأنا أعتقد أن علمه بها لا يختلف عن علم غيره من أهل اليمن : وقوف على الحروف ، وتمكن من قراءة الكلمات ، واحاطة عامة بالمسند . أما فهم النصوص واستنباط معانيها بوجه صحيح دقيق ، فأرى أنه لم يكن ذا قدرة في ذلك ، وهو عندي في هذا الباب مثل غيره من قراء الخط الحميري . ودليلي على ذلك أن القراءات المنسوبة اليهم هي قراءات لا يمكن أن تكون قراءات لنصوص جاهلية ، وإن تضمنت بعض أسماء يمانية قديمة ، لسبب بسيط، هو أن أساليبها ومعانيها ونسقها لا تتفق أبداً مع الأساليب والمعاني المألوفة في الكتابات الجاهلية، فقراءات أبي نصر وأمثاله قراءات بعيدة جداً عن النصوص المعهودة ، هي قراءات إسلامية فيها زهد وتصوف وتوحيد وحض على الابتعاد عن الدنيا . أما نصوص المسند التي عثر عليها حتى الآن ، فإنها نصوص وثنية لا تعرف هذه المعاني ، وأسلوبها في الكتابة لا يتفق مع ذلك الأسلوب . وهي في أمور أخرى شخصية أو حكومية لا صلة لها بمثل هذه الآراء والمعتقدات .

وقد أورد (الهمداني) نصاً قال إنه قراءة من قراءة (أبي نصر) فيه نسب (عابر) ، هذا نصه : (قال أبو نصر : الناس يغلطون في عابر ، وهو هود بن أيمن بن حلجم بن بضم بن عوضين بن شدّاد بن عاد بن عوص بن إرم بن عوص بن عابر بن شالخ . وذكر أنه وجد هذا النسب في بعض مساند

1 الاكليل (١٦/٢) .

حمير في صفاح الحجارة)[1] . وقارىء هذا النص الذي هو مزيج من رواية توراتية ومن إضافة غريبة ، يخرج من قراءته ، برأي واحد هو أن (أبا نصر)، كان لا يتوقف عن نسبة أمور من عنده إلى المساند ، فيحملها ما لا يعقل أن تحمله أبداً . فلو كان النص حميرياً صحيحاً مأخوذاً من التوراة ، لكان النسب على نحو ما ورد في التوراة ، ولو كان صاحبه وثنياً لا يدين بدين سماوي ، فإنه لا يعقل أن يخلط فيه هذا الخلط .

ولكنني لا أريد هنا أن أكتفي بتقديم التقدير الى الهمداني والى الباقين من علماء اليمن الذين سبقوه أو جاؤوا من بعده والثناء على طريقتهم المذكورة ، بل لا بد لي من التحدث عن درجة علم هؤلاء العلماء بالمسند ، وبقراءة الكتابات وبعلمهم بمعانيها،أي علمهم بقواعد وأصول اللهجات التي كتبت بها مثل اللهجة المعينية أو السبئية أو القتبانية أو الحضرمية وغيرها من بقية اللهجات ، وذلك ليكون كلامنا كلاماً علمياً صادراً عن درس ونقد وفهم بعلم أولئك العلماء بتأريخ اليمن القديم .

ولن يكون مثل هذا الحكم ممكناً الا بالرجوع الى مؤلفات (الهمداني) وغيره من علماء اليمن لدراستها دراسة نقد عميقة . ومقابلة ما ورد فيها من قراءات للنصوص مع قراءات العلماء المحدثين المتخصصين بالعربيات الجنوبية لتلك النصوص ان كانت أصولها أو صورها موجودة محفوظة ، وعندئذ يمكن الحكم حكماً علمياً سليماً على مقدار علم أولئك العلماء بلغات اليمن القديمة وبتأريخها المندرس . ولكننا ويا للأسف لا نملك كل أجزاء كتاب (الإكليل) ولا كل مؤلفات الهمداني أو غيره من علماء اليمن ، فالجزء التاسع من الإكليل مثلاً وهو جزء خصص بأمثال حمير وبحكمها باللسان الحميري وبحروف المسند[2]،هو جزء ما زال مختفياً ، فلم نر وجهه ، وهو كما يظهر من وصف محتوياته مهم بالنسبة الينا ، وقد يكون دليلاً ومرشداً لنا في اصدار حكم على علم الهمداني بلغة حمير . ولكن ماذا نصنع

---

١ الاكليل (١/٩٣) .

٢ للوقوف على الاجزاء الاخرى من كتاب (الاكليل) تراجع مقدمة (نبيه فارس)
Brockelmann, Vol., I, S., 229, Ency., Vol., 2, P., 246.
(قال الهمداني : اكثر ما وجد في المساند القبورية بكلام الحميرية ، وأنا لما جعلنا الجزء السابع ؟ مقصورا على الكلام بالحميرية) الاكليل (٨/١٤٣) (طبعة الكرملي) وقد اخطأ الكرملي في كلمة (السابع) ، والواجب ان يكون الرقم : (التاسع)

ونفعل ، وقد حرمنا رؤية هذا الجزء ، وليس في مقدورنا نشره وبعثه ، فهل نسكت ونجلس انتظاراً للمستقبل ، عسى أن يبعث الى عالم الوجود ؟

هذا ، وقد طبع الجزء الثامن من الإكليل وكذلك الجزء العاشر منه ، فاستفاد منهما المولعون بتأريخ اليمن القديم وبتأريخ بقية أجزاء العربية الجنوبية ، وطبع الجزء الأول من هذا الكتاب حديثاً برواية (محمد بن نشوان بن سعيد الحميري) ، وقد ذكر أنه اختصر شيئاً في مواضع الاختلاف وفي النسب مما ليس له شأن في نظره دون أن يؤثر على الكتاب[1] .

وطبع الجزء الثاني من الإكليل أيضاً ، أخرجه ناشر الجزء الأول : « محمد ابن علي الأكوع الحوالي » من عهد غير بعيد[2] ، وليس لنا الآن إلاّ أن نرجو نشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب ، ليكون في وسعنا الحكم على ما جاء فيه من أخبار عن أهل اليمن الجاهليين .

إن أقصى ما نستطيع في الزمن الحاضر فعله وعمله لتكوين رأي تقريبي تخميني من علم الهمداني وعلم بقية علماء اليمن بلهجات أهل اليمن القديمة وبتأريخهم القديم ، هو أن نرجع الى المتيسر المطبوع من مؤلفاتهم ، لدراسته دراسة نقد علمية عميقة ، لاستخراج هذا الرأي منها . وهو وإن كان أقل من الضائع بكثير ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله ، والموجود خير من المعدوم ، وفي استطاعته تقديم هذا الرأي التخميني التقريبي . فلنبحث إذن في هذا المطبوع لنرى ما جاء فيه .

أما بخصوص الخط المسند ، فقد ذكر (الهمداني) أن جماعة من العلماء في أيامه كانت تقرأ المسند ، غير أن أولئك العلماء كانوا يختلفون فيما بينهم في القراءة ، وكان سبب ذلك – على رأيه – اختلاف صور الحروف ، (لأنه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، ويكون للذي يقرأ لا يعرف إلا صورة واحدة)[3] . وقد عرف (الهمداني) أن كتّاب المسند كانوا يفصلون بين كل كلمة وكلمة في السطر بخط قائم ، وذكر أنهم كانوا يقرأون كل سطر بخط . غير أنه لم يذكر عدد الحروف . وصرح أنهم « كانوا يطرحون الألف إذا كانت بوسط

---

١ طبع في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٦٣ ، ونشر برقم ٢ من المكتبة اليمنية (ص ٥)
٢ القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، سنة ١٩٦٦ م .
٣ الاكليل (١٢٢/٨) .

الحرف ، مثل ألف همدان وألف رئام ، فيكتبون رئم وهمدن ، ويثبتون ضمة آخر الحرف وواو عليهمو[1] . وهي ملاحظات تدل على احاطة عامة بالمسند،سوى ما ذكره من أنه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، ويظهر أنه وغيره قد توصلوا إلى هذا الرأي من اختلاف أيدي الكتّاب في رسم الحروف ونقرها على الحجر ، كالذي يحدث عندنا من تباين الخطوط باختلاف خطوط كتبته ، فأدى تباين الخط هذا الى اختلافهم في القراءة ، وإلى ذهابهم الى هــذا الرأي ، أو أنهم اختلفوا فيها من جراء تشابه بعض الحروف مثل حرف الهاء والحاء ، فان هذين الحرفين متشابهان في الشكل ، فكلاهما على هيئة كأس يرتكز على رجل، والفرق بينهما ، هو في وجــود خط عمودي في وسط الكأس هو امتداد لرجل الكأس ، وذلك في حرف (الحاء) ، أما الهاء ، فلا يوجد فيه هذا الخط الذي يقسم باطن الكأس إلى نصفين . ويشبه حرف (الخاء) حرف (الهاء) في رسم رأس الكأس ، ولكنه يختلف عنه في القاعدة ، اذ ترتكز هذا الرأس على قاعدة ليست خطاً مستقيماً ، بل على قاعدة تشبه كرسي الجلوس ذي الظهر . ومثل التشابه بين حرفي الصاد والسين ، فكلاهما على هيئة كأس وضعت وضعاً مقلوباً، بحيث صارت القــاعدة التي ترتكز الكأس عليها إلى أعلى . أما الرأس ، وهو باطن الكأس ، فقد وضع في اتجاه الأرض . ولكن قاعدة (الصاد) هي على هيئة رقم خمسة في عربيتنا ، أي على هيئة دائرة أو كرة بينما قاعدة حرف السين هي خط مستقيم،أما باطن كأس حرف (الصاد) ، ففيه خط يقسمه الى قسمين وذلك في الغالب ، وقد يهمل هذا الخط المقسم ، أما حرف السين ، فلا يوجد فيه هذا الخط[2] .

وجاء (نشوان بن سعيد الحميري) بملاحظات عن (المسند) هي الملاحظات

---

١ الاكليل (١٢٢/٨) ، (طبعة نبية) ، (١٤١/٨) ، ـ طبعة الكرملي ـ ، لــه ملاحظات اخرى في كيفية الكتابة بــ المسـند ، ذكرها في الجزء العاشر ص ١٦ ، ١٧ ، (والمسند : خط حمير ، مخالف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه ايام مسكهم فيما بينهم ، قال ابو حاتم : هو في ايديهم الى اليوم باليمن) ، لسان العــرب (٢٠٦/٤) ، الفهرست ص ٨ ،الجزء الاول من مجلة المجمع العلمي العراقــي في (جمهرة النسـب) ، ص ٣٤٥ ، سـنة ١٩٥٠ .

٢ للوقوف على اشكال حروف المسند ، يستحسن مراجعـة جـدول الحــروف الموضوع في هذا الجزء .

التي أوردهـا (الهمداني) عنه ، فقال : المسند : خط حمير ، وهو موجود كثيراً في الحجارة والقصور ، وهذه صورته على حروف المعجم ... وله صور كثيرة ، إلا ّ أن هذه الصورة أصحها . واعلم أنهم يفصلون بـين كل كلمتين بصفر ، لئلا يختلط الكلام . وصورة الصفر عندهم كصورة الألف في العربي[1]..

وما قلته عن تعدد صور الحرف قبل قليل ، ينطبق على ملاحظة (نشوان) أيضاً .

ويظهر أن قوماً من أهل اليمن بقوا أمداً في الإسلام وهم يتوارثون هذا الخط ويكتبون به . فقد جاء في بعض الموارد : (والمسند خط حمير ، مخالف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه أيام ملكهم فيما بينهم . قال أبو حاتم : هو في أيديهم إلى اليوم باليمن)[2] ، إلا ّ أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الخط العربي الشمالي الذي دو ّن به القرآن الكريم ، فغلب عـلى أمره ، وتضاءل عدد الكتاب به حتى صار صفراً .

ومما يؤسف عليه كثيراً اننا لا نملك النسخ الأصلية التي كتبها أولئك العلماء بخط أيديهم ، حتى نرى رسمهم لحروف المسند . فإن الصور المرسومة في المخطوطات الموجودة وفي النسخ المطبوعة ، ليست من خط المؤلفين ، بل من خط النساخ ، فلا أستبعد وقوع المسخ في صور حروف المسند في أثناء النقـل ، ولا سيا اذا تعددت أيدي النساخ بنسخ أحدهم عن ناسخ آخر . وهكذا . فليس للنساخ علم بالمسند ، ولذا لا أستبعد وقوعهم في الخطأ . ومن هنا فإن من غـير الممكن اصدار رأي في مقدار اتقان الهمداني وبقية العلماء لرسم حروف الخط المسند .

وقد أشار (الدكتور كرنكو) الى هذه الحقيقة ، إذ ذكر أن صور الحروف الحميرية في (الإكليل) تختلف باختلاف النسخ اختلافاً كبيراً ، فقد صو ّر كل ناسخ تلك الحروف على رغبته وعلى قدرته على محاكاة النقوش ، ومن هنا تباينت وتعددت ، فأضاعت علينا الصور الأصلية التي رسمها الهمداني لتلك الحروف[3] .

أما رأينا في علم علماء اليمن بفهم المسند ، فيمكن تكوينـه بدراسة النصوص الواردة في مؤلفاتهم وبدراسة معرباتها ومقابلتها بالنصوص الأصلية المنقورة عـلى الحجارة ان كانت تلك النصوص الأصلية لا تزال موجودة باقية ، أو بمراجعة

١ منتخبات (ص ٥٢) .
٢ لسان العـرب (٢٠٦/٤) .
٣ الاكليل (٣٢٨/٨) (طبعة الكرملي) .

النصوص المدونة ومقابلاتها بمعرباتها لنرى درجة قرب التعريب أو بعده من الأصل. وعندئذ نستطيع ابداء حكم على مقدار فهم القوم لكتابات المسند . أما في حالة اكتفاء المؤلف بايراد التعريب فقط أي معنى النص لا متنــه ، فليس أمامنا من سبيل غير وجوب مراجعة المعربات ودراستها من جميع الوجوه ، لنرى مقدار انطباق أساليبها على الأساليب المألوفة في كتابات المسند ، وعندئــذ نتمكن من تكوين رأي في هذا الذي ورد في المؤلفات على أنه ترجمات ، ونتمكن بذلك من الحكم بمقدار قرب تلك الترجمات والقراءات من المسند أو بعدها منه .

وخلاصة ما توصلت اليه من دراستي الاجمالية للأجزاء المطبوعة من مؤلفات (الهمداني) أن الهمداني ، وإن كان يحسن قــراءة حروف المسند ، ويعرف القواعد المتعلقة بالخط الحميري ، الا انه لم يكن ملماً بألسنة المسند . ولم يتمكن من ترجمة النصوص التي نقلها ترجمة صحيحة ، ولم يعرف على ما يتبين منها كذلك ما كان قد ورد فيها وما قصد منها ، فجعل (تالباً) ، وهو اسم إلـه من آلهة اليمن المشهورة ، ومعبود قبيلة (همدان) الرئيس ، اسم رجل من رجال الأسرة المالكة لهمدان . وجعل (رياما) ، وهو اسم مكان من الأمكنة المشهورة، وكان به معبد معروف للإلـه (تالب) ، ابناً من أبناء (نهفان) ، ومن أبناء (تالب) . ولم يبخل الهمداني عليه ، فوهب له أماً قال لها : (ترعة بنت بازل بن شرحبيل بن سار بن أبي شرح يحضب بن الصوار)[1] .

وأورد (الهمداني) نصاً ذكر ان (أحمد بن أبي الأغر الشهابي)، وحده بـ (ناعط) ، فقرأه ، فإذا هو : (علهان ونهفان ابنا بتع بن همدان ، لهم الملك قديماً كان)[2] . وقد عدّ (علهان نهفان) رجلين هما (علهان)و(نهفان)، مع أن (علهان نهفان) ، هو رجل واحد ، وهو ملك من ملوك سبأ وسيأتي ذكره . وقد كان والده (يريم أيمن بن أوسلت رفشان) من قبيلة (همدان) . وكلمة (نهفان) لقب له . أما اسمه فهو (علهان) . وكان له شقيق اسمــه (برج يهركب) ، كما ورد ذلك في كتابة عثر عليها في (ريام)[3] ، فلم يكن

---

١ الاكليل (١٠/١٧ ، ١٨)
٢ الاكليل (١٠/١٦)
٣ المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية ، تاليف (اغناطيوس غويدي) من نشريات الجامعة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٣٠ ، ص ٢١ ، راجع النص الموسوم بـ : C.I.H. 315

والده اذن رجلاً اسمه (بتع بن همدان) كما جاء في القراءة .

وأمـــا (بتع) ، فقبيلة من قبائل همدان ، وأما جملة : « لهم الملك قديماً كان » ، فهي لا ريب من قول الشهابي ، وليست بعبارة حميرية . وليس التعبير – وان فرضنا أنها ترجمة للأصل – من التعابير المستعملة في الحميريـــة ، التي ترد في الكتابات . ولما كنا لا نعرف المتن الأصلي للنص ، يصعب علينـا الحكم عليه أكان قريباً من هذا المعنى أو كان شيئاً آخر ، عرف منـه الشهابي بضع كلمات ثم فسره بهذا التفسير .

ويظهر على كل حال أن قراء المسند (وقد قلت إنهم كانوا يحسنون في أيام الهمداني قراءة حروف المسند) لم يكونوا على اطلاع بقواعد الحميريـــة ، ولا باللسان الحميري ، أو الألسنة العربية الجنوبية الأخرى . خـذ مثلاً على ذلك : (بن) وهي حرف جر عند العرب الجنوبيين ، وتعني (من) و (عن) بلغتنـــا قد أوقعتهم هذه الكلمة في مشكلات خطيرة . فقد تصور القوم عند قراءتهم لها ، أنها تعني أبداً (ابناً) عـــلى نحو ما يفهم من هذه الكلمة في لغتنا . وفسروها بهذا التفسير . ففسروا (بن بتع) أو (بن همدان) وما شابه ذلك (ابن بتع) أو (ابن همدان) ، والمقصود من الجملتين هو (من بتع) و (من همدان) ، وبذلك تغير المعنى تماماً ، ومن هنا وقع القوم – على ما أعتقـــد – في أغلاط حين حسبوا أسمـــاء القبائل وأسماء الأماكن الواردة قبل (بن) وبعده ، أسماء أشخاص وأعيان ، وأدخلوها في مشجرات الأنساب . فاقتصار علمهم على الأبجدية وجهلهم باللغة ، أوقعهم في مشكلات كثيرة ، وسبب ظهور هذا الخلط[1] .

وجاء الهمداني بنصوص أخر ذكر أنها كانت مكتوبة بالحميرية ، مثل النص الذي زعم أن مسلمة بن يوسف بن مسلمة الخيواني قرأه على حجر في مسجـد خيوان ، وهـــذا نصه : (شرح ما ، وأخوه ما ، وبنوه ما ، قيول شهران بنو هجر ، هم معتة بدار القلعة)[2] . وأمثال ذلك من النصوص . ولا اعتقـد أنك ستقول : إنّ هذا نص حميري ، ولا يسع أمرءاً له إلمام بالحميرية أن يوافق على وجود مثل هذه العائلة عائلة ما ، أو يسلم بأن هـــذه قراءة صحيحة لنص

---

١ Ditlef Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, Leipzig, 1910, 2.

٢ الاكليل (١٩/١٠) .

حميري . بل لا بد من وجود أخطاء في القراءة وفي التفسير . ولا أريد أن أتجاوز على رجل مشى الى ربه ، فلعله كان يحسن قراءة بعض الحروف والكلمات ، ويتصور أنه أحسن قراءة النص كله وفهمه ، فجاء بهذه العبارة . وعلى كل ، إن كلّ الذي جاء في النصوص التي وقفت عليها في كتب الهمداني لا يمكن أن يعطي غير هذا الانطباع ، ولعلنا سنغير رأينا في المستقبل اذا تهيأت لنا نصوص من شأنها أن تغيره .

ويأتي (الهمداني) أحياناً بأبيات شعر زاعماً انها من المسند . ففي أثناء كلامه مثلاً على قصر (شحرار) قال : « وفي بعض مساند هذا البنيان بحرف المسند :

شحرار قصر العلا المنيف أسسه تبع ينوف
يسكنه القيل ذي معاهر تخر قدّامه الأنوف»[1]

أما نحن ، فلم نعثر حتى اليوم على أية كتابة بالمسند ، ورد فيها شعر ، لا بيت واحد ولا أكثر من بيت . وأما متن البيتين المذكورين ، فليس حميرياً ولا سبئياً ولا معينياً وليس هو بأية لهجة يمانية أخرى قديمة ، وانما هو بعربيتنا هذه ، أي بالعربية التي نزل بها القرآن الكريم ، نظمه من نظمه من المحدثين بهذه اللغة البعيدة عن لغات أهل اليمن .

أما الباب الذي عقده في الجزء الثامن بعنوان : (باب القبوريات) ، فقد استمد مادته من روايات وأخبار (هشام بن محمد بن السائب الكلبي)[2] ، و (ابن لهيعة)[3] و (موهبة بن الدعام) من همدان[4] و (أبي نصر)[5] و (وهب بن منبه)[6] و (كعب الأحبار) و (عبدالله بن سلام)[7] . وقد

---

1 الاكليل (٨/٦٦) (طبعة الكرملي) .
2 الاكليل (٨/١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٤ فما بعدها ، ١٧٧ ، ١٩٦ ومواضع اخرى) (طبعة الكرملي) .
3 الاكليل (٨/١٤٥ ، ١٩٥) .
4 الاكليل (٨/١٤٦) .
5 الاكليل (٨/١٧٣) .
6 الاكليل (٨/١٨٠) (وقد ذكر القصة كاملة وهب بن منبه في تيجان الملوك) ، الاكليل (٨/١٨٦) .
7 الاكليل (٨/٣٠٩) (طبعة الكرملي) .

أورد فيه نصوصاً زعم انها ترجمات لنصوص المسند ، عثر عليها في القبور عند الأجداث . وأورد بعضها شعراً ، زعم انه مما وجـد في تلك القبور ، كالذي ذكره عند حديثه عن قبر (مرشد بن شدّاد)[1] ، وعن قبرين جاهليين عثر عليها بـ (الجند) وقد نص على ان الشعر المذكور كان مكتوباً بالمسند وقد دونه[2].وهو وكل الأشعار الأخرى ومنها المراثي منظوم بعربية القرآن . وأما النثر ، فإنه بهذه العربية أيضاً ، وهو في الزهد والموعظة والندم والحث على ترك الدنيـا ، فكأن أصحاب القبور ، من الوعاظ المتصوفين الزهاد ، ماتوا ليعظوا الأحياء من خلال القبور ، ولم يكونوا من الجاهليين من عبدة الأصنام والأوثان .

وهو قسم بارد سخيف ، يدل على ضعف أحلام رواته ، وعلى ضعف ملكة النقد عند (الهمداني) وعـلى نزوله الى مستوى القصاص والسمّار والأخباريين الذين يروون الأخبار ويثبتونها وإن كانت مخالفة للعقل . إذ أنه لا يختلف عنهم هنا بأي شيء كان .

ومجمل رأيي في (الهمداني) أنه قـد أفادنا ولا شك بوصفة للماديات التي رآها بنصه على ذكر أسمائها ، وأفادنا أيضاً في ايراده ألفاظاً يمانية كانت مستعملة في أيامه استعمال الجاهليين لها : وقد وردت في نصوص المسند ، فترجمها علماء العربيات الجنوبية ترجمة غير صحيحة ، فمن الممكن تصحيحها الآن على ضوء استعمالها في مؤلفات الهمداني وفي مؤلفات غيره من علماء اليمن . أما من حيث علمه بتأريخ اليمن القديم ، فإنه وإنْ عرف بعض الأسماء إلاّ أنه خلط فيها في الغالب ، فجعل اسم الرجل الواحد اسمين ، وصير الأمـاكن آباءً وأجداداً ، وجعل أسماء القبائل أسماء رجال ، ثم هو لا يختلف عن غيره في جهلـه بتأريخ اليمن القديم ، فملأ الفراغ بايراده الأساطير والخرافات والمبالغات . وأما علمـه بالمسند فقد ذكرت أنه ربما قرأ الكلمات ، ولكنه لم يكن يفقه المعاني ، ولم يكن ملماً بقواعد اللهجات اليمانيـة القديمة ، وقد حاولت العثور على ترجمة واحدة تشير الى أنها ترجمة صحيحة لنص من نصوص المسنـد ، فلم أتمكن من ذلك وياللأسف .

---

1 الاكليل (١٧٥/٨) (طبعة الكرملي) .
2 الاكليل (١٧٨/٨) .

وعلم (الهمداني) بجغرافية اليمن والعربية الجنوبية ، يفوق كثيراً علمه بتأريخ هذه الأرضين القديم ، فقد خبر أكثرها بنفسه وسافر فيها ، فاكتسب علمه بالتجربة . أما علمه بجغرافية الأقسام الشمالية من جزيرة العرب ، فإنه دون هذا العلم[1] .

وأفادت (القصيدة الحميرية) ، لصاحبها (نشوان بن سعيد الحميري) فائدة لا بأس بها في تدوين تأريخ اليمن[2] . ولهذا المؤلف معجم سمّاه (شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)[3]، ضمنه ألفاظاً خاصة بعرب الجنوب[4] . وينطبق ما قلته في الهمداني على نشوان أيضاً . فاذا قرأت كتبه ، تشعر أنه لم يكن يفهم النصوص الحميرية ولا غيرها ، وإن كان يحسن قراءة المسند . وما ذكره في كتابه (شمس العلوم) — وإنْ دلّ على حرص على جمع المعلومات ، وعلى تتبع يحمد عليه للبحث عن تأريخ اليمن ولغاتها القديمة — يدلّ على أنه لم يكن يفهم نصوص المسند ، وليس له علم بتأريخها وبتواريخ أصحابها ، وأنه لا يمتاز بشيء عن الهمداني أو سائر علماء اليمن الذين كانوا يدعون العلم بأخبار الماضين ، وأكثر الذي ذكره في كتابه على أنه من اللهجات الحميرية والعربية الجنوبية هو من مفردات معجمات اللغة ، ومن لهجات العربية الفصحى خلا ذلك الذي كان يستعمله أهل اليمن ، وهو قليل إذا قيس إلى سواه ، وقد فسر معانيه على نحو ما كان يقصده الناس في أيامه . ومع هذا ، فهذا النوع من الكلمات هو الذي نطمع فيه ، لأنه من بقايا اللهجات البائدة ، ويفيدنا فائدة عظيمة في فهم معاني النصوص وفي قراءتها وشرحها وتفسيرها ، ولعله لم يكثر منها، لأنها كانت من كلام العوام فأشفق على نفسه من البحث في لغة العوام .

---

١ Moritz, S., 20.

٢ تجد ترجمته في : ارشاد الاريب (٢٠٦/٧) ، بغية الوعاة (ص ٤٣٠) ،
W. F. Prideuaux, The Lay of the Himyarites, Sehore, 1879,
Von Kremer, Die Himjarische Qaside, Leipzig, 1865.
Brockelmann, I, S., 301, Suppl., I, 527, f., R. Basset,
La Qasidah Himyarite De N.B.S., Alger, 1914.

٣ الاكليل (٨/ث وقيل : (شمس العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم) نشر منتخبات منه عظيم الدين احمد في سلسلة تذكار (كب) ليدن ، ١٩١٦ ، (منتخبات في اخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)، وساشير اليه بـ : منتخبات .

٤ راجع مثة مادة هجر منتخبات ص ١٠٨ .

ولم يزد (نشوان) في شروحه لأسماء الأعيان والأجذام والقبائل والعمائر والأمكنة على ما أورده الهمداني أو سائر علماء التأريخ وأهل الأنساب ، فعدّ أسماء القبائل مثل همدان ، أسماء أشخاص لهم أنساب وأولاد وأقرباء ، وأخطأ في الأغلاط نفسها التي وقع فيها الهمداني ،فذكر جملاً مسجوعة على انها من وصايا التبابعة ، وعبارات متكلفة على انها قراءات لنصوص حميرية مكتوبة بالمسند[1] .

ومحمد بن نشوان بن سعيد الحميري نفسه هو ممن اعتمد على علم الهمداني ، كما نص على ذلك في فاتحة الجزء الأول من الإكليل . فهذا الجزء الذي طبع حديثاً هو برواية محمد بن نشوان ، رواه لمن سأله أن يوضح شيئاً من أنساب حمير وأخبارها وما حفظ من سيرها وآثارها ، فما كان منه الا أن أخذ الإكليل فكتب له ، لم يغير فيه سوى ما قاله : (غير اني اختصرت شيئاً ذكره في النسب ، ليس هو من جملته بمحتسب . بل هو مما ذكره من الاختلاف في التأريخ ونحوه ، من غير أن أنسب الكدر الى صفوه)[2] . وفي مقدمته لهذا الجزء ثناءٌ عاطرٌ على الهمداني ، وتقدير كبير لعلمه في أخبار اليمن .

هذا هو كل ما أريد أن أقوله هنا عن مصادر التأريخ الجاهلي ، وهو قليل من كثير ، ولكن التوسع في هذا الموضوع يخرجنا حتماً عن حدود بحثنا المرسوم ، ويخرجنا الى التحدث في شيء آخر لا علاقة له بالجاهلية ، وانما يعود الى البحث في التأريخ ، وفي نقده ودروبه عند المؤرخين . على أني أراني قد توسعت مع ذلك في هذا الباب ، وذلك للحاجة التي رأيتها في ضرورة توضيح بعض الأمور الخاصة بتلك الموارد .

---

١ منتخبات ص ٧٥،٦٠ ومواضع اخرى .
٢ الاكليل (١/٥) .

الفصل الثالث

اهمال التأريخ الجاهلي واعادة تدوينه

من الأمور التي تثير الأسف ، تهاون المؤرخين في تدوين التأريخ الجاهلي ، ولا سيا القسم القديم منه ، الذي يبعد عن الإسلام قرناً فأكثر ، فإن هذا القسم منه ضعيف هزيل ، لا يصح أن نسميه تأريخاً ، بعيد في طبعه وفي مادته عن طبع التواريخ ومادتها .

لقد وفق المؤرخون العرب في كتابة تأريخ الإسلام توفيقاً كبيراً ، من حيث العناية بجمع الروايات والأخبار واستقصائها ، وفي رغبتهم في التمحيص . أما التأريخ الجاهلي ، فلم يظهروا مقدرة في تدوينه ، بل قصروا فيه تقصيراً ظاهراً . فاقتصر علمهم فيه على الأمور القريبة من الإسلام ، على أنهم حتى في هذه الحقبة لم يجيدوا فيها إجادة كافية ، ولم يظهروا فيها براعة ومهارة ، ولم يطرقوا كل الأبواب أو الموضوعات التي تخص الجاهلية . فتركوا لنا فجوات وثُغراً لم نتمكن من سدّها وردمها حتى الآن ، ولا سيا في تأريخ جزيرة العرب ، حيث نجد فراغاً واسعاً ، وهو أمر يدعو الى التساؤل عن الأسباب التي دعت الى حدوثه : هل كان الإسلام قد تعمّد طمس أخبار الجاهلية ؟ أو أن العرب عند ظهور الإسلام لم تكن لديهم كتب مدونة في تأريخهم ولا علم بأحوال أسلافهم ، وكانت الأسباب قد تقطعت بينهم وبين من تقدمهم ، فلم يكن لديهم ما يقولونه عن ماضيهم غير هذا الذي وعوه فتحدثوا به الى الإسلاميين ، فوجد سبيله الى الكتب ؟ أو أن العرب لم يكونوا يميلون الى تدوين تواريخهم ، فلم يكونوا مثل

الروم أو الفرس يجمعون أخبارهم وأخبار من تقدم منهم وسلف ، فلما كان الإسلام ، وجاء زمن التدوين ، لم يجد أهل الأخبار أمامهم شيئاً غير هذا الذي رووه وذكروه ، وكان من بقايا ما ترسب في ذاكرة المعمرين من أخبار .

لقد عزا بعض الباحثين هذا التقصير الى الإسلام ، فزعم ان رغبة الإسلام كانت قد اتجهت الى استئصال كل ما يمت الى أيام الوثنية في الجزيرة العربية بصلة ، مستدلاً بحديث : (الإسلام يهدم ما قبله)[1] ، فدعا ذلك الى تثبيط همم العلماء عن متابعة الدراسات المتصلة بالجاهلية ، والى محو آثار كل شيء يتفرع عن النظام القديم ، لم يميزوا بين ما يتعلق منه بالوثنية والأنصاب والأصنام، وبين ما يتعلق بالحالة العامة كالثقافة والأدب والتأريخ . فعلوا ذلك كما فعل النصارى في أوروبة في أوائل القرن السادس للميلاد ، فكان من نتائجه ذهاب أخبار الجاهلية ، ونسيانها ، وابتدأ التأريخ لدى المسلمين بعام الفيل[2] . ولهذا (كان المؤرخون أو الأخباريون ، الذين يترتب عليهم تدوين أخبار الماضي وحفظ مفاخره ، من الذين ينظر اليهم شزراً في المجتمع الإسلامي ، وخاصة في العهد الإسلامي الأول . أما مؤرخو العرب العظام ، فلم ينبغوا الا بعد تلك الفترة ، وحتى هؤلاء فإنهم صرفوا عنايتهم الى التأريخ الإسلامي ، ولم يدققوا فيما يخص الجاهلية . وبالإضافة الى ما سبق ، أصبح لكلمة مؤرخ (اخباري) معنى سيء بل أصبحت صفة تفيد نوعاً من الازدراء . وقد ألصقت هذه الصفة بابن الكلبي ، كما ألصقت بكل عالم تجرأ على البحث في تأريخ العرب قبل عام الفيل . لكن لم يهاجم أحد من المؤرخين بعنف كما هوجم ابن الكلبي . والراجح أن السبب في ذلك هو انصرافه لدراسة الأشياء التي قرر الإسلام طمسها ، أعني بذلك الديانات والطقوس الوثنية في بلاد العرب)[3] .

---

١ مجلة الابحاث (ص ١٨٩) ، السنة الـ ٣ ، الجزء الـ ٢ ، حزيران ١٩٥٠ ، الاكليل : مقدمة نبيه امين فارس ص (ب) ، دراسات عن المؤرخين العرب ، تعريب الدكتور حسين نصار ، تاليف (مارغليوث) (ص ٥٣ وما بعدها) .

٢ مقدمة نبيه امين فارس للجزء الثامن من الاكليل (ص ب) ، قال : (وقد يكون للحديث المنسوب الى النبي اثر في ذلك . فقد جاء في الحديث ان (الاسلام يهدم ما قبله) ، ولا بد ان عنى النبي في قوله هذا الديانات الوثنية الشائعة في الجزيرة قبيل ظهوره من عبادة الاصنام والانصاب وغيرها . اما اتباعه ، فدفعتهم غيرتهم على تثبيت دعائم الدين الحنيف الى عدم التمييز بين الغث والسمين ، فكادوا يقضون على جميع معالم الثقافة والادب ... الخ) .

٣ الابحاث ، الجزء المذكور (ص ١٨٩) .

ثم سبب آخر ، هو أن الإسلام ثورة على مجتمع قائم ثابت ، وعلى مثل تمسك بها أهل الجاهلية ، وعلى قوم كانوا قد تسلطوا وتحكموا وتجبروا بحكم العرف والعادات ، وككل ثورة تقع وكما يقع حتى الآن ، وسم الإسلام الجاهلية، بكل منقصة ومثلبة ، وحاول طمس كل أثر لها وكل ما كان فيها ، حتى ظهرت تلك الأيام على الصورة التي انتهت الينا عن « الجاهلية » وكأن الناس فيها جهلة لم يكن عندهم شيء من علم في هذه الحياة يومئذ ، وكأن عهدهم في هذا العالم لم يبدأ إلا ببدء الإسلام .

وجاءوا بدليل آخر في اثبات أن الإسلام كان له دخل في طمس معالم تأريخ الجاهلية ، إذ ذكروا أن الخليفة (عمر) سأل بعض الناس (أن يرووا بعض التجارب الجاهلية ، أو ينشدوا بعض الأشعار الجاهلية ، فكان جوابهم : لقد جب الله ذلك بالإسلام ، فلمَ الرجوع)[1] . فوجدوا في امتناعهم عن رواية الشعر الجاهلي أو أخبار الجاهلية ، دلالة على كره الإسلام لرواية تأريخ الجاهلية وانتهاء ذلك الى طمس معالم ذلك التأريخ .

أما حديث (الإسلام يهدم ما قبله) ، فهو حديث لا علاقة له البتة بتأريخ الجاهلية ولا بهدم الجاهلية ، وقد استل من حديث طويل ورد في صحيح مسلم في (باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج) ، وبعد (باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية) ، وقد ورد جواباً عن أسئلة الصحابة عن أعمال منافية للإسلام ارتكبوها في الجاهلية ، هل يغفرها الله لهم ، أو تكتب عليهم سيئات يحاسبون عليها ؟ فقالوا : (يا رسول الله ، انؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟)[2] . وقد ورد في صحيح مسلم بعد هذا الباب باب آخر بهذا المعنى ، هو(باب بيان حكم عمل الكافر اذا أسلم بعده) .

ولإعطاء رأي صحيح عن هذا الحديث ، أنقل الى القارىء نصه كما جاء في صحيح مسلم قال : (حدثني يزيد بن أبي حبيب ، عن ابن شماسة المهري ، قال : حضرنا عمرو بن العاص ، وهو في سياقة الموت يبكي طويلاً ، وحول

---

١ دراسات عن المؤرخين العرب (ص ٥٣) . وقد اقتطعت نص هذا الدليل من الترجمة العربية لكتاب المستشرق (مرغليوث) ، المسمى : دراسات عن المؤرخين العرب ، لعدم وجود النص الانكليزي لدي ، فانا ارويه على مسؤولية المعرب وان كنت ارى أن في الترجمة وهماً .

٢ صحيح مسلم (٧٧/١) .

وجهه الى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه أما بشّرك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بكذا ؟ قال: فأقبل بوجهه ، فقال : إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله . إني قد كنت على أطباق ثلاث ، لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مني ، ولا أحب إليّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النـــار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي ، أتيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أبسط يمينك فلأبايعك ، فبسط يمينه . قال : فقبضت يدي ، قال مالك يا عمرو ؟ قال : قلت أردت أن اشترط . قال : تشترط بمـاذا ؟ قلت : أن يغفر لي . قال : أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ وما كان أحـــد أحبّ إليّ من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا أجلّ في عيني منه ، ومـا كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له . ولو مت على تلك الحال ، لرجوت أن أكون من أهل الجنـــة ، ثم ولينا أشياء ما أدري من حالي فيها ، فإذا أنا مت ، فـــلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني ، فشنوا عليّ التراب شنـــاً ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم ، وانظر ماذا أراجع به رسل ربي[1] .

وبعد ، فأية علاقة إذن بين هذا الحديث وبين الحث على تهديم الجاهليـــة وإهمال التأريخ الجاهلي يا ترى ؟

وأما اتخاذهم نهي بعض الصحابة عن رواية الشعر الجاهلي أو أخبـــار الأيام دليلاً على كره الإسلام لإحياء ذكرى الجاهلية،ومحاولته طمس معالمها وتأريخها ، وحكمهم من ثم عليه بمساهمته في طمس تأريخ الجاهلية واطفائه له ، فإنه دليل بارد ليس في محله ، فإن الذين نهوا عن رواية الشعر الجاهلي أو رواية الأيام ، أو امتنعوا هم أنفسهم عن روايتهـا ، لم ينهوا ولم يمتنعوا عن روايتها مطلقاً ، أي عن رواية جميع أنواع الشعر الجاهلي أو أخبار كـــل الأيام التي وقعت في الجاهلية ، بل نهوا أو امتنعوا عن رواية بعض أبواب الشعر ، وبعض أخبـــار تلك الأيام ، لما كان يحدثه هذا النوع من الشعر أو يوقعه هذا الباب من رواية

---

١ صحيح مسلم (٧٨/١) .

الأخبار من شرّ في النفوس ومن فتن قد تجدد تلك العصبيات الخبيثة التي حاربها الإسلام ، لتمزيقها الشمل ، وتفريقهـا الصفوف . « ومن ثم نهى الفاروق ، رضي الله عنه،الناس بدياً أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحي بالميت ، وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام . ومرّ عمر بحسان يوماً ، وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ، فأخذ بأذنه ، وقال : أرغاء كرغاء البعير ؟ فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ، فوالله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد مَنْ خيـر منك ، فقال عمر : صدقت ، وانطلق »[1] . ولم يأخذ عمر على حسان رواية ذلك الشعـر في مسجد رسول الله الا لأنه كان من ذلك الشعر المثير للنفوس المهيج للعواطف ، وانشاده في نظره يعيد الناس الى ما كانوا عليه من قتال قبل الإسلام. فللمصلحة العامة نهى بعض الصحابة عنه . ومع ذلك ، تساهل عمر مع حسان ، وتركه ينشد شعره ، بعد أن حاجّهُ حسان بما رأيت .

وهناك رواية أخرى تشرح لنا الأسباب التي حملت عمر على النهي عن رواية بعض الشعر الجاهلي ، وهي انه (قدم المدينة ، في خلافة الفاروق ، عبدالله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب ــ وكانا شاعري قريش في الشرك ــ فنزلا عـلى أبي أحمد بن جحش ، وقالا له : نحبّ أن ترسل إلى حسان بن ثابت حتى يأتيك فتنشده وينشدنا مما قلنا له وقال لنا ، فأرسل اليه ، فجاءه . فقال له : يا أبا الوليد : هذان أخواك ابن الزبعرى وضرار قد جاءا أن يسمعاك وتسمعهما ما قالوا لك وقلت لهما . فقال ابن الزبعرى وضرار : نعم يا أبا الوليـد ، إن شعرك كان يحتمل في الإسلام ولا يحتمل شعرنا،وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا . فقال حسان : أفتبدآن ، أم أبدأ ؟ قالا : نبدأ نحن ، قال : ابتدئا . فأنشداه حتى فار فصار كالمرجل غضباً ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة ، فخرج حسان حتى دخل على عمر ، فقص عليه قصتهما وقصته . فقال له عمـر : لن يذهبا عنك بشيء إن شاء الله ، وأرسل من يردّهما ، وقال له عمـر : لو لم تدركهما الا بمكة ، فأرددهما عليّ ... فلما كان بالروحاء ، قال ضرار لصاحبه:

---

١ شرح ديوان حسـان بن ثابت الانصاري ، لعبد الرحمن البرقوقي ، القاهـرة ١٩٢٩ (ص . س . م) .

يا ابن الزبعرى ، أنا أعرف عمر وذبّه عن الإسلام وأهله ، وأعرف حسان وقلة صبره على ما فعلنا به ، وكأني به قد جاء وشكا اليه ما فعلنا ، فأرسل في آثارنا ، وقال لرسوله : إن لم تلحقهما الا بمكة ، فارددهما عليّ ... فأربح بنا ترك العناء ، وأقم بنا مكاننا ، فإن كان الذي ظننت فالرجوع من الروحاء أسهل منه من أبعد منها ، وان أخطأ ظني ، فذلك الذي نحب . فقال ابن الزبعرى : نعم ما رأيت . فأقاما بالروحاء ، فما كان الاّ كمرّ الطائر حتى وافاهما رسول عمر ، فردّهما اليه . فدعا لهما بحسان وعمر في جماعة من أصحاب رسول الله . فقال لحسان : أنشدهما مما قلت لهما فأنشدهما ، حتى فرغ مما قال لهما ، فوقف . فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم . فقال له : أنشداك في الخلا ، وأنشدتهما في الملأ ... وقال لهما عمر : إن شئتما فأقيما ، وان شئتما فانصرفا . وقال لمن حضره : اني كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً ، دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم ، فأما اذ أبوا ، فاكتبوه ، واحتفظوا به . قال الراوي : فدوّنوا ذلك عندهم . قال : ولقد أدركته والله وان الأنصار لتجدده عندها اذا خافت بلاه ..)[1] .

بل كان الرسول كما رأينا في خبر (حسان) ، وكما ذكر في أخبار أخرى يجلس وأصحابه يتناشدون الأشعار ، ويتذاكرون أشياء من أمور الجاهلية ، وهو يسمع ويساهم معهم في الحديث ، وينشدهم شيئاً مما حفظه[2] . ولم ينه عن رواية شعر ما إلا ما كان فيه فحش ، أو إساءة أو إثارة فتنة ، أما ما شابه ذلك ، لما كان يحدثه ذلك الشعر من أثر سيء في النفوس . لقد تمثل بشعر « أمية بن أبي الصلت » مع أنه كان من خصومه اللدّ ، وسمع الناس ينشدون شعره ، ولم يكره منه إلا ما كان منه في تحريض قريش بعد وقعة (بدر) على المسلمين ورثائه من قتل منهم[3] .

وقد كان (أبو بكر) ، وهو الخليفة الأول ، من حفظة الشعر الجاهلي ،

---

١ شرح ديوان حسان (ص . س . م)
٢ ابن سعد ، الطبقات (٢/١ ص ٩٥ وما بعدها) ، الاغاني (٧/٣ ، ١١٧) ، (١٢٩/٤) ، (٢٤٣/٨) الامالي (٢٤١/١) ، المرزباني (٢٠٣) ، الفائق للزمخشري (٥٢/٣) ، ابن سعد ، (٣٧٦/٥) .
٣ الاغاني (١٢٢/٤ وما بعدها) ، الفائق (٦٦٤/١) .

الراوين له ، المتشهدين به[١] . وكان (عمر) من العالمين بذلك الشعر الحافظين له البصيرين به[٢] . وكذلك كان شأن كثير من الصحابة . لم يذكر أحد أنهم تحرجوا من روايته وانشاده ، وأنهم تهيبوا منه ، إلاّ ما ذكرته من إحجامهم عن رواية بعض منه ، وهو قليل جداً ، لأسباب ذكرتها ، وقد رووه مع ذلك ودوّنوه .

لقد حرم الإسلام أشيــاء من الجاهلية ، وأقر أشياء أخرى نص عليها في الكتاب والسنــة[٣] ، ولم يرد أنه حرم أقلام الجاهلية أو الشعر الجاهلي أو النثر الجاهــلي أو أي أدب أو علم جاهلي ، ولم يصل إلى علمنا أنه أمر بهدم المباني الجاهلية وطمس معالمها ، حتى محجات الأصنام بقيت على حالها ، خلا الأصنام والأوثان وما يتعلق بهــا من أمور مما كان من صميم الوثنية أو كانت له علاقة بإعادتها إلى الذهن مثل التصوير . ولم نسمع أنه أمر بإتلاف كتابات الجاهلية ، أو أنه نهى عن قراءتها والاستفادة منها ، أو أنه منع استعمال اللهجات الأخرى ، التي كان يستعملها الجاهليون ، أو أن علماء الإسلام منعوا رواية أخبار الجاهلية ، بل الذي نسمعه ونراه أن « ابن عباس » كان يستشهد بالشعر الجاهلي في تفسير القرآن ، وبقية الصحابة يروونه ويحفظونه ، وأن خلفـاء بني أمية كانوا يدفعون الهدايا والجوائز لمن يروي لهم الشعر الجاهلي ، ونرى أنهم كانوا يقضون لياليهم برواية أخبار الجاهلية وحالتهم فيها ، وما وقع لهم في تلك الأيام من نادر وطريف ، وقد سجل ما بقي منه في الذهن في كتب الأخبار والأدب ، يوم شرع النـاس في التدوين .

وأما أنهم كانوا ينظرون الى (الأخباري) نظرة سيئة ، فيها شيء من ازدراء وعدم التقدير ، فما كان ذلك لروايته أخبار الجاهلية واشتغاله بجمع تأريخها والتحدث عنها ، وما كانوا يريدون بلفظة (أخباري) راوي أخبار الجاهلية وحـدها في أي يوم من أيام التأريخ الاسلامي ، وإنما كان ذلك لإغراب الاخباريين في رواية الأخبار ومبالغتهم فيها مبالغة تجافي العقل ، وسردهم الإسرائيليات والنصرانيات والشعبيات وغير ذلك من القصص المدونة في الكتب ، وكذب بعضهم كذباً يخالف

---

١ ابن سعد (٥٧/٦) ، ابو بكر الصولي ، ادب الكتاب (ص ١٩٠)
٢ الاغاني (١٩٩/٨) ، خزانة الادب : للبغدادي (٢٩٢/٢) ، العقد الفريد (٩٣/٦ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٣٩/١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٩٣/١)
٣ المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي (٣٩٣/١) .

أبسط قواعد المنطق،وما رُمي (ابن الكلبي) بالكذب أو نظر اليه نظرة ازدراء لكونه من رواة أخبار الجاهلية بل وثق في هذه الناحية وأخذ عنه دون ردّ أو اعتراض ، كما يتبين ذلك من اعتماد العلماء عليه في هذا الباب واشارتهم اليه ، وإنما ضعف في أمور أخرى هي أمور إسلامية لا علاقة لها بالجاهلية ولا صلة لها بها البتة ، مدوّنة في كتب التفسير والحديث .

ولو كان الإسلام قد حث على طمس أخبار الجاهلية أو اطفاء ذكر الأصنام والأوثان ، لما كان في وسع (ابن الكلبي) ولا غيره التحدث عنها والإشارة اليها ، ولما أخذ العلماء عنه ورووا كتبه وتوارثوا كتاب (الأصنام) ، بل القرآن نفسه حجة في ردّ هذا الزعم ، ففيه ذكر لرؤوس أصنام العرب ، وفيه مفصل حياة أهل الجاهلية ومثلهم وما كانوا يقومون به ، ولو شراً وباطلاً ، وروت كتب التفسير وكتب الحديث والسير والأخبار أوصاف بعض أصنام العرب وهيأتها وشكل محجاتها وأوقات الحج ، كما ذكرت ما أقر الإسلام من أمور كانت قائمة في الجاهلية وما حرم منها ، ولو كان الإسلام قد تعمد طمس الجاهلية والقضاء على معالمها ، لتحرج القرآن وتحرج المسلمون من الإشارة اليها ومن إحياء أسمائها وبعثها في ذاكرة الناشئين في الإسلام .

وقد تحدث (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) ، في المقالة الثالثة التي خصصها (في أخبار الأخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث) ، عن (ابن الكلبي) وعن أبيه ، كما تحدث عن غيره من مشاهير العلماء من أمثال (عوانة ابن الحكم) و (ابن اسحق) صاحب السيرة ، و (أبي مخنف) و (الواقدي) و (الهيثم بن عدي) و (أبي البختري) و (المدائني) و (محمد بن حبيب) وغيرهم ممن ألف في أمور وقعت قبل الإسلام في أمور وأحداث إسلامية محضة، وقد ضعف بعضهم ، مع أنهم لم يؤلفوا في أمور تخص الجاهلية ولا في أحداث وقعت قبل عام الفيل أو قبل الاسلام . وأطلقت عليهم لفظة (أخباري) أو (وكان اخبارياً) ، مع أنهم لم يكتبوا إلا في أخبار قريبة من الإسلام أو في أحداث إسلامية بحتة ، فلفظة (أخباري) إذنْ لم تكن قد عُلّمت بالشخص الذي تخصص برواية أخبار الجاهلية الواقعة قبل عام الفيل فقط ، بل قصد بها هؤلاء وكل من اشتغل برواية الأخبار مهما كانت صفتها وعادتها وطبيعتها، روى تاريخ ما قبل الفيل أو ما بعد الفيل الى الإسلام ، أو أخبار الإسلام .

والأخباري في عرف ذلك اليوم وقبل أن ينتشر التأليف وتتصنف المعارف ، هو من يروي الأخبار ، تمييزاً له عن الآخرين الذين اشتغلوا بالنسب ، فعرف أحدهم بـ (النسابة) ، وقيـل عن أحدهم (أحـد النسابين) أو (وكان ناسباً)[1] ، أو بالتفسير أو برواية الشعر وما شاكل ذلك من معـارف . فهو مؤرخ ذلك الزمن اذن ، ولهذا نرى لفظة (أخبار) بمعنى تاريـخ ، ورد في « الفهرست » في أثناء الحديث عن عبيد بن شرية الجرهمي ومعاويـة : فسأله (أي معاوية عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم)[2] ، وورد عن (ابن دأب) وكان (عالماً بأخبار العرب وأشعارها)[3] وذكر عن (عوانة بن الحكم) انه كان (راوية للأخبار عالماً بالشعر والنسب)[4] . وورد عن (أبي اليقظان النسابة) أنه كان (عالماً بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب)[5]. وورد مثل ذلك عن أشخاص آخرين هم في أوائل من اشتغل بالتأريخ عند المسلمين ، يخرجنا ذكرهم هنا عن حدود هذا الموضوع[6] .

ويظهر من دراسة (الفهرست) لابن النديم والمؤلفات الأخرى ان العرب في صدر الإسلام لم يكونوا يطلقون لفظة (المؤرخ) على من يشتغل بالتأريخ، ذلك لأن التأريخ نفسه في ذلك العهد لم يكن قد تطور وبلـغ الشكل الـذي بلغه في أواخر أيام الأمويين وفي الدولة العباسية. بل كانوا يطلقون على المؤرخ (الأخباري) كما ذكرت ، لاشتغاله بالأخبار كائنة ما كانت أخبار ما قبل الإسلام أو أخبار الإسلام ، وكانوا يطلقون على الموضوع نفسه (الأخبـار) . ولهـذا نرى ان أكثرية المشتغلين بها ، أطلقوا على كتبهم : (الأخبار المتقدمة) و (أخبـار الماضين) و (أخبار النبي) و (أخبار العرب) و (كتاب السير في الأخبار والأحداث) وأمثال ذلك،ولم يقولوا : (تأريخ المتقدمة) أو (تأريخ الماضين) أو (تأريخ العرب) أو (تأريخ الرسول) ، ويستعملون لفظة (سيرة)و(السير) في سير الأشخاص ، ولا سيما (سيرة الرسول) . وأما لفظة (تأريخ) ، فقد

---

١ الفهرست (ص ١٢٨) .
٢ الفهرست (ص ١٣٨) .
٣ الفهرست (ص ١٣٩) .
٤ الفهرست (ص ١٤٠) .
٥ الفهرست (ص ١٤٤) .
٦ يراجـع الباب المسمى (المقالة الثالثة) : في اخبار الاخباريين والنسابين واصحاب الاحداث ... مـن كتاب الفهرست ، لابن النديم (ص ١٣٧) .

استعملت في عنونة بعض الكتب المؤلفة في التأريخ ، فقد كان لـ (عوانة بن الحكم) المتوفى سنة (١٤٧ هـ) كتاب اسمه (كتاب التأريـخ) كما كان له كتاب اسمه (كتاب سيرة معاوية وبني أمية)[1] . وكان للهيثم بن عدي المتوفى سنة (٢٠٧ هـ) كتاب يدعى (كتاب تأريـخ العجم وبني أمية) و (كتاب تأريخ الأشراف) ، و (كتاب التأريخ على السنين)[2] ، وكانت للمدائني المتوفى سنة (٢٢٥) للهجـرة كتاب عنوانه : (تأريخ أعمار الخلفاء) وآخـر اسمه (كتاب تأريـخ الخلفاء) وثالث اسمه (أخبار الخلفاء الكبير)[3] ، لا أستبعد أن يكون هو هذا الكتاب .

الا أن هذا الاطلاق لم يكن واسعاً كثير الاستعمال ، وفي استطاعتنا ذكر هذه الكتب وعدّها ، وما دامت الحال على هذا المنوال ، فليس من المعقول اطلاق لفظة (مؤرخ) و (المؤرخ) و (تأريخ) بصورة واسعة في هذا العهد،وفي جملة العهد الذي عاش فيه (ابن الكلبي) ، ما دام العرف فيه اطلاق لفظـة (أخبار) بمعنى (تأريخ) ، وانما طغت لفظة (تأريـخ) و (مؤرخ) في الأيام التي تلت هذا العهد ، ولا سيما أواخر القرن الثالث للهجرة فما بعده .

هذا من حيث استعمال لفظة (أخباري) . وأما من حيث اهمال التأريخ الجاهلي وصلة الإسلام به ، فقد ذكرت أنه لا علاقة للحديث المذكور بهدم الجاهلية أو باهمال تأريخها،وإنما الإهمال هو اهمال قديم ، يعود الى زمان طويل قبل الإسلام، فعادة قلع المباني القديمـة لاستخدام أنقاضها في مبانٍ جديدة ، والاعتـداء على الأطلال والآثار والقبور بحثاً عن الذهب والأحجار الكريمة والأشياء النفيسة الأخرى، هي عادة قديمة جداً ، ربما رافقت الإنسان منذ يوم وجوده . وهي عادة لا تزال معروفة في كثير من بلدان الشرق الأوسط حتّى اليوم ، بالرغم من وجود قوانين تحرم هذا الاعتداء وتمنع هـذا التطاول . وقد كان من نتائجها تلف كثير من الآثار ، وذهاب معالمها ، فصارت نسياً منسياً . فتكبدت الآثار الجاهلية من أهل الجاهلية ، أي في الأيام السابقة للاسلام مثل ما تكبدته وتتكبده الآثار الجاهليـة والإسلامية معاً في أيام الإسلاميين حتّى اليوم[4] .

١ الفهرست (ص ١٤٠) .
٢ الفهرست (ص ١٥١ وما بعدها) .
٣ الفهرست (ص ١٥٥) .
٤ راجع عن فتح القبور الجاهلية للحصول على ما فيها من كنوز ، الاكليل (٨/١٤٣ فما بعدها) .

وأما موضوع إهمال الآثار وعدم توجيه عناية الحكومات نحوها ، لرعايتها وللمحافظة عليها من التعرض للسقوط والتلف والأضرار ونحو ذلك ، فإنه موضوع لم يدرك الناس أهميته إلاّ أخيراً ، ولم تشعر الحكومات بأنه واجب مهم من واجباتها إلاّ حديثاً ، ولذلك لا نستطيع أن نوجه اللوم الى القدامى لاهمالهم الآثار ولعدم اعتنائهم بالمحافظة عليها .

وكان من آثار هذا الجهل بأهمية الآثار أن أزيلت معالم أبنية وقصور، وحطمت تماثيل وكتابات، لغرض استعمالها في البناء ، وقد كان على مقربة من (سدوس)، أبنية قديمة يظن أنها من آثار حمير وأبنية التبابعة، وأن من جملتها شاخص كالمنارة، وعليها كتابات كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في جدرانها ، فهدمها أهل سدوس ، لاختلاف بعض السياح من الافرنج اليها ملاحظة التداخل معهم[1]. ومثل ذلك حدث في اليمن وفي مواضع أخرى من أمكنة الآثار .

وقد هدمت قرى ومدن في الجاهلية وفي الإسلام من أجل استعمال أنقاضها في بناء أبنية جديدة . ذكر (الهمداني) حصن (ذي مرمر) ، وهو من المواضع الجاهلية المهمة ، وكذلك (شبام سخيم) (بسخم) ، وبقيا معروفين زمناً طويلاً بعده، ثم جاء أحد الأتراك واسمه (حسن باشا) فهدم حصن (ذي مرمر) لينشىء في أسفله مدينة جديدة ، أخذ معظم مواد بنائها من (شبام سخيم)[2] .

وذكر ان حكومة اليمن قامت بعد سنة (١٩٤٥ م) ببناء ثكنة لجنودها في المنطقة الشرقية من اليمن في (مأرب) على نمط الثكنة التي بناها الأتراك في صنعاء ، فهدموا أبنية جاهلية كانت لا تزال ظاهرة قائمة ، واستعملوا الحجارة الضخمة التي كانت مترامية على سطح الأرض ، وأزالوا بعض الجدر والأسوار وحيطان البيوت عند بناء تلك الثكنة ، فطمسوا بذلك بعض معالم تأريخ اليمن القديم[3] ، وأساؤوا بجهلهم هذا الى قيم الآثار اساءة لا تقدر في نظر عشاق التأريخ والباحثين في تأريخ العرب قبل الإسلام .

ويضاف الى ما تقدم عامل آخر ، هَدَمَ الآثار وقضى عليها بالجملة ،

---

١ الالوسي ، تاريخ نجد ، تحقيق الاستاذ محمد بهجت الاثرى ، الطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧ (ص ٢٨) .

٢ Beitrage, S., 18.

٣ Beitrage, S., 28.

وأعني به الحروب . وسوف نرى حروباً متوالية اكتسحت جميع مناطق العربية الجنوبية ، وأتت على مدنها ، اذ استعمل القادة سياسة حرق المدن والمواقع والمزارع ، وقتل السكان بالجملة فأدى ذلك الى اندثار الآثار وتشريد الناس وهربهم الى البوادي وتحول الأرضين الخصبة الى أرضين جُرد ، حتى ضاعت بذلك معالم الحضارة القديمة ، فخسرنا من جراء ذلك علماً كثيراً ، واأسفاه .

وهناك تقصير آخر لا يمكن أن ينسب الى الإسلاميين ، بل يجب عزوه الى الجاهليين فالظاهر من رجوع الصحابة الى ذاكرتهم والى ذاكرة الشَّيَبَة الذين أدركوا الجاهلية في تذكر أيامها وما كانوا عليه قبل الإسلام ، ومن جلب (معاوية بن أبي سفيان) المولع بسماع الأخبار لـ (عبيد بن شرية) ليقص عليه « الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبليل الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلاد »[1] ، ومن رجوع أهل الأخبار الى الأعراب لأخذ أخبار قبائلهم وأيامهم وأنسابهم وشعرهم وغير ذلك ، أن غالبية أهل الجاهلية لم تكن لهم كتب مدونة في تأريخهم ، ولم تكن عندهم عادة تدوين الحوادث وتسجيل ما يقع لهم في كتب وسجلات ، بل كانوا يتذاكرون أيامهم وأحداثهم وما يقع لهم ، ويحفظون المهم من أمورهم مثل الشعر حفظاً . ولما كانت الذاكرة محدودة الطاقة ، لا تستطيع أن تحمل كل ما تحمل ، ضاع الكثير من الأخبار ، بتباعد الزمن ، وبوفاة شهود الحوادث ، ولم يبق بتوالي الأيام غير القليل منها . ومن هنا كان تعليل علماء العربية ضياع أكثر الشعر الجاهلي ، فقالوا : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح واطمأن العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم كثير)[2] . واذا كان هذا ما وقع للشعر مع مكانته عندهم وسهولة بقائه في الذاكرة بالقياس الى النثر ، وتعصب القبائل لشعر شعرائها ، فهل في استطاعتنا استثناء الأخبار ، من هذا الذي يحدث للشعر ؟

---

١ الفهرست (ص ١٣٨) .
٢ المزهر (٢/٤٧٤) .

بل ما لنا وللجاهلية ، ولنراجع تأريخ الاسلام نفسه ، خذ تأريخ آباء الرسول وطفولة الرسول الى يوم مبعثه ، بل حتى بعد مبعثه ، ثم خذ سير الصحابة وما وقع في صدر الإسلام من أحداث ، ترَ أن ما ورد من سيرة آباء الرسول وسيرة الرسول الى الهجرة ، مقتضباً بعض الاقتضاب ، وأن ما ذكر هو من الأمور التي تحفظها الذاكرة عادة ، وما فيما عدا ذلك مما وقع للرسول ، فغير موجود ، وترى اقتضاباً مخلاً في سيرة الصحابة ،واضطراباً في تواريخ الحوادث، واختلافاً بين الصحابة في ذلك . أما سبب ذلك فهو عدم تعود الناس اذ ذاك تسجيل أخبار الحوادث وما يقع لهم ، وعدم وجود مسجلين مع السرايا والغزوات والفتوح يكون واجبهم تسجيل أخبارها وتدوين وقائعها ، حتى ما سجل من أمر ديوان الجند والأنساب وأمثال ذلك ، لم يكن في نسخ عديدة ، فضاع أكثره ، ولم يصل الى الأخباريين لذلك يوم شرعوا في التدوين . وإذا كان هذا حال أخبار الاسلام ، وهي أمور على جانب خطير من الأهمية بالقياس الى المسلمين ، فهل يعقل بقاء أخبار الجاهلية كاملة الى زمن شروع الناس في التدوين في الإسلام، وقد ضاعت قبل الإسلام بزمان ؟

لقد قلت فيما سلف إن الهَمْداني وغيره ممن عنوا بأخبار اليمن ، لم يعرفوا من تأريخ اليمن القديم إلاّ القليل،ولم يعرفوا من أخبار دول اليمن القديمة شيئاً ، ولم يحفظوا من أسماء ملوكها إلا بعض الأسماء ، وقد حرف حتى هذا البعض ، أما معارفهم من معبودات أهل اليمن القديمة ، فصفر ، فلسنا نجد في كتبهم إشارة ما الى عبادة (عثتر) ولا إلى عبادة (أنبى) و (ذات صنتم)و(نكرح) و (سين) و (حوكم) (حكم) و (هوبس) ولا الى بقية المعبودات . نعم ، أشار (الهمداني) إلى اسم إلَه من آلهة (همدان) هو (تالب) ، وكانت محجته في (ريم) (ريام) ، يقصدها الناس في ذلك الزمن للزيارة والتبرك ، ولكنه لم يعرف أنه كان إلهاً ، بل ظن أنه ملك من ملوك همدان ، فدعاه باسم(تالب) ، وزعم أنه ابن (شهران)[1] . وجعل (المقه) ، وهو إلَه سبأ العظيم ، المقدم عندهم على جميع الأصنام ، اسم بناء من أبنية جن سليمان . وقد بُني على ما

---

[1] الاكليل (١٠/ ١٧) .

زعمـــه يأمر سليمان[1] . وتحدث عن « رئام » فقال : «أما رئام ، فإنه بيت كان متنسك ، تنسك عنده ويحج اليه . وهو في رأس جبل أقوى من بلد همدان » ، ونسبه الى (رئام بن نهفان بن تبع بن زيد بن عمرو بن همدان)[2] . وقد ذكره (ابن اسحـــاق) و (ابن الكلبي) و (السهيلي) و (ياقوت الحمـــوي) وغيرهم أيضاً[3] وفي كل الذي ذكروه دلالة على أن ما رووه لم يكن عن مصدر مدوّن ، وإنما هو رويّ عن أفواه الرجال . وأن تلك الأفواه قد نسيت كثيراً من الأصل ، فحاولت سدّ الثُغر بالقصص المذكور .

بل نجد ما ذكره رجال هم أقدم من (ابن الكلبي) ومن (الهمداني) في الزمان ، وألصق منهما عهداً بالجاهلية مثل (ابن عباس)و(عُبَيْدْ بن شَرْيَة) وغيرهما ، ترَ أن ما ذكراه عنها لا يدل على أنهما أخذا أخبارهمـــا من مورد مكتوب ومن كتب كانت موجودة ، ولا أعتقد أن (معاوية بن أبي سفيان)، وهو نفسه ، من أدرك الجاهلية ، كانت به حاجة الى (عبيد) وأمثال (عبيد) من قوّال الأساطير ، وإلى الاستماع إلى أخبارهم ، لو كان عنده شيء مدوّن من أمر الجاهلية ، ثم إنه لو كانت عند (ابن عباس) و (عبيد) وطلاب الشعر الجاهلي والأخبار مدوّنات ، لما لجأوا الى الذاكرة والى الرواة والأعراب يلتمسون منهم الأخبار والأشعار وأمور القبائل !

إنّ جهل أهل الأخبار بأصنام أهل اليمن القديمة التي ترد أسماؤها في كتابات المسند ، وذكرهم أسماء أصنام جديدة زعموا أنها كانت معبودة عند أهـل اليمن لم يرد لها ذكر في كتابات المسند ، أشار (ابن الكلبي) وغـيره إلى بعضها ، واشاراتهم الى دخول اليهودية والنصرانية الى اليمن ، والى تهود (تبّع) وهو في (يثرب) في طريقه الى اليمن ، وأخذه حبرين من أحبار يهود معـــه ، وأمره بتهديم معبد (رئام) ، بناء على اشارة الحبرين[4] ، ثم ظهور جمل وألفاظ في كتابات المسند تدل على التوحيد وعلى وقوع تغير وتطور في ديانات أهل اليمن، مثل عبادة (الرحمن) وعبادة (ذو سموي) ، أي (ذو السماء) أو (صاحب

---

١ Detlef Nielsen, Der Sab. Gott Ilmukah, S., 2, D.H. Mueller, Burgen und Schloesser, Bd., 2 S., 972.

٢ الاكليل (٨/٦٦) ، (٨/٨٢) ، (طبعة الكرملي) .

٣ الاصنام (١٢) ، الاكليل (٨/٨٢ فما بعدها) (طبعة الكرملي) .

٤ الاصنام (١٢ فما بعدها) ، البلدان (٤/٣٤٥) .

السماء)[1] : إن كل هذه الأمور وأمثالها ، هي دلائل على حدوث تغير وتطور في عقليات أهل اليمن ، أثرت في معتقداتهم فجعلتهم ينسون آلهتهم القديمة ، بل يتنكرون لها ، ويبتعدون بذلك عن ثقافتهم الوثنية القديمة ، ومثل هذا التطور والتغير لا بد أن يؤدي طبعاً الى نسيان الماضي والى الالتهاء عنه بالتطور الجديد. وقد وقع هذا قبل الإسلام بزمان .

كان لدخول اليهودية والنصرانية في اليمن وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، دخلٌ من غير شك في إعراض القوم عن ديانتهم الوثنية وعن ثقافتهم وآدابهم. أما اليهود فقد سعوا بعد دخولهم في اليمن لتهويد ملوك اليمن وأقيالها ونشر اليهودية فيها للهيمنة على هذه الأرضين ، وأخذوا ينشرون قواعد دينهم وأمور شريعتهم بينهم ، ويذيعون قصص التوراة ، وأعاجيب سليمان وجن سليمان ، وتمكنوا من اقناع بعض حكّام اليمن بالتهود ، على نحو ما سنراه فيما بعد .

ووجدت النصرانية سبيلها الى اليمن كذلك من البحر والبر ، وسعت كاليهودية لتثبيت أقدامها هناك وفي سائر أنحاء جزيرة العرب ، ووجدت من سمع دعوتها هنا وهناك ، فتنصرت قبائل ، وشايعتها بعض المقاطعات والمدن ، وتعرضت الوثنية للنقد من رجال الديانتين ، واقتبس من دخل في اليهودية الثقافة اليهودية ، ومن دخل في النصرانية الثقافة النصرانية ، وأعرض عن ثقافته القديمة ، وفي جملتها الخط المسند ، خط الوثنية والوثنيين ، وصار عدد قرائه يتضاءل بمرور الأيام . ومن يدري ؟ فلعل رجال الدين الجدد ، صاروا يعلّمون الناس الكتابة بقلمهم الذي كانوا يكتبون به ، وهو قلم أسهل في الكتابة من المسند ، وخاصة على الورق والجلود والقراطيس . وقد يكون هذا سبباً من جملة أسباب تضاؤل عدد الكتابات المدونة في المسند ، في حقبة سأتحدث عنها فيما بعد .

وآية ذلك عثور المنقبين والسياح في مواضع من نجد وفي العروض ، وهي مواضع بعيدة عن اليمن ، على كتابات سبئية يعود تأريخ بعضها الى ما قبل الميلاد وتأريخ بعضها الى ما بعده[2] ، ثم اختفاء آثار كتابات المسند من هذه

---

١ راجع النصوص :
"Zur Geschichte des Judentums im Jemen", in Alt-Orientalische Forschungen, I, 336.
"A Monotheistic Himjarite Inscription", by F.V. Winnet, Glasser 399, Winckler, Asmare, I, Ryk 203, Le Muséon, LII, P., 51ff. BOASOR 83 (1941), P., 22, CIH537, 538, 539, 543, 645, Res 4109, Bose 13, RES 4069, Stambul, 7608 Res 3904

٢ The Qariya Ruin Field, Geographical Journal, June, 1949.
Sanger, The Arabian Peninsula, P., 139, Philby, Two notes from Central Arabia,

المواضع في العهود المتأخرة من الجاهلية القريبة من الإسلام ، مما يبعث على الظن أن أهل الجزيرة كانوا قد استبدلوا بذلك القلم قبيل الإسلام قلماً جديداً مشتقاً من الأقلام الإرمية الشمالية ، وذلك بانتشاره بينهم على أيدي المبشرين وبالاتجار مع عرب العراق ، ولا سيما سكان الحيرة والأنبار ، وهو القلم الذي كان يكتب به أهل مكة وأهل يثرب عند ظهور الإسلام . وبذلك شارك هذا القلم الجديد في موت القلم المسند واختفائه من هذه المواضع ،وبموته انقطعت صلات القوم بالثقافة العربية الجنوبية ، ثقافة القلم المسند .

ولا أستبعد أن يكون من بين رجال الدين من الديانتين أناس كانوا على قدر العلم والفهم بأمور التوراة والإنجيل وبالقصص الإسرائيلي والنصراني وعلى شيء من الالمام بالتأريخ . فقد كان من بينهم أناس هم من أصل رومي أو سرياني أو عبراني،فليس من المستبعد أن يكون لهم حظ من العلم بالأمور المذكورة أخذوه من كتبهم المكتوبة بلغاتهم ومن دراساتهم لأمور الدين . ومثل هؤلاء لا بد أن يستشهدوا في مواعظهم في (مدراشهم) أو (كنائسهم) في الأماكن التي نزلوا بها من جزيرة العرب ، بشيء من قصص التوراة والكتب اليهودية والأناجيل . ودليل ذلك أن معظم القصص الواردة عن الرسل والأنبياء وعن انتشار اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب ، مصدره أناس من أهل الكتاب ، هم من أهل يثرب ، أي من يهود المدينة ، ومن أهل اليمن ، وهو قصص على دلالته على جهل فاضح بأمور اليهودية أو النصرانية ، يدل عموماً على أنه أخذ من أصل يرجع الى أهل الكتاب،وقد غُطّي بقصص وأساطير ساذجة . وهو على بساطته وسذاجته يصلح إن صحت نسبته الى من نسب اليهم ، أن يكون موضوعاً لدراسة مهمة ، هي دراسة مقدار علم يهود جزيرة العرب ونصاراها في الجاهلية بأمور دينهم ومقدار جهلهم بأحكام اليهودية أو النصرانية في تلك الأرضين .

ونحن لا نجد في بقية جزيرة العرب تدويناً للتأريخ ، لعدم وجود حكومات منظمة كبيرة فيها ، ولسيادة النظام القبلي في أكثر أنحائها ، وإنما نجد فيها رواة يروون أخبار قبيلتهم وأمورها وعلاقاتها بالقبائل الأخرى،وحوادثها وأيامها ، ورواة تخصصوا برواية الأنساب ، لما للنسب من أهمية في المجتمع القبلي ، ونجد جماعات تحفظ الشعر وما شاكل ذلك من أمور تخص القبيلة والنظام القبلي ، وكل ذلك رواية ، أي مشافهة ، لا كتابة . ومثل هذا النوع من التوريخ الشفوي

معرض كما قلت سابقـاً لآفات عديدة ، أهمها تحكم العواطف القبلية على الرواة وتعرض الخبر للنسيان كلما تقدم العهد به في الذاكرة ، وكلما ابتعد به الزمن ، اذ تقل حماسة الناس له،ويضعف تأثيره في العواطف ، وتفتر عندئذ همم الرواة عن حفظه وبذلك يتعرض للموت والاندثار ، ومن هنا اندثرت وضاعت أخبار الجاهلية البعيدة عن الإسلام . أما الجاهلية القريبة من الإسلام ، فقد بقي منها ما يشبه ذكريات الطفولة ، خلا الأمور التي عاصرت ظهوره ، فقد أدركهـا الصحابة ، فكان في امكانهم تذكرهـا وروايتها ، وانتقلت منهم الى من جاء بعدهم حتى وصلت الى المدونين .

ما ذكرته هو أهم أسباب إهمال التأريخ الجاهلي ، فجاء ذلك التأريخ لذلك ناقصاً فجاً على نحو ما نقرأه في المؤلفات العربية القديمة . أما تدوينه مجدداً ، واعادة كتابتـه وتنظيمه وتنسيقه وسد الفجوات الواسعة فيه ، فقـد تم على هذا النحو :

تدوين التأريخ الجاهلي :

للمستشرقين مجهود يقـدر في تدوين التأريخ الجاهلي وفي كتابتـه بأسلوب حديث ، يعتمد على المقابلات والمطابقات ونقد الروايات والاستفادة من الموارد العربية والأعجمية . وقد أفادوا مما جـاء عن العرب في التوراة وفي التلمود وفي الكتب اليهودية ، كما أفادوا مما جاء عن جزيرة العرب وسكانهـا في الكتابات الآشورية والبابلية ومن الموارد (الكلاسيكية) والمؤلفات النصرانية سريانية ويونانية ولاتينية ، فأضافوا كل ما تمكنوا الحصول عليه في هذا البـاب الى ما ورد في الموارد الإسلامية عن الجاهليين ، فصحّحوا وقوّموا ، وسدّوا بهذه المواد بعض الثلم في التاريـخ الجاهلي .

وعملهم في بعث الكتابات الجاهلية ونشرها ، مشكور مقدر ، فقد أعادوا الى الخط الذي كتبت به الحياة ، وجعلوه مقروءاً معروفاً ، وترجموا كثـيراً من هذه النصوص الى لغاتهم ، وهي وثائق من الدرجـة الأولى ، وعملوا على نشر النصوص بالمسند وبالحروف اللاتينية أو العبرانية أو العربية في بعض الأحيان ، وعلى استخلاص ما جاء فيها من أمور متنوعة عن التأريخ العربي قبل الإسلام .

وقد أمكننا بفضل هذا المجهود المضني الحصول على أخبار دول وأقوام عربية لم يرد لها ذكر في الموارد الإسلامية،لأن أخبار تلك الدول وأولئك الأقوام كانت قد انقطعت وطمست قبل الإسلام ، فلم تبلغ أهل الأخبار .

وقد ساعدهم في شرح الكتابات الجاهلية وتفسيرها علمهم بلغات عديدة ، مثل اللغة العبرانية والسريانية والبابلية ، فإن في هذه اللغات ألفاظاً ترد في تلك الكتابات بحكم تقاربها واشتراكها في هذه الثقافة المتقاربة التي نسميها (الرابطة السامية) ، كما أن فيها أفكاراً وآراء ترد عند المتكلمين بهذه اللغات ، ولهذا صار في الامكان فهم ما ورد في الكتابات الجاهلية بالاستعانة بتلك الأفكار والآراء .

وقد كان للسياح الذين جابوا مواضع متعددة من جزيرة العرب ، ولا سيما المنطقة الغربية والجنوبية منها ، فضل كبير في بعث الحياة في الكتابات الجاهلية . فقد أخذ أولئك السياح بعض كتابات ، كما أخذوا صور بعض آخر ، وبفضل تعاونهم مع العلماء المبحرين باللغات الشرقية أمكن حل رموزها وبعث الحياة فيها بعد موت طويل .

وقد كانت اسفار أولئك السياح مغامرات ومجازفات ،إذْ تعرضت حياة أكثرهم للخطر ، بسبب عدم استقرار الأمن اذ ذاك ، وبسبب سوء الأوضاع الصحية ، ولعدم وجود أماكن مريحة ، تناسب حياتهم التي تعوّدوها ، إلا أنهم لم يبالوا ذلك ولم يحفلوا به ، وتحايلوا بمختلف الحيل للتغلب على تلك الصعوبات ولكسب ودّ رؤساء القبائل والحكام لتسهيل مهمتهم . وقد قضى نفر منهم نحبه في أسفاره هذه . وقد كانت أكثر أسفار هؤلاء الروّاد أسفاراً فردية قام بها أفراد من العلماء ومن الضباط والمغامرين . والأسفار الفردية، مهما كانت ، لا تأتي بالنتائج التي تنجم عن دراسات البعثات المتخصصة بمختلف الشؤون ، لذلك نتطلع الى اليوم الذي تتمكن فيه البعثات العلمية الكبيرة من اختراق آفاق بلاد العرب،وتقديم نتائج بحوثها الى العلماء لتدوين تأريخ مرتب لجزيرة العرب قبل الإسلام ، ولا سيما الى البعثات العلمية العصرية التي تتألف من متخصصين من الناطقين بلغة هذه البلاد ، لأن هؤلاء أقدر من غيرهم على فهم اللهجات القديمة ومحتوياتها وروح ذلك التأريخ .

ونستطيع أن نعدّ السائح الدانماركي (كارستن نيبور) Carsten Niebuhr الذي

قام في سنة ١٧٦١ للميلاد برحلة الى جزيرة العرب ، أول رائد من روّاد الغرب ظهر في القرون الحديثة ، وصف بلاد العرب ، ولفت أنظـار العلماء الى المسند والرقم العربية[١] . وقد أثارت رحلته هذه همم العلماء والسياح ، فرحل من بعده عدد منهم لا يتسع المقام لذكرهم جميعاً رحلات إلى مختلف أنحاء جزيرة العرب عادت على التأريخ العربي بفوائد جزيلة .

فزار الدكتور (سيتزن) Dr. Seetzen جنوبي بـلاد العرب ، وتمكن من نقش صور نصوص عربية جنوبية أرسلها الى أوروبة عام ١٨١٠ م وهذه النصوص على قصرها وغلطهـا ، أفادت في تدوين تأريخ العرب قبل الإسلام افادة غير مباشرة ، لأنها لفتت أنظار المستشرقين اليها والى دراسة التأريخ العربي القديم ، حتى آل الأمر الى حل رموز تلك الكتابة ومعرفة حروفها[٢] .

وتمكن الرحالة السويسري (ليدويك بركهارد) Johann Ludwig Burckhard من القيام برحلة الى الحجاز ، فتزيا بزي مسلم اسمه (ابراهيم بن عبد الله) يريد الحج وزيارة مسجد الرسول وقبره . وقد صحب الحجاج في حجهم ، ووصف موسم الحج وصفاً دقيقاً ، وكتب عن مكة والمدينة كتابة علمية . وقد زار آثار الأنباط وعاصمتهم (البتراء)[٣] .

---

١ Carsten Niebur, Reisebeschreibung nach Arabien und anderen umliegenden Laendern, Kopenhagen, 1772-1837, in 2 Bande.

وهناك طبعة فرنسية وترجمة انكليزية ،

Carsten Niebuhr, Description de L'Arabie, Copenhagen, 1773, Voyage en Arabie, Amsterdam, 1774-80, R.H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell University Press, 1954, P., 241.

٢ Pfannmueller, S., 85, Seetzen, Travels in Yemen, 1810, Hommel, Explorations in Arabia, in Hilprecht, Explorations in Bible Land, P., 702, Seetzen, Fundgruben des Orients, Vienna, 1811,

نشر مذكرات (Seetzen) التي ارسلها الى اوربة المستشرقون (Fleischer) و (Kruse) و (Heinrich Mueller) في اربع مجلدات :

Reisen durch Syrien, Palaestina, Phoenizien, die Transjordan-Lander, Arabia Petraea und Unter-Aegypten.

٣ Johann Ludwig Burckhardt, Travels in Arabia, London, 1829, Deutsch, Weimar, 1830, Burckhardt, Travels in Syria and Holy Land, London, 1822, Notes on the Bedouins and Wahabys, 2Vols., London, 1830, in German, Weimar, 1831, S. M. Zwemer, Arabia the Cradle of Islam, London, Explorations, P., 703.

وتمكن ضابط انكليزي يدعى James R. Wellsted من زيارة الأنحاء الجنوبية من جزيرة العرب ، ومن الظفر بصور نصوص عربية قديمة قصيرة،ومن استنساخ كتابة حصن (غراب) التي يرجع تأريخها الى سنة (٦٤٠) من تأريخ أهل اليمن ، وتوافق سنة ٥٢٥ للميلاد . وبفضل هذا الضابط عرف المستشرقون هذا النص[١] .

وأضاف الرحالة (هوتن) T.G. Hutton عدداً آخر من الكتابات الجاهلية سنة ١٨٣٥ الى ما كان قد عرف سابقاً . وجاء (كروتندن) Cruthenden سنة ١٨٣٨ م بنقوش أخرى جديدة . وكذلك (الدكتور مكل) Dr. Mackell الذي عاد بخمسة نصوص سبئية ، فتوسعت بذلك دوائر البحث قليلاً ، وتمكن العلماء بفضل هذه النقوش من حل رموز المسند[٢] .

وقد قام الصيدلي الفرنسي (توماس يوسف أرنو) (Thomas Joseph Arnaud) برحلة الى اليمن ، كانت موفقة جداً ، اذ تمكن بفضل علمه بالعقاقير ، من اكتساب صداقة المشايخ والزعماء . وبهذه الصداقة استطاع أن يتجول في بعض أنحاء اليمن ومدنها ، ولم يكن ذلك أمراً ميسوراً للغرباء ، فزار الجوف ووقف على خرائب (مأرب) ، ومكث في مدينة (صنعاء) أمداً ، وزار (صرواح) المدينة الأثرية القديمة ، واستنسخ ستة وخمسين نصاً كتابياً قديماً[٣] .

وكتب التوفيق لسائح أوروبي آخر ، هو الضابط الانكليزي (Coghlan) ، فحصل في سنة ١٨٦٠ م على عشرين لوحاً برنزياً سليماً عثر عليهـا في أنقاض مدينة (عمران)[٤] . وقد أرشدت هذه الألواح المعدنية المستشرقين الى ناحية مهمة

---

١ Otto Weber, Arabien vor dem Islam, S., 10, Wellsted, Travels in Arabia, London, 1838, in 2 Vols., Narrative of a Journey to the Ruins of Nakeb el Hajar, in Journal Royal Geogr. Soc., VII, 20, in German, Halle, 1842, by Rodiger, Saenger, The Arabian Peninsula, p., 221, 241.

٢ Cruttenden C. J. Journy. of an Excursion to San'a the Capital of Yemen, Bombay, 1838, Journal of the Royal Geographical Society of London, Vol., III, 276-289, and in the Proceedings of the Bombay Geographical Society, 1838, PP., 39-55.

٣ Otto Weber, S., 10, Pfannmüeller, S., 85, Hommel, Explorations, P., 704 Arnaud Relation d'un Voyage a Mareb, in Journal Asiatique, 1845, 211, 309, 1874, 3.

٤ (عمران) ، الاكليل (١٣/٨ ، ١٠٦ ، ١١٠) .

من نواحي الفن العربي القديم[1] .

وتوصل العلماء ، بعد جهود ، الى حل رموز هذه الكتابة العربية ، فعرفوا منها – وكان أغلبها قصيراً – انها تبحث في موضوعات متشابهة ، وانها مؤلفة من حروف أطلقوا عليها اسم (الكتابة الحميرية) أو (الحروف الحميرية). وكان الرأي السائد بادىء بدء انها كذلك ، حتى تبين لهم ان هذه النصوص والنصوص التي جيء بها أخيراً لم تكن جميعها نصوصاً حميرية، بل كان بعضها من النصوص المعينية ، وبعضها كتابات سبئية ترجع الى عهد دولة سبأ ، وبعضها بلهجات أخرى ، تختلف عن الحميرية بعض الاختلاف . وهذه الكتابة، هي الكتابة المسماة بـ (خط المسند) وبـ (القلم المسند) وبـ (المسند) في الموارد العربية .

عالج بعض العلماء، ممن أولعوا بدراسة النقوش، تلك النصوص ، وأعملوا رأيهم فيها حتى تمكن بعضهم من التوصل الى حلّ رموز بعضها ، مثل العالم (وليم كسنيوس) (Wilhelm Gisenuis) والعالم (رودكر) (E. Rodiger) والعالم (هاينرش ايوالد) (Heinrich Ewald) والعالم (فريسنل) (F. Fresnel) الذي نشر النصوص التي جاء بها ، وعددها ستة وخمسون نصاً بحروف عربية وحميرية ، في الجريدة الآسيوية (Journal Asiatique) سنة ١٨٤٥ م ، إلاّ أن نشره لم يكن متقناً اتقاناً تاماً. وجاء القسيس (أرنست أوسيندر) (Ernest Osiander) فأتم ما كان قد بدىء به[2] . ولم يتمكن العلماء الذين عالجوا مشكلة الكتابة العربية الجنوبية من معرفة الحروف كلها ، ولذلك لم يستطيعوا قراءة أكثر النصوص التي جيء بها الى أوروبة وفهم معناها ، كما ان النصوص المقروءة لم تكن مضبوطة ضبطاً تاماً ، فاستطاع هذا العالم بجهوده العظيمة قراءة كل النصوص التي جاء بها السياح والعلماء ، وتعيين أشكال الحروف ، ووضع أسس متينة لدراسة عرفت بعد ذلك باسم (الدراسة العربية الجنوبية) وقد استعان العلماء على فهم هذه الكتابات بالدراسات اللغوية السامية مثل العبرانية ، وباللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وباللهجات اليمانية ، وبالمعلومات الجغرافية المدوّنة في الكتب

---

١ Pfannmueller, S., 85, Weber, S., 10.

٢ Pfannmuller, S., 85, Fulgence Fresnel, in Journal Asiatique, 111, Series, V, 521, 1838, Lettres Sur Hist. des Arabes Avant l'Islamisme, 1853, Fresnel, Recherches sur les Inscriptions Himyariques de San'a, Kha'riba Marib in, Journal Asiatique, IV, Serie, Tom, 6, P., 169-1845.

العربية ، وبأسماء الملوك والأشخاص الذين وردت أسماؤهم في المؤلفات العربية[1] .

وترسم المستشرق (ليفي) (M. A. Levy) أثر (اوسيندر) ، وتتبع أسلوبه في البحث،وحاول استخراج مادة تأريخية من هذه النصوص التي ترجمت وعرفت. وقد تمكن من نشر ما تركه (أسيندر) من نصوص عاجلته المنية قبل أن يوفق لاخراجها الى الناس ، فتمكن (ليفي) من تنسيقها وتهذيبها ، وطبعها وعرضها على العلماء[2] .

وفاق (يوسف هاليفي) (Joseph Halévy) ، وهـو يهودي فرنسي ، كل من تقدمه بكثرة ما جاء به الى أوروبة من نقوش ، وبسعة علمه في تأريخ اليمن ، وبدراسة الكتابات العربية الجنوبية . دخل هذا الفرنسي اليمن في هيئة يهودي متسول من أهل القدس ، ليتجنب بذلك ما يتعرض له الغرباء وأهل البلاد المسلمون على السواء من أخطار رجال القبائل وقطاع الطرق الذين لا يمسون أهل الذمة بسوء .

وقد استطاع ، بهذه الطريقة ، التطواف في أرجاء اليمن ، حتى بلغ أعاليها مثل (نجران) ، وأعالي الجوف وهي المنطقة التي كان فيها (المعينيون) . ووصل في تطوافه الى حدود (مأرب) عاصمة سبأ والى (صرواح) ، وهو بهذا أول أوروبي زار (نجران)[3] . ولما عاد الى أوروبة ، أحضر معه (٦٨٦) نقشاً جمعها من مواضع مختلفة من اليمن .

وفي سنة ١٨٧٢ – ١٨٧٤ م نشر هذا العالم في الجريدة الآسيوية (Journal Asiatique) ما كتبه في وصف رحلته الى بلاد اليمن ، وقد ضمن كتاباته وصفاً للأماكن التي حل بها والطرق التي اجتازها ، وترجمة لـ (٦٨٦) نصاً ، وهي النصوص التي كان قد جاء بها أو استنسخها من أصولها ، ونشر بحثاً علمياً وانتقاداً قيماً للأبحاث اللغوية والتراجم والنصوص التي سبق أن نشرها العلماء من قبله[4] .

---

١ Pfannmueller, S., 85, Weber, S., 10.

٢ Pfannmueller, S., 85.

٣ Halévy, in, Bulletin de la Société de Géographie, 1873, et 1877, Rapport sur une Mission Archéologique dans le Yemen, in Journal Asiatique, Series O, Vol., XIX, Joseph Halévy, in Journal Asiatique, 1874, Pfannmueller, S., 86, Explorations, P., 709.

٤ Pfannmueller, S., 85.

وكان ممن ذهب الى اليمن شاب نمساوي اسمه (سيكفريد لنكر) (Siegfrid Langer) ، وقد استطاع تصوير بعض النقوش واستنساخ قسم من الكتابات في عام ١٨٨٢ م . غير أن القدر عاجله اذ قتل هناك ، ففقد البحث في تأريخ اليمن بوفاته عضواً نشيطاً . غير أن نمساوياً آخر عوّض عن خسارة ذلك الشاب ، وهو العالم (ادورد كلاسر) (Eduard Glaser) . وقد قام بأربع رحلات الى اليمن، ورجع بعدد كبير من النصوص والنقوش وبمادة غزيرة من المعلومات[١] .

بدأ الرحلة الأولى (في اكتوبر من سنة ١٨٨٢ م) ، وختمها في شهر آذار (مارس) من سنة ١٨٨٤ م ، وكانت الحالة السياسية في ذلك الزمن مضطربة، والأوضاع غير مساعدة ، والفوضى عامة في بلاد اليمن ، ولم يكن للحكومة على القبائل من سلطان . ومع ذلك تمكن من الحصول على (٢٥٠) نقشاً رجع بها الى أوروبة . أما الرحلة الثانية ، فكانت في نيسان سنة ١٨٨٥ م ودامت حتى فبراير سنة ١٨٨٦ ، وقد زار في أثنائها المناطق الجنوبية الشرقية والمنطقة الجنوبية الممتدة من جنوب (صنعاء) حتى مدينة (عدن) . وقد تمكن من جمع معلومات مهمة عن طبغرافية البلاد وأماكنها الأثرية ، وعاد بنصوص معينة مهمة دخلت في ممتلكات المتحف البريطاني[٢] .

وقام بالرحلة الثالثة في سنة ١٨٨٧ م ، ومكث في اليمن الى سنة ١٨٨٨ م ، وكانت رحلته هذه موفقة جداً ، اذ حصل على آثار ونقوش كتابية كانت على جانب عظيم من الأهمية ، منها أربعمئة نص أخذها من مدينة (مأرب) عاصمة (سبأ) ، ومن هذه النصوص نصان عن تصدع سدّ مأرب يرجع عهدهما الى زمن قريب من ميلاد الرسول ، ونصوص أخرى من مدينة (صرواح) يرجع عهدها الى العصر السبئي ، وهي ذات أهمية كبيرة في تدوين تأريخ بلاد العرب الجنوبية[٣] .

وكانت رحلته الرابعة ، وهي الأخيرة ، في سنة ١٨٩٢ م ، وكانت موفقة

---

١ O'leary, P., 221, Explorations, P., 722, Pfannmueller, P., 83, Weber S. 11

٢ Weber, S., 11.

٣ Explorations, P., 721, Mitheilungen der Vorder-Asiatischen Gesellschaft, Berlin, Beilage der Allgemeinen Zeitung, 1888, Nos, 298, f., Eduard Glaser, Reise nach Ma'rib.

جداً كذلك . اتبع فيهـا أسلوباً جديداً في الحصول على صور النصوص ، اذ استعان بالأعراب الذين فرقهم في مختلف الجهات التي لم يسبقه أحد من الأوروبيين الى زيارتها، بعد أن علمهم مختلف الطرق في الحصول على تلك النصوص بطريق الورق الذي يتأثر بالضوء وبطريقة القوالب الجبسية وبطرق أخرى . وقـد تمكن بهذا الأسلوب الجديد من الظفر بصور مضبوطة بعض الضبط للكتابات القديمة التي لم يكن بوسعه الذهاب الى أماكنها واستنساخها بنفسه، وبها أيضاً تمكن من تصحيح أغلاط الصور التي أخذها (هاليفي) عن النقوش الأصلية ، ومن الحصول على زهاء مئة نص قتباني أخذها من منطقة خرائب (مـأرب). وفي متحف (فينا) قسم من الأحجار المكتوبة التي كان هـذا العالم قد جلبها معه في المرة الأخيرة إلى أوروبة[١] .

وقد زار المستشرق (جورج أغسطس والين George Augustus Wallin) سنة ١٨٤٥ م نجداً ودوّن رحلتـه اليها[٢] . وزار الحجاز المستشرق الهولنـدي الشهير (سنوك هرغونيه Snouk Hurgtonje) ، فكتب في أحوال مكة ووصف الحياة في الحجاز وموسم الحج . وكان قد ذهب اليه سنة ١٨٨٥ – ١٨٨٦ م وهو من العلماء المدققين[٣] .

وقد زار الحجاز (السير ريشارد برتن) (Sir Richard Burton) متنكراً بزي مسلم سمّى نفسه (عبدالله) زار الحرمين وكتب وصف رحلته هذه[٤] .

وتوغلت (حنة بلنت) (Anne Blunt) سنة ١٨٧٩ م في شمال بلاد العرب حتى بلغت أرض نجد ، وكانت مولعة بدراسة أحوال الخيول العربية[٥] . واخترق الرحالة الانكليزي (تشارلس دوتـي) (Charlis M. Doughty) الصحارى العربية وشمال بلاد العرب ، ووضع كتاباً مهماً وصف فيه أسفاره في بلاد العرب

---

١ Weber, S., 12, Pfannmueller, S., 86.

٢ Ency. Brita., Vol., 2, P., 171, Explorations, P., 705.,

٣ Ency. Brita., Vol., 2, P., 170, Mekka, den Haag, 1888, Explorations, P. 720.

٤ Richard Burton, Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medina and Meccah, London, 1857, in two Vols.

٥ Lady Anne Blunt, A Pilgrimage to Najd, 2 Vols, London, 1883, The Bedouins of the Euphrates, London, 1879.

الصحراوية[1] . وقد اهتم خاصة بدراسة النواحي (الجيولوجية) والجغرافيـة للبلاد العربية ، ودوّن ملاحظاته عن الظواهر الجوّية وتغيرات الجو ولم يغفل عن دراسة طبائع البدو وحياتهم الاجتماعية وطرق تفكيرهم وعقائدهم . وقد طبع كتابه ، في سنة ١٨٨٨ ، وترجم الى بعض اللغات الأوروبية لأهميته[2] .

ويعد هذا الرحالة من المتعصبين على الإسلام ، وقد يكون لهذا التعصب سبب ، فقد لاقى من الأعراب وأهل المدن شيئاً كثيراً أثر في نفسه ، فصار يتحامـل على المسلمين ويقسو في حكمه على الرسول ، إلا أنه لم يتمكن مع ذلك من الغض من قيمة المبادىء الأخلاقية التي يتحلى بها . ومما لاحظه على البدو ، عدم اهتمامهم بعبادتهم كالصلوات الخمس والصوم ، كما لاحظ من جهـة أخرى ان الخوف من وجود إله يكاد يكون أعمق أثراً في نفوس هؤلاء من الحضر . ولاحظ أيضاً أن جذور الوثنية القديمة لا تزال راسخـة حتى الآن في نفوس الأعراب وأكثر سكان القرى والمدن ، وقد أظهر هذا الرحالة ميلاً عظيماً لدراسة حيـاة البدو وطرق معيشتهم ، وهو يتشوق الى الصحراء ويحن اليها حنين البـدو ، ويتجلى ذلك العطف في رحلته التي تعد من روائع الأدب الانكليزي[3] .

ورحل (ثيودور بنت) (Theodore Bent) وزوجتـه الى البحرين وجنوب الجزيرة العربية فزارا الأمـاكن الأثرية ، وتحدثا عن بعض الخرائب الجاهليـة والكتابات . وكانت زيارتهما للبحرين سنـة ١٨٨٩ م . أما زيارتهما لمسقط وعمان وحضرموت ، فكانت في هذه السنة ثم في سنين بعدها[4] .

وتزيا الرحالة الألماني (هاينرش فون مالتزن) (Heinrich von Maltzen) بزي حاج مغربي ، وكان قد زار المغرب وتعلم لهجة سكانه ، وذهب إلى الحجاز وتظاهر هناك بأنه منهم ، وبعد عودته من الحج وضع رحلته[5] .

---

١ Travels in Arabia Deserta, Cambridge, 1886, in 2 Vols.

٢ Charlis M. Doughty, Die Offenbarung Arabiens, Paul List Verlag, Leipzig, 1937.

٣ Passage from Arabia Deserta, Selected by, Edward Garnett, London, 1949, Pfannmueller, S., 54.

٤ Th. Bent and Mrs Bent, Southern Arabia Sudan and Socotra, London, 1900.

٥ von Maltzen, Meine Wallfart nach Mekka, Leipzig, 1865, Bd., 1, 2," bearbeitet von F. Gansberg, Braunschweig, 1919, Reise in Arabien, Braunschweig, 1873, Bd., 1, 2, Arabica, Parts 4 und 5, Leiden, 1896-1898.

ومن الجوّابين العلماء (يوليوس أويتنك Julius Euting) ، وقد اهتم خاصة بدراسة أحوال البدو ، وكتب في الوهابيين والحركة الوهابية[1] .

ومنهم الرحالة الجيكوسلوفاكي الأصل (ألويس موسل) (Alois Musil) ، زار (العربية الحجرية) وكتب عدة كتب في وصف شمال الحجاز وبادية الشام ومنطقة الفرات الأوسط وتدمر ونجد ، ووضع في نهاية كل كتاب من كتبه فصولاً علمية قيّمة فيها تحقيق تأريخي جليل[2] . وثمة جوابون آخرون لا بد من ذكرهم مثل (جوسن) (Antonine Jaussen)[3] و (برونوف) (R. E. Brünnow)[4] و(شارلس هوبر) (Charles Huber)[5] و (وبرترام توماس) الشاب الانكليزي المستشرق الذي استطاع في شباط سنة ١٩٢٩ م أن يخترق لأول مرة (الربع الخالي) فكشف بذلك بقعة من أكبر البقاع المجهولة في بلاد العرب[6] . ويضارعه في مخاطراته هذه (فلبي) الذي أسلم فأطلق على نفسه (الحاج عبدالله فلبي) . وقد ألّف هذا الانكليزي المستعرب عدة كتب بالانكليزية وصف فيها أسفاره في بلاد العرب ، وقد تهيأ له من الفرص ما لم يتهيأ لأوروبي آخر ، اذ كان من الملازمين للملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود والمقربين اليه . وقد مكث الرحالة الألماني (راتجن) (C. Rathjens) بضع سنين في اليمن وكتب عنها ، وجلب معه عدة كتابات يمانية قديمة الى ألمانيا وضعت في (متحف الشعوب) في مدينة (هامبرغ)[7] .

---

١ Julius Euting, Tagbuch einer Reise in Inner-Arabien, Leiden, 1896-1914, Bd., I.

٢ The Northern Hegas, New York, 1926, Arabia Deserta, New York, 1927, Palmyrena, New York, 1928, Northern Negd, New York, 1928, The Middle Euphrates, New York, 1927, In the Arabian Desert, New York, 1930.

٣ Antonine Jausen, Countems des Arabes au Pays de Moab, Paris, 1908, Pfannmueller, S., 29, Hitti, P. 7.

R.E. Bruennow und A.V. D omaszewski, Die Provincia Arabia, Strassburg, 1904-1909, 3 Baende.

٤ Charles Huber, Voyage dans l'Arabie Centrale, Paris, 1885, Journal d'un Voyage en Arabie, (1883-1884, Paris, 1891.

٥ Arabia Felix, Across The Empty Quarter of Arabia, New York, 1932.

٦ The Empty Quarter, 1938, The Background of Islam, 1947, وكتب كتبا اخرى

٧ C. Rathjens und H. von Wissmann, Suedarabien-Reise, 3 Bd., Hamburg, 1934, Rathjens und von Wissmann, "Sanna, Eine Stuedarabische Stadtlandschaft" in, Zeitschrift der Gesellsch. f. Erdk. zu Berlin, Nos., 9-10, S., 329. ff.

وقامت بعثة أمريكيـــة عرفت بـ (المؤسسة الأمريكيـــة لدراسة الانسان) (The American Foundation for the Study of Man) برئاسة (وندل فيلبس) (Wendell Phillips) ، وضمت بعض العلماء الواقفين على تأريخ اليمن القديم مثل (البرايت) (Dr. W. F. Albright) أستاذ الآثار في جامعة (جون هوبكنس) بالولايات المتحدة ، وآخرين في مختلف الموضوعات وذلك ما بين سنتي ١٩٥٠ – ١٩٥٢ م بأعمال الحفر في منطقة (عدن) واليمن . وبالرغم من النهاية المحزنة التي انتهت أعمال البعثة اليها ، فقد تمكنت من الحصول على نتائج حسنة جديدة لم تكن معروفة عن تأريخ مملكة قتبان وسبأ ، وعادت ببعض الآثار[١] .

وكانت في جملة ما درسته هذه البعثة نظم الري في مملكة (قتبان) . ودراسة موضع (هجر بن حميد) ، حيث عثرت على فخار ومواد أخرى يعود عهدها، كما يرى خبراء البعثة الى ألفي سنة . ودراسة أخرى لمدينة (تمنه) عاصمة (قتبان) ولمعبدها الشهير ولبقايا مقبرتها ، وعثرت على كتابات جديدة ، وقدّرت سقوط تلك العاصمة وخرابها بسنة (٢٥) قبل الميلاد[٢] .

وقامت هذه البعثة في سنة (١٩٥٢) و (١٩٥٣) للميلاد بأعمال الحفر في (ظفار) بعمان . ثم عادت فنقبت في هذه المنطقة في ابتداء سنة (١٩٦٠)م ، حيث كشفت عن بعض الخفايا من تأريخ هذه المنطقة التابعة لسلطنة عمان[٣] .

وقامت في سنة (١٩٦٢)م بعثة أمريكية من المستشرقين الأميركان ، لا علاقة لها بالبعثة المتقدمة بزيارة مواضع من المملكة العربية السعودية ، فزارت (سكاكة) « سككه » والجوف وتيماء ومدائن صالح والعلا وتبوك ، وظفرت بنماذج من فخار قديم ، ونقلت صوراً لكتابات ثمودية ونبطية ، أهمها الكتابات التي وجدتها في قمة (جبل غنيم) الذي يقع على مسافة ثمانية أميال من جنوب (تيماء) .

---

١ وقد ترجم كتاب (وندل فليبس) ونشر بعنوان : (كنوز مدينة بلقيس) ترجمة (عمر الديراوي) سنة ١٩٦١ ، وفي الكتاب ، ويا للاسف أغلاط كثيرة في تدوين الاعلام ، زيد بن علي عنان : تأريخ اليمن القديم (وقد اولاني ثقته – حفظه الله – حين ارسلني مشرفا على اعمال الحفر بمارب الذي قامت به البعثة الاميركية المشؤومة برئاسة وندل فيليبس ، ذلك اللص النصاب الذي جنى على دعائم محرم بلقيس .... الخ) ، المقدمة ، Saenger, The Arabian Peninsula, P., 241.

٢ Saenger, The Arabian Peninsula, P., 241. f.

٣ BASOR., Num. 159, (1960), PP., 14.

وهي ، كما تقول البعثة ، من أقدم الكتابات التي عثر عليها حتى الآن في العربية الشمالية . وكان (فلبي) قد استنسخها بيده ، وتبين بعد مقارنة ما استنسخه فلبي بالصور (الفوتوغرافية) التي أخذتها البعثة أن في نقل (فلبي) أوهاماً عديدة . وفي جملة ما عثرت عليه البعثة صور نحتت على أحجار تمثل آلهة عربية قديمة[١] .

وهناك طائفة أخرى من المستشرقين خدمت التأريخ العربي قبل الإسلام خدمة جليلة مهمة ، هي طائفة أساتذة الجامعات وأصحاب التتبع والبحوث ، استفادت من بحوث السياح ومن الموارد المذكورة التي تحدثت عنها عن مصادر التأريخ الجاهلي ، ثم غربلتها ونقدتها وألفت منها مادة جديدة لتأريخ الجاهلية . ومن هؤلاء المستشرق : (بركر) (Berger) مؤلف كتاب (جزيرة العرب قبل محمد في الآثار (L'Arabie Avant Mahomet d'après les Inscriptions), Paris 1885. ، والمستشرق (كوسان دي برسفال) العلامة الفرنسي صاحب كتاب (تأريخ العرب قبل الإسلام) (Essai sur l'Histoire des Arabes Avant l'Islamisme)[٢] وهو من الكتب المفيدة . وقد جاء صاحبه بنتائج مهمة وبآراء صائبة في بعض الموضوعات ، غير أن الكتاب أصبح قديماً ، وفيه نواقص كثيرة ، وهو لا يتفق اليوم مع أساليب البحث الحديثة . وقد اعتمد مؤلفه على المصادر العربية ولا سيما كتاب (الأغاني) وعلى مصادر أخرى كانت معروفة في ذلك الوقت ، غير أنه لم يتمكن من الوصول الى مصادر كثيرة أخرى مهمة ، لأنها لم تكن في متناول يده في ذلك العهد .

وللمستشرق الايطالي (كيتاني) (L. Caetani) بحث جيد في تأريخ العرب قبل الإسلام ، جعله مقدمة لتأريخ الإسلام[٣] . وهو على جهده في محاولة التعمق في فهم تأريخ الجاهلية والإسلام ، لا يخلو من هفوات ومن تغلب العاطفة عليه ، ولا سيا في القسم الخاص بتأريخ الإسلام .

وممن كتب في حياة العرب قبل الإسلام المستشرق (أوليري Delacy O'Leary) ،

---

١ BASOR., Num 168, 1962, P., 9.

٢ Paris, 1847-1848, Reprinted, 1902, in 3 Vols.

٣ Annali Dell'Islam, by Leone Caetani, Principe di Teano, Vol., I, Milano, 1905, Studi di Storia Orientale, Milano, 1911.

صاحب كتاب (البلاد العربية قبل محمد)[١] . وقد تحدث فيه عن صلات العرب بالمصريين فالآشوريين الى زمن ظهور الإسلام ، وهو لا يخلو أيضاً من هفوات . وقد صار قديماً . والمستشرق (تشارلس فورستر) (Charles Forster) ، وله كتاب مفيد (وان أصبح قديماً جداً) في تأريخ بلاد العرب القديمة وجغرافيتها ويستند في أكثر أبحاثه كأغلب معاصريه الى نظريات التوراة[٢] .

وقد كتب المستشرق الألماني (أوتو ويبر) (Otto Weber) رسالة صغيرة في حالة العرب قبل الإسلام[٣] .

وقد كتب المستشرقون الذين عنوا بالسيرة النبوية وبالتأريخ الإسلامي عامة فصولاً تمهيدية في حالة العرب قبل الإسلام ، تعرضوا فيها لمختلف النواحي التأريخية ، وهي مفيدة للاطلاع على أحوال الجاهلية .

وهناك من كتب في موضوع خاص من التأريخ الجاهلي كالمستشرق (رينه دوسو) ، فقد وضع كتاباً في (العرب في الشام قبل الإسلام)[٤] . والمستشرق الألماني (ثيودور نولدكه) ، وله كتاب في (تأريخ الفرس والعرب في عهد الساسانيين)[٥] ، وكتاب آخر في (أمراء غسان)[٦] .

والمستشرق (روتشتاين) (Rothstein) كتاب (تأريخ أسرة اللخميين في الحيرة)[٧] ، وهو من الكتب المهمة التي جمعت شيئاً كثيراً من أخبار هذه الأسرة. وقد استعان مؤلفه بالمصادر العربية والسريانية واليونانية ، ولا يخلو على كل حال من الضعف في بعض مواضعه .

ويضاف الى كل ذلك ما كتبه بعض المستشرقين في الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام ، وأهمها كتاب (بركمن) (Bergmann) في أديان العرب في الجاهلية[٨] ، والفصل الذي كتبه المستشرق (أرنست أسيندر) (Ernst Osiander)

---

١ O'Leary, Arabia, before Muhammed, London, 1927.

٢ Charles Forster, The Historical Geography of Arabia, London, MDCCCXLIV, 2 Vols.

٣ Arabien vor dem Islam, 1904.

٣ Les Arabes avant l'Islam en Syrie.

٥ Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden, 1879.

٦ Die Ghassanidischen Fuersten aus dem Hause Gafna's, Berlin, 1887.

٧ Die Dynastie der Lachmiden in al-Hira, Berlin, 1899.

٨ De Religione Arabum anteislamica.

في ديانة العرب قبل الإسلام ، في مجلة الجمعية الآسيوية الألمانية[1] . وقد بحث هذا المستشرق في ديانة العرب قبل الإسلام بحثاً عميقاً ، وهو أول مستشرق درس هذا الموضوع بعد « بوكوك » (Pococke) الذي كان أقدم من درس الوثنية عند العرب دراسة تفصيلية مستقلة في كتابه المطبوع سنة ١٦٤٩ للميلاد[2] . وقد تطرق (أسبندر) لعبادة النجوم عند العرب وعبادة الأصنام والأماكن المقدسة في جنوبي بلاد العرب وعبادة الأصنام في الحجاز ونجد ، وتوصل إلى أن العرب عبدوا النجوم في بادىء الأمر ، ثم تطورت الفكرة الدينية عندهم ، وبالرغم من ذلك ظلت عقدة عبادة النجوم راسخة في أدمغتهم .

وجاء المستشرق (لودولف كريل) (Ludolf Krehl) ، فأحيا هذه الدراسة مرة ثانية بكتابه « بحث عن ديانة العرب قبل الإسلام »[3] ، وطرق موضوعات لم يتمكن من سبقه من البحث فيها . وقد ذهب الى أن العرب القدماء كانوا من الموحدين في الأصل . غير أنهم تركوا التوحيد بعدئذ ، وعمدوا الى عبادة النجوم والأصنام فالأحجار والأشجار ، وبذلك انحطت الحالة الدينية عندهم ، وفي القرن السادس تأثروا بالديانة اليهودية والنصرانية في الأماكن التي حدث فيها اتصال بهاتين الديانتين .

وأهم ما ألف في الوثنية عند العرب قبل الإسلام ، كتاب المستشرق الألماني (ولهوزن) الذي سماه : (بقايا الوثنية العربية)[4] . وقد بحث في نواح مختلفة من نواحي الحياة الدينية عند عرب الجاهلية وفي الأصنام ، فجمع ما لم يتمكن من جمعه في هذا الباب أحد من المستشرقين قبله ، واتبع أسلوب المقابلة والنقد في البحث .

هذا ولا بد من الاشارة الى مجهود عدد من العلماء تخصصوا بالعربيات وعالجوا نواحي عديدة من دراسات الجاهلية ، ومنهم (فرتز هومل) (Fritz Hommel) صاحب المؤلفات والبحوث الكثيرة ، والدراسات القيّمة في تأريخ اليمن والعرب

---

١ Studien ber die vorislamische Religion der Araber, in: Zeitschrift der Deutchen Morgenlaendischen Gesellschaft, 7, 1853.

٢ Specimen Historiae Arabum, Oxford, 1649.

٣ Ueber die Religion der vorislamischen Araber, Leipzig, 1863.

٤ Reste arabischen Heidentums, Berlin, 1887., 2 Ausgabe 1929.

الجنوبيين ، وفي ترجمة الكتابات المعينية والسبئية والحضرموتية والقتبانية والحميرية ، وفي الدراسات اللغوية . وهو في مقدمة من وضع أسس الدراسات العربية الجنوبية ومهد الجادة لمن جاء بعده من المستشرقين . و (رودوكناكس) (Nikolaus Rhodokanakis) [1] ، وهو صاحب جملة مؤلفات في شرح وحل النصوص العربية الجنوبية ، و (دتلف نيلسن) (Detlef Nielsen) الدانماركي من الباحثين في الكتابات العربية الجنوبية وفي الحضارة العربية ، والتأريخ العربي قبل الإسلام[2] .

كذلك خصص (موردتمن) (J. H. Mordtmann) و (داؤو هاندش ميلر) (D.H. Mueller) ، و (ميتوخ) (Eugen Mittwoch) ، و (فون فزمن) (von Wissmann) ، و (بيستن) (C.F.L. Beeston) ، و (كونتي روسيني) (C. Conti Rossini) ، و (فنت) (F.V. Winnett) ، و (ركمنس) (C. Ryckmanns) ، و (كروهمن) (A. Grohmann) ، و (ملاكر) (K. Mlaker) ، و (أغناطيوس كويدي) و (وهربرت كريمه) (Herbert Grimme) ، و (أنوليتمن) و (البرايت) ، وغيرهم قسطاً من بحوثهم في العربيات الجنوبية ، فساعدوا بذلك على تقديم مادة غنية للمؤرخين والباحثين ، وعلى تحسين معارفنا في اللهجات العربية الجنوبية وقواعدها وفي تأريخ الجاهلية[3] .

هذا ، ولا بد لي أيضاً من الإشارة الى جهود مستشرقين محدثين قصروا عملهم على البحوث العربية الجنوبية ، وصرفوا وقتهم في دراستها ، وألفوا وكتبوا فيها ، ونشروا بحوثهم في المجلات ، ونشروا نشراً جديداً نصوصاً سبق أن نشرت ، وبعثوا الحياة في نصوص لم تكن معروفة فعرفت . ومن هؤلاء : (فون وزمن) (H. von Wissmann) . و (ريكمنس) (J. Ryckmans) ، وهو صاحب

---

١ Nikolaus Rhodokanakis: Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, 2 Hefte, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsuedarabischen, Der Grundsatz der Offentlichkeit in den Sudarabischen, Urkunden, 1914.

٢ Handbuch der Altarabischen Altertumskunde, Bd., 1, Hamburg, 1927.

٣ للاطلاع على المؤلفات التي تعرضت لاسفار السياح في جزيرة العرب ، يستحسن الرجوع الى الكتب التي الفت في هذا الموضوع باللغات الاوروبية ، ومنها :
Hilprecht: Explorations in Bible Land during the 19th Century, Edinburgh, 1903, Ency. Brita., Vol., 2, P., 169. ff.

بحوث وتحقيقات في نشر الكتابات والتعليق عليها وعلى أيام الملوك . و(البرايت) (W. F. Albright) العالم الآثاري الأمريكي الذي ذكرته قبل قليل . و (الأب جامة) (A. Jamme) الذي رافق البعثة الأمريكية لدراسة الإنسان ، والخبير بقراءة النصوص وبتعيين زمان كتابتها ، وناشر جملة كتابات عثرت عليها البعثة المذكورة . و (مارية هوفنر) (M. Hofner) و (بيرين) (J. Pirenne) و (بيستن) (A.F.L. Beeston) وغيرهم ، ممن جاؤوا ببحوث قيمة جديدة وما زالوا يبحثون في التأريخ الجاهلي[1] .

هذا ، وسوف يكون لدراسة علماء الآثار للآثار التي عثر وسيعثر عليها من ناحية علم الآثار ، وكذلك تطور الخطوط ومقارنة الكتابات بعضها ببعض لمعرفة زمانها وتحليل الآثار ودراستها بالمختبرات وبطرق (الفحص الكاربوني) وبما شاكل ذلك من طرق تعد اليوم حديثة ، شأن كبير في الكشف عن التأريخ الجاهلي ، وتقريبه من الواقع ، وتضييق شقق الخلاف التي نراها بين العلماء في عمر الدول وفي حكم الملوك وأمثال ذلك من أمور هي اليوم في موضع اهتمام الباحثين في تأريخ الجاهلية .

هذا وأودّ أن أشير هنا الى أمر يتعلق بالكتابات الجاهلية ، هو أن غالبية من عالجها وترجمها اعتمد في الغالب على العبرانية وعلى السريانية في الترجمة ، ولهذا لم يوفقوا في ترجمتهم توفيقاً كبيراً ، وأعتقد أن دراسة اللهجات العربية لقبائل اليمن وبقية العربية الجنوبية وجمع معاني مفرداتها ، تفيد كثيراً في تفسير كتابات المسند وشرحها مثلاً ، لأن كثيراً من هذه المفردات ما زال مستعملاً استعمال القدماء له . ولكن مثل هذه الدراسات لم تتم بشكل علمي منظم منسق حتى الآن ويالأسف . ورجائي أن يأتي يوم يقوم فيه المتخصصون من العرب بدراسة تلك اللهجات وتثبيتها بصورة علمية ووضع معجمات بألفاظها ، فإن في هذا العمل خدمةً كبيرةً للتراث العربي القديم .

وقد قام المستشرقون بنصيبهم في كتابة تأريخ الجاهلية ، فهم يستحقون على عملهم هذا كل شكر وثناء ، مهما وقع في دراستهم من قوة وضعف ، وغرض ونيّة ، فهم قد قاموا بعمل ، وقد أفادونا في عملهم هذا ولو بعض الفائدة ،

---

1 E. Wright, The Bible and the Ancient Near East, Essays in Honor of William Foxwell Albright, New York, 1965, PP., 301.

فعلينا ألاّ ننكر فضل الناس ، واذا كان هناك شيء من خطأ أو نيّة سيئة ، فعلينا يقع واجب تصحيحه وبيان مواطن سوء النية ، فهم غرباء ، ونحن حملة هذا التأريخ وأصحابه . وعلينا وحدنا يقع واجب تدوينه وانتزاعه من باطن الأرض ، والبحث في كل زاوية ومكان لايجاد مورد جديد نضيفه الى الموارد الموجودة . وعلى الحكومات العربية واجب إتمام العمل ، وتيسير الوسائل التي توصل الباحثين الى الأماكن التي يقصدها العلماء وحمايتهم ورعايتهم ، وواجب اعداد طائفة من المنقبين العرب للقيام بهذه المهمة والإنفاق عليهم بسخاء ، وانشاء متاحف تحفظ فيها العاديات ، ومنع الناس من التجاوز والتطاول على الأماكن الآثارية ، ومن أحق بالمحافظة على تراث البلاد من أبنائها ؟.

الفصل الرابع

جزيرة العرب

ليس بين أشباه الجزر شبه جزيرة تنيف على شبه جزيرة العرب في المساحة، فهي أكبر شبه جزيرة في العالم . ويطلق العلماء العرب عليها تجوزاً اسم (جزيرة العرب)[1] . تحيط بها المياه من أطرافها الثلاثة ، ومع ذلك لم يستطع الجو البحري أن يخفف من حدة الحرارة فيها ، ويتغلب على جفافها ، والأبخرة المتصاعدة من البحر لا تتمكن أن تصل الى أواسط بلاد العرب ، لإنزال رحمتها عليها . فإنّ الرياح السمائم ، وهي ذات الحرّ الشديد النافذ في المسام ، تتلقى الرطوبة التي تنبعث من البحار بوجه كالح عبوس ، ومقاومة تسلبها قوتّها ، وتنتزع الرطوبة منها ، وتمنعها في الغالب من الوصول الى أواسط الجزيرة .

يحدّ جزيرة العرب من الشرق الخليج العربي المعروف عند اليونان باسم (الخليج الفارسي) (Sinus Persicus) ، وما زال يعرف بهذه التسمية المأخوذة عن اليونانية في المؤلفات المعاصرة . أما قدماء أهل العراق ، فقد عرف عندهم بـ (البحر الجنوبي) و(البحر الأسفل) و(البحر التحتاني) (Lower Sea)[2]، وبـ (البحر الذي تشرق منه الشمس) و(بحر الشروق) (Sea of the Rising Sun)

---

١ الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ٤٧ ، وسيكون رمزه : صفة ، الالوسي : بلوغ الارب (١/١٨٤ وما بعدها) ، معجم البلدان (٣/١٠٠) وسيكون رمزه بـ (البلدان) ، L.D. Stamp, Asia, an Economic and Regional Geography, P., 133.

٢ Ancient Iraq, by Georges Roux, London, 1964, P., 29.

وبـ (البحر المر)و(البحر المالح) و(نار مرتو) (Nar Marrtu) في الآشورية[1].

وحدها من الجنوب المحيط الهندي ، وقد أطلق بعض الكتبة اليونان واللاتين على القسم المتصل منه بسواحل جزيرة العرب الجنوبية والملاصق لسواحل إفريقية الشرقية المقابلة لهذه السواحل اسم (البحر الأريتري) (Mare Erythraeum) ؛ أما (بطلميوس) فقد أطلق على الماء المحصور بين عُمان وحضرموت اسم (خليج سخاليته) (Sinus Sachalites) ، وأطلق على القسم الغربي الباقي اسم (بحر ربرم) (Mare Rubrum)[2] (Rubri Maris) ، أي البحر الأحمر . وقد قصد الاغريق واللاتين بـ (Mare Rubrum) في الغالب البحر الأحمر الحالي والبحر العربي والخليج العربي ، بل حتى المحيط الهندي، فهم يتوسعون في هذا الاطلاق كثيراً[3] .

أما حدّها الغربي ، فهو البحر الأحمر كما يسمى في الخارطات الحديثة المعروف باسم (الخليج العربي) (Sinus Arabicus) في الخارطات اليونانية واللاتينية ، وبـ (بحر القلزم) في الكتب العربية[4] . أما العبرانيون، فقد أطلقوا عليه (هـ ـ يم) (هايم) (اليم) ، ومعناه اللغوي : (البحر) من (يم) (يام) بمعنى (بحر) و (ها) أداة التعريف التي هي في مقام (ال) في العبرانية،وذلك بصورة عامة ، و (يام سوف Yam Suph) بصورة خاصة ، وبـ (سوف) و (سوفة) أحياناً[5] . وقد فسّر (البيضاوي) لفظة (اليم) ، الواردة في القرآن الكريم بهذا البحر ، أي البحر الأحمر[6] . وقد أريد بـ (Mare Erythraeum) وبـ (Mare Rubrum) البحر الأحمر أيضاً[7] .

وشكل البحر الأحمر ، شكل يلفت النظر ، يظهر وكأنه خسط منظم ممتد من الشمال نحو الجنوب على هيأة ثعبان منتصب ذي قرنين . أما باقي جسمه ، فإنه

---

١ Ancient Iraq, P., 247.

٢ راجع الخارطات اليونانية واللاتينية الموضوعة في هذا الباب .

٣ Quintus Curtius, I, P., 75.

٤ راجع الخارطات اليونانية واللاتينية ، بلوغ الارب (١/١٨٤ فما بعدها) .

٥ (سوف) في اللغة العبرانية ، بمعنى اعشاب ضارة ، حشائش ودغل .
Smith, A Dictionary of the Bible Comprising its Antiquities, Biography, Geography, and Natural History, Vol., 1, 1009, Hastings, P., 833, 967.

٦ تفسير البيضاوي (٧/١٣٢ ، ٣٤١) .

٧ Smith, Vol., 1, P., 1009.

البحر العربي . أما هذا الثعبان ، فقد كان أرضاً في الأصل، خسفت على هذه الصورة في الزمن الثالث من الأزمنة الجيلوجية[1] ، فابتعدت بذلك بلاد العرب عن إفريقية ، الا من ناحية الشمال ، حتى لا تكون هناك قطيعة تامة ، وارتفعت بذلك السواحل الغربية ، نتيجة انخساف الأرض ، فسالت الى الأرض المنخسفة مياه البحر العربي ، ولو تم الخسف ، وامتدّ الى (طور سيناء) فشطرها ، لما كانت هناك حاجة الى قيام الانسان فيما بعد باتمام العمل الذي لم تكمله الطبيعة ، وهو ايصال البحر الأحمر الى البحر الأبيض بقناة السويس .

وهناك من يرى أن البحر الأحمر كان بحيرة في الأصل ، وكانت إفريقية والعربية الجنوبية قطعة واحدة عند جنوب هذه البحيرة ، أي عند ما يسمى بـ (مضيق باب المندب) في الزمن الحاضر ، ولكن خسفاً وقع ، أدى إلى انفصال إفريقية عن العربية الجنوبية الغربية ، فاتصل المحيط الهندي بالبحيرة ، وتكوّن البحر الأحمر . وقد كان الناس قبل وقوع هذا الانفصال يتنقلون براً وكأن إفريقية وجزيرة العرب قطعة أرض واحدة ، ومن هنا كانت الهجرات .

أما خليج العقبة ، فقد عرف بـ (خليج أيلة) وبـ (خليج الأيلانيين) ، (Sinus Aelanites) (Sinus Aelaniticus) في الكتب الكلاسيكية ، نسبة الى مدينة (أيلة) المسماة (ايلات) (Elath) و (ايلوت) Eloth عند العبرانين . وهي مدينة مهمة من مدن (أدوم) (الأدوميين)[2] . وأما (خليج السويس) فقد عرف بـ (Sinus Heroopolites) (Sinus Heroopoliticus) عند اليونان واللاتين[3] .

ويحصن مناطق واسعة من ساحل جزيرة العرب على البحر الأحمر صخور مرجانية تفتك بالسفن التي تتجاسر فتقترب منها ، نبتت في تلك المواضع لتحمي الساحل من وصول الأجانب اليه . ولكنها أضرت سكانه من ناحية أخرى ، اذ جعلت الملاحة صعبة في هذه الأماكن ، فقللت بذلك الاستفادة من الاتجار بالبحر، وقللت أيضاً من عدد الموانىء الصالحة لرسو السفن على هذا الساحل . وهناك جزر متفرقة تقابل الساحل،أكثرها مهجور ، وبعضها قليل السكان ، ومعظمهم خليط

---

١ بروكلمن : تأريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي (طبعة دار العلم للملايين) ، الجزء الاول (ص ١٠) .

٢ Hastings, P., 211, Smith, Vol., 1, 1009.

٣ Smith, Vol., 1, P., 1009

من دم إفريقي أسود ومن عرب ، عاشوا في الجاهلية وفي الإسلام على التعرض للسفن بالغزو وعلى الصيد .

ويرى بعض الباحثين أن البحر الأحمر لم يكن وحده نتيجة خسف أصاب بلاد العرب ، ففصلها عن إفريقية إلا من جهة (طور سيناء) ، بل ان سواحل بلاد العرب الأخرى ، أي السواحل الجنوبية والسواحل الشرقية ، تعرضت هي أيضاً لهزّات عديدة ، فخسفت في مواضع عديدة مثل (عدن) ، حيث تكون خليج عدن ، ومثل الخليج العربي ، وكانت هذه الهزات والتصدعات استجابة لتصدع واهتزازات حدثت في الشمال على مقربة من حدود بلاد الشام ، فامتدت الى وادي الأردن والبحر الميت فوادي عربة الى خليج العقبة . وهكذا تعرضت جزيرة العرب في عصور سحيقة في القدم قبل الميلاد لهزات وتحركات أرضية ، حتى جعلتها على الشكل الذي نراه عليه الآن[1] .

وحدّها الشمالي خط وهمي يمتد في اصطلاح العلماء العرب من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي ، فيكون النفود الشمالي من الحدود التي تفصل الهلال الخصيب عن جزيرة العرب . أما من الناحية « الجيلوجية » ، فإن باطن الهلال وحدة لا يستطاع فصلها عن تربة الجزيرة ، وجزء لا يختلف من حيث طبيعته الصحراوية وخواصه عن سائر أنحاء بلاد العرب . وأما من الناحية التأريخية ، فإن هذا الخط الوهمي المتصور ، هو وهم وخطأ ، فقد سكن العرب في شمال هذا الخط قبل الميلاد بمئات السنين . سكنوا في العراق من ضفة نهر الفرات الغربية ، وامتدوا في البادية حتى بلغوا أطراف الشام . وسكنوا في فلسطين وطور سيناء ، حتى بلغوا ضفاف النيل الشرقية . وهي أرضون أدخلها الكتبة القدامى من يونان ولاتين وعبرانيين وسريان في جملة مساكن العرب ودعوها بـ (العربية) وبـ (بلاد العرب) ، لأن أغلب سكانها كانوا من العرب[2] ، حتى ذهب بعض علماء (التوراة) ، الى أن (بلاد العرب) في التوراة ، هي مواطن (الإسماعيليين Ishmaelite) و (القطوريين Keturaean) ، أي البوادي التي نزلت بها القبائل المنتسبة الى (اسماعيل) و (قطورة) . وهي

١ B.R. 527 (Restricted), Geographical Handbook, Series for Official use only, Western Arabia and the Red Sea, June 1946, Naval Intelligence Division, PP., 11

٢ O'Leary, Arabia before Muhammad, P., 5.

قبائل بدوية ، كانت على اتصال بالعبرانيين . وهي بوادٍ تقع شمال جزيرة العرب وفي الأقسام الشمالية منها[1] .

أما (أريبي) ، أي (العربية) في النصوص الآشورية ، و (ماتو أريبي) (Matu A-ra-bi) ، أي (أرض العرب) و (بلاد العرب) في النصوص البابلية ، و (اربايا (Arabaya) (Arpaya) في النصوص الفارسية ، و(بيث عربايه) (Beth 'Arabaya) في الإرمية ، فإنها كلها تعني البادية الواسعة التي تفصل العراق عن بلاد الشام . أما حدودها الجنوبية ، فلم تحددها النصوص المذكورة[2] . ولكننا نستطيع أن نقول ان امتدادها كان يتوقف على مبلغ علم تلك الشعوب بالعرب ، وعلى المدى الذي وصل اليه تعاملهم في بلاد العرب .

فبلاد العرب أو (أرض العرب) (مت أربي) (Mat Arabi) (Mat Aribi) ، هي بادية الشأم أيضاً ، وهي كل الأرضين التي تحدها جبال (الأمانوس) (Amanus) في الشمال ، أي الأرضين التي تقع في جنوبها وكل شبه جزيرة سيناء عند (بلينيوس) (Plinius)[3] . فهي اذن أوسع جداً مما تصوره علماء الجغرافيا المسلمون لجزيرة العرب .

وإذا نظرنا نظرة عامة الى خارطة جزيرة العرب ، نرى أنها أرضون مرتفعة في الغرب ، تسيطر على السواحل الضيقة ، وتكوّن سلاسل من المرتفعات متصلاً بعضها ببعض ، تمتد من بلاد الشأم الى اليمن ، ويقال لهذه المرتفعات جبال (السّراة)[4] . وهي توازي ساحل البحر الأحمر ، وتقترب منه في مواضع عديدة. ويبلغ متوسط ارتفاعها زهاء خمسة آلاف قدم . أما أقصى ارتفاع لها ، فيبلغ زهاء ١٢,٣٢٦ قدماً ، وهو في اليمن[5] .

وأما الأرضون المحصورة بين هذه السلسلة وساحل البحر ، فإنها ضيقة ، تسيطر عليها هذه المرتفعات ، وتنحدر اليها انحداراً شديداً قصيراً . وسواحلها

---

١ Hastings, A Dictionary of the Bible, Vol., 1, P., 565.

٢ Encyclopaedia Biblica, Vol., I, Col., 273.

٣ Pliny, Nat. Hist., VI, 142. f., A. Grohmann, Arabien, S., 3.

٤ السراة : أعلى كل شيء ، وهنالك مواضع عديدة يقال لها سراة مضافة الى القبائل ، تاج العروس (١٠/١٧٤) ، البلدان (٥/٥٩) .

٥ C. Rathjens und H. von Wissman: Suedarabische Reise, Hamburg, 1934, Bd., 111, S., 2, Ency. Brit., Vol., 2, P., 169.

المهيمنة على البحر ، صخرية في أغلب الأحيان ، يصعب رسو السفن فيها[1] . وطالما تحطمت عليها السفن المنكوبة ، فتكون طعاماً للبحر ، وللأعراب الساكنين على السواحل ، فيكون من ينجو بنفسه من أصحاب تلك السفن وما يتبقى من حطامها ملكاً لأولئك الساكنين بحسب عرف أهل ذلك الزمان وعاداتهم .

أما الانحدار الى البحر العربي والخليج العربي ، فانه يكون تدريجياً وطويلاً ولذلك تكون الأقسام الغربية من جزيرة العرب أعلى من الأقسام الشرقية. وتتألف الأرضون الوسطى من هضبة تدعى (نجداً) ، يبلغ متوسط ارتفاعها زهاء ٢٥٠٠ قدم . وتمتد في الأقسام الجنوبية من الجزيرة سلاسل من الجبال،يتفاوت ارتفاعها، تسيطر على المنخفضات الساحلية ، وعلى ما يليها من أرضين من جهة البر ، وتتصل هذه بسلسلة جبال اليمن ، وتكثر فيها الأودية التي تفصل بين السلاسل، وتأخذ مختلف الاتجاهات من الشمال الشرقي أو من الشمال الغربي الى سواحل البحر ، حيث تمثل اتجاهات المياه والسيول[2] . ويكون أعلى ارتفاع لسلسلة الجبال الجنوبية في أقصى الجنوب الشرقي من الجزيرة ، أي في عمان ، حيث يبلغ ارتفاع الجبل الأخضر زهاء عشرة آلاف قدم[3] .

وتتكون أغلب الأرضين في جزيرة العرب من بواد وسهول ، تغلبت عليها الطبيعة الصحراوية ، لكن قسماً كبيراً منها يمكن اصلاحه إذا ما تعهدته يد الانسان ، واستخدمت في اصلاحه الوسائل العلمية الحديثة . وأما الأرضون الصالحة للزراعة ، فإنها تزرع فعلاً لوجود المياه فيها . أما الأرضون التي تعد اليوم من المجموعة الصحراوية ، فهي :

١ – الحرار ، أو الأرضون البركانية : وقد تكونت بفعل البراكين،ويشاهد منها نوعان: نوع يتألف من فجوات البراكين نفسها،ونوع تكون من حممها (اللابة) Lava التي كانت تقذفها ، فتسيل الى الأطراف ثم تبرد وتتفتت بفعل التقلبات الجوية ، فتكون ركاماً من الحجارة البركانية يغطي الأرض بطبقات ، قد تكون سميكة ، وقد تكون رقيقة ، تتبعثر فيظهر من خلال فجواتها وجه الأرض الأصلية .

---

١ Hitti, P., 14.

٢ Ency. Brit., Vol., 2, P., 169.

٣ Ency. Brit., Vol., 2, P., 169, Hitti, P., 14.

وفي مثل هذه الأرضين يصعب السير ، لانتشار الحجارة ذات الرؤوس الحادة فيها ، وتقل الاستفادة منها ، فتتحول شيئاً فشيئاً الى مناطق صحراوية ، والسائر اليوم في منطقة (اللجاة) في جنوب شرقي دمشق ، يلاحظ الطريق الذي سلكته الحمم المقذوفة[1] .

وقد وصف العلماء العرب الحِرار ، فقالوا[2] : الحَرَّةُ أرض ذات حجارة سُود نخرة ، كأنها أحرقت بالنار ، ويكون ما تحتها أرضاً غليظة ، من قاع ليس بأسود ، وانما سوّدها كثرة حجارتها ، وتدانيها . وتكون الحرة مستديرة، فإذا فيها شيء مستطيل ليس بواسع ، فذلك الكراع ، واللاّبة واللوبة ما اشتد سواده وغلظ وانقاد على وجه الأرض[3] . فيظهر من هذا ان (الحرار) هي أفواه البراكين ، ولذلك تكون مستديرة . وأما اللابّة أو اللوبة ، فإنها المناطق التي غطتها حمم البراكين ، وسالت فوقها ، ثم جفت . وأما الكراع ، فإنها أعناق الحرار[4] .

---

١ Moritz, Arabien, Studien zur Physikalischen und Historischen Geographie des Landes, Hannover, 1923, S., 12.

وسيكون رمزه : Moritz
(اللجاة اسم للحرة السوداء التي بأرض صلخد من نواحي الشام ، فيها قرى ومزارع وعمارة واسعة) ، البلدان (٣٢٣/٧) .

٢ البلدان (٢٥٦/٣) ، تاج العروس (١٣٥/٣) ، ويقال للحرة المنعزلة في الرمال (بسقة) ، الطبرى (٢٢١/٣) ، وللنهير الذي يسيل من الحرار (شرج) و (شراج) ، وأحيانا (سواقي) ، البلاذري : الفتوح (١٢) ، المراصد (١٧٥/٢) ، المفضليات (ص ٢٤٥ ، ٤١٥) .

٣ لسان العرب (٢٤٢/٢) ، (لوآبة) (لابة ولوبة) ، المفضليات (ص ٢٤٥ ، ٤١٥) ، البلدان (٣٥٧/٣) ، ويقال (حرة سوداء) ، الطبرى (٩٥٩/٢) (طبعة اوربة) ، وجاء ايضا (حرة رجلاء) ، صفة ص ٢٠٥ ، وقد علل الهمداني ذلك بقوله (سميت الحرة الرجلاء لانها ترجل سالكها ، ولا يقدر فيها على الركوب) ، صفة ص ٢٠٥ ، راجع كذلك معلقة الحارث ، بيت ٣٨ ، وجاء (حرة سوداء) ، Moritz, S., 11 وجاء كذلك (حامية) ، والظاهر انها من الفاظ العوام .

وقد كتب العلماء في (الحرار) ، كتبا ، مثل (كتاب الحرة) المنسوب الى ابي عبد الله محمد الفلابي ، (الفهرست ص ١٠٨) ، و (كتاب الحرات) لابي عبيدة (الفهرست ص ٥٩) ، (طبعة اوربة) (٨٠) طبعة المطبعة الرحمانية ، لسان العرب (٢٤٢/٢) ، وورد ايضا (لابة سوداء) ، (لوابة) و (لوبة) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٢ ، ٢٥) ،
Moritz, S., 12, Anm. 1, Loth, in ZDMG., 22, 365-382.

٤ لسان العرب (٢٤٢/٢) ، (١٨٢/١٠) ، القاموس (٧٨/٣) .

وتكثر الحرار في الأقسام الغربية من جزيرة العرب،وتمتد حتى تتصل بالحرار التي في بلاد الشام ، في منطقــة حوران ، ولا سيما في الصفاة[1] ، وتوجد في المناطق الوسطى ، وفي المناطق الشرقية الجنوبية من نجد حيث تتجه نحو الشرق ، وفي المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية ، حيث تلاحظ الحجارة البركانية على مقربة من باب المندب وعنــد عدن[2] . وقد ذكر علماء العرب أسماء عدد منها[3] ، كما أضاف اليها السياح أسماء عدد آخر عثروا عليها في مناطق نائية[4] .

وقد وردت في الشعر الجاهلي اشارات اليها . وكانت إحدى الحرار ، وهي (حرة النار) في عهد الخليفة عمر لا تزال ثائرة تخرج النار منها[5] . وقد ذكر أن سحب الدخان كانت تخرج في عهد الخليفة عثمان من بعض الجبال القريبة من المدينة[6] . وهذا يدل على أن فعل البراكين في جزيرة العرب ، لم يكن قد انقطع انقطاعاً تاماً ، وأن باطن الأرض ، كان ما زال قلقاً ، لم يهدأ .

وكان آخر حدث بركاني في الحجاز في سنة ٦٥٤ للهجرة (١٢٥٦م) ، إذ ثارت احدى الحرّات في شرقي المدينة ، واستمر هيجانها بضعة أسابيع ، وقد وصل ماسال من حممها الى مسافة بضعة كيلومترات فقط من المدينــة التي كان نجاتها من الأعاجيب[7] . وكان أواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر الميلاديين عهد زلازل وثوران براكين في مناطق آسية الغربية[8] . ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي ، لم يبق أثر لفعل البراكين في مختلف أنحاء بلاد العرب[9] .

وقد تركت الأصوات المزعجة ، و (الصيحات) المرعبة ، والنيران التي كانت ترى من مسافات بعيدة ، وسحب الدخان التي كانت ترتفع من أجواف

---

١ Moritz, S., 12, Chr. Philps Grant, The Syrian Desert, London, 1937, P., 122, Alios Musil, In the Arabian Desert, New York, 1930, PP., 3, 21.

٢ Ency. Brit., Vol., 2, P., 174.

٣ البلدان (٢٥٩/٢) (مطبعة السعادة ١٩٠٦) ، (حــرة اشجع) الاصابــة (٤٦٧/١) .

٤ Doughty, Arabia Deserta, 2, 618. f.

٥ البلدان (٢٦١/٣) ، Moritz, S., 13

٦ الطبري (٢٦٨/١) (الطبعة الاوربية) ،

٧ Moritz, S., 13.

٨ Moritz, S., 14.

٩ Moritz, S., 19.

الأرض ، و (البريق) الذي كان يظهر من الحرار ، مثل حرّة (القوس) التي قيل انها كانت ترى كأنها حريق مشعل[1] ، و (حرة لبن) التي كان يخرج منها ما يشبه البرق ، ويسمع منها أصوات كأنها صياح[2] ، هذه كلها تركت صوراً مرعبة في نفوس الجاهليين ، تتجلى في القصص المروية عنها ، وفي عقائدهم بتلك النيران .

ولعل قوة نيران (حرة ضَرْوان) وشدة قلقها للحمم وارتفاع لهيبها ، هي التي دفعت أهل اليمن الى التعبد لها والتحاكم اليها ، فقد كانوا يذهبون اليها ليتحاكموا عندها فيما يحدث عندهم من خلاف ، والرأي عندهم ان النار تخرج فتأكل الظالم وتنصف المظلوم . وقد كانت حرة نشطة عاشت أمداً طويلاً كما يظهر من وصف (الهمداني) وغيرها لها ، وصلت حممها الى مسافات بعيدة عن الحرة[3] .

وقد تسببت أكثر هذه الحرار في هلاك كثير ممن كان يسكن في جوارها وفي هجرة الناس من الأرضين التي ظهرت بها ، فتحولت الى مناطق خاوية خالية . وقد وجد السياح أرضين شاسعة واسعة أصيبت بالحرار ، وتأثرت بفعل (اللابة) التي سالت عليها . وللناس الحق كل الحق في ارجاع أسباب هلاك أصحابها الى العذاب الذي نزل بهم بانفجار الأرض وبخروج النيران منها تلتهم الساكنين عندها. وقد جهلوا ان هذه النيران المتقدة الصاعدة والروائح الكريهة المنبعثة عنها ، هي من فعل العوامل الأرضية الداخلية التي تعمل سراً في بطن الأرض .

وكثرة الحرار في جزيرة العرب ، وانتشارها في مواضع متعددة منها ، دليل على أن باطنها كان قد تعرض لامتحانات عسيرة قاسية، ولتقلبات كثيرة ولضغط شديد في المناطق الشمالية والغربية والجنوبية،وقد ظهر أثر ذلك الضغط في وجهها فبان اليوم وكأنه حب الجُدَرِيّ ، يتحدث عن ذلك المرض القديم .

---

١ قال عرعرة النميري :

بحرة القوس وجنبي محفل   بين ذراه كالحريق المشعل

البلدان (٣/٢٥٩) .

٢ (لبن) ، بضم اللام وتسكين الباء الموحدة ، قال الشاعر :

بحرة لبن يبرق جانباها   ركود ما تهد من الصياح

البلدان (٣/٢٦٠) .

٣ الاكليل (١/٣٣) .

وقد اشتهرت بعض مناطق الحرار بالخصب والنماء وبكثرة المياه فيها ، ولا سيا حرار الحجاز التي استغلت استغلالاً جيداً ، ومنها (خيبر) ، التي ميزت على سائر القرى ، فقيل عنها إنها (خير قرى عربية)[١] ، غير أن ظهور العيون فيها بكثرة ، جعلها موطناً من مواطن الحمّى ، اشتهر أمرها في الحجاز حتى قيل : (حمى خيبر)[٢] . واستفاد الجاهليون من الحرار باستخراج الأحجار منها ، كأحجار الرحى والمعادن،فكانت موطناً من مواطن التعدين القديمة فيها [٣].

ويدرس علماء طبقات الأرض بعناية بالغة توزيع الحرار في جزيرة العرب ، وتقصي أنواع الحجارة التي يكثر وجودها مثل الحجارة الكلسية والغرانيتية والرملية وتوزّعها، والينابيع الحارة في الأحساء[٤] ، لما في هذه الدراسات من أهمية بالنسبة الى اكتشاف الموارد الطبيعية ، والثروات الكامنة في الأرض .

ويظن أن فعل البراكين كان له أثر خطير في العصور الـ « ابوسينية » (Eocene) ، اذ ثارت براكين عديدة في جزيرة العرب وفي الحبشة وفي السواحل الإفريقية المقابلة لجزيرة العرب . وقد أثرت هذه البراكين بالطبع في شكل الأرضين التي ثارت فيها وفي شكل الأرضين القريبة منها ، وقد ظهرت براكين فعّالة نشيطة في العصور (البليوسينية) (Pliocene) أيضاً ، أثرت كذلك في شكل سطح الأرض ، بأن أحدثت فيها تضاريس ، لا تزال آثارها تشاهد حتى الآن[٥] .

وفي جزيرة العرب عيون وينابيع ، تخرج منها مياه حارة . ففي عسير وفي الحجاز وفي اليمن وفي حضرموت وعمان والأحساء والمفوف وفي مواضع أخرى

---

١ (خير قرى عربية خيبر) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٥٠) (قسم ٢)
Zwemer, Arabia, P., 23, Moritz, S., 12.

٢ كأن به ـ اذ جئته ـ خيبرة يعود عليه وردها وملالها

...

قلت لحمى خيبر : استعدي هاك عيالي فاجهدي وجدي
وباكري بصالب وورد اعانك الله على ذا الجند

البلدان (٣/٤٩٧) ، الحماسة (طبعة فرايتاك) (ص ٦٤) ، صفة ١١٨ ، نقائض جرير ٦٢٠ .

٣ مثل حرة سليم ، وحرة الرفاع على ساحل البحر الاحمر شمالي غربي ينبع ، البلدان (٣/٢٥٨) ، (٨/٥٢٦) ، تاج العروس (٣/٦٣٥)

٤ Ency. Brit., Vol., 2, P., 174.

٥ Naval, PP., 19.

غيرها ، مواضع تخرج منها مياه حارة كبريتية في الأكثر ، يستشفي بمياهها الناس بالاستحمام . وانتشارها على هذه الصورة وبهذه الكثرة يلفت النظر ، وهي من آثار التقلبات الجوفية التي حدثت في جزيرة العرب منذ القدم[١] .

٢ — الدهناء :

وهي مساحات من الأرضين تعلوها رمال حمر في الغالب ، تمتد من النفود في الشمال الى حضرموت ومهرة في الجنوب ، واليمن في الغرب ، وعمان في الشرق[٢] . وفيها سلاسل من التلال الرملية ذات ارتفاعات مختلفة ، تنتقل في الغالب مع الرياح ، وتغطي مساحات واسعة من الأرض[٣] . ويمكن العثور على المياه في قيعانها اذا حفرت فيها الآبار[٤] .

وقد أشير الى الدهناء في بيت شعر للأعشى هذا نصه :

يمرون بالدهناء خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين بُجر الحقائب[٥]

وقد تصل الأمطار الموسمية الى بعض أجزاء (الدهناء) فتنبت فيها الأعشاب ، ولكن عمرها فيها قصير اذ سرعان ما تجف وتموت . وقد هجر الناس السكنى في أكثر أقسام الدهناء، لجفاف أكثر أقسام هذه المنطقة الصحراوية الواسعة ، وخلوها من الماء والمراعي ، ولكثرة هبوب العواصف الرملية فيها ، ولشدة حرارتها التي يصعب احتمالها في أثناء النهار ، وأقاموا في الأمكنة المرتفعة منها ، التي تتوافر فيها المياه ، وتتساقط عليها الأمطار ، فتنبت الأعشاب ، وينتجعها الأعراب . أما الأقسام الجنوبية من الدهناء فيسميها الجغرافيون المحدثون

---

١ Naval, P., 21.

٢ (الدهناء) بفتح اوله وسكون ثانيه ونون والف تمد وتقصر ، البلدان (٤/١١٥ وما بعدها) .

٣ Ency., Vol., 1, P., 893, Ency. Brit., Vol., 2, P., 173 Hitti P. 15.

٤ Handbook of Arabia, vol., 1, P., 11

٥ الالوسي ، تاريخ نجد ، تحقيق الاستاذ محمد بهجت الاثري ، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٧ (ص ٣٠) .

(الربع الخالي) (The Empty Quarter)[1] ، لخلوها من النـــاس ، وكانت تعرف بـ (مفازة صيهد)[2] .

وقد تمكن السائح الانكليزي (برترام توماس Bertram Thomas) من اجتيازها في (٥٨) يوماً ، وهو عمل مجهد شاق ، فكان أول أوروبي جرّؤ عــلى اجتياز هذه الأرض[3] .

ويطلق على القسم الغربي من الدهناء اسم (الأحقاف) وهو منطقة واسعة من الرمال بها كثبان اقترن اسمها باسم (عاد) . (واذكر أخا عاد ، إذ أنذر قومه بالأحقاف)[4] .

وكشف (برترام توماس) في الربع الخالي بحيرة من المياه المالحة ، وبقايا حيوانات مبعثرة ، وتبين لدى العلماء أن هذه البحيرة كانت من متفرعات الخليج العربي، وأن من المحتمل أن هذه الأرضين التي تكثر فيها رواسب قيعان البحر، قد كانت في عهدها من المناطق البحرية التي تغمرها مياه المحيط ، كما عثر فيه على آثار جاهلية لم يعرف من أمرها شيء حتى الآن[5] ، يظهر أنها لأقوام كانت تستوطن هذه المناطق أيام كانت ذات مياه صالحة للإنبات والخصب . وما زالت حتى اليوم تعد أرضاً مجهولة ، وإن تحسنت معارفنا عنهـا كثيراً ، بفضل بعض موظفي شركات البترول والباحثين عن المعادن في مختلف أنحاء الجزيرة . وستأتي الاكتشافات الجديدة لها بمعارف قيمة عن تأريخ العرب قبل الإسلام من غير شك .

وتكون (وبار) قسماً من الدهناء ، وكانت من الأرضين المشهورة بالخصب والنماء ، وهي اليوم من المناطق الصحراوية ، وبها آثار القرى القديمة التي كانت كثيرة قبل الإسلام . والظاهر أنها كانت مواطن الرباريـين ، وهم الذين دعاهم

---

١ Terra Incognita, Hitti, P., 15, Ency., Vol., 1, P., 895, Philby, The Empty Quarter, London, 1933, Bertram Thomas, Arabia Filix, P., XXiii, 180, Philby, In the Geographical Journal, "The Empty Quarter", 81, (1933), 1-26.

٢ صـفة ٢١٤ ، البلدان (٥/١٩٤) ، Ency., Vol., 1, P., 370, Moritz, S., 15.

٣ Ency., Vol., 1, P., 183, Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 11 Bertram Thomas Arabia Felix, Across the Empty Quarteer of Arabia, London, 1932, The Geographical Journal, Across the Empty Quarter, III, (1948), 1-21, Also "A Further Journey Across the Empty Quarter", CXIII, (1949), 12-45.

٤ سورة الاحقاف ، السورة ٤٦ اية ٢١ .

٥ Arabia Felix, PP., 180, Ency. Brit., Vol., 2, P., 173.

(بطلميوس) (Jobaritai) الذين سأتحدث عنهم[1] . وفي الجهة الشمالية الشرقية من وبار ، رمال (يبرين) ، وكانت من المناطق المأهولة كذلك ، ثم دخلها الخراب[2] .

٣ ــ النفود :

أما النفود ، وهو اسم لم يكن يعرفه العرب[3] ، فهي صحراء واسعة ذات رمال بيض أو حمر تذروها الرياح فتكون كثباناً مرتفعة،وسلاسل رملية متموجة، تبتدىء من واحة (تيماء) ، وتمتد الى مسافة ٤٥٠ كيلومتراً تقريباً نحو الشرق ، ويبلغ امتدادها من الجوف الى جبل شمر زهاء ٢٥٠ كيلومتراً تقريباً. وقد عرفت أيضاً بـ (الدهناء) و بـ (رملة عالج) ، ثم تغلب عليهما اسم (النفود) وصارت تعرف به[4] .

وتعد النفود من الأماكن المائلة أو المنحدرة ، ويظهر من القياسات (وان كانت قليلة جداً) ، ان المنطقة الشرقية من النفود أوطأ من مستوى المنطقة الغربية عند خط طول (٢٧) درجة و (٣٠) دقيقة ، بما يزيد على ١٥٠ متراً، أي ان هذه البادية مرتفعة في الغرب ، آخذة في الانخفاض والميل في الشرق[5] .

وقد نتج عن هذا الميل والانحدار المتوالي ان الرمال التي كانت الرياح الشمالية أو الشمالية الغربية تحملها ، تراكمت في المنخفض ، فأصبحت الحدود الغربية والشرقية لهذه المنطقة مرتفعة بالنسبة اليها ، بحيث صار (الحماد) يشرف عليها اشرافاً تاماً[6] .

ويغطي وجه (النفود) ، كثبان من الرمال متموجة يبلغ ارتفاع بعضها

---

١ البلدان (٣٩٢/٨) ،
Philby, The Empty Quarter, PP., 157, Ency., Vol., 1, P., 370 Vol. 4, P. 1073.

٢ البلدان (٩٩/٦)، صفة (ص ٥١، ٨٤، ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٦٥) .
Ency., Vol., 1, P., 370.

٣ فجـر الاسلام (١/١) .

٤ (رمل عالج) باللام المكسورة والجيم ، (رملة عالج) ، البلدان (٩٦/٦) ،
Moritz, S., 15, Handbook of Arabia, Vol., P., 11.

٥ Ency. Brit., Vol., 2, P., 173, Moritz, S., 15, Musil, in the Arabian Desert PP. 124.

٦ Moritz, S., 15.

زهاء (١٥٠) متراً ، ولذلك لا يعد سطح بادية النفود سطحاً مستوياً منبسطاً . وتأخذ هذه المرتفعات مختلف الأشكال ، فتكون في أغلب الأحيان على شكل نعل الفرس ، ويكون اتجاهها من الغرب نحو الشرق،وتكون أبعادها وأعماقها مختلفة ، وتسمى (القعور) . وقد تركت أثراً عميقاً في مخيلة المسافرين ورجال القوافل[١] .

وبعد الأشتية الممطرة تتحول هذه المنطقة الرملية الموحشة الى جنة حقيقية فتظهر الرمال وكأنها قد فرشت ببسط خضر ، يزينها الزهر والشقائق ومختلف الأعشاب الصحراوية ، وينتجعها الأعراب للرعي . وقد تنمو فيها النباتات المرتفعة ذات السيقان القوية كبعض أنواع (الغَضَى) ، فتكون أدغالاً يحتطب منها البدو ، وقد يحرقونها لاستخراج الفحم منها[٢] . وهذه الأعشاب والنباتات ، لا تظهر إلا في المنطقة ذات الرمال الحمر (نفود سمرا) . أما النفود البيضاء المؤلفة من رمال نشأت من تفتت أحجار (الكوارتز) فإنها في أكثر الأماكن غير منبتة[٣] .

ولكن هذه الجنة الأرضية جنة قصيرة العمر ، لا يدوم عمرها الا أسابيع قليلة ، ثم يحل بها الجفاف ، وتهب السمائم ، فتقضي على كل ما نبت في هذه البادية،فتبدو كالحة عابسة مزعجة منفرة،وكأن انساناً كنس وجهها كنساً أزال عنه كل أثر لذلك الجمال . وتهب في شهر نيسان رياح حارة من الشرق والجنوب ، ورياح في شهور الصيف ، تحرق البادية حرقاً ، حتى تغدو وكأنها جحيم[٤] .

وفي العربية ألفاظ عديدة لها صلة بالبوادي ، كثرت وتعددت لاتصال حياة العرب بها ، منها ما لها علاقة بشكل البادية وظاهر وجهها ، ومنها ما لها علاقة بطبيعتها وبتركيبها ، الى غير ذلك من مصطلحات ، نشأ بعضها من تعدد لهجات العرب ولغاتها ، اذ تسمى قبيلة البادية باسم ربما لا تعرفه قبيلة أخرى ، وهكذا تنوعت التسميات .

مصدر الصحارى :

واذا سألتني عن مصدر هذه الصحارى المزعجة التي وسمت جزيرة العرب بسمة

١ Euting, in "Zeitschr. der Ges. fue Erdkunde zu Berlin" No. 5, Tagebuch, 1, 144.

٢ Moritz, S., 16.

٣ Moritz, S., 16. f., A. Blunt, Pilgrimage to Nejd, 2, 55.

٤ Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 12, Moritz, S., 17.

خاصة ، وصيرت معظم أهلهـا بدواً بالرغم منهم ، فأقول لك : إن الرأي المنتشر أن هذه الصحارى تكوّنت من تفتت الأحجار الرملية بتأثير الرياح والجفاف فيها[1] . ويؤيد وجود مثل هذه الأحجار في الشمال الغربي من بلاد العرب هـذا الرأي كثيراً ، ويظهر أنه رأي علمي ينطبق على بعض الصحارى انطباقاً كبيراً، غير أنه لا يحل مشكلة مصدر الرمل الأحمر المتكون من أحجار غير رملية الذي يغطي مساحات واسعة من صحراء النفود ، بينما الرمل الناشىء من الأحجار الرملية لا يغطي إلاّ مساحات ضيقة بالنسبة الى المناطق الأخرى . وهذا يدل دلالة صريحة على أن رمـال (النفود) لم تتكون من تفتت الأحجار الرملية حسب ، بل من عوامل أخرى كالتقلبات الجوية وتأثيرها في قشرة الأرض[2] .

يكون ظاهر التربة الأجرد معرضاً لحرارة الشمس والتغيرات الجوية مباشرة ، إذْ لا أشجار تحميه ، ولا أعشاب تحافظ على تماسك ذراته وحفظهـا من تلك التغيرات . فـإذا انقطعت الأمطار ، جفت التربة ، فتفتتت تدريجياً ، وتستطيع الرياح أن تعبث فيها بكل سهولة ، وتتمكن الرياح التي سرعتهـا ١٨ كيلومتراً في الساعة من إثارة الطبقـات الرملية الخفيفة والأتربة الباقية المبعثرة عـلى سطح الأرض .

وإذا هبت الرياح بسرعة ٣٣ كيلومتراً في الساعة ، امتلأ الجو بالغبار . فاذا ازدادت السرعة ، استحالت الى عواصف ، تؤثر تأثيراً كبيراً في سطح الأرض فتحمل ما عليه من أتربة ، وتعرض الطبقات السفلى التي كانت تحت هذه الأتربة لفعل الجو المباشر ، ليحدث لها ما حدث في الطبقة التي كانت فوقها ، وهكذا تتحول هذه المناطق الى صحارى ، وتتكون الرمال حينئذ من التربة المتفتتة لا من تهشم الأحجار الرملية أو الكلسية وحدها[3] .

وتهب مثل هذه الرياح في الشمال الغربي من جزيرة العرب من نهاية شهـر (آذار) مارس حتى نهاية شهـر (أيار) مايس ، وتهب في أغلب الأحيان هبوباً فجائياً ، وتستمر يومين أو ثلاثـة أيام ، وتنتهي في بعض الأحيان برعد

---

١ Moritz, S., 17.

٢ المصـدر نفسـه .

٣ Moritz, S., 17, Arabia Deserta, Vol., 2, P., 656.

وبرق . وعند حدوث هذه الزوابع يغبر الأفق ويكفهر وجه السماء ، ثم تهب بعد لحظات عواصف شديدة وأعاصير ، تضفي على الجو لوناً قاتماً، وأحياناً مائلاً الى الصفرة أو الحمرة بحسب لون الرمال التي تحملها الرياح ، وتختفي الشمس ، وتؤثر هذه (العجاجة) في النبات والأشجار تأثيراً كبيراً . واذا استمرت مدة طويلة ، سببت تلف قسم كبير من المزروعات في الأماكن المزروعة[1] .

وقد أشار الكتّاب اليونان والرومان الى البادية، كما عرفها العبرانيون . ولكلمة (حويلة Havilah) ، ومن معانيها الأرض الرملية[2] ، أي تخم بني اسماعيل – وأولادهم وهم البدو – ولهذا المدلول علاقة كبيرة بمعنى صحراء[3] . وقد ذهب بعض علماء التوراة الى انها تعني النفود[4] .

وتفصل العراق عن بلاد الشام بادية واسعة ، تعرف بـ (بادية الشام) أو (البادية) ، أو (خساف) ، ويقال للقسم الجنوبي منها – وهو القسم الذي بين الكوفة والسماوة من جهة ، وبينها وبين الشام من جهة أخرى – (بادية السماوة)[5] ، ويسميها العامة (الحماد) أو (حماد)[6] .

الدارات :

وفي بلاد العرب (الدارات) ، والدارة : كل جوبة بين جبال في حزن كان ذلك أو سهل أو رمل مستدير ، في وسطه فجوة ، وهي الدورة ، وتجمع الدارة على دارات[7] . فهي أرض سهلة لينة بيض في أكثر الأحيان ، وتنبت فيها

---

١ Moritz, S., 17.

٢ Moritz S., 17, Diodorus, 2, 54, Strabo, XVI, 3.

٣ التكوين ، الاصحاح الثاني ، الاية ١١ ، الاصحاح العاشر الاية ٧ ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٨ ،

٤ قاموس الكتاب المقدس (١/٣٩٨) ،
Hastings, P., 333, Ency. Bibl., P., 1974, Glaser, Skizze, 2, S. 323 E. Meyer, Geschichte des Alterthums, Bd., 1, S., 224 Delitzsch, Wo lag des Paradies? S., 12, 57.

٥ البلدان (٣/٤٣٦) ، (٥/١٢٠) .

٦ Handbook of Arabia, 1, P., 12, Ency. Brit., Vol., 2, P., 173.

٧ البلدان (٤/١٤) ، القاموس المحيط (٢/٢١) ، (كتاب الدارات) للاصمعي بعناية (اوغست هفنر) ، في مجلة المشرق ، السنة الاولى ، الجزء الاول سنة ١٨٩٨ ص ٢٤ وما بعدها .

الأعشاب والصليان والنباتات الصحراوية[1]،ويبلغ عددها زهاء عشر دارات ومئة[2].

ولبعض هذه الدارات شهرة ، اذ وردت أسماؤها في الشعر الجاهلي والإسلامي، مثل (دارة جلجل) ، التي ورد ذكرها في شعر امرىء القيس الكندي[3] . و (دارة الآرام) وكانت مملوءة من شقائق النعمان ، كما جاء ذلك في شعر برج بن خنزير المازني الذي كلفه الحجاج بن يوسف حرب الخوارج[4] .

الجبال :

تكون سلسلة جبال السَّرات العمود الفقري لجزيرة العرب ، وتتصل فقراته بسلسلة جبال بلاد الشام المشرفة على البادية،المتحكمة فيها نحكم الجنود في القلاع. وبعض قمم هذه السلسلة مرتفعة ؛ وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذي يرتفع (٢،٢٠٠) متر عن سطح البحر[5] ، وجبل وثر وجبل شيبان . وتنخفض هذه السلسلة عند دنوها من مكة ، فتكون القمم في أوطأ ارتفاع ، ثم تعود بعد ذلك الى العلو حيث تصل الى مستوى عال في اليمن حيث تتساقط الثلوج على قمم بعض الجبال[6] .

وتمتد في محاذاة السواحل الجنوبية سلاسل جبلية تتفرع من جبال اليمن ، ثم تتجه نحو الشرق الى أرض عمان ، حيث ترتفع قمم الجبل الأخضر ارتفاعاً يتراوح من تسعة آلاف قدم الى عشرة آلاف قدم[7] . وتتخلل هذه السلاسل الجنوبية أودية تمثل اتجاه مسايل الأمطار الى البحر .

وتفصل بين البحر والسلاسل الجبلية سهول ساحلية ضيقة في الغالب ، ربما لا تتجاوز خمسة عشر ميلاً عن سواحل البحر الأحمر[8] . وتكون هذه السواحل

---

١ البلدان (٤/١٤) .
٢ القاموس المحيط (٢/٢١) ، البلدان (٤/١٤) .
٣ البلدان (٤/١٦) ، مجلة المشرق العدد المذكور ص ٢٦ .
٤ فأبرق وارعد لي اذا العيس خلفت بنا دارة ارام ذات الشقائق
البلدان (٤/١٥) المشرق ، العدد المذكور (ص ٢٦) .
٥ Moritz, S., 6 f.
٦ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ٨٠ ، حتى ٢١ (الترجمة العربية) .
٧ Ency. Brit., Vol., 2, P., 169.
٨ Ency. Brit., Vol., 2, P. 169.

حارة رطبة في الغالب ، يتضايق منها الانسان ، وتكون غير صحيــة في بعض الأماكن . ويطلق على بعض أقسام التهائم (الغور) و (السافلة) ، لانخفاض بقاعها . وقد ذهب بعض العلماء الى اطلاق تهامة على طول الأغوار الساحليــة الممتدة من شبه جزيرة سيناء وبحر القلزم الى الجنوب[1] . وسأتحدث عنها فيما بعد .

وتكون هذه السلاسل مانعــاً — للأبخرة المتصاعدة من البحر الأحمر والبحر العربـي — من وقوع الأمطار في أواسط بلاد العرب وفيما وراء السفوح الشرقيـة للسراة والسفوح الشمالية للسلاسل الجبلية الجنوبية ، لذلك كثرت الأودية القصيرة التي تسيل فيها المياه في هذه المناطق ، وزادت فيها امكانيات الخصب والزراعة عن البقاع التي وراء السَّراة حتى الخليج .

وفي نجد ، وهي هضبة يبلغ ارتفاعها زهاء ٢٥٠٠ قدم ، منطقة جبلية تتكون من (الغرانيت) ، يقال لها جبل (شمر) ، وهي من مواضع (طيء) التي اشتهر أمرها قبل الإسلام اشتهاراً كبيراً ، وقد عرفت قديماً بجبلَيْ طيء .

وتتألف من سلسلتين ، يقال لإحداهما أجأ ، وللأخرى سلمى[2] . وهناك منابع عديدة للمياه في شعاب هذه السلسلة وفي السهل الكبــير المنبسط بينهما . ويمكن الحصول على المياه فيها بوفرة تحت طبقات الرمال والصخور[3] . وأما جبل (طويق) فهو مرتفعات تقع في الوسط الشرقي من نجد وفي جنوب شرقي الرياض ، وتتألف من الحجارة الرملية وتحيط بها الصخور والحجارة الكلسية ، وتدل البحوث على أن من الصخور والمواد البركانية ما قذفته البراكين الى هذه الجهات[4] .

الأنهار والأودية :

ليس في جزيرة العرب أنهار كبيرة بالمعنى المعروف من لفظة نهر مثل نهر دجلة أو الفرات أو النيل ، بل فيها أنهار صغيرة أو جعافر . وهي لذلك تعد في جملة الأرضين التي تقل فيها الأنهار والبحيرات، وفي جملة البلاد التي يتغلب

---

١ البلدان (٢/٤٢٦) ، (٦/٣١١) ، صفة (ص ٥٤ ، ١١٩ وما بعدها) ، بلـوغ الارب (١/١٨٨) .

٢ تاريخ نجد ، للالوسي (ص ٢١) . Moritz, S., 6, Handbook, Vol., 1, P., 13.

٣ وهبــة ص ٦٣ .

٤ Moritz, S., 6.

عليها الجفـاف . ويقل فيها سقوط الأمطار ، ولذلك أصبحت أكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان . غير انها كثيرة الأودية،تطغى عليها السيول عند سقوط الأمطار ، فتصير وكأنها طاغية مزبدة . وهي في الغالب طويلة ، تسير في اتجاه ميل الأرض . أما الأودية التي تصب في البحر الأحمر أو في البحر العربي،فإنها قصيرة بعض الشيء ، وذات مجرى أعمق ، وانحدار أشد ، والميـاه تسيل فيها بسرعة فتجرف ما يعترضها من عوائق ، وتنحدر هذه السيول الى البحر فتضيع فيه ، ومن الممكن الاستفادة منها في الأغراض الزراعية والصناعية . وقد تكون السيول خطراً يهدد القوافل والمدن والأملاك ، ويأتي على الناس بأفدح الخسائر[1].

وفي كتب المؤلفين الإسلاميين إشارات الى سيول عارمة جارفة، أضرت بالمدن والقرى والمزارع وبالقوافل والناس ، إذ كانت قوية مكنتها من جرف الأبنيـة والناس ، ومن إغراقهم حتى ذكر أن خراب عاصمة اليمامة القديمة كان بفعل السيل ، وأن كثيراً من المزارع والأموال هلكت وتلفت بفعل لعب السيول بها لعباً لم تتحمله ، فهلكت من هذا المزاح الثقيل[2] .

وليس في استطاعة أحـد التحدث عن ملاحة بالمعنى المفهوم من الملاحة في نهيرات جزيرة العرب ، وذلك لأن هـذه النهيرات اما قصيرة سريعة الجريان منحدرة انحداراً شديداً ، واما ضحلة تجف مياهها في بعض المواسم فلا تصلح في كلتا الحالتين للملاحة . وهي أيضاً شحيحة بالثروة الحيوانية ، وليس فيهـا إلا مقادير قليلة من الأسماك .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن كثيراً من أودية جزيرة العرب كانت أنهاراً في يوم من الأيام . واستدلوا على ذلك بوجود ترسبات في هـذه الأدية ، هي من نوع الترسبات التي تكون في العادة في قيعان الأنهار ، ومن عثـور السياح على عاديات وآثار سكن على حافات الأودية . ومن نص بعض الكتبة (الكلاسيكيين) على وجود أنهار في جزيرة العرب . فقد ذكر (هيرودوتس) نهراً سماه « كورس » زعم انه نهر كبير عظيم ، يصب في (البحر الأريتري) ، ويقصد به البحر الأحمر ، وزعم أن العرب يذكرون أن ملكهم كان قد عمل ثلاثة أنابيب صنعها

---

١ فتوح البلدان للبلاذري ، الفصل الذي عقده لاخبار السيول ، الطبرى والازرقي في أخبـار السيول .

٢ Naval, PP., 24.

من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات ، امتدت من هذا النهر الى البادية مسيرة اثني عشر يوماً ، حملت الماء من النهر الى مواضع متقورة ، نقرت لخزن المياه الآتية من ذلك النهر فيها[1] .

وهناك موضع على مقربة من ساحل البحر الأحمر اسمه (قرح)[2] على مسافة ٤٣ كيلومتراً من (الحجر) في مكان يمر به خط الحديد الحجازي في منطقة صحراوية ، وكان في الأزمنة السابقة من المحلات المزروعة ، وبه بساتين عدة تعرف بـ (بساتين قرح) ، وعلى مقربة منها (سقيا يزيد) أو (قصر عنتر) (اسطبل عنتر) ، كما تعرف به في الزمن الحاضر على بعد ٩٨ كيلومتراً من المدينة . والى شماله (وادي الحمض) الذي يرى بعض العلماء أنه المكان الذي أراده (هيرودوتس)[3] .

وذكر (بطلميوس) نهراً عظيماً سماه (لار) Lar ، زعم انه ينبع من منطقة (نجران) ، أي من الجانب الشرقي من السلسلة الجبلية ، ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقاً بلاد العرب حيث يصب في الخليج العربي[4] . ولا يعرف من أمر هذا النهر شيء في الزمن الحاضر ، ولعله كان وادياً من الأودية التي كانت تسيل فيها المياه في بعض المواسم ، أو كان بقايا نهر ، أثرت في مياهه عوامل الجفاف . ويرى (موريتس) ان هذا النهر الذي أشار اليه (بطليموس) ، هو وادي الدواسر ، الذي يمس حافة الربع الخالي عند نقطة تبعد زهاء خمسين ميلاً من جنوب شرقي السليل ، وتمده بعض الأودية المتجهة من سلاسل جبال اليمن بمياه السيول[5] ، وتغيض مياهه في الرمال في مواضع عديدة ، فتكون بعض الواحات التي يستقى منها ، ويزرع عليها . ويلاحظ وجود مياه غزيرة في واديه ، في مواضع لا تبعد كثيراً عن القشرة . وهذا مما

---

١ Herodotus, Vol., 1,P., 214, Bertram Thomas, The Arabs, P., 350.

٢ البكري ٧٨٧ ، المقدسي ٨٣ ، ٩٨ ، ١١٢ ، (قرح) بالضم ثم السكون ، البلدان (٤٨/٧) وكانت من اسواق العرب في الجاهلية ، وزعم بعضهم ان بها كان هلاك عاد قوم هود ، مما يدل على انها من المواضع القديمة في بلاد العرب .

٣ (اصطبل عنتر) ، وهبه ص ٢٠ ، والظاهر انها كانت تعرف بـ (سقيا) ، وهي من المواضع الجاهلية القديمة ، البلدان (٩٤/٥) .

٤ Moritz, S. 21.

٥ وهبه ٥٤ ، الالوسي ، تاريخ نجد (ص ٢٩) .

يحمل على الاعتقاد بوجود مجاري أرضية تحت سطح الوادي ، وانه كان في يوم ما نهراً من الأنهار ، غير اننا لا نستطيع أن نتكهن في أمر هـذا الوادي أكان نهراً جارياً في زمن بطلميوس كما أشار الى ذلك ، أو كان وادياً رطب القيعان لم تكن عوامل الجفاف قد أثرت فيه أثرها في الزمن الحاضر. لذلك كانت تمكث فيه السيول والأمطار المتساقطة على السفوح الشرقية لجبال اليمن مدة أطول مما هي عليه الآن[1] . والرأي عندي ان هذه الأنهار وأمثالها التي يشير اليها المؤلفون اليونان والرومان ، لم تكن في الواقع وبالنسبة الى ذلك الزمن الا سيولاً عارمة جارفة سمعوا بأخبارها من تجارهم ومن بعض رجالهم الذين كتب لهم الذهاب الى بلاد العرب أو اتصلوا بالعرب ، فظنوا انها أنهار عظيمة على نحو ما ذكروه . فلا يعقل وجود الأنهار الكبيرة في ذلك الزمن ، اذ كان الجفاف قد أثر تأثيره في إقليم جزيرة العرب قبل ذلك بأمد طويل ، فلا مجال لبقاء أنهار على النحو الذي يذكره أولئك الكتّاب .

وينطبق هذا الاحتمال على الأودية الأخرى ، وهي كما قلت كثيرة ، ومنها وادي الرمة ووادي الحمض ، ويعد هذان الواديان من الأودية الجافة ، إلا في مواسم الأمطار الشديدة حيث تصب السيول فيها ، غير أن لها مجاري أرضية ، تشير الى تلك الحقيقة ، ويمكن الحصول على المياه فيها بحفر الآبار على أعماق ليست بعيدة عن السطح . وقد تظهر على سطح الأرض في بعض المحالّ ، وربما كانا قبل آلاف السنين ، أنهاراً تجري فيها المياه،فتروي ما عليها من أرضين[2] .

يتكون (وادي الرمة) عند (حرة خيبر) أو (حرة فدك)[3] من التقاء بضعة أودية ممتدة من الشمال على ارتفاع ستة آلاف قدم ، ثم تتجه بعد ذلك نحو الشرق ثم تأخذ اتجاهاً جنوبياً شرقياً حيث تتصل بـ (الجرير) أو (الجريب) كما كان يعرف سابقاً[4] ، وهو من أوسع فروع وادي الرمة . ويتجه هذا الوادي

---

١ Moritz, S., 21.

٢ Moritz, S., 21, Philby, in the Geogr. Journ, CXIII, (1949), 86.

٣ ويقال له (بطن الرمة) بضم الراء وتشديد الميم ، وقد يقال بالتخفيف ، البلدان (٢١٩/٢) ، (ومنها وادي القصيم ، المسمى وادي الرمة) تاريخ نجد ، للالوسي (ص ٢٩) .

٤ (الجريب) بالفتح ثم الكسر ، البلدان (٩١/٣) ، Moritz, S., 23

نحو الشرق حيث يصل الى (بريدة) ، ثم ينعطف نحو الشمال الشرقي فالشرق الى (القصيم) حيث يسمى بعد ذلك (الباطن) (البطن) ثم يتفرع الى فرعين يخترقان منطقة صحراوية ، ويسير أحدهما في (النفود) حيث يتصل بالدهناء إلى أن يبلغ موضعاً قرب البصرة[1] . ويبلغ طول هذا الوادي زهاء ٩٥٠ كيلومتراً أو أكثر[2] .

وأما مبدأ وادي الحمض أو وادي إضم كما كان يسمى قديماً ، فمن جنوب حرة خيبر ، ثم يتجه نحو الجنوب الغربي الى أن يصل الى يثرب حيث تتصل به أودية فرعية أخرى ، منها (وادي العقيق) ، ويتصل به كذلك (وادي القرى) ، ويستمد مياهه من السيول التي تنحدر اليه من الجبال من العيون التي عند خيبر حيث يصب في البحر الأحمر في جنوب قرية الوجه . وعند هذا المصب بقايا قرية يونانية قديمة ، وبقايا معبد يعرف عند الأهلين (كصر كريم)[3] ، وهو من مخلفات المستعمرات اليونانية القديمة التي كان الملاحون والتجار اليونانيون قد أقاموها عند ساحل البحر الأحمر لحماية سفنهم من القرصان ، وللاتجار مع الأعراب ، ولتموين رجال القوافل البحرية بما يحتاجون اليه من ماء وزاد . ويعتقد (موريتس) أن هذا الموضع هو محل مدينة (لويكه كومه) (Leuke Kome) المشهورة التي وصل اليها (أوليوس كالوس) لما همّ بفتح اليمن[4] ، على حين يرى آخرون أن هذه المدينة هي في المحل المعروف باسم (الحوراء) . ويبلغ طول وادي الحمض زهاء ٩٠٠ كيلومتر[5] .

---

١ (البطن) (بطن الرمة) ، البلدان (٢١٩/٢) ، صفة ١٤٤

٢ وهبه ص ٢ ، (القصيم) ، بالفتح ثم الكسر على (فعيل) قال الاصمعي : (وأسافل الرمة تنتهي الى القصيم) ، البلدان (١١٦/٧) ، (بطن) الحماسة (فرايتاك) ٦٠٨ ، صفة ١٤٤ ، الدينوري : الاخبار ، ١٦٠ ، ٢٥٨ ، ويرى (موريتس) احتمال كون نهر (بيشون Pischon) الذي هو احد انهار الجنة الاربعة في التوراة هو وادي الرمة ،
Moritz, S., 23, Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 10.

٣ (اضم) بالكسر ثم الفتح وميم ، قال ابن السكيت : اضم واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر ، البلدان (٢٨١/١) ، وادي (الحمض) ، البلدان (٣٤٢/٣) .

٤ Moritz, S., 24, Pauly-Wissowa, Leuke Kome.

٥ (الحوراء) بالفتح والمد ، كانت بها آثار خرائب قديمة حتى ايام ياقوت الحموي وكانت قد هجرت في ايامه ، وكانت ميناء المصريين الى المدينة ، البلدان (٣٥٩/٣)
Moritz, S., 21.

وهناك (وادي حنيفة) ، وهو من الأودية المهمة كذلك ، يبتدىء من غرب (جبل طويق) ثم يتجه نحو الشرق نحو الخليج العربي . وهو مهم ، ويمكن الحصول على المياه فيه بطريقة حفر الآبار ، لأن الماء غير بعيد عن قاعه . وأما عند هطول الأمطار ، فإنّ المياه تجري اليه من السفوح فتسيل فيه[1] .

ولقلة المياه في بلاد العرب ، انحصرت الزراعة فيها في الأماكن التي حبتها الطبيعة بمواسم تتساقط فيها الأمطار مثل العربية الجنوبية ، وفي الأماكن التي ظهرت فيها عيون وينابيع ، مثل وادي القرى في الحجاز ، والأحساء على الخليج العربي . وفي الأودية والأماكن التي تكثر فيها المياه الجوفية ، حيث استنبطت المياه منها بحفر الآبار . والزراعة في هذه الأماكن – باستثناء العربية الجنوبية – هي زراعة محدودة ، حدودها ضيقة ، وآفاقها غير بعيدة ، وناتجها قليل لا يكفي لإعاشة كل السكان .

وقد لزمت سكان الأرضين التي تغيث السماء أرضهم ، بانزال الغيث عليها ، الاستفادةُ من الأمطار المنهمرة، بحصرها وتوجيهها الى مخازن تخزنها لوقت الحاجة ، وذلك بانشاء السدود واقامة خزانات ذوات أبواب تفتح وتغلق لتوجيه المياه الوجهة التي يريدها الانسان . وقد أقيمت هذه السدود في مواضع متناثرة من جزيرة العرب، خاصة في الأماكن التي يركبها المطر مثل العربية الجنوبية والعربية الغربية . وتشاهد اليوم آثار سدود جاهلية استعملها الجاهليون للاستفادة من مياه الأمطار .

ولما كانت الأمطار رحمة ونعمة كبرى ، اذا انحبست نفقت إبل العرب ومواشيهم ، صار انحباسها نقمة وهلاكاً ، وعدّوا انحباسها عنهم غضباً من الآلهة ينزل بهم ، ولهذا كان الجاهليون يتضرعون الى آلهتهم ويتقربون اليها ، أن تنزل عليهم الغيث ، ولهم في ذلك صلوات وأدعية للاستسقاء سيأتي الحديث عنها في باب الدين عند الجاهليين .

وعلى خلاف العيون الحارة التي هي من آثار التفاعلات البركانية والتفاعلات الباطنية الكيمياوية ، فان في بلاد العرب عيون وينابيع وواحات ، صارت موطناً للزراع والزرع . وبعض هذه العيون ، تتدفق من الجبال والهضاب وبعد مجرى قصير تعود فتدخل باطن الأرض كما هو الحال في أرض (مَدْيَن) . وهنالك

---

١ حافظ وهبه ، جزيرة العرب (ص ٤٦) . Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 10.

عيون تتوقف حياتها على المطر . وقد استفاد الجاهليون من بعض العيون والينابيع فربطوها بكهاريز وبقنوات تجري فيها المياه تحت سطح الأرض الى بيوتهم ومزارعهم دون أن تتعرض للتبخر الزائد ، فتفقد كميات كبيرة من المياه تذهب هباء . وقد عثر على شبكات منها في عُمان وفي وادي فاطمة بالحجاز وفي اليمن[1] .

أقسام بلاد العرب :

قسّم اليونان واللاتين جزيرة العرب الى أقسام ثلاثة :

١ — العربية السعيدة Arabia Felix .
٢ — العربية الصخرية، وترجمت بالعربية الحجرية كذلك (Arabia Petreae) .
٣ — العربية الصحراوية Arabia Deserta .

وهو تقسيم يتفق مع الناحية السياسية التي كانت عليها البلاد العربية في القرن الأول للميلاد . فالقسم الأول مستقل ، والقسم الثاني قريب من الرومان ثم أصبح تحت نفوذهم ، وأما القسم الثالث فهو البادية الى نهر الفرات[2] .

وقد أشير الى العربية السعيدة والعربية الصحراوية في الموارد (الكلاسيكية) القديمة مثل جغرافية (سترابون)[3] . ويرى بعض العلماء ان القسم الآخر وهو (العربية الصخرية) Arabia Petreae هو من اضافة (بطلميوس) العالم الجغرافي الشهير ، وقد قصد به برية شبه جزيرة سيناء وما يتصل بها من فلسطين الى الأردن[4]. فهو في رأي هؤلاء أحدث عهداً في التسمية من التسميتين الأخريين.

ولم يأخذ الجغرافيون العرب بالتقسيم (الكلاسيكي) ، مع أنهم وقفوا على بعض مؤلفاتهم ، كجغرافية بطليموس[5] . الا ان جزيرة العرب عندهم ، هي (العربية السعيدة) في اصطلاح أكثر الكتبة اليونان واللاتين .

---

١ Naval, PP., 33.

٢ Christina Phelps Grant, The Syrian Desert, London, 1937, P., 10, Ch. Forster, The Historical Geography of Arabia, in 2 Vols., Vol., 2 P., 109.

٣ Strabo, vol., 3, P., 309.

٤ William Smith, A Dictionary of the Bible, Vol., 1, P., 91.

٥ Forster, 2, 109, Edward Gibbon, The Decline and fall of the Roman Empire, Vol., 5, P., 209, (Everyman's Library ed. 1931).

أما العربية السعيدة ، ويقال لها (Arabia Beata) و (Arabia Eudaimon) في اليونانية ، فهي أكبر الأقسام الثلاثة رقعة ، وتشمل كل المناطق التي يقال لها جزيرة العرب في الكتب العربية كما يفهم من بعض المؤلفات ، وليست لها حدود شمالية ثابتة ، لأنها كانت تتبدل وتتغير على حسب الأوضاع السياسية . ولكن يمكن القول إنها تبدأ في رأي أكثر الكتاب اليونان والرومان من مدينة (هيروبوليس) (Heropolis) على مقربة من مدينة السويس الحالية ، ثم تساير حدود العربية الحجرية الجنوبية ، ثم تخترق الصحراء حتى تتصل بمناطق الأهوار (أهوار كلديا) عند موضع (Thapsacus) . وقد أدخل بعض الكتاب هذه الأهوار في جملة العربية السعيدة ، وجعلها بعضهم خارجة عنها بحيث يمر خط الحدود في جنوبها الى أن تتصل بمصب شط العرب في الخليج[١] .

وعرفت البادية الواسعة التي هي جزء من النفود والتي تمر بها حدود العربية السعيدة الشمالية ، باسم (Eremos) عند اليونان ، وهي امتداد لبادية الشام[٢] .

العربية الصحراوية :

ويقال لها في اليونانية (Arabia Eremos)[٣] . أما حدودها ، فلم يعينها الكتّاب اليونان واللاتين تعييناً دقيقاً . ويفهم من مؤلفاتهم أنهم يقصدون بها البادية الواسعة الفاصلة بين العراق والشام ، أي البادية المعروفة عندنا بـ (بادية الشام) . ويكون نهر الفرات الحدود الشرقية لها الى ملتقى الحدود بالعربية السعيدة . وأما الحدود الشمالية ، فغير ثابتة ، بل كانت تتبدل بحسب الأوضاع السياسية . وأما الحدود الغربية ، فكانت تتبدل وتتغير كذلك ، ويمكن أن يقال بصورة عامة إن حدودها هي المناطق الصحراوية التي تصاقب الأرضين الزراعية لبلاد الشام . فما كان بعيداً عن امكانيات الرومان واليونان ومتناول جيوشهم ، عد من العربية الصحراوية[٤] .

---

١ Ptolemy, VI, 7, 2, 27, Strabo, XVI, 4:2, Musil, Arabia Deserta P. 498 The Bible Dictionary, Vol., 1, P., 98, A. Grohmann, Arabian, S., 4.

٢ Musil, Arabia Deserta, P., 499.

٣ Musil, Deserta, P., 497, 511, Hitti, 44.

٤ Forster Vol., 2, P., 110 ff.

ويفهم من العربية الصحراوية أحياناً (بادية السماوة)[١]،وقد يجعلون حدودها على مقربة من بحيرة النجف ، أي في حدود الحيرة القديمة ، حيث تبدأ (بطائح كلدية) التي كانت تشغل اذ ذاك مساحة واسعة من جنوب العراق . وعرفت عند بطليموس باسم (Amardocaea) ، وهي تمتد حتى تتصل ببطائح (Maisanios Kolpos) أو (خليج مسنيوس) (خليج ميسان) ، الذي يكون امتداد الخليج العربي (Persikos Kolpos) . وكل ما وقع جنوب ذلك الخط الوهمي ، عدّ في العربية السعيدة[٢] .

وقد فهم (ديودورس) من (العربية الصحراوية) المناطق الصحراوية التي تسكنها القبائل المتبدية ، وتقع في شمالها وفي شمالها الشرقي في نظره أرض مملكة (تدمر) . وأما حدّها الشمالي الغربي والغربي حتى ملتقاها بالعربية الحجرية ، فتدخل في جملة بلاد الشام . وأما حدودها الشرقية ، فتضرب في البادية الى الفرات . فأراد بها البادية اذن . وقد جعل من سكانها الإرميين والنبط[٣] .

وتقابل العربية الصحراوية ، ما يقال له (أربى) عند الأشوريين ، و (ماتو أربى) عند البابليين ، و (أربابة) عند السريان والفرس .

كانت البادية ، بادية الشام ، أو (العربية الصحراوية) ، مأهولة بالقبائل العربية ، سكنتها قبل الميلاد بمئات السنين . وليست لدينا مع الأسف ، نصوص كتابية قديمة أقدم من النصوص الأشورية التي كانت أول نصوص أشارت الى العرب في هذه المنطقة ، وذكرت انه كانت لديهم حكومات يحكمها ملوك . وأقدم هذه النصوص هو النص الذي يعود تأريخه الى سنة ٨٥٤ ق. م[٤]. وقد ورد فيه اسم العرب في جملة من كان يعارض السياسة الأشورية ، ولما كان هذا النص يشير الى وجود مشيخة أو مملكة عربية ، يحكمها ملك فلا يعقل أن يكون العرب قد نزلوا في هذا العهد في هذه البادية ، بل تشير كل الدلائل الى أن وجودهم فيها كان قبل هذا العهد بأمد ، وربما كان قبل الألف الثاني قبل الميلاد . وقد كانت هذه القبائل تهاجم أرض ما بين النهرين وبلاد الشام ، وتكون مصدر

---

١ Musil, Deserta, P., 235.

٢ Musil, Deserta, P., 500, 503, Stephan of Byzantium, Ethnica, P., 237, (Ed. Meineke).

٣ Musil, Deserta, P., 499, Diodorus, Bibl. Hist., 11, 54.

٤ D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, Vol., 1, 611.

رعب للحكومات المسيطرة على الهلال الخصيب ، وكانت تتنقل في هذه البادية الواسعة ، لا تعترف بفواصل ولا بحدود ، فتقيم حيث الكلأ والماء والمحل الذي يلائم طبعها[1] .

أما الروايات العربية ، وهي لا تستند الى وثائق أو نصوص جاهلية ، فقد رجحت وجود العرب في هذه الأرضين الى ما بعد الميلاد في الغالب ، ولم يتجاوز بعض من تجاوز الميلاد أيام (بخت نصر) وهو بالطبع حديث مغلوط فيه .

العربية الحجرية ، العربية الصخرية :

وأما العربية الحجرية ، فتشمل الأرضين التي كان يسكن فيها الأنباط ، وخضعت لنفوذ الرومان والبيزنطيين . ويطلق ذلك الاسم ، أي العربية الحجرية ، على شبه جزيرة سيناء ، وعلى المملكة النبطية ، وعاصمتها (بطرا) (بترا) (البتراء)[2] . وكانت حدود هذه المنطقة تتوسع وتتقلص بحسب الظروف السياسية وبحسب مقدرة العرب ، ففي عهد الحارث الرابع ملك الأنباط (من سنة ٩ ق.م الى سنة ٤٠ ب. م) اتسعت حدودها حتى بلغت نهايتها الشمالية مدينة دمشق[3] . ولما ضعف أمر النبط ، استولى الامبراطور (تراجان) عام (١٠٦ م) على هذه المقاطعة وضمها الى المقاطعة التي كونها الرومان وأطلقوا عليها اسم (المقاطعة العربية) (Provincia Arabia) . ويظهر من وصف (ديودورس) لهذه المنطقة انها في شرق مصر وفي جنوب البحر الميت ، وجنوبه الغربي وفي شمال العربية السعيدة وغربها[4] . وان الأنباط يقيمون في الأرضين الجبلية وفي المرتفعات المتصلة بها التي في شرق البحر الميت ، وفي شرق وادي العربة ، وفي جنوب اليهودية حتى الخليج العربي ، (خليج العقبة)[5] . وأما الأقسام الباقية، فكانت تسكنها قبائل عربية قيل لها (سبئية) ، وهي تسمية كانت تطلق عند الكتبة

---

١ Forster, Vol., 1, P., 347.

٢ R.E. Brunnow und A. v. Domaszewski, Die Provincia Arabia, in 3 Bd.

٣ Hitti, P., 44, 68.

٤ Diodorus, 11, 48, Musil, Hegaz, P. 309.

٥ Musil, Hegaz, P., 309, Deserta, P., 499.

اليونان والرومان على أكثر القبائل المجهولة أسماؤها، التي تقطن وراء مناطق نفوذ الأنباط والرومان ، ويعنون بذلك قبائل جنوبية في الغالب .

التقسيم العربي :

ويؤسفنا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن وجهة نظر أحد من الجاهليين في أقسام بلاد العرب، لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص أو في الروايات التي يرويها عنهم أهل الأخبار ، وكلهم مسلمون .

أما الإسلاميون ، فقد اكتفوا بجزيرة العرب ، فأخرجوا بذلك البادية الواسعة منها ، وأخرجوا القسم الأكبر مما دعاه الكلاسيكيون بالعربية الحجرية منها كذلك. وجزيرة العرب وحدها ، هي (العربية السعيدة) عند اليونان والرومان ، وما يقال له أيضاً بـ (Arabia Proper) في الانكليزية[١] .

وقد قسموا جزيرة العرب الى خمسة أقسام : الحجاز ، وتهامة ، واليمن ، والعروض ، ونجد[٢] . ويرجع الرواة أقدم رواياتهم في هذا التقسيم الى عبدالله بن عبّاس[٣] .

أما الحجاز ، فتمتد رقعته في رأي أكثر علماء الجغرافية المسلمين ، من تخوم الشام عند العقبة الى (الليث)[٤] ، وهو واد بأسفل السراة يدفع في البحر ، فتبدأ عندئذ أرض تهامة[٥] . وقد عد قسم من العلماء (تبوك) وفلسطين من أرض الحجاز[٦] . ويقال للقسم الشمالي من الحجاز أرض مدين وحسمى ، نسبة الى السلسلة الجبلية المسماة بهذا الاسم ، التي تتجه من الشمال نحو الجنوب[٧]، وتتخللها

---

١ Forster, Vol., 2, PP., 112.

٢ صفة (ص ٤٧ وما بعدها) ، البلدان (٢١٨/٣) ، المفضليات ص ٤١٦ .

٣ صفة ص ٤٦ .

٤ (الليث) بكسر اللام ثم الياء الساكنة والثاء المثلثة ، البلدان (٢١٨/٣) ، (٣٤٦/٧) ، (اذا خلفت عجلزا صعدا فقد انجدت ، فلا تزال منجدا حتى تنحدر من ثنايا ذات عرق ، فاذا فعلت فقد اتهمت الى البحر ، واذا عرضت لك الحرار وانت منجد فتلك الحجاز) ، (حد الحجاز ، الاول بطن نخلة وظهر حرة ليلى ، والحد الثاني مما يلي الشام شعب وبدا ، والحد الثالث مما يلي تهامة بدر والسقيا ورهاط وعكاظ ، والحد الرابع شابة وودان ، ثم ينحدر الى الحد الاول) ، بلوغ الارب (١٨٧/١ وما بعدها) .

٥ البلدان (٢١٨/٣)

٦ البلدان (٢١٨/٣) .

٧ البلدان (٤١٧/٧) ، Ency., 1, 368, Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 96.

أودية محصورة بين التيه وأيلة من جهة ، وأرض بني عذرة من ظهرة حرة نهيل من جهة أخرى[1] . وكانت تسكنها في الجاهلية قبائل جذام[2] . ويسكنها في الزمن الحاضر عرب الحويطات ، ويعتقد المستشرقون أنهم من بقايا النبط[3] .

وأرض (حسمى) ، أرض خصبة كثيرة المياه . وكانت من المناطق المعمورة، وبها آثار كثيرة ومن جبالها جبل يعرف بـ (إرم)[4] . ويرى بعض المستشرقين أن لهذا الجبل علاقة بموضوع (إرم) الوارد ذكره في القرآن الكريم وفي كتب قصص الأنبياء والتواريخ[5] . ويرى (موريتس) انه موضع (Aramaua) الذي ذكره (بطليموس) على أنه أول موضع من مواضع العربية السعيدة ، وأنه لا يبعد كثيراً عن البحر[6] . ويقال له (رم) في الزمن الحاضر[7] .

وتتخلل الحجاز أودية عديدة ، منها وادي إضم الذي ورد ذكره في أشعار الجاهلية وفي أخبار سرايا الرسول[8] . ووادي نخال ، ويصب في الصفراء بين مكة والمدينة[9] . والصفراء واد من ناحية المدينة ، كثير النخل والزرع ، في طريق الحاج ، سلكه الرسول غير مرة ، وعليه قرية الصفراء ، وماؤها عيون تجري الى ينبع ، وهي لجهينة والأنصار ولبني فهر ونهد ورضوى[10] . ووادي (بدا) قرب أيلة ، يتصل بوادي القرى[11] . ووادي القرى واد مهم يقع بين العلا والمدينة ، ويمر به طريق القوافل القديم الذي كان شرياناً من شرايين الحركة

---

١ البلدان (٢٧٦/٣) ، لسان العرب (٢٢٤/١٥) .

٢ Ency., Vol., I, P. 368, Doughty, Vol. 2, P. 624.

٣ Ency., Vol., 2, P., 349.

٤ البلدان (٢٧٧/٣) .

٥ Mr. Horsfield, in Revue Biblique, XLI, (1932), PP., 581, XLII, (1933), PP., 405, XLIII, (6934), PP., 672, XLIV, (1935) PP., 45.

٦ Ptolemy, VI, 7 : 27, B. Moritz, in MFOB, III, P., 395, "Ausfluege in der Arabia Petraea".

٧ Musil, Hegaz, P., 273.

٨ البلدان (٢٨١/١) ، صفة ١٧١ .

٩ البلدان (٢٧٢/٨) .

١٠ البلدان (٢٧٢/٨)

١١ البلدان (٣٦٧/٥)

التجارية في العالم القديم ، ويقال له (وادي الديدبان)[1] ، ويصب فيه واديان هما : وادي جزل من الشمال ، ووادي الحمض من الجنوب ، ويلتقي به واد آخر هو وادي التبج ، أي وادي السلسلة[2] . وكان عامراً جداً ، تكثر فيه المياه، وتشاهد فيه اليوم آثار المدن والقرى[3] . وقد عثر فيه على كتابات كثيرة لحيانية وسبئية ومعينية وغيرها ، سأتحدث عنها .

ومن أهم مواضع وادي القرى (العلا) ، وقد نزله الرسول في طريقه الى تبوك[4] . ويقع في موضع (ديدان) (ددان) (ددن) القديم . وبه واحة ونهير صغير[5] . ومدينة (قرح) ، وكانت من أسواق العرب في الجاهلية ، وقد زعم أنها القرية التي كان بها هلاك عاد[6] . وتبعد عن خرائب (ديدان) بمسافة ثلاثة كيلومترات ،وقد سكنتها قبائل (بليّ) من القبائل العربية القديمة[7] . وهي ملتقى طريق مصر القديم بطريق الشام . ويرى (موسل) أنها هي (العلا) ، دعيت بهذا الاسم فيما بعد[8] . ولما سأل (دوتي) الأعراب القاطنين في هذه الأماكن عن (قرح) ، لم يعرفوا من أمرها شيئاً[9] .

ووجد (دوتي) في قرى وادي القرى وخرائبه عدداً كبيراً من الحجارة المكتوبة بحرف المسند،وقد اتخذها السكان أحجاراً من أحجار البناء[10] . وعثر في (الخريبة) على كتابات بهذا القلم ، وعلى آثار أبنية ومواطن حضارة وعلى ألواح من الحجر كان يستعملها الصيارفة لصف نقودهم عليها ، أو لذبح القرابين[11] . كما شاهد موضعاً يقال له (اسطبل عنتر) على قمة جبل شاهق يرنو الى الوادي ولعله معبد أحد الأصنام التي كانت تعبد هناك .

---

١ البلدان (٨٧/٢)

٢ Ency., Vol., 4, P., 1077, Doughty, Travels in Arabia Deserta, London, 1936, Vol., 1, P., 187.

٣ Ency., Vol., 4 P., 1077.

٤ (وكان بين سبأ والشأم قرى متصلة ، فكانوا لا يحتاجون من وادي سبأ الى الشام الى زاد) ، لسان العرب (٣٨/١٩) .

٥ البلدان (٢٠٧/٦) .

٦ وهبه ٢٠ .

٧ البلدان (٤٩/٧) .

٨ Musil, Hegaz, P., 295, Doughty, 1, P., 203.

٩ Musil, P., 295.

١٠ Doughty, I, P. 87

١١ Doughty, 1, P., 203 f.

تهامة :

وتبدأ حدود تهامة ، في رأي بعض الجغرافيين ، من بحر القلزم[١] ، فتكون المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر[٢] . ويقال لتهامة الواقعة في اليمن (تهامة اليمن) ، ويختلف عرضها باختلاف قرب السلاسل الجبلية من البحر وبعدها عنه ، وقد يبلغ عرضها خمسين ميلاً في بعض الأمكنة . وترتفع أرض تهامة الجنوبية الواقعة على البحر العربي ما اتجهت نحو الشرق ، وتتكون فيها سلاسل من التلال المؤلفة من حجارة كلسية ترجع الى العهود الجيولوجية الحديثة أو من حجارة بركانية[٣] .

ولانخفاض أرض تهامة قيل لها (الغور) و (السافلة)[٤] . وقد وردت لفظة تهامة على هذا الشكل (تهمت) (تهمتم) في النصوص العربية الجنوبية[٥] .

ويظهر ان لهذه اللفظة علاقة بكلمة (Tiamtu) ، التي تعني البحر في البابلية . وبكلمة (تيهوم Tehom) العبرانية[٦] . وعندي ان هذه الكلمة ترجع الى أصل سامي قديم ، له علاقة بالمنخفضات الواقعة على البحر ، والتي تكون لذلك شديدة الرطوبة والحرارة في الصيف[٧] . ولهذا فإنها في العربية بلهجة القرآن الكريم وباللهجات الجنوبية السواحل المنخفضة الواقعة بين الجبال والبحر ، وهي حارة وخمة شديدة الرطوبة كأنها من بقاع جهنم في الصيف .

اليمن :

حدّ اليمن في عرف بعض العلماء من وراء « تثليث » وما سامتها الى صنعاء

---

١ (القلزم) بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة وميم ، البلدان (١٤٥/٧) .

٢ راجع حدود تهامة في : البلدان (٣١١/٦) ، صفة ٥٤ ، ١١٩ ، ١٢١ ، بلوغ الارب (١٨٨/١) .

٣ Ency., Vol., 4, P., 769.

٤ البلدان (٤٣٧/٢) ، (٣١١/٦) .

٥ Glaser 554, 618, Ency., Vol., 4, P., 764.

٦ Schrader, Die Keilinschriften und das Alte Testament, neu bearbeitet von Zimmern und Winckler, Berlin, 1903, S., 492.

٧ وسأشير اليه برمز : KAT

وما قاربها الى حضرموت والشحر وعمان، الى عدن أبين وما يلي ذلك من التهائم والنجود . وقيل : يفصل بين اليمن وباقي جزيرة العرب خط ، يأخذ من حدود عمان ويبرين الى ما بين اليمن واليمامة فإلى حدود الهجيرة وتثليث وكثبة وجرش ومنحدراً في السراة الى شعف عنز وشعف الجبل أعلاه الى تهامة الى أم جحدم الى البحر الى جبل يقال له كرمل بالقرب من حمضة ، وذلك حد ما بين كنانة واليمن من بطن تهامة[1] . أما النصوص العربية الجنوبية ، فلم تثبت حدود اليمن. ولكن اليمن فيها وتسمى (يمنت) (يمنات) ، منطقة صغيرة ذكرت في نص يعود عهده الى أيام الملك (شمر يهرعش) ، المعروف في الكتب الإسلامية بـ (شمر يرعش)[2] ، بعد (حضرموت) في الترتيب . وعلى هذا الترتيب وردت أيضاً في نص (أبرهة) نائب النجاشي على اليمن . ويعود عهده الى سنة ٥٤٣ م[3] .

وتخترق السراة اليمن من الشمال الى الجنوب حتى البحر ، وتتخللها الأودية التي تنساب فيها مياه الأمطار،وتمتد بين الهضاب والشعاب فلاة تتفرع من الدهناء من ناحية اليمامة والفلج يقال لها (الغائط) ، وتظهر في أواسطها (الصيهد) ، وتقع بين مأرب وحضرموت[4] .

وفي شمال منطقة عدن صحراء تتصل بالربع الخالي ، يخترق الهضاب المهيمنة على عدن عدد من الأودية الجافة يظهر أنها كانت مسايل مياه ، وأنها من بقايا

---

١ KAT, S., 492, anm., 2, P. Jensen, Keilinschr. Bibl., VI, 1, S. 559 Ency. Vol. 4 P. 764

٢ (قال الاصمعي : اليمن وما اشتمل عليه حدودها بين عمان الى نجران ، ثم يلتوى على بحر العرب الى عدن الى الشحر حتى يجتاز عمان ، فينقطع من بينونة ، وبينونة بين عمان والبحرين ، فليست بينونة من اليمن ...) ، البلدان (٨١/٥) ، (٥٢٢/٨ وما بعدها) ، صفة ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، البكري : معجم ما استعجم (١٦/١) ، ابن خرداذبه ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٨٩ بلوغ الارب (٢٠٢/١ وما بعدها) و Ency., Vol., 4, P. 1155

٣ الاكليل (١٠٨/٨ وما بعدها) ، التيجان ص ٢٢٢ فما بعدها ، اخبار عبيد ص ٤٢٨ ، تاريخ الطبرى (٥٤٧/١ ، ٧٩٣ فما بعدها) ، (الطبعة الاوربية) Glaser, Zwei Inschrifen ueber den Dammbruch von Marib, in Mitheil. der Vorder-Asiat. Ges. 1887.

٤ صفة ٨٤ ، البلدان (٤١٩/٥) .

أنهار جفت ، وتسيل في بعضها المياه عند سقوط الأمطار ، ومنها (وادي تبن)[1]، وهو من بقايا نهر طويل ، له فروع عديدة ، وتمر به الطريق الرئيسية المؤدية الى اليمن[2] .

ويخترق حضرموت واد ، يوازي الساحل ، يبلغ طوله بضع مئات من الأميال ويتألف سطحه من أرضين متموجة تتخللهـا أودية عميقة تكثر فيها المياه ، في باطن الأرض ، وبعض تلاله مخصبة[3] .

وفي حضرموت حجارة بركانية ومناطق واسعة ، يظهر أنها كانت تحت تأثير البراكين . والظاهر أن دورها لم ينته إلا منذ عهد ليس ببعيد[4] . ويزرع الناس في هذه الأودية حيث يحفرون آباراً في قيعانها فتظهر المياه على أبعاد متفاوتة ، وهنالك نهر يقال له نهر حجر[5] .

ومن شرق سيحوت تبتدىء سواحل (مهرة) ، وتعرف عند الجغرافيين باسم (الشحر) . ومعنى كلمة (مهرة) في العربية الجنوبية القديمـة (ساحل)[6] . ويطلق اليوم اسم (الشحر) على الميناء الغربي وحده . وفي (قارة)[7] مدينـة (ظفار) ، وهي غير ظفار اليمن[8] . وعند خليج ظفار كان موضع (Syagro) المشهور عند اليونان والرومان[9] .

ويمتد اقليم ظفار من سيحوت الى حدود عمان ، وهو هضبة يبلغ ارتفاعهـا ثلاثة آلاف قدم ، تهب عليها الرياح الموسمية ، وفوق جبالها تنمو أشجار الكندر التي اشتهرت بها بلاد العرب قبل الإسلام . وتشقها طولاً وعرضاً أودية تكسوها

---

١ Hugh Scott, In the High Yemen, P., 25, f.

٢ Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 179 f.

٣ وادي عدم : الهلال ، الجزء السادس عشر ، السنة السادسة ، نيسان ١٨٩٨ ص ٦٠٣ ، Adolf von Wrede, S., 290, Ency., 1, P., 369.

٤ Ency., 1, P., 369, Reise, S., 287, ff.

٥ تاريخ حضرموت السياسي ، تاليف صلاح البكرى (٣/١) ، (القاهرة ١٣٥٤) ، (نهر ميفع) ، الهلال ، العدد المذكور ص ٦٠٤ ، وقد تحدث صاحب المقال عن الاثار التي رآها في وادي عدم .

٦ البكرى (١٤١/٢ فما بعدها) ، Ency., 1, 369

٧ وتنمو في قارة نباتات الطيب والافاويه ، Hugh Scott, PP., 147.

٨ Reise, S., 39.

٩ Reise, S., 33, Forster, Vol., 2, P., 161, 166, 224 234.

الأعشاب وتتخللها الأشجار . وبها جبال (قرا)[1] ، ومنحدراتها أرجوانية ، وقد تفتتت الصخور الحمر فيها ، فأكسبت الأودية والسهول الحمرة ، وتوجد نهيرات وعيـون ، ويمكن الحصول على المياه بحفر الآبار . ولا زال السكان يحتفظون بعاداتهم القديمة الموروثة مما قبل الإسلام[2] .

ويظهر أن هذه المنطقة كانت أماكن (القرين) من الشعوب العربية الجنوبية القديمة ، وهناك قبيلـة لا تزال حتى اليوم يقال لها (بنو قرا)[3] لعل لها صلة بالقرين .

ويتكلم أهل (مهرة) بلهجة خاصة ، يقال لها (المهرية) أو (الأمهرية) ، وهي متأثرة بالجعزية[4] . كما يتكلم أهل قارة (قرا) بلهجه يقال لها (أحكيلية) ، ويظن انها من اللهجات العربية القديمة .

وتتألف أرض عمان من أماكن جبلية ، وهضاب متموجة ، وسهول ساحلية. وأكثر حجارتها كلسية وغرانيتية ، وفيها أيضاً حجارة بركانية . والظاهر انها كانت من مناطق البراكين[5] . وفي مناطق التلال وفي (جعلان) عيون ومجاري مياه معدنية أكثرها ذات درجات حرارة مرتفعة . وتوجد آبار في (الباطنة) وفي المناطق المجاورة للصحراء وفي الأقسام الشرقية من عمان[6] .

وتتخلل هضاب عمان وجبالها أودية معظمها جاف ، وتكون طرق المواصلات بين الساحل والأرضين الباطنة ، وجوها حار استوائي ، وتتجه الجبال من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، وأعلى قمة فيها هي قمة الجبل الأخضر ، ويبلـغ ارتفاعها تسعة آلاف قـدم . والأرضون المحيطة بهذا الجبل ، خصبة ، وقابلة للاستثمار[7] .

---

١ Hugh Scott, P., 147.

٢ اليافعي (٢٠١/٢ فما بعدها) .

٣ اليافعي (٢٠٦/٢ فما بعدها) .

٤ Reise, S., 33, Leo Hirsch, Reisen in Sued-Arabien, Mahra Und Hadramut, Leiden, 1897, S., 19, 34, 51, 52, 53.

٥ Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 238, Ency. Brit., Vol., 16, P., 785.

٦ Handbook, Vol., 1, P., 238, Leo Hirsch, S., 183.

٧ S.H. Steinberg, The Statesman's Yearbook, London, 1948, P., 689.

وفي عمان مدن قديمة ، منها (صحار) و (نزوة)[1] و (دبا) أو (دما) ، وكانت من المدن المهمة في أيام الرسول ، وهي عاصمة عمان الشمالية ، كما كانت سوقاً من أسواق الجاهلية ، وسكانها من الأزد . والعمانيون من الشعوب البحرية المحبة لركوب البحار ، ولهم صلات وروابط بسواحل افريقية والهند . ونجد بينهم عدداً كبيراً من الزنوج والهنود والفرس والبلوج[2] .

العروض :

وأما العروض ، فيشمل اليمامة والبحرين وما والاها[3] . وأغلب الأرضين فيه صحارى وسهول ساحلية ، ترتفع في الجهات الغربية عن ساحل البحر . ويمتد مرتفع الصمان الصخري موازياً لساحل الخليج ، متوسطاً بين الأحساء والدهناء . ومن أودية الأحساء ، وادي فروق في الجنوب ، وهو قسم من وادي المياه[4] .

ومن أقسام العروض ، شبه جزيرة (قطر) التي تمتد من عمان الى حدود الأحساء[5] . يشتغل سكانها بصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ ، وقد عرفت بـ (Cataraei) عند (بلينيوس)[6] . ومعظم أراضيها صحارى،وفيها واحات قليلة ، ويزرع السكان في بعض الأماكن على مياه الآبار[7] . وقد عرفت قديماً بأنواع من الثياب والمنسوجات القطرية ، كانت تصدّر الى الخارج ، كما عرفت بتصدير النجائب والنعام[8] .

ويلي شبه جزيرة قطر ، (الأحساء) ، وكان يقال لهذه المنطقة قديماً (هجر)

---

١ البلدان (٣٠/٤) ، (٣٣٩/٥ ، ٢٨١/٨) .

٢ Steinberg, P., 690, O'shea, The Sand Kings of Oman, London, 1947.

٣ البلدان (١٠١/٣) ، (١٦٠/٦) .

٤ وهبة ٦٨ ، (الصمان) ، بالفتح ثم التشديد واخره نون ، البلدان (٣٨٣/٥) .

٥ البلدان (١٢٣/٧) ، Steinberg, P., 692.

٦ Pliny, Natura. Hist., VI, 28, 147, Ency., Vol., 2, P., 817 Sprenger, Geogr. Arab. S., 116, Skizze, BD., 2, S., 75.

٧ Ency., Vol., 2, P., 817, Fr. Stuhlmann, Der Kampf um Arabien, S., 177, Palgrave, Travels in Arabia, London, 1865, Vol., 2, PP., 232.

٨ البلدان (١٢٣/٧) .

والبحرين[١] . والقسم الأكبر من الأحساء ، سهل صحراوي ، يرتفع في الجهة الغربية عن ساحل البحر ، ويتخلله كثير من التلال ، يتجه بعضها باتجاه وادي المياه وجبل الطف[٢] . والمنطقة الساحلية ، سبخة في الغالب ، وتكثر فيها الآبار التي لا تبعد مياهها كثيراً عن سطح الأرض . وأغنى مناطق الأحساء ، منطقة الأحساء والقطيف في الجنوب حيث تكثر المياه من آبار وعيون[٣] .

وتظهر المياه الجوفية المنحدرة من الأمطار التي تتساقط بمقدار أربع عقد أو خمس عقد (انج) في السنة على حافات جبل (طويق) في (المفوف) ، تظهر فيها على شكل عيون ، تبلغ زهاء أربعين عيناً ، جعلت المنطقة من أهم الواحات في المملكة العربية السعودية[٤] . وبحذاء هجر في الجنوب الغربي من مدينة القطيف تقع (العقير) ، وهي الآن ميناء صغير[٥] . وعلى مقربة منها خرائب عادية ، يعتقد العلماء أنها موضع (Gerrhaei) المدينة التجارية العظيمة التي اشتهر أمرها ، وبلغت شهرتها اليونان والرومان[٦] . وكانت محطة من المحطات التجارية العالمية ، وملتقى طرق القوافل التي كانت ترد من جنوب بلاد العرب قاصدة العراق . وقد أغرت الطامعين ، فطمعوا في الاستيلاء عليها ، وأوحت الى الكتبة (الكلاسيكيين) ، فكتبوا فيها قصصاً من نسج الخيال ، وتقع على خليج سمّاه (الكلاسيكيون) (Sinus Gerraicus) ، أي خليج جرهاء[٧] .

وتقع القطيف على خليج يشمل جزيرة (تاروت) وتعد المدينة البحرية الرئيسية في الأحساء ، يرتفع سطحها بضع أقدام عن سطح البحر ، وتكثر بها مياه العيون[٨] . وتشاهد عندها خرائب عادية ، يستدل منها على أن هذه المدينة كانت

---

١ وهبة ٦٨ . Handbook, Vol., 1, P., 298

٢ الطف ، بالفتح والفاء مشددة ، البلدان (٥١/٦) ، وهبة ٦٨ ،

٣ وهبة ٦٨ ، Handbook, Vol., 1, P., 298

٤ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 58.

٥ وهبة ٧٢ فما بعدها ، البلدان (١٩٨/٦) ، مروج الذهب (٩١/١) ، Handbook, Vol., 1, P., 308, Chesman, PP., 27,
وكانت هجر قصبة بلاد البحرين ، البلدان (٤٤٦/٨)

٦ الجرعاء ، « Gerrael » Forster, Vol., P., 217, "Gerrael", Glaser, Skizze, Bd, 2, S. 75.

٧ Strabo, Vol., 3, P., 186, 187, Forster, Vol., 2 P. 217.

٨ Forster, Vol., I, P., 196, 197, 291, Vol., 2, P. 220. Cornwall in The National Geographical Magazine, April, 1948.

ذات تأريخ قديم ، ربما يعود الى آخر عهد من عهود العصر النحاسي .

وفي هذه المنطقة ، يجب أن يكون موقع مدينـــة (بلبانا) (Bilbana) (Bilaena) (Bilana) ، احدى مدن (الجرهائيـــين)[1] . ومواطن قبيلتي (Gaulopes) و (Chateni) عـــلى سواحل خليج سمـــاه (بلينوس) (Sinus Gaulopeus) أي (خليج كيبيوس) . ويرى (شبرنكر) أنـــه (خليج القطيف)[2] . ويذكرنا اسم (Chateni) (خطيّي) باسم (الخط)، ويطلق في العربية على سيف البحرين كله[3] . وربمـا كان (كيبيوس) ، الذي سمّي الخليج بـــه ، هو تحريف (Cateus) الذي يشير بكل وضوح الى اسم (القطيف) .

وأما جزيرة (تاروت) الصغيرة التي في هذا الخليج ، فالظاهر انها جزيرة (Tahr) أو (Taro) أو (Ithar) في جغرافية (بطليموس)[5] ، وفيهـا مدينة (دارين) . ويظهر انها أقيمت على أنقاض أبنية قديمة ، ولعلها كانت معبداً للإلـه (عشتروت) . اشتهرت به ، ثم حذف المقطـــع الأول من اسم الإلـه اختصاراً ، وصارت تعرف بالمقطعين الأخيرين ، وهما (تاروت) .

والقسم الأكبر من أرض الكويت منبسط ، وأكثر السواحل رملي، الا بعض الهضاب أو التلال البارزة . وفي المحالّ التي تتيسر فيها المياه تتوافر الزراعـة ، وأكثر ما يزرع هناك النخيل . وليس في الكويت من الأنهار الجارية غير مجرى واحد أو نهر يقال له (المقطع) ، يصب في البحر . ومشكلة ماء الشرب من أهم المشكلات في هذه الإمارة ، لأن ماء أغلب الآبار ملح أجاج،ولذلك يضطر الأغنياء الى جلب المياه من شط العرب[6] .

ومن أشهر مدن الكويت مدينة (الكويت) ، وهي العاصمة ، وهي على ساحل الخليج ، و (جهرة) ، وهي في منطقة زراعية خصبة ، ذات آبار عـلى مقربة من خليج الكويت[7] . ويظن أن الخندق الذي أمر بحفره (سابور ذو الأكتاف)

---

١ Forster, Vol., 2, P., 216, Glaser, Skizze, 2, S., 74.

٢ Enc., 2, P., 821.

٣ البلدان (٣/٤٤٩) ، المفضليات ص ٢٤٥ .

٤ Forster, Vol., 2, P., 216.

٥ Forster, Vol., 1, P., 298, 301, Vol., 2, P., 216 217 220 Glasser Skizze 2 S. 76.

٦ وهبة ص ٧٦ ، Handbook, Vol., 1, P., 285, Ency., 2, P., 1173.

٧ (الجهرة) ، وهبة ٧٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ومواضع اخرى Handbook, Vol., 1, P., 296.

ليحمي السواد من غزو الأعراب ، كان ينتهي في البحر عند (خليج كاظمة) في شمال الإمارة[1] .

وأرض الكويت ، مثل سائر أرض العروض ، كانت موطن شعوب قديمة ، فيظهر أن (Bukae) أو (Abucaei) أو (Abukae) ، وعاصمتهم مدينة (Coromanis) ، هم أسلاف بني عبد القيس ، وأن (Coromanis) ، المصدر اللغوي الذي اشتق منه (القرين) ، الاسم القديم للكويت[2] .

ولعلّ (Idicare) هي (قارة) من مواضع الكويت[3] ، وان (Jucara) هي (الجهرة) من أخصب مناطق الكويت في الزمن الحاضر ، وكانت من المواضع المأهولة قبل الإسلام[4] .

وقد عرف (ياقوت) البحرين بأنها الأرضون التي على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان ، وذكر أن من الناس من يزعم أن البحرين قصبة هجر ، وأن منهم من يرى العكس ، أي ان هجراً هي قصبة البحرين[5] .

أما (أبو الفداء) فذكر أن البحرين هي ناحية على (شط بحر فارس) ، وهي ديار القرامطة ولها قرى كثيرة ، وبلاد البحرين هي هجر . وذكر أيضاً أن من الناس من يرى أن هجراً اسم يشتمل جميع البحرين كالشام والعراق ، وليس هو مدينة بعينها[6] . ويظهر من دراسة ما ذكره العلماء عن البحرين أن رأيهم في حدودها كان متبايناً ، وأنهم لم يكونوا على اتفاق في تحديدها ، فتارةً يوسعونها ، وتارة يقلصونها .

ومن مواضع البحرين (محلّم) ، وبه نهر اشتهر بنخله ، واليه أشار (بشر بن أبي خازم الأسدي) بقوله :

كأن حد وجهم لمّا استقلوا نخيل (محلّم) فيها ينوع[7]

---

١ Ency, 2, P., 1173.

٢ تأريخ الكويت ، لعبد العزيز الرشيد (بغداد ١٩٢٦) ، (٢٣/١) ، Forster, Vol., 2, P., 213.

٣ وهبة ص ٧٩ ، Forster, Vol., 2, P., 214.

٤ Forster, Vol., 2, P., 214.

٥ البلدان (٣٤٦/١) (دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥) .

٦ تقويم البلدان (ص ٩٩) .

٧ ديوان بشر (ص ١٣٠) .

اليمامة :

وأما اليمامة ، فكانت تعرف بـ (جو) أيضاً[١] ، وقد عدّها (ياقوت الحموي) من نجد[٢] ، وقاعدتها (حجر) . وكانت عامرة ذات قرى ومدن عند ظهور الإسلام ، منها (منفوحة) ، وبها قبر كان ينسب الى الشاعر (الأعشى)[٣] . و (سدوس) من المدن القديمة ، وبها الآن آثار كثيرة ، وقد عثر فيها على تمثال يبلغ قطره ثلاث أقدام ، وارتفاعه ٢٢ قدماً[٤] . و (القرية) ، وعلى مقربة منها بئر ، قال الهمداني - وهو يتحدث عنها - : « فإن تيامنت شربت ماءً عادياً ، يسمى قرية ، الى جنبه آبار عادية وكنيسة منحوتة في الصخر ، ثم ترد نجر »[٥] . والظاهر أن هذا الموضع كان من المواضع الكبيرة المعروفة . وذكر ياقوت وغيره ان اليمامة « كانت تسمى جوا والقرية »[٦] . ولا يعقل تسمية اليمامة بالقرية لو لم يكن لهذا الموضع شهرة .

وقد نشر (فلبي) وبعض رجال شركة النفط العربية السعودية صوراً فوتوغرافية لكتابات ونقوش عثروا عليها في موضع يقال له (قرية الفأو) على الطريق الموصلة الى نجران ويقع على مسافة سبعين كيلومتراً من جنوب ملتقى وادي الدواسر بجبل الطويق ، وعلى مسافة (١٢٠) كيلومتراً من شرقي (نجران)[٧] ،

---

١ صفة ١٦١ ، البلدان (٥١٦/٨) ، (واليمامة القرية التي قصبتها حجر ، كان اسمها فيما خلا جوا . وفي الصحاح كان اسمها الجو) ، لسان العرب (١٣٥/١٥)

٢ البلدان (٥١٦/٨)

٣ البلدان (١٨٢/٨) ، صفة ١٦٢ .

٤ وهبة ص ٥١ ، راجع وصف (فلبي) لسدوس في كتابه
Arabia of the Wahabis, P., 77.

٥ صفة ص ١٥٢ .

٦ البلدان (٥١٦/٨) ، وقد نزل بنو سدوس بن شيبان بن ذهل ، ولذلك قيل لها (قرية بني سدوس) ، قال ياقوت : (قرية بني سدوس بن شيبان بن ذهل ، وفيها منبر وقصر يقال أن سليمان بن داوود عليه السلام بناه من حجر واحد من اوله الى اخره ، وهي اخصب قرى اليمامة ، لها رمان موصوف ، وربما قيل لها القرية) ، البلدان (٤٦/٥) (٧٦/٧) .

٧ The Geographical Journal, Vol., CXII, June, 1949, PP., 86,
Le Museon, LXII, (1949), 1-2, PP., 67.
راجع ايضا ما كتبه (فلبي) في بعض مؤلفاته من هذا الموضع .

وعلى ثلاثين ميلاً من جنوب غربي (السليل) في وادي الدواسر[1] .

كما وجدوا آثار أبنية ضخمة ، يظهر انها بقايا قصور كبيرة، ووجدوا كهفاً منحوتاً في الصخر مزداناً بالكتابات والتصاوير واسعاً ، يقول له الناس هنالك (سردباً) أو (سرداباً) . وعند هذا الموضع عين ماء وآبار قديمة ، وقد كتب اسم الصنم (ود) بحروف بارزة . وتدل كل الدلائل على ان الموضع الذي تتغلب عليه الطبيعة الصحراوية في الزمن الحاضر ، كان مدينة ذات شأن[2] .

وقد أشار الألوسي في كتابه (تأريخ نجد) الى سدوس وآثارها فقال : (وفي قربها أبنية قديمة يظن أنها من آثار حمير وأبنية التبابعة . (نقل لي بعض الأصحاب الثقات من أهل نجد : ان من جملة هذه الأبنية شاخصاً كالمنارة ، وعليها كتابات كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في جدرانها . فلما رأى أهل قرية سدوس اختلاف بعض السياحين من الإفرنج اليها ، هدموها ملاحظة التدخل معهم)[3] . وفي هذا الوصف دلالة على أن الخرائب التي ذكرها (ياقوت الحموي) بقيت ، وأن المنبر الذي أشار اليه ، قد يكون هذا الشاخص الذي شبه بالمنارة والذي أزيل على نحو ما ذكره الألوسي .

والكتابات التي عثر عليها في (قرية الفأو) ذات أهمية كبيرة ، لأنها أول كتابة باللهجات العربية الجنوبية عثر عليها في هذه المواضع ، وتعود الى ما قبل

---

١ كتاب من الدكتور (جورج ماثيوس) تأريخه ٣٠ افسطس ١٩٥٠ م في تعيين وضع المكان . (قرية : موضع في جنوب نجد ، في الطريق بينه وبين نجران ، ويبعد من نجران ٣٤٣ كيلو مترا وعن الافلاج الواقعة في جنوب نجد (٣٨٣) كيلو متر (الافلاج تبعد من الرياض ٢٧٣ كيلو متر) ، ويقع بينها وبين الافلاج العقيق ــ الموقع الذي نكره الهمداني في صفة الجزيرة ، واشار الى وجود جالية اجنبية فيه في العهد القديم تشتغل بالتعدين ، واشار الى معبد منحوت في الصخر في تلك الجهة ، وبلغني ان في الجبال القريبة من (قرية) هذه ــ كتابات ونقوشا وصورا كثيرة . وقد مر بها المستر فلبي ، وتبعد عن العقيق ٩٤ كيلو مترا في جنوبه . ويبعد العقيق عن الافلاج ٢٨٠ كيلو مترا تقريبا) . كتاب من السيد حمد الجاسر تأريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠
(العقيق مدينة فيها مثنا يهودي ، ونخل كثير ، وسيوح وابار) ، صفة ١٥٢ ، البلدان (١٩٨/٦)

٢ The Geographical Journal, CXIII, June, 1949, P., 90, Philby, Sheba's Daughter's, P. 430

٣ تاريخ نجد (ص ٢٨) .

الميلاد . وعثر فيها على مقابر ، وعلى أدوات وقطع فخاريــة ظهر من فحصها أنها تعود الى القرن الثاني قبل الميلاد[1] . ويرى من فحص هذه الآثار أنها تعود الى السبئيين . والظــاهر أن هذا الموضع هو بقايا مدينة قديمة كانت تتحكم في الطريق التجارية التي تخترقها القوافل التي تقصد الخليج الفارسي والعراق من اليمن عن طريق نجران . وفي هذه المنطقة بصورة عامة بقايا مدن تخربت قبل الإسلام.

ورأى (برترام توماس) (Bertram Thomas) أن آبار (العويفرة) القريبة من القرية هي موضع (أوفير) (Ophir) الوارد ذكره في التوراة والذي اشتهر بالذهب ، والطواويس ، وان الاسم العربي القديم هو (عفر) (Ofar) ،وقد تحرف بالنقل الى العبرانية واليونانية ، فصار (Ophir) . وهذا الموضع قريب من مناجم الذهب[2] . وبالجملة إن هذه الأرضين ويبرين ووبار وغيرهـــا ، هي من المناطق التي تستحق الالتفات اليها وتجريد البعثات العلمية للتنقيب فيها ودراسة أحوالها والتطورات التي طرأت عليها .

ويظهر ان هنالك جملة عوامل أثرت في اليمامة وفي أواسط جزيرة العرب ، فحولت أراضيها الى مناطق صحراوية ، على حين أننا نجد في الكتب انها كانت غزيرة المياه ، ذات عيون وآبار ومزارع ومراع .

ومن أودية اليمامة (العرض) (العارض) الذي يخترق اليمامة من أعلاها الى أسفلها . ولما كان من الأودية الخصبة ، كثرت فيها القرى والزروع[3] . وهو واد طويل ، لعله من بقايا مجرى ماء قديم ، و (الفقي) ، في طرف عارض اليمامة ، تحيط به قرى عامرة،تسمى (الوشم)[4] . و (وادي حنيفة) و (عرض شمام)[5] . وفي اليمامة مرتفعات مثل (جبل شهوان) ، تخرج منه عيون ومياه[6] ، و (عارض اليمامة) ، ويبلغ طوله مسيرة أيام ، وتكون عند سفوحه الآبار[7] .

---

١ The Geogr. Jour., Vol., CXIII, June, 1949, P., 92, Sanger, The Arabian Peninsula, P., 139.

٢ The Empty Quarter, P., 177, Bertram Thomas, Arabia Felix, P., 163.

٣ البلدان (١٤٦/٦ فما بعدها) ، (١٢٨/٨) ، صفة ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ويقال له أحيانا عرض حجر .

٤ (الوشم) بالفتح ثم السكون ، البلدان (٤٢٤/٨) ، صفة ١٦٣ .

٥ البلدان (١٤٧/٦) .

٦ البلدان (٣٨٦/٧) .

٧ البلـــدان (٣٨٩/٦) ، (عارض) (عارض اليمامـــة) ، البلـــدان ـــ ٩٣/٦ ـــ (العارض) ، وهبة ٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ومواضع اخرى ، صفة ص ١٦٣ .

وتعد (الأفلاج) من المناطق التي تكثر فيها المياه ، وتصب فيها أودية العارض، وفيها السيوح الجارية والجداول التي تمدها العيون . وقد ذكر (الهمداني) من سيوحه (الرقادى) و (الأطلس) و (نهر محلّم) . قال : ويقال انه في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم[1] . وطبيعي ان يكثر فيها وجود الخرائب العاديـة التي تعود الى ما قبـل الإسلام . وقد وصف الهمداني بعض التحصينات القوية ، فقال عنها : انها من عاديات طسم وجديس ، مثل (حصن مرغم) و (القصر العادي) بالأثل[2] . ويرجع (فلبي) الخراب الذي حل باليمامة الى العوامل الطبيعية ، ومنها فيضان وادي حنيفة[3] .

نجد :

نجد في الكتب العربيـة « اسم للأرض العريقة التي أعلاهـا تهامة واليمن ، وأسفلها العراق والشام »[4] . وحدها ذات عرق من ناحية الحجاز ، ومـا ارتفع عن بطن الرمة ، فهو نجد الى أطراف العراق وبادية السماوة[5] . وليست لنجد في هذه الكتب حدود واضحة دقيقة ، وهي بصورة عامة الهضبة التي تكون قلب الجزيرة ، وقد قيل لها في الانكليزية : (The Heart of Arabia)[6] . وتتخلل الهضبة أودية وتلال ترتفع عن سطح هذه الهضبة بضع مئات من الأقدام، وتتألف حجارتها في الغـالب من صخور كلسية ومن صخور رملية غرانيتيـة في بعض المواضع . وأعلى أراضيها هي أرضو نجد الغربية المحاذية للحجاز ، ثم تأخذ في الانحدار كلما اتجهت نحو الشرق حتى تتصل بالعروض .

وتتألف نجد من الوجهة الطبيعية من مناطق ثلاث :

---

١ صفة ص ١٦٠

٢ صفة ص ١٦٠

٣ Ency., Vol., 4, P., 1155, Philby, The Heart of Arabia, Vol., 2, PP. 81.

٤ البلدان (٢٥٨/٨ فما بعدها) ، الالوسي : محمود شكري ، تاريخ نجد (الطبعة الثانية) ، القاهرة (١٣٤٧ هـ) ، (ص ٧ فما بعدها) .

٥ صفـة ص ٤٨

٦ K. S. Twitchell, Saudi Arabia, P., 6, Stamp, P., 187.

١ ـ منطقة وادي الرمة ، وتتألف أرضوها من طبقات طباشيرية في الشمال وحجارة رملية في الجنوب ، وتغطي وجه الأرض في بعض أقسامها طبقات مختلفة السمك من الرمال ، وتتخللها أرضون خصبة تتوافر فيها المياه على أعماق مختلفة، ولكنها ليست بعيــدة في الجملة عن سطح الأرض ، وتتسرب اليها المياه من المرتفعات التي تشرف عليها وخاصة من جبل شمر[1] ، ومن الحرار الغربيـة التي تجود على الوادي بالميــاه . ويختلف عرض وادي الرمة ، فيبلغ زهاء ميلين في بعض المحلات ، وقــد يضيق فيبلغ عرضه زهاء (٥٠٠) ياردة ، وتصل مياه السيول الى ارتفاع تسع أقدام في بعض الأوقات[2] .

٢ ـ المنطقة الوسطى،وهي هضبة تتألف من تربة طباشيرية، متموجة ، تتخللها أودية تتجه من الشمال الى الجنوب . وبها (جبل طويق)، والأرض عنده مؤلفة من حجارة كلسية،وحجارة رملية ، ويرتفع زهاء (٦٠٠) قدم عن مستوى الهضبة. وتتفرع من جبل طويق عدة أودية تسيل فيها المياه في مواسم الأمطار ، فتصل الى الربع الخالي فتغور في رماله . ويمكن اصلاح قسم كبير من هذه المنطقة ، ولا سيما الأقسام الواقعة عند حافات وادي حنيفة[3] .

٣ ـ المنطقة الجنوبية ، وتتكون من المنحدرات الممتدة بالتدريج من جبــل طويق ومرتفعات المنطقة الوسطى الى الصحارى في اتجاه الجنوب . وفيها مناطق معشبة ذات عيون وآبار ، مثل (الحريق) و (الخرج) ، ويرى الخبراء ان مصدر مياه هذه المنطقة من جبل طويق ومن وادي حنيفة . ومن مناطقها المشهورة (الأفلاج) و (السليل) و (الدواسر)،وفي جنوب هذه المنطقة تقل المياه ، وتظهر الرمال حيث تتصل عندئذ بالأحقاف .

ويقسم علماء العرب نجداً الى قسمين : نجد العالية ، ونجد السافلة . أما العالية فما ولي الحجاز وتهامة[4] . وأما السافلة ، فما ولي العراق . وكانت نجد حتى القرن السادس للميلاد ذات أشجار وغابات ، ولا سيما في (الشربة) جنوب (وادي الرمة) وفي (وجرة)[5] .

---

١ وهبة ص ٦٠

٢ Handbook, Vol., 1, P., 349.

٣ Ency., Vol., 3, P., 894, Handbook, Vol., 1, P., 349.

٤ البلدان (٨/١٠٤) ، تاريخ نجد ص ٨ .

٥ Ency., Vol., 3, P., 895, Philby, The Heart of Arabia, 1, P., 116.

وفي جزيرة العرب وبادية الشام أرضون يمكن أن تكون مورداً عظيماً للماشية بل وللحبوب أيضاً ، لو مسها وابل وهطلت عليها أمطار ، وتوفرت فيها مياه، فإن أرضها الكلسية تساعد كثيراً على تربية الماشية بجميع أنواعها . كما تساعد على الاستيطان فيها ، ولهذا يتحول بعضها الى جنان تخلب الألباب وتسحر النفوس عند هبوط الأمطار عليها ، فتجلب اليها الانسان يسوق معه إبله لتشبع منها . ولكن هذه الجنان لا تعمر ، ويا للأسف ، طويلاً ، فيضطر أصحاب الإبل الى الذهاب الى أرضين أخرى ، والى التنقل من مكان الى مكان ، فصارت حياته حياة تنقل وهي حياة الأعراب .

أما وقد انتهيت من الحديث إجمالاً عن صفة جزيرة العرب وعن حدودها ورسومها العامة ، فلا بد لي من الإشارة الى جزيرة (سقطرى) (سوقطره) من الجزر التي تقابل الساحل العربي الجنوبي ، وهي جزيرة كانت تعادل وزنها ذهباً يوم كان البخور والصبر يعادلان بالذهب[1] . أما اليوم فما زال سكانها يجمعون الصبر والبخور والند ، ولكنهم لا يجدون لحاصلهم السوق القديمة لزوال دولة المعابد والملوك الآلهة ، وحلول عهد الذرة والبترول . وسكانها منذ القدم، خليط من عرب وإفريقيين وهنود ويونان . يتكلمون بلغة خاصة هي من بقايا اختلاط اللغات في هذه الجزيرة ، فيها اللهجات العربية الجنوبية القديمة والمصرية والإفريقية. وهم يعيشون في كهوف ومغاور في الغالب ينالون رزقهم من الطبيعة بغير جهد . وترى في الجزيرة آثار الماضي وقد اختلط بعضه ببعض ، لتداخل الحكم في هذه الجزيرة الثمينة التي هي اليوم في قبضة الانكليز .

والآن وقد وقفت على صفة جزيرة العرب ، وعرفت على سبيل الاجمال معالم وجهها ، وكيف تغلبت الصحراوية ، وظهر الجفاف عليها ، فإن في وسعك أن تكوّن رأياً في سبب قلة نفوس جزيرة العرب في الماضي وفي الحاضر ، وفي سبب عدم نشوء مجتمعات حضرية وحكومات مركزية كبيرة فيها ، وفي سبب تفشي البداوة وغلبة الطبيعة الأعرابية على أهلها وبروز الروح الفردية عند أهلها، وتقاتل القبائل بعضها مع بعض . ونفرة أهلها من الزراعة والحرف واعتدادهم اياها من حرف الوضعاء والرقيق . إن بيئة تحكمت فيها الطبيعة على هذا النحو،

---

[1] جان جاك بيربي : جزيرة العرب (ص ١٩٢ فما بعدها) .

لا يمكن أن يشاكل سكانها سكان المناطق الباردة ذات الأمطار الغزيرة والخضرة الطبيعية الدائمة،أو سكان الأرضين التي حباها الله الخصب والأنهار والماء الغزير . من هنا اختلفت حياة العرب عن حياة غيرهم من الشعوب .

وللسبب المتقدم،أي بسبب تحكم الطبيعة في مصير الانسان ، انحصرت الحضارة في جزيرة العرب في الأماكن المطورة والأماكن التي خرجت فيها المياه الجوفية عيوناً وينابيع ، أو قاربت المياه فيها سطح الأرض ، فأمكن حفر الآبار فيها . في هذه المواضع نبعت الحضارة وأظهر العربي فيها أنه مثل غيره من البشر قادر على الابداع حين تتهيأ له الأحوال المواتية ، وتساعده الطبيعة ، ومن هذه الأماكن نستقي علمنا في العادة عن الجاهليين .

وعلى الرغم من سعة مساحة جزيرة العرب واتساعها ، فإنها لم تتسع لعدد كبير من السكان لأن معظم أرضها صحراوية ، لا تجذب الناس اليها ولا تساعد على ازدياد عدد السكان فيها ازدياداً كبيراً ، غير ان ذلك لا يعني أنها لا يمكن أن تتسع لعدد أكبر من سكانها الحاليين ، وان طاقتها لا يمكنها أن تتحمل هذا العدد أو ضعفه ، بل الواقع هو أن في استطاعة الجزيرة تحمل أضعاف أضعاف هذا العدد ، لو تهيأت لها حكومات حديثة رشيدة ، تأخذ بأساليب العلم الحديث في استنباط مواردها الطبيعية لمصلحة أهلها وفي تحسين الصحة العامة وايجاد موارد رزق للناس ، وضمان الأمن والسلامة لهم ، واسكان الأعراب ، وعمل ما شاكل ذلك من أمور . فإن سكان الجزيرة سيزدادون حتماً،ويبلون أضعاف أضعاف ما هم عليه اليوم .

ونجد بين سكان جزيرة العرب في الوقت الحاضر اختلافاً في الملامح الجسمية. فأهل أعالي نجد هم أقرب في الملامح الى قبائل عرب الأردن وعرب بادية الشام. وأهل الحجاز والسواحل ، يختلفون بصورة عامة عن أهل البواطن ، أي باطن الجزيرة ، في الملامح بسبب اختلاط أهل السواحل بسكان السواحل المقابلة لهم، وامتزاج دمائهم . وقد أجرى بعض الباحثين المحدثين فحوصاً علمية على السكان في مواضع متعددة من جزيرة العرب لمعرفة الملامح البارزة عليهم والأصول التي يرجعون اليها،فوجدوا أن هناك امتزاجاً واضحاً بين السكان يظهر بصورة خاصة في السواحل ، وهو امتزاج يرجع بعضه الى ما قبل الإسلام ويرجع بعض آخر الى الزمن الحاضر[١] .

---

١ Naval, P., 365.

ولم يكن لسان عرب الجاهلية لساناً واحداً ، ولكن كان كما سنرى ألسنة ولهجات . وقد استطعنا بفضل الكتابات الجاهلية أن نقف على بعضها . أما في الزمن الحاضر ، فإن لغة القرآن الكريم هي اللغة المتحكمة الموحدة للألسنة، وهي لغة العلم والأدب والحكومات ، غير أن بعض القبائل لا تزال تحتفظ بلهجاتها القديمة ، وكذلك بعض أهل القرى والأرياف البعيدة عن الحضارة ، فإنها تتكلم بلهجات وألسنة متفرعة من اللهجات العربية الجاهلية ، كما الحال في مواضع من اليمن وفي العربية الجنوبية . ونجد في العربية الجنوبية قبائل تتكلم لهجات غريبة عن عربيتنا مثل اللغة المهرية واللغة الشحرية،واللهجات المسماة بألسنة (أهل المدرة) . وهي لهجات لها صلة باللغات العربية الجنوبية الجاهلية وباللغات الإفريقية[1] .

١ Naval, PP., 374.

الفصل الخامس

طبيعة جزيرة العرب وثرواتها وسكانها

لم تدرس طبيعة أرض جزيرة العرب دراسة علمية مستفيضة شاملة ، بالرغم من قيام الشركات الأجنبية بالبحث ، في أنحاء منها ، عن طبيعة تربتها للتوصل بذلك الى اكتشاف ما في باطنها من ثروات . فأرض جزيرة العرب ، أرض واسعة ، تغطي الرمال أكثر مساحاتها ، فليس من السهل البحث فيها بحثاً علمياً عميقاً عن تركيبها وعن تطورها في كل أنحائها ، لهذا كان علمنا بهذه النواحي من البحث ضحلاً مختصراً في الغالب .

يتألف ثلثا الأقسام الشرقية من أرض المملكة العربية السعودية ، من طبقات رسوبية يقال لها في علم طبقات الأرض (Sedimentry Formation) ، تكون نوعاً من الصخور يتأثر ببعض المؤثرات الأرضية ، فتكون من أحسن الأماكن الملائمة للبترول والفحم . وتتألف هذه الطبقات الرسوبية في الدرجة الأولى من الحجارة الكلسية . وتتكون أرض منطقة آبار البترول عند (الظهران) والمناطق الأخرى التي أصابت شركة البترول العربية السعودية الأمريكية فيها البترول ، من هذا النوع من الصخور[١] .

وتوجد آثار طبقات رسوبية في المناطق الغربية من جزيرة العرب المطلة على

١ Twitchell, Saudi Arabia, P., 8.

البحر الأحمر عنـــد جزر (فرسان)[1] و (جيزان)[2] و (صبيا)[3] و (أملج)[4] و (المويلح)[5] الواقع على مقربة من رأس خليج العقبة ، و (ضبا)[6] ، وحجارة رملية في العلا في القسم الشمالي الغربي من الجزيرة بكميات واسعة ، وحجارة بركانية ولا سيا في مناطق الحرار ،وصخور تكونت بفعل الترسبات المتأثرة بالضغط والحرارة ، وهي التي يقال لها : (Metamorphic Formation) ، وتساعـــد على تكوين المعـــادن . وقـــد وجدت في هذه المنطقة[7] ، خامات المعادن ولكنها لم تستغل حتى الآن استغلالاً تجارياً ، كما أن هذه الخامات والأرضين لم تفحص فحصاً فنياً لمعرفة النسب المعدنية فيها .

وتوجد الصخور الرملية في عسير وفي وادي الدواسر ، وتشاهد في منطقة هذا الوادي تلال تتجه من الشمال الى الجنوب ، تقع الى جنوب (الخماسين) وعلى ارتفاع (٢٢٠٠) قـــدم ، يظهر أنهـــا تكونت من الصخور (الأيولينية) (Aelian Sandstone) ومن حجارة « الكوارتس » الضخمة ، وقـــد حوت مقداراً من (أكاسيد الحديد) أعطت هذه السلسلة لوناً أحمر غامقـــاً . ويتكون فتات هذه الحجارة على هيأة ألواح صلبة ، وعند قطعها يلاحظ أنها تتكون من طبقات ، ويمكن فصلها على أشكال ألواح ، وقـــد تكونت على حافات هذه السلسلة وجوانبها أشكال طبيعية مدهشة أخاذة بتأثير فعل الرياح والرمال فيها .

وتتكون أرض (قرية) من صخور كلسية ، وهناك آبار قديمة تبلغ أعماقها

---

١ وهبة ص ٤٠ ، البلدان (٣٥٩/٦) ، صفة ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٨ ، Twitchell, P., 8, 63.

٢ (ميناء صغير على بعد مئتي ميل من جنوب الجنوب الشرقي للقنفذة ، وهـــي واقعة امام مجموعة جزائر فرسان ، ويحيط بها من جهة الداخل جبل جيزان)، وهبة ص ٤٠ .

٣ البلدان (٣٣٧/٥) ، صفة ٥٤، ٧٣ ، ١٢٠ (صبيا على بعد عشرين ميلا في الداخل وهي الى الجنوب الشرقي من جيزان ، وكانت عاصمة الادراسة) ، وهبة ٤٠ .

٤ (أملج : قرية بها نحو مئة منزل ، بها قلعة صغيرة ، وامامها تقع جزيرة حسان التي من رملها يصنع الزجاج ، بها مزارع ونخيل ، ومنها تمتد طريق في الداخل الى اصطبل عنتر ، احدى محطات سكة حديد الحجاز) ، وهبة ١٥ ، ٢٠ .

٥ قرية وقلعة على بعد ١٥٠ ميلا الى الجنوب من العقبة ، وهبة ١٩ .

٦ الى جنوب المويلح ، المحل الرئيس لقبيلة الحويطات ، اتخذها الاتراك مركز دفاع عن الشاطىء ، وهبة ص ١٩ .

٧ Twitchell, P., 8.

تسعين قدماً ، حفرت في طبقات أرضيـة مؤلفة من حجارة الكلس ، تتخللها طبقات من الحجارة الرملية غير أنها ليست ثخينة[1] . أما أرض (بئر حما) التي يبلغ ارتفاعها زهاء أربعة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وتقـع على الحافات الغربية للربع الخالي ، فإنها مؤلفة من الحجارة الرملية الأيولينية الحمراء ، وعلى مسافة (٣٥) ميلاً الى الجنوب الغربي من (حما) موضع يقال له (بئر الحسينية) فيه بئر يبلغ عمقها (١٢٩) قدماً ، وقد حفرت في أرض فيها طبقات ثخينة من (الغرانيت) . وتتألف أكثر الأرضين التي تمتد من هذا الموضع الى نجران من حجارة (غرانيتية) . وتظهر الحجارة الرمليـة في القسم الجنوبي والغربي من هذه المنطقة التي ترتفع زهاء (١٥٠٠) قدم عن مستوى سطح الوادي الموصل الى نجران ، والذي يرتفع هو نفسه زهاء أربعة آلاف قدم عن سطح البحر. وتتألف مناطق واسعة من اليمن من حجارة رملية ومن الطبقات المترسبة (Sediments)[2].

قلت : إن هنالك مناطق في الحجاز مكونة من طبقات مترسبة تعد من أحسن الصخور والطبقات الأرضية ، ملائمـة للنفط والفحم ، وإن هنالك مناطق فيها صخور بركانية ونارية ، وقد تكوّن أكثرها بعد تغييرات كبيرة وعمليات طويلة من ضغط هذه السلسلة الجبلية الطويلة التي تكون العمود الفقري لجزيرة العرب . وترتفع زهاء (٩٠٠٠ — ١١٠٠٠) قدم عن مستوى سطح البحر في اليمن على ما تحتها من طبقات .

ونجد مناطق واسعة من (اللابات) مبعثرة على طول هذه السلسلة ، منها ما هو حديث التكوين . ويشاهد في الزمن الحاضر لسان بارز من (اللابة) في شرقي (ابي عريش)[3] يمتد حتى يتاخم حدود اليمن، كما نشاهد مناطق أخرى مؤلفة من هذه الحجارة في مواضع عديـدة بين (شقيق)[4] و (خور البرك)[5] مثلاً حيث تصل (اللابة) الى البحر الأحمر فتدخل فيه . وكذلك في شمالي (شقيق) عند (جهمـة) حيث توجد بقايا بركان يكوّن جزيرة في البحر مقابل هذا

---

١ Twitchell, P., 9.

٢ Twitchell, P., 9.

٣ ابو عريش في تهامة على بعد سبعين ميلا شمالي اللحية ، وهبة ٤٠ .

٤ في تهامة ، وهبة ٣٨ .

٥ البـرك ، وهبة ٣٨

الموضع[1] .

وعلى مسافة اثني عشر ميلاً من مكة جبل ، يقال له جبل النورة ، حيث تحرق حجارة الكلس المكونة له ، لاستخراج النورة واستعمالها في البناء[2] . وهذه الحجارة الكلسية هي من الطبقات المترسبة المتحولة . وهناك أماكن أخرى تكونت من هذه الحجارة ، يشاهدها المار من جدّة الى موضع (مهد الذهب) ، الذي تستغل الآن مناجمه ، لاستخراج الذهب ، وتتكون تلال مهد الذهب من الحجارة المترسبة التي تعرضت لتغيرات طبيعية عديدة ، عليها طبقات من حجارة (البازلت) (Basalt) .وفي حجارة المناجم خامات معادن متعددة، وفيها حجارة (الكوارتس) (Quartz)[3] . وتوجد في منطقة الطائف صخور (الغرانيت) ، وفي نهاية هذه السلسلة الجبلية الطويلة التي تنتهي في اليمن تشاهد (لابات) الحرار[4] وبقايا الحرار التي كانت تزعج اليمانيين ،إذ هي قد تقذفهم حممها في يوم من الأيام فتسومهم سوء العذاب .

وفي أرض اليمن عدد كبير من الحرار ، ذكر السياح بعضها ، مثل حرة (أرحب) ، وتقع شمالي (صنعاء) ولها لابة استخرج منها الناس حجارة سوداً لبناء البيوت[5] . وعلى مقربة من (ذمار) تكون الأرض بركانية[6] . وتوجد الحرار في القسم الشمالي من (وادي أبرد)[7]، وفي الوادي بين (صرواح) و (مأرب)[8]. وقد حمل بعض المستشرقين وجود الحرار في اليمن بهذه الكثرة وعلى مقربة من المدن القديمة ، على تفسير هلاك بعض المدن كخراب (مأرب)[9] و (حقة)[10] و (شبوة)[11] بتأثير هياج البراكين .

---

١ Twitchell, P., 10.
٢ Twitchell, P., 10.
٣ Twitchell, P., 10.
٤ Twitchell, P., 10.
٥ H. Scott, In the High Yemen, London, 1947, P., 8, 114. Scott, P., 113.
٦ Scott, P. 113.
٧ Philby, Sheba's Daughter's, P., 389.
٨ المصدر نفسه ص ٣٩٢
٩ كذلك ص ٣٨٩
١٠ Scott, P., 195.
١١ Philby, in Geogr. Journal, 92, PP., 127, August, 1938, Sheba's, 103.

كذلك توجد مناطق حرار في العربية الجنوبية، في عدن[١] وحضرموت وعُمان[٢] وفي الربع الخالي ، وقد استعمل القدماء حجارة البراكين في البناء ، ولا يزال الناس يستعملونها في البناء حتى اليوم ، وقد وجد بين الحجارة المكتوبة عدد من صخور البراكين . وقد استغل الجاهليون بعض الحرار لاستخراج الكبريت منها، وذكر (نيبور) أن أهل اليمن كانوا يستخرجون الكبريت من جبل يقع في شرقي ذمار ، ويظهر أن هذا الجبل بركان قديم[٣] .

وتتكون بعض هضاب اليمن من الصخور المتبلورة التي مرت في أدوار طويلة. ويرى العلماء أنها كانت في الأصل تحت سطح البحر ، ثم ترسبت عليها طبقات ثخينة من المواد الرسوبية حتى تبلورت وتصخرت[٤] . وقد استعملها الجاهليون ولا تزال تستعمل في النوافذ،لتقوم مقام الزجاج . وهناك طبقة طباشيرية وطبقات من صخور رملية غذت المناطق المنخفضة ، وهي تهائم اليمن ، بالرمال. وكذلك المنطقة التي يقال لها الرمل[٥] . وتتكون التربة في تهامة وفي سهل صنعاء من المواد الصلصالية التي تعود الى الأزمنة (الجيولوجية) ، المتأخرة ، ومن المتكونات (الأيولينية) التي حصلت بتأثير فعل الرياح في الصخور الرملية[٦] . ويكثر وجود الصخور المتبلورة في الحجاز وفي العربية الجنوبية كذلك[٧] . وتوجد الصخور والطبقات الرسوبية في اليمن وفي حضرموت وعمان ، وقد وجدت في هذه المناطق علائم وجود البترول .

والسواحل الشرقية لجزيرة العرب ، أي السواحل الواقعة على الخليج ، هي سهول ، ولكنها سهول من الرمال في الغالب ، ولهذا قلّت فيها الزراعة ، إلا في المواضع التي تتوافر فيها المياه الجوفية،وتتفجر عيوناً،مثل الأحساء والقطيف . وهناك سباخ ومستنقعات ناتجة من انخفاض الأرض، جوّها غير صحي .والبترول في القرن العشرين ، هو الذي أغاث أهل هذه الأرض ، وجلب لهم الثراء والمال

١ Stamp, P., 140.
٢ D.G. Hogarth, The Nearer East, P., 97.
٣ Scott, P., 114, 237, Niebuhr, Reisebeschreibung, S., 324.
٤ Scott, PP. 6.
٥ Handbook, Vol., 1, PP., 145.
٦ Scott, P., 8.
٧ In Unknown Arabia, PP., 421, Stamp, P., 109.

Booth, P, 477, . مالك الشرقين الأوسط والأدنى وشعوبها في نظر الكلاسيكيين

الوافر والسيارات الفارهة وآلات التبريد ووسائل الترف والرفاهية ، وبعث فيها الحياة بعد أن كانت خامدة خاملة .

وقد كانت حال هذه السواحل قبل الإسلام أحسن بكثير من حالها في القرن التاسع عشر الى يوم استنباط البترول في القرن العشرين ، بدليل ما نقرؤه في الموارد التأريخية من أسماء مواضع كانت مأهولة ، زالت واندثرت ، وأسماء قبائل كانت تنزل بها ، اضطرتها أحوال قاهرة متعددة متنوعة الى هجرها ، فقلّ عدد سكانها بالتدريج .

وتعد البحرين من أكثف المناطق في جزيرة العرب . فإن نسبة عدد سكانها بالقياس الى مساحة أرضها عالية نسبياً قبل الإسلام وفي الإسلام . وسبب ذلك هو توافر الماء فيها ، واعتمادها على استخراج اللؤلؤ من البحر وعلى صيد السمك الذي يقدم للأهلين المادة الأولى للمعيشة . والماء فيها غير عميق عن سطح الأرض وقد كون عيوناً في بعض الأماكن ولهذه المميزات صارت موطناً للحضر قبل الإسلام بزمن طويل .

وفي جزيرة العرب خامات معادن ، ومن الممكن استغلال بعضها استغلالاً اقتصادياً ، ومن هذه المعادن الذهب . وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء ومواضع عرفت بوجود خام الذهب بها ، مثل موضع (بيشة) أو (بيش) ، وقد كان الناس يجمعون التبر منه ، ويستخلصون منه الذهب[1] . و (ضنكان) ، وكان به معدن غزير من التبر[2] ، والمنطقة التي بين القنفذة و (مرمي حلج)[3] .

ويظهر من المؤلفات اليونانية ومن الكتب العربية أن المنطقة التي بين القنفذة و (عتود) ، كانت معروفة بوجود التبر فيها ، فكان الناس يشتغلون هناك باستخلاص الذهب منه ، ولهذا رأى (موريتس) أن هذه المنطقة هي منطقة (أوفير) (Ophir) التي ورد ذكرها في التوراة على أنها كانت تصدر الذهب[4].

ويشاهد في وادي تثليث على مقربة من (حمضة) وعلى مسافة ١٨٣ ميلاً من

---

١ البلدان (٢/٣٣٣ فما بعدها) ، صفة (١٢٧ ، ٢٥٧) ، المسالك والممالك (١٨٨) ، فؤاد حمزة ، في بلاد عسير (٦١ فما بعدها) ، .Moritz, S., 105

٢ صفة ١٢٠ .

٣ Moritz, S., 110, Glaser, Skizze, S., 29.

٤ Hommel, Grundriss, Vol., 1, S., 13, Moritz, S., 110.

نجران آثار التبر ، ويظهر انه كان من المواضع التي استغلت قديماً لاستخراج الذهب منها[1] . وقد اشتهرت ديار بني سليم بوجود المعادن فيها[2] ، وفي جملتها معدن الذهب ، ويستغل اليوم الموضع الذي يقال له (مهد الذهب) ، ويقع الى الشمال من المدينة باستخراج الذهب منه ، وتقوم بذلك شركة تستعمل الوسائل الحديثة ، تحرّت في مواضع عديدة من الحجاز الذهب والفضة ومعادن أخرى ، فوجدت أماكن عديدة ، استغلت قديماً لاستخراج (التبر) منها،ولكنها تركتها لعدم تمكنها من الحصول على الذهب منها بصورة تجارية ، تأتيها بأرباح حسنة ، واكتفت بتوسيع عملها في (مهد الذهب) ، لأنه من أغزر تلك الأماكن بخام الذهب ، وظلت تنقب به الى أن تركت العمل فيه ، وحلت نفسها ، وتركت كل شغل لها بالتعدين[3] .

وقد ذكر الكتبة اليونان أن الذهب يستخرج في مواضع من جـزيرة العرب خالصاً نقياً ، لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته . قالوا ولهذا قيل له (ابيرون) (Apyron) . وقد ذهب (شرنكر) الى أن العبرانيين أخذوا لفظة (أوفير) من هذه الكلمة[4] .

وقد عثرت الشركة في أثناء بحثها عن الذهب في (مهد الذهب) على أدوات استعملها الأولون قبل الإسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه ، مثل رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح ، وشاهدت آثار القوم في حفر العروق التي تكوّن الذهب، وأمثال ذلك مما يدل على أن هذا المكان كان منجماً للذهب قبل الإسلام بزمن طويل ، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب الى (سليمان) ، فأضيف الى كنوزه ، على نحو ما هو مذكور في التوراة[5] .

---

١ The Middle East, (Royal Inst. of Inter. Affairs), P., 91, (1950), Twitchell, P., 77.

٢ صفة ١١٣ ، ١٥٣ ، ومواضع اخرى

٣ (شركة التعدين السعودية العربية) ، ويشمل امتيازها كل ارض الحجاز ، وتقوم بالبحث عن جمع المعادن ، وقد بحثت في منطقة الطائف ، غير انها لم توسع اعمالها كثيرا ، تأسست سنة ١٩٣٤ م ، ثم صفت اعمالها وتوقفت عن العمل ،
(Saudi Arabian Mining Syndicate, Ltd), Twitchell, P., 146, 157, Sheba's, P., 15, The, Middle East, 1948, P., 248.

٤ Montgomery, Arabia, P., 39.

٥ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 20, 23.

ويظن بعض الباحثين أن منجم (مهد الذهب) هو المنجم الذي كان لبني سُلَيم ، فعرف باسمهم وقيل له : (معدن بني سُلَيم) ، وقد وهبه الرسول الى بلال بن الحارث[1] .

وعرفت (أرض مدين) وما والاها من الأرضين في شمال (وادي الحمض)، بوجود التبر فيها . واستخراج الناس له هناك قبل الميلاد بمئات من السنين . وتوجد آثار المناجم التي كانت تستغل مبعثرة في مواضع عديدة حتى اليوم[2] .

وتوجد خامات معادن أخرى في الحجاز منها الكبريت والنحاس والقصدير والحديد[3] ، وتستخرج الأملاح من الصخور الملحية التي في الحجاز وفي عسير عند جيزان ، ويستخرج الأهلون منها مسحوقاً لاستعماله في عمل المفرقعات[4] كما أن هنالك مثل هذه الصخور المحلية في السلف من اليمن . ويمكن الاستفادة من هذه الأملاح فائدة كبيرة من الوجهة الاقتصادية حيث تدخل في كثير من الصناعات.

وفي منطقة (رابغ) توجد رواسب (البارايت) (Barite) ، وتدل البحوث الأولية على أنه من الممكن استخراج عشرة آلاف طن من (البارايت) في كل عام[5] . وتدل الدلائل على أن هنالك منجماً قديماً في منطقة (رابغ) كان يستغل لاستخراج (الكالينه) (Galena) ، غير أن النماذج التي فحصت فحصاً أولياً دلت على أن هذه المادة قليلة فيها . ويظهر أن هناك كميات كبيرة من تراب الحديد في (العقيق) على مقربة من (مهد الذهب) كما شوهدت خامات المعادن في موضع (برم) جنوب الطائف[6] وفي موضع (نفى)[7]،ولا يستبعد العثور على البترول في الحجاز في المواضع المتكونة من الطبقات المترسبة (Sedimentary Formations) ، وتوجد في الحجاز الرمال التي تصلح لصنع الزجاج[8] .

وتستغل أرض الأحساء في استخراج (البترول)[9] ، ويكثر وجود البترول في

---

١ Naval, P., 517.

٢ Richard Burton, The Arabian Peninsula, P., 17.

٣ Twitchell, P., 162.

٤ Twitchell, P., 163.

٥ Twitchell, P., 164.

٦ المصدر نفسه ص ١٦٤ ، (معدن البرم) ، البلدان (٨/٩٤) .

٧ (نفى) البلدان (٨/٣٠٨) ، Twitchell, P., 164

٨ وهبة ٢٠

٩ The Middle East, (1950), P., 90.

العروض حيث حفرت الآبار في الكويت والبحرين ، وتدل الدلائل على وجوده في قطر وعمان ، كذلك دلت التحريات على وجوده في حضرموت في منطقة (شبوة)[1] ، وفي المناطق وراء شبوة الى داخل جزيرة العرب ، حيث يحتمل العثور على مناجم للذهب كذلك[2] . ويجري البحث عن البترول في محمية (عدن) وفي اليمن .

ودلت التقارير الأولية على وجود الفحم في حضرموت في منطقة (شبوة) ، وتوجد الصخور الملحية مترسبة في بطن طبقات الأرض يقتطعها الأهلون، وتستغل في الأعمال التجارية ، كذلك توجد هذه الصخور الملحية في اليمن ، وقد تكونت بفعل العوامل (الجيولوجية) والضغط المتواصل ، فتحجرت بمرور آلاف السنين عليها ، وتكمن تحت سطح الأرض في بعض الأماكن حيث تحفر جوانب التلال للوصول الى قلب مناجم الملح المتحجرة ، وقد يفتت باستعمال المواد المتفجرة (الديناميت)[3] ، وتستخرج صخوره من بعض المناجم صافية بيضاء كأنها البلور[4] . مثل الملح المستخرج من (جبل الملح) بمأرب ، فإن ملحه كما يقال صاف كالبلور[5] . وتشتهر (السلف) بوجود مناجم ملح فيها ، تقع على مسافة أربعين ميلاً الى الشمال من الحديدة . وتوجد في جزيرة (قمران) المقابلة لهذا الموضع مناجم ملح ، وكذلك في (اللحية)[6] .

والى وجود مثل هذه الصخور الملحية في كثير من أنحاء جزيرة العرب ، يجب أن يعزى ظهور قصص بناء القصور من الملح المنتشرة في كتب التأريخ والأدب .

ولما كانت أرض اليمن وأكثر الأنحاء الأخرى من الجزيرة ، لم تفحص حتى الآن فحصاً فنياً ، ولم تطأها أقدام الخبراء ، فمن الصعب التحدث عن مواطن المعادن فيها ، وعن أنواع التربة ، وأثرها في الحضارة الجاهلية .

وقد وجدت مصنوعات حديد في اليمن ، عثر عليها في الخرائب والآثار

---

١ Sheba's, P., 103.
٢ المصدر نفسه ص ١٩٨
٣ كذلك ص ٩٩ ، ١١٤ .
٤ أيضا ، ص ١١٤ ، ١٢٧
٥ صفة ص ٢٠١
٦ Scott, P., 114, 237.

والأماكن العادية ، كما اشتهرت اليمن بسيوفها ، في الجاهلية وفي الاسلام ، غير أننا لا نعرف الآن المواطن التي كانت تستغل لاستخراج الحديد منها ، وقد ذكر الرحالة « نيبور » انه كان في « صعدة » منجم ، يستخرج منـــه الحديد ، وأن أماكن أخرى كانت تستغل لإنتاج هذه المادة[1] .

وذكر (الهَمْداني) من مـــعادن اليمن الذهب والفضة ، وقال : انه كان يستخرج من (الرضواض) ولا نظير لفضتـه ، والحديد ، وكان يستخرج من (نقم) و (غمدان) و (فصوص البقران) ، وتستخرج من جبل أنس . و (فصوص السعوانية) وتستخرج من (وادي سعوان) جنب صنعاء ، وهو فص أسود فيه عرق أبيض ومعدنه بشهارة وعيشان من بلد حاشد الى جنب هنوم وظليمة والجمش من شرف همدان ، وحجر (العشاري) ، وهو الحجر العشاري من عشار بالقرب من صنعاء ، والبلور،والمسنى الذي تعمل منه أنصاب السكاكين والعقيق الأحمر ، والعقيق الأصفر من الهـــان والجزع الموشى والمسير ، والشزب تعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف وأنصاب سكاكين ومداهن وقحفة وغير ذلك[2] . وعرفت اليمن بعقيقها الذي يقال له (عقيق يماني) و (حجر يمـــاني) وهو (الجزع) (Onyx)[3] .

وقد بقيت بعض المواضع المذكورة تستغل معادنها في الإسلام ، إلا أن تغير الوضع في جزيرة العرب في الإسلام وهجرة كثير من القبائل الى البلاد المفتوحة، ووجود صناعات فيها ومعادن أثمانها أرخص من أثمان معادن الجزيرة ، ثم تقدم العالم بعد ذلك وظهور الثورة الصناعية ، كل هذا وأمثالـه أثر في وضع التعدين وفي صناعة المعـــادن في جزيرة العرب ، فدثرها ، أو تركها مشلولة لا تعمل إلا في حدود مرسومة ضيقة وفي مجال محلي .

وليست دولة الحيوان في جزيرة العرب دولة ضخمة عظيمة ، وكيف تكون ضخمة وأكثر أرض الجزيرة عدو للحيوان ولكل ذي روح ؟ والجمل هو الحيوان الأليف الوحيد الذي استطاع بعناده وبصلابته عـــلى السير بجبروت وبتبختر فوق

---

١ Scott, P., 114, 237.

٢ صفة ص ٢٠٢ فما بعدها .

٣ Scott, P. 237

رمال الصحارى ، غير عابىء بالرياح العاتية التي تذرو الرمال في الأعين ، وتنقل أكواماً منها معها ، تكفي لدفن الجمل ومن عليه أو من معه ومع ذلك فإن هذا الحيوان الصبور العنيد . لم يتوفق أيضاً في تحطيم جبروت البوادي في كل مكان ، فظلّ بعضها أرضاً حراماً عليه وعلى السابلة،تحطم من يريد التجاوز عليها والاعتداء على استقلالها ، بأن تميته عطشاً ، فتفتح ذرات رملها الناعم ، وعندئذ تغوص قوائم الجمل فيها فيبقى في مكانه حتى ينفق .

والجمل ، هو أيضاً من أقدم الحيوانات التي سمعنا بها عند العرب ، وأعزّها. وقد صوّر في النصوص الآشورية ، عند ذكر معركة (قرقر) ومعارك أخرى، وقعت بين العرب والآشوريين . وطبيعي أن يقرن الجمل بالبادية،وأن يجعل رمزاً لها،فليس لحيوان آخر القدرة على اجتياز البوادي واختراقها وتحمل مشقاتها وعطشها مثل الجمل . ثم انه مركب العرب ، يحملهم ، ويحمل تجارتهم وماءهم،وهو يمونهم بالوبر لصنع البيوت حتى قيل للأعراب (أهل الوبر) ومنه يصنعون أكسية عديدة . ولبن الإبل ، هو لبن أهل البادية ، واذا احتاجوا الى لحم ، ذبحوا الجمل ، فأكلوه ، وأفادوا من جلده .

والجمل ثروة ، والثري العربي هو من يملك عدداً كبيراً من الإبل، وتقدر ثروته بقدر ما يملكه منها . وقد كان الجمل مقام (النقد) ، أي مقام الدينار والدرهم في الغالب ، فبعدد من الإبل يقدر مهر الفتاة ، وبعدد من الإبل تفض الديّات والخصومات . وهكذا يتعامل به كما نتعامل اليوم بالنقود .

ويرى العلماء أن الانسان ذلل الجمل حتى صيره أليفاً مطيعاً له في الألف الثانية قبل الميلاد[1] . وقد ذهب بعضهم الى أن العربية الشرقية كانت الموطن الذي ذلّل فيه هذا الحيوان في الشرق الأدنى ، استدلوا على ذلك باطلاق العراقيين القدماء على الجمل اسم (حمار البحر) ، وقالوا إن قصدهم من (البحر) الخليج ، وأن لفظة (الجمل) (جملو) (كَمَلو) في (الأكادية) إنما وردت من بادية الشأم ، ومعظم سكان البادية هم من العرب ، وقد كانوا يستعملون الجمل استعمال الناس للسيارات ولوسائل الركوب في هذا الزمن . وقد استعملوه في الألف

---

١ W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, Baltimore, 1946, PP., 107, 120, Reinhard Waltz, Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, 101, 1951, S., 29, ff., 1954, S., 47. ff., Discoveries, P. 35.

الثانية قبل الميلاد،فدخوله من البوادي الى العراق هو دليل على أن العرب كانوا قد استخدموه أولاً ومنهم انتقل الى العراق والبلاد الأخرى[1] .

ويرى (البريت) أن البداوة الحقيقية على نحو ما نعرفهـا اليوم من السكنى في البوادي والتنقل فيها من مكان الى مكان ، لم تظهر في جزيرة العرب إلا في أواخر النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد ، وذلك بتذليل الانسان للجمل وبترويضه له لخدمة أغراضه ، ففتح له بذلك أبواب البوادي،وتمكن من التوغل فيها واجتيازها بفضل جمله خادمه المطيع . أما ما قبل الجمل، فقد كان العربي لا يستطيع اجتياز البوادي واختراقها لأن حماره الذي كان واسطة الركوب عنده، لا يتحمل ولوج البادية ، ولا يستطيع أن يعيش فيهـا ، وأن يصبر عن شرب الماء أو الأكل صبر الجمل ، لذلك كان عرب الجزيرة في الألف الثانية ، وقبل وقت تذليل الجمل رعاة في الغالب ، وسائط ركوبهم الحمير ، ولم يكونوا قد طرقوا البوادي أو توغلوا فيها توغل العرب أصحاب الوبر فيا بعد[2] .

فالجمل اذن هو الذي فتح لأهل جزيرة العرب آفاق البوادي ، ووسع البداوة عندهم ، حتى جعلها عالماً خاصاً يقابل عالم الحضارة في الجزيرة . وهو الذي صار أهم واسطة لنقل الأموال بالطرق البرية الطويلة التي تربط أجزاء الجزيرة بعضها ببعض،وتربط طرق الجزيرة مع الطرق الخارجية . وبفضل الجمل القادر على تحمل العطش والصبر على الجوع ، وعلى تحمل الصعاب صار في امكان العرب التنقل الى مسافات بعيدة من الجزيرة وحمل أثقاله معه . فاستخدام العرب له هو في الواقع ثورة كبيرة في ذلك العهد بالنسبة الى وسائط النقـل والحمل وفي عالم التجـارة والاقتصاد . ومن حق العربي اذا ما عبّر عن الغنى ان يعبر بكثرة ما عند الانسان من إبل .

وقد عرف الجمل بوجود غريزة الانتقام فيه ، وبعدم نسيانه أذى من يؤذيه، لذلك زعم أنه يبقى حاقداً على المسيء اليه حتى ينتقم منه ولو بعد زمن طويل . ويظن أن لتفسير اشتقاق اسمه دخلاً في ظهور هذه الفكرة ، فقد فسرت لفظة الجمل بأنها من فعل (كَمَلَ) (جَمَلَ) (كامل) (جامـل) ، أي انتقم ، مع أنها تعني (حَمَلَ) أيضاً . وقالوا إن معنى (الجمل) (المنتقم) ،

---

[1] BASOR., Num. 160, 1960, P., 42.

[2] Recoveries, P., 87.

وقالوا إنه سمي بذلك لأنه حيوان منتقم.ومن ثم وصف (أرسطو) و (أريان)، الجمل بأنه حيوان لا ينسى الأذى ، سريع الانتقام . وقد يكون لأقوالها ولأقوال غيرهما في الجمل دخل في تكوّن هذه الفكرة عنه عند الناس حتى اليوم[1] .

الجمل المعروف في جزيرة العرب ، هو الجمل ذو السنام الواحد . وهناك نوع من الجمال يقال للواحد منها (الهجين) ، وهو الجمل المُضرب ، ويكون أصغر حجماً من الجمل العربي الأصيل ، إلاّ أنه أسرع عدواً منه[2] . وقد عدّ الجمل عند العبرانيين من موارد الثروة والغنى كذلك ، ولذلك عدّ (أيوب) من أغنياء زمانه لأنه كان يملك ألفي جمل ، وعد (المديانيون) (أهل مدين) وهم من العرب ، أغنياء ، لأنهم كانوا يملكون عدداً كبيراً من الجمال[3] .

وللجمل في العربية أسماء كثيرة . أما في العبرانية وفي اللغات السامية الأخرى، فلا نجد فيها مثل هذه الكثرة . ويقال للجمل (كمل) و (بكرة) . ويراد بـ (كمل) الجمل . أما (بكرة) فالجمل الصغير . والجمل من أقدم الحيوانات المذكورة في التوراة ، وذكر أنه كان لإبراهيم عدد كبير من الجمال[4] .

وبالرغم من اشتهار جزيرة العرب بجمال خيلها ، وبتربيتها لأحسن الخيل ، وبتصديرها لها . فإن الخيل في جزيرة العرب إنما هي من الحيوانات الهجينة الدخيلة الواردة عليها من الخارج ، ولا ترتقي ايام وصولها الى الجزيرة الى ما قبل الميلاد بكثير . قيل إنها وردت اليها من العراق . ومن بلاد الشام ، أو من مصر[5] ، وإن وطنها الأصلي الأول هو منطقة (بحر قزوين) . ولهذا لا نجد في الكتابات الآشورية ، أو في (العهد القديم) أو في المؤلفات (الكلاسيكية)، اشارات الى تربية الخيل في جزيرة العرب،أو استعمال العرب لها في حلهم وترحالهم وفي حروبهم .

وقد بقي العرب الى ما بعد الميلاد ، بل الى ظهور الإسلام ، لا يملكون عدداً كبيراً من الخيل . وفي غزوات النبي ومعاركه مع المشركين ، كان عدد الخيل التي اشتركت في المعارك محدوداً معدوداً ، مع أنها كانت مهمة جداً وعدة

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٣٣٨/١) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٣٣٩/١)
٣ القضاة ، الاصحاح السابع ، الاية ١٢ .
٤ Hastings, 1, P., 344.
٥ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 77.

حاسمة في احراز النصر . وذلك بسبب قلتها اذ ذاك ، وعدم تمكن كل الناس من اقتنائها ، إلا من كان موسراً منهم،أو في حال حسنة . فقد كانت تكاليف الخيل كثيرة لا يتحملها إلا ذوو الدخل الحسن ، فالخيل في حاجة الى عناية ورعاية،وطعامها للمحافظة على صحتها يكلف باهظاً . فلا بد من تقديم الحشائش والحبوب لها ثم إن مجال استعمالها في البادية محدود لأنها لا تستطيع تحمل جوع الصحراء وعطشها تحمل الجمل ، كما أنها لا تستطيع السير في رمال البوادي المهلكة المتعبة مسافات بعيدة لهذا لم يقبل الأعرابي العادي على شرائها أو تربيتها في تلك الأيام ، فصارت من نصيب أهل اليسر والحال الحسنة ، يمتلكها ويعتني بها من يملك السيارات في هذه الأيام . كثرتها عند الرجل علامة على ثرائه ووجاهته بين الناس .

ونظراً لسرعة الخيل وخفتها في الكر والفر ، صارت أهم سلاح لنجاح الغزو وإلحاق الأذى بالعدو ، يغير عليها المغير فيباغت خصمه بهجوم سريع خاطف ، فيربكه ، ولهذا أخذت القبائل ، ولا سيما القبائل الساكنة في مضارب قريبة من الأرياف ومن الحضر ، تشتري الخيل وتعتني بها للمحافظة على حياتها في الدفاع والهجوم . وعدت القبائل القوية ، هي التي تملك عدداً كبيراً من الخيل ، وصار للفارس مقام خطير في ذلك الزمن ، لشجاعته وصبره في الدفاع عن مواطنيه ، فهو بمثابة (الكومندو) في هذه الأيام[1] .

واستعملت الخيل للتسلية واللهو واللعب ، فتسابق على ظهورها الفرسان في حلبات السباق ، وتراهن الناس على السابق ، ولعب الفرسان بعض الألعاب : ألعاب الفروسية وخرجوا على ظهورها للصيد ، فالصياد الراكب،أقدر من الصياد الراجل على مطاردة الصيد .

وفي القرآن ذكر للخيل كمصدر من مصادر القوة ، يرهب بها المسلمون أعداءهم ومصدر من مصادر الثروة ، ومصدر من مصادر الزينة وبهجة الحياة الدنيا[2] . وفي الحديث ذكر لها كذلك وثناء عليها. وعدت الخيول من الحيوانات

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١٥٥/١ وما بعدها) .

٢ آل عمران ، الاية ١٤ ، الانفال ، الاية ٦٠ ، النحل ، الاية ٨ ، الحشر ، اية ٦ اسراء ، اية٦٤ .

الشريفة الرفيعة في التوراة[١] ، وصورت على شكل خيول من نار فيها، تهبط على أعداء الرب لتنزل بهم الهلاك والدمار[٢] .

أما البغال ، فإنها من الحيوانات المعروفة بتحملها للمشقات ، وقدرتها على السير في المناطق الوعرة ، مثل الهضاب والأرضين المتموجة والجبال . وقد استعملت في الحمل وفي الركوب ،وهي تؤدي خدمات في هذه المناطق يعسر على الجمل القيام بها ، وقد يعجز عنها . أما هي ، فإن من الصعب عليها العمل في البوادي ذات الرمال ، كما أنها لا تستطيع الصبر صبر الجمل على تحمل الجوع والعطش أياماً متوالية عديدة ، لذلك لم يقبل عليها أهل البادية ، ولم يعتنوا بها .

وقد حرم قدماء العبرانيين على أنفسهم تربية البغال ، وأول من أباح ذلك وجوز لهم استعمالها هو (داوود) ، ومنذ ذلك الحين،أقبلوا على تربيتها والاستفادة منها في أرض فلسطين[٣] . ويظهر ان قدماء العبرانيين لم يكونوا يعرفون البغال ، فلما وجدوها عند أمم وثنية غريبة عنهم ، كرهوا استعمالها فحرموها على أنفسهم، حتى انتبه (داوود) لفائدتها ومنافعها ، فاستعملها ، ثم قلده في ذلك بقية العبرانيين بالتدريج .

ويظهر أن البغال لم تكن كثيرة الاستعمال في جزيرة العرب حتى ظهور الإسلام. فقد ورد في كتب السير ان (دلدلاً) ، بغلة النبي ، (أول بغلة رئيت في الإسلام أهداها له المقوقس،وأهدى معها حماراً يقال له عُفير)[٤] . وورد أيضاً : (أهدي لرسول الله،صلى الله عليه وسلم ،بغلة شهباء فهي أول شهباء كانت في الإسلام)[٥] . وورد : (أهدى فروة بن عمرو الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بغلة يقال لها فضة)[٦] .

---

١ ايوب ٣٩، اية ١٩ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١٥٥/٢) .

٢ الملوك الثاني ، الاصحاح الثاني ، الاية ١١ ، قاموس الكتاب المقدس (١٥٦/٢) .

٣ اللاويون ١٩ ، ١٩ ، صموئيل ، ١٣ ، ٢٩ ، ١٨ ، ٩ ، الملوك الاول ، ٣٢١ ، ١٠ ، ٢٥ ، ١٨ ، ٥ ، Hastings, P., 637.

٤ ابن سعد الطبقات (٤٩١/١) (طبعة دار صادر) .

٥ المصدر نفسه

٦ كذلك .

وورد في القرآن الكريم : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... »[1]، مما يدل على أن من الناس من استعمل البغال للركوب وللزينة . وقد كان من الأشراف والوجهاء من يتخذ البغال للركوب في الطـرق الوعرة . أما من هم دونهم في المنزلة ، فكانوا يتخذون الحمير .

وقد ورد في شعر لـ (بشر بن أبي خازم الأسدي) ما يفيـد أن البغال كانت معروفة في بعض المواضع ، وأن أبوالها كانت تترك وقيعاً أي أثراً على الأرض[2] . والظاهر أنه قصد بعض الأرضين الوعـرة التي كان من الصعب على غير البغال السير بها ، وذلك مثل بلاد اليمن التي كانت تستعمل البغال للركوب ولرفع الأثقال .

والحمير هي أول واسطة للركوب وللحمل عند الحضر وأهمها ، هي للحضري مثل الجمال للبدوي ، وهي مركب مريح لا يسبب ازعاجاً ، ولا سيما اذا كان أتاناً ، لأنها أهدأ وآمَنُ من العثار . هذا ، الى أنها صبورٌ تتحمل المشقات ، ولعلّ صبرها وتحملها وسكوتها عند ضربها ، قد حمل كـل الناس على وسمها بالبلادة . فشبّه البليد بالحمار ، فإذا أريد تعبير شخص بالبلادة وعدم الفهم قيل إنه (حمار) . ليس ذلك عند العرب وحدهم ، بـل عند غيرهم من الشعوب القريبة منهم مثل العبرانيين،والبعيدة عنهم . فشهرة الحمار بالبلادة شهرة عالمية[3] . ويقال للحمار (حامور) (Hamor) في العبرانية . أما الأنثى ، فإنها (أتون) (Athon) أي (أتان) في العربية . وأما الحـمار الصغير ، وهو ما يقال له (الكر) أو (الجحش) ، فإنه (عير) (Ayir) في العبرانية[4] .

ويظهر من ملاحظات بعض الباحثين أن الحمار في جزيرة العرب هو أقدم عهداً من الجمل ومن الخيل والبغال ، اذ كان واسطة الركوب والنقل في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد . فلما حل الجمل محله خفف من واجباته وأعماله ، وصار عند العرب في منزلة هي دون منزلة الجمل بكثير .

---

١ النحل ، الاية ٨ .

٢ وقد جاوزن من غمدان ارضا لابـوال البغال بهـا وقيـع
وفي بعض الكتب (عيـدان) في مكان (غمدان) ديوان بشر (ص ١٣٢) .

٣ Hastings, P., 59.

٤ Hastings, P., 59.

والبقر من الحيوانات القديمة في بلاد العرب ، وهي من الحيوانات الملازمة لأهل الحضر في الغالب،ولا سيما لأهل الريف ، أما الأعراب فإن استفادتهم منها غير ممكنة وتكاليفها كثيرة بالنسبة اليهم ، ثم إنها لا تستطيع تحمل طبيعة البادية، لذلك لم يقبلوا عليها ، ولم يعتنوا بتربيتها ، بل ربما نظروا إلى أصحابها نظرة ازدراء وعدم احترام . ويستفاد من ألبانها ومن لحومها وجلودها ، كما يستفاد منها في حرث الأرض ، وفي سحب الماء من الآبار ، وفي جر العربات . وقد عثر على ألواح مكتوبة بالمسند وعليها صور ثيران تقوم بحراثة التربة لتهيئتها للزرع .

والأغنام ، هي المادة الرئيسية لتموين الناس باللحوم والصوف . تربى في كل أنحاء جزيرة العرب ، ويستفاد من ألبانها كذلك . أما (المعز) فيربى في المناطق المتموجة ، أي ذات التلال ، وفي الأرضين الجبلية بصورة خاصة . ويستفاد منها مادة للحوم وللحليب وللجلود ، ويستعمل شعرها للخيام السود المصنوعة من شعرها في تلك الأزمنة[1] . ولكن هذه الأنواع من الماشية،لا تستطيع العيش في البادية ، لذلك كانت من نصيب أهل المدن وحدهم . أما أهل الوبر الضاربون في البادية فإن ماشيتهم الوحيدة الإبل .

وعرفت جزيرة العرب الأسد ، الذي قلّ وجوده فيها في الإسلام ، ويظهر من كثرة أسمائه في اللغة ومن ورود اسمه في الشعر الجاهلي ، أنه كان كثيراً فيها ، وقد اشتهرت أماكن خاصة منها بكثرة أسودها حتى قيل لها (مأسد) والواحدة (مأسدة) . ومن هذه الأماكن (عثّر) ، واليها نسبت (أسود عثّر) ، و (عتود) وهي قرية نسبت اليها الأسود كذلك[2] . وقد عرف الأسد بشدة بطشه وبقوته وبسيادته على سائر مملكة الحيوان في القوة،ولهذا لقبوا الشجاع الذي لا يقهر أسداً .

أما بقية الحيوانات المعروفة باسم الحيوانات الوحشية ، أي التي لم تألف الانسان ، فنها النمر[3] والفهد والثعلب والذئب والقط الوحشي والضبع والبقر

---

١ Hastings, P., 906.

٢ المخصص (٥٩/٨ فما بعدها) ، صفة (٥٤) ،
Moritz, S, 40., f., Noldeke, in, Zdmg, 49, 713, f.

٣ صفة (٢٠٢) .

الوحشي[1] ، أو الرئم والحمار الوحشي ، وقد كان الجاهليون يصطادونه ويأكلونه عند الحاجة ، حتى حرمه الإسلام ، والنعامة[2] والغزال والضَّب ، وله ذنب معقد ، ويأكله الأعراب . والورل والوزغ ، واليربوع ، والقنفذ . ولا تزال مواضع من اليمن والحجاز وحضرموت تحتضن قردة تتيه وحدها على الجبال والمرتفعات ، فخورة بأنها من نسل تلك القرود التي عاشت قبل الإسلام بأمد طويل .

وعرف العقاب والبازي والنسر والصقر والبوم من بين الكواسر التي تنقض على الطيور الضعيفة والهوام فتعيش عليها ، والغراب بأنواعه معروف في جزيرة العرب وله قصص في الأساطير العربية ،ولهذا الطائر قصص في الآداب الأعجمية كذلك ، لها علاقة كما هي عند العرب بالتفاؤل والتشاؤم بصورة خاصة وكان من الحيوانات التي تركت أثراً في أساطير الشعوب القديمة وما برح الناس يتطيرون من نعيبه .
والهدهد المذكور في القرآن الكريم ، من الطيور الجميلة المحبوبة ، وهناك أنواع عديدة من الحمام والعصافير والقطط والعنادل ، وغيرها من الطيور الجميلة ولبعضها أصوات جميلة أخاذة ساحرة ، كما أن لبعضها ألواناً زاهية .

والجراد ، وان كان طعاماً شهياً لكثير من البدو ، بلاء على أهل الحضر بأكل زرعهم ويأتي على ما غرسوه فتحل بهم المجاعة ، ويزيد في قساوة الطبيعة على الانسان . ولذلك عد نقمة توجهها الآلهة على البشر ، وتعبيراً عن الغضب الإلهي على الخارجين على طاعة الآلهة،ولما كان يحدثه من أضرار بالزرع والأثمار والأشجار[3] .

والعقارب ذات أحجام وألوان ، وهي تلدغ من تصيبه فتؤذيه وتؤلمه إيلاماً شديداً ، وهي مثال الحقد واللؤم عند العرب ، فيضرب المثل بطبيعتها ، على عكس الأفاعي والحيّات ، مع أنها مؤذية كذلك ، وقد تميت من تلدغه . والسبب في ذلك أنها أكبر حجماً من العقرب ، وفي استطاعة الإنسان رؤيتها وتجنبها ، ثم إنها لا تقدم على الانسان ولا تلدغه إلا إذا شعرت أنها في وضع

---

١ Moritz, S. 42, Wellhausen, lieder der Hudhailiten, no., 175, 176.
٢ Euting, 1, 230, Moritz, S, 42.
٣ الخروج ، الاصحاح العاشر ، الاية ٤ وما بعدها ، مزامير ، المزمور ٧٨ ، الاية ٤٦ ، ١٠٥ ، الاية ٣٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٢٢/١) .

حرج مخيف بالنسبة اليها . ولهذا ورد في الأمثال : « نحو العقرب لا تقرب ، نحو الحية افرش ونم » ،وزعم أن العقرب عمياء مع أنها ترى مثل سائر الحيوانات. ولكن صغر حجمها ولونها الذي يقرب من لون التراب ، وكثرة وجودها في البيوت ، هي عوامل تجعل الانسان لا يميزها بسهولة ، ولا يشعر بها إلاّ وقدمه عندها أو فوقها ، فتلدغه عندئذ دفاعاً عن نفسها ، كما يفعل أي حيوان آخر باستعمال ما عنده من وسائل الدفاع عن النفس .

وقد تركت الأفاعي والحيّات أثراً كبيراً في القصص العربي.ولما كان بعضها كبير الحجم ، يقفز على من يهاجمه بسرعة خاطفة ، أفزع الناس في البوادي والأودية ، وترك في مخيلاتهم آثاراً باقية لا تنسى . جعلهم يربطون بين الحيات والأفاعي والعفاريت ، وبين الجن « الجان » ، بأن جعلت فصائل منها .

وتعيش في الرمال وفي الغابات وبين الصخور ، فصائل من الحيّات مختلفة الأحجام ، بعضها صغير ، يقفز قفز بعض السمك فوق سطح البحر ، أو الهوام وبعض الحشرات فوق سطح الأرض . فلا يشعر المار إلاّ وأمامه حية قافزة تفزعه وترعبه . وقد طار صيتها وانتشر خبرها خارج حدود جزيرة العرب ، فوصفت بلاد العرب بكثرة الحيات الطائرة ، حتى زعم أن لبعضها أجنحة ، وأنها ذات ألوان متعددة ، وكوّن وجودها قصصاً في مخيلة الآشوريين واليونان والرومان ، نرى أثره فيما ذكره « هيرودتس » و « سترابو » عن تلك الحيات[1] .

وقد فزع جيش (أسرحدون) في أثناء اختراقه البادية من كثرة الثعابين والحيات التي كانت تثور عليهم وتقفز أمامهم كما يقول نص « أسرحدون » . وذكر أن من بينها ثعابين ذات رأسين ، وأن من بينها ما له جناح فيطير . ولما مرّ الجيش بأرض (بوزو) (بازو) (Bozu) (Bazu) ، وجد الأرض مغطاة بالثعابين والعقارب ، وهي في كثرتها مثل الذباب والبعوض[2] . والظاهر أن البوادي كانت منازل طيبة للثعابين . وقد تذمر الاسرائيليون من « الثعابين الطائرة » وفزعوا منها عندما كانوا يقطعون البوادي والفيافي في طريقهم الى

---

١ Herodotus, III, 107, 113, Strabo, XVI, 4, 19, 25.

٢ Rogers, Cuneiform parallels to the Old Testament, P., 359, Luckenbill, II, 209, 229, Montgomery, Arabia and the Bible, PP. 8.

فلسطين[1] . وقد أفزعت السياح المحدثين والمستشرقين ، ومنهم « لورنس » الذي هاله ما رأى من كـثرة الثعابين في الأماكن التي نزل بها وفي جملتها « وادي السرحان[2] » .

والسمك هو من أهم موادّ العيش لسكان سواحل الجزيرة ، يعيشون عليه ويبيعونه لحماً جافاً ويصدرونه الى الأماكن البعيدة ويحملون الطري منه الى الأماكن التي لا تبعد كثيراً عن الساحل . ويجفف ويدق ليكون طعاماً عند الحاجة اليه ، كما يكون طعاماً لحيواناتهم كذلك . ولا يزال سكان السواحل يصيدون السمك بالطرق التي تعوّد أهل الجاهلية استعمالها في السمك . ويأتي سمك (السردين) أي السمك الصغير في مواسم الشتاء الى السواحل بكثرة ، فيصاد بسهولة وتغذى به الحيوانات . وطالمـا تنبعث الروائح الكريهة ويتراكم الذباب بدرجة منفرة من تكدس الأسماك المعرضة للشمس لتجفيفها ، فتكون من شر الأماكن لمن لم يتعود دخولها .

ومن أنواع السمك الكبير الذي يوجد في البحر الأحمر وفي البحـر العربي والخليج ، نوع يقال له (القرش) ، يحتاج صيده الى مهارة وبراعة ، ويحمل لبيع لحمه مقطعاً في الأسواق .

وقد اشتهرت اليمن والطائف في الحجاز ومواضع أهل الحضر الأخرى بدباغة الجلود ومعالجتها لتحويلها الى مادة نافعة لصنع الأحذيـة أو الدلاء أو القُرَب وما شابه ذلك . وقد تصدّر الجلود مدبوغة أو غير مدبوغة ، الى العراق أو إلى بلاد الشام لبيعها هناك .

وليست لدينا في الزمن الحاضر دراسات علمية دقيقة عن أنواع الحيوانات التي عاشت في جزيرة العرب في العصور السحيقة لما قبل الإسلام . فما عثر عليه من بقايا عظام قديم ، أو أصداف ومحّار ، هو قليل لا يكفي لاعطاء أحكام علمية عن حيوانات جزيرة العرب في العصور البرنزية والحديدية والحجرية ، أو ما قبل هذه العصور التأريخية . فليس لنا الا الانتظار ، حتى تأتي الفرص الملائمة التي يقوم فيها العلمـاء المتخصصون بالتجوال في مختلف المناطق بحثاً عن آثار عظـام

---

١ العدد ٢١ الاية ٢٤ وما بعدها ، اشعياء ، ٣٠ ، الاية ٦ .

٢ Colonel Lawrence, Revolt in the Desert, P., 93, G. Jacob, Studien in Arab. Dichtern, Heft, 1, S., 93, Heft, 4, S., 10, Montgomery P. 9.

وهياكل ، تكشف القناع عن ذلك العالم الحي ، الذي عاش في هذه البقاع قبل آلاف السنين .

واذا كان الجمل ، هو رمز جزيرة العرب ، لالتصاقه بها ، فإن النخيل هي رمز آخر لها ، وكناية عن أهم حاصل ومنتوج زراعي تصدره تلك البلاد، ولهذا صارت رمزاً لها . وصار (التمر) ، عند كثير من المسلمين من أهم ما يتناولونه في شهر رمضان ، للافطار به ، لأنه رمز الإسلام ورمز المدينة التي عاش وتوفي فيها الرسول .

وكما أفاد الجمل أهله الفوائد المذكورة المعلومة ، من ناحية حمله ولحمه وجلده ووبره ، كذلك أفادت النخلة سكان جزيرة العرب فوائد عديدة ، حية وميتة ، أفادتهم في تقديم ثمرة صارت إداماً للعرب ، وطباً يستطبون بها لمعالجة عدد من الأمراض . ومادة استخرجوا منها دبساً وخمراً وشراباً ، وأفادهم كل جزء من أجزائها ، حتى أنهم لم يتركوا شيئاً من النخلة يذهب عبثاً . فهي اذن رمز الخير والبركة بكل جدارة وحق لأهل جزيرة العرب ، لا يدانيها في ذلك أي نوع من أنواع النباتات النامية في هذه البلاد .

وكائن له هذه الفوائد والمنفعة ، ينمو ويثمر بسهولة ويسر ، لا بد أن يثمن ويقدر ، ويميز على غيره . ولهذا صارت النخلة سيدة الشجر ، لا عند العرب وحدهم بل عند قدماء الساميين أيضاً ، وأحيطت عندهم بهالة من التقديس والتعظيم[1]. وزخرفت معابدهم بصورها واستعمل سعفها الأخضر في استقبال الأعياد والأبطال والملوك وكبار الضيوف ، لأنه علامة اليُمن والبركة والسعادة والفرح . ولا يزال السعف زينة تزين بها الشوارع في المناسبات العامة المهمة حتى اليوم . وقد عثر على صورها وصور سعفها على النقود القديمة وفي جملتها نقود العبرانيين الذين يحترمون النخلة احتراماً لا يقل عن احترام العرب لها ، ولهذا ورد ذكرها في مواضع عديدة من التوراة والتلمود[2] .

والنخيل ، هي مثل الجمال ثروة ورأس مال يدر على صاحبه ربحاً وافراً . ومن كان له نخل وافر كان غنياً ثرياً . وقد ربح يهود الحجاز أرباحاً طائلة من

---

١ Hastings, P., 675.

٢ اللاويون ، ٢٣ ، ٤٠ ، نحميا ، ١٥،٨ ، المكابيون الاول ، ١٣ ، ٥١ ،
Hastings, P., 675.

اشتغالهم بزراعة النخيل هناك . فالتمر هو مادة ضرورية للأعرابي يعيش عليها ويأتدم بها ، واذ هو لم يكن يفلح ولا يزرع ، كان يشتّريه مقايضة في الغالب من تجار التمور ، فيكسب أصحاب النخيل أرباحاً طائلة من بيعهم التمور . ولا يوجد مكان في جزيرة العرب فيه ماء ، إلا والنخلة هي سيدة المزروعات فيه ، بل تكاد تكون النبات المتفرد بالزرع في أكثر تلك الأمكنة . لا يزاحمها نبات آخر من النبات .

والنخلة هي من أقدم الأشجار التي احتضنها الساميون ، ولعل الفوائد التي حصل الساميون عليها من هذه الشجرة ، هي التي حملتهم على تقديسها وعدّها من الأشجار المقدسة ، فنجد النخلة مقدسة عند قدماء الساميين وعدّوا ثمرها وهو التمر من الثمار المقدسة التي تنفع الناس[1] .

أما الكروم ، فقد غرست في مناطق من الجزيرة اشتهرت وعرفت بها مثل الطائف واليمن . وأما الأشجار المثمرة الأخرى مثل الرمان والتفاح والمشمش وأمثالها ، فقد غرست في مناطق عرفت بالخصب ، وبتوافر الماء فيها ، وبميل أهلها الى الزراعة والاستقرار ، مثل مدينة (الطائف) مصيف أهل مكة منذ الجاهلية ، واليمن . وقد ذكر أن الكروم دخلت الى بعض المناطق حديثاً، فورد أنها دخلت الى (مسقط) مثلاً في القرن السادس عشر للميلاد ، على أيدي البرتغاليين[2] ، ودخلت الى الحجاز في القرن الرابع بعد الميلاد غريبة من بلاد الشام . ويرى بعض الباحثين أن النبط واليهود كانوا الوسطاء في نقل الأشجار المثمرة الى الحجاز[3] .

أما أشجار ضخمة تمد الناس بالخشب على نحو ما نجده في الهند أو في إفريقية، فلجفاف الجزيرة لا نجد فيها مثل تلك الأشجار . لذلك استورد العرب خشب سفنهم ومعابدهم وبيوتهم من الخارج في الغالب ، من إفريقية ومن الهند ، خلا الأمكنة القريبة من الجبال والمرتفعات التي يصيبها المطر ، وتصطدم بها الرطوبة، فقد نبتت فيها أشجار كونت غابات وأيكات ، أفادت من في جوارها ، إذ

---

١ Hastings, P., 675.

٢ جان جاك بيربي ، جزيرة العرب (٢٠٥) ، وفي هذه الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٩٦٠ ببيروت ، اغلاط كثيرة في ضبط الاعلام .

٣ حتى (٢٢) .

أمدتهم بما احتاجوا اليه من خشب لاستعماله في مختلف الأغراض . وقد كانت منطقة (حسمى) وأعالي الحجاز ذات غابات ، وقد تعبّد أهلها لإلـه اسمه (ذو غابة) ، إلـه الغابات ، كما كست الأحراج الطبيعية والغابات جبال اليمن وجبال حضرموت وعمان .

وما زال أهل العروض ولا سيما سكان الخط ، يستوردون أخشاب سفنهم من الهند ، لعدم وجود الخشب الصالح لبناء السفن عندهم أو في أماكن قريبة منهم . وهم في ذلك على سنة أجدادهم الذين عاشوا قبل الإسلام بل قبل الميلاد، يذهبون بسفنهم الشراعية الى سواحل الهند وسيلان تحمل اليها التمور وحاصلات جزيرة العرب والعراق وتعود بهم محملة بحاصلات الهند ومنها الخشب الثمين للاستفادة منه في بناء السفن ولاستعماله في المعابد الضخمة المهمة وفي قصور الملوك .

والسدر من الأشجار المعروفة في جزيرة العرب ، وترتفع شجرته أمتاراً عن سطح الأرض،وتكوّن ظلاً يقي من يجلس تحته لهيب الشمس ووهجها المحرق . وتكون له ساق قوية متينة . وهو لا يحتاج الى سقي دائم ، لأن جذوره تمتد عميقة في باطن الأرض ، فتمتص الرطوبة ، ويعطي ثمراً هو (النبق) ، ويستعمل ورقه استعمال الصابون في تنظيف الجسم .

وأشجار مثل السدر ذات ارتفاع وظل ، وهي أشجار ذات نفع كبير لأهل البلاد التي تغلب عليها طبيعة الجفاف ، لا يمكن أن يقدر أهميتها وفائدتها الا من ركب الصحراء في يوم حار ، ثم جاء فجأة فجلس تحت ظل شجرة تقيه وتقي حيوانه من لهب الشمس ، سيرى نفسه في جنة وسط جهنم . فلا عجب اذا ما عبد بعض العرب وبعض الساميين مثل هذه الأشجار ، وتقربوا اليها بالنذور والقرابين ، وتوسلوا اليها ، أو عدّوها من الأشجار المقدسة ، من الأشجار المباركة ، من أشجار طوبى ، الأشجار التي وعد بها المتقون في الجنة .

وقد عبد قدماء العبرانيين بعض الأشجار المثمرة ، وعدّوها إلاهة أنثى ، لا إلهاً ذكراً ، وذلك لخاصية الحمل التي فيها ، وقد تصوروا أن للقمر أثراً في حمل تلك الأشجار ، أي في اعطاء الثمرة[1] .

---

[1] A Religious Encyclopaedia, or Dictionary of Biblical, Historical, Dactrinal, and Practical, Theology, by Philip Schaff, Vol., 2, P., 916.

وقد ذكرت أسماء بعض الفواكه والأثمار والأشجار في القرآن الكريم ، ويدل ذلك على وجودها في الحجاز ، واستعمال الناس لها ، ووقوفهم عليها، مثل التين والزيتون والأعناب والطلح والسدر والرمان وعلى وجودها وزرعها في الحجاز ، قبل الإسلام بأمد . ولم يكن الحجاز مثل اليمن وحضرموت في كثرة الأشجار والفواكه ، وذلك لجفافه بالقياس الى جو العربية الجنوبية الذي ساعد على نموّ الأشجار .

والأثل والأراك والغضى الذي يستخرج منه الفحم ، والمعروف بجمره ، و (السنط) ، والسمح ، و (الصعتر) ، وأمثالها ، هي من الأشجار التي لا تزال تنمو وتعيش في مواضع متعددة من الجزيرة، وبعضها في الأقسام الغربية والجنوبية حيث تنمو وتنبت على المرتفعات ، يستخرج منها الناس وقوداً ، أو ثمراً برياً يأكلونه ، وقد يستفيدون من ورقه فيجففونه ويسحقونه فيبيعونه .

وأما الحبوب والخضر والبقول ، فتحتاج كلها الى سقي ، لهذا انحصرت زراعتها في الأماكن التي تتوافر فيها المياه أو تتساقط عليها الأمطار في المواسم المناسبة . لذلك نجدها في الحجاز وفي اليمن وفي العربية الجنوبية وفي مواضع المياه من نجد والعروض . والحبوب هي الحنطة والشعير والذرة والأرز،وسأتحدث عنها وعن بقيتها في باب الزراعة عند الجاهليين . وبعض الخضر ، مستورد من الخارج ، أدخل من العراق أو من بلاد الشام أو من إفريقية والهند ، فالبطيخ مثلاً المعروف بـ (الخربز) عند أهل المدينة مستورد كما يدل عليه اسمه الفارسي من العراق : استورد قبل الإسلام بأمد . ويمكن الاستدلال من أسماء الأثمار والخضر ، ومن دراسة توزيعها وأماكن وجودها،على الأماكن التي جاءت منها ، فدخلت جزيرة العرب قبل الإسلام .

أما (البخور) واللبان – بترول العالم في ذلك الزمان – والصموغ والمرّ والمنتوجات الزراعية الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، وكانت مصدر رخائها ، ومصدر تنافس الدول الكبرى عليها في ذلك الزمان ، فقد زالت أهميتها بالتدريج ، وذهب أثر سحرها بتبدل الأيام . و (ظفار) والمناطق الأخرى ، وان كانت لا تزال ترى أشجار البخور تنبت على الفطرة حتى اليوم ، قد زالت دولتها الآن ، فلا تأتي للسكان بالذهب والفضة ، فقد تغير ذوق العالم، وتبدلت تجارته ، وصار يفتش عن الذهب الأسود ، منتوج الطبيعة في باطن الأرض .

وفي هذه المواضع من العربية الجنوبية وفي الأودية وحافات الهضاب والجبال التي كانت تنبت بها تلك المواد الثمينة ، والتي لا تزال تنبت على الطبيعة، تشاهد كهوف ومغاور غريبة وآبار وكتابات جاهلية بالمسند ، وآثار مقابر تتحدث كلها عن قوم كانوا قد استوطنوا هذه الأماكن قبل الإسلام بزمان طويل[1] . أما الآن، فهي خرائب ، ترجو من الأحياء توجيه نظرهم اليها لإحيائها ولاستنطاق آثارها وكنوزها لتحدثهم عن ماضيها القديم .

وقد حبت الطبيعة اليمن بمزية جعلتها تحتضن كل النباتات المذكورة ، وتنبت أكثر أنواع المزروعات ، وذلك بانعامها عليها بجبال وبمرتفعات وبمنخفضات حارة رطبة ، هيأت لها ثلاثة جواء ، تنتج محصولات ثلاثة أنواع من المناخ : منتوج المناخ المرتفع البارد ، ومنتوج المناطق المعتدلة ، ومنتوج المناطق الحارة .

وقد عرف أهل اليمن الأذكياء كيف يستغلون تربتهم ، فعملوا مدارج على سفوح جبالهم وعلى المرتفعات ، أصلحوا تربتها ، وذلك لحصر مياه المطر عند نزوله ، ضماناً لدخوله التربة وإروائها ، وزرعوا تلك المدارج أو السلالم العريضة بمختلف المزروعات وذلك قبل الإسلام بأمد طويل ، فأمنوا بذلك خيراً وافراً لهم ، جعل اليمن من أسعد بلاد جزيرة العرب ، فهي العربية السعيدة والعربية الخضراء بكل جدارة ، وهي موطن الحضارة وأرقى مكان نعرفه في الجزيرة في أيام ما قبل الإسلام .

ومن النبات ما هو دخيل استورد من الخارج،من العراق أو من بلاد الشام ، وقد احتفظ قسم منه باسمه الأعجمي القديم . ويظهر أن بعضه قد دخل بعد الميلاد . وقد يكون من المفيد دراسة نبات جزيرة العرب قبل الإسلام ، لمعرفة الدخيل منه وكيفية وصوله الى الجزيرة ، كما يستحسن دراسة الكتابات الجاهلية لاستخراج ما ورد فيها من أسماء النبات .

وأما البوادي فإن ظروف الخصب والنماء فيها محدودة ، تركزت في مواضع المياه وفي الأماكن الرطبة التي تكون المياه الجوفية فيها على حافة القشرة ، وفي أعقاب الأمطار ، حيث تخضر الأرض وتلبس حلة خضراء سندسية جميلة، لكن لبسها لا يدوم طويلاً ، فسرعان ما تمزقها الرياح الجافة والأهوية الحارة،فتقضي

---

[1] Sanger, The Arabian Peninsula, P., 126.

عليها وتظهر حقيقة ما تحتها من تربة جافة عبوس،لا مكان للنبات فيها ولا مجال لزرع فيها في مثل هذه الظروف .

والواحات ومواضع الآبار والمياه في البوادي ، هي رحمة للانسان حقاً، ومنظر تقرّ به العين . فالواحة في البادية ، لؤلؤة وكنز وجنة وسط جحيم ، لا يدرك جمالها ولا يعرف قدرها إلا من اضطر إلى ركوب البوادي وتعرض لرياح السموم ووهج الشمس وعواصف الرمال تستقبل الأوجه بذرات الرمل الناعمة ، تهاجم العيون والأنوف والأفواه،وتضطر حتى الجمل الى البطء في سيره والى التوقف ، ثم تأتي على ما لدى الإنسان من ماء حرص على حمل أكبر كمية يستطيع حملها للوصول الى مكانه المقصود لضمان حياته في هذه البادية وحياة حيوانه الذي هو فيها جزء من حياته أيضاً . ولولا الآبار والواحات في هذه البوادي ، لما كان من الممكن طرقها وسلوكها ، وإلا كان الدمار والهلاك .

وفي هذه المواضع التي حبتها الطبيعة بـ (إكسير الحياة) يستعيد المسافر نشاطه ويتجدد أمله ، ويسترد قواه ، يعطيه ماؤها قوة تعيد اليه كبرياءه وعظمته وجبروته ، ثم تنسيه كل ما تعرض له من مصاعب ومشقات ، وما أبداه من عجز وضعف تجاه القوى الخفية القادرة المهيمنة على الصحراء . وعندئذ يتذكر حكمة : « وجعلنا من الماء كل شيء حي »[1] . ويشعر بسحر الماء والخضراء ، بسحر هذه الأشجار والشجيرات والأعشاب النامية في هذه التربة بفضل (إكسير الحياة) . ومهما كان الانسان في هذا المكان من السذاجة والبلادة والجهل ، فلا بد أن يستولي عليه شعور من حيث لا يشعر بعظمة سحر هذا المكان .

أما الغرباء الذين يعجبون من تقاتل العرب فيما بينهم على موضع صغير فيه بئر أو بركة ماء أو عشب ، فإنهم سيدركون سر هذا التقاتل في حياة أهل البادية لو كلفوا أنفسهم يوماً اجتياز تلك البوادي الواسعة العابسة . عندئذ فقط، يدركون أن ذلك القتال الذي وسم أهل الباديه بسمة حب الغزو والغارات لم يكن سببه فردية وأنانية ، وإنما غريزة انسانية تنبت في كل انسان متى عاش في هذه الظروف القاسية العابسة الفقيرة . إنها غريزة المحافظة على الحياة .

ولا غرابة بعدُ اذا ما تغنى العربي بمواضع المياه والبادية بعد نزول الغيث

---

١ الانبياء ، الاية ٣٠ .

عليها ، واذا ما أظهر الحنين اليها ، وتوجع في شعره وفي غنائه على الليالي المقمرة يقضيها في باديته يناجي سماءه الصافية ونور قمره الساطع يغازله ويوحي اليه ، ويرسل اليه النسمات العليلة ، والى جانبه حبيبته . يذكر حسه هذا في شعره وفي غنائه وفي موسيقاه ، حتى ليبدو للغريب ، وكأن ما يقوله العربي ويحس به نغمة واحدة ساذجة مكررة تعاد وتعاد من غير معنى ولا سبب . ولكن حسه هذا حس الصحراء ، وليس في الصحراء غير نغم واحد ، تترنم به الطبيعة ، فإما هدوء شامل ، وإما نسمة واحدة عليلة مستمرة ، وإما عواصف رملية ، اذا هدأت عاد الى الصحراء هدوؤها المعهود .

ومناخ جزيرة العرب – على العموم – حار شديد الحرارة ، جاف ، إلا على السواحل ، ولا سيما في التهائم ، فإن الرطوبة تكون عالية فيها،ولهذا يتضايق الناس من أثر الحر فيهم ، مع أن الحرارة ذاتها فيها لا تكون عالية كثيراً ، وانما مبعث هذا التضايق هو من الرطوبة المصحوبة بالحرارة ، ولهذا صار بعض مواضع التهائم من شر الأمكنة على وجه هذه الأرض .

ولهذا الجو الرطب الحار أثر في حالة الناس ، في صحتهم وفي نشاطهم . فانتشرت الأمراض في الأماكن التي تكثر فيها السباخ والمستنقعات ، وفتكت بالناس ، وتكدس فيها الذباب وتجمعت الحشرات لملاءمة مثل هذه الأجواء لمعيشة هذه المخلوقات .

ولهذا السبب المذكور ، عاشت في هذه الأرضين ونمت النباتات التي تألف المناطق الحارة الرطبة ، والأعشاب التي تعيش على المستنقعات وفي الأرض الرطبة، من حشائش وقصب وأعشاب .

أما في الداخل ، فإن الحرارة فيها تكون جافة ، ولهذا فإنها لا تكون حديدة الطبع ، على نحو حر السواحل . ويتلطف الجو في الليالي في النجاد ، فيكون الليل رحمة للناس ينسيهم قسوة النهار وشدة حرارته ، وفقر الحياة ، لا سيما إذا كمل القمر ، وصار قرصاً يسحر الناظرين . فإن سحره يكون عاماً ، يشمل الغني والفقير ، ويبعث في النفوس الرقة والحنان ، ويثير فيها عواطف الشجن المنبعثة من قسوة الحياة وشحها وفقر الأرض ، فتأخذ النفوس الرقيقة في مناجاته بقيثارة بسيطة ذات ثقوب ، ينفخ فيها لتخرج منها أصواتاً تسمع القمر فعل سحره في نفس الانسان المعذب في النهار المحروم من طيب الحياة التي ينعم بها

أهل الأرضين الآخرون ، أو بآلات بسيطة أخرى صنعوها بأيديهم لتعبر أناملهم وأوتار آلاتهم الساذجة عن إحساسهم الحزين،ثم لا يكتفي أصحاب هذه النفوس الرقيقة في الغالب بإرسال نغمات الحس العميق من آلة ، بل يقرنون تلك النغمات الحزينة بنغمات بشرية تنطق بما في قلب الإنسان من حس وألم دفين ، يوحيه اليه ألم الحرمان ، ودغدغة النسيم العليل ، وسحر القمر وتلألؤ مصابيح السماء . فتخرج نغمات شجية حزينة ، تعاد وتكرر ،لتسبح السماء على هذا الجمال الساحر ، ولتفسر للسامع نوع الحياة في هذه البقاع التي وهبتها الطبيعة عاطفة عميقة ، وسحراً فاتناً في الليل ، وحرمتها خيرات الدنيا في أثناء النهار ، ولتخبره بهذه النغمات المعادة أن الحياة هنا بسيطة لا تعقيد فيها ولا التواء وأنها معدودة محدودة، وعودة وتكرار .

وقد يعجب الغريب من تغزل العرب بـ (ريح الصبا) ، ومن مدحهم لها الى حد بلغ الإفراط ، فليس في أشعار العالم ، ولا في نثرهم ، شعر أو نثر فيه هذا القدر من التغزل بريح من الرياح . وقد لا يفهم الغريب أي تعليل يقدم اليه ولا يقبله ، وخير جواب يقدم اليه هو حضوره بنفسه الى جزيرة العرب للاستمتاع بلذة (الصبا) في ليلة مقمرة من ليالي الجزيرة ، وسيعرف عندئذ سحر دلال (الصبا) وسحر تغزل العرب بها ، على عكس (السموم) ، التي تشوي الوجوه ، وتعمي العيون ، فتجعل الشعراء يلعنونها ، والناس يتذاكرون ثقلها وشدتها عليهم وما ألحقته بهم من مهالك وأضرار .

والمطر هو غوث ورحمة لسكان جزيرة العرب ، يبعث الحياة للأرض ، فتنبت العشب والكلأ والكمأة والأزهار ، ويحول وجهها العابس الكئيب الى وجه مشرق ضحوك ، فيفرح الناس وتفرح معهم ماشيتهم ، ويخرج أهل الحضر الى البادية للتمتع برؤية البساط الأخضر المطرز بالأزهار ، وللاستمتاع بالمنظر الساحر الذي كسا الربيع به وجوه البوادي ، ولصيد الغزلان والحيوانات الأخرى التي جاءت هي أيضاً من مآويها لتشارك الطبيعة في فرحتها ، ولتشبع نفسها بعد جوع وعطش. وتفرح الإبل ، ويدر لبنها ، ويكثر نسلها ، وتتضاعف بذلك ثروة أصحابها ، ويسير الجمل متبختراً فخوراً بنفسه معتزاً ، بطراً لا يقضم منها إلا ما يعتقد أنه طعام لذيذ له ، يقضم من موضع ثم يتركه بطراً الى موضع آخر ، وقد كان قبل ذلك من جوعه يأكل كل ما يقع بصره عليه ويراه . أفليس من حق العرب

اذن أن تسمي المطر (غيثاً) ؟ وأن تفزع وتتوجع من انحباسه ، وأن تفزع الى آلهتها تتوسل اليها لإرسال سحب المطر اليها ، وتتقرب اليها بالدعاء وبصلوات (الاستسقاء) و (الاستمطار) ، لترسل اليها غيثاً يغيثها ويفرج كربتها يدرأ عنها مصيبة تنزل بها إن انحبس المطر ؟ لذلك كان انحباس (الغيث) عند العرب كارثة يتألم منها الناس ، ويكابد من فداحتها الحيوان .

والجفاف هو الصفة الغالبة على جوّ جزيرة العرب ، فالأمطار قليلة والرطوبة منخفضة في الداخل إلا التهائم والسواحل ، فإنها ترتفع فيها كما ذكرنا . ولكن الطبيعة رأفت بحال بعض المناطق ، فجعلت لها مواسم تنزل فيها الغيث ، لإغاثة كل حي ، وأهمهـا اليمن . أما عمان ، فينزل فيها مقدار منه ، ينفع الناس ويعينهم على تصريف أمورهم . وأما باقي الأقسام ، فإن أكثرها حظوة ونصيباً من المطر ، هي النفود الشمالي ، وجبل شمر ، فتنزل بها الأمطار في الشتاء ، فتنبت أعشاب الربيع . وأما الصحارى الجنوبية فلا يصيبها من المطر إلا رذاذ ، وقد تبخل الطبيعة عليها حتّى بهذا الرذاذ[1] .

وينهمر المطر أحياناً من السماء وكأنه أفواه قرب قد تفتحت ، فيكوّن سيولاً عارمة جارفة تكتسح كل ما تراه أمامها ، وتسيل إلى الأودية فتحولها إلى أنهار سريعة الجريان . وقـد لاقت (مكة) من السيول مصاعب كثيرة ، وكذلك المدينة والمواضع الأخرى[2] وقد يهلك فيها خلق من الناس ، وتسيل مياه السيول الى مسافات حتّى تصب في البحر ، وقد تبتلعها الرمال فتغوص فيها وتجري في باطن الأرض مكونة مجاري جوفية ، تقترب وتبتعد عن قشرة الأرض على حسب قربها أو بعدها منها ، وعلى حسب قرارة المكان الذي تسيل عليه . وقـد تبلغ البحر فتدفق عيوناً في قاعه ، كالذي نشاهده في الخليج بين الساحل والبحرين .

وقد استفاد أهل اليمن بصورة خاصة وأهل حضرموت والحجـاز من السيول بأن بنوا سدوداً للسيطرة عليهـا ، ولحبسها الى حين الحاجة . وسد (مأرب) الشهير هو خير تلك السدود شهرة وصيتاً ، وقد غذى بإكسير الحيـاة مساحات واسعة من أرض سبأ . وقد وجد السياح آثار سدود قديمة في نواحي من الحجاز ونجد والعربية الجنوبية تعود الى ما قبل الإسلام ، بنيت في مواضع ممتازة تصلح

---

١ حافظ وهبة : جزيرة العرب (٦) .
٢ البلاذري ، فتوح البلدان (٥٣ فما بعدها) ، الازرقي ، تاريخ مكة .

جيداً لمنع مياه السيول من الذهاب عبثاً ، حتى إن المهندسين المحدثين رأوا انشاء سدود جديدة في هذه الأمكنة للاستفادة من مياه السيول لإحياء أرضين موات في الزمان الحاضر ، يمكن قلبها الى مزارع وجنان خضر .

إن أرض اليمن التي صادقتها الطبيعة فأحسنت اليها ووهبتها هبات تحسدها المناطق الأخرى عليها ، وهبتها أمطاراً موسمية ووهبتها جواً حاراً رطباً في تهامة

منظر يمثل المدرجات المقامة على الجبال والتلال لزراعتها
من كتاب « Jemen, das VerboteneLand » لمؤلفه Guenther Pawelke (الصفحة ٥٦)

اليمن ، وجواً معتدلاً في المرتفعات ، وجواً لطيفاً في الجبال ، ووهبتها نباتات كثيرة تناسب تنوع هوائها وحيوانات عديدة كثيرة ، ومعادن متنوعة ، هي

أرض ذات حظ كذلك بعدد سكانها ، فإنها حتى اليوم من أكثف مناطق جزيرة العرب وأكثرها سكاناً . وسكانها ثروة مهمة ومصنع غذى بلاد العرب والبلاد الإسلامية بموجات من القبائل ، نشرت الإسلام والثقافة العربية في البلاد المفتوحة ، كما أنه موّن العراق وبلاد الشام في الجاهلية بقبائل ، استوطنت هناك ، فكوّنت حكومات مثل حكومة الحيرة وحكومة الغساسنة ، ونسب المناذرة ونسب الغساسنة يرجع الى اليمن . ولا تزال اليمن تقذف بالألوف من أبنائها كل عام ، تقذفهم في شتى الأنحاء إلى سواحل إفريقية المقابلة ، حتى بلغ بعضهم الولايات المتحدة وانكلترة ، فكوّنوا فيها جاليات يمانية . ويعيش اليوم زُهاء مليون يماني خارج اليمن ، هاجروا من بلادهم لظروف مختلفة لا مجال للبحث فيها في هذا المكان . وقد سبقهم أجدادهم قبل الإسلام ، فطفروا حدود جزيرة العرب وذهبوا الى مصر والى بعض جزر اليونان .

ويعد سكان « الجبل الأخضر » سعداء حقاً بالقياس الى سكان جزيرة العرب الساكنين في العربية الشرقية أو في البوادي الواقعة في جنوب المملكة العربية السعودية ، فإن الغيوم المثقلة بالأبخرة تصطدم بمرتفعات هذا الجبل فتضطر الى تفريغ شحنتها عليه . ولهذا توافرت المياه فيها ، فاستغلها السكان وزرعوا عليها . وصارت الأودية من مواطن الحضارة القديمة التي تعود الى ما قبل الإسلام بزمان طويل ، كما صارت سفوح الجبال والمرتفعات موارد رزق للزرّاع ، يستهلكون من الحاصل ما يحتاجون اليه ، ويصدرون الباقي لمن يحتاج اليه من أهل بقية جزيرة العرب . وما زال أهل البلاد يزرعون على سنة آبائهم وأجدادهم الأقدمين . وقد شاهد السياح آثار سدود في هذه المناطق شيدها الأقدمون للتحكم في الأمطار التي تسقط بغزارة وتجري سيولاً .

وفي مثل هذه الأمكنة نجد كتابات دوّنها أصحابها شكراً لآلهتهم على إنعامها عليهم بالغلة الوافرة وبالحصاد الغزير ، أو لانعامها عليهم بأرض مخصبة ولمساعدتها إيّاهم على حفر بئر زودتهم بماء للسقي وللزرع ، ووجود هذه الكتابات دليل ناطق على وجود الحضارة فيها في تلك الأيام .

أما مواطن الحضارة ، فقد وزعتها الطبيعة بيدها ، وما برح هذا التوزيع معترفاً به . وزعتها عليها توزيعها للنبات والمعادن والماء . ففي المحلات ذوات الحظ التي أحبها الماء ، فظهر فيها واحات وعيوناً واحساءً أو رطوبات أو

نهيرات أو مطراً موسمياً ، ظهر الاستقرار ، وتولدت الحضارة على قدر إسعاف الماء ومقدار إستعداده لوضع نفسه في خدمة الأهلين وفي خدمة حيواناتهم وزراعتهم لا فرق بين أن يكون الماء في باطن الجزيرة أو في الأدية أو في السواحل ، ولو أن لموقعه دخلاً في ازدياد ثروة أصحابه وفي تمكينهم من الاتصال بالخارج ، فتنفتح عندئذ لهم أبواب العالم ، كأن يكون الموضع على طريق ، أو على مفترق طرق ، أو على ساحل أو مرفأ بحري ، أو على مقربة من بلد متحضر مثل العراق أو بلاد الشام . أما إذا كان واحة منعزلة ومحلاً نائياً ، فإن الحضارة لا يمكن أن تظهر بالطبع فيه ظهورها في الأماكن المذكورة .

ومن هنا نرى الحضارة والإستقرار والميل الى الاستقرار في بلاد اليمن وحضرموت أظهر وأبرز من أي مكان آخر ، نرى فيها حكومات بالمعنى المفهوم من الحكومة قبل الميلاد بأمد طويل ، ونرى فيها مدناً عامرة مسوّرة لها حصون وقلاع وتنظيمات وتشكيلات حكومية ، ونرى فيها مؤسسات دينية ترعى المسائل الروحية والروابط التي تربط بين البشر وخالقهم ، ونرى أنظمة وقوانين مكتوبة وسدوداً وأبنية عالية مرتفعة وفناً ما زالت جذوره ومظاهره خالدة باقية في دم الناس . ثم نرى مثل ذلك أو قريباً منه في أعالي الحجاز وفي الأرضين الداخلة في هذا اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية . أما الواحات والعيون والآبار ، فقد صارت مستوطنات لتموين المستقر والقادم بالماء والتمر وبشيء من الحبوب والخضر ، واذا كانت على طريق صارت مأوى للقوافل ، ولهذا لم يكن من الممكن قيام حكومات كبيرة بها ، لعدم توفر الشروط اللازمة لإنشاء الحكومات الكبيرة بها ، واضطرت إلى توثيق علاقاتها بأهل البادية ، وإلى الارتباط بهم بروابط العهود والمواثيق ودفع الإتاوة لمنعهم من التعرض لهم بسوء .

فالحياة في جزيرة العرب ، هي هبة الماء ، ولهذا انحصرت في هذه الأماكن المذكورة ، وصار فرضاً على رجال القوافل وأصحاب التجارات المرور بها ، وهو أي الماء ، الذي رسم لأصحاب الجمال خطوط سيرهم إلى المواضع التي يريدون السير اليها ، وحدد لهم معالم الطرق . وأقام لهم أماكن الراحة ، وما زال الأعراب والتجار يسلكون تلك الطرق ، للوصول إلى الأماكن النائية بالوسائل القديمة التي استعملها سكان الجزيرة قبل الإسلام ، وبالمركب القديم ، بطوله وبعرضه وهو الجمل . ولكن وسائط النقل الحديثة التي نافسته وأحالته مكرهاً على التقاعد

واضطرته الى الانسحاب من بعض الطرق ، لا تزال تطارده وتنافسه في الطرق الأخرى ، وعندئذ لا بد من حدوث مشكلات بالنسبة الى تربية هذا الحيوان الصحراوي القديم الذي أخلص للبادية ، وبقي على اخلاصه لها ، ولكن الأمر ليس بيد البادية ، وانما هو بأيدي قاهر البوادي والأرضين والجواء ، السيد الإنسان .

أما السواحل ، فخلقت من سكانها رجال بحر ،يحبّون ركوب البحر واستخراج ما فيه للتعيش به ولبيعه وتصريفه في الأسواق ، كما جعلتهم أصحاب ضيافة ، يقدمون الماء وما عندهم من طعام الى السفن القادمة اليهم ، ويعرضون ما عندهم من سلع فائضة لبيعها لهم ، ويشترون من أصحاب تلك السفن ما عندهم من بضاعة نافعة ، فتحولت الى أسواق للبيع والشراء،المتعاملون بها مزيج من القادمين اليها من أنحاء الجزيرة ومن الوافدين الأجانب القادمين اليها من الخارج ، وقد اجتذبت هذه الأمكنة اليها الغرباء ، فسكنوا بها ، واختلطوا بسكانها ، وتولدت بها أجيال مختلطة ممتزجة الدماء ، كلما كانت قريبة من ساحل مقابل، كان مظهر الإختلاط والامتزاج أظهر وأكثر ، ولهذا احتضنت تهامة والسواحل العربية الجنوبية عدداً كبيراً من الإفريقيين ، هاجروا اليها من السواحل الإفريقية المقابلة واستقروا فيها بكثرة ، واختلطوا بأصحاب البلاد الأصليين . أما سواحل عمان والخليج ، فقد اجتذبت اليها الهنود والفرس ، وقد عثر في مواضع من سواحل عمان على بقايا عظام بشرية اتضح انها من بقايا الهنود (الدراوديين) ، سكان الهند القدماء . ولم ينس البحارة وأصحاب السفن اليونان سواحل جزيرة العرب،فأقاموا مستعمرات يونانية في مواضع متعددة منها سيأتي الكلام عليها فيما بعد .

وقذفت الطبيعة بالأعراب في كل مكان من أمكنة الجزيرة، حتى زاد عددهم على الحضر . والصفة الغالبة عليهم ، أنهم لا يرتبطون بالأرض ارتباط المزارع بأرضه ، ولا يستقرون في مكان إلا إذا وجدوا فيه الكلأ والماء،فإذا جفّ الكلأ وقلّ الماء ، ارتحلوا إلى مواضع جديدة . وهكذا حياتهم حياة تنقل وعدم استقرار ، لا يحترفون الحرف على شاكلة أهل الحضر ، ولذلك صارت حياتهم حياة قاسية،يتمثل مجتمعهم في القبيلة . فالقبيلة هي الحكومة والقومية في نظر البدوي .

وإن حياة على هذا الشكل والطراز ، حياة لا تعرف الراحة والاستقرار ، ولا تعترف إلا بمنطق القوة . حياة جلبت المشقة لأصحابها ، والمشقة لمن يقيم على

مقربة منهم من الحضر . فهم في نزاع دائم فيما بينهم ، ثم هم في نزاع مع الحضر ، ولهذا كان خطر البداوة على العرب، يوازي خطر الغرباء البعداء عليهم، وصارت البداوة مشكلة عويصة لكل حكومة ، ولا تزال مشكلة حتى اليوم. ولن تحل إلا باقناع الأعراب بأن حياة الإستقرار خير لهـم وأفضل من حياتهم التي يحيونها ، وذلك بوسائل لا يدخل الكلام عليها في حيز هذا الكتاب .

الطرق البرية :

من نتائج غلبة الطبيعة الصحراوية على أرض جزيرة العرب ، أن انحصر امتداد شرايين المواصلات فيها في أماكن خططتها الطبيعة نفسها للإنسان ، فجعلتها تسير بمحاذاة الأودية ومواضع المياه والآبار ، وهي السبل الوحيدة التي يستطيع المسافر ورجال القوافل أن يستريحوا في مواضع منها ويحملوا منها الماء . وتنتهي رؤوس هذه الطرق بالعراق وببلاد الشام في الشمال وبالعربية الجنوبية وبموانئها في الجنوب، وهناك طرق أخرى امتدت من العربية الشرقية الى العربية الغربية ، ولها مراكز اتصال بالطرق الطولية الممتدة من الشمال الى الجنوب في الغالب . وقد أقيمت في مواضع من هذه الطرق مواضع سكنى ذات ميـاه من عيون أو آبار ، عاشت ونمت بفضل منة مائها عليها ، فصارت منـازل مريحة لرجال القوافل يحمدون آلهتهم عليها ، ويحمد أصحاب ذلك الماء آلهتهم على منتها عليهم باعطائهم ذلك الكنز العظيم الذي أعانهم على العيش وجلب لهم كرم التجار .

وفي العقد الحساسة من هذه الطرق نشأت المستوطنات، ومواطن السكنى القديمة انتشرت في أماكن متباعد بعضها عن بعض في الغالب ، فكان لهذا التوزيع أثر كبير في الحياة الاجتماعية والحياة السياسية والعسكرية ، ولا شك . ومـا الطرق الحالية التي يسلكها الناس اليوم إلا بقية من بقايا تلك الطرق القديمة التي ربطت أجزاء الجزيرة بعضهـا ببعض ، كما ربطت الجزيرة بالعالم الخارجي . ونجد في مخلفات تلك المستوطنات مواد مستوردة من مواضع بعيدة ، هي دليل بالطبع على أن الانسان كان يقطع الطرق قبل الميلاد بمئات من السنين ليتاجر ويبيع ويشتري دون أن يبالي ببعد المسافة وطول الشقة وصعوبة الحصول على وسائل النقل وما يتعرض له ، وهو في طريقه الى هدفه ، من مخاطر وأهوال .

وتعد (نجران) من أهم المواضع المهمة الحساسة في شبكة المواصلات البرية قبل الإسلام ، ففيها تلتقي طرق المواصلات الممتدة في الجنوب ، وفيهـا يتصل الطريق البري التجاري المهم الممتد الى بلاد الشام ، فيلتقي بطريق العربية الجنوبية ومنها يسير الطريق المار الى (الدواسر) فالأفلاج فاليمامة أو ساحل الخليج ومنه الى العراق .

ولم تموّن الطرق البرية المارة بالعربية الشرقية أي (ساحل الخليج) العراق بتجارة جزيرة العرب وبالمواد المستوردة اليها من الهند ، بل موّنتها بموجات من البشر منذ آلاف السنين قبل الميلاد . فقد كانت القبائل العربية النازحة من الجنوب لأسباب متعددة تحط ّ رحالها على هذا الساحل ، انتهازاً لفرصة ملائمة ترحـــل خلالها الى العراق لتستقر فيه . وقد سلكت أكثر القبائل العربيـة التي استوطنت العراق هذا السبيل حينما هاجرت اليه قبل الميلاد وبعده أيضاً .

الفصل السادس

صلات العرب بالساميين

لاحظ المعنيون بلغات (الشرق الأدنى) وجود أوجه شبه ظاهرة بين البابلية والكنعانية والعبرانية والفينيقية والأرمية والعربية واللهجات العربية الجنوبية والحبشية والنبطية وأمثالها ، فهي تشترك أو تتقارب في أمور أصلية وأساسية من جوهر اللغة ، وذلك في مثل جذور الأفعال ، وأصول التصريف ، تصريف الأفعال ، وفي زمني الفعل الرئيسين ، وهما : التام والناقص ، أو الماضي والمستقبل ، وفي أصول المفردات والضمائر والأسماء الدالة على القرابة الدموية والأعداد ، وبعض أسماء أعضاء الجسم الرئيسية[1] ، وفي تغير الحركات في وسط الكلمات الذي يحدث تغيراً في المعنى ، وفي التعابير التي تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين[2] ، وفي أمور مشابهة أخرى ، فقالوا بوجوب وجود وحدة مشتركة كانت تجمع شمل هذه الشعوب ، وأطلقوا على ذلك الأصل ، أو الوحدة (الرس السامي) أو (الجنس السامي) ، أو (الأصل السامي) ، أو (السامية ، (Semites) (shemites) [3] (Semitic Race) وعلى اللغات التي تكلمت وتتكلم بها هذه الشعوب

---

1 Hastings, Encylopaedia of Religion and Ethics, Vol., II, PP, 378 (1934), Zimmern, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin 1898, P., 82, ff.

2 Ency. Brita., 20, PP., 315.

3 Leland. W. Parr, An Introduction to the Anthropology of the Near East, Amsterdam, 1934, P., 43.

(اللغات السامية) ، (Semitic Languages)[1] .

وقد أخذ من أطلق هذه التسمية ، تسميته هذه من التوراة[2] . أخــذها من اسم « سام بن نوح » ، جدّ هــذه الشعوب الأكبر ، كما هو وارد فيها . وأول من أطلقها وأذاعها بين العلماء علماً على هذه الشعوب ، عالم نمساوي اسمه (أوغست لودويك شلوتسر) August Ludwig schloetzer أطلقها عام (١٧٨١م) فشاعت منذ ذلك الحين ، وأصبحت عنــد العلماء والباحثين في موضوع لغات الشرق الأدنى علماً للمجموعة المذكورة من الشعوب[3] وقــد أخذ (آيشهورن) (Joh. Cotte. Eichhorn) هذه التسمية ، وسعى لتعميمها بين العلماء علماً على الشعوب المذكورة[4] .

وفي عام (١٨٦٩ م) قسم العلماء اللغات السامية الى مجموعتين : المجموعة السامية الشماليــة ، والمجموعة السامية الجنوبية[5] وتتألف المجموعة الشمالية مــن العبرانية والفينيقية والأرمية والآشورية والبابلية والكنعانية . وأما المجموعة الجنوبية، فتتألف من العربية بلهجاتها والحبشية . وعم استعمال هذا الاصطلاح بينهم وأصبح موضوع (الساميات) من الدراسات الخاصــة عند المستشرقين ، تقوم على مقارنات وفحوص (أنتولوجية) و (بيولوجية) وفحوص علمية أخرى،فضلاً عن الدراسات التأريخية واللغوية والدينية[6] .

وهذه القرابة الواردة في التوراة ، وذلك التقسيم المذكور فيها للبشر،لايستندان إلى أسس علمية أو عنصرية صحيحة ، بل بُنيت تلك القرابــة ، ووضع ذلك التقسيم على اعتبارات سياسية وعاطفية وعلى الآراء التي كانت شائعة عند شعوب

---

١ Hommel, Grundriss, Bd., I, S., 17, Ency. Brita., Vol., 20, PP. 314. Eichhorns, Geschichte der Neuern Sprachenkunde, I, abt., Gottingen, 1807.

٢ التكوين ، الاصحــاح العاشر ، الايــة ، ١ ، ٢١ ، قــاموس الكتاب القــدس (١ / ٥٣١) .

٣ Hommel, Grundriss, I, S, 76, Ency. Brita., 20, PP., 314, The Universal Jewish Encyclopedia, Vol., 4, P., 473, Hastings, P., 845, S. Moscati, The Semites in ancient History, Cardiff, 1959.

٤ Elshhorn, Geshichte der Neueren Sprachenkunde, I abt., Gottingen, 1807, Sprachen, der Semiten in Westasien, S., 403-672,

٥ Hommel, Grundriss, 1, S., 76, Eichhorn, S., 405, Eberhard Schrader, S., 76.

٦ S.H. Hooke, The Origins of early Semitic ritual, London, 1938, Hommel, Grundriss, I, PP., 84.

العالم في ذلك الزمان عن النسب والأنساب وتوزع البشر[1] . فحشرت التوراة في السامية شعوباً لا يمكن عدّها من الشعوب السامية،مثل (العيلاميين) (Elam) و (اللوديين) (Ludim) (Lud) ، وأقصت منها جماعة من الواجب عدّها من الساميين ، مثل (الفينيقيين) و (الكنعانيين)[2] .

ويرى (بروكلمن) أن العبرانيين كانوا قد تعمدوا إقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام ، لأسباب سياسية ودينية ، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية[3] .

وقد رَجّعَ الإصحاح العاشر من التكوين نسب الفينيقيين والسبئيين إلى حام، جد الكوشيين ، ذوي البشرة السوداء ، مع أنهم لم يكونوا من الحاميين ، وقد يكون ذلك بسبب وجود جاليات فينيقية وسبئية في افريقية ، فعدّ كتبة التوراة هؤلاء من الحاميين[4] .

وقد عرف المسلمون اسم (سام بن نوح) ، وقد كان لا بد لهم من البحث عن أولاد (نوح) لما للذلك من علاقة بما جاء عن (نوح) وعن الطوفان في القرآن الكريم . وقد روي أن رسول الله قال : (سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الحبش)[5] ، وقد روى (الطبري) جملة أحاديث عنه في هذا المعنى . وقد لاحظت أنها كلها وردت من طريق (سعيد بن أبي عروبة) عن (قتادة) عن (الحسن) عن (سمرة بن جندب) ، وهي في الواقع حديث واحد ، ولا تختلف إلا اختلافاً يسيراً في ترتيب الأسماء أو في لفظ أو لفظين[6]. ومن هنا يجب أن يدرس هذا الحديث وكل الأحاديث المنسوبة الى الرسول في هذا الباب دراسة وافية ، لنرى مدى صحة نسبتها الى الرسول ، كما يجب دراسة ما نسب الى عبدالله بن عبّاس أو غيره في هذا الشأن ، فإن مثل هذه الدراسات تحيطنا علماً برأي المسلمين ايام الرسول وبعد انتقاله الى الرفيق الأعلى في نسبتهم الى سام بن نوح[7] .

---

١ George Aaron Barton, Semitic, and Hamitic Origins, London, 1934, P., 1,

٢ (التكوين ، الاصحاح العاشر) الاية ١ ، فما بعدها ،
Hastings, P., 945, Ency. of Relig. and Ethic., Vol., II, PP., 37 378, Barton, P. I.

٣ Brockelman, Sprachwissenschaft, S., 15,

٤ Reynold, A. Nicholson A Literary History of the Arabs, P., XV.

٥ الطبري (٢٠٩/١) « دار المعارف » .

٦ الطبري (١ /٢٠٩) « دار المعارف » .

٧ الاكليل (٦٤/١) .

وقد قسم بعض علماء الساميّات المحدثين اللغات السامية الى أربع مجموعات هي : المجموعة السامية الشرقية ومنها البابلية والآشوزية، والمجموعة الشمالية ومنها الأمورية والأرمية ، والمجموعة الغربية ومنها الكنعانية والعبرانية والموابية والفينيقية، والمجموعة الجنوبية ومنها المعينية والسبئية والاثيوبية والعربية والأمهرية[1] . ويلاحظ أن واضعي هذا التقسيم لم يراعوا في وضعه التطورات التأريخية التي مرت بها هذه اللغات بل وضعوا تقسيمهم هذا على أسس المواقع الجغرافية لتلك الشعوب .

والسامية بعد، ليست رساً (Race) بالمعنى المفهوم من الرس عند علماء الأحياء، أي جنس له خصائص جسمية وملامح خاصة تميزه عن الأجناس البشرية الأخرى. فبين الساميين تمايز وتباين في الملامح وفي العلامات الفارقة يجعل اطلاق (الرس) عليهم بالمعنى العلمي الحديث المفهوم من (علم الأجناس) ، أو الفروع العلمية الأخرى نوعاً من الاسراف واللغو ، كما أننا نرى تبايناً في داخل الشعب الواحد من هذه الشعوب السامية في الملامح والمظاهر الجسمية ، وفي هذا التمايز والتباين دلالة على وجود اختلاط وامتزاج في الدماء ، سأتحدث عنه في الفصل الخاص بالأنساب وبانقسام العرب الى قحطانيين وعدنانيين .

ولقد وجد بعض علماء (الانثروبولوجي) مثلاً أن بين اليهود تبايناً في الصفات وفي الخصائص التي وضعها هذا العلم للجنس ، مع ما عرف عن اليهود من التقيد بالزواج وبالابتعاد عن الزواج من غير اليهود[2] . وكذلك وجد العلماء الذين درسوا العرب دراسة (انثروبولوجية) أن بين العرب تبايناً في الملامح الجسمية . وقد اتضح وجود هذا التباين عند الجاهليين أيضاً ، كما دلت على ذلك الفحوص التي أجريت على بقايا العظام التي عثر عليها في مقابر جاهلية[3] . كذلك وجد علماء (الأنثروبولوجي) من فحص العظام التي عثر عليها في الآثار الآشورية والبابلية أن أصحابها يختلفون أيضاً فيما بينهم في الملامح التي تعد أساساً في تكوين جنس من الأجناس .

---

١ Ency. Brita., 20, P., 316, Gesenius, Geschichte, der Hebraeischen Sprache und Schrift, Graf Arthur, Gobineau, Die Ungleichheit der Menschenrassen, Berlin, S., 180, (German translation).

٢ Buxton, The People of Asia, P., 96. ff.

٣ Buxton, P., 99. ff.

ولهذا ، فإني حين أتحدث عن السامية لا أتحدث عنها على أنها جنس ، أي رس صاف بالمعنى (الأنثروبولوجي) ، بل أتحدث عنها على أنها مجموعة ثقافية وعلى أنها مصطلح أطلقه العلماء على هذه المجموعة لتمييزها عن بقيـة الأجناس البشرية ، فأنا أجاريهم لذلك في هذه التسمية ، ليس غير .

إن بحوث العلماء في موضوع السلالات البشرية وفي الأجناس البشرية وفي توزع الشعوب وخصائص ومميزات الأجناس لا تزال بحوثاً قلقة غير مستقرة . ولهـذا نجد نتائج بحوثهم في تعريف الجنس وفي صفات الأجناس وفي المسائـل الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع مختلفـة ، ولا سيما أن هنالك عدة أمور تؤثر في حيـاة الإنسان وفي خصائصه الروحية والجسمية . والنواحـي اللغوية وبعض الخصائص الروحية الأخرى ، وان كانت مهمة وضرورية لدراسة الناحية العقلية للانسان ، إلا انها ليست الأسس الوحيدة لتكوين رأي في الأجناس البشرية[1] .

فالسامية اذن ، بهذا المعنى هي مجرد اصطلاح ، قصد به التعبيـر عن هذه الروابط أو الظواهر التي نراها بين الشعوب المذكورة،أما البحث على أن الساميين جنس من الأجناس بالتعبير الذي يعنيه أهل العلوم من لفظة جنس، فإن ذلك في نظري موضوع لا يسع علماء الساميّات أو علماء التاريخ أن يبتّوا فيه ويصدروا حكماً في شأنه ، لأنه بحث يجب أن يستند الى تجارب وبحوث مختبريـة ، والى دراسات للشعوب الباقية من السامية ، بأن ندرس جماجم قدماء الساميين وعظامهم في جزيرة العرب وفي المواطن الأخرى التي انتشر فيها الساميون ، وعند اكتمال مثل هذه الدراسات ووصولها الى درجات كافية ناضجة يمكن العلمـاء حينئذ أن يتحدثوا عن السامية من حيث انها جنس بالمعنى العلمي ، أو جنس بالمعنى الاصطلاحي .

هذا وقد عني بعض الباحثين المحدثين بدراسة ما عثر عليـه في بعض القبور العادية من عظام ، لتعيين أوصافها وخصائصها والجنس الذي تعود اليـه ، كما قام بعضهم بدراسة أجسام الأحياء واجراء فحوص عليها وتسجيل قياسات الرؤوس

---

١ Ralph Linton, The Study of Man, L. H. Dudley Buxton, The Peoples of Asia, London, 1925, Sonia Cole, Races of Man, British Museum, (Natural History), London, 1965.

وملامح الأجسام وما الى ذلك مما يتعلق بموضوع (الأجناس البشرية) ، واذا ما استمر العلماء على هذه الدراسة وتوسعوا فيها ، فسيكون لهـا شأن خطير في وضع نظريات علمية عن تأريخ أجناس الشرق الأدنى وفي جملتهم الساميين .

وممن بحث في (أنثروبولوجية) الشرق الأدنى (كبرس Ariens Kappers) ، وقد وضع مؤلفاً قيّماً في دراسة شعوب الشرق الأدنى[1] . و (الدكتور سلكمن) (Dr. Seligman) [2]، و (شنكلن W. Shanklin) الذي عني بدراسة (أنثروبولوجية) سكـان شرقي الأردن وتقسيماتهم وحالات أعصابهم[3] ، و (A. Mochi) [4] ، و (برترام توماس) الذي قام بدراسات علمية عديدة من هذه الناحية لنماذج من أفراد القبائل العربية الجنوبية[5] ، والبعثة الأمريكية التي أرسلها متحف (فيلد) بشيكاغو لدراسة (أنثروبولوجية) القبائل العراقية النازلة على مقربة من (كيش) ، عدا دراسات أخرى عديدة قام بها علماء آخرون[6] .

وقد أجريت أكثر هذه البحوث في مناطق عرفت باتصالها منـذ القديم بالعالم الخارجي ، وفي أرضين استضافت الغرباء ، فهي لذلك لا يمكن أن تعطينا فكرة علمية عن (أنثروبولوجية) داخل جزيرة العرب ، فلا بد من القيـام بدراسات دقيقة في قلب الجزيرة لتكوين رأي علمي عن عرب هذه الأماكن .

وقد لاحظ الفاحصون للعظام التي عثر عليها في الأقسام الجنوبية الشرقيـة من جزيرة العرب وجود تشابه كبير بين جماجم أهل عمان وجماجم سكـان السواحل الهندية المقابلة لهذه البقاع، كما لاحظوا تشابهاً كبيراً في الملامح الجسمية بين العرب الجنوبيين أهل عدن وبقية العربية الجنوبية الغربية وتهامة وسكان إفريقية الشرقية .

---

١ C.U. Ariens Kappers, An Introduction to the Anthropology of the Near East in ancient and recent Times, Amesterdam, 1934, P., 73.

٢ Dr. Seligman, The Physical Characters of the Arabs, in Journal of the Royal Anthrop. Inst., Vol., 47, 1917, P., 217, The Races of Africa, 1930.

٣ W. Shanklin, The Anthropology of the Transjordan Arabs, Psychiatrische en Neurologische bladen, 1934, Anniversary Book for the central Institute of Brainreserch Amesterdam.

٤ A. Mochi, Sulla Anthropologia Giuffrida Ruggeri, in Crani Egiziani antichi, ed., Arabo — Egiziani, Atti della Soc. Romana d'Anthrop., T., 15, 1915.

٥ راجع الفصل الذي كتبه «Dr. Wilton Marion Krogman» في كتاب «Arabia Felix» (صفحة ٣٠١)

٦ Henry Field, The Anthropology of Iraq, Field Museum of Natural History, Chicago. 1940.

وقد اتخـــذ القائلون إن أصل العرب الجنوبيين من إفريقية هذا التشابه حجة ، تذرعوا بها في اثبات نظرياتهم هذه[1] .

غير أن هذه الفحوص أشارت من جهة أخرى الى حقيقة تخـــالف النظرية الإفريقية ، إذ بينت أن أشكال جماجم العرب الجنوبيين ورؤوسهم هي من النوع الذي يقال له : (Brachycephaly)[2] . أما أشكال جماجم سكان إفريقية الشرقية ورؤوسهم ، فمن النـــوع الذي يعرف باسم (Dolichocephaly) في الغالب[3] . وهذا التباين لا يشير الى وحدة الأصل . وقد تبين من هذه الفحوص أن أشكال جماجم العرب الشماليين ورؤوسهم ، هي من نوع (Dolichocephaly) كذلك، أي أنها نوع مشابه لأشكال جماجم الإفريقيين الشرقيين ورؤوسهم[4] .

وقد حملت هذه النتائج بعض الباحثين عـــلى التفكير في أن العرب الجنوبيين كانوا في الأصل في المواطن التي تكثر فيها الرؤوس المستديرة ، وأن هذه المواطن هي من آسية الصغرى الى الأفغان ، فزعموا أنهم كانوا هناك ثم هاجروا منهـــا الى مواطنهم الجديدة في العربية الجنوبية[5] ، كما زعموا أن سكان (عمان) قـــد تأثروا تأثراً كبيراً بالدماء (الدراويدينية) (Dravidian) الهندية ، لهـــذا نجد أنهم يختلفون بعض الاختلاف عن بقية العرب الجنوبيين[6] .

وإذا قامت بعثات علمية بالبحوث (الأنثروبولوجية) في مواضع أخرى من جزيرة العرب ولا سيما في باطن الجزيرة،واذا ما استمر العلماء والسياح في البحث عن العظـــام والأحداث ، وفي دراستهـــا دراسة مختبرية ، واستمروا في إجراء فحوصهم على الأحياء ، وقورنت نتائج فحوصها بنتائج فحوص العلماء في بقيـة أنحاء الشرق الأدنى ، فإن البحث في الساميات وفي علاقات الشعوب القديمة بعضها

---

١ Arabia Felix, P., 302.

٢ اصطلاح يطلق في علم « النتروبولوجي » على الجماجم التي يبلغ عرضهـــا حوالي « ٨٠٪ » او اكثر من مقدار طول الجمجمة من الامام الى الخلف . ويقال لهذه الرؤوس قصيرة . راجع : Enc. Britanica., Vol., 3, P., 1003, 18, P., 865.

٣ ويعنى اصحاب الرؤوس الطويلة ، وهي الجماجم التي تكون ابعادها من جانـــب الى جانب تساوى « ٧٥٪ » او اقل من طـــول المسافـــة بين جبهة الجمجمـــة والمؤخرة . راجع : Enc. Britanica, Vol., 7, P., 506.

٤ Seligman, The Races of Africa, 1930, Arabia Felix, P., 304, P., 308.

٥ Arabia Felix, P., 304, 322.

٦ Dr. Wilton Marion Krogman, in Arabia Felix, P., 316.

ببعض ، سيتقدم كثيراً،وسيأتي ولا شك بنتائج علمية مقبولة في موضوع السامية والجنس السامي .

وطن الساميين :

وتساءل العلماء الباحثون في الأجناس البشرية : من أين جاء الساميون الأول، آباء الشعوب السامية ؟ وأين كان موطنهم الأول وبيتهم القديم ، الذي ضاق بهم في الدهر الأول ، فغادروه الى بيوت أخرى ؟ أما أجوبتهم ، فجاءت متباينة غير متفقة لعدم اهتدائهم حتّى الآن الى دليل مادي يشير الى ذلك الوطن ، أو يؤيد نظرية وجود مثل هذا الوطن ، فقامت آراؤهم على نظريات وفرضيات ، وبحوث لغوية وعلى آراء مستمدة من الروايات الواردة في التوراة عن أصل البشر، وعن أبناء نوح ، والأماكن التي حلّ بها هؤلاء الأبناء وأحفادهم ثم أحفاد أحفادهم ، وهكذا على نحو ما تصورته مخيلة العبرانيين . فرأى نفر منهم ان أرض بابل ، كانت المهد الأول للساميين ، ورأى آخرون أن جزيرة العرب هي المهد الأول لأبناء سام ، وخصص فريق آخر موطناً معيناً من جزيرة العرب ، ليكون وطن سام وأبنائه الأول ، وذهب قسم الى إفريقية فاختارها لتكون ذلك الوطن ، لما لاحظه من وجود صلة بين اللغات السامية والحامية ، ورأى قوم في أرض (الأموريين) الوطن الصالح لأن يكون أرض أبي الساميين ، على حين ذهب قوم آخرون الى تفضيل أرض (أرمينية) على تلك الأوطان المذكورة . وهكذا انقسموا وتشعبوا في موضوع اختيار الوطن السامي ، ولكل حجج وبراهين .

وحتّى القائلون بنظرية من هذه النظريات وبرأي من هذه الآراء، هم قلقون غير مستقرين في نظرياتهم هذه ، فتراهم يُغيّرون فيها ويبدلون . يفترضون وطناً أصلياً لجد الساميين ، ثم يفترضون وطناً ثانياً يزعمون ان قدماء الساميين كانوا قد تحولوا من الوطن الأول اليه ، فصار الموطن الأقدم لهم . فقد ذهب (فون كريمر) مثلاً ، وهو عالم ألماني الى أن اقليم (بابل) هو موطن الساميين الأول ، وذلك لوجود ألفاظ عديدة لمسميات زراعية وحيوية (حياتية) أخرى تشترك فيها أكثر اللغات السامية المعروفة ، وهي مسميات لأمور هي من صميم

حياة هذا الاقليم ، الا أنه عاد فذكر أنه وجد أن لفظة (الجمل) لهذا الحيوان المعروف هي لفظة واردة في جميع اللغات السامية وفي ورود هـــذه التسمية في جميع هذه اللغات دلالة على أنها من بقايا اللغة (السامية) الأولى . ولكن الجمل حيوان أصله وموطنه الأول الهضبة المركزيـــة التي في آسية على مقربة من نهـــر سيحون ونهر جيحون ، ولما كان قد لازم الساميـــين من فجر تأريخهم واقترن اسمه باسمهم ، وجب أن يكون موطن الساميين الأقدم اذن هو تلك الهضبة ، إلا أن أجداد الساميين غادروها في الدهر الأول ، وارتحلوا عنها فانحازوا الى الغرب مجتازين ايران والأرضين المأهولة بالشعوب (الهنـــد أوروبية) حتى وصلوا الى اقليم (بابل) ، فنزلوا فيه ، فصار هذا الإقليم الوطن الأقدم أو الأول للساميين .

وطريقة (فون كريمر) في هذه النظرية ، دراسة أسماء النبات والحيوان في اللغات السامية وتصنيفها وتبويبها للتمكن بذلك من معرفة المسميات المشتركة والمسميات التي ترد بكثرة في أغلب تلك اللغات . والتوصل بهذه الطريقة الى الوقوف على أقدم الحيوان والنبات عند تلك الشعوب ، فإذا اهتدينا اليها صار من السهل على رأيه التوصل الى معرفة الوطن الأصل الذي جمع في يوم ما شمل أجداد الساميين[١] .

أما (كويدي) ، وهو من القائلين أيضاً ان اقليم بابـــل هو الموطن الأول للساميين ، فقد سار على نفس أسلوب (فون كريمر) نفسه وطريقته ، ولكن بصورة مستقلة عنه . درس الكلمات المألوفة في جميع اللغات السامية عن العمران والحيوان والنبات ونواحي الحياة الأخرى ، وقارن بينهـــا وتتبع أصولها ثم قال قوله المذكور ، إلا انه اختلف عن (فون كريمر) في الوطن الأول ، حيث رأى أن مواطن الساميين الأول كانت الأرضين في جنوب بحر قزوين وفي جنوب شرقيه إلا أنهم غادروها بعد ذلك وارتحلوا عنها الى اقليم بابل[٢] .

وأما (هومل) ، وهو من العلماء الألمان الحاذقين في الدراسات اللغوية ، فقد

---

١ Von Kremer, Semitische Culturen Entlehnungen aus Pflantzen-und Thierreiche, in das Ausland, Bd., IV, note, 1, und 2.

٢ Guidi, Della sede primitiva dei Popoli Semitici, Roma, 1879, Wright, Comparative Grammer of the Semitic Languages, P., 5 Barton, P., 3, Hommel, Grundriss, 1. S., 80, A. Grohmann, Kulturgeschichte, S., 14.

ذهب أولاً الى أن موطن الساميين هو شمال العراق ، ثم عاد فقرر أن اقليم بابل هو الوطن الأصل،وذهب أيضاً إلى أن قدماء المصريين هم فرع من فروع الشجرة التي أثمرت الثمرة السامية ، وهم الذين نقلوا على رأيه الحضارة الى مصر فقلوها من البابليين[1] .

وقد ناقش (نولدكه) آراء هؤلاء العلماء المذكورين القائمة على المقابلات والموازنات اللغوية ، وعارضها معارضة شديدة ، مبيناً أن من الخطأ الاعتماد في وضع نظريات مهمة كهذه على مجرد دراسة كلمات واجراء موازنات بين ألفاظ لم يثبت ثبوتاً قطعياً أن جميع الساميين أخذوها من العراق ، وأورد جملة أمثلة اختلف فيها الساميون ، مع أنها أجدر المعاني بأن يكون لها لفظ مشترك في جميع اللغات السامية[2] .

ومن أوجه النقد التي وجهت الى نظرية القائلين إن العراق ، أو اقليم بابل منه بصورة خاصة ، هو موطن الساميين ، هو أن القول بذلك يستدعي تصور انتقال الساميين من أرض زراعية خصبة ذات مياه الى بواد قفرة جرد ، وابدال حياة زراعية بحياة خشنة بدوية ، ومثل هذا التصور يخالف المنطق والمعقول والنظم الاجتماعية .

وأما القائلون إن الموطن الأصلي لجميع الساميين هو جزيرة العرب ، فكان من أولهم (شبرنكر) . فقد رأى أن أواسط جزيرة العرب ، ولا سيما نجد ، هو المكان الذي يجب أن يكون الوطن الأول للساميين،وذلك لأسباب وعوامل شرحها وذكرها . ومن هذا الوطن خرج الساميون في رأيه الى الهلال الخصيب فطبعوه بالطابع السامي ، ومن هذا الهلال انتشروا الى أماكن أخرى[3] .

وقد أيد هذه النظرية جماعة من المستشرقين الباحثين في هذا الموضوع من

---

١ Hommel, Die Namen der Saeugethiere bei den Suedsemitischen Volkern, Leipzig, 1879. S., 406, Die Semitischen Voelker und Sprachen, 1881, Bd., I, S., 20, 63, Barton, P., 3 Hommel, Grundriss, I, S., 10. f.

٢ Noeldeke, Semitischen Sprachen, Leipzig, 1887, S., 3, 2ed., 1899, Enc. Brit., 9th. ed., Article, Semitic Language.

٣ A. Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammad, Berlin, 1861, Bd., I, S., 241, Alte Geographie Arabiens, 1875, S., 293, Barton, P., 4.

أمثال (سايس)[١] و (أبرهرد شرادر)[٢]، و (دي كويه)[٣] و(هوبرت كرمه)[٤] و (كارل بروكلمن)[٥] و (كينغ)[٦] و (جول مابر)[٧] و (كوك)،وآخرين[٨] .

وقد مال الى تأييدهـــا وترجيحها (دتف نلسن) ، وهو من الباحثين في التأريخ العربي قبل الإسلام[٩] . وكذلك (هوكو ونكلر) . و (هومـل) الذي يرى أن موطن جميع الساميين الغربيين هو جزيرة العرب[١٠] .

وقد ذهب نفر من القائلين بهذه النظرية الى أن العروض ولا سيا البحـــرين والسواحل المقابلة لها ، هي الوطن السامي القديم . ويستشهد هذا النفر على صحة نظريته ببعض الروايات والدراسات التي قام بها العلماء فكشفت عن هجرة بعض الأقوام كالفينيقين وغيرهم من هذه الأماكن .

أما (فلبي) ، فذهب في دراساته المسهبـــة لأحوال جزيرة العرب الى أن الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين. وفي هذه الأرضين نبتت السامية ، ومنها هاجرت بعد اضطرارها الى ترك مواطنها القديمـــة لحلول الجفاف بها الذي ظهرت بوادره منـــذ عصر (البالئوليتيك) (Palaeolithic) هاجرت في رأيه ، في موجات متعاقبة سلكت الطرق البرية والبحرية حتى وصلت الى المناطق التي استقرت فيها . هاجرت وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة ، حملت معها آلهتها ، وأولها الإلـه (القمر) ، وحملت معها ثقافتها وخطها

---

١ Sayce, Assyrian Grammer, 1872, P., 13, Barton, P., 4.

٢ Eberhard Schrader, in ZDMG., XXVII, (1873), S., 397. ff., "Die Abstammung der Chaldaer und die Ursitze der Semiten".

٣ De Goeje, Het Vaterland der Semitische Volken, Barton, P., 5, Wright, Comparative Grammer of the Semitic Languages, P., 8.

٤ Hubert Grimme, Mohammed, Weltgeschichte in Karakterbildern, 1904, S., 6. f., Barton, P., 5.

٥ Carl Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin, Barlin, 1908, 1, 2.

٦ L.W. King, History of Sumer and Akkad, London, 1916, P., 119.

٧ John L. Meyers, in Cambridge ancient History, Cambridge 1923, 1, 38, Barton, P. 6.

٨ S.A. Cook, in Cambridge ancient History, I, P., 192. f.

٩ Ditef Nielsen, Handbuch der altarabischen Altertumskunde, I, Kopenhagen, Paris, Leipzig, 1927, 47, 55.

١٠ A. Grohmann, S., 14, Hommel, Ethnologie und Geographie des alten Orient, Muenchen, 1926, S., 10.

الذي اشتقت منه سائر الأقلام ، ومنه القلم الفينيقـي ، وطبعت تلك الأرضين الواسعة التي حلت فيها بهذا الطابع السامي الذي ما زال باقياً حتى اليوم . وقد أخذ (فلبي) رأيه هذا من دراسات العلماء لأحوال جزيرة العرب ومن الحوادث التأريخية التي تشير إلى هجرة القبائل من اليمن نحو الشمال[١] .

فاليمن في رأي (فلبي) وجماعة آخرين من المستشرقين ، هي (مهد العرب) ومهد الساميين ، منها انطلقت الموجات البشرية الى سائر الأنحاء . وهي في نظر بعض المستشرقين أيضاً (مصنع العرب) ، وذلك لأن بقعتها أمدّت الجزيرة بعدد كبير من القبائل ، قبل الإسلام بأمد طويل وفي الإسلام[٢] . ومن اليمن كان (نمرود) وكذلك جميع الساميين[٣] .

والذين يقولون إن نجداً هي موطن الساميين الأول ، يفترضون أن موجـات هجرة الساميين اتجهت نحو الشمال كما اتجهت نحـو الجنوب والشرق والغرب[٤] ، فكأن نجداً معين ماء يفيض فيسيل ماؤه الى أطرافه .

غير أن هنالك جماعـة من الباحثين ترى أن نجداً لا يمكن أن تكون الموطن الأول للساميين ، وذلك لأن شروط الحياة اللازمة لم تكن تتوفر بها ، اللهم إلاّ في المواضع التي توجد بها آبار أو واحات ، وهي قليلة متناثرة ، وذلك حتى في العصور (الباليوثية) (Palaeolithic Ages) . أما المراعي التي كانت بهـا في تلك الأوقات فلم تكن دائمة الخضرة ، بل كانت مع المواسم ولهذا فان السكن فيهـا لا يمكن أن يكون سكناً دائمياً مستمراً ، ثم ان السكن في نجد يقتضي وجود الجمل فيها ولم يكن الجمل موجوداً عند الساميين في العهود القديمة بل كان الحمار هو واسطـة الركوب والنقل عندهم . ولما كان الحمار لا يتحمل العيش في البوادي الواسعة الفسيحـة ، لذلك لم يتمكن الساميون اذ ذاك من التوغـل في

---

١ Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1949, P., 9, ff.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934, P., 126, Background, P. 9.

٣ Eberhard Schrader, Die Abstammung der Chaldaer und die Ursitze der Semiten, in ZDMG, S., 14.

٤ James Hastings, A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents including the Biblical Theology, Extra Volume, 1904, P., 74. f. W. Warrell, A Study of Races in ancient Near East, Cambridge, 1927, 7, 45, 94. B. Thomas, Anthropological observation in South Arabia, 93-94, A. Grohmann, Arabien, S., 14.

الصحراء والسكن بعيداً عن مواضع الماء ، فانحصر سكنهم في أسياف البوادي أي في مناطق قريبة من الحضر ، ولهذا السبب رفض العلماء رأي من يقول إن نجداً هي الموطن الأول للساميين[1] .

ويمكن تلخيص الحجج والبينات التي استند اليها هؤلاء العلماء لاثبات نظريتهم في الأمور الآتية :

١ ـ لا يعقل أن ينتقل سكان الجبال والمزارعون من حياة الحضارة والاستقرار الى البداوة ، بل يحدث العكس . ولما كانت الشعوب السامية قد قضت في أطوارها الأولى حياة بدوية ، فلا بد أن يكون وطنها الأول وطناً صحراوياً ، وجزيرة العرب تصلح أن تكون ذلك الوطن أكثر من أي مكان آخر .

٢ ـ ثبت أن معظم المدن والقرى التي تكونت في العراق أو الشام إنما كونتها عناصر بدوية استقرت في مواضعها ، واشتغلت باصلاح أراضيها وعمرانها ، واشتغلت بالتجارة ، فنشأت من ذلك تلك المدن والقرى . ولما كانت أكثر هذه العناصر البدوية قد جاءت من جزيرة العرب ، فتكون الجزيرة قياساً على ذلك الموطن الذي غذّى العراق وبادية الشام وبلاد الشام بالساميين ، وأرسل عليهما موجات متوالية منها .

٣ ـ هناك أدلة دينية ولغوية ، وتأريخية وجغرافية ، تشير بوضوح الى أن جزيرة العرب هي مهد السامية ووطن الساميين[2] .

٤ ـ إننا نرى أن جزيرة العرب قد أمدّت العراق وبلاد الشام بالسكان ، وأن القبائل الضاربة في الهلال الخصيب قد جاءت من جزيرة العرب ، فليس بمستبعد إذن أن يكون الساميون قد هاجروا منها الى الهلال الخصيب .

وقد عارض هذه النظرية طائفة من علماء الساميات ، وحجتهم : أن كل ما قيل وذكر من حجج وبينات ، لا يدل يقيناً على أن جزيرة العرب كانت هي المهد الأصلي للأمم السامية ، ونظرت الى إفريقية على انها المكان المناسب لأن يكون الوطن الأول للساميين . ومن هذه الطائفة من علماء الساميات (بلكريف) ،

---

١ Ancient Iraq, P., 125.

٢ ومن القائلين ان جزيرة العرب هي مهد الساميين (روبرتسن سمث Robertson Smith) الهلال ، نيسان ١٩٠٦ ، جـ ٧ سنة ١٤ ، ص ٣٩٩ ،
Kinship and Marriage in Early Arabia, P., 178, Barton, P., 5.

وقد كوّن رأيه من وجود تشابه في الملامح ، وفي الخصائص الجنسية ، وصلات لغوية بين الأحباش والبربر والعرب دفعته الى القول بأن الوطن الأول للساميين هو إفريقية[١] .

وذهب الى هذا الرأي (جيرلند Gerland) ، مستنداً الى الدراسات (الفيزيولوجية) مثل تكوين الجماجم ، والبحوث اللغوية . وقد زعم ان شمال إفريقية هو الموطن الأصلي للساميين ، وادعى ان الساميين والحاميين من سلالة واحدة ودوحة تفرعت منها جملة فروع ،منها هذا الفرع السامي الذي اختار الشرق الأدنى موطناً له[٢] .

وهناك نفر من العلماء أيدوا هذه النظرية ودافعوا عنها أو استحسنوها ، مثل (برتن Bertin)[٣] و (نولدكه)[٤] و (موريس جسترو)[٥] و (كـين) و (ربلي) وغيرهم[٦] . ولكنهم اختلفوا أيضاً في تعيين المكان الذي نبت فيه الساميون أول مرة في القارة الإفريقية ، واختلفوا كذلك في الطريق الذي أوصل الساميين الى جزيرة العرب[٧] ، فاختار (برنتن) Brinton شمال غربي إفريقية، ولا سيا منطقة جبال (الأطلس) فجعلها الموطن الأصلي للساميين[٨] .

واختار نفر آخر إفريقية الشرقية موطناً أول للساميين ،للعلاقات (الأثنولوجية) الظاهرة التي تلاحظ على سكان هذه المنطقة والساميين[٩] . وزعم أن الساميين سلكوا في عبورهم الى آسية أحد طريقين : إما طريق سيناء حيث هبطوا في العربية

---

١ Enc. Brit., 9Th. Ed., "Arabia", Barton, P., 6, Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٢ Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380, Barton, P., 6, Iconographic Enc., Art., "Ethnography".

٣ Bertin, Journal of the Anthropological Institute, XI, 431, (1882), Barton, P., 6.

٤ Noeldeke, Die Semit. Sprachen, S., 9, Ency. Brita., (1911), "Semtic Languages", Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٥ Barton, P., 7, Brinton, The Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890, Races and Peoples, New York, 1890, P., 132.

٦ Barton, P., 7, A Sketch of Semitic Origin Social and Religious, Ch. I, New 1901.

٧ Barton, P., 6, C.U. Ariens Kapper and Leland W. Paar, An Introduction to the Anthropology of the Near East, Amsterdam, 1934, P., 47.

٨ Barton, P., 7, Brinton, Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890, Races and Peoples, New York, 1890, P., 132, Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٩ حتي (ص ١٠) .

الحجريـــة وأناخوا فيها مدة ثم انتشروا منهـــا[1] ، وإما طريق المندب حيث دخلوا العربية السعيدة من مواضع مختلفة من الحبشة ومن أرض (فنط Punt)[2] ، وهي الصومال الحديثة[3] . وقد اكسبتهم اقامتهم في بلاد العرب خصائص جديدة، ووسمتهم بسمات اقتضتها طبيعة الوطن الثاني ، ولكنها لم تتمكن من القضاء على الخصائص الأولى التي تشير الى الوطن الأول قضاءً تاماً ، ولا عـــلى الصلة بين اللغات الحامية والسامية التي تشير الى الأصل المشترك كذلك[4] .

وهذه النظرية ، بالرغم من دفاع بعض كبار علماء اللغات والأجناس عنهـــا لا تخلو من ضعف ، ومن مواطن ضعفها أنهـــا غضت الطرف عن الاعتبارات التأريخية،واستسلمت لدراسات لم تنضج بعد ، فمن الممكن مثلاً ارجاع ما لاحظه علماء اللغات السامية واللغة المصرية القديمة الى عوامل الهجرات الساميـة من جزيرة العرب وعن طريق سيناء الى إفريقية ، مثل هجرة (الهكسوس) وهم من أصل سامي جاؤوا مصر من بلاد العرب . وقد ثبت أيضاً من تحقيقات العلماء أن كثيراً من الأسماء المصرية القديمة التي كانت تطلق على الأقسام الشرقية من الديار المصرية هي أسماء سامية . وإذا سوّغ علماء النظرية الإفريقية لأنفسهم الاستدلال عـــلى إفريقية الساميين من وجود القرابة اللغوية بين اللغة المصرية واللغات السامية مثلاً، فإن من الممكن ارجاع هذه القرابة الى أثر الهجرات السامية في اللغـة المصرية .

---

١ Barton, P., 6, Journal of the Anthrop. Inst, XI, 431.

٢ يجب تعريب Punt بـ « فنط » ، قياسا على طريقة تعريب الاسماء الاعجمية الى العربية . وقد عربها بعضهم بـ « فوط » وتقابل كلمة « فوط » كلمة Put او Phut الواردة في التوراة انها مسكن ابن حـــام الثالث ، غير ان علماء التوراة لم يتفقوا حتى الان على موضع « فوط » ، فذهب بعضهم الى انها في نواحي طرابلس الغرب « ليبيا » ، ورأى اخرون انها بين مصر و « كوش » ، اي السـودان او الحبشة ، وربما كانت نوبيا الجنوبية ، وهنـــاك اراء اخرى . فلا ارى من الصحيح تسمية Punt بفوط لمكان هـــذا الاختلاف . راجع عن « فوط » ، ارميا ، اصحاح ٤٦ ، اية ٦ ، وحزقيال ، اصحاح ٢٧ ، اية ١٠ و ٣٠ ، اية ٥ ، و ٣٨ ، اية ٥ ، ناحوم ، اصحاح ٣ اية ٩ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٨ ١) ، عربت في ترجمة « تاريخ العرب المطـول » للدكتور حتي بـ « فوط » ص ٤٢ Hastings, P., 777, Enc. Bibl, P., 3984.

٣ حتى (ص ١٣) ،

٤ Barton, P., 8.

وأما تقارب الحبشية من اللهجات العربية الجنوبية وكتابة الأحباش حتى اليوم بقلم شبيه بالمسند ، فلا يكون دليلاً قاطعاً على هجرة الساميين من إفريقية عن طريق الحبشة الى جزيرة العرب ، إذ يجوز العكس ، وقديماً هاجر الساميون من العربية الجنوبية إلى الحبشة . والساميون هم الذين كوّنوا دولة (أكسوم) التي كانت تتكلم باللغة (الجعزية) ، وهي لغة سامية ، كما أن قلمهـا الذي يشبه قلم المسند هو وليد القلم العربي الجنوبي . وكتابات (يها) (يحا) المكتوبـة بالمسند ، في حد ذاتها دليل على أثر العرب الجنوبيين في الإفريقيين (الكوشيين) ، وهذه الكتابات حديثة عهد بالنسبة إلى كتابات السبئيين[١] ، كما يمكن اعتبار تشابه أسماء بعض الأماكن القديمة في الحبشة مع نظائر لها في اليمن ووجود معبـد في الحبشة خص بالإلـه (المقة) إلـه سبأ العظـيم[٢] ، وأمور أخرى دينية ولغوية وأثرية ، واعتراف الأحباش بأنهم من نسل ملكة سبأ (بلقيس) (ماقدة)[٣] ، من (سليمان الحكيم) ، وأن (حبشت) التي أخـذ الأحباش منها اسمهم في اللغة العربية هي مقاطعة تقع في العربية الجنوبية في رأي أكـثر العلماء[٤] ، وأن (الأجاعز) أصحاب اللغة الجعزية هم أقدم من هاجر من اليمن إلى الحبشة ، ووجود صلات قديمة بين الساحلين الإفريقي والعربي ، إذا نظرنا إلى كل هذه الأمور نظرة علمية دقيقة ، نجد أنها تجعل أمام القائلـين إن أصل الساميين من إفريقية صعوبات ليس من السهل التغلب عليها ، ولا سيما إذا أضفنا اليها الأثر الذي تركته اليهودية والنصرانيـة في الأحباش وفي الشعوب الكوشية الأخرى ، فقرب ثقافتها من الثقافة السامية وأثر في لغتها ، وهو أثر يجب أن يقام له وزن عند بحث هذا الموضوع .

ثم ان كثيراً من علماء (الأنثروبولوجي) يرون أن إفريقية تأثرت بالدماء الآسيوية . أما تأثيرها في دماء أهل الشرق الأدنى وفي دماء سكان جزيرة العرب ،

---

١ Mueller, Epigraphische Denkmaeler aus Abessinien, Glaser, Die Abessiner in Arabien und Africa, Muenchen, 1895.

٢ Ditlef Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, S., I, D. H. Mueller, Epigraphische Denkmaeler, S., 67.

٣ Enc., Vol., I, P. 720, E. Littman, The Legend of Queen of Sheba in Tradition of Axum, in Bibliotheca Abessinca.

٤ Enc., Vol., I, P., 119, Conti Rossini, Note sugli Habshat, Roma, 1905.

فقد كان قليلاً لقد دخلت اليها دماء شعوب الشرق الأدنى من البحر المتوسط ومن طور سيناء ومن مضيق باب المندب . ويظهر أثر هذا الاختلاط واضحاً في إفريقية الشرقية وإفريقية الشمالية ، وما زال هذا التأثر واضحاً حتى اليوم[١] . ولهذا فإن من الصعب تصور هجرة الساميين من افريقية الى جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق على وفق نظرية هؤلاء العلماء .

ومن القائلين إن المهد الأصلي للساميين هو أرض إرمينية (جون بيترس) ، وحجته في ذلك أن هذا المحل هو أنسب مكان يتفق مع رواية التوراة في الطوفان، وهو المحل الأصلي للأمم السامية والآرية[٢] . ثم إن الأنف الحثي يشبه كل الشبه الأنف العبراني ، وفي هذه التسمية دلالة على المكان ، وقد نسي أن العرب وهم من الساميين لم يرزقوا هذا الأنف[٣] .

وقد ذهب (أنكناد) (Ungnad) الى أن أصل الساميين من أووربة ، وقد تركوها وهاجروا منها إلى آسية الصغرى ، ثم هاجروا منها الى أرض (أمورو) (Amurru) ، وذهب قسم منهم في الألف الرابعة قبل الميلاد الى بابل وبقية أنحاء العراق[٤] .

وذهب (كلي) الى أن الوطن الأصلي للساميين هو أرض (أمورو) (Amurru) (الأموريين) وتشمل هذه الأرض ، في رأيه ، بلاد الشام ومنطقة الفرات[٥] . من هذه المنطقة هاجر الساميون ، وهو قد توصل الى نظريته هذه من الدراسات اللغوية[٦] ، ولكنها لا تستند في الواقع إلى أدلة قوية . والأموريون من الشعوب السامية القديمة التي سكنت في فلسطين والشام واقليم بابل[٧] .

---

١ L. H. D. Buxton, The People of Asia, London, 1925, P., 34.

٢ السامية (ص ٤)
Journal of the American Oriental Society, XXXIX, 243, ff, Barton, P., 8.

٣ Barton, P., 8.

٤ A. Ungnad, Die Aeltesten Voelkerwanderungen Vorderasiens, Kulturfragen, I, (Breslau), 1923, 5, A. Grohmann, Arabien, S., 14.

٥ Barton, P., 8, A. T. Clay, Amurru, The Home of the Northern Semites, Philadelphia, 1909, The Empire of the Amorites, New Haven, 1919, Enc. of Rel. and Ethics, II, 380.

٦ Barton, P., 9.

٧ Hastings, P., 27, Enc. Bibl., P., 146, Meissner, Altar. Privatrecht, No. 42, Schrader, K. A. T., S., 178. ff.

وذهب آخرون إلى أن الوطن الأول الأصل للساميين هو أرض (ققفاسية) ، إذ كان البشر من ثلاثة أجناس أساسية،هي : الجنس القفقاسي (Caucassids) والجنس المنغولي (Mongoloids) (الآسيويين) ، والجنس الزنجي Negroids . وقد قصدوا بالجنس القفقاسي أصحاب البشرتين البيضاء والسمراء ، أي الآريين والساميين . فوطن هذين الجنسين الأول هو (ققفاسية) على هذا الرأي . منه انتقل الساميون الى أوطانهم الجديدة ، بهجرتهم الى الجنوب واستقرارهم فيما يقال له (الهلال الخصيب) ، ثم فيما وراءه الى السواحل الجنوبية لجزيرة العرب ، ومنه انتقل الآريون الى الجنوب الشرقي لقفقاسية والى الغرب والشمال ، أي الى آسية وأوروبة ثم الى أماكن أخرى فيما بعد[١] .

وهجرات على هذا النحو ، لا بد أن تكون لها أسباب ومسببات،اذ لا يعقل ترك انسان لوطنه من غير سبب . وقد بحث القائلون بهذا الرأي عن الأسباب التي أدت الى وقوع تلك الهجرات ، فوضعوا لهم جملة فرضيات .

ظهر الساميون على مسرح الوجود في الألف الثالثة قبل الميلاد ، واستقروا في هذه الأرضين التي اصطبغت بالصبغة السامية ، وهي الهلال الخصيب وشبه جزيرة سيناء وجزيرة العرب ، حيث تعد اليوم المواطن الرئيسية للساميين[٢] .

وقد توسط بعض الباحثين بين الآراء المتباينة ، عن الوطن الأول للجنس السامي،فذهب الى أن الهلال الخصيب وأطراف جزيرة العرب هي الموطن الأول للساميين والميدان الذي وجدوا فيه منذ أقدم أيامهم،وقد كان هذا الميدان موضع صراع بين البداوة والحضارة ، فقد كان البدو يهاجمون الحضر سكان القرى والمدن ، والبدو هم من الساميين ، وكثير من الحضر كانوا من الساميين أيضاً، ومن هذا التنازع على الحياة تكوّن تأريخ الساميين في هذه المنطقة الواسعة من الهلال الخصيب التي تحدها من الشرق والشمال والغرب الجبال والتي تمتد فتشمل كل جزيرة العرب[٣] .

---

١ Sonia Cole, Races of man, British Museum (Natural History). PP. 9.

٢ Simon Dubnow, Weltgeschichte des Juedischen Volkes, Bd., I, S., 3.

٣ Ancient Iraq, PP., 125.

الهجرات السامية :

تقول كل النظريات التي رأيناها عن أصل الوطن السامي ، بهجرات الساميين من ذلك الوطن الأم الى أوطان أخرى في أزمان مختلفة متباينة ، وذلك لأسباب عديدة منها : ضيق أرض الوطن من تحمل عدد كبير من الناس،وتزاحم الناس على الرزق ، مما دعاهم الى التحاسد والتباغض والتفتيش عن وطن جديد،وظهور تغيرات في طبيعة ذلك الاقليم ، الى عوامل أخرى .

وقد تصور القائلون ان جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، بلاد العرب كمخزان هائل يفيض في حقب متعاقبة ، تبلغ الحقبة منها زهاء ألف عام ، بما يزيد على طاقته من البشر الى الخارج،يقذف بهم موجات أطلقوا عليها (الموجات السامية)[1] .

وقد علل القائلون بنظرية أن جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، سبب هذه الهجرات بعدم استطاعة جزيرة العرب قبول عدد كبير من السكان يزيد على طاقتها ، فلا يبقى أمامهم غير سلوك طريق الهجـرات الى الأماكن الخصبة في الشمال . وقد كانت الطرق الساحلية من أهم المسالك التي أوصلت المهاجرين الى أهدافهم .

وفي جملة أسباب ضيق جزيرة العرب عن استيعاب العدد الكبير من السكان تغير مستمر طرأ عليها ، أدى الى انحباس الأمطار عنها وشيوع الجفاف فيها مما أثر على قشرتها وعلى أحيائها ، فهلك من هلك وهاجر من هاجـر من جزيرة العرب ، وقد استمر هذا التغير آلافاً من السنين حتى حوّل بلاد العرب أرضين غلبت عليها الطبيعة الصحراوية ، وقلّت فيها الرطوبة ، وغلب على أكثر بقاعها الجفاف[2] .

وقد رأى بعض العلماء أن جزيرة العـرب كانت في عصر (البلايستوسين) (Pleistocene) خصبة جداً كثيرة المياه ، تتساقط عليها الأمطار بغزارة في جميع فصول السنة ، وذات غابات كبيرة وأشجار ضخمة،كالأشجار التي نجدها في الزمان

---

١ حتي (ص ١٣) . Montgomery, Arabia and the Bible, P., 21.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, PP., 90, « The Problem of the Physical change in Arabia ».

الحاضر في الهند وإفريقية ، وأن جوها كان خيراً من جو أوروبة في العصور الجليدية التي كانت تغطي الثلوج معظم تلك القارة ، ثم أخذ الجو يتغير في العالم، فذابت الثلوج بالتدريج ، وتغير جو بلاد العرب بالطبع ، حدث هذا التغير في عصر الـ (نيوليتك Neolithic) أو في عصر الـ (كالكوليتك) (Chalcolithic) ، ولم يكن هذا التغير في مصلحة جزيرة العرب ، لأنه صار يقلل من الرطوبة ويزيد في الجفاف ، ويحول رطوبة التربة إلى يبوسة فيميت الزرع بالتدريج ، ويهيج سطح القشرة فيحولها رمالاً وتراباً ثم صحارى لا تصلح للانبات ولا لحياة الأحياء[1] .

فاضطر سكان الجزيرة الذين كانوا من الصيادين إلى أن يكيفوا أنفسهم بحسب الوضع الجديد ، فأخذ ناس منهم يهاجرون إلى مناطق أخرى ملائمة توائم حياتهم ومزاجهم ، وأخذ ناس آخرون يعتمدون على الزرع وتدجين الحيوانات، وعلى الاكتفاء بصيد ما يرونه من حيوانات تحملت الجو الجديد متنقلين من مكان إلى مكان حيث الكلأ والماء . وهكذا تعرضت حياة الأجسام الحية من نبات وحيوان لتغيرات تدريجية مستمرة ، فرضها عليها تغير الجو .

وقد أدى انحباس المطر وازدياد الجفاف ويبوسة الجو الى انخفاض الرطوبة من سطح الأرض ، وهبوط مستوى الماء بالتدريج عن قشرة الأرض، وظهور الأملاح في الآبار ، وجفاف بعض الآبار ، فأدى ذلك إلى ترك الناس هذه الأماكن ، إذ صعب عليهم استغلالها بالزراعة ، واصلاحها بحفر آبار لا تساعد مياهها المالحة على نمو النبات ، ومعيشة الحيوان . حدث ذلك حتى في العصور الإسلامية حيث نسمع شكاوى مريرة من هذه العوارض الطبيعية[2] .

---

١ BOASOR, Suppl., No. 7-9, P, 41, (1950), Discoveries, P. 82, A. Grohmann., Arabien, S. 5, B. Thomas, Anthropological Observations in South Arabia, Proceedings of the Royal Anthropological Institute.

٢ تجد امثلة كثيرة وبحثا نيما في هذا الموضوع كتبه (موريتس B. Moritz) في كتابه :
Arabien, Studien Zur Physikalischen und Historischen Geographie des Landes.

وقد تحدث (فلبي) عن هبوط مستوى مياه بعض الآبار الـتي زارها عام ١٩١٧م في الخرج[١] ، كما تحدث غيره من السياح عن حوادث مشابهة حدثت في تهامة والحجاز وأماكن أخرى[٢] .

ويعزو علماء طبقات الأرض انخفاض مستوى سطح الماء في جزيرة العرب إلى عوامل أخرى، إضافة إلى الجفاف مثل هبوط درجات الضغط على قشرة الأرض . وقد رأى الخبير الأمريكي (توبجل) (Twitchell) ، أن الماء قد انخفض زهاء سبع وعشرين قدماً عن مستواه الذي كان عليه قبل ألفي عام[٣] . ومن العلماء من يرى أن مستوى سطح الماء في البحر الأحمر وفي الخليج العربي قد انخفض كذلك، فذهب بعض علماء دراسة التوراة إلى أن مستوى سطح الماء في خليج السويس قد انخفض (٢٥) قدماً عما كان عليه في (أيام الخروج – Exodus)[٤] . وذهبت جماعة منهم إلى أن هذا الهبوط لم يكن كبيراً ، وانما بلغ زهاء ست أقدام أو أقل من ذلك في خلال ثلاثة آلاف سنة[٥] . أما مستوى سطح الخليج العربـي ، فقد هبط على رأي بعضهم زهاء عشر أقدام أو خمس أقدام خلال ألفي عام ، وان ماء البحر قد تراجع في هذه المدة ، ويستدلون على ذلك بوجود السباخ في الأحساء والقطيف ، وهي ، في رأيهم ، من بقايا تأثر البحر في الأرض وبما ذهب اليه بعضهم من أن الربع الخالي ، وقد عثر فيه على بقايا بحر واسع في السهل المنخفض الذي يقال له أبو بحر ، كان متصلاً بالبحـر العربـي[٦] . ومهما يكن من شيء ، فإن هبوط مستوى سطح الماء مهما كان مقداره قد أثر في سطح الأرض .

وقد وجد السياح محاراً من النوع الذي يكون في المياه العذبة ، وأدوات من الصوان ترجع إلى ما قبل التأريخ والعصور الحجرية ، وبقايا عظام ترجع إلى هذه العصور في مناطق صحراوية ، ويدل وجودها فيها على أنها كانت مأهولة، وأنها لم تهمل إلا لعوارض طبيعية قاهـرة لم يكن من الممكـن التغلب عليها ، حولت

---

١ Philby, The Heart of Arabia, P., 37, 38, BOASOR, Suppl., Nos, 7-9, P., 41.

٢ راجع كتاب « موريتس » المذكور Discoveries, P., 83.

٣ Twitchell, Saudi Arabia, P., 44, 51.

٤ BOASOR, Suppl, Stud., Nos, 7-9, P. 42.

٥ المصـدر نفسـه

٦ Philby, The Heart of Arabia, P., 31, Dougherty, The Sealand, P., 160.

تلك المناطق الخصبة في ألوف من السنين إلى مناطق لا تتوفر فيها شروط الحياة ، فهجرت[1] .

كما أننا نجد في الكتب العربية ذكر أشجار ضخمة كانت تنمو في مناطق لا تنبت شيئاً ما في الزمان الحاضر ، وذكر مناطق كانت تحمي ، يقال لها (الحمى) وقد جفّ معظمها ، وعاد أرضين قفرة جرداء، فهلاك هذه النباتات وجفاف هذه الأرضين ، لا يمكن أن يعزى إلى سوء الأوضاع السياسية وهجرة القبائل والمزارعين إلى أماكن أخرى لفساد الادارة في الأماكن البعيدة حسب ، بل لا بد أن يكون للطبيعة يد في هذا التحول ونصيب . إن هذا التغير الذي حدث في جو جزيرة العرب ، فساعد على ازدياد الجفاف وانحباس الأمطار ، قد أباد النباتات ، وقاوم نمو المزروعات ، وعفى على الأشجار الضخمة التي كانت تعيش من امتصاص جذورها العميقة للرطوبة من أعماق الأرض ، كما أثر في حياة الحيوان كالأسد الذي قلّ وجوده ، وقد كان كثير الوجود ، ويدل على كثرة وجوده هذه الأسماء الكثيرة التي وضعت له وحفظت في كتب اللغة[2] . وحمار الوحش وقد كان من الحيوانات التي يخرج الناس لصيدها في الحجاز وفي نجد ، والنعامة[3] . والرئم أو بقر الوحش ، والفهد ، والنسر[4] .

ومن العلماء الذين نسبوا هجرة الساميين من جزيرة العرب إلى خارجها ، إلى عاملي الجفاف والتغير الذي وقع في جو جزيرة العرب ، العالم الايطالي (كيتاني) (L. Caetani) . لقد تصور (كيتاني) بلاد العرب في الدورة الجليدية جنة، بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة وكانت سبباً في رسم تلك الصورة البديعة في مخيلة كتّاب التوراة عن (جنة عدن) . وجنة عدن المذكورة في العهد القديم هي هذه الجنة التي كانت في نظر (كيتاني) في جزيرة العرب ،

---

١ المراجع نفسها ، مجلة سومر ١٩٤٩ ، المجلد الخامس ، ١٢٧/٢ فما بعدها .

٢ المخصص (٥٩/٨ فما بعدها) وقد اشتهرت بعض الاماكن باسودها ، مثل (عثر) قال الهمداني : « والى حارة عثر تنسب الاسود التي يقال لها اسود عثر ، واسود عتود وهي قرية من بواديها وقد ذكرها ابن مقبل : »

جلوسا بها الشم اللجان كانهم   اسود بترج او اسود بعتودا

Moritz, S., 35. ff., 40, Noeldeke, In ZDMG., 49, 713. f.

٣ Moritz, S., 42, Wellhausen, Lieder der Hudhailiten, No., 175, 176, Euting. I, 230.

٤ صفة ص ٢٠٢

غير أن الطبيعة قست عليها ، فأبدلتها صحارى ورمالاً ، حتى اضطر أصحابها إلى الارتحال عنها إلى أماكن تتوافر فيها ضروريات الحياة على الأقل فكانت الهجرات إلى العراق وبلاد الشام ومصر والمواطن السامية الأخرى . وكانت هذه الهجرات كما يقول قوية وعنيفة بين سنة ٢٥٠٠ وسنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ، فدخل الهكسوس أرض مصر ، وهاجر العبرانيون إلى فلسطين ، ثم ولي ذلك عدد من الهجرات[١] .

ويرى (كيتاني) أن هذا التغير الذي طرأ على جو جزيرة العرب ، انما ظهر قبل ميلاد المسيح بنحو عشرة آلاف سنة ، غير أن أثره لم يبرز ولم يؤثر تأثيراً محسوساً ملموساً إلا قبل ميلاد المسيح بنحو خمسة آلاف سنة . وعندئذ صار سكان بلاد العرب ، وهم الساميون ، ينزحون عنها أمواجاً ، للبحث عن مواطن أخرى يتوفر فيها الخصب والخير ، وحيـاة أفضل من هذه الحياة التي أخذت تضيق منذ هذا الزمن[٢] .

وقد تصور (كيتاني) أودية جزيرة العرب ، مثـل وادي الحمض ووادي السرحان ووادي الرمة ووادي الدواسر ، أنهاراً كانت ذات مياه غزيرة تنساب اليها من المرتفعات والجبال في الدهور الغـابرة ، أثرت فيها التغيرات الطبيعية المذكورة ، فقللت من مياهها حتى جفت، فصارت أودية ، لا تجري فيها المياه إلا أحياناً ، إذ تسيل فيها السيول بعد هطول الأمطار[٣] .

وقد ذهب إلى هذا الرأي المستشرق الألماني (فرتز هومل) أيضاً ، فرأى أن الأنهر المذكورة في التوراة على أنها أنهر جنة (عدن) ، هي أنهر تقع في بلاد العرب ، وأن الأنهر المشار اليها ، هي وادي الدواسر ، ووادي الرمة ، ووادي السِّرحان ، ووادي حَوْران[٤] . وأمـا (كلاسر) ، فذهب إلى أن نهـري

---

١ المقتطف ، جزء يوليو ١٩٤٤ ، ص ١٢٣ فما بعدها ، الجزء الثاني من المجلـد الخامس بعد المئة ، مجلة سومر ، الجزء الثاني ، المجلد الخامس ١٩٤٩ ، ص١٢٣ فمـا بعدهـا ،
Caetani, Studi della Historia Orientale, Vol., I, P., 64, 185, 186, 188, 192. 277. Musil, Negd, P., 311, 305, Caetani, Studi, Vol. 2, PP. 53, 65.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, P., 95.

٣ Caetani, Studi, Vol., I, P., 64, 80, 243, Vol. 2, PP. 53. 65. Musil. Negd. P., 305, Caetani, Annali Dell'Islam, II, Part II, (1907), 831. ff.

٤ Montgomery, Arabia, PP., 9, F. Hommel, Opus Magnum Ethnologie und Geographie des Alten Orients, II, 508, 547, 1926.

(جيحون) و (فيشون) ، وهما من أنهر (جنة عدن) الأربعة في رواية التوراة[1] ، هما في جزيرة العرب[2] .

ويعتقد (كيتاني) أن الفيلة والحيوانات الضخمة التي يندر وجودها اليوم في بلاد العرب ، كانت موجودة فيها بكثرة ، ولا سيما في أرض (مدين) . وكان الصيادون يخرجون لاصطيادها لأكل لحومها[3] . وقد جـاء بأمثلة لتأييد رأيه من كتب (الكلاسيكيين)[4] .

وقد قسّم (كيتاني) جزيرة العرب إلى قسمين : غربي وشرقي . أما القسم الغربي،فهو الذي على ساحل البحر الأحمر الشرقي،وفيه سلاسل جبلية ومرتفعات . وأما القسم الشرقي ، فالأرضون التي تأخذ في الانحدار والميل . وهي عند السفوح الشرقية للجبال ، وتمتد نحو الخليج . وقد كان سكان المناطق الغربية ــ في رأيه ــ في مستوى راقٍ من المدنية ، وكان لهم سلطان كبير على المناطق الشرقية ، وعلى سكانها الذين كان يغلب عليهم الفقر . وقد كان فعل الجفاف أشد وأسرع في الأرضين الشرقية منه في الأقسام الغربية ، لذلك بدأت الهجرات من هذه المناطق قبل المناطق الغربية،وظهرت فيها البداوة بصورة أوضح من ظهورها في الأرضين التي على ساحل البحر الأحمر والمتصلة باليمن وبلاد الشام . ولما توسعت منطقة الجفاف وأخذت الرطوبة تقلّ في جو بلاد العرب الغربي ، ظهـرت أعراض الصحراوية في تلك الأرضين كذلك ، واضطر السكان إلى الهجرة منها إلى مناطق أخرى[5] .

وقد لاقت نظرية (كيتاني) هذه رواجاً بين عدد كبير من المستشرقين ، واعتدها (السير توماس أرنولد) من أهم النظريات التي اكتشفها المؤرخون الحديثون بالنسبة إلى التاريخ العربي[6] . غير أن المستشرق (الويس موسل) ، يرى أنها لا تستند إلى أسس تأريخية ، ولا إلى أدلة علمية ، وأن القائلـين بها قد بالغوا

---

١ التكوين ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٠ فما بعدها .

٢ Glaser, Skizze, S., 314, Montgomery, P., 94.

٣ Musil, Negd, P., 308.

٤ Strabo, Geography, XVI, 4, 18, Periplus, PP., 177, (Mueller Ed.), Diodorus. Bibliotheca Historica, III, 43. f.

٥ Musil, Negd, P., 311, Caetani, Studi., P., 210.

٦ Musil, Negd, P., 304, Arnold, The Caliphate, (1924), PP. 23.

فيها مبالغة كبيرة ، ويرى أنه ما دامت البحوث (الجيولوجية) التي قام بها العلماء في مراحلها الأولى ، وقد جرت في مناطق محدودة فلم تفحص أكثر مناطق جزيرة العرب فحصاً علمياً فنياً ، حتى الآن ، فلا يصح الاعتماد على فرضيات ، تبنى عليها آراء ثابتة . ولهذا فهو يرى أن الأدلة (الجيولوجية) التي استشهد بها (كيتاني) ضعيفة وغير كافية ، فهي لا تستحق مناقشة ، واكتفى بمناقشة الأدلة التأريخية[1] .

يرجع (موسل) سبب الهجرات ، وتحول الأرضين الخصبة صحارى ، إلى عاملين هما : ضعف الحكومات ، وتحول الطرق التجارية[2] . فضعف الحكومات ينشأ عنه تزعم سادات القبائل والرؤساء ، وانشقاقهم على الحكومات المركزية ، ونشوب الفتن والاضطرابات واشتعال نيران الحروب، وانصراف الحكومة والشعب عن الأعمال العمرانية ، وتلف المزارع والمدن، وتوقف الأعمال التجارية وحصول الكساد ، وانتشار الأمراض والمجاعة ، والهجرة إلى مواطن أخرى يأمن فيها الانسان على نفسه وأهله وماله . فخراب سدّ (مأرب) مثلاً لا يعود إلى فعل الجفاف الذي أثر على السدّ كما تصور ذلك (كيتاني)[3] ، بل يعود إلى عامل آخر لا صلة له بالجفاف ، هو ضعف الحكومة في اليمن ، وتزعم (الأقيال) و (الأذواء) فيها ، وتدخل الحكومات الأخرى في شؤون العربية الجنوبية كالحبشة والفرس ، مما أدى إلى اضطراب الأمن في اليمن ، وظهور ثورات داخلية وحروب ، كالذي يظهر من الكتابات التي تعود إلى النصف الثاني من القرن السادس للميلاد[4] ، فألهى ذلك الحكومة عن القيام بإصلاح السد، فتصدعت جوانبه ، فحدث الانفجار ، فخسرت منطقة واسعة من أرض اليمن مورد عيشها الأول ، وهو الماء ، ويبست المزارع التي كانت ترتوي منه ، واضطرت القبائل وأهل القرى والمدن الواقعة فيها إلى الهجرة إلى مواطن جديدة . وتصدع السد بسبب ضغط الماء على جوانبه، هو في حد ذاته دليل على فساد نظرية الجفاف[5] .

---

١ Musil Negd, P., 304.

٢ Musil, Negd, PP., 317.

٣ Musil, Negd, P., 309, Caetani, Studi., 267, 296.

٤ Corpus Inscriptionum Semiticarum, (1911), Part, 4, Vol., 2, Nos. 384, 540, 541.

٥ Musil, Negd, P., 310, Corpus Inscript. Semit, No. 540, II, 54-64.

ويرى (موسل) أن التقدم الذي حدث في البلاد العربية بعد القرن التاسع عشر دليل آخر على فساد نظرية (كيتاني) ، فقد ظهرت مدن حديثة، وعمرت قرى ، وشقت ترع ، وحفرت آبـار ، وعاش الانسان والحيوان والنبات في مناطق من العراق وسورية ولبنان وفلسطين والأردن كانت تعـد من الأرضين الصحراوية[1] . فليس الجفاف هو المانع من عمارة هذه المناطق ، والسبب في تكون هذه الصحارى ، بل السبب شيء آخر ، هو ضعف الحكومات وانصرافها عن العمارة وعن المحافظة على الثروة الطبيعية وضبط الأمن ، ووقوفها موقف المتفرج تجاه قطع الناس للأشجار واستئصالها لاستخراج الفحم منها ، أو لاستعمال خشبها في أغراض أخرى ، وقتال القبائل بعضها ببعض ، هذا وان من الممكن إعادة قسم من الأرضين الجرد إلى ما كانت عليه ، إذا ما تهيأت لها حكومة قوية رشيدة تنصرف إلى حفر الآبار ، واقامة السدود ، وغرس الجبال ، وانشاء الغابات ، والاستفادة من مياه العيون[3] .

ويرى (موسل) أيضاً أن ما ذكره (كيتاني) عن الأنهـار في جزيرة العرب مسألة لا يمكن البت فيه الآن،لقلة الدراسات العلمية[2] ، كما ان ما ذكره عن انعدام أجناس من الحيوانات ، ليس مرده إلى الجفاف وعـدم احتمال تلك الحيوانات الجو الجديد ، فهلكت ، أو هاجرت إلى مواطن جديدة ، بل مرده في نظره إلى اعتداء الانسان عليها ، وقتله اياها . ودليله على ذلك أن الحيوانات التي ورد ذكرها في كتب (الكلاسيكيين) لا تزال تعيش في المناطق التي عيّنها أولئك الكتّاب ، ولكنها بقلة . كذلك نجد الهمداني وغيره ينكـر وجود الأسد وحيوانات أخرى في مواضع قلّ فيها وجودها الآن ، وهذا ممـا يشير إلى أن هذه الحيوانات لم تنقرض أو تقل بفعل تبدل الجو ، بل بفعل اعتـداء البشر عليها ، وان اعتداء البشر على الحيوان شر من اعتداء الطبيعة عليه[4] .

ولا يوافق (موسل) على نظرية (كيتاني) في هجرة القبائـل العربية من الجنوب إلى الشمال ، أو من الشرق إلى الشمال . وقد رأى (كيتاني) كما سبق

---

١ Musil, Negd, P., 310.

٢ Musil, Negd, P., 318.

٣ Musil, Negd, P., 305, Caetani, Studi., P., 60, 87. ff.

٤ Musil, Negd, P., 309.

أن ذكرنا تقسيم جزيرة العرب إلى قسمين : قسم غربي وهو الممتد من فلسطين إلى اليمن ، وينتهي بالبحر العربي ، وتكون حدوده الشرقية (السراة) والغربية البحر الأحمر ومضيق باب المندب . وقسم شرقي ، وهو ما وقع شرقي (السراة) إلى الخليج والبحر العربي[١] .

وقد ظهر الجفاف في رأي (كيتاني) في القسم الشرقي قبل الغربي ، ولهذا صار سكانه يهاجرون منه بالتدريج إلى مواطن جديدة صالحة للاستيطان مثل العراق والشام ، كما صار سبباً لظهور الصحارى الشاسعة في هذا القسم بصورة لا نعهدها في القسم الغربي[٢] .

ويرى (موسل) أن هذا تقسيم لا يستند إلى أسس طبيعيه وجغرافية ، ولا إلى آراء (الكلاسيكيين) ، أو علماء الجغرافية العرب ، أو غيرهم ، وانه مجرد رأي لا يمكن أن يكون حجة لاثبات مثل هذا الرأي[٣] .

ولموسل رأي في الهجرات ، يرى أن ما قاله (كيتاني) وغيره عن الهجرات من جزيرة العرب ، من اليمن أو من نجد إلى الشمال ، قول لا يستند إلى دليل تأريخي قوي . فليست لدينا حتى الآن براهين كافية تثبت – على حد قول موسل – أن أصل (الهكسوس) أو (العبرانيين) مثلاً من جزيرة العرب[٤] . كما أن ما ادعاه (كيتاني) عن استمرار الهجرات من الألف الثالث أو قبل ذلك قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد قول لا ينطبق مع المنطق . فلِمَ ظلت هذه الهجرات مستمرة إلى أن توقفت بعد القرن السابع للميلاد ؟ أزادت الرطوبة وتحسن الجو ؟ أم أن القبائل الكبيرة كانت قد تجزأت إلى قبائل صغيرة وعشائر وأفخاذ ، فأصبح في امكانها العيش بعض الشيء في محالّ صغيرة ، لا تحتاج إلى مراعي شاسعة ، ولا إلى مياه غزيرة ؟ فلم تدفعها الحاجة منذ هذا العهد إلى الهجرة في شكل موجات كبيرة . وهل كان الجفاف هو المانع من مهاجمة حدود الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية اللتين كانتا قد سدتا أبواب جزيرة العرب على أهلها ، فلم تسمحا للقبائل بتخطي هذه الحدود ؟ ويرى ان

---

١ Musil, Negd, P., 311.
٢ Caetani, P., 210, Musil, Negd, P., 311.
٣ Musil, Negd, P., 311.
٤ Musil, Negd, P., 311.

ما ادعاه (كيتاني) من أن الجفاف والجوع حملا قبائل اليمن على الهجرة إلى الهلال الخصيب حيث نزلت في أرضين كانت خالية مهجورة على أطراف الفرات والشام ، فألفت حكومتي (المناذرة) و (الغساسنة) ، قول لا يؤيده ما جاء في الكتب (الكلاسيكية) وفي المصادر (السريانية) من أن تلك الأرضين كانت عامرة ، آهلة بالسكان ، تمر بها الطرق التجارية العالمية . ويرى (موسل) أن الحكومتين (اللخمية) و (الغسانية) إنما ظهرتا بعد سقوط (تدمر) وقد أسس الدولتين (مشايخ) من أهل الهلال الخصيب،ولم يكونوا مهاجرين وردوا من الجنوب ، أو من العروض على نحو ما تزعمه بعض الروايات[1] .

ويأخذ (موسل) على (كيتاني) تصديقه الرواية العربية عن هجرة القبائل ونظريتها في الأنساب ، واعتدادها من جملة الأدلة التي تثبت نظرية الجفاف . ويرى أنها - مع التسليم بصحتها - تنطبق على الوضع الذي كان في القرن السابع للميلاد وفي الجاهلية القريبة من الإسلام ، وأنها رواية تستند إلى خبر مسوغ لا يصح أن يكون سنداً في اثبات الهجرات لما قبل الميلاد[2] .

ويمكن تفسير انتساب القبائل - على حد قول موسل - بصورة أخرى ، هو أن العرب الجنوبيين كانوا قد هيمنوا في الجاهلية وقبل الإسلام بقرون على الطريق التجارية التي تصل الشام باليمن وعلى الطرق التجارية الأخرى ، وكانت لهم حاميات فيها لحماية القوافل من غارات الأعراب ، فلما ضعف أمر حكومات اليمن ، استقلت هذه الحاميات ، وكان كثيراً من أفرادها قد تزاوجوا مع من كان يجاورهم من القبائل ، واتصلوا بهم . ولما كان لليمن مقام عظيم وشرف بين القبائل ، انتسب هؤلاء إلى اليمن ، وصاروا يعدون أنفسهم مهاجرين ، يتصل نسبهم بنسب اليمن . ومن هنا نشأت ، في رأي (موسل) أسطورة الأنساب ! ثم جاء علماء الأنساب في (المدينة) و (الكوفة) فسجلوها على أنها حقيقة واقعة ، ومنهم انتقلت إلى كتب التأريخ ، فتوسعت وتضخمت في الإسلام[3] .

ويدّعي (موسل) أنه لو كانت هنالك هجرات حقاً ، لرأينا أثرها في لغة

---

١ Musil, Negd, P., 312, Kuseir 'Amra, PP., 131.

٢ Caetani, PP., 268, Musil, Negd, P., 311.

٣ Musil, Negd, P., 312.

القبائل النازحة إلى الشمال وفي عقيدتها الدينية وفي ثقافتها وفي أساطيرها وفي قصصها الشعبي ، ولوجدنا في أقل الأحوال إشارة في الكتابات العربية الجنوبية التي تعود إلى ما قبل الإسلام . ولكننا لا نجد شيئاً من ذلك ، وهذا مما يفند رأي القائلين بالهجرات،وبأن أصل كثير من القبائل التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب ، ومن هؤلاء الغساسنة والمناذرة ، هم من اليمن[1] .

ويعترض (موسل) أيضاً على دعوى (كيتاني) وغيره من المستشرقين ممن زعموا أن الفتح الإسلامي هو آخر هجرة سامية قذفت بها جزيرة العرب إلى الخارج ، وأنها كانت بسبب الجفاف والجوع ، ويرى أن ما جاء في هذه الدعوى لا يتفق مع الحقيقة ، وأن ما ذكره (كيتاني) عن عدد نفوس الحجاز مبالغ فيه ، وأن الجيوش التي اشتركت في فتح العراق والشام وفلسطين لم تكن حجازية أو نجدية حسب ، بل كانت فيها قبائل عراقية وشامية نصرانية،ساعدت أبناء جنسها العرب مع اختلافها مع المسلمين في الدين،وحاربت الروم والفرس ، ولذلك فليست الفتوحات الإسلامية هجرة من جزيرة العرب إلى الخارج على نحو ما تصوره (كيتاني) بدافع الفقر والجوع[2] .

والرأي عندي أن ما يسمى بموضوع تغير الجو في جزيرة العرب وبالهجرات السامية والاستشهاد بآثار السكنى عند حافات الأودية وفي أماكن مهجورة نائية ، لاتخاذ ذلك دليلاً على الوطن السامي وعلى هجرة الساميين ، هو موضوع لم ينضج بعد ، وهو لا يزال بعدُ يحتاج إلى دراسات علمية وإلى نتائج أبحاث علماء (الجيولوجيا) والعلوم الأخرى ، ليقولوا كلمتهم في هذا الموضوع . فعلى بحث هؤلاء يتوقف الحكم في موضوع تطور الجو وتغير الإقليم . أما الحدس والتخمين، وأما الاعتماد على حوادث وعلى بحوث لغوية ومقابلات ومطابقات في أمور دينية وثقافية أخرى ، فإنها لا تكفي في نظري للبت في قضايا يجب أن يكون فيها الحكم والكلمة للعلوم لا للحدس والتصور والتخمين . هذا هو رأيي الآن في هذا الموضوع ، وفي كل الآراء الواردة عن مواطن الساميين .

فقد رأينا أن بعض تلك الآراء إنما قيلت لاعتقاد أصحابها بما ورد في التوراة،

---

١ Musil, Negd, P., 318.

٢ Musil, Negd, P., 313, Caetani, Studi., P., 307.

فجاءت بكل ما عندها من حجج وأدلة لإثبات رأيها هذا ، ورأينا أن في بعض الأدلة متناقضات واستشهادات ضعيفة ، ورأينا أن الاستشهاد باشتراك اللغات في الألفاظ لا يمكن أن يكون دليلاً قاطعاً على الأصل المشترك ، ثم إننا لا نملك سجلاً تاريخياً للنبات والحيوان ولظهور الألفاظ حتى نستشهد به في اثبات نظرية من النظريات ، وكل ما لدينا من هذا النوع إنما هو مجرد رأي وحدس. والرأي لا يكون رأياً علمياً إلا بحجة قاطعة وبدليل علمي دامغ وبحوث مختبرية وآثار تثبت ذلك للعيان ، فمن حقي إذن أن ألتزم التريث والانتظار وأستعجل العلماء المتخصصين في دراسة طبقات الأرض ، لنرى نتائج بحوثهم لنستنير بها في اعطاء أحكام في هذه الآراء .

أما بعض الأمثلة التي استُشهد بها لاثبات تغير جو جزيرة العرب ، فهي أمثلة لا يمكن أن تكون دليلاً للتغير ، وإنما ترجع إلى عوامل أخرى مثل تغير طريق القوافل ، وتغير اتجاهات السفن البحرية ، وإلى الفتن والحروب وغارات القبائل المتوالية التي هي من شر الأوبئة التي فتكت بالمجتمع العربي ، فسببت هرب الحضر من أماكن اقامتهم إلى أماكن أخرى ، لعدم وجود قوات نظامية وحكومة ترد اعتداءات الأعراب عليهم ، ثم الحروب الأهلية التي وقعت في اليمن بين الحبش وأهل اليمن وأمثال ذلك مما وقع بين الفرس والعرب . أما في الإسلام،فقد كان للفتوحات دخل كبير في هجرة القبائل لنشر الإسلام وللاستمتاع بخيرات بقاع جديدة في العراق وفي بلاد الشام وفي أمكنة أخرى لا يوجد لها مثيل في جزيرة العرب ، فتخربت لذلك بعض القرى والسدود القديمة التي كانت في الإسلام ، وهي اليوم خراب . أضف إلى ذلك الحروب والفتن التي وقعت في اليمن وفي باقي العربية الجنوبية والعروض في أيام الأمويين والعباسيين وفي الأيام التي تلتهم ، فنشرت في تلك الديار الخراب ، ثم اهمال الأمويين ومن جاء بعدهم من خلفاء وملوك وحكام شأن جزيرة العرب ، لفقرها وعدم وجود موارد غنية فيها ، وانتقال أصحابها أصحاب الجاه والنفوذ إلى البلاد الغنية ، فلم يبق من يدافع عنها ويتحدث بلسانها باعتبارها مهد العرب الأول ومهد الإسلام، فتقوى الخراب بذلك على العمار ، وأخذ يبتلع ما يجده أمامه من مستوطنات حتى وصلت إلى ما وصلت اليه اليوم .

والدليل على ذلك ، ورود أسماء مواضع عديدة في اليمامة وفي الحجاز وفي

نجد واليمن وفي كل أنحاء جزيرة العرب الأخرى في الموارد العربية الإسلامية ، كانت مأهولة مزروعة في صدر الإسلام ، خربت وهجرت وصارت أثراً ، وقد ذهب عن أكثرها حتى الاسم . فلما كتب عنها الجغرافيون لم يجدوا من عمرانها شيئاً . بل نجد في كتب الجغرافيين أسماء مواضع نزلوا بها وأقاموا فيها، وكانت معمورة مسكونة . أما اليوم فلم يبق من أكثرها شيئاً ، فهل نرجع فعل هلاكها إلى الجفاف وتغير الجو وإلى اندثار الواحات والبحيرات والأنهار ؟ إن الجغرافيين المذكورين لم يشيروا إلى وجود واحات وبحيرات وأنهار حتى نقول بفعل الجو فيها ، بل هنالك عوامل أخرى عديدة اضطرت الناس إلى ترك مواطنهم تلك التي ذكرتها ، وفي مقدمتها الفتن والغزو وتغير الطريق وعدم قيام حكومة قوية تحمي الأمن .

وأما موضوع الاستشهاد بالهجرات ، فإنه موضوع غامض يحتاج إلى دراسة علمية عميقة ، فالذين يرون أن جزيرة العرب كانت مهد الجنس السامي،وضعوا نظريتهم هذه قياساً على روايات أهل الأخبار من أمر هجرة العرب إلى تلك الأرضين ، ومن الفتح الإسلامي الذي جرف قبائل عدنانية وقحطانية فساقها إلى بلاد العراق وبلاد الشام وإلى ما وراء هذه الأرضين ، ومن هجرة قبائل من جزيرة العرب إلى تلك البلاد حتى الزمن القريب،ومن أخبار عن هجرة الفينيقيين من البحرين إلى بلاد الشام . ولكننا نجد من ناحية أخرى ان التوراة تذكر أن الاسماعيليين هم سكان أرضين تقع في الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب وفي شرق فلسطين في البادية وفي طور سيناء ، والأخباريون يذكرون أن العدنانيين هم من سلالة اسماعيل أي أنهم اسماعيليون ، ويذكرون أنهم جاؤوا من الشمال فسكنوا الحجاز ، وأن جدهم رفع قواعد البيت الحرام . ونرى أن اليهود زحفوا من فلسطين نحو الحجاز ، وأن أقواماً من سكان العراق زحفوا نحو الجنوب فسكنوها في العروض . وأن قبائل عراقية كالقبائل العبرانية هاجرت من العراق إلى بلاد الشام ثم إلى مصر ثم عادت إلى بلاد الشام ، فمثل هذه الهجرات تلفت النظر وتجعل الباحث يبحث عن أمثلة أخرى من هذا القبيل ، لعله يجد غيرها أيضاً . وهي تجعله يشعر أن الهجرات لم تكن دائماً في اتجاه واحد ، بل كانت حركة دائمة تتجه مختلف الاتجاهات ، لعوامل سياسية واقتصادية وحربية ساحتها من شمال بلدية الشام إلى سواحل البحر العربي في الجنوب ، ومن سواحل البحر

الأحمر إلى سواحل الخليج العربي ، فهي ليست هجرات بالمعنى الذي نفهمه من الهجرات في لغة علماء الساميات ، ذات أزمان معينة لها أمد محدود كألف عام أو أكثر من ذلك أو أقل ، وبمقياس ضخم كبير ، بل هي حركة دائمة لقبائل أو لجماعات تتنقل من مكان إلى مكان طلباً للمعاش أو لأحوال سياسية وحربية ، فهي هجرة بهذا المعنى إذن ليس غير . فهذه الأرضون التي تشمل كل جزيرة العرب والعراق إلى حدود الجبال وكل البادية الواسعة حتى سواحل البحر الأبيض فطور سيناء إلى نهر النيل ، هي مواطن الساميين، ومسارحهم التي كانوا وما زالوا يدرجون عليها . وقد درجت عليها أقوام أخرى أيضاً ليست بأقوام سامية ، قبل الميلاد وبعده ، بل حتى في زمن الإسلام ، ولكنها غلبت على أمرها، وصهرت في بوتقة الساميين ، أمثال الفرس واليونان والرومان والصليبيين . فقد بقي من هؤلاء خلق اندمجوا بهم وتخلقوا بأخلاقهم وتكلموا بألسنتهم بمرّ السنين ، حتى صاروا مثلهم ومنهم ، وبذلك امتزجت دماء الساميين بدماء غريبة عنهم فدمهم من هنا ليس بدم صاف نقي ، وليس في الأجناس البشرية جنس يستطيع أن يفخر فخراً مطلقاً بكونه الجنس النقي الخالص الذي لم يختلط قط بأي دم غريب .

أضف إلى ما تقدم أن العلماء القائلين بتبدل الجو وبتغيره ، هم على خلاف بينهم في الأزمنة وفي الأسباب . فمنهم من بالغ ، ومنهم من أفرط حتى قال إن الجو في جزيرة العرب كان يختلف في أيام اليونان والرومان عنه في الأيام الحديثة[1] . ومنهم من قال إن الجو لم يتبدل تبدلاً محسوساً مؤثراً فيها منذ حوالي ألفي عام ، ومنهم من عزا أسباب انخفاض مستوى الماء الأرضي في جزيرة العرب إلى عوامل ليست لها صلة بتبدل الجو، وعزا خراب القرى والمدن واندثار السدود الى عوامل أخرى لا علاقة لها بتبدل الجو[2] . ومع كل ذلك ، فإن هذه الدراسات لم تنضج بعد ، ودراسة أرض جزيرة العرب وجوّها لم تتم بصورة علمية مختبرية بعد ، وأكثر ما ذكرته هو ملاحظات مؤرخين أو باحثين علميين، على نحو من الحدس والتخمين ، ولا يمكن بناء نظريات معقولة مقبولة على مثل هذه الآراء .

١ Discoveries, P., 82, E. Huntington, Palestine and its Transformation, Cambridge, 1911.

٢ Discoveries, P., 84.

إن هذه الملاحظات تدفعني إلى التريث في البت في وطن الجنس السامي، حتى تتهيأ دراسات أخرى علمية دقيقة عنه ، لأن الأخذ بالقياس، وبمجرد الملاحظات والمشاهدات ، لا يمكن أن يكون دليلاً علمياً مقنعاً في تثبيت الوطن الأول الذي ظهر فيه هذا النسل الذي نسميه بالنسل السامي . وان كنت أجد أن جزيرة العرب قد أمدّت الأقسام العليا منها ، وهي بلاد العراق والبادية وبلاد الشام بفيض من الناس ، بصورة دائمة مستمرة ، وذلك لأسباب عديدة عسكرية واقتصادية ، وأنها لم تأخذ من تلك الأرضين مثل هذا الفيض .

إن نظرية موطن الجنس السامي ، هي في نظري جزء من مسألة كبرى معقدة ، هي مسألة موطن الجنس البشري بكامله ، هل هو موطن واحد في الأصل ، أو جملة مواطن ، وإذا كان ذلك الموطن موطناً واحداً ، فأين كان؟ وكيف ظهرت هذه الأجناس البشرية بألوانها المتعددة وبسحنها المختلفة ؟ إن هذه بحوث ، على البشرية أن تضني نفسها في البحث عنها ! وكل بحوثنا الآن حدس وتخمين ، حتى يترقى العلم البشري إلى درجات فدرجات .

اللغة السامية الأم :

تدفعنا هذه النظريات التي قالها العلماء عن السامية وعن القرابة اللغوية التي نراها في مجموعة اللغات السامية ، وعن اشتراكها في كثير من أسس النحو والصرف، إلى التفكير في أن جميع هذه اللغات تفرعت من لغة واحدة هي أم اللغات السامية، (Ursemitisch) كما يعبر عنها بالألمانية . ويدفعنا ذلك إلى البحث عن أقدم النصوص المدونة في اللغات السامية ، وعن الخصائص الأساسية المشتركة بين كل هذه اللغات ، للوقوف على اللغة السامية الأولى التي انقرضت ، وبقيت آثارها في هذه الجذور التي غذت اللغات السامية القديمة منها والحديثة بالخصائص السامية، وعن أقرب الفروع التي انفصلت من الأم .

لقد بحث المستشرقون في هذا الموضوع ولا يزالون يبحثون فيه ، فمنهم من وجد أن العبرانية أقدم اللغات السامية ، وأقربها عهداً بالأم ، ومنهم من رأى أن العربية على حداثة عهدها جديرة بالدراسة والعناية ، لأنها تحمل جرثومة السامية ، ومنهم من رأى القدم للآشورية أو البابلية ، وهناك من رأى غير

ذلك[1] . وبالجملة ، لم يدّع أحد من العلماء أنه توصل إلى تشخيص لغة (سام)، وتمكن من معرفة اللغة التي تحدث بها مع أبيه (نوح) أو مع أبنائه الذين نسلوا هذه السلالات السامية .

وكان من جملة العوامل التي ألهبت نار الحماسة في نفوس علماء التوراة والساميات للبحث عن اللغة السامية الأولى أو أقرب لغة سامية اليها، القصص الوارد في التوراة عن سام وعن لغات البشر ، وبابل ولغاتها والطوفان وما شاكل ذلك، ثم وجد المستشرقون المعاصرون أن البحث في هذا الموضوع ضرب من العبث ، لأن هذه اللغات السامية الباقية حتى الآن هي محصول سلسلة من التطورات والتقلبات لا تحصى ، مرت بها حتى وصلت إلى مرحلتها الحاضرة ، كما أنها حاصل لغات ولهجات منقرضة . واللغة السامية القديمة لم تكن إلا لغة محكية زالت من الوجود ، دون أن تترك أثراً . ومن الجائز أن يهتدي العلماء في المستقبل إلى لغات أخرى ، كانت عقداً بين اللغات السامية القديمة التي لا نعرف من أمرها شيئاً وبين اللغات السامية المعروفة . والأفضل أن ننصرف الآن إلى دراسة اللغات السامية والموازنة بينها ، لنستخلص المشتركات والأصول . ومتى تتكون هذه الثروة اللغوية ، يسهل البحث في اللغة السامية الأم ، كما تستحسن الموازنة بين هذه اللغات واللغات التي ظهرت في القارة الإفريقية ، مثل المصرية القديمة والبربرية والهررية وبقية اللهجات الحبشية ، لتكوين فكرة علمية عن الصلات التي تربط بين الحاميين والساميين وكانت من جملة العوامل التي دفعت بعض العلماء إلى القول بأن أصل الجنسين واحد ، كان يقيم في قارة إفريقية .

وبالجملة إن هناك جماعة من المستشرقين ترى ان اللغة العربية على حداثة عهدها بالنسبة إلى اللغات السامية الأخرى ، هي أنسب اللغات السامية الباقية للدراسة وأكثرها ملاءمة للبحث ، لأنها لغة لم تختلط كثيراً باللغات الأخرى ، ولم تتصل باللغات الأعجمية قبل الإسلام ، فبقيت في مواطنها المعزولة صافية ، أو أصفى من غيرها في أقل الأحوال ، ثم انها حافظت على خواص السامية القديمة مثل المحافظة على الإعراب على حين فقدت هذه الخاصة المهمة أكثر تلك اللغات ،

---

[1] Carl Brocklemann, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen Berlin, 1908
Zimmern, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen, 1898.

ولهذه الأسباب وغيرها رأوا أن دراستها تفيد كثيراً في الوقوف على خصائص السامية القديمة ومزاياها[1] .

وقد شغل علماء العرب أنفسهم بموضوع اللغة السامية أو لغة سام بن نوح بتعبير أصح ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، ذهبوا إلى البحث في لغة آدم أبي البشر وفي لغة أهل الجنة . وقد سبق لليهود والنصارى أن بحثوا في هذا الموضوع أيضاً ، في موضوع لغة آدم أي لغة البشر الأولى ، التي تفرعت منها كل لغات البشر حتى اليوم . وقد ذهب بعض علماء العربية إلى أن العربية هي اللسان الأول، هي لسان آدم ، إلا أنها حرفت ومسخت بتطاول الزمن عليها ، فظهرت منها السريانية ، ثم سائر اللغات . قالوا : « كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربياً ، إلى أن بعد العهد وطال ، فحرّف وصار سريانياً . وهو يشاكل اللسان العربي إلا أنه محرف »[2] . وقد أدركوا ما أدركه غيرهم من وجود قرابة وصلة بين العربية وبين السريانية ، فقال المسعودي : « وإنما تختلف لغات هذه الشعوب (أي شعوب جزيرة العرب) من السريانيين اختلافاً يسيراً »[3] .

وقد أخذ علماء العربية نظريتهم هذه من أهل الكتاب . ولما كانت السريانية هي لغة الثقافة والمثقفين، ولغة يهود العراق وأكثر أهل الكتاب في جزيرة العرب في ذلك العهد ، فلا يستغرب إذن قول من قال إن السريانية هي أصل اللغات وانها لسان آدم ولسان سام بن نوح .

العقلية السامية :

وتحدث المشتغلون بالتأريخ الثقافي و (علم الأجناس) عن عقلية خاصة بالشعوب السامية ، دعوها (العقلية السامية) ، كما تحدثوا عن عقلية (آرية) وعن عقليات أخرى ، وحاولوا وضع حدود لأوصاف العقلية السامية ، ورسم صورة خاصة بها تميزها عن صور العقليات البشرية الأخرى .

---

١ Nicholson, A Literary History of the Arabs, P., XVI.

٢ المزهر (١/٢٠) .

٣ التنبيه (ص ٦٨) .

وقد شاعت هذه النظرية نظرية خصائص العقلية السامية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ووجدت لها رواجاً كبـيراً ، لظهور بعض الآراء والمذاهب التي مجدت العقلية الأوروبية ، وسبّحت بحمدها ، وقالت بتفوق العقـل الغربي الخلاق المبدع على العقل الشرقي الساذج البسيط ! ورمز العقل الشرقي هو العقل السامي،فهو لذلك عقل ساذج بسيط . ومن أشهر مروّجي هذه النظرية الفيلسوف الفرنسي (رينان) (Ernest Renan) (١٨٢٣ – ١٨٩٢م) ، و (كراف كوبينو) (Graf Arthur Gobineau) (١٨١٦ – ١٨٨٢ م) ، وهـو من القائلين بتمايز العنصريات البشرية وبتفوق بعضها على بعض وبسيادة العقلية الآرية على سائر العقليات[١] ، و (هوستن ستيوارت شامبرلن Housten Stewart Chamberlain) (١٨٥٥ – ١٩٢٧ م) صاحب كتاب (أسس القرن التاسع عشر)[٢] .

ومن هذه الموارد أخذت (النازية) نظريتها في تفوق العرق الآري على سائر أعراق البشر ، وتفوق الجنس (الجرماني) خاصة من العرق الآري على سائر الأجناس والأعراق البشرية . ومن هنا وضع (هتلر) (قوانين نورنبرك) لحماية الدم الآري من الاختلاط بالدماء الأخرى ، ولصيانته ولبقائه دماً نقياً صافياً . ولترسيخ هذه النظرية في نفوس الناس ولترويجها بين الألمان والأوروبيين ، شجع البحث في موضوع (الأجناس البشرية) ، وحشد عدداً كبـيراً من الأساتذة لإجراء بحوث ودراسات فيه ، وأوحى إلى أساتذة التأريخ كتابة التأريخ بطريقة تظهر دائماً أن الحضارة البشرية هي حاصل عمل الشعوب الآرية وحدها ، ونانج من نتاجها ، بتلك الشعوب بدأت وبها تستمر . وقرر أن ما يقال عن حضارات الشرق الأدنى القديمة هو لغو وهراء ، ولهذا أوجب كتابة تأريخ هذه الشعوب على نحو جديد ، وعلى أساس هذه الفلسفة .

وبحوث مثل هذه تقوم في ظروف كهذه أو في ظروف مشابهة لها ، لا يمكن أن تكون الا دراسات فجـة مغرضة ، مبعثها عاطفـة وقصد مبيت ، لذلك لا يمكن الاطمئنان اليها ولا الاعتماد عليهـا . والبحث في خصائص جنس من

---

١ Essai sur L'Inégalité des Races Humaines.

٢ Housten Stewart Chamberlain, Die Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts, in 2 Vols.

الأجناس وفي مميزاته وسماته الظاهرة والباطنة ، يقتضي تقصي ملامح الجنس في الحاضر والماضي ، وذلك بدراسة ملامح الباقين وبفحص أجسامهم وخصائصهم بطرق علمية حديثة ، وبدراسة عظام الماضين وما تخلف من أجسامهم في باطن الأرض بالأساليب العلمية الحديثة أيضاً ، ليكون بحثنا شاملاً للماضي والحاضر ، ومثل هذه البحوث لم تجرِ حتى الآن ، لا على العرب ، ولا على غير العرب من هذه الشعوب التي نسميها (الشعوب السامية) .

ثم إن البحوث العلمية على قلتها وضآلتها تدل على وجود فروق بارزة بين الساميين في الملامح الجسمية ، في مثل شكل الجمجمة والأنف . ووجود مثل هذه الفروق ، لا يمكن أن يكون علاقة على وجود (جنس) بالمعنى العلمي المفهوم من (الجنس) يضم شمل الساميين . وعلى وجود عقلية خاصة بالساميين ذات حدود ورسوم تختلف عن عقليات الأجناس البشرية الأخرى .

والصفة العامة التي يراها علماء الساميات في الساميين ، أن الساميين يحبون الحركة والتنقل والهجرة من مكان الى مكان على طريقة الأعراب ، وأنهم ميالون الى الغزو والأخذ بالثأر ، وعاطفيون تتحكم العواطف في حياتهم ، ويغضبون لتافه الأمور ويرضون بسرعة ، يحبون فيسرفون في حبّهم ، ويظهرون الوجد فيه ، ويبغضون فيبالغون في بغضهم حتى ليصلوا الى حد القساوة والعنف لأسباب تافهة لا تستوجب كراهية ولا بغضاً ، فرديون في طباعهم ، تتغلب عليهم الفردية ، لذلك تراهم في الأصل قبائل ، اذا اتحدت وكوّنت حكومة قوية كبيرة ، لا تلبث أن تتعرض للانفصال والتفتت،الحياة عندهم على وتيرة واحدة. موسيقاهم وشعورهم العام بما في ذلك الشعر والغناء وكل وسائل التعبير عنه ، حزن ونغم معدود مكرر[1] . قضاؤهم قضاء قبلي ، يقوم على القصاص بالمثل ، على أساس السن بالسن والعين بالعين والقتل بالقتل ، ونظام الحكم عندهم نظام ، أسسه الفكرة القبلية ، وديانتهم متشابهة ، تتجلى عندهم الغريزة الدينية واتقاد المخيلة وقوة الشعور الفردي والقسوة[2] . وتتغلب عليهم السطحية في التفكير ، فلا يميلون الى التعمق في درس الأشياء للوصول الى كنهها وجوهرها ، كما فعل اليونان .

---

١ Hastings, Extra Volume, P., 85.

٢ Hastings, A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents, Including the Biblical Theology, Extra Volume, 1904, P., 90.

وليست لهم قابلية في فهم الأمور المعقدة، ولهذا صارت أحكامهم عامة شاملة ساذجة لا تعقيد فيها ، لأن تفكيرهم تفكير ساذج غير معقد . وتفكيرهم هذا هو الذي جعلهم يبشرون بالتوحيد على حين كانت الأديان الآرية – على حد قولهم – أدياناً معقدة تعتقد بوجود أكثر من إله[1] !!

ويرى هؤلاء العلماء أن البدوي هو خير ممثل للعقلية السامية، فقد عاش الساميون بدواً أمداً طويلاً ، ومرّوا في حياتهم بحياة البداوة ولهذا صارت عقليتهم عقلية بداوة ، تجمع بينهم صفات مشتركة نتجت من اشتراكهم في تلك الحياة[2] .

وقد وضع المتعصبون للنظرية العنصرية كتباً في موضوعات متعددة ، تعالج الجسم والروح عند الساميين والآريين ، وعنوا عناية خاصة بدراسة الحياة الروحية ومظاهرها عند الجنسين ، فبحثوا في الناحية القانونية والتشريعات المختلفة عند الساميين والآريين ، وقارنوا بين التشريع عند الجماعتين[3] . كذلك عالجوا مختلف النواحي الأخرى من الحياة ، حتى إن بعضهم ألّف كتاباً في موضوع حرمة أكل لحم الخنزير عند الساميين . مع انه من اللحوم الشهية عند الآريين ، وعدّ ذلك من مميزات الجنس[4] .

وهناك جماعة من العلماء ، ردّت على هذه النظرية التي تحدد العقليات ، وترسم لها حدوداً وتضع لها معالم ، رأت أن ما يذهب إليه أصحابها من وجود عقليات صافية خالصة للأجناس البشرية المذكورة ، يستوجب وجود أجناس بشرية صافية خالصة ذات دماء نقية ، لم تمتزج بها دماء غريبة ، ويقتضي ذلك افتراضنا اعتزال الأجناس بعضها عن بعض عزلة تامة، وهو افتراض محال ، لأن البشرية لم تعرف العزلة منذ القدم ، ولم تبن حولها أسواراً مرتفعة لتحول بينها وبين الاختلاط ببقية الأجناس ، والشواهد التأريخية والبحوث العلمية المختبرية تشير الى العكس، تشير الى الاختلاط والامتزاج ، كما ذكرنا آنفاً ، فما يقال عن اختلاف العقليات ، هو حديث أوحته العواطف والنزوات . أما ما نشاهده من اختلاف في أساليب

---

١ Ancient Iraq, by Georges Roux, London, 1964, P., 126, A. Guillaume, Prophecy and Divination among the Hebrews and other Semites, London, 1938.

٢ Hastings, P., 85, ff. (Extra Volume).

٣ Gerd. Ruehle, Rasse und Sozialismus im Recht, Berlin, 1935.

٤ R. Walter Darré, Das Schwein als Kriterium fuer Nordische Voelker und Semiten, Muenchen, 1933.

الفكر وفي فهم الأمور،فليس مرجعه ومردّه الى الدم ، بل الى البيئات الطبيعة والاجتماعية والثقافية ، فهي التي أثرّت وكونت هذه الفروق . وعلى الباحث دراسة كل ما يؤثر على الانسان من محيط ومن مؤثرات طبيعية مثل الضغوط الجوية والحرارة والبرودة والرطوبة ، ومن تركيب الأجسام وأشكالها . وألوان الشعر والبشرة والعين وبنية الجسم بصورة عامة ، ومن أنواع الأغذية التي يتناولها والمحيطات الثقافية التي يعيش فيها الى غير ذلك من مؤثرات يدرسها علماء الأجناس اليوم ، وذلك لاصدار أحكام معقولة عن أجناس البشر .

الفصل السابع

طبيعة العقلية العربية

لكل أمة عقلية خاصة بها ، تظهر في تعامل أفرادها بعضهم مع بعض وفي تعامل تلك الأمة مع الأمم الأخرى ، كما أن لكل أمة نفسية تميزها عن نفسيات الأمم الأخرى ، وشخصية تمثل تلك الأمة، وملامح تكون غالبة على أكثر أفرادها، تجعلها سمة لتلك الأمة تميزها عن سمات الأمم الأخرى[1] .

والعرب مثل غيرهم من الناس لهم ملامح امتازوا بها عن غيرهم ، وعقلية خاصة بهم . ولهم شمائل عرفوا واشتهروا بها بين أمم العالم ، ونحن هنا نحاول التعرف على عقلية العربي وعلى ملامحه قبل الإسلام ، أي قبل اندماجه واختلاطه اختلاطاً شديداً بالأمم الأخرى ، وهو ما وقع وحدث في الإسلام .

وقد بحث بعض العلماء والكتاب المحدثين في العقلية العربية ، فتكلموا عليها بصورة عامة ، بدوية وحضرية ، جاهلية وإسلامية . فجاء تعميمهم هذا مغلوطاً وجاءت أحكامهم في الغالب خاطئة . وقد كان عليهم التمييز بين العرب الجاهليين والعرب الإسلاميين ، وبين الأعراب والعرب ، والتفريق بين سكان البواطن أي بواطن البوادي وسكان الأرياف وسكان أسياف بلاد الحضارة . ثم كان عليهم البحث عن العوامل والأسباب التي جبلت العرب من النوعين : أهل الوبر وأهل الحضر ، تلك الجبلة ، من عوامل اقليمية وعوامل طبيعية أثرت فيهم ، فطبعتهم بطابع خاص ، ميزهم عن غيرهم من الناس .

---

١ فجر الاسلام ، احمد امين ١٩٢٨ (٣٥/١)

بل إن الحديث عن العقلية العربية ، حديث قديم ، ففي التوراة شيء عن صفاتهم وأوصافهم، كوّن من علاقات الإسرائيليين بهم ، ومن تعاملهم واختلاطهم بالعرب النازلين في فلسطين وطور سيناء أو في البوادي المتصلة بفلسطين . ومن أوصافهم فيها : أنهم متنابذون يغزون بعضهم بعضاً ، مقاتلون يقاتلون غيرهم كما يقاتلون بعضهم بعضاً (يده على الكل ، ويد الكل عليه)[1] . يغيرون على القوافل فيسلبونها ويأخذون أصحابها أسرى ، يبيعونهم في أسواق النخاسة ، أو يسترقونهم فيتخذونهم خدماً ورقيقاً يقومون بما يؤمرون به من أعمال ، الى غير ذلك من نعوت وصفات .

والعرب في التوراة ، هم الأعراب ، أي سكان البوادي ، لذلك فإنّ النعوت الواردة فيها عنهم ، هي نعوت لعرب البادية، أي للأعراب ، ولم تكن صلاتهم حسنة بالعبرانيين .

وفي كتب اليونان والرومان والأناجيل،نعوت أيضاً نعت بها العرب وأوصاف وصفوا بها ، ولكننا اذا درسناها وقرأنا المواضع التي وردت فيها ، نرى أنها مثل التوراة ، قصدت بها الأعراب، وقد كانوا يغيرون على حدود امبراطوريتي الرومان واليونان ، ويسلبون القوافل ، ويأخذون الإتاوات من التجار والمسافرين وأصحاب القوافل للسماح لهم بالمرور .

وقد وصف (ديودورس الصقلي) العرب بأنهم يعشقون الحرية ، فيلتحفون السماء . وقد اختاروا الإقامة في أرضين لا أنهار فيها ولا عيون ماء،فلا يستطيع العدو المغامر الذي يريد الايقاع بهم أن يجد له فيها مأوى . انهم لا يزرعون حبّاً ، ولا يغرسون شجراً ، ولا يشربون خمراً ، ولا يبنون بيوتاً . ومن يخالف العرف يقتل . وهم يعتقدون بالارادة الحرة ، وبالحرية[2] . وهو يشارك في ذلك رأي (هيرودوتس) الذي أشاد بحب العرب للحرية ، وحفاظهم عليها ومقاومتهم لأية قوة تحاول استرقاقهم واستذلالهم[3] . فالحرية عند العرب هي من أهم الصفات التي يتصف بها العرب في نظر الكتبة اليونان واللاتين .

وفي كتب الأدب وصف مناظرة ، قيل انها وقعت بين (النعمان بن المنذر)

---

١ التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الاية ١٢
٢ Diodorus, 19, 94, 95, Die Araber in der Alten Welt, I, S., 31.
٣ Herodotus, Vol., I, P., 254.

ملك الحيرة وبين (كسرى) ملك الفرس في شأن العرب : صفاتهم وأخلاقهم وعقولهم ، ثم وصف مناظرة أخرى جرت بين (كسرى) هذا وبين وفد أرسله (النعمان) لمناظرته ومحاجته فيما جرى الحديث عليه سابقاً بين الملكين[1] . وفي هذه الكتب أيضاً رأى (الشعوبيين) في العرب ، وحججهم في تصغير شأن العرب وازدرائهم لهم ، ورد الكتاب عليهم[2] . وهي حجج لا تزال تقرن بالعرب في بعض الكتب .

ومجمل ما نسب الى (كسرى) من مآخذ زُعم انه أخذها على العرب، هو أنه نظر فوجد أن لكل أمة من الأمم ميزة وصفة ، فوجد للروم حظاً في اجتماع الألفة وعظم السلطان وكثرة المدائن ووثيق البنيان ، وأن لهم ديناً يبين حلالهم وحرامهم ويرد سفيههم ويقيم جاهلهم ، ورأى للهند،نحواً من ذلك في حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ودقيق حسابها وكثرة عددها . ووجد للصين كثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكاً يجمعها ، وأن للترك والخزر ، على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم . ولم يرَ للعرب ديناً ولا حزماً ولا قوة . همتهم ضعيفة بدليل سكنهم في بوادي قفراء ، ورضائهم بالعيش البسيط ، والقوت الشحيح،يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة . أفضل طعامهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها . « وإن قرّى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة . وإن أطعم أكلة عدها غنيمة تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم »[3] . ثم إنهم مع قلتهم وفاقتهم وبؤس حالهم،يفتخرون بأنفسهم ، ويتطاولون على غيرهم وينزلون أنفسهم فوق مراتب الناس[4] . « حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين »،وأبوا الإنقياد لرجل واحد منهم يسوسهم ويجمعهم .

---

١ بلوغ الارب (١٤٧/١ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (١٥/٣ فما بعدها) ، العقد الفريد (٨٦/٢) ، فجر الاسلام (١ / ٣٥) بلوغ الارب (١٥٨/١ فما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (١٤٧/١ وما بعدها)

٤ بلوغ الارب (١٤٨/١) .

اذا عاهدوا فغير وافين[1] . سلاحهم كلامهم ، به يتفننون ، وبكلامهم يتلاعبون . ليس لهم ميل الى صنعة أو عمل ولا فن ، لا صبر لهم ، اذا حاربوا ووجدوا قوة أمامهم ، حاولوا جهدهم التغلب عليها ، أما اذا وجدوها قوة منظمة هربوا مشتتين متبعثرين شراذم ، يخضعون لحكم الغريب ويهابونه ويأخذون برأيه فيهم ، ما دام قوياً ، ويقبلون بمن ينصبه عليهم ، ولا يقبلون بحكم واحد منهم ، اذا أراد أن يفرض سلطانه عليهم[2] .

وقد ذُكر أن أحد ملوك الهند كتب كتاباً الى « عمر بن عبد العزيز » ، جاء فيه « لم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كلّ شق من الأرض لها ملوك تجمعها ومدائن تضمّها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات ، مثل صنعة الديباج وهي أبدع صنعة ، ولعب الشطرنج وهي أشرف لعبة ، ورمّانة القبّان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون والاصطرلاب الذي يعدل به النجوم ويدرك به الأبعاد ودوران الأفلاك وعلم الكسوف وغير ذلك من الآثار المتقنة ، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها وينهى سفيهها ، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلاّ ما كان من الشعر . وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذي تفتخر به العرب على العجم فإنما هي كالذئاب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض . فرجالها موثقون في حَلَق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل ، فإذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشي ، وقد وطئن كما توطأ الطريق المهيع[3] » . الى آخر ذلك من كلام .

وقد تعرض « السيد محمود شكري الألوسي » في كتابه « بلوغ الأرب » ، لهذا الموضوع ، فجاء بما اقتبسته منه ، ثم جاء برأي « ابن قتيبة » على الشعوبية ، في كتابه : « كتاب تفضيل العرب » ، ثم أنهاه ببيان رأيه في هذه الآراء وفي رد « ابن قتيبة » عليها[4] .

---

١ بلوغ الارب (١٥٦/١) .
٢ راجع اصل المناظرة وحجج الشعوبيين في تفضيل الاعاجم على العرب ، ورد العرب عليهم ، بلوغ الارب (١٤٧/١ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١٦٥/١ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (١٤٧/١ فما بعدها) .

ولابن خلدون رأي معروف في العرب ، خلاصته « أن العربي متوحش نهّاب سلاّب اذا أخضع مملكة أسرع اليها الخراب ، يصعب انقياده لرئيس ، لا يجيد صناعة ولا يحسن علماً ولا عنده استعداد للاجادة فيها ، سليم الطباع ، مستعد للخير شجاع »[1] . وتجد آراءه هذه مدوّنة في مقدمته الشهيرة لكتابه العام في التأريخ .

وقد رمى بعض المستشرقين العربَ بالمادية وبصفات أخرى ، فقال «أوليري» : « إن العربي الذي يعد مثلاً أو نموذجاً ، ماديّ ، ينظر الى الأشياء نظرة مادية وضيعة ، ولا يقوّمها إلا بحسب ما تنتج من نفع ، يتملك الطمع مشاعره ، وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف ، لا يميل كثيراً الى دين ، ولا يكترث بشيء إلاّ بقدر ما ينتجه من فائدة عملية ، يملؤه الشعور بكرامته الشخصية حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة ، وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته وقائده في الحروب الحسدَ والبغض والخيانة من أول يوم اختير للسيادة عليه ولو كان صديقاً حيماً له من قبل ، مَنْ أحسن اليه كان موضع نقمته ، لأن الاحسان يثير فيه شعوراً بالخضوع وضعف المنزلة وأن عليه واجباً لمن أحسن . يقول لامانس « إن العربي نموذج الديمقراطية » ، ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها الى حد بعيد ، وإن ثورته على كل سلطة تحاول أن تحدد من حريته ولو كانت في مصلحته هي السر الذي يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التي شغلت أكبر جزء في تأريخ العرب ، وجهل هذا السر هو الذي قاد الأوروبيين في أيامنا هذه الى كثير من الأخطاء ، وحملهم كثيراً من الضحايا كان يمكنهم الاستغناء عنها ، وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم للسلطة هي التي تحول بينهم وبين سيرهم في سبيل الحضارة الغربية ، ويبلغ حب العربي لحريته مبلغاً كبيراً ، حتى إذا حاولت أن تحدها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش في قفص ، وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة الى حريته . ولكن العربي من ناحية أخرى مخلص ، مطيع لتقاليد قبيلته ، كريم يؤدي واجبات الضيافة والمحالفة في الحروب كما يؤدي واجبات الصداقة مخلصاً في أدائها بحسب ما رسمه العرف ... وعلى العموم ، فالذي

---

[1] هذا تلخيص المرحوم احمد امين لراى ابن خلدون ، تجده في كتابه : فجر الاسلام (٤١/١) .

يظهر لي أن هذه الصفات والخصائص أقرب أن تعد صفات وخصائص لهذا الطور من النشوء الاجتماعي عامة من أن تعد صفات خاصة لشعب معين ، حتى اذا قر العرب وعاشوا عيشة زراعية مثلاً ، تعدلت هذه العقلية »[1] . ويوافق المستشرق (براون أوليري) في رمي العرب بالمادية المفرطة[2] . ورماهم (أوليري) أيضاً بضعف الخيال وجمود العواطف[3] .

أما (دوزي) فقد رأى أن بين العرب اختلافاً في العقلية وفي النفسية، وأن القحطانيين يختلفون في النفسية عن نفسية العدنانيين[4] .

وقد تعرض (أحمد أمين) في الجزء الأول من (فجر الإسلام) للعقلية العربية ، وأورد رأي الشعوبيين في العرب ، ثم رأي (ابن خلدون) فيهم ، وتكلم على وصف المستشرق (أوليري) لتلك العقلية ، ثم ناقش تلك الآراء ، وأبان رأيه فيها وذلك في الفصل الثالث من هذا الجزء ، وتحدث في الفصل الرابع عن (الحياة العقلية للعرب في الجاهلية) . وخصص الفصل الخامس بـ (مظاهر الحياة العقلية) ، وتتجلى عنده في : اللغة والشعر والمثل والقصص.

أوجز (أحمد أمين) في بداية الفصل الثالث آراء المذكورين في العرب، وبعد أن انتهى من عرضها وتلخيصها ناقشها بقوله : « لسنا نعتقد تقديس العرب ، ولا نعبأ بمثل هذا النوع من القول الذي يمجدهم ويصفهم بكل كمال ، وينزههم عن كل نقص ، لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمي ، انما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب ، له ميزاته وفيه عيوبه ، وهو خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتأريخه ككل أمة أخرى ، فالقول الذي يمثله الرأي الخاص لا يستحق مناقشة ولا جدلاً ، كذلك يخطىء الشعوبية أصحاب القول الأول الذين كانوا يتطلبون من العرب فلسفة كفلسفة اليونان ، وقانوناً كقانون الرومان ، أو أن يمهروا في الصناعات كصناعة الديباج ، أو في المخترعات كالاصطرلاب ، فإنه إن كان يقارن هذه الأمم بالعرب في جاهليتها كانت مقارنة خطأ ، لأن المقارنة انما تصح بين أمم في طور واحد من الحضارة ، لا بين أمة

---

١ اقتباسا من فجر الاسلام (٣٩/١ فما بعدها) .
٢ فجر الاسلام (٤١/١) .
٣ فجر الاسلام (٤٣/١) .
٤ Dozy, Gesch. d. Mauren in Spanien, Vol., I, S., 73, Muh. Stud., I, S. 89, Nallino. Raccolta, Vol., 3, P., 73.

متبدية وأخرى متحضرة ، ومثل هذه المقارنة كمقارنة بين عقل في طفولته وعقل في كهولته ، وكل أمة من هذه الأمم كالفرس والروم مرت بدور بداوة لم يكن لها فيه فلسفة ولا مخترعات . أما إن كان يقارن العرب بعد حضارتها ، فقدكان لها قانون وكان لها علم وان كان قليلاً .. »[1] ثم استمر يناقش تلك الآراء الى أن قال : فلنقتصر الآن على وصف العربي الجاهلي[2] ، فوصفه بهذا الوصف :

« العربي عصبي المزاج ، سريع الغضب ، يهيج للشيء التافه ، ثم لا يقف في هياجه عند حد ، وهو أشد هياجاً اذا جرحت كرامته ، أو انتهكت حرمة قبيلته . واذا اهتاج ، أسرع الى السيف ، واحتكم اليه ، حتى أفنتهم الحروب، وحتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم اليومية المعتادة .

« والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء ، وفي الحق أن العربي ذكي ، يظهر ذكاؤه في لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والاشارة البعيدة ، كما يظهر في حضور بديهته ، فما هو الا أن يُفجأ بالأمر فيفجؤك بحسن الجواب ، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر ، فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة ، فيبهرك تفننه في القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى ،وان شئت فقل ان لسانه أمهر من عقله .

« خياله محدود وغير متنوع ، فقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته ، وحياة خيراً من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف (المثل الأعلى) ، لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له في لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر اليه فيما نعرف من قوله،وقلما يسبح خياله الشعري في عالم جديد يستقي منه معنى جديداً، ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب .

« أما ناحيتهم الخلقية،فيل الى حرية قلّ أن يحدّها حدّ،ولكن الذي فهموه من الحرية هي الحرية الشخصية لا الإجتماعية ، فهم لا يدينون بالطاعة لرئيس ولا حاكم ، تأريخهم في الجاهلية – حتى وفي الإسلام – سلسلة حروب داخلية، وعهد عمر بن الخطاب كان عصرهم الذهبي ، لأنه شغلهم عن حروبهم الداخلية بحروب خارجية ، ولأنه ، رضي الله عنه ، منح فهماً عميقاً ممتازاً لنفسية العرب.

---

١ فجر الاسلام (١/٤٠ فما بعدها) .
٢ فجر الاسلام (١/٤٣) .

« والعربي يحب المساواة ، ولكنها مساواة في حدود القبيلة، وهو مع حبه للمساواة كبير الاعتداد بقبيلته ثم بجنسه، يشعر في أعماق نفسه بأنه من دم ممتاز ، لم يؤمن بعظمة الفرس والروم مع ما له ولهم من جدب وخصب وفقر وغنى وبداوة وحضارة ، حتى اذا فتح بلادهم نظر اليهم نظرة السيد الى المسود »[1] .

ثم خلص الى أن العرب في جاهليتهم كان أكثرهم بدواً ، وان طور البداوة طور اجتماعي طبيعي تمر به الأمم في اثناء سيرها الى الحضارة ، وان لهذا الطور مظاهر عقلية طبيعية ، تتجلى في ضعف التعليل ، وعنى بذلك عدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول والسبب والمسبب فهماً تاماً ، « يمرض أحدهم ويألم من مرضه، فيصفون له علاجاً، فيفهم نوعاً ما من الارتباط بين الدواء والداء، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق الذي يتفلسف، يفهم ان عادة القبيلة أن تتناول هذا الدواء عند هذا الداء ، وهذا كل شيء في نظره ، لهذا لا يرى عقله بأساً من أن يعتقد ان دم الرئيس يشفي من الكَلَب ، أو ان سبب المرض روح شرير حل فيه فيداويه بما يطرد هذه الأرواح ، أو انه اذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق الأقذار وعظام الموتى الى كثير من أمثال ذلك، ولا يستنكر شيئاً من ذلك ما دامت القبيلة تفعله ، لأن منشأ الإستنكار دقة النظر والقدرة على بحث المرض وأسبابه وعوارضه ، وما يزيل هذه العوارض، وهذه درجة لا يصل اليها العقل في طوره الأول »[2] .

ثم أورد أمثلة للاستدلال بها على ضعف التعليل ، مثل قولهم بخراب سدّ مأرب بسبب جرذان حُمْر ، ومثل قصة قتل النعمان لسِنمّار بسبب آجُرّة وضعها سِنِمار في أساس قصر الخورنق ، لو زالت سقط القصر .

ثم تحدث عن مظهر آخر من مظاهر العقلية العربية ، لاحظه بعض المستشرقين ووافقهم هو عليه ، هو : ان طبيعة العقل العربي لا تنظر الى الأشياء نظرة عامة شاملة ، وليس في استطاعتها ذلك . فالعربي لم ينظر الى العالم نظرة عامة شاملة كما فعل اليوناني ، بل كان يطوف فيما حوله ؛ فإذا رأى منظراً خاصاً أعجبه تحرك له ، وجاس صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أو

---

[1] فجر الاسلام (١/٤٤ فما بعدها) .
[2] فجر الاسلام (١/٤٦) .

المثل . « فأما نظرة شاملة وتحليل دقيق لأسسه وعوارضه فذلك ما لا يتفق والعقل العربي . وفوق هذا هو اذا نظر الى الشيء الواحد لا يستغرقه بفكره، بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه ، فهو اذا وقف أمام شجرة ، لا ينظر اليها ككل ، انما يستوقف نظره شيء خاص فيها، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ، واذا كان أمام بستان، لا يحيطه بنظره، ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه (الفوتوغرافيا)، انما يكون كالنحلة ، يطير من زهرة الى زهرة ، فيرتشف من كل رشفة » . الى ان قال : « هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف ما ترى في أدب العرب — حتى في العصور الإسلامية — من نقص وما ترى فيه من جمال » .

وقد خلص من بحثه ، الى أن هذا النوع من النظر الذي نجده عند العربي، هو طور طبيعي تمر به الأمم جميعاً في أثناء سيرها الى الكمال ، نشأ من البيئات الطبيعية والاجتماعية التي عاش فيها العرب ، وهو ليس إلا وراثة لنتائج هـذه البيئات ، « ولو كانت هنالك أية أمــة أخرى في مثل بيآتهم ، لكان لها مثل عقليتهم ، وأكبر دليل على ذلك ما يقرره الباحثون من الشبه القوي في الأخلاق والعقليات بين الأمم التي تعيش في بيئات متشابهة أو متقاربة ، واذ كان العرب سكان صحارى ، كان لهم شبه كبير بسكان الصحارى في البقـاع الأخرى من حيث العقل والخلق »[1] .

أما العوامل التي عملت في تكوين العقلية العربية وفي تكييفهـــا بالشكل الذي ذكره ، فهي عاملان قويان . هما : البيئة الطبيعية ، وعنى بها ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبال وأنهار وصحراء وغير ذلك ، والبيئة الاجتماعيــة ، وأراد بها ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومــة ودين وأسرة ونحو ذلك . وليس أحد العاملين وحده هو المؤثر في العقلية .

وحصر أحمد أمين مظاهر الحياة العقلية في الجاهلية في الأمور التالية : اللغـة والشعر والأمثال والقصص . وتكلم على كل مظهر من هذه المظاهر وجاء بأمثلة استدل بها ما ذهب اليه .

والحدود التي وضعها أحمد أمين للعقلية العربية الجاهلية ، هي حدود عامة ،

---

[1] فجر الاسلام (٤٦ وما بعدها) .

جعلها تنطبق على عقلية أهل الوبر وعقلية أهل المدر ، لم يفرق فيها بين عقلية من عقلية الجماعتين . وقد كونها ورسمها من دراساته لما ورد في المؤلفات الإسلامية من أمور لها صلة بالحياة العقلية ومن مطالعاته لما أورده (أوليري) (وبراون) وأمثالها عن العقلية العربية ، ومن آرائه وملاحظاته لمشكلات العالم العربي ولوضع العرب في الزمن الحاضر . والحدود المذكورة هي صورة متقاربة مع الصورة التي يرسمها العلماء المشتغلون بالساميّة عادة عن العقلية الساميّة،وهي مثلها أيضاً مستمدة من آراء وملاحظات وأوصاف عامة شاملة، ولم تستند الى بحوث علمية ودراسات مختبرية ، لذا فانني لا أستطيع أن أقول أكثر مما قلته بالنسبة الى تحديد العقلية الساميّة ، من وجوب التريث والاستمرار في البحث ومن ضرورة تجنب التعميم والاستعجال في اعطاء الأحكام .

وتقوم نظرية أحمد أمين في العقلية العربية على أساس أنها حاصل شيئين وخلاصة عاملين ، أثرا مجتمعين في العرب وكوّنا فيها هـذه العقلية التي حددها ورسم معالمها في النعوت المذكورة . والعاملان في رأيه هما: البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية. وعنى بالبيئة الطبيعيـة ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبال وأنهار وصحراء ونحو ذلك ، وبالبيئة الاجتماعية ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك . وهما معاً مجتمعين غـير منفصلين ، أثرا في تلك العقلية . ولهذا رفض أن تكون تلك العقلية حاصل البيئة الطبيعية وحدها ، أو حاصل البيئة الاجتماعية وحدها . وخطأ من أنكر أثر البيئة الطبيعية في تكوين العقلية ومن هنا انتقد (هيكل) (Hegel) ، لأنه أنكر ما للبيئة الطبيعيـة من أثر في تكوين العقلي اليوناني ، وحجـة (هيكل) أنه لو كان للبيئة الطبيعية أثر في تكوين العقليات ، لبان ذلك في عقليـة الأتراك الذين احتلوا أرض اليونان وعاشوا في بلادهم ، ولكنهم لم يكتسبوا مع ذلك عقلهم ولم تكن لهم قابلياتهم ولا ثقافتهم. وردّ (أحمد أمين) عليه هو أن « ذلك يكون صحيحاً لو كانت البيئة الطبيعية هي المؤثر الوحيد ، إذن لكان مثل العقل اليوناني يوجد حيث يوجد اقليمه ، وينعدم حيث ينعدم ، أما والعقل اليوناني نتيجة عاملين ، فوجود جزء العلـة لا يستلزم وجود المعلول »[1] .

---

١ فجر الاسلام (٥٢ فما بعدها) .

وأثر البيئة الطبيعية في العرب ، أنها جعلت بلادهم بقعة صحراوية تصهرها الشمس،ويقل فيها الماء ، ويجف الهواء ، وهي أمور لم تسمح للنبات أن يكثر ، ولا للمزروعات أن تنمو ، إلا كلأ مبعثراً هنا وهناك ، وأنواعاً من الأشجار والنبات مفرقة استطاعت أن تتحمل الصيف القائظ ، والجو الجاف ، فهزلت حيواناتهم ، ونحلت أجسامهم ، وهي كذلك أضعفت فيها حركة المرور ، فلم يستطع السير فيها إلا الجمل ، فصعب على المدنيات المجاورة من فرس وروم أن تستعمر الجزيرة ، وتفيض عليها من ثقافتها ، اللهم إلا ما تسرب منها في مجار ضيقة معوجة عن طرق مختلفة » .

وأثر آخر كان لهذه البيئة الطبيعية في العرب،هو أنها أثرت في النفوس فجعلتها تشعر أنها وحدها تجاه طبيعة قاسية ، تقابلها وجهاً لوجه، لا حول لها ولا قوة ، لا مزوعات واسعة ، ولا أشجار باسقة ، تطلع الشمس فلا ظل ، ويطلع القمر والنجوم فلا حائل ، تبعث الشمس أشعتها المحرقة القاسية فتصيب أعماق نخاعه ، ويسطع القمر فيرسل أشعته الفضية الوادعة فتبهر لبّه ، وتتألق النجوم في السماء فتملك عليه نفسه ، وتعصف الرياح العاتية فتدمر كل ما أتت عليه . أمام هذه الطبيعة القوية ، والطبيعة الجميلة ، والطبيعة القاسية ، تهرع النفوس الحساسة الى رحمن رحيم ، والى بارىء مصور والى حفيظ مغيث — الى الله — . ولعل هذا هو السر في أن الديانات الثلاث التي يدين بها أكثر العالم ، وهي اليهودية والنصرانية والإسلام نبعت من صحراء سيناء وفلسطين وصحراء العرب[1] .

والبيئة الطبيعية أيضاً ، هي التي أثرت — على رأيه — في طبع العربي ، فجعلته كثيباً صارماً يغلب عليه الوجد ، موسيقاه ذات نغمة واحدة متكررة عابسة حزينة ، ولغته غنية بالألفاظ ، إذا كانت تلك الألفاظ من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية ، وشعره ذو حدود معينة مرسومة ، وقوانينه تقاليد القبيلة وعرف الناس ، وهي التي جعلته كريماً على فقره ، يبذل نفسه في سبيل الدفاع عن حمى قبيلته . كل هذه وأمثالها من صفات ذكرها وشرحها هي في رأيه من خلق هذه البيئة الطبيعية التي جعلت لجزيرة العرب وضعاً خاصاً ومن أهلها جماعة امتازت عن بقية الناس بالمميزات المذكورة .

---

١ فجر الاسلام (٥٤ فما بعدها) .

وقد استمر (أحمد أمين) ، في شرح أثر البيئة الطبيعية في عقلية العرب وفي مظاهر تلك العقلية التي حصرها كما ذكرت في اللغة والشعر والأمثال والقصص ، حتى انتهى من الفصول التي خصصها في تلك العقلية . أما أثر البيئة الإجتماعية التي هي في نظره شريكة البيئة الطبيعية في عملها وفعلها في العقلية الجاهلية وفي كل عقلية من العقليات ، فلم يتحدث عنه ولم يشر الى فعله ، ولم يتكلم على أنواع تلك البيئة ومقوماتها التي ذكرها في أثناء تعريفه لها ، وهي : « ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك » ، ثم خلص من بحثه عن العقلية العربية وعن مظاهرها وكأنه نسي ما نسبه الى العامل الثاني من فعل ، بل الذي رأيته وفهمته من خلال ما كتبه انه أرجع ما يجب ارجاعه الى عامل البيئة الاجتماعية — على حد قوله — الى فعل عامل البيئة الطبيعية وأثرها في عقلية العرب الجاهليين . وهكذا صارت البيئة الطبيعية هي العامل الأول الفعال في تكوين تلك العقلية ، وحرمنا بذلك من الوقوف على أمثلته لتأثير عامل البيئة الإجتماعية في تكوين عقلية الجاهليين .

وأعتقد ان (أحمد أمين) لو كان قد وقف على ما كتب في الألمانية أو الفرنسية أو الانكليزية عن تأريخ اليمن القديم المستمد من المسند ، ولو كان قد وقف على ترجمات كتابات المسند أو الكتابات الثمودية والصفوية واللحيانية ، لما كان قد أهمل الإشارة الى أصحاب تلك الكتابات ، ولعدل حتماً في حدود تعريفه للعقلية العربية ، ولأفرز صفحة أو أكثر الى أثر طبيعة أرض اليمن وحضرموت في عقلية أهل اليمن وفي تكوين حضارتهم وثقافتهم ، فإن فيما ذكره في فصوله عن العقلية العربية الجاهلية ما يجب رفعه وحذفه بالنسبة الى أهل اليمن وأعالي الحجاز .

ونجد في كتاب (جزيرة العرب في القرن العشرين) لحافظ وهبة فصلاً بعنوان (السكان) ، وردت فيه ملاحظات كيسة عن عقلية الحضر وعقلية البدو في المملكة العربية السعودية وفي بعض المناطق المجاورة لها في الزمان الحاضر. وهذه الملاحظات وان كانت تتعلق بعرب هذا اليوم ، الا أنها مع ذلك ذات فائدة ومنفعة لفهم العقلية الجاهلية، فالزمان وان تباعد بين عرب الجاهلية وعرب القرن العشرين،الا ان الخصائص العقلية لأكثر أهل البادية المنعزلين عن عالمهم الخارجي لا تزال هي هي ، لم تتغير في كثير من الأمور ، بل خذ من نسميهم (الحضر)

أو العرب المستقرين في جزيرة العرب ، فإن البعيدين منهم عن الأماكن التي لها اتصال بالعالم الخارجي وبالأجانب لا يزالون يحتفظون بكثير من خصائص عقلية حضر اليمن أو الحجاز عند ظهور الإسلام . ومن هنا تفيدنا ملاحظات (حافظ وهبة) هذه وملاحظات غيره من أذكياء العرب والسياح والخبراء الأجانب ، فائدة كبيرة في التعرف على أسس تفكير العرب قبل الإسلام .

وفي حديث (حافظ وهبة) عن طباع الحضر أشار الى اختلاف طباعهم باختلاف أماكنهم ، فقال : « والحضر تختلف طباعهم باختلاف المناطق التي يعيشون فيها ، وظروف الحياة التي تحيط بهم فأهل حايل أقرب مظهراً الى البداوة. وأهل مكة والمدينة واليمن العالية أبعد مظهراً عن البداوة من البلاد الأخرى العربية، وأهل القصيم ألين عريكة من أهل العارض ، لأنهم كثيرو الإختلاط والتعامل مع البلاد الأخرى كالشام وفلسطين ومصر ، ولذا فترى موظفي ديوان الملك المكلفين بالمقابلات والتشريفات من أهل القصيم أو حايل .

وأهل الرياض أرقى بكثير من أهل الدواسر الذين لم يفارقوا بلادهم ، ولم يعرفوا شيئاً عن أحوال العالم الخارجي[1] .

وأشار إلى تنافس الحضر والى تفاخرهم وتفضيل أنفسهم بعضهم على بعض في الشمائل والعادات وحتى في اللهجات .

ومن طباع الحضري ، كما يقول « حافظ وهبة » « الخلق التجاري » ، وهم يتباينون في ذلك أيضاً بتباين أماكنهم ، « فأهل القصيم والزلفى وشقرا ، أنشط من أهل نجد في التجارة . فقوافلهم تقصد سائر الجهات العربية ، وتجارهم كثيراً ما يسافرون الى الهند ومصر في سبيل التجارة ، والتجار النجديون المعروفون في الهند ومصر والعراق من أهل هذه البلاد » . « أما أهل الكويت ، فنشاطهم في التجارة البحرية ... ويغلب على حضر الجزيرة — وعلى الأخص أهل خليج فارس — التعاون التجاري سواء بين الأهالي بعضهم مع بعض أو بين الأمراء والأهالي »[2] .

أما طباع البداوة،وهي طباع تختلف عن طباع أهل المدن فقد وصفها بقوله:

---

١ حافظ وهبة (ص٧) .
٢ المصدر نفسه (ص ٨ فما بعدها)

« أما البدو ، فهم القبائل الرحل المتنقلون من جهة الى أخرى طلباً للمرعى أو للماء ، والطبيعة هي التي تجبر البدوي على المحافظة على هذه الحياة ، وحياة البدوي حياة شاقة مضنية ، ولكنه وهو متمتع بأكبر قسط من الحرية يفضلها على أي حياة مدنية أخرى . هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء ، وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم ، فالبدوي ينظر الى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده أو حرمانه من المرعى .

« إن البدوي في الصحراء لا يهمه إلا المطر والمرعى ، فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى ولا يبالي بما يصيب العالم في الخارج ما دامت أرضه مخضرة ، وبعيره سميناً وغنمه قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً .

« اما إذا نما السكان وضاقت بهم الأرض او لم تجد اراضيهم بالمرعى، فليس هناك سبيل إلا الزحف والقتال ، أو الهجرة إن كان هناك سبيل اليها ، وكذلك القبيلة التي غلبت على أمرها وحرمت من مراعيها وأراضيها ليس أمامها سبيل آخر سوى الهجرة .

« لقد كان البدو قبل ثلاثين سنة في غارات وحروب مستمرة ، كل قبيلة تنتهز الفرص للإغارة على جارتها لنهب مالها ، وتعدد الإمارات وتشاحن الأمراء وتخاصمهم مما يشجع البدوي .

« ولهذا كان للقبيلة قيمتها في بلاد العرب، فالإنسان يقوى بأبنائه وأبناء عمومته الأقربين والأبعدين ، واذا كانت العصبية ضعيفة أمكن تقوية القبيلة بالتحالف مع سواها حتى يقوى الفريقان ويأمنا شر غيرهما من القبائل القوية .

« وقد جرى العرف ان القبائل تعتبر الأرض التي اعتادت رعيها، والمياه التي اعتادت أن تردها ملكاً لها ، لا تسمح لغيرها من القبائل الأخرى بالدنو منها الا بإذنها ورضاها، وكثيراً ما تأنس احدى القبائل من نفسها القوة فتهجم بلا سابق انذار على قبيلة أخرى ، وتنتزع منها مراعيها ومياهها .

« إن قبائل العرب ليسوا كلهم سواء في الشر والتعدي على السابلة والقوافل ، فبعضها قد اشتهر أمره بالكرم والسماحة والترفع عن الدنايا ، كما اشتهر بعضها بالتعدي وسفك الدماء بلا سبب سوى الطمع فيما في أيدي الناس .

« ليس للبدوي قيمة حربية تذكر ، ولذا كان اعتماد الأمراء على الحضر ، فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلوائه . وكثيراً ما كان البدو

شراً على الأمير المصاحبين له ، فإن ذلك الأمير اذا ما بدت الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب ويحتجون بأنهم هم أولى من الأعداء المحاربين »[1] .

« والبدوي إذا لم يجد سلطة تردعه أو تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح ، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ، ويخضع غيره بها . على أن لهؤلاء قواعد للبادية معتبرة عندهم كقوانين يجب احترامها ، فالقوافل التي تمر بأرض قبيلة وليس معها من يحميها من أفراد هذه القبيلة معرضة للنهب ، ولذا فقد اعتادت القوافل قديماً أن يصحبها عدد غير قليل من القبائل التي ستمر بأرضها ويسمون هذا رفيقاً .

والبدوي يحتقر الحضري مهما أكرمه ، كما ان الحضري يحقر البدوي ، فإذا وصف البدوي الحضري ، فانه في الغالب يقول حُضيري تصغيراً لشأنه .

ومن عادة البدوي الاستفهام عن كل شيء ، وانتقاد ما يراه مخالفاً للموقه أو لعادته بكل صراحة ، فإذا مررت بالبدوي في الصحراء استوقفك وسألك من أين أنت قادم ؟ وعمن وراءك من المشايخ والحكام ؟ وعن المياه التي مررت بها؟ وعن أخبار الأمطار والمراعي ؟ وعن أسعار الأغذية والقهوة ؟ وعمن في البلد من القبائل ؟ وعن العلاقات السياسية بين الحكام بعضهم وبعض .

ومع أن البدو قد اعتادوا النهب والسلب ، فإنهم كثيراً ما يعفون عن أهل العلم خوفاً من غضب الله عليهم ،وبعض البدو لا يحلف كاذباً مهما كانت النتيجة. والبدوي ينكر إذا وجد مجالاً للإنكار ، ويفلت بمهارة من الاجابة عما يسأل ، ولكن إذا وجه له اليمين وكان لا مفر له اعترف بجرمه إذا كان مذنباً ، ولا يحلف كاذباً » .

« وليس أعدل من البدوي في تقسيم الغنيمة حتى قد يتلفون الشيء تحرياً للعدل ، ويقسمون السجادة بينهم كما يقسمون القميص أو السروال ، كل هذا إرضاءً لضمائرهم ودفعاً للظلم ، إنهم يعرفون الخيام حق المعرفة لأنها بيوتهم التي يعيشون فيها ، ومع ذلك فهم يقسمونها مراعاةً للعدل ، أما الإبل والغنم فإنهم يقسمونها اذا أمكن القسمة أو يقومونها بثمن اذا لم يكن هنالك سبيل للقسمة » .

« والبدو لا يفهمون الحياة حق الفهم كما يفهمها الحضري ، لا يفهمون

---

1 وهبة (ص ١١ فما بعدها) .

البيوت وهندستها ، ولا يفهمون فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية ، حتى ان البدو الذين كانوا في جيش الملك حسين في الثورة العربية كان عملهم بعد الإستيلاء على الطائف نزع خشب النوافذ والأبواب ، لا لبيعها والانتفاع بثمنها ، بل لاستعمالها وقوداً اما للقهوة أو الطبخ أو التدفئة ، وبدو نجد قـد فعلوا مثل ذلك تماماً ، فعندما أسكنت الحكومة بعض القبائل في ثكنة جَرْوَلْ ، اكتشفت الحكومة ان النوافذ الخشبية والأبواب تنقص بالتدريج،وانها استعملت للطبخ وتحضير القهوة ، فأخرجهم جلالة الملك توا من الثكنة ، وأسكن الحضر فيها ، والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه جهلة البدو عن النوافذ والأبواب .

« وللبدو مهارة فائقة في اقتفاء الأثر ، وكثيراً ما كانت هذه المعرفة سبباً في اكتشاف كثير من الجرائم ولا تكاد تخلو قبيلة من طائفة منهم .

« والقبائل العريقة المشهورة من حضر وبادية تحافظ على أنسابها تمام المحافظة وتحرص عليها كل الحرص ، فلا تصاهر الا من يساويها في النسب ، والقبائل المشكوك في نسبها لا يصاهرها أحد من القبائل المعروفة .

« أما حكام العرب،فيترفعون عن سائر الناس حضرهم وبدوهم،لا يزوجون بناتهم الا لقرباهم . أما هم فيتزوجون من يشاءون ، وطبقات الحكام يترفـع بعضها على بعض : الأشراف يرون أنفسهم أرفع الخلق بنسبهم ، وآل سعود يرون أنفسهم أرفع من الأشراف ، وأرفع من سواهم من حكام العرب الآخرين »[1] .

« وهنا ترى الروح الصحيحة البدوية التي لا تملك شروى نقير ترفض الزواج من غني ، لأنه ابن صانع ، أو انه من سلالة العبيد ، أو لأن نسبه القبلي يحيط به شيء من الشك ، فسلطان المال لا قيمة له عند العرب . ومـع وجود هذه الروح الأرستقراطية التي تتجلى فقط في الزواج ورياسة القبيلة والحكم،فإنه لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الأخرى » .

ومن عادة القسم الأكبر من سكان الجزيرة ، ولا سيما البدو ، مخاطبة رؤسائهم بأسمائهم أو بألقابهم ، لأنهم لا يعرفون الألقاب وألفاظ التعظيم والتفخيم،فيقولون يا فلان ويا أبا فلان ويا طويل العمر .

---

١ وهبة (ص ١٣ فما بعدها) .

ولا يزال العربي الصريح ينظر الى الحِرَف والمِهَن نظــرة ازدراء ، والى المشتغل بها نظرة احتقار وعدم تقدير .

والبدوي ، لا ينسى المعروف ، ولكنه لا ينسى الإساءة كذلك ، فإذا أسيء اليه ، ولم يتمكن من رد الإساءة في الحال ، كظم حقده في نفسه ، وتربص بالمسيء حتى يجد فرصته فينتقم منه . فذاكرة البـدوي ، ذاكرة قويــة حافظة لا تنسى الأشياء .

فنرى من هذه الملاحظات أن كثيراً من الطباع التي تطبع بها عرب الجاهلية ما زالت باقية ، وبينها طباع نهى عنها الإسلام وحرّمها ، لأنهـا من خــلال الجاهلية ، ومع ذلك احتفظ بها البدوي وحافظ عليها حتى اليوم ، وسبب ذلك أن من الصعب عليه نبذ ما كان عليه آباؤه وأجداده من عادات وتقاليد . فالتقاليد والعرف وما تعارفت عليه القبيلة هي عنده قانون البداوة . وقانون البداوة دستور لا يمكن تخطيه ولا مخالفته ، ومن هنا يخطيء من يظن أن البداوة حرية لا حد لها ، وفوضى لا يردعها رادع ، وان الأعراب فرديون لا يخضعون لنظام ولا لقانون على نحو ما يتراءى ذلك للحضري أو للغريب . انهم في الواقع خاضعون لعرفهم القبلي خضوعاً صارماً شديداً ، وكل من يخرج على ذلك العرف يطـرد من أهله ويتبرأ قومه منه ، ويضطر أن يعيش (طريداً) أو (صعلوكاً) مع بقية (صعاليك) .

العرب والعربـي رجل جاد صارم ، لا يميل الى هزل ولا دعابـة ، فليس من طبع الرجل أن يكون صاحب هزل ودعابة ، لأنهما من مظاهر الخفة والحمق ، ولا يليق بالرجل أن يكون خفيفاً . ولهذا حذر في كلامـه وتشدد في مجلسه ، وقلّ في مجتمعه الإسفاف . واذا كان مجلس عام ، أو مجلس سيد قبيلة ، روعي فيه الإحتشام ، والابتعاد عن قول السخف ، والإستهزاء بالآخرين ، وإلقاء النكات والمضحكات ، حرمة لآداب المجالس ومكانة الرجال .

واذا وجدوا في رجل دعابة أو ميلاً الى ضحك أو اضحاك ، عابوا ذلك الرجل وانتقصوا من شأنه كائناً من كان ، وعبارة مثل « لا عيب فيه غير أن فيه دعابة » أو « لا عيب فيه الا أن فيه دعابة » ، هي من العبــارات التي تعبّر عن الانتقاص والهمز واللمز .

والبدوي محافظ متمسك بحياته وبما قدر له ، معتز بما كتب له وان كانت

حياته خشونة وصعوبة ومشقة . ومن هذه الروح المسيطرة عليه ، بقي هو هو ، لا يريد تجديداً وتطويراً ، الا اذا أكره على التجديد والتغيير والتبديل ، فهنا فقط يخضع لقانون (القوة) ، وهو لا يسلم له الا بعد مقاومة ،والا بعد شعوره بضعفه وبعدم قابليته على المقاومة ، فيتقبل الأمر الواقع مستسلماً، ومع ذلك يبقى متعلقاً بما فيه ، يحاول جهد امكانه التمسك به ، ولو بإلباسه ثوباً جديداً . وفي القرآن الكريم آيات بينات فيها تقريع وتعنيف للأعراب ، ووصف لحياتهم النفسية. فيها أن الأعرابي محافظ لا يقبل تجديداً ، ولا يرضى بأي تغيير كان لا يتفق وسنّة الآباء والأجداد ، ومنطقه في ذلك : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا »[1]، « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون »[2] .

ولهذا لا نجد البدو يؤمنون بسنة التقدم والنشوء والارتقاء . فالبدوي يعيش أبداً كما عاش آباؤه وأجداده ، مساكنه بيوت الشعر ، وهي لا تحميه ولا تقيه من أثر أشعة الشمس المحرقة ولا من العواصف والأمطار ، ومع ذلك لا يستبدلها بيتاً آخر ، ولا يفكر في تحسين وضعه وتغيير حاله : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » . وليس من الممكن أن تقوم في هذه البادية ثقافة غير هذه الثقافة الصحراوية الساذجة ، ما دام البدوي مستسلماً مسلماً نفسه للطبيعة ولحكم القدر ، وهو استسلام اضطر الى الخضوع له والإيمان بحكمه ، بحكم عمل الطبيعة القاسية فيه منذ آلاف السنين .

وكيف يغير حاله ، وليس في البادية ما يساعده على تغيير الحال ، ليس فيها ماء كاف ولا شجر نام ولا أمطار وخضرة ، فهو يعيش على كرم الطبيعة ورحمتها . أما اذا تكاثر عدده ، وزاد عدد خيام القبيلة ، اضطرت الى التنقل الى مكان آخر ، أحسن وأنسب من المكان القديم . وهكذا صار دائماً في تنقل من مكان الى مكان .

وتحمس الأعراب وأشباه الحضر في دفاعهم عن العرف ، ليس عن بلادة وغباء وشعور بضعف في الكفايات ، كلا فللبدوي ذكاء وقّاد وفطنة وكفاية وموهبة ، وهو إذ يقاوم التغير والتبدل والتجدد ، لا يقاومه عن غباء وبلادة

---

١ المائدة ، الاية ١٠٤ .
٢ الزخرف ، الاية ٢٣ .

وعن شعور بضعف تجاه تقبل الحياة الجديدة ، وإنما يقاومه لأنه يشعر عن غريزة فيه أن حياته أفضل وأن البداوة حرية وانطلاق وعدم تقيد ، وأن التطور إن لم يأتِ منه ، فهو شر وبلاء ، وأن كيانه مرتبط بتقاليده ، وأن وجوده من وجود آبائه وأجداده ، فهو إن انحرف عن عرفه عرض نفسه وأهله وقبيلته وكل وجود قومه للهلاك ، فهو لذلك يرفض كل تجديد وتغيير وإن بدا لنا أو له أنه لمصلحته ، لغريزة طبيعية فيه وفي كل انسان ، هي غريزة المحافظة على البقاء، فخوفه من تعرض تقاليده وكيانه للخطر ، هو الذي جعله محافظاً شديد التمسك بالعرف والعادة . أما إذا شعر هو أو أشعر من طريق غير مباشر بفائدة التطور والتغيير وبما سيأتيه من نفع وربح ، ولا سيا إذا لم يكن في التغيير ما يعارض عرفه ولا يناقض تقاليده ، فإنه يتقبله ويأخذه ، ويظهر مقدرة ومهارة فيه ، حتى في الأمور الفنية الحديثة الغريبة عنه . ويروي خبراء شركات البترول كثيراً من القصص عن مقدار براعة البدو وحذقهم في إدارة الآلات والأعمال التي وكلت اليهم . وهناك شهادات أخرى مماثلة وردت من جهات فنية أخرى . ولو تهيأ لهؤلاء البدو مرشدون وخبراء عقلاء كيسون لهم علم بنفسياتهم ، ولو عرفت الحكومات العربية عقلياتهم ومشكلاتهم ، لكان في الامكان تحويلهم الى ثروة نافعة لا تقدر بثمن ، ولتجنبت بذلك المشكلات التي تواجهها منهم[1] .

حتى الطب ، هو في البادية طب بدوي متوارث لا يتغير ولا يتبدل ، يقوم على المداواة بتجارب (العارفة) في الطب . ولا يطمئن الاعرابي الى طب أهل الحضر ، مهما فتكت به الأمراض وأنزلت به من آلام ، ذلك لأن طب أهل الحضر هو طب غريب عليه بعيد عنه ، فهو لذلك لا يطمئن اليه . اللهم إلا اذا أقبل عليه رؤساؤه وساداته ، أو أقنع بمنطقه وبطريقة إدراكه هو للأمور أن في الدواء الذي يداوى به شفاءً لمرضه ، وعندئذ يقبل عليه ثم يزيد اقباله عليه، حتى يكون مألوفاً عنده ، بل يقوم في مثل هذه الحالات باختزان ما يمكن اختزانه من الدواء للمستقبل من غير أن يفكر في كيفية خزنه ، أو في المدة المقدرة لعمر ذلك الدواء ، وتلفه بعد انقضائها .

ووصف الأعراب في القرآن الكريم بالغلظة والجفاوة وبعدم الادراك وبالنفاق

---

١ جان جاك بيرلي : جزيرة العرب (ص ١٠٢) .

وبالتظاهر في اللسان بما يخالف ما في الجنان : « قالت الأعراب : آمنا ، قل، لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخُل الإيمانُ في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله ، لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم »[1] .
« وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النفاق ، لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ، ثم يردّون الى عذاب عظيم »[2].

فالأعرابي « البدوي » إنسان لا يعتمد عليه، مسلم ومع ذلك يتربص بالمسلمين الدوائر ، فإذا خذل المسلمون في معركة ، أو شعر بضعف موقفهم خذلهم وانقلب عليهم ، أو اشترط شروطاً ثقيلة عليهم ، بحيث يجد فيها مخرجاً له ليخلص نفسه من الوضع الحرج الذي أصاب المسلمين . فلا يكلف نفسه ، ولا يخشى من مصير سيء ينتظره إن غلب المسلمون. « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم »[3] ، والأعرابي لم يُسلِمْ في الغالب عن عقيدة وعن فهم ، إنما أسلم لأن رئيسه قد أسلم فسيّد القبيلة إذا آمن وأسلم ، أسلمت قبيلته معه . وقد دخلت قبائل برمتها في النصرانية لدخول سيّدها فيها . وقد وردت في سورة الحجرات هذه الآيات في وصف بعض الأعراب : « قالت الأعراب آمنا، قل: لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً . إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون ، اللذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل أتعلّمون الله بدينكم ؛ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض . والله بكل شي عليم . يمنّون عليك أن أسلموا . قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم ، بل الله يمن عليكم ، أنْ هداكم للإيمان إن كنتم صادقين»[4] .

وقد استثنى القرآن الكريم بعض الأعراب مما وصمهم به من الكفر والنفاق والتربص وانتهاز الفرص فنزل الوحي فيهم : « ومن الأعراب من يؤمن بالله

---

١ سورة الحجرات الاية ١٤ .
٢ سورة التوبة ، الاية ١٠١ .
٣ سورة التوبة الاية ٩٧ وما بعدها .
٤ سورة الحجرات الاية ١٤ وما بعدها

واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته ، إن الله غفور رحيم »[1] .

وقد وصف الأعراب بالغلظة والخشونة ، فقيل : أعرابي قُحّ ، وأعرابي جلف ، وما شاكل ذلك . وفي الحديث (من بدا جفا) ، أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب[2] .

وذكر أن الرسول وصفه (سراقة) وهو من أعراب (بني مدلج) بقوله: « وان كان أعرابياً بوّالاً على عقبيه »[3] . وأنه نعت (عُيَيْنَة بن حصن) قائد (غطفان) يوم الأحزاب بـ (الأحمق المطاع)[4] . « وكان دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ، بغير اذن، فلما قال له أين الاذن ؟ قال ما استأذنت على مضربي قبلك . وقال: ما هذه الحميراء معك يا محمد ؟ فقال : هي عائشة بنت أبي بكر . فقال : طلقها وانزل لك عن أم البنين . في أمور كثيرة تذكر من جفائه . أسلم ثم ارتد وآمن بطليحة حين تنبأ وأخذ أسيراً فأتي به أبو بكر، رضي الله عنه ، أسيراً فمنّ عليه ولم يزل مظهراً للإسلام على جفوته وعنجهيته ولوثة أعرابيته حتى مات » .

وذُكر ان « الأعرابي اذا قيل له يا عربي فرح بذلك وهشّ ، والعربي اذا قيل له يا أعرابي غضب »[5] . وذلك لإزدراء العربُ الأعرابَ،ولارتفاعهم عنهم في العقل وفي الثقافة والمنزلة الإجتماعية .

وهذه الصفات التي لا تلائم الحضارة ولا توائم سنن التقدم في هذه الحياة ، هي التي حملت الإسلام على اعتبار (التبدي) أي (التعرب)بعد الهجرة ردّة على بعض الأقوال وعلى النهي عن الرجوع الى البادية والعيش بها عيشة أعرابية.فلما خرج (أبو ذر) الى الربذة قال له عثمان بن عفان : « تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابياً » . فكان « يختلف من الربذة الى المدينة مخافة الأعرابية »[6] . ولما وصل

---

١ سورة التوبة الاية ٩٩
٢ الفاخر (ص ٦٥) ، بلوغ الارب (٤٢٥/٣) .
٣ الروض الانف (٦/٢) .
٤ الروض الانف (١٨٨/٢) .
٥ تاج العروس (٣٣٤/٣) ، « الكويت » .
٦ الطبرى (٢٨٤/٤) .

(عبدالله بن مسعود) الربذة ، ورأى ابنة أبي ذر وهي حائرة وكان والدها قد فارق الحياة لتوّه ، سألها : « ما دعاه الى الإعـراب »[1] . وفي الحديث : « ثلاث من الكبائر منها التعرب بعد الهجرة » . وهو أن يعود الى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً . وكان من رجع بعد الهجرة الى موضعه من غير عذر يعدّونه كالمرتد[2] . وذلك بسبب جفاء الأعراب والجهالة ، ومن هنا كرهت شهادة البدوي على الحضري فورد في الحديث « لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية » . لأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها ولِمَا في البدوي من جفاء وجهالة بأحكام الشرع[3] .

وقد عُرِفَ العربي الحضري بـ (القراري) ، أي الذي لا ينتجع ويكون من أهل الأمصار ، وقيل ان كل صانع عند العرب قرازي[4] . وهذه النظريـة هي نظرة أهل البداوة بالنسبة لأهـل الحاضرة ، فالصانـع عندهم انسان مزدرى لاشتغاله بصنعة من هذه الصنائع التي يأنف منها العربي الحرّ .

والحق ان النعوت المذكورة لا تلازم جميع الأعراب ولا تنطبق عليهم كلهم. فهم يختلفون مثل أهل الحضر ، باختلاف مواضعهم ، من قـرب عن حضارة ومن بعد عنها ، ومن وجود ماء وخصب ، أو جدب أو فقر،وما شاكل ذلك. كما ان بعض النعوت المذكورة تنطبق على بعض أهل المدر أيضاً . ولهذا نجـد القرآن الكريم يطلقها عليهم،ولكن لا على سبيل التعميم بل على سبيل التخصيص، فهي نتائج ظروف خاصة وأحوال معينة ، لا بد وأن تؤثر في أصحابها فتكسبهم تلك الصفات والمؤثرات . كما ان العـرب ، أي الحضر ، لم يكونوا كلهم في التحضير على درجة واحدة سواء ، فبينهم اختلاف وتباين ، وبهذا التباين تباينت خصائصهم النفسية بعضهم عن بعض .

والبدوي الذي تمكن « ابن سعود » أو غيره من الحكام من ضبطـه بعض الضبط ومن الحد من غاراته على الحضر أو على البدو الآخرين ، هـو البدوي نفسه الذي عاش قبل الميلاد وفي عهد إسماعيل ، والذي قالت في حقه التوراة :

---

١ الطبري (٣٠٨/٤) .
٢ تاج العروس (٣٥٤/٣) ، « الكويت » .
٣ اللسـان (٦٧/١٤) .
٤ اللسـان (٩٠/٥) .

« يده على الكل ويد الكل عليه »[1] . وهو سيبقى كذلك ما دام بدوياً ترتبط حياته بالصحراء ، ينتهز الفرص كلما وجد وهناً في الحكومات وقوة في نفسه على أخذ ما يجده عند الآخرين . وهو إن هدأ وسكن ، فلأنه يجد نفسه ضعيفاً تجاه سلطة الحكومة ، ليس في استطاعته مقاومتها لضعف سلاحه ، فإذا شعر بقوته لم يخش عندئذ أحداً .

وقد تأصلت الفردية في أنفس الأعراب وفي أنفس أشباه الحضر وفي أكثر الحضر ، حتى صارت أنانية مفرطة ، عاقت المجتمع العربي في الجاهلية وفي الإسلام عن التقدم وعن التوثق والاتحاد . وفي الأدبين الجاهلي والإسلامي أمثلة عديدة سارت بين الناس تمثل هذه النظرية الضيقة الى الحياة . ورد في الحديث عن أبي هريرة أنه قال: « قام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى الصلاة ، وقمنا معه ، فقال أعرابي في الصلاة : اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحدا »[2] . فقدّم نفسه على الرسول ، مع أنه مسلم يحمله دينه وأدبه : أدب الإسلام على تقديم الرسول عليه ، ثم إنه لم يخصص أحداً بالرحمة غير الرسول وغير نفسه مدفوعاً بهذه الأنانية القبيحة . وكثيراً ما تسمع الناس يتمثلون بقول أبي فراس : « اذا مت ظمآناً فلا نزل القطر » .

يتمثل به الحضر تعبيراً عن فلسفة ووجهة نظر قديمة الى هذه الحياة ، مبعثها الوضع السيء العام القلق الذي عمّ المجتمع وما زال يعمه ، والذي جعل الفرد يشعر بعدم وجود من يحميه ويساعده ، فتحول غضبه الى عقيدة مؤذية مضرة ويا للأسف .

والبداوة عالم خاص قائم بذاته ، تكونت طباعها وخصائصها من الظروف التي نشأت فيها ، لها مقاييسها وموازينها الخاصة ، وهي مقاييس وموازين تختلف عن مقاييس الحضر وموازينهم، الحضر البعيدين عن البادية وعن أحوال البداوة ولذلك اختلفت افهام الجماعتين وتباعدت عقلياتهما ، ومن هنا يظهر خطأ من يحكم على البداوة بمقاييس أهل الحضارة ويفسر ما يقع من الأعراب تفسيره لما يقع من أهل المدر من أعمال ، ومن هنا أيضاً نجد أن البداوة لا تستطيع فهم منطق الحضر

---

١ التكوين ، الاصحاح ١٦ ، الاية ١٢

٢ سنن ابي داوود (١/٨٩) .

ولا تستسيغ أسلوب حياتهم ، ولا تأمنهم ، لأن عالمها يختلف عن عالم الحضر ، ولأنها تجد من قيود الريف والمدن ما يصعب عليها تحمله ، ولأنها ترى في الحضر جماعة حيل وشرّ ومكر فلا تأمنهم ، ولا تستطيع أن تطمئن اليهم ، مهما أظهر الحضر نحوها من عطف واحسان. وقد كابدت البداوة كثيراً كما كابدت الحضارة كثيراً أيضاً من جراء سوء الفهم هذا الناجم من اختلاف العقليتين .

ويظهر البدوي في عين الحضري الحديث ، وكأنه انسان مزدوج الشخصية جامع للنقيضين ، له وجهان . فهو محارب يحارب معك وفي صفوفك ، أما اذا شعر أن الهزيمة ستحل بك ، فإنه أول من ينقلب عليك ، فيمعن عندئذ في سلبك ما معك ونهبه ، لا فرق عنده أن يكون الذي يحارب معه وفي صفوفه عربياً أو أعجمياً ، شريفاً من أسرة عريقة أم قائداً محترفاً . وهو كريم جواد يقدم لضيفه آخر شيء عنده ليأكله ويحبيه بكل وسائل الاكرام ، ولكنه لا يمتنع من سلب غريب يجده في طريقه ، ومن أخذ ما عنده . وهو رجل متدين لا يحلف كاذباً مهما رأى النتيجة ،ولكن تدينه تدين بدويّ سطحي الى غير ذلك من متناقضات .

أما الأعرابي ، فيسخر من اتهام الحضري له بهـــذه التهم ، ويعجب من سذاجة منطقـــه وحكمه ، فمنطقه في نظره منطق رجـــل ساذج مريض معلول ، وحكمه حكم إنسان ضعيف ذليل . وإلا فكيف يسمح عقل إنسان سليم لإنسان مثلاً أن يترك أموال صاحبه أو أصحابه تقع في أيدي غيره أو أعدائه، يأخذونها لينعموا بها وليفتخروا بحصولهم عليها ، ثم لا يمد هو يده اليها يأخذ منها مـــا يحتاج اليه ويريد ؟ ألا يدل هذا العمل على السخف والضعف وفساد الرأي ؟ إن المحارب في نظر الأعرابي أولى من غيرة بأموال زميله المحارب ، وهو أحق بها من أي إنسان آخر للحصول عليها إن داهمه خطر ، وشعر أن تلك الأموال ستقع في أيدي عدوه ، فهو زميله وصديقه ، وهو فوق ذلك به حاجة اليها ، فمن حقه الطبيعي إذن أن يأخذها ولو عنوة ويولي بها ليحرم عدوه الحصول عليها والحصول على أي مكسب كان من هذه الحرب . ثم إنه إن لم يباشر أخذ مـا يجده أمامه في الوقت الملائم ، فإن غيره سيأخذه حتماً ، وقد يكون غـيره هو خصمه وعدوه : ولما كانت النفس مقدمة على غيرها ، كان من العقل والحكمة أن يأخذ حقه بنفسه ، وإلا ضاع حقه عليه وأفلت منه . ومن هنا اختلف منطقه عن منطق الحضري وباين حكمه على الأمور حكم الحضري .

وحكم الأعراب على الأمور،حكم صادر عن عقلية خاصة بهم ، كونتها عندهم الأحوال التي يعيشون فيها والمحيط الذي يتحكم فيهم من جفاف وحرارة وضوء ساطع واختلاف في درجات الضغط الجوي وانحباس الأمطار وفقر محالف لأغلب الأرضين ومن فقر وتقتير وبساطة في المأكل وأمثـال ذلك من مؤثرات كونت عندهم عقلية خاصة وثقافة خاصة ، فهمت الأمور بمنطقها لا بمنطق الآخرين . ومن هنا اختلفت أيضاً عقليات الأعراب وتباينت بعض التباين باختلاف الأحوال التي تحيط بالأمكنة التي ينزلون بها وبقرب تلك الأمكنة وبعدها من الحضر ومن الحضارة . وبمقدار تأثرها بالمؤثرات الخارجية وبالثقافات الواردة من الخارج ، كالذي نلحظه من وجود شيء من التباين بين عقليات القبائل المتنصرة وأعمالهـا وعقليات القبائل الوثنية وأعمالها ، بالرغم من أن نصرانية تلك القبائـل لم تكن نصرانية عميقة صميمة ، ولم تكن صافية خالصة،وذلك لأن هذه القبائل المتنصرة، على سطحية تنصرها ، كانت مواطنها ملاصقـة للحضر وللحضارة وذات اتصال بالحضر وبالأعاجم وبالثقافات الأجنبية وبالبيئات الثقافيـة الغريبة ، وعاش بينها رجال دين غرفوا من ثقافات غريبة وبشّروا بين العرب المتنصرة بآراء غريبـة عنهم ، كما تأثر رؤساء تلك القبائل بمؤثرات الحضر الذين احتكوا بهم وبرجال السياسة والدين الذين كانوا عـلى اتصال بهـم ، وقد تزوج بعضهم من نساء نصرانيات ، أثرن في بيئة ذلك الزوج .

وقد نص الأقدمون على اختلاف طباع القبائل،فعرف بعضها باللين والسهولة، وعرف بعضها بالشدة والخشونة والغلظة ، وعرف آخرون بالشجاعة والصبر على المكاره والميل الى الغزو والحروب ، وعرف غيرهم بالميل الى الاستقرار وبقابليتها على الاستيطان واستغلال الأرض والإلتئام مع الجيران . ولوجود هذه الصفات في القبائل كان الحكام في الجاهلية وفي الإسلام اذا أرادوا أمـراً وكلوه الى القبيلة التي تتناسب صفتها التي اشتهرت بها مع العمل الذي يراد القيام به ، وصار اعتماد الحكام على هذه الفراسة في الغالب . وما زال هذا التباين في كنايات القبائـل معروفاً حتى اليوم ، فقد اشتهرت بعض قبائل نجد بأمور لم تشتهر بها القبائـل الأخرى ، أو انها فاقت بها سائر قبائل نجد، فاشتهرت بعضها بالقتال،واشتهرت بعضها بالصرامة والصبر ، وما الى ذلك ، ويراعي حكام جزيرة العـرب اليوم هذه الصفات في ضبط الأمور في حكوماتهم وفي حفظ التوازن في حكم البوادي

والأعراب وفي السياسة العامة للحكومة . وفي تقارير السياسيين الوطنيين والأجانب وفي كتب السياح والبعثات الأجنبية على اختلاف أنواعها كلام علـى تباين طباع الأعراب في جزيرة العرب وطباع الحضر في هذا اليوم .

فنرى اذن أن للأعراب رأياً في الحضر يشبه رأي الحضر فيهم ، أي رأي فيه ازدراء وحط من شأن الحضر ومن مجتمعهم الذي يعيشون فيه ، ومن قيمهم في هذه الحياة ، وهو رأي تكوّن عندهم من بيئاتهم التي يعيشون فيها ومن ثقافتهم الخاصة بهم ، التي تفسر الأمور بمقاييسها وأوزانها ، وهي مقاييس وأوزان بعيدة عن مقاييس الحضر والحضارة . ولا أقصد بالحضر هنا حضر الأعاجم وحدهم ، بل ادخل فيهم حتى الحضر العرب ، كالذي يتبين من استهجان الأعراب لشأن أهل المدر في كـل مكان من أمكنة جزيرة العـرب ومن ازدرائهم لأحلامهم ومثلهم في الحياة . فالبداوة ثقافة خاصة بهذا العالم ، عالم البداوة ، والحضارة ثقافة أخرى خاصة بالحضر ، وبين الثقافتين بَوْن وخلاف .

وليست هذه الطباع وراثة تنتقل من الآباء الى الأبناء أبداً في الدم،فلا تتبدل ولا تتغير ، بل هي حاصل أحوال وبيئة ، اذا تغيرت الأحوال والبيئة وقع تغير يتوقف على مقدار فعل البيئة الجديدة في الإنسان وعـلى الزمان الذي يقضيه فيه وعلى مقدار استعداد ذلك الإنسان لتقبل البيئة الجديدة والثقافة الجديدة التي دخل فيها ، ولهذا يكون فعل التغير في الجيل القديم أقل من الجيل الجديد. وعلى ذلك يخطىء من يصف العرب بصفات يلصقها بهم يجعلها عامة فيهم أبديـة . ودليلنا على ذلك أن من عاش من الأعاجم بين العرب وفي بيئة عربية ، تطبع بطباع العرب وصار مثلهم ، حتى اذا انقرض الجيل القديم ونبع الجيـــل الجديد تحول الى جيل عربـي في كل شيء ، لا نستثني من ذلك حتى الإنتساب الى العرب الى عدنان وقحطان وحتى التعصب والعصبيات . والإسلام الذي صهـر الأعاجم في بوتقته ، وجعلهم جنوداً يحاربون في الصفوف الأمامية لنشره وإعلاء كلمته ، لم يلبث أن أنساهم أصولهم ولغاتهم ، فحوّلهم بذلك الى عرب من حيث لم يشعر العرب ولا الأعاجم أنفسهم به .

والأعرابـي واقعي ، تتأثر أحكامه بالواقع الذي يراه ، وبمقياس المادية التي تتمثل عنده ، يؤمن بالروح ، ولكنه يحوّلها الى ما يشبه المادة الملموسة . يؤمن بإلـه أو بآلهة ، كما كان في الجاهلية ولكنه حوّل تلك الآلهة الى أوثان وأصنام،

يلمسها ويحسها بيديه ، فيتقرب اليها ويتوسل بها ، وخاف من الأرواح مثل الجن والأرواح الخبيثة التي صوّرها عقله ، أكثر من خوفه من آلهته، فإذا نزل مكاناً قفراً ، أو محلاً موحشاً ، أو دخل مكاناً مظلماً أو كهفاً ، تعوذ من الأرواح، واحتال عليها بمختلف الحيل التي ابتكرها عقله ، ليتغلب عليها وليتخلص منها . فهو يخافها أكثر من خوفه من الآلهة ، لأنه جعلها تعيش معه في كل مكان ، فهي تحيط به . أما الآلهة ، فإنها بعيدة عنه ، ثم انها لا تؤذي ، ومن طبع الإنسان التخوف من المؤذين .

وهو لا يحفل بما بعد الموت ، لأن هذا العالم الثاني عالم غير محسوس بالقياس اليه . ولهذا لم يتصوره كتصور غيره من الأمم الأخرى ، بل هو لم يتعب نفسه بالتفكير فيه ، ولهذا كانت مراسيم دفن الميت بسيطة جداً ، لا تكلف فيها ولا تعقيد، على نحو ما نجده عند الحضري أو العجم،متى دفن في قبره وهيل التراب عليه ، انتهى كل شيء . ولهذا كان عجبهم شديداً اذ سمعوا بالبعث وبالقيامة والحشر والنشر. «أإذا أمتنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون،أو آباؤنا الأولون »[1] . وكان قائلهم يقول :

حياة ، ثم موت ، ثم نشر : حديثُ خُرافة ، يا أم عمرو ![2]

وقال شدّاد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك،يرثي قتلى قريش يوم بدر :

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ[3]

وقد ورد البيت المذكور في صورة أخرى في كتاب (الصبح المنير في شعر أبي بصير) ، في باب شعر (أعشى نهشل) ، ورد في هذا الشكل :

وكائن بالقليب قليب بدرٍ من الفتيان والعرب الكرام
أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا وكيف حياة أصداءٍ وهامِ ؟
أيعجز أن يرد الموت عني وينشرني إذا بليت عظامي
ألا مَنْ مبلغ الرحمن عني بأني تارك شهر الصيام
فقل لله يمنعني شرابي وقل لله يمنعني طعامي[4]

١ سورة الواقعة ، الاية ٤٧ ، « اذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد » سورة ق ، الاية ٣
٢ بلوغ الارب (١٩٨/٢) .
٣ الصبح المنير (ص ٣٠٨) « طبعة اوربة ١٩٢٧ » .

والحضر الذين نظروا الى الأعراب ، نظرة استصغار وازدراء ، لما بينهم وبين الأعراب من تفاوت في الثقافة وفي العقلية ، هم أنفسهم وفي الواقع أشباه حضر، وأخص من هؤلاء الحضر حضر الحجاز ، فخصائص التعرب غالبة عليهم ، غلبة تزيد على خصائص الحياة الحضرية . فقد قامت قراهم مثلاً وأعظمها مكة ويثرب على الفكرة الأعرابية القائمة على أساس النسب ، فكل من مكة ويثرب شعاب، كل شعب لفخذ أو عائلة أو ما أشبه ذلك من أسماء تدخل في أسماء أجزاء القبيلة ، تتعصب وتتحزب وتتقاتل فيما بينها وتتحالف ، كما يتقاتل أو يتحالف الأعراب . ثم إنهم كانوا يأنفون من الاشتغال بالحرف ، تماماً كما يفعل البدو ، ويعافون الزراعة في الغالب ، لا استثني منها زراعة النخيل ، لأن الزراعة في نظرهم من أعمال النبط والرقيق،والروح الفردية سائدة بينهم ، موجودة عندهم، إلا في أوقات الشدة والضيق ، والفردية الجامحة من طبائع البادية ومن خصائصها، الى أمور أخرى عديدة تعد من صميم الحياة الأعرابية . وسبب ذلك أن هذه المستوطنات التي سموها قرى كانت وسطاً بين البداوة والحضارة ، وكانت كالجزر الصغيرة وسط المحيطات الواسعة، محيطات من الأعراب ، تستمد غذاءها الروحي والمادي من البداوة أكثر مما تستمده من الحضارة . أضف الى ذلك عامل الطبيعة الذي يلعب دوراً خطيراً في تكون المجتمعات وفي تكييفها بالشكل الملائم . ولذلك لم تتكون في يثرب أو في مكة أو في غيرها حياة مشابهة لحياة الحضر العجم في الأماكن الأخرى مثل مدن وقرى العراق وبلاد الشام ومصر ، بل وحتى حضر مدن اليمن وهم من العرب بالطبع .

ومن هنا نجد حضر اليمن ، بل وأعراب اليمن أيضاً يختلفون عن حضر وأعراب الحجاز ونجد والعربية الشرقية ، في كثير من الخصائص والصفات . مع أنهم كلهم عرب ومن أصل واحد . فحضر اليمن ، حضر لا يأنفون من العمل ولا يستصغرون شأن الحرف . ولا يأنفون من الزراعة . بينهم الحائك والنساج والمشتغل بالأرض ، والصائغ والحداد والنجار وعامل البناء ، وقالع الحجر ومربي الماعز والغنم والبقر ، وزارع الخضر والبقول ، ودابغ الجلود ، مع أنها حرف يراها العربي في بقية مواضع جزيرة العرب من حرف العبيد والطبقات الدنيا من الناس .

وأعراب اليمن ، الذين ميزهم حضر اليمن عن أنفسهم في الجاهلية باطلاق

لفظة (اعرب) عليهم، لأنهم لم يكونوا في مستواهم وفي درجتهم في الحضارة. هم مع ذلك وبوجه عام أرقى مستوى وأكثر ادراكاً من أعراب الحجاز ونجد. لقد وطنوا أنفسهم في أطراف الحواضر وعند مواضع الماء والخصب، وزرعوا ورعوا ماشية وأنعاماً، واستقروا في بيوت من مدر أو حجارة. وهي حياة لا يألفها البدوي القح. ولا يراها من مقوّمات البداوة. ثم انهم لم يكونوا رحلاً على شاكلة أعراب الحجاز أو نجد أو بادية الشام. واذا كنا نرى بعض قبائل اليمن، وهي ترحل من مواضعها، فرحيلها هذا هو عن سبب قاهر، مثل حروب أو كوارث طبيعية تجعل من الصعب عليها البقاء في منازلها، فلا يكون أمامها للمحافظة على حياتها غير الرحيل الى مكان آخر. انهم بالقياس الى عرب الحجاز أو نجد رعاة أو شبه أعراب[1].

ومرجع هذه الفروق هو في التباين في الطبيعة. فطبيعة أرض اليمن مثلاً طبيعة لطيفة خفيفة، الحرارة فيها معتدلة بوجه عام، والفروق في درجات الحرارة بين الصيف والشتاء، أو بين الليل والنهار ليست كبيرة متناقضة متعاكسة. والضغوط الجوية فيها معتدلة غير قلقة متغيرة بكثرة في اليوم أو في الشهر أو في السنة، والأمطار متوفرة بوجه عام، تزور اليمن في مواسم معينة، وجبال اليمن العالية جبال تقف شامخة عنيدة وفي وضع مناسب أمام الأبخرة المتصاعدة من البحار، حتى تضطرها على الهبوط غيثاً على اليمن يغيث الناس. ثم ان اليمن هضاب وأودية وتهائم، ومسايل طبيعية تقود السيول الى أحواض حفرتها الطبيعة، وعلمت هذه الطبيعة الإنسان على رفع حافاتها لتحبس الماء في الأحواض، وعلى عمل فتحات فيها لخروج الماء منها وقت الحاجة. وهي غنية بالمعادن وبالحجر الصالح للبناء وبالأشجار التي غرزتها الطبيعة بيدها، وأرض على هذا النحو وعلى هذه الشاكلة لا بد وأن تؤثر على أجسام وعلى عقول أصحابها، فجعلتهم من ثمّ من أنشط شعوب جزيرة العرب في ميدان العمل والحيلة في كسب العيش وفي اقامة المجتمعات وانشاء حضارة، وفوّقتهم بذلك بوجه عام على سائر عرب جزيرة العرب، وصيّرتهم قوماً لا يرون الاشتغال بالحِرَف عيباً، ولا امتهان المهن العملية نقصاً. ولو كانت أرضهم على شاكلة أرض الحجاز أو نجد، ولو

---

[1] Naval, P., 402.

كانت طبيعتها ذات طبيعة صحراوية قاسية ، لما صار أهل اليمن بالشكل الذي ذكرته . ولهذا السبب ، اختلفت طبائع من يسميهم أهل الأخبار بالقحطانيين الساكنين خارج اليمن في نجد أو في بادية الشام عن طبائع أهل اليمن ، فصاروا أعراباً أقحاحاً يأنفون من الاشتغال بالحِرَف ، ولا يعيشون الا على تربية الإبل، الى غير ذلك من سمات وسم بها البدو مع انهم يمانيون كما يذكر أهل الأخبار. ولو كانت طبيعة أرض البادية على نحو آخر ، على نحو يؤمن العيش والراحة لمن يقيم بها ، لما وجدنا ما وصفناه من أوصاف عند الأعراب، فإن الطبيعة تصقلهم اذ ذاك صقلاً آخر ، قد تجعلهم مستقرين مقيمين على الأقل ، ودليل ذلك أثر الأمطار والربيع فيهم ، عندما تغيثهم السماء ، سنين متوالية ، اذ يبقون في أماكنهم ، ويقيمون فيها ،ولا يخطر ببالهم عندئذ خاطر الارتحال والتنقل من هذه الأرض .

ولأثر الطبيعة المذكور في طباع الناس ، اختلفت طبائع أهل «الطائف» عن طبائع أهل مكة مع أنها أقرب الى مكة من اليمن،وسبب ذلك ان الطائف أرض مرتفعة ذات جو معتدل ، بها مياه وفيرة ، وبها أشجار وهبتها الطبيعة لأرضها منذ القدم ، أرضها خصبة فرحة ، لا تسودها كآبة البادية ولا يخيم عليها عبوس البيداء ، فصارت أخلاق أهلها من ثم أقرب الى أخلاق أهل اليمن ، وصاروا أذكياء ، عقولهم متفتحة نيرة ، استغلوا أيديهم ، فزاولوا الحرف مثل الدباغة، واستغلوا الأرض ، إذ زرعوها حباً وأشجاراً مثمرة ، وربّوا الماشية ، وصارت مدينتهم حتى اليوم مصيف أهل مكة . مع أنهم عرب ما في أصلهم العربي أدنى شك ، وهم وعرب مكة أو يثرب أو نجد من طينة واحدة ، لا شك في ذلك ولا شبهة .

فللطبيعة إذن من حرّ وبرد ومن اختلاف في الضغوط الجوية ومن أشعة شمس محرقة منهكة ومن اشعاع أرضي ومن أمطار وأهوية ورياح ومن طبيعة أرض وموقع ، ومن هبة الطبيعة الى السكان من طعام غني أو فقير ، من حبوب وأثمار وخضر وحيوان ، أثر بالغ في تكوّن الطباع وفي خلق التمايز بين الأجناس البشرية ، تضاف الى ذلك الظروف الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي تحيط بالناس ثم التكوّن الجسماني ومظهره . ومن هنا نجد العربي الأصيل الذي لا شك ولا شبهة في أصله العربي ، إذا أقام وحده مدة في مجتمع غربي مثل انكلترة

أو اسكاندينافية أو أميركا الشمالية ، حيث الطبيعة مختلفة عن طبيعة بلاده وحيث الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية متباينة عن الظروف المذكورة في بلاده ، تغير وتبدل واضطر مختاراً أو كرهاً عن غريزة تطور كامنة فيه الى التأقلم والانسجام مع القوم الذين صار يعيش بينهم . ويتوقف هذا التحول بالطبع على عمر الشخص وعلى قابلياته وعلى مدة اقامته في المكان . ولو أقام ذلك العربي طيلة حياته كلها في ذلك الوطن الجديد ، وصار له نسل من زوجته العربية التي قدمت معه أيضاً ، فإن النسل الجديد سيكتسب صفات الموطن الذي نشأ فيه ، ويتخلق بأخلاقه ، أما نسل نسله ، فإنه سيتحول الى شخص آخر غريب عن جده ، غريب عنه حتى في لغته . ومن هنا نجد الجيل الثالث من أجيال المهاجرين العرب الذين هاجروا الى أميركا ، وتجنسوا بها ، جيلاً اميركياً في كل شيء ، حتى في لغته وثقافته وشعوره وهواه ، يشعر أن حنجرته لا تطاوعه على تعلم العربية وأن أوتارها لا تساعد على النطق بها . مع أنه من أصل عربي أباً وأماً . وقد برز من هذا الجيل الجديد اليوم قوم في ميادين العلم والتجارة والمال والصناعة والسياسة والعمل ، ودخل نفر منهم مجلس النواب في واشنطن ، وسيزيد هذا العدد ولا شك ، لم يعقهم عن ذلك عائق الرس والعنصر والجنس وخصائص الدم ولو كان الدم عائقاً الى الأبد ، لما حدث في المذكورين ما نراه عملياً في هذا اليوم .

والعربي بعد ، إن وصف في الجاهلية أو في الإسلام بالخمول والكسل ، وبـ « الرومانطيقية » ، أي بالخيال ، وبعدم الصبر وبالأنانية والفردية وبما شاكل ذلك من صفات ، فصفاته هذه ليست حاصل خصائص دم ونتيجة سمات عرق ، وإنما هي ظروف وأحوال وأوضاع أجبرته على ذلك ، ولو أطعم ذلك العربي طعاماً صحياً فيه المواد الغذائية الضرورية لنمو الجسم والعقل ، ولو تغيرت ظروفه ، فهو كما ذكرت سيتغير حتماً . وما كان الأوروبي ليتفوق على الشرقي لو أن طبيعة اقليمه وأرضه كانت كطبيعة جزيرة العرب ، ولو سكن الألماني أو السويدي أو الانكليزي بلاد العرب ، وصار له نسل ، فإن نسله لا ينشأ كما لو نشأ في وطن والده أو جده ، لاختلاف الظروف والأجواء . وما كانت أوروبا خضراء هذه الخضرة ونشطة هذا النشاط بسبب دم أهلها وحده ، بل لأن طبيعتها ساعدت الناس وعاونتهم ، فأنبتت الرطوبة والأمطار الأشجار بنفسها وكونت لأهلها الغابات ،

ودفع البرد الناس على العمل دفعاً ، ولهذا نجد الناس عندنا في الشتاء يندفعون الى العمل اندفاعاً بعامل البرد الذي يدفع الجسم إلى الحركة .

أضف الى كل ذلك عوامل أخرى تؤثر في جسم الإنسان وفي تصرفاته واتجاهاته من تركيب جسم ومن ملامح ، مثل لون شعر وتركيبه ولون بشرة أو لون عين وشكل جمجمة وأمور أخرى يدرسها ويبحث فيها علماء الأجناس البشرية ، تؤثر أيضاً في خصائص الإنسان وفي أجناسه وفصائله ، مما لا مجال للبحث عنها في هذا المكان .

والبحث في موضوع نفسيات الشعوب وأصول تفكيرها ومميزات عقلها ، بحث يجب أن يستند الى أسس علمية حديثة ، والى تجارب دقيقة عامة،لذلك لا يمكن التعميم ما دمنا لا نملك بحوثاً ودراسات علمية منسقة ، قام بها علماء متخصصون في البوادي وفي الحواضر وفي كل مكان من جزيرة العرب ، روعي عند اجرائها الظروف الطبيعية المؤثرة في ذلك المكان ، والظروف الثقافية السائدة عليه،ودرجة تأثر ذلك المكان بالمؤثرات الخارجية ، أي بمؤثرات المناطق المجاورة له . فبين أهل جزيرة العرب بون كبير في العقليات ، وبين أهل البوادي في الجاهلية وفي هذا اليوم فروق في النفسيات وفي التعامل ، حتى وسمت القبائل بسمات ، فوسمت (معد) مثلاً بالحيلة والكيد والذكاء وبالغلظة والخشونة ، ووسمت (ثقيف) بسمات ، ووسمت (كندة) بسمات . وقد رأينا ما ذكره (حافظ وهبة) عن أهل نجد من حضر وبدو .

بل اننا نرى ان الأعاجم المتعربين أي الذين ينزلون بين العرب وينسلون بينهم ويتخذون العربية لساناً لهم ، سرعان ما يتعربون كل التعرب ، ويتحول أبناؤهم الى جيل عربي خالص ، حتى ليصعب عليك التفريق بينهم وبين العرب في الرسوم والعادات والتفكير ، وذلك بتأثير المحيط الذي حلوا به،والظروف الطبيعية المؤثرة بالمكان . وقد تعرب آراميون في العراق وفي بلاد الشام ، وصاروا عرباً في كل شيء حتى في الصفات التي ذكرناها ، وقد وجدت البعثة الأمريكية التي جاءت الى العراق للبحث عن السلالات البشرية ان في دماء القبائل العربية التي ترى نفسها انها قبائل عربية خالصة نسباً مختلفة من الدماء الغريبة ، واذا أدركنا هذه الملاحظة وقيمة أمثال هذه الدراسات في موضوع تكوّن العقلية وفي حدودها ورسم معالمها ، علمنا انه ليس من السهل في الواقع البحث عن عقلية عربية خالصة

تعبّر عن عقلية جميع العرب وفي كل مكان .

إن الذين بحثوا في العقلية العربية بصورة عامة ، تصوروا العرب وكأنهم جنس واحد انحدر من عرق واحد . وبهذا الاعتقاد وضعوا حدود تلك العقلية. أما اذا نظرنا الى نتائج فحوص بعض علماء (الأنثروبولوجي) وعلماء الآثار وعلماء الحياة لبقايا الجماجم والعظام التي عثروا عليها من عهود ما قبل الإسلام،والى فحوصهم لملامح العرب الأحياء وأجسامهم،فإنها على قلتها ، تشير الى وجود أعراق متعددة بين سكان جزيرة العرب ، الأموات منهم والأحياء ، الجاهليين والإسلاميين ، والى وجود اختلاف في نفسياتهم وفي قابلياتهم العقلية ، وقد تحدثت قبل قليل عن ملاحظات (حافظ وهبة) عن عقليات عرب المملكة العربية السعودية ، وتحدثت عن رأي علماء الحياة والأجناس في تعدد الأعراق وتسرب دماء غريبة الى جزيرة العرب يجعل من الصعب على الباحث الحذر أن يعتقد بإمكان وضع صورة دقيقة تمثل وجود عقلية واحدة لجميع أولئك الناس وفي كل العصور والعهود.

الفصل الثامن

طبقات العرب

اتفق الرواة وأهل الأخبار ، أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث القدم الى طبقات : عرب بائدة،وعرب عاربة ، وعرب مستعربة . أو عرب عاربة ، وعرب متعربة ، وعرب مستعربة. أو عرب عاربة وعرباء وهم الخلص، والمتعربة. واتفقوا أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث النسب الى قسمين: قحطانية ، منازلهم الأولى في اليمن . وعدنانية ، منازلهم الأولى في الحجاز[1] .

واتفقوا ، أو كادوا يتفقون على أن القحطانيين هم عرب منذ خلقهم الله ، وعلى هذا النحو من العربية التي نفهمها ويفقهها من يسمع هذه الكلمة . فهم الأصل ، والعدنانية الفرع ، منهم أخذوا العربية ، وبلسانهم تكلم أبناء إسماعيل بعد هجرتهم الى الحجاز ، شرح الله صدر جدهم إسماعيل ، فتكلم بالعربية ، بعد أن كان يتكلم بلغة أبيه التي كانت الإرمية ، أو الكلدانية ، أو العبرانية على بعض الأقوال[2] .

وتجد الأخباريين والمؤرخين يقسمون العرب أحياناً إلى طبقتين : عرب عاربة، وعرب مستعربة . ويدخلون في العرب العاربة عاداً وعبيل ابني (عوص بن إرم)،

---

١ ابن خلدون (١٦/٢) « طبعة بولاق » ، الهلال : الجزء العشرون ، السنة الخامسة حزيران ، ١٨٩٧ (ص ٧٦٨ فما بعدها) ، تاج العروس (٣٣٣/٣) ، « الكويت»

٢ مرج الذهب (٢٦٢/١) ، نهاية الارب ، للنويري (٢٩٢/٢)

وثمود وجديس ابني (جاثر بن إرم) ، وعمليق وطسم وأميم بني (لوذان بن إرم) ، و (بني يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام) ، وهم : جرهم، وحضرموت ، والسلف ، وجاسم بن عمان بن سبأ بن يقشان بن ابراهيم[1].

أما (الهمداني) ، فقد عدّ كل القبائل التي أولها (جاسم) وآخرها (عبس الأولى) من العرب العاربة[2] . والقبائل المذكورة هي (جاسم) الذين نزلوا بعمان والبحرين ، وبنو هيف ، وسعد ، وهزان الأولى ، وبنو مطر ، وبنو الأزرق ، وبنو بديل ، وراجل ، وغفار ، وتيماء ، وبنو أثابر ، وبنو عبد ضخم[3] .

وظل الرواة يتوارثون هذا التقسيم كلما بحثوا في تأريخ العرب قبل الإسلام ، وفي موضوع الأنساب . ولا حاجة بنا الى أن نعود ، فنقول : إن كل ما روي من هذا التقسيم وما رواه الرواة من أخبار تلك الطبقات، لم يرد الينا من النصوص الجاهلية ، وإنما ورد الينا متواتراً من الكتب المدونة في الإسلام ، لذلك لا نستطيع أن نجرؤ فنقول : إن هذا التقسيم وضعه الجاهليون ، وتوارثوه كابراً عن كابر ، حتى وصل إلى صدر الإسلام ، ثم منه وصل الينا .

وتقسيم العرب الى طبقات — وذلك من ناحية القدم والتقدم في العربية — هو تقسيم لا نجد له ذكراً لا في التوراة أو الموارد اليهودية الأخرى ولا في الموارد اليونانية أو اللاتينية ، أو السريانية . ويظهر أنه تقسيم عربي خالص ، نشأ من الجمع بين العرب الذين ذكر أنهم بادوا قبل الإسلام، فلم تبق منهم غير ذكريات ، وبين العرب الباقين ، وهم إما من عدنان ، وإما من قحطان .

وجماع العرب البائدة في عرف أكثر أهل الأخبار ، هم : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، وجاسم ، وعبيل ، وعبد ضخم ، وجرهم الأولى ، والعمالقة ، وحضورا[4] . هؤلاء هم مادة العرب البائدة وخامها، وهم أقدم طبقات العرب على الإطلاق في نظر أهل الأخبار .

---

١ المحبر (ص ٣٩٥) .
٢ الاكليل (٧٥/١) .
٣ الاكليل (٧٢/٢ فما بعدها) .
٤ الطبرى (١٠٣/١ فما بعدها) ، (٢٠٣/١ فما بعدها) ، طبعة « دار المعارف » ، وتجد اختلافا في الانساب ، التنبيه والاشراف (١٥٧) ، « طبعة الصاوى ، « العرب العاربة سبع قبائل » « وهم تسع قبائل » تاج العروس (٣٣٣/٣) ، « الكويت » ،

أما عاد ، فإنهم من نسل (عاد بن عوص بن إرم) . وأما ثمود فمن نسل (ثمود بن غاثر بن إرم) . وأما (طسم) ، فمن نسل (طسم بن لاوذ) . وأما (جديس) ، فمن نسل (جديس بن غاثر بن إرم) ، في رواية أو من نسل (جديس بن لاوذ بن سام) على رواية أخرى[1] . وأما (أميم) ، فإنهم من نسل (أميم بن لاوذ بن سام)[2] . وأما (جاسم) ، فمن نسل (جاسم) ، وهو من العماليق أبناء (عمليق) ، فهم اذن من نسل (لاوذ بن سام) . وأما (عبيل) ، فإنهم من نسل (عبيل بن عوص بن إرم)[3]،وأما (عبد ضخم) ، فمن نسل (عبد ضخم) من نسل (لاوذ) ، وقد جعلوا من صُلْب (أبناء إرم) في رواية أخرى . وأما (جرهم الأولى) ، فمن نسل (عابر) ، وهم غير جرهم الثانيـــة ، الذين هم من القحطانيين[4] . وأما العمالقـــة ، فإنهم أبناء (عمليق بن لاوذ) ، وأما (حضورا) ، فإنهم كانوا بالرسّ ، وهلكوا .

نرى مما تقدم ان أهل الأخبار قد رجعوا نسب العرب البائدة إما الى (إرم) ، وإما الى (لاوذ) ، باستثناء (جرهم الأولى) الذين ألحق بعض النسابين نسبهم بـ (عابر) . وهذه الأسماء هي أسماء توراتية ، وردت في التوراة ، وأخذها أهل الأخبار من منابع ترجع الى أهل الكتـــاب ، وربطوا بينها وبين القبائـــل المذكورة ، وكونوا منها الطبقة الأولى من طبقات العرب .

و (إرم) ، هو شقيق (لاوذ) في التوراة ، وأبوهما هو (سام بن نوح) ، وقـــد ترك (سام) هـــذا من الأولاد (آشور) Asshur و (أرفكشاد) و (لود) و (إرم) و (عيلام) . كما ورد في التوراة[5]. وقد أجرى أصحاب الأخبار بعض التحوير والتغيير في هذه الأسماء ، بأن صيّروا (آشور) (أشوذ) و (انشور) و (أرفكشاد) (أرفخشذ) ، و (لود) (لاوذ)،و (عيلام) (عويلم) . أما (إرم) ، فقد أبقوه ولم يغيروا في شكله[6] .

---

١ « وولد للاوذ بن سام : طسم وجديس » ، الطبـري (٢٠٤/١ ، ٢٠٦) ، « دار المعارف » .
٢ الطبرى (٢٠٣/١) ، « دار المعارف » .
٣ الطبرى (٢٠٣/١ وما بعدها) ، « عوض » ، الكامل (٣١/١) ، مروج (٢٤/١) .
٤ ابن خلدون (٣٠،٧/٢) ، صبح الاعشى (٣١٤/١) .
٥ « آشـور » « اشـور » Asshur أرفكشـاد ، ارفخشـن ، Arpachshad لود ، Lud لوديم ، Ludim ارم Aram « عيلام » ، Elam
٦ الطبري (٢٠٣/١) ، « دار المعارف » .

ولا نجد لـ (لود) أي (لاوذ) ولداً في التوراة . فأولاده المذكورون هم هدية من أهل الأخبار قدمت اليه . أما (إرم)،وهو (آرام) في التوراة، فإن له من الأولاد (عوص) و (حول) و (ماش) و (كيثر)[١] . ولم تذكر التوراة ولداً لهؤلاء الأبناء الأربعة ، فالأولاد الذين ذكرهم أهل الأخبار ، على انهم ولد (عوص) و (كيثر) (غاثر) (كاثر)،هم هبة من الأخباريين قدموها الى هذين الأخوين .

وأما (لود) الذي صار (لاوذ) ، عند أهل الأخبار ، فإن آراء الباحثين في التوراة مختلفة في المراد منه . وقد ظن بعضهم أنه جد (اللوديين)، وذكر هؤلاء (اللوديين) مع (كوش) و (فوط) ، وبين (فارس) و (فوط). وأما (لود) أبوهم ، فإنه ابن (مصرايم) أي مصر[٢] . ويحملنا هذا على التفكير في أنهم شعب من شعوب إفريقية . ولكن هذا الرأي يخالف ما جاء عن (لود) من انه ابن (سام)،وانه شقيق لإخوته المذكورين الذين تقع أملاكهم في الهلال الخصيب ، ومقياساً على هذه المواضع يجب أن يكون ملكه في هذه الأرضين أيضاً . ومهما يكن من شيء ، فإن آراء العلماء متباينة في مواضع نسله، ولم ينوه أحد منهم أنها في جزيرة العرب[٣] .

وأما عوص ، فإن آراء العلماء متباينة كذلك في المكان المنسوب اليه ، فذهب بعضهم الى أن أرض (عوص) يجب أن تكون على تخوم (ايدوم)[٤] أو تخوم العربية الشمالية ، وذهب بعض آخر الى أنها المناطق التي على نهر الفرات،وذهب بعضهم الى أنها في منطقة (حوران) وذهب بعض آخر الى أنها أرض (دمشق) و (اللجاة) (اللجاء)[٥] ، وذهب آخرون الى أنها في الحجاز أو في نجد[٦] . ورأى بعض أهل الأخبار أن منزل (عوص) هو (الأحقاف)[٧] .

---

١ « عوص » Uz « حول » Hul ماش Mash كيثر ــ كاثر ــ جاثر ــ غاثر ــ Gether التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٣ .

٢ « مصرايم » ، Mizraim

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٩٩) ، Hastings, P., 557.

٤ « ايدوم » ، (Idumaea) (Edom)

٥ Trachonitis

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٢٦) ، Hastings, P., 956.

٧ الطبري (١/٢٠٦) ، « دار المعارف » .

وأرض (عوص) هي موطن (أيوب) الشهير صاحب السفر المعروف باسمه ، والذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وضرب به المثل في الصبر .

وأكاثر (جاثر) (Gether) ، فلا يعلم من أمره شيء[1] ، ويجب أن تكون مواطن (الكاثريين) في الهلال الخصيب ، أو في باديـة الشام ، أو في التخوم الشمالية لجزيرة العرب ، وذلك نظراً لوروده مع (عوص) و (ماش) .

وقد جعل أهل الأخبار (النبط) من نسل (نبيط بن ماش) ، وجعلوا أهل الجزيرة والعال من ولد (ماش) كذلك[2] . أما النبط في التوراة ، فانهم (نبيوت)[3] نسبة الى الابن الأكبر لأبناء (اسماعيل) المسمى بـ (نابت) عند أهل الأخبار[4] وليس لـ (ماش) علاقة به وبالنبط . وأما (ماش) ، فانـه كناية عن موضع سكنه جماعة عرفوا بهذا الاسم ، لعله (بادية ماش) (صحراء ماش) المذكورة في الكتابات الآشورية ، وهي في البادية الكبيرة المسماة (بادية الشام)[5] .

العرب البائدة :

ونحن جرياً مع عادة أهل الأخبار في تقسيم العرب الى الطبقات الثلاث المذكورة، نبدأ بذكر الطبقة الأولى من طبقات العرب ، وهي طبقة العرب البائدة .

وقد شك كثير من المستشرقين في حقيقة وجود أكثر الأقوام المؤلفة لهـذه الطبقة ، فعدّها بعضهم من الأقوام الخُرافية التي ابتدعتها مخيلة الرواة، وخاصة حين عجزوا عن العثور على أسماء مشابهة لها أو قريبة منها في اللغات القديمـة أو في الكتب الكلاسيكية ، وقد اتضح الآن أن في هذه الأحكام شيئاً من التسرع، إذ تمكن العلماء من العثور على أسماء بعض هذه الأقوام ، ومن الحصول على بعض

---

١ Hastings, P., 292.

٢ الطبري (٢٠٧/١) .

٣ « نبيوت » ، Nebaloth

٤ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشريـن ، الآية ١٣ ، أخبـار الايـام الاول ، الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ٢٩ ، Hastings, P., 648.

٥ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآيـة ٢٣ ، أخبـار الايام الاول ، الاصحـاح الاول ، الاية ١٧ ، Hastings, P., 590.

المعلومات عنها ، ومن حلّ رموز بعض كتاباتهم مثل الكتابات الثمودية . وقد اتضح أن بعض هذه الأقوام أو أكثرها قد عاشوا بعد المسيح ولم يكونوا ممعنين في القدم على نحو ما تصور الرواة . ولعلّ هذا كان السبب في رسوخ أسمائهم في مخيلة الأخباريين .

وأبدأ الآن بالتحدث عن (عاد) :

عاد : وإذا جارينا الأخباريين ، وسرنا على طريقتهم في ترتيب الشعوب العربية ، وجب علينا تقديم طسم وعمليق وأميم وأمثالهم على عاد وثمود ، لأنهم من أبناء (لاوذ بن سام) شقيق (إرم) ، وعاد وثمود من حَفَدَة (إرم بن سام) . ولكن الأخباريين يقدمون عاداً على غيرهم ، ويبدأون بهم ،وهم عندهم أقدم هذه الأقوام ، ويضربون بهم المثل في القدم[1] . ومثلهم في ذلك مثل أخباريي العبرانيين الذين عدّوا العمالقة أول الشعوب[2] . ولعل هذه النظرية تكونت عند الجاهليين من قدم عاد ، أو من ورود اسم عاد في القرآن الكريم في سورة الفجر[3] ثم مجيء اسم (ثمود) بعد ذلك . ولهذا صاروا إذا ذكروا (عاداً) ذكروا (ثموداً) بعدها في الترتيب . فلورودهما في القرآن الكريم قدما على بقية الأقوام .

وقد أورد (الطبري) ملاحظة مهمة عن قوم (عاد) وعن رأي أهل الكتاب فيهم ،إذّ قال : « فأما أهل التوراة ، فإنهم يزعمون أن لا ذكر لعاد ولا ثمود ولا لهود وصالح في التوراة ، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية ، والإسلام كشهرة ابراهيم وقومه[4] » . ويظهر من ذلك أن المسلمين حينا راجعوا اليهود يسألونهم علمهم عن عاد وأمثالهم ، أخبروهم بعدم وجود ذكرهم في التوراة . والواقع أن التوراة لا علم لها فيهم . فأحاديث عاد وثمود وهود وصالح إنما هي أحاديث عربية ، تحدث بها الجاهليون ، وليس لها ذكر في كتب يهود ، ولكن أهل الأخبار ربطوا مع ذلك بينها وبين التوراة ، وأوجدوا لها صلة ونسباً

---

١ ومنهم من رأى أنهم ابناء « ارم » اللسان (١٤/ ٢٨٠)

٢ التكوين ، الاصحاح الرابع والعشرون ، آية ٢٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/ ١١٣) Hastings, P., 24.

٣ سورة الفجر ، رقم ٨٩ ، الآية ٦ فما بعدها .

٤ الطبري (١/ ٢٣٢) .

بأسماء أعيان وردت في التوراة . ولكن عملهم هذا لا يخفى بالطبع على من له وقوف على التوراة .

وأكثر هذه الأقوام أقوام متأخرة عاشت بعد الانتهاء من تدوين التوراة ، عاشت بعد الميلاد في الغالب ، ولعل منها من عاش الى عهد غير بعيد عن الإسلام . ثم إن التوراة والكتب اليهودية الأخرى لم تهتم إلا بالشؤون التي لها علاقة بالعبرانيين ، وهي ليست كتباً في التواريخ العامة للعالم حتى تكتب عنهم وعن أمثالهم من قبائل . أما بقاء أخبار قوم عاد ومن كان على شاكلتهم من العرب البائدة في ذاكرة أهل الأخبار ، فلأنهم عاشوا بعد الميلاد ، وفي عهد غير بعيد عن الإسلام ، ومع ذلك،فقد أخذت أخبارهم طابع القصص والأساطير.

وقد ذهب بعض أهل الأخبار الى أن عاداً هي (هدورام) في التوراة[١] . ودليلهم على ذلك اقتران عاد بإرم في الكتب العربية ، وبعض القراءات التي قرأت (بعاد إرم) في الآية : « ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد »[٢] على الإضافة ، أو مفتوحتين ، أو بسكون الراء على التخفيف ، أو بإضافة إرم الى ذات العماد . وبين (عاد إرم) و (هدورام) تشابه كبير في النطق[٣] .

ولكن التوراة تشير الى أن (هدورام) من نسل (يقطان) ، أي قحطان في الكتب العربية ، وهذا لا يستقيم مع الروايات . ويرد (جرجي زيدان) على هذا الاعتراض بقوله : « ولعل كاتب سفر الخليقة رأى مقر تلك القبيلة في بلاد اليمن ، فقال انها من نسل قحطان ، لأن مقام عاد في الأحقاف بين حضرموت واليمن . وكثيراً ما التبس علماء التوراة في هدورام أو هادرام ومقر نسله ، ولم يهتدوا الى شيء عنه ، مع انهم اهتدوا الى أماكن أكثر أبناء قحطان ، وكلها بجوار الأحقاف ، فعاد هي (هدورام) في التوراة . وإما أن يكون كاتب سفر الخليقة أراد بيان القبائل التي سكنت اليمن ، وكلها ينسب الى قحطان ، فرأى عاد إرم في جملتها ، فجعله من أولاد قحطان وبعبارة أخرى : من القبائل

---

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٧ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ٢١ ، الاكليل (٨/١٦٢) .
٢ سورة الفجر ، الاية ٦ فما بعدها .
٣ الهلال : الجزء الثالث والعشرون ، السنة السادسة ، آب ١٨٩ م (ص ٨٩٠)

المتفرعة عن قبيلة قحطان . وإما أن يكون بالحقيقة من نسل قحطان.وهم العرب في نسبته الى آرام »[1] .

ورأى (فورستر) وجود صلة بين (عادة) ، وهو اسم زوجة (لامك) ، وبين (عاد) ، وهي والدة (يابال) الذي كان أباً لسكان الخيام ورعاة المواشي[2] ، ونسلها من الأعراب . وقوم عاد من الأعراب كذلك . وذهب أيضاً الى أن هؤلاء هم Oaditae وهو اسم (قوم ذكرهم (بطليموس)[3]) على انهم كانوا يقيمون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب[4] ، ولعلهم كانوا يقيمون عند موضع (بئر إرم)،وهي من الآبار القديمة في منطقة (حسمى) على مقربة من جبل يعرف بهذا الاسم في ديلر جُذام بين أيلة وتيه بني اسرائيل[5] . ولا يبعد هذا الموضع عن أماكن ثمود الذين ارتبط اسمهم باسم عاد . وقد أيد هذا الرأي (شبرنكر) وجماعة من المستشرقين ، وهو أقرب الآراء الى الصواب .

وذهب الأخباريون الى وجود طبقتين لقوم عاد هما : عاد الأولى ، وعاد الثانية ، وكانت عاد الأولى ، في زعم أهل الأخبار ، من أعظم الأمم بطشاً وقوة ، وكانت مؤلفة من عدة بطون تزيد على الألف ، منهم : رفد،ورمل ، وصد،والعبود[6] . والظاهر أن فكرة وجود طبقتين لعاد قد نشأت عند الأخباريين من الآية : « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمودَ فما أبقى »[7] ، فتصوروا وجود عاد ثانية ، قالوا انها ظهرت بعد هلاك عاد الأولى[8] .

وقد ذهب بعض العلماء الى أن (عاداً الأولى) ، هو (عاد بن عاديا ابن سام بن نوح) ، الذين أهلكهم الله ، وأوردوا في ذلك بيت شعر ينسب

---

١ المصدر نفسه .
٢ التكوين ، الاصحاح الرابع ، الآية ٢٠ .
٣ Forster, Vol., 2, P., 32 ff.
٤ Forster, Vol., 2, P., 32, Enc., Vol., I, P., 121, Sprenger Geogra. S. 207.
٥ البلدان (١٩٦/١) ، صفة (ص ١٢٩)
Enc., Vol., I, P., 121, Sprenger, S., 207, Wensink und J H Kramers, Handworterbuch des Islam, Leiden, 1941, S. 13,
وسأرمز اليه بـ : Wensink
٦ الهلال : الجزء نفسه ، (ص ٨٩١) .
٧ سورة النجم ، سورة رقم ٥٣ ، الاية ٥٠ فما بعدها .
٨ ابن خلدون (٢٠/٢) .

الى (زهير)[١] . وأما عاد الأخيرة ، فهم (بنو تميم) وينزلون برمال عالج[٢].

وذهب الطبري الى أن عاداً الأولى ، هم نسل بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح[٣] ، وأن عاداً الأخيرة هم رهط قيل بن عنّر ، ولقيم بن هزّال ابن هزيل بن عُتَيل بن صد بن عاد الأكبر ، ومرشد بن سعد بن عفير ، وعمرو بن لقيم بن هزّال ، وعامر بن لقيم ، وعمرو بن لقيم بن هزّال ، وكانوا في أيام (بكر بن معاوية)[٤] صاحب (الجرادتين) ، وهما قينتان له تغنّيان[٥] . وقد هلكوا جميعاً الا (بني اللوذية) ، وهم (بنو لقيم بن هزّال ابن هزيل بن هزيلة ابنة بكر) ، وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم (آل بكر ابن معاوية) ، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم فهم عاد الأخيرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد[٦] .

وجعل بعض أهل الأخبار عدد قبائل عاد ثلاث عشرة قبيلة[٧] ، ذكروا منها : (رفد) و (زمل) و (صد) و (العبود)[٨] .

وجعلها (الهمداني) أحد عشر قبيلة وهي : العبود ، والخلود ، وهم رهط هود النبي المرسل ، وفيهم بيت عاد وشرفهم ، وهم بنو خالد . وقيل : بنو مخلد ، وبنو معبد ، ورفد ، وزمر وزمل ، وضد وضمود[٩] ، وجاهد ، ومناف ، وسود ، وهوجد[١٠] .

وقد ذهب العلماء مذاهب في تفسير المراد من (إرم ذات العماد) في الآية : (ألم ترَ كيف فعل ربك بعادٍ ، إرَمَ ذات العماد)[١١] فذهب بعضهم الى أن

---

١ « واهلك لقمان بن عاد وعاديا » ، ابن خلدون (٢٠/٢) ، اللسان (٣١٧/٤) .
٢ اللسان (٣١٧/٤) .
٣ الطبري (٢١٦/١) « طبعة دار المعارف » .
٤ الطبري (٢١٩/١) « دار المعارف » ، وورد «معاوية بن بكر » في رواية اخرى.
٥ الطبري (٢٢١/١ وما بعدها) .
٦ المصدر نفسه .
٧ المعارف (١٤) .
٨ اتامرنا لنترك ال رفد وزمل وال صد والعبود
الطبري (٢٢١/١) « دار المعارف » .
٩ « ضد » و « ضمود » ، هكذا ضبط محقق الاكليل (٨٧/١) ، اللفظتين ، وقد ضبطتا بحرف « الصاد » « صد » و (صمود) ، أكثر المؤلفات الاخرى .
١٠ الاكليل (٨٧/١) .
١١ سورة الفجر ، سورة رقم ٨٩ ، الاية ٦ فما بعدها ، اللسان (٢٨٠/١٤) .

(إرم ذات العماد) مدينة في (تيه أبْيَنَ) بين عدن وحضرموت ، وذهب آخرون الى أنها دمشق[1] أو الإسكندرية[2] . والذي دعاهم الى هذا الرأي – على ما أرى – هو كثرة وجود المباني ذوات العماد في هاتين المدينتين وما عرف عنها من القدم ، فوجد الأخباريون فيها وصفاً ينطبق على وصف إرم ذات العماد[3] . وقد خلقت (باب جيرون) من أبواب دمشق قصة (جيرون بن سعد ابن عاد) الذي قالوا فيه إنه كان ملكاً من ملوكهم ، وإنه الذي اختط مدينة دمشق ، وجمع عمد الرخام والمرمر اليها ، وسماها (إرم)[4] .

وهناك مناسبة أخرى جعلت بعض العلماء يذهبون الى أن دمشق هي (إرم) أو (إرم ذات العماد) ، فقد كانت دمشق – كما هو معروف – من أهم مراكز الإرميين (الآراميين) ، وكانت عاصمة من عواصمهم . ولهذا السبب أيضاً قال نفر من الباحثين إن (إرم) تعني (أرام) ، وأن عاداً من (الآراميين) ، وأن (عاد إرم) انما تعني (عاد أرام) ، فالتبس الأمر على المؤرخين وظنوا أن ذات العماد صفة ، فزعموا أنها مدينة بناها عاد[5] . غير أنه قول لا يؤيده دليل يثبت أن (إرم) في هذا الموضع تعني (ارام)[6] . ومن الجائز أن تكون (إرم ذات العماد) هي التي أوحت الى النسابين فكرة جعل (عاد) من نسل (عوص بن ارم) ،لتشابه اسم (ارام) و (ارم) عند العرب التي هي (آرآم) فأصبحت عاد من الإرميين .

---

١ الاكليل (٣٣/٨) ، « طبعة نبيه » ، صفة (٨٠) ، البكرى (١٤٠/١) ، « طبعة السقا » ، منتخبات (٢) ، سبائك الذهب ، للسويدي (١٥) .

٢ البلدان (١٩٧/١) ، منتخبات (٢) ، مروج (٤٢٠/٢ فما بعدها) ، « طبعة مينارد » ، Meynard
BOASOR, Number 73, February, 1939, p., 13, Koranic Iram, Legendary and Historical, by, Harold W. Glidden.

٣ « والعجم تذكر ان ارم ذات العماد بدمشق ، وان جيرون بن سعد بن عاد بنى مدينتها ، وسماها جيرون ذات العماد ، لكبر اعمدة حجارتها » ، الاكليل (٣٣/٨) « طبعة نبيه » .

٤ ابن خلدون (١٩/٢) ، المسعودي ، مروج (٤٢٠/٢) الاكليل (٣٣) « طبعة نبيه»
BOASOR, Number 73, P., 13, (1939).

٥ « وكان يقال لعاد في دهرهم عاد ارم » ، الطبقات (١/١ ص ١٩) ، البكري ، معجم (٤٨/١) .

٦ Enc., Vol., I, P., 121.

ويرى بعض المستشرقين أن الذي حمل الأخباريين على القول إن (الإسكندرية) هي (ارم ذات العماد) ، هو أثر قصص الإسكندر في الأساطير العربية الجنوبية ذلك الأثر الذي نجده في كتب القصاص اليمانيين ، في مثـــل كتاب (التيجان) المنسوب الى وهب بن منبه ، وفي الرواية اليمانية . وقد حاول الإسكندر كما نعرف احتلال اليمن ، فغدا (شداد بن عاد) بانياً للإسكندرية ، وأصبح (الإسكندر) مكتشفاً لها[1] .

وقد فسر العلماء لفظة (إرمي) الواردة في بيت الحارث بن حلزة اليشكري :

إرَميّ بمثله جالت الجن فآبت لخصمها الأجلاء

بأنها نسبة الى (إرم عاد) في قدم ملكه ، وقيل في حلمه[2] .

ونسب بعض أهل الأخبار لـ (عاد) ولداً ، دعوه (شداداً) قالوا : إنه كان قوياً جباراً ، سمع بوصف الجنة ، فأراد بناء مدينة تفوقها حسناً وجمالاً ، فأرسل عماله ، وهم : (غـــانم بن علوان) ، و (الضحاك بن علوان) ، و (الوليد بن الريان) ، الى الآفاق ، ليجمعوا له جميع مـا في أرضهم من ذهب وفضة ودرّ وياقوت ، فابتنى بها مدينته ، مدينة (إرم) باليمن ، بين حضرموت وصنعاء ، ولكنه لم ينعم بها إذ كفر بالله ، ولم يصدق بنبوة (هود)، فهلك . وتولى من بعده ابنه (شديد)[3] .

وزعم بعض النسابين أن نسب (شداد) هو على هـــذه الصورة : (شدّاد ابن عمليق بن عويج بن عامر بن إرم) ، فأبعدوه بذلك عن (عاد) . وقيل في نسبه غير ذلك[4] .

ويفهم من القرآن الكريم أن مساكن (عـــاد) بالأحقاف ، (واذكر أخا عاد ، إذ أنذر قومه بالأحقاف)[5] . والأحقاف : الرمل بين اليمن وعُمان الى

---

١ BOASOR, Number, 73, P., 13., (1939).
٢ المعاني الكبير (٨٢٦/٢) .
٣ وقيل اخوه ، البلدان (١٩٨/١) ، « يقول اليمانية واكثر العلماء في البلاد : ان ارم ذات العماد في تيه ابين ، وهو غائط بين حضرموت وبين ابين » ، الاكليـــل (٣٣/٨) .
٤ « عويج » ، البلدان (١٩٩/١) .
٥ سورة الاحقاف ، سورة رقم ٤٦ ، الآية ٢١ ، اللسان (٣٩٨/١٠)

حضرموت والشحر[1] . وديارهم بالدو والدهناء وعالج ويبرين ووبار الى عمان الى حضرموت الى اليمن . وقد اندفع أكثر الأخباريين يلتمسون مواضعهم في الصحارى ، لأنها أنسب المواضع التي تلائم مفهوم الأحقاف ، فوضعوا من أجل ذلك قصصاً كثيراً في البحث عن مواطن عاد وقبور عاد، ورووا في ذلك كثيراً من قصص المغامرات التي تشبه قصص مغامرات لصوص البحر[2] .

وفي بعض الأخبار : أن (عاداً) لحقت بالشحر ، فسكنت به،وعليه هلكوا بوادٍ يقال له (مغيث) . فلحقتهم بعد (مهرة) بالشحر[3] . وقد سبق أن قلت : إن Oaditae الذين ذكرهم (بطلميوس) هم قوم (عاد) ، وإنهم كانوا يسكنون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب في منطقة (حسمى) ، أي في أعالي الحجاز ، وعلى مقربة من مناطق ثمود . وهو أقرب الى الصواب، اذ اقترن ذكر عاد في القرآن بذكر (ثمود الذين جابوا الصخر بالواد)[4] . (حسمى) أقرب الى هذا الوصف من الرمال . ولم يعين القرآن موضع الأحقاف ، وانما عينه المفسرون ، ولا يحتم تفسيرهم تخصيص الأحقاف بهذا المكان ، حيث جعلوا رمال (وبار) في جملة المناطق التي كانت لعاد[5] .

وقد ذهب (موريتس) الى أن موضع (Aramaua) الذي ورد عند (بطلميوس) ، وهو (إرم) ، أو (إرم ذات العماد) . ويقال له الآن (رم)[6] . وقد أيد (موسل) رأى (موريتس) غير أنه لم يذهب الى ما ذهب اليه من أنه (إرم)[7] . وقد أظهرت الحفريات التي قام بها (المعهد الفرنسي) في القدس ، صحة هذا الرأي ، اذ ورد في الكتابات (النبطية) التي عثر عليها في خرائب معبد اكتشف في (رم) أن اسم الموضع هو (إرم)[8] . فيتضح من

---

١ ابن خلدون (٢/١٩) ، « والحقف وجمعه احقاف ،وهي الرمال .وكانت الاحقاف رمالا قبل عمان الى حضرموت . قال : وكانت منازل عاد » ، المفضليات (١٥) « والاحقاف : رمال باعيانها في اسفل حضرموت » ، منتخبات (٢)

٢ المعارف (١٤) .

٣ الطبري (١/٢٠٨) « دار المعارف » .

٤ الفجر ، سورة رقم ٨٩ ، آية ٩ .

٥ ديوان الطرماح ، « طبعة كرنكو » ، (١٤٨) .

٦ B. Moritz, Ausfluege in der Arabia Petraea, in MFOB, III, S., 395.

٧ Musil, The Northern Hegaz, P. 273, BOASOR, Number, 73, P. 15 (1939).

٨ BOASOR, Number, 73, P. 15, (1939).

ذلك أن هذا الموضع حافظ على اسمه القديم،غير أنه صار يعرف أخيراً بـ (رم) بدلاً من (إرم) .

وفي سنة ١٩٣٢ قام (هورسفيلد) Horsfield من دائرة الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية بحفريات في موضع جبل (رم) ، ويقع على مسافة (٢٥) ميلاً الى الشرق من العقبة ، ويقع المكان الذي بحث فيه عند وادٍ ، وعلى مقربة منه (عين ماء)،ووجد في جانب الجبل آثاراً جاهلية قديمة[١] . وقد حملت اكتشافاته هذه واكتشافات (سافينياك) Savignac واكتشافات (كليدن) H. W. Glidden على القول : إن هذا المكان هو موضع (إرم) الوارد ذكره في القرآن،والذي كان قد حل به الخراب قبل الإسلام ، فلم يبق منه عند ظهور الإسلام غير عين ماء كان ينزل عليها التجار وأصحاب القوافل الذين يمرون بطريق الشام — مصر — الحجاز[٢] .

وذكر (ياقوت الحموي) اسم مكان سمّاه (جش إرم)،قال عنه : إنه اسم جبل عند (أجأ) أحد جبلَيْ طيء ، أملس الأعلى ، سهل ترعاه الإبل، وفي ذروته مساكن لعاد وإرم ، فيه صور منحوتة من الصخر[٣] . ففرق (ياقوت) هنا بين عاد وإرم ، وجعلها قومين : قوم عاد وقوم إرم ، وقد تكون الواو بين الكلمتين زيادة من الناسخ، فيبطل حينئذ الاستدلال على تفريق ياقوت بينهما . وفي الكتب العربية أسماء محلات أخرى قديمة عثر فيها على نقوش وتماثيل،وصفت أنها من مساكن قوم عاد .

وبالإضافة الى المواضع التي أشير فيها الى (عاد) في القرآن الكريم[٤] ، فقد أشير اليهم في الشعر الجاهلي كذلك في شعر طرفة[٥] وفي شعر النابغة[٦] وفي شعر

---

١ BOASOR, Number 73, P 14, (1939), Revue Biblique, XLI, (1932), PP. 581, XLII, (1933), PP., 405, XLIII, (1934), PP., 572, XLIV, (1935), PP. 246.

٢ BOASOR, Number 73, P. 15, (1939).

٣ بالفتح والضم ثم التشديد ، النجفة وفيه ارتفاع ، البلدان (١٠٧/٣) .

٤ سورة الحج ، رقم ٢٢ ، اية ٤٢ ، سورة الحاقة ، ٦٩ ، اية ٤، ٦ ، سورة الفرقان ، ٢٥ ، اية ٣٨ ، سورة فصلت ، ٤١ ، اية ١٣ ، سورة الاعراف ، ٧ ، اية ٦٥ ، سورة هود ، اية ٥٠ .

٥ طرفة ١ ، ٨ ، Enc., Vol., I, P. 121.

٦ احلام عاد واجساد مطهرة   من المعقة والافات والاثم
ديوان النابغة مع شرحه للبطليوسي (٧٤) ،
للبطليوسي (٧٤) ، Enc., Vol., I, P. 121.

زهير[1] وفي شعر الهُذَليين[2] ، وفي شعر طفيل بن عوف الغنوي[3] ، وفي شعر (متمم بن نُوَيْرَة) شقيق (مالك بن نويرة)، وهو من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام[4] ، وفي شعر (أمية بن أبي الصلت)، وهو ممن عاش في أيام الرسول كذلك[5] ، وفي شعر غيرهم من الشعراء الجاهلين المخضرمين[6] .

وورد في شعر لزهير بن أبي سُلمى (أحمر عاد)[7] ، وضرب المثل بشؤم أحمر عاد ، فقيل : أشأم من أحمر عاد[8] . وجعل الشاعر (أبو خداش الهذلي) (كليب وائل) كأحمر عاد في الشؤم ، وذلك بسبب الحرب التي هاجت بين

---

١ فتنتج لكم غلمان اشام كلهم كاحمر عاد ثم ترضع فتفطم
معلقة زهير ، البيت ٣٢ ، Enc., I, P., 121.

٢ ديوان الهذليين ، IXXX, 6 ، ٣١ ، ديوان هذيل ، ٣١،٥

٣ شعر طفيل بن عوف الغنوي ، رواية ابي حاتم السجستاني عن الاصمعي (طبعة لوزاك ١٩٢٧) ، سلسلة « كب » بعناية « ف . كرنكو » ، (ص ١٣٥ ، ١٤٨) . « لنا الجبلان من ارمان عاد » .

٤ أفنين عادا ثم ال محرق فتركنهم بلدا وما قد جمعوا
شرح المفضليات (ص ٧٨) ، (٢٤/٢) ، ملحوظة ٤٠ ، المفضليات (ص ١٤) « طبعة السندوبى » .

٥ فقال : الا لا تجزعي وتكذبي ملائكة من رب عاد وجرهم
ديوان « امية بن ابي الصلت » ، « طبعة بشير يموت » (ص ٥٨) ، بيروت ١٩٣٨
Friedrich Schulthess, Uman Ibn Abi-Salt, Leipzig, 1911, S. 48.

٦ سويد بن ابى كاهل :
غلبت عادا ومن بعدهم فابت بعد فليست تتضع
المفضليات (٤٠٤) ، قول « صريم بن معشر بن ذهل » الملقب بافنون من شعراء الجاهلية :
لو انني كنت من عاد ومن ارم ربيت فيهم ولقمان ومن جدن
المفضليات (ص ٥٢٥) ، وقال الطرماح بن حكيم :
لنا الجبلان من ارمان عاد ومجتمع الا لاءة والفضاة
ديوان الطرماح (ص ١٣٥) ، (سلسلة كب) ، لندن ١٩٢٧ ، بعناية « كرنكو » .

٧ فتنتج لكم غلمان اشام كلهم كاحمر عاد ثم ترضع فتفطم
معلقة زهير ، بيت ٣٢ .

٨ الامثال (ص ١١) ، « طبعة حيدر اباد الدكن » ، ابن قتيبة الدينوري ، المعاني الكبير (٨٧٩/٢ ، ١٠٢٣) .

بكر وتغلب[1] . وقد نص (ابن قتيبة الدينوري) على أن المراد من (أحمر عاد) (أحمر ثمود) الذي عقر الناقة[2] .

ويدل ورود خبر (عاد) في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي على أن القصة كانت شائعة بين عرب الجاهلية معروفة عندهم ، وأنهم كانوا يتصورون أن قوم (عاد) كانوا من أقدم الأقوام ، ولذلك ضُرب بقدمهم المثل حتى إنهم كانوا ينسبون الشيء الذي يريدون أن يبالغوا بقدمه ، الى عاد ، فيقولون إنه (عادي). وإذا رأوا أثراً قديماً أو أطلالاً قديمة عليها نقوش لا يعرفون صاحبها ، قالوا إنها عادية ، أي من أيام عاد[3] . وإذا رأوا بناءً قديماً لا يعرفون صاحبه ، قالوا إنه بناء عادي[4] . وقد تحدث (المسعودي) عن أشجار عادية ، أي قديمة جداً[5] . ولهذا السبب رأى (ولهوزن)[6] أن كلمة (عاد) لم تكن اسم علم في الأصل ، بل كان يراد بها القدم ، وأن كلمة (عادي) تعني منذ عهد قديم جداً ، وكذلك كلمة (من عاد) أو (من العاد) ، أو من (عهد عاد) . وان المعنى هو الذي حمل الناس على وضع تلك الأساطير عن أيام (عاد)[7] .

وقد جعل بعض الشعراء أيام (عاد) من أوليات الزمان ، التي جاءت بعد (نوح)[8] وجعل بعض آخر لفظة (إرمي) ، بمعنى (عادي) ، أي قديم

---

١ المعاني الكبير (١٠٢٣/٢) .

٢ المعاني الكبير (٨٧٩/٢ ، ١٠٢٣) .

٣ لعادية من السلاح استعرتها وكان بكم فقر الى الغدر او عدم
المفضليات (ص ٦١٣) ، « والعادي الشيء القديم » ، اللسان (٣١٧/٤) ، الحماسة « طبعة فرايتاغ » Freytag (١٩٥/١ ، ٣٤١) ،
Causin de Perceval, Essai, Vol. I, P. 259, Blochet, Le Culte D'Aphrodite.

٤ Sprenger, Das Leben, Bd., I, S., 512.

٥ المصدر نفسه .

٦ قال ابو دواد الايادي :

الا ابلغ خزاعة اهل مر واخوتهم كنانة عن اياد
تركنا دارهم لما ثرونا وكنا اهلها من عهد عاد

التنبيه والاشراف (ص ١٧٥) ، « طبعة الصاوي » .

٧ Wensick, P., 13.

٨ وقال بعض طيء :

وبالجبلين معقل صعدنا اليه بسمر الصعاد
ملكناه في اوليات الزمان من بعد نوح ومن قبل عاد

الاكليل (٩٠/١) .

كأنه من عهد إرم وعاد ، أو كأنه في الحكم من عاد[1] .

وقد ضرب المثل في القرآن الكريم بقدم (قوم نوح) وقوم (عاد وثمود) حتى إن أخبارهم خفيت عن الناس فلا يعلمها إلاّ الله : (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) ، وفي ذلك دلالة على أن الناس في أيام الرسول كانوا يرون أن الأقوام المذكورة هي من أقدم الأقوام ، ولهذا ذكروا بهم للاتعاظ[2] .

وقد ورد ذكر عاد في الكتاب الذي وجهه (يزيد بن معاوية) الى أهل المدينة يهددهم فيه بمصير يشبه مصير (عاد وثمود) ، حيث ينزل بهم عقاباً شديداً ويصيرهم حديثاً للناس ، (واتركم أحاديث تنسخ بها أخباركم مع أخبار عاد وثمود)[3] . وقال (سبيع) لأهل اليمامة : « يا بني حنيفة بعداً كما بعدت عاد وثمود »[4] .

وضرب المثل برجل من (عاد) اسمه (ابن بيض) ، زعموا أنه كان من عاد ، وكان تاجراً مكثراً عقر ناقة له على ثنية ، فسد بها الطريق على السابلة ، فضرب به المثل[5] .

وزعم أهل الأخبار أن رجلاً غنياً من بقية (عاد) اسمه (حمار) كان متمسكاً بالتوحيد ، فسافر بنوه ، فأصابتهم صاعقة فأهلكتهم ، فأشرك بالله وكفر بعد التوحيد ، فأحرق الله أمواله وواديه الذي كان يسكن فيه فلم ينبت بعده شيء . ويزعمون أن (امرأ القيس) الشاعر ذكر ذلك الوادي في شعر له[6] .

ويذكر أهل الأخبار أن المكان الذي كان فيه (حمار) المذكور هو(جوف)، وهو موضع في ديار عاد ، وقد نسب اليه ، فقيل (جوف حمار) ، نسبة الى

---

١ الاكليل (٨٩/١ وما بعدها) .

٢ التنبيه والاشراف (ص ٨٢) .

٣ عيون الاخبار ، لابن قتيبة (٢٠٢/١) .

٤ المصدر نفسه (٢٣٣/١) .

٥ ورد في شعر بشامة بن عمرو :

كثوب ابن بيض وقاهم به   فسد على السالكين السبيلا

المفضليات (ص ١٦) « طبعة السندوبي » .

٦ ووادٍ كجوف العير قفر قطعته   به الذئب يعوي كالخليع المعيل

شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، (ص ٢٨) « طبعة دار صادر » .

(حمار بن مويلع) ، فلما أشرك بالله وكفــر ، أرسل الله ناراً عليه فأحرقته وأحرقت الجوف أيضاً ، فصار ملعباً للجنّ لا يستجرىء أحد أن يمر به،والعرب تضرب به المثل ، فتقول : (أخلى من جوف حمار)[1] .

هود :

ويرد مع قوم (عاد) ذكر نبي منهــم ، هو (هود) ، وقد نعت في القرآن الكريم بـ (أخي عاد) : « والى عادٍ أخوهم هوداً ، قال : يا قوم، اعبدوا الله »[2] . كما نعت القرآن عاداً بقوم هود : « ألا ، إن عاداً كفــروا ربهم،ألا بُعْداً لعادٍ قوم هود »[3] . « قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح»[4]. وقد نسبه الناسبون الى (الخلود بن معيد بن عاد)[5] ، والى (عبدالله بن رباح ابن جاوب بن عاد بن عوص بن إرم)[6] ، والى (عبدالله بن رباح بن الخلود ابن عاد بن عوص بن إرم)[7]،ومن أهل الأنساب من زعم انه (عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح) ، الى غير ذلك من روايات[8] .

وقد وردت قصته مع قومه ونهيه لهم عن عبادة الأصنام في القرآن الكريم[9] . وقد ضرب المثل بكفر رجل من عاد ، اسمه (حمار) ، فقيـل :(أكفر من حمار) ، قالوا : «هو رجل من عاد ، مات له أولاد ، فكفر كفراً عظيماً ، فلا يمر بأرضه أحد الا دعاه الى الكفر ، فإن أجابه ، والا قتله »[10] . وذلك على نحو ما ذكرته عنه قبل قليل . وهي قصة واحدة ، رويت بطرق متعددة ،

---

١ البكري ، معجم (٤٠٥/١) .
٢ الاعراف ٧ ، اية ٦٥ ، سورة هود ، ١١ ، اية ٥٠ ، الشعراء ، ٢٦ ، اية ١٢٤ .
٣ هود ، ١١ ، اية ٦٥ .
٤ هود ، ١١ ، اية ٨٩ .
٥ نهاية الارب (٥٢/١٣) ، الاكليل (٩٣/١) .
٦ المعارف (١٤) .
٧ الطبري (٢١٦/١) « دار المعارف » .
٨ الطبري (٢١٦/١) ، ابن خلدون (٢٠/٢) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (١٢٠/١)
٩ سورة هود ، ١١ ، اية ٦٥ ، ٧٩ ، الشعراء ، ٢٦ ، اية ١٢٤ ، الاعراف ٧ ، ايــة ٦٥ .
١٠ اللسان (٢٩٥/٥) .

تختلف في التفاصيل ، لكنها متفقة من حيث الفكرة والجوهر ،وعليها طابع قصص الوعّاظ وأهل الأخبار . وقد ذكر أصحاب الأخبار أن غالبية (عاد) كفرت بنبوة (هود) ، ولم تؤمن به ، لهذا أصابها العذاب والهلاك . ولم ينج منهم الا من آمن بـ (هود) واتبعه وسار معه حين ترك قومه : قوم عاد .

وقد نبه المستشرقون الى وجود شبه بين هود و (هود) الواردة في القرآن أيضاً بمعنى (يهود)[1] : « وقالوا كونوا هوداً ، أو نصارى ، تهتدوا »[2] . وأشاروا الى أن (هوداً) تعني التهود ، أي الدخول في اليهودية ، كما لاحظوا ان بعض النسّابين قالوا ان هوداً هو (عابر بن شالح بن أرفكشاد) جد اليهود ، فذهبوا الى أن هوداً لم يكن اسم رجل ، وانما هو اسم جماعة من اليهود هاجرت الى بلاد العرب ، وأقامت في الأحقاف ، وحاولت تهويد الوثنيين ، وعرفوا بيهوذا ، ومنها جاءت كلمة (هود)[3] ، وانها استعملت من باب التجوز علماً لشخص[4] .

وزعم الرواة ان هوداً ارتحل هو ومن معه من المؤمنين بعد النكبة التي حلت بقومه الكافرين من أرض عاد الى الشحر . فلما مات دفن بأرض حضرموت[5] . ويدعي الرواة انه قبر في واد يقال له (وادي برهوت) غير بعيد عن (بئر برهوت) التي تقع في الوادي الرئيسي للسبعة الأودية[6] . وهي من الآبار القديمة

---

١ اللسان (٤٥١/٤) ، القاموس (٣٤٩/١) ،
Enc., Vol. 2, P. 327. f., Hirschfeld, Beitraege zu Erklaerung des Koran, Leipzig, 1886, S., 17, Note, 4.

٢ البقرة ، ٢ ، اية ١١١ ، ١٣٥ ، ١٤٠ .

٣ الهلال ، ٢٣ ، سنة ٦ ، جزء اب ، ١٨٩٨ (ص ٨٩٤) .

٤ « والهود : جمع هائد ، وهو التائب ، والهود : اليهود ، قال الله تعالى : « كونوا هودا أو نصارى » . التهويد : المشي الرويد ، وفي حديث عمران بن حصين : اذا مت فخرجتم بي فاسرعوا المشي ولا تهودوا كما تهود اليهود والنصارى » ، « وهود الانسان ولده : اي جعله على دين اليهود » ، منتخبات (ص ١١١ وما بعدها) ، Enc. Vol., 2, P., 328.

٥ « قال الواقدي : « ما يعلم موضع قبر نبي من الانبياء ، الا ثلاثة : قبر اسماعيل فانه تحت الميزاب بين الركن والبيت ، وقبر هود ، فانه في حقف من الرمل تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة تندى وموضعه أشد الارض حرا ، وقبر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فان هذه قبورهم بحق » ، الطبقات ،القسم الاول من الجزء الاول (ص ٢٥) ، « تحقيق سخو » ، نهاية الارب (٦٠/١٣) ، Forster, Vol, 2, PP., 374.

٦ البكري ، تاريخ حضرموت السياسي (٦٥/١ فما بعدها) .

التي اشتهرت في الجاهلية بكونها شر بئر في الأرض ، ماؤها أسود منتن ، تتصاعد من جوفها صيحات مزعجة ، وتخرج منها روائح كريهة ، ولذلك تصور الناس انها موضع تتعذب أرواح الكفار فيه[1] .

ويذهب السياح الذين زاروا هذا المكان ودرسوه الى انه موضع بركان قديم ، يظهر أنه انفجر ، فأهلك من كان حوله . ويؤيد هذا الرأي ما ورد في الكتب العربية من أنه كان يسمع لهذا المكان أصوات كالرعد من مسافات ، وانه كان يقذف ألواناً من الحمم يسمع لها أزيز راعب[2] . ومن هنا نشأت قصة قبر هود ، وعذاب عاد في هذا الموضع ، على رأي المستشرق (فون كريمر)[3] .

ولا يزال هذا الموضع الذي يقال له (قبر هود) ، يزار حتى الآن ، يقصده الناس من أماكن بعيدة في اليوم الحادي عشر من شعبان للزيارة ، وربما كان من الأماكن التي كان يقدسها الجاهليون[4] .

وفي هذه المناطق آثار مدن بائدة ، وقرى جاهلية ، وتشاهد كهوف ومغاور على حافتي الوادي ، وكتابات وصور منقوشة على الصخور تدل كلها على أنها كانت من المناطق المأهولة ، وأنها تركت لسبب آفات وكوارث طبيعية نزلت بهذه الديار[5] .

ورأى نفر من المستشرقين أن هذا المكان الذي فيه قبر (هود) هو الموضع الذي سماه الكتاب اليونان Styx أو Stygis ، والذي زعم الرومان أن قبيلتين من قبائل جزيرة (اقريطش) (كريت) وهما قبيلة Minos و (رودومانتس)

---

١ البلدان (١٥٧/٢) ، « خير بئر في الارض زمزم ، وشر بئر في الارض برهوت » ، منتخبات (ص ٧) ، « برهوت واد معروف قيل هو بحضرموت ، وفي حديث علي عليه السلام : شر بئر في الارض برهوت . هي بفتح الباء والراء ، بئر عميقة بحضرموت لا يستطاع النزول الى قعرها . ويقال : برهوت بضم الباء وسكون الراء » ، اللسان (١٤٣/١) ، (٣١٤/٢) .

٢ تاريخ حضرموت السياسي (٦٧/١) .

٣ « ويفيض وادي ثوبة الى بلد مهرة ، وحيث قبر هود النبي ، صلى الله عليه ، وقبره في الكثيب الاحمر ، ثم منه في كهف مشرف في اسفل وادي الاحقاف ، وهو واد يأخذ من بلد حضرموت الى بلد مهرة مسيرة ايام ، واهل حضرموت يزورونه هم واهل مهرة في كل وقت » ، صفة (ص ٧) ،
von Kremer, Uber die Suedarabische Sage, S., 21.

٤ تاريخ حضرموت السياسي (٦٢/١) ، Enc., Vol., I, P., 634.

٥ تاريخ حضرموت السياسي (٦٢/١) ، الهلال : الجزء السادس عشر ، السنة السادسة ، نيسان ١٨٩٨ (ص ٦٠٥) .

Rhodomantys تركتا موطنها الأصلي، وارتحلتا الى هذا المكان الذي ضم مئات من القبائل العربية ، فكانتا من أقواها . وقد سكنتا في رأيهم ، على مقربة من موضع سماه (بلينيوس) Stygis Aguniae Fossa [1] .

أما الأخباريون الذين زعمـوا أن (هوداً) اعتزل قومه بعد يأسه من قبول دعوته ، وأنه ذهب مع من آمن به الى مكة ، فقد ذهبوا الى أنه عاش فيهـا أمداً ، ثم مات هناك ، فقبره بمكة مع قبور ثمـانية وتسعين نبياً من الأنبياء[2] . وذكر جماعة أنه بدمشق في المسجد الأموي[3] . ولعل القصص الوارد عن (دمشق) ، وأنها (إرم ذات العماد) هو الذي أوحى الى هؤلاء فكرة جعل قبر (هود) بدمشق . ومهما يكن من شيء فـإن هناك جماعة من أهل الأخبار قبرت بعض الأنبياء في هذه المدينة ، واختارت المسجد الأموي نفسه مقبرة لهم . ولعل ذلك بسبب أن هذا المسجد كان كنيسة معظمة قديمة عند أهل دمشق قبل دخولهم في الإسلام ، وكان قد قبر فيها جماعة من قديسيهم ورجـال دينهم ، فلما تحولت الكنيسة الى جامع تحولت قبور هؤلاء بعواطف الناس القديمة الى قبور أنبياء . وقد ظهر مثل هذه الروايات التي تمجد الجامع الأموي في الوقت الذي تحصن فيـه (ابن الزبير) بمكة ، وتحزب أهل الحجاز على الأمويين .

وقد اتخذ القحطانيون هوداً جداً من أجدادهم ، وألحقوا نسبهم به ، وتفاخروا به[4] . فعلوا ذلك بدافع العصبية والمفاخرة على العدنانيين الذين كانوا يقولون إن فيهم الأنبياء ، ولم يكن في قحطان نبي ، فأوجد نسّابوهم نسبـاً يوصلهم الى الأنبياء ، كما أوجدوا لهم نسباً احتكر لهم العروبة ، وجعلهم الأصل والعدنانيون من الطارئين عليهم ، كما سيأتي الحديث عن ذلك .

---

١ Enc. Vol. I, P. 654, Wensinck, P. 175.

٢ أخبار مكة ، للازرقي (١/٣٠ وما بعدها) ، Enc., Vol. 2, P. 327.

٣ رحلة ابن بطوطة (١/٢٠٥) ، (٢/٢٠٣) « طبعة باريس » .

٤ « هود النبي ، عليه السلام ، المرسل الى عاد المذكور في القرآن ، هو ابو قحطان قحطان بن هود . قـال حسان :

ابونا نبي الله هود بن عابر

وهو هود بن عابر بن ارفخشد بن سام بن نوح النبي » ، ابن خلدون (٢/٢٠) ، نهاية الارب (١٣/٥١) ، ديوان النابغة مع شرحه للبطليوسي (ص ٦٣ فما بعدها) التنبيه والاشراف (ص ٧١) « طبعة الصاوي » .

وإذا صح أن الشعر المنسوب إلى حسّان بن ثابت الذي افتخر فيــه بانتسابه الى (هود بن عابر) ، وبأن قومه وهم من (قحطان) منهم ، هو لهذا الشاعر حقاً ، يكون لدينا أول دليل يثبت أن هذا الانتساب كان معروفاً عنــد ظهور الإسلام[1] . وأن أهل (يثرب) ، وهم من الأوس والخزرج ، وهم من قحطان في عرف النسّابين ، كانوا قد انتسبوا اليه قبل الإسلام . أخذوا ذلك من اليهود النازلين بينهم ، الذين كانوا يحاولون التقرب الى أهل يثرب، للعيش معهم عيشة طيبة . فأشاعوا بين الناس أن (عابراً) ، وهو جد العبرانيين ، والـد ولدين هما (فالغ) و (يقطان) كان جدّهم وجد أهل يـثرب ، لأن أصلهم من يقطان ، وأن علاقتهم لذلك بهم هي علاقـة أبناء عمّ بأبنـاء عم . ولما نزل الوحي بخبر (هود) ، وتفاخر المكّيون على أهل يثرب بالإسلام ، استعار أهل يثرب (هوداً) ، وصيروه (قحطاناً) ، أو ابناً له ، وانتسبوا اليه،ليظهروا بذلك انهم كانوا أيضاً من نسل نبي ، وان نبوءة قديمة كانت فيهم ، وقد كان (حسّان بن ثابت) من المتعصبين للأزد قوم أهل يثرب،والأزد من قحطان ، وكان من المتباهين بيمن وقحطان .

لقمان :

ومن قبائل عاد قبيلة كان فيها (لقمان) الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي وفي القصص[2] . وقد ضرب به المثل بطول العمر ، فعدّ في طليعة المعمرين[3] ، وعدّه (أبو حاتم السجستاني) ثاني المُعَمّرين في العالم بعد

---

١ « ابونا نبي الله هود بن عابر » ، وسأتكلم عن ذلك في موضع اخر من هذا الكتاب وعندي انه متحول ، وانه حمل عليه .

٢ سورة لقمان ، تفسير الطبري (٣٩/٢١) « القاهرة ١٣٢١ هـ » ، قال صريم بن معشر بن ذهل المعروف بـ « افنون » :
لو انني كنت من عاد ومـن ارم ربيت فيهم ولقمان ومن جدن
المفضليات (ص ٥٢٥) ، ديوان النابغة مع شرحه للبطليوسي (ص ٧٥) .
نمين فلا لــه في سوق راس الى لقمان في سوق مقام
البيان والتبيين (٢٣/١)

٣ Enc., Vol., 3, P. 35, Goldziher, Abhandlungen zur arabischen Philologie, S. 2, Leiden, 1899, Rene Basset, Loqman Berbere, Paris, 1890, Wensinck, P. 365.

الخضر[1] . وقد كان عرب الجاهلية يعرفون قصص (لقمان) ، وكانوا يصفونه بالحكمة . وقد وُصف في القرآن الكريم بهذه الصفة : « ولقد آتينا لقمان الحكمة »[2] . ولهذا السبب عرف بين الناس وفي الكتب بـ (لقمان الحكيم) . وذكر عنه انه كان (حكيماً عالماً بعلم الأبدان والأزمان)[3] وانه طلب من الله أن يُعمّر طويلاً فأعطاه طلبه : وعُمّر عمر سبعة أنسر ، وذكر الأخباريون أن آخر نسر أدركه ، وهلك بهلاكه اسمه (لبد) . قالوا واليه يشير (النابغة) بقوله :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبد[4]

وقد أكثرت العرب في صفة طول عمر النسر ، وضربت به الأمثال . وبلبد ، وبصحة بدن الغراب . وذكروا في ذلك شعراً ، منه ما نسب الى (الخارجي) في طول عمر (معاذ بن مسلم بن رجاء) ، مولى القعقاع بن حكيم :

يا نسر لقمان ، كم تعيش ، كم ... تلبس ثوب الحياة يا لُبَدُ ؟
قد أصبحت دار حِمْيَر خربت ... وأنت فيها كأنك الوتدُ
تسأل غِربانها اذا حَجَلَتْ ... كيف يكون الصداع والرّمدُ[5] ؟

ويذكر أهل الأخبار ان (لقمان) قد عرف لذلك بـ (لقمان النسور)، لأنه عمّر عمر سبعة نسور[6] . وذكر بعض أهل الأخبار انه عمّر مائة وخمسين سنة ، وانه لما مات قبر بحضرموت ، أو بالحجر من مكة[7] . وهو عمر لا يتناسب مع ما يذكره أهل الأخبار من طوله ، ومن انه يعادل عمر سبعة نسور . أما

---

١ ابو حاتم السجستاني : كتاب المعمرين « طبعة كولدتزيهر » ، (ص ٢) ،
Goldziher, Abhandlungen, 2, S. 2, Enc., Vol., 3, P. 35.

٢ سورة لقمان ٣١ ، اية ١٢ .

٣ منتخبات (ص ٩٥ فما بعدها) .

٤ الفاخر (ص ٦٨) ، الطبري (٢٢٣/١) ، « دار المعارف » ، عيون الاخبار (٥٩/٤) ، نهاية الارب (٦٠/١٣ وما بعدها) ، ابو الفداء ، المختصر (٢١/١ وما بعدها) ، « دار الكتب اللبنانية » ، الكامل ، لابن الاثير ، (٤٩/١ وما بعدها) .

٥ مروج الذهب (٩٢/٢ وما بعدها) ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » .

٦ نهاية الارب (٦٠/١٣ وما بعدها) .

٧ الكامل ، لابن الاثير (٤٩/١ وما بعدها) .

(السجستاني) ، فجعل عمره خمسمائة سنة وستين . وهو عدد أخذه من عمر النسور المذكورة ، اذ عاش كل نسر ثمانين عاماً ، والعدد المذكور هو مجموع عمر تلك النسور السبعة . غير ان من الأخباريين من أعطاه عمراً قدره بثلاثة آلاف وخمسمائة سنة[1] . وهو عمر يؤهله ولا شك لأن يكون في عداد المعمرين.

وقد ورد اسم لقمان على انه اسم خمّار في شعر منسوب للنابغة حيث يقول :

كأن مشعشعاً من خمر بصرى   نمته البخت مشدود الخيام
حملن قلاله من بين رأس   الى لقمان في سوق مقام[2]

وجعلوا للقمان نسباً هو (لقمان بن عاد)[3] ، وصيروه (لقمان بن ناحور بن تارخ) ، وهو (آزر) أبو (ابراهيم)[4] . وقال بعضهم : بل هو ابن أخت (أيوب) ، أو ابن خالته ، وجعله آخرون من حمير ، فقالوا له : (لقمان الحميري)[5] ، وصيره آخرون قاضياً من قضاة (بني اسرائيل)[6] . وقد اشتهر عند المسلمين بالقضاء ، ويظهر أن هذا السبب هو الذي جعل الواقدي يقول : إنه كان قاضياً في بني اسرائيل . ولم يفطن الأخباريون الى هذه الأخبار المتناقضة التي تخالف رواياتهم في عاد ، وأنها من أمم العرب البائدة ، إلا اذا جعلناه من الطارئين على قوم عاد الداخلين فيهم ، فهو غريب بين قوم عاد .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن الأخباريين كانوا يرون وجود لقمان آخر ، هو غير لقمان عاد . فقد زعموا أنه كان في عهد (داوود) لقمان ، عرف بـ (لقمان الحكيم) . وقد نسبه بعضهم على هذا النحو : (لقمان بن عنقاد) ، وقد زعم (المسعودي) ، أنه كان نوبياً ، وأنه كان مولى للقين ابن جسر ، ولد على عشر سنين من ملك داوود ، وكان عبداً صالحاً ، منّ اللهُ عليه بالحكمة ، ولم يزل باقياً في الأرض مظهراً للحكمة في هذا العالم الى

---

١ المعمرون (ص ٤) » طبعة عبد المنعم عامر » .
٢ البكري ، معجم (١١٦١/٣) .
٣ منتخبات (ص ٩٥ فما بعدها) ، نهاية الارب (٦٠/١٣) ، البيان والتبيين (١٧٤/٣) .
٤ قصص الانبياء ، للثعالبي ، (ص ٢٠٥)
٥ منتخبات (ص ٩٥ فما بعدها) .
٦ قصص الانبياء (ص ٢٠٥) .

أيام يونس بن متى حين أرسل الى أرض نينوى في بلاد الموصل[1] .

وهنالك من فرّق بين (لقمان بن عاد) وبين (لقمان) المذكور في القرآن، قال الجاحظ : (وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر ، ولقيم بن لقمان في النباهة والقدر وفي العلم والحكم ، في اللسان وفي الحلم، وهذان غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على ما يقوله المفسرون)[2] . وقد أورد الجاحظ جملة أبيات للنمر بن تولب في لقمان ولقيم[3] .

وقد ذكر الجاحظ أنه كانت للقمان أخت محمقة ، تلد أولاداً حمقى ، فذهبت الى زوجة لقمان ، وطلبت منها أن تنام في فراشها حتى يتصل بها لقمان ، فتلد منه ولداً كيساً على شاكلته ، فوقع عليها فأحبلها بـ « لقيم » الذي أشرت اليه ، فهو ابن لقمان اذن من أخته . وقد أورد الجاحظ في ذلك شعراً جاء به على لسان الشاعر المذكور ، أي : (النمر بن تولب) ، زعم أنه نظمه في هذه القصة[4] وزعم الجاحظ أيضاً أن لقمان قتل ابنته (صُحرا) أخت (لقيم) ، وذلك أنه كان قد تزوج عدة نساء كلّهن خنّه في أنفسهن ، فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل ، كان أول من تلقاه (صحرا) ابنته فوثب عليها فقتلها ، وقال : (وأنت أيضاً امرأة) . وكان قد ابتلي بأخته على نحو ما ذكرت ، فاستاء من النساء . وضربت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان ابنته صحرا ، وقد أشير الى ذلك في شعر لـ (خفاف بن ندبة)[5] .

وقد أشير الى (حي لقمان) في شعر لأبي الطحان القيني[6] ، كما أشير اليه

---

١ ابو الفداء : المختصر (٢١/١ وما بعدها) ، مروج الذهب (٥٧/١ وما بعدها) ، منتخبات (ص ٩٥ وما بعدها) ، ابن كثير ، البداية (٢٦/٢) ، « مطبعة السعادة » ، تفسير ابن كثير (٤٤٣/٣ وما بعدها) ، تفسير البيضاوي (١٣٤/٧ وما بعدها) ، البلدان (٣ / ٦٠٩) ، تفسير الفخر الرازي (٧١/٧) ، تفسير الطبري (٦٧/٢١) ، الحيوان ، للجاحظ (٢١/١) .

٢ البيان والتبيين (١٣٦/١) .

٣ البيان والتبيين (١٣٦/١) ، (١٦١/١) « القاهرة ١٩٣٤ م » ، نهاية الارب (٦١/١٣) .

٤ البيان والتبيين (١٦١/١) .

٥ الحيوان (٢١/١) « طبعة الحلبي » .

٦ امست بنو القين افراقا موزعة ... كانهم من بقايا حي لقمان
البيان والتبيين (١٦٤/١) .

في شعر ينسب الى (لبيد بن ربيعة الجعفري)[1] . وفي شعر للفرزدق[2] ، وفي شعر لبنت وثيمة بن عثمان ترثي به أباها[3] .

وأضافوا الى (لقمان) أمثالاً كثيرة نسبت اليه في الإسلام ، ولم تكن معروفة في الجاهلية[4] . ونسب اليه بعض الأخباريين الميل الى انشاء المدن والبناء ، وضربوا به أيضاً المثل في كثرة الأكل ، فقالوا : (آكل من لقمان)[5] .

وزعم (وهبه بن منبّه) انه قرأ من حكمة (لقمان) نحواً من عشرة آلاف باب[6] ، وزعم الرواة ان عرب الجاهلية كانت عندهم (مجلة لقمان) ، وفيها الحكمة والعلم والأمثلة[7] ، وان جماعة منهم كانوا قد قرأوها وامتلكوها ، ذكروا من جملتهم (سُوَيْد بن الصامت) . وقد رووا انه كان يقرأها ، وانه أخبر الرسول بها لما قدم عليه[8] . وقد جمع الناس ، فيما بعد،حكمته وأمثاله والقصص المروي عنه ، ويشبه ما نسب اليه المنسوب الى (ايسوب) Aesop صاحب الأساطير والحِكَم والأمثال الموضوعة على لسان الحيوانات عند اليونان[9] .

وبالغوا في حكمته وفي علمه حتى زعم انه كان يدرك من الأشياء ما يعجز عن احراكه الانسان السوي[10] . وضرب المثل في أيساره ، وعظم أمره ، حتى قيل (أيسار لقمان) ، كاللتي ورد في شعر (طرفة) .

وورد في الأخبار : « اذا شرف الأيسار ، وعظم أمرهم قيل : هم أيسار لقمان . يعنون لقمان بن عاد » . واستشهدوا على ذلك ببيت طرفة :

وهُم أيسارُ لقمانٍ ، اذا أغلت الشتوةُ أبْداء الجُزُرْ[11]

---

١ واخلف قساليتني ولعلني واعى على لقمان حكم التدبـر
البيان والتبيين (١٦١/١) .
٢ البيان والتبيين (١٦١/١)
٣ البيان والتبيين (١٦١/١) .
٤ اللسان (٢٠/١٦ وما بعدها) ، Enc., Vol., 3, P., 35.
٥ مجمع الامثال ، للميداني (٩٨/١) .
٦ المعارف (ص ٢٥)
٧ Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammad, Bd. I, S. 93.
٨ امثال لقمان الحكيم ، « طبعة ديرنبورغ » ، لندن (١٨٥٠)
٩ Sprenger, Das Leben. I, S. 93.
١٠ المعاني الكبير (١١٩٣/٣)
١١ المعاني الكبير (١١٥٢/٣) .

وقد زعم أن (زرقاء اليمامة) ، التي اشتهرت بحدة بصرها وقوة رؤيتها حتى انها كانت ترى من مسيرة ثلاثة أيام ، كانت امرأة من بنات لقمان بن عاد، وكانت ملكة اليمامة واليمامة اسمها ، فسميت الأرض باسمها . وقد زعم ان النابغة الذبياني أشار اليها في شعره[1] .

وقد ورد في بعض الأشعار (لقمان بن عاد) . اذ جاء :

تراه يطوف الآفاق حرصاً ليأكل رأس لقمان بن عاد

وهناك أمثلة عديدة ينسبها الرواة الى (احدى حظيات لقمان) ، ووردت على لسانها وعلى لسان لقمان وعلى لسان فتى اسمه عمرو[2] .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ان لقمان بن عاد ، هو الذي بنى سدّ مأرب، وأن مأرب اسم قبيلة من عاد ، وقد سمي باسمها هذا الموضع[3] .

لم يبق بعد هلاك عاد الأولى ، على رأي أهل الأخبار إلا هود ونفر ممن آمن به والوفد الذي سار الى مكة للاستسقاء ، وفيهم لقمان وكان من أكابر العاديين. فأنشأ هؤلاء عاداً الثانية ، وخالف لقمان (الخلجان) ملك عاد الأولى ، الذي خالف هوداً ، فهلك . وخاف العاديون انحباس المطر والجفاف ، فارتحلوا الى أرض سبأ ، وبنى لقمان سد (العرم) قرب مأرب ، وبقيت عاد الثانية قائمة ، الى أن تغلبت عليها قبائل قحطان ، ثم انقرضت وبادت[4] .

ويذكر أهل الأخبار ان عاداً لما رأوا انحباس المطر عنهم ، أرسلوا وفداً ، بلغ سبعين رجلاً في قول بعض الرواة ، الى مكة يستسقون ، وكان أصحابها هم العمالقة يومئذ ، ورئيسهم (معاوية بن بكر) ، فأكرمهم وأضافهم، وأقاموا عنده شهراً : يشربون الخمر وتغنيهم (الجرادتان) وهما قينتان لمعاوية بن بكر، وفي الوفد المذكور لقمان . ونسوا أنفسهم هناك ، ولم يفطنوا لما جاؤوا اليه ،

---

١ واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت الى حمام سراع وارد الثمد
قالت : الا ليتما هذا الحمام لنا الى حمامتنا أو نصفها فقد
شرح ابن عقيل لالفية ابن مالك ، (١/٢٩٠) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، القاهرة ١٩٦٢ م .

٢ الامثال ، للميداني (١/٣٧) ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

٣ البكري ، معجم (٣/١١٧١) « لجنة التاليف والترجمة والنشر » .

٤ الطبري (١/٢٢١ وما بعدها) .

إلا بعد أن ذكرتهم (الجرادتان) بما جاؤوا به اليها ، فاستسقوا ، فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية ، أهلكت عاداً في ديارها[1] ، ودمرت كل شيء ، فهلكت ، ولم يبق من عـــاد إلا من كان خارج أرضهم بمكة ، وهم من (آل لقيم بن هزال بن هزيل بن هزيلة ابنة بكر) ، فهم عاد الآخرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد[2] .

وقد ذكر المؤرخون وأصحاب الأخبار أن (عاداً) تعبدوا لأصنام ثلاثـة ، يقال لأحدها : صداء ، وللآخر صمود ، وللثالث الهباء[3] . ولم نعثر على أسماء هذه الأصنام حتى الآن في الكتابات .

وكان هلاك (عاد) واندثارهم بسبب انحباس المطر عنهم سنين ثلاثاً، أعقبه هبوب رياح عاتية شديدة استمرت (سبع ليال وثمانية أيام حسوماً)[4] فهلك الناس واقتلعتهم الرياح وصارت ترميهم من شدتها ، (كأنهم أعجاز نخـــل منقعر)[5] . (فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية[6]) وخلت ديارهم منهم ، وصارت أماكنهم أثراً .

ويجمع أهل الأخبار على أن هلاك عاد ، إنما كان بفعل عوارض طبيعيـة نزلت بهم فأهلكتهم ، وهي عـــلى اختلاف رواياتهم في وصفها وفي شرحها ، انحباس الأمطار عنهم ، وهبوب رياح شديدة عاتية عليهم . وقد تحدث المفسرون عنها لورود ذكرهـــا في القرآن الكريم[7] . وروي أن النبي أشار الى أن هلاكهم وهلاك ثمود كان بالصواعق ، والصواعق من العوارض الطبيعية بالطبع[8] .

ويرجع قسط من أخبار (عـــاد) الى الجاهليين ، فهو من القصص الشعبي القديم الموروث عنهم ، ويعود قسط آخر منه الى الإسلاميين ، وهو القسط الذي

---

١ سورة الاحقاف ٢٤ ، اية ٢٥ .
٢ الطبري (٢١٨/١ فما بعدها) ، الفاخر (ص ٦٨) .
٣ الطبري (٢١٦/١) « دار المعارف » ، قصص الانبياء (ص ٣٩) ، نهايـة الارب (٥١/١٣) ، الاصنام (١١٠ وما بعدها) ، « تحقيق احمد زكي باشا » ، مروج الذهب (٦١/٢) « طبعة دار الرجاء » .
٤ سورة الحاقة ، اية ٧ ، الطبري (٢٢٥/١ فما بعدها) .
٥ سورة القمر ، اية ٢٠ .
٦ الحاقة ، اية ٧ .
٧ ابن كثير ، البداية (١٢٠/١ وما بعدها) ، تفسير الرازي (٤٣/٢٩) ، (القاهرة ١٩٣٨ م) ، (٩/٨) ، تاريخ ابن عساكر (١٤/١)
٨ القـــد الفريد (٣٦/٢) .

جاء شرحاً لما جاء موجزاً في القرآن الكريم ، ويرجع بعضه الى (الحارث بن حسان البكري) و (الحارث بن يزيد البكري) ، وتزعم رواية وردت في تأريخ الطبري أنه قص على الرسول قصصاً عن أمر (عاد)[1] ، ويرجع بعض آخر الى (كعب الأحبار) والى (وهب بن منبه) ، وهما من مسلمة يهود[2] ، والى (السدّي)[3] ،والى أشخاص آخرين تجد ذكرهم في سند الروايات المذكورة عند (محمد بن اسحاق) صاحب السيرة ، وعند الطبري وعند آخرين من أهل الأخبار والتواريخ ممن ساروا على طريقة ذكر المسند مع الروايات .

ويظهر أن كثيراً من أخبار (عاد) وضعت في أيام (معاوية) الذي كان له ولع خاص بأخبار الماضين ، فجمع في قصره جماعة اشتهرت بروايتها هذا النوع من القصص ، وفي مقدمة هؤلاء (عُبَيْد بن شَرْيَة الجُرْهمي) و (كعب الأحبار)[4] .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن رجلاً قصّ في أيام معاوية ، أن إبلاً له ظلت في تيه أبين ، وهو غائط بين حضرموت وأبين ، فالتقطها من هناك ، ووجد فيه موضع (إرم ذات العماد) ، ووصف أبنيته العجيبة ، وهذا الرجل هو في جملة من موّن العاشقين للأساطير بأخبار عاد . وقد ذكر الطبري أن (وهب بن منبه) ، قصّ أنه سمع من رجل اسمه (عبد الله بن قلابة) أن إبلاً له كانت قد شردت ، فأخذ يتعقبها ، فبينما هو في صحارى (عدن) ، وقف على موضع (إرم ذات العماد) ، وقد وصف ذلك الموضع على النحو المألوف عن (وهب) ، من اغراقه في الأساطير وفي القصص الخيالي البعيد عن العقل[5] .

ثمود :

ويرد اسم ثمود في الكتب العربية مقروناً باسم (عاد) ، ويعد هذا الاسم

---

١ الطبري (٢١٧/١ فما بعدها) ، شمس العلوم (ح ١ ، القسم الاول ، ص ٢٦٢)
٢ الطبري (٢٢٦/١) .
٣ الطبري (٢٢٥/١) .
٤ نهاية الارب (٦٢/١٣ فما بعدها) راجع قصة « ابن بيض » مع لقمان ، ويظهر انها من قصص الجاهلية ، المفضليات (ص ٩١) ، ديوان المفضليات (ص ٩١) « طبعة بيروت ١٩٢٠ م » .
٥ تفسير الطبرسي (٤٨٦/٩)

في الغالب ، والروايات العربية الواردة عنهم لا تعرف من تأريخهم شيئاً ، انما روت عنهم قصصاً أوردتها لمناسبة ما ذكر عنهم في القرآن الكريم على سبيل العظة والاعتبار والتذكير . وقد وردت اشارات عنهم في الشعر الجاهلي[1] .

وجاء اسم (ثمود) في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، جاء منفرداً ، وجاء مقروناً باسم شعوب أخرى مثل قوم (نوح) وقوم (عاد) ، فبدأ بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود[2] . وجاء مع ثمود في موضعين (أصحاب الرسّ)،جاءوا بعد (ثمود)[3] كما جاء اسمهم قبل (ثمود)[4] . وورد أيضاً ذكر قوم (لوط) و (أصحاب الأيكة) ، وقد تقدم في هذا الموضع اسم (ثمود) ، ودعت الآية أولئك : (الأحزاب)[5] ، كما ورد ذكر (ثمود) مع (عاد)[6] . وقد تقدم اسم (عاد) على ثمود الا في آية واحدة تقدم فيها اسم ثمود على اسم (عاد) : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة »[7] ، وورد اسم (ثمود) في آيات

---

١ ورد في الشعر المنسوب لامية بن ابي الصلت :

كثمود التـي تفتكت الدين عتيـا وام سقب عقيـرا

وذكر قصة الناقة ، رجع ديوانه (ص ٤٤) ، « طبعة فر . شلتيز » Fr. Schulthess « لايبزك ١٩١١ م » .
وورد في شعر لسلمة بن الحرث ، وهو من معاصري عمرو بن كلثوم :

حتـى تزور السبـاع ملحمة كانها من ثمود او ارما

راجع المفضليات (ص ٤٢٨) .
وورد اسم ثمود ايضا في شعر لجرير بن خرقاء العجلي :

ويـوم الحنو قد علمت معـد حصدناكم كمـا حصدت ثمـود

المفضليات (ص ٤٣٩) ، وورد في شعر لبيد اسم ارم وعاد وثمود ، ديوان لبيد ، (ص ٢٥) ، سبائك الذهب ، للسويدي (ص ١٥) .

٢ سورة التوبة ٩ ، الاية ٧٠ ، سورة ابراهيم ١٤ ، الاية ٩ ، سورة الحج ٢٢ ، الاية ٤٢ ، سورة غافر ، ٤٠ ، الاية ٣١ .

٣ « وعادا وثمودا واصحاب الرس » ، سورة الفرقان ٢٥ ، الاية ٣٨ .

٤ سورة ق ، ٥٠ ، الاية ١٢ .

٥ سورة ص ، ٣٨ ، الاية ١٣ .

٦ سورة العنكبوت ٢٩ ، الاية ٣٨ ، سورة فصلت ٤١ ، الاية ١٣ ، سورة النجم ٥٣ ، الاية ٥١ .

٧ سورة الحاقة ، ٦٩ ، الاية ٤ .

أخرى من القرآن الكريم[1] .

وقد ذكر الطبري ان شعراء الجاهلية ذكـرت في شعرها عاداً وثمود ، وان أمرهما كان معروفاً عند العرب في الشهرة قبل الإسلام،وأن من يظن أن الجاهليين لم يكونوا يعرفون عاداً أو ثموداً فإنه على وهم وخطأ[2] .

ويظهر من ورود ذكر (ثمود) في مواضع متعـددة من القرآن ، لترهيب (الكفّار) من العاقبة التي آلت اليها حالة (ثمود) بعد أن استحبّوا العمى على الهـدى ، واستمروا بطغواهم كما استمر طغيـان (فرعون)[3] وقوم (مدين)[4] وغيرهم ممن ذكرناهم ، أن الجاهليين كانوا يعلمون مصير ثمـود ومصير عاد الذي كان من نوع مصير ثمود[5] ، وأنهم كانوا يعرفون منـازلهم كالذي يظهر بجلاء من الآية : (وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم)[6] معرفة جيدة، ولم يعين القرآن الكريم موضع منازل (ثمود) ، وإنما يظهر من آية : (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد[7]) ، أن مواضعهم كانت في مناطق جبلية ، أو في هضاب ذات صخور . وقد ذكر المفسرون أن معنى (جابوا الصخر) قطعـوا صخر الجبال واتخذوا فيهـا بيوتاً[8] ، وأن (الواد) هو وادي القرى . فتكون مواضع ثمود في هذه الأماكن . وقد عين أكثر الرواة (الحجر) على أنه ديار ثمود ، وهو قريـة بوادي القرى . وقد زارها بعض الجغرافيين وعلماء البلدان

---

١ سورة الاعراف ٧ ، الاية ٧٣ ، سورة هود ١١ ، الاية ٦١ ، ٦٨ ، ٩٥ ، سـورة الاسراء ، ١٧ ، الاية ٥٩ ، سورة الشعراء ، ٢٦ ، الاية ١٤١ ، سورة النمل ، ٢٧ الاية ٤٥ ، سورة الذاريات ٥١ ، الايـة ٤٣ ، سورة القمر ، ٥٤ ، الايـة ٢٣ ، سورة البروج ، ٨٥ ، الاية ١٨ ، سور الفجر ٨٩ ، الاية ٩ ، سورة الشمس ٩١ ، الاية ١١ .

٢ الطبري (٢٣٢/١) ، « طبعة دار المعارف » ، الكامل ، لابن الاثير (٥٠/١) ، نهاية الارب (٢٩٢/٢) .

٣ سورة البروج ٨٥ ، الاية ١٨ .

٤ سورة هود ١١ ، الاية ٩٥ .

٥ سورة فصلت ٤١ ، الاية ١٣ .

٦ سورة العنكبوت ٢٩ ، الاية ٣٨ .

٧ سورة الفجر ٨٩ ، الاية ٩ .

٨ الكشاف ، للزمخشري (٢٠٩/٤) ، تفسير الطبري (١١٣/٣٠) ، روح المعاني ، للالوسي (١٢٤/٣٠) .

والسيّاح ، وذكروا أن بها بئراً تسمى بئر (ثمود)[1] ، وقد نزل بها الرسول مع أصحابه في غزوة (تبوك)[2] . وقد ذكر المسعودي أن منازلهم كانت بين الشام والحجاز الى ساحل البحر الحبشي ، وديارهم بفج الناقة ، وأن بيوتهم منحوتة في الجبال ، وأن رممهم كانت في أيامه باقية ، وآثارهم بادية ، وذلك في طريق الحاج لمن ورد الشام بالقرب من وادي القرى[3] .

وينسب النسابون ثمود الى (ثمود بن جاثر أو كاثر بن ارم بن سام بن نوح)[4] ، ويكتفي بعضهم بارجاع نسبهم الى عاد ، فيقولون عنهم إنهم من بقية عاد[5] . وينسبهم بعض آخر إلى (عابر بن ارم بن سام بن نوح) ، وزعموا أن ثمود هو أخو جديس[6] .

وقد استطاع المستشرقون التعرف على الثموديين من الكتابات والمؤلفات (الكلاسيكية) ، فوجدوا اسم ثمود في النصوص الآشورية : وجدوه في نص من نصوص (سرجون الثاني) ، مع أسماء شعوب أخرى سوف أتحدث عنها . وقد دعوا بـ (Tamudi) (Thamudi)[7] ، وذلك بمناسبة معركة جرت بين الآشوريين وبين هذه الشعوب ، انتصر فيها الآشوريون ، كما وجدوه في النصوص والكتابات الثمودية ، وقد عثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، وفي النصوص (الكلاسيكية) حيث عرفوا باسم (Thamudeni) (Thamudenoi) (Thamydenoi) (Thamyditai)[8] .

---

١ البلدان (٢٢١/٣) ، الطبري (١١٨/١) ، اللسان (٢٤٢/٥) ، سبائك الذهب (ص ١٥) ، صبح الاعشى (٣١٣/١) ، تقويم البلدان (٨٩) .

٢ البكري ، معجم (٢٢٦/٢) « طبعة السقا » الاغاني (٢٨/٦) ، ابن كثير ، البداية (١٣١/١ وما بعدها) .

٣ مروج الذهب (٢٥٩/١) ، « قال كعب : لما اهلك الله عز وجل عادا ، جاءت ثمود وعمرت الارض ، وكانوا بضع عشر قبيلة .... وكانت منازلهم ما بين الحجاز الى الشام ، وهي ديار الحجر من وادي القرى » ، نهاية الارب (٧١/١٣) .

٤ صبح الاعشى (٣١٣/١) .

٥ « وثمود ، كصبور ابن عابر بن ارم بن سام . قبيلة من العرب الاول ، ويقال انهم من بقية عاد » ، تاج العروس (٣١٢/٢) ، اللسان (١٠٥/٣) « صادر » .

٦ ابن كثير ، البداية (١٣٠/١ وما بعدها) .

٧ Rawlinson, Cunal Form Inscriptions, Vol., I, Pl., 36, Lyon, Sargon, P., 4, Musil, Deserta, P., 291.

٨ Musil, Deserta, P., 291, Ptolemy, Geography, VI, 7 ; 4, VI, 7;21, Diodorus, Bibliotheca Historica, III, 44, Forster, Vol., I, P., 323, Vol., 2, P., 30, 117, 274, 284.

ولقد وصف مؤلف كتـاب : (الطواف حول البحر الأريتري) مواضع الثموديين (Thamudeni) مستنداً إلى مورد آخر ، أخذ منه ، أقدم عهداً منه . فذكر أن (Thamudeni) ، كانوا يقيمون على ساحل صخري طويل ، لا يصلح لسير السفن ، وليست فيه خلجان تستطيع أن تأوي اليه القوارب فتحتمي بها من الرياح ، ولا ميناء تتمكن من الرسو فيه ، ولا موضع أو جزر عنده تقبل اليه القوارب الهاربة من الأخطار[1] . فيظهر من وصف هذا المؤلف أن مـواطن ثمود كانت في الحجاز على ساحل البحر الأحمر .

وقد ذكر هذا الوصف ، ولكن بشيء من التحوير (ديودورس)[2] . وأمـا (بلينيوس) ، فذكر (Tamudaei) بين (Domata) و (Haegra) ومدينة دعاها (Badanatha) (Baclanaza) . وأما (بطلميوس) ، فقد جعل قوم ثمود (Thamuditae) (Thamudeni) بين الـ (Sarakenoi) وبين (Apatae)[4] ويظهر من كل ذلك أن ديارهم في شمال غربي (العربية السعيدة)[5] ، أي في المواضع التي عينتها المصادر العربية .

يظهر من جغرافية (بطلميوس) اذن ، أن ديار ثمود كانت غير بعيدة عن ديار (عاد) ، ليس بينها وبين ديار عاد (Oaditae) الا ديار (سره كيني) (Sarakeni) وكلها في أعالي الحجاز في هذه المنطقة الجبلية التي تخترقها الطرق التجارية التي توصل الشام ومصر بالحجاز واليمن . وفي هذا تأييد للروايات العربية القائلة ان ديار ثمود كانت على مقربة من ديار عاد . فإذا كانت (الحجـر) وما والاها هي مواطن ثمود : وجب أن تكون ديار (عاد) على مقربة من هذه المواضع .

وأما تأريخ قوم (ثمود) ، فيعود الى ما قبل الميلاد بزمان . وقد ذكرتُ قبل قليل أنهم كانوا في جملة الشعوب التي حاربت الآشوريين في عهد (سرجون

---

١ Musil, Deserta, p., 302, The Periples of the Erythrean Sea, by William Vincent, London, 1800, Part the Second, P., 262.

٢ Diodorus, Bibliotheca Historica, III, 44, Musil, Deserta, P., 291.

٣ Pliny, Natur. History, (translated by H. Rackham), Vol., 2, P., 456 457, VI, 32.

٤ Glaser, Skizze, 2, S., 108, Ptolemy, VI, 7:4 VI, 7:21, V, 19 7 Hastings. A Dictionary of the Bible, Vol., I, P., 630.

٥ Musil, Hegaz, P., 291, Glaser, Skizze, 2, S., 108, 256.

الثاني) ، وقد ذكر هذا الملك في النصوص التأريخية التي سجلها ، أنـه تغلب عليهم ، وانه أجلاهم من مواطنهم الى (السامرة) (Samaria) [1] . ولم يكن أولئك الثموديون الذين حاربوه من أبناء الساعة ، بل لا بد أن يكون لهم أسلاف عاشوا قبلهم عدة قرون .

وقد عرفت المنطقة التي حارب بها قوم ثمود والشعوب الأخرى الآشوريين باسم (بري) (Bari) ، ويظهر أنها تعني لفظة (بر) و (برية) العربية ، أي (البادية) فحرّفت الى (بري) على وفق الآشوري[2] .

ويرى بعض الباحثين أن آخر ذكر ورد في الوثائق لقوم (ثمود) كان في القرن الخامس للميلاد ، حيث ورد أن قوماً منهم كانوا فرساناً في جيش الروم[3] .

وقد كان الثموديون يقطنون بعد الميلاد في مواطنهم المذكورة في أعالي الحجاز في (دومة الجندل) و (الحجر) وفي غرب (تيماء) . وقد ذكر أنهم كانوا يمتلكون في منتصف القرن الثاني للميلاد حَرّتَيْ (العوارض) و (الأرحاء)[4] . ويرى (دوتي) أن (الحجر) التي سكن بها قوم ثمود ، هي موضع (الخريبة) في الزمن الحاضر ، لا (مدائن صالح) التي هي في نظره (حجر) النبط . وتقع (مدائن صالح) ، وهي عاصمة النبط ،على مسافة عشرة أميال من موضع (الخريبة)[5] .

ولم يرد في الموارد العربية الإسلامية،ما يفيد وجود قبائل ثمودية قبيل الإسلام، أو في الإسلام ، غير ما ذكره بعضهم من نسب (ثقيف) الذي رجعوه الى ثمود،ولكن ذلك لم يرض الثقفيين . فقد كان الحجاج بن يوسف يكذب ذلك[6]، والظاهر أن أعداء ثقيف ولا سيما معارضي الحجاج وضعوا ذلك على ثقيف بغضاً

---

١ Lyon, Keilschrifttexte Sargons, S., 4, (1883), Winckler, Keilschrifttexte Sargons, (1889), Bd., 2, PL., 2, No., I, Linie 20, Schrader, Keilinschriftliche Bibliothek, (1889-1900), Bd., 2, S., 42, Musil, Deserta, P., 479, Musil, Hegaz, P., 289.

٢ Sprenger, Geography, S., 28.

٣ Doughty, Vol., I, P., 229, Sprenger, S., 28.

٤ Musil, Hegaz, P., 291.

٥ Doughty, Vol., I, P., 229.

٦ ابن خلدون (٢/٢٤) ، الكامل (١/٢٧٦) .

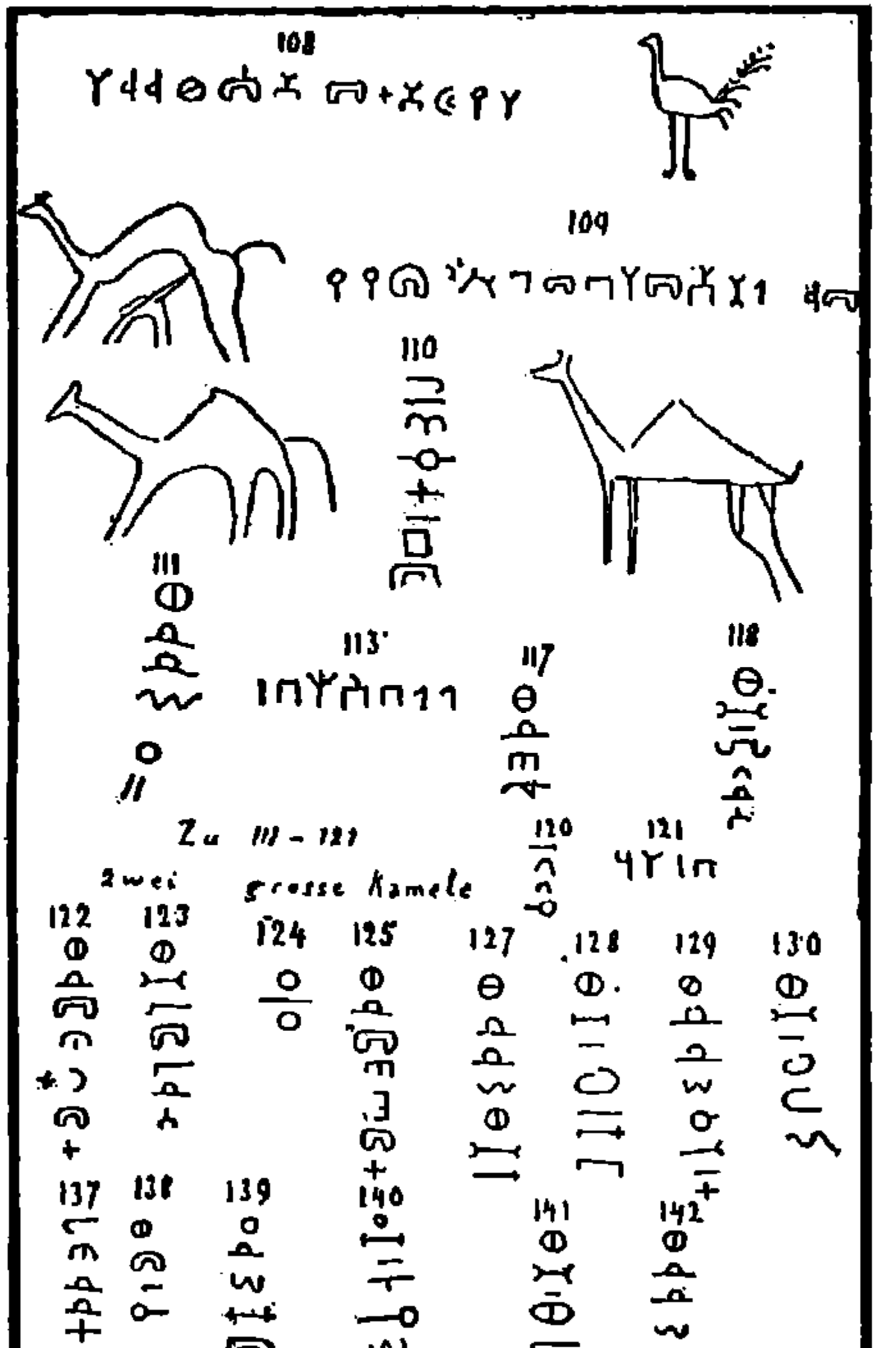

كتابات ثمودية من أعالي الحجاز من كتاب : « آنو ليتمن » :

Zur Entzifferung : Taf . 3.

للحجاج ، الذي كان قاسياً عاتياً شديداً . وقد روى (دوتي) أن بدو نجد يذكرون ان قبيلة (بني هلال) هي من نسل عاد وثمود[١] .

ونجد في كتاب : (Mission archéologique en Arabie) لمؤلفيه (Jaussen) و (Savignac) ، عدداً من الكتابات الثمودية ، عثرا عليها في (العلا) وفي مواضع أخرى من الأرضين التي هي اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية وفي أعالي الحجاز من المملكة العربية السعودية ، كما عثر غيرهما قبلهما وبعدهما على عدد آخر ، أغلبه من هذه الكتابات القصيرة ، التي كتبت على مختلف الأحجار ، بالمناسبات ، مثل تذكّر شخص،أو تسجيل اسم لمناسبة وجود صاحبه في هذا المكان ، كما يفعل كثير من الناس في أيامنا[٢] .

وتمكن (لانكستر هاردنك) محافظ مديرية الآثار العتيقة في المملكة الأردنية الهاشمية من تصوير ما يزيد على خمسمائة كتابة ثمودية أرسلها الى المستشرق (أنوليتمان) ، يعود بعضها الى ما قبل الميلاد ، ويعود قسم منها الى ما بعد الميلاد ، ومن بينها نص أرخ بسنة (٢٦٧) للميلاد ، ونص آخر رسمت فيه دائرة في داخلها صورة تشبه الصليب ، وكتابة قرأها المستشرق (أنوليتمان) : (يشوعة) أو (ليشوعة) ، أي (ليسوع)،وهو النص الذي رُقّم بـ(٤٧٦). والظاهر ان صاحبه كتبه تيمناً باسم المسيح ، ولا يعرف تأريخه بالضبط . ويعتقد (ليتمان) انه أقدم شاهد عرف حتى الآن عن انتشار النصرانية في شمال جزيرة العرب[٣] . وقد قرأها المستشرق (فان دين برندن) : (بوايوب) أي (لأيوب) ، أو (بأيوب)،أو (أيوب).وبالجملة فان العلماء لم يتمكنوا من ترجمة تلك الكتابات ترجمة صحيحة حتى الآن[٤] .

وفي المتاحف الأوروبية وفي مكتبات بعض الجامعات وفي أوراق المستشرقين مجموعة من النصوص الثمودية ، جميعها في أمور شخصية وفي موضوعات دينية وأدعية لآلهة ثمود . وأما المناطق التي وجدت فيها هذه النصوص ، أو أخذت

١ Die Offenbarung Arabiens, (Arabia Deserta), Leipzig, 1937, S., 63.

٢ Van den Branden, Les Inscriptions Thamoudéennes, Louvain-Heverbe, 1950.

٣ The Muslim World, Vol., XI, No., I, January, 1950, Jesus in Pre-Islamic Arabic Inscription, by Enno Littmann.

٤ A. Van den Branden, in Le Museon, LXIII, (1950) 1-2, P., 47-51, "Une Inscription Thamoudeenne".

صورها ، فهي مناطق (حائل) بنجد ، وأرض (تبوك) وتيماء ومدائن صالح والسلاسل الجبلية الممتدة بين هذه المنطقة والحجاز ، وعثر في الطائف على بعض النصوص الثمودية أيضاً وفي السواحل الحجازية الشمالية للبحر الأحمر عند (الوجه) وفي (طور سيناء) وفي (الصفا) شرقي دمشق وفي مصر[١] . وفي (الحرة) و (الرحبة) وفي شمال غربي تدمر[٢] .

وقد عثر على نقوش ثمودية في اليمن ، ويدل وجود هذه الكتابات هنالك على وجود صلات بين اليمن وثمود ، ولعلهم كانوا يقيمون في اليمن كذلك . وقد عثرت البعثة المصرية التي زارت اليمن على مخربشات ثمودية في (حجر المعقاب) عند جبل (حليل) على مسافة ليست بعيدة من (بيت حميد) بوادي شرع بالخارد[٣] .

ويشك المستشرق (هوبرت كريمه) (Hubert Grimme) في صحة نسبة كثير من هذه النصوص الى ثمود ، ويرى أنها لأناس غيرهم ، إذ لا دليل علمياً هناك يثبت كون هذه النصوص تعود الى هؤلاء .

وهناك عدد غير قليل من النصوص الثمودية يعود عهدها الى العهد النبطي ، ويشغل حيزاً من الزمن يقع بين حوالي مئتي سنة قبل المسيح وثلاث مئة سنة بعده ، وتمتزج في مثل هذه النصوص الثمودية بالنبطية . وقد عثر على بعض نصوص نبطية في الحجاز ظن أنها نصوص ثمودية ،مثل نص: Hu. 418 = Eu. 772 ، ونص آخر يعود الى سنة ٢٦٧ للميلاد[٤] .

إلا أن هناك نصوصاً ثمودية يظهر عليها أثر عبادة (صلم) (Salm) . وقد كانت (تيماء) من أهم الأماكن التي كانت تقدس هذا الإله حوالي سنة (٦٠٠) ق. م. ، ويرمز أهل تيماء الى (صلم) برأس ثور ، وقد وجد هذا الرمز

---

١ Ency., Vol., 4, P., 736, Musil, Negd, P., 104, 140, Huber in Journal D'un Voyage en Arabie, 1883-1884, Grimme, Entzifferung Thamudenischer Inschriften, 1904, Jausen-Savignac, Mission Archéologique en Arabie, 1-2 19011, 1914.

٢ E. Littmann, Thamud und Safa, S., 6, f, 95. f, Die Araber in der Alten Welt, I, S., 164.

٣ نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحهما ، للدكتور خليل يحيى نامي ، القاهرة ١٩٤٣ (ص ١٠٩) ، وقد عثر الرحالة « فلبي » على بعض الكتابات التي يظهر انها ثمودية لحيانية ، Philby, Sheba's Daughters, P., 441.

٤ Ch. Doughty, Documents Epigraphiques Recueillis dans le Nord de L'arabie, 1884.

على النقوش الثمودية ، كما وجدت أسماء بعض الآلهة التي كان يتعبد لها أهل تيماء منقوشة في النصوص الثمودية ، مما يدل على أن قوم ثمود كانوا يتعبدون لها كذلك ، وأن هنالك صلات ثقافية ودينية بين تيماء وثمود .

ويرجح بعض الباحثين تأريخ عدد من الكتابات الثمودية الى القرن السابع قبل الميلاد . وهناك كتابات يرون أنها أقدم عهداً من القرن السابع . غير أن أكثر ما عثر عليه يعود تأريخه الى ما بعد الميلاد . وهي بالجملة في أمور شخصية ، لا تفيد المؤرخ الذي يريد تدوين تأريخ (ثمود) فائدة كبيرة . ولكنها نافعة على كل حال من نواح أخرى ، فهي تفيد اللغوي الذي يريد الوقوف على لغة الثموديين ومعرفة أسمائهم ولهجاتهم ، وتفيد الباحثين في اللهجات العربية الجاهلية وفي الساميات .

والكتابات الثمودية في نظر الباحثين نوعان : كتابات قديمة وقد دونت بالقلم الثمودي القديم ، وكتابات حديثة وقد كتبت بقلم ثمودي متطور تختلف أشكال حروفه ورسومها بعض الاختلاف عن القلم القديم . وللقلم الثمودي صلة بقلم (طور سيناء) ، كما أن له علاقة بالقلم المسند . وتفيد دراسته من هذه الناحية في الوقوف على تأريخ تطور الكتابة في جزيرة العرب قبل الميلاد ، وفي تطور الأقلام بوجه عام[1] .

ويلاحظ وجود بعض الخواص في الكتابات الثمودية التي عثر عليها في الحجاز ، لا نجدها ،أو قلما نجدها في كتابات ثمودية أخرى ، عثر عليها في نجد وفي اليمن . ويعود سبب ذلك الى تأثير البيئات ، ولا شك ، في هؤلاء الثموديين الذين تأثروا بلهجات جيرانهم وبثقافاتهم ، فظهر ذلك الأثر في هذه الكتابات[2] .

ويظهر من الكتابات الثمودية أن قوم ثمود كانوا زُرّاعاً وأصحاب ماشية ، وأنهم كانوا أقرب الى الحضر ،منهم الى أهل الوبر ، فقد كانت لهم مستوطنات ثابتة استقروا فيها ، وكانت لهم معابد ثابتة أيضاً ، أي مبنية ، وبينهم قوم اشتغلوا بالتجارة . ولعل الأيام ستجود علينا بكتابات ثمودية تتحدث عن أمور عامة ، وعندئذ نستطيع أن نستنبط منها شيئاً عن أحوالهم من مختلف الوجوه .

---

١ Hubert Grimme, Die Loesung des Sinaischriftproblems, Die Altthamudische schrift, S., 24.

٢ Grimme, Die Loesung, S., 25.

ومن أصنام ثمود التي ورد ذكرها في كتاباتهم ، الصنم (ودّ) ، وهو من الآلهة القديمة عند العرب[١] . والصنم (جد – هد) أو (جد – هدد) ، وله عندهم معابد وسدنة يخدمونه ، ويعرف سادن الأصنام عندهم بـ (قسو) أي (قس) . عرفنا أسماء بعضهم ، ومنهم السادن (ايليا) (ايلية)[٢] . ويظهر أنه كان من الآلهة العربية العتيقة ، غير أن سعده أخذ في الأفول ، فأخذت مكانه آلهة أخرى ، ثم عفى أثره من الذاكرة ، فلم يرد اسمه بين الأصنام التي كان يعبدها الجاهليون قبيل الإسلام . وقد بقيت مع ذلك أسماء مثل: (عبد جد) تشير الى اسم الإلـه العربي القديم[٣] .

و (شمس) و (مناف) و (مناة) و (كاهل) و (بعلة) (بعلت) و (بعل) و (يهو) و (رضو) أو (رضى) ، هي أيضاً من أصنام ثمود ، سأتحدث عنها كلها في أثناء بحثي في الديانة العربية قبل الإسلام . ومن بقية آلهة ثمود (عثيرت) (عثيرة) ، و (وتن) (وت) ، و (يثع) (سمع) و (سميع) و (هبل) و (سحر) ، و (سين) و (عم) و (قين) و (يغوث) و (إلـه) و (ألى) و (إلهي) و (الت) و (اللآت) و (حول) (حويل) و (ذو شري) و (سمين) و (هلال) و (صلم) و (نهى) و (عثر سمين) و (كاهل) (كهل) ، و (ملك) و (مالك) ، و (هادي) (هدى) ، و (بحل) ، و (رتل) ، و (هيّج) ، و (شوع) ، و (ستار) ، و (طنفت) ، و (سعى) ، و (غم) ، و (عس) ، و (عسحرد) ، و (عثير) ، و (عطير) ، و (تجر) ، و (دبر)[٤] .

وبعض هذه الأسماء ليست في الواقع أسماء آلهة ، وإنما هي من قبيل ما يقال له (الأسماء الحسنى) عندنا أو صفات الله ، فلفظة (سمع) مثلاً ، وهي بمعنى (سميع) أو (السميع) في عربيتنا ليست اسم إلـه معين ، إنما هي صفة للإلـه، بمعنى أن الإلـه هو سميع يسمع دعوات الداعين . ولذلك يخاطبه المؤمنون ويقولون له (سمع) (يا سميع) ، ليسمع دعاءهم وليجيب طلباتهم ، وهناك ألفاظ

---

١ J. Wellhausen, Reste, S., 14.
٢ Grimme, S., 39, Note 9.
٣ Wellhausen, S., 146.
٤ Van den Brandeen, Les Inscriptions, PP., 10.

أخرى هي من هذا القبيل .

ووصلت الينا أسماء ثمودية كثيرة ، مثل : (أوس) و (سعد) و (عفير) و (وائل) و (بارح) و (كربال) (كرب ايل) و (عش) (عائش) و (مالك) (ملك) و (عذرال) (عذرايل) ، و (عوذ)،و (أسعد)، و (عياش) ، و (إياس) ، و (قيس بن وائـــل) (قس بن وال) وغيرها، مما يخرجنا ذكرها عما نحن فيه . وهي أسماء لا يزال بعضها مستعملاً[1] .

ويلاحظ أن بعض هذه الأسماء مثل (كرب ال) و (عذرال) ،وما شاكله ، قلّ استعمالها عند العرب قبيل الإسلام ، بينما كانت من الأسماء الشائعة في الجاهلية البعيدة عن الإسلام ، ولا سيما بين الجاهليين في العربية الجنوبية،حيث ترد بكثرة في كتابات المسند .

ويرى (برو) Brau أن ثموداً أصيبوا بكارثة عظيمة ، من ثوران براكين أو هزات أرضية ، بدليل ورود كلمة (رجفة)[2] وكلمة (صيحة) في القرآن الكريم ، وذلك محتمل جداً ، لأن البقاع التي كانوا يقطنونها هي من مناطق الحرار[3] .

ويشبه مصير (عاد) و (ثمود) مصير (سدوم) (Sodom) وعمورة (جمورة) (كمورة) (Gomorrah) وبقية مـــدن الدائرة في عمق السديم[4] التي تقع — على رأي كثير من علماء التوراة — في جنوب البحر الميت ، فقـــد لاقت هذه المدن ، وهي خمس عـــلى سهل (دائرة الأردن) المصير الذي لقيه قوم عاد وثمود ، حيث أرسل الله عليهم عذاباً (فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض)[5]. وأصحاب هذه المدن هم : قوم (Lot) (لوت).

---

١ E. Littmann, Thamud und Safa, (Abhand. f. d. Kunde d. Morgenlandes 25, I), 1940, Die Araber in der Alten Welt, I, S., 163. ff., M. Hofner, Die Beduinen in L'Antica Societa Beduina (Studi Semitici), 1959, 53. f.

٢ Ency., Vol., 4, P., 736.

٣ James A. Montgomery, Arabia and the Bible, P., 91, Hastings, P., 734.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٥٥١/١) ، (١١٩/٢ ، ٣٠٠) ، Hastings, P., 734, Ency. Bibl., P., 3790.

٥ التكوين ، الاصحاح التاسع عشر ، الاية ٢٣ وما بعدها .

و (لوت) هو (لوط) المذكور في القرآن الكريم . وقد رأيت ان القـــرآن الكريم قد أشار الى مصير (قوم لوط)، وأطلق على ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة (الأحزاب) . « وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب»[1].

وقد تعرض المفسرون لقوم (لوط) وما حل بهم من العذاب، وبحث عنهم أهل الأخبار والتأريخ ، باعتبار ان أخبارهم هي صفحة من صفحات التأريـــخ القديم العام قبل الإسلام . وفي الرواية التي ذكرها (الطبري) في تأريخه عنهم ، وسندها مرفوع الى (محمد بن كعب القَرظَمي) ذكر القرى الخمس الواقعة حول (سهل دائرة الأردن) ، وقـــد دعاها بـ (المؤتفكات) المأخوذة من القرآن الكريم من « والمؤتفكة أهوى »[2] ، وهي : صبعة ، وصعرة ، وعمرة ، ودوما ، وسدوم ، بحسب رواية الطبري هذه[3] . وفي هذه الأسماء تحريف وتغيير في الترتيب الذي وردت به في التوراة ، اذ هي فيها على هذا الشكل : سدوم (Sodom) و (عمورة) (Gomorrah) و (أدمة) (Admah) و (صبوييم) (Zeboim) و (بالع) (Bela)وتسمى أيضاً بـ (صوغر) (Zoar)[4] .

وقد نبه القرآن قريشاً الى مصير يشبه مصير (ثمود) ، اذ كفـــروا بنبوة نبيهم (صالح) ، وعقروا (الناقة) التي أرسلت لهم آية تحذرهم من عاقبة كفرهم ومن استمرارهم في تكذيبهم نبوة نبيهم . فلما استمروا في غيهم وضلالهم، أرسل الله عليهم (الصيحة) ، فأهلكتهم ، ورجفت الأرض بهم ، فلم يبق من كفّارهم على الأرض إلا رجل واحد ، هو (أبو رغال) كان في حرم الله، فنعه حرم الله من عذاب الله[5] .

ويذكر أهل الأخبار أنّ رسول الله لما غزا غزاة تبوك ، نزل (الحجر) ، ونهى الناس من دخول القرية ، ومن شرب مائها ، وأراهم مرتقى الفصيل .

---

١ سورة ص رقم ٢٨ ، الاية ١٣ ، وتجد قصة لوط وقومه مفصلة في تاريخ الطبري (١/٥٠آ) وما بعدها ، نهاية الارب (١٣/١٢٣ ، ٢٤٨) .

٢ سورة النجم ، الاية ٥٣ .

٣ الطبري (١/٣٠٧) .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٠٠) ، Hastings, P. 734

٥ الطبري (١/٢٣١ فما بعدها) « طبعة دار المعارف » .

والقرية المذكورة هي (الحجر) ، وهي (قرية ثمود)[1] .

وقد ورد في شعر (حسّان بن ثابت) : (أشقى ثمود) ، وقد ذكر الشرّاح أنه (قدار بن سالف أحيمر ثمود) ، وهو عاقر ناقة صالح[2] . وهكذا نجد لثمود (أحيمراً) على نحو ما وجدنا عند عاد .

ويرجع سند روايات (الطبري) عن ثمود الى (الحسن بن يحيي) ، ويتصل سنده بـ (أبي الطفيل) ، والى (القاسم) ، وينتهي سنده الى (عمرو بن خارجة)،و (ابن جريج) عن جابر بن عبدالله و (اسماعيل بن المتوكل الأشجعي) وينتهي سنده بـ (عبد الله بن عثمان بن خثم) عن (أبي الطفيل)[3] .

وتفيدنا دراسة هذه الأسانيد وأمثالها فائدة كبيرة في الوصول الى معرفة الموارد التي أمدّت الأخباريين بأمثال هذه الأخبار .

طسم وجديس :

وساق الأخباريون نسب (طَسْم) على هذه الصورة : (طسم بن لاوذ بن إرم) أو (طسم بن لاوذ بن سام) ، أو (طسم بن كاثر) ، أو ما شابه ذلك من نسب[4] . ونحن لا نعرف الآن من أمرهم غير ما ورد من القصص المدون في الكتب ، ، ولم يرد لهم ذكر في القرآن الكريم . وقد جعلهم بعض أهل الأخبار من أهل الزمان الأول ، أو من عاد[5] .

وقد شكّ حتى الأخباريون في الأخبار المنسوبة الى (طسم) ، إذ اعتبروها أخباراً موضوعة ، فقال بعضهم : (وأحاديث طسم : يقال لما لا أصل له . تقول لمن يخبرك بما لا أصل له : أحاديث طسم وأحلامها ، وطسم احدى قبائل

---

١ الطبري (٢٣١/١ فما بعدها) .

٢ كأشقى ثمود ، اذ تعاطى لحينه عضيلة ام السقب والسقب وارد
ديوان حسان (ص ١٢٠) « للبرقوقي » .

٣ الطبري (٢٣١/١) .

٤ الطبري (٧٧١/١) « طبعة أوربة » ، ابن خلدون (٢٤/٢) ، الاغاني (٤٨/١٠) ، ابن الاثير (١٣٩/١) ، الطبري (٢٠٣/١ وما بعدها) « دار المعارف »

٥ اللسان (٣٦٣/١٢) .

العرب البائدة)[١] .

أما مواطن طسم ، فكانت اليمامة ، وعند بعضهم الأحقاف والبحرين[٢] . وقد زعم الأخباريون أن طسماً وجديساً سكنتا اليمامة معاً ، وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرهـا ، ثم انتهى الملك الى رجل ظالم غشوم من (طسم) يقال لـه (عمليق) أو (عملاق) إستذل جديساً ، وأهانها ، فثارت جديس وقتلت عمليقاً ومن كان معه من حاشيته ، واستعانت طسم بـ (حسّان بن تبع) من تبابعـة اليمن ، فوقعت حرب أهلكت طسماً وجديساً ، وبقيت اليمامة خالية ، فحل بها (بنو حنيفة) الذين كانوا بها عند ظهور الإسلام[٣] .

وذهب نفر من المستشرقين الى أن طسماً من الشعوب الخرافية التي ابتدعهـا الأخباريون ، غير أنه لا يستبعد أن يأتي يوم قد يعثر فيه على أخبار هؤلاء القوم وعلى اسمهم في الكتابات . وقد وردت في نص يوناني عثر عليه في (صلخد) ، ويعود تأريخه الى سنة (٣٢٢م) جملة (أنعم طسم) ، فلا يستبعد أن يأتي اليوم الذي نقرأ فيه نصوصاً تعود الى طسم[٤] .

ويروي أهل الأخبار ان (الأسود بن رباح) ، وهو قاتل عمليق ، هرب بعد ذلك من اليمامة الى جبلي طيء ، فأقام بهما الى أن جاءت طيء ، وأمـر سيدهم (سامة بن لؤي) ابنه الغوث أن يقتل الأسود ، بعد أن رأوا ضخامة جسمه بالنسبة الى أجسامهم ، وخافوا منه ، فجاء اليه الغوث ، ثم أخذ يكلمه ، ثم باغته بأن رماه بسهم قتله ، واستقرت طيء بالجبلين[٥] .

وذهب (جرجي زيدان) الى أن (طسماً) هي (لطوشيم)[٦] ، وهي قبيلة من العرب ورد اسمها في التوراة على انهـا من نسل (ددان بن يقشان) وورد

---

١ الاغاني (١٠٣/١١) ، اللسان (٢٥٦/١٥) ، الاغاني (٤٥/١٠) ، الطبـري (٢٠٦/١) ، دار المعارف .

٢ ابن خلدون (٢٤/٢) ، الطبري (٢٠٦/١) المعارف لابن قتيبة (١٣) Enc., Vol, I, P., 992.

٣ وعند الطبري انه « تبان اسعد كرب ملكي كرب » ابن خلدون (٢٥/٢) المعـارف (٣٠٨) ، الامثـال للميدانـي (١٩٢/١) ، (٦٩٠/٢) الاغانـي (٤٥/١٠) (٨٩/١٠) « بيروت »

٤ D. H. Mueller, Suedarabische Studien, S., 67.

٥ ابن خلدون (٢٥/٢) ، الاغاني (٤٧/١٠) ، (٩٢/١٠) « طبعة بيروت » .

٦ الهلال ، الجزء العشرون ، السنة الخامسة ، حزيران « ١٨٩٧ م » ، (ص ٧٧٦)

معها اسم قبيلة أخرى من قبائل (ددان) دعيت بـ (Leummim) (لاميم) ، يرى زيدان أنها (أميم)[1] .

ونسب الأخباريون الى طسم صنماً سموه (كثرى) ، لعله الصنم (كثرى) الذي أدرك الإسلام ، فحُطم مع الأصنام الأخرى التي أمــر الرسول بتحطيمها تخلصاً من عبادة الأصنام ، فحطمت أينما وجدت ، وقد حطم الصنم (كثرى) (نهشل بن الربيس بن عرعرة) ، ولحق بالنبي[2] .

وقد ضرب أهل الأخبار المثل بـ (كلب طسم) . وذكروا قصته على هذا النحو : كان لرجل من طسم كلب ، وكان يسقيه اللبن ويطعمه اللحم ويسمنه، يرجو أن يصيب به خيراً ويحرسه ، فجاع يوماً فهجم على صاحبــه وأكله ، فضرب به المثل فقيل : سمّن كلبك يأكلك[3] .

وقد جاء ذكر طسم في شعر للحارث بن حلزّة ، هو :

أم علينا جرى إياد كما ... قيل لطسم أخوكم الأبّاء

وقد قال الأصمعي في شرحه : « كان طسم وجديس أخوين،فكسرت جديس على الملك خراجه ، فأخذت طسم بذنب جديس »[4] . فضرب لذلك بها المثل ، لمن يؤخذ بجريرة غيره .

جديس :

وقالوا عن (جديس) انهم حي من عاد ، وهم اخوة طسم ، أو انهــم

---

١ التكوين ، اصحاح ٢٥ ، اية ٢٣ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٩٣) .
٢ قال عمرو بن صخر بن اشنع :
حلفت بكثــرى حلفة غيــر بــرة ... لتستلبني اثواب قيس بن عــازب
الاصنام (ص ١١٠) ، تاج العروس (٢/١٢٥) .
٣ قــال بعض الشعراء :
ككلــب طسم وقــد يربيـــه ... يعلـــه بالحليب في الغلس
ظــل عليـــه يوما يفرفـــره ... ان لا يلغ في الــدماء ينتهس
الفاخر (ص ٥٧) .
٤ المعاني الكبير ، (٢/١٠١١) ، « طبعة حيدر اباد دكن » .

حي من العرب كانوا يناسبون عاداً الأولى[١] . وقالوا انهم أبناء (جديس بن لاوذ ابن إرم بن سام بن نوح)[٢] ، أو أبنـاء (جديس) شقيق (ثمود بن غاثر ابن إرم بن سام بن نوح) ، أو ما شابه ذلك من نسب[٣] . وقد كانوا أتباعاً لطسم ، ويسكنون معهم في اليمامـة ، ثاروا على (عمليق) (عملوق) ملك طسم ، فكانت نهاية طسم كما كانت نهاية (جديس) ، ولذلك قيل « بوار طسم بيَدَيْ جديس »[٤] .

ويذكر أهل الأخبار أن جديساً لما قتلت (عملوقاً) ومن كان معه من قومه طسم ، هرب رجل من طسم اسمه (رباح بن مُرّة) ، حتى أتى (حسان بن تُبَّع) ، فاستغاث به ، فخرج (حسان) في حِمْيَر ، فأباد جديساً،وأخرب بلادهم ، وهدم قصورهم وحصونهم[٥] . ويرى (كوسين دي برسفال) أن اغارة حمير المذكورة كانت حوالي سنة (٢٥١) بعد الميلاد[٦] .

ويرتبط بخبر هذه الابادة قصة امرأة زعم انهـا كانت أقوى الناس بصراً ، ترى من مسافات بعيدة جداً ، عرفت بـ (زرقاء اليمامة) . وقد ورد قصص عنها ذكره أهل الأخبار[٧] .

وورد في بعض الأخبار أن (جذيمة الأبرش) كان قد حارب (طسماً)

---

١ اللسان (٣٥/٦) .

٢ الطبري (٧٧١/١) « طبعة اوربة » ، (٦٢٩/١) « دار المعارف » ، ابن خلدون (٢٤/٢) ، الاغاني (٤٨/١٠) ، المعارف (ص ١٤) ، « جديس بن عامر بن ازهر ابن سام بن نوح ، ابن الاثير الكامل (١٣٩/١) ، شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١٦٧/١) ، « وجديس : حي من عاد ، وهم اخوة طسم . وفي التهذيب جديس: حي من العرب ، كانوا يناسبون عادا الاولى » ، اللسان (٣٣٣/٧)

٣ المصادر نفسهـا . Ency., Vol., I, P., 992.

٤ اللسان (٣٣٤/٧) ، الامثال ، للميداني (١٩٢/١) ، (٦٩٠/٢) ، الاغانـي (١٦٤/١١) ، « دار الكتب المصرية » .

٥ الطبري (٦٢٩/١ فما بعدها) ، « حسان بن اسعد تبع » ، شمس العلوم (الجزء الاول ، القسم الثاني) (ص ٣٠٧) .

٦ Caussin de Perceval, Essai, 2, P., 26, Ency., Vol., I, P., 992.

٧ وهناك قصة عن زرقاء اخرى ، كانت ترى من مسافة بعيدة ذكروها في تفرق ولد معد ، الاغاني (٣٦/١١ ، ١٥٥) ، « دار الكتب المصرية » ، مجمع الامثـال ، للميداني (١٢٠/١) ، الكامل ، لابـن الاثير (٢٠٧/١) .

و (جديساً)[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن (حسّان بن تُبّع) الذي أوقع بجديس ، هو (ذو معاهر) ، وهو (تبع بن تبع تبان أسعد أبي كرب بن ملكيكرب بن تبع بن أقرن) ، وهو أبو (تبّع بن حسان) ، الذي يزعم أهل اليمن أنه قدم مكة ويثربَ ، وأنه وجّه ابنه (حسان) الى (السند) وابنه (شمرد الجناح) (سمر)، إلى آخر ذلك من قصص سأتحدث عنه في أثناء الكلام على مملكة (حمير وذي ريدان)[2] .

ويذكر أهل الأخبار أيضاً أن التي أبصرت جند (حسان) اسمها (اليمامة) ، وكانت أول من اكتحلت بالإثمد ، ولهذا تكوّنت في عينيها عروق سود منه ، كانت هي السبب في نشوء حدة البصر عندها ، وأن (حسان) أمر ففقئت عيناها لإدراك سبب حدة بصرها ، فاكتشف وجود الإثمد بها،ويزعمون أنه أمر بابدال اسم (جوّ) مساكن طسم وجديس الى (اليمامـــة) ، فعرفت بهذه التسمية مذ ذلك الحين[3] .

وإذا كان ما جاء في شعر الأعشى عن (اليمامة) وعن حسان صحيحاً، فإنّ ذلك يدلّ على أن القصة المذكورة كانت شائعة معروفة في أيامه بل وربمـا قبل أيامه ، والظاهر أن أهل الأخبار قد أخذوا اسم اليمامة من اسم المكان ، فصيروه إمرأة ذات بصر حديد . ونجد قصة (اليمامة) ومجيء التبع في شعر للنمر بن تولب العُـكلي[4] . ونجد اتفاقاً بين القول المنسوب الى اليمامة في سياق القصة وبين قولها في الشعر المنسوب الى الأعشى وإلى النمر .

وقد ذكر (ابن دريـــد) أن (تبع) أرسل على مقدمته (عبد كلال بن مثوب بن ذي حرث بن الحارث بن مالك بن غيدان) الى اليمامة ، فقتل طسماً وجديساً . ولم يذكر اسم ذلك التبع[5] .

---

1 Enc., Vol., I, P., 992.

٢ « سمى ذا الجناح » في طبعة « دار المعارف » ، (٦٣٢/١) ، (شمر) في الطبعات الاخرى ، وفي الموارد الاخرى . وهو الصحيح .

٣ الطبري (٦٣٠/١) « دار المعارف » .

٤ ديوان الاعشى (٧٢ ــ ٧٤) ، الطبري (٦٣٠/١ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (٤٥١/١) .

٥ الاشتقاق (ص ٣٠٧ وما بعدها) .

ويعتقد بعض المستشرقين أن اسم (Jolisitae) أو (Jodisitae) الوارد في (جغرافيا بطلميوس) إنما يقصد به قوم (جديس) ، وأنهم كانوا معروفين في حوالي سنة (١٢٠) بعد الميلاد[١] .

وقد نسب أهل الأخبار أماكن عديدة الى طسم وجديس ، وهي قرى ومدن ذكر أنها كانت عامرة آهلة بالسكان ذات مزارع ، وقد بقي بعضها في الإسلام، ووصفه أهل الأخبار . وإذا صح أنها كانت لطسم وجديس حقاً ، وأنها كانت من أعمالهم ونتاجهم ، فإن ذلك يدل على ان القوم كانوا حضراً وعلى مستوى من الرقي ، ولم يكونوا بدواً على شاكلة الأعراب . وربما يعثر على كتابات في هذه المواضع تكشف اللثام عن حقيقة أصحاب هذه المواضع وهوية الأقوام التي عاشت فيها .

ومن الأماكن المذكورة (المشقر) ، وهو حصن بين نجران والبحرين على تل عال ، يقابله حصن سدوس ، وهو من أمكنة (طسم) . وقد نسب بعض الرواة بناءه — كعادتهم عند جهلهم أسماء الأماكن — الى سليمان ، وقد سكنته عبد القيس أهل البحرين[٢] . و (معنق) من قصور اليمامة على أكمة مرتفعة[٣] . و (الشموس) قيل : انه من بناء (جديس)[٤] .

ومن قرى اليمامة الشهيرة (حجر) ، وكانت لطسم وجديس ، والظاهر انها كانت عامرة ذات قصور عالية كثيرة ، وانها كانت محاطة بالمزارع ، وانهـا بقيت مدة طويلة مهملة في وسط الرمال التي تكونت في تلك البقاع المنبتة الخصبة التي تحولت الى صحراء[٥] . و (القرية) (قرية بني سَدُوس) ، وكان بهما قصر عظيم من الصخر ، وقد زعموا انه كان من حجر واحد بناه جنّ سليمان[٦] . و (جعدة) وهي حصن ، وبها قصر قديم (عادي) ينسبونه الى طسم وجديس، ويظهر انه ظلّ باقياً الى أيام (الهمداني) ، بدليل وصفه له في كتابه (صفة

١ Ptolemy, Geogr., I, 29, Libr., VIII, (Ed. Wilberg), Ency., Vol., I, P., 992.

٢ البلدان (٦٥/٨) ، اللسان (٩١/٦) .

٣ البلدان (٦٥/٨) .

٤ البلدان (١٠٠/٨) .

٥ البلدان (٢٢١/٣) .

٦ البلدان (٧٦/٧ فما بعدها) ، الهمداني ، صفة (ص ١٤١) .

جزيرة العرب) والظاهر من وصفه أن الحصن كان عظيماً ، وانه كان يحيط بالقرية ، وأن أساسه من اللبن وحوله منازل الحاشية للرئيس الذي يكون فيه ، وكان فيه الأثل والنخيل ، وحوله منازل الناس والسوق،ويحيط بالقرية خندق ، وفي السوق آبار . قال الهمداني : انها مئتان وستون بئراً ماؤها عذب فرات[1] . و (خضراء حجر) ، وهي حضور (طسم) و (جديس) ، وفيها آثارهم وحصونهم وبتلهم ، الواحد بتيل ، وهو مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين . وقد بولغ في وصف ارتفاع هذه (البتل) وطولها ، حتى زعم ان ارتفاع ما تبقى منها الى أيام الهمداني كان قد بلغ مئتي ذراع في السماء[2] . و (الخضرمة) ، وكانت لجديس ، وبها آثار قديمة كثيرة[3] ، و (المدار)[4] و (ريمان)[5] .

أميم :

وجعل الأخباريون (أميماً) في طبقة طسم وجديس ، وقالوا انهم من نسل (لاوذ بن عمليق)[6] ، أو (لوذ بن نوح) ، أو ما شابه ذلك من شجرات نسب[7] . وكان من شعوبهم على زعم أهل الأخبار (وبار بن أميم) ، نزلوا برمل (عالج) بين اليمامة والشحر ، وانهارت عليهم الرمال فأهلكتهم[8] . ويزعم أهل الأخبار أن ديار (أميم) كانت بأرض فارس ، ولذلك زعم بعض نسابة الفرس انهم من (أميم) ، وان (كيومرت) الذي ينُسبون اليه هو ابن أميم ابن لاوذ[9] .

---

١ الهمداني : صفة (ص ١٤١) .
٢ صفة (١٤١) .
٣ صفة (١٤١) .
٤ صفة (١٤١) .
٥ صفة (١٤١) .
٦ الطبري (٢١٤/١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) ، (٢٠٣/١ وما بعدها) ، « دار المعارف » .
٧ طبقات ابن سعد (١/١ ص ١٩) .
٨ الطبري (٢٠٣/١) « دار المعارف » .
٩ ابن خلدون (٢٨/٢) .

ولا نعرف من أمر أميم شيئاً غير هذه النتف ، ولم يذكر الأخباريون كيف عدوهم من طبقة العرب الأولى اذا كانت ديارهم بأرض فارس ، ولم يشرحوا لنا كذلك كيف وصلوا نسب (وبار) بأميم ، وما العلاقة بينهما .

وقد ذكر الهمداني أن وبار هو شقيق (كيومرت) ويقال (جيومرت) ، وقد أولدهما (أميم) . وبوبار عرفت أرض (وبار) ، وهي أرض أميم[١] .

وجاء في جغرافيا (بطلميوس) اسم شعب عربي دعي (Iobaritai) (Jobaritae) (Jobabitae) ، على انه من شعوب العربية الجنوبية ، ويسكن على مقربة من أرض قبيلة أخرى دعاها Sachalitae ، وتقطن عند خليج يدعى باسمها (Sinus Sachalits)[٢] . وهذا الاسم قريب جداً من اسم (وبار) ، لذلك ذهب المستشرقون الى أن (Jobaritae) ،هو شعب وبار[٣] أو (بنو وبار)[٤]. غير أن هنالك عدداً من العلماء يرون أن الاسم الأصلي الذي ورد في جغرافيا بطلميوس هو (يوباب) ، غير أن النساخ قد أخطأوا في النسخ فحرفوا حرف الباء (B) الثاني في هذا الاسم وصيّروه راء (R) ، فصار الاسم بعد هذا التحريف (Jobabitae)[٥] . فالشعب الذي قصده بطلميوس — على حد قول هؤلاء — هو (يوباب) أو (يباب) ، الا انه لا يوجد هنالك دليل قوي يثبت حدوث هذا التحريف[٦] .

وفي موضع ليس ببعيد عن هذا المكان الذي ذكره بطلميوس تقع أرض وبار الشهيرة ، وهي بين رمال يبرين واليمن « ما بين نجران وحضرموت وما بين مهرة والشحر » ، أو ما بين الشحر الى تخوم صنعاء . وقيل : « قرية وبار كانت لبني وبار ، وبين رمال بني سعد وبين الشحر ومهرة » ، والنسبة اليها

---

١ الاكليل (١/٧٧) ، « ولحقت اميم بارض اباد فهلكوا بها ، وهي بين اليمامه والشحر ، ولا يصل اليها اليوم أحد ، غلبت عليها الجن . وانما سميت ابار باباربن اميم » ، الطبري (١ / ٢٠٨) « دار المعارف » .

٢ Forster, Vol., I, P., 173. f., Vol., 2, P., 270. Ptolemy, VI, 7, Glaser, Skizze, 2, S., 256.

٣ Ritter, Erdkunde, Berlin, 1896, Bd., XIII, S., 315, Sprenger, Geographie, S. 296.

٤ الطبري (١/٧٥٠) « طبعة أوربة » .

٥ Forster, Vol., I, P., 177.

٦ Forster, Vol., I, P., 173, Vol., 2, P., 270.

(أباري)[1] . ونرى ان هذه النسبة قريبة من الاسم الذي ذكره بطلميوس .. ويدعي (ياقوت الحموي) انها مسماة بـ (وبار بن إرم بن سام بن نوح)[2] .

وقد روت الكتب العربية قصصاً كثيرة عن (وبار) ، ومن جملة الأساطير التي تروى عنها أسطورة (النسناس) . وتتلخص في أنهم (من ولد النسناس بن أميم بن عمليق بن يلمع بن لاوذ بن سام) ، وأنهم كانوا في الأصل بشراً ، فجعلهم الله نسناساً، للرجل منهم نصف رأس ونصف وجه وعين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة ، وأنهم صاروا يرعون كما ترعى البهائم ، وأنهم يقفزون قفزاً شديداً ويعدون عدواً منكراً[3] . والظاهر أن لهذه القصص والأساطير أصولاً جاهلية ، وقد وضع منها في الإسلام شيء كثير ، ووضع معها شعر كثير على لسان ذلك (الإنسان الحيوان) ، ولا يزال الناس يروونها حتى الآن .

وقد أنكر بعض المستشرقين ، وجود وبار ، وزعموا أنهم من الشعوب التي ابتكر وجودها القصاص قائلين إن تلك الرمال الواسعة المخيفة هي التي أوحت إلى القصاص والأخباريين اختراع شعب (وبار) وقصص النسناس[4] . والذي أراه أن هذا لا يمنع من وجود شعب بهذا الاسم ، وإن كنا لا نعرف من أمره شيئاً إلا هذه القصص والأساطير . وقديماً أنكروا وجود عاد وثمود ، ثم اتضح بعد ذلك من الكتابات وجود عاد وثمود . وهكذا قد يعثر في المستقبل على كتابات وبارية لعلها تلقي ضوءاً على حالة ذلك الشعب .

ونجد في رواية أهل الأخبار عن عمار (وبار) وكثرة زروعها ومراعيها ومياهها في الجاهلية شيئاً من الأساس . فقد أيد السياح ذلك ، وأثبتوا وجود أثر من آثار عمران قديم[5] . وهو سند يتخذه القائلون بتطور جو بلاد العرب ، وسطحها لإثبات رأيهم في هذا التغير .

---

١ البلدان (٣٩٢/٨ فما بعدها) ، منتخبات (ص ١١٣) ، « ولحقت أميم بارض وبار فهلكوا بها ، وهي بين اليمامة والشحر . ولا يصل اليوم اليها أحد ، غلبت عليها الجن . وانما سميت ابار بابار بن أميم » ، طبقات ابن سعد (ج ١ ، قسم ١ ص ٢٠) .

٢ البلدان (٣٩٢/٨) .

٣ البلدان (٣٩٢/٨ فما بعدها) ، القزويني ، عجائب المخلوقات (٤١/٢) ، « طبعة وستنفلد » ، المسعودي ، التنبيه (ص ١٨٤) ، صفة (١٥٤ ، ٢٢٣) .

٤ Sprenger Geogr., S.. 306.

٥ Enc., Vol., 4, P., 1077, Philby, The Heart of Arabia, Vol., 2, P., 353.

ولم يذهب اسم (وبار) من ذاكرة سكان العرب حتى هـذا اليوم . فهم يروون أن في الربع الخالي موضعاً منكوباً هو الآن خراب ، هو مكان (وبار) . وقد قاد بعض الأعراب (فلبي) الى موضع في الربع الخالي ، قال لـه عنه إنه مكان (وبار) المدينة التي غضب الله عليها ، فأنزل بها العقاب،وصارت خراباً . وقد تبين لـ (فلبي) أن ذلك الموضع هو فوهة بركان ، قـذف حمماً ، فبانت الأرض المحيطة به وكأنها خرائب تولدت من حريق[1] . وتحدث أعراب آخرون للسائح (برترام توماس) عن مكان آخر يقـع في جنوب شرقي هذا الموضع بمسافة (٢٠٠) ميل ، قالوا له إنه مكان (وبار) المدينة المفقودة المنكوبة كما عثر رجال شركة (أرامكو) على موضع في البادية وذلك في سنة ١٩٤٤ ؛ زعم لهم الأعراب انه مكان وبار،مما يدل على أن الأعراب يطلقون اسم وبار على مواضع عديدة تقع في البوادي . والبوادي أنسب مكان يليق في نظرهم بأن يكون موطن وبار[2] .

عبيل :

و (عبيل) مثل أميم لا نعرف من أمرهم غـير نتف ذكرها الأخباريون الذين زعموا انهـم اخوان عاد بن عوص ، أو اخـوان عوص بن إرم ، وانهم لحقوا بموضع (يثرب) حيث اختطوا يثرب . وكان الذي اختطها منهم رجل يقال له (يثرب بن بائلة بن مهلهل بن عبيل)[3] . ثم ان قسمـاً من العماليق انحدروا الى يثرب ، فأخرجوا منها عبيلاً ، فنزلوا موضع (الجحفة) ، فأقبل سيل فاجتحفهم فذهب بهم فسميت (الجحفة)[4] .

وقد ورد في التوراة اسم ولد من أولاد (يقطان) ، هو (Obal) (عوبال)

---

١ Philby, The Empty Quarter, P., 165, R. H. Sanger, The Arabian Peninsula, P., 126, 132.

٢ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 132.

٣ ابن خلدون (٢/٢١) ، « وعاد وعبيل ابنا عوص بن ارم بن سام بـن نـوح » ، طبقات ابـن سعد (جـ ١ ، قسم ١ ص ١٩) .

٤ ابـن سعد ، طبقات (جـ ١ قسم ١ ص ٢٠) ، البلدان (٣/٦٢) .

أو (Ebal)[١] . وهذا الاسم قريب من (عبيل) ، لذلك رأى بعض علماء التوراة أن من الممكن أن يكون (عبيل) هو (عوبال)[٢] . ونجد في جغرافيا بطلميوس اسم موضع يقال له Avalitae على خليج يدعى بهذا الاسم (Avalites Sinus) وعليه مدينة تسمى (Avalites Emporium) ، وسكانها يعرفون باسم (Avalites) . وقد ورد هذا الاسم عند (بلينيوس) على صورة (Abalitae) و (Abalites) ، ويرى (فورستر) أن من المحتمل أن يكون هؤلاء هم (عوبال)[٣] وقد يكون أبناء عوبال هم عبيل .

وذكر أن في اليمن مكاناً يقال له عبيل[٤] ، وقرية تقع على طريق صنعاء تعرف بـ (عبال)[٥] . وهذان الاسمان قريبان من اسم عبيل . غير أني لا أريد أن أقول الآن شيئاً فيما يخص (عبيلا) ، فلا يجوز الحكم في مثل هذه الأمور لمجرد تشابه الأسماء ، وانما ذكرت ذلك للمناسبة العارضة وللتنبيه .

وأما عبد ضخم ، فكانت تسكن على قول الأخباريين الطائف ، وهلكوا فيمن هلك من الشعوب البائدة ، وكانوا أول من كتب بالخط العربي[٦] . وذكر الطبري انهم حي من عبس الأول[٧] .

ويذكر أهل الأخبار ان (أمية بن أبي الصلت) ذكر (بني عبد ضخم) في شعره ، اذ قال فيهم :

كما أفني بني عبد بن ضخم   فما يذكو لصاليها شهاب
بني بيض ورهط بني معاذ   وفيهم عزة وهم غلاب[٨]

---

١ اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، اية ٢٢ ، التكوين ، الاصحاح العاشر ، اية ٢٨ .

٢ Hastings, P., 201, Ency., Bibl., P., 2462, M. Gottfried Buchner's Biblische Real und Verbal Hand., S., 276

٣ Forster, Vol., I, P., 148, 149.

٤ Glaser, Skizze, 2, S., 426.

٥ Scott The High Yemen, P., 185.

٦ ابن خلدون (٢١/٢) ، « عبد ضخم بن ارم » .

٧ « وكان ساكني الطائف بنو عبد ضخم ، حي من عبس الاول » ، الطبري (٢٠٣/١) « دار المعارف » .

٨ الاكليل (٧٥/١) .

وقد ذكر الهمداني أن (ابن الكلبي) يرى أن (عبد ضخم) و (بيض)، وهما حيّان ، هما اللذان وضعا الكتاب العربي ، وذكر الهمداني أن الشاعر (حاجز الأزدي) ضمن هذا الرأي بقوله :

عبد بن ضخم اذا نسبتهم ... وبيض أهل العلوّ في النسب
ابتدعوا منطقاً لخطهم ... فبين الخط لهجة العرب[1]

جرهم الأولى :

وجرهم هؤلاء ، هم غير (جرهم) القحطانية على رأي النسابين والأخباريين، ولذلك يقولون لجرهم هذه (جرهم الأولى) ، ولجرهم القحطانية (جرهم الثانية) ، ويقولون عن الأولى انهم من طبقة العرب البائدة ، وأنهم كانوا على عهد عاد وثمود والعمالقة[1] . ويظهر من روايات الأخباريين أنهم كانوا يقيمون بمكة ، ويرجعون أنسابهم الى (عابر) ، وأنهم أبيدوا : أبادهم القحطانيون[2] .

أما جرهم الثانية ، أي جرهم القحطانيين فينسبهم بعض أهل الأخبار الى (جرهم بن قحطان بن هود) وهم أصهار اسماعيل[3] .

وقد ورد اسم (جرهم) عند (اصطيفان البيزنطي) من الكتبة اليونان[4] .

العمالقة :

وحشر الأخباريون العمالقة (العماليق) في هذه الطبقة أيضاً ، فنسبوهم الى (عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح)[5] . ولم تذكر التوراة أصلهم ونسبهم ،

---

١ الاكليل (١/٧٨) .
٢ Enc., Vol., I, P., 1066.
٣ ابن خلدون (٢/٣٠) ، صبح الاعشى (١/٣١٤) ، Enc., Vol., I, P., 1066.
٤ شمس العلوم (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٢٢) .
٥ Enc., Vol., I, P., 1066.
٦ الطبري (١/٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) ، « طبعة أوربة » .

وهي لا تشير الى أبناء (لود) أو (لاوذ) كما يقول له الأخباريون[1] .

(وعمليق) جد العمالقة ، هو شقيق طسم . ويذكرون أنهم كانوا أمماً كثيرة، تفرقت في البلاد ، فكان منهم أهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر. ويعرف أهل عمان والبحرين بـ (جاسم) ، وجاسم هم من نسل عمليق على زعم أهل الأخبار . وكان من العمالقة أهل المدينة ، ومنهم (بنو هف) و (سعد ابن هزان) و (بنو مطر) و (بنو الأزرق) . وكذلك سكان نجد ، ومنهم بديل وراحل وغفار ، وكذلك أهل تيماء[1] .

وكان ملكهم (الأرقم) ، وهو من العمالقة[2] . وهو من معاصري (موسى) على رواية الهمداني . وقد أرسل (موسى) عليه جنداً لمقاتلته ففتك بأتباعه أهل تيماء وببقية عمالقة الحجاز[3] .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن (العماليق) لحقت بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء، ثم انحدر بعضهم الى يثرب ، فأخرجوا منها (عبيلاً) ، وسكنوا في ديارهم ، وذهبت (عبيل) الى موضع (الجُحْفَة) ، فأقبل السيل فاجتحفهم ، فذهب بهم ، فسميت الجحفة[4] . وذكروا أن (موسى) أرسل جيشاً لحرب عماليق يثرب[5] ، ولم نجد في التوراة ذكراً لمثل هذا الجيش ، أو الحرب .

والعمالقة الذين نتحدث عنهم ، هم عرب صُرحاء ، من أقدم العرب زماناً، لسانهم اللسان المُضَري الذي هو لسان كل العرب البائدة على حد قول أهل الأخبار[6] . بل زعم بعضهم أن عمليقاً،وهو أبو العمالقة ، أول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرهم (العرب العاربة)[8] .

ويظهر من فحص هذا المروي في كتب الأخباريين عن العمالقة ونقده أنه مأخوذ من منابع يهودية ، فقد ذكر العمالقة في التوراة ، وقد كانوا اول شعب

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/١١٢ فما بعدها) ،
Hastings, P., 24, The Uni. Jew. Enc., Vol., I,, P., 218.

٢ الطبري (١/٢٠٣) « دار المعارف »

٣ الطبري (١/٢٠٣)

٤ الاكليل (١/٧٤ وما بعدها) .

٥ الطبري (١/ ٢٠) .

٦ Enc., Vol., I, P., 325.

٧ الطبري (١/٢٠٣ فما بعدها) .

٨ الطبري (١/٢٠٧ فما بعدها) .

صدم العبرانيين حينما خرجوا من مصر متجهين الى فلسطين[1] . وظلوا يحاربونهم، ويكبدونهم خسائر فادحة ، وأوقعوا الرعب في نفوسهم ، ولهذا ثار الحقد بينهم على العماليق . ويتجلى هذا الحقد في الآيات التي قالها النبي (صموئيل) لشاؤول (Saul) أول ملك ظهر عند العبرانيين ، قالها لهم باسم اسرائيل : « إياي أرسل الرب لمسحك ملكاً على شعبه اسرائيل . والآن فاسمع صوت كلام الرب . هكذا يقول رب الجنود . اني افتقدت ما عمل عمليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر . فالآن اذهب واضرب عماليق ، وحرموا كل ماله ، ولا تعف عنهم ، بل اقتل رجلاً وامرأة ، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً »[2] . وهذا الحقد هو الذي جعلهم يخرجونهم من قائمة النسب التي تربطهم بالساميين .

وقد كانت منازل العمالقة من حدود مصر فطور سيناء الى فلسطين . وعدم ذكر العبرانيين لهم في جملة قبائل العرب لا يدل على أنهم لم يكونوا عرباً، فقد ذكرت أن العبرانيين لم يطلقوا لفظة (عرب) الا على الأعراب،أعراب البادية، ولا سيا بادية الشام[3] . ثم ان العمالقة من أقدم الشعوب التي اصطدم بها العبرانيون، وحملوا حقداً عليها، وهم عندهم وفي نظرهم أقدم من القحطانيين والإسماعيليين .

حضورا :

وأورد أهل الأخبار قصصاً عن (حضورا) ، فذكروا أن (حضورا) كانوا يقيمون بالرس ، وكانوا يعبدون الأوثان ، وبعث اليهم منهم نبي منهم اسمه (شعيب بن ذي مهرع) ، فكذبوه ، وهلكوا[4] .

وهنالك عدة مواضع يقال لها (الرس) منها موضع باليمامة ، وموضع كان فيه ديار نفر من ثمود[5] .

---

١ Musil, Hegaz, P., 460, The Uni. Jew. Enc., Vol., I, P., 218.

٢ صموئيل الاول ، الاصحاح الخامس عشر ، الاية ١ فما بعدها .

٣ Hastings, A. Dictionary of the Bible Vol., I, P., 77.

٤ ابن خلدون (٢/ ٢٠) ، نهاية الارب (٨٦/١٣ فما بعدها) ، « قال كعب : ان اصحاب الرس كانوا بحضرموت » ، نهاية الارب (٨٨/١٣) .

٥ البلدان (٤/ ٢٥٠) .

وورد في القرآن الكريم (أصحاب الرس)[1] ، مع عاد وثمود ، وذهب المفسرون الى أنهم كانوا جماعة (حنظلة) ، وهو نبي ، فكفروا به ورسّوه في البئر[2] ، الى غير ذلك من الأقوال .

ويظهر من القرآن الكريم أن (أصحاب الرس) كانوا مثل جماعة عاد وثمود في الطبقة ، أي في زمانهم ، وأنهم هلكوا أيضاً . وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن نبي (أصحاب الرس) هو (خالد بن سنان) ، وقد ذكروا أن الرسول ذكره ، فقال فيه : « ذاك نبي ضيّعة قومه »[3] .

وذكر (الهمداني) أن (حنظلة بن صفوان) كان نبياً في اليمن ، وقد أرسل الى سبأ ، وكان من (الأقيون) ، وهم بطن دخل في (حمير) ، وذكر أنه وجدت عند قبره هذه الكتابة : « أنا حنظلة بن صفوان . أنا رسول الله . بعثني الله الى حمير وهمدان والعريب من أهل اليمن ، فكذبوني وقتلوني » . وأنه أنذر قومه (سبأ) برسالته فكذبوه ، فلما كذبوه،أرسل الله عليهم سيل العرم[4] .

وذكر (الهمداني) أيضاً نقلاً عن (ابن هشام) أن (حنظلة بن صفوان ابن الأقيون) ، هو ، نبي الرّس ، والرس بناحية صيهد ، وهي بلدة منحرفة ما بين بيحان ومأرب والجوف،فنجران فالعقيق فالدهناء ، فراجعاً الى حضرموت. وذكر أيضاً أن الرس ، بمعنى البئر القليلة الماء ، وأن أهل الرس قبائل من نسل أسلم ويامن أبو زرع ورعويل وقدمان ، وهم من نسل قحطان . وقد كذبوا نبيهم (حنظلة) وقتلوه وطرحوه في بئر رس ماؤها[5] .

وروى أهل الأخبار أن (بختنصر) (نبوخذ نصر) غزا أهل (حضور) (حضوراء) وأعمل فيهم السيف وأجلى خلقاً منهم إلى أماكن أخرى ، لأنهم كفروا وجحدوا نبوة نبي منهم أرسله الله اليهم ، وهو (شعيب بن مهدم بن ذي مهدم بن المقدم بن حضور) ، ولم يصدقوه ، وكانوا أصحاب بطش وشدة

---

١ « وعادا وثمودا واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا » ، الفرقان ، ٢٥ ، اية ٣٨ ، « كذبت قبلهم قوم نوح ، واصحاب الرس وثمود » ، ق ، ٥٠ ، اية ١٢ .
٢ البلدان (٤/ ٢٥٠) ، قصص الانبياء (١٤١) ، حياة الحيوان ، للدميري ، مادة عنقاء نهاية الارب (١٣/ ٨) ، Enc., Vol., I, P., 479.
٣ الاصابة (١/ ٤٦٨) .
٤ الاكليل (١/ ١٢٠ وما بعدها) .
٥ الاكليل (١/ ١٢١ وما بعدها) .

وغلظة . فلما قتلوه،أوحى الله الى نبي في عصره هو (برخيا بن أخيا بن رزنائيل ابن شالتــان) ، وكان من سبط (يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل)،أن يأتي (بختنصر) ، فيأمره بغزو (العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب) ، ويطــأ بلادهم بالجنود ، فيقتل مقاتلهم ، ويستبيح أموالهم . فأقبل (برخيا) من نجران ، حتى قــدم على (بختنصر) ، وذلك في زمان (معد بن عدنان) ، فوثب (بختنصر) على من كان في بـلاده من العرب ، وجمع مَنْ ظفر به منهم ، فبنى لهم حيراً على النجف وحصنــه ، ثم ضمهم فيه ، ووكل بهم حرساً وحفظة ، ثم سار في بلاد العرب فالتقى بعـدنان بذات عرق ، فهزم (بختنصر) عدنان ، وسار الى (حضور) ، فانهزم الناس وفروا فرقتين : فرقة أخذت الى (ريسوب) وعليهم (عك) ، وفرقة قصدت وبار. أما الذين بقوا في (حضور) ، وحـاربوا (بختنصر) فقد احتصدتهم السيوف . ثم رجع ملك بابل بما جمع من السبايا ، فألقاهم بالأنبار ، وخالطهم بعد ذلك النبط ، ومات عدنان . فلما مات (بختنصر) ، خرج (معدّ بن عدنان) حتى أتى مكة ، ثم ذهب الى (ريسوب) فاستخرج أهلها ، وسأل عمـن بقي من ولد (الحارث بن مضاض الجرهمي) وهو الذي قاتل دوس العتق ، فأفنى أكثر جرهم على يديه — فقيل : بقي (جرشم بن جلهمة) ، فتزوج معــد ابنته (معانة) ، فولدت له (نزاراً)[1] .

وأهــل حضور الذين قتلوا نبيهم ، وقتلهم (بختنصر) هم شعب من أهل اليمن على رأي الأخباريين ، كانوا يقيمون الحضور أو (حضوراء) . وفي اليمن موضع يسمى (حضور) ، ينسبه أصحاب الأخبار الى (حضور بـن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير بن سبأ)[2] ، وذكروا أنه المكــان الذي قصده (بختنصر) ، فقتل أهله[3] . وعلى هذا المكان مسجد يزار حتى اليوم ، يقال له مسجد شعيب نبي أصحاب الرس[4] . وهو جبل من جبال اليمـن المقدسة ،

---

١ الطبري(٢٩١/١ وما بعدها) ، (٥٥٩/١) « دار المعارف » .
٢ « حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعــة » ، البكري ، معجــم (٤٥٦/٢) « طبعة السقا » ، اللسان (٢٧٨/٥) .
٣ البلدان (٢٩٦/٣) .
٤ الاكليل (١٢١/٨) « طبعة نبيه » ، Enc., Vol., 2, P., 210.

قال الهمداني : (وأما الجبال المقدسة عند أهل اليمن ، فجبل حضور وصنّين ورأس بيت فائش من رأس جبل تخلى ورأس هنوم ورأس تعكر ورأس صبر . وفي رؤوس هذه الجبال مساجد مباركة مأثورة)[1] .

وأرى أن قداسة هذه الجبال وردت اليها من الأيام التي سبقت الإسلام، من أيام الوثنية ، وأن المساجد التي أنشئت في رؤوسها ، إنما أنشئت فوق معابد قديمة ، لعبادة الأصنام ، وذلك كما حدث في أماكن أخرى من جزيرة العرب حيث اكتسبت بعض المعابد الوثنية القديمة قدسية خاصة . فلما جاء الإسلام ، ألبست ثوباً إسلامياً ، فبقيت حية ، وتحولت بمرور الزمن الى مزارات ومساجد تقام فيها الصلوات .

وقد اعتمد رواة خبر غزو (بختنصر) لأهل (حضور) على ما جاء عن (ابن الكلبي) و (ابن اسحاق) ونفر آخر ممن عرفوا بروايتهم هذا النوع من الروايات التي تعرف من معين الإسرائيليات . وما بنا حاجة أبداً الى البحث في أسماء رواته لمعرفة صلته بالتوراة . فالمسألة جد واضحة . خذ التوراة واقرأ ما جاء في أسفار (أرميا) ونبوءته، تجد القصة مكتوبة في السفر التاسع والأربعين: (عن قيدار وعن ممالك حاصور التي ضربها نبوخذ راصر[2] ملك بابل . هكذا قال الرب : قوموا اصعدوا الى قيدار ، اخربوا بني المشرق . يأخذون خيامهم وغنمهم ، ويأخذون لأنفسهم شققهم وكل آنيتهم وجمالهم ، وينادون اليهم الخوف من كل جانب .

« اهربوا ، انهزموا جداً ، تعمقوا في السكن يا سكان حاصور، يقول الرب، لأنّ نبوخذ راصر ملك بابل قد أشار عليكم مشورة ، وفكر عليكم فكراً . قوموا الى أمة مطمئنة ساكنة آمنة . يقول الرب لا مصاريع ولا عوارض لها . تسكن وحدها وتكون جمالهم نهباً ، وكثرة ماشيتهم غنيمة ، وأذرى لكل ريح مقصوص الشعر مستديراً ، وآتي بهلاكهم من كل جهاته يقول الرب . وتكون حاصور مسكن بنات آوى، إلى الأبد، لا يسكن هناك انسان، ولا يتغرب فيها ابن آدم[3] ».

---

١ الاكليل (١٢١/٨) « طبعة تبيه » .

٢ « نبوخذ راصر » «بختنصر » (نبوخذ نصر) .

٣ ارميا ، اصحاح ٤٩ ، اية ٢٨ وما بعدها .

أما النبي (برخيا) الذي زعم الأخباريون أنه هو الذي أشار على (بختنصر) بغـــزو (حضور) ، فهـــو « باروخ بن نيريا (نريا) بن محسيا » شقيق (سرايا) (Seraiah) [1] . وقد كان كاتباً ، محباً مخلصاً للنبي (أرميا)[2] ، وكان يكتب لأرميا ، وهو الذي كلفه النبي (أرميا) بالذهاب الى (بختنصر) حاملاً رسالة الى الملك[3] . وهي الرسالة المدونة في أسفار (أرميا). وقد ذهب الى بابل وقابل الملك ، ثم عاد الى القدس حيث هاجم (بختنصر) القدس واستولى عليها بتحريض من هذا النبي نبيّ العبرانيين !

ترى أنّ الأخباريين أخذوا قصة غزو (بختنصر) لحاصور ، القصة الواردة في أسفار (أرميا) ، وجعلوها غزواً لشعب (حضور) في اليمن،وهو موضع بعيد لا يعقل وصول (بختنصر) اليه ، وأضافوا اليه شيئـــاً من الزخارف التي وضعها (ابن الكلبي) أو غيره ، كإقحام اسم عدنان ومعدّ بن عدنان واسم نبي عربي جنوبي في القصة ، ولم يكفهم ذلك ، فجعلوا (برخيا) من أهل (نجران) ، وجعلوه يقطع المسافة ما بين نجران وبابل ، ليكلف (بختنصر) غزو العرب . وصيروا (حاصور) (حصور) الواردة في (أرميا) (حضور) و (حضوراء) ، وجعلوه في اليمـن ، ولم ينسوا البحث عن سبب ، فجعلوه اعتداء أهل (حضور) على نبيهم .

أما (حاصور) التوراة ، فإنها أرضون تقع في (العربية) ، كانت فيها ممالك صغيرة ، أو مشيخات ، كما يفهم ذلك من عبارة (أرميا) « وعن ممالك حاصور »[4] . وكانت تتاخم (قيدار) ولعلها كانت في البادية[5] . ويرى علماء التوراة أن سكانها كانوا من أهل المدر ، ويقيمون في بيوت ثابتة ، وقد أطلقت كلمة (حاصور) (Hazor) عليهم تمييزاً لهم عن أهـــل الوبر ، وكانت ديارهم في جنوب فلسطين أو شرقها[6] .

---

١ ارميا ، اصحاح ٢٥ ، الاية ٥٩ .

٢ ارميا ، اصحاح ٣٢ ، الاية ١٢ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٠٤/١) ، وقد سجن مع ارميا في القدس وكانا يعارضان الملك « يهو ياقيم » « ٦٠٤ ق.م » ، Hastings, P., 85, Enc., Bibli., P., 491.

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٠٤/١) .

٤ ارميا ، اصحاح ٤٩ ، الاية ٢٨ .

٥ Hastings, P., 334.

٦ Enc., Bibli, P., 1978.

وتعني كلمة (حاصور) (Hazor) (Hasor) وجمعها (Hazerim) (Haserim) ما تعنيه لفظة (حيرتا) (Herta) في الإرمية و (الحيرة) في العربية ، من معنى (محاط) أي (محصور) (محاصر)، بمعنى الحصن أو الأمكنة المحاطة المحصورة أو (المضرب) و (الحمى) . وقد كان مشايخهم يقيمون في أسياف البادية في مخيمات ومضارب مع أتباعهم ، فهي في معنى (حيرتا) عند بني إرم و (Paremboles) عند اليونان[1] . وكانوا يرعــون الماشية من ماعز وأغنام وجمال في مناطقهم التي اعتادوا الإقامة بها ، ويظهر أنهم تعرضوا لجيوش (بختنصر) ، أو أنهم لم يساعدوه في حملتــه على فلسطين ، فاغتاظ منهم ، وجرد عليهم حملة،وكان من عادتهم الالتجاء الى الكهوف والمغاور حين مهاجمة عدو لهم ، حيث يذهبون الى مناطق بعيـــدة يصعب على الجيوش مطاردتهم ، فيتخذون منها مواطن آمنة ويعيشون فيها ما دام الخطر[2] .

ولم يكن للأخباريين علم دقيق بما يرد في التوراة من أمور ، فلم يفطنوا أن من غير الممكن أن يكون أهل (حاصور) من أهـل اليمن ، لأن ذكر التوراة لهم مع (قيدار) يجعل مواضعهم في شمال جزيرة العرب ، ثم إن اليمن بعيـدة جداً عن (بختنصر) ، ولا يعقل أن يكون في امكان جيوشه الوصول بسهولة الى هناك . ثم إن الكتب اليهودية تصور (حاصور) في مكان في العربية الشمالية في جوار أرض (قيدار) ، ولم يكن لها علم واسع عن اليمن ، كما أن (باروخ) من القدس ولم يكن من أهل نجران .

ويظهر أن حرباً قديمة ماحقة ، أو كارثة طبيعية مثل زلزال أو هياج حرة، وقعت في (حضور) اليمن ، سبب تلفها وانزال خسائر كبيرة بها وبأهلها ، فترك ذلك أثراً عميقاً في ذاكرة الناس ، رواه كابر عن كابر،فوجد الأخباريون الذين وقفوا على أخبار التوراة ، أو كانوا يجالسون أهل الكتاب ويسائلونهم ، شبهاً بين (حاصور) و (حضور) ، وظنوا جهلاً بالطبع بما ورد في(أرميا) عن (حاصور) ، أن (حاصور) التوراة (حضور) اليمن ، ثم أضافوا الى ذلك ما شاءوا على طريقتهم في أمثال هذه المناسبات .

---

1 Musil, Deserta, P., 490.

2 Musil, Deserta, P., 490, Montgomery, Arabia and the Bible, P., 64.

هلاك العرب البائدة :

هذا ويلاحظ أن هلاك العرب البائدة كان بسبب كوارث طبيعية نزلت بهم مثل انحباس المطر جملة سنين مما يؤدي الى هلاك الحيوان وجوع الإنسان ، واضطراره الى ترك المكان والارتحال عنه الى موضع آخر ، قد يجد فيه زرعاً وماءً وقوماً يسمحون له بالنزول معهم كرهاً لقوته ولتغلبه عليهم ، أو صلحاً بأن يسمح الأقدمون له بالنزول في جوارهم لاتساع الأرض وللفائدة المرجوة للطرفين. وقد يتفرق ويتشتت بين القبائل ، فيندمج فيها بمرور الزمن ويلتحق بها في النسب والعصبية ، فيكون نسبه النسب الجديد. وبذلك ينطمر ذكر القبيلة القديم والأصل الذي كان منه. وقد لا يبقى منه غير الذكريات ، كالذي رأيناه من أمر القبائل البائدة .

وقد تكون الكارثة هيجان حرّات وهبوب عواصف رملية شديدة عاتية تستمر أياماً واهتزازات أرضية في الأرضين غير المستقرة ، مما يلحق الأذى بالناس . ومن هنا نجد ذكر هذه الكوارث في القرآن الكريم وفي الأخبار الواردة عن هلاك القبائل المذكورة فيه ، أو التي لم ترد فيه ، وانما يذكر أسماءها أهل الأخبار .

هذا وقد ألّف بعض أهل الأخبار كتباً في بعض العرب البائدة ومن هؤلاء (عُبيد بن شريةَ الجُرْهُميّ) ، و (ابن الكلبي) ، فقد ذكر ان لهذا مؤلفاً دعاه (كتاب عاد الأولى والآخرة) و (كتاب تفرق عاد)[١]،ومنهم (أبو البختّري) و(وهب بن وهب بن كثير) فله (كتاب طسم وجديس)[٢] وغير ذلك. والغالب على هذه المؤلفات كما يظهر من الاقتباسات منها والمبثوثة في الكتب الباقية ، انها ذات طابع أسطوري .

---

١ الفهرست (ص ١٤٧) .
٢ الفهرست (ص ١٥٢) .

الفصل التاسع

العرب العاربة والعرب المستعربة

تحدثت في الفصل السابق عن العرب البائدة، وهم العرب الذين هلكوا واندثروا قبل الإسلام، ولم يبق منهم غير آثار وذكريات. أما العرب العاربة والعرب المستعربة (المتعربة)، أو العرب القحطانيون والعرب العدنانيون، فإنهم العرب الباقون الذين كانوا يؤلفون جمهرة العرب بعد هلاك الطبقة الأولى، فهم العرب الذين كتب لهم البقاء، وكان ينتمي اليهم كل العرب الصرحاء عند ظهور الإسلام[1].

العرب العاربة :

أما الطبقة الثانية من طبقات العرب بعد البائدة، فهي (العرب العاربة) على أقوال النسابين، وهم من أبناء قحطان وأسلاف القحطانيين المنافسين للعرب العدنانيين، الذين هم العرب المستعربة في عرف النسابين.

وقحطان الذي يرد في الكتب العربية، هو (يقطان) الذي يرد اسمه في سفر التكوين، وهو (قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)

---

١ الطبري (٢٠٤/١) «دار المعارف».

في رأي أكثر النسابين[1] . وهو (يقطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام ابن نوح) في التوراة[2] .

فترى من ذلك مطابقة تامة بين النسب الوارد في الكتب العربية والنسب الوارد في التوراة ، مما يدل دلالة واضحة على أن الأخباريين أخذوا علمهم بنسبه من روايات أهل الكتاب ، وهم يؤيدون ذلك ولا ينكرونه[3] .

وقد سرد بعض الأخباريين نسب قحطان في شكل آخر : مثل (قحطان بن هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح)[4] . على أن هوداً هو عابر ، أو (قحطان بن هود بن عبد الله بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح) ، أو (قحطان بن يمن بن قدار) ، أو (قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن اسماعيل بن ابراهيم)[5] . فنرى من ذلك أن بعض شجرات النسب أدخلت أسماءً عربية بين الأسماء المأخوذة من التوراة .

وقد ألح بعض نسّابي اليمن على جعل (هود) عابراً ، وعلى جعله والد قحطان ، وأصروا على ورود ذلك في الشعر ، ولم يكن من العسير عليهم بالطبع ايجاد ذلك الشعر ووضعه ، فكانوا إذا نوقشوا في ذلك ، احتجوا بقول الشاعر :

وأبو قحطان هو ذو الحقف[6]

واحتجوا بأمثال ذلك من كلام منظوم أو منثور . وجاءوا بأكثر من ذلك لإفحام الخصوم .

---

١ مروج (١/٢٧٦ فما بعدها) ، ابن هشام (١/٤) « طبعة وستنفلد » ، (١/٥) ، « طبعة الابياري وجماعته » ، القاهرة (١٩٣٦ م) ، نهاية الارب (٢/٢٧٥) ، الاخبار الطوال (ص ٩) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) ، الاكليل (١/٨٧ فما بعدها) الطبري (١/٢٠٥) ، « دار المعارف » ابن خلدون (١/٩)

٢ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٥ فما بعدها .

٣ « ويقطن ، هو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح » ، الطبقات : لابن سعد ، الجزء الاول ، القسم الاول ، (ص ١٨ فما بعدها) ، ابن خلدون (١/٩) ، النويري ، نهاية الارب (٢/٢٨٩) .

٤ التنبيه (ص ٧٠) .
Wuestenfeld, Genealogische Tabellen der Arabischen Staemme und Familien, Goettingen, 1852-1853.

٥ التنبيه (ص ٧١) ، ابن خلدون (٢/٤٦) .

٦ التنبيه (ص ٧١) ، منتخبات (ص ٨٣) ، اخبار عبيد (ص ٣١٣) .

والقائلون إنّ (قحطان) هو (قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن إسماعيل) هم نَسّابو ولد (نزار بن معدّ) ، أي النزارية ، الذين كانوا يقابلون (اليمانية) في صدر الإسلام وفي الدولة الأموية والعباسية ، يؤيدهم في ذلك بعض اليمانية ، مثل (هشام بن الكلبي) ، و (الشرقي بن القطامي) و (نصر بن زروع الكلبي) و (الهيثم بن عدي)[1] . ويظهر أن غايتهم من ذلك وصل نسب قحطان بشجرة نسب أولاد إسماعيل . أما سائر اليمانية ، فتأبى ذلك ، وتذهب إلى أنه (قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)[2] .

وتستهدف هذه الروايات غاية عاطفية بعيدة على ما يظهر ، كانت ذات أهمية في نظر القحطانيين ، هي وصل نسبهم بالأنبياء . فبعد أن ذكروا ما ذكروا من أخبار مُلكهم ودولهم قبل الإسلام ، وجدوا أن العدنانيين يفخرون عليهم مع ذلك بأن فيهم النبوة والأنبياء ، منهم الرسول ، وفيهم اسماعيل جدهم . فأرادوا أن يكون لهم أجداد أنبياء : أنبياء خلص قحطانيون ، أو أن يكون لهم نسب يتصل بنسب إسماعيل على الأقل ، أو أن يصل نسب إسماعيل بأسباب نسبهم ، فقالوا : إنهم من نسل هود ، وهود نبي من أنبياء الله ، وقالوا : ان قحطان من نسل اسماعيل ، وقالوا : إن هوداً هو عابر ، وعابر من نسل الأنبياء ، وقالوا أشياء أخرى من هذا القبيل ترمي الى ترجيح كفتهم على كفة منافسيهم العدنانيين في الفخر بالأنساب على الأقل .

ولم يعجب اليمانية المعنى الوارد في التوراة للفظة (يقطان) (يقطن) ، ولعلهم عرفوا معناها من أهل الكتاب ، فعكسوا المعنى بأن صيروه على الضد تماماً . جعلوه (الجبار) ، وقالوا : (واسمه في التوراة الجبار)[3] ، مؤكدين جازمين . أما في التوراة وعند أهل الكتاب وفي العبرانية ، فهو العكس ، فـ (يقطان) في التوراة لفظة تعني (صائر صغير)[4] ، فهي في معنى : (صغير). وبين صغير وجبار فرق كبير . وهكذا صار الصغير جباراً . وبهذا التفسير أعاد النسّابون أو أحد المتحدثين اليهم من أهل الكتاب الهيبة والمكانة الى (قحطان) .

وشاء بعض أهل الأخبار أن يكون دقيقاً في حكمه ، عارفاً بمدة حكم

١ التنبيه (ص ٧١) ، الاكليل (١٠٣/١ وما بعدها) .
٢ التنبيه (ص ٧١) .
٣ التنبيه (ص ٧٠) .
٤ قاموس الكتاب المقدس (٥٢٤/٢) .

(قحطان) ، لئلا يترك الناس في جهل من أمرها ، فجعلها مئتي سنة، لم يزد عليها ولم ينقص منها . وكان صاحب هذا الخبر (هشام بن الكلبي) رأس الأخباريين في مثل هذه الأمور[1] .

وقد ورد في جغرافيا (بطلميوس) اسم قريب من اسم (قحطان) ، هو (كتنيتة) (كتانيتة) (Katanitae) [2] . غير أن هذا لا يدل حتماً على ان المراد منه (قحطان) ، اذ يجوز أن يكون اسم موضع لا علاقة له بقحطان ، أو اسم قبيلة من القبائل اسمها قريب منه . وقد ورد اسم قبيلة تدعى (قطن) أو (بنو قطن) ، كما ورد اسم موضع عرف بـ (جو قطن)[3] ، وذكر اسم مدينة بين (زبيد) و (صنعاء)، يقال لها (قحطان)[4] . وأشار (المسعودي) الى (جزائر قطن)[5] ، لهذا أرى أن من الخير ألا يتخذ الآن أي موقف كان لا سلباً ولا ايجاباً ، قبل اكتمال العدة والظفر بمواد مساعدة تكفي لاصدار الأحكام .

وقد عثر على اسم قبيلة عربية عرفت بقبيلة (قحطن) ، أي قحطان ، في نصوص المسند ، لا أستبعد أن يكون لاسمها علاقة بقحطان الذي صيّره أهل الأخبار جداً لكل العرب الجنوبيين . فقد ذكر بعد اسم (كدت) الذي هو كندة في النص: (Jamme 635) [6] وكان على قبيلة قحطان وعلى كندة ملك واحد اسمه (ربيعت) (ربيعة)، وهو من (ثورم) (ال ثورم) (الثورم) أي (آل ثور) . وثور هو جد قبيلة كندة في عرف النسابين من أيام الملك (شعر أوتر) ، وسأتحدث عنه وعن الملك فيما بعد .

ونحن لا نعرف من أمر (قحطان) شيئاً غير هذا النسب الذي يردده الأخباريون ، وليس لدى العبرانيين من أمره غير ما ورد من انه أحد أولاد

---

١ المحبر (٣٦٤) .
٢ Ptolemy, Geogr., VI, 7,20,23, Glaser, Skizze, Bd., 2, S. 283
Knobel, Die Voekerstafel der Gensis, S., 185, Forster, The Historical Geography, Vol., I, 80, O'leary, P., 18.
٣ Glaser, Skizze, S., 288, 422, Enc., Vol., 2, P., 629.
٤ احسن التقاسيم ، (٣/ ٨٧ ، ٩٤) « الطبعة الثانية » .
٥ مروج (١/ ٩١) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » .
٦ Jamme 635, MaMb270, Mahram, P., 136.

(عابر) وآخرهم ، وانه جد قبائل عديدة قديمة . وسكوت أهل الأخبار عنه واكتفاؤهم بسرد نسبه، دليل على أخذهم له من التوراة .

أما أولاده ، فلم يبخل عليه أهل الأخبار بالأولاد ، فوهب بعضهم له امرأة سمّوها (حبى بنت روق بن فزارة بن سعد بن سويد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح)[١] ، ووهبوا له من الولد ما تراوح عدده من عشرة ذكور الى واحد وثلاثين على حسب كرم الراوي أو بخله على قحطان، من بينهم يعرب وحضرموت وعمان وجرهم[٢] .

وقد ذكر (الهمداني) أولاد (قحطان) على هذا النحو : يعرب ابن قحطان ، ودعاه بـ (المزدغف) ، ومعنى (المزدغف) المحتوي للأشياء، وجرهم بن قحطان، ولؤي، وخابر، والمتلمس ، والعاض (العاصي) (القاضي)، وغاشم ، والمعتصم ، وغاصب ، ومغرز ، ومبتع ، والقطامي ، وظالم ، و (الحارث) (الحرث) ، ونباتة ، وقاحط ، وقحيط، ويعفر جد المعافر ، والمود ، والمودد ، والسلف ، والسالف ، ويكلأ ، وغوث ، والمرتاد، وطسم، وجديس ، وحضرموت ، وسماك ، وظالم ، وخيار ، والمتمنع ، وذو هوزن ، ويأمن ، ويغوث ، وهدرم . وقد أخذ هذه الأسماء من روايات أشار الى أسماء رواتها . وقد جمعتها ليكون في إمكان القارىء الاحاطة بها[٣] .

وذكر (الهمداني) في موضع آخر انه قرأ « في السجل الأول : أولد قحطان بن هود أربعة وعشرين رجلاً ، وهم : يعرب ، والسلف الكبرى ، ويشجب ، وأزال ، وهو الذي بنى صنعاء ، ويكلى الصغرى، وخولان – خولان رداع في القفاعة – والحارث ، وغوث ، والمرتاد ، وجرهم ، وجديس ، والمتمنع ، والمتلمس ، والمتغشمر ، وعباد وذو هوزن ، ويمن ، وبه سميت اليمن ، والقطامي ، ونباتة ، وحضرموت ، وسماك، وظالم ، وخيار، والمشفتر »[٤]. وقصد بـ (السجل الأول) سجل خولان الذي تحدثت عنه آنفاً .

أما الذي تولى الملك بعد قحطان – على رأي الأخباريين – فكان يعرب ،

---

١ مروج (٢٧٧/١) .
٢ مروج (٢٧٧/١) ، ابن خلدون (٤٧/١) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) .
٣ الاكليل (١١٦/١ وما بعدها) .
٤ الاكليل (١٣١/١ وما بعدها) .

وكان ملكه باليمن ، وقد غلب بقايا عاد ، ووزع اخوته في الأقطار ، فأقر أخاه حضرموت على الأرضين التي عرفت باسمه فقيل لها حضرموت، وعين عمان على أرض عمان ، وولى جرهماً على الحجاز[1] .

ولا نعرف من أمر يعرب شيئاً غير ما ذكره بعض الأخباريين من ان أم يعرب هي من عاد أو من العماليق ، ومن أن له اخوة من أمه ، هم : جرهم والمعتمر والمتلمس وعاصم ومنيع والقطامي وعامي وحمير وغيرهم[2] .

وقد حكم (يعرب) على رأي بعض أهل الأخبار مدة تساوي المدة التي حكم فيها أبوه ، أي مئتي سنة[3] . واذا كانت هذه المدة هي مدة حكمه ، فلا بد أن تكون أيام حياته أطول من أيام حكمه . فعمره اذن عمر لا بد أن يحسده عليه كل أحياء هذا القرن ومن سيأتي بعدهم من الناس .

ولم ينسب أهل الأخبار والنسب الى يعرب ولداً كثيراً . فقد نسب بعضهم اليه يشجب ، قالوا وبه كان يكنى ، وشجبان ، وبه سميت (شجبان) باليمن ، وهي أعلا رَمع[4] .

ويلاحظ أن بين (يشجب) و (شجبان) تقارباً كبيراً ، ولعل أحد الاسمين خلق الاسم الثاني . وجعل بعضهم ليعرب من الولد : يشجب ، وحيدان ، وحيادة[5] ، وجنادة ، ووائلاً ، وكعباً[6] .

ولم يرد اسم (يعرب) في الشعر الجاهلي . وإنما ورد اسمه في شعر ينسب الى (حسّان بن ثابت)[7] ، وفي شعر ينسب الى (مضاض بن عمرو الجرهمي) ، وهو من جرهم ، قيل : إنه قاله لما أخرجتهم الأزد من مكة[8] . والشعران من النوع المصنوع المحمول على حسّان وعلى (مضاض) اللذي لا أدري أكان يتكلم

---

١ صبح الاعشى (٥/١٩) ، ابن خلدون (٢/٤٧) ، القاموس (١/١٠٣)
٢ الاخبار الطوال (ص ١١) .
٣ المحبر (ص ٣٦٥)
٤ الاكليل (١/١٢٤) .
٥ الاكليل (١/١٢٥) .
٦ الاكليل (١/١٣٢) .
٧ تعلمتم من منطق الشيخ يعرب ابينا فصرتم معربين ذوي نفر
الاكليل (١/١١٦) .
٨ الاكليل (١/١١٧) .

بهذا اللسان العربي الذي نزل به القرآن ، أم بلسان أهل اليمن الذي يختلف عن هذا اللسان .

ولا نعرف لـ (يعرب) اسماً في التوراة ، لا في أبناء يقطان ولا في غير أبنائه . إنما نعرف أن في التوراة اسم ملك سمته (يرب Jareb) يظن بعض علماء العهد القديم أنه اسم ملك عربي كان يحكم مقاطعة عربية ، ومن الجائز في نظرهم أن يكون قد حكم (يثرب) ، أو مكاناً آخر في جزيرة العرب[1] . ولا يستبعد أن يكون أهل الأخبار قد سمعوا باسمه من يهود (يثرب) ، فصيّروه (يعرب بن قحطان) .

ويقصد الأخباريون بجرهم جرهماً الثانية، التي جاءت بعد هلاك جرهم الأولى . وقد أقامت بمكة ، وكان منها أرباب البيت[2] . ويظهر أن أهل الجاهلية كانوا يتصورون أن قبيلة جرهم كانت ترعى البيت الحرام[3] . وقد ذكر الأخباريون أن إسماعيل نشأ بينها وتزوج منها ، وأن أباه ابراهيم بعد أن قام ببناء الكعبة ورفع قواعدها ، ترك ابنه بينهم ، فصارت له صلة بهم[4] . ثم تغلبت على جرهم خزاعة ، فانتزعت منهم السدانة ، واحتفظت بها إلى أن انتقلت إلى قريش .

وكان سبب تغلب خُزاعة على جرهم وخروجها من مكة ان جرهماً بغت على (قطوراء) وتنافست معها ، وكان (قطوراء) أبناء عم لجرهم، وكانوا يقيمون أسفل مكة بأجياد، وجُرهم في أعلاها بـ (قُعَيْقعان) ، فاقتتلوا قتالاً شديداً،

---

١ Hastings, P., 427, Enc. Biblica., P., 331, KAT, 2, 414, 439, 3 ed. P. 150.

٢ « جرهم ، كقنفذ : حي من اليمن ، وهو ابن قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ ابن سام بن نوح ، نزلوا مكة ، وتزوج فيهم اسماعيل عليه السلام ، وهم اصهاره ثم الحدوا وابادهم الله تعالى .. » ، تاج العروس (٢٢٧/٨) ، « جرهم : حي من العرب من ولد جرهم بن قحطان بن هود » شمس العلوم (حـ ١ ق ٢ ص ٣٢٢) ، Enc., Vol., I, P., 1066.

٣ في بيت ينسب لزهير بن ابي سلمى :

فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال ، بنوه ، من قريش وجرهم

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : صنعة الامام ابي العباس احمد بن يحيى ثعلب، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٤ م (ص ١٤) .

٤ ابن خلدون (٣٩/٢) ، اللسان (٣٩٤/١٤) .

وقتل (السميدع) صاحب (قطوراء) ، وتصالح الطرفان ، واستقر الأمر لجُرْهم . ثم إن جرهماً بغت بمكة،وظلمت من دخلها من غير أهلها ، وأكلت مال الكعبة الذي يهدى لهـا . فلما رأت (بنو بكر بن عبـد مناة بن كنانة) و (غبشان) من خزاعة ذلك ، أجمعوا على حربها واخراجها من مكة،فاقتتلوا، فغلبتهم (بنو بكر) و (غبشان) فنفوهم من مكة[1] .

وذكر النسابون أن (قطوراء) (قطورا) كانوا أبنـاء عم جرهم ، وكانوا ظعناً من اليمن،فأقبلوا سيارة ، وعلى جرهم مُضاض بن عمرو ، وعلى (قطوراء) السميدع ، فاستقروا بمكة[2] . وعاشوا مع جرهم والعدنانيين أبناء اسماعيل بمكـة بعد هجرتهم هـذه من اليمن ، ولم يتعمق النسابون في البحث عن أصل قبيلة (قطوراء) .

وقد نص (الطبري) ، على أن اسم جرهم هو (هدرم) ، ونص عـلى أن والده هو (عابر بن سبأ بن يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح)[3].وهو نسب أخذ من التوراة إلا أن من أخذه ونقل الطبري روايته منه لم يروه صافياً نقياً ، بل غير فيه وبدّل ، جهلاً أو لسبب آخر . فإن (هدرم) هـو (هدورام) (Hadoram) في التوراة ، وهو الابن الخامس من أبنـاء (يقطان) أي قحطان[4] . وبذلك تكون (جرهم) من القبائل القحطانية بحسب رواية التوراة .

ولم يختف ذكر جرهم حتى في صدر الإسلام ، فكان القـاصّ (عبيد بن شرية الجرهمي) ينسب الى جرهم ، ويظهـر من شعر (حسان بن ثابت) أن

---

١ ابن هشام (١٢٣/١ فما بعدها) ، وجعل ابن اسحاق «قطوراء» اخا لجرهم ، تاج العروس (٢٢٧/٨) .

٢ ابن هشام (١٢٣/١) ، « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، « قال ابـن اسحاق : وكان اخوه قطوراء ، اول من تكلم بالعربية عند تبلبل الالسنة » تـاج العروس (٢٢٧/٨) .

٣ الطبري (٢٠٧/١) ، « دار المعارف » .

٤ التكوين : الاصحاح العاشر ، الاية ٢٧ ، واخبار الايام الاول ، الاصحـــاح الاول ، الاية ٢١ ، قاموس الكتاب المقدس ، (٤٥٠/٢) ، Hastings, P., 324.

بقية منها بقيت باقية[1] ، وظلت جماعة منها تعيش على ساحل البحر الأحمر المقابل لمكة الى أواخر القرن الثاني للهجرة[2] . ومن بقايا جرهم ، (العبيديون) في اليمن ، على زعم بعض الأخباريين[3] . هذا ، وما ذكره (الطبري) من وجود علاقة بين (جرهم) و (لحيان) يستند الى حقيقة[4] .

وقد ذكر (بلينيوس) اسم شعب دعاه : (Charmaei) ، وذكره (أسطيفان البيزنطي) كذلك ، ويرى (فورستر) انه (جرهم)[5] . ويشك بعض الباحثين في صحة هذا الرأي ، وذلك لأن الشعب المذكور كان يعيش على مقربة من المعينيين ، أي في أرض بعيدة عن مكة . ويدل ذكر (بلينيوس) و (أسطيفان البيزنطي) لهم ، على انهم كانوا من الشعوب العربية المعروفة في حوالي الميلاد وبعده ، ولهذا ورد ذكره عند هذين الكاتبين[6] .

وقد ذكر (الهمداني) ان موضعاً كان بمكة يقال له : (دوحة الزيتون) ، كان مقبرة من مقابر جرهم ، وان نفراً دخلوا المقابر ، فوجدوا أشياء ثمينة من مصوغات وكتابات[7] .

والى يعرب ينسب أهل الأخبار نشوء العربية ، فيزعمون انه كان أول من أعرب في لسانه ، ولهذا قيل للسانه (العربية)[8] . وهذه رواية قحطانية تعارض الروايات العدنانية بالطبع ، ويظهر من بعض روايات أهل الأخبار ان (يعرب) هو الذي جاء بولده الى اليمن ، فأسكنهم بها ، الا انها لم تذكر الموطن الذي

---

١ فلو سئلت عنه معد بأسرها ... وقحطان او باقي بقية جرهما
ديوان حسان بن ثابت ، رواية ابي سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي « طبعة سلسلة جب » ، بعناية « هرشفلد » ، ليدن ١٩١٠ م ، (ص ٤٤) .

٢ Enc., Vol., I, P., 1066.
Enc., Vol., I, P., 1066.

٣ الهمداني : صفة (ص ١٨٨)

٤ الطبري (٧٤٩/١) ، « طبعة اوربة » ، Enc., Vol., I, P., 1066.

٥ Forster, Vol., I, P., 123.

٦ Enc., Vol., I, 1066.

٧ الاكليل (١٦١/٨ فما بعدها) ، « طبعة نبيه » ، (١٨٣ فما بعدها) « طبعة الكرملي » .

٨ مروج (٢٧٧/١) .

جاء منه[1] . وتذكر هذه الروايات ان ولده كانوا أول من حيّا بتحية الملك ، فقالوا له : (أبيت اللعن) و (أنعم صباحاً)[2] ، وهي تحايا ينسبها بقيـة الأخباريين الى غيره من الملوك المتأخرين . وسأتحدث عنها فيما بعد .

وانتقل الملك – على رأي الأخباريين – من يعرب الى ابنه يشجب ، ويقال له (يمن) ، ومن ولده عبد شمس ، ويقال له عامر ويلقب بـ (سبأ) على زعم بعض الأخباريين . زعموا انه هو الذي بنى قصر سبأ ومدينة (مأرب) ، وانه فتح مصر وبنى بها مدينة عين شمس ، وانه أول من سنّ السَّبْيَ ، ولذلك عرف بـ (سبأ) ، وغير ذلك مما يقصه علينا أهل الأخبار[3] .

ويلاحظ ان النسابين قد بخلوا على (يشجب) كثيراً ، فلم يهبوا له أولاداً كثيرين ، وكل ما أعطوه هو : (سبأ الأكبر) ، واسمه كما رأينا (عبد شمس) ، وأعطاه بعضهم بالاضافة اليه : (جرهم بن يشجب) ، و (شجبان بن يشجب) ، فأولد (شجبان) صيفياً ، وأولد صيفي مالكاً ، وأولد مالك الحارث ، وقد ملك[4] .

ويذكر (الهمداني) نقلاً عن بعض الرواة ان لقب (سبأ) ، هو (الأعقف) ، قال : « وكان أول من استعمل لتدمير الحكم في ملكه ، وأول من نصّب ولي العهد في حياته .. وأول من سبي السبي ممن خفّر به وحاربه وناصبه » . وروى في ذلك شعراً نسبه الى (علقمة بن ذي جَدَن)[5] .

وذكر (حمزة الأصفهاني) نقلاً عن (عيسى بن داب) ان ملك (عبد شمس) ، أي (سبأ) ، كان في زمن (كيقباد) ، فسار (سبأ) في مدن اليمن ومخابئها ، وكانت اذ ذاك في بقايا عاد ، فلم يدع بأرض اليمن أحداً منهم الا سباه واستعبده فسمي (سبأ) ، ووطد بذلك حكم القحطانيين في اليمن[6] .

---

١ « صار يعرب بن قحطان الى ارض اليمن في ولده فاستوطنها ، وهو اول من نطق بالعربيـة » ، حمزة (ص ٨١) .
٢ حمزة (ص ٨١) ، الاكليل (١١٦/١ وما بعدها) .
٣ ابـن خلدون (٤٧/٢) ، التيجان (ص ٤٩) ، المحبر (ص ٣٦٤) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) ، حمزة (ص ٨١) ،
Enc., Vol., 4, P., 1160, Wuestenfeld, Register, S., 388.
٤ الاكليل (١٢٥/١ وما بعدها) .
٥ الاكليل (١٢٥/١) .
٦ حمزة (ص ٨٢) .

وقد عثر العلماء على نص وسموه بـ (Rep. Epigr. 4304) ، هذا نصه : (عبد شمس ، سبأ بن يشجب ، يعرب بن قحطان) . وهو نص أشك في صحته ، وأرى أنه وضع بعد الجاهلية بزمن، قد يكون غير بعيد . صنعه بعض من تعلّم حروف المسند ، أو ممن يتقنون صناعة تزييف العاديات اليمانية ، لأن أسلوب المسند معروف ، ولا نجد في نصوصه نصاً واحداً دوّن على هذا النسق في تدوين النسب . ثم إن هذا النسب هو نسب متأخر وضع على أثر احتدام النزاع بين القحطانيين والعدنانيين في العصر الأموي كما سنرى فيما بعد . والظاهر أن ناقش النص ، وهو من اليمن ، أراد اثبات ورود هذا النسب عند السبئيين واقناع الناس بأنه كان معروفاً فدوّنه ، على كل حال إن في استطاعة الباحثين تقدير زمن تدوين هذا النص ، ودراسة طبيعة اللوح الذي دوّن عليه بالطرق الفنية ، وعندئذ يمكن اثبات صحة تلك الكتابة أو عدم صحتها بطريقة علمية لا تقبل جدلاً .

وجعل (المسعودي) لسبأ عشرة أولاد ، تشاءم منهم أربعة ، وتيامن منهم ستة . فالذين تشاءموا : لخم وجُذام وعاملة وغسان ، والذين تيامنوا حمير والازد ومذحج وكنانة والأشعريون وأنمار الذين هم بَجيلة وخَثْعَم[1] . وذلك على رواية من جعل أنماراً من سبأ ، وجعلهم في كتابه (التنبيه والأشراف) : حمير وكهلان وعمرو والأشعر وأنمار وعاملة ومُر[2]. وجاء في كتاب (شمس العلوم): (سئل النبي عن سبأ ، فقال : رجل من العرب أولد عشرة : تيامن منهم ستة: حمير وهمدان وكندة ومذحج والأشاعر وأنمار ، وتشاءم منهم أربعة : جُذام ولخم وعاملة والأزد[3]) .

وأما (الهمداني) ، فأولد لسبأ العرنجج ، وهو حمير ، وكهلان ، وأضاف اليهما استناداً الى رواية (ابن الكلبي) : نصراً ، وأفلح ، وزيدان ، وعبدالله، ونعمان ، والمود ، وهوذة أو أهود ، ويشجب ، ودرهماً ، وشداد ، وربيعة[4]. وأضاف الى هؤلاء استناداً الى رواية أخرى : أبا ملك عميكرب بن سبأ، وأهون

---

١ مروج (٢٧٨/١) .
٢ التنبيه (ص ٤٦) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) .
٣ شمس العلوم (حـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٢) .
٤ الاكليل (١٢٦/١ وما بعدها) .

ابن سبأ (الهون) ، وجعلهم : حميراً ، وكهلان ، وبشراً ، وريدان ، وعبدالله، وأفلح، والنعمان، والمود ويشجب ، ورهماً ، وشداداً ، وربيعة ، في مكان آخر[1] .

ويذكر المسعودي أن حمير هو الذي تولى الملك بعد أبيه : وكان كما يقول: أول من وضع على رأسه تاج الذهب من ملوك اليمن ، ولذلك عرف بـ(المتوّج). وحكم خمسين سنة[2] . وقد عرف حمير بـ (العرنج) (العرنجج) . وذكر (ابن الكلبي) أنه كان يلبس حللاً حمراً ، وصرح بعض أهل الأخبار أنه كان هناك ثلاثة رجال عرفوا بـ (حمير) ، هم : الأكبر والأصغر ، والأدنى . فالأدنى هو حمير بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة ، وهو حمير الأصغر بن سبأ الأصغر بن كعب بن سهل بن زيد بن عمرو ابن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حذار بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهيسع بن العرنجج ، وهو حمير الأكبر ابن سبأ الأكبر بن يشجب[3] .

وأولاد حمير هم : مالك ، وعامر ، وعمرو ، وسعد ، وواثلة في رواية . والهميسع بن حمير ، ومالك بن حمير ، والهيعة بن حمير ، ومُرة بن حمير على رواية (أبي نصر) في قول (الهمداني) ، والهميسع ، ومالك ، وزيد ، وعريب ، ووائل ، ومشروح (مسروح) ، ومعديكرب ، وأوس ، ومُرّة على رواية أخرى ، وجعلهم بعض الرواة أكثر من ذلك عدداً[4] . وقد ورد في الجزء الأول من الإكليل (عميكرب) في موضع (معديكرب) و (واسا) في موضع (أوس)[5] .

---

١ الاكليل (١٣٣/١)

٢ مروج (٢٧٨/١) ، وجعل بعض النسابين لحمير تسعة اولاد ، هم : الهميسع ، ومالك ، وزيد ، وعريب ، ووائل ، ومشروح (مسروح) ومعديكرب ، واوس ، ومرة ، وجعلهم بعض اخر اكثر عددا ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٤٠٦) ابن خلدون (٢٤٢/٢) .

٣ تاج العروس (١٥٨/٣) ، « وزرعة ، هو حمير الاصغر » ، الاشتقاق (ص ٢١٧، ٣٠٦) ، اللسان (١٤٧/٣) ، تاج العروس (٧٣/٢) .

٤ الاكليل (١٢٩/١) ، مروج (٢٧٨/١) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٤٠٦) ، ابن خلدون (٢٤٢/٢) .

٥ الاكليل (١٣٣)

وولد مالك بن حمير ، قضاعة بن مالك بن حمير ، جدّ قبائل قضاعة في زعم من يجعل قبائل قضاعة من اليمن . أما نسّابو العدنانيين ، فيدخلونها في عدنان ، ولا يوافقون على إلحاق نسبها باليمن ، ويرون ان ذلك وقع متأخراً لدوافع سياسية وعصبية . وجعل (الهمداني) لقضاعة أولاداً هم : الحاف ، والحاذي ، ووديعة ، وعبادة[1] . أما صاحب (الاشتقاق) ، فقد اكتفى بذكر ولدين هما : الحاف والحاذي ، ثم قال : ومنهما تفرعت قضاعة[2] .

وولد الحاف بن قضاعة على رأي (الهمداني) هم : عمران بن الحاف ، وعمرو بن الحاف ، وأسلم بن الحاف ، وعُرَاينَد بن الحاف، وزيد بن الحاف ، وعبيد بن الحاف ، وعثم بن الحاف ، وسقام بن الحاف ، وليلى بنت الحاف، وسلمان بن الحاف على ما ورد في سجل خولان[3] .

فولد عمران بن الحاف ، حلوان بن عمران بن الحاف ، وتزيد بن عمران ابن الحاف ، وسليح بن عمران بن الحاف[4] . فولد حلوان بن عمران تغلب الغلباء، وربّان وهو علاف[5] . وقد عدهم (ابن حبيب) من (قبائل الحُمْسى من العرب)[6] . وقد جعل بعض النسابين (سليحاً) ابناً لعمرو بن الحاف ابن قضاعة[7] . وذكر بعضهم ان اسم سليح هو (عمرو) . ونسبوا الى حلوان أبناء آخرين ، هم : مزاح ، وعابد ، وعائذ ، وتزيد . وقد دخل بعض هذه القبائل في قبائل أخرى ، فدخلت (عابد) و (عائذ) في غسان ، ودخلت تزيد في تنوخ .

وولد تغلب وبرة ، فولد وبرة كلباً والنمر والأسد والذئب والثعلب والفهد والضبع والدبّ والسيد والسرحان والبرك وتغلب والخشند وعبساً وضنة . فولد الأسد بن وبرة تيم الله فهماً[8] وقهماً[9] في همدان ، وهو تنوخ ، وقد دخل في

---

١ الاكليل (١٦٦/١ ، ١٨٠) .
٢ الاشتقاق (ص ١٣٣) .
٣ الاكليل (١٨٠/١ وما بعدها) .
٤ الاكليل (١٨١/١ وما بعدها) .
٥ الاكليل (١٨٠/١) .
٦ المحبر (١٧٩) .
٧ المحبر (ص ٢٥٠) .
٨ بالفاء
٩ بالقاف .

تنوخ المتنخين ، وهم : جرم ، ونهد ، والأزد ، وإياد ، وشيع الله بن أسد. فأولد شيع الله جسراً ، فولد الجسر القين بن جسر . وولد تغلب بن وبرة عامراً ، وهو طابخة ، وولد النمر بن وبرة التيم وخشيناً وفتية بن النمر[1] .

وولد (ربّان) جرماً ، وعوفاً ، وأولد أسلم بن الحاف سوداً وحوتكة ابني أسلم . فولد سود ليثاً ، فولد ليث زيداً ، فولد زيد نهداً، وسعداً وجهينة . فولد سعد — ويعرف بسعد هذيم — عذرة والحارث وصعباً ومعاوية ووائلا بطون كلها . وولد عمرو بن الحاف[2] بهراء وبلياً وحيدان وخولان ولوذة . وخولان تقول : لوذ. فأولد لوذ (هوذة) . وولد حيدان بن عمرو ، مهرة ، ومجيداً، وتزيد الذين تنسب اليهم (الثياب التزيدية)[3] .

وأولد مهرة بن حيدان : اضطمرى بن مهرة ، فولد اضطمرى ثلاثة نفر : الآمري ، ويقال آمري ، ونادغم ، والدين ، فولد الآمري : القمر ، والقرا، والمصلا ، والمسكا . ومن قبائل القمر : بنو ريام ، وبلدهم قرية يقال لها رضاع على ساحل بحر عُمان . ولهم جبل حصين بناحية عمان يمتنعون فيه يعرف بجبل بني ريام ، وبنو خنزريت ، وبنو تبرح . ومن قبائل الديل حسريت ، فأولد حسريت : الشوجم ، ويحنن ، وأولد يحنن : كرشان ، والثعين ، فمن الثعين بنو تبلة بن شاسة[4] .

ويختلف ما في (سجل خولان وحمير بصعدة) عن نسب مهرة بعض الاختلاف في رواية (أبي راشد) المتقدمة التي ذكرها الهمداني . ففي السجل المذكور : أولد مهرة : الآمري ، والدين ، ونادغم وبيدع بطن . فولد الآمري: اضطمري ومهرى. فولد اضطمري : القمر ، ويبرح . فولد يبرح : القرا ، وبني رثام . وولد مهرى : المذاذ والمسكا ، والمصلا . فولد المصلا ، المزافر . وولد الدين: الوجد ، والغيث ، فمن الغيث : بنو باغت ، وبنو داهر . وولد نادغم : العيد

---

١ الاكليل (١٨٢/١ وما بعدها) .

٢ في الاكليل (١٨٨/١) ، « وولد عمر بن الحاف بهرا » ، والصحيح « عمرو » والخطأ ، هو خطأ مطبعي ، اردت التنبيه عليه لاصلاحه .

٣ الثياب التزيدية ، هي التي بها خطوط حمر ، الاكليل (١٨٩/١) ، « التزيديات » « برود بني تزيد » ، معاهد التنصيص (ص ٨٥ ، ٢٥٧) ، الاكليل (١٨٩/١ وما بعدها) ، شمس العلوم (حـ ١ ، ق ١ ، ص ١٩٦)

٤ الاكليل (١٩٢/١ وما بعدها) .

وحسريت ، والعقار . فولد حسريت : الشوجم ، ويحنن ، فولد يحنن: الثعين، والثغراء ، والكرشان . وقال بعض الحضارمة : من نادغم : بنو حديد ، وبنو بخ[1] .

وأولد مجيد بن عمرو بن حيدان بن عمرو و يحنناً ، وحياً ، وحبيباً،وعندلاً ووداعة ، والأقارع[2] .

فأولد خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة سبعة نفر : حيّ بن خولان وهو الأكبر من ولده ، وسعد بن خولان ، وهو الذي ملك بصرواح، ورشوان ابن خولان ، وهانيء بن خولان ، ورازح بن خولان ، والأزمع بن خولان ، وصُحار بن خولان[3] . ويضيف بعض النساب اليهم أولاداً آخرين ، وجعلهم بعضهم ثلاثة عشر ابناً[4] .

وأولد حيّ بن خولان:عدي بن حيّ ، وزيد بن حيّ ، وشعب بن حيّ، ومرثد بن حيّ ، وغنم بن حيّ ، والمقدام بن حيّ ، ونوف بن حيّ[5] . ونجد بعض الاختلاف في هذه الأسماء ، بحسب اختلاف روايات النسابين[6] .

ومن ولد حيّ بن خولان (جيهم) ، وهو الذي قال فيه امرؤ القيس :

فن يأمن الأيام من بعد جيهم فعلن بـه كما فعلن بحزفرا

وقد زعم أهل الأخبار أن (جيهماً) المذكور كان ملكاً من ملوك حمير[7] .

وأولد سعد بن خولان : ربيعة بن سعد ، وسعد بن سعد ، وعمرو بن سعد[8]. فأولد ربيعة : حجر بن ربيعة ، وسعد بن ربيعة ، وكامل بن ربيعة ، وفروذ ابن ربيعة ، ويغنم بن ربيعة ، ورشوان الأصغر بن ربيعة ، وداهكة بن ربيعة في بعض الروايات[9] .

---

١ الاكليل (١٩٣/١ وما بعدها) .
٢ الاكليل (١٩٨/١) .
٣ الاكليل (٢٠١/١ وما بعدها ، ٣٤٨) .
٤ الاكليل (٢٠٣/١) .
٥ الاكليل (٢٠٥/١ وما بعدها) .
٦ الاكليل (٣٤٨/١) .
٧ شمس العلوم (حـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٨) .
٨ الاكليل (٢١٧/١ ، ٣٤٨) .
٩ الاكليل (٢١٨/١) .

وأولد سعد بن سعد بن خولان : الحارث بن سعد ، وحرب بن سعد ، وغالب بن سعد ، وسهمك بن سعد ، وقثم بن سعد[1] . وأولد غالب بن سعد ابن سعد بن خولان : يعلى بن غالب،فأولد يعلى بن غالب : جبراً ، ومعيشاً، وشبلاً ، ثلاثة أبطن[2] .

وولد هانيء بن خولان : هلالاً ، وعلياً . فولد هلال شرحبيلَ وجابراً ، فولد شرحبيل هلالاً ، فولد هلال شرحبيل الأصغر ، وجابراً . وأولد شرحبيل الأصغر (جماعة) ، وهي قبيلة عزيزة . وهم أهل بوصان من أرض خولان. وجعل بعض النسابين ولد هانيء خمسة نفر : هلالاً ، ويعلى ، وعلياً ، وسعداً، وجامعاً[3] .

وأولد بن خولان مرتداً ، وعويضاً ، ورائماً ، ويعلى ، ويغنماً ، وبزيّاً ، بطون كلها . وذكر بعضهم قائمة تختلف عن هذه في أسماء هؤلاء الأولاد[4] .

وأولد رشوان بن خولان : لاحقاً ، ومخلفاً ، وخليفة ، وسعداً ، ومنبراً، وحرباً ، وخولياً . وهناك رواية أخرى تختلف عن هذه في ذكر الأسماء[5] .

وولد الأزمع بن خولان ثابتاً ، والأجبول ، وأخيل ، ومخيلا ، والأسووق، والجعل ، ومرّان[6] . وجعل بعض الأخباريين عدة ولده عشرة ، هم : مرّان، والكروب ، والأسووق ، وحفنى ، وعبد الله ، ويعلى ، وثابت ، وعمرو ، وعمير ، والناسك[7] .

وأولد صحار بن خولان ستة نفر : عامراً ، وبشراً ، وطارقاً ، وعلقمة ، وشبلا ، وحاذراً . وكل هذه بطون كبار[8] .

هذا واننا لنجد اختلافاً بين النسابين في تثبيت هذه الأنساب ، مما يدل على ان أهل النسب مع دعواهم بحفظ النسب ووجود مشجرات للأنساب عندهم ،

---

١ الافليل (١/٢٩٨) .
٢ الاكليل (١/٣١٤)
٣ الاكليل (١/٣٢١ وما بعدها ، ٣٤٨)
٤ الاكليل (١/٣٢٣ وما بعدها ، ٣٤٨) .
٥ الاكليل (١/٣٢٤ ، ٣٤٨) .
٦ الاكليل (١ / ٣٢٥) .
٧ الاكليل (١/٣٤٨) .
٨ الاكليل (١/٣٢٦) .

كانوا يختلفون فيما بينهم في النسب ، حتى اننا نستطيع أن نقول ان سجل خولان وحمير الذي بصعدة ، لم يكن يتفق مع الروايات الأخرى الواردة في النسب ، ويتجلى ذلك في الروايات المتناقضة التي نراها في الإكليل وفي غيره من كتب الأنساب ، ويظهر ان نسابي أهل اليمن ، كانوا يعتمدون على علمائهم في النسب ، وعلى ما كان مدوناً عندهم منه ، ولهذا تجدهم يختلفون في كثير من أنساب أهل اليمن عن النسابين الشماليين الساكنين في العراق أو في بلاد الشام .

وجعل (الهمداني) ولد (مالك بن حمير) على هذا النحو : (زيد بن مالك) ، و (زهران بن مالك) ، وهم حيّ عظيم ، ولهم كانت اليامة ، و (هوازن الأولى بن مالك) و (الغمور بن مالك) و (الأخطور بن مالك) ، وقيل (هزان الأولى بن مالك) . وقد ولد زيد بن مالك (مرة بن زيد) ، فولد مرّة بن زيد عمرو بن مُرّة ، فولد عمرو بن مرة مالك بن عمرو ، فولد مالك بن عمرو قضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرّة بن زيد بن مالك بن حمير[1] .

وولد عامر بن حمير دهمان ، وولد دهمان (يحصب) كلها ، وولد سعد ابن حمير السلف وأسلم ، وولد عمرو بن حمير الحارث ، وولد (الحارث) (آل ذي رعين)[2] .

ويذكر ابن (قتيبة) ان الذي حكم بعد (حمير) هو أخوه (كهلان) ، وكان ملكه ثلاثمئة سنة ، أي أنه أضعاف أضعاف مدة حكم أخيه حمير . واذا كانت هذه هي مدة حكمه ، فلا بد أن يكون عمره يوم مات أكثر من ذلك بالطبع[3] . وقد ولد (كهلان) زيداً ، وولد (زيد) مالكاً ، وأدداً ، فولد أدد طيئاً وهو جلهمة ، و (الأشعر) وهو (نبت) ، و (مالكاً) ، وهو (مذحج) ، و (مُرّة)[4] .

ومن طيء (بنوفطرة) ، و (الغوث) ، و(الحارث) . ومن (فطرة) : (سعد) ، ومنهم : (الأسعد) ، و (خارجة) ، و (تيم الله) . ومن

---

١ الاكليل (١٣٦/١) .
٢ المعارف (ص ٤٧) .
٣ المعارف (ص ٤٧) .
٤ المبرد ، نسب عدنان (ص ١٨) ، وفي المعارف : « طيء بن أدد ومالك بن زيد » (٣٥) ، وفي الاشتقاق : هما ابنا « زيد بن كهلان » ، (٢٢٨) .

(خارجة) ، (جديلة) ، ومن (جديلة) : (بنو رومان) ، ومنهم (ذهل) ، و (ثعلبة) ومن (ذُهْل) : ثعلبة ، و (جدعاء) ، ومن (جدعاء): ثعلبة ، ومن ثعلبة : تيم[1] .

ومن الغوث بن طيء : عمرو ، ومن عمرو : أشنع ، وثعل ، وبولان ، وهنيء ، ونبهان ، وجرم[2] . ومن (ثعل) : معاوية ، وسلامان ، وجرول. ومن معاوية : سنبس . ومن سلامان : بحتر ، ومعن . ومن جرول : ربيعة ، ولوذان . ومن ربيعة : أخزم[3] .

ومن ولد (مالك بن أدد) المعروف بمذحج : سعد العشيرة ، وعنس ، وجلد ، ومراد ، وهو يحابر[4] . ومن سعد العشيرة:جزء ، وزيد الله ، والحكم[5] ، وأوس الله ، وصعب ، وجعفي . ومن جزء : الحمد والعدل . ومن الحكم : جشم ، وسلهم . ومن صعب : زبيد ، وأود . ومن جعفي : مرّان وحريم[6].

ومن جلد : عُلّة . ومن عُلّة : حرب ، وعمرو ، . ومن حرب : يزيد ابن حرب ، ومنبّه بن حرب . ومن منبّه : رهاء ، ومن يزيد المعروف بصداء: الحارث ، والغلي ، وسيحان ، وشمران ، وهفّان ، ومنبه ، هؤلاء الستة يقال لهم : جنْب[7] .

ومن (عمرو بن عُلّة) : عامر ، وكعب ، والنخع ، وهو جسر[8] . ومن عامر : مُسلية . ومن كعب : الحارث . ومن الحارث : معقل ، والحماس ،

---

١ نسب عدنان (ص ١٩) ، الاشتقاق (٢٣٣) ، الاغاني (١٦/ ٩٣) ، سبائك الذهب (٥٦) .
٢ نسب عدنان (١٩)
٣ نسب عدنان (١٩) ، سبائك الذهب (٥٦) ، الاغاني (١٦/٩٣) ، الاشتقاق (٢٢٣) ، شمس العلوم (ح ١ ق١ ، ص ٢٥٠)
٤ نسب عدنان (١٩) .
٥ نسب عدنان (١٩) .
٦ وفيها يقول لبيد :
ولقد بلت يوم النخيل وقبله   مران من ايامنا وحريم
نسب عدنان (١٩) .
٧ ويختلف النسابون في هذه الانساب ، نسب عدنان (٢٠) .
٨ نسب عدنان (١٩) ، « فمن بنى علة : النخع ، قبيلة ، واخوه جسر » ، الاشتقاق (٢٣٧/٢) .

وعبد المدان . ومن النخع : عوف ، ومالك[1] . ومن النخع : صلاءة ، ورزام. ومنهم الحماس ، والحارث ، وكعب ، وهو الأرتّ[2] .

ومن مراد وهو يحابر : زاهر ، وناجية . ومن ناجية : غطيف ، وقرن ، وبنو ردمان . ومنهم من جعل قرناً ابناً لردمان . ومن زاهر : الربض ، وبنو زوف ، والصنابح[3] .

ومن الأشعر : الجماهر،والأثغم ، والأدغم ، والأرغم،وجدة ، وعبد شمس، وعبد الثريا[4] .

ومن ولد (أدد) : (مرّة) . وولد (مُرة) : (الحارث) . وولد (الحارث) : (عدياً) ، و (مالكاً) . وولد (عدي) : (جذاماً) ، واسمه عمرو ، ومنهم بنو حرام ، وبنو حشم[5] ، و (لحماً) ، وهو (لخم بن عدي). ومنهم : (بنو جزيلة) ، و (بنو نمارة)[6] ، و (عفيراً) . ومنهم (ثور ابن عفير بن عدي) ، وهو (كندة) . و (الحارث) ، وهو (الحارث بن عدي) . وهو (عاملة)[7] .

وقد هجا (الكميت) جذاماً لأنها تحولت الى اليمن ، وهي معروفة بأنها من (بني أسد بن خزيمة)[8]. وهذا مما يدل على ان جذاماً كانت قد اختلط نسبها بسبب اختلاطها بالقبائل المتجمعة،وان نسبها اختلط لذلك بالقحطانيين وبالعدنانيين.

ومن كندة : (بنو معاوية) و (أشرس) . ومن (بني معاوية) : (الحارث)[9] ، ومنهم (الرائش)[10] . ومن (أشرس) : (السكون)[11]،

---

١ الاشتقاق (٢٣٧/٢) .
٢ الاشتقاق (٢٣٧/٢) .
٣ الاشتقاق (٢٤٧/٢ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (٢٤٨/٢) .
٥ الاشتقاق (٢٢٥/٢) .
٦ الاشتقاق (٢٢٥/٢ وما بعدها) .
٧ نسب عدنان (ص ٢٠) .
٨ المعاني الكبير (٥٢٤/١ وما بعدها) .
٩ نسب عدنان (ص ٢٠) ، نهاية الارب (٣٤١/١٣) ، وفيهم يقول الاعشى :
وان معاويـه الاكرميـن حسان الوجوه طوال الامم
نسب عدنان (ص ٢١) .
١٠ نسب عدنان (٢١) ، المعارف (١٥٠) ، الاشتقاق (٢١٨)
١١ نسب عدنان (٢١) ، الاشتقاق (٢٢١) .

و (السكاسك) ، و (بنو حجر)[1] ، و (بنو الجون) ،و(بنو الحارث)، وأولاده ، وقبائل أخرى[2] .

ومن (بني حرام) : (غطفان) ، و (أفصى) . ومن (جزيلة) : راشدة ، وحدس ، ومن نمارة : الدار ، وبنو نصر .

أما (مالك بن الحارث بن مرّة بن أدد) ، فولد : (عمْراً)، و (يعفر) : ومن (عمرو) خولان وهو فكل[3] ، ومن يعفر ولده : المعافر[4] .

وولد (خيار بن مالك) ربيعة ، وولد (ربيعة) أوسلة،وهو : همدان[5] ، وألهان . وولد همدان نوفاً وخيران ، فمنهم بنو حاشد وبنو بكيل . منهم تفرقت همدان ، وعريب[6] . ومن بطون همدان : السّبيع ، ووادعة[7] .

وأما (خارجة) فنهم جديلة ، وهي من طيء[8] . وأما عمرو بن سعد ، فهو أبو خولان بن عمرو[9] . وولد (مراد بن مذحج) : أنعم بن مراد ، ويحابر ، وكان لهم يغوث بجرش . وولد خالد بن مذحج : علّة بن خالد . فولد علة عمراً . فولد عمرو : جسراً وكعباً . ومن كعب (بنو النار) ، و (بنو الحماص) ، و (بنو قنان)[10] .

وأما (سيدعان) ، فنهم سلامان[11] . وأما (زهران) ، فنهم (دوس ابن عدنان) ، ومنهم جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس ، وجهضم ابن مالك رهط الجهاضم[12] . وسليمة بن مالك ، وبنو هناءة ، ومعن بن مالك.

---

١ نسب عدنان (٢١) .
٢ نسب عدنان (٢١) .
٣ الاشتقاق (٢٢٧/٢) .
٤ الاشتقاق (٢٢٧/٢) .
٥ المعارف (٤٨) ، نسب عدنان (٢٠) ، « ولد مالك بن زيد بن كهلان : الخيار ، فولد الخيار اوسلة ، وهو همدان ، والهان » ، الاشتقاق (٢٥٠/٢)
٦ الاشتقاق (٢٥٠/٢)
٧ الاشتقاق (٢٥٣/٢) ، العقد الفريد (٢٤٦/٢) ، نسب عدنان (٢١) .
٨ طيء بن ادد ، واسمه جلهمة ، الاشتقاق (٢٢٨) .
٩ خولان واسمه فكل بن عمرو ... ولد يعفر المعافر باليمن ، تنسب اليهم الثياب المعافرية ، الاشتقاق (٢٢٧ وما بعدها) .
١٠ المعارف (٤٨) .
١١ المعارف (٤٩) ، الاشتقاق (٢٨٧) .
١٢ بنو جهضم بن جذيمة الابرش بن مالك ، الاشتقاق (٢٩٢)

ومنهم بطن يقال له يحمد ، والفراهيد . ومن زهران بنو يشكر والجدرة[1] .

وأما نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، فقد أولد (الغوث) . ومن (الغوث) عمرو والأزد . ومن (عمرو) : أراش ، ومن أراش : أنمار ، ومن أنمار : خثعم ، وبجيلة ، وعبقر[2] . ومن بجيلة : بنو قسر . ومن بطونهم : بنو نذير ، وبنو أفرك ، وعرينة[3] . ومن (خثعم) : شهران ناهس ، وشهران ، ويقال لهما بنو عفرس[4] .

وأما الأزد ، فن ولده : مازن ، وعمرو ، ودوس ، ونصر ، ومالك ، وقدار ، والهنو ، وميدعان ، وزهران ، وعامر ، وعبد الله ، وغيرهم . وأما مازن فنهم : ثعلبة ،ومنهم عامر ، وامرؤ القيس ،وكُرز . ومن امرىء القيس : حارثة الغطريف . ومنهم عديّ ، وعامر ماء السماء ، والتوأم ، ومن عامر ماء السماء ثعلبة العنقاء ، ومالك ، والحارث ، وجفنة ، وكعب ، وهم غسان . نزلوا على ماء يسمى غسان فنسبوا اليه . ومن ثعلبة العنقاء حارثة ، ومنهم الأوس والخزرج[5] .

وقد عرف (الأوس) و (الخزرج) بابني قَيْلَة[6] ، وذكر أنهم لم يؤدوا إتاوة قط في الجاهلية الى أحد من الملوك ، وكتب اليهم تبع يدعوهم الى طاعته. فغزاهم ، (تبع أبو كرب) ، فكانوا يقاتلونه نهاراً ، ويخرجون اليه العشاء ليلاً ، فلما طال مكوثه ، ورأى كرمهم ، رحل عنهم[7] .

ومن (نصر بن الأزد) : (حمار بن نصر بن الأزد) . قالوا : وكان له بنون فماتوا ، فحلف لأميتن من أحيا من أهل الجوف ، فقتل ثمود ، فقيل: أخلى من جوف حمار[8] .

---

١ المعارف (٤٩)
٢ الاشتقاق (٣٠٢/٢)
٣ الاشتقاق (٣٠٢/٢)
٤ الاشتقاق (٣٠٤/٢) .
٥ شمس العلوم (حـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٤٢) ، نسب عدنان (٢١) ، الاشتقاق (٢٥٨ ، ٢٨٧) ، المعارف (٤٩) .
٦ العقد الفريد (١٩٢/١ وما بعدها) .
٧ العقد الفريد (١٩٢/١ وما بعدها) .
٨ شمس العلوم (حـ١ ، ق١ ، ص ٢٦٢ وما بعدها) .

العرب المستعربة :

والطبقة الثالثة من طبقات العرب — على رأي أهل الأخبار — هم (العرب المستعربة) (المتعربة) ، ويقال لهم العدنانيون أو النزاريون أو المعديون . وهم من صلب (إسماعيل بن ابراهيم) وامرأته (رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي)[١] . قيل لهم (العرب المستعربة) ، لأنهم انضموا الى العرب العاربة، وأخذوا العربية منهم . ومنهم تعلم (إسماعيل) الجد الأكبر للعرب المستعربة العربية ، فصار نسلهم من ثمّ من العرب واندمجوا فيهم . وموطنهم الأول مكة على ما يستنبط من كلام الأخباريين ، فيها تعلم (اسماعيل) العربية ، وفيها ولد أولاده ، فهي إذن المهد الأول للإسماعيليين[٢] .

ويذكر أهل الأخبار أن (إسماعيل) ولد من زوجه (رعلة) ، اثني عشر رجلاً هم : (نابت) وكان أكبرهم ، و (قيذر) و (أذبل) ، وميشا ، ومسمعا ، وماشي ، ودما ، وأذر ، وطيما ، ويطور ، ونبش ، وقيدما[٣] . وأكثر هذه الأسماء وروداً في الكتب العربية ، نابت،وقيذر . وقد أخذ النسّابون هذه الأسماء من التوراة ، فقد جاء فيها : (هذه أسماء بني اسماعيل بأسمائهم ، على حسب مواليدهم : نبايوت بكر إسماعيل ، وقيدار ، وأدبئيل ، ومبسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمة[٤]) .

ولم تذكر التوراة اسم المرأة التي تزوجها إسماعيل ، فأولدها هؤلاء الأولاد الذين انتشروا ، فسكنوا في منطقة تمتد من (حويلة) الى (شور)[٥] .

وعدنان في نظر العدنانيين هو جدّهم الأعلى،كما أن قحطان هو الجد الأعلى للقحطانيين[٦] . ولما كانت الطبقة الأولى من العرب قد بادت وذهبت ، تكون

---

١ ابن هشام (٣/١) ، السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، ابن خلدون (٣٧/٢) ، الطبري (١٦١/١) ، ابن الاثير (٤٩/١) ، الطبقات ـ (١ ، ١)، ص ٢٥ تاج العروس (٣٧٥/١) ، ونابت بن اسماعيل عليه السلام ، ولي بعد ابيه ،امه السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، تاج العروس (٥٩٠/١)

٢ المصادر المذكورة ، نهاية الارب (٣٩٢/٢) طبقات ، لابن سلام (ص ٤)

٣ ابن هشام (٣/١) ، ابن خلدون (٣٩/٢) ، الطبري (١٦١/١) ، ابن الاثير الكامل (٤٩/١) ، مع اختلاف في ضبط الاسماء .

٤ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٢ فما بعدها .

٥ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٨

٦ تاج العروس (٢٧٥/٩)

العرب الباقية وكلها من ولد قحطان وعدنان ، استوعبت شعوب العرب كلها .

وقد رأينا أن (قحطان) هو (يقطن) أو (يقطان) في التوراة . أما (عدنان) ، فلا نجد له اسماً فيها ، وقد رأينا أن بين (يقطان) و(سام) ثلاثة آباء أو أربعة . أما بين عدنان وسام ، فعدد كبير من الآباء .

وقد اختلف النسّابون في عدد من كان بين إسماعيل وعدنان من الآباء، فرأى بعضهم أنهم أربعون ، وروى غيرهم انهم عشرون ، وقال آخرون انهم خمسة عشر شخصاً[1] ، وقالت جماعة ان المدة طويلة بين عدنان واسماعيل بحيث يستحيل في العادة أن يكون بينهما هذا العدد من الآباء[2] .

وقد اختلف الأخباريون وأصحاب الأنساب في نسب عدنان اختلافاً كبيراً ، واختلفوا بينهم حتّى في كيفية النطق بتلك الأسماء، على حين اننا لا نرى اختلافاً بينهم في نسب قحطان ، ولا في كيفية النطق بتلك الأسماء[3] . وقد علل محمد ابن سعد الواقدي ذلك بقوله : « وكان رجل من أهل تدمر يكنى أبا يعقوب من مسلمة بني اسرائيل قد قرأ من كتبهم ، وعلم علمهم ، فذكر ان بورخ ابن ناريا ، كاتب أرميا أثبت نسب معد بن عدنان عنده ، ووضعه في كتبه ، وأنه معروف عند أحبار أهل الكتاب وعلمائهم ، مثبت في أسفارهم، وهو مقارب لهذه الأسماء . ولعل خلاف ما بينهم من قِبل اللغة ، لأن هذه الأسماء ترجمت من العبرانية »[4] .

ويقول الواقدي في موضع آخر : « وهذا الاختلاف في نسبته يدل على انه

---

١ النويري ، نهاية (٣٢٤/٢) ، ابن عبد البر ، القصد (٢٢)

٢ الطبري (١٩١/٢) ، ابن هشام (٣/١ فما بعدها) مروج (٣٩٤/١) ، طبقات ابن سعد (١ ، ١ ، ص ٢٨ فما بعدها) ، ابن خلدون (٢٩٨/٢) نسب عدنان (٢) ، صبح الاعشى (٣٠٧/١) ، نسب قريش ، لابي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري (تحقيق ليفي بروفنسال ، ص ٣ فما بعدها) .
Enc., Vol., I, P., 142, Wuestenfeld, Register zu den General.
Tabellen der Arab. Stamme, S., 47, Caussin de Perceval, Essai, I, 8, 175, J.D. Bate, An Examination of the claims of Ischmael, 1884, P., 109, Sprenger, Life of Mohammad, 57, Note 3, and 4, Mills, History of Mohammadanism, 7, Pocock, Specimen, 40.

٣ نهاية الارب (٣٠٦/٢)

٤ الطبقات (جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٩)

لم يحفظ ، وانما أخذ من أهل الكتاب ، وترجموه لهم ، فاختلفوا فيه . ولو صح ذلك ، لكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أعلم الناس به . فالأمر عندنا على الانتهاء الى معدّ بن عدنان ، ثم الإمساك عما وراء ذلك الى اسماعيل ابن ابراهيم »[1] ، وقال أيضاً : « ما وجدنا في علم عالمٍ ولا شعر شاعر أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان بثبت »[2] .

ونقل ابن خلدون رأي من تقدمه في هذا الاختلاف ، فقال : « ونقل القرطبي عن هشام بن محمد فيما بين عدنان وقيدار نحواً من أربعين أباً ، وقال : وسمعت رجلاً من أهل تدمر من مسلمة يهود وممن قرأ كتبهم يذكر نسب معدّ ابن عدنان الى اسماعيل من كتاب أرمياء النبي ، عليه السلام ، وهو يقرب من هذا النسب في العدد والأسماء الا قليلاً ، ولعل الخلاف انما جاء من قبل اللغة ، لأن الأسماء ترجمت من العبرانية »[3] .

ويرجع بعض أهل الأخبار اختلاف الناس في عدد الآباء والأجداد فيما بين عدنان واسماعيل الى أيام النبي ، فهم يذكرون ان الناس كانوا في خلاف فيما بينهم في عددهم ، وان الرسول لما رأى خلافهم هذا ، نهاهم عن تجاوز نسب (معد بن عدنان) ، وأمرهم بالتوقف عنده . وانتسب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، الى عدنان ، وقال : « كذب النسابون ، فما بعد عدنان ، فهي أسماء سريانية لا يوضحها الاشتقاق »[4] .

وقد جعل بعض الأخباريين اسم والد (عدنان) (أدَداً) ، وساقوا نسبه على هذا الشكل : (عدنان بن أدد بن يرى بن أعراق الثرى)[5] ، وساقه آخرون على هذا الوجه : (عدنان بن أدد بن الهميسع بن سلامان بن عوص ابن يوز بن قوال بن أبي بن العوام بن ناشد بن بلداس بن تدلاف بن طابخ ابن جاحم بن ناحس بن ماخي بن عيقي بن عبيد بن الدعا ...) الى آخر ذلك

---

١ الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٩)
٢ الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠) .
٣ ابن خلدون (٢ / ٢٩٨) ، ابن سلام ، طبقات (١١) ، ابن حزم ، جمهرة (٦) .
٤ الاشتقاق (٢٠) ، ابن خلدون (٣/١) ، البلاذري ، انساب (١٢/١) .
٥ الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٨) .

من سلسلة مفتعلة ولا شك ، رواها (ابن الكلبي)[١] . وقد سبق النسب على هذه الصورة أيضاً : (عدنان بن أدد بن الهميسع)[٢] . وروي بصور أخرى في كتاب نسب قريش (للزبيري)[٣] .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن (أد) أو (أدد) ، ولا عن كيفية توصلهم الى أحدهما ، أو كليهما . وقد زعم بعض علماء اللغة ان (أد) من (أدّ) ، والكلمة فعل من المودّة ، (قلبت الواو ألفاً لانضمامها)[٤] .

وذكر الأخباريون أن (وُدّاً) ، وهو الصنم الشهير الذي تغلب على دومة الجندل وتعبدت له (كلب) و (قريش) وقبائل أخرى عديدة ، كان يهمز أيضاً ، فيقال (أدّ) ، وبه سمي (عبد وُدّ) ، كما سمي (أدّ بن طابخة) ، و (أدد جد معدّ بن عدنان)[٥] .

ونجد بين آلهة الشعوب السامية اسم صنم يقال له : (أدد) (Adad) و (أدو) (Addu)[٦] ، أرى أن لاسم هذا الصنم علاقة باسم (أدد) .

وقد ساق (محمد بن إسحاق) نسب عدنان على هذه الصورة أيضاً : (عدنان ابن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل)[٧] ، فجمع بين نسب (عدنان) ونسب (يعرب) ، ورجعهما كما ترى الى (إسماعيل) ، وساقه في مكان آخر بصورة أخرى .

والغريب أن الرواة الذين رووا هذه الأنساب وشجرات النسب التي يتصل سند روايتها بهم ، كابن الكلبي ومحمد بن اسحاق وأمثالهما ، هم أنفسهم يروون هذا النسب بأشكال مختلفة ومتضاربة ، وطالما حرفوا الأسماء العبرانية ، ورووها بصور متعددة ، وقد يحشون بينها أسماء عربية . وقد روى رواياتهم هذه أناس متعددون ، ولكنهم متفقون على أنهم سمعوها منهم ، أو نقلوها من مؤلفاتهم ،

---

١ الموارد المتقدمة وتاج العروس (٢٧٥/٩) .
٢ تاج العروس (٢٧٥/٩)
٣ نسب قريش (ص ٣ فما بعدها) .
٤ اللسان (٤٩٦/٤) .
٥ اللسان (٤٩٦/٤) .
٦ Schrader, KAT, S., 443. ff.
٧ الطبقات (ج١ ، ق ١ ، ص ٢٨) .

كما يتبين ذلك من السند . ولما كان أكثر هذه الأسماء الواردة في عمود نسب (عدنان) محرفة ، وكانت غير موجودة في التوراة ، وإنما هي أسماء عبرانية ممسوخة أحياناً ، فإنّ هذا يدل على أن الرواة اليهود الذين كانوا يتحدثون بمثل هذه الأمور الى ابن الكلبي ومحمد بن إسحاق وغيرهما ممن مال الى الأخذ منهم، كانوا إما جهلة بما يتحدثون به ، وإما كذّابين أو ممن كانوا يحاولون التقرب الى المسلمين بهذه التلفيقات لمآرب خاصة ، أو ادعاءً للعلم . غير أننا لا نستطيع أن نبرىء هؤلاء الرواة أنفسهم من وصمة الجهل أو الكذب ، ولا سيما ابن الكلبي الذي تفرد برواية معظم هذه الأخبار . الجائز أنه كان يلجأ الى أهل الكتاب ليأخذ منهم ما عندهم، ومن الجائز أنه كان يضيف اليها ، أو يخترع من عنده، ليتحدث به الى الناس . وإلا فان من الصعب صدور هذا الخلط من رجل ثقة يعي ما يقول .

وقد استغل نفر من أهل الكتاب مثل اليهودي التدمري المذكور ، الذي أسلم كما يقول الرواة،هذا الجشع الذي ظهر بين أهل الأخبار في البحث عن الأنساب القديمة ، أنساب أجداد العرب القدامى ، فصنعوا ما صنعوا من أسماء عليها مسحة توازنية ، قدموها اليهم على أنها مذكورة في التوراة . وقد أخذها الرواة على عادتهم من غير بحث ولا مراجعة للتوراة . وما الذي يدفعهم الى البحث والمراجعة، فإن كل ما يطمعون به ويريدونه هو الحصول على مادة يظهرون بها على أقرانهم من أهل الرواية والأخبار .

ولم يرد اسم (عدنان) في النصوص الجاهلية ، ولا في المؤلفات (الكلاسيكية). أما في الشعر الجاهلي ، فقد ورد في شعر ينسب الى (لَبِيد) ، وفي شعر آخر ينسب الى (عباس بن مرداس) . « ولم يجاوز أبناء نزار في أنسابها وأشعارها عدنان . اقتصروا على معد ، ولم يذكر عدنان جاهلي قط غير لبيد .. وقد يروى لعباس بن مرداس بيت في عدنان »[1] . وهذا يدل على أن (عدنان) لم يكن

1 ممن ذكر عدنان من شعراء الجاهلية ، لبيد . قال :
فان لم تجد من دون عدنان والدا ودون معد ، فلتزعك العواذل
وفي ديوان « لبيد » ، تحقيق احسان عباس الكويت ١٩٦٢ م ، ـ باقيا ـ في موضع والدا (ص ٢٥٥) .
وعباس بن مرداس ، قال :
وعك بن عدنان الذين تلعبوا بمذحج حتى طردوا كل مطرد
وفي رواية « بغسان » ، مكان « بمذحج » ، ابن سلام ، طبقات الشعراء (ص ٥) ابن هشام (٦/١) .

مناطق واسعة من جزيرة العرب حتى وصلوا الى العراق والشام، واختلطوا بالقبائل الأخرى ، وتفرقوا في كل مكان .

ويظهر من تلك الروايات أيضاً ، أن القبائل العدنانية ، كانت قبائل متشاحنة يحارب بعضها بعضاً ، دفعها الى تشاحنها هذا طبيعة البداوة وفقر البادية، والتقاتل على الكلأ والماء ، حتى ضرب بها المثل في التفرق والتشتت[1] .

ونجد اسم (نزار) على انه اسم قبيلة مذكوراً في نص (امرىء القيس) مع أنه ابن (معد) ، أي حفيد عدنان ، ولا نجد اسم جده في هذا النص . وهذا مما قد يبعث الظن في نفوسنا أن فكرة (عدنان) لم تظهر إلا في الجاهلية القريبة من الإسلام وفي الإسلام .

وأولد الأخباريون عدنان عدداً من الأولاد ، أشهرهم وأعرفهم في نظرهم : معدّ ، وعك[2] . وقد زعم الأخباريون أن معداً عاش في أيام (بختنصر) ، وأن معداً خلص الى (حرّان) حينما هاجم ملك بابل أهل (حضورا) في اليمن . أما (عدنان) والده ، فلقى (بختنصر) فيمن اجتمع اليه من (حضورا) وغيرهم في (ذات عرق) ، فهزمهم (بختنصر) ، ومات (عدنان) في أيامه. فلما هلك (بختنصر) خرج (معدّ) من (حران) الى مكة ، فوجد أخوته وعمومته قد لحقوا بطوائف اليمن ، وتزوجوا فيهم ، فرجع بهم الى بلادهم[3] .

ورجع (الزبيدي) أيام (معدّ) إلى أيام (موسى) إذ قال : « وكان معد بن عدنان في زمن سيدنا موسى عليه السلام ، كما يعرفه من مارس علم التواريخ والأنساب » .

وقد جعل بعض أهل الأخبار أم معدّ بنتاً من بنات يشجب ، قالوا إن اسمها (تيمة) وإنها (تيمة بنت يشجب بن يعرب بن قحطان)[4] . فربطوا بذلك

---

1. قال البجلي في تفرق بجيلة :
لقد فرقتم في كل اوب   كتفريق الاله بنى معد
البكري ، معجم (١/٥٧) .
2. ابن خلدون (٢/٢٩٩) ، المعارف (ص ٢٩) ، نسب قريش (ص ٥) ابن حزم ، جمهرة (٨) ، نهاية الارب (٢/٣٥٢) ، الطبري (٢/٢٩) .
3. ابن خلدون (٢/٢٩٩) .
4. الاشتقاق (ص ٢٧) .

جداً كبيراً في الجاهلية ، كما صوره أهل الأخبار والأنساب ، فلو كان جداً كبيراً ، لوجب عقلاً تردد اسمه ، وورود شيء عنه . والغريب اننا نجد اسم (معد) مذكوراً عند (بروكوبيوس) وفي القديم من الشعر الجاهلي ، مع انه ابن (عدنان) .

وقد وردت في الكتابات النبطية والثمودية أسماء قريبة من اسم (عدنان) ، مثل (عبد عدنون) و (عدنون)[1] . أما الكتابات الجاهلية التي عثر عليها في اليمن ، فلم يرد فيها هذا الاسم ، أو اسم آخر قريب منه .

لقد كان من السهل علينا الوقوف على المنبع الذي أمدّ أهل الأخبار بأصل كلمة (قحطان) . أما بالنسبة الى (عدنان) ، فإن من العسير علينا أن نتحدث عن المنبع الذي أمد أهل الأخبار باسمه . فليس في التوراة اسم يشابهه بين أسماء أبناء اسماعيل ، أو غير أبناء اسماعيل ، وليس فيها اسم ملك عربي أو سيد قبيلة عربية اسمه يشابه اسم (عدنان) . ثم اننا لا ندري كيف عثر عليه أهل الأخبار ، وكيف صيّروه على الوزن الذي صيغ به اسم (قحطان) : هل ابتدعوه ابتداعاً ، أو أخذوه من أفواه أناس أدركوا الجاهلية وكانوا قد وقفوا على اسمه بين أهل مكة أو بين القبائل التي تنسب الى اسماعيل ؟ وهل كان اسم قبيلة أو اسم حلف من الأحلاف ، ثم صيّر اسم رجل فيما بعد . هذه أسئلة يجب أن نعترف بأن من غير الممكن الاجابة عنها في الزمن الحاضر ، لعدم وجود مادة لدينا تساعدنا في استنباط أجوبة منها ، لذلك نترك أمرها الى المستقبل ، فلعل الأيام المقبلة تأتي بمادة جديدة ، تزيح النقاب عن هذا الجهل المطبق باسم عدنان ، وبفكرة عدنان .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان (تهامة) هي موطن العدنانيين ، ومكة من تهامة . ولكن أحوالاً قاهرة أحاطت بالقبائل العدنانية فاضطرتها الى التفرق والهجرة . وكانت (قضاعة) أول من تشتت وتفرق بسبب قتال وقع بينها وبين نزار[2] . ثم أعقب هجرة قضاعة هجرات أخرى من العدنانيين ، فانتشروا في

---

1 Savignac, Mission, Nos., 38, 328, Hardings, Some Thamudic Inscriptions, Leiden, 1952, G. Strenziek, Die Genealogie der Nordaraber nach Ibn Al-Kalbi, Koln, 1953, Enc., Vol., I, P., 210.

2 الاغاني (١٥٤/١١ فما بعدها) ، ابن خلدون (٢٤٠/٢) .

نسب معدّ بنسب قحطان من جهة الأم . بل ذهب هؤلاء الى أبعد من ذلك بأن جعلوا أم (عدنان) ، بنتاً من بنات (يعرب) ، وقد قالوا لها (بلهاء)[1] . فصار (يعرب بن قحطان) بهذا الزواج ، خالاً لعدنان وللذريته العدنانيين .

وجعلها بعض آخر من جديس أو من طسم ، وقالوا إن اسمها (مهدد بنت اللّهم) . ويقال (اللّهم بن جلحب بن جديس) ، وقيل ابن طسم ، وقيل ابن الطوسم ، ومن ولد يقشان بن ابراهيم[2] .

ومن بقية ولد عدنان على رأي أهل الأخبار : عدن بن عدنان ، وزعم أنه صاحب عدن ، وأبين بن عدنان ، وهو صاحب (أبين) على بعض الآراء ، وأد بن عدنان ، وقد درج ، والضحّاك ، والعيّ ، وأم جميعهم أم معد على بعض الروايات[3] .

ونجد لمعد ذكراً في الشعر الجاهلي ، فقد ورد في شعر (امرىء القيس)[4] ، وفي شعر (النابغة الذبياني)[5] ، وفي شعر (زهير بن أبي سُلْمى)[6] ، وفي شعر (قيس بن الخطيم)[7] ، وفي شعر (بشر بن أبي خازم الأسدي)[8] ،

---

١ الاشتقاق (ص ٢٧)
٢ الطبري (٢٧/٢) القاهرة ١٩٣٩ م ، (٢٧٠/٢) « دار المعارف » .
٣ الطبري (٢٧٠/٢) « دار المعارف » .
٤ فابلغ معدا والعباد وطيئا وكندة : اني شاكر لبنى ثعل
شرح ديوان امرىء القيس : للسندوبي (ص ١٦٠) ، Enc., Vol 3, P. 58.
٥ علوت معدا نائلا ونكاية فانت لغيث الحمد اول رائد
ديوان النابغة ، شرح البطليوسي (ص ٣٤ ، ٧٨) .
وان الغدر قد علمت معد بناه في بنى ذبيان باني
٦ عظيمين في عليا معد هديتما ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
ابى الشهداء عندك من معد فليس لما تدب به خفاء
* * *
بلاد بها عزوا معدا وغيرها مشاربها عذب واعلامها ثمل
هم خير حي في معد علمتهم لهم نائل في قومهم وفعائل
شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ، للامام ابي العباس ثعلب ، طبع دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٤٤ م ، (ص ١٧ ، ٨١ ، ١٠٦ ، ١٠٩) ، الزوزني ، شرح (ص ٧٩) ، « صادر » .
٧ ورثنا المجد قد علمت معد فلم نغلب ولم نسبق بوتر
شعر قيس (ص ٣٣) .
٨ هم فضلوا بخلات كرام معدا حيثما حلوا وساروا
ديوان بشر بن ابى خازم الاسدي ، تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق ١٩٦٠م (ص ٧٢) .

وفي شعر (عمرو بن كلثوم التغلبي)[1] ، وفي شعر (عبد المسيح بن عمرو الغساني)[2] ، وفي شعر (المثقب العبدي)[3] ، وفي شعر (سلامة بن جندال السعدي)[4] ، وفي شعر ينسب الى (الحاجب بن زرارة)[5] . يقولون انه قاله يردّ فيه على (الحارث) ، وفي شعر ينسب الى الشاعر (ابن دارة) ، زعموا انه قاله في مدح (حاتم الطائي)[6] ، وفي شعر ينسب الى (زهير بن جناب الكلبي)[7] ، وغيرهم ، كما ورد اسم معد في شعر المخضرمين[8] .

وقد استعملت كلمة (الحي المعدّي) في شعر لـ (حاجب بن زرارة)[9] ، كما ورد (حي في معد)[10] ، مما ينبيء ان معداً كانت مؤلفة من أحياء ، لا من حي واحد ، وجاء في شعر عمرو بن كلثوم : « وقد علم القبائل من معد »[11] ، ويدل ذلك على ان معداً كانت مؤلفة من قبائل ، وانها لم تكن قبيلة واحدة . ونلاحظ أن شعراء الجاهلية القدامى كانوا يستعملون : « قد

---

١ ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا
معلقة عمرو بن كلثوم ، شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٢٥) ، « دار صادر » .

٢ تقسمنا القبائل من معد علانية كأيسار الجزور
الاغاني (٥٨/١١) ، السجستاني ، المعمرون (٣٧) .

٣ المفضليات (٢٩٣) ، ديوان زهير (١٠٦)

٤ همت معد بنا هما فنهنهنا عنا طعان فضرب غير تعذيب
المفضليات (ص ٤٧) ، « سندوبي » .

٥ وقد علم الحي المعدي اننا على ذاك كنا في الخطوب الاوائل
الاغاني (١١ / ١٥٠) .

٦ تحن قلوصي في معد وانما تلاقي الربيع في ديار بني ثعل
العقد الفريد (٣٠٩/١)

٧ البلاذري ، انساب (١٩/١) .

٨ قال ابو ذؤيب :
فان تك انثى في معد كريمة علينا فقد اعطيت نافلة الفضل
ديوان الهذليين ، « طبعة دار الكتب المصرية » ، (٣٧/١) ، شرح اشعار الهذليين للسكري (٨٨/١) .

٩ وقد علم الحي المعدي اننا على ذاك كنا في الخطوب الاوائل
الاغاني ، (١٠٠/١١) ، « دار الكتب المصرية »

١٠ قال زهير بن ابي سلمى :
هم خير حي في معد علمتهم لهم نائل في قومهم وفضائل
ديوان زهير بن ابي سلمى ، لثعلب (ص ١٠٦) .

١١ بيت ٩٤ من معلقة عمرو بن كلثوم ، Goldziher, Muh. Stud., I, S., 91.

علمت معد »[1] . ويقول علماء اللغة : ان معداً « غلب عليه التذكير ، وهو مما لا يقال فيه من بني فلان . وما كان على هذه الصورة ، فالتذكير فيه أغلب . وقد يكون اسماً للقبيلة »[2] . ويستنتج من هذا ان معداً لم تكن في الأصل اسم علم لرجل تنتمي اليه قبيلة معينة ، وانما كانت كلمة عامة تشمل قبائل تشترك في طراز الحياة وان كانت تعتقد انها ترتبط بعضها ببعض برباط النسب .

وقد استعمل حسّان بن ثابت كلمة (معد) في مقابل (الأنصار)،وذكر أن الأنصار (لها في كل يوم من معدّ قتال أو سباب أو هجاء[3])،وأن الأنصار نصروا رسول الله على رغم أنف معد[4] ، وأورد اسم معد في أحد الأبيات مع قحطان[5] ، كما قال عن (بني أسد) إنها (تذبذب في معدّ)[6] ، فاستعمل كلمة معدّ في شعره للدلالة على خصوم الأنصار ، كما استعملها في مقابل قبائل معينة . وخصوم الأنصار هم قريش والمهاجرون . ولما كان الشاعر يعد نفسه من اليمن ، وأهل مدينته من أصل يماني ، فإن من الجائز أن نقول إنه عبر عن فكرة معد وقحطان في هذا الزمان وعن رأي أهل مدينته خاصة في النسب عند ظهور الإسلام .

وبينا يصرف حسّان بن ثابت كل فنّه الى هجاء خصوم الأنصار ، أي أهل مكة والدفاع عن أهل يثرب ، والافتخار بقومه على قوم معد ونزار[7] ، نرى أنه لا يسمي من يهجوهم عدنانين ، ولم يستعمل في شعره الواصل الينا المطبوع اسم عدنان ، فلمَ أغفل حسّان اسم عدنان ؟ أليس عدنان والد معدّ ؟ ألم يكن

---

١ Goldziher, Muh. Stud., I, S., 91.

٢ تاج العروس (٥٠٣/٢) ، اللسان (٤٠٧/١٦) ، « دار صادر » .

٣ وقال الله قد يسرت جنــداً هم الانصار عرضتها اللقــاء
لنا في كل يوم من معــد سبــاب أو قتال او هجــاء
شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص ٦) ، ديوان حسان ، (ص ١) . « طبعة هرشفلد »

٤ ديوان حسان (ص ٥ ، ٦ ، ٢٥) .

٥ فلو سئلت عنه معد باسرهــا وقحطان او باقي بقية جرهمــا
ديوان حسان (ص ٤٤) ، البرقوقي ، شرح (ص ٣٩٨)

٦ ديوان حسان (ص ٤٧) .

٧ وكل محــارب وبنى نــزار تبيــن في مشافره الرضــاع
ديوان حسان (ص ٣٦) .

من الأجلدر به ذكر عدنان وتقديمه على معدّ ؟ ألم يقسم علماء النسب العربَ الى أصلين : أصل قحطاني وأصل عدناني ؟ ألسنا نجد في كتب الأنساب والتأريخ اسم عدنان مقدماً على معدّ ، وأن قبائل معدّ تعد نفسها عدنانية ، كما أن قبائل قحطان تعد نفسها قحطانية ؟ لا يعقل بالطبع أن يكون حسّان قد ترك عدنان والعدنانية ولجأ الى استعمال (معد) لو لم تكن لفظة (معد) أشهر وأعرف وأكثر استعمالاً في أيامه من عدنان . وهذا هو ما نلاحظه أيضاً في سائر الآثار التي تعود الى الجاهلية وصدر الإسلام .

ويلاحظ أن حظ مصطلح (عدنان) و (عدنانية) و (قبائل عدنانية) قد برز في الإسلام بروزاً لا تلحظه في الجاهلية بل حتى في الجاهلية الملاصقة للإسلام ولهذا غلب على مصطلح (معد) و (معدية) و (قبائل معدية) ، فصار (عدنان) في مقابل (قحطان) ومن هنا صار العرب قحطانيين أو عدنانيين، واختفت بالتدريج المصطلحات الانتسابية الأخرى التي شاعت في الجاهلية أو في صدر الإسلام .

ويستنتج من أقوال علماء اللغة أن لفظة (معدّ) تعني الشظف في العيش ، والغلظ في المعاش والتقشف[1] ، وأنها تعني حياة بدوية شاقة بعيدة عن كل وسائل الحضر وترف أهل المدر ، وهذا بالنظر لأهل المدن وأهل المدر نوع من الخشونة لا يحمد الانسان عليه . وقد وصفت ملابسهم بالخشونة كذلك فميزت عن غيرها، جاء « عليكم باللبسة المعدّية » أي خشونة اللباس ، وروي : « اخشوشنوا وتمعددوا »[2] . وبهذا المعنى ورد : « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه »[3] . فالظاهر ان كلمة معد كانت تعني ما تعنيه (اربي) (عربي) عند الآشوريين، أي البدو والأعراب . غير انها خصصت بعد ذلك بقبائل خاصة هي القبائل التي نسبت نفسها الى عدنان واسماعيل ، وأكثرها من مكة وحولها ، ثم تغلبت عليها (العدنانية) في العصر الأموي فما بعده .

والمثل : « تسمع بالمُعَيْدي خير من أن تراه » ، من الأمثال المشهورة

---

١ اللسان (٤/٤١٤) ، الاشتقاق (١/ ٢٠) ، تاج العروس (٢/٥٠٣) .
٢ اللسان (٤/٤١٤ فما بعدها) ، ديوان النابغة مع شرحه ، للبطليوسي ، (ص ١٠) ، اللسان (١٦/٤٠٧) ، « دار صادر » .
٣ تاج العروس (٢/٥٠٣) ، الميداني ، مجمع الامثال (١/ ١٢٩) ، المثل رقم ٦٥٥

المعروفة حتى الآن . ويرتفع أهل الأخبار بزمنه الى أيام الجاهلية ، ويقولون ان النعمان بن المنذر تمثل به يوماً[1] . ولفظة (معيدي) ، تصغير (معدي) ، ويراد بها رجل من معد . وفي اطلاق هذا المثل بهذا المعنى دلالة على المعاني المتقدمة . وفي رواية أن قائل هذا المثل هو (المنذر بن ماء السماء)[2] . وقد استخف النابغة الذبياني بمعد أيضاً اذ قال :

ضلت حلومهم عنهم وغرّهُمُ سن المعيدي في رعي وتغريب[3]

ولا أستبعد أن يكون بين لفظة (معيدي) و (مِعْدان) التي تطلق في العراق اليوم على الغلاظ السود من بعض الأعراب ، وبين (معد) صلة، فقد كانت مواطن (معد) في العراق أيضاً ، والصفات المذكورة تنطبق على المعدان كذلك .

وقد اتهمت (معد) بالمكر والحيلة والكيد ، فورد في الأخبار « وان هذه المعدية لا تخلو من مكر وحيلة » ،وورد « كنت أخبرك ان معداً لا ينام كيدها ومكرها » ، وورد « ان عدي بن زيد فيه مكر وخديعة ، والمعدي لا يصلح الا هكذا »[4] مما يدل على أن ملوك الحيرة كانوا لا يأمنون من القبائل المعدية ولا يعتمدون عليها ، ولذلك كانوا يحذرونها .

كما اتهم ولد نزار بالحيل ، قال (المسعودي) : « ورأيت ببلاد مأرب من أرض اليمن أناساً من عقيل محالفة لمذحج ، لا فرق بينهم وبين أحلافهم ، لاستقامة كلمتهم ، فيهم حيل كثيرة ومنعة ، وليس في اليمن كلها أحيل من نزار بن معد غير هذا الفخذ من عقيل ، الا ما ذكر من ولد أنمار بن نزار ابن معد ، ودخولهم في اليمن حسب ما ورد به الخبر »[5] .

وورد في كتاب (تأريخ الحروب) لـ (بروكوبيوس Procopius) المتوفى

---

١ فقال النعمان : تسمع بالمعيدي لا ان تراه ، البيان (١٧٣/١ ، ٢٣٧) ، « لان تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » ، الميداني ، مجمع الامثال (٢٢٨/١) ، الاشتقاق (٢٤٤)

٢ تاج العروس (٢ /٥٠٧) ، مجمع الامثال ، للميداني (١١٣) .

٣ ديوان النابغة الذبياني (١٧) .

٤ الاغاني (٢٢/٢) .

٥ مروج (١٧٣/١) ، « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » .

سنة (٥٦٥ م) ، أي في زمن لا يبعد كثيراً عن ميلاد الرسول ، ذكر قبيلة من قبائل (السركينوى) Sarakenoi سماها (Maddeni) (Maddenoi) ،وقال انها كانت خاضعة لحكم Homeritae ، وان (يوسطنيانوس) (جستنيانس) (٥٢٧ — ٥٦٥ م)[١] ، قيصر الروم ، أرسل رسولاً الى ملك الـ Homeritae لينضم الى الروم ويوافق على تعيين شيخ اسمه (Caisus) (Kaisus) على Maddeni ، وتأليف جيش مشترك من (هوميريته) و (مديني) (معديني) لمهاجمة الفرس وشن الغارات على حدودهم . وقد نصب ملكاً على (مديني) ، ورجع الرسول ليخبر القيصر ، غير أن الملكين لم يغزوا أرض الفرس[٢] .

وقصد (بروكوبيوس) بـ (مديني) Maddeni (معداً) وبـ (هوميريته) Homeritae (حميراً) ، وعنى بذلك اليمن . وكانت معد خاضعة يومئذ لحمير ، وكان هذا الزمن زمن استيلاء الحبشة على اليمن . و Caisus الذي نصب ملكاً على (معد) هو (قيس) ، وكان صاحب كفايات ، شجاعاً محارباً ، وكان قد قتل أحد اقرباء ملك Homeritae ، وكان هذا الملك هو Esimiphaeus ، أي (السميذع أشوع) ، الذي نصبه النجاشي نائباً عنه على اليمن ، فتلقب بلقب (ملك) . والظاهر أن وساطة القيصر لدى (السميذع) إنما كانت لإصلاح ذات البين ، ولتسوية ذلك الحادث . وقد تم على ما يظهر ونجحت الوساطة ، وتلقب (قيس) وهو رئيس (معد) بلقب ملك . ولا أستبعد أن يكون (قيس) هذا أحد رؤساء القبيين .

وقد ذكر (بروكوبيوس) أن معداً هم جماعة من (السركينوى) ، أي جماعة من القبائل التي عرفت عند اليونان باسم (السرسين) أيضاً ، كما ذكرت ذلك في السابق . وهذا يعني أن معداً لم تكن في أيام ذلك المؤرخ الذي لم يبعد عهده عن الإسلام كثيراً ، على النحو الذي يصوّره الأخباريون . وكل ما في الأمر أنها قبيلة أو مجموعة قبائل تسمى بـ (معد) ، وأنها كلها أو قبيلة منها كانت خاضعة لحمير ، أي للسلطة الحاكمة على اليمن يومئذ ، وهي الحبشة ، ثم استقلت عنها . أما بقية معد ، فلم يتحدث المؤرخ عنهم ، لذلك لا ندري

---

١ « يوسطنيانوس » ، الطبري (٧٤٣/١) ، « طبعة اوربة » ،
Procopius, History of the Wars, P., 181, (H.B. Dewing).
٢ Procopius, History of the Wars, P., 181.

أكان (معد) (بروكوبيوس) هم كل معد أو جماعة منها .

وإذا كان الشعر المنسوب الى (ابن بقيلة) ، وهو من نقباء الحيرة وسادانها صحيحاً ، تكون كلمة (معد) معروفة في ذلك العهد ، على نحو يفهم منه أنها كانت تعني قبائل عديدة أعرابية تنضوي كلها تحت هذه التسمية . فقد جاء في شعره ألم وتوجع لما حل بأهل الحيرة بعد الفتح ، فقد رأى سواماً تروح بالخورنق والسدير بعد ما كانا مكانين مختارين للمنذرين ، وبعد فرسان النعمان، يرى الناس قلوصاً بين (مرة والحفير) ، وصاروا بعد هلاك (أبي قبيس) كجُرب المعز في اليوم المطير ، وقد تقاسمتهم القبائل من معد ، علانية كأيسار الجزور ، بعد أن كانوا أناساً لا يرام لهم حريم،وصاروا كضرة الضرع الفخور، يؤدون الخراج بعد خراج كسرى ، وخراج من قريظة والنضير ، ثم خلص الى نتيجة يخلص اليها من ييأس ويقنع ، فقال :

كذاك الدهر دولتُه سجالٌ فيوم من مساءة أو سرور[1]

وقد ذكر (الطبري) ان خالداً لما أمره (أبو بكر) بفتح العراق ، وقصد الأُبلّة ، حشر ثمانية آلاف من ربيعة ومضر الى ألفين كانا معه[2] ، وربما قصد (ابن بقيلة) من (معد) هذه القبائل التي انضافت الى خالد . ولكن القبائل التي انضافت الى خالد في العراق أو التي حاربته هي من مضر وربيعة في الغالب، وبين سكان الحيرة قوم يرجعون أنسابهم الى تميم والى قبائل معدية،فكيف يتألف (ابن بقيلة) من إدبار الدنيا ومن اعراضها عنه وعن أمثاله حتى صاروا في حكم (معد) ، وقد اقتسمتهم قبائل معد . فالظاهر انه كان يتأفف لأن الأمر أدبر منه ومن سادة أهل الحيرة والقرى ، وهم حضر مستقرون ، لهم نعيم وملك وقصور وبيوت وعيش رغيد . ولكن الدنيا أدبرت عنهم ، وسلمت الأمر الى قبائل من معد ، وهم أعراب ، وصار أمرهم اليهم ، فتأفف من ذلك الزمان .

وقد عرف (حذيفة بن بدر) سيد غَطَفان بـ (رب معد)[3] ، وكان من

---

١ الطبري (٣/٣٦٢) .
٢ الطبري (٣/٣٤٧)
٣ المعارف (ص ٣٨) .

أشرف بيوتات هذه القبيلة،التي كانت محالفة لـ (أسد) . وقد عرفتا بـ (الحليفتين)[1] مما يدل على أنهما كانتا متحالفتين . ويدل هذا النعت الذي نعت به (حذيفة) ، وهو (رب معد) ، على ان معداً كانت قبائل ، وكل منهــا تنتسب اليها ، وانها لم تكن قبيلة معينة ، أي انها كانت قبائل ترى نفسها انها من نسب واحد، وان قبيلة واحدة منها اذا برزت وظهرت جاز لها أن تمثل قبائل معد، وأن ينعت رئيسها نفسه ببعض النعوت التي تدل على ترأسه لها ، ومنها (رب معد) .

فيتبين من كل ما تقدم ان (معداً) كلمة أريد بها أعراب كانوا يتنقلون في البوادي ، يهاجمون الحضر والأرياف بصورة خاصة ، لأنها كانت أسهــل صيد للأعراب بسبب بُعد أهلها عن سيطرة الحكومة المركزية ، وعــدم وجود قوات دفاعية رادعة لتدافع عنهم . وكانوا يباغتون الناس ويفاجئونهم ، وكانت حياتهم حياة قاسية صعبة . ولم يكونوا قبيلة واحدة،ولكن قبائل عديدة ، تتشابه في المعيشة ، وتشترك في فقرها وفي تعيشها على الغزو والتنقل ، وقد كانت تقيم في البوادي وعلى أطراف الحضارة ، كانت مواطنها باديــة الشام ونجد والحجاز والعربية الشرقية . ثم صارت اللفظة علماً لرجــل صير جداً للقبائل التي عاشت هذه المعيشة ، وعرفت بهذه التسمية على الطريقــة المعروفة عند العرب وعند غيرهم من الساميين من تحويل أسماء الأماكن أو الأصنام أو المحالفات الى أسماء أجداد وآباء .

وقد كانت (تهامة) موطن أبناء معد على حسب رأي أهل الأخبار . سكنت قضاعة من ساحل البحر حيث أنشأت (جدة) فيما بعد الى حيز الحرم ، وسكن أبناء جنادة بن معد منطقة الغمر : غمر ذي كندة ، وكانت كندة قد أقامت بها أيضاً فعرفت بها . وسكن أبناء قنص بن معد وسنام بن معد ، وبقية ولد معد أرض مكة ، حيث أقاموا مع بقايا جرهم . ظلوا على ذلك متساندين متآلفين تضمهم المجامع ، وتجمعهم المواسم ، حتى وقع الشر بينهم ، فتفرقوا وتخاذلوا

---

١ وسمع عيينة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : غفار واسلم ومزينة وجهينة خير من الحليفتين اسد وغطفان ، الاشتقاق (١٧٣/٢) .

وقاتل بعضهم بعضاً ، يقتل العزيز منهم الذليل[1] .

علك :

وقبائل علك ،هي القسم الآخر الشهير من أقسام قبائل عدنان ، وتقع أرضها في جنوب أرض معد ، شقيق علك . وقد زعم أهل الأخبار أن (بختنصر) لما هاجم (حضورا) انطلق (علك) الى أرض اليمن ، فاستقر بها ، فاختلط من ثم نسب علك باليمانيين[2] . وقد سكن العكيون تهامة اليمن الى جُدَّةَ . ومن معاني لفظة (علك) في اللغة الحر الشديد[3] .

وقد تصور جماعة من النسابين وجود صلة بين (علك) و (الأزد)[4]. والظاهر أن ذلك إنما وقع لهم من اختلاط منازل القبيلتين . وزعم بعض الأخباريين أن نسب علك كان في اليمن في الأصل ، ثم انتقل الى معد ، بعد قتال وقع بين علك وغسان في تهامة ، تغلبت فيه غسان على علك ، فأجلتها عن أوطانها ، فمن ثم انتفت علك من اليمن ، وانتسبت في معد[5] .

---

١ قال مهلهل :

غنيت دارنا تهامة في الدهر وفيها بنو معد حلولا
فتساقوا كأسا أمرت عليهم بينهم يقتل العزيز الذليلا

البكري ، معجم (١ /١٨) ، « طبعة السقا » .

٢ تركنا الايث اخوتنا وعكا الى سمران فانطلقوا سراعا
وكانوا من بني عدنان حتى اضاعوا الامر بينهم فضاعا

الطبري (١٩١/٢) ، البكري : معجم ، (٥٣/١ فما بعدها) ، البلاذري ، انساب (١٣/١) .

٣ يوم عك اك ، اي شديد الحرارة ، مجالس ثعلب (ص ٢٤٨) ، اللسان (٢٥٣/٢) تاج العروس (١٦٣/٧) .

٤ ابن خلدون (٢٩٩/٢) ، ابن حزم (٣٠٩) ، تاج العروس (١٦٣/٧) ، اللسان (١٢ / ٣٥٧) .

٥ وهذه الرواية اليمانية تتمثل في شعر « نشوان بن سعيد الحميري » الذي قال :

الم تر عكا هامة الازد اصبحت مذبذبة الانساب بين القبائل
وعقت اباها الازد واستبدلت به ابا لم يلدها في القرون الاوائل

منتخبات في اخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان بن سعيد الحميري ، ليدن ١٩١٦ (ص ٧٤) قارن ذلك برواية الطبري (١٩١/٢) .

وقد سيق نسب (علك) على هذه الصورة : (علك بن الديث بن عدنان) في بعض الروايات،وسيق على صور أخرى مثل : (علك بن عدنان بن عبدالله) من بطون الأزد[1] .

وهناك بيت شعر للشاعر (العباس بن مرداس) يتكثر بعلك على اليمن ، حيث يقول :

وعلك بن عدنان الذين تلعبوا   بغسّان حتى طردوا كل مطرد[2]

ومضمون هذا البيت يخالف ما جاء في الرواية الأخرى التي تدعى تغلّب غسان على علك .

وقد ذكر (ابن دريد) أن (عدنان) والد (علك) ، هو (عدنان بن عبدالله بن الازد)،وأن من نسب (عكاً) الى الازد ، نسبه الى هذه الصورة[3] فجعل (عدنان) حفيداً من حفدة الأزد .

وقد ورد في جغرافيا (بطلميوس) اسم شعب من الشعوب العربية ، دعي بـ Anchitae Achitae Akkitae Akkitai[4] ، مواطنه هي المواطن التي نسبها النسابون الى (علك) ، لهذا ذهب الباحثون المحدثون الى أن هذا الشعب هو (علك)[5] . وعلى ذلك تكون إشارة (بطلميوس) اليهم أقدم إشارة الى هذه القبيلة في التأريخ . وتكون (علك) بذلك من القبائل المعروفة قبل الإسلام بزمان . وهي لا بد أن تكون قد عرفت قبل (بطلميوس) وإلا لم يذكرها هذا الجغرافي في جغرافيته .

غير أن (بطلميوس) لم يشر الى أصلها ونسبها ، ولا الى صلتها بغيرها من القبائل . وكل ما ذكره عنها أنها قبيلة من قبائل العرب، تسكن في المواضع التي عينها في كتابه المذكور .

---

١ ابن خلدون (٢ /٢٩٩) ، ابن حزم (٣٠٩) ، تاج العروس (١٦٣/٧) ، اللسان (١٢ / ٣٥٧) .

٢ نسب قريش (ص ٥) .

٣ اشتقاق (٢٨٧) .

٤ Glaser, Skizze, 2, S., 256, Forster, Vol., I, P., 89.

٥ Enc., Vol., I, P., 241.

اولاد معد :

وولد معد بن عدنان عدداً من الأولاد ، جعلهم بعض الأخباريين أربعة ، هم : نزار بن معد ، وقضاعة بن معد ، وقنص بن معد ، وإياد بن معد[1] . وجعلهم بعض آخر أكثر من ذلك ، اذ أضافوا الى المذكورين عبيد «الرماح ابن معد ، وقد دخل أبناؤه في (بني مالك بن كنانة) ، والضحّاك بن معد ، قالوا : أغار على بني اسرائيل[2] ، وقناصة بن معد ، وسناماً، وحيدان ، وحيدة، وحيادة ، وجنيداً ، وجنادة ، والقحم ، والعرف ، وعوفاً ، وشكاً ، وأمثال ذلك[3] .

وزعموا ان الإمارة كانت لقنص بعد أبيه على العرب . وأراد اخراج أخيه نزار من الحرم ، فأخرجه أهل مكة ، وقدموا عليه نزاراً[4] .

ويُخرج بعض أهل الأخبار (قضاعة) من صُلب معد ، فيضيفها الى القحطانين ، على حين نرى فريقاً آخر من النسابين ومن ورائهم القضاعيون يعدّون أنفسهم من أقدم أبناء معد ، فيقولون : قضاعة ابن معد ، وبه كان يكنى معد[5] ، أي انهم أقدم أبناء معد . ويروون في ذلك شعراً من أشعار قضاعة في الجاهلية وبعد الجاهلية[6] . وفي كل ذلك أثر التعصب القبلي الذي كان يتحكم في النفوس ، ويظهر في النسب . ويذكر النسابون الذين يرجعون نسب قضاعة الى حمير انها من نسل قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ كما رأيت[7] .

ونرى (الكُميت) يعير قضاعة ويهجوها بانتمائها الى اليمن وادعائها انها من (قضاعة بن مالك بن حمير) ، وانما هو (قضاعة بن معد بن عدنان)[8] .

---

١ ابن هشام (٧/١) ، واكثر النسابين على ان ايادا من نسل نزار بن معد ، التنبيه (ص ٢٩) ، سبائك الذهب (ص ٢٠) ، البلاذري ، انساب ، (١٣/١)
٢ ابن حزم ، جمهرة (ص ٨) ، اللسان (٣٥٢/٨) ، ابن خلدون (٣٠٠/٢)
٣ الطبري (٦٧١/١) (١٩٠/٢) ، « طبعة اوربة » الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠) (٥٨/١) « طبعة بيروت » ، ابن حزم ، جمهرة (٩) البلاذري ، انساب (١٣/١)
٤ ابن خلدون (٣٠٠/٢) .
٥ الطبقات (حـ١ ، ق١ ، ص ٣٠) ، (٥٨/١) « طبعة بيروت » .
٦ نسب قريش (ص ٥) .
٧ المعارف (ص ٢٩) ، نسب قريش (ص ٥) .
٨ رأيتكم من مالك وادعائه   كراثمة الاوتاد من عدم النسل
وحظك من قحطان ان كنت منهم   ومن مالك حظ البغي من الحمل
المعاني الكبير (٥٢٤/١)

وقد شبهها بالرئال لمفارقتها نزاراً ، وانتقالها الى اليمن[1] .

ويشير اختلاف النسابين هذا في نسب قضاعة الى اختلاط قبائل قضاعة بقبائل معد وبقبائل اليمن ، فانتمى قسم منهم الى معد ، وقسم منهم الى اليمن ، ومن هنا وقع هذا الاختلاف . وأرى ان لاختلاط قبائل قضاعة في بلاد الشام وفي أماكن أخرى بقبائل ترجع نسبها الى قحطان دخلاً في إدخال نسبها في اليمن . وقد يكون ذلك في العصر الأموي بصورة خاصة ،حيث صار نزاع قيس وكلب ، أي نزاع عدنان واليمن نزاعاً سياسياً عنيفاً قسّم عرب بلاد الشام الى جماعتين متباغضتين ، تسعى كل جماعة لضم أكثر ما يمكن من القبائل اليها ، ولا سيما القبائل القوية المهمة مثل قضاعة . فأدخلها اليمانيون لذلك فيهم وألحقوا نسبها باليمن . أما قضاعة الباقون الذين كانوا في أرضين أخرى ، فلم يقع عليهم مثل هذا التأثير ، وقد كانوا أكثر استقلالاً ، وعلى اتصال متين بالعدنانيين ، ولهذا أبوا إلحاق نسبهم بقحطان .

وإذا غربلنا أخبار الأيام ، وبعض الروايات التي يرويها أهل الأخبار ، فإننا نتوصل منها الى أن قضاعة كانت قد اشتركت مع ربيعة ومعدّ في محاربة (يمن). فقد ذكر مثلاً : أن (عامر بن الظرب العدواني) قاد ربيعة ومضر وقضاعة كلها (يوم البيداء) ، لليمن حين تملحجت على بني معد[2] . وذكر أن (ربيعة ابن الحارث بن زهير التغلبي) قاد مضر وربيعة وقضاعة يوم السلان الى أهل اليمن ، وأن ابنه (كليب بن ربيعة) ، وهو (كليب وائل) ، قاد ربيعة ومضر وقضاعة يوم (خزازى) الى اليمن[3] . ولعل في هذه الأمثلة وفي غيرها تأييداً لرأي غالب قضاعة وبقية النسابين الذين يرجعون نسب قضاعة الى بني معد، أي أنها كانت في حلف مع ربيعة ومضر ، وهما من بني معد . ولما كانت ربيعة ومضر في نزاع مع اليمن ، كانت قضاعة معها في هذا النزاع .

وتذكر (قضاعة) في الأخبار مع (مضر) و (ربيعة) و (اليمن)[4] وهذا

---

١ فلما استرالت حسبت سواء   مفارقة الرعيل الى الرعيل
المعاني الكبير (٣٥٣/١) .
٢ المحبر (ص ٢٤٦)
٣ المحبر (ص ٢٤٩)
٤ المحبر (ص ١٤٤) .

يدل على أنها كانت في منزلة المذكورين في الكثرة والمكانة . وقد عدت في قبائل (الحلة) من العرب ما خلا علافاً وجناباً[1] . وأهميتها هذه وكثرة عددها ، دفعت العدنانيين والقحطانيين الى ضم نسب قضاعة اليهم ، لما كان في هذا الضم من أثر كبير في تقوية مركز أحد الطرفين .

ويذكر (ابن سعد) أن ولد (معد) تفرقوا في غير بني معد سوى (نزار)[2] وقد أدرك (ابن سعد) وأمثاله ذلك من اختلاطهم باليمانيين ، الأمر الذي أدى الى تداخل النسب ، فصارت أنسابهم لذلك مترجحة بين قحطان وعدنان .

نزار :

وهو جد القبائل (النزارية) المنحدرة على رأي النسابين من نزار بن معد من زوجه (معانة بنت جوشم بن جلهمة) ،أو (معانة بنت جهلة) من جرهم[3]. وهو على زعم الأخباريين والد أربعة أولاد ، هم : ربيعة ، ومضر ، وأنمار وإياد[4] . وهم أجداد قبائل كثيرة في الوقت نفسه . وقد انتشرت هذه القبائل في أواسط بلاد العرب وشماليها ، وهناك أسطورة رواها المؤرخون والنسابون عن اختصاص كل ولد من أولاد نزار وعن المناطق التي نزلت بها قبائلهم واحتكامهم الى (الأفعى الجُرهمي[5]) أو (أفعى نجران[6]) .

وقد زعم بعض أصحاب الأخبار أن أم ربيعة وأنمار : (حدالة) «جدالة» بنت وعلان بن جوشم بن جلهمة بن عمرو) من جرهم ، وأن أم (مضر)

---

١ المحبر (ص ١٧٩)
٢ الطبقات (١/٥٩)
٣ تاج العروس (٣/٥٦٣) ، السهيلي ، روض الانف (١/٨) ، الطبري (٢/١٩٠) الطبقات (حـ١ ، ق ١ ، ص ٣٠) ، المحبر (ص ١٣٢)
٤ Enc., Vol., 3, P., 939, Wuestenfeld, Geneal. Tab., A. 3.
٥ الفاخر (ص ١٥٥ فما بعدها) ، حكم الافعى ، الطبري (١/١١٠٨) مروج (٢/٣٥) ، طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد ، لقد تأثر بهذه القصة الفيلسوف الفرنسي « فولتير » في « Zadig » , Enc., Vol., 3, P., 940.
٦ ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، البلاذري ، انساب (١/٢٩)

(سودة بنت عك)[1] ، كما زعم بعض المؤرخين أن إياداً وأنماراً هما من أبناء معدّ . وأما نزار ، فقد كان من عقبه البطنان : ربيعة ، ومضر[2] .

وقد نعتت مضر بـ (الحمراء) ، فقيل : (مضر الحمراء)[3] ، ونعتت إياد بـ (الشمطاء) و (البلقاء) ، وقيل لربيعة (الفرس) ، ولأنمار (الحمار)[4] .

ويقال للنزاريين : (نزارية) و (بنو نزار) و (أبناء نزار) . أما التنزر ، فالانتساب الى نزار ، ويقال : تنزر الرجل ، اذا تشبّه بالنزارية ، أو أدخل نفسه فيهم[5] . واستعملت (النزارية) في مقابل (اليمانية) في أيام الأمويين[6] .

ويرى (ليفي ديلافيدا) ان (النزارية) فكرة سياسية نجمت في العصر الأموي ، في وسط ذلك الصراع الحزبي المعروف ، وعلى الأخص بعد معركة (مرج راهط) ، وانها لا تمثل حقيقة تأريخية ، فهي لا تعني رابطة قبائل بالمعنى المفهوم . ومن رأيه ان هذا الموضوع لم يدرس دراسة كافية بعد ، وان المواد اللازمة لدراسته غير متوافرة[7] .

وقد ذهب أيضاً الى أن أقدم من ذكر اسم (نزار) من الشعراء الجاهليين هو (بشر بن أبي خازم)[8] ، و (كعب بن زهير) من الشعراء المخضرمين[9] ويرى ان (بني نزار) الواردة في شعر (حسان بن ثابت) لا تعني النزارية ، أي أبناء نزار بن معد بن عدنان على نحو ما يذهب اليه أهل الأنساب ، بل

---

١ الطبري (٢/١٩٨) ، خبية بنت عك بن عدنان ، نسب قريش (ص ٦)

٢ ابن خلدون (٢/٣٠٠)

٣ قال بشر بن ابي خازم الاسدي :
دعوا منبت السيفين أنهما لنا ... اذا مضر الحمراء شبت حروبها

٤ اللسان (٧/٥٩) .

٥ ديوان حسان (ص ٣٦) ، الجمحي ، طبقات الشعراء (ص ٥) ، اللسان (٧/٥٩)
Enc., Vol., 3, P., 940.

٦ التنبيه (ص ٧٠)

٧ Enc., Vol., 3, P., 940. f.

٨ المفضليات (ص ٦٦٧) ، قال بشر بن ابي خازم :
مضى سلافنا حتى حللنا ... بارض قد تحامتها نزار
ديوان بشر (ص ٦٧) ، المفضليات (ص ١٦٢) « السندوبي » ،
Enc., Vol., 3, P., 940.

٩ صدموا عليا يوم بدر صدمة ... ذلت لوقعتها جميع نزار
الجمحي ، طبقات (ص ٢١) ، الطبري (١/١١٠٦) ، « طبعة أوربة » .

جماعة أخرى هي من نسل (نزار بن معيص بن عامر بن لؤي) من قريش[١] .

ويرى (ليفي ديلافيدا) أيضاً ان ما ورد في شعر (أمية بن أبـي الصلت) من شعر ، نسب فيه ثقيفاً الى نزار[٢] ، وما ورد في قصة (الأقرع بن حابس التميمي) من ذكر (نزار) ، لا يمكن أن يبعث الثقة الى النفوس ولا الاطمئنان الى القلوب ، بل يظهر ان ما ورد انما وضع لأغراض واضحة هي على زعمه إلحاق نسب ثقيف بنزار ، وقد كان ذلك موضع جدل في ذلك العهد ، وإثبات نسب (بجيلة) وهو نسب كان موضع جدل أيضاً[٣] .

أما أنا ، فأرى ان (نزاراً) من القبائل التي كانت معروفة في القرن الرابع بعد الميلاد ، بدليل ورود اسمها في النص المعروف بـ (نص النمارة) الـذي وضع على قبر (امرىء القيس) ، ويعود عهده الى سنة (٣٢٨) للميلاد . فقد ذكرت في جملة القبائل التي خضعت لحكمه . ولكن النص لم يتحدث عن نسب نزار ومواضعها في ذلك الزمن . وفي الجملة انها ذكرت مع قبيلة (أسد) .

وتتألف القبائل النزارية من ربيعة ومضر وإياد وأنمار[٤] ، على رأي من جعل أنماراً ابناً من أبناء نزار . فأما إياد ، فقبيلة كانت مواطنها تهامـة الى حدود نجران ، ثم انتشرت بسبب حروب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر ، فارتحل قسم منها الى العراق ، وانضم قسم آخر الى قضاعة وأقام بالبحرين ، وسكن قسم منها في (وادي بيشة) ، وهاجر آخرون الى بلاد الشام[٥] .

وقد كانت رئاسة مضر الى ربيعة في أيام (كليب بن ربيعـة) ، المعروف أيضاً بـ (كليب وائل)[٦] . وقد كانت مضر وربيعة متجاورتين ومتحالفتين ، ودليل ذلك اقتران اسم أحدهما بالآخر ، وجعل أهل الأنساب مضر شقيقاً لربيعة غير أن تحاسداً شديداً كان يقع بين سادات مضر وسادات ربيعة ، وطالما كانت

---

١ وكـل محارب وبنـي نـزار تبيـن في مشافـره الرضاع
ديوان حسان (ص ٣٦) ، البرقوقي ، شرح ديوان حسان (ص ٢٦٦) .
Enc., Vol., 3, P., 940, Wuestenfeld, Genea., S., 15.

٢ ديوان امية (ص ٦٩) ، وهو من الشعر المنسوب اليه ، Enc., Vol., 3, P., 940.

٣ النقائض (طبعة بيفان) ، (ص ١٤١ فما بعدها) ، ابن هشام (٥٠/١) ، «طبعة وستنفلد » Enc., Vol., 3, P., 940.

٤ ابن خلدون (٣٠٠/٢) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٩) .

٥ Enc., Vol., 2, P., 565, Wuestenfeld, Register.

٦ الفاخر (ص ٧٥ وما بعدها) .

إحداهما تفتخر على الأخرى ، وترى أنها أعز مكانة ونفراً من شقيقتها ، كالذي يحدث بين القبائل .

ويظهر أن الأمر قد اختلط على بعض أهل النسب في قضية (إياد)، فجعلوا إياداً ابناً من أبناء معد ، أي شقيقاً لنزار ، وجعلوه إبناً لنزار ، فصيروه شقيقاً لربيعة ومضر وأنمار . وقد ذكر المسعودي أن إياداً ينسبون الى القبيل الأكبر ، وليست لهم قبائل مشهورة . ويذكر قوم أن ثقيفاً من إياد ، ويرى فريق أنهم من قيس عيلان[1] .

وأما (قنص بن معد) ، فيزعم قوم أن (آل المنذر) ملوك الحيرة منهم[2]. ويظهر من عدم ذكر أسماء قبائل تنسب الى قنص أن قنصاً لم تكن من القبائل الكبرى ، وأنها دخلت في القبائل الأخرى قبل الإسلام ، فنسيت ، فلما دوّن أهل الأخبار الأنساب ، لم يكن لها شأن يذكر عندئذ غير الاسم .

ويلاحظ أن النسابين الذين جعلوا (آل نصر) من (قنص بن معد) ، أي من العدنانيين ، يذكرون أنفسهم ويروون في كتبهم أن نسبهم هو من اليمن ، وأنهم من أصل قحطاني .

ويذكر أهل الأخبار أن ربيعة ومضر حاربوا أبناء قنص بن معد وتغلبوا عليهم ، حتى أخرجوهم من ديارهم فتفرقوا في البلاد ، وذهب جمع منهم الى سواد العراق ، ولكنهم اصطدموا بالنبط الارمانيين من ملوك النبط،فتراجعوا واستقر قسم منهم في الأنبار والحيرة[3] .

وأما (مضر بن الياس) فولد (الياس بن مضر) ، والياس ، وهو قيس عيلان . وعرف أبناء (الياس) بـ (خندف) نسبة الى أمهم (خندف) ، وهم : مدركة ، وطابخة ، وقمعة[4] . وذكر المسعودي أن مضر ترجع الى حيين،

---

١ المعارف (ص ٢٩)

٢ المعارف (ص ٢٩) ، الطبري (٦١١/١) ، « دار المعارف » ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٨) ، البكري معجم (٥٢/١) ابن هشام (٥/١)

٣ البكري ، معجم (٥٢/١ وما بعدها) ، « طبعة السقا » .

٤ المعارف (ص ٣٠) « وكانت امهم ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وهي خندف ، فغلب على من ذكرنا الالقاب ، ونسب ولد الياس الى امهم خندف » ، مروج (٣٩٦/١) ، نسب عدنان (ص ١) ، ابن حزم ، جمهرة (٩) البلاذري ، انساب (٣١/١) .

هما : خندف ، وقيس[1] .

ومن النسابين من يزعم أن (قمعة) ، واسمه (عمير) ، هو والد خزاعة . أما خزاعة ، فتأبى ذلك ، وترجع نسبها الى غسان[2] .

وورد في شعر الشعراء المعاصرين لبني أمية : (ابنا نزار) ، وقد قصدوا بذلك (ربيعة) و (مضر)[3] ، كما ورد (بحرا نزار) في المعنى نفسه[4] . وجعل (ابن جني) ، اللغة العربية التي نزل بها القرآن (لغة ابني نزار)[5] .

وقد سمى (الفرزدق) (قيس علان) و (خندفاً) بـ (الحيين) المكونين لمعد[6] . وورد في شعر للعجاج (حَيَّيْ مُضَر)[7] . وجاء في شعر لجرير :

اذا أخذت قيس عليك وخندف بأقطارها ، لم تدر من حيث تسرح[8]

مما يدل على ان قيساً وخندفاً ، كانا من القبائل القوية في هذه الأيام .

ويظهر من تقسيم النسابين قبائل مضر الى حين : خندف وقيس عيلان ، ان تلك القبائل كانت حلفاً في الأصل ، ثم انفصمت عراه ، أو ان خندفاً تحالفت مع قبائل قيس عيلان ، وربطت نسبها بنسب مضر . وتتألف خندف من

---

١ مروج (٣٩٦/١) .

٢ نسب قريش (٨)

٣ قال جرير :

وابنا نزار احلاني بمنزلة في راس أرعن عادي القداميس

الجمحي ، طبقات (ص ٨٩) .

وقال الراعي :

تابى قضاعة ان تعرف لكم نسبا وابنا نزار فانتم بيضة البلد

الجمحي ، طبقات (ص ١١٨)

٤ قال الكميت :

اضحت عداوتهم اياي اذ ركبوا بحري نزار بهم منفشة القرب

المعاني الكبير (٨٥٥/٢) ، (١١٣٤/٣) .

٥ « وبعد فلسنا نشك في بعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابنى نزار » ، الخصائص (٣٩٢/١)

٦ اذا اجتمع الحيان قيس وخندف فثم معد هامها وعديدها

ديوان الفرزدق (١٨٩) .

٧ نسب عدنان (ص ٢) .

٨ نسب عدنان (ص ٢) .

قبائل مهمة ، منها ضبة ، وتميم ، وخزيمة ، وهذيل ، وكنانة ، وقريش ، وأسد وغيرها . وأما قيس عيلان ، فمن قبائلها : فهم ، وعدوان ، وغطفان ، وعبس ، وذبيان ، وسُليم ، وهوازن ، وباهلة ، وغنى ، وغيرها من قبائل سيأتي ذكرها بعد قليل .

وأما مدركة بن الياس ، فولد : خزيمة ، وهذيلاً ، وأسداً ، وكنانــة . فأما هذيل ، فأولد ثلاثة : سعداً ، ولحياناً ، وعمراً ، والعدد في سعد بن هذيل : تميم وحريث ، ومنعة ، وخزاعة ، وجهامة ، وغنم ، وولد تميم معاوية والحارث[1] .

وجعل « مصعب بن عبدالله بن مصعب الزبيري » أولاد مدركة ولدين ، هما خزيمة وهذيل . أما أسد وكنانة ، فهما عنده ولدان من أولاد خزيمة[2] .

وأما خزيمة ، فله من الولد كنانة ، وأسد ، وأسدة ، والهون[3] . وولد أسد دودان ، وكاهلاً ، وعمراً وحلمة . فهؤلاء (بنو أسد) ، ومنهم تفرقت أسد كلها . ومن بطونهـم المشهورة : (بنو قعس) ، وبنو الصيداء ، وبنو نصر ابن قعين ، وبنو الزينة ، وبنو غاضرة ، وبنو نعامة . أما ولد الهون ، فهم : القارة ، ومن القارة : عضل ، والديش ، وهما قبيلا الهون . وقــد اشتهرت القارة بالرماية[4] . وجعل (الزبيري) ولد الهون ثلاثة : هم عضل ، والديش ، والقارة[5] .

ويذكر (الزبيري) ، الذي أدخل أسدة في أولاد خزيمة ، ان أسدة يزعمون انه جذام ، ولخم ، وعاملة ، وقد انتسبوا في اليمن . ويظهر ان قبائل (أسد ابن خزيمة) ادعت ، حين مجيء لخم وجذام مع خالد بن عبدالله القسري الى العراق ، انها والقبائل القادمة من دم واحد ، هو دم خزيمة بن مدركة ، وانها أرادت إلحاق نسبها بهذا النسب[6] .

---

١ المعارف (ص ٣٠) ، وقد جعل « ابن قتيبة » قريشا ضمن ابناء مدركة ، ونسي خزيمــة .
٢ نسب قريش (ص ٨) .
٣ المعارف (ص ٣٠) ، ولم يذكر صاحب كتاب « المعارف » : اسدة في اولاد خزيمة والذي ادخلهم هو « الزبيري » نسب قريش (ص ٨) .
٤ المعارف (ص ٣٠)
٥ نسب قريش (ص ٩) .
٦ نسب قريش (ص ٨ فما بعدها) .

وأما كنانة[1] ، فولد النضر ، ومالكاً ، وملكان ، وعبد مناة . وهو علي ، وربما قالوا مسعوداً[2] ، وآخرين ذكرهم (الزبيري)[3] . فأما بنو ملكان ، فلهم بقية ، وليس لهم شرف بارع ، مما يدل على انهم لم يكونوا كثيري العـــدد . وأما بنو مالك ، فن قبائلهم بنو فقيم وبنو فراس . ومن بني فقيم (القلامس) نَسَأة الشهور . وأما عبد مناة ، فنهم (بنو مُدلج) القافة،ومنهم بنو جذيمة، ومنهم بنو ليث ، ومنهم الدئل ، ومنهم بنو ضمرة . ومن بني ضمرة : غفار . ومنهم بنو عريج[4] .

وأما (النضر) ، فولده مالك والصلت[5] . فأما (الصلت) ، فصاروا في اليمن ، ويقول قوم انه أبو خزاعة[6] . ورجعت قريش الى مالك كلهـــا ، فهو أبوها كلها . وولد مالك بن النضر فهراً والحارث[7] . فأما (الحرث) الحارث ابن مالك ، فهو من المطيّبين ، ويقال ان الخلج منهم . ويقال كانوا من عدوان، فألحقهم عمر بن الخطاب بالحارث ، وسمّوا خلجاً لأنهم اختلجوا من عدوان ، وهم بالمدينة كثير[8] .

وأما فهر بن مالك ، فنهم تفرقت قبائل قريش ، فقيل لهم (بنو فهر) . وولده : غالب بن فهر ، ومحارب بن فهر[9] . فأما (محارب) ، فنهم ضرار ابن الخطّاب شاعر قريش في الجاهلية . وأما غالب بن فهـر ، فولده لؤي وتيم. فأما تيم ، فهم بنو الأدرم من أعراب قريش[10] .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن قريشاً كانوا متفرقين في (بني كنانة)،فجمع (قصي) الى مكة (بني فهر بن مالك) فجذم قريش كلها (فهر بن مالك)

---

١ ممن ذكر « كنانة » من الجاهلين « بشر بن ابي خازم الاسدي » ، قال :
فابلغ ان عرضـــت بهـم رسولا كنانة قومنا في حيـث صاروا
ديوان بشر (ص ٧٣) .

٢ المعارف (ص ٣٠ فما بعدها) .

٣ نسب قريش (ص ١٠)

٤ المعارف (ص ٣٠)

٥ نسب قريش (ص ١١) ، المعارف (ص ٣١)

٦ نسب قريش (ص ١١) ، الانباه (ص ٩٤)

٧ المعارف (ص ٣١) ، نسب قريش (ص ١٢) .

٨ المعارف (ض ٣١) .

٩ واضاف « الزبيري » اليهما « الحادث » ، نسب قريش (ص ١٢)

١٠ المعارف (ص ٣١ فما بعدها) .

فما دونه (قريش) وما فوقه عرب ، مثل كنانة وأسد وغيرهما من قبائل مضر، فانما قريش الى (فهر بن مالك) لا تجاوزه[١] . ثم يفسرون معنى (قريش)، بالتقرش أي التجمع ، أو جمع المال والتجارة ، أو غير ذلك مما مأخذت عنه فيما بعد[٢] . مما يدل على أن تلك التسمية لم تكن قديمة ، وإنما هي لقب في الأصل أطلق على جماعة من بني فهر كانوا يسكنون مكة ، فعرفوا به حتى غلب على اسمهم ، وصار اللقب اسماً ، ومن هنا اشتهر بين النسابين انه اسم إنسان وجدّ قبيلة .

وأما لؤي ، فإليه ينتهي عدد قريش وشرفها . وولده : كعب بن لؤي ، وعامر بن لؤي ، وسامة بن لؤي ، وسعد بن لؤي ، وخزيمة بن لؤي ، والحارث بن لؤي وعوف بن لؤي[٣]. فأما عامر ،فولده حسل ومعيص،ومن حسل سهل وسهيل والسكران بنو عمرو . وأما سامة ، فوقع بعمان ، وهلك بها فولده هناك. وأما سعد بن لؤي ، فهو أبو ولد بنانة ، وأما خزيمة بن لؤي ، فنهم عائذة، وهم في بني شيبان . وأما كعب بن لؤي ، فولده:مرة ، وهصيص ، وعدي[٤]. فأما هصيص ، فنهم بنو سهم،وبنو جمح . وأما عدي ، فنهم عمر بن الخطاب. وأما مرة ، فنهم تيم بن مرة رهط أبي بكر ، وآل المكنلر ، ومنهم مخزوم ابن يقظة بن مرة ، ومنهم كلاب بن مرة وولد زهرة بن كلاب وقصي ابن كلاب[٥] .

وأما قصي بن كلاب ، فإنه أول من جمع قبائل قريش ، وأنزلها بمكة ، وبنى دار الندوة ، وأخذ مفتاح الكعبة من خُزاعة . وكان له من الولد : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العُزّى ، وعبد[٦] . فأما عبد ، فبادوا . وأما عبد العزى ، فنهم خويلد بن أسد أبو خديجة . وأما عبد الدار ، فنهم آل أبي طلحة ، ومنهم شيبة بن عثمان ، وقد أعطاه النبي مفتاح الكعبة ، وصار في

---

١ العقد الفريد (٣١٣/٣) ، ابن حزم ، جمهرة (١١) الانباه (٦٦) ، البلاذري انساب (٣٩/١)
٢ الميداني ، مجمع الامثال (٧٢/٢) .
٣ المعارف (ص ٣٢) ، «والحارث، وهم جشم وهم في همدان»، نسب قريش(ص١٣)
٤ نسب قريش (ص ١٣) ، المعارف (ص ٣٢)
٥ المعارف (ص ٣٢) نسب قريش (ص ١٣)
٦ نسب قريش (ص ١٤) ، المعارف (ص ٣٢ فما بعدها)

ولده . وأما عبد مناف ، فولده هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل وأبو عمرو[1] .

وأما طابخة بن الياس ، فولد أداً ، وولد (أدّ) مرّاً وعبد مناة وضبّة ومزينة وحميساً والرباب . فأما عبد مناة ، فمنهم تيم بن عبد مناة وبطونها ، وعدي بن عبد مناة ، وعُطل بن عبد مناة ، وهؤلاء الثلاثة من الرباب ، وثور ابن عبد مناة[2] . وجعل (الزبيري) ولد أدّ بن طابخة : مزينة ، ومراً وتميماً[3].

وأما ضبة بن أد ، فولده سعد وسعيد وباسل . فأما باسل ، فهو أبو الديلم ، وقتل سعيد ولا عقب له ، وضبة كلها ترجع الى (سعد بن ضبة) ، وهي جمرة من جمرات العرب ، وهي من الرباب . وولد سعد الذين تنسب اليهم ضبة بكراً ، وثعلبة وصريماً . ومن بطونهم نصر ، ومازن ، والسيل ، وذهل ، وعائذة ، وتيم اللات ، وزبان ، وعوف ، وشيم . ومن ذهل بجالة ، وتيم ، وصبيح ، وضبة ، وكعب . ومن كعب ضرار بن عمرو ، وهو بيت ضبة ، وبنو صباح ، وهم معروفون بالصيد ، وشقرة وهلال[4] .

وأما مزينة بن أد ، فهم مزينة مضر ، ومنهم الشاعر زهير . وأما حميس بن أد ، فهم قليلون ، يكونون في البصرة في بني عبدالله بن دارم وبالكوفة في بني مجاشع . وأما مرّ بن أد ، فولده ثعلبة بن مرّ . وهم بنو ضاعنة ، ونسبوا الى أمهم . وبكر بن مرّ ، وهم الشعيراء وأراشة بن مرّ ولحقوا باليمن ، فصاروا في جذام ، ويقال لهم جديس ، والغوث بن مر ، وصاروا باليمن ، ويقال لهم بنو صوفة ، وكانوا يفيضون بالناس قبل بني صفوان وتميم بن مر[5] .

وأما تميم بن مر ، وقبره بـ (مران) ، فولده زيد مناة ، وعمرو ، والحارث . فأما الحارث ، فمنهم شقرة ، وأما عمرو ، فولده العنبر والهجيم وأسيد والقليب والحارث بن عمرو المعروف بـ (الحبط)، ويقال لولده (الحبطات) ، ومالك بن عمرو . وأما زيد مناة ، فولد سعداً وفيهم العدد ، وعامراً ، وانتسب ولده الى عامر بن مجاشع والحارث ، وهم قليل ، وامرؤ القيس ، منهم عدي

---

١ نسب قريش (ص ١٤) ، المعارف (ص ٣٢ وما بعدها)
٢ المعارف (ص ٣٤)
٣ نسب قريش (ص ٨) .
٤ المعارف (ص ٣٤) .
٥ المعارف (ص ٣٤) .

ابن زيد الشاعر ، وقبائلهم بنو عصية . ومالك بن زيد مناة ومنهم ربيعة الجوع ، ومنهم البراجم ، وهم عمرو وقيس وكلفة وظليم وغالب بنو حنظلة بن مالك : ومنهم بنو يربوع بن حنظلة ، وهم بنو كليب بن يربوع ، ورياح بن يربوع ، وثعلبة بن يربوع ، وغُدانة بن يربوع ، وحزام بن يربوع[1] .

ومن تميم بن مرّ بنو دارم بن مالك بن حنظلة ، ومجاشع بن دارم ، ونهشل ابن دارم ، ومنهم بنو العدوية ، نسبوا الى أمهم ، وهم : زيد بن مالك بن حنظلة ، وصدى بن مالك بن حنظلة ، ويربوع بن مالك بن حنظلة ، وعوف ابن مالك بن حنظلة ، وجشش بن مالك بن حنظلة[2] .

وأما سعد بن زيد مناة بن تميم فهو الفزر . وولده كعب بن سعد ، وعمرو ابن سعد ، والحارث بن سعد ، وهم : عوافة ، وعبشمي بن سعد ، واسمه مقروع ، وجشم بن سعد ، ومالك بن سعد ، وهبيرة بن سعد . فأما كعب ابن سعد ، ففيهم العدد . منهم مقاعس ، ومنهم حمان ، ومنهم بنو منقر ، ومنهم بنو مرة ، ومنهم ربيعة . ومن (عوف بن كعب) بهدلة رهط الزبرقان ابن بدر ، وقريع رهط بني أنف الناقة ، ومنهم آل عطارد وآل صفوان بن شجنة الذين كانت فيهم الإفاضة بالناس من عرفة ، ومن عطارد بنو عوف[3] .

وأما قيس بن عيلان ، وهو قمعة بن الياس بن مضر ، فولد سعداً ، وعكرمة ، وأعصراً ، وعمراً ، وخصفة . وبعض النساب يزعم أن عكرمة هو ابن حفصة ، وأعصر هو ابن سعد[4] . وأما عمرو بن قيس ، فولده فهم وعدوان . فمن فهم تأبط شراً . وأما عدوان ، فمن بطونهم بنو خارجة وبنو وابش وبنو يشكر وبنو عوف والفرعا وبنو رهم وبنو رباح . ومن عدوان عامر بن الظرب حاكم العرب ، وأبو سيارة الذي كان يفيض بالناس ، وعدوان أنزلوا ثقيفاً بالطائف ، وكانت كثيرة السادة ، فتفرقوا يبغي بعضهم على بعض[5] .

---

١ المعارف (ص ٣٥)
٢ المعارف (ص ٣٥)
٣ المعارف (ص ٣٦)
٤ المعارف (ص ٣٦)
٥ المعارف (ص ٣٦)

وأما بنو سعد بن قيس عيلان ، فهم غطفان[1] وأعصر بن سعد : فولد أعصر غنياً ومَعْنا وهو أبو باهلة ، وباهلة امرأة من همدان نسب بنو معن اليهـا ، ومنبه بن أعصر وهم الطّفاوة . فأما غني ، فنهم بنو ضبينة وبنو بهثة وبنو عبيد. وهم حلفاء في بني كلاب . وأما الطفاوة ، فنهم بنو جسر وبنو سنان ، وكانوا في بني شيبان حلفاء . ومن الطفاوة الحبال ، وكانوا في المجيم،وأما معن ابن أعصر ، فولده قتيبة ووائل ، وامهما من فزارة ، وأود ، وجاءت امهـا باهلة امرأة من همدان ، وفراص وأبو عليم[2] .

وأما قتيبة بن معن ، فن ولده غُنْتم ، وولد غنم سهم بن غنم ، ومن بني قتيبة بنو صحب ، وهم ينزلون اليامـة . ومنهـم عمـرو بن عبـد واعبد وقعنب وسعد بن عبد وعامر بن عبد ، ومن بني سعد بنو أصمع . وأما وائل بن معن ، فنهم بنو سلمة وبنو هلال بن عمرو وبنو زيد وبنو عامر ابن عوف وبنو عصبة[3] .

وأما غطفان بن سعد ، فولده ريث وعبدالله ، فولد ريث بغيضاً وأشجع ، فولد بغيض ذبيان وعَبْساً وأنماراً . وأما عبدالله بن غطفان،فهم في بني عبس . وأما أشجـع ، فنهم بنو دهمان . وأما أنمار بن بغيض ، فهم قليـل . وأما عبس بن بغيض ، فولده قطيعة ، وورقة ، ومعتم ،والشرف والعدد في قطيعة. وأما ورقة ومعتم ابنا عبس ، فلا يعرف منهما أحد[4] .

وأما ذبيان بن بغيض ، فولده فزارة ، وسعد ، وهاربة البقعاء ، وقد بادت هاربة الا بقيةً يسيرة في بني ثعلبة بن سعد ، وأما فـزارة بن ذبيان ، فولده عدي ، وظالم ، ومازن ، وشمـخ . فأما ظالم ، فقد بادوا الا قليـلاً ، وأما شمخ بن فزارة ، فولده لؤي وهلال ، وأما مازن بن فزارة ، فنهم بنو العشراء، وأما عدي بن فزارة ، فولده ثعلبة وسعد[5] .

وأما سعد بن ذبيان ، فولده ثعلبة وعوف . فن ثعلبة بنو جحاش ، وبنو سبيع ، وبنو حشور . وفي بني سبيع البيت والشرف . وولد عوف بن سعـد

---

١ التنبيه (ص ٢٠٩ ، وما بعدها ، ٢١٦)
٢ المعارف (ص ٣٦)
٣ المعارف (ص ٣٧)
٤ المعارف (ص ٣٧)
٥ المعارف (ص ٣٨)

مرّة وعيداً . فأما عيد ، فقليل ، وفي مرّة بن عوف الشرف والسؤدد . فولد مرّة بن عوف غيظاً ، ومالكاً ، وحرمة ، وسهما ، وبني صارد وغيرهم. فولد غيظ نشبة ويربوعاً[1] .

وأما خصفة بن قيس عيلان ، فولده عكرمة ومحارب . وبعضهم ذكر ان عكرمة هو ابن قيس . وأما محارب ، فنهم جسر والخضر . وبنو جسر حلفاء بني عامر بن صعصعة . وأما عكرمة ، فولده عامر ومنصور ، وأبو مالك . فأما بنو أبي مالك ، فهم في بني تيم الله . وأما عامر ، فهم حشوة في بني سُليم ولهم بقية بالبادية . وأما منصور بن عكرمه ، فولده سليم ، وسلامان، وهوازن ، ومازن . وأما سُليم فولده بهثة . وولد بهثة امرأ القيس وعوفاً . ومن قبائل سُليم ، بنو حرام ، وبنو خفاف ، وسماك ، ورعل ، وذكوان ، ومطرود ، وبهز ، وقنفذ ، ورفاعة ، وعصية ، وظفر ، وبجلة ، وحبيب ابن مالك ، وبنو الشريد ، وبنو قتيبة[2] .

وأما هوازن بن منصور ، فولده بكر ، وسبيع ، وحرب ، ومنبه ، ولا عقب لسبيع وحرب . وأما منبه ، فهو أبو ثقيف في قول بعض النسابين . وولد بكر بن هوازن سعداً ومعاوية وزيداً . ومن ولد معاوية بن بكر ، جشم ، ونصر ، وصعصعة ، والسباق ، وجسر ، وجحش ، وجحاش ، وعوف ، ودحوة ، ودحية . فأما دعوة ، ودحية ، وجحش ، وجحاش،فلا عقب لهم . وأما عوف ، فيقال لهم الوقعة[3] .

وأما صعصعة بن معاوية ، فولده عامر ومرّة وغاضرة ومازن ووائلة . فأما بنو مرّة ، فيعرفون بـ (بني سلول) . وأما عامر بن صعصعة ، فولده هلال ابن عامر ، وسواءة بن عامر ونمير بن عامر ، وهي جمرة من جمرات العرب. وربيعة بن عامر ، وولده بنو مجد وينسبون الى أمهم . وهم عامر بن ربيعة ، وكلاب بن ربيعة ، وكعب بن ربيعة . فأما عامر بن ربيعة ، فمن ولده عمرو ابن عامر فارس الضحياء ، وبنو البكا بن عامر . وأما كلاب بن ربيعة ، فمن ولده جعفر ، ومعاوية ، وربيعة ، وأبو بكر ، وعمرو ، والوحيد ، ورواس،

---

١ المعارف (ص ٣٨)
٢ المعارف (ص ٣٨)
٣ المعارف (ص ٣٩) .

والأضبط ، وعبدالله . وأما معاوية بن كلاب ، فنهم الضباب ، وهم حسل وحسيل وضب[1] :

وأما عمرو بن كلاب ، فنهم بنو دودان . وأما أبو بكر بن كلاب ، فمن ولده القرطات : قرط وقريط ومقرط . وأما كعب بن ربيعة ، فمن ولده عقيل وقشير والحريش وجعدة وعبدالله وحبيب . وأما عبدالله ، فمن ولده بنو العجلان . وأما قشير بن كعب ، فنهم غطيف وغطفان ، ومنهم مالك ذو الرقيبة ، ومنهم بنو ضمرة . وأما عقيل بن كعب ، فنهم خفاجة ، ومنهم الحلفاء ، ومنهم الأخيل[2] .

وأما منبه بن هوازن بن منصور ، فولده قسي ، وهو ثقيف . فولد ثقيف جشم وعوفاً والمسك ، فتزوج قاسط المسك ، فولدت وائلاً أبا بكر بن وائل : وأما جشم ، فولد حطيطاً ، فولد حطيط مالكاً وغاضرة . وأما عوف ، فهم الأحلاف ، وذلك أنهم تحالفوا على بني مالك وصارت غاضرة مع الأحلاف ، فثقيف فرقتان : بنو مالك والأحلاف[3] .

هذا وإننا لنجد بعض النسابين ينسبون ثقيفاً الى (ثمود) ، فيقولون إنهم من بقاياهم ، وهو نسب لا يرضى عنه الثقفيون بالطبع ، ويزعجهم أن يكونوا من قوم هلكوا بسبب غضب الله عليهم[4] . ومنهم من جعل نسبهم في إياد : ومنهم من جعل نسبهم من (أبي رغال) الى غير ذلك من أقوال ، يظهر أنها ظهرت في الإسلام كرهاً للحجاج بن يوسف ، أحد بني ثقيف ، المشهور بتعسفه وبظلمه . وقد قيل إن قيساً ، وهو اسم (ثقيف) هو من القسوة ، وكان غليظاً قاسياً[5] ولا أظن أن هذا التفسير هو مما يرضي الثقفيين .

وأما ربيعة بن نزار بن معد ، فولد أسد بن ربيعة وضبيلة بن ربيعة وأكلب ابن ربيعة . فأما أكلب بن ربيعة ، فهم في خثعم . وهم بطون كثيرة تنسب الى خثعم . وأما ضبيعة بن ربيعة ، فولد أحمس ، والحارث ، والقلادة ، وأما

---

١ المعارف (ص ٣٩)
٢ المعارف (ص ٤٠)
٣ المعارف (ص ٤١)
٤ ابن خلدون (٢٤/٢) .
٥ الاشتقاق (١٨٣/٢) ، الاغاني (٢٢٠/١٤) ، المبرد ، الكامل (٢٧٦/١) ، الانباه (٨٩) ، البلاذري ، انساب (٢٥/١)

أسد بن ربيعة ، فولد جديلة وعنزة وعميرة . فأما عميرة ، فهم في عبد القيس . أما عنزة ، فاسمه عامر . وأما جديلة ، فولد دعمي وولد دعمي أفصى ، فولد أفصى هنباً وعبد القيس . فولد عبد القيس اللبو وأفصى . وولد أفصى شناً ولكيزاً . فمن شنّ الديل بن شَنّ . وولده سعد وجذيمة وعامر وحبيب. ومنهم بنو بهثة بن جذيمة بن الديل بن شنّ . وأما لكيز ،فولد نكرة وصباحاً ووديعة : فأما نكرة ، فهم حلفاء جذيمة ، ومنهم هنبة بن نكرة ، وهم أهل البحرين[1]. وفيهم العدد والشرف ، ومنهم المثقب العبدي الشاعر والممزّق الشاعر والمفضل ابن عامر الشاعر وصاحب القصيدة المنصفة . وبعمان قوم من نكرة ، وباليمن قوم منهم .

وأما وديعة ، فولده عمرو وغنم ودهن . فأما دهن ، فهم واثلة ، نسبوا الى أمهم . وأما غنم،فولد عمرو بن غنم وعوف بن غنم . وأما عمرو بن وديعة فولده أنمار وعجل ومحارب والديل والعوق وامرؤ القيس . فمن ولد الديل أهل عمان . وأما العوق ، فنهم العوقة ، وهم عمانيون قليل . وأما أنمار ، فنهم عصر ، ومنهم ظفر . وأما محارب ، فولد حطمة وظفر أبني محارب[2] .

وأما هنب بن أفصى ، فولد قاسط بن هنب وعمرو بن هنب وخندف بن هنب . وأما عمرو فنهم عتيب ، وهم بنو شيبان . وأما قاسط ، فولد عمرو بن قاسط والنمربن قاسط ووائل بن قاسط . أمهم المسك بنت ثقيف .

وأما النمر بن قاسط ، فولد تيم الله وأوس الله وعائذ الله وأمهم هند بنت تيم بن مر وإخوتهم لأمهم بكر وتغلب ، وأخوهم لأمهم أيضاً اللبو بن عبد القيس . فأما تيم الله ، فولد الخزرج والحريث . وولد الخزرج سعداً . وأما وائل بن قاسط ، فولد بكر بن وائل وتغلب بن وائل وعنز بن وائل . أمهم هند بنت تميم بن مر . فأما عنز بن وائل ، فأولد أراشة ورفيدة . فمن أراشة أشجع وغضاضة[3] .

وأما تغلب بن وائل ، فولد غنم بن تغلب والأوس بن تغلب وعمران بن تغلب . فأما غنم بن تغلب ، فنهم معاوية بن عمرو بن غنم . ومنهم الأراقم ،

---

١ المعارف (ص ٤١ فما بعدها)
٢ المعارف (ص ٤٢)
٣ المعارف (ص ٤٢)

وهم : جشم ، ومالك ، وعمرو ، وثعلبة ، والحث ، ومعاوية بنو بكر بن حبيب بن عمرو . ومن بني تغلب عكب . ومنهم بنو عدي بن أسامة ، ومنهم بنو كنانة يقال لهم قريش تغلب . وهم بنو عكب . ومنهم جشم بن بكر ، ومن بني جشم بنو الحارث بن زهير ، رهط كليب بن ربيعة ، ومنهم بني زهير بنو عتاب .

وولد بكر بن وائل علي بن بكر ، ويشكر بن بكر ، وبدن بن بكر ، أمهم هند بنت تميم بن مر . ويقال لها أم القبائل . فأما يشكر ، فولد كعباً وكنانة وحرباً . وفي كعب العدد والشرف . فمن ولد كعب حبيب والعتيك ، ومنهم بنو غنم بن حبيب وثعلبة وجشم وعدي بن جشم[1] .

وأما علي بن بكر ، فولده صعب .. وولد صعب لجيماً وعُكابة ومالكاً . فأما مالك ، فنهم بنو زمان وعددهم في بني حنيفة . وأما لُجيم ، فولد عجلاً وحنيفة . فأما عجل ، فولده ربيعة وضبيعة وسعد وكعب . فأما كعب وضبيعة فقليل .

وأما حنيفة بن لُجيم ، فولده الدول وعدي وعامر وعبد مناة . فأما عبد مناة فهم قليل . وأما الدول ، فنهم بنو هفان .

وولد عكابة بن صعب قيساً وثعلبة . فأما قيس ، فقليل ، وعددهم في بني ذهل . وأما ثعلبة بن عكابة ، فيقال له الحصن . وولد ثعلبة ذهلاً وشيبان وقيس وتيم الله وأتيداً وضنة . فأما ضنة ، فلحقت باليمن فصارت في بني عذرة . وأما أتيد ، فهي في بني شيبان . وأما تيم الله بن ثعلبة ،فهم اللهازم، وهم حلفاء بني عجل . فولد تيم الله مالكاً والحارث وعامراً وهلالاً وذهلاً وزماناً وحاطمة ، فهؤلاء يقال لهم الأحلاف ، الا الحارث وعامراً ومالكاً،وسمي أولئك أحلافاً لأنهم تحالفوا على هؤلاء[2] .

وأما قيس بن ثعلبة ، فولد ضبيعة وتيماً وسعداً . وفي ضبيعة العدد . وأما تيم بن قيس وسعد بن قيس ، فهما الحرقتان . وأما ذهل بن ثعلبة بن عكابة ، فولد شيبان وعامراً . فأما عامر ، فيقال لها الوخم . وأما شيبان ، فولده سدوس وفيه العدد ، وعمرو ومازن وعلباء وعامر وزيد مناة .

---

١ المعارف (ص ٤٣)
٢ المعارف (ص ٤٤)

فأما علباء ، فهم قليل . وأما شيبان بن ثعلبة بن عكابة ، فولده : ذهل ، وتيم ، وثعلبة ، وعوف . فأما عوف ، فلا عقب له . وأما ذهل بن شيبان ، فولد مرّة بن ذهل ، وربيعة ، ومحلم ، والحارث ، وعبد غنم ، وعوفاً ، وصبحاً وشيبان ، وعمرو وأمه جذرة ، وهم يدعون بني الجذرة ، وهم قليل[1] .

والأنساب التي دونتها ورتبتها ، لا تعني انها أنساب كاملة ، كل شجرة منها بأغصانها وأوراقها ، لم أترك نسباً ، ولم أهمل اسماً . بل هي خلاصة الأنساب ، أخذتها كما رويت في كتاب (الإكليل) للهمداني وفي كتاب (المعارف) لابن قتيبة . وقد ترك ابن قتيبة أسماء قبائل وبطون وأفخاذ ، لأنها لم تكن مثل المذكورين في الشهرة . وبين (ابن قتيبة) وغيره من النسابين اختلاف كبير في عرض الأنساب وترتيبها . ولما كان عملي هو وضع مخطط عام في النسب لا غير ، فقد رأيت الاكتفاء بهذا الرسم الأولي ، وترك التفصيلات ومواطن الخلاف الى الراغبين في دراسة النسب المتعشقين له ، ليراجعوا الكتب الخاصة بها. وغايتي من هذا المخطط ،هو تقديم جريدة صغيرة الى القارىء بأسماء قبائل عدنان وقحطان ، ليقف عليها ، فعلى هذه المعرفة يتوقف فهم كثير من الأحداث .

---

١ المعارف (ص٥ ٤)

الفصل العاشر

أثر التوراة

لهذا المدون في التوراة عن الإسماعيليين والقحطانيين ، وعن نوح وأولاده ، وعن الأنساب الأخرى ، أثر ظاهر على عمل أهل الأخبار والأنساب الذين اشتغلوا بموضوع النسب في الإسلام ، بل يظهر ان أثره كان فعالاً ومؤثراً حتى في الجاهليين ، وذلك لاتصالهم واختلاطهم بأهل الكتاب .

وكان لما جاء في القرآن الكريم مجملاً من أمر آدم ونوح والطوفان وابراهيم واسحاق ويعقوب واسماعيل وغيرهم ، وما جاء فيه من أمر عاد وثمود وقوم صالح وأصحاب الأيكة وقوم تُبّع ، أثر كبير أيضاً في أهل الأخبار والتفسير حملهم على البحث عنهم . والتفتيش عن أخبارهم من الأحياء المسنين الذين كانوا يقصون على جيلهم قصص الماضين وأخبار العرب المتقدمين ، ومن أهل الكتاب الذين كان لهم إلمام بما جاء في التوراة من الرسل والأنبياء والأمم القديمة والأنساب .

ويمكن حصر الروايات الواردة في الأنساب ، والمأخوذة من أهل الكتاب ورجعها الى الطرق الأصلية التي وردت منها وإلى الأماكن التي ظهرت فيها ، وسنجد بعد البحث أن أكثر رواة هذا النوع من الأخبار كانوا قد استقوا من معين واحد . هم مسلمة أهل الكتاب ، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وعبدالله بن سلام ، ومحمد بن كعب القرظي ، ورجل من أهل تدمر عرف

بـ (أبي يعقوب) كان يهودياً فأسلم . وقد زود (ابن الكلبي) وغير ابن الكلبي بقسط من هذه الأسماء التي يستعملها النسابون في الأنساب . وكان (محمد ابن اسحاق) صاحب السيرة يعتمد على أهل الكتاب ، ويكثر الرواية عنهم ويسميهم أهل العلم الأول[1] .

وقد استغل نفر من أهل الكتاب حاجة المسلمين هذه الى الوقوف على (البدء)[2] أي مبدأ الخلق والتكوين ، وقصص الرسل والأنبياء ، وكيفية توزع البشر ، فأخذوا يفتعلون ويضعون ويصنعون على التوراة والكتب اليهودية المقدسة ، يبيعونه لهم أو يتقربون به اليهم ، إدعاءً للعلم والفهم . قال الطبري (كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ، ويحدثونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمناً قليلاً)[3].

أما ما ذكروه من أن (أبا يعقوب) التدمري وجد في كتاب (بورخ بن ناريا) (كاتب أرميا) ، نسب (معد بن عدنان) فإنه كذب وتلفيق، فليس في كتاب (بورخ) شيء من هذا النسب . وكتابه من جملة أسفار (الأبوكريفا) في نظر (البروتستانت)[4] ، وهو مترجم الى العربية ومطبوع مع أسفار التوراة الأخرى ، في الترجمة (الكاثوليكية) ، وقد قرأناه فلم نجد فيه شيئاً من هذا الذي يذكره اليهودي الذي دخل في الإسلام. وليس لـ(بورخ) كتاب آخر فنقول

---

١ الفهرست (ص ١٣٦) ، « عن محمد بن اسحاق . قال حدثني بعض اهل العلم من اهل الكتاب » ، الاكليل (٣١/١)

٢ « وفي كتاب البدء ، ونقله ابن سعيد » ، قيل للكتب التي تبحث في الخلق وبدء التكوين والانبياء « كتب البدء » ، قال المسعودي : « وما ذكره اهل التاريخ والمصنفون لكتب البدء ، كوهب بن منبه وابن اسحاق وغيرهما .. » مروج (٣٢٠/١) ابن خلدون (١٨/٢ ، ٣٤)

٣ «وكان رجل من اهل تدمر يكنى ابا يعقوب من مسلمة بنى اسرائيل قد قرا من كتبهم وعلم علمهم ، فذكر ان بورخ بن ناديا كاتب ارميا اثبت نسب معد بن عدنان عنده ووضعه في كتبه ، وانه معروف عند احباء أهل الكتاب وعلمائهم مثبت في اسفارهم ، وهو مقارب لهذه الاسماء ، ولعل خلاف ما بينهم من قبل اللغة ، لان هذه الاسماء ترجمت من العبرانية » ، الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٩) ، تفسير الطبري (٣٠٠/١) ، (٢٣١/٣)
Nallino, Raccolta, Vol. 3, P. 120, Sprenger, Mohammad, Vol. 3, P. CXXXIII, Goldziher, Muh. Stud. Bd. I, S. 178, Muir, Life of Muhamet, CVII, Bate, P. 117.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢٠٥/١)

إنه وجده فيه ، ولا يعقل أن يكون كتاب (بورخ) الذي قرأه نسخة خاصة لم توجد عند غيره من الناس ، حتى نحسن الظن به . وكل ما نجـــده في سفر (بورخ) مما قد يكون له علاقة بالعرب هو هذه الكلمات : (لم يسمع به في كنعان ولا تروى في تيمان ، وبنو هاجر أيضاً المبتغون للتعقل على الأرض وتجار مرّان وتيمان وقائلو الأمثال ومبتغو التعقل ، لم يعرفوا طريق الحكمة ولم يذكروا سبلها)[1] . وليس في هـــذه الكلمات كما نرى شيء ما له صلة بنسب (معد بن عدنان) .

فكنعان ، كناية عن الكنعانيين ، وليست لهم صلة بمعـــد أو بعدنان . وأما (تيمان) فكناية عن أرض كانت في الجنوب الشرقي من (أدوم) ، وهـــي أرض (أبناء الشرق) ، وقد نسبت التوراة التيمانيين الى (اليفاز بن عيسو)[2] ، ونسبت اليهم الحكمة[3] . وليست لهم علاقة أيضاً بأبناء معد ولا بعدنان .

وأما (بنو هاجر) (الهاجريون) (Hagrites) فانهـم شعب سكن شرق أرض (جلعاد) ، وقد اختلف علماء التوراة في أصله ، فنهم من عدّه قبيلة عربية ، ومنهم من عدّه من الآراميين ، ومنهم من رأى انهم (الإسماعيليون) . وقد ذكر الهاجريون مع أقوام من الآراميين في كتابـــة أخبار انتصارات (تغلاتبليسر الثالث) (Tiglath-Pileser III) . وهكذا وجدنا أنفسنا عاجـزين حتى في هذا الموضع من سفر (باروخ) من العثور عن أيـة صلة للكلمات المذكورة بنسب (معد بن عدنان) .

ويروي رواة الشعر وأهل الأخبار شعراً لعدي بن زيد العبادي ولأمية بن أبي الصلت ولنفر آخر من الشعراء في أحداث وأمور توراتيـــة . وهذه الأشعار إن صح انها لهم حقاً ، دلت على وقوف أولئك الشعراء على التوراة، أو على بعض أسفارها ، أو على قصص منهـــا . أما عدي بن زيد ، فلا أستبعد وقوفه على التوراة ، فقد كان نصرانياً قارئاً كاتبـــاً بالفارسية والعربية ، وربما كان كاتباً بلغة بني إرم كذلك ، لغة المثقفين في العراق يومئذ . وقد كان هو نفسه من

---

١ نبوءة باروك ، الاصحاح الثالث ، الاية ٢٢ وما بعدها .
٢ التكوين ، الاصحاح ٣٦ ، الاية ١١ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٩٦/١ وما بعدها)
٣ ارميا الاصحاح ٤٩ ، الاية ٧ وما بعدها .

المثقفين ثقافة عالية بالقياس الى زمانه ، وفي شعره زهد وتصوف وتدين وتأمل وتفكر ، فلا يستبعد إذن أخذه من التوراة ومن الأناجيل . وقد أورد (الهمداني) له أبياتاً في قصة آدم وحواء والجنة والحيّة[1] . وهي أبيات فيها ركة وضعف ، ولكنها منتزعة من (سفر التكوين) من التوراة أخذت منه[2] . وهي إن كانت من شعره ومن نظمه حقاً ، كانت أقدم شعر يصل الينا في نظم بعض قصص التوراة بلغة عربية .

وأما (أمية بن أبي الصلت) ، فقد كان واقفاً على كتب اليهود والنصارى كما يذكر أهل الأخبار ، قارئاً لكتب الديانتين ، مطلعاً على العبرانية أو السريانية أو على اللغتين معاً ، إن كان واقفاً أي حائراً بين الديانتين ، فلم يدخل في أمية ديانة منها ، وإنما كان من الأحناف على حد تعبير أهل الأخبار ، لذلك لا يستبعد وقوفه على قصص توراتي وإنجيلي ، وعلى الاستفادة منه في الشعر . ونجد في شعره ألفاظاً غريبة ، يذكر أهل الأخبار أنه أخذها من لغات أهل الكتاب ، فوضعها في شعره ، وشعره كما قلت في مواضع من هذا الكتاب يستحق من هذه الناحية الدرس والنقد ، لنرى الى أية درجة من الحق والصدق تصل دعاوى أهل الأخبار في شعر أمية ، وفي نسبته اليه . وهو إن ثبت انه له ، كان أيضاً دليلاً على وقوف المثقفين من الجاهليين على كتب أهل الكتاب ، وشيوعه في الحجاز ، وكان أيضاً دليلاً على نظم بعض الشعراء لحوادث التوراة والإنجيل في شعرهم في ذلك العهد :

ونجد في شعر (أميّة بن أبي الصلت) وأمثاله من المتصلين بأهل الكتاب القارئين لكتبهم كما يذكر أهل الأخبار ، فائدة كبيرة لنا في تكوين رأي عام عن وقوف العرب على الآراء التوراتية في الجاهلية ، وفي جملة ذلك أنساب التوراة . وفي الشعر المنسوب الى (أمية) آراء مستمدة من التوراة ، مثل شعره في (نوح) وفي قصة (الطوفان) والغراب والحمامة وبقية حكاية الطوفان الى زواله ، فإنه إن صح دل على وقوف (أمية) على خبر قصة (الطوفان) الواردة في السفر السادس فما بعده من التكوين . فإن ما جاء في هذا الشعر هو اقتباس

---

١ الاكليل (١/٢٩ وما بعدها)
٢ الاصحاح الثاني وما بعده

لما ورد في تلك الأسفار[1] : ونجد له أشعاراً أخرى إن صحت نسبتها اليه ، دلّت على أنه كان على اتصال بأهل الكتاب ، وعلى أخذ منهم . ولعله كان يغرف من قصصهم الذي كان يشرح للناس ما جاء في التوراة ، أو أنه كان يراجع ترجمات للتوراة كانت بعربية أهل الكتاب في ذلك العهد ، أو يسمع منهم ترجمة التوراة سماعاً فوقف على بعض ما جاء فيها ، وفي جملة ذلك هذا القصص ، وربما الأنساب المتعلقة بالعرب كذلك .

وحكاية (أمية) عن الطوفان أقرب الى التوراة من حكاية (الأعشى) أبي بصير ميمون بن قيس ، عن الطوفان . وذلك إن صح أن ذلك الشعر من نظمه حقاً . فإن العناصر التوراتية فيه ليست بارزة واضحة وضوحها في شعر أمية : ويظهر من بعض الجمل الواردة في شعر الأعشى عن الطوفان مثل :

ونادى ابنه نوح وكان بمعزل   ألا اركب معي واترك مصاحبة الكبر

فقال :

سآوي نحو أعيط مشرف   بطول شنان السماء ذي مسلك وعر[2]

ومثل :

ونجا لنوح في السفينة أهله   ملاحكة الألواح معطوفة الدسر
فلما استوت من أربعين تجرمت   تناهت على الجودي أرست فما تجري[3]

ومن مضمون القصة نفسها ، ان المنبع الذي استقى منه الشاعر (الطوفان) هو القرآن الكريم ، ومن يراجع الآيات المنزلة عن (نوح) وعن الطوفان وعن ابنه ، وكيف امتنع عن الركوب معه بالرغم من إلحاح نوح عليه ، يجزم أن الشاعر المذكور قد أخذ الطوفان من القرآن الكريم ومن موارد اسلامية، واستعمل ألفاظاً وتراكيب وردت في كتاب الله ، ولم ترد في التوراة :

---

١ راجع التكوين ؛ الاصحاح السادس فما بعده ، الاكليل (١٨/١ وما بعدها)
٢ « الكبر » هكذا ضبطت في الاكليل (٥٢/١) ، وارى ان لفظة الكفر انسب الى المعنى من هذه اللفظة .
٣ الاكليل (٥٢/١)

واني أشك في كون هذا الشعر من شعر (الأعشى) . فالأعشى رجل لم يسلم وان أدرك أيام الرسول ، كان قد قصد الرسول ، ونظم قصيدة في مدحه ، ولكن قريشاً أثرت عليه ، وحالت بينه وبين الوصول الى الرسول ، وعاد الى (منفوحة) بلدته ، فمات بها دون أن يسلم . والرأي عندي ان تلك الأبيات ، هي من صنع مسلم ، وضعها على لسانه .

ولا يعني شكّي في صحة نسبة هذه الأبيات الى الأعشى ، ان الأعشى كان بعيداً عن آراء ومعتقدات أهل الكتاب ، غير واقف على أخبارهم وعقائدهم . فقد كان الأعشى جوّالاً جوّاباً زار العراق وبلاد الشام، اتصل بقبائل نصرانية ، وجالس اليهود والفرس والروم ، ووردت في أشعاره ألفاظ من ألفاظ الحضارة الأعجمية ، كما وردت فيها أفكار تدل على وقوف على آراء وأفكار دينية وخواطر فلسفية ، فرجل مثل هذا لا يستبعد وقوفه على قصص يهودي ونصراني وعلى آراء دينية لأهل الكتاب . وللحكم على مقدار فهمه لها ، يمكن بالطبع دراسة ما ورد في الشعر على لسانه ، ومطابقته بما نعرفه من آراء القوم لنقف على درجة صلة ما جاء في شعر الأعشى من آراء ومعتقدات بآراء أهل الكتاب ومعتقداتهم .

أما الأماكن التي ظهرت فيها هذه الروايات الاسرائيلية ، فهي : اليمن ، والمدينة ، والعراق . ومن العراق الكوفة بصورة خاصة . وقد كان في كل هذه المواضع رجال من أهل الكتاب موّنوا أهل الأخبار بما كانوا يرغبون في معرفته، ولم يكن هؤلاء على قدر واحد في المعرفة والفهم ، والظاهر ان منهم من لم يكن له إلمام بالتوراة ولا بالتلمود وغيرهما من الكتب ، وانما أخذ ذلك من أهل النظر منهم ، أو كما وصل اليه من أهله وحاشيته ، ولذلك اضطرب الأخباريون في بعض الأحيان في رواية خبر واحد ، كما اختلفوا في ضبط الأسماء . وقد علل ابن خلدون اختلافهم في ضبط الأسماء بقوله : « واعلم ان الخلاف الذي في ضبط الأسماء انما عرض في مخارج الحروف ، فان هذه الأسماء انما أخذها العرب من أهل التوراة ، ومخارج الحروف في لغتهم غير مخارجها في لغة العرب . فاذا وقع الحرف متوسطاً بين حرفين من لغة العرب ، فترده العرب تارة الى هذا وتارة الى هذا . وكذلك إشباع الحركات قد تحذفه العرب اذا نقلت كلام العجم، فمن ها هنا اختلف الضبط في هذه الأسماء »[1] .

---

1 ابن خلدون (٢/٥)

والحق هو ان هذا الخطأ لم يقع في ضبط الأسماء فقط ، بل وقع في أمور جوهرية أخرى ترينا جهل بعض الرواة بجدول الأنساب ، وترينـا الخلط أحياناً بين الروايات الاسرائيلية والروايات الايرانية حتى تكوّن من هذا المجموع المدون في الكتب الإسلامية عن الأنساب خليط من روايات اسرائيليـة وروايات فارسية وقصص شعبي عربي ، يجوز أن نضيف اليه عنصراً آخر هو الوضع ،فقد وضع الرواة شيئاً من عندهم حين عجزوا عن الحصول عليه من الموارد الثلاثة المذكورة، وكان لا بد لهم من سد تلك الثُغر ، فسدّوها بما جادت به قرائحهم من شعر ونثر . ومن هذا القبيل ، ما أدخلوه على التوراة أيضاً من أنساب زعموا أنهـا وردت في التوراة ، وليس لها في الواقع وجود فيها .

خلد آدم ، فقد صيّره الأخباريون (كيومرث)[1] وهو من الفرس ، وخلد نوحاً نرّ انه صار (افريدون) عند أهل الأخبار وهو من الفـرس أيضاً[2] ، وجعلوا (لاوذ) ابناً من أبناء إرم من سام أخي عوص وكاثر[3] ، مع انه (لود) في التوراة ، وهو شقيق إرم بن سام ووالد عوص وجاثر[4] ، وقالوا أشياء أخرى لا وجود لها في التوراة .

أما متى دخلت أنساب التوراة الى العرب ، ومتى ظهرت وشاعت بينهم ، فنحن لا نستطيع أن نحدد ذلك على وجه مضبوط بالقيـاس الى أيام الجاهلية . ولكننا نستطيع أن نقول انها كانت قد تسربت الى الجاهلين من اليهود ، وذلك بوجودهم في الجزيرة العربية واتصالهم بالعرب ، وقد يكون من النصارى أيضاً، وقد تفشت في أماكن من جزيرة العرب وبين بعض القبائـل ، وان هؤلاء أي أهل الكتاب هم الذين أشاعوا بين الجاهلين هـذه الأنساب . وقد تكون لليهود يدٌ في اشاعة خبر رابطة النسب وأواصر القربى التي تربط بينهم وبين العرب ، وذلك للتأثير عليهم وللتقرب منهم ، وللسكن بينهم بهدوء وسلام .

ونستطيع أن نقول جازمين ان هذا القصص الإسرائيلي ، وهذه الأنساب التي يرويها أهل الأخبار ، لم تكن كثيرة الشيوع بين الجاهلين ، وانما هي شاعت

---

١ ابـن خلدون (٢/٥)

٢ ابن خلدون (٢/٦)

٣ ابن خلدون (٢/٧) .

٤ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٢ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الايـة ١٧ ، Hastings, P. 557.

وراجت في الإسلام ، وذلك للأسباب المذكورة ، ومروجوها وناشروها هم زمرة تحدثت عنهم في مواضع متعددة من هذا الكتاب .

ونحن لا يهمنا هنا من الأنساب الواردة في التوراة الا الأنساب المتعلقة بالعرب وبالشعوب العربية ، ومعنى هذه الأنساب الخاصة بذرية (سام) و (كوش) : ويهمنا من ذرية (سام) ذرية (إرم) و (لود) و (أرفخشذ) ، حيث ألحق النسابون بهؤلاء قبائل العرب . أما أشور و (عيلام) ، وهما بقية أبناء (سام) ، فليس لذريتهم علاقة بالعرب ، فليس لنا كلام عنهم في هذا المكان .

وأولاد سام في التوراة ، هم خمسة : (عيلام) ، و (أشور) ، و(أرفكشاد) ، و (لود) ، و (أرام)[1] . وقد ضبط الأخباريون الأسماء على هذه الصورة: (أشوذ) ، و (أرفخشذ) ، و (عليم) (عويلم) (عيلم) ، و (لاوذ) و (ارم)[2] . وأضافوا اليهم (عابراً) ، فصيّروه أخاً للمذكورين وابناً من أبناء (سام) . أما في التوراة فإن عابراً هو حفيدُ حفيد (سام) ، وليس بابن له ، وقد سيق نسبه فيها على هذه الصورة : (عابر بن شالح بن أرفكشاد ابن سام) . وكان ابراهيم هو السابع من أعقابه[3] .

ونجد الطبري يروي في مكان من تأريخه أن أولاد سام ، هم : (أرفخشذ ابن سام ، وأشوذ بن سام ، ولاوذ بن سام ، وعويلم بن سام)[4] ، فهم أربعة . وقال بعد اسم (عويلم بن سام) مباشرة : (وكان لسام إرم بن سام)[5] مما يدل على أن المورد الذي نقل منه الطبري روايته لم يكن على علم تام بخبر أم (إرم) ، ويؤيد هذا الاستنتاج قوله : (قال : ولا أدري إرم لأم ارفخشذ واخوته أم لا ؟[6]) . وقد قال هذا المورد إن أم أبناء سام المذكورين هي :

---

١ التكوين ، الاصحاح العاشر،الاية٢٢ ، اخبار الايام الاول،الاصحاح الاول ، الاية ١٧
٢ ويرد ارم في بعض الكتب ارام وارم ، الطبري (١٠٣/١) ،ابن خلدون (٧/٢) ، الكامل ، لابن الاثير (٣١/١) ، التيجان (٢٥) .
٣ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢١ ، ٢٥ ، والاصحاح الحادي عشر ، الاية ١٤ فما بعدها ، واخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الاية ١٩
٤ الطبري (٢٠٣/١) « دار المعارف » .
٥ المصـــدر نفسه
٦ كـــذلـــك

(صليب ابنـــة بتاويل بن محويل بن خنوخ بن قيس بن آدم[1]) فيكون عدد أولاد (سام) خمسة أيضاً وهو العدد المذكور في التوراة إلا أننا نرى تبايناً بين روايتي الطبري والتوراة في الترتيب وفي الضبط : ضبط الأسماء .

ونجد الطبري يروي في مكان آخر أن أولاد سام ، هم : عابر ، وعليم ، وأشوذ ، وأرفخشذ ، ولاوذ ، وإرم . وذكر أن من ولد (أرفخشذ) الأنبياء والرسل وخيار الناس والعرب كلها والفراعنة بمصر[2] . ويظهر من هـذه الرواية أن ولد سام هم ستة ، وقد نتج ذلك عن ضم (عابر) الى ولد سام . وهو ضم مخالف لما جاء في التوراة . ولو رفعنا اسم (عابر) من الأسماء المذكورة، لصارت بقية الأسماء خمسة ، وقد رتبت على وفق ما ورد في (سفر التكوين) : فـ (عليم) هو (عيلام) ، و (أشوذ) ، هو (أشور) ، و (أرفخشذ) ، هو (ارفكشاد) ، و (لاوذ) ، هو (لود) ، و (إرم) هو (أرام) .

وليس في التوراة ذكر لأبناء (لود) ، أي (لاوذ) أهل الأخبار والأنساب. وكل ما فيها أن لـــه نسلاً ، وقد عرفوا بـ (اللوديين) . وقـــد ذكروا مع (كوش) و (فوط) مما يبعث على الظن أنهم إفريقيون[3] . ولورود اسم جدهم (لود) مع (أشور) و (ارام) و (عيلام) ، يرى علماء التوراة أن اللوديين الذين هم من نسل (لود بن سام) هم شعب من شعوب الشرق الأدنى ، لا تبعد مواطنهم عن البابليين والآشوريين ، وأنهم غير (اللوديين) الإفريقيين، اللوديين المنحدرين من صلب (مصرايم) ، أي (مصر) المذكورين أيضاً في التوراة[4].

ولهذا فإن الأولاد الذين نسبهم أهل الأخبار الى (لود) ، (لاوذ) ، وهم: طسم وعمليق ، وجرجـــان ، وفارس على رواية ، وجديس ، وأميم ، وعبد ضخم على رواية أخرى[5] ، وأمثالهم ممن لم نذكر من الأولاد ، هم هبة منحها

---

١ الطبري (٢٠٢/١ وما بعدها)
٢ الطبري (٢٠٥/١) ، التيجان (٢٥) ، الكامل (٣١/١)
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٩٩/٢ فما بعدها) ، ارميا ، الاصحـــاح السادس والاربعيـــن ، الايـــة ٩ .
٤ التكوين الاصحاح العاشر ، الاية ١٣ ، حزقيال ، الاصحاح ٢٧ الاية ١٠ ، الاصحاح ٣٠ ، الاية ٥ ، قاموس الكتاب المقدس ، (٢٩٩/٢) Hastings, P. 557
٥ الطبري (١٠٣/١) ، ابن خلدون (٧/٢)
Sprenger, in ZDMG., 17 (1863), S. 373.

أهل الأخبار والأنساب لـ (لاوذ) لا نجد لها ذكراً في التوراة :

إنّ (عمليقاً) ، الذي هو جد العمالقة على رأي أهل الأخبار ، وليس من نسل (لود) في التوراة ، بل هو جد (أول الشعوب)[1] ، لذلك يبدو تجاسر أهل الأخبار بمنح (لود) أولاداً عملاً غريباً ، والظاهر أن (ابن الكلبي) واليه ترجع أكثر هذه الروايات ، أو أحد من سألهم عنهم ، اختاروا (لوداً) من بين أبناء (سام) فنحوه أولئك الأولاد . وكان لا بد لهم من نسبتهم الى أحد الأجـــداد المتقدمين القحطانيين ، لأنهم أقدم منهم في نظرهم ، فاختاروا لهم ذلك الأب .

أما (أرام) ، وهو (إرم) عند أهل الأخبار ، فقد أولد أولاداً على ما جاء في التوراة ، وهم : (عوص) (UZ) ، و (جاثر) (كاثر) (غاثر) (Gether) ، و (حويل) ، (حول) (Hul) ، و (ماش) (Mash)[2] . وقد ذكروا في موضع من التوراة أنهم أبناء (سام)[3] ، وذلك جرياً على طريقة العبرانيـــين في حذف اسم الأب أحياناً ، وإلحاق الحفدة بالجد مباشرة[4] .

وقد عرف أهل الأخبار هذه الأسماء[5] ، إلا أنهم قدّموا وأخروا فيهـــا كما حرفوا فيها بعض التحريف ، وقد اختار أهل الأخبار (عوصاً) ، فجعلوا لـــه أولاداً هم : عاد ، وعبيل[6] ، وغاثر بن عوص ، واختاروا (جاثر) فجعلوا له (ثموداً)[7] و (جديساً)[8] . وقالوا عنهم : (وكانوا قوماً عرباً يتكلمون بهذا

---

١ العدد ، الاصحاح ٢٤ ، الاية ٢٠ ، قاموس الكتاب المقدس ، (١١٢/٢) .
٢ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٣
٣ اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ١٧
٤ « ولا يستغرب ذلك ، لان من عوائد العبرانيين في جدول أنسابهم انه كثيرا مـــا ينزلون الحفدة واولادهم منزلة الاولاد من الجيل الاول » ، قاموس الكتـــاب المقـــدس (١٢٦/٢) ،
٥ سفر التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٣
٦ الطبري (٢٠٤/١ ، ٢٠٧) ، الكامل (٣١/١) ، مروج (٢٤/١) (٣١/١) « طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد »
٧ الطبري (١٠٣/١) ، (٢٠٧/١) « دار المعارف » ، مرو محيى الدين عبد الحميد » .
٨ الطبري (٢٠٤/١ ، ٢٠٧) « دار المعارف » .

اللسان المصري)[1] . ولا نجد في التوراة ولا في اليهوديات ذكراً لهـؤلاء الأولاد الذين منحهم أهل الأخبار (عوص) أو (غاثر) (جـاثر) . إذن فالنسب المذكور هو من صنع الأخباريين .

و (أرام) هو جد (بني إرم) أي (الآراميين) . وهم قوم معروفون فلا حاجة الى التحدث عنهم . وأما (عوص) فهو جد (العوصيين) ، سكان أرض (عوص) موطن (أيوب) (Job) ، إلا أن العلماء لم يتفقوا في تعيين مكانه[2] . فذهب بعضهم الى أنه (دمشق) و (اللجاء) (اللجـاة) مستندين في ذلك الى رواية (يوسيفوس) ، وذهب آخرون الى أنه (أورفا) على الفرات[3] ورأى بعض أنه في (نجد)[4] ، وذهب بعض آخر الى أنه (أدوم) أو العربيـة الشمالية[5] ، ورأى (كلاسر) أنه في شمال غرب (المدينة)[6] ، ورأى غيره أنـه في مكان ما من جزيرة العرب أو من بادية الشام[7] .

وقد استدل بعض الباحثين من سفر (أيوب) ومما ورد عنه : ومن اسمه على أنه كان عربياً ، عاش بين العبرانيين ، أو ان بعضهم اختلط به ، فدوّن أخباره وقصصه[8] . وقد أمدت كتب (الهكادة) (Haggadah) و (التلمود) و (المدارش) اليهــود وأهل الأخبار بقصص عنه وعن أصدقائه الخلص الذين لازموه[9] .

نرى مما تقدم أن الاخباريين قد ربطوا نسب العرب البائدة أي العرب الأولى بالإرميين (الآراميين) وباللوديين (اللاوذيين) وبالعوصيين وبالجاثريين (الغاثريين) . ولا نجد في كتبهم الأسباب التي حملتهم على رجع أنساب هؤلاء العرب الى هؤلاء الآباء . ويظهر أن فكرة وجود عرب أولى عاشت قبل القحطانيين والعدنانيين ،

---

١ الطبري (١/٢٠٤)

٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٢٦)
Enc. Bibli. P. 5238, Hastings, P. 956, Musil, Hegaz, P. 248.

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٢٦) Josephus, Ant. I, VI, 4.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٢٦)

٥ Hastings, P. 956.

٦ Hastings, P. 956.

٧ Hastings, P. 956, Enc. Bibli. P. 5238.

٨ Margoliouth, The Relations, P. 31. f.

٩ « الطبعة الجديدة » Enc., I, P. 795.

جعلت أهل الأخبار يبحثون عن آباء لهم ، يكونون أقدم عهداً من (قحطان) ومن (عدنان) ، فنسبوا أولئك العرب الى (لود) و (أرام) ابني سام ، والى (عوص) و (جاثر) ابني (أرام) ، وهم أقدم عهداً من جدي القحطانيين والعدنانيين .

أما أثر التوراة على النسابين وأهل الأخبار بالنسبة الى الطبقة الثانية من العرب، الطبقة التي دعاها العرب العاربة ، والعرب القحطانيين ، فقد ذكرت في الفصل الخاص بهؤلاء العرب ان (قحطان) جد القحطانيين ، هو (يقطان) في التوراة . وقد نسبه أكثر أهل الأخبار الى (عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)[1] . وصيّره بعضهم ابناً من أبناء سام . وقد ذكرت ان النسب الثاني نسب مغلوط ، وان نسبه المذكور في التوراة يجعله الابن الثاني الأصغر لـ (عابر) . أما الولد البكر فهو (فالج) ، فيكون العبرانيون واليقطانيون أبناء عم وفق هذا النسب.

وقد ذهب بعض الباحثين في التوراة الى ان (يقطان) لا وجود له ، وانما ابتدع ابتداعاً لايجاد صلة بين العرب والعبرانيين[2] .

وقد ذهب بعض الباحثين في التوراة الى ان عابراً ، جدّ قبيلة كبيرة ، انقسمت على نفسها الى قسمين : قسم بقي فيما بين النهرين ، وهو القسم الذي عرف بذرية (فالج) ، ومن هذه الذرية انحدر (العبرانيون) ، وقسم ترك (ما بين النهرين) وارتحل الى جزيرة العرب ، وهو القسم الذي عرف بـ (يقطان) ، ودليلهم على ذلك ان معنى (فالج) هو (الانشقاق) و (الانقسام) ، وان في أيامه (قسمت الأرض) على رواية التوراة[3] . ومعنى ذلك انقسام ذرية (عابر) ، وانشطارهم الى شطرين .

وقد ذكر (الطبري) ان (بني يقطن) لحقت باليمن ، فسميت اليمن حيث تيامنوا[4] ، ومصدر خبره هذا (ابن هشام) ، وقد أخذ (ابن هشام) خبره هذا من أهل الكتاب ولا شك .

---

١ « ويقطن : هو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح » ابن سعد الطبقات (ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨ وما بعدها) ، الطبري (٢٠٧/١) دار المعارف

٢ Hastings, P. 491.

٣ قاموس الكتاب المقدس (١٤٩/٢) ، التكوين ، الاصحاح العاشر الاية ٢٥ Hastings, P. 490, 697.

٤ الطبري (٢٠٩/١) « طبعة دار المعارف »

ويشك بعض دارسي التوراة في كون (يقطان) المذكور هو (قحطان) الذي يذكره علماء الأنساب ، ويرون ان نظرية من يجعل قحطاناً هو (يقطان) ، نظرية لا تستند الى أساس ، وانما وضعت على التشابه الموجود بين اللفظين،وهذا التشابه هو الذي دفع علماء الأنساب الى اعتبار (قحطان) (يقطاناً) ، فمن ثم صار (يقطان) جداً للعرب القحطانيين[1] . ولكنهم لا ينكـرون مع ذلك أن (يقطان) التوراة ، هو جدّ قبائل ذكرت التوراة أسماءها،وبعضها قبائل عربية معروفة ، فلا يستبعد أن يكون (يقطان) على رأيهم كناية عن قبائل عربية لم يكن العبرانيون على علم بها تمام العلم[2] .

ولم ترد في القرآن الكريم لفظة (قحطان) أو (يقطان) . ولم ترد كذلك في الكتابات الجاهلية . أما الشعر الجاهلي ، فقد وردت فيه في مواضع الفخـر والحماسة . واذا وافقنا على أنها وردت في الجاهلية القريبة من الإسلام،فانموافقتنا هـذه لا تعني أن قدماء أهل الجاهلية البعيدين عن الإسلام كانوا على عـلم بـ (قحطان) ، أو ان قوماً منهم كانوا ينتمون اليه وينتسبون بنسبه ، فحكم مثل هذا لا بد أن يستند الى كتابات وأدلة مقبولة. ولهذا رأى نفر من المستشرقين ان الأخباريين جاؤوا بقحطانهم هذا من التوراة ، من تأثرهم بأهـل الكتاب ، ومن مطالعتهم للتوراة ، فحولوا النزاع الذي كان بين أهل اليمن وفيهم (سبأ)، والنزاع الذي كان بين أهل مكة وبين أهل مكة ويثرب التي ينتمـي أهلها الى اليمن الى نزاع بين جدّين ، وصار (قحطان) وليد (يقطـان) (يقطن) جداً حقيقياً ليمن ولمن نسب نفسه اليهم من الأفراد والقبائل[3] .

وقد ورد في جغرافيا (بطلميوس) اسم قريب من (قحطان) هو (كتنيته) (كتانيته) (Katanitae)[4] ، قد يكون دليلاً على وجود أسماء عند الجاهليين قريبة من (قحطان) . أما هذه التسمية ، فاننا لا نستطيع أن نقول ان لهـا علاقة بقحطان . فالتشابه في التسميات ، لا يكون دليلاً قاطعاً على وحدة تلك

---

١ Hastings, P. 491.

٢ Hastings, P., 490.

٣ Enc. Vol. 2, P., 629.

٤ Ptolemy, Geogr. VI, 7, 20, Glaser, Skizze, Bd., 2, S., 283, Knobel Die Voelkerstafel der Genesis, S. 185, The Historical Geography, Vol. I, P. 80, O'Leary, P. 18.

التسميات . وقد ورد في الموارد العربية اسم قبيلة عرفت بـ (قطن) و بـ (بني قطن) ، كما ورد اسم مكان عرف بـ (جوّ قطن) ، واسم مدينة تدعى (قحطان) ، تقع بين (زبيد) و (صنعاء)[1] . لهذا أرى ان من الخير لنا ألا نتخذ موقفاً خاصاً لا سلباً ولا ايجاباً تجاه هذا الموضوع انتظاراً لاستكمال العدة والحصول على مواد جديدة تكفي لاصدار حكم فيه .

أما بلاد (اليقطانين) ، على رأي التوراة ، فتمتد من (ميشا) (Mesha) الى (سفار) (Sephar)[2] . ولم تذكر التوراة حدوداً جغرافية لها غير هذين الحدين . ولا يعرف العلماء عن موضوع (ميشا) شيئاً . فذهبوا في تعيينه مذاهب . ذهب بعضهم الى انه (مسينة) أو (ميسان) (Mesene) على رأس الخليج العربي[3] ، وذهب آخرون الى انه (موزح) أو (موسج) في نجد[4] ، ورأى آخرون انه (ماشو) (Mashu) أو (ماش) (Mash) ، أي بادية الشام في الكتابات الآشورية[5] .

وذهب (ديلمن) (Dillmann) الى ان (ميشا) ، تحريف (مسا) (Massa) ، وهو اسم أحد أبناء اسماعيل ، فتكون حدود (اليقطانين) على رأيه بعد حدود أرض (مسا) ، من قبائل الإسماعيليين مباشرة ، غير اننا لا نستطيع مع ذلك من تعيين الموضع[6] ، لأننا لا نعلم أيضاً أين كانت مواطن (مسا) من قبائل الإسماعيليين ، فكيف نثبت هذه الحدود ؟

وأما الحد الآخر ، وهو (سفار) ، فهو الحد الجنوبي للبلاد (اليقطانين) ، وذلك باجماع آراء علماء التوراة . ولكنهم يختلفون في تعيين الوضع فقط ، فنهم من رأى أنه (ظفار) عاصمة الحميريين ، ومنهم من يرى أنه (ظفار) حضرموت التي اشتهرت شهرة واسعة في العالم القديم ، وورد ذكرها في الكتب (الكلاسيكية)[7].

---

١ احسن التقاسيم (٨٣/٣ ، ٩٤) ، « الطبعة الثانية »
Enc. Vol. 2, P. 629, Glaser, Skizze, 2 S. 288.

٢ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٣٠

٣ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٩/٢) ، Hastings, P. 606.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٩/٢)

٥ Hastings, P., 607, Delitzch, Wo Lag ?, S, 242.

٦ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٤ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الاية ٣٠
Enc. Bibli, P. 3040.

٧ Enc. Bibli., P., 4370, Ritter, Erdkunde, 14, 372, Sprenger, Alte Geogr. S. 186, Skizze, 2, S. 437, Hastings P, 886.

ومن المرجح أن تكون هي الموضع المقصود ، وذلك لشهرتها هذه ولقدمها .

وقد جعلت التوراة لـ (يقطان) أولاداً ، عدتهم فيها ثلاثة عشر ولداً ، هم : الموداد ، وشالف ، وحضرموت ، وريـاح ، وهدورام ، وأوزال ، ودقلة ، وعوبال ، وابيمايل ، وشبا ، وأوفير ، وحويلة ، ويوباب[1] . وهـذه الأسماء ، هي أسماء قبائل ، وأمكنة ، اعتدها كتبة التوراة على عادة ذلك العهد أسماء أعيان ، وصيروها أسماء أولاد (يقطان) .

ولا يعني هذا العدد ، في نظري ، أنه جميع القبائل العربية التي كانت تقيم في مواطن (اليقطانيين) ، وإنما هو حاصل ما بلغ اليه علم كتبة تلك الأسفـار في ذلك اليوم من أمر هذه القبائل ، ولم تكن معارف أولئك الكتبة يومئذ أكثر من هذا الذي ذكروه ودونوه . على نحو ما وصل الى علمهم ومسامعهم ، فهو لهذا لا يمثل أيضاً ترتيباً جغرافيـاً للأماكن المذكورة ولا سرداً على نسق معين مضبوط[2] .

ونحن اذا أنعمنا النظر في هذه الأسماء نجد أنها قد كدست في منطقة ضيقة ، هي اليمن وحضرموت . أما ما فوقها الى (ميشا) نهايـة الأرض اليقطانية في الشمال ، فلم يذكر الكتبة من أسماء قبائلها شيئاً ما . وهو يدل على أنهم لم يكونوا يعرفون عن باطن جزيرة العرب شيئاً ، أو أن موضع (ميشا) في مكان آخر في غير هـذا الموضع الذي تصوره علماء التوراة ، كأن يكون في شمال اليمن مثلاً ، وبذلك يستقيم التحديد كل الاستقامة مع ما هو شائع معروف من أن أرض اليمن وبقية العربية الجنوبية هي أصل موطن القحطانيين .

ويظهر أن كتبة النسب في التوراة لم يراعوا في عدهم أسماء أبناء يقطان الترتيب الجغرافي ، أو قرب اليقطانيين وبعدهم عن العبرانيين . فهذا الترتيب ، لا يشير – في الحقيقة – الى أن الأسماء وضعت على أساس جغرافي . والظاهر أنها جمعت كما وصلت الى مسامع العبرانيين من غير فحص أو تدقيق ، كما أننا لا نستطيع أن نؤكد أنها وصلت صحيحة سالمة من غير تصحيف أو تحريف .

و (المودا) (مودد) (المودد) (Al-Modad) ، هو الابـن البكر

---

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٦ فما بعدها

٢ Enc. Bibl. P. 2564, Hasings, P., 490.

ليقطان على ما يفهم من التوراة . وهو رمز عن شعب من الشعوب اليقطانية ، يرى نفر من علماء التوراة أن مواطنه في العربية الجنوبية . قد يكون في جنوب غربي جزيرة العرب[١] . وقد وردت في النصوص العربية الجنوبية وفي نصوص غير عربية كلمات قريبة من هذه الكلمة، مثل (موددى) في البابلية ، و(مودادو) (موددو) في البابلية أيضاً وفي (الأمودية)[٢] . ووردت لفظة (مودد) في كتابات (جبانية) (كبانية) (Gebanitae) ، في نصوص تدل على تقرب ملوك (حبان) (جبن) (كبن) (جبان) من ملوك معين ، والى سيادة (معين) على (الجبأنيين) في ذلك الحين . فورد (مودد ملك معين) بمعنى (المتودد للملك معين) و (المحب للملك معين) . ويرى (كلاسر) أن هذه الجملة لا تعني (أحباء ملوك معين) وأصفياءهم ، وانما تحكي وظيفة لها علاقة بالإلـه (ود) ، مثل كهانة الإلـه (ود) وسدانته . ومسكن هؤلاء (الجبأنيين) في الزاوية الجنوبية الغربية لجزيرة العرب[٣] ، كما ورد اسم (مودد) في الكتابات السبئية[٤] ، وفي كتاب الإكليل للهمداني . وقد ذكره قبل (السلف) ، مما يدل على أنه اسم مكان مجاور للسلف[٥] .

وأورد (بطلميوس) في الجغرافيا اسم شعب عربي دعاه (Allumaeotae) يرى (فورستر) أنه شعب (المودداد) الذي نتحدث عنه . ويقع مكان هذا الشعب في جغرافيا (بطلميوس) جنوب (الجرعاء) (Gerraea) (Vicus Jerachaeorum) ، ويتصور أنه على ساحل الخليج العربي عند (قطن)[٦].

وأما (شالف) (Sheleph) الذي ورد في التوراة بعد (المودداد) ، فلم يتمكن العلماء من تشخيصه أيضاً[٧].ويرى بعضهم انه شعب (Salepeni) المذكور في جغرافيا (بطلميوس)[٨] : ويرى آخرون انه (السلف) ، وهم بطن من

١ Hastings, P. 22, Dictionary of the Bible, I, P., 50, By W. Smith.

٢ Enc. Bibl. P. 116, Hommel, A. H. T., S., 113, Early Babylonian Personal Names, P. 30, Montgomery, Arabia and the Bible, P. 40.

٣ Glaser, Skizze, 2, S. 425.

٤ Ency, Bibli. P. 116, ZDMG. 37, 13, 18.

٥ الاكليل (١١٦/١ وما بعدها)

٦ Forster, Vol. I, P. 107, F.

٧ Hastings, P., 845, Enc. Bibli. P. 4448, Montgomery, Arabia, P. 40.

٨ Forster, Vol. I, P. 109. f.

ذي الكلاع من حمير ، وهو (السلف بن يقطن)[1] ، أو (السلاف) ، أو (بنو سلفان)[2] . و (السلف) أقرب هذه الأسماء الى (شالف) ، وخاصة اذا أخذنا بما قاله النسابون من انتساب هذه القبيلة الى جدّ أعلى هو (السلف ابن يقطن) ، وذكر (نيبور) في رحلته اسم موضع في اليمن يقال له (سلفية)، قد تكون لاسمه علاقة بـ (شالف)[3] . وفي منطقة (يريم) ممر يقال له (نجد الأسلاف)[4] ، وقد رأى (كلاسر) احتمال وجود صلة بينه وبين (شالف)[5] .

وأما (حزرماوث) ، (Hazarmaveth) ، فهو (حضرموت). ومعلوماتنا عن هذا الشعب حسنة بفضل الكتابات الجاهلية التي عثر عليها في العربية الجنوبية، والتي ترجم عدداً منها المستشرقون . وسأتحدث عنهم في الأجزاء الآتية من هذا الكتاب .

وأما (يارح) (Yerah) ، فان معناه (قمر) و (شهر) ، ولهذا ذهب بعض الباحثين الى انه اسم قبيلة عربية . وبين العرب قبيلة تعرف بـ (بني هلال)، فلا يبعد أن يكون (يارح) اسم قبيلة[6] . وقد عثر في كتابات تدمر على اسم (يارح) ، وقد ورد اسم علم[7] ، كما ان اسم (شهر) من الأسماء المعروفة عند الجاهليين ، وقد سُمّي به عدد من الملوك الذين عاشوا قبل الميلاد وبعده .

ويرى (كلاسر) ان الشعب كان يقيم في (مهرة) ، أو في جنوب عمان في موضع قد يكون المكان الذي سماه (بطلميوس) (Jerakon Kome)[8] .

و (يارح) هو (يرخ) و (ورخ) في اللهجات العربية الجنوبية ، وتعني (شهراً) (قمراً) . وهناك مواضع متعددة في العربية الجنوبية تسمى بأسماء قريبة من هذه الكلمة ، مثل (وراخ) و (يراخ) . وقد ذكر الهمداني

---

١ تاج العروس (١٤٣/٦) ، « السلف » ، البلدان (١٠٩/٥) ، نهاية الارب (٢٧٨/٢) ، القاموس (١٥٣/٣) ، الاكليل (١١٦/١)
٢ الهلال ، ج١٣ ، سنة ١٠ ، نيسان ، ١٩٠٢ م (ص ٤٠١)
٣ Enc. Bibl. P. 4448, Niebuhr, Arabien, S. 247, Osiander, in ZDMG., II, 153. ff. Glaser, Skizze, S. 425.
٤ صفة (ص ٧١ ، ١٠١)
٥ Glaser, Skizze, 2 S. 425.
٦ قاموس الكتاب المقدس (٤٨٧/٢) .
٧ Enc. Bibl. P. 2362, Montgomery, Arabia, P. 40.
٨ Glaser, Skizze, 2, S., 425.

اسم موضع دعاه (وراخ) في مخلاف (العود)[١] ، لذلك رأى بعض العلماء وجود صلة بين هذه المواضع و (يارح) . كما ورد في جغرافيا (بطلميوس) اسم مكان دعاه (Insula Jerachaeorum) ، وهو جزيرة تقع في البحر الأحمر جنوب جُدّة . وورد اسم محل آخر سمي (Vicus Jerachaeorum) ، ويقع في مقابل النهر الذي دعاه نهر (الآر) (Lar) الذي يصب على زعم (بطلميوس) في الخليج العربي (الخليج الفارسي) (Sinus Persicus)[٢] .

وأما (هدورام) (Hadoram) ، فيرى (ملر) (Muller) ، و(كلاسر) احتمال أنه (دورم) ، وهو موضع على مقربة من (صنعاء) . ويؤيدان رأيهما هذا بما ورد في المؤلفات العربية من أن اسم (صنعاء) القديم هو (أزال) . و (أزال) هو شقيق (هدورام) ، وقد ذكر بعده في ترتيب أسماء أولاد (يقطان)[٣] .

وقد ذكرت الكتب العربية اسم موضعين يقال لهما (الهدار) . قال الهمداني عن أحدهما : إنه (حصون ونخول وقصور عادية)[٤] ، وقال عن الثاني : إنه (هدار بني الحريض)،وذكر أن فيه (القطنية)[٥] ، وهذا الموضع الأخير قريب من (هدورام) ، وللفظة (القطنية) أهمية كبيرة لقربها من لفظة (يقطان) .

وقد ذكر (الطبري) في تأريخه أن جرهماً (اسمه هدرم بن عابر بن يقطن ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)[٦] . وهذا النسب الذي ذكره (الطبري) هو النسب الوارد في التوراة بزيادة (عابر) بين (هدرم) وهو (هدورام) وبين (يقطن) . وهو خطأ ، يرد كثيراً في الأنساب المنقولة من

---

١ صفة (ص ١٠١) ، « وراخ : ناحية باليمن » البلدان (٤١١/٨)

٢ Forster, Vol. I, P. 116. ff.

٣ Enc. Bibl. P. 1932, Muller, Burgen und Schlosser, I, S. 360

٤ صفة Glaser, Skizze, 2, 426, Hastings, P. 324, Forster, 2, P. 137.

٥ صفة

٦ الطبري (٢٠٧/١) « دار المعارف »

التوراة الى الكتب العربية . ومورد (الطبري) هو (ابن الكلبي)[١] ، ومورد (ابن الكلبي) هو من أهل الكتاب ، شأنه في ذلك شأن كل الأنساب حيث أخذها من أهل الكتاب .

أما (أزال) ، فهو مثل سائر الأسماء المتقدمة ، غير معروف . ولم يتفق علماء التوراة على تعيينه حتى الآن . وقد ذكر أهل الأخبار أن (صنعاء) عاصمة اليمن ، كانت تعرف في الجاهلية بـ (أزال)[٢] . وترجع هذه الرواية الى (وهب بن منبه) ، الذي زعم (أنه وجد في الكتب القديمة المنزلة التي قرأها : أزال كل عليك ، وأنا أتحنن عليك)[٣] وزعم أن (أزال) هي (صنعاء) ولم يرد في النصوص الجاهلية ما يفيد أن صنعاء كانت تعرف بـ (أزال) ، بل لدينا نص من أيام الملك (يشرح يحضب) (ملك سبأ وذي ريدان) ويعود الى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول لما قبل الميلاد ، أي القرن المتصل بالقرن الأول للميلاد ورد فيه (صنعو) وهو (صنعاء)[٤] .

ويرى (كلاسر) ان اسم (أزال) انما وضع لـ (صنعاء) بعد دخول اليهودية الى اليمن وانتشارها هناك ، وضعه اليهود[٥] . وذكر (البكري) ان صنعاء كلمة حبشية ، ومعناها وثيق وحصين[٦] .

وهناك مواضع أخرى عرفت بـ (أزال) ، منها موضع يعرف بـ (يأزل)، عند جبل (حضور) ، وموضع آخر في الحجاز ، غير أن من غير الممكن في الزمان الحاضر البت في أي مكان من هذه الأمكنة بأنه هو (أزال) التوراة[٧] .

ولم يتمكن علماء التوراة من البت في موضع (دقلة) (Diklah) أيضاً . ويرى بعض المستشرقين ان هذا الاسم يشير الى مكان يجب أن يكون كثير

---

١ المصدر نفسه

٢ البلدان (٢١٤/١) ، (٣٨٧/٥) ، صفة (ص ٢٥٥)
Montgomery, Arabia, P. 40, Caussin de Perceval, Histoire des Arabes, Vol. I, P. 40.

٣ تاج العروس (٤٢١/٥)

٤ Enc. Bibl. P. 5239, Hastings, P., 956, Enc. Vol. 4, P. 143, Glaser, Skizze 2, S. 427
Sprenger, Geogr. S. 181, Glaser, 424.

٥ Glaser, Skizze, 2, S. 427.

٦ تاج العروس (٤٢١/٥)

٧ Glaser, Skizze, 2, S., 427.

التمر[1] : وقد رأى (هومل) انه موضع (حدّدقل)[2] . وذكر (ياقوت الحموي) موضعاً في اليمامة سماه (دقلة)[3] ، ولكن الباحثين في هـذا الموضوع لم يقطعوا برأي فيه .

ورأى بعض الباحثين ان (عوبال) (Obal) (Ebal) ، شعب (عبيل)؛ ورأى آخرون انهم (عيبال) في تهامة الحجاز ، أو (عبال) أو (عبيل) ، وهما موضعان في اليمن[4] .

ورأى (فورستر) احتمال وجود صلة بين (عوبال) و (Avalitae) ، وهو اسم شعب عربي ذكر (بلينيوس) ، أو (Abalitae) ، وقد ذكره بعض الكتبة (الكلاسيكيين)[5] .

وذهب (كلاسر) الى احتمال كون وادي (أثمـة) ، هو موضع شعب (أبيمائيل) (Abimael) ، غير ان ذلك مجرد ظن ، ليس غير[6] .

والولد العاشر من ولد (يقطان) ، هو (شبا) . وقد وردت بعض أخبار (شبا) في أسفار التوراة ، وذكرت قصة (ملك شبا) وزيارتها لسليمان[7] : فسبأ هنا ، شعب من شعوب اليقطانيين . ولكننا نرى التوراة تجعل (شبا) في موضع آخر ابناً لـ (يقشان) ، و (يقشان) هو ابن (ابراهيم) من زوجته (قطورة) (Keterah) ، وهو شقيق (اسماعيل) من أبيه[8] . فسبأ هنا من نسل شعب آخر يختلف عن (سبأ) اليقطانيين . ونراها تذكر (سبأ) بالسين المهملة في جملة أبناء (كوش)[9] . والمعروف ان المراد من (كوش) عنـد العبرانيين ، الحاميون ، أي الشعوب الإفريقية ، فيكون (سبأ) هنا اسم شعب

---

١ Enc. Bibli. P. 1101, Forster, I, P., 147, Montgomery, Arabia, P. 40.

٢ Enc. Bibli. P. 1101.

٣ البلدان (٦٥/٤)

٤ Enc. Bibli. P. 1151, Glaser, Skizze, 2, S. 426, Hastings, P. 201, Halevy, Melanges D'epigraphie et D'archéologie Semitigues, 86.

٥ Forster, I, 148. f.

٦ Glaser, Skizze, 2, S. 426, Enc. Bibli. P. 17, Hastings, P. 4.

٧ الملوك الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ١ فما بعدها

٨ قاموس الكتاب المقدس (٥٢٤/٢) ، التكوين ، الاصحاح الخامس والعشريـن ، الاية ٢ ، اخبار الايام الاول الاصحاح الاول ، الاية ٣٢ Hastings, P. 490.

٩ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٧

من الشعوب الإفريقية[١] .

ومعنى هذا التعدد في النسب انتشار السبئيين وسُكناهم في مواضع متعددة ، وهذا ما حمل كتبة التوراة على ادخال نسب السبئيين الساكنين في إفريقية في نسب (الكوشيين) ، وادخال السبئيين الساكنين عند (ددان) في نسل (رعمة) .

ويرد اسم (أوفير) (Ophir) بين (شبا) و (حويلة) ، وهو كناية عن أرض اشتهرت عند العبرانيين بكثرة ذهبها وبوجود الفضة وخشب الصندل وبعض الأحجار الكريمة فيها[٢] . وقد اختلف في تعيين مكانها ، فذهب كثير من علماء التوراة الى انها في جزيرة العرب ، ولكنهم اختلفوا في تعيين المكان ، فذهب بعضهم الى انها في اليمن ، وذهب آخرون الى انها في عسير ، وآخرون الى انها في اليمامة[٣] أو موضع (العويفرة) الذي لا يبعد كثيراً عن حافات جبل طويق[٤] ، ومنهم من رأى انه (مهد الذهب) في الحجاز ، وهو موضع عرف باستخراج الذهب منه قبل الإسلام بزمن طويل ، وقد نقبت فيه شركة تعدين حديثة ، أغلقت أبوابها من عهد ليس ببعيد ، كما ذكرت ذلك في كلامي على معادن جزيرة العرب .

غير أن هنالك جماعة من الباحثين في التوراة ترى أن الوصف الوارد في التوراة لأرض (أوفير) يجعلها أرضاً في الهند ، وذلك لأن الحاصلات المذكورة فيها هي حاصلات هندية ، ومن الصعب تصور وجودها في بلاد العرب في ذلك الزمان[٥] . وذهب فريق آخر الى أنها في إفريقية[٦] .

والابن الثاني عشر من أبناء (يقطان) ، هو (حويلة) . وقد ذكرته التوراة في موضع آخر في جملة أبناء (كوش) مع (سبأ) ، مما يدل على توطن قبيلة

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢٧٨/٢) ، Hastings, P. 171.

٢ قاموس الكتاب المقدس (١٧٩/١)

٣ Sprenger, Geogr. S. 49. ff. Glaser, Skizze, 2, S. 357, Hommel, AHT. 236, Montgomery, Arabia, P. 38. ff.

٤ Philby, Sheba's Daughters, P. 430.

٥ Lassen, Indische Alterthumskunde, I, 538, Soetbeer, Das Goldland Ophir, 1880 A.K. Keane. The Gold of Ophir, 1901, Moritz, Arabien, S. 7, Forster, Vol. I P. 161, 2, P. 237.

٦ Peters, Das Goldene Ophir Salamons, 1895, Enc. Bibl. P. 3514, Enc. Brita. Vol. 16, P. 807.

أخرى تسمى بهذا الاسم في (إفريقية) لعلّها فرع من فروع (حويلة) بلاد العرب[1] . وقد ذهب بعض العلماء الى أن (حويلة) بلاد العرب ، هي في بادية الشام ، أو على مقربة من خليج العقبة ، وذهب آخرون الى أنها في أواسط جزيرة العرب ، أو في منطقة (جبل شمر) ، ورأى كلاسر أنها في اليمامة[2] .

وقد ذكر (الهمداني) جماعة دعاهم (الحوليين)[3] ، يظهر أنهم سكان موضع (حوالة) وهناك بطن من بطون اليمن يقال له (بنو حوالة) ، كما ورد في اسم (حويل)[4] .

وفي التوراة : (وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ، ومن ثم يتشعب فيصير أربعة رؤوس . اسم أحدهما فيشون ، وهو المحيط بجميع أرض حويلة حيث الذهب . وذهب تلك الأرض جيد . هنالك المقل وحجر الجزع)[5] . فيفهم منه أن نهر (فيشون) (Pishon) يحيط بأرض (حويلة) وهو من أنهر الجنة الأربعة . وأحد الأنهار الأربعة على رأي علماء التوراة هو نهر النيل ، وأما الثاني فهو الفرات ، وأما الثالث فهو نهر دجلة ، وأما النهر الآخر الذي نتحدث عنه ، فذهبوا الى أنه نهر (كارون) أو شط العرب ، أو أحد الأنهر الأخرى فتكون أرض حويلة عندئذ في منطقة تقع على رأس الخليج[6] .

وآخر أبناء (يقطان) هو (يوباب) (Jobab) ، ويرى (كلاسر) انه اسم قبيلة (يهيبب) ، الذي ورد في النصوص السبئية[7] . وذهب بعض آخر الى انه اسم شعب (وبار) ، وانه تصحيف لاسم (Jobarital) الوارد في جغرافيا (بطلميوس)[8] .

---

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٩ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الاية ١٩ ، ٢٣ ، قاموس الكتاب المقدس (٣٩٨/١)

٢ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٨/١)
Enc. Bibl. P. 1974, Musil, Hegaz, P. 261, Hastings, P. 333, Glaser, 2 S. 302

٣ الاكليل (٨٥/٨) « طبعة نبيه »

٤ تاج العروس (٢٩٧/٧) ، القاموس (٣٦٤/٣) ، اللسان (٢٠٧/١٣)

٥ التكوين ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٠ وما بعدها

٦ Hastings, P. 203.

٧ Hastings, P., 472, Glaser, Skizze, 2, S. 303, Enc. Bibl. P. 2491.

٨ الهلال : الجزء الثالث عشر من السنة العاشرة ، نيسان ١٩٠٢ ، ص ٣٠٤

وقد أضاف (ابن الكلبي) الى سلسلة أبناء (يقطن) (يقطان) ولداً آخر لم يرد له ذكر في التوراة ، دعاه (توقير) ، زعم انه والد الهند والسند[1]، فربط بذلك بين نسب (اليقطانيين) والهنود . ولا ندري : أعبّر عن ذلك جهلاً واعتباطاً ، أم كنّى بذلك عن الروابط القديمة التي ربطت بين العربية الجنوبية والهند ، حيث سكن عدد كبير من قدماء الهنود (الدراويديين) (Dravidians) في سواحل عمان وحضرموت ؟ وقد عثرت البعثات العلمية التي نقبت في هذه الأماكن على بقايا هياكل عظمية ترجع الى هؤلاء ، كما يتحدث السياح والباحثون في أثر دماء الهند على سكان هذه المناطق .

ولم ينل هؤلاء الأولاد الثلاثة عشر عناية الأخباري (ابن الكلبي) ، ولا عناية (محمد بن اسحاق) ، أو غيرهما من أهل الأخبار المعروفين بأخذهم عن أهل الكتاب ، اذ لم يشيروا اليهم في أثناء كلامهم على أولاد (يقطن) (يقطان)، ولم يتحدثوا عنهم . بل نسبوا اليه أولاداً آخرين تراوح عددهم من عشرة ذكور الى واحد وثلاثين[2] ، أسماؤهم أسماء عربية ، لا وجود لها في التوراة ، ما عدا اسماً أو اسمين . وهذا الإهمال يثير في نفوسنا الدهشة والاستغراب : لِمَ أهمل يا ترى هؤلاء الأخباريون أبناء (قحطان) المذكورين في التوراة ، مع انهم أخذوا (يقطان) من التوراة ، وجعلوا نسبه نسباً لقحطان ! ولِمَ تكرموا عليه فأعطوه عدداً من الأولاد لم يأت لهم ذكر في التوراة ؟ ولِمَ لم يضم أهل الأخبار أولاد (يقطان) المذكورين الى أولاد قحطان ؟ ألا يدل ذلك على جهل أهل الأخبار بهم وعدم وقوفهم عليهم ؟ إن كان جهلهم بهم هو السبب ، فان ذلك يدل على ان أهل الأخبار لم يكونوا يرجعون الى التوراة رأساً ، يقرأون أسفارها ويأخذون منها ، بل كانوا — وهذا هو ما أذهب اليه — يراجعون أهل الكتاب ويأخذون منهم ما يريدون . ولهذا لم يقفوا على أولاد (يقطان) ، لأنهم لم يسألوا أهل الكتاب عنهم ، أو لأن أهل الكتاب لم يتحدثوا اليهم عنهم . على اننا لا نستطيع أن نقبل هذا العذر ، ذلك لأن أهل الأخبار كانوا قد ذكروا أسماء أبناء (اسماعيل) ، نقلوها من التوراة وعلى حسب الترتيب الوارد في

---

١ الطبري (٢٠٧/١) .Hastings P. 472

٢ مروج (٧٧/١) ، ابن خلدون (٤٧/١) .

(التكوين) . وهذا ما يجعلنا نتساءل : لِمَ ذكر أهل الأخبار أبناء (اسماعيل)، وأهملوا أبناء (يقطان) ؟ هل هناك تعمد وغرض ؟ إن الاجابة عن مثل هذه الأسئلة،ليست سهلة في الواقع ، لأن أهل الأخبار لم يكونوا يسيرون على قواعد ثابتة وأنظمة معينة في أخذ الأنساب ، ولهذا نراهم يقعون في الغلط ، وذلك يدل على ان علمهم بالأمور الواردة في التوراة لم يكن علماً راسخاً، وان علم محدثيهم من أهل الكتاب لم يكن راسخاً أيضاً ولم يكن مستمداً من التوراة رأساً، بل من السماع والرواية في بعض الأحايين ، والا لما وقعوا في أغلاط شنيعة،وما احتاجوا الى الوضع والكذب ، كالذي نراه من كعب الأخبار ووهب بن منبه وأمثالهما من مسلمة يهود .

الاسماعيليون :

و (اسماعيل) هو الجد الأكبر للعرب المستعربة ، أي العرب العدنانيين . وهو (يشمئيل) (Ishmael) في التوراة ومعنى الاسم (إلهي يسمع) ، أو (يسمع إلهي) . وهو ابن (ابراهيم) من زوجه (هاجر) . وتقول التوراة إنه (ختن) وهو في الثالثة عشرة من عمره ، ورحل الى بَرِّيَّة (فاران) فتزوج فيها من امرأة مصرية ، وعاش فيها رامياً بالسهام حيث اشتهر بالرماية . ولم تذكر التوراة بعد ذلك شيئاً عنه،إلا ما ورد من أنه حضر دفن أبيه (ابراهيم)، وأنه عاش (١٣٧) سنة[1] .

هذا مجمل ما ورد في التوراة عنه . أما ما أورده أهل الأخبار عنه ، فانه يستند الى هذا الوارد في التوراة عنه ، إلا ما ذكروه عن امرأته ، فقد جعلوها امرأة من (جرهم) ، وما أوردوه عنه من أنه هاجر الى مكة ، وأنه عاش هناك ، وتعلم العربية فيها ، وقبر في (الحجر) عند قبر أمه (هاجر)[2] ، وأمور أخرى صغيرة تختلف باختلاف الروايات .

---

١ التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الاية ٤ فما بعدها ، الاصحاح السابع عشر ، الاية ١٨ فما بعدها ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ٧ فما بعدها .
Hastings, P. 392.

٢ الطبري (٣١٤/١ فما بعدها) .

وقد جعلت التوراة لـ (اسماعيل) ولداً ، عدتهم اثنا عشر ولـــداً ، هم : نبايوت بكر اسماعيل ، وقيدار ، وأدبئيل ، ومبسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمة . ذكرتهم على حسب مواليدهم ، كما نص على ذلك فيها[1] . وهو عدد يظهر أنه من وضع كتاب الأسفار وترتيبهم[2]. أمهم امرأة مصرية[3] ، وهي كناية عن اتصال الاسماعيلين بالمصريين ، وقد أخذ أهل الأخبار هذه الأسماء ، وغيّروا في نطقها بعض التغيير ، فصيّروها : نابت وقيـــذر ، واذبل ، ومبشا ، ومسمعا ، وماشي ، ودما ، وأذر ، وطيما ، ويطور ، ونبش ، وقيذما ، وما شاكل ذلك . وقد نص الطبري على اختلاف أهل الأخبار في ضبط هذه الأسماء[4] . ويعود هـــذا الاختلاف على ما يظهر الى اختلاف المورد الذي أخذ منه أهل الأخبار .

وقد زعم أهل الأخبار أن اسماعيل تزوّج من جرهم ، وأن اسم زوجـــه (رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي)[5] ، أو ما شاكـل ذلك من أسمـــاء ، وأنها ولدت له اثني عشر رجلاً ، هم : نابت وكان أكبرهم ، وقيـــذر ، وأذبل ، ومبشا ، ومسمعا ، ومـــاشي ، ودما ، وأذر ، وطيما ، ويطور ، ونبش ، وقيذما[6] . وأكثر هذه الأسمـــاء وروداً وتكراراً في الكتب العربية ، نابت وقيذر .

ونرى من عدد هؤلاء الأولاد ومن أسمائهم ، أن رواتها أخذوا أولئك الأولاد من التوراة . أخذوا العـــدد وأخذوا الأسماء ، ولكنهم حرفوا وصحفوا فيها ، ولا ندري أكان هذا التحريف قد وقع من الأخباريين أنفسهم ، أجروه تعمـداً ليسهل النطق بها في العربية ، أم وقع من الرواة الاسرائيليين أو النصارى الذين

---

١ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٢ فما بعدها .
٢ Hastings, P. 392.
٣ التكوين ، الاصحاح ٢١ ، الاية ٢١ .
٤ الطبري (١/٣١٤) « طبعة دار المعارف » .
٥ ابن هشام (١/٣) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، « السيدة بنـــت مضاض بن عمرو الجرهمي » ، ابن خلدون (٢/٣٧) ، الطبري (١/١٦) ، ابـــن الاثير ، الكامل (١/٤٩) ، الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٥) ، تـــاج العـــروس (١ / ٣٧٥) ، (١/٥٩٠)
٦ ابن هشام (١/٣) ، ابن خلدون (٢/٣٩) ، مع اختلاف في ضبط الاسمـــــاء ، الطبري (١/ ١٦١) ، ابن الاثير ، الكامل (١/٤٩)

رجّعَ أهل الأخبار اليهم ، فأخذوا منهم تلك الأسماء ، أو أنه مجرد تحريف وتصحيف ، وقع من الجانبين ، فظهر على هذا الشكل .

أما امرأة (اسماعيل) ام أولاده ، فإنها ليست جرهمية عربية في التوراة ، وانما هي امرأة مصرية كما ذكرت . لم تذكر التوراة اسمها . ويذكر أهل الأخبار ان اسماعيل كان قد تزوج بامرأة أخرى من جرهم قبل (رعلة بن مضاض ابن عمرو الجرهمي) ، أو (السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي) ، كما تعرف في روايات أخرى ، الا انه طلقها بأمر أبيه ، لما جاء الى مكة زائراً ، فلما جاء للمرة الثانية ورأى زوجته الثانية رضي عنها ،وأمر ابنه اسماعيل بإبقائها ، فبقيت ، ومنها كان نسله المذكورين[1] .

وقد نص (الطبري) على أن العرب هم من نابت وقيدر[2] ، ولم يذكر شيئاً عن بقية الأولاد . والظاهر ان اهمالهم هذا الإهمال يعود الى عدم وقوف الموارد التي أمدّت الأخباريين على شيء عنها ، وعدم تمكنهم من تعيينها وتثبيت مواضعها ، فإن ذلك يحتاج الى علم والى وقوف على ما جاء في كتب التفاسير والشروح والموارد اليهودية الأخرى عن هذه القبائل . والموارد المذكورة نفسها لا تعرف عن تلك القبائل وعن تلك البلاد شيئاً كثيراً يزيد على ما جاء في التوراة. فإن كتبة الأسفار لم يهتموا الا بما يتعلق بإسرائيل . أما ما وراء اسرائيل من شعوب وأرضين ،ولا سيا الشعوب التي لا تخام الأرضين التي وجد فيها العبرانيون، فإنها لم تكن تُعنى بها الا بمقدار ما لها من صلة بإسرائيل .

وقد حددت التوراة المنازل التي أقام بها (الإسماعيليون) ، فجعلتها من (حويلة) الى (شور)[3] . فكل ما وقع بين المكانين ، هو في أرض القبائل الإسماعيلية . وقد ذكرتُ قبل قليل أن آراء العلماء مختلفة في تعيين موقع أرض (حويلة) ، وعندي ان هذا الموضع يجب ألا يكون بعيداً عن فلسطين ، لأن (شاؤول) ضرب العماليق من (حويلة) الى شور[4] . ولا يعقل أن تكون هذه

---

١ الطبري (١/٢٥٦ ، ٣١٤)

٢ الطبري (١/٣١٤) .

٣ التكوين ، اصحاح ٢٥ ، الاية ١٨ .

٤ صموئيل الاول ، اصحاح ١٥ ، الاية ٨ .

الأرضون بعيدة عن فلسطين ، لأن (شاؤول) لم يكن قوياً ذا جيوش جرارة حتى تضرب العماليق في منطقة نائية ، بعيدة عن فلسطين .

وأما (شور) ، فموضع يقع على الحدود الشمالية الشرقية لأرض مصر ، في البرية المسماة بـ (برية تيه بني اسرائيل) وبـ (برية ايتام)[١] . ويرى بعض علماء التوراة ان (الطور) الحالية هي أرض (شور)[٢] .

ويلاحظ ان الأرض التي زعم ان (شاؤول) قد ضرب بها العماليق ، «وضرب شاؤول عماليق من حويلة حتى مجيئك الى شور التي مقابل مصر »[٣] ،هي الأرض ذاتها التي جعلتها التوراة أرضاً لذرية (يشمعئيل) (اسماعيل) . فيظهر من ذلك أن العماليق كانوا قد سكنوها أيضاً . ولما كان العمالقة قد سكنوا أرضاً ، تقع بين كنعان ومصر في برية سيناء وتيه بني اسرائيل[٤] ، وجب أن تكون تلك الأرض هي موطن الإسماعيليين .

ويعترف العبرانيون بوجود صلات قربى لهم بالإسماعيليين . ويظهر أن القبائل الإسماعيلية عاشت زمناً طويلاً في (طور سيناء) . وفي جنوب فلسطين. عاشت عيشة أعرابية[٥].ولهذا كان الإسماعيليون أهل وبر بالقياس الى اليقطانيين المستقرين. وقد نظر العبرانيون نظرة عـداء الى الإسماعيليين ، لأنهم كانوا يتحرشون بهم ويغيرون عليهم ويتعرضون بتجاراتهم . وقد ذكروا في أيام (داوود)[٦] . وقد ورد في التوراة أن الله أوحى الى (هاجر) يبشرها بأن نسل ابنها سيكثر وينمو حتى يكون أمة عظيمة[٧] ، وهو كناية عن كثرة عدد أولئك الأعراب في أيام العبرانيين .

هذا ونحن لا نعرف شيئاً يذكر عن (الاشماعيليين) (الإسماعيليين) ، ولا

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٦٤١/١) . Musil, Hegaz, P. 261, 265.

٢ Hastings, P. 852, Enc. Bibl. P. 4498.

٣ قاموس الكتاب المقدس (٦٤١/١) ،
Hastings, P. 852, Enc. Bibl. P. 4498, Musil, Hegaz, P. 261, 265. ff.

٤ صموئيل الاول ، الاصحاح الخامس عشر ، الاية ٧ ، قاموس الكتاب المقـدس (١١٣/٢) .

٥ التكوين ، الاصحاح ٢١ ، الاية ١٣ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (٩٨/١)

٦ Enc. Bibl. P. 2211, Hastings, P. 392.

٧ التكوين ، الاصحاح ٢١ ، الاية ١٣ وما بعدها .

عن لهجاتهم . ويرى بعض العلماء أن لهجاتهم يجب أن تكون من اللهجات العربية الشمالية المتأثرة بلغة بني إرم[1] . ولعدم وصول نص مدوّن بلهجة من لهجات هذه القبائل ، لا نستطيع أن نبدي في الزمان الحاضر رأياً علمياً في شكل هذه اللهجات .

و (نبايوت) هو بكر اسماعيل وأهم القبائل الإسماعيلية في التوراة ، وقد أعطاه هذه المنزلة أهل الأخبار أيضاً لأخذهم منها . ونحن لا نعرف الأسباب التي جعلت التوراة تعدّه أحسن أولاد (إسماعيل) أراعت في ذلك بعد القبيلة ، أم راعت قربها من العبرانيين ، أم ضخامتها وكثرة عددها بالقياس الى القبائل الإسماعيلية الأخرى ، أم أموراً أخرى جعلت العبرانيين ينظرون اليهم على أنهم أقدم تلك القبائل ؟ فليس في التوراة قواعد ثابتة تمشي عليها كتبة العهد القديم في تدوين الأنساب .

ويعرف (نبايوت) بـ (نابت) و (نبت) عند الأخباريين . ومنه ومن قيدر، نشر الله العرب ، على رأي أهل الأخبار[2] . وقد جعل بعض الأخباريين نابتاً والداً لـ (يشجب)[3] ، مع أن (يشجب) هو ابن (يعرب) عند الأكثرين .

وقد ورد اسم (نبايوت) مع اسم (قيدار) في النصوص الآشورية ، ويظهر أنهم كانوا أقوياء كثيري العدد . ويدل ورود اسمهم مع (قيدار) في التوراة في النصوص الآشورية على أنهم كانوا متجاورين . ولم تعين التوراة مواضع سكناهم ، ولكن ورود اسمهم في رأس قائمة الإسماعيليين واقترانه بالأدوميين عن طريق المصاهرة ووقوف العبرانيين على أخبارهم ، يدل كله على أنهم كانوا يقيمون في المناطق الواقعة في جنوب شرقي فلسطين وفي الأقسام الجنوبية الشرقية من بادية الشام[4] .

وقد ذهب (كلاسر) إلى أن (نبايوت) (مشيخة) أو مملكة حكمت في (القصيم) ، وقد كانت معاصرة لمملكة (عريبي) ، وكانت لا تزال مستقلة في أيام الفرس[5] .

---

١ Enc. Brit. Vol. 12, P. 706.

٢ الطبري (٣١٤/١) .

٣ ابن هشام (٥/١) .

٤ التكوين ، الاصحاح ٢٨ ، الاية ٩ .

٥ Glaser, Skizze, 2, S. 266. ff. Schrader, KAT, S. 151, Hommel, AHT, 275.

وقد ظن بعض العلماء انهم (النبط)[١] ، ذهبوا الى ذلك من تشابه (نبايوت) (Nabaiot) و (نبط) (Nabat) ، غير ان هذا رأي يعارضه كثير من علماء التوراة[٢] .

وقد كان بين الأوس قوم يقال لهم (النبيت) ، افتخر بهم الشاعر (قيس ابن الخطيم) من شعراء الجاهلية ، وقد قتل قبل الهجرة ، ومدحهم ، ووصفهم بالشدة والبأس[٣] ، كما كان في (إياد) قوم يقال لهم (النبيت)[٤] .

وكان نبيت الأوس يتألفون من (ظفر) رهط الشاعر قيس بن الخطيم، ومن عبد الأشهل ، وحارثة[٥] . وقد وقعت بينها حروب ومعارك، فانضمت حارثة الى الخزرج ، وتحالفت معها ، ودخلت فيها . وأما ظفر وبنو عبد الأشهل ، فقد اضطروا أخيراً الى ترك ديارهم الى مكة للتحالف معهم ، أو مع اليمن ، أو الغساسنة أو المناذرة ، لمساعدتهم على الخزرج ، ولاسترداد ملكهم[٦] . والظاهر انهم كانوا قديماً من القبائل القوية ، وكانت في الحرار الشرقية ، ثم أفل نجمها، وتشتت شملها بسبب الحروب التي وقعت بين بطونها. ولعلها من القبائل التي كانت تقيم في الشمال ، في العربية الحجرية أو العربية الصحراوية، ثم اضطرت الى الهجرة الى الجنوب والاستيطان في مناطق الحرار . والظاهر انها كانت على اتصال باليهود، وقد تحالف معها يهود خيبر .

وقد ورد اسم (قيدار) في النصوص الآشورية ، ورد على هذه الصورة : (قِدرو) (Kidru) و (قَدرو) (Kadru)[٧] ، كما ورد في المؤلفات

---

١ النبط ــ النبيط ــ الانباط ــ نبطي ــ نبط ــ قال ابن عباس :
نحن معاشر قريش من النبط ــ ، تاج العروس (٥/٢٣٩) .

٢ Enc. Bibl. P. 2213, Hastings, P. 648, f.

٣ ويثرب تعلم ان النبيت راس بيثرب ميزانها
وقد علموا ان مافلهم حديد النبيت واعيانها
فلا امرفنكم بعد عز وثروة يقال الا تلك النبيت عساكر
شعر قيس (ص ٩ ، ١٠ ، ٣٨) .

٤ شعر قيس (ص٩) ، « والنبيت ابو حي ، وفي الصحاح حي من اليمن » ، اللسان (٢/٤٠٢) ، تاج العروس (١/٥٨٩) .

٥ شعر قيس (ص XX) ، القسم الالماني

٦ شعر قيس (ص XX II) ، القسم الالماني .

٧ Schrader, KGF. 101, Kat. 147, Delitzch, Wo lag das Paradies? S. 299.

(الكلاسيكية) ، فقال لهم (بليبنيوس) (Pliny) (قدراي) (Cedrei) ، وذكر انهم قبيلة عربية تقيم على مقربة من النبط[١] . وقد حاربهم (آشور بنبال) ، وكان ملك (قيدار) في ذلك العهد، ملك عرف باسم (أو أيطع) (U Aite') ابن (خزاعيل) (Hazael) [٢] ، وقد ذكرهم (آشور بنبال) مع (عربي) (أربي) ، كما ذكرهم (حزقيال) مع العرب (العرب وكل رؤساء قيدار)[٣] ، مما يدل على ان مواطن (قيدار) كانت تجاور العرب ، ويراد بالعرب هنا ، الأعراب . وهو ما يتفق مع ما جاء في نص (آشور بنبال) كل الاتفاق . وذكروا بعد (نبايوت) في التوراة ، مما يدل على انهم كانوا يقطنون في جوارهم، كما ذكروا مع (ممالك حاصور) التي ضربها (نبوخذ نصر)(بختنصر)[٤]. وقد نكّل (بختنصر) بالقيداريين كذلك ، وخرب بلادهم وأخذ غنائم كثيرة منهم، واستولى على ما وقع في أيدي جيشه من أموالهم وخيامهم وغنمهم وجمالهم وقد ورد وصف ذلك في سفر (أرمياء)[٥] .

ويظهر من التوراة أن القيداريين كانوا أعراباً يعيشون في الخيام ، عيشة أهل البداوة[٦] ، وقد وصفت خيامهم بأنها خيام سود (أنا سوداء وجميلة يا بنات اورشليم ، كخيام قيدار، كشقق سليمان)[٧]. والخيام السود هي بيوت أهل الوبر . وكانوا يعتنون بتربية المواشي ، وقد اشتهروا بأن فيهم رعاة يملكون ماشية كثيرة[٨] . إلا أن منهم من كان متحضراً سكن القرى والمدن[٩] . ونجد (أشعياء) يتنبأ بإفناء (مجد قيدار . وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار)[١٠] مما يدل على ان القيداريين كانوا قوة وعدداً ضخماً ، فيهم جماعة مهرت برمي السهام . ويتبين من (المزامير) انهم غزاة ، وحياتهم حياة غزو ، لا يعرفون السلام

---

١ Pliny, 5, 21, 65, Enc. Bibli. P. 2213, Forster Vol. I, 238 ff.

٢ Musil Deserta P. 485.

٣ حزقيال ، اصحاح ٢٧ ، الاية ٢١

٤ ارمياء ، الاصحاح ٤٩ ، الاية ٢٨

٥ ارمياء ، الاصحاح ٤٩ ، الاية ٢٨ وما بعدها

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣٠) .

٧ نشيد الاناشيد ، الاصحاح الاول ، الاية ٥ .

٨ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣٠) .

٩ اشعياء ، الاصحاح ٤٢ ، الاية ١١ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣٠)

١٠ اشعياء ، الاصحاح ٢١ ، الاية ١٦ وما بعدها ، Hastings, P. 512.

ولا الاستقرار[1] .

وقد ذكروا مع العرب في جملة من تاجر مع العبرانيين . تاجروا معهم (بالخرفان والكباش والأعتدة[2]) . وكانوا مثل قبائل العرب الأخرى على احتكاك بالعبرانيين ، يتاجرون معهم تارة ، ويخاصمونهم تارة أخرى ، ويظهر أنهم كانوا على عداء شديد معهم ، وخصومة منكرة في أيام (أشعياء) و (أرمياء) ، كما يتبين ذلك من الهجوم العنيف الموجه اليهم في سفريهما ومن فرح العبرانيين من النكبات التي حلت بهم ، ولا سيما انتقام (بختنصر) منهم . ويظهر أنه غزاهم ، لأنهم كانوا يتحرشون بالبابليين في أثناء مرورهم بالبادية الى فلسطين ، مما حمل (بختنصر) على الانتقام منهم ومن قبائل أخرى كانت ضاربة في البادية وفي الطرق المؤدية الى بلاد الشام .

وقد ذكر أهل الأخبار اسم رجل دعوه (قدار بن سالف) ، زعموا أنه كان يدعى (أحيمر ثمود)[3] ، وأنه هو الذي عقر الناقة ، ناقة النبي صالح[4] ، وذكروا أن (قيدار بن إسماعيل) هو أبو العرب ، وزعم بعضهم أنه كان نبياً ، وزعم أن له قبراً ومشهداً يزار قريباً من السلطانية بالعجم ، وأعقب من ولده (حمل بن قيدار) ، وله ابن يقال له (سواري) . وقد ذكر أهل الأخبار أن (كعب الأحبار) ، قال : (قال الله لرومية : إني أقسم بعزتي لأهبن سبيك لبني قاذر ،أي بني إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، يريد العرب)[5] واذا صح أن هذا الكلام هو من كلام (كعب) حقاً ، فإنه يدل على تحريض (كعب) للمسلمين على اكتساح امبراطورية الروم ، وقد كان اليهود يكرهون الروم ، لما أوقعوه بهم من ظلم ، وأنه كان يعبر عن الحالة التي كانت بين الروم والعرب في ذلك الزمان . وليس الكلام المذكور ، كلام الله في التوراة

---

١ المزامير ، المزمور ١٢٠ ، الاية ٥ وما بعدها .

٢ حزقيال ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٢١

٣ الطبري (٣١٤/١) « دار المعارف » ، « قيدر » منتخبات (ص ٨٤) مروج (٣٩٤/١) ، ابن خلدون (٢٩٨/٢) ، تاج العروس (٤٨٣/٣ فما بعدها) .

٤ تاج العروس (٤٨٣/٣) .

٥ تاج العروس (٤٨٥/٣) ، عن « قيدار » : الطبري (١٩٣/٢) ، « قيدر » ، منتخبات (ص ٨٤) ، مروج (٣٩٤/١) ، ابن خلدون (٢٩٨/٢)

وإنما هو كلام (كعب) . ولكعب أمور عديدة من هـذا القبيل ، إذ يضع كلاماً يزعم أنه من كلام الله المذكور في الكتب المنزلة .

وأما (أدبئيل) (Adbeel) ، فكناية عن قبيلة عربية أخرى من القبائل الإسماعيلية ، يرى بعض علماء التوراة أنها عاشت في جنوب غربي البحر الميت[1]. ويظن أنها قبيلة (ادب ايله) (Idiba'ila) (Dibi'ila) (ادبئيله) (ادبعيله) (دبئيله) (وبعيلة) المذكورة في كتابة من كتابات الملك (تغلا تبلسر الثالث)[2]. وقد ذكر هذا الملك أنه عين نائباً عنه،أو (مندوباً سامياً) (قيبو) (Kepu) على خمسة عشر موضعاً ، وكان اسم هذا المندوب (ادب ال) (أدب أبل) (أدبئيل) (Idibi'il) ، وهو سيد قبيلة عرفت بهذا الاسم . والظاهر أنه فوّض اليه أمر حماية الحدود والمحافظة عليها من الغزو . وتقع أرض هذه القبيلة على مقربة من الحدود المصرية وفي الجنوب من غزة[3]. وكانت هذه القبيلة لا تزال موجودة في أيام المؤرخ اليهودي (يوسف فلافيوس)[4] .

ويلي (أدبئيل) (أدب ال) (ادب ايل) في تسلسل أولاد إسماعيل ، مبسام (Mibsam) ، وقد سمي في بعض الكتب العربية (ميشا) ، ولا نعرف من أمر هذه القبيلة شيئاً[5] .

وأما (مشماع) ، وقد سمي (منسى) و (منشى) و (مسمع) و (مشماعة) في بعض الكتب العربية ، فلا نعرف من أمره شيئاً . ويتصور بعض العلماء أن لهذا الاسم علاقة بقبيلة (بني مسماع) أو (جبل مسماع) (جبل مسمع) قرب تيماء[6] .

ورأى (فورستر) أن (مشماع) هي قبيلة (Masmaos) التي ذكرها (يوسفوس) ، على أنها من القبائل العربية التي كانت تعيش في أيامه[7] . ويرى

---

١ Enc. Bibli. P. 2213.

٢ « تفلاتبليزر الرابع » عند « الويس موسل » ، Musil, Hegaz, P. 291, Deserta, P. 278. f. Hastings, P. 12, Delitzch, Paradies, S. 301, Enc. Bibli. P. 65.

٣ Schrader, KAT. S. 58.

٤ Forster, I, P., 266.

٥ Forster, Vol. I, P. 273, Enc. Bibli. P. 3067, Musil, Deserta, P. 479.

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٤٤) ، Enc. Bibli. P. 3154.

٧ Forster, Vol. I, P. 274.

(فورستر) أيضاً أن قبيلة (Masaemanes) التي ذكرها (بطلميوس) هي هذه القبيلة كذلك[١] . وهذا الاسم قريب من اسم (ماء السماء) .

و (دومة) هو (دوما) في بعض الكتب العربية ، وهو كناية عن موضع (دومة الجندل)[٢] ، وقد عرف بـ (دوماتا) (Domatha) عند (بلينيوس)[٣] وبـ (Dumaetha) (Doumaetha) عند (بطلميوس)[٤] ، وبـ (Adumu) (ادومو) في الكتابات الآشورية[٥] ، وهو كناية عن موضع وعن اسم قبيلة عربية . فقد ورد أن شعباً اسمه (Dumathii) كان يقدم قرباناً ، (ولداً) في كل سنة الى آلهته ، ويدفن ذلك القربان في معبد الإله . ويراد به شعب (دومة الجندل)[٦] .

وقد ورد اسم (مسا) (Massa) في النصوص الآشورية مقروناً بـ (تيما) (تيماء).ويرى بعض العلماء أنه كناية عن قبيلة كانت منازلها في الشرق والجنوب الشرقي من (موآب)[٧] . ويرى بعض آخر أن مواطنها في الأرضين الجنوبية من وادي السرحان ، وفي غرب منازل (عريبي) (اريبي)[٨] .

وجاء في رسالة أرسلها أحد (المقيمين) الآشوريين الى ملك آشوري لم يرد اسمه في الكتابة أن (ملك قرو) (مالك قرو)[٩] ابن (عميطع) سيد قبيلة (مسئا) (Mas'a) غزا قبيلة (Naba'ati) ، وقتل عدداً من أتباعها[١٠] . والظاهر أن هذه القبيلة ، هي القبيلة المذكورة في التوراة .

---

١ Forster, Vol. I, P. 274.

٢ « ودما ، وهو دوما ، وبه سميت دومة الجندل » ، ابن سعد ، طبقات (ج ١ ق ١ ، ص ٢٥) .

٣ Pliny, 6, 28, &, 157, Forster, Vol., I, P. 281.

٤ Forster, Vol. I, P. 281.

٥ Enc. Bibli. P. 1142, 2213, Musil, Deserta, P., 480.

٦ Hastings, A Dictionary of the Bible, Vol. I ,P. 630 Burckhardt, Travels in Syria, 662, Ritter, Erdkunde von Arabien, II, S. 360. ff.

٧ Hastings, P. 591, Enc. Bibli. P. 2213, 2972, Musil, Hegaz, P. 288.

٨ Musil, Deserta, P. 478.

٩ مالك قمر ــ ملك قمر ــ ملك القمر ــ مالك القمر ــ ملك امره ــ وما شابه ذلك من اسماء

١٠ Musil, Deserta, P. 478, Delitzch, Paradise, P., 302, Rawlinson, Cuneiform Inscriptions, Vol. 4, P. 1, 54, No. I.

وأما (حدد) أو (حدار) ، كما دُوّن في سفر التكوين[1] ، فإنه (أدد) عند بعض أهل الأخبار[2] . وقد تكون لاسمه علاقة باسم الإله (حدد) أو (أدد) المعبود الشهير الذي تعبد له الآراميون وقبائل عربية كثيرة ، وكذلك الآشوريون والبابليون[3] . ولا نعرف من أمر قبيلة (حدد) هذه شيئاً يذكر في الزمن الحاضر .

وأما (تيا) ، فإنه (طما) في الكتب العربية ، وهو كناية عن (تيماء)[4] ، وسوف أتحدث عنها . وأما (يطور) ، وهو (وطور) وما أشبه ذلك في الكتب العربية ، فقبيلة عرفت بـ (Ituraea) في المؤلفات اليونانية واللاتينية[5] . وقد حاربت العبرانيين ، وكانت تقيم شرقي نهر الأردن في أيام الملك (شاؤول) . ويظهر أنها هاجرت نحو الشمال ،فسكنت في الأقسام الجنوبية من لبنان وفي الحافات الشرقية من جبال لبنان . وقد أجبر الملك اليهودي (ارسطوبولس الأول) (Aristobulus I) (١٠٧ قبل الميلاد) قسماً من اليطوريين على التهود . وكان قد استولى على أرضهم . وكان لهم ملوك . وفي أيام ملكهم (سوهومس) (سوحومس) (سوخومس) (Sohumus) أدخلت أرضهم في مقاطعة (سورية) وذلك في سنة (٥٠) ب. م. وقد كابدت دمشق مصائب شديدة من غزوات اليطوريين[6] .

وكانت مواطن اليطوريين في ما بين (اللجاة) (Trachonitis) و(الجليل) ، وعرفت بـ (جدورا) ، وبـ (ايطورية)[7] . وقد عرفوا بمهارتهم في الرماية. وقد ذكرهم (سترابو)[8] . والظاهر أن مواطنهم الأصلية كانت في البادية،ومنها جاؤوا الى (ايطورية) ثم ذهبوا الى الأقسام الجنوبية من لبنان والى سهل البقاع. وقد ضيق عليهم الرومان في حوالي الميلاد وأجبروا بعضهم على الرجوع الى البادية

---

١ الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٥ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٣٦٠)
٢ الطبري (١/٣١٤) .
٣ Hastings, P. 323.
٤ Enc. Bibli. P. 2213, Forster, Vol. I, P. 310.
٥ Enc. Bibli. 2213, Josephus, Anti. XIII, II, 3.
٦ Enc. Bibli. P. 2213.
٧ قاموس الكتاب المقدس (٢/٥١٣)
٨ Strabo, XVI, II, 10.

ويظهر أن سبب ذلك هو عدم خضوعهم للسلطات وغاراتهم على الحضر . وقد قتل (ماركوس أنطونيوس) (Marcus Antonius) ،ملك اليطوريين في سنة (٣٤)ق.م، وكان يدعى (ليسانياس (Lysanias)[١] ، وتوفى (زنودوروس)(Zenodorus) الذي خلفه في سنة (٢٠) ق. م، واستولى(هيرود الكبير) (Herodes the Great) على قسم من أرض اليطوريين . ولما قسمت مملكة (هيرود) ، صارت هذه الأرضون من نصيب (فيليب)[٢] .

وفي أيام (لوقا) ، كانت (Ituraea) منطقة ، تقع على ما يظهر في شمال شرقي (بحر الجليل)[٣] . ويخترق الطريق الروماني الذي عمله الرومان من (دمشق) الى (طبرية) (طبريا)[٤] هذه المنطقة .

وقد كوّن اليطوريون لهم إمارة أو مملكة في (البقاع) ، كان حكامها رجال دين أي كهّاناً وملوكاً في آن واحد. وقد عرفنا منهم رجلاً اسمه (Mennaios) وهو اسم قريب من الأسماء العربية ، فلعله (معن) . أما ابنه فقد سمى نفسه باسم يوناني ، هو (بطلميوس) (Ptolemaios) . وكان لهذا الملك ، أي (بطلميوس) ، ولدان ، هما : (Lysanias) ، وقد تولى الملك من بعد والده و (فيليب) (Philippion) . وأما (زينودور) (Zenodor) ، فقد خلف (Lysanias) وأما (Sohaimos) (Sohumus) ، فإنه اسم قريب من (سحيم) ومن (سهيم) و (سخيم) و (سهم) ، وأمثال ذلك ، وهي أسماء عربية معروفة[٥] .

ويظهر أن ارتحال (اليطوريين) من الأقسام الشرقية من الأردن نحو الشمال، نحو دمشق ، ثم سهل البقاع حتى ساحل البحر الأبيض ، كان قبل القرن الثاني قبل الميلاد . ولعلهم هم العرب الذين ذكر أن الاسكندر الكبير كان قد حاربهم بعد حصاره لمدينة (صور) (Tyros)[٦] .

---

١ Dio Casius, XIIX, 32, Hastings, P. 418.

٢ Hastings, P. 418, Josephus, Anti. XV, X, 3.

٣ Hastings, P. 418.

٤ The Bible Dictionary, I, P. 573.

٥ Die Araber in der Alten Welt, I, S. 279, 315, M. Lidzbarski Ephemeris, I, (1900-1902), 335.

٦ Die Araber in der Alten Welt, I, S. 170, 179.

وقد كوّن الرومان فرقاً محاربة من (اليطوريين) ، اشتركت معهم في الحروب. وقد امتازت بعض هذه الفرق في حذقها بالرمي . وكوّن (مارك أنتوني) (Marcus Antonius) حرساً خاصاً منهم ، أشير اليهم في الموارد اليونانية واللاتينية[1] .

و (نافش) (Naphish) ، هو (نفيس) عند الأخباريين[2] . ويرى بعض علماء التوراة احتمال كون (بنو نفسيم) (Naphisim) المذكورين في سفر (عزرا) هم (نافش) هؤلاء[3] .

وأما (قدمة) ، فهو (قيدمان) و (قيذما) وما شاكل ذلك في المؤلفات العربية[3] ، ولا نعرف من أمرهم شيئاً يذكر في الزمان الحاضر ، ولعلهم (القدمونيين) الذين أدخلت أرضهم في جملة (الأرض الموعودة) المذكورة في التوراة[4] . وكانت مواطنهم عند (البحر الميت) . ومن العلماء من يظن أن لهم صلة بـ (بني قديم) (Bene Kedem) ، أي (أبناء الشرق)[5] . وذهب (فورستر) ، الى الى احتمال كون (قدمة) موضع (رأس كاظمة) على الخليج[6] . ولما كانت (قدمة)[7] من القبائل الإسماعيلية ، وقد ذكرت مع القبائل الإسماعيلية في التوراة ، ومواطنها كلها لا تبعد كثيراً عن فلسطين ، فإني أرى أن مواطن هذه القبيلة يجب أن تكون أيضاً في هذه المواضع ، أي في مكان لا يبعد كثيراً عن فلسطين.

والغالب على أبناء اسماعيل البداوة ، أي حياة التنقل والغزو والرماية ، لذلك كانت ملاحظة التوراة عن اسماعيل من أنه سينشأ رامياً ، ملاحظة حسنة ، تدل على تبصر بأمور (الإشماعيليين) الذين كانوا يقومون بالغزو ويرمون بالسهام .

أما المجموعة الثالثة من مجموعات أنساب العرب المذكورة في التورة ، فإنها مجموعة قبائل نسبت الى (قطورة) زوج (ابراهيم) . وقد ذكرت التوراة

---

١ Hastings, A Dictionary, II, P. 521.

٢ الطبري (٣١٤/١) .

٣ عزرا ، الاصحاح الثاني ، الآية ٥٠ ، Hastings, P. 645, Enc. Bibli. P. 3331

٤ الطبري ، (١٦١/١) ، (٣١٤/١) ، « دار المعارف » ، ابن سعد ، الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٥)

٥ التكوين ، الاصحاح الخامس عشر ، الاية ١٩ .

٦ Hastings, P. 512, Enc. Bibli. P. 3331.

٧ Forster, Vol. I, P. 313.

أنها ولدت له (زمران ، ويقشان ، ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوحاً)[1]. وولد يقشان : شبا ، وددان . وكان بنو ددان : أشوريم ، ولطوشيم ، ولأميم. وبنو مديان : عيفة ، وعفر ، وحنوك ، وأبيداع ، والدعة[2] . ويبلغ عدد القبائل المنحدرة من (قطورة) ست عشرة قبيلة[3] .

فـ (قطورة) اذن هي مجموعة قبائل مثل الإسماعيليين واليقطانيين ، وهي تتفق مع القبائل الإسماعيلية في أنها تنحدر من صلب ابراهيم ، وهي من هذه الناحية أقدم عهداً من القبائل الإسماعيلية ، لأن والد هذه القبائل هو ابراهيم . أما والد القبائل الإسماعيلية ، فهو اسماعيل ، وهو ابن ابراهيم .

والأسماء المذكورة كناية عن قبائل عربية ، ألّفت مجموعة خاصة، كان حلفاً على ما يظهر تألف من قبائل رجعت نسبها الى أصل واحد ، هو (قطورة) . انتشرت قبائله في الأرضين الواقعة بين القبائل العربية الإشماعيلية وبين القبائل اليقطانية . وتشير قصة زواج (ابراهيم) بقطورة الى صلة القطوريين بالإشماعيليين، والإشماعيليون من صلب اسماعيل بن ابراهيم ، ويؤخذ على أنه كناية عن اختلاط قبائل المجموعتين ، أي الحلفين بتعبير أصح . ووجود أسماء بعض قبائل يقطانية وبعض قبائل كوشية في قائمة أسماء أبناء قطورة ، هو أيضاً دليل على وجود صلات بين هذه الاحلاف الثلاثة وعلى تداخل القبائل واختلاطها بعضها ببعض .

أما أولاد (قطورا) عند أهل الأخبار ، فهم : يقسان ، وزمران ، ومديان ، ويسبق ، وسوح ، وبسر على رواية[4] ، ومدن ومدين ويقسان وزمران ويسبق وسوح على رواية أخرى[5] . ومدن ومدين ويقشان ، وزمران ، وأشبق ، وشوخ[6]. وقد أخذت هذه الأسماء كما نرى من التوراة ، الا ان من أخذها حرّف فيها بعض التحريف ، وخالف الترتيب الموجود للأسماء في التوراة فقدّم وأخر ، وأضاف اسماً جديداً هو (بسر) على الرواية الأولى ، وضعه في مكان (مدان) ،

---

١ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ١ فما بعدها .
٢ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ١ فما بعدها
٣ Hastings, P. 614.
٤ الطبري (١/ ١٥٩) ، (١/ ٣٠٩) ، « دار المعارف » .
٥ الطبري (١/ ١٦٠) .
٦ ابن سعد ، الطبقات (حـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٢) .

الا أن الطابع التوراتي ظل بارزاً واضحاً عليها . فلا حاجة بنا الى ارجاع كل اسم منها الى الاسم المقابل له في التوراة .

وزوّج أهل الأخبار (يقشان) (يقسان) ، من امرأة سموها (رعوة بنت زمر بن يقطن بن لوذان بن جرهم بن يقطن بن عابر) ، وأولدوا لها ولداً دعوه (البربر) ، قالوا عنه إنه جدّ البربر[1] . وهو زواج لا تعرف عنه التوراة شيئاً ، وأما الزوج (رعوة بنت زمر بن يقطن) ، فليس لها ذكر فيها أيضاً ، وأما نسبها ، فهو نسب اخترعه من اخترعها ، وليس له لذلك ذكر في التوراة . وأما (بربر) ابن (رعوة) فهو من صنع صانع أخبار أمه . وليس له ذكرٌ ما في التوراة .

ولفظة (بربر) في الكتاب المقدس لفظة تعني (الغريب) ، وهي من أصل يوناني ، وقد أطلقها اليونان على الغرباء الناطقين بلغة أخرى غير اللغة اليونانية[2] . ولم تستعمل علماً على جنس معين له جد وأب ونسل . ولذلك ، فإن ربط نسب (البربر) ، وهم سكان المناطق المعروفة من شمال إفريقية بـ (رعوة) وبقحطان ، هو من صنع (أهل الأخبار) ، وقد وقع في الإسلام بالطبع ، وبعد الفتح الإسلامي لتلك المناطق ، لغايات سياسية ، على نحو ما حدث من ربط نسب الفرس واليونان والأكراد بالعرب .

ولم يشر الأخباريون وأهل الأنساب الى (القطوريين) كطبقة خاصة من العرب . وقد أشار بعضهم الى قبيلة عربية عرفت بـ (قطورة) ، ذكروا أنها عاشت مع (جرهم) بمكة[3] . ولعل لتشتت شمل القبائل القطورية ودخولها في القبائل الأخرى : قحطانية وعدنانية ، وفي جهل أهل الكتاب في ذلك العهد ، أي أيام لجوء أهل الأخبار اليهم يسألونهم عن الأنساب ، دخلا في هذا الإهمال.

ويلاحظ أن بين أسماء قبائل (قطورة) أسماء وردت في جدول أنساب قبائل (يقطان) ، وفي جدول أسماء أبناء (كوش) . ويفسر بعض العلماء ذلك باتصال القبائل القطورية بالقبائل اليقطانية وبالقبائل الكوشية وباختلاطها بها وتلاحمها

---

١ الطبري (٣٠٩/١) ، « دار المعارف » .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢١٧/١) . Hastings, P. 84.
٣ Hastings, P. 514, Enc. Bibil. P. 2660, Ritter, Erdkunde, 12, 19.

معها ، وتزوطها بينها ، فعدّ كتبة (أسفار التكوين) ذلك نسباً ، فأدخلوا القسم الذي دخل في اليقطانيين من اليقطانيين ، والقسم الذي نزل بين الكوشيين من الكوشيين ، ومن ثمّ صار ذلك نسباً ورابطة دم[1] .

وزوج إبراهيم (قطورة) ،معروفة عند أهل الأخبار . وقد دعوها بـ(قطوراء) وبـ (قطورا) وبـ (قنطوراء)[2] . ومعنى اللفظة في اللغة العبرانية (البخور) . وقد تزوجها إبراهيم بعد وفاة (سارة)[3] . ولكنهم كعادتهم في معظم الأخبار التي أخذوها من أهل الكتاب ، خلطوا في أخبارها وحرّفوا فيها ، فجعلوا لها نسباً ، ولم يرد له ذكر في التوراة ، اختلفوا فيه أيضاً ، فصار (يقطن) والد (قطورة) في خبر[4] ، وصار (يكفور) أو (مفطور) هو والدها في خبر آخر ، وصار (افراهم بن أرغو بن فالغ) هو والدها في خبر آخر أيضاً[5] . وجُعلت عربية من العرب : تتكلم بهذا اللسان العربي المعروف . وقيل إن اسمها (انموتا) أو (انمتلى)[6] ، وصيرت (قطورا بنت يقطن) ، ولكنهم أخرجوها أحياناً من العرب ، وأضافوها الى الكنعانيين[7] ، كما جعلوها (قطورا بنت مقطور) من العرب العاربة[8] .

ولم يفطن أهل الأخبار الى خلطهم في هذا النسب والى سكوت التوراة عن نسبها ، ولا أدري من أين جاؤوا بـ (يكفور) ، أو (مفطور) ، وكيف يجوز أن تكون (قطوراء) من نسل (افراهم بن أرغو بن فالخ) . فـ (افراهم) ، هو (ابراهيم) ، وهو زوج (قطوزة) لا والدها أو جدّها أو جدّ جدّها أو ما شاكل ذلك . ثم إن نسب (إبراهيم) على هذه الصورة هو نسب مغلوط ، يدل على جهل ، فإنه (إبراهيم) وهو (ابرام) في التوراة ، هو ابن (تارح)

---

١ Musil, Hegaz, P. 287.

٢ القاموس (١٢٣/٢) ، اللسان (٤٢٢/٦) .

٣ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الاية ٣٢

٤ الطبري (١٥٩/١) ، الكامل (٤٨/١) .

٥ الطبري (٥٩/١) ، الكامل (٤٨/١) ، ابن سعد ، الطبقات (حـ١ ، ق١ ، ص ٢٢)

٦ الطبري (١٥٩/١) .

٧ الطبري (٣٠٩/١) ، « دار المعارف » .

٨ الطبري (٣١١/١) ، « دار المعارف »

و (تارح) هو ابن (ناحور) و (ناحور) ابن (سروج) وهذا هو ابن (رعو) الذي صار (ارغو) عند الإسلاميين . و (رعو) هو ابن (فالج) الذي صير (فالغ) عند أهل الأخبار . فترى من ذلك كيف خلط أهل الأخبار، وكيف كان علمهم بالقصص المأخوذ من التوراة . وكل هذا الجهل ناشيء من اعتمادهم على الأخذ شفاهاً من أهل الكتاب ، ومن عدم رجوعهم الى نص التوراة [1] .

ويلاحظ ان أكثر الذين قالوا في (قطورة) (قطوراء) و (قطورا) ، ذكروا أولادها على نحو ما ورد في التوراة . أما الذين قالوا (قنطوراء) ، فقد نسب أكثرهم اليها الترك والصين ، وأضاف بعضهم اليها السودان في بعض الأحيان[2] . وهو نسب تكرم به عليها أهل الأنساب والأخبار ، فليس في التوراة ذكر لهؤلاء الأولاد النجباء . ولعل إلحاق هؤلاء بـ (قنطوراء) انما كان لغرض سياسي ، هو إدماج نسب الترك والصين بالعرب ، ترضية لهم ، كما فعلوا بالنسبة الى شعوب أعجمية أخرى . وورد اسم (بنو قنطوراء) في الملاحم والتنبؤات ، فرووا أحاديث تدل على شعور الخلافة الإسلامية بالخطر القادم من الترك والصين، وبأن النسب لم ينفع شيئاً معهم ، اذ ورد : « يوشك بنو قنطوراء أن يخرجوكم من أرض البصرة » ، وورد : « اذا كان آخر الزمان جاء بنو قنطوراء »[3] .

وزعم أهل الأخبار ان ابراهيم تزوج من زوج أخرى ، كانت من العرب أيضاً ، اسمها (حجور بنت أرهير) ، ولدت له خمسة بنين : (كيسان ، وشورخ ، وأميم ، ولوطان ، ونافس[4]) . وليس في التوراة ذكر لهذه الزوج العربية ، فليس لها نسل فيها بالطبع . فالأولاد هم من نسل مخيلة أصحاب الأخبار، جمعوها من أسماء توراتية مرت وتمر علينا في مواضع من هذا الكتاب ، وضبطوها بعدد ، لتظهر بمظهر خبر صحيح مضبوط .

ومن الأخباريين من أحجم عن تعيين هوية زوج ابراهيم ، فلم يذكروا شيئاً

---

١ راجع نسب ابراهيم في التكوين ، الاصحاح الحادي عشر ، الاية ١٥ فما بعدها .
٢ القاموس (١٢٣/٢) ، اللسان (٤٢٢/٦)
٣ اللسان (٤٢٢/٦) .
٤ الطبري (١٦٠/١) ، (٣١١/١) ، « طبعة دار المعارف » ، الكامل لابن الاثير (٤٨/١) ، ابن سعد ، الطبقات (جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٢) .

عن عروبتها أو عن أبيها وجدّها، بل اكتفوا بذكر اسمها وحده، فدعوه (حجوني)، وقالوا : إنها ولدت له سبعة نفر ، هم : نافس ، ومدين ، وكيشان، وشروخ، وأميم ، ولوط ، ويقشان[1] .

ومعارفنا بالقبائل القطورية لا تختلف عن معارفنا بالقبائل الإسماعيلية واليقطانية من حيث الضآلة والضحالة . فهي قد لا تزيد في بعض الأحيان على الاسم ، ذلك لأن التوراة لم تذكر شيئاً عنها ، ولأن المفسرين والأحبار الذين شرحوا التوراة ، لم يذكروا شيئاً عن تلك القبائل ، إما جهلاً بها ، وإما لعدم وجود ميل بين العبرانيين الى الوقوف على أحوال تلك القبائل التي ذكرت في التوراة لمناسبة من المناسبات . ولهذا ضحل علمنا بها أيضاً . وليس أمامنا غير انتظار الحظ ، فقد يكتشف العلماء موارد جديدة قد تساعدنا في الوقوف على أولئك الأقوام .

فزمران مثلاً ، لا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وقد ورد لدى (بلينيوس) اسم قبيلة عربية دعاها (Zamareni) ، وهذا الاسم قريب من (زمران) ، لهذا رأى بعض العلماء احتمال وجود صلة باسم هذه القبيلة القطورية[2] ، كما ورد اسم موضع يقال له (زبرم) (Zabram) يقع غرب مكة ، يرى بعض الباحثين احتمال وجود صلة له بتلك القبيلة[3] . غير أن من الصعب الحكم أن أحد هذين الموضعين هو (زمران)[4] .

وأولد أهل الأخبار لـ (زمران) ولداً سموه : (المزامير) ، وهو في نظرهم جدّ (المزامير الذين لا يعلمون)[5] . وليس في التوراة ولد لـ (زمران) اسمه (المزامير) صفتهم أنهم لا يعلمون . وليس للفظة أية صلة بـ (المزامير) التي هي أغان أو موشحات ترتل على صوت المزمار لتمجيد الله . وتقسم الى خمسة كتب ، يختم كل منها بتسبيحة ، وتكرر لفظة (آمين) مرتين ، أضافها

---

١ الطبري (١٦٠/١) ، (٣١١/١) ، « دار المعارف » ، الكامل ، لابن الاثير (٤٨/١) ، ابن سعد ، الطبقات (ح ١ ، ق ١ ، ص ٢٢) .

٢ Enc. Bibli. P. 5419, Pliny, 26, 32, (Grotius).

٣ Enc. Bibli. P. 5419.

٤ Glaser, Skizze, 2, S. 451.

٥ الطبري (١٥٩/١) ، (٣٠٩/١) ، « دار المعارف » .

جامعو المزامير لا مؤلفوها[1] . وهي من لفظة (مزمور) (Mizmor) في العبرانية و (Mazmor) في السريانية و (Mazmur) في الاثيوبية ، وتقابل (الزبور) و (الزبر) في القرآن الكريم[2] .

وقد ذكر (ابن النديم) على لسان (أحمد بن عبدالله بن سلام) من مترجمي التوراة والإنجيل ، أن المزامير هي (الزبور) ، وهي خمسون ومئة مزمور[3] . وهو عدد صحيح مضبوط ، يدل على علمه بعدد المزامير ، لأن ما ذكره هو عددها الصحيح .

والعلماء مختلفون فيما بينهم في المعنى (الاثنولوجي) لكلمة (زمران) . ويرى بعضهم أنها من (زمر) ومعناها (تيس جبلي) ، ويقولون إن بني (زمران) اتخذوا ذلك الحيوان (طوطماً) لهم ، ولذلك عرفوا به[4] .

أما (يقشان) ، فيرى (كلاسر) أنه موضع (وقشة) ، وهو مكان من السراة في عسير[5] . ورأى (أوسيندر) انه (يقش) في اليمن[6] . وذكر (الهمداني) اسم قبيلة سمّاها (بني وقشة) من قبائل (الجنب)[7] . وذهب فريق من العلماء الى أن اللفظة هي تحريف للفظة (يقطان)[8] .

وقد ذكر أهل الأخبار أن (بني يقسان) ، أي (بني يقشان) لحقوا بمكة فسكنوا بها[9] . ولكنهم لم يشيروا الى بنية على نحو ما جاء في التوراة .

وأما (مديان) (مدان) (Midian) ، فإنه (مدين) في الموارد العربية .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٥١٣/١ وما بعدها) ، Hastings, P. 769.

٢ الاسراء ، السورة رقم ١٧ ، الاية ٥٥ ، ال عمران ، ٣ ، الاية ١٨٤ ، النحل ، ١٦ الاية ٤٤ ، الشعراء ، ٢٦ ، الاية ١٩٦ ، فاطر ، ٣٥ ، الاية ٢٥ ، القمر ، ٥٤ ، الاية ٤٣ ، ٥٢ .

٣ الفهرست (ص ٣٤) .

٤ Hastings, P. 990.

٥ Glaser, Skizze, 2, S. 453.

٦ Osiander, in ZDMG. 10, 31 Enc. Bibli. P. 2564.

٧ صفة (ص ١١٦) .

٨ Enc. Bibli. P. 2564, Hastings, P. 490, Montgomery, Arabia and the Bible, P. 44.

٩ الطبري (٣١١/١) ، « دار المعارف » .

وقد ورد ذكر (مدين) و (أصحاب مدين) في مواضع من القرآن[1] . ورد على سبيل العظة والتذكير بمصير يشبه مصير (مدين) ، وأشار الى نبيهم (شعيب) : (والى مدين أخاهم شعيباً)[2] . وورد اسمهم في سورة (التوبة) مع قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم[3] ، وورد مثل ذلك في سورة (الحج)[4] . ومما جاء في القرآن على لسان شعيب ، قوله مخاطب أهل مدين : « يا قوم ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بيّنة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها، ذلكم خيرٌ لكم ان كنتم مؤمنين »[5] . وورد في سورة هود ما يشير أيضاً الى أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، فاستحقوا العقاب والعذاب،وذلك لترهيب أهل مكة ، وكانوا تجّاراً ، من نقص المكيال والميزان ، لئلا يصيبهم ما أصاب قوم شعيب حيث أصابهم الهلاك .

ويظهر من ذكر (الرجفة) أن حدثاً أرضياً ، هزة أو هياج حَرّة ، أصابهم ، فأثّر فيهم[6] . وهذا ممكن جداً ، لأن أرض مدين من مناطق الزلازل والحِرار .

ولورود اسم (مدين) وقصة (شعيب) في القرآن الكريم ، عني المفسرون وأصحاب قصص الأنبياء بجمع ما ورد عن أهل مدين وأخيهم شعيب من أخبار، غير انهم لم يجدوا في ذاكرة من تقدمهم شيئاً ، فاستعانوا بما ورد عند يهود . وقد أضاف الأخباريون الى ذلك شيئاً من القصص الشعبي ، وشيئاً ابتكروه ، فأصبح (شعيب) (شعيب بن نويت بن رعويل بن مر بن عنقاء بن مدين ابن ابراهيم)[7] . وقد ذكر الطبري وغيره من المفسرين والمؤرخين ان اسم (شعيب) (يثرون) (يثرون) (يثرو)[8] ، وقد أخذوا ذلك من أهل

---

١ الاعراف ، ٧ ، الاية ٨٥ ، التوبة ٩ ، الاية ٧٠ ، هود ، ١١ ، الاية ٨٤ ، ٩٥ ، طه ، ٢٠ ، الاية ٤٠ ، الحج ، ٢٢ ، الاية ٤٤ ، القصص ، ٢٨ ، الاية ٢٢ ، ٢٥ ، ٤٥ ، العنكبوت ، ٢٩ ، الاية ٣٦ .

٢ الاعراف ٧ ، الاية ٨٥ .

٣ التوبة ٩ ، الاية ٧٠ .

٤ الحج ٢٢ ، الاية ٤٤ .

٥ الاعراف ٧ ، الاية ٨٥ .

٦ العنكبوت ٢٩ ، الاية ٣٦ .

٧ مروج الذهب (٢٨/١) .

٨ الطبري (١٦٧/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٦١/١) .

الكتاب ولا شك ، ففي التوراة ان (موسى) نزل على أهل (مدين) ، بعد هربه من (فرعون) ، وتزوج ابنة كاهن (مدين) (مديان) (يثرون) ، واسمها (صفورة) ، فولدت له ولداً دعاه (جرشوم) (كرشوم) . فرأى المفسرون والأخباريون ان شعيباً المذكور في القرآن الكريم هو (يثرون) التوراة . ويرى (بول) (Buhl) ان ذلك لم يكن معروفاً في صدر الإسلام وانما حدث هذا بعد هذا العهد[1] .

وقد وضع بعض أهل الأخبار نسباً عجيباً مضحكاً لـ (شعيب) ، فجعلوه (يثرون بن ضيعون بن عنقا بن ثابت بن ابراهيم)[2] . وتعقّل آخرون فقالوا: انه (شعيب بن ميكيل) من ولد مدين[3] . وقيل غير ذلك . وكل هذا من وضع أهل الأخبار ، وأهل الكتاب الذين أمدّوهم بمثل هذه الأنساب والقصص، ولم يتورعوا من ادّعاء انهم وجدوا ذلك في كتب الله .

وقد عرف (يثرو) (Jethro) (Jether) بـ (رعوئيل) (Reuel) أيضاً في التوراة[4] . كما عرف بـ (حوباب بن رعوئيل) في موضع آخر[5] . ويظهر ان خطأ قد وقع في كتابة الاسم الثاني أو الأول ، ولهذا صار (رعوئيل) في سفر الخروج و (حوباب بن رعوئيل) في سفر العدد . ونرى ان الاسم الذي ذكره (المسعودي) وغيره من أهل الأخبار لـ (شعيب) الذي هو (يثرو) يختلف مع اسمه المذكور في التوراة . ويرى بعض الباحثين ان كلمة (يثرو) ليست اسم علم له ، وانما هي كناية عن وظيفته ، وهي الكهانة ، فقد كان كاهناً في قومه،والكاهن هو (يثرو) في بعض اللغات العربية الجنوبية ، وأما اسمه ، فهو (رعوئيل) أو (حوباب بن رعوئيل)[6] .

وقد جعل الناس لشعيب قبراً زعموا انه على مقربة من (حطين) في موضع سماه (ياقوت) (خيارة)[7] . وقال له (بول Buhl) (خربة مدين)[8] .

---

١ Enc. Vol. 4, P. 389, J. Horovitz, Koranische Untersuchungen, Berlin, 1916, S. 119. ff.

٢ الطبري (١٦٧/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٦١/١) .

٣ الطبري (١٦٧/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٦١/١) .

٤ الخروج ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٨ .

٥ العدد ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٩ .

٦ Hastings, P. 465.

٧ البلدان (٢٩٩/٣)

٨ Enc. Vol. 4, P. 389.

وقد ورد خبر (مدين) في غزوة (زيد بن حارثة) لجذام في (حسمى)[1]. ويظهر من بعض الموارد الإسلامية أن (مدين) كانت في صدر الإسلام من أرض (جذام) ، وانها كانت اذ ذاك أكبر من (تبوك) . وبها بئر زعم انها البئر التي استقى منها موسى[2] .

ويظهر من شعر (كُثَيِّر عزّة) انه كان في أيامه بمدين جماعة من الرهبان، يتعبدون ، ويبكون من حذر العقاب[3] . وورد اسم بطن يقال له (بنو المدّان)، كما ورد ذكر (مدان) في غزوة (زيد بن حارثة) بني جذام ، ويقال له (فيفاء مدان)[4] . (والمدان) اسم صنم أيضاً ، وبه عرف (بنو عبد المدّان)[5] .

وفي التوراة ان (المديانيين) كانوا برفقة (الإشماعيليين) لما بيع (يوسف)[6] . وأن موسى نزل عندهم وتزوج فيهم : أخذ ابنة (يثرون) كاهن (مديان) (مدين)[7] . وفي موضع آخر أن (يثرون) من (بني القيني) (Kenite)[8] ويظن أن (بني القيني) هم فرع من فروع (مديان)[9] .

---

١ ابن هشام (٩٩٤/١) « طبعة وستنفلد » .
٢ صفة (١٢٩) ، اللسان (٢٨٩/١٧) ، البلدان (٤١٨/٨) ، ابن خرداذبه ، المسالك (ص ١٢٩) ، « طبعة دى غويه » ، ابن رستة ، الاعلاق (طبعة دى غويه) (ص ١٧٧) ، احسن التقاسيم ، (ص ١٥٥) ، « طبعة دى غويه » ، البلدان لليعقوبي (ص ٣٤١) ، « طبعة دى غويه » ، البكري ، معجم ، (٥١٦/٢ فما بعدها) ، « طبعة وستنفلد » .
٣ البلدان (٤١٨/٨)
٤ اللسان (٢٨٩/١٧) .
٥ « والمدان : صنم ، وبنو المدان بطن » ، اللسان (٢٨٩/١٧) ، Enc. Bibli. P. 3002.
٦ « فمر قوم مدينيون تجار ، فجذبوا يوسف واصعدوه من البئر وباعوه للاسماعيليين بعشرين من الفضة ، فاتوا بيوسف الى مصر » التكوين ، الاصحاح السابع والثلاثون ، الاية ٢٨ .
٧ الخروج ، الاصحاح الثالث ، الاية ١ وما بعدها ، « وكان موسى يرعى غنم يثرو حميه كاهن مدين، فساق الغنم الى ما وراء البرية ،حتى افضى الى جبل الله حوريب » .
٨ القضاة ، الاصحاح الاول ، الاية ١٦
٩ Hastings, P. 616, Enc. Bibli. P. 3080.

وقد اتحد (المديانيون) مع (مؤاب) ضد اسرائيل[١] . وفي أيام (جدعون) (Gideon) كان المديانيون قد ضايقوا العبرانيين مضايقة شديدة ، وكانوا قد اتفقوا مع العمالقة و (بني المشرق) ، فتمكن (جدعون) من اخراجهم . وقد ورد في سفر (القضاة) اسم أميرين من أمراء المديانيين ، هما (غراب) (Oreb) ، و (ذئب) (Zeeb)[٢] وورد في الإصحاح الثامن من القضاة اسم ملكين أو (شيخين) من (مديان) (مدين) هما : (زبح) (Zebah) و (صلمناع) (Zalmuna)[٣] . والظاهر أنه لم يعد للمديانيين شأن منذ هذا العهد ، فلم يرد عنهم شيء يذكر ، ولعلهم ذابوا في القبائل العربية الأخرى[٤] .

ويفهم مما جاء في (القضاة) أنهم كانوا فرعاً من (الإشماعيليين)[٥] . والذي يفهم من مواضع متعددة من أسفار التوراة أن مواطن (المديانيين) كانت تقع شرق العبرانيين[٦] . والظاهر أنهم توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين، واتخذوا لهم هناك مواطن جديدة ، عاشوا فيها أمداً طويلاً بعد هذا التاريخ حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة[٧] . وقد ذكر (بطلميوس) موضعاً يقال له (مودينا) (Modiana) على ساحل البحر الأحمر ، يرى العلماء أنه موضع (مدين) ، وهو ينطبق على موضع أرض مدين المعروفة في الكتب العربية[٨] .

وذكر (يوسفوس فلافيوس) المؤرخ اليهودي المعروف مدينة سماها (Madiana) وقال إن موسى زارها[٩] . وذكر (بطلميوس) مدينة أخرى سماها (Madiama)[١٠]، وقد أشار المؤرخ (أويسبيوس) (Eusebius) الى مدينة دعاها (مديم) (Madiam) ، قال إنها سميت بهذا الاسم نسبة الى ولد من أولاد (قطورة) زوج ابراهيم ، وهي تقع في بادية الـ (سَرسَين) (Saracens) الى شرق

---

١ القضاة ، الاصحاح السادس ، الاية ٢٣ .
٢ القضاة ، الاصحاح السابع ، الاية ٢٥ ، الاصحاح الثامن ، الاية ٣ .
٣ القضاة ، الاصحاح الثامن ، الاية ٦ وما بعدها .
٤ Hastings, P. 616.
٥ القضاة ، الاصحاح الثامن ، الاية ٢٤ .Enc. Bibl. P. 3081
٦ Enc. Bibl. P. 3081, Hastings, P. 616.
٧ Enc. Bibl. P. 3081.
٨ Enc. Bibl. P. 3081, Hastings, P. 616, Ptolemy, VI, 7, 27, Enc. Vol. 3, P. 104.
٩ Josephus, Archaeologia, II, 257, (Naber), Musil, Hegaz, P. 278.
١٠ Ptolemy, Geography, VI, 7, 27, Enc. Bibl. 3081.

البحر الأحمر . ويرى (موسـل) أن (Madiama) أو (Madiam) هي (مدين)[1] .

ويظهر من التوراة أن (المدينين) قد غيّروا مواضعهم مراراً ، بدليل ما يرد فيها من اختلاطهم بـ (بني قدم) والعمالقـة والكوشين والإسماعيليين[2] . ويظهر أنهم استقروا بعد ضعفهم في المنطقة التي ذكر (يوسفوس) وجود مدينة (Madiana) فيها ، أي في القرون الأخيرة قبل الميلاد . ويرى (موسل) أنها تقع في جنوب (وادي العربة) والى جنوب وجنوب شرقي العقبة[3] .

ومن الصعب تعين (يشاق)[4] . فقد رأى بعضهم أنه موضع (يسبق) وهو مكان في شمال سورية ، ذكر في كتابات (شلمنصر) الثاني[5] . وقد ورد في خبر فتوحات (تغلاتبليزر) الأول اسم مكان يقال له (سوخ) (Sukh) أو (شوح) أو (شوخ) (Schukh) ، ويقع شرق (حلب) ، وهو لا يبعد كثيراً عن أرض (يسبق) (Jasbuk) . واسم (سوخ) قريب جـداً من (شوح) الذي يلي اسم (يشباق) في التوراة ، لذا رأى بعض العلماء أنه هو الموضع المقصود ، وأن (يشباق) كناية عن هذا المكان ، عن موضع (يسبق) الذي لا يبعد كثيراً عن (شوح)[6] . ورأى بعض الباحثين أنه (الشبك) ، وهو موضع يقع على طريق (السكة الرومانية) الموصلة الى العقبة[7] .

وأما (شوحا) ، فذهب بعض الباحثين الى أنه موضع (سوخ) (سوخو) (Sukh) (Suchu) المـذكور في نص (أشور بنبال) (٨٦٠) ق. م.[8] . ويقع على الجانب الأيمن من نهر الفرات[9] . وقد ذكرت أن نفراً من الباحثين رأوا

---

١ Musil, Hegaz, P. 279.

٢ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ٦ ، الاصحاح السابع والثلاثون الاية ٢٥ ، ٢٨ ، العدد ، الاصحاح الثاني عشر ، الاية ١ ، حبقوق ، الاصحاح الثالث ، الايـــة ٧ .

٣ Musil, Hegaz, P. 287.

٤ Hastings, P. 392.

٥ Enc. Bibli. 2210, Fr. Delitzch, in "Zeitschrift fuer die Keilschriftforschung und verwandte Gebiete," 2, 91. f., 1885 W. Smith, A Dictionary of the Bible, comprising its Antiquities, Biography, Geography, and Natural History, 2nd. Ed. Glaser, Skizze, 2, S. 445. Glaser, Skizze, 2, S. 445. ff.

٦ Glaser, Skizze, 2, S. 445. ff.

٧ Forster, I, P. 352. f.

٨ Enc. Bibli. P. 4495.

٩ Hastings, P. 852, Enc. Bibli. P. 4495.

أنه مكان (سوخ) المذكور في نص (تغلا تبليزر) الأول . وقد نسب أحد أصحاب (أيوب) الثلاثة ، وهو (بلدد) الى (شوح) فعرف بـ (الشوحي)[1] . ويظن كثير من العلماء أنه من قبيلة أو من أرض عرفت بـ (شوح) ، وأن هذه القبيلة أو الأرض هي (شوحا)[2] .

وقد نسبت التوراة ولدين الى يقشان هما : (شبا) ، و (ددان) . ويجب أن تكون أرض (شبا) هنا في جوار أرض (ددان) ، وذلك لورود (ددان) مباشرةً بعد (شبا) ، أي على مقربة من موضع (ديدان) الذي هو (العلا) في الحجاز[3] . وأهل (شبا) المذكورون هنا ، هم جالية سبئية من جاليات سبئية عديدة انتشرت بين اليمن وفلسطين ، وفي السواحل الإفريقية المقابلة لليمن[4] ، كما سأتحدث عن ذلك .

ولم تهب التوراة لشبا أولاداً ، بل تركته عقيماً . إنما وهبت شقيقه ددان عدداً من الأولاد ونسلاً ، هم (أشوريم) و (لطوشيم) و (لأميم) . أما (أشوريم (Ashurim) (Asshurim) ، فإنهم قبيلة عربية من قبائل (قطورة) باجماع علماء التوراة ، ولا صلة لهم بـ (آشور) ، أي الآشوريين . وقد ورد في (التركوم) (Targum) أن (آشوريم) بمعنى سكان مستوطنة أو معسكر[5] . مما يدل على ان هؤلاء العرب كانوا مستقرين مقيمين في مستوطنات ، ولم يكونوا أعراباً .

وقد ورد اسم (آشور) في نصوص معينة مقروناً باسم موضع (عبر نهران)، وتقع هـذه المنطقة من (طور سينـاء) الى (بئر السبع) (Beersheba) و (حبرون)[6] وتحاذي (مصرى) في جزيرة العرب على رأي (ونكلر)[7] .

ولا نعرف شيئاً عن (لطوشيم) و (لاميم) ، ويظن (كلاسر) أنهم من سكان (طور سيناء)[8] .

---

١ ايوب ، الاصحاح الثاني ، الاية ١١

٢ قاموس الكتاب المقدس (٢٤٥/١) ، Enc. Bibli. P. 4495 Hastings, P. 852.

٣ Glaser, Skizze, 2, S. 454.

٤ Hastings, P. 842.

٥ Hastings, 2, P. 59.

٦ Enc. Bibli. P. 346, Glaser, 1155, Winckler, AOF, 28. f. ZDMG. 1895, S. 527, Winckler, Musri, 2, S. 51. ff.

٧ Winckler, Musri, 2, 51.

٨ Glaser, Skizze, 2, S. 460, Enc. Bibli. P. 2768, Hastings, P. 541.

وأما (مديان) (مدين) ، فكان له من الأولاد : عيفة ، وعفر ، وحنوك ، وابيداع ، والدعة[1] . فهم اذن قبائل من صلب (مديان) أي مدين .

أما (عيفة) ، فقد ورد ذكره في التوراة على انه اسم قبيلة كانت تحمل الذهب واللبان على الجمال من (شبا) وتبيع تجارتها في فلسطين .

ذكرت مع (مدين)[2]. ويظهر ان (بني عيفة) وأهل مدين، كانوا وسطاء أو تجاراً يذهبون الى (شبا) ، فيحملون الذهب واللبان ، لبيع هذه السلع الغالية النفيسة في فلسطين . ولا نعرف من أمر هذه القبيلة في الزمن الحاضر شيئاً يذكر[3] .

وأما (عفر) ، فاسم قبيلة يظن بعض العلماء انها (بنو غفار) من (كنانة)[4]، أو موضع (يعفر) على مقربة من (الحنكيــة) بين تهامة وأبان[5] . ورأى (كلاسر) انه موضع (Apparu) الذي ورد في كتابة تعود الى (آشور بنبال)[6].

وهناك مواضع أخرى اسمها قريب من اسم (عفر) ، فعلى مقربة من (مكة) موضع يعرف بـ (عفر) وبـ (عفار) ، وفي نواحي (العقيق) مكان يسمى (عفاريات)[7] . وذكر (الهمداني) (عفار) و (الخنقة) ، واسماهما قريبان من (عفر) و (حنوك)[8] . غير ان في أعالي الحجاز في منطقة (مدين) وفي الأردن مواضع تسمى بأسماء قريبة من (عفر) .

وأما (حنوك) ، فلا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وقد ذهب بعض الباحثين الى انه (الحنكية) ، وهو موضع في شمال المدينة[9] .

وأما (ابيداع) (Abida') ، فيرى (كلاسر) انه موضع من هـذه

---

١ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ٤ .
٢ اشعياء ، الاصحاح الـ ٦٠ ، الاية ٦
٣ Enc. Bibli. P. 1301, Hastings, P. 231.
٤ Enc. Bibli. P. 1301.
٥ Enc. Bibli. P. 1301.
٦ Glaser, Skizze, 2, S. 449.
٧ صفة (ص ٢٥٣)
٨ البلدان (١٨٧/٦ فما بعدها) .
٩ Glaser, Skizze, 2, S. 449, Enc. Bibli. P. 1960.

المواضع في الحجاز[1] . وقد ورد في النصوص السبئية اسم قريب من هذا الاسم[2] . ولا نعرف من أمر (الدعة) شيئاً حتى الآن[3] .

أبناء كوش :

ونجد في التوراة ان أبناء (كوش) (سبا ، وحويلة ، وسبتة ، ورعمة ، وسبتكا) ، وان (شبا و ددان) هما ابنا (رعمة) . و (كوش) هو ابن (حام) ، والمراد بأبناء (كوش) الحبش وسكان (نوبيا) وهم سود[4] .

أما الأسماء المذكورة ، فهي أسماء قبائل وأرضين عربية معروفة ، لذلك حار علماء التوراة في تفسير الأسباب التي حملت كتبة التوراة على جعـل تلك الأسماء أسماء أولاد لكوش . فرأى بعضهم انها كناية عن قبائل عربية هاجرت من جزيرة العرب الى السواحل الافريقية المقابلة واستقرت في افريقية منذ أزمنة قديمة وكوّنت لها مستوطنات وربما حكومات هناك ، واندمج نسبها في أرض افريقية ، فعُدّت من شعوبها ، فلما دوّن أهل الأنساب العبرانيون أنساب البشر في أيامهم عدّوها من شعوب افريقية بحسب اقامتها ، وأدخلوها في أبناء (كوش)، أي في أبناء تلك المنطقة التي أقاموا فيها . وذهب بعض آخر الى أن (الكوشيين) المذكورين لم يكونوا من افريقية ، بل من جزيرة العرب ، ورأوا وجود (كوش) أخرى في جزيرة العرب أصحابها هم القبائل العربية المذكورة[5] . واستدلوا على ذلك بما جاء في (أخبار الأيام الثاني) : « وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب (الكوشيين) »[6] . حيث يفهم من هذه الآية ان العرب المذكورين الذين عادوا (يهورام) كانوا يجاورون (الكوشيـين) ، ويقتضي ذلك على زعمهم وجود (كوش) أخرى ، هـي (كوش عربية) ، واياها قصد (سفر التكوين) في هذا المكان[7] .

---

١ Glaser, Skizze, 2, S. 449.

٢ Enc. Bibli. P. 14.

٣ Enc. Bibli. P. 1255.

٤ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٧ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس(٢/٢٧٨)

٥ Hastings, P. 171.

٦ الاصحاح الحادي والعشرون ، الاية ١٦

٧ Hastings, P. 171.

(Rammanitae) الذي ذكره (سترابو)[1] ، أو موضع (ركمت) (ركمات) (رجمت) (رجمات) المذكور في كتابات المسند . ويخيل إليّ أنه كناية عن حلف ضمّ جماعة من السبئين الشماليين والديدانيين ورعمة ، في تلك الأيام ، ولذلك صُيّر والداً لشبا وددان ، ثم انفصمت عراه ، فذكرت (رعمة) مع (شبا) تتاجر مع (صور) (Tyr) وذلك في سفر حزقيال[2] ، أو أنه اسم أرض في شمال غربي العربية الغربية يجاور مواضع السبئين الشماليين والديدانيين . أو في موضع ما من سواحل الخليج[3] .

وأما (سبتكا) ، فلا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . وقد ذهب بعض العلماء الى أنها تحريف لفظة (سبته)[4] . ويرى (كلاسر) أنها في الأقسام الشرقية من جزيرة العرب[5] .

الهاجريون :

وذكر في التوراة اسم شعب سكن في شرقي الأردن وفي شرقي أرض (جلعاد)، عرف باسم (الهاجرين) . وهم من العرب أو من (بني إرم) في رأي بعض العلماء[6] . غير أن اطلاق هذه اللفظة على الإسماعيليين ، يدل على ان المراد بهم العرب؛ لأن (الإسماعيليين) هم عرب ، وأن (هاجر) كناية عن أم (إسماعيل) جدّ القبائل التي تحدثت عنها على رأي التوراة . وقد ذهب بعض الباحثين الى الى أن مراد التوراة من (الهاجرين) الأعراب ، أي البدو وهم عرب أيضاً[7].

وقد امتدت منازل الهاجرين من الفرات الى (طور سيناء) ، فهي منطقة

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٤٨٥/١) ،
Hastings, P. 780, Enc. Bibli. P. 3997, Hommel, AHT. S. 240, Montgomery, Arabia, P. 30, 39, 42, 58, Glaser, Skizze, 2, S, 352, Forster I P. 59. ff.

٢ حزقيال ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٢٢

٣ Forster, I, P. 59. ff. Glaser, Skizze, 2, S. 252.

٤ Enc. Bibli. P. 4181, Glaser, Skizze, 2, S. 252, Hastings, P. 809.

٥ Glaser, Skizze, 2, S. 252, Forster, 2, P. 59.

٦ قاموس الكتاب القدس (٤٤٦/٢ وما بعدها) ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الخامس ، الاية ١٠ ، ١٩ ، ٢٠ ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٣١ .

٧ Hastings, P. 325.

أما (سبأ) ، وقد ذكر الاسم بالسين في هـذا الموضع من التوراة ، فإنه اسم شهير معروف ، هو شعب سبأ. وتصور التوراة وجود (سبأ) في (كوش)، يشير الى انتشار السبئيين في افريقية ، ووقوف العبرانيين على ذلك ، وعندي ان ذكر السبئيين مرة بـ (شبا) أي بالشين المعجمة ، ومرة بالسين المهملة ، انما وقع من كتبة الأسفار ، كتبوه بالشين على وفق النطق العبراني ، وكتبوه بالسين على نحو ما ينطق به في العربية ، فظهر الاسم وكأنه اسم شعبين متباينين،ولا سيما في الموضع المذكور ، حيث ظهر اسم (سبا) بالسين،ابن من أبناء (كوش) ، بينما ظهر بالشين أي (شبا) ابن من أبناء رعمة وشقيق لـ (ددان) على حين ورد بالشين أيضاً في أولاد يقطان . والظاهر ان المورد الذي استقى منه كتبة الأسفار هذه الأسماء سمّوها بالشين من اخوانهم العبرانيين الذين كانوا على اتصال بالسبئيين ، وذلك على وفق نطقهم ، وقد كان هؤلاء السبئيون من سكان اليمن وأعالي الحجاز ، فأطلقها عليهم بحسب نطق العبرانيين بها ، وسمع عن السبئيين الآخرين وهم من دعاهم بـ (الكوشيين) من العرب ، فضبطها بالسين . وفرّق بين الأنساب على طريقة العبرانيين من نسبة الأقوام الى المواضع التي تقسيم من ينسبونهم بها .

وأما (حويلة) ، فقد تحدثت عنها في كلامي على أبناء (يقطان) .

وأما (سبتة) (Sabta) ،فقد رأى بعض العلماء انها قبيلة من قبائل جزيرة العرب ، يجب أن تكون مواطنها بين (سبأ) و (رعمة) ، ورأى آخرون انها على ساحل الخليج[1] ، على حين رأى آخرون انها (Sabota) أي (شبوة) عاصمة حضرموت ، ورأى (كلاسر) انها في اليامة[2] .

وأما (رعمة) (Raamah) ، فإنه والد (شبا) و (ددان) (ديدان)، ولكونه أحد أبناء (كوش) وجب البحث عن أرضـه في افريقيـة ، إلا أن العلمـاء لا يتفقون عـلى ذلك ، بـل يذهـب أكثرهـم الى ان (رعمة) كناية عن أرض هي في مكان ما من جزيرة العرب ، في غرب الخليج العربي حيث موضع (Regma) الـذي ذكره (بطلميوس) ، أو في أرض

---

١ Hastings, P. 809, Enc. Bibl. P. 4181.

٢ Glaser, Skizze, 2, S. 252, Enc. Bibl. P. 4181.

واسعة تشمل البادية : بادية الشأم ، وتضم عدداً كبيراً من الأعراب . وهي منازل (الإسماعيليين) أيضاً ، وقد يكون هذا هو السبب في عدم تمييز التوراة أحياناً فيما بين الهاجريين والإسماعيليين[1] . وقد ذكروا مع (يطور) (Jetur) و (Naphish) ، وهما من الإسماعيليين . وأشير الى اسم رجل من الهاجريين عرف بـ (يازيز) (Jaziz) ، ذكرت التوراة أنه كان يرعى بغنم داوود[2] في جملة أشخاص كان (داوود) قد أودع اليهم أمر ادارة أمواله[3] .

وبعد ، فهذا كلام موجز في أثر التوراة على روايات أهل الأنساب والأخبار في أنساب العرب . وقد رأيت أن مروجيه ومدخليه بين العرب هم أهل الكتاب ، ومعظمهم من يهود أو من مسلمة يهود . لهذا ترى أسانيد أكثر هذه الروايات تنتهي بـ (كعب الأحبار) و (وهب بن منبه) وأضرابهما . وقد ينتهي السند بـ (ابن عباس) ، من طريق (ابن الكلبي) عن أبيه ، عن أبي صالح[4] ، وللعلماء كلام في هذا السند . و (ابن الكلبي) مورد مشهور معروف في هذه الموضوعات ، لا يقابله في ذلك إلا (ابن اسحاق) الذي غرف ، كما ذكرت في أول هذا الفصل ، من مناهل أهل الكتاب ، وكان يسميهم أهل العلم الأول ، فملأ كتابه لذلك بغث كثير ، لاعتماده على هؤلاء وتوثيقه لهم ، ولم يكن لأكثرهم كما يظهر من نقد ما نسب اليهم علم بما جاء في التوراة . وبكتب اليهود الأخرى .

وقد ظهر لي من دراساتي لهذا الموضوع وللقصص الإسرائيلي عامةً أن كثيراً من هذا الذي يرويه أهل الأخبار في النسب وفي القصص ، بعيدٌ عما يرد في التوراة ، وقد اخترع اختراعاً وصنع بغباوة وبجهل ، وحشي بألفاظ عبرانية أو قريبة منها ، بطريقة مضحكة أحياناً ، تدل على خبث واضع الخبر أو جهله ، وعلى سذاجة الناقل عنه وعلى عدم اهتمامه إلاّ بإظهار نفسه بمظهر الواقف على عدم اهتمامه إلا باظهار نفسه بمظهر الواقف على الأخبار ، ولذلك كان لا يهمه إلاّ جمع الأخبار وقصها للناس ، وقد يكون هو واضع تلك الأخبار وصانع ذلك القصص .

---

١ The Bible Dictionary, Vol. I, P. 499, 570.

٢ اخبار الايام الاول ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٣١

٣ Hastings, A Dictionary, II, P. 281.

٤ الطبري (١/٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨) ، « دار المعارف » .

وقد ذكر (الطبري) في تأريخه حديثاً يرجع سنده الى رسول الله ، في أبناء نوح ، زعم أن الرسول قال : (سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الحبش) . ذكره بصور مختلفة ، فيها تقديم وتأخير ، أو زيادة في بعض الألفاظ . ويتصل اسانيد هذا الحديث بمختلف صور رواياته الى سند واحد ، هو : (سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ابن جندب ، عن الرسول)[1] .

وهناك أحاديث ، وردت في موضوع نسب عدنان ، فيها نهي عن تجاوز ما وراء ذلك ، وهي وأمثالها يجب أن تكون موضع دراسة مستقلة حقاً ، لنرى سلاسل سندها ، ومقدار قربها أو بعدها من حديث الرسول . فعلى مثل هذه الدراسة نستطيع أن نبني أحكاماً في موضوع رأي النسابين في نسب العرب في أيام الرسول .

ولا بد لي هنا من التنبيه على أن (محمداً بن اسحاق بن يسار) صاحب المغازي والسير ، هو – كما قلت مراراً – من الآخذين عن أهل الكتاب ، الراوين عنهم[2] . وكان يسميهم أهل العلم الأول . وهم بالطبع من هذه الناحية أعلم من غيرهم بأمور التوراة والإنجيل ، بحكم كونهم يهوداً أو نصارى . ولهذا نجد المؤرخين والأخباريين يروون ما ورد من قصص توراتي ومن أنساب توراتية عن (ابن اسحاق) ، فهو اذن أحد الناشرين للإسرائيليات بين المسلمين . والقصص الإسرائيلي الذي نشره ، ليس في الواقع قصصاً اسرائيلياً صافياً خالياً من الكدرة ، بل هو متفاوت في درجات النقاء والصفاء . فيه العكر ، وفيه ما هو قريب مما جاء في التوراة ، وفيه ما هو مطابق لما جاء في (العهد القديم) ، فهو نقي صاف . ويعود سبب هذا الاختلاف الى الموارد التي استقى منها (ابن اسحاق) علمه . ففيها منابع كانت ذات علم ووقوف على كتب أهل الكتاب ، وفيها موارد مدعية أو ليس لها حظ من العلم ، وانما تحدثت اليه على نحو ما كان شائعاً بين أهل الكتاب ، وبينها موارد استباحت الكذب ، ادعاءً للعلم ولأسباب أخرى ، ومن هنا اختلفت موارد (ابن اسحاق) في درجات النقاء والصفاء .

---

١ الطبري (٢٠٩/١) ، « دار المعارف » .
٢ الاكليل (٣١/١) .

و (هشام بن محمد بن السائب الكلبي) ، هو من الآخذين عن أهل الكتاب كذلك ، المدخلين للإسرائيليات ولأنساب التوراة الى المسلمين . وهناك نفر آخرون أخذوا عن أهل الكتاب أيضاً ، يخرجنا ذكر أسمائهم هنا عن صلب الموضوع ؛ ولهذا اكتفيت بذكر هذين الرجلين ، لما لهما من أثر بارز فيمن جاء بعدهم في موضوع الإسرائيليات وأنساب التوراة .

وأما ما نسب الى (ابن عباس) من أقوال لها صلة بالتوراة فيجب دراسته بحذر ونقده نقداً عميقاً ، ومطابقته بما ورد في تلك الأسفار وفي كتب اليهود الأخرى . ونقد سلسلة السند التي تروي تلك الأقوال وتنسبها اليه . ولم يقم حتى الآن باحث لفت نظره هذا الموضوع . لذلك أرجو أن ينتبه اليه العلماء ليبدوا رأيهم فيه ، ورأيهم في الأقوال المماثلة المنسوبة الى صحابيين آخرين وتابعين ، ليكون حكمنا في مثل هذه الأمور حكماً مستنداً الى درس وعلم .

ومما نسب الى (ابن عبّاس) شعر مشهور معروف اليوم بين الناس قالوا إنه نسبه إلى آدم ، وأنه قال : إن آدم نظمه بعد قتل ابنه ، وهو شعر موضوع بالطبع ، وضع على آدم ، على لسان ابن عباس . فقد نسبه بعض العلماء إلى أناس آخرين[1] .

ولم يعرف عن (كعب الأخبار) أنه ألّف أو دوّن شيئاً ، انما عرف عنه انه كان يجلس مجالسه في المسجد يتحدث الى الناس ويستعين بالتوراة أحياناً يقرأ منها عليهم ، ويفسرها لهم[2] . ولكن (الهمداني) يذكر انه كان قد كتب كتباً ، وان أهل (صعدة) ، كانوا قد توارثوا كتبه ورووا منها . قال : « روى الصعديون مرفوعاً الى ابراهيم بن عبد الملك الخنفري ، قال : قرأت كتب كعب الأخبار ، وكان كعب رجلاً من حمير من ذي رعين ، وكان قد قرأ التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وأوسع في العلم[3] . وقال أيضاً : (والوجه ما ذكرنا في أول السيرة من هذا الكتاب ، ما رواه أهل صعدة عن كعب الأحبار في خلق آدم ، ومن خلفه الى نوح ، وخبر الطوفان[4] . وقد

---

١ الاكليل (٣٦/١) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (٧٩/٧) .
٣ الاكليل (٥٥/١) .
٤ الاكليل (٥٥/١) .

نقل (الهمداني) نتفاً عن (الخلق) والأنبياء ونوح والطوفان في الجزء الأول من كتابه : الإكليل ذكر أنها لكعب الأحبار . والظاهر أنه أخذها من رواية أهل صعدة لكتب (ابراهيم بن عبد الملك الحنفري) ، نقلاً من كتب كعب الأحبار[١] .

---

١ الاكليل (١/٥٥) .

ضعفت فيهـا وشائج الدم والنسب ، وكثر فيها التزاوج والتصاهر بين العرب والعجم ، فصعب على الناس فيها المحافظة على أنسابهم ، وقلّت الفائدة من النسب عندهم . ولهذا لم يعتنوا به عناية الأعراب بالأنساب .

فالانتماء الى عشيرة أو قبيلة أو حلف ، هو حماية للمرء ، وجنسية في عرف هذا اليوم . ولهذا صار إخلاص الأعرابي لقبيلته أمراً لازمـاً له محتماً عليه ، وعليه أن يدافع عن قبيلته دفاع الحضري عن وطنه.فالقبيلة هي قومية الأعرابي، وحياته منوطة بحياة تلك القبيلة . ولهذا كانت قوميـة أهل الوبر قومية ضيقة ، لا تتعدى حدودها حدود القبيلة وحدود مصالحها وما يتفق أهل الحل والعقد فيها عليه . ومن هنـا صارت القبائل كُتَلاً سياسية ، كل كتلة وحدة مستقلة ، لا تربط بينها إلاّ روابط المصلحة والفائدة والقوة والضعف والنسب .

والعادة انتساب كل قبيلة الى جدّ تنتمي اليه ، وتدعي انها من صلبه ، وان دماءه تجري في عروق القبيلة ، وتتباهى به وتتفاخر ، فهو بطلهـا ورمزها ، وعلامتها الفارقة التي تميزها عن القبائل الأخرى . وليس ذلك بدعاً في العرب ، بل إنّا لنجد الأمم والشعوب الأخرى تنتمي الى أجـداد وآباء . فـ (هيلين) (Hellen) ، هو جدّ أهل (دورس) (Dorus) ، ومنه أخذ (الهيليون) اسمهم هذا . وكان للرومان وللفرس وللهنود وللأوروبيين أجداد انتموا اليهم واحتموا بهم وتعصبوا لهم ونسبوا أنفسهم اليهم على نحو ما نجده عند العرب والإسرائيليين وبقية الساميين[١] .

وفي التوراة ولا سيا (أسفار التكوين) منه ، أبرز أمثلة على النسب ، نجد فيها أنساب الأنبياء والشعوب ، وأنساب بني اسرائيل . يسبق النسب في العادة جملة : (وهـذه مواليد) (وإلّه تولدت) ، ثم يرد بعدها النسب[٢] . أي أسماء من يراد ذكر نسبهم . قد يذكر نسب الأب والزوجة والولد،وقد لا تذكر الزوجة ، بل يكتفى بالأب وبأولاده . وقد لا يذكر الولد . والذي يقـرأ هذه الأسماء يقرأها وكأنها أسماء أشخاص حقاً . ولكننا اذا قرأناها قراءة نقد ، نرى أن بعضها أسماء مواضع ومواقع ، أو أسماء قبائل ، وعشائر أو أسماء طواطم ،

---

١ Hastings, P. 285.

٢ راجع السفر العاشر من التكوين ، الاية الاولى Hastings, P. 285.

الفصل الحادي عشر

أنساب العرب

للنسب عند العرب شأن كبير ، ولا يزال العربي يقيم له وزناً ، ولا سيما عربي البادية . فعلى نسب المرء في البادية تقوم حقوق الإنسان ، بل حياته في الغالب . فنسب الإنسان ، هو الذي يحميه ، وهو الذي يحافظ على حقوقه ويردع الظالم عنه ويأخذ حق المظلوم منه .

وقد يبدو ذلك للمدني الأعجمي أمراً غريباً شاذاً غير مألوف . ولكن هذا المدني نفسه يعمل بالنسب ويأخذ به ، وإن كان في حدود ضيقة . فجنسيته هي نسبه ، تحميه وتحفظ حقوقه . وليس نسب الأعرابي غير هذه الجنسية ، يحتمي به ، لأنه يصونه ويحفظ حقوقه ويدافع عنه . وهو مضطر الى حفظه ، وإلى عدّ آبائه وأجداده وذكر عشيرته وقبيلته ، لأنه بذلك يسلم ، ويحافظ على حياته. فإن اراد شخص الاعتداء عليه ، عرف ان وراءه قوماً ، يدافعون عنه ويأخذون بحقه من المعتدى عليه . وهو لذلك مضطر الى حفظ نسبه والمحافظة عليه .

وأما كون الحضر أقل عناية بأنسابهم من أهل الوبر ، فلأن الحاجة الى النسب عندهم أقل من حاجة أهل الوبر اليها . فالأمن مستقر، ولدى الحضر في الغالب حكومات تأخذ بحق المعتدى عليهم من المعتدين . ثم ان مجال الاختلاط والامتزاج عندهم أكثر وأوسع من أهل البوادي وسكان الأرياف ، وكلما كانت الحواضر قريبة من السواحل ومن بلاد الأعاجم ، كان الاختلاط أوسع وأكثر ، ولهذا

أي أسماء حيوانات تسمت بها القبائل ، مثل (ذئب) و (كلب) و (أسد) و (ضبة) وأمثال ذلك ، وكلها كناية عن قبائل وشعوب عاشت قبل الشروع في تدوين هذه الأنساب أو في أيام التدوين .

ويظهر من كيفية عرض هذه الأنساب وجمعها وتبويبها أن في العبرانيين جماعة من النسابين اختصت بجمع الأنساب وحفظها، ومنهم من كان يعتني بجمع أنساب الغرباء عن بني اسرائيل ، وربما كان كتبة الأسفار من هؤلاء . فلما شرع كتبة أسفار التكوين بقصة الخلق وبكيفية توزع شعوب العالم وظهور الإنسان على سطح الأرض ، كان لا بد من ذكر الشعوب وأنسابها على أسلوب كتابة التأريخ في ذلك العهد ، فاستعين بما تجمع عند نسابي العبرانيين من علم بالنسب ، وأدرج في هذه الأسفار .

وقد وردت في التوراة في أسفار التكوين وفي (أخبار الأيام الأولى) أسماء قبائل عربية ، رجعتها الى مجموعات ، مثل مجموعة (يقطن) (يقطان) ، ومجموعة الإشماعيلين ، أي الإسماعيليين ، نسل اسماعيل،غير انها لم تشر كعادتها بالنسبة الى كل أنساب البشر الى المورد الذي أخذت منه تلك الأنساب . لذلك لا ندري اذا كانت التوراة قد اقتبست ما ذكرته عن أنساب الأمم من الأمم التي تحدثت عن نسبها ، بأن أوردت تلك الأنساب على نحو ما كان شائعاً متعارفاً عند الأمم المذكورة بالنسبة لنسبها ، أو أنها روتها على حسب ما كان متعارفاً عند قدماء العبرانيين في أجداد البشر وفي أنسابهم ، فدونتها على هذا النحو الشائع بين العبرانيين اذ ذاك .

أما النصوص الجاهلية ، فإنها لم تتحدث ، ويا للأسف ، عن مجموعات قبائل على النحو المتعارف عليه عند علماء النسب . ولكنها جاءت بأسماء قبائل عديدة كثيرة ، لم يعرف من أمرها أهل الأخبار والنسب شيئاً . فنحن نقف على أسمائها لأول مرة ، بفضل تلك الكتابات .

وقد أفادتنا الكتابات الجاهلية فائدة كبيرة من ناحية دراسة أسماء القبائل الواردة في كتب النسب والموارد الإسلامية الأخرى ، إذ مكنتنا من الوقوف على الصلات بينها ، وعلى معرفة ما سمي منها بالأب أو الابن أم الأم ، كما عرفتنا على مواطن عديدة من مواطن الخطأ التي وقع فيها النسابون وأصحاب الأخبار، وعلى كثير من الوضع الذي وضع في النسب أو في القصص المروي عن القبائل جهلاً

أو عمداً أو ظهوراً بمظهر العلم والإحاطة بأنساب العرب وأخبارهم ، الجاهليين منهم والإسلاميين .

ولم أجد في الشعر الجاهلي هذه القحطانية والعدنانية التي يراها أهل النسب والأخبار ، وأقصى ما وجدته فيه قصيدة للأخنس بن شهاب بن شريق التغلبي حوت أسماء قبائل وأسماء مواطنها ومواضعها ، هي : (معد) و (لكيز) و (بكر) و (تميم) و (كلب) و (غسان) و (بهراء) و (إياد) و (لخم)[1] . وهي قبائل بعضها عدنانية وبعضها قحطانية في اصطلاح أهل النسب ، إلا أنني لم أجد فيها أسماء آباء هذه القبائل ولا أجدادها ، ولم أستطع أن أفهم منها أن هذه القبيلة ، هي قبيلة عدنانية ، وأن تلك قبيلة قحطانية ، فقد جاءت الأسماء متداخلة وكل ما وجدته فيها مما يخص النسب ، هذا البيت :

فوارسها من تغلب ابنة وائل حماة كماة ليس فيها أشائب

ولم يرتفع الأخنس بنسب تغلب الى ما وراء وائل من آباء وأجداد .

والحق أن من يقرأ هذه القصيدة دون أن يقرأ اسم صاحبها ، يرى أنها من قصائد الشعراء المتكلفين الذين ظهروا في أيام الدولة العباسية ، ولن يخطر بباله أبداً أنها من نظم شاعر جاهلي . وأنا أريد أن أتجاسر فأقول : إني أشك في صحة نظم ذلك الشاعر لهذه القصيدة ، وأسلوب نظمها يأبى أن يرجعها الى ذلك العهد .

وقد خصص (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) فصلاً بـ (أخبار الأخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث) ، ذكر فيه أسماء بعض من عرف واشتهر بحفظه للأنساب ، ولا سيما من ألف فيهم تأليفاً في النسب . وقد طبعت بعض مؤلفات المذكورين ، وهي متداولة بين الناس . والذين ذكرهم (ابن النديم) هم من اشتهر وعرف وذاع خبره في العراق وفي البيئة التي اتصل بها (ابن النديم) ، وهم من أهل الحواضر في الغالب ، إلا أن بين أهل البوادي والأماكن القصية النائية المنعزلة جماعة كانت قد تخصصت بالنسب ، انحصرت شهرتها في البيئة التي

---

[1] المفضليات (ص ٩٥ وما بعدها) ، طبعة السندوبي ، القاهرة ١٩٢٦ م .

عاشت فيها . ولهذا لم يصل خبرهم اليه والينا ، وكثير منهم لم يؤلف في النسب تأليفاً ، وإنما حفظه حفظاً ، شأنهم في ذلك شأن النسّابين الجاهليين ، أو الذين أدركوا الاسلام .

ونجد في كتب الأدب والتواريخ قصصاً عن بعض النسابين في الجاهلية وفي الإسلام ، يثير الدهشة من قدرة وشدة الحافظة عند أولئك النسابين في حفظ الأنساب . وقد عرف أحدهم بـ (النسّابة) ، فقيل : (فلان النسّابة) أو (النسابة) . وقد كان لهم شأن خطير بين قومهم ، لأنهم المرجع في الأحساب والأنساب ، واليهم المفزع عند حصول اختلاف في الأمور المتعلقة بها .

ويذكر أن الخليفة (عمر) أمر بتسجيل الأنساب وتبويبها وتثبيتها في ديوان ، وذلك عند فرضه العطاء ، « فبدأ بالترتيب في أصل النسب ، ثم ما تفرع عنه ، فالعرب عدنان وقحطان . فقدم عدنان على قحطان لأن النبوّة فيهم وعدنان تجمع ربيعة ومضر ، فقدم مضر على ربيعة لأن النبوّة فيهم ، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش ، فقدم قريشاً لأن النبوة فيهم . وقريش تجمع بني هاشم وغيرهم ، فقدم بني هاشم لأن النبوة فيهم ، فيكون بنو هاشم قطب الترتيب ، ثم بمن يليهم من أقرب الأنساب اليهم حتى استوعب قريشاً ، ثم بمن يليهم في النسب حتى استوعب جميع عدنان[1] . وقد كان هذا التسجيل سنة خمس عشرة للهجرة ، في رواية ، أو سنة عشرين في رواية أخرى[2] .

وذكر أن الخليفة قال : (أيما حي من العرب كانوا في حي من العرب أسلموا معهم فهم معهم ، إلا أن يعترضوا ، فعليهم البيّنة ، كالذي فعله مع (بجيلة) رهط جرير بن عبدالله بن جابر ، وكانوا قد تفرقوا ، واغتربوا بسبب حروب وقعت بينهم والتحقوا بقبائل أخرى . وروي أن عوف بن لؤي بن غالب ألحق نسبه بـ (غطفان) ، والتحق نسب بنيه (بني مُرّة) بغَطَفان ، ويقال إن الخليفة قال : لو كنت مستلحقاً حياً من العرب ، لاستلحقت بني مُرّة ، لما كنا نعرف فيهم من الشرف البين ، مع ما كنا نعرف من موقع عوف بن لؤي بتلك البلاد . ثم قال لبعض أشرافهم : إن شئتم أن ترجعوا لنسبكم من

---

١ البلاذري ، فتوح (٥٤٩/٣) ، ابن أبى الحديد ، شرح نهج البلاغة (١١٣/٣) ، بلوغ الارب (١٩٠/٣) .
٢ الكامل ، لابن الاثير (٢١٢/٢) ، اليعقوبي (١٣٠/٢) ، الطبري (١٦٢/٤) .

قريش ، فافعلوا . ولكنهم كرهوا أن يتركوا نسبهم في قومهم ، ولهم فيهم من الشرف والفضل ما ليس لغيرهم »[1] .

وقد ضاعت أصول الجرائد التي دوّنت عليها الأنساب في ذلك الديوان ، ولم يبق منها شيء . ويظهر ان أهل الأخبار لم ينقلوا صورها ، وانما أخذوا الأسس التي قام عليها التسجيل على نحو ما ذكرت ، وبالجملة فإن في اشارتهم الى تلك الأسس والقواعد التي سار عليها الخليفة في اتخاذ القربى بالرسول والوضع القائم للقبائل ، فائدة كبيرة لدراسة أسس تثبيت الأنساب عند العرب في صدر الإسلام .

ويذكر ان الذي قام بوضع مخطط الأنساب وبتسجيل القبائل والعشائر وفق الخطة التي أشرت اليها ، هو (عقيل بن أبي طالب) ، وهو من الثقات في معرفة الأنساب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وان الذي أشار عليه بتدوين النسب في الدواوين هو (الوليد بن هشام بن المغيرة) لما رآه من عمل الروم في تسجيل العطاء في بلاد الشام[2] .

ولم يقتصر التسجيل المذكور على تسجيل نسب القبائل وحدها ، بل شمل ذلك نسب أهل القرى أيضاً ، كنسب أهل مكة والمدينة والطائف وغيرها . وذلك لأن سكانها وان كانوا من أصحاب المدر ، وقد أقاموا واستقروا في بيوت ثابتة ، الا انهم كانوا كالأعراب من حيث الانتساب الى الآباء والأجداد . وقد رأينا ان عمر كان قد بدأ بقوم الرسول ، وقومه حضر ، من أهل مكة ، الا انهم كانوا لا يختلفون عن أهل الوبر في التعلق بالأنساب وفي حفظها ، لأن حياتهم الاجتماعية وان كانت في قرية ، الا أن غريزة المحافظة على النفس والدفاع عن الحقوق حملتهم مثل الأعراب على التمسك بالعصبية ، بعصبية النسب ، ليتمكنوا من المحافظة على الأمن والسلامة والمال ، لعدم وجود حكومة قوية تقوم اذ ذاك بتأمين هذه الواجبات . ثم ان هذه الأماكن محاطة بالأعراب ، وبين أهل مكة من كان شبه حضري ، وبيئة مثل هذه لا بد لها من الاحتماء بعصبية النسب ، وبالتزاوج مع الأعراب ، لتكوين رابطة دموية، تؤدي الى عصبية تضطر الطرفين الى الدفاع عن مصالحها المشتركة وتكوين كتلة واحدة تستجيب للنخوة وللنداء

---

١ شرح المفضليات (ص ١٠١ ، ١١٦) .
٢ البلاذري (٣/٥٤٩) ، الطبري (٣/٢٠٠) ، ابن ابي الحديد ، شرح (٣/١١٣) .

الاستغاثة في ساعة الحاجة والضرورة . ولهذا كان للتزاوج عند العرب أهمية كبيرة في السياسة . ومن هنا نظر سادات القوم والملوك الى التزوج من بنات سادات القبائل الكبيرة نظرة سياسية في الدرجة الأولى وذلك لشد عضدهم ولتثبيت ملكهم ولضبط القبائل ، وبضبطها يستتب الأمن وينتصر على الأعداء . وقد كان لزواج معاوية في الإسلام من (كلب) أثر كبير في السياسة الأموية وفي تثبيت ملكه وملك ابنه يزيد وملك مروان الذي انتصر بهم في معركة (مرج راهط) على القيسيين .

وعلى الرغم من التسجيل المذكور الذي كان للعطاء ، أي لأغراض حكومية رسمية ، فإن أنساب القبائل لم تثبت ولم تستقر الا بعد ذلك بأمد . وآية ذلك ما نجده من خروج قبائل في العصر الأموي من نسب قديم ، ودخولها في نسب آخر جديد . وقد كان شروع النسابين في تسجيل علمهم وتدوينه ، مما ساعد كثيراً ولا شك في تثبيت هذه الأنساب واقرارها،ولا سيا أنساب القبائل المشهورة المعروفة ، وقد وصلت بعض كتب الأنساب ، وطبع قسم منها .

وقد وضع بعض المؤلفين ، مثل الواقدي أبي عبدالله محمد بن عمر المتوفى سنة (٢٠٧ هـ) ، مؤلفاً في (وضع عمر الدواوين ، وتصنيف القبائل ومراتبها وأنسابها)[١] ، الا انها ضاعت ، فحرمنا الاستفادة منها ، ولو بقيت مثل هذه المؤلفات اذن لكان لنا علم قيّم ورأي في كيفية تصنيف القبائل في تلك الأيام .

وقد كان بعض النسابين قد تخصص بنسب جماعة من العرب ، جماعة قومه ومن يرتبط بهم في الغالب . مثل (الزبير بن بكّار) صاحب (كتاب نسب قريش وأخبارها)[٢] ، ومثل (عقيل بن أبي طالب) ، وكان قد تخصص بنسب قريش ، ومثل (أبي الكناس الكندي) ،وكان أعلم الناس بنسب كندة، ومثل (النجار بن أوس العدْواني) ، وكان من أحفظ الناس لنسب (معد ابن عدنان) ، ومثل (عديّ بن رئاث الإيادي) ، وكان عالماً بإياد ، ومثل (خراش بن اسماعيل العِجْلي) ،وكان عالماً بنسب ربيعة[٣] . وعن هؤلاء وأمثالهم

١ الفهرست (ص ١٥٠) .
٢ الفهرست (ص ١٦٦) .
٣ الفهرست (ص ١٤٦)

أخذ أهل الأنساب علمهم بالأنساب، ووضعوا كتباً في نسب القبائل أو في أنساب العرب ، أو في أنساب جماعة منهم .

ولتسجيل (عُمَر) للأنساب شأن كبير بالنسبة الى الباحثين في تطور النسب عند العرب ، لأنه ثبت بذلك الأسس ووضع القواعد للنسابين في الإسلام وقلل من الاضطراب الذي كان يقع في النسب، بسبب الاختلاط ، وعليه سار المسلمون في تقسيم العرب الى أصلين . ولا بد أن يكون لهذا التقسيم أصل قديم ، يرجع الى ما قبل عمر . أقره الخليفة ، وجعله أساساً له في التقسيم الذي بقي مرعياً متعارفاً عليه بين النسابين الى اليوم . ويمكن أن نقارن هذا العمل ، أي تسجيل النسب وتثبيته في سجلات ، بالعمل الذي قام به (عزرا) في تثبيت أنساب اليهود وتدوينها ، وفي تدوين انساب الغرباء ، لتستقر بذلك الأنساب فسار من جاء بعده من النسابين في تعيين النسب على اساس ذلك التدوين[1] .

وفي القرآن الكريم آيات تشير الى عناية القوم بأحسابهم وأنسابهم ، ولكنه لم يتعرض لبيان وجهة نظرهم بالنسبة اليها ، ولا يشعر في موضع ما منه بوجود تلك الفكرة التي ألحّ على وجودها أهل الأخبار ، وهي انقسام العرب الى ثلاث طبقات أو طبقتين ، ووجود نسبين أو جملة أنساب للعرب ، ولم يرد فيه اسم (عدنان) ولا (قحطان) ، ولا أي من هذه الأشياء التي يتمسك بها أهل الرواية والأخبار ، ويقصونها لنا على أنها من الحقائق الثابتة في أنساب العرب، وعلى أن العرب كانوا حقاً من جدّين هما : عدنان وقحطان .

بل كان ما ورد في القرآن يشعر أن العرب كانوا ينظرون الى أنفسهم أنهم من جد أعلى واحد، هو : (ابراهيم) وأن (ابراهيم) أبو العرب : (وجاهدوا في الله حق جهاده . هو اجتباكم . وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم . هو سماكم المسلمين ...)[2] . فلم يفرق بين عرب قحطانيين وعرب عدنانيين . ورُوي : ان الرسول قال : (كل العرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام)[3] .

---

1 Hastings, P. 286.

٢ سورة الحج ، رقم ٢٢ ، الاية ٧٨ .

٣ ابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٥) .

بل حتّى الشعر الجاهلي ، لا نجد فيه اشارة واحدة تفيد اعتقاد الجاهليين بوجود أصلين أو ثلاثة أصول أو أكثر لهم . وكل ما ورد فيه هو فخر بقحطان وفخر بعدنان أو معدّ أو غير ذلك من الأسماء التي تعد من أسماء الأجداد التي ينتهي اليها (الشعب) أو (الجذم) . وأما التفصيلات الأخرى والأسماء الواردة في كتب النسب أو الأخبار والتواريخ ، فهي من روايات الإسلاميين . ثم إن من الشعر الجاهلي ما لا يصح أن يكون جاهلياً ، ومنه ما قيل قبيل الإسلام ، ولا يصح كل الشعر الجاهلي أن يكون شاهداً على آراء أهل الجاهلية البعيدين عن الإسلام .

كذلك لا نجد في شعر الجاهلية سلسلة نسب قحطان أو عدنان . ولا نجد في الأخبار ما يفيد وقوف أهل الجاهلية عليها . وهي سلسلة أخذت أسماؤها من التوراة ، وبعضها أسماء محرفة موضوعة على شاكلة الأسماء التوراتية . أما في الحديث النبوي،فقد ورد أن الرسول انتسب الى (أدد) ، وهو والد (عدنان) ، ثم قال : (كذب النسابون)[١] . وفي كل ذلك دلالة على أن أسماء آباء قحطان وعدنان ، إنما دونت وتثبتت في الإسلام . أما قبل الإسلام ، فلعل بعضهم وفي أيام الرسول ، كان قد تلقن من اليهود نسب قحطان ، وان بعض اليهود لقن العرب نسباً لعدنان ، فلما لاكت الألسنة تلك الأنساب ، وسمعها الرسول قال : (كذب النسابون) .

أما أسماء أبناء قحطان وعدنان فما دون ذلك ، فإنها أسماء عربية في الغالب ، وينقطع منها أثر التوراة وأثر الأسماء التوراتية ، مما يدل على ان النسابين العرب كانوا على علم وبصيرة بتلك الأسماء ، وأنها كانت معروفة عندهم . وهي أسماء لا ترد في التوراة ولا خبر لها عند اهل الكتاب .

وقد ذهب (دوزي) الى وجود فروق أساسية بين القحطانيين والعدنانيين ، حتى ذهب الى وجود اختلاف بين نفسية كل جماعة من الجماعتين[٢] . وأنا لا أريد أن أنكر عليه وجود العداء الذي كان قد استحكم بين القبائل التي تنتسب الى معد أو الى قحطان ، ولا أريد أن أنكر عليه تهجم شعراء اليمن على قبائل معد ،

---

١ نسب عدنان (ص ١) .

٢ Dozy, Gesch. d. Mauren in Spanien, Bd. I, S. 73, Goldziher, Muh. Stud. Bd. I, S. 89, Nallino, Reccolta, Vol. 3, P. 73.

أو عدنان ، ولا تهجم شعراء عدنان على قبائل اليمن المنتمية الى قحطان ، ولا أريد أن أنكر افتخار اليمانيين بانتسابهم الى اليمن ، ولا افتخار العدنانيين بانتسابهم الى عدنان أو مضر أو معد أو غير ذلك من أسماء الشعوب والأجذام ، لا أريد أن أنكر شعر (امرىء القيس) في افتخاره بنسبه في اليمن[1] ، ولا أن أنكر شعر غيره من الشعراء اليمانيين أو الشعراء العدنانيين في الافتخار باليمن أو بمضر أو بمعد. ولكنني لا أريد أن أنكر في الوقت نفسه افتخار القبائل القحطانية بعضها على بعض، وافتخار القبائل العدنانية بعضها على بعض ، وهجاء القبائل القحطانية بعضها لبعض ، وهجاء القبائل العدنانية بعضها لبعضها هجاء لا يقل عن هجاء اليمن لمعد أو هجاء معد لليمن . فهل يصح أن يتخذ هذا الهجاء سبباً لوضع نظرية في اختلاف أجناس هذه القبائل ؟ وهل يصح أن نجعل هذا الهجاء حجة على تباين أصل القحطانيين ، وعلى تباين أصل العدنانيين ؟ ان جاز ذلك،وجب علينا اذن اعادة النظر في كل ما هو مكتوب عن أصول القبائل وفي كل ما هو مدوّن في كتب النسب والأخبار .

هذا (سلامة بن جندل السعدي) ، وهو من مضر ، يحمل في شعره على معدّ ، ويهجوها هجاءً مراً[2] ، وهذا (قيس بن الخطيم) لسان الأوس يحمل على الخزرج ، ويردد ذكريات الأيام التي كانت بين الأوس والخزرج بمثل الشدة التي تجدها في شعر الهجاء الذي قاله العدنانيون في القحطانيين، والقحطانيون في العدنانيين . إنه ذكر تلك الأيام لا لمجرد الفخر والتباهي ، بل ليثير في نفوس الأوس الأحقاد القديمة ، وليزيد في تلك النيران نيراناً . لقد ذكرهم (بيوم الربيع)[3] ، وذكرهم بـ (يوم السرارة)[4] ، وذكرهم بـ (يوم مضرس

---

١ (انا معشر يمن) ، Muh. Stud. Bd. I, S. 89.

٢ همت معد بنا هما فنهنهها | عناطعان وضرب غير تذبيب
بالمشرفي ومصقول اسنتها | صم العوامل صدقات الانابيب

المفضليات (ص ٢٢٧) .

وقال الجميع الاسدي :

سائل معدا من الفوارس لا | اوفوا بجيرانهم ولا غنموا

المفضليات (ص ٤٥) .

٣ شعر قيس (ص ٧)

٤ شعر قيس (ص ٢٠)

ومعبس)[1] ، وهو يوم دارت فيه الأيام دورتها على الأوس ، فقتل منهم عدد كبير ، وانهزم أكثرهم الى بيوتهم وآطامهم ، حتى خرج النـــاس من طوائفهم الى مكة يستعينون على الخزرج ، وذكرهم بأيامهم الأخرى[2] . كل ذلك بلهجة عنيفة شديدة،ليس فيها لين ولا رفق . إنه ينظر الى الخزرج نظرة عداء وحقد، نظرة تشعر منها أن الأوس جنس وأن الخزرج من جنس بعيد آخر . لقد ذكر قريشاً بخير ، وذكر أنها ستحمل عنهم حرب الخزرج ، وذكر أنهم لو التحقوا بأبرهة اليماني أو بنعمان أو عمرو[3] ، لنالوا من هؤلاء كل تقـدير ، ولجعلوا لهم جاهاً أي جاه .

ذكر أبرهة حاكم اليمن ، وذكر غسان ولخماً ، وذكـر أهم من ذلك كله قريشاً على انها ستحمل الحرب وستقابل الخزرج عما قريب . وقريش من عدنان، والأوس والخزرج من قحطان ، ولم نجد في شعره ما يذكر برابطة النسب بين الخزرج والأوس . ولم يرد في شعره اسم قحطان أو عدنان . والقصيدة التي ذكر فيها هذا اليوم هي من أقدم قصائد هذا الشاعر اللتي اضطرت قبيلته (الظفر)، ومعها (عبد الأشهل) الى مغادرة يثرب والتفتيش عن حليف يساعدها في العودة الى ديارها ، فذكر قيس قريشاً ، وكأنه يذكر قبيلة قريبة من قبيلته[4] ، مع انها من نسب آخر في رأي النسابين .

وفي كتب الأدب والدواوين شعر كثير ينسب الى شعراء جاهليين وشعـــراء مخضرمين وشعراء اسلاميين ، فيه هجاء عنيف من شاعر قحطاني لقبائل قحطانية، ومن شاعر عدناني لقبيلة عدنانية، وفيه مدح وفيه إغراق من شاعر قحطاني لقبائل عدنانية ، وهجوم عنيف على القحطانيين ، وهكذا . ولو أردنا شرح ذلك وسرد الأمثلة ، لأخذ ذلك منا وقتاً طويلاً يخرجنـا عن صلب الموضوع ، وينقلنا الى أمور أخرى لا صلة لها بهذا البحث .

ثم إن علينا أن نحسب حساباً لأمر هذا الشعر المروي في المدح والفخر وفي

---

١ شعر قيس (ص ٣٢) ، ديوان حسان بن ثابت (تحقيق هرشفلد) (ص ٨٣ فما بعدها) .
٢ شعر قيس (ص ٣٢) .
٣ شعر قيس (ص ٦٧) (القسم الالماني) .
٤ شعر قيس (ص ٦٦) (القسم الالماني) .

الذم والهجاء ، وهو عندي أوسع باب من أبواب الشعر يحتمل النقـد ، واثارة الشكوك حوله . وقد خبرنا من الكتب أن القبائل كانت تستأجر الشعراء لقول المدح أو الذم ، وانها كانت تعد الشاعر منحة من منـح الله على القبيلة ، لأنه لسانها الناطق والذائد عنها بشعره ، يدافع عن قبيلته ، ويهاجم أعداءها، ويتهمهم بكل ما يصل اليه فنه من الهجاء ورمي التهم ، كائنين ما كانوا قحطانيـين أو عدنانيين . وقد اقتضت طبيعة الخصومة التي زادت حدّتها في الإسلام بـين يمن ومضر وضع شيء كثير من هذا الشعر شعر المنافرة والمفاخرة بين عدنان وقحطان، وهذا أمر وقع ، مفروغ منـه ، لا شك في صحته وثبوته ، اقتضته ظروف السياسة ، فيجب الانتباه له حين التحدث عن نزاع قحطان وعدنان[1] .

وترينا الأخبار أن ما نسميه بنزاع قحطاني وعدناني لم يكن شديداً في الجاهلية بين القبائل التي كانت تقيم في الأنحاء الشمالية من جزيرة العرب ، أي بين تلك القبائل التي رجع النسابون نسبها بحق أو بغير حق الى عدنان أو قحطان ، بمثل تلك الشدّة التي تظهر في النزاع الذي تحدثوا عنه بين القبائل التي كانت تعيش في اليمن أو في الحجاز . وهذا أمر ذو بال ، يجب أن يحسب له كل حساب عند الحديث عن نزاع عدنان وقحطان[2] .

وترينا الأخبار كذلك أن الخصومات التي وقعت بين القبائل العدنانية نفسها ، أو بين القبائل القحطانية نفسها ، لم تكن أقل عنفاً وضراوةً من ذلك النزاع الذي وقع بين من نسميهم بالقحطانيين ومن نسميهم بالعدنانيين . لقد اتخذ شكـلاً عنيفاً،شكلاً يجعلك تشعر أن تلك القبائل كانت تشعر انها قبائل متباعدة لا يجمعها شمل ، ولا يربط بينها نسب ، ولا تجمعها جامعة دماء على النحو الذي يرويه ويذكره أهل الأنساب والأخبار .

والغريب أنك في كل ذلك النزاع المرّ العنيف ، لا تسمع فيه انتساب كل العرب الى عدنان أو قحطان ، وانما تسمع فيه فخراً بأسماء القبائل أو بأسمـاء الأحلاف الداخلة في عدنان أو في قحطان ، تسمع فيـه اسم (معد) أو اسم (يمن) أو (نزار) أو (مضر) أو غير ذلك ، ولا تسمع فيه اسم الجدّين

---

١ Muh. Stud. I, S. 91.

٢ Muh. Stud. I, S. 91.

الأكبرين المذكورين . فماذا يعني هذا ؟ وعلام يدل ؟

ويمن عند أهل الأنساب والأخبار وفي العرف ، كناية عن (قحطان) ، و (قحطان) عندهم أيضاً وفي العرف كناية عن (يمن) وعن الشعوب التي ترجع نسبها الى (يمن) . أما (معد) و (مضر) و (نزار) ، فكناية عن (عدنان) أو عن أحلاف من أحلاف عدنان .

وأنت اذا ما أردت أن ترسم حدوداً فاصلةً بين (قحطان) و (عدنان) ، أي بين (يمن) و (معد) ، فإنك تستطيع أن ترسمها بسهولة اذا ما اعتبرت (قحطان) كناية عن اليمن ، وان (عدنان) كناية عن (قريش) والقبائل التي ترجع نسبها الى نسب قريش . وحدود أرض قريش وحدود أرض اليمن معروفة واضحة . أما اذا أردت أن ترسم حدوداً فاصلة،وأن تضع معالم واضحة بيّنة بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية ، استناداً الى روايات أهل الأنساب والأخبار والى الشجرات التي رسموها لأنساب العرب طرّاً ، فإنك ستخفق حتماً، وسيخيب عملك من غير شك . ذلك لأن أهـــل الأنساب لم يسيروا في تقسيمهم العرب على وفق قواعد ثابتة وأسس واضحة مرسومة ، مثل اختلاف في ملامح جسمانية ، أو تمايز في أمور عقلية أو نفسية أو لغوية ، أو اختلاف في مواقع جغرافية ، بل ساروا وفقاً للعرف والشائع ، فسجلوا الأنساب على وفق الشائع بين الناس عن النسب في ذلك العهد .

وأنت اذا أردت تطبيق ما عندك من علم في (الأثنولوجيا) وفي(الأنثروبولوجي) وفي العلوم المشابهة الأخرى ، على التقسيم الثنائي للعرب ، فستجد نفسك حائراً تائهاً لا مجال لقواعد علمك في هذا المكان . فبين القبائل التي تنتمي الى(قحطان) مثلاً تباين كبير في الملامح وفي العقلية وفي اللغة ، ويجعل من غير الممكن تصور وجود وحدة دموية تجمع شمل هذه القبائل،وجدّ واحد انحدر من صلبه هؤلاء ، وبين القبائل العدنانية اختلاف كذلك في الملامح وفي اللغة ، يضطرك الى القول بفساد نظرية النسابين في أصل هذه القبائل . ولا بد عندئذ من اعتبار هذا النسب رمزاً أخذ من صراع قديم ، أو من أحلاف قديمة ، فصير جدّين لجماعتين .

وكيف تتمكن من اقناع الباحث الحديث في العلوم المذكورة بوجود وحدة في الملامح الجسمية وفي الصفات العقلية ، ووحدة في اللسان بين القبائل القحطانيـــة الجنوبية ، الضاربة في اليمن وفي بقية العربية الجنوبيـة وبين القبائل القحطانيـــة

الشمالية ، مثل غسان ولخم وكلب وكندة وغيرها ، على حين يرى بين الجماعتين فروقاً واضحة بيّنة في كل شيء . حتى انه يستطيع أن يشير الى القحطاني الجنوبي حالاً عند رؤيته له ، على حين لا يستطيع أن يميز القحطاني الشمالي من العدناني ، ولا أن يعرفه الا بالاستفسار منه . الصحيح اننا اذا أخذنا بالملامح وبالأمور الأخرى المذكورة،خلصنا الى نتيجة تقول لنا ان الفروق بين القحطانيين والعدنانيين هي أقل جداً من الفروق التي نراها بين القحطانيين الشماليين والقحطانيين الجنوبيين . وهي نتيجة ليست في مصلحة أهل الأنساب بالطبع،تبين لنا ان قضية قحطان وعدنان قضية اعتبارية لا غير .

بل خذ القحطانيين الجنوبيين ، وهم لبّ القحطانية ومادتها ، ترَ ان القحطاني الساكن على السواحل الجنوبية يختلف في سحنته عن القحطاني الساكن في المرتفعات والهضاب ، والجبال . وان الساكن على السواحل المقابلة للسواحل الافريقية يختلف في ملامحه الجسمية عن الساكن على السواحل المقابلة للهند ، وان سكان حضرموت أو عمان أو مسقط يختلفون في الملامح والسحن عن اخوانهم القحطانيين الساكنين في اليمن وفي نجران وفي الأقسام الجنوبية من المملكة العربية السعودية . فهل يكون هذا الاختلاف دليلاً على قحطانية بالمعنى الذي يزعمه أهل الأنساب ؟

ولقد ذهب بعض الباحثين في علم الأجناس البشرية (الأنثروبولوجي) (Anthropology) الى ان العرب الجنوبيين هم من أصل حامي ، وان وطنهم الأصلي هو افريقية[1] . وقد ذهب بعض آخر الى وجود شبه كبير في الملامح وفي الخصائص البشرية بين العرب الجنوبيين والقبائل الإفريقية الساكنة على الساحل الإفريقي من البحر الأحمر والصومال ، الا انه نسب ذلك الى ان تلك القبائل كانت عربية في الأصل ، هاجرت من جزيرة العرب عن طريق باب المندب الى افريقية ، فسكنت هناك . ومن ثم وقع هذا التشابه . بين تلك القبائل والعرب الجنوبيين[2] .

---

١ R. Poech, Berichte des Forschungsinstitutes fuer Osten und Orient, II, Wien, 1918, 19. ff. V. Giuffrida-ruggeri, Affinita Antropologiche fra Etiopici e Arabi Meridionali, Annuario del R. Instituto Orientale di Napoli, 1919-20, A. Grohmann, Arabien, S. 9.

٢ Les Antiquités du Yemen, Muséon, 61, 1948, 225. ff.

ورأى آخرون أن العربية الجنوبية هي مزيج من الأجناس البشرية واضح المعالم، وذلك منذ أقدم أيامها . فنرى فيها قبائل تشبه جماعة (الفيديد) (Weddid) الهندية ، وهي من السلالات الهندية القديمة ، يسكن بعضها في أرض (صيبان) و (معارة) من حضرموت ، ونرى فيها عناصر مما يطلق عليها اسم (الجنس الشرقي) (Orientalide Rasse) ، وهو الجنس الذي يكثر وجوده بين العرب الشماليين، وعناصر أخرى تمثل انسان حوض البحر المتوسط (Mediterranen Rasse) أو الأجناس الأوروبية ، حيث وجد بعض السياح بين بعض قبائل اليمن جماعة من الناس لها عيون زُرق وشعر أشقر وبشرة بيضاء أو تميل الى البياض وملامح أوروبية بينة ، وتتراوح نسبة هؤلاء بين ٨ الى ١٢ بالمئة[١] .

ووجد الباحثون بين قبائل العربية الجنوبية، جماعات لها ملامح آشورية وجماعات ذات ملامح تشبه ملامح سكان آسية الصغرى ، وجماعات ذات ملامح افريقية . وقد وجد الدكتور (سليمان أحمد حزين) أن بين أهل شمال اليمن وبين أهل جنوب اليمن الى المحيط اختلافات بارزة في الملامح وفي المظاهر الجسمية يخرجنا البحث عنها هنا من حدود التأريخ العام[٢] . ووجد غيره مثل ذلك . كما وجد هذا الاختلاط بارزاً في بقايا الهياكل البشرية القديمة التي عثر عليها في العاديات .

وما هذه المظاهر والملامح التي رأيناها من الجماجم وبقية الهياكل البشرية ومن أشكال التماثيل والصور ، ومن دراسات الباحثين (الأنتروبولوجيين) للقبائل الحاضرة ، الا حكاية واضحة صريحة عن عملية امتزاج أجناس بشرية متعددة في العربية الجنوبية ، بسبب الهجرات والحروب والاتصال البحري والتجارة وعوامل أخرى ، ونجد مثل ذلك بالطبع بين من نسميهم بالعرب الشماليين . وسوف نرى ان الدول القديمة كانت تنقل البشر نقلاً من مناطق الى مناطق فتزرعهم فيها ، وان أكثر أفراد الجيوش التي كانت ترسل لمحاربة القبائل أو للتوسع في الجزيرة كانت تبقى وتستقر في المواضع التي ترسل اليها ، فتتطبع بطباع من نزلت بينهم، وتكون في النهاية منهم ، أضف الى ذلك الرقيق .

---

١ A. Grohmann, Arabien, S. II.

٢ بعثة جامعة فؤاد الاول سنة (١٩٣٦ م) .

وقد ذكر ان جماعة من (بني الحارث بن كعب) وفدت على الرسول ، فنظر اليهم ، فقال : « من هؤلاء الذين كأنهم من الهند ؟ » . وقد كان (قيس بن عمرو) الشاعر المعروف بـ (النجاشي) من هؤلاء[1] . وسواء أكان ما نسب الى الرسول من قوله المذكور صحيحاً أم موضوعاً ، فإن الأخبار تذكر ان بشرة (بني الحارث بن كعب) ، كانت تميل الى السمرة الشديدة ، بل الى السواد الذي يشبه سواد بشرة الإفريقيين ، أفلا يجوز أن يكون أصلهم من افريقية ؟. وقد عرفت جماعة كبيرة من أهل مكة بالأحابيش ، لأن أصلهم من رقيق الحبشة والسواحل الإفريقية المقابلة لجزيرة العرب ؟

فدعوى وجود جنس (أنثروبولوجي) واحد أو جنسين منفصلين ، لكل منهما خصائص جسمية وملامح (فسيولوجية) معينة للعرب ، وبالمعنى العلمي المفهوم اليوم عند علماء الأجناس ، هي دعوى غير مقبولة ، لأن البحوث العلمية والمختبرية لا تؤيدها ولا تثبتها ، ولأن البحوث التأريخية الحديثة تعارضها أيضاً، وكل ما نقوله هو أن ما نسميه اليوم بالجنس هو جنسية ثقافية فكرية، لا جنسية دموية تقوم على وحدة الملامح والمظهر والدم .

فما يذكره أهل الأنساب عن النسبين ، وما يتصوره بعض الناس من صفاء الجنس العربي صفاءً تاماً ونقائه من كل دم غريب ، دعوى لا يمكن الاطمئنان اليها في هذا اليوم . لن يضير العرب قول مثل هذا ، فصفاء الأجناس البشرية صفاءً تاماً ، من القضايا التي عجز حتى القائلون بنظرية العنصريات مثل النازيين عن اثباتها في هذا اليوم . وسيظهر ضعفها في المستقبل ظهوراً أوضح مما هو عليه الآن .

لقد كان (نولدكه) أول من شك من المستشرقين في هذا النسب العام الذي وضعه أصحاب الأنساب للعرب ، وكان أول من نبه على أثر اليمانيين في وضعه وفي محاولتهم رجعه الى عهود قديمة قبل الإسلام[2] . وذهب (هاليفي) الى أبعد من ذلك،فرأى ان كل ما قيل في هجرة القبائل اليمانية الى الشمال هو أسطورة ،

---

١ البيان (١/٢٣٩) ، الاصابة (٨٥٨) ، الخزانة (١/١١٣) .

٢ Muh. Stud. Bd. I, S. 92, Noeldeke, in ZDMG. XL.

وان ما يزعم من انتساب تلك القبائل الى اليمن هو حديث خرافة لا يركن اليه[١] .

ونحا مستشرقون آخرون هذا المنحى ، فرأوا ان للنسابين يداً في ترتيب هذه الشجرة العظيمة للأنساب،أو الشجرتين بتعبير أصح : شجرة نسب أبناء قحطان ، وشجرة نسب أبناء عدنان . ولذلك فهم لا يطمئنون اليها ، ولا يصدقون بكثير من هذه الأنساب المروية وبالأخبار والروايات الواردة في هجرة القبائل القحطانية نحو الشمال[٢] .

اذن ، فقحطان ليس بجد لكل القبائل القحطانية المعروفة ، وعدنان لم يكن جداً لجميع القبائل العدنانية ، وانما هما كنايتان عن مجموعة قبائل ، تدعى عند العرب (بالحلف) ، وقد أخذ أهل النسب قحطانهم من التوراة ، وهو هنالك كناية عن مجموعة قبائل مواطنها في العربية الجنوبية . أما (عدنان) فلم يرد اسمه في التوراة ، ولا نعرف من أمره شيئاً في الزمن الحاضر ، والظاهر انه كناية عن حلف ، ويظهر انه ظهر للوجود قبيل الإسلام . وعدم وقوفنا على أخباره ، لا يسوغ لنا نكران وجوده، فلعل الأيام تكشف لنا عن كتابات نرى فيها اسمه ، كما حدث بالنسبة الى أسماء أخرى شك في أصلها بعض المستشرقين، ثم تبين انها كانت معروفة ، بدليل ورودها في بعض كتابات الجاهليين .

ولا أعتقد ان التوراة ابتدعت فكرة (يقطان) ونسل يقطان ، اذ لا يعقل تصور ذلك . والذي أراه انها حكت نسباً كان يجمع شمل القبائل العربية المذكورة عند العرب ، وصل خبره الى العبرانيين فسجله كتبة التوراة في الأسفار ، مع أنساب الشعوب . كما انها أخذت من العرب أيضاً نسب (الإسماعيليين) على نحو ما كان معروفاً يومئذ ، وكذلك نسب أبناء (قطورة) . فتكون التوراة قد ذكرت أنساب ثلاث مجموعات أو أحلاف عربية كبيرة ، كانت قائمة في ذلك الزمن .

وقد يكون من الخير الاتيان بأمثلة من أيام الإسلام ، تساعدنا في شرح موضوع النسب عند الجاهليين وتفسيره . فإن الزمن وان تغير وتبدل في الإسلام

---

١ Muh. Stud. Bd. I, S. 92, Halévy, in Journal Asiatique, 1882, II, 490, and Compte Rendu de VI, International Orientalisten Congress, Leiden, 1884, P. 102.

٢ Nicholson, A Literary History of the Arabs P. XX, L. Della Vida, Pre-Islamic Arabia, in Arab Heritage, 50, Robertson Smith, Kinschip, P. 6.

وتباعد عن الجاهلية ، الا أن الأفكار القبلية بقيت هي هي عند تلك القبائل بالنسبة الى النسب وتكوين الأحلاف . فقبيل ظهور الإسلام كان بين (يثرب) و (مكة) نزاع شديد . ولما هاجر الرسول الى (يثرب) عرف أتباعه الذين تبعوه بالمهاجرين. وقد دامت الهجرة الى عام الفتح : (فتح مكة)[1] . وأما أهل المدينة الذين آووا الرسول ونصروه ، فقد عرفوا بالأنصار لانتصارهم للرسول ولتقديم مساعداتهم له وللمسلمين . وللقضاء على الخصومة ، آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين . غير أن العداء عاد فتجدد بين الأنصار والمهاجرين ، بعد وفاة الرسول ، ويظهر أثره في شعر حسان بن ثابت والنعمان بن بشير[2] والطرماح بن حكيم ، وهم شعراء يثرب وألسنتها ، وفي الأشعار الأخرى التي جمعت في دواوين الأنصار[3] .

وقد صيّر النزاع المذكور لفظة (الأنصار) علماً خاصاً على أهل المدينة ، حتى كادت تكون نسباً ، واصطبغت الدعوة بصبغة يمانية،فنجد في شعر الأنصار فخراً باليمن ، واعتزازاً بأصلهم اليماني ، ومجاهرة بأنهم يمانيون صرحاء وبأنهم من أقرباء الغساسنة ومن ذوي رحمهم . كما انهم استعملوا لفظة الأنصار مقابل قريش[4] ومعد[5] ومضر[6] ونزار[7] ، وأطلقوا على لسانهم حسان بن ثابت شاعر الأنصار ، وشاعر اليمن ، وشاعر أهل القرى[8] .

---

١ (فلما فتحت مكة ، صارت دار سلام كالمدينة ، وانقطعت الهجرة . وفي الحديث : لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية) ، اللسان (١١١/٧) ، المؤتلف (ص ١٢٦)

٢ الاغاني (١٤٢/١٣) ، (١١٤/١٤ فما بعدها) .

٣ (كان نهيك بن اساف يهاجي ابا الخضراء الاشهلي في الجاهلية ، واشعارهم موجودة في اشعار الانصار) ، الاغاني (١١٧/٢٠) .

٤ ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الانصار
الاغاني (١٤٢/١٣) .

٥ وقال الله قد يسرت جندا هم الانصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد قتال او سباب او هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء
ديوان حسان (ص ١) (تحقيق هرشفلد) ، شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص٦) (سباب او قتال) .

٦ ونحن جندك يوم النعف من احد اذ حزبت بطرا أشياعها مضر
ديوان حسان (ص ٥٧) ، شرح ديوان حسان (ص ٢٠٠) (للبرقوقي) .

٧ Muh. Stud. Bd. I, S. 94, ZDMG. XVIII, S. 239.

٨ مجالس ثعلب ، القسم الثاني ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، سنة ١٩٤٩ (ص ٤٢٩) .

ونجد في أيام معاوية وفي ايام ابنه يزيد قصصاً عن هـذا النزاع اليثربي المكي ، النزاع الذي سمي بنزاع الأنصار مع المهاجرين ، أو نزاع الأنصار مع قريش ، ويلاحظ ان هذا القصص لم يستعمل لفظة (مهاجرين) في مقابل (الأنصار) الا نادراً ، انما استعمل الألفاظ المذكورة . وقد عرفت وفودهم فيه بـ (وفود الأنصار) أو (الأنصار)[1] . فصارت تلك اللفظة وكأنها نسب أو علم من أعلام القبائل ، حتى تضايق من ذلك رجال قريش . قيل بينما كان (عمرو بن العاص) عند (معاوية) يوماً ، اذ دخل عليه حاجبه يقول : « الأنصار بالباب » ، فتضايق من ذلك عمرو ، وقال : « ما هذا اللقب الذي قد جعلوه نسباً ؟ أرددهم الى نسبهم » . فقال له معاوية : ان علينا في ذلك شناعةً . قال : وما في ذلك ؟ انما هي كلمة مكان كلمة ، ولا مرد لها . فقال معاوية لحاجبه : أخرج،فنادِ : مَنْ كان بالباب من ولد عمرو بن عامر ، فليدخل . فخرج ، فنادى بذلك ، فدخل من كان هناك منهم سوى الأنصار ، فقال له : أخرج ، فنادِ : مَن هنا من الأوس والخزرج ، فليدخل . فخرج فنادى ذلك ، فوثب النعمان بن بشير ، فأنشأ يقول :

يا سعد ، لا تعد الدعاء ، فما لنا   نسب نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيره الإله لقومنا   أثقل به نسباً الى الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكم   يوم القليب همُ وقود النار

وقام مغضباً . فبعث معاوية ، فرده ، وترضاه وقضى حوائجه وحوائج من كان معه من الأنصار[2] . وكان النعمان بن بشير حامل لواء الأنصار قد غضب في مجلس من مجالسه مع معاوية ، ولاحظ معاوية عليه الغضب فضاحكه طويلاً ، ثم قال له : « إن قوماً أولهم غسان ، وآخرهم الأنصار ، لكرام »[3] . وكان أهل يثرب يلحقون نسبهم بنسب غسان،ويرجعون نسبهم ونسب غسان الى الأزد. ونسب الأزد الى اليمن .

---

١ (وفد الانصار) ، الاغاني (١٤٢/١٣) .
٢ الاغاني (١٢٠/١٤ ، ١٢٢) .
٣ الاغاني (١١٩/١٤) .

لقد كان من المعقول استعمال لفظة (المهاجرين) في مقابل (الأنصار) ، الا أن الجانبين لم يستعملاها الا قليلاً ، وانما استعملا لفظتي قريش ومعد ، كما استعملا (قريشاً) في مقابل (يمن) . وقد افتخرت قريش بمعد ، وبالنبوة . فأجابهم الأنصار بأن أم الرسول من بني النجار أخوال النبي ، وهم من المدينة ، وبأنهم كانوا أول من آمن به ونصره ، وبأن المتنبيين كانوا من قبائل معد[1] .

ولو كتب لمصطلح (الأنصار) بالبقاء ، ولو كان عهد التدوين بعيداً عنه، لصار ولا شك نسباً من الأنساب ، ولصارت اللفظة اسم أب لقبيلة، كما صارت الألفاظ المذكورة التي خلدت لأنها الألفاظ الجاهلية ، فلما صار التدوين ، كان الناس يتداولونها على أنها أنساب وأسماء .

واستعملت لفظة (اليمانية) في مقابل (النزاريـــة) ، في العصر الأموي . ويظهر انها تغلبت على لفظة (الأنصار) وقضت عليها . وهي تعني القبائل التي ترجع أنسابها الى اليمن . أما (النزارية) فقد عنت كل القبائل العدنانية[2] .

وقد كان بين الحزبين نزاع شديد . ولكل شيعة نسابون ومدافعون ومهاجمون. وقد أثر هذا النزاع تأثيراً خطيراً في وضع الأنساب[3] .

ويرجع بعض الباحثين انقسام العرب الى قحطانيين وعدنانيين الى هذا النزاع: نزاع (يثرب) ومكة قبل الإسلام ، ويرجعه آخرون الى التنازع الطبيعي الذي هو بين البداوة والحضارة . فقد كان أهل يثرب أي اليمن كما يقولون أصحاب حضارة وملك . أما أهل مكة ومن والاهم ، فقد كانوا أعراباً أو شبه أعراب. ومن هنا اختلفت طبيعة أهل يثرب عن طبيعة أهل مكة ، ووقع النزاع والتنافس بين الجماعتين ، وتحول الى نسبين . وزعموا ان هذا النزاع هو نزاع الحضارة مع البداوة ، نزاع أهل المدر مع أهل الوبر ، نزاع (بني مدراء)[4] ، أو (أهل القارية) كما يقال لهم أيضاً ، لأنهم (قارون) أي سكان القرية والقرى مع أهل البادية أي البادون نزلة البادية . قالوا : ومن هنا قيـــل : الحضر خلاف

---

١ Muh. Stud. Bd. I, S. 96.

٢ التنبيه (ص ٦٩) .

٣ التنبيه (ص ٧٢) .

٤ اللسان (١٣٣/٧) ، الاغاني (١٤٥/١٢) .

البدو ، والحاضر خلاف البادي ، و (أهل الحاضرة) و (أهل البادية) و (الحاضرة) ، خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف[1] ، وهو تقسيم ، يرونه ، قديماً ، يرجع الى الجاهلية . روي أن الرسول قال ، حين وفد عليه قيس بن عاصم : « هذا سيد أهل الوبر »[2] . ونجد مثل ذلك في النصوص اليمانية الجاهلية ، اذ أشارت الى الأعراب كطبقة خاصة قائمة بنفسها ، تمتاز عن الحضر المستقرين .

ومن ثم كانت غالبية القبائل العدنانية التي يذكر أهل الأخبار أسماءها قبائل أعرابية ، أي قبائل بدوية ، أو قبائل غلبت البداوة عليها ، وغالبية القحطانية قبائل مستقرة أو قبائل شبه حاضرة تنتخت في أماكن ثابتة ومالت الى حياة الحضارة . ولما كان الحضر أرقى فكرياً من أهل الوبر ، صارت اليهم السيادة في الغالب ، فتحكموا في القبائل العدنانية ، وملكوا القبائل المعدية . فحكم المناذرة والغساسنة وآل كندة وغيرهم ممن يرجع نسبه النسابون الى قحطان ، قبائل عدنانية ، ولم يحكم العدنانيون القحطانيين قبل الإسلام .

هذا هو رأي من يرى أن القحطانية والعدنانية كناية عن الحضارة والبداوة ، وتعبير عن أهل المدر وأهل الحضر . يستدلون على رأيهم هذا بما قلته من غلبة الحياة الحضرية والاستقرار على القبائل التي يرجع النسابون نسبها الى قحطان ، وغلبة البداوة أو شبه البداوة على القبائل العدنانية .

وللحكم على هذه النظرية ، يجب تكوين جدول بأسماء القبائل الجاهلية العدنانية منها والقحطانية ، ودراسة أحوالها الاجتماعية والمواضع التي عاشت فيها في مختلف الأزمنة ، وعند ذلك نستطيع الحكم على ما فيهما من قوة أو ضعف ، فإن في القحطانيين قبائل متبدية ، وفي العدنانيين قبائل مستوطنة وأصحاب قرى . ولهذا لن تصدق تلك النظرية الا بمثل هذه الدراسة .

ولفهم النزاع القحطاني العدناني ، أو نزاع يثرب ومكة ، لا بد من البحث عن موارد جاهلية واسلامية نستعين بها على فهم طبيعة هذا النزاع . أما الموارد

---

١ اللسان (٣٨/٢٠) ، فجر الاسلام ، (٧/١)
Sprenger, Das Leben, Bd., 3, S. CXXVIII

٢ معجم الشعراء (ص ٣٢٤) .

الجاهلية،أي الكتابات ، فليس فيها حتى الساعة شيء ما يحدثنا عن هذا النزاع، وأما الموارد الإسلامية ، فإن شعر حسان بن ثابت ، أو الشعر المنسوب الى هذا الشاعر بتعبير أصدق وأصح،هو المرجع الأول الذي يحدثنا عن طبيعة هذا النزاع أو التحاسد الذي كان بين مكة ويثرب قبل ظهور الإسلام وعند ظهوره،اذ كان حسان نفسه من المناضلين فيه الحاملين للواء يثرب في نزاعها مع مكة . ونرى القحطانيين يروون شعره ويذكرونه في افتخارهم على العدنانيين . وقد حمل شعره جلّ مواضع فخر قحطان على عدنان ، ومفاخر أهل يثرب على أهل مكة ، حتى لنستطيع أن نقول انه أحد بناة النزاع القحطاني العدناني ، باعتبار انه أقدم مشارك فيه يصل خبره الينا ، وأن أكثر ما تذكره القحطانية من دعاوى مركزة في شعر هذا الشاعر مذكورة فيه .

وقد وصل جلّ شعر حسان الينا،وطبع في ديوان . راجعناه وراجعنا ما يحمل من شعر ، فلم نجد فيه ذكراً لعدنان ، وانما نجد فيه اسمي (قحطان) و(معد)[1] . ولم يرد فيه اسم الأول الا مرة واحدة في قوله :

فلو سُئِلَتْ عنه معد بأسرها وقحطان أو باقي بقية جرهما[2]

وأما اسم الثاني ، أي (معد) ، فقد ورد في مواضع بلغت سبعاً في الديوان[3] .

غير انا نرى في الجزء الأول من (الإكليل) ، أبيات شعر نسبها (الهمداني) لحسان ، ورد فيها ذكر لقحطان ، وفخر به ، وانتسب اليه :

لقد كان قحطان العلا القرم جدّنا له منصب في يافع الملك يشهر
ينال نجوم السعد ان مدّ كفه تفلّ أكف عند ذاك وتقصر
ورثنا سناءً منه برزاً ومحتداً منيف الذرى فخر الأرومة يذكر[4]

---

١ طبعة (هرشفلد) سنة ١٩١٠ بمدينة (لايدن) ، رواية السيرافي ، شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري ، للبرقوقي ، القاهرة ، ١٩٢٩ .
٢ ديوان حسان (ص ٤٤) ، البرقوقي (ص ٣٩٨) .
٣ ديوان حسان (ص ١ ، ٥ ، ٦ ، ٢٥ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٨٩)
٤ الاكليل (١١٨/١) .

ونرى أبياتاً أخرى من هذا النوع من الفخر،في مكان آخر من هذا الكتاب، نسبها أيضاً لهذا الشاعر ، هي هذه :

فنحن بنو قحطان والملك والعلا ومنّا نبيّ الله هود الأخاير
وإدريس ما ان كان في الناس مثله ولا مثل ذي القرنين أبناء عابر
وصالح والمرحوم يونس بعد ما ألات به حوت بأخلب زاخر
شعيب والياس وذو الكفل كلهم يمانون قد فازوا بطيب السرائر[1]

ونرى أبياتاً أخرى نسبها (الهمداني) الى (حسان) أيضاً ، فيها فخر بقحطان وبقوم الشاعر ، رواها على هذا النحو :

فمن يك عنّا معشر الأزد سائلاً فإنا بنو الغوث بن نبت بن مالك
ابن زيد[2] بن كهلان نما سبأ له الى يشجب فوق النجوم الشوابك
ويعرب ينميه لقحطان ينتمي لهود نبيّ الله فوق الحبائك
يمانون عاديون ، لم يلتبس بنا مناسب شابت من الى وأولئك[3]

والأبيات المذكورة ، لا يمكن أن تكون من نظم حسان ، فأسلوبها غير أسلوبه في شعره ، وفي بعضها ركة وضعف ، ولفظة (المرحوم) من الاصطلاحات الحادثة المتأخرة[4]، كما ان التفاخر بالأنبياء المذكورين لم يكن معروفاً على عهده .

وأما الشعر المبتدىء بهذا البيت :

فمن يك عنا معشر الأزد سائلاً فإنا بنو الغوث بن نبت بن مالك

ففيه اضافات لا نجدها في الديوان .

وفي المضاف اليه تباين ظاهر مع أسلوب حسان في شعره ، وركة بينة ، وطابع الصنعة ظاهر عليه . وقد ورد في ديوانه على هذا النحو :

---

١ الاكليل (٩٦/١) .
٢ الاكليل (١٠٦/١) هكذا : (ابن زيد) .
٣ الاكليل (١٠٦/١) .
٤ الفضل لاستاذي الاثري في تنبيهي الى هذه الملاحظة .

فإن تلك[1] عنا معشر الأسد[2] سائلاً فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك
لزيد بن كهلان الذي نال عزّه قديماً دراري النجوم الشوابك
إذا القوم عدّوا مجدهم وفعالهم وأيامهم عند التقاء المناسك
وجدت لنا فضلاً يقر لنا به اذا ما فخرنا كل باق وهالك[3]

فأنت ترى أن الأبيات في الديوان خالية من نسب (سبأ) و (يشجب) و (يعرب) و (قحطان) و (هود) وغير ذلك ، وان أسلوب صياغة هذا النظم لا يمكن أن يكون من أسلوب شاعر جاهلي أو شاعر مخضرم ، بل لا بد أن يكون من نظم المتأخرين ، اضافه بعض المتعصبين لليمن الى شعر حسان ، ونظمه على وزن البيت الأول وطريقته ، ليكون أوقع في النفس ، ودليلاً على قدم ذلك النزاع .

ولا أعتقد ان هنالك حاجة تدعوني الى إلفات نظر القارىء الى أن الأبيات المتقدمة الواردة في ديوانه ، هي الأبيات المتقدمة عليها نفسها ، أي الأبيات التي أخذتها من كتاب الإكليل للهمداني رويت بشكل آخر ، بشكل يرينا أن الرواة مهما حاولوا اظهار انهم على حرص تام في المحافظة على أصالة الشعر والمحافظة على الأصل ، فإنهم لا يتمكنون من ذلك .

ونسب بعض الرواة اليه هذه الأبيات :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا ، فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما بكم غير عجمة كلام ، وكنتم كالبهائم في القفر[4]

وهي أبيات لم ترد في ديوانه ، تشعر ان (يعرب) ، وهو جد القحطانيين ، هو أول من أعرب في لسانه ، وأول من نطق بالعربية ، فهو أول متكلم بها ، وأول من أوجدها وكونها ، وان العدنانيين تعلموها من أبنائه ، بعد ان كان لسانهم لساناً أعجمياً . وأما من ناحية صحة نسبتها الى شاعر الإسلام وشاعر

---

١ وفي الديوان : (من تك) ، (ص٤٠) ، البرقوقي (ص ٢٩٥) .
٢ « الاسد » ، الاصح في نظري : « الازد » . كما في الابيات المتقدمة .
٣ ديوان حسان (ص ٤٠) ، البرقي (ص ٢٩٥) .
٤ الاكليل (١١٦/١) .

الأنصار ، فإن في أسلوب نظمها وفي صياغة البيت الأول وجملة (منطق الشيخ يعرب) ، ما فيه الكفاية لإظهار انها مصنوعة ، حملت عليه حملاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظم من نظم أول الإسلام،حتى وان كان من شاعر من شعراء أهل المدر في ذلك العهد .

وزعم ان حساناً ذكر القيل (ذو ثات) ، وهو من أقيال حمير ، فقال هذا البيت :

وفي هكر قد كان عز ومنعة وذو ثات قَيْلٌ ما يكلم قائله[1]

ولم يرد هذا البيت في ديوانه . أما أسلوب نظمه ، فينبئك ان قائله يجب أن يكون شخصاً آخر من المتأخرين عن حسان ، ممن كانوا يضعون الشعر على ألسنة غيرهم على نحو ما وضعوا على ألسنة التبابعة وآدم والجن .

هذا ولحسان شعر لم يرد في ديوانه ، بل ورد في موارد أخرى . منه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود ، لأنه منحول وقد حمل على حسان وألصق به ، ولم يغفل العلماء عنه ، بل أشاروا اليه ونبهوا ان بعض الناس قد تعمدوا وضعه وحمله عليه لمآرب[2] . قال الأصمعي في ذلك : « تنسب اليه أشياء لا تصح عنه. وهذا فيا يظهر صحيح ، وكثيراً ما رأيت في سيرة ابن هشام أبياتاً لحسان من هذا القبيل يعقبها صاحب السيرة بقوله : وأهل العلم ينفيها عن حسان »[3] . وقد نسب الجمحي الوضع على حسان الى بعض قريش للغض منه ، فقال : « وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد . لما تعاضهت قريش ، واستبت ،وضعوا عليه أشعاراً كثيرة ، لا تليق به » . وقد كان ذلك لتعرضه بهم ، ولتعصبه المفرط ليثرب، وافتخاره بهم على قريش[4] .

هذا ومع إفراط (حسان) في التعصب ليثرب ، لا نراه يذكر قحطان الا

---

١ شمس العلوم (ح ١ ق ١ ص ٢٧١) .
٢ ديوان حسان : المقدمة الانكليزية (ص ٢ وما بعدها) ، (وقد قال الاصمعي في ذلك : تنسب اليه اشياء لا تصح عنه . وهذا فيما يظهر صحيح ، وكثيرا ما رايت في سيرة ابن هشام ابياتا لحسان من هذا القبيل يعقبها صاحب السيرة بقوله : واهل العلم ينفيها عن حسان ....) ، البرقوقي (ص غ) .
٣ المصدر المتقدم .
٤ طبقات الشعراء (ص ٥٢) .

مرة واحدة ، أما عدنان فلم يذكره في شعره قط . ولهذه الملاحظة أهمية كبيرة، لتكوين رأي في فكرة (قحطان) وعدنان في ذلك العهد ، اذ انها تدل على ان القحطانية والعدنانية لم تكن عنده على النحو الذي صارت عليه فيما بعد ، بعد اشتداد النزاع بين الأنصار وأهل مكة ومن حولها في خلافة بني أمية خصوصاً ، وهم عصب العدنانيين ، وانه في كل فخره بالنسب لم يتجاوز الأزد ، أبناء (الغوث بن زيد بن مالك بن زيد بن كهلان)[1] ، وغسان وآل نصر .

وأما بعد اسلامه ، فقد حوّل فخره وتباهيه الى فخر بالأنصار على قريش ومضر ومعد ، أي أهل مكة ، بنصرة قومه للإسلام ، وبنصر النبي حين خذلوه وقاوموه . فكانوا ملوك الناس قبل محمد ، فلما أتى الإسلام ، كان لهم النصر في نصرته[2] . ونجد هذا الفخر واضحاً قوياً في شعره ، فهو فخر أهل يثرب على أهل مكة . فخر الأنصار على مضر ومعد وقريش ، فلم يصل الفخر بقومه عنده اذن الى حد الفخر بقحطان ، أو باليمن كلها على عدنان . وأما ما ورد منه أكثر من ذلك، كما نرى في الأبيات المنسوبة اليه في الجزء الأول من الإكليل، فإنه عندي من ذلك النوع المنحول الذي اضيف اليه . فالتكلف ظاهر عليه ، والأسلوب مختلف عن أسلوبه ، وهو من النظم المتأخر عن ايام حسان، من نظم وضّاح يتكلف قول الشعر ولا يحسن صناعته .

خذ قصيدته التي تمثل منتهى فخره بقومه ، نره يقول :

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامر   لنا شرف يعلو على كل مرتقي ؟
رسا في قرار الأرض، ثم سمت له   فروع تسامى كل نجم محلّق
ملوك وأبناء الملوك ، كأننا   سواري نجومٍ طالعات بمشرق

الى أن يقول :

كجفنة والقمقام عمرو بن عامرٍ   وأولاد ماء المزن وابني مُحرّق

---

١ من تلك عنا معشر الازد سائلا   فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك
لزيد بن كهلان الذي نال عزه   قديما ذراري النجوم الشوابك
ديوان حسان (ص ٤٠)
٢ وكنا ملوك الناس قبل محمد   فلما اتى الاسلام كان لنا الفضل
ديوان حسان (ص ٧٠ ، ٧٣) .

وحارثة الغطريف أو كابن منذر   ومثل أبي قابوس ربّ الخورنق[1]

فلا تجد فخره بها يتعدى حدود الفخر بالأزد وبالغساسنة وآل نصر ، أي ملوك الحيرة . وهو ما وجدناه في أشعاره الأخرى . وقد عاب في هذه القصيدة (قيساً) و (خندفاً) لأنهما قاومتا الرسول وآذتاه . ممـا يدل على أن هذين الاسمين كانا معروفين قبل الإسلام .

هذا ، وقد أضاف أهـل الأخبار الى قصيدة حسان التي مـدح فيها الملك (جبلة بن الأيهم) ، ومطلعها :

لمن الدار أقفرت بمغان   بين أعلى اليرموك والصمان[2]

هذا البيت :

أشهرنها فإن ملكك بالشا   م الى الروم فخر كل يماني[3]

ولم يرد ذكر هذا البيت في الديوان . وهو بيت يتحدث كما ترى عن فخر باليمن : أصل الغساسنة ، وأهل يثرب ، وكل قحطان . وأغلب ظني انه من الأبيات المدسوسة ، وضعه أحد المتعصبين لليمن ودسّه في القصيدة .

هذا وقد نسب الى النعمان بن بشير الأنصاري شعر قيل انه قاله في هذا الباب . ونسب الى الطرماح بن حكيم مثل ذلك ، وهو أيضاً شاعر من شعراء الأنصار[4] . وعلينا أن ندرس شعرهما ، وشعر أمثالها ، وشعر شعراء قريش أيضاً دراسة نقد وتمحيص نميز بها بين صحيحه وفاسده ، لنتمكن بذلك من تكوين رأي علمي صحيح في القحطانية والعدنانية وتأريخ ظهورهما . ولو تيسر لنا ديوان الأنصار أو دواوين الأنصار ، لزادت معارفنا ، ولا شك ، في هذا الباب وتمكنا من تكوين رأي في تلك العصبية القبلية بصورة أصح وأدق ولا شك .

---

١ البرقوقي (ص ٢٨٨) .
٢ مروج الذهب (٢/٣١) (تحقيق محمد محيي الدين) . ونجد هنا اختلافا في الالفاظ وفي بعض الجمل عن نص القصيدة الوارد في الديوان ، راجع (ص ٥٥) من الطبعة الاوروبية ، و (ص ٤١٤) من (شرح ديوان حسان بن ثابت) لعبد الرحمن البرقوقي . وقد اخذت مطلع القصيدة من رواية المسعودي .
٣ مروج الذهب (٢ / ٣١) .
٤ فمنا سراة الناس هـود وصالح   وذو الكفـل منـا والملوك الاعاظـم
الاكليل (١/٩٤) .

لقد حارب الإسلام العصبية الجاهلية ، وآخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، وحالف بين قريش وأهل يثرب ، ونهى عن أحلاف الجاهلية ، وروي عنه أنه قال : (لا حلف في الإسلام)[1] ، لما ينتج عنه من فتن ومن قتال بين القبائل وغارات ، ولأن الإسلام قد عوّض عن الحلف ، وزاده شدة بنزوله . (وما كان من حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة)[2] . وعدّ (التعرب) بعد الهجرة ، أي أن يعود المرء الى البادية ويقيم مع الأعراب ، كبيرة من الكبائر ، حتى عدّ من يعود الى موضعه من البادية بعد الهجرة كالمرتد[3] . ومع ذلك ، لم يكن من الممكن تناسي العصبيات ، وغسل آثار الجاهلية ، وطمس معالمها تماماً ، فتحزبت القبائل وتكتلت ، وكانت تحارب على أنها همدان[4] ، أو ربيعة[5] ، أو طيء[6] ، أو مضر[7] ، أو قريش[8] ، أو قيس[9] ، أو الأزد ، أو ربيعة[10] ، أو تميم[11] ، أو غير ذلك من أسماء قبائل .

القحطانية والعدنانية في الاسلام :

الحق ان ما نسميه قحطانية أو عدنانية انما هو صفحة من صفحات النزاع الحزبي عند العرب في الإسلام ، شاء أصحابه ومثيروه رجعه الى الماضي البعيد ، ووضع تأريخ قديم له ، فجعلوا له أصولاً زعموا انها ترجع الى ما قبل الإسلام

---

١ تفسير الطبري (٣٦/٥)
٢ تفسير الطبري (٣٦/٥) .
٣ (وفي الحديث : ثلاث من الكبائر ، منها التعرب بعد الهجرة ، هو ان يعود الى البادية ويقيم مع الاعراب بعد ان كان مهاجرا . وكان من رجع بعد الهجرة الى موضعه ، من غير عذر ، يعدونه كالمرتد) ، لسان العرب (٧٦/٢)
٤ مروج (٢٢/٢) .
٥ مروج (٢٢/٢) .
٦ مروج (٢٢/٢) .
٧ اليعقوبي (١٦٥/٢) ، الكامل (٨٥/٤)
٨ اليعقوبي (٣/٣) ، الكامل (٦١/٣) .
٩ الكامل (١٤/٤ ، ٦٣) .
١٠ الكامل (٥٨/٤) .
١١ الكامل (٥٨/٤) .

بكثير ، ورووا في ذلك شعراً لا يخرج في نظرنا عن هذا الشعر الذي يحفظه الرواة على لسان آدم وهابيل وقابيل والجن .

وفي هذا الصراع القحطاني العدناني العنيف شرع في تدوين الأنساب وتثبيتها في القراطيس والكتب. فكان لهذا الصراع ولوضع القبائل وتكتلاتها في هذا الوقت أثر خطير في تثبيت أنساب القبائل وتسجيلها ، ليس في هذا العهد فقط، بل في تثبيت أنساب قبائل الجاهلية وتسجيلها أيضاً . اذ سجلت هذه الأنساب : جاهلية واسلامية على الرأي السائد في النسب يوم شرع في التسجيل والتدوين ، أي في أوج هذه العصبية العنيفة التي عمت الناس في صدر الإسلام . ومن هنا كان لا بد لفهم الفكرة القحطانية العدنانية من الإلمام بنزاع قحطان وعدنان في الإسلام .

والذين قاموا بتسجيل الأنساب وتدوينها وتثبيتها في الكتب، كانوا هم أنفسهم من أصحاب العصبية لنزار أو لليمن ومن المتأثرين بالأحوال السياسية لذلك العهد. ولهذا نجد في أقوال بعضهم تحزباً وتطرفاً وميلاً الى تأييد فريق على فريق . ومن هنا كان لا بد لنا من التنبه لهذه العصبية، واتخاذ الحيطة والحذر عند دراسة هذا النزاع القحطاني العدناني .

وقد استعملت في هذا العهد (مضر) في مقابل (الأزد)[١] ، كما استعملت الأزد في مقابل تميم ، وورد (أهل اليمن) أو اليمانية[٢] . ولكننا قلما نسمع في نداء القبائل وأخبار هذه الفتن أو الحروب التي وقعت في هذا العهد استعمال كلمة (عدنان) في مقابل (قحطان) ، ويقال مثل ذلك في الأشعار أيضاً، في مثل شعر (الفرزدق) الذي استعمل كلمة (قحطان) في مقابل كلمة (نزار) وكلمة (يمن) في مقابل (نزار) أو (الأزد) في مقابل (نزار)[٣] . كما استعمل الحكم بن عبدل (قحطان) في مقابل (معد)[٤] . وقد ذكر الأعشى

---

١ الكامل (٥٨/٤) .
٢ الكامل (٦١/٤) .
٣ ديوان الفرزدق « طبعة بوشيه » Boucher « ص ٨ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٨٦ » .
Muh. Stud. Bd. I, S. 98.
٤ فما صادفت في قحطان مثلي … كما صادفت مثلك في معد
الاغاني (١٤٨/٢) .

في شعر له : (ومن معدّ قد أتى ابن عدنان) ، وذلك في مقابل (قحطان)[1].

وفي أيام معاوية وابنه (يزيد) و (مروان بن الحكم) ، نالت (كلب) مركزاً سامياً ، لتزوج معاوية امرأة من كلب ، هي (ميسون بنت بحدل) ، فأصبحت هي والقبائل التي تؤيدها مقربة عند الخلفاء ، مع أن الخلفاء من قريش ، وقريش من قيس . وهذا مما أغضب قيساً المعروفة بعدائها لكلب . وقد كانت لفظة (قيس) في هذا العهد ترادف كلمة (معد) و (مضر) و (نزار)[2] . وأما (كلب) ، فترادفه اليمن . وقد عرفت المعركة التي وقعت في (مرج راهط) بين مروان وابن الزبير بأنها معركة (قيس) و (كلب) لأن قيساً حاربت فيها عن (ابن الزبير) . أما كلب ، فقاتلت عن مروان ، وقد أوجد هذا الانتصار حقداً كبيراً بين (قيس) وحلفائها من القبائل ، وبين كلب وأنصارها من القبائل التي أدعت أنها من اليمن ، فوقعت حروب بين قيس وكلب هلك فيها خلق كثير من الفريقين[3] . ولعب دوراً مهماً في تكتل القبائل وفي تجمع القحطانيين والعدنانيين .

وقد أسهم الخلفاء الذين جاؤوا بعد (عبد الملك) ، ويا للأسف ، في هذا النزاع ، متأثرين بعاطفتهم وبدمهم من الأمهات ، فكان بعضهم يؤيد القيسيين اذا كانت أمهم من قيس ، وكان آخرون يؤيدون (كلباً) إذا كانت أمهم من اليمن . وسار على هذه السياسة الولاة والعمال ، فكانت النتيجة تكتل القبائل وانقسامها الى معسكرين (قيس) و (يمن) ، وتزعمت (أزدعمان) في البصرة وخراسان حزب (يمن) في مقابل (قيس) و (تميم)[4] .

ووقعت وقائع دموية بين يمن وقيس ، انهكت العرب جميعاً ، وصارت من جملة العوامل التي عجلت بسقوط الأمويين .

وحمل الشعراء مشاعل هذا النزاع ، وأمدّوا ناره بوقود غزير . نظموا القصائد في مدح قيس وفي ذم يمن وذم قيس بحسب قبيلة الشاعر ونسبه . ساهم فيه

---

١ سار بجمع كالقطا من قحطان ومن معد قد اتى ابن عدنان
الاغاني (١٥١/٥) .

٢ Enc. Vol. 2, P. 655.

٣ Enc. Vol. 2, P. 655, Werner Caskel, Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber, S. 13.

٤ Wellhausen, Das Arabische Reich und sein Sturtz, S. 40, Enc. Vol. 2, P. 655.

الأخطل والكُميت ودِعبِل الخزاعي وجرير بن عطيــة بن الخَطَفَى التميمي واسحاق بن سويــد العَدَوي وغيرهم ، فكان مدح وكان ذم ، وكان تبــاه وافتخار ، وكان قدع وهجاء . وبدلاً من أن يتدخل الحكام ومسيرو الأمة في اخماد نار هــذه الفتنة واسكات الشعراء جميعاً للصف ، ساهموا هم أنفسهم كما قلت في هذه المعركة وشجعوا المحاربين فيها ، ففرقوا بين العرب بسياستهم هذه وأطمعوا الأعاجم فيهم ، وجعلوا العرب يقاتل بعضهم بعضاً ، وبذلك توقفت الفتوحات العربية الإسلامية ، نتيجة لهذه السياسة المفرقة الخرقاء .

ولم يقف هذا النزاع على التباهي بقحطان وعدنان وبالأيام وبالشجعان ، بل تجاوز ذلك الى التباهي بارتباط كل فريق بجماعة من الأعاجم بروابط الدم والنسب والثقافة ، فافتخرت النزارية بالفرس على اليمانيـة ، وعدوهم من ولد (اسحاق ابن ابراهيم) وافتخروا بإبراهيم جدّ العرب والفرس . ونظم (جرير بن عطية ابن الخَطَفَى التميمي) ، في ذلك شعراً ، جاء فيه :

أبونا خليل الله لا تنكرونه ... فأكرم بابراهيم جداً ومفخرا
وأبناء اسحاق الليوث اذا ارتدوا ... حمائل موت لابسين السَّنَّورا
اذا افتخروا عدّوا الصبهبذ منهم ... وكسرى وعدّوا الهرمزان وقيصرا
أبونا أبو اسحاق يجمع بيننا ... أب لا نبالي بعده من تأخرا
أبونا خليل الله ، والله ربنا ... رضينا بما أعطى الإلـه وقدرا [1]

ومن هذا القبيل ، قول اسحاق بن سويد العدوي :

اذا افتخرت قحطان يوماً بسؤدد ... أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا
ملكناهم بدءاً بإسحاق عمّنا ... وكانوا لنا عوناً على الدهر أعبدا
ويجمعنا والغــر أبناء فارس ... أب لا نبالي بعده من تفردا [2]

وقول بعض النزارية :

واسحــاق واسماعيــل مــدا ... معالى الفخر والحسب اللبابا
فوارس فــارس وبنو نزار ... كلا الفرعين قد كبرا وطابا [3]

١ التنبيــه (ص ٩٥) .
٢ التنبيــه (ص ٩٥) .
٣ التنبيــه (ص ٩٥) .

ولم يقف النزاريون عند هذا الحدّ ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن هذا النسب قديم ، وأن قرابة الفرس بالعدنانيين قديمة ، وأن الفرس كانت في سالف الدهر تقصد الى البيت الحرام بالنذور العظام تعظيماً لابراهيم الخليل بانيه، وانه عندهم أجل الهياكل السبعة العظيمة والبيوت المشرفة في العالم ، وأن رجلاً تولاه وأعطاه العـــدة والبقاء ، واستشهدوا على صحة دعواهم بشعر زعموا أن قائله هو أحد شعراء الجاهلية :

زمزمت الفرس على زمزم   وذاك في سالفهـــا الأقدم[1]

وترتب على هذا وضع نسب للفرس يتصل بنسب العرب العدنانيين ، فزعموا أن (منوشهر) الذي ينتسب اليه الفرس هو (منشخر بن منشخرباغ) ، وهو (يعيش بن ويزك) ، و (ويزك) هو اسحاق بن ابراهيم الخليل، واستشهدوا على زعمهم هذا بشعر ، قالوا ان بعض شعراء الفرس في الإسلام قاله مفتخراً :

أبونا ويزك وبه أسامي   اذا افتخر المفاخر بالولاده
أبونا ويزك عبد رسول   له شرف الرسالة والزهاده[2]

أما (يعيش بن ويزك) جد الفرس الجديد ، فهو (عيسو) (Esau) ، وفي العبرانية (Usu) ، ومعناها (مشعـــر) أو (خشن) ، وهو شقيق يعقوب وجد الأدوميين في التوراة وابن إسحاق[3] . وأما (ويزك) فهو (يزك) أو (إيزك) (Isaac) (Icaak) وهو (إسحـاق) ، وهو في العبرانيـة (يصحق) (يصحك) (يصحاك) (Yishak) أي (الضحاك) . ويرى علماء التوراة ان الأصل اسم قبيلة كان يقال لها (يصحقيـل) (يصحق ال) (يضحاك ال) (Yishhakel) (Yishakil) ، وهو والد (عيسو) و (يعقوب)[4].

وقد أسهم بعض الفرس أنفسهم في اذاعة هذا النسب ونشره ، وقد استشهد على صحة دعواه بالأشعار المذكورة التي تفتخر بالفرس على اليمانية ، وانهم من

١ التنبيـــه (ص ٩٥) .
٢ التنبيه (ص ٩٦) .
٣ Enc. Bibl. P. 1333, Budde, Urgeschi. S. 217, Hastings, P. 235.
٤ Enc. Bibl. P. 2175, Hastings, P. 386.

ولد أبيهم ابراهيم[1] . ولعلهم قالوا ذلك تقرباً الى الحكومة ، وهي عدنانية ، ولعوامل سياسية أخرى ، منها تقريب الفرس من العرب ، وضمان تعاونهم مع الخلافة في وجه النعرات القومية التي ظهرت في ايران .

ولم يكتف العدنانيون بقرابتهم للفرس وللاسرائيليين ، بل زعموا ان الأكراد من أقربائهم كذلك ، وانهم من نسل ربيعة بن نزار بن بكر بن وائل ، أو انهم من نسل ربيعة بن نزار بن معد ، أو انهم من نسل مضر بن نزار ، أو من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن ، وانهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع ودماء كانت بينهم وبين غسان ، وانهم اعتصموا بالجبال فحادوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم ، وصارت لغتهم أعجمية ، فذلك على رأي أهل الأخبار بدء نسب الأكراد[2] .

وقد لقي هذا النسب الجديد للأكراد تشجيعاً من بعض الأكراد في ايام العباسيين ، وربما في أيام أواخر الدولة الأموية كذلك ، فأيدوه وانقسموا أيضاً فرقاً في شجرات النسب ، فنهم من أخذ بشجرة كرد بن مرد، ومنهم من أخذ بانتسابهم الى سبيع بن هوازن، ومنهم من انتسب الى ربيعة ثم الى بكر بن وائل[3] .

وكان من الطبيعي أن يجعل القحطانيون أعداء الفرس من ذوي أرحامهم، وهم اليونان فقالوا : إن يونان أخ لقحطان ، وإنه من ولد عابر بن شالخ ، وإنه خرج من أرض اليمن في جماعة من ولده وأهله ومن انضاف الى جملته حتى وافى أقاصي بلاد المغرب فأقام هناك ، وانسل في تلك الديار ، واستعجم لسانه ووازى من كان هناك في اللغة الأعجمية من الافرنجة ، فزالت نسبته ، وانقطع نسبه وصار منسياً في ديار اليمن . وقالوا أيضاً إن الاسكندر من تبع[4] . وكان من الطبيعي انزعاج العدنانيين من ربط نسب قحطان بيونان ، فانبروا للرد عليه، وكيف يرضون أن يكون للقحطانيين أبناء عمّ على شاكلة اليونانيين ، وقد

---

١ التنبيه (ص ٩٤) .

٢ مروج الذهب (٣٠٧/١ فما بعدها) التنبيه (ص ٧٨) .

٣ التنبيه والاشراف (ص ٧٨) .

٤ مروج الذهب (١٧٨/١) (وقد ذكر ان يونان اخو قحطان . . . وقد كان يعقوب ابن اسحاق الكندي يذهب في نسب يونان الى ما ذكرنا) .

كانوا أمهر من الفرس ، ولهم دولة كبرى . فقال أحدهم ، وهو أبو العباس الناشيء :

وتخلط يوناناً بقحطان ضلّةً لعَمْري لقد باعدت بينهما جِداً[1]

وأضاف القحطانيون الأتراك اليهم أيضاً ، فزعموا أن معظم أجناس الترك وهم (التبت) من حمير ، وأن التبع (شمر يرعش) أو تبعاً آخر ربتهم هناك، وأن (شمر يرعش) هو الذي أمر ببناء (سمرقند) ، الى غير ذلك من أقوال لا ترضي العدنانيين بالطبع ، وفي ذلك يقول (دِعبِل بن علي الخُزاعي) في قصيدته التي يردّ بها على (الكميت) ، وفخر فيها بمن سلف من ملوكهم وسير في الأرض،وان لهم من الفضل ما ليس لمعدّ بن عدنان ، فقال في شعره:

هم كتبوا الكتاب بباب مَروٍ وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم جمعوا الجموع بسمرقندٍ وهم غرسوا هناك التبتينا[2]

وأضافوا (الضحّاك) اليهم ، وصيروه من (الأزد) ، والأزد من اليمن، فهو يماني إذن أصيل[3] . و (الضحّاك) هو (بيوراسب) عند أهل الأخبار . وقد ملكوه الف سنة . وهو بطل أسطوري عند الفرس[4] . وقد أخذ أهل الأخبار (ضحّاكهم) هذا من (إسحاق) ، كما أخذ العدنانيون (ويزكهم) من (إسحاق) فصيروه (منشخر) على نحو ما ذكرت . وقد قلت إنّ معنى (إسحاق) في العبرانيــة الضحّاك . فالقحطانيون فعلوا هذا فعل العدنانيين ، لجأوا الى اسحاق فصيروه (الضحّاك) ، وبدلاً من أن يقولوا إنه (ويزك) من اسم (إسحاق) في العبرانية أخذوا معنى الاسم فصيروه اسماً عربياً هو الضحاك. وجعلوه قحطانياً من الأزد .

وكان كل فريق يرد على مزاعم الفريق الآخر ، حين يضيف اليه أمة من الأمم . فلما ادعى العدنانيون انهم هم والاسرائيليون والأعاجم من نسب واحد ،

---

١ مروج الذهب (١٧٨/١) ، ابن خلدون (١٨٤/٢) .
٢ مروج الذهب (٣٠٠/١) .
٣ مروج الذهب (ص ٧٦) .
٤ التنبيه (ص ٧٥) .

انبرى (دعبل الخزاعي) يرد عليهم في قصيدة ساخرة يقول فيها :

فان يك آل اسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنسَ الخنازير اللواتي مسخن مع القرود الخاسئينا
بأيلة والخليج لهم رسوم وآثار قدمن وما محينا
لقد علمت نزار ان قومي الى نصر النبوة فاخرينا

قال هذه القصيدة في الرد على (الكميت) ، وهو لسان من ألسنة النزارية، وقد تعرض فيها باليمانية وتهكم عليهم[1] .

حتى الموالي ، وهم كما نعلم من أصل غير عربي،أسهموا في هذه المعركة ، وحاربوا في الصفوف الأولى منها ، تعصب كل منهم للجانب الذي دخل في ولائه . هذا (أبو نواس) ، وهو مولى (بني حكم بن سعد العشيرة) ، يتعصب للقحطانية ويدافع بكل قواه عنها ، لأن (بني الحكم) من اليمن . وقد حمله تعصبه لهم على نظم قصيدة هجا فيها قبائل نزار بأسرها وافتخر بقحطان وقبائلها ، وقد أوجعت النزاريين وآلمتهم ، فشكوه الى الخليفة الرشيد،وهو منهم، فأمر بحبسه بسببها ، وقيل انه حده لأجلها ، وأولها :

لست لدار عفت وغيّرها ضربان من قطرها وحاصبها

ثم قال مفتخراً باليمن وذاكراً للضحاك :

فنحن أرباب ناعظ ولنا صنعاء والمسك في محاربها
وكان منا الضحاك يعبده الـ ـخابل والطير في مساربها

ثم يستمر فيقول في هجاء نزار :

واهج نزارا وافرِ جلدتها وكشّف السّر عن مثالبها[2]

وأثارت هذه القصيدة جماعة من النزارية ، فردت عليه . وكان منهم رجل

---

١ مروج (١/٣٠٠) .
٢ التنبيه (ص ٧٦ فما بعدها) .

من (بني ربيعة بن نزار) ، فقال يذكر نزاراً ومناقبها ، واليمن ومثالبها في قصيدة أولها :

دع مدح دار خبا وانتهى عهد معدّ بزعم عاتبها

ثم استمر ، فقال :

فامدح معداً وافخر بمنصبها الـ ـعالي على الناس في مناصبها
وهتك السترّ عن ذوي يمن أولاد قحطان غير هائبها[١]

وقد أنتج هذا النزاع القحطاني العدناني قصصاً وحكايات وشعراً دُوّن في الكتب ، وأنتج (حديثاً) زعم أن قائله هو الرسول ، قاله في مدح قحطان أو في مدح عدنان ، وأحياناً في مدح القبائل ، مثل : حمير ومذحج وهمدان وغسّان ، وقبائل أخرى أو في مدح بيوتات معينة من مثل هذه القبائل .

لقد تلوّن هذا النزاع بلون أدبي زاهٍ لا يخلو من طرافة وإن كان قد أساء من الناحية السياسية الى هذه الأمة أيما اساءة . فقد لوّن اليمانون تأريخهم القديم بألوان زاهية جميلة من القصص والحكايات والأخبار ، فهم الذين زعموا أن قحطان هو ابن هود النبي ، فأوصلوا نسبهم بالأنبياء ، وهم الذين أوصلوا نسب قحطان الى إسماعيل ، فنفوا بذلك أي فضل كان للعدنانيين على القحطانيين في الآباء والأجداد ، وهم المسؤولون عن هذا التقسيم المشهور المعروف للعرب وجعل القحطانيين في الطبقة الأولى من العربية بالنسبة الى العدنانيين ، وهم الذين نظموا في الإسلام تلك الأشعار والقصائد التي ذكرها الرواة على أنها من نظم التبابعة وملوك القحطانيين ، وهم الذين ساقوا تلك الحكايات عن الفتوحات العظيمة لملوك اليمن وعن حكم القحطانيين للعدنانيين واستذلالهم إياهم .

وقد استغل العدنانيون ظهور الرسول بينهم ، فاتخذوا من هذا الشرف ذريعة للتفاخر والتباهي على القحطانيين . وقد أجابهم اليمانون على ذلك بأنهم هم الذين كان لهم شرف نصرة الرسول وإعلاء كلمة الله ، وهم الذين كوّنوا مادة الجيش الإسلامي ، وهم الذين آووا الرسول وفتحوا مكة . وتمسك العدنانيون بأذيال

١ التنبيه (ص ٧٧) .

إبراهيم وعدّوه جدهم الخاص بهم ، مع أنه جدّ العرب عامة ، كما في القرآن الكريم ، ونفوا كل مشاركة للقحطانيين في هذا النسب الشريف. وقد كان لهم ما يساعدهم في تقوية حجتهم ، فقد كان الرسول من صلب اسماعيل والرسول منهم،فابراهيم هو أبو المختص بهم. ولرد دعوى الإسماعيليين هذه من اختصاص إسماعيل وابراهيم بهم . وصل بعض رواتهم نسب قحطان بإسماعيل وإبراهيم ، ولم يكتفوا بذلك فلا بد لهم من شرف زائد ، ورجحان على العدنانيين الذين لم يبدأ ملكهم إلا في الإسلام ، فاختصوا هوداً بهم ، وجعلوه نبياً يمانياً . ثم لم يقبلوا بنبي واحد زيادة على الأنبياء الذين اختص بهم العدنانيون فأضافوا اليهم صالحاً النبي وقالوا : إنه من صميم حمير وإنه صالح بن الهميع بن ذي ماذن نبي حمير من آل ذي رعين ، وزعموا أن ثقفياً كان غلاماً له [1] ، وحصلوا بذلك على نبي وطعنوا في ثقيف ، وهم من العدنانيين في الوقت نفسه ، وأضافوا اليهم نبياً آخر من صميم حمير سموه أسعد تبع الكامل بن ملكي كرب بن تبع الأكبر ابن تبع الأقرن ، وقالوا إنه ذو القرنين الذي قال الله تعالى فيه : (أهم خيرٌ أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين)[2] . وذكروا أنه كان من أعظم التبابعة وأفصح شعراء العرب ، ولذلك قال بعض العلماء فيه ذهب ملك تبع بشعره ، ولولا ذلك لما قدم عليه شاعر من العرب وقالوا : نهى النبي عن سبّه ، لأنه آمن به قبل ظهوره بسبع مئة عام ، وليس ذلك إلا بوحي من الله عز وجلّ . وهو أول من كسا البيت ، وجعل له مفتاحاً من ذهب . وأوردوا له أشعاراً لاثبات ايمانه بالرسول تمنى فيها لو أدرك ايامه إذن لآمن به ، ولكان له وزيراً وابن عم ، ولألزم طاعته كل من على الأرض من عرب وعجم ، ورووا له أبياتاً في البيت الحرام ، وكيف كان يقصده فيمكث فيه تسعة أشهر ، وكيف كان ينحر في العام سبعين ألفاً من البدن [3] .

وزعموا فوق هذا كله أنه تنبأ بعودة ملك حمير حيث يظهر المهدي منهم ، وهو رجل حميري سبئي الأبوين ، يعيد الملك الى حمير بالعدل ، في هذه الأبيات التي رواها عُبَيْد بن شَرْيَةَ الجُرهمي :

---

١ منتخبات (ص ٦٢) .
٢ منتخبات (ص ١٣) .
٣ منتخبات (ص ١٣)

ومن العجائب أن حمـ ـير سوف تعلى بالقهور
ويسودها أهل المـوا شي من نضير أو نضير

يعني النضر بن كنانة ، وهو قريش :

ويثيرها المنصور من جنبي أزال كالصقور
وهو الإمام المرتجى المـ ـذكور من قدم الدهور

وأنه قال :

بمنصور حمير المرتجى يعود من الملك ما قد ذهب
ويرجع بالعدل سلطانها على الناس في عجمها والعرب

وقالو ان المنصور هو لقب القائم المنتظر الذي سيظهر ليعيد ملك حمير المسلوب[1] .

وذكروا انه كان في جملة ما قاله من شعر قوله :

واعلم بنيّ بأن كل قبيلة ستذل ان نهضت لها قحطان[2]

الى غير ذلك من أشعار نسبت اليه والى غيره من التبابعة تتحدث عن حقد القحطانيين على العدنانيين ، وعن ألمهم الشديد لفراق ملكهم وانتقال الحكم منهم الى المكيين ، وقد كانوا من أتباعهم بالأمس . فعللوا أنفسهم بالتحدث عن الماضي ، ثم صبروا أنفسهم بالحديث عن ملك سيعود ، وعن دولة ستأتي ، وعن مهدي يأخذ بالثأر ، كالذي يفعله المغلوبون . وجعلوا ذا القرنين الذي ورد اسمه في سورة الكهف منهم[3] ، فقالوا : هو الهميسع بن عمرو بن زيد ابن كهلان ، أو الصعب بن عبدالله بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر ، أو تبع الأكبر بن تبع الأقرن ، أو تبع الأقرن ، وكان مؤمناً عالماً عادلاً ، ملك جميع الأرض وطافها ، ومات في شمال بلاد الروم حيث يكون النهار ليلاً اذا انتهت الشمس الى برج الجدي . وقد كان يقول الشعر ، وهو الذي بشر

---

١ منتخبات (ص ١٠٣) .
٢ منتخبات (ص ٨٣) .
٣ سورة الكهف : ١٨ ، الاية ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٤ .

بالنبي في شعره ، وطبيعي أن يكون واضعو هذه الأشعار أناساً من الأنصار ومن بقية فروع قحطان[1] .

وتعلق متعصبو اليمانية بالأبنية الفخمة وبالمدن الكبرى ، فجعلوها من أبنية ملوكهم أو من أبنية أسلافهم العرب العاربة . وقد ذكر المسعودي ان من اليمانية من يرى أن الهرمين اللذين في الجانب الغربي من فُسطاط مصر ، هما قبرا (شداد بن عاد وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر في قديم الدهر ، وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم)[2] . ونسبوا لملوكهم الفتوحات الفخمة في الشرق والغرب .

وأضافوا اليهم لقمان الحكيم ، زعموا انه لقمان الحميري ، وقالوا انه كان حكيماً عالماً بعلم الأبدان والأزمان ، وهو الذي وقّت المواقيت ، وسمّى الشهور بأسماء مواقيتها . وزعموا أن ياسر ينعم ملك بعد سليمان بن داوود ، وسمي ينعم ، لأنه ردّ الملك الى حمير بعد ذهابه ، وان الضحاك ملك من الأزد كان في وقت ابراهيم لنصره . وبذلك كانت للقحطانيين منة قديمة على ابراهيم وعلى العدنانيين بصورة خاصة . وقالوا أشياء أخرى كثيرة ، قد يخرجنا ذكرها من صلب هذا الموضوع من أعمال وفتوحات لشمر يرعش وغيره من التبابعة[3] .

وقد لوّن العدنانيون تأريخهم ، واستعانوا بالشعر ، فوضعوا منه ما شاءوا في الرد على القحطانيين . قال ابن سلام « نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية ، فاستكثرت منه في الإسلام »[4] ، وعقبوا على الروايات القحطانية . فلما ادعى اليمانون مثلاً ان تبعهم (أبا كرب) فتح العراق والشام والحجاز ، وانه امتلك البيت الحرام ، ونكل بالعدنانيين شر تنكيل ، وانه قال شعراً،منه :

---

١ قال النعمان بن بشير :

فمن ذا يفاخرنا من الناس معشر كرام فذو القرنين منا وحاتم
ونحن بنينا سد يأجوج فاستوى بايماننا ، هل يهدم السد هادم ؟

وقال لبيد :

والصعب ذو القرنين اصبح ثاويا بالحنو في جدث هناك مقيم

منتخبات (ص ٦١ ، ٨٤ فما بعدها) .

٢ التنبيه (ص ١٨) .

٣ منتخبات (ص ٥٦ ، ٦٥)

٤ في الادب الجاهلي (ص ١٢٣) .

لست بالتبع اليماني إن لم تركض الخيل في سواد العراق
أو تؤدي ربيعة الخرج قسراً أو تعقني عوائق العواق

قال العدنانيون : نعم ، وقد كانت بين تبع هذا وقبائل نزار بن معد وقائع وحروب ، واجتمعت عليه معد من ربيعة ومضر وإياد وأنمار ، فانتصرت عليه، وأخذت الثأر منه ، وفي ذلك قال أبو دُوّاد الإيادي :

ضربنا على تبّع حربه حبال البرود وخرج الذهب
وولى أبو كرب هارباً وكان جباناً كثير الرهب
وأتبعته فهوى للجبين وكان العزيز بها من غلب[1]

إلى غير ذلك من القصص والحكايات التي وضعها الرواة في صدر الإسلام حين احتدم الخلاف بين الأنصار وقريش ، سجلت في الكتب ، ورويت للناس، وانتشرت بينهم على أنها أمور واقعية ، وان العرب كانوا من أصلين : قحطان وعدنان .

وقد كان لكل فريق رواة وأهل أخبار يقصون على الناس قصصاً وأخباراً في أخبار النزاع القحطاني العدناني . فوضع (عُبيد بن شَرية الجُرهمي) كثيراً من القصص والأشعار عن العرب الأولى وعن القحطانيين ، وضع ذلك لمعاوية ابن أبي سفيان ، وكان معاوية مغرماً بسماع أساطير الأولين وأخبار الماضين ، كما سبق أن أشرت الى ذلك .

ووضع (يزيد بن ربيعة بن مفرغ) المتوفى سنة (٦٩) للهجرة ، وهو شاعر متعصب لليمن ، قصص (تبع)[2] . جاء في كتاب الأغاني : « سئل الأصمعي عن شعر تبع وقصته ومن وضعها ، فقال : ابن مفرغ . وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيره الى الشام وتخلصه من عبيدالله بن زياد ، أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين ، وزعم أنه من حمير ، ووضع سيرة تبع وأشعاره . وكان النمر بن قاسط يدعي أنه منهم »[3] .

---

١ مروج الذهب (١/٣٠٠) .
٢ Muh. Stud. Bd. I,S. 97.
٣ الاغاني (١٧/٥٢) .

وظهرت كتب ضمت أخبار التابعة وقصصهم ، أشار اليها المسعودي ، دعاها بـ (كتب التابعة)[1] : وقد وقف عليها ونقل منها ، وهي كما يظهر من نقله ومن نقل غيره منها من هذه الأساطير المنسوبة الى عبيد ووهب ويزيد ابن المفرغ وأمثالهم من أصحاب القصص والأساطير .

وكان بين العدنانيين والقحطانيين جدل وكلام في لغة (اسماعيل) ، فاليمانيون ومنهم (الهيثم بن عدي الطائي) كانوا يرون أن لسان (إسماعيل) الأول هو اللسان السرياني ، ولم يكن يعرف العربية . فلما جاء الى مكة وتصاهر مع جرهم، أخذ لسانهم وتكلم به ، فصار عربياً . أما النزارية ، فكانت تنفي ذلك نفياً قاطعاً ، وترده رداً شديداً ، وتقول لو كان الحال كما تزعمون : (لوجب أن تكون لغته موافقة للغة جرهم أو لغيرها ممن نزل مكة . وقد وجدنا قحطان سرياني اللسان ، وولده يعرب بخلاف لسانه . وليست منزلة يعرب عند الله أعلى من منزلة إسماعيل ، ولا منزلة قحطان أعلى من منزلة ابراهيم ، فأعطاه فضيلة اللسان العربي التي أعطيها يعرب بن قحطان)[2].فنفوا النزاربة العربية عن قحطان أيضاً وصيروه كإسماعيل سرياني اللسان .

وقد عقب (المسعودي) على هذا النزاع النزاري القحطاني بقوله : « ولولد نزار وولد قحطان خطب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتي عليها كتابنا هذا في التنازع والتفاخر بالأنبياء والملوك وغير ذلك مما قد أتينا على ذكر جمل من حجاجهم وما أدلى به كل فريق منهم ممن سلف وخلف »[3]. ونجد جملاً كثيرة من هذا النوع مبثوثة في كتابيه : مروج الذهب ، والتنبيه والاشراف ، تتحدث عن ذلك النزاع المرّ المؤسف الذي وقع بين العرب في تلك الأيام .

ولعل هذه العصبية الجاهلية ، هي التي حملت جماعة من المتكلمين منهم (ضرار بن عمرو بن ثمامة بن الأشرس) و (عمرو بن بحر الجاحظ) على الرغم ان (النبط) خير من العرب ، لأن الرسول منهم ، ففضلوهم بذلك على العدنانيين والقحطانيين . وهو قول رد العدنانيون والقحطانيون عليه[4] . قال به

---

١ مروج الذهب (٢٧٩) .
٢ مروج الذهب (٢٧٧/١) .
٣ مروج الذهب (٢٧٧/١) .
٤ مروج الذهب (٢٦٦/١ فما بعدها) .

المتكلمون متأثرين بآراء أهل الكتاب في أنساب أبناء إسماعيل وبآرائهم الاعتزالية التي تكره التعصب في مثل هـذه الأمور . وقد ذكر (المسعودي) شيئاً من الرد الذي وضعه القحطانيون والعدنانيون ضد هؤلاء .

العرب العاربة والعرب المستعربة :

أما مصطلح (العرب العاربة) و (العرب المستعربة) ، فهما على ما يتبين من روايات علماء اللغة والأخبار من المصطلحات القديمة التي تعود الى الجاهلية ، ولكننا لو درسنا تلك الروايات خرجنا منها ، ونحن على يقين بأن الجاهليين لم يطلقونهما بالمعنى الذي ذهب اليه الإسلاميون ، بل قصدوا بهما القبائل البعيدة عن أرض الحضارة ، والقبائل القريبة منها ، فقد عرفت القبائل النازلة ببلاد الشام والساكنة في أطراف الإمبراطورية البيزنطية بـ (المستعربة) . و (المستعربة) مصطلح أطلق على هذه القبائل وعلى القبائل النازلة في سيف العراق من حدود نهر الفرات الى بادية الشام ، فهو يشمل إذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القوس الذي يحيط بحدود الامبراطوريتين . ومن المستعربة غسان وإياد وتنوخ[1] . وقد فضلت غالبية هذه المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع قريبة من البوادي والصحارى ، عرفت عندهم بـ (الحاضر) ، فكان في أكثر مدن بلاد الشام حاضر يقيم به العرب من تنوخ ومن غير تنوخ[2] .

وقد وجدت في تأريخ الطبري خبراً زعم انه جرى بين (خالد بن الوليد) ، وبين (عدي بن عدي بن زيد العبادي) ، يفهم منه أن العرب : عرب عاربة وأخرى متعربة . وقد جرى بينهما على هذا النحو : (قال خالد : ويحكم : ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم ، فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة . فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عدي : ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان الا بالعربية)[3] . فيفهم من هذا الحديث ان العرب : عرب عاربة وعرب متعربة . وهم أناس تعربوا فصاروا عرباً . وهو كلام معقول

١ البلاذري (١٧١) .
٢ البلاذري (١٨٠) ، و (الحاضر : الحي العظيم او القوم ... حاضرطيء) ، تاج العروس (٣/١٤٨) .
٣ الطبري (٣/٣٦١) .

مقبول ، ولا سيما بالنسبة الى الحيرة والعراق وبلاد الشام ، حيث تعرب فيها كثير ممن لم يكن عربياً في الأصل فصاروا عرباً ، لسانهم لسان العرب . ولا يفهم من هذا الكلام بالطبع تقسيم العرب بالمعنى المفهوم عند أهل الأخبار والتأريخ ، أي عرب قحطانيون وعرب عدنانيون . وكل ما قصد به ان صح ان هذا الكلام هو كلام (خالد) وكلام (عدي) حقاً تعنيف وتأنيب لعدي بن عدي بن زيد على وقوفه هو وقومه وأهل الحيرة موقفاً معادياً للمسلمين ، وتأييدهم للفرس ولدفاعهم عنهم ، مع انهم عجم بعيدون عنهم . فكأنه قال لهم : لو كنتم عرباً فكيف تؤيدون عجماً علينا ونحن عرب ؟ و (عدي) من العرب ، وأبوه من تميم كما يقول النسابون . فهو ليس من العرب الأخرى المتعربة ، ولكن من العرب العاربة ، أي عرب بالأصالة ، كما أن خالداً نفسه من العرب العاربة ، لأنه عربي أصلاً وان كان عدنانياً . فلم يقصد بالعرب العاربة هنا العرب القحطانيين ، ولا بالعرب المتعربة العرب العدنانيين . فالعرب المتعربة اذن هم المتعربون من أهل الحيرة وغيرهم ، ممن كانوا من النبط وبني إرم أو غيرهم ثم دخلوا بين العرب ولحقوا بهم ، فصار لسانهم لساناً عربياً مثل العرب الآخرين وتعربوا بذلك .

ويلاحظ ان (غسان) قد أدخلت في (المستعربة) ، مع انها من العرب العاربة ، أي من العرب القحطانيين في عرف النسابين . وفي ذلك دلالة على ان مدلول العرب العاربة والعرب المستعربة لم يكن في الجاهلية وفي صدر الإسلام بالمعنى الذي صار عليه عند علماء النسب وأهل الأخبار ، وان تخصيص العرب العاربة بالقبائل التي ترجع نفسها الى اليمن ، والعرب المستعربة بالقبائل التي يرجعون نسبها الى عدنان ، قد وقع من النسابين في أيام الأمويين فما بعد .

الفصل الثاني عشر

طبقات القبائل

ورتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب ، هي : شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر ، والعمارة مثل قريش وكنانة ، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ومثل بني هاشم وبني أميـة ، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس[1] . وجعل (ابن الكلبي) مرتبة بين الفخذ والفصيلة ، هي مرتبة العشيرة ، وهي رهط الرجل[2] . وبنى (النويري) طبقات القبائل على عشر طبقات هي : الجِذْم ، والجماهير ، والشعوب ، والقبائـــل ، والعمائر ، والبطون ، والأفخـــاذ ، والعشائر ، والفصائـــل والأرهاط[3] . ورتب (نشوان ابن سعيد الحميري) القبائل على هذا النحو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الجيل ، ثم الفصيلة . وجعـل مضر مثال الشعب ، وكنانة مثال القبيلة ، وقريشاً مثال العمارة ، وفهراً مثال البطن ، وقُصَيّاً مثال الفخذ ، وهاشماً للجيل ، وآل العباس للفصيلة [4] .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٨٧ فما بعدها) ، اللسان (١٤/٥٧) ، (البطن دون القبيلة ، وقيل هو دون الفخذ وفوق العمارة) ، اللسان (١٦/١٩٩) ، الاكليل (١/٢٢) .
٢ العقد الفريد (٣/٢٨٣ فما بعدها) .
٣ نهاية الارب (٢/٢٦٢ فما بعدها) .
٤ منتخبات (ص ٥٥) .

وأكثر علماء النسب يقدمون الشعب على القبيلة ، والظاهر ان هذه الفكرة كانت قد اختمرت في رؤوس الجاهليين الذين عاشوا في الجاهلية القريبة من الإسلام حيث ظهرت عندهم الفكرة القومية بمعنى واسع ، وحيث نجد عندهم ظهور الكلمات التي تشير الى هذا المعنى ، مثل اطلاقهم العرب على العرب جميعاً اصطلاحاً ، وحيث أخذ الحس القومي يظهر بين القبائل بوجوب التكتل لمكافحة الغرباء ، كالذي حدث في معارك اليمن مع الحبش ، وفي معارك عرب العراق مع الفرس . وقد قدّم القرآن الكريم الشعوب على القبائل « وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لِتَعارفوا »[1] . فالشعوب هنا فوق القبائل وتعبر عن هذا المعنى الواسع الذي أتحدث عنه .

وزاد بعض العلماء الجذم ، بأن وضعوها قبل الشعب ، ووضعوا الفصيلة بعد العشيرة ، ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتبها آخرون على هذه الصورة : الجذم ، ثم الجمهور ، ثم الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم العشيرة ، ثم الفصيلة ، ثم الرهط ، ثم الأسرة ، ثم العترة ، ثم الذرية . وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة ، هي : البيت ، والحي ، والجماع .

والاختلاف الذي نراه من علماء النسب ، هو في الترتيب ، أي من حيث التقديم والتأخير ، وفي اضافة بعض المصطلحات أو في نقصها . أما من حيث العموم ، فإننا نجدهم يتفقون في الغالب،ولا يختلفون أبداً في أن القبائل والأنساب كانت على منازل ودرجات . ولا بد أن تكون أكثر هذه المصطلحات مصطلحات أهل الجاهلية القريبين من الإسلام . أما بالنسبة الى الجاهليين البعيدين عنه ، فلن يكون حكمنا عليهم علمياً إلا إذا أخذنا مصطلحاتهم من كتاباتهم . ولم نتمكن ويا للأسف من الحصول على مادة منها تفيدنا في هذا الباب . فليس لنا إلا الصبر والانتظار .

والقبيلة : الجماعة تنتمي الى نسب واحد[2] ، ويرجع ذلك النسب الى جدّ أعلى ، أو الى جدّة وهو في الأقل . ولا تزال اللفظة حية مستعملة يستعملها

---

١ الحجرات ، الرقم ٤٩ ، الاية ١٣ .
٢ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٤٠٠) .

العرب في كل مكان في المعنى الاصطلاحي المستعمل عند النسابين[1] .

والقبيلة هي المجتمع الأكبر بالنسبة الى أهل البادية ، فليس فوقها مجتمع عندهم . وهي في معنى (شعب) عندنا وفي مصطلحنا الحديث . وتتفرع من القبيلة فروع وأغصان ، هي دون القبيلة ، لأنها في منزلة الفروع من الشجرة : ثم اختلفوا في عدد الفروع المتفرعة من القبيلة ، فجعل بعضهم بعد القبيلة العمارة ثم البطن ، ثم الفخذ ثم الفصيلة[2] ، وجعل بعض آخر ما دون القبيلة : العمارة ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، وزاد بعض آخر قبل الشعب الجِذم، وبعد الفصيلة العشيرة . ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتب بعض النسابين طبقات النسب على هذا النحو : جذم ، ثم جمهور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ، ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد بعضهم في أثنائها ثلاثة ، وهي : البيت والحي ، والجماع[3] .

ويدل اختلاف النسابين في ضبط أسماء ما فوق القبيلة أو ما تحتها،واضطرابهم في الترتيب على أن هـذا الترتيب لم يكن ترتيباً جاهلياً أجمع الجاهليون عليه ، وإلا لما تباينوا هذا التباين فيه ، ولما اختلفوا هذا الاختلاف في سرده ، إنما هو ترتيب اجتهادي أخذه العلماء من أفواه الرواة ومن الأوضاع القبلية التي كانت سائدة في أيامهم ومن اجتهادهم أنفسهم ، فرتبوها على وفق ذلك الاجتهاد .

وأكثر هذه المصطلحات لم ترد لا في الكتابات الجاهلية ولا في الشعر المنسوب الى الجاهليين ، لذلك يصعب على الانسان أن يبدي رأياً علمياً مقبولاً فيهـا ، وأعتقد أن خير ما يمكن فعله في هـذا الباب هو استنطاق الكتابات الجاهلية وتفلية الشعر الجاهلي للبحث عما فيه من مصطلحات تتعلق بالنظم القبلية ، وعندئذ نتمكن من تكوين رأي قريب من الصواب والصحة في هذا الموضوع .

ومن أجل ذلك قال (روبرتسن سمث) ان البطن والحي هما أساس أقـدم أشكال المجتمعات السياسية عند الساميين .

---

١ Naval, P. 403.

٢ بلوغ الارب (١٨٨/٣) .

٣ بلوغ الارب (١٨٨/٣) .

كما استدل من أسماء بعض القبائل التي تحمل أسماء بعض الحيوانات ، مثل : بني أسد ، وبني كلب ، وبني بدن ، وبني ثعلب ، وبني ثور ، وبني بكر، وبني ضب ، وبني غراب ، وبني فهد ، وما شاكل ذلك من أسماء جماعة من القبائل ، وبعضها عمائر ، وبعضها بطون أو فصائل على وجود (الطوطمية) عند العرب ، وعلى أن هذه الأسماء هي من ذكريات (الطوطمية) القديمة .

وقد تأثر بنظريته هذه جماعة من العلماء . وعدّ بعض العلماء نظرية (الطوطمية) مفتاحاً يوصل الى حل كثير من المسائل الغامضة من تأريخ البشرية القديم .

هذا وقد رجع (ابن حزم) جميع قبائل العرب الى أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعتق ، وغسان ، فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وقد نص غيره من أهل النسب على أن تنوخاً اسم لعشر قبائل، اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسموا تنوخاً . وذكر بعض آخر ان غسان عدة بطون من الأزد ، نزلت على ماء يسمى غسان ، فسميت به . فترى من هنا ان تنوخاً والأزد حلف في الأصل ، وقد صار مع ذلك نسباً عند كثير من أهل الأخبار في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادة القبائل ، أصبحت من أهم العوائق في تكوين الحكومات المدنية الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية قبل الإسلام .

وينطبق ما قلته عن تنظيم القبيلة وبناء الأنساب عليه على أهل الحضر أيضاً . فالحضر ، ولا سيما حضر الحجاز ، وان استقروا وأقاموا غير أنهم لم يتمكنوا من ترك النظم البدوية الاجتماعية القائمة على مراعاة قواعد النسب وفقاً للتقسيمات المذكورة . وهي تقسيمات أوجدتها طبيعة الحياة في البادية ، تلك الحياة الشحيحة التي لا تتحمل طاقاتها تقديم ما يحتاج اليه مجتمع كبير مستقر من مأكل وماء ، ولذلك اضطرت المجتمعات الكبرى ، وهي القبائل، على التشتت والانقسام والانتشار كتلاً تختلف درجات حجمها حسب طبيعة الأرض التي نزلت بها ، من حيث الكرم والبخل . ولما استقر بعض هؤلاء البدو وتحضروا في أماكن ثابتة مثل مكة ويثرب والطائف ، حافظوا على نظمهم الاجتماعية المذكورة الموروثة من حياة البادية ، وعاشوا في مدرهم أحياءً وشعاباً عيشة قائمة على أساس الروابط الدموية والنسب ، كما سأتحدث عن ذلك في الحياة الاجتماعية .

والنسب عند العرب ، هو نسب يقوم إذن على الطبقات المذكورة ، كما أن

الطبقات المذكورة قائمة على دعوى النسب ، فبين النسب وبناء المجتمع ، صلة وارتباط ، ولا يمكن فك أحدهما عن الآخر . ولهذا نجد شجرات الأنساب تتفرع وتورق وتزهر على هذا الأساس .

وأنا لا أستثني المجتمع العربي في الجنوب ، الذي تغلب عليه حياة الاستقرار والسكن والاستيطان من هذا التنظيم . فنحن وإن لم نتمكن حتى الآن من الحصول على كتابات كافية تقدم لنا صورة واضحة عن الأنساب وعن تنظيمات المجتمع عند المعينيين والسبئيين وغيرهم من العرب الجنوبيين ، غير أن في بعض الكتابات التي وصلت الينا اشارات تفيد وجود هذا التنظيم عند العرب الجنوبيين ..

والعرب الجنوبيون وإن غلبت عليهم حياة السكن والاستقرار ، غير أن زمانهم لم يتمكن من تحرير نفسه من قيود الحياة القبلية ، ولم يكن من الممكن بالنسبة لهم الابتعاد عن الاحتماء بالعصبية القبلية وبعرف القبيلة ، فالطبيعة اذ ذاك طبيعة حتمت على الناس التمسك بتلك النظم لحماية أنفسهم وللدفاع عن أموالهم حيث لا حق يحمي المرء غير حق العصبية القائم على أساس النسب والدم .

ويعبر عن القبيلة بلفظة (شعبم) و (شعبن) في العربيات الجنوبية . أي (قبيلة) و (القبيلة)[1] . أما لفظة (القبيلة) فلم أعثر على وجود لها في كتابات المسند . فلعلّها من الألفاظ الخاصة بأهل الحجاز ونجد . وأما ما دون (الشعب) ، أي القبيلة في اصطلاحنا، فلم أقف على مسمياتها بالنحو الذي يذكره أهل الأنساب. وإنما نجد العرب الجنوبيين يقسمون القبيلة الى أقسام ، مثل (ربعن) أي (ربع) و (ثلثن) أي ثلث . ويريدون بذلك ، ربع قبيلة وثلث قبيلة . وربما كانوا يقسمونها إلى أقسام أخرى ، لم تصل أسماؤها الينا ، ولعل الأيام ستزودنا بما كان العرب الجنوبيون يستعملونه من مصطلحات في النسب عندهم، وذلك قبل الإسلام بزمان طويل ، وبالمصطلحات التي كانوا يطلقونها على فروع القبيلة في تلك الأوقات .

وبينما نجد أهل الأنساب ينسبون أهل الوبر وأهل المدر الى أجداد ، عاشوا

---

١ راجع النصوص : ٣٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ من كتاب «نشر نقوش سامية قديمة» لخليل يحيى نامي .

وماتوا ، نجد المعينيين مثلاً . يستعملون جملة . (أولدهو ود)[١] . أي (أولاد ودّ) ، و (ودّ) هو إلـه شعب معين الأكبر . كما نجد السبئيين يطلقون على أنفسهم (ولد المقه)[٢] ، أي أولاد الإلـه (المقه). والمقه كما سنرى فيما بعد ، هو إلـه سبأ الأول . ونجد القتبانيين يدعون أنفسهم (ولد عم) ، أي أولاد عم[٣] . ومعنى هذا ، ان كل قبيلة من القبائل المذكورة،نسبت نفسها الى إلهها الخاص بها واحتمت به ، تماماً كما فعل العبرانيون وغيرهم ، إذ نسبوا أنفسهم الى إلـه قومي اعتبروه إلههم الخاص بهم ، المدافع عنهم ، والذي يرزقهم وينفعهم . وقد يعدّ هذا نسباً . أما نسب على النحو الذي يقصده ويريده أهل الأخبار ، أي جد عاش ومات وله أولاد وحفدة ، فهذا لم يصل خبره الينا في كتابات المسند ، بل في كل ما وصل الينا من كتابات جاهلية حتى الآن .

الأنساب :

وأقرب تفسير الى أنساب العرب في نظري هو ان النسب ، ليس بالشكل المفهوم المعروف من الكلمة ، وانما هو كناية عن (حلف) يجمع قبائل توحدت مصالحها ، واشتركت منافعها ، فاتفقت على عقد حلف فيما بينها ، فانضم بعضها الى بعض ، واحتمى الضعيف منها بالقوي ، وتولدت من المجموع قوة ووحدة، وبذلك حافظت تلك القبائل المتحالفة على مصالحها وحقوقها . قال البكري : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضاف القوي الضعيف ، انضم الذليل منهم الى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالّهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم » .

لقد حملت الضرورات قبائل جزيرة العرب على تكوين الأحلاف ، للمحافظة على الأمن وللدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول . واذا دام الحلف

---

١ Euting 57, Jaussen et Savignac, Mission, I, P. 255, Die Altarabische Kultur, I, S. 217.

٢ Glaser 1000 A.

٣ Glaser 1600, Die Altarabische Kultur, I, S. 217.

أمداً ، وبقيت هذه الرابطة التي جمعت شمل تلك القبائل متينة ، فإن هذه الرابطة تنتهي الى نسب ، حيث يشعر أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جد واحد ، وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة ، أو ما يدعو الى انفصال بعض قبائل الحلف ، فتنظم القبائل المنفصلة الى أحلاف أخرى، وهكذا نجد في جزيرة العرب أحلافاً تتكون ، وأحلافاً قديمة تنحل أو تضعف .

لم يكن في مقدور العشائر أو القبائل الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي ، يشد أزرها اذا هاجمتها قبيلة أخرى ، أو أرادت الأخذ بالثأر منها . لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف ، الا عدداً قليلاً من القبائل القوية الكثيرة العدد ، يذكر أهل الأخبار انها كانت تتفاخر لذلك بأنفسها ، لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها ، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف . ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن ، وقد تنزل القبائل على حلفائها ، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه للقبائل الكبيرة .

وقد عرفت مثل هذه الأحلاف عند سائر الشعوب السامية كالعبرانيين مثلاً ، وطالما انتهت كما انتهت عند العرب إلى نسب ، حيث يشعر المتحالفون انهم من أسرة واحدة يجمع بينهم نسب واحد . ويقال للحلف أيضاً (تحالف) ، وعند اليمانين (تكلع) .

ويرى (كولدتزيهر) انه لفهم الأنساب عند العرب ، لا بد من معرفة الأحلاف والتحالف فإنها أساس تكوّن أنساب القبائل ، فإن هذه الأحلاف التي تجمع شمل عدد من البطون والعشائر والقبائل هي التي تكوّن القبائل والأنساب ، كما ان تفكك الأحلاف وانحلالها يسبب تفكك الأنساب وتكوين أنساب جديدة ويرى أيضاً أن الدوافع التي تكوّن هذه الأحلاف لم تكن ناشئة عن حس داخلي بوجود قرابة وصلة رحم بين المتحالفين وشعور بوعي قومي ، بل كانت ناشئة عن المصالح الخاصة التي تهم العشيرة كالحماية والأخذ بالثأر وتأمين المعيشة. ولذا نجد الضعيف منها يفتش عن حليف قوي، فانضمت (كعب) مثلاً الى (بني مازن) وهم أقوى من (كعب) ، وانضمت (خزاعة) الى (بني مدلج) ، كما تحالفت (بنو عامر) مع (اياد) وأمثلة أخرى عديدة . ولما كانت المصالح الخاصة هي العامل الفعال في تأليف الأحلاف ، كان أمد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح . وقد تعقد الأحلاف لتنفيذ شروط اتفق عليها ، فمتى نفذت

أو تلكأ أحد الطرفين في التنفيذ انحل الحلف . وتعد هذه الناحية من النواحي الضعيفة في التأريخ العربي ، فإن تفكير القبائل لم يكن يتجاوز عند عقدهم هذه الأحلاف مصالح العشائر أو القبائل الخاصة ، لذلك نجدها تتألف للمسائل المحلية التي تخص القبائل ، ولم تكن موجهة للدفاع عن جزيرة العرب ولمقاولة أعداء العرب . ولا يمكن أن نطلب من نظام يقوم على العصبية القبلية أن يفعل غير ذلك . فإن وطن القبيلة ضيق بضيق الأرض التي تنزل فيها ، فإذا ارتحلت عنها ونزلت في أرض جديدة، كانت الأرض الجديدة المواطن الجديد الذي تبالغ القبيلة في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادة القبائل ، أصبحت من أهم العوائق في تكوين الحكومات المدنية الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية قبل الإسلام .

خذ اختلاف النسابين في نسب بعض القبائل وتشككهم فيه ، فإنه في الواقع دليل قوي يؤيد هذا الرأي، فقد اختلف في نسب (أنمار) مثلاً . فنهم من عدّها من ولد (نزار) ، ومنهم من أضافها الى اليمن . والذين يضيفونها الى (نزار) يقولون ان انماراً من نزار ، وأنمار هو شقيق ربيعة ومضر وإياد ، فهو أحد أبناء نزار . دخل نسله في اليمن ، فأضيفوا اليه ، ومن هنا حدث هذا الاختلاف . أما اليمانية ، فانهم يرون أن أنماراً هو منهم ، وقد كان أحد ولد (سبأ) العشرة . فهو عندهم شقيق لخم وجذام وعاملة وغسان وحمير والأزد ومذحج وكنانة والأشعرين ويرون أن بجيلة ، وخثعماً من أنمار. ويستدلون على ذلك بحديث ينسبونه الى الرسول .

وأما الذين يرجعون نسبه إلى (نزار) فيستدلون على نسبه هذا بحديث ينسبونه إلى الرسول أيضاً . وفي الجملة لا يهمنا هنا موضوع نسب (أنمار) أكان في اليمن أم كان في نزار ، وانما الذي يهمنا أن الأحلاف تؤثر تأثيراً كبيراً في نشوء النسب ، فلولا دخول أنمار في اليمن ونزولها بين قبائل يمانية ، لما دخل نسبها في اليمن . ولولا دخول أنمار في قبائل عدنانية وتحالفها معها لما عدها النسابون من نزار ، ولما عدّوا أنماراً ابناً من أبناء نزار الأربعة . فاختلاط (أنمار) في اليمن وفي نزار وترددها بين الجماعتين هو الذي أوقع النسابين في مشكلة نسبها .

وطالما دفعت الحروب القبائل المغلوبة على الخضوع لسيادة القبائل الغالبة وقد تتحالف معها وتدخل في جوارها، وإذا دام ذلك طويلاً ، فقد يتحول الحلف والجوار الى

نسب. ثم إن تقاتل القبائل بعضها مع بعض يؤدي أحياناً الى ارتحال بعض هذه القبائل المتقاتلة الى مواطن جديدة فتنزل بين قبائل أخرى ، وتعقد معها حلفاً وتجاورها ومتى طال ذلك صار نسباً ، كالذي ذكره أهل الأنساب من نزوح قبائل عدنانية الى اليمن بسبب تقاتلها بعضها مع بعض ، مما أدى الى دخول نسبها في اليمن، وكالذي ذكروه أيضاً من نزوح قبائل يمانية نحو الشمال واختلاطها بقبائل عدنانية مما أدى الى دخول نسبها في نسب تلك القبائل .

وتجد في كتب الأنساب والأخبار أمثلة كثيرة على اختلاط أنساب قبائل معروفة في عدنان وفي قحطان ، كما رأيت فعل السياسة في تكييف النسب في مصدر الاسلام وفي عهد الدولة الأموية وتنظيمه ، كما رأيت كيف أن بعض النسابين ينسبون قبيلة الى أب قحطاني على حين ينسبها بعض آخر الى أب عدناني ، وكيف أن نسابي القبيلة كانوا يرون رأياً آخر . وقد رأيت كيف أن بعضهم رجع نسب ثقيف الى (ثمود) بغضاً للحجاج الذي كان من ثقيف، ورأيت أيضاً اختلاف النسابين فيما بينهم في رسم شجرات الأنساب .

لقد وقع هذا الاختلاف لعوامل عديدة سياسية وجغرافية وعاطفية ، لا يدخل البحث فيها في هذا المكان .

هذا وقد رجع (ابن حزم) جميع قبائل العرب الى أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعتق ، وغسان ، فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وقد نص غيره من أهل النسب على ان تنوخاً اسم لعشر قبائل ، اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسموا تنوخاً . وذكر بعض آخر ان غسان عدة بطون من الأزد ، نزلت على ماء يسمى غسان ، فسميت به . فترى من هنا ان تنوخاً والأزد حلف في الأصل ، وقد صار مع ذلك نسباً عند كثير من أهل الأخبار .

وبين أجداد القبائل والأسر الذين يذكرهم أهل الأنساب ، أجداد كانوا أجداداً حقاً ، عاشوا وماتوا . وقد برزوا بغزواتهم وبقوة شخصياتهم ، وكونوا لقبائلهم وللقبائل المتحالفة معها أو التابعة لها مكانة بارزة ، جعلتها تفتخر بانتسابها اليهم ، حتى خلد ذلك الفخر على هيأة نسب . ونجد في كتب الأنساب أمثلة عديدة لهؤلاء .

(الطوطمية) ودور الأمومة عند العرب :

وقد لاحظ العلماء المحدثون ان بين أسماء القبائل ، أسماء هي أسماء حيوان أو نبات أو جماد أو أجرام فلكية . كما لاحظوا ان بين المصطلحات الواردة في النسب مصطلحات لها علاقة بالجسم وبالدم . وقد وجدوا ان بين هذه التسميات والمصطلحات وبين البحوث التي قاموا بها في موضوع دراسة المجتمعات البدائية صلة وعلاقة . وان للتسميات المذكورة صلة وثيقة بـ (الطوطمية) ؛ كما ان للمصطلحات صلة بما يسمى بـ (دور الأمومة) أو (زواج الأمومة)عند علماء الاجتماع .

والطوطمية نظرية وضعها (ماك لينان) (مكلينان) المتوفى سنة ١٨٨١م ، خلاصتها :

١ ـ ان الطوطمية دور مرّ على القبائل البدائية ، وهي لا تزال بين أكثر الشعوب اغراقاً في البدائية والعزلة .

٢ ـ ان قوامها اتخاذ القبيلة حيواناً أو نباتاً، كوكباً أو نجماً أو شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة أباً لها تعتقد انها متسلسلة منه وتسمى باسمه .

٣ ـ تعتقد تلك القبائل ان طوطمها يحميها ويدافع عنها ، أو هو على الأقل لا يؤذيها وان كان الأذى طبعه .

٤ ـ لذلك تقدس القبيلة طوطمها وتتقرب اليه وقد تتعبد له .

٥ ـ الزواج ممنوع بين أهل الطوطم الواحد ، ويذهبون إلى الزواج من قبائل غريبة عن قبيلة الطوطم المذكور . وهو ما يعبر عنه بـ (Exogamy) في اللغة الانكليزية . اذ يعتقدون ان التزاوج من بين أفراد القبيلة الواحدة ذو ضرر بالغ ، ومهلك للقبيلة ، لذلك يتزوج رجال القبيلة نساءً من قبيلة أخرى غريبة ، لا ترتبط بطوطم هذه القبيلة، والمخالف لهذه القاعدة ، أي الذي يتزوج امرأة من قبيلته يعرض نفسه للعقوبات قد تصل الى الحكم عليه بالموت .

٦ ـ الأبوة غير معروفة عند أهل الطوطم، ومرجع النسب عندهم إلى الأم .

٧ ـ لا عبرة عندهم إلى العائلة ، والقرابة هي قرابة الطوطم ، فأهل الطوطم الواحد اخوة واخوات يجمعهم دم واحد[١] .

---

١ من كتاب جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي (٢٤٤/٣ وما بعدها)

والطوطمية (Totemism) ، لفظة أخذت من كلمة (Ototemom) ، وهي من كلمات قبيلة (Ojibwa) من قبائل هنود أمريكا [1] . اشتق منها (لانك) (J. Lang) كلمة (توتم) (Totem) ،ومنها أخذ اصطلاح (طوطمية) (توتميسم) (Totemism) [2] الذي يعني اعتقاد جماعة بوجود صلة لهـم بحيوان أو حيوانات تكون في نظرها مقدسة ، ولذلك لا يجوز صيدها أو ذبحها أو قتلها أو أكلها أو إلحاق أذى بها [3] . وتشمل الطوطمية النباتات كذلك ، فلا يجوز لأفراد الجماعة التي تقدسها قطعها أو إلحاق الأذى بها . وقد يتوسع بها فتشمل بعض مظاهـر الطبيعة مثل المطر والنجوم والكواكب[4] .

وهم يؤمنون بأن (الطوطم) لا يؤذي أتباعه . فلا يخافون منه ، حتى وإن كان من الحيوانات المؤذية ، الـتي تلحق الأذى بالإنسان ، كالحية أو العقرب أو الذئب . وهم يعتقدون أيضاً أنـه يدفع عنهم ، وأنه ينذر أتباعه إن أحس بقرب وقوع خطر على أتباعه ، وذلك بعلامات واشارات على نحو ما يقـال له الزجر والطيرة والفأل .

وهم يتقربون الى طوطمهم ، محاولة منهم في كسب رضـاه ، فيقلدونه في شكله ومظهره ، وقد يلبسوا جلده أو جزءاً من جلده ، أو يعلقون جزءاً منه في أعناقهم أو أذرعهم عـلى نحو من التعاويذ . لأنه يحميهم بذلك ويمنع عنهم كل سوء . كما يحتفلون به وبالمناسبات مثل مناسبات الولادة أو الزواج أو الوفاة بنقش رمز الطوطم على ظهر المولود ، أو دهن الجسم بدهن مقدس من دهان ذلك الطوطم الى آخر ما هنالك من أعراف وتقاليد[5].

ويؤلف المعتقدون بالطوطم جماعة تشعر بوجود روابط دموية بين أفرادها ، أي بوجود صلة رحم بينها . والرابط بينها هو ذلك الطوطم الذي تنتمي الجماعة اليه وتلتف حوله ، ليكون حاميها والمدافع عنها في الملمات . ومن أصحاب هذا المذهب من لا يذكر اسم الطوطم ، بل يُكنى عنه . ويجوز أن يكون ذلك خوفاً

---

١ Enc. Reli. Vol. 9, P. 454, Peter Jones, History of the Ojibwa Indians, London, 1961, Enc. Reli. Vol. 12, P. 393.

٢ Voyages and Travels of an Indian Interpreter and Trader, London, 1791.

٣ Lang, Voyages, P. 87, Wesleyen, Journals of Two Expeditions of Discovery in N.W. and W. Australia, London, 1841, 11, 225, f. 391.

٤ Enc. Reli. Vol. 12, P. 394.

٥ التمدن الاسلامي (٣/٢٤٢ وما بعدها) .

منه ، أو احتراماً له . وقد يرسم له شعار تحمله الجماعة وأفرادها . ولها قوانين وآراء في موضوع الزواج الذي تترتب عليه قضية القرابة وصلات الرحم[١] .

وللعلماء نظريات وآراء في الطوطمية . وهي منصبّة على دراسة الناحية الاجتماعية منها ، من حيث كون « الطوطمية » نظاماً اجتماعياً يقوم على أساس مجتمع صغير مبني على العشيرة أو القبيلة . أما الدراسات الدينية للطوطمية ، فهي بعد هذه الدراسة من حيث التوسع والتبسط في الموضوع . وأكثر هذه الدراسات أيضاً عن قبائل هنود أمريكا الشمالية وعن قبائل اوستراليا ثم افريقية . أما أثر الطوطمية عند الشعوب القديمة مثل اليونان والشعوب السامية فإن بحوث العلماء في المراحل الأولى من البحث ، وهي مستمدة بالطبع من الاشارات الواردة في الكتابات أو المؤلفات أو من دراسات الأسماء .

ومن أشهر أصحاب النظريات في موضوع الطوطمية (تيلر) (Sir E. B. Tylor)[٢] و (سير جيمس فريزر) (Sir J. G. Frazer) ، وهذا الأخير يرفض نظرية الذاهبين الى أن الطوطمية في شكلها الأول هي ديانة ؛ لأن الطوطم لا يعبد كما يقول على صورة صنم[٣] .

ومن أسماء الحيوانات التي تسمّت بها البطون والعشائر : كلب ، وذئب ، ودبّ ، وسلحفاة ، ونسر ، وثعلب ، وهرّ ، وبطة ، وثور ، وغير ذلك من أسماء حيوانات تختلف بحسب اختلاف المحيط الذي تكون فيه عبدة الطواطم . يضاف الى ذلك أسماء أشجار ونباتات أخرى وطائفة من أسماء الأسماك . وقد ذكر (بيتر جونس) (Peter Jones) أربعين بطناً من بطون قبيلة الـ (Ajibwa) لها أسماء حيوانات[٤] .

وقد لاحظ (روبرتسن سمث) (Robertson Smith) ان في أسماء القبائل عند العرب أسماء كثيرة هي أسماء حيوان أو نبات أو جماد . فاتخذ من هذه الأسماء دليلاً على وجود (الطوطمية) عند العرب ، وعلى أثرها في الجاهليين .

---

١ Enc. Reli. Vol. 12, P. 394, J. Lubbach, Origin of Civilization, 1905, A. Lang, The Secret of the Tate. 1905, Frazer, Totemism and exogemy, 4. Vols. 1910, Frend, Tatem and Tabu, 5. ed. 1934.

٢ Taylor, Primitive Culture, Vol. I, P. 402.

٣ Bowman, P. 98. f.

٤ Enc. Religi. Vol. 12, P. 394.

فأسماء مثل : بني كلب ، وبني كليب ، والنمر ، والذئب ، والفهد ، والضبع والدب ، والوبرة ، والسيد ، والسرحان ، وبكر ، وبني بدن ، وبني أسد ، وبني بهثة ، وبني ثور ، وبني جحش ، وبني ضبّة ، وبني جعل ، وبني جعدة ، وبني الأرقم ، وبني دُئل ، وبني يربوع ، وقريش ، وعنزة ، وبني حنش ، وبني غراب ، وبني فهد ، وبني عقاب ، وبني أوس ، وبني حنظلة ، وبني عقرب ، وبني غنم ، وبني عفرس ، وبني كوكب ، وبني قنفذ ، وبني الثعلب ، والسيد ، وبني قنفذ ، وبني عجل ، وبني انعاقه ، وبني هوزن ، وبني ضب ، وبني قراد ، وبني جراد[1] ، وما شاكل ذلك من أسماء ، لا يمكن في نظره الا أن تكون أثراً من آثار الطوطمية ، ودليلاً ثابتاً واضحاً على وجودها عندهم في القديم[2] .

وقد لاقى تطبيق روبرتسن سمث نظرية (الطوطمية) على العرب الجاهليين ، ترحيباً عند بعض المستشرقين ، كما لاقى معارضة من بعضهم . وقد رد عليه (جرجي زيدان) في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) ، وبيّن أسباب اعتراضه على ذلك التطبيق[3] .

دور الأمومة :

واتخذ (روبرتسن سمث) من تسمي بعض القبائل بأسماء مؤنثة مثل : (مدركة) (وطابخة) و (خندف) و (ظاعنة) و (قيلة) و (جديلة) و (مُرّة) و (عطيّة) ، وأمثالها ، دليلاً على وجود ما يسمى بـ (دور الأمومة) عند العرب . وهو دور لم يكن للنساء فيه أزواج معيّنون ، لأن الزواج لم يكن فيه بالمعنى المفهوم من الزوجية عندنا ، بل كان الرجل يجتمع بالمرأة ثم يتركها ، ليجتمع بامرأة أخرى ، وهكذا تكون المرأة قد اتصلت بجملة رجال ، كما يكون الرجل قد اتصل بجملة نساء . واذ كانت المرأة لم تكن تعرف زوجها الذي

---

١ الاكليل (١/١٨٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (٩٠ ، ١٨٧) ، التمدن الاسلامي (٣/٢٦٦)
Kinship, P. 188.

٢ Robertson Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, Religion of the Semites, 2nd. ed. London, 1894, P. 35.

٣ (حـ ٣/ ٢٤٠ وما بعدها) .

تجلّ مولودها ، ولا يعرف المولود والده نُسب إلى أمه وعرف بها . وبهذا التفسير ، فسر (روبرتسن سمث) ومن ذهب مذهبه من علماء علم الاجتماع ، وجود الأسماء المؤنثة عند العرب وعند العبرانيين وعند بقية الساميين[1] .

واتخذ (روبرتسن سمث) من وجود بعض الكلمات في تسلسل أنساب القبائل مثل : البطن والفخذ والصلب والظهر والدم و (رحم) ، دليلاً آخر على وجود (دور الأمومة) عند العرب ، لأن هذه الألفاظ صلة بالجسم ، ولهذا كان اطلاقها عند قدماء العرب – على حد قوله – علاقة بجسم الأم . ولا سيما أنهم استعملوا لفظة (الحي) كذلك . ولهذه اللفظة علاقة بالحياة وبالدم . واطلاق الألفاظ في نظره ورأيه على معان اجتماعية ، دليل على الصلة التي كانت للأم في المجتمع لذلك العهد[2] .

وقد بحث (روبرتسن سمث) بحثاً مفصلاً في الحي ، إذ هو في نظره وحدة سياسية واجتماعية قائمة بذاتها[3] . ويطلق على (الحي) لفظة (قوم) و(أهل). وينظر أبناء الحي الواحد بعضهم الى بعض نظرة قرابة ، فكأنهم من نسل واحد يربط بينهم دم واحد . وقد استدل (روبرتسن سمث) من معنى (الحي) على وجود معنى الحياة في الكلمة في الأصل ، كما هو الحال في اللغات السامية ، ورأى لذلك أنها تمثل رابطة قرابة وصلة رحم عند سائر العرب السامية . ويكون أعضاء الحي الأحرار (صرحاء) ، وفي العبرانية (أزراح) . أما الذين ينتمون اليه بالولاء ، فهم (الموالي) يستجيرون به أو بالقبائل أو الأفراد ، فيلقون حماية من يستجيرون بهم ، ويكون (الجار) في رعاية مجيره .

و (البطن) في نظر (روبرتسن سمث) هو أقدم أوضاع المجتمع السامي القديم ، ويقوم على أساس الاعتقاد بوجود القرابة والروابط الدموية . ويرى أن مفهومه عند قدماء الساميين كان يختلف اختلافاً بيّناً عنه عند العرب المتأخرين ،

---

١ Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, Cambridge, 1885.

٢ Kinship, P. 37. ff. Smith, Religion of the Semites, London, 1894, P. 35.

٣ (الحي : الواحد من احياء العرب ، والحي البطن من بطون العرب . ويقع على بني اب كثروا ام قلوا) ، اللسان (٢٣٥/١٨) ، (والعمارة : الحي العظيم يقوم بنفسه) ، المفضليات (ص ٤١٤) ، بلوغ الارب (١٨٩/٣) . (الحي) ديوان الطرماح (٩٥ ، ١١٤)

أو عند العبرانيين ، أو غيرهم . وقد فهم من اللفظة معنى المجموع الأكبر عند العرب ، أي معنى (شعب) أو (جذم) أو قبيلة ، ورأى أن هـذا المعنى هو المعنى القديم للكلمة عند العرب[1] . أما المعاني التي يذكرها علماء اللغة والأدب والأخبار ، فهي في نظره معان متأخرة وضعت في الجاهلية القريبة من الإسلام، ومن جملة هذه المعاني اختصاصها بالأماكن التي تقيم فيها القبيلة أو العشيرة ، وتتألف من جملة عدد من الدور .

وقد استدل (روبرتسن سمث) من لفظة (البطن) و (الفخذ) وأمثالها على مرور العرب في دور الأمومة ، وعلى أن القبائل كانت قد أخذت أنسابها القديمة وأسمائها من الأمومة ومن (الطوطمية) . ورأى أن كلمة (البطن) في الأصل كانت تعني معنى آخر غير الذي يذهب اليه علماء الأنساب ، ودليله على ذلك استعمال (رحم) .

ول (روبرتسن سمث) بحوث في طرق الزواج عند قدماء العرب ، سأتحدث عنها في موضوع الزواج والطلاق عند الجاهليين في القسم الخاص بالحياة الاجتماعية عند العرب وبالتشريع .

وقد أشار (نولدكه) Noeldeke الى أهمية تأنيث أسماء القبائل[2] ، فاتخذ القائلون بنظرية (الأمومة) من هذه الأسماء دليلاً على أهمية هذا العهد في التأريخ الجاهلي القديم .

وقد وافق (ويلكن) G.A. Wilken على بعض آراء (روبرتسن سمث) ، وخالفه في بعض الآراء[3] .

ومن واضعي نظرية الأمومة العالم الألماني السويسري (باخأوفن) (Johann Jakob Bachofen) (١٨١٥ — ١٨٨٧م) ، وهو من علماء القانون ومن مؤسسي (علم القانون المقارن) ، وكان معروفاً بأبحاثه عن الأشياء الخفية

---

١ الهلال : الجزء الثامن من السنة الرابعة عشرة ، ايار ١٩٠٦ ، (ص ٤٧٨) ،

٢ Naeldeke, in ZDMG. Bd. XVII, S. 707.

٣ راجع كتاب : « الامومة عند العرب » ، تاليف « ويلكن » ، ، تعريب بندلي صليبا الجوزي ، قازان ١٩٠٢ م ،

G. A. Wilken, Het Matriarchaatli i de ande Arabieren, Oestr. Monatschrift fur d. Orient, 1889.

التي تؤثر في حياة الانسان . وقد ذهب الى أن تأريخ العالم صراع بين الروح والمادة ، بين الذكر والأنثى ، وأن الحياة الأرضية مزيج من هذين الكفاحين . وقد لفت نظره الى الزواج باعتبار أنه ناحية من النواحي القانونية ، وتعرض لمباحث الزواج عند الانسان القديم ، ولفوضوية الزواج ، حيث كان الرجل يتناول المرأة بغير عقد ، كما تفعل الحيوانات ، ولاشتراك عدد من الرجال في امرأة واحدة ، (Hetarische Gynaikokratie) ، فلا يعرف فيه النسل من أي أب هو ، ولهذا بقي في رعاية أمه ، فنسب اليها ، وهو زواج مرّ على جميع الشعوب . كما بحث عن الأديان البدائية وعلاقتها بأمثال هذا الزواج[1] .

ويجب أن نضيف الى تلك الفوضوية فوضوية أخرى ، هي فوضوية الغزو وتقاتل الانسان مع الانسان واباحة المدن والقرى للجيوش الغازية المنتصرة، يعيثون فيها وفي أهلها فساداً ، يؤدي الى انتهاك الحرمات واستباحة الأعراض وتوالد أطفال ليس في مقدور أمهاتهم معرفة آبائهم،فلا يبقى لهم من مجال إلا الانتساب الى الأمهات .

ودور الأمومة عند أصحاب هذه النظرية ، هو أقدم أنواع الزواج . وأما (الأبوة) أي دور الزواج الذي عرف النسل فيه آباءهم فهو عندهم أحدث عهداً من الأمومة ، وقد زعموا أن هذين الدورين مرّا على البشرية جمعاء ، وفيهم العرب . وفي دور الأمومة تكون القرابة فيه لصلة الرحم ، أي الى الأم، فهو الرباط المقدس المتين الذي يربط بين الأفراد ويجمع شملهم ، وهو نسبهم الذي اليه ينتمون . ففي هذا الدور لا يمكن أن يعرف فيه الانتساب الى الأب، لسبب عادي هو عدم امكان معرفة الأب فيه . ولهذا كان نسب النسل فيه حتماً للأم . وكان نسب الجماعات فيه أيضاً للأم . ومن هذه الجماعات القبائل . وهم يرون أن تسمي القبائل بأسماء رجال ، بأن تجعلهم أجداداً وآباءً ، هي تسميات محدثة ظهرت بعد ظهور دور الأبوة،وتطور الزواج من زواج الفوضى أو زواج تعدد الرجال الى زواج حدد فيه على المرأة التزوج برجل واحد ليس غير ، يكون فيه بعلها الذي تختص به . ومن هنا اندثرت الأسماء القديمة ، أي أسماء الأناث في الغالب ، وحلت محلها أسماء الذكور . وسيأتي الكلام على موضوع

---

[1] Mutterrecht und Urreligion, von R. Mark, in KTA. Bd. 52, Der Mythus von Orient und Okzident, M. Schroeter, 1926, H. Schmidt, Philosophisches Woerterbuch, S. 61.

أشكال الزواج عند العرب في موضعه من هذا الكتاب .

هذا ، وقد بحث (جرجي زيدان) في نظرية (الأمومة) عند العرب وردّ عليها بتفصيل[1] .

أصول التسميات :

وقد ألف (ابن دريد الأزدي) كتاباً في اشتقاق الأسماء عند العرب ، سماه (كتاب الاشتقاق) ، تحدث فيه عن أصول الأسماء واشتقاقها ، وذلك رداً على من زعم أن العرب تسمي بما لا أصل له في لغتهم ،فذكر اشتقاق تلك الأسماء[2] . وقد قال في مقدمته له : « كان الأميون من العرب ... لهم مذاهب في أسماء أبنائهم وعبيدهم وأتلادهم . فاستشنع قوم إما جهلاً وإما تجاهلاً تسميتهم كلباً ، وكليباً ، وأكلب ، وخنزيراً ، وقرداً ، وما أشبه ذلك مما لم يستقص ذكره : فطعنوا من حيث لا يجب الطعن ، وعابوا من حيث لا يستنبط عيب .. وكان الذي حدانا على انشاء هذا الكتاب ، ان قوماً ممن يطعن على اللسان العربي وينسب أهله الى التسمية بما لا أصل له في لغتهم ، والى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوليتهم وعدّوا أسماء جهلوا اشتقاقها ، ولم ينفذ علمهم في الفحص عنها »[3] .. الى أن قال : « واعلم ان للعرب مذاهب في تسمية أبنائها فمنها ما سموه تفاؤلاً على أعدائهم نحو : غالب ، وغلاب ، وظالم ، وعارم ، ومنازل ومقاتل ، ومعارك ، وثابت ونحو ذلك . وسموا في مثل هذا الباب مسهراً ، ومؤرقاً ، ومصبحاً ، ومنبهاً ، وطارقاً . ومنها ما تفاءلوا به للابناء نحو : نايل ، ووايل ، وناج ، ومدرك ، ودرّاك ، وسالم ، وسليم ، ومالك ، وعامر ، وسعد ، وسعيد ، ومسعدة ، وأسعد ، وما أشبه ذلك . ومنها ما سمي بالسباع ترهيباً لاعدائهم نحو : أسد ، وليث ، وفراس ، وذئب ، وسيد ، وعملس ، وضرغام ، وما أشبه ذلك . ومنها سمي بما غلظ وخشن من الشجر تفاؤلاً أيضاً ، نحو : طلحة ، وسمرة ، وسلمة ، وقتادة ، وهراسة ، كل

---

١ تاريخ التمدن الاسلامي (٣/ ٢٤٠ وما بعدها) .
٢ طبعة « وستنفلد » في « كوتنكن » (غوتنكن) سنة ١٨٥٤ م .
٣ الاشتقاق (ص ٣ وما بعدها) .

ذلك شجر له شوك وعضاة . ومنها ما سمي بما غلظ من الأرض وخشن لمسه وموطئه ، مثل : حجر ، وحجير ، وصخر ، وفهر ، وجندل ، وجرول ، وحزن ، وحزم . ومنها ان الرجل كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمي ابنه بأول ما يلقاه من ذلك ، نحو : ثعلب ، وثعلبة ، وضب ، وضبة ، وخزز ، وضبيعة ، وكلب ، وكليب ، وحمار ، وقرد ، وخنزير ، وجحش ، وكذلك أيضاً يسمي بأول ما يسنح أو يبرح لها من الطير ، نحو : غراب ، وصرد ، وما أشبه ذلك .. خرج وابل بن قاسط وامرأته تمخض ، وهو يريد أن يرى شيئاً يسمي به ، فإذا هو ببكر قد عرض له ، فرجع وقد ولدت له غلاماً ، فسماه بكراً ، ثم خرج خرجة أخرى وهي تمخض ، فرأى عنزاً من الظباء ، فرجع وقد ولدت غلاماً فسماه عنزاً .. ثم خرج خرجة أخرى ، فإذا هو بشخيص قد ارتفع له ولم يتبينه نظراً ، فسماه الشخيص .. ثم خرج خرجة أخرى ، وهي تمخض ، فغلبه أن يرى شيئاً ، فسماه تغلب .. خرج تميم بن مر وامرأته سلمى بنت كعب تمخض ، فإذا هو بواد قد انبثق عليه لم يشعر به ، فقال : الليل والسيل ، فرجع وقد ولدت غلاماً ، فقال : لأجعلنه لإلهي ، فسماه زيد مناة ، ثم خرج خرجة أخرى ، وهي تمخض ، فإذا هو بعكاء يغرد على عوسجة قد يبس نصفها وبقي نصفها ، فقال لئن كُنت قد أثريتِ وأسريتِ لقد أجحدت وأكديت ، فولدت غلاماً فسماه الحرث »[1] ...

قيل لأبي الدقيش الاعرابي : « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ » ، فقال : « إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا »[2] . وتعرض الجاحظ لهذا الموضوع أيضاً ، فقال : « والعرب إنما كانت تسمي بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولد له ذكر ، خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فإن سمع إنساناً يقول حجر أو رأى حجراً ، سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانه يحطم ما لقي ، وكذلك إذا سمع انساناً يقول ذئب أو رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والمكر والكسب ، وإن كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، وان كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد

---

١ الاشتقاق (ص ٣ وما بعدها) ، بلوغ الارب (١٩٣/٣ وما بعدها) .
٢ الديري (٢٤٢/٢) .

الصوت والكسب »[1] . ويظهر مما تقدم أن موضوع التسميات عند العرب كان من الموضوعات التي لفتت اليها الأنظار ، لما في كثير منها من غرابة وخروج على المألوف ، فانبرى بعض العلماء في شرح الأسباب التي أدت بالعرب الى اتخاذ تلك التسميات ، والى ذكر العلل التي دفعتهم عليها كالذي نراه في بحث (ابن دريد) في كتابه (الاشتقاق) ، حيث ذكر في مقدمته كل الأسباب التي رآها وتوصل اليها في بحثه عن هذا الموضوع ، الذي أثار جانباً منه (روبرتسن سمث) وغيره من المستشرقين .

كما سموا بعبد العزى وعبد ود وعبد مناة وعبد اللات وعبد قسي ونحو ذلك ، مما فيه إضافة العبودية لأحد الأصنام .

والمتعارف عليه في الإسلام ، هو ارجاع النسب الى الأب . أما الانتساب الى الأم، فانه قليل الوقوع . ولهذا يعد الرجل عربياً اذا كان والده عربياً ، لا يؤثر فيه نسب أمه إن كانت أعجمية . أما قبل الإسلام ، فإن النسب وإن كان تابعاً لنسب الأب ، إلا أنه قد يلحق الولد بالأم . وبالرغم من هذا العرف ، فإن العرب في الماضي وفي الحاضر يقيمون وزناً كبيراً لدم الأمهات ، بل قد تزيد أهميته عندهم على أهمية دم الأب . والمثل العراقي العامي (ثلثين الولد على الخال)[2] ، خير تعبير عن وجهة نظرهم تلك ، فإنه يمثل نزعة عرق الخال[3] . وهي من النزعات التي أقام لها الجاهليون وزناً كبيراً عندهم .

أما وجهة نظر العلم الحديث ، فإن لدم الأبوين أثراً متساوياً في المولود . ولهذا فان موضوع النسب الى الأب أو الأم ، موضوع لا يعالج عنده بالعرف والعادة ، بل يعالج وفق قواعد العلم المقررة لديه . وبناءً على ذلك يجب أن نقيم وزناً لموضوع التزاوج المختلط بين العرب والغرباء، وقد كان معروفاً وشائعاً في الجاهلية أيضاً ، اذ تزوجوا من الرقيق ، ولاسيما الرقيق الأبيض ونسلوا منه، كما سكن في جزيرة العرب آلاف من الغرباء قبل الإسلام واندمجوا في أهلها . وتركوا أثراً في دماء أهلها ، يختلف باختلاف مقدار الاختلاط . ويتبين ذلك بوضوح في سحن سكان السواحل ، لأنهم أكثر عرضة للاختلاط من أبناء البواطن والنجاد .

---

١ التمدن الاسلامي (٣/٢٦٩) .
٢ اي : ثلثا الولد .
٣ ابن سعد ، الطبقات (جـ٣ ، ق ١ ، ص ٣٣٥) .

ولا تختلف أسماء القبائل العربية في طبيعتها عن طبيعة أسماء القبائل عند الشعوب الأخرى ، ولا سيا قبائل الشعوب المسماة : الشعوب السامية . فهـي أسماء آباء وأجداد ترد غالباً في شكل أسماء ذكور ، وترد في الأقل في صورة أسماء نساء، وتعدّ عندئذ أسماء أمهات ، أي أمهات قبائل . وهي كما قلت قبل قليل ليست أسماء أعيان بالضرورة ، فبينها أسماء مواضع نسب سكانها اليها ، فصارت بمرور الزمن جدّاً ، وأباً ، أو أماً . وبينها أسماء آلهة وأصنام ، تعلق المؤمنون بهـا حتّى نسبوا اليها ، وبينها أسماء طواطم . ونجد بين أسماء القبائل العربية أسماء ترد عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب السامية أعلاماً لقبائل كذلك،وقد يكون من المفيد جداً دراسة هذه الأسماء ومقابلتها بعضها ببعض ، ودراسة أسماء القبائل العربية دراسة مستفيضة لمعرفة أصولها وتطورها ومراجعة الموارد الأعجمية والكتابات الجاهلية للعثور على تلك الأسماء فيها وتعيين زمن ظهور الاسم فيها لأول مرة .

الفصل الثالث عشر

تاريخ الجزيرة القديم

ليس من السهل بقاء العاديات ، التي تتألف من موادّ منزلية وأدوات ضرورية لحياة الانسان ، مدةً طويلة في أرضين مكشوفة سهلية ، وفي مناطق صحراوية لا حماية فيها لتلك الأشياء . وليس من السهل أيضاً احتفاظ مثل هذه التربة بجدث الإنسان وبعظام الحيوان أمداً طويلاً . وهي معرضة لحرارة شديدة قاسية ولرياح عاصفة قاسية . ولهذا لا يطمع الباحثون في الحصول على كنوز غنية من المناطق السهلة المكشوفة التي تغلب عليها الطبيعة الصحراوية والتي تؤلف أكبر قسم من جزيرة العرب .

ومن هنا سيتّجه أمل الباحثين عن الآثار الى الأودية التي تتوافر فيها الوسائل الكفيلة بنشوء المجتمعات على اختلاف أشكالها ، والى السهول التي تبعث النهيرات والينابيع والآبار الحياة فيها ، والى الهضاب والجبال حيث توجد المياه وتتساقط الأمطار وتتوافر الكهوف والصخور،وهي من العوامل المساعدة على نشوء الحضارة وحفظ الآثار ، للاستفادة منها في الحصول على آثار تحدثنا عن تأريخ جزيرة العرب في آلاف السنين الماضية قبل الميلاد .

وليس في استطاعتنا في الزمن الحاضر التحدث عن جزيرة العرب في العصور الجليدية ، لعدم وجود بحوث علمية عن هذه العصور في هذه البلاد . كذلك لا نستطيع أن نتحدث عن بلاد العرب في العهود الحجرية ، لعدم وجود موارد

كافية تساعدنا في الكشف عنها كشفاً علمياً . نعم ، عثر على أدوات حجرية في موضع يقال له (الدوادمي) (Dawadmi) ، وهو يبعد (٣٧٥) ميلاً عن الخليج ، عثر عليها مدفونة في الأرض ، وكان بينها فأس طولها سبع عقد ونصف عقدة ، ولها لون يميل الى الخضرة [١] ، وعثر على أدوات حجرية أخرى في أنحاء من جزيرة العرب ، وفي جملتها الأحساء وحضرموت ، ولكن ما عثر عليه ما زال قليلاً ، لا يمكن أن يعطينا رأياً واضحاً علمياً في تلك العهود في هذه البلاد .

وقد تبين من فحص الأدوات الحجرية التي عثر عليها في الأحساء أنها تتكون من أحجار لا توجد في العروض، وبينها أحجار بركانية أو من حجارة (الكوارتز)، ومن أنواع أخرى من الصخور ، لهذا رأى فاحصوها أنها أدوات استوردت من العربية الغربية . كما تبين من فحص الأدوات الحجرية التي عثر عليها في اليمن وفي حضرموت أنها من النوع المستورد من فلسطين أو من بلاد الشام ، لأنها تشبه الأدوات الحجرية التي عثر عليها هناك [٢] .

أما الأدوات الحجرية التي عثر عليها في مواضع من حضرموت ، فليست محكمةً دقيقة الصنعة ، بالقياس الى ما عثر عليه في فلسطين أو في بلاد الشام أو في إفريقية ، وقد عزا بعضهم ذلك الى طبيعة أحجار هذه المنطقة ، وعزاه آخرون الى تأخر حضارة أهل حضرموت في ذلك العهد بالقياس الى الحضارات الأخرى [٣] . ورأى بعض الباحثين أن أرض حضرموت كانت في عزلة عن البلاد المتقدمة في الشمال ، وأن صلاتها بإفريقية كانت أقوى من صلاتها بشمال جزيرة العرب وبالهلال الخصيب وبحضارة البحر المتوسط ، ولذلك صارت الأدوات التي عثر عليها بدائية بعض الشيء بالقياس الى ما عثر عليه في أعالي جزيرة العرب، حيث كان الاتصال وثيقاً بالحضارات المتقدمة .

ومن الأدلة التي تثبت ان اتصال حضرموت بالسواحل الافريقية المقابلة كان

---

١ P. B. Cornwall, Ancient Arabia, Explorations in Hasa, 1940-1941, P. 39, in Geogra. Journ. CVII, Febr. 1946.

٢ Geogr. Journal. Vol. XCIII, No. I, January, 1939, PP. 30.

٣ Geogr. Journal. Vol. XCIII, No. I, January, 1939, "An Exploration in the Hadhramaut and Journey to the Coast" By, Freya Stark.

قوياً ووثيقاً في العصور الـ (الباليوليثية) ، هو عثور المنقبين على فؤوس يدوية في حضرموت تعد من صميم الصناعات التي ظهرت في تلك الأنحاء من افريقية . ووجودها في حضرموت وعثور المنقبين على أدوات أخرى هي من صناعات افريقية ، دليل على شدة العلاقات ومبلغ توثقها بين افريقية والسواحل العربية الجنوبية [١] .

ويظن ان الزجاج البركاني ، المتكون من فعل البراكين (Obsidian) المتخذ أشكالاً هندسية ، مثلثاً أو هلالاً أو مربعاً ، الذي يعود الى الدور المعروف عند علماء الآثار بدور صناعات النصل (Blade Industries) ، والذي عثر على نماذج منه في حضرموت ، هو من المستوردات التي يرجع أصلها إلى سواحل افريقية الشرقية . وقد كانت هذه الصناعة مزدهرة في حوض البحر المتوسط وفي أوروبة قبل الألف الثالثة قبل الميلاد . أما في العربية الجنوبية ، فيعود عهدها الى الألف قبل الميلاد[٢] .

واكتشفت أدوات من العصور الحجرية في (الحملة) ورأس (عوينات علي) (عوينت علي) وجنوب (دخان) من (قطر) ، منها فؤوس ومقاشر ونبال وكميات من حجر الصوان . وهذه الصخور هي من العصور (الباليوليثية) و (النيوليثية)[٣] .

وعثر في مواضع متفرقة أخرى من جزيرة العرب على أدوات من عهود مختلفة قبل التأريخ ، عثر على أكثرها في مواضع شتى تقع عند الأودية والطرق والمواضع التي تتوافر فيها وسائل الحياة . وسيكون لبحث من يأتي بعدي فيقوم بوضع خارطة أو مخطط للمواضع التي عثر فيها على آلات وأدوات مما قبل التاريخ شأن كبير. ولا شك في الكشف عن مواضع السكنى والحضارة في بلاد العرب قبل التأريخ،وفي الكشف عن نظرية تغير الجو في جزيرة العرب ونظرية الهجرات وارتحال السكان من مكان الى مكان .

---

١ B.R. 527, (Restricted), Geographical Handbook Series for Official use only, Western Arabia and the Red Sea, June, 1946, Naval Intelligence Division.
وسيكون رمزه : Naval

٢ Naval

٣ تقرير شامل عن الحفريات الاثرية في جزيرة « فيلكا » ، ١٩٥٨ – ١٩٦٣ م ، الكويت (ص ٢٤) .

وعثر على آثار متنوعة من العصور الـ (الباليوليثية) (Palaolithikum) (Palaeolithic) والـ (النيوليثية) (Neolithikum) (Neolithic) في الكويت والبحرين وحضرموت ومواضع أخرى من العربية الجنوبيـة واليمن . وقد ذهب (فيلد) (H. Field) إلى أن اليمن وعدن كانتا مأهولتين بالسكان في العصور (النيوليثية) ، ثم هاجر قسم من الناس إلى عمان والخليج ، وهاجر قسم آخر بطريق باب المندب إلى الصومال و (كينيـا) (Kenya) و (وتنجانيقا) ، وهاجر فريق آخر بطريق مأرب ونجران إلى شبـه جزيرة سيناء وفلسطين والأردن[1] .

وعثر على آثار من العصور المذكورة في مواضع من المملكة العربية السعودية تمتد من الأحساء (الهفوف) إلى الحجاز ، ومن مدائن صالح إلى نجران . وقد عثر على أدوات حجريـة في (تل المبر) . وقـد كان الصيادون في عصور ما قبل التأريخ يتنقلون باتجاه الأودية من مكان الى مكان حيث كانت الأحوال فيها خير مما عليه الآن . وقـد ترك هؤلاء الصيادون ثم الرعاة بعض الآثار في الأمكنة التي حلّوا بها ما برح السياح وخبراء شركة (أرمكو) وغيرهم يعثرون على قسم منها بين الحين والحين[2] .

ووجدت في (كلوة) (Kelwa) التي تقع على سفـح (جبل الطبيق) آثار من العهود (الباليوثيكية) القديمة : (Chelléen) والـ (Acheuléen) والـ (Levalloisien) . وقد قدر بعض الباحثين تأريخ السكنى في هذا الموضع إلى الألف الثامنة قبل الميلاد. وقد اكتشف هذا الموضع (هورسفيلد) (G. Horsfield) و (كلويك) (N. Glueck) ، فوجد آثاراً وصوراً على الصخور ، قدّر أنها ترجع الى آلاف من السنين قبل الميلاد من مختلف العصور[3] .

وعثر على كهوف وقد صورت على جدرانها صور حيوانات وصور الشمس ،

---

١ A. Grohmann, Arabien, S. 15, H. Field, Papers of the Peabody Museum, 48/2 (1956), PP. 117.

٢ H. Field, Papers, 48/2 (1956), 63, A. Grohmann, Arabien, S. 15.

٣ N. Glueck, The other Side of the Jordan, New Haven, Con. 1940, PP. 43, H. Rothert, Transjordanien, Vorgeschichtliche Forschungen, Stuttgart, 1938, S. 161, A. Grohmann, Arabien, S. 16.

والهلال ، وذلك على طريق التجارة القديمة في العربية الجنوبية ، بين وادي يبعث ووادي عرمة . وهي تشبه في أهميتها من دراسة الناحية الأثرية ، الصور المتقدمة التي عثر عليها في (كلوة) في الأردن[1] .

فأس من الحجر تعود الى عصر الـ « Palaeolithic » المتأخر ، عثر عليها في « دوادمي » .
صنعت هذه الصورة عن صورة نشرت في مجلة : « The Geographical journal »
جزء شباط سنة ١٩٤٦ أرسلها لي صديقي الدكتور جورج ماثيوس من الظهران

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن جزيرة البحرين كانت مأهولــة بالناس أيام العصور الجليدية المتأخرة في أوروبة ، أي قبل خمسين ألف سنة ، وأن ساحــل الخليج ، ولا سيما المنطقة الواقعة بين (الدوادمي) وشمال القطيف ، كان مزدحماً

---

[1] Naval, P. 214.

بالسكان في العصور البرنزية ، أي حوالي (٣٠٠٠ – ٢٥٠٠ ق. م) ، كما عثر على أدوات من العصور (الباليوثيكية) في موضع (رأس عوينت علي) (عوينات علي) في شبه جزيرة (قطر)[1] .

وقد ذهبوا أيضاً الى أن جوّ البحرين آنذاك – أي أيام العصور الجليدية – كان يشبه جوّ بلاد اليونان في الوقت الحاضر . وأن أرض البحرين كانت مخصبة خضراء ، مغطاة بكساء من الغابات . ولعلها كانت متصلة إذ ذاك بالأرض الأم – أرض جزيرة العرب – أما سكانها فقوم من الصيّادين . عاشوا على ما يقتنصونه من حيوانات ، وفي مقدمتها الأسماك . وقد عثر على أدوات من حجر الصوان ، استخدمها أولئك الصيادون في صيدهم وفي تقطيع لحوم الفرائس التي يوقعها سوء حظها في أيديهم . عثر عليها في مواضع متعددة من البحرين ، وبعدد كبير أحياناً ، مما يدل على أن تلك الأماكن كانت مستوطنة آهلة بالناس .

وليس في هذه الأدوات الصوانية ما يشير الى أصل أصحابها ، أو الى أسمائهم وأسماء المواضع التي كانوا فيها . وكل ما يستفاد منها أنها من أواسط العصور (الباليوثيكية) (Paleothitic) ، وذلك بدليل مشابهتها لأدوات من الصوان ترجع الى هذا العهد عثر عليها في شمال العراق وفي فلسطين في شمال غربي الهند[2] .

وقد عثر في البحرين أيضاً على عدد من رؤوس حراب وسكاكين صنعت من الصخور الصوانية . قدّر بعض الباحثين عمرها يتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألف سنة . وهي ترجع الى أواخر أيام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة . وبين ما عثر عليه من هذه الأدوات ، أحجار سنّت وشذبت لكي تكون بمثابة آلات لحصد المزروعات ولقطع الحشائش واجتثاثها من الأرض[3] .

وفي العربية الغربية والعربية الجنوبية جبال ترصعها كهوف ، اتخذها الانسان

---

١ P.B. Cornwall, Ancient Arabia: Explortions in Hasa, 1940-1941, A. Grohmann, Arabien, S. 255.

وسيكون رمزه : Arabien

٢ James H.D. Belgrave, Welcome to Bahrain, London, 1965, PP. 50.

٣ المصدر نفسه ، (ص ٥١) .

مساكن له ، فأقام فيها قبل الميلاد بأمد طويل ، لا نستطيع تقدير زمانه، واتخذ بعضها معابد ومواضع مقدسة ، وأماكن للخلوة والتأمل الروحي والعبادة، وبعضها مقابر يودع فيها أجداث آبائه وأجداده وأهله ، ولكن أكثر هذه الكهوف قد عبث بها الزمن ، وعبثت بها أيـدي الإنسان ، أكثر من عبث الطبيعة بها ، فانتزعت منها ما نبحث الآن عنه من بقايا عظام وتركات سكنى ، وآثار فن ، فحرمنا بذلك الوقوف على حياة الإنسان في جزيرة العرب في تلك الأيام .

وقد أشار الكتبة (الكلاسيكيون) الى سكان الكهوف في بلاد العرب. وعثر السياح على بقايا تلك الكهوف التي كانت منازل ومساكن آهلة بالناس. ولا يزال الناس يسكنون الكهوف في حضرموت وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب[1] . وقد يكون من بينها كهوفاً كانت منازل الأجـداد النازلين بها اليوم منذ آلاف من السنين .

ولما كانت زيارات السياح لهذه الكهوف زيارات سريعة خاطفة ، لم يتعمق السائحون فيها في داخل الكهف ، ولم تتناول ما على جدر الكهوف من رسوم أو زخارف،وقد يأتي يوم يعثر فيه الباحثون على كنوز من فن سكان الكهوف، ومن مخلفات لهم وعظام تكدست تحت أطباق الثرى ، نستخرج منها وصفاً لحياة الانسان في تلك المناطق من جزيرة العـرب ، وقد تفيدنـا في دراسة الصلات والعلاقات التي كانت بين أهل الجزيرة وبين بقية أنحاء العالم في تلك العهود السحيقة .

فيتبين من هذه الآثار القليلة ان بلاد العرب كانت مأهولة بالناس منذ العصور (الباليوثية) (Palaeolithic) ، أي العهود الحجرية المتقدمة ، وان من أقدم الآثار التي عثر عليها آثاراً من أيام العصور المعروفة بـ (Chellian) بين علماء الآثار ، أي الأدوار الأولى من أدوار حضارة العصر الحجري ، وانه قد عثر على أدوات من الصوان في الربع الخالي وفي حضرموت من عهد الـ (Neolithic) والعصور (البرنزية). وعثر على أدوات من الصوان من عصور الـ (Chalcolithic) هي من النوع الذي عثر عليه في جنوب فلسطين[2] .

---

١ Van der Meulen, Adan to the Hadhramaut, P. 120, 200, 203.

٢ Naval. P. 213.

ولم يوفق الباحثون للعثور على هياكل كاملة لإنسان ما قبل التأريخ ، لا في جزيرة العرب ولا في (سيناء)[1] . وللعثور عليها أهمية كبيرة بالنسبة الى البحث في تأريخ ظهور الإنسان وتطوره ، للوقوف على الزمن الذي عاش فيه في بلاد العرب .

والجماجم والعظام مادة مفيدة جداً في دراسة التأريخ ، ولكن الباحثين لمّا يتمكنوا من الحصول على مقدار كاف منها يكوّن عندهم فكرة علمية عن العصور التي ترجع اليها وعن أشكال أصحابها . وقد عثر رجال شركة (أرمكو) للبحث عن البترول في العربية السعودية على بقايا عظام وأسنان لبعض الحيوانات (الحلمية) (Mastodon) وعلى قسم من جمجمة حيوان قديم في موضع يبعد تسعين ميلاً إلى الغرب من (الدمام) ووجد مثل هذه البقايا الحيوانية في أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، ولكن ما عثر عليه لا يزال قليلاً ، لا يكفي لاعطاء آراء علمية عن الحياة في جزيرة العرب في التأريخ القديم[2] .

وقد تعرضت تلك المقابر لعبث الطبيعة ولعبث الطامعين بما فيها من أشياء ثمينة ، لذلك أصاب أجسام الموتى التلف ، ولم يبق منها غير بقايا من جسم ، إلا ما كان من مقابر البحرين ، فقد أعطت الباحثين هيكلين كاملين لم يصبهما أي سوء أو تلف . فقد تبين من فحصهما ان أهل الميت وضعوا جسمي الميتين على الجانب الأيمن ووجهوا الوجهين نحو المشرق ، وأمدوا رجلي الميتين . ويبعث وضع الميتين على هذه الصورة الاحتمال بأن أهل البحرين كانوا يتبعون هذه العادة في دفن موتاهم ، وهي عادة كانت عند أهل العراق أيضاً ، في الألف الثالثة قبل الميلاد[3] .

وقد عثر في مواضع من جزيرة العرب على مقابر تبين انها من نوع المقابر التي يقال لها (تمولي) (Tumuli) ، التي عثر عليها في البحرين في نهاية القرن التاسع عشر . أما مقابر البحرين ، فهي تلال تكون من قطع من الصخور ، وضع بعضها فوق بعض ، لتكون غرفة أو غرفتين ، تكون احداهما فوق الأخرى في الغالب ، لتتخذ قبراً يوضع فيه الموتى ، وتكون سقوف الغرف من ألواح

---

١ Naval. P. 213.

٢ Cornwall, Ancient. P. 39.

٣ James H.D. Belgrave, P. 52.

الصخور . وبعد اغلاق باب القبر يهال التراب على الصخور ، حتى تتخذ شكل تلال . وقد عثر على بقايا خشب فيها ، مما يدل على استعمال الخشب في بناء هذه القبور التي يصل قاعدة بعضها الى حوالي خمسين ياردة في العرض وحوالي ثمانين قدماً في الارتفاع . ويقدر الباحثون الذين بحثوا عن هذه المقابر عددها بزهاء خمسين ألف تل ، وبزهاء (١٠٠) ألف تل في تقدير بعض آخر ، أي خمسين ألف قبر أو (١٠٠) ألف قبر[١] . قبر فيها الإنسان والحيوان جنباً الى جنب ، كما يتبين ذلك من بقايا العظام التي عثر عليها فيها . والغالب أنهم دفنوا الحيوان مع الإنسان ، ليستفيد منه الميت في العالم الثاني في عقيدة أهلها يومئذ ، وكما نجد ذلك في اعتقاد المصريين واعتقاد غيرهم من الشعوب ، ولهذا دفنوا مع الموتى أواني وأدوات بيتية وحلياً وجواهر وفخاراً وغير ذلك مما يحتاج اليه الإنسان[٢] .

وقد عثر في هذه المقابر على عدد من الجرار ، تشبه الجرار المستعملة في الوقت الحاضر ، مما يدل على أن الناس في الوقت الحاضر لا يزالون يسيرون على سيرة أجدادهم الذين عاشوا قبل الميلاد في عمل الجرار وسائر الخزف . وقد صنعت تلك الجرار من الطين ، وضعه الخزاف على قرص دولاب يديره برجليه. واستعمل يديه في اكساب الطين شكل الجرة التي يريدها . ويميل لون هذه الجرار الى الحمرة . كما عثر على قشور بيض النعام ، وقد قطعت بصورة تجعلها كأساً يشرب بها . وعثر على أدوات أخرى،وكل ما عثر عليه غير مكتوب ولا مؤرخ، لذلك لا نعرف من أمره اليوم ولا من أمر أصحابه شيئاً[٣] .

وعثر رجال شركة (أرمكو) على عدد كبير من هذه المقابر على حافات جبل (المدرى) الشمالي ، قدرها (كورنول) بالألوف ، وعثروا كذلك على عدد آخر من هذه المقابر في جبل (المدرى) الجنوبي[٤] . وقد حافظت بعض

---

١ J.H.D. Belgrave, Welcome to Bahrain, P. 51.

٢ Bent, The Bahrain Islands, Proc. Roy. Geogr. Soc. 12, London, 1890, Jouannin, A, "Les Tumuli des Bahrain", Memoirs de la Delegation in Perse, T., VIII, 1905, V., 149-157, Prideaux, F.B., The Sepulchral Tumuli of Bahrain, Archaeological Survey of India, Annual Rep. 1908-1909, Calcutta, Sanger, The Arabian Peninsula, P. 141.

٣ Belgrave, P. 52.

٤ Cornwall, P. 36.

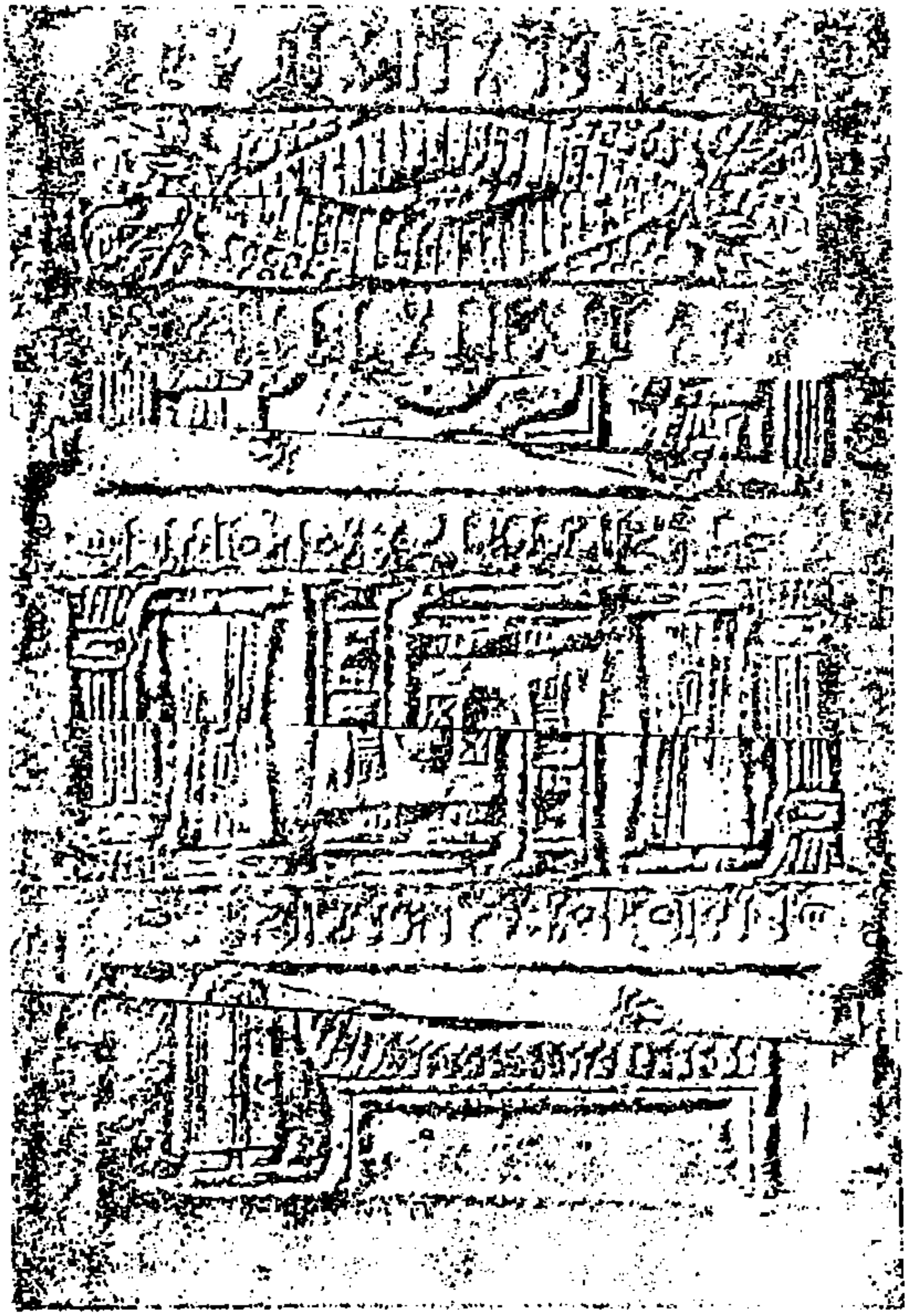

حجر يظهر أنه من الأحجار التي توضع شاهداً على القبور يمثل صورة امرأة يقال لها : « خلك بنت مندت » ويقال للبنت في العربية الجنوبية « بت » أيضاً . وقد توسلت الى الإله « عثتر » بانزال الويل والثبور على من يتجاسر فيغير هذا الحجر من موضعه .

هذه القبور على أشكالها محافظة جيدة ، ويشبه بعضها القبور التي عثر عليها (فلبي) في الأقسام الجنوبية الغربية من جزيرة العرب[1] . ووجد (كورنول) مقابر أخرى في موضع (الرديف) الواقع على بعد (١١٠) أميال من شمال غربي (الدمام) ، وفي موضع يقع شمال (عين السبح) ، بمسافة أربعة أميال ، حيث بلغ قطر أحد تلك المقابر (٣٣) ياردة وارتفاعه (١٣) قدماً . وقد تمكن من الحصول على هيكل عظمي وعلى فخار وقطع من العاج وقشور بيض للنعام وأسلحة مصنوعة من البرنز[2] .

وعثر على مقابر في موضع (المويه) الواقع على (١٤٣) ميلاً من شمال شرقي مكة[3] . وقد وصف (فلبي) المقابر التي عثر عليها في (الرويق) وفي مرتفعات (العلم الأبيض) و (العلم الأسود) ، فقال : إن أكثرها قد عبث به العابثون ، فأخذوا ما كان داخل الغرف التي كان يوضع فيها الموتى من ذخائر ومواد ، وهي مختلفة الأحجام والارتفاع . ويظهر من وجود هذه المقابر في محال صحراوية بعيدة عن مواضع العمران وفي أماكن لا يقيم فيها الناس ، أن هذه المناطق كانت مأهولة قبل الإسلام ، وأنها كانت ذات تأريخ قديم جداً ، ربما يرجع في رأي (فلبي) الى أيام قدماء (الفينيقيين) وربما كان (الفينيقيون) في رأي (فلبي) أيضاً من الأفلاج والخرج ، حيث هاجروا بعدئذ الى البحرين[4] .

وقد سمع (فلبي) بوجود مقابر أخرى من هذا النوع ، تعرف بين الناس باسم (الخشبة). وسمع (Thesiger) بمقابر أخرى في موضع (رهلة جهمين)[5] . وعثرت شركة (أرمكو) على مقابر عادية كثيرة العدد في (وادي الفاو) و (القرية) ، لم تحدد هوية أصحابها حتى الآن . وقد زارها (فلبي) ووصفها ، وتبين له أن الموضع وهو (القرية) ، كان محاطاً بسور ، وجد في داخله آثار بيوت ومقابر ، وبين أنقاض المقابر أحجار مكتوبة تدل على أنها كانت شواهد قبور . وعلى مسافة من (القرية) كتابات وصور حيوانات مثل النعامة والأيل ، وصور أناس نقشت على الصخر[6] .

---

١ Cornwall. P. 36, Philby Sheba's, P. 373.

٢ Cornwall, P. 37.

٣ Philby. Sheba's. P. 373.

٤ Philby, Sheba's. P. 373.

٥ Beitrage, S. 16.

٦ Beitrage, S. 12.

ويظهر من وصف (جيرالد دي كوري) (Gerald de Gaury) (وفلبي) لمقابر الخرج أنها كثيرة العدد ، وأنها في مواضع متعددة من هذه الإيالة عند (فرزان) و (السلمية) و (الللم) ، وهي متفاوتة الأحجام والارتفاع[1] . ولم يتمكن (دي كوري) من تعيين تأريخها ، ولا يمكن التثبت من ذلك بالطبع إلا بعد القيام بحفريات دقيقة وفحوص للعظام ولمحتويات القبور لمعرفة مكانها في التأريخ .

وقد وجد أن أبواب مقابر البحرين قد وضعت في الجهة الغربية ، مما يبعث على الظن على أن لهذا الوضع صلة بدين القوم الذين تعود اليهم تلك المقابر . وقد وجد أن المواد والأدوات التي عثر عليها في هذه المقابر تشبه المواد والأدوات التي عثر عليها في المقابر الأخرى التي عثر عليها في المواضع المذكورة من جزيرة العرب . ويظن بعض الباحثين أن أصحاب هذه المقابر كانوا يقيمون في الجهة المقابلة لجزيرة البحرين من الجزيرة ، أي على ساحل الخليج ، وكانوا قد اتخذوا الجزيرة مقبرة لهم ، فينقلون اليها موتاهم لدفنهم هناك . ومنهم من يرى أن تلك المقابر هي مقابر رؤساء الفينيقيين وأشرافهم الذين كانوا يقطنون البحرين ، وأن عهد تلك المقابر يرجع الى ما بين ٣٠٠٠ — ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد[2] .

وقد عثرت البعثة الدانماركية في سنة (١٩٥٩ م) في البحرين جنوب طريق (البديع) على أربع مقابر تبين من فحصها أنها ترجع الى العصور الحجرية[3] . وعثر السياح على تلال في مواضع متعددة من عمان وقطر ، تبين أنها مقابر لعهود سبقت الميلاد .

وليست لدينا الآن دراسة علمية شاملة عن هذه المقابر : مقابر البحرين ، ومقابر المواضع المذكورة من جزيرة العرب ، إلا أن آراء من زاروها ورأوها ، تكاد تتفق في القول بوجود ترابط في الزمن فيما بينها ، ويرجعون أيامها الى عصر الـ (Chalcolithic) أو الى العصر البرنزي . ومنهم من يرى أنها من العصر البرنزي المتأخر[4] ، ويرى أن المقابر المقامة على المرتفعات هي مقابر جماعة

---

١ Geogr. Journal. Vol. CVI, Numb. 3, 4, Sept-Octo. 1945 P. 152, Philby, Heart of Arabia, Vol. 2, P. 26.

٢ Sanger, The Arabian Peninsula, P. 141, Enc. Vol. I, P. 585.

٣ P.V. Glob, Archaeological Investigations in four Arab States, Kuml, 1959, P. 238.

٤ Sanger, P. 141.

من الصيادين أو الرعاة . أما المقابر المقامة على السهول المنبسطة فيرون انها مقابر قوم مزارعين مستقرين[1] .

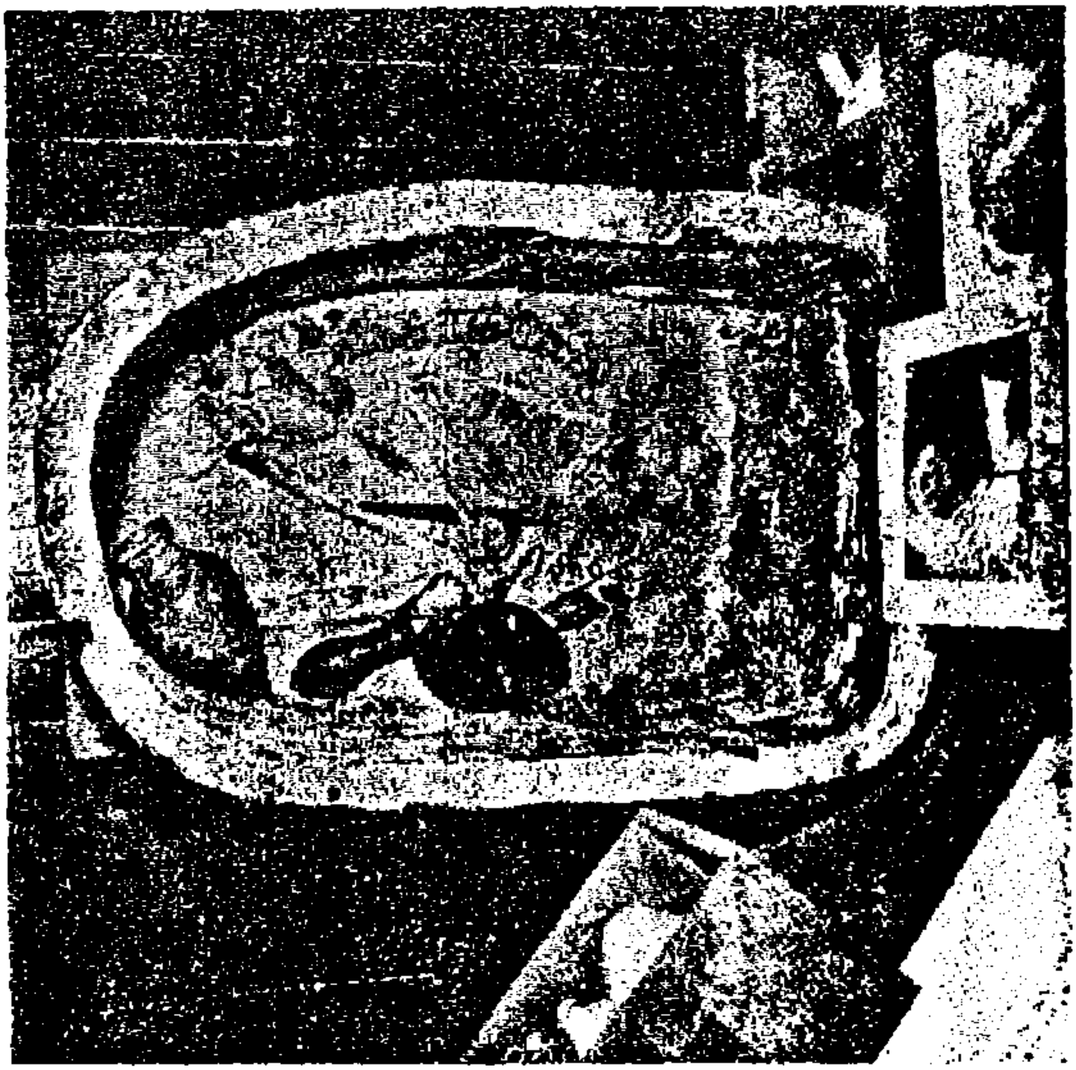

تابوت من الفخار على شكل حوض وأدواته ترجع الى عام ٦٠٠ قبل الميلاد
من نشرة دائرة الاعلام : حكومة البحرين

ويظن ان المقابر التي عثر عليها في جزيرة (ام النار) في (أبي ظبي) هي مقابر أقوام عاشوا في الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد عثر فيها على هياكل عظمية وعلى خرز وفخار عليه رسوم . وقد كسيت هذه المقابر وغطيت بحجارة منحوتة ، حفرت عليها صور ثيران وجمال وأفاعي وحيوانات أخرى . وقد نحتت

١ Cornwall, P. 87.

واجهة الحجر المحيطة بالصور لتظهر الصور بارزة عالية[1] . ويظهر من دراستها انها من عمل أيد أتقنت مهنتها ، وأجادت في فنها بالقياس الى تلك الأزمنة . وهي تحتاج الى دراسة لمعرفة مدى تأثرها بفنون الشعب الأخرى التي كان لها اتصال بهذه البلاد .

ان هذه المقابر تستحق الدراسة حقاً ، لأنها تتحدث عن وجود روابط فكرية مشتركة بين أصحابها ، وعن احتمال ارتباطهم بعقيدة دينية واحدة . ولا يستبعد أن تكشف بعض القبور السالمة التي لم تعبث بها أيدي البشر العاتية ، عن كتابات مطمورة في غرفها ، أو عن صور ونقوش ورموز تتحدث الينا عن هوية أصحابها وعن مكانتهم في التأريخ وفي الحضارة البشرية بالنسبة الى الأيام التي عاشوا فيها . وعندئذ نكون قد انتقلنا الى مرحلة جديدة من مراحل تأريخ العرب القديم ، لا نعرف اليوم من أمرها الا هذا النزر اليسير اللذي نتحدث عنه .

ولست أستبعد أيضاً احتمال عثور المنقبين في المستقبل على آثار أصحاب هذه المقابر في مواضع لا يمكن أن تكون بعيدة عنها ، اذ لا يعقل أن يكون ذوو أرحام الموتى قد سكنوا في مواضع قصية نائية عنها . وأن قوماً لهم هذه المهمة في عمل هذه القبور ، لا بد أن يكونوا على درجة من الحضارة . والمخلفات التي عثر عليها في بعض هذه القبور هي خير شاهد على ذلك . فقد عثر فيها على حلي وعلى أوان من الفخار وعلى آثار أخرى مصنوعة تظهر براعة في الصنعة والاتقان . ولا يستبعد العثور على أمثالها في مستوطناتهم متى عثر عليها .

هذا ، وقد عثر بعض السياح على قبور جاهلية في حضرموت وفي اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب،الا أن هذه المقابر هي أحدث عهداً من تلك ، ثم انها قبور نحتت في الصخور نحتاً ، ولم تعمل على هيأة تلال على النحو الذي وصفناه . ولـ (كارل راتجن) (Carl Rathjens) وصف مفصل لمقابر منحوتة زارها تقع على مقربة من مدينة (كوكبان) في اليمن . وهي كثيرة منحوتة في جانب الجبل ، منها المنفردة المنعزلة ومنها ما نحتت بعضها فوق بعض . وقد وجد أن أكثرها قد لعبت بها الأيدي ، فأخذت ما كان فيها ، فخلت من كل شيء . وقد عثر على كتابة سبئية عند أحد أبواب هذه المقابر ، مما يدل على

١ تقرير شامل عن الحفريات الاثرية في جزيرة « فيلكا » ، ١٩٥٨ — ١٩٦٣ م ، الكويت (ص ٢٤) .

انها كانت لقوم من سبأ[1]. ولا يستبعد بالطبع أن يكون أولئك الناس قد توارثوا هذا النوع من القبور من أسلاف لهم كانوا قد نحتوها .

وعلمنا بأحوال جزيرة العرب في العصور (البرنزية)، لا يزيد على علمنا بالعصور الحجرية فيها . فهي ضحلة يسيرة ، لأن ما عثر عليه من مخلفات تلك العصور ليس بشيء يذكر ولا يكفي لاستنباط آراء منه . ولا يستبعد بالطبع احتمال عثور المنقبين في المستقبل على آثار قد ترجع الى هذه العصور ستهتك الحجب التي تحول الآن بيننا وبين التعرف على تلك الحقب القديمة من تأريخ الجزيرة . وقد وجدت (البعثة الدانماركية) التي نقبت في جزيرة (فليكا) من جزر الكويت على آثار من هذه العصور[2] ، إلا أن ما عثر عليه لا يكفي لإعطاء رأي علمي كاف عن العصور البرنزية في هذه الأرضين .

وقد عثر في جزيرة (فيلكا) على آثار سكنى وبقايا أبنيــة وهياكل يرجع عهدها الى الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تبين أن هذه الجزيرة والجزر الأخرى الواقعة في الخليج كانت ملاجىء يلجأ اليها أصحاب السفن والتجار في تلك الأزمنة للاستراحة ولشراء ما يجدونه عند أهل السواحل المقابلة ، وللتمون بمــا يحتاجون اليه من ماء وزاد . ولأهميتها هــذه اهتمت بها وبالسواحل المقابلة لها حكومات العراق ، فاستولى عليها الأكاديون والآشوريون واليونان .

وقد عثر على مواد مصنوعة من حديد من العصر الحديدي ، غير أنها قليلة لا يمكن أن تكوّن لنا رأياً واضحاً من العصور الحديدية في جزيرة العرب .

وعثر على بقايا جماجم بشرية في (الظهران) تبين من دراستها وفحصها على أنها من العصور (البرنزية)[3] .

وتدل الأدوات المكتشفة عــلى قلتها على أن شعوب جزيرة العرب حتى في الأزمان البعيدة عن الميلاد كانت على اتصال بالعالم الخارجي ولا سيما العراق وبلاد الشام وحوض البحر المتوسط والقارة الإفريقية، وأنها كانت تستورد منها ما تحتاج

---

١ Carl Rathjens, Sabaeica, I, S. 105.

٢ تقرير شامل عن الحفريات الاثرية في جزيرة فيلكا ، ١٩٥٨ ــ ١٩٦٣ م الكويت مطبعة الحكومة ، من منشورات وزارة التربية والتعليم ، (ص ٩) .

٣ H. Field, Papers of the Peabody Museum, 48/2, (1956), 58, A. Grohmann, Arabien, S. 15.

اليه من مواد وتبيع لها ما عندها من ملح خام أو من ملح تستوردها من السواحل الإفريقية أو الهند ، وأنها لم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن بقية العالم .

والعراق وبلاد الشام ، أي الأرضون التي يقال لها (الهلال الخصيب) في الزمان الحاضر ، هي من الناحية الطبيعية وحدة لا يستطاع فصلها عن جزيرة العرب ، وامتداد طبيعي لها [1] . وليست البادية الواسعة التي تملأ باطن الهلال إلا جزءاً من جزيرة العرب ، وامتداداً لها ، لا يفصلها عنها فاصل ، ولا تجد بينها حدّ ، واذا ما تنقلت من بادية الشام الى بوادي المملكة العربية السعودية ، فلا تجد أمامك شيئاً يشعرك بوجود فروق بين طبيعة هذه الأرضين الواسعة ، أو وجود حواجز تمنع سكانها من الهجرة نحو الشمال أو الى الجنوب [2] . ولهذا كان من الطبيعي تنقل الناس في هذين الأرضين منذ وجدوا فيها وظهروا عليها بكل حرية ، وبحسب الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية .

وتأريخ ظهور العرب في بادية الشام وفي أطراف الهلال الخصيب ، تأريخ قديم جداً ، ولكننا لا نستطيع تحديد مبدئه ، ولا تثبيته ، لأننا لا نملك أدلة علمية تعينه وتحدده . ثم ان كلمة (العرب) لم تكن تعني عند الشعوب التي عاشت قبل الميلاد ، غير معنى (أعراب) ، وكانت اذا ما ذكرت لفظة (عرب) تقصد البدو على نحو ما ذكرت في الفصل الأول في تحديد معنى هذه اللفظة . أما العرب المستقرون ، أو شبه الحضر ، فقد عرفوا عندهم بأسمائهم ، ولهذا اشتبه أمرهم علينا ، وعسر على العلماء تعيين هوياتهم ، لعدم نص الكتابات أو الكتب القديمة على انهم عرب بمعنى جنس للسبب المذكور ، فصرنا في حيرة من أمرهم ، وفي التوراة أسماء قبائل كثيرة ، نسبت الى آباء وأجداد ، يجب أن تعد من العرب ، ولكن التوراة لم تطلق عليها لفظة (عرب) ، لأنها لم تكن قبائل بدوية وليست اللفظة فيها الا بهذا المعنى ، فحار العلماء في تعيين أصل كثير منها ، وما زالت حيرتهم هذه حتى اليوم . وليس من المستبعد أن يكون بين الشعوب القديمة شعوب عربية ، الا انها لم تعد من العرب لأن اللفظة لم تكن علماً على جنس قبل الميلاد .

---

١ الهلال الخصيب (Fertle Crescent) اصطلاح اطلقه « برستيد (H. Brested) لاول مرة بهذا المعنى ، على القوس المتكون من العراق وبلاد الشام .

٢ Franz Stuhlmann, Der Kampf um Arabien, S. I.

واذا ما أخذنا بنظرية القائلين ان جزيرة العرب هي مهد الساميين ، جاز لنا أن نقول عندئذ ان معظم أهل الخصيب والبادية هم من معمل تفريخ الجنس السامي الكائن في تلك الجزيرة ، وان ذلك المعمل هو الذي أمدّ هذه الأرضين الممتدة من ايران الى البحر المتوسط بسلالات الساميين . فصلة جزيرة العرب بالهلال الخصيب صلة قديمة ترجع الى الأيام الأولى من أيام الساميين ، على هذه النظرية ، وربما ترجع الى أقدم من تلك الأيام .

وسنرى فيما بعد أن حكام العراق كانوا قد استولوا على العروض في الألف الثالثة أو قبلها قبل الميلاد ، وانهم نزلوا في البحرين وفي جزر أخرى من جزر الخليج ، وان أصل الفينيقيين هو من البحرين في رأي كثير من العلماء ، منها هاجروا الى أرض (فينيقية) وسواحلها ، وما كان ذلك ليتم لو كانت جزيرة العرب بمعزل عن الهلال الخصيب أو عن بادية الشام ، أو ان الهلال والبادية كانا بمعزل عن جزيرة العرب .

وقد ذكر ان جماعة من تجار(أور) كانوا يتاجرون في حوالي السنة ٢٠٠٠ ق.م مع البحرين . وكانوا قد أنشأوا أسطولاً لنقل التجارة [١] . ويقال ان (سرجون) الأكادي استولى في حوالي السنة (٢٣٠٠ ق. م.) على البحرين وقطر ، وان البحرين كانت في حوالي السنة (١٧٥٠ ق. م.) في يد قبيلة اسمها (أكاروم) (أجارم) (Agarum) ، وهو اسم قريب من (أجرم) ، وانها كانت تدفع الجزية الى الملك (اسرحدون) [٢] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن(Agarum) هم أهل مدينة (هجر) التي هي الأحساء [٣] .

وقد كانت العلاقات التجارية مستمرة دوماً بين البحرين وبين العراق . إذ كانت (دلمون) محطة مهمة جداً للتجارة بين الهند وإفريقية وسواحل الخليج والعراق . تستورد الأخشاب من الهند ومن إفريقية كما تستورد الحاصلات الأخرى وتنقل النحاس من عمان ، فتبيع ذلك الى جنوب العراق ، وربما حملت تلك التجارات بسفن يملكها أهل (أور) أو غيرهم خلال نهر الفرات ، لنقلها من

---

١ P.V. Glob, Bahrain, Kuml, 1954, 103, Bahrains Oldtidshovedstad, Kuml, 1954, 169.

٢ Arabien, S. 257, H. Field, Ancient and Modern Man in Southwestern Asia, 108, Archiv fuer Orientforschung, 16, (1952-1953), 6-9.

٣ Arabien, S. 257

هناك الى بلاد الشام ومنها الى البحر المتوسط ليبيعها الى أهل اليونان وبقية أرجاء (أوروبة) . وقد تبين من الأخبـار التي تعود الى أيام الأسرة الثانية من أسر (أور) أن سفن ذلك الوقت (٢٢٠٠ – ٢١٠٠ ق . م) كانت تقوم برحلات منتظمة فيما بين البحرين و (أور) ، وذلك لنقل ما يرد الى هذه الجزيرة من نحاس ومن أحجار ثمينة من عمان ، ومن ذهب وأخشاب وأفاويه ومـواد أخرى ثمينة من الهند[١] .

وقد نزلت جاليات عراقية في البحرين ، كما هاجرت جاليات من البحرين الى العراق فسكنت بـه . وما الإلـه (انزاك) (Inzak) الذي عبد في جنوب العراق وشيدت المعابد باسمه ، إلا علامة على هجرة أهـل البحرين الى العراق ، وتأثر أهل العراق به . فهذا الإلـه هو إلـه أصله من آلهة أهل البحرين . وانتقال عبادته الى العراق دليل عـلى تأثر العراقيين بثقافة أهل البحرين ، ونقل أهل البحرين له معهم الى وطنهم الجديد .

وقد كانت البحرين ترتاح كثيراً عند انشغال أهل العراق بالتحارب فيما بينهم، أو بانشغال الحكومات المهيمنة عليه بمحاربة جيران العراق من الدول القوية الكبيرة، اذ تلهيهم تلك الحروب عن التفكير في السيطرة على البحرين وابتزاز الأموال من أهل الجزيرة ، وتكون مثـل هذه الظروف فرصة ثمينة للدلمونيين ، إذ يجدون أسواقاً رائجة تشتري منهم ما يأتون به الى جنوب العراق ، كما يجدون الحكومات مشغولة في معالجة مشكلاتها فلا تشتط كثيراً في أخذ الضرائب من أولئك التجار .

والكتابات الآشورية، هي أقدم سجل ، لا شك في ذلك ، يشير الى وجود (العرب) في الأرضين الواسعة الممتدة من الفرات الى مشارف بلاد الشام. ولكن العرب فيه هم أعراب ، لا أقل من ذلك ولا أكثر : أعراب متنقلون في الغالب، هائمون في البادية حيث الماء والكلأ والارتزاق من الغارات على الآشوريين وعلى غيرهم . والى هـذه الغارات يعود ، ولا شك ، فضل اضطرار الآشوريين الى الإشارة اليهم في تلك الكتابات ، ولولاها لما ذكروا فيها ولا أشير اليهم . وقـد وجد هؤلاء الأعراب قبل زمان هذا التسجيل بأمد طويل من دون ريب ، ومن يدري ؟ فقد يعثر على كتابات جديدة من زمن سحيق ، يسبق زمـن الكتابات

---

١ Belgrave, P. 55.

الآشورية ، يرد فيها شيء من الأعراب فترتفع بذلك معارفنا عنهم الى زمن أبعد من هذا الزمن المنصوص عليه في كتابات الآشوريين .

أما الموارد الإسلامية ، فقد اضطربت في تعيين الزمن الذي ظهر فيه العرب في بادية الشام ومشارقها وفي العراق ، ولكنها كلها لا تعرف تأريخاً يسبق التاريخ المذكور في النصوص الآشورية . وما ذكروه عن ظهور العرب في هذه البلاد ، فهو مأخوذ من قصص اسرائيلي . ويظهر من رواية (لهشام بن محمد الكلبي) أن العرب كانوا في أرض العراق في أيام (بختنصر) ، وانهم كانوا تجاراً يقدمون العراق للتجارات ، وذلك في أيام (معد بن عدنان) ، وان (بختنصر) جمع من كان في بلاده من العرب حين همّ بغزو العرب في جزيرتهم ، اذ نزل وحي من الله على (برخيا) ، فبنى لهم (حيراً) على النجف وحصنه ، ثم ضمهم فيه ، ووكل بهم حرساً وحفظةً ، ثم نادى في النـاس بالغزو . وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب ، فخرجت اليه طوائف منهم مسالمين مستأمنين ، فأنزلهم (بختنصر) السواد على شاطىء الفرات ، فابتنوا عسكرهم بعد ، فسموه (الأنبار) : وخلّى عن أهل الحيرة ، فاتخذوها لهم منزلاً . فهذا كان مبدأ نزول العرب في العراق[1] .

ويظهر من رواية أخرى (لابن الكلبي) كذلك ان الذي أنزل العرب في العراق هو (تبع) ، فالعرب الذين نزلوا الحيرة والأنبـار هم قوم يمانون . و (تبع) هذا حكم - على زعمه - بعد (ياسر انعم) ، الذي حـكم بعد بلقيس ، وهو (تبان أسعد) ، وهو (أبو كرب بن ملكي كرب بن تبـع ابن زيد بن عمرو بن تبـع) ، وهو (ذو الأذعار بن أبرهـة تبع ذي المنار ابن الرائش بن قيس بن صيفي بن سبأ) ، وكان يقال له (الرائد) . وقد خرج من اليمن حتى نزل على جبلي (طيء) (جبل شمّر) ، ثم سار يريد (الأنبار) . فلما انتهى الى (الحيرة) ليلاً ، تحير فأقام مكانه ، فسمي ذلك الموضع (الحيرة) . ثم سار ، وخلف به قوماً من (الأزد) و (لخم) و (جذام) و (عاملة) و (قضاعة) ، فبنوا وأقاموا به ، ثم انتقل اليهم بعد ذلك ناس من طيء وكلب والسكون و (بلحارث بن كعب) و (إيـاد) ، ثم توجه

---

١ الطبري (١/٢٩١) « المطبعة الحسينية » .

الى (الأنبار) ثم الى (الموصل) ، ثم الى (أذربيجان) ، فلقي الترك ، ثم انكفأ راجعاً الى اليمن . وأقام العرب في العراق . « ففيهم من قبائـل العرب كلها من بني لحيان وهذيل وتميم وجعفي وطيء وكلب »[1] . فهذا كان مبدأ نزول العرب السواد من أرض العراق .

وحكى (الطبري) رواية أخرى عن (ابن الكلبي) متممة للرواية الأولى عن نزول العرب أرض العراق ، خلاصتها : أن العرب الذين أسكنهم (بختنصر) الحيرة ، انضموا بعد وفاة هذا الملك الى أهل (الأنبار) ، وبقيت الحـيرة خراباً . فلما كثر أولاد (معد بن عدنان) ومن كان معهم من قبائـل العرب، وملأوا بلادهم من تهامة وما يليهم، فرقتهم حروب وقعت بينهم، وأحداث حدثت فيهم ، فخرجوا يطلبون المتسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام ، وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين ، وبها جماعة من (الأزد) كانوا نزلوها في دهر (عمران بن عمرو) من بقايا (بني عامر) ، فاجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب ، فتحالفوا على (التنوخ) ، وهو المقـام ، وتعاقدوا على التآزر والتناصر ، لصاروا يداً على الناس ، وضمهم اسم (تنوخ) . وتطلعت أنفس من كان بالبحرين من العرب الى ريف العراق ، وطمعوا في غلبة الأعاجم على ما يلي بلاد العرب منه ، أو مشاركتهم فيه ، واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختـلاف ، فأجمع رؤساؤهم على المسير الى العراق ، ووطن جماعة ممن كان معهم على ذلك ، فكان أول من طلع منهم (الحيقار بن الحيق) في جماعة قومه وأخلاط من الناس ثم أعقبتهم موجات أخرى استقرت في الحيرة والأنبار وغيرهما من الأماكن بعد أن تغلبوا على (الأرمانيين)[2] .

وروي عن (ابن الكلبي) أن (أردشير) لما استولى على الملك بالعراق ، كره كثير من (تنوخ) أن يقيموا في مملكته ، وان يدينوا لـه ، فخرج من كان منهم من قبائل (قضاعة) الذين كانوا أقبلوا مع (مالك وعمرو ابني فهم) و (مالك بن زهير) وغيرهم، فلحقوا بالشام الى هناك من قضاعة . ثم وصلت اليهم جموع أخرى من قبائل العرب، فكونوا ممالك وأمارات ، سوف أتحدث عنها[3].

---

١ الطبري (٣/٢) « المطبعة الحسينية » .
٢ الطبري (٥٩/٢) « المطبعة الحسينية » .
٣ ابـن خلدون (٢٧٨/٢) .

هذا ما وصل اليه علم الأخباريين عن العرب في الهلال الخصيب ، وهو علم لا يستند بالطبع الى نصوص عربية جاهلية ، وإنما أخذ من روايات شفوية ، وأخبار وردت على ألسنة الأخباريين ومن روايات أهل الكتاب .

ومن الخطأ بالطبع أن نتصور أن وجود العرب في بادية الشام وشاطىء الفرات وأطراف دمشق يرتقي إلى أيام الآشوريين ، أو قبل ذلك بقليل . فوجود العرب في هذه الأرضين هو أقدم من هذا العهد بكثير . وإذا كنا قد أشرنا الى وجودهم في المواضع المذكورة في هذا العهد ، فلأن الكتابات الآشورية هي أقدم كتابة وصلت الينا ووردت فيها إشارة الى العرب، وإلا فإن العرب هم في هذه الأرضين قبل هذا العهد بكثير . في عهد لا نستطيع بالطبع تعيين ابتدائه ، لأن هذه الأرضين هي امتداد لأرض جزيرة العرب ، والتنقل بينها وبين جزيرة العرب هو تنقل حرّ ليس له حاجز ولا حدود ، فلا نستطيع إذن أن نقول متى سكن العرب بادية الشام .

وقد لاقت القبائل العربية مقاومة شديدة وعنتاً شديداً من الحكومات التي حكمت العراق والحكومات التي حكمت بلاد الشام ، فقد وقفت تلك الحكومات منذ الدهر الأول لها بالمرصاد ، وأبت أن تسمح لها بالتوغل في داخل أرضها التي تحكمها حكماً فعلياً ، ذلك لأنها كانت تهاب الأعراب وتخشى من البداوة ، إذ لم يكن من السهل على البدو تغيير سننهم واقتباس سنن الحضر ، ثم إنهم كانوا يغيرون على الحضر وعلى الحدود لأخذ ما يجدونه أمامهم. وقد ترك غزو الأعراب للحدود أثراً سيئاً راعباً في نفوس الحكام جعلهم لا يتساهلون في دخول البدو الى أرض الحضارة ، ما دامت للحكام قوة ، ولم يتساهلوا معهم إلا بالوصول الى حدود الحضارة ومشارفها ، وذلك لأنهم نصبوهم حرساً لهم ، يمنع القادمين الجدد من البادية من الدنو من أرض الحضارة ، ويدافع عن الحدود ساعة الخطر ، ويهاجم مع القوات النظامية للحكومة الحاكمة أرض العدو في الحروب ، وفي أيام السلم لإلقاء الرعب والفزع في نفس العدو وإكراهه على تنفيذ مطلب يراد منه .

وقد اضطرت الحكومات الى دفع أكل وطعم وهبات وعطايا سخية لسادات القبائل الحرّاس في مقابل قيامهم بحراسة الحدود . إذ لم يكن في استطاعة تلك الحكومات القيام بها بنفسها ، ولا سيما في تعقب الأعراب وملاحقتهم في البوادي وغزو أعراب العدوّ ، فصارت لسادات القبائل جعالات سنوية وهدايا وألطاف

وبعض امتيازات لاسترضائهم وإسكاتهم ما داموا أقوياء أعزاء ، وجعلت معهم في بعض الأحيان حاميات من قوى تلك الحكومات عليها سياسيون وقادة لمراقبة أعمال سادات القبائل والحدّ من غلوائهم، ولمساعدتهم عند ظهور سيد آخر قوي منافس في الميدان يريد مهاجمة الحدود أو انتزاع الرئاسة من سيد القبيلة صاحب الامتيازات.

والحكومات هم عادة الى جانب سادات القبائل ما دام السادات أقوياء أعزاء. فإذا بدا الوهن عليهم ، وتبين أن الأمر قد أفلت من أيديهـــم ، وان سادات جدداً أصحاب كفايات وقُدَر ورؤساء أقوى من رؤساء القبائل القديمة قد برزوا في الميدان ، وقد أخذوا على أيدي السادات القدامى ، وأن المصلحة تقتضي الآن التحول من القديم الى الجديد ، تحولت تلك الحكومـــات الى السادات الجدد ، واتفقت معهم على شروط مرضية ، للقيام بأداء المصالح والواجبات المذكورة حتى يظهر منافس جديد ، يتطاول على القديم فيأخذ مكانه. وهذا هو سر تعدد حكم سادات القبائل ، وانتزاع قبيلة الحكم من قبيلة أخرى ، وتغير حكم (آل فلان) و (آل فلان) ، وحلول حكم قبلي محل حكم قبلي سابق.

وسادات القبائل هم على هذه السنة أيضاً ، فكانوا اذا وجـــدوا ضعفاً في الحكومة المهيمنة على العراق أو على بلاد الشأم وأدركوا انها في وضع حـــرج، تقدموا اليها بمطالب جديدة وبشروط جديدة ، تكون متناسبة مع حراجة الموقف. فإذا لم تجب قام سيد القبيلة بتهديد مصالح الحكومة وبغزو أرضها أحياناً ، وقد يفاوض العدو للاتفاق معه عليها ، وقد يثور ويخرج عن طاعتهـا ، ويظل هذا شأنه حتى تجاب مطالبه ، أو يتفق معها على شروط يرضى عنها . وينطبق هذا الوضع على الأعراب الذين يجاورون الحضر ، فعلى الحضر دفع جعالة الى سيد الأعراب في مقابل حمايتهم لهم ومنع القبائل الأخرى المجـاورة من الإغارة على أولئك الحضر . وبتقييد هؤلاء السادة بعهودهم مع الحضر ما دامت في مصالحهم. أما اذا رأوا أن الحضر في وضع حرج وأن الحكومة التي ترعاهم ، أو حكومة المدينة ضعيفة غير قادرة على الدفاع عن نفسهـا ، فإن الأعراب يفرضون على الحضر مطالب جديدة ، ويأخذون منهم امتيازات اضافية مثل حق الارتواء من الآبار ومن مجاري الماء ، وحق رعي ماشيتهم في زرع الحضر ، الى غـير ذلك من شروط ، يضطر الحضر الى الموافقة عليها للمحافظة على حياتهم وأموالهم ، والا تعرضوا للغزو ولكوارث أخرى قد تنزل بهـم أضراراً تزيد على ما يطلبه

الأعراب منهم بكثير .

وللسيطرة على حركات الأعراب ولضبطهم ، أقامت حكومات العراق وبلاد الشأم لها (مسالح) ، أي مواضع حصينة تعسكر فيها قوات نظامية في البادية، يترأسها ضباط ، وضعت فيها كل ما يحتاج اليه من سلاح ومؤن وذخائر وقوات كافية للقيام بمثل هذه المهمات الخطيرة في البوادي . وقد حفرت لها آباراً للارتواء منها . ونصب ضباط هذه الحصون أنفسهم حكاماً يتحكمون في البوادي التي يشرفون عليها ، يفضون مشكلات القبائل ، ويحافظون على الأمن ، ويراقبون تحركات الأعراب وتنقلاتهم ، ليكونوا على حذر منهم ومن غزواتهم المفاجئة للحدود . وقد بقيت هذه (المسالح) الى أيام فتوح المسلمين للعراق ولبلاد الشأم . وكان من واجبات هذه الحصون توزيع الأرزاق على الأعراب أيام الشدة والضيق ، والتقرب الى سادات القبائل ، وعقد صداقات معهم ليستفاد منهم في كبح جماح أتباعهم ، ويحولوا دون تحرشهم بهم ، ولئلا يقوموا بمهاجمة الحدود.

وكان أقصى مكان سمح للعرب بالوصول اليه هو الشاطىء الغربي لنهر الفرات، وحدود الحضارة لبلاد الشأم وأعالي البادية ، أي قصر البادية الأعلى. أما ما وراء ذلك ، فكان من الصعب على العرب الوصول اليه ، لتشدد الحكومة في منعهم من الدنو منه ، وتصلب الحضر تجاههم . ولم يدخله من العرب الا أفراد أو جماعات تنكرت للبادية ولسننها ، وكفرت بسنة الغزو ، ورأت في الزراعة وفي احتراف الحرف شرفاً لا يقلّ عن شرف رعي الإبل والتنقل بها من مكان الى مكان . أما الذين وقفوا عند هذه الحدود ، وهم السواد الغالب ، فقد بقوا على سنن البادية، مخلصين لها مؤمنين بحق الغزو والقوة ، الا من اشتم رائحة الحضارة وتنفس قليلاً من ريح الحضارة ، وجاور الفرات ومشارف الشام ، حيث تلوح معالم الحضر ، فقد طوّر نفسه بعض التطور ، واستقر في الأرض بعض الشيء وصار وسطاً بين الحضارة والبداوة ، لا هو حضري كمل الحضري ، ولا هو أعرابي تام الأعرابية ، وانما وسط بين بين ، ومنزلة بين المنزلتين .

ولم يكن من الممكن للأعرابي أن يدرك قيمة الزرع والغرس وحياة الاستقرار لأن الماء وهو جوهر الزرع غير متوافر لديه ، ولأن الأمن غير موجود عنده ، فهو متى زرع واستقر وكون مجتمعاً حضرياً صغيراً ، هاجمه من هم على شاكلته من أهل البادية وسلبوه كل ما لديه . ومجتمعه مجتمع صغير لا يستطيع الاعتماد

على نفسه والركون الى قوته في صد عادية الغزاة ، لذلك حالت هذه الظروف دون السكنى والزرع والاستقرار . إلا في الأماكن التي وجدت فيها مياه ، وتوافرت لديها القوة ، كما لم يكن من السهل على سادات القبائل اكراه أتباعهم على الاستيطان والسكنى في بيوت من مدر ، ذلك لأنهم هم أنفسهم أبناء بادية، وآراؤهم آراء أعرابية ولا يفكر في هذه الشؤون إلا من كان حضرياً مستقراً ومن ولد ونشأ وتثقف في أرض الحضارة . ثم إن تنفيذها يستدعي وجود مال وأمن وقوة رادعة تمنع الأعراب من إفساد ما يقوم به الحضري من عمل مجهد . ولم تكن هذه متوافرة عند سادات القبائل ، ولم يكن في وسع سيد القبيلة الذي يجب أن يكون محترساً يقظاً حتى لا يفاجئه منافس طامع من أهل البادية فيأخذ مكانه ، أن يأمر قومه بالاستيطان ، ووضعه على هذه الحالة من القلق وعدم الاستقرار . لذلك قضت طبيعة هذه البيأة على غالبية الأعراب التي جاءت الى هذه الأماكن بأن تعيش عيشة أعرابية أو عيشة رعي ، تعيش على ماشيتها بدلاً من الاستقرار استقراراً دائماً والاشتغال بالزراعة والاتجار بالزرع .

لقد كانت القبائل العربية قد توغلت في (طور سيناء) منذ القدم . ولا بد أن تكون هذه القبائل قد نزلت مصر أيضاً ، فمن يصل الى (طور سيناء) يكون قد طرق أبواب مصر . ذهبت تلك القبائل الى مصر تحمل اليها ما عندها من سلع ، وفي جملتها البخور والمر والحاصلات الأخرى التي عرف العرب بالاتجار بها ، غير أننا لا نملك وياللأسف نصوصاً تأريخية نستطيع أن نعتمد عليها في اثبات ذلك الاتصال . نعم ، عثر على صور ومدونات مصرية للسلالات الملكية الأولى ، تشير الى البدو ، والبدوي هو (عمو) في اللغة المصرية[1] . غير أننا لا نستطيع أن نؤكد أن أولئك البدو ، هم أعراب من أعراب طور سيناء ، أو من بدو مصر أو من أعراب جزيرة العرب .

والذين يتحدثون اليوم عن صلات السلالات الملكية المصرية القديمة بالعرب وببلاد العرب ، إنما يتحدثون عن حدس وتخمين ، لا عن وثائق ونصوص أشير فيها صراحة الى العرب والى بلاد العرب ، وإن كنا لا نشك كما قلنا بوجوب وجود صلات قديمة جداً ربطت بين مصر وبلاد العرب ، لا سيما أن مصر متصلة

---

١ Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol. I, 450, 483, O'leary, Arabia, P. 28, Naval, P. 214.

فعلاً بجزيرة العرب من ناحية البر عن طريق (طور سيناء) ، ثم إنها على الساحل المقابل للجزيرة ، فلا بد أن يكون هناك اتصال بري وبحري قديم بين العرب والمصريين . ولا يستبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على آثار قد تتحدث عن هذا الاتصال .

يظهر من أقوال (هيرودوتس) و (بلينيوس) ، وغيرهما من (الكلاسيكيين) ، ان الأقسام الشرقية من (مصر) ، ولا سيما المناطق المتصلة بـ (طور سيناء) كانت مأهولة بقبائل عربية . وقد ذكرت أسماء عدد منها في كتب هؤلاء[١] . ولم تستقر هذه القبائل في أيام هؤلاء (الكلاسيكيين) ، بل سكنت قبلهم بأمد طويل كما يظهر ذلك من كتبهم . وقد أطلق (الكلاسيكيون) على البحر الأحمر اسم (الخليج العربي) (Arabici Sinus) (Sinus Arabicus) ، وفي هذه التسمية معنى يشير الى نفوذ العرب وهيمنتهم على هذا البحر[٢] .

ومعارفنا بصلات العرب بالحكومات العراقية القديمة ، مثل حكومة السومريين والأكديين (الأكاديين) ، لا تزيد على معارفنا المذكورة بصلات المصريين بالعرب ، فهي حتى الآن قليلة ضئيلة ، ولكن ضآلة ما لدينا من معلومات لا يمكن أن تكون سبباً في الحكم بعدم وجود صلات وثيقة بين سكان الخليج وسكان العراق ولا سيما القسم الجنوبي منه في أيام السومريين ، بل وقبل أيامهم أيضاً ، فالعراق هو امتداد طبيعي لتربة ساحل الخليج ، وهو جزء طبيعي من جزيرة العرب . وهو من ثم لا يمكن أن يكون بمعزل عن أرض الساحل وعن بقية أرض جزيرة العرب .

وقد يكون لاسم أرض (دلمون) ، وهي أرض السلامة والنظافة ، والأرض التي لا تعرف الموت ولا الأمراض والأحزان ، والتي لا ينعب فيها غراب ، ولا ترفع الطيور أصواتها بعضها فوق بعض ، والتي لا تفترس أسودها ، ولا يأكل ذئب فيها حملاً ، الجنة في الأسطورة السومرية، علاقة بـ (دلمون) التي هي جزيرة البحرين في لغة قدماء أهل العراق . وقد حول الخيال السومري ، أو خيال من عاش قبلهم على تلك الأرض الى أرض مسالمة مثالية لا قتال فيها ولا موت

١ Herodotus, Vol. I, P. 118, 120, 190, 196, Pliny, Natr. Hist. Vol. II, Bk. VI, 165 P. 463ff.

٢ Forster, II, 154.

ولا حزن ، استمده من تلك الجزيرة المسالمة الواقعة في الخليج[1] .

ويحدثنا نص كتب عن فتوحات (لوكال – زكه – سي) (Lugal-Zagge-Si) (٢٤٠٠ – ٢٣٧١ ق. م.) ، وهو من رجال السلالة الثالثة من ملوك (الوركاء) (Uruk) ، أن فتوحاته كانت قد امتدت من (البحر الأسفل) (الخليج العربي) الى (البحر الأعلى) (Upper Sea) ، أي البحر المتوسط. ومعنى هذا ان حكمه كان قد شمل الخليج العربي[2] .

وفي أخبار (سرجون) الأكدي، المعروف بـ (شروكين) (Sharru-Kin) (٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق. م) ، أي العادل، أن فتوحاته بلغت (البحر الجنوبي) (البحر التحتاني) (البحر الأسفل) ، أي الخليج العربي ، وأنه استولى على مواضع منه[3] . و (سرجون) ، هو أقدم ملك أكدي ، يقص علينا خبر وصول الأكديين الى تلك الجهات .

ويلاحظ أن قدماء العراقيين كانوا يطلقون على البحر المتوسط (البحر الأعلى)، وعلى الخليج العربي (البحر الجنوبي) (The Lower Sea) [4] . وذهب بعض العلماء الى أن المراد من (البحر الأعلى) بحيرة (وان)[5] .

وقد أرسل الملك الأكدي (منشتوسو) (Manishtusu) (٢٣٠٦ – ٢٢٩٢ ق. م) حملة عسكرية بحرية،يظهر أنها ركبت السفن من الجزء الجنوبي الغربي من ايران من (شريكم) (Shirikum) ، فعبرت الخليج (البحر الأسفل) الى الساحل المقابل ، أي الساحل الشرقي لجزيرة العرب . ولما وصلت سفنه الساحل ، تجمع ملوك (المدن) ، وبلغ عددهم (٣٢) ملكاً ، وقرروا محاربة جنوده ، غير أن جنوده انتصروا – كما يقول ملك أكد – على جنود ملوك المدن ، وانـدحر أهل الساحل ، واضطروا الى الاستسلام والخضوع ، وسلمت تلك المدن له . وبذلك فرض سلطان (أكد) عليها الى موضع (مناجم الفضة) . وقد استولى على الجبال جنوب (البحر الأسفل) ، وأخذ ما وجد

---

١ Ancient Iraq, P. 94.

٢ Ancient Iraq, P. 122.

٣ Ancient Iraq, P. 129.

٤ W. F. Leemans, Trade in the Old Babylonian Period, P. 4, Leiden, 1960.

٥ Reallexikon der Assyriologie, I, Funfte Liefrung, S. 374.

فيها من أحجار ، فصنع منها تماثيل قدمها نذراً للإله (انليل) (Enlil)[1] .

وأغلب الظن أن مراد الملك من الجبال أسفل (البحر الأسفل) هي أرض عمان ، وهي أرض متصلة من البحر بالبحرين وبالعراق من البر والبحر ، كما أن تحرك السفن من جنوب غربي ايران ، أي من الأرض العربية المسماة بـ (عربستان) في الزمن الحاضر الى الساحل المقابل ، أي ساحل جزيرة العرب الشرقي ، يحمل الذهن الى أن الجبال التي ذكرها الملك هي جبال عمان ، وإذا صح هذا الرأي،يكون هذا الملك الأكدي قد وصل في فتوحاته الى أرض عمان .

وجاء في كتابة مدوّنة على تمثال الملك (نرام سن) (نارام سن) (نارام سين)[2] (٢٢٩١ – ٢٢٥٥ ق. م)[3] . أنه أخضع موضع (مكان) مجان (مقان) (Magan) ، وتغلب على ملكه (مانو) (مانيوم) (Manium) (مانوداتو) (Mannu-Dannu) ، وأسره[4] .

ويظهر أن أهل (مجان) (مكان) ، وهم قوم لم يشر الى اسمهم (منشتوسو) والد (نارام سن) (Naram-Sin) ، وهم أهل عمان في رأي أكثر العلماء – كما سأتحدث عن ذلك بعد قليل – كانوا قد ثاروا على العراقين الأكديين الذين أخضعهم لحكمه والد (نارام سن) ، وذلك في أيامه أو في أواخر أيام والده ، فأرسل لذلك (نارام سن) حملة تأديبية قضت على ثورتهم وأعادتهم الى حكم الأكديين، وعاد بذلك ساحل الخليج العربي من عمان الى أعلاه ، فصار جزءاً من مملكة أكد .

وقد ورد اسم (مكان) (مجان) في نصوص سومرية وأكادية ، نشر

---

١ G.A. Barton, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1924, P. ff. Ancient Iraq, P. 131.

٢ نحو « ٢٣٠٠ ق . م » حتى (ص ٤٣) الترجمة العربية ، و (٢٤٠٠ ق .) في الطبعة الثالثة باللغة الانكليزية (ص ٣٦) ، – (٢٧٣٠ ق . م) في :
Rostovtzeff, A History of the Ancient World, Vol. I, Oxford 1930, P. 397, ancient Iraq, P. 132.

٣ L.W. King, Studies in Eastern History, II, "Chronicles concerning Early Babylonian Kings," Vol. I, P. 8, 51, 52, Vol. II, P. 10, 38, 39.

٤ King, I, P. 51, The Cambridge Ancient History, Vol. I, P. 415, Cambridge, 1923, Bruno Meissner, Koenige Babyloniens und Assyriens, S. 31, King, Vol. II, P. 10, 38 39.

بعضها العلماء ، منها نص للملك (شلجي) أو (دلجي) أو (ونجي) الملقب بـ (ملك سومر وأكاد) أفاد وجود صناعة بناء السفن في هذا المكان[1]. والواقع ان أهل الساحل الشرقي لجزيرة العرب عرفوا ببناء السفن منذ القدم ، وقد ركبوا البحار ، وتاجروا ، وتوسطوا في نقل التجارة من مختلف السواحل ، ولا تزال صناعة بناء السفن الشراعية معروفة حتى اليوم مع قلة ربحها ، وعدم تمكنها من منافسة البواخر ، الا انها على كل حال مورد رزق لأصحابها لاقتناعهم بالقوت القليل .

ويدل عثور المنقبين على أختام ومواد أخرى من عمل الهند ، في(اور) وفي (كيش) و (البحرين) ومواضع أخرى من الساحل العربي الشرقي على أن الاتصال التجاري بالبحر كان معروفاً في الألف الثالثة قبل الميلاد ، وأن حركة الاتصال هذه كانت مستمرة عامرة ، وان بعض مواضع الخليج مثل (البحرين) كانت من مراسي السفن الشهيرة في تلك الأيام ، تقصدها السفن القادمة من العراق في طريقها الى الهند ، والسفن القادمة من الهند في طريقها الى العراق[2] .

وقد دعيت (مكان) (مجان) في نصوص أخرى (Matu-Ma-Gan-Na) أي (أرض مجان)[3] . ويظهر ان الملك (مانيوم) (مانثوم) (مانوم) هو الملك (منودنو) (Mannu-Dannu) نفسه الذي ورد في نص آخر[4] . وقد كتبت على التمثال لفظة (بلو) (Belu) بمعنى (سيد) ، أي سيد (مجان) ، وهو (مانيوم) . وقد جيء بحجر التمثال من (مجان) . وتعني كلمة (دنو) (المقتدر) ، ولذلك يرى بعض الباحثين انها صفة ألحقت بالاسم ، فهي لقبه، وليست جزءاً من الاسم[5] .

---

١ S.H. Langdon, The Cambridge Ancient History, Vol. I, P. 415, 437, F. Thureau-Dangin, Die Sumerischen und Akkadischen Koenigsinschriftten, Bd. I, S. 66, 72, 76, 78, 104, 106, 134, 164, 166, H.R. Hall, The Ancient History of the Near East London, 1947, P. 190, Ancient Iraq, P. 142

٢ C. J. Gadd, Seals of Ancient Indian Style found at Ur, PBA, XVIII, P. 191-210, Sir M. Wheeler, The Indus Civilization, P. 85, Leemans, P. 5.

٣ King, II, P. 38, 39.

٤ King, I, P. 8, 51, 52, De Morgan, Délégation en Pers, Mémoires VI, P. 2 1905.

٥ King, I, P. 52, Cambridge Ancient History, I, P. 415.

وفي أنباء (جوديا) (غوديا) (Godea) ، وهو (باتيسي) مدينة (لكش)[١] ، انه جلب الحجر من (مجان) ، وذلك لصنع التماثيل ، كما جلب الخشب منه ومن (دلمون)[٢] . وذكر مع موضع (مجان) اسم موضع آخر هو (ملوخا) . وقد ذكر (جوديا) (غوديا) انه جلب كميات كبيرة من (حجر أحمر) من (ملوخا)[٣] . وقد أخذ العلماء في تقصّي هذين المكانين اللذين أخذ منهما هذا الـ (باتيسي) أحجاره وأخشابه ، وكذلك أسماء مواضع أخرى ذكرت مع المكانين[٤] .

وقد بحث (ونكلر) عن موضع (مجان) ، ويقع على رأيه في الأقسام الشرقية من جزيرة العرب[٥] . وقد نبه على اقتران اسم (ملوخا) باسم (مجان) في الغالب ، ويرى انهما اصطلاحان يقصد بهما في البابلية القديمة بلاد العرب ، فيراد من (مجان) القسم الشرقي من الجزيرة من أرض (بابل) الى الجنوب . وأما (ملوخا) ، فيراد بها القسم الشرقي من جزيرة العرب . ويرى أيضاً ان ما وقع في جنوب المنطقتين عرف باسم (كوش) أي الحبشة ، وان البابليين لم يكونوا يتصورون بلاد العرب شبه جزيرة تحيط بها البحار من الشرق والجنوب والغرب ، بل تصوروها منطقة واسعة تمتد من الحبشة الى الهند ، وان (كوش) تقابل مصر التي هي القسم الشمالي من جزيرة العرب . فما ذكر عن (كوش) ومصر في التوراة ، لا يقصد به الحبشة ومصر ، بل يقصد به جزيرة العرب وشمالها . وقد جاء على ذلك بأمثلة من العهد العتيق ، ذكر أن من الصعب ان يكون المراد بها مصر والحبشة .

وقد ألف (ونكلر) رسالة سمّاها (مصري وملوخا ومعين) بيّن فيها رأيه في أن (مصري) هي أرض عربية شمالية ، وأن مصر المذكورة في التوراة

---

١ « باتيسي » ، في السومرية في مقابل كلمة « اشاكو » (Ischakku)
و«لكرب» اي الحاكم الكاهن ، الذي يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية
٢ Schrader, Die Keilschriften und das Alte Testament, S. 15. ff.
وسيكون رمزه : KLT
٣ Ancient Iraq, P. 141.
٤ « مجان وملوخا ، جمعتا الخشب من جبالهما .... وجوديا جلب الخشب منهما الى مدينة جرسو » ، Ancient Iraq, P. 141.
٥ KLT, S. 15.

هي في بلاد العرب ، لا في إفريقية . وقد أثارت نظرية (ونكلر) هذه جدلاً بين العلماء وقوبلت بنقد شديد ، لأنها تعارض ظاهرة نصوص التوراة[١] :

وذهب آخرون الى أن (مجان) هي في المنطقة المسماة (Gerrha) عند (الكلاسيكيين) ، وهي الأحساء ، وأما (ملوخا) فتمتد من المنطقة الواقعة الى الجنوب من البحرين الى عمان[٢] . وقد اشتهرت (ملوخا) بوجود الذهب فيها[٣] . ومنها حصل (جوديا) (Gudea) (غوديا) على الذهب[٤] ، كما اشتهرت بالخشب الثمين المسمى (Uschu) [٥] . وأما (هومل) ، فيرى أن (مجان) في الأقسام الشرقية من جزيرة العرب ، وأن (ملوخا) تقع في وسط جزيرة العرب ، أو في القسم الشمالي الغربي منها .

وذهب (جيسمن) الى احتمال وقوع (مجان) على مقربة من ساحل الخليج ، في موضع في الرمال جنوب (يبرين) ، فيه بئر جاهلية ، قال إن اسمها قريب من (مجان) (Magan) ، ويعرف هذا المكان باسم (مجيمنة)[٦] .

وقد عارض (فلبي) رأي (جيسمن) هذا ، لأن الموضع المذكور يقع في منطقة صحراوية بعيدة عن ساحل البحر ، ولا توجد فيه آثار عاديات تشعر أنه كان من المواضع الجاهلية العتيقة ، ولا صخور من نوع (الديوريت) الذي صنع منه تمثال (نرام – سين) ، ولا أي نوع آخر من الصخور ، يبعث على الظن أنه المكان الذي نقلت منه الحجارة الى العراق . وقد رأى (فلبي) أن موضع (مجن) ، الواقع على مقربة من الساحل عند مصب وادي (شهبة) ، هو أقرب الى (مجان) من الموضع الذي اختاره (جيسمن) ، ولهذا ظن أنه هو المكان المقصود[٧] .

ويرى (موسل) أن من الصعب جداً الاتفاق على تعين موضعي (مجان)

---

١ Hugo Winckler, Musri, Meluhha, Main, Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, 1898, I, Berlin, "hefte.

٢ O'leary, P. 47.

٣ O'leary, P. 49.

٤ Thureau-Dangin, Die Sumerischen und Akkadien Koniginschriften, Leipzig, 1907, S. 70.

٥ Fr. Hommel, Grundriss, I, S. 13, Arnorld T. Wilson, The Persian Gulf, Oxford, 1926, P. 28.

٦ Philby, The Empty Quarter, P. 119. ff.

٧ Major Cheesman, In Unknown Arabia, P. 266.

و (ملوخا) ، لأن مدلولي الاسمين قد تغيرا تغيّراً مراراً . فالذي يفهم من نصوص الألف الثالثة قبل الميلاد ، أنهما يقعان في جزيرة العرب عـلى سواحل الخليج وعلى سواحل المحيط الهندي . فـ (مجـان) في نص (نرام — سين) أرض تحـد إقليم (بابل) ، أو هي لا تبعد عنه كثيراً [1] . وهي كذلك في كتابة (جودية) (جوديا) (غوديا) . وفي بعض النصوص التي عثر عليها في (اور) حيث أشير الى طريق قوافل يوصل من (السوس) الى (مجان) [2] ؛ وهذا مما يبعث على الظن أن أرض (مجان) و (ملوخا) المذكورتين في نصوص الألف الثالثة قبـل الميلاد تقع على الخليج ، في الأرضين التي سكن فيهـا الـ (جرهائيون) (Gerrhaens) [3] . وقد كان سكان هذه السواحل يتاجرون منذ القديم مع الهنـد وايران والسواحل العربية الجنوبية ، ومع إفريقية أيضاً ؛ ويرى احتمال شمول اسم (ملوخا) منطقة واسعة تشمل ما يسمى (كوش) في التوراة ، والسواحل العربية الجنوبية التي كانت تعرف بـ (كوش) كذلك [4] .

ويرى (موسل) أن مدلول (مجان) قد توسع في الألف الأول قبل الميلاد فشمل منطقة كبيرة شملت مصر أيضاً ، فعنى في النصوص الآشورية التي ترجع الى الألف الأول قبل الميلاد بـ (مجان) طور سيناء والأقسام المتاخمة لها من مصر ، والى هذا الرأي ذهب (مايسنر) كـذلك [5] . أما (ملوخا) ، فقد قصد بهـا الحبشة والسودان . وقد توسع مدلول (حويلة) المذكور في التوراة أيضاً ، فشمل المنطقة التي تقع غرب (بابل) الى طور سيناء والسواحل الشرقية الواقعة عـلى خليج العقبة . ولهذا ظن بعض العلماء أنها صارت تعني (ملوخا) [6] .

وقد ذهب (كيتاني) الى أن (مجان) هي (مدين) ، لأن أرض (مدين) كانت في حوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد كثيفة الأشجار ، وكانت تصـدر الأخشاب التي تصلح لبنـاء السفن . ومن مدين أخذ البابليون الذهب والنحاس

---

١ Musil, Negd, P. 306. ff. British Museum Tablet, 26, 472, K. 2130.

٢ Musil, Negd, P. 307.

٣ Musil, Negd, P. 307.

٤ Musil, Negd, P. 307.

٥ Konige, S. 31, Musil, Negd, P. 307.

٦ Musil, Negd, P. 307.

والأخشاب . أما (موسل) ، فيعارض هـذا الرأي ، ويرى أن من الصعب تصور نقل الأكديين والسومريين والبابليين الأخشاب والصخور الثقيلة من مدين على ظهور الجمال الى بلادهم مع اتساع الشقة وبعد الطريق ، ويرى أن من الصعب تصور نقلها في البحر الأحمر فالبحر العربي فالخليج ، فإن ذلك يستدعي زمناً طويلاً ومتاعب كثيرة ، ثم إن النصوص لم تشر الى ذلك . فمن المعقول أن تكون (مجان) في العربية الشرقية على ساحل الخليج[1] .

ويرى (كلاسر) أن (Magon Kolpos) الذي ذكره (بطلميوس) لا يعني (خليج المجوس) (Magorum Sinus) حتماً ، إذ يجوز أن يكون المراد منه (مجان) (Magan) ، أي موضع (مجان) الذي نتحدث عنه[2] . ويقع – في رأيه – على ساحل الخليج ، وربما كان عند (القطن) (قطن) . ويحتمل – في رأيه أيضاً – أن يكون (Maka) المذكور في نص (دارا)[3] .

ويرى (أوليري) أن (مجان) هي (Gerrha) ، وتمثلها الأحساء في الزمن الحاضر . أما (ملوخا) (Meluhha) ، فتقع – في رأيه – جنوب الأحساء ، في عمان . وقد استدل على ذلك بنص دوّن في عهد (سرجون) (٧٢٢ – ٧٠٥ ق. م.) ، جاء فيه أن مملكته بلغت مسيرة ١٢٠ (بيرو) من سقي نهر الفرات الى (ملوخا) على ساحل البحر[4] ، وأن موضع (دلمون) (Dilmun) يقع على مسافة ٣٠ (بيرو) من رأس الخليج[5] . فيجب أن يكون موضع (ملوخا) اذن بعد موضع (دلمون) . ولما كان موضع (دلمون) هو (تيلوس) (Tylus) في رأي أكثر العلماء ، أي البحرين ، فإذن تكون أرض (مجان) وأرض (ملوخا) في العرض ، وفي المواضع المذكورة[6] . وذهب

---

١ المصدر نفسه .

٢ Glaser, Skizze, II, S. 223. f. Forster, I, P. 298, 306, II, 215.

٣ Skizze, II, S. 225.

٤ Schroder, Keilinschr. Verschiedenen Inhalts, No. 92, O'leary P. 46.

٥ « بيرو » ، وفي القراءات القديمة « قصبو » (قصبة) ، Kaspu ، عوضاً عن (بيرو) وهي مقياس للمسيرات ، سومر ، الجزء الثاني ، ١٩٤٩ ، من المجلد الخامس (ص ١٣٤) .

٦ O'leary, P. 46, ff.

بعض آخرون الى احتمال أن يكون (مجسان) (مكان) في العربية الشرقية في موضع عمان[1] .

وقد ذكر الملك (شروكين) (Sharrukin) ملك آشور أن في جملة الأرضين التي خضعت لحكمه أرض (تلمون) (Tilmun) و (مجانا) (مجان) (مجنا) (Maganna) ، وتقع في البحر الجنوبي ، ويريد به الخليج . ويشير الى انه فتح هذه الأرضين بيده ، وذلك قبل الميلاد بمئات السنين (١٩٨٠ ؟ – ١٩٤٨ ؟ ق. م.)[2] . وقد رأى (ينسن) (P. Jensen) أن المراد بـ (تلمون) جزيرة (قشم) ، على الرغم من ذهاب أكثر الباحثين الى انها البحرين . وأما (مجان) فإنها في نظره أرض (عمان)[3] .

وجاء اسم (ملوخا) (ملوخه) (Melluhha) واسم (تلمون) (Tilmun) في جملة أسماء الأرضين التي كان يحكمها ملك آشور (توكولتي نينورتا) (Tukulti-Ninurta) ، وقد نعت نفسه بـ (ملك كردونيش) (Karduniash) وملك سومر وأكاد ، وملك سيبار (Sippar) وبابل ، وملك تلمون وملوخا ، وملك (البحار العالية) و (البحار التحتية) ، وقصد بجملة (البحار العالية) (بحيرة وان) على ما يظهر ، وتقع أعلى آشور ، وبجملة (البحار التحتية) البحر الذي يقع أسفل مملكة آشور ، أي في جنوبها ، ويظهر انه أراد به الخليج العربي . ومعنى ذلك انه حكم منطقة واسعة امتدت رقعتها من (بحيرة وان) حتى الخليج ، وفي ضمنها (البحرين) والسواحل الواقعة الى غربها ، وهي سواحل (ملوخا) (ملوحا)[4] .

دلمون :

وبجرنا الحديث عن (مجان) و (ملوخا) الى الحديث عن موضع آخر ورد في النصوص (الأكدية) و (السومرية) و (الآشورية) ، هو موضع

---

١ Leemans, P. 12.

٢ Reall. I, Dritte Lieferung, S. 237, 240.

٣ المصدر نفسه .

٤ Reall. I, Funfte Lieferung, S. 374, Berlin, 1931.

(ني – تلك) (Ni-Tuk) (Ni-Tuk-Ki) وهو (دلمون) (Dilmun) أو (تلمون) (Tilmun) [١] . وقد اشتهر بتمره وخشبه ومعادنه مثل النحاس والبرنز ، وكانت فيه مملكة يرأسها ملوك[٢] . وقد رأينا ان (جوديا) (Gudea) كان قد أشار اليه والى موضع (مجان) ، وقد ذكر انه استورد الخشب منه ، كما رأينا اسم هذا المكان في ضمن الأماكن المذكورة في نص (سرجون) ، وقد ورد أيضاً في نص للملك (آشور بانبال)[٣] . وفي نص للملك (سنحاريب) (سنحريب) ، وقد ذكر هذا الملك انه بعد أن تمكن من (بابل) ودكها دكاً ، عزم على ضم (دلمون) الى مملكته ، فأرسل وفداً الى ملكها يخبره أمراً من أمرين : إما الخضوع لـ (آشور) وإما الخراب والدمار . فوافق ملك الجزيرة على الاعتراف بسيادة (سنحاريب) عليه ، وأرسل اليه بجزية ثمينة[٤] . وكذلك كانت هذه الجزيرة في عداد الأرضين التي خضعت لـ (آشور بانبال)[٥] .

ويظهر من النصوص أن (دلمون) كانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة ، فكانت تعدّ من الأماكن المقدسة ، وقد رويت عنها أساطير دينية ، وعبدت فيها آلهةٌ تعبد لها أهل العراق ، مما يدل على الاتصال الثقافي المتين الذي كان بين العراق والبحرين . ووجد اسم الإلـه (انزاك) في كتابة عُثر عليها في البحرين[٦] ، وتشير أسطورة (أنكي) وزوجه (ننخرساك) وملحمة (كلكمش) (جلجامش) (جلجمش) ، وأسطورة (أرض الحياة)[٧] وغير ذلك من القصص الشعبي ، الى هذا الاتصال الطبيعي الذي كان بين جنوب العراق والعروض :

وذكر (هومل) أن من كبار آلهة (دلمون) : (لخامو) (لخامون) ، وهو إلهة أنثى[٨] . وأشار أيضاً الى نص أرخ في السنة السابعة من سني (فيلبس)

---

١ O'leary, P. 46.

٢ Burrows, Tilmun, Bahrain, Paradise, in Orientalia, Heft, 2, Scriptura Sacra et Monumenta Orientis Antiqui, Roma, 1928, P. 5, 30.

٣ Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, II, 41, 76, 92, 185.

٤ Luckenbill, Ancient, II Sect. 438.

٥ مجلة سومر ، الجزء الثاني من المجلد الخامس ، ١٩٤٩ ، (ص ١٣٧) .

٦ Burrows, P. 30.

٧ S.N. Kramer, in BOASOOR, Num. 96, (1944), P. 18.

٨ Hommel, Grundriss, I S. 130.

(Philippus) (فيلفوس)[1] وتقابل سنة (٣١٧ ق. م.) ، وهو نص (بابلي) ورد فيه اسم أرض دعيت (برديسو) (Pardesu) ، وتقابل هذه الكلمة كلمة (Pildash) [2] (Pardes) بالعبرانية[3] و (فردوس) بالعربية ، وتقع في

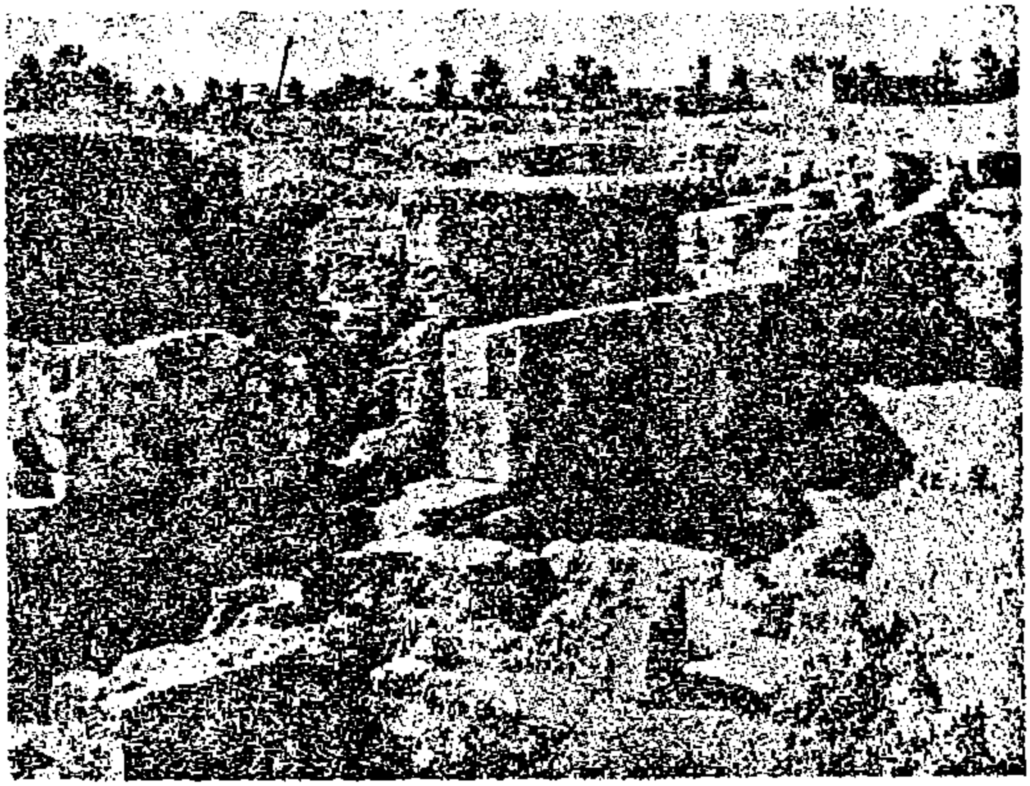

معبد من حضارة ديلمون (٣٠٠٠ ق. م)
من نشرة دائرة الإعلام : حكومة البحرين

القسم الشرقي من جزيرة العرب، بين (مجان) و (بيت نبسانو) (Bit Napsanu) التي هي جزيرة (دلمون)[4] . وقد حملت هذه التسمية بعض العلماء على التفكير في أن ما ورد عن (جنة عدن) في التوراة ، إنما أريد به هذه المنطقة التي تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب وعلى سواحل الخليج[5] .

١ « فيلفوس » ، الطبري (٦٩٤/١ ، ٧٣٨) ، « طبعة ليدن » ،
٢ Hommel, Grundriss, I, S. 166.
٣ Enc. Bibli. P. 3569.
٤ Hommel, Grundriss, I, S. 250.
٥ لمعرفة النظريات التي ذكرها علماء التوراة عن « جنة عدن » يستحسن مراجعة: Enc. Bibli. P. 3574.

وقد ذهب أكثر العلماء الى أن أرض (دلمون) هي جزيرة البحرين ، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها ، وذلك لأن المسافة التي ذكرت في نص (سرجون) تكاد تساوي بعد البحرين عن فم نهر الفرات ، وهذا مما حملهم على القول إن موضع (دلمون) هو جزيرة البحرين . ثم إن الصلات بين العراق والعروض كانت قوية ، والأرض هي على امتداد واحد ، فلا موانع ولا حواجز، ولهذا رجحوا كون (دلمون) هي البحرين[1] .

وعرفت (دلمون) أو البحرين في الكتب (الكلاسيكية) باسم (تيلوس) (Tylus) ، ويرى بعض الباحثين أنه حرف عن (تلوون) (Tilwun) ، وهو (Dilmun) في الأصل ، وورد معه اسم (أرادوس) (Aradus)[2] . وقد ذكر (بلينيوس) (Pliny) أن جزيرة (Tylos) (Tylus) معروفة باللؤلؤ، وبها مدينة عرفت بهذا الاسم كذلك . وعلى مقربة منها جزيرة صغيرة . وهي تقابل الساحل الذي يسكنه الـ (الجرهائيون) (Gerrhaens) ، نسبة الى مدينتهم (جرها) (Gerrha)[3] . وينطبق وصف (بلينيوس) لجزيرة (Tylos) (Tylus) على جزيرة البحرين كل الانطباق ؛

وقد ورد في بعض نصوص (أور) (Ur) أنها صدرت الصوف في السفن الى (تلمون) (Tilmun)[4] ، كما أشير الى قوافل كانت تذهب من (أور) الى هذا الموضع ، وقد عادت بأرباح كبيرة[5] . ويظهر من هذه النصوص ومن نصوص أخرى أن الاتجار بين (تلمون) و (أور) كان متصلاً مستمراً ، وأن جماعة من تجار (أور) كانوا يرسلون قوافل من السفن الى (تلمون) للاتجار، تحمل الى هذا الموضع ما بها حاجة اليه من حاصلات العراق ومن الأموال الواردة الى العراق من الأسواق الخارجية مثل ايران وبلاد الشام وآسية الصغرى وربما من اليونان وأسواق أوروبة ، فتبيعها هناك ، وربما يشتريها تجار (تلمون) أو غيرهم

---

١ P.B. Cornwall, in BOASOOR, 1946, P. 3. ff. The Geographical Journal, CVII, Nos, I, and 2, Febr. 1946, 28-50, The National Geographical Magazine, April, 1948.

٢ Enc. I, P. 584.

٣ Glaser, Skizze, II, S. 74.

٤ UET III, 1507, Leemans, P. 22.

٥ UETV 526, UETV 676, Leemans, 25, 26, 27, 28, 29.

لتصديرها الى أماكن أخرى بعيدة مثل الهند،أو إفريقية ، أو قلب جزيرة العرب. فإذا انتهى هؤلاء التجار من بيع تجارتهم ، يعودون ببضائع من البحرين ، هي في الغالب من تجارة الهند أو إفريقية ، في جملتها المعادن والأخشاب والعطور والأشياء النفيسة الأخرى التي كانت تباع بأثمان باهظة ، فيربح هؤلاء التجار من هذه التجارة ربحاً كبيراً .

وقد كان تجار (تلمون) يأتون بسفنهم الى (أور) يحملون ما استوردوه من تجارات من الهند أو افريقية أو جزيرة العرب ، لبيعه في أسواق (أور) ثم يعودون بسلع أسواق أور ، من حاصل العراق وما جلب الى أور من الخارج . وقد كان هؤلاء التجار يدفعون العشر ، ضريبة عن هذا الاتجار[1] .

وقد عثر على نصوص تبين من دراستها انها عقود واتفاقيات عقدت بين تجار للاتجار بين (أور) و (تلمون) ، وبينها وثائق تتعلق بتجارة تجار قاموا بأنفسهم بالاتجار مع (تلمون) . ويظهر من دراستها ان اولئك التجار كانوا يستوردون النحاس بمقياس واسع من (تلمون) ، لأنه مطلوب في العراق ، ولأن أسعاره هناك أرخص بكثير من سعره في أور ، وكان في جملة السلع التي استوردوها من (تلمون) الفضة و (عين السمك) ، أي اللؤلؤ على ما يظن[2] .

ولا بد أن يكون هذا النحاس من جملة المواد المستوردة من مواضع أخرى الى (تلمون) . وقد تكون أرض عمان في جملة الأماكن التي أمدّت هذا الموضع به . فقد عثر في عمان على آثار منجم عند مكان يسمى (جبل معدن) يقع على مسافة (٧٥) ميلاً الى الشمال الغربي من الجبل الأخضر[3] . فلعل هذا المنجم القديم كان مستغلاً في تلك الأيام يستخرج النحاس منه .

ولقد عثر في البحرين على مقابر قديمة كثيرة كما ذكرت قبل . وقد وجد بعد فتحها انها خططت على نمط واحد ، وتتجه مداخلها نحو الغرب ، وذلك مما يبعث على الظن ان لهذا الاتجاه علاقة بشعائر دينية عند القوم أصحاب المقابر. وقد وجدت فيها كما سبق أن قلت عظام بشرية ، منها جمجمتان بشريتان ،

---

١ Leemans, P. 31.

٢ Leemans, P. 48, 50.

٣ Leemans, P. 122.

وعظام حيوانات يظهر انها دفنت وهي حية مع أصحابها وفق العقائد الدينية التي كانوا يدينون بها . وعثر على مصوغات من الذهب وعلى خرز وأحجار زينة . غير ان هذه الأشياء لم تعط الباحثين حتى الآن فكرة يقينية عن تأريخها وعن أيام أصحابها ، والرأي الشائع بين الذين عنوا بدراستها وفحصها انها مقابر (فينيقية)، لأن البحرين كانت الموطن القديم للفينيقيين[١]،وان لم يصدر حتى الآن رأي جازم في هذا الشأن .

وقد عثر كما ذكر (ولسن) (Wilson) في مقبرة من هذه المقابر على حجر أسود مكتوب بكتابة تشابه الكتابات المسمارية[٢] .

ويستشهد العلماء الذين يذهبون الى أن تلك المقابر هي مقابر (فينيقية)، وان سكان البحرين هم فينيقيون ، بما ذكره (سترابون) من أن في جزيرتي (Tylus) (Tyrus) و (Aradus) ، مقابر تشابه مقابر الفينيقيين ، وان سكان الجزيرة يرون ان أسماء جزائرهم ومدنهم هي أسماء فينيقية[٣] .

وقد قامت بعثة آثارية دانماركية بالبحث عن الآثار في البحرين ، وقد نبشت الأرض في ثلاث مواضع لاستنطاقها والاستفسار منها عن ماضيها القديم . وقد تأكدت البعثة من أن الأماكن التي نقبت فيها تعود الى مستوطنات العصر البرنزي. وكان في جملة ما عثرت عليه تمثالين صغيرين لثورين،وفخاراً، وأشياء أخرى .

وقد عثر المنقبون على آثار معابد في مواضع من جزر البحرين ، تبين من فحصها انها خربت مراراً ، وان الأيدي لعبت بها ، وقد انتزعت أحجارها للاستفادة منها في تحويلها الى أبنية جديدة . وفي جملة ما عثر عليه في أنقاضها بعض التماثيل وبعض الأحجار المثقوبة ، وكانت مذابح تذبح عليها القرابين ، فتسيل دماؤها من هذه الثقوب الى حفرة تتجمع فيها الدماء . وقد تبين أن هذه المعابد ، هي من معابد العصر النحاسي والعصر البرنزي ، وأن تأريخ بعضها يعود الى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد[٤] .

---

١ Enc. Vol. I, P. 585, Cornwall, in Geogr. Journal., CVII, P. 36, 142, 1946, Wilson, The Pers. Gulf. P. 29, Bent, The Bahrain Islands, In Roy. Geogr. Soci. 12, London, 1890.

٢ Wilson, P. 31.

٣ Enc. I, P. 585, Wilson. P. 29, 30, Strabo, XVI, III, 3, 4, Stuhlmann Der Kampf S. 195

٤ Belgrave, P. 53.

ويرى كثير من الباحثين في التأريخ القديم ان أصل الفينيقيين الساكنين في (فينيقية) بلبنان هو من هذه المنطقة ، أي من البحرين والساحل المقابل له . وقد ذكر (هيرودوتس) ان المشهور في أيامه ان أصلهم من البحر الأحمر[1] . ولكن العلماء يرون انه قصد الخليج العربي (Sinus Persicus) لا البحر الأحمر .

سلالم تؤدي الى معبد من معابد « باربار » في البحرين
من تصوير شركة نفط البحرين

ويذكرون أن الفينيقيين تركوا ديارهم هذه ، وهاجروا منها سالكين الساحل ، ثم وادي الفرات ، ومن وادي الفرات يمّموا لبنان ، حيث استقروا على الساحل في المنطقة التي عرفت باسمهم ، أي (فينيقية) (Phoenicia)[2] .

اننا لا نستطيع أن نتحدث الآن عن حكومة العروض أو حكومات العروض

---

١ Herodotus, I, VII, 89, Hastings, P. 725.

٢ Hastings, P. 725.

في عصور ما قبل الميلاد : فما لدينا من أخبار هو نزر يسير . نعم ، من الجائز أن يكون أهل هذا الساحل قد كوّنوا لهم حكومة واحدة، ومن الجائز أن يكونوا قد أقاموا حكومات عديدة ، حكومات مدن ، أو حكومات قبائل ، على نحو ما نعرفه عن هذه المنطقة الى عهد ليس ببعيد : وكما نرى في مشيخات وإمارات الخليج في هذا الزمان . ومن الجائز أن يكون أهل العراق قد أخضعوا ذلك الساحل وأقاموا حكومات فيه . ونحن لا نستطيع التحدث الآن عن (أرض البحر) (Mat-Tamtim) ، هل كانت حكومة قوية عاشت في الألف الثالث قبل الميلاد ، حكمت كل الساحل الى أن غزتها حكومات من العراق أو كانت إمارة أو (مشيخة) في اصطلاح هذا اليوم ؟ ولكن ما نراه من سرعة تغلب الأكاديين والسومريين والآشوريين على أهل الساحل ، يشير الى انهم لم يكونوا أصحاب حكومة قوية وانهم انما كانوا في أغلب الظن رجال بحر وتجارة ، لهم حكومات صغيرة أي إمارات و (مشيخات) ، وهذا يفسر لنا سر استسلامها لحكومات العراق بسهولة ويسر وأدائها الجزية لها .

وهناك من يزعم أن (السومريين) إنما جاءوا الى العراق من البحرين ، جاءوا اليه في حوالي السنة (٣١٠٠ ق. م) . وقد عرفت البحرين باسم (دلمون) (تلمون) (Dilmun) في نصوص السومريين وقد كانت البحرين محطة مهمة ينزل فيها الناس في هجراتهم نحو الشمال ، كما كانت محطة الاتجار مع الهند والبلاد البحرية الأخرى[١] . والرأي الغالب اليوم بين علماء التاريخ القديم أن الكلدانيين الذين سكنوا الأقسام الجنوبية من العراق ، إنما جاءوا الى هذه الأرضين من العربية الشرقية ، من ساحل الخليج ، وذلك في أواخر الألف الثانية قبل الميلاد ، ثم زحفوا نحو الشمال حتى وصلوا الى بابل ، وقد وجد بعض الباحثين كتابات كلدانية تشبه حروفها الحروف العربية الجنوبية القديمة ، أي حروف المسند ، واستدلوا من ذلك على أن أولئك المهاجرين الذين ربما كان أصلهم من عمان هاجروا الى ساحل الخليج ، ثم انتقلوا منه الى العراق ، ونقلوا معهم خطها القديم ، الذي تركوه بعد ذلك حينما استقروا في العراق ، لتأثرهم بالمؤثرات الثقافية العراقية . والنماذج القديمة من كتاباتهم التي عثر عليها الباحثون،

---

١ Grohmann, Arabien, S. 255.

وإن لم تتحدث عن أصل أصحابها ، إلا أن خطهـا المذكور يشير الى أنـه من العربية الشرقية [١] .

وقد ذهب (سترابو) الى أن (Gerrha) التي تقع عند (العقير) كانت في الأصل موضعاً للكلدانيين (Chaldaer) ، وكانت ذات تجارة مع أهـل بابل مزدهرة [٢] .

على كل فالذي يتبين لنا من الأخبار السومرية والأكدية والآشورية وغيرهـا أن أهل العربية الشرقية كانوا قد كوّنوا لهم حكومات مدن وذلك قبـل الألف الثالثة قبل الميلاد ، صرفت جل عنايتهـا نحو التجارة وركوب البحار للاتجار ، والاستفادة من البحر لاستخراج ما فيه من سمك و (لؤلؤ) ، واستغلال ما في أرضها من ماء للزراعة عليه . والطبيعة هي التي فرضت على أهل هذا الساحل هذا الشكل من الحكم ، لأنها لم تمنحهم أمطاراً وافرة تمكنهم من استغلال أرضهم ، ولم تعطهم أنهاراً كبيرة طويلةً تساعد في نشوء العمران عليها وتكوين حكومات مطلقة ، كما في العراق أو في وادي النيل ، لذلك انحصرت السكنى في مواضع متناثرة من الساحل ، فصعب على السكان تكوين حكومة مطلقة واحـدة يكون الحكم فيها حكماً مركزاً في أيدي الملوك ، لتباعد المدن بعضها عن بعض ، لذلك صار الحكم فيها حكم مدن ، على المدينة (ملك) أو رئيس يدير شؤون الجماعة ، إلاّ أن هذا الوضع جعلهم عرضـة للغزو اذ طمعت فيهم الحكومات الكبيرة ، كالذي رأيناه من غزو السومريين والأكديين لهم ، وكالذي سنراه فيما بعـد من غزو الآشوريين واليونانيين وغيرهم لهذه الأرضين .

لقد استورد السومريون والأكديون الذهب والحجارة الصالحة لصنع التماثيل ، والأخشاب لبناء المعابد ، والأشياء النفيسة الأخرى من (دلمون) ومن (ملوخا) ومن (مكان) (مجان) ، وهي أماكن يرى كثير من العلماء انها في العربيـة الشرقية ، وقـد تكون تلك المواد من الأموال المستوردة من الهنـد . على كل حال ، فقد توسطت تلك الأماكن في استيرادها وايصالهـا الى العراق ، بفضل مهارة سكانها في تسخير البحر وتيسيره ، وقد ترك الفتح العراقي فيها أثراً كبيراً

---

١ W. F. Albright, in BASOOR, Num. 128, 1952, P. 39, "the Chaldaean Inscriptions in Proto-Arabic Script".

٢ Strabo, XVI, 7, 66, Grohmann, Arabien, S. 257.

يظهر في الآثار العراقية التي استخرجت من باطن الأرض وفي فن العربية الشرقية المتأثر بالفن العراقي .

وقد أثر انتقال ثقل الحكم من (أور) ومن القسم الجنوبي من العراق الى وسطه تأثيراً كبيراً في ثراء (أور) واقتصادها ، فقد كان في هذه المدينة تجار كوّنوا لهم شركات بحرية لنقل التجارة بين هذة المدينة ومدن الخليج ، وربما الى

رأس ثور عثرت عليه البعثة الدانماركية في « باربار » بالبحرين

مدن الهند أيضاً . وقد أثر ذلك فيهم بصورة خاصة حين وضع (حمورابي) أنظمة تحدد الاتجار البحري في ذلك العهد[1] : وقد افتخر ملك (آشور) ، الملك (تكولتي – ننورتا) (Tukulti-Ninurta) (١٢٤٤ – ١٢٠٨ ق. م.) ، بأنه وسّع حدود مملكته في الجنوب ، بأن استولى على (سومر) و (أكد)، وثبت حدودها الجنوبية عند (البحر الأسفل حيث مشرق الشمس)[2] . ويعني بذلك الخليج ، غير انه لم يشر الى الأرضين التي استولى عليها في هذا الخليج :

هذا كل ما نعرفه اليوم عن تأريخ العرب في العهود القديمة . وهو كما رأينا

---

١ Ancient Iraq, P. 184, Leemans, The Old Babylonian Merchant, Leiden, 1950, P. 78-95, Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden, 1960, A. L. Oppenheim, JAOS, S. 74, 1954, P. 15, 17.

٢ Ancient Iraq, P. 217, D.D. Luckenbill, Ancient Records, I, P, 145.

نزر يسير،أخذ من بحوث أفراد ومن بحوث عرضية حُصل عليها عند البحث عن البترول ، وأملنا في زيادة علمنا بتلك العهود هو في قيام بعثات علمية بالبحث عن الآثار والعاديات لاستنطاقها عن أحوال تلك العهود . وليس أمامنا بعد هذه المقدمة الا الدخول في العصور المعروفة التي وصل الينا بعض أخبارها في الكتابات وفي الموارد الأخرى .

وقد كان لأعمال الحفر التي قامت بها بعثة (دانماركية) أرسلها متحف ما قبل التأريخ في (Aarhus) بالدانمارك فضل كبير في الكشف عن صفحات مطوية من تأريخ سواحل الخليج . فقد تمكنت هذه البعثة من العثور على آثار من عهود ما قبل العصور التأريخية في البحرين وقطر و (أبي ظبي) ، كما تعقبت آثار السكنى القديمة في البحرين وعمان وبقية الساحل ، وعثرت على معابد قديمة مثل معبد (بربر) (باربار) في البحرين و (تل قلعة البحرين) في البحرين ، وتوصلت بذلك الى نتائج قيمة جداً رجعت بتأريخ هذه البلاد الى عصور بعيدة جداً عن الميلاد ، وكان من أعمالها الكشف عن آثار (فيلكا) في الكويت .

وقد تبين من دراسة البعثة الدانماركية لآثار معبد (بربر) (باربار) في البحرين ، انه معبد عتيق : يرجع عهده الى حوالي السنة (٣٠٠٠ ق.م.) أو أقدم من ذلك[١] . وأنه كان معبداً كبيراً به (بئر) مقدسة يستقي منها المؤمنون للتبرك بمائها ولتطهير أجسامهم ولاجراء الشعائر الدينية،ويلاحظ أن الباحثين تمكنوا من العثور على آبار مقدسة في بيوت العبادة الكبرى عند الجاهليين ، وهذا يدل على أن معابدهم الكبيرة كانت ذات آبار مقدسة يشربون منها للتبرك والشفاء ولتطهير أجسامهم ، شأنهم في ذلك شأن أهل مكة و (زمزم) .

لقد وجدت هذه البعثة تحت أنقاض (تل القلعة) في البحرين بقايا مدينة قديمة يمكن أن تعدّ من مدن الجزيرة الكبيرة أو عاصمتها ، يرجع تأريخها الى حوالي السنة (٢٥٠٠ ق.م.) . وكانت مسورة بسور ارتفاعه (١٦) قدماً عن سطح الأرض ، بني بالحجارة ، وقد بنيت به قلعة لحمايته من هجوم الأعداء ، وعثر على باب المدينة،وقد زينت ببناء مربع الشكل . ويقال ان الملك (سرجون) الأكادي كان قد أمر باحراقها سنة (٢٣٠٠ ق.م.) ، حتى صارت ركاماً ،

---

١ Grohmann, Arabien, S., 266.

وبقيت عـلى ذلك طوال أيام (الكاسيين) (الألف الثانية قبل الميلاد) ، حتى أعيد بناؤهـا في القرن السابع قبل الميلاد ، فازدهرت وتوافد عليها السكان ، وأخذت تتاجر مع العراق . وكانت مزدهرة في أيام (الأخمينيين) و(السلجوقيين)، الا أن النحس حلّ بها بعد سقوط الحكومة السلجوقية ، ولازمها ولم يتركهـا حتى هجرها الناس[1] .

وفي جملة مـا عثرت عليه تلك البعثة آثار مدينة يرجع عهدها الى منتصف الألف الأولى قبـل الميلاد ، في مكان يعرف بـ (مرب) في القسم الغربي من (قطر)[2] .

---

١ P.V. Glob, Kuml, 1957, 1958, 142, 144, T.G. Bibly, Kuml, 1957, 162.

٢ Glob, Kuml, 1959, 238, Grohmann, Arabien, S. 260.

الفصل الرابع عشر

العرب في الهلال الخصيب

ليس من السهل علينا التعرض في الوقت الحاضر للصلات التي كانت بين العرب الشماليين وبين حكومات الهلال الخصيب في أقدم العهود التأريخيـة المعروفة التي وقفنا على بعض ملامحها ومعالمها من الآثار ، فبينها وبيننا حجب كثيفة ثخينة لم تتمكن الأبصار من النفاذ منها لاستخراج ما وراءها من أخبار عن صلات العرب في تلك العهود بالهلال الخصيب .

ولعل خبر (نرام — سن) (نرام — سين) (Naram-Sin) الأكـادي (٢٢٧٠ — ٢٢٢٣ ق. م.) ، عن استيلائه على الأرضين المتصلة بأرض بابل والتي كان سكانها من العرب (Aribu) (Arabu) ، هو أقدم خبر يصل الينا في موضوع صلات العرب بالعراق[1] . وهو خبر ينبئك بأن عرب أيام (نرام — سن) ، كانوا في تلك المنازل قبل أيامه بالطبع ؛ وهي منازل كوّنوا فيها (مشيخات) و (امارات) مثل امارة (الحيرة) الشهيرة التي ظهرت بعد الميلاد .

ويحدثنا سفر (القضاة) بأن (المديَنيين) والعمالقـة وبنو المشرق ، كانوا ينتزعون ما بأيدي الإسرائيليين من غلة زراعة،وما عندهم من ماشية ، ويغيرون

---

١ Arabien, S., 21.

عليهم . كانوا يأتون اليهم بخيامهم « كالجراد في الكثرة ، وليس لهم ولجمالهم عدد » حتى ذل الإسرائيليون[1] . وأصل المدينيين من جزيرة العرب ، استقروا بأرض (مدين) جاءوا اليها من الحجاز ، وأخذوا يغزون العبرانيين ، ومنها هذه الغزوات التي يرجع بعض الباحثين تأريخها الى النصف الأول من القرن الحادي عشر قبل الميلاد[2] . أما العمالقة وبنو المشرق ، فإنهم مثل المدينيين من قبائل العرب .

العرب والآشوريون :

إن أول إشارة الى العرب في الكتابات الآشورية ، هي الإشارة التي وردت في كتابات الملك (شلمنصر الثالث) (شلمناسر) ملك آشور[3] . فقد كان هذا الملك أول من أشار الى العرب في نص من النصوص التأريخية التي وصلت الينا ، إذ سجل نصراً حربياً تم له في السنة السادسة من حكمه على حلف تألف ضده ، عقده ملك (دمشق) وعدد من الملوك الإرميين الذين كانوا يحكمون المدن السورية وملك اسرائيل ورئيس قبيلة عربي ، اسمه (جندب) . وقد كان هذا النصر في سنة (٨٥٣) أو (٨٥٤ ق. م)[4] . وقد قصد (شلمنصر) بلفظه (عرب) الأعراب ، أي البدو ، كما شرحت ذلك في الفصل الأول : أما العرب الحضر ، أهل المدر ، أي المستقرون ، فقد كانوا يدعون كما ذكرت ذلك أيضاً بأسماء الأماكن التي يقيمون فيها أو التسميات التي اشتهروا بها . ذلك لأن لفظة (العرب) ،لم تكن قد صارت علماً على جنس ، من بدو ومن حضر ، بالمعنى المفهوم من اللفظة عندنا . ولم يكن هذا الاستعمال مقتصراً على الآشوريين

---

١ القضاة ، الاصحاح السادس ، الاية ٣ وما بعدها .

٢ Arabien, S., 21.

٣ (شلمناسر) ، قاموس الكتاب المقدس (٦٢٩/١) ، بمعنى (شلمان ذو نعمة) سنة ١٢ و ١٩ (ص ٦٥) ، راجع عن مادة العرب في الموارد البابلية والاشورية ادي شير : تاريخ كلدو واثور (المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين) في بيروت اطروحة T. Weiss Rosmarin المعنونة بـ (Arabi und Arabien in den Babylonish-Assyrrischen Quellen) Wuerzburg, 1931, New York, 1932, JSOR, 16, 1932.

٤ D.D. Luckenbill, Ancient Records, Vol. II, 17, 118, Vol., I, 661.

بل كان ذلك عاماً حتى بين العرب أنفسهم وقد أدى ذلك الى جهلنا بهويات شعوب ذكرت فى النصوص الآشورية وفي النصوص الأخرى وفي التوراة ، دون أن يشار الى جنسيتها ، فلم نستطع أن نضيفها الى العرب للسبب المذكور :

وكان ملك (دمشق) (بيرادري) (Bir-Idri) (Biridri) ، المعروف باسم (بنهدد) (Benhaddad) في التوراة[1] ، قــد هاله توسع الآشوريين وتدخلهم في شؤون الممالك الصغيرة والإمارات ، ولا سيا بعد تدخلهم في شؤون مملكة (حلب) ، وخضوع هذه المملكة لهم بدفعها الجزية واعترافهم بسيادة آشور عليها . فعزم عــلى الوقوف أمام الآشوريين ، وذلك بتأليف حلف من الملوك السوريين وسادات القبائل العربية ، لدرء هــذا الخطر الداهم . وقد انضم اليـه (آخاب) ملك اسرائيل ، وأمراء الفينيقيين ، فكان مجموع من استجاب لدعوته اثنا عشر ملكاً من ملوك سوريا ، (وجنديبو) ملك (العرب) ، وقـد أمد الحلف بألف جمل ومحاربين ، وكل هؤلاء كانوا قد أصيبوا بضربات عنيفــة من الآشوريين وتعلموا بتجاربهم معهم مبلغ قوتهم وغلظتهم عــلى الشعوب التي غلبوها على أمرها ، فأرادوا بهــذا الحلف التخلص من شرهم والإنتقام منهم والقضاء عليهم .

وعند مدينة (قرقر) ، الواقعة شمال (حماة) وعلى مقربة منهـا ، وقعت الواقعــة ، وتلاقى الجيشان : جيش (آشور) تسيّره نشوة النصر ، وجيوش الإرميين والعرب والفينيقيين ومــن انضم اليهم ، تجمع بينهم رابطة الدفاع عن أنفسهم ، وبغضهم الشديد للآشوريين . لقد تجمع ألوف من جنــود الحلفاء في (قرقر) على رواية ملك آشور ، لمقاومة الآشوريين وصدّهم من التوسع نحو الجنوب ، واشتركت في المعركــة مئات من المركبات . أما النصر فكان حليف (شلمنصر) ، انتصر عليهم بيسر وسهولة ، وأوقع بهم خسائر كبيرة ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وتفرق الشمل ، وهرب الجميع ، وانحل العقـد ، ورجع ملك آشور الى بلده منتصراً ، مخلداً انتصاره هذا في كتابة ليقف عليها الناس[2] .

---

١ راجع عن (بنهدد) ، قاموس الكتاب المقدس ، (١/ ٢٥٠) ، (بنهداد ، اوبرهداد) (اداريدري ، وهو الذي يسميه الكتاب المقدس بنهداد ، باسم ابيه بنهداد الاول) ادي شيــر (ص ٦٩) ، Meisner, Konige, S. 139, Hastings, P. 90, Enc. Bibll. P. 5.

٢ ادي شير (ص ٦٩ فما بعدها) ،

وإليك بعضَ ما جاء في نص (شلمنصر) عن معركة (قرقر) ، لتقف على ما قاله عنها : (قرقر : عاصمته الملكية ، أنا أتلفتها ، أنا دمرتها ، أنا أحرقتها بالنار ، ١٢٠٠ عجلة ، ١٢٠٠ فارس ، ٢٠,٠٠٠ جندي لهدد عازر صاحب إرم ... ألف جمل لجندب العربي ... هؤلاء الملوك الاثنا عشر الذين استقدمهم لمساعدته ، برزوا الى المعركة والقتال ، تألبوا عليّ ...)[١] .

ويلاحظ كثرة عدد العجلات المستخدمة في المعركة بالنسبة الى تلك الأيام . وهذه الأرقام ليست بالطبع أرقاماً مضبوطة ، فقد عودنا الملوك الأقدمون المبالغة في ذكر العدد ، والتهويل في تدوين أخبار المعارك والحوادث ، للتضخيم من شأنهم وللتعظيم ، وتلك عادة قديمة ، نجدها عند غير الآشوريين أيضاً[٢] .

و (جنديبو) اسم من الأسماء العربية المعروفة ، هو (جندب) . ويكون هذا الاسم أول اسم عربي يسجل في الكتابات الآشورية . ولم يشر (شلمنصر) الى أرضه والمكان الذي كان يحكم فيه . غير ان القرائن تدل على انها كانت في أطراف البادية ، ويرى (موسل) انها كانت تقع في مكان ما جنوب مملكة (دمشق)[٣] . وأرى انه كان ملكاً على غرار الملوك سادات القبائل مثل ملوك الحيرة والغساسنة ، حكم على قبائل خضعت لحكمه وسلطانه ، وكان يتناول الإتاوات من الحكومات الكبيرة مقابل حماية حدودها من الغارات والاشتراك معها في الحروب .

وقد أبلغنا (شلمنصر) الثالث (٨٥٨ — ٨٢٤ ق. م.) أيضاً ، انه زحف نحو الجنوب ، نحو أرض (كلدو) ، أي أرض الكلدانيين ، فاستولى عليها وتوغل بعد ذلك نحو الجنوب حتى بلغ (البحر المر) (البحر المالح) (Nar Marratu) أي الخليج العربي ، فقهر كل السكان الذين وصلت جيوشه اليهم[٤] . ويظهر انه بلغ حدود الكويت فاتصل بذلك بجزيرة العرب وبقبائل عربية ساكنة في هذه الأرضين .

---

١ Meisner, Koenige, S. 140, J.W. Weiss, Geschichte dés Orients, S. 597, Grohmann, S. 21. Luckenbill, I, 611, Meisner, Koenige, S. 140.

٢ Meissner, Konige, S. 140.

٣ Musil, Deserta, P. 477.

٤ Ancient Iraq, P. 277, Luckenbill, I, 624.

وفي السنة الثالثة من حكم (تغلث فلاسر) (تغلاتبلاسر الثالث) (Tiglath Pileser) [1] (٧٤٥ — ٧٢٧ ق. م.) تقريباً ، دفعت ملكة عربية اسمها (زبيي) الجزية الى هذا الملك . وكانت تحكم (أريبي) ، أي العرب . ولم يتحدث النص الذي سجل هذا الخبر عن مكان الأعراب أتباع (زبيي) .

معركة بين العرب والآشوريين

وقد ذهب (موسل) الى انه (أدومو) (Adumu) ، أي (دومة) (دومة الجندل) ، وذهب أيضاً أن الملكة كانت كاهنة على قبيلة (قيدار) (Kedar) [2].
و (زبيي) ، هو تحريف لاسم (زبيبة) ، وهو من الأسماء العربية المعروفة.

ويحدثنا هذا الملك أيضاً انه في السنة التاسعة من ملكه ، قهر ملكة عربية أخرى اسمها (سمسي) (Samsi) (شمسي) (Shamsi) ، واضطرها الى دفع الجزية له بعد أن تغلبت عليها جيوش آشور . ويدعي الملك أنها حنثت بيمينها

---

١ « تغلث فلاسر » ، و « ثغلث فلناسر » في الترجمات العربية للتوراة ، اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الثامن والعشرون ، الاية العشرون ، الملوك الثاني ، الاصحاح الخامس عشر ، الاية ٢٩ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الخامس ، الاية ٢٦ ، ولذلك اخترت هذه التسمية ، قاموس الكتاب المقدس (٢٨٨/١) ، ادي شير (ص ٨٠) ، وقد جعله « موسل » « ثغلث فلاسر الرابع » ،
Musil, Hegaz, P. 287, Deserta, P. 477.
وعرف بـ "Tukulti-Apil-Esharra" في النصوص" Hastings, P. 934.

٢ Rost, Keilschrifttexte, II, P 1. 16, (1893), Olmstead, History of Assyria, P. 189, G. Rawlinson, The Five Great Monrchies, Vol. II, P. 396.

وكفرت بالعهد الذي قطعته للإلـه العظيم (شماش) (Schamash) بألا تتعرض للآشوريين بسوء ، وبأن تخلص لهم ، فانتصر عليها ، واستولى على مدينتين من مدنها ، وتغلب على معسكرها ، فلم يبق أمامها غير الخضوع والاستسلام وتأدية الجزية إبلاً : جمالاً ونوقاً[1] .

والظاهــر انها انضمت الى ملك دمشق في معارضته للآشوريين ، وتعرضت لقوافل آشور ، فجهز الملك عليها حملة عسكريــة تغلبت عليها . ولضمان تنفيذ مصالــح الآشوريين ، قرر الملك تعيين (قيبو) أي مقــيم أو مندوب سام آشوري لدى بلاطها ، لارسال تقاريره الى الحاكم الاشوري العام في سوريـة عن نيّات الملكة واتجاهات الأعراب ، وميول قبيلتها ، ولتوجيه سياسة الملكــة على النحو الذي تريده (آشور)[2] .

وقد ذكر النص الآشوري أن الملكة أصيبت بخسائر فادحة جداً ، وهي ألف ومئة رجل ، وثلاثون ألف جمل ، وعشرون ألف من الماشيــة ، وهي أرقام بولغ فيها جداً ، ولا شك[3] .

ويذكرنا اسم الملكة (شمسي) (سمسي) باسم عربي هــو (شمس) أو (شمسة) . و (شمسة) من الأسماء العربية القديمة التي ما تزال حية . وقد كان في المدينة امرأة نصرانية اسمها (شمسة) ، أسلمت على يدي الحسن بن علي بن أبي طالب[4] فحرف الآشوريون الاسم وفق نطقهم وكتبوه على هذا الشكل .

وقد صوّر على اللوح الذي ورد فيه خبر الانتصار المذكور ، منظر فارسين آشوريين يحملان رمحين ، يتعقبان أعرابياً راكباً جملاً ، وتحت أعقاب الفرسين وأمامها جثث الأعراب الذين خروا صرعى على الأرض. وصوّر شعرهم طويلاً وقد عقد الى الوراء ، وأما اللحى فكثة ، وأما أجسامهم فعاريــة إلا من مئزر شدّ بحزام . وقد حرص الفنان على تصويره الأعرابي الراكب قريباً جداً من الفارسين ، مادّاً يده اليمنى اليهما متوسلاً ومسترحماً ومستسلماً ، وصورت الملكة

---

١ ادي شير (ص ٨٥) ،

Musil, Deserta, P. 477, Olmstead, History Of Assyria, P. 199, J. B. Pritchard, Ancient Near Easterern Texts, Princeton, 1950, P. 283.

٢ Musil, Deserta, P. 477.

٣ Meisner, Konige, S. 140.

٤ ابـن سعد ، الطبقات (٢٨٤/٥) « طبعة بيروت ١٩٥٧ »

(سمس) (شمسي) (سمسي) حافية،ناشرة شعرها ، تحمل جرة من الجرار الاحدى عشرة المقدسة ، بعد أن أضناها الجوع والتعب في فرارها الى (بازو) ، وقد خارت قواها المعنوية [١] .

وورد في الكتابة الآشورية أن الملكة أرسلت وفداً الى ملك آشور لمصالحتـه واسترضائه ، ضم عدداً من سادات قبيلتها وأتباعها ، منهم (يربع) (يربأ) (Jarapa) ، وكان رئيس الوفد ، و (خطرنو) (حترنو) (Hataranu) و (جنبو) (Ganabu) ، و (تمرنو) (Tamranu) [٢] . وهي أسماء عربية لا غبار عليها ، كتبت بحسب النطق الآشوري . فـ (Jarapa) مثلاً ، يمكن أن يكون أصله (يرفع) أو (يربع) أو يربوع ، و ((Hataranu) جائز أنه (خاطر) أو (خطر) ، و (Ganabu) جائز أنه جناب أو (جنب) ، و (Tamranu) جائز أنه (تمر) أو (تمار) أو ما شابه ذلك . ولا أرى بنا حاجة الى ذكر أمثلة عديدة وردت فيها أسماء من مثل (يربوع) (وجناب) و (جنب) وأمثال ذلك لدى الإسلاميين[٣] .

وبعد أداء (شمس) الجزيـة الى ملك آشور ، دفعت عدة قبائل وشعوب عربية الجزية اليه . وقد جعل بعض الباحثين ذلك في حوالي سنة (٧٣٨ ق م)[٤] وجاء في الترجمة العربية لكتاب (حتي) ان ذلك كان في عام (٧٢٨ ق م)[٥] واذا كان أداء العرب المذكورين الجزية في السنة التاسعة من حكمه ، فيجب أن تكون السنة سنة (٧٣٦ ق.م.) تقريباً ، لأن حكم الملك كان في (٧٤٥ ق.م.)[٦] . وقد ذكر الملك انـه تسلم الجزيـة ذهباً وفضة وإبلاً وطيوبـاً من (مساى) (مسأى) (Mas'a) و (تيما) و (سبأ) (سبا) و (خيابة) (خيابه) (Hajapa) (Hayapa) (Hajappa) و (بطنه) (Batana) (Badana)

---

١ Olmstead, History of Assyria, P. 199.

٢ H. Winckler, Keilschrift. Bd. II, S. 62, AOF. BD. I, S. 465.

٣ الاشتقاق (٢٣٥/٢ ، ٢٦٢)

٤ Stuhlmann, Der Kampf, S. 10.

٥ حتي (ص ٤٥) .

٦ تولـى الحكم في « ١٣ ايار » ، Hastings, P 934.

و (خطي) (Hatti ، Hatte) و (ادبئيل) (Ibida'il)[١] . وقــد ورد انها كانت تقطن في أرضين تقع في الغرب في أماكن بعيـدة[٢] . ويقصد انهــا كانت غرب آشور ، والغالب انه كان يريد من قوله : في مواضع بعيــدة ، البادية حيث يصعب الوصول اليها .

ويرى بعض الباحثين ان (مسأى) (مسا) (Mas'a) هي قبيلة (مسا) (Massa) المذكورة في التوراة[٣] . وهي قبيلة اسماعيلية كانت منازلها في شرق (مرآب) ، أو في جنوب شرقيهــا[٤] . ويظهر انها لم تكن بعيــدة جداً عن فلسطين[٥] . ورأى (ذورمه) (Dhorme) انها قبيلة من قبائل العربية الجنوبية[٦] ، وهو رأي بعيد الاحتمال[٧] ، فلا يعقل وصول نفوذ الآشوريين في ذلك الزمن الى تلك المواضع . ثم ان (مسا) وهو أحد أبناء (اسماعيل) كما ورد في التوراة[٨]. والقبائل الإسماعيلية لم تكن تسكن العربية الجنوبية ، بل المواضع التي ذكرتها في أثناء حديثي عنهم . ثم ان أحد المقيمين الآشوريين كان قــد كتب تقريراً الى ملكه ، يذكر فيه ان (ملك قهرور) (مالك قهرو) ، وهو ابن (عم يثع) (عم يطع) (عمي بطع) (Amme'uta') من قبيلة (مسا) ، غزا ، بعد خروج الملك وارتحاله عن قبيلة (نبأ آتى) (نبي أتي) (Nabi'ati) ، هذه القبيلة وذبح أفرادها ، وسرقها وقد تمكن أحدهم من النجاة بنفسه ، فبلغ الملك وأخبره بالحادث[٩] . ويشير المقيم السياسي الآشوري في تقريره هذا الى الحادث ، ليكون ملكه على علم به . وقبيلة (نبي أتي) (نبأ أتى) (Nabi'ati) هي

---

١ Musil Hegaz, P. 288, Rost, Keilschrifttexte, II, Taf. 23, Z. 218-226, 240, Meissner, Koenige, S. 166, Pritchard, Ancient, Near East Texts, 1950, P. 283, 284.
وسيكــون رمــزه : Pritchard

٢ Winckler, KLT. S. 58

٣ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ١٤ ، اخبار الايام الاول الاصحاح الاول ، الاية ٣٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٤٢)

٤ Musil Hegaz, P 286, W. F. Albright, The Biblical Tribe of Massa', in Studi Orientalistici, Roma, 1956, 12,

٥ Hastings, P. 591, Enc. Bibli. P. 2972.

٦ Dhorme, Les Pays Bibliques, P. 196, 1910, Deserta, P. 478.

٧ Musil, Deserta, P. 478.

٨ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٤ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الاية ٣٠

٩ Rawlinson, Cuneiform Inscriptions, (1861-1884) Vol. 4, P. 1. 54. Note, I.

قبيلة (نبايوت) (Nabajot) (Nebaioth) المذكورة في التوراة [1] . وهي مثل (مسا) احدى القبائل الإسماعيلية . ولهذا تكون منازل قبيلة (مسا) في الشمال أو في الشمال الغربي من منازل (نبايوت)[2] .

وأما (تيما) (Tema) ، فإنها (تيماء) المذكورة في التوراة [3] ، والمعروفة حتى في الإسلام . وتقع على الطريق التجاري الخطير الذي يربط العربية الجنوبية والحجاز والشام والعراق ومصر ، ثم بموانيء البحر المتوسط ، كما عرف التيمائيون باشتغالهم بالتجارة ، فلعلهم دفعوا الجزية الى آشور حفظاً لمصالحهم التجارية ولكي يسمح لهم الآشوريون بمرور تجارتهم في الطرق التي تخترق العراق وبلاد الشام وموانيء البحر المتوسط بعد أن أصبحت تحت سيطرتهم[4] .

وقد ذكرت (تيماء) مع (ددان) في مواضع من التوراة [5] . وذكرت مع (ددان) و (بوز) كذلك [6] . ومعنى هذا أن هذه المواضع كانت متقاربة لا يبعد بعضها عن بعض كثيراً ، وأشير الى (قوافل تيماء) و (سيارة سبأ)[7] ، ويدل ذلك على اتصال تجاري كان بين التيمائيين والسبئيين في ذلك العهد .

ويدل ورود اسم (سبأ) ، بعد (تيما) في نص (تغلث فلاسر) ، على أن السبئين المقصودين كانوا يعيشون على مقربة من التيمائيين ومن بقية من دفع الجزية للآشوريين . ويرى (موسل) أنهم كانوا يقيمون اذ ذاك في (ددان) (ديدان) ، وأنهم من السبئيين الذين أخذوا مكان المعينيين ، وكانت لهم قوافل تنقل التجارة على الطرق البرية كما كانوا يقومون بتربية الإبل والماشية [8] .

وأما (خيابه) (Hajapa) ، فإننا لا نعرف عنهم اليوم شيئاً غير الاسم . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنهم (عيفة) ، المذكورون في التوراة . ومن

---

١ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، اية ١٣ . Deserta, P. 478.
٢ Deserta, P. 478.
٣ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٥ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ٣٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٩٦/١)
٤ Musil, Hegaz, P. 288.
٥ اشعياء الاصحاح ٢١ ، الاية ١٣ وما بعدها ، ارميا الاصحاح ٢٥ ، الاية ٢٣
٦ ارميا ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ٢٣
٧ ايوب ، الاصحاح السادس ، الاية ١٩ .
٨ Musil, Hegaz, P. 288. وسيكون رمزه : Hegaz

هؤلاء (فرديش دلج)[١] و (شرادر)[٢] و (موسل) وآخرون[٣] . وهو على رواية نسابي العهد العتيق من نسل (مديان) (مدين) ، ومن حفدة (إبراهيم) من زوجه (قطورة) . ويفهم من (أشعياء) ، أنهم كانوا يتاجرون مع (شبا) مثل (مديان) يحملون الذهب واللبان[٤] ، ويظهر أنهم كانوا يقطنون منطقة (حسمي)[٥] .

ومن الصعب تشخيص قبيلة (بطنه) (بطنا) (بدنه) (Batana) (Badana) . ولم يرد في التوراة ما يقابل الاسم أو ما يقاربه. وقد قرأ (موسل) الاسم (بدنه) (Badana) ، وذهب الى أنه اسم قبيلة (بدون) أو (مدون)، بإبدال (الباء) ميماً ، وهذا أمر مألوف . وتقع منازلها في (العلا) ، أي في (ددان) (ديدان) القديمة . ويعتقد أفرادها أنهم من سلالة قديمة جداً ، وليست لهم صلات قربى بالقبائل الأخرى . وتسكن بطون منهم عند (البتراء) (Petra) أي الرقيم[٦] .

وأشار (موسل) أيضاً الى اسم موضع ذكر أنه ورد في كتاب (بلينيوس)، وهو (Badanatha) . غير أنه لاحظ أن هذا الاسم مشكوك في صحة ضبطه، فإن بعضهم قد قرأه (Baclanaza)[٧]. فإذا كانت القراءة (Badanatha) صحيحة ، فمن الممكن إذن أن يكون لهذا الاسم علاقة بـ (بدون) ، أو (مدون) وبـ (بطنه) (Batana) ، الوارد في نص ملك آشور[٨] . والموضع الذي ذكره (بلينيوس) ، قريب من (Domata) ، أي (دومة الجندل)،

---

١ Fr. Delitzch, Wo Lag das Paradies? Leipzig, 1881, S. 304.
وسيكون رمزه Delitzch

٢ KLT. S. 58.

٣ Hegaz, P. 289.

٤ « تغطيك كثرة الجمال ، بكران مديان وعيفة كلها تاتي من شبا تحمل ذهبا ولبانا »
اشعياء ، الاصحاح الستون ، الاية السادسة ،
Hastings, P. 231, Ency. Bibli. P. 1300.

٥ Hegaz, P. 289.

٦ Rost, Die Keilschrifttexte Tiglatpilesers, III, Leipzig, 1892, S. 36, Hommel, Geographie, S. 297, 595, Reall., I, S. 431, Hegaz, P. 290.

٧ Pliny, Natu. Histo. VI, 157, Vol. II, P. 467, (H. Rackham)

٨ Skizze, II, S. 107, Hegaz, P. 290.

ومن (ثمود) ، فهو في هذه المنطقة التي دفع أصحابها الجزية الى الآشوريين :

وتقع ديار (خطي) (Hatti) على مقربة من (أدوم) ، على رأي (موسل)[1] . وأما (كلاسر) ، فيذهب الى أنها كانت تسكن (الخط) ، سيف البحرين ، أي على ساحل الخليج[2] . وهي منطقة قريبة من العراق، يرى أن من السهل الاستيلاء عليها . وقد ذكر (بلينيوس) موضعاً دعاه (خطيني) (Chateni) يقع على ساحل الخليج ، ولهذا رجح (كلاسر) أن (Hatti) هم (خطيني) هؤلاء[3] . وقد ذكر (ياقوت الحموي) جبلاً بمكة دعاه (الخط)[4] .

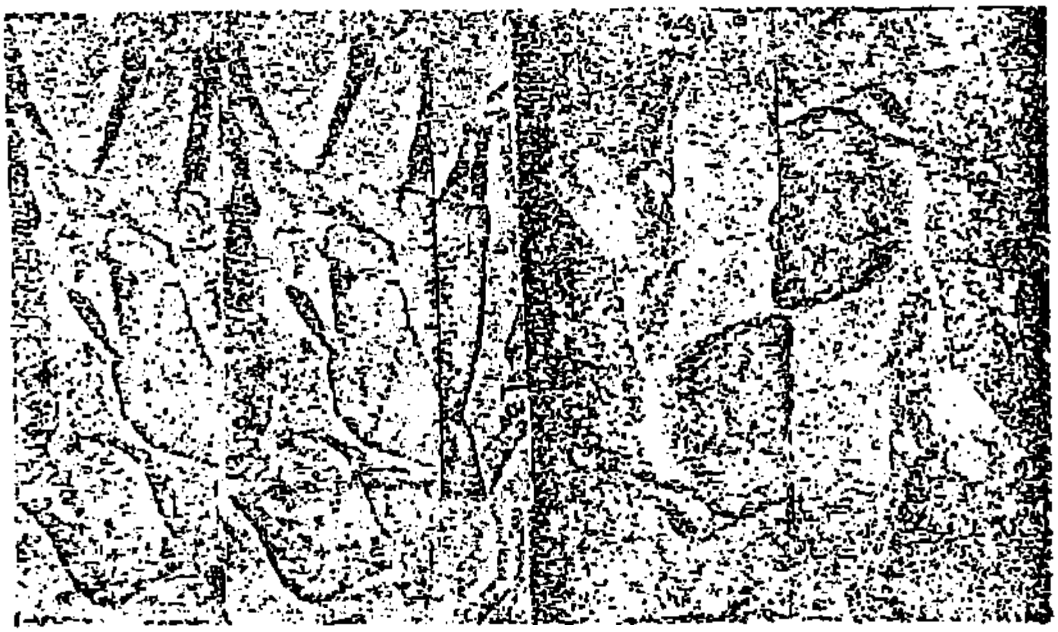

اعرابية تتبعها ابلها . من الألواح المنحوتة التي عثر عليها في قصر « تغلث فلاسر » الثالث وقد نقل اللوح الى المتحف البريطاني. Helmuth Th. Bossert, 1394

وقد يكون سكان المنطقة المجاورة له عرفوا باسم (الخطيون) ، وقد مارسوا التجارة ، وبعثوا كالقبائل الأخرى بتجاراتهم الى اليمن وبلاد الشام والعراق ، ولذا دفعوا الجزية إلى الآشوريين ليسمحوا لقوافلهم باجتياز الطرق البرية التي خضعت

---

١ Hegaz, P. 290.

٢ البلدان (٤٤٩/٣) ، المفضليات (٢٤٥) .

٣ Skizze, II, S. 75, Forster, II, P. 216.

٤ البلدان (٤٤٩/٣) .

لسلطانهم وللاتجار في أسواق مملكة آشور :

ويظهر ان (ادبئيل) (ادبعيل) (Idiba'il) ، القبيلة المذكورة في نص (تغلث فلاسر) ، هي قبيلة (ادبئيل) (Adabeel) في التوراة . وهي احدى القبائل الإسماعيلية على حسب رواية نسابي العبرانيين[1] . وكانت منازلها في جنوب غربي البحر الميت على مقربة من غزة والى جنوب غربها عند حدود مصر ، وفي طور سيناء[2] . وكان يسكن الى الشرق منهم ومن قبيلة (خطي) وكذلك الى الجنوب الشرقي وشرقي (بئر السبع) (Beersheba) (مبسام) (Mibsam) و (مشماع) ، وهما ولدان من ولد (اسماعيل)[3] ، ويمثلان قبيلتين من القبائل الإسماعيلية . ويظهر من (أخبار الأيام الأول) أن بني (مبسام) و (مشماع) كانوا من بني (شمعون) ، وكانوا من بطون(الشمعونيين) القوية ولهم أرضون واسعة[4] . ويشير هذا الى أن (المبساميين) و (المشماعيين) كانوا قد توسعوا وتصاهروا مع (الشمعونيين) واختلطوا بهم ، فاختلط الأمـــر ، وعدّ الذين تصاهروا مع الشمعونيين واختلطوا بهم منهم ، مع ان أصلهم من الإسماعيليين ، أي من العرب الشماليين[5] .

وقد عيّن (تغلث فلاسر) في سنة (٧٣٤ ق. م.) عربياً (Arubu) اسمه (ادبئيل) (Idiba'il) في وظيفة (قيبو) (Kepu) ، أي والياً عـلى (مصري) ، ليدير شؤونها بالنيابة عنه ، وجعل تحت تصرفـــه خمسة وعشرين موضعاً من (عسقلان)[6] . ويحتمل أن يكون هذا الرجل — على رأي (موسل) — شيخاً من قبيلة (ادبئيل) ، كان مقيماً مع قبيلته في (طور سيناء) ، وكان له سلطان واسع بلغ حدود مدينة (غزة)[7] . ولم يكن هذا الشيخ الذي اعتمد

---

١ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ١٣ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الايـــة ٢٩ .
٢ Hastings, P. 12, Enc. Bibl. P. 65, Hegaz, P. 291, Deserta, P. 478.
٣ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ١٣ فما بعدها اخبار الايام الاول الاصحاح الاول ، الاية ٢٩ فما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (٣٠٨/٢، ٣٤٤)
٤ اخبار الايام الاول ، الاصحاح الرابع ، الاية ٢٥ فما بعدها .
٥ Deserta P. 479.
٦ Reall. I, S. 125. Deserta, P. 478, Winckler, AOF., I, S. 25.
٧ Deserta, P. 478. Arabien, S. 21.

طليه ملك آشور فعينه والياً عنه، الا سيد قبيلة كلف حماية الحدود وحفظ مصالح الآشوريين بحفظ الأمن والسلامة ومنع الغزو والتحرش بالحدود . ولما كان من الصعب على الجيوش النظامية ولوج البوادي وتعقب أثر الأعراب ، فكرت الحكومات القديمة والحكومات الحديثة في القرن العشرين في حماية مصالحها بدفع جعالات شهرية وسنوية وهدايا الى سادات المشايخ ، وتعيين بعضهم في مناصب كبيرة ، ليتولوا حماية الحدود ، وكبح جماح البدو ومنعهم من الغزو، والاستفادة منهم في ازعاج خصومهم بغزوهم ومحاربتهم أو محاربة القبائل المتحالفة معهم ، كالذي فعله الفرس واليونان والرومان والدول المستعمرة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

ويظهر ان بلوغ جيوش (تغلاتبلاسر الثالث) غزة كان في حوالي السنة (٧٣٨ ق. م.) . فسيطر الآشوريون بذلك على هذا الميناء المهم ، الذي كان نهاية طرق القوافل التجارية الآتية بصورة خاصة من الحجاز[١] ، وهو ميناء كان مقصد تجار يثرب ومكة حتى عند ظهور الإسلام .

ويحدثنا (سرجون الثاني) (٧٢٤ – ٧٠٥[٢] ق م) أنه في السنة السابعة من حكمه ، سنة (٧١٥ ق م)[٣] أدّب (ثمودي) (Tamudi) و (ابادبدي) (عباديدي) و (مرسماني) (Marsimani) و (خيـــابه) (Hajapa) ، وهزمهم ، ونقــل من وقع في يديه منهم الى (السامرة) (Samaria)[٤] . ثم يذكر بعد هــذا الخبر أنـه تلقى الجزية من (سمسي) (Samsi) ملكة (اربي) ومن (برعــو) (Pir'u) ملك (مصري) (Musuri) ومن (يثع أمر) (It'amra) السبئي[٥] . وذكر أن الجزيــة كانت من الذهب وحاصلات الجبل والحجارة الكريمة والعاج وأنواع البذور والنبات والخيل والإبل[٦] .

ويتبين من أسماء المواضع والقبائل التي ذكرها (سرجون) ، أن تلك المعارك كانت قد وقعت في أرضين تقع في الشمال الغربي من جزيرة العرب ، وفي المنطقة

---

١ Arabien, S., 21.
٢ « شركينا الثاني » ، ادي شير (ص ٨٨)
٣ سنة « ٧١٥ ق . م » ، بحسب راي Reall, I, S. 125
٤ Schrader, KLB. Bd. II, S. 42, Rawlinson, The Five great Monarchies, II, P. 415 Reall, I, S. 125.
٥ Reall. I, S. 125, Winckler, Sargon I, S. 20.
٦ Luckenbill, II, 17.

الواقعة فيما بين خليج العقبة و (تيماء) والبادية . ولا بد وأن تكون الجيوش الآشورية قد هاجمتها من الشمال أي من فلسطين :

وقد ورد في بعض ترجمات نص (سرجون) أنه نقل الأعراب الذين يتزلون في مواضع نائية من البادية ، ولم يعرفوا حاكماً رسمياً ولا موظفاً ولم يدفعوا جزية الى أي ملك سابق ، نقلهم الى (السامرة) وأسكنهم فيها [1] . ويظهر أن هذه الجملة لا تخص الجملة السابقة التي ذكر فيها (ثمود) وبقية الأسماء ، وليست معطوفة عليها ، لأنه وصف هؤلاء الأعراب بأنهم سكان بواد نائية ، ولم يدفعوا الجزية لأحد من قبل ، على حين يقيم المذكورون في أرض معروفة ولمنازلهم أسماء ، وهي ليست من البوادي .

وورد في هذه الترجمات بعد جملة (وبثع أمر السبئي) « ومن هؤلاء الملوك ملوك على الساحل ، ومنهم ملوك في البادية . تسلمت منهم جزية : تبراً ، وأحجاراً كريمة ... الخ »[2] ، مما يدل على أن أولئك الملوك كانوا يحكمون أرضين واسعة تمتد من البادية الى البحر الأحمر .

ووردت في نص (سرجون) المشار اليه أسماء مواضع هي (Uaidaue) و (Bustis) و (Agazi) و (Ambanda) و (Dananu) ، ووردت معها جملة : (اربي الساكنين في مشرق الشمس) (اربي مطلع الشمس) . ولهذا ذهب بعض الباحثين الى أن الأسماء المذكورة هي أسماء مواضع في أرض (اربي)، أي البادية . وهو رأي يعارضه باحثون آخرون ، لغموض العبارة ، ولتعذر القول إن أسماء هذه المواضع تعود الى (أربي الساكنين في مشرق الشمس)[3] :

أما (تمودي) (Tamudi) ، فإنهم (ثمود) ، الذين سبق أن تحدثت عنهم : وأما (أباديدي) (Ibadidi) ، فشعب لا نعرف من أمره شيئاً . وقد ذهب (موسل) الى احتمال كونهم (أبيداع) (Abida) المذكورين في التوراة [4].

---

١ Pritchard, P. 286.

٢ Pritchard, P. 286.

٣ « اربي شانيخ شمشي » "Aribi Sha Nipikh Schamschi"
Reall. I, S. 144, Delitzsch, S. 306, Winckler, Sargon I, S. XXVII, UAOG. 112 Rost, MVAG. 1897, 2, S. 84,

٤ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ٤ ، اخبار الايام الاول الاصحاح الاول ، الاية ٣٣ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٨/١) ،
Hastings, P. 3, Enc. Bibli. P. 14.

وهو فيها ابن (مديان) ، أي (مدين) . ويرى أن مساكنهم كانت في جنوبي شرقي (أيلة) (Elath) أي العقبة ، على الطريق التجارية المهمة التي تربط ديار الشام بالحجاز [1] .

ورأى (كلاسر) أن (الابادي) هم (Apataei) المذكورون في جغرافيا (بطلميوس)[2] ، وكانوا يقيمون في مكان يقال له (وادي العبابيد) أو (العباديد) على مقربة من العقيق ؛ أو أن فرعاً منهم كان يقيم في هذا المكان[3] . وذهب (فورستر) الى أن شعب (Apataei) ، هم شعب آخر ، وأن الكلمة هي في الأصل (Nabataei) ، وهو شعب كانوا يقيمون في موضع (نبت) على ساحل الحجاز[4] .

ولا نعرف من أمر (مرسماني) (Marsimani) شيئاً يذكر ، ولم يرد لهذه القبيلة اسم في التوراة . غير أن بعض الكتبة (الكلاسيكيين) ذكروا قبيلة عربية يظهر أنها كانت تقيم في جنوب شرقي (العقبة) سمّوها (Batmizomaneis) (Banizomaneis) ، وقد كانت في جوار قبيلة (Thamudenoi) أي ثمود[5] . ويرى (موسل) احتمال كون هذه القبيلة هي (مرسماني) ، تحرف اسمها في النص الآشوري أو حرفه الكتبة (الكلاسيكيون) حتى صار على نحو ما نرى[6]. وعلى كل حال فإن على لفظة (Marsimani) طابع العروبة ، فلا يستبعد أن تكون من (مرسم) ، أو أسماء أخرى عربية قريبة منها .

ويظهر أن كراهية الأعراب للآشوريين كانت شديدة جداً ، لم تخفف من حدّتها لا سياسة القوة والعنف ولا سياسة التودد واللين . لقد حملت هذه الكراهية القبائل على مدّ يد المساعدة الى كل مبغض للآشوريين ، أو متمرد عليهم ، فقدمت المعونة الى (مردخلبلدان) (مردخ بلدان) (مردخ بلادان)[7]

---

١ Hegaz, P. 292.

٢ Skizze, II, S., 289.

٣ « العبابيد » ، البلدان (٦/١٠٤) ، Skizze, II, S. 259.

٤ Forster, I, P. 233. ff.

٥ Diodorus, Bibliotheca, III, 43. f.

٦ Hegaz, P. 292.

٧ « مردخ بلادان » ، (مردخ بلدان) ، (مرود خلبلدان) ، ادي شير (ص ٩٧) Reall., I, S., 126, Deserta, p. 480.

(Merodachbaladan) ملك بابل خصم وعدوّ (سنحاريب) (سنحريب) وأرسلت (ياتيعة) (يثعة) (يطيعة) (Ja'iti'e) ، ملكة (اربي) جيشاً لمساعدته ومناصرته في كفاحه هذا مع الآشوريين وضعته تحت قيادة أخيها (بسقانو) (بصقانو) (Basqanu)[1] ، إلاّ أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الآشوريين ، فنزلت به خسارة فادحة ، وأسر (بسقانو) وأسر معه معظم جيشه ، وكانت هذه الهزيمة في موضع (كيش) (Kish) . وقد كانت في حوالي سنة (٧٠٣) أو (٧٠٢) قبل الميلاد على رأي بعض الباحثين[2] .

ويظهر أن لفظة (Iati'e) هي تحريف لاسم عربي من أسماء النساء لعله (بطيعة) أو ما يشابه ذلك . وقد كانت ملكة إذ ذاك ، أي أنها كانت مثل (زبيبة) و (شمس) المذكورتين . وأما اسم (بسقانو) (Basqanu) ، فالظاهر أنه (الباسق) فإنه قريب منه .

ويحدثنا (سرجون) في كتاباته عن أيامه وعن أعماله المجيدة أن الملك (أبيري) (Uperi) ملك (دلمون) سمع بقدرة آشور وبعظمتها فأرسل هداياه اليه[3] . ومعنى هذا أن البحرين كانت اذ ذاك تحت حكم ملك اسمه (أبيري) ، لعله (أبير) ، وان الصلات السياسية كانت وثيقة بين اشور والبحرين في ذلك العهد . وقد ذكر (سرجون) ان (أبيري) ، (ملك دلمون) ، « كان يعيش كالسمكة في وسط بحر الشروق ، البحر الذي تشرق عليه الشمس ، وعلى مسافة ثلاثين ساعة مضاعفة ، وكان قد سمع بجلال عظمتي فأرسل بالهدايا إليّ »[4] .

وفي هذا الخبر اشارة واضحة الى استقلال البحرين ، أي جزيرة (دلمون) وخضوعها لحكم ملك لعله كان من أهلها . ولما كان القسم الجنوبي من العراق تحت حكم الآشوريين في هذا العهد ، وللبحرين علاقات تجارية متينة مع هذا القسم ، لذلك أرسل هدايا ثمينة الى ملك آشور .

ويظهر من خبر آشوري يعود عهده الى أيام الملك (سنحاريب) (سنحريب) ،

---

١ Reall., I, S., 125.

٢ Reall., I, S., 125, British Museum Cylinder, 113, 203, Smith, First Campaign of Sennacherib, P., 62, (1921), Deserta, P., 480.

٣ Ancient Iraq, P., 261.

٤ Belgrave, P. 87.

وهو ابن (مرجون) ، أن ملك البحرين لما سمع بخبر اجتياز هذا الملك نهر الفرات ودخوله الخليج ووصوله أرض جزيرة (دلمون) ، أسرع فاعترف بسيادة ملك آشور عليه. وكان هذا الملك قد دكّ أرض بابل في حوالي السنة (٦٨٩ق.م.)، وسار منها متوجهاً نحو أرض الخليج . وفي هذا الخبر اشارة الى أن علاقة الآشوريين بالبحرين كانت وثيقة في هذا العهد أيضاً ، وان ملك البحرين كان يخشى ملك آشور ، لذلك اعترف بسيادته الاسمية عليه[١] .

وأخبرنا (سنحاريب) (سنحريب) (٧٠٥ – ٦٨١ ق.م.) انه تسلم هدايا من (كرب ايل) (كربي – ايلو) (Karibi-ilu) ملك سبأ (Saba'i) ، اذ بنى بيتاً أو معبداً (بيت اكيتو) (Bit-Akitu) ، للاحتفال فيه بعيد رأس السنة والأعياد الأخرى[٢] . وكان من جملة هذه الهدايا أحجار كريمة وأنواع من أفخر الطيب ذي الرائحة الزكية الطيبة (Rikke Tabutu)[٣] ، وفضة وذهب وأحجار ثمينة أخرى[٤] ، وهي أمور اشتهرت بها العربية الجنوبية ، كما عرفت بتصديرها هذه المواد الى الخارج ، وقد تحدثت عنها التوراة في مواضع من الأسفار[٥] .

وقد ذهب (هومل) الى أن (كربي – ايلو) ، هذا هو (كرب ال) (كرب ايل) أحد (مكربي) (مقربي) سبأ ، أي الكهان الحكام ، ولم يكن ملكاً على عرش سبأ وانْ دعاه (سنحاريب) ملكاً ، ذلك لأن الآشوريين لم يعرفوا لقبه الرسمي ، أو لأنهم لم يهتموا بذلك فجعلوه ملكاً . وهذه الهدايا لم تكن جزية فرضت عليه ، بل كانت هدية من حاكم الى حاكم ، وقد بعث بها اليه مع القوافل الذاهبة الى الشام بطريق غزة ، أو طريق مكة ، فالبادية الى العراق[٦] . وعندي ان من الجائز أن يكون (كربي – ايلو) هذا سيد قبيلة أو أميراً من الأمراء الذين كانوا في العربية الشمالية ، من المجاورين لتلك القبائل

---

١ Belgrave, P. 56, 87.

٢ Handbuch. I, S. 76.

٣ Reall. I, S. 61.

٤ « طبوتو » ، (طيبوتو) ، (طيب)

٥ Handbuch, I, S. 76, O. Schroeder, Keilschrift Texte aus Assur. Hist. Inhalts, II, No. 122, Leipzig, 1922.

٦ Handbuch. I, S. 76, 86.

التي تحدثت عنها وسبق لها أن قدمت هدايا لآشور ، وكان من السبئيين النازحين الى الشمال الذين حلوا محل المعينيين .

ولما قضى (سنحاريب) على مقاومة البابليين وعيّن عليهم ملكاً منهم، كان قد تربى في قصور الآشوريين فأخلص لهم ، سار الى بلاد الشام لاخضاع العمونيين والمؤابيين والأدوميين والعرب والعبرانيين ، فقد كان هؤلاء قد انتهزوا فرصة قيام البابليين وقبائل إرم والعرب والعيلاميين على الآشوريين للتخلص منهم، فألفوا حلفاً بينهم في جنوب بلاد الشام ، أي في فلسطين والأردن ، واتحدوا لمحاربة (سنحاريب) . فلما وصل الى ساحل البحر المتوسط ، أخذ جيشه يستولي على المدن ، الفينيقية والفلسطينية ، ويتقدم نحو الجنوب حتى بلغ (عسقلان) (Ashkelon) . ولما وصل الى موضع (التقه) (علتقه) (Eltekeh) (Altekeh) ، اصطدم بالعرب وبالمصريين ، غير انه تغلب عليهم واستولى على (التقه) وعلى (تمنة) (تمنث) (ثمنة) (Timnath)[1] و (عقرون) (عاقر) (Ekron)[2] .

وفي أنباء الانتصارات التي سجلها (سنحاريب) لنفسه انه قام في حوالي السنة (٦٨٩ ق. م.) بحملة على الأعراب التابعين للملكة (تلخونو) (Telhunu) ملكة العرب (Arabi) ، أي أعراب البادية ، وعلى الملك (خزا ايلي) (حزا ايلي) (Haza-ili) ، ملك (قيدري) (Qidri) ، أي القيداريين، فسارت جيوشه في اتجاه (أدوماتو) (دومة) (Adummatu) ، فتغلبت على العرب وعلى القيداريين[3] . ويقصد بـ (أدوماتو) (دومة الجندل)[4] . وقد كانت (أدوماتو) (Adummatu) من مواضع (أربي) (عربي) الحصينة[5] .

---

١ يحتمل انها « تبنة » في الزمن الحاضر ، قاموس الكتاب المقدس (٢٩١/١)

٢ « عقرون » من مدن الفلسطينيين الخمس ، وتسمى الان عاقر ، على تل يبعد اثني عشر ميلا عن يافا الى الجنوب الشرقي ، تنبأ « صفنيا » بخرابها ، اذ قال : « عقرون تستأصل » ، صفنيا ٢ ، الاية ٤ ، قاموس الكتاب المقدس (١٠٨/٢ وما بعدها) ،

٣ ادي شير (ص ١٠٨ فما بعدها) ، Hastings, P. 67, Reall, I, S. 125. Reall. I, S. 125,Ungnad, Vorderasiatische Schriftdenkmaler I, No. 77. II, 22. ff. Olmstead, History of Assyria, P. 310.

٤ Deserta, P. 480.

٥ Reall. I, I lieferung, S. 39.

وهي في موضع بعيد عن عواصم الدول الكبرى ، الا انها لم تنج مع ذلك من غزوات تلك الدول . وقد ذكرها (بطلميوس) باسم (Doumatha) (Adomatho)[1] .

وقد جاء في نص آشوري ان الملك (سنحريب) أرسل حملة الى الخليج ، فانتصرت وحققت رغباته ، وقد فرّ ملك (أرض البحر) الى أرض (عيلام) . ويظهر انه بني أسطولاً قوياً حمل جنوده الى تلك الأنحاء ، فلم يتمكن أهل الخليج من مقاومته واضطر الى الخضوع لآشور[2] .

ويظهر ان (سنحريب) كان قد تمكن فعلاً من اخضاع الأعراب له ، ومن السيطرة عليهم ، ويرى بعض الباحثين في نعت (هيرودوتس) له بأنه (ملك العرب والآشوريين)[3] تعبيراً عن اخضاع (سنحريب) الأعراب لحكمه وان كان ذلك قد وقع لأمد محدود[4] .

وفي نص دوّنه (أسرحدون) (٦٨٠ – ٦٦٩ ق. م.) عن أعماله وعن أعمال والده ان أباه (سنحاريب) ، أخضع (أدومو) (Adumu) (معقل أربي) ، واستولى على أصنامها ، وحملها معه الى عاصمته ، وأسر ملكتها (Iskallatu) التي كانت كاهنة للإلّه (دلبات) (Dilbat) ، وأسر الأميرة (تبؤة) (Tabua) كذلك . فهو يؤيد بذلك ما ذكره أبوه من انتصاراته على العرب[5] .

ولم يتحدث النص الآشوري عن الجهة التي هاجم منها (سنحاريب) (دومة الجندل) أي (Adummatu) (Adumu) (Adumu) . ويرى (موسل) أنه هاجمها من إقليم (بابل) ، ويرى أيضاً أن سلطان الملكة (تلخونو) كان يشمل منطقة واسعة تمتد من (أدومو) الى حدود بابل . وقد كان أعرابها يمتارون ويبتاعون الطحين والملابس والمواد الضرورية الأخرى من بابل ، فيسلكون البادية ، ومن هذه البادية وصلت امداد الملكة وقواتها الى بابل لمساعدتها في مقاومة

---

١ Albright, in JRAS., 1925, P. 293, Hommel, Geographie, S. 581. f, 594.
٢ العرب والملاحة في المحيط الهندي ، جورج فاضلو حوراني (ص ٣٨ وما بعدها)
٣ Herodotus, II, 141.
٤ Grohmann, S. 22.
٥ Reall. I, S. 126, «Jal'u», «Jata», «Jauta», Pritchard, P. 289, «91».

آشور ، فاشتركت مع البابليين في الحرب ، على حين هاجم فريق آخر من اتباع الملكة المقاطعات الآشورية في بلاد الشام . فلما تغلب (سنحاريب) على بابل وانتصر عليها في سنة ٦٨٩ ق.م ، تفرغ لمحاربة الملكة والانتقام منهما ، فأمر قواته بالضغط على أتباع الملكة ، وتعقبهم في البادية لحفظ الحدود . ثم حاصر (أدومو) ، حتى تغلب عليها ، وانتصر على هذا المعقل الذي التجأ اليه أتباع هذه الملكة وغيرهم للخلاص من الآشوريين[١] .

ويظهر من النصوص الآشورية أن خلافاً وقع بين الملكة (تلخونو) والملك (خزا ايلي) ، قد تكون أسبابه الهزيمة التي حاقت بها ومحاصرة (سنحاريب) لها في (دومة الجندل) . وقد كان (خزا ايلي) على ما يظهر هو الذي تولى قيادة الجيش ، وتنظيم خطط الدفاع والهجوم . فسببت الهزائم التي حلت بهما غضب الملكة عليه وعلى سوء قيادته (فغضبت تلخونو على خزا ايلي ملك اربي)[٢]. ولعلهما اختلفا أيضاً بسبب محاصرة (دومة الجندل) والدفاع عنهما أو عدمه . ومهما يكن من شيء ، فقد استسلمت الملكة (تلخونو) للآشوريين ، وتغلبت جيوش (سنحاريب) على هذا المعقل ، وأخذت الأصنام أسرى الى (نينوى) كما أخذت الأميرة (تبؤة) (Tabua) أسيرة الى عاصمة آشور ، لتربى هناك تربية يرضى عنها الآشوريون ، ولتهذب تهذيباً سياسياً خاصاً يؤهلهما أن تكون ملكة على (أربي) :

أما (خزا ايلي)،فقد تمكن من خرق حصار الآشوريين على (دومة الجندل) ومن الاعتصام مع أتباعه بالبادية ، حيث لم يكن في قدرة (سنحاريب) مطاردتهم وايقاع خسائر بهم ، وبقي في هذه البادية طول حياة (سنحاريب) . فلما توفي هذا الملك ، وانتقل الملك الى ابنه (أسرحدون) ، وزالت أسباب الجفاء ، قصد نينوى لمقابلة الملك الجديد ، ومعه هدايا كثيرة ، سُرّ بها الملك واستقبله بلطف ورعاية ، وسلمه الأصنام الأسيرة السيئة الحظ التي كان عليها أن تشارك أتباعها الحياة الأرضية المزعجة ، وتمكنت كل من (عتر سماين) (عثتر السماء) و (دبلات) و (دايا) (ديه) (Daja) و (نوهيا) (نهيا) (نهى) (Nuhaia) و (ابيريلو) (Ebirillu) و (عتر قرميـة) (عثر قرمي)

١ Deserta, P. 480.

٢ British Museum Tablets, K3087, K3405.

(Atar Kurumaia) ، وهي الآلهة التي كتب عليها أن تسجن ، من استنشاق ريح الحرية ثانية ، ومن استعـادة مقامها بين عبادها ، فوضعت في أماكنها ، وسر أتباعها ولا شك بهذه العودة [1] .

وفي أثناء وجود تلك الأصنام في الأسر، أصيبت ببعض التلف، فمنّ (أسرحدون) عليها بالأمر باصلاح ما أصابهـا واعادتها الى ما كانت عليه ، ثم تلطف فأمر بإرجاعها الى (خزا ايلي) (خزائيل) ، بعد أن نقشت عليها كتابة تفيد تفوق إله آشور على تلك الأصنام ، وبعد أن نقش عليها اسم الملك [2] .

وأراد (أسرحدون) تنصيب (تبؤة) (Tabua) ، التي تربت تربيـة آشورية ، ملكة على (أريبي)، ليضمن بذلك فرض سلطان آشور على الأعراب . وهو حلم تحقق ، ولكنـه لم يدم طويلاً ، لأن العداء بين الآشوريين والعرب كان عميقاً ، لا يقضي عليه منح تاج ، ونصب ملك أو ملكة [3] .

واعترف (أسرحدون) بـ (خزا ايلي) ملكاً عـلى قبيلة (قيدار) ، في مقابل إتاوة يدفعها ، قدرها خمسة وستون جملاً [4] . فلما توفي (خزا ايلي) ، سنة (٦٧٥ ق. م) [5] اعترف (أسرحدون) بابنه (يايثع) (يايطع) (يطع) (يثع) (Uaite') ملكاً مكان أبيه، على أن يدفع إتاوة سنوية كبيرة مقدارها ألف (من) (Minae) من الذهب ، وألف حجر كريم وخمسون جمـلاً ، وطيب ، أي أكثر مما كان يدفعه أبوه [6] . وقد رضي الابن بذلك على أمل أن ينعم عليه بتاج كيفما كانت الشروط . غير أن حسابه هذا لم يكن دقيقاً ، فقد ثار عليه شعبه الذي أبى أن يخضع لرجل فرض عليه فرضاً ، وأبى قبوله ملكاً عليه . وقام – وعلى رأسه الزعيم (اوبو) (وهبو) – (وهب) ، (أوب) (Uabo) (Uaboa) بثورة عامة للتخلص منه ، ومن سلطان الآشوريين .

وأسرع الآشوريون فأرسلوا جيشاً لإخمـاد هـذه الثورة ، فأطفأها ، وأسر

---

١ Pritchard, P. 291, D.J. Wixman, The Vassal-Treaties of Esarhaddon, London, 1958, P. 4.

٢ Pritchard, P. 291.

٣ Pritchard, P. 291.

٤ Deserta, P. 482.

٥ Hastings, P. 832.

٦ Grohmann, S. 22.

(أوبو) (Uabo) وأخذ الى (نينوى) ، إلا أن الانتصار عليه لم يقض على مقاومة العرب للآشوريين وثورتهم عليهم ، فقاد (يابئ) (يثع) (Uaite') الثورة هذه المرة ، ورفع راية الحرب على الآشوريين ، وغزا هو وأتباعه حدود الامبراطورية الآشورية المحاذية للبادية ، واضطر الآشوريون الى تجهيز حملة جديدة انتصرت عليه ، وهاجمت مضاربه ، وقبضت على أصنامه ، وأخذتها معها أسرى للمرة الثانية [1] . أما (يابئ) ، فقد فر « وحيداً الى أصقاع بعيدة » على ما جاء في النص [2] . والأصقاع البعيدة ، هي البادية ، ولا شك ، حيث يصعب على الآشوريين التوغل فيها للتوصل اليه . لذلك صارت مأوى لكل ثائر تحل به خسارة . فإذا نجا بنفسه ، وتمكن من الفرار من ساحة الهزيمة الى البادية ، صار في حصن أمين ، لا تمتد اليه الأيدي بسوء الا اذا كان المهاجمون من أبناء جنسه ، الأعراب .

وقام (أسرحدون) ، بعد هذه الحملة ، بحملة أخرى على قبائل عربية تنزل أرض (بازو) (Bazu) و (خازو) (Hazu) [3] . وقد ابتدأ بها في اليوم الثاني من شهر (تشرى) من السنة الخامسة من سني حكمه . وهي تقابل سنة (٦٧٦ ق. م.) [4] . وقد قتل فيها ثمانية ملوك ، هم : (كيو) (Kiau) [5] (قيسو) (Kisu) و (Ki-i-su) ملك (خلديلي) (Haldilli) [6] . و (اكبرو) (Agbaru) (Ak-baru) ، وهو ملك (ال بياتي) (البياتي) (ايل بياتي) (Ilpiati) [7] (Na-pi-a-te) [8] ، و (منسكو) (منساكو) (منسك) (Mansaku) (Ma-an-sa-ku) ، ملك (مجل اني) (مجلاني)

---

١ II, S., 217, 377, British Museum, A Guide to the Baby. and Assy. Antiquities, II, S., 217, 377, British Museum, A Guide to the Baby. and Assy. Antiquities, P. 227, Deserta, P. 482.

٢ Luckenbill, II, 916,

٣ Rawlinson, Cunei. Inscr., Col. 3, II, 25-52, III, Pl., 15, 16 Col. 4 II 10-26. Schrader, Keil. Bibl. II, S. 131 Deserta, P. 482.

٤ Reall. I, S. 440, Skizze, II, S. 4. ff. Hommel, Geschichte Babyloniens-Assyriens, S. 709. سومر : الجزء الثاني ، ١٩٤٩ م ، المجلد الخامس (ص ١٤٠)

٥ Reall. I, S. 440,

٦ «Dil-di-li», «Kud-di-li», Deserta, P. 488, Skizze, II, S. 265.

٧ Reall. I, S. 42, 440, Schrader, Keil. Bibl. II, S. 146

٨ Skizze, II, S. 265, Deserta, P. 483.

(Magal'ani) (Ma-gal-a-ni) [1] ، والملكة (يافا) (ابفع) (يفع) (Iapa')
(Ja-pa') ، ملكة (دخراني) (دحراني) (دخر) (Dihrani) [2] (Didhrani)
و (خبيصو) (خابصو) (جبيسو) (Habisu) (Kha-bi-su) ملك (قداباً)
(Qadab') [3] ، و (نخارو) (نيخرو) (نحارو) (نحر) (Niharu)
(Ni-kha-ru) ملك (جأباني) (جعباني) (جعفاني) (Ga'pani) [4] ،
والملكة (با ايلو) (باثلة) (Ba'ilu) (Ba-i-lu) ملكة (اخيلو) (Ihilu) [5]

آشوريون يحرقون خيمة أعراب نيام Helmuth Th. Bossert, Altsyrien, 1397

و (خبن امرو) (خبن عمرو) (حبن امرو) (حبان امرو) (Habanamru) (Kha-ba-zi-ru) ملك (بداء) (بدع) (Buda') [6] . وأسر خلقـاً من أتباعهم أخذهم الى أرض آشور كما حمل آلهتهم معه . وتمكن أحد الملوك ، وهو الملك (ليلى) (Laili) (ليلة) (Laiale) ملك (يادىء) (يادبا) (يدع) (Iadi) (Jadi') من النجاة ، غير انه ذهب الى نينوى بعدئذ ، حيث طلب العفو والصفح عما بدر منه ، فقبل (أسرحدون) منه ذلك ، وتآخى معـه ،

---

١ «Ma-gal-Za-ni», Skizze, II, S., 265, Reall., I, S., 440, Deserta, P. 483.
٢ «Di-ikh-ra-a-ni», «Di—ikh—ra—ta—a—ni», Skizze, II, S., 266.
٣ «Ka-da-ba'-a», «Ka-ta-ba'- a», Skizze, II, S. 266.
٤ «Ga'-u-u-a-ni», Skizze, S. 266.
٥ «I-khi-lu», Reall. I, S. 392, Schrader, Keil. Bibli. II, S. 148, Skizze, II, S. 266.
٦ Reall. I, Sechste Lieferung, s. 440, II, S. 74, «Pu-ta'-a», «Bu-da-a», Asarh. Prism Br. Col. IV, L. 22, Schrader, Keil. Bibli. II, S. 148, Skizze, II, S. 266.

وأعاد اليه أصنامه ، وعينه ملكاً على أرض (خازو) و (بازو) (بازي) على أن يدفع الجزية اليه[1] .

وقـد ورد في التوراة اسم (بوز) و (حزو)[2] . أما (بوز) ، فهو ابن ناحور أخي ابراهيم ، ويظن ان لاسمه صلـة باسم أرض (بوز)[3] ، وأما (حزو) فانه أحد أولاد (ناحور)[4] . وقد ذكرت كلمة (بوز) بعد (تيماء) في سفر (إرميا) ، حيث ورد : « وكل اللفيف وكل ملوك أرض عوص ، وكل ملوك أرض فلسطين وأشقلون وغزة وعقرون وبقية أشدود ، وأدوم ومؤاب وبني عمون ، وكل ملوك صور ، وكل ملوك صيدون ، وكل ملوك الجزائر التي في عبر البحر ، وددان وتيماء وبوز ، وكل مقصوصي الشعر مستديراً ، وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيف الساكنـين في البرية »[5] . فـ (بوز) في التوراة اسم موضع ، واسم شعب ، وقد ورد في التوراة اسم رجل من (بوز) سمي (اليهو) (Elihu) البوزي ، وهو ابن (برخئيـل) ، وكان صديق (أيوب) وحكماً في المحاورة التي جرت بين أيوب وأصحابه الثلاثة الذين أتوا ليعزّوه في المصائب والبلايا التي نزلت بـه[6] . وأيوب كان من سكان أرض (عوص)[7] ، وهو عربـي على رأي عدد من علماء التوراة .

ولم يحدد موقع (بوز) في التوراة ، ولكن ورود (بوز) بعد ددان وتيماء في الموضع الذي ذكرته من إرميا،وقبل جملة (وكل مقصوصي الشعر مستديراً) ، يحملنا على التفكير في أن أرض (بوز) كانت في جوار تيماء ، وليست بعيدة جداً عن (ددان) (ديدان) ، وقريبة من الأعراب الذين كانوا يحلقون شعور رؤوسهم إلاّ دائرة تبقى في أعلى الرأس،أي غير بعيدة عن البادية وعن الأعراب

---

١ ادي شير (ص ١١٨)
Rawlinson, The Five. II, P. 470. ff. Reall. I, 6. te. Lieferung, «Basi», S. 440, Deserta, P. 483, Real. I, 3. Lieferung, S. 201.
٢ التكوين ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الاية ٢١ وما بعدها .
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٥٥/١) .
٤ التكوين ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الاية الثانية والعشرون ، قاموس الكتاب المقـدس (٢٧٣/١) .
٥ ارميا ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الاية ٢٠ وما بعدها .
٦ ايوب ، الاصحاح الثاني والثلاثون ، الاية ٨ ، قاموس الكتاب المقدس (١٤١/١)
٧ قاموس الكتاب المقدس (١٨٨/١) .

الإسماعيليين . ولهذا ذهب (كلاسر) و (دلج) (F. Delitzsch) وغيرهما الى أن بوز ، هي (بازو) الواردة في نص (سنحاريب) ، وتقع في العربية الشمالية [١] : ورأى (ذورمة) (Dhorme) ، أنها في منطقة تقع في جنوب شرق الجوف [٢] . وأما (موسل) ، فيستند أيضاً الى الوصف الذي جاء في النص الآشوري عن (بازو) التي تقع في موضع قاص ، ويبدأ من السباخ وبادية مجدبة ، (١٤٠ بيرو من الرمال) [٣] ، وليس فيها غير الشوك ونوع من حجر يعرف بـ (حجر فم الغزال) [٤] ، ثم سهل فيه الأفاعي والعقارب مثل (الزربابو) الجراد [٥] . تليه (خازو) ، وهي أرض جبلية اتساعها (٢٠ بيرو) من حجر الـ (Saggilmut) [٦] . ويرى من هذا الوصف أن موضع (بازو) في غرب وفي جنوب (تدمر) وفي (وادي السرحان) ، وأن الملوك الثمانية الذين قتلهم (اسرحدون) كانوا يقيمون في وادي السرحان عند الحدود الشرقية لحوران وفي (الرحبة) و (قطبة) الى وادي (القطامي) . ويرى أيضاً أن (يدىء) (بادىء) (يدي) ، وهو موضع الملك (ليلى) ، هو (الجاف) ، أو (الودي) وذلك بابدال الحرف الأول من كلمة (يدي) بحرف الواو . وهو أمر يرى أنه كثير الحدوث ، فمن المحتمل أن يكون موضع (الودي) — على رأيه — هو (يدي) أو (يدىء) مقر الملك (ليلى) (Laili) [٧] .

فرأي (موسل) أن (بازو) تعني النصف الشمالي من (وادي السرحان). وأما الأرض الواقعة في شرق (السرحان) وفي شمال السرحان في المنطقة الجبلية، فإنها (خازو) (حازو) ،وقد سلك الجيش الآشوري كما يقول الطريق التجارية

---

١ Reall. I, S. 440, Enc. Bibl. P. 616, Delitzsch S. 307, Skizze, II, S. 265, 266.

٢ Deserta, P. 483.

٣ « كسبو » « قصبو » « Kasbu » عند (كاسر) و (دلج) بدلا من — بيرو — و — قصبو — قصبة — و — بيرو — هما وحدة قياس الابعاد والمسافات
Rawlinson, The five. II, P. 470, S. Smith, Babylonian Historical Texts, P. 18, Campbell Thompson, Assyrian Herbal, 102.

٤ « صبيتي » ، « Sabiti » Deserta, P. 484,

٥ « زربابو » ، «Zirbabu» جراد ، Skizze, II, S. 265. Reall. I, S. 440,

٦ Reall. I, S. 440 Deserta, P. 482. f. Skizze, II, S. 265, Delitzsch, S. 306.

٧ Deserta, P. 484.

المارة من الحافات الشرقية لحوران الى دمشق [١] .

وقد صيرت أرض (بوز) و (بوزي) بـ (أرض أوسيتس) (Ausitis) في الترجمة السبعينية للتوراة (العهـد العتيق)[٢] ، ولذلك رأى بعض العلماء أن المراد بها اسم (Aiseitai) (ايسايتاي) (ايسايته) ، وهو اسم موضع ذكره الجغرافي (بطلميوس) في داخل بادية بلاد العرب[٣] . ورأوا أن بوز هي هذا المكان [٤] .

ورأى آخرون أن (بازو) هي نجد،وأن البادية التي تحدث عنها (أسرحدون) هي (النفود) . وأما (خازو) فإنها الأحساء [٥] . وذهب (رولنسن) الى احتمال كون هذه المنطقة هي أرض مملكة الحيرة ، وما يتصل بها الى جبل شمر ، لأن الوصف المذكور ينطبق – في رأيه – على هذا المكان[٦] .

وذهب (كلاسر) في مكان آخر من بحوثه المستفيضة عن (بازو) و(خازو) الى أن (خازو) هي (حزو) ، والى أن (بازو) و (حازو) في الأقسام الشرقية والجنوبية من (اليمامة) الى أرض (مأكن) (Maken) الى مرتفعات (رأس الخيمة)[٧] . وأشار أيضـاً الى (حزوى) ، وهي (السدوسية) لبني سعد في اليمامة ، وقد ذكرها (الهمداني)[٨] ، ويرى أن هذه اللفظة قريبة جداً من (حزو) التوراة ومن (خازو) النص الآشوري . وعلى هذا تكون أرض (خازو) في اليمامة ، وهي أرض ذات آثار قديمة وعاديات وخرائب تقع بين وادي (ملهم) و (وادي حنيفة)[٩] .

---

١ Deserta, P. 484.

٢ ـ العهد القديم ـ ، ـ العهد العتيق ـ ، ـ الصورة القديمة ـ ، الترجمـة السبعينية ، هي الترجمة التي تمت في عهد الملك ـ بطلميوس الثاني ـ ،ـ٢٨٥ـ ٢٤٧ ق. م ـ ، وذلك ليتمكن يهود مصر ، الذين كانوا قـد نسوا العبرانيـة ، وتكلموا باليونانية من الوقوف على التوراة وفهمها .

٣ Ptolemy, Geography, V, 19, 2.

٤ Reall. I, 6te. Lieferung, S. 440.

٥ Reall. I, 440, Palgrave, Central Arabia, I, P. 96, (1866)

٦ Rawlinson, The Five. II, P. 470.

٧ Skizze, II, S. 266.

٨ الصفـة (ص ١٦٢) .

٩ Skizze, II, S. 269.

ورأى بعض الباحثين المحدثين ان أرض (بازو) هي الساحل المقابل لجزر البحرين ، أي جزيرة (تلمون) كما كانت تعرف عند القدامى . وأما (خازو) أي (حازو) في قراءة ، فهي (الأحساء)[١] . ونرى بين اللفظتين (حازو) و (أحساء) تقارباً كبيراً .

ولم يذكر (أسرحدون) كيف رجع الى بلاده بعد حملته الطويلة هذه ، ومن أي سبيل رجع الى ملكه ؟ غير ان بعض الباحثين يرون انه سلك طريقاً غير الطريق الأول الذي سلكه في حملته على الشعوب والأرضين المذكورة . يرون انه سلك طريقاً موازياً لساحل الخليج ، فاخترق أرض (بازو) و (خازو)، (حاسو) ، ثم سار شمالاً الى اقليم بابل . و (حاسو) عندهم هي الأحساء، وهي بين (نجد) والخليج ، وكان (أسرحدون) قد سلك في حملته الأولى كما يروون طريقاً اخترق (نجداً) . فلما قرر العودة سلك الطريق الثاني[٢] .

ويرى (موسل) ان اسم (دخراني) (Di-ih-ra-ani) هو (Dacharenoi) المذكور عند (اصطيفان البيزنطي) (Stephen of Byzantium)[٣] . أما (كلاسر) فيرى ان قبيلة (Dachareni) ، التي ذكرها (بطلميوس) بعد اسم قبيلة (Malangite) هي القبيلة المذكورة في نص (أسرحدون)[٤] ، وان قبيلة (Malangite) هي قبيلة (Ma-gal-a-ni) المذكورة في نص (أسرحدون) . ورأى احتمال كون (Gauuani) هي (جوجان)[٥] و (Ikhilu) ، هي (أجلة) أو (أخلة) ، وهما عند الخرج[٦] .

ويرى (كلاسر) احتمال وجود علاقة بين (Bi-i-lu) ، وهو اسم الملكة، و (باهلة) ، وهو اسم القبيلة المعروفة التي تقع منازلها منذ القديم في هذه المنطقة . وعنده أن حملة (أسرحدون) قد كانت في اليمامة ، حيث ينطبق وصف

---

١ J. Simons, P. 15.

٢ Reali. I, te. Lieferung, S. 441.

٣ Deserta, P. 484, Stephen of Byzantium, Ethnica, (meineke) I, P. 223, Forster, II, P. 141, Skizze, II, S. 5.

٤ «Dacharaemolzae» Forster, I, P. DCXIX, 138, II, 268, Skizze, II, S. 256.

٥ « جوجان » ، صفة (ص ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٠) .

٦ « اجلة » صفة (ص ١٣٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦١) Skizze, II, S. 5.

هذه المنطقة على وصف الأماكن المذكورة في حملة (أسرحدون) أحسن انطباق[1] .
وبعد وفاة (أسرحدون) رأى (يثع) (يطبع) (يايطع) (Uaite') أن من الأصلح مصالحة الآشوريين ، فذهب الى (آشور بانبال) ، (آشور بنبال) وقابله وأرضاه ، فأعاد اليه أصنامه ، ومنها الصنم (عثر السماء) ، (أتر سمائين) (Atarsamain) (A-tar-sa-ma-a-a-in) ، أي (عثر السماوات) ، وهو الإله (عثر) إله السماء ، الذي سأتحدث عنه عند كلامي على ديانة العرب قبل الإسلام ، ورضي عنه وأعاده الى منصبه[2] .

ويذكر (آشور بانبال) أن (Uaite') حنث بيمينه ، وخالف عهده وميثاقه معه ، لما أعلن (شمش – شوم – أوكن) (Schamaschschumukin) ، شقيق آشور بانبال العصيان عليه ، وخاصمه ، فانضم اليه ، وأيده بمدد يساعده ، جعله تحت قيادة (اب يثع) (أب يتع) (Abjate') و (ايمو) ابنا (تارى) (ثار) (تور) ، (Te'ri) . وقام على رأس أتباعه بغزو الحدود الغربية لأرض بلاد الشأم التي سبق أن استولى عليها الآشوريون ،وأصبحت من المقاطعات الخاصة لهم ، من (أدوم) (Adom) في الجنوب الى جنوب (حماة) في الشمال . غير ان السعد لم يحالف (Uaite') في هذه المرة ايضاً ، فتصدت الجيوش الآشورية للمدد الذي ارسل لمساعدة (شمش – شوم – اوكن) ، وشتت شمله قبل وصوله الى (بابل) . أما الذين تمكنوا من الهرب والوصول الى (بابل) ، فقد أبيد أكثرهم كذلك . وقد اضطر (اب يثيء) (اب يتع) (Abjate) أن ينجو بنفسه بالهرب الى البادية خشية أن يقع في الأسر ، وذهب من ثم الى (نينوى) حيث مثل أمام الملك طالباً منه العفو والصفح ، وقبل الملك عذره وصفح عنه ، ثم أصدر أمره بتعيينه ملكاً في مكان (Uaite') الذي كان مشغولاً بغزو حدود الشام وفلسطين الشرقية المتاخمة للصحراء أي حدود أرض (أمورو) (Amurru) على رأي بعض العلماء[3] ، وذلك بعد

---

١ Skizze, II, S., 269, 273.

٢ « اسور بانيبال » ادي شير ، (ص ١٣٢) ،
Reall. I, S. 310, 312, Schrader, KAT. S. 434, Streck, Vorderasiatische Bibliotheck, VII, S. 72, Deserta, P. 485.

٣ لمعرفة اراء علماء الاشوريات في ارض « امورو » التي تعني ارض المغرب ، او الرياح الغربية ، استحسن الرجوع الى ما كتب عن هذا الموضوع في :
Reall. I, S. 99, ff. Hastings, P. 27.

هزيمة (Uaite') وتغلب الآشوريين عليه في حوالي سنة (٦٤٨ ق. م.)[1]. وقد وافق (اب يثيء) (Abjate') أن يدفع جزية الى الآشوريين ، تتألف من ذهب وأحجار كريمة وجمال وحمير[2].

ولم يتمكن (Uaite') من الثبات طويلاً والاستمرار على مهاجمة الآشوريين، إذ كلف الملك (آشور بانبال) حرس الحدود والقوات الآشورية التي كانت هناك مهاجمة أتباعه ، ومعاقبة (Uaite') الذي نسي الجميل ، وخاس بعهده على حد قول (آشور بانبال)[3] . وبعد مصادمات ومعارك وقعت بالقرب من (ازريلو) (Azarilu)[4] . و (خير اتكاسي) (Khiratakasi) و (ادومه) (Udume) في ممر (يبردو) (Jabrudu) في (بيت أماني) (بيت عماني) (Bit Ammani) في منطقة (خوينه) (Khaurina) و (موابه) (Mu'aba) و (ساري) (Sa'ari) و (خرجه) (Kharge) و (صوبيتي) (Subiti)، اضطر أتباع (اويتي) (Uaite') الى الرجوع الى البادية للاحتماء بها . ويظهر أنهم أصيبوا في أثناء ذلك بخسائر فادحة . وقد أكره (اويثيء) بعد هذه الخسائر على الالتجاء الى الملك (نتنو) (Natnu) ملك (نبيتي) (نبيطي) (Nabaitai) (Nabaiti) تاركاً زوجته بين أتباعه من قبيلة (قيدار) (Qidri) (Kedar)[5] .

ولما هاجم (امولاتي) (عمولاطي) (امولاطي) (Ammulati) ملك قبيلة (قيدار) (قيدري) أرض مملكة (مؤاب) (Moab) أصيبت جيوشه بخسارة كبيرة، وسقط أسيراً — ومعه (اديا) (عادية) (عدية) (Adija) زوجة (Uaite') ملك (اريبي) في أيدي الملك (Kamashkalta) (Kamaskhalta) ملك مؤاب (٦٤٨ ق. م) . فأرسلا أسيرين الى نينوى

---

١ Meissner, Konige, S. 246, Deserta, P. 486, Reall. I, S. 9

٢ Deserta, P. 486, Rawlinson, Cuneiform, 5, Part, I, Plate, 9, Col. 8 II 30. III, P 1. 34, Streck, Die Inschriften Assurpanipals, II, S. 68, 134, 202.

٣ Reall. I, S. 126.

٤ Reall. I, S. 325.

٥ Deserta, P. 485, Rawlinson, IV, Part. I, P 1. 9, Streck, II, S. 64, 132.

حيث سلما الى (آشور بانبال)[1] . وكان (Ammulati) قد ساعد (شمش – شوم – أوكن) في ثورته على أخيه ، وهاجم أرض المغرب (أمورو) (Ammurru) ، لذلك سر (آشور بانبال) ، بهذا الانتصار الذي أحرزه (مؤاب) . وقد رسم منظر غلب (آشور بانبال) وأسر (Ammulati) و (Adija) على جدار إحدى غرف قصر الملك (آشور بانبال)[2] .

لقد أثرت الانتصارات التي أحرزتها جيوش (آشور) في نفس (نتنو) (ناتنو) (Natnu) ملك (Nabaiti) ، فأخذ يتقرب الى (آشور بانبال) ، ومن جملة ما فعله في التقرب اليه أنه أرسل (Uaite') – الذي كان قد التجأ اليه – الى نينوى حيث سلم الى الملك الذي أمر بوضعه في قفص ، ليعرض على الناس عند أحد أبواب المدينة[3] . وذكر (آشور بانبال) في كتابته أن منازل (Nabaiti) قبيلة (Natnu) بعيدة ، ولم يسبق لها أن أرسلت رسلاً الى بلاط أحد من أجداده وآبائه في نينوى من قبل ، وأن هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها من هذه القبيلة رسول[4] .

وقد وصف (آشور بنبال) موقف الأعراب وصفاً مؤثراً بهذه الكلمات : « اشتدت عليهم وطأة الجوع . ولكي يسدوا رمقهم ، أكلوا لحوم صغارهم .. وقد سأل أهل العربية بعضهم بعضاً : ما بال بلاد العرب قد أحدق بها هذا الشر ؟ فكان الجواب : تلك عاقبة من ينكث العهد، ويخرق المواثيق التي قطعناها لآشور »[5] .

وذكر (آشور بانبال) انه عامل (Uaite') على هذه الصورة ، وذلك في عباراته التي أمر بتدوينها في النص : « حبسته في مربط الكلاب ، وضعته مع بنات آوى والكلاب ، وأقمته على حراسة الباب في نينوى »[6] .

---

١ British Museum Tablet, K2802, Rawlinson, 3, Pl., 34, Col. 8, II, 31-44, Pl. 35. ff. Col. 5, II, 15-30, Reall. I, S. 36.

٢ Real. I, S. 36, 98, British Museum, A Guide to the Babylonian and Assyrian Antiquities, London, 1922, P. 184, 44, K. 2802, + K3047, + 3049.

٣ Reall. I, S. 126.

٤ Deserta, P. 486, Ungnad, in Vorderasiatische Schriftdenkmaler, I, No. 83, Col. 3, II, 4-16.

٥ Luckenbill, II, 888.

٦ Luckenbill, II, 819.

ووصف حملته على الأعراب ومطاردته لهم بهذه الكلمات : « في رمضاء البادية وقيظها ، حيث لا ترى طيور السماء وحيث لا يرى حمار الوحش ولا الغزال »[1] . وذلك من شدة جدب البادية ، وعدم احتمالها الأحياء .

لم تنفع الشدة التي استعملها الآشوريون في القضاء على مقاومة الأعراب شيئاً . فما كاد (آشور بانبال) يشغل نفسه بقتال ملك (عيلام) وحربه في عام (٦٤٠ – ٦٤١ ق. م.) حتى ثارت القبائل العربية على آشور بزعامة (أبيتاً) (أبي يثع) (Abijate') ابن (تاري) (Te'ri) الذي تحدثت عنه سابقاً ، و (اويئ) (Uaite') الثاني ، وهو ابن (بير دادا) (Bir Dadda) (Bir Dadda) ،وأخذت تتحرش ثانية بحدود المقاطعات الآشورية المتصلة بالبادية. ولما أرسل الآشوريون جيوشاً قوية لصد هذه الهجمات ، طلبت قبيلة (قيدري) (قيدار) مساعدة (نتنو) ملك (نبيّ) (Nabaiti) ، فلبى الطلب ، وتحالف معهم ، وأخذوا يهاجمون الحدود ، ومعهم قبيلتا (يسمع) (يسماً) (Isamme') و (عثر سمين) (Atarsamain) . غير ان الجيوش الآشورية تمكنت – مع ذلك كما تدعي كتاباتهم – من الانتصار على (قيدار) وعلى حلفائهم ،فانتصرت على (Isamme') وعلى (Atarsamain) و (Nabaiti) في موضع في البادية بين (ياركي) (يركي) (Jarki) (أرك) شرق تدمر[2]، و (ازلة) (Azalla)[3] ، وشتت شملهم . ثم انتصرت في معركة أخرى على (Atarsamain) على (قيدار) وقعت عند (Qurasiti) ، وغنمت فيها غنائم كبيرة من الحمير والجمال والأغنام، كما أسرت أصنام(Uaite') وأمه وزوجته وعدداً كبيراً من أتباعه[4] . وأخذوا الى دمشق ، وأسر (ابي يثاً) (Abjate') وشقيقه (أيمو) (Aimnu) في المعركة التي وقعت عند (خوكرينا) (Khukkurina) (Khukruna)[5] .

---

١ Luckenbill, II, 823.

٢ Meissner, konige, S. 246, Streck, Vab. VII, S. S. CCLXXXII, ff.

٣ وتقع في بادية « تدمر » بين « يركى » «Jarki» ودمشق ،
Reall. I, S. 325, Reall. I, Ite, Lieferung, S. 9.

٤ Deserta, P. 487.

٥ Deserta, P. 488, Reall. I, S. 126.

أما الملك (Uaite') ، فقد اعتصم مع عدد من أتباعه بالصحراء ، غير أن الأمراض والأوبئة التي انتشرت بين أتباعه أكرهته على الذهاب الى الآشوريين الذين نقلوه الى نينوى ، وعرضوه أمام الملك . وقد عوقب عقاباً قاسياً،وعذّب عذاباً شديداً،ثم عفا عنه الملك بعد ذلك غير انه لم يسمح له بالعودة الى البادية، حيث أهله وأتباعه ومنازله ، ولعله مات في نينوى[1] .

لقد وردت في أخبـــار حملات الآشوريين على العـــرب ، أسماء مواضع منها ما يمكن التعرف عليه ، ومنها ما ليس في الامكان تشخيصه الآن ، وقد تحدثت عن بعضها . ويرى بعض العلماء ان موضع (أزريلو) (Azarilu) المذكور في أخبار انتصارات (آشور بانبال) على العرب ، هو موضع يقع في باديـــة الشأم[2] . وأما لفظة (أدومـة) (Udume) ، فيرى (موسل) انهـــا تعني (أدوم) (Edom) أرض (الآدوميين) من ذرية (عيسو بن إسحاق) على رواية التوراة . وهم شعب استوطن في الأصل جبـــل (سعير)[3] ، ثم توسع فسكن في منطقة شملت كل تخوم كنعان الجنوبيـــة من البحر الميت الى الخليج الشرقي للبحر الأحمر ، ومن ضمنها جبل (سعير)[4] . وقد كان الأدوميون من أعداء العبرانيين :

ولما زاحم النبط الأدوميـــين على أرضهم ، زحفوا نحو الشمال فسكنوا في (اليهودية) (judah) ، وتوسعوا حتى تجاوزا شمال (حـبرون) ، ولذلك دعيت هذه المنطقة باسم (الأدومية) (Idumaea)[5] . وذكر المؤرخ اليهودي (يوسفوس) ان من أصنامهم صنماً يدعى (Koze)[6] ، ويذكرنا اسم هـــذا الصنم باسم الصنم (قزاح) ، وهو صنم كان يعبد على مقربة من مكة[7] .

---

١ Deserta, P. 389, Rawlinson, The Five. II, P. 492.

٢ Reall. I, S. 325.

٣ التكوين ، الاصحاح الثاني والثلاثون ، الاية ٣ ، القضاة ، الاصحاح الخامس الاية ٤ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٥٣) ، Hastings, P. 203.

٤ قاموس الكتاب المقدس (١/٥٣)

٥ Hastings, P. 203.

٦ Josephus, Antiq. XV, 7, 9.

٧ Enc. Bibl. P. 1188.

وأما (Mu'aba)،فيرى (موسل) انها (مؤاب) المذكورة في التوراة[١]، وهي أرض المؤابيين ، أبناء (مؤاب)[٢] .

وأسماء الأشخاص الواردة في النصوص الآشورية هي أقدم أسماء نعرفها وردت في نصوص تأريخية عند العرب الشماليين،،مثل (زبيبة) و (شمس) و (الباسق) الذي كتب (بسقانو) (Basqanu) في النص الآشوري ، و (أيم) الذي هو (ايمو) في النصوص الآشورية ، و (جندب) الذي صار (جنديبو) (Gindibu) في اللغة الآشورية (Kiau) (Kisu) (Ki-i-su) الذي يحتمل أنه (قيس) ، و (Agbaru) (Akbaru) القريب من أكبر أو (أخبر) أو (أجبر) ، و (خبيصو) (جيصو) (Habisu) (Kha-bi-su) الذي يحتمل أنه (خبيص) أو (خابص) أو (حبيس) أو (حابس) أو (قبيصة) أو ما شابه ذلك من أسماء، و (نخرو) (نحرو) (Niharu) (Ni-kha-ru) الذي يحتمل أنه (نخر) ، أو (ناخر) أو (نهار) ، (وليلى) (Laili) (Laiale) ، الذي هو (ليلي) الى آخر ذلك من أسماء .

وورد في جملة الأرضين التي استولى عليها (آشور بانبال) في بلاد العرب، اسم موضع دعي (انزلكرمة) (Enzilkarme) (Al-en-zi-kar-me) ، وهو كناية عن واحة ، يرى (ديلج) (Delitzsch) أنها تقع جنوب حوران[٣].

وقد افتخر « آشور بانبال ، الملك العظيم ، الملك الحق الشرعي ، ملك العالم ، ملك آشور ، ملك الجهات الأربع ، ملك الملوك ، الأمير الذي لا ينازعه منازع ، الذي يحكم من البحر الأعلى الى البحر الأسفل ، والذي جعل كل الحكام الآخرين يخرون له سجداً ويقبلون أقدامه »[٤] ، بأنه ملك من البحر الأعلى حتى جزيرة (دلمون) من البحر الأسفل[٥] . ومعنى هذا أن ملكه امتد من أعالي العراق الى البحرين[٦] .

يظهر من النصوص الآشورية أن الآشوريين قاموا بعدد من الحملات يزيد

---

١ Deserta, P. 485.

٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٣٨٥) .

٣ Delitzch, S. 300, Hommel, Geographie, S. 588, Reall, II, S. 404.

٤ راجع النص في : Pritchard, P. 297.

٥ Pritchard, P. 297.

٦ R. C. Thompson, In AAA, XX (1933), 71.

عددها على تسع للانتقام من الأعراب الذين كانوا قد تعودوا التحرش بهم ، ومضايقتهم عند اجتياز البوادي ، ومهاجمة قوافلهم وحدود أمبراطوريتهم ، تحرضهم بابل في بعض الأحيان ، أو حكومة مصر ، أو يدفعهم الى ذلك أملهم في الحصول على غنائم يتعيشون منها . وقد أزعجت هذه التحرشات الآشوريين كثيراً ، وأغضبتهم ، يتجلى غضبهم هذا فيا دوّنوه عنهم . وفي الصور التي رسموها للعرب في قصورهم ، فصوّروهم يقبلون أرجل ملوك (نينوى) ليرضوا عنهم ، مقدمين اليهم الهدايا فيها الذهب والحجارة الكريمة وأنواع الطيب والكحل واللبان والجمال . وصوّروا الآشوريين وهم يحرقون خيام الأعراب ، وهم نيام ، وصوّروا عساكرهم يقاتلون الأعراب ويطاردونهم ، وهو على ظهور خيولهم المطهمة . أما العرب ، فإنهم على ظهور الجمال لا يستطيعون الافلات من الآشوريين[1] . وترجع هذه الصور الى أيام (آشور بانبال) ، حيث عثر عليها في قصره بـ (نينوى) .

وقد صور العرب ولهم لحى وقد تدلى شعر رؤوسهم على أكتافهم ضفائر ، وشد أحياناً بخيط . وأما الشوارب ، فإنها محفوفة في الغالب . وقد صوّر العرب وهم يركبون الجمال عراة في بعض الأحيان ، أو تمنطقوا بمنطقة ثخينة أو ائتزروا إزاراً يمتد من البطن الى الركبتين[2]. ولا تصور هذه الصور كل الأعراب بالضرورة بل هي تمثل أولئك الذين تحاربوا مع الآشوريين .

لقد أقام الآشوريون لهم مسالح في أقاصي الأماكن التي بلغ نفوذهم الحربي والسياسي اليها ، كما أقاموا حصوناً في مفارق الطرق المؤدية الى البادية ، وذلك لحماية حدودهم من غزو أبناء البادية . كما وضعوا مراقبين آشوريين ، أو مندوبين سياسيين في مواطن سكن سادات القبائل ، وذلك لمراقبة حركات القبائل وأخبار حكوماتهم بنوايا وبأعمال ساداتها وللتأثير على أولئك السادات لحملهم على تنفيذ ما يريده ملوك آشور . وهي خطة قلدها من جاء بعد الآشوريين من أجانب . ولم يكن الآشوريون هم أول من ابتدع هذه السياسة ، فلا بد وأن يكون من سبقهم قد سار على هذا الدرب ، ومهد أرضه للآشوريين ولمن جاء بعد الآشوريين من حكام .

---

١ British Museum, Assyr. Sal. Nr. 85-87, Reall. I, 127, E. Unger, Assyr. und Babyl. Kunst, 1927, Abb. 77, Marucchi, Catal. del Mus. Egiz. Vatica. Nr. 24.

٢ Streck, VAB. VII, S. 217, Anm. II, 411, 772, Reall. I, S. 127.

الفصل الخامس عشر

صلة العرب بالكلدانيين والفرس

لا نعلم شيئاً كثيراً عن صلات العرب بالكلدانيين ، فلم تصل الينا كتابات منهم تفصح عن علاقتهم بالعرب . غير ان سكوت هذه الكتابات وعدم وصولها الينا ، لا يمكن أن يكون سبباً يحملنا على التفكير في عدم قيام صلات بين العرب والكلدانيين . فقد رأينا فيما مضى انهم ساعدوا أهل بابل في نزاعهم مع آشور ، ثم ان العرب كانوا يجاورون البابليين منذ القديم ، وهذه المجاورة القديمة في حد ذاتها واسطة طبيعية لتكوين الاتصال المباشر بين العرب والكلدانيين .

وقد تحدث الأخباريون عن غزو (بخت نصر) (بختنصر) (٦٠٤ – ٥٦١ق. م.) للعرب في أيام (معد بن عدنان) ، ووصوله الى موضع (ذات عرق) ، كما تحدثت عن ذلك في فصل « طبقات العرب » ، وقد قلت ان رواتــه أخذوا مادته من أهل الكتاب ، وأضافوا اليه مادة جديدة أنتجها ابتداعهم له ، فصار نسيجاً جديداً هو المدوّن في الكتب[1] . وهو حديث لا قيمة تأريخية له ، ولذلك لا يمكن الاطمئنان اليه والأخذ به . وقد قص علينا الأخباريون ألواناً كثيرة من هذا القصص الذي بان لونه وعرف أصله في القرن العشرين .

وأنا لا أريد أن أستبعد احتمال قتال (بخت نصر) مع القبائل العربية، فذلك

---

١ الطبري (١/٢٩١) ، ابـــن الاثير، الكامل (١/١١٧) ، (نبوكـــد ناصـــر) ، (ادي شير) (ص ١٤٠) .

ممكن جداً ، ولا سيا أن بابل مجاورة للعرب ، وان توسع هذا الملك ودخوله فلسطين جعل البابليين يتصلون اتصالاً مباشراً بالأعراب ، فلا بد أن يكون (بخت نصر) قد احتك بالعرب واتصل بهم . وقد يكون حاربهم وأوقع خسائر بهم ، لتحرشهم بجيوشه وبحدود امبراطوريته التي شملت البادية الواسعة الفاصلة بين العراق وبلاد الشأم[1] . ولكن الذي نتوقف عنده وننظر اليه بحذر ، هو هذا الطابع المعروف عن الأخباريين ، الذي يروون به كيفية غزو ذلك الملك لـ (معد ابن عدنان) .

وقد يكون (بخت نصر) ، قد بلغ موضع (ذات عرق) وقد يكون بلغ موضعاً آخر أبعد منه ، إلاّ أن الذي أراه أن استيلاء البابليين على الأماكن التي احتلوها من جزيرة العرب إن وقع فعلاً ، فإنه لم يدم طويلاً ، فقد كانت فتوحات الفاتحين لجزيرة العرب كالسيول ، تأتي جارفة عارمة ، تكتسح كل شيء تجده أمامها ، ثم لا تلبث أن تزول وتختفي آثارها بعد مدة قصيرة، لأسباب منها بُعد طرق المواصلات عن عواصم الغازين الفاتحين وعدم وجود مواد غذائية كافية في البلاد المفتوحة لإعاشة جيش كبير ، ليستطيع ضبط القبائل والمحافظة على الأمن ، ومهاجمة القبائل للقوافل التي ترد لتموين الحاميات وللحاميات نفسها، وعدم تمكن الفاتح من وضع جيش كبير جاهز في كل لحظة للقتال ليصدّ غارات القبائل التي تؤلف غالبية سكان جزيرة العرب في ذلك العهد . ثم إن القسم الأكبر من الذين قاتلوا وفتحوا أناس مرتزقة سيقوا الى القتال سوقاً ، خوفاً أو طمعاً ، وقبائل اشترى الفاتحون ساداتها بأطماعهم في مغانم يجنونها أو لدوافع حقد قبليّ ، ومن عادة سادات القبائل أنهم مع الفاتح ما دام قوياً سخياً يبذل لهم بكل سخاء ، فإذا ضعف أو أمسك أو دارت الدنيا عليه ، كانوا هم أول من ينقلب عليه . ولذلك صارت أمثال هذا الفتوحات غارات انتقامية سريعة ، لا يلجأ اليها إلاّ بعد تفكير واعداد خطط ووجود ضرورات ملحة تستوجب ارسال مثل هذه الحملات .

ويرى بعض علماء التوراة والبابليات ما جاء في كتاب (دانيال) الذي كتب بعد أيام (بخت نصر) من نبوءة ومن رسالة أرسلها النبي الى ذلك الملك، ومن

---

1 D.J. Wiseman, Chronicle of Chaldaean Kings, PP. 32, 48, 70, Nebuchadrezzar's Campain in Arabia, 599 B. C.

فتوحات في بلاد العرب ، هو من وضع كاتب تلك الرسالة ، وضعه ليثبت نبوءته ، وأن ذلك الكاتب أخذ فتوحات (نبونيد) فنسبها الى (بخت نصر)[١].
أما أنا ، فلا أريد أن أثبت فتوحات (بخت نصر) ، ولا أريد أن أنفيها في هذا المهد ، فوصول (بخت نصر) الى الحجاز أمر ممكن ، وسوف نرى أن (نبونيد) قد وصل الى مدينة (يثرب)،فليس بمستبعد وصول (بخت نصر) الى الحجاز ، بعد أن استولى جيشه على فلسطين ، وصار في إمكانه الزحف نحو الجنوب ، ولكن الذي أراه الآن هو التريث ، فلعلّ الزمن يجود علينا بنصوص قد تتحدث عن حروب وفتوح أمر بها هذا الملك في بلاد العرب : وكتاب (دانيال) ، وإن كُتب على شكل نبوءة ، لا يستبعد أن يكون قد استمد خبر النبوءة من وثيقة أو خبر شائع ، فصاغه في شكل نبوءة ، ليثبت نبوءته لبني اسرائيل .

وقد أخبرتنا الكتابات البابلية أن (بختنصر) (Nebuchadrezzar) أرسل في شهر (كسلو) (Kislev) (Kislew) من السنة السادسة من ملكه المقابلة لسنة (٥٩٩ ق. م.) حملة على العرب الساكنين في البادية ، نهبت أملاكهم وما عندهم من مواشي ، وسرقت آلهتهم ثم عادت[٢] . ولم يذكر النص البابلي اسم البادية التي هاجمها الجيش البابلي ولا اسم القبائل التي هاجمها ، ولم يذكر أيضاً اسم المواضع التي تحرك منها الجيش لمهاجمة العرب . ويرى الباحثون احتمال مهاجمة البابليين للعرب من (حماة) (Hamath) أو (ربلة) (Riblah) ، أو (قادش) (Kadesh) ، فتوغل جيش (بختنصر) في البادية ، ثم عاد حاملاً معه ما ذكر في النص من أسلاب ومن مواشٍ وآلهة العرب أي الأصنام .

وكانت غاية البابليين من تأسير الأصنام وأخذها ، هو اكراه القبائل على الاستسلام والخضوع لهم ، لما للأغنام من أثر كبير في نفوسها ، وقد رأينا ان ملوك الآشوريين مثل : (سرجون) و (سنحريب) و (أسرحدون) كانوا قد أسروا أصنام العرب وأخذوها معهم الى آشور وكتبوا عليها شهادة الأسر والوقوع في أيدي الآشوريين ، ليؤثروا بذلك نفسياً في نفوس أتباعها وعبّادها

---

١ S. Smith, Babylonian Historical Texts, P. 35.

٢ Br. Mus. 21946, D.J. Wiseman, Chronicles of Chaldaean Kings, London, 1956, P. 31, 48, 71.

ويكرهوهم على الخضوع لهـــم وعلى مساومة الآشوريـــين لاستردادها في مقابل الاستسلام لهم وتأييد سياستهم وعدم التحرش بهم . ولم يذكر النص البابلي أسماء تلك الآلهة .

وكانت غاية (بختنصر) من ارسال حملته هذه على العرب، هو حماية حدود (حماة) وبقية مشارف فلسطين وبلاد الشام من الأعراب واخضاعهم لحكمه ، ثم تأديب بعض القبائل التي تحرشت به على ما يظهر حين دخوله بلاد الشام وفي جملة ذلك فلسطين . واستناداً الى ما جاء في (سفر إرميا) نستطيع أن نقول ان (قيدار) كانوا على رأس القبائل العربية البارزة التي غزاها جيش (بختنصر) وكذلك (بني المشرق) (أبناء المشرق) و (ممالك حاصور) . ونظراً لوجود تشابه كبير بين الرواية البابلية عن حملة (بختنصر) على العرب وبين ما جاء في (سفر إرمياء)[1] ، أرى ان مدوّن السفر قد أخذ خبره هذا الذي صيّره نبوءة من موارد بابلية ثم كيّفه على النحو المذكور .

ولدينا خبر رواه لنا (اكسينوفون) (Xenophon) ، يفيد أن (بختنصر) لما حمل على مصر أخضع (ملك العربية) . وقـــد قصد بذلك حملته على مصر سنة (٥٦٧) قبل الميلاد[2] .

والخبر التأريخي الثاني الذي وصل الينا عن صلات البابليين المتأخرين بالعرب، هو ما ورد عن الملك (نبونيـــد) (Nabonid) (Nabonidus) (٥٥٥ — ٥٣٨ ق. م.) (٥٥٦ — ٥٣٩ ق. م.) من اتخاذه (تيماء) مقراً له . ففي السنة الثالثة من حكمه جرد حملة على (أدومو) (Adumu) (Adummu) أي (دومة) (دومة الجندل) ، وسار منها الى (تيماء) ، سالكاً طريقاً لم تعرف في الزمن الغابر ، على رأس جيشه ، جيش أرض (أكد) (أكاد) . فلما وصل اليها ، أعمل فيها السيف ، وقتل أميرها وأهلها ، والظاهـر ان ذلك بسبب مقاومتهم له وعنادهم في الدفاع عن مدينتهم ، ثم طاب له أن يستقر بها، فابتنى بها قصراً ضخماً له جعلوه كالقصر الذي في بابل ، وحلت (تيماء) محل

١ الاصحاح ٤٩ ، الآية ٢٧ وما بعدها .
٢ Xenophon, Cyropaedeia, I, 5, 2, Naval, P. 216.

بابل ، أي صارت عاصمة لملك البابليين[1] :

ويرى العلماء أن حملة (نبونيد) على (دومة الجندل) (ادومو) (Adummu) (وتيماء) (Tema) كانت في سنة (٥٥٢ ق. م.)[2] . وقد جاء اليها سالكاً الطريق البرية المؤدية من بلاد الشام الى شرقي الأردن ، الطريق التي يسلكها حجاج بلاد الشام في الإسلام الى مكة . وبعد أن قضى على حكام المدينتين استقر في (تيماء) ومعه حرسه البابليون . ويظهر من اشارته في نصه المدون عن أخبار فتوحاته أنه سلك في وصوله الى (تيماء) سبيلاً لم يسلكها الأقدمون من قبل ، ومن اشارته الى قتله (ملك تيماء) وسكان المدينة أن المدينة في أيامه كانت مستقلة ، يحكمها ملك من أهلها ، وأن البابليين لم يكونوا قد حكموها قبله[3] .

وقد أقام (نبونيد) سنين في عاصمته الجديدة . أما ابنه (بلشاصر) (بلشصر) (بلشسر) (Belsharrusur) (Belsazar) ، فكان بـ (بابل) مع الجنود البابليين . ويظهر أنه أقام بهذه المدينة حتى السنة الحادية عشرة من حكمه ، وربما أقام بها أكثر من ذلك قليلاً ، حتى اضطر الى تركها والعودة الى بابل ، بظهور الفرس ، الذين هددوا البابليين ، ووسعو ملكهم ، وصاروا على مقربة من بابل . فقد تغلب (كيرش) (كورش) (Cyrus)[4] على العربية وأدخلها في جملة أملاكه ، وعين عليها مقيماً سياسياً فارسياً (ستراب) (Satrap) ، ويظهر أن حملته هذه على العربية كانت حوالى سنة (٥٤٠ — ٥٣٩ ق. م) ، وأن (نبونيد) كان قد ترك (تيماء) ، وجاء الى بابل قبل تغلب (كيرش) على العربية[5] .

وقد يتساءل المرء عن الأسباب التي حملت (نبونيد) على ترك بابل والالتجاء هذه السنين الى (تيماء) : أهي شؤون سياسية خطيرة حملته على السكنى في هذه

---

١ Musil, Negd, P. 225, Meissner, Koenige, S. 208, Sidney Smith, Babylonian, P. 88, Dougherty, Nabonides, and Belshazzar, New Haven, 1929, PP. 106, Reall. I, 5te, Lieferung, S. 383.

٢ S. Smith, P. 53.

٣ راجع السطر ٢٤ من النص S. Smith, P. 88.

٤ (كيرش) ، الطبري (٢/٥) ، (٦٥٣/١ ، ٦٩١ ، ٧١٨) ، (طبعة ليدن) ، (كورش) تأريخ مختصر الدول لابن العبري ، (ص ٨١) ، (بيروت ١٨٩٠) .

٥ S. Smith, Baby. Hist, P. 82, 102, The Cambridge Ancient History. IV, P. 194.

المدينة البعيدة عن عاصمته القديمة ، أم هي عوامل عسكرية ، أو اقتصادية أو بواعث شخصية لا تتعلق بهذه ولا بتلك ؟ أما اجابات المؤرخين ، فهي مختلفة ومتنوعة . منهم من رأى أن لتيماء أهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية لوقوعها في ملتقى طرق تجارية عالمية بالنسبة الى ذلك العهد ، والاستيلاء عليها والبقاء فيها معناه كسب عظيم ، وربح كبير بالنسبة الى عالم السياسة في ذلك اليوم . ومنهم من رأى أن ذلك كان لأثر مزاج الملك وطبيعته ورغبته في التخلص من أمراض بابل ، بسكناه في محل جاف مرتفع زهاء (٣٤٠٠) قدم عن سطح البحر .

وتيماء مركز مهم ، ذكر كما رأينا في نصوص الآشوريين ،وهو من الأماكن القديمة المذكورة في التوراة ، وهو فيها كناية عن أحد أبناء اسماعيل ، مما يدل على انه كان من المواطن الإسماعيلية ، ويقع على مسافة (٢٠٠) ميل الى الجنوب الشرقي من رأس خليج العقبة ، ويمثل هذه المسافة الى الشمال من المدينة ، وعلى بعد (٦٥) ميلاً من شمالي العلا . وبها عين غزيرة المياه ، هي التي بعثت الحياة في هذا المكان .. وتعدّ أشهر عين ماء في جزيرة العرب[١] ، تستعمل للسقي ، ولإرواء المزارع التي تنبت مختلف الفواكه والتمور والحبوب . وهواؤها صحي جيد ، ولا تزال مأهولة ، فهي في الزمن الحاضر ، كناية عن قرية يزيد عدد سكانها على الألفين ، يسكنون في بيوت من طين وفي أكواخ[٢] .

وعلى مقربة من (تيماء) خربة فيها أحجار ضخمة مربعة ، وبقايا عمران قديم يظن بعض العلماء انها موضع معبد عتيق . ويرى بعض من زارها انها كانت مدينة لا تقل ضخامة عن (الحجر) وعن المدن الأخرى التي ترى آثارها في العربية النبطية حتى الآن . ولم تفحص هذه الخربة التي يسميها الناس (توما) (Tuma) فحصاً علمياً[٣] . وقد يعثر فيها على كتابات آشورية وبابلية ويونانية وإرمية وعربية ترينا أثر الاتصال الثقافي الذي كان في هذه المواضع التي تعد ملتقى القوافل والتجار والثقافات .

---

١ Hastings, P. 897, Doughty, Arabia Deserta, I, Chapt. 10, 19, Jaussen, and Savignac, Archéologique en Arabie, II, Part, I, Chapt. 4, Musil, Oriental Explorations, V, P. 224, Montgomery, P. 66.

٢ وهبة ، جزيرة العرب (ص ٧٥ فما بعدها) .

٣ S. Smith, Baby Hist. Text. P. 80.

وقد عثر في هذه الخربة على حجر مكتوب بلغة بني إرم ، يرجع تأريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد ، ورد فيه ان أحد الكهان استورد صنماً جديداً الى تيماء ، وبنى له معبداً ، وعيّن له كهاناً توارثوا خدمة (صلمهجم) . و (صلم) بمعنى صنم . وقد مثل صنم (هجم) في زي آشوري ، وظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيّد ذلك النصب . وقد نشرت ترجمة الكتابة الإرمية . ويرى (سدني سمث) ان تأريخها يرجع الى ايام (نبونيد) ، فلعله صنع في ذلك الزمن بتأثير البابليين[1] .

ولطول اقامة (نبونيد) في (تيماء) ، لا يستبعد أن يجيء يوم قد يعثر فيه على كتابات أو آثار أخرى ترجع الى هذا الملك . فلا يعقل أن تذهب ذكريات ايامه كلها من هذه المدينة ، وينطمس أثر قصره عنها ، ذلك القصر الذي بالغ الملك في وصفه وأراد أن يجعله في مستوى قصور بابل . وقد يعثر فيها على مراسلاته مع مدينته بابل ومع الحكومات الأجنبية التي كانت في أيامه ومع الأعراب . واذا حدث ذلك ، فقد نجد شيئاً جديداً لا نعرفه عن ايام تيماء في عهد نبونيد .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن (تيماء) التي استقر بها (نبونيد) هي تيماء أخرى تقع في العروض على ساحل الخليج ، وحجتهم في ذلك أن المسافة بين تيماء الحجاز وبابل ، كبيرة واسعة ، تجعل من الصعب تصور اقامة (نبونيد) في هذا المكان . أما العروض فإنه على اتصال ببابل ، ولا يفصل بينهما حاجز أو فاصل أو عائق ، ولهذا ذهبوا الى احتمال وقوع (تيماء) في العروض[2] ، كما ذهب بعض آخر الى احتمال كون (تيماء) (تيمان) المذكورة في التوراة[3]. وهي أرض (أبناء الشرق)[4] ، وملتقى طرق القوافل القادمة من بلاد الشام ومصر والعراق والجنوب[5] . غير أن الباحثين في هذا اليوم متأكدون من أن (تيماء)

---

١ Smith, Baby. Hist. Texts. P. 79, Corpus Inscriptionum Semiticarum, Pars, Secunda, Plate, IX, Tome, I, P. 107, Montgomery P. 67, Hogarth, Penetration of Arabia, P. 280, Cooke, North Semitic Inscriptions, P. 195.

٢ Negd, P. 226.

٣ ارميا ، الاصحاح التاسع والاربعون الاية ٧ ، عوبديا ، الاية ٩ ، وعاموس الاصحاح الاول ، الاية ٢ ، حبقوق ، الاصحاح الثالث ، الاية ٣ .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢٩٦/١ فمابعدها)

٥ Negd, P. 225.

(نبونيد) هي (تيماء) الحجاز ، في المملكة العربية السعودية .

فقد عثر في (حرّان) على كتابة مهمة جداً في بحثنا هـذا ، دوّنها الملك (نبونيد) ،عثر عليها في سنة (١٩٥٦ م)،وكانت مدفونة في خرائب جامع حرّان الكبير ، وترجمت الى الانكليزية ، وإذا بها تتحدث عن تأريخ أعمال ذلك الملك، ومما جاء فيها : انه لما ترك (بابل) وجاء الى (تيماء) ، أخضع أهلها ، ثم ذهب الى (ددانو) (ديدان) و (بداكو) و (خبرا) و (ايديخو) حتى بلغ (اتريبو)[١] . ثم تحدث بعد ذلك عن عقده صلحاً مع (مصر) و (ميديا) (ما ـ دا ـ ا ـ ا) (مـادا ا) (Ma-da-a-a) (Medes) ومع (العرب) (مات ا ـ را ـ بـي ـ او) (Mat A-ra-bi-u)[٢] . وقد ختم العمود الذي جاء فيه هذا الخبر بأسطر تهشمت جمل منها ؛ يفهم من مآلهـا أن العرب المذكورين أرسلوا اليه رسلاً ، عرضوا عليه عقد صلح معه ، واستسلامهم لـــه ، فوافق على ذلك ، بعد ان كبّدهم جيشه خسائر فادحة ، وأسر منهم ، ونهب . ولم تذكر تلك الأسطر المواضع التي حارب فيها جيش (نبونيد) أولئك الأعراب[٣]. وقد يفهم من هذه السطور الأخيرة ايضاً ان بعض هؤلاء العرب هاجموا البابليين، ونهبوا المناطق الخاضعة لهم بالرغم من عقدهم الصلح معـه ، وموافقتهم على ان يسالموه ، وهذا ما دعاه على ارسال حملات تأديبية عليهم ، انزلـت بهم خسائر فادحة [٤] .

ولم يكن نص (نبونيد) معروفاً بين العلماء يوم اختلفوا في تعيـين موضع (تيماء) . أما اليوم وقد نشر النص وترجم ترجمة دقيقـة صحيحة ، وعرفنا منه (فدك) و (خيبر) و (يثرب) ، وهي مواضع معروفة مشهورة حتى اليوم وتذكر مع (خيبر) ، فقد أجمع العلماء على أن (تـيماء) (نبونيد) هي (تيماء) الحجاز من دون أي شك ، وان موضع اقامـة ملك بابل وقصره

---

١ راجع السطرين ٢٤ و ٢٥ من النص الموسوم :
Nabonidus H2, A and B, In Anatolian Studies, By C. J. add, The Harran Inscriptions of Nabonidus, VIII, 1958, PP. 35.

٢ السطر ٤٢ وما بعده من النص المذكور .

٣ راجع الاسطر من ٤٣ حتى ٤٨ من النص .

٤ Anatolian Studies, VIII, 1958, P. 76, A. R. Burn, Persia and the Greeks, P. 38.

كان في هذا المكان من الحجاز .

ولما كان استيلاء (نبونيد) على (تيماء) في حدود سنة (٥٥١ – ٥٥٢ ق. م.) وجب أن يكون زحفه على الأماكن المذكورة بعد ذلك ، والظاهر ان الذي حمله على التوغل في الجنوب ، رغبته في السيطرة على أخطر طريق برية للتجارة ، تربط بلاد الشأم بالعربية الجنوبية ، وهي طريق قديمة مسلوكة ، تسلكها القوافل التجارية المحملة بأنفس التجارات المطلوبة في ذلك العهد ، ثم السيطرة على البحر الأحمر ، وذلك بالاستيلاء على الحجاز وعسير واليمن وربما على العربية الجنوبية كلها . ولو تم له ذلك ، لكان ملكه قد بلغ المحيط الهندي . ومن يدري ؟ فلعل اختياره (تيماء) مقراً له ، وتجوله في الأرضين الواقعة بينها وبين (يثرب) كان لهذا السبب ، أي لتنفيذ تلك الفكرة الخطيرة ، فكرة السيطرة على جزيرة العرب وبلوغ المياه الدافئة للوصول الى إفريقية والهند والعربية الجنوبية ! إلا أن فكرته هذه لم تتحقق كما يتبين من النص ، فكان أقصى ما وصل اليه (يثرب)، ثم توقف عند ذلك المكان .

ويرى بعض الباحثين الذين درسوا كتابة (حرّان) هذه أن الصلح الذي أشار اليه الملك يجب أن يكون قد عقد في حوالي سنة (٥٤٨ ق. م.) في مدينة (تيماء) عاصمة الملك الجديدة ، وأن الصلح الذي عقد مع الأعراب قد وقع في (تيماء) أيضاً ، وأن الهجمات التي هاجم بها بعض الأعراب البابليين وقعت إبان وجوده في هذه العاصمة وقبل رحيله عنها الى (بابل) ، ولكن من هم العرب الذين عقدوا الصلح مع (نبونيد) ؟ ومن هم العرب الذين هاجموا جيشه والأرضين التي خضعت له ؟ إن النص لم يشر اليهم ، ولم يتحدث عنهم ، وهم بالطبع قبائل عديدة ، قد يكون منها قبائل سالمت البابليين وحالفتهم ، ومنها قبائل عارضتهم وكرهتهم ، ثم إن بين القبائل منافسة وأحقاد وحسد ، فاذا حالفت قبائلُ حكومةً ما ، حسدتها القبائل المنافسة ، فهاجمتها وهاجمت الحكومة التي عقدت معها الحلف ، لإثبات نفسها ، ولاظهار وجودها ، ولأخذ الزعامة منها ، وهذا داء القبائل منذ كان النظام القبلي .

والذي أراه أن الحجاز لم يكن آنذاك تحت حكومة واحدة يرأسها ملك واحد، وإنما كان على نحو ما كان عليه عند ظهور الإسلام ، حكومات قرى ومدن وقبائل . ويؤيد ذلك ما جاء في النص البابلي عن (تيماء) أن (نبونيد)، (قتل

بالسلاح ملك تيماء) (ملكو)[1] . ومعنى هذا أنها كانت في حكم حاكم يلقب نفسه بألقاب الملوك . ولا أستبعد أن يكون حال (ديدان) و (خيبر) و (فدك) و (يديع) و (يثرب) مثل حال هذه المدينة ، أي عليها حكام يلقبون أنفسهم بألقاب الملوك . ولا أستبعد أيضاً أن يكون حالها أو حال بعضها على نحو حال هذه المدن يوم ظهور الإسلام أي تحت حكم سادات المدينة والأشراف يشتركون معاً في الحكم ويتشاورون فيما بينهم عندما يحدث حادث ما في مدينتهم أو قريتهم في أمور السلم وفي أمور الحرب .

ووضع سياسي على هذا النحو ، لا يمكن أن يقاوم جيشاً لجباً قوياً عارماً كجيش بابل المدرّب على القتال ، والذي يعيش على الحروب ، ولذلك انهار بسرعة وسلم أمره الى البابليين . ومن هنا نشم من نص (نبونيد) رائحة الاستخفاف بأسلحة (العرب) ، أي الأعراب سكنة هذه المواضع ، وبأسلحة تلك المدن التي استسلمت له . وكل ما فعله الأعراب أنهم تراجعوا الى البوادي، وصاروا يشنّون منها غارات على البابليين ليأخذوا منهم ما يجدونه أمامهم ، فاذا تعقبهم البابليون عادوا الى معاقلهم وحصونهم : الصحراء .

وقد عثر على كتابة ثمودية وردت فيها جملة : (رمح ملك بابل) ، وعلى كتابة ثمودية أخرى جاء فيها : (حرب دون) (حرب ديدان)[2] . وقد فسر العلماء الجملتين المذكورتين بأنهما اشارة الى الحرب التي نشبت بين البابليين وأهل ديدان في أيام (نبونيد) ، وان أهل تلك المناطق صاروا يؤرخون بها لأهميتها عندهم كحادث تأريخي[3] . فالكتابتان اذن تحددان وقت تلك الحرب ، وتعينان مبدأ تقويم يؤرخ بموجبه عند أهل ثمود . غير اننا لم نتمكن من الوقوف على ذلك المبدأ من الكتابتين المذكورتين ، لقصرهما ولعدم وجود مفتاح معهما يفتح لنا الباب لنصل منه الى الموضع الذي حفظ فيه سر ذلك التأريخ .

أما موضع (Da-da-nu) (دادانو) ، فانه (ديدان) ، وهو موضع معروف مشهور ، ورد ذكره في (العهد القديم) ، وفي عدد من الكتابات[4] .

---

١ Anatolian Studies, Vol. VIII, 1958, P. 84.

٢ A. Van den Branden, Textes Thamoudéens de Philby, Vol. II, PP. 54.

٣ Anatolian Studies, 1958, VII, PP. 78.

٤ W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, 1954, W. F. Albright, Dedan, in Geschichte und Altes Testament, 1953, A. Van den Branden, La Chronologie de Dedan et de Lihyan in Bibliotheca Orientalis, XIV, 1957, 13.

وتحدثت عنه في مواضع من هذا الكتاب ، فكـان اذن في جملة الأرضين التي خضعت لحكم (نبونيد) .

وأما (Pa-dak-ku) (بداكو) ، فهو موضع (فدك)،ولم يكن مشهوراً في الأخبار القديمة ، وانما اشتهر في ايام الرسول ، الا أن عدم اشتهازه لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم وجوده في أيام (نبونيـد)[1] . وربما لا يستبعد أن يعثر في خرائبه على آثار من عهد (نبونيد) وقبل عهده ، اذ كان معروفاً قبل أيامه ، بدليل ذكره في جملة المواضع التي استولى عليها هذا الملك .

وأما (Hi-ib-ra-a) (خي — اب — را — ا) (خيبرا) ، فهو موضع (خيبر) . وهو موضع معروف وقـد كان من مواطن يهود في أيام النبي . وهو موضع (خيبر) الذي أرخ بحرب وقعت فيه في حوالي سنة (٥٦٨ م) (بعد مفسد خيبر بعام)[2] .

وموضع (Ia-di-hu-u) (Iadihu) ، وهو موضع (يديع) ، ويقع بين (فدك) و (خيبر) ، وقد ذكره (ياقوت الحموي) والهمداني[3] .

وأما (Iatribu) (ايتريبو) ، فهو موضع (يثرب) أي المدينة . وقد ذكر في جغرافيا (بطلميوس) ، فيكون نص (حرّان) اذن أقدم نص ذكر اسم هذا المكان .

و (يثرب) اذن آخر موضع استولى عليـه البابليون في الحجـاز وألحقوه بمملكتهم مملكة بابل . لسكوت النص عن ذكـر مواضع أخرى تقع في جنوبها ولو كانوا قد تجاوزوها لذكروا اسم الأماكن التي استولوا عليها من دون شك .

وقد استطعنا بفضل هذا النص التأريخي الخطير من العثور على خبر (يثرب) في وثيقة تعود الى ما قبل الميلاد بكثير ، فعلمنا منه انها كانت مدينة عامـرة قديمة ، وانها كانت أقدم بكثير مما تصوره أهل الأخبار عن نشوئها، ثم استطعنا

---

١ Anatolian Studies, 1958, P., 81.

٢ E. Combe, J. Savaget et G. Wiet, Repertoire Chronologique D'épigraphie Arabe, I, P. 3, No. 3.

٣ البلدان (١٠١٣/٤) ،
Anatolian Studies, 1958, Vol., VIII, P. 83, F. Wuestenfeld, Das Gebiet von Medina, S. 161, Arabien, S. 22.

أن نفهم ان العراقيين كانوا قد استولوا على منطقة مهمة من الحجـــاز في ذلك العهد ، وان بعد المسافات بين الحجاز أو العربية الجنوبية لم يحل بين الآشوريين والبابليين من التوغل مسافات شاسعة في جزيرة العرب من طرفيها ومن اجتياز نجد أيضاً ، كما رأينا من وصولهم الى جنوب البحرين على الخليج والى سبأ والى يثرب في هذا العهد .

وقد تنقل (نبونيد) مـدة عشر سنوات في هذه المنطقـــة التي فتحها من الحجاز ، في أرض يبلغ طولها حوالي (٢٥٠) ميلاً من (تيماء) الى (يثرب) وحوالي (١٠٠) ميل عرضاً ، يراجع أهلها وينزل بين قبائلها ، ويختلط بها ، ثم يعود الى عاصمته تيماء ، حيث يسير منها أمور الدولة . ويظهر أنه تطبع من خلال اقامته هذه المدة بين العرب ببعض طباعهم ، واقتبس بعض مصطلحاتهم حيث وردت في النص[١] :

ويرى بعض من عالج هذا النص ودرسه أن الملك البابلي نقل معـه خلقاً من العراق ، وأسكنهم في هـــذه الأماكن الحجازية ، في المواضع المذكورة وكان يأتي اليهم من تيماء ، ليتفقد أحوالهم ، وليرى بنفسه سبل الدفاع عنهم وحمايتهم من غارات الأعداء . ويرون أيضاً أن في جملة ما جاء بهم الى هـــذه الأماكن اليهود : يهود من بابل ، ويهود من فلسطين ، كما رأوا أن اليهود كانوا قـد سكنوا هذه المواضع من قبل ، وربما كان ذلك منذ جاء اليهود الى فلسطين ، فأقاموا بها الى أيام النبي[٢] :

ويظهر أن الملك (نبونيد) كان قد وضع خطة للهيمنة على الأرضين ولالحاقها نهائياً ببابل ، وذلك باسكان أتباعه بها واجبارهم على الإقامة فيها . وقـــد نفذ خطتـــه هذه فعلاً ، ووزع من كان قد جاء بهم معه عـلى هذه المواضع بأن انتزع الأملاك من أصحابها العرب وأعطاها للمستوطنين الجدد ، وحمـــاهم بجيش وضعه في كل مكان لصدّ غارات الأعراب عليهم : ولتقوية معنـوياتهم ولتثبيت قلوبهم في البقاء في هذه الأرضين الجديدة . صار يتفقد شؤونهم بين الحين والحين ويزورهم . ولكن الخطة لم تنجح ، لأن الظروف السياسية والعسكرية أكرهتـــه

١ Anatolian Studies, Vol. VIII, 1958, P. 84.

٢ Anatolian Studies, 1958, Vol. VIII, PP. 86, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 146.

على العودة الى بابل ، فات مشروعه مع عودته ، فلم تلحق تلك الأرضين ببابل، غير أن أكثر المستوطنين الجدد بقوا في هذا الأماكن ، وفي جملتهم اليهود الذين ازداد عددهم بمرور الأيام وكوّنوا مستعمرات يهوديـــة وصلت (يثرب) في الجنوب .

لقد ترك فتح (نبونيد) لهذه الأرضين من الحجاز وبقاء بعض من نقلهم الى هذه المواضع فيها للاستيطان بها أثراً كبيراً من الناحية الثقافية والاقتصادية والحضارية، وهي نواح لم تدرس حتى الآن ، ولم يهتم بها أحد . ولكن وجود ألفاظ عراقية قديمة في لغة أهل (يثرب) والمناطق الأخرى التي تقع الى الشمال منها،وخاصة في الزراعة ، يدل دلالة واضحة على أثر العراق في أهل هذه المواضع ، فقـد يكون قسم منه من بقايا أثر أولئك العراقيين الذين نقلوا الى هذه الأماكن، وقد يكون قسم منه من مؤثرات أخرى وقعت قبل هذا الحادث . قد يكون في أيام (بخت نصر) أو قبله ، وقد يكون بعضه من مؤثرات حوادث وقعت بعد ذلك.

وفي نسخة (قران) الحاوية لبعض الإصحاحات من العهد القديم ، وقد عثر عليها في نفس الوقت الذي عثر فيه على نص (حرّان) – أخبار قد تساعدنا في توضيح أسباب سوق (نبونيد) لليهود وأخذهم معه ، وإرسائهم بهذه الأرضين الجديدة من أعالي الحجاز ، إرساءً أقرهم فيها وأبقاهم حتى جاء الإسلام فأبعدهم عن الحجاز[١] .

اننا لا نملك نصوصاً بابلية عن مدى بلوغ سلطان البابليين السياسي في جزيرة العرب وعن صلاتهم بالقبائل العربيـــة ، لذلك انحصر علمنا بعلاقة بابل بالعرب في الأمور التي ذكرتها . وقد عثر على نص في مدينة (عانة) ، يثبت وجود صلات تجارية بين بابل والبلاد العربية كما يشير الى أثر بابل في الحياة العربية[٢] .

أما علاقات البابليين بأهل الخليج ، فلا نعرف من أمرها شيئاً ، فلم يرد في النصوص البابلية التي تتحدث عن هذه الحقبة شيء ما عن الفتوحات البابليـة في هذه الأرضين . وقد يعثر على شيء من الكتابات في المستقبل، تتحدث عن نوع

---

١ Anatolian Studies, Vol. VIII, 1958, P. 87.

٢ A. J. Jaussen-R. Savignac, Mission, No. 138, A. T. Olmstead History of the Persian Empire, P. 294.

الصلات التي كانت بين حكومة (بابل) وأهل الخليج في هذا العهد :

وكل ما نعرفه عن علاقة البابليين بالخليج ، ان البابليين كانوا قد ضمّوا جزيرة (دلمون) أي البحرين الى أملاكهم ، وعينوا عليها حاكماً بابلياً، وذلك بعد سنة (٦٠٠ ق. م.) بقليل .[١]

ومعارفنا بصلات العرب بالأخمينيين (Achaemenian) وبالبارثيين (الفرث) (Parthians) قليلة جداً . ويرى بعض المؤرخين أن العرب كانوا في أيام (الأخمينيين) قد تقدموا في زحفهم نحو الشمال،فدخلت قبائل منهم الى العراق، ووسعت مساحة الأرضين التي كان العرب قد استوطنوها سابقاً ، كما تقدموا في هذا العهد نحو الغرب ، فتوسعوا في بلاد الشأم وفي طور سيناء الى شواطىء نهر النيل ، حيث كانوا قد استوطنوها ، وقد قاموا بخدمات كبيرة نحو ملوك الفرس في زحفهم على مصر[٢] .

ولم يلاق العرب أيـة مقاومـة كانت في أثناء حركاتهم وتنقلاتهم ودخولهم الأرضين التي كان الأخمينيون قد استولوا عليها ، ولكن وجدوا أنفسهم في حرية تامة ، لهم الحق في الذهاب الى أي مكان شاءوا ، وهذا مما مكنهم من الدخول الى أرضين جديدة والى توسيع هجرتهم في الأرضين التي كان الأخمينيون قد بسطوا سلطانهم عليها[٣] .

لقد ذكر (اكسنوفون) (Xenophon) العرب في جملة أتباع الملك (كيرش) (Cyrus) (Kyros) الثاني (٥٥٧ — ٥٢٩ ق.م.) (٥٥٩ — ٥٢٩ ق.م)، وذكر أن هذا الملك عيّن والياً عنه على (العربية) (Arabiai) (Arabioi) ويظهر من ورود لفظة (Arabiai) بعد (Kappadokia) أن المراد بها (الجزيرة)، أي (Mesopotamia) ، أو جزء منها . ويظهر من موضع آخر أن (العربية) هي المنطقة الواقعة في شرق (Araxes) أي (الخابور)[٤] .

وقد ورد في أخبار حملة (كيرش) على (بابل) أن جماعـة من العرب

---

١ Belgrave, P. 56.

٢ Die Araber, I, S. 164.

٣ Die Araber, I, S. 171.

٤ ZDMG. 94, NF. 19, (1940), 202, f. Die Araber, I, S. 165, Xenophon, Anab. I, 5. I.

كانت تحارب معه [1] . وكانت تلك الجماعة من الأعراب الراكبين للجمال . وذلك في سنة (٥٣٩) قبل الميلاد [2] .

ويتبين من مراجعة الموارد اليونانية التي تعرضت لتأريخ وجغرافية العراق، أن اليونان أخذوا يطلقون لفظة (Arabioi) من هذا الوقت فما بعده بمعنى (العرب) و (عرب) ، أي علماً لقوم وشعب على نحو ما كانوا يطلقون من أسماء على الشعوب الأخرى . وقد ذكروهم في جملة شعوب الجزيرة، أي (Mesopotamia) . وقد أخذوا ذلك من (الأيونيين) (Ionien) . وعلى هذا فسيكون مراد (اكسينوفون) وغيره من العربية الأرض التي غلب عليها العرب . ومعنى هذا توسع العرب في زحفهم وتقدمهم نحو الشمال وتغلبهم على أرضين جديدة كان سكانها من بني إرم وغيرهم ، وتعرب كثير من بني إرم وتكوين طبقة عربية مستعربة [3] .

ولما قام (قبيز) الثاني (قمباسوس) (Cambyses) بغزو مصر سنة (٥٢٥ ق. م.) ، وطلب معونة العرب ، أمدّوه بالجمال ، وبالماء، وساعدوه مساعدة كبيرة لولاها لما تمكن من الوصول الى مصر . ويزعم (هيرودوتس) أن (فانس) (Phanes) ، الذي خان سيده فرعون مصر ، فهرب منه وذهب خلسة الى (قبيز) وحثّه على فتح مصر ، أشار على الملك بأن يستعين بالعرب ليساعدوه في اجتياز الصحراء . وكان الملك يفكر في الصعوبات التي ستعترض جيوشه في قطع تلك الفيافي والقفار ، ومن أهمها قلة الماء . فلما اقتنع الملك بصواب رأي (فانس) وصدقه ، أرسل رسولاً الى ملك العرب ليتفاوض معه في هذا الأمر ، فوافق العرب على تقديم المساعدات فهيأوا قرباً كثيرة ملؤوها بالماء ، وحملوها على ظهور جمالهم حيث قدموها الى الفرس [4] .

ولم يشر (هيرودوتس) الى اسم الملك العربي الذي وافق على تموين الجيش الفارسي بما يحتاج اليه في حملته على مصر بالماء ، ولم يشر أيضاً الى الأرض التي

---

١ Die Araber, I, S. 171, Xenophon, Cyrup. 7, 5, 14.

٢ Xenophon, Kyrupadie, VII, 4, 16, 5, 13, Grohmann, Arabien S. 171.

٣ Die Araber, I, S. 165.

٤ G. Rawlinson, The History of Herodotus, I, P. 211, 213, The Cambridge Ancient History, IV, P. 20, Herodotus 3, 4, 7, Die Araber, I, S. 167.

كان يحكمها . وقد يكون هذا الملك أحد ملوك النبط الذين كانوا يحكمون في أعالي الحجاز وفي الأقسام الجنوبية من الأردن وطور سيناء ، وقد يكون أحد كبار سادات القبائل العربية الكبيرة في طور سيناء ، حيث كان له سلطان واسع كبير على الأعراب الساكنين في هذه الأرضين .

وأشار (هيرودوتس) في معرض كلامه على تزويد العرب قمبيز بالماء ، الى وجود نهر عظيم في بلاد العرب ، دعاه : (كوريس) (قوريس) (Corys) ، زعم انه يصب في (البحر الأريتري) (البحر الأرتيري) (Erythraean Sea) أي البحر الأحمر ، قائلاً : ان هناك من يزعم ان ملك العرب عمل انبوباً من جلود الثيران والحيوانات الأخرى لنقل المياه من النهر الى صهاريج ، أمر بحفرها وعملها في الصحراء لخزن الماء فيها ، وان هناك ثلاثة خطوط من هذه الأنابيب تنقل الماء الى مسافة اثني عشر يوماً من النهر الى موضع هذه الصهاريج[1] .

ولا يعقل أن يكون في بلاد العرب نهر على الوصف الذي ذكره (هيرودوتس) في ذلك العهد . كما ان الأنابيب المذكورة الممتدة الى تلك المسافات المذكورة ، هي من مخيلات القصاص الذين أخذ منهم ذلك المؤرخ خبره . والظاهر ان الذين حدثوه عن ذلك النهر ، كانوا قد سمعوا أو شاهدوا السيول التي تصب في البحر الأحمر في مواسم الأمطار الشديدة ، فتصوروها أنهاراً عظيمة تجري طول السنة . أما الصهاريج ، فإنها معروفة في بلاد العرب ، ولا سيما شمال العربية الغربية ، تأتي اليها مياه الأمطار فتملؤها ، وتغطي فتحاتها ، فلا يعرف مواضعها الا أصحابها ، فاذا داهمهم عدو ، سدّوا منافذها ، فلا يصل الى مائها أحد . والظاهر ان الذين أمدّوا الفرس بالماء ، كانوا يأخذونه من الصهاريج المنتشرة في مختلف الأماكن ، ومن هنا ظهرت أسطورة نقل المياه اليها من ذلك النهر في ثلاثة خطوط من الأنابيب المصنوعة من الجلود .

وذكر (هيرودوتس) في أثناء الكلام على (دارا) (داريوش) (داريوس) (Darius)[2] ، ان جميع سكان آسية الذين أذلهم (كيرش) (كورش) ثم

1 Herodotus, Bk. III, 9, Vol. I, P. 213.

2 فهرست تاريخ الطبري عمل « دي غويه » ، (ص ١٧٥) ، حمزة (ص ٢٠) ، داريوس ، ابن الطبري (ص ٨٣) ، داريوش » ، الاخبار الطوال (ص ٣١)، « طبعة فلاديمير جرجاس » ، « ليدن ١٨٨٨ م » .

(قمبيز) بعده ، قد اعترفوا بسلطانه ، الا العرب . فهؤلاء لم يخضعوا كالرقيق البتة لسلطان الفرس ، وانما كانوا قد تحالفوا معهم ، وأصبحوا حلفاء وأصدقاء لهم منذ مهدوا الطريق لقمبيز للوصول الى مصر . ولو كانت علاقاتهم غير ودية معهم ، لما تمكن الفرس من القيام بذلك الغزو . وأثنى هـذا المؤرخ على إباء العرب ، وعلى شهامتهم ، وعلى محافظتهم على الوعد والعهود[1] :

وذكر (هيرودوتس) أن الأرضين بين (Phoenicia) ، أي (فينيقية) ومدينة (Cadytis) ، كانت تابعة للسريان الفلسطينيين (Palaestine Syrian). أما الأرضون بين مدينة (Cadytis) وموضع (Jenysus) (Ienysos) ، فقد كانت تابعة للملوك العرب[2] ، ويريد بهم عدداً من سادات القبـائل ولا شك ، ويرى (جيمس رنل) (James Rennell) أن مدينة (Cadytis) هي القدس[3] ويرى آخرون أنها (غزة)[4] . وأما (Jenysus) ، فهي (خان يونس) في جنوب غربي (غزة) على رأي (جيمس رنل)[5] .

يتبين من قول (هيرودوتس) هذا أن العرب كانوا في أيام (قمبيز) أي قبل الميلاد بعدة قرون ، في هذه المنطقة من فلسطين . وانهم كانوا قد انتشروا في (طور سيناء) ، ونزلوا المناطق الشرقية من مصر ، حتى ضفـة نهر النيل : ولهذا السبب أطلق عليها اسم (العربية) دلالة على توغل العرب فيها[6] :

لقد كانت (غزّة) مدينة عربية يحكمها ملوك عرب . وقد كانت في حكم ملك عربي في أيام (هيرودوتس) ، وكانت كل الأرضين الواقعة بين (غزة) وبين (Rhinokolura) تحت حكم العرب أيضاً وذلك منذ أيام الفلسطينيـين[7] . وقد كان يحكم (غزة) في أيـام (هيرود الكبير) ملك من أهل غزة[8] : وقد كانت (غزة) قبيل الإسلام وعند ظهوره فرضة العرب ، يقصدها أهـل

---

١ Herodotus, I, P. 254, 3, 5.
٢ Herodotus, I, P. 212, Bk. III, IV-V.
٣ The Geographical System of Herodotus, London, 1800, P. 245, 683.
٤ Herodotus, I, P. 212.
٥ Rennel, P. 259.
٦ Die Araber, I, S. 167.
٧ Grohmann, Arabien, S. 23.
٨ Flavius Josephus, Antiquitates, XV, 7, 9.

العربية الغربية للبيع والشراء . ولا أستبعد أن تكون (غزة) فرضة عرب العربية الغربية في هذا الوقت أيضاً . وقد كان تجار العربية الشرقية يقصدونها أيضاً على الرغم من بعد المسافة واتساع الشقة ، فقد كان أهل (الجرعاء) (جرهــا) (Gerrha) ، يقصدونها ، حاملين معهم تجارة الهند وما وراء الهند ، فتأخذهم إبلهم عن طريق الواحات والآبار الى (دومة الجندل) ومنها الى جنوب فلسطين فغزة حيث يبيعون ما عندهم ويشترون ما يحتاجون اليه من حاصلات البحر المتوسط ثم يعودون بأموالهم الجديدة الى بلادهم لبيعها هناك ، أو لشحنها الى ما وراء الخليج من أرضين .

وفطن (دارا) لخطورة المشروع القديم ، مشروع ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق نهر (النيل) فاحتفره[١] . وقــد وضع أساس هــذا المشروع (رامسيس الثاني) ، غير أنه امتلأ بعــد ذلك بالرمال مراراً ، فاحتفره من جاء من بعده من الملوك[٢] . وذكر (هيرودوتس) أن الفرعون (نخو) (Necos) كان قد أرسل بعثة دخلت الخليج العربي ، أي البحر الأحمر في اصطلاح اليونان عن طريق القناة التي حفرت بــين النيل وهذا البحر ، وكانت هذه البعثة من الفينيقيين للبحث عن أعمدة (هرقل) (Hercules)[٣] .

ويرى بعض الباحثين احتمال كون الملك الذي حكم (غزة) في هذا العهد ، ملك من ملوك اللحيانيين[٤] :

واهتم (دارا) بأمر التجارة البحريــة ، فأمر (Skylax) من اليونانيين بالذهاب الى البحر الأحمر والمحيط الهندي لكشف تلك المناطق وتكوين صلات تجارية معها ، فوصل هذا المكتشف اليوناني – على رواية هيرودوتس – الى الهند . وهو بذلك أول يوناني يبلغنا خبره حتى الآن ، يدخل البحر الأحمر ، ويطوف حول جزيرة العرب للوصول الى الهند[٥] . ويفتخر (دارا) في كتابته التي أشار فيها الى مشروع القناة ، بأنه استطاع أن يسيّر السفن عبرها من مصر الى أرض فارس[٦] . وقد كانت هذه الخطوة من أعظم الخطوات في تأريخ العالم، ولا شك .

---

١ Herodotus, I, P. 302, Bk. IV, 39.

٢ Herodotus, I, P. 302, Note. I.

٣ Herodotus, I, P. 302.

٤ Arabien S. 23.

٥ Montgomery, Arabia, P. 69.

٦ Montgomery, Arabia, P. 69, Breasted, History of Egypt, PP. 276, 584, R.W. Rogers, A History of Ancient Persia, PP. 119.

وقد أثرت تأثيراً خطيراً في التجارة العربية في البحار ، اذ فتحت البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي لمنافسين أقوياء ، صار بامكانهم شراء تجارة افريقية والهند وسواحل جزيرة العرب بأسعار رخيصة ، لبيعها في الأماكن التي تريدها والتي كانت تشتريها بأثمان عالية ، وبذلك أخذت من التجار العرب جزءاً كبيراً من أرباحهم ، وألحقت بتجارتهم مع البحر المتوسط ضرراً لا يستهان به :

ولما تحدث (دارا) عن الأرضين التي خضعت لحكمه ، أدخل (عرباية) (أرباية) (Arabaya)[1] في جملة تلك البلاد . وقد دعاها بـ (ماتو أربي) (Matu A-ra-bi) في النص البابلي[2] . ولم يقصد (دارا) بـ (عرباية) كل البلاد العربية ، أي جزيرة العرب وبادية الشأم ، وانما أراد بها بادية الشأم ، كما تحدثت ذلك في شرح المراد من (ماتو أربي) في الكتابات المسمارية . وقد كانت هذه البادية مثل جزيرة العرب موطناً للأعراب منذ وجد العرب .

وقد ذكر (هيرودوتس) ان بلاد العرب كانت تقدم جزية سنوية من الطيب الى (دارا)[3] ، الا انه لم يحدد مكان البلاد العربية ، ولم يشر الى العرب الذين دفعوا هذه الجزية . ولما كانت هذه الجزية طيباً ، فانها تحملنا على التفكير في أن العرب الذين دفعوها كانوا من رجال القوافل المتاجرة التي تأتي بتجارة العربية الجنوبية لبيعها في بلاد الشأم ومصر، وكان الطيب والبخور من أهم المواد الرائجة في أسواق تلك البلاد . وهذه الجزية لم تكن بالمعنى السياسي المفهوم الذي يدل على خضوع العرب للفرس ، وانما كانت جعالة سنوية تدفع للسلطات الحاكمة على تلك الأسواق مقابل السماح لها بالاتجار ، أو ان (هيرودوتس) عنى ببلاد العرب الأرضين التي كان يسكنها العرب ودخلت تحت حكم الفرس ، وعنى بالعرب الذين دفعوها بعض القبائل العربية التي كانت تقيم في مصر أو طور سيناء

---

١ The Sculptures and Inscription of Darius the Great, London, 1907, Col. 1, 15, P. XIIII, 4.

٢ « ماتواربي » في النص البابلي ،
Col. I, 5, Sculptures, P. XIVIII, The Babylonion Version, 5, 161.

٣ Inscription of Darius on the Rock at Behiston, Translated, by Sir H. Rawlinson, London, 1873, P. III, Herodotus, 3, 91, 97.

أو بادية الشأم .

ويلاحظ ان (هيرودوتس) كان قد ذكر ، كما بينت قبل قليل، ان العرب لم يخضعوا للفرس في ايام كورش ولا في ايام قمبيز ، وانما كانوا حلفاء للفرس. فيظهر من كلام (هيرودوتس) الأخير ان العرب الذين خضعوا للفرس ولدارا، هم من أعراب بادية الشأم، ومن كانت منازلهم وديارهم في فلسطين وفي طور سيناء[1].

ويرى بعض المؤرخين ان (العربية) التي خضعت لحكم (دارا) لم تكن جزيرة العرب ، وانما منطقة الجزيرة الواقعة بين (بابل) وآشور[2] ، مثل منطقة (سنجار) (Singara) و (الحضر) ، وكان العرب قد توغلوا فيها[3] .

وقد ورد في خبر للمؤرخ (اكسينوفون) (Xenophon) وفي كتابة لـ (كيرش الثاني) (Kyros II) (Kyrush II) ، ما يفيد ان العرب كانوا قد خضعوا لحكم الأخمينيين . فورد في كتابة (كيرش) مثلاً : « ملوك الأرضين الغربية الذين يقطنون في الخيام » ، وذلك في جملة من اعترف بسلطان الملك عليهم . غير ان هذه الإشارات لا تفيد ان العرب كانوا قد خضعوا لهم مدة طويلة ، كما انها لا تدل على خضوع حقيقي لهم ، ولا سيما وقد ذكرنا ان (هيرودوتس) قد صرح ان العرب لم يخضعوا لحكم الفرس[4] .

وأشار (هيرودوتس) الى وجود فرقة عسكرية من العرب في الجيوش الفارسية التي كانت بمصر ، كان على رأسها قائد فارسي دعاه (ارسامس) (Arsames) ، وقال انه أحد أولاد (دارا)[5] . ويظهر ان هؤلاء الجنود هم من عرب مصر ، أي من العرب القاطنين هناك ، ولعلهم من سكان الأرضين المحصورة بين النيل والبحر الأحمر[6] . وقد كان العرب ينزلون هذه المنطقة والمنطقة شرقي النيل وجنوب البحر المتوسط والمتصلة بطور سيناء منذ القديم . فالعرب كانوا من قدماء سكان مصر ، لا كما يتصور بعضهم من انهم دخلوا مصر في

---

١ Die Araber I, S. 167. ff.

٢ Mesopotamien, In: RE. 15, (1931), 1131, F. H. Weissbach, Die Keilschriften der Achalmeniden (1911), S. 82. f. R.G. Kent, Old Persian, (1953), 136.

٣ Die Araber, I, S. 165.

٤ Die Araber, I, S. 171.

٥ The Cambridge Ancient History, Vol. IV, P. 190.

٦ Herodotus, II, P. 148, Note. I.

الفتح ، وانهم لذلك غرباء لا صلة هناك بينهم وبين المصريين قبل الإسلام : والمعروف ان (الهكسوس) الذين حكموا مصر كانوا من العرب في رأي كثير من العلماء ، بل في نظر قدماء المصريين ، كما حكى ذلك الراهب المصري المؤرخ (مانيتو) (Manetho) في كتابه المؤلف باليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد[١].

وقد ذهب بعض الباحثين الى ان (هيرودوتس) قصد بـ (العرب) النبط[٢] ، غير ان بعضاً آخر يخالف هذا الرأي ويعترض عليه ، فيرى ان النبط لم يظهروا ظهوراً بيناً الا في أواخر ايام الأخمينيين ، وكان ظهورهم في (بطرا) (Petra) وما حولها . أما مملكتهم فلم تقم الا في القرن الثاني قبل الميلاد . ولهذا فإن العرب الذين قصدهم المؤرخ اليوناني ، هم عرب آخرون ، وان الأرض التي أرادها ذلك المؤرخ هي : طور سيناء حتى شواطىء نهر النيل[٣] .

ويظهر من الإشارات الواردة في التوراة ، أن عرب الضواحي ، كانوا يقيمون في مستوطنات ، عرفت بـ (حاصير) (حازير) (حاصور) (حصور) (Haser) في العبرانية . ومعناها : (محاط) . وقد كانوا أشباه بدو في الواقع: أناخوا في هذه المواضع واستقروا بها وامتهنوا الرعي[٤] .

وكان الجنود العرب يلبسون كما يقول (هيرودوتس) نوعاً من الثياب يسمى (زيرا) (Zeira) ، وهي ثياب طويلة تشد عليها الحُزُم ، ويحمل مرتدوها على أكتافهم اليمنى قسياً طوالاً . أمـــا في حاله عدم استعمالها ، فيعلقونها على ظهورهم[٥] . والظاهر أن هذه الكلمة هي تحريف (السِّيرا) . و « السِّيرا » : « ضرب من البرود،وقيل : ثوب مسير ، فيه خطوط تعمل من القز كالسيور . وقيل : برود يخالطها حرير . وقيل : هي ثياب اليمن »[٦] . ويلاحظ أن الثياب المخططة كانت ولا تزال شائعة بين شعوب الشرق الأدنى ، فلا تستبعد أن تكون كلمة (Zeira) تصحيفاً أو تحريفاً للسيراء ، وهي أقرب اليها من لفظة (إزار) أو مئزر على ما أرى .

---

١ W. G. Waddell, Manetho, P., 85, (The Loeb Classical Library), London, 1948.

٢ Olmstead, History of the Persian Empire, 1948, P. 88.

٣ Die Araber, I, 170, 284, 290,

٤ Die Araber, I, S. 170.

٥ Herodotus, II, P. 147.

٦ اللسان (٥٧/٦) ، ديوان قيس بن الخطيم (ص ٦) .

وقد ألف الفرس – بالاضافة الى الجنود العرب المشاة – كتائب عربية من الهجانة ، تقاتل على الإبل ، يلبسون ملابس المشاة ، ويحملون أسلحتهم . يقول (هيرودوتس) : إنهم كانوا يوضعون في مؤخرة الفرسان ، تجنباً لانزعاج الخيل إذا ما سارت مع الإبل[1] .

وقد استعملت دول أخرى كتائب عربية من الهجانة في جملة القوات المحاربة، للعمل في البوادي خاصة ، حيث يصعب على المشاة والفرسان اجتيازها وتعقيب الأعراب . ولا تزال كتائب الهجانة محافظة على حياتها بين القوات المحاربة ، ولحماية الحدود الصحراوية حتى الآن .

وقد ألف العرب فرقة محاربة من الرماة بالسهام ومن المقاتلين ، اشتركت في جيش (احشويرش) (Xerxes) (٤٨٥ – ٤٦٥ ق.م.)[2] :

وقد أدخل الملك (احشويرش) (العربية) (Arabia) في جملة البلاد التي كانت قد خضعت لحكمه ، وذلك في نص من أيامه ، عثر عليه . وقد ذكر (العربية) بعد موضع (Maka) وقبل موضع (Gandara)[3] .

١ Herodotus, II, P. 152.

٢ Die Araber, I, S. 171.

٣ Pritchard, P. 316.

الفصل السادس عشر

العرب والعبرانيون

لم تذكر التوراة (العرب) في مواليد بني نوح : سام ، وحام ، ويافث[1] ؛ ولكنها ذكرت أسماء قبائل لا شك في أصلها العربي ، وفي سكناها في جزيرة العرب . وهذا يؤيد ما ذهبت اليه من أن كلمة (العرب) لم تكن تعني قومية خاصة ، ولم تكن تؤدي معنى العلمية ، وانما ترادف (الأعـراب) والبدو ، أي سكان البادية ، ولهذا لم تذكر في جدول الأنساب ، وذكرت في مواضع أخرى من التوراة ، لها علاقة بالبادية والتبدي والأعرابية . والا لم تسكت عن ذكر العرب بين الشعوب المصنفة في الجدول المذكور ، وقد كان العرب يجاورون العبرانيين وكانوا على اتصال بهم دائم ، فكان ينبغي ذكرهم في ذلك الجدول ، لو كانت هذه التسمية تعني العلمية في الأصل،وتعني جميع سكان جزيرة العرب من حضر وبدو . أما وهي لم تكن تعني الا قسماً من العرب ، وهم الأعراب أي حالة خاصة من الحالات الاجتماعية، فلذلك لم تذكر ، ومن ذكر في الجدول كلهم حضر مقيمون يعرفون بأسمائهم ، وهم معروفون ، أو قبائل أعرابية عرف العبرانيون أسماءها فذكروها ، فمن طبع العبرانيين اطلاق لفظة (العرب) على الأعراب الذين لا يعرفون أسماءهم وعلى البدو عامة دون تخصيص .

والبدو هم طبقة عاشت عيشة خاصة ، ولم تكن قبيلة واحدة أو قبائل معينة

---

١ التكوين : الاصحاح العاشر ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول

محدودة يمكن حصرها وارجاعها الى نسب واحد ، على نحو ما نفهم من كنعانيين وفينيقيين ، ثم ان الأعراب لم يكونوا ينتسبون الى جدّ واحد ولا الى أب معين ، لذلك لم تدخلهم التوراة في عداد الشعوب .

وقد ذهبت جماعة من المستشرقين الى ان العبرانيين هم قوم أصلهم من جزيرة العرب ، هاجروا منها وارتحلوا عنها على طريقة الأعراب والقبائل المعروفة نحو الشمال . وجزيرة العرب لذلك هي الوطن الأم الذي ولد فيه العبرانيون . ودليلهم على ذلك هو الشبه الكبير بين حياة العبرانيين وحياة الأعراب ، وان ما ورد في التوراة وفي القصص الإسرائيلي عن حياة العبرانيين ، ينطبق على طريقة الحياة عند العرب أيضاً ، ثم ان أصول الديانة العبرانية القديمة وأسسها ترجع الى أصول عربية قديمة . أضف الى ذلك ان العرب والإسرائيليين ساميون ، وجزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، فالعبرانيون على رأيهم هم من جزيرة العرب ، وهم جماعة من العرب اذن ان صحت هذه التسمية ، بطرت على أمها وعاقتها وهربت منها الى الشمال[1] .

وإذا جارينا التوراة في قولها بالأنساب ، نرى أن العرب والعبرانيين هم على رأيها من أصل واحد ، هو سام بن نوح ، ونرى أيضاً أنها تعترف ضمناً بقدم (اليقطانيين) ، أي القحطانيين على الإسرائيليين . فاليقطانيون هم أبناء يقطان ابن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام[2] . وعلى ذلك فهم أقدم عهداً من بني اسرائيل ، وأعرق حضارة ومدنية منهم ، ولا سيا إذا ما عرفنا أن كلمة (عبري) على رأي كثير من العلماء تعني التحول والتنقل ، أي البداوة[3] ، أي أنهم كانوا بدواً أعراباً يتنقلون في البادية قبل مجيئهم الى فلسطين واستقرارهم بها وتحضرهم ، على حين كان القحطانيون متحضرين مستقرين أصحاب مدن وحضارة . كذلك جعلت التوراة الفرع العربي الآخر الذي وضعته في قائمة أبناء (كورش) أقدم عهداً من الاسرائيليين[4] .

---

١ Montgomery, Arabia, Nielsen, Handbuch der altarabischen Altertumskunde, I. S. 241.
وسيكون رمزه : Handbuch

٢ التكوين الاصحاح العاشر ، الاية ٢٠ وما بعدها .

٣ اسرائيل ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية (ص ٧٧ فما بعدها) .

٤ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٦ وما بعدها .

لقد كان العرب، بدواً وحضراً على اتصال بالعبرانيين ، فأينما عاش العبرانيون عاشوا مع العرب . ولعل هذا الاتصال هو الذي حمل نسّابيهم على عدّ العرب ذوي قربى لليهود ، ومن ذوي رحمهم . وكان العرب حتى في أيام تكوين العبرانيين حكومة في فلسطين يؤثرون تأثيراً خطيراً في الوضع السياسي هناك . وقد كانوا يقطنون بكثرة في الأقسام الشرقية والجنوبية من فلسطين وفي طور سيناء وغزة[1] . بل وكانوا يقطنون في القدس كذلك .

ومن علماء التوراة من يرى أن (أيوب) ، صاحب السفر المسمى باسمه ، أي (سفر أيوب) وهو من أسفار التوراة ، هو رجل عربي ، إذ كانت كل الدلائل الواردة في سفره تدل على أنه من العرب ، فقد كان من أرض (عوص) (Uz) . و (عوص) وإن اختلف العلماء في مكانها ، فالراجح عندهم أنها في بلاد العرب في (نجد) ، أو في بلاد الشام في (حوران) ، أو في (اللجاة) ، أو على حدود (ادوم) (Idumaea) ، أو في العربية الغربية في شمال غربي (المدينة) . ويرى بعضهم أنه كان يسكن في شرق فلسطين أو في جنوب شرقيها ، أي في جزيرة العرب ، أو في بادية الشام[2] .

وسبب هذا الخلاف ، هو أن التوراة لم تحدد مكان أرض (عوص) ، فبينما نرى أن سفر (أيوب) يتحدث عن هجوم (أهل سبأ) على ملك (أيوب) واستياق بقر كانت له تحرث الأرض وأتن ترعى[3] ، مما يشعر أن أرض (أيوب) التي هي (عوص) ، كانت على مقربة من السبئيين . نرى هذا السفر يذكر بعد آية واحدة هجوم ثلاث فرق من الكلدانيين على ابل (أيوب) ، مما يجعلنا نتصور أن أرض (عوص) كانت على مقربة من الكلدانيين ، أي في البادية القريبة من الفرات[4] . والرأي عندي أن (أيوب) كان رجلاً غنياً يملك ابلاً وبقراً وأتناً وأملاكاً ، وربما كان سيد قبيلة ، وله رعاة يتنقلون بماشيته في بادية الشام ما بين العراق وفلسطين وأعالي الحجاز ، فأغار (أهل سبأ) على بقر له كانت تحرث أرضه وعلى أتن كانت ترعى في أرضه، وأخذوها من رعاته وحرّاسه.

---

١ Enc. Bibli. I, P. 272. ff.

٢ قاموس الكتاب المقدس (١٨٨/١) ، (١٢٦/٢) Hastings, P. 469, 956.

٣ ايوب ، السفر الاول ، الاية ١٤ فما بعدها

٤ ايوب ، السفر الاول ، الاية ١٧ Hastings, P. 469, 956.

وهؤلاء السبئيون ، هم من السبئيين النـازحين الى الشمال والساكنين في أعالي الحجاز وفي الأردن. فالغارة كانت في هذه المنطقة . أما غارة الكلدانيين فكانت في العراق على مقربة من أرض الكلدان ، وذلك لأن رعاة إبله كانوا قد تنقلوا الى هناك على عادة الأعراب حـتى اليوم في التنقل بإبلهم من مكان الى مكان طلباً للماء والكلأ ، فاستولى الكلدانيون عليها وأخذوها ، ولا علاقة لهاتين الغارتين بموطن أيوب .

وقد ذكر في سفر (أيوب) أنه (كانت قنيته سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف من الإبل وخمس مئة فدان بقر وخمس مئة أتان . وله عبيد كثيرون جداً، وكان ذلك الرجل أعظم أبناء المشرق جميعاً)[1] . وتدل هذه الأرقام والأوصاف المذكورة لثروته أنه كان من أعاظم الأغنياء في أيامه ، وأنه كان من (أبنـاء الشرق) ، هي ترجمة لجملة (بني قيدم) (Bene Kedem) العبرانية،وليس في التوراة تحديد لمكان (بني قيدم) (بني قدم) ، ولا تعريف لهم، ولكن التسمية العبرانية هذه ، تشير الى أن المراد منها من كان يقيم في شرق العبرانيين ولا سيما في البادية الواقعة شرق فلسطين[2] . فهم إذن في نظر العبرانيين،الساكنون في شرقهم. ولما كان أيوب من (بني قيدم) ، ومن أرض (عوص)،فيجب أن تكون أرض (عوص) في البادية في شرق فلسطين،أي في منازل (بني قدم) الممتدة الى العراق[3]،وهي مواطن الأعراب. وقد عرف واشتهر بعض (بني قيدم) بالحكمة عند العبرانيين[4] .

ويستدل من يقول بعروبة (أيوب) بالأثر العربي البارز على (سفر أيوب). ومن قدماء من قال بوجود أثر للعروبة في سفره ، العالم اليهودي (ابن عزرا) (بن عزرة) (Ibn Ezra) (Ben ezra) من رجال القرن الثاني عشر . وقـد تبعه في ذلك جماعة من الباحثين الذين وجدوا في الكلمات والتعابير والأسماء الواردة في ذلك السفر ما يشير الى وجود أثر عربي عليه ، حتى ذهب بعضهم الى أن

---

١ ايوب ، السفر الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ٣

٢ Montgomery, P. 41, 46, 49, 71, 169.

٣ قاموس الكتاب المقدس (٦١٧/١ فما بعدها) ،

٤ Hastings, P. 200.

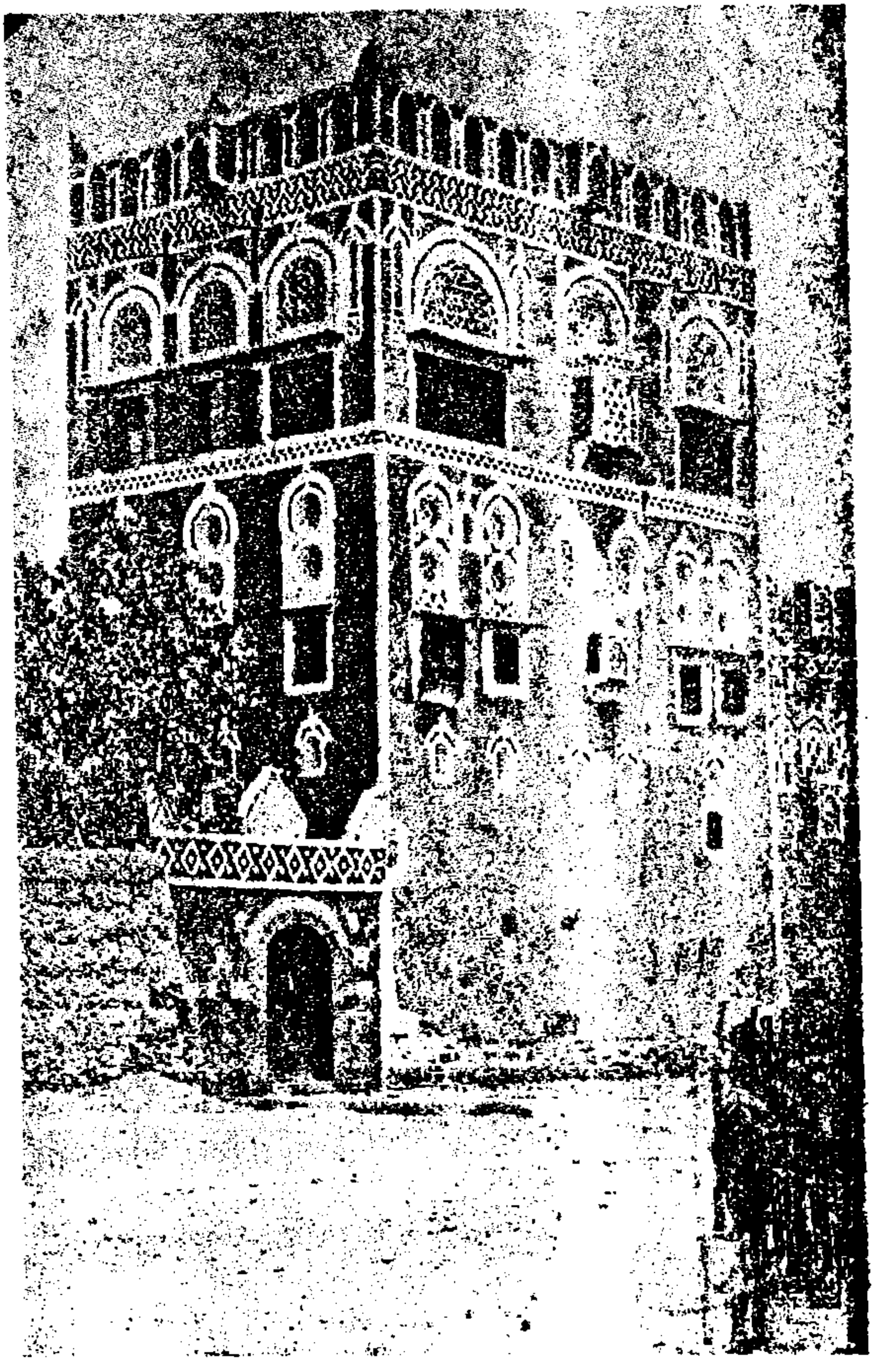

دار من دور صنعاء ، ويرى عليها الأثر المعماري اليماني القديم

ذلك السفر هو ترجمة لأصل عربي مفقود [١] .

وفي أثناء حديث التوراة عن أيام (داوود) وملكه ، أشارت الى رجل كان من شجعانه وأبطاله الذين تباهى بهم وافتخر ، دعته (أبيل) العربي (Abiel) [٢] وكان من أهل (بيت عرابة) (بيت عربة) (Beth-Arabah) في تيه (يهودا) [٣] . ويدل لقبه هذا والموضع المذكور انه كان من العرب،وأشارت الى رجل آخر ، ذكرت انه كان على جمال (داوود) ، دعته بـ (أوبيل الإسماعيلي) (Obil) [٤]، فهو من العرب الإسماعيليين . ولا يستبعد أن يكون هذا الرجل من وجوه الأعراب، ولذلك أوكل اليه أمر إبله ، وهي حرفة من صميم عمل أبناء البادية .

وقد أشير في سفر (يوئيل) الى السبئيين ، فورد فيه : « ها أنا ذا أنهضتهم من الموضع الذي بعتموهم اليه ، وأرد عملكم على رؤوسكم ، وأبيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا ليبيعوهم للسبئيين لأمة بعيدة ، لأن الرب قد تكلم » [٥] . وقد ورد هذا التهديد لأن الصوريين والصيدونيين وجميع دائرة فلسطين كانوا قد استولوا على فضة الهيكل في (أورشليم) وذهبه ونفائسه ، وباعوا (بني يهوذا) و (بني أورشليم) لبني (ياوان) [٦] أي اليونان [٧] . فورد هذا التهديد على لسان (يهوه) إله اسرائيل متوعداً أولئك الذين نهبوا الهيكل وأسروا (بني يهوذا) و (بني أورشليم) ، أي سكان القدس ، وباعوهم لليونان ، بمصير سيء ، وبانتقام الرب منهم ، وبقرب ورود يوم ، يبيع فيه (أبناء يهوذا) ، أي العبرانيين أبناء المذكورين الى السبئيين .

وتدل جملة « للسبئيين ، لأمة بعيدة » على ان السبئيين المذكورين كانوا يسكنون في منازل بعيدة عن العبرانيين . ويظهر انها قصدت السبئيين أهل اليمن، فهم بعيدون عن فلسطين . وكان تجار سبأ يأتون أسواق اليهود لشراء ما فيها من بضاعة بشرية لاستخدامهم في سبأ [٨] .

---

١ Montgomery P. 172, Foster, in Ameri. Journ. of Sem. Languages, October, 1932, PP. 31, Margoliouth, The Relations, P. 30.

٢ اخبار الايام الاول ، الاصحاح ١١ ، الاية ٣٢

٣ Hastings, P. 3.

٤ اخبار الايام الاول ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٣٠

٥ يوئيل ، الاصحاح الثالث ، الاية ٧ فما بعدها

٦ يوئيل ، الاصحاح الثالث ، الاية ٥ وما بعدها

٧ Montgomery, P. 181.

٨ Margoliouth, The Relations, P. 50, Hartmann, Arabische Frage, S. 421.

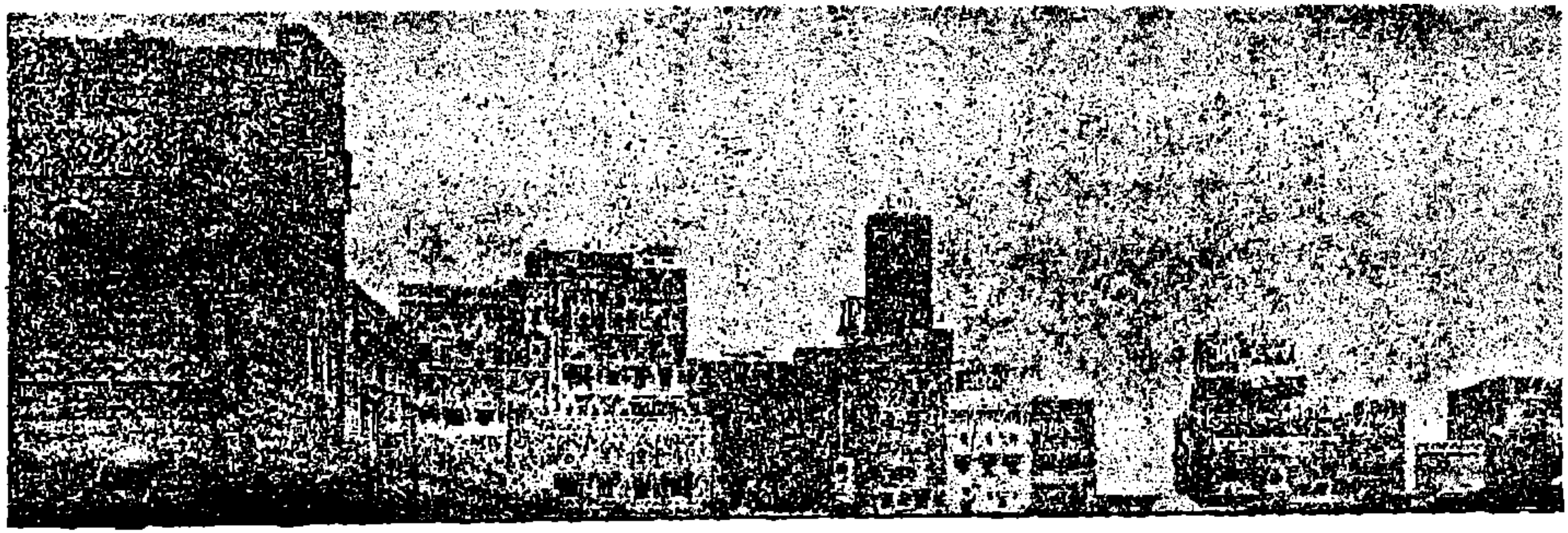

سوق الحطب بصنعاء . وترى بيوت السكن وقد حافظت على طراز البناء القديم

وفي التوراة خبر زيارة ملكة (سبأ) لسليمان . وقصة هذه الزيارة ، وان دونت فيما بعد ، كتبها كتبة التوراة بعد عدة قرون ، الا انها تستند الى قصص قديم كان متداولاً ولا شك بين العبرانيين ، فدوّنه هؤلاء الكتاب .

وقد رأى بعض نقدة التوراة ان هذه القصة قد كتبها أولئك الكتبة لاثبات عظمة سليمان ، وسعة دولته ، وشهرة حكمته . غير ان هذا لم يبت به حتى الآن . ورأى آخرون ان هذه الملكة لم تكن ملكة (سبأ) في اليمن ، لعدم ورود أسماء ملكات في النصوص العربية الجنوبية ، بل كانت ملكة تحكم في العربية الشمالية ، تحكم جماعة من السبئيين الذين كانوا قد نزحوا الى هذه المناطق منذ عهد بعيد ، وكوّنوا مستوطنات سبئية في الأردن وفي أعالي الحجاز[1] .

وتعلل التوراة سبب زيارة ملكة سبأ لسليمان بقولها : « وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب ، فأتت لتمتحنه بمسائل ، فأتت الى أورشليم بموكب عظيم جداً . بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة ، وأتت الى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها »[2] . فلما سألته ورأت « البيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب ، لم يبق فيها روح بعد ، فقالت للملك : صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك ، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي »[3] . وأعطت (سليمان) « مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان »[4] .

وجاء في سفر (الملوك الأول) حكاية عن الذهب الذي وصل الى سليمان : « وكان وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة ستمئة وست وستين وزنة ذهب ، ما عدا الذي ورد من عند التجار وتجارة التجار وجميع ملوك العرب وولاة الأرض »[5] . ولا تعني جملة « وجميع ملوك العرب » و « كل ملكي

---

١ Hastings, P. 843.

٢ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الاية ١ فما بعدها ، وتقابل : سفر اخبار الايام الثاني ، الفصل التاسع ، الاية ١ فما بعدها من الترجمة الكاثوليكية .

٣ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الاية ٤ فما بعدها .

٤ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الاية ١٠ .

٥ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الآية ١٠ ، ١٤ فما بعدها ، اخبار الايام الثاني الاصحاح التاسع ، الاية ١٣ فما بعدها .

ها عرب » في رأيي ونظري ملوك جزيرة العرب ، كما يفهم ذلك من ظاهر النص ، وانما تعني رؤساء أعراب كانوا يقيمون على مقربة من فلسطين ، وفي فلسطين نفسها ، دفعوا اليه هدايا وضرائب،لأنهم كانوا يتاجرون مع العبرانيين ، فقدموا اليه هدايا على قاعدة ذلك اليوم . وقد رأينا ان الآشوريين كتبوا مثل ذلك عن العرب وعن غيرهم في نصوصهم ، اذ لا يعقل خضوع كل ملوك جزيرة العرب لسليمان . فلم يكن ملكه قد جاوز حدود العقبة، كما نجد في التوراة، وقد ذكرنا ان لفظة (هاعرب) ، أي (العرب) انما كانت تعني الأعراب والبدو في العبرانية ، ولذلك فجملة « وكل ملوك العرب » تعني « وكل رؤساء الأعراب» ، وهم كثيرون . فقد كانوا قبائل وعشائر ، ولكل قبيلة وعشيرة سيد ورئيس . وقد كان منهم عدد كبير في فلسطين وفي طور سيناء .

ووجه (سليمان) أنظاره نحو البحر ، ليتجر مع البلاد الواقعة على البحار ، وليستورد منها ما يحتاج العبرانيون اليه ، فأنشأ أسطولاً تجارياً في (عصيون جابر) (Ezion Geber) على خليج العقبة بجانب (أيلة) (أيلوت) (Eloth) (ايلات) (Elath) ، من أرض (أدوم)[1] . وقد عرف خليج العقبة بـ (بحر سوف) ، (يم — سوف) (Yam-Soph) في العبرانية . ولما كان العبرانيون لا يعرفون البحر ، استعان سليمان بـ (حيرام) ملك (صور) في تسيير الاسطول وتدريب العبرانيين على ركوب البحر . فأمده بخبراء من صور ، تولوا قيادة السفن، يخدمهم رجال سليمان . فمخروا البحر حتى وصلوا الى (أوفير) ، وأخذوا من هناك ذهباً ، زنته أربع مئة وعشرون وزنة ، أتوا بها الى سليمان[2] .

ويظن ان (عصيون كبر) (عصيون جبر) (عصيون جابر) (Ezion Geber) كانت عند (عين الغديان) في قعر وادي العربة ، على رأي بعض الباحثين[3] ، أو (تل الخليفة) على رأي بعض آخر[4] . وقد عرفت بـ (Berenice) فيما بعد[5] ، وتقع الى الغرب من العقبة . وقد قامت بعثة أمريكية بحفريات علمية

---

١ الملوك الاول ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢٦ .
٢ الملوك الاول ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢٦ فما بعدها .
٣ قاموس الكتاب المقدس (١٠٦/٢) .
٤ N. Glueck, in BOASOOR. Nos. 71, 72, October, and December, 1938, No. 76, October, 1939, No. 80, October, 1940, J. Hornell, in Antiquity, Vol. XXI, June 1947 PP. 66, W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, 1963, P. 44, 127, 128.
٥ Hastings, P. 263.

بين ١٩٣٨ و ١٩٤٠ في هذا الموضع ، وظفرت – فيما عثرت عليه من الآثار – بأدوات مصنوعة من النحاس ومن الحديد . والظاهر ان سكان هذا الموضع كانوا يحصلون على النحاس من مناجمه الغنية في (طور سيناء) .

وفي جملة ما عثر عليه من آثار في (تل الخليفة) جرتان ، عليهما كتابات بأحرف المسند ، وقد قدر أن تأريخ صنعهما لا يقل عن القرن الثامن قبل الميلاد . وتدل أحرف المسند هذه على ان صانعيها كانوا يكتبون بهذا القلم ، وقد رأى بعض الباحثين ، أنها من صنع أهل مدين . واذا صح هذا الرأي فإنه يكون دليلاً على أن المدينيين كانوا يكتبون به . ويرى (ريكمنس) (G. Ryckmans) أن لهذه الكشوف صلة بالمعينيين الذين كانوا في العلا وتبوك[١] .

وترى طائفة من علماء التوراة أن (أوفير) التي اشتهرت بوفرة ذهبها ، والتي أرسل (سليمان) اليها سفناً مع سفن (حيرام) في طلب الذهب وخشب الصندل والحجارة الكريمة[٢] ، هي أرض في بلاد العرب . ونظراً الى ورود اسمها بين (شبا) و (حويلة) في الإصحاح العاشر من التكوين[٣] ، ذهب بعض العلماء الى وقوعها في الأقسام الشرقية أو في الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب[٤] . ورأى (كلامر) أنها المنطقة الواقعة على ساحل خليج عمان والخليج العربي[٥] .

وذهب نفر آخر من علماء التوراة الى وقوع (أوفير) في إفريقية أو في الهند[٦] . ولكن الرأي الغالب أنها في العربية على ما ذكرت . وذلك ، لما ورد في التوراة من أن (أوفير) ابن من أبناء (يقطان) ، وقد ذكر بين (شبا)

---

١ G. Ryckmans, On some Problems of South Arabian Epigraphy, in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, London, 1952, Rep. Epig. 4918 bis, The Illustrated London News, Vol. 195, No. 5233, 1939, P. 247, G. Ryckmans, Revue Biblique, 1939, P. 247-249, N. Glueck, The Excavations of Solomon's Seaport: Ezion-Geber, in Smithsonian Institution Annual Report for 1941, P. 479.

٢ الملوك الاول ، الاصحاح التاسع ، الاية ٢٧ وما بعدها ، الاصحاح العاشر ، الاية ١١ ، اخبار الايام الثاني ، الاصحاح التاسع الاية ١٠ .

٣ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٩

٤ قاموس الكتاب المقدس (١٧٨/١) Hastings, P. 669. Enc. Bibl. P. 3514, Simon Dubnow, Die Alteste Geschichte des Judischen Volkes, Judischer Verlag, Berlin, 1925, Bd. I, S. 123.

٥ Skizze, II, S. 353.

٦ Hastings, P. 669.

و (حويلة) ، ونظراً الى أن مواطن اليقطانيين هي ما بين (ميشا وأنت آت نحو سفار جبل المشرق)[١] . و (ميشا) وإن تباينت آراء العلماء في تعين مكانه فنهم من ذهب أنه (ميسيني) (ميسان) (Mesene) على رأس الخليج ، (خليج البصرة) ، أو (ماش) (ماشو) (Mashu) الأرض المذكورة في الكتابات الآشورية ، والتي تعني بادية الشام . أو أنه موضع (موزح) أو (موسح) في نجد ، او اسم قبيلة من قبائل نجد[٢] . إلا أنك ترى من كل آرائهم انه اسم مكان في بلاد العرب ، او اسم قبيلة عربية ، وأن (سفار) وهي الحد الآخر من حدود منازل اليقطانيين هي (ظفار) (Zafar) ، عاصمة مملكة حضرموت القديمة على رأي علماء التوراة[٣] . ولما كانت أسماء ابناء يقطان المذكورين ، والذين قد تحققنا من هويتهم كناية عن اسماء مواضع في جزيرة العرب ، وجب ان تكون (أوفير) في جزيرة العرب كذلك :

ومن الباحثين من يرى ان (أوفير) هي (عسير) ، ورأى آخرون انها ارض (مدين) وقد رجح اكثرهم كونها على سواحل جزيرة العرب الغربية او الجنوبية ، لأن الأماكن هي اقرب الى الوصف الوارد في التوراة من الأماكن الأخرى[٤] .

وقد ذكر الهمداني في (معادن اليمامة) موضعاً سماه (الحفير) ، قال : « ومعدن الحفير بناحية عماية ، وهو معدن ذهب غزير »[٥] . وصلة وجود الذهب فيه بغزارة ، تنطبق على هذا الموضع أحسن انطباق ، الا ان هذا الموضع بعيد عن البحر ، ولكن من يدري ؟ فلعل كتّاب التوراة لم يكونوا يعرفون مكان (أوفير) ، وانما سمعوا بذهبه ، الذي يتاجر به العرب الجنوبيون، من الموانىء الساحلية ، فأرسل سليمان سفنه الى مواضع بيعه في سواحل جزيرة العرب لشرائه، ومن هنا ظن كتّاب (العهد القديم) ان (أوفير) على ساحل البحر . و(الحفير)

---

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٦ فما بعدها
٢ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٩/٢) Hastings, P. 606
٣ قاموس الكتاب المقدس (٥٥٨/١) Hastings, P. 836
٤ Sprenger, Die Alte Geography Arabiens, S. 53. ff. Moritz, Arabien, S. 7, Burton, The Gold Mines of Midian, Skizze, II S. 347, Montgomery, Arabia, P. 38.
٥ صفة (ص ١٥٣ ، سطر ٢٤) .

كما ترى اسم قريب جداً من (أوفير) .

وقد ضرب المثل بكثرة تبر (أوفير) ، وبحسن سبائك ذهبها ، فورد في سفر (أيوب) على لسان (اليفاز التيماني) مخاطباً (أيوب) ، داعياً اياه الى توجيه وجهه لله : « فانك إن تبت الى القدير ، يعاد عمرانك وتنفي الإثم عن أخبيتك ، فتجعل التبر مكان التراب وسبائك أوفير مكان حصى الأودية »[١] :

وأنشأ سليمان خطاً بحرياً آخر ينتهي بأرض اشتهرت بالذهب كذلك ، سميت في التوراة (ترشيش) . وقد استعان سليمان بمدربين وملاحين من (صور) ، أمدّه بهم (حيرام) ملك (صور) . وكان الأسطول مختلطاً اسرائيلياً وحيرامياً، يذهب مرة في كل ثلاث سنوات . وأما البضاعة التي يعود بها من (ترشيش) فهي ذهب وفضة وعاج وقردة وطواويس[٢] . ولم يتفق العلماء حتى الآن على تعيين موضع (ترشيش) ، فرأى بعضهم انه مكان في افريقية ، ورأى بعض آخر انه في مكان ما من سواحل آسية الجنوبية ، ورأى آخرون انه في اسبانية[٣] : وكانت سفن صور تتاجر مع ترشيش وتربح من هذه التجارة ربحاً فاحشاً ، كما جاء ذلك في التوراة .

وعلى أثر وفاة (سليمان) في حوالي سنة (٩٣٧ ق. م.) انشطرت حكومته شطرين : إسرائيل (Israel) و (يهوذا) (Judah) . وقد أثر هذا الانقسام على أعمال العبرانيين التجارية البحرية ، لذلك لا نسمع لها ذكراً في التوراة الى أيام (يهوشافاط) (Jehoshaphat) ابن الملك (آسا) (Asa) ، الذي حكم فيما بين (٨٧٦) و (٨٥١) ق. م. تقريباً[٤] فتحدثنا التوراة أنه اتفق مع (أخزيا) ملك (إسرائيل) على بناء أسطول جديد في (عصيون جابر) ليسير الى (ترشيش) ، غير أن مأربهما لم يتحقق ، إذ تكسرت السفن ، ولم تستطع السير الى (ترشيش)[٥] . ويظهر أنـه أراد إحياء فكرة (سليمان) القديمة في الاتصال بالبحر الأحمر والمحيط الهندي وبإفريقية وبسواحل جزيرة العرب الجنوبية وبسواحل آسية ، إلا أنه لم ينجح[٦] . والظاهر أن العبرانيين لم يكونوا قد اتقنوا

---

١ ايوب ، السفر الثاني والعشرون ، الاية ٢٣ فما بعدها .
٢ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٢ فما بعدها
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٨٤/١ وما بعدها) Hastings, P. 895
٤ Hastings, P. 400.
٥ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح العشرون ، الاية ٣٥ فما بعدها
٦ Dubnow, I, S. 165.

بناء السفن والسير بها في البحار ، فأخفقوا ، وأن نجاح (سليمان) في الوصول الى (أوفير) و (ترشيش) مَردّه الى خبرة ومهارة البحارة الصوريين الفينيقيين .

ويظهر من سفر (الملوك الأول) ان (يهوشافاط) قام بنفسه منفرداً ببناء السفن لإرسالها الى (ترشيش) ، غير انها تكسرت في (عصيون جابر) فعرض (أخزيا بن آخاب) ملك اسرائيل عليه أن يبنيا أسطولاً مشتركاً ، يشترك فيه ملاحون من اسرائيل وملاحون من يهوذا ، الا انه رفض ذلك[1] . ولم نعد نسمع بمحاولات أخرى للعبرانيين ترمي الى اعادة فكرة (سليمان) في بناء سفن بحرية للاتجار بها مع البلاد الواقعة على البحر بمسافات بعيدة عن اسرائيل .

نعم ، لقد كوّن (المكّابيون) أسطولاً تجارياً لهم جعلوا مقره في (يافا) (Jappa)[2] ولكنهم لم يتمكنوا من بناء أسطول لهم يخترق مياه البحر الأحمر ، ليزاحم العرب أو غيرهم فيه . فلم يكن الإسرائيليون من عشاق البحر على شاكلة الفينيقيين أو العرب الجنوبيين أو سكان العروض . ولولا المساعدة الثمينة التي قدمها ملك صور لسليمان ، لما استطاع العبرانيون أن يصلوا الى (ترشيش) أو (أوفير) .

وقد انصرف (يهوشافاط) على ما يظهر الى اقرار الأمن في حدود مملكته ، وتحسين علاقاته مع (أخاب) ملك اسرائيل ، ومع جيران (يهوذا) ، حتى تمكن من عقد محالفات معهم ، أدت الى الاستقرار والهدوء ، فلم يحاربوا (يهوشافاط)[3] ، وهذا مما حمل علماء يهود على التجول في مدن (يهوذا) لتعليم الناس أحكام دينهم . وحمل اليه (الفلسطينيون) هدايا وجِزىً دفعوها فضة ، كما جاء في التوراة[4] ، ودفع اليه (العرب) كما تقول التوراة أيضاً (٧٧٠٠) كبش و (٧٧٠٠) تيس[5] . ويظهر ان (العرب) المذكورين ، هم من الأعراب النازلين في (يهوذا) ومن الأعراب الذين يفدون عليها للاتجار : والا

---

١ الملوك الاول ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الاية ٣٨ فما بعدها
Montgomery, Arabia, P. 179.

٢ Hastings, P. 849.

٣ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الثامن عشر ، الاية الاولى فما بعدها .

٤ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السابع عشر ، الاية ١١

٥ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السابع عشر ، الاية ١١

فلمَ يدفع الأعراب الساكنون في خارج (يهوذا) جزى أو هدايا لملكها ، وليس له سلطان عليهم ؟ وقد ترجمت لفظة (عربايم) العبرانية بلفظة (عربان) في ترجمة (جمعية التوراة الأمريكانية) للتوراة الى العربية. أما (الترجمة الكاثوليكية) فقد ترجمتها بلفظة (العرب) . أما المراد من النص العبراني ، فهو(الأعراب) لأن لفظة (عرب) ، لم تكن تعني يومئذ الا هذا المعنى .

وتولى (يهورام) (Jehoram) (٨٥١ – ٨٤٣ ق.م.) ، الحكم على مملكة (يهوذا) بعد (يهوشافاط)[١] . وتذكر التوراة أنه قتل جميع اخوته وبعض رؤساء إسرائيل بالسيف[٢] . وأنه أغضب إلـه (إسرائيل) بأفعاله المنكرة، لذلك (أهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين، فصعدوا الى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضاً . ولم يبق له ابن إلاّ يهوحاز أصغر منه)[٣] . وتذكر بعد ذلك أن اللهَ ابتلاه بمرض في أمعائه وبأمراض رديئة (فذهب غير مأسوف عليه، ودفنوه في مدينة داوود ، ولكن ليس في قبور الملوك)[٤] .

ويظهر أن هجوم العرب على (أورشليم) كان هجوماً شديداً عنيفاً كاسحاً، بدليل ما جاء في الآية التي أشرت اليها في التوراة،وفي الآية الأولى من (الإصحاح التالي) للإصحاح المذكور : (وملك سكان أورشليم أخزيا ابنه الأصغر عوضاً عنه ، لأن جميع الأولين قتلهم الغزاة الذين جاءوا مع العرب الى المحلة)[٥] . وفي هذا الهجوم الماحق دلالة على ضعف مملكة (يهوذا) وتضعضع الأمن فيها وعلى التناحر الشديد الذي كان بين السكان حتى أننا لنجد الشعب فرقاً غير متفقة، وأكثرها تخاصم الحكام .

ويرى (مرغيلوث) (Margoliouth) أن المراد بالعرب الذين بجوار الكوشيين العرب الجنوبيون ، أي سكان اليمن . وذلك لأنهم في جوار (الكوشيين) أي

١ (ملك ٨ سنين من سنة ٨٩٢ ــ ٨٨٥ ق . م) ، قاموس الكتاب المقدس (٥٣٤/٢) . Hastings, P. 400.
٢ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الاية ٤ فما بعدها
٣ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الاية ١٦ فما بعدها
٤ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الحادي والعشرون الاية ١٩ فما بعدها
٥ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الآية ١

الحاميين ، السودان ، وهم سكان إفريقية ، لا يفصلهم عنهم إلا مضيق (باب المندب) . ويرى أيضاً أن ذلك الهجوم كان بحراً ، مستدلاً على رأيه هذا بأن العرب المذكورين سرعان ما تراجعوا الى منازلهم بغنائمهم وبما حصلوا عليه من أموال ، دون أن يكلفوا أنفسهم البقاء في (أورشليم) والاستيلاء على (يهوذا) ، وبمساعدة الفلسطينيين للعرب في هجومهم على يهوذا ، وقد كان الفلسطينيون يسكنون سواحل فلسطين [1] .

أما (موسل) ، فيرى أن (العرب الذين بجانب الكوشيين) ، هم العرب النازلون في الأقسام الغربية من (طور سيناء) وعلى حدود مصر ، وفي الأقسام الجنوبية من (طور سيناء) وعلى مقربة من (أيلة) . وقد كانت (طور سيناء) موطناً قديماً للعرب ، وقد أشير في الكتابات المسمارية الى ملوك عرب ، حكموا هذه الأرضين [2] .

ويحدثنا الاصحاح السادس والعشرون من (أخبار الأيام الثاني) أن (عزيا) (Uzziah) ملك (يهوذا) (٧٧٩ — ٧٤٠ ق. م.) [3] . كان مستقيماً في أول أمره مطيعاً لأوامر الكهان ، لذلك وفقه الله ، فخرج (وحارب الفلسطينيين وهدم سورجت وسور يبنة وسور أشدود ، وبنى مدناً في أرض أشدود والفلسطينيين وساعده الله على الفلسطينيين وعلى العرب الساكنين في جوربعل والمعونيين [4] . ويفهم من هذه الآيات أن الفلسطينيين والعرب كانوا جبهة واحدة متحدة ضد مملكة (يهوذا) . وقد كبدوها خسائر فادحة كما رأينا . فلما تولى هذا الملك ، أراد رمي صفوف أهل مملكة (يهوذا) ووقاية مملكته ، وقد نال تأييد شعبه له ، فحارب الفلسطينيين وتغلب عليهم ، وحارب العرب الساكنين في (جوربعل) والمعونيين ، وهدم أسوار المدن التي عرفت بعدائها لـ (يهوذا) ، وبنى مدناً جديدة في (أشدود) وفي الأرضين الساحلية المعروفة بفلسطين :

---

١ Margoliouth, The Relations, P. 52.

٢ Hegaz, P. 274.

٣ Hastings, P. 401, 957, Enc. Bibli. P. 5240, Hegaz, P. 244.
ويدعى ايضا «عزريا» وهو ابن «أمصيا» ، (٨٠٨ — ٧٥٦ ق.م.)
(٧٨٢ — ٧٣٧ ق.م.) ، قاموس الكتاب المقدس (٢/١٠٠).

٤ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السادس والعشرون ، الاية ٦ وما بعدها

ومدينة (جث) ، هي مدينة قديمة في تخوم (دان) ، وبها ولد (جليات) (كلياث) (Goliath) جبّار الفلسطينيين كما أنهـا إحدى مدنهم الخمس[1] : وكانت في أيام داوود في يد الفلسطينيين ، وكان عليها ملك اسمـه (أخيش) (Achish)[2] ، ولم يعرف مكانهـا بالضبط . وأما (يبنة) ، وتعرف أيضاً بـ (يبنئيل) ، فإنها من مدن الفلسطينيين كذلك . وهي (بينـة) في الزمان الحاضر ، وتقع على بعد (١٢) ميلاً جنوب (يافا) و (٣) أميال شرقي البحر[3]، أو (يمنة) على مسافة ٧ أميال جنوبي (طبرية)[4] .

ولم يتمكن علماء التوراة من تثبيت موضع (جوربعل) . وتعني لفظة (جور) (مسكن) ، فيكون تفسير (جوربعل) (مسكن بعل)[5] . ويظهر مـن ذكر الفلسطينيين والعرب الساكنين بهذا المكان والمعونيين بعضهم مع بعض أن أرضيهم كانت قريبة بعضها من بعض ، وأنهم كانوا يداً واحدة على (يهوذا) . ويرى (موسل) أن الزاوية الشمالية الغربية من أرض (حسمى) هي (جوربعـل) . وتقع في رأيه على مقربة من جبل (إرم) الذي يعرف اليوم باسم (رم)، وهو (Aramaua) في (جغرافية بطلميوس) ، ويكون حدّاً من الحدود الشماليـة للحجاز[6] . وذهب بعض الباحثين الى أن (جوربعل) تعني (صخرة بعل)، في بعض النصوص الإغريقية ، ولهذا فسروها بـ (بطرا) . ولذلك قالوا إن العرب المذكورين كانوا العرب الساكنين عند (بطرا) (Petra)[7] .

وأما (المعونيون) ، فان آراء علماء التوراة متباينة كذلك في تعين هويتهم[8] : وقد ذهب بعضهم الى انهم جماعة من (المعينيين) ، الذين كانوا قـد استقروا

---

١ يشوع : الاصحاح الحادي عشر ، الاية ٢٢ ، الاصحاح الثالث عشر ، الايـة ٣ ، صموئيل الاول ، الاصحاح السادس ، الاية ١٧ ، الاصحاح السابع عشر ، الاية ٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٣١٤/١ وما بعدها) .

٢ صموئيل الاول ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الاية ١٠ وما بعدها ، الاصحاح السابع والعشرون ، الاية ١ وما بعدها .

٣ قاموس الكتاب المقدس (٤٩٤/٢) .

٤ Enc. Bibli. P. 2303, Hastings, P. 419.

٥ قاموس الكتاب المقدس (٣٤٤/١) Enc. Bibli. P. 1920, Hastings, P. 322.

٦ Hegaz, P. 274.

٧ Montgomery, Arabia, P. 30.

٨ قاموس الكتاب المقدس (٣٦٢/٢)

في (ديدان) ، وكوّنوا مملكة معينية شمالية [1] . وذهب بعض آخر الى انهم سكان (معين مصران) [2] .

وقد استعاد (عزيا) (أيلة) (ايلات) (Eloth) (Elath) ، وبنى ميناءها ، وتقع في أرض (آدوم) ، وهي فرضتها الشهيرة ، ويقع على مقربة منها ميناء (عصيون جابر) الذي تحدثت عنه . وقد بقيت في ملك (يهوذا) الى ان استولى عليها ملك (أرام) [3] . وقد حاول (عزيا) ومن جاء بعده ، جعل (ايلات) (أيلة) ميناء (يهوذا) الجنوبي ، وذلك للاستفادة منه في الاتجار مع افريقية والبلاد العربية وسواحل آسية الجنوبية ، تطبيقاً لخطة (سليمان) ، الا ان هذا الأمر لم يتحقق ، اذ لم تكن مملكة (يهوذا) قوية متمكنة في هذه المناطق الجنوبية ، التي كانت هدفاً للغارات والحروب .

ويظهر ان ميناء (عصيون جابر) كان قد خرب أو امتلأ بالرمال ، فلم يصلح للاستعمال ، فرأى (عزيا) استبدال ميناء (أيلة) به ، وقد يكون ماء هذا الميناء أعمق وأصلح للملاحة وللمواصلات من ذلك الميناء ، لذلك وقع اختيار ملك (يهوذا) عليه [4] .

وفي أخبار حملة (سنحاريب) التاسعة ما يفيد ان (حزقيا) ملك (يهوذا) استخدم الـ (الأربي) ، أي الأعراب ، فيمن استخدمهم للدفاع عن القدس (أورشليم) ، حينما حاصرها ملك آشور [5] . ولم يكن هؤلاء العرب ، الا أعراباً من سكان (يهوذا) ، ومن سكان الأرضين الأخرى في فلسطين .

وعلى عاتق هؤلاء الأعراب وقعت مسؤولية الدفاع عن القدس ، حيث قاموا بدور كبير في الدفاع عنها وفي مقاومة الآشوريين [6] :

ولما سمح الفرس ليهود بابل الذين كانوا في الأسر بالعودة الى بلادهم، توسل

---

١ Margoliouth, P. 61.

٢ Winckler, AOF. 29, 337, Enc. Bibli. P. 3065.

٣ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السادس والعشرون ، الاية ٢ ، الملوك الثاني ، الاصحاح الرابع عشر ، الاية ٢٢ ، قاموس الكتاب المقدس (١٨٤/١) ، Hastings, P. 211.

٤ Montgomery, Arabia, P. 179.

٥ Luckenbill, II, 240, Reall. I, S. 125.

٦ A.R. Burn, Persia and the Greeks, P. 21.

(نحميا) الى (ارتحشتا)، ملك الفرس ، بالسماح له بالعودة الى القدس ، وكان (نحميا) نديماً للملك ، يسقيه الخمر ويؤانسه ، فسمح له . ولما وصل اليها ، وجد المدينة خربة ، وقد تهدمت أسوارها واقتلعت أبوابها، فجمع سكانها وأمرهم باعادة بناء الأسوار واصلاح الثغر والثلم التي فيها ، وعمل أبواب جديدة . ولكنه لقي معارضة شديدة من (سنلبط الحوروني) و (طوبيا العبد العموني) و (جشم العربي) ، اذ عارضوا في اعادة بناء الأسوار والأبواب وهددوه بالزحف على المدينة . ونجد في (سفر نحميا) وصفاً لموقفهم من (نحميا) ، فيه استهزاء وسخرية به وازدراء بأمر سكان (أورشليم) وبالسور الذي أخذ في بنائه ، وبين المستهزئين أناس من العبرانيين . « ولما سمع سنبلط اننا آخذون في بناء السور ، غضب واغتاظ كثيراً ، وهزأ باليهود ، وتكلم أمام اخوته وجيش السامرة ، وقال : ماذا يعمل اليهود الضعفاء ؟ هل يتركونهم ؟ هل يذبحون ؟ هل يكملون في يوم ؟ هل يحيون الحجارة من كوم التراب وهي محرقة ؟ وكان طوبيا العموني بجانبه ، فقال : ان ما يبنونه اذا صعد ثعلب فانه يهدم حجارة حائطهم »[1] . وقد تأثر (نحميا) من هذا الازدراء الشائن كثيراً ، فتراه يوجه وجهه لربه ويخاطبه قائلاً : « اسمع يا إلهنا لأننا قد صرنا احتقاراً وردّ تعييرهم على رؤوسهم واجعلهم نهباً في أرض السبي »[2] .

وصمم (نحميا) كما يقول على الاستمرار في البناء حتى إكماله « فلما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون ان أسوار أورشليم قد رممت ، والثغر ابتدأت تسد ، غضبوا جداً ، وتآمروا معاً أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضرراً »[3] . ولكنهم كما يفهم من (نحميا) لم ينفذوا تهديدهم بالهجوم على القدس ، بل بقوا يتكلمون ويهددون ، يرسلون الرسل الى (نحميا) للاجتماع به ، ويذكر (نحميا) انهم لم يكونوا يريدون من هذا الاجتماع الا الفتك به ، فرفض . وعندئذ تراسل (سنبلط) و (طوبيا) مع أحد رؤساء (اورشليم) وهو (شمعيا بن دلايا) ، ليدخل (نحميا) الهيكل ، ثم يعلن للناس انه دخل

---

١ نحميا ، الاصحاح الرابع ، الاية ١ فما بعدها

٢ نحميا ، الاصحاح الرابع ، الاية ٤ .

٣ نحميا ، الاصحاح الرابع ، الاية ٧ فما بعدها .

الهيكل خائفاً هارباً ، فتسقط منزلته من أعين الناس . وقد أحس (نحميا) بالمؤامرة ، فرفض الدخول كما يقول[1] .

وكان (جشم) العربي ، من أشد المعارضين لبناء السور ، ولتحصين القدس ، وذلك لأنه كان يرى في هذا العمل اعادة لدولة (يهوذا) ولتنصيب (نحميا) ملكاً على (أورشليم) . وقد صرح برأيه هذا الى (نحميا) في رسالة وجهها اليه نقل (نحميا) منها هذه الكلمات : (وجشم يقول : انك أنت واليهود تفكرون ان تتمردوا ، لذلك أنت تبني السور لتكون لهم ملكاً بحسب هذه الأمور . وقد أقمت أيضاً أنبياء لينادوا بك في أورشليم قائلين في يهوذا ملك)[2] .

وما كان (جشم) ، ليعارض بناء أسوار القدس ووضع الأبواب لها ، واعادة حكومة (يهوذا) التي قضى عليها البابليون الى الوجود لو لم يكن صاحب سلطان وحكم في أرضين تجاور القدس ، ولهذا رأى في اعادة الملكية الى القدس عاصمة مملكة (يهوذا) المنقرضة ، تهديداً له ولمن تحالف معهم على مقاومة هذا المشروع[3] .

و (جشم) (Geschem) اسم من الأسماء العربية المعروفة . وفي القبائل العربية قبيلة يقال لها (جشم) ، وهي من قبائل (بني سعد) ، وهو أيضاً (جشم) من أسماء الرجال[4] . ويرد بصورة : (جشمو) في الكتابات النبطية[5] . ولم يشر (نحميا) الى موطنه ومكانه ، ولذلك لا ندري أين كان . وقد ذهب بعض الباحثين في التوراة الى أنه كان من أهل (السامرة) (Samaria) ، وذهب بعض آخر الى أنه كان من أهل المناطق الجنوبية من (يهوذا) وأنه كان رئيس قبيلة فيها[6] .

وذهب بعض الباحثين الى أن (جشم بن شهرو) (جشم بن شهر) ، هو (جشم) المذكور في التوراة . وهو أحد ملوك قبيلة (قيدار) (قدار) (قدرو) . وهو الذي عارض (نحميا) في سنة (٤٤٤) قبل الميلاد في اعادة

---

١ نحميا ، الاصحاح السادس ، الاية ٢ فما بعدها .
٢ نحميا ، الاصحاح السادس ، الاية ٦ فما بعدها
٣ (جشم ؟ (Geshem) (Gushamu) Enc. Bibli. I, P. 273, ff.
٤ الاشتقاق (١٥٤/١) ، (١٧٧/٢ ، ٢٠٣ ، ٢٤٢) .
٥ Margoliouth, P. 48, Montgomery, Arabia, P. 29.
٦ Hastings, P. 291, Enc. Bibli. P. 1710, Hastings, A Dictionary of the Bible, I, P. 162.

بناء سور (أورشليم) . وقد كانت (قيدار) مملكة تسيطر على أرض تمتد من (دلتا) النيل الى حدود مملكة (يهوذا) فجنوب (ديدان) بحوالي (٢١) كيلومتراً نحو الجنوب في الحجاز، أما في الغرب فتصل حدودها بالبادية[١] . فملك (قيدار) وهو (جشم بن شهر) ، كان إذن هو المعارض لبناء السور ، وفي معارضته هذه دلالة ولا شك على مقاومته لمحاولة إعادة دولة إسرائيل من بعد السبي .

ويظن أن الإناء الذي عثر عليه بمصر في موضع يقع على مسافة اثني عشر ميلاً الى غرب الإسماعيلية ، وقد دُوّن عليه اسم شخص يدعى (قينو بن جشم ملك قيدار) ، هو ابن (جشم) المعاصر (لنحميا) . وعلى ذلك يكون أحد ملوك (قيدار)[٢] .

وقد كانت (طور سيناء) منذ القديم أرضاً يسكنها العرب ، حتى في أيام داوود وسليمان . ونجد أن رسالة (القديس بولس) الى أهل غلاطية تجعل جبل سيناء في ديار العرب ، وتذكر أن (طور سينـاء) موطن أبناء هاجر ، أي العرب[٣] . كما نجد أن النقب ووادي عربة كانا من مواطن الأعراب[٤] . وقد كان أعراب (جشم) وغيره يتنقلون وينزلون في هذه المواطن وعلى مقربة من القدس .

وفي هذا العهد وصل الاتجار بين فلسطين وبين العربية الجنوبية ذروته . فعثر على مواد كثيرة في مواضع متعددة من فلسطين استوردت من العربية الجنوبية . كما عثر في حضرموت على آثار تدل على أنها استوردت من فلسطين وبلاد الشأم. وقد كانت حاصلات العربية الجنوبية هي من أهم السلع المطلوبة في فلسطين . ترسل اليها عن طريق البرّ على ظهور الجمال .

ومنذ عهد (نحميا) أي أوسط القرن الخامس قبل الميلاد ، أخذ العبرانيون

---

١ Grohmann, Arabien, S. 23, F. V. Winnett, Notes on the Lihyanite and Thamudic Inscriptios, in Muséon, 51, (1938), 307, 309, W.F. Albright New Light on early Recensions of the Hebrew Bible, In BASOR. Num. 140, 1955, 31, W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 145.

٢ William Culican, The Medes and Persians, London, 1965, P. 151.

٣ الاصحاح الرابع ، الاية ٢٤ فما بعدها .

٤ W. F. Albright, The Archaeology. P. 145.

ينظرون نظرة عداء الى العرب ، ويعدّونهم في الجماعات المعادية لهم[1] . وذلك مما يدل على اتخاذهم موقفاً موحداً ضد العبرانيين وعلى توغلهم في فلسطين في المناطق التي حكمتها حكومتا (إسرائيل) و (يهوذا) ، ولهذا اشتدت مقاومة العرب للعبرانيين واتحدوا مع الشعوب الأخرى في مقاومتهم ، وفي منعهم من إعادة تكوين حكومة يهودية في هذه البلاد .

ولما تولى (يهوذا المكابي) مؤسس أسرة (المكّابيين) (Maccabees) (١٦٦ – ١٦١ ق. م.) الحكم ، حارب أعداء العبرانيين[2] ، وكان من بينهم (تيموتاس) (Timotheus) رئيس (العمونيين)[3] ، الذي استأجر جيشاً من العرب ومن الغرباء ليحارب به (يهوذا) ، غير أنه أصيب كما يقول (سفر المكابيين) بخسائر في كل المعارك التي خاضها مع (يهوذا) ، ولم يتمكن من الانتصار عليه[4] .

وقد تحدث سفر المكابيين الثاني عن (تيموتاس) هذا ، فقال : (ثم ساروا (أي اليهود) من هناك تسع غلوات زاحفين على تيموتاس ، فتصدى لهم قوم من العرب يبلغون خمسة آلاف ، ومعهم خمس مئة فارس ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وكان الفوز لأصحاب يهوذا بنصرة الله ، فانكسر عرب البادية ، وسألوا يهوذا أن يعاقدهم على أن يؤدوا اليهم مواشي ويمدوهم بمنافع أخرى)[5] . ولعل هؤلاء العرب ، هم العرب المذكورون ، الذين ذكر السفر الأول من المكابيين أن (تيموتاس) كان قد استأجرهم لمقاتلة اليهود . وقد كانوا من أعراب البادية ، كما نرى ذلك في هذا النص .

وورد في (سفر المكابيين الأول) اسم سيد قبيلة عربية هو (زبديئيل) (زبدايل) (زبديل) ، وكان يقطن في (ديار العرب) ، كما جاء ذلك في السفر المذكور. ذكر السفر اسم هذا الرئيس وهو يتكلم على فرار (اسكندر بالس)

---

١ Margoliouth, P. 48, Hastings, P. 406, Enc. Bibli. I, P. 273.

٢ Hastings, A Dictionary. I, P. 936.

٣ A Dictionary, I, P. 937.

٤ المكابيون الاول ، الاصحاح الخامس ، الاية ٦ فما بعدها ، ٣٤ فما بعدها ، المكابيون الثاني الاصحاح الثامن ، الاية ٣٠ ، الاصحاح التاسع ، الاية ٣ ، الاصحاح العاشر الاية ٢٤ فما بعدها .

٥ المكابيون الثاني عشر ، الاية ١٠ فما بعدها

(Alexander Balas) الى (ديار العرب) ، وكان قد مني بهزيمة أوقعه بهـا (بطلميوس) (بطلماوس) (Ptolemy) ، عمه أي والد زوجته . وكان قـد تخاصم معه . فلما وصل (إسكندر بالس) الى (ديار العرب) ، قبض عليه (زبديئيل) ، وقطع رأسه ، وأرسله الى (بطلماوس)[1] .

ولم يتحدث السفر المذكور عن منزل (زبديئيل) ، ولم يحدد مكان (ديار العرب) ، وعندي أن المراد بـ (ديار العرب) بادية الشام ، والأرضين التي دعاها الأشوريون بـ (أريبي) (Aribi) ، وهي موطن آمن لمن يصل اليه ، إذ يصعب للجيوش النظامية أن تقاتل فيها . وقد كان (زبديئيـل) من رؤساء البادية في هذا الزمن . وهـو حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد[2] . وكان الحاكم على اليهود هو (يوناثان) من المكابيين .

ويذكر (سفر المكابيين) أيضاً أن (تريفون) (Tryphon) ، وهو أحد قوّاد (إسكندر بالس) ومن جماعته ، ذهب الى رجل عربـي اسمه (ايملكوئيل) ، وكان يربي (أنطيوخس بن الإسكندر) ، فألح عليه أن يسلمه اليه ليملكـه مكان أبيه ، ومكث عنده اياماً . وقد تمكن عربـي مع حقد العبرانيـين المتزايد على العرب من حكم اليهود ومن تأسيس أسرة حاكمة حكمتهم . ذلك الرجل هو (انتيباتـر) (Antipater) الأدومـي ، نسبـة الى (أدوم) (Edom) (Idumea) (Idumaea) ، وهم سكان جبل سعير ، الذين دعاهم(اويسبيوس) (Eusebius) باسم (Gabelene) أو (Gabalene) أي الجبليين[3] .

فقد تمكن هذا الرجل الذي لم يكن من أسرة ملكية ولا من أسرة معروفـة بفضل شخصيته وبقوته من فرض نفسه حاكماً على (ادوم) (Idumaea) ، ثم تمكن من جعل نفسه حاكمـاً (Procurator) على اليهوديـة (Iudaea) (Judaea) ،وذلك في حوالي السنة (٣٣) قبل الميلاد . وفي خبر ان (يوليوس قيصر) (Julius Caesar) ، اعترف بـه (Procurator) على اليهوديـة في حوالي السنة (٤٧) قبل الميلاد[4] .

---

١ المكابيون الاول ، الاصحاح الحادي عشر الاية ١٥ وما بعدها

٢ Hastings, P. 20.

٣ Hastings, P. 345.

٤ Smith, A Dictionary of the Bible, I, P. 790. f. Josephus, Anti. Xiv, 7, 3.

ولما وقعت الحرب بين (يوناتان) المكابي (١٦١ – ١٤٣ ق. م.) و (ديمترتوس الثاني)، ضرب (يوناتان) العرب المسمين بالزبديين (Zabadaeans) وأخذ منهم غنائم كثيرة[١] . حدث ذلك في سنة (١٤٤ ق. م.) . ويرى بعض علماء التوراة ان هذه القبيلة العربية قبيلة (زبد) (زبيد) كانت تنزل في موضع في شمال غربي (دمشق) ، ويرى بعض آخر احتمال ان ذلك المكان هو (الزبداني) ، الذي يبعد عشرين ميلاً من الشأم على طريق دمشق بعلبك[٢] . وأرى ان من المحتمل أن يكون هؤلاء (الزبديون) هم سكان (زبد) ، وهو خرب في الزمن الحاضر ، يقع بين قنسرين ونهر الفرات . وقد اشتهر عند المستشرقين بالكتابة التي عثر عليها في هذا الموضع ، وقد كتبت باليونانية والسريانية والعربية، ويرجع تأريخها الى سنة (٥١١ م) . وقد أدخلهم (يوسفوس) في عداد النبط[٣] .

و (أرتاس زعيم العرب) الذي طرد (ياسون) من بلاده حينما التجأ اليه فاراً من الملك (أنطيوخس) ، هو (الحارث) أو (حارثة) وهو من ملوك النبط ، ولا شك . وقد ذكر اسمه في سفر المكابيين الثاني[٤] .

وفي أيام (سترابون) كان العرب في جملة سكان مدن فلسطين، مثل القدس و (يافا) و (الجليل)[٥]. وذكر (سترابون) ان (الأدوميين) (Idumaens) كانوا يقطنون الأقسام الغربية من (اليهودية) (Iudaea) ، وهم على حد قوله من (النبط) . ولما كان (سترابون) قد نقل كلامه من موارد أخرى قديمة ، فما ذكره يفيد ان العرب كانوا يقيمون في فلسطين قروناً عديدة قبل الميلاد .

وقد ذكر العرب في جملة الشعوب الساكنة في (أورشليم) يوم مرور الخمسين يوماً على المسيح . ويظهر من أعمال الرسل ان أهل القدس كانوا خليطاً في تلك الأيام من معظم شعوب العالم المعروفة يومئذ[٦] .

---

١ سفر الكابيين الاول الاصحاح الثاني عشر الاية ٣١ فما بعدها

٢ Hastings, P. 982, Beeton, Dictionary of Religion Philosophy and Law, P. 1809.

٣ Anti. XIII, 5, 10, Beeton, Dictionary, P. 1809.

٤ المكابيون الثاني ، الاصحاح الخامس الاية ٥ فما بعدها . Dubnow, II, S. 48,

٥ قاموس الكتاب المقدس (٣٣١/١) .

٦ اعمال الرسل ، الاصحاح الثاني ، الاية ٩ وما بعدها

وقد أطلق العبرانيون اسم (طيعة) و (طيابة) على العرب ، محاكاةً لبني إرم . فتجد اللفظة في (التلمود) وفي كتابات العبرانيين المدونة في القرون الأولى للميلاد . وقد أخذ الاسم (طيعة) و (طيابة) من (طيء) اسم القبيلة المعروفة ، على نحو ما ذكرت في الفصل الأول .

وقد ذكرت في (المدراش) قبيلة عربية عرفت بـ (سوجي) ، لعله (سواجر) ، أو ما شابه ذلك من أسماء[1] .

وفي التوراة مصطلحات يرى العلماء انها كناية عن العرب . ففيها مصطلح (بني قدم) (Bene Kedem) ، ومعناه : (أبناء الشرق) ، ويقصد به الساكنون شرق العبرانيين ، أي سكان بادية الشأم ، وهو في معنى (شركوني) (شرقوني) ، أي الساكنون في المشرق . وهم كما نعلم قبائل عديدة من العرب سكنت هذه البادية قبل الميلاد بمدة لا يعلمها الا الله . وقد يكون من بين هؤلاء أقوام من الآراميين[2] .

وقد وصفت التوراة بعض عادات العرب ورسومهم ، كما تعرفت لتجارتهم : ولما كانت (فلسطين) امتداداً طبيعياً لجزيرة العرب ، وجزء منها ، وكانت على طريق مصر وبلاد الشأم وعلى ساحل البحر المتوسط ، صارت سوقاً مهمة للتجار العرب وللأعراب ، يأتونها لبيع ما عندهم من سلع ، وأهمها أنواع الطيب والذهب والحجارة الكريمة والأغنام والأعتدة وحاصلات بلاد العرب الأخرى[3] ، كما كانوا يشترون من أسواقها ما فيها مما يحتاجون اليه من حاصلات حوض البحر المتوسط وبلاد الشأم وفي جملة ذلك الرقيق .

وورد في (التلمود) اسم صنم عربي دعي (نشرا)[4] ، ويقصد به (نسر) ولا شك . وهو من أصنام العرب المعروفة . وقد ذكر (ابن الكلبي) ان حمير تعبدت لنسر[5] . كما انه ذكر في (التلمود) أيضاً (حج الأعراب) ، وذكر ان مواسم حجهم كانت تتغير بتغير فصول السنة[6] . وقد تعرض للأحكام الشرعية

---

١ ايخاربالـــي (٧/٣)
٢ Hastings, P. 200, The Bible Dictionary, I, P. 177.
٣ حزقيال ، الاصحاح السابع والعشرون ، الاية ٢١ وما بعدها .
٤ عبــودة زارة ١١ ب .
٥ الأصنام (ص ١١ ، ٥٧)
٦ عبودة زاره ١١ ب ،

الخاصة بدخول البيوت ، فذكر انها لا تنطبق على خيام العرب ، لأنها متنقلة ، فلا تستقر في مكان واحد[١] . كما ذكر ان من عادة نساء العرب التحجب عند خروجهن الى المحالّ العامة[٢] . ولعله يقصد بذلك نساء المدن ، وذكر ان من عادة الرجال وضع اللثام على وجوههم في أثناء السفر لوقايتهم من الرمال[٣] ، وأشار الى أن للعرب مقدرة فائقة في معرفة مواضع المياه في الصحراء بمجرد شم الرمال[٤]. وورد في (المشنة) (المشنا) ان أغلب طعام العرب من اللحوم[٥] .

وقد ورد في (السنهدرين) ، أن احد اليهود قصّ على الحبر (حية) (R. Hiyya) ، أنه رأى مسافراً عربياً أخذ سيفاً بيده فقطع به جملاً قطعاً ، ثم أخذ (جرساً) فدق به ، فنهض الجمل حالاً ، وكأنه لم يقطع إرباً ، فقال له الحبر ، إن ما حدث هو نوع من الخداع[٦] .

ونجد في (السنهدرين) كلاماً لـ (ربه بن برحنه) (Rabbah B. Bar Hana) يروي فيه ، أنه كان مسافراً ، وفي أثناء سفره التقى به عربي ، فقال له : تعال معي وسأريك الموضع الذي انشقت به الأرض وابتلعت جماعة (القورحيين) (قورح) (Korah) . فذهب معه اليه ، ورأى به دخاناً . ثم أخذ العربي قطعة من صوف وبلّها بالماء ، ثم وضعها على رمح له ، ثم أدخلها الموضع فاستشاطت بالنار . ثم قال للعربي اصغ الى المكان ، لعلك تسمع شيئاً فيه . فسمع أصواتاً تقول: (موسى وتوراته على الحق ، أما القورحيون فهم كذّابون) ثم قال له في كل ثلاثين يوماً يتحول هؤلاء في جهنم (Gehenna) ، تحول اللحم في القدر ، وهو يقولون : (موسى وتوراته على حق ، أما هم ، فهم كذّابون)[٧] .

ونجد قصة هذا الحبر في (بابا بترا) (Baba Bathra) ، حيث يقول :

---

١ هلسوت ٢٨ : ١٠
٢ شبت ٦ : ٦
٣ موعيد قطان ٢٤ ، ومشنة كليم ٢٩ : ١
٤ بابا بترا ٧٣ ب
٥ مناحوت ٣٦ ب
٦ Sanhedrin, 67b, The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, III, P. 460, Translated by, Rabbi I. Epstein.
٧ Sanhedrin 110a, 110b, The Babylonian Talmud, Seder Nozikin, III, P. 757.
قاموس الكتاب المقدس (٢٢٦/٢) «قورح» .

لقد كنـا في سفر في صحراء ، فالتقى بنا تاجر عربي ، وكان ممن يستطيع التنبؤ بمواضع المياه وبالأبعاد وبالطرق من شمّ التربة ، فأردنا الاستفسار منه عن أقرب مكان الينا فيه ماء . فقال لنا : أعطوني رملاً فأعطي ، فشمه ثم قـال أقرب مكان اليكم فيـه ماء هو على بعد ثمانية فراسخ (Parasangs) ثم سرنا وأردنا الاستفسار ثانية منه ، فقدمنا له رملاً ، شمه ثم قال لنا الماء على بعـد ثلاثة فراسخ من هذا المكان . ثم حاول هذا الحبر اختباره لمعرفة مـدى صدقه من كذبه ، فأبدل الرمل ، فلما قدم اليه رملاً آخر . لم يستطع أن يقول شيئاً[1] .

ويقص علينا قصة أخرى يزعم أنها وقعت له مع هذا التاجر العربي ، حيث يقول انه قال له : تعال معي أريك (أموات التيه) ، أي الإسرائيليين الذين ماتوا في التيه في طريقهم إلى أرض الميعاد . فذهب الحبر معه ، ورأى الأموات وكأنهم في حالة فرح وسرور ، وقد رقدوا على أظهرهم ، ثم يقول : وقد رفع احد هؤلاء الأموات ركبته ، ومرّ التاجر العربي من تحت تلك الركبـة ، وقد كان حاملاً رمحه راكباً بعيره ، ومع ذلك فإن رمحه لم يمس رجـل الميت . ثم يقول وقد ذهبت الى أحد الأموات الراقدين فقطعت جزءاً من ذيل ردائه الأزرق العميق ، وعندما حاولت الرجوع ، لم أتمكن من الحركة وبقيت ثابتاً في مكاني، فقال له العربي : إذا أخـذت شيئاً من هؤلاء فأرجعه الى محله ، وإلا فإنك ستبقى ملتصقاً في مكانك،لأن من يتطاول على حرمة الراقدين فيأخذ شيئاً منهم، يجمد في مكانه ، ولا يستطيع التحرك . فذهبت وأرجعت القطعة وتمكنت عندئذ من السير[2] .

ثم يذكر أن هـذا التاجر العربي أخذه الى جبـل الطور (جبل سيناء) (Mount of Sinai) فأراه إياه ، ثم اخذه الى الموضع الذي انشق بالقورحيين، جماعة (قورح) ، فأراه شقين في الأرض ، ووجـد الدخان لا يزال يخرج منهما ، ثم يذكر أنه اخذ قطعة الصوف وادخلها هو بنفسه ، ثم أخرجهـا وإذا بها وقد علقت بها النار،ثم يقص باقي القصة على نحو ما جاء في (السنهدرين)[3].
ونجد في (مينحوت) (Menahoth) فتوى تتعلق في نجاسة او طهارة قُرَب

---

١ Baba Bathra, 73b, The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, II, Baba Bathra, P. 292.
٢ Baba Bathra, 74a, The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, II, P. 292.
٣ Baba Bathra, 74a, Seder Nezikin, II, P. 293-294.

الماء . وقد ورد في هـــذه الفتوى ، أن القرب التي تشد وتعقد بعقدة تكون طاهرة ، إلا اذا عقدت بعقدة عربية . فإنها تكون نجسة ولا يحل الشرب منها[1] . ونجد هذا البحث مرة أخرى في مكان آخر من (المشنة) في كتاب الـ (قليم) (Kelim) ، أي (كتاب الأواني والأوعية) من (كتاب الطهارة) ، حيث عرضت آراء الأخبار في قرب الماء وفي كيفية عقد عقدتها لمدة طويلة أو لمـــدة قصـــيرة ، ومن حيث شدة العقدة أو رخاوتها ، وتأثير ذلك في طهارة الماء . فأشير الى قرب ماء العرب وموقفهم من الشرب منها او من الاستفادة من مائها وهل يعد ماؤها طاهراً أو نجساً في الشريعة اليهودية ؟ وقد جاءت آراء الأخبار متباينة في ذلك[2] . ويظهر ان اتصال العرب باليهود اتصالاً وثيقاً بالعراق،وسكن اليهود بين العرب في بلاد العرب ، أثار امام اليهود هذه المشكلة الفقهية ، فهم مضطرون دائمـــاً الى الاتصال بالعرب والى شرب الماء منهم ، فظهرت من ثم عندهم هـــذه المشكلة ، وكان على الأخبار بيان رأيهم في طهارة ماء القرب ، وقرب العرب منها بوجه خاص ، لما في ذلك من علاقة بقضية الطهارة والنجاسة ومكانتها في فقه يهود .

وفي موضع آخر من كتاب (الأواني والأوعيـة) (Kelim) ، بحث عن جواز أو عدم جواز ارتداء بعض الأرديـة وموقف الشريعة من أكسيـــة الرأس وأغطية الوجه والجسم ، فبحث في جملة ما بحث عنه ، عن القناع الذي يصنعه العرب على أوجههم وعن تلثمهم به ، فهل يجوز لليهودي شرعاً ان يفعـل فعل العرب ام لا[3] .

وقد استثنت (المشنه) في كتاب (أو حولت) اي (الخيام) ، عشرة مواضع من تطبيق أحكام الشرع عليهـــا ، بخصوص طهارتها او نجاستها لكون ساكنيها من الوثنيين . وقد ذكرت مضارب خيام العرب على رأس هذه المواضع العشرة التي لا تخضع لحكم الشريعة في موضوع حكم طهارتها او نجاستها . وذلك لأن مضارب البدو غير مستقرة ، إذ ان الأعراب يتنقلون من مكان الى آخر . لذلك لا يمكن تطبيق الأحكام الشرعية التي تطبق عـــلى العقار الدائم عليها في

---

١ Menahoth, 37b, p. 231, Translated by Eli Cashdan.

٢ The Mishmahs, Kelim, P. 124.

٣ The Mishna Kelim ? P. 138.

موضوع نجاسة الأثاث والأواني وكل شيء يكون تحت الخيمة التي يموت فيها إنسان ، ولأن اصحابها غير يهود[1] .

وقد أشير في (مينحوت) (Menahoth) الى موضوع تقديم طعام مطبوخ في موقد عربي ، هل يقبل أو يرفض . فأشار بعض فقهاء الشريعة اليهودية الى عدم جواز الأكل من ذلك الطبيخ[2] .

ونجد في (بابا بترا) (Baba Bathra) ، ان الحبر (ماير) (R. Meir) يستثني النبط والعرب والسلمونيين (Salmoeans) من الوعد الذي أعطاه الله لموسى حين أراه الأرض الموعودة[3] . ويظهر ان (السلمونيين) ، هم قبيلة من القبائل العربية الشمالية[4] . لعل لاسمهم علاقة ب (سلمان) .

وقد ورد ذكر العرب في كتاب الحيض (نده) (Niddah) من كتاب (الطهارة) في الفقه اليهودي . وذلك في موضوع العبدة وهل يجوز الاتصال بها ، أو لا يجوز ، على اعتبار انها خصصت لأداء الأعمال لا للاتصال الجنسي. وقد أجاز الحبر (شيشت) (R. Shesheth) ايداع العبدة أي المملوكة الى العرب ، على أن يقال لهم احترسوا من الاتصال بالإسرائيليات[5] .

وفي التلمود والمشنه والكبارة مسائل فقهية أخرى عديدة يخرجنا ذكرها هنا من حدود هذا الموضوع تتعلق بموضوع صلات العرب واليهود . في مثل موقف الشريعة اليهودية من ذبائح العرب ، وهي التي يذبحها اليهود للعرب في مقابل اعطائهم اللحم ليقدم العرب دمها وشحمها للأصنام[6] .

وموقف الشريعة من المرأة التي يأسرها الأعراب ثم تعاد بعد ذلك الى أهلها بعد فك أسرها ،هل يجوز للحبر أو لغيره التزوج منها أو لا؟أو موقف الشريعة من المملوكة اليهودية التي تكون في ايدي العرب ، من حيث احتمال دخول العرب بها[7] . أو موقف الشريعة من الحبوب او المواد الأخرى التي تقع بين روث

---

١ The Mishnahs, Oholoth, P. 228.

٢ Menahoth, 63a, Menahoth, P. 372.

٣ Baba Bathra, 56a.

٤ The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, P. 227.

٥ Niddah 47a, The Babylonian Talmud, Seder Tohoroth, P. 328.

٦ The Babylonian Talmud, Seder Kodashim, II, Hullin, P. 214, Hullin, 39b.

٧ The Babylonian Talmud, Seder Nashim, II, P. 199, Kethuboth, 36b.

ماشية العرب[١] ، أو دخول إبل العرب في (كثوبة) (Kethubah) يهودي[٢]. أو موقف اليهودي من المرأة[٣] . أو موضوع نظر اليهودي الى عضو من جسم امرأة عربية ، مثل صدرها حينما يمر في مكان ويراها وقد كشفت عن صدرها لترضع رضيعها[٤] ، أو موقف الشريعة اليهودية من المختتنين العرب[٥] .

ونجد في باب (الشهادات) (الوثائق) (كطين) (خطين) (Gittin) قولاً لأحد الأحبار يقول : ان امرأة عربية جاءت الى أحد اليهود تحمل كيساً فيه تعاويذ لبيعها ، فقال لها اليهودي اعطيك تمرتين عن كل تعويذتين. فاغتاظت المرأة ورمت ما حملته في النهر . فندم اليهودي وقال وددت لو لم أكن قد أعطيتها هذا العوض الرخيص[٦] .

وقد نشأت هذه المعضلات الفقهية من اختلاط اليهود بالعرب في فلسطين وفي الأماكن التي هاجروا اليها من بلاد العرب من جـــراء ضغط الرومان عليهم ، وعدم تمكنهم من ممارسة عباداتهم في البلاد الخاضعة للحكم الروماني بسهولة وبحرية تامة ، فهاجر كثير منهـم الى أعالي الحجاز والى العراق حيث اختلطوا بالعرب وعاشوا بينهم في مثل (الأنبار) و (فومبديثة) و (زقونية) (زكونية) (Zekonia) ، وهو موضع على مقربة من (فومبديثة)[٧] . وموضع (بمكسه) (Be-Mikse)[٨] ، (نهردعة) (Nehardea) وسورا (Sura) وأماكن أخرى من العـــراق . وقد كان ليهود الفرات اتصال وثيق بالعرب وكانوا يعيشون معهم في كثير من الأماكن ويتاجرون معهم . وكوّن اليهود لهم (كالوتا) أي (جالية) عاشوا فيها متمتعين بشبه استقـلال ذاتي ، يدير رؤساؤهـم (كالوتاتهم) ، ويكونون هم الممثلين لأتباعهم أمام السلطات صاحبة النفوذ الفعلي، كما كانوا يعقدون أحلافاً مع الأعراب على طريقة أهل المـدن والحضر في عقد مواثيق مع سادات القبائل لمنع الأعراب من غزوهم ومن التحرش بأملاكهم وتجاراتهم .

---

١ Kethuboth 66b, II, P. 405.

٢ Babylonian, Seder Nashim, II, P. 408.

٣ Babylonian, Seder Nashim, II, P. 452.

٤ Babylonian, Seder Nashim, II, 472, Kethuboth 75a.

٥ Yebamoth 71a, Babylonian, I, P. 479.

٦ Gittin, 45b, Babylonian, Seder Nashim. IV, P. 200.

٧ J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonian, S. 234, Hullin, 39b.

٨ Yebamoth, 45a, babylonian, Seedr Nashim, I, P. 295, Obermeyer, S. 334.

وأود ان أشير هنا الى أهمية (التلمود) و (المشنه) و (الكماره) ، بالنسبة لتأريخ العراق ، ففي أبوابها بحوث قيّمة عن مدن العراق وجغرافية العراق في عهد تدوين هذه الكتب ، وهي تمتد لمئات من السنين . ففي (القيدوشين) مثلاً ، أسئلة وأجوبة عن (اقليم بابل) وعن (ميسان) (Mesene) وعن (ميديا) ، وقد وردت فيها أسماء مدن وأنهار وقرى وغير ذلك مما يساعد كثيراً في فهم جغرافية العراق في عهود ما قبل الميلاد وما بعده[1] .

وقد تساهل الفرس في الغالب مع اليهود ، فمنحوهم استقلالاً ذاتياً واسعاً في ادارة شؤون مستوطناتهم وفي ممارسة طقوسهم الدينية وفي الاتجار ، حتى صارت كل مستوطنة تدير شؤونها بنفسها وتختار حاكمها بنفسها ، حتى ان بعضها وضعت على رأسها حاكماً يهودياً لقبته بلقب (ملك) ، أدار شؤون الجالية طبقاً لأحكام يهود . وكان هؤلاء الحكام هم الصلة بين اليهود وبين الفرس . وقد صارت بعض هذه المستوطنات من أهم المراكز العلمية عند اليهود في العالم ، وفي ضمن ذلك فلسطين . وفي هذه المواضع دوّن (التلمود البابلي)،دوّنه أحبارهم الذين استقروا في العراق . وهو يعد من أثمن التراث العبراني الذي ظهر عند اليهود . وقد تأثر بالروح العراقية حتى امتاز بها على التلمود الأورشليمي ، أي التلمود الذي كتب في فلسطين .

وقد لاقى اليهود مساعدة حسنة من العرب ، وعوملوا معاملة طيبة . ويظهر من مواضع في التلمود والمشنه ، أن العبرانيين فرّوا الى جزيرة العرب منذ أيام (بخت نصر)[2] . وقد تأثر اليهود النازحون الى جزيرة العرب بعادات العرب ورسومهم . ويحدثنا (أبا أريخا) من الأحبار وكبار علماء التلمود في القرن الثالث الميلادي ، أن اليهود كانوا يؤثرون حكم الإسماعيليين ، ويقصد بهم العرب ، على الرومان ، ويؤثرون حكم الرومان على حكم المجوس[3] . ومع ذلك ، فقد حدث خصام بين العرب واليهود ، فنجد في (التلمود) مواضع يظهر فيها حقد اليهود على العرب وكراهيتهم لهم . كالذي يظهر من كلام (الحبر يشوعه بن ليفي)[4] (يشوعه بر ليفي)،حين رأى أكواماً من العنب مكدسة ، فقال : (يا للبلاد

---

١ Keddushin 71b.

٢ The Universal Jewish Encyclopedia, I, P. 439.

٣ Shabth IIa.

٤ R. Joshua b. Levi.

يا للبلاد) . لمن هذه ، لأولئك العرب (الوثنيين)[1] الذين ثاروا علينا لخطيئتنا[2]. وكالذي يظهر من كتاب (قدوشين) (Kiddushin) ، حيث ورد ، (أعطي العالم عشرة (قابات) من الوقاحة ، خص العرب بتسع منها)[3] . وفي هـذا الكلام دليل على تطاول العرب على اليهود في المواضع التي كانوا يعيشون بهـا معاً . وحقد اليهود عليهم من أجل ذلك .

ونجد في الأخبـار السريانية والعبرانية أخبار غارات وغزوات قام بها عرب العراق على الجاليات اليهودية التي انتشرت من (بابل) وما جاورها حتى جاوزت شمال (عانه) على نهر الفرات . وقد ازعجت هذه الغارات اليهود الذين حولوا هذه الأرضين الى أرض سادتها وغلبتها حتى صيرتها على شاكلة (وادي القرى) عنـد ظهور الإسلام . فاضطروا الى تحصين مستوطناتهم وأحاطتها بأسوار والى تشكيل قوات تقوم بحمايتها ليل نهار حتى في أيام السبت والأعياد اليهودية ، مع تحريم الشريعة اليهودية العمل يوم السبت . وأباح الأحبار لهذه القوات حمل السلاح في أيام السبت وفي أيام العطل حتى تكون على استعداد للدفاع عن تلك المستوطنات في أية لحظة يشن فيها الأعراب غاراتهم عليها،إذ يحتمل أنها تقوم بقتل اليهود[4].

وقد تعرض الرعاة اليهود الذين كانوا يخرجون بماشيتهم من مستوطناتهم الى البرية أو الى ضواحي مستوطناتهم الى غارات الأعراب عليهم ، وسلبهم ماشيتهم[5]، كما تعرض اليهود الى الأسر ، فأسر عدد منهم ، نساءً ورجالاً . حتى سلبوا وأسروا بعض الأحبار ، لذلك كانت الجاليات اليهودية تخشى من الأعراب كثيراً[6] وقد تعرضت مدينة (نهردعة) (Nehardea) الى الغزو وذلك سنة (٥٧٠) من التقويم السلوقي الموافقة لسنة (٢٥٩) للميلاد. فقد غزاها كما تقول الأخبار اليهودية سيد قبيلة عربية ، اسمه (باپابر نصر) (بابا بن نصر) (Papa Bar Nasr) ، وألحق بها أضراراً فادحة،وخرب بعض أماكنها ، وقد هرب منها بعض أحبارها الى مستوطنات يهودية أخرى[7] . وقد ذهب المؤرخ اليهودي (كريتس)(Graetz)

---

١ الوثنيون في طبعة (Bomb)

٢ Kethuboth 112a, Babylonian, Seder Nashim, II, P., 225.

٣ القاب (Kab وحدة من وحدات الوزن Kiddushin 49b, Babylonian, Seder Nashim, IV, P., 249.

٤ 'Erubin 45a.

٥ Baba Bathra 36a.

٦ Koheleth 7, Gittin 23a.

٧ Obermeyer, S., 254. ff.

الى أن هذا الأمير العربي المهاجم هو (أذينة) ملك تدمر وزوج الملكة الزباء[١]. غير أن اشتهار ملوك الحيرة عند العرب بـ (آل نصر) وقرب الحيرة من مدينة (نهر دعة) واتصال عربها بالجاليات اليهودية يحملنا على التفكير في أن المهاجم هو أمير من أمراء (آل نصر). ملوك الحيرة، وهم حلفاء الفرس.

وورد في الأخبار أيضاً أن مدينة (فومبديثة) (Pumbaditha) تعرضت للغزو أيضاً، وهي من أمهات مدن الجاليات اليهودية. هاجمها جيش جاءها من (عاقولاء) ويظهر أنه من قوات (آل نصر) ملوك الحيرة[٢].

وقد كانت مدينة (فومبديثة)، محاطة بالأعراب. ولذلك كانوا يتعاملون معهم، ويأتون اليهم ويذبحون عندهم. وقد جاء في الأخبار أن أحبارها قد أباحوا لأهلها التعامل مع الأعراب في أيام أعيادهم، أي أعياد الأعراب. وذلك لأن أعياد الأعراب لم تكن ثابتة، تحل في وقت معين وفي مواسم مثبتة، لذلك جوّزوا لهم البيع فيها. لأن أحكام التلمود تمنع اليهود من التعامل مع الغرباء في أيام أعيادهم اذا كانت تلك الأعياد أعياداً دينية.

ولما كانت الشريعة اليهودية لا تعتبر العيد عيداً مقدساً دينياً إلا اذا كان يقع في أوقات ثابتة معينة لا تتغير ولا تتبدل في التقويم، لذلك أفتى الأحبار بعدم اعتبار أعياد الأعراب أعياداً دينية، وأباحوا لأهل المدينة التعامل مع المعيّدين في أيام أعيادهم.

وإلاّ فما كان يحل لهم بيع الأعراب شيئاً في أيام تعييدهم. وقد باعوا لهم خمراً وحبوباً. أما بالنسبة الى أعياد الفرس والروم، فقد منع التلمود اليهود من التعامل مع الفرس أو الفرس فيها، لأنها أعياد ثابتة وقد نص على مواعيدها، وأشير اليها في التلمود، لذلك، طلب من اليهود الامتناع عن بيع الفرس والروم شيئاً في أعيادهم[٣].

ويذكر التلمود ان الأعراب (طيعه) (طيية) (طيايه)، المجاورين لموضع (صقونية) (Sikunya)، طلبوا من أهله وهم يهود أن يذبحوا لهم ذبائح في مقابل اعطائهم لحومها وجلودها، أما دمها فيجمع ويعطى للأعراب وذلك

---

١ Gratz, Geschichte der Juden, IV, 295.

٢ Obermeyer, S., 223.

٣ Obermeyer, S. 234.

لتقديمه لأربابهم . وكانت عادتهم تلطيخ أصنامهم بدم القرابين[١] .

وقد عرف الأعراب بـ (طيعه) في التلمود . أما السريان والموارد اليهودية الأخرى المدونة بالسريانية ، فقد أطلقوا وأطلقت على الأعراب لفظة (طييه) (طيايا) ، وذلك باسقاط حرف العين من الكلمة : (طييعه) والكلمتان من أصل واحد ، هو (طيء) اسم القبيلة العربية المعروفة . وقد كانت في أيام تدوين التلمود من أقوى وأشهر القبائل العربية ، حتى غلب اسمها سائر أسماء القبائل ، فأطلق على كل عربي كائن ما كان[٢] .

وأطلقت لفظة (عربايه) في كتاب من كتب التلمود ، على العرب المزارعين الذين استقروا على مقربة من (فومبديثة) . وذكر التلمود ان اولئك العرب المزارعين كانوا قد انتزعوا مزارع اليهود بما فيها من أبنية وأملاك ، وأقاموا بها ، ولهذا السبب ، فقد ذهب اليهود الى حبرهم وقاضيهم (ابيه) (Abaya) ، وطلبوا منه اعطاءهم وثائق تملك أخرى ، حتى يكون في إمكانهم مراجعة السلطات لاثبات ملكيتهم لأملاكهم التي انتزعت بالقوة منهم[٣] .

وقد نزح يهود من فلسطين الى الحجاز ، فسكنوا وادي القرى حتى نزلوا (يثرب) ، وذهب قسم منهم الى اليمن ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد .

---

١ Obermeyer, S. 234.

٢ Obermeyer, S. 233. ff.

٣ Baba Bathra, 168b, Obermeyer, S. 235.

فهرست

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

الجزء الثاني

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

٢

المفصّل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الثاني

○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل السابع عشر

العرب واليونان

أقدم من سُجّل اسمه من اليونان في سجل العلاقات العربية اليونانية هو (الاسكندر الكبير) (٣٥٦ — ٣٢٣ ق. م.) ، فبعد أن سيطر هذا الرجل الجبار الغريب الأطوار الذي توفي شاباً ، على أرضين واسعة، وأسس امبراطورية شاسعة الأرجاء ذات منافذ على البحر الأحمر والخليج العربي ، وبعد أن استولى على مصر والهلال الخصيب ، فكر في السيطرة على جزيرة العرب ، وفي جعلها جزءاً من امبراطوريته، ليتم له بذلك الوصول إلى سواحل المحيط الهندي ، والسيطرة على تجارة إفريقية وآسية ، وتحويل ذلك المحيط إلى بحر يوناني .

وقد شرح الكاتب (أريان) Flavius Arrianus المولود سنة (٩٥ ب. م.) والمتوفى سنة (١٧٥ ب. م.)[١] ، الأسباب التي حملت الاسكندر على التفكير في الاستيلاء على جزيرة العرب وعلى بحارها ، في الكتاب السابع من مؤلفه Anabasis Alexandri [٢] . فذكر أن هنالك من يزعم أن الاسكندر إنما جهز تلك الحملة البحرية ، لأن معظم القبائل العربية لم ترسل اليه رسلاً ، للترحيب به ولتكريمه ، فغاظه ذلك . أما (أريان) ، فانه يرى أن السبب الحقيقي الذي

١ Harvey, The Oxford Companion to Classical Literature, P., 51

٢ Arrien, History of Alexander and Indica, in 2 vol., Loeb Classical Library, 1946, Anabasis, Book, VII, 19, 5. XX, II. f.

حمل الاسكندر على إرسال هذه الحملـــة ، يكمن في رغبته في اكتساب أرضين جديدة [٣] .

وأورد (أريان) في كتابه قصة أخرى ، خلاصتها : ان العــرب كانوا يتعبدون لآلهين هما : (أورانوس) Uranus ، و (ديونيسوس) Dionysus ، وجميع الكواكب وخاصة الشمس . فلما سمع الاسكندر بذلك ، أراد أن يجعــل نفسه الإله الثالث للعرب[٢] . وذكــر أيضاً انــه سمــع ببخور بــلاد العرب وطيبها ، وحاصلاتها الثمينة ، وبسعة سواحلها التي لا تقل مساحتها كثيراً عن سواحل الهند ، وبالجزر الكثيرة المحدقة بها ، وبالمرافىء الكثيرة فيها التي يستطيع أسطوله أن يرسو فيها ، وببناء مدن يمكن أن تكون من المدن الغنيــة ، وسمع بأشياء أخرى ، فهاجت فيه هذه الأخبار الشوق إلى الاستيلاء عليها ، فسيّر اليها حملة بحرية للطواف بسواحلها إلى ملتقاها بخليج العقبة [٣] . وعندي ان التعليل الأخير هو التعليل المعقول الذي يستطيع أن يوضح لنا سر اهتمام (الاسكندر) بجزيرة العرب ، وتفكيره في إرسال بعثات استكشافيــة للبحث عن أفضل السبل المؤدية إلى الاستيلاء عليها . ولم يكن (الاسكندر الأكـبر) أول من فكر في ذلك ، فقد سبقه إلى هذه الفكرة حكام كان منطقهم في الاستيلاء على بلاد العرب وعلى غير بلاد العرب من أرضين ، هو سماعهم بغنى من يريدون الاستيلاء عليه ، فهو إما أن يتصادق معهم ، فيقدم ما عنده من ذهب وفضة وأحجار كريمة وأشياء ثمينة اليهم ويرضى بأن يكون تابعاً لهم ، وإما أن يمتنع فيكون عدواً ويتعرض للغزو والسلب والنهب والقتل والإبادة . بهـــذا المنطق كتب ملوك آشور إلى ملك (دلمون) وغير دلمون ، وبهذا المنطق كتب (أوغسطس قيصر) إلى ملوك اليمن فيما بعد .

أرسل الاسكندر بعثات استطلاعية تتسقط له المعلومات اللازمة لارسال أسطول كبير يستولي على سواحل الجزيرة ، يتجه من الخليج فيعقب سواحلها، ثم يدخل البحر الأحمر إلى خليج العقبة ، حيث ينفذ أسطوله إلى سواحل مصر . وقد هيأ الأسطول ، وجـــاء بأجزاء السفن وبالأخشاب اللازمة لبنائهـــا من (فينيقية)

---

١ Anabasis, VII, 19, ff.

٢ Anabasis, VII, XX, I, II.

٣ Anabasis, VII, II, ff.

Phoenicia (وقبرس) Cyprus ، واتخذ (بابل) قاعدة للاشراف على تنفذ هذه الخطة . وممن أرسلهم الإسكندر لاكتشاف الطريق، القائد البحري (أرشياس) (أرخياس) Archias ، وقد كلف السير في اتجاه السواحل ، فبلغ جزيرة سمّاها (أريان) (تيلوس) Tylus ، وهي (البحرين) ، ولم يتجاوزها ، والقائد (أندروستينيس) Androsthenes ، وقد بلغ مكاناً قصياً لم يصل اليه القائد (أرشياس) ، (وهيرون) Hieron ، وقد وصل مكاناً بعيداً لم يصل اليه القائدان المذكوران ، وكان قد كلف أن يطوف حول جزيرة العرب حتى (هيروبوليس) Heroopolis أي السويس . وقد عاد فأخبر الإسكندر بما حصل عليه من معلومات وبما يتطلبه المشروع من جهود[١] . ولم يذكر (أريان) المكان الذي بلغه (هيرون) ، ويظن (أرنولد ولسن) A. Wilson أنه لم يتجاوز موضع (ماكيته) Maketa وهو موضع (رأس الخيمة) ، أي (رأس مسندم) Ras Musandam كما يسميه الأوروبيون ، وهو (مونس اسبو) Mons Asabo عند (بلينيوس) ، أي (رؤوس الجبال[٢]) .

ويصف (أريان) جزيرة (تيلوس) Tylus ، بأنها جزيرة تبعد عن مصب نهر الفرات ، بمسيرة سفينة تجري مع الريح يوماً وليلة . وهي جزيرة واسعة وعرة ، لا يوجد بها شجر وافر ، غير أنها خصبة ويمكن غرسها بالأشجار المثمرة كما يمكن زرعها بنباتات أخرى . وذكر (أريان) ، أن مخبري (الإسكندر) كانوا قد أخبروه بوجود جزيرة أخرى غير بعيدة عن مصب نهر الفرات ، إذ لا تبعد عنه أكثر من (١٢٠) (استاديوناً) ، وهي صغيرة نوعاً ما ، غير أنها ذات شجر من كل نوع وبها معبد للإلـه (أرطميس) Artimus = Artemis يعيش الناس حول معبده وتمرح الحيوانات وتسرح دون أن يمسها أحد بسوء ، لأنها في حمى المعبد، فهي حرام على الناس وقد سمي هذه الجزيرة باسم (ايكاروس) Ikaros[٣] ، نسبة الى جزيرة (ايكاروس) من جزر البحر الايجي Aegaein Sea[٤] . ويظهر أن الإسكندر عرف الصعاب التي ستواجهه في اقدامه على اقتحام الجزيرة

---

١ Anabasis, VII, XX, 8.

٢ The Persian Gulf, P., 40, 43.

٣ The Persian Gulf, P., 40, 43, Anabasis, VII, XX; 8; Die Araber; IV; S.; 66. ff.

٤ Die Araber, IV, S., 66. ff.

من البر : من مقاومة القبائل ، وصعوبة قطع الفيافي ، وقلة المياه ، فعزم على تحقيق المشروع من البحر ، وكلف (هـيرون) Hieron متابعة السواحل ، ودراسة أحوال سكانها ومواضع المرافىء وأماكن المياه والمنابت ومواضع الشجر فيها ، وعادات العرب وأحوالهم ، لتكون جيوشه على بينة من أمرها ، إذا أقدم أسطوله على تحقيق هذا المشروع الخطير[١] .

وأعدّ (الإسكندر) كل ما يلزم اعداده ، غير أن موته المفاجىء ، وهو في مقتبل عمره ، ثم تنازع قواده وانقسامهم ، وما إلى ذلك من شؤون، صرف قوّاده عن التفكير فيه ، فأهمل ومات بموته مشروعه الخطير .

ويرى بعض الباحثين أن الاسكندر لم يكن يقصد فتح جزيرة العرب ، ولكن كان يرغب في الاستيلاء على بعض الموانىء والمواضع المهمة على ساحل الجزيرة وبذلك يكون قد أدرك الغايات التي قصدها من هذا الفتح[٢] .

ولما أراد الإسكندر احتلال (غزة) في طريقه إلى مصر ، قاومت المدينة ، ودافع عنها رجل سمّاه (أريان) (باتس) Betis = Baetis = Batis[٣]، مستعيناً بجيوش عربية قاومت مقاومة شديدة اضطرت الإسكندر إلى نصب آلات القتال، إلا أن العرب هاجموها لاحراقها ، كما هاجموا المقدونيين الذين كانوا متحصنين في مراكز القيادة وراء تلك العُدَد[٤] . وقد اضطر المقدونيون إلى مغادرة مواضعهم هذه إلى أماكن جديدة ، وكادوا ينهزمون هزيمة منكرة لو لم يـأتهم الإسكندر بمساعدات قويـة في الوقت المناسب . وقد أصيب بجراح[٥] . وظلت تقاومه مدة خمسة شهور (٣٣٢ ق. م.) . ويذكر (هيرودوتس) أن المنطقة الواقعة من (غزة) إلى موضع Jenysus ، كانت مأهولة بالقبائل العربية المتصلة بطور سيناء منـذ القدم . وقد حكمها ملك عربي لم يذكر اسمه[٦] .

---

١ Anabasis, VII, XX, 10.

٢ Tarn, II, P. 394, U. Wilcken, Die Letzen Plaene Alexanders des Grossen; Berlin, 1937, S., 195.

٣ W. W. Tarn, Alexander the Great, Cambridge, 1948, Vol., 2, P.; 265; «Betis»; «Baetis»; Curtius Rufus, 4, 6, 7, 20, : 30, Die Araber; I; S.; 171.

٤ Arrian, Vol., I, P. 217, II. 23, 4.

٥ Arrian, I, P., 219.

٦ Herodotus, I, P., 212.

ويرى بعض الباحثين ان (باتيس) Batis هذا الذي وقف بوجه جيوش الاسكندر وقاومها هذه المقاومة العنيفة ، في حوالي سنة (٣٣٢ ق. م.)[١] ، كان رجلاً عربياً اسمه (باطش) ، أي الفاتك . ويستدلون على ذلك بورود اسم رجل في الكتابات النبطية ، هو (بطشو) ، أي (باطش)[٢] . وقد حرّف ذلك الاسم فصار Batis[٣] . وهم يرون ان غالبية سكان (غزة) كانت من العرب منذ زمن طويل قبل الميلاد . وانها كانت نهاية طرق القوافل البرية التجارية التي كان يسلكها التجار العرب القادمون من اليمن والحجاز ومن مواضع أخرى. ولا يعقل لذلك أن يكون حاكمها ايرانياً ، كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين. فرجحوا لذلك رأي من يقول ان (الباطش) Batis ، كان من العرب[٤] .

لقد كانت (غزة) المركز الرئيسي للتجار العرب على البحر المتوسط ، فاليه تنتهي التجارة العربية ، ومنه يتسوق التجار العرب البضائع التي ترد اليه من موانىء هذا البحر . ولما فتحت المدينة أبوابها لجيش الإسكندر بعد ذلك الحصار الشاق، وجد اليونان فيها مقادير كبيرة من المر واللبان وحاصلات العربية الجنوبية، فاستولوا عليها . فخسر التجار العرب بذلك خسارة فادحة[٥] .

ونجد في كتاب (تأريخ الإسكندر) لـ (كوينتس كورتيوس) Quintus Curtius ، خبراً يفيد ان (الإسكندر) أخذ من أرض العرب المنتجة للبخور كمية من البخور لاحراقها للآلهة تقرباً اليها . غير اننا لا نستطيع تصديق هذه الرواية ، لأن جيوش الإسكندر لم تتمكن من دخول جزيرة العرب ، ولم تصل إلى أرض البخور[٦] . إلا ان يكون حكامها قد أرسلوا البخور المذكور هدية اليه ، أو ضريبة من التجار العرب في مقابل السماح لهم ببيعه في الأسواق التي استولى عليها اليونان .

---

١ H. Berve, Das Alexanderreich auf Prospographischer Grundlage, 2 (1928), S., 105, Die Araber, I, S., 34, 173.

٢ Die Araber, I, S., 35.

٣ Curtius Rufus, 4, 6, 7, Die Araber, I, S.; 35.

٤ J. Cantineau, Le Nabatéen, 2, (1932), 70, R. Maécus, in : Josophos; Vol.; 6; 1937, P. 463 (Loeb), Tran. Alexander. 2; P. 266; Die Araber; I; S. 172.

٥ Diodorus, XVII, 48, 7, Strabo, XVI, 2; 30; Plutarch; Alexander; 25; 4; 26-27; Olmstead, History of the Persian Empire, P., 507, f.

٦ Quintus Curtius, I, P., 7,

وقد توسع مؤلف الكتاب المذكور في إطلاق لفظة العرب Arabum والعربية أي أرض العرب Arabia في أثناء حديثه عن العرب وعن أرضهم فأدخل في العرب جماعة ليسوا منهم مثل (بني إرم) . ولما تحدث عن فتح الإسكندر للبنان ، ذكر انه ذهب بعد ذلك إلى العربية ، أي أرض العرب وعنى بها البادية الواسعة التي تفصل بلاد الشام عن (ما بين النهرين) ، وكل الأرضين على ضفة الفرات الغربية [1] .

هذا ولا أظن ان انساناً يقول ان (الإسكندر) المذكور كان قد حصل على علمه بثراء العرب وبنفاسة ما يبيعونه في أسواق البحر المتوسط من تجارات عن طريق الوحي والإلهام ، وبنباهة فكره ، إن علماً من هذا النوع لا يمكن أن يحصل عليه إنسان إلا من علم الماضين ومن علم السياح والتجار بصورة خاصة لأنهم كانوا ولا زالوا منذ خلق الانسان يفتشون عن الأسواق وعن المنتجات ويتعارفون فيما بينهم على اختلاف ألوانهم وأديانهم للحصول على معارف تجارية تخولهم الحصول على ما يبتغون بأرخص الأسعار .

من هذه الموارد ولا شك حصل (الإسكندر) على علمه بأحوال الهند وبأحوال جزيرة العرب وبالأسواق التي كانوا يرتادونها . وعلمه هذا هو الذي حمله على أن يوجه حملته على بلاد العرب – على ما أرى – من البحر لا من البر ، لأنه أدرك أن حملة بحرية تمكنه من السيطرة على مفاتيح الجزيرة وعلى النقط الحساسة فيها بسهولة ويسر وبدون تكاليف باهظة ، وبذلك يقبض على خناقها ويقطع عنها إن تيسر له النجاح اتصالها بأسواق إفريقية والهند وما وراء الهند ، وهي الأسواق الرئيسية التي موّنت العرب بالثراء وبذلك يقطع عنهم موارد الثراء . أما من البرّ فقد كان على علم أكيد من خلال تجارب الماضين ومن علمه وعلم قواد جيشه بصعوبة الاستيلاء عليها من البرّ ومن الاحتفاظ بها أمداً طويلاً والمحافظة على طرق المواصلات الطويلة وإيصال المؤن إلى قواته ، لذلك لم يفكر في الاستيلاء عليها من البرّ . ثم إنّ ثراء سكان الجزيرة المشهور لم يكن من ثراء حاصلاتها وإنتاجها وإنما كان من أسواق إفريقية والهند في الغالب ، ولهذا رجّح خطة السيطرة على موانىء جزيرة العرب بوضع قوات بها على خطة السيطرة

---

[1] Quintus Curtius, I, P., 185.

على الجزيرة من البر ، وأغلب الجزيرة بحار من رمال . وبذلك وضع خطة سار عليها من جاء بعده من الغربيين حتى العصر الحديث باستثناء (أغسطس قيصر) الذي لاقت حملته البرية الفشل والهزيمة لأنها بنيت على جهل فاضح بحـال جزيرة العرب ، وبحقيقة صعوبة السيطرة عليها من البر .

وقـد ورد في بعض الموارد أن العرب قدموا الأسلحة والملابس إلى الجيش المقدوني[1] ، وأن الأسكندر تمكن من قهر العرب[2] . كما ذكر أن عربياً انقض على الإسكندر وفي يـده اليمنى سيف مسدد نحو رقبته ، قاصداً قتله في أثناء معركة حامية ، غير أن الإسكندر تجنب الضربة بسرعة فائقة فنجا . وكان هذا العربي في جيش (دارا) (داريوس) Darius [3] .

وذكر (كونيتوس كورتيوس) أن (الإسكندر) بعد أن سار مع مجرى نهر Pallacopas وصل إلى مكان أعجبه ، فأمر بإنشاء مدينة فيه ، أسكنهـا العجزة والمسنين من رجاله ، وذلك في أرض العرب[4] . وسوف يأتي الكلام على ذلك في أثناء الحديث عن (بلينيوس) وما عرفه من بلاد العرب .

وكان مما تحدث به المؤرخ المذكور عن حملة الإسكندر أن أحد قـواده كان قد تنكر في زي الأعراب وأخذ معه اثنين من العرب ليكونا دليلين في سيره ، ووضعا زوجتيهما وأطفالها لدى الملك الإسكندر ليكونوا رهائن عنده ، لئلا يصيب القائد أي سوء ومكروه . فلما وصل إلى الموضع الذي قصده ، وأبلغ رسالة الملك من أرسله اليه عاد ومعه الأعرابيان ، فأثابهما[5] .

ليست فتوحات الإسكندر التي قذفت بالاغريق والرومان إلى مساحات واسعة من آسية ، حدثاً سياسياً حسب،إنما هي فصل من فصول كتاب التأريخ البشري، نقرأ فيه أخبار التقاء العالمين الشرقي والغربي وجهاً لوجه على مساحات واسعـة من وجه هذه المسكونة . ونزعة الغرب في السيطرة على الشرق وتأثر الحضارات والثقافات بعضها ببعض . وحصول علماء اليونان والرومان على معارف مباشرة عن

---

١ Julius Valerius, II, 25, Arabien, S. 23.

٢ Livius, XLV, 9, Plinius, XII, 62, Arabien; S.; 23.

٣ Quintus Curtius, I, P., 219.

٤ Quintus Curtius, II, P., 513.

٥ Quintus Curtis, II, P. 137.

أحوال أم كانوا يسمعون أخبارها من أفواه التجار والسياح والملاحين فاذا وصلت اليهم كان عنصر الخيال فيها الذي يميل الى التفخيم والتجسيم قد انتهى من عمله وأدى واجبه . فصححت فتوحات الاسكندر هذه للهلال الخصيب ولمصر ، بعض تلك الأوهام ، وجاءت بعلماء من اليونان الى هذه البلاد ، ولا سيما مصر فأفادوا واستفادوا ، وصارت (الاسكندرية) بصورة خاصة ، وبعض مدن بلاد الشأم ، ملتقى الثقافات ، الثقافات الشرقية والثقافات الغربية ، ومركز الاتصال العقلي بين الغرب والشرق وبقيت الاسكندرية محافظة على مكانتها هذه حتى ظهور الإسلام .

وقد حملت فتوحات الإسكندر والحروب ، التي وقعت بين الروم والفرس إلى الشرق الأدنى ، دماً جديداً هو دم الإغريق ومن دخل في خدمة الإسكندر واليونان والرومان من الجنود والمتطوعة والمرتزقة من سواحل البحر المتوسط الشمالية وما صاقبها من أصقاع أوروبية . لقد بنى الإسكندر الأكبر مدينة Charax على ملتقى نهر (كارون) بدجلة [1] ، وأسكنها أتباعه وجنوده ومواطني المدينة الملكية، كما بنى مدناً أخرى ، وقد كان من المحبين المولعين ببناء المدن ، وبنى خلفاؤه مدناً جديدة في الشرق ، وكذلك من أخذ تراثهم من اليونان والرومان[2] . وحمل الفرس عدداً من أسرى الروم ، وأسكنوهم في ساحل الخليج وفي مواضع أخرى. وطبيعي أن تترك سكنى هؤلاء في الشرق أثراً ثقافياً في الأماكن التي أقاموا فيها وفي نفوس من جاورهم أدرك قيمته المؤرخون المعاصرون .

والمؤرخ (بلينيوس) ، هو أول من أشار إلى مدينة Charax ،هذه المدينة التي أنشأها الإسكندر ، في جملة المدن التي أنشأها في الشرق ، ويظن انها (المحمَّرة)[3] . بنيت هذه المدينة – كما يقول (بلينيوس) – في النهاية القصوى من الخليج العربي أي الخليج الذي يسمى اليوم باسم (خليج البصرة) أو (خليج فارس) كما يسميه (الكلاسيكيون) Sinus Persicus ، عند خط ابتداء العربية السعيدة Arabea Eudaemon أي جزيرة العرب ، ويقع نهر دجلة على يمينها . وقد دعيت (الاسكندرية) نسبة إلى الإسكندر . وقد خربت هذه المدينة مراراً من فيضان الأنهر وإغراقها لها ، ثم بناها (انطيوخس الرابع)

١ Charax Spasini.

٢ Pliny, Book, VI, 138, Vol., II, P.; 443; (H. Rackham);

٣ The Persian Gulf, P., 30, 49.

Antiochus Epiphanes IV (١٧٥ – ١٦٣ ق. م.) ودعيت باسمه،ثم تخربت أيضاً ، فرممها ، أعاد بناءهــا الملك (سباسينس) Hyspaosines/Spasines ملك العرب المجاورين ، وأنشأ لها سداً لحمايتها، وسماها باسمه . وقصدها التجار اليونان والعرب[١] .

وقد ذكر ان والد الملك (سباسينس) Spassiones/Hispaosines كان ملكاً يحكم العرب المجاورين لهذه المدينة . وقد عرف بـ Sagdodonacus . وهو اسم لم يتفق الباحثون على أصله[٢] . ولما وجد (سباسينس) ان الخراب قد حل بالمدينة المذكورة ، بنى لهــا سداً ، أنقذها من الغرق ، وأعاد بناءها فعرفت باسمه . ويظهر ان حكم هذا الملك كان في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد . ويرى بعضهــم انه حــكم بابــل و (سلوقية) Seleukeia في حوالي سنــة (١٢٧ ق. م.)[٣]،وانه كان يحكم مقاطعة Charax في حوالي سنة (١٣٠ ق. م.)[٤] أو (١٢٩) . وقد عثر على نقود ضربت باسمه[٥] . ويظهر ان حكم هذه المملكة الصغيرة بقي إلى أيام الملك (أردشير) الساساني ، حيث قضى عليها في حوالي سنة ٢٢٤ أو ٢٢٧ م[٦] .

وقد عرفت Charax, بـ Charakene ، وهــي (ميسان) Mesene[٧] . و Charax ، هي (كرخا) ، وعرفت أيضاً بـ (كرخ ميسان)[٨] .

وقد تحدث (سترابون) بشيء من الايجاز عن الساحل العربي المشرف على الخليج ، مستمداً له من (ايراتوستينس) على الأكــثر ، إذ استند إلى وصفه وأخباره . أما (ايراتوستينس) ، فقد جمع مادته من أقوال رجال عرفوا الخليج وعركوه ، وكانت لهم أيام فيه . منهم (نيرخس) Nearchus قائد الإسكندر

---

١ Gulf, P., 49.
٢ Die Araber, I, S., 279, 317.
٣ Araber, I, S., 321, A.R. Bellinger, Hyspaosines of Charax, in Yale Class. Stud., 8, (1942), 55.
٤ Araber, I, S., 327.
٥ Ency., III, P., 146.
٦ Nöldecke, Gesch. der Araber und Perser, Leiden, 1879, S. 13.
٧ Ency., III, P., 146.
٨ Ency., III, P., 146.

الشهير وأمير أسطوله ، و (أندروستينس) Androsthenes من أهل (ثاسوس) Thasos ، كان في صحبة القائد (نيرخس) ، ثم كلف قيادة الأسطول الذي أمر بالسير بمحاذاة ساحل الجزيرة للكشف عنه ، وللحصول على معارف جديدة عن بلاد العرب . ومنهم (أرسطوبولس) Aristobulus وكان أيضاً من رجال البحر ، و (أورثاغوراس) Orthagoras الذي كان من هذا الصنف كذلك[1].
وأخـذ (سترابون) من مورد آخر يرفـع سنده إلى (نيرخس) ، إلا أن (سترابون) لم يذكر رجال السند ، وإنما ذكر جملـة « قال نيرخس »[2] . فيجوز أن يكون هـذا المورد من وضع القائـد نفسه ، أو من وضع مرافقيه ، حكوا عنه ، أو من وضع أناس جاءوا بعدهم ، استندوا إلى روايات وأقوال مرجعها (نيرخس) . أخذ منه (سترابون) .

وقد اقتصر (سترابون) على ذكر (جرها) Gerrha و (تير) Tyre ، و (أرادوس) Aradus و (ماكه) Macae ، وهي مواضع تقع على ساحل العروض ، أي الساحل الشرقي لجزيرة العرب المطل على الخليج ،ولم يذكر أماكن أخرى غيرها تقع في هذه المنطقة[3] ، وفي ذلك دلالة على قلة علمه بأحوال ذلك الخليج .

أما (جرها) ، فمدينة تقع ، على حد قوله ، عـلى خليج عميق أسسهـا مهاجرون (كلدانيون) من أهل بابل[4] ، في أرض سبخة ، بنوا بيوتهم بحجارة من حجارة الملح ، ترش جدرانها بالماء عند ارتفاع درجات الحرارة لمنع قشورها من السقوط . وتقع على مسافة (٢٠٠) (اسطاديون) Stadia مـن البحر[5] . وهم يتاجرون بالطيب والمر والبخور ، تحملها قوافلهم التي تسلك الطرق البرية . ويذكر (أرسطوبولوس) Aristobulus أنهم ينقلون تجارتهم بالبحر إلى بابل ،

---

١ Strabo, III, P., 186, Book, XVI, III; 3-6.
٢ Strabo, III, P., 188, Book, XVI, 6; 7.
٣ Strabo, III, P., 186.
٤ « الكلدانيون » ، المسعـودي ، التنبيـه (ص ١ ، ٢ ، ٧ ، ٣١ ، ٥٠ ؛ ٥٦ ومواضـع أخـرى .
٥ « أسطاديون » ، Stadion ، استخدم علمـاء تقويـم البلـدان كلمـة « أسطاديون » في مقابل : Stadion و « الأسطاديون : مساحة أربـع مئة ذراع » ، البلدان (١ / ١٨) .

ثم إلى مدينة Thapascus ، ومنها يعاد نقلها بالطرق البرية الى مختلف الأنحاء[١] و (تباسكوس) Thapascus ، هي : الدير ، أو (الميادين) في رأي كثير من الباحثين[٢] .

وقد أشار إلى (جرها) كتـاب آخرون ، عاشوا بعد (ايراتوستينس) صاحب خبر هذه المدينة المدوّن في جغرافية (سترابون) . أشار اليهـا مثلاً (بوليبيوس) Polybius (٢٠٤ – ١٢٢ ق. م.)[٣] ، و (أغـاثرسيدس) المتوفى سنة (١٤٥) أو (١٢٠ ق. م.)[٤] ، و (أرتميدورس) Artemidorus من أهل مدينة (أفسوس) Ephesus (حوالي ١٠٠ ق. م.)[٥] ، و (بلينيوس). وخلاصة ما أوردوه عنها أن المدينة كانت مركزاً من المراكز التجارية الخطيرة ، وسوقاً من الأسواق المهمة في بلاد العرب ، وملتقى طرق تلتقي في القوافل الواردة من العربية الجنوبية والواردة من الحجاز والشأم والعراق ، كما أنها كانت سوقاً من أسواق التجارة البحرية تستقبل تجارة إفريقية والهند والعربية الجنوبية ، وتعيد تصديرها إلى مختلف الأسواق بطريق القوافل البرية حيث ترسل من طريق(حائل) - (تيماء) إلى موانىء البحر المتوسط ومصر ، أو من الطريق البري إلى العراق ومنه إلى الشأم[٦] . وقد ترسل في السفن إلى (سلوقية) Seleucia ، أو بابل فـ Thapascus ومنها بالبر إلى موانىء البحر المتوسط . وما بي حاجة إلى أن أقول إنها كانت تستقبل تجارات البحر المتوسط والعراق والأسواق الـتي تعاملت معها ، لتتوسط في اصدارها إلى العربية الجنوبية وإفريقية والهند ، وربما إلى ما وراء الهند من عالم ينتج ويستهلك. فهي سوق وساطة ، والوسيط يصدر ويستورد وبعمله هذا يكتنز الثروة والمال .

وذكر القدماء أن الجرهائيين تاجروا مع حضرموت ، فوصلت قوافلهم اليهـا في أربعين يوماً[٧] . وكانت تعود وهي محملة بحاصلات العربية الجنوبية، وحاصلات

---

١ Strabo, III, P. 186, Book, XVI, III; 3-4; Dillman; Haute Mesop.; 131.

٢ Gulf, P., 30, Deserta, P., 515, Strabo; III; P.; 187.

٣ Gulf, P., 46.

٤ Skizze, II, S., 10.

٥ Gulf, P., 46.

٦ Cornwall, Ancient Arabia, in Geographical Journal, CVII, 142, Febr., 1946; P., 30, Dussaud, La Pénétration des Arabes en Syrie, 13, 25.

٧ Gulf, P., 45, Strabo, III, P., 191; Book; XVI; IV; 4.

إفريقية المرسلة بواسطتها وهي بضاعة نافقة ذات أثمان عالية في الأسواق التجارية لذلك العهد . وتاجروا مع النبط بإرسال قوافلهم التي قطعت الفيافي مارة بمواضع الماء والآبار الى (دومة الجندل) Dumatha ، ومنها إلى (بطرا) عاصمة النبط . والنبط هم مثل بقيـة العرب تجار ماهرون نشيطون . فإذا وصل تجار (جرها) إلى أرض النبط باعوا ما عندهم للنبط واشتروا منهم ما يحتاجون اليه من حاصل بلاد الشأم والبحر المتوسط . أما التجار الذين يريدون أسواقاً أخرى غير أسواق النبط ، فكـانوا يتجهون نحو الشمال ، فيدخلون فلسطين قاصدين (غزة) ، أو يتجهون وجهة أخرى هي وجهة بصرى وبقية بلاد الشأم . وقد اكتسبت (جرها) شهرة بعيدة في عالم التجارة في ذلك الزمان ، بسبب مركزها التجاري الممتاز ، وذاع خبر ثراء أهلها وغناهم ، حتى زعم أنهم كانوا يكنزون الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وأنهم اتخذوا من الذهب آنية وكؤوساً وأثاثاً، وجعلوا سقوف بيوتهم وأبواب غرفهم به وبالأحجار النفيسة الغالية ، وغير ذلك مما يسيل له لعاب الجائعين إلى المال[1] . وهذا الصيد البعيد ، هو الذي أثار الطمع في نفس الملك (انطيوخس الثالث) Antiochus III[2] ، فجعله يقود أسطوله في عام (٢٠٥ ق. م.) ، للاستيلاء على المدينة الغنية الكانزة للذهب والفضة واللؤلؤ وكل حجر كريم ، وإذلال القبائل المجاورة لها ، وإلحاقها بحكومتـه . فإما أن تذعن وتستسلم بغير قتال ، وتقدم ما عندها هدية طيبة اليه ، وإما القتل والنهب ودك المدينة دكّاً .

وتقول الرواية التي تتحدث عن طمع هذا الملك وجشعه للمال إن المدينة المسالمة التاجرة ، أرسلت رسولاً الى الملك يحمل رجاءها اليه ألا يحرمها نعمتين عظيمتين أنعمتها الآلهة عليهم : نعمة السلام ، ونعمة الحرية . وهما من أعظم نعم الآلهة على الانسان . فرضي من حملته هـذه بالرجوع بجزية كبيرة من فضة وأحجار كريمة ، فأبحر الى جزيرة (تيلوس) ،ومنها الى (سلوقية) (٢٠٥–٢٠٤ ق. م.)[3] . وهكذا اشترت المدينة سلمها وحريتها من هذا الطامع بالمال،وصدق أهل المدينة إن كانت الرواية صادقة ، فالسلم والحرية من أعظم نعم الله على الانسان[4] .

١ Polybios, II, 39, II.f.

٢ Gulf, P., 46. « أنطيخس » ، الطبري (١ / ٧٩٠) « طبعة ليدن » .

٣ Gulf, P., 46, Polybius, Book, 13, 9; Die Araber; II; S.; 74.

٤ Polybios, 13, 9, 4-5.

وفي رواية ان الملك المذكور لما عاد من حملته على الهند اتجه نحو الغرب ، أي السواحل الشرقية لجزيرة العرب ؛ ساحل العروض . فنزل في أرض دعتها (خطينة) Chattenia . وهي أرض من (جرها) . وعندئذ أرسل الجرهائيون رسلاً اليه يفاوضونه على الصلح على نحو ما ذكرت ، فوافق على أن يدفعوا اليه في كل سنة جزية من فضة ولبان وزيت مصنوع من البخور[١] .

ويظهر من هذه الرواية ان مجيء الملك إلى أرض الجرهائيين، كان من الهند ، وكان قد رجع بعد أن قاد جيشه اليها، وانه نزل فيساحل عرف باسم Chattenia وهو الخط .

يتبين من وصف (سترابون) للحجارة التي بنيت بها المدينة على زعمه ومن ادعاء (بلينيوس) ، ان أبراج المدينة وسورها قد بنيت بقطع مربعة من صخور الملح[٢] . يتبين من ذلك انها بنيت في أرض سبخة ، وان هذا السبخ هو الـــذي أوحى إلى مخيلة (الكلاسيكيين) ابتداع قصة حجر الملـــح الذي بنيت به دور المدينة وسورها . وفي التأريـــخ قصص من هذا القبيل عن قصور ومدن شيدت بحجارة من معدن الملح .

يظن ان Gerra أو Garraei أو Gerrei على حسب اختلاف القراءات ، ، وهو موضع ذكره (بطلميوس) ، ، هو هذه المدينة (جرها)[٣] . وذكر (بلينيوس) انها تقع على خليـــج يسمى باسمها Sinus Gerraicus[٤] ، ويبلـــغ محيطها خمسة أميال[٥] (خمسة آلاف خطوة)[٦] . وعلى مسافة خمسين ميـــلاً من الساحل ، (أي خمسين الف خطوة) ، تقع منطقة تدعى (أتنه) Attene ، وفي مقابل مدينة (جرها) من جهة البحر وعلى مسافة خمسين ميلاً تقع جزيرة (تيلوس) Tylos المشهورة باللؤلؤ . والمدينة التي ذكرها (بلينيوس) هي المدينة التي قصدها (سترابون) .

---

١ Pliny, 6, 148, J. Pirenne, Le Royaume Sud-Arabe de Qataban et sa Datation, (1961), 169; Araber, I, S., III.

٢ Pliny, II, 448.f.

٣ Forster, II, P., 209, 217.

٤ Pliny, II, P., 449, Book, VI, 147.

٥ بالأميال في الترجمة الانكليزية لكتاب « بلينيوس » ، راجع : Pliny, II, P., 449, Book., VI, 147; Gulf; P.; 51.

٦ بالخطوات في الترجمة الالمانية ، راجع Skizze, II, S., 74.

وبعد ، فـ (جرها) إذن ، مدينة تقع في العربية الشرقية على ساحل الخليج على مسافة منه ، أو عليه مباشرة . وقد رأى (شبرنكر) انها (العقير)[١] ، وتدعى (العجير) في لهجة الناس هناك[٢] . ويرى هذا الرأي (فلبي)[٣] وطائفة من الباحثين . ومنهم من رأى انها (القطيف)[٤] ، أو الخرائب المعروفة باسم (أبو زهمول) مع (العقير) ، وتكون هذه الخرائب الطرف النائي من (جرها) الذي يكوّن الميناء[٥] ، ودعاها بعضهم (الجرعاء)[٦] . وظن آخرون انها (سلوى) الواقعة على ساحل البحر[٧] .

ومن رجّح (الجرعاء) رأى انها في لفظها قريبة جداً من (جرها) (جرهاء)، وموضعها قريب منها . ولسبب آخر ، هو ورود اسم Thaimon/Thaemae مع Gerraei عند (بطلميوس) ، و Thaemae هو (تميم) في نظر الباحثين . وقد اقترن أسم (الجرعاء) بتميم . فقد ذكر (الهمداني) (الجرعاء) ، فقال: « ثم ترجع إلى البحرين فالأحساء منازل ودور لبني تميم ثم لسعد من بني تميم ، وكان سوقها على كثيب يسمى الجرعاء تتبايع عليه العرب »[٨]. وقد كانت (جرها) سوقاً تتبايع فيه الناس . ويرى (كلاسر) ان Gerrha/Gerra ليست (العقير) أو الجرعاء ، وإنما هي موضع يقع في الطرف الجنوبي الغربي من خليج (القطن)[٩] .

ويظهر أن (جرهاء) كانت قد بلغت أوجها في هذا العهد ، وقد بقيت على ذلك مدة . غير أننا لا ندري إلى متى بقيت على هذه الحال . والظاهر أن مدناً أخرى أخذت تنافسها ، مثل مدينة Charax ، فأثرت هذه المنافسة فيها ، وذلك بتحول الطرق البحرية عنها ، وتحسن وضع صناعة السفن مما أدى إلى

---

١ « العقير : تصغير العقر ... قرية على شاطىء البحر بحذاء هجر » ، البلدان (٦ / ١٩٨) ، Sprenger, Geographie, S., 135.

٢ Chessman, In Unknown Arabia, P. 28.

٣ The Empty Quarter, P., 3, Araber, I, S., 112.

٤ Forster, II, P., 216.

٥ Cheesman, P., 28.

٦ Skizze, II, S., 75.

٧ Geographical Journal, CVII, 142, Febr., 1946. P., 32.

٨ الصفة (ص ١٧٣) .

٩ Glaser, Skizze, II, S., 76.

تمكنها من قطع مسافات واسعة من غير حاجة الى التوقف في موانيء كثيرة فلم تعد تقف في موانيء الجرهائيين أو أن الجرهائيين لم يتمكنوا بذلك من مزاحمة السفن الأخرى فأخذ نجمها في الأفول بالتدريج . ولعل لتحول طرق القوافل البرية دخلاً في ذلك أيضاً . فقد كانت الطرق البرية تتحول دوماً ، لعوامل سياسية واقتصادية وعسكرية ، وبتحسن وسائل المواصلات ، فيؤدي هذا التحول إلى اندثار مدن وظهور مدن ، ولا نزال نرى أثر هذا التحول في حياة قرى جزيرة العرب .

وأما جزيرة Tyre/Tyrus ، التي أشار (سترابو) اليها ، فإنها جزيرة (تيلوس) Tylus/Tylos ، التي ذكرها (بلينيوس)[١] . ويلاحظ وجود شبه بين (تيلوس) Tylus و (تلمون) أو (دلمون) الواردة في النصوص الآشورية ، يحملنا على التفكير بوجود صلة بين الاسمين[٢] . وقد أشرت إلى ذهاب الباحثين إلى أن (تيروس) Tyrus هي جزيرة من جزر البحرين . أما (كلاسر) فيرى أنها ليست من جزر البحرين ، ولكنها جزيرة أخرى تدعى (دلمة) أو (بليجرد) ، وقد رجح هذه الجزيرة على الأولى ، لأن موقعها أقرب في نظره إلى المسافات التي أشار اليها (سترابون) من (دلمة) ، ومن جزر البحرين . وقد ذهب (فورستر) إلى أن (تيروس) Tyrus ، هي (أوال) . وأما Aradus ، فإنها (أرد) (أراد) ، أي جزيرة (المحرق) من جزر البحرين. وقد تكون لتسمية (خليج عراد) بهذا الاسم علاقة بلفظة (أرد) (عرد) القديمة[٣] .

ولم يعثر المنقبون حتى الآن على كتابات يونانية تشير إلى مدة حكم قواد الإسكندر للبحرين ولكنهم عثروا على فخار يوناني يعود عهده إلى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، وعلى فخار محلي مصنوع في البحرين عليه أسماء يونانية، وفي ذلك دلالة على سكن اليونان في البحرين لأغراض سياسية أو حربية أو تجارية . قد يكون ذلك منذ عهد الإسكندر فيما بعد إلى انتهاء ملك خلفائه (السلوقيين)،

---

١ Pliny, II, P., 449.

٢ Gulf, P., 5,26; 27; Ency., I, P., 584; P.B. Cornwall; on the Location of Dilmun; Boas, No. 103, 1946.

٣ Forster, II, P., 219, 221, Gulf, P.; 31.

وقد يكون من عهد السلوقيين فما بعد حتى أيام (البارثيين) Parthians .

وأما موضع Macae المقابل لـ (هرموزي) (هرمز) Harmozi. فيعرف أيضاً باسم Maketa/Maceta[1]، وهو مضيق Make لدى (بطلميوس)[2] ،وهو (رأس الخيمة) الرأس البارز في مضيق (هرمز) Harmozi ، وربما الرأس وكل شبه الجزيرة المتصل بها . ويعرف هذا الرأس عند الغربيين باسم (رأس مسندم) Ras Musandam . وهو موضع يظهر أنه أحد المواضع الواردة في كتابة (دارا) التي تشير الى الأماكن التي كانت خاضعة لحكمه[3] . ونجد شبهاً في النطق بين Maka/Make/Macae و (مجان) (مكان) يحملنا على تصور أن الاسمين هما لشيء وحد ، وأن الاختلاف الذي نجده بين التسميتين هو من التحريف الذي يقع في النقل من لغة إلى لغة أخرى . وإذا صح هذا التصور كانت أرض (مكان) (مجان) ، في هذه البقعة من جزيرة العرب .

لقد قام تجار الخليج بالتوسط في نقل البضائع من الهند وافريقية إلى العراق ، يوصلونها إلى موانىء العراق أو إلى موانىء الخليج ، ثم تنقل إما بالطرق المائية إلى ايران والعراق وإما بالطرق البرية . فقد تنقل التجارة إلى مدينة (كاركس) (خاراكس) Charax ، وهي (المحمرة) في الزمان الحاضر، ثم توزع منها إلى مختلف الأنحاء ، وإما إلى ميناء (أبولوكس) Apologus ، ومنه بالنهر إلى الأمكنة المقصودة مثل (سلوقية) على دجلة مقابل (طيسفون) ، أي (المدائن) ، الموضع المعروف اليوم بـ (سلمان بك) ، وكانت عاصمة (السلوقيين) آنذاك ؛ أو إلى مواضع على نهر الفرات ، حيث تنقل منها براً إلى بلاد الشأم .

و (أبولوكس) Apologus هي (اوبولم) Ubulum في الكتابات الأكادية. وقد ورد في نص أيام الملك (تغلت فلاسر) الثالث اسم قبيلة U-bu-lu ، كما ورد هذا الاسم على هذه الصورة : U-bu-lum في جملة أسماء القبائل التي انتصر عليها (سرجون الثاني) . ويرى (كلاسر) صلة بين Apologus و(أبلة) ،

---

١ Strabo, III, P., 166, Gulf, P., 40.

٢ Skizze, II, S., 249.

٣ Skizze, II, S., 249.

واسم هذه القبيلة التي تقع مواطنها على رأيه في جنوب العراق[1] .

وقد ذكر صاحب كتاب (الطواف حول البحر الأريتري)[2] أن مدينة (أبولوكس) ، هي في (بارثيا) ، أي في بلاد (الفرث) ، وأنها تصدر اللؤلؤ والتمر والذهب ومواد أخرى إلى العربية السعيدة ، وكانت تستورد بضاعة ثمينة منها كذلك ، منها بضاعة من العربية الجنوبية، ومنها بضاعة إفريقية الأصل، كما كانت تتجر مع الهند ، فهي (ميناء البصرة) بالنسبة إلى العراق في هذا اليوم .

وفي الحرب الرابعة التي قام بها (أنطيوخس الثالث) Antiochus III (٢١٩ – ٢١٧ ق. م.) اشترك في جيوشه زهاء (٢١٨) قبيلة عربية[3] . وفي الأردن هاجم العرب مدينة (ربة عمان) (فيلادلفيا) ، ونهبوها[4] . وفي ابتداء سنة (٢١٧ ق. م.) كان في جيش هذا الملك زهاء عشرة آلاف عربي بإمرة (زبديديلوس) (زبدايل) Zabdidelos . وهو اسم يظهر أن صاحبه كان عربياً ، إذ هو (زبدايل) على ما يظهر ، حرّف فصار على هذا النحو. وقد اشترك العرب مع هذا الملك في حصاره لمدينة (غزة)[5] كما اشتركوا معه في حربه الخامسة التي أججها في بلاد الشأم ، حيث أشير اليهم أيضاً في معركة Magnesia[6] .

وقد ذهبت Pirenne إلى أن الكتابة المعينية التي أمر بكتابتها كبير (مصران) (كبر مصرن) و (معين مصران) وسمها العلماء بـ Res 3022 ، هي كتابة تشير إلى هذه الحروب التي نشبت بين (أنطيوخس الثالث) وخصومه البطالمة ، وأدت الى احتلال (غزة) سنة (٢١٧ ق. م.) . وترى من دراسة الكتابة المذكورة أنها تعود الى ما بين سنة (٢٢٠ ق. م.) و (٢٠٥ ق.م.) ، وأن لفظة (مذى) التي تعني (الماذين) (الميديين) ، هي كناية عن السلوقيين الذين احتلوا بلاد (الميديين) وورثوا ملكهم منذ عهد الإسكندر[7] .

---

١ Skizze, II, S., 188, Gulf, P., 53.

٢ Periplus Maris Erythrael, The Periplus of the Erythrean Sea.

٣ Polyb.. 5,70, Araber, I, S.; 74, 289.

٤ Polyb., 5, 71.

٥ Araber, I, S., 74.

٦ Araber, I, S., 77, 171

٧ Pirrenne, Paléographie des Inscriptions Sud-Arabes (1956), 211. Araber I., S., 74.

وورد في الأخبار ان فرقة من العرب من ركبان الإبل ، كانت في جيش (أنطيوخس) وذلك في حوالي السنة (١٩٠ ق. م.)[١] . ويظهر انها كانت تقوم بحماية حدود الدولة السلوقية وحفظها من غزو الأعراب لها ، وبالحرب في الصحراء ومساعدة الجيش السلوقي في البادية عند اضطراره إلى اجتيازها .

هذا ويلاحظ ان معظم القبائل كانت قد أبدت (أنطيوخس) ضد (بطلميوس) والبطالمة الذين ورثوا القسم الغربي من تركة (الإسكندر)[٢] . ولعل سبب ذلك هو ان ملك (أنطيوخس) لم يكن قد مس أرض العرب والأعراب ، ولذلك لم يكن له إشراف مباشر عليهم يستوجب اثارتهم . أما البطالمة، فقد كانوا يمتلكون أرضين ، أصحابها عرب ، وتعيش في أرضهم قبائل عربية من قديم الزمان ، ولذلك لم تستطع هضم (البطالمة) فأرادت التخلص منهم بالانضمام إلى منافسيهم في الجزء الشرقي من امبراطورية (الإسكندر) .

ويحدثنا الكتّاب (الكلاسيكيون) ان (بطلميوس ساطر)[٣] (٣٢٢ – ٢٨٣ق. م.) أرسل جيشاً إلى (سلوقس نيقاطور) (٣١٢ – ٢٨٠ ق. م.) فخـرج من مصر واجتاز (سيناء) إلى غزة ، ومنها إلى (بطرا) ، فركب الجمال، وتمون بالماء ، واجتاز البادية ، فكان يقطعها بسرعة كبيرة ليلاً ، لشدة الحـرارة في النهار ، إلى أن بلغ العراق[٤] . أما البادية التي اجتازها هذا الجيش ، فهي بادية السماوة . وأما الطريق التي سلكها فهي الطريق المألوفة التي تسلكها القوافل، وهي من أهم الطرق الموصلة إلى العراق وأقصرها ، وقد أرسل (سلوقس نيقاطور) Seleucus Nicator (ميكستينس) Magastenes إلى الهند[٥] .

وكان (بطالمة) مصر أنشط من السلوقيين في مجال الاشتغال بالتجارة البحرية الجنوبية ، والاستفادة من البحر،إذ وجهوا أنظارهم نحو البحار الجنوبية، فأرسلوا بعثات استكشافية عدة لدراسة أحوال البحار والسواحل والشعوب، لتطبيق ما تتوصل اليه من معارف في مقاصدها العملية التي أرادت تنفيذها في تلك البحار . ولعل

---

١ Livius, XXXVII, 40, 12, Grohmann, Arabian, S.; 23.
٢ Polybius, V, 71, Arabien, S., 23.
٣ « بطليموس ساطر » ، الطبري (١ / ٧٠٣) « ليدن » .
٤ Hegaz, P., 216.
٥ Montgomery P., 72.

لوضع مصر الجغرافي الممتاز الذي يكوّن قنطرة بين البحرين وسوقاً تلتقي به التجارات الآتية من الشمال ومن الجنوب ، من أوروبة وحوض البحر المتوسط ومن السودان والحبشة وبقية أنحاء إفريقية ثم من جزيرة العرب والهند دخلاً في هذا الاهتمام بالبحر الأحمر وبالمحيط الهندي الذي أظهرته حكومة البطالمة ، فقد سبقهم اليه قدماء المصريين ثم الفرس ثم الإسكندر ، فاهتمامهم هذا هو في الواقع استمرار لتنفيذ تلك المقاصد القديمة المذكورة .

وأمر (بطلميوس الثاني فيلادلفوس) (٢٨٥ — ٢٤٦ ق.م.) (٢٨٤ — ٢٤٧ ق م.) ، بإعادة حفر القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر، (المشروع) الذي بدأ به المصريون لربط البحرين وبتوسيع التجارة مع سواحل إفريقية وسواحل جزيرة العرب والهند ، وبتكثير الأصناف التي كانت تستورد من المناطق الحارة، وبذلك اتخذت تجارة مصر والبلاد العربية وإفريقية شكلاً لم تعهده من قبل[١] .

وذكر (ديودورس) أن آخر محاولة جرت لوصل البحر الأحمر بالنيل كانت في أيام (بطلميوس الثاني فيلادلفوس) حيث عزم على شق قناة منه الى خليج السويس عند مدينة (أرسينو) Arsino . وقد أطلق على القناة التي أمر بشقها اسم (قناة بطلميوس)[٢] . وقد شقت في حوالي سنة (٢٦٩ ق. م.) ، كما حصنت المدينة بسور حصين لحمايتها من الغارات.وقد قصد بذلك غارات الأعراب الذين كانوا في الأرضين منذ أمد طويل[٣] . ولعلّ هذا الملك هو الذي أرسل (أرستون) (أرسطون) Ariston للكشف عن سواحل البحر الأحمر من السويس إلى المحيط الهندي[٤] ، ولعله أيضاً الملك الذي ساعد أهل (مليتيوس) ، وهم يونان، أسسوا مستعمرة Ampelone/Ampelonaea في مكان ما من الساحل العربي للبحر الأحمر وأمدهم برعايته . وهي مستعمرة أشار اليها الكتبة (الكلاسيكيون) . والظاهر أنها واحدة من مستعمرات مشابهة ، أسسها الروم على سواحل البحر الأحمر ، لحماية سفنهم وتجارهم وامدادها بما تحتاج اليه من معاونة ومساعدة ولشراء ما يرد اليهم من بر جزيرة العرب .

---

١ O'Leary. P. 71. S.A. Huzayyin, Arabia and the Far East, P. 86.
٢ Booth, P., 16.
٣ Araber, I, S., 72.
٤ Araber, I, S. 67, Tran, in : Journal of Egypt. Archeol., 15; (1929); 14.

وقد عاد (أرسطون) من أسفاره البحرية ، فقدم تقريراً إلى ملكه ذكر فيه قوم (ثمود) في جملة من ذكرهم من الشعوب ولعله أول إغريقي ذكرهم .

وفي أيام (بطلميوس فيلادلفوس) كذلك ، أسست موانىء جديدة على سواحل البحر الأحمر ، لرسو السفن فيها ، وللمحافظة على الطرق البحرية من لصوص البحر ، بلغت مداها جزيرة (سقطرى) Dioscorida [1] ، حيث أنشئت فيها جملة مستعمرات يونانية . وقد بقي اليونانيون فيها عصوراً غير ان نزولهم فيها لا يدل على احتلالهم لها [2] . وفي أيام صاحب كتاب « الطواف حول البحر الأريتري »[3] كانت الجزيرة على حد قول المؤلف في حكم (البعزوز) Eleazus ملك (سباتا) Sabbatha ، أي (شبوة) . ويدل هذا على انها كانت تابعة للعربية الجنوبية . ويظهر ان (بطلميوس فيلادلفوس) قصد أيضاً الالتفاف حول السواحل العربية وضرب الفرس وإلحاق الأذى بهم،بأسطول كوّنه لهذه الغاية [4] .

وقد كانت جزيرة (سقطرى) (سقطرة)[5] ذات أهمية في ذلك العهد ، وإن فقدت أهميتها في الزمن الحاضر فلا يعرفها ولا يذهب اليها اليوم إلا القليل . وذلك لأنها كانت تنتج حاصلات لها أهمية كبيرة في أسواق العالم إذ ذاك مثل البخور والصبر والصمغ وغير ذلك ، وهي سلع لها قيمة ، تشبه قيمة البترول في القرن العشرين ثم لأنها محطة مهمة لاستراحة رجال السفن ومفتاح يؤدي إلى مغالق المحيط الهندي من جميع النواحي ، ولما كانت السفن في ذلك العهد صغيرة ، سيّرها الرياح ، وليس في مقدورها أن تحمل مقادير كبيرة من الماء العذب والأكل ، كان لا بد لها من الوقوف في منازل عديدة ، ومنها هذه الجزيرة ، التي يعني اسمها (جزيرة السعادة) ، إذ يذكر الباحثون ان تسميتها جاءتها من السنسكريتية (دفيبا سوختترا) Dvipa Sukhatara وهي تسمية إن صح انها من هذا الأصل ، فانها تدل على صلة أهل الهند بها منذ عهد قديم[6] .

---

١ Dioscordia, Dioscorides, Dioscurias, Dioscora, William Vincent, The Periplus of the Erythrean Sea, Part the Second, London, 1805, P., 307.

٢ O'Leary, P. 72, Vincent, II, P. 309.

٣ Periplus of the Erythream Sea.

٤ Vincent, II, P. 309, O'Leary, P. 72.
Stuhlmann, Der Kampf. S., 10.

٥ مروج الذهب (١ / ٣٣٥) .

٦ H. F. Tozer, A History of Ancient Geography, Camebridge, 1935, P. 138.

وأهلها خليط من عرب وروم وإفريقيين وهنود ، يتكلمون بلهجات متداخلة ، وهذا الاختلاط نفسه أمارة على الأهمية التي كانت للجزيرة في ذلك الزمن. وقد ذكر (ياقوت الحموي) ان أكثر أهلها نصارى عرب ، وان اليونانيين الذين فيهـــا يحافظون على أنسابهم محافظة شديدة وقد وصلوا اليها في أيام الإسكندر ، ويزعم بعض الأخباريين ان (كسرى) هو الذي نقل اليونانيين اليها ، ثم نزل معهم جمع من (مهرة) فساكنوهم وتنصر معهم بعضهم[1] . وفي الروايات العربية عن الروم الذين بجزيرة (سقطرى) شيء من الصحة .

والذين يزورون هذه الجزيرة في هذه الأيام ، يرون آثـــار ذلك الاختلاط وتشابك الشعوب والثقافات فما زالت الآثار النصرانيـــة باقية فيها ، تتحدث عن انتشار النصرانية فيها ، وعن وجود جالية رومية ، أنساها الزمن أصلها فدخلت في أهل (سقطرى) ، وأخذت لساناً جديداً مزيجاً من ألسنة آرية وسامية وحامية. ولا يزال كثير من أهلها يسكنون الكهوف والمغاور ويعيشون عيشة بدائية،لانعزال الجزيرة عن بقية العالم .

لقد صرف البطالسة مجهوداً كبيراً في سبيل السيطرة على البحر الأحمر والتوسع في المحيط الهندي ، وقد تابع البطالسة الذين خلفوا (بطلميوس الثاني فيلادلفوس) خطته في التوسع في السواحل الافريقية وفي المحيط الهنـــدي ، وأخذوا يرسلون الرجال المغامرين إلى تلك الأماكن للكشف عنها بغية الوقوف على أحوالها والاستفادة مما يحصلون عليه في سياسة التوسع التجاري والسياسي التي وضعوها للبلاد التي تقع في المناطق الحارة . وقد جمعت التقارير وكانت مهمـــة ولا شك ، ووضعت في خزائن الاسكندرية ، وقد وقف على بعضها الكتبة (الكلاسيكيون) .

وقد أخرجت أيام البطالمة جماعة من المغامرين الإغريق جـــابوا البحر الأحمر وسواحله ، ودخلوا بسفنهم المحيط الهنـــدي حتى بلغوا الهند[2] . غير أن تجارة الهند ، والبحار ، بقيت في الجملة في أيدي العرب . ولم يحاول البطالمة تغيير الوضع وتبديل الحال . وقد انحصرت كل محاولتهم في توجيه التجارة من الموانىء

---

١ البلدان (٥ / ٩٣) ، ويذكر المسعودي أن « أرسطوطاليس » ، هو الذي كتب الى الاسكندر حين سار الى الشرق يوصيه بهذه الجزيرة ، وكان يحكمها ملـــوك الهند ، فنزل اليونانيون بها ، وأقاموا بها ، وتنصروا بعد ذلـــك ، وذكر أن بوارج الهند تأتي اليها في أيامه ، مروج الذهب (١ / ٣٢٥ وما بعدها) .

٢ Strabo, 15, 1, 4, O'Leary, P. 73.

العربية إلى سواحل مصر. لقد كان بحارة العربية الجنوبية أصحاب كفاية ودراية، وما زالوا ملاحين أكفاء حتى الآن[1]. فلم يكن من السهل على البطالمة اخراجهم من البحر وابعادهم عنه. ولقد حاول البرتغاليون من بعدهم بعدة قرون اقصاء العرب عن تجارة الهند وإفريقية، ومنع سفنهم من الظهور في المحيط الهندي، فباءت محاولاتهم بالاخفاق، وبقوا في البحر بالرغم من أنف البرتغاليين.

وقد وجه (بطلميوس أورغاطس الثاني) Ptolemy Euergetes[2] (١٤٦ — ١١٧ ق. م.)، انتباهه نحو البحر الأحمر والمحيط الهندي والهند، فكون أسطولاً قوياً من البحر الأحمر، قام برحلات منتظمة إلى قبلة أنظار التجار: الهند. ويظهر من بعض الكتابات أنه خصص موظفين بإدارة أعمال السفن والسهر على سيرها وادامتها وتنميتها. أناط بهم حماية السفن التجارية وحراستها حتى لا يتحرش بها لصوص البحار، الذين كانوا يهاجمون السفن المحطمة ويأخذون ما فيها ويتعرضون للسفن المحملة بالأثقال فيأخذون ما فيها وينقلونه إلى الساحل. وقد ألف لتحقيق هذه المهمة حرساً بحرياً أخذ دور شرطة بحرية، واجبها تقديم المساعدات لمن يطلبها وتعقب اللصوص[3].

وقد برز اسم قائد محنك من أهل Cyzicus/Kyzikus استطاع أن يبلغ الهند وأن يتاجر معها، وأن ينشيء خطاً ملاحياً منتظماً بين مصر والهند. وقد استطاع هذا القائد المسمى بـ (يودوكسوس) Eudoxus أن يتعلم أشياء كثيرة من أسرار الملاحة البحرية وأخطارها ومجازفاتها ومن معارفها والأماكن التي يجب النزول بها، ولعل ادراك (هيبالس) (هيبالوس) Hippalus لأهمية الرياح الموسمية واستعماله لها، هو ثمرة من ثمرات الرحلات التي قام بها (يودوكسوس) للهند. وإذا لم يكن (هيبالوس) من رجال ذلك القائد، فإنه لم يكن بعيد عهد عنه على كل حال[4].

وكان الساحل الشمالي الغربي لجزيرة العرب، أي القسم الجنوبي من المملكة الأردنية الهاشمية في الزمان الحاضر وأعالي الحجاز للنبط. لهم حكومة تحكمهم،

---

١ O'Leary, P. 73.

٢ « بطليموس أورغاطس »، الطبري (٢ / ٧٠٣)، « ليدن ».

٣ Araber, 1, S., 69.

٤ Araber, 1, S., 131.

إلا أنها كانت تخضع لنفوذ البطالمة وقد تأثرت مصالحهم كثيراً ، ولا شك بتدخل البطالمة في أمور البحر وبوضعهم اليونان في أماكن متعددة من الساحل لحماية سفنهم ، ولاتجارهم مباشرة مع موانىء جزيرة العرب ، حيث أثر ذلك على القوافل التجارية البرية التي كانت تحمل تجارات إفريقية والهند والعربية الجنوبية فتأتي بها على ظهور الجمال إلى بلاد الشأم مخترقة أرض النبط وبذلك تدفع لهم حق المرور .

ولم يتأثر النبط وحدهم بسيطرة البطالمة على البحر الأحمر ، بل تأثر بهذه السيطرة عرب الحجاز والعربية الجنوبية كذلك . إذ أخذت سفن البطالمة تصل بنفسها وبحراسة السفن الحربية إلى الموانىء المشهورة ، فتشتري ما تحتاج اليه وتبيع ما تحمله من سلع ، وحرمت بذلك التجار العرب من موارد رزقهم التي كانوا يحصلون عليها من الاتجار بالبحر . وقد اضطر التجار العرب على ترك البحر للمنافسين الأقوياء وعلى الاقتصار على إرسال تجارتهم بطرق البر نحو بلاد الشأم .

ويظهر ان عرب البحر الأحمر ، لم يكونوا يميلون إلى ركوب البحار وبناء السفن قبل أيام البطالمة وبعد أيامهم كذلك . ولهذا فلم تكن لديهم سفن مهمة مذكورة في هذا البحر . ولم تكن لهم سيطرة عليه . بل يظهر انهم كانوا يتخوفون من ركوب البحر ، وفي المثل المنسوب إلى (أحيقار) : « لا تُرِ العربي البحر ، ولا ساكن صيدا البادية »[١]،تعبير عن وجهة نظر عرب العربية الغربية وأعراب البادية بالنسبة إلى البحر ، والتجارة البحرية .

وقد كان ميناء (ايلة) Ailana/Eloth في أيدي البطالمة في هذا العهد[٢] . وهو ميناء مهم ترسل منه تجارة فلسطين إلى موانىء البحر الأحمر وإفريقية . كما كان يستقبل السفن القادمة من إفريقية ومن المحيط الهندي. فهو اذن من الأسواق التجارية المعروفة في ذلك العهد .

لقد كان ميناء (لويكة كومة) Lueke Kome [٣] ، أي (المدينة البيضاء) من أهم الموانىء التجارية على سواحل الحجاز على عهد البطالسة ، منه تتجه

---

١ Araber, 1, 70.

٢ Araber, 1, S., 69.

٣ Leuce Kome, Forster, 1, P., 220.

السفن إلى الساحل المصري لتفرغ شحنتها هناك ، فتنقل إما بواسطة القوافل ، وإما بالسفن من القناة المحفورة بين البحر الأحمر ونهر النيل لتتابع طريقها إلى موانيء البحر المتوسط[1] ، وقد كان من موانيء النبط ، ذكره (سترابون) في معرض كلامه على حملة (أوليوس غالوس) على جزيرة العرب ، ففيه نزلت جيوش الرومان القادمة من مصر للاتصال بحلفائهم النبط[2] ، ولا يعرف موضعه الآن معرفة تحقيق ، وإنما يرى بعضهم انه (الحوراء)[3] ، مرفأ سفن مصر إلى المدينة[4] ، ويظهر ان (الحوراء) كان من المواضع الجاهلية القديمة وقد وجدت فيه آثار قصور .

ورأى (ونست) Vincent ان (لويكة كومة) هو (المويلح) في الزمان الحاضر[5] ، وهي قرية بها بساتين ومزارع ونخيل ، ومياهها من الآبار، لها طريق قوافل إلى المدينة وإلى تبوك[6] . ورأى آخرون انها (عينونة) أو (الخريبة) وهي تابعة لإمارة (ضبا) على ساحل البحر الأحمر ، وهي من إمارات الحجاز[7].

ويظهر ان تجارة هذا الميناء كانت عامرة جداً ، فكانت القوافل التي تنقل البضائع بين (بطرا) Petra وبين Leuce Kome / Leuke Kome ضخمة جداً حتى كأنها قطع كبيرة من الجيوش[8] ، تقوم بنقل الأموال من الميناء إلى (بطرا) ومنها إلى الأسواق ، أو بنقل التجارة الواصلة إلى (بطرا) من العراق أو الخليج أو اليمن ، ومنها إلى ذلك الميناء لتصديره إلى مصر وحوض البحر المتوسط ويتبين من إهمال الكتب اليونانية أو اللاتينية ذكر هذا الميناء بعد الميلاد ان شأنه أخذ في الأفول منذ ذلك العهد . ولعل ذلك بسبب تحول خطوط سير السفن في البحر الأحمر بعد استيلاء الرومان على مصر ، وانشائهم أسطولاً تجارياً كبيراً في

---

١ Vincent, II, PP., 230.

٢ Skizze, 11, S., 46.

٣ Forster, 1, P., 220.

٤ البلدان (٣ / ٣٥٩) .

٥ Forster, II, P. 265.

٦ حافظ وهبة ، جزيرة العرب (ص ١٩) .

٧ فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب (ص ٧٢) Hegaz, PP 125

٨ Huzayyin P 112, Strabo, 16, 4, 33.

هذا البحر قام بالاتجار مباشرة مع إفريقية والهند ومصر ، فلم تبق له حاجة إلى النزول في هذا الميناء .

و Leuce Kome/Leuke Kome ، اسم أعجمي بالطبع ، ورد في الكتب (الكلاسيكية) ، لا ندري أهو ترجمة لمسمى عربي ، أم هو اسم حقيقي لذلك الميناء أطلقه عليه مؤسسوه في زمن البطالمة ، أو قبل ذلك ، وكانوا من اليونان ، ولوجود خرائب عديدة على ساحل الحجاز (ترجع إلى ما قبل الإسلام ، بها آثار يونانية ورومانية ، لم تدرس دراسة علمية دقيقة ، ولم تمسها أيدي المنقبين) ، لا يمكن القطع في موضع هذا الميناء وفي اسمه الحقيقي الذي كان يعرف به .

والميناء الآخر المهم الذي تاجر البطالمة معه ، ونزل فيه رجالهم هو ميناء Muza/Mauza' . وهو (مخا) . وهو ميناء قديم ، وقد عثر على مقربة منه على كتابة وسمت بـ Ry. 598 . وقد قدر زمان كتابتها بحوالي سنة (٣٠٠) أو (٢٥٠ ق.م.)[١] . وكان في أيام صاحب كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) تابعاً لملك سماه Charibael ملك Sapphar . و Charibael هو (كرب ايل) وكان ملكاً على (سبأ) . ويستنتج من الكتاب المذكور أن حكم هذا الملك كان قد امتد على أرض Azania وعلى أرضين أخرى مجاورة لها في إفريقية[٢] ، أي ان تلك الأرضين كانت خاضعة لحكام اليمن في ذلك العهد .

وتعامل البطالمة مع ميناء آخر يقع على السواحل العربية ، هو ميناء Arabeae Eudaemon ، فكان تجارهم يأتون بسفنهم اليه ، فيشترون من تجاره ما يحتاجون اليه . كما أنهم اتخذوه محطة للاستراحة وللتزود بالماء والزاد ، وللقيام منه برحلات بعيدة إلى سواحل افريقية ، أو الذهاب إلى الهند . وهذا الميناء هو (عدن) الشهير ، الذي لا يزل محافظاً على كيانه وعلى أهميته في العالم السياسي والحربي والاقتصادي . وذلك بفضل مكانه الحصين واشرافه على المحيط في مكان مشرف على باب المندب مفتاح البحر الأحمر وعلى الساحل الإفريقي .

وقد كان هذا الميناء موجوداً ومعروفاً قبل البطالمة ، بدليل اشتهاره عندهم

---

١ Araber, I, S. 133, J. Pirrenne in : Le Muséon, 73, (1960), 6.

٢ Araber, I, S., 133.

واتخاذه محطة لهم . ولكننا لا نعرف من تأريخه القديم شيئاً كثيراً ، وقد عثر فيه على كتابات بالمسند إلا أن العلماء لم يستطيعوا حتى الآن التحدث بشيء من التفصيل عن تأريخ عدن قبل هذا العهد[1] . وقد ازدادت عناية الغربيين به منذ حملة (أوليوس كالوس) ، كما سأتحدث عنه فيما بعد .

ويرى بعض الباحثين أن ما ذكره بعض (الكلاسيكيين) من وجود مدن أو جاليات يونانية مثل (أرتوسه) Arethusa و (لاريسا) Larissa و(خلقس) Chalkis في بلاد العرب ، إنما يراد بها مواضع يونانية أقيمت في أيام (البطالمة) على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب في مواضع لا تبعد كثيراً عن (عدن) . وقد بقيت حيّة عامرة إلى سقوط حكم (البطالمة) فضعف أمر تلك المستوطنات ولم يسعفها أحد من اليونان أو الرومان بالمساعدة فدمرت ، دمرتها القبائل العربية الساكنة في جوارها[2] .

أما موضع (اثينه) Athene/Athenae/Attene ، الذي ذكره (بليتيوس) مع المواضع المذكورة فقد ذهب أكثر الباحثين الى أنه (عدن) . وهو موضع كان معروفاً عند اليونان والرومان معرفة جيدة ، وكانت سفن البطالمة تأتي اليه للاتجار .

وقد ذهب (تارن) W. W. Tarn إلى أن مستعمرة (أمبلونه) Ampelone وهي إحدى المستعمرات اليونانية التي أقيمت على ساحل البحر الأحمر ، إنما هي مستعمرة أنشئت في أيام (بطلميوس الثاني) ، وقد استوطنها قوم من أهل Miletos ، لغرض ابحار السفن منها إلى البحار الجنوبية واستقبال السفن القادمة منها[3] .

لقد أحدث دخول اليونان البحار الجنوبية من الخليج العربي ومن البحر الأحمر احتكاكاً مباشراً بين الثقافة اليونانية والثقافات الشرقية ، وقد عثر على كتابات يونانية في مواضع متعددة من الخليج ومن السواحل الإفريقية تتحدث عن وجود اليونان في هذه الأماكن ، فقد عثر على كتابات من أيام السلوقيين في جزيرة (فيلكا) ، وكتابات لـ (بطلميوس الثالث) (أورغاطس) Euergetes

---

١ Stuhlmann, S. 121.

٢ Araber I, S., 121.

٣ Araber I, S., 70.

(٢٤٧ – ٢٢١ ق. م.) في (أدولس) Adulis عند (مصوع)[١] ، وعثر على نقود في مواضع متعددة من السواحل الجنوبية لجزيرة العرب والسواحل الإفريقية ، ومنذ هذا العهد دخلت المؤثرات الثقافية اليونانية إلى الحبشة وإلى مواضع أخرى من افريقية[٢] .

وقد عثر في خرائب مدينة (تمنع) على كثير من الأشياء (الهيلينية) الأصل أو المتأثرة بالهيلينية : من تماثيل ، وتحف فنية ، وفخار ، وما شابه ذلك[٣] ، هي من نتائج التبادل التجاري ، والاتصال الذي كان بين حوض البحر المتوسط والعربية الجنوبية . وقد تربنا الحفريات في المستقبل آثاراً أخرى تتحدث عن أثر الثقافة اليونانية في جزيرة العرب في نواح أخرى عديدة لم نتعرفها بعد .

وكان من نتائج دخول اليونان إلى الخليج العربي والبحر الأحمر، دخول النقود اليونانية إلى جزيرة العرب ، وظهور دور ضرب السكة فيها . وقد عثر في مواضع من الجزيرة على نقود ضرب بعضها على طراز نقود (الإسكندر الأكبر) وضرب بعض آخر في أيام خلفائه ، كما عثر على نقود محلية ضربت في العربية الجنوبية ، وقد تبين من دراستها وفحصها انها ضربت على الطريقة اليونانية ، ويظهر الأثر اليوناني واضحاً فيها . وسأتحدث عن ذلك في الموضع الخاص بالنقود .

هذا وقد كشفت جزيرة صغيرة من جزر الخليج العربي، هي جزيرة (فيلكا) من جزر الكويت عن بعض أسرارها التأريخية القديمة ، فقدمت بعض الهدايا والعطايا لبعثة أثرية (دانماركية) نبشت الأرض في مواضع منها، وإذا بها تتحدث اليها بتحفظ وبحرص عن أيامها الأولى ، في (العصور البرنزية) ثم في (العصور الحديدية) ، ثم عن صلاتها بالعراق حيث نزل بها الأكاديون والآشوريون ، وعن صلاتها بالجزر الأخرى مثل البحرين ، وعن صلاتها بالفرس ثم باليونان في أيام (الإسكندر الكبير) وخلفائه ، حيث نزل بها جنوده وقوم من أتباعه وأتباع من جاءوا بعده من حكام .

---

١ Stuhlmann, S., 10.
٢ Stuhlmann, S., 10.
٣ BOASOOR, 119, (1950), P., 6.

وفي جملة ما عثر عليه في هذه الجزيرة مما هو من أيام خلفاء الإسكندر ، كتابة يونانية على حجر ، عثر عليه سنة (١٩٣٧ م) ، أي قبل قيام البعثة الدانماركية بأعمال الحفر ، احتفظ به أحد الانكليز وإذا بـه تقدمة قدمها أحد المواطنين الأثينيين ، واسمه (سوتيلس) Soteles والجنود إلى (زيوس المخلص) Zeus Sotore وإلى (بوزيدون) Poseidon وإلى (أرتيمس المخلصة) Artemis Soteira [1] . فيظهر منها ان حامية يونانية كانت في هذه الجزيرة، لعلها من بقايا الجيش الذي بعث به الإسكندر للسيطرة على الخليج ولفتح الهند والجزر المقابلة لبلاد العرب ولسواحل جزيرة العرب .

وعثر على قوالب كثيرة من الآجر لصنع التماثيل ، منها قالب ظهر انه حفر حفراً ليوضع في داخله مادة تتحول إلى تمثال ، وقد تبين من صنع تمثال فيه أنه يمثل وجهاً له شبه كبير بوجه الإسكندر ، فلعله كان قد صنع ليمثل وجه ذلك الرجل ، كما عثر على تماثيل يظهر عليها أثر الفن اليوناني ، وعلى أنواع من الفخار والأختام والآجر تمثل عهوداً مختلفة أقدم من عهود اليونانيين ، ترجع بتأريخ الجزيرة إلى حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد [2] .

ومن الآثار المهمة النفيسة التي عثرت البعثة الدانماركية عليها ، كتابة مدونة على حجر في (٤٤) سطراً ، تفيد ان الملك بعث برسالة إلى أهل (ايكاروس) Ikarus في شأن عزمهم على اقامة معبد في تلك الجزيرة ، وتعيين كهان لها، وتبين موافقة الملك عليه ، وتحدد الأجور والنفقات التي تدفع ، وحقوق الحكومة من الواردات وكيفية الجباية ، وما شاكل ذلك .. وهي رسولة لم تحل رموزها حلاً تاماً حتى الآن ، لوجود كسور في الحجر وذهاب حروف بعض الكلمات . ويظن انها من أيام (سلوقيوس الثاني) المعروف بـ (كلينيكيوس) ، دونت في حوالي سنة (٢٣٩ ق. م.) [3] .

---

١ تقرير شامل عن الحفريات الاثرية في جزيرة « فيلكا » ، وزارة التربية والتعليم، قسم الآثار والمتاحف ، الكويت ، مطبعة حكومة الكويت ، (ص ٩ ، ٢٧) « ١٩٦٣ م » وسيكون رمزه : تقرير

٢ تقرير (ص ١٣) .

٣ P. V. Glob, Investigations in Kuwait, Kuml, 1958, 170. f.
E. Albrechtsen, Alexander the Great's visiting Card, Kuml, 1958, 186, Grohmann, Arabien, S., 269, Die Araber, IV, S., 66.

ويعود عهد النقود التي عثر عليها في هذه الجزيرة إلى هذا الزمن أيضاً ، فقد وجد نقد ضرب في أيام (سلوقس الأول) باسم الإسكندر الأكبر حوالي (٣١٠ – ٣٠٠ ق. م.) ، فهو لا يبعد كثيراً عن أيام الإسكندر المتوفى سنة (٣٢٣ ق. م.) . ووجد نقد ضرب في أيام (أنطيوخس الثالث) ، الذي حكم المملكة (السلوقية) ما بين (٢٢٣) و (١٨٧ ق. م.)[١] .

ولاكتشاف هذه النقود شأن تاريخي كبير لأنها تشير إلى تدخل اليونان في أمور الخليج في هذا العهد ، وحكمهم لسواحله العربية من (جرها) إلى جنوب العراق ، كما أنها ستعين في التوصل إلى تثبيت تواريخ حكم السلوقيين لهذه المنطقة . وسيكون لما سيكتشف من نقود في الكويت ، أو في مواضع أخرى من الخليج ، فائدة كبيرة في توسيع معارفنا بالسلطان الاقتصادي والسياسي للسلوقيين في هذه الجهات وفي تعيين صلاتهم بالشعوب العربية الساكنة على بقية ساحل الخليج وفي الأرضين البعيدة عن منطقة سلطان السلوقيين .

ويعد اكتشاف آثار الـ (اكروبولس) Akropolis وكذلك المعبد في جزيرة (فيلكا) التي هي جزيرة (ايكاروس) Ikaros عند اليونان ذا أهمية كبيرة من ناحية دراسة الأثر الذي تركه اليونان في الخليج[٢] .

أما في الساحل المقابل للجزيرة وفي الأماكن الأخرى من الخليج ، فلم يعثر حتى الآن على مثل هذا المعبد اليوناني أو البيوت اليونانية فيها ، ولهذا لا نستطيع أن نتحدث عن أثر اليونان فيها ، وقد يكون وجود المعبد والبيوت اليونانية في هذه الجزيرة بسبب إبقاء حامية الإسكندر فيها وسكناهم في الجزيرة وبقائهم بها بعد زوال حكم اليونان عن العراق . وقد اختار الاسكندر أو قوّاده هذه الجزيرة ، لأهميتها من الوجهة العسكرية من حيث رسو سفن الجيش اليوناني بها وامكان تأديب سكان السواحل منها واخماد معارضتهم لليونان وتعقب (القراصنة) والهيمنة على مصب دجلة والفرات في الخليج والدفاع عن جنوب العراق .

لم يتمكن السلوقيون من الهيمنة على الخليج والاتجار به ، لأن حكومتهم في

---

١ تقرير (ص ١٦ ، ١٧) ، نقود يونانية من جزيرة « فيلكا » ، مطبعة حكومة الكويت .

٢ Kuml, 1959, 236, 238, Grohmann, Arabien, S., 259.

العراق لم تكن حكومة قوية ، ثم سرعان ما قضى عليها الفرس ، فزال حكم اليونان عن العراق . أما في مصر ، فقد قضى الرومان على حكم البطالمة، وانتزعوا الحكم منهم. وورث الرومان اليونان في البحر الأحمر ، وولوا أنظارهم نحو سواحله ونحو المحيط الهندي ، على حين انتزع الخليج من الروم ومن الرومان ، وصار بحراً شرقياً ، السلطان الأول فيه للعرب والفرس .

لقد كافح البطالمة أعمال اللصوصية (القرصنة) في البحر الأحمر ، وأمنوا بذلك لسفنهم السير في هذا البحر ، إلاّ أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على العربية الغربية ، ولم يتمكنوا من المساهمة مع العرب في الإتجار براً مع اليمن وبقية العربية الجنوبية . لقد كانت التجارة في أيدي العرب . وكان المهيمن على النهاية القصوى لهذه الطرق البرية (النبط) الذين تكتلوا في أعالي الحجاز ، وكونوا لهم مملكة النبط ، وأخذ نجمهم في الصعود منذ أيام (الإسكندر الأكبر) وقد ساعد في صعوده الحروب التي نشبت بين البطالمة والسلوقيين ، فوجد النبط لهم فرصة مؤاتية فأخذوا يوسعون أرضهم، ويتقدمون نحو الشمال متوغلين حتّى بلغوا أرضين تقع شمال (دمشق)[1] .

وأدت الحروب التي نشبت بين السلوقيين والبطالمة إلى تقدم القبائل العربية وزحفها من الجنوب نحو الشمال ، وزاد من توسعها تفتت مملكة السلوقيين وتقلص سلطانها ، مما أفسح في المجال للقبائل بالنزوح بكل حرية إلى أرضين جديدة في العراق ، وتكوين إمارات من قبائل متحالفة . كذلك أدى ضعف حكومة البطالمة إلى توسع القبائل العربية وتوغلها في طور سيناء وفي المناطق الشرقية من مصر الواقعة على الضفاف الشرقية لنهر النيل ، مما حمل بعض الكتبة (الكلاسيكيين) على إطلاق لفظة (العربية) عليها دلالة على توغل القبائل العربية فيها بالطبع[2] .

وإلى عهد البطالمة ترجع الكتابات العربية المدونة بالمسند التي عثر عليها في الجزيرة بمصر . وقد كتبت في السنة الثانية والعشرين من حكم بطلميوس بن بطلميوس ، ويصعب تعين زمان هذه الكتابة وزمان بطلميوس بن بطلميوس

١ Araber, I, S., 5. f.

٢ Araber, I, S., 6. f.

الذي في أيامه كتبت ، لأن هنالك عدداً من البطالمة حكموا أكثر من اثنين وعشرين عاماً ، فأيهم المقصود ؟ ويرى (وينت) F. V. Winnet انها لم تكتب على أي حال بعد سنة (٢٦١ ق. م.)[١] . وعثر على كتابات أخرى في موضع (قصر البنات) على طريق (قنا) وفي منطقة (أدفو)[٢] ، ووجود كتابات المسند في مصر يدل على الصلات الوثيقة التي كانت بين العربية ومصر .

وقد دوّن إحدى هذه الكتابات رجل اسمه (زد ال بن زد) (زيد ال بن زيد) (زيد ايل بن زيد) من (آل ظرن) (آل ظبران) (آل ظبرن) ، وقد كان كاهناً في معبد مصري ، وقد اعترف بوجود دين عليه وواجب هو تزويد (بيوت آلهة مصر) (معابد آلهة مصر) (ابيتت الالت مصر) بـ (المـرّ والقليمة) (امرن وقلمتن) . ويقصد بـ (قلمتن) ما يقال له : Calamus في الانكليزية و Kalmus في الألمانية ، ويراد به ما يقال له قصب الذريرة أو قصب الطيب وقد عبر عن لفظة (ورّد) واستورد بلفظة (ذ سعرب) . وذكر ان ذلك كان في عهد (بطلميوس بن بطلميوس) ، (بيومهر تلميث بن تلميث) ، أي (بيوم أو بأيام بطلميوس بن بطلميوس) . وقد عبرت عن لفظة (بطلميوس) بـ (تلميث) .

وقد استحق عليه تسديد الدين ، وصار نافذاً في شهر (حتحر) . وعبر عن ذلك بهذه الجملة : « ويفقر زبدال بورخ حتحر » . و (فقـر) بمعنى أصبح مستحقاً نافذاً ، ومعنى الجملة : (واستحق تسديده على زيد ايل بشهر حتحر) . وقد وفى بذلك دينه ، لكل معابد آلهة مصر . وقدمت اليه في مقابل ذلك ، وربما على سبيل المقايضة ، أنسجة وأقمشة أو أكسية بز (كسو بوص) ،

---

١ BOASOOR, Number, 73, 1939, P., 7.

٢ BOASOOR, Number 73, 1939, P. 7, Le Muséon, LVII; 1-2; (1949); P. 56; A. E. P. Weigall, Travels in the Upper Egyptian Deserts, London, 1909, P. 1 IV, Fig., 13; 14; H. Winkler, Rockdrawings of Southern - Upper Egypt, I, London, 1938, P. 1, 4, Rhodokanakis, in Zeitschrift für Semitistik, Bd. 11; 1924, S. 113, Schwartz, Die Inschriften des Wüstentempels von Redesiye, in : Jahrbuch für Klassische Philologie, Bd., CLIII, 1896, S. 157.

أخذها إلى سفينة تجارية ، ربما كانت سفينته . وقد أخـذ عليه عهد واعترف مقابل ذلك بالدين الذي عليه وبوجوب تسديده عند استحقاقه لمعبد الإلـه (أثر هب) (أثر هف) . ويقصد بذلك الإلـه Osarapis ، وذلك في شهـر (كيحك) من السنة (خرف) الثانية والعشرين من حكم الملك (بطلميوس بن بطلميوس).

وقد ذهب (رودوكناكس) ناشر النص إلى احتمال كون (زيد ايل) كاهناً في معابد مصر ، ولو كان من أصل غير مصري ، فقد كان المصريون تساهلوا في هذا العهد — كما يرى — ، فسمحوا للغرباء بالانخراط في سلك الكهان وخدمة المعابد ، وتساهلوا مع (زيد ايل) هذا فأدخلوه في طبقـة (أويب) Ueeb وانتخبوه كاهناً ؛ ليضمن لهم الحصول على المرور والقليمة بأسعـار رخيصة ، لاستيراده إياها باسمه ومن موطنه مباشرة من غير وساطة وسيط[1] .

وقد ذهب (رود كناكس) أيضاً إلى أن (زيد ايل) كان يستورد المرّ والقليمة لا لحسابه الخاص ومن ماله ، بل لحساب المعابد المصرية ومن أموالها . فلم يكن هو إلا وسيطاً وشخصاً ثالثاً يتوسط بين البائع والمشتري ، يشتري تلك المادة ويستوردها باسمه ، ولكنه يستوردها للمعابد ولفائدتها . وهو لا يستبعد مع ذلك احتمال اشتغاله لنفسه وعلى حسابه في التجارة ، يستوردها ويبيعها في الأسواق ويتصرف بالأرباح التي تدرهـا كما يريد . وهو لا يستبعـد أيضاً احتمال مساعدة المعابد له بتجهيزه بالمال لتقوية رأس ماله ، أو انتشاله من خسارة قد تصيبه .

وقد أصيب هذا التاجر ، كما يظهر من هذا النص ، بخسارة كبيرة في شهر (حتحر) ربما أتت على كل ما كان يملكه ، فهبت المعابد المصرية لانقاذه ، وإعادة الثقة بـه ، بإسناده بتقديم أكسية البز (بوص) اليه . وقـد أخذها وصدرها في سفينته التي يستورد بها المرّ والقليمة إلى الأسواق ، فربح منهـا ، واستورد المرّ والقليمة وأعاد الى المعابد ما أخذه منها من تلك السلعـة ، وأدى

---

[1] Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, Band 2, 1924, S. 116.

ديونه في شهر (كيحك) . وقـد أعادت اليه الثقة به ، وأنقـذ من تلك الضائقة المالية التي حلت بـه ، بمدة قصيرة لا تتجاوز شهراً كما يرى ذلك (رودوكناكس)[1] :

[1] N. Rhodokanakis, «Die Sarkophaginschrift von Gizeh», Zeischrift für Semitistik, 11, (1923), S. 113, Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, 11, 1924, S. 113, Tarn, in : Journal of Egypt. Archeol., 15, (1929); 20 Beeston; in : Journal Roy. Asiat. Soc., Gesch. der Hellenist. Welt, 1955, 1, 300, 3, 1172; Araber, 1, S., 70.

الفصل الثامن عشر

العرب والرومان

انتهز حكام (رومة) فرصة ضعف خلفاء الإسكندر ، وانحلال المملكة العظيمة التي كونها ذلك الفاتح ، فاستولوا على مقاطعة (مقدونية) Macedonia وعلى جزر اليونان وآسية الصغرى وبلاد الشأم وإفريقية وفي ضمنها مصر ، فأصبحوا بذلك كما كان شأن البطالمة على اتصال بالعرب مباشر[1] . وبهذا الاتصال بدأت علاقات العرب بالرومان .

وقد كان العرب يقيمون في لبنان وفي سورية قبل الميلاد بزمن طويل . وقد اشتغل قسم منهم بالزراعة وتحولوا إلى مزارعين مستوطنين ، وتولى قسم منهم حماية الطرق وحراسة القوافل ولا سيما القوافل التي تجتاز طريق الشأم – تدمر – العراق . وقد أشير الى العرب (السكونيين) ، أي سكان الخيام Arabes Skynitai الذين كانوا ينزلون البوادي وهم من الأعراب الشماليين[2].

استطاع (بومبيوس) Pompeius القائد والقيصر أن يضم بلاد الشأم إلى الأملاك التي استولت عليها رومة ، ويجعلها مقاطعة من المقاطعات الرومانية ، فكان من نتيجة ذلك اتصال الرومان بالعرب ، وبالأعراب الذين كانوا قوة لا يستهان بها على أطراف الشأم . وقد وجد الرومانيون بعد استيلائهم على الشأم ما شجعهم

---

١ The Historians History of The World, Vol., VI, London, 1908, P., 3.

٢ Pliny, Nat. Hist., VI, 142, Strabo, XVI, 749, 755;Plutarchos; Lucullus; 21; Arabia ; S. ; 23.

على الزحف إلى فلسطين ، انتهازاً لفرصة النزاع الداخلي الذي كان بين (هركانوس الثاني Hyrkanus II وأخيه (أرسطو بولس الثاني) Aristobulus II . وكان (هيركانوس) قد ذهب إلى (الحارث) Aretas ملك العرب ، أي النبط ، فاراً من أخيه ، ليحميه وليساعده مقابل تنازله عن بعض الأرضين وعن المدن الاثنتي عشرة التي كان (الاسكندر ينايس) Alexander Jennaeus (١٠٤ – ٧٨ ق. م.) قد استولى عليها [1] . كما ذكرت من قبل ، فرأى الرومان في هذه الفوضى فرصة مواتية للتوسع نحو الجنوب .

وقبل أن يجتاز (سكورس) Scaurus بجيوشه حدود أرض (يهوذا) ، وصلت اليه رسل (أرسطوبولس) Aristobulus تطلب منه مساعدة صاحبهم وتمكينه من أخيه ، كما وصلت اليه رسل (هيركانوس) Hyrkanus لترجو منه معاونته لصاحبهم ، ومساعدته على شقيقه . فتعهد كل طرف من الطرفين بتقديم ما قدمه الآخر . ووافق (سكورس) على تأييد (أرسطوبولس) فكتب إلى (الحارث) ملك العرب ، يخيره بين البقاء في القدس والدفاع عنها وعداوة الرومان وبين تركها وترك الدفاع عنها وصداقة القائد . فرأى (الحارث) Aretas الارتحال عنها ، وفي أثناء ارتداده حصلت مناوشات بين أتباع الأخوين قرب الأردن ، كان النجاح فيها حليف (أرسطوبولس) [2] .

وفي سنة (٦٤ ق. م.) شخص (بومبيوس) نفسه إلى سورية للاشراف على إخضاع جميع أجزائها ، وقد طلب منه الأخوان أن يتدخل في حل هذا النزاع ، وأن يكون حكماً بينهما ، وقدما له هدايا ثمينة حملته على التفكير في احتلال فلسطين . وقد حضرا إلى مقره ، وأظهرا له من الضعف والضعة ما دعاه إلى الإسراع في إرسال حملة إلى أرض Aretas ملك العرب ، الذي قاوم مقاومة عنيفة ، وبعد هذه الحملة احتل القدس وأرض يهوذا وسائر فلسطين ، وأمر بالحاقها بالمقاطعة الرومانية السورية ، ونصب عليها (سكورس) حاكماً، وانتزع من يهوذا مدناً وقرى ألحقها بهذه المقاطعة . أما مملكة (يهوذا) الصغيرة ، فقد أصبحت ، من عملها هذا، في حماية الامبراطورية الرومانية . وأخذ (أرسطوبولس)

---

١ « ١٠٣ – ٧٦ ق٠م » ، Dubnow, 11, S., 154.

٢ Bubnow, 11, S., 176., f.

وأكثر جنوده أسرى ، نقلوا إلى (رومة) ، وسير بهم في موكب الأسرى الذين جيء بهم من الشرق ، للاحتفال بالانتصار العظيم الذي انتصره (بومبيوس) ، وذلك في عام (٦١ ق. م.)[١] .

وعقد (سكورس) الحاكم الروماني اتفاقية مع (الحارث) ، حسماً للنزاع وحداً لتحرشات العرب بحدود الامبراطورية ، وافق بموجبها (ملك العرب) ، أي العرب النبط ، على المحافظة على الأمن ، وعلى التعاون مع الرومان في هذا الشأن . وقد عثر على نقد ضرب في أيامه ، وجدت عليه صورة رمزية تشير إلى هذا الاتفاق[٢] .

وقد ساعد العرب (كاسيوس) Cassius في حوالي السنة (٥٣ ق. م.)، وساعدوا (كراسوس) Crassus ، وذلك في حروبهما مع (الفرث) (البارثيين) Parther .[٣]

وقد عيّن (يوليوس قيصر) Julius Caesar في حوالي سنة (٤٧ ق. م.) (انتيباتر) Antipater بمنصب Procurator على (اليهودية) ، وهو من أصل (أدومي) ، والأدوميون عرب في رأي كثير من العلماء . وهو والد الملك (هيرود الكبير) Herod ملك اليهود ، ومؤسس أسرة معروفة في تاريخ اليهود[٤] ، كما عيّن رجلاً اسمه Cypros ، وهو عربي من أسرة كبيرة[٥] .

وقد استندت سياسة الرومان ثم سياسة الروم من بعدهم إلى قاعدة الاستفادة من العرب في حماية المواضع التي يصعب على الرومان أو الروم حمايتها والدفاع عنها ، وذلك مثل تخوم الصحارى ، وفي صد هجمات الأعراب المعادين أو الذين يدينون بالولاء للفرس ، وفي مهاجمتهم أيضاً ومهاجمة حلفاء أولئك الأعراب المعادين لهم وهم الفرس .

وفي أيام (بومبيوس) (بومبي) كان أحد سادات القبائل العربية متحكماً في البادية المتاخمة لبلاد الشأم . وقد ذكر (سترابون) أن اسمه هو Alchaidamos

١ Dubnow, 11, S., 182.
٢ Murry, P., 101.
٣ Arabian, S., 23.
٤ Die Araber, 1, S. 301, W. Smith, A Dictionnary of The Bible., Vol. 1; 488; 791.
٥ A Dictionnary, I, P. 791.

وجعله ملكاً على قبيلة دعاها باسم Rhambaei[1] . وقد كان من حلفاء الرومان ثم انقض عليهم وعبر إلى العراق ، وذلك لاهانة لحقته من الحاكم الروماني أو من القواد الرومان . ويظهر أنه اجتاز الفرات في سنة (٤٦ ق. م.) والتجأ إلى (البارثيين) . وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان في السنة (٥٣) قبل الميلاد فيما بين النهرين ، وأنه كان يقوم بغارات على حدود بلاد الشأم . ويظهر أنه ترك البارثيين بعد ذلك وعاد الى حلفائه الرومان . وقد نعته (ديوكاسيوس) Dio Cassius بالتذبذب وبالانتهازية ، وقال عنه إنه كان يتنقل دائماً إلى الجانب القوي[2] .

وكان (الحذيموس) ، قد استولى على مدينة (أريتوسه) Arethusa ، وهي مدينة (الرستن) ، وجعلها مقراً لحكمه ، وتقع على نهر (الميماس) ، وهو نهر (العاصي) ، ويسمى بـ Orontes عند الكتبة اليونان والرومان[3] . ولا ندري اليوم متى دخلت في حكمه ، ويظهر أن حكمه دام طويلاً إذ كان لا يزال في الحكم في الفترة الواقعة فيما بين السنة (٤٦) والسنة (٤٣) قبل الميلاد[4].

وذكر أنه كان لهذا الملك ولد اسمه (ايامبليخوس) Iamblichos = Jamblichus وكان عاملاً على شعب Emesener . وقصد (سترابو) بشعب (اميسنر) ، الناس الساكنين في أطراف المدينة . أي أطراف مدينة Emessa : Emesa ؛ وهي حمص[5] .

وقد ساعد (ايامبليخوس) (المتوفى سنة ٣١ ق. م.) ، حكام (رومة) ضد (البارثيين) (البرث) (الفرث) Parther فقدم لهم مساعدات مهمة، ولا سيما بالنسبة الى (أوكتافيوس أغسطس) Octavianus Augustus[6] .

وقد ساعد الملك (اكبروس) (أكبر) Acbarus الذي حكم (حمص) بعد

---

١ Strabo, 16, 753, Die Araber, 1, S., 179.

٢ Dio Cassius, 40, 20, 1, f., Die Araber, 1, S.; 180.

٣ Ency., 11, P., 309.

٤ Die Araber, 1, S., 356.

٥ Die Araber, 1, S., 144.

٦ Arabian, S., 23.

هذا الملك بأمد ، الرومان أيضاً في كفاحهم للبارثيين ، وذلك سنة (٤٩) بعد الميلاد[1] . ولم يكن لهؤلاء الملوك من خيار في سياستهم سوى الانحياز الى الرومان لأنهم كانوا أقوياء ، وقد هيمنوا على بلاد الشأم .

ولا نعرف في الوقت الحاضر شيئاً عن الملك (الخديموس) ، ولا عن قبيلته Rhambaei . أما عن اسم الملك فيظهر انه محرف عن أصل عربي هو (الخدم) أو (جذيمة) أو (خضم) أو (الخضم)[2] ، وهي من الأسماء المعروفة التي ترد في كتب أهل الأخبار[3] . أو (الحطيم) ، وهو اسم معروف أيضاً ، ورد في أسماء العرب[4] ، أو اسماً عربياً آخر ابتدأ بـ (الـ) أداة التعريف .

وأمـا عن اسم Rhambaei ، فيظهر انه محرف عن تسمية عربيـة هي : (رحبة) ، أو (رحاب) أو ما شاكل ذلك[5] ، وترد لفظة (رحبة) كثيراً في العربية اسم موضع من المواضع ، فلعل هذه القبيلة كانت تقيم في موضع اسمه (رحبة) فعرفت به .

ويظهر من هذا الخبر ان القبيلة المذكورة كانت في جملة القبائل العربية التي كانت قد زحفت قبل الميلاد إلى بلاد الشأم ، واستوطنت في أطراف (حمص) ، وتقدمت بعضها فنزلت في أماكن أبعد من هذا المكان إلى الشمال ، حيث المراعي والكلأ والماء ، وكانت كلما وجدت ضعفاً في الحكومات الحاكمة لبلاد الشأم ، انتهزت فرصته فتقدمت إلى مواضع أخرى في الشمال، حيث يكون الخصب والماء .

وأنقذ العربُ (يوليوس قيصر) Julius Caesar من المأزق الحـرج الذي وقع فيه، وهو يهم بالقبض على ناصية الحال في الاسكندرية عام (٤٧ ق. م.) ، إذ أرسل الملك (مالك) Malchu ، وهو (مالك الأول بن عبادة) ، نجدة مهمة ، ساعدته على انقاذه من الوضع الحـرج الذي كان فيه[6] ، كما أنجدوا

---

١ Arabian, S., 23.

٢ Sarre und Herzfeld, Arch. Reise, 1, S. 119, 11, 105, Die Araber; 1; S. 150; M. Lidzbarski, Epyememris, 3, 164.

٣ الاشتقـاق (٢٢٧) .

٤ الاشتقـاق (١٦٧) .

٥ Sarre und Herzfeld, Arch. Reise, 1, S. 119, 11, 105.

٦ Muryy, P., 102.

(هيركانوس) الذي فر من القدس إلى (بطرا) حينما ظهرت أمام العاصمة طلائع الفرثيين[1] .

ولما استولى (أغسطس) على مصر ، وجعلها تابعة لحكم قياصرة (رومة)، أمر باصلاح ما كان قد فسد بسبب الأوضاع السياسية والاقتصادية السيئة التي حدثت في أيام البطالسة ، فأصلحت الطرق ، وطهرت القناة ، وعني بالتجارة البحرية وبمياه البحر الأحمر التي غصت بلصوص البحر ، وأوعز إلى حاكم مصر (أوليوس غالوس) Aelius Gallus بغزو جزيرة العرب ، للاستيلاء عليها وعلى ثروتها العظيمة التي اشتهرت بها من الاتجار بالمر واللبان والبخور والأفاويه ، وللقضاء أيضاً على لصوص البحر الذين كانوا يحتمون بسواحل الحجاز واليمن ، وللهيمنة على البحر . وقد أمر بوضع حراس على ظهر السفن التي تجتاز البحر الأحمر ، لحمايتها من أولئك اللصوص[2] .

لم تكن الأوضاع في القرن الأول حسنة في (مصر) ، فقد كان حكم البطالمة حكماً ضعيفاً هزيلاً ، ألهاهم عن التجارة البحرية وعن الاهتمام بالبحار ، فقل عدد السفن الذاهبة الى المحيط الهندي ، وتزايد عدد لصوص البحر ، كما أن الصراع الذي كان في (رومة) على الحكم أثر في مستوى مشترياتها من مصر . وقد أثر ذلك بالطبع في الوضع الاقتصادي في مصر ، وفي مستوى الأسعار ، ولا سيما في (الإسكندرية) (بورصة) العالم في ذلك العهد . لذلك أحدث فتح (يوليوس قيصر) لمصر تغيراً في الأوضاع.هناك نراه بارزاً في هذا (المشروع) الضخم الذي أراد (أوغسطس) (٣١ ق. م. — ١٤ ب . م.) القيام به ، وهو الاستيلاء على جزيرة العرب وضمان مصالح (رومة) في ذلك الجزء من العالم ، وجعل البحر الأحمر بحراً رومانياً .

ولو تم ذلك (المشروع) على نحو ما حلم به (أغسطس) ، كان حكم (رومة) الفعلي قد بلغ العربية الجنوبية ، وربما سواحل إفريقية أيضاً ، إلاّ أن سوء تقدير الرومان له ، واستهانتهم بطبيعة جزيرة العرب ، وعدم ادخالهم في حسابهم قساوة الطبيعة هناك ، وعدم تمكن الجيوش النظامية من المحاربة فيها وتحمل العطش والحرارة الشديدة ، كل هذه الأمور أدت إلى خيبته منذ اللحظة

---

١ Dubnow, 11, S., 250.

٢ O'Leary, P. 74, Pliny, 11, P. 415, 6, 101.

التي شرع فيها في تنفيذه،فكانت انتكاسة شديدة في هيبة (رومة) وفي مشاريعها التي رسمتها وارادت تنفيذها في جزيرة العرب .

وقد وصل الينا وصف تلك الحملة لكاتب جغرافي شهير، اسهم فيها في رأي بعض الباحثين ، فحصل على معارفه عن العرب وعن بلادهم من مشاهداته ايضاً فضلاً عما سمعه ، وأعني بـه (سترابون) الذي قال في مطلع وصفه للحملة التي قام بها الرومان على بلاد العرب ، بقيـادة (أوليوس غالوس) ، أشياء كثيرة عن خصائص تلك البلاد . لقد ارسله (أغسطس قيصر) للبحث عن الشعوب والأماكن التي فيها ، وعن حدود بلاد الحبش، وأرض Troglodytes المقابلة لبلاد العرب ، والأقسام المجاورة من الخليج العربي التي يفصلها عن العرب مضيق ضيق ، لعقد معاهدات معها أو احتلالها . لقد سمع انها غنية جداً ، لأنها تقايض التوابل بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ؟ وانها لا تحتاج إلى استيراد الأشياء من الخارج . فأراد إما أن يكوّن منهم اصدقاء اغنياء ، واما ان يحتل بلد اعداء اغنياء[1] . فهذه هي الأغراض التي توخاها قيصر (رومة) من توجيه حملته الى جزيرة العرب في القرن الأول للميلاد ، و (رومة) جائعة نهمة تريد المزيد من تجارة البحار الجنوبية بالمجّان أو بأرخص الأسعار .

وقد وضع القيصر آماله في تحقيق هذا المشروع على النبط الذين كانت تربطهم بالرومان معاهدة تحالف منذ احتل الرومان بلاد الشأم ، ومن جملتها فلسطين ، فأصبحوا بذلك على اتصال بالنبط ، وكان ملكهم إذ ذاك (عبادة الثانـي) Obadas II (٢٨ — ٩ ق. م.) وقد وعد الرومانيين خيراً ، وعدهم بتقديم كل المساعدات لهم ، وبارسال المرشدين اليهم لارشادهم إلى أهدافهم ، وبتقديم الرجال لشدّ أزر الرومانيين ، وبوضع وزيره المدعو Syllaeus تحت تصرفهم ليكون لهم دليلاً ومستشاراً[2].

وبعد إعداد الحملة وتهيئة السفن التي كان ينبغي أن تنقل رجالها وعدّتهم عشرة آلاف جندي ، جمعوا من مصر من المصريين والرومانيين ومن لفيف غيرهم ، أركبوها من ميناء على الساحل المصري للبحر الأحمر،لتتجه بهم إلى ميناء (لويكة

---

١ Strabo, XVI, 22, Vol., III, P. 209, Pliny; 6; 160; Dio Cassius! 53; 3-8; Die Araber; 11; S. 49.

٢ لعله تحريف « صالح » .

كومة) حيث ينضم اليهم نبط وغيرهم ، ثم يتجهون براً إلى اليمن . إلا أن الحملة لم تكن منظمة منسقة مدروسة دراسة دقيقة إذ تحطم عدد كبير من سفنها في أثناء محاولة قطعها البحر من الجانب المصري إلى الساحل العربي المقابل له ، لعدم ملاءمتها لمثل هذه المهمة التي أوكلت اليها ، وبعد مشقات وأهوال وصلت السفن السالمة بعد خمسة عشر يوماً إلى (لويكة كومة)، تحمل على ظهرها جنوداً منهوكين من قطع البحر على سفن لم تكن ملائمة لمثل هذا النقل . وقد عزا (سترابون) هذه الخسارة التي لحقت برجال الحملة إلى (صالح) Syllaeus الذي غش – على زعمه – القائد ، فأعلمه بتعذر الوصول من البر، لعدم وجود عدد كاف من الجمال ، ولعدم وجود طرق برية صالحة لمرور هذا الجيش[1] .. والذي أراد بذلك اضعاف الرومان وإذلالهم،وإضعاف القبائل ليكون سيد الموقف فيدبر الأمور بنفسه ، ويكون السيد المتصرف وحده في الأمور[2] .

ولما وصل (أوليوس غالوس) بجيشه إلى ميناء (لويكة كومة) ، كان المرض قد فتك به ، لأسباب عديدة منها فساد الماء والطعام ، وسوء الغذاء فاضطر إلى قضاء الصيف والشتاء فيه ، حتى استراح الجيش وتعافى من المرض الذي ابتلي به .

ويظهر أن الرومان كانوا قد هيمنوا على هذا الميناء أمداً ، او احتلوه اذ ورد في الأخبار أنهم وضعوا فيه حامية رومانية Centurio ، لحماية السفن من لصوص البحر ، ولحماية الطرق البرية من قطاع الطرق واللصوص في البر ، كما أنهم أنشأوا لهم فيه دائرة لجباية المكس من السفن والتجار ، وقد تقاضوا ما مقداره (٢٥٪) من أثمان البضائع التي تدخل الميناء[3] .

وميناء (لويكة كومة) ، ميناء النبط الأعظم ، منه تنقل البضائع الواردة بطريق البحر إلى (بطرا) (بترا) Petra ، ومنها الى موضع (رينوكولورا) Rhinocolura في (فينيقية) على مقربة من مصر ، ثم إلى الشعوب الأخرى .

---

١ Strabo, XVI, IV, 23, J. Pirenne, Le Royaume, Sud-Arabe de Qataban et sa Datation, (1961), 93-124.

٢ Strabo, XVI, IV, 24.

٣ Sprenger, Alte Georgr., S., 28.

ومنه أيضاً إلى سواحل مصر على البحر الأحمر حيث تنقلها القوافل إلى نهر النيل ثم إلى الاسكندرية[١] . فهو ميناء مهم لتصدير التجارات ، واستيرادها في أرض النبط .

وميناء Leuke Kome (لويكة كومة) هو (الحوراء) أو (ينبع) على ساحل الحجاز ، وقد كان من الموانىء المهمة في تلك الأيام[٢] . وسوف أتحدث عنه في موضع آخر من هذا الكتاب .

وقد ظنّ (أوليوس غالوس) ، أنه سيلاقي من العرب مقاومة شديدة في البحر ، لذلك قرر بناء أسطول قوي يتألف من ثمانين سفينة كبيرة محاربة ، ومن عدد من السفن الخفيفة ، وشرع بإعداده في ميناء (قفط) (قفطس) بـ Kleopatris على قناة النيل القديمة . ولما تبين له من الاستخبارات ، أن العرب لم يكونوا يملكون أسطولاً ، وأنهم لا يستطيعون مقاومة الرومان ، أسرع فنقل جيشه على ظهر (١٣٠) سفينة نقل الى ميناء (لويكة كومة) . وكان في هذا الجيش الذي بلغ عدده عشرة آلاف محارب ، ألف من النبط و (٥٠٠) من اليهود[٣] .

وفي ميناء (لويكة كومة) تجمع جيش الحملة ، ومنه تقدم (أوليوس غالوس) نحو اليمن ، فدخل أولاً أرضاً لم يذكر (سترابون) اسمها ، وإنما ذكر انها كانت أرض ملك يدعى Aretas أي (الحارث) ، وكان من ذوي قرابة (عبادة) Obadas ملك النبط . وقد استقبل الرومان استقبالاً حسناً ، ورحب بهم ومنها سار في أرض وعرة قليلة الزرع والأشجار مدة ثلاثين يوماً إلى أرض مأهولة بالأعراب تدعى (أرارين) (عرارين) Ararene ، عليها ملك اسمه Sabos . قطعها (غالوس) في خمسين يوماً حتى بلغ مدينة تدعى (نجراني) Negrani ، ومنطقة خصبة مزروعة آمنة ، هرب ملكها ، وأخذ الرومان مدينته. وبعد مسيرة ستة أيام عنها بلغ نهراً جرت عنده معركة خسر فيها المهاجمون عشرة آلاف رجل . أما الرومان ، فلم يخسروا غير رجلين ، ومرد ذلك ، في زعم (سترابون) إلى تفوق الرومان في أساليب القتال وفي عدد الحرب التي لديهم ،

---

١ Strabo, XVI, 24.

٢ Arabien, S., 4, 29, 44.

٣ Araber, II, S., 49. f.

في حين تعوز أصحاب الأرض المالكين الخبرة في القتال ، والتمرين في استعمال ما عندهم من أسلحة تتألف من السهام والرماح والسيوف وآلات القذف والفؤوس ذوات الرأسين .

وأعقب هذه المعركة سقوط مدينة (أسقه) Asca ، التي سلمها الملك ، ومدينة (اترله) Athrula التي سلمت من غير مقاومة ، فوضع فيها حامية ، واشتغل بجمع الحبوب والتمر . ثم توجه إلى مدينة Marsiaba = Marsybae ، مدينة الـ Rhammanitae الخاضعين للملك Ilassarus ، وقد حاصرها ستة أيام ثم دخلها ، غير انه تركها لقلة المياه فيها [1] . وعلم من الأسرى انها تبعد مسيرة يومين فقط عن أرض التوابل . وكان هذا الموضع آخر ما بلغه الرومان في الجنوب[2] . وقد قطع الجيش الطريق بين (لويكة كومة) ومدينة Marsiaba في أشهر . أما في عودته ، فقد قطعها في مدة أقل من هذه المدة بكثير ، فبلغ مدينة Negrana في تسعة أيام ، وهناك نشبت معركة بين الرومان والعرب ، وغادرها (أوليوس غالوس) ، فبلغ بعد مسيرة أحد عشر يوماً موضعاً يعرف بـ (الآبار السبع) ، لوجود آبار فيه . ثم قطع بادية فوصل إلى موضع Chaalla ، وموضع آخر يدعى Malothas يقع على نهر وقطع بادية أخرى ، قليلة المياه ، وانتهى إلى قرية Egra [3] من قرى أرض (عبادة) Obadas ، وتقع على ساحل البحر . وقد قطع هذه المسافة كلها في ستين يوماً. ومن مدينة Egra = Negra عاد (أوليوس غالوس) برجاله إلى مصر ، فبلغ (ميوس هورمس) Myus Hormus في أحد عشر يوماً ، وسار بمن بقي من رجال هذه الحملة على قيد الحياة ، من هذه المدينة على ساحل مصر الشرقي إلى مدينة (قفط) Koptus = Captus ، ومنها إلى الإسكندرية [4] .

نرى من خبر (سترابون) عن حملة (أوليوس غالوس) أن اول موضع نزل فيه الجيش الروماني في بلاد العرب ، هو فرضة (لويكة كومة) ففي هذه

---

١ Strabo, XVI, IV, 24, «Marsiaba», Skizze, II, S.; 48.

٢ Strabo, XVI, IV, 24.

٣ وقرأها بعضهم « نيرا » Nera و Egra وغير ذلك لاختلاف النسخ . راجع : و Strabo, Vol., III, P., 212, (Bohn's Classical Library), Note : I, Glaser; Skizze; 11, S., 48, Pliny, VI, 159-162.

٤ Strabo, XVI, IV, 24, Die Araber, 1, 97.

الفرضة أنزل الجيش ، وفيها استراح ، ومنها اتجه في سيره لتحقيق الغاية التي من أجلها جاء . وأما الميناء الذي أبحرت منه هذه الحملة المخفقة ، فكان ميناء (أكرا) Egra او (نيكــرا) Negra (نــيرا) Negra Kome Nera Nera Kome بحسب اختلاف القراءات . ويرى (فورستر أن Negra أو Nera هي (ينبع) الفرضة الشهيرة ، وفيها عيون عذاب غزيرة[1] . وهو الميناء الثاني في الحجاز في الزمن الحاضر ، وميناء (المدينة)[2] . ويرى أن كلمة (نيرا) اليونانية تعني (ينبع) في العربية ، ولذلك يعني Nera Kome في العربية (مدينة ينبع) ، وأن Nera Kome التي أبحر منها اليونان هي ينبع ، لا مكان آخر ، في رأي هذا الباحث[3] . وأما (كلاسر) ، فلم يتأكد من موضع Egra . أمـــا (شبرنكر) : فيرى أنه (عويند) الواقع على خط عرض (٢٧) درجة وخمس ثوان[4] . وأما (فلبي) فيرى احتمال كونه (مدائن صالح)[5] . وهو رأي يتعارض مع قول (سترابون) ان Egra هي في أرض (عبادة) وعلى ساحل البحر، ومنها أبحر رجال الحملة إلى مصر[6] .

ويذهب البعض أن قرية Egra ، هي (الحجر) . وهي بعيدة بعض البعد عن ساحل البحر ، ويرى أنها كانت متصلة بميناء عرف باسمها أيضاً . كما أن ميناء (مدين) عرف باسمها أيضاً . ويرى أنه (الوجه) في الوقت الحاضر[7] .

ويزعم (سترابون) أن الاصابات التي أصـــابت الرومانيين ، إنما هي من الأمراض والأوبئة ومشقات الطرق . أما من المعارك فلم يتكبدوا فيهــا إلا سبع إصابات[8] . وفي زعم (سترابون) المذكور مبالغات ولا شك ، اذ كيف يعقل عدم تكبد الرومان خسارة ما ، مهما قيل في تنظيم الجيش وحسن تدريبه ؟ وقد أشار في كلامه على احدى المعارك ، التي هاجم فيهـــا العرب والرومان ، إلى

---

١ البلدان (٨ / ٥٢٦) ، فؤاد حمزه (ص ٤٦ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٩٥ ومواضع أخرى)
٢ حافظ وهبة (ص ١٦ ومواضع أخرى) .
٣ Forster, II, P., 293.
٤ Glaser, Skizze, II, S., 63.
٥ Philby, Backround, P., 101.
٦ Strabo, III, P., 213.
٧ Die Araber, 1, 97, W. W. Tarn, in : Journal Egypt. Archeol. 15, 1929, 17.
٨ Strabo, XVI, IV, 24, Vol., III, P., 213.

أنهم تكبدوا عشرة آلاف قتيل على حين خسر الرومان قتيلين اثنين فقط[1] . وفي هذا القول وحده ما فيه من مبالغة ظاهرة .

لم يذكر (سترابون) — وهذا أمر يؤسف عليه جداً — من أسماء المواضع التي مر بها الرومان ، او من اسماء القبائل التي اتصلوا بها ، او اصطدموا بها ، غير ما ذكرت ، وهو شيء قليل جداً ، لا يتناسب أبداً مع أهمية تلك الحملة التي قضت أشهراً في بلاد العرب ، خاصة إذا ما تذكرنا ان الرجل كان سائحاً وكاتباً وجغرافياً ومؤرخاً ، وكان صديقاً لقائد الحملة ، ومدافعاً عنه ، وقد كان نفسه من المشاركين في الحملة ، في رأي بعض الباحثين[2] . وما ذكره في الجملة عن بلاد العرب ، يدل على أن معارفه عن جزيرة العرب محدودة ، وقد استقاها من كتب من تقدمه من المؤلفين أو من السياح والملاحين والتجار من غير تدقيق أو نقد . وأعتقد أن اقدامه لم تطأ ارضاً في جزيرة العرب . وليس هنالك من شاهد يثبت اشتراكه في هذه الحملة ، ولست أعتقد أن لدى القائلين باشتراكه فيها دليلاً قوياً يثبت ذلك الرأي . ولعله نقل ما قصه عن الحملة من تقرير قدمه اليه صديقه (أوليوس غالوس) أو أحد الذين اشتركوا فيها .

وترتب على قلة أسماء المواضع التي ذكرها (سترابون) في خبر هذه الحملة صعوبة إدراك الطرق التي سار عليها (أوليوس غالوس) إلى موضع وصوله Marsiaba ، وهو آخر ما وصل اليه ، ثم الطرق التي سلكها في رجوعه حتى موضع ابحاره إلى مصر . وأبرز اسم بين هذه الأسماء التي ذكرها (سترابون) : Negrani — Negrana أي (نجران) في رأي أكثر الباحثين[3] .

وبين (لويكة كومة) و (نجران) مواضع كثيرة ، وأرضون واسعة ، لم يذكرها (سترابون) ، وكل ما ذكره هو أن الجيش دخل بعد تركه ميناء (لويكة كومة) أرض ملك يعرف بـ (الحارث) Aretas ، ثم أرضاً يقطنها الأعراب ، وهي صحراوية في الأكثر ، تعرف باسم (أرارين) Ararene[4] ،

---

١ Strabo, XVI, IV, 24, Glaser, Skizze, 11, S.; 50.
٢ O'Leary, P. 78.
٣ Glaser, Skizze, II, 48, O'Leary, P. 78; Beiträge; S. 31.
٤ Strabo, XVI, IV, 24, VOL., III, P., 212.

وقد ذهب (الحارث) إلى ربـه ، وذهب معه (سترابون) ، فأي أرض قصدها صاحب خبر هذه الجملة التي تعود إلى (الحارث) ؟ وأي أرض هي Ararene ؟. لقد ورد في الكتب الاسلامية اسم قبيلة تعرف بـ (بني الحارث ابن كعب) ، وذكرها الهمداني وذكر مواضعها [١] ، وتقع شمال (نجران) إلى وادي تثليث ، ويرى (كلاسر) انهـا الأرض التي قصدها (سترابون) وان (الحارث) Aretas هو (الحارث بن كعب) ، وهو كناية عن جد هؤلاء الذين أصبحوا في الاسلام يسمون (بني الحارث بن كعب) [٢] .

وأرى ان Aretas هو اسم ملك كان يحكم منطقة نزل فيها الرومان ، وانه رجل كان حقاً من ذوي قرابة (عبادة) ملك النبط ، وان الرومان عرفوا اسمه ولم يعرفوا اسم أرضه الواسعة فنسبوها اليـه ، فقالوا : أرض Aretas كما يقول العوام في العراق عن نجد والمملكة السعودية : (أرض ابن سعود) أو (قيعان ابن سعود) [٣] أو كما يقولون حتى اليوم لأرض قبيلة من القبائل (أرض فلان) ، ويذكرون اسمه ، لاشتهاره ولقوة شخصيته .

وقد ذهب (كسكل) إلى ان المراد بأرض Aretas (الحارث) مملكـة لحيان . وقد كانت هذه المملكة لا تزال — على رأيه — قائمة في هذا العهد ، فجاء اليها الرومان وذهبوا منهـا نحو الجنوب في اتجاه اليمن . غير أن بعض الباحثين يعارضون رأيه هذا ، لأنهم يرون ان مملكة لحيان لم تكن قائمة موجودة في هذا الوقت ، أي في حوالي السنة (٢٥ ق. م.) [٤] .

ويرى (كلاسر) ان Ararene ، هي (عراعران) (عراعرين) ، وهو موضع ذكره (الهمداني) في كلامه على (سروم) من ديار جنب قبل (القرحاء) [٥] وأن Sabus هو تحريف (شعب) أي قبيلة . وامـا النهر الذي نشبت عنده معركة قتل فيها على زعم (سترابون) عشرة آلاف قتيل ، فهو (غيل الخارد) في الجوف [٦] . وعلى هذا يكون الروماني قد دخل الجوف وسار الى مدن Nescus

---

١ الصفـة (ص ١١٦) .

٢ Glaser, Skizze, II, S., 52.

٣ ينطقون القاف « كاف » أعجمية گ .

٤ Die Araber, I, S., 96, Caskel, Liyan, S., II. f.

٥ الصفـة (ص ١١٥) .

٦ Glaser, Skizze, II, II, S., 55, 61.

Atroula ، و . المعينية القديمة (نشق) وهي ، Aska = Asca = Nesca
و Marsiaba Athrulla[1] . والجوف هو موطن المعينين ، فلما غلبهم السبئيون على أمرهم ، أصبحت السيادة عليه لسبأ قبل مدة طويلة من وصول الرومان اليه. ويظهر أن السبئين كانوا يتصورون ان الرومـــان يسلكون الطريق التي هي الى الغرب . فلما سمعوا أنهم سلكوا طريقاً تقع الى الشرق ، أسرعوا الى الجوف ، لمنعهم من الزحف الى العاصمة . ويرى (كلاسر) أن الرومان سلكوا في مسيرهم الى اليمن طريقاً تقع على حافات (السراة) الشرقية ، وذلك ليتجنبوا الاحتكاك بالقبائل الساكنة على الطريق التجارية التي تسلكها القوافل التجارية[2] . ويعـــارض رأي (شبرنكر) الذي يذهب إلى أنهم سلكوا طريق وادي إضم الى المدينة ، ومنها إلى نجد فالفلج ، ومنه الى نجران[3] . أما (فورستر) ، فيرى ان الرومان بعد أن نزلوا (لويكـــة كومة) ، وهـــي في نظره (الحوراء) ، سلكوا طريق (يثرب) ، ثم اتجهوا الى (القصيم) حيث دخلوا قلب نجد ، ثم عقبوا بعد ذلك الطريق المؤديـــة إلى اليمن ، فساروا في اتجاه نجران ، ومنها دخلوا اليمن ، فاصطدموا باليمانيين على نحو ما قصه علينا (سترابون) و (بلينيوس)[4]. ولما عادوا ، سلكوا طريقاً أخرى أقصر ، وفرت عليهم بعض الزمـن . مرّوا بنجران ، ومنها إلى (الآبار السبع) (العيون السبع) وهي (الحصبة)، وهو موضع يقع على مسافة (١٥٠) ميلاً الى الغرب من نجران ، ومنـــه الى موضع Chaalla ، وهو (خولان) في بلد (خولان) ، ومنه إلى Malotha ، وهو مدينة تقع على نهر هو وادي (ضنكان)[5] . ويرى أن Malotha هي (تبالة)، ومن (تبالة) الى (ينبع) حيث أبحر من بقي حياً من الرومان الى مصر[6] .

وذكر (سترابون) ان موضع (الآبار السبع) انما دعي بهذا الاسم لوجود

---

١ Die Araber, II, S., 50.

٢ Glaser, Skizze, II, S., 62.

٣ Glaser, Skizze, II, S. 54.

٤ Ibid, II, S., 50, Forster, II, P., 303.

٥ وهو واد في اسافل السراة يصب في البحر ٠ وهو من مخاليف اليمن ، البلدان (٥/٤٤٢) ٠

٦ Forster, II, PP., 328.

آبار فيه [1] . ومن الصعب جداً في الزمن الحاضر البت في موضع هذا المكان . أما (فلبي) ، فيرى انه أرض (خيبر) التي اشتهرت بكثرة مياهها ، أو موضع (بيشة) . وأما Chaalla و Malothas ، فيرى (فلبي) انهما موضعان غير معروفين ، يصعب تعيينها في الزمن الحاضر [2] . وتفصل بين (الآبار السبع) و Chaalla صحراء . و Chaalla قرية تليها قرية أخرى هي Malothas وتقع على نهر [3] .

ويرى (كلاسر) احتمال كون Chaalla ، موضع (كهالة) ، أو موضع ما يدعى بـ (حوالة) ، وهو – في نظره – موضع Achoali في تأريخ (بلينيوس) [4]. وأما Malothas ، القرية التي تقع على نهر ، فيرى ان من الصعب تعين موضعها ، ولكنها تقع على وادي (بيشة) على كل حال [5] . و (كهالة) موضع من المواضع المعروفة في اليمن ، وبه مياه [6] . ولا يمكن أن يكون المكان الذي قصده (سترابون) ، لأن ذلك المكان بعيد عن (الآبار السبع) ، وتقع (الآبار السبع) على مسيرة أحد عشر يوماً عن Negrana ، أي (نجران) ، فيقع مكان Chaalla ، اذن شمال (الآبار السبع)،أي أبعد منه عن (نجران) . فهو اذن من الأماكن التي يجب البحث عنها في الحجاز .

وسجل خبر حملة (أوليوس غالوس) على اليمن باختصار رجل آخر مات بعد (سترابون) (المتوفى عام ٢٤ ب. م.) بمدة قصيرة ، هو (بلينيوس) المتوفى سنة (٧٩ ب. م.) [7] . وقد أشار في مطلع حديثه عن الحملة إلى أن (أوليوس غالوس) كان الروماني الوحيد الذي أدخل محاربي (رومة) جزيرة العرب . وقد خرّب مدناً ، لم يرد ذكرها في كتب من تقدمه من المؤلفين ،

---

١ Strabo, III, P., 212.
٢ Philby, Backround, P., 101.
٣ Strabo, III, P., 212.
٤ Glaser, Skizze, II, S., 63.
٥ Ibid,
٦ الصفة (ص ١٨٨ ، ٢٠١) ، البكري ، معجم (٤٨٢) ، « طبعة وستنفلد » .
٧ H. Rackham, Pliny, Natural History, Vol., I, P., VII, ( ) (Leob Classical Library).

ولذلك ذكرها ، وهـي : Negrana و Nestus[1] و Nesca و Magusus[2]
و Caminacus[3] و Labaetia[4] و Mariba[5] التي يبلغ طول محيطها ستة أميال ، و Caripta ، وهي أبعد موضع بلغه (غالوس)[6] . وأمـا (ديوكاسيوس) Dio Cassi ، فيرى ان مدينة Adula هي آخر موضع بلغه الرومان[7] .

و Negrana ، هي نجران كما ذكرت سابقاً . اما Asca و Nesca ، Neska فدينة (نشق) وتعرف اليوم بـ (البيضاء)[8] . واما Magusa = Magusum ، فيرى (كلاسر) انها قريبة من (مجزر) ، وهو موضع يقع جنوب (البيضاء) او (مجزع) ، او (مجزأة)[9] . وأما (كروهمن) Grohmann فيرى أنهـا قرية (مجزرة) المعروفة حتّى هذا اليوم . وهي في موضع ذي مياه ، وقد كان مأهولاً وما زال . لذلك رأى انه ذلك المكان الذي قصده (بلينيوس)[10] .

وأما Caminacum ، فهو قريب من (كمنـة) (كمنهو) الواردة في المسند . و (كمنا) في الزمن الحاضر[11] ، ويقع شرق (البيضاء) وشمال شرقي (مجزر)[12] . وأما Caripeta ، فيرى (كلاسر) أن هذه التسمية قريبة من من (خربة) العربية ، وان (بلينيوس) اللذي اوردها إنما اراد احدى المدن التي كانت خربة في ذلك العهد[13] . ويذهب (فلبي) الى هـذا الرأي أيضاً ، ويرى احتمال كون Caripeta موضع (خربة سعود) . وذهب بعض آخر الى

---

١ «Amnestrum», «Nestrum», «Nestum», Skizze, II, S., 56, 61; «Nestum»; Pliny; II, P., 458.

٢ «Masugum», Magusum», Glaser, Skizze, II, S., 56, 61.

٣ Pliny, II., P., 458, «Caminacum», Glaser, Skizze, II; S.; 56; 61.

٤ «Labecia», «Labetia», «Labaetiam», Glaser, Skizze, II, S., 56; 61; Pliny; II; P.; 458.

٥ «Maribam», «Mariva», Skizze, S. 56, 61, Pliny, II; P. 458.

٦ Pliny, II, P., 458. f., Bk. VI, 160.

٧ Glaser, Skizze, II, S., 56.

٨ Glaser, Skizze, II, S., 61, Beiträge, S., 31.

٩ Glaser, Skizze, II, 61, Beiträge S. 31.

١٠ Beitrage, S., 15.

١١ الصفـــة (١٦٧) .

١٢ Glaser, Skizze, II, 61, Beiträge, S. 31.

١٣ Glaser, Skizze, S., 58.

انها موضع (حريب) ويسمى بـ (اساحل) في (رغوان)[١] .

ويرى (شبرنكر) أن Labetia او Labecia إنما هي (لقبق) . اما (كلاسر) ، فيرى انها (لوق) ، وهو موضع خربة في (شحاط) عند جبل (قدم) على مسيرة ساعتين من شمال شرقي معين ، او قاع (لبة) غرب البيضاء[٢] ، وان Nestum هي (نسم)[٣] ، او (وادي وسط) ، الواقع بين الخب والجوف ، او (وادي وسطر)[٤] ، او (نشان) (نشن) ، المدينة المعينية القديمة[٥] ، ، ان Marsiaba ، او Mariva ، إنما هي Mariba لدى (سترابو) اي (مأرب) في رأي بعض الباحثين . اما (كلاسر) فيرى ان الرومان لم يتمكنوا من الوصول الى مأرب ، وان Marsiaba او Mariva أو Mariaba ، لا يقصد بها مأرب عاصمة سبأ ، وإنما هي موضع آخر في الجوف[٦]. فلو كانت هي عاصمة سبأ ، لما ذكر (سترابون) انها عاصمة شعب يعرف باسم Rhamanitae ، كما يحكمه ملك ، يسمى Ilasaros ، وفي ذلك دليل على انها مأرب اخرى ، لا مأرب السبئيين[٧] .

و Ilasaros من الأسماء العربية ، ولا شك ، وقد صحف على ما يظهر ، فصار بهذا الشكل . والظاهر انه (الشرح) (اليشرح) في الأصل . وقد رأينا ان عدداً من ملوك العرب الجنوبيين عرفوا باسم (الشرح) . وقد يكون سيد قبيلة من القبائل الكبيرة ، اسمها Rhamanitae على حد قول (سترابون) .

ولسنا نعلم على وجه التحقيق من هم Rhamanitae الذين كان يحكمهم (الشرح) وقد رأى (فلبي) احتمال كونهم (ردمان) أو (رعمان)[٨] . واذا أخذنا بهذا الرأي ، وجب القول إن Marsiaba هي مدينة أخرى، لا(مأرب) عاصمة سبأ كما ذهب (فلبي) الى ذلك . و (ردمان) من الأسماء المشهورة

---

١ Philby, Sheba's P. 10, Beiträge, S. 31.

٢ Glaser, Skizze, II, S. 61, Beiträge, S. 31.

٣ الصفحة (١٦٧) .

٤ Glaser, Skizze, II, S., 62.

٥ Beiträge, S. 31.

٦ Glaser, Skizze, S., 58.

٧ Glaser, Skizze, S., 62.

٨ Phily, Background, P., 98.

المعروفة . وقد ورد في الحديث : « أملوك ردمان » ، أي مقاولها [1] . وقد ورد اسم (ردمان) في مواضع عديدة في كتاب (صفة جزيرة العرب)[2] . كما ان (ريمان) من الأماكن الشهيرة كذلك وهو مخلاف باليمن وقصر[3] . وأما(كلاسر) فقد سبق ان ذكر جملة أسماء تحتمل في رأيه أن تكون لها علاقة باسم هذه القبيلة . وهو يرى أيضاً احتمال كون الاسم Rambanitae بدلاً من Rhamanitae . وأما الأسماء التي ذكرها ، فهي : (رغوان) ، و (رابن) (رأبان) (ربان) و (رحبة) (رحابة) ، و (ريمان) ، و (غيمان) ، و (ردمان)[4] . أما (رابان) (ربان) و (ردمان) ، فمن أسماء القبائل أيضاً . ويرى ان موضع (ردمان) هو الى الجنوب من الأماكن التي بلغها الرومان ، ولذلك استبعد اسم (ردمان) من هذه الأسماء ، ثم استبعد كذلك (غيمان) ، و (وريمان) و (رحبة) أيضاً . فلم يبق لديه من هذه الأسماء الا (رغوان) و (رابن) (رابان) . أما موضع (رغوان) ، فيرى ان مكانه ملائم تمام الملاءمة ، إلا انه لم يثبت عنده انه اسم قبيلة ، فرجح اسم (رأبان) عليه ، وهو اسم قبيلة ورد في نصوص المسند ، ورد مثلاً في نص : « Glaser 302 »[5] ، ويعود الى أيام (ملوك سبأ) وكانوا من المعاصرين لمملكة (سمعي) ، ويرى ان الرأبانيين كانوا قد حافظوا على استقلالهم ، فكانت لهم مملكة في أيام (أوليوس غالوس) والظاهر انها حلت محل (سمعي) ، غير ان هذا لا يعني انها كانت مملكة بالمعنى المفهوم ، بل كانت مشيخة أو إمارة يتمتع ساداتها بلقب (ملك) ، وكانت تابعة لمملكة (سبأ وذي ريدان)[6] .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن Ilasaros هو (الشرح يحضب) وكان إذ ذاك في نزاع وصراع مع (ذي ريدان) أي الحميريين الذين كانوا قد ظهروا للوجود ، وأخذوا ينازعون الأسرة السبئية الحكم منذ حوالي سنة (١٠٠ ق. م.) وذلك في عاصمتهم (ظفار) ومن مقرهم في حصن (ريدان) . فكان غزو

---

١ منتخبات (ص٧٦) ، البلدان (٤/٢٤٤) .
٢ الصفة (٥٥ ، ٨٠ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٣٥) .
٣ البلدان (٤ / ٣٥١) ، الصفة (٧١ ، ٧٥ ، ١٠٠ ، ١٢٥ ، ٢٢٤) .
٤ Glaser, Skizze, II, S., 59.
٥ Glaser, Skizze, II, S., 59.
٦ Glaser, Skizze, II, S., 60.

(أوليوس غالوس) لليمن في وقت ملائم جداً للرومان ، ولكن ظروفاً أخرى عاكستهم فاضطرتهم إلى التراجع والعودة فتمكن بذلك (الشرح) من التغلب على خصومه[1] .

وقد ذهب (فون وزمن) الى ان مدينة Marsaiba/Marsiaba هي (مأرب) ، وقد حرفت وتحولت من Mariaba ، حتى صارت على الشكل المذكور . وقد ذكر (سترابون) ان (أوليوس غالوس) حاصرها مدة ستة أيام ، ثم رفع الحصار عنها لقلة مياه الشرب ، واضطر بذلك الى التراجع[2] .

وأما شعب Rhamanitai/Ramanitai فانه (ريمان) . وريمان قبيلة عربية ورد اسمها في عدد من كتابات المسند . ويرى (فون وزمن) ان الرومان أخطأوا في اسم الشعب ، وذلك لأن قيلاً من أقيال هذه القبيلة كان هو المدافع عن (مأرب) في ذلك الزمن وقد سموا باسمه ، فظنوا ان ريمان اسم أهل مأرب ، ولذلك جعلوا (مرسيابة) عاصمته وصيّروا Ilasaros ملكاً من ملوكهم من جراء وقوعهم في هذا الوهم[3] .

وذهبت (بيرين) Pirenne إلى ان Marsiabe والصور الأخرى للكلمة ، إنما حدث من تحريف وقع في اليونانية ، وان الأصل (مأرب سبأ) . فحرفها اليونان الى Marsiabe . وقد استدلت على صحة رأيها بما ورد في المؤلفات العربية (من مأرب سبأ)[4] .

وقد ذكر (بطلميوس) شعباً سماه Rabanitai او Arabanitai ، تمتد مواضعه الى جبل Klimax ، أي الجبل المدرج ، والظاهر انه يقصد سلسلة (السراة) التي يعمل الناس فيها مدرجات لغرس الكروم ، وغيرها . وذكر بعدهم شعباً آخر هو Masonitai . يرى (كلاسر) انه (مأذن)، ويسكنون في أعالي (الحارد) اي في جوار (رأبان) ، وهو يطابق قول (بطلميوس) وواقع الحال[5] .

---

١ Beiträge, S. 33.

٢ Beiträge, S. 32.

٣ Beiträge, S., 34.

٤ Die Araber, II, S., 50, Le Royaume Sud Arabe de Qataban et sa Datation, 1961, 112.

٥ Glaser, Skizze, II, S., 60.

وقد وردت جملة كتابات ذكرت اسم (ريمان) منها كتابة من أيام (الشرح يحضب) . وقد تبين من تلك الكتابات ان (آل ريمان) كانوا من الأسر المعروفة في هذا العهد ، ومنهم من تولى مناصب دينية وحكومية ، ولذلك رأى بعض الباحثين انهم هم Rhamanitae الذين ذكرهم (سترابو) . ويرون ان سترابو إنما سمى مدينة Marsiaba اي (مأرب) بمدينة الـ Rhamanitae لأن الذي حارب الرومان وقاتلهم ودافع عن المدينة قائد (ريماني)،اي من (ريمان) ، فظن (سترابو) انها مدينة من مدنه فنسبها اليه[1] .

ومن طريق (صراوح) تراجع (أوليوس غالوس) ، على طريق (اترلة) Athrulla الى (نجران) سالكاً وادي مذاب ، ثم (وادي دماج)[2] . أما (الآبار السبع) التي ذكرها (سترابون) ، فتقع ، في رأي (كلاسر) ، في (عسير) . واما موضع (Chaalla) ، فهو (كهالة) او (حوالة) ، ومنه الى Malothas الواقع على نهر ، لعله (وادي بيشة) ، الى موضع قفر، اوصلهم الى تهامة عسير فالحجاز فمدينة Egra حيث ابحر منها الى مصر[3] . وما ذكرته آنفاً عن تشخيص هذه المواضع التي ذكرها (سترابون) او (بلينيوس) او (ديو كاسيوس) ، إنما هو مجرد آراء وحوس . لعدم وجود كتابات او ادلة لدينا ترشدنا الى تعين تلك المسميات على وجه مقنع صحيح .

وقد ذهب (ديو كاسيوس) Dio Cassius الى ان مدينة Athrula Athoula / Athulula ، كانت آخر موضع بلغته جيوش (اوليوس غالوس) في العربية الجنوبية ، وهو يخالف بذلك (بلينيوس) الذي ذكر ان مدينة Caripeta هي آخر المواضع التي بلغها جيش الرومان. ومدينة Athrula/Athloula/Athlula هي مدينة (يثل) على رأي بعض الباحثين الذين يرون ان الروم حرفوا الاسم العربي حتى صيّروه على الشكل المذكور ليستقيم بذلك مع لسانهم[4] .

ولم ترد في النصوص العربية الجنوبية اشارة ما الى غزو قام به الروم أو غيرهم لبلاد العرب . وقد تساءل (كلاسر) عن سبب سكوت المساند وعدم اشارتها

---

١ Philby, CH 322, 432, 512, Rep. Epig. 2742, 2743, Beitrage; S.; 34.

٢ الصفة (٨٢ ، ٨٣ ، ١١٤) .

٣ Glaser, Skizze II, S., 63.

٤ Beiträge, S., 32, Die Araber, II, S., 50.

إلى حملة (أوليوس غالوس) ، هذه الحملة المهمـــة التي لا بد انها قد تركت أثراً بعيداً في نفوس السبئيين وغيرهم من القبائل الساكنة في اليمن والحجـــاز ، ورأى احتمال كون المراد من حملـــة (ذشامت) (ذشمت) الواردة في النص Halevy 535 الرومان المسيطرين على الشأم ، وجملة (ذيمنت) السبئيين[1]. وعلى ذلك يكون هذا النص كما يقول قد تعرض لخبر الحرب التي نشبت بين الرومان والسبئيين . أما أنا فأستبعد جداً هذا الرأي ، بل هذا الاحتمال، وأرى ان الجواب عن هذا السؤال هو اننا لم نعثر حتى الآن على جميع المساند ، فنذهب إلى أمثال هذه الفرضيات ، وما عثرنا عليه هو شيء يسير بالقياس إلى ما قد يعثر عليه في المستقبل، ولا سيما إذا ما علمنا ان هذه المساند إنما عثر عليها على ظاهر الأرض، وان العلماء لم يقوموا بحفريات علمية في أعماق الأرض . ولنا وطيد الأمل بالعثور على كتابات كثيرة مطمورة تحت الأنقاض ، قد تأتـــي لنا بوثائق خطيرة عن تأريخ العرب الجنوبيين ، وقد تضع بين أيدينا اصول مكاتبات ومعاهدات ووثائق على جانب كبير من الأهمية ، كما يحدث في سائر الحفريات والتنقيبات ، وإذ لم يقم العلماء حتى الآن بحفريات علمية على نطاق واسع ، فـــلا داعي اذن لإثارة سؤال في الزمن الحاضر كهذا السؤال .

لقد ظن (هاليفي) ان الحظ سيسعده في أثناء سفـــره إلى اليمن ، فيظفره بآثار تشير إلى تلك الحملة الرومانية المخفقة ، غير ان الحظ لم يحالفه، ولم يكتب له التوفيق . كذلك لم يكن الحظ حليفاً لـ (فلبي) ولا لغيره من السائحين[2] . فلم يستطع أحد منهم حتى الآن الاهتداء إلى كتابة عربية او اعجمية او اثر يشير إلى تلك الحملة المشؤومة، حملة الرومان ، للاستيلاء على العربية السعيدة على أرض الطيب واللبان والمر والبخور .

وأشار (سترابون) الى ان ارض الطيب والبخور ، تتألف من اربعة أقسام، هي : Minaei أي معـــين ، ومدينتهم الكبرى هي : Carna او Carnan و Sabaea وهم سبـــأ ، وعاصمتهم هي Mariaba ، و Chattabanae وهم (قتبان) ، وعاصمتهم Tamna ، وتقع بلادهم على ساحـل البحر العربي ،

---

١ Glaser, Skizze, II, S. 65.

٢ Philby, Background, P., 32.

و Chatramotita ، وهم حضرموت وعاصمتهم Sabata ، وهم أبعد هذه الشعوب إلى الشرق[1] . وقد نقل (سترابون) كلامه هذا من (ايراتوستينس) الذي عاش قبله كما هو معلوم[2] ، فهو يتحدث إذن عن الحكومات الكبرى التي حكمت العربية الجنوبية ، وعن الشعوب التي وصل علمها إلى مسامع اليونان والرومان .

وتطرق (سترابون) بشيء من الايجاز إلى الناحية الاجتماعية التي كانت عليها اليمن في ذلك العهد ، فذكر ان الحياة كانت طبقات،لكل طبقة واجب ووظيفة، وراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء . فهناك طبقة المحاربين ووظيفتهم الدفاع عن الطبقات الأخرى ، وطبقة المزارعين وشغلهم تهيئة القوت والطعام لاعاشة سائر الشعب ، وطبقة ثالثة وظيفتها التجارة ، والتجارة لا تنتقل من أسرة إلى أخرى، وعلى كل فرد أن يمارس حرفة أبيه[3] . وذكر أشياء أخرى يظهر ان طبيعة أكثرها من نوع قصص التجار والسياح ، لا يعتمد على التدقيق والتمحيص .

ويظهر ان تلك الانتكاسة لم تؤثر في خطة (أغسطس) في السيطرة على البحار ، إذ نرى (سترابون) المعاصر لهذا القيصر ، يشير إلى أن الرومان كانوا يرسلون سفناً إلى الهند ، لم يتعودوا ارسال أمثال عددها فيما مضى ، كما عثر على نقود رومانية في الهند ، وأقيم في ساحل (مالابار) معبد كرس باسم ذلك القيصر ، مما يدل على وجود جالية رومانية فيه[4] . ويظهر ان اسطول الرومان كان قوياً وقد استعمل سفناً كبيرة ، وضع فيها محاربين من رماة السهام ومن المقاتلين المدربين ، وبذلك تمكن من الوصول إلى الهند ومن الرجوع منها بانتظام وبحرية .

لم تصل الينا أخبار مفصلة عن مشروعات الرومان في جزيرة العرب بعد هذه الحملة . والظاهر أنهم غيّروا خططهم السياسية ، وكيفوها تكييفاً جديداً يوائم التطور الذي حدث في الموضع العالمي في القرن الأول للميلاد ، ويناسب الدروس التي تعلموها من حملتهم المخفقة المذكورة . فلم يفكروا في فتح عسكري مباشر

---

١ Strabo, III, P., 190, 213.

٢ Strabo, III, P., 189.

٣ Strabo, III, P., 213.

٤ العرب والملاحة (ص ٧٥) .

لجزيرة العرب يكون متجهاً من الشمال للجنوب ، مخترقاً الطرق البرية ، بل رأوا تقوية أسطولهم في البحر الأحمر ، وتحسين علاقاتهم السياسية بالإمارات العربية وبسادات القبائل ، للمحافظة على مصالحهم الاقتصادية ، وتوجيه أنظارهم نحو ساحل إفريقية وحكومة الحبشة . فعقدوا اتفاقيات صداقة ومودة مع حكام (أكسوم) ، وكونوا حلفاً معهم ، وبذلك أخذوا يضغطون منذ ذلك العهد على السبئيين .

ويحدثنا صاحب كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) أن الرومان عقدوا معاهدة تحالف مع ملك (ظفار) ، وهو ملك Homeritae [١] ، وتدل هذه الإشارة الغامضة على وجود صلات بين الرومان وبين رئيس حمير في هذا العهد . وفي هذا التحالف ما فيه من شرح للعلاقات السياسية الجديدة التي حدثت بين الرومان والعربية الجنوبية ، ومن محاولات الرومان ، ثم البيزنطيين من بعدهم ، التدخل في شؤون البلاد العربية الجنوبية بأسلوب جديد .

ولا ندري متى احتل الرومان ميناء(عدن) الذي يسمونه Eudamon – Emporion والذي دعاه (بلينيوس) Athene = Athenae = Athaene [٢] ، إذ يحدثنا مؤلف (كتاب الطواف حول البحر الأريتري) أن (القيصر) Kaisar استولى عليه في زمن غير بعيد عن زمانه ودمره . وقد تصور بعضهم أن ذلك وقع في أيام (كلوديوس) (٤١ – ٥٤م) أو قبلها بقليل[٣] . ولعل لمساعدات (الأكسوميين) لحكام (رومة) فضلاً في هذا الاحتلال[٤] . ولا بد أن يكون هذا الاستيلاء قد حدث من البحر ، إذ لا يعقل وقوعه من البر . فقد كان البر في أيدي السبئيين والقبائل العربية الأخرى . وقد رأينا قبل قليل اخفاق الرومان في الاستيلاء على اليمن ، ورجوعهم عنها خائبين . ولأهمية (عدن) من جميع الوجوه نستطيع أن نتصور انهم قد حصلوا على فوائد عظيمة من هذا الاحتلال الذي لا نعرف منتهاه وخاتمته ، وكيف حدثت تلك النهاية .

ويرى بعض الباحثين أن استيلاء الرومان على (عدن) كان بعد حملة

---

١ Hourani, P., 32.

٢ Stuhlmann, S., 12, Parola del Passato, 9 (1954), 401, Araber; I; S.; 43.

٣ Araber, I, S., 43.

٤ Stuhlmann, S., 12.

(أوليوس غالوس) على اليمن ، وربما بعد الميلاد بقليل . وذلك بعد اخفاق تلك المحاولة الرامية إلى بلوغ المحيط الهندي من البر والاستيلاء على العربية الجنوبية ، تعويضاً عن تلك الخطة الخائبة، فنجح الرومان في الاستيلاء على الميناء من البحر ، وذلك في حوالي السنة (٢٤) بعد الميلاد ، وهو زمن غير بعيد عن حملة (أوليوس غالوس)[١] .

وقد ذهب (مومسن) Mommsen ، إلى أن الاستيلاء على عدن كان قد وقع في أيام (كايوس قيصر) Caius Caesar ، إذ ورد في الأخبار ان أسطوله في البحر الأحمر كان قد استولى على جزء صغير من بلاد العرب ، فيحتمل على رأي (مومسن) أن يكون المكان الذي استولى عليه هو عدن . ويحتمل على رأيه ايضاً ان يكون هذا الاحتلال قد وقع بعد قليل من هذا الوقت . بينما ذهب آخرون إلى أنه وقع في أيام (كلوديوس) Claudius ، أو (نيرون) (نيرو) Nero[٢] .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن القيصر المقصود هو (كركلا) (كركلا) Caraculla ، وذلك لأنه كان قد هاجم العرب الـ (سكينيته) Scenites في أثناء الحروب الثانية التي أعلنها القيصر (سبتيميوس سويروس) Septimius Severus على (البارثيين) Parthians ، (١٩٧ – ١٩٩ م) . وذهب بعض آخر الى أن في خبر مؤلف كتاب « الطواف حول البحر الأريتري » بعض الوهم في تثبيت لفظة (قيصر) Kaiser ، وذلك لأن العادة لم تكن قد جرت في ذلك الوقت بتلقيب ملوك (رومة) بلقب (قيصر) . لذلك رأى ان في الكلمة تحريفاً ، وانها قد تعني شيئاً آخر . وقد يكون تحريف Elisar أو Ilaisar ، أي (الأشعر) ، وهم Elisaroi عند (بطلميوس)[٣] . ويرى من يذهب الى ان المراد بـ Kaiser (البزر) Elisar ، أي (الأشعر) (اشعرن) ، ان الاستيلاء على ميناء (عدن) وتخريبه كان بعد اخراج الحبشة عن العربية الجنوبية، وان أرض (الأشعريين) غير بعيدة عن عدن . لذلك فلا تستبعد مهاجمتهم لعدن

---

١ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 170.

٢ J. Oliver, Thomson, History of Ancient Geography, Cambridge, 1948, P., 296.

٣ F. Altheim, Geschichte der Hunnen, V, 1962, S. 13, Die Araber; S. 42; Le Muséon; 1964; 3-4. 480.

في وقت غير بعيد عن أيام مؤلف الكتاب ، وان المؤلف ذكرهم، ولكن تحريفاً وقع في الاسم فحوّله إلى Kaiser[1] .

وقد ذهب بعض الباحثين الى ان لفظة Kaiser هي كلمة Ilisaro أو Ilasar المذكورة في خبر (سترابون) عن حملة (أوليوس غالوس) ، وقصد بها (الشرح يحضب) .. وهو يرى ان ميناء (عدن) قد خرب في ابان حروب (الشرح يحضب) مع قتبان وحضرموت،وان مؤلف ذلك الكتاب أراد (الشرح) Ilasar ، ثم حرف النسّاخ اللفظة حتى صارت Kaiser[2] .

وقد صار في امكان السفن الرومانية بعد الاستيلاء على عدن الاستراحة فيها والاقلاع منها إلى الهند وإلى السواحل الافريقية والعودة اليها . وقد وضع الرومان فيها حامية رومانية لضمان سلامة الرومان في هذه المنطقة ، كما وضعوا سفناً تحمل رماة من الرومان لمقاومة لصوص البحر من التحرش بالسفن ، وقد كان أولئك اللصوص يملأون البحار[3] .

وفي عدن عند الـ Crater (الكريتر) صهريج كبير لخزن الماء ، من عهد ما قبل الميلاد على رأي بعض الباحثين ، يتسع لزهاء عشرين مليون (غالون) من الماء ، تأتي اليه من الأمطار ، يظهر انه استعمل في ذلك العهد لتموين هذا الميناء المهم بماء الشرب ، لعدم وجود موارد كافية من الماء ، تسد حاجة أهله به[4] .

وقد حصل ميناء (عدن) على شهرة بعيدة منذ هذا الزمن ، وظل محافظاً عليها وعلى أهميته حتى اليوم . ولا ندري متى اضطر الرومان الى ترك هذا الميناء، على وجه صحيح مضبوط . ولكن الذي نعرفه أن الرومان ، ثم الروم من بعدهم، بقوا يقيمون وزناً له ، ويهتمون بشأنه ، لأنه كان أسهل طريق لهم توصلهم إلى سواحل إفريقية والهند والعربية الجنوبية ، ولذلك كانت فيه دائماً جالية كبيرة من أصحاب السفن والتجار . ولعلّ هذا الاهتمام هو الذي حمل القيصر (قسطنطين

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P., 481.

٢ Beiträge, S., 88

٣ Sanger, P. 170.

٤ Sanger, the Arabian Peninsula, P. 208.

الثاني) على إرسال بعثة نصرانية تبشيرية الى عدن ، بلغتها سنة ٣٥٦ للميلاد[١] .
ويفهم من كلام مؤلف (كتاب الطواف حول البحر الأريتري) أن ميناء عدن Eudaimon Arabia كان الموضع الذي تقصده السفن القادمة من مصر ومن الهند ، ففيه تفرغ حمولات تلك السفن لتنقل منها الى مصر أو إلى الهند[٢]، فميناء عدن كان ذا شأن خطير في التجارة العالمية إذ ذاك ، وكان الموضع الذي تتبادل فيه السفن الحمولات .

وعرف ميناء عدن بـ Arabia Emporion عند (بطلميوس)[٣] ، وكان (أورانيوس) Uranius أول من سماه بـ (ادنه) Adana ، أي (عدن) ، وذلك كما جاء في كتاب (اصطيفانوس البيزنطي) الذي عاش في القرن الثالث بعد الميلاد[٤] . وذكر اسم Adane في أخبار تنصر الحميريين في أيام القيصر (قسطنطين الثاني) (٣٣٧ – ٣٦١ م)[٥] . وقد سمي ميناء عدن بـ Athana عند (بلينيوس)[٦] وبـ (Adana) ، عند (فيلوستورجيوس) Philostorgius[٧]. وكان قد خرب وتعطل أيام حملة (أوليوس غالوس) ، فحل ميناء Muza على البحر الأحمر محله ، ولكنه مع ذلك لم يفقد منزلته ، وعادت اليه مكانته بعد مدة قصيرة من هذه الكارثة[٨] .

وقد ذكر (بليني) بعد اسم (عدن) Athana = Athenae اسم قبائل جعل أرضها على مقربة من (عدن) . فذكر اسم Caunaravi و Chorranitae و Cesani = Chani[٩] . وفي هذه الأرضين ، وجدت كما يفهم من أخبار (بليني) وغيره ، مدن يونانية سكنها يونان ، منها : Arethusa و Larisa و Chalcis . وهي مدن خربتها ودمرتها الحروب[١٠] .

١ Sanger, P. 203.
٢ Beiträge, S. 88.
٣ Beiträge, S. 89.
٤ Beiträge, S. 89.
٥ Philostorg., Hist. Eccles., III, 5, Beiträge, S. 89.
٦ Pliny, 6, 28, 32.
٧ Philosotorgius. H. Eccl., 3, 4, O'Learly, P. 108.
٨ O'Leary, P. 96.
٩ Pliny, 6, 28, 32.
١٠ Araber, I, S., 120.

ويظن بعض الباحثين ان المدن اليونانية التي أشير اليها ، والتي ذكر (بليني) انها خربت ودمرت بالحروب ، هي من المستوطنات التي أنشأها وأقامها (البطالمة) على السواحل العربية ، لايواء السفن اليونانية والتجـار والجنود الذين زرعوا في هذه الأماكن لحماية تجارة البطالمة والسيطرة منها على السواحل العربية وعلى البحار[1]. فلما ضعف أمر البطالمة ، هاجمت القبائل العربية هذه المواضع واستولت عليها ، فخربت تلك المدن ، أو غلب عليها العرب ، وتبدلت أسماؤها إذ تحولت إلى أسماء عربية .

وميناء Qena(قنا) الذي يقع على المحيط الهندي ، كان أيضاً من الموانىء المعروفة التي يقصدها التجار في هذا الزمن فتصل اليه السفن للامتيار والخروج منه إلى الهند . وشهرته هذه قديمة ، ويغلب على الظن انه ميناء (كنة) الذي ذكر مع (عدن) في سفر (حزقيال) ، لأن القرائن تدل على انه هو المقصود من الآية في هذا السفر : « حرّان وكنة وعدن تجـار شبا وآشور وكلمد تجارك »[2] .

وقد ذكره (بلينيوس) في جملة الموانىء المقصودة التي كانت السفن الرومانية تصل اليها وهي قادمة من ميناء Berenice بمصر . وهذه الموانىء هي: Muza ، أي (موزع) عند (مخا) و Ocelis عند باب المندب ، و Cane (قنا) الميناء الذي نتكلم عنه[3] .

وذكر مؤلف كتاب « الطواف حول البحر الأريتري » هذا الميناء أيضاً ، كما ذكر ميناء Mousa = Muza وعدن، و Ocelis = Okylis . وقد ذكر ان هذا الميناء الأخير كان قرية. أما ميناء (قنا) (كنا) (كانه) Kany = Kana (كان) فكان في أرض الملك Eleazoz ، أي (العزيلط) ملك حضرموت ، وذكـر ان في مقابـل هذا الميناء جزيرتين ، تسمى احداهمـا جزيرة الطيور Ogneun ، وتسمى الأخرى جزيرة (القباب) ، والجزيرة الأولى هي جزيرة (سيخا) في الزمن الحاضر ، وأما الثانية فهي جزيرة (براقة)[4] . وذكـر

---

١ Araber, I, S., 121, W. W. Tarn, Journ. Egypt. Arch., 15, (1929), II.

٢ Beiträge, S. 88.

٣ Beiträge, S. 89.

٤ Beiträge, S. 90.

مؤلف الكتاب المذكور ان اللبان والمر وبقية الأفاويه تحمل من منابتها إلى ميناء Kany وقد تحمل على وسائل النقل المائية المصنوعة من قرب منفوخة بالهواء ، مشدودة إلى جذوع أو أخشاب بحبال تربط بينها ، لتوصل تلك المواد الثمينة إلى الميناء المذكور . ثم توزع من هذا الميناء على التجار أو ترسل في السفن إلى الأسواق العالمية ، كما ذكر ان السفن تذهب من هذا الميناء إلى الهند وإلى الخليج وتذهب منه إلى موانىء الساحل الافريقي كذلك[١] .

وبعد أن كوّن (تراجان) ما يسمى بـ (المقاطعة العربية) (الكورة العربية) Provencia Arabaea في سنة (١٠٥م) أو (١٠٦م) ، أحدث تغييرات مهمة في الادارة وفي طرق المواصلات وأصول الجباية ، فأنشأ طريقاً مهمة من (أيلة) على رأس خليج العقبة مارة بالبتراء فبصرى الى (دمشق)، وصارت (بصرى) محطة مهمة جداً للقوافل القادمة من اليمن والحجاز ، وأصلح القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الأحمر ، وقوى الأسطول الروماني ، وأمده بسفن أحدث وأقوى من السفن القديمة ، وذلك لمقاومة لصوص البحر وللسير بحرية في البحر الأحمر ، ولاحتكار التجارة البحرية التي هي مصدر كل غنى وثراء[٢] .

ولا تزال آثار الطريق الرومانية باقية تشاهد حتى اليوم . تشهد بأهمية الطريق وبحسن هندستها بالنسبة الى ذلك الزمن . وهي تمر بمدن وقرى عديدة وتربط بينها : منها (ام الجمال) ، وهو موضع مهم كان ذا أهمية خاصة في العهد الروماني ، وفي ايام النبط ، حيث عثر فيه على كتابات نبطية عديدة ، وموضع (خربة سمرا) وهو موضع اشتهر في العهد الروماني وفي العهد البيزنطي الذي تلاه . وقد عثر فيه على آثار رومانية وبيزنطية ونبطية . ويظهر من مخازن المياه ومن آثار الآبار التي عثر عليها في هذا الموضع أنه كان مركزاً من مراكز تجمع القوافل التجارية ، وموضعاً من مواضع تربية الماشية[٣] .

وقد اكتسحت فتوحات (تراجان) مناطق واسعة من الشرق الأدنى، ويقال إنه وصل الى جنوب العراق ، وإنه دخل مدينة (كاراكس) (كركس) Charax ، وإنه نظر سفينة قاصدة الهند ، فتحسر وتنهد ، لأنه بلغ من العمر

---

١ Beiträge, S. 90.

٢ Basoor, Num. 85, 1942, PP., 3, 6.

٣ Basoor, Num. 85, 1942, PP., 6.

مبلغاً لا يسعفه على ركوب تلك السفينة واستنشاق هواء ذلك البحر ، وقد غبط الإسكندر الذي سبقه الى هذا المكان بمئات من السنين ، وكان أصغر منه سناً ، فبلغ مبلغاً لم يصل اليه ملك هذا الامبراطور[1] .

وقد كان على مقربة من (الرها) Edessa سيد قبيلة عربية اسمه (معنو) Ma'nu أي (معن) . وكان يحكم العرب المجاورين . ولما طلب القيصر (تراجان) حضوره اليه لمكالمته لم يلب طلبه بالرغم من علامات الودّ التي أظهرها له . ذلك لأن القيصر كان يشك في نياته ، فخاف أن يقبض عليه ، وتراجع إلى مواضع بعيدة ، فاستولى الرومان على (سنجار) Singara وكانت تابعة له . وقد نزل العرب فيها واختلطوا بسكانها الأصليين[2] .

لقد كان البخور رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة في ذلك العهد . كان سعره يساوي سعر الذهب والبترول في هذه الأيام . ولم يكن يشتريه لغلائه هذا إلا رجال الدين ، لاستعماله في الشعائر الدينية التي تستنزف القسم الأكبر منه، والملوك والأثرياء ، وذلك لحرقه في المناسبات الدينية وفي اجتماعاتهم . ونجد المؤرخ الكاتب (بلينيوس) يشتكي من تبذير (نيرون) عاهل (رومة) (٥٤ — ٦٨ م) ومن إسرافه في حرق البخور واللبان لاجراء شعائر جنازة زوجه المتوفاة . فقد كلف حرق تلك المادة الضرورية في مثل هذه المناسبات خزينة الدولة ثمناً باهظاً لارتفاع أسعارها في ذلك الزمن[3] .

وآخر ما يقال عن تدخل الرومان في شؤون جزيرة العرب ، هو ان القيصر (سبتيموس سفيروس) Septimus Severus ، أرسل حملة عسكرية في سنة (٢٠١ م) توغلت في (العربية السعيدة) ، غير ان معارفنا عنها قليلة ، فلا نعلم إلى أين وصلت وكيف انتهت[4] . ولعلها كانت قد تقدمت من (المقاطعة العربية) ، وهي المقاطعة الجديدة التي أوجدها الامبراطور (تراجان) على حطام مملكة النبط . وكان الذي قاد الحملة العسكرية على (العربية السعيدة) Eudaimon Arabia ابن القيصر (سبتيموس سفيروس)[5] . وقد اشتهر فيها ،

١ العرب والملاحة (ص ٤٩) .
٢ Die Araber, I, S., 313.
٣ العرب والملاحة (ص ٧٥) .
٤ Stuhlmann, S., 12.
٥ Die Araber, I, S., 44.

غير ان معارفنا عنها لا تزال قليلة . وقد وردت أخبار هذه الحملة في موارد لم تشر إلى اسم القيصر الذي أمر بتجريد تلك الحملة على (العربيـة السعيدة) ، إذ اكتفت بذكر لفظة (قيصر) . ويظهر منهـا ان جيوش القيصر أنزلت خسائر فادحة أولاً بالعرب الساكنين في البادية وقد دعتهم تلك الموارد بـ Skenitae ، أي (سكان الخيام) ويراد بهم الأعراب ، ثم سارت تلك الجيوش حتى بلغت (العربية السعيدة) ، وذلك في السنـة (١٩٦ – ١٩٨ ب. م.) . ولا نعلم إلى أي مدى وصل اليه القيصر أو ابنه في هذه الغزوات[١] .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى ان (كره كالا) Caracalla الذي خلف والده (سبتيميوس سفيروس) Septimus Severus في الحكم ، هو الذي قاد الجيش الرومانـي الذي زحف على العـرب الساكنين في أعالي (العربيـة السعيدة) Arabia Eudaimon كما يسميها (بطلميوس) ، وانه في ذلك العهد كانت حروب (سبتيميوس) مع (البارثيين) Parthians (١٩٧ – ١٩٩ م)[٢] . ويرون ان الرومان لم يتوغلوا بعيداً في جزيرة العرب ، وربما كان أقصى ما بلغوه ديار ثمود[٣] .

وفي كتاب « بحث في القضاء والقدر » Dialog über das Atom وهو المسمى أيضاً بـ «كتاب قوانين البلاد» Buch der Gesetze der Länder لـ (برد يصان) Bardesanes الذي عاش فيما بين السنة ١٥٤ والسنة ٢٢٢ للميلاد إشارة إلى ان الروم لما استولوا على العربية Arabia من عهـد غـير بعيد عن أيامه ، أبطلوا قوانين أهلها البرابرة[٤] . ويقصد بالبرابرة الأعراب على ما يظهر . ويظهـر انه قصد بذلك الحملة الرومانية المذكورة[٥] . وفي تأريخ الامبراطورية الرومانية أسماء رجال يرى بعض المؤرخين انهم كانوا من أصل عربي، من هؤلاء (بوليا دومنا) Iulia Domina ، و (يوليا ميـا) Julia Maesa ، و (ايلاكبل)

---

١ Die Araber, I, S., 44, II, S., 62, Miller, In Cambridge Ancient History, 12, (1939), 9, 16.

٢ F. Altheim, Geschichte der Hunnen, V, 1962, S., 13, Die Araber, I, S., 42.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 480.

٤ W. Cureton, Spicilegium Syriacum, 1955, 30.

٥ Die Araber, I, 43.

Julia Mammaea (يوليــا ماميــة) ، و (٢٢٢ — ٢١٨ م) Elagabal و (سيفيروس الكسندر) Severus Alexander (٢٢٢ — ٢٣٥ م) ، وكانوا في رأيهم من أسرة دينية عربية . أما (فليب) Philippus (٢٤٤ — ٢٤٩م) الذي تولى عرش (رومة) ، فقد عرف بـ (فليب العربي) ، وقد برز نفر من أسرة (الزباء) ملكة تدمر ، ونالوا مراكز ممتازة في الامبراطورية الرومانية[١].

وقد سعى القيصر (سفيروس الكسنــدر) (سويروس الكسندر) للوصول إلى الخليج ، وذلك في حروبه مع الفرس سنة (٢٣٢ م) . وقد تمكنت بعض قوّاته الزاحفة عن طريق نهر الفرات من بلوغ (البطائح) ، ولكنهـا جوبهت بمقاومة عنيفة من الفرس ، حتى اضطرت الى العودة من حيث أتت ، ولم تتمكن من تحقيق هدفها المنشود[٢] .

وحاول (فيليب العربي Philipus Arabus ،جاهداً الوصول الى الهند والسيطرة على الخليج ، غير أن الحظ لم يكن في جانبه في حروبه مـع الفرس ، واضطر إلى ترك ذلك المشروع الخطير[٣] .

وقد انتهز الأعراب فرصة الكارثة التي نزلت بالقيصر (فاليريان) Valerianus (٢٥٣ — ٢٦٠م) ، بتغلب الفرس عليه ، فأخذوا يهاجمون الخطوط الرومانية الدفاعية ، ويباغتون مدنها بغزوهم لها ، مما حمل من جاء بعده من حكام (رومة) على تقوية الحصون واعــادة ترميم استحكاماتها ، ومن هــذه مدينة Adraha ، وهي (درعه) (درعــا) (الدوعة) . لتصمد أمام غارات الأعراب التي تكاثرت عليها[٤] .

وقد كوّن الرومان كتائب من الجنود العرب ألّفوها لحماية الطرق وللدفاع عن حدودهم الطويلة المتصلة بالبوادي ، وهي حدود يصعب على الجيوش النظاميــة حمايتها ، ولذلك عمدوا الى تكوين هذه الكتائب . ونجد في الكتابات (الصفوية) كتابات دوّنها أصحابها يذكرون فيها فرحهم وحمدهم لآلهتهم لأنها ساعدتهم في فرارهم من الخدمة في الجيش الروماني ، ورجوعهم إلى أهلهم سالمين ، بعــد

١ Die Araber, I, S., 4.
٢ Die Araber, II, S., 63, Herodian, 6, 5, 2; 9-10.
٣ «Philip The Arabian», Porphyr., V, Plot., 3 : Die Araber, II, S., 63.
٤ Die Araber, II, S., 251.

أن قتل غيرهم في أثناء فرارهم على أيدي من كان يتعقبهم من عساكر الروم أو البيزنطيين لإجبارهم على الرجوع الى ثكناتهم . والظاهر أن كثيراً من هؤلاء كانوا من الجنود المرتزقة أو المسخرة التي أكرهت على الخدمة في الجيش . فنجد في احدى الكتابات أن رجلاً اسمه (حنين بن حنين بن أياس) اتخذ سنة فراره من (نمارة السلطان) ، مبدأ أرخ به ، دلالة على أهمية تلك المناسبة بالنسبة الى حياته،وذكر انه شاد قبراً على مرقد أخته (وبنى هرجم) (وبنى الرجم)، والرجم القبر . والظاهر أن (السلطان) ، اي (سلطان) الروم تعبير عن حكومة كانت قد أقامت مركزاً او حامية او معسكراً (نمارة) ، وكان حنين أحد من كان في ذلك المعسكر ففر منه ، وفرح لنجاته بنفسه . وتعبير (السلطان) من التعابير العربية القديمة التي لا تزال حية حتى اليوم[١] .

ونجد رجلاً آخر اسمه (مغير بن محلم) ، يؤرخ بسنة هرب رجل اسمه (جر) (جور) من (قصر نقات) (قصر نقأت) . والظاهر ان (قصر نقأت) كان ثكنة من ثكنات الروم ، وقد حشد فيها جمع من العرب لأداء الخدمة العسكرية للسلطات الرومانية ، ففر منها (جور) . وفي هذه السنة جاء (مغير) إلى قبور جماعة ذكر أسماءهم قتلوا فوضع رجماً أي حجارة فوق قبورهم تعبيراً عن تكريمه لذكراهم . وقد وردت في النص جملة (طر هسموي) ، أي (طير السماء) . وقد ذهب (ليتمان) E. Littmann إلى احتمال كون (طير) اسم رجل ، و (هسموى) بمعنى (السماوي) ، أي نسبة إلى بادية السماوة ، أو اسم موضع (سمه) (سامه) يقع جنوب شرقي (بصرى)[٢] .

ونجد شخصاً اسمه (تيم ايل) يذكر في كتابة له هذه الجملة « ونفر من رم » ، أي (ونفر من الروم) ، و (نفر) بمعنى (فر) في الصفوية[٣] . ولم يذكر (تيم ايل) سبب فراره من الروم ، ولعله كان من الكتائب العربية، ففر منها طلباً للحرية والراحة والمعيشة مع الأهل ، أو انه كان قد غزا حدود الروم ، فقبض عليه وسجن ففر من سجنه . ونجد رجلاً آخر يذكر انه (نفر

١ Enno Littmann, Safitic Inscriptions, Leyden, 1943, P. 140.
وسيكون رمزه : Safitic
٢ Safitic, P. 167.
٣ راجع الجملة الأخيرة من النص « ٨٧ » المنشور في كتاب : Safitic, P. 19.

من الروم) وذلك في سنة ثلاث . ويقصد بسنة ثلاث ، مرور ثلاث سنوات على تأريخ احتلال الرومان لبلاده ، وقد وقع ذلك في السنة (١٠٥) أو (١٠٦) للميلاد ، أي في عهد تكوين المقاطعة العربية وسقوط (بصرى) في أيدي الرومان على نحو ما ذكرت . فتكون اذن سنة هربه مساوية لسنة (١٠٨) أو (١٠٩) بعد الميلاد[١] .

وقد عبر شخص آخر عن هربه من الروم ورجوعه إلى اهله ناجياً سالماً بعبارة (ونجى من رم) ، اي (ونجا من الروم)[٢] . فيظهر انه كان أيضاً في أيدي الرومان لسبب نجهله فاهتبل الفرص ، وهرب منهم ، ونجا بنفسه ، حيث وصل إلى منزل جده وأقام عنده يرعى ماعزاً له[٣] . واما (سواد بن يسلم)،فقد كان يشعر ان الرومان كانوا يراقبونه ويتعقبون آثاره لسبب لم يذكره ، وقد عبر عن ذلك بقوله « وخرص ال روم » اي (وخرّص الروم) ، بمعنى انه راوغهم وخلص منهم . ولم يذكر سبب مراقبة الرومان له فلعله كان قد اغار على ارض الروم ، اي الأرضين المحتلة الخاضعة لهم ليغنم منها شيئاً فتعقبه حرسهم ، ولكنه راوغهم (وخرص) منهم ونجا[٤] .

وقد ازعجت القبائل الرومان بغاراتها على الأرضين التي استولوا عليها واخضعوها لحكمهم ، فأوجد الرومان جيشاً مرتزقاً من اهل البلاد التي تحكموا في امرها ، وضموه تحت إمرة جماعة من الضباط الرومان،وجعلوا واجبه حماية الحدود والدفاع عنها،واقاموا له ثكنات على طول تلك الحدود ، وورد اسماء بعضها في الكتابات الصفوية وغيرها . ومع ذلك كانت القبائل تهتبل الفرص، فتهاجم الحدود وتتوغل في الأرضين الخاضعة للرومان لتستولي على ما تجده أمامها من مال وحيوان ، ثم تعود مسرعة إلى مضاربها في البادية حيث يصعب على الرومان محاربتها هناك .

كانت الإسكندرية منذ تأسيسها الى الفتح الإسلامي ، المنبع الذي أمدّ رجال السياسة والحرب والعلم بما احتاجوا اليه من علم عن بلاد الشرق وإفريقية . فيها تجمع التجار أصحاب المال يبحثون عن البضاعة وعن منشئها وأسعارها في المنشأ

---

١ E. Littmann, Safitic, P. 21.

٢ النص رقم « ١٢٨ » من المرجع المذكور .

٣ المصدر نفسه (ص ٣٤) .

٤ راجع النص رقم « ٧٠٩ » من هذا المصدر .

وفي كيفية الحصول عليها بأسهل السبل وبأرخص الأسعار ، منهم من ذهب بنفسه الى مواطن البضاعة وإلى الأسواق الرئيسية المجهزة ، فتموّن منها ما احتاج اليه، ومنهم من تسقط أخبارها من تجار الإسكندرية او التجار الوطنيين الوافدين على الإسكندرية ، أو من رجال السفن . وفي الإسكندرية كانت في الغالب نهاية مطاف ربابنة السفن الذين خبروا البحر وعركوه ، ووقفوا على أحوال البلاد الغريبة العجيبة : علم إفريقية وآسية ، ومن أفواههم تلقف التجار والعلماء أخبار البحار وما وراءها من أرضين ، وفي مكتبتها ودوائرها الرسمية حفظت تقارير قادة الأساطيل والجواسيس الذين كانوا يتجسسون الأخبار عن أحوال حكومات وشعوب تلك البلاد . وهي تقارير لا بد أن تكون على غاية من الخطورة والأهمية عند خلفاء الإسكندر ثم الرومان فالبيزنطيين ، ويحدثنا (أغاثر شيدس) (أغاثر خيدس) الذي عاش في الإسكندرية في حوالي (١١٠ ق. م.) أنه اخذ علمه بأحوال البحر الأحمر من أفواه أناس قاموا هم انفسهم بأسفار الى البحر الأحمر وإلى ما وراءه ، كما أخذه من وثائق ملكية وسجلات كانت محفوظة ، سمح له بالوقوف عليها ، وفي جملتها تقرير (أرسطون) (أرستون) ، وهو احد رجال البحر الذين كلفهم (بطلميوس الثاني) او (بطلميوس) آخر كشف البحر الأحمر ، فلما أنجز عمله وخبر أمر الساحل العربي للبحر ، قدم تقريره المذكور . فحفظ في جملة الوثائق الخطيرة المهمة في خزانة وثائق الإسكندرية ومن هذا المنبع أخذ بقية الكتّاب . ومنهم من قام نفسه بركوب البحر وبأسفار في الشرق ، ثم عاد اليها ليضع ما حصل عليه في كتاب .

والخلاصة أن هذه التطورات والأحداث السياسية والعسكرية التي وجهت أنظار الغرب منذ أيام (الإسكندر الأكبر) نحو الشرق ، قد أدت إلى نزول اليونان والرومان بأنفسهم الى البحار الدافئة لمنافسة العرب في تجارتهم ، في بحارهم وفي البحار الأخرى ، فبنوا سفناً أقوى وأكبر وأوسع ، وأخذوا يقومون أنفسهم بالتدريج، ويحتلون الموانىء المهمة أو يقيمون لهم قواعد قوية عسكرية على السواحل لحماية خطوط مواصلاتهم البحرية ، وبذلك أصابوا التجارة العربية إصابة مباشرة وأنزلوا بها ضرراً بالغاً ، إذ أخذوا يشترون منتجات البلاد الحارة من مواضع انتاجها ، وصاروا يزاحمون السفن البيعرة التي لم تتمكن من تطوير نفسها تطويراً يناسب الزمن وروح العصر ، فتغلبت سفن الروم والرومان عليها كما تغلب

البرتغاليون فيما بعد ثم مَنْ جاء بعدهم من الغربيين على السفن العربية في عصور الاستكشاف ، واضطر التجار العرب الى اعتزال البحر والانسحاب منه تدريجياً والاكتفاء بشحن ما يحصلون عليه بطرق البر ، إلى أسواق تفرض ضرائب مرتفعة على التجار والتجارات . وقد أدى هذا التطور إلى اضعاف مركز العرب الجنوبيين اضعافاً كبيراً ، وإلى إلحاق الأذى بثرائهم ، وصار الروم والرومان يتدخلون في شؤون العربية الجنوبية تدخــلاً مباشراً أو غير مباشر بتحريض الجيش والقبائل العربية على حكومات العربية الجنوبية على نحو ما سنراه مفصلاً فيما بعد .

الفصل التاسع عشر

الدولة المعينية

تعدّ الدولة المعينية من أقدم الدول العربية التي بلغنا خبرها ، وقد عاشت وازدهرت بين (١٣٠٠ – ٦٣٠ ق. م.) تقريباً على رأي بعض العلماء . وقد بلغتنا أخبارها من الكتابات المدونة بالمسند والكتب الكلاسيكية[١] . أما المؤلفات العربية الإسلامية فلا علم لها بهذه الدولة . ولكنها عرفت اسم (معين) على أنه مخفد من محافد اليمن وحصن ومدينة ، وذكرت أنه هو و (براقش) من أبنية التابعة[٢] .

وأقدم من ذكر المعينين من الكتاب (الكلاسيكيين) (ديودورس الصقلي)[٣] و (سترابون) (سترابو) ، وقد سمّاهم Minae = Meinaloi وقال: إن مدينتهم العظمى هي Carna = Karna ، وذكر نقلاً عن كاتب أقدم منه هو (ايراتوستينس) Eratosthenes ، أن بلادهم شمال بلاد سبأ وشمال أرض (قتبان). وأما حضرموت ، فتقع شرق بلاد معين[٤]. أما (ثيوفراستوس) Theophrastos

١ Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947, P. 141.
وسيكون رمزه : Background

٢ الهمداني ، صفة (١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٠٣) ، وسيكون رمزه : الصفة ، اللسان
اللسان (٢٩٨/١٧) ، البلدان (٩٨/٢ وما بعدها) ، (١٠٢/٨) .

٣ Diodorus Siculus, 3, 42.

٤ Strabo, XVI, 768 (16, 4, 2), Glaser, Skizze, 2, S., 14,
O'Leary, P. 93, Sprenger, Alte Geogr. Arabian, S. 211.

فقد ذكر السبئين والقتبانيين والحضارمة، وذكر أرضاً اخرى دعاها Mamali، ويرى (أوليري) انه قصد (معين) Menaloi = Minaea،وأن تحريفاً وقع في نسخ الكلمة ، فصارت على الشكل المذكور ، أي Mamali [1]. وقد ذكرهم (بلينيوس) Pliny أيضاً ، فأشار الى ان بلادهم تقع على حدود أرض (حضرموت) Atramitae [2]. وآخر من ذكرهم الجغرافي الشهير (بطلميوس)[3].

ولم يتحدث أحد من الغربيين بعد الجغرافي المذكور عن (معين) ، حتى دخل السياح الأوروبيون بلاد العرب بعد نوم طويل ، فبعث عندئذ اسم(معين)، وكان في مقدمة من نشر خبر هذا الشعب (يوسف هاليفي) Joseph Halevy [4] و (أدورد كلاسر) Eduard Glaser و (أويتنك) Euting [5] و (جوسن) Jaussen و (ساوينه) Sasignac [6] ، وغيرهم ممن سترد أسماؤهم ، حصلوا على نقوش معينية نشرت ترجمات بعضها ، ونشر بعض آخر بغير ترجمة ، ولا يزال بعض آخر ينتظر النشر[7] .

وقد ظهرت هذه الدولة في الجوف ، والجوف منطقة سهلة بين نجران وحضرموت ، أرضها خصبة منبسطة . وقد زارها السائح (نيبور) Niebuhr ووصفها[8] . وذكر الهمداني جملة مواضع فيها ، ولم يعرف شيئاً عن أصحابها.

---

١ Theophrastus, Hist. Plant., 9, 4, O'Learly, P. 93.

٢ Pliny, Nat. Hist., 6, 28-32, 12, 30, 14, O'Learly, P., 93, Boasoor, Num. 73, February, 1939, P. 4.

٣ Ptolemy, Geography, VI, 7, 23, BOASOOR, Num. 73, (1939), P. 4, O'Leary, P. 94.

٤ Halevy, In : Journal Asiatique, 1872, 129-266, 489-547, 1873. Tome, I, 434-521, Tome, II, 305-365, 1874, 497-585, «Inscriptions Sabéennes».

٥ نشرت مجموعة «Euting» في مؤلف «D.H. Müller» المعنون : Epigraphische Denkmäler aus Arabien, 1889, وكذلك في بحث : « J «Mordtmann» » في Beiträge zur Minaischen Epigraphik, 1897.

٦ J. I. Mission Archéologique en Arabie, 1917.

٧ Corpus Inscriptionum Semiticarum, Tome, IV, Part, I, II, III, IV, and De L'epigraphie Sémitique, Tome, V, and VI, BOASOOR, 73, 1939, P. 5.

٨ Carsten Niebuhr, Reisebeschreibung nach Arabien und anderen umliegenden Länden, Kopenhagen, 1772-1837, II, Bände.

ومن هذه : معين ، ونشق : وبراقش ، وكمنا وغيرها [١] . وقد كانت عاصمة تلك الدولة (القرن) (قـرن) (قرنو) ، وهـي : (قرنة) (قرنا) Carna = Karna عند بعض الكتبة الكلاسيكيين .

وقد حصل (هاليفي) على عدد كبير من الكتابات المعينية اكتشفها في أثناء سياحته في الجوف ، دعيت ورقمت باسمه ، حصل على الكتابات المرقمة برقم Halevy 187 حتى رقم Halevy 266 ومجموعها ثمانون كتابة من خرائب (معين) وحصل على الكتابات المرقة من رقم (٤٢٤) حتى رقم (٥٧٨) من (يثل) ، ويبلغ مجموعها (١٥٥) كتابة ، كما حصل على صور عدد آخر من الكتابات من (كمنا) ومن (السوداء) . ويبلغ مجموع الكتابات المعينية التي استنسخها زهاء (٧٠٠) كتابة [٢] ، أغلبها قصيرة ، وبعضها يتضمن بضع كلمات ، ما خلا (٥٠ ـ ٦٠) كتابة تتألف من بضعة أسطر [٣] .

وزار الجوف بعد ذلك السيد محمد توفيق وقد ندبته (جامعة فؤاد الأول) الجامعة المصرية لدراسة هجرة الجراد الرحّال والكشف عن مناطق توالده، ودخله مرتين ، المرة الأولى سنة (١٩٤٤ م) والمرة الأخيرة سنة (١٩٤٥ م) ، وقد انتهز الفرصة فدرس سطح تلك المنطقة وخرائبها وآثارها ، وأخـذ صوراً (فوتوغرافية) لزخارف وكتابات ، نشرها في البحث الذي نشره له (المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة) ، وذلك سنة (١٩٥ م) بعنوان : « آثار معين في جوف اليمن » [٤] .

ورحل (الدكتور أحمد فخري) الأمين بالمتحف المصري ، إلى اليمن، وزار سبأ والجوف في مايس سنة (١٩٤٧ م) [٥] .

وليس في كل بلاد العرب على حد قول (هاليفي) ، مكان ينافس الجوف

---

١ الصفة (ص ٦٧ فما بعدها) .

٢ « وجمع في رحلته هذه زهاء ست مئة نقش وخمس وثمانين نقشا من النقوش العربية الجنوبية » ، محمد توفيق : آثار معين في جوف اليمن ، من منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١ .

٣ Hommel, Grundriss, Ed., I, S., 136.

٤ وسيكون رمزه : معين .

٥ معين (ص ٢) .

في كثرة ما فيه من آثار وخرائب عادية [1] . ولذلك ، فان الباحثين عن القديم يرون فيه أملاً عظيماً وكنزاً ثميناً ، وقد يكشف لهم عن صفحات مطوية من تأريخ تلك البلاد وربما يكشف عن تأريخ بلاد أخرى كانت لها صلات وعلاقات باليمن . وفيه مدن مهمة ، كان لها شأن وصيت في تأريخ العالم القديم ، كالمدن التي مر ذكرها ، وكمدينة (مأرب) عاصمة سبأ ، التي بلغ صيتها اليونان والرومان .

والجوف أرض خصبة ذات مياه ، تسقيه مياه (الخارد) ، الذي يبلغ عرضه مترين وعمقه متراً ، كما تتساقط عليه الأمطار ، فتروي أرضه ، وتكوّن سيولاً تسيل في أودية ، ويبلغ ارتفاعه (١١٠٠) فوق سطح البحر ، وتحيط به الجبال من ثلاث جهات[2] ، ونظراً لوجود مزايا كثيرة فيه تساعد على تكوّن الحضارة فيه ، لذلك صار مخزناً للحضارة القديمة في اليمن ، وموقعاً يغري علماء الآثار يقصدونه للبحث في تربته عما كان فيها من أسرار وآثار . وسيكون من الأماكن المهمة في اليمن في الزراعة وفي التعدين بعد تطور اليمن ودخول الأساليب العلمية الحديثة الى تلك الأرجاء .

وقد أمدتنا الكتابات التي عثر عليها في الجوف وفي (ديدان)[3] ، التي كانت مستوطنة معينية في طريق البلقاء من ناحية الحجاز ، والكتابات المعينية التي عثر عليها في مصر في (الجيزة)[4] ، والكتابات المعينية الأخرى التي عثر عليها في جزيرة (ديلوس) Delos من جزر اليونان ، والتي يعود عهدها الى القرن الثاني قبل الميلاد[5] ، بأكثر معارفنا التي سنبسطها هنا ، ومنها استخرجنا في الأغلب أسماء ملوك معين . ولولاها لكانت معارفنا عن المعينيين قليلة جداً .

ويرى جماعة من العلماء ان (ماعون) (معون) Maon أو (معونم)

---

١ O'Leary, P. 95.

٢ زيد بن علي عنان ، تاريخ اليمن القديم ، (ص ٩٥) .

٣ « الديدان » : مدينة حسنة كانت في طريق البلقاء من ناحية الحجاز خربت ، البلدان (٤/١١٩) ،

D.H. Müller, Epigraphische Denkmäler aus Arabien, 1889.

٤ BOASOOR, Num. 73, (1939), P. 7.

٥ BOASOOR, Num. 73, (1939), P. 7.

(معينيم) Me'unim = Me'inimالواردة في التوراة انما يقصد بها (المعينيون)[١]، وهم سكان (النقب) الى طور سيناء[٢] ، أو هم سكـان (معان) الواقعة الى الجنوب الشرقي من (البتراء) Petra[٣] ، أو هم أهل (العلا) (الديدان)[٤] . وقد ذكروا في موضع من التوراة في جملة سكان (النقب) Negev،وذكروا في موضع آخر مع قبائل من العرب[٥] .

وليس بين الباحثين في تأريخ المعينيين اتفاق على تأريخ مبدأ هذه الدولة ولا منتهاه ، فـ (كلاسر) مثلاً يرى أن الأبجدية التي استعملها المعينيون في كتاباتهم ترجع إلى الألف الثانية أو الألف الثالثة قبل الميلاد ، وهذا يعني أن تأريخ هذا الشعب يرجع الى ما قبل هـذا العهد ، فالمعينيون على هذا هم أقدم عهداً من العبرانيين[٦] . ويعارض هـذا الرأي (هاليفي) و (ميلـر) D.H. Müller[٧] و (موردتمن) Mordtmann[٨] و (مـاير) E. Meyer[٩] و (شبرنكر) Sprenger[١٠] و (ليدزبارسكي) Lidzbarski[١١] وغيرهم . ويرون أن نظريـة (كلاسر) هذه مبالغة ، وأن مبدأ هذه الدولة لا يتجاوز الألف الأولى قبـل المسيح بكثير . ويرى (هومل) Hommel أن من الممكن أن يكون مبدأ تاريخ دولة (معين) ما بين (١٥٠٠ — ١٢٠٠ ق. م.) ونهايـة حكومتها في عام (٧٠٠ ق. م.)[١٢] . وجعل (فلبي) مبدأ حكم أول ملك من ملوكها في عام ١١٢٠ ق. م. وحكم آخر ملك نعرفه من ملوكها في عام ٦٣٠ ق. م.[١٣] .

---

١ Ency. Bibli., P. 3065, James Montgomery, Arabia and the Bible, P. 183.

٢ Hastings, P. 619.

٣ Montgomery, Arabia, P. 183.

٤ Ibid,

٥ أخبار الأيام الأول ، الاصحاح الرابع ، الآية ٤١ . أخبار الأيام الثاني ، الاصحاح ٢٦ ، الآية ٧ . Hastings, P. 619.

٦ Glaser, Skizze, 2, S., 110, 330.

٧ D. H. Müller, Beilage zur Münch. Allgem. Zeitung, 1890. Nov. 24, and 31, Ency., Vol., 4, P. 13.

٨ Nordotmann, in : ZDMG., XIVII, 400, Beiträge, S. 105, 115.

٩ E. Meyer, Gesch. d. Altertums, 2, S., 382.

١٠ Sprenger, Bemerkungen, S., 502, Ency., Vol., 4, P. 13.

١١ Ephemeris, 2, S., 101.

١٢ Ency., Vol., 4, P. 13, BOASOOR, Num. 73, 1959, P. 5, Handbuch, I, S., 67.

١٣ Background, P. 141.

ويعارض (ونت) Winnett رأي (كلاسر) و (نكلر) و (هومل) في تقدير مبدأ تأريخ دولة معين ، ويرى أن في ذلك التأريخ مبالغة ، وأن (شبا) أي (سبأ) وكذلك (ددان) (ديدان) ، أقدم الدول العربية مستدلاً على ذلك بما ورد في التوراة من قدم (شبا) . ويرى أن مبدأ دولة (معين) لا يمكن أن يتجاوز عام (٥٠٠ ق. م.) ، واما نهايتها، فقد كانت بين عام (٢٤ق. م.) وعام (٥٠ ب. م.)[١] .

ويرى معارضو نظرية (كلاسر) عن قدم الدولة المعينية أن هـــذه النظرية لا تستقيم مع ما هو معروف بين العلماء عن تأريخ ظهور (الألفباء) عند البشر، فإن ارجاع تأريخ معين إلى الألف الثانية أو الألف الثالثة قبل الميلاد معناه ارجاع (المسند) الى أقدم من ذلك ، وهذا يتعارض مع النظريات الشائعة عن قـــدم الخط عند البشر ، فان الخط (الفينيقي) لا يتجاوز عهده ألف سنة قبل الميلاد وليس (المسند) كما يظهر من أشكاله وصوره الهندسية أقدم عهداً منه[٢].واستند (هوارت) الى هذه الحجة ايضاً في معارضته رأي من يرجع تأريخ معين الى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد[٣] . ويرى (أوليري) هذا الرأي أيضاً ، ويرى أيضـــاً أن كتابات المسند كافة معينية او سبئية ، لا تتجاوز البتة السنة ٧٠٠ قبل الميلاد، وذلك لأن هذا القلم قد أخذ من القلم (الفينيقي) ، ولهذا لا يمكن أن يطاوله، وأن يرجع في تأريخه الى أكثر من القرن الثامن قبل الميلاد[٤] .

وقد ثبت (ملاكر) في كتابـــه في تأريخ التشريع والتوريخ عنـــد العرب الجنوبيين مبدأ قيام دولة معين بسنة (٧٢٥) قبل الميلاد ، وسقوطها بالقرن الثالث قبل الميلاد[٥] .

وتناول (البرايت) موضوع ترتيب حكام معين بالبحث ، وذلك في النشرة

---

١ BOASOOR, Num., 73, 1939, P. 8.

٢ Lidzbarski, Ephemeris, II, S., 101, Ency., Vol., 4, P. 13
Hilprecht, Explorations in Bible Lands, P. 731.

٣ Huart, Geschichte der Araber, Bd., I, S., 45.

٤ O'Leary, P. 95.

٥ K. Mlaker, Die Hierodulen-Listen von Main nebst Untersuchungen zur Altsüdarabischen Rechtgeschichte und Chronologie, Leipzig, Harrassowitz, 1943.

التي تصدرها المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية . وهو يختلف أيضاً مع المتقدمين في موضوع تواريخ أولئك الحكام،ويحاول جهد الامكان الاستفادة من الدراسات الآثارية للكتابات وللآثار التي يعثر عليها في تقدير حكم المكربين والملوك[1] . وقد ذهب في أحد أبحاثه عن (معين) الى تقسيم ملوك دولة معين الى ثلاث مجموعات جعل الملك (اليفع يثع) وهو ابن الملك (صدق ايـل) ملك حضرموت على رأس هذه المجموعات ، وجعل حكمه في حوالي السنة (٤٠٠ ق. م.) وجعل نهاية هذه الدولة فيما بين السنة (٥٠) والسنة (٢٥ ق. م.)[2] .

وهو يرى ان التأريخ الذي وضعه لمبدأ قيام حكومة معين ولنهايتها وسقوطها، هو تأريخ في رأيه مضبوط ، لا يتطرق اليه الشك ، غير انه يرى ان ما ذكره عن رجال المجموعات الثلاث يحتمل اعادة النظر فيه ، ولا سيما المجموعة الأولى حيث يمكن اجراء بعض التغيير فيها[3] .

وذكر (البرايت) في موضع آخر انه يرى ان قيام مملكة معين كان قبـل السنة (٣٥٠ ق. م.) ، وقد استمر حكمها الى ما بعد السنة (٥٠ ق. م.)[4] أو السنة (١٠٠ ق. م.)[5] .

وذهب آخرون الى ان نهاية مملكة معين كانت في حوالي السنة المئة بعد الميلاد[6] . وهكذا نجد الباحثين في العربيات الجنوبية مختلفين في بداية الدولة وفي نهايتها ، ويلاحظ ان القدماء منهم كانوا يرفعون مبـدأ الدولة ونهايتها عن الميـلاد ، أي يبعدون المبدأ والنهاية عنه ، أما المتأخرون فهم على العكس، لا يذهبون مذهبهم في البعد عن الميلاد ، ويحاولون جهدهم جعل نهاية المملكة في حوالي الميلاد .

وما زال الجدل بين علـماء العربيات الجنوبية في تقدير عمـر الدولة المعينية مستمراً . فهناك صعوبات تعترض نظرية من يقول ان الدولة المعينية سقطت قبل

---

١ W. F. Albright, The Chronology, In The BOASOOR, Num., 119, «The Chronology of Minaean Kings of Arabia», Num., 129, (1953), PP. 20.

٢ BOASOOR, Num., 129, (1953), PP. 22.

٣ BOASOOR, Num., 143, (1956), P. 9.

٤ BOASOOR, Num., 176, 1964, P. 51.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 434.

٦ Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 434, J. Pirenne, Royaume de Qataban, P. 7.

الميلاد عثات من السنين في أيدي حكام سبأ ، والقائلون بها (كلاسر) وأتباعه . وقد رأى (كلاسر) أيضاً ان المعينيين قد تضاءل أمرهم وضعفوا كل الضعف وغلبت عليهم البداوة في نهاية القرن الأول قبل الميـلاد ، على حين ان الموارد الكلاسيكية ومنها مؤلفات (سترابو) و (بلينيوس) و (ديودورس الصقلي) تعارض هذا الرأي باشارتها الى المعينيين والى تجارتهم ، بل نجد ان (بطلميوس) الذي هو من رجال القرن الثاني للميلاد يقول فيهم « انهم شعب عظيم »[1] . ثم ان الكتابات المعينية التي عثر عليها في الجيزة بمصر ، تؤيد هذا الرأي أيضاً ، اذ تشير الى اشتغالهم في التجارة ، تجارة استيراد البخور للمعابد المصرية ، في القرن الثالث أو الثاني بعد الميلاد[2] . ومن هنا قال (أوليري) وغيره ان المعينيين بقوا نشطين عاملين الى ما بعد الميـلاد ، وربما كان ذهاب حكمهم في أيام (البطالمة) أو في أيام الرومان ، ومهما يكن من أمر فليس في الامكان البت في تعيين ذلك العهد[3] .

والذين يقولون بتقدم دولة معين على سبأ ، ويرون ان حكام (سبأ) من دور (المكربين) ، أي دور الملوك الكهنة هم الذين قضوا على حكم دولة معين فانتزعوا الحـكم من ملوك معين ، وأخضعوا المعينيين الى حـكم سبأ . غير اننا لا نعرف كيف تم ذلك ، ومن هو الملك المعيني الذي تغلب عليه السبئيون .

ولا يمكن تقريب وجهة الخلاف هذه إلا بالاستعانة بالحفريات العلمية العميقة المنظمة ، وبما سيستخرج من جوف الأرض من آثار وكتابات ، ودراستها دراسات علمية متنوعة . دراستها من ناحية تطور الخط Paleography وأسلوبه ، ومقارنته بالخطوط الأخرى التي عثر عليها في جزيرة العرب وفي خارجها ، لمعرفة عمرها ، ودراستها من ناحية تحليلها تحليلاً مختبرياً لمعرفة زمانها ووقت نشوئها ، حيث يمكن التوصل بهذا التحليل إلى نتائج يكون مجال الشك والجدل غير كبير Radiocarbon ، ودراستها من ناحية علم الآثار ، إلى غير ذلك من طرق توصل الى نتائج ايجابية أو قريبة من حدود الايجاب .

---

١ O'Leary, P. 94.

٢ O'Leary, P. 95.

٣ O'Leary, P. 94.

ملوك معين :

وقد حصل قراء الكتابات المعينية على أسماء ملوك حكموا دولة معين،أحصوها وجمعوها ، وحاولوا الاستفادة منها بتنسيقها وتبويبها لتكوين قائمة منظمة مرتبة بمن حكم عرش تلك الدولة حكماً زمنياً متسلسلاً بقدر الامكان . غير أنهم لقوا صعوبات كبيرة حـالت بينهم وبين الاتفاق على وضع قائمة موحدة متفقة . فذهبوا في ذلك جملة مذاهب ، ووضعوا تواريخ متباينة مختلفة ، وكيف يمكن الاتفاق وقد ذكرت أنهم مختلفون اختلافاً كبيراً من حيث تعيين مبدأ ظهور تلك الدولة ، وأنهم مختلفون أيضاً في تأريخ سقوطها وفي الدولة التي أسقطتها . يضاف إلى ذلك أن الكتابات المعينية عفا الله عنها ، لم ترد مؤرخة على وفق تقويم من التقاويم ، ولم تتحدث عن حكم أي ملك من أولئك الملوك ولم تذكر ترتيبهم في الحكم ، وهي أكثرها في أمور شخصية لا علاقة لها بسياسة ولا بدولة وملوك . فليس من الممكن اذن اتفاق الباحثين على وضع قوائم صحيحة لملوك معـين ، ولا لمدد حكمهم ما دام الوضع على هذا الحال والمنوال ، والرأي عندي هو أن ذلك لن يتم ، ما لم تُجرَ حفريات علمية عميقـة في مواضع المعينيين في اليمن وخارج اليمن ، تمكننا من الحصول على كتابات جديدة لها صلة بسياسة الحكومة وبأخبار الملوك وبعلاقاتهم مع الدول الأجنبية . فإذا تم ذلك أمكن وضع مثل هذه القوائم مستعينين بهذه الكتابات وبالكتابات الأجنبية التي قد تشير الى ملوك معين وبأمثال هذه الدراسات نطمئن الى هذه القوائم ، ونستطيع اعتبارها ذات قيمـة في تثبيت الحوادث وتواريخ حكومة معين .

والملوك الذين وردت أسماؤهم في الكتابات المعينيـة ، ليسوا هم كل ملوك معين ، بل هم جمهرة منهم . ولا استبعد احتمال حصول المنقبين في المستقبـل على عدد آخر من أسماء ملوك جدد لا نعرف من أمرهم اليوم شيئاً ، قد يزيد عددهم على هذا العدد المعروف . وقد يبلغ أضعافه . فتصبح القوائم الموضوعـة التي رتبها علماء اليوم غير ذات خطر بالنسبة للقوائم الجديدة ، وسيتغير فيها كل شيء من اسماء ملوك ، ومن أرقام مدد حكم وتواريخ .

ومع ذلك فأنا لا أريد ان اكون جدلياً سوفسطائياً ، سلبياً غير بنّاء،وسأجاري الحال فأعرض على القارىء نتائج جهود أولئك العلماء في وضع قوائمهم بأسمـاء ملوك معين ، فأقول : جعل (هومل) من اسماء ملوك معين التي عرفها ثلاث

طبقات ، كل طبقة تتألف من أربعة ملوك ، وطبقة أخرى تتألف من ملكين[١] . ورتب (كليمان هوار) ، هؤلاء الملوك سبع طبقات ، الطبقة الأولى ، تتألف من أربعة ملوك ، والطبقة الثانية من خمسة ، والطبقة الثالثة من أربعة ، والرابعة من اثنين ، والخامسة من ثلاثة ، وأما الطبقتان السادسة والسابعة فتتألف كل واحدة منها من ملكين . ويبلغ مجموع ملوك هذه الطبقات السبع اثنين وعشرين ملكاً[٢] . وينقص هذا العدد أربعة ملوك عن قائمة (مولر) الذي حقق هوية ستة وعشرين ملكاً . وقد رتب (أوتوويبر) و (موردتمن) أولئك الملوك في طبقات أيضاً[٣] . أما (فلبي) ، فقد ذكر اثنين وعشرين ملكاً ، نظمهم خمس سلالات ، وجعل على رأس السلالة الأولى (اليفع وقه) ، وفي آخر السلالة الخامسة الملك (تبع كرب) الذي حكم على رأيه من سنة ٦٥٠ الى سنة ٦٣٠ ق. م[٤].

وعند (هومل) ان السلالة التي في أولها الملك (اليفع وقه) ، هي أقدم أسر ملوك معين[٥] . وأما (موردتمن) ، فيقدم الأسرة التي جعل على رأسها الملك (يثع ايل صديق)[٦] . وقد فعل ذلك (كليمان هوار) أيضاً[٧] . أما (ونست) ، فيرى ان الأسرة التي فيها (أب يدع يثع) هي أقدم عهداً من الأسرتين[٨] . والخلاصة ان هذه الأسر أو السلالات لا تعني انها كل الأسر التي حكمت (معيناً) أو ان الأسرة الأولى منها هي أول أسرة حكمت ذلك الشعب فقد يكون هنالك عدد آخر من الأسر والملوك حكموا قبلها سنين كثيرة ربما بلغت قروناً .

ويرى (البرايت) ان ملوك حضرموت كانوا هم الذين أسسوا مملكة معين ، أسسوها في حوالي السنة (٤٠٠ ق. م.) أو بعد ذلك بقليل . ويرى ان أول

---

١ Hommel, Grundriss, I, S., 136, Chrest., S., 90.

٢ Cl. Huart, Geschichte der Araber, Bd., I, S., 56.

٣ Grundriss, I, S., 136, Mordtmann in ZDMG., 47, 1893, S., 397-417, Muller, Die Burgen, 2, 60.

٤ Background, P. 141.

٥ Handbuch, S., 67, 71, Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 234, BOASOOR, Num., 73, (1939), P. 7.

٦ Mordtmann, in ZDMG., XLVII, 409, BOASOOR, Num., 73, P. 7, (1939).

٧ Geschichte der Araber, I, S., 56.

٨ BOASOOR, Num., 73, (1939), P. 7, Le Muséon, LXII, 3-4, 1949.

ملك من ملوكها كان الملك (اليفع يثع) ، وكان ابناً للملك (صدق ايل) ملك حضرموت . ويرى من عدم وصول كتابات سبئية ما بين السنة (٣٥٠) والسنة (١٠٠) قبل الميلاد ، أي ان السبئيين كانوا في خلال هذه المدة أتباعاً لحكومة معين[١] .

فأول ملك من ملوك (معين) اذن على رأي (البرايت) ، هو الملك (اليفع يثع) . أما (هومل) ، فجعل (اليفع وقه) أقدم ملك معيني وصل خبره الينا ، وقد جاراه في رأيه هذا (فلبي) وآخرون . وهناك كما قلت قبل قليل من قدم ملكاً آخر على هذين الملكين .

وقد ورد اسم الملك (اليفع وقه) في كتابة عثر عليها في موضع (السوداء)[٢]، وهو مكان مدينة (نشن) (نشان) القديمة في الكتابات المعينية ، وورد فيها : ان الملك (اليفع وقه) ملك معين ، وشعب معين ، قدما بأيديهم الى معبد الإلـه (عم) بـ (راب) (رأب) من (ذي نيط) نذوراً وهدايا وقرابين ، تقرباً اليه . وقد تسلم الـ (رشو) ، أي (كاهن) المعبد والقيم عليه تلك الهدايا ، وتقبلها باسم المعبد[٣] . ولم تذكر الداعية التي دعت الملك وشعبه الى تقديم تلك النذور والقرابين إلى الإلـه (عم) رب (رأب) ، ولعلها كانت مذكورة في المواضع التي أصيبت بتلف في الكتابة .

وورد اسم هذا الملك في كتابة أخرى عثر عليها في (براقش) ، وهي مدينة (يثل) من مدن معين ، دونت عند بناء بناية في عهده ، فذكر هو وابنه (وقه آل صدق) (وقه ايل صديق) فيها ، تيمناً باسمها وتثبيتاً لتأريخ البناء[٤].

وعثر على اسم الملك (وقه آل صدق) (وقه ايل صديق) ابن الملك (اليفع وقه) في كتابة وجدت في (قرنو) (قرن) (القرن)[٥] .

---

١ BOASOOR, Num., 129, (153), P. 22, Note : 7.

٢ « الخربة السوداء » ، « خربة السوداء » « والخربة السوداء بالشاكرية ، ثم معين وبراقش ثم كمنا وروثان لنشق » ، الصفة (ص١٦٧) ، « السوداء » « مدينة السوداء » تاريخ اليمن القديم ، لزيد علي عنان ، (ص ٩٧) .

٣ Rep. Epig., 3307, Hommel, Chrest., S., 91, (257), Glaser, 284, Background, P. 49.

٤ Background, P. 49, BOASOOR, Num., 73, (1939), P. 7.

٥ Background, P. 49, BOASOOR, Num., 73, 1939, P. 7.

أما الذي حكم بعد (وقه ايل صدق) (وقه ايل صديق) ، فهو ابنـه الملك (اب كرب يشع) (أبكرب يشع) . وهو في نظر (البرايت) مثل والده و (اليفع وقه) من رجال المجموعة الثانية من مجموعات ملـوك معين . وقد حكم – على حسب رأيه – في حوالي السنة (١٥٠) قبل الميلاد[1] .

وجاء اسم الملك (ايكرب يثع) (اب كرب يثع) في كتابة عثر عليها في (العلا) ، أي في (الديدان) وتعود لذلك الى المعينين الشماليين ، وصاحبها رجل من (آل غريت) (غرية) ، كتبها عند شرائه مُلكاً من شخص اسمه (اوس بن حيو) (اوس بن حي) . وتيمنـاً بذلك قـدم نذوراً الى الإله (نكرح) وآلهة معين ، وجعل الملك في رعايتها وحمايتها لتقيه أعين الحسّاد وكل من يحاول الاعتداء عليه . ودعا آلهـة معين ان تنزل نقمتها على كل من يحاول رفع تلك الكتابة ، أو يتلفها ، أو يلحق بها أذى . وقد تيمن باسم تلك الآلهة، وذكر بهذه المناسبة اسم الملك (ابكرب يثع)،وذكر بعده اسم (وقهآل صدق) (وقه ايل صديق)[2] . وقد وجد فراغ بين الاسمين،بسبب تلف أصاب الكتابة رأى ناشر الكتابة انه واو العطف ، فصيّر الجملة على هذا النحو : (ابكرب يثع ملك معن ووقه آل صدق) ، (أبكرب يثع ملك معين ووقه ايل صديق) ، وعندي ان هذا الفراغ يمثل حرفين ، هما (بن) ، أي (ابن) فتكون الجملة : (ابكرب يثع معن بن وقه آل صدق) ، (أبكرب يثع ملك معين ابن وقه ايل) وبذلك ينسجم المعنى ، اذ ان (وقه آل صدق) ، هو والد (أبكرب يثع) فاذا ذكر اسم الأب بعد لفظة (ابن) ، انسجم المعنى . أما اذا وضعنا حرف العطف (الواو) ، بين الاسمين ، نكون قد قدمنا اسم الابن على اسم الأب ، وفي ذلك نوع من سوء الأدب ، أو دلالـة على ان الابن هو الملك الحقيقي ، وان والده لم يكن شيئاً يومئذ ، أو كان ملكاً بالاسم فقط . على انه حتى في هذه الأحوال والاحتمالات ، لا يوضع اسم الأب بعد اسم الابن .

وقد أرخت الكتابة بأيام تولي (أوس) من(آل شعب) منصب (كبير) تلك المنطقة التي كان يقيم فيها صاحب تلك الكتابة[3] .

---

١ ASOR, Num., 129, (1953), P. 23.

٢ Rep. Epig., 3697, Jausen-Savignac, Mission, II, (732), P. 261, 292.

٣ راجع الفقرة (١٢) من النص .

وعثر على كتابة في مدينة (يثل) (براقش) ، وجاء فيها اسم ملك يدعى (عم يثع نبط) (عميثع نبط) (عمى يثع نبط) . وهو ابن الملك (ابكرب يثع) المذكور[1] .

وقد ورد اسم الملك : (عم يثع نبط بن ابكرب) (عميثع نبط بن أبكرب) في كتابة دونت لمناسبة حبس أرض لآلهة معين ، لتكون وقفاً على معبد الإلـــه (عثتر شرقن) ، أي (عثتر الشارق) بمدينة (يثل)[2] .

أما (البرايت) ، فقد وضع اسم (عم يثع نبط) في المجموعــة الأولى من مجموعاته الثلاث التي كونها لملوك معين . وقد جعل حكمه في حـوالي السنة (٣٠٠ ق. م.) . وذكر أنه رجل اسمه (اب كرب) (أبكرب) . وقـد أشار الى ان (اب كرب) هذا هو غــير (اب كرب يثع) الذي هو ابن الملك (وقه ايل صدق) ، الذي كان حكمه — على رأيه — في أواخر القرن الثاني لما قبل الميلاد[3] .

ويرى (فلبي) وجود فترة قدّرها بنحو عشرين سنة ، لا يدري من حكم فيها بعد (عم يثع نبط) ، وقد كانت في حوالي السنة (١٠٤٠ ق. م.)، وقد انتهت في حوالى السنة (١٠٢٠ ق. م.) بتولي الملك (صدق ايل) عرش معين . وهو ملك من ملوك حضرموت . فيكون بذلك قد جمع في شخصه بين عرش حضرموت وعرش معين ، ثم انتقل العرش الى (اليفع يثع) ، وهـــو ابنه ، وقد حكم — على رأي (فلبي) — في حوالي السنة (١٠٠٠ ق . م.). وكان له شقيق اسمه (شهر علن) (شهر علان) ، انفرد بحكم حضرموت . وبذلك انفصل عرش حضرموت عن عرش معين[4] .

وبين تقدير (فلبي) هذا لحكم (صدق ايل) ولحكم ابنه (اليفع يثع) وتقدير (البرايت) الذي جعل حكم (صدق ايل) في حوالي السنة (٤٠٠ ق. م.) فرق كبير . كذلك نجد بين ترتيب (فلبي) وترتيب (البرايت) للملوك فرقاً كبيراً . فـ (اليفع يثع) وهو ابن (صدق ايـل) هو أول ملك ملك عرش

---

١ Background, P. 61, BOASOOR, Num., 73, (1939), P. 7.

٢ Fakhry, 17, Le Muséon, 1-2, 1953, P. 113.

٣ BOASOOR, Num., 129, (1953), P. 23.

٤ Background, P. 141.

معين على رأي (البرايت) ، على حين أخره (فلبي) على نحو ما رأيت ، الا انهما يتفقان في أن (صدق ايـــل) والد (اليفع يشـــع) كان ملكاً على حضرموت . ثم يعودان فيختلفـــان أيضاً ، ذلك ان (فلبي) جعله ملكاً على حضرموت ومعين ، أما (البرايت) فلم يدخل اسمه في قائمته لملوك حضرموت[1] .

وحكم بعد (اليفع يشع) ابنه (حفن ذرح) وكان حكمه في حوالي السنة (٩٨٠ ق. م.) عــلى تقدير (فلبي) . وكان له شقيق اسمه (معدكرب) (معد يكرب) ، ولي عرش حضرموت[2] . ولم يذكـر (البرايت) اسم هذا الملك في قائمته لملوك معين[3] .

وقد ذكر (فلبي) أنه كان لـ (حفن ذرح) شقيق ، اسمه (معد كرب) (معد يكرب) ، ولي عرش حضرموت .

أما الذي ولي عرش (معين) بعد (حفن ذرح) ، فهـو (اليفع ريم) (اليفع ريام) . وقد حكم في حوالي السنة (٩٦٥ ق. م.) على تقدير (فيلبي) وهو ابن (اليفع يشع) . وقد حكم حضرموت أيضـاً ، وذلك لأن والـد (معديكرب) لم يحكموا عرش حضرموت[4] .

ثم انتقل حكم معين الى (هوف عث) (هوفعثت) (هو عثت) من بعد (اليفع ريام) ، وهو ابنه . وقد ولى الحكم سنة (٩٥٠ ق. م.) – على رأي (فيلبي)[5] – ودون ذلك بمئات من السنين على رأي (البرايت)[6] .

وانتقل العرش الى (أب يدع يشع) (أبيدع يشع) بعد (عوف عثت) وقد كان حكمه في حوالي السنة (٩٣٥) قبل الميلاد[7] . أمـا (البرايت) فيرى ان زمان حكمه كان في حوالي السنة (٣٤٣) قبل الميلاد[8] . وهو ابن (اليفع ريمام) .

---

١ Background, P. 141, Boasoor, Num., 129, (1953), P. 22.
٢ Background, P. 141
٣ BOASOOR, Num., 129, (1053), P. 22 f.
٤ Background, P. 141.
٥ Background, P. 141.
٦ BOASOOR,Num. 129, (1953), P. 22.
٧ Background, P. 141.
٨ BOASOOR, Num. 129, (1953), P. 22, Num. 119, (1950), P. II, Discoveries, P. 295.

وجاء في الكتابة المرقمة برقم : Glaser 1150 و Halevy 192 وهي كتابة تتألف من جملة أسطر ومصدرها مدينة معين[1] ، اسم الملك (اب يدع يثع)[2] ورد لمناسبة قيام جماعة من أشراف مدينة (قرنو) (قرن) (القرن) باصلاح خنادق هذه المدينة وترميم أسوارها وإنشاء محلة جديدة فيها . وصاحب هذه الكتابة والآمر بتدوينها ، هو (علمن بن عم كرب) من أسرة (ذي حذار) (ذي حذأر) ، أي (آل حذأر) ورئيس (كبأن) (جبأن) وصديق ومكتسب عطف ومودة (موددت) ملك معين (اب يدع يثع)،ووالد عدد من الأولاد ساعدوه في هذا العمل ، هم (ياوس آل) (ياوس ايل) (يأوس ايل)، و (يذكر آل) (يذكر ايل) ، و (سعد آل) (سعد ايل) و(هب آل) (وهب ايل) ، و (يسمع ايل) (يسمع آل) . وقد قاموا بهذا العمل تقرباً إلى آلهة معين : (عثتر ذ قبضم) (عثر ذو قبض)[3] . و (ودّ) و (نكرح) وإلى ملك معين . وقد جرى العمل في ربع (ربعن) المدينة[4] ، المسمى (رمشو) (رمش) ، وقد امتد الى موضع (شلوث) . وبعد الانتهاء من هذا العمل ذبحت القرابين على عادتهم للآلهة (عثر) (رب) (قبض) (عثر ذ قبضم) و (ود) . وذكرت الكتابة تفاصيل الأعمال التي تمت ومواضعها ومقدارها وغير ذلك مما يذكر عادة في وثائق البناء .

وهناك كتابة أخرى عثر عليها في (قرنو) ، وهي الكتابة التي أشير اليها بعلامة Halevy 193 ، ورد فيها اسم الملك (اب يدع يثع) ، وهي من الكتابات المهمة التي تشير الى الصلات السياسية التي كانت في هذا العهد بين مملكة معين ومملكة حضرموت . وقد جاء فيها ان (معد يكرب) ملك حضرموت وقف حصن (خرف) للإله (عثر ذ قبضم) ، وقد بنى ذلك الحصن (شهر علن بن صدق آل) ملك (حضرموت) ونذره للإله (عثر ذ قبضم) و (عثر شرقن) و (ود) و (نكرح) ، وقدمه الى ابن أخيه (اب يدع يثع)ملك

---

١ محمد توفيق ، آثار معين في جوف اليمن ، القاهرة (١٩٥١) ، النقش ١ (الواح ١٧ ـ ١٩) ، Halevy, Mission, P. 32, 75, 77

٢ Glaser, 1150, Halevy 192 + 199.

٣ N. Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsüdarabischen, Heft, 2, S., 54.

٤ « هكرن قرنو بقلح ربعن رمشو » ، Stud. Lexl., 2, S., 55

(معين) ، وشعبه شعب معين[1] .

وورد اسم الملك (معد يكرب بن اليفع يثع) في الكتابة الموسومة بـ : Halevy 520 ، وهي من الكتابات التي عثر عليها في خرائب مدينة (يثل) ، وتتحدث عن انشاء بناء في مدينة (وكل) ، كما ورد اسم الملك (اب يدع يثع) واسم (معديكرب بن اليفع) في كتابة أخرى عثر عليها في (يثل) أيضاً[2]. وورد اسم (اب يدع يثع) في ثلاث كتابات أخرى . وورد في اثنين منها اسم ابنه (وقه آل ريم) (وقه ايل ريام) معه[3] .

وتشير هذه الكتابات الى ان (معد يكرب بن اليفع يثع) ، أي ابن أخي (أب يثع بن اليفع ريام) كان معاصراً لـ (أب يدع) وان الصلات بين ابني الشقيقين كانت وثيقة وحسنة . وهي كتابات تفيد المؤرخ بالطبع كثيراً في محاولاته لوضع قائمة بأسماء ملوك حضرموت وملوك معين ، اذ انها جعلتنا نتفق في أن حكمي الملكين كانا في زمن واحد تقريباً، ومكنتنا بذلك من تثبيت أسماء بقية أسرتيها على هذا الأساس بحيث لا يبقى هنا موضع للجدل في موضع ترتيب أسماء رجال هذه الأسرة الحاكمة في حضرموت وفي معين .

ومن الكتابات المعينية المهمة، كتابة رقمت برقم Glaser 1115 = Halevy 535 ، Halevy 578 ، ترجع ايامها الى أيام الملك (اب يدع يثع) . وهي تتحدث عن حرب وقعت بين (ذيمنت) و (ذ شامت)[4] ، أي بين الجنوب والشمال، ولا يعرف مقصود الكتابة من الجنوب ومن الشمال على وجه أكيد . وقد ذهب (ونكلر) الى ان المراد بـ (الجنوب) حكومة معين ، وان المقصود من الشمال حكومة عربية ، هي حكومة (أريبي) التي كان يمتد سلطانها على زعمه ، اذ ذاك الى أرض دمشق[5] . وقد دونت هذه الكتابة لمناسبة نجاة قافلة كبيرة ضخمة من غزو تعرضت له بين موضع (معن) أي (معين) على قراءة ،

---

١ Background, P. 51, Albright, in BOASSOR, 129, (1953), P. 22
119, (1950), P. II.

٢ Halevy 535.

٣ Background, P. 51.

٤ « وبن ضركون بين ذيمنت وذسامت » ، أي « ومن الحرب التي وقعت بين سادة الجنوب وسادة الشمال » .

٥ Winckler, Musri, Meluchа, Ma'in, S., 20, 22.

أو موضع (ماون) (ماوان) على قراءة أخرى ، وبين موضع (رَكمت) (ركمات)[1] . واذا صح ان الموضع الأول المذكور هنا هو (معن) ، فيكون الهجوم على القافلة المذكورة قد وقع فيما بين (معين) العاصمة وموضع (ركمت) . واذا كان الموضع (مون) أو (ماوان) ، يكون الهجوم قد وقـع عليها في المنطقة التي بين (مون) (ماوان) و (ركمت) .

ولا نعلم من أمر (مون) (ماوان) شيئاً على وجه التأكيد ، وقـد ذكر (ياقوت الحموي) اسم موضع دعاه (ماوان) ، قال عنه : (واد فيه ماء بين النقرة والزبدة ، فغلب عليه الماء ، فسمي بذلك الماء ماوان[2] .

وقد أمر بتدوين هذه الكتابة (عم صدق) (عميصدق) (عم يصدق)، (عم صـديق) ابن (حم عثت) ، (ذو يفعن) و (سعد بن ولك[3]) (ذو ضفكن)[4] ، وكانا (كبر) كبيرين على (مصر) وعلى (معن مصون) (معين مصران)[5] . وقد أمر بتدوينها ، شكراً لآلهة معين : (عثتر ذو قبض) و (ود) و (نكرح) ، لأنها نجت القافلة وأنقذتها من الوقوع في أيدي الغزاة، كما قاما بتزيين معبد (تنعم) ، وذلك في عهد ملك (معين) (أب يدع يثع) . وقد ورد في الكتابة ذكر حرب وقعـت بين (مذى) و (مصر) في وسط (مصر)[6] . وقد شكر الآلهة على أن سلمت أموال المعينين في هـذه المنطقة أيضاً ، وحفظت أرواح رجال القافلة وشملتها برحمتها وحمايتها الى أن أبلغتها حدود مدينتهم (قرنو) ، شكراً وتسبيحاً بحمد (عثتر شرقن) (عثـتر الشارق) و (عثتر ذو قبض) و (ود) و (نكرح) و (عثتر ذي يهرق) (وذات نشق)[7] وكل آلهة معين[8] و (يثل) ، وملك معين (أب يدع يثع) وبابني

---

١ « رجمت » « رجمات » ، Winckler, Musri, S., 20, Background, P. 53

٢ البلدان (٧/٣٧٠) .

٣ « ولك » ، « ولج » ، « ولي » ، « علي » ، Background, P. 53, Winckler, S., 56,

٤ « ضفكن » ، « ضفلن » ، Winckler, Musri, S., 20, Background, P. 53.

٥ «عم صدق بن جمعثت» ذيفعن وسعد بن ... ولج « ولك » « علي » ، « ولي » ... ذضفكن كبرى مصرن ومعن مصرن... مصر ورتكل... مهسمن مصر واشور ».

٦ « بن وسط مصق بمرد كون بين مذى ومصر » ، السطرين الخامس والسادس من النص .

٧ « ذت نشقم » ، « ذات نشق » .

٨ « وبكل الالت معن ويثل » ، « وبكل آلهة معينة ويثل » .

(معد يكرب بن اليفع) ، وشعبي معين ويثل[1] .

ولم يرد في الكتابة ذكر الجهة التي كانت تقصدها هذه القافلة ، أكانت متجهة من معـين نحو الشمال ، أي من اليمن نحو بلاد الشأم ، أم كان اتجاهها على العكس من (معين مصران) نحو الجنوب قاصدة اليمن ، ولكن القرائن تـدل أنها كانت راجعة عائدة أي متجهة نحو اليمن ، نحو العاصمة (قرنو) ، وقـد تعرضت لأخطار كثيرة بسبب الحرب المذكورة وبسبب الغزو الذي تعرضت له، وهي في طريقها الى وطنها .

وقد كانت مثل هذه القوافل هدفاً ممتازاً للقبائل والعشائر وقطاع الطرق ، لما تحمله من أموال . وهي وان أمنت على نفسها باتفاقات تعقدها الحكومات ويعقدها أصحاب الأموال مع سادات القبائل الذين تمر الطرق من مناطق نفوذهم ، إلا أن مثل هذه الاتفاقات لم تكن كافية لحماية الأموال المغرية التي تحملها الجمال من طمع الطامعين فيها . وقد يقع الاعتداء من قبائل أخرى معادية لسادات القبائـل الذين يحمون تلك الطرق . ولهذا كانت أموال التجار معرضة دائماً للأخطار ، وعلى التجار أيضاً زيادة أسعار أموالهم ، بسبب الضرائب المستمرة التي يدفعونها لسادات الطرق ، وبسبب الزيادات التي يفرضونها في أتاواتهم هذه ، وإلا تعرضت القوافل للسلب والنهب . ولهذا لا غرابة إن نذر التجار لآلهتهم وحمدوها وسبحوا بأسمائها عند عودتهم سالمين من تجارتهم ، أو عادت قوافلهم سالمة ، فيوم العودة هو في الواقع يوم فرح وعيد .

واختلف الباحثون في تعيين الحرب التي نشبت في وسط مصر بين (مذى) و (مصر) اختلفوا في تعيين زمن وقوعها كما اختلفوا في تثبيت هوية المتحاربين : فذهب بعضهم الى ان المراد من (مذى) (الماذين) ، ويراد بهم (الماديون) (الميديون) ، وهم طبقة من طبقات الايرانيين ، ورأوا ان المعينين كانوا قد أطلقوا (مذى) عليهم محاكاة لبني إرم ، وكانوا على اتصال وثيق بهم . ولهذا دعوا بـ (مذى) في هذه الكتابة . ومن بني إرم تعلم المسلمون نسبة (الماذين)

---

[1] Glaser, 1155, Halevy 535.

(الميذيين) ، فقالوا انهم من نسل (ماذي بن يافث بن نوح)[1] . وقد ذكر الطبري اسم (كيرش الماذوي)[2] . ف (مذى) و (ماذي) اذن بمعنى (مادي) و (ميديا) Media . و (ماذي) هو (مادي) الابن الثالث ليافث في التوراة ومن نسله تسلسل الماديون[3] .

وذهب (فلبي) الى ان (مذي) هم (المدينيون) ، أهل مدين (المديانيين) الذين عرفوا بتحرشهم بالعبرانيين . وهم سكان أرض (مديان) (مدين) ، وهي أرض واسعة تمتد من خليج العقبة الى موآب وطور سيناء . ويرى ان الحرب المذكورة قد وقعت بينهم وبين أهل (معن مصرن) أي (معين المصرية)[4] . ورأى (هومل) ان (مذي) هم جماعة من بدو طور سيناء[5] .

ونجد (فلبي) نفسه ، يخالف نفسه في مناسبات أخرى ، فقد ذهب مرة الى ان (مذي) هم جماعة عرفوا بـ (مذوي) Madhoy أو Maroe أو Mazlou ، وبين هؤلاء وبين (مصر) وقعت تلك الحرب[6] .

واختلفوا في زمن وقوع تلك الحرب ، فذهب (ونت) الى ان الحرب المذكورة في هذا النص ، حرب (مذي) و (مصر) هي الحرب التي وقعت بين (الميديين) والمصريين في سنة (٣٤٣ ق. م.)[7] . وقد استولى فيها

---

١ « ماذى بن يافث ، وهو الذي تنسب السيوف الماذية اليه » ، الطبري (٢١٦/١ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢) ، « طبعة ليدن » ، (٢٠٥/١) ، « دار المعارف » ، ولما عدد الطبري أسماء أبناء يافث بن نوح ، لم يذكر اسم « ماذي » في جملتهم ، (٢٠٦/١) ، « دار المعارف » .

٢ الطبري (٢٠٦/١) ، « دار المعارف » .

٣ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢ ، أخبار الأيام الأول ، الاصحاح الأول ، الآية ٥ ، قاموس الكتاب المقدس (٣٠٦/٢) .

٤ « مدين » ، « مديان » ، « مديانيون » ، قاموس الكتاب المقدس ، (٣٢٤/٢) ، « مدين » في الكتب العربية ، Background, P. 54.

٥ Handbuch, I, S. 70, Hommel, Aufsätze, S. 231, Le Muséon. LXII, 3-4, P. 238, (1949).

٦ Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 238.

٧ BOASOOR, Num. 73, 1939, P. 8

(أرتحشتا أوخوس) (أرطخشت أوخوس) Artaxerxes Ochus على مصر[1].
والى هذا الرأي ذهب (البرايت) Albright كذلك[2]. أما (ملاكر) K. Mlaker فيرى ان هذه الحرب ، هي الحرب التي وقعت في حوالي سنة (٥٢٥ ق. م.) وأدت الى فتح (قمبيز) (كمبيس) Cambyses لمصر[3] . ومن اختلافهم في تقدير زمن وقوع هذه الحرب ، اختلفوا في زمن حكم (اب يدع يثع) ملك معين ، وفي حكم سائر ملوك معين ، من مبدأ أول ملك الى حكم آخر ملك من ملوك هذه الدولة .

وقد ذهبت (بيرين) J. Pirenne إلى أن الحرب المذكورة وقعت في الفترة الواقعة فيما بين (٢١٠) الى (٢٠٥ ق. م.)،وأن المراد من (مذي) (السلوقيون) ومن (مصر) البطالمة ، وأنها قد تشير إلى الاستيلاء على (غزة) في سنة (٢١٧ ق. م.) تقريباً ، وإلى المعركة التي تلتها ووقعت عند موضع Rapheia[4].

ويرى البعض أن لفظة (مذي) إنما كانت تعني الحكومة التي تحكم العراق، ولو لم تكن من (الماذويين) (الميديين) ، وأن (مصر) تعني الحكومة التي تحكم مصر من غير تقيد بجنسية الحاكمين لها . ويستشهد على هذا بورود لفظة (مذي) (هملي) في نص (صفوي) من سنة (٦١٤) للميلاد ، وقد قصد بهم (الفرس) . ويرى أن اطلاق لفظة (هملي) أي (الميدين) على الفرس لا يثير اعتراضاً كبيراً مثل الاعتراض الذي يثار حول تفسير (مذي) بـ (سلوقين) ، إذ أن الساسانيين هم فرس ، والماذيين فرس كذلك ، وان

---

١ هكذا كان يكتب عند اليونان . أما الفرس ، فكانوا ينطقون به على هذا الشكل : « أرتخشترا » Artakhshatra
وفي العبرانية « Artachschasta » ، ومعناه : ملك عظيم ، قاموس الكتاب المقدس (٥٩/١) ، « ارطحششت الثالث المعروف بالاسود ، واليونانيون يسمونه أوخوس ، ملك سبعا وعشرين سنة ، واستعاد ملك مصر ، وهزم نقطابيوس ملكها ... » ، تاريخ مختصر الدول ، لابن العبري (ص ٨٩) ، بيروت ، (١٨٩٠ م) .

٢ BHASOOR, 119, (1950), «The Chronology of Ancient South Arabia in The Light of the first Campaign of Excavation in Qataban», P. II.

٣ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 231, K. Mlaker, Die Hierodulen-Listen von Ma'in nebst Untersuchungen zur Altsüdarabischen Rechtsgeschichte und Chronologie».

٤ P. Pirenne, Paléographie des Inscriptions sud arabes, I, (1956), 211.

كانوا من جيلين مختلفين . أما (السلوقيون) ، فقد كانوا يونـانـاً ، وليست لهم علاقة بالفرس ، ثم من يدرينا أن أهل ذلك العهد من العرب كانوا يطلقون على كل من يحكم العراق (ميذيين) (ماذويين) ، وفي جملتهم هؤلاء السلوقيون[1] .

هذا وقد ورد في النص اسم أرض دعيت (اشور) (اشر) ، ووردت معها لفظة (مصر) . وقد ذهب بعض الباحثين فيه الى أن الكبيرين المذكورين كانا يمثلان ملك معين في (مصر) ، أو في (صور) عـلى بعض القراءات وعند ملك (اشر) (اشور) و (عبر نهران)[٢] . وذهبوا الى أن (اشر) (اشور) هي (آشور) ، أو البادية . أما (هومل) و (كلاسر) فـذهبا إلى أن المراد من (اشور) أرض تقع على حدود مصر[٣] ، سكنها شعب دعي في التوراة بـ (اشـــوريم) Asshurim ، وهم (ولطوشيم) Lutushim[٤] و (لويميم) Leummim قبائل عربية جعلتها التوراة من نسل (ددان) Dedan (ديدان) من ابراهيم من زوجــه (قطورة)[٥] . وقد ورد في (الترکوم) Targum أن معنى (اشوريم) سكان الخيام . وقد وردت اللفظة (اشور) (اشور) Ashur في كتابتين معينيتين[٦] .

وعلى رأي (هومل) و (كلاسر) يكون الكبيران المذكوران في الكتابة ، وهما أصحابها ، قـــد حكما ومثلا ملك معين في (معين المصريـة) وفي أرض (اشور) أي في منطقة تمتد من مصر الى (بئر السبع) Beersheba و(حبرون) Hebron . وهي طور سيناء عند (هومل) ، والأرض الواقعة بين السويس الى (غزة) وجنوب فلسطين عند (كلاسر)[٧] .

وأما المغيرون على القافلة والذين أرادوا الاستلاء عليها ، فهم قوم من (سبأ)

---

١ Die Araber, I, S., 75.

٢ Glaser, Skizze, 2, S., 452, Winckler, Musri, S., 20, Background, P. 53.

٣ Glaser, Skizze, 2., 452, Hommel, AHT, 239, Winckler, AOF., S., 28, ZDMG., 527, (1895).

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٩٣) ، التكوين الاصحاح ٢٥ ، الآية ٣ ، Hastings, P. 541.

٥ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الآية ٣ ، Ency. Bibli., P. 346, Hastings, P. 59.

٦ Hastings, P. 59.

٧ Ency .Bibli., P. 346, Glaser, Skizze, 2, S., 452.

و (خولان) على رأي الباحثين . وقد ورد اسم الخولانيين في نصوص عربية جنوبية مما يدل على أنهم كانوا من القبائل المعاصرة للسبئيين[1] .

ويتبين من هذا النص ان حربين قد نشبتا قبل تدوينه ، حرب نشبت بين (ذيمنت) و (ذشامت) ، أي بين سادة الجنوب وسادة الشمال ، وحرب أخرى هي الحرب التي نشبت بين (ملدي) و (مصر) . وقد أصاب المعينيين من هاتين الحربين خسائر كبيرة . أما متى نشبت الحربان وكم كانت المدة بينهما، وبين الهجوم على القافلة المعينية المذكورة ، فليس من الممكن تقديم أجوبة عنها مقنعة ومقبولة ، لقلة ما لدينا من كتابات ووثائق ، وقد رأينا اختلاف أهل العلم في تقدير تأريخ هذا النص ، بسبب أخذهم بالحدس والتخمين ، لذلك أرى ان من الصواب ترك هذه الاجابة الى المستقبل .

وقد رأينا ان هذا النص دوّن في ايام الملك (اب يدع يثع) ، وقد أشير فيه الى ابني (معديكرب بن البفع) الا انه لم يذكر اسميها ولا نعتها فجعلنا بذلك نجهل من أمرهما . ولهذا لم يتمكن الباحثون من وضعهما في قائمة ملوك حضرموت . الا ان (فلبي) ذكر انهما لم يتربعا على عرش تلك المملكة لأنها ضمت الى معين وبقيت مدة قدرها بحوالي ثلاثة قرون مندمجة فيها الى حوالي السنة (٦٥٠) قبل الميلاد حين انفصلت عن معين ، وتولى الحكم عليها – على رأيه – الملك (السمع ذبيان بن ملككرب)[2] .

وذكر اسم الملك (ابيدع يثع) ، واسم ابنه (وقه آل ريم) (وقه ايل ريام) في النص الذي وسم بـ Rep. Epig., 3535 ، وهو نص دوّنه (سعد ابن هوفعثت) من (آل ضفجن) (آل ضفجان) (آل ضفكان) عند بنائه (مذبا) (مذابا) ، وصاحب هذه الكتابة هو من العشيرة التي ينتمي اليها صاحب الكتابة Glaser 1155 المذكورة . وقد كان (كبيراً) كذلك . تولى ادارة مقاطعة (معن مصرن) (معين مصران) ، أي (معين المصرية) ، وقد دعيت بذلك لأن سكانها من المعينيين الساكنين في الشمال في العلا وما جاورها على الحدود المتاخمة لشرق (مصر) . وقد تيمن بهذه المناسبة على عادة العرب

---

١ نشر نقوش ، نقش رقم ٩ ، سطر ٣ ، Glaser 1076, Halevy 585, Glaser 119.
٢ Background, P. 144.

الجنوبيين بذكر آلهة معين ثم ملك معين وابنه ، مما يدل على ان ابنه كان يشاركه يومئذ في تدبير الأمور ، كما شكر (مجلس معين) و (مشود معن) (مزود معين)[١] .

وجاء بعد (اب يدع يثع) (أبيدع يثع) على عرش معين الملك (وقه آل ريم) (وقه ايل ريام) ابن الملك (أبيع يثع) (أب يدع يثع)[٢]. وابن (هوف عث) (هوفعث) على رأي (فلبي)[٣] . أما (البرايت) ، فقد جعله في موضع[٤] ابن (هوفعث) ، غير انه عاد في مواضع أخرى[٥] ، فجعله ابناً من أبناء (أب يدع يثع) .

وانتقل الحكم الى (حفن صدق) (حفن صديق) بعد (أب يدع يثع) ، وهو ابن (هوفعث) على رأي (فلبي)[٦] ، وابن (وقه آل ريم) (وقه ايل ريام) على رأي (البرايت)[٧] . وكان (البرابت) قد جعله في بحث آخر نشره من قبل شقيقاً لـ (وقه ايل ريام) ، أي أنه جعله أحد أبناء (أب يدع يثع)[٨] .

ثم صار الحكم الى (اليفع يفش) بعد (حفن صدق) ، وهو ابنه على رأي (فلبي)[٩] . أما (البرايت) فقد ذكر في بحث من بحوثه أنه ابنه ، غير أنه وضع أمام قوله هذا علامة استفهام اشارة الى أنه غير واثق برأيه كل الوثوق[١٠] ، ووضع في بحث له آخر في ملوك المعينين جملة اشترك مع (حفن صدق في الحكم) ، من غير أن يشير الى علاقته به[١١] .

---

١ Rep. Epig., 3535, Weber, Stud., II, S. 34, Lidzbarski, Eph. Semi., II, S., 98, Hartmann, Süd-Arab-Frage, I, Conti Rossini, Chrest. Arab. Merid., 1931. P. 80.

٢ Rep. Epigr., 3535.

٣ Background, P. 141.

٤ BOASOOR, Num., 119, (1950), P. II.

٥ BOASOOR, Num., 129, (1953), P. 22.

٦ Background, P. 141.

٧ BOASOOR, Num., 129, (1953), P. 22.

٨ BOASOOR, Num., 119, (1950), P. 11.

٩ Background, P. 141.

١٠ BOASOOR, Num., 119, (1950), P. 11.

١١ BOASOOR, Num., 129, (1953), P. 22.

ووضع (فلبي) فراغاً بعد اسم (اليفع يفش) ، لا يدري من حكم فيه ، قدره على عادته بعشرين عاماً ، ويقابل ذلك حوالي السنة (٨٧٠ ق. م.) ، وجعل نهايته في سنة (٨٥٠ ق. م.) ، ثم وضع بعده أسرة جديدة ، زعم أنها حكمت معيناً على رأسها (يثع ابل صديق) (يثع آل صدق) ولا نعرف الآن من أمره شيئاً إلاّ ما ورد في كتابة من الكتابات من أنه بنى حصن (يشبم) (يشبوم) ، وأنــه والد (وقه آل يثع) (وقه ايل يثع) ملك معين[1] . و (وقه آل يثع) هو والد (اليفع يشر) الذي ضعفت في أيامه حكومة معين كما يظهر ذلك من كتابة كتبها أهل (ذمرن) (ذمران) لمناسبة وقفهم وقفاً على معبد ، إذ ورد : (في أيام سيدهم ، وقه آل يثع وابنه اليفع يشر ، ملك معين ، وباسم سيدة شهريكل يهركب ملك قتبان) . ويظهر منها أنها كتبت في أيام (وقه آل يثع) ، وكان ابنه (اليفع) يحمل لقب (ملك)، كذلك وأن حكومة قتبان كانت أقوى من حكومة (معين) ، ولهذا اعترف ملك معين بسيادة ملك قتبان عليه[2] .

وقــد ورد اسم (اليفع يشر) في كتابات أخرى ، منهـا الكتابة الموسومة Glaser 1144 = Halevy 353 ، وقد دونت بأمر جماعة من أهل (نيط) لمناسبة قيامهم بترميات واصلاحات في الأبراج وحفر قنوات ومسايــل للمياه تقرباً إلى آلهة معين[3] . ومنها كتابة دونت في (نشن) (نشان) ، وكتابــة دونت في (قرنو) ، ويظهر من هذه الكتابة الأخيرة ما يؤيد رأي القائلين إن حكومــة قتبان كانت أقوى من حكومة معين إذ ذاك ، وانها فرضت نفسها للملك عليها[4] إلا أن هذا لا يعني أنها فقدت استقلالها وصارت خاضعة لحكومة قتبان فاننا نرى أنها بقيت مدة طويلة بعد هذا العهد محافظة على كيانها ، وعلى رأسها ملوك منهم الملك (حفن ريم) (حفن ريام) وهو ابن (اليفع يشر) وشقيقه (وقه آل نبط) و (كه ايل نبط)[5] .

---

١ Background, P. 56, BOASOOR, Num., 73, (1939), P. 7.

٢ Background, P. 56.

٣ Stud. Lexi., 2, S., 30-31, Mordtmann, Min. Epigr., S., 68, 71, JS., II, Euting, 6, JS., 13, Euting 22.

٤ Background, P. 56.

٥ Background, P. 141.

وورد اسم (اليفع بشر) في كتابتين عثر عليها في (الديدان) (ددن) (ددان)[1] (العلا) ، أمر بتدوين احداهما (وهب آل بن حيو ذعم رتنع)[2] (عمى رتع)[3] من أعيان المعينيين في الشمال ومن (الكبراء) . وأما الكتابة الأخرى فتعود لـ (يفعن) (يفعان) من رؤساء (ددان) كذلك . وقد كان هذان الرجلان من أسرتين كبيرتين عرفتا في ايام معين المتأخرة وفي عهد اللحيانيين ، وورد اسم الأسرتين في عدد آخر من الكتابات[4] .

وورد في النص الموسوم بـ Rep. Epigr., 3707 اسم الملك (وقه آل نبط) وورد فيه اسم المدينة (قرنو) العاصمة . وهذا النص دوّن في ايام (هنا فامن) (هانيء فأمان) الذي كان كبيراً على هذه المنطقة التي دُوّن فيه النص ، وهي منطقة (الحريبة) في أرض مدين أي في الأرضين التي سكنها المعينيون الشماليون[5]. والملك المذكور هو ابن الملك (اليفع بشر) وشقيق الملك (حفن ريام)[6] .

أما (البرايت) ، فقد وضع هذه الأسرة التي يرأسها (يثع ايل صدق)، في نهاية الأسر الحاكمة لحكومة معين . وتتألف عنده من (يثع ايل صدق) ، ومن (وقه ايل يثع) ابنه ، ومن (اليفع بشر) ، ومن (حفن ريام) ، ومن (وقه ايل نبط)[7] . وقد كان حكم (وقه ايل صدق) — على رأيه — في حوالي السنة (١٥٠ ق. م.) . وكان تابعاً للملك (شهر يجل يهرجب) (شهر يكل يهركب) ملك قتبان[8] .

وترك (فلبي) بعد اسم (حفن ريام) و (وقه ايل نبط) فراغاً لا يدرى من حكم فيه ، قدره بعشرين عاماً ، ويبدأ — على رأيه — من سنة (٧٧٠) وينتهي بسنة (٧٥٠ ق. م.) ، ثم وضع بانتهائه ابتداء أسرة أخرى جديدة ، جعلها الأسرة الرابعة من الأسر التي حكمت حكومة معين . وقد ابتدأها بـ (ابيدع

---

١ Rep. Epig., 3341, Rep. Epig. 3355b, Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 234, Euting 10, Jausen - Savignag, Mission, II, (732), P. 256.

٢ « عم رتع » ، « عمرتع » ، Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 234.

٣ BOASOOR, Num., 73, (1939), P. 6.

٤ JS 43, 245, 276, 281, 288, JS, 50, 196, 197, 216,

٥ Rep. Epig., 3707, Jaussen-Savignang, Mission, II, P. 301, Handbuch, I, S., 72.

٦ Handbuch, I, 72, Albright, The Chronology, P. 12.

٧ BOASOOR, Num., 119, (1950), P. 12.

٨ Ibid.

ريام) ، ثم بابنه (خل كرب صدق) (خال كرب صديق) . وقد ورد اسمه في كتابة وجدت في (قرنو) لمناسبة (تدشين) معبد (لعشتر ذ قبض) (عثتر ذو قبض) ، وكان له ولدان ، هما : (حفن يثع) و (أوس) وقد تولى (حفن يثع) عرش (معين) بعد وفاة أبيه ، ومن الجائز – على رأي (فلبي) – ان يكون شقيقه (أوس) قد اشترك معه في الحكم[1] .

وورد عهد الملك (خلكرب صدق) (خالكرب صديق) (خالكرب صادق) في الكتابة المرقمة بـ Glaser 1153 = Halevy 243 ، وذلك لمناسبة تقديم جماعة ذكرت أسماؤهم في الكتابة نذراً إلى الآلهة (عثتر ذ قبض) في معبده بـ (رصف) (رصاف) (رصفم) لقبيلة (هورن) (هوران) . فذكروا أن ذلك كان تيمناً بآلهة (معين) و (يثل) في عهد هذا الملك . وأما الرجال الذين قدموا ذلك النذر ، فهم: (مشلك بن حوه) من (خدمن) (خدمان) (آل خدمان) من قبيلة (زلتن) (زلتان) ، و (أوس بن بسل) (باسل) من (آل وكيل) (ذو كل) و (متعن بن حم) (متعان بن حام) من (آل وكيل) ، (ذو كل) و (باسل بن لحيان)[2] . من (آل وكيل) و (ثي بن أبانس)[3] . من قبيلة (معهرم) (معهر)[4] ، و (مذكر بن عمانس) من (حرض)[5] وآخران . وقد ذكر بعد اسم الملك اسم (الكبير) (كبر)[6] الذي كان يحكمهم ،وهو (مشلك) من (آل خدمن) (آل خدمان)[7].

ويرى (فون وزمن) أن الملك (خل كرب صدق) ، (خال كرب صديق)، هو الذي بنى معبد (رصف) ، (رصفم) ، المعبد الشهير عند المعينيين[8] . ويقع هذا المعبد خارج سور (قرنو) العاصمة ، على مسافة

---

١ Background, P. 57.
٢ « بسمل بن لحين » ، السطران السادس والسابع من النص .
٣ « وثنى بن ابانس » .
٤ « ذ معهر » .
٥ « ذ حرض » .
٦ « كبر هسم » ، السطر ١٩ .
٧ خليل يحيى نامي ، نقوش خربة معين (مجموعة محمد توفيق) ، من منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، القاهرة ١٩٥٢ م (ص ٢٠) ، النقش رقم ١٥ .
٨ Beiträge, S., 73.

حوالي (٧٥٠) متراً من المدينة[١] . وقد عثر في أنقاضه على عدد من الكتابات.

وتيمن بذكر الملك (خالكرب صديق) ملك معين في نص آخر ، دونه (مشلك بن حوه) من (آل خدمان) من قبيلة (زلتان) أي الشخص الذي مرّ ذكره في الكتابة السابقة بالاشتراك مع أناس آخرين ، هم : (حيوم بن هوف) و (وينان)[٢] و (مأوس) ابن عمه من (آل كزيان)[٣]، (جزيان) و (هبان) (وهب)[٤] وأخوه (اكر)[٥] ابنا (صبح) من (آل جزيان)، و (أوسان) ، وجماعة آخرون سقطت أسماؤهم من الكتابة . وقد ذكر بعد اسم الملك اسم (الكبير)[٦] الذي في عهده كتبت الكتابة وهو (مشلك ذ خدمان) أي (مشلك) من (آل خدمان) أو (كبير خدمان) (ذو خدمان) وهو الكبير المذكور في الكتابة السابقة[٧] .

وقد ورد اسم هذا الملك في الكتابة الموسومة بـ Halevy 241 + 242 [٨] . وقد أمر صاحبها بتدوينها لمناسبة تبحيره بئره المسماة (ثمر) (ثمار)[٩] على مقربة من معين وتوسيعها وطيّها (أي بنائها) ، وتسويره مزارعه وقد قوّى وحصن البرج المشرف عليها . وتيمناً بهذه المناسبة ، ذكر اسم (عثتر ذ قبض) و (ود) و (نكرح) و (عثتر ذ يهرق) آلهة معين ، والملك (خالكرب صديق) وشعب معين[١٠] .

أما (البرايت)،فكان قد ذكر في نهاية بحث له نشره في سنة (١٩٥٠ م) عن ملوك معين أن هناك ما لا يقل عن خمسة ملوك نعرفهم أنهم من ملوك معين غير أننا لا نستطيع أن نعرف مواضعهم التي يجب أن يوضعوا فيها بين ملوك

---

١ المصدر نفسه (ص ١٤) .
٢ « وينن » .
٣ « كزين » بحرف الجيم على حسب النطق المصري .
٤ « وهبن » .
٥ « اكر » « اجر » .
٦ « كبر » .
٧ خربة معين ، ص ٢٦ ، النقش رقم ١٨ ، Glaser 1154 Halevy 195, REP. Epigr. 2777.
٨ Glaser 1161, REP. Epigr. 2817, 2818.
٩ « ثمر » .
١٠ خربة معين ص ٢٥ ، النقش رقم ١٧ .

معين . وهـؤلاء الملوك هم : (أبيدع ريام) ، ثم ابنه (خلكرب صدق) (خليكرب صديق) (خال كرب صديق) ، ثم ابنه (حفنم يثع) (حفن يثع) ، ثم (يثع ايل ريام) وابنه (تبع كرب) [1].

ثم عاد (البرايت) فغـير رأيه في بحث نشره في سنة ١٩٥٣ م في هـذا الموضوع أيضاً : موضوع ترتيب ملوك معين . فقد وضع اسم (يثع ايل ريام) بعد اسم (عم يثع نبط) وهو ابن (اب كرب) (أبكرب) . وقد حكم – على رأيه – بعد (اليفع يفش) وذلك في حوالي السنة (٣٠٠ ق. م.) ، ثم وضع بعده اسم (تبعكرب) (تبع كرب) ، وهو ابن (يثع ايل ريام) ثم ذكر اسم (خليكرب صدق) (خاليكرب صديق) (خال كرب صديق) من بعـده ، وهو ابن (أبيدع ريام) ، وقد كان حكمـه في حوالي السنة (٢٥٠ ق. م.) ، ثم جعل اسم (حفن يثع) من بعده وهو ابنه[2] . وبذلك قدّم هذه الأسماء في هذا البحث بأن جعلها في المجموعة الأولى من المجموعات الثلاث التي حكمت مملكة معين .

وقد ختم (فلبي) قائمته لأسماء ملوك معين بأن وضع فراغاً مقداره عشرون عاماً ، لا يدرى من حكم فيه ، أنهاه بسنة (٦٧٠ ق. م.) ، ثم تحدث عن أسرة خامسة زعم ان أعضاءها هم : (يثع ايل ريام) ، وقد حكم في حوالي السنة (٦٧٠ ق. م.) ، ثم (تبع كرب) وهو ابنه وقد كان حكمه من سنة (٦٥٠ ق. م.) حتى سنة (٦٣٠ ق. م.) . وكان له شقيق اسمه (حيو) (حي) ربما كان قد شاركه في الحكم[3] . وبذلك أنهى (فلبي) قائمته للملوك (معين) .

وقد وضع (البرايت) قائمة رتب فيها ملوك معين ، فجعل أولهم (اليفع يثع) ، وقد حكم على رأيه حوالي سنـة (٤٠٠ ق. م.) ، وابن (صدق ايل) ملك حضرموت . وعندي ان البدء بهذا الملك على انه أقدم ملوك معين ، يدل على ان مملكة معين كانت في أقدم عهودها خاضعة لمملكة حضرموت ، وهو يحتاج الى دليل ، ولم يرد في نص ان حكومة معـين كانت خاضعة في بادىء

---

١ BOASOOR, Num., 119, (1950), P. 12.
٢ BOASOOR, Num. 129, (1953), P. 23.
٣ Background, P. 141.

الأمر لحكومة حضرموت ، ثم استقلت عنها ، بل يذهب أكثر علماء العربيات الجنوبية الى تقدم معين على حضرموت في القدم . ويلاحظ أيضاً انه جعل الملك (يدع ايل) على رأس قائمة ملوك حضرموت وقد كان هذا الملك على رأيه أيضاً معاصراً للملك (كرب آل وتر) (كرب ايل وتر)،وقد حكم على رأيه حوالي سنة (٤٥٠ ق. م.)[١] .

والواقع اننا لا نستطيع التحدث عن صلة (صدق ايل) ملك حضرموت بمعين بصورة جازمة ، وان كان الغالب على الظن انه كان ملكاً على شعب معين وشعب حضرموت . ولكننا لا نستطيع أن نؤكد انه كان حضرمياً ، كما اننا لا نستطيع أن نقول جازمين انه من معين . وقد سبق أن تحدثت عنه ، والظاهر انه كان ملكاً أيضاً على معين ، وقد سبقه بالطبع جملة ملوك حكموا دولة معين كانوا من المعينيين . أما ابنه (اليفع يثع) ، الذي جعله (البرايت) أول ملوك معين ، فقد ورث عرش معين من أبيه على نحو ما رأى (فلبي) ، على حين ورث شقيقه (شهر علن) (شهر علان) عرش حضرموت . وهذا يدل على ان رابطة دموية كانت تربط بين حكام الشعبين ، يؤيد ذلك ان (معد يكرب ابن اليفع يثع) هو الذي تولى عرش حضرموت بعد (شهر علن) أي بعد وفاة (عمه) ، وأبوه كما رأيت ملك معيناً .

وجعل (البرايت) (حفن ذرح) بعد (اليفع يثع) ، وهو ابنه ولعله الابن الأكبر ، وهو شقيق (معد يكرب) ملك حضرموت ، أي ان ولدي (اليفع يثع) كانا قد اقتسما تاج معين وتاج حضرموت .

وتولى عرش معين بعد (حفن ذرح) (اليفع ريام) ، وقد تولى أيضاً عرش حضرموت على رأي (البرايت) ، ثم تولى بعده (هوف عث) ، ثم (اب يدع) ، وهو شقيقه وابن (اليفع ريام) ، والى ايامه يعود النص المعروف بـ Halevy 535 + 578 [٢]،الذي يتحدث عن حرب نشبت بين (مدي) (ماذي) و (مصر) . ويرى (البرايت) استناداً الى هذا النص ان حكمه

---

١ BOASOOR, Num. 119, (1950), P. 14-15.

٢ Glaser 1155.

يجب أن يكون في حوالي عام (٣٤٣ ق. م.)[١] . أما (فلبي) فقد جعل حكمه في حوالي عام (٩٣٥ ق. م.) ، وجعله العاشر بحسب تسلسل الملوك[٢].

وتتشابه قائمة (البرايت) وقائمة (فلبي) في تسلسل المجموعة التي تولت حكم معين هي والتي تبدأ بـ (اب يدع يثع) وتنتهي بـ (اليفع يفش) ، ثم تختلف قائمته عن قائمة (فلبي) ، اذ يذكر (فلبي) أسرة جديدة ، يرى انها حكمت بعد تلك الأسرة بمدة قدرها بزهاء عشرين عاماً ، على عادته في تقدير متوسط مدة حكم كل ملك من الملوك وتبدأ على رأيه بـ (يثع ايل صديق) ثم بابنه (وقه ايل يثع) ثم بـ (اليفع يشر) ثم بـ (حفن ريام) ابن (اليفع يشر) ، ثم (وكه ايل بنت) (وجه ايل نبط) . أما (البرايت) فيذكر ،قبل هذه السلالة التي تبدأ بـ (اليفع وقه) ، ثم بـ (وقه ايل صديق) ثم بـ (اب كرب يثع) ، ثم تنتهي بـ (عم يثع ثبط) (نبط). وقد حكم (اليفع وقه) على رأي (البرايت) في حوالي سنة (٢٥٠ ق. م.)[٣] . على حين قدم (فلبي) هذه السلالة وجعلها في رأس قائمة ملوك معين . وقد حكم (اليفع وقه) على رأيه حوالي سنة (١١٢٠ ق. م.) .

وذكر (البرايت) بعد الأسرة المتقدمة أسرة أخرى جعل على رأسها (يثع آل صدق) ، ثم (وقه آل يثع) ، وهو ابن (يثع آل صدق) ، وقد ذكر أنهما كانا تابعين للملك (شهر يجل يهرجب) ، ملك قتبان الذي حكم على تقديره في حوالي سنة (١٥٠ ق. م.) ، وجعل بعد (وقه آل يثع) ابنه الملك (اليفع يشر) وقد ورد اسمه في كتابة عثر عليها في (ددان) (ديدان) ، ثم جعل من بعده ابنه (حفن عم ريام) ، ثم شقيقه (وقه آل نبط) . وقد ورد اسمه في كتابة (ديدان) .

وذكر (البرايت) أنه لا يستطيع تعيين زمن حكم الملوك (اب يدع ريام) وابنه (خلكرب صدق) ، وابنه (جفن عم يثع) ، و (يثع آل ريام)،

---

١ BOASOOR, Num. 119, (1950), P. 15, W.F. Albright, «The Chronology of Ancient South Arabia in the Light of the First Campaign of Excavation in Qataban, Baltimore, 1950, P. 11.

٢ Background, P. 141.

٣ BOASOOR, Num. 119, (1950), P. 15.

وابنه (تبع كرب)[١] .

ويرى (فون وزمن) احتمال كون (اليفع يشر الثاني) هو آخر ملك من ملوك معين . وقد لقب (البرايت) هذا الملك (بالثاني) ، أيضاً ليميزه عن ملك آخر عرف بهذا الاسم وضعه في الجمهرة الثانية من الجمهرات الثلاث التي صنعها لملوك معين ، لهذا دعاه بـ (الأول)[٢] . وقد جاء في الكتابة الموسومة بـ REP. EPIg. 3021 اسمه واسم (شهر يجل يهرجب) ملك قتبان ، كما سبق أن ذكرت . وهذا مما يدل على انه كان معاصراً للملك قتبان المذكور . وقد حكم فيما بين السنة (٧٥ ق. م.) والسنة (٥٠ ق. م.) . أما (فون وزمن) ، فيرى أن حكمه كان في حوالي السنة (٤٥ ق. م.)[٣] .

وقد عاد (البرايت) كما قلت سابقاً فأعاد النظر في قائمتـه المذكورة التي وضعها لملوك معين ، فقدم وأخر ووضع تواريخ جديدة ، أشرت الى بعضهـا فيما سبق وسأنقل قائمته نقلاً كاملاً في نهاية هذا الفصل[٤] .

وقد جعل (البرايت) زمان حكم المجموعة الأولى من حكام معين بين السنة (٤٠٠ ق. م.) والسنة (٢٠٠ ق. م.) . اما زمان حكم المجموعة الثانية فقد جعله بين السنة (٢٠٠ ق. م.) والسنة (١٠٠ ق. م.) الى الـ (٥٧ق. م.). وأما زمان حـكم المجموعة الثالثة فن أوائل القرن الأول قبل الميلاد الى النصف الأخير منه ، فيما بين السنة (٥٠ ق. م.) والسنة (٢٥ ق. م.)[٥] .

غير أنه بيّن أنه لا يريد أن يؤكد أن قائمته هذه قائمة ثابتة لا تقبل تعديلاً ولا اصلاحاً . فقد يجوز أن تعدل في المستقبل في ضوء الاكتشافات الجـديدة ، كما عدلت قائمته السابقة تعديلاً كبيراً . وقد رتب قائمته الثانية في ضوء دراسة تطور الخط وشكل الكتابة عنـد العرب الجنوبين بحسب العصور . ولكن هـذا لا يكفي وحده بالطبع في ابداء أحكام قاطعة صحيحة بالنسبة الى السنين .

أما قائمة (كليمان هوار) ، فتتألف من سبع مجموعات . رجـال المجموعة الأولى الملك (يثع ايل صديق) والملوك (وقه ايل يثع) و (اليفـع يشر)

---

١ The Chronology., P. 12, BOASOOR, Num. 19, (1950), P. 15.

٢ BOASOOR, Num. 129, (1953), P. 24.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 442.

٤ BOASOOR, Num. 129, (1953), PP. 20.

٥ BOASOOR, Num. 129, (1953), P. 12.

و (حفن عم ريم) (حفن ريام) . ورجال المجموعة الثانية الملوك : (اليفع يثع) و (اب يدع يثع) و (وقه ايل ريام) ، و (حفنم صديق) (حفن صديق) (حفن صدق) ، و (اليفـع يفش) . ورجال الجمهرة الثالثة هم الملوك : (اليفع وقه) و (وقه ايل صديق) و (اب كرب يثع) ، و(عم يدع نبط) (عمى يدع نبط) . ورجال الجمهرة الرابعـة الملوك : (اليفع ريام) و (هوف عثت) . وأما الجمهرة الخامسة ، فتتألف من (أب يدع) ولم يذكر لقبه،ومن (خال كرب صديق) ومن (حفن يثع) . وأما المجموعة السادسة ، فتتكون من (يثع ايل ريام) ، و (تبع كرب) . وأما المجموعة السابعة ، فعمادها (اب يدع) ، ولم يذكر لقبه و (حفنم)[1] .

ويلاحظ أن ملوك معين ، وكذلك ملوك سائر الحكومات العربيـة الجنوبية ، كانوا يحملون ألقاباً مثل (يثع) بمعنى المنقذ أو المخلص ، و (صدق) (صدوق) أي (الصادق) و (العـادل) و (الصدوق) ، و (ريم) (ريام) بمعنى (العالي) و (نبـط) بمعنى (المضيء) ، و (وقه) بمعنى (المجيب) و (المطيـع) ، وربما بمعنى (الآمر) و (يفش) ، بمعنى (الفخور) و (المتكبر) أو (المتعالي) ، و (يشر) بمعنى (المستقيم) و (ذرح)، بمعنى (الوضاح) ، أو (المنـير) أو (المشرق) ، و (وتر) ، بمعنى (المتعالي) ، و (بين) بمعنى (الظاهر) والبين[2] . إلى غير ذلك من ألقاب ترد في الكتابات المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية والكتابات الأخرى .

ومما يلاحظ أيضاً أن ملوك الروم والرومـان والفرس ، كانوا أيضاً يتلقبون بمثل هذه الألقاب . وقد تلقب الخلفاء والملوك بمثل هـذه الألقاب في العصور العباسية . أما الخلفاء الراشدون والأمويون،فلم يميلوا الى استعمالها ، ولعل استعمال العباسيين لها كان تشبهاً بفعل الملوك المذكورين ، وبتأثير الموالي الذين نقلوا الى المسلمين كثيراً من رسوم الملك عند الفرس واليونان .

وقد ورد في الكتابة الموسومة بـ Halevy 208[3] ، وهي من (معين) اسم

---

١ Geschichte der Araber, I, S., 56.

٢ Handbuch, I, S., 68.

٣ Glaser 1089-1660, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S., 26.

ملك من ملوك معين، هو (اليفع يثع) ، وذكر بعده اسم (ابيدع) (أبي دع)[1] ولم يلقب أي واحد منهما بلقب (ملك) ، وإنما ذكرا بعد ذكر أسماء آلهة معين . وجاء بعد ذلك في جملة تالية (وملوك معين)[2] . ويظهر بوضوح من هذا النص أن (اليفع يثع) و (أبيدع) كانا ملكين من ملوك معين . وأن في عهدهما دونت هذه الكتابة ، تيمناً باسمهما ، وتخليداً لتأريخهما . وقد لاحظت أن الباحثين في حكومة معين لم يشيروا إلى اسميهما في ضمن القوائم التي وضعوها لحكام تلك الحكومة .

حكومات عدن :

انقرضت حكومة (معين) وحلت محلها حكومة (سبأ) غير ان هذا لا يعني انقراض شعب معين بانقراض حكومته ، وذهابه من عالم الوجود ، اذ ورد اسم المعينيين في عدد من الكتابات المعينية التي يرجع عهدها الى ما بعد سقوط حكومتهم ، كما ورد اسمهم في المؤلفات الكلاسيكية التي تعود الى القرن الأول للميلاد[3] . وقد سبق ان ذكرت رأي المتخصصين في العربيات الجنوبية في هذا الموضوع . أما متى خفي اسمهم من عالم الوجود خفاء تاماً ، فذلك سؤال لا تمكن الاجابة عنه الآن ، اذ يتطلب ذلك التأكد من اننا قد وقفنا على جميع الكتابات العربية الجنوبية والمؤلفات الكلاسيكية ، ولا اخال ان في استطاعة أحد اثبات هذا الادعاء .

أعود فأقول : تباينت آراء العلماء في تعيين الزمن الذي ظهرت فيه مملكة (معين) الى الوجود ، كما تباينت في نهايتها. كذلك ذهب (البرايت) الى ان النهاية كانت في حوالي سنة (١٠٠ ق. م.)[4] . ثم عدل عن ذلك فجعلها في النصف الأول من القرن الأخير قبل الميلاد ، بين سنة (٥٠) وسنة (٢٥) قبل الميلاد[5] . وجعلت (بيرين) نهايتها في حوالي سنة (١٠٠ ب. م.)[6] .

---

١ الفقرة الرابعة من النص .
٢ الفقرة الخامسة من النص .
٣ Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 231, «South Arabian Chronology», By Philby.
٤ The chronology, in BOASOOR, Num. 119, 1950, P. 5-15.
٥ BOASOOR, Num. 129, 1953, P. 24, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 434.
٦ J. Pirenne, Royaume, P. 7, Le Muséon, 1964, P. 435.

والذي أرجحه ان نهايتها كانت بعد الميلاد، لورود اسمها مملكة الى ما بعد الميلاد .

وقد جعل (البرايت) في أحد رأييه في سقوط حكومة معين سنة (١١٥) قبل الميلاد ، وهي مبدأ التقويم السبئي ، هي سنة زوال حكم معين ، فلأهميـة هذه الحادثة اتخذت مبدأ لتقويم يؤرخ به . وذهب آخرون الى أن نجم معين أخذ في الأفول ما بين سنة (١٢٥) وسنة (٧٥ ق. م.)[١] .

وفي خلال الفترة التي انصرمت بين أواخر أيام حكومة معين واندماجها نهائياً في مملكة (سبأ) ، ظهرت حكومات صغيرة يمكن أن نشبهها بحكومات المدن ، انتهزت فرصة ضعف ملوك معين ، فاستقلت في شؤونها ، ثم اندمجت بعد ذلك في سبأ . ومن هــذه الحكومات (هرم) (الهرم) و (نش) (نشان) و (كمنت) (كمنه) (كمنهو)[٢] ، (كمنا) وغيرها[٣] . ويمكن اعتبار مملكة (لحيان) التي كان مركزها في (الديدان) (ددن) ، أي (العلا) من الحكومات التي استقلت في أيام ضعف المعينيين[٤] ، وقد كانت في الأصـل جزءاً من أرضي هذه المملكة يحكمها كبير .

وقد عرفنا من الكتابة الموسومة بـ Halevy 154 ملكـاً من ملوك (هرم) سمي (يذمر ملك) . وقد غزا مدينة (نشن) (نشان) . ودمرها تنفيـذاً لطلب الملك (كرب ايل وتر) ملك سبأ ، الذي كان معاصراً له ، وقد وهب له (كرب ايل وتر) في مقابل هذه الخدمة جزءاً من أرض (نشن) عرف بخصبه وبوجود الماء فيه[٥] . وقد ورد اسمه في عدد آخر من الكتابات[٦] .

وكان له ولد اسمـه (بعثتر) جلس على عرش (هرم) ، وشقيق اسمه (وروال ذرحن) (وروايل ذرحان)[٧] .

وقد ورد في النص الموسوم بـ Glaser 1058 اسم ملك آخر من ملوك (هرم)

---

١ Beiträge, S., 33.
٢ Philby, in Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 231.
٣ الصفة (ص ١٦٧) .
٤ Le Muséon, LXII, 1949, 3-4, P. 231.
٥ Beiträge, S., 15.
٦ Halevy 144, 145, 146, 148, 150, 151, 153, 154, 155, 156, 158, 159.
٧ Halevy 160, Handbuch I, S., 82.

هو (معد كرب ريدن) (معد يكرب ريدان) ، وأبوه هو (هوتر عثت)[١].

وقد تبين من فحص الكتابات المدونة في مملكة (هرم) أن لها خصائص صرفية ونحوية تستحق العناية والدرس ، ويظهر أن هذه الخصائص إنما نشأت من موقع هذه المدينة ومركزها السياسي والأحداث السياسية التي طرأت عليها ، ومن الاختلاط الذي كان بين سكانها ، فأثر كل ذلك في لهجة السكان[٢] . ويرى (هارتمن) أن لهجة كتابات (هرم) من اللهجات التي يمكن ضمها الى الجمهرة التي تستعمل حرف (هـ) في المزيد مقابل حرف (س) في الجمهرة التي تستعمل هذا الحرف في الفعل المزيد[٣] .

مملكة كمنه :

ومن ملوك مملكة (كمنه) (كمنهو) ، الملك (نبط علي) ، وقد ورد اسمه في بعض الكتابات[٤] . وورد في كتابة يظن انها من كتابات (كمنهو) مكسورة سقطت منها كلمات في الأول وفي الآخر ، جاء فيها : وبمساعدة عثتر حجر (هجر) و (نبط علي) . والمقصود بـ (عثتر حجر) (هجر) الإلـه عثتر سيد موضع يقال له (حجر) (هجر) ، وربما كان في هذا المكان معبد لعبادة هذا الإلـه . وجاء قبل ذلك : (نبعل دللن) (نبعل الدلل) ، وهذه الجملة ترد لأول مرة في الكتابات ، ويظهر ان معناها (بعل الدلل) أو (الدليل) ، ويظهر ان (الدلل) أو (الدليل) من الصفات التي أطلقها شعب (كمنه) (كمنهو) على عثتر[٥] .

وكان لـ (نبط علي) ولد أصبح ملك (كمنه) (كمنهو) بعد والده ، هو : (السمع نبط) . وقد وصلت الينا كتابة ، جاء فيها : (السمع نبط بن نبط علي ملك كمنهو وشعبهو كمنهو لالمقه ومريبو ولسبا)[٦] ، أي (السمع

١ Handbuch, I, S., 82, Rhodokanakis, KTB, II, S., 62, Hofmus., 13, Glaser 1058, Halevy 398.

٢ Rhodokanakis, KTB, II, S., 62, Hommel, Grundriss, S., 686.

٣ Hartmann, Arab. frage., S., 179.

٤ Orientlia, Vol., V, (1936), P. 8, Halevy 269-278, 327, 389, Handbuch, I, S., 82.

٥ Orientlia, Vol., V, (1936), P. 6.

٦ CIH, IV, II, I, P., 32-33, 377.

نبط بن نبط على ملك كمنه وشعبه شعب كمنه،لألمقه ومأرب ولسبأ) . وهذه العبارة تظهر بجلاء ان مملكة (كمنو) (كمنهو) كانت مستقلة في هذا الزمن استقلالاً صورياً ، وانها كانت في الحقيقة تابعة لحكومة (سبأ) ولمأرب العاصمة يدل على ذلك تقربها الى (المقه) ، وهو إله السبئيين ولمأرب العاصمة ، أي لملوكها ولشعب سبأ . وكان من عادة الشعوب القديمة انها اذا ذكرت آلهة غيرها فمجدتها وتقربت اليها ، عنت بذلك اعترافهـا بسيادة الشعب الذي يتعبد لتلك الآلهة عليها .

حكومة معين :

حكومة معين حكومة ملكية يرأسها حاكم يلقب بلقب (ملك) ، غير ان هذه الحكومة وكذلك الحكومات الملكية الأخرى في العربية الجنوبية ، جوزت ان يشترك شخص أو شخصان أو ثلاثة مع الملك في حمل لقب (ملك) ، اذا كان حامل ذلك اللقب من أقرباء الملك الأدنيـن ، كأن يكون ابنه أو شقيقه . فقد وصلت الينا جملة كتابات ، لقب فيها أبناء الملك أو أشقاؤه بلقب ملك،وذكروا مع الملك في النصوص . ولكننا لم نعثر على كتابات لقب فيها أحد بهذا اللقب، وهو بعيد عن الملك ، أي ليس من أقربائه المرتبطين به برابطة الدم . كما اننا لا نجد هذه المشاركة في اللقب في كل الكتابات ، وهذا مما يحملنا على الظن بأن هذه المشاركة في اللقب ، كانت في ظروف خاصة وفي حالات استثنائية ، ولهذا خصصت بأبناء الملك أو بأشقائه،ولهذا أيضاً لم ترد في كل الكتابات ، بل وردت في عدد منها هو قلة بالنسبة الى ما لدينا الآن من نصوص .

ولم تبح لنا أية كتابة من الكتابات العربية الجنوبية بسر هذه المشاركة أكانت مجرد مجاملة وحمل لقب ، أم كانت مشاركة حقيقية ، أي ان الذين اشتركوا معه أيضاً في تولي أعمال الحكم كلية ، أو بتولي عمل معين من الأعمال ، بأن يوكل الملك من يخوله حمل اللقب القيام بوظيفة معينة ؟ ولم تبح لنا تلك الكتابات بأسرار الدوافع التي حملت أولئك الملوك على السماح لأولئك الأشخاص بمشاركتهم في حمل اللقب ، أكانت قهرية كأن يكون الملك ضعيفاً مغلوباً على أمره ، ولهذا يضطر مكرهاً الى اشراك غيره معه من أقربائه الأدنين لاسناده ولتقوية مركزه،أم كانت

برضي من الملك ورغبة منه ، فلا اكراه في الموضوع ولا إجبار ؟.

ويظهر من الكتابات المعينية أيضاً ان الحكم في معين ، لم يكن حكماً ملكياً تعسفياً ، السلطة الفعلية مركزة في أيدي الملوك ، بل كان الحكم فيها معتدلاً استشارياً يستشير الملوك أقرباءهم ورجال الدين وسادات القبائل ورؤساء المدن ، ثم يبرمون أمرهم ، ويصدرون أحكامهم على شكل أوامر ومراسيم تفتتح بأسماء آلهة معين ، ثم يذكر اسم الملك ، وتعلن كتابة ليطلع عليها الناس .

وقد كانت المدن حكومات ، لكل مدينة حكومتها الخاصة بها ، ولهذا كان في استطاعتنا أن نقول ان حكومة معين هي حكومات مدن ، كل مدينة فيها حكومة صغيرة لها آلهة خاصة تتسمى باسمها ، وهيئات دينية ، ومجتمع يقال له: (عم) ، بمعنى أمة وقوم وجماعة . ولكل مدينة مجلس استشاري يدير شؤونها في السلم وفي الحرب ، وهو الذي يفصل فيما يقع بين الناس من خصومات وينظر في شؤون الجماعة (عم) .

وكان رؤوساء القبائل يبنون دوراً ، يتخذونها مجالس ، يجتمعون فيها لتمضية الوقت وللبت في الأمور وللفصل بين أتباعهم في خلافاتهم،ويسجلون أيام تأسيسها وبنائها ، كما يسجلون الترميمات والتحسينات التي يدخلونها على البناية . وتعرف هذه الدور عندهم بلفظة (مزود)[1] . ولكل مدينة (مزود) ، وقد يكون لها جملة (مزاود) ، وذلك بأن يكون لشعابها وأقسامها مزاود خاصة بها ، للنظر فيما يحدث في ذلك الشعب من خلاف . ويمكن تشبيه المزود بدار الندوة عند أهل مكة ، وهي دار قُصَيّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها ، يتشاورون فيها في أمور السلم والحرب[2] .

وتتألف مملكة معين من مقاطعات ، على رأس كل مقاطعة ممثل عن الملك ، يعرف عندهم بـ (كبر) ، أي (الكبير) . يظهر أنه كان لا يتدخل إلا في السياسة التي تخص المسائل العليا المتعلقة بحقوق الملك وبشعب معين . ويرد

---

١ « مزود » ، بحرف الزاي ، ولكنه ليس كحرف الزاي في عربيتنا ، بل هو أقرب الى السين ، وقد كتب بعض الباحثين ، « مشود » ، نشر نصوص (ص ٤٨) ، نقش ٢٨ ، سطر ٤ ،
Stud. Lexi., 2, S., 55, Mordtmann und Eugen Mittwoch, Sabaische Inschriften, I, S., 22. f, MM. 4.

٢ Studi. Lexi., II, S., 58.

اسم الكبير بعد اسم الملك في النصوص على عادة أهل معين وغيرهم من ذكر آلهتهم أولاً ثم الملوك ثم الكبراء في كتاباتهم التي يدونونها ليطلع عليها الناس .

ودخل الحكومة من الضرائب ومن واردات الأرضين الحكومية التي تستغلها أو تؤجرها للناس بجُعل يتفق عليه . أما الضرائب فتؤخذ من التجار والزراع وسائر طبقات الشعب الأخرى ، يجمعها المشايخ ، مشايخ القبائل والحكام والكبراء بوصفهم الهيئات الحكومية العليا ، وبعد اخراج حصصهم يقدمون ما عليهم للملك . وأما الواردات من المصادر الأخرى ، مثل تأجير أملاك الدولة ، فتكون باتفاق خاص مع المستغل ، وبعقد يتفق عليه .

ومن الضرائب التي وردت أسماؤها في الكتابات : كتابات العقود ووفاء الضرائب والديون ، ضريبة دعيت بـ (فرعم) ،أي (فرع) وضريبة عرفت بـ (عشرم) أي (عشر) ، وتؤخذ من عشر الحاصل ، فهي (العشر) في الإسلام[1] .

وكان للمعابد جبايات خاصة بها ، وأرضون واسعة تستغلها ، كما كان لها موارد ضخمة من النذور التي تقدم اليها باسم آلهة معين ، عند شفاء شخص من مرض ألمّ به ، وعند رجوعه سالماً من سفر ، وعند عودته صحيحاً من غزو أو حرب ، وعند حصول شخص على غلة وافرة من مزارعه أو مكسب كبير من تجاراته ، وأمثال ذلك . ولهذا كانت للمعابد ثروات ضخمة وأملاك واسعة ومخازن كبيرة تخزن فيها أموالها . ويعبر عن النذور والهبات التي تقدم الى المعابد بلفظتي (كبودت) و (اكرب) ، (أقرب) أي ما يتقرب به إلى الآلهة . وتدوّن عـادة في كتابات تعلن للناس ، يذكر فيها اسم المتبرع الواهب واسم الإله أو الآلهة التي نذر لها ، واسم المعبد ، كما تعلن المناسبة ، وتستعمل بعض الجمل والعبارات الخاصة التي تتحدث عن تلك المناسبات مثل : (يوم وهب) و (بذماد بن يدهس) ،أي (بذات يده) وأمثال ذلك من جمل ومصطلحات[2]. وقد وصلت الينا نصوص كثيرة من نصوص النذور ، وهي تفيدنا بالطبع كثيراً في تكوين رأينا في النذور والمعابد واللغة التي تستعمل في مثل هذه المناسبات عند المعينين وعند غيرهم من العرب الجنوبيين .

---

١ Studi. Lexi., II, S., 58, Glaser 1083, 1144, 1150, 1155.

٢ Studi. Lexi., II, S., 58.

ويقوم (الناذر) أو الشخص الذي استحقت عليه الضرائب أو القبيلة بتقديم ما استحق عليه إلى المعبد ، وكانت تعد (ديوناً) للآلهة على الأشخاص . فإذا نذر الشخص للآلهة بمناسبة مرض أو مطالبة باحلال بركة في المزرعة أو في التجارة أو انقاذ من حرب وصادف أن مرت الأمور على وفق رغبات أولئك الرجال ، استحق النذر على الناذر ، فرداً كان أو جماعة ، ولذلك يعبر عنه بـ (دين) ، فيقال (دين عثتر) أو (دين ...)[1] .

وقد يفوض الملك أو المعبد الى رئيس أو سيد قبيلة أو غني استغلال مقاطعة أو منجم أو أي مشروع آخر في مقابل شروط تدون في الكتابات ، فتحدد الحدود ، وتعين المعالم ، وينشط المستغل للاستفادة منها وأداء ما اتفق عليه من اداء للجهة التي تعاقد معها ، ويقوم بجباية حقوق الأرض ان كان قد أجرها لصغار المزارعين وبدفع أجور الأجراء وبتمشية الأعمال ، ويكون هو وحده المسؤول أمام الحكومة أو المعبد عن كل ما يتعلق بالعمل ،وعليه وحده أن يحسب حساب خسائره وأرباحه .

ويتعهد الكبراء وسادات القبائل والحكام عادة بجمع الضرائب من أتباعهم ودفع حصة الحكومة ، كما يتعهدون بانشاء الأبنية العامة كانشاء المباني الحكومية وإحكام أسوار المدن وبناء الحصون والأبراج والمعابد وما شاكل ذلك ، مقابل ما هو مفروض عليهم من ضرائب وواجبات أو تفويض التصرف في الأرضين العامة . فاذا تمت الموافقة ، عُقد عقد بين الطرفين ، يذكر فيه ان آلهة معين قد رضيت عن ذلك الاتفاق ، وان المتعهد سيقوم بما اتفق عليه . واذا تم العمل وقد يضيف اليه المتعهد من جيبه الخاص ،ورضي عنه الملك الذي عهد اليه بالعمل أو الكهنة أرباب المعبد أو مجلس المدينة ، كتب بذلك محضر ، ثم يدون خبره على الحجر ، ويوضع في موضع ظاهر ليراه الناس ، يسجل فيه اسم الرجل الذي قام بالعمل ، واسم الآلهة التي باسمها عقد العقد وتم ، واسم الملك الذي تم في ايامه المشروع ، واسم (الكبير) الحاكم ان كان العقد قد تم في حكمه وفي منطقة عمله .

وتعهد المعابد أيضاً للرؤساء والمشايخ القيام بالأعمال التي تريد القيام بها ، مثل

---

١ Glaser 1150, Halevy 353.

انشاء المعابد وصيانتها وترميمها والعناية بأملاكها وباستغلالها بزرعها واستثمارها نيابة عنها . وقد كان على المعابد كما يظهر من الكتابات اداء بعض الخدمات العامة للشعب ، مثل انشاء مباني عامة أو تحصين المدن ومساعدة الحكومة في التخفيف عن كاهلها ، لأنها كانت مثلها تجبي الضرائب من الناس وتتلقى أموالاً طائلة من الشعب وتتاجر في الأسواق الداخلية والخارجية ، فكانت تقوم بتلك الأعمال في مقابل اعفائها من الضرائب . وقد كانت وارداتها السنوية ضخمة قد تساوي واردات الحكومة .

وتخزن المعابد حصتها من البخور واللبان والمر والحاصلات الأخرى في خزائن المعبد ، وتأخذ منها ما تحتاج اليه مثل البخور للأعياد وللشعائر الدينية وتبيع الفائض ، وقد ترسله مع القوافل لبيعه في البلاد الأخرى ، وقد تعود قوافلها محملة ببضائع اشترتها بأثمان البضائع المبيعة ، ولذلك كانت أرباحها عظيمة، وكان أكثر الكهان من البيوتات الكبيرة ومن كبار الأغنياء .

نقود معينية :

تعامل قدماء المعينين مثل غيرهم من شعوب العالم بالمقايضة العينية ، وبالمواد العينية دفعوا للحكومة وللمعابد ما عليهم من حقوق ، وبها أيضاً دفعت أجور الموظفين والمستخدمين والعمال والزراع . وقد استمرت هذه العادة حتى في الأيام التي ظهرت فيها النقود ، وأخذت الحكومات تضرب النقود ، وذلك بسبب قلة المسكوكات ، وعدم تمكن الحكومات من سك الكثير منها كما تفعل الحكومات في هذه الأيام .

وقد عرف المعينيون النقود ، وضربوها في بلادهم . فقد عثر على قطعة نقد هي (دراخما) أي درهم ، عليها صورة ملك جالس على عرشه ، قد وضع رجليه على عتبة ، وهو حليق الذقن متدل شعره ضفائر ، وقد أمسك بيده اليمنى وردة أو طيراً وأمسك بيده اليسرى عصا طويلة ، وخلفه اسمه وقد طبع بحروف واضحة بارزة بالمسند ، وهو (اب يثع) وأمامه الحروف الأول من اسمه ، وهو الحرف (أ) بحرف المسند ، دلالة على انه الآمر بضرب تلك القطعة . ولهذه القطعة من النقود أهمية كبيرة في تأريخ (النميات) في بلاد

العرب وفي دراسة الصلات التجارية بين جزيرة العرب والعالم الخارجي .

ويظهر من دراسة هذه القطعة ومن دراسة النقود المشابهة التي عثر عليها في بلاد أخرى ، أنها تقليد للنقود التي ضربها خلفاء الإسكندر الكبير ، سوى شيء واحد ، هو أن عملة (أب يثع) قد استبدلت فيها الكتابة اليونانية بكتابة اسم الملك (اب يثع) الذي في أيامه ، ثم ضرب تلك القطعة بحروف المسند . أما بقية الملامح والوصف ، فإنها لم تتغير ولم تتبدل ، ولعلها قالب لذلك النقد ، حفرت عليه الكتابة بالمسند بدلاً من اليونانية . ويعود تأريخ هذه القطعة الى القرن الثالث أو القرن الثاني قبل الميلاد[1] .

وقد كانت نقود (الإسكندر الكبير) والنقود التي ضربها خلفاؤه من بعده مطلوبة مرغوبة في كل مكان ، حتى في الأمكنة التي لم تكن خاضعة لهم ، شأنها في ذلك اليوم شأن الجنيه أو الدولار في هذا اليوم . وتلك النقود لا بد أن تكون قد دخلت بلاد العرب مع التجار ورجال الحملة الذين أرسلهم لاحتلال بلاد العرب ، فتلقفها التجار هناك وتعاملوا بها ، وأقبلت عليها الحكومات ، ثم أقدمت الحكومات على ضربها في بلادها بعد مدة من وصول النقود اليها. وأسست بذلك أولى دور ضرب النقود في بلاد العرب . ولا بد أن يكون نقد (اب يثع) قد سبق بنقد آخر ، سبق هو أيضاً بالنقد اليوناني الذي وصل بلاد العرب، لأن درهم (اب يثع) مضروب ضرباً متقناً ، وحروفه واضحة جليّة دقيقة دقة تبعث على الظن بوجود خبرة سابقة ودراية لعمال الضرب ، أدت بهم إلى إتقان ضرب أسماء الملوك على تلك النقود .

الحياة الدينية :

كان في كل مدينة معبد ، وأحياناً عدة معابد خصصت بآلهة شعب معين . وقد يخصص معبد بعبادة إلـه واحد ، يكرس المعبد له ، ويسمى باسمه ، وتنذر له النذور ، ويشرف على ادارته قوّمة ورجال دين يقومون بالشعائر الدينية ويشرفون على ادارة أوقاف المعبد . ويعرف الكاهن والقيم على أمر الإلـه عندهم

---

1 George Francis Hill, Catalogue of the Greek Coins of Arabia Mesopotamia, and Persia, London, 1922, P. IXXXII.

بـ (شوع) ، وقد وردت اللفظة في جملة نصوص معينة [1] .

وقد تجمعت لدينا من قراءة الكتابات المعينية أسماء جمهرة آلهة معين ، وفي مقدمتها اسم (عثتر) (عثتار) ، ويرمز الى (الزهرة) ، ويلقب في الغالب بـ (ذ قبضم) ، فيقال (عثتر ذ قبضم) ، أي (عثتر القابض) ، (عثتر ذو قبض) ، كما ورد أيضاً (عثتر ذ يهرق) (عثتر ذو يهرق)[2] . ويهرق اسم مدينة من مدن معين ، فيظهر أنه كان في هذه المدينة معبد كبير خصص بعبادة (عثتر) .

ومن آلهة معين (ود) و (نكرح) ، وترد أسماء هذه الآلهـة الثلاثة في الكتابات المعينيـة على هـذا الترتيب : (عثتر) ، (ود) و (نكرح) في الغالب ، وترد بعدها في بعض الأحيان جملة : (الالت معن) ، أي (آلهة معين)[3] . أما (نكرح) ، فيظهر انه يرمز الى الشمس ، وهو يقابل (ذات حمم) (ذات حميم) في الكتابات السبئية [4] .

وقد ورد في عدة كتابات عثر عليها في (براقش) وفي (أبين) وفي (معين) وفي (شراع) في (أرحب) ذكر معبد كرّس للإلـه (عثتر) دعي بـ (يهـر) . كما ورد اسم حصن (يهر) وقـد خصص لـ (عثتر وقبض) . وورد في كتابة أخرى اسم (يهر) على انه بيت ، وربما قصد به بيت عبادة . وورد في كتابة همدانية ذكر (يهر) انه بيت الإلـه (تالب) (تألب) إلـه همدان . وورد اسم (يهر) على انه اسم موضع واسم شعب . وذكر (الهمداني) ان (يهر) هو حصن في (معين)[5] . ويتبـين لي من اقتران (يهر) بـ (عثتر) ، ومن تخصيص بيت للتعبد بـه سمي باسمه ان (يهر) جماعة كانت تتعبد لهذا الإلـه وتقدسه ولهذا دعي معبده باسمها ، كما انه اسم مدينة نسبت تلك الجماعة اليها .

---

١ راجع النقش رقم ٤ ، ص ٣ ، والنقش رقم ٥ ، ص ٥ ، خربة معين .

٢ Handbuch, I, S., 228, Hommel, Grundriss, I, S., 85.

٣ خربة معين ص ٢١ ، ٢٧ ، ٢٩ ،

D. Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, S., 55. وسيكون رمزه : : Ilmukah

٤ Handbuch, I. S., 188, Ilmukah, S., 56.

٥ Beitrage, S., 270.

وأما (ود)، فقد ظلت عبادته معروفة في الجاهلية الى وقت ظهور الاسلام، وقد ورد اسمه في القرآن الكريم[1] . وقد تحدث عنه ابن الكلبي في كتابه (الأصنام)[2] . وذكر ان قبيلة (كلب) كانت تتعبد له بدومة الجندل[3] ؛ ووصفه فقال : « كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكّب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة فيها نبل .. »[4] . وقد نعت (ود) في بعض الكتابات بنعوت ، مثل : (الاهن) (الهن) أي (الإله) ، و (كهلن) (كاهلن) (كهلان) ، أي (القدير) (المقتدر)[5] . وكتب اسم (ود) بحروف بارزة على جدار في (القرية) (قرية الفأو)[6] ، وذلك يدل على عبادته في هذه البقعة .

ويرمز (ود) الى القمر ، بدليل ورود جملة : (ودم شهرن) ، (ودم شهران) ، أي (ود الشهر) في بعض الكتابات . ومعنى كلمة (شهرم) (شهر) (الشهر) ،القمر[7] . وتمثل هذه الآلهة المعينية ثالوثاً يرمز الى الكواكب الثلاثة : الزهرة ، والشمس ، والقمر .

ويلاحظ ان الكتابات المعينية الشمالية ، أي الكتابات المدونة بلهجة أهل معين التي عثر عليها في أعالي الحجاز ، لا تتبع الترتيب الذي تتبعه الكتابات المعينية الجنوبية نفسه في ايراد أسماء الآلهة ، كما يلاحظ أيضاً أن للمعينين الشماليين آلهة محلية لا نجد لها ذكراً عند المعينين الجنوبيين ،ولعلّ ذلك بتأثير الاختلاط بالشعوب الأخرى[8] .

---

١ سورة نوح ١٧ ، الآية ٢٣ .

٢ الأصنام ص ١٠ ، ٥٥ ، ٥٦ .

٣ الأصنام ص ٥ .

٤ الأصنام ص ٥٦ ، Wellhausen, Reste Arabische Heidentums, S., 14.

٥ Hommel, Grundriss, I, S., 136, Glaser 284, Halevy 237, Chresto., S., 91, 97.

٦ Philby-Qariya 23c, Le Muséon, LXII, (1949), 1-2, P. 97, and Pl., Iv.

٧ Ilmukah, S., 64, Nielsen, Altarabische Mondreligion, S., 51.

٨ Ilmukah, S., 59.

مدن معين :

ومن أشهر مدن معين ، مدينة (قرنو) ، وهي العاصمة ، وقد عرفت أيضاً بـ (م ع ن) (معن) ، أي (معين) ،وبـ Karna و Karana و Carna عند بعض الكتبة (الكلاسيكيين)[1] . وتقع على مسافة سبعة كيلومترات ونصف كيلومتر من شرق قرية (الحزم) ، مركز الحكومة الحالي في الجوف . وقد وصف خرائبها (محمد توفيق) في كتابه (آثار معين في جوف اليمن) ، فقال : إنها تقع على أكمة من الطين منحدرة الجوانب ، تعلو على سطح أرض الجوف بخمسة عشر متراً ، وهي مستطيلة الشكل ، واستطالتها من الغرب الى الشرق وطولها ٤٠٠ متر ، وعرضها ٢٥٠ متراً ، ولها بابان أو مدخلان ، أو مدخل ومخرج ، أحدهما في جانبها الغربي والآخر في الجهة المقابلة من الجانب الشرقي ، وليس لها أبواب أخرى . وسورها الذي كان يحيط بها ، وقد قدّر ارتفاعه بخمسة عشر متراً ، وقد وجد في بعض أقسامه فتحات المزاغل التي استعملت للمراقبة ولرمي السهام ، كما تعرض لبحث البناء والزخرفة في هذه المدينة ، وقد حصل على تسع عشرة كتابة ، نقل تسعاً منها بكتابة اليد ، ونقل عشراً منها الباقية بالتصوير الفوتوغرافي[2] .

ويقع معبد (رصفم) (رصف) (رصاف) الشهير ، الذي طالما تقدم اليه المؤمنون بالهدايا والنذور وتوسّلوا اليه لأن يمن عليهم بالعافية والبركة ،خارج سور (قرنو) . وتشاهد آثار سكن في مواضع متناثرة من المدينة . وقد كانت (قرنو) (القرن) مأهولة حتى القرن الثاني عشر ثم هجرت وتحولت إلى خراب[3] .

وقد أشار الأخباريون الى معين ، وروى بعض منهم أنها من أبنية التبابعة ، وأنها حصن ، بني بعد بناء (سلحين) ، بني مع براقش في وقت واحد[4] .
ومن مدن حكومة معين (يثل) ، وهي من المراكز الدينية ، وعرفت

---

١ O'Leary, P. 95, Richard H. Sanger, The Arabian Peninsula, P. 237, Halevy 192-199, 443, 541.

٢ الصفحة ٣ فما بعدها من كتابه المذكور .

٣ Beitrage, S., 14.

٤ « سلحين » « سلحى » . البلدان (٣٦٤/١) ، البكري ، معجم (٢٣٧/١) .

بـ (براقش) فيما بعد . وكانت قائمة في أيام (الهمداني) ، ووصف الهمداني الآثار والخرائب التي كانت بها[1] . وقد ورد في إحدى الكتابات أن جماعة من كهنة (ود) ، قاموا ببناء ثلاثين (أمه) أي ذراعاً من سور (يثـل) من الأساس حتى القمة[2] . والظاهر أن هذا العمل الذي قاموا به ، هو الجزء الذي كان خصص بهم عمله على حين قام أناس آخرون ، وفي ضمنهم مجلس يثل ، ببقية السور .

وللأخباريين قصص عن (براقش) . وقد زعم بعض منها أنها و (هيلان) مدينتان عاديتان ، وكانتا للأمم الماضية . وزعم بعض آخر أنها من أبنية التبابعة[3] فهي من الأبنية القديمة اذن في نظر الأخباريين . وقد كان يسكنها (بنو الأدبر ابن بلحارث بن كعب) ومراد في الاسلام[4] .

ولهم عن سبب تسمية (براقش) ببراقش قصص . فزعم بعض منهم انها انما سميت بذلك نسبة الى كلبة عرفت ببراقش . وزعم بعض آخر انها امرأة ، وهي ابنة ملك قديم ، ذهب والدها للغزو ، وأودع مقاليد بلاده اليها ، فبنت مدينة براقش ومعين،ليخلد اسمها؛فلما عاد والدها غضب ، وأمر بهدمها . وزعم فريق منهم ، انهـا باسم براقش امرأة لقمان بن عاد . ومصدر القصص مثـل مشهور هو : « على أهلها تجني براقش »[5] . و « على أهلها براقش تجني » ، وقد أشير في الشعر اليه[6] .

و (يثل) ، هي مدينة Athrula ، Athlula المذكورة في أخبار حملة (أوليوس غالوس) على اليمن ، والتي زعم انها آخر موضع بلغه الرومان في حملتهم هذه . ويزعم القائلون من المستشرقين بهذا الرأي ان لفظة (يثل) لفظة

---

١ الاكليل (١٢٤/٨) ، « طبعة الكرملي » ، (٣٨/٨ ، ١٠٤ ، ١٠٥) ، « طبعة نبيه » .

٢ نقوش خربة معين (ص ٥ فما بعدها) ، النقش رقم ٥ .

٣ البكري ، معجم (٢٣٧/١) ، البلدان (٣٦٤/١) ، الأغاني (٢٧/٥ ومـا بعدها) ، (٢٨٧/٦) .

٤ البكري ، معجم (٢٣٧/١) .

٥ « على أهلها جنت براقش » ، مجمع الأمثال ، للميداني (٢٦٢/٢) .

٦ بل جناهـا أخ علي كريـم وعلى أهلها براقش تجني
مجموع الأمثال (١٤/٢) ، البيان والتبيين (٢٢٢/١) ، اللسان (٢٦٦/١) .

صعبة على لسان الرومان واليونان ، ولذلك حرفت فصارت الى الشكل المذكور[١] .

ومن بقية مدن معين : (نشق)[٢] ، و (رشن) (ريشان)[٣] و (هرم) (هريم)[٤] (خربة هرم)[٥] ، و (كمنه) (كمنهو) (خربة كمنه)[٦] ، (كمنا) ، و (نشن) (نشان) وهي (الخربة السوداء) (خربة السودا) في الوقت الحاضر[٧] .

وقـد ورد في بعض الكتابات ان (يدع آل بين) مكرب سبأ ، كان قد استولى على مدينة (نشق) ، غير اننا لا نعرف اسم الملك المعيني الذي سقطت هذه المدينة في أيامه في أيدي السبئيين .

ويوجد موضع عادي خرب،يعرف بـ (كعاب اللوذ) وبـ (خربة نشان) (خربة نيشان) ، يحتمل في رأي بعضهم أن يكون مكان (نشان) (نشن) . ويعارض بعض الباحثين ذلك ، ويرون انه بعيد بعض البعد عن مكان (نشن) المعيني ، ويذهبون الى ان هذا المكان هو بقايا معبد أو قبور قديمة ، وانه يشير الى وجود مسكن فيه قديم لا نعرف اسمه[٨] .

وقد تبين للباحثين في موضع (الخربـة السوداء) التي هي موضع (نشن) (نشان) ان تلك المدينة كانت مدينة صناعيـة ، لعثورهم بين أنقاضها على خامات المعادن ، وعلى أدوات تستعمل في التعدين وفي تحويل المعادن الى أدوات للاستعمال[٩] .

---

١ Beitrage, S., 32.

٢ الاكليل (١٢٨/٨) « الكرملي » ، (١٠٩/٨) ، « نبيه » ، H. Von Wissmann und M. Hofner, Beiträge zur Historischen Géographie des Vorilamischen Sudarabien, 1953, S., 14, 15.

٣ الاكليل (١٢٤/٨ ، ١٢٨) ، « الكرملي » ، (١٠٩/٨) « نبيه » .

٤ الاكليل (١٠٤/٨) ، « نبيه » ، « هرم » ، (١٢٤/٨) ، « الكرملي » .

٥ آثار معين « محمد توفيق » ، (ص ١١ ×) .

٦ الاكليل (١٢٤/٨) ، « الكرملي » ، (١٠٤/٨) ، « نبيه » ، آثار معـين (ص ١١ ×) .

٧ « والخربة السوداء بالشاكرية ، ثم معين وبراقش ثم كمنا وروثـان لنشق » ، الصفة (ص ١٦٧) ، آثار معين (ص ١١ ×) ، Handbuch, I, S., 70, 82, 83.

٨ Beitrage, S., 15.

٩ Beitrage, S., 16.

و (نشن) (نشان) ، هي (نسّم) NESTUM في كتاب (بلينيوس)[1] .

ويظن أن خرائب (مجزر) ، هي من بقايا مدينة قديمة ، لعلها المدينة التي سماها (بلينيوس) (مكوسم) Magusum ، ويظهر من موقعها ومن بقايا آثارها أنها كانت ذات أهمية لعهدها ذاك ، وأنها كانت عامرة بالناس لخصب أرضها ووفرة مياهها[2] .

وفي الجوف أماكن أخرى، مثل (بيحان) و (سراقة) و (ابنه) و (مقعم) و (بكبك) و (لوق) ، وهي خرائب كانت مواضع معمورة في أيام المعينين ومن جاء بعدهم فأخذ مكانهم .

وقد ذهب (كلاسر) الى أن موضع (لوق) ، هو Labecia الذي ذكره (بلينيوس) في جملة الأماكن التي استولى عليها (أولبوس غالوس) . وذهب (فون وزمن) إلى أنه (لبة) Labbah[3] .

ويرى علماء العربيات الجنوبيــة أن (نشق) هي Nescus ، Nesca في كتب المؤلفين اليونان واللاتين القدماء . وهي Aska ، Asca في (جغرافيــا سترابون) . وقد ذكرها (سترابون) في جملة المدن التي استولى عليها (أوليوس غالوس) إبانّ حملته على اليمن[4] .

المعينيون خارج أرض معين :

وعثر على كتابات معينية خــارج اليمن ، ولا سيما في موضع (العلا) ، وبينها عدد من كتابات (لحيانية) متأثرة باللهجة المعينية[5] . وقد وردت فيهــا أسماء معينية معروفة ، شائعة بين المعينيــين ، مثل : (يهر) و (علهان) ، و (ثوبت) و (يفعان) ، كما وردت فيها أسماء آلهة معين ، وذلك يــدل على نزول المعينين في هذا الموضع وفي الأرضين المجاورة أمداً ، وتركهم أثراً

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, 435, Von Wissmann, Zur Geschichte, S., 140.

٢ Von Wissmann und M. Hofner, Beitrage zur Historischen Géographie des Vorislamischen Sudarabien, S., 14, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 435.

٣ Beiträge, S., 15, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 435.

٤ Beiträge, S., 32.

٥ BOASOOR, Num. 73, (1939), PP. 3.

ثقافياً فيمن اختلطوا بهم أو جاوروهم وفيمن خلفهم من خلق .

وقد جاء هؤلاء المعينيون من معين بالطبع ، أي من اليمن ، فنزلوا في هذه الأرضين التي تقع اليوم في أعالي الحجاز وفي المملكة الأردنية الهاشمية وفي جنوب فلسطين . ومنهم من تاجر مع بلاد الشأم والبحر المتوسط ومصر ، بدليل عثور المنقبين على كتابات معينية في جزيرة (ديلوس) من جزر اليونان[١] ، وفي مصر : في (الجيزة)[٢] وفي موضع (قصر البنات)[٣]. وظهر من كتابة (الجيزة) المؤرخة بالسنة الثانية والعشرين من حكم (بطلميوس بن بطلميوس) ، أن جالية معينية كانت في مصر في هذا الزمن ، ولعلها من أيام حكم (بطلميوس الثاني)[٤] وكان المعينيون يتاجرون في القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد بتجهيز معابد مصر بالبخور[٥] . ويرجع بعض الباحثين تأريخ هذه الكتابة الى السنة (٢٦٤ – ٢٦٣ق.م.)[٦].

وموضع (العلا) المذكور ، هو موضع (ديدان) (الديدان) (علت) ʿUlat في التوراة . وقد قصد به فيها شعب عربي من الشعوب العربية الشمالية ، يرجع نسبه الى (كوش) كما جاء في موضع من (التكوين)[٧] . والى (يقشان) من ابراهيم من (قطورة) Keturah في موضع آخر منه[٨] . وقد جعلت (الديدان) متاخمة لأرض أدوم Edom ، وتقع في الجنوب الشرقي منها[٩]. وذكر في التوراة ان الديدانيين كانوا من الشعوب التي ترسل حاصلاتها الى سوق (صور) Tyre[١٠].

١ Background, P. 42, BOASOOR, Num. 73, (1939), P. 7, REP. EPIG. 3570.

٢ BOASOOR, Num. 73, (1939), P. 7, Hommel, in PSBA, XVI, (1894), 145-149, D. H. Muller, in Wiener Zeitschrift fur d. Kunde Des Morgeländers, 1894, I, REP. EPIG. 3427.

٣ Le Muséon, LXII, (1949), 1-2, 56, A. E. P. Weigall, Travels in the Upper Deserts, 1909, Pla. IV, Le Muséon, XLVIII, 1935, P. 228.

٤ BOASOOR, Num. 73, 1939, P. 7.

٥ REP. Epig. 3427, BOASOOR, Num. 73, 1939, P. 7, Conti Rossini, Chrest. Arab., 1931, Pl. No 86

٦ Arabien, S., 26.

٧ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٧ .

٨ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٣ .

٩ حزقيال ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ١٣ ، ارميا الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٣ ، الاصحاح التاسع والأربعون ، الآية ٨ ، Hastings, P. 184

١٠ حزقيال ، الاصحاح السابع والعشرون ، الآية ٢٠ ، وتعرف « صور » بـ Tsor في العبرانية ، ومعناها صخرة .

ويرى أكثر الباحثين في دولة معين ان هذه المنطقة منطقة (الديدان) وما صاقبها من أرض ، كانت جزءاً من تلك الدولة وأرضاً خاضعة لها ، وان ملوك معين كانوا يعينون حكاماً عليها باسمهم ، وان درجتهم هي درجة (كبر) أي (كبير) على طريقتهم في تقسيم مملكتهم الى (محافد) أي أقسام ، يكون على كل محفد أي قسم من المملكة (كبير) ، يتولى الحكم باسم الملك في المسائل العليا وفي جمع الضرائب التي يبعث بها الى العاصمة وفي المحافظة على الأمن. وقد عثر على كتابات ذكرت فيها أسماء (كبراء) حكموا باسم ملوك معين[1] .

ومعنى هذا ان دولة معين ، كانت تحكم من معين كل ما يقال له الحجاز في عرف هذا اليوم الى فلسطين ، وان هذه الأرضين كانت خاضعة لها اذ ذاك. ولكننا لا نجد في النصوص الآشورية أو العبرانية مثل التوراة ولا في الكتب الكلاسيكية ما يشير الى ذلك . ولكن القائلين بالرأي المذكور يرون ان حكم معين كان في أوائل عهد معين ، أي قبل أكثر من ألف سنة قبل الميلاد فلما ضعف ملوكها تقلص سلطان المعينيين عن الحجاز وبقي نافذاً في المنطقة التي عرفت بـ (معن مصرن) ، (معن مصران) ، أي (معين المصرية) ، ثم ضعف سلطان المعينيين الشماليين عن هذه الأرض أيضاً بتغلب السبئيين على معين ، ثم بتغلب اللحيانيين في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد ، حيث استقلوا وكوّنوا (مملكة لحيان)[2] .

وقد أثارت (معن مصرن) (معين مصران) ، جدلاً شديداً بين العلماء ، ولا سيما علماء التوراة ، فذهب بعضهم الى أن (مصر) (مصرايم) **Mizraim** الواردة في التوراة ليست مصر المعروفة التي يرويها نهر النيل ، بل أريد بها (معين مصران) ، وهو موضع تمثله (معان) في الأردن في الزمن الحاضر[3] . وان لفظة (برعو) **Per'o** التي ترد في التوراة أيضاً لقباً لملوك مصر ، والتي تقابلها لفظة (فرعون) في عربيتنا ، لا يراد بها فراعنة مصر ، بل حكام (معين مصران) ، وان عبارة (هاكرهم مصريت) **Hagar Ham-Misrith** ، بمعنى (هاجر المصرية) ، لا تعني (هاجر) من مصر المعروفة، بل من مصر

١ Musil, Hegaz, P. 295, D. H. Muller, Epigraphische Denkmaler, S., 1-96.
٢ Hegaz, P. 295.
٣ Hastings, P. 719, Winckler, KLT, S., 145.

العربية ، أي من هذه المقاطعة التي نتحدث عنها (معن مصرن) وان القصص الوارد في التوراة عن (مصر) وعن (فرعون) ، هو قصص يخص هـــذه المقاطعة العربية ، وملكها العربي[1] .

وقالت هذه الجمهرة : إن ما ورد في النصوص الآشورية من ذكر لـ Musri لا يعني أيضاً مصر المعروفة ، بل مصر العربية ، وأن ما جاء في نص (تغلاتبلسر الثالث) الذي يعود عهده الى حوالي سنة (٧٣٤) قبل الميلاد ، من أنه عـــين عربياً Arubu واسمه (ادبئيل) (ادب ال) (ادب ايل) (Idiba'il) حاكماً على (مصري) (Musri) ، لا يعني أنه عينه حاكماً على (مصر) الإفريقية المعروفة ، بل على هـــذه المقاطعة العربية التي تقع شمال (نخل مصري) أي (وادي مصري)[2] . ويرى (وينكر) ، أن (سبعة) (Sib'e) الذي عينـــه (تغلاتبلسر) سنة (٧٢٥ ق. م.) على مصري ، والذي عينه (سرجون) قائداً على هذه المقاطعـــة ، إنما عين على أرض (مصر) العربية ولم يعين على (مصر) الإفريقية .

وقد ورد في أخبار (سرجون) أن من جملة من دفع الجزية اليه (برعو) Pir'u وقد نعت في نص (سرجون) بـ (برعـو شاروت مصري) ، أي (برعو ملك أرض مصري)[3] . وورد ذكر (برعو) هذا في ثورة (أسدود) التي قامت سنة (٧١١ ق.م.)[4] . وورد ذكر (مصري) في أخبار (سنحريب) ملك آشور ، وكان ملك (مصري) وملك (ملوخة) قد قامة بمساعدة اليهود ضد (سنحريب) ، وذلك في عام (٧٠٠ ق. م.) ، وقد انتصر (سنحريب)[5]. ويرى (ونكلر) أن كلّ ما ورد في النصوص الأشورية عن (مصري) مثل : (شراني مت مصري) (Sharrani Mat Musri) ، أي (ملوك أرض مصر)

---

١ Ency. Bibli., P. 3163, Winckler, Musri, Meluhha, Main, Schrader, KAT., S., 144.

٢ Winckler, Musri, S., 5, AOF., I. S., 465, Reallexikon. I, Zweite Lieferung, S., 125.

٣ Rellexikon der Assyriologie, Erster Band, Zweite Lieferung, S., 125, Ency. Bibli., P. 3163, Winckler, Sargon, I, S., 20.

٤ Reallexikon, I, 2, S., 125.

٥ Reallexikon, I, II, S., 125.

انما قصد به هذه المقاطعة العربية[1] .

ويثير هذا الرأي مشكلات خطيرة لقائليه ولعلماء التوراة ، فرأي (شرادر) و (ينكلر) وأضرابهما المذكور يتعارض صراحة مع الرأي الشائع عند اليهود وعند التوراة والتلمود والمنشا والكتب اليهودية الأخرى في هذا الموضوع، ويتعارض كذلك مع رأي أهل الأديان الأخرى في الموضوع نفسه ، ولم يلق هذا الرأي رواجاً بين الباحثين ، وهم يرون أن وجود أرض عربية عند (معان) في الزمن الحاضر ، تسمى (مصري) وهي تسمية (مصر) في اللغات السامية[2]، ووجود حاكم عليها اسمه (برعو) ، و (برعو) لقب ملوك (مصر) ، ويقابل (فرعون) في لغتنا[3] ، لا يحتم علينا التفكير في هذه الأرض العربية ، ومن الجائز على رأيهم أن يكون الآشوريون قد استولوا على هذه المقاطعة وحكموها ونصبوا حكاماً عليها على حين كانت الحوادث الأخرى قد وقعت في مصر الإفريقية . وبناء على ذلك فليس هناك أي داع للادعاء أن الاسرائيليين لم يكونوا في مصر ، وأن فرعون لم يكن فرعون مصر ، بل فرعون مصري التي هي (معين المصرية) ، وليستبعد أيضاً أن تكون تسمية (مصري) العربية قد أخذت من مصر ، فقيل (معين مصرن) لقربها من مصر ، ولتمييزها عن (معن) أي (معين) اليمن .

وقد ذهب بعض الباحثين الى ان (معين مصران) (معين المصرية) ، لم تكن جزءاً من حكومة معين ، بل كانت مستوطنة مستقلة من مستوطنات المعينيين. وذلك منذ القرن الخامس حتى القرن الأول قبل الميلاد . وان لقب (كبر) الوارد في نصوص هذه المستوطنة لا يعني ان حامله كان موظفاً في حكومة معين بل هو مجرد لقب حمله صاحب هذه المقاطعة باعتبار انه كبير قومه وسيدهم والحاكم عليهم . وقد بقيت هذه المستوطنة مستقلة الى القرن الأول قبل الميلاد ، وحينئذ زال استقلالها بزوال حكومة المعينيين الجنوبيين[4] .

وتعد الكتابات المعينية التي عثر عليها في جزيرة (ديلوس) Delos = Delus

---

١ Winckler, Musri, Meluffa. Main.

٢ Reallexikon, I, I, S., 45.

٣ Hastings, P. 719.

٤ Arabien, S. 277.

ذات أهمية كبيرة كذلك ، في بحثنا هذا ، فانها ترينا وصول المعينيين الجزر اليونانية واقامتهم فيها ، واتجارهم مع اليونان . ومن جملة هذه النصوص، نص مكتوب بالمعينية وبالخط المسند وباليونانية وبالحروف اليونانية ، وورد فيه : (هنا) أي (هانىء) و (زيد ايل من ذي خذب نصب مذبح ود وآلهة معين بدلث) أي : بـ (ديلوس) . وورد في اليونانية : (ياود إله معين ياود)[1] . وفي هذا النص دلالة على وجود جالية معينية في هذه الجزيرة وسكناها فيها ، وعلى تعلقها بدينها وبآلهتها وعدم تركها لها حتى في هذه الأرض البعيدة عن وطنها . ومن يدري ؟ فلعلها كانت تتصل ببلادها ، وتتاجر وتتراسل معها ، تصدر اليها حاصلات اليونان ، وتستورد منها حاصلات اليمن والعربية الجنوبية وافريقية والهند وتعمل مع اليونان شركةً أو تعاوناً في أسواق التجارة العالمية ذلك العهد .

قوائم بأسماء حكام معين

قائمة (البرايت) :

وقد رتب (ألبرايت) قائمة لملوك معين على النحو الآتي :

١ ــ اليفع يثع ، وهو ابن الملك (صدق ايل) ملك حضرموت . وقد حكم في حوالي السنة (٤٠٠) قبل الميلاد .

٢ ــ حفن ذرح ، وهو ابن اليفع يثع .

٣ ــ اليفع ريام،وهو ابن اليفع يثع . وقد كان أيضاً ملكاً على حضرموت .

٤ ــ هوف عثت (هوفعث) . (هوفعثت) ، وهو ابن اليفع ريام .

٥ ــ أب يدع يثع (أبيدع يثع) ، وهو شقيق هوف عثت . وقد كان يحكم في حوالي السنة ٣٤٣ قبل الميلاد .

٦ ــ وقه آل ريم (وقه ايل ريام) ، وهو ابن هوفعثت .

٧ ــ حفن صدق (حفن صديق) ، وشقيق وقه ايل ريام .

٨ ــ اليفع يفش وهو ابن حفن صديق .

. . . . . .

---

[1] REP : EPIG. 357, P. 225, Conti Rossini, Chrest., 1931, P. 78.

١ – اليفع وقه ، وقد كان حكمه في حوالي السنة ٢٥٠ قبل الميلاد .
٢ – وقه ايل صديق (وقه آل صدق) ، وهو ابن اليفع وقه .
٣ – اب كرب يثع (ابكرب يثع) (أبيكرب يثع) ، وهو ابن (وقه آل صدق) . وقد ورد اسمه في كتابات (ددان) (ديدان) وذلك في الأيام اللحيانية المتأخرة .
٤ – عم يثع نبط (عمى يثع نبط) (عميثع نبط) ، وهو ابن (ابكرب يثع) (أبيكرب يثع) .

. . . . . .

١ – يثع ايل صدق (يثع آل صدق) (يثع ايل صديق) .
٢ – وقه آل يثع (وقه ايل صديق) . وكان تابعاً للملك (شهر يجل يهرجب) ملك قتبان .
٣ – اليفع يشر ، وهو ابن (وقه ايل يثع) .
٤ – حفن ريام (خضم ريمم) ، وهو ابن اليفع يشر .
٥ – وقه آل نبط (وقه ايل نبط) .

. . . . . .

وذكر (البرايت) أسماء ما لا يقل عن خمسة ملوك ، قال انه غير متأكد من زمان حكمهم ومن مكان ترتيبهم في هذه القائمة،وهم : أب يدع (ريام؟) وابنه (خلكرب صدق) (خاليكرب صديق) . و (حضم يثع) ، وهو ابن (خلكرب صدق) و (يثع ايل ريام) و (تبع كرب)(تبعكرب) ، وهو ابنه[1].

وقد أعاد (البرايت) النظر في قائمته السابقة ، وأجرى عليها تعديلات على ضوء دراسة صور الكتابات وتغير أسلوبها بمرور العصور ، ثم انتهى الى وضع قائمة جديدة تتألف من ثلاث مجموعات هي:

المجموعة الأولى :

١ – اليفع يثع ، وهو ابن صدق ايل ملك حضرموت حوالي ٤٠٠ ق. م.

---

١ BOASOOR. Num. 119, (1950), PP. II.

٢ ـ اليفع ريام .
٣ ـ حفن عثت ، وهو ابن اليفع ريام .
٤ ـ أبيدع يثع ٣٤٣ ق. م.
٥ ـ وقه آل ريام .
٦ ـ حفن صدق ، وهو ابن وقه ايل ريام .
٧ ـ اليفع يفش .
٨ ـ عميثع نبط ، (عم يثع نبط) ، وهو ابن (ابكرب) .
٩ ـ يثع ايل ريام .
١٠ـ تبع كرب (تبعكرب) ، وهو ابن يثع ايل ريام .
١١ـ خلكرب صدق ، وهو ابن أب يدع (ريام ؟) .
١٢ـ حفن يثع ٢٥٠ ق. م.

المجموعة الثانية :

١ ـ وقه ايل نبط ٢٠٠ ق. م.
٢ ـ اليفع صدق
٣ ـ وقه ابل صدق ١٥٠ ق. م.
٤ ـ أبيكرب يثع (أبكرب يثع) .
٥ ـ اليفع يشر الأول ١٠٠ ق. م.
٦ ـ حفن ريام .

المجموعة الثالثة :

١ ـ يثع آل صدق (يثع ايل صديق) .
٢ ـ وقه آل يثع (وقه ابل يثع) ٧٥ ق. م.
٣ ـ اليفع يشر الثاني .

نهاية مملكة معين بين السنة ٥٠ والسنة ٢٥ قبل الميلاد[1] .

قائمة (ريكمنس) :

وقد دوّن (ريكمنس) (J. Ryckmans) أسماء ملوك معين على النحو الآتي :

أب يدع (ملك ؟ = أب يدع ريام ؟) .
خلكرب صدق .
. . . . . .
اليفع وقه .
وقه ايل صدق .
أب كرب يثع .
عم يثع نبط .
. . . . . .
يثع ايل ريام .
تبع كرب .
. . . . . .
اليفع ريام .
هوف عثت .
. . . . . .
اليفع يثع = معد يكرب ملك حضرموت .
. . . . . .
أب يدع يثع (٣٤٣ قبل الميلاد = يثع ايل (بين ؟) .
وقه ايل ريام .
حفن صدق .
. . . . . .

---

١ BOASOOR, NUM. 129, (1953), PP. 22.

اليفع يفش .

. . . . . .

يثع ايل صدق .

وقه ايـل يثع } شهر يكل يهركب ملك قتبان
اليفـع يشر }

حفن ريام .

. . . . . .

وقه ايل نبط .

. . . . . .

خلكرب .

. . . . . .

حفن يثع .

. . . . . .

يثع ايل
حيو[1] .
حفن ذرح .

1 J. Ryckmans, L'Institution Monarchique en Arabie Meridionale Avant L'Islam, Louvian, 1951, PP. 335.

الفصل العشرون

مملكة حضرموت

وعاصرت مملكة (معين) مملكة أخرى من ممالك العربية الجنوبية ، هي مملكة (حضرموت) ، وقد ظهرت قبل الميلاد أيضاً ، وما زال اسمها حياً يطلق على مساحة واسعة من الأرض ، فلها أن تفخر بهذا على الحكومات العربية الأخرى التي عاشت قبل الميلاد ، ثم ماتت أسماؤها ، أو قلّ ذكرها قلة واضحة .

وقد قطع اسمها مئات من الأميال قبل الميلاد ، فبلغ مسامع اليونان والرومان، وسجله كتّابهم في كتبهم لأول مرة في القارة الأوروبية ، وكتب لذلك التسجيل الخلود حتى اليوم . ولكن سجلوه بشيء من التغيير والتحريف ، اقتضته طبيعة اختلاف اللسان ، أو سوء السماع ، أو طول السفر ، فرواه (ايراتوستينس) (Chatramotitae)[١] ، ورواه (نبوفراستوس) (Hadramyta) [٢]،وأما (بلينيوس) فقد رواه (Atramitae) و (Chatramotitae) [٣] . وقد ورد عند (بطلميوس) بشكل (Chathramitae) = (Adramitae)[٤] .

١ Strabo, 16, 4, 2, Vol. 3, P. 190, (Hamilton).

٢ Theophrastus, Enquiry into Plants, Vol., 2, P. 235, Book, 9, 2.

٣ Ency., Vol., 2, P. 207, Forster, Vol., I, P. 113, O'Leary, P. 99, Pliny, 6, 28, 32.

٤ « Adramitae », «Cathramonitae », « Chatramotitae », Forster, Vol., I, P. 113, 194, Vol., 2, P. 270, Ptolemy, VI, 7, 10, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 441.

وقد تحدث مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) عن سواحل حضرموت الجنوبية ، فذكر ان فيها مناطق موبوءة،يتجنبها الناس ، ولا يدخلونها الا لضرورة ، ولذلك لا يجمع التوابل والأفاويه الا خول ملك حضرموت ، وأولئك الذين يراد انزال عقوبات صارمة عليهم[1] . وهذا يدل على ان الروم والرومان كانوا قد سمعوا من ملاحيهم ومن غيرهم من ركاب البحر أخبار السواحل ، وهي أخبار مهمة بالطبع بالنسبة الى أصحاب السفن في ذلك العهد .

وكلمة (هزرماوت) (حزرماوت) (Hazarmaveth) الواردة في التوراة على انها الابن الثالث لأبناء (يقطان) ، تعني (حضرموت) ومعناها اللغوي (دار الموت)[2] ولعل لهذا المعنى علاقة بالأسطورة التي شاعت عند اليونان أيضاً عن (حضرموت) ، وانها (وادي الموت) ، وعرفت في الموارد الإسلامية كذلك[3] . وقد وصلت في الإسلام من طريق أهل الكتاب ، قال ابن الكلبي : « اسم حضرموت في التوراة حاضر ميت ، وقيل : سميت بحضرموت بن يقطن ابن عابر بن شالخ »[4] .

وقد ذهب أكثر من بحث في أسباب التسمية من العلماء العرب الى ان حضرموت هو اسم (ابن يقطن) أو (قحطان) ، وانه كان انساناً وبه سميت الأرض ، وما بنا حاجة الى ان نقول مرة أخرى ان هذه النظرية ليست عربية ، وانما تسربت الى الأخباريين من التوراة ، اذ جعلت حضرموت اسم رجل هو (ابن يقطان) .

وقد ورد اسم (حضرموت) في الكتابات العربية الجنوبية ، كما عثر على كتابات حضرمية ورد فيها أسماء عدد من ملوك حضرموت ،وأسماء أسر حضرمية ومدن كانت عامرة زاهية في تلك الأيام[5] . وبفضل هذه الكتابات حصلنا على

---

١ Periplus Maris Erythraei, 12, Beiträge, S., 87.

٢ التكوين : الاصحاح العاشر ، الآية ٢٦ ، أخبار الأيام الأول : الاصحاح الأول الآية ٢٠ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٣٧٨) .

٣ قاموس الكتاب المقدس (١/٣٧٨) ، Hastings, P. 333, Ency. Bibli., P. 1976, Montgomery, Arabia and the Bible, P. 39.

٤ البلدان (٣/٢٩٢) ، Enct., Vol., 2, P. 207.

٥ Halevy 193, Halevy 423, Mordtmann, Beiträge zur Min. Epigr., S., 16.

معلومات لا بأس بها عن مملكة حضرموت وعن علاقاتها بالدول العربية الجنوبية الأخرى . ولما كانت أكثر هذه الكتابات قد عثر عليها على وجه الأرض ، أو هي من نتائج حفريات لم تتعمق كثيراً في باطن العاديات ، فاننا نأمل أن يقوم المستقبل باقناع المحبين للتأريخ العربي ، بالقيام بحفريات علمية منتظمة وعميقة في مواطن الآثار ، لاستنطاق ما فيها عن تأريخ العرب الجاهليين، وأنا على يقين من أن في باطن الأرض وبين الأتربة المتراكمة على هيأة أطلال وتلول أسراراً كثيرة ستغير من هذا الذي نعرفه اليوم عن تأريخ حضرموت وعن تأريخ غيرها من حكومات ، وستزيد العلم به اتساعاً .

لقد قامت بعثة بريطانية صغيرة بأعمال الحفر في موضع يقال له (الحريضة) ، فاكتشفت فيه آثار معبد الإله (سين) ، وهو يرمز الى القمر ، وعثرت على عدد من الكتابات تبين ان بعضها سبئية ، كما عثرت على قبور عثر فيها على عظام في حالة جيدة تمكن من دراستها ، وعلى أواني ومواد من الفخار والخزف وخرز ومسابح يظن انها من القرن السابع أو الخامس قبل الميلاد[1] . وعثر في خرائب (شبوة) وفي (عقلة) وفي مواضع أخرى على عدد من الكتابات الحضرمية ، كما استنسخ نفر من السياح صور بعض الكتابات التي نقلها الناس من مواضع العاديات الى المواضع الحديثة حيث استعملوا حجارتها في البناء .

وتشاهد في مباني (الحريضة) الحديثة ، وهي لا تبعد كثيراً عن الموضع القديم ، أحجار مكتوبة أخذت من تلك الخرائب ، شوهت بعضها أيدي البنائين وقضت على أكثرها معاولهم ، ومحت آلاتهم كثيراً من تلك الكتابات ، ولا يستبعد وجود عدد آخر من الأحجار أوجهها المكتوبة في داخل البناء ،فلا يمكن الوقوف عليها،أو انها كسيت بطبقة من (الجبس) أو مادة أخرى تجعل الجدران صقيلة ملساً .

ولم تتوصل جهود من بحث في الآثار التي استخرجت من معبد (سن) (سين) في (الحريضة) الى نتيجة قطعية لتأريخ هذا المعبد ، ويظن ان المقابر التي عثر

---

١ Reports of the Research Committee of the Society of Antiquaties of London, XIII, The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadhramout), By G. Caton Thompson, Oxford University Press, 1944, P. 15.
وسيكون رمزه : Caton

عليها وبعض واجهات المعبد تعود الى أواسط القــرن الخامس فما بعد الى القرن الرابع قبل الميلاد ، وان قسماً من بناء المعبد يعاصر العهد (السلوقي)[1] . ويعرف موضع الحريضة في الكتابات الحضرمية باسم (مذب) (مذبم) (مذاب) ، وفي هذه المدينة الحضرمية القديمة ، معبد خصص بعبــادة (سين) ، وعرف عندهم باسم معبد (سن ذ مذبم) (سين ذو مذاب) ، كان الناس ينذرون له النذور ، ويتقربون اليه ، ليمنحهم العمر الطويل والخير والبركة .

وليس علمنا بأحوال حكام (حضرموت) بأحسن من علمنا بأحوال حكام الحكومات العربية الجنوبية الأخرى ، مثل معــين أو قتبان أو سبأ ، فلا نزال لا نعرف شيئاً يذكر عن حكامها الأول وعن عددهم وعن مدد حكمهم وعن أمور أخرى من هذا القبيل ، ولا نزال نجد الباحثين في أحوالهــا غير متفقين لا على مبدأ قيام حكومة حضرموت ولا على منتهاها وسقوطهـا فريسة في أيدي السبئيين ، ثم لا نزال نراهم يختلفون أيضاً في عدد الحكام وفي مدد حكمهم .

والحكام الذين يذكر العلماء أسماءهم ليسوا بالطبع هم جميع حكام حضرموت، بل هم جمهرة الحكام الذين وصلت أسماؤهم الينا مدونة في الكتابات ، ولذلك لا نستبعد أن تزيد أسماؤهم في المستقبل ، زيادة قد تكون كبيرة،وهي ستتوقف بالطبع على مقدار ما يعثر عليه من كتابات .

لقد تبين من بعض الكتابات الحضرمية ان عدداً من المكربين حكموا شعب حضرموت ، وذلك قبل أن يتحول هذا الشعب الى مملكة . وقد ذكر (فلبي) بعضهم في آخر القائمة التي رتبها بحسب رأيه لحكام حضرموت[2] . ومن هؤلاء المكربين المكرب (يرعش بن أبيشع) ، (يرعش بن أب يشع) ، (يهرعش بن أب يشع) (يسكر ايل يهرعش بن أب يسع) (يشكر ايل يهرعش بن أبيع)[3] الذي ورد اسمه في كتابة سجلها (شكمم سلحن بن رضون) (شــكم سلحان بن رضوان) ، والظاهر انه كان من الموظفين أو الأعيان البارزين في حكومة

---

١ Caton, P. 153.

٢ Background, P. 144.

٣ (شكيم) ، (يشكرال يهرعش بن ايزع) ، (يسكرايل يهرعش بن أبيع) .
REP. EPIG., V, I, P. 39, No. 2687, Le Muséon, 1964 3-4, P. 444, Beitrage, S. 95.

حضرموت . وقد كلفه المكرب بناء سور وباب وتحصينات لحصن (قلت) الذي يهيمن على واد تقطعه الطريق القادمة من مدينـــة (حجر) والمؤديـــة الى ميناء (قانه) (كانه) (قنا) ، كما كلف انشاء جدر وحواجز في ممرات الوادي المهمة لحماية منطقة (حجر) والمناطق الأخرى من المغيرين ومن كل عدو يريد غزو حضرموت ، ولا سيما الحميريين الذين صاروا يهددون المملكة ، ويتدخلون في شؤونها . وقد وضع تحت تصرفه موظفين ومعماريين للاشراف على العمل ، وعمالاً يتولون أعمال البناء الذي تم في خلال ثلاثة أشهر تقريباً[1] ، وكان ذلك في السنة الثانيـــة من سني (يشرح آل) (يشرح ايل) من آل (عذذ) (ذ عذذم)،ولسنا نعرف اليوم هذا التقويم : (تقويم يشح آل) الذي أرخت به الكتابة .

وقد أنجز (شكم سلحان) (شكم سلحن) العمل الذي كلف انجازه ، فبنى الجدار والباب لحصن (قلت)،وبنى الحواجز والموانع الأخرى للمواضع الخطيرة الرئيسية الواقعة في ممرات الوادي ومعابره ، لتصد الأعداء والغزاة عن عبوره ، وأنشأ استحكامات ساحلية لحماية البر من الهجوم الذي قد يقوم به العدو من جهة البحر . ويظهر انه أقام حصوناً على لسانين كانا بارزين في البحر ، فحمى بذلك الخليج الذي بينهما ، كما حصّن المنفذ المؤدي الى وادي (أبنة) والى مدينـــة (ميفعة) ، حيث بنى سوراً قوياً لها ، وبرجين هما برج (يذان) ، وبرج (يذقان) ، وباب (يكن) ، وأماكن حماية يلتجيء اليها الجنود اذا لزم الدفاع عن المدينة فضلاً عن بناء الموانع المذكورة وقد قام بهذا العمل الجنود بدليل ورود كلمة (أسدم) في النص ، ومعناها الجنود[2] .

وتوجد اليوم في (وادي لبنة) (لبنا) بقايا جدار كان يسد هذا الوادي في أيـــام مكربي حضرموت . ويظهر ان بانيه هو (شـــكم سلحن) (شكيم

---

١ « ١٢٠ » شخصا في النص الذي دونه « رودوكناكس » و «٢١٠» في غيره : Rhodokanakis, Stud. Lexl, 2, S., 48, REP. Epig., V, I, 39, 2687.

٢ السطر الخامس من النص ، راجع : Von Maltzan, In A. Von Wrede, Reisein Hadhramount, S. 327, 362, Rhodokanakis, Stud. Lexl., 2, S. 48, REP. EPIG., V, I, P. 39, Hommel, Chresto., S. 119, (257), Aufsa. und Abh., S., 166.

سلحان) المذكور ، يبلغ ارتفاعها زهاء سبعة أمتار ، وقد أقيم من أحجار مكعبة ، قطعت من الصخر ، ونحتت نحتاً جيداً ، ونضد بعضها فوق بعض ووضعت بين سُوفها مادة من نوع السمنت ، وفي وسط الجدار آثار باب عرضه خمسة أمتار لمرور الناس والقوافل منها . وقد بني هذا الجدار ليمنع المغيرين القادمين من الجنوب من الاتجاه نحو حضرموت ، وذلك في ضمن الخطة العسكرية التي رسمت يومئذ لتحصين المدن المهمة واحاطتها بأسوار وجدر قوية في الممرات المهمة والطرق المؤثرة من الوجهة الحربية لمنع الأعداء من الزحف على حضرموت . ويرى بعض الباحثين ان انشاء هذا الجدار كان في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد[١] .

ويرى بعض الباحثين ان الكتابة التي دوّنها (شكم سلحن) (شكيم سلحان) ووضعت على جدار (لبنا) وعثر عليها في مكانها ، هي أقدم كتابة حضرمية وصلت الينا حتى الآن،وتليها في القدم الكتابة التي عثر عليها في (عقبة عقيبة) وتخص ممر (همريان) ، شرق (شبوة) . ويرجع هؤلاء زمن كتابة الكتابة الأولى الى القرن الخامس أو أوائل القرن الرابع قبل الميلاد[٢] .

لقد كانت الغاية من سدّ الأودية باقامة جدر قوية حصينة بين طرفي الوادي بحيث تمنع الناس من المرور في الوادي الا من باب يشرف منه الجنود عليها ، هو حماية حضرموت من غزو حمير . وكانت مساكن قبائل حمير اذ ذاك تجاور حضرموت . ولهذا صار الحميريون خطراً على حضرموت . ويفهم من احدى الكتابات ان جدار (قلت) وحصنه انما أقيما لصد غارات الحميريين وغزوهم المتوالي لأرض حضرموت . وقد جددت تلك الجدر والحصون ورممت مراراً وقوّيت بالحجارة الصلدة التي قدت من الصخر ، اذ لم تتمكن من الوقوف أمام سيل غزاة حمير . والظاهر ان غزوهم كان مستمراً في أيام المكرب المذكور ، فاضطر الى بناء تلك العقبات والحواجز لمنعهم من تهديد شعبه .

لقد كانت مواطن الحميريين في هذا العهد في الجنوب وفي الجنوب الشرقي من (لبنا) (لبنه) ومدينة (ميفعة) . ولم ينتقل الحميريون نحو الغرب الى

---

١ Beiträge, S., 94.

٢ Beiträge, S., 109.

المواضع التي عرفت باسمهم الا في القرن الثاني قبل الميلاد ، أو قبل ذلك بقليل. أما دولة حمير في أرض يافع وفي رعين وفي المعافر ، فقد قامت في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد ، واستمرت هجرة حمير اليها الى ما بعد الميلاد . وقد أطلق (الهمداني) على أرض (يافع) اسم (سرو حمير)[١] .

ويرى (فون وزمن) ان حمير كانت قد استولت على ميناء (قنا) (قانه) في أيام هذا المكرب . وهذا الميناء هو الميناء الوحيد لحضرموت الصالح للاتجار بحراً مع الهند وافريقية ، أخذته من حمير ، وكانت تتحكم – على رأيه – بطول الساحل بين (عدن) و (قنا) . ولها أسطول من السفن للاتجار مع الساحل الإفريقي الذي ربما كان خاضعاً لها في ذلك الزمن[٢] .

وورد في احدى الكتابات التي عثر عليها (فلبي) اسم مكرب آخر من مكربي حضرموت يسمى (علهان بن برعش) (علهن بن برعش) . ويظهر ان (برعش) والد (علهان) هذا ، هو (يرعش) المكرب المتقدم . وقد دوّن نص (Philby 108) لمناسبة انشاء طريق في ممر (همربان) (Hamraban) الذي يقع شرق (شبوة)[٣] . وقد انشئت هذه الطريق لتسهيل وصول القوافل الى العاصمة،ولأسباب عسكرية قد يكون منها تسهيل مسيرة الجيش الى مقر الملك للدفاع عنه .

وقد زهد آخر (مكرب) من مكربي حضرموت في لقبه هذا ، فتركه الى لقب آخر يتسمى به ، يدل على الحكم الدنيوي وحده وعلى السلطان والملك،وهو لقب (ملك) فتسمى به . وانتقلت حضرموت بذلك من طور الى طور، وصار النظام فيها نظاماً ملكياً . واذا سألتني عن اسم هذا المكرب الذي أبدل لقبه ، فصار ملكاً ، وصار بذلك آخر مكرب وأول ملك ، وأول جامع للقبين في حكومة حضرموت ، فاني أقول لك ان علمي به لا يزيد على علمك به ، وان العلماء الباحثين الذين آخذ علمي منهم ، لا يزالون في ذلك على خلاف ، بل ان علمهم به لا يزيد ، ويا للأسف ، على علمك وعلمي به .

---

١ Beiträge, S., 97.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4 P. 444.

٣ Philby, Three New Inscriptions from Hadhramaut, in Jurna. Asiat. Soc., 1945, Beiträge, S., 106.

لقد وضع (فلبي) الملك (صدق آل) (صدق ايل) (صديق ايل) طليعة ملوك مملكـة حضرموت ، وجعل زمان توليه العرش في حدود عـام (١٠٢٠ ق. م.)[١] . أمـا (البرايت) ، فوضع اسم الملك (يدع آل) (يدع ايـل) في رأس القائمة التي رتبها للملوك حضرموت ، وجعله معاصراً لـ (كرب آل) (كرب ايل) أول ملوك مملكة سبأ ، وقد حكم على رأيه في حوالي سنة (٤٥٠ ق. م.) ، ثم ترك فراغاً بعد هذا الملك يشير الى أنـه لم يهتد الى معرفة من حكم بعده ، وذكر بعد هذا الفراغ اسم الملك (صدق آل) (صدق ايل) الذي كان ملكاً على حضرموت ومعين . وقد ذكر أنه حكم في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد[٢] . والفرق كما ترى ، كبير جداً بـين تقدير (فلبي) وتقدير (البرايت) .

وقد وضع (هومل) الملك (صدق آل) (صدق ايل) على رأس قائمة ملوك حضرموت ، وعلى هديـه سار (فلبي) في ترتيبه للملوك هذه المملكة . وكان على رأيه يعاصر الجماعة الثانية من جماعات ملوك معين[٣] . وذكر بعده اسم ابنه (شهر علن) (شهر علان) ، ثم (معد يكرب بن اليفع يثع) (معدكرب بن اليفع يثع) ملك (معين) .وكان لـ (معد يكرب) ابنان هما: (هوف عثت) (هو فعثت) ، و (أب يدع يثع) (أبيدع يثـع) ، لم يتوليـا عرش حضرموت بعد أبيها ، والظاهر ان حضرموت اندمجت بعد وفاة (معد يكرب) في مملكة (معين) مدة لا نعرف مقدارهـا بالضبط[٤] . ويرى (فلبي) انهـا زهاء ثلاثة قرون الى نحو سنة (٦٥٠ ق. م.)[٥] .

ولدينا كتابة حضرمية من أيام (معـد يكرب) ، ورد فيهـا اسمه واسم (شهر علن بن صدق آل) ملك حضرموت ، واسم (أب يدع يثع) ملك معين . وقد تقرب فيها صاحبها الى الإلـه (عثر ذ قبضم) (عثر ذي قبض) ببناء برج موضع (حرف) ، وتيمن فيها أيضاً بذكر الآلهة : (عثر شرقن)

---

١ Background, P. 144.

٢ BOASOOR, Num. 119, PP. 5-15, (1950).

٣ مجموعة (B) في كتاب : Handbuch, S., 68 ومجموعـة (C) في كتاب Chresto.

٤ Handbuch, S., 68, 102.

٥ Background, P. 144.

(عثّر الشارق) و (ود) و (نكرح)[١] ، وتشير هذه الكتابة الى الروابط المتينة التي كانت بين العرشين : عرش حضرموت وعرش معين . فقد كان (معد يكرب) ملكاً على حضرموت ، على حين كان شقيقه ملكاً على معين . ولا ندري الى متى دام حكم هذه الأسرة التي جمعت بين عرشي المملكتين[٢] .

وقد عثر على هذه الكتابة في (معين)[٣] وقد طمست منها كلمات واردة قبل اسم (أب يدع يثع) ، ولم يبق منها غير (... خي ... شو)[٤] ، فلم يعرف المقصود بهذين المقطعين الباقيين . أيقصد بهما ابن أخيه (أب يدع يثع) ، أم يقصد بهما أخاه (أب يدع يثع) ؟ أم مؤاخيه وحليفه (أب يدع يثع) ؟ ويعود الضمير في هذه الجملة الى (معد يكرب) صاحب هذه الكتابة . وقد ذهب (هومل) الى أن المقصود بذلك (ابن أخيه)[٥] . وعلى هذا يكون (أب يدع يثع) الواردُ في هذا النص الملك (أب يدع يثع بن اليفع ريام) شقيق (معد يكرب) ملك معين، وهو ابن أخي (معد يكرب) ملك حضرموت.

ولورود جملة : (ملك معين) بعد اسم (أب يدع يثع) ، وهي جملة ترد في النصوص بعد اسم كل ملك للدلالة على أنه كان ملكاً — نستنتج أن (أب يدع يثع) كان ملكاً على معين زمن تدوين هذه الكتابة — نعني أنه كان هو ملكاً على معين في الزمن الذي كان فيه (معد يكرب) ملكاً على حضرموت ، ولهذا يبدو غريباً ما ذهب اليه (فلبي) من أن (أب يدع يثع) حكم في حدود سنة (٩٣٥ ق. م.)[٦] وأن (معد يكرب) حكم في حوالي (٩٨٠ ق. م.)[٧] وأن مملكة (حضرموت) لم يكن عليها ملك في حدود عام (٩٣٥ ق. م.) ، بل كانت تتبع مملكة معين ، فإن هذا الرأي يخالف ما جاء في النص المذكور من تعاصر الملكين .

وقد ورد في كتابة معينية وسمت بـ (Halevy 520) [٨] ، اسم (معد يكرب

١ REP. EPIG. 2775, Tome, V, 2. P. 129-130, Halévy, 193, Hommel, Chresto., S., 106, Hartmann, Arab. Frage, S., 171.

٢ جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/٦٧ وما بعدها). •

٣ REP. EPIG., V, II, P. 129.

٤ Handbuch, I, S., 69.

٥ REP. EPIG., V, II, P. 129, Handbuch, S., 69.

٦ Background, P. 141.

٧ Background, P. 144.

٨ Halévy 520, REP. EPIG. 3012, Glaser 1159+1160.

ابن اليفع) ، وذكرت بعده جملــة : (ملك معين) ، فذهب العلماء الى أن (معد يكرب) هذا هو (معد يكرب) ملك حضرموت[١] الذي نتحدث عنه، وجعلوه ملكاً على معين وعلى حضرموت . ولكن هذا الرأي يخالف ما ذهبوا اليه في ترتيبهم لأسماء ملوك معين ، وقولهم إن ملك معين كان في هذا العهد الملك (أب يدع يثع) ، وهــو ابن الملك (اليفع ريام بن اليفع يثع) . وأعود فأكرر ما قلته مراراً من أن ترتيب الملوك يمثل آراء العلماء ويختلف باختلاف هذه الآراء ، فلا مندوحة من الوقوف منها موقف المتفرج الباحث في هذا العهد .

وقد سجلت هذه الكتابة لمناسبة بناء برج (ذو ملح) في مدينـة (قرنو) عاصمة مملكة معين ، وبرج آخر في مدينة (يثل) المعينية . وقد ورد في النص اسما مدينتي (يفعن) (يفعان) و (هرن) (هران) من مدن المعينيين كذلك ، كما ورد فيها اسم معبد الإله (عثتر ذو قبض)[٢] .

ويظهر ان هذه الكتابة قد كتبت في زمن مقارب لزمن الكتابة المعينية المعروفة بـ (Glaser 1155) [٣] ، التي تحدثت عن حرب نشبت بين (مدي) و (مصر) ، فصاحبها (عم صدق بن حم عثت) (عمصديق بن حم عثت)[٤]،من(ذ يفعن) (آل يفعان) ، ورجل آخـر اسمه (سعد بن ولــج)[٥] من (ذ ضفجن) (آل ضفجان)[٦] . وكانا (كبيرين) في حكومة معين . وقد ورد فيها اسم (اب يدع يثع) (أبيدع يثع) ملك (معين) و (معد يكرب بن اليفع)[٧] . وأصحاب كتابتنا المتقدمة المعروفة بـ (Halevy 520) ثلاثة،هم : (عم صدق) و (عم يدع) و (عم كرب) أبنــاء (حم عثت) من (آل يفعان) (ذ يفعن) . فأحدهم ، وهو (عم صدق بن حم عثت) أسهم مع صاحبه (سعد بن ولج) في تدوين الكتابة الأولى وأسهم مــع اخوته في تدوين هذه

---

١ Handbuch, S., 69, Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, 235.

٢ REP. EPIG., V, II, P. 293, Halévy, Inscr. Sba., 91, No. 520.

٣ Halévy 535+578, Grohmann, Gotter., S., 52, Hartmann, Arab. Frage, S., 130., REP. EPIG., V, II, P. 303, 3022.

٤ (عم صديق بن جمعثت)

٥ (سعد بن ولك) ، بحرف الجيم على النطق المصري ،

٦ (ضفكن) بحرف الجيم على النطق المصري ،

٧ Winckler, Mursl., S., 20.

الكتابة الثانية التي ورد فيها اسم (معد يكرب) ابن (اليفع) ملك معين ، وقد كان معاصراً كما رأيت للملك (أب يدع يثع) ملك معين ، ويكون زمن حكم (معد يكرب) في هذا الزمن الذي وقعت فيه تلك الحرب أو قبل ذلك .

وقد ورد في أحد النصوص اسم (سعد) من (آل ضفجن) ، ولم يذكر معه اسم أبيه ، وكان (كبيراً) على (معين مصران)[1] ، وذلك في أيام الملك (أب يدع يثع) و (وقه آل ريمم) (وقه ايل ريام) ملك معين . ويلاحظ ان هذا النص قدم اسم (أب يدع يثع) على اسم (وقه آل ريام) ، مع ان المعروف ان (أب يدع يثع) هو ابن (وقه ايل ريام) شقيق (معد يكرب) فهل يدل ذلك على ان (أب يدع يثع) كان شقيقاً للملك (معد يكرب) ولد (وقه ايل ريام) كما ذهب اليه بعض الباحثين[2] ؟ وقد ورد في النص اسم مدينة (قرنو) أي عاصمة معين ، وقبيلة (ضفجن) و (مزود معين) ، وان (سعداً) أنشأ (مذاب) وعملها ؟. وقد تيمن في النص بذكر أسماء آلهة معين . واسم (وهب آل بن رثدال) (وهب ايل بن رثد ايل) من (آل يفعان) .

ويظهر من الأسماء الواردة في هذا النص ، ومن مضمونه ، ومن اسم ملك معين الوارد فيه،أن صاحب هذه الكتابة ، (سعد) من (ضفجن) (ضفنكن) هو (سعد بن ولج) الذي اشترك مع (عم صدق بن حم عثت) وكان كبيراً مثله في الكتابة التي مر الحديث عنها . وقد رأيت أن (عم صدق) كان من (يفعان) ، وقد ورد اسم (يفعان) في هذا النص فهو لذلك من نصوص هذا العهد .

وأشار (هومل) الى الملك (يدع أب غيلان) بعد اشارته الى (يدع ايل بين) (يدع آل بين) و (السمع ذبيان) ملكي حضرموت ، وذكر أن الحميريين كانوا هم أصحاب الحل والعقد في ذلك الزمان . وذكر أن الذي تولى بعده هو (العزيلط) (العذيلط)[3] ، ولكنه لم يجزم أنه كان ابن (يدع

---

١ REP. EPIEG. 3535, VI, I, P. 193, Weber, Studi., II, s., I, Rossini, Chrest. Arab. Merid., P. 80.

٢ Philby, in Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 235.

٣ الحرف الاخير من (العز) (العذ) قد يقرأ زايا وقد يقرأ (ذ'لا) ،وذلك لان اللهجة الحضرمية لم تفرق بين الحرفين ، بل ان لهما نطقا خاصا في هذه اللهجة ، ولذلك صعب التعبير عنه في كتابتنا فعبرت عنه بالحرفين .

أب غيلان)[1] . فأما (فلبي) ، فقد جعله ابنه ، غير أنه لم يضعه في هـــذا المكان[2] .

وتطرق (هومل) الى ذكر الملك (يدع آل) بعد الملك (معد يكرب) وقد جاء اسمه في النص الموسوم بـ (Glaser 1000) الذي دوّن في مدينة (صرواح) وكان معاصراً للمكرب (كرب ايل وتر) مكرب سبأ . ويحتمل في نظره أن يكون (يدع ايل) هذا هو الملك (يدع ايل بين) الذي ذكر اسمه في الكتابة الحضرمية المعروفة (SE 43) . وهو ابن (سمه يفع) ، وقد ذكر معـــه اسم الملك (السمع ذبين) (السمع ذبيان) ، وهو ابن (ملك كرب) (ملكي كرب) (ملكيكرب)[3] .

و (غيلان) هو أول من تولى حكم حضرموت بعد هذه الفترة التي لم نعرف من حكم فيها بعد (معد يكرب) على رأي (البرايت) . وقد حكم من بعده ابنه (يدع أب غيلان) . وذكر (البرايت) أن اسم هذا الملك قـد ذكر في كتابة عثر عليها في (وادي بيحان) ، وهو يرى أن المحتمل أن يكون هـــو (يدع أب غيلان) الـــذي كان حليفاً لـ (علهن نهفن) (علهان نهفان) ملك سبأ ، وقد حكم على تقديره في حوالي سنة (٥٠ ق. م.)[4] .

وذهب (فون وزمن) الى ان (يدع أب غيلان) المذكور كان معاصراً لـ (علهان نهفان) ، وان والده هو الملك (يدع ايل بين) وقد حـــكم على رأيه في حوالي السنة (١٤٠ ب. م.) . وأما الملك (يدع أب غيلان) فقد حكم فيما بين السنة (١٦٠ ب. م.) الى (١٩٠ ب. م.)[5] . وقد عقد صلحاً مع (علهان نهفان) الهمداني[6] .

أما (فلبي) ، فقد رأى ان الـذي حـــكم بعد هذه الفترة التي انتهت على حسب اجتهاده بحوالي سنة (٦٥٠ ق. م.) هو (السمع ذبيان بن ملك كرب)

---

١ Handbuch, S., 102.

٢ Background, P. 144.

٣ Handbuch, S., 102.

٤ The Chronology, P. 10, BOASOOR, Num. 119, P. 14.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٦ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 466, 468, 498.

و (يدع ايل بين بن سمه يفع) ، واندمجت حضرموت بعده في مملكة سبأ أو قتبان ، ثم أصبحت جزءاً من مملكة سبأ الى حوالي سنة (١٨٠ ق. م.) حيث عادت فاستقلت ، فتولى الملك فيها الملك (يدع آل بين بن رب شمس)[١] الذي كوّن أسرة ملكية جديدة اتخذت مدينة (شبوة) عاصمة لها[٢] .

وقد ذكر (البرايت) ان الذي حـكم بعد (يدع أب غيلان) وهو ابن الملك (غيلان) ، هو الملك (العذيلط) (العزيلط) ، وقد نعته بـ (الأول) وجعله معاصراً لـ (شعرم أوتر) (شعر أوتر) ملك سبأ ، وقد كان حكمه على تقديره في حوالي سنة (٢٥ ق. م.)[٣] .

وذهب (البرايت) الى احتمال كون (العزيلط) هذا هو الملك (العزيلط بن عم ذخر) المذكور في كتابة عثر عليها في (وادي بيحان) في كتابات عثر عليها (فلبي) في (عقلة) بحضرموت[٤] ، غير ان (العزيلط بن عم ذخر) هو من المعاصرين للملك (شارن يعب يهنعم) ، ولذلك لا يمكن أن يكون هو الملك (العزيلط) الذي لقبه (البرايت) بالأول ، وجعله معاصراً للملك (شعرم أوتر) (شعر أوتر) .

وقد وجد اسم الملك (العز) في كتابة حفرت على صخرة عند قاعدة جبل (قرنيم) (قرن)[٥] ، كما عثر على اسمه في كتابات وجدت في (عقلة) ، و (عقلة) موضع مهم عثر فيه على كتابات وردت فيها أسماء عدد من ملوك حضرموت ، زاروا هذا المكان ، وذكرت أسماؤهم فيه[٦] . وقد جاء في احدى هذه الكتابات أن الملك (العزيلط) زار هذا الموضع ، ورافقه في زيارته عدد من الزعماء والرؤساء ، منهم : (شهرم بن والم) (شهر بن وائل) و (قريت ابن ذمرم) (قريـة بن ذمر) و (ابفـال بن القتم) (أبفال بن القتم) و (وهب آل بن هكحد)[٧] .

---

١ (يدع ايل بين بن رب شمس) ، (يدع ال بين بن ربشمس) .

٢ Background, P. 144, Philby, 46, 401, (4872), REP. EPIG., VII, III, P. 400, 4841.

٣ Chronology, P. 10, Philby, Sheba's, P. 442.
Background, P. 144.

٤ The Chronology, P. 10.

٥ BOASOOR, Num. 120, (1950), P. 27.

٦ BOASOOR, Num. 119, (1950), P. 14.

٧ Sheba's Daughters, P. 446, Philby 81, REP. EPIG., VII, III, P. 413, 4908.

وسجل هؤلاء الرجال ذكرى هـــذه الزيارة في هـــذا النص الذي وسم بـ (Philby 81) . وقد ذكر فيه اسم والد (العذ) (العز) ، وهو (عم ذخر) (عمذخر) ، ولم يدوّن كاتبه حرف العطف (الواو) بين الأسماء . ورفقة الملك هؤلاء الذين صحبوه في رحلتـــه الى حصن (أنود) ، وان كانوا لم يفصحوا عن مراكزهم ومنـــازلهم الاجتماعية نستطيع أن نجزم أنهم كانوا من الوجهاء والأعيان ، فرفقة تصاحب الملك للاحتفال بزيارة كهذه الزيارة لا بد أن يكون لها شأن بين الناس .

وتعد الكتابة التي وسمت بـ (Philby 82) من الكتابات المهمة ، وقد دونها رجلان من أشراف (حمير يهن) ، أي من حمير ، رافقا الملك في سفرته الى حصن (أنود) ، لإعلان نفسه ملكاً على حضرموت ولمناسبة تلقبه بلقبه ، وهي عادة كان يتبعها ملوك حضرموت عند توليهم الملك وتلقبهم بلقب جديد لم يكن يتلقبون به قبل انتقال العرش اليهم . ولسنا نعرف متى نشأ هذا التقليد عند ملوك حضرموت ، ولا السبب الذي دفعهم الى اختيار هذا المكان دون غيره . ولعلـه كان من الأماكن المقدسة القديمة عندهم ، فكانوا يتبركون بتتويج أنفسهم فيه ، أو أنه كان قلعة أو موضعاً قديماً فجرت العادة أن يتوج الملوك فيه . وقد كان هذان الرجلان بعثهما (ثارين يعب يهنعم) ملك (سبأ وذي ريدان) لمرافقـــة ملك حضرموت في هذه المناسبة . والظاهر أن ملك سبأ إنما بعثهما لتهنئـــة ملك حضرموت ولتمثيله في هذا الاحتفال المهيب الذي يجري في (أنود) ، فهما مبعوثان سياسيان من ملك الى حليفه[١] . وقد سجل (العذيلط) (العزيلط) هذه المناسبة في كتابة قصيرة ورد فيها (العزيلط ملك حضرموت بن عم ذخر سبراد جندلن أنودم هسلقب) ،أي (العزيلط ملك حضرموت ابن عم ذخر سار الى حصن أنود ليتلقب بلقبه ..)[٢] وقد كتبت هذه الكتابة في الزمن الذي دونت فيـه الكتابتان الأخريان عن زيارة الملك لحصن (أنود) عند اعلان لقبه الجديد وتوليه العرش رسمياً ، غير اننا لا نعرف – ويا للأسف – تأريخ هذه المناسبة .

وذكر اسم الملك (العزيلط بن عم ذخر) في كتابة دوّنها جماعة من الأعيان عند تتويجه وتوليه العرش واعلان ذلك للناس في حصن (أنود) . وأصحـاب

---

١ Sheba's Daughters, P. 449, Philby 82, REP. EPIG., VII, III, P. 414.

٢ Sheba's P. 450, Philby 83, REP. EPIG., VII, III, P. 415, 4910.

هذه الكتابة هم : (نصرم بن نهد) (نصر بن نهد) و (رقشم بن أذمر) (رقاش بن أذمر) ، و (والم بن يعللد) (وائل بن يعللد) ، و (والم بن بقلن) ، و (ابكرب ذو دم) (أبكرب ذو ود)[١] . وقد ورد انهم ساعدوا الملك سيدهم (العزيلط بن عم ذخر) (العذيلط بن عم ذخر) حين ذهب الى حصن (أنود) لاعلان نفسه ملكاً[٢] . ويظهر من ذلك انهم كانوا من جملة رجال الحاشية الملكية التي صحبت الملك الى ذلك المكان . ووردت نصوص أخرى سجلها رجال الحاشية الملكية تخليداً لاسمهم في هذه المناسبة[٣] . وقد سجل كتابة من هذه الكتابات رجل اسمه (حصين بن ذا يم مقتوي العزيلط ملك حضرموت) ، (حصين بن ذ أيم مقتوي العزيلط ملك حضرموت) ، ويظهر ان هذا الرجل كان من قواد جيش الملك وضباطه ولعله كان من مرافقيه[٤] .

وقد منح بعض علماء العربيات الجنوبية هذا الملك ، أي الملك (العز بن عم ذخر) (العذ) لقب (العز الثالث) ، لذهابهم الى وجود ملكين حكما قبله عرفا بهذا الاسم. ورأى (ركمنس) ان حكمه كان في حوالي السنة (٢٠٠ب.م.)[٥].

وقد ورد في كتابة حضرمية اسم ملك دعي بـ (العذ) (العز) ابن (العزيلط) (العذيلط) ملك حضرموت ، فيظهر من ذلك ان والد هذا الملك كان ملكاً كذلك ، ولم يشر أحد من الباحثين مثل (فلبي) أو (البرايت) اليه . ولعله ابن للملك المتقدم،وصاحب هذه الكتابة رجل اسمه (هبسل قرشم)[٦] وتذكرنا كلمة (قرشم) (قريشم) ، أي (قريش) باسم قبيلة (قريش) صاحبة مكة .

ولم يتأكد (البرايت) من اسم الشخص الذي تولى العرش بعد (العزيلط)، فترك فراغاً ذكر بعده ملكاً سماه (العزيلط) (العذيلط) ميزه عن الأول باعطائه لقباً ، هو (الثاني) . وقد رأى أنه كان معاصراً للملك (ثأرن يعب يهنعم)

---

١ (نصر بن نهد) ، (رقاش بن أذمر) ، (وائل بن يعللد) ، (وائل بن باقل)، (أيكرب ذوودة) .

٢ REP. EPIG., VII, III, P. 392, 4852, Philby 27+29.

٣ REP. EPIG., VII, III, P. 395, 4855, 396, 4857, Philby 30, 32, 34.

٤ REP. EPIG., VII, III, P. 398, 4861, Philby 36, P. 401, 4874, Philby 49.

٥ Beiträge, S., 114, 144.

٦ REP. EPIG., VII, III, P. 322, 4693, Le Muséon, LXIII, 3-4 1950, P. 261.

ملك سبأ . أما والد (العز الثاني) على رأيه فهو (علهان) أو (سلفان)[1] . ويرى (فلبي) أن (علهان) أو (سلفان) هو ابن (العزيلط) الأول[2] . وقد سبق أن ذكرت أن (ثأرن يعب يهنعم) كان حليفاً للملك (العذيلط بن عم ذخر) ، وأنه أرسل وفداً لتهنئته بتتويجه واعلانه لقبه الجديد[3] . لذلك يبدو غريباً ما ذهب اليه (البرايت) من أن (العزيلط الثاني بن علهان) أو (سلفان) هو الملك المعاصر للملك (ثأرن يعب) السبئي .

ويحتمل على رأي (البرايت) أن يكون (العزيلط) (العذيلط) الذي ورد ذكره في النص (Glaser 1619 = 1430) الذي عثر عليه في (وادي بيحان) ويعود تأريخه الى سنة (١٤٤) من التقويم السبئي التي تقابل سنة (٢٩ م) تقريباً ، هو (العزيلط الثاني) . ويحتمل على رأيه أيضاً أن يكون هو الملك (Eleazos) الذي ذكر في كتاب (الطواف حول البحر الأريتري)[4] . وكان هذا الملك معاصراً لملك آخر سماه مؤلف هذا الكتاب (Karibael) ـ (Charibael) وهو ملك الحميرين والسبئيين[5] ، وقد أراد به الملك (كرب ايل وتر يهنعم) ، وهو (ملك سبأ وذي ريدان) المذكور في النص (Glaser 483)[6] .

أما (فون وزمن) ، فيرى أن كاتب النص قد أهمل الرقم ثلاث مئة فكتب مئة وأربعة وأربعين ، على حين أن الصحيح هو (٣٤٤) من التقويم الحميري ، واذن يكون زمان تدوين الكتابة هو (٢٢٩) أو (٢٣٥) بعد الميلاد وهو وقت حكم (العزيلط بن عم ذخر) على تقديره[7] .

وجاء اسم ملك يدعى (العزيلط) (العذيلط) في كتابة سجلها رجلان ، يدعى أحدهما (عذذم بن أب انس) (عذ ذ بن أب انس) ويدعى الآخر (رب آل بن علم لت) (رب ايل بن علم لات) ، وهما من عشيرة (مريهن) (مريهان) ، ذكر فيها انهما قدما الى معبد الإلـه (سن ذ علم)

---

١ BOASOOR, Num. 119, (1950), P. 14.

٢ Background, P. 144.

٣ Sheba's, P. 449.

٤ يرى بعض العلماء أنه الف بين ٤٠ ـ ٧٠ بعد الميلاد .

٥ BOASOOR, Num. 119 (1950), P. 14.

٦ Beiträge, S., 114.

٧ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 482.

(سين ذي علم) في معبده (علم) المشيد في مدينة (شبوة) ، سبعة تماثيل من الذهب (سبعة أصلم ذهبن) ، كما أمرهما سيدهما الملك[1] . ويظهر انهما كانا من حاشيته وأتباعه . وقد أهملت هذه الكتابة اسم والد هذا الملك ، فلا نعرف أي ملك هو ، أهو (العزيلط الأول) ، أم (العزيلط الثاني) ؟

وقد ورد في بعض الكتابات ما يفيد استقبال (العزيلط) لضيوف وفدوا عليه من مختلف الأماكن : من الهند (هند) ، ومن (تدمر) (تذمر) ؛ وضيوف آراميون جاءوا اليه من (كشد)[2] ، بل ورد في الكتابة (Ja 919) مرافقة عشر نساء قرشيات له الى حصن (أنود)[3] . واذا كانت الكتابة قد قصدت من (قريش) قريش المعروفة صاحبة مكة،نكون بذلك قد وقفنا لأول مرة على اسمها في وثيقة مدونة .

ولاشارة النصين المذكورين الى الهند وتدمر والى بني إرم وقريش ، أهمية كبيرة ولا شك ، اذ تدل على الاتصال الذي كان لمملكة حضرموت بالعالم الخارجي في ذلك الزمن ، وعلى الروابط التجارية التي كانت تربط ذلك العالم بحضرموت . وقد كان اتصال حضرموت بالخارج عن طريق ميناء (قنا) ، فقد كانت السفن تأتي اليه وتخرج منه لتذهب الى افريقية والهند وعُمان وأرض فارس[4] .

وترك (البرايت) فراغاً بعد (العزيلط الثاني) ، مغزاه انه لا يدري من حكم بعد (العز) هذا ، ثم ذكر بعده اسم (يدع أب غيلان بن أمينم) (يدع أب غيلان بن أمين) ، ثم جعل اسم ابنه من بعده ، وهو (يدع ايل بين) ، أي انه هو اللذي تولى الحكم من بعده . وقد بيّن انه غير متأكد من زمان حكمها ، الا ان دراسة الكتابات التي ذكر فيها اسماهما تدل على انها من

---

١ لم يذكر في النص الذي نشره « بيستن » في مجلة : Le Muséon اسم هذه العشيرة ، راجع :
Le Muséon, LXIII, 3-4, 1950, P. 262, 265, REP. EPIG., VII, III, P. 320, 4691, Philby 2, Ryckmans 1266.

٢ JA 931, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 484.

٣ JA 919, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 484.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, 484.

نوع كتابات القرن الأول للميلاد ، ولذلك وضع زمانهما في هذا العهد[1] .

ومن الكتابات التي ذكر فيها اسم (يدع ايل بين) ، أي ولد (يدع أب غيلان بن أميثم) الكتابة التي وسمها العلماء بسمة (Glaser 1623) ، وهي كتابة قصيرة تتألف من أربعة أسطر ، ورد في جملة ما ورد فيها اسم الإله (سين ذو علم) ، أي الإله (سين) رب معبد (علم) . وكان معبد (علم) قد خصص بعبادة هذا الإله[2] .

وقد وصلت الينا كتابة أخرى ورد فيها اسم (يدع ايل بين) ، إلا أنها لم تذكر لقب والده ، وهو (غيلان) ، وانما اكتفى فيها بتسجيل الاسم وحده وهو (يدع أب) . وقد ذكر فيها أن هذا الملك بنى وحصن سور مدينة (شبوة) ابتغاء وجه الإلهتين : (ذات حشولم) (ذت حشولم) (ذات حشول) و (ذت حمم) (ذات حميم) ، وذكر فيها اسم (صدق ذخر) (كبر) (كبير) حضرموت[3] . ويظهر أن الغرض من ذكر اسم هذا الكبير (كبير) في النص ، أن تؤرخ الكتابة به على نحو ما رأينا في الكتابات المعينية من التأريخ بأسماء الرجال[4] .

ولم يذكر (البرايت) من حكم بعد (يدع ايل بين) ، فترك فجوة تدل على أنه لا يدري من حكم فيها ، ثم ذكر بعدها ملكاً آخر ، سماه (يدع ايل بين) ، قال : إنه ابن (سمه يفع) ، ثم ذكر (السمع ذبيان بن ملكي كرب) (ملكيكرب) من بعده ، وقال إنهما كانا متعاصرين[5] . وقد حكما حكماً مزدوجاً ، أي أن كل واحد منهما كان يحكم بلقب (ملك حضرموت). وكان حكمهما في حوالي السنة (١٠٠) بعد الميلاد على بعض الآراء[6] .

ثم عاد (البرايت) ، فترك فراغاً بعد (السمع ذبيان) ، دلالة على وجود فجوة في ترتيب أسماء ملوك حضرموت ، لا يدري من حكم فيها ، ثم ذكر

---

١ The Chronology, P. II.

٢ BOASOOR, Num. 119, (1950), P. 14, Ryckmans, 169, REP. EPIG., 4698, VII, III, P. 323, Philby 9, SE. 49.

٣ Le Muséon, LX, 1-2, 1947, P. 53, Hamilton, 2, Plate, I.

٤ Le Museon, LX, 1-2, 1947, P. 55.

٥ BOASOOR, Num. 119, 1950, P. 14.

٦ Beiträge, S., 85.

بعدها الملوك : (رب شمس) (ربشمس) ثم (يدع ايل بين) ثم (الريم يدم) ثم (يدع أب غيلان)[1] .

وقد ذكرت اسم (رب شمس) قبل قليل ، وقدمت زمانه بعض التقديم ، وذلك حكاية عن رأي بعض العلماء وفي ضمنهم (فلبي) الذي جعل حكمه في حوالي سنة (١٨٠ ق. م.) ، ثم عدت لأذكره هنا مجاراة لرأي (البرايت) الذي وضعه في أواخر قائمته لملوك حضرموت . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن حكم هذا الملك كان بعد سنة (٢٠٠ ب. م.)[2] ، وفرق كبير كما نرى بين التقديرين .

وقد جعل (فون وزمن) زمان (رب شمس) بين السنة (١٠٠) و (١٢٠ ب . م .) ، وصيّره من معاصري (اوسلت رفش) (أوسلة رفشان) ملك همدان ومن معاصري الفترة الواقعة بين حكم (ذمر علي يهبر) و (ثأران يعب) الحميريين[3] . ثم البقية التي جاءت بعده ، وتتألف من (يدع آل بين) (يدع ايل بين) ، ثم (الريم يدم) (الريام يدم) ، ثم (يدع اب غيلن) (يدع أب غيلان) ، ثم (رب شمس) (ربشمس) وقد جعل نهاية حكمه سنة (١٨٠ ب. م.)[4] .

ويعد النص الموسوم بـ Philby 84 من النصوص المهمة بالنسبة الى تأريخ مدينة (شبوة) ، وقد كتب في عهد (يدع ايل بين بن رب شمس) ، وجاء فيه ان (يدع ايل بين بن رب شمس) من (أحرار يهأر) (أحرار يهار) (أحرر يهبر) عمر مدينة (شبوة) وأقام بها ، وبنى المعبد بالحجارة ، وذلك بعد الخراب الذي حل بها ، وعمر ما تهدم وتساقط منها ، وانه احتفالاً بهذه المناسبة أمر بتقديم القرابين ،فذبح (٣٥) ثوراً و (٨٢) خروفاً و (٢٥)غزالاً و (٨) فهود (أفهد) ، وذلك في حصن (أنود)[5] .

---

١ The Chronology, P. II, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 468, Jamme, Sabaean Inscriptins, P. 305, The Al-'uqlah Texts, Catholic Univ. of America Press, Washington, 1963, PP., 7.

٢ Beiträge, S., 105.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, 498.

٤ Le Muséon, 1964, P. 498.

٥ Philby 84, Sheba's, P. 451, Le Muséon, LXI, 3-4, 1948, P. 190, REP. EPIG. 4912, VII, III, P. 416.

وقد حدثنا هذا النص حديثاً صريحاً بأن أصل (يدع ايل بين) من أحرار (يهأر) (أحرر يهر) أي من صرحاء القبيلة ، وحدثنا أيضاً بأنه بنى مدينة شبوة ، وعمّر معبدها وكسا جدره بطبقة من القار أو غيره لتكون مُلْسأ ، من أساسها الى شرفاتها ، وذلك بعد الخراب الـذي حل بشبوة ، الا ان الملك لم يتحدث عن سبب ذلك الخراب الذي أصاب المدينة ومعبدها معها ، وهو خراب كبير على ما يظهر ، فتركنا في حيرة من أمره ، وتباينت آراء الباحثين فيه .

ويرى (البرايت) ان النص المذكور هو من نصوص القرن الثاني بعد الميلاد. أما (ركمنس) فيرى انه من نصوص ما بعد السنـة (٢٠٠) بعد الميلاد . فهو اذن نص يكاد يجمع أكثر علماء العربيات الجنوبية على انه من نصوص بعد الميلاد . واذا صدق رأي هؤلاء ، كان خراب شبوة اذن واعادة تعميرها قد وقعا بعد الميلاد[1] .

وقد فسّر بعض الباحثين خراب (شبوة) باستيلاء أحد ملوك (سبأ وذي ريدان) عليها ، فلما نهض (يدع ايل بين) ، لاستردادها من السبئيين ، وقع قتال شديد فيها بينه وبينهم في المدينة نفسها ، لم ينته إلا بعد خراب المدينـة وتدمير معبدها معبد الإلـه (سين) . وعندئذ ارتحل عنهـا السبئيون ، فاضطر (يدع ايل) الذي طردهم منها الى إعادة بناء المدينة والمعبد ، فلما تم له ذلك ، احتفل بهذه المناسبة ، أو بمناسبة تتويجه ملكاً على حضرموت في حصن (أنود) وقرّبَ القرابين الى إلـه حضرموت (سين) والى بقية الآلهة ، شكراً لها عـلى ذلك النصر ، وعـلى النعم التي أغدقتها عليه . هذا في رأي فريق مـن علماء العربيات الجنوبية[2] .

ورأى فريق آخر أن في خراب (شبوة) سبباً من سببين ، فإما أن يكون (يدع ايل) وهو من أحرار قبيلة (يهأر) ، قد أعلن الثورة عـلى السبئيين الحميريين الذين كانوا قد استولوا على شبوة ، وقاومهم مقاومة عنيفة أدت الى إلحاق الأذى بالمدينة ، فلما تركها السبئيون الحميريون كانت ركاماً ، فأعلن (يدع ايل) نفسه ملكاً على حضرموت ، بعد أن ظلت المملكة بدون ملك . وإما أن

---

١ Beiträge, S., 115.

٢ Beiträge, S., 115.

يكون ذلك الخراب بسبب عصيان (يدع ايل) على الأسرة المالكة الشرعية ومقاومته لها ، مما أدى الى إنزال التلف في المدينة ، فلما تغلب على الاسرة المالكة أعاد بناء المدينة وجددها وجدد معبدها على نحو ما جاء في النص[1] .

وليس في النص شيء ما عن الطريقة التي كسب بها تاج حضرموت ، إلا أن اشارة وردت في كتابة تفيد أن بعض الأعراب ورجال القبائل كانوا قد تعاونوا معه وساعدوه ، فقد عاونه رجل من قبيلة (يم) (يام) ، ومئة من بني أسد ، ومئتان من (كلب) أو (كليب)[2] ، وعاونه ولا شك آخرون، وبفضل هؤلاء وأمثالهم من رجال القبائل تغلب على من ثار عليهم ، فانتزع التاج منهم . والاشارة المذكورة على أنها غامضة ، كافية في اعطائنا فكرة عمن ساعد (يدع ايل) على الظفر بالعرش .

ويظهر من كل ما تقدم أن (يدع ابل بين) ، وهو من أبناء العشائر ، كان قد جمع حوله جماعة من القبائل ، ساعدته في عصيانه وتمرده على السلطة الحاكمة في (شبوة) فاستولى على الملك وقد جاء بعده عدد من الملوك ، إلا أن الأمر أفلت زمامه منهم ، إذ نجد أن الملك (شمر يرعش) (شمر يهرعش) يضيف (حضرموت) الى الأرضين الخاضعة لحكومته ، حتى صار اسم حضرموت منذ ذلك الحين جزءاً من اللقب الذي يلقب به الملوك . ومعنى ذلك انقراض مملكة حضرموت ودخولها في حكومة (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) اللقب الرسمي اللذي اختاره (شمر) المذكور نفسه .

ويرى (فون وزمن) ان الكتابة الموسومة بـ Jamme 629 ، هي من الكتابات التي تعود الى أيام هذا الملك . وقد جاء فيها ان (مرثدم) (مرثد) و (ذرحن) (ذرحان) ، وهو قائد من قواد جيش (سعد شمع أسرع) و (مرثدم يهحمد) من (آل جرت) (آل جرة) ، قد حاربا الملك (يدع آل) (يدع ايل) ملك حضرموت والملك (نبطم) (نبط) ملك قتبان ، و (وهب آل بن معهر) (وهب ايل بن معاهر) و (ذ اخولن) (ذو خولان) (ذ خولن) و (ذ خصبح) (ذو خصبح) و (مفحيم) (مفحى) حارباهم في أرض (ردمان) قرب العاصمة (وعلن) (وعلان)[3] .

---

١ Beiträge, S., 115.

٢ Beiträge, S., 115.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 463.

ويرى (فون وزمن) أن هذه الحرب قد وقعت في أواخر أيام حكم الملك (نبطم) (نبط) ملك قتبان ، المعروف بـ (نبطم يهنعم) ، وقد لقب في هذه الكتابة بلقب : (ملك قتبان) ، إلا أنه كان في الواقع تابعاً لحكم ملك حضرموت . وقد كانت (تمنع) - كما يرى هو أيضاً - قد خربت قبل هذا العهد ، وتحولت الى قرية صغيرة . وقد التقت عساكر (سعد شمس) و (مرثد) بخصومها قرب هـذا المكان . ولم تكن (أوسان) مملكة في هذا العهد ، بل كانت قبيلة . وقد أذلت (شيمان) بعد هذه الحرب .

وأما (مرثد) (مرثـدم) صاحب الكتابة ، فهو من (ذ بن جرفم) (بني ذي جرفم) (بني ذي جرف)[1] بـ (صنعو) ، أي (صنعاء) . وقد عمل مع الملكين : (سعد شمس أسرع) و (مرثدم يهحمد) ، وهما من ملوك مملكة (جرت) (جرة) ، لتنظيم اجتماع لسادات القبائل في موضع (رحبت) (رحابـة) الواقع شمال صنعاء ، بأرض (سمعي) . وقد حضر الاجتماع : (شرحثت) ، وهو من سادات (بتع)[2] و (الرم) (الرام) (الريام) ، وهو من (بني سخيم) ، و (يرم أيمن) الهمداني . ويظهر أن ملكي (جرة) كانا قد استحوذا على مرتفعات سبأ في هذا الحين[3] .

وكان (وهب آل بن معهر) (وهب ايل بن معاهر) صاحب (ردمان) (ردمن) والأرضين المتاخمة لـ (خولان) في هذا الوقت . وقصد بـ (معهر) دار الحكم بمدينة (وعلن) (وعلان) من أرض (ردمان)[4] .

وأما (خصبح) ، فبطن من بطون قتبان .

وتولى الملك بعد (يدع ايل بين) ابنه (الريم يدم) (الريام يدم) . ونحن لا نعرف من أمره شيئاً يذكر ، الا ما ورد في كتابة تذكر انه ذهب الى حصن (أنود) ، واحتفل هناك بتوليه العرش ، واعلانه لقبه الـذي اتخذه لنفسه[5] ، والا ما ورد في كتابة أخرى ، دونها (رب شمس بن يدع ايل بين) ، أي

---

١ « جراف » ، « كراف » .
٢ راجع النص : CIH 222
٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 465.
٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 464.
٥ Sheba's, P. 452, Philby 85, REP. EPIG., VII, III, P. 416, 4913.

شقيق (الريم يدم) ، تذكر انه رافق شقيقه الى حصن (أنود) عند المناسبة المتقدمة ، فكان من جملة المشاهدين لحفلة التتويج[1] .

ولا نعرف من أمر (يدع أب غيـلان) شقيق (الريم يدم) شيئاً يذكر كذلك . وقد جعله (البرايت) خليفة شقيقه المذكور . وكـل ما لدينا عنه ، لا يتجـاوز ما ذكرناه عن شقيقه . فقـد جاء في كتابة انه ذهب الى حصن (أنود) ، فاحتفل فيه بتتويجه وأعلن في الاحتفال اللقب الذي لقب نفسه به ، وجاء في كتابة أخرى سجلها (رب شمس) ، أي شقيقه ، انه ذهب مع أخيه (يدع أب) الى حصن (أنود) لمشاهدة الاحتفال بتتويجه وباعلانه اللقب[2] .

وقد ورد في أحد النصوص ان (يدع أب غيلن) (يدع أب غيلان) ، سوّر مدينة (ذ غيلن) . ويرى بعض الباحثين ، ان هذا الملك كان قد بنى هذه المدينة في أرض قتبانية فتحت في أيام والده ، في مكان يقع عند فم وادي (مبلقه) (مبلقت) المؤدي الى وادي (بيحان) . ويشك بعض الباحثين في صحة قراءة اسم المدينة[3] .

وفي الكتابة المرقمة برقم Philby 88 جملة هي : (رب شمس خبر اسدن بن يدع آل بين) ، ترجمهـا (بيستن) بـ (رب شمس أمير أسد بن يدع ايل بين) على ان (أسداً) قبيلة،واستدل على ذلك بما جاء في احدى الكتابات من ان الملك (ختن أسد)[4] ، ومعنى ذلك انه كان ختناً لـ (بني أسد) . وأرى ان لفظة (اسدن) (اسد) هنا لا تعني قبيلة أسد وانما تعني جنوداً أو جيشاً ، وهي بهـذا المعنى في العربيات الجنوبية ، فان لفظة (اسدم) تعني الجندي ، وان المـراد من جملة (رب شمس خبر اسدن) (رب شمس أمير الجند) أو (الجيش) ، أي ان لفظة (خبر) بمعـنى أمير أو قائد ، وخبر القوم سيدهم ، فيكون بذلك قائداً أو أميراً لجيوش حضرموت .

---

١ Philby 86, Sheba's, P. 452, REP. EPIG. 4914, VII, III, P. 418.

٢ Philby 88, Sheba's, P. 467, REP. EPIG. 4918, VII, III, P. 419.

٣ A. Jamme, A New Chronology of the Qatabanian Kingdom, BOASOOR, Num. 120, 1950, 26, Sabaean Inscriptions, P. 297, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 464.

٤ Philby 88, Sheba's P. 444, REP. EPIG. 4919, VII, III, P. 419.

وبناء على ما تقدم نكون قد عرفنا اسم ثلاثة أولاد من أبناء (يدع ايل بين) تولى الملك اثنان منهم على وجه أكيد ، أما الثالث ، وهو (رب شمس) فلم تصل الينا كتابة تذكر ذهابه الى حصن (أنود) للاحتفال بتتويجه واعلان لقبه. لذلك لا نستطيع أن نبت في موضوع توليه عرش حضرموت . ولم يذكر (البرايت) اسمه بين أسماء أبناء (يدع ايل بين) . وقد استخرجته أنا من الكتابات التي ذكرتها ، وهي الكتابات التي استنسخها (فلبي) من موضع (عقله) .

وفي اللوح النحاس المحفوظ في المتحف البريطاني اسم ملك من ملوك حضرموت هو (صدق ذخر برن) (صدق ذخر بران) ، ووالده (الشرح) ، وقد ذكر فيه أن هذا الملك قدم نذوراً الى الآلهة : (سين) و (علم) و (عثتر) لخيره ولخير (شبوة) ولخير أولاده وأفراد أسرته ، وقد وردت فيه أسماء قبائل يظهر أنها كانت خاضعة في هذا الزمن لحكمه هي : (مرثد) و (أذهن) (أذهان) ، و (ينعم)[1] . ولورود اسم (شبوة) في هذا النص ، يجب أن يكون هذا الملك قد حكم بعد تأسيس هذه المدينة .

وذكر (هومل) أنه وجد محفوراً على الجبهة الثانية من اللوح النحاس (مونكراما) Monogramm طغراء تشير الى اسم الملك الذي كان يحكم حضرموت في ذلك الزمن ، وقد دعاه (هومل) (سعد شمسم) (سعد شمس)[2] .

وورد اسم ملك آخر من ملوك حضرموت ، هو: (حي آل) (حي ايل) ، وقد ورد اسمه في نقد حضرمي[3] . وما نعرف من أمره في الزمن الحاضر شيئاً .

ولم يشر (البرايت) و (فلبي) و (هومل) وغيرهم الى اسم ملك حضرمي ورد ذكره في النص المرقم برقم (٩٤٨) المنشور في كتاب CIH[4] . وهو نص متكسر في مواضع متعددة منه ، أضاعت علينا المعنى . واسم هذا الملك (شرح آل) (شرح ايل) (شرحبيل) .

وقد سقطت كلمات قبل هذا الاسم ، لعلها تكملته . وقد وردت بعده جملة :

---

١ Halevy, Etudes, P. 173, OS. 29.
٢ Hommel, Grundriss, I, S., 138.
٣ Handbuch, S., 96, Anm. 2, 103.
٤ CIH, IV, III, II, P. 275-276.

(ملك حضر ...)، وسقطت الأحرف الباقية من كلمة حضرموت وكلمات أخرى.

وقد ورد في النص المذكور اسم (شمر يهرعش) ملك (سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات)[1] . ويدل ورود اسم (شمر يهرعش) في هـذا النص مع اسم (شرح ابل) على أن الملكين كانا متعاصرين ، ويدل هذا النص على أن مملكة حضرموت بقيت الى ما بعد الميلاد ، وحتى أيام (شمر يهرعش)، يحكمها حكام منهم ، يحملون لقب (ملك) .

وكان آخرهم هو (شرح ابل) هذا المدون اسمه في النص المذكور . ولكنه لم يكن مستقلاً كل الاستقلال ، بل كان تحت حماية (شمر يهرعش) ووصايته. ودليلنا عـلى ذلك ذكر (شمر) في النص مع (شرح ابل) وادخـال اسم (حضرموت) ضمن أسمـاء المواضع الخاضعة لحكم (شمر) ، أي في اللقب الرسمي الذي اتخذه (شمر) لنفسه بعد استيلائه على حضرموت .

وعثر على نص وسم بـ JA 656 ، جاء فيه اسما ملكين من ملوك حضرموت أحدهما (رب شمس) ، الآخر (شرح ابل) (شرح آل)[2] . وليس في النص ما يكشف عن هوية الملكين ، وأرى ان (رب شمس) هذا هو (رب شمس) المتقـدم شقيق المالكـين ، وابن (يدع ايل بين) . واذا صدق رأيي هذا ، يكون قد تولى الملك لمدة قليلة، تولاه بعد وفاة شقيقه (يدع أب غيلان) ثم انتقل العرش الى (شرح ايل) ، وهو في نظري (شرح ايل) الذي اعترف بسيادة (شمر يهرعش) وسلطانه عليه كما تحدثت عنه .

وقد يكون أحد أبناء (رب شمس) وقد يكون حمل لقب (ملك حضرموت) مع (رب شمس) في آن واحد . وهذا النص هو بالطبع أقدم من النص المتقدم الذي ورد فيه اسم (شمر يهرعش) .

لقد جعل بعض علماء العربيات الجنوبية سقوط مملكة (حضرموت) واندماجها نهائياً في مملكة (سبأ وذي ريدان) في أيام (شمر يهرعش) ، وبعد السنـة (٣٠٠ ب. م.)[3] . وأود ان ابين هنا اننا لما نظفر بكتابة عربية جنوبية ،

---

١ وهو (شمر يرعش) عند الاسلاميين .
٢ Le Muséon, 1946, 3-4, P. 453.
٣ Beiträge, S., 116.

فيها شيء عن كيفية سقوط مملكــة حضرموت ، وعن كيفية استيلاء (شمر يهرعش) أو غيره من الملوك عليها ، فنحن لهذا في وضع لا يسمح لنا بوصف نهاية تلك المملكة وذكر الأحداث التي أدت الى سقوطها واندماجها في مملكة سبأ وذي ريدان .

وقد ذهب بعض الباحثين الى ان سقوط حضرموت كان في القرن الرابع بعد الميلاد ، وقبل احتلال الحبش للعربية الجنوبية بقليل . وقد وقع هذا الاحتلال على رأيهم فيا بين السنة (٣٣٥ ب. م.) والسنة (٣٧٠ ب. م.)[١] .

وقد أدت فتوحات (شمر يهرعش) لحضرموت ، ولأرضين أخرى تعد من المناطق الخصبة الكثيفة بسكانها في جزيرة العــرب ، الى هجرة الناس عنها الى مناطق بعيدة نائية ، والى نزول الخراب في كثير من القرى والمدن ، اذ تهدمت بيوتها ومعابدها ، وقتل كثير من أهلها ، وأتت النار على بعضها حرقاً ، فتحولت منازل النـاس الى خرائب ، وجفت مزارعهم فأضحت بوادي ، فهجرها أهلوها ولم يعودوا اليها بعد هذا الخراب . فزادت مساحة الصحاري ، ولم تعمر منذ ذلك الحين . وقد زاد في نكبة العربيـة الجنوبيـــة هذه ان حروب (شمر يهرعش) المذكورة استمرت زمناً طويلاً ، وشملت أكثر اليمن حتى بلغت البحـــر ، مما أطمع الحبش في العربية الجنوبية ، فزادت قواتهـــا في الأرضين التي احتلتها ، وتوغلت في مناطق واسعة ، ولا سيا بعد موت (شمر يهرعش) .

هذا ، وقد انتهت الينا كتابات عدة تعرضت لأنباء الحروب الـتي نشبت بين حضرموت وسبأ ، وبين حضرموت وحكومات أخرى ، منها كتابات لم تذكر فيها أسماء الملوك الذين وقعت في أيامهم تلك الحروب ، كالكتابة المرقومة ب (٤٣٣٦) المنشورة في كتاب .REP. EPIG[٢] . وقد قدم صاحبها الى إلهه الشكر والحمد ، وتمثالين من الذهب الى معبده في (نعلم) لأنه نجّى سيده (بشمم) (بشم) ومنّ عليه بالشفاء من الجرح الذي أصابه في المعركة التي نشبت في مدينـــة (ثبير) في أرض (يحر) . وهي معركة من معارك نشبت بين (شمر ذي ريدان) و (أب أنس) من قبيلة (معهرم) (معهر) (معاهر) وأمراء (خولان)

١ Beiträge, S., 144.

٢ REP. EPIG., VII, II, P. 199.

وملك سبأ وملك حضرموت . ولما كانت هذه الكتابة قد كتبت لاعلان شكر صاحبها لإلهه واعلانه بوفائه لنذره ، وهي في موضوع شخصي لم تكن متبسطة في أخبار تلك الحرب المزعجة ، لذلك اكتفيت بذكرها اجمالاً دون تفصيل . أما نحن العطاش الى معرفة خبر تلك الحرب ، وما كان من أمرها ، فقد خرجنا بعد قراءتنا لهذا النص ونحن آسفون على بخل صاحبها علينا وتغيره في تفصيل خبر هذا الحادث المهم ، وشاكرون الله مع ذلك على سلامة رجل وقاه الله شر تلك الحرب .

هذا ما وصل الى علمنا من أسماء ملوك حضرموت و (مكربيها) . ولست أرى بأساً في التنبيه مرة أخرى على أن هذه الأسماء لم ترتب الى الآن ترتيباً زمنياً مضبوطاً ، وإنما رتبت على حسب اجتهاد الباحثين . ولذلك نجدهم يختلفون في هذا الترتيب وغيره ، في أسماء الملوك . وسبيلنا الآن أن نحاول جهد الامكان حصر هذه الأسماء حتى يأتي اليوم الذي نستطيع فيه الترتيب والتصنيف .

والظاهر أن حكم الحميريين لحضرموت ، لم يتحقق بصورة فعلية ، بل كان في أواخر أيامهم ، ولا سيما في أواخر القرن الخامس وابتداء القرن السادس للميلاد ، حكماً شكلياً ، لأننا نجد أرض حضرموت وقد استقل فيها حكام المدن وسادات القبائل وأشراف الأودية ، وقد لقب أكثرهم أنفسهم بلقب (ملك). وقد ذكر (ياقوت الحموي) أن بني (معد يكرب بن وليعة) وهم: مخوص، ومشرح ، وجمد ، وأبضعة ، كانوا يسمون ملوكاً ، لأنه كان لكل واحد واد يملكه[1] . والواقع أن كثيراً من سادات القبائل قبل الميلاد وبعده ، كانوا يلقبون أنفسهم بلقب ملك ، ولكنهم لم يكونوا غير سادات قبائل وأصحاب أرض .

قبائل حضرمية :

وفي حضرموت كما في كل الأماكن الأخرى من جزيرة العرب قبائل وعشائر وأسر ذوات حكم وسلطان وجاه في مواطنها ، وقد ورد أسماء عدد منها في الكتابات ، ومن قبائل حضرموت وعشائرها وأسرها : (شكمم) ، أي (شكم)

---

١ البلدان (٣/٢٩٤) ، الطبري (١/٢٠٠٤ وما بعدها) (طبعة ليدن) .

(شكيم) ، وعشيرة (يشبم) (يشبوم)[1] .

ويرجع نسب عشيرة (رشم) الى قبيلة (مقنعم) (مقنع) أو (يقنعم) كما جاء في بعض الكتابات[2] ، وهو اسم قبيلة لا نعرف من أمرها شيئاً في الزمن الحاضر ، وكان يحكمها (أقيال) منهم : (هو فعشت) و (لحى عشت) ، وهما من موضع (علبم) ، أي (علب)[3] . وقد جاء في نص انهما قدّما وثناً (صلمن) الى الآلهة (عثتر) و (هبس) (هوبس) و (المقه) و (ذت حم) (ذات حيم)[4] . وقد يفهم من ذلك ان هذه القبيلة كانت قبيلة سبئية ، نزحت الى حضرموت،واستقرت فيها ، أو انها كانت من القبائل السبئية التي خضعت لحضرموت .

و (يهأر) (يهر) (يهار) من القبائل المعروفة في العربية الجنوبية ، ولا يستبعد أن تكون قبيلة **Iobaritai** التي ذكر اسمها (بطلميوس) ؟ وكانت منازلها على ما يظهر من جغرافيته على مقربة من الموضع الذي سماه **Sachalitai** أي (الساحل) أو (السواحل)[5] ، فهي من القبائل العربية الجنوبية التي لا تبعد منازلها عن الساحل كثيراً ، وقد كان (يدع ايل بين بن رب شمس) من أبنائها الأحرار .

وقبيلة (أسد) من القبائل العربية الشمالية المعروفة بعد الميلاد . أما في نصوص المسند ، فليست فيها معروفة . ويظهر ان قسماً منها كان قد نزح من نجد الى الجنوب حتى بلغ أرض حضرموت ، فساعد (يدع ايل بين) . ولعل نزوحها الى الجنوب كان بسبب خلاف وقع بين عشائرها أو مع قبائل أخرى ، فاضطر قسم منها الى الهجرة الى العربية الجنوبية[6] .

و (يام) من القبائل المعروفة حتى اليوم ، وتسكن عشائر منها حول نجران[7].

---

١ REP. EPIG., 3512, VI, I, P. 182.

٢ REP. EPIG., VI, II, P. 258.

٣ Orientalia, Vol., VI, 1937, P. 92, Museo Nazionali Romano, Ansaldi il Jemen nella Storia e nella Legenda, Abb, 91.

٤ REP. EPIG., VII, III, P. 312, Hamburg 31, 300, 1625.

٥ Beiträge, S., 116.

٦ Bitrage, S., 115.

٧ Beiträge, S., 115.

وأما (كلب) أو (كليب) ، فانها من القبائل التي يرجع النسابون نسبها الى عدنان ، أي الى العرب الشماليين .

مدن ومواقع حضرمية :

و (شبوة) ، هي عاصمة حضرموت وهي Sabbatha = Sabotha = Sabota عند الكتبة الكلاسكيين[1] . وهي Sabtah المذكورة في التوراة في نظر بعض الباحثين[2] . وزعم (هوكارث) Hogarth أنها Sawa[3] . وذكر (الهمداني) موضع (شبوة) في جملة ما ذكره من حصون (حضرموت) ومحافدها[4] .

وقد ظن (فون مالتزن) وآخرون غيره أنها مدينة (شبام)[5] . وزار (فلبي) (شبوة) ، وعثر على آثار معابدها وقصورها القديمة ، كما شاهد بقايا السدود التي كانت في وادي شبوة لحصر مياه الأمطار والاستفادة منها في ارواء تلك المناطق الواسعة الخصبة[6] .

وتشاهد في (وادي أنصاص) وفي خرائب (شبوة) بقايا سد وأقنية للاستفادة من المياه وخزنها عند الحاجة اليها[7] . وهناك سدود أخرى بنيت في مواضع متعددة من العربية الجنوبية للاستفادة من مياه الأمطار وللسيطرة على السيول ، وتحويلها الى مادة نافعة تخدم الانسان .

وأما حصن (أنود) (أنودم) ، الموضع الذي يحتفل فيه الملوك عند تتويجهم واعلانهم اللقب الذي يتلقبون به بعد توليهم العرش ، فإنه موضع (عقلة) في الزمن الحاضر . وهو خربة على شكل مربع . وقد زار هذا المكان جملة

---

١ Pliny, 6, 28, 32, Ptolemy, 6, 7, 38, C. A. Nallino, Raccolta di Scitti editi e inediti, Vol., III, P. 50.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, P. 42.

٣ D. G. Hogarth, The Penetratio of Arabia, P. 149, 151, 221.

٤ الصفة (٨٧ ، ٩٨) ، الاكليل (٨/٩٠) « نبيه » البلدان (٥/٢٣٤) .

٥ Von Wrede, Reise, S., 289, William Vincent, The Periplus of the Erythrean Sea, Part the Second, P. 301.

٦ Sheba's, P. 79.

٧ Beiträge, S., 108.

أشخاص من الغربيين ووصفوه ، منهم (فلبي) ، وقد وجد فيه خرائب عادية ووجد عدداً من الكتابات الحضرمية ، هي الكتابات التي وسمت باسمه . ويشرف هذا الموضع على وادٍ يمتد،فيتصل بتلال (شبوة)[1] . وقد كان حصناً ومعسكراً يقيم فيه الجيش ، لحماية مزارع هذا الوادي ، ولا بد أن يكون هنالك سبب جعل الملوك يختارون هذا المكان لاعلان اللقب الرسمي الذي يختاره الملوك لأنفسهم عند التتويج .

وقد تبين من بعض الكتابات المتعلقة بتنصيب ملوك حضرموت في هذا المكان انهم كانوا يتقربون في يوم اعلان تتويجهم في حصن (أنود) بنحر الذبائح للآلهة . وقد تبين من بعضها ان في جملة تلك الذبائح التي قدمت الى الآلهة حيوانات وحشية مثل الفهود . وقد استمرت هذه الاحتفالات قائمة الى القرن الثاني بعد الميلاد على رأي (البرايت) ، والى حوالي السنة (٢٠٠) بعد الميلاد على رأي (ركمنس)[2] .

ومن مدن الحضرميين مدينة (ميفعت) (ميفعة) ، وكانت على ما يظن عاصمتهم القديمة . وقد ورد في بعض الكتابات ما يفيد أن (يدع ايل بن سمه علي) رمم أسوار هذه المدينة[3] . وقد ذهب بعض الباحثين الى انها Mapharitis التي أشار اليها مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري)[4] ، ولدينا نص حضرمي يفيد ان (هبسل بن شجب) بنى سور المدينة وأبوابها ، واستعمل الحجارة والأخشاب ، وأنشأ فيها بيوتاً ومعابد،وأتم عمله بعده ابنه (صدق يد) فأعلى سور المدينة وأحكمه[5] .

ولم تذكر الكتابة الجهة التي أنفقت على هذا العمل الذي يحتاج الى نفقات عظيمة ولا شك،ولعل الدولة هي التي عهدت اليها هذا العمل على انهما مهندسان أو من المقاولين المتخصصين بأعمال البناء .

وكانت (ميفعة) من المدن المهمة ، وقد ذكرت في عدد من الكتابات ،

---

١ راجع وصف الموضع في (ص ٣١٤ وما بعدها) من كتاب : Sheba's Daughters لفلبي .

٢ Beiträge, S., 108.

٣ Background, P. 77.

٤ Background, P. 80.

٥ REP. EPIG., 2640, V, I, P. 14.

وهي Maipha Metropolis عند (بطلميوس)[١] ، ويقع عند (حصن السلامة) موضع عادي خرب ، يقال له (ريدة الرشيد) ، يظهر انه كان محاطاً بسور حصين ، كما يتبين ذلك من أحجاره الضخمة المبعثرة الباقية . وقد كان مدينة ، يرى أنها Raida عند (بطلميوس) وقد وضعها في جنوب شرقي Maipha Metropolis أي ميفعة [٢] .

وعثر على كتابات عديدة أخرى ، تتحدث عن تحصين (ميفعت) (ميفعة) ، وعن تسويرها بالحجارة وبالصخر المقدود وبالخشب ، وعن الأبراج التي أقيمت فوق السور لصد المهاجمين عن الدنو اليه . وذكر اسمها في كتابة (لبنه) (لبنا) التي هي من أيام المكربين في حضرموت[٣] .

ويظهر أن الخراب حل بـ (ميفعة) في القرن الرابع بعد الميلاد ، وحل محلها موضع آخر عرف بـ Sessania Adrumetorum ، أي (عيزان) فـ (عيزان) اذن ، هو الوليد الجديد الذي أخذ مكان (ميفعة) منذ هذا الزمن[٤] .

ومن مدن حضرموت مدينة سماها بعض الكلاسيكيين Cane Emporium ، وذكر أنها ميناؤها[٥] . وأما (أريانوس) ، فقال إنها الميناء الرئيسي لملك أرض اللبان ، وقد سماه Eleazus وقال إنه يحكم في عاصمته Sabatha[٦] .

وقد ذكر هذا الميناء (بلينيوس) كذلك ، فقال إن السفن التي تأتي من مصر في طريقها الى الهند ، أو السفن الآيبة من الهند الى مصر ، كانت ترسو إما في ميناء Cana = Qana ، وإما في ميناء Occelis على ساحل البحر عند المضيق . وذكره مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) كذلك فقال: Cana = Qana ميناء حضرموت ، وله تجارة واسعة مع (عمان) 'omana على الخليج ، ومع سواحل الهند . ومع سواحل الصومال في افريقية[٧] . وقال

١ Beiträge, S. 86.
٢ Beiträge, S. 86.
٣ Beiträge, S. 86.
٤ Beiträge, S. 86.
٥ The Periplus of the Erythraean Sea, 27, 57, Part the Second, P. 301.
٦ Forster, Vol., 2, P. 165.
٧ The Periplus, 27, 57, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 192.

إن السواحل كانت مأهولة بالأعراب ، وبقـــوم يسمون Ichthyophogi ، أي (أكلة السمك)[١] .

وفي ميناء Cana (قنا) يجمع اللبان والبخور وغــير ذلك ، ويصدر الى الخارج ، إما بحراً حيث تنقلها وسائل النقل البحرية، وفي ضمنها بعض الوسائط التي تطفو على سطح البحر بالقُرَب المنفوخـــة بالهواء ، واما براً حيث تنقلها القوافل[٢] . ويقـــع هذا الميناء الى شرق (عدن) وعلى مسافة منه جزيرتان ، جزيرة Orneon أو جزيرة الطيور ، وجزيرة Trulla . ويقع الى الشرق من Cane ميناء آخر ، يقال له Methath Villa [٣] . ويرى (فورستر) وأكثر الباحثين الآخرين الى ان ميناء Cane هو المحل المعروف باسم (حصن غراب) في الزمن الحاضر[٤] .

و (حصن غراب) ، قد بني على مرتفع من صخر أسود على لابة بركان قديم ، يشرف على المدخل الجنوبي الغربي لخليج أقيم عليه الميناء ، فيحميــه من لصوص البحر ومن الطامعين فيه . وقد زاره بعض السياح، مثل (ولستيد) فوصفه[٥] . وزاره B. Doe سنة (١٩٥٧ م) وتحدث عنه[٦] .

وقد ورد اسم هذا الحصن في الكتابة الموسومة بـ CIH 728 ، وقد سمي فيها (عرمريت) (عرماوية) . وهـــو الاسم القديم لهذا الحصن الذي يعرف اليوم بـ (حصن غراب) (حصن الغراب) . وورد في الكتابة الطويلة المعروفة بـ CIH 621 التي يعود تأريخها الى سنة (٥٣١ م) . وتتحدث عن ترميم هذا الحصن وتجديد ما تهدم منه ، وذلك بأمر (سميفع أشوع) (السميفع أشوع)[٧].

---

١ The Periplus, II, P. 300.

٢ The Periplus, II, P. 301.

٣ Forster, Vol., II, P. 186.

٤ Forster, Vol., II, P. 186, Glaser, Skizze, 2, S., 175.

٥ Wellsted, Travels in Arabia, London, 1838.

٦ Le Muséon, 1961, 1-2, P. 194.

٧ J. Ryckmans, La Persecution des Chretiens Himyarites au Sixième siècle, Istanbul, 1956, A. F. L. Beeston, Problems of Sabaean Chronology, BOASOOR, 16, 1954, Le Muséon, 1961, 1-2, P. Le Muséon, 68, 1955, P. 2.

وورد ذكره في النص Ryckmans 538 الذي يتحــدث عن الحروب التي خاضتهــا جيوش الملك (شعرم اوتر) (ملك سبأ وذي ريدان) في أرضين لقبائل قتبانية وورمانية وقبائل مضحيم (مضحى) وأوسان فبلغت (عر مويت) (عر ماوية) وموضع (جلع) في جملة ما بلغتها من أرضين . و (جلع) قرية على الساحل شمال غربي (بلحاف) في الزمن الحاضر[1] .

وقد وجد (ولستيد) Wellsted في (حصن غراب) الكتابة التي وسمت بـ CIH 728 . وقد جاء فيها أن (صيد أبرد بن مشن) (مشان) ، كان مسؤولاً عن (بدش) (باداش) ، وعن (قنا) ، وقد كتب ذلك عــلى (عر مويت) (عر ماوية) ، أي حصن (ماوية) . و (قنــا) هو اسم الميناء الشهير . وأما الحصن الباقي أثره حتى اليوم ، فيسمى (حصن ماوية) ، وأما (باداش) ، فإنه ما زال معروفاً حتى اليوم ، ولكن بشيء من التحريف. وفي هذا المكان يعيش قوم رعاة يعرفون بـ (مشايخ باداس) ، وقد جاء هذا الاسم من (باداش القديم)[2] . وهكــذا حصلنا من النص المذكور على اسم ميناء حضرموت الذي كانت الموارد (الكلاسيكية) هي أول من وافتنا به .

فحصن غراب اذن هو (عر مويت) ، وهو حصن مدينة (قنا) لا المدينة نفسها ، ولا تزال آثار مخازن مائه القديمة باقية ، وهي صهاريج تملأ بالأمطار عند نزولها لتستعمل وقت انحباسها . وقد أمكن التعرف على موضع البرج الذي يجلس فيه الحرس والمراقبون لمراقبة من يريد الوصول الى المكان . ويرى بعض الباحثين ان موقع المدينة الأصلية كان في السهل الواقع عند قدم الحصن من الناحية الشمالية ، حيث ترى فيه آثار أبنية ومواضع سكنى . أما ما يسمى بـ (بير علي) (بئر علي) في هذا اليوم ، فانه مستوطنة حديثــة بنيت بأنقاض تلك المدينة القديمة[3] .

ومن مدن حضرموت مدينة (مذب) (مذاب) ، وقد اشتهرت بمعبدها الذي خصص بعبادة الإلـه (سن) (سين) . وتقــع بقاياه اليوم في الموضع

---

١ المصدر نفسه .

٢ Beiträge, S., 91.

٣ Le Muséon, 1961, 1-2, P. 194.

المعروف باسم (الحريضة) . وقد سبق أن قلت ان بعثة بريطانية نقبت هناك ، ووجدت آثار معبد ضخم هو معبد الإلـه (سين) ، الإلـه الذي يرمز الى القمر[1] .

وقد تبين للذين بحثوا في أنقاض معبد (مذب) (مذاب) انه بني عدة مرات . ويظهر انه تداعى ، فجدد بناؤه مراراً . وقد تبين من الكتابة الحلزونية التي عثر عليها في أنقاض هذا المعبد انها من أيام (المكربين) وانها ترجع بحسب رأي الخبراء الذين درسوها الى حوالي السنة (٤٠٠ ق . م .) ، وان تأريخ المدينة ومعبدها يرجع الى الفترة الواقعة بين القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد[2] .

وقد تبين من بعض الكتابات ان (كبير) (كبر) (مذب) كان من آل (رمي) (رامي) . وكان يقيم في الموضع المسمى بـ (جعدة) في الزمن الحاضر . وكان يملك جزءاً كبيراً من (وادي عمد) ، وله بئر في المدينة تتصل بصهريج مدرج يخزن فيه الماء ، تعرف بـ (شعبت) (شعبة) (شعبات) . ومن قبائل هذا الموضع : (عقنم) (عقن) (عقان) ، و (كرب) (جرب) ، و (يرن) (يارن)[3] .

وقد تبين من فحص مواضع من جدران معبد (سين) ان الحجارة التي استعملت في اقامته كانت قد قدت من الصخر ،ونحتت لتنسجم بعضها مع بعض ، وقد ربط بعضها الى بعض حتى لا تنفصل بسهولة . وتبين ان قاعة المعبد كانت فيها أعمدة تحمل سقفها ، وربما كانت قاعة كبيرة فسيحة تتسع لعدد كبير من المؤمنين المتقين الذين يؤمونها للتعبد والتقرب الى الإلـه في معبده هذا .

وعثر في الأماكن التي حفرت على أدوات من الخزف ، وعلى مباخر وقلائد ومسابح صنعت حباتها من الحجر والخرز ، وعلى أختام خفيفة من النوع المعروف عند الفرس بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد . ويرى بعض الباحثين أن

---

١ G. Caton Thompson, The Tombs and Moon Temple of Hureidah, Reports of the Research Committee of the Socie. of Antiquities in London, Num. XIII, London, 1944, Le Muséon, LX, 1-2, 1947, P. 71.

٢ Caton Thompson, P. 44, Beiträge, S. 128.

٣ Beiträge, S., 128, Caton Thompson, P. 9, 10.

تأريخ (مذاب) ومعبدها يعود الى الفترة الواقعة بين القرن الخامس والقرن الثالث قبل الميلاد[1] .

وقد ذهب بعض من درس معبد (مذاب) الى أن حضارة حضرموت وحضارة بقية العربية الجنوبية القديمة كانت قد تأثرت بالمؤثرات الحضارية العراقية في بادىء الأمر ، وذلك في أيـــام المكربين ، ولكن تلك الحضارة كانت متماسكة وذات طابع خاص ، أخذ من ظروف العربية الجنوبية ، غير أنها أخذت تبتعد من بعد عن المؤثرات الحضارية العراقية منذ القرن الأول قبل الميلاد فما بعده ، وتتقرب من مؤثرات حوض البحر المتوسط والمؤثرات الايرانية ، وذلك نتيجة اتصال الروم والرومان والفرس بالعربية الجنوبية ، فظهرت حضارة عربية جنوبية جميلة، وأبنية حديثة ، إلا أنها لم تكن في متانة الحضارة العربية الجنوبية القديمة وقوتها، وليست لها تلك الشخصية التي أسبغها الفنان العربي القديم في القرون السابقة للميلاد على أبنيته ، فذهبت بـــذلك العناصر العربية الجنوبية الأصيلة ، وتراجعت ، وطغى عنصر التجديد أو التقليد البعيد على تلك الشخصية العربية القديمة في هذه البقاع[2].

ومن مواضع حضرموت ، موضع عرف في الكتابات باسم (مشور) ، وقد اشتهر بمعبده المسمى (سن ذ مشور) ، أي (سين رب مشور) ، وفي مكانه في الزمن الحاضر خرائب عادية تعرف باسم (صونة) و بـ (حدبة الغصن). وقد عثر فيه على كتابات ورد فيها اسم هذا المعبد ، كما عثر فيه على حجارة مزخرفة نقشت عليها صور حيوانات نقشت بصورة تدل على فن وبراعة واتقان. ويرى بعض الباحثين أن هذه الزخارف تشبه الزخارف التي عثر عليها في معبد (حقه) (حقة) ، ويقدر عمرها بحوالي القرن الثالث قبل الميلاد[3] .

وفي أرض حضرموت مواضع قديمة حضرمية وسبئية ينسبها النـاس اليوم الى (عاد) (وثمود) . ففي ملتقى (وادي منوة) بوادي ثقبة صخور مهيمنة على الوادي، وقد نقرت لتكون ملاجىء ومواضع للسكنى وربما جعلت ملاجىء للجنود يختبئون فيها ليهاجموا منهـــا الأعداء الذين يخترقون الوادي وليرموهم بالسهـــام

---

١ ايفـــا هويك ، سنوات في اليمن وحضرموت ، تعريب خيري حماد ، (بيروت ١٩٦٢) (ص ٢٧٠) .

٢ Beiträge, S., 128.

٣ Beiträge, S., 135.

والحجارة . وعلى المرتفعات بقايا بيوت ومساكن ، يظهر انها كانت قرى آهلة قبل الاسلام ، وعلى واجهة الوادي الصخرية كتابات دونت بلون أحمر ، ظهر للسياح الذين رأوها انها كتابات سبئية ، وانها أسماء أشخاص ، لعلها أسماء الجنود أو المسافرين الذين اجتازوا هذا المضيق[١] .

وفي موضع (غيبون) على مقربة من (المشهد) خرائب يرى أهلها انها من آثار (عاد) . ويظن الآثاريون الذين رأوها انها من بقايا مدينة (حميرية) . وقد وجدوا فيها فخاراً وزجاجاً قديماً وحجارة مكتوبة ، وعلى مقربة منها موضع يقال له (مقابر الملوك)[٢] . ونظراً الى انها في موقع حضرمي ، يقع بين (القعيطي) و (الكثيري) (آل كثير) في الزمن الحاضر ، فلا أستبعد أن يكون من القرى أو المدن الحضرمية .

وعلى مقربة من (تريم) خرائب جاهلية أيضاً ، ينسبها الناس الى عاد . وهي من آثار معبد ، وطريق كان معبّداً يوصل اليه . وقد بني هذا المعبد على قمة تل وعنده آثار بيت وأحجار متناثرة قدت من الحجر ، عليها مادة بناء توضع بين الأحجار لتشد بعضها الى بعض[٣] .

وعند موضع (سون) (سونة) (سونه) خرائب تسمى (حدبة الغصن) تشبه خرائب (غيبون) ، هي عبارة عن بقايا أبنية لعلها كانت قرى أو مدناً حجارتها متناثرة على سطح الأرض . ولا تزال بعض الأسس على وضعها ، ترشد الى معالمها . وقبل هذه الخرائب بقايا جدار كان متصلاً بجانبي وادٍ ، يظهر انه من بقايا سدّ بني في هذا المكان لحبس السيول والأمطار ، للاستفادة منها عند انحباس المطر[٤] .

وفي حضرموت موضع آثاري ، يسمى (حصن عر) ، وهو بقية حصن جاهلي ، لعله من حصون ملوك حضرموت ، يظهر انه أسس في هذا المكان لحماية المنطقة من الغزاة ولحفظ الأمن فيها . وقد كان الحصن عالياً مرتفعاً فوق

---

١ Van Der Muelen and Von Wissmann, Hadramaut, Some of its Mysteries Unveiled, Leiden, 1964, P. 57.

٢ Hadramaut, PP. 83, Beiträge, S. 130.

٣ Hadramaut, P. 139.

٤ Hadramaut, P. 145.

تل ، ولا تزال بقايا بعض جدرانه وأواره ترتفع في الفضاء زهاء خمسين قدماً . وهناك بقايا أبنية ومعالم طريق ضيقة توصل الى ذلك الحصن الذي لا نعرف اسمه القديم[1] .

وقد تمكن (فان دير مويلن) Van Der Meulen و (فون وزمن) H. Von Wissmann من زيارة مواضع أثرية أخرى في حضرموت، مثل (المكنون) El-Mekenun ، و (ثوبة) و (العرّ) وتقع آثار (مكنون) (المكنون) على مقربة من (السوم) . وهناك أرض مكشوفة يزعم المجاورون لها أنها أرض (عاد)[2] .

أما (ثوبة) أو (حصن ثوبة) ، فإنه بقايا أبنية على قمة تل ، يظهر أنه كان في الأصل حصناً لحماية المنطقة من الغزاة ولمنع الأعداء من الوصول الى قرى مدن المنطقة ومدنها أو اجتياز الأودية للاتجاه نحو الجنوب . ولا تزال بقايا جدر الحصن مرتفعة عن سطح الأرض . وأما (العرّ) ، فهو موضع حصن قديم أيضاً بني لسكنى الجنود الذين يدافعون عن الأرضين التي بنيت فيها[3] .

يظهر من آثار الحصون والقلاع الباقية في حضرموت أن مملكة حضرموت كانت قد حصنت حدودها ، وحمتها بحاميات عسكرية أقامت على طول الحدود لحمايتها من الطامعين فيها ولحماية الأمن الداخلي أيضاً . وقد أقيمت هذه الحصون في مواقع ذات أهمية من الوجهة العسكرية ، على تلال وقمم جبال ومرتفعات تشرف على السهول ومضايق الأودية حيث يكون في متناول الجنود اصابة العدو وانزال الخسائر به . وبهذه التحصينات دافعوا عن حدود بلادهم .

ويعد ميناء (سمهرم) المعروف بـ (خور روری) ، وهو في (ظَفار) عمان من الموانىء المعروفة التي كانت في القرن الأول للميلاد . ويرى بعض الباحثين أن مؤسسيه هم من الحضارمة ، ولذلك كان من موانىء مملكة حضرموت. وقد عثرت البعثة الأمريكية لدراسة الانسان[4] على بقايا خزف ، تبين لها من فحصه أنه مستورد من موانىء البحر المتوسط في القرن الأول للميلاد . ووجوده في هذا

١ Hadramaut, P. 153.

٢ Hadramaut, P. 173.

٣ Hadramaut, P. 174.

٤ The American Foundation for the Study of Man.

المكان يشير بالطبع الى الاتصال التجاري الذي كان بين العربية الجنوبية وسكان البحر المتوسط في ذلك العهد[1] .

قوائم حكام حضرموت

قائمة هومل :

صدق آل (صدق ايل) ، (صديق ايل) ، وكان معاصراً للملك (أب يدع يثع) (أبيدع يثع) ، ملك معين .
شهرم علن (شهر علن) ، (شهر علان) ، وهو ابن (صدق آل) .
معد يكرب (معدي كرب) .

. . . . . .

سمه يفع (سمهو يفع) (سمهيفع) ، ولا نعرف اسم والده .
يدع آل بين (يدع ايل بين) ،وقد ورد اسمه مع اسم (السمع ذ بين بن ملك كرب (السمع ذبيان بن ملكيكرب) على انهما ملكا حضرموت .
امينم (أمينم) ، (أمين) .
يدع أب غيلن (يدع أب غيلان) .
يدع آل بين (يدع ايل بين) ، Glaser 1623. .

. . . . . .

يدع أب غيلن (يدع أب غيلان) .
العز يلط .

. . . . . .

يدع أب غيلن (يدع أب غيلان) .

. . . . . .

---

١ BOASOOR, Num. 160, (1960), P. 15.

سلفن (سلفان) ، أو (علهان) (الهان) .
العز يلط : حكم حوالي سنة (٢٩) بعد الميلاد .

. . . . . .

رب شمس (ربشمس) .
يدع آل بين .

. . . . . .

نهاية حكومة حضرموت ، وقد كانت في حوالي سنة (٣٠٠) بعد الميلاد ، في ايام (شمر يهرعش) .

المكربون :

أب يزع (أب يزع) .
حي آل (حي ايل) ، (حيو ايل) .

قائمة (فلبي) :

١ ـ صدق آل (صديق ايل) ، ملك حضرموت ومعين . وقد حكم على تقديره في حوالي سنة (١٠٢٠) قبل الميلاد .
٢ ـ شمر علن بن صدق آل (شهر عـلان بن صدق ايل) ، وقد تولى الحكم في حوالي سنة (١٠٠٠) قبل الميلاد .
٣ ـ معد يكرب بن اليفع يثع ملك معين ، وقد تولى الحكم في حوالي سنة ٩٨٠ قبل الميلاد .

ويرى (فلبي) ان (حضرموت) ألحقت بعد (معديكرب) بمملكة معين ، وقد ظلت تابعة لها الى حوالي سنة (٦٥٠) قبل الميلاد .

٤ ـ السمع ذ بين بن ملك كرب (السمع ذبيان بن ملكى كرب) (السمع ذبيان بن ملكيكرب) .
٥ ـ يدع آل بين بن سمه يفع (يدع ايل بين سمهيفع) ، وقد حكما من سنة (٦٥٠) الى سنة (٥٩٠) قبل الميلاد .

ومنذ سنة (٥٩٠) قبل الميلاد ، أصبحت حضرموت على رأي (فلبي) جزءاً من قتبان أو سبأ حتى سنة (١٨٠) قبل الميلاد .

٦ – يدع آل بين بن رب شمس (يدع ايل بين بن ربشمس) . وهو مؤسس أسرة ملكية جديدة في العاصمة (شبوة).وقد حكم في حدود سنة (١٨٠) قبل الميلاد .

٧ – اليفع ريم بن يدع آل بين (اليفع ريام بن يدع ايل بين) . وقد حكم في حوالى سنة (١٦٠) قبل الميلاد .

٨ – يدع أب غيلن بن يدع آل بين (يدع أب غيلان بن يدع ايل بين). وقد حكم في حوالى سنة (١٤٠) قبل الميلاد .

٩ – العز بن يدع اب غيلن (العز بن يدع أب غيلان) وشقيق (اميمْ) (أمين)) . وقد حكم في حوالي سنة ١٢٠ قبل الميلاد .

١٠– يدع أب غيلن بن اميم (يدع أب غيلان بن أمين) ، وقد حكم في حوالي سنة (١٠٠) قبل الميلاد .

١١– يدع آل بين بن يدع أب غيلن (يدع ايل بين بن يدع أب غيلان). وحكم في حوالي سنة (٨٠) قبل الميلاد . وترك (فلبي) فجوة لم يعرف من حكم فيها جعلها بين سنة (٦٠) وسنة (٣٥) قبل الميلاد .

١٢– عم ذخر (عمذخر) ولم يرد في الكتابات اسم أبيه . وقد حكم في حوالي سنة (٣٥) قبل الميلاد . وربما لم يتول الحكم .

١٣– العزيلط بن عم ذخر . وقد حكم في قرابة سنة (١٥٠) قبل الميلاد .

١٤– الهان (علهان) أو (سلفان) بن العزيلط . وقد حكم في حدود سنة (٥) بعد الميلاد .

١٥– العزيلط بن الهان (علهان) أو (سلفان) . وقد حكم من سنة (٢٥) الى سنة ٦٥ بعد الميلاد . وهو الملك Eleazos الذي ذكره مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) .

١٦– أب يزع (أبيزع) (أبيع) (أب يسع) . وكان مكرباً . من المحتمل أنه حكم في حوالي سنة (٦٥) بعد الميلاد .

١٧– يرعش بن أب يزع . ربما حكم في حوالي سنة (٨٥) بعد الميلاد .

١٨ ـ علهان (الهان) (١٠٥ ـ ١٢٥) بعد الميلاد ؟.

ويرى (فلبي) أنه منذ سنة (١٢٥) حتى سنة (٢٩٠) بعد الميلاد ، كان الوضع غامضاً في حضرموت ، فلا نعرف من حكم فيها . أكان يحكمها (مكربون) أم كانت تحت حكم مملكة (سبأ وذو ريدان) ؟. غير أنها خضعت نهائياً في سنة (٢٩٠) بعد الميلاد لحكم ملوك (سبأ وذو ريدان) فصاروا يعرفون لذلك منذ هذا العهد بـ (ملوك سبأ وذو ريدان وحضرموت) .

قائمة (البرايت) :

يدع آل (يدع ايل) ، وكان معاصراً للملك (كرب آل وتر) ، ملك سبأ . وقد حكم على رأيه في حوالي سنة (٤٥٠) قبل الميلاد .

. . . . . .

صدق آل (صديق ايل) ملك حضرموت ومعين . وقد حكم في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد .

شهر علن بن صدق آل .

معد يكرب بن اليفع يثع ملك معين .

. . . . . .

غيلن (غيلان) .

يدع أب غيلن(يدع أب غيلان). يحتمل على رأي (البرايت)أن يكون هو الذي حالف علهان نهفان ملك سبأ. وقد حكم في حوالي سنة (٥٠) قبل الميلاد .

العزيلط الأول ، وكان معاصراً للملك (شعرم أوتر) ملك سبأ وذو ريدان. وقد حكم في حوالي سنة(٢٥)قبل الميلاد. وربما كان هو(العز بن عم ذخر).

العزيلط الثاني ، وكان معاصراً للملك (ثارن يعب يهنعم) ملك سبأ وذو ريدان . وكان والده (سلفن) (سلفان) أو (علهان). ويجوز أن يكون هو الملك Eleazos الذي ذكره مؤلف كتاب(الطواف حول البحر الأريتري).

. . . . . .

يدع اب غيلن بن اميثم (يدع أب غيلان بن أميثم) .

يدع آل بين بن يدع اب غيلن (يدع ايل بين بن يدع أب غيلان) ،
Ryckmans 169 و Glaser 1623 .

. . . . . .

يدع آل بين بن سمه يفع .

السمع ذ بين بن ملك كرب (السمع ذبيان بن ملكي كرب) .

. . . . . .

رب شمس .

يدع آل بين (يدع ايل بين) .

الريم يدم (الريام يدم) .

يدع أب غيلن (يدع أب غيلان) .

الفصل الحادي والعشرون

حكومة قتبان

وعاصرت مملكة معين مملكة عربية جنوبية أخرى ، هي حكومة (قتبان) . وقد وجد اسمها في كتابات عديدة قتبانية وغير قتبانية ، وهي التي أمدتنا بأكثر علمنا بحكومة قتبان ، كما أشار بعض الكتبة (الكلاسيكيين) مثل (ثيوفراستس) «Theophrastus» (حوالي ٣١٢ ق. م)[١] و (سترابو)[٢] و (بلينيوس)[٣]، وغيرهم الى القتبانيين ، فذكرهم (ثيوفراستس) بعد (سبأ) و(حضرموت) «Hadramyta» ، وأطلق على أرضهم «Kittibaina» = «Kattabaina» = «Kitibaina» ، وذكر بعدهم أرضاً سماها (ممـالي) «Mamali»[٤] وهو اسم لا نعرف من أمره شيئاً ، إلا أن (كلاسر) يرى أنه (ممالي كومـة) «Mamali Kome» ، وهو موضع ورد في جغرافيا (بطلميوس) ، ويقع في نظره على ساحل (تهامـة) ، وقد يكون عند موضع (مأملة) شمال وادي (تنداحة)[٥] .

ويظهر من جغرافيا (سترابون) نقلاً عن رواية (ايراتوستينس) (١٩٤ ق.م.)

١ Theophrastus, Enquiry Into Plants, Translated by A. F. Hort (Loeb) Lebrary), Vol., II, P. 235, (IX, VI, 2-4).

٢ Strabo, XVI, 768.

٣ Pliny, V, 65.

٤ Theophrastus, Vol., II, P. 235.

٥ Glaser, Skizze, II, S., 3.

ان القتبانيين كانوا يقطنون في الأقسام الغربية من العربية الجنوبية ، وفي جنوب السبئيين وفي جنوبهم الغربي ، وقد امتدت منازلهم حتى بلغت (باب المندب)[1]. وذكر (ياقوت الحموي) أن (قتبان) موضع في نواحي (عدن)[2] . ويعد

تمثال مصنوع من البرنز ، عثر عليه على مقربة من (تمنع)
من كتاب Qataban and Sheba صفحة (١٨١)

١ Ency., Vol., 2, P. 810.

٢ البلدان (٣٣/٧) .

(وادي بيحان) من صميم أرض قتبان ، ويقع شمال الجهة الغربية من (عدن)[1] .
وكان يجاوز القتبانيين شعب آخر سماه (بلينيوس) (كبانيته) «Gebanitae» [2] .

وذكر أن الشعبين المذكورين هما من شعوب (لارنديني) (Larendani) وكانا يقطنان في مدن عديدة كبيرة [3] .

وقـد أطلق (سترابو) اسم «Kastabaneis» على مملكة قتبان[4] . أما (بلينيوس) ، فسماها (Catabanes) = (Catabani) [5] .

ولا نجد في الكتب العربية شيئاً يستحق الذكر عن قتبان،والظاهر ان أخبارهم قد انقطعت قبل ظهور الإسلام بزمن ، فلم نجد لهم من أجل هذا شيئاً في أخبار الجاهلية القريبة من الإسلام ، وكل ما ورد عنهم انهم من قبائل حمير ،وان هناك موضعاً في عدن يقال له (قتبان)[6] ، سمي بقتبان بطن من رعين من حمير ، أو بقتبان بن ردمان بن وائل بن الغوث[7] ، مع انه لا صلة في النسب بين حمير وقتبان في النصوص القتبانية أو الحميرية . وعندي ان هذا النسب انما وقع بسبب ضعف (قتبان) التي اندمجت بعد فقد استقلالها في حكومة سبأ (سبأ وذي ريدان) وهي الحكومة التي يطلق عليها المؤرخون اسم (حمير) ، وبسبب كون (حمير) القبيلة الرئيسية في اليمن عند ظهور الإسلام ، وكان لها حكومة قاومت الأحباش وتركت أثراً في القصص العربي . وفي قصة الشهـداء النصارى الذين سنتحدث عنهم ، لذلك عدّت معظم القبائل التي كانت خاضعة لها من حمير ،ونسبت اليها، وفي جملتها قتبان .

وقد دوّن اسم (قتبان) في الترجمة العربية لكتاب (حتي « تأريخ العرب »

---

١ BOASOOR, Num. 119, (1950), P. 7.

٢ Pliny, VI, 153.

٣ Pliny, 6, 32, (28), O'Leary, P. 108.

٤ O'Leary, P. 96, Strabo, 16, 4, 2.

٥ O'Leary, P. 96.

٦ « وقتبان بالكسر بعدن » ، القاموس (١/١١٤) ، تـاج العروس (١/٤٣١) ، « وفي المراصد أنه بعدن ، تبعا للبكري ، ويقال ان الموضع سمي بقتبان » .

٧ « وقتبان بالكسر ، بطن من رعين من حمير . كذا في كتب الأنساب ، وهو قول الدارقطني ، ويرده قول ابن الحباب ، فانه ذكر في قبائل حمير ، قتبـان بن ردمان بن وائل بن الغوث ، الا أن يكون في رعين قتبان آخر » ، تاج العروس (١/٤٣١) .

(History of the Arabs) على هذا الشكل : (قطبان)[1] ، كما دوّن بهذه الصورة أيضاً في عدد من الترجمات لكتب غربية ظهرت حديثاً، وهو خطأ بالبداهة فان النصوص العربية الجنوبية قد كتبت الاسم بالتاء (ق ت ب ن) ، كما ان الكتب العربية قد ضبطت الاسم (قتبان) ، ويظهر ان مترجمي الكتاب والكتب الأخرى قد حسبوا ان هذا الاسم أعجمي ، ولا سيما بعد تردده في الكتب (الكلاسيكية) ، فحاولوا جعله عربياً ، فصيّروا (التاء) (طاءً) فصارت (قتبان) الواردة في كتابات المسند وفي الكتب العربية (قطبان) . وهي هفوة لم أكن أرغب في الاشارة اليها في متن هذا الكتاب ، لولا حرصي على صحة الأشياء لئلا يخطىء من لا علم له بهذه الأمور من القراء ، أو الباحثين فيأخذها على الصورة التي دونت بها في هذه الترجمات .

والكتابات القتبانية تشارك الكتابات العربية الجنوبية الأخرى في ان غالبها قد كتب في أغراض شخصية ، فهي لا تفيد المؤرخ في استخراج تأريخ منها . فهي في اصلاح أرض ، أو شراء ملك ، أو تعمير دار أو نذر ، وما شابه . غير أننا نرى في الذي وصل الينا منها انه يمتاز عن غيره من الكتابات العربية الجنوبية بكثرة ما ورد فيه من نصوص رسمية تتعلق بالضرائب أو القوانين أو التجارة ، بالقياس الى ما ورد من مثله في الكتابات المعينية أو الحضرمية أو السبئية . وهي تشارك الكتابات الأخرى أيضاً في خلوها من صيغة المتكلم أو المخاطب واقتصارها على صيغة الغائب ، وتشاركها أيضاً في خلوها من نصوص أدبية من شعر أو نثر ، ومن نصوص دينية من أدعية وصلوات . وهو أمر يبدو غريباً ، ولكننا لا نستطيع أن نحكم حكماً قطعياً في مثل هذا ، فما وصل الينا قليل ، وما لم يصل الينا كثير ، والحكم بيد المستقبل .

ويعود الفضل الى السياح ، وعلى رأسهم (كلاسر) ، في حصول علماء العربيات الجنوبية على أخبارهم عن مملكة قتبان ، فقد كانت الكتابات التي حصل عليها في رحلته الى اليمن في سفره الرابع (١٨٩٢ – ١٨٩٤م) أول كتابات

---

١ تاريخ العرب « المطول » ، بقلم : الدكتور فيليب حتي والدكتور أدور جرجي والدكتور جبرائيل جبور ، الجزء الاول ١٩٤٩ م ، (ص ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ومواضع أخرى) .

قتبانية تصل الى أوروبة[1] . وقـد ذهب (هومل) في دراسته لها الى أنها تعود الى زهاء ألف سنة قبل الميـلاد ، القرن الثاني قبل الميلاد ، وهو الزمن الذي انقرضت فيه مملكة قتبان عـلى رأيه . وقد جمع منها اسم ثمانية عشر ملكاً ،

تمثال من البرنز عثر عليه في معبد اوام مأرب
من كتاب Qataban and Sheba (الصفحة ٢٧٦)

حكموا المملكة[2] . وأفادتنـا دراسـات (نيكـولاوس رودوكناكس) (Nikolaus Rhodokanakis)[3] و (دتلـف نيلسن) (Ditlef Nielsen) للكتابات القتبانية فائدة كبيرة في كتابة تأريخ قتبان[4] .

وقد ذهبت بعثة أمريكية علمية في عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ م مؤلفة من طائفة

---

١ Ency., Vol., 2, P. 813.

٢ Ency., Vol., 2, P. 813, Hommel, Grundriss, I, S., 139.

٣ Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, in Zwei Fefte, Wien, 1922.

٤ Ditlef Niesen, in MVAG., 1906, XI-IV, Neue Katabanische Inschriften.

من المتخصصين الى (وادي بيحان) للتنقيب عن الآثار هناك ، فزارت (تمنع) المدينة القتبانية القديمة ، وعاصمة المملكة وبعض المواضع القريبة منها [1] . وسوف يكون للنتائج التي تتوصل اليها بعد دراستها دراسة علمية كافية ، أهمية كبيرة في توجيه تأريخ العرب قبل الإسلام [2] .

وقد تبين من دراسة الكتابات القتبانية ان لهجتها أقرب الى اللهجة المعينية منها الى اللهجة السبئية [3] ، فهي تشترك مع المعينية مثلاً في اضافة السين الى أول الفعل الأصلي بدلاً من الهاء الذي يلحق أول الفعل الأصلي في السبئية ، ويقابل هذا في عربيتنا (أفعل) مثل (سحدث) في المعينية والقتبانية ، و (هحدث) في السبئية [4] ، وفي أمور أخرى ترد في نحو اللهجات العربية الجنوبية .

وقد حاول الباحثون في العربيات الجنوبية وضع تقويم لحكومة قتبان ، غير انهم لم يتفقوا حتى الآن في تعيين مبدأ أو نهاية لهذه المملكة . ولما كانت هذه الحكومة قد عاصرت – كما جاء في الكتابات المعينية والسبئية – حكومة معين وحكومة سبأ ، فقد توقف تعيين تأريخ قتبان أيضاً على تثبيت تأريخ هاتين الحكومتين وعلى البحوث (الأركيولوجية) والكتابات . وقد رجع (هومل) تاريخها الى ما قبل سنة (١٠٠٠) قبل الميلاد ، ووضع (البرايت) تأريخ (هوف عم يهنعم) وهو من قدماء (المكربين) في القرن السادس قبل

---

١ وضع منهج هذه البعثة ونظمها « وندل فيليبس » ، « Windell Phillips »، رئيس المؤسسة الامريكية للبحث عن الانسان :
« American Foundation for the Study of Man ».
راجع وصف الرحلة ورجالها في :
BOASOOR, Num. 119, (1950), P. 5, Windell Philips, Qataban and Sheba, London, 1955.

٢ راجع بحث « البرايت » عن سني حكم ملوك قتبان ومعين وسبأ وحضرموت في :
W. F. Albright, The Chronology of Ancient South Arabian in the Light of the first Campain of Excavation in Qataban, Baltimore, 1950.

٣ O'leary, P. 96.

٤ غويدي ، المختصر (ص ٧) ،
Maria Hofner, Altsudarabische Grammatik, S., 34.

الميلاد[1] . وهو يلي (سمه علي) في الترتيب . و (سمه علي) هو أقدم (مكرب) يصل خبره الينا ، وقد رجع (فلبي) أيامه الى حوالي سنة ٨٦٥ قبل الميلاد[2]. وذهب (ملاكر) الى أن ابتداء حكم (قتبان) كان في حوالي سنة (٦٤٥ق.م.) وأن نهاية استقلالها كان في القرن الثالث قبل الميلاد[3] .

ومن علماء العربيات الجنوبية الذين عنوا بتبويب أسماء حكام (قتبان) وتصنيفها تصنيفاً زمنيـاً ، (كروهمن)[4] ، و (دتلف نلسن)[5] ؛ و (ويبر)[6] ، و (هارتمن)[7] و (البرايت)[8] ، و (فلبي)[9] ، وغيرهم ، ويختلف هؤلاء في كثير من الأمور : يختلفون في مبدأ قيام قتبان ، وفي ترتيب الملوك وفي مدد حكمهم ، كما يختلفون في نهاية هذه الحكومة . فبينما يرى (كلاسر) أن نهايــة هذه الدولة كانت بين (٢٠٠) و (٢٤ ق. م.) وربما كان قبل ذلك[10]، يرى غيره أن هذه النهاية كانت بعد الميلاد ، وربما كان في حوالي سنة (٢٠٠) بعد ميلاد المسيح[11] . ويرى (البرايت) أن نهايتها كانت عـلى أثر خراب مدينـة (تمنع) واحراقهـا كما يتبين ذلك من طبقات الرماد الكثيفة التي عثر عليها في انقاضها ، وكان ذلك في حوالي سنة (٥٠ ق. م.)[12] . وقد ذهب (ريكمنس) أن نهاية مملكة (قتبان) كانت في حـوالي السنة (٢١٠) أو (٢٠٧) للميلاد .

---

١ BOASOOR, Num. 119, (1950), P. 11.

٢ Background, P. 143.

٣ Mlaker, Die Hierodulenlisten von Ma'in nebst untersuchengen zur altsudarabischen Rechtgeschichte und Chronologie, Leipzig, 1943, Albright, The Chronology, P. 3.

٤ Grohmann, Uber Katabanische Herrscherreihen, in : Anzeiger der Wiener Akad., X., 1916, S., 42.

٥ Ditlef Nielsen, Katabanische Texte, I, S., 26, II, S., 98, Handbuch, I, S., 98.

٦ Weber, Studien, S., 9.

٧ M. Hartmann, Die Arabische Frage in Der Islamische Orient, Bd., II, S., 165, 601, Leipzig, 1909.

٨ BOASOOR, Num. 119, (1950), P. II, The Chronology.

٩ Background, P. 143.

١٠ Glaser, Die Abassinier in Arabien und Afrika, S., 114.

١١ Ency., II, P. 809.

١٢ BOASOOR. Num. 119, (1950), P. 5

أما (فون ورمن) ، فذهب الى أن نهايتها كانت في حوالي السنة (١٤٠) أو (١٤٦) بعد الميلاد[1] .

والرأي عندي ان الوقت لم يحن بعد للحكم بأن المكرب الفلاني أو الملك الفلاني قد حكم في سنة كذا أو قبل هذا أو ذاك ، لأننا لا نزال نطمع في العثور على أخبار حكام لم تصل أسماؤهم الينا ، لعلها لا تزال في بطن الأرض ، كما ان ما عثر عليه من كتابات لا يبعث أيضاً على الاطمئنان ، فانها لا تزال قليلة ، وقد وردت فيها بعض أسماء للحكام بدون نعوت ، تهشمت نعوتها ،أو سقط قسم منها ، ووردت في بعض الكتابات كاملة مع نعوتها ، ووردت في بعض آخر مع نعوتها ، غير انها لم تذكر اللقب الذي كان يلقب به أبو الملك أو ابنه ، فأحدث ذلك ارتباكاً عند الباحثين سبّب زيادة في العدد أو نقصاناً ، وأحدث خطأً في رد نسب بعضهم الى بعض . لهذه الأسباب أرى التريث وعدم التسرع في اصدار مثل هذه الأحكام .

وأرى ان خير ما يستطاع عمله في الزمن الحاضر هو جمع كل ما يمكن جمعه من أسماء حكام قتبان على أساس الصلة والقرابة وذلك بأن يضم الأبناء والأخوة الى الآباء، على هيأة جمهرات ، ثم تدرس علاقة هذه الجمهرات بعضها ببعض ، وترتب على أساس دراسات نماذج الخطوط التي وردت فيها أسماء الحكام ، وطبيعة الأحجار التي حفرت الحروف عليها ، والأمكنة التي وجدت فيها ، أكانت من سطح الأرض أم بعيدة عنه ، وأمثال ذلك لتكون أحكامنا منطقية علمية تستند الى دليل . ولانتفاء ذلك ، أصبحت القوائم التي وضعها علماء العربيات الجنوبية لحكام قتبان أو حضرموت أو معين ، قوائم غير مستقرة في نظري ، ومن أجل ذلك لا أميل الى ترجيح بعضها على بعض ما دامت غير مبنية على الأسس التي ذكرتها ، ولا يمكن أن تبنى على هذه الأسس ما دامت البعثات العلمية غير متمكنة من القيام بحفريات علمية منظمة عميقة، تدرس طبقات التربة وما يعثر عليه ، دراسات آثارية دقيقة من كل الوجوه .

واني اذ أذكر حكام قتبان ، لا أتبع في ذلك قائمة معينة ، لأني لا أرى انها قد رتبت ترتيباً تأريخياً يطمئن اليه،ولا أستطيع أن أخطّىء أحداً في الأسلوب

---

[1] Le Muséon. 1964 3 4 P 468

الذي اتبعه في ترتيبه . وسبيلي أن أذكر المكربين ثم الملوك ، وان أشير بعد ذلك الى الكتابات المدونة في ايامهم وما ورد فيها من أمور . فاذا قدمت أو أخرت فانما أسير برأيي الخاص ، لا أتبع رأي أحد من الباحثين الذين عنوا بترتيب أسماء حكام قتبان . وقد رجحت ذكر بعض قوائمهم، ليطلع عليها القراء،وليروا ما فيها من مطابقات ومفارقات .

حكام قتبان :

وجد من دراسة الكتابات القتبانية أن حكام قتبان الأول كانوا يلقبون أنفسهم باللقب الذي تلقب به حكّام (سبأ) الأول نفسه وهو لقب (مكرب) . وتترجم هذه الكلمة بكلمة (مقرب) في لهجتنا ، وتعبر (كرب) (قرب) عن التقرب الى الآلهة . فالمكرب هــو المقرب الى الآلهة والشفيع اليها والواسطة بينها وبين الانسان . وهو كناية عن الكاهن الحاكم الذي يحكم باسم الآلهة التي يتحدث باسمها وتقابل (باتيسي) (Patesi) في الأكادية و (اشاكو) (Ischschakku) في في الآشورية[1] .

وقد كان هؤلاء المكربون يحكمون في جماعتهم وطوائفهم حكماً يشبه حــكم (قضاة بني اسرائيل) . فلما توسع سلطان (المكرب) ، وتجاوز حدود المعبد، ولم يعد حكماً دينياً فقط ، بل انصرف الحكم الى خارج المعبد ، وصـار حكماً زمنياً ، لقب نفسه بلقب (ملك) ، ومن هنا صارت طبقة الملوك متأخرة بالنسبة الى طبقة المكربين[2] ، أي أن المكربين هم أقدم من الملوك .

ومن قدماء مكربـي قتبان – على رأي أكثر علماء العربيات الجنوبية – المكرب (سمه علي وتر) ، وابنه (هوف عم يهنعم) . وقد عثر على كتابات مـن أيام(سمه علي وتر) كتبت بشكل حلزوني يبدأ السطر منها من جهة اليمين إلى جهة اليسار ثم يبدأ السطر الثاني من جهة اليسار وينتهي في جهة اليمين ، وهكذا . فقارىء الكتابة يقرأ السطر الأول من اليمين على نحو ما نقرأ في العربية ، غير أنه يقرأ

---

١ Handbuch, I, S., 86, Montgomery, Arabia, P. 137, 143.

٢ Background, P. 60.

السطر الثاني من جهة اليسار متجهاً نحو اليمين ، أي على طريقة الكتابة اللاتينية، ويقال لهذا النوع من الكتابات في الانكليزية (Boustrophedon Inscriptins) [1] وتعد في نظر علماء الخط والآثار أقدم عهداً من الكتابات الأخرى التي تسير على نسق واحد من اليمين الى اليسار ، أو من اليسار الى اليمين . ويرى (ألبرايت) أن هذا المكرب قد حكم في القرن السادس قبل الميلاد[2] . وجعله (فلبي) في حوالي سنة (٨٤٥ ق. م.)[3] .

ولم يذكر (فلبي) في قائمته التي صنعها ووضعها في ذيل كتابه (سناد الإسلام) اسم والد المكرب (سمه علي) ، ولا كنيته[4] ، ولم يذكر (ألبرايت) في القائمة التي ألفها لحكام (قتبان) اسم والده أيضاً[5] ، غير أن هنالك نصاً قتبانياً ورد فيه (هوف عم يهنعم بن سمه علي وتر ، مكرب قتبان ، بن عم)[6] . و(سمه علي) في هذا النص ، هو هذا المكرب الذي نتحدث عنه ، ووالده اذن هو (عم) وقد سقط لقبه من النص بسبب كسر أو تلف حدث في الكتابة ،لأن من عادة ملوك العرب الجنوبيين اتخاذ الألقاب .

وقد وصلت الينا كتابات قتبانية ، ورد فيها ذكر (هوف عم يهنعم) ، (هوفعم يهنعم) ،منها الكتابات التي وسمت بـ (Glaser 1117, 1121, 1333, 1344, 1345) والكتابتان (Glaser 1339) و (Glaser 1343) ، وهما من الكتابات المزبورة على الطريقة الحلزونية (Boustrphedon Inscription) .

وجاء بعد (هوف عم يهنعم) في قائمة (فلبي) ، اسم (شهر يجل يهرجب) (شهر يكل يهركب)[7] ، وهو ابن (هوف عم يهنعم) ، وقد جعله ملكاً ، حكم على رأيه في حوالي سنة (٨٢٥ ق. م.) ، وذكر انه فتح

---

١ Ency. Brita., Vol., 3, P. 972.

٢ BOASOOR, NUM. 119, (1950), P. 11.

٣ Background, P. 143.

٤ Background, P. 143.

٥ BOASOOR, NUM. 119, (1950), P. II, The Chronology, P. 7.

٦ REP. EPIG., VI, II, P. 260.

٧ « يجل » « يهرجب » ، حرف « الجيم » في المسند هو « كيمل » ، ويلفظ على الطريقة المصرية في الزمن الحاضر في النطق بحرف الجيم .

معيناً[1] . وكان له من الأولاد (وروال غيلن يهنعم) (وروايل غيلان يهنعم)، وقد لقب بلقب (ملك) . و (فرع كرب يهوضع) (يهودع)[2] . ثم ذكر (فلبي) اسم (شهر هلل) (شهر هلال) بعد (فرع كرب يهودع) ، جاعلاً حكمه في حوالي سنة (٧٧٠ ق. م.) ، وقد كان ملكاً على قتبان . وهو ابن (ذرأ كرب) . ثم نصب (يدع اب ذ بين يهرجب) (يدع أب ذبيان يهركب) ، من بعده ، وقد كان حكمه – على رأيه – في حوالي سنة (٧٥٠ ق. م.) ، وقد جعله مكرباً وملكاً . ثم ترك فراغاً بعـــده ، مكتفياً بالاشارة الى ان الذي تولى بعده هو أحد أبنائه ، ولم يشر الى اسمه ، وقد قدر انه حكم من سنة (٧٣٥ ق. م.) حتى سنة (٧٢٠ ق. م.) ، ثم جعل من بعده ملكاً سماه (شهر هلل يهنعم) (شهر هلال يهنعم) ، وهو أحـد أبناء (يدع اب ذبين يهرجب) (يدع أب ذبيان يهركب) ، وقد حـــكم – على رأيه – حوالي سنة (٧٢٠ ق. م.) ، ثم خلفه (يدع أب ينف) أو (يجل يهنعم بن ذمر علي) وقد يكون – على حد قوله أيضاً – شقيقاً لـ (شهـــر هلال بن يدع أب ذبيان يهركب) وقد كان حكمه في حوالي سنة (٦٨٠ ق. م.)[3].

وترك (فلبي) فراغاً بعد الملك المتقدم ، كناية عن حكم ملك لم يصل اسمه الينا ، حكم في حوالي سنة (٦٦٠ ق. م.) حتى سنة (٦٤٠ ق. م.) حيث دوّن بعده اسم ملك سماه (سمه وتر) لم يذكر لقبه الثاني ولا اسم أبيه . ثم ذكر بعده اسم ملك آخر ، سماه (وروال) (ورواٍيل) ، لم يذكر لقبه ، يتصور انه ابن (سمه وتر) ، وقد جعل حكمه في حوالي سنة (٦٢٠ ق. م.). ثم ترك (فلبي) فجوة قدرها بنحو من عشر سنين بين الملك المتقدم والملك الذي تلاه ، ثم ذكر بعدها اسم ملك سمـــاه (آب شم) (أب شم) ، لم يعرف اسم أبيه ، وقد حكم – على تقديره – في حوالي سنـــة (٥٩٠ ق. م.) ، وذكر بعده اسم (اب عم) (أبعم) (أب عم) ، وهو ابن (اب شم)، وقد كان حكمه في حوالي سنة (٥٧٠ ق. م.) تـــلاه في الملك على – رأي (فلبي) – الملك (شهر غيلن) (شهـــر غيلان) ، وهو ابن (أبشم)

---

١ Background, P. 60, 143.

٢ Background, P. 60, 143.

٣ المصدر نفسه .

(اب شبم) ، وقد حكم من سنة (٥٥٥ ق. م.) الى سنة (٥٤٠ ق. م.) . وفي هذه السنة ، أي سنة (٥٤٠ ق. م.) كانت نهاية مملكة قتبان ، فاندمجت – على رأيه – في مملكة سبأ ، وصارت جزءاً منها [١] .

هذه هي قائمة حكام قتبان ، من مكربين وملوك على وفق رأي (فلبي) ، ويلاحظ انه وضع مدداً لحكم كل مكرب أو ملك تراوحت من خمس وعشرين سنة الى عشر سنين . فامتد أجل هذه الحكومة بحسب قائمته من سنة (٨٦٥) قبل الميلاد الى سنة (٥٤٠) قبل الميلاد . وتقديراته هذه هي تقديرات شخصية ، لا تستند الى كتابات قتبانية ولا غير قتبانية ، وانما هي رأي شخصي واحد ، ومن هنا اختلف في مذهبه هذا عن مذاهب الباحثين الآخرين في مدد حكم ملوك قتبان ، وكلهم مثله يستندون في أحكامهم الى آرائهم وتقديراتهم الشخصية ، ولا يوجد بينهم من وجد نصاً فيه تأريخ مرقوم ثابت لأحد من هؤلاء الحكام، يستند اليه في تثبيت حكم مكربي وملوك قتبان . ونرى مما تقدم ان (فلبي) جعل عدد من عرفهم من حكام قتبان سبعة عشر رجلاً [٢] .

أما البرايت ، فقد ترك فراغاً ، ولم يحدد مدته بعد (هوف عم يهنعم) ، ثم ذكر بعده اسم مكرب دعاه (شهر) ، ولم يشر الى لقبه ولا الى اسم أبيه، وذكر بعده اسم (يدع أب ذبين يهنعم) (يدع أب ذبيان يهنعم) ، قال إنه ابن (شهر) ، وقد كان مكرباً . وذكر بعده اسم ابن له يقال له (شهر هلل يهو ..) ، (شهر هلال يهو ..) ، وقد صار مكرباً بعد وفاة أبيه (يدع اب ذبيان يهنعم) . وقد سقط حرفان أو ثلاثة أحرف من لقب (شهر هلال) الأخير فصار (يهو) ، ولعله (يهودع) أو (يهنعم) في الأصل .

وترك (ألبرايت) فراغاً بعد (شهر هلال يهو ..) ، ذكر بعده اسم (سمه وتر) ، قال : إن من المحتمل أن يكون هو المكرب الذي هزمه (يثع أمر وتر) مكرب (سبأ) . ثم ترك فراغاً آخر ولم يحدد مدته ، ثم ذكر أن من المحتمل أن يكون قد تولى الحكم بعد هذه الفترة مكرب آخر هو (ورو ايل) ولم يشر الى لقبه ، وقد كان تابعاً لـ (كرب ايل وتر) أول ملك من ملوك

---

١ المصدر نفسه .
٢ كذلك

سبأ ، وقد حكم – على تقديره – حوالي سنة (٤٥٠ ق. م.)[١] .

وترك (ألبرايت) فراغاً بعد اسم (وروايل) يشير إلى وجود فجوة لم يعرف من حكم فيها ، ثم ذكر مكرباً آخر سماه (شهر) ، ولم يذكر لقبه ، ثم ذكر اسم ابنه بعده وهو (يدع أب ذبيان) ، قال إنه آخر مكرب وأول ملك في قتبان ، وقد ترك عدداً من الكتابات ، ومنها كتابة عثر عليها خارج الباب الجنوبي لمدينة (تمنع) ، وقد حكم – على رأيه – في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، وتولى ابنه من بعده (شهر هلال) (شهر هلل) ثم (نبط عم) ابن (شهر هلال)[٢] . ويحتمل أن يكون (يدع أب ذبيان) هذا – بحسب رأيه – هو باني ذلك الباب[٣] .

نرى أن قائمة (البرايت) قد كتبت اسم (شهر) وابنه وحفيده مرتين ، وأشار هو نفسه الى أن من الممكن أن يكون ذلك من باب التكرار ، غير أنه ذكر من جهة أخرى أنه ما دامت الأدلة التي تثبت هذا التكرار غير متوافرة ، فإنه يسجل هذه الأسماء على هذا الوضع ، فلعلّ أسماء هذه المجموعة المتشابهة هي لأشخاص آخرين ، إلى أن يثبت بالدليل خلاف ذلك .

وترك (ألبرايت) فراغاً بعد (نبط عم) (نبطعم) ، ذكر بعده (ذمر علي) ، ثم ابنه (يدع أب يجل) (يدع أب يكل) ، ويرى (ألبرايت) أنه كان معاصراً لثلاثة ملوك من ملوك سبأ ، عاشوا في القرن الرابع قبل الميلاد، ولم يستبعد احتمال كونهم من رجال القرن الثالث قبل الميلاد ، حينما كانت سبأ مجزأة منقسمة على أمرها[٤] .

وقد كانت معظم أرض حمير خاضعة في هذا العهد للقتبانيين . وقد يكون هذا هو السبب الذي جعل الحميريين ينعتون أنفسهم بـ (ولد عم) ، لأنّ (عما) هو إلّه القتبانيين . و (ولد عم) تعني (أولاد عم) و (شعب عم)[٥].

---

١ BOASOOR, NUM. 119, (1950), P. II.

٢ BOASOOR, NUM. 119, (1950), P. II, The Chronology, P. 17.

٣ W. Phillips, Qataban and Sheba, P. 219.

٤ The Chronology, P. 8, BOASOOR, NUM. 119, (1950), P. 12.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 429, 431.

وترك (ألبرايت) فراغاً بعد الملك (يدع أب يكل) ، ذكر بعده ملكاً سماه (اب شبم) ، (أبشبام) (أب شبام) ، ولم يذكر اسم أبيه ولا نعوته، ثم ذكر بعده الملك (شهر غيلن) (شهر غيلان) ، قال إنه ابن (أبشبام)، وإن المنقبين قد عثروا على كتابات عديدة من أيامه ، منها كتابة عثر عليها عند الباب الجنوبي لمدينة (تمنع)[1] . ثم ذكر بعده ملكاً آخر سماه (بعم) وهو ابن الملك السابق ، أي (شهر غيلان) ، ثم الملك (يدع أب يجل) (يدع أب يكل) ، وهو شقيق (بعم) ، ثم نصب (ألبرايت) بعده الملك (شهر يجل) (شهر يكل) ، قال إنه ابن الملك (يدع أب) ، وإنه صاحب جملة كتابات وفاتح معين في حوالي سنة (٣٠٠ ق. م.) . ثم ذكر الملك (شهر هلل يهنعم) (شهر هلال يهنعم) من بعده ، وهو شقيق (شهر يجل) (شهر يكل) ، وقد تركت أيامه جملة كتابات ، منها كتابة عثر عليها عند باب مدينة (تمنع) الجنوبي .

وقد ذهب (ألبرايت) الى أن حكم الأسرة أو المجموعة المتقدمة قد كان فيما بين (٣٥٠) و (٢٥٠ ق. م.) . وهو لا يدري من حكم بعد (شهر هلال) آخر ملوك هذه المجموعة[2] ، ولذلك ترك فراغاً ، انتقل بعده الى مجموعة جديدة من الملوك ، وضع على رأسها (يدع أب ذبين يهرجب) (يدع أب ذبيان يهركب) ، وقال إنه لا يرى أن وضع هذا الملك في هذا المكان هو من قبيل التأكد ، وإنما يرى أن ذلك شيء محتمل ، ثم ترك فراغاً آخر بعد هذا الملك يشعر أنه لا يدري من حكم فيه ، ثم ذكر بعد هذا الفراغ الملك (فرع كرب) ثم ابنه (يدع أب غيلن) . (يدع أب غيلان) . وقد ذكر أن في أيامه بني (بيت يفش) المذكور في كتابة قتبانية ، وأن ذلك كان في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد[3] .

وترك (البرايت) ، فراغاً بعد (يدع اب غيلان) ، ذكر بعده الملك (هوف عم يهنعم) (هو نعم يهنعم) ، وقد جعل حكمه في حوالي سنة (١٥٠ ق. م.) . ثم ذكر ابناً له حكم – على رأي (البرايت) – من بعده

---

١ The Chronology, P. 8.

٢ W. Phillips, P. 220.

٣ W. Phillips, P. 220.

سماه (شهر يجل يهرجب) (شهر يكل يهركب) ، والى ايامه تعود الأسود المصنوعة من البرنز التي عثر عليها في أنقاض (تمنع) ، والكتابة المتعلقة ببناء حصن الباب الجنوبي للعاصمة . وكتابة بناء (بيت يفش)[1] . ثم ذكر (وروال غيلن يهنعم) (وروايل غيلان يهنعم) من بعده،وهو ابن (شهر يكل يهركب) وقد عثر على قطعة نقد ضربت في مدينة (حريب) ، تحمل اسم (وروايل غيلن) ، يرى (البرايت) احتمال كونها تعود اليه . وذكر بعده الملك (فرع كرب يهودع) (يهوضع) ، وهو ابن الملك (شهر يكل) وشقيق (وروايل غيلان) .

وقد ترك (البرايت) بعد (فرع كرب يهودع) (يهوضع) فراغاً يشير الى انه لا يعرف من حكم بعد ذلك الملك ، ثم ذكر بعد هذا الفراغ ملكاً آخر سماه (يدع اب ينف) (يدع اب ينوف) . وقد عثر على نقود له ضربت من ذهب في (حريب) . ولا يعرف (البرايت) اسم من حكم بعده ، لذلك ترك فراغاً ، ذكر بعده ملكاً سماه (ذراكرب) (ذرأكرب) ، ولم يذكر نعته ولا اسم أبيه ، وقد جعل بعده ابنه (شهر هلل يهقبض) (شهر هلال يهقبض) ، ويرى احتمال كونه (شهر هلل) (شهر هلال) ، الذي أمر بضرب نقد من ذهب في (حريب) . وبه ختمت قائمة (البرايت) لحكام قتبان من مكربين وملوك اذ ذكر بعد اسمه خراب (تمنع) العاصمة ونهاية استقلال قتبان ، وذلك في حوالي سنة (٥٠) قبل الميلاد[2] .

ويرى (البرايت) ان (شهر هلال يهقبض) هـذا هو الذي بنى البيت المسمى (بيت يفعم) (بيت يفع) ، الذي عثر على أطلاله وأسسه عند باب المدينة الجنوبي[3] .

وتعد هذه الفترة القريبة من الميلاد من أهم المراحل الحاسمة في تأريخ قتبان، في رأي (البرايت) ، اذ فيها كان سقوط الحكم الملكي وزواله عنها، ودخولها في حكم مملكة (معين) ، أو دخول قسم منها في حكم معين ، وقسم آخر في

---

١ W. Phillips, P. 100.

٢ BOASOOR, 119, (1950), P. 12, The Chronology, P. 8. ff.

٣ W. Phillips, P. 220.

حكم مملكة السبئيين[1] .

ويرى (البرايت) ان عاصمة قتبان كانت قد تعرضت قبيل الميلاد لغزو أليم، وقد استدل عليه من وجود طبقة من الرماد تغطي أرض العاصمة ، وقد فسر هذا بسقوط المدينة فريسة لنار أججها في المدينة ملك ، لم نقف على اسمه حتى الآن، ولا على الأسباب التي حملته على احراق المدينة أو احراق أكثرها[2] .

ويرى (البرايت) أيضاً ان مملكة حضرموت كانت قد اغتصبت جزءاً من مملكة قتبان ، وذلك بعد سقوط (تمنع) في القرن الأول للميلاد . وقد كانت مملكة حضرموت ، ومعها مملكة سبأ ، من أهم الممالك في العربية الجنوبية في هذا العهد . ومنذ القرن الأول للميلاد فما بعده ، فقد القتبانيون استقلالهم واندمجوا في حكومة (سبأ وذي ريدان) في النهاية[3] .

وقد عثر على كتابة في (وادي بيحان) ، ورد فيها (يدع اب غيلان بن غيلان ملك حضرموت بنى مدينته مدينة : ذي غيلان)[4] . وذهب قراء هذه الكتابة الى ان مدينة (ذي غيلان) ، هي مدينة بناها هذا الملك في (وادي بيحان) على مسافة عشرة أميال من موضع (بيحان القصب) في الزمن الحاضر أي في أرض قتبانية ، وذلك بعد سقوط مدينة (تمنع) . وقد عثر على كتابتين حضرموتيتين أخريين في هذا الوادي ، وردت فيهما أسماء ملوك حضرميين[5] .

كتابات وحوادث قتبانية :

أحاول هنا تدوين الحوادث التي وقعت في قتبان في ايام المكربين وايام الملوك مستخلصاً اياها من كتابات العهدين ، فأبدأ بالبحث في الكتابات التي يرجع عهدها الى المكربين . وفي جملة الكتابات ايام (المكربين) كتابة وسمها العلماء بـ (Glaser 1410-1681) ، وقد دوّنت عند قيام قبيلة (هورن) (هوران)

---

١ W. Phillips, P. 221.
٢ المصدر نفسه
٣ المصدر نفسه
٤ كذلــك
٥ كذلك .

ببناء بيت في أرضها للإلـه (عم ذو دونم) ، بنته بالخشب وبالحجارة والرخام ومواد أخرى ، تقرباً الى ذلك الإلـه والى آلهة قتبان الأخرى : (عم) و (أنبي) و (ذات صنتم) و (ذات ظهران) . وقـد وردت في النص أسماء مواضع هي : موضع (لتلك) الواقع في منطقة (ذبحتم) (ذبحة) ، و (دونم) (دون) و (أذ فرم) (أذفر) . وقد سقط من السطر الأول اسم (المكرب) وبقي اسمه الثاني وهو (ذبين) (ذبيان) ، ولقبه وهو (يهنعم) ، واسم أبيه وهو (شهر) . ويظهر من عبارة : (ذبـين يهنعم بن شهر ، مكرب قتبن وكل ولدعم واوسن وكحد ودهسم وتبنو بكر انبي وحوكم) . أي (.. ذبيان يهنعم بن شهر مكرب قتبان وكل ولدعم واوسان وكحد ودهس وتبنو بكر أنبي وحوكم)[١] ان قتبان وكل المتعبدين للإلـه (عم) الذي يمثله مكرب قتبان نفسه والأوسانيون وكحد ودهس وتبنى كانوا متحدين في ذلك العهد متحالفين، يحكمهم المكرب المذكور .

وقد رأينا أن (ألبرايت) جعل هذا المكرب في الجمهرة الثانيـة من جمهرة المكربين الذين حكموا قتبان ، ولم يذكر شيئاً عن أبيه (شهر) لعـدم ورود شيء عنه في الكتابات . أمـا اسم المكرب الأول الساقـط من النص ، فهو (يدع اب) .

وفي أسماء المواضع المذكورة دلالة على أنها كانت خاضعة لحكم قتبان في أيام المكرب المذكور . وأن حدود قتبان كانت واسعة إذ ذاك أي في القـرد السابع قبل الميلاد على رأي بعض الباحثين أو في النصف الثاني من القرن الخامس قبـل الميلاد على رأي بعض آخر[٢] .

وقد عثر على اسم المكرب (شهر هلل بن يدع اب) (مكرب قتبـان) في كتابتين ، رقمنا برقم (RES 312) و (Res 312 + SE60),[٣] . وقـد ورد فيها اسم (أنبي) و (حوكم) و (عم) من أسماء آلهة قتبان . وورد فيها أسماء

---

١ REP. EPIG. 3880, Tome, VI, P. 336, Hommel, Ethno., S., 660.

٢ Beitrage, S., 71.

٣ Lidzbarski, Eph., II, S., 107, 455, Weber, Stud., III, S., 39, Hartmann, Arab., S., 165, Conti Rossini, Chrest., P. 87, Mordtmann-Mittwoch, In Orientalia, I, (1932), P. 27.

مواضع مثل : (لتلك) ، و (ذبحتم) و (اضفرم) ، وقبيلة أو جماعة تعرف بـ (هورن) (هوران) . وكان سبب تدوينها التوسل والتضرع الى الإلـه (أنبي) ليمن على أصحاب الكتابتين فيبعث اليهم بالخير والبركة ، ويقيهم شر المجاعة[1] . والظاهر أن قحطاً كان قد حدث في أيام هذا المكرب فتوسل أصحاب الكتابة الى إلههم (أنبي) أن يمن عليهم بانقاذهم منه .

ويلاحظ أن هذه الكتابة تحدثت عن موضع (لتلك) في (ذبحة) التابعة لقبيلة (هورن) من قبائل قتبان ، إلا أنها لم تذكر (قتبان وولد عم وأوسان وكحد ودهس) كما جاء ذلك في النص السابق . وقد سقط من هذه الكتابة (شهر هلل) (شهر هلال) ، كما أنها لم تذكر لقب (يدع اب) مكرب قتبان وهو والد (شهر) . ولا نستطيع بالطبع الادعاء بأنه كان أقدم من المكرب السابق أو أنه جاء من بعده في الحكم لعدم وجود دليل ملموس لدينا يثبت أحد الرأيين .

وقد عثر على عدد من الكتابات القتبانية ، ورد فيها اسم المكرب : (يدع اب ذبين بن شهر) (يدع أب ذبيان بن شاهر) (شهر)[2] . منها الكتابة الموسومة برقم : (Glaser 1600) . وقد جاء فيها : أن (يدع أب ذبين بن شهر مكرب قتبان ، وكل أولاد عم وأوسان وكحد ودهس وتبني) فتحوا طريقاً ، وانشأوا (مبلقة) بين موضعي (برم) و (حرب) (حريب) ، وجددوا (بيت ود) و (عثيرة) ، وبنوا (محّن) في موضع (قلي) . ووردت في هذه الكتابة أسماء آلهة أخرى ، هي عثر ، وعم ، وأنبي ، وحوكم ، وذات صنتم ، وسحرن ، ورحبن[3] .

وقد وردت في الكتابة لفظة (منقلن) ، ويراد بها الطريق في الجبل . وهي بهذا المعنى أيضاً في معجمات اللغة التي نزل بها القرآن الكريم . ووردت فيه لفظة (مبلقة) ، ومعناها فتحة وثغرة ، وهي بهذا المعنى في عربيتنا كذلك ، يقال

---

١ REP. EPIG. 3540.

٢ « يدع اب ذبيان بن شهر » .

٣ REP. EPIG., 3550, VI, I, P. 203, Nielsen, Neue Katab. Inschriften, S., 3, Stud., 127, Weber, Stud., III, S., 8, Conti Rossini, Chres., P. 86, BOASOOR, NUM. 120, P. 27, (1950), Ryckmans 215, Baihan 48.

انبلق البـــاب اذا انفتح ، وأبلق الباب : فتحه كله أو أغلقه بسرعة ، ومعنى الكلمة في النص عمل ثغرة في الجبل ليمر منها الطريق المار في الجبل من مكان الى مكان[1] . وفي هـــذا العمل المشترك الذي اشترك فيه هذا المكرب وشعب قتبان وقبائل أخرى غير قتبانية ، هي أوسان وكحد ودهس وتبني ، دلالة على وجود فن هندسي راق عند العرب الجنوبيين في هذا العهد الذي لا نعرف مقدار بعده عن الميلاد ، ولكننا نجزم أنه كان قبل الميلاد .

ولدينا كتابة أخرى تشبه الكتابة المتقدمة ، دونت في أيام هذا المكرب كذلك . ورد فيها بعد اسم المكرب جملة : (وكل ولد عم) ، ثم أسماء من ساعـــد (ولد عم) في البناء ، وهم (أوسان) و (كحد) (ودهس) (وتبني) و (يرفأ) ، ثم وليت هذه الأسماء جملة (ايمنن واشامن) ، أي (الجنوبيون والشماليون) ، وبعبارة أخرى (أهل الجنوب وأهل الشمال) ، ويقصد بذلك على ما يظهر من سياق الكلام سكان المناطق الشمالية وسكان الجنوب . أما جملة (ولد عم) فإنها كناية عن أهل (قتبان) . و (عم) هو إله (قتبان) الرئيس ، ولذلك أطلق القتبانيون على أنفسهم (ولـد عم) . ويفهم من ذكر أسماء القتبانيين وغيرهم في هذه الكتابة أن العمل المذكور في الكتابة كان ضخماً واسعاً، لذلك اشترك في اتمامه وانجازه أهل أوسان والقبائل الأخرى . ولم يتحدث النص عن كيفية اشتراك اوسان والقبائل الأخرى المذكورة في هذا العمل : أكان ذلك لأنها كانت خاضعـــة في وقت تدوين هذه الكتابة لحكم المكرب (يدع أب) فاضطرت الى الاشتراك فيـــه ، أم هي قامت به بالاشتراك مع قتبان لأنه في مصلحتها ، لأنها ستستفيد منه كما يستفيد منه القتبانيون ، فتعاونت مع قتبان في انجازه واتمامه .

والكتابة وثيقة مهمة تتحدث عن عمل هندسي مهم خطير ، هو فتح طريق جبلي في مناطق وعرة وفي أرضين جبلية،فاستوجب العمل تمهيد الأرض وتسويتها واحداث ثغر في الصخور وفتح أنفاق ليمر بها الطريق . وقد كرس العمل باسم الآلهة (عم ذو شقرم) و (عم ذو ريمت) و (أنبي) و (حوكم) و (ذات صنتم) و (ذات ظهران) و (ذات رحبان) ، وتقرب بـه اليها . وقام به

---

[1] Rhodokanakis, Studi., II, S., 98.

وأشرف عليه رجـل اسمه (أوس عم بن يصرعم) (أوسعم بن يصرعم) (أوس بن يصرع) ، أدار هذا الرجل العمل ، ورسم الخطط وقام برصف الطريق وتبليطه ورصف ممر (ظرم) بصورة خاصة بطبقة سميكة من الحجارة. وقد قام بكل ذلك بأمر سيده المكرب (يدع اب)[١] .

ونحن هنا أمام رجل كان له علم خاص بهندسة الطرق وله تجارب ودراية في احداث الثُغر في الصخور وانشاء الممرات والمناقل للقوافل والمارة في المناطق الوعرة ولهذا كلفه حاكم قتبان القيام بذلك العمل ، فأنجزه وأتمه على النحو الموصوف .

وكان (اوس عم بن يصرعم) من قبيلة تسمى (مدهم)[٢] .

وقام المهندس المعماري المذكور بأعمال هندسية أخرى لسيده المكرب، فقد جاء في نص آخر انه شق طرقاً وثنايا في مواضع جبلية وعرة ، وحفر أنفاقاً تمـر السابلة منها ، وبنى أيضاً (بيت ودم) ، أي معبد الإلـه (ود) ، و (مختن ملكن بقلي) ، أي (مختن الملك) بموضع (قلي)[٣] . وقد سبق أن أشير إلى هذا (المختن) في النص (Glaser 1600) الذي تحدثت عنه قبل قليل ، وهو من النصوص التي تعود الى هذا المكرب نفسه . والتي تتحدث عن فتح طريق وبناء (بيت ود) و (مختن الملك بقلي) ، إلا أنه لم يذكر اسم (المهندس) الذي أشرف على العمل في النص الموسوم بـ «Glaser 1600» .

وليست لدينا معرفة تامة بمعنى (مختن) ، الواردة في النصين المذكورين ، وقد ذهب بعض الباحثين الى انها من الألفاظ المستعملة في الشعائر الدينية ، وانها تؤدي معنى محرقة ، أو الموضع الذي توضع عليه القرابين التي تقدم الى الآلهة[٤] أو المذبح الذي تذبح عليـه الضحايا ، فهي بمعنى (ببحت) و (ومنطف) و (منطفت) (منطفـة) . وذلك لورود هذه الألفاظ في كتابات تتعلق بالقرابين ، كما سأتحدث عنها في فصل « الحياة الدينية عند الجاهليين » .

---

١ REP. EPIG. 3642, 4328, VII, II, P. 192, SE 90, Grohmann, Katabanische Herrscherr, S., 43, Rhodokanakis, Altsab. Texte, I, S., 44, Beiträge, S., 43.

٢ Beiträge, S., 46.

٣ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), P. 78.

٤ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 277.

ويظهر أن لاسم قرية (شقبر) و (حصن شقير) الموجودتين في اليمن في الوقت الحاضر . علاقة بمعبد (عم ذو شقرم) الذي تقرب صاحب النص المذكور اليه ببناء الطريق ورصفه ، وقد كان (شقرم) موضع في ذلك الوقت أقيم به معبد خصص بعبادة الإلـه (عم)[1] . ولعلّ الطريق الذي شيده (يدع أب ذبيان) كان يمر به ، وأنه أوصل اليه ليسهل على المؤمنين الوصول اليه ، فكرس الطريق لذلك باسمه فذكر قبل بقية الآلهة ، تعبيراً عن هذا التخصيص .

ويرى بعض الباحثين أن ملك قتبان كان قد توسع في عهد (يدع أب ذبيان) هذا فصار يشمل كل (أوسان) وقتبان ومراد حتى بلغ حدود سبأ . ولحماية أرضه أقام حواجز وفتح طرقاً في الهضاب والجبال ليكون في امكان جيشه اجتيازها بسهولة في تحركه لمقاتلة أعدائه . أقامها في شمال أرضه وفي جنوبها لمنع أعدائه من الزحف على مملكته . وتعبيراً عن فتوحاته هذه في شمال وفي جنوب قتبان استعمل جملة (ايمنن واشامن) أي (الجنوبيون والشماليون) ، وهو لقب يعبر عن هذا التوسع الذي تم على يديه[2] .

ويظهر أن الذي حمل (يدع ذبيان) على الأقدام على شق الطرق في المرتفعات وفي الجبال وعمل الأنفاق وتبليط الطرق بالأسفلت ، هو عدم اطمئنانه من الطرق الممتدة في السهول ، إذ كانت هدفاً سهلاً للأعداء . فإذا اجتازتها قواته هاجمها الغزاة ويكون من الصعب عليها الدفاع حينئذ عن نفسها ، أما الطرق التي أنشأها فإنها وان كانت صعبة وفي السير بها مشقة إلا أنها آمنة لأنها تمر في أرض خاضعة لحكمه وهي أقصر من الطرق المسلوكة في الأرض السهلة . ثم إن الدفاع عنها أسهل من الدفاع عن الطرق المفتوحة . فبهذا التفكير الحربي أقدم على فتح تلك الطرق[3] . وقد تبين من ورود لفظة (ملك) في بعض هذه الكتابات مع وجود لقب (مكرب) فيها ، أن (يدع اب ذبيان) هذا كان كاهناً في الأصل ، أي حاكماً يحكم بلقب (مكرب) ، ثم تحلى بلقب (ملك) أيضاً . ولعله استعمل اللقبين معاً ، ولهذا ذكرا معاً في الكتابات المشار اليها . إلا أن الكتابات المتأخرة

---

١ Beiträge, S., 43

٢ Beiträge, S., 44.

٣ Beitäge. S., 45

نعته بلقب ملك فقط ، وفي اكتفائها بذكر هذا اللقب وحده دلالة على أنه صرف النظر عن اللقب القديم ، وجعل لقبه الرسمي هو اللقب (ملك) فقط[1] .

ومن الكتابات التي تعود الى أوائل حكم (يدع أب ذبيان) ، أي ايام حكمه (مكرباً) الكتابات : Ryckmans 390 و REP. EPIG 3550, 4328, . أما الكتابة : REP. EPIG. 3878 ، فتعود الى ايام تلقبه بلقب (ملك) . وتتناول الكتابات الأولى موضوع فتح وتعبيد طريق (مبلقة) ، وقد عثر عليها مدونة على الطريق وفي (شقرم) (شقر) التي تقع الى الغرب منها[2] .

ومن كتابات ايام الملكية الكتابة الموسومة بـ (Glaser 1581) ، وقد دونت عند الانتهاء من بناء حصن (برم) (محفدن برم) تقرباً وتودداً لآلهة قتبان . وكان العمل في ايام الملك (يدع أب ذبين بن شهر ملك قتبين) (يدع أب ذبيان بن شهر ملك قتبان) . وكان صاحب البناء الذي قام به (لحيعم بن ابانس) من (آل المم) و (عبد ايل بن هاني) . ويظهر انهما كانا من المقربين الى الملك المذكور ، وربما كانا من كبار الموظفين ، أو من أصحاب الأرضين والأملاك أو من رؤساء العشائر[3] .

وللملك (يدع اب ذبيان بن شهر) ، وثيقة على جانب كبير من الأهمية لأنها قانون من القوانين الجزائية المستعملة في مملكة قتبان ، بل في الواقع من الوثائق القانونية العالمية ، ترينا أصول التشريع وكيفية اصدار القوانين عند العرب الجنوبيين قبل الميلاد ، فيها روح التشريع الحديث وفلسفة التقنين ،ترينا ان الملك وهو المرجع الأعلى للدولة هو وحده الذي يملك حق اصدار القوانين ونشرها والأمر بتنفيذها ، وترينا أيضاً ان مجالس الشعب،وهي المجالس المسماة بـ (المزود) وتتكون من ممثلي المدن ومن رؤساء القبائل والشعاب ، هي التي تقترح القوانين وتضع مسودات اللوائح ، فاذا وافقت المجالس عليها عرضتها على الملك لامضائها ولنشرها بصورة ارادة أو أمر ملكي ، ليطلع الناس على أحكام الأمر الملكي

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 432.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 432.

٣ REP. EPIG. 3553, Nielsen, Stud., S. 168, Conti Rossini, Chrest.. P. 87, Nielsen, Neue Kat., S., 36.

ويعملوا به. وسأتحدث عن ذلك في فصل « التشريع الجاهلي » بكل تفصيل وتوضيح.

والوثيقة المذكورة هي قانون أصدره الملك في شهر (ذي مسلعت) (ذو مسلعة) من سنة (غوث آل) (غوث ايل)[1] وقد شهد على صحتها للتعبير عن شرعيتها جماعة من الأعيان والرؤساء وهم من أعضاء (المـزود) ومن أشراف المملكة ورؤساء القبائل، ذكرت أسماؤهم وأسماء الأسر والعشائر التي ينتمون اليها. وقد كانت العادة في قتبان ان يذكر عند اصدار القوانين والأوامر أسماء أعضاء المزود والرؤساء وكبار الموظفين كما تفعل الدول الحديثة في هذا اليوم من ذكـر اسم رئيس الدولة الذي يصدر القانون بأمره وباسمـه، واسم رئيس الوزراء والوزراء أصحاب الاختصاص، وذلك لاظهار موافقة المذكورين على القوانين، دلالة على اكتسابها الصفة القانونية بنشر أسمائهم مع اسم الملك.

وفي جملة القبائل التي ذكرت في هذه الكتابة (ردمن) (ردمان) و (الملك) (المالك) و (مضحيم) (مضحى)، و (يحر)، و (بكلم) (بكيل) و (ضرب)، و (ذو ذرآن) (ذ درن)، و (شهران)، و (هران) (هرن)، و (غربم)، و (رشم)، و (زخران)، و (غربان)، و (جرعان)، و (نظران)، وقبائل أخرى. وقد ذكرت أسماء الرؤساء الذين أمضوا القانون وصدقوا صحته ودونت قبل أسمائهم هذه الجملة: (وتعلماي ايدن ..)، ومعناها: (علموا عليها بأيديهم ..)، وكتب قبل اسم الملك: (وتعلماي يد)، ومعناها: (وعلم عليها بيده)، ويعود الضمير الى الملك[2].

والوثيقة التي نتحدث عنها هي قانون في عقوبات القتل العمد أو القتل الخطأ غير المتعمد وفي العقوبات التي يجب أن يعاقب بهـا من يصيب انساناً بجرح أو جروح قد تحدث آفات وعطلاً في الشخص. وسأتحدث عن هـذا القانون وعن المصطلحات الفقهية الواردة فيه في فصل « التشريع عند الجاهليـين ». ويرى (فون وزمن) ان هذه الوثيقة المهمة هي من الأوامـر التي أصدرها الملك في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد[3]. ويتبين من الوثيقة المتقدمة ان القتبانيين

---

١ REP. EPIG. 3878, VI, II, P. 330.

٢ Glaser 1397, SE 80, Beiträge, S., 37.

٣ Beiträge, S., 37.

كانوا يحكمون الرومانيين في هذا العهد . ومخلاف (ردمان) من مخاليف اليمن المهمة ، فيه قبائل كبيرة، ولهذا فان خضوعه لقتبان هو ذو أهمية كبيرة بالقياس الى الحكومة .

ويعد موضع (جهر وعـلان) حاضرة مخلاف (ردمان) ، ومن أماكن (ردمان) (رداع) و (كُدار) ، وهو مكان قريب من (وعلان) . وقد ورد اسم (وعلان) في الكتابات اذ جاء : (وعلن ذردمن) ، (وعلان ذو ردمان)[1] .

ويظن أن الملك (يدع أب ذبيان يهرجب بن شهر ، ملك قتبان) الذي أمر بتدوين النص الذي وسم بـ (Jamme 405 + 406) ، هوهذا الملك الذي نتحدث عنه ، أي الملك المعروف في الكتـابات باسم (يدع أب ذبيان بن شهر) ، والفرق بين الاسمين هو في وجـود اللقب (يهرجب) (يهركب) في النصين المذكورين وسقوطه من الكتابات الأخرى . ويستدل مَنْ قال بأن الأسمين همـا لشخص واحد بورود أسماء قبائل في النصين وردت في كتابات دوّنت في عهد الملك المتقدم ثم لأنهما استعملا مصطلحات ترد في كتابات تعود الى هذا العهد ، ثم لأن أسلوب الكتابـة ونموذج كتابتها يدلان على أنها كتبت في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ، أو في القرن الرابع قبل الميلاد. وفي هذا الوقت كان حكم هذا الملك على رأي بعض الباحثين . لذلك رأوا أن الكتابتين قصدتا هذا الملك[2].

وخلاصة ما جاء في النصين أن الملك (يـدع أب ذبيان يهرجب بن شهر ملك قتبـان) وكل أولاد عم وأوسان و (كحد) و (دهسم) (دهس) و (تبنو) ، بنوا (يسرن) (يسران) والأقسام التابعة لها (ريمت) (ريمة) و(رحبت) (رحبة) ، وذلك من الأساس الى القمة ، ولحماية ما أمر الملك ببنائه من كل أذى وسوء وقدّموا ما قاموا به الى الآلهة (عثتر) و (عم) و (ود).

أما القبائل المذكورة في هذين النصين ، فقد تعرفنا عليها في الكتابات السابقة .

ولدينا كتابة وسمها علماء العربيات الجنوبية بـ (REP. EPIG. 4094) ، دونها (زيدم بن آل وهب) (زيد بن ايل وهب) ، و (أب عم بن شهرم)

---

١ CIH 347, Beitäge, S., 38.

٢ Discoveries, P. 143.

من (ذي طدام) ، عند اتمامها بناء عدة بيوت أو معابد ذكرا أسماءها، وهي: (يفش مبش) ، و (اهلن) ، و (شمس مبش) للملكي قتبان : (يدع أب ذبيان) وابنه (شهر) . وقد ورد فيها اسم الآلهة : عثر ، وعم ، وانبي ، وذات صنتم ، وذات ظهرن (ذات ظهران) . وهي الآلهة التي ترد أسماؤها عادة في معظم كتابات القتبانيين . وجاءت بعد أسماء الآلهة ، هذه الجملة (ويمبش واهلن)[١] ، ولا نعرف اليوم شيئاً عن (مبش) ولا عن (اهلن) ، أهما اسمان لإلهين من آلهة قتبان بدليل ورودهما بعد أسماء الآلهة التي ورد ذكرها تيمناً في هذه الكتابة ، أم هما اسمان لقبيلتين أو لمقاطعتين أو لمعبدين من المعابد المشهورة التي كانت في قتبان ؟.

أما (طدام) ، فهو اسم قبيلة أو أسرة قتبانية ، وقد ورد في كتابات أخرى عديدة غير قتبانية[٢] . وأما (أبعم) (أب عم) و (زيدم) (زيد) فمن الأسماء التي ترد في مختلف الكتابات ، ولكن اسم (اب عم) (أبعم) هو من الأسماء المنتشرة بصورة خاصة في قتبان[٣] .

وقد اختلف الباحثون في تعيين زمان حكمه ، فذهب بعضهم الى أنه كان في القرن الخامس قبل الميلاد ، وذهب بعض آخر الى أنه كان في القرن الرابع قبل الميلاد[٤] ، أو القرن الثاني قبل الميلاد[٥] أو في أوائل القرن الآخر قبل الميلاد[٦].

وقد ذكر اسم الملك (شهر هلل)[٧] وابنه (نبطعم)[٨] في كتابة دونها رجل اسمه (نبط عم بن يقه ملك) (نبطعم بن يقهملك)[٩] إذ حفر بئراً في حصن له لارواء أرضه وأملاكه ، وجعلها في رعاية آلهة قتبان وحمايتها ، لتبارك له

---

١ REP. EPIG. 4094, VII, I, P. 80, Mordtmann und E. Mittwoch, Altsüdarabische Inschriften, in Orientia, I, 1932, P. 24.

٢ Jausen 90, 93, 173, 175, 176, 180.

٣ Orientala, Vol., I, (1932), P. 26.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 433.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 434.

٦ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 434, Pirenne, Paléographie des Inscriptions Sud-Arabes, I.

٧ « شهر هلال » .

٨ « نبط عم » .

٩ « نبط عم بن يقه ملك » .

وللدرية ، وذكر أن حفر هذه البئر كان في أيام الملك المذكور وفي أيام ابنه[1].

وقد ذهب (ألبرايت) إلى أن (شهر هلال) المذكور وهو والد (نبطعم) هو ابن (يدع أب ذبيان بن شهر).وقد جعله كما قلت قبل قليل آخر المكربين وأول من تلقب بلقب (ملك) في قتبان .

وجاء اسم الملك (شهر هلل بن يدع اب)[2] ، في قانون أصدره للقتبانيين المقيمين بمدينة (تمنع) أي العاصمة وللمقيمين في الخارج ، وذلك لتنظيم التجارة ولتعيين حقوق الحكومة في ضرائب البيع والشراء ، والأماكن التي يكون فيها الاتجار . وفي هذا القانون مصطلحات تجارية مهمة ترينا مبلغ تقدم القتبانيين في أصول التشريع التجاري بالقياس الى تلك الأيام[3] .

ووصلت الينا كتابة قتبانية وسمت بـ (REP. EPIG. 4325) ، وهي قانون لتنظيم التجارة وفي كيفية دفع الضرائب . وقد صدر في ايام (شهر) ، وقد سقط من النص لقب الملك واسم والده ولقبه ، كما سقطت أسطر من القانون بسبب تلف أصاب الحجر المكتوب ، فأضاع علينا فهم أكثر القانون[4] . ولوجود جملة ملوك حكموا قتبان باسم (شهر) ، لا نستطيع تعيين هذا الملك،صاحب هذا القانون ، وقد يكون (شهر هلال بن يدع اب) ، أي الملك المتقدم .

وذكر اسم الملك (ذمر علي) واسم ابنه الملك (يدع اب يجل) (يدع اب يكل)[5] في النص القتباني المعروف بـ (Glaser 1693) ، ولم يرد فيه اللقب الذي كان يلقب به[6] .

وقد ورد اسم ملك قتباني هو (يدع أب) ، في عدد من الكتابات ، دون أن يذكر لقبه أو اسم أبيه ، وقد ذهب (فلبي) ، الى احتمال انه (يدع اب بن ذمر علي) أي الملك المذكور في النص (Glaser 1693)[7] .

---

١ REP. EPIG. 4330, VII, II, 194, SE 99, Glaser 1336, 1407.

٢ « شهر هلال بن يدع أب » .

٣ REP. EPIG. 4337, Höfner, Eine Südarabische Handelsinschrift, in Forschungen und Fortschritte, X, (1943), 274, SE 87, Glaser, 1407, 1615.

٤ REP. EPIG. 4325, VII, II, P. 190, SE 61.

٥ « يدع أب يجل » .

٦ BOASOOR, NUM. 119, (1950), P. 12, KTB., II, S., 41.

٧ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 241, CIH, 494, 496, Philby 17, 18, 19, REP. EPIG., VI, II, P. 321.

وفي ايام (يدع اب يجل) نشبت حرب بين (سبأ) و (قتبان) ، ذكرت في النص الموسوم بـ (REP. EPIG. 3858) . وهو نص سجله (ذمر ملك بن شهر) من (آل ذران) (آل ذرأن) ، وكان والياً ولاه الملك على قبيلة (ذبحن)[1] النازلة في أرض (حمر) ، بعد أن ثارت وتمردت علـى ملك قتبان ، فتغلب عليها ، وضرب عليها الجزية وأخذ غنائم منها ومن القبائل التي عضدتها، ويظهر ان هذه القبيلة انتهزت فرصة حرب نشبت بين (سبأ) و (قتبان) ، فأعلنت عصيانها على ملوك قتبان وثارت ومعها قبائل أخرى انضمت اليها،ولكنها لم تنجح، ففرضت قتبان عليها جزية كبيرة وانتزعت منها بعض أملاكها . وقد أشار النص الى : (حرب يدع آل بين وسمه علي ينف ويثع أمر وتر ملوك سبأ ، وسبأ وقبائلها والى ملوك رعن وقبيلة رعن)[2] ، ويظهر من هذه الجملـة ان الحرب كانت قد نشبت في أيام الملوك المذكورين ، وهم ملوك سبـأ ، ومع (ملوك سبأ ، وسبأ وأشعبها) ، ويظهر انه يقصد بجملة (ملوك سبأ) المذكورة بعد اسم (يثع امر وتر) مباشرة ، ملوك سبأ آخرون ، أو سادات قبائل ، تلقبوا بلقب (ملك) . وأما لفظة (أشعب) ، فهي (الشعوب) في لهجتنا ، وتعبر عن معنى القبائل . ويكون الملك (يدع اب يجل) من معاصري الملوك المذكورين اذن بحسب هذا النص[3] .

وقـد أشير الى (ذبحن ذحرر) (ذبحان ذو حرور) في الكتـابة : «REP. EPIG. 3550» . وذكر فيها اسم (نعمن) (نعمان) و (صنع)[4].

وقد ورد اسم هـذا الملك في كتابات أخرى عثر عليها في مواضع مـن (وادي بيحان)[5] .

---

١ « ذبحان » .

٢ Glaser 1963., REP. EPIG. 3858.

٣ KTB., II, S., 41.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 432.

٥ «بيحان واد مشهور، وقد ذكره «الهمداني»، الاكليل (٨/١١٠)، «طبعةالكرملي»، وقد حرف في بعض الترجمات العربية لكتب غربية الى «بيهان» في كل الكتاب ، وذلك لتصورهم أن حرف الـ « h » في الانكليزية لكلمة : « Baihan » هـو « هاء » ، فصيروا الكلمة « بيهان » وهو واد معروف حتى اليوم ومذكور فـي كل الكتب المؤلفة عن العربية الجنوبية ، راجع كتاب : كنوز مدينـة بلقيس ، بيروت (١٩٦١ م) ، فانه مسخ هذا الاسم كما مسخ أسماء كثيرة أخرى مع شهرتها في الكتب الحديثة ، Le Muséon, LXIV, 1-2, (1951), P. 121.

وقد ورد اسم الملك (شهر غيلن بن ابشم)[1] ، وكذلك اسم ابنه (بعم)، في نص قتبان وسم بـ (REP. EPIG. 3552) . وقد دوّن هذا النص عند قيام (شرح عث بن عبد بل بن تنزب)[2] ، وهو معمار كلفه الملك المذكور انشاءَ (محفد عريم) ، أي برج في موضع يسمى (عرب) (عريم) . وقد قام بالعمل وأتمه ، ووضعت لتخليده هذه الكتابة شاهداً على اتمام البناء . وقد تضمنت شكراً وحمداً لآلهة قتبان ، التي سهلت العمل ، ومنت على القائمين بـه بانجازه واتمامه ، تيمناً باسمها على عادة العرب الجنوبيين كلهم في ذكر أسماء الآلهة التي يتعبدون لها[3] .

وورد في كتـابة أخرى اسم الملك (شهر غيلن بن أبشم) ، أمر الملك نفسه بتدوينها ، عند تجديده إحدى العمارات وانشائه (صحفتن) ، أي برجاً، فخلد ذلك العمل بهذه الكتابة وشكر الآلهة (عم) و (انبي) و (عم ذبسرم)، لمنتها عليه وتسهيلها هذا العمل له[4] .

وتعد الكتابة المرقمة برقم : (Glaser 1601) من الكتابات المهمة المـدونة في أيام هذا الملك ، لأنها أمر ملكي في كيفية جباية الضرائب من قبيلة (كحـد ذ دتنت) . وقد عقدت بين ملك قتبان ورؤساء قبيلة (كحد) النـازلة في (دتنت) (دتنه) ، واشهدت آلهة قتبان عليها . وقد جاء في هـذا الأمر أن (كبر) أي (كبير) قبيلـة (كحد) هو الذي سيتولى أمر هـذه الجباية والاشراف على تنفيذ الأمر وتطبيق أحكامه على كل من يخصه ويشمله ، وذلك من تأريخ تعيينه (كبيراً) الى يوم انتهاء وظيفته ، على أن يقـدم الوارد الى الحكومة سنة فسنة ، فاذا انتهت مدة تعيينه ، تولى من يخلفه في هذا المنصب أمر الجباية ، وقد جعل تأريخ تنفيذ هـذا العقد من : (بن شهر ورخن ذ تمنع خرف موهبم ذ ذرحن اخرن لاخرن)[5] ، ومعناها : (من هلال شهر ذو تمنع

---

١ « شهر غيلان بن ابشم » .

٢ « شرحعث بن عبد ايل بن تنزب » .

٣ REP. EPIG., 3552, VI, I, P. 205, Weber, Stud., III, S., 5, Nielsen, Stud., S., 160, Conti Rossini, Chrest., P. 87, Nielsen, Neue Katab., S., 28.

٤ REP. EPIG. 4162, VII, I, P. 114, BOASOOR, NUM. 119, (1950), P. 12.

٥ راجع نهاية الفقرة (٦) وأول الفقرة (٧) من النص :
Glaser 1601, REP. EPIG. 3688, KTB., I, S., 7, Landberg, Arabica, V. 85.

سنة موهب ذو ذرحن) (ذرحان) آخراً فآخراً) ، وتعني (اخرن لأخرن) والأشهر التي تليه الى أمر آخر .

وأما الضرائب المفروضة ، أي الجباية التي يجب أن تجبى من قبيلة (كحد) ، فقد حددت بهذه العبارة : « عشر كـــل هنام وموبلم وتقنتم وترثم وكل ثفطم بيثفط »[1] ، أي « عشر كل ربح صاف ، وكل ربـح يأتي من التزام أو من بيع أو من ارث يورث) ، فحصر هذا القانون ضريبة (العشر) في الأرباح المتأتية من هذه المكاسب[2] ، وتجبي هذه الضرائب لخزانة الحكومة .

وقد ذكرت في هذه الوثيقة ضريبة أخرى ، هي (عصم) (عصمم) ، وهي ضريبة خاصة تجبى للمعابد ، أي انها تذهب الى الكهـان لينفقوا منها على ادارة المعبد ، فهي ضريبة مقررة تجبى كما تجبى ضرائب الدولة ، وهي مصطلح يطلق على كل أنواع الجبايات التي تسمى بأسماء الآلهة والمعابد[3] .

ويرى (رود كناكس) ان (العصم) لفظة تطلق على كل ما يسمى للآلهة أو المعابد من (زكاة) أو نذر أو صدقات تقدم في مختلف الأحوال ، عند برء من سقم ، أو عنـــد حدوث زيادة في الغلات[4] . وقـــد وردت في النصوص مصطلحات مثل : (ودم) و (شفتم) و (بنتم) وأمثالها ، وهي تعبر عن النذور والهبات التي يقدمها المؤمنون تقرباً وزلفى الى آلهتهم ، وهي غير محدودة ولا معينة ولا ثابتة ، وانما تقدم في المناسبات كما في أكثر الأديان[5] .

وجاءت في هذه الكتابة جملة « وسطر ذتن اسطون ببيت ورفو » ، أي « وسطرن هذه الأسطر ببيت ورفو » ، وتؤدي لفظة (بيت) في أمثال هذا السياق معنى (معبد) ، كما نقول (بيت الله) ، وقد وقعها الملك في شهر (ذبرم) وأعلنها للناس وأوضح ذلك بهذه العبارة : « يد شهر ورخس ذبرم قد من خرف موهبم ذ ذرحن » ، أي « وقد وقع عليها شهر بيده في شهـــر ذي برم الأول من سنة موهب آل ذرحن » . وجعل شاهداً على صحة الوثيقة رجلاً اسمه (نبط عم بن السمع) من (آل هيبر) .

---

١ الفقرة الخامسة من النص المذكور .

٢ KTB., I, S., 12.

٣ KTB., I, S., II.

٤ KTB., I, S., 25.

٥ راجع النصوص : Glaser 1395, 1412, 1413, 1602.

وحظي معبد (بيحان) بعنايـة الملك (شهر غيلان) ، فقـد أمر بترميم أقسامه القديمة وتجديدها وبناء أقسام جديدة فيه . وقد تيمن بهذا العمل بذكـر الآلهة (عثتر نوفان) ، أي (عثتر النائف) . وسجل هذا العمل في كتابـة وسمها علماء العربيات الجنوبية بـ (REP. EPIG. 4932) [1] . وقد ذكر فيها أسماء آلهة أخرى تيمناً بذكر أسمائها وتقرباً اليها .

وكان هذا المعبد قد خصص لعبادة (عم ذلبخ) ، فهو اذن أحد المعابـد التي سميت باسم الإلـه (عم) . وقد عرفت معابده بـ (عم ذلبخ) . ومعبد (بيحان) هو معبد من هذه المعابد التي حملت اسمه . وكانت لها جماعة تتعبد بها ، ولعلها مذهب أو طائفة خصصت نفسها بعبادة هذا الإلـه . وكانت هذه المعابد تجبي أموالاً من أتباعها لتقيم بها المعابد ، وصرف الملوك عليها كذلك[2] ؛

وفي الكتابة الموسومة بـ (Ryckmans 216) خبر نص أحرزه الملك (شهر غيلان) على حضرموت و (أمر) (آمر) (الأمر) . وتخليداً له أمر ببناء معبد (عثتر ذ بحن) ،أي معبد الإلـه (عثتر) في موضع (ذبحن) (ذبحان). ويرى (فون وزمن) أن موضع (ذبحان) الذي بني فيه هذا المعبد ، هـو المكان المسمى (بيحان القصب) في الوقت الحاضر . ويقع عند قدم (جبل ريدان). وفي هذا المكان خرائب واسعة تدل على أنه كان مدينة أو قرية كبيرة . ويرجع (فون وزمن) زمان هذا الملك الى أواخر القرن الرابع لما قبل الميلاد[3] .

ويتبين من النص المتقدم أن (قتبان) كانت في عهد هذا الملك قوية ، فقد انتصرت كما رأينا على حضرموت و (امر) ، وكانت تحكم (دتنت) (دتنه) و (كحد) ، كما كانت تحكم أرضين أخرى غير قتبانية . ولولا القوة لانفصلت تلك الأرضين عنها[4] .

وقد عثر على عدد من الكتابات القتبانية ورد فيهـا اسم الملك (شهر يجل بن يدع أب) . منهـا الكتابة التي وسمت بـ (Glaser 1602) . وهي أمر ملكي في كيفية جمع الجباية من (اربـي عم ذلبخ) ، أي من (طائفة معبد

---

١ REP. EPIG., VII, P. 433, Freya Stark, in JRAS., 1939, P. 497.

٢ KTB., S., 8, 47, Beitrage, S., 65.

٣ Beiträge, S., 48, 65.

٤ Beiträge, S., 65.

الإلـه عم في أرض لبخ) ، ويظهر من هذا المصطلح ومن مصطلحات مشابهة أخرى أن العرب الجنوبيين كانوا يؤلفون طوائف تنتمي إلى إلـه من الآلهة تتسمى به وتقيم حول معبده . ويعبر عن الطائفــة بلفظة (اربـي) وتقيم في الأرض تستغلها ، وتسمي نفسها باسم الرب الذي تنتمي الطائفة اليه . ويجوز أنها كانت تتعاون فيما بينها في استغلال الأرض وفي تصريف الانتاج لخير الطائفة بأسرها . وتقدم الطائفة حقوق الحكومة الى الجباة الذين يجبون تلك الحقوق ، فيقدمونهـا الى (الكبير) ، أي نائب الملك المعين والياً على المقاطعات ليقدمها الى الملك .

وقد أصدر الملك (شهر يجل) أمره هذا ، وأمر بتنفيذه ، وذلك في معبد (عم ذلبخ) ، المشيد في موضع (بن غيلم) أي (في غيل) ، وذلك في شهر (ذبشم) سنــة (عم علي) كما يفهم من العبارة القتبانية : (ورخس ذبشم خرف عم علي)[١] .

وتتألف (الاربـي) ، أي طائفة (عم) إلـه معبد (ذلبــخ) من أسر تجمع بينها صلة القربى ، وكان لهم رؤساء يدبرون شؤون الطائفة سماهم الملك، وهم : (معدي كرب) (معدي يكرب بن هيبر) و (دال) و(دايل بن رباح) (ربـــح) ، و (اخهيسمي) أي واخوتهما[٢] . وقد قصد الملك من ذكرهما في هذه الكتابة انهما هما اللذان كانا يقومان بجمع الغلات ودفع ما على أتباعهما الى خزانة الحكومة والى خزائن المعابـد التي في أرض (لبخ) وفوّض أمر استثمارها الى هذه الطائفة .

وهناك كتابات أخرى تبحث في الموضوع نفسه ، موضوع أرض (لبــخ) وطائفة (عم) (اربـي عم) القاطنة بها ، وعباراتها هي عبارات النص المذكور الا في امور ، اذ تختلف فيهـــا ، في مثل أسماء الأشخاص وتواريخ عقد تلك الاتفاقيات ومواضعه ، لأنها عقدت في أوقات مختلفة ومع أشخاص آخرين[٣] .

---

١ Glaser 1602, REP. EPIG. 3689, KTB., I, S., 57, Le Muséon, LXIII, 3-4, 1951, P. 268, Beiträge, S., 47.

٢ الفقرة الثالثة من النص : Glaser 1602, REP. EPIG. 3689.

٣ Glaser 1412, 1612, REP. EPIG. 3693, VI, II, P., 275, Glaser, 1395, 1604, SE 81, 84, REP. EPIG. 3691, VI, II, P., 271, Conti Rossini, Chrest., P. 89, KTB., I, S., 121.

وتقدم النصوص المذكورة نماذج عن طرق كتابة العقود الرسمية بين الحكومة القتبانية والموظفين والجماعات في موضوع الالتزامات والعقود ، فلها أهمية خاصة لمن يريد دراسة أصول التشريع عند الجاهليين .

والعادة كتابة هذه الوثائق واعلانها للناس بوضعها في محال بارزة ، يتجمع عندها الملأ في العادة أو يمرون عليها ، مثل المعابد أو أبواب المدن ، فانها من أكثر الأماكن التصاقاً بالأفراد والجماعات . وتؤرخ بالتواريخ المستعملة في أوقات عقد العهود ، ليعمل بتلك الأوامر وفي الأوقات المثبتة في الكتابات .

ولدينا نص أمر ملكي أصدره الملك الى القتبانيين أحرارهم وعبيدهم، رجالهم ونسائهم ، والى كل المولودين في مدينة (تمنع) في كيفية دفعهم (العصم) أي الضرائب . وقد صدر هذا الأمر واعلن للنـــاس في (ورخم ذبرم اخرن ذ ذران) ، أي في (شهر برم الثاني من السنة الأولى من سني من آل ذرأن). وقد سقط من الكتابة اسم الرجل الذي أرخت الكتابة به[1] .

ويرى (البرايت) ان (شهر يجل) ، هذا كان قد حكم في حوالي سنة (٣٠٠ ق. م.) وانه تغلب على المعينيين فحكمهم[2] .

وعثر على امر ملكي اصدره الملك (شهر هلل يهنعم بن يـدع اب)[3] في كيفية جباية (اربـي عم لبخ) ، وهو امر يشبه الأمر الملكي الذي صدر من الملك (شهر يجل بن يدع اب) السابق . وقد ذكر الملك انه اصدر امره هذا تنفيذاً لمشيئة معبد (حطبم) (حطب) المخصص بعبادة (عم ذ دونم) (عم ذو دونم) ، ومعبد (رصفم) (رصف) (رصاف) معبد الإلـه (انبي) ولوحي الآلهة (شمس) و (الهلال) (ربع شمس) ، وذكـــر اسماء وكلاء الطائفة وممثليها : طائفة (عم ذي لبخ) (اربي عم ذلبخ) في (ذي غيل) . وقد نشر الأمر واعلن على باب (شدو) من ابواب مدينة (تمنع) ، وذلك في شهر (ذي تمنع) وفي السنة الثانية من سني (شهر) مـــن عشيرة (يجر)[4] .

---

١ REP. EPIG. VI, P., 334, Glaser, 1393, 1609, SE 80 A.

٢ The Chronology, P. 8, Beiträge, S., 47.

٣ Glaser 1395, 1604, SE 84, REP. EPIG 3691, Ktb. I, S. 121, II, S. 103, Conti Rossini, Chrest., P. 89.

٤ الفقرة الثامنة من النص : Glaser 1395, 1604, SE 84, REP. EPIG. 3691.

ويرى البرايت أن هذا الملك كان شقيقاً للملك (شهر يجل) ، وأنه كان تابعاً لحكومة معين[1] . وقد حمله على هذا الرأي اشتراك اسم الأب . وأنا مع عدم معارضتي لهذا الرأي لا أرى أن اشتراك اسم الأب يمكن أن يكون دليلاً على أن شخصين أو أكثر هم إخوة ، فإن أسماء الملوك في العربية الجنوبية متشابهة وتتكرر ، والذي يفرق بينهما هو اللقب أو الألقاب ، بل اننا حتى في هذه الحالة نجد الألقاب تتكرر أيضاً ، وهي وان بدت وكأنها اسم شخص واحد ، إلا أنها في الحقيقة لجملة أشخاص . وقد عبر المحدثون عن ذلك بالترقيم ، فقالوا فلان الأول، وفلان الثاني ، وفلان الثالث ، وهكذا ، وذلك كناية عن الاشتراك في الاسم وفي اسم الأب وفي الألقاب . ويقع ذلك عند أمم أخرى أيضاً : وقع ذلك في القديم ، ووقع في الأيام الحديثة حتى اليوم . ونحن لجهلنا تواريخ ارتقاء الملوك العروش ، ولعدم تيقننا من تقدم بعضهم على بعض ، لا نستطيع لذلك ترقيم الملوك بحسب التقدم في الحكم بصورة يقينية ، فليس لنا اذن إلا التربص للمستقبل فلعل الأيام تقدم الينا مفاتيح نفتح بها الملفات في تواريخ العرب قبل الإسلام .

وعندنا وثيقة أخرى من الوثائق الخاصة بـ (اربعي عم) في (لبخ)، من أيام الملك (شهر هلل) (شهر هلال) . وهي أيضاً أمر ملكي أصدره الملك في كيفية جباية الضرائب من هذه المنطقة . وقد أمر بوضع هذا الأمر وتعليقه عند باب (ذي شدو) من أبواب مدينة (تمنع) ، وذلك في شهر (ذو أبهى) في السنة الثانية من سني (عم شبم) من (آل يجر)[2] .

وقد مرّ ذكر (آل يجر) في نص سابق ، حيث أرخ أيضاً برجل منها ، مما يدل على أنها كانت من الأسر المعروفة المشهورة في قتبان .

والوثيقة كما نرى هي في الموضوع السابق نفسه ، موضوع جباية الضرائب من طائفة (عم) النازلين بوادي (لبخ) . ولذلك لا تختلف في أسلوبها وفي الألفاظ والمصطلحات القانونية الواردة فيها عن ألفاظ ومصطلحات الوثائق السابقة. ولكنها تختلف عنها في أنها لم تذكر اسم والد (شهر هلال) ، ولذلك تعذر

---

١ The Chronology, P. 8.

٢ Glaser 1613, 1613 + 1418, SE 82, REP. EPIG. 3693, KTB., I, S., 132, II, S., 103.

علينا تعيين هذا الملك وغدا صعباً علينا تثبيت نسبه بالنسبة الى الملوك المذكورين .

وقد ترك (البرايت) فراغاً بعد اسم (شهر هلال يهنعم) وضع بعده اسم (يدع اب ذبيان يهركب) ، غير أنه بيّن أنه غير متأكد من أن موضعه في هذا المكان . وأنه وضعه على سبيل الظن ، وذلك اعتماداً على خط الكتابة التي ورد فيها اسمه والتي يناسب أسلوبها أسلوب كتابات هذا الوقت[١] .

ثم عاد (ألبرايت) فترك فراغاً بعد هذا الاسم ، لا يدري من حكم فيه ، ثم ذكر بعده اسم (فرع كرب) ، ولم يذكر أي لقب له ، ثم ذكر من بعده اسم (يدع اب غيلان) وهو ابنه وفي عهده بني (بيت يفش) الشهير الذي ورد اسمه في عدد من الكتابات القتبانية . ويرى (ألبرايت) أن ذلك كان في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد[٢] .

وقد حصلت (البعثة الأميركية) التي نقبت في خرائب مدينة (تمنع) ، على كتابة تتعلق ببيت (يفش) ، وباسم الملك (يدع اب غيلان بن فرع كرب)[٣] . وصاحب هذه الكتابة رجل اسمه (هوفعم بن ثونب) ، ذكر فيها انه اشترى وتملك ورمم البيت المسمى (يفش) واجرى فيه تعميرات كثيرة وفي القسم الخاص منه باستقبال الضيوف (مز ود هو) ، اي المحل الذي يجلس فيه الزائرون فيتسامرون ، فهو نادي ذلك البيت[٤] ، وكذلك في القسم المسقوف منه ، اي القسم الخاص بالمسكن الى أعلى البناء . وبهذه المناسبة تيمن صاحب البيت بذكر اسماء آلهته : (ابني) و (التعلي) و (عم) و (عثتر) و (ذات صنتم) و (ذات ضهران) ، ثم تيمن بذكر الملك الذي تم ذلك العمل في ايامه ، وهو الملك (يدع اب غيلان بن فرع كرب) ملك قتبان .

وعثر على كتابة ورد فيها اسم (يدع أب غيلان) (يدع أب غيلن) ، عثر عليها عند الجدار الشمالي (لحصن الحضيري) الواقع على مسافة (كيلومتر) الى الشرق من (جبل أوراد) . وقد جاء فيهـا أن الملك أجرى ترميمات في

---

١ The Chronology, P. 9.

٢ The Chronology, P. 9.

٣ « يدع اب غيلن بن فرع كرب » « يدع أب غيلان بن فر عكرب » .

٤ Jamme 118, Archaeological Discoveries in South Arabia, John Hopkins Press, Baltimore, 1958, P. 186.

مدينته (ذ غلين) (ذو غيلان)[1] .

وكانت مدينة (ذغيلم) (غيلن) (غيلان) من المدن التي أنشئت في عهد الملك (يدع أب غيلان) . بناها على رأي بعض الباحثين في حوالي القرن الثاني قبل الميلاد وذلك عند معبد (عم ذي لبخ) الشهير الكائن في موضع (ذغيلم) ، أو أنها كانت موجودة ولكنه جدد بناءها فعرفت بـ (ذغيلان) . ولذلك فإن اسمها في الكتابات هو (ذغيلم) و (ذ غيلن) و (ذغيلان) . وقد اشتهرت بمعبدها المذكور[2] .

وترك (البرايت) فراغاً بعد اسم (يدع غيلان) ، يعني أنه لا يدري من حكم في خلاله ، ثم ذكر اسم (هوف عم يهنعم) (هو فعم يهنعم) بعده . وقد حكم – على تقديره – في حوالي السنة (١٥٠ ق. م.) . ثم ذكر من بعده اسم ابنه (شهر يجل يهركب)[3] .

ولدينا كتابة رقمت برقم (REP. EPIG. 4335) وقد ذكر فيها اسم (شهر يجل يهرجب بن هوفعم)[4] . وقد دونت هذه الكتابة عند اشتراك (شوشن) و (حرم) ، ابني (عم كرب)[5] في بناء (محفد) لهما اسمه (غيلن)[6] في أرضهم (طوب) (طوبم) ، وتيمناً وتبركاً بذلك ذكرا أسماء آلهة قتبان واسم الملك المذكور[7] .

وعثر على كتابة أخرى ، فهم منها انه في عهد الملك (شهر يجل يهرجب) ، جدد بناء الباب الجنوبي لمدينة (تمنع) ، وجدد بناء بيت (يفش) . ويرجع (البرايت) ايام هذا الملك الى ما بعد سنة (١٥٠ ق. م.) بقليل ، ويستند في تقديره هذا الى تمثالي أسدين عثر عليها في خرائب مدينة (تمنع)،وقدوجدت

---

١ BOASOOR, NUM. 120, 1950, P. 27.

٢ Beiträge, S., 47, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 464, A. Jamme, A New Chronology of the Qatabanian Kingdom, in BOASOOR, NUM. 120, 1950, P. 26, Sabaen Inscriptions, P. 297.

٣ The Chronology, P. 9.

٤ « شهر يكل يهركب بن هوفعم » . يلفظ حرف « الجيم » بالكيمل على الطريقة المصرية .

٥ « عمكرب » .

٦ « غيلان » ، « غيلن »

٧ REP. EPIG. 4335.

عند قاعدتيهما كتابات قتبانية ، ورد فيهـا اسم المعمار (ثوبم)[1] (ثويب) ، وقد سبق أن عثر على كتابة ورد فيها اسم هذا المعمار وقد كتبت في عهد الملك (شهر يجل يهرجب) ، ومن اشتراك الاسمين استنتج (البرايت) ان التمثالين هما من عهد هذا الملك ، ويرى (البرايت) أيضاً ان هذين التمثالين صنعا على نمط صناعة التماثيل عند اليونان ، ولا يرتقي عهد صناعتهما الى أكثر من القرن الثاني قبل الميلاد ، لذلك لا يمكن في نظره أن يرتقي عهد هذا الملك الى أكثر من (١٥٠) سنة قبل الميلاد[2] .

ويظهر من الكتابة (Jamme 119) ان (ثوبم بن يشرح عم)[3] و (صبحم)[4] و (هوفعم) ، وهم من آل (مهصنعم)[5] اشتروا ونقلوا اسم البيت باسمهم، أي سجلوه باسمهم ، وسجلوا كل ما يتعلق بـــه من أبنية ومسقفات في الطابق الأرضي وفي الأعلى وذلك وفقاً لشريعة الإله (انبي) . وتيمناً بهـــذه المناسبة سجلوا شكرهم للآلهـــة (عثتر) و (عم) و (انبي) و (ورفو ذلفن) و (ذات صنتم) و (ذات ضهران) ، وكانت تلك المناسبـــة في أيام الملك (شهر يجل يهرجب بن هوفعم يهنعم) . وفي عهد (فرع كرب) من أسرة (ذرحن) ونائب الملك (شهر)[6] .

وقد استنتج بعض الباحثين من هذا النص أن (هو فعم) والد (شهر يجل يهرجب) كان شقيقاً لـ (فرع كرب) الذي كان نائباً عن الملك أو حاكماً يوم دوّن هذا النص . وقد كان من أسرة أو قبيلة (ذرحان) . وقد كان له ابن هو الملك : (يدع اب غيلان)[7] .

ويلاحظ أن هذه الأسماء تنطبق على الأكثر على مجموعة ملوك ذكرها (ألبرايت) في بحث له بعد اسم (شهر هلال يهنعم) وقبل (يدع أب ينف)[8] . وسيأتي

---

١ « ثوبم » ، « ثوب » ، « ثوأب » ، « ثويبم » ، « ثويب » .
٢ BOASOOR, NUM. 119, 1950, P. 9, The Chronology, P. 9.
٣ « تويبم بن يشرح عم » ، « ثويبم بن يشرحعم » ، « ثويب بن يشرحعم » .
٤ « صبح » ، « صباح » .
٥ « مهصنع » .
٦ Jamme 119, Discoveries, P. 188.
٧ Discoveries, P. 188.
٨ The Chronology, P. 8.

الكلام عنها فيما بعد . غير أن الزمان الذي قدره لحكم هذه المجموعة متأخر عن الزمان المذكور .

وقد وردت في نص من النصوص المعينية عبارة مهمة جداً لها علاقة بقتبان ، وبشخص ملكها (شهر يجل يهرجب) ، وبالحالة السياسية التي كانت في حكومة معين . ورد فيها ما ترجمته : (في يوم سيده وقه آل يثع وابنه اليفع يشر ملك معين ، وبسيده شهر يجل يهرجب ملك قتبان)[١] . وقد ذكر (هومل) أن كلمة (مراسم) في السطر الرابع من النص قد يمكن قراءتها (مرأس) ، ولو قرئت على هذه الصورة لكانت تعني أن (شهر يجل يهرجب) كان رئيساً على ملك (معين) وابنه ، وهذا يعني أن حكومة معين كانت خاضعة لحكومة قتبان في هذا العهد[٢] . ويرى (فلبي) أن ذلك كان حوالي سنة (٨٢٠ق. م.) وأن حكم (شهر يجل يهرجب) كان على رأيه أيضاً من سنة (٨٢٥ — ٨٠٠ ق. م.). وفي هذا العهد لم تكن (سبأ) قد كونت حكومتها بعد ، ومن المحتمل أن قبائلها كانت يومئذ كما يرى (فلبي) متحالفة مع قتبان[٣] .

ويرى (رودوكناكس) أن نص (Halevy 504) يشير الى أحد أمرين : تحالف بين معين وقتبان كان في عهد الملك (شهر يجل يهرجب) أو أن حكومة معين كانت حقاً خاضعة لسيادة قتبان[٤] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن حكم (شهر يجل يهرجب)[٥] ، كان في القرن الأول قبل الميلاد ، وفي حوالي السنة (٧٥ ق. م.) . وبناءً على ذلك يكون خضوع معين المذكور في النص في هذا الزمن ويكون (اليفع يشر) الذي نعتوه بالثاني من هذا العهد أيضاً . ويرون أيضاً أن استيلاء (قتبان) على معين لم يدم طويلاً ، لأن السبئيين سرعان ما

---

١ Glaser 1087, Halevy 504.
هذا النص هو من « براقش » ، وهنالك بعض مواضع فيه لا تزال غامضة « ملكي معن » ملكي معين ، Weber, Studien, I, S., 60. « بيومه مراسم ...
وب مراس شهر يجل يهرجب ، ملك قتبن » ، REP. EPIG. 2999.

٢ Hommel, Chrest. S., 95, Handbuch, I, S., 18, 71.

٣ Background, P. 56, REP. EPIG. 2999, Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 233.

٤ KTB., I, S., 36, II, S., 7.

٥ « شهر يكل يهركب » ، حرف « الجيم » عند أهل اليمن على نحو نطق المصريين في الزمن الحاضر بحرف « الجيم » . Le Muséon, 1964, 3-4, P. 446.

أخذوا زمام الأمور بأيديهم ، فاستولوا على معين . ثم إن الحميريين استولوا على الأرضين الجنوبية لقتبان الممتدة الى البحر فأضعفوا قتبان،حتى عجزت عن الهيمنة على المعينيين .

ولم يؤثر اعتراف (معين) بسيادة ملوك (قتبان) عليها في استقلالها الذاتي، إذ بقي ملوكها يحكمونها كما يظهر ذلك من الكتابة المذكورة : (Halevy 504) ومن كتابات أخرى . وقد جاء في كتابة (معينية) أمر بتدوينها الملك (اليفع يشر) ملك (معين) في عاصمته (قرنو) ، ذكر كاهنين من (كهلان) (كهلن) من قتبان ، حضرا حفلة تتويجه ، وربما يستشف من ذكر هذين الكاهنين الاشارة الى الروابط السياسية التي كانت بين معين وقتبان ، وأن حكومة (قرنو) كانت خاضعة لسيادة (قتبان) دون أن يؤثر ذلك في استقلالها الذاتي الذي كانت لتمتع به[1] ، أو أنها كانت قد تحالفت مع قتبان ، أو كونت اتحاداً دون أن يؤثر ذلك في الملكية في معين أو قتبان .

ولدينا نص مهم طويل ، هو قانون أصدره (شهر يجل يهرجب) باسمه وباسم شعب (قتبان)،لقبائل قتبان ، في كيفية الاستفادة من الأرضين واستثمارها وقد صدر هذا القانون بعد موافقة الملك عليه في اليوم التاسع ، وهو يوم ذو (اجيبو) (ذ اجيبو) من شهر (ذي تمنع) من السنة الأولى من سني (عم علي) من (آل رشم) من عشيرة (قفعن)[2] . ويظهر أن رؤساء القبائل وأعيان المملكة قد عقدوا اجتماعات عديدة ، وتداولوا الرأي في استثمار الأرض وقسمتها على القبائل والعشائر والفلاحين ، وبعد أن اتفقوا على الأسس رفعوها الى الملك فأصدر أمره باقرارها ، كما أقرها الكهان ، وكانت لمعابدهم أوقاف جسيمة يستغلها الفلاحون ، فلا بد أن يكون لهم رأي مهم في صدور أمثال هذه القوانين .

وذكرت في نهاية نص القانون طائفة من الأسماء كتبت بعد جملة (ايد هو) وتعني أن هؤلاء الذين سترد أسماؤهم قد قرأوا القانون ، وقد شهدوا على صحة

---

١ Background, P. 56.

٢ REP. EPIG., VI, I, P. 218, Glaser 2566, Grundriss, S., 33, Glaser, Alt. Jam. Nachr., S., 162.

صدوره من الملك فوقعوا بأيديهم عليه . وأنهم موافقون على كل ما جاء فيه ، وهم يمثلون بالطبع رؤساء القبـــائل وأعيان العاصمة والمملكة ، وقد ذكرت مع أسمائهم أسماء الأسر والعشائر التي ينتمون اليها ، فكانت لهذه الأسماء فائدة عظيمة في دراسة القبائل والأسر التي عاشت قبل الإسلام .

وقد وردت في النص كلمة (فقد) وكلمة (بتل) ، ويظهر منه ان لهاتين الكلمتين دلالة على معنى مجالس استشارية ، أو ما شابه ذلك ، كانت تمثل رأي طبقات من الناس ، مثل سادات القبائل أو أمثالهم من أصحاب الجاه والسلطان . فقد وردتا في النص بمعنى تقديم رأي الى الملك للموافقة عليه ، وذلك في شهر (ذوبرم) وفي السنة الثانية من سني (اشبن) من عشيرة (حضرن) (حضران) من قبيلة شهر[1] .

والى عهد الملك (شهر يجل يهرجب) ، تعود الكتابة التي دونها (عقريم بن ثويبم) (عقرب بن ثويب) من (آل مهصنعم) من عشيرة (صويعم) وذلك لمناسبة بنائه محلاً (خطبس) ، وذلك بحق الإله (انبي) . وقد تيمن بهذه المناسبة بذكر الآلهة (عثتر) و (عم) و (ورفو) و (ذات صنتم) و (ذات ضهران) ، وكان ذلك في عهد الملك المذكور[2] .

والى عهده أيضاً تعود الكتابة التي وسمت بـ (Jamme 874) ، وهي كتابة قصيرة ورد فيها ان (شهر يجل يهرجب ملك قتبان) وضع أو قدم[3] . ولم تذكر الكتابة شيئاً بعد ذلك .

وقد عثر على كتابة في (وسطى) ، ورد فيها اسم (شهر يجل يهرجب بن هوفعم يهنعم) ، وقد لقب فيها (مكرب) ، مع انه من الملوك وقد لقب في جميع الكتابات بلقب (ملك) . وقد حكم بعد (يدع اب ذبيان بن شهر) الذي ترك لقب (مكرب) واستعمل لقب (ملك) بزمن[4] . واستعمال كلمة

---

١ REP. EPIG., VI, I, P. 212, Glaser, Altj. Nach., S., 162, Conti Rossini, Chrest., P. 90.

٢ Discoveries, P. 191.

٣ BOASOOR, NUM. 138, (1955), P. 46.

٤ A. F. L. Beeston, Epigraphic and Archaeoligical Cleanings from South Arabia, Oriens Antiquus, I, 1962, P. 51, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 434.

(مكرب) في هذه الكتابة يلفت النظر ، اذ كانت الكتابات قد تركتها منذ زمن (يدع اب) ، فهل نحن اذن أمام ملك آخر اسمه نفس اسم (شهر يكل) (شهر يجل) واسم والده كاسم والد هذا الملك ، وقد كان مكرباً، فيجب علينا ادخاله اذن في جملة المكربين ، ونقله من هذا الموضع ؟ أو هل نحن أمام خطأ وقع فيه كاتب الكتابة ، اذ استعجل فكتب كلمة (مكرب) موضع لفظة (ملك) ؟ أو هل نحن أمام مصطلح فقط ، يبين لنا ان الحكام وان كانوا قد تركوا لقب (مكرب) ، الا ان الناس كانوا يطلقونها عليهم فيما بينهم على اعتبار ان لهم مقاماً دينياً عندهم ، وانها لا تنافي الملكية ، تماماً على نحو ما يفعل اليمانيون من اطلاقهم لفظة (إمام اليمن) و (ملك اليمن) على حكامهم وذلك لجمعهم بين الصفة الدينية والصفة الملكية في آن واحد ؟.

لقد تمكنا بفضل الكتابات المتقدمة من الوقوف على أسماء مجموعة من الملوك تنتمي الى عائلة واحدة اسم أول ملك منها هو (هوفعم يهنعم) ، غير اننا لا نعرف حتى الآن اسم والده، وكان له شقيق اسمه (فرع كرب) (فرعكرب) نسب نفسه الى (ذرحان) (ذرحن) ، فنحن نستطيع أن نقول ان هذه العائلة كانت من (ذرحان) ، وذلك في حالة ما اذا كان (هوفعم) و (فرعكرب) شقيقين تماماً أي من أب واحد وأم واحدة . وكان لـ (هوفعم) ولد تولى الملك من بعد والده هو (شهر يجل يهرجب) ، وقد أنجب (شهر يجل يهرجب) من الولد (وروايل غيلان) ، وقد تولى الملك ، و (فرع كرب يهوضع) وقد ولي الملك كذلك .

وأما (فرع كرب) شقيق (هوفعم يهنعم) ، فقد كان له من الولد (يدع اب غيلان) ، رأى جامه (Jamme) ، انه (يدع اب غيلان)المذكور في نص (هوفعم بن ثوبم) (Jamme 118) صاحب بيت (يفش)[1] . ولكننا لو أخذنا برأيه هذا لزم حينئذ وضع اسم (فرع كرب) بعد اسم ابن أخيه (شهر يجل يهرجب) ووضع اسم ابن (فرع كرب) بعده ، بينما تدل الدلائل على ان حكم (فرع كرب) كان قبل (هوفعم يهنعم) وان ابنه (يدع اب غيلان) كان من بعده ، ومعنى هذا انهما حكما قبل (شهر يجل يهرجب) .

---

١ Discoveries, P. 186, 192.

وقد جعل نص (Jamme 118) (فرع كرب) وصياً على (شهر يجل) أو حاكماً ولم يجعله ملكاً . ولذلك أرى ان في رأي (جامه) (Jamme) تسرع يجعل من الصعب قبوله على هذا النحو .

وكان للملك (شهر يجل يهرجب) ولد تولى الملك من بعده ، اسمه : (وروال غيلن يهنعم) (وروايل غيلان يهنعم) ، ويرى (البرايت) ان من المحتمل أن يكون هو (وروال غيلن) (ورو ايل غيلان) الذي وجد اسمه منقوشاً على نقود ذهب عثر عليها مضروبة في مدينة (حريب)[١] .

وقد وصل الينا نص يفيد ان الملك (وروال غيلن يهنعم) ، أمر وساعد قبيلة (ذو هربت)[٢] الساكنة في مدينة (شوم) ببناء حصن (يخضر) (يخضور) الواقع أمام سور مدينة (هربت) ، وكان قد تداعى فتساقط . وقد نفذت هذه القبيلة ما أمرت به في أيام هذا الملك، وجعلت العمل قربى الى الآلهة (عم ذو ذ ريمتم) (عم ذو ريمة) و (ذت رحبن) (ذات رحبان) و (الهن بيتن روين) أي و (آلهة بيت روين)[٣] .

وبين أيدي العلماء كتابة دونت في عهد الملك (وروايل غيلان يهنعم) (وروايل غيلان يهنعم) ، صاحبتها امرأة اسمها (برت) (برات) (برة) (برأت) من (بيت رثد ايل) (رثدال) من عشيرة (شحز) ، وقد ذكرت فيها أنها قدمت الى (ذات حمم عثتر يغل) ، تقربة هي ، تمثال من الذهب يمثل امرأة تقرباً الى الآلهة ، وذلك لحفظها ولحفظ أملاكها ، ووفياً لما في ذمتها تجاه الإله (عم ذريحو) . ويظهر أنها كانت كاهنة (رشوت) (رشوة) لمعبد الإله (عم) الكائن في (ريمت) ، وكان ذلك في عهد الملك (وروايل غيلان يهنعم)[٤] . فنحن في هذا النص أمام امرأة كاهنة مما يدل على أن النساء في العربية الجنوبية كن يصلن درجة (كاهنة) في ذلك العهد .

---

١ BOASOOR, NUM. 119, 1950, P. 12, The Chronology, P. 9.

٢ REP. EPIG. 4329, VII, II, P. 194, VI, II, P. 259, Le Muséon, 1-2, 1951, P. 113.

٣ REP. EPG. 4329, VII, II, P. 194, VI, II, P. 259, Le Muséon, 1-2, 1951, P. 113, SE 96.

٤ Discoveries, P. 191.

وكان للملك (وروال غيلن يهنعم) شقيــق اسمه (فرع كرب يهوضع) (فرع عكرب يهوضع) ، لا نعرف من أمره شيئاً يستحق الذكر . وقد ورد اسمه في النص المعروف بـ (Glaser 1415) وهو نص سجله رجل عند بنائــه بيتاً له ، وجعله في حماية آلهة قتبان،وذكر لذلك اسم الملكين : (وروال غيلن يهنعم) واسم شقيقه (فرع كرب يهوضع) ، (ابنا شهر)[1] ، ولم يــذكر في هذا النص لقب (شهر) .

وورد اسم ملك آخر من ملوك قتبان في كتابة رقمت برقم (REP. EPIG. 3962) وقد دوّنت هذه الكتابة عند بناء رجل من قتبان اسمه (برم)[2] حصنــاً له ، وإصلاحه أرضين زراعيــة ذات أشجار كثيرة مثمرة ، فسجل على عادة أهل زمانه أسماء آلهته فيها تيمناً بذكر اسمها وتقرباً اليها،لتغدق عليه الخير والبركة ، كما ذكر اسم الملك الذي تم هذا العمل في أيامه ، وهو الملك : (يــدع أب ينف يهنعم) (يدع أب ينوف يهنعم)[3] .

ولا نعرف من أمر هذا الملك شيئاً يذكر ، لعــدم ورود اسمه في نصوص أخرى ، وقد وجدت نقود من ذهب ضربت في (حريب) حملت اسم ملك قد ضربها سمي (يدع اب ينف) (يدع أب ينوف)[4]،فلعله هذا الملك المذكور في هذه الكتابة . ولا نعرف بالطبع وقت حكمه ، ولا موضع مكانه بين ملوك قتبان .

وورد في كتابة قتبانية عثر عليها في (كحلان) اسم ملك سمي (شهر هلل ابن ذراكرب) (شهر هلال بن ذرأ كرب) ، ولم يذكر فيها لقبه . وقــد ذهب بعض الباحثــين الى أن (شهرا) هذا ، هو الملك السابق (شهر هلل يهقبض) (شهر هلال يهقبض) ، وأن أباه هو (ذرأكرب) لذلك . وقد وضعه (ألبرايت) في خاتمة قائمته لملوك قتبان . وقد افتتحت الكتابة المذكورة بما يأتي : (قانون أصدره وأمر به شهر هلال بن ذرأ كرب ملك قتبان لشعب

١ Glaser 1415, SE 95, REP. EPIG. 3965, VII, I, P. 20.

٢ « برم » « بارم » ، « بريم » .

٣ REP. EPIG. 3962, VII, I, P. 17, SE 93.

٤ BOASOOR, NUM 119, 1950, P. 9, The Chronology, P. 9.

قتبان وذي علشن ومعين وذي عثّم أصحاب أرض شدو)[1] . وقد نظم هـذا القانون واجبات هذه الشعوب الأربعة في كيفية استغلال الأرض ، وعين الأعمال المترتبة عليها ، وانـذر المخالفين بفرض العقوبات عليهم ، وأشار الى الموظف الذي خول حق تنفيذ ما جاء فيه .

وقد أمر الملك باعلان أمره ونشره على باب (شدو) (زدو) كما يظهر ذلك من هذه العبارة : (ول يفتح هج ذن ذمحرن بخو خلفن ذ شدو ورخس ذعم خرف اب علي بن شحز قد من)[2] . أي (وليفتح هذا الأمر ، أي يعلن على طريق باب ذ شدو في شهر ذوعم من السنة الأولى من سني أب علي بن شحز أو من قبيلة شحز) ، أو من آل شحز . وجاءت بعد هـذه الفقرة جملة : (وتعلماي يد شهر) ، أي وقد علمته ، أي وقعته يد شهر ، بمعنى وقد وقعه شهر بنفسه . وقد خول الملك (كبر تمنع) ، أي (كبير مدينة تمنع) العاصمة بتنفيذ ما جاء في هذا الأمر الملكي[3] .

وقد حدد هـذا الأمر الوقت الذي يجب فيه على المزارعين تنفيذ التزاماتهم فيه ، فـذكر أنه من أول شهر (ذو فرعم) (ذو فرع) الى السادس من (ذي فقهو) ، يجب دفع الضرائب يوماً فيوماً وشهراً فشهراً . ويرى (رودوكناكس) أن شهر (ذو فرعم) هو الشهر الأول من السنة عند زراع قتبان ، وأن شهر (ذو فقهو) هو الشهر الأخير من السنة . وعلى هذا التقويم الـذي يستند الى الزراعة والبذر والحصاد كانت تدفع الضرائب[4] .

ويظهر من ذكر أسماء هذه الشعوب (اشعبن) الأربعة في هذا القانون ، انها كانت تحت حكم هذا الملك ، وان قسماً من شعب معين بل ربما كل شعب معين كان يخضع له . ويرى (رودوكناكس) ان في هذه الكتابـة دلالة على

---

١ « حلكم سحر وحرج شهر هلل بـن ذراكرب ملك قتبن شعب قتبن وذ علشن ومعنم وذ عثتم ابعل صروب عدو شدو ٠٠٠ » وذلك في كتاب : KTB., II, S., 5.
و « هنكم سهر وهرن شهر هلل بن ذراكرب ملك قتبن شعبن قتبن وذ علشن ومعنم وذ عثتم ابعل ضروب عدو شدو » ، وذلك في كتاب :
REP. EPIG., VI, II, P. 316, 3854.

٢ الفقرة الأخيرة من النص .

٣ الفقرة السادسة من النص .

٤ KTB., I, S., 82, II, S., 19.

ان شعب معين كان تابعاً لحكومة قتبان في عهد هذا الملك، كما كان تابعاً لقتبان في ايام الملك (شهر يجل يهرجب) ، ولكن ذلك لا يعني في نظره ان شعب (معين) كان قد فقد استقلاله ، ولم يكن عنده ملوك ، وعنده ان هذا النص قد أقدم عهداً من النص المرقم برقم Halevy 504 ، وهو النص الذي ورد فيه اسم (شهر يجل يهرجب) على انه كان صاحب سلطان على حكومة معين . فـ (شهر هلل بن ذرأ كرب) في نظر (رودوكناكس) أقدم عهداً من (شهر يجل يهرجب) ، وقد حكم اذن قبله[1] .

وعندي ان هذه الكتابة تدل على ان من المعقول وجوب تقديم هذا الملك ونقله من المكان الذي وضعه فيه (البرايت) الى مكان آخر يقدمه في الزمان . فقد وضعه (البرايت) في آخر قائمة ملوك قتبان ، وبه ختم حكومة قتبان وأشار الى نزول الدمار بالعاصمة بعده وبسقوط حكومة قتبان وان ملكاً يحكم قتبان ومعين أو قسماً من معين كما يفترض بعض الباحثين ، لا يمكن أن يكون آخر ملك للملوك قتبان للسبب المذكور ، بل لا بد من تقديمه بعض الشيء ، فان سقوط المملكة دليل على ضعفها وانهيار بنيانها وليس في هذه الكتابة أثر ما يشير الى هذا الضعف أو الانهيار .

وعثر على كتابة تحمل اسم ملك يسمى (شهر هلل يقبض) عثر عليها في بيت عرف بـ (يفعم) ، يقع غرب الباب الجنوبي لمدينة (تمنع) . ويرى (البرايت) ان خط هذه الكتابة خط متأخر كسائر الخطوط المكتوبة على الأبنية وان المحتمل أن يكون هذا البيت قد بني قبل خراب (تمنع) ، بنحو عشر سنين أو عشرين سنة ، ولا يزيد عمر هذا البيت في رأيه على هذا الذي قدره بكثير[2] .

ويرى (البرايت) احتمال ان (شهر هلل) (شهر هلال) الذي وجد اسمه على سكة من ذهب ضربت في مدينة (حريب) ، هو هذا الملك ، أي (شهر هلل يهقبض) (شهر هلال يهقبض)[3] . ويرى (فون وزمن) ان حكم الملك (شهر هلل يهقبض) (شهر هلال يهقبض) كان فيما بين السنة (٩٠) والسنة

---

١ KTB., I, S., 34, II, S., 7.

٢ BOASOOR, NUM. 119, 1950, P. 13.

٣ The Chronology, P. 9.

(١٠٠) بعد الميلاد[1] . وفي عهده أو فيما بين السنة (١٠٠) والسنة (١٠٦) وقع خراب (تمنع) عاصمة قتبان[2] .

وقد عثر على حجر مكتوب في موضع (هجر بن حميد) ، جاء فيه اسم ملك يدعى (نبط بن شهر هلال) ، ومعه اسم ابن له هو (مرثد) . وقد ذهب (ألبرايت) الى أنه من الملوك الذين حكموا في (حريب) والأرضين المتصلة في المناطق الغربية من (قتبان) ، وذلك بعد سقوط مدينة (تمنع) فيما بين سنة (٢٥ ق. م.) والسنة الأولى من الميلاد[3] ، فهو على رأيه من الملوك المتأخرين الذين تعود أيام حكمهم إلى أواخر أيام هذه المملكة .

والملك المذكور هو (نبط عم يهنعم بن شهر هلل يهقبض) ، فهو إذن ابن الملك (شهر هلال يهقبض) الذي يعدّ آخر الملوك المتأخرين . ويظهر أن (نبط عم) وابنه (مرثدم) (مرثد) كانا في جملة الملوك الذين انتقلوا الى (حرب) (حريب) بعد خراب (تمنع) فاتخذوها عاصمة لهم . فهي العاصمة الثانية لقتبان . وقد سكنوا في قصرهم بـ (حريب) ، ولعلّ هذا الاسم هو اسم القصر ، أما اسم المدينة ، فقد كان غير ذلك ، تماماً كما كان قصر ملوك سبأ الذي هو بمدينة (مأرب) يسمى (سلحين) وقصر ملوك حمير الذي هو بمدينة (ظفار) يسمى (ريدان) . ولعل هذا هو السبب الذي جعل ضاربو النقود القتبانية يذكرون أن موضع الضرب هو (حريب)[4] . غير أن هذا لا يمنع من أن يكون اسم (حريب) اسم للمدينة ولقصر الملوك في آن واحد .

ويرى (فون وزمن) أن الكتابة الموسومة بـ (Jamme 629) والتي تتحدث عن حرب اشتركت فيها جملة جهات ، هي حرب وقعت في عهد هذا الملك : (نبط عم) . وقد ورد فيها أن حرباً وقعت على مقربة من (وعلان) ،وأن أصحاب الكتابة وهم:(مرثدم) (مرثد) و (ذرحان) من (بني ذو جرفم) بني (ذي كرفم) (كراف) ، وكان أحدهم قائداً في جيش (الملك سعد

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 465.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 496.

٣ W. Phillips, P. 221, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 464, Beeston, Epigraphic, In Oriens Antiqus, I, 1962, P. 47, Albright, In Jour. Ameri. Soc., 73, 1953, 97.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 464.

شمس أسرع) و (مرثدم يهحمد) ملكا (جرات) (جرت) (جرأت) (كرأت) قد اشتركتا في هذه الحرب ضد الملك (يدع ايل) ملك حضرموت وجيش حضرموت ، وضد الملك (نبطم) (ن ب ط م) ملك قتبان ، وضد (وهب ايل بن معاهر) و (ذي خولان) و (ذي خصبح) وضد (مذحيم) (مذحي) ، وقد كان النصر لهم ، أي لأهل الكتابة[1] .

وقد استدل (فون وزمن) من عدم ورود كلمة : (هجرن) (هكرن) ، التي تعني مدينة في العربيات الجنوبية قبل اسم (تمنع) ، (عدي خلف تمنع) على ان (تمنع) لم تكن عاصمة في هذا الوقت ، بل كانت موضعاً صغيراً أو اسم أرض حسب[2] .

ولا يستبعد أن تكون هذه الحرب قد وقعت في أواخر أيام (نبط عم) . ويرى (فون وزمن) ان (نبط عم) وان كان قد لقب في الكتابة بلقب (ملك) الا انه كان في الواقع خاضعاً لحكم حكومة حضرموت[3] . وقد جعل (فون وزمن) زمان حكمه في حوالي السنة (١٢٠ م) وجعل نهاية حكم ابنه في حوالي السنة (١٤٠) بعد الميلاد . ومعنى ذلك ان الحرب المذكورة قد وقعت في خلال هذه السنين[4] .

وبعد انتهاء هذه الحرب اجتمع صاحبا الكتابة وهما من (بني ذي كرفم) (بن ذ جرفم) وكانا يقيمان في (صنعو) أي صنعاء ، وكذلك ملكا (جرات) (كرأت) و (سعد شمس) و (مرثدم) وجماعة من سادات القبائل في موضع (رحبت) (الرحابة) ، شمال (صنعاء) في وسط أرض (سمعي) ، وكان في جملة من حضر ، سادة (ثلث سمعي) و (شرحثت) من قبيلة (بتع) و (الرم) (ايل رام) (الريام) (ريام) من (سخيمم) (سخيم) (ويرم) (يارم ايمن) من همدان . ويظهر من ذلك ان سادة (كرأت) ، كانوا أصحاب نفوذ في تلك الأيام[5] .

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 463.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 464.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 464.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٥ Le Muséon, 1964, P. 465.

يتفق جميع الباحثين في دراسة تأريخ الحكومات العربية الجنوبية على ان السبئيين هم الذين قضوا على استقلال حكومة قتبان . ولا نجد أحـداً منهم يخالف هذا الرأي ، ولكنهم يختلفون في تعيين الزمن وتثبيته . فبينما نرى (فلبي) ، يجعل ذلك في حوالي سنة (٥٤٠ ق. م.)[١] ، نرى (البرايت) يجعل سقوط مدينة (تمنع) في حوالي سنة (٥٠ ق. م.)[٢] ، بينما يرى غيره ان خراب (تمنع) كان فيما بين السنة (١٠٠) والسنة (١٠٦) بعد الميلاد[٣] .

ولا يعني سقوط (تمنع) وخرابها وفقدان القتبانيين لاستقلالهم ، ان الشعب القتباني قد زال من الوجود ، وان اسمه قد اندثر تماماً واختفى ، فاننا نرى ان الجغرافي الشهير (بطلميوس) يذكـر اسمهم في جملة من ذكرهم من شعوب تقطن في جزيرة العرب ، وقد سماهم (Kottabani) و (Kattabanoi)[4] .

وقد ذهب بعض الباحثين الى ان خراب (تمنع) كان بعد السنـة العاشرة للميلاد . وربما كان ذلك في أيام (جوليو – كلوديان) (Julio-Claudian) ، أو في أيام (فلافيان) (Flavian)[٥] .

وقد استدل (البرايت) من طبقة الرماد الثخينة التي عثر عليها وهي تغطي أرض العاصمة (تمنع) ، على أنها كانت قد أصيبت بحريق هائل ربمـا أتى على كل المدينة . وقد أتى هذا الحريق على استقلال المملكة[٦] . ولا نعلم علماً أكيداً في الوقت الحاضر بالأسباب التي أدت الى حدوث ذلك الحريق ، ولكن لا أستبعد احتمال حرق السبئيين لها عنـد محاربتهم للقتبانيين ، فقد كان من عادتهم ومن عادة غيرهم أيضاً حرق المدن والقرى اذا مانعت من التسليم وبقيت تقاوم المهاجمين. وفي كتابات المسند أخبار كثـيرة عن حرق مدن وقرى حرقاً كاملاً الى حد الافنـاء .

١ Background, P., 144.

٢ The Chronology, P. 9.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 463.

٤ Paulys — Wissowa, 20 ter Halbband, S., 2359.

٥ BOASOOR, NUM. 160, (1960), P. 15.

٦ BOASOOR, NUM. 119, (1950), P. 9.

قبائل وأسر قتبانية :

وردت في ثنايا الكتابات القتبانية أسماء أسر وقبائل قتبانية عديدة ، طمست أسماء أكثرها ولم يبق منها حياً الى زمن ظهور الإسلام غير عدد قليل ، هذه الأسماء تفيدنا ولا شك ، في دراسة أسماء القبائل العربية فائدة كبيرة . والقبيلة هي (الشعب) في لهجة أهل قتبان ، والجمع (اشعب) (أشعب) ، أي قبائل . ومن هذه الأسماء (جدنم) ،أي (جدن) (بنو جدن)[1] . و (جدن) من الأسماء المعروفة قبل الاسلام أيضاً . وهو اسم جد واسم موضع ، فزعم أن (ذا جدن) الأكبر ملك من ملوك حمير ،وهو أحد المثامنة من ولده ذو جدن الأصغر[2] . وقد يكون لما ذكره أهل الأخبار عن (ذي جدن) علاقة بـ (جدن) المذكورين في الكتابات القتبانية وفي الكتابات العربية الجنوبية الأخرى .

وكان موضع (حبب) (حباب) من أمكنة (جدنم) (جدن) . وقد ذكر في عدد من الكتابات . ويقال له اليوم (وادي حباب) وفيه مواطن عديدة ، منها : (حزم الدمّاج) و (خربة المسادر) . وقد ورد اسم (ذحب) (ذو حباب) في كتابة كتبت عند انشاء سدّ لخزن المياه . ويقع (وادي حباب) في غرب (صرواح)[3] .

وفي جملة القبائل أو الأسر التي ورد اسمها في الكتابات القتبانية اسم (يهر) ويظهر ان (آل يهر) كانوا من أصحاب السلطان والصيت في ذلك العهد ، وقد ذكروا مع أسر أخرى . ووردت في الموارد الاسلامية إشارات الى (ذي يهر) فذكر (الهمداني) انه كان في محفد (بيت حنبص) آثار عظيمة من القصور، وكان قد بقي منها قصر عظيم كان أبو نصر وآباؤه يتوارثونه من زمان جدهم ذي يهر . وكان بنجارته وأبوابه من عهد ذي يهر ، ولم يزل عامراً حتى سنة خمس وتسعين ومئتين حيث أحرقه (براء بن الملاحق القرمطي)[4] . وذكر

---

١ REP. EPIG. 850, VI, I, P. 224.

٢ منتخبات (ص ١٨) ، الاكليل (٧٦/٨) ، « نبيه » ، شعراء النصرانية (ص ٢١٧) تاج العروس (١٦٠/٩) .

٣ Beitrage, S., 22, Glaser, 928.

٤ الاكليل (٥١/٨ فما بعدها) ، « نبيه » (٦٤/٨) ، « الكرملي » « ونزله ابن ابي الملاحف القرمطي ، قائد علي ابن الفضل ، وسلط عليه النار » ، الاكليل (١ / ١٢) .

(نشوان بن سعيد الحميري) ان (ذا يهر) كان ملكاً من ملوك حمير (أسعد تبع) قال فيه شعراً[1] ، وغير ذلك مما يدل على ان ذاكرة أهل الأخبار لم تكن تعي شيئاً من أمر تلك القبيلة التي يمتد تأريخها الى ما قبل الميلاد . ويتبين من بعض الكتابات ان ناساً من (يهر) كانوا أتباعاً لقبيلة همدان[2] . وأما (كحد) فهي من القبائل التي ورد اسمها مراراً في الكتابات القتبانيـــة ، وقد نسبت الى جملة أمكنة ، مما يدل على انها كانت تنزل في مواضع متعددة . فورد (كحد ذ دتنت) ، أي (كحد) النازلة في أرض (ذي دتنت) ، وورد (كحد ذ حضنم) ، أي (كحد) صاحبة (حضنم) (حضن) ، وورد (كحد ذ سوطم) ، أي (كحد) النازلة في موضع (ذي سوط) ، وهكذا . وفي انتشار هذه القبيلة في أرضين متعددة دلالة على انها كانت من قبائل قتبان الكبيرة. وفي نص في النصين المعروفين بـ : (Glaser 1600) و (Glaser 1620) على انها كانت (شعبن) ، أي قبيلة .

ويظهر انها كانت تتمتع بشبه استقلال ، فقد ذكرت باسمها مع (أوسان) و (تبني) و (دهس) ، و (قتبان) في بعض النصوص ، متعاونة مـــع (قتبان) في القيام ببعض الأعمال العامة ذات المنافع المشتركة ، مما يدل على انها هي والقبائل الأخرى المذكورة ، كانت تعامل معاملة خاصة ، وانها كانت تتمتع بشيء من الاستقلال ، وربمـــا كانت مستقلة ولكنها كانت في حلف مع مملكة قتبان[3] .

وقد تحدثت عن كتابة رقمت برقم (Glaser 1601) ، وقلت انها أمر أصدره الملك (شهر غيلن بن اب شبم) (شهر غيلان بن ابشبم) ، في كيفية جباية الضرائب من (كحد) النازلة في أرض (دتنت) ، وان الملك المذكور كان قد وكل أمر جبايتها الى (كبر) (كبير القبيلة) ، ويظهر منها ان (كحداً) هذه كانت تدفع الضرائب لقتبان ، وكانت معترفة في هذا الوقت بسيادة ملك قتبان عليها .

---

١ منتخبات (ص ١١٨ فما بعدها) ، « وذو يهـــر محركة وقـــد يسكن ، واقتصر الصاغاني على التحريك • ملك من ملوك حميـــر من الاذواء » ، تـــاج العروس (٣/٦٣٢) القاموس (٣/١٦٤) •

٢ نشر (ص ٧٠) ، CIH, IV, I, IV, P. 370, (331).

٣ Glaser 1600, REP. EPIG. 4328.

ومن القبائل التي ورد اسمها في الكتابات القتبانية قبيلة (اهربن) وقد نعتت بـ (شعبن اهربن) ، أي قبيلة (اهربن) (أهرب) . وكانت مواضعها في (ظفر)[1] . وقد ورد في إحدى الكتابات أنها جددت وأصلحت بناء (محفدن حضرن) ، أي (محفد حضر) ، مما يدل على أنه كان من المحافد التي تقع في منازل هذه القبيلة[2] .

و (ذران) (ذرأن) من القبائل التي ورد اسمها مراراً في الكتابات القتبانية. وقد رأينا أن بعض الكتابات أرخت بتأريخ هذه القبيلة[3] .

وورد اسمها في كتابات عثر عليها بمدينة (تمنع) العاصمة[4] . ومن هذه القبيلة أسرة عرفت بـ (هران) (هرن) ، ذكرت مع أسر أخرى ، كانت قد شهدت على صحة محضر قانون في تنظيم الضرائب وكيفية جبايتها ، أصدره الملك (شهر يجل يهرجب)[5] .

وورد اسم قبيلة أو عشيرة (طدام) (طدأم) في جملة كتابات قتبانية . ويرى بعض الباحثين أن اسم هذه القبيلة هو من الأسماء الخاصة بقتبان[6] .

ومن بقية قبائل قتبان : قبيلة (هورن) (هوران)[7] ، وقبيلة (قلب) (قليب) . وقد ذكر (ابن دريد) في كتابه (الاشتقاق) قبيلة تدعى (بني القليب)[8] ، ويذكرنا هذا الاسم باسم هذه القبيلة القديم[9] . و (ردمن) (ردمان) و (الملك) و (ملحيم) و (هيبر)[10] و (يجر) ، وهم أسرة أو قبيلة أرخت بعض الأوامر والقوانين بتأريخهم[11] . و (رشم) (آل رشم)

---

١ ربما تنطق على هذا الشكل « ظفار » و « ظفر » هذه ، من مواطن هذه القبيلة ، وليست مدينة « ظفار » .

٢ Le Muséon, LXIV, 1-2, 1951, P. 126.

٣ SE 80 a.

٤ Le Muséon, 1-2, 1953, P. III, REP. EPIG. 2646, 3017 bis 2.

٥ REP. EPIG. VI, I, P. 218, Glaser 2566, Altj. Nachr., S., 162, Grundriss, S., 33.

٦ Orientalia, Vol., I, 1932, P. 26, REP. EPIG., VII, I, P. 80.

٧ REP. EPIG. 3550, VI, I, P. 197, SE 90.

٨ الاشتقاق (ص ١٢٦) .

٩ REP. EPIG., I, 5, P. 261.

١٠ KTB., I, S. 8.

١١ Glaser 1413 = 1613, SE 62, REP. EPIG VI, II, P. 275.

(رشام) ، وهم من (آل قفعن) ، (آل قفعان) ، ومنهم (عم علي) الذي أرخت به بعض الكتابات ، ومن (شحز) (سمكر) .

ومن أسماء القبائل القتبانية الواردة في الكتابات : (دهسم) (دهس)[1] ، و (يجر) ، و (حضرم) ، و (تبني) ، و (ذرحن) (ذرحان) ، و (بوسن) (بوسان) ، و (معدن) (معدان) ، و (اجلن) (أكلن) (اجلان) (اكلان) ، و (شبعن) (شبعان) ، و (فقدن) (فقدان) ، و (ذمرن) (ذمران) ، و (اجرم) (أجرم) ، و (ليسن) (ليسان)[2] ، و(يسقه ملك) ، و (عرقن) ، (بنــو عرقان) (بن عرقن) ، و (برصم) (بنو برصوم) (بنو برصم)[3] ، و (قشم) (بن قشم) (بنو قشم)[4] ، و (بينم) (بنو البين) ، و (يرفأ) (يرفا) ، و (غريم) (غرب) (غارب)،وهم من (نششان) ، و (محضرم) (محضر) و (عبم رشوان) (عبم رشون) و (مرجزم) و (خلبان) (خلبن) و (هران) من (ذرأن)، وقبائل عديدة أخرى .

ويرى بعض الباحثين أن (الملك) (المالك) ، الذين كانوا في عهد الملك (يدع أب ذبيان) واللذين ذكروا مع (ردمان) و (مــذحي) (مذحيم) و (يحر) ، هم قبيلة من القبائل الكبيرة التي كانت في قتبان في ذلك العهد . ويرون أن لهم صلة بـ (العماليق) المذكورين في التوراة . وقد كانوا يسكنون في (وسر) ، وهي أرض (العوالق) العالية في هذا اليوم . ونظراً الى مــا لكلمة (عوالق) و (المالك) من صلة ، ذهبوا الى أن العوالق هم (المالك) (الملك) المذكورون[5] .

ويرى (فون وزمن) احتمال ان (الملك) (المالك) من القبائل التي كانت تنزل فيما بين (ردمن) (ردمان) و (مفحيم) (مفحي) ، وقــد عدل

---

١ REP. EPIG. 2549, VI, I, P. 202.

٢ REP. EPIG. 3560, VI, I, P. 212.

٣ Le Muséon, LXII, 1-2, 1949, P. 60, Ryckmans, 366.

٤ REP. EPIG. 3856, VI, II, P. 319.

٥ Beiträge, S., 59.

بذلك رأيه السابق الذي كان قد جعل منازل تلك القبيلة في أرض (أوسان)[1] .

كما ذهب الى ان منازل (بحر) لم تكن في أرض (مراد) ، لأن (مراداً) هي (حرمتم) . وذهب الى ان (بحر) هـذه ، تختلف عن (بحر) القبيلة المذكورة في النص : (REP. EPIG. 4336)[2] .

وأما (شيّار) (سيار) ، الذين ذكروا في نص الملك (يدع اب ذبيان) بعد (وعلان) فانهم (سيار) في الوقت الحاضر على بعض الآراء . وهم عشيرة صغيرة منعزلة تعيش في أرض (العوذلة) (العوذلي) ، ويرى بعض الباحثين ان موضع (حصى) ، هو مكان (شيار)[3] .

وفي (حصى) ، خرائب وآثـار . وقد ذكـر (الهمداني) انـه كان لـ (شمر تاران) وفيه قبره . وذكر في كتابة (الإكليل) ، ان في (حصى) قصر لـ (شمر تاران لهيعة) من (رعين) وفيه قبره[4]. وذكر من زار الموضع من السياح المستشرقين ، انه رأى هناك آثار خرائب واسعة ذات حجارة ضخمة وكتابات كثيرة وتماثيل بحجم الانسان[5] . ولا يستبعد أن يكون هذا الموضع مدينة مهمة كبيرة من مدن تلك الأيام .

مدن قتبان :

أهم مدن قتبان ، هي العاصمة (تمنع)[6] ، وتعـرف حديثاً بـ (كحلان) وبـ (هجر كحلان) في (وادي بيحان)[7] في منطقـة عرفت قديماً بخصبها وبكثرة مياهها وبساتينها ، ولا تزال آثار نظم الري القديمة تشاهد في هذه المنطقة

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 434.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 434.

٣ Beiträge, S., 60.

٤ Beiträge, S., 62.

٥ Beiträge, S., 62.

٦ « تمنع » ، وقد حرف بعض المترجمين للكتب الأعجمية اسم هذه المدينة المدون في المسند ، وهو « تمنع » فصيره « تمنه » « تمنة » .

٧ حرف بعض المترجمين للكتب الغربية هذا الاسم ، فصيروه « وادي بيهان » . وهو خطأ .

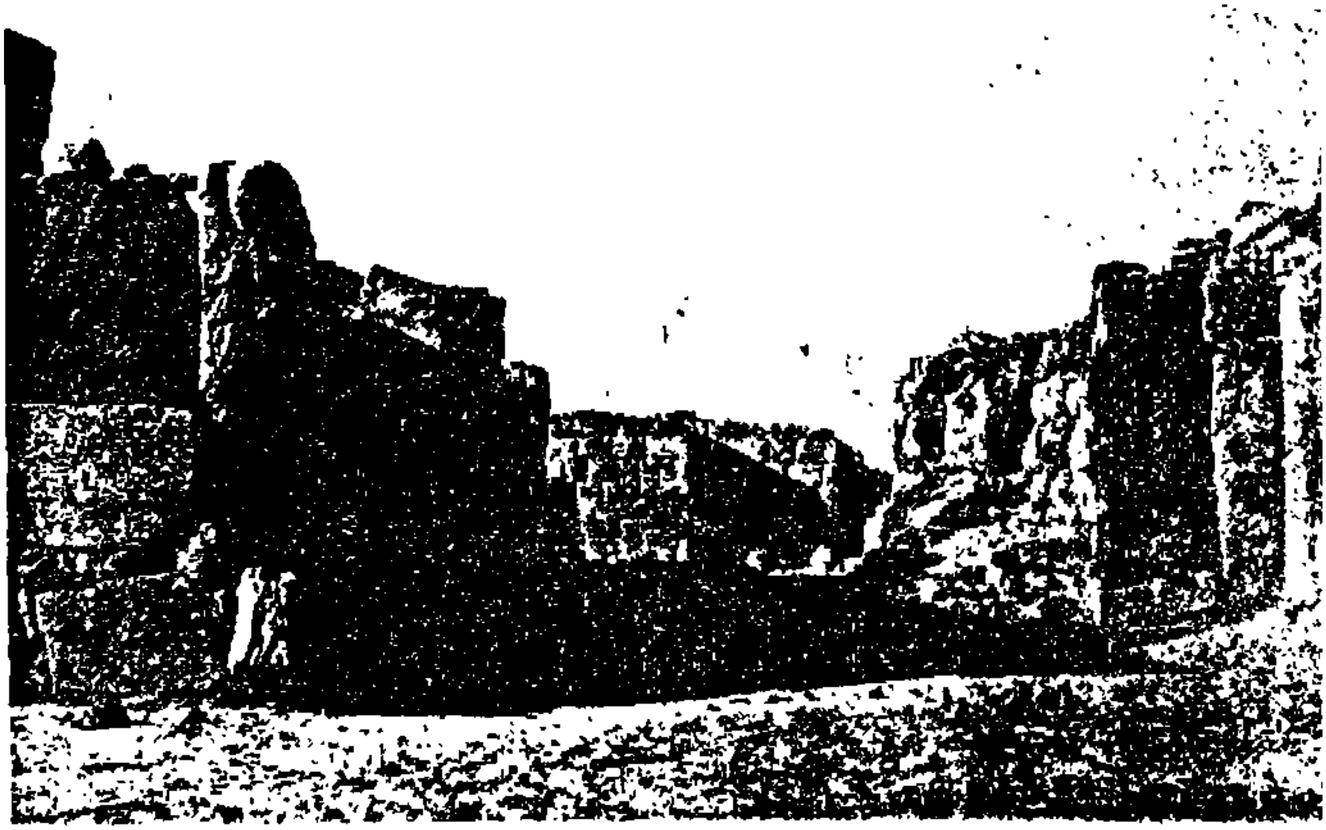

الجاب الجنوبية لمدينة « تمنع » . وقد كانت هذه الآثار
مطمورة تحت الرمال ويعود تأريخها الى القرن السادس قبل الميلاد
من كتاب « Qataban and Sheba » (الصفحة ١١٨)

حتى اليوم[١] .

و (تمنع) هي (Tamna) [٢] أو (Thomna)[٣] و (Thumna) عند (الكلاسيكيين)[٤] . وقد اختلف علماء العربيات الجنوبية المتقدمون في تعين مكان هذه العاصمة التي بلغت شهرتها اليونان والرومان[٥] . ثم تبين أخيراً انها الخرائب التي تسمى اليوم بـ (كحلان) وبـ (هجر كحلان) . وقد أثبتت هذا الرأي

١ Background, P. 63, Ency., Vol., 2, P. 811, Rhodokanakis, Die Inschriften an der Mauer von Kohlan, Timm', in BAK, Wien, 1924, CC/II, 8.

٢ Ency., 2, P. 811, Glaser, Abess., S., 112.

٣ Pliny, 2, P. 453, (H. Rackham), Loeb, Classical Library, BK., 6, 153-154.

٤ Ency., 2, P. 811, (Thomala), Sprenger, Georg., S., 160, Ptolemy, VI, 7, 37.

٥ Glaser, ZDMG., XIIV, 184, Skizze, 2, 18, Abessl., S., 112, 115, Hommel, Grundriss., S., 137, Ency., 2, P. 811.

وأيدته الحفريات التي قامت بها البعثة الأمريكية التي كوّنها (ويندل فيلبس)، اذ عثرت على كتابات عديدة وعلى آثار أثبتت ان (كحلان) اليوم ، هي (تمنع) أمس ، سوى ان (تمنع) اليوم هي خراب وأتربة تؤلف حجاباً كثيفاً يغطي الماضي الجميل البعيد . أما (تمنع) أمس ، فكانت مدينة عامرة ذات ذهب وتراث ومعابد عديدة ، ووجوه ضاحكة مستبشرة . هذا هو وجه (تمنع) في هذا اليوم ووجهها في الماضي وفرق كبير بين هذين الوجهين .

ويرى (أوليري) أن مدينة (ثومة) (Thouma) المذكورة في جغرافية (بطلميوس) هي مدينة (تمنع)[1] . وقد ذكر (بلينيوس) أن (Thomna) تبعد (٤,٤٣٦) ميلاً من (غزة) ، وتقطع هذه المسافة بخمس وستين يوماً تقريباً على الإبل ، وأنها هي ومدينة (Nagia) هما من أكبر المدن في العربية الجنوبية ، وبها خمسة وستون معبداً[2] .

وقد اختارت البعثة الأمريكية البقعة الجنوبية من مدينة (تمنع) الكائنة على مقربة من بابها الجنوبي لتكون الموضع الذي تسرق منه أخبار الماضين ، وتنبش فيه الأرض لتسألها عن أخبار الملوك ومن كان يسكن هذه المدينة من أناس . وسبب اختيارها هذه البقعة وتفضيلها على غيرها من خربة هذه المدينة التي تقدر مساحتها بستين فداناً ، أنها تكشف عن نفسها بين الحين والحين بتقديم اشارات تظهرها من خلال الرمال المتراكمة عليها ، لتنبىء أن في بطون تلال الرمال كنوزاً تبحث عن عشاق لتقدم نفسها اليهم ، وعن هواة البحث عن الماضي لتبث لهم هوى أهل (قتبان) ، وأخبار عاصمتهم الحبيبة ذات المعابد الجميلة العديدة التي ذهبت مع أهلها الذاهبين ، كما اختارت بقعة أخرى لا تبعد عن ركام (تمنع) غير ميل ونصف ميل لتكون مكاناً آخر تحفر فيه لتستخرج منه حديثاً عن الماضي البعيد . وسبب اختيارها لهذا المكان أنه كان مقبرة أهل (تمنع) والمقابر من المحجات التي يركض خلفها المنقبون ، لأنهم يجدون فيها أشياء

---

١ O'Leary, P. 97, Ptolemy, 6, 7, 37.

٢ O'Leary, P. 97, Pliny, 6, 32.

كثيرة تتحدث عن أصحابها الثاوين فيها منذ مئات من السنين[1] .

وكان موضع (هجر بن حميد)[2] ، وهو على تسعة أميال من جنوب آثار مدينة (تمنع) ، مكاناً آخر من الأمكنة التي اختارتها البعثة للحفر فيها . وهو عبارة عن تل بيضوي الشكل يرتفع زهاء سبعين قدماً ، يظهر أنه كان قرية مهمة في ذلك العهد ، طمرها التراب فصارت هذا التل العابس الكئيب . وقد سبق أن عثر في هذا الموقع على آثار ، منها لوح من البرنز صغير ، عليه رسوم وكتابات،عثر عليه أحد الأعراب هناك . ولهذا تشجع رجال هذه البعثة الأمريكية على الحفر في هذا الموضع[3] .

وكان من نتائج أعمال الحفر عند الباب الجنوبي لمدينة (تمنع) أن عثر على آثار ذلك الباب الذي كان يدخل منه الناس الى المدينة ويخرجون منه من هذه الجهة ، كما عثر على أشياء ثمينة ذات قيمة في نظر علماء الآثار ، إذ عثر على قدور كبيرة وعلى خرز وكتابات وأقراص صنعت من البرنز والحديد . وعثر على شيء آخر قد لا يلفت نظر أحد من الناس اليه ، وقد يجلب السخرية على من يذكره ويتحدث عنه لتفاهته وحقارته في نظر من لا يهتم بالآثار وبالنبش في الخرائب ، ذلك الشيء التافه الحقير هو طبقات من رماد وبقايا خشب محروق ومعادن منصهرة وقطع من حجارة منقوشة وغير منقوشة ، وقد لبست ثوباً من السخام كأنها لبسته حداداً على تلك المدينة التي كانت جميلة فاتنة في يوم من الأيام . أما ذلك الرماد ، فإنه صار في نظر رجال البعثة علامة على أن المدينة

---

١ اعتمدت على النسخة المعربة لكتاب « وندل فيلبس » المسماة « كنوز مدينة بلقيس : قصة اكتشاف مدينة سبا الاثرية في اليمن » ، ترجمة عمر الديراوي ، ونشر دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦١ م ، وهي نسخة قد حرفت فيها الأعلام العربية تحريفا معيبا ، مثل « تمنع » وبيحان وقتبان ، وشبوة وصبلقة ويفش ، وحريضة وحريب وغيرها فحرفت الى تمنه وبيهان وقطبان وشابوا ومابلاقاويافاش وحريدة وحارب وهكذا ، وقد كان في امكان المترجم مراجعة الكتب العربية أو الاشخاص لضبطها . وما كنت لاشير الى هذه الاغلاط ، لولا خشيتي من وقوع من لا علم له بهذه الأمور فيها باعتماده على النقل .

٢ « هجر » ، ومعناها « مدينة » في اللهجات العربية الجنوبية وفي اللغة الاثيوبية ، وتلفظ « هكر » ، على الطريقة المصرية الان في النطق بحرف الجيم . ولكن الشائع بين الناس « حجر بن حميد » ، وهو خطأ شائع ، The Chronology, P. 5.
Wendell Phillips, Qataban and Sheba, London, 1955, PP. 58, 64, 119, 166.

٣ كنوز مدينة بلقيس (ص ٥٧) ، The Chronology, P. 5.

المذكورة المسكينة كانت قد تعرضت لحريق هائل أحرق المدينة وأتى عليها ، ولعل ذلك كان بفعل عدو مغير أراد بها سوءاً ، فقاومته وعصته ولكنه تمكن وتغلب عليها ، فعاقبها بهذا العقاب الجائر المؤلم .

وفي جملة ما عثر عليه من كتابات ، كتابة ورد فيها اسم الملك (شهر يجل يهرجب) (شهر يكل يهركب)[1] ، وكتابات أخرى ورد فيها أسماء حكام آخرين[2] . كما عثر على عمودين كتب على كل واحد منها كتابة تبلغ زهاء خمسة وعشرين سطراً ، وعلى كتابات على جدار بيت (يفش)[3]، وهو بيت معروف وقد حصل السياح على كتابات ورد فيها اسم هذا البيت ، وعلى كتابة عثر عليها على بيت (ينعم)[4] ، وقد ورد فيها اسم الملك (شهر هلل يهقبض) ، وهو من البيوت المعروفة في هذه العاصمة . ويرى ان عمره لا يتجاوز عشرين سنة عن خرابها[5] .

وقد ساعد عثور البعثة الأمريكية على غرف بيوت سليمة أو شبه سليمة رجال البعثة على تكوين رأي في البيوت القتبانية . فقد وجدت في البيت الذي سمي ببيت (يفش) ، ثلاث غرف ممتدة على الجهة الشرقية للبيت . وقد وجدت في احدى الغرف مَرايا صنعت من البرنز وصناديق محفورة منقوشة وعليها صور ورسوم ، لها قيمة تأريخية ثمينة من ناحية دراسة الفن العربي القديم[6]. وسوف تقدم الحفريات في المستقبل صوراً واضحة ولا شك للبيوت العربية الجنوبية وتنظيم القرى والمدن فيها ، وعندئذ يكون في استطاعتنا تكوين رأي واضح في الحضارة العربية في العربية الجنوبية قبل الاسلام .

وقد وجد ان الباب الجنوبي لمدينة (تمنع) كان ذا برجين كبيرين ، بنيا

---

١ يكتب بحرف الجيم ويلفظ على الطريقة المصرية في النطق بهذا الحرف . وقد صير « شاهر يا ثميل يوحرغب » و « شاهر يا فيل يوحار قيب » في كتاب : « كنوز مدينة بلقيس » ، (ص ١٠٥ ، ١١٣ وما بعدها) .
The Chronology, P. 9.

٢ كنوز (ص ١٠٥ وما بعدها) .

٣ صير « يفش » « يافاش » في كنوز (ص ١٠٨ ومواضع أخرى) .

٤ صير « يا لعام » و « يا فعام » في كنوز (ص ١٠٨ ، ١١٧) .

٥ The Chronology, P. 9, Note, 23.

٦ كنوز (ص ١٩١) .

بحجارة غير مشذبة ، حجم بعضها ثماني أقـدام في قدمين . وقد كانا ملجأين للمحاربين ، يلجأون اليها والى الأبراج الأخرى للدفاع عن المدينة عند مهاجمة العدو . وقد وجدت نقوش كثيرة على الحجارة الكبيرة التي شيد منها البرجان . ويظهر ان زخارف من الخشب كانت تبرز فوق الباب لاعطائه جمالاً ورونقـاً وبهاءً ، كما يتبين ذلك من آثار الخشب التي ظهرت للعيان بعد رفع التراب والرمال عن الباب .

وقد تبين ان مدخل الباب الجنوبي يؤدي الى ساحة واسعة مبلطة ببلاط ناعم وضعت على أطرافها مقاعد مبنية من الحجر ، لجلوس الناس عليها ، ومثل هذه الساحات هي محال تلاقي الناس ومواضع اجتماعهـم وتعاملهم ، كما هو الحال في أكثر مدن ذلك اليوم .

وفي جملة الأشياء الثمينة التي عثر عليها في (تمنع) تمثالا أسدين صنعـا من البرنز ، أثرت فيهما طبيعة الأرض فحولت لونهما الى لـون أخضر داكن ، وقد ركب أحدهمـا راكب يظهر وكأنه طفل سمين على هيـأة (كيوبيد)[1] ابن (فينوس) إلـه الحب ، يحمل بإحدى يديه سهماً وباليد الأخرى سلسلة قد انفصمت ، تنتهي بطوق يطوق عنق الأسد ، يشعر أنه كان متصلاً بالسلسلـة التي قطعها الزمان باعتدائه عليها . وأما الأسد الآخر ، فقد فُقد راكبه وبقي من غير فارس ، إلا أن موضع ركوبه بقي على ما كان عليه ليقدم دليلاً على أن شخصاً كان فوق ذلك الأسـد . وقد وجد أن التمثالين كانا على قاعدتين مكتوبتين ، ورد فيهما اسم (ثوبم) ، (ثويبم)[2] . وقد ورد هذا الاسم نفسه في كتابة وجدت على جدار بيت (يفش) كتبت في أيـام الملك (شهر يجل يهرجب) . وقد استدل (ألبرايت) من طريقة صنع التمثالين ومن طرازهمـا أنهما تقليد ومحاكاة لتماثيل (هيلينية) ، ولا يمكن للذلك أن يرتقي تأريخ صنعهما الى أكثر من (١٥٠) سنة قبل الميلاد ، وذلك لأن اليونان لم يكونوا قـد صنعوا

---

١ « كيوبيدو » « كيوبيد » ، وهـو ابن « فينوس » في الأساطير اليونانيـة الرومانية ، ويرمز الى الحب .

٢ لقد صير المعمار « ثويبم » « ثوبم » ، على هذه الصورة : « فاوايابام » في كنـوز مدينة « بلقيس » ، ص ١١٧) ، فسبحان المغير .

هذا النوع من التماثيل قبل هذا التأريخ[١] .

وقد أعلن (ثويبم بن يشرحعم) و (صبحم) و (هوفعم) ، وكلهم من (آل مهصنعم) ، أنهم ابتاعوا البيت المسمى بـ (بيت يفش) ورمموه وأصلحوه ، وعمروا سقفه وممراته ومماشيه ، بمشيئة (انبي) وباركوه بالآلهة (عثتر) و (عم) و (انبي) و (ورفو ذلفان) (ورفو ذلفن) و(ذات صنتم) و (ذات ضهران) . وقد تم ذلك في عهد الملك (شهر يجل يهرجب) وقد دوّن (ثويبم) اسمه على قاعدة تمثال الأسد المصنوع من البرنز ، وسجل معه اسم (عقربم) (عقرب) . ويظهر أنهما أمرا بصنع التمثالين ، أو أنهما صنعاهما ليكونا زينتين في هذا البيت[٢] .

ويرى الخبراء في موضوع تطور الخط ، والمتخصصين في دراسات المصنوعات المعدنية ، ان هذين التمثالين لا يمكن ان يكونا قد صنعا قبل الميلاد ، وان عهد صنعهما يجب أن يكون في القرن الأول للميلاد ، في حوالي السنة (٧٥) أو المئة بعد الميلاد ، وذلك لعثور العلماء على عدد من التماثيل المشابهة ، وهي من القرن الأول للميلاد . ويرون لذلك ان الملك (شهر يجل) الذي في أيامه صنع هذان التمثالان يجب أن يكون من رجال النصف الثاني من القرن الأول للميلاد[٣] .

وقد توصل رجال البعثة الأمريكية الى ان مدينة (تمنع) كانت قد جددت مراراً ، ذلك انهم كانوا كلما تعمقوا في الحفر وجدوا طبقات تشير الى قيام بيت على بيت آخر ، وان البيوت المبنية في الطبقات السفلى هي بيوت مبنية من (اللبن) ، أي الطين المجفف بالشمس . وذلك يدل على ان الناس أقاموها بيوتاً ساذجة بسيطة ، فلما تقدم الزمن ونزح الناس اليها ، ازداد عمرانها ، واتخذ من نزحوا اليها الحجر والصخور المقطوعة مادة للبناء ، فظهرت البيوت العامرة ، ظهرت فوق البيوت القديمة على عادة الناس في ذلك العهد في بناء البيوت الجديدة فوق البيوت القديمة وعلى أنقاضها ، ومن هنا صار في امكان عالم الآثار تقدير

---

١ كنوز (ص ١١٣) ،
W. Phillips, Qataban and Sheba, P. 100, Bowen — Albright, Discoveries in South Arabia, P. 155, B. Segall, 179, J. Terbach, 183, Die Araber, I, P. 27.

٢ W. Phillips, P. 99, 102.

٣ J. Pirenne, Le Royaume Sud — Arabe, PP. 45, 48, 198.

عمر الطبقات والاستدلال بواسطته على العهود التأريخية التي مرت على المدينة .

وقد تبين من فحص المقبرة : مقبرة أهل (تمنع) أن حرمتها كانت قد انتهكت في الماضي وفي الحاضر ، وأن سراق القبور الطامعين في الذهب وفي الأحجار الكريمة وفي الكنوز كانوا قد نبشوا القبور وهتكوا أسرارها لاستخراج ما فيها ، وقد تعرضت بذلك للتلف وتعرض ما فيها مما لم يؤخذ لعدم وجود فائدة مادية فيه بالقياس اليهم للكسر والتلف والأذى ، كما تبين أن سراق القبور المعاصرين ما زالوا على سنة أسلافهم يراجعون هذه القبور وغيرها غير عابئين بحرمتها ، لأنهم يطمعون في كنوز ، سمعوا عنها أنها تغني ، وأنها تجعل من المعدم ثرياً . وقد زاد في جشعهم اقبال الغربيين على شراء ما يسرقونه ، وان كان حجراً ، بثمن مهما كان زهيداً تافهاً في نظري ونظرك إلا أنه شيء كثير في نظر الأعراب الذين لا يملكون شيئاً . فالفلس على تفاهته ذو قيمة وأهمية عند من لا يملكه .

وقبور هذه المقبرة مع تعرضها للنبش والاعتداء لا يزال كثير منها محتفظاً بكنوز ثمينة ذات أهمية كبيرة عند رجال الآثار وعشاق البحث عن الماضي . ونتيجة لبحث فريق من البعثة الأمريكية في بعض القبور على التل وفي سفوحه وفي الأرض المحيطة به ، وجدت أشياء ذات قيمة ، وتمكنت من تكوين رأي عن هيئة القبور وهندستها عند القتبانيين. لقد تبين لهم أن قبورهم كانت مزخرفة متينة البناء ، وأن المقبرة عندهم كناية عن دهليز طويل صفت على جانبيه القبور. والقبور عبارة عن غرفتين الى أربع غرف لها أبواب تؤدي الى الدهليز[1] . أرى انها بهذا الوصف قبور أسر ، فمتى مات شخص من الأسرة فتح باب المقبرة وأدخل الميت الى الدهليز الذي هو الممر ، ليوضع في الغرفة التي تختار له ليثوي فيها .

وقد وجدت في غرف الأموات عظام بشرية مهشمة ، ووجدت في الممرات جرار وخزف وأشياء أخرى . ولكنها وجدت مكسورة ومحطمة في الغالب ؛ ولم يعثر على هيكل بشري واحد موضوع بصورة تشعر أن عظامه كانت كلها سليمة . وهذا مما جعل البعثة ترى أن للقتبانيين عادات دينية خاصة في دفن موتاهم،

---

١ كنوز (ص ١٢٧ وما بعدها) .

من ذلك أنهم كانوا يكسرون ما يأتون به من أشياء يضعونها مع الميت ، عند وضعها في القبر ، وانهم كانوا يضعون ما يرون ضرورة وضعه مع الميت في الممرات التي تقع على جانبها غرف الأموات . أما الغرف ، فقد كانت مستودعات تحفظ فيها العظام . ولذلك تكدست تكدساً . وهي عادة عرفت عند أمم أخرى في مختلف أنحاء العالم[1] .

وفي جملة ما عثر عليه من أشياء ذات قيمة كبيرة من الوجهة الفنية ، رأس لفتاة منحوت من رخام أبيض معرق ، وقد تدلى شعرها على شكل خصلات مجعدة على الطريقة المصرية وراء رأسها . وكانت أذناها مثقوبتين ليوضع حلق الزينة فيها ، ووجد أن جيدها محلى بعقد . وكانت عيناها من حجر اللازورد الأزرق على الطريقة المصرية . وقد نحت التمثال باتقان وبذوق يدلان على مهارة وفن ، كما عثر على بقايا ملابس وأخشاب متآكلة وعلى حلي بعضه من ذهب، ومن جملته عقد من ذهب ، يتألف من هلال فتحته الى الأعلى . أما حاشيته، فإنها مخرمة ، وقد زين الهلال باسم صاحبته[2] .

ومن مدن قتبان مدينة (شور) (شوم) ، وقد كان أهلها من قبيلة (ذهربت) (ذو هربة) ، وقد ذكرت في نص سبق أن تحدثت عنه ، وذلك لمناسبة بنائها حصناً أمام سور المدينة ، إذ كان الحصن القديم قد تهدم في عهد الملك (ورول غيلان يهنعم)[3] . وقد عرف هذا الحصن بحصن (يخضر) (يخضور) .

ومن مدن (قتبان) ، مدينة (حربب) ، وهي (حريب) . وقد ذكرت في الكتابات ، واشتهرت عند الباحثين بالنقود التي تحمل اسمها لأنها فيها ضربت. وقد أشار (الهمداني) الى (حريب) ، وتقع كما يظهر من وصفه في أرض

---

١ كنوز (ص ١٣١ وما بعدها) .

٢ كنوز (ص ١٢٩ فما بعدها) .

٣ لاحظت أن الأستاذ « ركمنس » ، قد كتب اسم المدينة على هذا الشكل في الترجمة الفرنسية « شور » ، على حين كتبه في موضع آخر « شوم » ، وكذلك فعل في النص العبراني للكتابتين ، وربما كان مرد ذلك الى اختلاف ناسخي النسختين في الاستنساخ ، فحاول المحافظة على أشكال النسختين ، REP. EPIG. 4329, VII, II, P. 193, Glaser 1392, REP. EPIG. 3507, VI, I, P. 177, SE 96.

قتبان[1] . وهناك موقع آخر يقع على خمسة وخمسين كيلومتراً الى شرقي شمالي صنعاء على طريق مأرب ، يسمى (حريب) . وقد عثر على نقود ضربت في (حريب) ، منها نقد ضرب في عهد (يدع اب ينف) (يدع أب ينوف) .

وورد في الكتابات اسم مدينة تدعى (برم) . فورد في كتابة من أيام الملك (يدع اب ذبيان بن شهر) مكرب قتبان ، كتبت عند تمهيده الطريق بين هذه المدينة ومدينة (حرب) (حريب) وانشاء مبلقة أي شق طريق جبلي، ليساعد على الوصول بيسر وسهولة بين المكانين[2] . وورد في كتابة أخرى عند انتهاء الملك (يدع اب ذبيان) من بناء (برج برم)[3] . وهناك وادٍ عرف بوادي

من تماثيل عثر عليها في مقبرة (تمنع) ، ويعود عهدها الى ما قبل الميلاد
من كتاب Qataban and Sheba (الصفحة ١٢٥)

---

١ الصفحة (ص ٨٠ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٣٤) .
G. F. Hill, Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia, P. LXXIV, 75, PL. XI, 20, D. H. Muller, und J. W; Kubistschek, Sudarabische Altertumer, Wien, 1899, S. 73, 78.

٢ Glaser, 1600.

٣ Glaser, 1581.

(برم) في أرض (احرم) (أحرم) . وفي التقويم القتباني شهر من شهورهم عرف بـ (برم) . وترد كلمة (برم) اسم علم لأشخاص .

ومن الأرضين والأماكن التي ورد اسمها في النصوص القتبانية والتي يفيد ذكرها هنا ، لأنها ترشدنا الى معرفة أسماء البقاع التي كانت خاضعة لحكم قتبان ، أرض (لتلك) و (ذبحتم) (ذبحة)[1] و (دتنت) (دتنة) ، و (لبخ) و (دونم) و (ورفو) و (خضنم) و (يسرم) و (غيلم) (غيل) .

و (عم) ، هو إلـه شعب (قتبان) الرئيس . وبه تسمى ذلك الشعب ، حيث كانوا يعبرون عن أنفسهم بـ (ولد عم) . ويتقربون اليه بالنذور والذبائح. وكانت له معابد في أرض قتبان أشهرها معبد : (عم ذلبخ) ، أي معبد (عم) في (لبخ) من (ذي غيل) . ويرى بعض الباحثين أن هـــذا المعبد بني في موضع عرف بـ (ذي غيل) ، ثم أنشأ (يدع أب غيلان) مدينة حول هذا المعبد عرفت باسمه ، فدعيت بـ (ذي غيلان) ، وهي موضع (هجر بن حميد) في الوقت الحاضر[2] .

قوائم بأسماء حكام قتبان :

هذه قوائم بأسماء حكّام (قتبان) كما وضعها الباحثون في العربيات الجنوبية . وأذكر أولاً القائمة التي وضعها (فريتس هومل) ، وهي تتكون من جمهرات رتبت على النسب وصلة القربى ، وقد استخرجها من الكتابات :

الجمهرة الأولى وتتكون من المكربين :

١ — شهر .

٢ — يدع اب ذبين يهنعم . (يدع أب ذبيان يهنعم) Glaser 1410 = 1618

الجمهرة الثانية :

٣ — يدع اب (يدع أب) .

٤ — شهر هلل يهرحب أو يهنعم ، (شهر هـــلال يهركب أو يهنعم) ، Glaser 1404 = SE 85.

---

١ REP. EPIG. 3540, VI, I, I, P. 197, Weber, Studi., III, S. 39, Rhodokanakis, Kohlan, S. 37.

٢ Beiträge, S. 47.

الجمهرة الثالثة :

٥ ـ سمه علي وتر .

٦ ـ هوفعم ينعم (هوفعم ينعم). Glaser 1117, 1121, 1333, 1344, 1345

والكتابتان الحلزونيتان : Glaser 1343, Glaser 1339

الجمهرة الرابعة :

٧ ـ شهر .

٨ ـ يدع اب ذبين (يدع أب ذبيان) .

وقد ذكر (هومل) أن من الممكن اختصار هذه الجمهرات ، إذ من الجائز أن يكون من الأسماء المتشابهة المتكررة ما هو لانسان واحد .

ورتب أسماء ملوك قتبان على النحو الآتي :

الجمهرة الأولى :

١ ـ اب شبم (أبشبم) .

٢ ـ شهر غيلن (شهر غيلان) .

٣ ـ ب عم (بعم) ؟ Glaser 1119, Glaser 1348, 1601, 1115

الجمهرة الثانية :

٤ ـ يدع اب (يدع أب) .

٥ ـ شهر يجل (شهر يكل) .Glaser 1602

٦ ـ شهر هلل ينعم (شهر هلال ينعم) .Glaser 1395, 1413

الجمهرة الثالثة :

٧ ـ شهر .

٨ ـ يدع اب ذبين (يدع أب ذبيان) .

٩ ـ شهر هلل (شهر هلال) .

١٠ـ نبط عم (نبطعم) .

وقد قال (هومل) إن من الجائز تقديم هذه الجمهرة على الجمهرة الأولى من جمهرات الملوك ، أو إلحاقها بالجمهرة الأولى بحيث تكون على هذا النحو :

اب شبم (أب شبم) (أبشبم) .

شهر غيلن (شهر غيلان) .

ب عم (بعم) (بيعم) (بي عم) .
يدع اب ذبين (يدع أب ذبيان) .
شهر يجل (شهر يكل) .
شهر هلل يهنعم (شهر هلال يهنعم) .
نبط عم (نبطعم) .
الجمهرة الرابعة :
١١- هوف عم يهنعم (هوفعم يهنعم) .
١٢- شهر يجل يهرجب (شهر يكل يهرجب)، Glaser 1400, 1406, 1606.
١٣- وروال غيلن يهنعم (وروابل غيلان يهنعم)، Glaser 1392, 1402.
١٤- فرع كرب يهوضع (فرعكرب يهوضع) ، Glaser 1415.
الجمهرة الخامسة :
١٥- سمه وتر .
١٦- وروال (وروايل) .
الجمهرة السادسة :
١٧- — ذمر علي .
١٨- يدع اب يجل (يدع أب يكول) .
الجمهرة السابعة :
١٩- يدع اب ينف يهنعم (يدع أب ينوف يهنعم) .
٢٠- شهر هلل بن ذراكرب (شهر هلال بن ذرأكرب) .
٢١- وروال غيلن (يهنعم) (وروايل غيلان (يهنعم)) .

قائمة (رودوكناكس) :

وقد استفاد (هومل) في ترتيب قائمته المتقدمة بالقوائم التي وضعها (كروهمن) (Grohmann) [١] و (رودوكناكس)[٢] و (مارتن هارتمن) Martin Hartmann.

١ Adolf Grohmann, Uber Katabanische Herrscherreihen, in Anzeiger der Wiener Akademi, Vom 29 Marz, 1916.
٢ KTB., I, S., 34, 98, II, S., 48.

وقد ذكر (كروهمن) تسعة مكربين ، ولم يذكر بين الملوك الملك (سمه وتر).

أما قائمة الملوك التي صنعها (رودوكناكس) ، فتتألف من جمهرات كذلك. تبدأ الجمهرة الأولى بعد (يدع اب ذبين بن شهر) (يدع أب ذبيان بن شهر) آخر المكربين ، وهو الذي لقب في عدد من الكتابات بلقب ملك ، ولقب في عدد آخر بلقب (مكرب) ، فهو مكرب وملك على قتبان . وتتألف قائمة (رودوكناكس) لملوك قتبان من الجمهرات التالية :

الجمهرة الأولى :

١ ـ اب شبم (أب شبم) (أبشبم) . وترتيبه السابع في قائمة (كروهمن).

٢ ـ شهر غيلن (شهر غيلان) . وترتيبه الثامن في قائمة (كروهمن) .

٣ ـ بعم (ب عم) ، (بي عم) (أبي عم) ، وترتيبه التاسع في قائمة (كروهمن) Glaser 1601 .

الجمهرة الثانية :

٤ ـ يدع اب (يدع أب) . ورقمه الخامس في قائمة (كروهمن) .

٥ ـ شهر يجل (يهنعم) (شهر يكل (يهنعم)) (شهر يكول (يهنعم)) ، وهو السادس عند (كروهمن) ، Glaser 1395, 1412, 1602, 1612.

٦ ـ شهر هلل يهنعم (شهر هلال يهنعم) . ويرى أنه (شهر هلل بن ذراكرب) (شهر هلال بن ذرأكرب) ، الذي يرد اسمه في المجموعة الآتية: Glaser 1395, 1412, 1413, KTB., I, 43,11, S., 48.

الجمهرة الثالثة :

٧ ـ ذراكرب (ذرأكرب) ، ورقمه الثاني عشر في قائمة (كروهمن) .

٨ ـ شهر هلل (شهر هلال) ، وترتيبه الثالث عشر في قائمة (كروهمن) Glaser 1396.

الجمهرة الرابعة :

٩ ـ هوف عم (هوفعم) ، وهو الرابع عشر في قائمة (كروهمن) .

١٠ـ شهر يجل يهرجب (شهر يكل يهركب) (شهر يكول يهركب) . وهو الخامس عشر عند (كروهمن) .

Glaser 1087, Halevy 507, Glaser 1606.

١١– وروال غيلن يهنعم (وروايل غيلان يهنعم) وترتيبه السادس في قائمة (كروهمن) ، Glaser 1000A .

الجمهرة الخامسة :

١٢– يدع أب يجل (يدع أب يكل) (يدع أب يكول) .

وذكر (رودكناكس) اسم الملكين : (سمه وتر) و (وروال) (وروايل). ورأى أن أمكنتها بعد الجمهرة الرابعة ، غير أنه لم يفرد لها جمهرة خاصة .

قائمة (كليانت هوار) :

ذكر (هوار) أسماء حكام قتبان دون أن يشير الى وقت حكمهم أو صفة الحاكم من حيث كونه مكرباً أو ملكاً . وعدتهم كلهم عشرة ، هم :

١ – يدع أب ذبيان .

٢ – شهر يجول (شهر يكول) .

٣ – هوف عم (هوفعم) .

٤ – شهر يجول يهرجب (شهر يكول يهركب) .

٥ – وروايل غيلان يهنعم .

٦ – أبشبم (أب شبم) .

٧ – شهر غيلان .

٨ – بعم (بي عم) .

٩ – ذمر على (ذمر علا) .

١٠– يدع اب يجول (يدع اب يكول)[١] .

قائمة (فلبي) :

وقد نشرت في آخر كتاب (سناد الإسلام) (Background of Islam) وتتألف من :

١ – سمه على . وهو مكرب ، ولم يعرف اسم أبيه ، وقد حكم على تقديره في حدود سنة (٨٦٥ ق. م.) .

١ Cl. Huart, Geschichte der Araber, I, Leipzig, 1914, S., 67.

٢ – هوف عم يهنعم بن سمه على (هوفعم يهنعم بن سمه على) (سمهعلى) ، وهو مكرب كذلك ، حكم في حدود سنة (٨٤٥ ق. م.) .

٣ – شهر بجـل يهرجب بن هوف عم (شهر يهركب بن هوفعم) ، وقد جعله ملكاً ، حكم في حوالي سنة (٨٢٥ ق. م.) .

٤ – وروال غيلن يهنعم بن شهر بجل يهرجب (وروايل غيـلان يهنعم بن شهر يكل يهركب) . وقد كان ملكاً،حكم في حوالي سنة (٨٠٠ق. م.).

٥ – فرع كرب يهوضع بن شهر بجل يهرجب (فرعكرب يهوضع بن شهر يكل يهركب) ، وشقيق (وروايل) . وقد كان ملكاً حكم في حوالي سنة (٧٨٥ ق. م.) .

٦ – شهر هلل بن ذراكرب بن شهر بجل يهرجب (شهر هلال بن ذرأكرب بن شهر يكل يهركب) . وقد كان ملكاً ، حـكم في حوالي سنة (٧٧٠ ق. م.) .

٧ – يدع اب ذبين يهرجب بن شهر هلل (يدع أب ذبيان يهرجب بن شهر هلال) ، وقد كان على رأيه مكرباً وملكـاً ، حـكم في حدود سنة (٧٥٠ ق. م) .

٨ – ؟ ؟ ؟ بن شهـر هلل (شهر هلال) وقد كان حكمه حوالي سنة (٧٣٥ ق. م.) .

٩ – شهر هلل يهنعم بن يدع اب ذبـين يهرجب (شهر هلال يهنعم بن يدع أب ذبيان يهركب) . وقـد كان ملكاً حـكم حوالي سنة (٧٢٠ ق. م.) .

١٠– نبط عم بن شهر هلل (نبطعم بن شهر هلال) ، حكم في حوالي سنة (٧٠٠ ق. م.) .

١١– يدع اب ينف أو بجل ؟ يهنعم بن ذمر على ، أو شقيق شهر هلـل بن يدع اب ذبين يهرجب . وقد حكم حوالي سنة (٦٨٠ ق. م.) .

١٢– ؟ ؟ ؟ . وقد حكم في حوالي سنة (٦٦٠ ق. م.) .

١٣– سمه وتر بين ؟ ؟ ؟ . وحكم حوالي سنة (٦٤٠ ق. م.) .

١٤- ورروال ؟ ؟ بن سمه وتر . وقد حكم في حدود سنة (٦٢٠ ق. م.).
وترك (فلبي) فجوة قدّرها بنحو من عشر سنين بين الملك المتقدم والملك الذي تلاه ، ثم ذكر :

١٥- اب شبم (أبشبم) ، ولم يعرف اسم أبيه . وقد حكم على تقديره في حوالي سنة (٥٩٠ ق. م.) .

١٦- اب عم بن اب شبم (أب عم بن أب شبم) (أبعم بن أبشبم) ، وقد كان حكمه في سنة (٥٧٠ ق. م.) .

١٧- شهر غيلن بن اب شبم (شهر غيلان بن أبشبم) ، وقد كان حكمه من سنة (٥٥٥ ق. م.) الى سنة (٥٤٠ ق. م.) وسنة(٥٤٠ ق. م.) كانت على رأي (فلبي) نهاية مملكة (قتبان) ، فاندمجت في مملكة سبأ وأصبحت جزءاً منها .

قائمة (ألبرايت) :

سمه علي وتر (سمهعلي وتر) (مكرب) .

هوف عم يهنعم بن سمه علي وتر (هوفعم يهنعم بن سمهعلي وتر) ، وكان مكرباً حكم في القرن السادس قبل الميلاد . وهو ابن المكرب الأول .

. . . .

شهر .

يدع اب ذبين يهنعم بن شهر (يدع أب ذبيان يهنعم بن شهر) مكرب .

شهر هلل يه ... بن (يدع أب) . مكرب .

سمه وتر . يحتمل أنــه كان مكرباً ، وهو الذي غلبــه (يثع أمر وتر) مكرب سبأ .

ورروال (ورروايل) يحتمل أنه كان مكرباً . وكان تابعاً لـ (كرب آل وتر) (كرب ايل وتر) أول ملك عــلى سبأ . وقد كان حكمه في حدود سنة (٤٥٠ ق. م.) .

. . . .

شهر مكرب .

يدع أب ذبين بن شهر (يدع أب ذبيان بن شهر) آخر مكربي قتبان ، وأول ملوكها . وقد كان حكمه في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد .

شهر هلل بن يدع اب (شهر هلال بن يدع أب) .

نبط عم (بن شهر هلل) (نبطعم بن شهر هلال) .

. . . . . .

ذمر علي .

يدع اب يجل بن ذمر علي (يدع أب يكل بن ذمر علي) وقد عاصر ثلاثة ملوك من ملوك سبـأ الذين حكموا في القرن الرابع قبل الميـلاد ، Glaser 1693 .

. . . . . .

اب شبم (أب شبم) (أبشبم) .

شهر غيلن بن اب شبم (شهر غيلان بن أبشبم) .

بعم بن شهر غيلن (بعم بن شهر غيلان) (بـي عم) (أبـي عم) .

يدع اب (يجل ؟) بن شهر غيلن ، أي شقيق (بعم) . (يـدع أب يكل ؟) بن شهر غيلان) .

شهر يجل (بن يدع اب) (شهر يكل بن يدع أب) ، حكم حوالي سنة (٣٠٠ ق. م.) .

شهر هلل يهنعم (شقيق شهر يجل) (شهر هلال يهنعم) .

يدع اب ذبين يهرجب (يدع أب ذبيان يهركب) . (غير متيقن بمكانه هنا).

فرع كرب (فرعكرب) .

يدع اب غيلن بن فرع كرب (يدع أب غيلان بن فرعكرب).في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد .

هوف عم يهنعم (هوفعم يهنعم) ، حكم حوالي سنة (١٥٠) قبل الميلاد .

شهر يجـل يهرجب بن هوف عم يهنعم (شهر يكل يهركب بن هوفعم يهنعم) .

وروال غيلن يهنعم بـن شهر بن شهر يجل (ورويل غيلان بن يهنعم بن شهر يكل) .

فرع كرب يهوضع بن شهر يجل وشقيق (ورروال)، فرعكرب يهوضع بن شهر يكل) .

يدع اب ينف (يدع أب ينوف) .

ذراكرب (ذرأكرب) .

شهر هلل يهقبض ذراكرب (شهر هلال يهقبض بن ذرأكرب) .

خراب (تمنع) ونهاية استقلال مملكة قتبان في حوالي سنة خمسين قبل الميلاد، ودخول قتبان في حكم ملوك حضرموت[1] .

---

١ BOASOOR, 119, (1950), P. II.

الفصل الثاني والعشرون

مملكتا ديدان ولحيان

قلت في نهاية كلامي على حكومة معين ان جالية من المعينيين كانت تقيم في (العلا) أي (ددن) (ديدان) ، وان (ديدان) كانت مستوطنة معينية في الأصل ، وقد استقلت بشؤونها بعد ضعف حكومة معين ، اذ انقطعت صلتها بأمها في اليمن ، وحكمها ملوك منهم نسميهم ملوكاً ديدانيين .

وأول من لفت الأنظار الى (ديدان) ، هو السائح (جارلس مونتاكو دوتي)[1] فقد رحل سنة ١٨٧٦ م الى أرض مدين ، ولم يبال في أثناء رحلته براحته ولا بما قد تتعرض له حياته من أخطار ، ثم زار مواضع عديدة آثارية مثل (مدائن صالح) و (الحجر) و (العلا) ، وكتب رحلته هذه كتابة لا تزال تعد من خيرة ما كتب في هذا الموضوع في الأدب الانكليزي ، وبذلك لفت الأنظار الى هذه البقعة الآثارية التي حكمتها مختلف الشعوب وتكدست في أرضها آثارها متداخلة بعضها ببعض .

ثم جاء بعد (دوتي) رحالون آخرون ، فزاروا هذه المواضع منهم :(يوليوس أويتنك)[2] ، و (جارلس هوبر)[3] ، و (جوسن)[4] ، و (سافينة)[5] ،

---

١ Charles Montague Doughty.

٢ Julius Euting.

٣ Charles Huber.

٤ Patre Jausen.

٥ Savignac.

و (فلبي)[1] ، وغيرهم ، وصوروا بعض الكتابات ، وقرأوا ما استطاعوا قراءته من كتابات الأحجار ودونوه ، أو أخذوا بعضه ، وبذلك تجمعت للباحثين مادة عن تأريخ (العلا) ، والمواضع التي تقع في أعالي العربية الغربية ، في المملكة الأردنية الهاشمية وفي المملكة العربية السعودية .

وتقع خرائب (ديدان) هذا اليوم في (وادي العلا) ، وتوجد على حافتيه كتابات ، كما توجد فيه وفي (وادي المعتدل) والأودية الأخرى آثار حضارات ماضية متعددة ، مثل حضارة المعينين واللحيانيين والديدانيين وغيرهم .

وتعد (الخريبة) مركز الديدانيين ، وقد انتزع الأهلون أحجار الآثار ، فاستعملوها في مبانيهم فقضوا على كثير من الكتابات ، وتشاهد جذر بعض البيوت وقد بنيت بتلك الأحجار ، وبعضها لا يزال مكتوباً يحدث الإنسان باعتداء أهل المنطقة عليها وتطاولهم على التاريخ بعمد وبجهل .

وللكتابات التي عثر عليها في هذه الأرضين والتي سيعثر عليها شأن خاص عند من يريد دراسة تأريخ الخط وكيفية تطوره وظهوره . فإن هذه المنطقة هي عقدة من عقد المواصلات المهمة التي تربط جزيرة العرب ببلاد العراق وببلاد الشأم ومصر ، وفيها التقت ثقافات وحضارات هذه الأماكن ، ولهذا نجد في كتاباتها مزايا الخط الشمالي والخط الجنوبي كما نجد للغتها مركزاً خاصاً للهجات . ولذلك كان لدراستها شأن خاص عند من يريد الوقوف على اللهجات العربية وكيفية تطورها الى ظهور الإسلام .

أضف الى ذلك أنها تقع على الطريق البرية المهمة الموازية للبحر الأحمر ، حيث كان أهل العربية الجنوبية ينقلون منها تجارتهم وتجارة إفريقية والهند وبقية آسية الى بلاد الشأم ، ثم إنها لا تبعد أكثر من مسيرة خمسة أيام عن البحر الأحمر ، حيث كان التجار يذهبون الى موانئه لبيع ما عندهم لتجار مصر . لذلك كانت ديدان وبقية مدن هذه الأرضين ملتقى العرب : عرب الجنوب وعرب الشمال ، وملتقى تجار أجانب ، فلا عجب إذا ما رأينا هذا الاتصال يظهر في الكتابة وفي اللغة وفي الثقافة والحضارة والفن .

ولا نعرف اليوم من أمر مملكة (ديدان) شيئاً يذكر . ويعود سبب جهلنا

---

[1] H. St. J. B. Philby.

بتأريخ هذه المملكة الى قلة ما وصل الينا من كتابات عنها . ولعل الزمان يكشف لنا عن كتابات ديدانية تجلي من عيوننا هذه الغشاوة التي حالت بيننا وبين وقوفنا على شيء من أمر ملوك ديدان .

وقد ذهب (كاسكل) الى أن ظهور مملكة (ديدان) وابتداء حكمها كان في حوالي السنة (١٦٠) قبل الميلاد ، غير أنه يرى أن هذه المملكة لم تتمكن من العيش طويلاً ، إذ سرعان ما سقطت في أيدي اللحيانيين ، وكان ذلك – على رأيه – في حوالي السنة (١١٥ ق. م.)[١] .

وقد وقفنا على اسم ملك من ملوك (ديدان) في الكتابة الموسومة بـ (JS 138) ، وهي كتابة ابتدأت بجملة : (كهف كبرال بن متعال ملك ددن)[٢] ، ومعناها (قبر كبرايل بن متع ايل ملك ديدان) . ويعبر عن القبر والمثوى بلفظة (كهف) في اللهجة الديدانية . فهذه الكتابة اذن ، هي شاهد قبر ذلك الملك الذي لا نعرف من أمره شيئاً .

ولا يستبعد (كاسل) أن يكون (كبرايل) ، أول ملك أسس مملكة (ديدان) ، وآخر ملك حكمها أيضاً ، أي ان سقوطها على أيدي اللحيانيين كان في عهده ، أو بعد وفاته ، وبذلك انتهت على رأيه حياة تلك المملكة[٣] .

وقد ذهب (البرايت) الى ان الملك (كرب ايل بن متع ايل) الذي عثر على اسمه في كتابة (ديدانية) ، كان قد حكم في حوالي السنة (٥٠٠ ق. م.)[٤] .

وما زلنا في جهل تام لكيفية حصول الديدانيين على استقلالهم ، وعلاقاتهم بالمعينيين الذين كانوا قبلهم في هذه الأرضين . ولا بد لنا من الانتظار طويلاً للظفر بمزيد من المعارف عن هذه الأمور . فلعل الزمان سيجود على الباحثين بكتابات يخرجها اليهم من باطن الأرض ، يكون فيها شرح واف لما نسأل عنه الآن .

وأما (لحيان) فمعارفنا عنهم مع ضآلتها وقلتها خير من معارفنا عن ديدان.

---

١ Lihyanisch, S. 37.
٢ Lihyanisch, S., 78.
٣ Lihyanisch, S., 37.
٤ Arabien, S., 48.

ويعود الفضل في ذلك الى ما ورد عنهم في مؤلفات بعض الكتبة اليونان واللاتين والى الكتابات اللحيانية التي عثر عليها الرحالون ، فانها أكثر عدداً من الكتابات الديدانية ، وأكثر منها كلاماً ،فاننا حين نجد الكتابات الديدانية قد لاذت بالصمت فلم تذكر من ملوكها الا ملكاً واحداً ، نجد الكتابات اللحيانية قد نطقت باسم أكثر من ملك واحد ، وان لم تأت بشيء من هذه المادة كثير .

وقد وصلت الينا أسماء ملوك حكموا مملكة (لحيان) ، وهي مملكة صغيرة تقع أرضها جنوب أرض حكومة النبط ، ومن أشهر مدنها : (ددان) ، وهي خرائب (العلا) (الخريبة) في الزمن الحاضر ، و (الحجر) ، وقد عرفت بـ (Hegra) و (Egra) عند اليونان واللاتين . ومن الكتابات اللحيانية والآثار التي عثر عليها في مواطنهم ، استطعنا استخراج معارفنا عن مملكة لحيان[1] .

وقد كان شعب لحيان من شعوب العربية الجنوبية في الأصل في رأي بعض الباحثين . وقد ذكرهم (بلينيوس) في جملة شعوب العربية الجنوبية ، وسماهم Lexianes أو Laecanitae = Lechieni [2] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن الحميريين استولوا على مواطن اللحيانيين في حوالي سنة (١١٥ ق. م.) ، فخضعوا بذلك لحكم الحميريين[3] .

ومما يؤيد وجهة نظر من يرى أن اللحيانيين هم من أصل عربي جنوبي ، ورود اسم (لحيان) في نص عربي جنوبي قصير ، هذا نصه : (أب يدع ذلحين) أي (أبيدع ذو لحيان)[4] . وفي هذا النص دلالة على أن اللحيانيين كانوا في العربية الجنوبية ، ويظهر أن (أبيدع) المذكور كان أحد أقيال (لحيان) في ذلك الزمن .

ويرى (كاسل) أن اللحيانيين كانوا يقيمون على الساحل على مقربة من (ددن) (الديدان) ، وكانت لهم صلات وثيقة بمصر ، وتأثروا بالثقافة اليونانية التي كانت شائعة في مصر اذ ذاك ، حتى إنهم سمّوا ملوكهم بأسماء يونانية ، مثل

---

١ Die Araber, I, S., 94.

٢ Die Araber, I, S., 94, Pliny, 6, 155, Arabian, S., 23.

٣ W. Caskel, Das Altarabische Königreich Lihjan, (1951), S., 10, J. Ryckmans, in Bibliotheca Orientalis, 18, 10, (1961), 219, W. F. Albright, Von Ugarit nach Qumran, (1961), S., 6.

٤ REP. EPIG. 3902, 10, Die Araber, I, S., 93.

(تخمي) Tachmi ، و (بتحمي) Ptahmy ، و (تلمي) Tulmi وقد أخذت من (بطلميوس) Ptolemaios[1] .

أما الكتابات اللحيانية أو الكتابات الأخرى مثل النبطية أو الثمودية أو المعينية وغيرها ، فإنها لم تتحدث بأي حديث عن أصل اللحيانيين .

ويعود الفضل في حصولنا على ما سندونه عن تأريخ لحيان الى الكتابات اللحيانية . وهي ، وإن كانت قليلة وأكثرها في أمور شخصية ، فقد أفادتنا فائدة قيمة في الكشف عن بعض تأريخ اللحيانيين . وستزيد معارفنا بالطبع في المستقبل كلما زاد عثور العلماء على كتابات لحيانية جديدة ، ولا يستبعد أن يكون عدد منها ما يزال مطموراً في بطن الأرض .

وقد عالج بعض المستشرقين موضوع (لحيان) ، ومنهم (كاسكل) فكتب فيهم كتابين باللغة الألمانية[2] . ذهب فيها الى ان اللحيانيين كانوا كأكثر الشعوب تجاراً ، وكانت تجارتهم مع (مصر) بالدرجة الأولى . وقد انتزعوا الحكم من الجاليات المعينية التي كانت تقيم في هذه الأرضين التي كانت في الأصل جزءاً من مملكة معين . فلما ضعف أمر حكومة معين في اليمن ولم يبق في استطاعتها السيطرة على أملاكها البعيدة عنها ، طمع الطامعون ومنهم اللحيانيون في المعينيين الشماليين الساكنين في هذه الأرضين ، فانتزعوا الحكم منهم وسيطروا عليهم ، واندمج المعينيون فيهم حتى صاروا جزءاً منهم . وكان ذلك – على رأيه – في القرن الثاني قبل الميلاد . وفي حوالي (١٦٠) قبل الميلاد تقريباً[3] .

ويرى (كاسكل) أن المعينيين كانوا قد بقوا يحكمون (دبدان) مكونين حكومة (مدينة) الى حوالي السنة (١٥٠ ق. م.) ، وعندئذ أغار عليهم اللحيانيون وانتزعوا الحكم منهم . ويرى ان من المحتمل أن الملك الأول الذي حكم اللحيانيين كان من أهل الشمال ، وربما كان من النبط غير أن الذين جاءوا بعده كانوا من اللحيانيين[4] .

وقد كان المعينيون يسيطرون على أعالي الحجاز في القرن الخامس قبل الميلاد،

---

١ Lihyanisch, S., 39, Die Araber, I, S., 102.

٢ Das Altarabische Königreich Lihjan, 1951, Lihyan und Lihyanisch, 1954.

٣ Die Araber, I, S., 94.

٤ Das Altarabische Königreich, S., 9.

مكونين مستوطنات معينية غايتها حماية الطرق التجارية التي تمر من بلاد الشأم الى العربية الجنوبية . وقد عرفت تلك المستعمرة التي تحدثت عنها سالفاً باسم (معين مصران) ، وعاصمتها مدينة (علت) ، وهي (العلا) في الزمن الحاضر . ومن مدنها الأخرى (ديدان) ، و (الحجر) وغيرهما[١] .

وقد اختلف الباحثون فيمن سكن هذه الأرضين أولاً ومن حكم قبلاً : الديدانيون ، أم المعينيون أم اللحيانيون ؟ فذهب بعضهم الى ان اللحيانيين انما جاءوا بعد المعينيين ، وهم الذين قضوا عليهم وانتزعوا منهم الحكم وألفوا مملكة لحيانية ، وذهب بعض آخر الى ان اللحيانيين كانوا قد سبقوا المعينيين في الحكم، وان حكمهم هذا دام حتى جاء المعينيون فانتزعوه منهم في زمن اختلفوا في تعيينه ، وذهب آخرون الى تقديم الديدانيين على المعينيين واللحيانيين وقد اختلفوا كذلك في زمان نهاية حكم كل حكومة من هذه الحكومات[٢] .

ويرى بعض الباحثين ان مملكة لحيان ظهرت في أيام (بطلميوس الثاني) ، بتشجيع من البطالمة وبتأييدهم ليتمكنوا من الضغط على النبط حتى يكونوا طوع أيديهم . وقد جعل بعضهم ذلك الاستقلال فيما بين سنة (٢٨٠ ق. م.) وسنة (٢٠٠ ق. م.)[٣] . ويرى غيرهم ان ذلك كان قبل هذا العهد .

وقد كان اللحيانيون يكرهون النبط،لأنهم كانوا يطمعون في بلادهم ويعرقلون تجارتهم التي كان لا بد لها من المرور بأرض النبط ، ولهذا لجأوا الى (البطالمة) يحتمون بهم ، ويتوددون اليهم ليحموهم من تحكّم النبط في شؤونهم . بقوا على ذلك طوال أيام (البطالمة) ، فلما حل الرومان محلهم، توددوا اليهم كذلك للسبب نفسه[٤] .

ويرى بعض الباحثين ان النبط هم الذين قضوا على مملكة لحيان ، باستيلائهم على (الحجر) سنة (٦٥ ق. م.) وعلى ديدان سنة (٩ ق. م.) ، على

---

١ Arabien, S., 26.

٢ J. H. Mordtmann, Beiträge zur Maïnischen Epignaphik, Weimar, 1897, S., XI, BOASOOR, NUM., 73, 1939, NUM., 129, 1953, P. 23, Le Muséon, 51, (1938), P. 307, Arabien, S., 46.

٣ Ency., Vol., III, P. 26, Die Araber, I, S., 104.

٤ Die Araber, I, S., 104.

حين يرى آخرون ان نهايتها كانت في القرن الثاني بعد الميلاد[1] . وذهب (كاسكل) الى ان النبط قضوا على مملكة (لحيان) ، وذلك بعد السنة (٢٤ ب. م.) ، الا ان حكم النبط لم يدم طويلاً، لأن الرومان كانوا قد استولوا على مملكة النبط سنة (١٠٦ م) ، وكوّنوا منها ومن أرضين عربية أخرى مجاورة اسم (المقاطعة العربية) (الكورة العربية) وبذلك انتهى حكم النبط على لحيان[2] .

ولا نعرف ماذا كان عليه موقف اللحيانيين من احتلال الرومان لأرض النبط ومن تكوين الرومان لما يسمى بـ (الكورة العربيـــة) ، التي جاورت أرض اللحيانيين . ويرى (كاسكل) ان موقف اللحيانيين من الرومان كان موقفـــاً ودياً ، لأنهم أنقذوهم من سيطرة النبط عليهم ، ويرى احتمال تكوين اتصال سياسي بينهم وبين الرومان[3] .

وقد استدل (كاسكل) من شاهد قبر يعود زمنـــه الى حوالي السنة التاسعة قبل الميلاد،عثر عليه في (العلا) أرخ بحكم الملك (الحارث الرابع) **Aretas IV** [4] . على ان اللحيانيين كانوا يومئذ تحت حكم ملوك النبط . واستدل على رأيـــه هذا بعدم اشارة (سترابون) الى مملكة لحيانية في أثنـــاء حديثه عن حملة (أوليوس كالوس) (أوليوس غالوس) على اليمن التي وقعت في حوالي سنة (٢٥ م) . وكلامه على ملوك النبط ، وكأن ملكهم قد شمل أرض لحيان ، حتى بلغ مكاناً لا يبعد كثيراً عن (المدينة) (يثرب) . ورأى في ذلك علامة على ان ملوك النبط كانوا قد استذلوا اللحيانيين وقضوا على استقلالهم زماناً لم يحدد بالضبط[5] .

ويظن ان النص اللحياني الموسوم بـ **JS 349** ، من نهاية القرن الثاني قبـل الميلاد على رأي بعضهم ، هو من أقدم النصوص اللحيانية ، دوّنه رجل اسمه (نرن بن حضرو) (ناران بن حاضرو) (نوران بن حاضر) ، وذلك بأيام (جشم بن شهر) و (عبد) الذي كان والياً على (ددان) يومئذ[6] . وقد

---

١ Lihyanisch, S., 35, Die Araber, I, S., 95, CIH, 2, I, 332.
٢ Arabien, S., 48, Lihyanisch, S., 42, Die Araber, I, S., 97.
٣ Lihyanisch, S., 42.
٤ CIH, II, I, 332, Die Araber, I, S., 95.
٥ Die Araber, I, S., 95, Königreich Lihjan, S., II.
٦ Lihyanisch, S., 39, 101.

ذكر في النص اسم الملك الذي كتب النص في عهده ، الا ان الزمان عبث به، اذ أصيب بكسر فسقط تمام الاسم منه .

وقد تجسست بعض النصوص اللحيانية على ملوك لحيان ، فقدمت للباحثين بعض أسمائهم ، وأعلمتنا بذلك أن اللحيانيين كانوا قد كونوا لهم مملكة حكمت أمداً ، ثم زالت من الوجود كما زال غيرها من ممالك . وإذ لم يقم العلماء في (العلا) وفي الأرضين اللحيانية الأخرى بحفريات منتظمة ، فليس بمستبعد أن يعثر فيه يوماً ما على نصوص لحيانية أخرى تكشف النقاب عن اسماء عدد آخر من ملوك لحيان[1] .

ومن الملوك الذين عرفنا أسماءهم من النصوص المذكورة ، ملك اسمه : (هنوس بن شهر) (هانوس بن شهر) (هانواس بن شهر) . وقد ذكر معه في النص اسم ملك آخر شاركه في الحكم ، إلا أنه سقط منه بعبث حدث له، فأضاع علينا اسمه . وقد أصيب النص بتلف في مواضع منه ، فأضاع علينا المعنى ، والظاهر أنه دوّن لمناسبة انشاء الملكين طريقاً يمر بجبل ، فشقا الأرض ، ورصفا وجهها وكسوها بمادة تملّسها ليسهل السير عليها[2] .

وعرفنا من تلك النصوص ملكاً آخر عرف بـ (ذ اسفعن تخمي بن لـذن) (ذو اسفعين تخمي بن لوذان) . وقد قدر (كاسكل) زمان حكمه في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد[3] . والى أيامه تعود الكتابة الموسومة بـ: JS 85 وقد دونت لمناسبة انشاء (بيت) للإلـه (ذو غابت) (ذو غابة) إلـه لحيان ، وذلك في السنة الأولى من حكم هذا الملك[4] .

وورد اسم الملك (شمت جشم بن لـذن) (شامت جشم بن لوذان) في الكتابة الموسومة بـ (JS 85) . وقد دونت لمناسبة تقديم شخص نذراً إلى الإلـه (ذو غابة) ، وذلك في السنة التاسعة من حكم هذا الملك . وقد قدر (كاسكل) زمان حكمه فيما بين السنة (٩ ق. م.) والسنة (٥٦ ق. م.)[5] .

---

١ Arabien, 1963, S. 76, Die Araber, I, S., 100, 103, Lihyanisch, S., 41, W. Tarn, in Journal of Egypt. Archeol., 15, (1929), 19, Ency., III, P. 26.

٢ Lihyanisch, S., 40, 41.

٣ Lihyanisch, S., 41, 88-89.

٤ Lihyanisch, S., 88-89.

٥ Lihyanisch, S., 41, 90.

وذكر في الكتابة الموسومة بـ JS 83 ملك يسمى (جلتقس) (جلت قوس) (ملتقس) . وقد أرخت بأيامه ، اذ دونت في السنة التاسعة والعشرين من حكمه ، ودونت لمناسبة تقديم شخص نذراً (ذنذر) (نذر) الى الإلـه (عجلبن) (عجل بون) (عجل بن) ، وهو (صلم) ، أي صنم ، قدمه الى معبد ذلك الإلـه[1] .

وورد اسم الملك (منعى لذن بن هناس) (منعى لوذان بن هانؤاس) في الكتابة الموسومة بـ JS 82 . وقد دونت في السنة الخامسة والثلاثين من حكم هذا الملك ، لمناسبة تقديم نذر ، هو (صلم) أي (صنم) الى الإلـه (عجلبن) صنعه (هصنع) رجل اسمه (سلمى) ، وخط الكتابة (هسفر) كاتب اسمه (خرج)[2] . وقد كان حكمه – على حد قولي (كاسكل) – فيما بين السنة (٣٥ ق. م.) والسنة (٣٠ ق. م.)[3] .

وفي عهد هذا الملك أصيبت (ديدان) بهزة أتت على المعبد ومن كان فيه، اذ سقط سقفه على أعضاء مجلس المدينة (هجبل) (ها – جبل) ، فقتل أكثرهم ، ثم أعيد بناؤه بين السنة (١٢٧ ب. م.) و (١٣٤ ب. م.)[4] .

ويظهر من بعض النصوص اللحيانية المتأخرة أن إعادة بناء المعبد قد استغرقت زمناً طويلاً[5] . وهذا مما يدل على أن الحالة الاقتصادية لم تكن حسنة في ذلك العهد ، وان الأمور لم تكن جارية على وفق المرام ، وأن الحكومة كانت ضعيفة فلم تتمكن من اعادة بنائه بالسرعة المطلوبة .

ويرى (كاسكل) أن النبط هيمنوا على اللحيانين في القرن الأول قبل الميلاد، وأخذوا يضايقونهم ، ثم حكموهم ، وقد امتد حكمهم للحيانين الى ما بعد الميلاد . فقبل سنة (٦٥ ق. م.) استولى النبط على (الحجر) ، ثم ساروا منها الى (تيماء) . ثم قطعوا كل اتصال للحيان بالبحر ، واستولوا على ميناء (لويكة كومة) وكان تابعاً للحيان ، وتقدموا منه الى مواضع أخرى ، حتى

---

١ Lihyanisch, S., 41, 91, Die Araber, I, S., 103, Arabien, S., 289.
٢ Lihyanisch, S., 41, 93.
٣ Lihyanisch, S., 41.
٤ Arabien, S., 66.
٥ Lihyanisch, S., 42.

أحاطوا بلحيان من جميع الجهات وحكموهم[1] .

ويظن (كاسكل) أن حكم النبط للحيان قد وقع بين السنة (٢٥ — ٢٤ق. م) والسنة (٩ ق. م.) .

ويظن (كاسكل) أن حكم النبط للحيان دام منذ ذلك الزمن حتى حوالي السنة (٨٠ ق. م.) . ففي هذا العهد كان حكم النبط نفسه يتدهور بتزايد سلطان الرومان في بلاد الشأم وبدخول حكومة (المكابيين) اليهودية في حماية الامبراطورية الرومانية . والنبط هم في جوار المكابيين في الجنوب . ولما قهر جيش (تراجان) النبط ، وقضى على استقلالهم ، تخلص اللحيانيون من حكم النبط وعادوا فاستقلوا في ادارة شؤونهم فحكمتهم اسرة منهم ، يظهر أنها من الأسرة الملكية القديمة التي كانت تحكمهم قبل استيلاء النبط عليهم[2] .

وكان جلاء حكم النبط عن لحيان في عهد الملك (رب آل) (رب ايل) آخر ملوك النبط الذي انتزع الرومان الأقسام الشمالية من مملكته في سنة ١٠٥ للميلاد ، ثم أخذوا الأقسام الجنوبية من مملكته بعد سنة تقريباً ، أي سنة ١٠٦ للميلاد ، وبذلك زال حكم النبط عن اللحيانيين ، فاستعادوا استقلالهم برئاسة الملك (هناس بن تلمي)[3] .

وقد عثر الباحثون على كتابتين ، ورد في احداهما : (مسعودو : ملك لحيان) وورد في الأخرى : (ملك لحيان) ، وقد سقط منها اسم الملك لتلف أصاب الكتابة . وقد ذهب (كاسكل) الى أن الكتابتين من عهد استيلاء النبط على لحيان وذهب أيضاً الى أن الملك (مسعودو) أي (مسعود) لم يكن ملكاً بالمعنى الحقيقي ، وانما كان ملكاً اسماً ، وان الملك الآخر الذي أزال العطب اسمه من الكتابة الثانية ، هو الملك (مسعود) نفسه ، ولم يذكر كيف جوز صاحب الكتابة لنفسه نعت مسعود ، بنعت (ملك لحيان) على حين كانت مملكة لحيان تابعة لمملكة النبط[4] .

---

١ Lihyanisch, S., 40, 42.

٢ Lihyanisch, S., 42.

٣ Lihyanisch, S., 42.

٤ Lihyanisch, S., 42, Die Araber, I, S., 100, Jausen — Savignac, 334, 335, 337.

ويرى (كاسكل) أن في جملة من حكم اللحيانيين في هذا العهد ، عهد تدهور حكم النبط وزوال سلطانهم عن لحيان ، ملكاً اسمه (هناس بن تلمي) (هانؤاس بن تلمي) . وقد ورد اسمه في كتابة دونت في السنة الخامسة من حكمه ، دونها (عقرب بن مر) ، صانع تماثيل (هصنع) لمناسبة نحته طرفي صخرة قبره ، وصيرهما يمثلان الإلـه (أبـي ايلاف) (أبا لف) ، وذلك في السنة المذكورة من حكم هذا الملك[1] .

وقد جعل (كاسكل) حكم الملك المتقدم (هناس بن تلمي) مبدأ لحكم أسرة جديدة ، أو حكومة جديدة ، تولت الحكم بعد زوال هيمنة النبط عن اللحيانيين . وكان الملك (لوذن بن هنواس) (لوذان بن هـ ـ نواس) آخر من حكم من الحكومة القديمة في لحيان ، أي آخر من حكم قبل استيلاء النبط على لحيان كما يرى (كاسكل)[2] . وكان حكمه في حوالي السنة (٣٠ ق. م.)على تقدير (كروهمن)[3] .

وورد اسم الملك (تلمي بن هناس) (تلمي بن ها ـ نؤاس) في كتابة أرخت بالسنة الثانية من سني حكمه ، لمناسبة شراء رجل اسمه (عبد خرج) أرضاً ، بنى عليها ضريحاً (هكفر) ليكون مقبرة (همثبرن) (ها ـ مثبرن) ، يدفن فيها هو وأهله[4] .

وأورد (كاسكل) اسم الملك (سموي بن تلمي بن هناس) بعد اسم الملك المتقدم[5] . وهو ملك ورد اسمه في كتابة سجلها (وهب لاه) (وهبله) (وهب الله) وكان قيماً (قيمه) على (نعم) أنعام الإلـه (ذغبت) (ذو غابة) لمناسبة قيامه بإتمام بناء معبد (دبدان) الذي كان الزلزال قد عبث به[6] .

وورد اسم ملك آخر من ملوك لحيان ، في كتابة دونت في السنة الخامسة من سني حكمه[7] ، دونها (أبو ايلاف بن حيو)،وكان (كبير هشعت) (ها ـ شعت)

---

١ Lihyanisch, S., 41, 110, JS 75, M. 25.
٢ Lihyanisch, S., 4.
٣ Arabien, S., 65, 289.
٤ Lihyanisch, S., 41, III, JS 45, M 9.
٥ Lihyanisch, S., 41.
٦ Lihyanisch, S., 41, 42, 112, JS 54, M 4.
٧ Lihyanisch, S., 41.

أي كبير الجماعة ، وهو نعت يدل على أنه كان وجيه القوم ووجههم ، وقد أشار فيها الى مجلس القوم (هيجل) ، وكان ذلك في السنة الخامسة من سني حكم (راى) (رأى) الملك (عبدن هناس) (عبدان بن ها – نؤاس)[١] . ويرى (كاسكل) ان حكمه كان في حوالي السنة (١١٠ ب. م.)[٢] .

ووضع (كاسكل) ملكاً اسمه (سلح) (سليح) (سالح) بعد اسم الملك (عبدان هانؤاس) . وقد حكم – على رأيه – في حوالي السنة (١٢٥) بعد الميلاد[٣] . وقد ورد اسمه في كتابة دونت قبل ثلاثة أيام (تلت ايم : قبل راي سلح) من تولي (سليح) الحكم ، وأرخ ذلك بسنة عشرين من ظهور عتمة ، أي حدوث ظلام (سنت عشرين عتم)[٤] . والظاهر ان كسوفاً وقع فأظلمت الدنيا وعتمت ، وذلك قبل عشرين سنة من تولي هذا الملك الحكم ، فأرخ الناس عندئذ بحدوثها ، وفي جملتهم صاحب هذه الكتابة[٥] .

وحكم في حوالي السنة (١٢٧ ب. م.) ملك اسمه (تلمي هناس) (تلمي ها – نؤاس) على رأي (كاسكل)[٦] . وقد جاء اسمه في كتابة دونت لمناسبة دفع دية (وديو) عن قتيل قتل في السنة الثانية والعشرين من حكم هذا الملك[٧].

ووضع (كاسكل) الملك (فضج) ، بعد الملك (تلمي بن ها نؤاس) ، وجعل حكمه في حوالي السنة (١٣٤ ب. م.)[٨] . ويظهر من كتابة ورد فيها اسمه انه حكم أكثر من تسع وعشرين سنة[٩] .

ويرى (كاسكل) ان الملوك اللحيانيين المتأخرين لم يكونوا على شاكلة الملوك اللحيانيين الأول من حيث المكانة والشخصية ، ويرى ان الحل والعقد صارا في يد (الجبل) (هجبل) ، أي مجلس الشعب ، أو مجلس الأمة بتعبير قريب

١ Lihyanisch, S., 41.
٢ Lihyanisch, S., 113, JS, 72, M 23.
٣ Lihyanisch, S., 41.
٤ Lihyanisch, S., 41.
٥ Lihyanisch, S., 115, JS, 68, M 55.
٦ Lihyanisch, S., 41.
٧ Lihyanisch, S., 116, JS, 77, M 27.
٨ Lihyanisch, S., 41.
٩ JS 70, M 52, Lihyanisch, S., 119.

من تعبير هذا الزمان في الغالب،وان الناس لم يعودوا يحفلون بكتابة لقب (ملك لحيان) بعد اسم الملك ، وفي هذا الاهمال تعبير عن نظرة التساهل وعن عدم الاهتمام بأمر الملوك[1] .

ويتبين من النصوص اللحيانية المتأخرة ان هذا الدور الثاني ، أي الدور المتأخر من حكم حكومة لحيان ، لم يكن حكماً مستقـــراً وطيد الأركان ، لذلك تفشت السرقات ، وكثرت حوادث القتل فيه . ويرى (كاسكل) من ورود أسماء في بعض هذه الكتابات اللحيانيـــة المتأخرة يشعر منها ان أصحابها من افريقية ومن جنس حامي ، احتمال مهاجمة الحبش لساحل البحر الأحمر الواقع فيما بين (لويكة كومة) وحدود مملكة سبأ ونزول الحبش في هذه الأرضين[2] .

ويرى (كاسكل) ان الكتابات المشار اليها ، هي من زمن يجب أن يكون محصوراً بين السنة (١٥٠) والسنة (٣٠٠) بعد الميلاد،وفي هذه المدة يجب أن يكون وقوع غزو الحبش للسواحل العربية المذكورة[3] . ويرى باحثون آخرون ان ملك الحبشة الذي يمكن أن يكون قد غزا هذه السواحل ، هو الملك Sembruthes ، وهو من ملوك (أكسوم) ، وقد عثر الباحثون على طائفة من الكتابات مدونة باليونانية تعود الى أيامه، ويجب أن يكون غزوه لتلك السواحل قد وقع بين نهاية القرن الرابع للميلاد وبين النصف الأول من القرن الخامس للميلاد[4] .

ويرى (كاسكل) ان الرومان الذين استولوا على مملكة النبط لم يبلغوا أرض لحيان ، بل وقفوا عند حدود النبط،أو عند أرض تبعد مسافة عشرة كيلومترات عن (ديدان) ، بدليل انقطاع الكتابات التي كان يكتبها الجنود الرومان ويتركونها في الأماكن التي ينزلون بها عند الحد المذكور، فلم يعثر السياح على كتابة يونانية بعد البعد المذكور[5] .

ويظهر من كتابة لحيانية وسمت بـ M 28 ان رجلاً من لحيان كان قد زار

---

١ Lihyanisch, S., 43.

٢ Lihyanisch, S., 43.

٣ Die Araber, I, S., 100.

٤ Die Araber, I, S., 100.

٥ Das Altarabische, S., 18.

المواضع : (صار) (صوأر) ، و (نشور) ، و (ربغ) (رابغ)[١] . والكتابة غامضة وزاد في غموضها وعسر فهمها سقوط كلمات منها، لذلك لا يدرى ما المراد من ذكر هذه المواضع . هل أريد به استيلاؤه عليها وضمها الى النبط؟ أو أريد به توليه الجباية فيها ؟ أو هو زارها وتاجر معها ؟ وقد يستنتج منها أن هذه المواضع كانت من مدن اللحيانيين في ذلك العهد[٢] .

و (صار) (صأور) ، موضع على الطريق بين الحجر ويثرب ، وهو الموضع الذي ذكر في جغرافية (بطلميوس) باسم Assara = Asvara[٣] . وهو موضع لا يبعد كثيراً عن (الحجر) . ويقع عند موضع (البدائع) الذي يبعد زهاء واحد وعشرين كيلومتراً جنوبي شرقي (العلا) . وأما (نشأر) (نشير) فهو موضع ذكره (ياقوت الحموي) في معجم البلدان ، ، ولم يعين مكانه ، وأما (رابغ) ، فوضع لا نستطيع أن نؤكد أنه (رابغ) الحالية، وان كانت التسمية واحدة[٤] .

ولسنا نعلم بعدُ كيف كانت نهاية حكومة لحيان ، ومن قضى عليها ، والى أين ذهب اللحيانيون بعد سقوط مملكتهم الذي كان بعد الميلاد كما رأينا .

ويظهر أن قوماً منهم هاجروا الى الجنوب ، وأن قوماً منهم هاجروا الى العراق فاستقروا بالحيرة، إذ نزلوا في موضع عرف باسمهم . وقد كانوا يتاجرون معها في أيام استقلالهم . ويظن أن موضع (السلمان) المعروف في البادية منسوب الى الإله (سلمان) إله لحيان وربّ القوافل عندهم . وقد كان اللحيانيون ينزلون به في طريقهم الى العراق[٥] .

ولا يستبعد أن يكون القسم الأعظم منهم قد عاد الى البادية ، واندمج في القبائل ، مفضلاً حياة البداوة على حياة العبودية والفوضى ، فاندمج في القبائل

---

١ Lihyanisch, S., 40, 94.

٢ Lihyanisch, S., 40, 94.

٣ Ptolemäus, V, BK., 7, & 30.

٤ Lihyanisch, S., 40, 94.

٥ Lihyanisch, S., 44, Das Altarabische, S., 19, Rothstein, Lachmiden, S., 52, 64.

الأخرى على نحو ما حدث لغيرهم من الناس[1] .

وقد عثر على مزهرية في (تل أبو الصلابيخ) في جنوب العراق ، وجدت عليها كلمة (برك آل) (برك ايل) (بارك ايل) ، مدونة بقلم ذهب بعض الباحثين إلى أنه قلم لحياني . وذهب بعض آخر الى أنه من قلم (المسند) ، وأن أصحابها من العرب الجنوبيين[2] .

وقد نسب أهل الأخبار (أوس بن قلام بن بطينا بن جميهر) الى (لحيان) وهو من مشاهير أهل الحيرة ، حكم الحيرة أمداً[3] . وقد يكون للحيان الذين ينسب (أوس) اليهم علاقة باللحيانيين الذين أتحدث عنهم .

وقد يكون (بنو لحيان) الذين يذكرهم أهل الأخبار ، من بقية ذلك الشعب الساكن في (الديدان) . أما اللحيانيون ، فهم من (بني لحيان بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر) ، فهم عدنانيون، وقد كانوا ينزلون في شمال شرقي مكة[4] . والظاهر انهم لم يكونوا من القبائل القوية عند ظهور الاسلام، ولذلك لا نجد لهم ذكراً في أخبار ظهور الاسلام وفي أيام صدر الاسلام[5] .

وكانت منازل (لحيان) عند ظهور الاسلام في أرض جبلية . وقد غزاهم الرسول بغزوة عرفت بـ (غزوة بني لحيان) ، فاعتصموا برؤوس الجبال ، وهجم الرسول على طائفة منهم على ماء لهم ، يقال له الكدر ، فهزموا، وغنم المسلمون أموالهم[6] ، وأرسل الرسول عليهم سرية بقيادة (مرثد بن كنان الغنوي) الى (الرجيع) ، فلقي بني لحيان ، وقد قتل مرشد في المعركة ، وذلك في السنة الرابعة من الهجرة[7] .

وقد هجاهم (حسان بن ثابت) فرماهم بالغدر ، وذكر موضعهم وهو

---

١ Lihyanish, S., 44.

٢ Arabien, S., 273.

٣ المحبر (ص ٣٥٨) ، Lihjan, S., 44.

٤ ابن قتيبة ، المعارف (ص ٣١) ، تاج العروس (١٠/٣٢٤) ، الاشتقاق (١/١٠٩) .

٥ Ency., III, P. 26.

٦ المحبر (١١٤) .

٧ المحبر (١١٨) . Ency., III, PP. 26, 27.

(الرجيع) ، وذكر انهم تواصوا بأكل الجار ، فهم من أغدر الناس ، و (دار لحيان) هي دار الغدر[1] .

ويذكر الأخباريون ان (تأبط شراً) أتى جبلاً في (بلاد بني لحيان) ، ليشتار منه عسلاً ، ومعه جماعة ، فخرج عليهم اللحيانيون ، فهرب من كان مع (تأبط شراً) ، فحاصره اللحيانيون ، الا ان (تأبط شراً) أزلق نفسه على جدران الجبل ، فلم يلحقوا به ، وهرب[2] .

وقد عثر السياح في حوالي السنة ٣٠٠ بعد الميلاد فما بعدها على كتابات عبرانية ونبطية في وادي (ديدان) تدل على أن قوماً من يهود وقوماً من النبط أو من جماعة كانت تتكلم النبطية كانت قد استوطنت في هذه الأرضين[3] . وكان اليهود قد زحفوا الى هذه الأرضين وأخذوا يستقرون فيها حتى وصلوا الى يثرب . فلما ظهر الإسلام ، كان معظم سكان وادي القرى الى يثرب من اليهود .

وقد وجدت في الكتابات اللحيانية أسماء آلهة تعبدوا لها ، في طليعتها الإله (ذو غابت) (ذو غابة) . وقد عثر على أنقاض معبد له في وسط خرائب المدينة . ووجد فيه آثار حوض للماء ، يظهر أن المؤمنين كانوا يتوضأون به أو يغسلون مواضع من أجسامهم للتطهر قبل أداء الشعائر الدينية ، كما عثر على اسم إله آخر عرف عندهم بـ (سلمان) ، ويظهر أنه كان يكنى (أبا ايلاف) ، ويرى بعض الباحثين أنه إله القوافل ، أي الإله الذي يحمل القوافل ويحرسها في ذهابها وإيابها ، وذلك لأن ايلاف القوافل كان من واجب الآلهة ، كما يقول هؤلاء الباحثون ، مستدلين على ذلك بوضع (قريش) قوافلهم في حماية الآلهة[4] ، كما يفهم من آية : (لايلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا ربّ هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)[5] .

---

١ ان سرك الغدر صرفا لا خراج له فات الرجيع ، وسل عن دار لحيان
ديوان حسان بن ثابت (ص ٣٧) ، (طبعة هرشفلد) .

٢ المحبر (١٩٧ وما بعدها) .

٣ Lihyanisch, S., 44.

٤ Das Altarabische, S., 13.

٥ السورة رقم (١٠٦) .

وعثر على اسم إلـه هو (هانيء كاتب) (هني كتب) ومعناه (عبد كاتب) واسم إلـه آخر هــو (هـ ـ محر) (ها ـ محر) أي (المحر) . وقد ذهب (كاسكل) الى ان الإلـه (كاتب) هو في مقابل الإلـه (توت) Thot عند المصريين ، إلـه الحكمة[1] .

---

1 Altarabische, S., 13.

الفصل الثالث والعشرون

السبئيون

لورود اسم سبأ في القرآن الكريم فضل ولا شك في جميع أهل الأخبار ما بقي في أذهان المسنين عن سبأ والسبئيين ، فقد اضطر المفسرون الى التقاط ما كان ورد عنهم من قصص وحكايات . وما كان القرآن ليشير الى سبأ،لو لم تكن لهم قصة عند الجاهليين[1] .

وسبأ عند الأخباريين اسم جدّ أولد أولاداً نسلوا،وكانت من ذرياتهم شعوب، ووالده هو (يشجب بن يعرب بن قحطان) ، ومن أولاده قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب ، قبل الإسلام وبعده، واليه نسب نسله السبئيون. وقد زعموا أن اسمه الحقيقي ، هو (عبد شمس) . وأما سبأ ، فلقب لقب به، لأنه أول من سبأ ، أي سن السبي من ملوك العرب وأدخل اليمن السبايا،وذكر بعضهم أنه بنى مدينة (سبأ) وسدّ مأرب ، وغزا الأقطار ، وبنى مدينة (عين شمس) بإقليم مصر ، وولى عليها ابنه (بابلون) (بابليون) ، وقالوا أشياء أخرى من هذا القبيل[2] .

---

١ سورة النمل : الرقم ٢٧ الآية ٢٢ ، سورة سبأ ، الرقم ٣٤ ، الآية ١٥ .

٢ المحبر (ص ٣٦٤) ، الطبري (١/٢٢٥) ، ورووا شعرا على لسان علقمة بن ذي جدن في هذا المعنى :

ومنا الذي لم يسب قبل سبائه سباء ، ومن دان الملوك مرارا

منتخبات (ص ٤٧) ، تاج العروس (١٠/١٦٩) ، ابن خلدون (٢/٤٧) .

وليس في النصوص العربية الجنوبية شيء عن نسب سبأ وعن هويته ، وليس فيها شيء عن اسمه أو عن لقبه المزعوم ، وكل ما ورد فيها أن سبأ اسم شعب، كوّن له مملكة ، وترك عدداً كبيراً من الكتابات . وكان يتعبد لآلهة خاصة به، وله حكام حاربوا غيرهم ، الى غير ذلك من أمور سوف يأتي الكلام عليها :

نعم ، نشرت في كتاب .REP. EPIG صورة كتابة ، ذكر أنهما حفرت على نحاس ، وهي في مجموعة P. Lamare ، جاء فيها : (عبد شمس ، سبأ بن يشجب ، يعرب بن قحطان)[1] .

ولم تنشر الصورة (الفوتوغرافية) لأصل الكتابة،وانما نشرت كتابتها بالأحرف اللاتينية والعبرانية ، ولم يبد المتخصصون رأياً في هذا اللوح وفي نوع كتابته وزمان الكتابة ، لذلك لا أستطيع أن أبدي رأياً فيها ، ما لم أقف على ذلك اللوح .

وأما حظ سبأ في الموارد التأريخية ، فانه لا بأس به بالقياس الى حظ الشعوب العربية الجاهلية الأخرى ، فقد ورد ذكر السبئيين في التوراة وفي الكتب اليونانية واللاتينية وفي الكتابات الآشورية . ويظن ان كلمة Sabu = SA-Ba-A-A الواردة في نص سومري يعود الى Aradnannar (باتيسي) (لجش) Lagash (تلو) معاصر آخر ملوك (أور) ، أي من رجال النصف الثاني من الألف الثالثة قبل المسيح ، تعني أرض سبأ[2] . ويرى (هومل) ان كلمة Sabum = Sa-bu-um التي وردت عند ملوك (أور) في حوالي سنة (٢٥٠٠ ق. م.) انما تعني Seba الواردة في العهد العتيق[3] . واذا صح ان Saba و Sabum سبأ والسبئيين ، صارت هذه النصوص السومرية أقدم نصوص تأريخية تصل الينا وفيها ذكر (سبأ) ، ويكون السبئيون أول شعب عربي جنوبي يصل خبره الينا ، ونكون بذلك قد ارتقينا بسلالم تأريخهم الى الألف الثالثة قبل الميلاد[4] .

وقد ذهب (مونتكومري) Montgomery الى ان السبئيين المذكورين في

---

١ REP. EPIG. 4304, VIII, II, P. 184.

٢ Ency., Vol., 4. P. 3, O'Leary, P. 87, Rawlinson, Cuneif. Inscr. W - Asia., II, 53, 67, III, 10, No. 2, 38.

٣ Hommel, in: Hilprecht's Explorations in Bible Land, Philadelphia, 1903, P. 739, Ency., 4, P. 3, Arabien, S., 24.

٤ Arabien, S., 24.

النصوص السومرية كانوا من سكان (العربية الصحراوية) ، أي البادية ، وهذه البادية هي مواطنهم الأصلية الأولى ، ومنها ارتحلوا الى اليمن . أما متى ارتحلوا عنها ، فليس لدى هذا المستشرق علم بذلك . ويرى بعض الباحثين ان مجيء السبئيين الى ديارهم التي عرفت باسمهم ، انما كان في ابتداء العصر الحديدي ، أي في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وذلك بعد مئات من السنين من هجرة المعينيين والقتبانيين الى اليمن[1] .

ورأى بعض آخر احتمال هجرة السبئيين الى اليمن في حوالي السنة (١٢٠٠) قبل الميلاد ، أما هجرة المعينيين والقتبانيين وأهل حضرموت ، فقد كانت في حوالي السنة (١٥٠٠ ق. م.) . وقد مارس السبئيون الزراعة والتجارة، فكانت قوافلهم التجارية تصل الى بلاد الشأم ، وذلك في حوالي السنة (٩٢٢ ق. م.) على ما يستنبط من التوراة[2] .

وذهب (هومل) الى ان السبئيين هم من أهل العربية الشمالية في الأصل، غير انهم تركوا مواطنهم هذه، وارتحلوا في القرن الثامن قبل الميلاد الى جنوب جزيرة العرب ، حيث استقروا في منطقة (صرواح) و (مأرب) وفي الأماكن السبئية الأخرى . كانوا يقيمون على رأيه في المواضع التي عرفت بـ (أربي) (عربي) (أريبو) في الكتابات الآشورية وبـ (يارب) Jarb = Jareb في التوراة[3]. ومن (يرب) (يارب) على رأيه جاء اسم (مأرب) عاصمة (سبأ)[4] . ويؤيد رأيه بما جاء في النص : Glaser 1155 الذي سبق أن تحدثت عنه من تعرض السبئيين لقافلة معينية في موضع يقع بين (معان) و (رجمت) الواقع على مقربة من (نجران)[5] . وعنده ان هذا النص يشير الى ان السبئيين كانوا يقيمون في أيام ازدهار حكومة معين في أرضين شمالية بالنسبة الى اليمن ، ثم

---

١ Arabien, S., 24, Burton, Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, 1929, P. 115, Montgomery, P. 50, Otto Eisfeldt — Festschrift, Wiesbaden, 1959, S., 153.

٢ الملوك الاول ، الاصحاح التاسع ، الآية ١١ ، Arabien, S., 24.

٣ Hommel, Geographie und Geschichte des Alten Orients, I, S., 142, Aufsatz und Abhande, S., 230, 281, 302, 313.

٤ المصدر نفسه .

٥ Glaser 1155 = Halévy 535.

انتقلوا الى اليمن. ويرى في اختلاف لهجتهم عن لهجة بقية شعوب العربية الجنوبية دليلاً آخر على ان السبئيين كانوا في الأصل سكان المواطن الشمالية من جزيرة العرب ، ثم هاجروا الى الجنوب[1] .

وقد ذكر العهد العتيق (شبا) (سبا) تارة في الحاميين ، وذكرهم تارة أخرى في الساميين . ففي الآية السابعة من الاصحاح العاشر من التكوين ، وفي الآية التاسعة من الاصحاح الأول من أخبار الأيام الأول : ان (شبا) من (كوش بن حام) ، فهم من الكوشيين ، أي من الحاميين ، على حين اننا نرى في الآية الثامنة والعشرين من الاصحاح العاشر من التكوين انهم من الساميين. وبين الحاميين والساميين ، فرق كبير كما هو معلوم . ثم اننا نرى ان التوراة قد جعلت (شبا) من ولد (يقطان) في موضع[2] ، وجعلته من ولد (يقشان) في موضع آخر[3] ، ويقطان هو ولد من ولد (عابر) Eber . أما (يقشان) فهو ولد من أولاد (ابراهيم) من زوجه (قطورة)[4] ، وفرق بين الاثنين .

ويرى علماء التوراة أن ذكر (شبا) و (سبا) تارة في الكوشيين أي الحاميين ، وتارة أخرى في اليقطانيين ، أو في (اليقشانيين) ، هو تعبير وكناية عن انتشار السبئيين ، ونزوح قسم منهم الى السواحل الإفريقية المقابلة ، حيث سكنوا فيها ، وكونوا مستوطنات بها في (الأريتريا) وفي الحبشة وفي أماكن أخرى. ولهذا ميزتهم التوراة عن بقية السبئيين المقيمين في العربية الجنوبية بجعلهم من أبناء (كوش) ، وميزت السبئيين المختلطين بقبائل (يقشان) برجع نسبهم الى (يقشان) ، وبذلك صار السبئيون ثلاث فرق بحسب رواية التوراة،لانتشارهم واقامة جماعات منهم في مواضع غريبة عن مواضعهم ، وذلك قبل الميلاد بالطبع بمئات من السنين[5] .

وقد وصفت أرض (شبا) في التوراة بأنها كانت تصدر (اللبان)[6]،وكانت

---

١ Hommel, Geogr., I, S., 143.

٢ التكوين : الاصحاح العاشر ، الآية ٢٨ .

٣ التكوين : الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٣ .

٤ التكوين : الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٢ .

٥ Hastings, P. 490, 842, Encycl. Bibl., P. 2564.

٦ ارميا : الاصحاح السادس ، الآية ٢٠ .

ذات تجارة ، وأن تجارها كانوا يتاجرون مع العبرانيين : (تجار شبا ورعمة هم تجارك ، بأفخر أنواع الطيب ، وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك . حران وكنة وعدن تجار شبا وأشور وكلمد تجارك) [1] . واشتهرت قوافلها التجارية التي كانت ترد محملة بالأشياء النفيسة [2] ، وعرفت بثروتها وبوجود الذهب فيها [3] . وقد قيل لذهبها (ذهب شبا) [4] . ويتبين من المواضع التي ورد فيها ذكر السبئيين في التوراة أن معارف العبرانيين عنهم قد حصلوا عليها من اتصالهم التجاري بهم، وهي محصورة في هذه الناحية فقط ، فلا نجد في التوراة عن السبئيين غير هذه الأمور .

وقصة زيارة (ملكة سبأ) لسليمان ، المدونة في التوراة ، هي تعبير عن علم العبرانيين بالسبئيين ، وعن الصلات التجارية التي كانت بينهم وبين شعب سبأ . ولم تذكر التوراة اسم هذه الملكة ، ولا اسم العاصمة أو الأرض التي كانت تقيم بها [5] . وقد ذهب بعض نقدة التوراة الى أن هذه القصة هي اسطورة دونها كتبة التوراة ، الغرض منها بيان عظمة ثروة سليمان وحكمته وملكه [6] . ورأى آخرون أن هذه الملكة لم تكن ملكة على مملكة سبأ الشهيرة التي هي في اليمن ، وإنما كانت ملكة على مملكة عربية صغيرة في أعالي جزيرة العرب ، كان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال . ويستدلون على ذلك بعثور المنقبين على أسماء ملكات عربيات ، وعلى اسم ملك عربي،هو (يثع أمر) السبئي في النصوص الآشورية، في حين أن العلماء،لم يعثروا حتى الآن على اسم ملكة في الكتابات العربية الجنوبية، ثم صعوبة تصور زيارة ملكة عربية من الجنوب الى سليمان وتعجبها من بلاطه وحاشيته وعظمة ملكه ، مع أن بلاط (أورشليم) يجب ألا يكون شيئاً بالقياس الى بلاط ملوك سبأ ، ولهذا لا يمكن أن تكون هذه المملكة في نظر هذه الجماعة

---

١ حزقيال : الاصحاح السابع والعشرون ، الآية ٢٢ وما بعدها ، الاصحاح الثامن والثلاثون الاية ١٣ .

٢ ايوب : الاصحاح السادس ، الآية ١٩ .

٣ Hastings, P. 842.

٤ المزامير : المزمور الثاني والسبعون ، الآية ١٥ .

٥ (فأتت الى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة) ، ، الملوك الأصحاح العاشر ، الآية ٢ .

٦ Hastings, P. 843.

من علماء التوراة ، إلا ملكة مملكة عربية صغيرة لم تكن بعيدة عن عاصمة ملك سليمان ، قد تكون في جبل شمر أو في نجد أو الحجاز[1] .

وذهب بعض العلماء أيضاً الى أن الغرض من هذه الزيارة لم يكن مجرد البحث عن الحكمة وامتحان سليمان ، وإنما كان لسبب آخر على جانب كبير من الأهمية بالقياس الى الطرفين، هو توثيق العلاقات التجارية وتسهيل التعامل التجاري بينهما[2] .

وقد ذهب المؤرخ اليهودي (يوسفوس) الى أن هذه الملكة كانت ملكة (أثيوبية) الحبشة ومصر ، زاعماً أن Saba اسم عاصمة الأحباش[3] ، وأن اسم هذه الملكة Naukalis[4] .

ونجد زعم (يوسفوس) هذا شائعاً فاشياً بين أهل الحبشة ، فهم يذهبون حتى اليوم الى ان أسرتهم المالكة هي من سلالة سليمان وزوجه ملكة (شبا) ، ويدعونها (ماقدة) Makeda[5] . ولا أظن ان (يوسفوس) قد اخترع نفسه تلك القصة ، بل لا بد أن يكون قد أخذها من أفواه قومه العبرانيين .

وقد وصف هذا المؤرخ زيارتها لقصر سليمان في (أورشليم) ، وذكر انها عادت الى مملكتها بعد ان استمعت الى حكم هذا الملك النبي[6] . وهو يردد بذلك صدى ما جاء في التوراة من ان زيارة تلك الملكة انما كانت لالتماس الحكمة منه.

ومهما قيل في أصل هذه القصة ، وفي خبر المؤرخ (يوسفوس) عن الملكة، فاننا نستطيع أن نقول انها ترجمة وتعبير عن الصلات التأريخية القديمة الاقتصادية والسياسية التي كانت بين سبأ والحبشة ، وعن أثر السبئيين في الأحباش من جهة وبين هذا الفريق والعبرانيين من جهة أخرى، رمز اليها بهذه القصة التي قد تكون

---

١ Montgomery, P. 181, Dhorme, Revue Biblique, P. 105, Glaser, Skizze, II, S., 387, Dussaud, Les Arabes en Syrie, P. 10, Hastings, P. 843.

٢ Hastings, P. 843. Kittel, Die Bücher der Könige, S., 89.

٣ Encycl., Vol., I, P. 720.

٤ Ency., Vol., I, P. 720.

٥ ويدعي الاحباش أن (منليك) وهو جد الأسرة المالكة ، هو ابن سليمان من زوجة (ماقدة) ملكة (شبا) ، Encycl., Vol. I, P. 720, J. B. Conelbeaux, Histoire de L'Abyssinie, I, P. 106.

٦ Josephus, Jewish Antiquities, Vol., V., P. 661.

زيارة فعلية حقاً ، أدهشت العبرانيين ، أدهشتهم من ناحية ما شاهدوه من ثراء الملكة وثروتها ، حتى أدخلوها في التوراة للاشادة بعظمة سليمان وما بلغــه من مكانة وثراء وسلطان .

لقد أدهشت هذه الملكة السبئيـة (سليمان) حين جاءت مع قافلة كبيرة من الجمال تحمل هدايا وألطافاً من أثمن المواد الثمينة بالقياس الى ذلك العهد ، واذا كانت هذه الزيارة قد تمت من العربية الجنوبية حقاً،فلا بد انها تكون قد قطعت مسافة طويلة حتى بلغت مقر (سليمان) في حوالي السنة (٩٥٠ ق. م.)[١] .

واذا أخذنا بحديث التوراة عن تجار (شبا) (سبأ) ، وعن قوافل السبئيين التي كانت تأتي بالذهب وباللبان وبأفخر أنواع الطيب الى فلسطين، وذلك في أيام (سليمان) وقبل أيامه أيضاً ، وجب رجع زمان هـذه القوافل اذن الى الألف الثانية قبل الميلاد ، وذلك لأن زيارة الملكة : ملكة سبأ لسليمان،كانت في حوالي السنة (٩٥٠ ق. م.)[٢] ، ومعنى هذا ان السبئيـين كانوا اذ ذاك من الشعوب العربية الجنوبية النشيطة في ذلك العهد. وقد كانوا أصحاب تجارة وقوافل وأموال لا يبالون ببعد الشقة وطول المسافة ، فوصلوا بتجارتهم في ذلك الزمان الى بلاد الشأم .

وقد قص القرآن الكريم قصة زيارة ملكة (سبأ) لسليمان دون أن يذكر اسم الملكة[٣] ، غير أن المفسرين والمؤرخين وأهل الأخبار ذكروا أنها (بلقبس) وأنها من بنات التبابعة[٤] ، وقد صيرها بعضهم (بلقيس بنت ايليشرح)[٥] ، أو (بلقمة ابنة اليشرح) ، أو (بلقيس بنت ذي شرح بن ذي جدن بن ايلي شرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان)[٦] ، وهي (بلقيس ابنة الهدهاد بن شرحبيل)[٧] ، الى غير ذلك من أقوال[٨] . وأرى أن

---

١ Discoveries, P. 35, Hastings, P. 868.
٢ Discoveries, P. 35.
٣ سورة النمل : رقم ٢٧ ، الآية ٢١ وما بعدها .
٤ Encycl., Vol., II, P. 720.
٥ الطبري (١/٥٧٦ ، وما بعدها ، ٦٣٨ ، ٩٠٨) .
٦ الطبري (١/٢٥٤) (طبعة المطبعة الحسينية) .
٧ اليعقوبي (١/١٥٨) (طبعة النجف) .
٨ كتاب التيجان (ص ١٥١) ، مروج الذهب (٢/٤) .

الذين جعلوا اسم والدها الهدهاد ، انما أخذوا ذلك من (الهدهد) الطير الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، والذي نقل نبأ ملكة سبأ الى سليمان [1]. وقد كان الهدهاد على زعمهم في عداد ملوك اليمن ، وجعلوا سليمان ملكاً على اليمن كذلك، جعلوا ملكه على اليمن ثلاثمئة وعشرين سنة ، وجعلوا ملك (بلقيس) وحدها مئة وعشرين سنة [2] ، الى غير ذلك من أقوال .

وقد صير (ابن دريد) اسم بلقيس (يلقمة) ، وأوجد تعليلاً لهذه التسمية فقال : إنها من (اليلمق)،واليلمق القباء المحشو ، ويقال إنه فارسي معرب[3] .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (بلقيس) لم تكن متزوجة حين قدمت على سليمان ، فقال لها (سليمان) : لا تصلح امرأة بلا زوج ، فزوجها من (سدد بن زرعة)[4] . وهكذا صيروا أمر ملكة سبأ كله بيد سليمان ، حتّى أمر اختيار زوج لها .

ويرى بعض الباحثين أن ما جاء في التوراة عن السبئيين ، لا يعتمد على موارد أصلية ومنابع موثوقة ، بل أخذ من موارد ثانوية ، ولهـذا فإن في الذي جاء فيها عنهم يحملنا على اعتباره مادة كدرة ، ليس فيها صفاء[5] .

وقد ذكر السبئيون في المؤلفات اليونانية واللاتينية ، وأقدم من ذكرهم من اليونان (ثيوفراستس)[6] . والمعلومات التي أوردها عنهم وعن جزيرة العرب وان كانت ساذجة ذات طابع خرافي في بعض الأحيان ، الا ان بعضاً منها صحيح ، وقد أخذ من أقوال التجار ، ولا سيما تجـار الاسكندرية الذين كانوا يستقبلون السلع من العربية الجنوبية وافريقية ، ومن قصص النوتيين الذين كانوا يسلكون البحر الأحمر ، ويصلون الى العربية الجنوبية وسواحل افريقية والهند للاتجار. وهي قصص سطحية تميل الى المبالغات. غير ان هذه المعلومات ، على الرغم من هذه النقائص وأمثالها مما تتصف به ، هي ذات فائدة كبيرة لمـن يريد الوقوف على

---

١ سورة النمل ، رقم ٢٧ ، الآية ٢٠ .
٢ اليعقوبي (١/١٥٨) .
٣ الاشتقاق (٢/٣١١) .
٤ الاشتقاق (٢/٣١١) .
٥ The Bible and the Ancient Near East, P. 300.
٦ Encycl., Vol., IV, P. 5.

حالة جزيرة العرب في ذلك العهد : وقد تحسنت الأخبار اليونانية واللاتينية منذ الميلاد فما بعد تحسناً عظيماً ، ومردّ ذلك الى الاتصال المباشر الذي تم منذ ذلك العهد وما بعده بين اليونان واللاتين والعرب، والى الأطماع السياسية التي أظهروها تجاه جزيرة العرب ، تلك الأطماع التي جعلتهم يسلكون مختلف الطرق للحصول على معلومات عن بلاد العرب،وحالة سكانها ومواطن الضعف التي لديهم للولوج منها في بلادهم ، ولتحقيق مطامع استعمارية رمت ابتلاع جزيرة العرب . ولذلك اعتبروا ما يحصلون عليه من أخبار عن هذه البلاد من أسرار الدولة التي لا يجوز افشاؤها ولا عرضه للناس ، وهي قد جمعت أضابير وخزنت في الاسكندرية ، لم يسمح الا لبعض الخاصة من العلماء الثقات الاستفادة منها :

ويعود غالب علمنا بأحوال السبئيين الى الكتابات السبئية التي عثر عليها في مواضع متعددة من العربية الجنوبية ، ولا سيما في الجوف مقر السبئيين . وهي أكثر عدداً من الكتابات المعينية والقتبانية والحضرمية وغيرها . وهي تشاركها في قلة عدد المؤرخ منها . وقد أرخ قسم من النصوص المؤرخة بأيام حكم سبأ أو بأيام أصحاب الجاه والنفوذ . ولذلك صعب على الباحثين تثبيت تواريخها حسب التقاويم الحالية المستعملة عندنا ، لعدم علمهم بأيام حكمهم وبشخصياتهم ، وصار تقديرهم لها تقديراً غير مؤكد ولا مضبوط ، بتقويم حمير الذي يبدأ عادة بحوالي السنة (١١٥) قبل الميلاد ، أو السنة (١٠٩) قبل الميلاد على بعض الآراء . فان من السهل علينا تثبيت زمنها بالنسبة لسني الميلاد،وذلك بطرح الرقم (١١٥) أو (١٠٩) من التقويم الحميري ، فيكون الناتج من السنين التأريخ حسب التقويم الميلادي بصورة تقريبية .

ومبدأ تقويم حمير هو السنة التي تلقب بها ملوك سبأ بلقب جديد ، هو لقب (ملك سبأ وذو ريدان) . وهو لقب يشير الى حدوث تطور خطير في حكم ملوك سبأ ، إذ يعني ذلك أن ملوك سبأ أضافوا الى ملك سبأ ملكاً جديداً ، هو أرض (ذو ريدان)،أرض الريدانيين ، وهم الحميرين ، فتوسع بذلك ملكهم، وزاد عدد نفوسهم ، فأرخوا بسنة التوسع هذه ، واعتبروها مبدأ لتقويم . والعلماء الباحثون في تأريخ سبأ ، هم الذين استنبطوا أن هذا المبدأ هو في حوالي السنة (١١٥) أو (١٠٩) قبل الميلاد .

ويلاحظ أن السبئيين لم يهملوا بعد أخذهم بمبدأ التقويم الحميري ، التوريخ

بالطريقة القديمة المألوفة وأعني بها التوريخ بالأشخاص وبالحوادث الجسام بالنسبة لأيامهم . حتى الملوك أرخوا بعض كتاباتهم على وفق هذه الطريقة ، وأرخوا البعض الآخر وفقاً للتقويم الحميري الجديد . مما يدل على أنهم لم يتمكنوا من اهمال الطريقة القديمة لشيوعها بين الناس . ولدينا أسماء عدد من الأسر والأشخاص أرخت بهم الكتابات السبئية المؤرخة . مثل : (آل حزفر) (حزفرم) و (آل يهسحم) (يهسحم) و (سالم بن يهنعم) و (آل خليل) وغيرهم[1]. وهي تواريخ محلية ، لذلك تنوعت وتعددت ، ويؤيد ذلك أنا نجد الملك يؤرخ بجملة أشخاص . ولما كان من الصعب الاستمرار بالتأريخ على وفق هذه الطريقة، اذ الحوادث الجديدة تطمس ذكر الحوادث القديمة ، كانت التواريخ تتبدل بهذا التبدل ، فينسى الناس القديم ويؤرخون بالجديد ، وهكذا . وقد حرمنا هذا التغير الفائدة المرجوة من تأريخ الحوادث .

وقد تبين من الكتابات السبئية أن لقب حكام سبأ ، لم يكن لقباً ثابتاً مستقراً بل تبدل مراراً ، وأن كل تبدل هو لتبدل الحكم في سبأ ودخوله في عهد يختلف عنوانه عن العهد القديم . ولذلك صار الحكم أدواراً ، واضطر المؤرخون المحدثون إلى التأريخ بموجبها ، فدور أول ، وهو أقدم أدوار الحكم لقب حكامه فيه : (مكرب سبأ) ، ثم دور تالٍ له صار اللقب فيه : (ملك سبأ) . ثم دور آخر تغير فيه عنوان الملك فصار : (ملك سبأ وذو ريدان) . وقد وقع في حوالي السنة (١١٥) أو (١٠٩) قبل الميلاد . جاء بعده دور جديد صار اللقب الرسمي فيه على هذا النحو : (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها في المرتفعات وفي التهائم) ، وهو آخر دور من أدوار الحكم في سبأ وخاتمة الأدوار .

وبفضل الكتابات السبئية حصلنا على شيء من العلم بأصول الحكم في سبأ وبما سأكتبه وبما كتبه غيري عنهم . وبفضل البقية الباقية من آثار خرائب مدنهم وقراهم ومستوطناتهم استطعنا تكوين إلمامة عن فنهم وعن العمران عنهم ، وعن نظم الري والزراعة لديهم وغير ذلك مما سأتحدث عنه . ولولا تلك الكتابات ولولا هذه البقية من الآثار لما صار في امكاننا الكلام عنهم الا بايجاز مخل . وكلنا أمل

---

١ Sab. Inschr., S., 3.

بالطبع في أن تتبدل الأيام ، فتنعم العربية الجنوبية بالاستقرار ، وبرجال ذوي عقول مستقلة نيرة، تفهم روح الوقت وتبدل الزمن فتأمر بنبش الأرض لاستنباط ما هو مدفون في باطنها من كنوز روحية ومادية ، وعندئذ يستطيع من يأتي بعدنا أن ينال الحظ السعيد بالكتابة عن تلك البلاد كتابة تجعل كتابتنا الحالية شيئاً تافهاً قديماً بالياً تجاه ما سيعثر عليه من جديد . واني أرجو له منذ الآن الموفقية والنجاح ، لأني وان كنت قد دخلت اذ ذاك في باطن الأرض ، فصرت تراباً ضائعاً بين الأتربة ، غير ان لي رجاء وأملاً لا ينقطعان ولا ينتهيان بموت ، هو رجاء الكشف عن الماضي الميت وبعثه ونشره وحشره من جديد .

اننا لا زلنا مع ذلك في جهل بنواح عديدة من نواحي الحياة في الممالك العربية الجنوبية التي تكونت في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية . نواح تتعلق بالقوانين وبأصول التشريع ، وبالحياة الاجتماعية وبالحياة الدينية أو الفنية ، بل وفي عدد من حكم تلك الممالك وفي ترتيبهم وأعمالهم وما قاموا به ، وبصلات أولئك الحكام ببقية جزيرة العرب وبالعالم الخارجي . ودراسة العلماء عن تأريخ العرب الجنوبية الجاهلي وان تقدمت في خلال السنين المتأخرة ، ولكنها لا تزال مع ذلك في بدء مراحلها وهي تجري ببطء وتؤدة .

المكربون :

لقب أقدم حكام سبأ ، بلقب (مكرب) في الكتابات السبئية ، وفي هذا اللقب معنى (مقرب) في لهجتنا ، وتدل اللفظة على التقريب من الآلهة ، فكان (المكرب) هو مقرب أو وسيط بين الآلهة والناس ، أو واسطة بينها وبين الخلق .

وقد كان هؤلاء (المقربون) (المكربون) في الواقع كهاناً ، مقامهم مقام (المزواد) عند المعينيين و (شوفيط) Shophet ، وجمعها (شوفيطم) عند العبرانيين ، أي (القضاة)[1] . وجاء في كتب اللغة : (كرب الأمر يكرب كروباً : دنا، يقال: كربت حياة النار،أي قرب انطفاؤها،وكل شيء دنا،فقد كرب.

---

١ Hastings, P, 504, Encycl., Bibl., P. 2632.

قال أبو عبيد : كرب ، أي دنا من ذلك وقرب ، وكل دانٍ قريب ، فهو كارب . وورد : الكروبيون سادة الملائكة ، منهم جبريل وميكائيل ، واسرافيل هم المقربون ، والملائكة الكروبيون أقرب الملائكة الى العرش[1] . فللفظة معنى التقريب حتى في عربيتنا هذه : عربية القرآن الكريم .

وقد قدّر (ملاكر) Mlaker حكم المكربين بحوالي قرنين ونصف قرن ، إذ افترض أن حكم المكرب الأول كان في حوالي السنة (٨٠٠ ق. م.) ، وجعل نهاية حكم المكربين في حوالي السنة (٦٥٠ ق. م.) . وفي حوالي هذا الزمن استبدل – على رأيه – بلقب مكرب لقب (ملك) ، وانتهى بهذا التغيير في اللقب دور المكربين[2] .

وقدّر غيره حكم المكربين بزهاء ثلاثة قرون ، فجعل مبدأ حكمهم في حوالي السنة (٧٥٠ ق. م.) ، ونهاية حكمهم في حوالي السنة (٤٥٠ ق. م.)[3] ، وجعل بعض آخر مبدأ حكم المكربين في القرن العاشر أو القرن التاسع قبل الميلاد[4] .

وقد تمكن العلماء من جمع زهاء سبعة عشر مكرباً ، وردت أسماؤهم في الكتابات العربية الجنوبية ، وكانوا يقيمون في عاصمة سبأ القديمة الأولى مدينة (صرواح) . وقد رتب أولئك العلماء أسماء المكربين في مجموعات ، وضعوا لها تواريخ تقريبية ، لعدم وجود تواريخ ثابتة تثبت حكم كل ملك بصورة قاطعة ، ولذلك تباينت عندهم التواريخ وتضاربت ، فقدم بعضهم تأريخ الأسرة الأولى ، بأن وضع لحكمها تأريخاً يبعد عن الميلاد أكثر من غيره ، وقصر آخرون في التأريخ وأخروا ، وكل آرائهم في نظري فرضيات لا يمكن ترجيح بعضها على بعض في هذا اليوم . وقد يأتي يوم يكون في الامكان فيه تثبيت تواريخهم بصورة قريبة من الواقع ، استناداً الى الكتابات التي سيعثر عليها وعلى دراسة الخطوط وتقدير أعمار ما يعثر عليه وتحليل محتوياته بالأساليب الآثارية الحديثة التي تقدمت اليوم كثيراً ، وستتقدم أكثر من ذلك في المستقبل من غير شك .

---

١ اللسان (٢/٢٠٦) ، تاج العروس (١/٤٥٣) . Freytag, Lexicon, IV, P. 21

٢ Mlaker, Die Hierodulenlisten von Ma'in nebst Untersuchungen zur altsüdarabischen Rechtgeschichte und Chronologie, Samml. Orientalist. Arab., 15, Beiträge, S., 7.

٣ Discoveries, P. 73.

٤ BOASOOR, NUM., 137, (1955), P. 38, Arabien, S., 122.

ويعد المكرب (سمه على) أقدم مكرب وصل الينا اسمه . ولا نعرف اللقب الذي كان يلقب به ، ومن عادة حكام العربية الجنوبية من مكربين وملوك اتخاذ ألقاب يعرفون بها ، ومن هذه الألقاب نستطيع التفريق بينهم . ولا نعرف شيئاً كذلك من أمر والده . وقد جعل (فلبي) مبدأ حكمه بحدود عام (٨٠٠) قبل الميلاد في كتابه (سناد الإسلام)[١] وبحدود سنة (٨٢٠) قبل الميلاد في المقال الذي نشره في مجلة Le Muséon[٢] .

وتعد الكتابة الموسومة بـ Glaser 1147 ، من كتابات أيام هذا المكرب . وهي كتابة قصيرة مكتوبة على الطريقة الحلزونية Boustrophedon كأكثر كتابات أيام المكربين ، ولقصرها ونقصها لم نستفد منها فائدة تذكر في الوقوف على شيء من حياة هذا المكرب[٣] .

وقد عد (كلاسر) الكتابة الموسومة بـ Glaser 926 من كتابات أيام هذا المكرب ، وتابعه على ذلك (فلبي)[٤] . وهي من الكتابات المدونة على الطريقة الحلزونية Boustrophedon . وقد كتبت عند انشاء بناء ، وصاحبها (صبحم بن يثع كرب فقضن)[٥] . وقد ورد فيها اسم (سبأ) و (مرب) أي مدينة (مأرب) و (فيش) (فيشان) ، ووردت فيها لفظة (فراهو) أي (سيدة)، قبل اسم (سمه على) الذي كان يحكم شعب (سبأ) في ذلك العهد ، ودونت في النص أسماء الآلهة : عثتر ، و (المقه) و (ذت بعـدن)[٦] ، على العادة المألوفة في التيمن بذكر أسماء الآلهة في الكتابات ، ثم التيمن بذكر اسم الحاكم من مكرب أو ملك يوم تدوين الكتابة .

والنص المذكور ناقص يكمله النص الموسوم بـ CIH 955 ، على رأي بعض الباحثين[٧] .

---

١ Background, P. 141.

٢ Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 248.

٣ Glaser II47, CIH 367, Vindob 14, CIH, IV, II, P. 14, D.H. Müller, Südarabische Alterthümer im Kunsthistorischen Hofmuseum, 1890, S., 34, Hommel, Aufsätze., S., 144.

٤ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 248, CIH 418, IV, II, II, P. 99.

٥ (صبح بن يتعكرب فقضان) .

٦ (ذات حميم) (ذات بعدان) ، (ذات حمم) (ذات البعد) .

٧ Glaser 927, CIH, IV, III, II, P. 282.

والمكرب المذكور ولد اسمه (يدع آل ذرح)[1] ، حكم على رأي (فلبي)

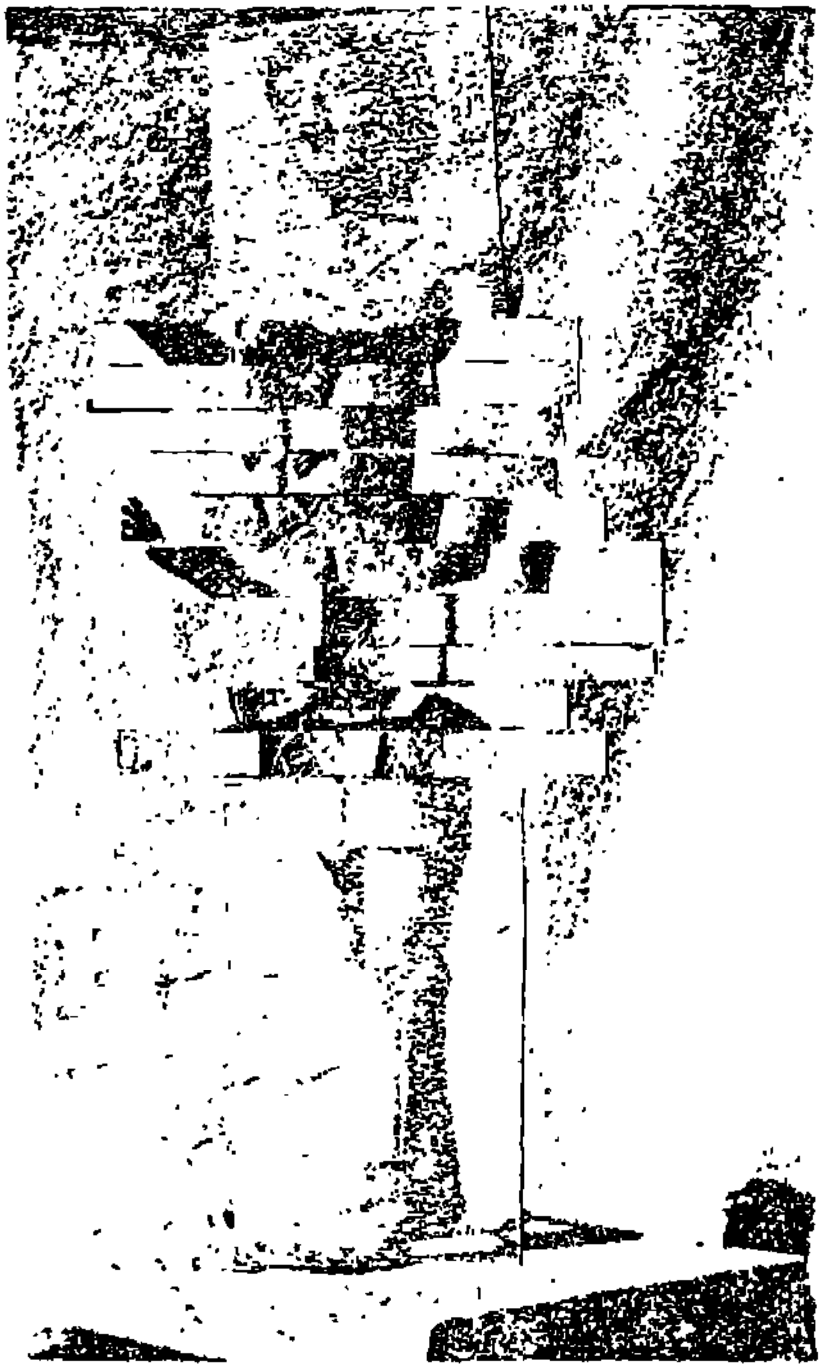

تمثال من البرنز قدمه رجل اسمه (معد يكرب) الى الإله (المقه)
بعل اوام . ويعود عهـده الى القرن السادس قبل الميلاد .
من كتاب Qataban and Sheba (الصفحة ٢٧٣)

حوالي سنة (٨٠٠ ق. م.)[2] . وقد عثر على عدد من الكتابات من أيامه ،

١ (يدع ايل ذرح) يدع ايل ذراح) .
٢ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 248.

منها الكتابة التي وجدت في (حرم بلقيس) (محرم بلقيس) ، وميزت عن غيرها بعلامة : Glaser 484 [1] وقد ورد فيها أن هذا المكرب أقام جدار معبد (أوم) (أوام) المخصص بعبادة (المقه) (اوم بيت المقه) إلّه (سبأ) . وقد قدم القرابين لهذه المناسبة الى الإلّه (عثتر ، وذكر الإلّه (هبس) (هوبس) [2]،وتشبه هذه الكتابة شبهاً كبيراً كتابة أخرى وسمت بـ Glaser 901 [3] لـ (يدع آل ذرح) أيضاً ، وقد أخبر (يدع آل ذرح) فيها أنه سور (بيت المقه) وهو معبد الإلّه بمدينة (صرواح)،وأنه قرّب ثلاثة قرابين لهذه المناسبة الى الآلهة (حرمتم) (حرمة) (حرمت) (حريمت) . ويرى (هومل) أن هذه الإلهة هي زوج الإلّه (المقه) إلّه سبأ [4] .

والنصان : Glaser 1108 و Glaser 1109 ، يرجعان الى المكرب (يدع آل ذرح) كذلك ، وقد أخبر فيها أنه عني بتعمير معبد (المقـه) وأضاف أجزاء جديدة اليه ، وذكر في أحدهما الإلّهان المقـه وعثتر ، وذكر في الآخر الآلهة : عثتر ، والمقه ، وذات حميم [5] .

وعثر على كتابة أخرى في موضع (المساجد) ، بمأرب ، تبين منها أن هذا المكرب تقرب إلى إلّه سبأ الإلّه (المقه) ببناء معبد له [6] .

وتعود الكتابات AF. 17 و AF. 23 و AF. 24 و AF. 38 الى هذا المكرب كذلك ، وهي من الكتابات التي عثر عليها أحمد فخري المصري الذي أمّ اليمن عام (١٩١٧ م) [7] . وتعود الكتابة CIH 633 الى أيامه أيضاً [8] .

---

١ Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie, II, S., 7, CIH, IV, III, II, P. 284, 957, Glaser, Reise, S., 137, REP. EPIG., 3624, I, P. 245, Handbuch. I, S., 77.

٢ Glaser 484, 901, 1530, 1531, Halévy 50, 54, 55-60, Arnau 901, CIH 366, IV, III, II, P. 284, IV, II, P. 10, Mackell 3, Fresnel 4, 5, 6-10, Hartmann, Arabische Frage, S., 124.

٣ المصادر المذكورة .

٤ Handbuch, S., 77.

٥ REP. EPIG. 3949, 3950, VII, I, P. 2, A. G. Loundine, Yada'il darih, fils de Sumh'alay, Mukarrib de Saba, Moscou, 1960, P. 1.

٦ Beiträge, S., 22, 28, 30, Loundine, P. 5.

٧ Le Muséon, LXI, 3-4, (1948), PP. 215, 228, LXII, 3-4, 1949, P. 248.

٨ CIH 633, Halévy 61, REP. EPIG. 2729, V, II, P. 75.

وتدل هذه الكتابات على ان (المكرب) المذكور قد اهتم كثيراً ببناء معبد (أوام) في مأرب ، المعبد الذي يعرف بين أهل المنطقة باسم (محرم بلقيس) وباضافة زيادات عليه وبترميمه أيضاً . وأغلب الظن انه لم يكن هو الباني له ، وانما كان موجوداً ومبنياً قبله ، غير ان الباحثين لم يتمكنوا من العثور على اسم بانيه حتى الآن ، لأن أعمال الحفر فيه لم تتم بصورة علمية واسعة فيه حتى الآن. والكتابة التي سجلها المكرب المذكور لم تشر الى بناء المعبد كله ، بل أشارت الى أجزاء معينة منه وهي لا تزال تحمل اسمه[1] ، وهناك كتابات أخرى تحمل اسم حكام سبأ من مكربين وملوك ووجهاء ممن أضافوا أبنية جديدة الى هذا المعبد ، أو قاموا باصلاح ما حدث فيه من خلل بمرور السنين[2] .

وقد ذهب (فلبي) الى أن هذا المكرب كان قد حكم في حوالي سنة (٨٠٠ ق. م.)[3] . وذهب (فون وزمن) الى ان حكمه كان في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد[4] . أما (البرايت) ، فيرى ان حكمه كان في أواسط النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد ، أو في أوائله[5] ، وثبت آخرون حكمه بحوالي السنة (٧٥٠ ق. م.)[6] .

وكان لـ (يدع آل ذرح) ولد اسمه (سمه علي ينف)[7] ، ورد اسمه في الكتابة CIH 636 [8] ، وهي كتابة ناقصة سقط أكثر ما دوّن فيها . ولم يذكر (هومل) اسمه في القائمة التي صنعها لمكربي (سبأ)[9] . ولم يذكره (فلبي) كذلك في كتابه (سناد الإسلام)[10] . غير أنه ذكر اسمه في القائمة التي نشرها في مجلة Le Muséon ، وجعله المكرب الثالث ، أي أنه وضعه بعد (يدع

---

١ BOASOOR, NUM. 137, 1955, P. 36.
٢ Arabien, S., 177.
٣ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 248.
٤ Beiträge, S., 22.
٥ Discoveries, P. 221, « A note on Early Sabaean Chronology », in BOASOOR, NUM. 143, 1956, P. 9.
٦ Arabien, S., 177.
٧ (سمه علي ينوف) ، (سمه علي النائف) (سمهعلي ينوف) .
٨ Halévy 338, Glaser 1468.
٩ Handbuch, I, S., 77.
١٠ Background, P. 141.

آل ذرح) والده مباشرة ، وجعله مكرباً[1] . ولم ترد في النص المذكور كلمة (مكرب) بعد اسم (سمه علي ينف)،وإنما ذكرت بعد اسم (يدع آل ذرح)[2]، وهذا يعني أن هذه الكلمة ، وهي (مكرب) ، ليست لـ (سمه علي) ، وانما تخص الأقرب اليها ، وهو (يدع آل ذرح) .

وقد ورد اسم (سمه علي) بعد اسم (يدع آل) وقبل اسم (يثع أمر) في الكتابة المعروفة بـ Glaser 694[3] . ولم ترد فيها نعوتهم ، ولا كلمة (مكرب) التي هي الدلالة الرسمية المنبئة بتبوئهم الحكم .

وقد وضع (فلبي) الكتابتين المرقمتين CIH 368 و CIH 371 في جملة الكتابات من أيام المكرب (سمه علي ينف)[4] . أما الكتابة الأولى ، فصاحبها (عم أمر بن أب أمر ذيبرن) ، أي من عشيرة (يبرن) (يبران)، ولعله كان سيداً من ساداتها . وكان من المقربين لـ (سمه علي) ولشقيقه (يثع أمر) ولعله كان من ندمائها ، بدليل ورود جملة (مودد سمه علي ويثع أمر) في النص ، أي أنه كان من المتوددين اليها ، وتعبر لفظة (مودد) عن منزلة رفيعة عند السبئيين تضاهي منزلة (نديم) عند العرب الشماليين .

وقد دوّن (عم أمر) تلك الكتابة عند بنائه بيته (مردعم) (مردع) في مدينة (منيتم) (منيت) (منية)[5] . وأما الكتابة الثانية فصاحبها (عم أمر بن أب أمر) ، وهو من عشيرة أخرى اسمها (ذ لحدم) (لحد) ، ويظهر انه كان من أشرافها ، فهو شخص آخر يختلف عن الشخص الأول ، وان اشتركا في الاسم. ولم يرد في هذه الكتابة الثانية اسم أي مكرب من المكربين. لذلك لا أستطيع أن أضيف هذه الكتابة الثانية الى ايام (سمه على) . والذي حمل (فلبي) على اضافتها الى ايام هذا المكرب هو كون اسم صاحب الكتابتين واحداً ، فظن انهما رجل واحد ، وان صاحب الكتابتين واحد أيضاً ، ولورود اسم (سمه على) و (يثع أمر) في النص الأول ، أضاف النص الثاني الى

---

١ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 448.

٢ CIH, IV, III, I, P. 71, REP. EPIG., V. II, PP. 191, 2857.

٣ REP. EPIG., 3623, VI, I, P. 245.

٤ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 248.

٥ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 248, CIH 368, Halévy, 596.

النصوص من ايام المكربين . ولو انتبـه الى ان كل واحد منها هو من قبيلة تختلف عن القبيلة الأخرى ، لما أضاف الكتابة الثانية الى ايام المكربين المذكورين.

وأشار (فلبي) الى اسم ولد من أولاد (سمه على ينف) سماه (يدع آل وتر) ولم يشر الى انـه كان مكرباً ، وذكر انـه حصل على اسمـه من النصوص AF. 86, 91, 92 [١].

ونسب (فلبي) زمن تدوين النصوص : CIH 490 و CIH 492 و CIH 493 و CIH 495 الى عهد (يثع أمر وتر)[٢] . أما النص CIH 490 فقـد وضع ناشره ومحققه لفظة (ملك) بعد اسم (يثـع أمر) ، وذلك باكمال الحرفين الباقين من الكلمة المطموس آخـرها ، الواردة بعد (وتر) ، وهما (الميم) و (اللام) . فاذا كانت القراءة صحيحة ، انصرف الذهن عن (يثع أمر وتر) هذا الى (يثع أمر) آخر يجب أن يكون ملكاً على سبأ . وان كانت القراءة مغلوطة ، كأن يكون أصلها المطموس لفظة (مكرب) ، جاز حينئذ أن يكون (يثع أمر) هو (يثع أمر وتر) المذكور الذي قصده (فلبي)[٣] . وتتضمن هذه الكتابة خبراً يفيد ان (يثع أمر وتر بن يـدع ايل ذرح) جدد بناء معبد الإلـه (هبس) (هوبس) . وقد عثر عليها في الموضع المسمى بـ (الدبر) (دبر) في الزمن الحاضر[٤] . ويرى (هومل) ان (دبر) (دابر) ، هو اسم قبيلة ، وقد بنت معبداً سُمّي باسمها ، وقد جدد بناءه هذا المكرب (يثع أمر وتر)[٥] .

وقد ورد اسم (دبر) في كتابات أخرى ، ولهذا ذهب (هومل) الى أنه اسم المعبد المذكور : معبد الإلـه (هوبس) ، وهذه الكتابة من القرن الثامن قبل الميلاد في رأي بعض البـاحثين ، ومعنى هذا أن حكم هذا المكرب السبئي (يثع أمر وتر) كان قد بلغ أرض معين في هذا العهد[٦] .

وأما النص CIH 492 ، فهو نص قديم أيضاً ، كتب على الطريقة الحلزونية

---

١ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 248.

٢ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 248.

٣ CIH, IV, II, P. 190, Halevy 626 + 627, Handbuch, I, S., 77, Beiträge, S., 23.

٤ Handbuch, I, S., 77, Beiträge, S., 23.

٥ Beiträge, S., 23, Hommel, Ethnologie, S., 674.

٦ Halévy 511, + 627, Beiträge, S., 23.

الشائعة بين السبئيين في أيام المكربين.وصاحبه رجل اسمه (حيم بن بعثتر رحضن)[1]، أي من (آل رحضان) (رحاض)، وقد قدم الى الآلهة (ذات حيم) نذراً لعافيته ولعافية بنته وأولاده[2]. ولكننا لا نجد فيه أي تصريح أو تلميح الى اسم المكرب (يثع أمر وتر) أو الى أبيه.

وأما النص (CIH 493)، فصاحبه رجل اسمه (حيم بن عم يدع)[3]، من (آل قدران) (ذ قدرن)[4] فهو امرؤ لا صلة له بصاحب النص المتقدم: CIH 492. وقد ورد في النص اسم (يدع ايل) و (يثع أمر)، ولم يذكر فيه نعت الرجلين. ومن الجائز أن يكون (يدع ايل) و (يثع أمر) المذكوران هما المكربان اللذان نبحث عنهما، أي المكرب الوالد وابنه، ومن الجائز أيضاً ألا يكونا هما، فهنالك فجوات لا نعرف عمقها في تأريخ سبأ، قد تكون فيها خبايا من أسماء مكربين وملوك. وأعتقد ان اسم (حيم) هو الذي حمل (فلبي) على حشر النص السابق بين النصوص التي ظن أن لها علاقة بالمكرب (يثع أمر وتر)، على اعتبار ان الرجلين رجل واحد، ولكن الواقع أنهما شخصان مختلفان.

وأما النص CIH 495، فصاحبه (حيم بن عم يدع) من (آل قدرن)، أي صاحب النص CIH 493 المذكور، ولذلك أضافه (فلبي) الى النصوص التي لها صلة بالمكرب (يثع أمر وتر). ولم يرد في هذا النص اسم هذا المكرب ولا اسم أبيه، ولعلهما سقطا في جملة ما سقط من اسطر وكلمات.

وقد وضع (هومل) اسم (يدع آل بين) (يدع ايل بين) بعد اسم (يثع أمر وتر) ليكون المكرب التالي له، وهو – على رأيه – ابنه وخليفته من بعده[5]. ومن أهم أعماله المذكورة في الكتابات، تحصينه وتقوية أبراج مدينة

---

١ (حيوم بن بعثتر رحضان) (حي بن بعثتر رحضان).

٢ CIH., IV, II, III, P. 194, Massil, 12, REP. EPIG., I, III, PP. 159, 194.

٣ (حيوم بن عم يدع) (حي بن عميدع).

٤ CIH. 493, Müller, 4, Praet 8, British Museum 64 + 59.

٥ Background, P. 37.

(نشق) من مدن المعينين[1] . ويدل ذلك على ان هذه المدينة كانت قد دخلت في ممتلكات السبئيين ، في زمن لا نعرفه ، قد يكون في أيام هذا المكرب وقد يكون قبل ذلك . وان السبئيين كانوا يتبعون خطة التوسع بالتدرج حتى ابتلعوا مملكة (معين)[2] . وقد رأيت انهم كانوا قد استولوا على قرية (دبر) (دابر)، وحصنوها ، واتخذوها قاعدة حصينة للاغارة منها على الجوف وعلى المعينيين . ويرى بعض الباحثين ان استيلاء المكرب المذكور ، كان في أواسط القرن الثامن قبل الميلاد . وقد أمر باحاطة تلك المدينة بسور ، وقد توسعت رقعتها ، الا انها لم تلبث ان انفصلت من السبئيين ، ثم عاد السبئيون فاستولوا عليها ، في ايام المكرب والملك (كريب ايل وتر)[3] .

وحكم بعد (يدع ايل بين) المكرب (يثع أمر) ، على رأي (هومل) ، ولم يشر الى نعته . ويرى (هومل) احتمال كونه ابناً لـ (يدع ايل بين) أو شقيقاً له[4] .

أما (فلبي) ، فيرى ان (يثع أمر) هو أحد أولاد (سمه على ينف) (سمه على ينوف)[5] ، وهو شقيق (يدع ايل بين) . وقد ورد اسمه في النص CIH 563[6] ، فيكون بذلك – على رأيه – ابن شقيق (يدع ايل) ، لا ابنه . وذكر (فلبي) انه عرف بـ (يثع أمر وتر) وجعله معاصراً للملك سرجون[7] .

والنص CIH 563 ، مكتوب على الطريقة (الحلزونية) ، ويتألف من جملة أسطر ، وقد ورد فيه نعت (يثع أمر) ، وهو (وتر)[8] .

---

١ REP. EPIG. 2850, V. II, P. 184, Handbuch, I, S., 77, CIH 634, IV, III, I, P. 70, IV, I, III, P. 202, Glaser 117, CIH 138.

٢ Background, P. 37, REP. EPIG. 2850, V. II, P. 184. Handbuch, I, S., 77, Beiträge, S., 15, CIH 634.

٣ Beiträge, S., 15.

٤ Handbuch, I, S., 77.

٥ Background, P. 141.

٦ Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 248.

٧ Background, P. 141.

٨ CIH 563, British Museum 66, Prideaux 14a, B. C.

وقد ورد في كتابة من كتابات الملك (سرجون) الثاني (٧٢٢ – ٧٠٥ ق. م.) أنه تسلم هدايا من عـــدد من الملوك ، مــن جملتهم (يثع أمر) It-'Amra Iti'Amra) السبئي ، والملكــة (شمس) ملكة (اريبي) Mat Sa-Ba'-al (عربي) . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن (يثع أمر) المـذكور في نص (سرجون) هو (مكرب) سبأ هــذا الذي نتحدث عنه [١] . غير أن النص لم يحدد مكان حكم ذلك الملك السبئي ، ولهذا ذهب بعض آخر الى احتمال كونه أحد الملوك السبئيين الحاكمين في شمال جزيرة العرب على مقربة من البـادية في أعالي الحجاز أو نجــد مثلاً ، أو في الأرض الواقعة في المناطق الجنوبية من الأردن [٢] .

وكان (هومل) ممن يرون أن (يثع أمر) المذكور في نص (سرجون) هو أحد الملوك السبئيين الحاكمين على قبيلة سبئية في شمال جزيرة العرب ، غير أنه غيّر رأيه هذا ، وجعل (يثع أمر) هو (يثع أمر) الذي نبحث فيـه ، أي مكرب سبأ ، وذلك عندما عثرت بعثة ألمانية على كتابة للملك (سنحريب) (سنحاريب) ، جاء فيها : أنه تناول هدية من ملك سبئي ،هو (كرب ايلو) (كرب ايــل) ، فتيقن عندئذ ان الرجلين المذكورين اللذين قدّما الهدايا ، هما المكربان : (يثع أمر) و (كرب ايل)[٣] .

ولا أجد في تلك الهدايا علامة على خضوع سبأ لحكم الآشوريين ، إذ أستبعد بلوغ نفوذ الآشوريين في ذلك الزمن الى أرض اليمن . ولو كان الآشوريون قد استذلوا السبئيين اليانيين وحكموهم لذكروا اسمهم في جملة الأمم التي استعبدوها. والرأي عندي أن تلك الهدايا هي مجرد تعبير عن الصداقة التي كانت تربط بين آشور وسبأ ، خــاصة وأن بين اليمن والعراق تجارة مستمرة قديمة ومواصلات

١ Bota and Flandin, Monument, Vol., 4, PL. 145, I, 3, Winckler, Keilschrift Sargons, 1889, BD., PL. 2, No. I, Z., 20, Musil, Arabia Deserta, P. 479.

٢ Handbuch, S., 76.

٣ بخصوص آراء الباحثين في (يثع أمر) راجع أيضا :
BOASOOR, Num. 137, 1955, PP., Archiv für Orientforschung, 16, 1955, S. 232, Handbuch, I, S., 76, Beeston, «Problems of Sabaean Chronology», in BOASOOR, 1954, XVI/I, PP. 42.

متصلة ، فلتوطيد الصداقة بين الحكومتين وتسهيل التبادل التجاري بين العراق واليمن أرسل حكام سبأ تلك الهدايا ، كما فعل أهل مكة وهم قوم تجار فيما بعد، فقد كانوا يتوددون للأكاسرة وللملوك الحيرة بإرسال الهدايا النفيسة لهم ، لكسب ودّهم في تسهيل أمور تجارتهم مع أسواق العراق .

وإذا أخذنا برأي من يقول إن (يثع أمر) المذكور في نص (سرجون)، هو (يثع أمر) الذي نبحث فيه ، يكون ارسال الهدايا والألطاف الى (سرجون) في حوالي السنة (٧١٥ ق. م.)[١] . وقد قدر (فلبي) حكمه بحوالي عشرين سنة ، وجعله من حوالي سنة (٧٢٠) حتى سنة (٧٠٠ ق. م.)[٢] .

وتولى الحكم بعد (يثع أمر وتر) ابنه المكرب (كرب ايل بين) . وقد ذكر اسمه في الكتابة CIH 627 [٣] ، وهي كتابة قصيرة ناقصة ، ورد فيها اسم (كرب ايـل بين) ومعه اسم والده (يثع أمر) ، ولم يذكر فيهـا نعت (يثع أمر) وهو (وتر) ، وذكرت بعد اسم (يثع أمر) كلمة (مكرب سبأ)[٤] . وورد اسمه واسم أبيه (يثع أمر) في كتابات أخرى ، ذكرت في بعضها لفظة (وتر) ، بعد (يثع أمر)[٥] . وذكرت في بعض آخر كلمـة (مكرب) ، ولم تذكر في غيره .

وقد ورد في الكتابة CIH 634 : أن (كرب ايل بين) وسع حدود مدينة (نشق) بمقدار ستين (شوحطاً)[٦] ، وحسن المدينة .

وورد في أخبار (سنحريب) أنه تسلم هدايا من (كرب ايلو) Ka-ri-bi-lu ملك سبأ ، من جملتها أحجار كريمة وعطور . وقد ذهب الباحثون في هـذا الموضوع الى أن هذا السبئي ، الذي قدّم الهدايا الى ملك آشور ، هو (المكرب كرب آل بين) الذي نبحث عن سيرته . وإن كان النص الآشوري قـد نعته بـ (ملك) . وذلك لأن الآشوريين لم يكونوا عـلى علم بألقاب حكام سبأ ،

---

١ Beiträge, S., 7, BOASOOR, NUM. 143, (1956), P. 10.

٢ Background, P. 141.

٣ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 248.

٤ CIH 627, Fresnel 29, Glaser 541, CIH, III, I, P. 63.

٥ CIH 632, Halévy 52, 349, 672, Glaser 1529, CIH 610, Le Muséon, 3-4, P. 248.

٦ CIH, IV, III, I, 72, Halévy, 352.

فلقبوة بلقب (ملك)[١] .

وقد جعل (هومل) اسم (كرب ايل بين) في آخر المجموعة الأولى من مجموعات مكربي سبأ ، ووضع الى جنبه اسم (سمــه على ينف) ، وصارت مجموعته هذه بذلك على هذا النحو :

١ ـ سمه علي (دون نعت) .
٢ ـ يدع ايل ذرح .
٣ ـ يثع أمر وتر .
٤ ـ يدع ايل بين .
٥ ـ يثع أمر (لا يعرف نعته) .
٦ ـ كرب ايل (بين) و (سمه على ينف) ، ولعله كان يشارك شقيقه (كرب ايل بين) في الحكم[٢] .

وولي الحكم بعد (كرب ايل بين) ابنه المكرب (ذمر على وتر) ، واليه تعود الكتابة الموسومة بـ Halévy 349 ، وقد جاء فيها : ان هذا المكرب أمر بتوسيع مدينة (نشقم) ، أي (نشق) ، وباصلاح الأرضين المحيطة بها ، وبتحسين نظم الري فيها ، وذلك فيما وراء الحد الذي وضعه أبوه لهذه المدينة ، وانه قد جعل ذلك وقفاً على شعب سبأ[٣] .

ويظهر من عناية المكربين بمدينة (نشق) ، وهي مدينة معينية في الأصل ، ان السبئيين وجدوها أرضاً خصبة غنية ومهمة بالنسبة اليهم ، وقد صارت خراباً ، فقرروا اصلاح ما تخرب منها ، واستصلاح أرضها لاسكان السبئيين فيها ، ووسعوا في حدودها ، وأصلحوا ما تداعى ووهن من نظم الري فيها ، ووزعوا الأرضين الزراعية منها على أتباعهم السبئيين ، وحولوها بذلك الى مدينة سبئية[٤] . وقد كانت الشعوب القديمة تتبع هذه السياسة ، حيث كانت تستقطع الأرض من المدن التي

---

١ Ency. Brita., Vol., 19, P. 785, Handbuch., I, S., 76, 85, Otto Schröder, Keilschrifttexte, II, Leipzig, 1922, 122.

٢ Handbuch, I, S., 77.

٣ Halévy 349, Rhodokanakis, Studi. Lexi., 2, S., 126, CIH 623, IV, III, I, P. 38, REP. EPIG. 3388, 4401, CIH 610.

٤ Rhodokanakis, Studi. Lexi., II, S., 127, REP. EPIG. 3865, V, II, P. 200.

تفتحها ، وتعطيها أفرادها ، للسكن فيهـا ولإعمارها وللهيمنة على أهل المدينة الأصليين .

وقد جاء في احدى الكتابات : ان هذا المكرب أمر بتجديد ما تلف وتداعى من معبد الإله (عثتر) ، واصلاحه . ولم يرد فيها ذكر اسم الموضوع الذي كان فيه ذلك المعبد[1] ، كما جاء اسمه في كتابة أخرى دونّها قيل (قول) كان يحكم قبيلة (يهزحم) و (يزحم)[2] .

وتولى بعد المكرب (ذمر على) ابنه المكرب (سمه عـلى ينف) (سمه على ينوف) الحكم . وقد ذكر اسمه في كتابات عدة من أهمها كتابة تشير الى تعمير هذا المكرب سد (رحبم) (رحاب) للسيطرة على مياه الأمطار والاستفادة من السيول[3] . وهو جزء من المشروع المعروف بـ (سد مأرب) الذي نمـا على مرور الأيام ، وتوسع حتى كمل في زمن (شهر يهرعش) في نهايـة القرن الثالث للميلاد ، فصارت تستفيد منه مساحة واسعة من الأرض[4] . وقد بقي قائماً الى قبيـل الاسلام ، وعدّ سقوطه نكبة كبيرة من النكبات التي أصابت العربية الجنوبية ، حتى ضرب بسقوطه المثل ، فقيل : « تفرقوا أيـدي سبأ » ، ذلك لأن سقوطه أدى الى تفرق السبئيين ، والى هجرتهم من بلادهم التي ولدوا فيها والى تفرقهم شذر مذر في البلاد .

وتخبر الكتابة الموسومة بـ Glaser 514 ان المكرب (سمه على ينف) ثقب حاجزاً من الحجر ، وفتح ثغرة فيه لمرور المياه منها الى سد (رحبم) (رحاب)، لتسيل الى منطقة (يسرن)[5] (يسران) ، وهي منطقة ورد اسمها في كتابات عديدة ، وكانت تغذيها مسايل وقنوات عديدة تأتي بالماء من حوض هذا السد[6]، وتبتلع ماءها من مسيل (ذنة) وهو من المسايل الكبيرة ، فتغذي أرضاً خصبة

---

١ Glaser 474, 1671, REP. EPIG. 4401.

٢ Orientalia, Vol., V, 1936, P. 5, E. Mittwoch und H. Schlobies, «Altsudarabische Inschriften im Hamburgischen Museum fur Volkerkunde», Hamburg, NR. 31.

٣ CIH 623, IV, III, I, P. 60, Fresnel 14, Halevy 673 + 674, Glaser 513 + 514, Arnau 14.

٤ Handbuch, S., 79, Discoveries, P. 73.

٥ Rhodokanakis, Studi. Lexi., 2, S., 97, REP. EPIG. 2651, V, I, P. 23.

٦ Beiträge, S., 27.

لا تزال على خصبها ، ومن الممكن الاستفادة منها فائدة كبيرة باستعمال الوسائل الحديثة في ايجاد المياه[1] .

وكتابة هذا المكرب ، هي أقدم وثيقة وصلت الينا عن سدّ (مأرب) ، انها شهادة مهمة تشير الى مبدأ تأريخ هذا السد ، ولكنني لا أستطيع أن أقول ان السدّ كان من تفكير هذا المكرب وعمله،وانه أول من شق أساسه ووضع بنيانه، فقد يكون السد من عمل أناس غيره حكموا قبله ، وما المشروع الذي أقامه هذا المكرب الا تتمة لذلك المشروع القديم .

إن هذه الكتابة هي وثيقة ترجع تأريخ السدّ الى جملة مئات من السنين سبقت الميلاد . ترجعه الى حوالي السنة (٧٥٠ ق. م.) على رأي بعض الباحثين[2] .

وقد ورد اسم هذا المكرب في عدد من الكتابات أكثرها متكسرة[3] .

وسار المكرب (يثع أمر بين) على سنة أبيه المكرب (سمه علي ينف) في العناية بأمور الري ، فأدخل تحسينات كبيرة على سد مأرب ، وأنشأ له فروعاً جديدة ، ففتح ثغرة في منطقة صخرية لتسيل منها المياه الى أرض (يسرن) (يسران)[4] ، وزاد بعمله هذا في التحكم والسيطرة على مياه السيول ، وفي تسخير الطبيعة لخدمة الإنسان ، وعمل على تعلية سدّ (رحبم) (رحاب) القديم وتقويته ، فوسع بذلك الأرضين الزراعية ، وزاد في ثروة أهل (مأرب) الذين زاد عددهم ، حتى تغلب على عدد سكان (صرواح) عاصمة المكربين،وتمكنت (مأرب) بذلك من منازعة هذه العاصمة ، الى أن تغلبت عليها ، فصارت العاصمة للسبئيين ومقر حكام سبأ ، وصاحبة معبد (المقه) إله سبأ الكبير[5] .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن المكرب (سمه علي ينف) والمكرب (يثع أمر بين) كانا المؤسسين الأصليين لسدّ مأرب . ويرجعون زمانها الى القرن السابع قبل الميلاد،فيكون انشاء السد اذن في هذا الزمن على رأي هؤلاء الباحثين.

---

١ العظم نزيه مؤيد : رحلة : (٢/٨٨ وما بعدها) .

٢ Glaser 513 + 514, Discoveries ? P. 75.

٣ Le Muséon, LXII, 3-4, (1949), P. 249, CIH 622, 623, 629, 774, 875, Philby 77, REP. EPIG., 3650, 4177, 4370, AF. 62, III.

٤ Rhodokanakis, Studi. Lexi., 2, S. 102, Glaser 523, 525, Discoveries, P. 75.

٥ Background, P. 39.

وقد استمر من جاء بعدهما في اصلاحه وفي اضافة زيادات اليه وفي توسيعه وترميمه ، إذ أصيب مراراً بتلف اضطر الحكومات الى اصلاحه . وقد أشير في الكتابات الى تهدم جزء منه في سنة (٤٥٠ ب. م.) وسنة (٥٤٢ ب. م.)[١] وقد كان آخر ترميم واصلاح له في أيام (أبرهة) . والظاهر أن تلفاً أصابه بعد ذلك فيما بين السنة (٥٤٢ ب. م.) والسنة (٥٧٠ ب. م.) ، فلم يصلح فترك الناس مزارعهم ، واضطروا الى الهجرة منها ، والى ذلك وردت الاشارة في القرآن الكريم[٢] .

والى هذا المكرب تعود الكتابة الموسومة بسمة Philby 77 ، وقد جاء فيها: أنه سوّر وحصن قلعة (حرب) (حريب)[٣] . ويشير تحصين المدن وبناء القلاع والتوسع في الأرضين ، التي تعود الى شعوب أخرى مثل ، قتبان ومعين ، الى توسع السبئيين في عهد المكربين ، والى اتخاذ هذه الحصون مواقع هجومية تشب منها جيوشهم على جيرانهم الذين أصاب حكوماتهم الضعف والهزال . وقد هاجم هذا المكرب القتبانيين كما يظهر من كتابة عثر عليها في مأرب ، فقتل منهم زهاء أربعة آلاف جندي في عهد ملك قتبان الملك (سمه وتر) ، ثم هاجم مملكة (معين) ، ولا نعرف الخسائر التي لحقت بالمعينيين ، للكسر الذي في الكتابة، غير أن الظاهر يدل على أنه انتصر عليهم ، ثم عقب ذلك اخضاع القبائل والمدن التي لم تكن خاضعة لسبأ حتى أرض (نجران) . وقد أوقع بـ (مهأمرم) (مهامرم) و (أمرم) (امرم) خسائر كبيرة ، فقتل منها في المعارك التي نشبت قرب (نجران) زهاء خمسة وأربعين ألف رجل ، وأسر (٦٣) ألف أسير وغنم واحداً وثلاثين ألف ماشية ، وأحرق ودمر عدداً من قراها ومدنها[٤] .

وذكر صاحب الكتابة أن من المدن التي أحرقت مدينة (رجمت) (رجمة) مدينة (لعذرايل) ملك (مهامرم) (مهأمرم)[٥] . والظاهر أن هذه المدينة

---

١ Beiträge, S., 26.

٢ السورة رقم ٣٤ .

٣ Philby, Sheba's, P. 445, Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 249, Beiträge, S., 24, 27, REP. EPIG. 1904.

٤ Background, P. 39, Handbuch, I, S., 81, Glaser 419 + 418, Beiträge, S., 9.

٥ (لعذرال) (لعذرايل) ، هكذا جاء في النص ، واظن أن الاصل هو (عذرال) (عذرايل) ، Handbuch, I, S., 81.

كانت عاصمة الملك . وأحرقت أيضاً أكثر قرى هذه المملكة ومدنها وجميع المدن بين (رجمت) (رجمة) (رجات) و (نجران)[١] .

وقد ذكر (الهمداني) موضعاً سماه (رجمة) في اليمن[٢] ، وهو اسم يذكرنا بمدينة (رجمت) (رجمة) . وقد يكون هو المكان المذكور .

وقد قام المكرب (يثع أمر بين) بأعمال عمرانية عديـــدة . منها بناؤه بابين لمدينة (مأرب) ، وتحصينه للمدينة ببروج بناها من (البلق) نوع من الحجر. وقد بنى (مرشوم) ومعبد (نسور) ، ومعبد (علم) ، ومعبداً في (ريدن) (ريدان) ، ومعبداً آخر لعبادة (ذات بعدن) (ذات بعدان) في (حنن) (حنان) ، وبنى (عدمن) (عدمان) وعدة أبنية بإزاء باب معبد (ذهبم) (ذهب) ، وحفر مسيل (حبيض) (حبابض) ، ووسع مجرى (رحبم) (رحاب) ، وعمّقه حتّى غذّى مناطق واسعة جديدة من (يسرن) (يسران) ، وبنى سد (مقرن) (مقران) ، وأوصل مياه (مقران) الى (أبين) ، وكذلك سد (يثعن) (يثعان) حيث أوصل مياهـــه الى (أبين) ، وسد (منهيتم) (منهيت) و (كهلم) (كهل) الواقع مقابل (طرقل)[٣] .

هذه الأعمال الهندسية التي قام بها هذا المكرب وأسلافه من قبله ، للاستفادة من مياه الأمطار، هي من المشروعات الخطيرة التي ترينا تقدم أهل العربية الجنوبية في فن الري والاستفادة من الأمطـار في تحويل الأرض اليابسة الى جنان . ولسنا نجد في التأريخ القديم الا ممالك قليلة فكرت في مثل هذه المشروعات وفي التحكم في الطبيعة للاستفادة منها في خدمة الانسان[٤] . لقد حوّل هذا السد أرض (أذنة) أو (ذنة) الى جنان ترى آثارها حتى الآن . انها مثل حي يرينا قدرة الانسان على الابداع متى شاء واستعمل عقله وسخر يده. وليست هذه القصص والحكايات التي رواها الأخباريون عن سد (مأرب) وعن جنان سبأ باطلاً ، انها صدى ذلك العمل العربي الكبير[٥] .

---

١ REP. EPIG. 394, Beiträge, S., 9.

٢ الصفة (٨٠ ، ١٠٤ ، ١٦٤) .

٣ REP. EPIG. 3943, VI, II, P. 394,
Rhodokanakis, Altsab. Texte, I,S., 3, Glaser 418 + 419.

٤ Background, P. 39.

٥ Handbuch, I, S., 80.

وقد ظل حكام سبأ الذين حكموا من بعدهما يجرون اصلاحات ، ويحدثون اضافات على سد مأرب،ويرممون ما يتصدع منه ، كما يظهر ذلك من الكتابات . وقد تعرض مع ذلك للتصدع مراراً، وكان آخر حدث مهم وقع له هو التصدع الذي حدث فيه سنة (٥٤٢ ب. م.) وذلك في أيام أبرهة .

ويظهر ان تصدعاً آخر وقع له بعد هذه السنة ، فأتى عليه ، واضطر من كان يزرع بمائه الى ترك أرضهم ، والهجرة منها الى أرضين جديدة [١] .

ويظهر من كتابة ناقصة ان هذا المكرب أنشأ أبنية في مدينة (مأرب)[٢] ، وقد أخذت عناية حكام سبأ بهذه المدينة تزداد ، الى أن صارت مقرهم الرسمي ، وبذلك أخذ نجم (صرواح) في الأفول الى أن زال وجودها .

وذكر اسم هذا المكرب في كتابة أخرى دونت عند تشييده (مذبحاً) عند باب (نومم) (نوم) ، لاحتفاله بموسم الصيد المسمى باسم الإلـه (عثتر) (صيد عثتر)[٣] . ولا نعرف اليوم شيئاً عن هذا الصيد الذي خصص باسم الإلـه (عثتر) لأن الكتابة قصيرة وعباراتها غامضة ، ولكن يظهر منها ان مكربي سبأ كانوا يحتفلون في مواسم معينة للصيد ، وانهم كانوا يجعلون صلة بينـــه وبين الآلهة ، ولعلهم كانوا يفعلون ذلك تسمياً بأسماء تلك الآلهة ، لتبارك لهم فيه ، ولتمنحهم صيداً وفيراً . وقد عثر على كتابات حضرمية وغيرها، لها صلة بالاحتفالات التي كانت تقام للصيد .

وذكر في كتابة قصيرة اسم (يثع أمر بن سمه على)،فلم تعطنا شيئاً جديداً يفيد في استخراج مادة تأريخية منها [٤] .

وقد وضع (فلبي) اسم (ذمر علي ينف) (ذمر علي ينوف) بعد اسم المكرب السابق في قائمته لأسماء المكربين التي نشرها في مجلة : Le Muséon .

---

١ Beiträge, S., 26.

٢ Fresnel 46, 49, Glaser 696, CIH 629, IV, III, I, P. J. Mohl, Inscriptions données par M. Arnaud, In Journal Asiatique, 1945, II, P. 179, Halévy, Etudes Sabéenes, in Journal Asiatique, 1874, II, P. 566.

٣ REP. EPIG. 3625, Glaser 797, Le Muséon, LXI, 3-4, 1948, P. 184, REP. EPIG. 4177.

٤ REP. EPIG. 2674, V, I, P. 32, 35, 36, Glaser 412, 413, 696, 2677, 2680, Hartmann, Arab. Frage, S., 133, REP. EPIG. 4431, VII, II, P. 228, Glacer 557, CIH 864, REP. EPIG. 4432.

وأبوه ، هو (يكرب ملك وتر)[١] . أما (هومل) ، فوضع اسم (ذمر علي) بعد اسم (يثع أمر بين) ، وأشار الى أنه غير متيقن من اسم أبيـــه ، وذكر أن من المحتمل أن يكون أبوه المكرب (يثع أمر بين)[٢] .

وقد ورد في النص : AF 70 اسم (يكـرب ملك وتر)[٣] . ولم يشر الى أنه كان مكرباً . وقد دوّن (فلبي) أرقام عدة نصوص ، لها – على رأيه – صلة بـ (ذمر علي) . منها النص : CIH 491 ، وهو نص سقطت منه أسطر وكلمات ، ووردت فيه أسماء الآلهة (هبس) (هوبس) و (المقه) و (عثتر) و (ذت حمم) (ذات حمم) . وأسماء : (كرب آل) و (ذمر عــلي) و (الكرب) و (نشاكرب) (كبراقين) أي (كبير أقيان)[٤] .

ويعدّ (كرب ايل وتر) خاتمة المكربين وفاتحة الملوك في سبأ . افتتح حكمه وهو (مكرب) على سبأ ، ثم بدا له فغيّر رأيه في اللقب ، فطرحه ، ولقب نفسه (ملك سبأ) . وسار من حكم بعده على سنته هذه ، فلقب نفسه (ملك سبأ) الى أن استبدل فيما بعد أيضاً به لقب (ملك سبأ وذي ريدان) كما سنرى فيما بعد .

أما اذا سألنا عن كيفية حصولنا على علمنا بأن (كرب ايل وتر) بدأ حكمه مكرباً ثم ختمه ملكاً ، فجوابنا : أننا حصلنا عليه من الكتابات المدوّنة في أيامه، فقد وجدنا أن لقبه في الكتابات القديمة الأولى هو (مكرب) ، فعلمنا أنه تولى الحكم مكرباً ، ثم وجدنا له لقباً آخر هو (ملك سبأ) ، فعرفنا أنه لقب جديد حلّ محل اللقب القديم ، ثم وجدنا من جاء بعده يحمل هذا اللقب الجديــد ، فصار (كرب ايل وتر) آخر مكرب وأول ملك في سبأ في آن واحد[٥] .

ويرجع (فلبي) زمان حكم (كرب آل وتر) الى حوالي السنة (٦٢٠) حتى (٦٠٠ ق. م.)[٦] . وقد زعم أنه حكم من (٦٢٠) حتى سنة (٦١٠ ق. م.)

---

١ Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 249.

٢ Handbuch, I, S., 80, Anm. 80.

٣ Le Muséon, LXI, 3-4, 1948, P. 230.

٤ Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 249.

٥ REP. EPIG. 3946, VII, I, P. I, Glaser 1550.

٦ Background, P. 40.

مكرباً ، ثم حكم السنين الباقية ملكاً[١] . ورأى بعض آخر أنه حكم في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد[٢]،وذهب بعض آخر في التقدير مذهباً يخالف هذين التقديرين .

وقد كان (كرب ايل وتر) كما يتبين من بعض الكتابات التي دونت في ايامه مثل الكتابة الموسومة بكتابة (صرواح)[٣] وكتابات أخرى سأشير اليها في أثناء البحث محارباً سار على خطة المكرب (يثع أمر بين) في التوسع وفي القضاء على الحكومات العربية الجنوبية الأخرى أو اخضاعها لحكمه ولحكم السبئيين ، بل زاد عليه في توسيع تلك الحروب ، وفي اضافة أرضين جديدة الى سبأ ، زادت في رقعتها وفي مساحة حكومة السبئيين ، ولكنها أنزلت خسائر فادحة بالأرواح ، وأهلكت الزرع والضرع والناس في العربية الجنوبية ، وان كان قد قام من ناحية أخرى بأعمال عمرانية وباصلاح ما تهدم وخرب ، فان الحرب ضرر،ينزل بالخاسر وبالرابح على حد سواء . وما الربح في هذه الحروب الا للملوك وللمقربين اليهم من أقرباء وصنائع .

وكتابة (صرواح) التي أشرت اليها ، هي من أخطر الوثائق التأريخية القديمة التي تتعلق بأخبار سبأ وبأعمال هذا المكرب الملك ، دوّن فيها (كرب ايل وتر) كل ما قام به من أعمال حربية وغير حربية، فهي اذن سجل سطرت فيه بايجاز أعمال المكرب الملك وأفعاله . ولذلك فهي بحق من الوثائق المهمة الخطيرة القليلة التي وصلت الينا في تأريخ الحكام الجاهليين ، افتتحها بجملة : « هذا ما أمر بتسطيره كرب ايل وتر بن ذمر على مكرب سبأ عندما صار ملكاً، وذلك لإلـهه المقه ولشعبه شعب سبأ »[٤] ، تعبيراً عن شكره له ولبقية الآلهة على نعمها وآلائها وتوفيقها له بأن صيّرته ملكاً ، وأنعمت على شعبه بالمنن والبركات ، بأن نحر ثلاث ذبائح الى الإلـه (عثتر) ، اظهاراً لشكره هذا وتقرباً اليه، وكسا صنمي الإلـهين : (عثتر) و (هوبس) (هبس) ، تقرباً اليهما وشكراً لهما على نعمها عليه . ثم انتقل الى تمجيد آلهته التي وحدت صفوف شعبه بأن جعلت أتباعه

---

١ Background, P. 141.

٢ Beiträge, S., 9, 22, 25, 142.

٣ Glaser 1000A + 1000B, 1155, REP. EPIG. 3945 + 3946, VI, II, P. 395, 405, Conti Rossini, Chrest. Arab. Merid., P. 55, NO. 49, Fresnel XI, 38, Beiträge, S., 9.

٤ الجمل الأولى من النص ٠

كتلة واحدة متراصة كالبنيان المرصوص ، أدى واجبه على أحسن وجه ، وقام بما عليه خير قيام ، لا فرق في ذلك بين كبير وصغير ، وبين طبقة وطبقة . ثم انتقل بعد هذا الحمد والثناء الى حمد آخر وثناء جديد سطره لآلهته اذ باركت في أرضه وأرض شعبه ، ووهبت أرض سبأ مطراً سال في الأودية ، فأخذت الأرض زخرفها بالنبات ،واذ مكنته من انشاء السدود ، وحصر السيول حتى صار في الامكان اسقاء الأرضين المرتفعة ،واحياء الأماكن التي حرمت الماء ، كذلك احياء أرضين واسعة بانشاء سد لحصر مياه الأمطار يتصل بقناة (عهل) لسقي (ماودن) (مأودن) والأرضين الأخرى التي لم تكن المياه تصل اليها ، فوصلت اليها بامتلاء حوض السد بالماء ، حتى سقت (موترم) (موتر) التي جاءها الماء من (هودم) (هوديم) (هودي) ،وبانشائه مسايل أوصلت المياه الى (ميدعم) (ميدع) و (وتو) و (وقه) ، ونظم الري في (ريمن) (ريمان) حتى صارت المياه تسقي كل أرض[1] .

وانتقل (كرب ايل وتر) ،بعد ما تقدم الى التحدث عن حروبه وانتصاراته، فأشار الى أنه غلب (سادم) (سأد) و (نقبتم) (نقبت) (نقبة) ، وأحرق جميع مدن (معفرن) (المعافر) ، وقهر (ضبر) و (ضلم) (ضلم) و (أروى) وأحرق مدنهم ، وأوقع فيهم فقتل ثلاثة آلاف ، وأسر ثمانية آلاف ، وضاعف الجزية التي كانوا يدفعونها سابقاً ، وفي جملتها البقر والماعز[2].

ثم انتقل الى الكلام على بقية أعماله ، فذكر أنه أغار على (ذبحن ذ قشرم) (ذبحان ذو قشر) وعلى (شركب) (شرجب) ، وتغلب عليهما ، فأحرق مدنهما ، واستولى على جبل (عسمت) (عسمة) وعلى وادي (صير) ، وجعلهما وقفاً لألمقه ولشعب سبأ ، وهزم (أوسان) في معارك كلفتها ستة عشر ألف قتيل وأربعين ألف أسير ، وانتهبت جميع (وسر) من (الجائم) (الجائم) حتى (حمن) (حمان) ، وأحرقت جميع مدن (انفم) (أنف) و (حمن) (حمان) و (ذيب) ، ونهبت (نسم)[3] .

ويرى بعض الباحثين أن (لجيت) (لجيأت) (لجيأة) ، هو موضع

---

١ راجع الفقرة الثانية من النص .
٢ الفقرة الثالثة من النص .
٣ الفقرة الرابعة من النص .

(لجية) في الزمن الحاضر ، وأن (حمن) هو موضع يقع على مدخل (وادي حمّان) ، أو الموضع المسمى بـ (هجر السادة) . . وأما (وسر) ، فإنها أرض (مرخة) أو جزء منها[1] .

وأصيبت الأرضون التي تسقى بالمطر وهي (رشأى) و (جردن) ، بهزيمة منكرة ، ونزل بأرض (دثينة) ما نزل بغيرها من هزائم منكرة ، وأحرقت مدنها وهتكت مدينة (تفض) واستبيحت ثم دمرت وأحرقت ، ونهبت قراها وبساتينها التي تقع في الأرضين الخصبة التي تسقى بمـــاء المطر ، وفعلت جيوشه هذا الفعل في الأرضين الأخرى الى أن بلغت ساحل البحر فأحرقت أيضاً كل المدن الواقعة عليه[2] .

ويظهر من نص (كرب ايل) ان موقع مدينة (تفض) ، يجب أن يكون بين أرض (دتنت) والبحر . ولما كانت (دهس) تتاخم (عود) من جهة و (تفض) من جهة أخرى ، ذهب بعض الباحثين الى ان أرض (دهس) هي أرض (يافع) في الزمن الحاضر . أما (تفض) ، فانها الخرائب الواسعة المتصلة بمدينة (خنفر)[3] . وقد عرفت (يافع) بـ (سروحمـــير) في ايام (الهمداني) . ولا زال أهل يافع يرجعون نسبهم الى حمير[4] .

وتكوّن الهضاب الواقعة وراء دلتا (أبين) أرض (يافع) في الوقت الحاضر. وقد رأى (فون وزمن) ان (دهس) (دهسم) التي يرد اسمها في النص: REP. EPIG. 3945 ، هي أرض (يافع)[5] .

وذكر (كرب ايل وتر) انه ضرب (وسر) ضربة نكراء واستولى على كل مناطقها الى أن بلغ أرض (أوسان) في ايام ملكها (مرتم) (مرتوم) ، (مرتو) ، (مرت) ، (مرة) ، فأمر جنوده بأن يعملوا في شعبها أوسان السيف ، واستذل رؤساءه ، وجعل رؤساء (المزود) (المسود) وهم رؤساء البلد ، رقيقاً للآلهة (سمهت) وقرابين لها ، وقرر أن يكون مصير ذلك الشعب

---

١ Beiträge, S., 53.
٢ الفقرة الخامسة من النص .
٣ Beiträge, S., 68.
٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 440.
٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 440.

الموت والأسر ، وأمر بتحطيم قصر الملك (مرتوم) (مرتم) (مرة) المسمى (مسور) (مسر) ، ومعالم ما فيه من كتابات اوسانية ، وازالة الكتابات الأوسانية التي كانت تزين جدران معابد اوسان ، ولما تم له كل ما أراده ورغب فيه ، أمر بعودة الجيش السبئي ، من احرار وعبيد : من أرض اوسان ومن المقاطعات التابعة لها ، الى ارض سبأ ، فعاد اليها كما صدر الأمر[1] .

وتذكر الكتابة : أن الملك (كرب ايل) أمر عندئذ بضم (سرم) (سرو) (سروم) وتوابعها ، وكذلك (حمدن) (حمدان) ولواحقها ، الى حكومة سبأ ، وسلم ادارة (سرم) الى السبئيين ، وأحاط المدينة بسور ، وأعاد الترع والقنوات ومسايل الماء الى ما كانت عليه . وأما (دهسم) (دهس) و (تبنى) فقد حلت بسكانها الهزيمة ، وقُتل منهم ألفا قتيل وأسر خمسة آلاف أسير ، وأحرقت أكثر مدنها ، وأدمجتا ومعها مقاطعة (دثينة) (دثنت) ، في سبأ . أما مقاطعة (عودم) (عود) ، فقد أبقيت للملك (دهسم) (دهس) . وقد عدّ (العوديون) الذين انفصلوا عن أوسان حلفاء لسبأ ، فأبقيت لهم أملاكهم والأرضون التي كانت لهم[2] .

وكانت (عود) من أرض (أوسان) في الأصل ، ثم خضعت لـ (مذحي) (مذحيم) . ويرى بعض الباحثين انها (عوذلة) في الزمن الحاضر[3] .

وجاء في هذه الكتابة ، وبعد الجملة المتقدمة : أن (انفم) (أنف) وكل مدنها وجميع ما يخصها من أرضين زراعية وما فيها من أودية ومراعي ، وكذلك كل أرض (نسم) و (رشاي) (رشأي) وكل الأرضين من (جردن) (جردان) الى (فخذ علو) و (عرمو) ، وكذلك جميع المدن والنواحي التابعة لـ (كحد) و (سين) (سيبان) والمدن (اتّخ) (أتخ) و(ميفعم) و (رتّحم) وجميع منطقة (عبدن) (عبدان) ومدنها وجنودها أحراراً وعبيداً ، و (دثينة أخلفو) و (ميسرم) (ميسر) و (دثينة تبرم) (دثينة تبر) (وحرتو) وكل المدن والأودية والمناطق والجبال والمراعي في منطقتي (دث) (داث) وكل أرض (تبرم) (تبرم) وما فيها من سكان

---

١ الفقرة السادسة من النص .
٢ الفقرتان السابعة والثامنة من النص .
٣ Beiträge, S., 64.

وأملاك وأموال حتى البحر، وكذلك كل المدن من (تفض) الى اتجاه (دهس) والسواحل وكل بحار هذه الأرضين، ومناطق (يل أي) و (سلعن) (سلعان) و (عبرت) (عبرة) و (لبنت) (لبنة) ومدنها ومزارعهـا ، وجميع ما يملكه (مرتوم) ملك أوسان وجنوده في (دهس) و (تبنى) و (يتحم) وكذلك (كحد حضنم) (كحد حضن) ، وجميع سكان هـذه المناطق من أحرار ورقيق وأطفال وكبار، كل هذه من بشر وأملاك جعلها (كرب ايل وتر) ملكاً لسبأ ولآلهة سبأ .

ويظن ان موضع (ميسرم) (ميسر) ، وهو من مواضع ارض (دثينة) هو ارض قبيلة (مياسر) في الزمن الحاضر . وقد ذكـــر بعض السياح ان في أرض (مياسر) سبع آبار ترتوي منها القبيلة المذكورة التي تقطن ارض (دثينة) القديمة [١] .

ولفظة (سبن) (سيبان) الواردة في النص ، هي اسم قبيلة ، ورد ذكرها في نص متأخر جداً عن هذا النص ، هو نص (حصن غراب) . ومعنى ذلك انها من القبائل التي ظلت محافظة على كيانها الى ما بعـــد الميلاد . فقد أشير الى (كبر) (كبراء) والى (أقيال) (سيبان) . وورد (سبن ذ نصف) أي (سيبان) اصحاب (نصف) (نصاف) . ويرى بعض الباحثين ان موضع (نصاف) (نصف) ، هو الموضع الذي يقال له (نصاب) في الزمن الحاضر [٢] .

واما (ميفع) (ميفعة) ، فتقع في الزمن الحاضر في غرب (وادي نصاب) وفي غرب وادي (خورة) . واما (رتح) (رتحم) ، فهو اسم قبيلة واسم مدينة في ارض (سيبان) . وقد ذكر ايضاً في جملة القبائل التي وردت اسماؤها في نص (حصن غراب) . واما (عبدن) (عبدان) ، فانه اسم موضع يقع في جنوب (نصاب) في الزمن الحاضر . وقد قال فيه (كرب ايل) في نصه : « وكل ارض عبدان ومدنها وواديها وجبلها ومراعيها وجنود عبدان احراراً وعبيداً» [٣] .

---

١ Beiträge, S., 55.

٢ Beiträge, S., 56, RY 63.

٣ Glaser 1000A.

معبراً بذلك عن تغلبه على كل اهل هذه الأرض من مدنيين وعسكر ، حضر وأهل بادية ومراعٍ[1] .

وقد صيّر (كرب ايل وتر) كل ارض (عبدن) (عبدان) ارضاً حكومية ، وتقع في الزمن الحاضر في سلطنة (العوالق العليا)،ويلاحظ ان (وادي عبدان) ما زال حتى اليوم بقراه وبمياهه من ارض السلطان،أي انه أرض حكومية تخص السلطنة[2] .

واستمر (كرب ايل وتر) مخبراً في كتابته هذه : أنه سجل جميع (كحد) وكل سكانها من أحرار ورقيق بالغين وأطفالاً ، وكل ما يملكونه ، القادرين على حمل السلاح منهم،وجنود (يل اي) و (شيعن) و (عبرت) (عبرة) وأطفالهم ، غنيمة لسبأ . ثم ذكر أنـه نظراً الى تحالف ملك حضرموت الملك (يدع ايل)وشعب حضرموت مع شعب سبأ في هذا العهد ومساعدتهم له،أمر باعادة ما كان لهم من ملك في(أوسان)اليهم،وأمر باعادة ما كان للقتبانيين وللملك قتبان من ملك في (أوسان) اليهم كذلك ، للسبب نفسه[3] . فأعيدت تلك الأملاك الى الحضارمة والى القتبانيين .

ثم عاد (كرب ايل) فتحدث عن عداء أهل (كحد سوطم) لسبأ وعن معارضتهم له ، فقال : إنه أمر جيشه بالهجوم عليهم ، فأنزل بهم هزيمة منكرة وخسائر جسيمة ، فسقط منهم خمس مئة قتيل في معركة واحدة ، وأخذ منهم ألف طفل أسير وألفي حائك ما عـدا الغنائم العظيمة والأموال النفيسة الغاليـة وعدداً كبيراً من الماشية وقع في أيدي السبئيين[4] .

وتحدث (كرب ايل) بعد ذلك عن (نشن) (نشان) ، وقد عارضته كذلك وناصبته العداء ، فذكر انهـا اصيبت بهزيمة منكرة ، فاستولت جيوشه عليها ، واحرقت كل مدنها ونواحيها وتوابعها ، ونهبت (عشر) و (بيحان) وكل ما يخصها من املاك وارضين . وذكر أن (نشان) (نيشان) عـادت فرفعت راية العصيان للمرة الثانية ، لذلك هاجمها السبئيون وحاصروها وحاصروا

---

١ Beiträge, S., 56.
٢ Beiträge, S., 57.
٣ الفقرة ١٢ و ١٣ من النص .
٤ الفقرة ١٣ من النص .

مدينة (نشق) معها ثلاثة أعوام ، كانت نتيجتها ضم (نشق) وتوابعهـا الى دولة سبأ ، وسقوط الف قتيل من (نيشان) (نشان) (نشن) وهزيمة الملك (سمه يفع) هزيمة منكرة ، وانتزاع كل ما كانت حكومة سبأ قد أجرته من أرضين لـ (نشن) واعادتها ثانية الى سبأ ، وتمليك مملكة سبأ المدن : (قوم) و (جوعـل) ، و (دورم) و (فذم) و (أيـكم) ، وكل ما كان لـ (سمه يفع) ولـ (نشن) من ملك في (يأكم) (ياكم) ، وكذلك كل ما كان لمعبد الأصنام الواقع على الحدود من أملاك وأوقاف حتى (منتهيتم) ، فسجلها باسمه وباسم سبأ [1] .

وصادرت سبأ أرض (نشن) الزراعية وجميع السدود التي تنظم الري فيها ، مثل ، (ضلم) ، و (حرمت) ، وماء (مذاب) الذي كان يمون (نشن) وأماكن أخرى بالماء ، وسجلت ملكاً لسبأ ، وخرب سور (نشن) ودمره حتى أساسه . أما ما تبقى من المدينة ، فقد أبقاه ، ومنع من حرقه . وهـدم قصر الملك المسمى (عفرو) (عفر) ، وكذلك مدينته (نشن) . وفرض كفارة على كهنة آلهة المدينة الذين كانوا ينطقون باسم الآلهة ، ويتكهنون باسمها للناس ، وحتم على حكومة (نشن) اسكان السبئيين في مدينتهم وبناء معبد لعبـادة إلـه سبأ الإلـه (المقه) في وسط المدينة ، وانتزع ماء (ذو قفعن) وأعطاه بالاجارة لـ (يذمر ملك) ملك (هرم) (هريم) ، وانتزع منها كذلك السد المعروف بـ (ذات ملك وقه) وأجره لـ (نبط على) ملك (كمنه) (كمنـا) ، ووسع حدود مدينة (كمنه) (كمنـا) من موضع سد (ذات ملك وقه) الى موضع الحدود حيث النصب الذي يشير اليه ، وسور (كرب ايل) مدينة (نشق) وأعطاها سبأ لاستغلالها ، وصادر (يدهن) و (جزيت) و (عربم) ، وفرض عليها الجزية تدفعها لسبأ [2] .

وانتقل (كرب ايل) بعد هذا الكلام الى الحديث عن أهل (سبل)و(هرم) (هريم) و (فنن) ، فذكر ان هذه المدن غاضبته وعارضته ، فأرسل عليها جيشاً هزمها ، فسقط منها ثلاثة آلاف قتيل ، وسقط ملوكهـا قتلى كذلك ، وأسر منهم خمسة آلاف أسير ، وغنم منهم خمسين ومئة الف من الماشية ، وفرض

---

١ الفقرة ١٤ و ١٥ من النص .
٢ الفقرة ١٦ و ١٧ .

الجزية عليهم عقوبة لهم ، ووضعهم تحت حماية السبئيين[1] .

وكان آخر من تحدث عنهم (كرب ايل) في كتابته هذه أهل (مهامر) (مه أمر) (مهأ مرم) (مهأمر) ، و (أمرم) (أمر) ، فذكر انه هزمهم وهزم كذلك كل قبائل (مه امرم) (مهأ مرم) ، و (عوهبم) (عوهب) (العواهب) ، حيث تكبدوا خمسة آلاف قتيل ، وأسر منهم اثني عشر الف طفل ، وأخذ منهم عدداً كبيراً من الجمال والبقر والحمير والغنم يقدر بنحو مئتي الف رأس ، وأحرقت كل مدن (مه أمرم) وسقطت (يفعت) (يفعة) ، فدمرت وصادر (كرب ايل) مياه (مه أمرم) في (نجران) وفرض على أهل (مه أمر) الجزية يدفعونها لسبأ[2] .

وقد قص (كرب ايل وتر) في كتابة (صرواح) المسماة بـ Glaser 1000B أسماء المدن المسورة والمقاطعات المحصنة التي استولى عليها ، وسجل بعضها باسمه وبعضاً آخر باسم حكومة سبأ وبآلهة سبأ . ومن هذه : (كتلم) و (بثل) ، و (نب) ، و (ردع) (رداع) ، و (وقب) ، و (اووم) (أوم) ، و (يعرت) (يعرتم) ، و (حنذفم) (حنذفم) (حنذف) ، و(نعوت ذت فددم) (نعوت ذات فدد) ، و (حزرام) (حزرأم) ، و (تمسم) (تمس)[3] ، وهي مواضع كانت مسورة محصنة بدليل ورود جملة : « وسور وحصن ... » بعدها مباشرة .

وأما المواضع التي أمر (كرب ايل وتر) بتسويرها وبتحصينها ، فهي : (تلتن) (تلتان) و (صنوت) و (صدم) (صدوم) و (ردع) (رداع) و (ميفع بجبـام) (ميفع بجبأم) ، و (محرثم) ومسيلا الماء المؤديان الى (تمنع) وحصن وسور (وعلن) (وعلان) و (مثبتم) (موثبتم) و (كمدر) (كدار) ، وذكر بعد ذلك أنه أمر باعادة القتبانيين الى هذه المدن ، لأنهم كانوا قد تحالفوا مع (المقه) إله سبأ و (كرب ايل) ومع شعب سبأ ، أي أنهم كانوا في جانبهم ، فأعادهم الى المواضع المذكورة مكافأة لهم على ذلك[4] .

---

١ الفقرة : ١٨ من النص .
٢ الفقرة ١٩ من النص .
٣ الفقرة الاولى من النص .
٤ الفقرة الثانية من النص .

ثم عاد (كرب ايل) ، فذكر أسماء مواضع أخرى استولى عليها وأخذها باسمه ، هي : مدينة (طيب) ، وقد أخذها من (عم وقه ذ امرم) (عموقه ذ أمرم) ، وأخذ منه أيضاً أملاكه وأمواله في (مسقى نجى) ، وفي (افقن) (افقان) و بـ (حرتن) (حرتان) ، وجبله ومراعيه وأوديته الآتية من (مرس) وكل المراعي في هذا المكان . ثم ذكر أنه أخذ من (حضر همو ذ مفعلم) (حضر همو ذو مفعل) ، وهو من الأمراء الاقطاعيين على ما يظهر ، هذه المواضع : (شعبم) (شعب) ، والأودية ، والمراعي التابعة لـ (مشرر) الى موضع (عتب) ، ومن (ابيت) (أبيت) الى (ورخن) و (دعف) وكل الأملاك في (بقتت) و (دنم) (دونم) ، فأمر بتسجيلها كلها باسمه ، وأمر كذلك بتسجيل (صيهو) باسمه ، واشترى (حدنن) أتباع ورقيق (ادم) (حضر همو ذي مفعل) و (جبرم) (جبر) أتباع (يعتق ذ خولن) (يعتق ذو خولان) الذي بـ (يرت)[1] .

وذكر (كرب ايل وتر) بعد ذلك : انه وسع املاك قبيلته وأهله (فيشان) (فيشن) وانه اخذ من (رابم بن خل أمر ذ وقبم) (رابم بن خل أمر ذو وقبم) ، كل ما يملكه في (وقبم) من املاك ومن أرضين ومن أودية ومسايل مياه وجبال ومراع ، وسجل ذلك كله باسمه ، كما أنه استولى على (يعرت) (يعرتم) وعلى جميع ما يتبعها من مسايل مياه وأودية ومراع وجبال وحصون ، فسجله باسمه ، واستولى أيضاً على أرض (اووم) (أوم) (أوام) وعلى مسايلها ، وسجلها ملكاً له[2] .

ثم ذكر انه صادر كل أموال (خلكرب ذ غرن) (خالكرب ذو غران) وأملاكه في (مضيقت) (مضيقة) وسجلها باسمه ، كما سجل أرض (ثمدت) ومسايل مياهها وحصنها ومراعيها في جملة أملاكه ومقتنياته[3] .

ثم عاد في الفقرة الخامسة من النص ، فذكر انه أخذ كل ما كان يملكه (خل كرب د غرن) (خالكرب ذو غران) في أرض (مضيقة) (مضيقت) ، وأخذ كذلك التلين الواقعين في (خندقم) (خندف) والأرضين الأخرى الى

---

١ الفقرة الثالثة من النص .
٢ الفقرة الرابعة من النص .
٣ الفقرة الرابعة من النص .

مدينة (طيب) ، وسجل ذلك كله في جملة أملاكه . وأخذ كذلك كل ما كان يملكه (خالكرب) في (مسقى نجى) ، كما أخذ موضع (زوت) وكل ما يتعلق به وما يخصه من مسابل مياه ومراع[1] .

ثم أخذ أرض (اكربي) (اكرّى) ومسايل مياهها ، وسجلها باسمه ، كما استولى على (نعوت) من حدّ (شدم) و (خبام) (خبأم) (خب أم) الى الأوثان المنصوبة على الحدود علامة لها[2] .

وقطع (كرب ايل وتر) الحديث عن الأملاك التي استولى عليها وسجلها باسمه ، وانتقل فجأة الى التحدث عن بعض ما قام به من أعمال عمرانية ، فذكر انه أتم بناء الطابق الأعلى من قصره (سلحن) (سلحين) ابتداء من الأعمدة والطابق الأسفل الى أعلى القصر ، وانه أقامه في وادي (اذنة) (اذنت) خزان ماء (تفشن) ، ومسايله التي توصل الماء الى (يسرن) (يسران) ، وانه شيّد وحصّن وقوّى جدار ماء (يلط) وما يتفرع منه من مساق ومسايل تسوق الماء الى (أبين) . ثم قال : انه شيّد وبنى وأقام (ظراب) و (ملكن) (ملكان) لوادي (يسرن) (يسران) ، كما بنى أبنية أخرى في وسط (يسرن) و (أبين) ، وغرس وعمر أرضين زراعية في أرض (يسرن)[3] .

ثم عاد فقطع الكلام على ما قام من أعمال عمرانية ، وحوله الى الكلام على أملاكه التي وسعها وزاد فيها ، وهي : (ذيقه ملك) (ذو يقه ملك) ، و (أثابن) (أثأب) (أثابن) ، و (مذبن) (المذاب) ، و (مفرشم) (مفرش) ، و (ذ انفن) (ذو انف) (ذو الأنف) ، و (قطنتن) (القطنة) و (سفوتم) (سفوت) و (سلقن) (سلقان) ، و (ذ فدهم) (ذ وفدهم) ، و (ذ اوثنم) (ذو أوثان) ، و (دبسو) (دبس) ، و (مفرشم) (مفرش) ، و (ذ حبيم) (ذو حباب) (ذو حبب) ، و (شمرو) (شمر) ، و (مهجوم) (مهكوم) (مهجم)[4] .

ثم عاد (كرب ايل وتر) فتكلم على الأملاك التي حصل عليها وامتلكها ،

---

١ الفقرة الخامسة من النص .
٢ الفقرة السادسة من النص .
٣ الفقرة الخامسة من النص .
٤ الفقرة السادسة من النص .

فذكر انه تملك في (طرق) موضع (عن . ان) و (حضرو) و (ششعن) (ششون)[1] وذكر انه تملك موضع (فرعتم) (فرعت) (فرعة) و (تبوسم) (تبوس) و (اتابن) (أثابن) (ا ث ب ن) في ارض (يسرن) وانه تملك (محمين) (محميان) من حد (عقبن) (عقبان) حتى (ذي أنف)، وتملك ما يخص (حضر همو بن خل أمر) (حضر همو بن خال أمر) من املاك ، وتملك (مفعل) (مفعلم) وكل ما في أرض (ونب) وكل أرض (ونب) وكل أرض (فترم) و (قنت) وكل ما يخص (حضر همو بن خال أمر) من مدن ، هي : (مفعلم) و (فترم) ، و (قنت) و (جو) (كو) وكل ما فيها من حصون وقلاع وأودية ومراع . ثم ذكر انه باع المدن والأرضين المذكورة ، وهي مدن : (مفعلم) ، و (فترم) ، و (قنت) و (جو) ، التي أخذها من (حضر همو بن خال كرب) وسجلها باسم قبيلته (فيشان)[2] .

وكان قد ذكر في آخر الفقرة السابعة من النص وقبل الفقرة الثامنة المتقدمة التي هي خاتمة النص ، أنه خرج للصيد فصاد ، وقدم ذلك في مذبح (لقظ) قرباناً للإله (عثتر ذي فصد) ، كما قدم اليه تمثالاً من الذهب[3] .

وقد أدت حروب (كرب ايل) المذكورة الى تهدم أسوار كثير من المدن التي هاجمها ، فصارت بذلك مدناً مكشوفة من السهل على الأعراب والغزاة مداهمتها ونهبها ، ولهذا اضطر الى اعادة تسويرها أو ترميم ما تهدم من أسوارها كما اضطر أيضاً الى تسوير مدن لم تكن مسورة وتحصينها . وفي جملة المدن التي حصنها وسورها أو رم اسوارها ، مدينة (وعلان) حاضرة (ردمان) ، و (رداع) ، و (كدر) (كدار) ، ومدن أخرى[4] .

هذا ، وأود أن الخص الخطط التي سار (كرب ايل) عليها والحروب التي قام بها في الأرضين التي ذكر أسماءها في نصه ، على الوجه الآتي : كانت

---

١ في النص العبراني : (ششون) ، وفي الترجمة الالمانية (ششعن) ، راجع الفقرة السابعة من النص .
٢ الفقرة الثامنة وهي الفقرة الأخيرة من النص .
٣ الفقرة السابعة من النص .
٤ Beiträge, S., 38, Glaser, 1000B.

أرض (سأد) أول أرض شرع في مهاجمتها ، ثم انتقل منها الى ارض (نقبتم) (نقبت) (نقبة) ، ثم (المعافر) ، ثم سار نحو (ذبحان القشر) (ذبحن قشرم) و (شرجب) (شركاب) (شركب) ثم اتجه في حملته الثانية نحو (أوسان)،حيث أمر جنوده بنهب (وسر لجيأت) وبقية المواضع الى (حمن) (حمان)، وبحرق كل مدن (آنف) في أرض (معن) حول (يشبم) (يشبوم) أو (الحاضنة) في الزمن الحاضر ، ومدن (حبّان) في وادي (حبّان) و (ذياب) في أرض قبيلة (ذياب) شرق حمير في الزمن الحاضر[1] .

ثم أمر (كرب ايل) بنهب (نسم) (نسام) وأرض (رشأى) ، ثم (جردن) (جردان) .

وعند ذلك وجّه (كرب ايل) جيشه نحو (دتنت) ، حيث أصيب فيها ملك أوسان بضربة شديدة ، فأمر باحراق كل مدن (دتنت) ومدينة (تفض) و (أبين) ، حتى بلغ ساحل البحر ، حيث أحرق ودمر المدن والقرى الواقعة عليه .

ثم عاد (كرب ايل) فضرب أرض (وسر) مرة أخرى ، وأصاب قصر ملك اوسان في (مسور) ، حيث هدمه ، وأمر بانتزاع كل الكتابات الموجودة في معابد اوسان وتحطيمها . ثم سار بجيشه كله الى أرض أوسان،وبعد أن قضى على كل مقاومة لهم عاد الى بلاده .

ثم قام بغزو أرضين تقع شمال غربي سبأ. ثم وحد (سروم) وأرض (همدان) وحصّن مدنهما ، وأصلح وسائل الري فيها .

وحدثت بعد تلك الحروب حرب وقعت في الجنوب ، في (دهس) وفي (تبنو) ، حيث أحرق (كرب ايل) مدنها ، ثم ألحقها كلها مع (دتنت) بسبأ ، وفصلت أرض (عود) من (أوسان) فضمت الى (دهس) .

واصيب (كحد ذ سوط) بمعارك شديدة ، ويظهر انها ثارت على (كرب ايل) وأعلنت العصيان عليه . وقد ساعدها وشجعها (يدمر ملك) ملك(هرم) وبقية المدن المعينية المجاورة ، مثل (نشن) (نشان) ، فسار جيش (كرب ايل)

---

١ Beiträge, S., 76.

اليها ، وأنزل بها خسائر فادحة ، وأحرق أكثر مدنها ، وحاصر (نشان) مدة ثلاث سنين ، مما يدل على انها كانت مدينة حصينة جداً ، حتى نحّى ملكهـا عنها . ثم انصرف (كرب ايل) الى اعادة تنظيم الأرضين التي استولى عليها ، والى تعيين حكام جدد للمناطق التي استسلمت له ، والى اصلاح أسوار المـدن ووسائل الدفاع والري[1] .

أما الحملة الأخيرة من حملاته الصغيرة ، فكانت على (مهأمر) (مه امر) و (أمر) حيث بلغت أرض نجران[2] .

لقد أضرت حروب (كرب ايل وتر) المذكور ضرراً فادحاً بالعربية الجنوبية فقد أحرق اكـثر الأماكن التي استولى عليها ، وأمر بقتل من وقع في أيدي جيشه من المحاربين، ثم امر بإعمال السيف في رقاب سكان المدن والقرى المستسلمة فأهلك خلقاً كثيراً . ونجد سياسة القتل والاحراق هذه عند غير (كرب ايل) أيضاً ، وهي سياسة أدت الى تدهور الحال في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية ، والى اندثار كثير من المواضع بسبب احراقها وهلاك أصحابها .

وقد عثرت بعثـة (وندل فيلبس) في اليمن على كتابة وسمتهـا البعثة بـ Jamme 819 ، جاء فيها : (وبكرب آل وبسمه)[3] . أي (وبكرب ايل وسمه) . وحرف الواو هنا في واو القسم، والكتابة من بقايا كتابة أطول تهشمت فلم يبق منها غير الجملة المذكورة . وقد ذهب (جامه) Jamme ناشرها الى أنها من عهد سابق لحكم المكربين ، وقدر زمن كتابتها القرن الثـامن أو السابع قبل الميلاد[4] .

كما عـثرت تلك البعثـة على كتابات أخرى وسمت بـ Jamme 550 ، وبـ Jamme 552 ، وبـ Jamme 555 ، وبـ Jamme 557 وردت فيها أسماء لم تذكر بعدها جملة (مكرب سبأ) على عادة الكتابات ، غـير أن ظاهر النص والألفاظ المستعملة فيه ، مثل : (قين بدع ايل بين) ، يدلان على أنها أسماء (مكربين) حكموا سبأ قبل عهد الملوك .

١ Beiträge, S., 76.

٢ Beiträge, S., 77.

٣ Sabaen Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), By A. Jamme, John Hopkins Press, Baltimore, 1962, Mahram, P. 389.

٤

فقد دوّن في النصف الأول من النص Jamme 550 أسماء المكربين : (يدع آل بين) (يــدع ايل بــين) و (يكرب ملك وتر) (يكربملك وتر)، و (يثع أمر بــين) . ودوّن في النصف الثاني من اسماء (يدع آل بين) (يدع ايل بين) و (يكرب ملك وتر) (يكر بملك وتر) ، و (يثــع أمر بين) ، و (كرب آل وتر) (كرب ايل وتر)،أي الأسماء المذكورة في النصف الأول نفسها ، ما خلا اسم (كرب ايل وتر) . فنحن في هــذا النص بنصفيه أمام أربعة مكربين ، كانوا من (مذمرم) أي من بني (مذمر)[1] .

ومدوّن النص والآمر بكتابته شخص اسمه (تبع كرب) (تبعكرب) ، وكان كاهناً (رشو) للإلـهة (ذت غضرن) (ذات غضران) ، أي كناية عن الشمس ، كما كان بدرجة (قين) ، أي موظف كبير مسؤول عن الأمور المالية للدولة او للمعبد ، كأن يتولى ادارة الأموال . وكان (قيناً) لمعبد (سحر)، أي المتولي لأموره المالية والمشرف على ما يصل الى المعبد من حقوق ومعاملات وعقود من تأجير الحبوس الموقوفة عليه ، كما كان قيناً للمكربين المذكورين . وقد ذكر في نصه انه أمر ببناء جزء من جدار معبـد (المقه) من الحد الذي عند أسفل الكتابة أي قاعدتها الى أعلى المعبد ، كما أمر ببناء كل الأبراج وما على السقف من أبنية ومتعلقاتها، وذلك عن أولاده وأطفاله وأمواله وعن كل ما يقتنيه (هقنيهو) وعن كل نخيلـه (انخلهو) بـ (اذنت) (اذنة) وبـ (كتم) وبـ (ورق) وبـ (ترد) وبـ (وغمم) (وغم) وبـ (عسمت) (عسمة) وبـ (برام) وبـ (سحم) وبـ (مطرن بيسرن) ، أي بمنطقة (مطرن) التي في أرض (يسرن) (يسران) ، وهي تُسقى الماء بواسطة قناطر تعــبر فوقها المياه ، وبمنطقة (ردمن) (ردمان) من أرض (يسرن) (يسران)، التي تروى بمياه السدود ، وبأرض (مخضن) الواقعة بـ (يهدل) .

وقد قام بهذا العمل ايضاً ، لأن المقه اوحى في قلبه انه سيهبه غلاماً ، ولأن (يكرب ملك وتر) ، اختاره ليشرف على ادارة الأعمال المتعلقة بالحرب التي وقعت بين قتبان وسبأ وقبائلها ، فقام بما عهد اليه ، وذلك لمدة خمس سنين ، وأدى ما كان عليه ان يؤديه على احسن وجه ، ولأن الإلـه (المقــه) حرس

---

[1] الفقرة ١٢ و ١٣ من النص . Jamme 550, Mahram, PP. 9.

ووقى كل السبئيين وكل القبائل الأخرى التي اشتركت معهم وكل المشاة (ارجل) الذين ارسلوا على مدينة (تهرجب)[1] ، ولأن إلهه حفظه ومكنه من ادارة الأعمال التي عهد الملك اليه ، فتولى امر سبأ والقبائل التي كانت معها ، ووجه الأمور احسن وجه ضد الأعمال العدوانية التي قام بها اهـل (تهرجب) وغيرهم ضد سبأ ، في خلال سنتين كاملتين ، حتى وفقه الإلـه لعقد سلام (سلم) بين سبأ وقتبان ، فأثابه (يثع أمر بين) على ما صنع[2] .

ويظهر من هذا النص ان (تبع كرب) (تبعكرب) ، الكاهن (رشو) و (القين) كان من كبار الملاكين في سبأ في ايامه،له أرضون وأملاك واسعة في أماكن متعددة من سبأ . وقد كانت تدرّ عليه أرباحاً كبيرة وغلة وافرة ، يضاف الى ذلك ما كان يأتيه من غلات المعبد الذي يديره،والنذور التي تنذر للإلـه (سحر)، ثم الأرباح التي تأتيه من وظيفته في الدولة .

ويظهر أنه كتب نصه المذكور بعد اعتزاله الخدمة لتقدمه في السن ، في أوائل أيام حـكم (كرب ايل وتر) . ولذلك تكون جميع الحوادث والأعمال التي أشار اليها قد وقعت في أيام حكم المذكورين الى ابتداء حكم (كرب ايل وتر)، الذي ذكر من أجل ذلك في آخر أسماء هؤلاء الحكام وفي القسم الأخير من النص .

ويظهر من النص أيضاً أن الأعمال الحربية التي قام بها (تبعكرب) ، كانت في أواخر أيام (يكرب ملك) ، وامتدت الى أوائل ايام حكم (يثع أمر بين). أرسله الأول الى الحرب ، ومنحه الثاني شهادة اتمام تلك الحرب وانتهائهـا . فهذا النص يبحث عن السنين الخمس التي شغلها (تبعكرب) بالأعمال الحربية[3].

وأمـا صاحب النص : Jamme 552 ، فهـو (ابكرب) (أبكرب) (أبو كرب) وكان من كبار الموظفين من حملة درجة (كبر) ، اي (كبير) إذ كان كبيراً على (كمدم بن عم كرب) (كمدم بن عمكـرب) ، وهم من (شوذم) (شوذ) . وكان (قيناً) ، اي موظفاً كبيراً عند (يدع ايل بين) وعند (سمه على ينف) (سمه على ينوف) . وقد سجل نصه هـذا عند بنائه (خحنهن) و (مذقنتن) قربة الى الإلـه (المقه) ليبارك في اولاده

---

١ (وكل ارجل هورد عد هجرن تهرجب) ، القسم الثاني من النص .
٢ القسم الثاني من النص .
٣ Mahram, P. 261.

وأطفاله وبيته (بيت يهر) ، وفي كل عبيده ومقتنياته ، وذلك في أيام المكربين المذكورين[1] .

واما النص : Jamme 555 ، فصاحبه (ذمر كرب بن ابكرب) (ذمر كرب بن أبكرب) ، وهو من (شوذبم) ، اي (بني شوذب) . وكان قيناً لـ (يثع امر) و لـ (يكرب ملك) ولـ (سمه عـلى) و لـ (يدع ايل) و (يكرب ملك)[2] . وقد دونه عند اتمامه بناء جدار معبد (المقه)، من حد الحافة الجنوبية لقاعدة حجر الكتابة الى اعلى البناء ، وذلك ليكون عمله قربة الى الإلـه ، ليبارك في اولاده واسرته وذوي قرابته وفي أملاكه وعبيده ، وقد ذكر اسماء الأرضين التي كان يزرعها ويستغلها ، وليبارك في بيته: (بيت يهر) وفي بيته الآخر المسمى (بيت حرر) بمدينة (جهرن) (جهران) ،وفي أملاكه وبيوته الأخرى في أرض العشيرتين : (مهأنف) و (يبران) (يبرن) كما دونه تعبيراً عن حمده وشكره له ، لأنه من عليه فأعطاه كل ما أراد منه ، ومن جملة ذلك تعيينه قيناً على (مأرب) ، واشتراكه مع (سمه على ينف) (سمهعلى ينوف) في الحرب التي وقعت بينه وبين قتبان في أرض قتبان ، فأعد لتلك الحرب العدد التي ينبغي لها[3] .

وقد نعت (أبكرب بن نبطكرب) (ابكرب بن نبط كرب) وهو من (زلتن) (زلتان) نفسه بـ (عبد) (يدع ايل بين) و (سمه على ينف) و (يثع أمر وتر) ، و (يكرب ملك ذرح) و (سمه على ينف) ، وذلك في النص : Jamme 557 . وقد دوّنه عند قيامه ببعض أعمال الترميم والبناء في معبد (المقه) ، تقرباً الى رب المعبد (بعل أوّام) الإلـه (المقه) ، ولتكون شفيعة لديه ، لكي يبارك فيه وفي ذريته وأملاكه . وقد اختتم النص بجملة ناقصة اصيب آخرها بتلف ، ولم يبق منها الا قوله : « وملك مأرب »[4] .

وللجملة الأخيرة من النص اهمية كبيرة ، لأنها تتحدث عن ملك كان على مأرب في ذلك الزمن ، سقطت حروف اسمه ، ولم يبق منه غير الحرف الأول.

---

١ Jamme 552, MAMB 6, Mahram, P. 16.

٢ Jamme 555, MAMB 10, Mahram, PP. 18, 261.

٣ الفقرتان الثالثة والخامسة من النص ، Jamme 557, MAMB 12, Mahram, P. 22.

٤ راجع السطر الأخير من النص : Jamme 557, MaMb 12, Mahram, P. 22.

ويتبين من النصوص الأربعة المذكورة اننا امام عدد من حكام سبأ ، لم تشر تلك النصوص الى ازمنتهم ولا الى صلاتهم بالحكام الآخرين، حتى نستطيع بذلك تعيين المواضع التي يجب أن يأخذوها في القوائم التي وضعها الباحثون لحكام سبأ. وقد رأى (جامه) استناداً الى دراسته لهذه النصوص ، والى معاينته لنوع الحجر ولأسلوب الكتابة ، ان (يدع ايل بين) المذكور في النص : Jamme 552 هو أقدم من (يدع ايل بـــين) المذكور في النص Jamme 555 ، ولذلك دعاه بـ (الأول) ،ودعا (يدع ايل بين) المذكور في النص : Jamme 555 بـ (الثاني) و (يدع ايل بين) المذكور في النص Jamme 550 بـ (يدع ايل) الثالث[1] .

ومنح (جامه) (سمه على ينف) (سمعلى ينوف) ، المذكور في النص: Jamme 552 لقب(الأول) ، ليميزه عن سميه المذكور في النص Jamme 555 ، وقد لقبـــه بـ (الثاني) . كما منح (يثع أمر بين) المذكـــور في النص : Jamme 555 ، لقب الأول ، ليميزه عن سميه المذكور في النص: Jamme 550 والذي أعطاه لقب (الثاني) . وأما (يثع أمر وتر) و (يكرب ملك ذرح) ، المذكوران في النص : Jamme 552 ، فلم يمنحها أي لقب كان لعـدم وجود سمي لهما في النصوص الأخرى[2] .

وتفضل (جامــــه) على (يكرب ملك وتر) ، المـــذكور في النص : Jamme 555 فنمحه لقب (الأول) ، ليميزه عن سميــه المذكور في النص : Jamme 550 الذي أعطاه لقب (الثاني) . وقد وسم (جامه) (يثع أمر بين) المذكور في النص Jamme 555 بـ (الأول) ، فميزه بذلك عن سميه المذكور في النص : Jamme 550 . وأما (كرب ايل وتر) ، المذكور في آخر أسماء حكام النص : Jamme 550 ، فقد ظل بدون لقب ، لعدم وجود سمي له .

مدن سبأ :

كانت مدينة (صرواح) ، هي عاصمة السبئيين في أيام المكربين ومقر المكرب وفيها باعتبارها العاصمة معبد (المقه) إلـه سبأ الخاص . أما (مأرب) ، فلم

١ Mahram, P. 264.

٢ Mahram, P. 264.

تكن عاصمة في هذا العهد ، بل كانت مدينة من مدن السبئيين ، و (صرواح) في هذا اليوم موضع خرب يعرف بـ (خربة) وبـ (صرواح الخريبة) على مسيرة يوم في الغرب من (مأرب)[1] ، ويقع ما بين صنعاء ومأرب[2] . وقد ذكر (الهمداني) مدينة (صرواح) في مواضع عدة من كتابه (الاكليل) ، وأشار الى (ملوك صرواح ومأرب)[3] . وذكر شعراً في (صرواح) للجاهليين والجماعة من الإسلاميين[4] ، كما أشار اليها في كتابه (صفة جزيرة العرب)[5].

وتحدث (نشوان بن سعيد الحميري) عنها ، فقال: (صرواح موضع باليمن قريب من مأرب فيه بناء عجيب من مآثر حمير ، بناه عمرو ذو صرواح الملك بن الحارث بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر ، وهو أحد الملوك المثامنة)[6]. وزعم ان (قُسّ بن ساعدة الإيادي) ذكر (عمرو بن الحارث القيل ذو صرواح) في شعر له[7] . وذكر غيره من علماء اليمن الاسلاميين هذه المدينة السبئية القديمة أيضاً . وفي اشارتهم اليها وتحدثهم عنها ، دلالة على أهمية تلك المدينة القديمة ، وعلى تأثيرها في نفوس الناس تأثيراً لم يتمكن الزمان من محوه بالرغم من أفول نجمها قبل الإسلام بأمد .

وذكر بعض أهل الأخبار ان (صرواح حصن باليمن أمر سليمان عليه السلام الجن فبنوه لبلقيس)[8] . وقولهم هذا هو بالطبع أسطورة من الأساطير المتأثرة بالاسرائيليات التي ترجع أصل أكثر المباني العادية في جزيرة العرب الى سليمان والى جن سليمان .

وقد عثر في أنقاض هذه المدينة القديمة المهمة على كتابات سبئية بعضها من

---

١ Handbuch, I, S., 10, Beiträge, S., 22.

٢ زيد على عنان ، تاريخ اليمن القديم ، (ص ٩١) .

٣ الاكليل (٨/٤٥) .

٤ الاكليل (٨/٧٥ وما بعدها) (١٠/٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٠) .

٥ الصفة (١٠٢ ، ١١٠ ، ٢٠٣) .

٦ منتخبات (ص ٦٠) .

٧ منتخبات (ص ٦٠) .

٨ اللسان (٣/٣٤٣) ، الاكليل (٨/٢٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ وما بعدها ، ٩-١٠) ، (طبعة نبيه) ، (١٠/٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٠) ، الصفة (١٠٢ ، ١١٠ ، ٢٠٣) .

عهد المكربين . ومن هذه النصوص ، النص المهـم الذي تحدثت عنه المعروف بكتابة (صرواح) ، والموسوم عند العلماء بـ Glaser 1000 A, B . وصاحبه الآمر بتدوينه هو المكرب الملك (كرب ايل وتر) . وهو من أهم ما عثر عليه من نصوص هذا العهد . وقد دوّن فيه أخبار فتوحاته وانتصاراته وما قام به من أعمال ، كما دونته قبل قليل . ولأسماء المواضع والقبائل فيه أهمية كبيرة للمؤرخ ولا شك ، اذ تعينه على أن يتعرف بمواضع عديدة ترد في نصوص أخرى ، ولم نكن نعرف عنها شيئاً ، كما أعانتنا في الرجوع بتأريخ بعض هذه الأسماء التي لا تزال معروفة الى ما قبل الميلاد ، الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وذلك اذا ذهبنا مذهب من يرجع عهد (كرب ايل وتر) الى ذلك الزمن[١] .

وفي مقابل خربة معبد صرواح ، خربة أخرى تقع على تل ، هي بقايا برج المدينة الذي كان يدافع عنها . وهناك أطلال أخرى ، يظهر انها من بقايا معابد تلك المدينة وقصورها[٢] .

وكان على المدينة (كبر) أي كبير ، يدير شؤونها ، ويصرف أمورها وأمور الأرضين التابعة لها ، وتحت يديه بالطبـع موظفون يصرفون الأمور نيابة عنه ، وهو المسؤول أمام المكربين عن ادارة أمور المدينة وما يتبعها من قرى وأرضين وقبائل[٣] .

وفي (صرواح) كان معبد (المقه) إلـه سبأ ، ومن هذه المدينة انتشرت عبادته بانتشار السبئيين . ومن معابد هذا الإلـه التي بنيت في هذه المدينة معبـد (يفعن) (يفعان) الذي حظي بعناية المكربين[٤] .

وقد زارها (نزيه مؤيد العظم) . وذكر أنها خربة في الوقت الحـاضر ، بنيت على أنقاضها قرية تتألف من عدد من البيوت ، وتشاهد فيها بقايا القصور القديمة ، والأعمدة الحجرية المنقوشة بالمسند ، وأشار الى أن القسم الأعظم من المباني القديمة ، مدفون تحت الأنقاض خلا أربعة قصور أو خمسة لا تزال ظاهرة

---

١ Beiträge, S., 22.

٢ A. Fakhry, Les Antiquités du Yémen, Un Voyage à Sirwah, Marib et El-Gof, Le Muséon, 61, 3-4, P. 215, Beiträge, S., 22.

٣ Handbuch, I, S., 130.

٤ Handbuch, I, S., 78.

على وجه الأرض ، منها قصر بزعم الأهلون أنه كان لبلقيس ، وكان به عرشها ولذلك يعرف عندهم بقصر بلقيس[1] . كما زار خرائب (صرواح) أحمد فخري من المتحف المصري في القاهرة ، وصور أنقاض معبد (المقه) وعدداً من الكتابات التي ترجم بعضها الأستاذ (ركمنس) M. Ryckmans[2] .

ولم تكن (مرب) ، أي (مأرب) عاصمة سبأ في هذا الوقت ، بل كانت مدينة من مدن سبأ الكبرى ، ولعلها كانت العاصمة السياسية ومقر الطبقة المتنفذة في سبأ . أما (صرواح) ، فكانت العاصمة الروحية ، فيها معبد الإله الأكبر ، وبها مقر الحكام الكهنة (المكربون) . وقد وجه (المكربون) عنايتهم كما رأينا نحو مأرب ، فأقاموا بها معبد (المقه) الكبير والقصور الضخمة وسكنوا بها في فترات ، وأقاموا عندها سد مأرب الشهير ، فكأنهم كانوا على علم بأن عاصمة سبأ ، ستكون مأرب ، لا مدينتهم صرواح . وقد يكون لمكان مأرب دخل في هذا التوجه .

قوائم بأسماء المكربين :

اشتغل علماء العربية الجنوبية بترتيب حكام سبأ المكربين بحسب التسلسل التأريخي أو وضعهم في جمهرات على أساس القدم، مراعين في ذلك دراسة نماذج الخطوط والكتابات التي وردت فيها أسماء المكربين ، وآراء علماء الآثار في تقدير عمر ما يعثر عليه مما يعود الى أيام أولئك المكربين ، ودراسة تقديراتهم لعمر الطبقات التي يعثر على تلك الآثار فيها . ومن أوائل من عني بهذا الموضوع من أولئك العلماء (كلاسر) ، العالم الرحالة الشهير الذي كان له فضل نشر الدراسات

---

١ رحلة في بلاد العربية السعيدة من مصر الى صنعاء (٢/ ٣٤) فما بعدها .

٢ Le Muséon, LXI, 3-4, 1948, P. 215, A. Fakhry.
An Archeological Journey to Yemen, I, Cairo, 1952, II, Cairo, 1952,
The Publication of the Inscriptions, by G. Ryckmans, III, Cairo, 1951.

العربية الجنوبية [1] والعالم (فرتس هومل) [2] ، و (رودوكناكس) [3] ، و (فلبي) [4] ، وغيرهم .

قائمة (هومل) :

وقد رتب (هومل) (مكربي) سبأ على هذا النحو [5] :

١ — سمه على ، ولم يقف على نعته في الكتابات، واليه تعود الكتابة الموسومة بـ Glaser 1147 .

٢ — يدع آل ذرح (يدع ايل ذرح) ، والى عهده تعود الكتابات : Arn. 9, Glaser 901, 1147, 484, Halevy 50

٣ — يثع امر وتر (يثع أمر وتر) والى أيامه ترجع الكتابات : Halevy 626, 627 .

٤ — يدع آل بين (يدع ايل بين) ، والى عهده يرجع النص : Halevy 280 .

٥ — يثع أمر ، ولم يذكر نعته ، وقد ورد اسمه في النصوص الموسومة بـ : Halevy 352, 672, Arn. 29.

٦ — كرب ايل بين (كرب آل بين) .

٧ — سمه على ينف (سمهعلى ينوف) (سمه على ينوف).

ويكوّن هؤلاء على رأيه جمهرة مستقلة ، هي الجمهرة الأولى لمكربي سبأ. وتتكون الجمهرة الثانية على رأيه من المكربين :

١ — ذمر على .

٢ — سمه على ينف (سمه على ينف) ، (سمهعلى ينوف) ، وهو باني سد (رحب) ، (رحاب) ، والى أيامه تعود الكتابات : Glaser 413, 414, Halevy 673, Arn. 14 .

---

١ راجع كتابه : Skizze der Geschichte und Geographie Arabien

٢ Fritz Hommel, Ausätze und Abhandlungen arabistisch — semitologischen Inhalts., München, 1892 — 1901, S., 145, Grundriss der Geographie und Geschichte des Alten Orient, S., 671.

٣ Rhodokanakis, KTB., II, S., 49.

٤ Philby, Background, P. 141.

٥ Handbuch, I, S., 75.

٣ – يثع امر بين (يثع أمر بين) ، وهو باني سد (حبيض) ، (الحبابض) وموسع سد (رحب) (رحـــاب) ، والمنتصر على (معن) معين والى عهده تعود الكتابات :

Glaser 523, 525, Halevy 678, Arn. 12, 13, Glaser 418, 419.

٤ – ذمر على ، لعله ابن يثع أمر بين .

٥ – كرب آل وتر (كرب ايل وتر) ، صاحب نص صرواح .

وقد عثر في بعض الكتابات على صورة النعامة محفورة مع كتابة ورد فيها اسم الإلـه (المقه) ، كما عثر على كتابات ذكر فيها اسم هذا الإلـه وحفرت فيها صورة (نسر) . وقد ذهب بعض الباحثين الى احتمال كون هـــذه الصور هي رمز الى الإلـه المقه[١] .

قائمة (رودوكناكس) :

ناقش (رودوكناكس) القوائم الـــتي وضعها (كلاسر) و (وهومل) و (هارتمن)[٢] ، وحاول وضع جمهرات جديدة مبنية على أساس الرابطة الدموية والتسلسل التأريخي ، ومـا ورد في الكتابات من أسماء ، فذكر في كتابـــه : Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft (نصوص قتبانية في غلات الأرض) هذه الجمهرات[٣]: جمهرة ذكرت أسماؤها في الكتابة: Glaser 1693 ، وتتألف من:

١ – يدع آل بين (يدع ابل بين) .

٢ – سمه على ينف (سمه على ينوف) .

٣ – يثع مر وتر (يثع أمر وتر) .

وجمهرة أخرى وردت أسماؤها في الكتابة Glaser 926 وتتكون من :

١ – يثع أمر .

١ Mahram, P. 264, A. Grohmann, Göttersymbole und Symboltiere auf Südarabischen Denkmälern, Wien, 1914, S., 75.

٢ Hartmann, Die Arabische Frage, S., 603.

٣ KTB., II, S., 49.

٢ ـ يدع آل (يدع ايل) .
٣ ـ سمه على .
وتكوّن مجموعة رمز اليها ب A .

وذكر مجموعة ثالثة تتألف من :

١ ـ يدع آل (يدع ايل) .
٢ ـ يثع امر (يثع أمر) .
٣ ـ يدع اب (يدع أب) .

وجمهرة رابعة تتكون من :

١ ـ كرب آل (كرب ايل) .
٢ ـ يدع اب (يدع أب) .
٣ ـ اخ كرب (أخ كرب) .

وقارن بين (هومل) و (هارتمن) ، فذكر الجمهرتين .

١ ـ يدع آل (يدع ايل) .	١ ـ يدع أب (يدع أب) .
٢ ـ يثع امر (يثع أمر) .	٢ ـ اخ كرب (أخ كرب) .
٣ ـ كرب آل (كرب ايل) .	

وجمهرة :

١ ـ يدع آل (يدع ايل) .
٢ ـ يثع امر (يثع أمر) .
٣ ـ كرب آل (كرب ايل) .
وهي جمهرة B .

ولخص (رودوكناكس) هذه الجمهرات في جمهرات ثلاث هي:جمهرة A وجمهرة B وجمهرة C .

جمهرة (A) Glaser 926 وتتألف من :
١ ـ يثع امر (يثع أمر) .
٢ ـ يدع آل (يدع ايل) .
. . . .

٣ – سمه على .

جمهرة (B) Glaser 1752, 1762, Halevy 626 ، وتتكون من:

١ – يدع آل (يدع ايل) .

٢ – يثع امر (يثع أمر) .

٣ – كرب آل (كرب ايل) .

٤ – سمه على .

جمهرة (C) Glaser 1693 وقوامها :

١ – يدع آل بين (يدع ايل بين) .

. . . . . .

٢ – سمه على ينف (سمه على ينوف) .

. . . . . .

٣ – يثع امر وتر (يثع أمر وتر) .

وفي مناقشته للمجموعات الثلاث المتقدمة عاد فذكر الجمهرات التالية :

جمهرة (١) :

سمه على .

يدع آل ذرح (يدع ايل ذرح) ، CIH 366, FR 9, Halevy 50.

يثع امر وتر (يثع أمر وتر) ، CIH 490, Halevy 626

يدع آل بين (يدع ايل بين) ، Halevy 280

جمهرة (٢) :

يثع امر (يثع أمر) لم يرد نعته .

كرب آل بين (كرب ايل بين) Halevy 352, 672 .

سمه على ينف (سمه على ينوف) Halevy 45 .

وذكر الجمهرة التالية في آخر مناقشته لقوائم أسماء المكربين ، وتتألف من :

يثع امر بين (يثع أمر بين) Glaser 926 .

يدع آل بين (يدع ايل بين) فاتح مدينة (نشق) Halevy 630, Glaser 926, 1752 .

يثع امر (يثع أمر) Halevy 630, Glaser 1752 .

كرب آل (كرب ايل) Halevy 633, Glaser 1752, 1762 .

سمه على Glaser 926, 1762 .

وليس في تعداد هذه الجمهرات هنا علاقة بعدد المكربين أو بتسلسلهم التأريخي وانما هي جمهرات وأسماء متكررة ، ذكرها (رودوكناكس) للمناقشة ليس غير ، وقد أحببت تدوينها هنا ليطلع عليها من يريد التعمق في هذا الموضوع .

قائمة (فلبي) :

وقفت على قائمتين صنعها (فلبي) لمكربي سبأ ، نشر القائمة الأولى في كتابه : « سناد الاسلام »[1] ونشر القائمة الثانية في مجلة Le Muséon[2] . وقد قدر (فلبي) تأريخاً لكل مكرب حكم فيه على رأيه شعب (سبأ) . فقدر في قائمته التي نشرها في كتابه المذكور لكل ملك مدة عشرين سنة ، وجعل مبدأ تأريخ حكم أول مكرب حوالي سنة (٨٠٠) قبل الميلاد . وسار على هذا الأساس باضافة مدة عشرين عاماً لكل ملك ، فتألفت قائمته على هذا النحو :

١ — سمه على ، أول المكربين ، حكم حوالي سنة (٨٠٠) قبل الميلاد .

٢ — يدع آل ذرح (يدع ايل ذرح) ، وهو ابن (سمهعلى) ، حكم حوالي سنة (٧٨٠) قبل الميلاد .

٣ — يثع امر وتر بن يدع آل ذرح ، حكم حوالي سنة (٧٦٠) قبل الميلاد .

٤ — يدع آل بين بن يثع امر وتر ، حكم حوالي سنة (٧٤٠) قبل الميلاد .

٥ — يدع امر وتر بن سمه على ينف ، وهو معاصر الملك الآشوري سرجون ، وقد حكم حوالي سنة (٧٢٠) قبل الميلاد .

٦ — كرب آل بين بن يثع امر ، حكم حوالي سنة (٧٠٠) قبل الميلاد .

٧ — ذمر علي وتر ولا يعرف اسم والده على وجه التأكيد ، وربما كان والده (كرب آل وتر) ، أو (سمه على ينف) وربما كان شقيقاً لـ (كرب آل بين) ، وقد حكم في حوالي سنة (٦٨٠) قبل الميلاد .

---

١ Background of Islam, PP. 141.

٢ Le Muséon, LXII, 3-4, PP. 248.

٨ – سمه على ينف بن ذمر على ، وهو باني سدّ (رحب) (رحاب) وقد حكم حوالي سنة (٦٦٠) قبل الميلاد .

٩ – يثع امر بين بن سمه على ينف ، وهو باني سدّ (حبيضن) الحبابض، وقد حكم حوالي سنة (٦٤٠) قبل الميلاد .

١٠– كرب آل وتر بن ذمر على وتر ، آخر المكربين وأول ملوك سبأ ، وقد حكم على رأيه من سنة (٦٢٠) حتى سنة (٦١٠) قبل الميلاد .

أما قائمته التي نشرها في مجلة Le Muséon ، فهي على النحو الآتي :

١ – سمه على ، وهو أقدم مكرب عرفناه . بدأ حكمه حوالي سنة (٨٢٠) قبل الميلاد . وقد وضع (فلبي) الكتابات : CIH 367, 418, 488, 955 الى جانب اسم هذا المكرب دلالة على أن اسمه ذكر فيها ، غير اني لم أجد لهذا المكرب أية علاقـة بالكتابات : CIH 418, 488, 955 ، فالكتابة CIH 418 ، أي Glaser 926 ، لا تعود الى هذا المكرب ، وانما تعود الى مكرب آخر زمانه متأخر عنه . وقد وجدت خطأ مشابهاً في مواضع أخرى من هذه المواضع التي أشار فيهـا الى الكتابات التي تخص كل مكرب من المكربين .

٢ – يدع آل ذرح (يدع ايل ذرح) ، حكم حوالي سنة (٨٠٠) قبـل الميلاد . أما الكتابات التي ورد فيها اسمه ، فهي :

CIH 366, 418, 488, 490, 636, 906, 955, 957,

REP. EPIG. 3386, 3623, 3949, 3950, AF 17, 23, 24, 38.

٣ – سمه على ينف ، وقد حكم حوالي سنة (٧٨٠) قبل الميلاد . أما الكتابات التي تعود الى أيامه فهي :

CIH 368, 371, 636, REP. EPIG. 3623, AF 86, 91, 92

٤ – يثع امر وتر ، لم يذكر المدة التي حكم فيها ، وإنما جعل مدة حكمه مع مدة حكم سلفه ثلاثين عاماً ، تنتهي بسنة (٧٥٠) قبل الميلاد . أما الكتابات التي ورد اسمه فيها ، فهي :

CIH 138, 368, 371, 418, 490, 492, 493, 495, 634, 955,

REP. EPI. 3623, 4405

وذكر (فلبي) بعد اسم (سمه على ينف) اسم ابنه (يدع آل وتر)، ولكنه لم يشر الى أنه كان مكرباً . وقد أشار الى ورود اسمه في الكتابات :
. AF 86, 91, 92

٥ – يدع آل بين ، وهو ابن يثع أمر وتر . وقد حكم في حوالي سنة (٧٥٠) قبل الميلاد . وورد اسمه في الكتابات :

CIH 138, 414, 492, 493, 495, 634, 961, 967, 979,

REP. EPIG. 3387, 3389, 4405, AF 43, 89.

وذكر (فلبي) اسم (سمه على ينف) مع اسم شقيقه (يدع آل بين)،ولم يكن هذا مكرباً ، وقد ذكر في الكتابات CIH 563, 631 .

٦ – ذمر على ذرح وهو ابن (يدع آل بين) ، وقد حكم حوالي سنة (٧٣٠) قبل الميلاد . جاء اسمه في الكتابات :

CIH 633, 979, REP. EPIG. 3387, 3389, AF. 29

وكان له ولد اسمه (يدع آل) (يدع ايل) لا نعرف نعته،ولم يكن مكرباً ، وقد ورد اسمه في الكتابات : CIH 633, AF 29 .

٧ – يثع امر وتر . ووالده هو (سمه على ينف) شقيق (يدع آل بين)، وقد ذكرت انه لم يكن مكرباً . لم يذكر (فلبي) مدة حكمه، وانما جعل مدة حكمه مع مدة حكم سلفه (ذمر على ذرح) ثلاثين عاماً ، انتهت بحوالي سنة (٧٠٠) قبل الميلاد .

٨ – كرب آل بين ، وهو ابن يثع امر وتر ، حكم حوالي سنة (٧٠٠) قبل الميلاد ، وورد اسمه في الكتابات :

CIH 610, 627, 732, 637, 691, REP. EPIG. 3388, 4125,

. 4401, AF 43, 89

٩ – ذمر على وتر بن كرب آل بين،حكم حوالي سنة (٦٨٠) قبل الميلاد، وورد اسمه في الكتابات : CIH 610, 623, REP. EPIG. 3388, 4401 .

١٠– سمه على ينف ، وهو ابن ذمر على وتر . حكم حوالي سنة (٦٦٠) قبل الميلاد ، وذكر اسمه في الكتابات :

. CIH 622, 623, 629, 733, 774, Philby 77,

. REP. EPIG. 3650, 4177, 4370.

١١– يثع امر بين ، وهو ابن سمه على ينف ، حكم حوالي سنة (٦٤٠) قبل الميلاد ، وذكر اسمه في الكتابات :

. CIH, 622, 629, 732, 864, Philby 77,

. AF 62, III, REP. EPIG. 3650, 3653, 4177.

وذكر (فلبي) مع اسم (يثع امر بين) اسم (يكرب ملك وتر) وقد ورد اسمه في الكتابة : AF 70 ، ولم يكن مكرباً .

١٢– ذمر على ينف ، وقد حكم حوالي سنة (٦٢٠) قبل الميلاد،وجاء اسمه في الكتابات : AF 70, CIH 491, REP. EPIG. 3498, 3636, 3945, 3946 .

١٣– كرب آل وتر ، وهو آخر المكربين ، وقد حكم حوالي سنة (٦١٥) قبل الميلاد ، وورد اسمه في الكتابات :

CIH 126, 363, 491, 562, 582, 601, 881, 965, REP. EPIG. 3234,

. 34498, 3636, 3916, 3945, 3946, Philby 16, 24, 25, 70? 101, 133?

قائمة (ريكمنس) J. Ryckmans :

وقد دوّن (ريكمنس) أسماء المكربين على هذا النحو :

١ – سمه على .
٢ – يدع آل ذرح (يدع ايل ذرح) وهو ابن (سمه على) .
٣ – سمه على ينف ، وهو ابن (يدع ايل ذرح) .
٤ – يثع أمر وتر ، وهو ابن (يدع ايل ذرح) كذلك .
٥ – يدع آل بين (يدع ايل بين) ، وهو ابن (يثع أمر وتر) .
٦ – ذمر على ذرح ، وهو ابن (يدع ايل بين) .
٧ – يثع أمر وتر ، وهو ابن (سمه على ينف) ، ابن (يثع أمر وتر) وهو شقيق (يدع ايل بين) .
٨ – كرب ايل بين[1] .

١ Jacques Ryckmans, L'Institution Monarchique en Arabie Méridionale avant L'Islam (I) Louvain, 1951, P. 95.

الفصل الرابع والعشرون

ملوك سبأ

وبتلقب (كرب ايل وتر) بلقب ملك ، وباستمرار ما جاء بعده من الحكام على التلقب به ، ندخل في عهد جديد من الحكم في سبأ ، سماه علماء العربيات الجنوبية عهد (ملوك سبأ) تمييزاً له عن العقد السابق الذي هو في نظرهم العهد الأول من عهود الحكم في سبأ ، وهو عهد المكربين ، وتمييزاً له عن العهد التالي له الذي سمي عهد (ملوك سبأ وذي ريدان) .

ويبدأ عهد (ملوك سبأ) بسنة (٦٥٠ ق. م.) على تقدير (هومل) ومن شايعه عليه من الباحثين في العربيات الجنوبية[١] . ويمتد الى سنة (١١٥ ق. م.) على رأي غالبية علماء العربيات الجنوبية[٢] ، أو سنة (١٠٩ ق. م.) على رأي (ركمنس) الذي توصل اليه من عهد غير بعيد . وعندئذ يبدأ عهد جديد في تأريخ سبأ ، هو عهد (ملوك سبأ وذي ريدان) .

أما (البرايت) ، فيرى أن حكم هذا المكرب الملك في حوالي السنة (٤٥٠ ق. م.) ، أي بعد قرنين من تقدير (هومل)[٣] ، وبناءً على ذلك يكون عهد الملوك – على رأيه – قد بدأ منذ هذا العهد[٤] .

١ Handbuch, I, S., 86.
٢ Handbuch, I, S., 86.
٣ Discoveries, P. 222, BOASOOR, NUM. 137, 1955, P. 38, JAOS, 73, 1953, P. 40.
٤ W. F. Albright, in Journal of the American Oriental Society, 73, I, 1953, P.40.

وقد قدّر بعض الباحثين زمان حكم المكرب والملك (كرب ايل وتر) في القرن الخامس قبل الميلاد[1] . وقد كان يعاصره في رأي (البرايت) (ورو ايل) ملك أو مكرب قتبان،الذي حكم بحسب رأيه أيضاً في حوالي سنة (٤٥٠ ق. م.)، وكان خاضعاً لـ (كرب ايل وتر)[2] ، و (يدع ايل) ملك حضرموت[3] .

ويمتاز هذا العهد عن العهد السابق له ، وأعني به عهد حكومة المكربين ، بانتقال الحكومة فيه من (صرواح) العاصمة الأولى القديمة ، الى (مأرب) العاصمة الجديدة ، حيث استقر الملوك فيها متخذين القصر الشهير الذي صار رمز (سبأ) ، وهو قصر (سلحن) (سلحين) ، مقاماً ومستقراً لهم،منه تصدر أوامرهم الى أجزاء المملكة في ادارة الأمور .

و (كرب آل وتر) (كرب ايل وتر) ، هو أول ملك من ملوك سبأ افتتح هذا العهد . لقد تحدثت عنه في الفصل السابق ، حديثاً أعتقد انه واف ، ولم يبق لدي شيء جديد أقول عنه . وليس لي هنا الا أن أنتقل الى الحديث عن الملك الثاني الذي حكم بعده ، ثم عن بقية من جاء بعده من ملوك .

أما الملك الثاني الذي وضعه علماء العربيات على رأس قائمة (ملوك سبأ) بعد (كرب ايل وتر) ، فهو الملك (سمه على ذرح)[4] . وقد ذهب (فلبي) الى احتمال أن يكون ابن الملك (كرب ايل وتر) . وقد كان حكمه على حسب تقديره في حوالي السنة (٦٠٠ ق. م.)[5] .

وقد وقفنا من النص الموسوم بـ CIH 374 على اسمي ولدين من أولاد (سمه على ذرح) ، هما (الشرح) (اليشرح) ، و (كرب ايل) . وقد ورد فيه : أن (الشرح) أقام جدار معبد (المقه) من موضع الكتابة الى أعلاها، ورمم أبراج هذا المعبد ، وحفر الخنادق ، ووفى بجميع نذره الذي نذره لإلهه (المقه) على الوفاء به ان أجاب دعاءه ، وقد استجاب إلهه لسؤاله ، فيسر أمره وأعطاه كل ما أراد ، فشكراً له على آلائه ونعمائه ، وشكراً لبقية آلهة سبأ ،

---

١ Beiträge, S., 9.

٢ The Chronology, P. 8.

٣ The Chronology, P. 10.

٤ Handbuch, I, S., 86, Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P, 249.

٥ Background, P. 142.

وهي : (عثتر) ، و (هبس) (هوبس) ، و (ذات حمم) (ذات حميم)، و (ذت بعدن) (ذات بعدان) ، وتمجيداً لاسم والده (سمه على ذرح) أن أمر بتدوين هذه الكتابة ليطلع عليها الناس[1] . وقد سجل فيها مع اسم شقيقه (كرب آل) (كرب ايل) .

أما (كرب ال) (كرب ايل) أحد أولاد (سمه على ذرح) فلا نعرف شيئاً من أمره . وقد صيره (هومل) خليفة والده ، وجاراه (فلبي) في ذلك ، وقدر زمان حكمه بحوالي السنة (٥٨٠ ق. م.)[2] .

ووضع (هومل) اسم (الشرح) (اليشرح) ، وهو ولد من أولاد (سمه على ذرح) بعد اسم شقيقه (كرب ايل وتر)[3] ، وجاراه (فلبي) في هذا الترتيب[4] ، ولا نعلم شيئاً عنه يستحق الذكر .

وانتقل عرش سبأ الى ملك آخر ، هو (يدع آل بين) (يدع ايل بين) وهو ابن (كرب آل وتر) (كرب ايل وتر) . وقد ورد اسمه في النص الموسوم بـ Glaser 105 ، ودونه رجل اسمه (تيم) . وقد حمد فيه الإلَه (المقه) بعل (أوم) (أوام) ، لأنه ساعده وأجاب طلبه ، وتيمن بهذه المناسبة بتدوين اسم الملك ، كما ذكر فيه اسم (فيشن) أي (فيشان) ، وهي الأسرة السبئية الحاكمة التي منها المكربون وهؤلاء الملوك ، كما ذكر اسم (بكيل شبام)[5] .

وقد ورد في الكتابة المذكورة اسم حصن (الو) . وهو حصن ذكر في كتابات أخرى . ويرى بعض الباحثين أن هذه الكتابات هي من ابتداء القرن الرابع قبل الميلاد ، أي أن حكم (يدع آل بين) ، كان في هذا العهد[6] .

والنص Glaser 529 من النصوص التي تعود الى أيام (يدع آل بين)

---

١ Glaser 485, Fresnel 55, CIH 374, IV, II, I, P. 23, Discoveries, P. 222, Jamme 551.

٢ Background, P. 142.

٣ Handbuch, I, S., 87.

٤ Background, P. 142.

٥ CIH 126, IV, I, III, P. 194.

٦ Beiträge, S., 19.

(يدع ابل بين) كذلك . وقد ورد فيه اسم عشيرته : (فيشن) (فيشان)[1] .

وانتقل عرش سبأ الى (يكرب ملك وتر) من بعد (يدع آل بين) على رأي (هومل)،وهو ابنه . وقد ذكر اسمه في الكتابة الموسومة بـ Halevy 51[2]، وهي عبارة عن تأييد هذا الملك لقانون كان قد صدر في أيام حكم أبيه لشعب سبأ ولقبيلة (يهبلح) في كيفية استغلال الأرض واستثمارها في مقابل ضرائب معينة تدفع الى الدولة ، وفي الواجبات المترتبة على سبأ وعلى (يهبلح) في موضوع الخدمات العسكرية ، وتقديم الجنود لخدمة الدولة في السلم وفي الحرب . وقد وردت في هذا النص أسماء قبائل أخرى لها علاقة بالقانون ، منها قبيلة (أربعن) (أربعان) ، وكانت تتمتع باستقلالها ، يحكمها رؤساء منها،يلقب الواحد منهم بلقب (ملك) .

وقد شهد على صحة هذا القانون ، وأيد صدق صدوره من الملك ، ووافق عليه جماعة من الأشراف وسادات القبائل ، قبائل سبأ وغيرها ، ذكرت أسماؤهم في النص بعد جملة : (سمعم ذت علم) ، أي (سمع هذا الاعلام) أي شهد على صحة هذا البيان ، وأيده ، ووافق على ما جاء فيه ، وهم : (يكرب ملك) و (عم أمر) ابنا (يهلم) ، و (سمه كرب بن كريم) (سمه كرب بن كرب)، و (هلك أمر بن حزفرم) ، و (عم أمر بن حزفرم) ، و (أبكرب بن مقرم) ، و (سمه أمر بن هلكم) ، و (معدكرب ذ خلفن) (معدكرب ذ خلفن) ، و (سمه كرب ذ ثورنهن) ، و (نبط آل) ملك قبيلة (أربعن)[3] .

وقد أعلن هذا القانون وأثبت (مثبتم) في السنة الثامنة (ثمنيم) من سني (ذ نيلم) (ذي نيل) من سني تقويم (نشأكرب بن كبر خلل) ، وهو من

---

١ CIH 562, IV, II, IV, P. 338, Lupar 4540, Hommel, Süd-Arabische Chrestomathie, S., S., 52, O. Weber, Studen zur südarabischen Altertumskunde, II, S., 18.

٢ Glaser 904, Halévy 51, 638, 650, CIH IV, III, I, P. 2, Halévy, Rapport, in JoJurnal Asiat., 1872, P. 137, Glaser, Altjemenizische Nachrichten, S., 71, 160, CIH 601, REP. EPIG. 2726, V, II, P. 68.

٣ CIH, IV, III, I, P. 12.

سادات قبيلة (خلل) أي (خليل)[١] . وذكر قبل هذا تأريخ آخـــر ، هو (ذا بهى ذخرف بعثتر بن حذمت)[٢] ، أي (في شهر ذي أبهى من سنـــة عثتر بن حذمة) . وقد صدر لقبائـل سبأ و (يهبلح) وكل ساكن في منطقة مدينة (صرواح) (وبكل بهجر صروح)[٣] .

والكتابة المرقمة بـ CIH 390 هي من أيام (يكرب ملك) ، وقد دوّنهـــا رجل اسمه (عدذال ؟) (وددال) ، وذلك عند تقديمه (قبقا) الى الإلّه (بعل اوم) (بعل أوام) لسلامته ولخيره ، ولم يلقب (يكرب ملك) فيها بلقب ملك[٤] .

وولي حكم سبأ بعد (يكرب ملك وتر) ابنه الملك (يثع أمر بين) ، وقد ورد اسمه في عدد من الكتابات ، منها الكتابـــة المعروفة بـ Glaser 508[٥] ، وهي ناقصة الآخر ، جاء فيها : ان هذا الملك قدم نذراً الى الإلّه (عثتر) في معبده في (ذبيان) (ذبين) ، ولسقوط كلمات من النص وتلفها لا ندري ما النذر الذي قدمه الملك الى ذلك المعبد[٦] .

وورد اسم الملك (يثع أمر بين) في نص قصير ،وسم بـ REP. EPIG. 3919 وذكر معه اسم أبيه (يكرب ملك)[٧] .

وورد اسمه في كتابة أخرى ، سجلها رجل اسمه (تبع كرب) (تبعكرب) وكان كاهناً (رشو) للإلّهة (ذت غضرن) (ذات غضران) ، كما كان يتولى وظيفة ادارية كبيرة هي درجة (قبن) ، وذلك في عهد الملك(يدع ايل بين) ، وفي عهد الملكين : (يكرب ملك) ، و (يثع أمر بين) ، وقد سجل تلك الكتابة عند بنائه هو وأبناؤه وسائر أسرته جدار معبد (المقه) ، وقيامه معهم

---

١ السطر ١٨ وما بعده .
٢ السطر العاشر وما بعده .
٣ السطر الثالث عشر .
Rhodokanakis, Der Grundsatz der Oeffentlichkeit in den Sdarabischen Urkunden, S., 16.
٤ CIH, IV, II, I, P. 47, Halevy 44, Glaser 900.
٥ CIH 966, IV, III, II, P. 292.
٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S., 17, Glaser, Sammlung, I, S., 50.
٧ REP. EPIG., VI, II, P. 365.

بحفر خنادق وانشاء بروج تعبيراً عن شكرهم لآلهة سبأ (المقه) و (عثتر) و (هوبس) و (ذات حميم) ، و (ذات بعدان) و (ذات غضران) ، لأنها أنعمت عليه اذ كان قائداً عسكرياً بالتوفيق في عقد صلح بين حكومة سبأ وحكومة قتبان ، وقد وضع شروطاً للصلح بين الطرفين على الملك (يثع أمر بين) في مدينة (مأرب) ، فوافق عليها ، وذلك بعد حرب ضارية استمرت خمس سنوات ، كانت قتبان هي التي أشعلت نارها بهجومها على أرض سبأ وتعرضها لمدن سبأ بالشر . وقد عهد الى هذا الكاهن و (القين) والقائد أمر محاربة القتبانيين والدفاع عن المملكة ، فاستطاع على ما يتبين من النص وقف هجوم القتبانيين وصده ، واجلاء القتبانيين عن الأرضين التي استولوا عليها الى مدينة (تهرجب) (تهركب)[١] .

والكتابة المذكورة ، هي من جملة الكتابات التي عثر عليها في معبد المقه المعروف عند السبئيين بـ (معبد أوام بيت المقه) ، في مدينة مأرب[٢] . ويظهر من ذكرها أسماء الملوك الثلاثة أن (تبع كرب) (تبعكرب) الكاهن (رشو) والقائد ، كان قد خدم هؤلاء الملوك ، وكان من المقربين اليهم . وقد نجح في مهمته في عهد الملك (يثع أمر بين) في عقد الصلح بين سبأ وقتبان ، وقدم شكره وحمده الى الإلّه (المقه) إلّه سبأ الكبير ، ببناء ذلك الجزء من جدار المعبد الذي نصبت الكتابة عليه . وقد ساعده في ذلك أهله وعشيرته ، وذكر أسماء الملوك الثلاثة على الطريقة المتبعة في التيمن بذكر أسماء الآلهة وأسماء الحكام الذين في عهدهم تم العمل ، وربما على سبيل توريخ الحادث أيضاً . ولما كان (تبعكرب) (تبع كرب) كاهناً (رشو) ، فلا استبعد احتمال كونه كاهن معبد (اوام) ، لأن كاهناً عادياً لا يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل ، وأن يتولى قيادة الجيش واجراء المفاوضات .

وفي هذا النص اشارة الى حرب وقعت بين القتبانيين والسبئيين ، ظلت مستمرة

---

١ Fresnel 56, Glaser 481, CIH 375, IV, II, I, P. 25, Halevy, in Journal Asiatique, 1874, II, P. 584.

٢ Glaser 481, CIH 375, Jamme 550, CIH IV, II, I, P. 23, Discoveries, P. 222, Studi. Lexi., 2, S., 12, Halévy, in Etudes Sabéenes, Journal Asiatique, 1874, II, P. 581.

خمس سنين ، وهي حرب من جملة حروب نشبت قبل هذه الحرب ونشبت بعدها بين السبئيين والقتبانيين . وقد انتهت هذه الحرب المتقدمة بتمكين السبئيين من استعادة ما خسروه وبطرد القتبانيين من الأرضين التي استولوا عليها . ونجد في النص الموسوم بـ Glaser 1693 خبر حرب وقعت أيضاً بين قتبان وسبأ في أيام الملك (يدع أب يجل بن ذمر على) ملك قتبان . وقد دوّن هذا النص (يذمر ملك) سيد قبيلة (ذرن) (ذران) (ذرأن) . وقد قص فيه أعماله وغزواته وحروبه ، فذكر أنه تغلب على قبيلة (ذبحن) (ذبحان) صاحبة أرض (حمرر)[1] وعلى قبائل وعشائر أخرى ، منها : (ناس) (تأس) ، و (ذودن) (ذودان) ، و (صبرم) (صبر) ، و (سلمن) (سلمان) ، وعلى مدنها ومزارعها وأملاكها . وقد وهبها وحبسها على الإلّه (عم) إلّه قتبان الرئيس و (انبي)[2] .

وقد أشار (يذمر ملك) في نصه الى حرب وقعت بين قتبان وسبأ،واستمرت في أيام (ملوك سبأ) : (يدع ابل بين) و (سمه على ينف) و (يثع أمر وتر)[3]. وحرب تجري في عهد ثلاثة ملوك لا بد أن تكون حرباً طويلة الأجل استمرت سنين ، وكان فيها لصاحب النص شأن خطير فيها ، فانتصر على قبائل سبئية عديدة ، وانتزع منها أملاكها وسجلها باسم حكومة قتبان .

وحارب مع السبئيين (شعب رعنن) ، أي قبيلة (رعنن) (رعين) . وكان حكامها يلقبون أنفسهم في هذا العهد بلقب (ملك) ، كما جاء في نص (يذمر ملك) .

وحكم بعد (يثع أمر بين) ابنه (كرب ابل وتر) (كرب آل وتر) واليه تعود الكتابة الموسومة بـ Glaser 1571 ، وهي أمر ملكي أصدره هذا الملك الى كبار الموظفين وسادات القبائل ومن كان قد خول حق جمع الضرائب، مثل رؤساء (نزحت) و (فيشان) و (أربعن) و (كبر) كبير (صرواح)

---

١ (شعبن ذبحن ذحمرر) .

٢ KTB., II, S., 41.

٣ (بضرم تنشا يدع ال بين وسمه علي ينف ويثع امر وتر ، واملك سبا واشعبهمو واملك رعنن ورعنن بعلو يدع اب وقتبن وولدعم) ، الفقرتان الثالثة والرابعة من النص .

(يثع كرب بن ذرح على) وأعيان صرواح . وقد صدر هـذا الأمر الملكي في شهر (فرع ذنيلم) (فرع ذي نيل) من سنة (هلك أمر) . وقد وقع عليه وشهد بصحته : (كرب ايل يهصدق) من قبيلة (ذي يفعان) و (أب أمر بن حزفرم) و (أب كرب) من قبيلة (نزحتن) و (عم يثع بن مونيان) و (لحى عث بن ملحان) من قبيلة (أربعنهان) ، و (أسد ذخر بن قلزان) و (نشأكرب بن نزحتان)[١] .

وقد حكم الملك (سمـه على ينف) (سمه على بنوف) بعد (كرب ايل وتر) على رأي (هومل) و (فلبي) . وقد جعل (فلبي) (كرب ايل) أباً له ، غير أنه وضع أمام الاسم (كرب ايل) علامة استفهام دلالة على أنه غير متأكد من دعواه هذه كل التأكد[٢] .

وقد ورد اسم (كرب ايل وتر) في الكتابة الموسومة بـ Berlin VA 5324[٣] وصاحبها (يعثتر ذو وضأم) ، وكان كبيراً على كل قبيلة (أريم) (أريام) ، وقد سجلها لقيامه بأعمال زراعية ، وبأمور تتعلق بالتروية ، مثل حفر أنهـار وأغيلة (غيلان) (غيلن) ، وبناء سدود لهـا بحجارة (البلق) . وقد ورد فيها أسماء الأماكن التي أجريت فيها هذه الأعمال ، وهي : (أثبن) (أثابن) (أثابان) ، و (مطرن) (مطران) ، و (مأتمم) ، و (ذفنوتم) (ذوفنوتم) و (سمطانهان) ، وهي من مزارع الملك . وغوطة (ذو ضأم) في (سرر أمان) . وذكر في آخر النص اسم (ذمر على) وقد سقط لقبه فيه[٤] .

وقـد ورد اسم (كـرب ايل) و (سمـه على) في النص المعروف بـ REP. EPIG. 4226 ، وصاحبه رجل اسمه (عم أمر بن معد يكـرب) . وقد تيمن في نصه بذكر الآلهة : (المقه) و (عثتر) ، و (ذات حيم) ، و (ذات بعدان) ، و (ود) . وذكر بعد أسماء هذه الآلهة : (كرب ايل) و (سمه على) ، و (عم ريام) (عم ريمم) ، و (يلرح ملك)[٥] .

---

١ REP. EPIG. VII, I, P. 3, NUM. 3951, Glaser, 1571.

٢ Background, P. 142.

٣ REP. EPIG., VII, I, P. 75.

٤ راجع النص ؛ Berlin VA 5324

٥ REP. EPIG. 4226, Marseille 5536, REP. EPIG., VII,II, P. 151.

وكان (فلبي) وضع اسم (الشرح) (اليشرح) في كتابه « سناد الاسلام » بعد اسم أبيه (سمه على ينف) ، وذكر انه أصبح ملكاً بعده ، وذلك على تقديره حوالي سنة (٤٦٠ ق. م.) . ثم ذكر بعده اسم (ذمر على بيين) شقيق (الشرح) الذي حكم على رأي (فلبي) أيضاً حوالي سنة (٤٤٥ق. م.) ووضع بعده (يدع ايل وتر) ، وهو ابن (ذمر على بين)،وقد تولى العرش على تقديره أيضاً حوالي عام (٤٣٠ ق. م.) . ثم وضع بعده (ذمر على بين) وهو – على رأيه – ابن (يدع ايل وتر) ، وجعل حكمه في سنة (٤١٠) قبل الميلاد ، ووضع بعده (كرب ايل وتر) ، وكان حكمه في سنة (٣٩٠) قبل الميلاد[١] .

أما قائمته التي نشرها في مجلة : Le Muséon ، فقد وضع فيها بعد (سمه على ينف) اسم (يدع ايل بين) ، وجعله ابن (سمه على) ، وجعل حكمه حوالي عام (٤٧٠ ق. م.) ، ثم وضع بعده اسم شقيقه (ذمر على) ، ولم يجعل (الشرح) ملكاً في هذه القائمة[٢] .

وقد ورد في الكتابة الموسومة بـ REP. EPIG. 4198 اسم الملك (ذمر على) ملك سبأ (ابن يدع ايل وتر) . واسم ابن له بعده ، غير أنه أصابه تلف مما أثره . وقد ذكرت فيها أسماء آلهة سبأ ، كما ذكر اسم الإلـه (ودّ ذو ميفعان) و (دم ذ ميفعن) ، وهو إلـه معيني ، كما ورد اسم إلهة معينية ، هي (هرن) (هران)[٣] . وفي ذكر الآلهة السبئية والآلهة المعينية في هذه الكتابة ، دلالة على اختلاط صاحبها بالمعينيين .

وصاحب الكتابة رجل من (ريمان) ، وكان له بيت اسمه (نمرن) نمران و (ريمان) عشيرة من سبأ ، ويظهر أن جماعة منها نزحت الى أرض معين ، فسكنت بالقرب من (نشق) في مدينة (نمران) التي تعرف اليوم بـ (بيت نمران) ، ولذلك ذكر آلهة معين مع آلهة سبأ ، لاختلاطه بالمعينيين . ويرى بعض الباحثين أن ملك سبأ كان قد أسكن هذه الجماعة من الريمانيين عند (نشق)

---

١ Background, P. 142.

٢ Le Muséon, LXII, 3-4, 1949, P. 249.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 436.

لحماية معين وللدفاع عنها بعد أن خضعت لحكم السبئيين[١] .

ولا يستبعد (فون وزمن) ، كون الابن الذي عفى أثر اسمه من الكتابة المرقة بـ REP. EPIG. 4198 ، هو (سمه على ينف) (سمعهلى ينوف) ، المقصود في الكتابة : REP. EPIG. 4085 . وهي كتابة يرى (فون وزمن) أنها تعود الى القرن الأول قبل الميلاد ، وإلى الأيام التي قام بها (أوليوس غالوس) بحملته على اليمن[٢] .

ولدينا جمهرة أخرى جديدة من ملوك سبأ ، تتألف من ملكين ، هما : (الكرب يهنعم) ، و (كرب ايل وتر) . وقد عدّها (فلبي) السلالة الثالثة من سلالات الملوك[٣] . أما (الكرب يهنعم) فقد ورد اسمه في الكتابة Glaser 291 ، وقد ذكر أنه كان ملكاً على سبأ ، وان اسم أبيه (هم تسع). وأما (كرب وتر) ، فقد ورد اسمه في الكتابة المعروفه بـ Glaser 302 وهي من (حدقان) شمال (صنعاء)[٤] . ويكوّن هذ الملك مع الملك (الكرب) – على رأي (هومل) – جمهرة قائمة بذاتها من جمهرات الملوك[٥] .

ووضع (فلبي) بعد (كرب ايل وتر) ملكاً اسمه (وهب ايل) ، ولم يتأكد من اسم أبيه فوضعه بين قوسين ، ووضع أمام اسم الأب علامة الاستفهام دلالة على عدم تأكده ، ووضع بعد علامة الاستفهام (ابن سرو) ، تعبيراً عن عدم تأكده من صحة اسم هذا الأب ، وجعل حكم هذا الملك في حوالي السنة (٣١٠ ق. م.) ولم يعرف (فلبي) لقب (وهب ايل)[٦] .

وتولى الحكم بعد (وهب ايل) ملك اسمه (انمر يهامن) (أنمار يهأمن) (انمر يهنعم) (أنمار يهنعم) . أما أبوه ، فهو (وهب آل) (وهب ايل) ولا نعرف لقبه الذي عرف به . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن أباه هو الملك المتقدم ، ولذلك وضعوه بعده[٧] . وقد اختلف الباحثون في كيفية كتابة لقب

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 436.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 436.

٣ Background, P. 142.

٤ Handbuch, I, S., 88.

٥ Handbuch, I, S., 88.

٦ Background, P. 142.

٧ Background, P. 142.

(أنمار) ، فكتبه بعضهم (يهأمن) وكتبه بعض آخر (يهنعم) ، ودوّنه بعض آخر على الشكل الأول في موضع ، وعلى الشكل الثاني في موضع آخر[1] . ولعدم وجود صور أصول الكتابات بـ (الفوتوغراف) في المطبوعات التي نشرت الكتابات التي تعود الى أيامه ، ولأنها أخذتها من استنساخ العلماء لها ، أتوقف عن البت في تثبيت لقبه في هذا المكان حتى يتهيأ لي الظفر بصور (فوتوغرافية) لأصول تلك الكتابات ، ولهذا السبب كتبت اللقب بالشكلين المذكورين .

وقد نبه مؤلفا كتاب (Sab. Inschr.) على ظفرهما بنعت والد (أنمار) من الكتابات : CIH I. و CIH 517 و CIH 642 ، فجعلاه (يحز)[2] . وقد راجعت النص CIH I ، فلم أجد علاقة بين الملكين ، فالملك في هذا النص هو الملك (كرب ايل وتر يهنعم) ملك سبأ ، وأبوه هو (وهب ايل يحز) . وأما الملك الذي نتحدث عنه ونقصده هنا ، فانه (انمار يهنعم) ، ووالده (وهب ايل) . وراجعت النص : CIH 517 ، فوجدته كالنص السابق لا علاقة له بالملك (أنمار) ولا بأبيه ، اذ كتب في زمان (كرب ايل وتر يهنعم بن وهب ايل يحز) أيضاً ، ولا علاقة له مثل شقيقه بالملك (انمار) .

وقد ورد اسم الملك (انمار يهأمن) (يهنعم) في الكتابة الموسومة بـ CIH 244[3] ، وقد سقط منها اسم صاحبها الذي تضرع الى الآلهة بأن تمنّ عليه بالصحة ، وأن تبارك له في نفسه وفي أمواله ، وأن ترفع من منزلته ومقامه ومقام ملكه في أيام الملك أنمار يهأمن (يهنعم) ملك سبأ . وقد وردت في آخر النص الحروف (ب ت ب) ، وأكملها ناشره باضافة حرف (اللام) الى الحروف المكسورة ، فصارت (ب ت ل ب) ، أي (بتالب) ومعناها (بالإلّه تالب) أو (بحق الإلّه تالب) . ولم يرد في النص بعد اسم الأب نعته ، ولم يذكره ناشر النص في كتاب : CIH[4] . أما (ميتوخ) و (مورد تمن) فقد كتباه وجعلاه (يحز)[5] .

---

[1] Handbuch, I, S., 90, Sab. Inschr., S., 141, Glaser, 223, CIH 244, RW 149, MM 120, Beiträge, S., 18.

[2] CIH I, Glaser 2, 3, 24, CIH, IV, I, I, P. 4, D. H. Muller, Sab. Inschr., ZDMG., XXXVII, 1883, S., 379.

[3] CIH 244, IV, I, III, P. 271, RW 149, Glaser 223, MM 120.

[4] CIH, IV, I, III, P. 271.

[5] Sab. Inschr., S., 141.

وأما الكتابة الموسومة بـ CIH 642 ، فلم يرد فيها اسم الملك (أنمار) ، ولا اسم (كرب ايل وتر يهنعم) ، فلا أدري لِمَ أشار اليها مؤلفا كتاب : Sab. Inschr. على أنها من النصوص التي ورد فيها نعت (وهب ايل) . وصاحب هذه الكتابة (مرثد آل بن فسول) (مرثد ايل بن فسول) ، وكان (قول) أي قَيْلاً على عشيرة (سمعي)[١] .

ولدينا كتابة ناقصة ، سقط من أولها اسم الآمر بتدوينها ، خلاصتها أن صاحب هذه الكتابة قدم تمثالاً إلى الإلَه (تالب ريم) (تالب ريام) (بعل شصرن) (ش ص ر ن) ، أي رب معبد الإلَه المذكور المقام في موضع (شصرن) ، لأنه مَنّ عليه فردّه سالماً من الحرب ، وتيمن فيها أيضاً بذكر ملكه الملك (أنمار يهأمن) ملك سبأ . وقد سقطت كلمات من هذه الكتابة سببت تشويهها وغموضها ، فلا ندري ما المقصود بهذه الحملة أو الحرب . أهي حملة قام بها الملك (أنمار يهأمن) أم حملة قام بها ملك آخر ، أعلنها على الملك (أنمار) ؟ ويرى مؤلفا كتاب Sab. Inschr أن الذي قام بها رجل من (بتع) وقد أمده الملك بمساعدة عسكرية[٢] .

وورد اسم الملك (أنمار يهأمن) واسم أبيه ، في نص دوّنه أحد سادات (ذ مليحم) (ذي مليحم) (ذي مليح) ، اسمه (وهب ذ سموى اليف) (وهب ذو سموى أليف) ، تقرباً الى الإلَه : (تألب ريام بعل كبد) ، لأنه أجاب دعاءه ، فحفظه وساعده ، وساعد ابنه وأتباعه، وذلك في ايام الملك المذكور[٣] .

وقد جعل (فلبي) حكم (أنمار يهأمن) في حدود سنة (٢٩٠) ، حتى سنة (٢٧٠ ق. م.)[٤] . أما (فون وزمن) ، فقد جعل حكمه في القرن الأخير قبل الميلاد ، فذكر انه كان يحكم في حوالي السنة (٦٠ ق. م.)[٥] . وتولى عرش سبأ بعد (أنمار يهأمن) ابنه (ذمر على ذرح) ، وقد وصلت

---

١ CIH 642, IV, III, I, P. 76, Mordtmann, in ZDMG., XXXII, (1878), S., 679.

٢ RW 129, Sab. Inschr., S., 116, (86), CIH 195, IV, I, III, P. 242, Glaser 179.

٣ MM 26. 120, Sab. Inschr., S., 48, 141.

٤ Background. P. 88, 142.

٥ Beiträge, S., 18.

الينا كتابة قصيرة اصيبت بكسور في مواضع منها ، سقط منها اسم (أنمار) ، وبقيت كلمة (يهأمن) ، وجاء بعدها اسم (ذمر على ذرح) مسبوقاً بالواو حرف العطف ، مما يدل على انها كتبت في ايام أبيه (أنمار يهأمن)، وقد ورد فيها مضافاً الى اسمي الملكين اسما (ودم) (ود) و (تزاد) (تزأد)[١] . وقد قرأ بعض الباحثين اللقب الباقي من اسم (أنمار) على هذه الصورة (يهنعم)[٢]، وقد ذكرت ان مردّ هذا الاختلاف الى اختلاف النساخ .

وانتقل العرش الى الملك (نشأكرب يهأمن) بعد وفاة (ذمر على ذرح) والده . وقد جعل (هومل) نعته (يهنعم)[٣] . وقد وصلت الينا كتابة منه دوّنها عند تجديده واصلاحه أصنام (أصلم) معبد (عثّر ذ ذب) (عثّر ذي ذب)[٤]. ويظهر ان أصنام هذا المعبد اصيبت بتلف ، فأمر الملك بتجديدها واصلاح مواضع التلف منها تقرباً الى الإلـه (عثّر) الذي خصص به هذا المعبد .

ووصلت الينا كتابة أخرى من أيام هذا الملك ، جاء فيها : أن (نشأكرب يهأمن) قدم الى (تنف بعلت ذ غضون) ، أي الى (تنف بعلة ذي غضرن) (تنف ربّة ذي غضران) أربعة وعشرين وثناً ، لسلامته ولسلامة بيته (سلحن) (سلحين) ، ولعافيتـه وعافية أهله ، ولتبعد عنه الشر وكل ضر يريده به الشانئون . وذلك بحق (عثّر) و (ألمقه) وبحق (شمسهو تنف بعلت ذ غضرن)[٥] فيظهر من ذلك أن هذا المعبد الذي قدم الملك الأصنام اليه ، كان قـد خصص بالآلهة (الشمس التائفة) ، وكلمـة (تنف) نعت لها ، وموضعه في مكان (ذي غضران) .

وقد جـاء اسم الملك (نشأكرب يهأمن) في نص دوّنه (بنو جرت) (بنو كرت) ، (اقول شعبن ذمري وشعبهمو سمهري)[٦] ، أي أقيال قبيلة

---

١ REP. EPIG., VII, I, P. 92, VA 5343, Handbuch, I, P. 90, VA 649.

٢ REP. EPIG., VII, I, P. 92, VA 5343, Handbuch, I, 90, VA 649.

٣ Handbuch, I, S., 90.

٤ Sab. Inschr., S., 201, REP. EPIG., 644, II, I, P. 71, CIH, 433, Lupar A. O. 1535, CIH, IV, II, II, P. 123.

٥ CH 573, IV, II, IV, P. 365, OS 31, BR. MUS. 32, Oslander, in ZDMG., XIX, 1865, II, 261, Mahram P. 270.

٦ Mahram P. 28, Jamme 559, MaMb 221.

(ذمرى) وقبيلتهم (سمهر) ، دوّنوه تقرباً إلى الإلـه (المقه) (بعل اوم)، أي : رب (أوّام) ، ووضعوه في معبده هذا ، وهو (معبد أوّام) ، حمداً له وشكراً على نعمه وأفضاله لأنه ، أي الإلـه (المقه) أسعد ومَنّ بالشفاء ووفى لسيدهم (نشأكرب يهأمن ملك سبأ ابن ذمر على ذرح) . ووفقه وأنعم عليه بحاصل وافر وغلة جزيلة قدمت الى قصره (سلحن) (سلحين)، في أيام الضرّ ، أي الحرب وفي أيام السلم . وقدموا من أجل ذلك تمثالين من البرونز ، وضعوهما في معبده (معبد اوام).ودعوا (المقه) أن يبارك لسيدهم دوماً ، وأن يمنحه العافية والصحة والقوة ، وأن يسعد قصره قصر (سلحين) وكل أتباع (ادم) الملك و (بني جرف) وأقيالهم ، وذلك بحق الآلهة : عثتر شرقن ، وعثتر ذ ذبن ، وهوبس والمقه وذات حميم وذات بعدان وبشمس ملك تنف ، وبعشتر عزيز ، وذات ظهرن ربّا (عركنن) وقدما نذرهما الى عثتر شرقن والمقه رب اوام[1] .

وقد ورد اسم هذا الملك في نص دوّنه (غوث) و (اسلم) وابنه (ابكرب) (أبوكرب) من (بني جميلن عرجن) ، أي : (بني آل الجميل العرج)، وهم (كبراء) قبيلة (ميدعم) (ميدع) ، وذلك حمداً للإلـه و (المقه تهوان بعل أوّام) ، الـذي أجاب نداءهم وأغاثهم ومنّ عليهم وعلى بيتهم (سلحين) (سلحن) في (جميلن) (الجميل) ، وحماهم في الغارة التي أمر بها الملك (نشأكرب يهأمن) على (أرض عربن) ، أي ارض الأعراب لانقاذ اصدقائهم ومواطنيهم من اهل مأرب ، وكذلك الجنود والحيوانات التي كانت معهم واعادتهم الى مأرب . واعادوا في نهاية النص حمدهم الإلـه (المقه) وذلك بحق بقية الآلهة : عشتر ، وهوبس ، وذات حميم ، وذات بعدان ، و (بشمس ملكن تنف)[2] .

ويظهر من هذا النص ان أعراباً كانوا قد أغاروا على جماعة من السبئيين ، او انهم هاجموا ارض سبأ ، فأرسل الملك (نشأكرب يهأمن) قوة من الجيش ومن الأهلين للاغارة عليهم في ارضهم : (ارض العرب) ولاسترجاع ما أخذوه من غنائم واسلاب وأسرى. وكان في جملة من اشترك في هذه الغارة (ابو كرب

---

١ Hahram, P. 28, 36.

٢ Mahram, P. 31, MaMb 222, Jamme 560, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 279, Fakhry 9, 28, Jamme 559, 560, 561, 883, Von Wissmann, Himyar, S., 455, 458, Zur Geschichte, S., 324, 302.

بن أسلم) . فلما عاد رجالها الى مأرب سالمين ، قدم (ابو كرب) وابوه اسلم وشخص آخر اسمه (غوث) الى الإلـه (المقـه ثهوان) تمثالين وضعوهما في معبده معبد (أوّام) ، تخليداً لهذا الحادث ، وتعبيراً عن شكرهم له .

وهذا النص من أقدم نصوص المسند التي تشير الى الأعراب والى غاراتهم على السبئيين او على قوافلهم ، ومن اقدم النصوص التي ورد فيها اسم (عربن) أي (الأعراب) و (ارض عربن) اي ارض الأعراب . ولم يعين النص موضع (ارض العرب) ، فلا ندري أكان قصد ارضاً معينة ، ام اراد الباديـة . والبوادي هي في كل مكان . والأعراب هم في كل مكان من جزيرة العرب ، وفي جملتها اليمن بالطبع ، وسنرى بعد وفي اثناء كلامنا على ايام (يرم أيمن) واخيه (برج يهرجب) ، اخبار غارات وحملات عسكريـة ارسلها الملك على الأعراب الساكنين في محاذاة ارض قبيلة (حاشد) وعلى أعراب آخرين (وثبوا على ساداتهم وامرائهم ملوك سبأ) .

وقد وردت في هذا النص جملة (ارضت عربن)[1] . فيظهر مـن ذلك أن اللغة السبئية كانت تعد لفظة (أرض) اسماً مذكراً ، وإذا أرادت تأنيثـه ، قالت : (أرضت) ، على حين أن (الأرض) في عربيتنا اسم مؤنث فقط .

وقد عثر على نص آخر ، أمر الملك (نشأكرب يهأمن) ، بتدوينه ، عند تقديمه ستة تماثيل الى الإلـه (المقه) ، لسلامته وسلامة قصره (سلحين) ، وسلامة أمواله وأملاكه ، وليمنّ عليه بالسعادة[2] . وعثر على اسمه في نصوص أخرى ، كلها في مضمون هذا النص ، اذ تخبر عن تقديم هذا الملك تماثيل الى معابد آلهته ، حمداً لها وشكراً ، إذ منّت عليه ، ولتديم أغداق نعمها وألطافها وبركتها عليه[3] .

وقـد ذهب بعض الباحثين الى أن الملك (نشأكرب يهأمن) هو من قبيلة (همدان) ، ذلك لأن اسمه من الأسماء الهمدانية المعروفة . وخـالف غيرهم هذا الرأي ، وقالوا إنه لم يكن من همدان ، وإنما كان من (بـني جرت)

---

١ Mahram, P. 37, MaMb 204.

٢ Mahram, P. 269.

٣ Mahram, P. 269-272.

من قبيلة (سمهر) (سمهرام) . وهم يبعــدونه بذلك عن (همدان) . ويعارضون في كونه آخر ملك من ملوك الأسرة السبئية الحاكمة ، بل يشكون في كون أبيه كان ملكاً فعلياً على سبأ[١] .

ويظهر مــن النصوص المتقدمة أن (نشأكرب يهأمن) كان يقيم في قصر (سلحين) بمأرب ، وهو مقر ملوك سبأ ومركز حكمهم . وقد كان حكمه فيما بين السنة (١٧٥) والسنة (١٦٠) قبل الميلاد على رأي (جامه)[٢] .

ويلاحظ أن الملك كان يتقرب الى (شمس تنف بعلت غضرن) ، أي إلى الآلهة الشمس تنف ربة موضع (غضرن) ، تقرب اليها حتى في أثناء اقامته في عاصمته (مأرب) وفي بيت حكمه قصر (سلحين) . ويدل هذا على أن الملك لم ينس آلهة قبيلته وعــلى رأسها الآلهة (الشمس) ، فقدمها على بقية الآلهــة وذكرها مع الإلَه (المقه) إلَه سبأ الخاص . والآلهة (شمس تنف) ، هي إلهة (بني جرت) من قبيلة (سمهرم) (سمهرام)[٣] .

ولسنا على علم بمن حكم بعد (نشأكرب) ، ولهذا ترك الباحثون بموضوع ترتيب ملوك سبأ فراغاً بعده ، يشير الى عدم معرفتهم باسم من حكم فيه . وقد تصور (فلبي) انه دام ثلاثين عاماً ، بدأ سنة (٣٠) وانتهى في سنة (٢٠٠) قبل الميلاد[٤] . وقد وضع (هومل) اسم (نصرم يهأمن) على رأس جمهرة جديدة ، رأى انها حكمت (سبأ) ، بعد هذه الفجوة التي لا نعلم من حكم فيها ولا مدتها ، ووضع مقابله علامة استفهام للدلالة على انه لا يقول ذلك على سبيل التأكيد ، وانما هو احتمال يراه ومجرد رأي هو نفسه غير واثق به[٥] .

وقد وضع (فلبي) (نصرم يهنعم) (ناصر يهنعم) على رأس الجمهرة الجديدة التي حكمت سبأ في هذا العهد ، وجعله رأساً على الجمهرة الرابعة من جمهرات حكام السبئين ، وجعل حكمه في حوالي السنة (٢٠٠ ق. م.) ، وجعل له شقيقاً هو (صدق يهب) . وقد كتب (فلبي) النعت على هــذه

---

١ Mahram, PP. 272.
٢ Mahram, PP. 390.
٣ Mahram, P. 279.
٤ Background, P. 142.
٥ Handbuch, I, S., 90.

الصورة : (يهنعم)[1] . اما (هومل) وغيره ، فقد كتبوه على هذه الصورة (يهأمن)[2] .

واستند (هومل) في وضعه (نصرم يهأمن) هذا الموضع الى النص الموسوم بـ Glaser 265 ، وقد ورد فيه عدد من الأسماء كانوا مقربين عند (ناصر يهأمن) منهم (أوسلة بن أعين) (أوسلت بن أعين) الذي هو في نظر بعض الباحثين (أوسلة رفشان) الهمداني . ولما كان (أوسلة) هذا يعاصر (وهب ايل يحز) وكان من جملـــة المقربين الى (ناصر يهأمن) ، رأى (هومل) أن مكان (ناصر يهأمن) يجب أن يكون إذن بعـــد الفجوة المذكورة مباشرة وقبل اسم (وهب ايل يحز) ، فوضعه في هذا المحل[3] .

والنص المذكور ، مكتوب على صخرة ناتئة في وسط مرتفعات وعرة مسننة في (جبل ثنين)[4] . وذكر (خليل يحيى نامي) أنه رآه ونقشه في (هجر ثنين) وهي تبعد عن غربي (ناعط) زهاء ساعتين على البغال ، وهي بين قبيلـــة (حاشد) و (أرحب)[5] . وقد كتب لمناسبة الانتهاء من انشاء بناء . وقد تيمن فيه على العادة بذكر (ناصر يهأمن) وأخيه (صدق يهب) ، وبذكر أسماء من ساعد في اتمام البناء ، ومن قام بتسقيفه[6] ، وهم من الأشراف وسادات القبائل . ويلاحظ أن النص قد أهمل لقب (ملك) الذي يكتب عادة بعد اسم كل ملك ، فلم يذكر بعد اسم (ناصر يهأمن) ولا بعد اسم (صدق يهب) .

وقد ورد اسم (ناصر يهأمن) في النص المنشور برقم (٧) من كتـــاب : (نشر نقوش سامية من جنوب بـلاد العرب وشرحها)[7] . وقد أخبر (ناصر يهأمن) فيه أنه قدم الى حاميه (تالب ريم بعل حدثن) : أي (تالب ريام) رب معبد (حدثان) صنماً ، ابتهاجاً بسلامته وعافيتـــه . وفي النص المرقم برقم (٢١) المنشور في الكتاب نفسه[8] ، وقد دوّنه جماعـــة من (همدان) ،

---

١ Background, P. 142.
٢ J. Ryckmans, L'Institution, P. 337.
٣ Handbuch, I, S., 88.
٤ CIH, IV, I, III, P. 295.
٥ نشر ص ٧٢ .
٦ Glaser 265, CIH 287.
٧ نشر (ص ١١ ــ ١٢) .
٨ نشر (ص ٣٣ وما بعدها) . REP. EPIG., 4994, 4995, VII, P. 471, 473.

لمناسبة انشائهم بيتاً اسمه (وترن) (وترن) (وتران) ، وجعلوه في حماية حاميهم الإلـه (تألب ريام) ، وتيمناً بهذه المناسبة دوّنوا اسم (ناصر يهأمن) و (صدق يهب) ، وليزيد الإلـه (تالب ريام) من نفوذ قبيلة (همدان) التي ينتسب اليها هؤلاء . ويلاحظ أن هذا النص وكذلك النص الآخر لم يذكر لقب (ملك) بعد اسم (ناصر يهأمن) .

وأصحاب هـذا النص ، هم : (برج يحمد) (بارج يحمد) ، وبنوه (يرم نمرن) (يريم نمران) ، و (نشأكرب) ، و (كربعثت) ، بنـو (أنضر يهرجب) من (بني ددن) (بني دادان) . وقـد ورد اسم هذه الجماعة ، وهم من أسرة واحدة ، في نص آخر ، يظهر منه أنهم كانوا يقيمون في موضع (اكنط) (أكنط) ، المعروف في عهدنا باسم (كانط) . وقد ذكر (الهمداني) بيتاً من بيوت (أكانط) سماه (زادان) ، قد يكون اسم عشيرة هذه الأسرة المسماة (دادان) ، حُرِّف فصار (زادان)[1] .

ولم يلقب (ناصر يهأمن) ولا (صدق يهب) في نص آخر بلقب (ملك) وأصحاب هذا النص من (همدان) كذلك[2] . وقد دوّنوا فيه هذه الجملة : (وبعقم مرايهمو) قبل اسم (نصرم يهأمن) ، أي (وبحق أميريهم) ، أو (وبعقام أميريهم) ، أو (وبجلالـة أو رئاسة أميريهم)[3] ، ولم نجد في هذا النص أيضاً ما يشير الى انهما كانا ملكين ، أو ان أحدهما كان ملكاً على سبأ أو همدان .

وأرى ان في اهمال هذه النصوص للقب (ملك) ، وفي عدم تدوينها له بعد اسم (نصرم يهأمن) (ناصر يهأمن) ، دلالة قوية على ان (ناصر يهأمن) لم يكن ملكاً ، وانما كان أميراً ، يؤيدها ويؤكدها استعمال النصوص قبل الاسم لفظة (امراهمو) (مرايهمو) ، التي تعني (أميريهم)[4] . ولو كان (ناصر) أو شقيقه (صدق يهب) ملكين لما نعتا في بعض هذه النصوص بـ (أميرين) ، ولما أهملت النصوص لفظة (ملك) هذا الاهمال . ولا حجة لرأي من قال انه

---

١ نشر (ص ٣٤ وما بعدها) .
٢ نشر (ص ٥٢)
٣ غويدي : المختصر (ص ٣٣) .
٤ نشر (ص ٣٤ ، ٥٢) .

كان ملكاً ، لأنه كان صاحب لقب ، وهذا اللقب هو (يهأمن) ، وهو نعت خاص بالملوك[1] ، ذلك لأننا لا نملك دليلاً قاطعاً يثبت ان كل من كان ينعت نفسه بنعت كان ملكاً ، وان نوعاً خاصاً من النعوت كان قد حرم على الناس، لأنه خصص بالملوك . وآية بطلان هذا الرأي اننا نجد كثيراً من سادات القبائل وسائر الناس يحملون ألقاباً أيضاً من نوع ألقاب الملوك،فليس في الألقاب تخصيص وتنويع في نظري .

وبناء على ما تقدم ، لا نستطيع ادخال (ناصر يهأمن) ولا أخيه (صدق يهب) في عداد ملوك سبأ ، ونرى وجوب اعتدادهما سيدين كبيرين من سادات قبيلة (همدان) ، كان لهما سلطان واسع على قبيلتهما وفي سبأ ، ولذلك ذكر أشراف القبيلة اسميهما في كتاباتهم ، ولقبوهما بلقب (أمرائهم) فالواحد منهم هو بمنزلة (أمير) ، ومعنى ذلك ان (ناصر يهأمن) كان أميراً على همدان ، وكذلك كان أخوه[2] . والظاهر ان تقديم اسم (ناصر يهأمن) على اسم أخيه ، يشير الى ان (ناصر يهأمن) كان أكبر سناً من شقيقه ، لذلك كان هو المقدم عليه .

ويظهر من بعض النصوص التي ذكرت اسم (ناصر يهأمن) انه كان قوياً ، وله قوة عسكرية ضاربة ، وتحت إمرته عدد من القادة ، بدليل ورود لفظة (مقتت) ، جمع (مقتوى) ، ومعناها (الضباط) و (القادة) ، وقد اشتركت قواته في بعض المعارك ، في عهد الملك (نشأكرب يهأمن) ، وكان من المعاصرين له . والظاهر انه بقي حياً الى ايام (وهب ايل يحز) . وبناء على هذا يكون قد عاش في حوالي السنة (١٧٥) والسنة (١٥٠) قبل الميلاد ، وذلك على افتراض ان حكم (نشأكرب يهأمن) كان فيما بين السنة (١٧٥) والسنة (١٦٠) قبل الميلاد ، وان حكم (وهب ايل يحز) كان بين السنة (١٦٠) والسنة (١٤٥) قبل الميلاد ، على حسب تقدير (جامه)[3] .

وليس في استطاعتنا تحديد العمل الذي قام به (صدق يهب) في همدان ،

---

١ Handbuch, I, S., 88.

٢ Mahram, P. 277, A. F. L. Beeston, Problems of Sabaean Chronology, in BOASOOR, 16, 1954, PP. 37-56.

٣ Mahram, P. 277, 390.

فليس في النصوص التي بين أيدينا ما يكشف الستار عن ذلك. ولا نعرف كذلك زمان وفاة (صدق يهب) ، والظاهر ان وفاته كانت في ايام (وهب ايل يحز) اذ انقطعت أخباره منذ ذلك الحين[1] .

وليس بين الباحثين في العربيات الجنوبية أي خلاف في أصل (ناصر يهأمن) وأخيه ، فقد اتفقوا جميعاً على انه من قبيلة (همدان) ، ذلك لأنهما نصا صراحة في احد النصوص المدونة باسمها على انهما من همدان[2] . ويظهر من ذلك ان قبيلة همدان كانت قد أخذت تؤثر في هذه الأيام تأثيراً كبيراً ، حتى لقب ساداتها أنفسهم بلقب (ملك) ، متحدين بذلك سلطة ملوك سبأ الشرعيين .

ووضع (هومل) (وهب آل يحز) (وهب ايل يحز) ، بعد (ناصر يهأمن) ، وسار (فلبي) على خطاه . وقد كان زمان حكمه في حدود سنة (١٨٠ ق. م.) على تقدير (فلبي)[3] . وكان يعاصره (أوسلت رفش) (أوسلة رفشان) ، أمير (همدان) ، وهو والد الأميرين (يرم أيمن) و (برج يهرحب) (بارج يهرحب)[4] .

ويظهر من النص : Glaser 1228 أن (وهب ايل يحز) ، تحارب هو و (الريدانيون) ورئيسهم إذ ذاك (ذمر على)[5] . وقد ساعد (وهب ايل يحز) في هذه الحرب (هوف عم) (هو فعم) و (مخطرن) (مخطران) و(سخيم) و (ذو خولان) و (بنو بتع) ، وانضم الى جانب الريدانيين (سعد شمس) و (مرثد)[6] . وتشير هذه الكتابة وكتابات أخرى الى مساع بذلها رؤساء (ريدان) في منافسة ملوك سبأ وانتزاع العرش منهم .

وقد ورد في النص المذكور : (سعد شمس ومرثدم) وقبيلته (ذو جرت) بمدينة (صنعو) . وهذه هي المرة الأولى التي يرد فيها اسم (صنعو) (صنعاء). وقد ورد اسمها بعد ذلك بقليل في الكتابتين : Jamme 629 و Jamme 644 . ويظهر من ذلك أن (صنعو) كانت في ضمن أرض قبيلة (جرت) ، غير

---

١ Mahram, P. 278.
٢ CIH 287, Mahram, 278.
٣ Background, P. 142.
٤ Glaser, Abessinier, S. 63.
٥ السطر الخامس عشر من النص : Glaser 1228
٦ Glaser 1364, Abessinier, S. 67, Le Muséon, 1967, 1-2, PP. 279.

أنها كانت قريبة جداً من حدود أرض قبيلة (بتع) . وأما (شعوب) التي لا تبعد سوى كيلومتر واحد أو كيلومترين عن الجهة الشمالية الغربية من (صنعاء)، فقد كانت في أرض قبيلة (بتع)[1] .

وقد أشير الى حرب (وهب ايل يحز) مع الريدانيين ، في النص الموسوم بـ Jamme 561 Bis ، وهو نص دوّنه (يرم أيمن) (يريم أيمن) ، وأخوه (برج يهرحب) وابنه (علهان) أبناء (أوسلت رفشان) ، وهم من (همدان) أقيال (اقول) قبيلة (سمعى) ثلث (حاشد) ، وذلك عند تقديمهم تمثالاً إلى الإلـه (المقه ثهون) بعل (اوام) لأنه منّ عليهم وعلى عبيده (ا د م هـ و) (ادمهو) أبناء همدان : وعلى قبيلتهم حاشد ، وأغدق عليهم نعماءه وأعطاهم غنائم كثيرة في الحرب التي وقعت بين ملوك سبأ وبين (بني ذي ريدان) ، واشتركوا فيها، إذْ ترأسوا بعض القوات . وكذلك في غاراتهم على أرض العرب المجاورين لقبيلة حاشد والنازلين على حدودها ، أولئك العرب الذين أخطأوا خطأ تجاه أمرائهم وساداتهم ملوك سبأ (املك سبا) ، وتجاه بعض قبائل ملك سبأ ، ولأن الإلـه (المقه) ، أنعم عليهم بأن جعل الملك (وهب ايل يحز) (ملك سبأ) راضياً عنهم ، مقرباً لهم ، ولأنه أعطاهم ذرية ذكوراً وحصاداً جيداً ، ولكي يديم نعمه عليهم ويبارك فيهم ويعطيهم الصحة والقوة وذلك بحق عثر و (المقه) وبحق حاميهم (شيمهم) وشفيعهم (تالب ريام)[2] .

ويتبين من هذا النص ان (يرم أيمن) وشقيقه كانا تابعين لملك سبأ، وانهما كانا مع (علهان بن برج) من الأقيال على عشيرة (سمعى) التي تكوّن ثلث مجموع قبيلة (همدان) في هذا العهد ، وانهم كانوا في خدمة ملك سبأ . ويظهر انهم انما أشاروا الى مهاجمتهم لأرض العرب ، والعرب المخالفين لأمر ملك سبأ لأن هؤلاء العرب كانوا على حدود أرض قبيلة همدان ، وقد تعرضت أرض هذه القبيلة وأرض قبائل أخرى لغارات هؤلاء الأعراب ، الذين كانوا ينتهزون الفرص لغزو الحضر كما هو شأنهم في كل زمان ومكان . وقد نجحوا في تأديب هؤلاء الأعراب ، كما نجحوا في الاشتراك مع بقية قوات (وهب ايل يحز) في

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 460.

٢ Mahram, P. 37, Jamme Bis. 561.

تكبيد (بني ذي ريدان) خسائر فادحة في الحرب التي نشبت بينهم وبين هذا الملك . وقد كان الريدانيون أسلاف الحميريين من سكان اليمن البارزين في هذا العهد .

وقد ميّز أهل اليمن وبقية العربية الجنوبية أنفسهم عن أهل الوبر، أي القبائل المتنقلة التي تعيش في الخيام ، بأن دعوا قبائلهم بأسمائها ، وهي قبائل مستقرة تسكن قرى ومدناً ومستوطنات ثابتة وسموا القبائل البدوية المتنقلة، ولا سيما القبائل الساكنة في شمال العربية الجنوبية (عربن) أي أعراب ، وسمّوا أرضهم (أرض عربن) و (ارضت عربن) ، أي أرض العرب .

ويظهر من ورود جملة (أملك سبا) ، أي (ملوك سبأ) الواردة في هذا النص وفي نصوص أخرى، وجود ملوك عدة كانوا يحكمون سبأ في زمان تدوين هذه النصوص . ولكننا نرى ان هؤلاء الملوك لم يكونوا ملوكاً فعليين ، حكموا سبأ بالاشتراك مع ملك سبأ الحاكم ، وانما كانوا رؤساء وسادة قبائـل خاضعين لحكم الملك ، وقد كانوا أصحاب امتيازات ، يحكمون أرضهم حكماً مباشراً مع اعترافهم بحكم ملك سبأ عليهم ، ويجوز انهم كانوا يلقبون أنفسهم بلقب ملك ، على سبيل التعظيم والتفخيم ليس غير ، فهم ملوك مقاطعات وأرضين ، لا ملوك حكومات كبيرة كحكومة سبأ [1] .

وقد ورد اسم (وهب ايل يحز) في الكتابة الموسومـة بـ : CIH 360 ، وصاحبها (سعد تألب يهثب) من موضع (سقهن) [2] (سقرن) (سقران)، ذكر فيها أنه قدم الى الإلـه (تألب ريام) نذراً : تمثالاً وضعه في معبد الإلـه في (رحبن) [3] ، في أيام سيده (مراسموا) الملك (وهب ايل يحز) [4] . وقد ورد اسم صاحب هذه الكتابة في النص الموسوم بـ MM 33 + 34 ، وقد دوّنه جماعة من (بني بتع) و (سخيم) و (ذي نعمان) تقرباً إلى الإلـه (عثتر شرقن) [5] ، لأنه نجى (سعد تألب يهثب) ، ومدّ في عمره في الحروب التي

---

١ Mahram, P. 280.

٢ (سقهان) . (٢) (رحبان) (الرحاب) . Mahram, P. 280.

٣ CIH 360, IV, I, IV, P. 445.

٤ Miles 6, Sab. Inschr., S. 5, Anm. I.

٥ (عثتر شرقان) ، (عثتر الشارق) .

أشعلها في (ردمان) وفي أماكن أخرى[1] . ولا يعقل بداهة قيام مدوّني النص، وهم سادات القبائل ، ببناء (نطعت)[2] وذلك تقرباً الى الإلـه (عثتر شرقن) إذ منّ على (سعد تألب يهثب) بالحياة والنجاة في الحروب التي خاضها ، لو لم يكن لهذا الرجل علاقة بهذه العشائر ولو لم يكن من أهل الجاه والمكانة والسلطان، ويتبين من كتابات أخرى أنه كان محارباً اشترك في حروب عدة ، فلعلّه كان من كبار قواد الجيش في أيام (وهب ايل يحز) ، وقاد جملة قبائل في القتال منها هذه التي دونت تلك الكتابة .

وذكر اسم الملك (وهب ايل يحز) في كتابة ناقصة قصيرة ، أشير فيها الى (كبر خلل) ، أي (كبير) قبيلة أو موضع (خليل) والى اسم الملك (وهب ايل يحز) (ملك سبأ) . والظاهر أن صاحب تلك الكتابة أو أصحابها كانوا من أتباع (كبير خليل)[3] .

ولم نعثر حتى الآن على اسم والد (وهب ايل يحز) . ولم ترد في نصوص المسند اشارة ما الى مكانته ومنزلته ، لذلك رأى بعض الباحثين أن أباه هذا لم يكن من الملوك ، بل ولا من الأقيال البارزين ، وإلا اشير في النصوص اليه، إنما كان من سواد الناس ، وأن ابنه (وهب ايل يحز) هذا أخذ الحكم بالقوة، ثار على ملوك سبأ في زمن لا نعلمه ، وانتزع الملك منهم ، ولقب نفسه بلقب (ملك سبأ) . أما ابنه الذي جاء من بعده ، فقد لقب نفسه بلقب (ملك) كما لقب والده بلقب ملك . ولو كان والد (وهب ايل يحز) ملكاً ، لذكر اذن في النصوص ، ولأشير الى لقبه[4] .

وقد جعل (جامه) حكم (وهب ايل يحز) بين السنة (١٦٠) والسنة (١٤٥) قبل الميلاد[5] .

وانتقل الحكم بعد وفاة (وهب ايل يحز) الى ابنه (انمرم يهأمن) (أنمار يهأمن) ، على رأي (جامه)، في حين أغفله أكثر من بحثوا في هذا الموضوع[6] ،

---

١ Sab. Inschr., S. 74.

٢ (نطعة) .

٣ REP. EPIG. 4130, Glaser 456, Va 5315.

٤ Mahram, P. 280.

٥ Mahram, P. 390.

٦ Mahram, P. 281, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 280.

وقرروا ان الحكم انتقل الى (كرب ايل وتر يهنعم) ، وهو ابن (وهل ايل) مباشرة بعد وفاة أبيه . ويرى (جامه) ان حكم (انمار يهأمن) ابتدأ بسنة (١٤٥) قبل الميلاد ، وهي سنة وفاة أبيه وانتهى بسنة (١٣٠) قبل الميلاد ، حيث انتقل الحكم الى شقيقه من بعده[١] .

وقد ورد اسم هذا الملك في النص الموسوم بـ Jamme 562 وقد دوّنه (سخمان يهصبح) من (بني بتع)، وكان (ابعل بيتن وكلم اقول شعبن سمعى) ، أي (سيد بيت وكل) ، وقيل عشيرته (سمعى) التي تكوّن ثلث قبيلة (حملان) ، عند تقديمه (صلمن) تمثالاً الى الإلـه (المقه رب أوّام) ، وضعه في معبده (معبد أوّام) ، لوفائه لكل ما طلبه منه ، ولاستجابتـه لدعائه ، ولأنه وفقه ووفق أهله وعشيرته في مرافقة الملك (أنمار يهأمن ملك سبأ) ابن (وهب ايل يحز ملك سبأ) في عودته من (بيت بني ذي غيمان) الى قصره (سلحين) مقر ملكه بمدينة مأرب ، ووفق مرافقيه وأقياله وجيشه في عودته هذه ، ولأنه منّ على صاحب النص بأن منحه أثماراً كثيرة وغلة وافرة وحصاداً جيداً،وليديم نعمه عليه ، وذلك بحق الآلهة : عثتر ، وهوبس ، والمقه ، وذات حميم،وذات بعدان ، و (شمس ملكن تنف) ، وبحاميه ، وشفيعه تالب ريام بعل شصر . وقد وضع التمثال والكتابة المدونة تحت حماية (المقه) في معبده (أوّام) ليحميها من كل من يحاول تغيير موضعها أو أخذها[٢] .

وقد كان (سخمان يهصبح) من الأقيال الكبار في هذا العهد . كان قيلاً على (سمعي) كما كـــان سيداً من سادات (بيت وكل) . أي من أصحاب الرأي المطاعين في عشيرة (سمعي) . والظاهر أنـه كان في موضع (وكل) نادٍ ، أي دار للرأي والاستشارة ، يحضره كبار العشيرة ويتشاورون فيما يحدث من حادث لهذه العشيرة . فهو بمنزلة (دار الندوة) عند قريش .

ويظن أن الملك (أنمار) المذكور في النص : REP. EPIG. 3992 والذي لم يذكر نعته ، هو هذا الملك . وقد دوّن هذا النص رجل اسمـه (وهب ذي سمي اكيف ذو مليح) (م ل ي ح) : وذلك عند تقربه إلى الإلـه (تالب

١ Mahram, P. 390.
٢ Mahram, P. 39, MaMb 279.

ريام بعل كبدم) ، بتقديمه تمثالاً اليه ، تعبيراً عن شكره وحمده له ، لأنـه منّ عليه وساعده وأجاب كل ما طلبه منه ، ومكنه من خصم له خاصمه في عهد الملك (أنمار)[1] .

وانتقل الحكم بعد وفاة (أنمار يهأمن) الى شقيقه (كرب ايل وتر يهنعم) ، وقد ذكر اسمه في كتابات عديدة لا علاقة لها به ، وانما دوّنته فيها تيمناً باسمه وتخليداً لتأريخ الكتابة ليقف على زمانها الناس[2] . وأهم ما في هذه الكتابات من جديد ، وورود اسم إلـه فيها لم يكن معروفاً قبل هذا العهد ولا مذكوراً بـين الناس ، هو الإلـه (ذ سموي) ، أي (صاحب السماء) (صاحب السماوات) أو (رب السماء) . وسأتحدث عنـه وعن هذا التطور الجديد الذي حدث في ديانة العرب الجنوبيين فيما بعد .

وقد ذكر اسم الملك (كرب ايل وتر يهنعم) في النص الموسوم بـ Jamme 563 وقد دوّنه أناس من (بني عثكان) (عثكلان) ، حمداً وشكراً للإلـه (المقه ثهوان) الذي أنعم عليهم وحباهم بنعمه ، وأعطاهم حصاداً جيداً وغلة وافرة ، وليزيد في توفيقه لهم ونعمه عليهم ، وليبعد عنهم أذى الحسّاد وشر الشانئين . وقد كتب في عهد الملك (كرب ايل وتر يهنعم بن وهب ايل يحز) ، ليبارك الإلـه (المقه) فيه[3] .

كما جاء اسم هذا الملك في نص آخر دوّنه قيل من أقيـال (غيمان) وسم - Jamme 564 ، دوّنه عند تقديمه (صلهن) تمثالاً الى الإلـه (المقه) حمداً به وشكراً على انعامه عليه وعلى جيش وأقيال الملك (كرب ايل وتر يهنعم) ، ولأنه منّ عليه وأعطاه حاصلاً طيباً وغلة وافرة وأثماراً كثيرة ، وليمنّ عليه وعلى قومه في المستقبـل أيضاً ، وذلك بحق المقه وبحق الآلهة عثتر ذي ذبن ، وبحر حطم ، وهوبس ، وثور بعلم ، وبالمقه بعسكت ، ويثو برآن ، وذات حميم ، وذات بعدان ، وبحاميهم وشفيعهم حجرم قحمم بعل حضي (تنع) ،

---

١ REP. EPIG. 3992, Mahram, P. 281.

٢ OS 32, BR. Mus. 30, CIH 517, IV, II, III, P. 229, E. Osiander, Zur Himjarischen Alterthuskunde, in ZDMG., XIX, 1865, P. 269, Halevy, Etudes Sabéennes, in Journal Asiatique, 1874, II, P. 500, Glaser, 456, VA 5315, REP. EPIG., 4130, VII, I, P. 91.

٣ Jamme 563, MAMB 269, Mahram, 42.

ولمس بعل بيت نهد ، وعثتر الشارق ، والمقه بعل أوّام[1] .

ويظهر من هذا النص ان صاحبه كان يتولى وظيفة مهمة في (مأرب) ، وانه كان مقدماً في بيت الحكم قصر (سلحين) ، وكان يساويه في هذه المنزلة رجل اسمه (رثدم) (رثد) من (مأذن) ، اذ كان يحكم مأرباً أيضاً ، ويتمتع بمنزلة كبيرة في دار الحكم (قصر سلحين) . وقد حكما مأرباً معاً بتفويض من الملك وبأمر منه ، حكما من القصر نفسه ، اذ كانت دائرة عملهما فيه . ويظهر منه أيضاً ان اضطراباً وقع في مأرب في زمان حكمهما ، دام خمسة أشهر كاملة، أثر تأثيراً كبيراً في العاصمة ، وقد سأل الحاكمان الملك أن يخولهما حق التدبير للقضاء على الفتنة ، فأصدر الملك أمراً أجابهما فيه الى ما سألاه الحاكمين ، غير ان نار الفتنة لم تخمد بل بقيت مشتعلة خمسة أشهر كاملة ، كان الملك في خلالها يلح على الحاكمين بوجوب قمع الفتنة واعادة الأمن ، واستطاعا ذلك بعد مرور الأشهر المذكورة باشتراك الجيش في القضاء عليها[2] .

ولم يذكر النص الأسباب التي دعت أهل مأرب إلى العصيان ، ولكن يظهر ان من جملة عواملها تعيين صاحب النص ، واسمه (أنمار) ، وهو من (غيمان) حاكماً على مأرب ، وكان أهل العاصمة يكرهون أهل غيمان، وكانوا قد حاربوهم في عهد الملك (أنمار يهأمن) شقيق (كرب ايل وتر يهنعم) ، فساءهم هذا التعيين ولم يرضوا به . ولما أبى الملك عزله ، ثاروا وهاجوا مدة خمسة أشهر حتى تمكن الجيش من اخماد ثورتهم[3] .

وقد ذكر (كرب ايل وتر) في النص : Jamme 565 بعد اسم (يرم أيمن) ، وفيه نعته ، وهو (يهنعم) ، وعبر عنها بلفظة (ملكي سبأ) ، أي (ملكا سبأ) ، واستعمل لفظة (واخيهو) ، أي (وأخيه) ، وقد ترجمها (جامه) بمعنى (حليفه) ، فالتآخي في نظره بمعنى التحالف والحلف. وإذا أخذنا بهذا المعنى ، فسنستنتج من ذلك أن العلاقات بين الملكين لم تكن سيئة . يوم كتب هذا النص وان ادعى كل منهما أنه ملك سبأ ، وإنما يظهر أنهما كانا يحكمان متعاونين ، بدليل ما ورد في النص من أن (املك سبا) ،

---

١ Jamme 564, MaMb 314, Mahram, P. 44, CIH 326, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 280.

٢ Mahram, P. 282.

٣ Mahram, P. 282.

أي ملوك سبأ كلفوا صاحبي النص أن يخوضا معارك أمروهما بخوضها ، فخاضاها ورجعا منها بحمد الإلـه (المقه) سالمين[1] .

ويرى (جامه) أن حكم الملك (كرب ايل وتر يهنعم) امتد من سنة (١٣٠) حتى السنة (١١٥) قبل الميلاد،أو من سنة (١١٥) حتى السنة (١٠٠) قبل الميلاد. وبذلك يكون حكم (وهب ايل يحز) وحكم ابنيه (أنمار يهأمـن) و (كرب ايل وتر يهنعم) قد امتدا من سنة (١٦٠) حتى السنة (١١٥) أو (١٠٠) قبـل الميلاد[2] .

وليس لنا علم عن ذرية الملك (كرب ايل وتر يهنعم) ، فليس في أيدينـا نص ما يتحدث عن ذلك . وكل ما نعرفه أن الحكم انتقل بعـد أسرة (وهب ايل يحز) الى ملك آخر هو الملك (يرم أيمن) ، وهو من (همـدان) ، وهمدان كما قلت فيما سلف من القبائل التي اكتسبت قوة وسلطاناً في هذا العهد، وقد سبق أن تحدثت عن (ناصر يهأمن) وعن شقيقه (صدق يهب) .وقلت إنهما من همدان ، وقـد حان الوقت للكلام على هذه القبيلة التي ما تزال من قبائل اليمن المعروفة ، ولها شأن خطير في المقدرات السياسية حتى الآن .

الآن وقد انتهيت من الكلام على آخر ملك من ملوك (سبأ) وختمت بـه عهداً من عهود الحكم في سبأ ، أرى لزاماً علي أن أشير الى ملك قرأت اسمه في نص قصير ، نشر في كتاب CIH وكتاب REP. EPIG. يتألف من سطر واحد ، هو : (وهب شمسم بن هللك أمر ملك سبأ) ، ولم أجـد اسمه فيما بين يدي من قوائم علماء العربيات الجنوبية لملوك (سبأ) ، ولم أعثر على نصوص أخرى من عهده ، فتعسّر عليّ تعيين مكانه بين الملوك[3]. وقد يعثر على نصوص جديدة تكشف عن شخصيته وهويته ومحله بين الملوك .

وأود أيضاً ان أشير الى ورود اسم ملك ذكر في النص : Jamme 551 ، واسمه (الشرح بن سمه على ذرح) (الشرح بن سمهعلى ذرح) ، وقد نعت

---

١ Jamme 565, MaMb 266, Mahram, P. 47, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 280, REP. EPIG. 4190.

٢ Mahram, P. 390.

٣ CIH 833, IV, III, I, P. 199, Bardey 9, Luper 4104, REP. EPIG. 459, I, VI, P. 349, Lidzbarski, Ephemeris, 1908, II, S., 387.

فيه بـ (ملك سبأ) وهو صاحب هذا النص والآمر بتدوينه ، ذكر فيه انــه شيّد ما تبقى من جدار المعبد من الحافة السفلى للكتابة المبنية في الجدار حتى أعلى المعبد ، تنفيذاً لارادة المقه التي ألقاها في قلبه ، فحققها عــلى وفق مشيئة ذلك الإلـه وارادته ، ليمنحه (المقه) ما أراد وطلب ، وذلك بحق الآلهة : (عثتر) و (هوبس) و (المقه) وبحق (ذات حميم) و (ذات بعدان) ، وبحق أبيه (سمه على ذرح) (ملك سبأ) ، وبحق شقيقه (كرب ايل)[١] .

وورد اسم الملك (يدع ايل بن كرب ايل بين) (ملك سبأ) في النص: Jamme 558 ، الذي دوّنه قوم من عشيرة (عبلم) (عبل) (عبال) ، عند تقديمهم ثمانية (امثلن) (أمثلن) ، أي تماثيل الى معبد الإلـه (المقه) (بعل) أوّام ليحفظهم ويحفظ أولادهم وأطفالهم ويعطيهم ذرية ، وليبارك في أموالهم ، وليبعد عنهم كل بأس وسوء ونكايـة ، وحسد حاسد وأذى عدوّ . وقد ذكر في النص بعد اسم الملك (كرب ايل بـين) اسم (الشرح بن سمه على ذرح)[٢] .

هذا ولا بد لنا — وقد انتهينا من ذكر اسم آخر ملك من ملوك سبأ — من ابداء بعض الملاحظات على هذا العهد . ففيما كان الناس في عهد المكربين وفي عهــد الملوك الأول الى عهد (كرب ايل وتر بن يثع أمــر بين) المعروف بـ (الثاني) في قائمة (هومل) لملوك سبأ[٣] ، قد صرفوا تمجيدهم الى إلـه سبأ الخاص وهو (المقه) تليه بقية الآلهة ، وجدنا الكتابات التي تلت هذا العهد ، تمجّد معه أرباباً آخرين لم يكن لهــم شأن في العهدين المذكورين ، مثل الإلـه (تألب ريام) ، وهو إلـه (همدان) خاصة ، ومثــل الإلـه (ذ سموى) (ذو سماوي) ، أي الإلـه (رب السماء) (رب السماوات)[٤] . وفي تمجيد بعض الناس لآلهة جديدة ، دلالة صريحة على حدوث تطورات سياسية وفكرية في هذا العهد .

وتفسير ذلك أن بروز اسم إلـه جديد ، معناه وجود عابدين لـه ، متعلقين

---

١ Jamme 551, Mahram, P. 15.

٢ Jamme 558, MaMb 201, Mahram, PP. 24.

٣ Handbuch, I, S. 87.

٤ Handbuch, I, S. 88.

به ، هو عندهم حاميهم والمدافع عنهم ، ففي تدوين اسم (تالب ريام) بعد (المقه) أو قبله في الكتابات ، دلالة على علو شأن عابديه ، وهم (همدان) ، ومنافستهم للسبئيين ، وسنرى فيما بعد أنهم نافسوا السبئيين حقاً على الملك، وانتزعوه حيناً منهم . وطبيعي إذن أن يقدم الهمدانيون الى إلههم (تألب ريام) الحمد والثناء ، لأنه هو إلههم الذي يحميهم ويقيهم من الأعداء ، ويبارك فيهم وفي أموالهم ، وكلما ازداد سلطان همْدان ، ازداد ذكره ، وتعدد تدوين اسمه في الكتابات .

أما الناحية الفكرية ، فإن في ظهور اسم الإلَه (ذ سموى) ، دلالة على حدوث تطور في وجهة نظر بعض الناس بالنسبة الى الألوهية وتقربهم من التوحيد وعلى ابتعاد عن فكرة الألوهيـة القديمة التي كانت عند آبائهم وأجدادهم وعن (المقه) إلَه شعب سبأ الخاص .

ويلاحظ أيضاً ظهور لقب (يهأمن) و (يهنعم) منذ هذا الزمن فما بعده عند ملوك سبأ . وقد رأينا أن ألقاب مكربي سبأ وملوك الصدر الأول من سبأ لم تكن على هذا الوزن : وزن (يهفعل) ، وهو وزن عرفناه في ألقاب مكربي وملوك قتبان فقط ، اذ رأينا الألقاب : (يهنعم) و (يهرجب) و (يهوضع) تقترن بأسماء الحكام . وفي تلقب ملوك سبأ بها دلالة على حدوث تطور في ذوق الملوك بالنسبة الى التحلي بالألقاب .

ويتبين من دراسة الأوضاع في مملكة سبأ أن أسراً او قبائل كانت صاحبة سلطان ، وكانت تتنافس فيما بينها ، وتزاحم بعضها بعضاً . منها الأسرة القديمة الحاكمة في مأرب ، ثم الأسرة الحاكمة في حمير ، ثم (سمعى) ، وهي قبيلة كبيرة صاحبة سلطان وقد كونت مملكة مستقلة ، منها (بنو بتع) وفي أرضهم وهي في الثلث الغربي من (سمعى) تقع أرض (حملان) وعاصمتها (حاز) و (مأذن) . ثم الهمدانيون ، ومركزهم في (ناعط) . ثم (مرثدم) (مرثد) وهم من (بكلم) (بكيل) ، ومواطنهم في (شبام أقيان) . ثم (كرت) (جرت) (جرة) ومنها (ذمر على ذرح) .

مأرب :

وإذا كانت صرواح عاصمة المكربين ومدينة سبأ الأولى، فإن (مرب) (م رب)

(مريب) ، أي مأرب هي عاصمة سبأ الأولى في أيام الملوك ، ورمز الحكم في سبأ في هذا العهد . وهي وان خربت وطمرت في الأتربة إلاّ أن اسمها لا يزال حياً معروفاً، ولا يزال موضعها مذكوراً ، ويسكن الناس في (مأرب) و(مأرب) الحاضرة هي غير مأرب القديمة ، فقد أنشئت الحاضرة حديثاً على أنقاض المدينة الأولى ، على مرتفع تحته جزء من أنقاض المدينة القديمة وتقع في القسم الشرقي من مدينة (مأرب) الأولى .

وقد كانت مأرب كأكثر المدن اليمانية الكبيرة مسورة بسور قوي حصين له أبراج ، يتحصن به المدافعون اذا هاجم المدينة مهاجم . وقد بني السور بحجر (البلق) كما نص عليه في الكتابات[1] ، وهو حجر صلد قُدّ من الصخر ، أقيم على أساس قوي من الحجر ومن مادة جيرية تشد أزره ، وفوقه صخور من الغرانيت[2] . ويحيط السور بالمدينة ، بحيث لا يدخل أحد اليها الا من بابين. فقد كانت مأرب مثل (صرواح) ذات بابين فقط في الأصل[3] .

وأعظم أبنية مأرب وأشهرها ، قصر ملوكها ومعبدها الكبير . أما قصر ملوكها فهو القصر المعروف بقصر (سلحن) (سلحين) (سلحم) . وقد ورد ذكره في الكتابات،وعمر ورمم مراراً . وقد ورد في لقب النجاشي (ايزانا) "Ezana" ملك (أكسوم) ، وذلك في حوالي السنة (٣٥٠م) ليدل بذلك على امتلاكه لأرض سبأ واليمن[4] . وقد عرف في الإسلام ، وذكره (الهَمْداني) في جملة القصور الشهيرة الكبيرة في اليمن[5] .

ويقع مكانه في الخرائب الواسعة الواقعة غرب المدينة ، والى الجنوب من خرائبه خرائبُ أخرى على شكل دائرة ، تحيط بها أعمدة ، يظهر انها لم تكن مبنية في الأصل . وتشاهد أعمدة وأتربة متراكمة هي بقايا معبد (المقه) إلَه سبأ ، المعروف بـ (المقه بعل برآن) (المقه بعل بران) أي معبد (المقه) (رب برأن) . وفي الناحية الشمالية والغربية من المدينة وفي خارج سورها ،

---

١ Glaser 418, 419.

٢ Beiträge, S. 27.

٣ Beiträge, S. 27.

٤ Beiträge, S. 27.

٥ Beiträge, S. 27.

تشاهد بقايا مقبرة جاهلية ، يظهر انها مقبرة مأرب قبل الاسلام . ونشاهد آثار قبورها ، وقد تبين منهـا ان بعض الموتى وضعوا في قبرهم وضعاً ، وبعضهم دفنوا وقوفاً ، وقد حصل (كلاسر) وغيره من السياح والباحثين على أحجار مكتوبة ، هي شواهد قبور[1] .

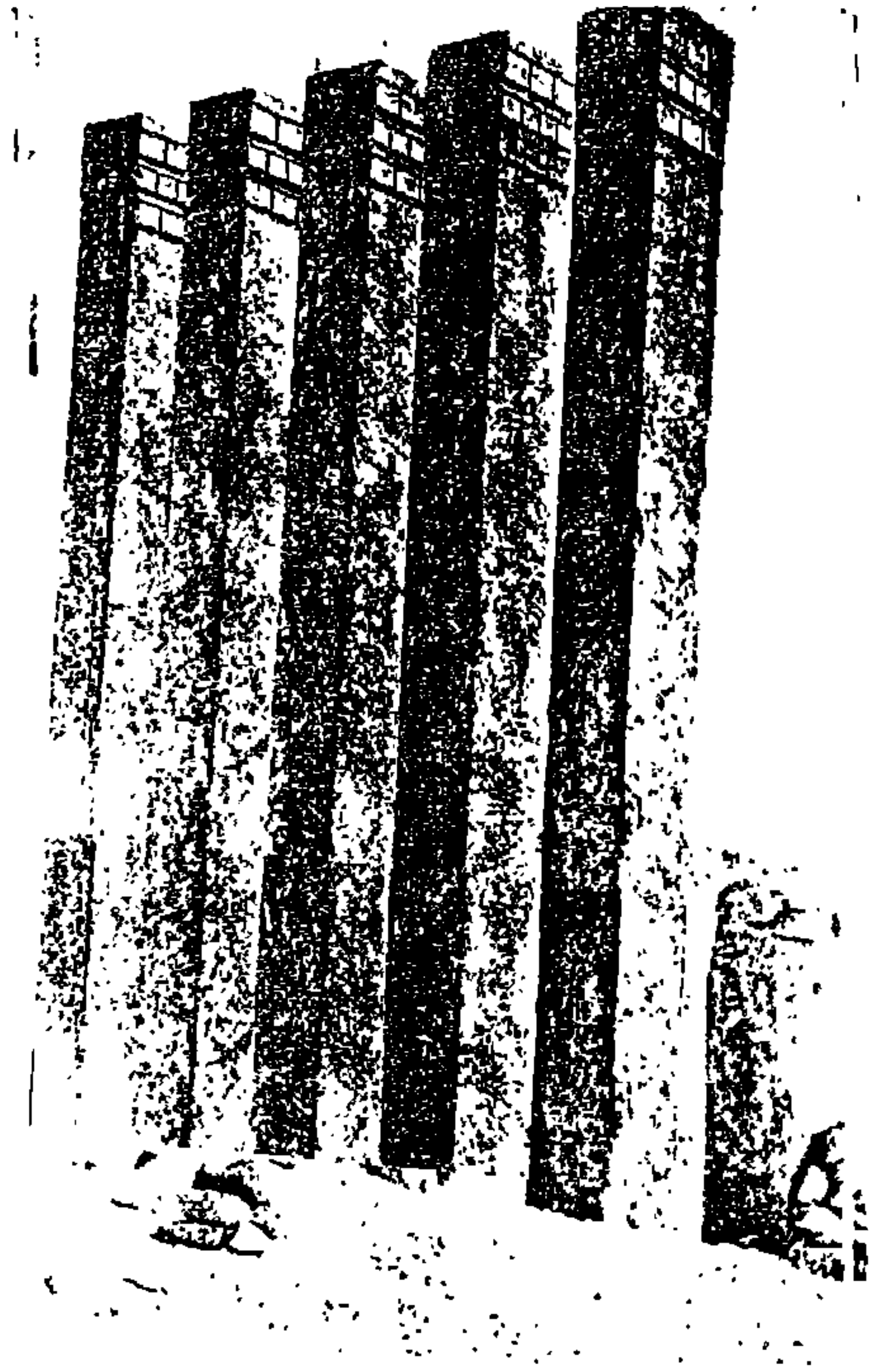

أعمدة من بقايا معبد (المقه) بمدينة مأرب . ويبلغ طول العمود الواحد حوالي ثلاثين قدماً . من كتاب «Qataban and Sheba» (الصفحة ٢٢٥)

---

١ Beiträge, S. 28.

وعلى مسافة خمسة كيلومترات تقريباً من مأرب ، تقع خرائب معبد شهير ، كانت له شهرة كبيرة عند السبئيين،يعرف اليوم بـ (حرم بلقيس) وبـ (محرم بلقيس)،وهو معبد (المقه يعل أوم) ، أي معبد الإله (المقه) رب (أوام). ويرى بعض الباحثين أن هذا المعبد هو مثل معبد (المقه) في (صرواح) والمعبد المسمى اليوم بـ (المساجد) من المعابد التي بنيت في القرن الثامن قبل الميلاد . وقد بناها المكرب (يدع ايل ذرح) . وقد يكون المعبد الخرب في (روديسيا) والمعبد الآخر في (اوكاندا) (أوغاندا) ، من المعابد المتأثرة

تمثال من البرنز عثر عليه في معبد اوام بمأرب
من كتاب : «Qataban and Sheba» (الصفحة ٢٧٦)

بطراز بناء معبد (حرم بلقيس) ، فان بينها وبين هذا المعبد شبهاً كبيراً في طراز البناء وفي المساحة والأبعاد[1] .

وعلى مسافة غير بعيدة من (حرم بلقيس) ، خرائب تسمى (عمائد)

١ Beiträge, S. 28.

(عمايد) في الزمن الحاضر ، منها أعمدة مرتفعة بارزة عن التربة ، ويظهر أنها بقايا معبد (برأن) (برن) (بران) خصص بعبادة الإلـه (المقه) الذي ذكر في الكتابة الموسومة بـ Glaser 479 وفي الجهة الغربية من هـذا المعبد ، تشاهد أربعة أعمدة أخرى هي من بقايا معبد آخر[١].

قوائم بأسماء ملوك سبأ

قائمة (هومل) :

أول ملك وآخر مكرب هو (كرب آل وتر) (كرب ايل وتر) الذي جمع بين اللقبين : لقب (مكرب) المقدس ولقب (ملك) الدنيوي . وقد تلاه عدد من الملوك وأبناء الملوك هم :

سمه على ذرح .

الشرح بن سمه على ذرح .

كرب آل وتر بن سمه على ذرح .

يدع آل بين بن كرب آل وتر .

يكرب ملك وتر .

يثع امر بين .

كرب آل وتر .

ويرى هومل ان أسرة جديدة تربعت عرش (سبأ) بعد هذه الأسرة المتقدمة، خلفتها إما رأساً وإما بعد فترة لا نعرف مقدارها بالضبط ، قدّرها بنحو خمسين سنة امتدت من سنـة (٤٥٠) حتى سنة (٤٠٠) قبل الميلاد . وتتألف هذه الأسرة من :

سمه على ينف .

---

١ Beiträge, S. 28.

الشرح .
ذمر على بين .

وهناك أسرة أخرى حكمت (سبأ) تنتمي الى عشيرة (مرثد) من (بكيل) تتألف من :

وهبآل (وهب ايل)راجع النصين : (Glaser 223) (Glaser 179) وهمامن (حاز).
انمرم يهنعم (أنمار يهنعم) ، وهو ابن (وهب آل) .
ذمر على ذرح .
نشاكرب يهنعم (نشأكرب يهنعم) .
نصرم يهنعم ؟ (ناصر يهنعم) .
وهب آل يحز (وهب ايل يحز) .
كرب آل وتر يهنعم .
فرعم ينهب (فارع ينهب) .

ويرى (هومل) ان الملك ، (الكرب يهنعم بن حم عثت) (الكرب يهنعم بن حمعثت) و (كرب آل وتر) هما من جمهرة جديدة من جمهرات ملوك سبأ[1] .

قائمة (كليمان هوار) :

وتتألف هذه القائمة ، وهي قديمة ، من الجمهرات الآتية :

الجمهرة الأولى وقوامها :

سمه على ذرح .
الشرح .
كرب آل .

الجمهرة الثانية ورجالها :

يثع امر .

---

١ Handbuch, I, S. 88, 89, 90.

كرب آل وتر .
يدع آل بين .

الجمهرة الثالثة وتتكون من :
وهب آل يحز .
كرب آل وتر يهنعم .

الجمهرة الرابعة ورجالها :
وهب آل .
أنمار يهنعم .

الجمهرة الخامسة وأصحابها :
ذمر على ذرح .
نشاكرب يهنعم .

ولم يشر الى مكان الملكين : (يكرب ملك وتر) و (يرم ايمن) بين هذه الجمهرات ، وان كان أشار الى (يرم ايمن) في قائمة الملوك الهمدانيين[1] .

قائمة (فلبي) :

١ – كرب آل وتر . حكم على تقديره حوالي سنة (٦٢٠) قبل الميلاد .
٢ – سمه على ذرح لم يتأكد من اسم والده ، ويرى أن من المحتمل أن يكون كرب آل وتر . حكم حوالي سنة (٦٠٠) قبل الميلاد .
٣ – كرب آل وتر بن سمه على ذرح . حكم حوالي سنة (٥٨٠) قبل الميلاد .
٤ – الشرح بن سمه على ذرح . تولى الحكم حوالي سنة (٥٧٠) قبل الميلاد .
٥ – يدع آل بين بن كرب آل وتر . صار ملكاً حوالي سنة (٥٦٠) قبل الميلاد .
٦ – يكرب ملك وتر بن يدع آل بين . تولى الحكم سنة (٥٤٠) قبل الميلاد.
٧ – يثع أمر بين بن يكرب ملك وتر . حكم حوالي سنة (٥٢٠) قبل الميلاد.
٨ – كرب آل وتر بن يثع أمر بين . تولى الحكم في حدود سنة (٥٠٠) قبل الميلاد .

١ Cl. Huart, Ceschichte der Araber, BD., I, S., 56.

٩ – سمه على ينف . لم يتأكد (فلبي) من اسم أبيه ، وحكم عـلى رأيه حوالي سنة (٤٨٠) قبل الميلاد .

١٠ – الشرح بن سمه على ينف . حكم حوالي سنة (٤٦٠) قبل الميلاد .

١١ – ذمر على بين بن سمه على ينف . تولى الحكم في حدود سنة (٤٤٥) قبل الميلاد .

١٢ – يدع آل وتر بن على بين . تولى حوالي سنة (٤٣٠) قبـل الميلاد .

١٣ – ذمر على بين بن يدع آل وتر . تولى الحكم في حدود سنة (٤١٠) قبل الميلاد .

١٤ – كرب آل وتر بن ذمر على بين . حكم حوالي سنة (٣٩٠) قبل الميلاد .

١٥ – وترك (فلبي) فجوة بعد اسم هذا الملك قدرها بنحو عشرين عاماً، ثم ذكر اسم الكرب يهنعم . وهو على رأي (فلبي) من الأسرة الملكية الثالثة التي حكمت مملكة سبأ،وقد حكم في حوالي سنة .(٣٥٠ ق. م.).

١٦ – كرب آل وتر . حكم في حدود سنة (٣٣٠ ق. م.) .

١٧ – وهب آل ولم يتأكد من اسم أبيه ، ويرى ان من المحتمل أن يكون اسمه (سرو) . حكم في حدود سنة (٣١٠ ق. م.) .

١٨ – انمار يهنعم بن وهب آل يحز . حكم في حدود سنة (٢٩٠ ق. م.) .

١٩ – ذمر على ذرح بن انمار يهنعم . حكم في حدود سنة (٢٧٠ ق. م.) .

٢٠ – نشاكرب يهنعم بن ذمر على ذرح . حكم حوالي سنة (٢٥٠ ق. م.) .

وترك (فلبي) فجوة أخرى بعد اسم هذا الملك قدرها بنحو ثلاثين عاماً ، أي من حوالي سنة (٢٣٠) الى سنة (٢٠٠) قبل الميلاد ، ذكر بعدها اسم :

٢١ – نصرم يهنعم (ناصر يهنعم) ، وهو من أسرة ملكية رابعة ، وكان له شقيق اسمه (صدق يهب) . حكم في حدود سنة (٢٠٠) قبل الميلاد .

٢٢ – وهب آل يحز . حكم في حوالي سنة (١٨٠) قبل الميلاد .

٢٣ – كرب آل وتر يهنعم بن وهب آل يحز . حكم في حوالي سنة (١٦٠) قبل الميلاد .

وقد اغتصب العرش (برم ايمن) وابنه (علهن نهفن) (علهان نهفان) في حدود سنة (١٤٥) الى سنة (١١٥) قبل الميلاد ، وهما مكونا الأسرة الهمدانية المالكة ، وقد استعاد العرش الملك :

٢٤– فرعم ينهب في حدود سنة (١٣٠) قبل الميلاد .

٢٥– الشرح يحضب بن فرعم ينهب . حكم حوالي سنة (١٢٥) قبل الميلاد ، وهو من ملوك (سبأ وذو ريدان) .

قائمة (ريكمنس) :

وقد رتب (ريكمنس) أسماء ملوك سبأ على النحو الآتي :

١ – كرب وتر (كرب ايل وتر) .

٢ – يدع آل بين (يدع ايل بين) .

٣ – يكرب ملك وتر .

٤ – يثع أمربين .

٥ و ٦ – سمه على ذرح وكرب ايل وتر (الشرح) .

. . . .

٧ – سمه على ينوف (سمه على ينف) .

٨ – يدع آل وتر (يدع ايل وتر) .

٩ – ذمر على بين .

. . . .

١٠– يدع آل ذرح (يدع ايل ذرح) .

١١– يثع أمر وتر .

١٢– سمه على ينف (سمه على ينوف) .

١٣– ذمر على بين (الشرح) .

. . . .

١٤– يدع آل (يدع ايل) .

١٥– ذمر على ذرح .

١٦– نشأكرب يهأمن ، وهو على رأيه آخر الملوك من الأسرة الشرعية الحاكمة . وقد انتقلت سبأ بعده من حكم الملوك السبئيين الى حكم أسرة جديدة يرجع نسبها الى قبيلة (همدان) وذلك سنة (١١٥) قبل الميلاد[1] وكان أول من تولى الحكم منها الملك (نصرم يهأمن) (ناصر يهأمن).

١ J. Ryckmans, L'institution, P. 336.

وترك (ربكمنس) فراغاً بعد (نصرم يهأمن) ، ذكر بعده اسم (وهب آل يحز) (وهب ايل يحز) ، وكان منافسه (أوسلت رفشان) ، ثم ذكر بعد (وهب آل يحز) اسم أنمار يهنعم ، وكرب ايل وتر يهنعم ، نمم يرم أيمن . ثم اسم (فرعم ينهب) ، وهو من (بكيل) ، وكان معاصراً لـ (علهان نهفان) وابنه (شعرم أوتر) ، وهما من (حاشد) .

الفصل الخامس والعشرون

همدان

ومن القبائل الكبيرة التي كان لها شأن يذكر في عهد (ملوك سبأ) ، قبيلة (همدان) والنسّابون بعضهم يرجع نسبها الى : (أوسلة بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة الخيار بن زيد بن كهلان) ، وبعض آخر يرجعونه الى (همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان) ، الى غير ذلك من ترتيب أسماء تجدها مسطورة في كتب الأنساب والأخبار[1] .

ويرجع أهل الأنساب بطون همدان ، وهي كثيرة ، الى (حاشد) و (بكيل). أما (حاشد) ، فتقع مواطنها في الأرضين الغربية من (بلد همدان) ، وأما (بكيل) ، فقد سكنت الأرضين الشرقية منه[2] . وهما في عرفهم شقيقان من نسل (جشم بن خيران بن نوف بن همدان)[3] . وقد تفرع من الأصل بطون

١ منتخبات (ص ١١٠) ، الاشتقاق (٢/٢٥٠) ، ابن خلدون (٢/٢٥٢) ، ابن حزم ، جمهرة انساب العرب (٣٦٩) ، المبرد ، نسب عدنان وقحطان ، (ص ٢١)، تاج العروس (٢/٥٤٧) ، Ency., II, P. 246.

٢ Handbuch, I, S., 113, ENCY., II, P. 246.

٣ تاج العروس (٢/٣٣٦،٢٣٢) ، (حاشد بن جشم بن حبران بن نوف بن همدان) ، منتخبات (ص ٥٣،٢٧) ، (ولد همدان نوفا وخيران ، فمنهم بنو حاشد وبنو بكيل ، منهم تفرقت همدان) ، الاشتقاق (٢/٢٥٠) (طبعة وستنفلد) (حاشد بن جشم بن خيوان بن نوفل بن همدان) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٣٧٢) (تحقيق ليفي بروفنسال) ، (وأولد نوف بن همدان حبران ، فأولد حبران جشم ، فأولد جشم حاشدا الكبرى وبكيلا) ، الاكليل (١٠/٢٨) .

عديدة ، ذكر أسماءها وأنسابها (الهمداني) في الجزء العاشر من (الإكليل) ، وهو الجزء الذي خصصه بحاشد وبكيل[1] .

وقد ورد في الكتابات العربية الجنوبية أسماء عدد من المدن والمواضع الهمدانية ورد عدد منها في (صفة جزيرة العرب) و (الإكليل) وفي كتب أخرى ، ولا يزال عدد غير قليل من أسماء تلك المواضع أو القبائل والبطون التي ورد ذكرها في الكتابات باقياً حتى الآن . وتقع هذه المواضع في المناطق التي ذكرت في تلك الكتابات،وهي تفيدنا من هذه الناحية في تعيين مواقع الأمكنة التي وردت أسماؤها في النصوص ، ولكننا لا نعرف الآن من أمرها شيئاً .

وكان للهمدانيين مثل القبائل الأخرى إلـه خاص بهم ، اسمه (تالب) (تألب) اتخذوا لعبادته بيوتاً في أماكن عدة من (بلد همدان) . وقد عرف أيضاً في المسند بـ (تالب ريمم) (تألب ريمم) ، أي (تألب ريام)[2] . وقد انتشرت عبادته بين همدان،وخاصة بعد ارتفاع نجمهم واغتصابهم عرش سبأ من السبئيين، فصار إلـه همدان ، يتعبد له الناس تعبدهم لإلـه سبأ الخاص (المقه) ، فتقربت اليه القبائل الأخرى ، ونذرت له النذور . ونجد في الكتابات أسماء معابد عديدة شيدت في مواضع متعددة لعبادة هذا الإلـه ، وسميت باسمه .

وقد تنكر الهمدانيون فيما بعد لإلـههم هذا ، حتى هجروه . ولما جاء الإسلام كانوا يتعبدون – كما يقول ابن الكلبي – لصنم هو (يعوق) ، وكان له بيت بـ (خيوان)[3] . وقد نسوا كل شيء عن الإلـه (تألب ريام) ، نسوا انه كان إلـهاً لهم ، وانه كان معبودهم الخاص ، الا انهم لم ينسوا اسمه،اذ حولوه الى انسان ، زعموا انه جد (همدان) وانه هو الذي نسل الهمدانيين ، فهم كلهم من نسل (تألب ريام) .

ولم يكتف الهمدانيون بتحويل إلههم الى إنسان ، حتى جعلوا له أباً سموه (شهران الملك) ، ثم زوجوه من (ترعة بنت يازل بن شرحبيل بن سار

---

١ نشر بتحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ، المطبعة السلفية (١٣٦٨ هـ) .
٢ CIH, IV, I, IV, P. 529.
٣ الأصنام (ص ٥٧) ، (ومن بطون همدان أيضا : بطن يقال لهم بنو قابض بن يزيد بن مالك بن جشم بن حاشد بن جشم . وكان عمرو بن لحي دفع الى قابض المذكور صنما اسمه يعوق ، فجعله في قرية باليمن يقال لها خيوان ، فكان يعبد من دون الله ...) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٣٧١) .

بن أبي شرح يحضب بن الصوار)[1]،وجعلوا له ولداً منهم (يطاع)،و (يارم) .
وأما أبوه (شهران) – على حد قول أهل الأخبار – فهو ابن (ريام بن نهفان) ، صاحب محفد (ريام) . وأما (نهفان) ، والد (ريام) ، فهو ابن (بتع) الملك ، وشقيق (علهان بن بتع) ، وكان ملكاً كذلك . وأمها (جميلة بنت الصوّار بن عبد شمس)[2] . وأما (بتع) ، فهو ابن (زيد بن عمرو بن همدان)[3] ، وكان قريباً لـ (شرح يحضب بن الصوّار بن عبد شمس) ، واليه ينسب سد (بتع) .

وإذا دققنا النظر في هذه الأسماء ، أسماء الآباء والأجداد والأبناء والبنات والحفدة والأمهات ، نجد فيها أسماء وردت حقاً في الكتابات ، إلا أن ورودها فيها ليس على الصورة التي رسمها لها أهل الأخبار . فـ (ترعة) مثلاً ، وهو اسم زوجة (تألب ريام) المزعومة ، لم يكن امرأة في الكتابات ، وإنما كان اسم موضع شهير ورد اسمه في الكتابات الهمدانية ، عرف واشتهر بمعبده الشهير المخصص بعبادة الإلـه (تألب ريام) معبد (تألب ريام بعل ترعت)[4].
والظاهر أن الأخباريين – وقد ذكرت أن منهم من كان يستطيع قراءة المساند لكن لم يكونوا يفهمون معاني هذه المساند كل الفهم – لما قرأوا الجملة المذكورة ظنوا أن كلمة (بعل) تعني الزواج كما في لغتنا ، فصار النص بحسب تفسيرهم (تألب زوج ترعت) . وهكذا صيّروا (ترعت) (ترعة) زوجة لـ (تألب ريام) ، وصيّروا (تألب ريام) رجلاً زوجاً ، لأنهم لم يعرفوا من أمره شيئاً .

و (أوسلة) الذي جعلوه اسماً لـ (همدان) والد القبيلة ، هو في الواقع (أوسلت رفش) في كتابات المسند[5].وهو والد (يرم ايمن) (يريم أيمن) (ملك سبأ).
وقد عرف (الهمداني) اسم (اوسلت رفشن) (أوسلة رفشان) ، فذكر في كتابه (الإكليل) ان اسمه كان مكتوباً بالمسند على حجر بمدينة (ناعط) ،

---

١ الاكليل (١٠/١٧ وما بعدها)
٢ الاكليل (١٠/١٣ وما بعدها) .
٣ الاكليل (١٠/١١ وما بعدها) .
٤ CIH 337, 338, IV, I, IV, P. 388, 390, 391.
٥ Glaser, Abessi, S. 63, Glaser 1320, 1359, 1360.

ودوّن صورة النص كما ذكر معناه[1] . ويظهر من عبارة النص ومن تفسيره ان (الهمداني) لم يكن يحسن قراءة النصوص ولا فهمها ، وان كان يحسن قراءة الحروف وكتابتها . ولم يتحدث (الهمداني) بشيء مهم عن (أوسلة رفشان) في الجزءين المطبوعين من (الإكليل) ، وقد ذكره في الجزء الثامن في معرض كلامه على حروف المسند ، فأورده مثلاً على كيفية كتابة الأسطر والكلمات[2] . وذكره في الجزء العاشر في (نسب همدان) ، في حديثه عن (يطاع) و (بارم) ابني (تألب ريام بن شهران) على حد قول الرواة ، ولم يذكر شيئاً يفيد انه كان على علم به[3] .

وأرى ان أهل الأنساب أخذوا نسبهم الذي وضعوه لـ (أوسلة) ولغيره من أنساب قبائل اليمن القديمة من قراءتهم للمساند . وقد كان بعضهم — كما قلت — يحسن قراءة الحروف ، الا انه لم يفهم المعنى كل الفهم، فلما قرأوا في النصوص (اوسلت رفشن بن همدان)[4] ، أي (أوسلة رفشان من قبيلة همدان) ، أو (أوسلة رفشان الهمداني) بتعبير أصح ، ظنوا ان لفظة (بن) تعني (ابن) ، فسروا الجملة على هذا النحو : (أوسلة رفشان بن همدان) وصيّروا (أوسلة) ابناً لهمدان ، مع ان (بن) في النص هي حرف جر بمعنى (من) ، وليست لها صلة بـ (ابن) .

و (أوسلت) (أوسلة) مركبة من كلمتين في الأصل ، هما : (أوس) : بمعنى (عطية) أو (هبة)،و (لت) (لات) ، وهو اسم الصنم (اللات)، فيكون المعنى (عطية اللات)،أو (هبة اللات) . ومن هذا القبيل (أوس آل)،

---

١ الاكليل (١٠/١٨) ، كتب انستاس ماري الكرملي الاسم على هذا الشكل : (اوسلة رلشان) ، (٨/١٤٢) ، اما (نبيه امين فارس) فقد كتبه (اوسلة رلشن) ، واعتقد ان هذا الخطأ في النقل انما احدثه النساخ ، وان (الهمداني) ، كان يعرف الاسم معرفة صحيحة ، بدلالة كتابته كتابة صحيحة في الجزءالعاشر الذي نشر بتحقيق محب الدين الخطيب • وقد نقضت الكلمة الاولى من الاسم المدون نقشا قريبا جدا من الصحة في طبعتي الكرملي ونبيه • اما الكلمة الثانية من الاسم وباقي النص ، فقد حرفها النساخ على ما يظهر تحريفا قبيحا ابعدها عن الصواب •

٢ الاكليل (٨/١٢٣) •

٣ الاكليل (١٠/١٨) •

٤ Glaserabessl., S. 63, Glaser 1320, 1359, 1360.

أي (أوس ايل) ، ومعناها (وهب ايل) و (عطية ايل) ، و (سعدلت) أي (سعد لات) و (عبد لات) و (زيد لات) ، وما شاكل ذلك من أسماء [1] .

وقد أغفلت النصوص التي ذكرت اسم (أوسلت رفشان) اسم أبيه . غير أن هناك كتابات أخرى ذكرت من سمته (أوسلت بن أعين) ، (أوسلة بن أعين) ، فذهب علماء العربيات الجنوبية الى أن هذا الرجل الثاني هو (أوسلة رفشان) نفسه ، وعلى ذلك يكون اسم أبيه (أعين) ، وهو من همدان [2] . وقد عاش في حوالي السنة (١٢٥ ق. م.) على تقدير (البرايت) [3] .

وقد جعل (فون وزمن) (أعين) من معاصري (ياسر يهصدق) الحميري و (ذمر على ذرح) ملك السبئيين ، و (نشأكرب يهأمن) من أسرة (جرت) (كرت) (كرأت) (جرأت) . وجعل زمانهم في حوالي السنة (٨٠) بعد الميلاد [4] . وهو تقدير يخالف رأي (فلبي) و (البرايت) وغيرهما ممن وضعوا أزمنة لحكم الملوك .

وقد ذكر اسم (أوسلت رفشان) في نص وسمه العلماء بـ CIH 647 ، وهو نص قصير مثلوم في مواضع منه ، يفهم منه أنه بنى بيتاً ، ولم يرد في النص أين بني ذلك البيت ، ولا نوع ذلك البيت : أكان بيت سُكنى أم بيت عبادة [5] .

وقد عاش (أوسلت رفشن) (أوسلة رفشان) في حوالي السنة (١١٠ م) على رأي (فون وزمن) [6] . وكان من المعاصرين للملك (رب شمس) (ربشمس) من ملوك حضرموت ، وللملك (وهب آل يحز) (وهب ايل يحز) ، وهو من ملوك (بني بتع) من (سمعي) [7] . أما (فلبي) ،فيرفع أيام هؤلاء المذكورين الى ما قبل الميلاد،أي الى العهود التي سبقت تأليف حكومة (سبأ وذي ريدان) [8] .

---

١ Glaser, Abessl., S. 63.

٢ Glaser 1228, 1320, Abessl., S. 63, Handbuch, I, S. 90, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498, P. Mahram, P. 284, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 281.

٣ BOASOOR, NUM. 119, 1950, P. 9.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٥ CIH 647, Langer 17, Brit. Mus. 67.

٦ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٧ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٨ Background, P. 88, 91.

وأما (البرايت) ، فجعل أيامه في حوالي السنة (١٠٠ ق. م.)[١] .

وجعل (فون وزمن) (سعد شمس اسرع) ، الذي هو من (مرثد) من فرع (بكيل) من المعاصرين لـ (اوسلت رفشن) (أوسلت رفشان) . وتقع أرض (مرثد) في (شبام أقيان)[٢] .

ويظهر من النص الموسوم بـ CIH 287 ان (أوسلت) كان (مقتوى) ، أي قائداً كبيراً من قواد الجيش عند (ناصر يهأمن) ، ثم صار قيلاً (قول) على عشيرة (سمعى) ، في ايام (وهب ايل يحز)[٣] . فبرز اسمه واسم أولاده وصار لهم سلطان في عهد هذا الملك[٤] . والظاهر انه كان كبير السن في هذا العهد ، وان وفاته كانت في ايام (وهب ايل) .

وقد عرفنا من الكتابات اسم ولدين من ولد (أوسلت رفشان) أحدهما (يرم أيمن) ، والآخر (برج يهرجب) ، (برج يهرحب)[٥] . وقد ورد اسماهما في عدد من الكتابات ، منها الكتابة الموسومة بـ Jamme 561 Bis التي تحدثت عنها في أثناء كلامي على (وهب ايل يحز) . وقد وجدنا فيها ان الشقيقين وكذلك (علهان نهفان) وهو ابن (برم أيمن) ، كانوا أقيالاً اذ ذاك على عشيرة (سمعى) ، التي تكوّن ثلث عشائر قبيلة (حاشد) ، وانهم كانوا قد أسهموا في الغارة التي شنها الملك (وهب ايل يحز) على الأعراب .

وقد ورد اسماهما في الكتابة الموسومة بـ Glaser 1359, 1360 [٦] ، وقد تبين منها انهما كانا قيلين (قول) على قبيلة (سمعى) ثلث (حاشد) ، وانهما قدما الى حاميهما الإله (تالب ريمم) (تألب ريام) ، بعل (ترعت) ، أي رب معبده المقام في (ترعت) (ترعة) ، ستة تماثيل (ستتن أصلمن) ، لأنه منّ على (يرم أيمن) بالتوفيق والسداد في مهمته ، فعقد الصلح بين ملوك

---

١ BOASOOR, NUM. 119, 1950, P. 9.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٣ Abessl., S. 63.

٤ Mahram, P. 285.

٥ في بعض الكتابات (يهرجب) ، وفي بعض اخر (يهرحب) ومرد هذا التباين الى قراءة تلك الكتابات ، واختلافهم في نسخ الحروف .

٦ CIH 315, IV, I, IV, P. 346, Halevy Revue Semitique, IV, 1897, P. 76, Winckler, Die Sab. Inschr. der Zeit Alhan Nahfan's, S. 9.

سبأ وذي ريدان وحضرموت وقتبان، وذلك بعد الحرب التي وقعت بينهم فانتشرت في كل البلاد والأرضين ، بين هؤلاء الملوك المذكورين وشعوبهم وأتباعهم . وقد كان من منن الإلـه (تألب ريام) على (برم أيمن) ان رفع مكانته في عين ملك سبأ ، فاتخذه وسيطاً في عقد صلح بينه وبين سائر الملوك ، فنجح في مهمته هذه ، وعقد الصلح وذلك في سنة (ثوبن بن سعدم بن يهسم)[1] .

وقد اختتم النص بدعاء الإلـه (تألب ريام) أن يوفق (برم أيمن) ويديم له سعادته ، وبرفع منزلته ومكانته دائماً في عين سيده (امراهمو ملك سبا) ملك سبأ ، ويبارك له ، ويزيد في تقدمه ، وينزل غضبه وثبوره (ثبر) وضرره وتشتيته على أعداء (برم أيمن) وحساده وكل من يتربص الدوائر بـ (تألب ريام)[2] .

ويتبين من هذا النص الموجز – الذي كتب لإظهار شكر (يرم أيمن) لإلهه (تألب ريام) على توفيقه له ، وعلى ما منّ عليه به من الإيحاء الى ملك سبأ بأن يختاره وسيطاً – أن حرباً كاسحة شاملة كانت قد نشبت في العربية الجنوبية في أيام الملك (كرب ايل وتر يهنعم) ، وأن الملك كلفه أن يتوسط بين المتنازعين ، وهم حكومات سبأ وذي ريدان وحضرموت وقتبان ، ويعقد صلحاً بينهم ، وأنه قد أفلح في وساطته ، وسر كثيراً بنجاحه هذا وباختياره لهذا المركز الخطير ، الذي اكسبه منزلة كبيرة ، وهيبة عند الحكومات ، فشكر إلهه الذي وفقه لذلك ، وقد كان يومئذ قيلاً من الأقيال . وقد ساعدته هذه الوساطة كثيراً ، ولا شك ، فمهدت له السبيل لأن ينازع (ملك سبأ) التاج .

وقد اتخذ (كلاسر) من سكوت النص عن ذكر اسم (معين) دليلاً على انقراض (مملكة معين) ، وفقدان شعب معين استقلاله ، وهو رأي عارضه بعض الباحثين[3] .

وقد وصل الينا نص قصير لقب فيه (يرم أيمن) بلقب (ملك سبأ) ، وقد سجله ابناه ، ولقب ابناه بهذا اللقب كذلك . وهو نص ناقص أعرب فيه

---

١ الفقرة الخامسة عشرة من النص ، غويدي : المختصر (ص ٢١ وما بعدها) .

٢ بتألب (يمم) ، الفقرتان (٢٢) و (٢٣) من النص .

٣ Abessl., S. 72, KTB., II, S. 68, Hartmann, Arab. Frage., S. 142, 144.

ابنا (يرم أيمن) عن شكرهما للإله (تألب ريام) لأنه منّ وبارك عليهما[1] . فهذا النص إذن من النصوص المتأخرة بالنسبة الى أيام (يرم أيمن) .

وانتهى الينا نص مهم ، هو النص المعروف بـ Wien 669 ، وقد دوّنه أحد أقيال (أقول) قبيلة (سمعي) ، وقد سقط اسمه من الكتابات ، وبقي اسم ابنه ، وهو (رفش) (رفشان) من آل (سخيم) .

أما قبيلة (سمعى) المذكورة في هذا النص ، فهي (سمعي) ثلث (ذ حجرم) (ذو حجر) . وقد قدم هذا القيل مع ابنه (رفشان) الى الإله (تألب ريام) (بعل رحبان) (بعل رحبن) نذراً ، وذلك لعافيتهما ولسلامة حصنهما ، حصن (ريمن) (ريمان) ، ولخير وعافية قيلهما وقبيلته (يرسم) التي تكوّن ثلث (ذي حجر) ، وليبارك في مزروعاتهما وفي غلات أرضهما ، ولينزل بركته ورحمته على (يرم أيمن) و (كرب ايل وتر) ملكي سبأ . وقد ختم النص بتضرع (تالب ريام) أن يهلك أعداءهما وحسادهما وجميع الشانئين لهما ومن يريد بهما سوءاً[2] .

وقد جعل (فون وزمن) ، (يرم أيمن) معاصراً لـ (أنمار يهأمن) الذي ذكره بعد (وهب ايل يحز) ، ثم لـ (كرب ايل يهنعم) ، وهما في رأيه من المعاصرين لـ (شمر يهرعش الأول) من ملوك (حمير) أصحاب (ظفار) . وجعل (كرب ايل وتر يهنعم) معاصراً للملك (كرب ايل بين) ملك سبأ الشرعي من الأسرة الحاكمة في (مأرب) . وجعل (يرم أيمن) من المعاصرين لـ (مرثد يهقبض) ، وهو من (جرت) (كرت) (كرأت) ولـ (مرثدم) (مرثد) الذي ذكر بعد (نبط يهنعم) آخر ملوك قتبان ، كما جعله من المعاصرين للملك (يدع ايل بين) من ملوك حضرموت . وجعل حكم (يرم أيمن) فيما بين السنة (١٣٠) والسنة (١٤٠) بعد الميلاد[3] .

وقد نشر (جامه) نصاً وسمه بـ Jamme 565 جاء فيه : ان جماعة من (بني جدنم) (جدن) قدموا الى الإله (المقه بعل أوّام) نذراً تمثالاً (صلمن)

---

١ Abessl., S. 70, ZDMG., XXXIII, 485.

٢ Wien 669, REP. EPIG., 4190, VII, I, P. 131, SE 6, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 282.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

لأنه منّ عليهم بالعافية ووفقهم في الغارة التي أسهموا فيها بأمر سيديهما ملكي سبأ : يرم أيمن وأخيه كرب ايل وتر ، ولأنه بارك لهما ومنحهما السعادة بإرضاء مليكهما [١] . وقصد بلفظة (واخيهو) حليفه ، لأنهما متآخيان بتحالفهما . ويلاحظ أن هذا النص قد قدّم اسم (يرم أيمن) على اسم الملك (كرب ايل وتر) مع أن هذا هو ملك سبأ الأصيل ، ولقب (يرم أيمن) بلقب ملك ، أي أنه أشركه مع الملك (كرب ايل) في الحكم،وفي هذا دلالة على ان (يرم ايمن) كان قد اعلن نفسه ملكاً على سبأ ، ولقب نفسه بألقاب الملوك وان الملك الأصلي اعترف به،طوعاً واختياراً أو كرهاً واضطراراً ، فصرنا نجد اسمي ملكين يحملان هذا اللقب : لقب (ملك سبأ) في وقت واحد .

وقد ورد اسم (يرم أيمن) في النص الموسوم به CIH 328 وقد لقب فيه بلقب (ملك سبأ) ، الا ان النص لم يذكر اسم ملك سبأ الأصيل الذي كان يحكم اذ ذاك [٢] . وقد ذكر في هذا النص اسم الإلـه (تألب ريام) ، وهو إلـه همدان ، ولم يذكر معه اسم أي إلـه آخر . ولما كان صاحب النص همدانياً ، وقد كان (يرم أيمن) ملك همدان وسيدها ، لم يذكر اسم ملك سبأ ولم يشر اليه ، واكتفى بذكر ملكه فقط .

هذا وليس في استطاعتنا تثبيت الزمن الذي لقب فيه (يرم أيمن) نفسه بلقب (ملك سبأ) . فقد رأيناه قيلاً في ايام الملك (وهب ايل يحز) ورأينا صلاته به لم تكن على ما يرام في بادىء الأمر ، وانه كان يتمنى لو ان الإلـه (المقه) أسعده بالتوفيق بين ملكه وبينه . ثم لا ندري ما الذي حدث بينهما بعد ذلك . ولكن الظاهر ان طموح (يرم أيمن) دفعه الى العمل في توسيع رقعة سلطانه وفي تقوية مركزه ، حتى نجح في مسعاه ، ولا سيما في عهد (كرب ايل وتر يهنعم) ، فلقب نفسه بلقب (ملك) ، وأخذ ينقش لقبه هذا في الكتابات ، وصار يحمل اللقب الرسمي الذي يحمله ملوك سبأ الشرعيون حتى وفاته .

وقد عرفنا من الكتابات اسمي ابنين من أبناء الملك (يرم أيمن) ، هما :

---

١ Jamme 565, MaMb 266, Mahram P. 47.

٢ Mahram, P. 288.

(علهان نهفان) ، و (برج يهرجب) (برج يهرحب) (بارج يهرحب)[1] . (برج يهأمن)[2] . أما (علهان نهفان) ، فهو الـذي تولى الملك بعد أبيه . وقد لقب بـ (ملك سبأ) ، وعاصر (كرب ايل وتر يهنعم) وابنه (فرعم ينهب) .

وقد ذكر (نشوان بن سعيد الحميري) ان (علهـان اسم ملك من ملوك حمير ، وهو علهان بن ذي بتع بن يحضب بن الصوّار ، وهو الكاتب هو وأخوه نهفان لأهل اليمن الى يوسف بن يعقوب ، عليهما السلام ، بمصر في الميرة لمـا انقطع الطعام عن أهل اليمن)[3] . ففرق (نشوان) بين (علهان) و (نهفان) ، وظن انهما اسمان لشقيقين . وقد دوّن (الهمداني) صور نصوص ذكر انه نقلها من المسند ، وفرّق فيها أيضاً بين (علهان) و (نهفان) ، فذكر مثلاً انه وجد (في مسند بصنعـاء على حجارة نقلت من قصور حمير وهمدان : علهان ونهفان ، ابنا بتع بن همدان)[4] ، و (علهن ونهفن ابنا بتع بن همدان صحح حصن وقصر حدقان ..)[5] . فعدّ (علهان) اسماً ، و (نهفان) اسم شقيقه . وقد ذكر الاسم صحيحاً في موضع ، ولكنه عاد فعلق عليـه بقوله : « وانما قالوا علهان نهفان ، فجعلوه اسماً واحداً لما سمعوه فيها من قول تبع بن أسعد :

وشمر يرعش خير الملوك وعلهان نهفان قد أذكر

وانما أراد أن يعرف واحداً بالثاني ، فلما لم يمكنه أن يقول العلهانان .. قال علهان نهفان »[6] .

ويلاحظ ان قراءة (الهمداني) للمسند الأول ، هي قراءة قرئت وفق عربيتنا ، فجعل (علهن) (علهان) و (نهفن) (نهفان) و (همدن) (همدان) ، أما قراءته للمسند الثاني ، فهي على نحو ما دوّن في المسند ، وذلك بالنسبة الى

---

١ (علهن نهفن) في الكتابات .
٢ Le Muséon, 1967, 1-2, P. 281.
٣ منتخبات (ص ٧٥) .
٤ الاكليل (١٠/١٥) .
٥ الاكليل (١٠/١٦) .
٦ الاكليل (١٠/٣٣) ، (حب الملوك) (٢/٣٨٩) .

الأعلام ، فان المسند لا يكتب (علهان) بل يكتبه (علهن) ، وهكذا بقية الأسماء .

ونسب (نشوان بن سعيد الحميريّ) هذا البيت الى (أسعد تبع) ، وعلق على اسم (علهـــان نهفان) بقوله : (أراد علهان ونهفان فحذف الواو)[1] . فـ (علهان نهفان) إذن اسما رجلين على رأي هذين العالمين ، وعلى رأي عدد آخر من العلماء مثل (محمـــد بن أحمد الأوساني) أحد من أخذ (الهمداني) علمه منهم . وهو في الواقع اسم واحد لرجل واحد . ولا أدري كيف أضاف (الهمداني) و (الأوساني) وغيرهـــا ممن كان يذكر أنه كان يقرأ المسند حرف (الواو) بين (علهان نهفان) ، فصيروه (علهان) و (نهفان) ، وجعلوهما اسمين لشقيقين[2] .

وقد أدى سوء فهم أهل الأخبار لقراءاتهم للمساند الى اختراع والد للأخوين (علهان) و (نهفان) ، أو لـ (علهان نهفان) بتعبير أصح ، فصيروه (بتع بن زيد بن عمرو بن همدان)[3] ، أو (ذا بتع بن يحضب بـــن الصوّار)[4] . وعرف (نشوان) (ذا بتع) بأنه (ذو بتع الأكبر) ، وهو ملك من ملوك حمير ، واسمه نوف بن يحضب بن الصوار ، من ولده ذو بتع الأصغر زوج بلقيس ابنة الهدهاد ملكة سبأ[5] وصيّروه (تبعـــاً) ، فقالوا : (علهان نهفان ابنا تبع بن همدان)[6] . ويظهر أن النساخ قد وقعوا في حيرة في كيفية كتابـــة اسم والد (علهان)،فكتبوه (بتعاً) ، وكتبوه (تبعاً) وكلا الاسمين معروف شهير ، فوقعوا من ثم في الوهم .

وأما اسم الوالد الشرعي الصحيح ، فهو (يرم أيمن) ، كما ذكرت، وأمـا الاسم المخترع ، فقد جاؤوا به من عندهم بسبب عـدم فهمهم لقراءة نصوص المسند . فقـــد وردت في النصوص جملة (علهن نهفن بن بتع وهمدان)[7] ،

---

١ منتخبات (ص ٧٥) .
٢ الاكليل (٨/٨٣) .
٣ الاكليل (١٠/١١ ، ١٣) .
٤ منتخبات (ص ٧٥ ، ١٠٥) .
٥ منتخبات (ص ٥) .
٦ الاكليل (٨/٨٣،٤٢) (طبعة نبيه) ، (٨/٥١،١٠٣) (الكرملي) .
٧ المختصر (ص ٢٦) ، Glaser 16, Louvre 10, CIH, IV, I, I, P. 8.

فظن قراء المساند من أشياخ (الهمداني) وأمثالهم (ممن كانـوا يحسنون قراءة الحروف والكلمات ، الا أنهم لم يكونوا يفهمون معاني الألفاظ والجمل في الغالب) أن لفظة (بن) تعني هنا (ابن) ، فقالوا : ان اسم والد (علهان نهفان) أو (علهان) و (نهفـان) على زعمهم اذن هو (بتع) . علـى حين أن الصحيح ، ان (بن) هي حرف جرّ يقـابل (من) في عربيتنا ، ويكون تفسير النص: (علهان نهفان من بتع وهمدان) و (بتع) اسم قبيلة من القبائل المعروفة المشهورة .

وأما (بتع) فقد ذكرت أن النسّاخ هم الذين أخطأوا في تدوين الاسم ، وأن (الهمداني) وغيره كانوا قد كتبوه (بتعاً) ، لا (تبع) . ولكن النساخ أخطأوا في الكتابة ، فكتبوا اسم (بتع) (تبع) على نحو ما شرحت .

وورد في النص الموسوم بـ Glaser 865 اسم (علهان نهفان) . وقد رأيت نقله هنا ، لأن في ذلك فائدة في شرح اسم أبيه[1] . فقد ورد فيـه : (علهن نهفن بن همدن بن برم ايمن ملك سبـأ) ، أي (علهان نهفان من همدان ابن يرم أيمن ملك سبأ) ، فأنت ترى أن لفظة (بن) المكتوبة قبل (همدن) ، أي (همدان) هي حرف جرّ . أما (بن) الثانية المذكورة قبل (يرم أيمن) فإنهما بمعنى (ابن) ، فصارت الأولى تعني أن (علهان نهفان) هو من قبيلة همدان ، وامـا أبوه ، فهو (يرم أيمن ملك سبأ) ، ولعدم وقوف أولئك العلماء على قواعد العربيات الجنوبية ، لم يفهموا النص على حقيقته .

وقد ورد اسم (علهان نهفان) في كتابة وسمهـا العلماء بـ Glaser 16 ، وصاحبها رجل من (يدم) (آل يدوم) اسمه (هعّان أشوع) ، ذكر أنه قدم هو وأبناؤه الى الإلـه (تالب ريمم بعل ترعت) تمثـالاً ، وذلك لخيره ولعافيته ولعافية أولاده ، ولأنه أعطاهم كل أمانيهم وطلباتهم ، ولأنـه خلصهم ونجاهم في كل غزوة غزوها لمساعدة (مراهمو علهن نهفن بن بتع وهمدن) ، أي لمساعدة سيدهم وأميرهم : علهان نهفان من (بتـع) من قبيلة همدان ، وليمنحهم غلة وافرة وأثماراً كثيرة ، وليمنحهم أيضاً رضى أربابهم آل همدان وشعبهم حاشد (حشدم) ، وليهلك وليكسر وليصرع كل عـدو لهم وشانىء

[1] Glaser 865, Berlin 2679, CIH 312, IV, I, IV, P. 337.

ومؤذ[1] . ولم يلقب صاحب هذا النص (علهان) بلقب (ملك) ، وانما استعمل لفظة (مراهمو) (مرأهمو) ، أي أميرهم أو سيدهم ، ويظهر لي في هذا الاستعمال ان هذا النص قد كتب قبل انتقال العرش الى (علهان) من أبيه ، ولهذا أغفل اللقب .

ووجد اسم (علهان نهفان) واسم ابنه (شعرم أوتر) في كتابة دوّنها (حيوم يشعر) (حيو يشعر) ، وأخوه (كعدان) ، وذلك لمناسبة بنائهم أسوار بيتهم : (وترن) (وتران) ، ولم يشر النص الى هوية هذا البيت ، أهو بيت للسكنى ، أم بيت للعبادة اسمه (بيت وترن) ، أي معبد وترن ، خصصوه بعبادة الإلَه (عثّر) الذي ذكر اسمه في آخر النص[2] .

وتعدّ النصوص الموسومة بـ CIH 2 و CIH 296 و CIH 305 و CIH 312 من النصوص المدونة في ايام (علهان) حين كان قيلاً ، ولذلك ورد فيها اسمه دون أن تلحق به جملة (ملك سبأ) . أما النصوص الأخرى ، فقد كتبت في الأيام التي نصب فيها نفسه ملكاً على سبأ ولقب نفسه باللقب المذكور منافساً ملك سبأ الحاكم في مأرب في حكمه ، مدعياً على الأقل انه ملك مثله .

وليس في استطاعتنا التحدث عن الزمن الذي تلقب فيه (علهان نهفان) بلقب (ملك) . فلا ندري أكان قد لقب نفسه به حين وفاة والده مباشرة ، أم بعد ذلك ؟ فاذا كان الظن الأول تكون الكتابات المذكورة قد دونت في ايام أبيه ، واذا كان الثاني تكون هذه الكتابات قد دونت في عهد لم يكن (علهان) تمكن فيه من حمل هذا اللقب لسبب لا نعرفه ، قد يكون تخاصم الأسرة على الارث ، وقد يكون ضعف (علهان) في ذلك الوقت ، وخوفه من ملك سبأ الذي كان أقوى منه .

ولا ندري كذلك متى أشرك (علهان) ابنه (شعرم أوتر) (شعر أوتر) معه في الحكم ، اذ حصل المنقبون والسياح على كتابات سبئية لقب فيها (علهان) وابنه (شعرم أوتر) بلقب (ملك سبأ) و (ملكي سبا)[3] .

---

١ المختصر (ص ٢٦ وما بعدها) .
Glaser, 16, Louvre 10, CIH 2, IV, I, I, P. 7.

٢ نشر (ص ٤٣ وما بعدها) .

٣ CIH 155, CIH 289, 308, 308 bis, 401, 693, REP. EPIG., 4216, Mahram, P. 290.

وفي هذه الجمل دلالة على أن (شعر أوتر) كان يشارك أباه في لقبه في أيامه ، وانه اسهم معه في ادارة الملك . وأغلب الظن انه اشركه معه في الحكم لحاجته اليه في تثبيت ملكه في وضع سياسي قلق ، إذ كانت الثورات والحروب منتشرة ، وكان حكّام سبأ وحضرموت وحمير والحبش يخاصم بعضهم بعضاً ، فرأى (علهان) اشراك ابنه معه في الحكم وتدريبه على الادارة ، وبقي على ذلك حتى وفاة (علهان) وعندئذ صار الملك له وحده ، فلقب نفسه بلقب (ملك سبأ) .

لقد كان لا بدّ لـ (علهان نهفان) من السعي في عقد معاهدات ومحالفات مع الحكومات والقبائل، لتثبيت الملك الذي ورثه من أبيه ، ولا سيما مع الحكومات المناوئة والمنافسة لحكومة (مأرب) . ونجد في كتابة همدانية تضرعاً الى الإله (تالب ريام) ليوفق (علهان نهفان) في مسعاه بالاتفاق مع ملك حضرموت لعقد معاهدة إخاء ومودّة ، حتى (يتآخيا تآخياً تاماً) ، وذلك في المفاوضات التي كانت تجري بينهما في موضع (ذت غبل) (ذات غيل)[1] .

وقد نجحت مفاوضات (علهان) مع ملك حضرموت (يدع أب غيلان) في التآخي معه ، وفي عقد معاهدة صداقة بينهما ، وأفاد من ذلك فائدة كبيرة، اذ أصبحت هذه المملكة التي تقع في جنوب سبأ وفي جنوب الريدانيين والمتصلة اتصالاً مباشراً بالحميريين في جانبه ، فإذا لم تقم حضرموت بأي عمل حربي ضد أعداء علهان ، فإن مجرد وقوفها الى جانبه يفيده فائدة كبيرة ، إذ يفزع ذلك أعداءه، ويضطرهم الى تخصيص جزء من قواتهم العسكرية للمحافظة على حدودهم مع حضرموت خوفاً من هجومها عليهم عند سنوح الفرص[2] .

وكان فرح (علهان) بنجاح مفاوضاته مع ملك حضرموت ، واتفاقه معه كبيراً ، وقد نجح فعلاً في عقد ذلك الحلف، فنراه يحارب الحميريين ويهاجمهم، يؤيده في ذلك ملك حضرموت (يدع أب غيلان) ، لقد هاجمهم من الشمال،

---

١ اسم الملك (يدع ال) (يدع ايل) في النص الذي نشره يحيى نامي في كتابة : نشر (ص ٣٠) ، اما في النصوص الاخرى ، فكان اسم ملك حضرموت المتحالف مع (علهان) (يدع أب غيلان) ، (بذت غليم) ، (بذ غليم) (بذت غيل) (بذغيل) ، Le Muséon, 1964, 3-4, P. 466.

٢ CIH 155, 308, Nami 71-73, Beiträge, S. 113, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 468.

وهاجمهم الحضارمة من الشرق ، فانتصر على الحميريين ، في (ذت عرمن) (ذات عرمن) (ذات العرم) ، وهو موضع يظهـــر انه قريب من (ذات العرم) ، وربما كان هو نفسه[1]. وهكذا حصل (علهان) على ثمرة شهية من هذا الحلف. وقد كان الحميريون من المقاتلين المعروفين ومن المغيرين على غيرهم، فانتصار (علهان) عليهم هو ذو مغزى عظيم .

ويظهر ان (يدع أب غيلان) ملك حضرموت لم يُعمّر طويلاً ، لأننا نقرأ في أحد النصوص ان أحد الهمدانيين كان يتوسل الى الإلَه (تألب ريام) ان يمن عليه بعقد حلف بين (علهان) ملك سبأ و (يدع ايل) ملك حضرموت. ويظن ان الملك (يدع ايل) هذا ، هو الملك (يدع ايل بين) ، وهو ابن (يدع أب غيلان) ، الذي هو ابن (اميثم) (أمين) كما جـــاء ذلك في النص الموسوم بـ REP. EPIG. 4698[2] . واذا أخذنا بما جاء في النص المنشور في كتاب « نشر نقوش سامية قديمة » ، وهو النص المرقم ب (١٩) ، فاننا نستنتج منه ان الملك (يدع أب غيلان) ، كان قد توفي في ايام (علهان نهفان) وان الملك (علهان نهفان) ، صار يرجو عقد حلف مع ابنه (يدع ايـــل) الذي ولي في أواخر ايام حكم (علهان) على ما يظهر . ولذلك توسل صاحب النص أو أصحابه الى الإلَه (تألب ريام) ربّ همدان أن يساعده على عقد ذلك الحلف .

وحوّل (علهان نهفان) أنظاره نحو الحبشة أيضاً لعقـد معاهدة معها ، وقد أشار الى هذا في كتابة ملكية سجلها هو وابناه (شعرم أوتر) و (يرم أيمن) ونعت كل واحد منها في هذه الكتابة بـ (ملك سبأ) .

وقد جاء في مقدمتها أنه هو وابناه قدّموا الى (تألب ريام بعـــل ترعت) ثلاثين تمثالاً من الذهب ، وفضةً لاصلاح حرم الإلَه في معبـده (يهجل) ، وأصلحوا اصلاحات كثيرة في فنائه ، وفي أملاكه ، لأنه أجاب طلباتهم ، ومنّ عليهم ، ولأنه وفقه في عقد تحالف مع (جدرت) (جدروت) ملك (نجاشي)

---

١ Abessl., S. 103, 105, CIH 155, IV, I, III, P. 216, Mordtmann, Himjarische Inschriften, S. 18, Winckler, Die Sabi Inschr. der Zeit Alhan's, S. II.

٢ نشر ، النص رقم ١٩ ، SE 49, Mahram, P. 305.

الحبشة ، ولأنه وفق الوفد الذي قام بالمفاوضات ، فتمكن من تنظيم اتفاقية بين الطرفين حتمت عليهما التعاون في أيـــام السلم والحرب لرد كل اعتداء يقع على الطرفين ، ومحاربة كل عدو يريد سوءاً بأحدهما .

وأشير أيضاً الى اسمي (سلحين) و (زررن) (زراران) (زريران)، وقد كانا متحالفين مع (جدرت) ، فشملهما بذلك هذا الحلف[1] .

وقد ورد اسم (علهان نهفـان) في كتابات أخرى ، ناقصة ويا للأسف ، وقد سقطت منهـــا كلمات في مواضع متعددة فأضاعت علينا المعنى . وقد أشير فيها الى جيوش (علهان) وأعرابها ، كما أشير الى (ردمان) و (ملحيم) و (قتبان) والى أقيال وسادات قبائل ملك الحبشة[2] ، والى (ذي ريدان) ، وإلى أعراب ملك حضرموت[3] . ويرى (فون وزمن) أن في ذكر أقيـــال وسادات قبائل ملك (حبشت) الحبشة في هذه الكتابات دلالةً عـــلى أن الحبش لم يكونوا يمتلكون أرض Kinaidokolttital ، أي ساحل الحجاز من ينبع ثم ساحل عسير فقط ، بل كانوا يمتلكون أيضاً الساحل المسيطر عـــلى مضيق باب المندب ، وقد كان ملكهم إذ ذاك هو الملك (جدرت) (جدرة) المذكور[4].

ويرى (فون وزمن) أن الحلف الذي عقد بين (علهان) وملك الحبشة ، عقد بعد الحرب التي شنها (علهان) ومن ساعده فيها ، وهم ملك حضرموت وملك الحبشة ضد (حمير) . وقد كان ابنـــه (شعرم أوتر) (شعر أوتر) يشارك أباه في الحكم إذ ذاك ، ولهذا ذكر في الكتابة[5] . وقد فرض (شعر أوتر) سلطانه على حمير وأخضعها له ، وذلك في أوائل ايام حكمه . اما الحبش، فكانوا يمتلكون الأرضين التي ذكرتها وأرض قبيلة (اشعرن) أي (الأشعر)[6] .

---

١ المختصر (ص ٢٥) ،
CIH 308, 308 bis, Müller, Epigraphische Denkmaler aus Abessinien, S. 73, D. H. Müller, Sudarabisc Alterthumer im Kunsthistorischen Hofmuseum, S. 4, 1899.

٢ نشر (ص ٩٢ وما بعدها) .

٣ نشر (ص ٩٢ وما بعدها) ، Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 470.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 471.

٥ CIH 308, a.

٦ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 471.

وقد حمد (علهان نهفان) وابناه الإلـه (تألب ريام) أيضاً ، لأنه نصرهم وساعدهم في الحرب التي وقعت بينهم وبين (عم انس بن سنحن) (عمى أنس بن سنحان) ، وبينهم وبين قبيلة (خولان) . وقد توسط أمير اسمه (شابت ابن عليان) (شبت بن علين) ، أو من (آل عليان) بين (عمى أنس) و (خولان) والريدانيين لتكوين جبهة واحدة قوية في محاربة (علهان) وقد انضمت اليها قبائل معادية للهمدانيين ، واشتبكوا مع جيش (علهان) غير ان الإلـه (تألب ريام) – كما يقول (علهان) – نصره على أعدائه،فانهزموا وهزم الذين من (حقلان) (الحقل) ، ويظهر انهم كانوا قد حاربوا (علهان) أيضاً ، وخربت حقولهم ، وعندئذ جاءوا الى (علهان) طائعين ، وندموا على ما فعلوا ، ووضعوا رهائن عنده ، هم : (اشمس بن ريام) ، أو من(ريام) (آل ريام) و (حارث بن يدم) (حرث بن يدم)[١] .

لقد كان حكم (علهان نهفان) في حدود سنة (١٣٥ ق. م.) على تقدير (فلبي)[٢]، أو في النصف الأول من القرن الأخير قبل الميلاد على رأي آخرين[٣]. وفي حوالي السنة (٦٠ ق. م.) على رأي (البرايت)[٤] ، وفي حوالي السنة (١٦٠) بعد الميلاد على رأي (فون وزمن)[٥] . وفي حوالي السنة (٨٥) قبل الميلاد على تقدير (جامه) ، أما نهاية حكمه فكانت في حوالي السنة (٦٥) على تقديره أيضاً[٦] .

وقد جعل (كروهمن) حكم (شعر أوتر) في حوالي السنة (٥٠) أو (٦٠) بعد الميلاد[٧] . ومعنى هذا ان حكم أبيه (علهان) يجب أن يكون بعد الميلاد ، ليتناسب مع الحكم الذي وضعه (كروهمن) لابنه .

وقد عثر علماء العربيات الجنوبية على عدد من الكتابات ورد فيها اسم (شعرم أوتر) ، لُقب في بعضها بـ (ملك سبأ) ، ولُقب في بعض آخر بـ (ملك

---

١ المختصر (ص ٢٥) ، .Abessl., S. 46
٢ .Background, P. 142
٣ .Beiträge, S. 113
٤ .BOASOOR, NUM. 119, 1950, P. 9
٥ .Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498
٦ .Mahram, PP. 390
٧ .Arabien, S. 28

سبأ وذي ريدان) ، ومعنى هذا انها أحدث عهداً من الكتابات الأولى ، وان (شعر أوتر) كان قد بدأ عهد حكمه حاملاً لقب (ملك سبأ) ، وهو اللقب الذي تلقب به منذ ايام أبيه ، ثم غيره بعد ذلك بأن أضاف اليه جملة هي : (وذي ريدان) ، فصار لقبه في الدور الثاني من حكمه : (ملك سبأ وذي ريدان)[1] .

غير أن لدى الباحثين في العربيات الجنوبية نصاً وسموه بـ Glaser 1371 لقب فيه كل من (علهان نهفان) و (شعر اوتر) ابنه بلقب (ملك سبأ وذي ريدان) . ومعنى هذا أن لقب (ملك سبأ وذي ريدان) كان قد ظهر في أيام (علهان) لا في أيام ابنه ، وأن (علهان) نفسه كان قد تلقب به مع ابنه في اواخر ايام حكمه . وهناك من الباحثين من يشك في صحة النص ، ويرى ان كاتب النص كان هو الذي وضع هذا اللقب ، سهواً او تعمداً ، وأن (علهان) لم يحمل هذا اللقب ، وان ابنه هو الذي حمله . ومهما يكن من شيء ، فإن النص المذكور هو النص الوحيد الذي نملكه ،لقب فيه (علهان) على هذا النحو[2].

ومن الكتابات التي يجب ان نضيفها الى اوائل ايام (شعرم اوتر) (شاعر اوتر) كتابة عثرت عليها بعثة (وندل فيلبس) ، وقد نشرها (الدكتور خليل يحيى نامي) في (مجلة كلية الآداب) بجامعة القاهرة[3] . وقد بدأت بجملة : (شعرم اوتر ملك سبا بن علهن نهفن ملك سبـا) ، أي (شعر اوتر ملك سبأ بن علهان نهفان ملك سبأ)[4] . ولتلقيب (شعر اوتر) فيها بـ (ملك سبأ) فقط دون ذكر (ذي ريدان) يجب رجعها الى الأيام الأولى من حكمه . وقد ذكر (شعر اوتر) فيها انه قدم الى الإلـه (المقه بعل اوام) صنماً (صلم) تقرباً اليه ، وتحدث عن حرب وقعت في موضع يسمى (تعمتن ؟) وعن رجل اسمه (سعـد تألب) وعن رجل آخر اسمه (حيوم بن غثريان) (حيم بن غثر بن) ، وذكر أن الحرب كانت قد وقعت في شهر (ذالت الت ذخرف

---

١ Abessl., S. 83, Sab. Inschr., S. 219, Mahram, P. 295.

٢ Mahram, P. 295, M. Hofner, Die Sammlung, Eduard Glaser, Wien, 1944, S. 50, Le Muséon, 1-2, 1967, PP. 271.

٣ مجلة كلية الآداب ، المجلد الثاني والعشرون ، العدد الثاني سنة ١٩٦٠ ، مطبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٦٥ (ص ٥٣) .

٤ راجـع النقش رقم ١٢ .

ودداال بن حيوم بن كبر خلل خمسن)[١] ، أي في شهر (ذي إلالات من السنة الخامسة من حكم ودداپل بن حيوم بن كبير خليل) ، ثم ذكر بعض الشهور التي وقع فيها القتال . والظــاهر انها قد كانت قد انتهت في مصلحته ، وان القائد الذي أمره بمحاربــة عدوه كان قد انتصر عليه ، لذلك تقدم الى الإلـه (المقه بعل اوام) بنذره ، وهو الصنم المذكور . وقد لقب (شعرم أوتر) نفســه في موضع من النص بـ (شعرم أوتر ملك سبا وبيّن سلحن وغمــدن وادمهوسبا وفيشن)[٢] ، أي شعر اوتر ملك سبأ وبيت سلحين وغمدان . وعبيده (سبأ وفيشان) . وذكر البيتين أي القصرين (سلحين) و (غمدان) ، هو كناية عن الملك . و (سلحين) هو قصر الملوك ومستقرهم في مأرب ،و(غمدان) هو قصرهم ومقرهم في صنعاء . وقد أخذت صنعاء تنافس مأرب منذ هذا الزمن حتى حلت محلها في الأخير .

وقد جاءت في النص جملة : « كما أمر المقه أن يحارب حيوم حتى حريب»[٣]. و (حريب) هي مدينة مشهورة وواد بين بيحان ومأرب[٤] . وهي من مواضع حمير . فالحرب يجب أن تكون قد تناولت أرض حمير . وقد كان الحميريون في هذا الزمن يحاربون السبئيين .

ولدينا نص وسمه العلماء بـ CIH 334 ، وهو نص مهم من الوجهة التأريخية يتحدث عن حرب أعلنها (شعرم أوتر ملك سبــأ وذي ريدان) (شعر أوتر ملك سبأ وذي ريدان) على (العز يلط) ملك حضرموت . ولم يذكــر لقب (العز) فيه . وقد ذهب بعض الباحثين الى انه (العز يلط) (العذيلط) ابن الملك (عمذخر) (عم ذخر)[٥] . وقد انضم الى الحضارمة عدد من القبائــل والجنود المرتزقة ، ويذكر النص ان الهمدانيين أتباع (شعرم أوتر) تغلبوا على جيوش حضرموت ، فانتصرت عليها في موضع (ذت غيلم) (ذات غيل) (ذت غرم) (ذات غراب) ، (ذت غ. رم)[٦] . وبعد هذا النصر عيّن

---

١ السطران السادس والسابع من النص .
٢ السطران : ٢١ و ٢٢ من النص .
٣ المصدر المذكور (ص ٥٧) ، والسطر (٢٥) من النص .
٤ المصدر المذكور (ص ٦٠) .
٥ Beiträge, S. 113.
٦ Glaser 825, Berlin 2672, CIH, 334, IV, I, IV, P. 377, Mahram, P. 300.

(شعـرم أوتر) أحـــد رجاله ، ويدعى (سعدم احرس بن غضبم) (سعد أحرس بن غضب) قائداً حارساً للحدود . وقد أغار (سعد) هذا بقوة مؤلفة من مثني محارب من قبيلة (حملان) من المخلصين للملك على أرض (ردمان) فأنزلت بها أضراراً فادحة ، ووقعت معارك دموية هلك فيها خلق من الردمانيين. ووصل (شعرم أوتر) نفسه بجيوشه الى موضع سقطت حروفه الأولى من اسمه وبقي حرفان منه ، وهما (... وت) ، لذلك يرى (كلاسر) انهما بقية اسم عاصمة حضرموت مدينة (شبوت) (شبوة)[1] ، أو (موت) على رأي غيره[2] ، ووصل (شعرم) الى موضع آخر اسمه (صوارن) (صواران) (صوأرن) (صوارن)[3] . وقد عاد (سعد أحرس) بغنائم كثيرة من حروبه هذه وغزواته، شاكراً الإلـه (تألب ريام بعل ترعت) ، ان نصره وعافاه وشفاه من جروحه في غزوته المذكورة[4] .

ويظهر أن (صوأرن) هي (صوران) التي ذكرها (الهمداني) ،وتعرف اليوم بـ (العادية) وهي في حضرموت في (وادي الكسر)[5] . ويظهر من ذلك أن جيش (شعرم اوتر) قد وصل الى قلب حضرموت .

ويرى (كلاسر) أن (شعرم أوتر) كان قد استطاع ان ينتصر على بعض قبائل حمير ، فانضمت اليه ، على حين كانت القبائل الحميرية الأخرى منحازة الى خصمه (الشرح يحضب) ، وأن هذا النزاع الذي أدى الى نشوب الحرب بينه وبين ملك حضرموت كان بسبب تنافسهما في اقتسام تركة (قتبان) . وقد تحارب (شعرم) عند (يريم) ، حيث كان خصمه (الشرح يحضب) أو الحضرميون ، قد هاجموا هذه الجبهة ، على حين قام قائده (سعد) بالهجوم على ردمان الذين أرادوا اكتساب الفرص بالمباغتة للحصول على غنائم، فهاجمهم (سعد) وكبدهم خسائر فادحة[6] .

---

١ Abessl., S. 109, Glaser 424.

٢ CIH, IV, I, IV, P. 377.

٣ CIH IV, I, IV, P. 377.

٤ Mordtmann, Himjarische, S. I, M. Hartmann, in Zeitschrift fur Assyriologie, X, 1895, S. 152, winckler, Die Sab. Inschr. der Zeit Alhan Nahfan's, S. 17.

٥ Beiträge, S. 124.

٦ Abessin., S. 110, Beiträge, S. 113.

ويظهر من دراسة النص المتقدم ان الملك (شعر اوتر) كان قد وجه جيشاً مؤلفاً من سبئيين ومن حميريين ومن قبائل أخرى الى ارض حضرموت للقضاء على جيشها والاستيلاء عليها ولا سيما القسم الشرقي اقليم (ظفار) . واستطاع جيشه ان ينزل خسائر كبيرة بقوات (العز) المرتزقة وبجيشه النظامي ، الذي كان يحارب خارج حضرموت ، بدليل ورود اسم موضع (ذت غيلم) في النص. وموضع (ذت غيلم) ، أي (ذات غيل) الذي نشبت فيه معركة بين الجيشين، هو مكان في أرض قتبان، وفي (وادي بيحان) . ثم عاد فأنزل بجيش حضرموت خسارة أخرى ، وذلك حين أراد جيش (العز) مباغتة جيش (شعر اوتر) وهو في معسكره ، ولكن يقظة صاحب النص الذي كان يحرس الملك وجيشه وهو على رأس قوة مؤلفة من مئتي محارب من حملان ، أفسدت خطة الهجوم، واضطر جيش (العز) الى التراجع ، فتعقبه صاحب النص ومحاربوه ، ولكنه فوجىء بهجوم (الردمانيين) محاولين مباغتة الجيش من المؤخرة ، فاشتبك معهم فأصيب بجرح في اثناء القتال ، ولكنه تمكن مع ذلك من صد المهاجمين ومن الرجوع سالماً الى منزله معافى ، ولذلك قدم الى إلهه الحمد والشكر ، لأنه عافاه ونجاه ونصره[١] .

وقبل عودة صاحب النص الى وطنه سالماً ، كان قد رافق ملكه في حملته على بقية الأرضين التابعة لحكم الملك (العز) ، فذكر انه رافقه في حملته على مدينتي (... وت) و (صوارن) ، وقد تمكن جيش الملك (شعر أوتر) من الانتصار على الحضارمة في هذين المكانين . وقد قرأ بعض الباحثين اسم المدينة الأولى (شبوت) ، وقرأها بعض آخر (رسوت) ، وزعموا انها (ريسوت)، وهي مدينة معروفة في الجنوب الشرقي من حضرموت . وأما (صوأرن) (صواران) فهي على مسافة (١١٥) كيلومتراً الى الشرق من شبوة[٢] .

وقد تمكن جيش الملك (شعر أوتر) من الانتصار على جيش (العز) ومن الاستيلاء على العاصمة (شبوت) (شبوة) . ونجد خبر هذا النصر في النصين الموسومين بـ Jamme 636 و Jamme 637 ، وفي نصوص أخرى[٣] . والنص

---

١ Mahram, P. 300.

٢ Mahram, P. 301.

٣ A. Fakhry 75, 102.

الأول يحدثنا بأن صاحبه وقد سقط اسمه منه بسبب تلف أصاب مقدمته ، قد حمد ربه (المقه) وشكره اذ منّ عليه وأغدق نعمه عليه وهو في حضرموت مع جيش سيده وملكه (شعر أوتر) (ملك سبأ وذي ريدان) ، الذي حارب حضرموت واستولى على (شبوة) التي لم تمتثل أوامر الملك وقاومته ، ولأنه أي ربّه (المقه) نصر ملكه ووفقه في هذه الحرب فعاد سالماً ظافراً الى المدينة (مأرب) بالأسلاب والغنائم من ماشية وأموال وأسرى ، مما سرّ الملك ورعيته، ولأنه منّ عليه فرزقه أولاداً ذكوراً[1] .

وأما النص الثاني ، وهو النص Jamme 637 ، فقد حمد صاحبه ربه (المقه) اذ وفقه ومنّ عليه فحصل على غنائم من مدينـــة (شبوة) التي قاومت الملك (شعر أوتر) فاكتسحها ، فقدم لمعبده : (معبد أوّام) تمثالاً تعبـــيراً عن شكره له واعترافاً بمننه عليه[2] . فيظهر منـه ان هـــذا الرجل ، واسمه (ظبنم أثقف بن حلحلم) ، كان نفسه في جملة من دخل مدينة شبوة من جيش (شعر أوتر) ، فحصل على أسلاب وغنائم جعلته يحمد إلـٰهه عليها ويشكره ويقدم اليه ذلك التمثال تعبيراً عن تقربه اليه .

وعثر المنقبون على نص مهم آخر رقم بـ Jamme 632 ، يفيـــد أن جيش (شعر اوتر) استولى على (شبوة) وعلى مدينة (قنا) ميناء حضرموت الرئيسي في ذلك العهد ، وان صـــاحبي النص (حمعثت ارسف بن رابم) و (مهقبم بن وزعان) ، وهما بدرجة (مقتوى) ، أي درجة قادة الجيش الكبار ، في جيش (اسدم اسعد)[3] ، الذي هو من بني (سأرن) (سأران) و (محيلم) كانا قد تقربا الى الإلـٰه (المقه ثهوان) بأربعة تماثيل وثور ، وضعوها في معبده المخصص لعبادته المسمى (معبد أوام) ، تعبيراً عن حمدهما وشكرهما له ، إذ منّ عليهما واسبغ عليهما نعمـــه ، وافاض عليهما الغنائم والأموال واعاد سيدهما ورئيسهما (أسد أسعـــد) من بني (سأران) سالماً غانماً من كل المعارك التي خاضها في سبيل سيده الملك (شعر أوتر) (ملك سبأ وذي ريدان) يصحب

---

١ Jamme 636, MaMb 245, Mahram P. 139.

٢ Jamme 637. MaMb 60, Mahram, P. 139.

٣ (أسد أسعد) .

الغنائم والأموال والماشية ، ولأنـــه أغدق عليها أيضاً الغنائم الوافرة التي سرت خاطرها وقد حصلا عليها في جملة ما حصلوا عليه من (شبوة) ومن مدينـــة (قنا) ، وقد سألا الإلـه (المقه) أن يديم بركته عليها وعلى سيدها (أسد أسعد) ، وأن يبعد عنهم شر الأعداء[1] .

وفي النص الموسوم بـ Jamme 741 وبـ Jamme 756 ، أن شخصاً اسمـــه (هيثع بن كلب ذكرم) السبئي ،وهو من عبيد (آل نعم برل) و(آل حيث) (آل حبة) ، كان قد نذر نذراً للإلـه (المقه ثهوان) ، بأن يقدم له تماثيل يضعها في معبده (أوام) ، اذا منّ عليه ووفقه وأعاده سالماً من (شبوة)ومن البحر . فلما أجاب دعـــاءه فأعاده سالماً معافى ، قدّم النذر ووضعه في ذلك المعبد ، وقد سأل ربّه أن يديم نعمه عليه ويبارك فيه ويسعده[2] ويظهر أن هـذا النص علاقـــةً بالنصوص المتقدمة التي تتحدث عن غزو جيش (شعر أوتر) لحضرموت ، وأن صاحبه كان في جملة من أسهموا فيها .

ويظهر من جملة : (بن شبوت وبن بحرن)[3] ، ومعناها (من شبوة ومن البحر) ، ان جيش الملك (شعر أوتر) كان قـــد هاجم الحضارمة من البرّ ومن البحر ، وان الذين استولوا على مدينة (قنا) كانوا قد هاجموها من البحر. ولم يذكر النص المكان الذي أبحر منه جيش (شعر أوتر) للاستيلاء على السواحل الجنوبية من حضرموت ، ولا بد من أن يكون ذلك المكان من الأمكنة التابعـــة لحكم الملك (شعر أوتر) أو لحكام كانوا محالفين له وعلى صلات حسنة به .

وللنص الموسوم بـ Geukens I صلة بهذه الحرب وبانتقام جيش (شعر أوتر) من (بني ردمان) الذين أرادوا مباغتة جيشه من المؤخرة وتدميره . ويظهر منه ان القائد (أسدم أسعد) (أسد أسعد) ، الذي كان معسكراً مع الجيش في مدينة (القاع) ومعه قائد آخر هو (ربيم أخطر) (ربيب أخطر) ، خرجا من هذه المدينة مع جيش الملك (شعر أوتر) لمحاربة (قتبان) و (ردمان) و (مضحيم) و (اوسان) ، وانضمت اليها قوة من (بني بكيل) ، قبيلة

---

١ Jamme 632, MaMb 301, Mahram, P. 134.

٢ Jamme 741, MaMb 251, Mahram, P. 216, Jamme 756, MaMb 297, Mahram, P. 226.

٣ راجع السطر السابع والثامن من النص ، Jamme 741.

القائدين وبقيا مع الملك يحاربون معه حتى بلغ مدينة (قنا) . ولما رجعا الى وطنها ، رجعا بغنائم كثيرة وبأموال طائلة حتى وصلا الى مدينة (حرمتم) (حرمت) (حرمة) . ولما وصل (أسد أسعد) الى موطنه ،وجد ان الأحباش كانوا اغتنموا فرصة انشغال جيش (شعر أوتر) بمحاربة (العز) فأغاروا عليه وأصابوه بأضرار كبيرة . ويظهر انهم أغاروا عليه وعلى أرضين أخرى كانت تابعة للملك (شعر أوتر) ، في اثناء هجوم الردمانيين على مؤخرة جيش (شعر) ولعل ذلك كان باتفاق قد تم بينهم وبين بني ردمان . ومهما كان الأمر فان تحرش الأحباش هذا بـ (شعر أوتر) دفعه الى الانتقام منهم ومحاربتهم[١] .

ونجد نبأ هذه الحروب في النص الموسوم بـ Jamme 631 إذ يخبرنا القائد (قطبان أوكان) (قطبن اوكن) ، وهو من (بني جرت) أقيال عشيرة (سمهرم يهولد) ، بأنه قدم الى الإله (المقه ثهوان) تمثالين وضعهما في معبده (معبد اوام) ، حمداً له وشكراً لأنه منّ عليه بنعمته ، فمكنه من التنكيل بمن تجاسر وتطاول فأعلن الحرب على (شعر أوتر) ملك سبأ وذي ريدان ، ولأنه أعانه فقتل من أعداء الملك عدداً كبيراً ، ولأنه أنعم عليه بأن أعانه في رد عادية المعتدين الذين أعلنوا حرباً على الملك من البحر ومن الأرض (بن ذبحرم ويبسم)[٢] ، ومكنه من تكبيدهم خسائر كبيرة ومن أسر عدد كبير منهم ومن الاستيلاء على غنائم كبيرة منهم ، ولأنه ساعده وأيده في مهمته التي كلفه سيده (شعر أوتر) اياها ، وهي مهاجمة أرض الحبشة (أرض حبشت)[٣] ، و (جدرت) ملك (حبشت) ، أي ملك الحبشة وأكسوم[٤] ، ولأنه أعاده سالماً مع كل من اشترك معه في المعارك او قام بالواجبات العسكرية التي عهد اليه ان يقوم بها ضد النجاشي (نجشين)[٥] ، ولأنه ساعده وأعانه (هعن) في كل المعارك التي وقعت بين مدينة (نعض) ومدينة (ظفار) ، التي تقدم نحوها (بيجت) (ب ي ج ت) ولد النجاشي (نيجش) ومن كان معه

---

١ Geukens I, G. Ryckmans, Inscriptions Sud-Arabes, in Le Muséon, XII, 1942 P. 297-308, Mahram, P. 301.

٢ السطر السابع من النص .

٣ السطران ١٢ و ١٣ من النص .

٤ السطر ١٣ من النص .

٥ السطر ١٥ من النص .

من قوات جيشه ، فنزل بها وتمكن منها ، وعندئذ أعانه (المقه) ربه على الحبش بأن أوحى اليه بأن يباغتهم ليلاً ، فباغتهم وانتزع (قروعد) منهم ، وهو جزء من مدينة (ظفار) ، فذعر الحبش والتجأوا الى حصن في وسط (ظفار) فتحصنوا فيه وأخذوا يقاومون منه . غير انهم لم يتمكنوا من الاحتماء به طويلاً في مقاومة قوات سبأ ، لأن الإلـه (المقه) عزز جيش (قطبان أوكان) بقوات (لعزرم يهنف يهصدق) (ملك سبأ وذي ريدان) التي كانت قد وصلت الى هذه الجبهة واتصلت بقواته . وعندئذ حاصرت الأحباش وقتلت منهم ونهكتهم ، ثم اتفق القوم في اليوم الثالث من الحصار على أن يباغتوا الحبش ليلاً ،فيهاجمهم قوم من ذمار وجماعة من الفرسان وعشائر من (بني ذي ريدان) ، ويأخذونهم على غرة ، وقد نجحت هذه الخطة وبوغت الحبش وقتل منهم أربعمئة جندي ، قطعت رؤوسهم ، وفي اليوم الثالث أيضاً ترك (قطبان أوكان) جبهة (ظفار) وتوجه ليعقب فلول الحبش الى أرض المعافر (معفرم) . فلما أدركهم قتل قوماً منهم واتصل بهم ، فاتجه الباقون هاربين الى معسكراتهم ، وفي اليوم الثاني من هذا الالتحام تداعى الأحباش فتركوا منطقة ظفار ، وذهبوا الى المعاهر (معهرتن) .

وقد أنهى (قطبان أوكان) صاحب النص نصه بالتوسل الى الإلـه (المقه ثهوان) أن يمدّ عمر سيده (لحيعثت يرخم) (ملك سبأ وذي ريدان) ويمنحه الصحة والقوة والمعرفة ، وان يقهر اعداءه وخصومه ، وأن يبارك له ولأهله ، ويمنحه أثماراً وافرة وغلة كثيرة في موسمي الصيف والخريف ويبارك في زرع أرضه وأرض عشيرته في الصيف وفي الشتاء[1] .

ويتبين من هذا النص انه ما كاد جيش (شعر أوتر) ينتصر على حضرموت وعلى الردمانيين حتى فوجيء بالحبش يشنون حرباً عليه ويتصدون له. فكلف الملك القائد (قطبان أوكان) ان يسير الى من عصى وتمرد وخالف أوامر الحكومة للقضاء عليه ، ثم يسير على رأس قوة الى أرض الحبشة : يحارب بها (جدرت) ملك الأحباش والأكسوميين (عدى أرض حبشت بـ عبر جدرت ملك حبشت واكسمن) فنفذ القائد أمره وأتم الخطط العسكرية التي وضعت له ، ثم عاد مع

---

1 Jamme 631, MaMb 213, Mahram, P. 132, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 475.
Le Muséon, 1964, 3-4, P. 475.

جنده سالماً ، ولم يشرح النص كيف بلغ القائد أرض الحبشة، وهل قصد بأرض الحبشة الحبشة المعروفة والسواحل الافريقية المقابلة لبلاد العرب، أو قصد موضعاً آخر في العربية الجنوبية ؟ ولكن الذي يقرأ النص ويدقق في جملة ويوفق بين معانيها ، يخرج بنتيجة تجعله يرى ان المراد من جملة « على أرض الحبشة الى جدرت ملك الحبش والأكسوميين » ، أرض الحبش في افريقية ، لأن الملك (جدرت) ملك الحبشة وأكسوم ، لم يكن يقيم في بلاد العرب ، ولكن في افريقية ، فأمر (شعر أوتر) قائده بالسير الى أرض الحبشة الى (جدرت) ، معناه التوجه الى افريقية لمحاربة النجاشي (جدرت) . أما (الحبش) الذين كانوا في بلاد العرب ، فقد كانوا تحت حكم (بيجت ولد النجاشي)، فلا يمكن أن تكون الأرض المحتلة هي المقصودة . والظاهر ان القائد المذكور ركب البحر مع جنوده من (الحديدة) ، وتوجه منها الى السواحل الافريقية فنزل بها ، وباغت أهلها بغزو من وجده أمامه ، ثم جمع كل ما ظفر به من أموال ومن أناس أسرهم وعاد بهم وبالأموال مسرعاً الى بلاده ، فاشترك في بقية المعارك التي ذكرها في نصه ، وفي جملتها محاربة الحبش الذين تحت إمرة (بيجت) .

و (معاهر) على ما يظهر حصن (وعلان) في (ردمان) . وقد استدل (فون وزمن) من عدم تدوين اسم الملك (شعر أوتر) في نهاية النص ومن ذكر اسم الملك (لحي عثت يرخم) (ملك سبأ وذو ريدان) فيه ، تقرباً اليه وتيمناً به ، على وفاة (شعر أوتر) ، وتحكم الملك (لحيعثت) عند تدوين هذه الكتابة [1] .

وقد انتهت المعارك التي جرت مع الحبش النازلين في السواحل الجنوبية من جزيرة العرب بطردهم عن (ظفار) المدينة التي احتلوها ، وصاروا يهاجمون منها جيش (شعر أوتر) ، وطردوا من كل أرض (معافر)، ولكنهم ذهبوا الى (معاهر) (معهرتن) حيث بقوا هناك .

ويظهر ان الأحباش ومن انضم اليهم من قبائل باغتوا حكومة (شعر أوتر) بالهجوم عليها من البحر والبر (بن ذبحرم وببسم) : وامتدت رقعة الهجوم من مدينة (نعض) الى مدينة (ظفار) . ويظهر أن (بيجت ولد النجاشي) كان

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 475.

قد تلقى امداداً من افريقية،فصار يهاجم بها السواحل ، ويعبىء بها سفنه لمهاجمة الأماكن البعيدة عن منطقة احتلاله . ولم يتحدث النص عن مصيره بعد هزيمة جيشه من ظفار ومن أرض (معافر) ، والظاهر أنه بقي في ارض (المعاهر) (معهرت) (معهرة) ، وأن السبئيين لم يزيحوا الحبش عنها ، فبقوا معسكرين ومتحصنين في هذه الأرض وفي الحصن .

ولدينا نص وسم بـ Jamme 633 يفيد ان صاحبه واسمه (ابكرب احرس) (أبو كرب أحرس) ، وهو من بني (عبلم) و (يحمذيل) (يحمدآل) (يحمد ايل) كان قد تولى امر الحميريين المستقرين الذين صاروا بين جيشين وانه قام بواجبه ، غير انه اصيب بمرض صار يعاوده ، وأنه لما عاد من (الحج) قدم تمثالاً الى الإلـه (المقه ثهوان) وضعه في معبده : (معبد اوام) وذلك ليحفظه من كل سوء ، لأنه ساعده على تحمل مرضه ، وأعاده الى دياره من (الحج)،وقد قدّم نذره هذا في شهر (ذنم) من سنة (أبكرب بن معد كرب) (أبو كرب بن معد يكرب بن فضحسم)[1] . وليس في هــذا النص شيء عن هوية الجيشين ، ويرى بعض البـاحثين أن المراد بذلك ان الحميريين المذكورين كانوا في ذلك العهد قد صاروا بين فرقتين من فرق الجيش،جيش (شهر أوتر): فرقة مؤلفة من محاربين سبئيين،وفرقة مؤلفة من محاربين حميريين ، وأن الحكومة عينت صاحب النص على الأهلين الحميريين الذين صاروا بين الجيشين ، ليضمن تعاونهم وتآزرهم مع الجيشين ، وييسّر لهم الطعام والماء[2] . ولم يشر النص الى قتال أو حرب يومئذ ، ولكن يظهر أن وجود الفرقتين هناك كان بسبب وجود حالة غير طبيعية ، ولعلها حالة الحرب التي أتحدث عنها .

ويحدثنا القائد المتقدم ، أي (ابكرب احرس) ، في نص آخـر له يتألف من (٤٦) سطراً ، وسمــه الباحثون بـ Jamme 635 وهو من النصوص التي دوّنها وسجلها (جامه) Jamme أحد أعضاء البعثة الأمريكية لدراسة الانسان[3]، بأنباء معارك واضطرابات وانتفاضات قام بها القبائل ضد سيدها الملك (شعر أوتر) في الجنوب وفي الشمال ، في البحر وفي البر (ببسم) ، اشترك فيها هذا القائد ،

---

١ Jamme 633, MaMb 271, Mahram, P. 135, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 282.

٢ Mahram, P. 303.

٣ The American Foundation for the Study of Man.

وقد حمد الإله (المقه) بعد عودته منها كلها سالماً معافى ، لأنه هو الذي حرسه وحماه وحفظه ، واعترافاً بنعمه هذه عليه،قدم اليه تمثالاً وضعه في معبده المخصص بعبادته المسمى (معبد أوام) . وقد توسل الى إلهه (المقـه) بأن يديم نعمه عليه وعلى ملكه (شعر أوتر) ملك سبأ وذي ريدان ، وان يبعد عنه كل أذى وشر ، وان يهلك أعداءه وحساده[١] .

وذكر القائد بعد هذه المقدمة ان في جملة الحروب والمعارك التي خاضها في سبيل سيده الملك ، حروباً خاضها مع (اشعرن) (اشعران) و (بحرم) ومن انضم اليها من ناس ، وحروباً خاضها في منطقة خلف مدينة (نجران) (نجرن)، لمحاربة مقاتلي الحبش (حبشن) ومن كان يؤازرهم ويساعدهم[٢] . ويظهر من هذا النص ان نجران كانت في أيدي الحبش في هذا الزمن .

وكانت منازل (الأشاعرة) الأشاعر (الأشعر) (الأشعريون) في القديم منتشرة على الساحل الغربي من (جيزان) الى (باب المندب)[٣] . أما في ايام (الهمداني) ، فقد كانت في أرض (معافر) المعافريين[٤] .

وأما (بحرم) (بحر) ، فقد كانت عشيرة من عشائر (ربيعة) (ربيعت) (ربعت)[٥] .

ويظهر من دراسة هذا النص ان الملك (شعر أوتر) كان قد هاجم أولاً أرض (اشعرن) (أشعران) ، ثم هاجم (بحرم) ، وكان القائد صاحب النص يحارب معه. وبعد ان انتهى من قتالها انتقل بجيشه للقتال في منطقة (نجران) حيث كان الحبش قد تجمعوا فيها ، فقاتلهم وقاتل من كان معهم . ثم نقـل القتال الى الغرب الى (قريتم) (قرية) وهي (لبني كاهل) (كهل) ، (قريتم ذت كهلم) . فتحارب جيش (شعر أوتر) مع سيد المدينة (بعـل هجرن) ، أي مع صاحب مدينة (قرية) ، وتغلب عليه، وحصل على غنائم

١ Jamme 635, MaMb 270, Mahram, PP. 136.

٢ السطران : (٢٣) و (٢٤) من النص :

٣ Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, S. 63.

٤ D. H. Müller, Al-Hamdani's Geographie der Arabischen Halbinsel, I, S. 53, Mahram, P. 303.

٥

كثيرة منها . ثم حارب (ربيعة) ثور ملك (كدت) (كدة) كندة وقحطان (بعلى ربعت ذ الثورم ملك كدت وقحطن)[١] .

ويظهر من هذا النص ان (ربيعة) (ربعت) كانت من القبائل المعروفة يومئذ ، وكانت تابعة لحكم (ثور) ، (ملك كندة وقحطان) . وقد انتصر على جميع من حاربهم من أهـل (قريتم) ومن اتباع الملك (ربيعة) ملك كندة وقحطان ، واستولى على غنائم كثيرة ، في جملتها خيول وأموال طائلة ، كما أخذ عدداً من الأسرى .

وقد كلف الملك (شعر أوتر) ، صاحب النص بعد المعارك المذكورة أن يتولى قيادة بعض (خولان حضلم) (خولان حضل) ، وبعض أهـل نجران وبعض الأعراب ، لحرب المنشقين من بني (يونم) (يوان) ومن أهل (قريتم) وقد حاربهم (ابكرب احرس) (ابو كرب أحرس) عند حدود (بكنف ارض الأسد مجزت مونهن ذ ثمل) أرض (الأسد مجزت مونهان) الذي هو صـاحب (ثمل) (ثمال)[٢] . ثم عاد مع جيشة كله سالماً غير مصابين بأذى .

ويظن ان المراد من (بني يونم) ، (بني يوان) ، الياوانين ، اي من (يونم) (يوان) وهم قوم من اليونان ، استوطنوا في جزيرة العرب . وقد ورد اسمهم في النص : Glaser 967 [٣] . ويظهر انهم كانوا يحالفون (قريتم) في هذا العهد وقد جاؤوهم ليساعدوهم على الملك (شعر أوتر) .

واما (الأسد مجزت مونهن) ، فإسم علم على شخص ، يظهر انه كان يحكم أرض (ثمل) (ثمال) . ويظهر انه لم يكن يلقب نفسه بـ (ملك) ، بدليل عدم ورود هذا اللقب بعـد اسمه في النص . وقد كان كذلك مـن المخالفين لـ (شعر أوتر) ومن المعارضين له[٤] .

ويظهر من تكليف الملك قائـده أبا كرب احرس (أبكرب أحرس) ان

---

١ السطران : (٢٦) و (٢٧) من النص ، Le Muséon, 1964, 3-4, P. 473.

٢ السطر ٣٦ فما بعده من النص ، Mahram, P. 137, 304.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 473, Mahram, P. 138, K. Mlaker, Die Hierodulen-listen, S. 35, Jamme, South-Arabian Inscriptions, Princeton, 1955, P. 508.

٤ Mahram, P. 137.

يتولى بنفسه قيادة هذه القوى ، ان الملك قد وجد فيه حنكة عسكرية وجدارة جعلته يثق به ، فكافأه بتسليمه قيادتها اليه[1] .

ويظهر ان غنائم السبئيين من (قريتم) (قرية) ، كانت كثيرة جداً ، اذ نجد اشارة اليها في نصين آخرين . ففي أحدهما شكر وحمد لـ (المقه) ، لأنه منّ على عبده (شحرم) (شحر) من (بني حلوت) (حلوة) و (رجلم) (رجل) ، وأعطاه غنائم كثيرة من غنائم تلك المدينة ، جعلته سعيداً[2] ، وفي النص الثاني شكر لهذا الإلـه كذلك ، دوّنه (قشن أشوع) وابنه (ابكرب) (أبوكرب) وهما من (صعقن) (صعقان) ، لأنه منّ عليها فأغناهما مما غنموا من (قريتم) قرية ، اذ كانا يساعدان سيدهما (شعر أوتر) ، ولذلك قدما اليه نذراً : تمثالاً ، تعبيراً عن حمدهما له ، وليمنّ عليهما وعلى سيديهما : (شعر أوتر) وأخيه (حيو عثتر يضع) (ملكي سبأ وذي ريدان)[3] .

ولدينا نص وسم بـ Jamme 640 يتحدث عن مساعدة (شعر أوتر) (العزّ) ملك حضرموت في القضاء على تمرد قبائل حضرموت وثورتهم عليه . ولم يذكر النص اسباب ذلك التمرد ، والظاهر انها تمردت على ملكها ، لأنه تعاون مع (شعر أوتر) الذي فتح حضرموت واخذ جيشه منها غنائم كثيرة ، وانزل بالحضارمة خسائر فادحة ، فغضبوا عليه لتعاونه مع ملك سبأ[4] .

وقد جاء في هذا النص اسم مدينة دعيت (هجرن اسورن) ، أي مدينة أسورن (أسوران) ، ويظن انها مدينة (أوسرة) Ausra ، التي ذكرها بعض الكتبة اليونان ، وهي موضع (غيظت) (غيظة) التي تقع على مسافة (٢٢٠) كيلومتراً جنوب غربي (ريسوت)[5] .

وقد ورد اسم (حيو عثتر يضع) في هذا النص ، وهو شقيق الملك (شعر أوتر) ، غير انه لم يضع بعده لقب (ملك سبأ وذي ريدان)[6] .

---

١ Mahram, P. 304.

٢ Jamme 634, MaMb 273, Mahram, P. 136.

٣ Jamme 631, MaMb 49, 206, Mahram, P. 140, 141, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 283.

٤ Jamme 640, MaMb 250, Mahram, P. 140, 304.

٥ Mahram, P. 304.

٦ Mahram, P. 140, 304.

ولدينا نص آخر دوّنه رجل اسمه (ربيعت) (ربيعة) ، ذكر فيــه انه قدّم تمثالاً الى الإلـّه (المقه) ، لأنه اعاده سالماً معافىً من كل المعارك التي اشترك فيها والحرب التي شنها ، وقد سأل إلـَهه ان يحفظه وان يمن ّ عليه وعلى سيديه (شعر أوتر) و (حيو عثر يضع)[1] . ولم يذكر النص شيئاً عن تلك المعارك وعن المواضع التي دارت فيها رحاها .

ويعد النص : CIH 398 من النصوص المهمة التي تتحدث عن تأريخ سبأ ، اذ تحدث عن (شعر أوتر) ، على انه (ملك سبأ وذي ريدان) ، ثم تحدث في الوقت نفسه عن (الشرح يحضب) ، وعن اخيه (يأزل بين) ، وقد لقبهما بـ (ملكي سبأ وذي ريدان) . ومعنى هذا ان حكم سبأ وذي ريــدان كان لـ (شعر اوتر) وللأخوين : (الشرح يحضب) وشقيقه (يأزل بين)، وهما من أسرة همدانية أخرى سأتحدث عنهـــا في موضع آخر . وقد توسل صاحب النص الى آلهته بأن تمنّ عليهما بالصحة والعافية والنصر[2] .

وقد أثار هذا النص جدلاً بين علماء العربيات الجنوبية في معــاصرة (علهان نهفان) لـ (فرعم ينهب) ، وفي حكم (شعر أوتر) و (الشرح يحضب) وشقيقه ، وتلقب كل واحد منهم بلقب (ملك سبأ وذي ريدان) فذهبوا في ذلك مذاهب ، إذ ليس من المعقول ان يكون مقر حكم (شعر اوتر) و (الشرح يحضب) واخيه في (مأرب) ، ويكون حكمهم حكماً مشتركاً . فبين أسرة (شعر اوتر) واسرة (الشرح) تنافس قديم ، لا يمكن ان يسمح بحكم هؤلاء الثلاثة من مدينة مأرب ، وبحملهم لقباً واحداً عن رضى واتفاق .

وذهب بعضهم الى ان هذا النص لا يشير الى حكم الأخوين ، في أيام حكم (شعر اوتر) ، وإنما يشير الى انهما حكما بعده ، واذن فلا غرابة في القضية، اذ لم يكن الحكم مشتركاً وفي زمن واحد . وذهب بعض آخر الى ان حكم(الشرح) وشقيقه كان مستقلاً عن حكم (شعر اوتر) ، وان الأخوين لم يكونا مرتبطين بـ (شعر اوتر) بأي رباط ، وإنما كانا بعدّان أنفسهما الملكــين الشرعيين ،

---

١ REP. EPIG. 4842, Le Muséon, LI, 1938, P. 133, 135, Mahram, P. 304, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 283.

٢ Glaser 891, Abessl., S. 83, CIH 398, IV, II, I, P. 58, Die Arabische Frage, S. 148, Background, P. 95.

وان الحكم إنما انتقل اليها من ابيها (فرعم ينهب) . وذهب آخرون الى ان (فرعم ينهب) كان قد وضع اساس الحكم والملك في منطقة تقع غرب (مأرب) وان (الشرح يحضب) و (يأزل بين) ، خلفاه على ملكه ، واهتبلا الفرص للاستيلاء على عرش سبأ ، حتى اذا سنحت لهما ، لقبا أنفسهما بلقب (ملك سبأ وذي ريدان)، وذلك بعد اختفاء ذكر (شعر اوتر) واخيه (حيو عثتر يضع)، وصارا بذلك ملكي سبأ وذي ريدان ، وإنما كان حكمهما على جزء من تلك المملكة[1] .

وقد جاء اسم (شعر اوتر) مع لقبه (ملك سبأ وذي ريدان) في النص الموسوم بـ Jamme 638 ، وقد سقطت الأسطر الأولى منه فلم يعرف مدونه وصاحبه . وقد ذكر فيه اسم والد الملك ، وهو (علهان) ، وقد لقب فيه بلقب (ملك سبأ) فقط[2] .

وقد ثبت الآن من نصوص عثر عليها من عهد غير بعيد ان (حيو عثتر يضع) كان شقيقاً لـ (شعر اوتر) ، وانه كان قد شارك شقيقه في التلقب بـ (ملك سبأ وذي ريدان)[3] . ويظهر ان ذلك كان بعد مدة حكم فيها (شعر اوتر) حكماً منفرداً ، اي من غير مشاركة اخيه له في اللقب ، بدليل ورود اسمه في النص Jamme 640 بعد اسم اخيه،ولكن من غير تدوين أي لقب له.

وذكر في هذا النص اسم (عبد عثتر بن موقس) ، وهو من سادات (خولان) ، وقد هاجمته جيوش (شعرم اوتر) وهزمته ، وكبدته خسائر ، وكان قد هدم وخرب معبداً لعبادة (المقه) في موضع (اوعلن) (اوعلان) (محرم بعل اوعلن) ، فعد صاحب النص هذه الهزيمة عقاباً وجزاء من الإله (المقه) انزله عليه لفعلته هذه بمعبده . فيظهر من هذا النص ان (شعرم اوتر) كان قد اغار على الخولانيين او على القسم الذي يترأسه (عبد عثتر) منهم ، واصابهم بضرر فادح ، ففرح بذلك صاحب النص ، لتطاول (عبد عثتر) على

١ Abessi., S. 83, Rhodokanakis, Altsudarabische Inschr. S. 468, J. Ryckmans, L'Institution Monarchique, P. 297, Mahram, PP. 305, A. F. L. Beeston, Problems of Sabaean Chronology, P. 53.

٢ Jamme 638, MaMb 128, Mahram, P. 139.

٣ CIH 408, Jamme 641, REP. EPIG. 4842, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 283.

معبد (المقه) إلـه السبئيين واستخفافه به . ولم يذكر صاحب النص السبب الذي حمل (شعرم اوتر) على مهاجمة سيد خولان ، اذ عزاه الى انتقام الإلـه (المقه) منه ، فكأن هذا الإلـه هو الذي سلط (شعرم اوتر) عليه ، لينتقم منه جزاء فعلته المنكرة بمعبده ، ولعل (عبد عثر) كان قد تجاسر على (شعرم اوتر) فهاجم أرضه ، او انه خاصمه وعارضه او عصى امراً له ، فهاجمـــه (شعرم اوتر) وانتقم منه .

واختتم صاحب النص المذكور نصه بتقديم حمده وشكره لإلـهه ، اذ منّ عليه فمكنه من الدفاع عن تربة بلاده ، وأغدق عليه نعماءه فمنحه غلة وافرة وثمـــاراً كثيرة . وذلك في ايام سيديه الملكين ، وفي عهد (القول) القيل (رثد أوم يزد بن حبب)[١] ، وفي ايام (بني عثن) (بني عنان) وشعب (صرواح)، ثم ذكر أسماء الآلهة [٢] .

ويظهر من النص ان صاحبه كان ممن اشتركوا في الحروب ، ولعلّـــه كان من قادة الجيش فيها ، أو من سادات القبائل اللذين أسهموا مع قبيلتهم فيها . وكان في جانب (الشرح) ، وأخيه (يأزل) وقد يكون ذكر (شعر اوتر) وذكر لقبه معه على سبيل الحكاية،لا الاعتراف بكونه ملكاً على سبأ وذي ريدان .

وسجل رجل من أتباع الملك (شعرم أوتر) انه قدّم الى الإلـه (عزى) حصاناً وصورة من الذهب ، لأنه أنقذ حياته ، ونجاه في الحروب التي خاضها فيها مع سيده الملك ، ولكي يمنّ الإلـه عليه ، ويبارك فيه وفي سيده الملك[٣] . ويتبين من ذلك أن صاحب هذا النص كان من المحاربين الذين قاتلوا في صفوف (شعرم أوتر) .

وذكر (شعرم اوتر) في كتابة دوّنها قوم من (بني تزأد) ، وقد حمدوا فيها الإلـه (المقه ثهون بعل رثون)[٤] ومجدوه ، وقدموا نذراً اليه . ثم ذكروا

---

١ قد يقرأ الاسم على هذه الصورة : (رثد اوم يزيد بن حبيب) ، (رثد أوام يزد بن حباب) ، وما شاكل ذلك من قراءات .

٢ CIH 398, IV, II, I, P. 58, Halevy, Revue Semitique, IV, 1896, P. 79, Winckler, Die sab. Inschri., der Zeit Alhan Nahfan's S. 347.

٣ REP. EPIG. 4149, VII, I, P. 105, VA 5313.

٤ (المنه ثهوان اله رثون) (المقه ثهوان اله رثوان) .

(شعرم أوتر وحيــو عثتر يطع « يضع » ملكي سبأ وذي ريدان)[١] ، وهي جملة يفهم منها أن (حيو عثتر يطع) (حيو عثتر يضع) (حيو عثتر يثع)[٢] كان ملكاً أيضــاً ، وكان يلقب أيضاً بـ (ملك سبأ وذي ريدان) . ويرى (هومل) أن (حيو عثتر) هذا كان أحد اولاد (يرم أيمن بن علهان نهفان) ، فهو ابن اخي (شعرم أوتر) وكان له شقيق سقط الشق الأول من اسمه ، وبقي الشق الثاني منه ، وهو (أوتر) . ويرى أن من المحتمل أن يكون الاسم الكامل (شعرم أوتر) ، أي مثل اسم عمه[٣] .

وجعل (موردتمن) و (ميتوخ) ، (حيو عثتر) ، ابناً من أبناء (شعرم اوتر) ، فوضعاه بعده في الحكم[٤] . وقد شارك أباه الحكم في حياته ، فلقب على العادة الجارية بـ (ملك سبأ وذي ريدان) . واما اسم (شعرم اوتر) ، الذي سقط القسم الأول منه ، وهو (شعرم) من الكتابة ، فانه اسم الأب لا الشخص الذي ذهب (هومل) اليه[٥] .

وورد اسم (شعرم أوتر) وبعده اسم (حيو عثتر يضع) في كتابة أخرى[٦] يدعى صاحبها (ربيعت) (ربيعة) ، وقد قدم الى الإله (المقه) تمثالاً من الذهب ، لأنه أعاده سالماً من غزوة غزاها ، ومن حرب حضرها في سبيل (شعرم أوتر) ، وتضرع الى (المقه) أن يديم نعمه عليه ، ويمد في عمره ، ويبارك فيه وفي سيديه (شعر أوتر وحيو عثتر يضع)[٧] .

ولما كان صاحب هذه الكتابة من السبئيين ، وكنا قد وجدنا كتابات أخرى حدث وذكرت (شعرم أوتر) بخير ، وكان أصحابها من السبئيين كذلك[٨] ،

---

١ Burchardt 6, CIH 408, IV. II, I, P. 82, Hartmann, in Orietalistische Litteratur Zeitung, X, 1909, C. 605-607.

٢ Sab. Inschr., S. 218. Le Muséon, LXIV, 1-2, 1951, P. 134.

٣ Handbuch, I, S. 90.

٤ Sab. Inschr., S. 218, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 80.

٥ المصدر نفسه .

٦ REP. EPIG. 4842, VII, III, P. 387, Le Muséon LI, 1938, P. 133, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 70, 80.

٧ السطران العاشر والحادي عشر من النص .

٨ REP. EPIG. 4152, 4155, VII, I, P. 108, 109.

فاننا نستنتج من ذلك كله ان قسماً من السبئيين كانوا منحازين الى هذا الملك ، وانهم كانوا يعترفون به ملكاً على سبأ وذي ريدان وان (الشرح يحضب) لم يكن يحكم كل سبأ والقبائل التابعة للسبئيين .

وذكر اسم (شعـــرم أوتر) في نصين آخرين قصيرين ، هما بقايا نصين . ورد في أحدهما اسم (ظفار)[١] ، وقد أهمل فيه لقبه . أما النص الثاني فقد دوّن عند بناء بيت ، وقد لقب فيه بـ (ملك سبأ وذي ريدان)[٢] .

ويظهر ان (شعر أوتر) قد تمكن من بسط سلطانـــه على أكثر حكومات العربية الجنوبية وعلى قبائلها ، ما خلا المناطق التي كانت في أيدي الحبش،وهي الأرضون الغربية من اليمن والواقعة على ساحل البحر الأحمر[٣] .

لقد جعل (جامه) حكم (شعر أوتر) فيما بين السنة (٦٥) والسنة (٥٥) قبل الميلاد ، وجعل نهاية حكم شقيقه (حيو عثتر يضع) في السنة (٥٠) قبل الميلاد ، وهي سنة انتقال الملك من أسرة (يرم أيمن) الى أسرة (فرعم ينهب) التي بدأت حكمها في أرض تقع حوالي (صنعاء) ثم وسعت حكمها حتى شمل مملكة سبأ وذي ريدان كلها[٤] .

هذا ، وأود أن أشير هنا الى ان النص : Jamme 631 المكتوب في أيام الملك (شعر أوتر) والذي تحدثت قبل قليل عنه ، قد ورد فيه اسم ملك هو (لعززم يهنف يهصدق) ، وملك آخر اسمه (لحيعثت يرخم) . وقـــد لقب كل واحد منهما بـ (ملك سبأ وذي ريدان) . ومعنى هذا وجود ملكين آخرين كانا يحكمان في أيام (شعر أوتر) كـــل منهما يلقب بلقب (ملك سبأ وذي ريدان) . واذا أضفنا اليهما والى الملك (شعر أوتر) الشقيقين (الشرح يحضب) و (يأزل بين) ، وقد كانا يلقبان بهذا اللقب أيضاً ، نجد أمامنا خمسة ملوك يلقبون بلقب واحد . ويرى بعض الباحثين ان الملك (لعززم يهصدق) ، كان ملك أرض (ظفار) وما جاورها ، وهو الذي هاجمه الحبش وانتصروا عليه ،

---

١ نشر (ص ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣) .
٢ نشر (ص ٦٤ وما بعدها) .
٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 475.
٤ Mahram, PP. 390.

وكان يحكم هذه الأرضين حكماً مستقلاً فلما هاجمه الحبش ، أسرع الملك (شعر أوتر) لنجدته على نحو ما ورد في النص[١] .

وأما الملك (لحبعثت يرخم) ، فقد ورد اسمه في نص وسمه العلماء بـ REP. EPIG. 2633 ، ولسنا نعرف من أمره اليوم شيئاً يذكر[٢] . ويظن انه من ملوك المقاطعات ، أي الملوك الصغار المحليين ،وقد كان حكمه يتناول الأرضين الواقعة شمال أرض ظفار[٣] .

يتبين لنا مما تقدم أن ملوك سبأ لم يكونوا ينفردون وحدهم بالحكم دائماً ، وإنما يظهر بين الحين والحين ملوك ينازعونهم الملك واللقب ، يبقون أمداً مستقلين وقد يتغلبون على الملوك الشرعيين الأصليين ويسلبونهم الملك ، كالذي فعله (الشرح يحضب) وشقيقه (يأزل بين) ، إذ كانا ملكين يحكمان أرض (صرواح) ثم بسطا سلطانهما على أرضين أخرى ثم انتزعا العرش نهائياً ، وصارا الملكين على مملكة (سبأ وذي ريدان)[٤] .

لقد انتهيت من الكلام على أسرة (اوسلة رفشان) ، وهي من عشيرة (بتع) من قبيلة (حاشد) أحد فرعي (همدان) ، وقد وجب الكلام الآن على أسرة همدانية أخرى ظهرت في هذا الزمن او قبل ذلك بقليل ، وانتزعت الملك من السبئيين ، وأخذته لها ، وهذه الأسرة هي أسرة (نصرم يهأمن) التي سبق أن تحدثت عنها في أثناء كلامي على (ملوك سبأ) . فقد كان (نصرم يهأمن) من قبيلة همدان أيضاً ، فنحن إذن في عصر سبئي ، إلا أن الحكم فيه لم يكن في أيدي ملوك سبئيين ، ولكن كان في أيدي ملوك من همدان .

اسرة (يرم ايمن) :

١ ـ أوسلت رفشان (اوسلت رفشن) .

---

١ Mahram, P. 306.

٢ Mahram, P. 134.

٣ Mahram, P. 306.

٤ CIH 398, Mahram, P. 306.

٢ – بريم أيمن (برم أيمن) .
٣ – علهان نهفان (علهن نهفن) .
٤ – شعر أوتر (شعرم اوتر) .
٥ – حيو عثتر يضبع .

الفصل السادس والعشرون

أسر وقبائل

تحدثت عن ملوك سبأ ، وعليّ الآن أن أتحدث عن الأسر وعن القبائل التي كانت لها أعمال بارزة ملحوظة في هذا العهد ، اذ كانت من القوى الموجهة ، ولتوجيهها أثر مهم في سياسة زمانها .

وأول من يجب ان أبدأ بهم ، (فيشن) (فيشان) . فنهم كان مكربو سبأ ، ومنهم كان الملوك . ولا بد أن يكون الفيشانيون من القبائل القوية الكثيرة العدد ، والا لم تخضع لها القبائل الأخرى ولم تسلم لها بالقيادة والسيادة .

وكانت (صرواح) عاصمة المكربين ، من أهم مواطن الفيشانيين . وقد ورد في الكتابة الموسومة بـ Glaser 926 انهم كانوا أصحاب (عهرو)[١] ، أي نادٍ يشبه (المزود) ، أو (دار ندوة) قريش[٢] ، يجتمع فيه ساداتهم للتشاور في الأمور ، وللتحدث عما يحدث لهم .

وقد أضاف المكرب والملك (كرب ايل وتر) الى اسرته والى قبيلته (فيشن) (فيشان) أملاكاً واسعة كما ذكر ذلك هو نفسه في كتابته : (كتابة صرواح). وقد أخذ تلك الأملاك من القبائل التي عارضته وحاربته ، فتوسعت رقعة منازلها بفضل هذه الأملاك .

١ Ktb., II, S. 49.

٢ المصدر نفسه (ص ٥٠) .

وجاءت في بعض النصوص ، جملـــة هي : (سبأ وفيشان)[١] ، فعطفت (فيشان) على سبأ ، مما يدل على ان (فيشان) لم تكن في عداد سبأ في نظر القوم اذ ذاك .

وقد جاء في النص : Jamme 558 ان : (يدع ابل) وهو ابن (كرب ابل بين) (ملك سبأ) وكذلك (الشرح) ، وهو ابن (سمه على ذرح) ، كانا من عشيرة (شعبهمو) (شعب) (فيشن) ، أي (فيشان)[٢] . ففيشان اذن من الأسر القديمة المعروفة في اليمن ، ومنها كان أقدم حكام سبأ[٣] .

وقد ولدت قبيلة أخرى عدداً من الملوك ، جلسوا على عرش سبـأ وحكموا السبئيين وغيرهم . وهذه القبيلة هي قبيلة (مرثد) وهي من (بكل) (بكيل). وكانت تتعبد للإلـه (المقه) إلـه السبئيين الأول . وقد أقامت له معابد عديدة، منها معبده المسمى بـ (المقه ذهرن) ، أي معبد (المقه) في (ذي هرن) (ذي هران)[٤] . و (هران) من المواضع التي ذكرها (الهمداني)[٥] .

ومن ملوك سبأ الذين تبوأوا العرش،وهم من (مرثد) الملك (أنمار يهأمن بن وهب ايل) الذي سبق أن تحدثت عنه ، وأكثر الكتابات التي ترجـــع الى عهده ، عثر عليها في مدينة (حاز) في جنوب (عمران)[٦] .

ومن ملوك سبأ الذين أصلهم الى (مرثد) ، الملك (الشرح يحضب) وأبناؤه. وقد دوّن اسم (الشرح) في جملة كتابات عثر عليها في (شبام سخيم) .

وكانت لمرثد أرضون غنية واسعة في الجزء الغربي من (بلد همـــدان) ، وهي جزء من أرض (بكل) (بَكيل)[٧]، تستغلها قبائل (بكيل) وبطونها لقاء جعل تدفعه لسادات القبائل والملوك ، يتفق على مقداره ، ويقال لعقد هذه الاتفاقيات (وتف) (وتفن) . وتشرف معابد (المقه) على أوقاف واسعة

---

١ Handbuch., I, S. 129

٢ الفقرة السابعة من النص : Jamme 558, MaMb 201, Mahram, PP. 24.

٣ A. F. L. Beeston, Sculptures and Inscriptions from Shabwa, in JRAS, 1954, PP. 52, Mahram, P. 27, Smith, in Vetus Testamentum, II, 1952, P. 287.

٤ CIH IV, I, II, P. III, Handbuch, I, S. 88.

٥ الصفة (١١٧/٢) ، الاكليل (١١٧/٨) (طبعة نبيه) .

٦ حاز ، الاكليل (٣٨٥/٢ ، ٤٥٦) ، Handbuch, I, S. 886

٧ KTB., II, S. 71.

لها ، تؤجرها أحياناً لسادات القبائل بمبالغ يتفق عليها الطرفان .

وقد وصلت الينا جملة عقود (وتف) عقدت بين كُهان معابد (المقه) وسادات (مرثد) ، منهـــا الاتفاقية المعروفة بـ Glaser 131[1] . وقد تعهدت (مرثد) فيها لمعبد (المقه بعل اوم) بالوفاء له بما اتفق عليه ، تدفعه له في وقته في كل سنة ، كما تعاقدت عليه في الشروط المدونة في (الوتف) ، على أن يهبها الإلـه (المقه) غلة وافرة ومحصولاً جيداً . ويظهر انها لم تف للمعبد بما اتفق عليه ، ولم تسلم له حصته كما ينبغي ، وصادف جـدب انزل أضراراً بمرثد ، ففسر الكُهـّان ذلك بغضب إلهي أرسله (المقه) على (مرثـد) لعدم وفائهم بالعهد ، فارتأى سادتهم أن يكفروا عما بدر منهم ، والوفـاء في الموسم المقبل ، فجددوا العهد ، وكتبوه مجدداً تأكيداً على أنفسهم أمام الإلـه (المقه) الذي وافق على ذلك ورضي به[2] . ويعني ذلك بالطبع رضاء الكُهـّان وموافقتهم على تجديد العقد .

وتحكمت (مرثد) ، بما لها من سلطان واتساع أرضين ، في عشائر أخرى ، دانت لها بحق (الجوار) ، وعدت سادة (مرثد) سادتها كذلك . وقد اختارت كل عشيرة منها من شاءت من سادة مرثد ، فكان ممن ساد منهم عشيرة (عرن) (عران) سيد من (مرثد) اسمه (ريم) اي (ريب) . وقد ورد اسمه في نص كتبه في سنة (خرف) (خريف) (عم كرب بن سمه كرب بن حزفرم) وذلك حمداً وثناء على الإلـه (المقه) رب معبد (ذ هرن) (ذي هران)[3]، لمننه ونعمائه ، وتعبيراً عن حمده وشكره ، قدم له نذراً أهداه الى ذلك المعبد[4] .

وكان (بنو ارفط) (بن ارفط) من القبائل الّتي دانت بسيادة (بني مرثد) عليهم ، كما يتبين من كتاباتهم . فقد عبروا عنهم بـ (امراثهم بني مرثد)[5]، وعبروا عن سيادة (بني مرثد) عليهم بجملة (آدم بن مرثدم) ، أي (خول

---

١ Glaser 131, CIH 99, STUDL Lexi., II, S. 157.

٢ Bodenwirtschaft, S. 23.

٣ (المقه ذهرن) (المقه ذو هران) .

٤ CIH 73, IV, I, II, P. 108, E. Oslander, Zur Himjarischen Alterthumskunde, in ZDMG., XIX, S. 161, BM 4, OS I.

٥ CIH 75, BR. MUS. 7, OS 9, CIH, IV, I, II, P. 114.

بني مرثد)[1] ، وفي هذا التعبير دلالة واضحة على انهم كانوا اتباعاً لبني مرثد، خاضعين لهم ، فان لفظة (ادم) لا تقال الا تعبيراً عن التبعية والخضوع .

وعرفنا من الكتابات اسم قبيلة اخرى كانت تعدّ نفسها في جوار (بني مرثد) وولائهم . وهي قبيلة (نبشم) (نبش) (نابش) ، وقد قدّم أحد أبنائها نذراً الى (المقه ذي هران) ، وذكر ان ذلك كان في ايام سيده وأميره (يثعم) اي (يثع) من مرثد)[2] .

ويعد (بن اخرف) (بنو اخرف) ، وهم على ما يظن (بنو الخارف) من اتباع (مرثد) ايضاً . وقد ورد في النص : CIH 79 اسم احد رؤسائهم من (مرثد) ، وهو (يفرعم) (يفرع) . وقد ذكـر (نشوان بن سعيد الحميري) : ان (الخارف بطن من همدان من حاشد)،وذكر نسبهم وبطونهم في الجزء العاشر من (الإكليل)[3] .

وكان (بنو وهرن) (بنو وهران) ، من اتباع (مرثد) كذلك ، وقد صرح بذلك احدهم في كتابة قدمها الى (المقه ذي هران)[4] .

ومن القبائل التي اعترفت بسيادة (مرثد) عليها،(بنو كنم) (بنو كنب)[5] و (بنو عبدم ذي روثن) أي (بنو عبد) أصحاب (روثان)[6]،و(بنو أرفث)[7] و (بنو ضنم)[8] ، أي (بنو ضب) و (بنو أسدم) ، أي (بنو اسد)، الذين تعبدوا لألمقه بمعبده في موضع (صوفن) (صوفان)[9] ، و(بنو يهفرع)[10] و (بنـــو أشيب)[11] ، و (بنو قرين) (قورين)[12] ، و (بنو حيثم)

---

١ CIH 77, BR. MUS. 9, Oslander, in ZDMG., XIX, S. 199.

٢ CIH 76, BR. MUS. 8, OS 12, CIH, IV, I, II, P. 116.

٣ CIH 79, BR. MUS. II, OS 8, CIH, IV, I, II, P. 121.

٤ CIH 87, IV, I, II, P. 140, BR. MUS. 19, OS. 18.

٥ CIH 88, IV, I, II, P. 143, BR. MUS. 20, OS 16, Oslander in ZDMG., XIX, S. 210.

٦ Halevy 6, Etudes, P. 114, OS 22.

٧ OS 9, Halevy, Etudes, P. 117.

٨ Halevy 16, Etudes, P. 131, OS 23.

٩ OS 27, Halevy 17, Etudes, P. 132, CIH 84, IV, I, II, P. 135.

١٠ Halevy 25, Etudes, 145, CIH 72, IV, I, II, P. 106, OS 5, BR. MUS. 3.

١١ OS 18, Halevy 27, Etudes, P. 148.

١٢ Halevy 18, Etudes P. 136, OS 13, D. Nielsen, Der Sab. Gott Ilmukah, S. 49, Pratorius, Beitr., S. 141.

(بنو حيث)[1] ، و (بنو ذنحن) (بنو ذنحان)[2] ، وغيرها .

و (روثان) من الأسماء المعروفة في اليمن ، وقد كان محفداً من المحافد ، وقد ذكره (الهمداني) في (الإكليل)[3] .

وقد ورد في النص CIH 102 [4] ، اسم جماعة تدعى (بنو مضن) ، (بنو مضان) ، وهم من (ابكلن) (أبكل) من سكان مدينة (عمران) ، وقد ورد اسم هـــذه المدينة في نصوص أخرى ، يظهر منها أن اصحابها كـانوا من (بني ابكلن) (أبكل)[5] .

ولعلّ لما ذكره (الهمداني) من وجود قبائل تنتسب الى (الأسد بن عمران)[6] علاقة بـ (بني أسدم) (أسد) الذين ذكرتهم قبل قليل ، كانـوا نزولاً في (عمران) فنسبوا اليها .

سخيم :

ومن القبائل في هذا العهد قبيلة (سخيم)، التي ورد اسمها في مواضع من هذا الكتاب . وكانت تتمتع بمنزلة محترمة ومكانة مرموقة ، ولها أرضون تؤجرها لمن دونها من القبائل بجعالة سنوية وخدمات تؤديها لسادات هذه القبيلة . وتعد منطقة (شبام سخيم) الموطن الرئيسي لـ (بني سخيم) . وقد تحدث (الهمداني) عن (شبام سخيم) ، فقال : (ومن قصور اليمن ، شبام سخيم ، وكان فيها السخيميون من سخيم بن يداع بن ذي خولان ... وبها مـآثر وقصور عظيمة . ومن شبام هذه تحمل الفضة الى صنعاء ، وبينها أقل من نصف نهار)[7]. فجعل

---

١ Halevy, Etudes, P. 138.

٢ OS 6, Halevy 20, Etudes, P. 140.

٣ الاكليل (٨/ ٩٠ ، ٩١) (طبعة نبيه) ، (١٠/ ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤) .

٤ CIH 102, IV, I, II, P. 164.

٥ CIH 95, BR. MUS. 27, OS 20, CIH, IV, I, II, P. 155, Oslander, Zur Himjarischen, In ZDMG., XIX, S. 220.

٦ الاكليل (٨/ ٧٠) (طبعة نبيه) .

٧ الاكليل (٨/ ٨٣ وما بعدها) (طبعة نبيه) ، الاكليل (٢/ ٢٨٣ وما بعدها) ، « خولان » .

(الهمداني) (السخيميين) من (ذي خولان) . وقد أخذ هذا النسب من موقع أرض (سخيم) التي تقع في أرض (خولان)،فصار هذا نسباً للسخيميين على مرور الأيام[1] .

وكان لـ (بني سخيم) سلطان واسع في (شبام سخيم) ، ولهم في هذا الموضع (مزود) يجتمعون فيه ، ويتداولون في تصريف امورهم في السلم والحرب. وكان منهم (اقول) (اقيال) حكموا قبائل اخرى . وقد قام رجالهم بأعمال عمرانية مثل فتح طرق ، وحفر قنوات ومسايل للمياه ، يساعدهم عليها أتباعهم من (بني سخيم) ومن القبائل الأخرى التي كانت نزولاً عليهم . ولتغلب (سخيم) على موضع (شبام) ، عرف باسمهم تمييزاً له عن مواضع أخرى عرفت أيضاً باسم (شبام)[2] .

وقد وصلت الينا أسماء طائفة من سادات (سخيم) ، قاموا بأعمال عمرانية دونوها في كتاباتهم ، او ساعدوا اتباعهم على القيام ببعض الأعمال العمرانية ، فذكروا أسماءهم لذلك اعترافاً بفضلهم عليهم . ومن هؤلاء شيخ اسمه (يشرح آل اسرع) (يشرع ايل اسرع) وكان رئيساً على سخيم . وعثر على اسمه في عدد من الكتابات وجدت في (الغراز)[3] ، وجد في احداها انه ساعد قبيلة سقط اسمها من النص (وكانت تابعة لبني سخيم) على بناء (مزود) لها[4] ، فذكر اسمه لذلك في الكتابة اعترافاً بفضله على اصحاب النص .

ومن سادات ورؤساء (سخيم) (الرم يجعر) (الريام يجعر) (الريم يجعر) ، وكان (قول) قيلاً على (سمعي) ، التي تكوّن ثلث (حجرم) في ايام الملك (وتر يهامن) (وتر يهأمن) ، وهو ابن الملك (الشرح يحضب) ملك سبأ وذي ريدان . وقد ارسله الملك لمحاربة (خولان جددن) ، أي خولان النازلة بـ (جددن) (جددان) ، فانتصر عليها وعلى من انضم اليها ، كما يدعي النص الذي سجله هذا القيل[5] .

---

١ Handbuch, I, S. 132, Beiträge, S. 19. ff.

٢ Sab. Inschrl., S. 15.

٣ Sab. Inschrl., S. 18, MM I, RW 59, MM 4, 5.

٤ Sab. Inschrl., S. 24, MM 4.

٥ Jamme 601, Mahram, P. 102, MaMb 205.

وكان لـ (سخيم) سلطان على فرع من قبيلة (سمعي) ، هو الفرع الذي استقر في (حجر)،وقد اختار له (اقولاً) اقيالاً من (بني سخيم) ، ولعل هذا الفرع ترك موطنه الأصلي لخصام وقع له مع بقية فروع (سمعي) ، فهاجر الى هذا الموضع،ونزل في جوار (سخيم)،وعدّ منهم،وحكمه لذلك أقيال من سخيم. ويجوز أن يكون هؤلاء السمعيّون هم سكان هذه المنطقة في الأصل ، إلاّ أن (سخياً) تغلبوا عليهم ، وصارت لهم الإمارة في (شبام) ، فصار (سمعي حجر) اتباعاً لهم . والظاهر أن (حجراً) كانت تعد ملك (سخيم) أو تابعة لسلطانهم السياسي ، ولذلك كان أقيال (البرسميين) من (بني سخيم) كذلك .

وقد كانت (سخيم) من القبائل المهمة في ايام (الشرح يحضب) (اليشرح يحضب) . وقد ورد في كتابة عثر عليها في (شبام سخيم) ، كتبها جماعة من (سمعي) التابعين لسخيم ، حمد الآلهة وثناء عليها ، اذ منت على أصحابها بالمنن والنعماء ، ورجاء منها بأن تمن عليهم بالخير والبركة وعلى ملكهم (الشرح يحضب) (اليشرح يحضب) وأولاده وعلى (أقولهم) أقيالهم السخميين ، أي من (بني سخيم)[1] . ويظهر ان رؤساءها اكتسبوا قبل تولي (الشرح) العرش قوة وسلطاناً جعلا قبيلتهم ذات مكانة حين صار العرش اليه .

وكما كان للملوك معين ومأرب وحمير وغيرهم قصورهم وحصونهم التي صارت رمزاً لهم ولشعوبهم ، كذلك كان لملوك (سمعي) وسخيم قصرهم الذي عرف بهم ، وهو (حصن ذو مرمر)،وقد بني على مرتفع من الأرض يبلغ ارتفاعه زهاء (٢١٠) امتار عن السهل الذي يقع فيه،فيشرف على مدينة (شبام سخيم) القديمة[2] . وهو حصن قوي ، حصن بسور متين ليمنع المهاجمين من الوصول اليه . وقد ذكر اسمه في عدد من الكتابات ، وبقي هذا الحصن قائماً الى حوالي السنة (١٥٨٣ م) . فهدمه والي اليمن العثماني ليبني بحجارته مدينة جديدة[3] .

وكان لسادات سخيم قصر يسمى (بيتن ريمن) ، أي (بيت ريمان) ،

---

١ Sab. Inschr., S. 38, MM 24, Beiträge, S. 19.

٢ Beiträge, S. 17, 18.

٣ Beiträge, S. 18, Glaser 1209.

وقد نعت أصحابه انفسهم بـ (ابعل بيتن ريمن) ، أي سادات وأرباب بيت ريمان[1] . وقد ورد اسمه في عدد من النصوص[2] . ويلاحظ ان اصحاب (بيت ريمان) كانوا أقيالاً على (برسم) .

ومن سادات وأرباب وأصحاب (ابعل) (بيت ريمان) ، القيل (شرحعثت أشوع) وابنه (مرثدم) ، وهما من (سخيم) . وكانا قيلين على بطن (برسم) من بطون (سمعي) في أيام الملكين : (ثاران يهنعم) و (ملككرب يهأمن) (ملكا سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت)[3] .

وكان (وهب اوم ياذف) (وهب أوّام يأذف) وشقيقه (يدم يدرم) من أصحاب (بيت ريمان) ، ومن أقيال (برسم) التي هي من (سمعي) المكونة لثلث (حجرم)[4] .

ومن بطون (سمعي) ، التي تكوّن ثلث (حجرم) بطن (يرسم) . وكان بحكمه في ايام (نشأكرب يأمن) ، وهو ابن (الشرح يحضب)، جماعة من (سخيم) . وقد كلفوا محاربة (خولن جددن) ، أي (خولان جددان). وكانت قد ثارت على (سبأ وذي ريدان) ، فانتصروا عليها واخذوا غنائم وأسرى منها ، كما تعهد رؤساؤها باطاعة أوامر الملوك[5] .

ومن اتباع (سخيم) عشيرة عرفت بـ (ذ مليحـم) (ذي مليح) ، وكانت تقيم في (الغراز)[6] . ويظهر انها كانت في الأصل من المعينين ، ثم هاجرت الى (شبام) ، فنزلت على (بني سخيم)[7] . وقد هاجر غيرهم من المعينين الى ارض السبئيين ، مثل (سريعم) اي (بني سريـع) ، وهاجر غيرهم الى اماكن اخرى . والظاهر ان هجرتهم هذه حدثت بعد ضعف معين[8] .

---

١ راجع السطر الثالث من النص : Jamme 616, MaMb 199, Mahram, P 114.
٢ REP. EPIG. 4919, CIH 537, REP. EPIG. 4979.
٣ Jamme 670, MaMb 292, Mahram, PP. 175.
٤ Jamme 718, 788, MaMb 56, 62, Mahram, P. 202 234.
٥ Jamme 616, MaMb 199, Mahram, PP. 113.
٦ Sab. Inschr., S. 204.
٧ Sab. Inschr., S. 48, CIH 29, IV, I, I, P. 46, Glaser, 281.
٨ Sab. Inschr., S. 49.

وقد بلغنا نص دوّنه زعيم من زعماء (ذي مليحم) (ذي مليح) اسمه (وهب ذو سموى اكيف) ، تقرباً الى الإلّه (تالب ريمم بعل كبدم) (تألب ريام بعل كبد) ، لأنه أجاب دعاءه ، فحفظه وساعده ، وساعد ابنه وأتباعه ، وذلك في ايام الملك (أنمار يهأمن) ملك سبأ ابن (وهب ايل يحز)[1] .

خسأ :

وخسأ من القبائل الّتي ذكرت في عدد من الكتابات ، وكانوا نزولاً على (بني سخيم) ، الذين كانوا يعدّونهم سادة عليهم ، لأنهم أصحاب الأرض[2].

ويظهر أن جماعة من (خسأ) كانت قد نزلت أرض (الهان) ، إذ ورد في نص : (خسا ذ الهن) ، (خسأ ذو الهان) . وتعني هذه الجملة أن (خسأ) كانوا يقيمون في موضع (ذي الهان) ، أو (خسأ) أصحاب (الهان) . وقد كان هؤلاء الخسئيون يجاورون قبيلة (عقربم) أي (عقرب)، (العقارب)[3] .

وعرف من الكتابات أن (خسأ) كانت تتعبد لإلّة خاص بها ، هو الإلّه (قينن) ، أي (قينان) . ومن جملة المعابد الّتي خصصت به ، معبد أقيم له في (اوثن) (اوثان) ، وقد تعبدت له ايضاً بعض القبائل الّتي كانت متحالفة مع (خسأ)[4] . وقد ذكر (الهمداني) موضعاً سماه (قينان)[5] ، قد يكون له صلة باسم ذلك الإلّه . ولم يبلغني أن المؤلفات العربية أشارت الى هذا الإلّه .

وقد ورد اسم (الهان) علماً في ارض في عدد من الكتابات[6] ، كما ورد

---

١ MM 26, 120, Sab. Inschr., S. 48, 141.

٢ Sab. Inschr., S. 195, (155), RW 2, CIH 8, IV, I, I, P. 19, Halevy 4, Glaser 9, Orientalia, Vol., V, 1936, P. 34.

٣ المصادر المذكورة .

٤ CIH 8, 26, 560, Halevy 4, Glaser 9, 26, Praetorius, 9, Prideaux 6, BR. MUS. 60, CIH, IV, I, I, P. 19, 39, IV, II, IV, P. 333.

٥ الاكليل (٧٩) ، الصفة (٦٩ ، ١٠٠) .

٦ CIH 350, IV, I, IV, P. 420, Winckler, Die Sab. Insch. der Zeit Alhan Nahfan, S. 29.

اسم علم لقبيلة . وربما كانت أرض (الهان) هي (مخلاف الهان) المذكور في المؤلفات الإسلامية [١] .

وقد ذكر (الهمداني) مخلاف (الهان) ، فقال إنه مخلاف واسع غربي حقل جهران ، وأن (الهان) بلد مجمعها (الجنب) (جنب الهان)، ويسكنها (الهان بن مالك أخو همدان وبطون من حمير)[٢] ، وذكره في مواضع من (الاكليل)[٣] .

وورد في الكتابة الموسومة بـ CIH 40 اسما قبيلتين مع اسم (الهان) هما : (مهانفم) (مهأنف) ، و (بكيلم) أي (بكيل) .

وقد ذكر في احدى الكتابات رجل يسمى (تهوان) ، وكان من (ذي الهان)، تعاون واشترك مع (عقرب) (عقارب) في بناء محفد (صدقن) (صدقان) ، وهو محرم الإله (قينان) ، كما تعاون معهم في بناء بيت (يجر)[٤] .

عقرب :

وعرف من الكتابات اسم عشيرة أخرى ، هي (عقربم) ، أي (عقرب) أو (عقارب) ، ولا يزال هذا الاسم معروفاً في العربية الجنوبية حتى الآن[٥] . وقد ورد (العقارب) اسماً لقبيلة زُعم انها من نسل (ربيعة بن سعد بن خولان بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير)[٦] ، كما ورد اسماً لجبل يعرف بـ (جبل العقارب)[٧] . وقد عرف (العقارب) باسم (عقربي)[٨] . وذكر (ابن مجاور) قبيلة (عقارب) في جملة القبائل الساكنة في منطقة (عدن)[٩] ، فلعل لهذه الأسماء

---

١ Sab. Inschr., S. 27, Denkmaler, S. 38, Mlaker, in WZKM, XXIV, S. 71

٢ الصفة (الصفة ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥) .

٣ الاكليل (٨/٣٠ ، ٥٨) (طبعة نبيه) .

٤ Orientalia, Vol., V, (1936), P. 22, 286.

٥ Sab. Inschr., S. 27, Orientalia, Vol., V, 1936, P. 28

٦ نشر (ص ١٣) ، لب اللباب في علم الأنساب (٣٨) .

٧ Sab. Inschr., S. 28.

٨ Sab. Inschr. S. 28, Ritter, Arabien, I, S. 675, Von Maltzen, Reisen, S. 314, Sab. Inschr., S. 28.

٩ Sab. Inschr., S. 28.

صلة بقبيلة (عقرب) (عقارب) المذكورة .

وقد كانت (عقرب) تابعة لـ (بني سخيم) وحليفة لهم ، ونازلة في جوارهم . يفهم ذلك من الجمل والتعبيرات في كتاباتهم الدالة على خضوعهم لـ (بني سخيم) مثل (ادم بن سخيم) ، أي (خول وخدم بني سخيم)[1] ، فهو تعبير يدل على العبودية والخضوع .

خولان وردمان :

وخولان من القبائل الكبيرة القوية التي ذُكرت في عدد كبير من الكتابات العربية الجنوبية . وقد رأينا اسمهم لامعاً في أيام المعينيين ، وقد ذكرت انهم هاجموا مع السبئيين قافلة معينية كان يقودها (كبيران) ، وحمد المعينيون آلهتهم وشكروها على نجاة هذه القافلة ، وهي من القبائل العربية الحية السعيدة الحظ ، لأنها ما تزال معروفة ، ولها مع ذلك تأريخ قديم قد نصعد به الى الألف الأول قبل الميلاد[2] .

ويرجع النسابون نسب (خولان) الى (خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة)[3] أو الى (خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن كهلان بن سبأ)[4] . ويميزون بين (خولان قضاعة) ، وهم إخوة (بَليّ) و (حيدان) ، وبين (خولان أدد)[5] ، وقد يذكرون (خولان) أخرى في (مذحج)[6] .

وقد صبر اسم (خولان) بمرور الزمان ، اسم رجل نسل ذرية تكاثرت وتوالدت ، فكانت منها هذه القبيلة العظيمة ، وقد جعل له النسابون . أباً وجداً

---

١ Orientalia, Vol., V, (1936), P. 22, 286, MM 7, RW 53, San'a 1909, Jemen, II, 337, Sab. Inschr., S. 26.

٢ Ency., Vol., II, P. 933.

٣ منتخبات (٣٥) ، (خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ) البلدان (٤٩١/٣) ، (وخولان قبيلة باليمن · وهو خولان بن عمرو ابن الحافي بن قضاعة) ، تاج العروس (٣١٢/٧) ·

٤ Ency., Vol., II, P. 933.

٥ الاكليل (٣/١٠) ·

٦ الاكليل (٣/١٠) ، صبح الأعشى (٣٢٦/١) ·

وأجداداً بعد هذا الجد ، كما جعلوا له ولداً ذكروا أسماءهم . ويمثل هذا النسب الاختلاط الذي كان بين الخولانيين وغيرهم من القبائل بمرور الزمـان حتى أيام النسابين ، فدوّن على نحو ما وصل الى علمهم من أفواه الرواة .

ومواطن الخولانيين قديماً ، أرضون متصلة بأرض السبئيين ، فكانوا يسكنون في جوار (مأرب) و (صرواح) ، وهي لب أرض سبـأ ، ثم هاجرت جماعات منهم فسكنت الأرضين العالية من شرق (صنعاء)،وقد قيل للخولانيين الذين سكنوا هذه المنطقة (خولان العالية) ، تمييزاً لهم عن (خولان قضاعة)[1] وهذا التمييز لا يستند الى حقيقة ، يمكن رجعُها الى اختلاف النسب[2] . وانما نشأ من اختلاف طبيعة المكان ، ومن الأحوال السياسية والاقتصادية التي فرقت بين الخولانيين ، وباعدت بين فروعهم ، فظن أنهم من نسبين مختلفين .

وقد كان الخولانيون يتعبدون عند ظهور الإسلام لصنم لهم اسمه (عم أنس)[3] (عميأنس) . وقد ذكر (ياقوت الحموي) أنه (في خولان كانت النار التي تعبدها اليمن)[4] ، ذكر ذلك في أثناء حديثه عن (مخلاف خـولان) المنسوب الى (خولان قضاعة) . وقد تكون هذه العبادة — إن صح قول ياقوت — قد اقتبست من الفرس عَبَدَة النيران .

وقد ذهب (الويس شبرنكر) و (نيبور) الى أن قبيلـة (خولان) هي (حويلة) المذكورة في التوراة[5] ، ولكن هناك صعوبات كثيرة تحول دون قبول هذا الرأي .

وقد اقترن اسم (خولان) باسم (ردمان) في كثير من النصوص . ويدل هذا بالطبع على وجود روابط وثيقة بين الجماعتين.وقد حكم الخولانيين والردمانيين أقيالٌ من (ذي معاهر) ، فكان القيل سيداً على القبيلتين في آن واحد في غالب الأحايين ، وفي ذلك دلالة بالطبع عـلى الصلات والروابط السياسية التي ربطت بين خولان وردمان وذي معاهر (ذ معهر) .

---

١ الاكليل (١٠/٣) .
٢ Ency., II, P. 933.
٣ الأصنام (ص ٤٣) ، Ency., II, P. 933.
٤ البلدان (٤٩١/٣) .
٥ Ency., II, P. 933.

وقد عرف الإسلاميون (أقيال ذي معاهر) ، فذكرهم الهمداني في مواضع من كتابه (الإكليل) ، ذكر مثلاً أن (شحرار قصر بقصوى مشيد ببلاط أحمر للقيل ذي معاهر)[1] ، وذكر أيضاً (قصر وعلان بردمان ، وهو عجيب ، وهو قصر ذي معاهر ، ومن حوله أموال عظيمة)[2] . ويشير قول الهمداني الأخير الى الصلات التي تربط هؤلاء الأقيال بردمان ، والى أن اولئك الأقيال كانوا يقيمون بأرض ردمان .

ويرى (كلاسر) ان قصر (وعلان) ، الذي هو في (ذي ردمان) ، كان مقر أقيال (ذي معهر) ، أي أقيال ردمان[3] . فوعلان اذن هو قصرهم ، وهو مثل القصور الأخرى التي كانت للملوك والأقيال . وهي قصور وحصون يحتمي بها اذا شعر بالخطر ، ولذلك عُدّت رمزاً للدولة وللحكم .

وترد لفظة (ذ معهر) علماً في الكتابات على (ردمان) و (خولان)[4] . وقد ذكر أيضاً في نص (أبرهة) الذي دوّنه سنة (٥٤٣ م) لمناسبة اصلاح سد مأرب وترميمه اذ جاء فيه : (ذ معهر بن ملكن)[5] . وقد ذهب (كلاسر) الى ان المراد من (ذي معهر) ، في هذا المكان ابن (أبرهة) ، وكان قد تلقب – على رأيه – بهذا اللقب ، الذي يشير الى قصر (ذي معهر) بردمان[6] .

ومن أقيال (ذي معاهر) الذين حكموا الخولانيين والردمانيين ، القيل (قول) (كرب اسرع) (كرب أسرع) ، وكان من أسرة غنية لها أرضون زراعية خصبة تسقى بمياه الآبار في وادي (ضفخ) (ضفخم) ، ووادي (أخر) وفي أرض (ذات حراض) (ذات حرض) ، ووادي (مذيق) ، وأماكن أخرى . وقد عُنيت أسرته باصلاحها ، وبإروائها من آبار حفرتها في هذه الأماكن ، وكتبت ذلك على الحجارة[7] ، تسجيلاً لعملها هذا ، ليكون وثيقة شرعية بامتلاكها لهذه المواضع .

---

١ الاكليل (٨/٥٣) .

٢ الاكليل (٨/٨٩) ، (وذو معاهر بالضم قيل من اقيال حمير . قاله ابن دريد . قلت هو تبع حسان بن أسعد بن صيفي بن زرعة) ، تاج العروس (٣/٤٣٢) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٣١٢) Von Kremer, Südarabische, Sage, S. 90, 126.

٣ Beiträge, S. 39.

٤ Beiträge, S. 39.

٥ السطران : ٨٢ و ٣٨ من نص أبرهة .

٦ Beiträge, S. 39.

٧ Orientalia, Vol., I, (1932), P. 32.

وورد اسم قيل آخر من أقيال (ذي معاهر) الذين حكموا القبيلتين المذكورتين هو القيل (كرب أسأر) ، كانت له أملاك في أرض (ذات حرض) (ذات حراض) بوادي (مضيق)[1] .

وورد اسم قيل آخر حكم القبيلتين معاً ، هو القيل (نصرم يهحمد) (نصر يهحمد) (ناصر يهحمد)[2] ، وهو من (ذ معهر) (ذي معاهر) . وقد دوّن هذه الكتابة لمناسبة قيامه باصلاح أرض (وادي ملتنّم) (وادي ملتنت) حيث حفر آباراً ، وأنشأ سدوداً ، وزرع أشجاراً أثمرت ، وبذر حبوباً . وقد سجل ذلك ملكاً خاصاً بـ (آل معاهر) ، وباسمه وأعلنه للناس في شهر (صيد) من سنة مئة وأربع وأربعين من التقويم السبئي ، وتقابل سنة تسع وعشرين بعد الميلاد[3] .

ويعد هذا النص ، من النصوص المهمة ، ولعله أقدم نص مؤرخ وفق تقويم ثابت معروف وصل الينا[4] .

ويظهر من ذكـــر اسم الملك (العزيلط) ، وهو ملك حضرموت في هذا النص ، ومن تعبير (القيل) صاحب النص عن الملك بلفظة (سيده) ، أي سيد (نصر يهحمد) : انه كان تابعاً له ، وفي أرض كانت اذ ذاك ، أي في النصف الأول من القرن الأول للميلاد ، تحت حكم حكومة حضرموت . وقد دوّن هذا القيل أسماء الآلهــة : (عثتر) ، و (سين ذو علم) ، و (عم ذو دونم) ، و (وعلان) ، و (عم ذو مبرم) إلـّه (سليم) ، و (عثتر ذو صنعتم) ، و (ودّ إلـّه منو ...) ، و (ذات بعـــدان) ، و (ذات ظهران) ، و (عليت) إلـّهة (حررم) (حرر) ، و (شمس) إلـّهــة (وبنن) و (علفقن)[5] . ذكر كل هذه الآلهة ، ولم يذكر إلـّه سبأ الرئيس وهو (المقه) ، وفي اغفاله اسم (المقه) دلالة على انه لم يكن على صلة حسنة بالسبئيين ، وانه لم يكن يعترف بسيادتهم عليه. ذلك لأنه كان تحت حكم ملك حضرموت.

---

١ Lapar 4541, CIH 658, IV, III, I, P. 92.

٢ Glaser 1430, 1619.

٣ REP. EPIG 3958, VII, I, P. 12., Studi. Lexi., III, S. 2.

٤ Background, P. 103.

٥ الفقرة الخامسة من النص الى منتهى الفقرة الحادية عشرة .

وقد ورد اسم (خولان) في نص مهم جداً تعرض لخبر حرب نشبت في أيام ملوك (سبأ) ، سقط منه اسم الملك ، وسقطت منه كلمات عدة وأسطر أضاعت المعنى .

وقد شارك أصحاب هـــذه الكتابة في هذه الحرب ، وعادوا منها موفورين سالمين ، ولذلك سجلوا شكرهم للإلـه (المقه) رب مدينة (حرونم) (حرون) (حروان)[1] ، لأنه نجّاهم ، ومنّ عليهم بنعمة السلامة . ويفهم من الكلمات الباقية في النص أن قبيلة (خولان) كانت قد ثارت على سبأ ، فجهز السبئيون حملة عسكرية عليهم ، دحرت خولان ، وتغلبت عليها ، وحصل السبئيون على غنائم كثيرة . وكان يحكم (خولان) قيل لم يرد في النص اسمه ، ولعله سقط من الكتابة ، وقد أشير اليه بـ (ذي خولان)[2] .

وورد في نص (معيني) ما يفيد اعتراض جماعة غازين من الخولانيين لقافلة معينية كانت تسلك طريق (معان) التجاري ، وقـــد أفلتت من أيدي الغزاة ونجت ، ولذلك شكرت الآلهة ، لأنها ساعدتها في محنتهـا ، وحمتها ، ونجّتهـا من التهلكة ، وعبرت عن شكرها هذا بتدوين النص المذكور . وقد وقفت على معبد (ودّكسم) ، إلـه معين وقفاً في أرض (أيم)[3] ، كما سبق أن تحدثت عن تعرض الخولانيين والسبئيين لقافلة تجارية معينية في الطريق بين (ماون) (ماوان) و (رجمت) (رجمة) . وفي هذين الخبرين دلالة على نشاط الخولانين في مناطق تقع شمال اليمن قبل الميلاد بزمان ، وعلى أنهم كانوا من الذين يتحرشون بالطرق التجارية ويعترضون سبل المارة ، كما يفعل الأعراب . ولعـــل هؤلاء الخولانيين كانوا من الأعراب المتنقلين .

وقد حكم الردمانيين أقيال منهم أيضاً . فقد ورد في أحد النصوص : (قول ومحرج شعبن ردمن ذ سلفن) ، أي (قيل ومحرج قبيلة ردمان صاحبة سلفان)، ويقصد بـ (سلفان) (السلف) (السلاف) ، فردمان هؤلاء أصحاب الكتابة هم (ردمان السلف) (السلاف)[4] . ولم يكن هذا القيل من (ذي معاهر) .

---

١ REP. EPIG 4137, VII, I, P. 95, VA 3844.

٢ الفقرات : ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ من النص .

٣ REP. EPIG 3695, VI, II, P. 278, Jaussen — Savignac, Mission, I, P. 242, 732.

٤ Glaser 275, 276, CIH 648, IV, III, I, P. 82, OM 51, Mordtmann, Muse Impérial Ottoman, (1895), PP. 36.

والردمانيون هم من الشعوب العربية القديمة أيضاً،وقد ساعدوا القتبانيين مراراً، وحالفوا شعباً آخر هو شعب (مضحيم) (مضحي) ، وتعـاون الشعبان في مساعدة (قتبان) ضد سبأ[1] . وقد لعبوا دوراً مهماً في أيام عـدد من ملوك سبأ ، وقد كانوا من المناهضين لحكم (شعر أوتر) ، ولما أرسل جيشاً عليهم لانزال ضربة بهم قاوموه وأنزلوا خسائر كبيرة به[2] .

ويظهر ان أرض ردمان دخلت – بعد أن فقدت استقلالها – في جملة الأرضين التي خضعت لحكم قتبان،ثم استولت عليها بعد ذلك دولة حضرموت . ثم دخلت بعد ذلك في جملة أملاك دولة (سبأ وذي ريدان)[3] .

وقد ذهب (كلاسر) الى أن شعب Rhadmael المذكور في بعض الموارد الكلاسيكية هو (ردمان) ، ويؤيد قوله بما ذكره (بلينيوس) من أن الشعب المذكور ينتسب الى جد اسمه Rhadmanthus ، واسم هذا الجد قريب جداً من اسم (ردمان)[4] .

ويظهر من عدد من الكتابات المدونـة في أيام (الشرح يحضب) ان أرض (ردمان) وقسماً من أرض (خولان) كانت تابعة لملك حضرموت في ذلك الزمان ، وان قسماً من خولان كان خاضعاً لـ (أقيال جدن) (جدنم) أهل (حبب) (حباب) عند (صرواح) . ومعنى هـذا ان القسم الشرقي من أرض خولان الواقع شرق وادي (ذنه) عند أسفل أرض (مراد) كان هو القسم التابع لحضرموت في هذا الزمن . وأما القسم الأكبر ، وهو القسم الشمالي الغربي من أرض خولان ، فقد كان تابعاً في هذا الزمن لملك (سبأ وذي ريدان)[5] .

جدن :

وورد اسم (جدن) في كتابات عهد (ملوك سبـأ) ، وهو اسم موضع

---

١ Mahram, P. 292, Geukens, 6, Jamme, On a drastic cuuent reduction of South Arabian Chronology, in BOASOOR, NUM 145, 1957, P. 29.

٢ Mahram, P. 300.

٣ Glaser, Skizze, II, S. 35.

٤ Glaser, Skiz.e, II, S. 137, Pliny, II, P. 457, Book, VI, 158 - 159.

٥ Beiträge, S. 39.

وامم قبيلة . ويظهر منها انهم كانوا أصحاب حكم وسلطان ، بدليل ورود جملة هي : (ادم جدنم) أي (خول جدن) في كتابات دونها أناس كانوا في خدمتهم وولائهم[1] . ويذكرنا اسم (ذي جدن) المذكور في الكتب الاسلامية، وموضع (جدن) بهذا الاسم القديم[2] .

وورد اسم قبيلة أو أسرة عرفت بـ (ددن) ، أي (دادان) (ددان)، وقد ذكروا في جملة نصوص . فورد في أحدها انهم تقدموا بوثن (صلمن) الى معبد الإله (تألب ريام) المسمى بمعبد (خضعتن) (خضعة) ، وهو في مدينة (أكانط)[3] . وتقع مدينة (أكنط) في بلد (همدان)[4] . وقد ذكرها (الهمداني) مراراً في كتبه ، وذكر أن فيها قصر (سنحار)[5] . وكان يسكن بها جماعة يعرفون بـ (زادان) ، ينسبون الى (مرثد بن جشم بن حاشد) على حد قول أصحاب الأنساب[6] .

وقبيلة (يهلبح) من القبائل التي عاشت في عهد (ملوك سبأ) وقد ذكرت، في أمر أصدره الملك (يدع ايل بن يكرب ملك وتر) ، في أمر تنظيم الجباية التي تؤخذ من هذه القبيلة ومن (سبأ) في مقابل استغلال الأرضين الخاضعة للدولة واستثمارها[7] .

أربعن :

وجاء ذكر قبيلة اسمها في الكتابات (اربعن) ، (أربعن) أو(أربعان) (أربعين) ، كان يحكمها سادات ، وقد لقبوا بلقب ملك ، وقد عرفنا منهم، (نبط آل) (نبط ايل)[8] ، وقد ذكر في نص Halevy 51 الذي سجله الملك

---

١ REP. EPIG. 852, 4069, 4668, II, III, P. 224, VII, 1, P. 66, 308.

٢ منتخبات (ص ١٨) ، الاكليل (٨/٧٦) (طبعة نبيه) .

٣ CH 348, OM 6, CIH, IV, I, IV, P 415.

٤ الاكليل (٨/٩٢) (طبعة نبيه) ، (١٠/٤٠ ، ١٢٠) ، الصفة (٨٢، ١١٠، ١١٢)

٥ الاكليل (٨/٩٢) (طبعة نبيه) ، (١٠/١٢٠) .

٦ الاكليل (١٠/٤٠) .

٧ Halevy 51 + 638 + 650, Glaser 904, CIH 601, IV, III, I, P. 2 REP. EPIG., V. II, P. 68.

٨ السطران ٢٤ و٢٥ من النص :

(يكرب ملك يدع ايل بين) ، الصادر في كيفية جمع الضرائب من القبائل. وعرفنا اسم ملك آخر ، هو : (لحى عث بن سلحان)[1] (لحيعث بن سلحن) وملك ثالث يدعى (عم أمن بن نبط ايل) ، وكان من معاصري الملك (يثع أمر بين) ملك سبأ[2] .

ولم يكن ملوك (أربعن) ، ملوكاً كباراً بالمعنى المفهوم من لفظة (ملك) ، ولم تكن مملكة (أربعن) بالمعنى المفهوم من لفظة (مملكة) ، وإنما كانوا أمراء قبيلة ، وسادات قبائل ، تمتّعوا بشيء من الاستقلال في حدود أرض قبيلتهم ، وقد أعجبتهم لفظة (ملك) فحملوها . وقد كانوا في الواقع دون ملوك سبأ أو معين أو حضرموت أو قتبان بكثير ، وكانت مملكة (أربعن) إمارة أو (مشيخة) كما نفهم من هذه اللفظة في المصطلح الحديث .

بتع :

رأينا ان سلالة من (بتع) حكمت (سبأ وذو ريدان) . وقرأنا في الكتابات ولا سيما كتابات (حاز) وكتابات مواضع أخرى تقع في صميم (بلد همدان) أسماء رجال هم من (بني بتع) ، فمن هم (بنو بتع) ؟

والجواب : ان (بتع) قبيلة من قبائل (حاشد) و (حاشد) من همدان . فـ (بنو بتع) اذن هم من (همدان) . ولذلك نجد ان معظم الكتابات التي تعود الى (بني بتع) عثر عليها في أرضين هي من مواطن همدان، مثل (حاز) و (بيت غفر) و (حجة)[3] (حجت) ، ومواضع أخــرى هي من صميم أرض بتع[4] .

ويرد اسم (حاز) في مواضع من (صفة جزيرة العرب) و (الإكليل) ،

---

١ KTB., I, S. 74, Glaser 1571.

٢ CIH 487, IV, II, II, P. 188, FR 32, 39, Le Muséon, LXII, 3 — 4, 1949, P 249, AF 69.

٣ Sab. nschr., S. 63, Rhodokanakis und von Wissman, Vorislamische Altertumer, S. 13.

٤ Sab. Inschr., S. 63.

وقد قال عنها الهمداني : « وحاز قرية عظيمة وبها آثار جاهلية »[1] . وذكر ان سد (بتع) (الخشب) مما يصالى (حاز) ينسب الى (بتع بن زيد بن همدان)[2]. وقد صيّر (الهمداني) وغيره (بتعاً) اسم رجل ، جعلوه جد (بني بتع)، وجعلوا له والداً أسموه : (زيد بن همدان) ، بينما هو اسم قبيلة في ذلك الوقت .

وكانت (بتع) على ما يتبين من النصوص ، تتمتع بنفوذ واسع ومكانة ظاهرة ، ولها أرضون واسعة تؤجرها للأفخاذ والبطون ، من (بتع) ومن غير (بتع) ، تأتي الى أقيالها بأرباح طائلة . وكان رؤساء البطون والأفخاذ الذين يؤجرون الأرضين من (بتع) يعدون أنفسهم بحكم اقامتهم في كنف أقيال (بتع) وفي جوارهم أتباعاً لهم ، ولهم حق السيادة عليهم . ويعبرون عن ذلك في كتاباتهم بجملة : (ادم بتع) (أدم بتع) ، أي خول أو خدم بتع ، ويقصدون بها أنهم كانوا أتباعاً لهم[3] . ويذكرون أسماء الأقيال في كتاباتهم ، ويشيدون بفضلهم ومساعداتهم ، ويدعون لهم فيها بطول العمر والخير والبركة ، ويرجون من آلهتهم أن تزيد في سعادتهم ومكانتهم وأرباحهم .

وقد جمع (هارتمن) أسماء الأقيال البتعيين الذين وردت أسماؤهم في الكتابات، وهم : (برقم) (بارقم) (بارق) و (ذرح آل يحضىل) (ذرح ايل يحضل)[4] و (هوف عثت) (هوفعثت)[5] و (لحى عثت اوكن) (لحيعثت أوكن)[6] و (مرثد علن اسعد) (مرثد عيلان أسعد)[7] و (نشاكرب أوتر) (نشأكرب أوتر)[8] ، و (نشاكرب يزان) (نشأكرب يزأن)[9] و (نشأكرب

---

١ الصفة (٨٢ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٧) ، الاكليل (١٢/١٠ ، ١١٧) .

٢ (يصالي يجاور لغة يمنية لا توجد في المعاجم صرف المؤلف منها بعض الصيغ في كتابه جزيرة العرب) ، الاكليل (١٢/١٠) .

٣ Sab. Inschr., S. 63, CIH, 211, IV, I, III, P. 252, Glaser 195.

٤ MM 46, 89.

٥ MM 953.

٦ CIH 130, IV, I, III, P. 196.

٧ Sab. Inschr., S. 63.

٨ CIH 342.

٩ CIH 154, 187, MM 105, 836, 1253.

نهفن بجعر)[١] ، و (رب شمس نمرن) (رب شمس نمران) (ربشمس نمران)[٢] و (ردم يرحب) (ردم يرحب)[٣] ، و (عريب بن يمجد)[٤] ، و(سعد اوم نمرن) (سعد أوام نمران)[٥] و (سخمن يهصبح) (سخان يهصبح)[٦] و (شرحم يهحمد)[٧] و (شرحم غيلن) (شرح غيلان)[٨] ، و (شرحم) (شرح) (شارح)[٩] ، و (شرح ال) (شرح ايل)[١٠]،و (شرح عثت) (شرحعثت)[١١] و (شرحب ال) (شرحب ايل) (شرحبيل)[١٢] ، و (كرب ...)[١٣] ، و (يهمن) (يهامن) (يهأمن)[١٤] وآخرون . ومن هؤلاء من ساد على (سمعي) ، ومنهم من ساد على قبائل أخرى .

سمعي :

ومن أتباع (بتع) عشيرة (سمعي) ، ويظن بعض الباحثين انها كانت في الأصل فرقة تجمع أفرادها عبادة الإله (تالب) ، ثم أصبحت عشيرة من العشائر القاطنة في أرض همدان ، توسعت وانتشرت وسكنت بين (حاشد) و (حملان) وفي (حجر)[١٥] . وكانت تستغل الأرضين التي يمتلكها الأقيال البتعيون ، فكانوا يعدّون أصحاب تلك الأرض أقيالاً عليهم،ونسبوا الى الأرض التي أقاموا فيها أو العشائر التي نزلوا بينها ، فورد (سمعي حملان) و (سمعي

---

١ CIH, IV, I, III, P. 220, CIH 158, MM 34.

٢ CIH 164, IV, I, III, P. 222, MM 826.

٣ Sab. Inschr., S. 64, CIH 242, IV, I, III, P. 270.

٤ (عريب الن يمجد) (الن) ، (علن ؟) ، CIH 130, IV, I, III, P. 196.

٥ CIH 226, Sab. Inschr., S. 64.

٦ MM 31, 32, Sab. Inschr., S. 64.

٧ CIH 172, 241, Sab. Insch., S. 64, Glaser 156, CIH, IV, I, III, P. 229.

٨ MM 117.

٩ CIH 158, IV, I, III, P. 220, Glaser 141, Sab. Inschr. S. 64.

١٠ CIH 571, Sab. Inschr., S. 64.

١١ CIH 222, IV, I, III, P. 257, Sab. Inschr., S. 64.

١٢ CIH 130, IV, I, III, P. 196, Sab. Inschr. S. 64.

١٣ Glaser 109.

١٤ CIH 187, IV, I, III, 238, Glaser 171, Sab. Inschr., S. 64.

١٥ Handbuch, I, S. 132, Glaser 1210.

حشدم) ، أي (سمعي حاشد) ، و (سمعي حجرم) أي (سمعي حجر).

و (سمعي حملان) هم السمعيون الذين استوطنوا أرض حملان ، واختلطوا بالحملانيين ، للذلك نسبوا الى (حملان) ، فقيل (سمعي حملان) . وأما (سمعي حشدم) ، فهم السمعيون الذين سكنوا أرض حاشد ، واختلطوا بقبيلة (حاشد) وقد كانوا يقطنون أرض (ريام) . وأما (سمعي حجرم) ، أي (سمعي حجر) ، فهم سكان (حجر) على مقربة من (شبام) ، وهم يكوّنون جزءاً من (سمعي) ، وقد ورد في الكتابات : (سمعي ثلث ذي حجرم)[1] .

وظهر من عدد من الكتابات ان عشيرة (سمعي) ، قد كانت مملكة يحكمها ملوك ، ولم تكن هذه المملكة بالطبع سوى (مشيخة) صغيرة بالقياس الى مملكة سبأ ، كما ورد اسم هذه العشيرة منفرداً ، أي انه لم يقرن بحملان أو حاشد أو حجر أو غير ذلك من الأسماء. وفي ذلك دلالة على انها قد كانت وحدة واحدة كسائر العشائر والقبائل ، أو ان قسماً من (سمعي) ، كان مستقلاً منفرداً بشؤونه لا يخضع لحكم قبيلة أخرى عليه ، أو ان (سمعي) كانت في وقت تدوين تلك الكتابات قبيلة قوية ، يحكمها ساداتها الذين لقبوا أنفسهم بألقاب الملوك،ثم أصابها ما يصيب غيرها من القبائل من تفكك وتجزؤ وتشتت ، فتجزأت وطمع فيها الطامعون ، فخضعت عشائر منها لحكم قبائل أخرى مثل (حاشد) و (حملان) و (حجر) .

ويصعب علينا بيان المدة التي تمتعت فيه هذه القبيلة بالاستقلال، وهو استقلال لم يكن بالبداهة مطلقاً،بل كان استقلالاً من نوع استقلال (المشايخ) والرؤساء : استقلال في التصرف في شؤون القبيلة والمنطقة التي تتصرف فيها .

أما في العلاقات الخارجية ، فيظهر أنها كانت مقيدة بسياسة الحكومات الكبيرة التي كانت لها السلطة والقوة مثل مملكة سبأ وذي ريدان .

ومن الملوك السمعيين الذين وصلت أسماؤهم الينا ، الملك (يهعن ذبين بن يسمع ال بن سمه كرب) ، أي (يهعان ذبيان بن يسمع ايل بن سمه كرب) (يهعان ذبيان بن اسماعيل بن سمه كرب) ، والملك (سمه افق بن سمه يفع)

---

١ Sab. nschr., S. 13.

(سمه أفق بن سمهيفع)[1] . جاء اسمها في النص المعروف بـ Glaser 302 [2].
وقد افتتحه الملك (يهمان) ، بالدعاء إلى الإلـه (تالب) (تألب) في معبده في (صبين) (صبيان) بأن ينعم عليه ويبارك له ولأولاده : (زيدم) (زيد) و (يزد ال) (يزيد ايل) ، وأولادهما وأملاكهم جميعاً وبيتهم المسمى بيت (يعد) (يعود) وأرضهم : أرض (تالقم) (تألق) ، وفي الأملاك التي ورثت عن الملك (سمعي أفق بن سمه يفع) ملك سمعي من أرض زراعية وقرى ومدن . وأرض (نعمن) (نعمان) وغيرها . وجاء في النص ذكر (بنو رأبان) (رابن) حلفاء (سمعي) و (عم شفق) ، وهو (قول) قيل (برسم) ، و (اقولن) أقيال (يهبب) و (املك مريب) ، أي (ملوك مأرب) ، و (شعبن سمع) ، أي قبيلة (سمع) (سميع) ، و (كرب ال وتر) (كرب ايل وتر) ملك سبأ .

حملان :

وقد ورد اسم (حملان) في عدد من الكتابات . منها الكتابة الموسومة بـ Glaser 179 التي دونت في أيام الملك (أنمار يهنعم بن وهب ايل يحز) ملك سبأ ، دونها جماعة من (بتع) ، وهي ناقصة ، سقطت منها أسطر وكلمات[3] . وقد قدموا إلى الإلـه (تألب ريام) تمثالاً ، لأنهم رجعوا سالمين من الحرب معافين . ويظهر أن أصحاب هذه الكتابة قاموا مع الملك بغزو في أرض (حملان) ، فلما رجعوا سالمين قدموا هذا النذر الى الإلـه (تألب ريام)[4].

وكان (بنو حملان) أتباعاً لـ (بتع) . وقد ذكروا ذلك في كتاباتهم حيث دونوا جملة (ادم بتع) ، كالذي ورد في الكتابة : CIH 224 ، وقد دونها رجال من (ذي حملان) (ادم بتع) لمناسبة بنائهم بيتهم و (مذقنة تريش)

---

١ CIH 37, CIH, IV, I, I, 55, Glaser 302, D. Muller, Sabaische Alterthumers, XXXIX, (1886), S. 839.

٢ Sab. Inschr., S. 65, Arabische Frage, S. 389.

٣ CIH 195, Glaser 179, MM 86.

٤ CIH, IV, I, III, P. 243, Sab. Inschr., S. 116, RW 120.

وذلك بتوفيق من الإلّه (تألب ريام بعل شعرم) وبمساعدة رؤسائهم وسادتهم ورئيسهم صاحب أرضهم (سخمان يهصبح) من (بتع) ، وبمساعدة قبيلتهم الساكنة بمدينة (حاز)[1] .

يهيبب :

وكان أقيال (سمعي) أقيالاً على عشيرة (يهيبب) (ي هـ ي ب ب) وهي عشيرة لا نعرف اليوم عنها شيئاً يذكر . ويرى (كلاسر) ان أرض (يهيبب) تقع على مقربة من مكة أو في جنوبها، ويرى احتمال وجود موضعين يقال لهما (يهيبب) ، موضع قرب مكة أو في جنوبها ، وموضع آخر على ساحل الخليج الذي سماه (بطلميوس) Sinus Sachalites في الأرض التي اشتهرت عند (الكلاسيكيين) بالبخور واللبان.ولعله المكان الذي دعاه (بطلميوس) Jobaritae [2] . ويرى ان الأول هو (يوباب) في التوراة[3] .

يرسم :

وأما (يرسم) ،فقبيلة كانت تقيم في هذه المواضع من أرض همدان . وقد ورد في احدى الكتابات اسم (قول) قيل يدعى (عم شفق بن سروم) (عمشفيق بن سروم) (عـم شفيق بن سروم) ، وكان من أقربـاء ملك (سمعي) ، وكانت أرضه عند (حدقان)[4] ، وقد أشار (الهمداني) الى (قصر حدقان)[5] . وكان هذا القيل من (سروم)[6] .

وكان أقيال (يرسم) من (بني سخيم) ، وقد أشار (اليرسميون) الى

---

١ Glaser 208, RW 133, CIH IV, I, III, P. 258, Sab. Inschr., S. 70.

٢ Glaser, Skizze, II, S. 306.

٣ التكوين : الاصحاح العاشر ، الآية ٢٩ ، وأخبار الايام الأول : الاصحاح الأول ، الآية ٢١ .

٤ Handbuch, , S. 132, Arabische Frage, S. 378.

٥ الاكليل (٨/٨٣) (طبعة نبيه) ، (١٠/١٦) ، الصفة (٨١ ، ٨٢ ، ١٠٩) .

٦ CIH, IV, I, I, P. 55, Glaser 302.

ذلك في الكتابات ، ومنها الكتابة الموسومة بـ SE 8 . وقد ذكرت فيها جملة: (برسم ثلث ذ حجرم) ، أي (برسم ثلث ذي حجر) . ويفهم من هذه الجملة أن عشيرة (يرسم) كانت تستغل جزءاً من أرض حجر[1] . وورد في كتابات أخرى أن قيلاً من أقيالها كان من (سروم)[2] .

وقد ورد في كتابة أن جماعة من (بني الهان) و (عقرب) بنوا محفداً لهم ، هو (محفد صدقن) (محفد صدقان) ليكون (محرماً) للإلـه (قينان) أي حرماً لهذا الإلـه ، في معبد (بجر) ، وذلك بعون الإلـه (تألب ريام) (رب كبدم) (كبد) وقينان وبمساعدة أصحاب أرضهم (بني سخيم) وقبيلة (يرسم)[3] . ومعنى هذا ان هذه القبائل كانت متجاورة متعاونة ، وقد كانت تتعاون فيما بينها عند القيام بالأعمال الكبيرة التي تحتاج الى مال ورجال مثل هذا المعبد الذي خصص بعبادة الإلـه (قينان) ، والذي بناه جماعة من (الهان) و (عقرب) بمساعدة وعون (بني سخيم) و (يرسم) .

بنو سمع :

أما (بنو سمع) (بنو سميع) ، فقد كانوا أتباعاً لـ (بني بتع) (ادم بن بتع) (أدم بني بتع) ، كما يفهم من الكتابة CIH 343 . وقد ورد فيها اسم الإلـه (تألب ريمم بعل قدمن ذ دمهن) ، أي الإلـه (تألب ريام ربّ قدمان في ذي دمهان)[4] . وجاء اسم الإلـه (تألب ريمم بعل قدمن) في كتابة أخرى ، أصحابها من (بن سمع) (بني سميع) كذلك . وقد ذكروا أنهم نذروا للإلـه صنماً ، ليقيهم ويقي أملاكهم ومقتنياتهم وما يملكونه بمدينة (مريب) أي (مأرب)[5] .

---

١ Orientalia, Vol., V, 1936, P. 25, CIH 24, IV, I, I, P. 36, Glaser 26, KTB., II, S. 69.

٢ CIH, IV, I, I, P. 55, Glaser 302.

٣ Orientalia, Vol., V, 1936, P. 22, 286.

٤ CIH 343, IV, I, IV, P. 405.

٥ CIH 19, IV, I, I, P. 29, Glaser 19, Metheilungen, S. 68.

فدينة (قدمن) (قدمان) إذن مدينة من مدن (السميعيين) ، وبها معبد الإلـه (تألب) المعروف بـ (تألب ريام بعـــل قدمان) . وتقــع في أرض (دمهان) . ويجوز أن يكون (قدمان) اسم موضع صغير في (دمهان) ، أو اسم المعبد . وقد ورد في كتابات أخرى[1] .

رمس :

وجاء اسم عشيرة (رمس) في الكتابة MM 137 ، وهي كتابة مدونة على أطراف اناء ثمين جداً قدم نذراً الى الإلـهة (ذات بعـــدان) أي الشمس[2] . والظاهر ان عشيرة (رمس) كانت تجاور عشيرة (سميع) ، وانهـــا كانت تملك أرضين تجاور الأرض التي نزلت بهـــا (سميع) ، وتؤجرها لغيرها كما يتبين ذلك من استعمال جملة (أدم رمسم) أي (خول رمس) ، وكلمـــة (امراهمو) التي تعني (امراؤهم) في بعض الكتابات . حيث يفهم من أمثال هذه التعابير ان الرمسيين كانوا يحكمون عشائر أخرى كانت نازلة في أرضهم وتعيش في كنفهم وجوارهم . وقد ورد اسم (الرمسيين) في كتاب (صفة جزيرة العرب) ، فلعل لهم علاقة وصلة بهؤلاء الرمسيين[3] .

وأما عشيرة (رابن) (رأبان) التي ورد ذكرها في النص Glaser 302 [4] أي نص الملك (يهعن) (يهعان) ملك (سمعي) . فهم عشيرة قديمة كانت في أيام المكربين وفي أيام ملوك سبأ ، وكانت مواطنهـــا أرض (نهم) وأعالي (الخارد) . ولكنهم تنقلوا الى مناطق أخرى بعد ذلك. والظاهر انهم Rabanitae أو Raabeni الذين كان يحكمهم ملك يعرف بـ Ilasaros عـلى ما ورد في الكتب (الكلاسيكية)[5] . واذا صح انهم هم (رأبان) دلّ ذلك عـــلى أن (الرأبانيين) قد تمكنوا من الاستقلال ومن تكوين مملكة او (مشيخة) تلقب رؤساؤها بألقاب الملوك .

---

١ CIH 341, IV, I, IV, P. 405.

٢ Sab. Inschr., S. 144, RW 102, CIH 341, IV, I, IV, P. 402, Mordtmann und Müller, Sab. Denkmaler, S. 42.

٣ الصفة (ص ٩٤ سطر ٢٣) .

٤ Glaser, Mittheilungen, S. I.

٥ Glaser, Skizze, II, S. 59, Forster, II, P. 238.

سقران :

ومن أتباع (بتع) عشيرة معروفة تقع منازلها في منطقة (حاز) عثر على عدد من الكتابات تعود اليهـــا في (حاز) و (بيت غفر) و (حجه) ، وهذه العشيرة هي (سقرن) أن (سقران)[1] .
ويظهر من جملة (ادم بن بتع) (أدم بني بتع) التي وردت في كتاباتهم أنهم كانوا أتباعاً لبتع ولسادات (بتع) الذين كانوا (أقولاً) ، اي (أقيالاً) على السقرانيين . والظاهر أنهم كانوا يعيشون في كنف (البتعيين) وفي أرضهم يستأجرونها منهم ويستغلونها مقابل أتاوة يدفعونها لبتع ، وهم يؤجرونها لمن دونهم من العشائر والأفراد ، لورود عـــدد من الكتابات دونها أناس اعترفوا بسيادة (سقران) عليهم وبأنهم (ادم) (أدم) أي اتباع لهم[2] .

قرعمتن :

وورد في الكتابات اسم عشيرة عرفت بـ (قرعمتن) (قرعمتان) ، ويظهر أنها كانت في جوار (بتع) و (سقرن) (سقران) . وقد عرفت الأرض التي نزلت بها بهذا الاسم كذلك[3] .

---

١ CIH 156, 221, 239, Sab. Inschr., S. 87.

٢ MM 126, 127, CIH 156, Sab. Inschr., S. 86.

٣ CIH 342, OM IIA, B, RW 82, Sab. Inschr., S. 148, 149, Mordtmann, Sab. Denkmaler, S. 43.

الفصل السابع والعشرون

ملوك سبأ وذو ريدان

نحن الآن في عهد جديد من عهود تأريخ مملكة (سبأ) ، هو عهد ملوك (سبأ وذو ريدان) . لقد كان حكام (سبأ) يتلقبون كما رأينا بلقب (ملوك سبأ) ، أما لقبهم في هذا العهد فهو (ملوك سبأ وذو ريدان) .

ففي حوالي السنة (١١٥ ق. م.) أو في حوالي السنة (١١٨ ق. م.) ، أو بعد ذلك بتسع سنين ، أي في حوالي السنة (١٠٩)[١] ، خلع (ملوك سبأ) لقبهم القديم واستبدلوا به لقباً آخر حبيباً جديداً ، هو لقب (ملك سبأ وذي ريدان) ، اشارة الى ضم (ريدان) الى تاج سبأ . وبقي هذا اللقب مستعملاً حتى أيام الملك (شهر يهرعش) (ملك سبأ وذي ريدان) . ثم بدا له رأي دفعه لتغييره ، فاتخذ بدله لَقَبَ (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) دلالة على توسع رقعة سبأ مرة أخرى ، فدخلت بذلك حكومة سبأ في عهد ملكي جديد .

هذا ما كان عليه رأي أكثر الباحثين في تأريخ سبأ في زمن نشوء لقب (ملك سبأ وذي ريدان) وفي سبب ظهوره عند السبئيين . وقد اتجه رأي الباحثين المتأخرين الى ان ظهور هذا اللقب إنما كان قد وقع بعد ذلك ، وأن (الشرح يحضب) الذي هو أول من حمل ذلك اللقب ، لم يحكم في هذا الزمن ، وإنما

١ Background, P. 97.

حكم بعد ذلك في أواخر القرن الأول قبل الميلاد إبان حملة (أوليوس غالوس) على العربية الجنوبية في حوالي السنة (٢٤ ق. م.) ، وعلى ذلك يكون اللقب المذكور قد ظهر في أواخر القرن الأول قبل الميلاد ، لا في سنة (١١٥) أو (١٠٩) قبل الميلاد[١] .

وبناءً على هذا الرأي الحديث المتأخر ، لا تكون لسنة (١١٥ ق. م.)أية علاقة بهذا اللقب الجديد ، بل لا بد أن تكون لها صلة بحادث مهم آخر كان له وقع في تأريخ العربية الجنوبية، ولهذا جعل مبدأ لتقويم يؤرخ به . وقد زعم بعض الباحثين ان ذلك الحادث هو سقوط مملكة معين في أيدي السبئيين وزوال حكم الملوك عنها ، وخضوع المعينيين لحكم (ملوك سبأ) . ولما كان ذلك من الأمور المهمة في سياسة الحكم في العربية الجنوبية ، جعل مبدأ لتقويم يؤرخ به .

ورأى بعض آخر ان السنة المذكورة ، هي سنة انتصار سبأ على (قتبان) ، واستيلائها عليها وضمها الى حكومة سبأ . و (ريدان) ، قصر ملوك سبأ ، ومقر سكنهم وحكمهم . ونظراً لأهمية هذه السنة اتخذت مبدأ لتأريخ ، وبداية لتقويم .

واذا أخذنا بهذا التفسير المتأخر ، وجب علينا اذن ترك هذا الزمان واتخاذ زمان آخر لظهور لقب (ملك سبأ وذي ريدان) ، وهو زمان يجب الا يبعد كثيراً عن السنة (٣٠ ق. م.) . ففي هذا الزمن كان حكم (الشرح يحضب) و (شعرم أوتر) على رأي القائلين بهذا الرأي من علماء العربيات الجنوبية .

ويعد تأريخ (سبأ وذو ريدان) من أصعب عهود تأريخ (سبأ) كتابة ، على كثرة ما عثر عليه من كتابات طويلة أو قصيرة تعود الى هذا العهد[٢] . ولا نزال في توقع كتابات أخرى نأمل أن تسد من الثغرات والفجوات التي لم تتمكن الكتابات التي وصلت الينا من سدها ، ولا أن تزيل الغموض الذي يحيط بهذا التأريخ .

لقد عثر – كما قلت – على كتابات عديدة دوّنت في هذا العهد ، ومنها ما عثر عليه حديثاً . ولكنها لم تخفف من عنائنا مما نلاقيه من مشكلات عن تأريخ

---

١ مثل « ملاكر » ، « Mlaker » و « ريكمنس » وآخرين ، Beiträge, S. 142.

٢ Handbuch, I, S. 89.

هذه الحقبة ، بل زادت أحياناً في مشكلاتنا هذه . فقد جاءت بأسماء متشابهة وبأخبار اضطرت الباحثين على تغيير وجهات نظرهم في كثير مما كتبوه ، تغيراً مستمراً والى اعادة النظر في القوائم التي وضعوها لحكام هذا العهد ، كما باعدت بين وجهات نظر بعضهم عن بعض ، فصارت لدينا جملة آراء تمثل وجهات نظر متباينة .

وتأريخ هذا العهد هو تأريخ مضطرب قلق ، نرى (الشرح يحضب) يلقب نفسه فيه بـ (ملك سبأ وذي ريدان) ، ثم نرى خصماً له يلقب نفسه باللقب نفسه، مما يدل على وجود خصومة ونزاع واختلاف على العرش، لا اتفاق وائتلاف. ثم نجد كتابات أخرى تدين بالولاء لـ (الشرح يحضب) ولخصمه ، معاً وفي وقت واحد ، وفي كتابة واحدة، وهو مما يشير ويدل على وجود اتفاق وائتلاف. وهذه الكتابات تزيد في متاعب المؤرخ وتجعل من الصعب عليه التوصل الى نتائج تأريخية مرضية مقنعة .

وترينا كتابات هذا العهد ، أن الوضع كان قلقاً مضطرباً . وأن حروباً متوالية كانت تقع في تلك الأيام ، لا تنتهي حرب ، إلا وتليها حرب أخرى . وان المنتصر في الحرب كان كالخاسر ، فهو ينتصر في حرب ، ثم يخسر في حرب أخرى . وذلك لأن كفاءات مؤججي تلك الحروب كانت في مستوى واحد. ولهذا كان الخاسر فيها ، لا يلبث أن يعود بسرعة فيقف على رجليه ، يحمل سيفه ليحارب من جديد . حتى كادت الحروب تصير هواية ، أو لعبة مألوفة ، أما الخاسر الوحيد فهو : الشعب . أي الناس المساكين التابعين لحكامهم ، الذين يكونون السواد ، لكنه سواد لا رأي له في حكم ما ولا كلمة . يساق من حرب الى حرب ، فيسمع ويطيع ، لعدم وجود قوة له تمكنه من الامتناع .

والمتشاجرون البارزون في تلك المعارك والحروب ، هم سادات (همدان) ، وسادات حمير ، أصحاب (ريدان) ، وسادات حضرموت وقتبان ، وأقيال وأذواء وأصحاب أطماع وطموح ، ارادوا اقتناص الفرص لتوسيع نفوذهم ، واصطياد الحكم وانتزاعه من الجالسين على عرشه . ووضع مثل هذا ، أضعف العربية الجنوبية بالطبع ، وأطمع الحبش فيها ، حتى صيرهم طرفاً آخر في النزاع ، وفريقاً عركاً قوياً من فرق اللعب بالسيوف في ميدان العربية الجنوبية ،

يلعب مع هذا الفريق ثم يلعب مع فريق آخر ، ضد الفرق الأخرى . وغايته من لعبه ، التغلب على كل الفرق،وتصفيتها ، ليلعب وحده في ميادين تلك البلاد . لذلك نجد أخبار تدخل الحبشة في شؤون هذا العهد وفي العهد الذي جاء بعده ، بارزة واضحة مكتوبـــة في كتابات أهل العربيـــة الجنوبية . ومكتوبة في بعض كتابات الحبش .

وقد رأينا في الفصل السابق كيف تخاصم بيتان من بيوت همدان همـــا بيتا : (علهان نهفـــان) و (فرعم ينهب) بعضهما مع بعض على الاستئثار بالحكم ، والسيادة على مملكة سبأ . وكيف أن كل بيت من البيتين كان يدعي أن له الحكم والملك ، وأنه ملك سبأ ، أو (ملك سبأ وذو ريدان) ، وأنه هو الملك الحق.

ثم رأينا ان (شعر أوتر) (شعرم أوتر) ، صار يلقب نفسه بلقب (ملك سبأ وذو ريدان) ، وان خصمه (الشرح يحضب) ، لقب نفسه بهذا اللقب أيضاً ، ومعنى ذلك حكم سبأ لأرض (ريدان) وهي أرض حمـــير على أغلب الآراء . وقد رأينا ان تلك الخصومة ، لم تبق مجرد خصومة ونزاع وادعاء على ملك ، بل كانت خصومة عنيفة اقترنت بمعارك وحروب .

وليس في الكتابات التي بين أيدينا حتى الآن أي خبر يشرح لنا كيف انضمت حمير الى سبأ ، أو كيف لقب (الشرح يحضب) أو معاصره (شعر أوتر) أنفسهما بلقب (ملك سبأ وذي ريدان) وماذا كان موقف ملوك حمير من هذا الاندماج . ولما كان كلا الرجلـــين (الشرح يحضب) و (شعر أوتر) من همدان ، فهل يعني هذا ان الهمدانيين كانوا قد تمكنوا من حمـــير وغلبوا ملوك حمير على أمرهم ، واضطروهم الى الخضوع لحكمهم،فاعترفوا بسيادتهم عليهم ، وتعبيراً عن ذلك الاعتراف وضعوا : (ذا ريدان) بعد اللقب الملكي القديم ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال ، لا يمكن أن تكون اجابة مقبولة الا بعـــد أمد ، فلعل الأيام تجود على الباحثين بكتابات حميرية تشرح موقف حمير الرسمي من هذا اللقب ، كأن تعطيهم اللقب الذي كان يلقب الحميريون به ملوكهم ، أو تشرح علاقة أولئك الملوك بـ (ملوك سبأ وذي ريدان) ، ومـــاذا كان موقف ملوك (ريدان) من ملوك (سلحن) (سلحين) حصن (مأرب) ومقر الملوك .

ولكننا سنجد فيما بعد ان الحميريين لم يكفوا عن قتال (الشرح يحضب) ،

ولا عن قتال (شعرم اوتر) (شعر أوتر) حتى بعد تلقبها بلقب (ملك سبأ وذي ريدان) ، كما سنرى ان قسماً من قبائل حمير كان في جانب (شعر أوتر) وان قسماً آخر كان في جانب (الشرح يحضب) وان قسماً ثالثاً كان خصماً عنيداً للجانبين ، وكان في جانب خصوم ملوك (سبأ وذي ريدان) ؟ ومعنى هذا ان اللقب الجديد ، لم يغنِ أصحابه من قتال حمير ، وان الحميريين ظلوا يقاومون العهد الجديد غير مبالين بدعاوى ملوك همدان، وقد دام القتال كما سنرى عهداً طويلاً أضر بالجانبين من غير شك .

وقد أصاب هذا النزاع العربية الجنوبية بأسوأ النتائج ، فهدمت مدن، وخربت قرى ، وتحولت مزارع كانت خضراء يانعة الى صحاري مجدبة عبوسة .

وتأثر اقتصاد البلاد باستمرار الحروب ، وبهروب الناس من مواطنهم ومن مراكز عملهم الى مواطن بعيدة ، فتوقفت الأعمال ، وسادت الفتن والفوضى . وقد كان المأمول تحسن الأوضاع بعد توسع ملك مملكة سبأ واندماج الإمارات وحكومات المدن فيها وانتقال السلطة الى ملك واحد ذي ملك واسع ، إلا أن هذا التنافس الشديد الذي أثاره المتنافسون على عرش المملكة ، أفسد كل فائدة كانت ترجى من هذا التطور السياسي الخطير الذي طرأ على نظام الحكم في العربية السعيدة .

وقد برهنت حملة الرومان على العربية السعيدة وقد وقعت في هذا العهد ، وكذلك حملات الحبش ، وقد وقعت في هذا العهد أيضاً ، على أن حكومة (سبأ وذو ريدان) لم تكن حكومة قوية متماسكة ، ولم تكن لديها قوات حربية قوية، ولا جيوش منظمة مدربة،حتى لقد زعم من أرخ تلك الحملة من الكتبة اليونان، أن الرومان لم يقاتلوا العرب ، ولم يصطدموا بقواتهم اصطداماً فعلياً على نحو اصطدام الجيوش ، وأن المحاربين العرب ، لم يكونوا يملكون أسلحة حربية من الأسلحة المعروفة التي تستعملها الجيوش ، وأن كل ما كان عندهم هو الفؤوس والحجارة والعصي والسيوف ، ولذلك لم يتجاسروا على الالتحام بالرومان . وقد لاقى الرومان من الحر والعطش والجوع ، ما جعلهم يقررون التراجع والعودة الى بلادهم ، فهلك أكثرهم من العوامل المذكورة . ويؤيد هذا الرأي أيضاً توغل الحبش في العربية الجنوبية وتدخلها في أمورها الداخلية ، مع أنها دون الرومان في القوة وفي التنظيم الحربي بكثير . وتوغلهم هذا يدل على أن العربية الجنوبية

لم تكن تملك اذ ذاك قوة بحرية قوية ، بحيث تقف أمام الحش ، وتمنعهم من الوصول الى السواحل العربيـة مع أن الحبش أنفسهم ، لم يكونوا يملكون قوة بحرية يعتد بها . ولعل الرومان ساعدوهم في نزولهم في البلاد العربيـة ، لأنهم كانوا تحت تأثيرهم ، كما صاروا تحت تأثير الروم : أي البيزنطيين من بعدهم، ولا سيما بعد دخولهم في النصرانية .

ويبدأ عهد (ملوك سبأ وذو ريدان) بالنزاع الذي كان بين (الشرح يحضب) وأخيه (يزل بين) (يأزل بين) ابني (فرعم ينهب) من جهـة ، وبين (شعرم أوتر) و (يرم أيمن) ، وهما ابنا (علهان نهفان) (علهن نهفن) من جهة أخرى . وهو في أصله نزاع قديم له تأريخ سابق ومقدمات ترجع الى أيام أجداد الطرفين ، فالنزاع الذي فتح به عهد (سبأ وذو ريدان)، هو فصل أول من جزء من كتاب هو جزء متمم لكتاب سابق . ولا نريد هنـا أن نعيد الحديث عن تلك الخصومة التي شغلت الأجيال الأخيرة من مملكة سبأ .

وحظ (الشرح يحضب) لا بأس به ، بالقياس الى من تقدمه من المكربين أو الملوك ، فقد بقي حياً في الإسلام ، وخلد في كتب الاسلاميين ، فذكـره (الهمداني) في كتابه (الإكليل) ، وسمّاه (الى شرح يحضب) ، ونسب اليه قصر (غمدان) ، وروى له شعراً زعم انه قاله ، وذكر ان (بلقيس) هي ابنته[1] . وحكـى (ياقوت الحموي) قصة في جملة القصص التي رواها الأخباريون عن بناء قصر (غمدان) ، نسبها الى (ابن الكلبي) ، زعم فيها ان باني هذا القصر هو (ليشرح بن يحصب)[2] . و (ليشرح بن يحصب) هو (الشرح يحضب) . وقد ذكر في صور أخرى، مثل (أبي شرح) و (يحضب شرح) ، وهي — ولا شك — من تحريفات النساخ .

ونسب (الطبري) بلقيس الى (ايليشرح) ، فجعلها ابنته[3] . أما (حمزة الأصبهاني) ، فقد جعلها (بلقيس بنت هداد بن شراحيـل)[4] . وقد قصد بـ (شراحيل) (الشرح يحضب) ، ولا شك ، فصيرها حفيدة له .

---

١ الاكليل (١٩/٨ وما بعدها) (٢٤/٨) .
٢ البلدان (٣٠١/٦) .
٣ الطبري (٥٦٦/١) (طبعة دار المعارف) .
٤ حمزة (ص ٨٣) .

وهكذا رفع أهل الأخبار أيام (الشرح يحضب)،فصيّروها في عهد (سليمان) مع وجود فرق كبير جداً بين زماني الرجلين .

وقد نص في الكتابات على أصل (فرعم ينهب) ، فذكر انه من (بكيل)[١] وذكر انه من (مرثد) ، و (مرثد) عشيرة من عشائر (بكيل)[٢] . فهو اذن من قبيلة (همدان) ، من غير شك ، الا اننا لا نعـرف عنه ولا عن والده شيئاً يذكر . فلا ندري أكان والده من البارزين المعروفين في ايامه أم لا . ونستطيع أن نقول بكل تأكيد انه لم يكن ملكاً ، والا ذكر اسمه ، وأشير اليه والى لقبه في النصوص التي ورد فيها اسم ابنه (شعرم أوتر) (شعر أوتر) . ومعنى ذلك ان ابنه (شعر أوتر) لم يكن من الأسر المالكة الحاكمة،بل انتزع الملك بنفسه ، وكوّن نفسه بنفسه ، ومهد الحكم بذلك لولديه : (الشرح يحضب) و (يأزل بين) .

وقد ورد اسم (فرعم ينهب) (فرع ينهب) (فارع ينهب) في النصوص: Jamme 566 و CIH 299 و(نشر : رقم ٥٩) . وأشير في النص Jamme 566 الى (الشرح يحضب) و (يأزل بين) ابني (فرع ينهب) ، ولكنه لم يذكر بعد الاسمين واسم الوالد جملة : (املك سبا) ، أي (ملوك سبـأ) ، بل ذكر (ملك سبأ) ، أي : أن هذا اللقب يعود الى (فـرع ينهب) ، كما انه ذكرت في السطرين الأول والثاني جملة : (رَجُلَيْ ملكن)، أي (رَجُلَيْ الملك) ، مما يدل على أنه قصد ملكاً واحداً ، هو (فرع ينهب) . وأمـا لفظة (رجلي) ، فتعني (ربشمس اضاد) (ربشمس اضأد) و (سعد شمسم) (سعد شمس) شقيقه،وقد كانا مقربين عند الملك يقضيان أموره ، فهما الرجلان المختاران عنده ، وموضع سره[٣] .

وقد لقب (فرع ينهب) في النص : (نشر ٥٩) بـ (ملك سبأ). وقد ذكر فيه أسماء إلـهين ، هما : (بعل أوّام) ، أي المقه ، و (سمع) (سميع) وهو (بعل حرمتن) ، اسم مكان فيه معبده[٤] .

---

١ A.F.L. Beeston, Problems of Sabaean Chronology, P. 53, Mahram, P. 308.

٢ Mahram, P. 308.

٣ Jamme 566, MA PI 2, Mahram, P. 48, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 285.

٤ نشر : الرقم ٢٥٩ ، ص ٧٦ وما بعدها .

ويرى (فون وزمن) ان الملك (فرعم ينهب) (فرع ينهب) (فارع ينهب) (الفارع ينهب) ، هو الملك الوحيد الذي نعرفه في هذا العهد . ويرى ان سبب عدم تحرش حمير به، هو بسبب كونه ملكاً لقبائل سبئية محتمية بأرضين مرتفعة محصنة . ويرى ان عهد مشاركة ابنيه معه في الحكم ، كان في أيام وجود (ياسر يهنعم الأول) وابنه (شمر يهرعش الثاني) في (ظفار) و (مأرب) ويرى أيضاً ان (فرع ينهب) وابنيه كانوا ثلاثتهم تابعين لسلطان ملوك حمير : (ملوك سبأ وذو ريدان)[١] .

كان (الشرح يحضب) مقاتلاً محارباً ، ذكر انه قاتل في أيام أبيه (فرعم ينهب) حمير وحضرموت ، لتحرشهم بسبأ وغزوهم لها[٢] . وقد سجل خبر حربه هذه معهم في كتابة وصلت الينا ، سقط منها اسم صاحبها ، يفهم منهـا ان صاحبها قدم الى معبد (المقه) المقام في (ذ هرن) (ذي هران) وثناً مصنوعاً من الذهب ، حمداً له وشكراً ، لأنـه مكّن سيده (الشرح يحضب بن فرعم ينهب) من أعدائـه ، ومنّ عليه بالنصر وأوقـع بعدوه هزيمة منكرة وخسائر جسيمة ، ولأنه نصر سيديه (الشرح) وشقيقه (يأزل بين) في غزوهما حمير وحضرموت ، ولأنه مكنهما ، وهما على رأس جيوش (سبأ) و (بحض) (باحض) من الانتصار على قوات (اظلم بن زبنر) (أظلم بن زبنر)[٣] .

ولم ترد في هذا النص اشارةٌ الى موقف الهمدانيين من حضرموت وحمير في حربهما هذه مع سبأ،فلم يرد فيه انهم ساعدوهم او اشتركوا معهم . أما (أظلم بن زبفر) ، فالظاهر انه هو الذي كان يقود القوات المشتركة التي حاربت السبئيين، قوات حمير وحضرموت .

وفي النص Glaser 119 خبر غزو (الشرح يحضب) أرض حمير وحضرموت ولم يكن (الشرح) يومئذ ملكاً ، ولكنه كان في درجة (كبر) أي (كبير) على (أقين) (أقيان) (كبر اقين) (كبير أقيان) . وهي الدرجـة التي كان عليها حتى صار ملكاً . وقد عاد (الشرح) بغنائم كثيرة ، وبعدد كبير من الأسرى . ووصل لهيب هذه الحرب الى أرض (خولان) . وقـد قدم

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 476.

٢ Handbuch., I, S. 92.

٣ Margoliouth, Two South Arabian Inscriptins, P. I.

صاحب هذه الكتابة الى حاميه وإلهه (ومن بعل علمن) (رمان بعل علهان)، الحمد والشكر على هذا التوفيق الذي وفقه له (الشرح) ، وقــدم الى معبده نذراً هو وثن (صلمن) تعبيراً عن هذا الشكر[1] .

والكتابات التي نُعِتَ (الشرح يحضب) فيها بـ (كبر اقين) (كبير أقيان) إذن هي من الكتابات القديمة من أيامه يوم كان في درجة (كبر) (كبير) ، أي في منصب عال رفيع من مناصب الدولة . فقد عثر على كتابات في (شبام أقيان) وفي (شبام سخيم) ، ظهر منها أنها من هذا العهد .

ومنطقة (أقيان) التي كان (الشرح يحضب) (كبيراً) عليهــا ، هي (شبام أقيان) . وتقع عند سفح (جبل كوكبان)[2] .

أصبح للحميريين في هذا الوقت شأن يذكر : أصبحوا قوة فعالة في السياسة العربية الجنوبية ، وزجوا أنفسهم في هــذا النزاع الداخلي في حكومة سبأ دون أن يقيّدوا أنفسهم بجبهة معينة . كانت سياستهم هي مصلحتهم . وأما حضرموت فقد كانت تفتش عن حليف لها لتحافظ على حياتها وكيانها ، كانت قد تحالفت مع (علهان) على حكومة مرثد ، وحافظت على عهدها هذا ، فـأيدت جانب (شعرم أوتر) في نزاعه مع الشرح يحضب .

غير أن مملكة حضرموت لم تبق مدة طويلة الى جانب (شعر أوتر) ، اذ نراها – كما يظهر من النص Glaser 825 – في حرب معــه أيام تلقبه بلقب (ملك سبأ وذو ريدان) . وربما كان اختلافها على أسلاب (قتبان) هو سبب افتراق حضرموت عن همدان . فقد تمكن شعر اوتر من الاستيلاء عـلى جزء من أرض حمير ومن استمالة قسم من حمير اليه ، بينما مــال قسم آخر الى (الشرح يحضب) . وأرادت حضرموت ضم أرض (ردمان) اليها ، وأرض ردمــان من الأرضين التي كانت تابعة لمملكة قتبان ، وهنا وقع الاختلاف . فقــد كان (شعر أوتر) يريدها لنفسه ، فحارب من أجلها في المعركة التي وقعت عنــد

---

١ Glaser 119, Abessin., S. 105, CIH 140, CIH, IV, I, III, P. 203, Winckler, Die Sab. Inschr. der Zeit Alhan Nahfan's, S. 24, Sab. Inschr., S. 15, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 459, Mahram, P. 310.

٢ Beiträge, S. 18.

(ديرم) (ديريم) (دير)[1] .

ويظهر من الكتابة المذكورة أن الردمانيين انتهزوا فرصة الحرب التي نشبت بين (شعر أوتر) و (العز) ملك حضرموت ، فأغاروا على أرض سبأ ، وقصدوا سد مأرب ليلحقوا به اضراراً ، غير أن قبيلة (حملان) التي كانت تحرس السد قابلتها ورجعتها الى حيث أتت ، وبذلك أخفق غزو ردمان ولم ينل السد أي سوء كان[2] . وقد يكون هذا الهجوم بأمر من ملك حضرموت ، كانت الغاية منه ، انزال ضربة قاصمة بالسبئيين ، بتخريب سدهم الذي هو عرق الحياة بالقياس اليهم والى مأرب العاصمة ، فترتاح بذلك حضرموت . وقد كان هذا الغزو في أيام (الشرح) .

وأغلب الظن أن وقوع هذا الغزو كان أثناء الحرب التي نشبت بين (شعر أوتر) وملك حضرموت .

وقد كان (الشرح يحضب) يومئذ ضد حضرموت . وقد ورد اسمه في النص المذكور الا انه لم يشر الى موقفه منها ، ولكن ذكر على العادة اسمه ولقبه ثم ذكر اسم (شعر أوتر) بعده ، فلا ندري أكان قد أسهم هو أيضاً في هذه الحرب مع (شعر أوتر) ، أم وقف موقف المتفرج ينتظر النتيجة ليعين موقفه من بعد ، مهما يكن من شيء فقد أحس ملك حضرموت بموقف (الشرح) ، وعرف انه يريد أن يتربص به ، فأوعز الى الردمانيين بغزو أرض مأرب وبتهديم السد على نحو ما ذكرت .

وقد حارب الردمانيون الحضارمة كذلك ، وكانوا في هذا الزمن حلفاء لحمير . ويرى بعض الباحثين ان حمير كانت الى جانب (الشرح يحضب) ، وقد ساعدته في قتاله الحضارمة[3] . وفي النص المذكور مواضع غامضة ونواقص تحتاج الى دراسة جديدة واعادة نظر في صحة نقل الكتابة عن الأصل .

ولم تنقطع حروب (الشرح يحضب) مع حمير وحضرموت بعد توليه العرش ، فإنا لنجد في نص ان (الشرح) ، وكان يومئذ ملكاً على (سبأ وذي ريدان)

---

١ Glaser 825, CIH 334, Berlin 2672, Glaser, Abessl., S. 109, Winckler, Die Sab. Inschrl. der Zeit Alhan Nahfan's, S. 17, Handbuch, I, S. 93.

٢ Beiträge, S. 38.

٣ Mahram, P. 311.

قد حارب الحميريين والحضرميين ، وكان أخوه اذ ذاك يشاركه في لقبه هذا [1] . وقد انتصر فيها على أعدائه ، غير ان مثل هذه الانتصارات وفي مثل تلك الأيام وفي أرض وعرة متموجة قبلية ، لا يمكن أن تكون انتصارات حاسمة ، تأتي بنتائج ايجابية لمدة طويلة . ذلك لأن المغلوبين سرعان ما يجمعون شملهم أو يتحالفون مع قبائل أخرى ، فيعلنون حرباً أخرى ، والحروب كما نعلم جزء من حياة القبائل .

وقد ورد اسم (الشرح يحضب) وأخيه (يأزل بين) في النص الموسوم بـ Glaser 220 [2] ، وهو نص دوّنه جماعة من (بني بتع) ، و (بنو بتع) هم من (همدان) . دونوه عند اتمامهم بناء (معبد) و (مزود) ، تيمناً به وتخليداً له ، وليقف الناس على زمن البناء ذكروا اسمي الملكين .

ولم يرد فيه اسم (شعرم أوتر) أو غيره من نسله ، مع انهم من (بتع) ، و (شعرم أوتر) من (بني بتع) . وقد يكون من تعليل ذلك ان هؤلاء البتعيين كانوا من أتباع (الشرح يحضب) ، وان قسماً من (بتع) كانوا مع (الشرح) ، فلم يشيروا الى اسم (شعرم أوتر) ، وقد يكون تعليله ان (شعرم أوتر) كان قد توفي قبل (الشرح) ، أو ان (الشرح) كان قد تغلب عليه ، أو على من ولي الأمر بعده ، ولم يعد أمامه أحد ينافسه من البتعيين .

وفي الكتابات التي وسمت بـ Jamme 574 و Jamme 575 و Jamme 590/5 ، وهي كتابات عثر عليها منذ عهد غير بعيد ، أخبار عن معارك وحروب وقعت بين الملك (الشرح يحضب) وشقيقه (يأزل بين) من جهة ، وبين الأحباش ومن كان الى جانبهم من قبائل من جهة أخرى . يحدثنا الملكان في النص : Jamme 574 انهما التقيا (نقمن) من الحبش ومن حلفائهم قبائل (سهرتن) (سهرة) ، وذلك في معارك وقعت في مقراتهم (بمقرهمو) ، أي منازلهم وديارهم الثابتة في وادي سهام ، فأنزلا بهم خسائر فادحة ، ثم توجه الملك (الشرح يحضب) ، ومعه بعض جيشه وبعض أقياله لمحاربة (احزب حبشت) أي أحزاب الحبشة ، ويريد بهم فلول الحبش وجيوشهم ، فالتقى بها في وادي

---

[1] Handbuch, I, S. 92. Background, P. 94.
[2] Glaser 220, CIH 241, IV, I, III, P. 269.

سردد ، واشتبك بالجبش وبقبائل سهرة في موضعين حيث جرت معارك معهم في موضع (ودفـتن) (ودفتان) وموضع (وديفان) (ودفن) ، ثم في (لقـح) . ثم اشتبك بعد هذه المعارك بخمس وعشرين جاعـة من جماعات (اكسمن) و (جمدن) (جمدان) و (عـكم) علك ، وبجماعات من سهرة . وقد أنزل بكل هذه الجماعات خسائر فادحة ، وغنم منها غنائم كبيرة ، وأخذ منها أسرى وماشية كثيرة ، ثم عاد الى مدينة (هجرن صنعو) صنعاء . وحين وصل اليها جاءه رسل (تنبلتم) (جمدن) (جمدان) ومعهم أطفالهم يريدون أن يضعوهم ودائع عنده ، تعبيراً عن طاعتهم له ، واقراراً بخضوعهم لحكمه . فحفظهم رهائن عنده . وقد أقسموا ، وأقسم قوم من أهل (لقح) يمين الاخلاص والطاعة ، وحمد (الشرح يحضب) مع شقيقه (المقه شهوان) على هذا التوفيق[1] .

ويظهر من هذا النص ان الأحباش ، ومعهم أهل (سهرة) الذين كانوا قد استقروا واستوطنوا (وادي سهام) ، كانوا قـد تحرشوا بالسبئيين ، وقاتلوا جيوش (الشرح يحضب) ، أي جيوش مملكة (سبأ وذي ريـدان) ، فقرر الملك الانتقام منهم والأخذ بثأره ، فاتجه نحو الشمال حيث تقابل مع الحبش في (وادي سردد) ، على مسافة (٤٠) كيلومتراً شمال مدينة (الحديدة) . فوقعت معارك بينه وبينهم في سهل (ودفين) (ودفتان) و (دفن) (ووفان) ، وفي أرض (لقح) (لقاح) . وقد تقابل السبئيون بعد (لقاح) بجماعـات عددها خمس وعشرون جماعة من (أكسوم) و (جمدن) جمدان ، وعلك،وسهرة . غلبها جيش (الشرح) وشتت شملها . ثم عاد الملك بعد ذلك الى (صنعاء)، حيث استقبل رسل (جمدن) ، على نحو ما ذكرت .

ويحدثنا النص Jamme 575 عن معارك وقعت أيضاً بين (الشرح يحضب) وأخيه (يأزل بين) من جهـة ، وبين الأحباش وحلفائهم عشائر (سهرة) وعشائر أخرى من جهة ثانية ، ويذكر أن الملك (الشرح يحضب) وضع خطة محاربة الأحباش وحلفائهم وهو في (صنعاء) . وبعد أن أتم كل شيء ، أرسل مقدمة من الأدلاء (بقدميهمو دلولم) ، لتتعرف على مواضع العصابات المنشقة .

---

[1] Jamme 574, MaMb 153, Mahram, P. 60.

ثم سار الجيش الى أرض عشائر (سهرة) حيث أبلغ بوجود عصابات فيها ، كانت منتشرة في كل مكان ابتداء من موضع حصن (وحـدة) (وحدت) (عرن وحدت) . فلما رأت العصابات ذلك الجيش ، ظعنت (ظعنو) الى البحر (لبحرن) ، فتعقب آثارها حـتى أدركها فحاربها . ثم التف حـول الحبش وحلفائهم من (علك) و (سهرة) الذين كانوا قد عسكروا بعيداً عن مواضع أطفالهم وأموالهم ، فأعمل الجيش فيهم السيف ، فقتل منهم عـدداً كبيراً وذبح الحبش ، حتى صاروا بين قتيل أو أسير ،وحصل جيش (الشرح) عـلى غنائم كثيرة من هؤلاء .

ثم اتجه جيش (الشرح يحضب) بعد هذه المعارك نحو الشرق ، لمنازلة فلول الأحباش وبقيتهم وكذلك علك وبقية حلفائهم ، فبلغ موضع (عينم) (عين) و (هعان) (هعن) ، واصطدم بهم ، فأعمل فيهم السيف حتى تغلب عليهم وأخذ منهم عدداً كبيراً من الأسرى واستولى عـلى غنائم كبيرة ، عاد بها ، حيث وضعت أمام شقيق (الشرح يحضب) ، أي (يأزل بين) في (صنعاء) وفي قصر (سلحن) سلحين ، أي قصر الملك في مأرب[١] .

ولا نعلم شيئاً أكيداً عن موضع حصن (وحدت) (وحدة) ، ويظن بعض الباحثين أنه لا يبعد كثيراً عن وادي (صور) ، وهو أقرب الى البحر منه الى المضاب ، ذلك لأن العصابات كانت قد هرعت منه الى البحر ، لتنجـو بنفسها من تعقب جيش (الشرح) لها . وهناك وادٍ يسمى (وادي وحـدة) ، وهو في أرض حمير ، غرب (قعطبة) التي تقع على مسافة (١٢٥) كيلومتراً شمال غرب (عدن) وحوالي (١٧٠) كيلومتراً شمال شرقي (مخا) [٢] .

ولا نعلم شيئاً أكيداً عن موضع (عينم) (عين) (العين) ، واذا ذهبنا الى انه موضع (العين) الذي يقع على مسافة أربعين كيلومتراً من شمال شرق صنعاء وزهاء عشرة كيلومترات من جنوب غربـي عمـران ، واذا فرضنا ان (هعن) وهو الموضع الثاني الذي جرى فيه القتال هو موضع (هواع) الذي يقع على مسافة (٣٥) كيلومتراً من شمال غرب عمران ، فان ذلك يقربنا من

---

١ Jamme 575, MaMb 224, Mahram P. 64.

٢ Mahram, P. 316.

منازل قبائل (بكيل) المذكورة في السطر الثالث من النص ، حيث كانت قد اشتركت مع الحبش في قتال جيش (الشرح يحضب) كما يفهم منه . وهـذا مما يحملنا عـلى الذهاب الى أن (عبنم) هي (العين) ، وأن (هعن) هي (هواع)[١] .

وقد أشير في نص وسم بـ Jamme 590 . الى معارك وحروب وقعت مع عشائر (سهرة) ، إذ يحدثنا في هذا النص : (وهب أوم) و (سعد أوم) ، وهما من بني (كربم) (كرب) و (معدنم) (معـدن) ، بأنهما قدمـا الى الإلـه (المقه) (بعل أوام) تمثالاً ، لأنه منّ عليهما فأعـادهما سالمين من (سهرة) ، حيث قاتلا هناك مع سيدهما (الشرح يحضب) ، ولأنـه أعادهما سالمين من المعارك التي جرت فيها ، وكانا في جيش هذا الملك ، حيث هوجمت قطعات (مصر) جيش ذي ريدان في حقل (ريمم) (ريمت) (ريمة) ، ولأنه أنعم عليهما بغنائم كثيرة وبأسرى ، ولكي يديم نعمـه عليهما وعلى سيديهما الملكين[٢] .

وتنبئنـا النصوص : Jamme 578 و Jamme 580 و Jamme 581 و Jamme 586 و Jamme 589 بأن الملكين الأخوين حاربا (كرب ايل ذي ريدان) وكل من كان معه من كتائب محاربة (كل مصر) وقبائل (أشعب) ومن محاربي حمير الذين حاربوا الى جانبـه وحالفوه وكذلك (ولدعم) ، أي القتبانيين . وقد اجتمعت كل هذه القوى تحت إمرة (كرب ايل) وتقدمت نحو (حقل حرمتم) (حرمة) ، ففاجأتها قوات الملكين عند (اساي) (أسأى) و (قرنهن) (قرننهن) حتى (عروشتن) و (ظلمن) (ضلمان) و (هكربم) (هكرب) ، فأذاقتها الموت ، ومع ذلك بقيت تلك القوات ، منشقة خارجة على طاعة الملكين ، تباغت قواتهما بين الحين والحين ، تغدر وتخون ، لا تراعي ذمة ولا تخشى عقاباً ، على الرغم من الخسائر التي حلت بها ، فقرر الملكـان عندئذ محاربتها ، وسارت قواتهما الى (كرب ايل ذي ريدان) والى حلفائـه الذين انضموا اليه وساعدوه : من حمير ومن قتبان ، ومن أقيال وجيوش وفرسان ،

---

١ Mahram, P. 316.

٢ Jamme 590, MaMb 181, Mahram, P. 96.

وكانوا قد تجمعوا في وادي (اظور) (أظور) ، ولما وصلت قوات الملكين ، اشتبكت بهم عند مدينتي (يكلا) (يكلأ) و (ابون) (أبون) ، فتغلبت عليهم قوات الملكين ، واضطرت بعض كتائب (كرب ايل) الى التقهقر الى مواطنها ، وغادر (كرب ايل) المكان تاركاً فيه من تبقى من جيشه ولم يرسل رسلاً عنه ، وسرعان ما أعلنوا انصياعهم لأوامر الملكين وخضوعهم له،وحلفوا على الطاعة . أما (كرب ايل ذي ريدان) فقد لجأ الى مدينة (هكرم) (هكر) فتحصن بها ، وأغلق أبوابها ، فاضطر الملكان الى قصد أرض حمير ، ومحاصرة المدينة التي اقتحمت ونهبت[1] .

يظهر مما تقدم ان قوات (الشرح يحضب) هاجمت قوات (كرب ايل ذي ريدان) في أرض (حرمتم) (حرمة) في بادىء الأمر ، وتقع على مقربة من جبل (أتوت) ، جنوب شرقي (ريدة) . وقد ألحقت قوات (الشرح) بقوات (كرب ايل) خسائر متعددة ، وهزمتها في جملة معارك وقعت فيما بين (اساى) (أسأى) و (قرنتهن) (قرنتهان) ، وامتدت حتى (عرشتن) و (ظلمن) (ظلمان) و (هكربم) (هكر) . وهي مواضع لا نعرف من أمرها شيئاً يذكر. ويظن ان موضع (عروشتن) هو (العروش) في أرض (رداع). وهناك مواضع أخرى يقال لها (عروش) ، منها موضع ذكره (كلاسر) ، وسماه (بلاد العروش) ، ويقع على مسافة (٩٥) كيلومتراً جنوب غربي مأرب، وزهاء (٧٠) كيلومتراً جنوبي شرقي صنعاء ، وموضع آخر يسمى بهذا الاسم يقع في منتصف طريق صرواح وذمار[2] .

وهناك موضع يقال له (ظلمة) (ظلمه) ، يقع على مسيرة ثلاث ساعات من غرب (سحول) السحول . و (سحول) في أرض حمير . ويقع وادي سحول في شمال (إب) ، فلعل له علاقة بموضوع (ظلمان)[3] .

ويظهر من النص Jamme 578 أن (كرب ايل) بعد أن أصيب بهزائم في أرض (حرمة) في المعارك التي أشرت اليها ، نبذته قبائل حمير ، فاضطر الى أن يتراجع الى أماكن أخرى ، ليجمع فلوله ويضم اليه من بقي موالياً له ،

---

١ Jamme 578, MaMb 263, Jamme 589, MaMb 179, Mahram, PP. 83, 96.

٢ Mahram, P. 317.

٣ Mahram, P. 317.

فاستطاع ان يجمع اعوانه وانصاره ومن كـان يميل اليه ويؤيده ، جمعهم في وادي (أظور) ، غير ان قوات الملكين هاجمته فأصابته بهزيمة اضطر عـلى أثرها الى الالتجاء الى مدينتي (يكلا) (يكلأ) و (ابون) (أبون) (أبوان) ، وأجبر على ان يعطي عهداً بالولاء للملكين ، وعلى الاعتراف بسيادتهما عليه . إلا أنه تحصن بمدينة (هكرم) (هكر) ، وامتنع بها وأغلق عليه الأبواب عندما جاءته قوات الملكين تطلب منـه الاستسلام . وهـاجمت قوات الملكين المدينة ، واستباحتها ، فاضطر (كرب ايل الى الاستسلام واعلان طاعته وخضوعه للملكين[1] .

ويحدثنا النص : Jamme 586 بأن الملكين تمكنا من سحق عصيان حمير ومن انزال خسائر فادحة بمحاربيهم ومن تأديب عشائرها ، ثم أنزلا خسائر فادحـة بقوات (كرب ايل) وبكتائب حمير المحاربة التي كانت معه ، وغنما من هذه المعارك غنائم كثيرة . وقد قام صاحب النص بغارة مع أربعين جندياً على منطقة (سرعن) سرعان ، فوجدوا هناك مئة جندي من جنود حمير فباغتوهم ، وقتلوا منهم سبعة وعشرين نفراً ، ثم تقدم صاحب النص على رأس قـوة مكونة من خمسين جندياً من (سرعان) ، فهـاجم قبيلة (قشمم) (قشم) ، وتمكن رجاله من قتل (الزاد) (الزأد) من عشيرة (ربحم) (ربح) (رباح) ، ومن قتل واحد وخمسين محارباً من رجاله . ثم عاد مع رجاله بغنائم كثيرة وبعدد من الأسرى[2] .

ويظهر ان القتيل (الزاد) (الـزأد) ، كان رئيساً من رؤساء العشائر ، ومن مثيري الاضطرابات والفتن ، ومن العصاة على حكم سبأ وذي ريدان . وأما (قشم) ، فقبيلة أو عشيرة ، كانت منازلها جنوب (ردمان) وغرب (مضحيم) مضحي[3] .

وقد سجل الملكان أخبار انتصارات لهما في نص موسوم بـ Jamme 576 . وقد افتتح نصها بمقدمة تخبر ان الملكين انتصرا بفضل توفيق الإلـه (المقه ثهون) (المقه ثهوان) ومساعدته لهما على جميع أعدائهما من المحاربين والقبائل ومن ثار عليهما ، ابتداءً من القبائـل النازلة في الشمال وفي الجنوب الى المحاربين الذين

---

[1] Mahram PP. 317 - 318.
[2] Jamme 586, MaMb 262, Mahram, P. 93.
[3] Jamme, P. 318.

حاربوا على اليابسة وفي البحر[١] ، وانهما لذلك شكرا إلهها بأن قدما اليه تماثيل تعبيراً عن حمدها له ولمنته الطائلة عليها ، ولأنه وفقها أيضاً في أسر (ملكم) مالك ، ملك (كدت) (كدة) (كندة) ، وأسر جماعة من سادات قبيلة (كدت) (كدة) (كندة) ، لأن (مالكاً) كان قد ساعد أعداء (المقه) وأعداء الملكين : (مراقيس بن عوفم) (مرأقيس) امرىء القيس بن عوف، ملك (خصصتن) (خصصتان) . وقد وضعوا في مدينة (مرب) ، وبقوا فيها الى أن سلم لها الشاب (مراقيس) (مرأقيس) ، وكذلك ابن الملك (مالك) وأبناء سادات كندة ، ليكونوا رهائن عندهما ، فلا يحنثوا بيمين الطاعة للملكين. وقد سلموا للملكين أفراساً وحيوانات ركوب وجمال[٢] .

ويظهر من الفقرة المتقدمة من النص ان (مالكاً) كان من (كدة) (كدة) وكان ملكاً عليها ايام حكم (الشرح يحضب) وشقيقه (يأزل بين). وقد ساعد (مراقيس) (مرأقيس) (امرىء القيس) ملك مملكة صغيرة اسمها (خصصتن) (خصصتان) ، الذي كان ضد سبأ ، فأثارت هذه المساعدة غضب الملكين ، فساقا جيوشهما على كندة وعلى (خصصتن) . وقد انتصرا عليهما ، فأسر ملك كندة ، وأسر معه عدد من سادات كندة ، فأخذوا الى مدينة تسمى (مرب) ، يظن الباحثون انها ليست (مأرب) ، بل مدينة أخرى من مدن شعب (مرب) Marabites الذي يسكن أرض عدن ، ووضعوا رهائن فيها ، الى أن جيء بـ (مراقيس) (مرأقيس) ، وهو ملك شاب ، وبإبن ملك كندة وبأولاد سادات كندة حيث وضعوا رهائن عند الملكين ، ليضمنا بذلك بقاء كندة ومملكة (خصصتن) على الطاعة والاخلاص لها[٣] .

ويظن ان أرض مملكة (كدت) (كدة) كندة كانت في جنوب (قشم). وأما أرض (خصصتن) ، فتقع في أرض (عدن)[٤] .

---

١ الفقرة الاولى من النص : Jamme 576, MaMb 212, Geuken 3, Mahram, P. 67.

٢ الفقرة الثانية من النص ، Ryckmans 535, Von Wissmann, Zur Geschichte, S. 404, Die Araber, II, S. 322.

٣ D. H. Müller, Al-Hamdani, 53, 124, W. Caskel, Entdeckungen in Arabien, Koln, 1954, S. 9, Mahram, P. 318.

٤ Mahram, P. 318.

وقد تحدث الملكان بعد انتهاء كلامهما على كندة وعلى (خصصتن) عن حملات تأديبية انتقامية أرسلاها على أحزاب (احزب) حبشية محاربة،أي عصابات منهم كانت تعيث فساداً فتغير وتغزو ، وعلى عشائر (سهرة) ، وعلى (شمر ذي ريدان) ، وعشائر حمير ، وذلك لأن كل من ذكروا حنثوا بيمينهم وخاسوا بوعدهم الذي قطعوه على أنفسهم ، فثاروا على ملكي (سبأ وذي ريدان) ، فخرج الملكان من (مأرب) الى (صنعاء) ، لمحاربة (شمر ذي ريدان) وعشائر حمير و (ردمان) و (مضحيم) (مضحى) . وقاد الملك (الشرح يحضب) بعض أقياله وجيشه وفرسانه ودخل أرض حمير ، حيث حطم مقاومة حمير وقمع ثورتها ، واقتحم (بيت ذ شمتن) (بيت شمتان) ومدينة (دلل) دلال و (بيت يهر) ومدينة (اظور) على حدود أرض (قشم) ، وأباح تلك المدن ، وحصل منها على غنائم طائلة وأسر كثيرين[1] ، ثم عاد الى معسكره بين مأرب وصنعاء[2] .

ويظهر من هذا الخبر أن (شمر ذي ريدان) ومن كان معه من عشائر حمير ومن الحبش وعشائر (سهرة) ، خاصم ملكي سبأ ، فجرد الملك (الشرح يحضب) حملة عسكرية عليه وعلى حلفائه قادها بنفسه ، فتمكن كما يذكر في نصه من الانتصار عليها ومن التغلب على المتحالفين ومن فتح المدن المذكورة . غير أن هذا النصر لم يحقق له اسكات (شمر ذي ريدان) وإخماد حركته وحركات من كان معه ، إذ سرعان ما عاد (شمر) الى العصيان والى الثورة على ملكي سبأ ، والى تجدد القتال بينه وبينهما ، وسرعان ما عاد مع حلفائه الحبش يقارعون جيش (سبأ وذي ريدان) بالسيوف في معارك عديدة ذكرت في النص : Jamme 576 وفي نصوص أخرى .

فبينما كان الملك (الشرح يحضب) مع جنوده في معسكراته بين مأرب وصنعاء ، أرسل (شمر ذي ريدان) كتائب (مصر) من حمير الى الأرض المحيطة بمدينة (باسن) (بأسان) والى المدينة نفسها ، التي هي (بوسان)، لتقوية استحكاماته هناك ، وللاستعداد لمقاومة (سبأ وذي ريدان) ، فأسرع

١ الفقرة الرابعة من النص

٢ Mahram, P. 319.

(الشرح يحضب) وتقدم على رأس أقياله وقوّاده وجيوشه نحو المدينة المذكورة، ففتحها واستباحها ، وحصل جنوده على أسرى وغنائم ، ثم اتجه الملك (الشرح يحضب) منها نحو سهل (درجعن) (درجعان) ، فلم يجد أحداً يحاربه ، لأن قوات (شمر) كانت قد انسحبت منه ، فاتجه منه الى أرض (مهانفم) مهأنف ، وأرسل قوات خاطفة سريعة غزت سكانها ، وتمكنت منهم وحصلت على غنائم كثيرة وعلى أسرى ، ثم اجتازت قوات الملك حمر (مقلن) (بلرن) بلران ، قاصدة مدينة (تعرمن) (تعرمان) ، فافتتحتها وأسرت أهلها ثم عادت بأسراها وبغنائمها الى معسكراتها بمدينة (نعض) (ناعض) فرحة مسرورة[1] .

وقبيلة (مهانف) (مهأنف) من القبائل المعروفة ، التي ورد اسمها في عدد من الكتابات . وقد اقترن اسمها باسم قبيلة (بكيل) في النص : CIH 140 ، وذكرت مع قبيلة أخرى تسمى (ظهر) ظهار[2] .

وعاد (الشرح يحضب) فقاد جيشه لغزو القسم الشرقي من أرض (قشمم) (قشم) ، فتمكن منه ، وافتتح مدينة (ايضمم) (أيضم) ، وكل الأماكن الواقعة في هذه المنطقة من (قشم) ، ثم عاد الجيش الى معسكراته في مدينة (نعض)[3] .

وتحرك الملك (الشرح يحضب) مرة أخرى ، فخرج من مدينة (نعض) على رأس قواته الى أرض قبيلة (مهانفم) (مهأنف) ، وكانت قواته تتألف من مشاة وفرسان ، وفتح مدينتي (عنى) و (عثر) ، وأخذ منها غنائم كثيرة ، وحصل على أسرى ، ثم تركها واتجه نحو مدينة (مدرحم) (مذرح) وهي مدينة عشيرة (مذرحم) (مذرح) (مدراح) ، فحاربها وحارب عشيرة (مهأنف) التي فرت الى مدينة (ضفو) (ضاف) ، ففتحها وأخذ غنائم منها ، ثم غادرها الى مدينة (يكلا) (يكلأ) (يكلىء) حيث وجد بعض رؤساء ريدان وبعض كتائب حمير ، فالتحم بهم وهزمهم من موضع

---

١ الفقرة السادسة والسابعة من النص .
٢ Jamme 651, Mahram, P. 319.
٣ الفقرة السابعة من النص .

(مرحضن) (مرحضان) ، وتعقب فلولهم حتى بلغ (يكلا) (يكلأ) ، وعندئذ عادت قوات (الشرح يحضب) الى مدينة (نعض) ، حيث معسكرها الدائم[1] .

وقد انتهز الحميريون فرصة انسحاب قوات (الشرح يحضب) الى (نعض) ففاوضوا رؤساء (يكلا) (يكلأ) على الاتفاق معهم للانتقام من السبئيين ولمهاجمة وادي (سر نجررم) (وادي نجرر) فأسرع الملك (الشرح) نحو (يكلا) ، فبلغه ان رؤساءها لم يكونوا على وفاق مع حمير ، وانهم دفعوهم عنهم ، فعاد الملك الى قواعد جيشه في مدينة (نعض) ، ثم غادرها الى (صنعاء)[2] .

وعلم الملك (الشرح يحضب) ، وهو في (صنعاء) بأن (شمر ذي ريدان) قد أرسل رسلاً الى (عذبة) (عذبت) عذبة ملك (أكسوم) ليدعوه الى شد أزر (شمر) ومساعدته على (الشرح يحضب) . فقرر الملك الاسراع لمباغتة (شمر) ومن كان يؤيده ، وترك (صنعاء) في الحال ، لمباغتة عشائر حمير و (ردمان) و (مضحيم) (مضحي) ، وأرسل في الوقت نفسه رسلاً الى الحبشة (حبشت)[3] . وقد هاجمت قواته سهل (حرور) و (ارصم) (أرص) و (درجعن) ، فتغلبت على سكان هذه المواضع ، وأخذت منهم أسرى وغنائم . وقد سار جيش الملك حتى بلغ موضعي (قريب) و (قرس) (قريس) ، فردم آبارهما ، واستولى على مدينة (قريس) ، واتجه (الشرح يحضب) من هذه المدينة نحو أرض (يهبشر) و (مقرام) (مقرأم) و (شددم) (شدادم) (شدد) (شداد) ، وأخذ غنائم وأسرى من أهل هذه الأرضين . وعندئذ وجد نفسه نحو (بيت راس) (بيت رأس)،فاستولى عليه وعلى كل حصونه وابراجه ، وعلى مدينة (راسو) (رأسو) ، ثم توجه نحو (بيت سنفرم) (بيت سنفر) حيث اخذ كل العصاة الذين كانوا قد اختلفوا فيه . ثم قصد مدينة (ظلم) ، فوجه اليها قوات كبيرة من المشاة بقيادة ضباطه الكبار ، فاستولت عليها ، ودحرت خيرة قوات (شمر ذي ريدان) التي وضعها فيها ،

---

١ الفقرة التاسعة من النص .
٢ الفقرة العاشرة من النص .
٣ السطر السادس من النص . Jamme 577.

فجمع (شمر) قواته وكل من ساعده من حمير وردمان ومضحي، ليصد جيش (الشرح يحضب) وعسكر بها بين مدينتي (هرن) (هران) و (ذمر) (ذمار)[1] ، وأقام هناك استعداداً لجولة جديدة .

ورأى (الشرح يحضب) وجوب مباغتة هذه القوة المتجمعة ، قبل ان يشتد ساعدها وتصبح قوة محاربة قوية ، فسار على رأس الف وخمسمئة جندي واربعين فارساً ، ومعه عدد من الأقيال ، حتى التقى بجمع (شمر ذي ريدان) ومعه عشائر من حمير وردمان ومضحي ، وزهاء ستة عشر الف بعير، فباغت (الشرح يحضب) جمع شمر ، وهرب بعض الريدانيين وبعض عشائر حمير الى مدينة (ذمـار) ، وذهب بعض الفرسان ومعهم قوات اخرى الى معسكراتهم في (انحرم) (أنحر) و (طريدم) (طريد) ، واخذ قسم من القوات يطارد (شمر ذي ريدان)[2] . ولم يتحدث النص عما وقع بعد ذلك ، اذ اصاب آخر الكتابة تلف ، او لأن بقيتها كتبت على حجر آخر لمّا يعثر عليه ، فأضاع خبر بقية الحملة .

ولكن النصوص : Jamme 577 و Jamme 585 و CIH 314 + 954 تفيدنا في الوقوف على انباء معارك وقعت بين (شمر ذي ريدان) وحلفائه وبين (الشرح يحضب) بعد المعارك المتقدمة . وقد اصاب النصّ Jamme 577 تلفٌ اضاع فهم مقدمته ، فافتتح بجملة : وقتل فرسه ، ثم اتجهوا نحو مدينة (زخنم) (زخان) ، واصابوا غنائم من كتائب حمير وردمان ومضحى ارضتهم ، ثم غادرهم الملك (الشرح يحضب) وذهبوا الى (ترزنن) (ترزنان)[3] .

فيظهر من هذه الفقرة ان الملك (الشرح يحضب) اكتفى بعد انتصاره على خصومه في معركة مدينة (زخان) ، فعاد الى قاعدته ، وذهب قسم من جيشه الى مدينة (ترزنن) ، ليستجم من القتال .

ثم يذكر النص أن (شمر ذي ريـدان) ومن انضم اليه من حمـير ومن (ولد عم) أي القتبانيين ، صدوا عن الحق ، وعصوا ، وتجمعوا للزحف ثم

---

١ الفقرة ١٤ من النص .

٢ الفقرة ١٦ من النص .

٣ الفقرة الاولى من النص :
Jamme 577, MaMb 219, Mahram, P. 76, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 286.

ذهبوا الى (ذمار) فتحصنوا فيهـا ، ثم اتجهوا نحو مدينة (نعض) ، ثم رجعوا وعسكروا بين المدينتين ، فواجهتهم قوات (الشرح يحضب) وتعقبتهم في المواضع المذكورة ، وأنزلت بهم خسائر كبيرة ، ثم رجعت بغنائمها الى مدينة (صنعاء) . ومعها ماشية كثيرة وأسرى وغنائم وأموال طائلة[1] .

ويظهر أن (شمر ذي ريدان) قد تمكن خلال هذه المدة من اقناع الحبش بالانضمام اليه ومساعدته في حروبه مع خصمه (الشرح يحضب)،فأمده (جرمت ولد نجشين) ، (جرمة ولد النجاشي) (جرمة بن النجاشي) بكتائب حبشية محاربة قوّتْ مركزه كثيراً ، ترأسها هو بنفسه وجاءته أمداد من (سهرة) ، فأخذ يتحرش بالسبئيين ، مما حمل الملك (الشرح يحضب) على السير اليـه لمقابلته مترئساً قوة قوامها ألف محارب وستة وعشرون فارساً ، فاصطدم ببعض قوات (شمر) وتغلب عليها وأخذ منها أسرى وغنائم ، ثم حدث ان وصلت أمداد من الحبش لمساعدة تلك الكتائب المندحرة في موضع (احدقم) (أحدق)، فقابلها مشاة (رجلم) (رجـاله) من جيش الملك (الشرح يحضب) أنزلوا بها خسائر وشتتوا شملها ، وعاد الملك (الشرح يحضب) مع أقياله ورجاله إلى صنعاء ، ومعه أسرى وغنائم وأموال طائلة[2] .

وقد انتصر (الشرح يحضب) على الحبش كذلك ، وعـاد (جرمة) الى قواعده مغلوباً على أمره ، جزاء نكثه العهد وازدرائه بمهمة الرسل الذين أرسلهم (الشرح يحضب) اليه لاقناعه بعدم مساعـدة (شمر ذي ريدان) ومن انضم اليه ، وذلك كما يذكر النص[3] .

وتطرق النص بعد ما تقدم الى الحديث عن دحر ثائر آخر كان قـد أعلن الثورة على الملكين ، اسمه : (صحبم بن جيشم) أي (صحب بن جيش)، (صحاب بن جياش) . ويظهر أن ثورته لم تكن على درجة كبيرة من الخطورة لذلك لم يرأس (الشرح يحضب) نفسه الحملة التي أرسلت للقضاء عليه ، بـل رأسها قائد من قواده اسمه (نوفم) (نوف) ، وهو من (همدان)و(غيان). وقد تألفت الحملة من محاربين من (حاشد) ومن (غيمن) (غيان) .

---

١ الفقرة الثانية من النص .
٢ الفقرة الرابعة والخامسة من النص .
٣ الفقرة السادسة منه .

فانتصر (نوف) على خصمه انتصاراً كبيراً ، وكان في جملة ما جاء به من تلك الحملة رأس صبح ويديه[1] .

وتقع مدينة (غيمان) علـــى مسافة اثني عشر كيلومتراً من جنوبِ شرقي مدينة صنعاء[2] .

وانتقل الحديث من مقتل (صحب بن جيش) الى الكلام على ثورة قبيلـة (نجرن) (نجران) على الملكين . وكانت هذه القبيلة قد أكرهت من قبل على الخضوع والاستسلام لحكم (سبأ ذي ريدان) ، ولكنها عادت فأعلنت عصيانها على الملكين ، بتحريض من الحبش ، فسار الملك (الشرح يحضب) بنفسه على رأس قوة من أقياله وفرسانه عليها ، فحاصر مدينة (ظربن) (ظربان) مدة شهرين ، فصبرت وقاومت ولم تسلّم ، لأنها كانت تؤمّل أن تصل اليهـا امداد ومساعدات وقوات من ملك حضرموت الذي وعدهـــا بذلك ومن قبيلة نجران ، فقوى ذلك الأمل عنادها ، وشد من عزيمتها على الدفاع عن نفسها ، ولطـول مدة الحصار الذي دام شهرين ، قرر الملك العودة الى صنعاء[3] .

وقد ترك الملك (الشرح يحضب) قسماً من جيشه لمراقبة الأوضاع ، وضعه تحت قيادة قائدين من قواده الكبار ، أحدهما : (نوفم) (نوف) الذي قتل الثائر (صحب بن جيش) . ووصلت في خلال هذه المدة أمداد الى ممثل النجاشي (سبقلم) (سبقل) ، الذي يمثله في مدينة (نجران) ولـدي قبيلة نجران ، فهاجم القائدان بقواتها وبمساعدة رجال محاربين من حاشد وغيمان وبأربعـــة عشر فارساً ، واديـي نجران،فانتصرا وحصلا على غنائم عادا بها سالمين الى (صنعاء)[4].

ويظهر أن رجوع (الشرح يحضب) الى (صنعاء) كان من أجـل اعادة تنظيم صفوف جيشه ولوضع خطة محكمـــة لملاقاة أعدائه حتى إذا تم لـــه ذلك ووضع الخطط اللازمة لمهاجمة أعدائه ، غادر صنعاء متوجهاً الى وادي (ركبن) (ركيتان) ، وقد التقى فيه بأعدائه فأنزل بهم خسائر كبيرة ، فقتل عدداً كبيراً

---

١ الفقرة السابعة من النص .

٢ Mahram, P. 322.

٣ الفقرة الثامنة والتاسعة من النص .

٤ الفقرتان العاشرة والحادية عشرة من النص .

منهم ، وأسر عدداً من سادات (مراس) وأحرار (احرر) نجران ، فسيقوا الى (مسلمن) (مسلمان) . ولم يستطع خليفة (عقبهو) النجاشي أن يساعد المنكسرين .

وقد اعلن المنهزمون خضوعهم لحكم الملكين ، ولكي يحافظوا على وعدهم هذا ويعبروا عن طاعتهم هذه ، وضعوا ابناءهم وبناتهم رهائن في مدينة (صربن) (صربان) وفي وادي نجران . ولوجود بعض التلف في نهاية الفقـــرة الرابعة عشرة ، لا نعلم ماذا حدث من تفاصيل في حصار نجران . غير ان النص يعود فيذكر ان (٩٢٤) قتلهم الأعداء في المعركة وان (٥٦٢) اسيراً وقعوا في ايدي قوات (الشرح يحضب) ، وان (٦٨) مدينة فُتحت ونهبت وابيحت ، وان ستين الف حقل من الحقول التي يرويها الماء دمرت ، وان سبعاً وتسعين بئراً دفنت ودمّرت ، وغنم المحاربون غنائم كثيرة رجعوا بها شاكرين إلـه سبأ على ما اشار النص الى مقري حكم الملكين : (قصر سلحن) (قصر سلحان) في مأرب وقصر (غندن) (غندان) الذي هو قصر غمدان عند اهل الأخبار[1] .

ويعد النص الموسوم بـ CIH 314 من النصوص المهمة المتعلقة بالحروب المذكورة. فهو يتحدث عن امور خطيرة وقعت في تلك الأيام . وقد جاء في هذا النص : ان (رب شمس) ، قيل (قول) عشيرة (بكلم) ، اي (بكيـــل) التي تكوّن ربع (ذريدت) (ذي ريـــدة) ، و (وهب أوم) من (جدنم) (جدن) و (خلوت) (خلوة) ، وكانا (مقتوبي) (الشرح يحضب) وشقيقه (يأزل) ، نذرا للإلـه (المقه بعـــل مسكت ويث) و (برأن) ، تمثالين من الذهب ، لأنه منّ على سيديها الملكين ، وحفظها ، وكان ذلك في شهر (ذي نبل) من السنة السادسة من سني (تبع كرب بن ودال) (تبعكرب بن ود ايل) ، ولأنه ساعدهما ونصرهما وأذلّ اعداءهما ، واكره (شمر ذي ريدان) على ارسال رسول عنه يطلب الصلح منهما ، واجبر الريدانيين واحزابهم وحلفاءهم الحبشة من مدينتي (زوم) و (سهرة) على الطاعة والخضوع[2] ، وعلى طلب عقد الصلح ، على حين كان (شمر ذو ريدان وحمير) ، يطلب النجـدة من

---

١ الفقرة ١٢ فما بعدها الى نهاية النص .

٢ (احزب حبشت هجرن زوم وسهرتن) ،
CIH 314, Glaser 424, Louvre 4088, CIH, IV I, IV, P. 340.
Glaser, Abessl., S. 117, Le Muséon, 3-4, 1948, P. 232.

حلفائه الحبشة لمحاربة ملكي سبأ . ولكن الإله (المقه) خيب ظنه ، وخذله، ونصر الملكين : (ملكي سبأ وذي ريدان) .

وقد ساعد (شمر ذي ريدان) واشترك معه في هذه الحرب عدد من القبائل منها : (سهرتن) (سهرتان) ، و (ردمن) (ردمان) ، و (خولن) (خولان) ، و (مضحيم) (مضحى) . وأرسل قوة لحماية مدينة (باسن) (بأسن) (بأس) ، وهي من المدن الواقعة في جنوب غرب (وعلان) . وقد تقدم السبئيون في اتجاه مدينة (ظلم) لمحاربة (شمر) ومجابهته ، حتى انتصروا عليه في مدينة (ذمر) ذمار[١] .

وقد كان (شمر) من (ذي ريدان) ، أي من حمير ، ويظهر أنه أراد مزاحمة (الشرح يحضب) وأخيه على العرش ، او انه اختلف معهما ، فوقعت الحرب بينهما ، وتقدم (شمر) بقبائل (حمير) و (أولاد عم) (ولد عم) أي قتبان والقبائل الأخرى ، واصطدم بجيش السبئيين على نحو ما ورد في النص[٢].

ويظهر أن (شمر ذي ريدان) اضطر بعد ذلك الى الاتفاق مع (الشرح يحضب) والى الخضوع والاستسلام له ، فانتهت بذلك معارضته له[٣] ، وتولى قيادة جيشه في حربه مع حضرموت[٤] .

ويمكن تلخيص الوضع السياسي في عهد (الشرح يحضب) على هذا النحو: كان خصم (الشرح) ومنافسه على الملك في هذا العهد هو (شمر) ، وهو من حمير ، أي سيد (ريدان) (ذ ريدن) ، وعاصمته (ظفار) . وقد استعان بالحبش،وطلب مساعدتهم على (الشرح يحضب) ، فاضطر الى الاستسلام له ، ثم اشترك مع السبئيين في محاربة ملك حضرموت (العذ) .. وكان يومئذ تحت حكم السبئيين . أما (شعرم أوتر) الهمداني ، فكان من المؤيدين لـ (الشرح يحضب) وكان يحمل أيضاً لقب (ملك سبأ وذي ريدان)[٥] .

وفي هذا النص اشارة الى تدخل الحبش في شؤون العربية الجنوبية في هذا العهد،

---

١ BOASOOR., NUM. 145, (1957), P. 29.

٢ Jamme 577, BOASOOR., NUM. 145, 1957, P. 28.

٣ CIH 314, Glaser 424.

٤ Beiträge, S. 38.

٥ Beiträge, S. 34.

والى وجودهم في مواضع من السواحل ، والى تكوينهم مستعمرات فيهـا تتمون من الساحل الإفريقي المقابل .

وأنا لا استبعد احتمال اتفاق الرومان مع الحبش يوم ارسلوا حملتهم المعروفة على العربية الجنوبية بقيادة (اوليوس غالوس) ، وذلك باتفاق عقده حكامهم في مصر وقد كانت خاضعة لهم اذ ذاك مع ممثلي الحبش يقضي بأن يسهلوا لهم أمر الوصول الى العربية الجنوبية ، ويقدموا لهم المساعدات اللازمة ، وان يتعاونوا جميعاً في الأمور السياسية والاقتصادية ، وفي مقابل ذلك يضمن الرومان للحبش مصالحهم في العربية الجنوبية ويقتسمونها فيما بينهم ، أو يحافظون على مستعمرات الحبشة فيها .

ويظهر من الكتابات ان الحبش كانوا يغيّرون سياستهم في العربية تبعاً للأحوال المتغيرة ، فنراهم مرة مع الحميريين ، وتارة عليهم ، ونجدهم في حلف مـع (شعرم أوتر) ، ثم نراهم في حلف آخر ضده ، ونجدهم مـرة أخرى على علاقات حسنة بـ (الشرح يحضب) ، ثم نجدهم على أسوأ حال معه . وهكذا نرى سياستهم قلقة غير مستقرة ، كل يوم هي في شأن ، وهي بالطبع نتيجة للاحوال القلقة المضطربة التي كانت تتحكم في العربية الجنوبية اذ ذاك ، ولمصالح الحبش الذين كانوا يريدون تثبيت أقدامهم في السواحل العربية المقابلة وتوسيـع رقعة ما يملكونه باستمرار .

ويظهر من النص المتقدم ان (بكيل) التي تكوّن ربع (ذي ريدة) كانت مع الملكين (الشرح) و (يأزل) ، و (بكيل) هي عشيرة الملكين ، وقد كانت تنزل في أرض (ريدة) اذ ذاك .

وقد رأى بعض الباحثين ان (شمر ذ ريدن) (شمر ذي ريدان) هو (شمر يهرعش) ، وان الذي حارب (الشرح يحضب) وأخاه (يأزل) ، هو هذا الملك . ومعنى ذلك انهم رجعوا زمان (الشرح يحضب) زهاء (٢٥٠) سنة اذ جعلوه في أوائل القرن الرابع للميلاد[١] ، وهو رأي يعارضه باحثون آخرون . وقد صيّروا (الشرح يحضب) من المعاصرين للملك (امرىء القيس) المذكور

١ BOASOOR., NUM., 145, 1957, P. 75.

في نص النمارة ، والمتوفي سنة (٣٢٨ م) ، وذكروا ان (مراقس) ، الوارد في السطر الثاني من النص : Ry 535 هو (امرؤ القيس) المذكور[١] .

وقد وردت في النص المتقدم جملة (هجرن صنعو ورحبتن) ، أي (مدينة صنعاء ورحبة) (رحابة)[٢] . وقصد بـ (صنعو) مدينة صنعاء عاصمة اليمن حتى اليوم . وأمـا (رحبة) أو (رحابة) (الرحبة) ، فإنه مكان ذكره (الهمداني) ، لا يبعد كثيراً عن صنعاء[٣] . ويكون هذا النص أول نص على ما نعلم وردت فيه إشارة الى صنعاء . وهناك موضع آخر اسمه (صنعاء) وموضع اسمه (رحابة) أو (راحبة) يقعـان في منطقة (مأرب) على الجهة اليمنى من وادي (ذنة) ، ظن بعضهم أنهما الموضعان المذكوران في النص[٤] .

والرأي الغالب أن النص المذكور قصد بـ (صنعو) مدينـة (صنعاء) ، وذلك لورود اسم قصر (غنـدن) (غ ن د ن) (غندان) أي (قصر غمدان) في كتابـة أخرى من أيام (الشرح يحضب) ، و (قصر غمدان) قصر معروف بقي قائماً الى الإسلام ، وقد كان في صنعاء . ورقم هذه الكتابة هو : CIH 429 . وقـد ذكر مع القصر اسم القصر (سلحن) (سلحان) (سلحين) وهو دار الملوك الحاكمين في مدينة مأرب ، فيكون (الشرح يحضب) قد أقام في القصرين ، وحكم منهما . وقد ذكر (الهمداني) أن (الشرح يحضب) هو الذي بنى قصر غمدان ، وأن (شاعرم أوتر) (شعرم أوتر) هـو الذي أسس سور صنعاء[٥] . ويعرف قصر (غمدان) بـ (غنـدن) (غندان) في الكتابات ، فهو إذن من القصور الملكية القديمة من أيام السبئيين .

وقد أشير الى مدينة (صنعو) في النص : REP. EPIG. 4139 ، وكـان أصحابه مقتوين للأخوين الملكين (الشرح يحضب) و (يأزل بين) . وقـد وردت فيه أسماء اشخاص من (بني سارن) (بني سأران) و (محيلم) و(نعمت)

---

١ Ry 535, Le Muséon, 69, (1956), P. 139, BOASOOR., NUM., 145, 1957, P. 25.

٢ أي النص :

٣ (رحبة صنعاء) ، (وبلد بكيل من نصف الرحبة ، رحبة صنعاء الى نجـران) ، الصفـة (ص ١١١ ، ٢٢٧) .

٤ Glaser, Abessl., S. 121.

٥ « قيل هو من بناء سليمان » ، اللسان (٣/ ٣٢٧) ، Beiträge, S. 19.

(نعمة) و (موضعم)[1] . وقد جاءت أسماء هؤلاء في النص CIH 411 الذي دوّنوه تقرباً الى الإلـه (المقه ثهون بعل اوم) (المقه ثهوان بعل أوام)[2] .

ويتحــدث النص : Jamme 115 عن معارك وقعت بين أعداء (تجمعوا وقتلوا) في وادٍ سقط اسمه من النص . وقد انتصر (الشرح يحضب) عــلى أعدائه وغلبهم[3] .

ويتحدث النص بعد ذلك عن حرب أعلنها الملكان على حمير وحضرموت ، غير انه لم يذكر أية تفاصيل عنها . وكل ما ورد فيه ان حمير انضمت من بعد الى سبأ وذي ريدان ، واشتركت معها في بعض الحروب . ومعنى هذا انها عقدت معاهدة صلح وانها حالفت الملكين[4] .

ويرى بعض الباحثين ان النص : REP. EPIG. 4336 ، الذي ذكرت فيــه حرب وقعت بين (شمر ذي ريدان) من جهة و (ابا نسم بن معهر) ، أي (أبانس بن معهر) (أب أنس بن معهر) ، أو من (آل معهر) (معاهر) و (يخولم) وملك سبأ،وملوك حضرموت ، من جهة أخرى[5] ، هو من النصوص المتأخرة التي دوّنت بعد النص المتقدم ، أي بعد النص : Jamme 115 دوّن بعد يأس حضرموت وحلفاء (شمر ذي ريدان) من احراز أي انتصار كان على (الشرح) ، فتفرقوا لهذا السبب عن (شمر) وانضموا الى جانب الملك (الشرح) ، وخاصموا (شمرا) . ولهذا نجد حضرموت مع (الشرح يحضب) في محاربة حليفها السابق (شمر ذي ريدان)[6] .

ويحدثنا نص ناقص لم يدوّن تدويناً صحيحاً حتى الآن ان ثورة صهرت في أيام (الشرح يحضب) قام بها (أيسن) ، أي (انسان) ثار على الآلهـة ، اسمه : (نمرن) (نمران) او انــه كان من عشيرة تسمى بـ (نمران) ،

---

١ REP. EPIG., VII, I, P. 99.

٢ CIH 411, CIH, IV, II, I, P. 88.

٣ Mahram, P. 323.

٤ Mahram, P. 323.

٥ REP. EPIG. 4336, SE. 101, Mahram, P. 324.

٦ Mahram, P. 324.

وتجرأ على آلهته بثورته هذه على (ملك سبأ وذي ريدان)[1] . ثم يذكر النص، الا انه بفضل الآلهة ورحمتها تمكن (الشرح يحضب) من تأديب هذا الغـر : هذا (الانسان نمران) (أيسن نمرن) الذي حارب الآلهة والبشر (انسن) ، بل حارب حتى ذوي قرابته ورحمه ، فاستحق العقاب . وانه شكراً للإلـه (عثتر ذ ذبن بعل بحر حطبم) ، أي الإلـه (عثتر ذو ذبن رب معبد بحر حطبم) الذي ساعد عبده (الشرح يحضب) ومنّ عليه بالنصر والعافية والخير ، وعلى قصريه : (سلحن) (سلحان) (سلحين) و (غندن) (غندان) ، أي (قصر غمدان) بصنعاء ، وعلى (صرواح) ، وادام عليه نعمه ، ووقاه كل بأس[2] ، تيمن باعلان ذلك للناس ، ليحمدوا الإلـه ، وليشكروا نعم الآلهـة عليهم ، ولتديمها عليه بحق : (عثتر) و (هوبس) و (المقه) و (ذت حمم) (ذات حميم) ، (ذات حمى) و (ذت بعدن) (ذات بعدان) (ذات بعدان) و (شمسم) (شمس) .

وقد يكون في تعبيـر (ايسن نمرن) (انس نمرن) ، ومعناه (الانسان نمران) ، بعض الاستهجان والازدراء بهذا الثائر ، الذي هو (رب شمس نمرن) ، أي (رب شمس نمران) أحد (اقول) أقيال قبيلة (بتع) على رأي بعض العلماء[3] . وقد ورد اسمه في كتابة دونها رجال يظهر أنهم كانوا من أتباعه ، ومن قبيلة (بتع) ، وذلك لشكر الإلـه (تالب ريام بعل شصرم) ، لأنـه منّ عليهم بالعافية ، وأسعد قيلهم (رب شمس نمرن) (رب شمس نمران) ، وبارك على قبيلته[4] .

ويظهر أن ثورة (نمران) (نمران اوكان) (نمرن اوكن) ، كانت ثورة خطيرة كبيرة على (الشرح يحضب) ، ولذلك كان القضاء عليها من الأمور المهمة بالقياس اليه[5] .

---

١ CIH 429, IV, II, II, P. 114, Glaser, Abessi., S. 107, H. Derenbourg, Les Monuments Sabéens et Himyaritis de la Bibliothèque Nationale, 1891, P. 11.

٢ (بن كـل باس) .

٣ Sab. Inschr., S. 40.

٤ MM82, RW 118, CIH 164, Glaser 148, REP. EPIG. 3621, VI, I, P. 244, J. Ryckmans, L'institution, P. 164, Mahram, P. 326.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 481, A. Jamme, Sabean Inscriptions, P. 327.

إن (الانسان نمران) (انسن نمرن) (انسان نمران) الذي ثار على سيده وأغضب آلهته بثورته هــذه ، هو (رب شمسم نمرن) (رب شمس نمران) أحد أقيال (بتع) على رأي (موردتمن) و (ميتوخ) الذي ورد ذكره في احدى الكتابات[1] . وقــد دوّنها رجال يظهر أنهم كانوا من أتباعه ، أي من قبيلة (بتع) شكراً للإلـه (تالب ريمم بعل شصرم) (تألب ريام بعل شصر) لأنه منّ عليهم بالعافية،وأسعد قيلهم (رب شمس نمران) ، وبارك في قبيلته[2].

وقد ورد في أحد النصوص : (رب شمسم نمرن بن بتـع) ، أي (رب شمس نمران من آل بتع) . والظـــاهر أنه هو القيل المذكور في النص المتقدم الموسوم بـ MM 82 ، وبـ REP. EPIG. 3621 [3] . وقــد ذكر (فلبي) أن (رب شمس) هذا ، هو الملك (رب شمس نمران ملك سبأ وذي ريدان) . وذكر أن هذا الملك عرف بواسطة هذا النص الذي عثر عليه في (مأرب) ، واستنتج من ذلك أن هــذه الأسرة أسرة (بتع) التي تقطن في الهضبة هضبة همدان ، امتدّ نفوذها حتى بلغ السهل الذي تقع به (مـأرب)[4] . ولا أدري كيف توصل (فلبي) الى أن (رب شمس نمران) الذي هو من (آل بتع) أي هذا القيل هو الملك (رب شمس نمران) الذي هو (ملك سبأ وذي ريدان) فليس في هذا النص الذي أشار اليه اشارة يمكن أن يستدل منها على أن (رب شمس نمران المذكور فيه ، هو ملك من ملوك سبـــأ وذي ريدان . فهذا النص لا يخصه اذن ، وانما هنالك نص آخر رقمه : REP. EPIG. 4138 ورد فيــه (رب شمس نمران ملك سبأ وذي ريدان)[5] ، وهو نص لم يشر اليه (فلبي) سأتحدث عنه في حديثي عن هذا الملك .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن النص المذكور لم يكن يقصد ثائراً من أهل اليمن ثار على الآلهة والإنسان ، وإنما قصد به حملة (أوليوس غالوس) ، التي جاءت من الخارج الى اليمن . وهي معادية بالطبع لأهل اليمن ولآلهتها ، فشكر

١ Sab. Inschr., S. 40.

٢ MM82, RW 118, CIH 164, Glaser, 148.

٣ MM82, REP. EPIG. 3621, VI, I, P. 244.

٤ Background, P. 107.

٥ REP. EPIG. 4138, VA 3820, 3843, REP. EPIG., VII, I, P. 96.

(الشرح يحضب) الذي كان هو الملك يومئذ آلهته ، لأنها نصرته على القادمين المغيرين ، وأنقذت شعبه منهم[1] .

ويعارض (جامه) Jamme رأي من يقول ان المراد من النص: CIH 429 حملة (أوليوس غالوس) ، ويرى أن المراد من (نمران) هو (نمران أوكان) (نمرن اوكن) الذي ورد اسمه في النصوص Jamme 594 Jamme 684 [2] Jamme 711 Jamme 739 Jamme 758 .

وقد ورد اسم (نمران أوكان) مع اسم أخيه (جحضم احصن) ، وهما ابنا (سعدم) (سعد) في النص Jamme 594 ، كما ورد في هذا النص اسما الملكين : (الشرح يحضب) و (يأزل بين) . أما النصوص الأخرى ، فلم يذكر فيها اسم (يازل بين) . وقد استنتج (جامه) من ذلك أن صاحب النص : Jamme 594 كان قد دونّه في أيام حكم الملكين . أما النصوص الأربعة الأخرى ، فقد دونّت بعد ذلك ، دونت في أيام انتقال الحكم الى (الشرح يحضب) ، أي الى أيام انفراد هذا الملك بالحكم وحده بعد الحادث المجهول الذي لا نعرف من أمره اليوم شيئاً والذي أدى الى إغفال اسم (يأزل بين) في النصوص .

ويظهر من النصين : Jamme 739 و Jamme 758 انه كان تحت إمرة الأخوين (نمران اوكان) و (جحضم احصن) قائدان كبيران بدرجة (مقتوى). ومعنى هذا ان هذين الأخوين كانا من أصحاب القوة والسلطان في هذا العهد ، ولا يستبعد أن يكونا قد ألفّا جيشاً خاصاً بهما ، يحاربان به . ويرى (جامه) ان الشعور بالعظمة قد ركب رأس (نمران أوكان) ، حتى دفعه الى الثورة على سيده (الشرح يحضب) على النحو المذكور في النص : CIH 429 [3] .

وقد ذكر اسم (يأزل بين) بعد اسم شقيقه (الشرح يحضب) في الكتابة CIH 954 [4] . وقد نعتا فيها بـ (ملكي سبأ وذي ريدان) . وقد ورد فيها اسم (المقه بعل مسكت وبث وبران) . وهي من بقايا نص سقطت أسطره الأولى،

---

١ Ryckmans, 122a, CIH 429, Beiträge, S. 34.

٢ Mahram, P. 327.

٣ Mahram, P. 327.

٤ CIH 954, Bombay 30.

وذكرت فيه أسماء عدد من الرجال من (بني جدن)[١] .

وذكر اسمها على الترتيب نفسه في النص CIH 398 ، وهو نص سقطت منه كلمات ، ولا سيما في الأسطر الأولى منه[٢] . فسبب سقوطها عدم فهمنا المراد فهماً صحيحاً . وقد دعيا في النص بـ (ملكي سبأ وذي ريدان) . غير اننا نلاحظ أيضاً انه ذكر في السطر الثامن منه اسم (شعرم أوتر) ، ونعته بـ (ملك سبأ وذي ريدان) ، مع ان (شعرم اوتر) (شعر أوتر) كان خصماً للملكين (الشرح يحضب) و (يأزل بين) ، فلمَ ذكر معهما في النص ؟ وعلى أي محمل نحمل هذا القول ؟ ويلاحظ ان كلمة (مراهم) (مرأهم) أي (سيدهم) (سيده) ذكرت مباشرة قبل اسم (شعر أوتر) ، كما ذكرت كلمة (مرابهمي) أي (سيديه) أو (سيديهم) قبل جملة (الشرح يحضب واخيهو يازل بين) أي : (الشرح يحضب وأخيه يأزل بين) . فنرى من هذا النص ان صاحبه نعت الثلاثة : (شعر أوتر) و (الشرح يحضب) وأخاه (يأزل بين) ملوكاً على (سبأ وذي ريدان) . فهل يدل هذا على ان هؤلاء الثلاثة حكموا حكماً مشتركاً وفي وقت واحد ؟ وقد كان (شعر أوتر) يحكم في مكان بينما كان (الشرح) وأخوه (يأزل) يحكمان في مكان آخر ، وان صاحب النص أو أصحابه كانوا يملكون أرضين في جزءي المملكة، للذلك اضطر أو اضطروا الى ذكر الملوك الثلاثة في النص ؟

هذه أسئلة تصعب الاجابة عنها بالإستناد الى هذه الكتابة التي لم تتعرض لعلاقات (شعر) مع (الشرح) وأخيه ، ولا يمكننا استخراج أي جواب منها مقنع في هذا الوقت .

ويرى (هومل) أن السبب الذي من أجله ذكر اسم (شعر أوتر) في هذا النص هو لأجل أن ينتقم الإلـه (المقه) الذي دعا في هذا النص منه ، ولكي ينزل رحمته ونعمته على (الشرح) وعلى شقيقه (يأزل) . اللذين استطاعا في النهاية أن ينتصرا على خصمهما (شعر أوتر) ، وأن (شعر أوتر)

---

١ CIH, IV, III, II, P. 280.

٢ CIH 398, Glaser 891, CIH, IV, II, I, P. 58, Winckler, Die Sab. Inschr. der Zeit Alhan Nahfan's, S. 347, Hartmann, Die Arabische Frage, S. 148.

هذا هو الذي قصده أحد النصوص ، حيث أشير الى الانسان الذي ثار على سيده [1] .

وقد وردت في هذا النص جملة (ارضن خولن) ، أي (أرض خولان) ، و (محرم بعل اوعلن) (محرم بعل أوعلان) ، و (شعب صروح) ، أي قبيلة صرواح .

ونشر في مجلة Le Muséon نص آخر . ذكر فيه اسم (الشرح يحضب) وقد وردت قبل اسم (الشرح يحضب) جملة (ملك سبأ وذو ريدان ابن) ، وقبلها ثلاثة أحرف هي : (ح م د) (حمد) ، وهي بقايا كلمة . ويظهر أن أصحاب النص قد تيمنوا بذكر اسم أحد أبناء (الشرح يحضب) ممن كانوا ملوكاً على سبأ وذي ريدان . غير ان هذا الاسم طمست معالمه بفعل العوامل الطبيعية وتقادم العهد ، فلم يبق منه أثر . وذكرت بعد (الشرح يحضب) جملة (ملك سبأ وذو ريدان)[2] .

وقد لفتت بعض الكتابات ، قدّر بعض الباحثين عددها بأحد عشر نصاً ، أو أكثر من ذلك بقليل ، أنظار العلماء اليها ، لأنها لم تذكر اسم (يأزل بين) خلافاً للكتابات الأخرى التي يربو عددهـا على هذا العدد ، والتي تذكر اسم الشقيقين معاً . فاستنتج من اغفال تلك النصوص لاسم (يأزل) أن حدثاً وقع له أخذه الى العالم الثاني ، وذلك في حيـاة اخيه (الشرح يحضب) ، فصار الحكم الى (الشرح يحضب) وحده ، وبقي على ذلك الى أن بدا له ما حمله على اشراك ابنه معه في الحكم ، فصار اسم ابنه يرد بعد اسمه في الكتابات[3] .

ويواجه هذا الاستنتاج مشكلة ليس من السهل حلها . مشكلة عثور الباحثين على كتابات ورد فيها اسم (يأزل بين) مدوناً فيها بعد اسم أحد أبناء (الشرح يحضب) . ومعنى هذا ان (يأزل بين) لم يكن قد مات في أيام (الشرح) ، بل بقي حياً وشهد نفسه وفاة شقيقه ثم عاش فعاصر حكم أحد أبناء شقيقه . فلا يمكن الأخذ اذن برأي من يقول انه كان قد أدركه أجله في حياة أخيه ، اللهم

---

١ Handbuch, I, S. 93, Derenbourg, Biblio. Nation, 2.

٢ Le Muséon, LXII, 1-2, 1949, P. 86, Nr. 404.

٣ Mahram, P. 326.

الا اذا قلنا ان (يأزل بين) المذكور بعد (نشأكرب يهأمن يهرحب) ، وهو ابن (الشرح يحضب) ، لم يكن (يأزل بين) شقيق (الشرح يحضب) ، بل شخصاً آخر ، كأن يكون ابناً لـ (وتر يهأمن) شقيق (نشأكرب) ، أو ابناً لـ (نشأكرب نفسه) . وعندئذ يكون في امكاننا الادعاء بوفاة (يأزل) شقيق (الشرح) في حياة أخيه .

وهناك احتمال آخر قد يكون مقبولاً للعقل أكثر من الاحتمال الأول ، هو احتمال بقاء (يأزل) حياً وادراكه أيام حكم أولاد شقيقه . وعندئذ يمكن تفسير اختفاء اسمه في الكتابات في الأيام المتأخرة من حكم (الشرح) بوقوع خصومة بين الأخوين اشتدت حتى أدت الى وقوع قطيعة بينهما والى حذف اسم (يأزل)، وهو أصغر سناً من أخيه من الكتابات . أي الى خلعه وتجريده من اللقب الرسمي وهو لقب الحكم . وقد بقي مخاصماً لشقيقه حتى أدركت شقيقه منيته ، ثم مخاصماً لابن أخيه (وتر يهأمن) الى ولاية شقيقه (نشأكرب يهأمن يهرحب) الحكم . فلما ولي (نشأكرب) عرش (سبأ وذي ريدان) ، أشرك عمه معه في الحكم ، ولهذا أدرج اسمه من جديد في الكتابات ، ادرج بعد اسم (نشأكرب) الملك الفعلي وارث العرش .

أما كيف أشرك (يأزل) مع ابن أخيه في الحكم ، وكيف عاد مرة ثانية الى الحياة الرسمية العامة ؟ فليس في استطاعتنا الجواب عن ذلك جواباً أكيداً . ولا يستبعد احتمال قيام أناس بالتوسط بين العم وبين ابن أخيه لاصلاح ذات بينهما ، وقد يكون (نشأكرب) هو الذي صالح عمه وأرضاه، لدافع شخصي ، أو لمصلحة رآها ، أو لاضطراره إلى ترضيته ، لضعف مكانته أو شخصيته ، فأراد الاستعانة به لتقوية مركزه . على كل فاذا كان (يأزل بين) هذا ، هو (يأزل بين) شقيق (الشرح) فيجب أن يكون قد تقدم في السن حين عاد الى الحكم .

ولدينا نص من نصوص الـ (وثف) أمر به (الشرح) ولم يذكر اسم أخيه فيه ، وقد وجه به الى قبيلة (برسم) في شهر (ذو نسور الأول) وفي وفي السنة السادسة من سني (معد يكرب بن تبع كرب) (معد كرب بن تبع كرب) من آل (حزفرم) (حزفر) ، وقد ذكرت فيه أسماء عدد من سادات هذه القبيلة . وفي النص حديث عن أحوال المزارعين والفلاحين والآبقين

الذين يهربون من المزرعة الى مزارع أخرى ، ولا سيما من الأرض الّتي يشمل أحكامها هذا النص ، وهي : وادي (يفعن) (يفعان) ، وأرض (يبلح) ، وهي من (رأس مة .... ن) الى (غضران)[١] .

ويتبين من هذا النص أن الفلاحين ، وأكثرهم من المسخرين ، كانوا يفرّون من مزارعهم ، للتخلص من عملهم المرهق الشاق فيها ، ولعدم تمكنهم من كسب قوتهم ، فصدر هذا الأمر في معالجة هذه المشكلة . وهي مشكلة أدت الى تلف المزارع ، واعراض الناس عن الزراعة بسبب اكراه الفلاحين على العمل فيها سخرة ، ولقسوة أصحاب الأرض وموظفي الحكومة عليهم .

وقد عثر في أرض (شبام سخيم) على كتابة ، ذكر فيها (الشرح يحضب) وابنه ، وأقيال (سمعي) وهم من سخيم ، وذكر بيت (ريمان) . و(ريمان) هم من القبائل الّتي ذكرت في عدد من الكتابات[٢] .

وقد جاء اسم (الشرح يحضب) وحده في النصوص : (أحمد فخري : ٩٤ ، ٩٥ و ١٢٣) ، وهي من نصوص هذا العهد : عهد انفراد (الشرح) بالحكم ، متلقباً بـ (ملك سبأ وذي ريدان)[٣] .

ويعود النص Jamme 571 الى هذا العهد كذلك ، وهو نص يتوسل فيه صاحبه الى إلهه بأن يمنّ عليه بالسعادة والعافية ، وبأن يبارك في أثماره (اثمرن) وفي حاصل حصاده (افقلم) ، وبأن يبعد عنه كل شرّ ، ويرد عنه كيد الكائدين ، وحسد الشانئين[٤] .

وأما النص : Jamme 567 ، فقد كتب في هذا العهد أيضاً . دوّنه رجل اسمه (ابامر اصدق) (أبأمر أصدق) (أب أمر أصدق) ، وهو من بني (صريهو معدكرب) (صريهو معديكرب) ، وولداه (برلم) (برل) ،

---

١ REP. EPIG. 4646, VII, II, 289, Rhodokanakis, Eine Altsüdarabische Watf Inschrift, 1937, S. 1-6, J. Ryckmans, L'institution, P. 179, Mahram, P. 326, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 286.

٢ Sab. Inschri., S. 38, MM 24, Beiträge, S. 19.

٣ Mahram, P. 326.

٤ Jamme 571, MaMb 189, Mahram, P. 57.

و (كربعثت) (كرب عثت) ، وذلك عند تقديمهم ثلاثة تماثيل من ذهب[١] الى الإله (المقه ثهوان) ، وذلك لمناسبة نوم (برلم) الذي أصابه وألمّ به ، في شهر (عثتر) من سنة (سمهكرب بن ابكرب) (سمهوكرب بن أبكرب) من بني (حذمت) (حذمة) ، ولمناسبة الحكم الذي رآه في منامه وتحقق فيما بعد ، ولمناسبة شفائه من مرضه . ولكي يديم نعمه عليهم جميعاً ، ويعطيهم ذرية طيبة صحيحة ، وثماراً كثيرة وحصاداً جيداً وغلة وافرة ، ويمن على سيدهم (الشرح يحضب ، ملك سبأ وذي ريدان ، بن فرعم ينهب ملك سبأ)[٢].

والى هذا العهد أيضاً يعود النص : Jamme 572 . وقد دوّنه ضابطان كبيران (مقتوي) من ضباط (الشرح يحضب ، ملك سبأ وذي ريدان) ، لمناسبة تقديمها تمثالاً من رصاص أو نحاس (صرفن) (صراف) ، يزن ثلاثمئة (رضف) ، تعبيراً عن حمدهما وشكرهما له ، لأنه منّ على سيدهما (الشرح يحضب) بالشفاء والصحة ، ونجاه من عاقبة مرضه (بن مرض مرض بهجرن مرب) ، بمدينة (مأرب) . ولكي ينعم عليه ويزيل عنه كل بأس (باستم) وكل أرق (مقيظم) أصابه ،ولكي ينعم عليها ويسعدهما ويبعد عنهما حسد الحاسدين وأذى الأعداء[٣] .

ويتبين من هذا النص أن مرضاً نزل بالملك (الشرح يحضب) ، وهو بمأرب وقد أصيب بأرق (مقيظم) وقلق ، ولم يذكر النص سبب المرض ، ولكن يظهر أنه كان قد أصيب بأعياء وتعب بدني ونفسي ، حتى استولى عليه الأرق والاضطراب ، ولهذا توسل هذان الضابطان الى الإله (المقه) بأن يشفي سيدهما مما ألمّ به .

وتعد الكتابات : Jamme 568 و Jamme 569 و Jamme 570 ، من نصوص هذا العهد . وصاحب النص الأول رجل اسمه (سعد شمس اسرع) وهو من (جرت) (جرة) ، وكان من أقيال عشيرة (ذمرى) . وقد

---

١ لقد ترجم (جامه) JAMME لفظة (ذهبن) ، أي ذهب بـ (برونز) Bronze ، في كل ترجماته للنصوص الى اللغة الانكليزية ، مع أن لفظة (ذهب) معروفة لا تحتاج الى تفسير ، وأنا أخالفه في هذا الرأي .

٢ Jamme 567, MaMb 291, Mahram, P. 49.

٣ Jamme 572, MaMb 112, Mahram, P. 59.

قدم هو وابنه (مرثدم يهحمد) مرثد يهحمد ، الى الإلـه المقه تمثالاً ، ليمن على سيدهما الملك ، وليحفظه من كل سوء ، ولكي يبارك فيها ويزيد نعمه عليها وعلى أهلها من (جرت) وعلى قبيلتها قبيلة (سمهرن) سمهران[1] .

وقد قدّم أصحاب النص : Jamme 569 ، وهم من عشيرة (مربان) (مربأن) ، تمثالاً مؤنثاً (صلمتن) ، ويظهر أنه يقصد تمثالاً لامرأة – وذلك ليحظوا برضى ملكهم (الشرح يحضب)[2] . وأما النص : Jamme 570 فقد دوّنه رجل ، سقط اسمه الأول من النص ، وبقي نعته فقط ، وهو (ركبن)، أي (ركبان) ، وقد قال عن نفسه : (عبد ملكن) ، أي عبد الملك ، يقصد خادم الملك ، ذلك لأنه تمهل في عمله ، فلم يجمع غلة اليوم الثامن من المزرعة ، فكفّر عن تمهله هذا وتجاهله أمر الإلـه (المقه) الذي كان عليه أن يقوم بخدمته وبأن يحضر موضع أداء الشعائر له ، وذلك بتقديمه ذلك التمثال وبأن يقوم بجني غلة المزرعة على نحو ما يرام[3] . ويلاحظ أنه استعمل جملة : (ولشرح يدهو ولسنهو)[4] ، أي : (وليشرح يده ولسانه) ، ويقصد بها التوسل الى الإلـه (المقه) بأن يبسط يد الملك ولسانه ، أي يبارك في يده ولسانه ، كما نقول : يشرح الله قلبه ، فهي من التعابير المستعملة عند العرب الجنوبيين في ذلك العهد .

ولم يذكر اسم (يأزل بين) في النصين : REP. EPIG. 3990 ، و REP. EPIG. 4150 . وصاحب النص الأول هو (يجعر بن سخيم) وكان قيلاً (أقول) على عشيرة (سمعي) المؤلفة لثلث (ذي حجرم) . وقد قدم الى الإلـه (تألب ريام) (بعل كبدم) خمسة تماثيل لينعم ويبارك على سيده (الشرح يحضب) ، ملك سبأ وذي ريدان ، وعلى ابنه (وترم) (وتر) . وليبارك فيه وفي بيته (بيتو) (ريمان)[5] .

---

١ Jamme 568, MaMb 295, Mahram, P. 53.

٢ Jamme 569, MaMb 188, Mahram, P. 54.

٣ Jamme 570, MaMb 227, Mahram P. 55.

٤ الفقرة ١٣ من النص .

٥ REP. EPIG. 3990, Mahram, P. 328, MM 24, BU. San'a 1909, Jemen, II, 345, Sab. Inschr., S. 38.

والنص : REP. EPIG. 4150 صاحبـــاه شقيقـــان ، (شرح عثت أريم) وشقيقه (رثد ثون) تمثالاً الى الإلـه (عثتر ذ ذبن) (عثتر ذو ذبان) ، (بعل بحر حطبم) حامدين (حمدم) له وشاكرين ، اذ منّ عليهما ، وأوفى لهما ما طلبا وسألا ، وكان ذلك في ايام (الشرح يحضب ملك سبأ وذي ريدان وابنه وتر)[1] .

ويلاحظ ان النصين لم يذكرا بعد (وترم) لقبه ، ولم يكتبا جملة (ملك سبأ وذي ريدان) . ويظهر انهما كتبا في أيام انفراد (الشرح يحضب) بالحكم. وتولى ابنه (وتر) ادارة الأمور ، لمساعدة أبيه فقط ، ولم يكن قد منحه أبوه يومئذ حق التلقب بألقاب الملوك .

لقد بلغنا الآن نهاية ايام حكم (الشرح يحضب) لقد رأيناه محارباً مقاتـــلاً حارب الحبش ، وحارب حمير ، وحارب حضرموت ، وحارب قبائل أخرى . لا يكاد يعود الى احدى عاصمتيه (مأرب) أو صنعاء ، ليستقر في قصريه ومقري حكمه : قصر (سلحان) أو (غمدان) وليستريح بعض الوقت ، حتى تشتعل ثورة هنا أو هناك تدفعه الى ترك راحته والاسراع نحوها للقضاء عليها واخمادها حتى لا يمتد لهيبها الى مكان آخـــر . لقد أجهدته هذه الحروب وتلك الفتن ، فأتعبت جسمه ونهكت أعصابه ، حتى أصيب مراراً بأمراض وطغى عليه الأرق، وهذا ما حمل المقربين اليه على التوسل الى آلهتهم ، لتمنّ عليـه بالشفاء وبنوم هادىء مريح ، ولتمنحه الراحة والاستقرار ، وتبعـد عنه الأتعاب وشر الأعداء الأشرار وحسد الحاسدين ، دلالة على كثرتهم وتعبيراً عن تلك الفتن المتتالية التي كانت في تلك الأيام .

وقد كلفت هذه الحروب وتلك الثورات العربية الجنوبية أثماناً باهظة، وأنزلت بها خسائر فادحة في الأرواح والأموال،وأحلت بكثير من مواضعها الدمار والخراب، ونغصت عيش أهلها . فجعلتهم في حالة نفسية قلقة مضطربة ، بدليل مـا نجده من توسلات ترتفع الى الآلهة تدعوها بأن تمن على عبيدها بنعمة الطمأنينة والهدوء والاستقرار ، كما نشرت فيها الأوبئة والأمراض التي كانت تفتك بالناس بالجملة

---

١ REP. EPIG. 4150, VA 3846 + 5334, Mahram P. 328, REP. EPIG., VII, I, P. 106.

فتكاً ، وأحلت الهلاك بالمزارع والحقول ، وبالمدن فردمت آبار ، عاشت عليها الزراعة والقرى والمدن ، واقتلعت الأشجار ، وأتلفت الحقول والمزارع ، وأوذيت مجاري المياه التي تسقيها ، وخربت مدن ، وأعمل في أهلها السيف ، او سيقوا أسرى ، ووضع على هذا النحو لا بد أن يخلق تعاسة وبؤساً ، ويؤثر في الوضع العام بجملته تأثيراً سيئاً ، يصير ارثاً ينتقل الى الطبيعة الجديدة[١] .

وقد لاحظ (ريكمنس) J. Ryckmans ان هذا الاقتتال وهذا النظام الاقطاعي يصادف زمن حلول الخيل محل الجمل في القتال في أواسط جزيرة العرب وجنوبيّها ، كما لاحظ W. Dostal أن جيوش العربية الجنوبية استعملت سروجاً جيدة لدوابها التي تحارب عليها ، وأن قبائل أواسط جزيرة العرب ، حسنت من أنظمتها وكفايتها في القتال مما أكسبها قدرة في الغزو بسرعة والانتقال من مكان الى مكان في مدة قصيرة ، فأكسبها شأناً عسكرياً وسياسياً . فأثر كل ذلك في السياسة العامة للجزيرة ، إذ لم تبق القوى العسكرية محصورة في مناطق الزراعة في هضاب جنوب جزيرة العرب ، وانما انتقلت الى بقية أنحاء جزيرة العرب ، الى مواضع الآبار والرياض والعيون حيث تركزت الزراعة كما حدث في يثرب وفي الطائف وفي أماكن زراعية أخرى ، أو الى مواضع تقع على طرق قوافل مثل مكة ، أهلتها لأن تختص بالتجارة ، وأن تنال مكانة بها[٢] .

لقد وضع (جامه) حكم (الشرح يحضب) مع أخيه (يأزل بين) ، اذ كانا يحكمان حكماً مشتركاً في حوالي السنة الخمسين قبل الميلاد ، وجعل نهاية هذا الحكم المزدوج حوالي السنة الثلاثين قبل الميلاد ، حيث حكم (الشرح) حكماً منفرداً لا يشاركه فيه أحد . وقد دام هذا العهد الى حوالي السنة العشرين قبل الميلاد أو بعدها بقليل[٣] .

واذا جارينا رأي (جامه) المتقدم ، ورأي الباحثين اللذين ذهبوا الى أن حكم (الشرح يحضب) كان في النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد ، وفي

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 451.

٢ W. Dostal, The Evolution of Bedouin Life, L'Antica Societa Beduina, Universita di Roma, Studi Semitici 2, 1959, P. 11-34, Le Muséon 1964, 3-4, P. 452.

٣ Mahram, P. 390.

الربع الأخير منه ، جاز لنا القول بأن (إلساروس) Ilasaros ، الذي ذكره (سترابون) على انه ملك السبئيين في أيامه ، وكانت في عهده حملة (اوليوس غالوس) هو هذا الملك (الشرح يحضب)[1] . ولكن جمهرة أخرى من الباحثين والمتخصصين في العربيات الجنوبية ترجع ايام (الشرح) الى ما قبل ذلك ، فقد جعل (فلبي) مثلاً حكمه فيما بين السنة (١٢٥) والسنة (١٠٥) قبل الميلاد[2] .

هـذا ، ويلاحظ ان بعض الكتابات التي أغفلت (يأزل) ، ذكرت ابن (الشرح) بعد أبيه ، ودعت له ولأبيه بالعافية ودوام البركـة والنعمة ، الا انها لم تنعته بنعت ، مما يدل على انه لم يكن يحمل لقب (ملك سبأ وذي ريدان) آنذاك[3] .

وقد اختلف الباحثون في ضبط اسم الشخص الذي ولي الحكم بعد (الشرح يحضب) ، فقد وضع (فلبي) اسم (يأزل بين) بعد (الشرح يحضب) ، دلالة على انه هو الذي حكم بعده ، ثم وضع (نشأكرب يهأمن يهرحب) من بعده ، وهو ابن (الشرح يحضب) ، ومعناه انه هو الذي حكم بعد وفاة عمه[4]. اذ ان (يأزل بين) هو شقيق (الشرح يحضب) كما رأينا .

ووضع (فلبي) اسم (وتر يهأمن) بعد (نشأكرب يهأمن يهرجب) ، وهو كذلك أحد أبناء (الشرح يحضب) . ويرى بعض الباحثين أن (وتراً) اتخذ لقب (يهأمن) بعد اعتلائه العرش ، وكان قبـل ذلك يعرف بـ (وتر)[5] . وقد ورد اسمه في عدد من الكتابات[6] .

أما (ريكمنس) ، فقد دوّن اسم (يأزل بين) بعد (الشرح يحضب) وقد جعله شريكاً له في الحكم ، ومعاصراً لـ (حيو عثتر يضع) ، وهو ابن (شعر أوتر) والمالك من بعده ، وآخر من حكم من أسرة (علهان نهفان) .

---

١ Mahram, P. 390, Beiträge, S. 32, J. Ryckmans, L'Institution, P. 337.

٢ Background, P. 142.

٣ MM24, BU San'a 1909, Jemen, II, 345, Sab. Inschr., S. 38.

٤ Background, P. 142.

٥ Sab. Inschr., S. 39.

٦ REP. EPIG. 4215, 4216, VII, II, P. 147, Mordtmann und Eugen Mittwoch, Altsüdarabische Inschriften, Roma, 1933, S. 47.

(علهن نهفن) . ثم جعل الحكم في (نشأكرب يهأمن) ابن (الشرح يحضب). وذكر معه اسم (وتر) غير انه لم يذكر انه ولي الحكم ، كما انه لم يذكر أي شيء آخر عنه . ثم ترك فراغاً ، ذكر بعده اسم (ذمر على بين)[١] .

وأما (جامه) ، فقد نصب (وتر يهأمن) ملكاً من بعد (الشرح يحضب) الذي هو أبوه،وجعل حكمه ملكاً في حوالي السنة (٥) قبل الميلاد ، حتى السنة (١٠) بعد الميلاد[٢] .

و (وتر يهأمن) ، هو (وتر) الذي تحدثت عنه ، وقلت إن اسمه قد ورد في النصين REP. EPIG. 3990 و REP. EPIG. 4150 اللذين ورد اسمه فيها غير مقرون بلقب ، ولا جملة (ملك سبأ وذي ريدان) . أما في النصوص الأخرى ، فقد ذكر فيها لقبه ، وهو (يهأمن) ، وذكر بعده شعار حكمه ملكاً ، وهو (ملك سبأ وذي ريدان)[٣] .

ويرى (ميتوخ) و (موردتمن) ان من المحتمل أن يكون (وتر يهأمن) المذكور في النصين : CIH 10 و CIH 258 ، هو (وتر يهأمن) هذا الذي نبحث عنه . وقد ذكرت بعد (وتر يهأمن) في النص CIH 10 جملة (ملك سبأ) . ويرى (ميتوخ) و (موردتمن) أيضاً ان ابن (الشرح) كان يعرف بـ (وترم) (وتر) وذلك قبل اعتلائه العرش . فلما أصبح ملكاً ، عرف بـ (وتر يهأمن) ، أي باتخاذ لقب (يهأمن) لقباً رسمياً له[٤] .

ويتحدث النص : Jamme 601 عن معارك وقعت في أرض (خولن جددن) (خولان جددان) ، تولى ادارتها وقيادتها (الرم يجعر) (الريام يجعر) (الرام يجعر) (الريم يجعر) ، وهو من عشيرة (سخيمم) (سخيم) ، وكان قيلاً (قول) على عشيرة (سمعى) ، التي تكوّن ثلث قبيلة (حجرم). وهو صاحب النص ، والآمر بتدوينه . وقد ذكر فيه : ان سيده الملك (وترم يهأمن) (ملك سبأ وذي ريدان ابن الشرح يحضب ملك سبأ وذي ريدان)

---

١ J. Ryckmans, L'Institution, P. 337.

٢ Mahram, P. 390.

٣ CIH 10, CIH 258, Geukens 4, Jamme 601, 602, 603, 604, 605, 606, 607, Ryckmans, in Oriens Antiquus, Roma, 1964, Vol., III, P. 68.

٤ Sab. Inschr., S. 39.

أمره بأن يسير الى عشائر (خولان) (خولن) ، ويؤدبها لأنها عصت الملك، وشجعت قبائل أخرى على العصيان ، فانضمت اليها . وقد استطاع هـذا القائد كما يذكر في نصه أن يقهر الثائرين ويحطم مقاومتهم ، ثم عاد بعد ذلك بغنائم كثيرة ، سرت الملك فشكر الإله (المقه ثهوان) (بعل أوام) الذي وفقه ونصره ، فقدم اليه تمثالين له ، تعبيراً عن شكره ، وعن منته عليه ، اذ نصره في معركتين مع قبائل خولان ومن انضم اليها ، اللتين قهر فيهما أولئك الثائرين، ولكي يزيد من نعمه عليه ، ويبارك في ملكه وفيه وفي أهله ويعطيه بركة في زرعه وقوة في جسمه . ويبعد عنه أذى الأعداء[1] .

والنص : Jamme 602 هو في معنى النص الأول وفي مضمونه ، وصاحبه هو (الرم يجمر) نفسه . وأما النص : Jamme 603 ، فقد أمر بتدوينه (فرعم بن مقرم) (فرع بن مقر) (الفارع بن مقر) ، وأولاده ، وهو من عشيرة (عقبان) (عقبن)،وذلك لمناسبة انشائهم (سقه) ، أي (سقاية) صهريجاً و (•زوداً) وصرحاً في (ذ عقبن) (ذي عقبان) . وتيمناً بهذه المناسبة قدّموا الى الإلّه المقه تمثالاً حمداً له وشكراً على أنعمه عليهم ، وكان ذلك في أيام : (وتر يهأمن ملك سبأ وذي ريدان)[2] .

وشكر (وهبم اصدق) (وهب اصدق) (وهاب أصدق)،الإلّه (المقه) على نعمه التي أنعمها عليه . وتعبيراً عن حمده وشكره له ، قدّم الى معبده (أوّام) ثلاثة أصنام (تماثيل) ، وذلك في أيام (وتر يهأمن ، ملك سبأ وذي ريدان)، ابن (الشرح يحضب ملك سبأ وذي ريدان) . وقد سجل شكره هذا في نص ، وسمه الباحثون بـ Jamme 604 . ومما يلفت النظر فيه ورود جملة : (وبشمس ملكن تنف)،أي : وبشمس الملك تنف،ويقصد بها وبشمس إلهة الملك : ونعتها تنف[3] .

والنصوص الثلاثة الأخرى ، هي في أمور شخصية ، لا صلة لها بالسياسة وبالحرب وببقية النواحي من الحياة العامة ، كل ما فيها توسلات وتضرعات الى الآلهة بأن تمنّ على أصحابها بالخيرات وبالبركات وبالسعادة وبأولاد ذكور

---

١ Jamme 601, MaMb 205, Mahram, P. 102.

٢ Jamme 603, MaMb 87, Mahram, P. 104.

٣ Jamme 604, MaMb 207, Mahram, P. 107.

(أولدم اذكرم) ، وما شاكل ذلك[1] . ولذلك لا أجد فائدة في الكلام على مضمونها في هذا المكان .

وقد وضع (جامه) اسم (نشأكرب يهأمن يهرحب) بعد اسم (وتر يهأمن) في الحكم . و (نشأكرب) هذا هو أحد أبناء (الشرح) أيضاً ، فهو شقيق (وتر يهأمن)[2] .

وقد حصل الباحثون على عدد من الكتابات من أيام حكم (نشأكرب) ، من جملتها الكتابة : Jamme 619 ، وصاحبها رجل اسمه (رب ايل اشوع) (ربئيل أشوع) ، وابنه (ددال) (دودايل) (دادايل) (داديل) من عشيرة (حلحلم) (حلحل) (حلاحل) . وقد كان (رب ايل أشوع) عاقب (عقبت) الملك على مدينة (نشقم) أي (نشق) . ويراد ب (عقبت) (عاقب) ، درجة نائب الملك ، أو ممثله الذي يمثله ويدير مكاناً ما وقد دوّن كتابته عند شفائه من مرض ألمّ به وهو في مدينة (نشق) ، ومن اضطراب وقع له في معدته ، ومن سقوط بعيره بعثرة عثرها ، فسقط (رب ايل أشوع) من ظهره على ما يبدو من النص ، ولكي يحظى برضى سيده (نشأكرب يهأمن يهرحب ، ملك سبأ وذي ريدان ابن الشرح يحضب ، ملك سبأ وذي ريدان)[3] .

وسجل (رب ايل) وأخواه (يزد) (يزيد) و (هوف ال) (هوف ايل) (هوفئيل) ، وهم من (ال ذخرم) (آل ذخر) شكرهم وحمدهم للإله (المقه ثهوان) (بعل أوام) ، لأنه نجاهم مما ألمّ بهم من أمراض ، وخفف عنهم كل شين نزل بهم (تشينت هشين) ، ومن كل مصيبة ألمت بهم فنهكتهم ، سجلوه على لوح وضعوه في معبد ذلك الإله ، كما أهدوا اليه صنماً ، أي تمثالاً ، تعبيراً عن شكرهم وحمدهم له ، وكان ذلك في عهد هذا الملك الذي نتحدث عنه[4] .

وجاء اسم (نشأكرب) في النص : REP. EPIG. 3563 ، وقد نعت فيه

---

١ السطر الحادي عشر من النص : Jamme 605

٢ Mahram, P. 390, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 272.

٣ Jamme 619, MaMb 178, Mahram, P. 120.

٤ Jamme 620, MaMb 150, Mahram, P. 121.

بـ (ايمن يهرجب) بدلاً من (يهأمن يهرحب). وفي النص : REP. EPIG. 4191 وقد سقط اسم أصحابه فيه ، وكانوا أقيالاً (اقول) على قبيلة سقط اسمها فيه أيضاً ، وقد عبروا عن أنفسهم بـ (ادم نشأكرب) ، أي (عبيد نشأكرم)، على سبيل الأدب والتعظيم للملك . وقد ذكروا فيه أنهم أهـدوا للإلـه (المقـه بعل اوعلن) ، أي المقه رب (أوعلان) ، صنماً (صلمن) مصنوعـاً من صريف (صرفن) أي فضة أو رصاص أو نحـاس ، بحسب تعريب الباحثين لكلمة (صرف) (صرفان) ، وصنمـاً آخر من ذهب ، لأنه منّ عليهم وأجاب كل ما سألوه[1] .

وقد سجل الملك (نشأكرب يهأمن يهرحب) نصين آخرين ، أحدهما النص: Jamme 611 ، والآخر النص Jamme 611 . دوّن في النص الأول أنـه أهدى لمعبد (المقـه ثهوان) ، وهو معبده المسمى (اوام) (بعل اوم) ، صنمين ، أي تمثالين من ذهـب ، لأنه أجاب دعواته (واستوفين كـل دعت) ووفى له كل ما طلبه منه ، وأعطاه (برق الخريف) ، (ببرق خرف)أي الأمطار التي تتساقط في موسم الخريف ، فتحيي الأرض وتغيث الزرع ، وذلك في سنة (نشأكرب من معديكرب) من (فضحم) (فضح الثاني) ، ولأنه حفظه من البرد (بردم) ، وربما قصد به مرض (البرداء) ، أي (الملاريا) التي تجعل المريض وكأنه يرتجف مـن البرد . أو ربما قصد به نزلة أصابته ، ومن (اربم) وقد ترجمهـا (جامه) بـ (جراد) ، ومـن سحب الهوام والحشرات التي ظهرت في هذا الموسم ، بمناسبة حدوث هذا البرق،(بهيت برقن). ولكي يزيد في نعمه عليه ويباركها ، ويحفظه ويحفظ ملكه (ملكهمو) ويحفظ جيشه (خمسهمو) (خميسه) ، ولكي يثبر (لثبر) ويحط (وضع) من شأن كل شانيء وحاسد وعدو له[2] .

وأما النص : Jamme 611 ، فيذكر فيه (نشأكرب يهأمن يهرحب) ، انه قدّم صنماً ، (صلمن) الى معبد الإلـه (المقه) ، وهو معبد (اوم)

---

١ REP. EPIG. 4191, SE. 68, Wien 72, Mahram, 336.

٢ ومجموع النصوص التي عثر عليها حتى الان تحمل اسم الملك (نشأكرب) على أنه هو الآمر بتدوينها ، هو تسعة نصوص Jamme 610, MaMb 208, Mahram, P. 107, 336.

(أوّام) ، حمداً لذاته ، لأنه أعطاه كل ما أراده وطلبه منه ، ووفاه له ، قدّمه في شهر (هوبس وعثر) من سنـــة (نشأكرب بن معد يكرب) من (حذمت) حذمة الثالث (ثلثن) . ولكي يديم نعمه عليه،ويمنحه القوة والحول، ويبارك في ملكه (ملكهمو) ، ويعز جيشه ، ويقهر أعداءه[١] .

ولدينا نص آخر من النصوص التي أمر (نشأكرب) بتدوينها ، هو النص الذي وسم بـ Jamme 877 ، يخبر فيه انه أهدى لمعبد الإلـه (المقه ثهوان) ، وهو معبد (بعل أوام) ، صنماً (صلمن) ، لأنه منّ عليه ، وأوحى اليه في قلبه بأن يقدمه اليه ، ولأنه أجاب كل ما سأله وطلبه منه . وقد أهـداه له في شهر (هوبس) من سنة (سمه كـــرب) (سمهكرب بن ابكرب) من (حذمت) حذمة الثالث (ثلثن) . ولكي يديم نعمه عليـــه ، ويبارك فيه ، ويبعد عنه أذى الأشرار والأعداء ، وذلك بحق (المقه ثهوان) (بعل مسكت) و (يثو برن) (يثو برءآن)[٢] .

وورد اسم هذا الملك في نص آخر وسم بـ Jamme 621 وصاحبه من عشيرة (عبلم) (عبال) (عبل) (عبيل) ، من بـــني (اذنن) (أأذنان) (أأذن) . وقد دوّنه تعبيراً عن حمده لذات إلهه (المقه) الذي وفى له كل مطلب طلبه منه[٣] ، وذلك في عهد (نشأكرب)[٤] ، كما ورد اسمه في النص : Jamme 622 وصاحبه (ابكرب اصحح) (أبو كرب أصحـــح) : وولداه (يحمد يزن) (يحمد يزان) (يحمد يزأن) (يحمد يزءان) ، و (أحمد يزد) (أحمد يزيد) ، وهم من (آل جرت) (جرة) ومن (آل انبر) (أنبر) (ال انبر) وقد دوّنا فيه حمدهما وشكرهما للإلـه (المقه) ، الذي أغناهم وأنعم عليهم بغنائم حرب أرضتهم ، ولكي يمنّ عليهم بتنفيذ أي أمر يكلفهم الملك (نشأكرب) اياه ، ولكي يبارك في زرعهم وفي حاصلهم الشتوي وحاصل الخريف وحاصل الصيف ، ولكي يمنحهم البركة في أرضهم ويوفر لهم الماء لإسقاء زرعهم : ويبعد عنهم كل بأس (بن باسّم) ويبعد الأرق عنهم،

---

١ Jamme 611, MaMb 21, Mahram, P. 108.

٢ Mahram, P. 336.

٣ « حمدم بذت هو فيهمو بكل املا ستملوا » ، السطر الرابع من النص .

٤ Jamme 621, MaMb 171, Mahram, P. 122.

وكل مكروه وكل أذى وحسد الشانئين البعيدين والقريبين[1] . ويلاحظ ورود اسم (أحمد) و (محمد) في هذا النص .

ويتحدث النص Jamme 612 عن حملة قام بها (احمد يغنم) (أحمد يغنم)، وهو ابن (نشاى) (نشأى) ، وكان من كبـــار ضباط (مقتوى) الملك (نشأكرب) ، بأنه أهدى لمعبد (بعل اوام) ، المخصص بعبادة الإلّه (المقه) صنماً من ذهب ، لأنه منّ عليه وأفاض عليه بنعمه ، وأيـــده في الحملة التي قادها مع أقيال (اقولن) وجيش الملك الى أرض حضرموت ، ولأنه أعـــاده سالماً بريئاً (اتو ببريم) معافى بعد أن قتل رجلين ، ولكي يزيد في نعمه عليه وتوفيقه له ، وليبعد عنه أذى الشانئين[2]

والنص المذكور نص موجز ، لم يذكر أسماء المواضع التي حارب فيها جيش (سبأ وذي ريدان) في حضرموت ، ولا الأسباب التي أدت الى ارساله الى هناك. ويظهر من ايجازه هذا ومن عدم إشارته الى عودته بغنائم وأسرى وأموال ، ان الحملة المذكورة لم تكن حملة كبيرة . وإلا قادها الملك نفسه ، فقـد كان من عادة الملوك عندهم ترؤس الحملات الكبيرة ، وادارة الحروب بأنفسهم اذا كانت كبيرة ، ولو رئاسة شكلية أو رمزية . وعدم إشارة هذا النص الى وجود الملك مع رجال الحملة ، يشير كما قلت الى صغر حجمها ،والى أن الغاية التي أرسلت من أجلها لم تكن ذات خطر ، وقد تكون لمجرد تأديب قبائـل من حضرموت تحرشت بسبأ أو عصت أمر ملك حضرموت . فأرسلها الملك (نشأكرب) لتأديب تلك القبائل الثائرة .

ونقرأ في النص : Jamme 616 خبر معارك اشترك فيها أصحاب النص ، وهم من بني (سخيم) سادات (بيت ريمان) . وكانوا أقيالاً (اقول) على عشيرة (يرسم) من عشيرة (سمعي) التي تؤلف ثلث قبيلة (هجرم) (هجر)، كما كانوا من كبار ضباط الملك (نشأكرب) ، أي من درجة (مقتوى) . وقد نشبت تلك المعارك من امتناع عدد من القبائل عن دفع ما استحق عليهـــا من ضرائب ، مما حمل الملك عـــلى ارسال حملة عسكرية اليها ، تمكنت من

---

١ Jamme 623, MaMb 238, Mahram, P. 122.

٢ Jamme 612, MaMb 88, Mahram, P. 109, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 481.

تأديبها واخضاعها ، فاضطرت عشائر (خولان جددم) (خولان جدد) الى ارسال ساداتها وأشرافها الى مدينة صنعاء (صنعو) لمقابلة الملك وعرض طاعتهم عليه وخضوعهم له . وقد رضي الملك عنهم ، وأدّوا ما استحق عليهم من إتاوة ، وبذلك نجحت هذه الحملة . وسر أصحاب النص – وهم قادتها – بهذا النصر[1] .

وتحدث النص بعد ذلك عن عصيان قبيلة (دوات) (دوأت) وعشائرها، وهي (اباس) (أبأس) و (ايدعن) (ايدعان) ، و (حكمم) (حكم) و (حدلنت) و (غمدم) (غمد) و (كهلم) (كاهل) و (اهلنى) (أهلاني) ، و (جدلت) (جدلة) و (سبسم) (سبس) ، و (حرم) (حرم) (حرام) و (حجرلمد) و (أومم) (أوم) و (رضحتن) (رضحتان) من (حرت) (حرة) . وقد ثارت كل هذه العشائر، وعصت الملك ، وامتنعت من دفع الضرائب ، فاضطر الملك الى ارسال قوة عسكرية عليها ، التقت بها في أسفل الأودية (بسفل اوديتن) : (بارن) (بثران) (بأرن) (بأران) و (خلب) و (تدحن) (تدحان) ، فانتصرت عليها، أي على العشائر الثائرة ، وأخذت منها غنائم كثيرة وأسرى[2] .

وعثر على كتابات أخرى ، ورد فيها اسمه ثم اسم (يأزل بين) من بعده، وذلك على هذا النحو : (نشأكرب يهأمن يهرحب ، ملك سبأ وذي ريدان ابن الشرح يحضب ، ويأزل بين ، ملكي سبأ وذي ريدان) . وقد أوجد ورود هذا الاسم – وذلك كما ذكرت سابقاً – للباحثين الذين قالوا بوفاة (يأزل بين) في ايام حياة (الشرح) مشكلة ، خلاصتها : انه اذا كان (يأزل بين) قد توفي في أيام شقيقه ، فلمَ ذكر اسمه في هذا النص وفي نصوص أخرى مثله ؟ أفلا يدل ورود اسمه في النص على انه لم يمت في ذلك العهد ولكن بقي حياً ، وعاد فحكم مع ابن أخيه (نشأكرب) ، بعد ترضيته أو لأسباب أخرى لا نعرفها ، فعاد اسمه ، فظهر مرة أخرى في الكتابات ؟

أما الذين أبقوا (يأزل بين) حياً ولم يُميتوه ، فانهم يعتمدون على هذه

---

١ Jamme 616, MaMb 154, 199, Ry. 538, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 481.

٢ الفقرة ٢٣ فما بعدها ، وراجع النص : Geukens 6, Mahram P. 114.

النصوص في دعواهم ببقائه على قيد الحياة ، وبمشاركته ابن أخيه في الحكم ، وأما غيرهم ، فقد تعمدوا الى حجج وأعذار في تفسير ما ورد في النصوص ، في جملتها ان ذكر اسمه لا يدل على بقائه حياً حتى ذلك الزمن، وان ذكره في الكتابات معناه الإشارة الى عم الملك ، وقد كان ملكاً ، وأن (نشأكرب) إنما ذكره ليبين للناس أنه سيسير على سنة أبيه وعمه في مقاومة أعدائه بتجريد الحملات عليهم ومحاربتهم ، وأنه سيخالف بذلك سياسة شقيقه (وترم يهأمن) الذي سلك خطة التهدئة وحل المشكلات بطريقة المفاوضات والسلم . ودليلهم على ذلك ، ورود جملة نصوص من أيامه ، فيها أخبار حروب وقتال ، على حين لا نجد من أخبار القتال في أيام شقيقه غير خبر واحد ورد في نص واحد ، هو النص : Jamme 601 الذي مر ذكره[1] . ولكن ، هل نحن على علم يقين بأننا لن نعثر في المستقبل على نص ما من أيام (وترم يهأمن) ، فيه نبأ عن حرب أو حروب ؟ ثم من يدر بنا أنه كان مسالماً ؟ أفلا يجوز أن يكون قصر حكمه ، هو الذي حال بينه وبين خوض المعارك ؟ ثم ما الدليل على أن ذكر اسم (يأزل بين) في نصوص أيام (نشأكرب) ، معناه اتباع سياسته وسياسة شقيقه في الحرب ؟ وليس في النصوص أية اشارة ولا أي تلميح يدفعنا الى التفكير في هذا التفسير أو التأويل .

ومن الكتابات التي دوّن فيها اسم (يأزل بين) بعد اسم (نشأكرب) ، الكتابة : Jamme 608 . وصاحبها هو الملك (نشأكرب يأمن يهرحب) نفسه[2] . وقد دوّنها حمداً للإلـه (المقه ثهوان) (بعل اوام) وشكراً له على نعمه وإفضاله ، وذكر أنه قدم في هذه المناسبة صنماً أي تمثالاً من صريف (صرفن) فضة أو رصاص أو نحاس زنته ألف (رضى) (رضيم) ، ليكون تعبيراً عن شكره ، وتقربه اليه[3] .

وتعد الكتابة : REP. EPIG. 4233 من كتابات هذا العهد ، وصاحبها رجل اسمه (يصبح) وقد سقط اسم أبيه من النص . وقد ذكر فيها أنه قدم خمسة

١ Mahram, P. 330.

٢ دون لقبه (يأمن) ، اما في بقية النصوص فـ (يهأمن) . وقد يكون الخطأ في الاستنساخ .

٣ Jamme 608, MaMb 109, Mahram, P. 106.

تماثيل الى الإلّه (المقه ثهوان) ، لأنه منّ على عبده (يصبح) فأفاض عليه بنعمه ، وأجزل له العطاء : ومنحه رضى سيده الملك ، ولكي يديم نعمه هذه عليه ، ويبعد عنه كل أذى وشر ، بحق الإلّه : المقه[1] .

والى هذا العهد أيضاً تجب إضافة النص : Jamme 611 ، الذي سبق أن تحدثت عنه في أثناء كلامي على الكتابات التي أمر الملك (نشأكرب) بتدوينها باسمه ، إذ ذكر فيها اسم عمه (يأزل بين) .

لقد انتهيت الآن من كلامي على (آل فرعم ينهب) ، ووجب عليّ التحدث عن أسرة جديدة حكمت (سبأ وذا ريدان) ، هي أسرة يبدأ حكمها بحكم (ذمر على بين) . ولكنني أرى التحدث عن أسرتين كان لها شأن في هذا الزمن : اسرة (وهب اوم يضف) (وهب أوم ياضف) ، وأسرة (سعد شمسم أسرع) (سعد شمس أسرع) .

وقد ورد اسم (وهب اوم يضف) (وهب أوم يأضف) (وهب اوام يضف) في عدد من الكتابات ، وذكر مع اسمه اسم شقيق له يعرف بـ (يدم يدرم) . وقد عاصرا الملك (الشرح يحضب) ، كما عاصرا (نشأكرب يهأمن يهرحب) . وقد عرفنا من الكتابات أسماء عدد من أولاد (وهب أوم يأضف) (وهب اوم يضف) هم : (حمعثت أزأد) (حمعثت ازاد) ، و (ابكرب اسعد) (أبو كرب أسعد) و (سخيمم يزان) (سخيم يزأن) و (وهب اوم يسبر) (وهب أوم يسبر) ، و (نشأكرب يدرم) (نشأكرب يدرم)[2].

ويظهر من النص : Jamme 616 ان (وهب أوم) وأخاه ، كانا من عشيرة (سخيم) ، وكانا (ابعلا) على بيت ريمان (ابعل بيتن ريمن) أي أصحاب (بيت ريمان) ، وكانوا أقيالاً على عشيرة (برسم) من قبيلة (سمعي) التي تكوّن ثلث (ذي هجرم) . فيظهر منه ومن النص : Jamme 718 انهما كانا من عشيرة (سخيمم) ، أي سخيم[3] .

---

١ REP. EPIG. 4233, Background, P. 98, REP. EPIG., VII, II, P. 166, Le Muséon, LXI, 3-4, (1948), P. 232.

٢ Mahram, P. 332.

٣ Jamme 616, MaMb 199, Mahram, P. 113, Jamme 718, MaMb 56, Mahram, P. 202.

وقد كانت أسرة (وهب أوم) وأولاده ، وشقيقه (يدم) تستغل أرضين حكومية تابعة للملك ، أجرها لها الملك (الشرح يحضب) وفق أمر ملكي أصدره باسمه ، وأعلنه ، عثر عليه الباحثون ، فوسموه بـ REP. EPIG. 4646 . وقد ذكر في النص اسمي ولدين من أولاد (وهب أوم) ، هما : (حمعثت) ، و (اكرب) ، كما أشير الى عشيرة (يرسم) و (سخيم) . وهو من النصوص المهمة التي تتعلق بالزراعة وباستغلال الأرضين في ذلك الزمن .

وأما اسرة (سعد شمسم اسرع) (سعد شمس أسرع) ، فان أهميتها تزيد على أهمية الأسرة المتقدمة ، إذ كانت لاسمها صلة بالملك (الشرح يحضب) ، كما جاء في النصوص : Jamme 626 و Jamme 627 و Jamme 628 ، Jamme 629 و Jamme 630 . فقد نسب (سعد شمس أسرع) وابنه (مرثد يهحمد) في النصوص المذكورة الى (الشرح يحضب) ، فذكر أنهما (ابنا) الملك ، ولقبا فيها بـ (ملكي سبا وذ ايدن) ، أي ملكي سبأ وذي ريدان) ، مما يدل على أنهما كانا ملكين[1] .

وصاحب النص : Jamme 626 رجل اسمه (ينعم اذرح) (ينعم أذرح)، وقد دوّن مع اسمه اسم ولديه : (ابكرب) (أبكرب) (أبوكرب)و(كبرم) (كبر) ، وهم من (غيمان) . واشترك معهم في تدوينه رجل آخر اسمه : (ناسم) (نأسم) (نأس) ، وكانوا أقيالاً على قبيلة (غيمان) . وقد ذكروا أنهم أهدوا صنماً الى الإله (المقه ثهوان) (بعل أوام) كما أوحي اليهم ، حمداً له وشكراً ، إذ منّ عليهم ، ومنحهم السعادة والعافية ، وجعل (سيداهم : سعد شمس أسرع وابنه مرثد يهحمد ، وهما ملكا سبأ وذي ريدان وابنا الشرح يحضب ملك سبأ وذي ريدان)[2] يرضيان عنهم ، ولكي يديم الإله المقه نعمه عليهم ، وذلك بحق عثتر وهوبس والمقه وذات حيم وذات بعدان

---

١ Le Muséon, 1967, 1-2, P. 272.

٢ . (رضو وحظى مرايهمو سعد شمسم اسرع وبنهو مرثدم يهحمد ملكي سبأ وذ ريدن بني الشرح يحضب ملك سبأ وذ ريدن) ، الفقرة ٩ وما بعدها من النص : Jamme 626, MaMb 146, Mahram, P. 124, Oriens Antiquus, Vol., III, 1964, P. 70.

وبشمس الآهة الملك الملقبة بـ (تنف) (تنوف) وبحق سيدهم (وبشمهمو) (حجرم قحمم) (حجر قحم) (حجر قحام) ، بعل القلعتين (عرنهن) : (تنع) و (لمس) .

وأما أصحاب النص : Jamme 627 ، فهم : (هو فعثت يزان) (هو فعثت يزأن) و (آل كبسيم) (آل كبسي) ، وهم أقيال (اقـول) عشيرتي (تنعمم) (تنعم) و (تنعمت) (تنعمة) .

وقد ذكروا فيه انهم أهدوا لمعبد (أوام) ، وهو معبد (المقه) ، صنماً (صلماً) لأنه أوحى اليهم انه سيجيب مطالبهم ، ويوفي لهم كل ما سألوه من دعوات ، فينزل عليهم الغيث ، ويمطرهم بوابل الخير والبركات ، ويسقي جانبي وادي (يعد) (يعود) و (اتب) (أتب) وأرضاً من أرض (تنعمم) (تنعم) ، ولأنه أنبأهم بأنه سيملأ (ماخذ همو) ، أي سد (يفد) وأرض يفد بأمطار الربيع وبأمطار الخريف ، وبماء جار دائم ، وبأنه سيرفع حظوتهم عند (سعد شمس أسرع وعند ابنه مرثد يهحمد ملكا سبأ وذي ريدان ، ابني الشرح يحضب ، ملك سبأ وذي ريدان) ويقربهم اليهما تقرباً يرضيهم ، ولأنه وعدهم بأنه سيمنحهم السعـادة والمـال والطمأنينة ، وانه سيسرّ خواطرهم ، ويمنحهم غلة وافرة وأثماراً غزيرة وحصاداً طيباً ، وذلك بحق الآلهة : (عثر) و (هوبس) و (المقه) و (بذات حميم) و (بذات بعدان) وبحق (شمس ماكن تنف) ، أي : بحق الشمس إلهة الملك الملقبـة بـ (تنف) ، وبحق (المقه) (بعـل شوحط) ، وبحـق (شمسهمو بعلت قيف رشم) ، أي : (الشمس) ربة (قيف رشم) (قيف رشام) ، وقد جعلوا نذرهم تقدمة للإله (عثر شرقن) (عثر الشارق) و (المقه بعل أوام)[1] .

وأما النص Jamme 628 ، فهو النص المتقدم نفسه ، فلا حاجـة بنا الى الكلام عليه . وأما النص : Jamme 630 ، فانه كالنصوص السابقة : حمـد وشكر للإله (المقه ثهوان) (بعل أوام) ، لأنه منّ على (لحيعثت اصححل) وهو من (يهعن) (يهعان) ، بكل ما سأله وطلبه منه ، وأمطـره بشآبيب

[1] Jamme 627, MaMb 210, Mahram, P. 125.

نعمه وافضاله ، وبوابل من فضله ، ورفع منزلته وأعطاه الحظوة عند (سعد شمس اسرع)، وعند ابنه (مرثد يهحمد) ، ملكي سبأ وذي ريدان ، ابني الشرح يحضب ، ملك سبأ وذي ريدان . ولكي يديم نعمه عليه ، ويتمها عليه وعلى بيته ، ويعطيه أثماراً وحصاداً جيداً كثيراً من كل أرضه (بن كل أرضتهمو) ، وبقية من كل الأمراض والآفات .. بحق (عثتر) و (هوبس) و (المقه) و (بذات حميم) و (بذات بعدان) وبحق (شمس ملكن تنف) شمس إلهة الملك تنف[1] .

والنص Jamme 629 هو من أهم النصوص المذكورة ، لورود أخبار ومعارك وحوادث تأريخية فيه لم ترد في أي نص آخر من النصوص المعروفة عن هذا العهد وعن هذه الأسرة وصاحب النص رجل اسمه (مرثدم) وقد سقط لقبه في النص ، وقد دوّن اسم ابنه : (ذرح اشوع) (ذرح أشوع) معه ، وهما من (جرفم) (جراف) (جرف) أقيال عشيرة (يهب عيل) (يهبعيل) . وقد دوّناه عند تقديمها صنماً إلى الإلـه (المقه ثهوان) (بعل أوام) ، حمداً له وشكراً ، لأنه وفقها وأسبغ نعمه عليها ، ولأنه وفق (ذرحن) (ذرحان) في كل المعارك والحروب التي خاضها لمساعدة سيديه (سعد شمس أسرع) وابنه (مرثد يهحمد) (ملكي سبأ وذي ريدان) ، ابني (الشرح يحضب ملك سبأ وذي ريدان)[2] .

وقد حمد (ذرحن) (ذرحان) إلهه وشكره إذ نجاه من المعارك التي حدثت في أرض عشيرة (ردمان) (ردمن) ، تلك المعارك التي هاجمها حلف تكوّن من (وهب ايل) ، الذي هو من (معاهر) ومن (خولان) وحضرموت وقتبان وردمان ومضحيم (مضحى) ومن كل من انضم اليهم من ناس (وكل انس)[3] ومن أعراب ، وذلك لمغاضبة سيديهما ملكي سبأ ومعارضته[4] .

---

١ Jamme 630, MaMb 267, Mahram, P. 131.

٢ Jamme 629, MaMb 203, Mahram, P. 129, Oriens Antiquus, Vol., III, 1964, P. 70.

٣ (وكل انس) ، السطر السابع من النص .

٤ (واعرب) ، السطران السابع والثامن من النص .

ويظهر أن (ذرحان) كان قد حوصر أو وقع في مشكل في أرض ردمان ، وربما في (وعلان) ، عاصمة (ردمان) ، وبقي محاصراً أو في وضع حرج صعب حتى جاءته قوات انقذته مما وقع فيه ، وعاد فالتحق بجيش سيديه الملكين لمحاربة ذلك الحلف[1] .

وقد أسرع الملكان ، فعبّأا جيشها ومن كان معها من تبع (ادمهمى) ومحاربين (ذبن اسبعن) وأقيال ، واتجها نحو (وعلان) ، حيث واجها الأحلاف : واجها (يدع ايل) ملك حضرموت ، ومن معه من أهل حضرموت و (نبطعم) (نبط عم) ، ملك قتبان ، ومن كان معه من أهل قتبان ، و (وهب ايل) من (معاهر) وخولان و (هصبح) و (مضحيم) ، ومن كانوا معهم . وقد جرت معارك انتهت بانتصار (ملكي سبأ وذي ريدان) على رجال الحلف[2] . ولم تذكر الأسطر التي دوّن فيها خبر هذه المعارك أسماء المواضع التي نشب فيها القتال : ولم تأت كذلك بأية تفاصيل عنها ولا عن فداحة الخسائر التي منيت بها قوات ذلك الحلف .

ويظهر ان (ذرحان) كان قد ترأس قوة مؤلفة من مقاتلين من (فيشن) (فيشان) ومن (يهبعيل) (يهب عيل) ، وأخذ يهاجم بها بعض الأعداء ، الا انه وقع في وضع عسكري حرج ، اذ حاصره أعداؤه ، ولم يتمكن من النجاة بنفسه وبقواته الا بعد اسراع الملكين أنفسهما على رأس قواتهما لفك الحصار عنه . وقد نجحا في ذلك ، وسلم مع قوته من الوقوع في الأسر . ولما خاص ونجا ، أخذ يهاجم فلول بعض الأعداء ، فنجح في هجومه وحصل على غنائم وأموال[3] . وعاد فانضم الى جيش الملكين ، وعاد الملكان الى مدينة (مأرب) سالمين غانمين[4] .

ويتحدث (ذرحان) بعد ذلك عن معارك نشبت في منطقة مدينة (حلزوم) ومدينة (مشرقتن) (مشرقتان) (المشرقة) . وكان (ذرحان) يحارب مع

---

١ Mahram, P. 342.

٢ السطر التاسع فما بعده من النص .

٣ Mahram, P. 342.

٤ الفقرة : ٢٣ من النص .

جيش الملكين في خلال هذه المعارك . وقد حاصر جيش الملكين مدينة (حلزوم) ثم افتتحها وأباحها فأخذ ما وجد فيها من أموال ، ثم هاجم المواضع الأخرى على جانبي الأودية والسهول ، وتركها للنهب والسلب ، ودمّر المعابد (الحرم) (محرمت) والهياكل (وهيكلت) ، وخرب كل المساقي (مسقى) التي تروي الأرضين في هذه المناطق[1] . وبذلك انتهت معارك هذه المنطقة بتفوق الملكين على أعدائه . ويظهر ان الجيش لم يتمكن من افتتاح مدينة (مشرقن) (المشرقة) ، فبقيت صامدة مقاومة ، حتى اضطر الى ترك حصارها والارتحال عنها .

ثم ينتقل النص الى الحديث عن معارك أخرى أدت الى احتلال مدينة (منوبم) (منوب) ، وكل مدن (كل هجرن) ومصانع عشيرة (اوسن) أوسان ، والى الاستيلاء على مدينة (شيعن) (شيعان)[2] . ولم يذكر شيئاً مفصلاً عن هذه المعارك ، ولا عن الأماكن الأخرى التي وقعت فيها ، ولا عن الغنائم والأموال التي أخذها الجيش من هذه المواضع . ويرى بعض الباحثين ان مدينة (منوبم) ، هي (منوب) ، وهي من مدن (بني بدا) ، وان وادي (منوب) من الأودية التي تصب في وادي حضرموت في غرب (الحوطة) ، التي تقع على مسافة عشرين كيلومتراً من جنوب شرق (شبام) . وأما شيعان فتقع على مسافة ثمانين كيلومتراً جنوب (تمنع)[3] .

ثم يتحدث النص بعد ذلك عن معارك أخرى اشترك فيها (ذرحان) وقائد آخر اسمه (رب شمسم يعر) (ربشمس يعر) (رب شمس يعر) ، وهو من (علفقم) (علفق) (علافق) ، وكانا يحاربان في أرض قتبان ، وقد وقعا على ما يظهر منه في وضع حرج ، وذلك في منطقة مستوطنات حضر (احضر) وأعراب . حتى وصلت أمداد الى (تمنع) . وتمكنا بفضل (المقه) ورحمته بهما ومساعدته لهما من الخلاص والنجاة مما وقعا فيه ، ثم عادا مع الملكين ، وشقوا طريقهم الى (مأرب) وعادوا جميعاً سالمين[4] .

---

١ الفقرة (٢٥) فما بعدها الى الفقرة (٣٠) .
٢ الفقرتان ٢٩ و ٣٠ من النص .
٣ **Mahram, P. 342.**
٤ الفقرة ٣١ وما بعدها .

ويظهر أن (مرثدم) (مرثد) أبا (ذرحان أشوع) كان في مدينة (صنعاء) (صنعو) وذلك بأمر من الملك للقيام بأعمال نيطت به ، كما ناط الملكان بخمسة أقيال آخرين القيام بأعمال خاصة بمدينة (رحبتن) (الرحبة) في خلال الحملتين[1] وتقع مدينة (رحبتن) (الرحبة) (الرحابة) (رحبتان) على مسافة عشرين كيلومتراً شمال شرقي مدينة صنعاء[2] .

ويظن أن الملك (نبطعم) (نبط عم) ملك قتبان المذكور في هذا النص، هو الملك (نبطعم يهنعم بن شهر هلال) ، الذي حكم فيما بين السنة (٢٠) والسنة (٣٠) بعد الميلاد على رأي (جامه) . وقد حكم أبوه (شهر هلال يهقبض) فيما بين السنة (١٠) والسنة (٢٠) بعد الميلاد ، على رأيه أيضاً . و (نبطعم يهنعم) هو أبو الملك (مرثدم) ملك قتبان الذي حكم فيما بين السنة (٣٠) والسنة (٤٥) بعد الميلاد[3] .

و (تمنع) المذكورة في هذا النص ، هي (تمنع) عاصمة قتبان . ولورود اسمها في هذا النص أهمية كبيرة ، لأنه يدل على أنها كانت موجودة في هذا الزمن ، وأنها بقيت الى ما بعد الميلاد : أي الى القرن الأول منه ، إذا ذهبنا مذهب (جامه) في التقدير المذكور[4] .

هذا ، ونحن لا نعلم في الزمن الحاضر عن الملكين المذكورين شيئاً يذكر . وقد وضع (جامه) حكم (سعد شمسم) وابنه (مرثدم يهحمد) فيما بين السنة (٢٠) والسنة (٣٠) بعلا الميلاد . أي انه جعل حكمهما بعد حكم الملك (نشأكرب يأمن يهرحب) ابن (الشرح يحضب) الذي انتهى حكمه في حوالي السنة (٢٠) بعد الميلاد على رأيه[5] .

أما (فون وزمن) ، فوضع زمان حكم (سعد شمس أسرع) في حوالي السنة (١١٠) بعد الميلاد . ووضع زمان حكم (مرثد يهحمد) في حوالي السنة (١٣٠) بعد الميلاد . وذكر ان (الشرح يحضب) ، هو (الشرح يحضب)

---

١ الفقرة ٣٦ فما بعدها .
٢ Mahram, PP. 322, 342.
٣ Mahram, P. 391.
٤ Mahram, P. 343.
٥ Mahram, P. 390.

الأول الذي جعل ابتداء زمان حكمه سنة (٨٠) للميلاد . وهو من (مرثد) من (بكيل) ، والذي كان يحكم (شبام أقين) (شبام أقيان) . وقد أشار الى وجود ملك آخر اسمه (الشرح يحضب) ميّزه عن الأول باعطائه لقب (الثاني) وقد جعل زمان حكمه سنة (٢٠٠) أو (٢٠٦) للميلاد[١] .

وقد يذهب الظن الى ان الملكين المذكورين هما في الواقع (سعد شمسم أسرع) وابنه (مرثدم يهحمد) اللذين كانا من (جرت) جرة ، وكانا قيلين على قبيلة (ذمرى) ، كما نُصَّ على ذلك في الكتابات Jamme 568 و Jamme 606 و Jamme 607 و Jamme 753 . وكانا في خدمـة (الشرح يحضب) وفي خدمة ابنـه (وترم) ، لأن اسمي الملكين واسمي القيلين أسماء واحدة ، ولأن زمانهما وزمان الملكين زمان واحد ، الا ان هذا الظن يصطدم بكون القيلين من (جرت) (آل جرة) ، وبكون الملكين من نسل (الشرح يحضب) ، كما يفهم ذلك من كلمة (بني) ، أي ابني بالتثنية الواردة بعد اسمها ولقبها وقبل اسم (الشرح) ، ولم يكن الملك من أسرة (جرت) (جرة)[٢] .

وجملة (سعد شمسم اسرع وبنهو مرثدم يهحمد ملكي سبأ وذ ريدن بني الشرح يحضب ملك سبأ وذ ريدن) ، ومعناها : (سعد شمس أسرع وابنه مرثد يهحمد ملكا سبأ وذي ريدان ، ابنا الشرح يحضب ، ملك سبأ وذي ريدان) ، الواردة في النص Jamme 629 [٣] ، جملة مثيرة في الواقع تثير التساؤل عن المراد من لفظة (بني) المذكورة فيها ، فلو فسرناها بمعنى (ابني) أي ولدي (الشرح) اصطدمنا بحقيقة ان (مرثدم يهحمد) ، لم يكن ابناً للملك (الشرح) وانما كان حفيداً له ، والحفيد غير الابن في اللغة وفي التعبير . ولذلك صار هذا التفسير غير منسجم مع واقع الحال .

أما لو فرضنا أن البنوة المقصودة ، هي بنوة تبنٍّ ، أي ان (سعـد شمس أسرع) لم يكن ابناً من صلب (الشرح يحضب) ، بل كـان ابنـاً بالتبني جوبهنا بمعضلة أخرى ، هي أن (سعد شمس أسرع) لم يكن في عمر يتبنى فيه في العادة ، ثم إن ابنه نفسه كان قيلاً أي في عمر لا بد أن يكون قـد جاوز

---

١ Le Muséon, 1946, 3-4, P. 498.

٢ Mahram, P. 340, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 70.

٣ الفقرة الخامسة وما بعدها ، Le Muséon, 1967, 1-2, P. 289.

فيه سن المراهقة ، وهو أولى على كل حال من والده بالتبني بالنسبة الى سنه . ولو كان التبني له ، لما جاز لأبيه أن يسمي نفسه ابناً للملك بالمعنى المفهوم من التبني . لذا فنحن أمــام معضلة لا يمكن حلها في الزمن الحاضر ، ولا يمكن حلّها إلا بعثور المنقبين عــلى كتابات جديدة تتعلق بهــذه الأسرة ، وبشخصية (الشرح يحضب) نفسه ، فلعل (الشرح) رجل آخر ، حكم في غير هــذا الزمن .

ويفهم من النص : Glaser 1228 أن (سعد شمس أسرع) وابنه (مرثد يهحمد) . وقد لقبا أنفسهما بلقب (ملك سبأ وذي ريدان) كانا حليفي الملك (ذمر على يهبر)،وقد حاربا معه الملك (وهب ال يحز) (وهب ايل يحز)، الذي كان مسيطراً على نجاد قبيلة (سمعي)[1] . وقد انتصر (ذمر على يهبر) وحليفاه فيها ، غير أن هذا النص لم يكن حاسماً على ما يظهر .

أسرة فرعم ينهب :

١ ــ فرعم ينهب .

٢ ــ الشرح يحضب بن فرعم ينهب .

٣ ــ يازل بين بن فرعم ينهب ، أي شقيق الشرح يحضب .

٤ ــ نشأكرب يأمن يهرحب ، (نشأكرب يهــأمن يهرحب) . وهو ابن الشرح يحضب .

٥ ــ وترم يهأمن (وتر يهــأمن) . وهو ابن الشرح يحضب . ومنهم من يقدم (وتر يهأمن) على أخيه (نشأكرب يهرحب) .

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 461, CIH 306 + 598.

الفصل الثامن والعشرون

سبأ وذو ريدان

أضفت في الفصل السابق اسمي الملكين (سعد شمس أسرع) و (مرثد يهحمد) الى آخر أسماء الملوك الذين حكموا بعد (الشرح يحضب) ، وذلك حكاية على لسان (جامه) وبحسب ترتيبه لأولئك الملوك ، ولما تراءى له من دراسته لطبيعة الأحجار المكتوبة التي عثر عليها ، ومن دراسته أساليب وأشكال الحروف وطرق نقشها على تلك الأحجار . أما غيره من الباحثين القدامى في العربيات الجنوبية ، فلم يذكروهما لأنهم لم يكونوا قد وقفوا على الكتابات التي أوردت اسميها ، لأنهم لم يكونوا قد عرفوها اذ ذاك ، اذ هي من الكتابات التي اكتشفت من عهد غير بعيد .

وقد اختلف الباحثون في تأريخ حكومة سبأ في تثبيت اسم الملك الذي حكم بعد آخر ابن من أبناء الملك (الشرح يحضب) ، وتباينت آراؤهم في ذلك . وترك (ريكمنس) فراغاً بعد اسم (نشأكرب يهأمن يهرحب) و (وتر) ، دلالة على انه يرى وجود فجوة في الحكم لا يدري من حكم فيها ، ووضع بعدها اسم (ذمر على بين) . وقد جعله من المعاصرين للملك (العز) ملك حضرموت[1]. أما (جامه) ، فقد وضع كما قلت اسمي الملكين (سعد شمس أسرع) وابنه (مرثد يهحمد) ، بعد اسم الملك (نشأكرب يهأمن يهرحب) ، ثم دوّن اسم

---

١ J. Ryckmans, L'institution, P. 338.

(ذمر على بين) بعد اسم (مرثد يهحمد) ؛ دلالة على انه هو الذي كان قد حكم بعده . وقد جعل ابتداء حكمه في حوالي السنة الثلاثين بعد الميلاد ، وانتهاء حكمه في حوالي السنة الخامسة والأربعين للميلاد[1].

وأما (فلبي) ، فقد وضع اسم (وتر يهأمن) بعد اسم (نشأكرب يهأمن يهرحب) ، ثم وضع اسم (ياسر يهصدق) من بعده . وقال باحتمال كون (ياسر) ابناً من أبناء (وتر) ، ثم دوّن اسم (ذمر على يهبر) من بعد (ياسر) ، وهو ابن (ياسر) ، ثم دوّن اسم (ثارن يعب يهنعم) من بعده ثم وضع اسم (ذمر على يهبر) بعد (ثارن) وعبّر عنه بالثاني، ليميزه بذلك عن (ذمر على) المتقدم ، ثم جعل اسم (ذمر على بين) من بعده[2] ، وهو الملك الذي أتحدث عنه الآن ، والذي جعله (ريكمنس) و (جامه) على رأس أسرة جديدة حكمت بعد زوال حكم أبناء (الشرح يحضب) على نحو ما ذكرت .

وسأسير في هذا الفصل في ترتيب حكام (سبأ وذي ريدان) ، وفقاً للقائمة التي وضعها ورتبها (ريكمنس) مع مراعاة القائمة التي وضعها (جامه) والاشارة الى القوائم الأخرى حسب الامكان .

ولا نعرف من أمر (ذمر على بين) شيئاً يذكر . وقد ورد اسمه في نص وسم CIH 373 ، غير انه لم يلقب فيه بلقب (ملك سبأ وذي ريدان) ، على حين لقب ابنه به . فحمل هذا بعضهم على التريث في الحكم بأنه كان ملكاً[3] . وقد جعل (جامه) حكمه فيما بين السنة الثلاثين والسنة الخامسة والأربعين بعد الميلاد[4] .

وقد ورد في هذا النص المتقدم ، أي النص : CIH 373 اسم ابن من أبناء (ذمر على بين)، هو (كرب ايل وتر يهنعم) ، وقد لقب فيه وفي نصوص أخرى بـ (ملك سبأ وذي ريدان) ، ومدوّن النص : CIH 373 وصاحبه هو الملك (كرب ايل وتر يهنعم) أمر بتدوينه عند تقديمه نذراً الى الإله

---

١ Mahram, P. 390.

٢ Background, P. 140.

٣ Mahram, P. 344.

٤ Mahram, P. 390.

(المقه) ، ليوفي له وليبارك عليه وعلى قصره (سلحن) (سلحين) (سلحان) وعلى مدينة (مريب) مأرب . وقد ذكر مع اسمه اسم ابن له هو (هلك امر) (هلك أمر)[1] .

ووصل الينا نقد ضرب عليه اسم (كرب ايل) ، وأول من أشار الى هذا النقد (بريدو) Prideaux الذي بيّن أن الـ (مونكرام) Monogram ، أي الحروف المتشابكة المضروبة على النقد ، تشير الى نعت هذا الملك[2] . وقد بحث (موردتمن) كذلك في هذا الموضوع[3] .

وقد ذهب (ريكمنس) الى ان (كرب ايل وتر يهنعم) ، كان يعاصر الملك (العز) ملك حضرموت .

وللملك (كرب ايل وتر يهنعم) كتابة أخرى أمر هو نفسه بتدوينها ، هي الكتابة التي وسمت بـ REP. EPIG. 3895 . وهي قصيرة ناقصة ، سقطت منها كلمات عدة . وقد ورد فيها اسم ابن الملك ، وهو (هلك امر) (هلك أمر) ، ولم يلقب (هلك أمر) فيه بـ (ملك سبأ وذي ريدان).

ويظهر من ورود اسم الملك (كرب ايل وتر يهنعم) ، وحده في بعض النصوص ملقباً بـ (ملك سبأ وذي ريدان) أن هذا الملك حكم وحده في بادىء الأمر ، لم يشاركه أحد ، ثم بدا له فأشرك ابنه (ذمر على ذرح) معه ، وذلك في العهد الثاني ، وهو العهد الأخير من حكمه . لورود اسم (ذمر على ذرح) من بعد اسم أبيه ، منعوتاً بنعت الملوك .

ويلاحظ ورود اسم (هلك أمر) ابن (كرب ايل وتر يهنعم) وفي كتابات الدور الأول من دوري حكم أبيه ، إلا انه لم يلقب فيها بـ (ملك سبأ وذي ريدان) . أما كتابات الدور الثاني من أدوار حكم (كرب ايل) ، فلا نجد فيها اسمه وانما نجد فيها اسم شقيقه (ذمر على ذرح) . وقد تلقب بـ (ملك سبأ وذي ريدان) دلالة على أنه كان يحكم مع أبيه حكماً ملكياً مزدوجاً . وقد

---

١ CIH 373, Fresnel 54, Glaser 482, 483, Osiander, in ZDMG., X, (1856), S. 67, Discoveries, P. 222, Mahram, P. 344.

٢ Hill, P. LXVIII. PL., XI, I, 2, Müller, Burgen, II, S. 904.

٣ Hill, P. LXVIII, Mordtmann, in Numis. Zeit., 1880, S. 308, D.H. Müller, Hofmus., S. 71.

يعني هذا وفاة (هلك أمر) في أيام حكم أبيه ، ولهذا اختفى اسمه من الكتابات.

وقد قدر (البرايت) F. P. Albright حكم (كرب ايل وتر يهنعم) وابنه (هلك أمر) في منتصف القرن الأول للميلاد[1] .

وقد وضع (فلبي) اسم (ذمر على ذرح) بعد (هلك أمر) ، وهو شقيقه . وقد ذكر اسمه في النص الموسوم بـ CIH 791 ، وقد كان حكمه بحسب تقدير (فلبي) فيما بين السنة (٧٥ ب. م.) و السنة (٩٥ ب. م.)[2].

أما الكتابات التي ذكر فيها (ذمر على ذرج) مع أبيه فيها ، فهي الكتابة: REP. EPIG. 4132 والكتابة REP. EPIG. 4771 . والكتابة الأولى قصيرة أصيبت مواضع منها بتلف . ويلاحظ أن النص لم يذكر (ملك سبأ وذي ريدان) بعد اسم (كرب ايل وتر يهنعم) الذي سقط من الكتابة ، ولم يبق منه إلا الحروف الأخيرة من نعته (يهنعم)[3] . وأما النص REP. EPIG. 4771 ، فقد أهمل فيه لقب (كرب ايل) الذي هو (وتر يهنعم) ، واكتفى بذكر اسمه الأول وحده وهو (كرب ايل) ، ثم دونت بعده جملة (ملك سبأ وذي ريدان وذمر على ذرج ملك سبأ وذي ريدان)[4] . وهو من النصوص التي عثر عليها في مأرب[5] .

ولدينا عدد من الكتابات دوّن فيها اسم الملك (ذمر على ذرح) ، منها الكتابة : CIH 143 ، والكتابة CIH 729 ، والكتابة CIH. 791 والكتابة Jamme 644 ، والكتابة Jamme 878 والكتابة Geukens 12 والكتابة REP. EPIG. 4391 وبعض هذه الكتابات ليست من ايامه ولكنها من ايام ابنه (يهقم) ،وقد ذكر فيها لأنه أبوه، كما ان بعضها مثل الكتابة: REP. EPIG. 4391 مؤلف من سطر واحد : (ذمر على ذرح ، ملك سبأ وذي ريدان)[6] .

---

١ Discoveries, P. 222.

٢ CIH 791, IV, III, I, P. 177, REP. Epig. 631, II, I, P. 62, Louvre 5.

٣ راجع السطر الرابع من النص .

٤ الفقرة الثانية من النص .

٥ REP. EPIG. 4771, REP. EPIG., VII, III, P. 357, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 70.

٦ Glaser 462, REP. EPIG. 4391, REP. EPIG., VII, II, P. 221.

ويحدثنا النص : Jamme 644 ، عن عصيان قام به رجل اسمه (لحيعثت بن سم هسمع) (لحيعثت بن سمهسمع)، ومعه قبيلته قبيلة (شددم) (شدادم) (شداد) ، ورجل آخر اسمه (رب اوم بن شمس) (رب أوام بن شمس) ورجال آخرون انضموا اليهم وأيدوا حركتهم . وقد ثاروا على سيدهم (يهقم) وهو ابن (الشرح يحضب ملك سبأ وذي ريدان) ، وهاجموا قصر (سلحن) (سلحين) (سلحان) ، قصر الملوك ومقر الحكم في (سبأ وذي ريدان) ودخلوه ، واعتصموا به . فهب رجل اسمه (أوس ال يضع) (أوس ايل يضع) (أوسئيل يضع) ، وهو من قبيلة (غيمان) ، وكان قيلها أيضاً،فهاجم الثوار وتغلب عليهم ، وطردهم من القصر ، ويظهر انه أخذهم غرة ، فصان بذلك القصر من الأذى ، وهربوا عن مأرب ، وحمد (أوسئيل) ربه (المقه) اذ وفقه وساعده في انتصاره على الثوار ، وقدم اليه تمثالاً من ذهب تعبيراً عن شكره وحمده له[1] .

ويحدثنا صاحب النص المذكور ، وهو (أوس ايل يضع) ، بأن العصاة هربوا من مأرب ، وتحصنوا في مواضع أخرى ، واستمروا في عصيانهم هذا ، فأمر عندئذ (يهقم) بعض عشائر (غيمان) ان تهاجم ارض (شددم) (شداد) من مدينة (صنعاء) (صنعو) وتقضي على (لحيعثت بن سمهسمع)،فهاجم جنود (غيمان) العصاة في موضع (كومنن) (كومنان) ، وتغلبوا عليهم واستنقذوا منهم خيلاً وإبلاً ودواب أخرى ، وأخذوا منهم غنائم وأسرى وحراس الأسرى الذين كانوا قد وضعوهم في (كومنن) . وسرَّ قيلهم كثيراً ان أرضى بذلك قلب سيده (يهقم) وأخذ منهم بثأره[2] .

وقامت جماعة أخرى من محاربي غيمان بتعقب ثلاثمئة مقاتل من العصاة كانوا قد فروا من مأرب ، وكانوا قد ساعدوا رئيس العصابة في هجومه على قصر (سلحن) . وقد لحقت بهم وأعملت السيف فيهم ، ثم عادت بعد ان أفنتهم . وقد غنم الغيمانيون من المعركتين ستمئة رأس من الماشية وأربعة أفراس[3] .

ولا نجد في هذا النص اشارةً ما ، لا الى الملك (ذمر على) ، ولا الى

---

١ Jamme 644, MaMb 274, Mahram, PP. 145.

٢ الفقرة ١٥ فما بعدها .

٣ الفقرة ٢١ فما بعدها .

موضع وجوده في ذلك العهد . ويظهر انه كان خارج (مأرب) ، وإلا لما أغفل النص الإشارة اليه . أما ابنه ، فقد كان في مأرب على ما يظهر منه . ويلاحظ أن النص قد ذكر لفظة (مراهموا) أي سيده قبل اسم (يهقم) ، ويعود الضمير الى صاحب الكتابة ، أي (سيد صاحب الكتابة) ، ولكنه لم يذكر بعد اسم (يهقم) جملة (ملك سبأ وذي ريدان) ، دلالة على أنه لم يكن ملكاً اذ ذاك ، وأن صاحب الكتابة كان يعترف بسيادته عليه .

وفي النص : Jamme 878 ، نبأ معارك جرت في ايام (يهقم) كذلك ، غير ان النص اصيبت مواضع منه بالتلف ، أفسد علينا المعنى ، كما أن فيه غموض وايجاز يصعب معه استخراج شيء مهم منه عن تلك المعارك التي خاضها أصحاب النص مع (يهقم) الذي كتب اسمه على هذه الصورة (يها ...) ، لوجود تلف في بقية الاسم وتلف آخر في اول السطر الجديد يليه اسم (.. مر على ذرح) ، مما يدل على ان المراد (يهقم) المذكور ، وانه هو الذي تولى قتال المخالفين .

ووضع (جامه) اسم (كرب ايل بين) (كربئيل بين) بعد اسم (ذمر على ذرح) ، وهو ابن (ذمر على ذرح) ، وجعل حكمه فيما بين السنة الثمانين والسنة الخامسة والتسعين بعد الميلاد[1] .

وتعود الكتابة : Jamme 642 الى أيام هذا الملك ، وقد دونها شخص اسمه (حريم ينهب)(حرب ينهب)،من عشيرة (هللم) (هلال) (هلل)،عند شفائه من مرض (بن مرض) ، ألم به ولزمه حتى قدم مأرباً ، فعوفي من مرضه هذا في شهر (ذى ال الت) (ذى الالت) (الثيلت) (الثيلوت) . وقد حمد (حرب) ربه وشكره على أن منّ عليه بالشفاء ، وقدم اليه نذراً :صنماً (صلمن) تعبيراً عن هذا الشكر ، وليبارك فيه وفي سيده (مرأهم) ، (كرب ايل بين ملك سبأ وذي ريدان ، ابن ذمر على ذرج وليديم الإله نعمه عليه ويرزقه أولاداً ذكوراً)[2] . ويلاحظ أن النص لم يدون جملة (ملك سبأ وذي ريدان) بعد اسم (ذمر على ذرج) على حسب القاعدة المتبعة في تدوين أسماء الملوك .

---

١ Mahram, P. 390.

٢ Jamme 642, MaMb 260, Mahram, P. 141.

والنصان : Jamme 643 و Jamme 643 Bis ، يكمل أحدهما الآخر . فالنص الثاني هو تتمة وتكملة للنص الأول . وهما على جانب كبير من الأهمية عند المؤرخ ، لورود أخبار تأريخية فيها ، لم ترد أية اشارة اليها في نصوص أخرى . وصاحباهما رجلان من عشيرة (جرت) (جـرة) ، وهي عشيرة معروفة مرّ بنا اسمها مراراً ، وكان منها أقيال عشيرة (سمهرم) (سمهر) ، وصاحبا النصين هما من أقيال (سمهرم) ، اسم أحدهما (نشأكرب) واسم الآخر (ثوبن) (ثوبان) . وقد دوّنا في النصين أخبار معارك خاضاها ، وكانا قائدين فيها من قواد جيش (كرب ايل بين) (ملك سبأ وذي ريدان) ، وقد أمرهما الملك بقيادة كتائب من جيشه ،وكذلك فرسانه لمحاربة ملك حضرموت ومن عصى أمره فثار عليه ، أو من انضم الى ملك حضرموت من عشائر وحضر .

ويظهر من مقدمة هذا النص ان العلاقات لم تكن حسنة بين (ملك سبأ وذي ريدان) وملك حضرموت ، وان مناوشات ومعارك كانت قد وقعت بين حكومة سبأ وحكومة حضرموت ، مناوشات أتعبت الطرفين على ما يظهر حتى اضطرا في الأخير الى عقد صلح بينهما ، وأخذا الأيمان على انفسهما بوجوب المحافظة على ما اتفقا عليه . وقد وافق ملك حضرموت وهو (يدع ايل) فضلاً عن ذلك على ان يكون في جانب ملك (مأرب) وان يحافظ على حسن الجوار ، وان يضع تحت تصرف الملك (يدع ايل بين) قوة من حرس (يعكرن) (يعكران) وهو ملك آخر من ملوك حضرموت يوجهها حيث يشاء تكون عنده في مأرب . غير ان هذا الاتفاق لم يدم طويلاً ، فسرعان ما نكث ملك حضرموت بعهده كما يقول النص ، وخالف وعده ، بحجة ان (كرب ايل بين) ارسل قوة من محاربي (سمهرم) (سمهر) ، وضعها تحت قيادة (نشأكرب) الى (حنن) (حنان) ، وهي مدينة لا تبعد كثيراً عن (مأرب) ، فخالف بذلك ما اتفق عليه ،وأحل نفسه بذلك من تنفيذ ما اتفق عليه وزحف على بعض المواضع ليهدد باستيلائه عليها الملك .

وكان الملك (كرب ايل بين) قد أمر قائده (نشأكرب) بأن يذهب بثلاثمئة محارب من اهل (سمهرم) الى مدينة (حنن) (حنان) ، فلما وصل بهم اليها ، اعترضه ملك حضرموت ومنعه من الدخول اليها ، لكي يقوم فيها

بتنفيذ اوامر ملكه التي كلفه تنفيذها ، وهي تتعلق ببناء مواضع لتعزيز الأمن في هذه المدينة . وقد عرض (نشأكرب) على الملك (يدع ايل) ملك حضرموت الأمر الملكي الذي يأمره فيه بتنفيذ ما كلفوه اياه ، فرفض قبوله،وطلب منه أن يعود برجاله الى مأرب ، فاستاء ملك سبأ ، وهاج على ملك حضرموت .

ويظهر ان (يدع ايل) ملك حضرموت ، كان يريد ابقاء منطقة (حنن) (حنان) بدون حراسة ولا قوات تحميها ليفرض سلطانه عليها . وقد استغل ضعف (سبأ وذي ريدان) في هذا الوقت فأراد التدخل في شؤونها،وحل نفسه مع جنوده في مدينة (حنن) (حنان) مع انها مدينة سبئية تابعة للملك (سبأ وذي ريدان) . وكان قد صمم أيضاً على اخضاع القسم الجنوبي الشرقي من سبأ لحكمه ، فارتاع (ملك سبأ وذي ريدان) ، وشعر بالخطر الذي سيتهدد مملكته لو تساهل في ذلك ، وسمح للملك حضرموت بأن يتصرف في الأمور كيف يشاء فأمر قائده بالذهاب الى تلك المدينة لتحصينها وابعاد الحضارمة منها ، فلما وصل اليها ، صادف وجود ملك حضرموت فيها ، وأدرك ملك حضرموت سبب قدوم هذا القائد على رأس هذه القوة ، فنعه من تنفيذ ما كلف اياه ، لئلا يتعزز حكم سبأ في هذه المدينة السبئية ، وتصرف (يدع ايل) وكأنه ملك سبأ ، لا ملك حضرموت ولا ملك آخر غيره هناك . فصرف (نشأكرب) ومن كان معه ، ولم يعبأ بأمر ملك (سبأ وذي ريدان) الذي عرض عليه . ثم توجه الى أرض معين ليهدد سبأ ويفاجئها بحرب .

إتجه نحو مدينة (يثل) أولاً ، وهي من مدن معين المهمة القديمة . فلما وصل الى أبوابها ، فتحت له ولجنوده ، واستقر بها مدة . ثم اتجه منها نحو مدينتي (نشقم) (نشق) و (نشن) (نشان) ، وهما من مدن (معين) القديمة المهمة كذلك ، فحاصرهما وأخذ يهاجم مواضع التحصين والدفاع فيهما . فقرر ملك (سبأ وذي ريدان) الإسراع بإرسال نجدات اليها تمكنها من مقاومة الحضارمة ومن الصمود أمامهم . امر بوضعها تحت قيادة (نشأكرب) و (سمه يفع) (سمهو يفع) (سمهيفع) وهو من (بتع) . وقد تألفت من كتائب محاربة ومن فرسان .. ولما جاء خبر وصول المدد الى المدينتين ، أبلغه به (منذر) اي احد الذين كانوا يسترقون الأنباء ويبعثون بها الى الحكومات التي ارسلتهم للتجسس على خصومهم ، اسرع فترك حصار المدينتين ، وعاد الى (يثل) ليتحصن بها .

وقرر الملك (كرب ايل بين) ، مهاجمة خصمه بنفسه ، فسار على رأس قوة من جيشه من عاصمتــه (مأرب) ، واتجه نحو (يثل) ، وأمر قائديه بالزحف مع قواتهم نحو (يثل) أيضاً . وهكذا هاجم (ملك سبأ وذي ريدان) مدينة (يثل) من ناحيتين ، لتطويق (يدع ايل) فيها . وقـد سار القائدان من مدينة (نشق) ، فلما بلغا (يثل) ، وكان ملكها قد وصل اليها كذلك، هاجمت قوات (سبأ وذي ريدان) قوات حضرموت فهزموها ، واضطر ملك (حضرموت) الى ترك (يثل) والاتجاه منها نحو (حنن) (حنان). وكان هذا الملك قد حاول قبل ارتحاله نحو (يثل) نهب (المعبد) الحرام (محرمن) وأخذ ما فيه ، غير أن قوات القائدين المذكورين الزاحفة من (نشق) أدركته، فخاف من الالتحام بها ، وفرّ نحو (يثل) ، وبذلك أنقذ المعبـد الحرام من النهب[١] . ويرى (جامه) أن ذلك المعبد هو المعبد المعروف بـ (محرم بلقيس) بين الناس في هذا العهد[٢] .

ويكمل النص الثاني ، وهو النص Jamme 643 Bis ، آخر خبر ورد في النص الأول ، فيقول: إن قوات اضافية وصلت من مأرب ، الى الملك وقائديه، وعندئذ اتخذت هذه القوات خطة المهاجمـــة ، فهاجمت ملك حضرموت وجيش حضرموت، وأنزلت به خسائر فادحة ، فتكت بألفي جندي من جنود حضرموت، واستولى السبئيون على كل ما كان عند الحضارمة من خيل وجمال وحمير ومن كل حيوان جارح (جرح) كان عند ملك حضرموت ، وبذلك ختم هذا النص ، بالنص على انتصار (سبأ وذي ريدان) على ملك حضرموت[٣] .

ونحن لا نعلم ماذا جرى بعد هذا النصر الذي أحرزه السبئيون على حضرموت إذ ليست لدينا نصوص تتحدث عن ذلك . ولكننا نستطيع أن نقول إننا تعودنا قراءة اخبار أمثال هذه الانتصارات ثم تعودنا أن نقرأ بعد ذلك أن المهزوم يعود فيحارب المنتصر الهازم ، وان المعارك لم تكن تنتهي حتى تبدأ بعـد ذلك معارك انتقامية جديدة أخذاً للثأر . لقد صارت العربية الجنوبية وبا للأسف وكأنها ساحة

---

١ الفقرة : ٢٨ فما بعدها .

٢ Mahram, P. 348.

٣ الفقرة : الواحدة حتى الفقرة (١٠) من النص :
Jamme 643 Bis, MaMb 316, Mahram, PP. 144.

لعب ، لا تخلو من اللعب إلا لفترات الراحة والاستجمام .

هذا ، ونحن لا نعرف شيئاً يذكر عن الملك (يعكرن) (يعكران) ملك حضرموت الثاني الذي ورد اسمه في النصين المتقدمين ، إذ لم يرد اسمه في نصوص أخرى ، ولا أمل لنا إلا في المستقبل ، فقد يعثر على كتابات جديدة يرد فيها اسم هذا الملك .

وقد قدر (جامه) حكم الملك (يهقم) والملك (كرب ابل بين) فيما بين السنة (٨٠) والسنة (٩٥) بعد الميلاد . وفي هذا الزمن كان أيضاً حكم ملكي حضرموت (يدع ابل) و (يعكرن) (يعكران) .

وقد ترك (ريكمنس) فراغاً بعد اسمي (هلك أمر) و (ذمر علي ذرح) اشارة الى فجوة لا يدري من حكم فيها ، ثم دوّن بعده اسم (وتر يهأمن) ، ثم ترك فراغاً دوّن بعده اسم (شمدر يهنعم) ، ثم عاد فترك فراغاً ثالثاً دوّن بعده اسم (الشرح يحمل) ، ثم ترك فراغاً ذكر بعده (عمدان بين يهقبض) ، ثم فراغاً خامساً دوّن بعده اسم (امز نوفان يهصدق) ، ختمه بفراغ سادس دوّن بعده اسم (ياسر يهصدق)[1] .

ووضع (فلبي) اسم (ياسر يهصدق) (يسر يهصدق) ، بعد (وترم يهأمن) . وجعل مبدأ حكمه حوالي سنة (٦٠ ق. م.) ، وذكر ان من المحتمل أن يكون (وترم) (وتر) هو والده[2] . وقد ورد اسمه في النص : CIH 41 ، وهو نص دوّنه جماعة من أقيال قبيلة (مهانفم)[3] ، عند بنائهم بيتهم (مهورن) (مهور) و (يسر) و (مزوداً) اسمه (حرور)[4] ، وقد وردت فيه أسماء الآلهة : (عثتر شرقن) أي (عثتر الشارق) و (عثتر ذ جفتم بعل علم) ، و (شرفن) ، و (ذات حميم) (بعلي محرمن ريدان) أي ربّا (حرم ريدان) ، و (المموبشر) ، أي إلهم (بشر) . ودوّن بعد أسماء الآلهة اسم الملك (ياسر يهصدق ملك سبأ وذي ريدان) ، ولم يذكر

---

١ J. Ryckmans, L'institution, P. 338.

٢ Background, P. 142, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 80.

٣ (اقول شعبن مهانف) .

٤ (مزود همو حرور) .

اسم والد (ياسر) في هذا النص[١] . والكتابة المذكورة من (ضاف) بـ (قاع جهران) شمال (ذمار) . و (قاع جهران) هو (مهانقم) في كتابات المسند[٢] .

ويعد النص المذكور من أقدم النصوص الحميرية التي وصلت الينا . ويرى (فون وزمن) ، انه أول نص يصل الينا لقب فيها ملك من ملوك حمير بلقب (ملك سبأ وذو ريدان)[٣] . ومعنى هذا ان ملوك حمير كانوا قد نافسوا الأسرة السبئية الشرعية ونازعوها على العرش ، وتلقبوا بهذا اللقب الذي هو من ألقاب ملوك سبأ الشرعيين .

وأرض (مهأنف) (مهانفم) هي (قاع جهران) ، ومعنى ذلك ان هذه الأرض كانت تابعة لهذا الملك في ذلك العهد[٤] .

ويعدّ (ياسر يهصدق) (يسر يهصدق) من حمير ، ومعنى هذا ان حمير التي نازعت الأسرة القديمة لسبأ عرشها لقب حكامها أنفسهم باللقب الرسمي الذي يتلقب به ملوك (سبأ) الأصليون ، تعبيراً عن اثبات حقهم في الملك . وقد حكم (ياسر) – على رأي (فون وزمن) – في حوالي السنة (٧٥ م) أو (٨٠ م) . وكان يقيم في (ظفار) ، في حصن (ريدان) . ويرى (فون وزمن) انه في خلال المدة التي انصرمت بين حملة (أوليوس غالوس) وبين حكم (ياسر يهصدق) ، لم يصل الينا أي نص من نصوص المسند[٥] .

وجعل (جامه) حكم (ياسر يهصدق) بين السنة (٢٠٠) والسنة (٢٠٥) بعد الميلاد[٦] .

وقد وضع (فون وزمن) اسم (الشرح) ، بعد اسم (ياسر يهصدق)، وجعل أيامه في حوالي السنة (٩٠) بعد الميلاد . وقد ذكر انه من حمير والى أيامه تعود الكتابة المرقمة بـ CIH 140 [٧] .

---

١ CIH 41, IV, I, I, P. 67, Langer 2, Rhodokanakis, KTB, II, S. 64, Siegfried Langer's Reiseberichte aus Syrien und Arabien, S. XXXIV, (1866), 34-43, ZDMG., (1883), S. 352.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 448.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 448.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 448.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 450, 495.

٦ Mahram, P. 392.

٧ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

وعرف ولد من أولاد (ياسر) اسمه (ذمر على يهبر) ، وقد ذكر في النص CIH 365 [1] . وقد عثر على بعض النقود ضرب عليها اسم صاحبها، وهو (يهبر) ، فلعله هذا الملك[2] .

وذكر اسم الملك (ذمر علي يهبر) واسم أبيه (ياسر يهصدق) في الكتابة المذكورة ، وقد جاء فيها : ان هذا الملك قاتل رجالاً من (بني حزفرم) (بني حزفر) (آل حزفر) . و (آل حزفر) هم عشيرة من (ذي خليل) وهي عشيرة قديمة شهيرة ، أخرجت جملة (مكرب) (مكارب) و (ملوك). ويرى (فون وزمن) ان هذه الحرب كانت ضد الأسرة السبئية المالكة المتوارثة للعرش من عهد قديم ، وان هذا الملك الذي هو من (حمير) ، استولى على حصن (ذت مخطرن) (ذات مخطران) (ذات المخاطر) ، واستولى على (مأرب) عاصمة سبأ في هذه الحرب[3] .

ومعنى هذا أن حمير استولت على سبأ وحكمتها ، فصارت مأرب خاضعة لها. وقد دام خضوع سبأ لحمير الى أيام (ثارن يعب) وهو ابن (ذمر على يهبر) (ذمر على يهبأر) ، إذ نجد على مأرب ملكاً ، هو الملك (ذمر على ذرح). وقد قدّر (فون وزمن) زمان استيلاء حمير على مأرب بحوالي عشر سنين[4] .

وورد اسم (ذمر على يهبر) واسم أبيه (ياسر يهصدق) في الكتابة REP. EPIG. 310 ، والآمر بكتابتها هو (تبع كرب) (تبعكرب) من آل (حزفرم) (حزفر) ، وقد قدّم الى الإلـه (المقه) نذراً يتألف من أوثان لتوضع في معبد هذا الإلـه ولحمايته ولخير أرضه وحصنه . ويظهر أن أملاكه كانت في منطقة (رحب) (رحاب)[5] .

---

١ CIH 365, Glaser 612, Luparensis 4105, CIH, IV, II, I, P. 6. ff, O. Weber Studien zur Südarabischen Altertumskunde, (1907), S., 36, REP. EPIG., 310, I, V, P. 255, Le Muséon, LXI, 3-4, (1948), P. 232, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 80.

٢ Handbuch., S. 94.

٣ CIH 365 = Glaser 612, M. Höfner, Die Inschriften aus Glaser Tagebuch XI, Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes 45, 1938, S. 19-21, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 459.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٥ REP. EPIG., I, V, P. 255.

وقد قام (ذمر على يهبر) ومعه ابنه (ثارن يعب يهنعم) الذي أشركه ابوه معه في الحكم ، بإعادة بناء سد (ذمر) (ذامر) (ذو أمر) (ذمار) في منطقة (أبين) ، وذلك لتهدم السدّ القديم الذي كان يمد اهل مأرب بالماء. فأعادا بذلك الحياة لمساحة واسعة من أرضين موات . وقد قام بهذا العمل عمّال من شعب (سبأ) ومن (ذو عذهبن) (ذى عذهب)[١] ، وقدما في ذلك قرابين إلى آلهتها : (عثر) و (سحر) نحراها في معبد (نفقن) (نفقان)[٢].

وذكر (ذمر على يهبر) مع ابنه (ثارن) في الكتابة المرقمة بـ REP. EPIG. 4708 ، وقد كتبت على تمثال من البرنز محفوظ الآن في متحف (صنعاء) ، وذكرت فيها أسماء اصحابها ، وهم قوم من (آل ذرنح) ، وورد فيها اسم معبد (صنع) (صنعو) ، ولعله (صنعاء)[٣] .

وقد ورد اسم (ثارن يعب يهنعم) في الكتابة الموسومة بـ REP. EPIG. 4909 ، وهي كتابة سجّلها رجلان من أشراف حمير ، أوفدهما ملكهما (ثارن يعب) الى الملك (العذيلط) (العزيلط) ، ملك حضرموت ، لتهنئته باعتلاء العرش وتلقيه باللقب الملوكي في حصن (أنودم) (أنود)[٤] . ويرى بعض الباحثين أن ذلك كان في حوالي السنة (٢٠٠ ب. م.)[٥] . أما (فلبي) فجعل زمانه في حوالي السنة (٢٠ ق. م.)[٦] ، ومعنى هذا أن زمان حكمه كان بعد حملة (أوليوس غالوس) بقليل . وهو تقدير لا يقره عليه أكثر علماء العربيات الجنوبية .

وأما (جامه) ، فقد جعل زمان حكمه بين السنة (٢٦٥) والسنة (٢٧٥) بعد الميلاد ، وجعله معاصراً للملك (العذيلط) ابن (عم ذخر) (العذيلط

---

١ REP. EPIG. 4775, REP. EPIG., VII, III, P. 360, Glaser, 651, M. Höfner, Die Inschriften aus Glasers Tagebuch XI, (Cit. Note 71), S. 15, A. Grohmann, Realen. d. Class. Alter., XIV, 2, S. 1739, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 459.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 459.

٣ REP. EPIG. 4708, VII, III, P. 330, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 80.

٤ Sheba's Daughters, P. 449, REP. EPIG. 4909, VII, III, P. 414.

٥ Beiträge, S. 133, 144.

٦ Background, P. 142.

بن عمذخـــر) ملك حضرموت[١] . وقـــد جعله (فون وزمن) معاصراً للملك (نشأكرب يهأمن يهرجب) (نشأكرب يهأمن يهرحب) ، الذي حكم على رأيه في حوالي سنة (٢٣٠ ب. م.) الى (٢٤٠ ب. م.)[٢] .

وقد ذكر مع ابنه في الكتابـة المعروفة بـ REP. EPIG. 3441 ، وهي تخص أعمالاً عمرانية أمر بها (ذمر على) وابنـــه (ثارن) تتعلق بسد (ذو أمر) (ذمر) (ذمار)[٣] .

وورد اسم (ثارن يعب) في النص : CIH 457 ، وقد ذكر معه اسم أبيه (ذمر على يهبر) ، وقد دوّنه جماعة من (بني ذى سحر) عند تقديمهم الى الآلهة أوثاناً ، لحماية سيديهما الملكين (ذمر على يهبر) وابنه (ثارن يعب) ، ولحماية أملاكهم ورعايتهم . وقد ذكرت في الكتابة أسماء الآلهـة التي توسل اليها أصحابها ورجوا منها الحماية والرعاية ، وهي : (عثتر) و (سحر بعلى نفقن) و (هبس) و (المقه) و (ذات حميم) و (ذات بعدان) و (شمس)[٤] .

وورد اسم (ثارن يعب) في نهايـة النص : CIH 569 ، وهو نص قصير مؤلف من ثلاثة أسطر[٥] .

وقد خلف (ثارن يعب) على عرش سبأ ابنه الملك (ذمر على يهبر) ، الذي يمكن أن نطلق عليه (ذمر على يهبر الثاني) ، تمييزاً له عن جده . وقد وجد اسمه في نص أرخ بشهر (ذو نسور) (ذ نسور) ، وقـد سقط اسم السنة التي أرخ بها من النص[٦] .

وقد وضع (فون وزمن) اسم (شمر يهرعش) من بعده،ودعاه بـ (الأول) تمييزاً له عن (شمر يهرعش) الآخر الذي ولي الحكم بعده بأمد طويل . وقد جعـــل (فون وزمن) (شمر يهرعش الأول) معاصراً لـ (أنمـــار يهأمن)

١ Mahram, P. 392, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٣ REP. EPIG. 3441, VI, I, 158, Rhodokanakis, KTB., II, S. 77.

٤ CIH 457, O. M. 304, CIH., IV, II, II, P. 158.

٥ CIH 569, Beneyton 4, Glaser 807, 1044, CIH, IV, II, IV, P. 353, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٦ REP. EPIG., VII, I, P. 15, REP. EPIG. 3960, S. E. 103, Oriens Antiquus, 1964, P. 80.

ولـ (كرب ايل وتر يهنعم) من (بني بتع) ، من قبيلة (سمعى) . وقد كان حكمه في حوالي السنة (١٤٠) بعد الميلاد[١] .

أما (ريكمنس) ، فقد دوّن اسم (ذمر على يهبأر) بعد (ياسر يهصدق) ونعته بـ (الأول) ثم دوّن اسم (ثارن يعب يهنعم)من بعده ، ثم ترك فراغاً وضع اسم (ذمر على يهبأر) بعده ، ونعته بـ (الثاني) ليميزه عن الأول ، ثم ترك فراغاً ، ذكر بعده اسم (رب شمس نمران) ، ثم وضع فراغاً آخر، ذكر بعده ملكاً سماه (الشرح يحضب) (الشرح يحب) ، ثم ذكر بعده ملكين أحدهما اسمه : (سعد شمس أسرو) ، وآخر اسمه مكسور لم يبق منه إلا ثلاثة أحرف ، هي (حمد) ، ثم دوّن فراغاً بعد هذين الاسمين ، وختمه بذكر اسم (ياسر يهنعم) ، ثم اسم (شمسر يهرعش) وهو ابنه من بعده ، وقـد كان معاصراً للملك (شرح ايل) ملك حضرموت . وبـ (شمر يهرعش) أنهى (ريكمنس) قائمته لملوك (سبأ وذي ريدان)[٢] .

أما (فلبي) ، فقد وضع اسم (ذمر عـلى بين) بعد اسم (ذكر على يهبر) الثاني . وقـد وضع علامة استفهام أمامه دلالة على انه غير متأكد من اسم أبيه . وربما كان ابن أخ (ذمر على يهبر الثاني) . وزعم أنه حكم حوالي سنة عشرين بعد الميلاد[٣] .

ووضع (فلبي) اسم (كرب ال يهنعم) (كرب ايل وتر يهنعم) ، بعد اسم (ذمر على بين) ، ثم اسم (هلك امر) (هلك أمر) من بعده ، ثم (ذمر على ذرح) ،وقد سبق أن تكلمت عنهم ،إذ قدمتهم وفقاً لقائمة (ريكمنس).

ووضع (فلبي) اسم (يدع ال وتر) بعد (ذمر على ذرح) أبيه . وقد جعل حكمه من حوالي السنة ٩٥ حتى السنة (١١٥ ب. م)[٤] .

ويظن (فلبي) أن (يدع ال وتر) ، هو الشخص المسمى بهذا الاسم في النص : CIH 771[٥] . ويحتمل في نظره أن يكون ابنه[٦] .

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٢ J. Ryckmans, L'Instiutlon, P. 338.

٣ Background, P. 142.

٤ Background, P. 142.

٥ CIH 771, CIH, IV, III, I, P. 167, Halévy 640, 642, Handbuch, S. 94.

٦ Background, P. 105

وذكر (فلبي) أنه منذ السنة (١١٥) الى السنة (٢٤٥ ب. م.)، حكم عرش (سبأ وذي ريدان) ملوك من أسرة (بني بتع) من (حاشد) ، و(حاشد) قبيلة من (همدان) . وقد بلغ عددهم اثني عشر ملكاً ، جمعهم في ست مجموعات ، ولم يضع أمام كل ملك زمان حكمه كما فعل في قائمته للملوك الذين حكموا قبلهم ، ذلك لأنه - كما بين هو نفسه - غير واثق من معرفة زمان حكمهم،ولا من ترتيب المجموعات وإنما رتبهم على ما أداه اليه اجتهاده،لا غير[١].

ومن هؤلاء الملوك ، الملك (شمدر يهنعم) (شمدار يهنعم) ، وقد عرف اسمه من نقود عثر عليها ضربت في مدينة (ريدان)[٢] ، وهي مما بعد الميلاد، ولا نعرف من أمره شيئاً آخر .

ووضع (فلبي) بعد الملك المذكور اسم (عمدن بين يهقبض) (عمدان بيّن يهقبض) ، وقد ورد اسمه في النص الموسوم بـ Glaser 567 [٣]، كما وجد مضروباً على نقد ضُرب في مدينة (ريدان) . وقد صور رأسه على النقد ، فبدا وجهه حليقاً،وظفائر رأسه متدلية على رقبته . وأول من وجّه أنظار الباحثين الى هذا النقد ، (موردتمن) Mordtmann ، و (بريدو) Prideux [٤] .

ووجد اسم (عمدان بين يهقبض) في نص عثر عليه في (حرم بلقيس)، وقد لقب بـ (ملك سبأ وذي ريدان) . وهو نص ناقص،ذكر فيه اسم الإلّه (عثتر)[٥] .

ووضع (فلبي) بعد الملكين المذكورين اللذين كوّنا المجموعة الأولى ، (نشأكرب يزن) (نشأكرب يأزن) ثم (وهب عثت يفد)[٦] . وهما يكوّنان

---

١ Background, P. 142.

٢ Background, P. 142, Handbuch, S. 95.

٣ Handbuch, S. 94, Sab. Inschr., S. 9, REP. EPIG. 3433, REP. EPIG., VI, I, P. 155, Glaser, Abessi., S. 32, Anm. I, Rhodokanakis, KTB., II, S. 66, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 298.

٤ Hill, P. IXIX, JASB, 1881, P. 99, Plate, X, 3, 4, 5.

٥ العظم ،

Al-'Azam 5, 0, Le Muséon. LV, 1-4, (1942) P. 128, REP. EPIG. 5099, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 298.

٦ (وهب عثت) .

المجموعة الثانية من المجموعات الست التي تصور انها حكمت في المدة المذكورة [١]. وقد ورد اسماهما في النص : CIH 336 [٢] ، ولم يلقبا بـ (ملك سبأ وذي ريدان). ولم أجد في هذا النص اشارة ما يمكن أن يستدل بهـا على انهما ملكان . ولم يذكر (هومل) اسميهما مع من ذكــر من الملوك الذين حكموا بعد (الشرح يحضب) والذين رتب أسماء من عثر عليهم بحسب حروف الهجاء،ويبلغ عددهم، في رأيه ، زهاء عشرين ملكاً [٣] .

وذكر (فلبي) ان والد الملكين المذكورين هو (تصبح بن يهزحم) [٤] .

ودوّن (فلبي) اسمي ملكين آخرين بعد الملكين المتقدمين، أحدهما (هوتر عثت يشف) ، والآخر (كرب عثت يهقبل) [٥] .

وانتقل بعد ذلك الى مجموعة أخرى تضمنت اسمي ملكين أيضاً،هما(نشأكرب أوتر) ، و (شهر أيمن) [٦] . وقــد ورد اسم (نشأكرب أوتر) في النص الموسوم : Om II,2 ، غير انه لم يلقب فيه بملك ، وقد رجح (هومل) كونه ملكاً ، للقبه الذي هو من نوع الألقاب التي يستعملها الملوك [٧] .

ودوّن (فلبي) اسم (رب شمس نمران) (ربشمس نمران) ، بعد(شهر أيمن) . وذكر انه مذكور في النص الموسوم بـ REP. EPIG. 3621 [٨] ، وهو نص عثر عليه في (مـأرب) ، ووجد اسمه في نصوص أخرى عثر عليها في (حاز) معقل (همدان) ومقر (رب شمس) . وقد استدل (فلبي) من وجود النص المذكور في (مأرب) على بلوغ سلطانه وسلطان قومه (آل بتع) هذا المكان [٩] .

وأما غير (فلبي) مثل (ريكمنس) و (جامه) ، فقد قدّموا — كما رأينا —

---

١ Background, P. 142.
٢ CIH 336, IV, I, IV, P. 365.
٣ Handbuch, S. 94-95.
٤ Background, P. 142.
٥ Background, P. 142.
٦ Background, P. 142.
٧ Handbuch, S. 94.
٨ REP. EPIG. 3621, REP. EPIG., VI, I, P. 244.
٩ Background, P. 142.

مكان الملك (رب شمس نمران) (ربشمس نمـــران) في القوائم التي رتبوها للملوك (سبأ وذي ريدان) . وقد جعل (جامه) زمان حكمه بين السنة (١٢٠) والسنة (١٤٠) بعد الميلاد[1] .

وجعل (فون وزمن) زمان حكم الملك (ربشمس نمران) فيما بين السنة (١٦٠) والسنة (١٧٠) أو (١٨٠) بعد الميلاد . وجعله من المعاصرين للملك (يدع أب غيلان) ملك حضرموت . وممن أدرك أيام حكم (علهان نهفان) ملك همدان[2].

وورد اسم (رب شمس نمران) في النص : REP. EPIG. 4138 . وهو نص مهم وردت فيه أخـــبار حروب وغزوات قام بها (عبد عثتر) وأخوه (سعد ثون) ابنـــا (جدنم) (جدن) أو من آل (جدن) ، بأمر من سيدهم (رب شمس نمران ملك سبـــأ وذي ريدان) . فلما عـادا الى مواطنهما سالمين ، دوّنا شكرهما وحمدهما للإلـه (المقه) الذي منّ عليهما بالعافية وحفظهما وأعادهما بصحة جيدة ، وأنقذهما (المقه بعل حروان) من الوباء الذي عمّ كل الأرض ، وبارك عليهما في مدينة (نعض) ، إذ أنعم عليهما سيدهما (رب شمس نمران) . وقد دعوا في هذه الكتابة لـ (المقه ثهوان) و (ثور بعلم بعل حروان) بأن يبارك عليهما ويحفظهما ويمنّ عليهما بالعافيـــة وبأولاد ذكور ، وبثمار كثـيرة وجني جيد،وذلك بحق الآلهة : (عثتر وهوبس والمقة وذات حميم وذات بعدان وشمس)[3] .

ويظهر من هذا النص أن وباءً كان قد عم البلاد في عهد هذا الملك فأهلك خلقاً كثيراً . وقد حمدا الآلهة التي جعلتهما من الناجين . ويظهر أنهما كانا من قواد جيش هذا الملك الذي كلفهما غزو أعدائه ومحاربتهم . وورد في النص اسم قبيلة (جرش) ، ولعـــل لاسم (جرش) – وهو اسم موضع في اليمن – علاقة باسم هذه القبيلة[4] .

---

١ Mahram, P. 392, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 294, H. Von Wissmann, Himjar., S. 458, 496, Zur Geschichte, S. 322, 326, 392.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٣ REP. EPIG., 4138, REP. EPIG., VII, I, P. 96, VA 3820, 3843, Orients Antiquus, III P. 70.

٤ الصفة (٤٥ ، ٥١ ، ٧٠ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٨٦ ، ٢٤٣) ، منتخبات (ص ١٩ ، ٢٠) .

ويظهر أن الوباء الذي أشار اليه (عبد عثتر) هو الوباء الذي اشير اليه في النص الموسوم بـ Jamme 645 . وصاحبه رجل اسمه (وهب ايل) من (بهعن) (بهعان) ومن (قرضنن) (قرضان) . وقد دوّن هذا الرجل نصه حمـداً للإلّه (المقه ثهوان) (بعل أوام) ، وشكراً له على نعمه عليه بأن حفظـه وسلمه وصانه من الوباء (بن خوم) والطاعون (وعوس) ومن الموت (موتت) الذي عمّ البلاد ، وذلك في سنة (حيم) (حي) (حيي) (حيوم) (حيو) ابن (ابكرب) (أبو كرب) من (كـبر خلل ثكمتن) كبراء (خليـل ثكمتان) . فصانه وحفظه من هذا الوباء العام الذي انتشر في الأرض (وموتت كون بارضن) ، فأهلك خلقاً من الناس . وليمنّ عليه ويبارك فيه وفي أرضه وزرعه ، ويعطيه أثماراً كثيرة وغلةً وافرة من جميع مزارعـه في (مأرب) و (نشق) و (رحبتن) (رحبتـان) . ولينال حظوة ورفعة عند سيده (رب شمس نمران ، ملك سبأ وذي ريدان)[1] .

وليس هذا الوباء الفتاك الذي انتشر في الأرض في أيام هذا الملك ، هو أول وباء نسمع به ففي الكتابات اشارات الى أوبئة عديدة أخرى ، كانت تعم البلاد بين الحين والحين ولا سيما بعد الحروب التي لا تكاد تنقطـع ، وبعد الحروب الكبيرة الماحقة التي قام بها الملوك فخربوا المدن ودمروا مجاري المياه ، وأباحوا مواضع السكنى ، والبشر ، وتركوا جيف القتلى في مواضعهـا لتنتشر الأوبئة والأمراض .

وقد ذهب (ريكمنس) الى أن الوباء المذكور هو جزء من وباء عام كان قد انتشر من الهند نحو الخارج ، فجاء الى جزيرة العرب ووصل حوض البحر الأبيض وطفح في (سلوقية) Seleucia وقد وقع ذلك سنة (١٦٥) للميلاد[2] .

وورد اسم (رب شمس نمران) (ربشمس نمـران) في نصوص أخـرى وسمت بـ : CIH 164 ، وبـ Geukens 10 ، وبـ Jamme 496 .

---

١ خليل يحيى نامي : نقوش عربية جنوبية ، مجلة كليـة الاداب ، القاهـرة ٩ ، (١٩٤٧) ص ١ = ١٣ ، قسم ٢ ، ١٦ ، (١٩٥٤) ص ٢١ ــ ٤٣ ،
Jamme 646, MaMb 276.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 496.

و (رب شمس نمران) ، معروف لدينا معرفة حسنة،وهو من (يتع) ، ومن (ملوك سبأ وذي ريدان) ، لورود ذلك صريحاً في بضعة نصوص أحدها عثر عليه في مأرب[1] ، وعثر على البقية في (حاز) أي في بلد همدان .

والنص الذي عثر عليه في مأرب هو النص المعروف بـ REP. EPIG. 3621 . وهو نص قصير يظهر انه بقية نص أطول لم تبق منه غير كلمات[2] .

ودوّن (فلبي) اسم (سخمن يهصبح) (سخهان يهصبح) بعد (رب شمس نمران) . وقد ورد اسمه في كتابتين ، هما Glaser 208 و Glaser 136 ، غير انه لم يلقب فيها بـ (ملك سبأ وذي ريدان) . وقد استدل (فلبي) من كلمة (مراهمو) ، أي سيدهم ، الواردة قبل اسمه انه كان ملكاً[3] . وورد اسم رجل يعرف بـ (أجرم يهنعم بن سخهان) . ويرى (فلبي) احتمال كون (سخهان) هذا هو (سخهان يهصبح) ، واحتمال كون (أجرم) أحد أبنائه[4] . ولم يذكر (هومل) اسم (سخهان) في جملة من ذكرهـم من ملوك (سبأ وذي ريدان)[5] .

وللسبب المذكور جعل (فلبي) (أجرم يهنعم) ملكاً بعد (سخهان يهصبح) ثم ذكر من بعده (سعد أوم نمران) . وقد ذكر في النص : Glaser 210 ، وهو من النصوص التي عثر عليها في المدينة الهمدانية (حاز)[6] . ويرى (هومل) أن (.. نمران ملك سبأ وذي ريدان) الذي سقط اسمه من النص: Glaser 571 وبقي فيه نعته وهو (نمران) ، قد ينطبق على (سعد أوم نمران) هذا الذي نتحدث عنه ، كما ينطبق على (رب شمس نمران)[7] .

و بـ (سعد أوم نمران) ختم (فلبي) هذا العهد الذي استمر — على رأيه —

---

١ Background, P. 107, Le Muséon, 1967, 1-2, 294.

٢ REP. EPG. 3621, REP. EPIG., VI, I, P. 244.

٣ Handbuch, S. 95, CIH 153, 224, CIH, IV, I, III, P. 214, 258, Glaser 136, 208, Jamme 562, 564, Le Muséon, 1967, 1-2, P. 280.

٤ Background, P. 107.

٥ Handbuch., S. 94.

٦ CIH 226, IV, I, III, P. 260, Handbuch., S. 95.

٧ Handbuch., S. 95.

من سنة (١١٥ ب. م.) حتى السنـــة (٢٤٥) . وقد حكم فيه ملوك من بني (بتع) ، وقد كوّنوا – على حسب رأيه أيضاً – الأسرة السادسة من الأسر التي حكمت عرش (سبأ) . ثم وضع بعد هذه الأسرة أسرة جديدة جعلهـــا الأسرة السابعة ، وهي من (بكيل) . وقد جعل أول رجالها الملك (العذنوفان يهصدق) (العز نوفان يهصدق) ، وقد حكم – على حسب رأيـه – من سنة (٢٤٥ ب. م.) حتى السنة (٢٦٠ للميلاد)[١] .

ووضع (فلبي) اسم (ياسر يهنعم) بعد (العذنوفان) . وهو على حسب ترتيبه الملك الستون من ملوك سبأ ، الذين حكموا السبئيين من مكربين وملوك . وهو والد (شمر يهرعش) الملك الشهير المعروف بين الأخباريين . وبذلك ننتقل من أسرة قديمة الى أسرة جديدة ، ومن عهد قديم الى عهد آخر جديد .

وأما (فون وزمن) ، فإنه لم يذكر اسم من حكم مباشرة بعـد (ربشمس نمران) ، بل ذكر اسم (شعرم اوتر) وهو من (همدان) بعد اسم (علهان نهفان) الـــذي أدرك أوائل حـــكم (ربشمش نمران) ، كما ذكر اسم (فرعم ينهب) ، وهو من (جرت) (جرة) وقد جعل حكمه في حوالي السنة (١٨٠) بعد الميلاد . وذكر اسم (حيو عثتر يضع) مع اسم (شعرم اوتر) دلالة على أنه حكم معه في أواخر أيام حكمه . ثم ذكر اسم (لحيعثت يرخم) من بعده . وجعله معاصراً لـ (لعزز يهنف يهصدق) ملك حمير . وجعـــل (ياسر يهنعم) الأول وهو والد (شمس يهرعش) الثاني معاصراً لـ (لحيعثت يرخم) وقـــال إن في أيامه استولى الحميريون على مأرب . وكان معـــاصراً لـ (الشرح يحضب الثاني) الذي حكم مع أخيه (يازل بين)[٢] .

وجعل (فون وزمن) زمان حكم (الشرح يحضب) الثاني في حوالي السنة (٢٠٠) للميلاد . ثم جعل حكمه مع أخيه في حوالي السنة (٢١٠) ، ثم عـــاد فجعله يحكم وحده في حوالي السنة (٢٢٠) الى السنة (٢٣٠) حيث ذكر اسم (نشأكرب يأمن يهرحب) من بعده ، وجعـــل على حمير في أثنـــاء هذه المدة (كرب ايل) (ذو ريدان) و (ثأرن يعب يهنعـــم) ، وعلى حضرموت

---

١ Background, P. 143.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

(العزيلط) ، الذي تحالف مع (ثارن يعب)[1] .

وذكر (فون وزمن) اسم (ذمر على وتر يهبر) بعد (ثارن يعب يهنعم) ثم جعل (عمدان بين يهقبض) على عرش سبأ . ثم (ياسر يهنعم الثاني) من بعده ، وقد حكم مع ابنه (شمر يهرعش الثالث) ، الذي انفرد بالحكم في حوالي السنة (٣٠٠) بعد الميلاد[2] .

وقبل أن أنتهي من هذا الفصل وأختمه ، أود أن أشير الى منافسة كانت بين الأسرة السبئية الحاكمة المنحدرة من (فيشان) صاحبة قصر مأرب ، وبين أسر أخرى لم تكن لها صلة بالعرش ، ولكنها ادعت لنفسها حق حكم سبأ وذي ريدان. وتلقب أفرادها باللقب الرسمي المقرر للحكم ونازعت الملوك الشرعيين في حق الحكم والسلطان . فنجد الهمدانيين مثلاً وهم يحكمون الثلث الشمالي من دولة (سمعي) القديمة من مقرهم (ناعط) ، ونجد (بني بتع) ،وهم يحكمون الثلث الغربي لمملكة (سمعي) ، (حملان) وعاصمته (حاز) وكذلك (مأذن) ، ثم نجد (مرثدم) أي (مرثد) ومعها (أقيان) (شبام أقيان) ، و (جرت) بما في ذلك كنين (كنن)[3] .

هذا ، ولا بد لي وقد انتهيت من تدوين هذا الفصل من الاشارة الى أن عهد (ملوك سبأ وذي ريدان) هو من أصعب الفصول كتابةً في تأريخ سبأ ، على كثرة ما عثر عليه من كتاباته ، ذلك لأن الكتابات لا تقدم الينا مواطىء تمكّن الانسان أن يقف عليها ليتعرف ما حوله من أمور ، ثم ان بعضها ناقص أصابه التلف ، فأثر في معناه،الى غير ذلك من أمور . لذا نجد علماء العربيات الجنوبية متباينين في تثبت تأريخ هذا العهد وفي أسماء الملوك ، وأعتقد ان هذا الخلل لن يصلح ، وان الفجوات لن تحشى وتملأ ، الا بعد أمد ، بعد استقرار الأمور في اليمن بحيث يسمح لأصحاب العلم بالبحث عن الكنوز المدفونة لاستنباط ما فيها من سر دفين عن هذا العهد والعهود الأخرى من تأريخ اليمن القديم .

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 454, 498

صنعاء :

وقد لمع اسم (صنعو) ، أي (صنعاء) ، في أيام (الشرح يحضب)، وهي لا بد أن تكون قد بنيت قبله بزمن . وقـد أشار (الشرح يحضب) الى قصر له بها ، هو قصر (غندن) (غندان) المعروف في المؤلفات الإسلامية بقصر (غمدان) ، وقد ذكره بعد قصره القديم الشهير قصر (سلحن) (سلحين) رمز الملكية في سبأ [1] . وهكذا صارت لصنعاء مكانة ازدادت على مرور الأيام ، حتى صارت عاصمة اليمن ومقر الحكام .

قائمة (ريكمنس) :

وقد رتب (ريكمنس) أسماء ملوك (سبأ وذي ريدان) على النحو الآتي:

١ ـ فرعم ينهب ، وكان معاصراً لـ (علهان نهفان) .

٢ ـ الشرح يحضب ، وقد حكم على رأيه في حوالي السنة ٢٥ قبل الميلاد وكان يعاصره (شعرم اوتر) (شعر أوتر) . وأما ابنه (يازل بين) (يأزل بين) ، فكان معاصراً لـ (حيو عثتر يضع) .

٣ ـ نشأكرب يهأمن .

. . . . . .

٤ ـ ذمر على بين .

٥ ـ كرب ايل وتر يهنعم ، وكان معاصراً للملك (العز) ملك حضرموت.

٦ ـ (هلك أمر) ـ ذمر على ذرح .

. . . . . .

٧ ـ وتر يهأمن .

. . . . . .

٨ ـ شمدر يهنعم .

. . . . . .

---

١ CIH 429, Beiträge, S. 19.

٩ – الشرح يحمل.

. . . .

١٠ – عمدان بين يهقبض .

. . . .

١١ – لعز نوفان تهصدق (لعز نوفن يهصدق) .

. . . .

١٢ – ياسر يهصدق .

١٣ – ذمر على يهبر (ذمر على يهبأر) الأول .

١٤ – ثارن يعب يهنعم .

١٥ – ذمر على يهبر (ذمر على يهبار) الثاني .

١٦ – رب شمس نمرن (ربشمس نمران) .

١٧ – الشرح يحسب .

١٨ – ١٩ – سعد شمس اسرو ..... (.....) حمد .

. . . .

٢٠ – ياسر يهنعم .

٢١ – شمر يهرعش[١] .

اسرة ذمر على بين :

١ – ذمر على بين .

٢ – كرب ايل وتر يهنعم، (كربئيل وتر يهنعم). وهو ابن ذمر على بين.

٣ – هلك امر (هلك أمر) . وهو ابن كرب ايل .

٤ – ذمر على ذرح ، وهو ابن كرب ايل وتر يهنعم ، وشقيق هلك أمر.

٥ – يهقم .

٦ – كرب ايل بين ، (كربئيل بين) . وهو ابن ذمر على ذرح[٢] .

---

١ J. Ryckmans, L'Institution, P. 338.

٢ Oriens Antiquus, III, 1964, P. 70.

اسرة ياسر يهصدق :

١ – ياسر يهصدق .
٢ – ذمر على يهبر . وهو ابن ياسر يهصدق .
٣ – ثرن يعب (ثارن يعب يهنعم) (ثارن يركب) (تارن يرحب) وهو ابن ذمر على يهبر .
٤ – ذمر على يهبر . وهو ابن ثارن يعب يهنعم . ويمكن تلقيبه بالثاني تمييزاً له عن الأول .
٥ – ثارن يهنعم (ثرن يهنعم)[1] .

---

1 Oriens Antiquus, III, 1964, P. 80.

الفصل التاسع والعشرون

ممالك وامارات صغيرة

وعرف من الكتابات القتبانية ، شعب يقال له (أوسن) أو (أوسان)[1] . وكانت أرضوه تكوّن جزءاً من مملكة قتبان ، مثل دهس و (دثنت) (دثنة) و (تبنى) ومناطق أخرى كانت تابعة لقتبان . وقـد عرف من الكتابات أن الأوسانيين كوّنوا حكومة ، حكمها ملوك ، وصلت أسماء بعضهم الينا ، ولكنها حكومة صغيرة لم تبلغ مبلغ حكومة قتبان ، أو حضرموت أو معين ، أو سبأ.

ولعلّ الأوسانيين الذين أدركوا الإسلام ، هم من بقايا (أوسان) . وقد كان من جملة من اعتمد عليهم الهمداني في أخبار اليمن القديمة ، رجل ينسب الى أوسان ، هـو (محمد بن أحمد الأوساني) ، زعم أنه كان يحسن قراءة الكتابات العربية الجاهلية المدونة بالمسند[2] .

وقد وهبت لنا هذه المملكة الصغيرة بضعة تماثيل منحوتة من الرخام ، يجوز أن نعدها من أنفس ما عثر عليه من تماثيل في جزيرة العرب حتّى الآن . وهي تماثيل بعض ملوك أوسان ، وتعدّ أول تماثيل تصل الينا من تماثيل ملوك العرب. وقد كتب على قاعدة كل تمثال اسم الملك الذي يمثله ، فهذا تمثال كتب عليه:

---

١ REP. EPIG. 454, Hartmann, Arabische Frage, S. 185, Lidzbarski, Ephemeris, II, S. 385, Beiträge, S. 57. ff.

٢ الاكليل (٨/٦٥ ، ٧٧ ، ٧٨) (طبعة نبيه) .

(يصدق آل فرعم ملك اوسان بن معد ال) ، وهذا تمثال ثان نقش على قاعدته اسم الملك الذي يمثله : (زيدم سيلن بن معدال) ، وتمثال ثالث كتب تحت قدم صاحبه اسمه (معد ال سلحن بن يصدق ال ملك أوسان) ، ورابع كتبت على وجه قاعدته من أمام : (يصـدق ال فرعم شرح عت ملك اوسن بن معد ال سلحن ملك أوسن) .

ويرى (فون وزمن) أن الملك (يصدق ايل فرعم شرح عت بن معد ايل سلحن) ، هو الملك (يصدق ايل فرعم ملك أوسان بن معـد ايل) نفسه . فالاسمان اذن في نظره ، لمسمى واحد ، ويكون والده الملك (معد ايل سلحن بن يصدق ايل ملك أوسان)،ووالد (معد ايل سلحن) اذن هو (يصدق ايل) الذي لا يعرف اسم أبيه[1] .

وعثر على اسم ملك آخر من ملوك أوسان ، هو (يصدق ال فرعم شرح عت (عثت) بن ودم) (يصدق ايل فرع (الفارع) شرح عثت بن ود)، ورد لمناسبة تقديمه نذراً ، وهو (معمر) أي (مذبح) أو (مبخرة) الى أحد الآلهة : ولم يذكر الملك اسم ذلك الإلـه[2] . وقد استدل بعض الباحثين من جملة (بن ودم) ، أي (ابن ود) على وجود فكرة تأليه الملوك عند الأوسانيين، وان الجملة تعني ان الملك المذكور كان يرى انـه من نسل الإلـه (ود)[3] . وعندي ان لفظة (ود) هنا هي مجرد اسم لشخص ما. وفي كتب الأنساب والأخبار أسماء عدد من الرجال،هي في الوقت نفسه أسماء آلهة . ولم يقل أحد ان أصحاب تلك الأسماء كانوا يرون أنفسهم آلهة ، أو من أبناء الآلهة ، وبينهم أناس كانوا من سواد الناس .

ولا نعرف من أمر هؤلاء الملوك شيئاً يذكر ، والظاهر ان تمثال (معد ال سلحن) (معد ايل سلحان) يمثل والد (يصدق ايل فرعم شرح) كما جاء

---

١ Beiträge, S. 70.

٢ وقد اختلف الباحثون في المراد من (معمر) ، كما اختلفوا في تفسير النـص ، لانه من النصوص الغامضة ،
Margoliouth, Two South Arabian Inscription, P. 6, Margoliouth, In Proceedings. Britl. Academy, Vol., XI, P. 6, Rhodokanakis, Altesabaische Texten, I, S. 96, Orientalia, Vol., I, P. 269.

٣ Beiträge, S. 58, Conti Rossini., 94.

ذلك مدوناً في قاعدة التمثال الرابع ، ويظهر ان (يصدق ايل فرعم) هو غير (يصدق ايل فرعم شرح عثت) كما يتبين ذلك من اختلاف صورتي التمثالين. وتفيدنا هذه التماثيل فائدة كبيرة في تعرف نماذج ملابس الأوسانيين وعلى زينتهم وكيفية تنظيم شعور رؤوسهم ، وعلى غير ذلك مما له علاقة بمظهر الانسان ، وبالفن من حيث الجودة والخلق والتعبير عن النفس والاتقان .

وجاء اسم الملك (يصدق ال فرعم شرح عت) في كتابة أوسانيـــة أمرت بكتابتها امرأة اسمها (رثدث) (رثدة) ، وقد جـــاء فيها انها قدمت الى سيدها المذكور ملك أوسان ، تمثالاً من الذهب ، ليحفظ في معبد (نعمن) (نعمان)[١] ، وهي من كتابات النذور . ويظهر انها قدمت هـــذا النذر لحادث وقع للملك ، فتوسلت لدى آلهة أوسان بأن تمن على الملك وتبارك فيه، وهي في مقابل ذلك تقدم لها نذراً تمثالاً من ذهب ، ولا بد أن تكون هذه المـــرأة من الأسر الرفيعة التي لها شأن ومكانة ، ولعلها كانت من أسرته .

وجاء في كتابة أوسانية أخرى تحطم اسم صاحبها وزالت معالمه : أنـــه قدم تمثالاً (صلمت) من ذهب الى سيده (مراس) (مرأس) (يصـــدق ايل فرعم شرح عتت) ملك أوسان[٢] . ولا بد أن يكون هذا التقديم لمناسبة حدثت للملك ، فأراد هذا الوجيه التعبير عن تقديره لسيده الملك بتقديم هـــذا التمثال المصنوع من الذهب[٣] . وتشبه هذه الكتابة الكتابة المرقمة بـ Jaussen Nr. 159 bis وهي لأخت هذا الملك ، وقد سقط اسمها من الكتابة بتهشم حدث في الحجر ، وبقيت منه بقية ، هي : (ذت بغيثت اخت ...)[٤] ، وجاء فيهـا أنها قدمت الى سيدها (سقنيت مراس) صنماً من ذهب (صلم ذ ذهبم)[٥] ، ولم تذكر المناسبة التي دعتها لتقديمه . وكان له شقيق هو (زيدسيلن) (زيد سيلان)[٦].

---

١ REP. EPIG., Tome I, 6, 350, 461.

٢ Orientalia, Vol., 1932, P. 127.

٣ (صلمت ذهبن) (تمثال ذهب) ، (صلم من ذهب) .

٤ Mordtmann und Eugen Mittwoch, Altusdarabische Inschriften, Roma, 1933, S. 18.

٥ Orientalia, Vol., I, P. 124.

٦ Background, P. 85.

ويرى بعض الباحثين أن زمان حكم الملك (يصدق ال فرعم شرحعت) (يصدق ايل فارع شرح عت) كان في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد حتى حوالي السنة (٤٥٠) قبل الميلاد[١] . وقد استدلوا على ذلك من طراز التمثال الذي نحت ليمثل ذلك الملك . فان شكل اللباس الذي نحته النحات ليكون لباس الملك ، هو على النسق اليوناني في التماثيل اليونانية المنحوتة قبل منصف القرن الخامس قبل الميلاد . ويرى الباحثون احتمال شراء مثل هذه التماثيل من (غزة) في فلسطين ، إذ كانت سوقاً مهمة يفد عليها العرب للاتجار ، وفيها معروضات يونانية وغيرها ، ينقلها التجار الى جزيرة العرب ، وفي جملتها الأصنام التي أثرت في الفنانين العرب ، فصاروا ينحتون تماثيلهم على شاكلتها ، وفي جملتها تمثال الملك المذكور الذي يجب أن يكون قد نحت فيما بين النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد الى حوالي السنة (٤٥٠ ق. م.)[٢] .

وعرفت أسماء ملوك آخرين من ملوك أوسان ، لا نعلم من أمر أصحابها شيئاً يذكر ، منها (معد ايل سلحان بن ذي يدم)[٣] وقد رأى (جوسن) Jaussen ان الاسم الأخير هو (زيدم) بدلاً من (ذ يدم)[٤] . ولقب (سلحن) (سلحان) من الألقاب التي تكرر ورودها مدونة على تماثيل ملوك أوسان ، وعلى بعض الكتابات التي عثر عليها في (أبنة) وفي المعاهدة المعقودة بين (سلحن) و (زررن) (زراران) ، أي بين ملك (نجاشي) الحبشة وملك (سبأ) . ويرى (ميتوخ) ان (سلحن) (سلحان) أحد المتعاقدين في المعاهدة المذكورة ما كان ملكاً حبشياً ، ولكن ملكاً من ملوك أوسان . وأما (زررن) ، فانه ملك من ملوك قتبان[٥] .

ووجد اسم ملك آخر من ملوك أوسان ، هو (عم يشع غيلن لحى)[٦] ،

---

١ Wissmann - Hofner, Beiträge, S. 8, 58, 69, 142, Pirenne, Royaume de Qataban, P. 138, 199, Conti Rossini, Chrest., 93, 94, Le Muséon, 1964, 3-4 P. 442.

٢ Beiträge, S. 8, 58, 70.

٣ (معد ال سلحن بن ذيدم) ، (ذويدوم) .

٤ Mordtmann und Eugen Mittwoch, Altsüdarabische Inschriften, Roma, 1933, S. 13.

٥ Orientalia, I, P. 119, Jaussen I, 2, 17, 57.

٦ (عمينع غيلان لحي) (عم يثع غيلان لحي) .

محفوراً على تمثال من المرمر مكتوباً كتابة حسنة [1] . وقد نعثر في المستقبل على تماثيل أخرى لملوك العرب الجنوبيين من أوسانيين وغيرهم ، اذ لا يعقل انفراد أوسان من بين سائر الشعوب العربية الجنوبية بصنع التماثيل .

وذكر (فلبي) ملكاً من ملوك أوسان يقال له (يصدق ايل فرعم زغمهن الشرح) ، ولا نعرف من أمره شيئاً . ووردت في الكتابتين الموسومتين بـ Jaussen 72, 73 وبـ Jaussen 75, 83 ، أسماء ملوك أوسانيين منها : (زيحمن بن الشرح ملك أوسان) ، و (عم يثع ملك أوسان) و (يصدق ايل فرعم عم يثع) ، و (الشرح بن يصدق ابل) ، وهي أسماء لقب بعضها بلقب ملك ، وحرم بعضها هذا اللقب ، ولا نعرف عن أصحابها شيئاً يذكر [2] .

وقد كانت (أوسان) قبل استيلاء قتبان عليها وادماجها في حكومة قتبان ، مملكة ذات تجارة مع الخارج ، تتاجر مع افريقية ، وتحكم أرضين أخرى ليست في الأصل من (أوسان) ، مثل : (دهس) ، و (تبنو) و (كحد) . استدل بعض الباحثين من اطلاق مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) على الساحل الافريقي الواقع شمال (بمبا) Pemba و (زنزبار) (زنجبار) اسم (الساحل الأوساني) عليه ، على ان الأوسانيين كانوا قد حكموه ، ونزح بعضهم اليه فسكنه ، وصار تابعاً لأوسان ، ولا يمكن حدوث ذلك بالطبع لو لم يكن الأوسانيون أقوياء ولهم أرض واسعة في العربية الجنوبية ذات عدد كبير من السكان بحيث يسمح لهم بالاستيلاء على الساحل الافريقي . ويرجح العلماء زمان حكم الأوسانيين لذلك الساحل الإفريقي الى ما قبل السنة (٤٠٠ ق. م.) [3] .

وتقع مملكة أوسان في جنوب (قتبان) . وهي من الحكومات العربية الجنوبية الصغيرة ، إلا أنها كانت ذات أهمية ، إذ كانت تمتلك الساحل الافريقي الذي أشرت اليه ، وتتاجر مع سكانه . وقد كان ميناء (عدن) من جملة الأماكن التابعة لهذه المملكة [4] .

ومن ملوك أوسان ، ملك ذكر اسمه في النص الموسوم بـ Glaser 1600

---

١ Orientalia, Vol., I, P. 30, 119, (1932).

٢ Beiträge, S. 70.

٣ Beiträge, S. 74, Periplus Maris Erythraei, 22, A. Grohmann, Arabien, S. 25.

٤ Discoveries, P. 39.

الذي تحدث عن حملة قام بها الملك (كرب ايل وتر) على جملة قبائل وإمارات وحكومات ملكية صغيرة . فبعد أن استولى هذا الملك على مدينة (شرجب)[1] بين الجوف ونجران ، ساق جيوشه الى (أوسان) ، فقتل ستة عشر ألف رجل ، وأسر أربعين ، واحتل أماكن أخرى كانت تابعة لأوسان ، هي : (حمن) (حمان) ، و (انفم) (أنف) و (حبن) (حبان) و (دبب) (دباب) و (رشا) (رشاى) ، و (جردن) (جردان) ، و (دتنت) (دتنه) ، و (تفذ) الى ساحل البحر . وذكر النص بعد ذلك معبد(مرتوم) (مرتم) (مرتو) الذي اسمه (مسور)[2] ، أما ملك (أوسان) فكان اسمه (مرتوم) (مرتو)[3] .

وقد كانت قتبان حليفة لسبأ في هذه الحرب . وقد يكون تعبيرنا أدق وأصح لو قلنا إنها كانت تابعة لها في هذا العهد . ولذلك اشتركت مع السبئيين ضد الأوسانيين . أما (أوسان) ، فكان الى جانبها (دتنت) و (دهس) و (تبنى) وبعض قبائل (كحد) . وقد رأيت أن جميع هذه القبائل ومعها (أوسان) كانت تابعة لمملكة قتبان . ويظهر أنها ثارت على قتبان ، وانفصلت عنها ، فتكوّنت مملكة أوسان ، ودخلت القبائل الأخرى في هذه المملكة ، أي مملكة أوسان ، أو أنها تحالفت معها ، واستقلت كل في منطقتها فكوّنت إمارة أو مملكة صغيرة . فلما انتهى (كرب ايل وتر) من مملكة أوسان ، تعقب هذه القبائل ، وأخضعها لحكمه . ويظهر أن ملك (دهس) الذي كان في حلف مع أوسان،أو خاضعاً لها ، انتهز فرصة انتصار (كرب ايل وتر) على أوسان فأعلن انفصاله عنهم وانضمامه الى السبئيين ، فكافأه (كرب ايل وتر) باعطائه جزءاً من أرض أوسان هو أرض (ادوم) (أود)[4] :

وقد احتل السبئيون أرض أوسان وأرض تبنى،ووهبوا أرض (كحد ذ حضنم) لإله سبأ (المقه) . أي ان الملك (كرب ال) (كربئيل) (كرب ايل) وهبها لحكومة ولشعب سبأ ، وأنعم على قتبان وحضرموت ببعض الأرضين التي

---

١ Glaser, Skizze, 2, S. 89.

٢ Glaser, Skizze, 2, S. 89, Hartmann, Arabische Frage, S. 185.

٣ Beiträge, S. 8, Background, P 144.

٤ Glaser, 1000 A7, Rhodokanakis, KTB., I, S. 28.

غنمها من الأوسانيين . ويظهر انها كانت قتبانية وحضرمية في الأصل ، غير ان الأوسانيين اغتصبوها منهم ، فأعادها (كرب ايل) الى قتبان وحضرموت ، لمساعدتهما له . وقد كان ملك قتبان الملك (وروايل) اذ ذاك .

ويظهر من عبارة (وقني كرب ايل كل قسط كحد .... جوم لا لمقه ولسبا) ، ومن جملة (كل قسط كحد حرهو وعبد هو) ، ان أرض (كحد) ذ حضنم) التي وهبت لألمقه ولشعب سبأ ، أصبحت ملكاً خاصاً بالملك (كرب ايل) ، وان جميع أهل (كحد) أحراراً وعبيداً صاروا أتباعاً له ، يستغلون الأرض ويدفعون اليه الغلات[١] .

وقد جعل (فلبي) الملك (مرتو) في رأس قائمته التي وضعها لملوك (أوسان) ، وجعل زمان حكمه فيما بين السنة (٦٢٠) والسنة (٦٠٠ ق.م.) وذلك ليجعله معاصراً لـ (كرب ايل وتر) الذي جعل حكمه في هذا الزمن[٢]. وهو رأي يعارضه أكثر الباحثين في العربيات الجنوبية،اذ جعلوا حكمه في حوالي السنة (٤٥٠) قبل الميلاد ، أو بعد ذلك بقليل[٣] .

ووضع (فلبي) اسم الملك (ذ بدم) (ذ يد) (زيد) ، بعد اسم الملك (مرتو) ، وجعل زمان حكمه في حوالي السنة (٢٣٠ ق.م.) . فترك بذلك فجوة كبيرة لا يدري من حكم فيها . ولم يعرف اسم والد الملك (ذ يدم) ، وقد ذكر انه كان من عشيرة (بغيثت)[٤] .

ثم ذكر (فلبي) (معد ايل سلحن) بعد (ذ يد) ، وجعله ابناً له . وجعل حكمه في حوالي السنة (٢١٠ ق. م.) ، وذلك جرياً على طريقته في وضع مدة (٢٠) سنة لكل ملك يقضيها في الحكم . ثم جعل (يصدق ايل فرعم شرج عت) من بعد (معد ايل) وجعله ابناً له . وصيّر زمان حكمه في حوالي السنة (١٩٠ ق.م.) وجعل (زيد سلحن) شقيقاً له ، كما جعل له أختاً. ثم وضع الملك (معد ايل سلحن) بعد (يصدق ايل فرعم) ، وجعله ابناً له ، وجعل زمان حكمه في حوالي السنة (١٧٠ ق. م.) . ثم صير (يصدق

---

١ Rhodokanakis, KTB., I, S. 30.

٢ Background, P. 144.

٣ Beiträge, S. 8.

٤ Background, P. 144.

ايل فرعم عم يثع) ملكاً من بعده ، وهو ابن (معد ايل سلحن) ، وجعل حكمه في حوالي السنة (١٥٠ ق م.) . ثم جعل (فرعم زهمهن الشرح) ملكاً من بعده ، وهو ابن (يصدق ايل فرعم عم يثع) ، وجعل حكمه في حوالي السنة (١٣٥ ق. م.) . ثم ذكر (عم يثع غيلن لحى) من بعده ، وهو ابن (يصدق ايل فرعم عم يثع) ، وقد جعل حكمه حوالي السنة (١٢٠ ق. م.)[١] .

ولم يذكر (فلبي) ملكاً آخر بعد هذا الملك ، وإنما ذكر أنه في حوالي السنة (١١٥ ق. م.) ضم (الشرح يحضب) (ملك سبأ وذي ريدان) مملكة أوسان الى أرض السبئيين[٢] .

ويعارض ترتيب (فلبي) لأسماء ملوك (أوسان) رأي كثير من علماء العربيات الجنوبية ، فقد ذهب أكثرهم الى تقديم الملوك الذين ذكرهم (فلبي) بعد الملك (مرتو) عليه ، وجعلوا زمانهم أقدم من زمانه ، فقدروا زمان الملك (يصدق ايل فرعم شرح ايل) في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد مثلاً ، أي قبل سنة (٤٥٠ ق. م.) ، وهذا يعني أنه أقدم عهداً من (مرتو) ، أي ان رأيهم هو عكس ما ذهب (فلبي) اليه[٣] .

وقد ذهبت (بيرين) J. Pirenne الى ان أوسان كانت مملكة في أواخر القرن الأول قبل الميلاد ، أو بعد الميلاد بقليل ، وأن حكم الملك (يصدق ايل فرعم شرحعت بن ودم) كان في حوالي السنة (٢٤ ق. م.)[٤] .

لقد كان معبد (نعمان) المعبد الرئيسي عند الأوسانيين . وقد خصص بعبادة الإله (ود) ، وهو إلههم الكبير . ويقع هذا المعبد في (وادي نعمان)[٥] . وقد ورد اسمه في عدد من الكتابات الأوسانية[٦] .

---

١ Background, P. 144.

٢ Background, P. 144.

٣ Beiträge, S. 8.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 442, Beiträge, S. 58, J. Pireene, Royaume de Qataban, P. 138, 199, Rathjens, Kulturelle Einflusse in SW - Arabien besondere berucksichtigung des Hellenismus, Jahrb. f. Kleinasiat. Forschung., I, 1950, S. 27.

٥ Beiträge, S. 58.

٦ Conti Rossini, 93, 94, 96, Ryckmans 116, Jaussen 137, Beiträge, S. 58.

الجبانيون :

لقد ورد في تأريخ (بلينيوس) اسم شعب من الشعوب العربية الجنوبية ، سماه Gebbanitae ، وقال ان له عدة مدن أكبرها (ناجية) (نجية) Nagia و Thamna (تمنه) (ثمنه) . وكان في (تمنه) خمسة وستون معبداً[١] ، وقد يكون في هذا العدد شيء من المبالغة ، الا انه مع ذلك يدل على ضخامة هذه المدينة وسعتها ، بدليل وصول اسمها الى اليونان ، ومبالغة هذا المؤرخ في عدد معابدها . ولما تحدث عن اللبان ، قال : انه لم يكن يسمح بتصديره الا بواسطة هذه المملكة ، والا بعد دفع ضريبة الى ملكها ، وتبعد العاصمة مسافة (١٤٨٧,٥) ميلاً عن (غزة) يقطعها الانسان في خمس وستين مرحلة على ظهور الجمال[٢] .

وفي أثناء كلام (بلينيوس) عن (المرّ) ذكر ان ملك الـ (الجبانيين) Gebbanitae كان يأخذ لنفسه ربع الغلة ، وذكر ان بلادهم تقع ما بين أرض شعب دعاه Astramitica وأرض شعب آخر يسمى Ausaritae = Ausaritie ، وأشار الى أن للمملكة ميناء يسمى Ocilia ، وان حق بيع القرفة كان محصوراً بالملك وحده[٣] . وذكر أشياء أخرى عن هذا الشعب .

ومعارفنا عن هذا الشعب قليلة ، ويظن انــه كان من الشعوب التي كانت تؤلف مملكة قتبان ، وانه استقل في زمن ربما لا يبعد كثيراً عن ايام (بلينيوس). وكانت مواطنه بعد استقلاله في جوار القتبانيين في الجنوب الشرقي منهم بين قتبان وسبأ على بعض الآراء ، أو في غربهم على رأي (كلاسر)[٤] . ويرى (كلاسر) انه عشيرة أو طائفة من القتبانيين[٥] . ويظن بعض الباحثين انهم (جبأ)[٦] . وقد ذكر (الهمداني) موضعاً سماه (جبأ) وقال فيه : « جبأ مدينة المفاخر ، وهي

---

١ Pliny, Nat. Histo., VI, 154, Vol., 2, P. 453, (H. Rackham), (Leob. Clas. Libr.), Beiträge, S. 60.

٢ Pliny, Book., XII, 69, VOL., IV, P. 51.

٣ Pliny, Book., XII, 69, IV, P. 51, S. 50, 73, 112.

٤ Ency., Vol., 2, P. 810.

٥ Ency., Vol., 2, P. 812, Glaser, Punt., S. 35, 60.

٦ Ency., Vol., 2, P. 812.

لآل الكرندي من بني ثمامة آل حمير الأصغر »[١] ، وقال : « ان جبأ وأعمالها هي كورة المعافر ، وهي في فجوة بين جبل (صبر) وجبل (ذخـر) في وادي الضباب »[٢] . وقد ورد في النصوص المعينية اسم (جبأ) (جبأن) مع اسم المعينيين[٣] . ولكني لا أستطيع أن أوافق على رأي من يقول ان (الجبثين) هم Gebbanitae ، ولذلك دعوتهم بـ (الجبانيين) انتظاراً للمستقبل الذي قد يرشدنا الى اسم يرد في النصوص العربية الجنوبية يكون مرادفاً للفظة المذكورة .

نجران :

وذكرت (نجران) كما رأينا مع (رجمت) (رجمة) ، فهي اذن من المواضع القديمة من عهود ما قبل الميلاد ، سواء أكان اسم نجران اسم أرض أو اسم مدينة وهي في منطقة خصبة جداً ذات ماء ، ولذلك صارت طريقاً مهماً للقوافل المتجهة من العربية الجنوبية نحو الشمال ، أو الآتية من الشمال في طريقها الى العربية الجنوبية . ولموقعها المهم هـذا تعرضت للغزو ولطمع الطامعين فيها ، فأصيبت للذلك بأضرار فادحة مراراً . وقد سماها (بطلميوس) (نكرا ميتربوليس) Nagara Metropolis ، أي مدينة (نكرا)[٤] ، وذكـرت في نص (النمارة) الذي يعود عهده الى سنة ٣٢٨ م.[٥] .

ومع أهمية (نجران) ، فإننا لا نعرف من تأريخها القديم غير شيء قليل . وقد ورد اسمها في كتابة أشارت الى حملة على النبط ، (نبـاطو) ، ويظهر أن أصحاب الحملة أو الغزاة كانوا قد توجهوا من العربية الجنوبية نحو الشمال ، لأنها تذكر أنها اتجهت من (نجران) نحـو (نباطو) فدمرتها ، أي دمرت مدينة النبط[٦] .

---

١ الصفة (ص ٥٤) .
٢ الصفة (ص ٩٩) .
٣ Ency., Vol., 2, P. 812.
٤ Beiträge, S. 10.
٥ المصدر نفسه .
٦ Beiträge, S. II, Philby, Motor Tracks and Sabaean Inscriptions in Najd, Geogr. Journal, 1950, 211-215, A. Tritton, Najran Inscriptions, Journal. Royal. Asiat. Soc., 1944, P. 119-129.

مملكة مهأمر :

و (مهأمرم) (مهأمر) مملكة صغيرة نستطيع أن نقول إنها إمارة من الإمارات التي لقب سادتها أنفسهم بلقب (ملك) ، ومقرها على ما يظهر من الكتابات مدينة (رجمت) (ركمت) (رجمة) . وكان لها مجرى ماء منبعه في (نجران). وتقع أرض (أمرم) (أمر) (أمير) في شرقها في امتداد الباديـــة ، وفي جنوب (مهأمر) في بعض الأماكن . ويرى بعض البـاحثين أن (رجمت) هي في أرض (نجران) في الزمن الحاضر ، أو في منطقة تتاخمها في شمالها [١] .

وقد جـــاء اسم (رجمت) كما رأينا في الكتابة المعينية التي وسمهـــا العلماء بـ Glaser 1150 [٢] ، وقد بحثت عنها في أثناء حديثي عن دولة (معين) وقلت إن من رأي بعض العلماء أن تلك الحرب نشبت بين الفرس (الماذويين) في أيام ملكهم Atraxerxes Ochus وبين المصريين ، في حوالي السنة (٣٤٣ ق. م)[٣]. ويظهر من تلك الكتابة أن مدينة (ركمت) كانت معروفة اذ ذاك ، وكانت ذات شأن وخطر ، وتقع على طريق القوافل التي تصل (معين) والعربية الجنوبية بمصر[٤] .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن (رجمت) هي في الواقع مدينة من مدن (نجران) ، وأن (نجران) لم تكن في الأصل مدينة معينـــة ، وانما هي أرض تضم جملة مدن ، منها هذه المدينة ، الا أن الناس خصصوا لفظـة (نجران) على مرور الزمان باحدى المدن ، هي مدينة (رجمت) ، حتى عرفت بها ، فضاع بذلك اسمها القديم . ويستشهدون على صحة رأيهم هذا بأمثلة عديدة وقعت في العربية الجنوبية [٥] .

ويحتمل على رأي (موردتمن) أن تكون (رجمت) (ركمت) هي (رعمة)

---

١ Beiträge, S. 9.

٢ Glaser 1155, Halévy 535, 578.

٣ Beiträge, S. 10, Rhodokanakis, Zur Altüdarabischen Epigraphik und Archaologie, II, WZKM, 41, 1934, S. 69.

٤ Beiträge, S. 10.

٥ Beiträge, S. 10, Philby, Arabian Highlands, P. 257.

في التوراة و (رعمة) في التوراة الابن الرابع لـ (كوش)[1] . وقد ذهب الى أن مراد التوراة من (كوش) في هذا المكان العربية الجنوبية.ومن أولاد(كوش) (شبا) ، أي (سبأ) ، و (دادان) . وقد ذكر تجار (رعمة) مع تجار سبأ في سفر (حزقيال)[2] .

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية السابعة ، أخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الآية التاسعة .

٢ حزقيال ، الاصحاح ٢٧ ، الآية ٢٢ .

الفصل الثلاثون

الحميريون

وجب علينا الآن البحث عن شعب لعب دوراً خطيراً في سياسة العربية الجنوبية ، في هذا الوقت وقبله بمئات من السنين ، وهذا الشعب هو : (حمير) الذي لا زال قائماً يلعب دوراً مهماً بين القبائل العربية الجنوبية حتى الآن .

كانت حمير من القبائل العربية المعروفة في العربية الجنوبية عند الميلاد ، حتى وصل خبرها الى اليونان والرومان، فدعوها باسم Homeritai [1] وبـ Omyritai و Omeritae و Hamiroei ونحو ذلك . وقد اعتبر (بلينيوس) حمير من أكثر الشعوب العربية الجنوبية عدداً ، وذكر ان عاصمتهم مدينة Sapphar [2] ، ويقصد بذلك مدينة (ظفار) . وعرفوا باسم Hemer عند الحبش[3] . وأشار الى اسم مدينة من مدنهم،سماها (مسلة) Masala = Mesala = Mesalum [4]

---

١ Pliny, VI, 28.

٢ Pliny, Nat. Histo., VI, 104, Ency., III, P. 292, Mordtmann, Miscellen zur Himjarischen, Pliny, VI, XXXII, 161, Vol., II, P. 458-459, Alterthumskunde, In ZDMG., 31, 1877, S. 69, His. Ecclex., II, 58, Ency., Vol., II, P. 310, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 429, 438.

٣ Ency., II, P. 310, E. Littmann, Sabaische Griechische und Altarabische Inschriftten, Deutscho Aksum-Expedit Vol., IV, Berlin, 1913, Miscellanea Academica Berolinsia, 11/2, 1950, P. 107, Le Muséon, LXXVII, 3-4, 1964, P. 429.

٤ Pliny, VI, XXXII, 158, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 449.

وفي كلام هذا الكاتب عنهم اشارة الى أن مدينة (ظفار) كانت عاصمة حمير في أيامه ، وان الحميريين كانوا قد تمكنوا في أيامه من تكوين شخصيتهم ومن اثبات وجودهم في العربية الجنوبية يومئذ .

وقد ذهب (كلاسر) الى ان المراد بـ Masala موضع يدعى اليوم (المشالحة) ويقع شرق (مخا) على الساحل . أما (شبرنكر) ، فرأى انه موضع (مأسل الجمع) ، وان المقصود بـ Homeritae في هذا المكان جماعة أخرى، اسمها : Nomeritae ،وان النساخ حرّفوه فكتبوه Homeritae بدلاً من Nomeritae [١]. وهذه التسمية التي يراها (شبرنكر) قريبة من (نمير) .

وذكر مؤلف كتاب « الطواف حول البحر الأريتري » ان الحميريين كانوا يحكمون في أيامه منطقة واسعة من ساحـل البحـر الأحمر وساحل المحيط حتى حضرموت ، كما كانوا يمتلكون ساحل (عزانيا) Azania في افريقية ، أي قسماً من الساحل الشرقي . وكان عليهم ملك يسمى (كرب ال) Charibael ، عاصمته مدينة (ظفار) Taphar . وكان على صلات حسنة بالروم[٢]. وعدهم (مرقيانوس) Marcianus ، وهو من رجال أوائل القرن الربع للميلاد ، من جملة قبائل الحبشة . ونجد عدداً من الكتّاب البيزنطيين يرون هذا الرأي[٣] .

وقد ذكرت حمير في نص (عيزانا) Ezana، ملك (اكسوم) Askum ، ودعيت في النص اليوناني منه بـ Omeritai = Omyritai [٤] أي حمير .

ولم يعثر الباحثون على اسم حمير في الكتابات التي يرجع عهدها الى ما قبل الميلاد بمئات من السنين مع ورود أسماء قبائل أخرى كانت تقيم في المواضع التي نزل بها الحميريون . مثل (حبان) (حبن) و (ذيب) . فقد جاء اسم (حبن) (حبان) في الكتابة الموسومة بـ REP. EPIG. 3945 ، وهي كتابة يرجع بعض الباحثين زمان تدوينها الى حوالي السنـة (٤٠٠) قبل الميلاد[٥] . و (حبان) ، مدينة وأرض تقع غرب (ميفعة) ، على الطريق المؤدية الى

---

١ Pliny, VI, XXXII, 158, Glaser, Skizze, II, S. 137.
٢ Ency., II, P. 310.
٣ Ency., II, P. 310.
٤ E. Littmann, Deutsche Aksum, IV, Berlin, 1913, Reprinted in : Miscellanea Academica Berolinsia, II/2, 1950, P. 107.
٥ Glaser 1000A, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 445.

(شبوة) . أما (ذيب) (ذيلب) فقبيلة ، كانت منازلها ما بين (عوالق الأحور) من الغرب ومنطقة (قنا) . وتضم (دلتا) (ميفعة) ؛ وهي من القبائل التي كانت تسكن القسم الشرقي من (حمير) أي الأرض التي هاجمت منها حمير مملكة حضرموت[1] .

ويذهب (فون وزمن) الى أن اسم حمير لم يكن قد لمع في هذا العهد على أنه اسم قبيلة حاكمة ، وأن اسمها لم يلمع الا بعد أن تحالف الحميريون مع قبائل أخرى مثل (ذياب) ، فصاروا بحلفهم هذا قوة ، وصار لهم نفوذ[2] .

وقد ورد اسم قبيلة (حبن) (حبان) و (ذيب) (ذياب) في النصوص المتأخرة كذلك مثل كتابات (عقلة)[3] .

وقد عرف الحميريون عند أهل الأخبار أكثر من بقية الشعوب العربية الجنوبية الأخرى التي نتحدث عنها ، وقد جعلوا (حميراً) ، وهو جدّ الحميريين في زعمهم ، ابناً لـ (سبأ) ، وصيّروه (حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان)[4] . وقد سموه (العرنج) وزعموا أنه كان ملكاً ، وأنه ملك بعد هلاك أبيه (سبأ) ، وأنه أول من تتوج بالذهب ، وملك خمسين سنة ، وعاش ثلاثمئة عام ، وكان له من الولد ستة ، منهم تفرعت قبائل حمير ، وكانت بينهم حروب ، الى أمثال ذلك من أقوال[5] .

وقد حاول بعض أهل الأخبار ايجاد تفسير للفظة (حمير) ، ولكلمة (عرنج) ، فذكروا أوجهاً متعددة للتسمية . وقد اعترف (ابن دريد) ، بأن من الصعب الوقوف على الأصل الذي اشتق منه اسم (حمير) أو (العرنج) ، لأن هذه أسماء قد أميتت الأفعال التي اشتقت منها . وقد ذكر أن بعض أهل اللغة زعموا أنه سمي حمير ، لأنه كان يلبس حلة حمراء[6] . وذكر أيضاً (أن هذه الأسماء الحميرية لا تقف لها على اشتقاق لأنها لغة قد بعدت وقدم العهد بمن كان يعرفها[7]).

---

١ REP. EPIG. 2687, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 445.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 446.

٣ Jamme 959, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 446.

٤ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب (ص ٤٠٦) ، (تحقيق ليفي بروفنسال) .

٥ ابن خلدون (٢/٤٧) ، مروج الذهب (٢/٣) (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٦ الاشتقاق (٢/٣٠٦) ، اللسان ٤/٢١٥) ، « دار صادر » .

٧ الاشتقاق (٢/٣١٢) ، (والعرنجج اسم حمير بن سبأ) ، اللسان (٢/٣٢٣) ، « دار صادر » .

ويطلق أهل الأخبار لقب (تبع) على الملوك الذين حكموا اليمن ، وعلى مجموعهم (التبابعة) . وهم في حيرة من تفسير المعنى . وقد ذكر أكثرهم أنهم انما سموا تبعاً و (تبابعة) لأنهم يتبع بعضهم بعضاً كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعاً له على مثل سيرته . أو لأن التبع ملك يتبعه قومه ، ويسيرون خلفه تبعاً له . أو لكثرة أتباعه. أو من التتابع ، وذلك لتتابع بعضهم بعضاً[1] . وذكروا ان أحد التبابعة كان قد صنع (الماذيات) من الحديد ، وان الحديد سخر له ، كما سخر للنبي (داوود)[2] . وأشير الى (تبع) في القرآن الكريم : (أهم خير أم قوم تبع)[3] و (أصحاب الأيكة وقوم تبع)[4].وقد ذكر بعضهم أن هذا اللقب لا يلقب به إلا الملوك الذين يملكون اليمن والشحر وحضرموت ، وقيل حتى يتبعهم (بنو جشم بن عبد شمس) أما إذا لم يكن كذلك فإنما يسمى ملكاً[5] . وأول من لقب منهم بذلك (الحارث بن ذي شمر) وهو الرائش ، ولم يزل هذا اللقب واقعاً على ملوكهم الى أن زالت مملكتهم بملك الحبشة اليمن[6] . وذكر أهل الأخبار أن تبع عند أهل اليمن لقب هو بمنزلة الخليفة للمسلمين وكسرى للفرس وقيصر للروم . وكان يكتب إذا كتب : بسم الذي ملك براً وبحراً[7] .

واختلف علماء التفسير في اسم (التبع) الحميري المذكور في القرآن الكريم ، فذهب بعضهم الى أنه من حمير ، وأنه حيّر الحيرة وأتى (سمرقند) فهدمها . وذهب بعض آخر الى أن تبع كان رجلاً من العرب صالحاً،وأنه لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا ،

---

١ المفردات (ص ٧١) ، اللسان (٣١/٨) ، تاج العروس (٢٨٧/٥) حمزة (٨٢) .

٢ قال أبو ذؤيب :
وعليهما ماذيتان قضاهما داوود أو صنع السوابغ تبع
اللسان (٣١/٨) (تبع) (صادر) ، المفردات (٧١) ، مجمع البيان (١١٥/٢٥) ، تفسير الخازن (١١٥/٤) ، تفسير الشربيني (٥٥٣/٣) ، تفسير ابن كثير (١٤٢/٤) .

٣ الدخان ، الآية ٣٧ .

٤ ق ، الآية ١٤ .

٥ ابن خلدون (القسم الاول من المجلد الثاني ص ٩٤) ، تاج العروس (٢٨٧/٥) ، (تبع) .

٦ صبح الأعشى (٤٨٠/٥) .

٧ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبري (٨٦/٢٥) ، تفسير الطبري (٧٧/٢٥) ، تفسير ابن كثير (١٤٢/٤) .

وكانوا يعبدون الأوثان فدعاهم الى دينه ، وقال إنه دين خير من دينكم قالوا فحاكمنا الى النار . قال نعم فتحاكموا اليها ، وكان معه حبران ، فغلب الحبران النار ، ونكصت على عقبها ، فتهوّدت حمير ، وهدم (تبع) بيت (رئام) ، وهو بيت كانوا يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منه ، وانتصر عليهم[1] .

وقد ذكروا ان تبعاً أول من كسا البيت ، وان الرسول نهى عن سبّه[2] . وروي انه قال : « لا أدري تبع نبياً كان أم غير نبي »[3] . ويظهر من هذا القصص المروي عن (تبع) والذي يعود سنده الى (كعب الأحبار) و (وهب ابن منبه) و (عبدالله بن سلام) في الغالب ، انهم قصدوا بـ (تبع) الملك (اسعد أبو كرب) الذي تهوّد . يؤيد هذا الرأي نص كثير من المفسرين والأخباريين على اسمه ، ونسبتهم القصص المذكور اليه[4] . وذكر (ابن كثير) ان (أسعد أبو كريب بن ملكيكرب اليماني) ، هذا هو (تبع الأوسط) وانه ملك قومه ثلاثمائة سنة وستاً وعشرين سنة ؟ ولم يكن في حمير أطول مدة منه ، وتوفي قبل مبعث الرسول بنحو من سبعمائة سنة الى غير ذلك من قصص يرجع سنده الى المذكورين[5] .

هذا وللتبابعة قصص طويل في كتب أهل الأخبار . فيها قصص عن نسبهم ، وفيها قصص آخر عن فتوحاتهم وحروبهم ، وكلام عن دياناتهم ، وحديث عن حكمهم وأحكامهم ، تجده مبسوطاً مفروشاً في صفحات تلك الكتب ، تجد فيها بعض التبابعة وقد آمنوا برسالة الرسول ووقفوا على اسمه وذلك قبل ميلاده بمئات من السنين . وتمنّوا لو عاشوا فأدركوا ايامه وذبّوا عن حياضه . هذا أحدهم وهو التبع (اسعد أبو كرب بن ملكيكرب) ، يقول :

شهدت على أحمد انه　　　رسول من الله باري النسم
فلو مدّ عمري الى عمره　　　لكنت وزيراً له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه　　　وفرجت عن صدره كلّ هم

---

١ تفسير الطبري (٢٥/٧٧) .
٢ تفسير الطبري (٢٦/٩٧ وما بعدها) .
٣ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبري (٢٥/٨٦) .
٤ تفسير الطبرسي (٢٥/٦٦) (طبعة طهران) .
٥ تفسير ابن كثير (٤/١٤٤) .

فهو يشهد برسالة الرسول ، ويؤمن بها قبل مبعثه بنحو من سبعمائة سنة ، ويرجو او مدّ في عمره ، فوصل الى ايام الرسول ، اذن لجاهد وحارب معه ، وفرّج عنه كل همّ ،لأنه كان يعلم بما سيلاقيه الرسول من قومه من أذى وعذاب. ولصار له وزيراً وابن عم[1] .

ويذكر بعض الأخباريين ، ان تبعاً قال للأوس والخزرج ، كونوا هنا حتى يخرج هذا النبي ، صلى الله عليه وسلم ،أما أنا لو أدركته لخدمته وخرجت معه[2]. الى غير ذلك من قصص يحاول ان يجعل للتبابعة علم سابق قديم برسالة الرسول باسمه وبمكان ظهوره . وبتهيؤ القحطانيين ومنهم أهل المدينة لتأييده وللذبّ عنه ، ولنشر دينه على رغم قريش أهل مكة ، وهم لبّ العدنانيين .

وتجد في كتب أهل الأخبار بعض التبابعة وقد صيروا مسلمين حنفاء يدعون الى الدين الحق وينهون قومهم عن عبادة الأصنام . وتجد فيها أحاديث قيل ان رسول الله قالها في حق التبابعة مثل قوله : « لا تسبوا تبعاً،فانه كان قد أسلم» ، أو « لا تسبوا تبعاً فانه كان رجلاً صالحاً » ، « ولا تسبوا تبعاً فانه أول من كسا الكعبة » . او « ما ادري أكان تبع نبياً ام غير نبي »[3] . وتجد فيها أكثر من ذلك فقد بلغ الحال ببعض اهل الأخبار ان صيّروا بعض التبابعة أنبياء وفاتحين ، بلغت فتوحاتهم الصين في المشرق و (روما) في المغرب . وهذا القصص كله هو بالطبع من حاصل ذلك النزاع السياسي الذي كان بين القحطانيين والكتلة المعادية لها ، كتلة العدنانيين .

وما هذا الالحاح الذي يؤكد ايمان التبابعة بإله واحد وتسليمهم برسالة الرسول وتدينهم بدينه ، وفي عدم جواز سب التبابعة او لعنهم أقول ما هذا الالحاح الا دليل ظاهر محسوس على ان من الناس من كان يلعن التبابعة ويسبهم ويشتمهم ، ولم يكن هذا الشتم او اللعن موجهاً الى التبابعة بالذات بالطبع ، بل كان موجهاً لليمن وللقحطانيين عامة ، وللرد عليهم وضعت تلك الاحاديث وامثالها على لسان

---

١ أخبار مكة (ص ٨٤) ، تفسير ابن كثير (١٤٢/٤) ، البداية والنهاية (١٦٣/٢ وما بعدها) .

٢ تفسير الطبري (١١٥/٢٥ وما بعدها) .

٣ اللسان (٣١/٨) (صادر) ، تفسير الخطيب الشربيني (٥٥٣/٣) ، تفسير الطبري (١٥٤/٢٦ وما بعدها) ، لباب التأويل في معاني التنزيل والمعروف بتفسير الخازن (١١٥/٤ ، ١٧٥) (مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٥٥ م) .

الرسول . وقد ظهر أجداد اهل اليمن فيها احسن واخير من اجداد قريش واهل مكة ، ظهروا فيها مؤمنين موحدين ، كسوا البيت الحرام ، وكانوا هم اول من كسوه ، وعنوا بالبيت اذ عمّروه مراراً ، وقدروا مكانته قبل الاسلام بزمان طويل خير تقدير .

وذكر (المسعودي) ان (تبعاً) المعروف بـ (تبع الأول) كان أول من حكم بعد (الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش)،وقد ملك – على زعمه – اربعمائة سنة،ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد[1]. ولم يشر الى صلة (تبع الأول) بالهدهاد ، والظاهر من قوله : (وذكر كثير من الناس أن بلقيس قتلته)[2] ، أنه كان على رأي أهل الأخبار وأصحاب (كتب التبابعة)[3] ، مغتصباً للعرش ليست به بالهدهاد صلة ونسب . فأول من حكم باسم (تبع) على رواية المسعودي هو تبع المذكور .

وكلمة (تبع) لم ترد في نصوص المسند ، لا بمعنى ملك ، ولا بمعنى آخر له علاقة بحكم أو بوظيفة او بملك . وقد أطلقت تلك النصوص على اختلاف لهجاتها لقب (ملك) على الملوك ، أي على نحو اطلاقنا لها في عربيتنا ، ولهذا يرى المتشرقون أن كلمة (تبع) هي (بتع) القبيلة التي تحدثت عنها من (همدان). وحرفت الكلمة فصارت (تبع)[4] .

وقد كان الحميريون يسيطرون على القسم الجنوبي الغربي من العربية الجنوبية في ايام مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) ، ولا سيما في مدينة (ظفار) وحصنها الشهير المعروف بـ (ريدان)[5] ، الذي يرمز الى ملك حمير والذي يحمي العاصمة من غارات الأعداء . وهو بيت الملوك وقصرهم أيضاً[6] .

وقد كانت منازل حمير في الأصل الى الشرق من هذه المنازل التي ذكرها مؤلف الكتاب . كانت تؤلف جزءاً من أرض حكومة قتبان وتتصل بحكومة حضرموت.

---

١ مروج الذهب (٢/ ٤) (محمد محيي الدين) .
٢ المصدر نفسه .
٣ كذلك .
٤ Ency., II, P. 311.
٥ Beiträge, S. 33.
٦ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 448.

وتقع في جنوب (ميفعه)[1] . وتؤلف أرض (يافع) المسكن القديم للحميريين ، وذلك قبل نزوحهم عنها قبل سنة (١٠٠) قبل الميلاد الى مواطنهم الجديدة[2] . حيث حلّوا في أرض (دهس) (داهس) وفي ارض (رعين) حيث كانت (رعين) ، فأسسوا على اشلائها حكومة (ذو ريدان)[3] .

وحدود أرض حمير في مواطنها القديمة : (ارض (رشأى) (رشاى) و (حبان) (حبن) في الشمال وأرض حضرموت في الشرق ، وأرض (ذيب) (ذياب) في الغرب . وقد كانت في الأصل جزءاً من حكومة قتبان .

ويظهر من الكتب العربية ان الحميريين كانوا يقطنون حول (لحج) في منطقة (ظفار) و (رداع) وفي (سرو حمير) و (نجد حمير)[4] .

وقد عرفت الأرض التي اقام بها الحميريون بـ (ذي ريدان) (ذ ريدن)، نسبة الى (ريدن) (ريدان) ، قصر ملوك حمير بعاصمتهم (ظفار) . وهو عند حمير بمثابة قصر (سلحن) (سلحان) (سلحين) ، وقصر (غمدن) (غمدان) عند السبئيين .

وقد اخذ حصن (ريدان) اسمه من حصن اقدم عهداً منه كان في قتبان ، بني عند ملتقى اودية في جنوب العاصمة (تمنع) — عرف بـ (ذي ريدان) (ذ ريدان) ، وقد بني على جبل يسمى بـ (ذي ريدان) يؤدي الى (حدنم) (حدن) . ولما كان الحميريون يقيمون في هذه الأرض المعروفة بـ (ذي ريدان) وذلك حينما كانوا اتباعاً لمملكة قتبان ، لذلك اطلقوا على الحصن الذي بنوه بـ (ظفار) اسم حصن (ذي ريدان) ، تيمناً باسم قصرهم القديم ، واطلقوا (ذي ريدان) على وطنهم الجديد الذي اقاموا فيه بعد ارتحالهم عن قتبان؛ ليذكرهم باسم وطنهم القديم[5] .

وقد عثر على كتابة في خرائب حصن (ريدان) القديم ، الذي كان قد بناه الريدانيون ايام اقامتهم بقتبان ، قدّر الخبراء زمان كتابتها بحوالي السنة (٤٠٠)

---

١ Beiträge, S. 48.
٢ Beiträge, S. 66.
٣ Beiträge, S. 73.
٤ Ency., II, P. 310.
٥ Beiträge, S. 48, Discoveries, P. 8, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 450.

قبل الميلاد[1] . ويقع حصن (حدي) عند حافة الجبل الذي تقع عليه خرائب (ريدان) ، وهو اسم يذكرنا باسم (حدنم) المذكور[2] .

وقد كان الحميريون أتباعاً لمملكة قتبان قبل انتقالهم الى وطنهم الجديد ، فأرضهم كانت خاضعة لحكومة قتبان تؤدي الجزية لها وتعترف بسيادة ملوك قتبان عليها ، ولذلك اطلق السبئيون عليهم (ولد عم) اي ولد الإله (عم) و (أمة عم) (ملة عم) وهو إله قتبان . وتعني تلك الجملة (جماعة عم) ، اي قتبان ومن يخضع لها من قبائل ، فـ (عم) هو رمز قتبان[3] . وهو تعبير يؤدي معنى التبعية والجنسية بالمعنى الحديث . ولما كان الحميريون اتباعاً لقتبان في ذلك العهد ، وان لم يكونوا يتعبدون الإله (عم) إله قتبان ، ادخلوا في جملة (ولد عم) للتعبير عن المعنى المذكور .

وقد عثر الباحثون على كتابات مؤرخة ، سنة ١٠٩٤ أرخت بالتقويم العربي الجنوبي الذي يرجع عهده الى السنة (١١٥) أو (١٠٩) قبل الميلاد . عثر عليها في ارضين حميرية . وقد تبين من تحويل تلك السنين الى سنين ميلادية ، أنها تعود الى السنة (٤٠٠) للميلاد فما بعد[4] .

ويرى بعض الباحثين ان السنة المقابلة لسنة (١١٥) أو (١٠٩) قبل الميلاد ، وهي السنة الأولى من سني التقويم العربي الجنوبي ، هي سنة نشوء حكومة حمير وظهورها الى الوجود بصورة فعلية[5] . ولهذا صار الحميريون يؤرخون بها لما لها من أهمية في الناحية السياسية عندهم .

وقد كان الحميريون يغزون أرض حضرموت ويتحرشون بطرق تجارتها . ولا سيما طريق (شبوة) — (قنا) (قانه) ، المؤدي الى المدن الجنوبية والساحل لذلك اضطرت حضرموت إلى اقامة سور يسد الوادي (وادي لبنا) (لبنه) ، أقيم من حجارة قوية بحيث سدّ الوادي ، فليس للمارة سبيل سوى الباب الذي

---

١ REP. EPIG. 3871, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 450, J. Pirenne Paleographie, I, (Cit. Note 12), Pl. XIXd.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 450.

٣ Le Muséon, LXXVII, 3-4, 1964, P. 429, 450, Ryckmans 535, Jamme 577, 576, 589.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 429.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 430.

يحرسه حراس أشداء . ويظهر ان اقامة ذلك السور كان قبل السنة (٤٠٠) قبل الميلاد[١] .

وقد اكتسح الحميريون أملاك غيرهم من جيرانهم فاستولوا على أرض (رعين). وقد كانت (رعين) مملكة صغيرة حكمها ملوك كما تبين ذلك من الكتابات . وقد كانت هذه المملكة تحكم أرض (عرش) وقد استولى عليها الحميريون أيضاً كما استولوا على كل الأرضين التي كانت خاضعة لحكم ملوك (رعن) (رعين). فأضافوها الى حكومة (ريدن) (ريدان) (ذي ريدان) . وقد حدث ذلك في القرن الثاني قبل الميلاد[٢] .

وقد كانت مملكة (رعين) كما يتبين من الكتابة الموسومة بـ **Glaser 1693** في حلف مع سبأ ضد مملكة (قتبان) ، ويظهر انها كانت مع سبأ لتدافع بذلك عن نفسها إذ كانت جارة لقتبان ، ولقتبان مصالح خطيرة في أرض (رعين)[٣] .

ويتبين من النص الموسوم بـ **Glaser 1693** — الذي يعود عهده الى أيام الملك (يدع أب يجل) ، والذي يرجع بعض علماء العربيات الجنوبية عهده الى حوالي السنة (٢٠٠) قبل الميلاد — أن (رعين) ، كانت مملكة إذ ذاك ، وفي أرض (رعين) أقام الحميريون دولتهم حيث اتخذوا (ظفار) عاصمة لهم[٤] . وكانوا قد زحفوا على هذه الأرض وعلى (دهس) (داهس) والمعافر واستقروا بها ، حيث تغلبوا على سكانها الأصليين ، وأقاموا حكومة حمير[٥] ، التي أخذت تنافس سبأ وتتوسع في أرض القتبانيين وغيرهم ، متوخية انتزاع السلطة من السبئيين[٦] .

وقد كان (شمر ذي ريدان) الذي تحدثت عنه في أثناء كلامي على (الشرح يحضب) من أقيال حمير ومن ساداتهم البارزين في ذلك الوقت . وقد رأينا انه كان نشطاً محارباً يتصل بالحبش وبملك (نجران) ، وبملك حضرموت ، وبكل من يجد فيه عداوة ونصباً لـ (الشرح يحضب) ليمكنوه من التغلب عليه، ومن انتزاع الحكم منه . ولكنه لم يتمكن مع كل ذلك من التغلب على (الشرح) ، بل

---

١ **Beiträge, S. 44.**
٢ **Beiträge, S. 39, 48.**
٣ **Beiträge, S. 143.**
٤ **Beiträge, S. 69.**
٥ **Beiträge, S. 73.**
٦ **Beiträge, S. 113.**

اضطر في الأخير الى التصالح معه ، والى الاعتراف بسيادته ، حتى أنه صار قائداً من قواد جيشه في حربه التي أثارها (الشرح) على حضرموت . كما عوقبت (نجران) عقاباً شديداً نتيجة لاندفاعها مع (شمر) وتأييدها له ، واعلانها الحرب على (ملك سبأ وذي ريدان)[١] .

ويظهر من وصف (بلينيوس) Pliny ، أن القسم الجنوبي من ساحل البحر الأحمر كان تابعاً للملك حمير،صاحب (ظفار) . ويظهر من الكتابة CIH 41 أن مملكة حمير كانت تضم رعين و (ذمار) (ذمر) والأرض التي تقع في الشمال المسماة بـ (قاع جهران) في الوقت الحاضر . فيظهر من ذلك أن الحميريين كانوا قد تمكنوا من الاستيلاء على الهضبة وعلى المناطق الجنوبية من اليمن الممتدة على البحر الأحمر . ونحن لا نملك في الوقت الحاضر أي نصوص تشير الى الوقت الذي استولت حمير فيه على هذه الأرضين . ويظن البعض أن ذلك قد كان في أيام حملة الرومان على اليمن ، فاستغل الحميريون هذه الفرصة ، فرصة ضعف حكومة السبئيين ، فاستولوا على تلك الأرضين[٢] .

وقد يرجع زمان استيلاء حمير على ميناء (قنا) الشهير ، وهو اهم ميناء في حضرموت الى هذا العهد ، او الى عهد يقع بعد ذلك بقليل[٣] .

ولم تكن علاقات حمير بسبأ علاقات طيبة في الغالب . بل يظهر انها كانت نزاع وخصومة في أكثر الأوقات . ونجد في كتابات السبئيين اشارات الى حمير والى نزاع سبأ معهم . وقد دعوهم بـ (حمير) (حمر) (حمرم) وبـ (ذي ريدان) (ذ ريدن) و (بني ذي ريدان) ، ودعوا ملوكهم : (ذمر على ذي ريدان) و (شمر ذي ريدان) وبـ (كرب ايل ذي ريدان)[٤] .

وقد استطاع الحميريون من الاستيلاء على (مأرب) . استولوا عليها جملة مرات . لقد تمكن أحد ملوكهم من احتلالها ودخولها ؛ ويظهر ان ذلك كان بعد حملة الرومان على اليمن ، فعدل في لقبه الملكي الرسمي وهو (ذو ريدان) ،

---

١ Beiträge, S. 38, Ryckmans 535, Jamme 577, CIH 360, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 477.
٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 449.
٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 449.
٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 451.

وجعله مثل لقب الملوك السبئيين الشرعيين . وهو (ملك سبأ وذي ريدان) ، الذي يشير الى استيلاء سبأ فيا مضى على حمير وضم ارضهم الى أرض سبأ . والظاهر ان (اقول) أقيال سبأ ثاروا على الحميريين فأخرجوهم من (مأرب) ، وأعادوا العرش الى العائلة السبئية المالكة،فحكموها بصفتهم ملوك سبأ وذو ريدان ، وان لم تكن لهم سيطرة فعلية على أرض حمير ، واحتفظ ملوك حمير باللقب الجديد الذي لقبوا أنفسهم به ، وهو (ملك سبأ وذو ريدان) ، مع انهم كانوا قد أخرجوا من أرض سبأ ، وان لم يكن قد بقي لهم أي نفوذ عليها . وهكذا صرنا نجد حاكمين : أحدهما سبئي وآخر حميري ، يلقب كل واحد منهما نفسه بلقب (ملك سبأ وذو ريدان)[1] .

وقد جعل (فون وزمن) استيلاء حمير على مأرب في حوالي السنة (١١٠) بعد الميلاد . وعاد فذكر ان الحميريين استولوا على (مأرب) مرة أخرى ، وذلك في حوالي السنة (٢٠٠) أو (٢١٠) للميلاد. واستند في حكمه هذا على الكتابة الموسومة بـ Jamme 653 [2] .

ومن ملوك حمير الملك (يسرم يهصدق) (ياسر يهصدق) ، الملقب بـ(ملك سبأ وذو ريدان) في الكتابة الموسومة بـ CIH 41 . ويرى (فون وزمن) انه حكم بعد الميلاد . حكم في النصف الثاني من القرن الأول بعد الميلاد ، فيما بين السنة (٧٠) و (٨٠) بعد الميلاد[3] .

وقد وضع (فون وزمن) اسم (الشرح) بعد اسم (ياسر يهصدق) ، وجعل ايامه في حوالي السنة (٩٠) بعد الميلاد . وقد ذكر انه من حمير والى ايامه تعود الكتابة المرقمة بـ CIH 140 [4] . ويرى ان هذه الكتابة هي أقدم كتابة ورد فيها خبر حرب وقعت بين حمير وسبأ[5] .

ثم ذكر (فون وزمن) اسم (ذمر على يهبأر) بعد اسم (الشرح) وقد جعل حكمه في حوالي السنة (١٠٠) بعد الميلاد . والى زمانه تعود الكتابة

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 451.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 450, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 85.

٤ Le Muséon, 1964, P. 498.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 459.

الموسومة بـ CIH 365 . وكان يعاصره الملك (شهر هلال يهقبض) ملك قتبان[١].

ويرى (فون وزمن) ان (ذمر على يهار) (ذمر علي يهبأر) حارب شخصاً من (بني حزفر) (بن حزفرم) . و (بنو حزفر) هم من عشيرة (ذ خلل) (ذو خليل) ، وهم عشيرة قديمة يرجع اليهـا نسب مكربو سبأ وأكثر ملوك السبئيين . ويرى احتمال كون هذه الحرب قد وقعت مع أحد أفراد العائلة السبئية المالكة . وقد تمكن (ذمر على) من الاستيلاء على حصن (ذت مخطرن) (ذات مخطران) ، ومن دخول (مـأرب) . وقد قام هو وابنـه (ثارن) (ثأران) بترميم سد مأرب وببناء المواضع التي تخربت منه . وذلك لأنه كان قد تخرب ، وذكر ان تخرب السد هذا ، هو تخرب لم يصل خـبره الينا[٢] . وقد قدم الملكان قرابين وهما بمأرب الى (عثتر) (عثتار) و (سحر) بمعبد (نفقان) (نفقن)[٣] .

وقد بلغ الحميريون على رأي (فون وزمن) أوج ايام عزهم في هذا العهد. فقد حكموا السبئيين ومعهم (ذ علبهن) (ذو علبهان) ، الذين نعتوا أنفسهم بـ (ادم) ، اي الأتباع[٤] .

ثم وضع (فون وزمن) اسم (ثارن يعب) (ثأران يعـب) ، بعد اسم (ذمر على) . والى زمانه تعود الكتابتين CIH 457 و CIH 569[٥] .

ثم وضع (فون وزمن) اسم (شمر يهرعش الأول) من بعده ، وقد كان معاصراً لـ (أنمار يهأمن) ولـ (كرب ايل وتر يهنعم) من (بني بتع) من قبيلة (سمعى) . وقد كان حكمه في حوالي السنة (١٤٠) بعد الميلاد[٦] .

وذكر (فون وزمن) أن السبئيين تمكنوا من الاستيلاء على حمير ، فصارت تابعة لهم ، وكـان ذلك في أيام (ملك سبأ وذي ريـدان) (شعرم أوتر) (شعر أوتر) ، وبقيت حمير خاضعة لهم الى أن ثارت عليهم بزعامة (لعزز يهنف يهصدق) (العز يهنف يهصدق) (لعز يهنف يهصدق) (لعز نوفن يهصدق)

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.
٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 459.
٣ CIH 365, 457, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 459.
٤ Glaser 551, REP. EPIG. 4775, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 459.
٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 81.
٦ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

حيث ولي عليهم وحكم بلقب (ملك سبأ وذي ريدان)[١] .

وقد جعل (فون وزمن) زمان حكم (لعزز يهنف يهصدق) ، فيما بين السنة (١٩٠) و (٢٠٠) بعد الميلاد . وجعل أيام حكمه في أيام استيلاء (جدرت) (جدرة) الحبشي على (ظفار)[٢] .

وقد جاء اسم الملك (لعزز يهنف يهصدق) في الكتابة الموسومة بـ **Jamme 631** وقد لُقّب فيها بلقب (ملك سبأ وذو ريدان) . ذكر بعد أسطر من ورود اسم الملك السبئي (شعر أوتر) (ملك سبأ وذو ريدان) . كما جاء اسم الملك (لحيعثت يرخم) الذي لقب أيضاً بلقب (ملك سبأ وذو ريدان) . وقد سجل هذه الكتابة أحد القادة السبئيين . ويظهر ان السبئيين والحميريين كانوا قد كونوا جبهة واحدة لمحاربة الحبش الذين هاجموا اليمن في عهد (جدرت) (جدرة)[٣].

وقد وقعت اضطرابات في هذا العهد ، دامت حوالي قرن ونصف قرن . لم تنعم اليمن في خلال هذه المدة بالراحة والاستقرار . فنجد في الكتابات التي وصلت الينا عن هذا العهد ذكر فتن وحروب وأوبئة وغزوات وغارات . ونجد ملوكاً واقطاعيين يحاربون بعضهم بعضاً . ويعزو (ريكمنس) سبب ذلك الى ادخال الخيل في الحروب وحلولها محل الجمل . مما ساعد على حركة القتال ، وفي نقل الحروب بصورة أسرع الى جبهات كان الجمل يقطنها ببطء . كما يرى (دوستل) W. Dostal أن لتحسين السروج التي كان يستعملها المحاربون الفرسان دخل في هذه الحروب والاضطرابات[٤] .

لقد أدى استعمال الخيل في الحروب وتحسين سروجها على رأي الباحثين المذكورين الى احداث تطور خطير في اسلوب القتال . كما أدى الى ظهور قوة محاربة صار لها نفوذ في الأحداث وفي سياسة جزيرة العرب ، هي قوة الأعراب . فقد أدى استخدام البدو للخيل الى امعانهم في الغزو والى اغارتهم على الحضر طمعاً في أموالهم وفي ما عندهم من أمتعة ومال . كما أدى الى الاكثار من غزوهم بعضهم

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 85, Jamme, Sabaean Inscriptions, P. 381.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 451.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 452, W. Dostal, The Evolution of Bedouin Life, L'Antica Beduina, Universita di Roma, Studi Semitici, 2, 1959, PP. 11-34.

بعضاً ، والى التدخل في شؤون الحكومات . وصار لهم نفوذهم في الأمور السياسية والعسكرية في العربية الجنوبية ، واضطرت حكومات هذه الأرضين على أن تحسب لهم حساباً ، كما استخدموا الأعراب في قتالهم مع الحكومات الأخرى المنافسة لها، وفي محاربة الأقيال والأذواء[1] .

ثم جعل (فون وزمن) اسم (ياسر يهنعم الأول) من بعده ، وقد حكم معه ابنه (شمر يهرعش) ، الذي اقبه بالثاني ، تمييزاً له عن (شمر) المتقدم . وفي عهدهما احتل الحميريون (مأرب) ، وصارت (سبأ) تابعة لهم . وكان ذلك في حوالي السنة (٢٠٠) للميلاد[2] . وكان يعاصرهما (عذبة) نجاشي الحبشة في هذا الوقت[3] .

ويرى (فون وزمن) أن الكتابات العربية الجنوبية انقطعت فجأة بعد هذه الكتابة المتقدمة عن ذكر ملوك (همدان) ، فلم تعد تذكر شيئاً عنهم ، ويعزو سبب ذلك الى الأوبئة التي اجتاحت البلاد والى تألق نجم الأسرة الحميرية الحاكمة التي تمكنت على ما يظهر من الإستيلاء على عاصمة سبأ (مأرب) وعلى نجاد سبأ والى انفراد سادة (مضحى) (مضحيم) (مضحم) ،وقد تكون استولت على ردمان كذلك.

وفي هذه الظروف حكم (ياسر يهنعم) الذي لقبه (فون وزمن) بالأول مع ابنه (شمر يهرعش) الذي لقبه بـ (الثاني) الذي اشترك معه بالحكم ثم انفرد به وحده فحكم في (ظفار) وفي (مأرب)[4] .

ثم نصب (فون وزمن) شخصاً دعاه (كرب ابل ذو ريدان) بعد (شمر يهرعش الثاني) وجعله معاصراً للنجاشي (زوسكالس) **Zoskales** ، وجعل حكمه في حوالي السنة (٢١٠) بعد الميلاد[5] . وهو شخص لا نعرف اسمه الملكي الكامل. ويرى (فون وزمن) ،انه هو المقصود في الكتابات **Jamme 578, 586, 589** ، وهي كتابات دوّنها خصومه . ويظهر من احدى الكتابات ان جيوش خصميه (الشرح) و (يأزل) بلغت (سرعن) في (ردمان) و (قرننهن) (القرنين)

---

١ **Le Musèon, 1964, 3-4, P. 452.**

٢ **Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.**

٣ **Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 457, 498.**

٤ **REP. EPIG. 4196, 4938, Jamme 647, 653, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 475.**

٥ **Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.**

و (عروشن) (العرائش) في نجاد قبيلة (حرمم) (حرمت) (حرمة)، في أرض (مراد) بين (مأرب) و (قتبان) ، وانها استولت على الحصن الجبلي المنيع (عر اساى) (عر الآسى) (عر أسأي) شرق (ذمار)[١] .

وقد نشبت حرب أخرى بينه وبين خصميه ، اضطرته الى الاعتراف بسيادة (الشرح) و (أخيه) عليه ، غير انه عاد فثار على خصميه ، فخسر في هذه المرة أيضاً . خسر مدينة (هكر) التي اشتهرت بقصرها الملكي على قمة التل ، وخسر (رداع) و (ظفار) ، فاضطر الى الفرار[٢] .

ثم جعل (فون وزمن) (ثارن يعب يهنعم) من بعده ، وقد كان حكمه في حوالي السنة (٢٣٠) حتى السنة (٢٤٠) للميلاد[٣] .

ثم ذكر (فون وزمن) اسم (ذمر على وتر يهأر) من بعده ، وقد كان حكمه في حوالي السنة (٢٥٠) للميلاد . ثم انتقل منه الى (عمدان بين يهقبض) الذي جعل حكمه في حوالي السنة (٢٦٠) حتى السنة (٢٧٠) للميلاد[٤] .

وجعل (فون وزمن) الملك (ياسر يهنعم) من بعد (عمدان بين يهقبض) وقد نعته بالثاني ، وجعل حكمه مع ابنه (شمر يهرعش) الذي لقبه بالثالث ، والذي انفرد وحده بالحكم بعد وفاة والده فحكم حتى السنة (٣٠٠) للميلاد . وقد كان يعاصره الملك (شرح ال) و (رب شمس)[٥] .

وجعل (فون وزمن) حكم الملك (ياسر يهنعم الثالث) و (ثارن ايفع) (ثأرن أيفع) بعد حكم (شمر يهرعش الثالث) . وقد كان حكم (ياسر يهنعم) الثالث منفرداً في بادىء الأمر ثم أشرك ابنه (ذرأ أمر أيمن) معه في الحكم ، وذلك في الشطر الثاني من ايام حكمه . وقد عاصرا (عزانا) ملك الحبش الذي غزا اليمن . ثم جعل (ذمر على يهبر) ، من بعد الاثنين المذكورين ، وهو ابن (ثارن يكرب) (ثأرن يكرب)[٦] .

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 478.
٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 478.
٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.
٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.
٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.
٦ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 80.

وذكر (فون-وزمن) ان (ذمر على يهبر) حكم مع ابنه (ثارن يهنعم) (ثأران يهنعم) في الشطر الثاني من ايام حكمه ، وذلك فيما بين السنة (٣٤٠) والسنة (٣٦٠) للميلاد. وجعل في حوالي هذا العهد خراب سد مأرب للمرة الثانية[١].

وفي هذا العهد دخل ملك حمير في النصرانية بتأثير (ثيوفيلوس) عليه . وبنيت كنائس في (ظفار) وفي (عدن) . كما أشرك الملك (ثأران يهنعم) (ثارن يهنعم) ابنه (ملك كرب يهامن) (ملكيكرب يهأمن) معه في الحكم .

وذكر أنه في حوالي السنة (٣٧٨) للميلاد ترك معبد (اوم) (أوام) ، وأهمل، بسبب انصراف أكثر الناس عن التعبد فيه وتركهم عبادة آلهة سبأ القديمة[٢] .

وذكر (فون وزمن) أن الملك (ملكيكرب يهنعم) (ملكيكرب يهأمن) حكم منذ السنة (٣٨٠) للميلاد مع ولديه : (اب كرب اسعد) (أبو كرب أسعد) و (ذرأ أمر أيمن) . ثم ذكر بعدهم اسم (أبو كرب أسعد) مع ابنه (حسن يهأمن) (حسّان يهأمن) . وقد ذكر أن (أبا كرب أسعد) هو الذي حكم بعد والده (ملكيكرب يهنعم) (ملكيكرب يهأمن) ، ثم حكم مع ابنه (حسان يهأمن) حكماً مشتركاً ، مستعملين لقباً جديداً هو : (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعربهمو طودم وتهمتم) . وذلك في حوالي السنة (٤٠٠) للميلاد[٣] .

ويعرف (أبو كرب أسعد) (ابكرب اسعد) بـ (أسعد تبع) عند أهل الأخبار . ويذكرون أنه اعتنق اليهودية أثناء نزوله بيثرب في طريقه الى اليمن .

وقد ذهب (فون وزمن) الى أن الذين حكموا حمير كانوا من أسرة ملكية واحدة . ولكنهم يرجعون الى فرعين . وذهب (ريكمنس) الى أن ملوك حمير كانوا أسرتين : أسرة (ياسر يهنعم) وأسرة (ياسر يهصدق) ، وقد حكم أعضاء الأسرتين متفرقين ولكن في وقت واحد[٤] .

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 80.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 480, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 80.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 493.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 494, J. Ryckmans, Chronologie, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 19-22.

وظفار ، هي عاصمة حمير . وقد اشتهرت بجزعهـا ، ولا تزال تشتهر به . وقد تفنن الحميريون في تجميله بحفر صور ونقوش لحيوانات ونباتات وأزهار عليه، وفي صقله ، ويستعمل عقداً يوضع حول العنق وخاتماً لتزيين الأصابع . واشتهرت بأنها موطن لغة حمير فقيل : من دخل ظفار حمر ، لأن لغة أهلها الحميرية[1] .

وقد زالت معالم قصر ريدان بظفار ، وموضعه اليوم ربوة مربعة الشكل تعرف بـ (ريدان) ، بقي منه (سرعبان) ، أي طوفين بشكل هندسي ،من الحجر المنحوت[2] . وقد زار (كلاسر) مدينة ظفار والخرائب الواقعة على الربوة المتاخمة لآثار ظفار من الجنوب . وقد سمى تلك الخرائب القائمة على الربوة بـ (حصن زيدان) . وقد شكّ في كونه (حصن ريدان) القديم . ولكن بعض الباحثين لا يؤيدون رأيه هـذا[3] . وأظن ان كلمـة (زيدان) هي تحريف للاسم القديم (ريدان) .

وقد اشتهرت حمير عند أهل الحجاز بمصانعها ، فقيل : مصانع حمير . وفي كلام النبي لوفد كندة : « ان الله أعطاني ملك كندة ومصانع حمير ، وخزائن كسرى وبني الأصفر ، وحبس عنّي شر بني قحطان ، وأذل الجبابرة من بني ساسان ، وأهلك بني قنطور بن كنعان »[4] .

ترتيب ملوك حمير :

هذا وقد رتب (فون وزمن) بعض ملوك حمير ترتيباً زمنياً على هذا النحو :

١ ــ ياسر يهصدق . وقد حكم بحسب رأيه في حوالي سنة (٧٥) ب. م.

٢ ــ ذمر على يهبر . وقد كان حكمه في حوالي سنة (١٠٠ ب. م.) .

٣ ــ ثأران يعب . وقد كان حكمه في حوالي سنة (١٢٥ ب. م.) . ثم وضع فراغاً بعده يدل على حكم ملك من بعده لا يعرف زمانه ، ووضع

---

١ الاكليل (١/٨٨) .

٢ الاكليل (١/٨٧) .

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 448.

٤ الاكليل (١/٦٦) .

بعده حكم الملك (شمر يهرعش) الأول ، وقد كان حكم ذلك الملك الذي لم يعرف اسمه ولا خبره ولا أسرته في حوالي سنة (١٥٠ ب. م.).

٤ - ثم وضع بعد اسم (شمر يهرعش الأول) فراغاً ذكر ان حمير صارت فيه تابعة للسبئيين ، وذلك في عهد (ملك سبأ وذو ريدان شعرم اوتر) (شعر أوتر) . ثم وضع بعده اسم الملك (لعـزز يهنف يهصدق) (لعزز يهأنف يهصدق) .

٥ - ثم ذكر بعد (لعزز يهنف يهصدق) اسم الملك (ياسر يهنعم) ، وقد نعته بـ (الأول) ، ليميزه عن ملكين آخرين عرفا بهذا الاسم .

٦ - ثم وضع بعده اسم ابن له دعاه بـ (شمر يهرعش الثاني) .

٧ - ثم وضع بعده اسم ملك بقي من اسمه اسمه الأول فقط، وهو (كرب ال) (كرب ايل) ، وقد نعته بـ (كرب ايل ذو ريدان)[1] .

٨ - ثم وضع اسم الملك (ذمر عـلى وتر يهبر) (ذمر على وتر يهبأر) من بعده .

٩ - ثم اسم (ثارن يعب يهنعم) ثم ترك فراغاً ، ذكر بعده اسم .

١٠- الملك (عمدان بين يهقبض) .

١١- ثم الملك (ياسر يهنعم الثاني) .

١٢- ثم (شمر يهرعش الثالث) .

١٣- ثم اسم الملك (ياسر يهنعم الثالث) .

١٤- ثم (ثارن ايفع) (ثأران أيفع) .

١٥- ثم (ذرارمر ايمن) (ذرأ أمر أيمن). وهو ابن (ياسر يهنعم الثالث).

١٦- ثم ذكر اسم ملك لم يتأكد من لقبه هو (ثأران ى ...) (ثأران ي ...).

١٧- وذكر بعده اسم (ذمر على يهبر) (ذمر على يهبأر).

١٨- ثم ابنه (ثارن يهنعم) (ثأران يهنعم).

١٩- ثم ذكر اسم ابنه الملك (ملكيكرب يهأمن) (ملك كرب يهأمن) .

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 495, 498.

٢٠ــ ثم ذكر اسم ابنه (ابكرب اسعد) (أبو كرب أسعد) و(ذرا امر ايمن) (ذرأ أمر أيمن) .
٢١ــ ثم (أبو كرب أسعد) ومعه ابنه (حسن يهأمن) (حسان يهأمن).
٢٢ــ ثم اسم (شرحب ال يعفر) (شرحبيل يعفر) ، (شرحب ايل يعفر)[١].

١ اخذت هذه القائمة من الصفحتين (٤٩٥) و (٤٩٨) من مجلة :
Le Muséon, 1964, 3-4.

الفصل الحادي والثلاثون

سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت

وفي حوالي السنة (٣٠٠ ب. م.) ، أو بعد ذلك بقليل ، لحقت اللقب الرسمي للملوك (سبأ وذي ريدان) إضافة جديدة ، هي (حضرموت ويمنت) ، فصار (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) ، وصرنا نقرأ أسماء الملوك، ونقرأ بعدها هذا اللقب الجديد .

وفي الاضافة الجديدة دلالة على ان مملكة (سبأ وذي ريدان) عدّت حضرموت منذ هذا العهد أرضاً تابعة لها وخاضعة لحكمها ، ليس لها منذ هذا الضم استقلال ولا ملوك ، وانها عدّت أرض (يمنت) خاضعة لها وجزءاً من ممتلكاتها كذلك. ومعنى هذا ان رقعة أرض (سبأ وذي ريدان) قد توسعت كثيراً بهذا الضم .

وكلمة (يمنت)،لم ترد قبل هذا العهد لا في المسند ولا في كتب (الكلاسيكين) ولهذا فهي بالنسبة الينا لفظة جديدة ، وقفنا عليها في الكتابات التي دوّنت بعد الميلاد . وقد يأتي زمان يعثر فيه العلماء على كتابات تحمل هذه الكلمة ، وترجع بها الى ما قبل الميلاد .

ويمنت — في رأي (كلاسر) — كلمة عامة تشمل الأرضين في القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب ، من باب المندب حتى حضرموت . وكانت تتألف من مخاليف عديدة ، يحكمها أقيال وأذواء مستقلون بشؤونهم ، ولكنهم يعترفون بسيادة (ظفار) أو (ميفعة) عليهم . ومن أشهر مدن (يمنت) الساحلية في رأي

(كلاسر) — Ocelis عند باب المندب ، و (عدن) Arabia Emporium و (قانه) (قنا) Cane في حضرموت[١] .

وتعني (يمنت) في العربيات الجنوبية الجنوب ، وقد رأى (فون وزمن) أنها تعني القسم الجنوبي من أرض حضرموت ، وهي الأرض التي كانت عاصمتها (ميفعت) (ميفعة) في ذلك الزمان[٢] .

ومن (يمنت) ولدت كلمة اليمن التي توسع مدلولها في العصور الإسلامية حتى شملت أرضين واسعة ، لم تكن تعدّ من اليمن قبل الإسلام ، تجدها مذكورة في مؤلفات علماء الجغرافيا والبلدان والموارد الأخرى[٣] .

واليمن عند أهل الأخبار أرض واسعة يحدّها من الغرب بحر القلزم ، أي البحر الأحمر ، ومن الجنوب بحر الهند ، أي البحر العربي في اصطلاحنا ومن الشرق البحر العربي ، وتتصل حدود اليمن الشمالية الى حدود مكة حيث الموضع المعروف بـ (طلحة الملك)[٤] .

وقد أورد أهل الأخبار على مألوف عادتهم تفاسير لسبب تسمية اليمن يمناً ، فذكروا ان اليمن إنما سميت يمنـاً نسبة الى يمن بن قحطان ، وقيل إن قحطان نفسه كان يسمى بيمن . وقيل انما سميت بيمن بن قيدار ، وقيل سميت لأنها يمين الكعبة ، وقيل سميت بذلك لتيامنهم اليها ، وقيل : لما تكاثر الناس بمكة وتفرقوا عنها ، التأمت بنو يمن الى اليمن ، وهو أيمن الأرض[٥] .

وأول ملك نعرفه حمل اللقب الجديد ، لقب (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) ، هو الملك (شمر يهرعش) المعروف بـ (شمر يرعش) عند الإسلاميين. أما أبوه ، فهو (يسر يهنعم) (ياسر يهنعم) ، المعروف والمشهور أيضاً مثل ابنه بين أهل الأخبار .

وقبل أن أدخل في موضوع (شمر يهرعش) وفي أبيـه ، أودّ ان أبين أن

---

١ Glaser, Punt und die Südarabischen Reiche, In Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, 1899, S. 99.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 456.

٣ الصفة (ص ٤٨) ، البلدان (٥٢٢/٨) .

٤ صبح الأعشى (٦/٥) .

٥ صبح الأعشى (٦/٥) ، اللسان (٤٦٢/١٣ ، ٤٦٤) .

الباحثين في هذا اليوم ليسوا على اتفاق في عدد من تسمى بـ (ياسر يهنعم) وفي أيام حكمهم ، وكذلك في عدد من تسمى بـ (شمر يهرعش) وفي أيام حكمهم فبينما كان قدماؤهم يذهبون الى وجود (ياسر يهنعم) واحد ووجود (شمر يهرعش) واحد ، ذهب بعض المحدثين الى وجــود شخصين اسم كل واحد منهما (ياسر يهنعم) ، وشخصين اسم كل واحد منهما (شمر يهرعش) واسم والد كل واحد منهما (ياسر يهنعم)[١] .

وقد ذهب (فون وزمن) الى وجود ثلاثة ملوك كان اسم كل واحد منهم (ياسر يهنعم) ، وثلاثة ملوك كان اسم كل واحد منهم (شمر يهرعش) . واسم والد كل واحد منهم (ياسر يهنعم) . أما (ياسر يهنعم الأول)، فجعل زمان حكمه في حوالي السنة (٢٠٠) للميلاد . وقد حكم معه ابنه المسمى بـ (شمر يهرعش) ، وقد لقبه بالثاني ليميزه عن ملك آخر حكم قبله وتسمى بهذا الاسم أيضاً ، وهو (شمر يهرعش) ، الذي دعاه بالأول ، وقد حكم في حوالي السنة (١٤٠) للميلاد . ولم يعرف اسم والده[٢] .

وجعل (فون وزمن) حكم (ياسر يهنعم الثاني) في حوالي السنة (٢٧٠) للميلاد ، وقد حكم ابنه (شمر يهرعش الثالث) معه ، ثم حكم (شمــر يهرعش الثالث) وحده . ثم نصب ملكاً آخر من بعده،جعل حكمه في حوالي السنة (٣٣٠) للميلاد سماه (ياسر يهنعم الثالث) حكم مع ابنه (ثارن يهنعم) (ثأران يهنعم)[٣].

ويعرف (ياسر يهنعم) عند أهل الأخبــار بـ (ياسر أنعم) وبـ (ناشر النعم) وبـ (ياسر ينعم) وبـ (ناشر ينعم) وبـ (ناشر أنعـم) ، وزعموا انه انما عرف بذلك لانعامه عليهم ، ووالده في نظرهم (عمرو بن يعفر بن حمير بن المنتاب بن عمــرو بن زيد بن يعفــر بن سكسك بن وائــل بن حمير بن سبأ)[٤] ، أو (يعفر بن عمرو بن حمير بن السياب بن عمــرو بن زيد بن يعفر بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ)[٥] ، أو (عمرو ذي الأذعــار) ، أو

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 422, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 80.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٤ الاكليل (ص ٢٠٧) ، الطبري (١/٥٦٦) (دار المعارف) (٢/١١) (دار المعارف) مروج الذهب (٢/٥) ، ابن خلدون (٢/٥٢) .

٥ التيجان (ص ٢١٩) .

(عمرو بن يعفر بن شرحبيل بن عمـرو ذي الأذعار) . وزعموا انه سار الى وادي الرمل بأقصى الغرب ، فلم يجد وراءه مذهباً ، فنصب صنماً من نحاس ، وزبر عليه بالمسند : « هذا الصنم لناشر أنعم ، ليس وراءه مذهب ، فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب »[1] .

وقد حكم (ياسر أنعم) أو (ناشر النعم) أو (ناشر ينعم) بعد (بلقيس بنت ايليشرح) معاصرة (سليمان) (١٠٢١ – ٩٨١ ق. م.) ، على رواية من روايات أهل الأخبار[2] ، أو بعد ثلاثين سنة أو أربعين من حكم (سليمان) لحمير ، حيث أخذه منه وأعاده الى حمير . فلكهم هو،وكان ملكه خمساً وثلاثين سنة[3] . وهكذا رجع اهل الأخبار زمان (ياسر أنعم) الى ما قبل الميـلاد ، وصيّروه معاصراً لسليمان ، وهو من رجال أواخر القرن الثالث للميلاد .

أما سبب اشتهاره بين أهل الأخبار بـ (ناشر النعم) ، أي (محيي النعم)[4] فلأنه كما يقولون (أحيا ملك حمير) ، أو (لإنعامه عليهم بما قوى من ملكهم وجمع من أمرهم)[5] ، أو (لإنعامه على الناس بالقيام بأمر الملك ورده ذلك بعد زواله)[6] . ولفضله العميم هذا على حمير ، نعتوه بالنعت المذكور .

ونسب الأخباريون الى (ناشر النعم) الغزوات والفتوح . زعموا انه جمع حميرَ وقبائل قحطان ، وخرج بالجيوش الى المغرب حتّى بلغ البحر المحيط ، فأمر ابنه (شمر يرعش) ان يركب البحر ، فركب في عشرة آلاف مركب ، وسار يريد وادي الرمل ، ونزل (ناشر النعم) على صنم (ذي القرنين) فأخـرج عساكره الى الإفرنج و (السكس) وأرض (الصقالبة) ، فغنموا ، وسبوا ، ورجعوا اليه بسبي عظيم . ولما رجع (شمر) من المحيط الى أبيـه ، أمر بمنارة فبنيت الى جانب منارة ذي القرنين ، ثم أمر فكتب في صدر التمثال الذي عليها من النحاس بالمسند : هذا الصنم لياسر أنعم الحميري ، وليس وراءه مذهب ،

---

١ صبح الأعشى (٢٢/٥) .
٢ التيجان (ص ٢١٩) ، الطبري (٥٦٦/١) (طبعة دار المعارف بمصر) مروج الذهب (٤/٢ وما بعدها) (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٣ التيجان (ص ٢١٩) ، مروج الذهب (٤/٢) .
٤ التيجان (ص ٢١٩) .
٥ الطبري (٥٦٦/١) (دار المعارف) .
٦ حمزة (ص ٨٣) .

فلا يتكلفن ذلك فيعطب[1] . ونسبوا اليه فتح الحبشة ، وارسال العساكر الى أرض (الروم بني الأصفر) ، وملكهم يومئذ (باهان بن سحور بن مدين بن روم بن أسطوم بن روم بن ناطس بن سامك بن رومي بن عيص ، وهو الأصفر بن يعقوب) ، وذكروا انه غلب على أرض الترك، وسار الى التبت والصين وأرض الهند . فلما بلغ (نهاوند) و (دينور) ، مات بها فدفنه ابنه (شمر) في ديار الغربة ، وولي الملك بعده[2] .

وأبت قرائح أهل الأخبار إلا أن تضيف الى (ناشر النعم) شعراً ، فيه فخر وفيه حماسة ، زعمت أنه قاله[3] . وأضافت الى ابنه شعراً ، زعمت أنه قاله في رثاء أبيه . ولم تنس هذه القرائح أن تأتي بنماذج من كلامه العربي العذب ، لترينا أنه كسائر ملوك اليمن يتكلم بلسان عربي مبين[4] .

أما نحن ، فلا نعلم شيئاً من أمر هذه الفتوح والغزوات ، ولا من أمر هذا المنظوم أو المنثور . وانما الذي نعرفه أنه كان يسمى (ياسر يهنعم) ، لا (ناشر النعم) كما جعله الأخباريون ، وأنه عاش في القرن الثالث للميلاد ، وبينه وبين سليمان مئات من السنين ، وأنه لا يمكن أن يكون قد خلف (بلقيس) معاصرة (سليمان) على حد زعم أهل الأخبار ، ولا أن يكون قد انتزع الملك من (سليمان) . ولا أن يكون صاحب فضل ونعمة على حمير ، لأنه أنقذهم من حكم (سليمان) . وكل ما في الأمر أن الاسم كان بالنسبة الى أهل الأخبار غريباً، فصيّروه (ناشر النعم) ، وابتكروا له قصصاً في تفسير معنى ذلك الاسم .

واذا كان حكم (ياسر يهنعم) في النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد ، فإنه يكون من المعاصرين لمملكة (تدمر) ، وربما كان قد عاصر المملكة الشهيرة (الزباء)[5] ، وأدرك أيام سادات الحيرة اول مؤسسي أسرة لخم . وقد قدّر بعض الباحثين في العربيات الجنوبية زمان حكم (ياسر يهنعم) بأوائل النصف الأول من

---

١ التيجان (ص ٢٢١) ، الطبري (٢/ ٣) (المطبعة الحسينية) .

٢ التيجان (ص ٢٢١ وما بعدها) (قبر الملك مالك ناشر النعم بأرض نهاوند ودينور بأرض العجم ....) ، الاكليل (ص ٢٠٧) .

٣ التيجان (ص ٢٢١) .

٤ التيجان (ص ٢٢٠) ، الأصمعي ، تاريخ ملوك العرب الأولية (ص ٨٠ ، ١٠٣) . حمزة (ص ٨٣) .

٥ Carl Rathjens, Sabaeica, I. S. 89., Le Muséon, 1961, 1-2, P. 172.

القرن الثالث للميلاد ، أي في حوالي سنة (٢٠١) أو (٢٠٧) للميلاد فما بعدها[١].

ولا نعرف اسم والد (ياسر يهنعم) إذ لم يرد ذكره في النصوص . أما أهل الأخبار فقد عينوه وثبتوه على نحو ما ذكرت ، وصيره (حمزة) (شراحيل) ، — وهو على زعمه — عم (بلقيس) التي حكمت اليمن قبل عمها (ناشر النعم)[٢]. وقد ذهب (فلبي) مستنداً الى دراسة بعض النصوص الى احتمال كون (العذ نوفان يهصدق) الذي وضع اسمه قبل اسم (ياسر يهنعم) والداً له[٣] .

وقد ورد اسم (ياسر يهنعم) في جملة نصوص ، منها نص رقمه العلماء بـ CIH 46 ، عثر عليه في موضع (يكرن) (يكاران)[٤] ، (يكر) (يكار) أرخ بشهر (ذو المحجة) (ذو محجه) (بورخن ذ محجتن) (ذو الحجة) من سنة (٣٨٥) من التأريخ الحميري[٥] الموافقة لسنة (٢٧٠م) من سني (مبحض بن ابحض) (مبحض بن أبحض)[٦] . وقد جاء فيه اسم الإلـه (عثتر ذو جوفت) بعل (علم) و (بشر) ، أي إلـه وسيد موضعي (علم) و (بشر) ، واسم قبيلتي (مهأنف) و (شهر)[٧] .

وقد تبين من الكتابات ان (ياسر يهنعم) كان قد حكم وحده في بادىء الأمر ، لم يشاركه أحد في اللقب ولا في الحكم ، ثم بدا له ما حمله على اشراك ابنه (شمر يهرعش) معه ، بدليل ذكر اسمه من بعده ، وبعده : (ملك سبأ وذي ريدان) ، فصرنا نقرأ الكتابات المتأخرة المدونة في هذا العهد وبها اسم الملكين .

وورد اسم (ياسر يهنعم) وابنه (شمر يهرعش) في نص آخر مؤرخ كذلك، أرخ في شهر (مذران) (مذرن) سنة (٣١٦) من سني تقويم (نبط ال) (نبط ايل) دونه (فرعن يزل بن ذرنح) (فرعان يأزل بن ذرنح) ، و (يعجف) رئيس قبيلتي (قشم) (قشمم) و (مضحيم) (مضحى) ، وذلك عند

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 456.

٢ حمزة (ص ٨٣) .

٣ Background, P. 109.

٤ (يكاران) الصفة (ص ١١١ س ١٤) ، (يكر) . Background, P. 109.

٥ (ذو الحجة) ، (ذبخرفن خمست وثمني وثلث ماتم) .

٦ CIH 46, IV, I, P. 76, CIH 26, Langer 7, D.H. Müller, In ZDMG., XXXVII, (1883), S. 365-370, Background, P. 109.

٧ راجع نهاية النص .

بنائها (ماجلهمو) (مأجل) صهريجين يخزنان فيها المياه لإسقاء أرضين لهما مغروسة بالكروم،وكان ذلك في ايام سيديهما (ياسر يهنعم) وابنه (شمر يهرعش) ملكي (سبأ وذي ريدان)[1] . ولهذه المناسبة تيمناً بذكر اسمي الملكين .

وقد قدّر (فلبي) مبدأ تقويم (نبط ايل) بسنة (٥٤٠ق. م.) ، فاذا أخذنا بهذا التقدير ، يكون هذا النص قد دوّن حوالي سنة (٢٧٦ ب.م.)[2] .

وأودّ ان ألفت نظر القارىء الى ان أحد النصين قد أرخ بـ (سني نبط) (نبط ال) (نبط ايـــل) ، وأن النص الآخر قد أرخ بسني (مبحض بن أبحض) ، كما عثر على نصين آخرين أرخا بسني (مبحض بن أبحض) .

وقد ذهب العلماء الى ان الناس كانوا يؤرخون في ذلك الزمان وفق تقويمين ، أي تأريخين مبدأ أحدهمـــا تقويم (نبط) (نبط ايل) ، ومبدأ ثـــانيهما تقويم (مبحض بن أبحض) . والفرق بين التقويمين خمسون سنـة ، أو خمس وسبعون سنة . وقد بقي الناس يؤرخون بهذين التقويمين أمداً ، ثم مالوا الى التوريخ بتقويم واحد ، الى أن أهمل أحدهما اهمالاّ تاماً . ويرى (بيستن) أن التقويم الذي أهمل وترك ، هو تقويم (نبط) (نبط ايل) ، وأن الذي بقي مستعملاّ هو تقويم (مبحض بن ابحض)[3] .

ويرى (بيستن) أن الكتابات السبئية المتأخرة ، قد أرخت وفق تقويم (مبحض بن أبحض) ، وإن لم تشر الى الاسم ، إذ أسقطته من الكتابات .

أما مبدأ هذا التقويم ، فيقع فيما بين سنة (١١٨) و (١١٠ ق. م.) . غير أن الناس لم يؤرخوا به عملياً وفي الكتابات إلاّ في القرن الثالث بعد الميلاد . أما فيما قبل القرن الثالث للميلاد ، فقد كانوا يؤرخون على عادتهم بتقاويم محلية مختلفة[4].

ويرى (ريكمنس) أن التواريخ التي أرخت بها النصوص المؤرخة في عهـد (ياسر يهنعم) وفي عهد ابنه (شمر يهرعش) تختلف عن التقويم السبئي المألوف الذي يبدأ ــ عـــلى رأيه ــ بسنة (١٠٩ ق. م.) وهي لذلك لا يمكن أن تثبت

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 475, REP. EPIG., VII, P. 138, REP. EPIG. 4196.

٢ Background, P. 110.

٣ A.F.L. Beeston, Epigraphic South Arabian Calendars and Dating, London, 1956. P. 36.

٤ Beeston, Epigraphic, P. 37.

وفق هذا التقويم[1] .

وقد حارب (ياسر يهنعم) الهمدانيين الذين تعاونوا مع قبائل (ذي ريدان) لمهاجمة (مأرب) ، غير أنه باغت الهمدانيين في غرب (صنعاء) وتغلب عليهم[2].

وفي النص الموسوم بـ CIH 353 خبر ثورة للحميريين على (ياسر يهنعم) وابنه (شمر يهرعش) في (ضهر) . وقد حاصر (ياسر) الحميريين . ويرى (فون وزمن) ان هذه الثورة حدثت في حوالي سنة (٣٠٠ ب. م.) . وقد عثر على كتابات في منطقة (ضهر) ، وهي لا تبعد كثيراً عن (صنعاء) . وفي هذه المنطقة خرائب (دورم) ، كما عثر على كتابات في (ثقبان) بين (ضهر) و (صنعاء)[3] .

أما الذي حارب (شمر يهرعش بن ياسر يهنعم) ، من الحميريين ، وذلك كما جاء في النص المتقدم ، اي النص الموسوم بـ CIH 353 فـ (يرم ايمن) وأخيه (برج) (بارج) . فيكون حكمها اذن في ايام (شمر يهرعش) ، اي في القرن الثالث للميلاد[4] . وهذا مما يشير الى ان العلاقات بين الطرفين اي بين (سبأ) و (حمير) ، كانت قد تعرضت لهزة عنيفة خطيرة حتى تحولت الى حرب ، أشير اليها في هذا النص[5] .

ومن النصوص التي تعود الى الدور الثاني من أدوار حكم (ياسر يهنعم) النص : Jamme 646 ، وصاحبه شخص اسمه (شرح سمد بن يثار) (شرح سمد بن يثأر) وآخر اسمه (الفنم) (الفن) (الفان) . وكانا من كبار الضباط في حكومة (ياسر يهنعم) وابنه (شمر يهرعش) ، ومن درجة (مقتوى). وقد دوّنا نصها حمداً وشكراً للإلـه (المقه) (بعل أوام) ، لأنه مكنهما من الشخص الذي أراد احراج (ذ حرجهو) مكانتها وزعزعتها عند سيدهما (شمر يهرعش) ، ولكن (المقه) منّ عليهما وشملها بفضله ولطفه ، فنصرهما عليه وأبطل خطته في احراج مكانتها (بحر جنهو) ، عند سيدهما . وتعبيراً عن حمدهما وشكرهما له ، تقدما الى الإلـه (المقه) بصنم (صلمن) وضعاه في

---

١ Beiträge, S. 116.

٢ A. Grohmann, Arabien, S. 29.

٣ Beiträge, S. 20, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 81.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 485.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 451.

معبد (اوام) . ولكي يمنّ عليها ويبعد عنها أذى الأعداء وحسد الحاسدين[1] .

وورد اسم (ياسر يهنعم) واسم ابنه (شمر يهرعش في النص: **Jamme 647** وهو نص دوّنه ضابطان كبيران (مقتوى) من ضباط الملكين ، لمناسبة ولادة مولود لهما (هو ولدم) ، وقد شكرا فيه الإلـه (المقه) (بعل اوام) عـلى هذه النعمة ، وتوسلا اليه بأن يمنّ عليها بأولاد آخرين ؛ وبأن يرفع من مكانتها عند سيديهما الملكين ، وبـأن ينصر جيشهما ويرفع من مكانـة قصر (سلحن) (سلحين) (سلحان) مقر الملوك بمأرب ومن منزلة قصر (ريدان)، وتوسلا اليه بأن يبارك في كل ما قام به الملكان من أعمال ، وبأن يبارك في كل مشروع وضعوه في خلال السنين السبع في أي مكان كان في مأرب أو في صنعـاء او في نشق أو في نشان (نشن) ، وفي كل مكان يجتمعون به في أرض البدع الخمس (بارضت خمس بدعتن)[2] ، أو في مواضع السقي (وسقين) ، ولكي يحفظها من كل بأس وأذى ، وبأن يبعد عنها حسد الحاسدين .

وورد اسمها في النص : **Jamme 648** ، وهو مثل النص المتقدم حمد وشكر للإلـه (المقه) (بعل أوام) ، لأنه حفظ صاحب النص وعافاه وأعطاه الصحة وبارك في حياته وفي حياة ابنه ، ولكي يرفع من مكانته ومكانة ابنه ، ويجعـل لهما الحظوة عند الملكين ، ويرضيهما عنها . ولكي يبعد عنها أذى كل مـؤذٍ ، وحسد كل شانىء حقود[3] .

ولـ (شمر يهرعش) قصص ومقام لدى الأخباريين . لـه عندهم ذكر فاق ذكر والده بكثير . هو عندهم (تبع الأكبر الذي ذكره الله سبحانه في القرآن ؛ لأنه لم يقم للعرب قائم قط أحفظ لهم منه ... فكان جميع العرب ، بنو قحطان وبنو عدنان ، شاكرين لأيامه . وكان أعقل من رأوه من الملوك وأعلاهم همّـة وأبعدهم غوراً وأشدهم مكراً لمن حارب . فضربت به العرب الأمثال ...)[4] الى غير ذلك مما رتبه (وهب بن منبه) عنه . وكان على زعمهم معاصراً لـ (قباذ ابن شهريار) الفارسي . ولما بلغه أن الصغد والكرد وأهل نهاوند ودينور هدموا

---

١ Jamme 646, MaMb 243, Mahram, P. 148.

٢ الفقرة ٢٩ وما بعدها من النص : Jamme 647, MaMb 265, Mahram, P. 149.

٣ Jamme 648, MaMb 94, Mahram, P. 150.

٤ التيجان (ص ٢٢٢) ، تفسير الطبري (٢٥/٧٧) .

قبر (ناشر النعم) وفرقوا رخامه وزجاجه وما كان فيه من جزع وغيره،غضب غضباً شديداً ونذر لله نذراً (ليرفعن ذلك القبر بجماجم الرجال حتى يعود جبلاً منيفاً شامخاً كما كان) . ثم سار بجيوشه وبأهل جزيرة العرب ، فسار الى أرمينية، فبلغ ذلك قباذ ، فأمر الترك بالمسير الى أرمينية ، فسارت الترك تريد أرمينية فقاتلهم قتالاً شديداً ، ثم هزمهم فقتلهم قتلاً ذريعاً،ثم سار نحو المشرق فتغلب على قباذ، واستولى على الفرس ، وأعاد بناء قبر ابيه . ثم هدّم المدائن بدينَوَرَ و (سنجار) بين نهاوند ودينور (فجميع الأرض التي خربها شمر يهرعش ، سماها بنو فارس شمركند ، أي شمر خرّب باللسان الفارسي ، فأعربته العـرب بلسانها ، فقالوا (سمرقند) ، وهو اسمها اليوم)[1] ، ثم بسط سلطانه على الهند ، وعيّن أحد أبناء ملوك الهند ملكاً على الصين ، ثم عاد فسار الى مصر ، ومنها الى الحبشة ، فاستولى عليها ، وهرب الأحباش الى غربي الأرض ، الى البحر المحيط، فتبعهم (شمر) حتى بلغ البحر ، ثم رجع قافلاً الى المشرق ، فـمـرّ بمدينة (شدّاد بن عاد) على البحر ، فأقام بها خمسة أحوال . ثم ذهب لزيارة قبر والده ، ثم رجع الى بلاده الى (قصر غمدان) ، فأقام فيه الى ان توفي ، وعمره ألف سنة وستون عاماً ، بعد أن ملك الأرض كلها[2] . وزعم بعض أهل الأخبـار انه هو الذي بنى الحيرة بالعراق[3] .

وزعم (حمزة) ان والد (شمر) هو (إفريقيس) ، وذكـره على هذا النحو : (يرعش أبو كرب بن إفريقيس بن أبرهة بن الرايش ، وانما سمي يرعش لارتعاش كان به) . وذكر ان رواة أخبار اليمن تفرط في وصف آثاره، ثم ذكر بعض ما ذكروه عنه ، وذكر ان بعض الرواة يزعمون انه كان في زمان (كشتاسب) ، وان بعضاً آخر يزعم انه كان قبله ، وان (رستم بن دستان) قتله . وجعل ملكه سبعاً وثلاثين سنة[4] .

وقال الأخباريون ان (شمر يرعش) هو أول ملك أمر بصنعة الدروع المفاضة

---

١ التيجان (ص ٢٢٧) ، ابن خلدون (٥٢/٢) ، البلدان (١٢٢/٥)
٢ التيجان (ص ٢٢٢ وما بعدها) .
٣ صبح الاعشى (٢٢/٥) ، (كان رجلا من حمير سار بالجيوش حتى حير الحيرة ثم الى سمرقند فهدمها) ، تفسير الطبري (٧٧/٢٥) .
٤ حمزة (ص ٨٤) .

التي منها سواعدها وأكتفها وهي الأبدان ، وقد فرض على فارس ألف درع يؤدونها كل عام ، وكان عامله عليهم (بلاس بن قباذ) ، وجعل على الروم ألف درع ، يؤدونها كل عام ، وكان عامله على الروم (ماهان بن هرقل) . وجعل على اهل بابل وعمان والبحرين ألف درع ، وعلى اهل اليمن ألف درع. وجعلوا أهل (التبت) من بقايا قوم (شمر يرعش) . وذكروا عنه قصصاً أخرى من هذا القبيل[1] . ولم ينسوا بالطبع حكمه وشعره ، فذكروهما[2] .

أما علمنا عنه ، فيختلف عن علم أهل الأخبار عنه . وقد حصلنا على علمنا عنه من كتابات المسند من أيامه . وهي كلها خرس صامتة ، ليس فيها شيء من أخبار تلك الفتوحات المزعومة والحروب الواسعة التي اشعلها (شمر) على زعمهم في جميع أنحاء الأرض ، وليس فيها كذلك شيء ، عن نقل حمير الى (التبت) وإسكانه لهم في تلك الأرضين البعيدة ، وليس فيها شيء ما عن قبر والده بدينور ، ولا عن تهديمه لمدينة (سمرقند) .

ونستطيع تقسيم كتابات المسند من أيام (شمر يهرعش) الى قسمين : كتابات من اوائل ايام حكمه ، اي الأيام التي حكم فيها بلقب (ملك سبأ وذي ريدان)، ولم يكن قد استولى بعد على حضرموت ويمنت ، وكتابات من العهد الثاني من ايام حكمه ، اي العهد الذي لقب فيه نفسه بلقب (ملك سبأ وذي ريدان ويمنت) حتى وفاته وانتقال الحكم الى خليفته في الحكم .

ومن كتابات الدور الأول ، الكتابة التي وسمها العلماء بـ Glaser 542 ، وقد سقطت اسطر منها.وهي على جانب كبير من الأهمية بالنسبة الى من يريد الوقوف على تأريخ التشريع عند الجاهليين . ترينا قانوناً سنّه الملك لشعب سبأ ، اهل (مأرب) وما والاها ، في تنظيم البيوع بالمواشي والرقيق . فحدد المدة التي يعد فيها البيع تماماً ، وهي امد شهر ، والمدة التي يجوز فيها رد المبيع الى البائع ، وهي بين عشرة ايام وعشرين يوماً . كما بين حكم الحيوان الهالك في اثناء المدة التي يحق للمشتري فيها رد ما اشتراه الى البائع ، فحددها بسبعة ايام . فإن مضت هذه الأيام ، وهلك الحيوان في حوزة المشتري وجب عليه دفع الثمن كاملاً الى

---

١ التيجان (ص ٢٤٠) ، الاكليل (٢١١) .
٢ التيجان (٢٢٢) .

البائع ، ولا يحق له الاعتراض عليه والاحتجاج بأن الحيوان قد هلك في أثناء مدة أجاز له القانون فيها فسخ عقد الشراء[١] .

ويعد النص الموسوم CIH 407 من النصوص المهمة من الأيام الأولى من أيام حكم (شمر يهرعش) . وهو يتحدث عن حرب قام بها جيش (شمر) في شمال غربي اليمن ، امتدت رقعتها حتى بلغت اليم . شملت أرض (عسير) و(صبية) (صبا)[٢] . بين وادي (بيش) ووادي (سهام) . وهي أرض تهامة . قام بها ضد قبائل (سهرت) (سهرة) و (عكم) علك وغيرها . وصاحبه رجل اسمه (أبو كرب) ، وهو في درجة (مقتوي) أي قائد في جيش شمر ، وقد أبلى في هذه الحرب بلاءً حسناً ، فقتل ثلاثين من الأعداء ، وقتل أسيرين ، وغنم فيها كثيراً[٣] . فقدم من أجل ذلك الى الإلـه (المقه ثهون بعل أوم)[٤] تمثالين من الذهب ، وتمثالاً من الفضة ، لأنه منّ عليه فأنقذه من مرض أصابه في مدينة (مأرب) مدة ثمانية أشهر ، ولأنه منّ عليه في الحرب التي اشتعلت في (وادي ضمد) ، وامتدت حتى موضع الـ (عكوتين) (عكوتنهن) وساحل البحر . وقد انتصرت فيها جيوش (شمر) على جمع من قبائل تهامة عسير . ومن القبائل التي ورد اسمها في هذا النص : (ذ سهرتم) ، أي (ذو سهرت) (ذ سهرتن) (ذو سهرت) (ذو سهرة) (سهرة) (ساهرة) و (دوأت) و (صحرم) (صحار) (صحر) و (حرت) (حرة)[٥] . و (عكم)[٦] .

فيتبين من هذا النص أن الملك (شمر يهرعش) سير حملة عسكرية الى جملة قبائل من قبائل عسير وتهامة حتى ساحل البحر ، فانتصرت الحملة عليها،وتعقبت القبائل في البحر،وجرت معارك في وسطه ، ونزلت بالمنهزمين ، وهم على أمواج

---

١ REP. EPIG. 3910, VI, P. 378, Conti Rossini, AR. Merid., 1931, P. 52, Background, P. 110, Glaser 542, B. M. 104396

٢ Beiträge, S. 119, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 485.

٣ أغناطيوس غويدي : المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية (ص ١٩ وما بعدها) .

٤ (المقه ثهوان بعل أرّام) .

٥ سطر (١٨ وما بعده) .

٦ CIH 407, Jamme 649, 650, Jamme, Les Antiquités Sud-Arabes du Musée Borély, Cahiers de Byrsa 8, 1958/9, PP. 151-167, Sabaean Inscriptions, P. 369.

البحر ، خسائر فادحة [1] . وقد استدل بعض الباحثين من إشارة (أبي كرب) إلى الخسائر التي مني بها المنهزمون وهم في البحر . الى أن أولئك المنهزمين كانوا من الحبش الذين كانوا يحكمون ساحل تهامة ، وأن المعركة قد وقعت في البحر الأحمر [2] .

ويقع موضع (عكوتن) (العكوتان) [3] شمال (وادي ضمد) . وأما (صحار) (صحرم) ، فيقيمون اليوم حوالي (صعدة) . وأما (سهرتم) (سهرة) ، فقبيلة تقع منازلها في تهامة ، وربما كانت منازلها من (وادي بيش) في الشمال الى (وادي سردد) (وادي سردود) في الجنوب . وقد كانت هذه القبيلة على صلات قوية بالحبش في ايام (الشرح يحضب) . وقد أدت فتوحات (شمر يهرعش) في هذه الأرضين التي بلغت سواحل البحر الأحمر الى دخوله في نزاع مع الحبش الذين كانوا يحتلون مواضع من الساحل ، ويؤيدون بعض القبائل لوجود أحلاف عقدوها معها [4] .

و (عكم) (علك) من الأسماء المعروفة التي ترد في كتب أهل الأخبار . أما هنا ، فانه اسم قبيلة [5] .

والى هذا العهد أيضاً تعود الكتابة : Jamme 649 . وهي من الكتابات التي تتحدث عن حروب وقعت في ايام (شمر يهرعش) . وقد دونها رجل اسمه (وفيم احبر) (وفي أحبر) (وافي احبار) ، وهو من (حبب) (حبيب) و (هينن) (هينان) و (ثارن) (ثأران) (ثترآن) ، وهم من (عمد) و (سارين) (سأريان) و (حولم) . أقيال (اقول) عشائر (صروح) (صرواح) و (خولان حضلم) (خولان حضل) و (هينان) . وكان (وفيم احبر) ضابطاً كبيراً (مقتوى) عند (شمر يهرعش) (ملك سبأ وذو ريدان) ، دونها لمناسبة تقديمه صنماً (صلم) الى الإله (المقه) (بعل أوام)

---

١ REP. EPIG. 189, I, III, P. 150, Hartwig Derenboug, Les Monuments Sabéens et Himyartes D'Musée D'Archéologie de Marseille, In Revue Archeologique, 3, VOL., XXXV, (1899), P. 25.

٢ Beiträge, S. 119.

٣ والمفرد (عكوت) (عكوة) .

٤ CIH 407, Beiträge, S. 119.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 485.

لأنه نجاه وحفظه وأعانه في كل المعارك والمناوشات والغزوات (سبات) (سبأت) ، التي خاضها لمعاونة (شوعن) سيده الملك ، وذلك في (سهرتن ليت) (سهرتان ليت) ، و (خيون) (خيوان) و (ضدحن) (ضدحان) ، و (تنعم) و (نبعت) (نبعة) ، ولأنه ساعده وقوّاه ومكّنه من قتل خمسة محاربين في خلال هذه المعارك ، أطار رؤوسهم بسيفه ، ولأنه مكّنه من أخذ أسير ، ومن الحصول على غنائم كثيرة ، ولأنه أنعم على قبيلته بغنائم كثيرة حصلت عليها من هذه المعارك،وبأسرى جاءت بهم الى مواطنها . ولأنه عاد معها سالماً غانماً معافى[1].

وأرض (سهرتن ليت) ، هي جزء من أرض (سهرتن) ، وتقع غرب (دوت) (دوات) (دوأة) . ويسقيها (وادي ليت) (وادي ليّة) . وأما (خيون) (خيوان) ، فوضع يقع على وادي (خبش) ، في المنطقة المهمة من (حاشد) . وهو مدينة تقع في جنوب شرقي (جيزان) ، وعلى مسافة (٩٠) كيلومتراً تقريباً جنوب شرقي صعدة ، وحوالي (١٠٥) كيلومترات شمال (صنعاء)[2] .

وأما موضع (ضدحن) (ضدحان) ، فانه وادي (ضدح) (الضدح) الذي يوازي (وادي أملح) ، ويقع الى الجنوب منه . وعلى مسافة (٣٥) كيلومتراً الى جنوب شرقي (الاخدود)[3] . وأما موضع (نبعت) (نبعة) ، فانه (نبعه) ، وهو تلال تقع بين وادي (حبونت) (حبونة) ووادي (ثار) (ثأر) . وقد يكون موضع (نبعة) المكان الذي يسمى اليوم (مجونة) الذي يقع على مسافة (٢٥) كيلومتراً شمال شرقي (بئر سلوى) وعلى مسافة (٦٣) كيلومتراً من شمال غربي (الأخدود) . واذا كان هذا الرأي الأخير صحيحاً، صار موضع (تنعم) ، فيما بين (صندحان) و (نبعت) (نبعة)[4] .

وتحدث النص عن معارك أخرى ، وقعت بعد المعارك المتقدمة ، وقد اشترك

---

١ Jamme 649, MaMb 223, Mahram, P. 151.

٢ Mahram, P. 369.

٣ Mahram, P. 369, L. Farrer, Südarabien nach al-Hamdani's Beschreibung der Arabischen Halbinsel, Leipzig, 1942, S. 121, Note 2, H. Von Wissmann, Geographische Grundlagen und Fruhzeit der Geschichte Südarabiens, in Saeculum, 4, (1953), S. 61.

٤ Mahram, P. 369.

فيها مدوّن النص . اذ يذكر (وفيم أحبر) ، انه قاتل وأعان سيده (شمر يهرعش) وذلك في وادي (ضمدم) (ضمد) ، وانه ذهب مع سرية لاستطلاع الأخبار عن قبيلة (حرت) (حرة) ، وقد قتل خمسة محاربين من محاربي العدو ، قطع رؤوسهم ، وقد كان ذلك أمام سريته ، مما ترك أثراً مهماً فيهم . ثم يذكر انه اصيب في هذه المعارك بخمسة جروح ، اصابت وركيه وقدميه وفرسه (ندف) . وقد خشي من ان يؤدي الجرح الذي أصاب قدميه الى قطعهما ، وخشي على فرسه كذلك من ان تنفق من الجرح الذي اصابها ، غير ان الإلـه (المقه) لطف به ، فشفاه وعافاه ، وشفى فرسه وأعاده مع قبيلته التي حاربت معه ، الى موطنه ، غانماً محملاً مع عشيرته بالغنائم وبالأموال التي استلبوها من أعدائهم ، وبعدد من الأسرى[1] .

وقد قاتل (وفيم أحبر) ، مرة أخرى في وادي (حرب) (حريب) ، على مقربة من (قريتهن) (قرنتهان) (القريتان) ، ثم جاء اليه أمر سيده الملك (شمر يهرعش) ، بأن يتجه على رأس قوة تتألف من (١٧٠) محارباً من المشاة من عشيرتيه (صرواح) و (خولان) ، ومن ستة فرسان وذلك لمهاجمة عشائر (عكم) (عك) و (سهرت) (سهرة) ولانزال ضربة قاصمة بهـا ، فاتجه نحوها ، والتقى بها عند (عقبت ذر جزجن) (عقبة ذر جزجان)،وألحق بها خسائر ، حاربها من وقت شروق الشمس،وطول النهار وحين اشتدت حرارة الشمس الى وقت الغروب ، وكل الليل حتى طلع (كوكبن ذ صبحن)، كوكب الصبح ، فاضطرت الى الهروب ، وعندئذ أدار وجهه نحو فلولها ، فقتل منها ، وقد ذبح محارباً واحداً أمام المحاربين ، وأخذ اسيرين . وكان عدد من قتل من الأعداء عند المعركة (عقبت ذر جزجن) (عقبة ذر جزجان) مائـة وعشرة محاربين ، وعدد من وقع في الأسر من المحاربين (٤٦) أسيراً محارباً ، وعدد من سبي (٢٤٠٠) سبي ، وغنم من الابل (٣١٦) بعيراً ، عدا عن الماشيـة الأخرى التي نهبت وأخذت[2] .

والى هذا العهد أيضاً يعود النص : **Jamme 650** . وصاحبه شخص اسمـه (بهل اسعد) (باهل أسعـد) من عشيرة (جرت) (جرة) ومن عشيرة

---

١ من الفقرة (١٥) الى الفقرة (٢٤) من النص .

(بدش) أقيال (اقول) عشيرة (ذمرى هوتن) (ذمرى هوتان) ، التي تكوّن ربع قبيلة (سمهرم) (سمهر) . وكان ضابطاً كبيراً بدرجة (مقتوي) عند الملك (شمر يهرعش) (ملك سبأ وذي ريدان) . وقد سجله لمناسبة اهدائه معبد (أوام) ، وهو معبد الإلـه (المقه) (بعل اوام)،صنماً ، من العُشْر (ابن عشر يعشرن) الذي يعشر من كل زرع ليكون نصيب الإلـه (المقه ثهوان). أخذه من حاصل زرع الصيف (قيظن) ومن ثمار الجنينات أو الجني (جنين)، وجعله قربة له ، لكي يمنّ عليه بالنعم ، ويبارك فيه وفي أمواله وفي سيده الملك، ولأنه أسعده وحفظه في كل المناوشات والحروب والغزوات (بكل سبات وحريب سباو) التي خاضها ، ولأنه عاون (شوعن) سيده الملك ، في المعارك وفي القتال وفي المناوشات التي وقعت بين قوات الملك التي اشترك هو فيها وبين قبيلة (سهرتن) (سهرتان) ، والتي انتهت بانتصار (سبأ وذو ريدان) ، وعاد الجيش منها محملاً بالغنائم وبالأسلاب وبالماشية التي انتزعت من الأعداء وبالأسرى . وليمنّ عليه في المستقبل فيعطيه ذرية طيبة (هنام) (هنأم) هنيئة من أولاد ذكور، وليرعاه ويحفظه ويقيه في المعارك التي سيخوضها من أجل سيده الملك[1] .

فيظهر من هذا النص ان (بهل أسعد)،كان يتحدث عن المعارك والمناوشات التي وقعت في أرض (سهرتن) (سهرتان) (سهرة) ، بين الملك (شمر يهرعش) وبين رجال قبيلة (سهرتن) العاصية التي مر اسمها مراراً فيما سبق في عداد القبائل الثائرة المحاربة لحكومة سبأ ، والتي كانت قد منيت بخسائر كبيرة ومع ذلك فانها لم تترك عداءها لملوك مأرب .

وفي النص : Jamme 651 أخبار مهمة سجلها لنا رجل اسمه (عبدعم) من (مذرحم) (مذرح) ، ومن (ثفين) (ثفيان) ، وكان من كبار ضباط (مقتوي) جيش الملك (شمر يهرعش) . وقد ذكر انه أهدى معبد (أوام) صنماً (صلمن) ، وهو معبد الإلـه (المقه) لأنه منّ عليه وشمله بلطفه وفضله ، اذ أعانه واعان من كان معه من رجال عشيرته (شعبهو) ومن أتباعه ومحاربيه الذين كانوا معه ومن انضم اليه من اهل البيوتات ومن سواد الناس (محقر) (حقراء) . من ابناء البيتين المتصاهرين : (همدان) و (بتع)،

---

١ Jamme 650, MaMb 200, Mahram, P. 153.

اذ أمره سيده الملك ، بأن يذهب بهم ، الى (مأرب) (مريب) ، ليحميها ويقيها من الأمطار التي ستتساقط في اليوم التاسع من يوم موسم سقوط المطر المعهود (وذثم ذنم بيوم تسعم عهدتن) ، وفي اوائل ايام الشهر ، وفي ايام الموسم الثاني من سقوط المطر ، وقد امره الملك بأن يقوم بهذا الواجب،حتى شهر (أبهى) [1].

وقد حمد صاحب النص إله (المقه) لأنه وحّد بين البيتين : بيت (همدان) وبيت (بتع) ، ولأنه أعانه في القيام بعمله الذي كاف به ، فكافح وهو على رأس جيش (خمس) (خميس) سبأ ومن كان معه لبناء سور وحصون (مأرب) وفي اقامة حواجز وموانع وسدود لتحول بين السيول وبين اكتساحها المدينة ، وفي انشاء مباني وأحواض (مضرفن) في جهة (طمحنن) (طمحنيان) ، حتى تمكّن من انجاز كل ما كلف به،دون ان يخسر جندياً واحداً من الجنود الشجعان الذين كانوا من جنود (كبر رحلم) كبير (رحلم) (رحال)، فأرضى بذلك سيده الملك وشرح صدره .

وتوسل بعد ذلك الى الإلّه (المقه) لكي يقيه من كل (باس) (بأس)، أي من كل أذى وشر ، ولكي يرفع من منزلته وينال الرضى والحظوة عند سيده الملك. ويمنحه غلة وافرة واثماراً كثيرة من أثمار الصيف والخريف في كل مزارعه وتوسل اليه أيضاً بأن يبعد عنه كل نكايات (نكيتن) الأعداء .

ويشير هذا النص الى سقوط أمطار غزيرة في ذلك الموسم ، هددت مدينة (مأرب) ، فأمر الملك الشخص المذكور بأن يقوم على رأس قوة من جيش سبأ ومن كبار (همدان) و (آل بتع) ، بتقوية سور مأرب وتحصينه وحمايته من مداهمة السيول له ، وبانشاء سدود وموانع لمنع الأمواج العاتية من اكتساح مأرب والأماكن الأخرى . وذلك بمن جمعهم من النـــاس من سوادهم ومن ساداتهم ، للقيام بهذه الأعمال . ولمنع المسخرين الذين سخروا من الفرار ، وقد وضع الملك جيشاً تحت تصرف هذا القائد . في جملته مفرزة من جنود الكبير (كبر رحلم) (كبير رحلم) (رحال) .

وسجل شقيقان كانا من (حظرم عمرت) (حظرم عمرة) ، ومن ضبـاط (مقتوي) الملك (شمر يهرعش) حمدهما وشكرهما في كتابتهما التي وسمها الباحثون

---

[1] Jamme 651, MaMb 108, Mahram, P. 155.

بـ Jamme 652 ، للإلـه (المقه) لأنه منّ على سيدهما بالعافية وبالبركة وأوفى له ما أراد ، ولأنه رفع حظوتهما عنده وزاد في رضاه عنهما . وليرعاهما ويحفظهما في أيام الحروب وفي أيام السلم،ويقيهما أذى الأشرار وحسد الحساد، ولكي يعاونهما ويشد الإلـه أزرهما في إرضاء سيدهمـا ، ويبارك في قصره ، أي قصر الملك : (سلحن) (سلحين) (سلحان)[1] .

ويحدثنـا النص : Jamme 653 بحمد (سباكهلن) ، أي (سبأكهلان) لربهم (المقه) وشكرهم له ، لافضاله وانعامه عليهم ، بأن استجاب لدعائهم، فأمطرهم بوابل من رحمته ، وأنزل الغيث عليهم وذلك مع برق (برق خرف) الخريف ، أي موسم أمطار الخريف ، الذي تساقط عليهم سنة (تبع كرب بن ودال) (تبعكرب بن ودايل) من (حزفرم) (آل حزفر) الثالث . وقد استبشروا به وسُرّوا . وسألوا ربهم (المقه) وذلك في اليوم الرابع من ذي (فقهى)، شهر ذي (مليت) الذي هو من أشهر الخريف (ذ منذ خرفن) ، بأن ينزل عليهم غيثاً يسقي أوديتهم ويكفي زرعهم ، غيثاً يرضيهم ويسرهم ويثلج صدورهم، وبأن ينال أهل (سبأكهلان) رضى سيدهم (شمر يهرعش) ويرفع من حظوتهم (حظى) عنده[2] .

وقد كتب النص المذكور بمدينة (مأرب) ، قبل ثلاث سنوات من الكتابة المرقمة بـ CIH 314 + 954 التي يخلد فيها (الشرح يحضب الثاني) واخوه (يأزل بين) (يازل بين) (يزل بين) انتصارهما على السبئيين وطردهما (شمر يهرعش) من مأرب[3] .

وذكر جماعة من (عقبم) (عقب) (عاقب) (عقاب) ، بأنهم أهدوا معبد (أوام) صنماً (صلمن) ، وذلك حمداً للرب (المقه) وشكراً له لأنه رزقهم ولداً ذكراً ، ولكي يرزقهم اولاداً ذكوراً،ولكي يبارك فيهم وفي أموالهم ويرضي سيدهم (شمر يهرعش) عنهم ويرفع من منزلتهم وحظوتهم عنده،ولكي يبارك في زرعهم ويعطيهم غلة وافرة وحصاداً جيداً[4] .

---

١ Jamme 652, MaMb 161, Mahram, P. 157.

٢ Jamme 653, MaMb 220, Mahram, P. 158.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 476.

٤ Jamme 654, MaMb 31, Mahram, P. 159.

ويذكر (شرح ودم) (شرحودم) (شرح ودّ) ، و (رشدم) (رشيدم) (راشد) (رشيد) ، وهو بدرجـة (وزع) (وازع) ، أي سيد قبيلة (ماذن) (مأذن) ، انهما قدّما صنماً الى الإلـه (المقه ثهوان) ، لأنه اوحى الى قلبهما بأنه سيمنحه ولداً (رشدم) ولذا يسميه (ودّاً) وذلك من زوجتـه (اثتهر) (حلحلك) . وانه سيعطيه مولوداً غلاماً (غلمم) ، عليه ان يسميه (مرس عم) (مرسعم)[1] ، وانه سيرزق عبده (شرح ودم) ولداً ذكوراً، وانه سيمنحهما غلة وافرة وحصاداً جيداً ، وانه سيرفع من مكانتهمـا عند سيدهما الملك،وسيبارك في زرعهما وفي زرع قبيلتهما ، وذلك في موسمي الصيف والخريف[2].

وفي النصف الثاني من سني حكمه ، تلقب (شمر يهرعش الثالث) ، أي (شمر يهرعش) الذي نبحث فيه الآن بلقب (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت)[3] . وتدل هذه الاضافة الجديدة الى اللقب ، على استيلاء (شمر يهرعش) على حضرموت ، أو على جزء كبير منها[4] . اما (يمنت) فيرى (فون وزمن) ان المراد بها الأرضون التي تكوّن القسم الجنوبـي من مملكـة (حضرموت) . ويستدل على رأيه هذا بوجود عاصمتين لحضرموت ، هما : (شبوة) و (ميفعة) ، مما يدل على انقسام المملكة الى قسمين : قسم شمـالي يدعـى حضرموت ، وقسم جنوبي يعرف بـ (يمنت) (يمنات) اليمن[5] .

ويقع النصف الثاني من حكم (شمر يهرعش) في رأي (فون وزمن) ، ما بين (٢٨٥ ب. م.) أو (٢٩١ ب. م.) أو (٣١٠ ب. م.) أو (٣١٦ ب.م.) ويعني هذا في رأيه أن (شمر) كان يعاصر (امرأ القيس بن عمرو) المذكور في نص النمارة المتوفي سنة (٣٢٨ م) والذي حارب وأخضع قبائل عديدة ، منها مذحج ومعد وأسد (اسدين) ونزار (نزرو) ، ووصل الى (نجران) عاصمة (شمر)[6] . وقد يعني ذلك أن حروباً نشبت بين الملكين .

١ يعود الضمير الى (رشدم) ، كما يظهر من النص .
٢ Jamme 655, MaMb 253, Mahram, P. 160.
٣ CIH 431, CIH, IV, II, II, P. 120, CIH 430, 438, Glaser 1050, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 485.
٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 485.
٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 485.
٦ (الاسدين (اسدين) في النص ، REP. EPG. 483, F. Altheim, Geschichte der Hunnen, I, 1959, S. 127. Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 456, 486.

ولم يشر نص (النمارة) الى بقية اسم (شمر) ، لنعرف من كان ذلك الملك الذي كان يحكم في ذلك الزمان ، والذي كانت مدينة (نجران) مدينته اذ ذاك. ويظهر من هذا النص أن قتالاً نشب بين قوات (امرىء القيس) و (شمر) صاحب نجران ، وأن النصر كان لامرىء القيس[1] .

وإذا كان ما ذهب اليه (فون وزمن) صحيحاً من معاصرة (امرىء القيس) لـ (شمر يهرعش) ، فإن هذا يعني أن جزيرة العرب كانت في ذلك الزمن أي في أوائل القرن الرابع للميلاد ، ميداناً للتسابق بين رجلين قويين : (شمر يهرعش) وهو من العربية الجنوبية ، و (امرى القيس) وهو من الشمال ، وأن العرب كانوا قد انقسموا الى حزبين:عرب شماليين وعرب جنوبيين ، وأن (امرأ القيس) كان قد توغل في جزيرة العرب حتى بلغ (نجران) وأعالي العربية الجنوبية ، وأخضع القبائل المذكورة لحكمه . وهي قبائل يرجع النسابون نسب أكثرها الى (عدنان) ، وفي جملتها (الاسدين) أي (أسد) و (نزار) (نزرو) . هذا ، وأن وصول (امرىء القيس) الى نجران ، وإخضاعه للأعراب ولقبائل عدنانية يقيم بعضها على حدود العربية الجنوبية الشمالية ، جعله أمام (شمر يهرعش)، ووضع مثل هذا لا بد من أن يثير نزاعاً وخصومةً بين الرجلين .

ولا يستبعد اصطدام (امرىء القيس) بـ (شمر يهرعش) ، أو بأي ملك آخر ملك (نجران) ، ما دام ذلك الملك قد حكم قبائل (معد) النازلة في الحجاز وفي نجد والتي تتصل منازلها بحدود نجران . وقد خضعت (معد) لحكم ملوك الحيرة ، كالذي يظهر من نص كتاب (شمعون) الذي هو من (بيت أرشام) Simeon of Beth Arsham ، حيث ذكر (طيايا حنبا (حنفا) ومعدايا) في معسكر (المنذر) الثالث ملك الحيرة . و (طيايا) هم الأعراب الشماليون و (معدايا) هم (معد) . وكما يفهم أيضاً من نص (مريغان)[2] .

ويرى بعض الباحثين ان (مرالقس بن عمرم ملك خصصتن) الذي ورد اسمه في النص : Ryckmans 535 الذي سبق ان تحدثت عنه في اثناء كلامي على (الشرح يحضب) ، وأخيه (يازل بين) ، هو (امرؤ القيس) البدء، ملك

١ Oriens Antiquus, III, 1964, P. 81.

٢ Ryckmans 506, Die Araber, II, S. 321.

الحيرة . ويرى أيضاً ان (شمر ذي ريدان) المذكور في النص ايضاً ، هو (شمر يهرعش) . وبناء على ذلك يكون (مالك) ملك (كدت) كندة من المعاصرين لامرىء القيس ولشمر يهرعش ايضاً[١] .

اننا لا نملك أي نص يشير اشارة صريحة الى حدوث قتال بين (شمر يهرعش) و (امرىء القيس) . غير ان لدينا نصاً هو النص المعروف بـ Jamme 658 ، يرى بعض الباحثين ان فيه تلميحاً الى ان الحرب المذكورة فيه، هي حرب نشبت بين قوات الرجلين ، وان القائد المذكور فيه ، أعني القائد (نشدال) (نشد ايل)، هو قائد عربي شمالي،ويحتمل على رأيهم ان يكون قائداً من قواد جيش (امرىء القيس) . ويظهر من النص ان قوات (شمر يهرعش) كانت قد تجمعت في مدينة (صعدتم) ، أي مدينة (صعدة) في (خولان) العالية ، أي الشمالية (خولان اجلدن)[٢] ، ثم تقدمت منها نحو الشمال الغربي الى حدود (خولان) القديمة في (وادي دفاء) ، حيث حاربت القبائل المجاورة قبائـــل (شنحن) (شنحان) الساكنة في الغـرب ؛ ثم نزلت من مساكنها الى ارض (سهرتن) (سهرتان) ثم اجتازت هذه الأرض الى وادي (بيش) ، وهي الحدود القديمة للعربية الجنوبية ، ثم تقدمت منها نحو الشمال الى (وادي عتود) الذي يقع في الأرض المسماة بـ Kinaidokolpitai عند الكلاسيكيين. وفي هذه الأرض اصطدمت قوات (شمر) بقوات (نشد ايل) القائد المذكور[٣] .

ويظهر من نص عثر عليه منذ عهد غير بعيد أن قائداً من قواد (شمر) كان قد قاد أعراباً غزا بهم ملك (أسد) ، وأرض (تنخ) (تنوخ) التي تخص (الفرس) (فرس) ، أي (فارساً) . وذكر أن أرض (تنخ) (تنوخ)، كانت تحت حكم مملكتين ، يقال لإحداهما (قطو) ؛ وللأخرى (كوك) أو (كوكب) ؛ وقد أنزل أعراب (شمر) بهما خسائر فادحة . ثم عـــاد ذلك القائد بعد نجاحه في غزوه هذا صحيحاً معافى الى نجران ، حيث قـــدم الى الآلهة

---

١ Die Araber, II, S. 322, Le Muséon, 69, (1956), PP. 139, 152, Pirenne, Le Royaume Sud Arabe, 30, 166, 168, Die Araber, IV, S. 272.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 486.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 487.

شكره ، وسجل ذلك في النص المذكور[1] .

وقصد القائد بأرض (تنخ) أرض الأحساء في الزمن الحاضر ، وكانت منزل قبائل (تنوخ) في ذلك الزمن . وقصد بـ (قطو) (قطوف) (القطيف) Qtw'f وفي إشارة القائد الى مهاجمة تلك الأرضين ، أي أرض تنوخ ، التي كانت تحت سيادة (فرس) ، أي الفرس الساسانيين ، تأييد لروايات الأخباريين التي تذكر أن (شمر يهرعش) (شمر يرعش) غزا أرض الفرس[2] .

هذا ولا بد من أن يكون (شمر) قد كان على اتفاق تام مع أعراب نجد ، ولا سيما سادة (كدتم) (كدت) ، أي كندة في ذلك الزمن ، إذ كان من العسير عليه غزو الأحساء وساحل الخليج ، لو لم يكن على صلات بهم حسنة . وقد كان هؤلاء الأعراب ينزلون فيما يسمى الأفلاج والخروج في الزمن الحاضر . وتعد الأفلاج من مواطن (كدت) كندة منذ زمن (شعرم أوتر) (شعر أوتر) في حوالي السنة (١٨٠ م) ، وقد عبر عنهم بـ (ذال ثور) أي (ذي آل ثور) في النص Jamme 635 ، وكذلك في زمن (الشرح يحضب الثاني) في أثناء حكمه مع (يأزل)[3] ، أي في حوالي السنة (٢١٠ ب. م.)[4] . وربما قبل ذلك أيضاً حيث نجد في تاريخ (بلينيوس) ما يشير اليهم ، إذ ورد في تأريخه : Dae Alathuri fons Aeunuscabales ، ويمكن تفسيرها بـ (ذي آل ثور في عين الجبل)[5] . و (آل ثور) هم كندة ، وقد عرفوا بهذا النسب عند أهل الأخبار .

والنص المذكور ، هو نص وسمه العلماء بـ (شرف الدين ٤٢) . وقد ورد فيه أن الملك (شمر يهرعش) أمر قواته بغزو أرض (ملك) (مالك) ملك (أسد) (ملك اسد) . فتقدمت نحوها ، واتجهت منها نحو أرض (قطوف)، أي القطيف ، حتى بلغت موضع (كوكبن) (كوكبان) (كوكب) ثم (ملك فارس وأرض تنخ) (ملك الفرس) أي (الأرض التابعة للفرس)

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 487.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 487.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 487.

٤ وذلك بحسب تقدير (فون وزمن) ، راجع Le Muséon, 1964, 3-4, P. 487.

٥ Pliny, VI, 158, Le Muséon, 1964 3-4, P. 488.

وأرض تنوخ . وقد دوّن النص قائدان من قواد (شمر يهرعش) ، كانا من (ريمن ذ حزفرم) ، أي من (ريمان ذوي حزفر) ، ومن (عنن) (عنان) . وذلك بعد عودتهما سالمين غانمين من ذلك الغزو[1] .

وقد كانت (مذحج) تنزل في الأفلاج او حولها وفي المنطقة المسماة بـ (جبل طويق) في الزمن الحاضر . والظاهر ان غزو (امرىء القيس) لنجد قد اضطر اكثر قبائل (مذحج) الى الهجرة نحو الجنوب . وكانت حسنة الصلات بـ (كدت) اي كندة، التي اضطرت أيضاً الى الهجرة الى الجنوب . ولهذا انضمتا الى جيوش (شمر يهرعش) ، والى جيوش من جاء بعده من الملوك . وقد أشير اليهما في الكتابات بـ (كدت ومذحجم)[2] . وقد أدت هجرة كندة ومذحج وبقية أعراب نجد الى الجنوب بنتيجة لغزو العرب الشماليين لهم الى استيطان قسم كبير منهم في العربية الجنوبية ، ودخولهم في جيوش ملوك حمير ، وذلك لتهديد أعدائهم بهم ، اذ كانوا أعراباً أشداء ، يحبون الغزو والقتال ، حتى صاروا قوة رادعة مخيفة ، ولهذا السبب أدخل اسمهم في لقب الملوك كما سنرى فيما بعد .

ومن جملة القواد الذين تولوا قيادة الأعراب ، او الكتائب الخاصة التي ألفها التبابعة منهم ، قائد اسمه (وهب اوم) (وهب أوام) ، وكان من قادة (شمر يهرعش) ، وقائد اسمه (سعد تالب يتلف) (سعد تألب يتلف) ، وكان في ايام (ياسر يهنعم الثالث) وابنه (ذرأ أمر) وذلك على رأي (فون وزمن)[3] .

اننا لا نعرف حتى الآن كيف استولى (شمر يهرعش) على حضرموت ، وكيف ضمها الى سبأ ، اذ لم نتمكن من الظفر بكتابة فيها حديث عن كيفية قضاء (شمر) على استقلال تلك المملكة . وعلمنا بضم حضرموت الى سبأ ، مقتبس من اللقب الجديد الذي لقب (شمر) به نفسه على نحو ما ذكرت[4] .

وقد رأى بعض الباحثين ان سقوط (شبوة) وتدميرها في قبضة قوات (شمر) كان في القرن الرابع للميلاد وقبل استيلاء الحبش على العربية الجنوبية بزمن قصير[5] .

---

١ Sharaffadin 42, Le Muséon, 3-4, 1967, PP. 505, 508.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 488, Jamme 660, 665, Ryckmans, 510.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 489.

٤ Glaser 1050, Beiträge, S. 116.

٥ Beiträge, S. 144.

ذهب (ريكمنس) الى ان الحبش احتلوا العربية الجنوبية حوالى السنة (٣٣٥) بعد الميلاد ، ودام احتلالهم هذا لها الى حوالي السنة (٣٧٠ م) ، ولم يذكر من حكم بعد (شمر يهرعش) ، غير انه وضع (ملكيكرب يهأمن) في نهاية احتلال الحبش لليمن ، أي بعد سنة (٣٧٠ م) ، ووضع لفظة (حسن) في قوس قبل (ملكيكرب يهأمن) ثم ذكر بعد (أب كرب أسعد) (ذرأ أمر أيمن)[1] .

وفي النص Jamme 656 خبر حرب وقعت بين (شمر يهرعش) وحضرموت. وقد لقب (شمر يهرعش) فيه بلقبه الجديد : (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) وذكر أن حضرموت كانت اذ ذاك تحت حكم ملكين اسم أحدهما : (شرح ال) (شرح ايل) (شرحئيل) ، واسم الآخر (رب شمس) (ربشمس) (رب شمسم) . وزعم أن الملكين المذكورين هما اللذان أعلنا (هشتا) الحرب على الملك (شمر يهرعش) ، غير أن النص لم يتحدث ، كعادة النصوص الى الأسباب التي حملت الملكين على اعلان تلك الحرب[2] . وقد ذكر أن عاقبتها كانت سيئة بالنسبة لحضرموت ، إذ خسرت فيها ، وان الحرب كانت قد وقعت في (سررن) (سرران) ، وأن أصحاب النص وكانوا من (سبا كهلن) (سبأ كهلان) ،عادوا مع عشيرتهم من تلك الحرب سالمين غانمين . وقد قدموا عُشر حاصل غلتهم من زرع أرضهم بـ (رحبتن) (رحابتان) (رحبتان) ، للإلـه (المقه) ليبارك فيهم ويديم نعمه عليهم ويزيد مكانتهم عند سيدهم (شمر يهرعش ، ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) ولكي يعطيهم غلة وافرة وحصاداً طيباً هنيئاً .

وقد شهد أصحاب هذا النص المعركة أو المعارك التي جرت في وادي (سررن) السر ، وهو وادٍ يقع على مسافة سبعة كيلومترات من مدينة شبام ، ويعرف بـ (وادي سر) (وادي السر) . ولم يتحدثوا عن معارك أخرى . مما يدل على أنهم لم يشتركوا في غير هذه المعركة ، وأنهم عادوا بعدها مع قبيلتهم التي ساهمت في القتال الى مواطنهم .

وفي النص : Jamme 662 خبر مهم له علاقة وصلة بالنص السابق وبالعلاقات

---

١ J. Ryckmans, L'institution, P. 338.

٢ راجع السطر ١١ من النص : Jamme 656, MaMb 135, Mahram, PP. 161, 371.

فيما بين سبأ وحضرموت في هذا العهد . خبر يفيد أن (شبوت) (شبوة) كانت في أيدي السبئيين في هذا العهد ، وأن الملك (شمر يهرعش) (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) ، كان قد عين (يعمر اشوع) (يعمر أشوع)، وهو سيد (وزع) من سادات (سبأ) ، على مدينة (شبوة) ، عينه عليها لحمايتها وللمحافظة على الأمن فيها ، وقد ذهب اليها ومعه قوم من (سبأ) . وقد سر (يعمر أشوع) بالطبع بهذا التعيين وشكر ربه (المقه) على هـذا التوفيق العظيم الذي حصل عليه بفضله[1] .

فيظهر من هذا النص ان (شبوة) وهي عاصمة حضرموت ، كانت في أيدي (شمر يهرعش) ، قبل اختيار (يعمر أشوع) ليكون حاكماً عليها ، ومعنى هذا ان جزءاً من حضرموت كان قد أصبح في جملة أملاك سبأ ، وهذا ما حمل (شمر يهرعش) على إلحاق جملة (وحضرموت ويمنت) الى لقبه السابق، وهو (ملك سبأ وذو ريدان) . غير ان السبئيين لم يكونوا قد استولوا على كل مملكة حضرموت، بدليل ما ورد في النص السابق من وجود ملكين كانا يحكمان حضرموت وهما : (شرح ايل) و (ربشمس) (رب شمس) . ويظهر ان (شرح ايل) هذا هو الملك (شرح ايل) (شرحئيل) المذكور في النص CIH 948 . أما الملك (ربشمس) ، هذا فهو ملك آخر لا صلة له بـ (ربشمس) الذي هو ابن الملك (يدع ايل بين) ملك حضرموت ووالد ملك آخر اسمه (يدع ايل بين) كذلك[2] .

ويتبين من النص : CIH 948 – وهو نص فيه أمور غامضة غير مفهومة ، وعبارات غير واضحة ، أمر الملك (شمر يهرعش) نفسه بتدوينه – ان الملك المذكور حارب الملك (شرح ال) (شرحئيل) (شراحيل) (شرح ايل) ملك حضرموت ، وانه انتصر عليه انتصاراً كاسحاً . ويظهر ان الملك (شمر يهرعش) اضطر الى قيادة حملة جديدة على حضرموت ؛ لأن الحضارمة انتهزوا فرصة عودة الملك (شمر يهرعش) الى سبأ ، وعودة معظم جيشه معه ، سوى الحاميات التي تركها في بعض المدن والمواضع مثل (شبوة) التي مرّ ذكرها ،

---

١ Jamme 662, MaMb 98, Mahram, P. 167, MaMb 91, 96.

٢ Mahram, P. 372.

فثاروا على السبئيين ، ثاروا بقيادة الملك (شرح ايل الذي مرّ ذكره ، مما حمل الملك (شمر يهرعش) على الاسراع بالاتجاه نحو حضرموت للقضاء على الثورة[1] .
ويظهر من هذا النص ومن النصوص الأخرى ان الحضارمة وإن اندحروا واصيبوا بهزائم في هذه المعارك الا انهم لم يتركوا النضال في سبيل الاستقلال وفي سبيل التخلص من حكم سبأ ، وان ما تذكره النصوص السبئية من أخبار الهزائم الفادحة والانتصارات الباهرة هي من قبيل المبالغات في غالب الأحيان .

ويلاحظ أن النص المذكور،قد أغفل اسم الملك الثاني (ربشمسم) (رب شمس) الذي كان يشارك (شرح ايـل) في حكم حضرموت . ولا ندري بالطبع سر اغفال اسمه منه . كما يلاحظ أيضاً أنه سمى الملك بـ (شمر يرعش) ، بـدلاً من (شمر يهرعش) كما يرد في كل النصوص الباقية[2] . ويلاحظ أن الأخباريين لا يسمون هذا الملك الا بـ (شمر يرعش) .

وبعد أن عاد الملك (شمر يهرعش) من حملته على وادي حضرموت ، عاد فقاد حملة أخرى على أرض (ارض خولان الددن) (أرض خولن الددن) ، (خولان الدودان) . وقد كلف الملك أحد قواده بأن يعسكر في مدينة (صعدة) (بهجرن صعدتم) ، ويضع بها حامية . ثم يقوم بقطع الطريق على بعض فلول (خولان الدودان) ، وقد نفذ القائد ما طلب منه ، فتعقب تلك الفلول . ولما أنهى الملك الحرب التي قام بها في أرض (خولان الدودان) حارب جيشه فلول (سنحن) (سنحان) في وادي (دفا) . وقد منّ الإلّه (المقـه) عليه ، فأعطاه غنائم وأسرى وسبايا واموالاً طائلة ، أرضته وشرحت صدره[3] .

وعاد الملك (شمر يهرعش) فأصدر أمره بوجوب الزحف على (سهرتن) (سهرتان) و (حرتن) (حرتان) ، أي أرض قبيلة (حرت) (حرة)[4]. وهي أرض ورد اسمها قبلاً ، حيث سبق للملك ان زحف عليها ، وذلك قبل استيلائه على حضرموت . ولما انتهت القوات من مقاتلة (سهرتن) و (حرتن) ، اتجهت نحو الشمال لمحاربة فلول (نشدال) (ينشد ايل) في وادي (عتود) ،

---

١ Mahram, P. 373.
٢ Mahram, P. 373.
٣ Jamme 658, 659, MaMb 182, 244, Mahram, P 163.
٤ السطر ١٩ فما بعده حتى السطر ٢١ من النص .

الذي يصب في البحر الأحمر ، والذي يقع على مسافة (٨٥) كيلومتراً الى الشمال الغربي من (جيزان) . وتقع مدينة (جيزان) حوالي ثمانيــة كيلومترات الى الشمال الشرقي من مصبه في البحر[١] .

ويتحدث نص وسم بـ Jamme 660 ،عن غارة قام بها رجل اسمه (حرثن بن كعبم) (الحارث بن كعب)،ورجل آخر اسمه (سددم بن عمرم) (سداد بن عمرو (سدد بن عمر) ، وكانا (جرينهن) ، وقد تعني اللفظـــة منزلة من المنازل الاجتماعية ، ومعهما محاربان من محاربيهم هما : (نخعن) (النخع) (نخعان) و (جــرم) ، على (ذخزفن) بمدينة مأرب (هجــرن مرب) ، فحققوا ما أرادوا ثم خرجوا من (مأرب) ومعهم (يعمر) سيـــد (وزع) سبأ . فأمر الملك (شمر يهرعش) احد رجاله واسمه (وهب اوم) (وهب اوام)، بأن يقتفي آثار الجناة ويقبض عليهم . فخرج اليهم وتعقبهم وقبض عليهم، وجاء بهم الى الملك حيث عرضهم عليه في قصره (سلحن) (سلحين) (سلحان) بمدينة مأرب[٢] .

وكان (وهب اوم) ، الذي تعقب الجناة وقبض عليهم، من كبار الموظفين في حكومة (شمر يهرعش) ، وكان بدرجة (كبر) أي (كبير) وهي درجة رفيعة في الحكومة تعني ان صاحبها موظف من أكبر الموظفين في الدولة،وان الملك عينه ممثلاً عنه لادارة المقاطعات . وقد وضعت تحت تصرف هذا الكبـــر ادارة ثماني مقاطعات وقبائل هي : (حضرموت) و (كدت) (كندة) و (مذحجم) (مذحج) و (بهلم) (باهل) و (حدان) (حدأن) و (رضوم) (رضو) و (اظلم) (أظلم) و (امرم) (أمرم) [٣] . والأسماء الأولى هــي أسمـــاء قبائل معروفة . معروفة عند أهل الأخبار كذلك . ولا يزال بعضها معروفاً حتى اليوم .

وشخص تناط به ادارة هذه القبائل والأرضين،لا بد وان يكون من الموظفين الأكفاء في عهد (شمر يهرعش) . ويظهر من تسلسل أسماء المواضع والقبائل ،

---

١ Mahram, P. 373.

٢ Jamme 660, MaMb 156, Mahram, P. 164.

٣ راجع الأسطر ٢ ــ ٤ من النص .

انها كانت متجاورة يتاخم بعضها بعضاً . اذ لا يعقل ادارة شخص في ذلك الوقت مقاطعات متفرقة وقبائل متباعدة من الوجهة الادارية .

ويشير هذا النص الى نوع من التنظيم الاداري الذي كان في حكومة سبأ في ايام هذا الملك[١] .

ويعد النص : Jamme 657 من النصوص التي تعود الى هذا العهـد أيضاً . وهو نص دوّنه شخص من (مرحم) أي (مرحب) ، لمناسبة تقديمه ثلاثة أصنام الى ربه (المقه ثهوان) ، لأنه أجاب طلبه ومنّ عليه بتحقيقه كل مـا سأله من رجاء وتوسلات . ولكي يحقق كل ما سيطلبه من مطالب من اعطائـه أثماراً كثيرةً من كل مزارعه ، ومن حمايته وحفظه من كل سوء ، ومن رجائه في أن يحظى بمكانة محمودة عند ملكه[٢] .

والنص : Jamme 661 ، هو كذلك من النصوص التي تعود الى هذا العهد. وقد كتبه جماعة لمناسبة شفائهم من مرض خطير كـاد أن يقضي عليهم ، أصيبوا (مرضو) به في مدينة (ثت) (ثات) ، فلما شفوا منه ، حمدوا ربهم (المقه ثهوان) (بعل أوام) ، لأنه منّ عليهم إذ شفاهم وحفظهم ، وتوسلوا اليـه أيضاً ، بأن يعطيهم القوة والمنعة ، وبأن يمنحهم غلة وافرة ويبارك في زرعهم ، ويبعد عنهم أعداءهم وشانئيهم بحق (المقه ثهوان)[٣] .

وقد استنتج (جامه) من النص : CIH 353 ، أنه قـد كان للملك (شمر يهرعش) شقيق اسمه (ملكم) (ملك) (مالك) ، وقد سقط لقبه من هذا النص . وقد استنتج منه أيضاً أنه كان قد حكم مع أخيه (شمر) وشاركـه في في الحكم . ولم يرد اسم (ملكم) هذا في نص آخر ، لذلك لم يدخـل أكثر الباحثين في العربيات الجنوبية اسمه في عداد ملوك سبأ وذي ريدان[٤] .

وقد وضع (فلبي) اسم (يرم يهرحب) بعد (شمر يهرعش) وقـال : إن من المحتمل أن يكـون أحد ابناء (شمر) ، وقد جعل حكمه في حوالي

---

١ Mahram, P. 372.

٢ Jamme 657, MaMb 216, Mahram, P. 162.

٣ Jamme 661, MaMb 242, Mahram, P. 166.

٤ Mahram, P. 362.

السنة (٣١٠ ب. م.)[١] .

أما (فون وزمن) ، فجعل من بعده ولداً له سماه (ياسر يهنعم) ، ولقبه بالثالث ، ليميزه عن (ياسر يهنعم) والد (شمر يهرعش)، وعن (ياسر يهنعم) الأول الذي عاش قبله[٢] .

وأما (ريكمنس) ، فذهب الى ان (ياسر يهنعم) هذا لم يكن ابناً لـ (شمر يهرعش) ، بل كان أباه ، وقد حكم مع ابنه في بادىء الأمر حكماً مشتركاً ، ثم انفرد ابنه بالحكم وأخذه لنفسه الى ان مات، فعاد الحكم الى أبيه (ياسر يهنعم) فأشرك (ياسر) هذا ابنه (ثارن ايفع) (ثأران أيفع) في الحكم ، ثم أشرك ابنه الآخر (ذرأ أمر أيمن) معه في الحكم أيضاً . ويعارض (فون وزمن) هذا الرأي ، اذ يراه تفسيراً غريباً لا مثيل له في الحكم ، ويقتضي أن يكون عمر (ياسر) اذن عمراً طويلاً جداً[٣] .

وقد جعل (فون وزمن) حكم (ياسر يهنعم) الثالث وابنه (ثارن أيفع) فيما بين السنة (٣١٠) و (٣٢٠) للميلاد . ثم ذكر اسم (ثارن يركب) (ثأران يركب) من بعدهما . وقد جعل زمانه فيما بين السنة (٣٢٠) و (٣٣٠) للميلاد[٤].

ثم وضع (فون وزمن) ايام حكم (ياسر يهنعم الثالث) وابنه (ذرأ أمر أيمن) في النصف الأول من القرن الرابع للميلاد ، في حوالي السنة (٣٣٠) بعد الميلاد و (٣٣٦) بعد الميلاد . واذا كان هذا الافتراض صحيحاً او قريباً من الصحيح ، فانه يكون قد عاصر أو أدرك ايام (قسطنطين الكبير) (٣١٣ — ٣٣٧ ب. م.)[٥] .

ويظهر من ذلك ان (فون وزمن) عاد فأعاد الحكم الى (ياسر يهنعم) الثالث الا انه قرن حكمه هذا مع حكم ابن آخر له هو (ذرأ أمر أيمن) .

وأما (جامه) ، فقد ذهب مذهب (ريكمنس) في أن (ياسر يهنعم) الذي وضع هو أيضاً اسمه بعد اسم (شمر يهرعش) هو والد (شمر يهرعش)

---

١ Background, P. 143.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 489.

٣ Le Muséon. 1964, 3-4, P. 489, Note 165, Von Wissmann, Zur Geschichte, S. 200, 407.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

وقد حكم بعد ابنه (شمر) بسبب حادث لا نعرف سببه ، حكم مع ابن له حكماً مشتركاً ، ثم حكم مع ابن آخر له ، حكم مع (ذرأ أمر أيمن) من حوالي السنة (٣٠٥) وحتى السنة (٣٢٠) للميلاد تقريباً ، ثم حكم مع ابنه الآخر (ثارن ايفع) (ثأران أيفع) من حوالي السنة (٣٢٠) وحتى السنة (٣٢٥) للميلاد تقريباً[١] .

ويرى (جامه) أن تولي الأب الحكم بعد الابن ليس بحادث مستغرب، فهنالك أمثلة لعودة الآباء الى الحكم بعد حدوث شيء لأبنائهم ، وعودة (ياسر يهنعم) الى الحكم بعد (شمر) هو مثل من تلك الأمثلة . ثم إن اسم (ياسر يهنعم) هو نفس اسم والد (شمر) ، لذلك يرى (جامه) أنه هو والد (شمر) نفسه وأنه حكم مع أولاده مراراً[٢] .

وعندي أن في رأي (جامه) هذا ، تكلف وتصنع ، واتفاق اسمين لا يدل حتماً على ان الاسمين لمسمى واحد ، وإن كان الزمن متقارباً . ثم من يثبت لنا أن (ياسر يهنعم) الذي يرد اسمه في النصين : Jamme 664 و Jamme 665 هو (ياسر يهنعم) الأول والد (شمر يهرعش) . لا سيما وان لقب (ياسر يهنعم) في النصين يختلف عن لقب (ياسر) والد شمر . وفي افتراض أخذ (ياسر) لقبه الجديد من اللقب الذي أحدثه ابنه في أيامه ، تكلف بيّن واضح لا يؤيده أيضاً دليل ، ثم ان تصور اشتراكه في الحكم مع أربعة أولاد ، هو تصور غريب أيضاً . ولذلك أرى أن (ياسر يهنعم) هذا هو شخص آخر ، وليس بوالد (شمر) . وأما أنه ابن (شمر يهرعش) ، فلا اعتقد انه رأي صحيح أيضاً . فلو كان ابن (شمر) لذكر اسم والده في النصين ، كما هي العادة في النصوص . وقد كان من فخر الملوك ذكر أسماء آبائهم في النصوص ، إلا اذا لم يكونوا ملوكاً ، فإنهم كانوا يغفلون أسماءهم ، أو يذكرونها دون لقب . وقد كان (شمر يهرعش) ملك ، وصاحب لقب جديد ، فقد كان من فخر (ياسر يهنعم) ذكر اسم والده مع لقبه لو كان ابن شمر حقاً .

وقد ورد اسم (ذرأ أمر أيمن) مع اسم والده (ياسر يهنعم) في النص :

---

١ Mahram, P. 393.

٢ Mahram, P. 374.

Jamme 665 . وهو نص مهم جداً ، فيه أخبار حروب وأنباء عن الأعراب، اي اهل الوبر في العربية الجنوبية ، وعن الأدوار التي كانوا يقومون بها من النواحي السياسية والحربية والاجتماعية . كما ان فيه أخباراً عن التنظيمات الادارية اذ ذاك . وصاحب النص موظف كبير من موظفي الدولة اسمه: (سعد تالب يتلف بن جدنم) ، أو من (آل جدنم) ، أي (جدن) . وكان بدرجة (كبر)، أي (كبير) على أعراب ملك سبأ (كبر اعرب ملك سبا) وعلى (كدة) أي كندة وعلى (مذحجم) ، أي (مذحج) ، وعلى (حرمم) (حرم) (حرام) ، وعلى (بهلم) ، أي (باهلم) (باهلة) وعلى (زيد ال) (زيد ايل) ، وعلى كل أعراب سبأ (وكل اعرب سبا) ، وأعراب حمير وأعراب حضرموت وأعراب (يمنت) ، أي اليمن[1] . وقد دونه لمناسبة تخليده ذكرى حروب قام بها في أرض حضرموت وفي مواضع أخرى ، كلفه القيام بها سيده الملك (ياسر يهنعم) وابنه (ذرأ أمر أيمن) .

وقد أمر ذلك الكبير بالذهاب الى حضرموت ، فذهب اليها ومعه محاربون من أعراب ملك سبأ ومن كندة (كدة) ، وانضم اليه سادات (ابعل) (نشقم) (نشق) و (نشن) (نشان) . ولما وصل مدينة (عبرن) (عبران) اصطدم بمحاربيها ، وجرت معارك بين الطرفين . وتقع (عبرن) غرب (وادي العبر) ويقال لها (حصن العبر) ، وهي مدينة ذات آبار[2] . وقد اشترك في المعركة محاربون ركباناً (ركبم) وفرساناً (افرسم) ومشاة . ويقصد بـ (ركبم) المحاربون الذين كانوا يركبون الجمال ويقاتلون عليها ، وبـ (افرسم) المحاربون الفرسان ، أي الذين يحاربون وهم على ظهور الجياد . وقد ذكر ان عدد المحاربين الراكبين كان (٧٥٠) محارباً راكباً ، وان عدد الفرسان كان سبعين فارساً . وقد اصطدمت احدى المفارز التي كانت مقدمة للجيش (مقدمتن) ، بمفرزة أرسلها ملك حضرموت لمباغتة محاربي (نشق) و (نشان) و (مأرب) ، وأخذهم على غرة لايقاعهم في الأمر[3] .

---

١ Jamme 665, MaMb 290, Mahram, P. 169, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 490.

٢ Mahram, P. 375, Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, S. 189, 306.

٣ السطر الثامن عشر من النص .

فوقعت معركة عند موضع (ارك) . وقد تمكن قائد الحملة (سعد تألب يتلف) من التغلب على الحضارمة ومن تخليص مقدمته وانقاذ من كان قد وقع أسيراً في أيدي المستوطنين الحضر من أهل المدر الساكنين في مستوطنات (احضرن)، ثم اتجه بجيشه نحو (دهر) و (رخيت) ، فجرت معركة تغلب فيها على أهل الموضعين وحصل منهم على غنائم وأسرى ، وأموال ، واقتاد جمالاً وثيراناً وبقراً وغنماً كثيراً ، أخذها معه ، ثم اتجه نحو الأرضين المنخفضة (سفل) حتى بلغ (عيون خرصم) (أعين خرصم) (أعين خرص) ، حيث تحارب مع من كان هناك من العصاة والمنشقين والأعداء .

ودخل السبئيون بعد هذه المعركة معركة أخرى دخلوها مع قطعات (مصر) حضرموت المتقدمة (قدمهو) . وكانت تتألف من (٣٥٠٠) جندي راكب (اسدم ركم) ومن (١٢٥) فارساً (افرسم) ، وكان يقودها قائدان : (اسود بهمو) : أحدهما : (ربعت بن ولم) (ربيعت بن والم) (ربيعة بن وائل)، وهو من آل (هلم) ومن آل (الين) (ألين) ، وثانيهما : (افصى بن جمن) (أفصى بن جمان) ، ثم قائد الركبان (نحل ركبن) وأقيال (أقول) وكبراء (اكبرت) حضرموت وأسباطهم . وقد أصيبت قوات حضرموت بخسائر ، قتل منهم (٨٥٠) محارباً بحد السيف ، وأسر (اقصى) ، وكان قائداً بدرجة (نحل) وأسر (جشم) ، وهو (نحل افرسم) ، أي قائد الفرسان ، وأسر معهما (٤٧٠) محارباً ، وعدد من أقيال وكبراء حضرموت . وأسر (٤٥) فارساً من فرسان حضرموت ، وغنم ثلاثين فرساً وأخذ ١٢٠٠ جمل ركوب مع رحالها (برحلهن) . وهكذا انتهت هذه المعركة بانتصار السبئيين على حضرموت .

وأمر الملك قائده بأن يقاتل (بساعم) (بسأعم) ، وأن يذهب لمساعدة قبيلة (جدنم) (جدن) . فذهب ومعه (٣٥) فارساً وقطعات من جيشه على (بسأعم) ، والتحم به ، وتمكن من انقاذ كل الروايا (كل روتهمو) المحملة على الدواب ، وكل الأمتعة المحملة على حيوانات الركوب ، كما استولوا على ابل من ابل (بسأعم) . وعاد القائد مع جنده بعد ذلك سالماً غانماً بفضل الإله (المقه) ونعمه عليه[1] .

---

١ الفقرة (٤٠) وما بعدها من النص .

ويظهر ان عهد (ياسر يهنعم الثالث) وعهد ابنه (ذرأ أمـر أيمن) كانا من العهود السيئة لحكومة (سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت)،ففيهما انفصلت (حضرموت) عن تلك الحكومة ، واستقلت ارض (سهـرت) (سهرتن) (سهرة) (السهرة) واستعاد الحبش سلطانهم في السواحل الغربية للعربية الجنوبية. وانتهز (الأقيال) وسادات القبائل هذه الفرصة ، فكوّنوا حكومات اقطاعية ، يحارب بعضها بعضاً ، وعمّت الفوضى تلك البلاد[1].

وأما النص : Jamme 664 الذي دوّن فيه اسم (ياسر يهنعم) و (ثارن ايفع) (ثأران ايفع) (ملك سبأ وذ ريدن وحضرموت ويمنت) ، أي (ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) ، ويقصد بـ (ملوك) (ملكا) ، اي ملكين اثنين ، فصاحبه رجل اسمه (ال امر ينهب) (ايل أمر ينهب) ،وهو من (سحر) (سحار) ، وكان قد أهدى معبد (المقه ثهوان) (بعل أوام) صنماً ، لأنه اوحى اليه بأنه سيهبه ولداً ذكراً . وقد وهبه ولداً سماه (برلم) (برل) (بارل) . ولأنه أوحى اليه بأنه سيهبه اولاداً ذكوراً في المستقبل وانه سيرفع من منزلته ومكانته عند سيديه : (يسرم يهنعم وثارن ايفع املك سبأ وذ ريدن وحضرموت ويمنت) ، أي (ياسر يهنعم وثارن أيفع ملكا سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) ، ولأنه اوحى اليه بأنه سيعطيه غلة وافرة وأثماراً كثيرة من أرضه الزراعية (ارضهمو) بمأرب وبنشق وبنشان[2] .

ويلاحظ ان هذا النص لم يشر الى ان (ثأران أيفع) كان ابنـاً لـ (ياسر يهنعم) ، اذ لم يورد لفظة (وبنهو) التي تعني (وابنه) بل ذكر (الواو) وحده ، أي حرف العطف . ومعنى هذا ان (ثاران أيفـع) لم يكن من ابناء (ياسر يهنعم) ، بل كان غريباً عنه . ثم يلاحظ ان النص ذكر لفظة (املك) أي (ملوك) بعد اسم (ثأران أيفع) ، والواجب ان يكتب (ملكي) ، أي (ملكا) ، في حالة التثنية لا الجمع ، فلعل ذلك من خطأ الكاتب أو الناسخ للنص .

وقد وضع (جامه) اسم (كرب ال وتر يهنعم) (كرب ايل وتر يهنعم) (كربئيل وتر يهنعم) بعد اسم (ثأران أيفع) . وجعل حكمه من سنة (٣٢٥)

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 490.

٢ Jamme 664, MaMb 293, Mahram, P. 168.

حتى السنة (٣٣٠) للميلاد[1] . ثم نصب (ثأران يركب) ملكاً من بعده ، وقد جعل حكمه من سنة (٣٣٠) حتى السنة (٣٣٥) للميلاد . ثم ذكر اسم (ذمر على يهبر) من بعده ، وأعطاه لقب (الثاني) ليميزه بذلك عن (ذمر على يهبر) الذي حكم قبله بأمد . وذكر أنه حكم من سنة (٣٣٥) حتى السنة (٣٤٠) للميلاد ، ثم وضع اسم (ثأران يهنعم) من بعده ثم اسم (ملكيكرب يهأمن) (ملكي كرب يهأمن) ، ثم اسمي ملكين هما : (ابكرب اسعد) و (ذرأ أمر أيمن)[2] .

وأما (فون وزمن) ، فوضع اسم (ذمر على يهبر) (ذمر على يهبأر) بعد اسم (ثارن يركب) ، ثم عاد فذكر اسم (ذمر على يهبر) مع ابنه (ثارن يهنعم) ، بمعنى أنهما حكما معاً فيما بين السنة (٣٤٠) والسنة (٣٥٠) للميلاد . ثم ذكر أن (ثارن يهنعم) حكم مع ابنه (ملكيكرب يهأمن) حكماً مزدوجاً ، ثم حكم (ملكيكرب يهأمن) مع ابنيه (أبو كرب أسعد) و (ذرأ أمر أيمن) . ثم أشار الى انفراد (أبو كرب أسعد) مع ابنه (حسن يهامن) (حسان يهأمن) بالحكم في حوالي السنة (٤٠٠) للميلاد[3] .

وقد ورد اسم الملك (كرب ال وتر يهنعم) (كرب ايل وتر يهنعم) في النص : **Jamme 666** . وصاحبه رجل اسمه : (ابكرب ابهر) (أبو كرب أبهر) ، ورجل آخر اسمه : (عبد عثر اشوع) (عبد عثر أشوع) ، و (وهب أوم أسعد) ، وكانوا أقيالاً (اقول) على عشيرة (عضدن) (عضدان) ، وكانوا هم منها . وقد تقدموا الى الإله (المقه) ، بصنم هو عبارة عن تمثال فرس وعليه راكبه ، (ركبهو) ، وذلك حمداً له وشكراً لأنه منّ عليهم وحماهم من مالك الأرض (بن محر) ، ولأنه أسعدهم ، ولكي يبعد عنهم كل أذى وسوء وكل عدو حاسد ، ويعطيهم القوة والحظوة والمكانة عند سيدهم (كرب ال يهنعم) (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) ، ويمنحهم حصاداً طيباً وغلة وافرة[4] .

---

١ **Mahram, P. 393.**
٢ **Mahram, P. 393.**
٣ **Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.**
٤ **Jamme 666, MaMb 140, Mahram, P. 172.**

ويلاحظ ان هذا النص سمى الملك (كرب ال يهنعم) (كرب ايل يهنعم) ولم يذكر لفظة (وتر) بين (كرب ايل) و (يهنعم) . وقد وضع (جامه) لفظة (وتر) بين الاسمين من عنده لاعتقاده بأن هذا الملك هو الملك (كرب ايل وتر يهنعم) الذي يرد اسمه في نص آخر وسم بـ Jamme 667 .

وأما النص : Jamme 667 ، فصاحبه رجل اسمه (ربيم) (ربيب) ، وهو من : (خلفن انمرم) (خلفان أنمر) (خلفان أنمار) ومن (حيم) (حيوم). وقد ذكر فيه انه قدّم صنماً الى الإلّه (المقه ثهوان) (بعل اوّام) ،لأنه منّ عليه، بأن حفظه ونجاه من الثورة (بن حبل) والاضطرابات (وقسدت) (قس‌دت) التي وقعت بمدينة (ظفار) ، وذلك قبل هذا اليوم (بقدمى ذن يومن) ولكي يديم نعمه ومننه عليه وينيله رضى وحظوة (حظى ورضو) سيده الملك (كرب ال وتر يهنعم ، ملك سبا وذ ريدن وحضرموت ويمنت) ، أي (كرب ايل وتر يهنعم ، ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت)[1] .

وقد ورد اسم الملك (ذمر على يهبر) في النص Jamme 668 ، وورد معه اسم ابنه (ثأران يهنعم) . وأصحابه جماعة من (سباكهلن) ،أي (سبأ كهلان). وقد حمدوا فيه الإلّه (المقه) لأنه نجى وحمى وحفظ اصحاب النص ، ولأنه منّ عليهم فمكّنهم من الحصول على غنائم في المعارك التي خاضوها ومن اخذ سبي من أعدائهم ، مما أثلج نفوسهم وشرح صدورهم وأفرحهم ، ولكي يبارك فيهم ويرضى عنهم سيدهم الملك (ذمر على يهبر) وابنه (ثارن يهنعم) وهما (ملكا سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) ، ولكي ينعم عليهم (وليهعننهمو) ، ويمتعهم في الحياة (متعنهمو) ويبعد عنهم كل أذى وسوء[2] .

وورد اسم (ثارن يهنعم) (ثأران يهنعم) ؛ وبعده اسم ابنه (ملك كرب يهامن) (ملككرب يهأمن) (ملكيكرب يهأمن) (ملكي كرب يهأمن) ، في النص : Jamme 669 ، وهو نص دوّنه جماعة من عشيرتي : (عبلم) (عبل) (عبال) و (قترن اتون) (قتران أتوان) ، حمدوا فيه الإلّه (المقه) لأنه أنعم عليهم ، فوهبهم مولوداً ذكراً ، ولأنه أوحى اليهم بأنه سيهبهم أولاداً

---

١ Jamme 667, MaMb 15, 86, Mahram, P. 172.

٢ Jamme 668, MaMb 236, Mahram, P. 173.

ذكوراً ، وانه سينجيهم من الضر والسوء ، ولأنه أمات (وميت) (محمد) الذي دخل أرضهم وقاتل أولادهم ، وآذاهم ، ولأنه حفظ أخاهم وشفاه ، مما اصيب به من مرض جعله صامتاً هادئاً ، وتعبيراً عن شكرهم وحمدهم هذا ، أهدوا معبده صنماً (صلمن) ، وكتابة (مسدم) (مسندم) ، وكانت زنتها (عصيم) (عصى) ، وقدموا ثورين (ثنى ثورن) الى (كلونم) (كلوان)[1].

ويلاحظ ان هذا النص لم يذكر مع اسم (ملككرب) (ملك كرب) (ملكيكرب) لقبه وهو (يهأمن) من بعده ، بل أهمله .

كما ورد اسمه وبعده اسم ابنه في النص : Jamme 670 . وقد دوّنه (شرحعثت اشوع) (شرحعثت أشوع) ، وابنه (مرثدم) (مرثد) ، وهما من (سخيمم) سادات (بيت ريمان) (ابعل بيتن ريمن) ، وأقيال عشيرة (يرسم) من قبيلة (سمعي) التي تكوّن ثلث (حجرم) (حجر) . وقد كتباه لحمد الإلَه (المقه) وشكره ، لأنه منّ على عبده (شرحعثت أشوع) فعافاه مما ألمّ به من مرض شديد (ضللم) كاد ان يقضي عليه ، حلّ به بمدينة (ظفار) . ولأنه أعاد اليه ابنه (كسدم) ، فساعده . ولكي يبارك فيه وفي ابنه (مرثد) ، ويبعد عنهما كل مرض ، ويرفع من مكانتهما لدى الملكين : (ثأران يهنعم وابنه ملك كرب يهأمن،ملكا سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت)[2].

وكتب جماعة من (سخيم) سادات (بيت ريمان) (ابعل بيتن ريمن) وأقيال (اقولن) (يرسم) من عشيرة (سمعى) ، التي تكوّن ثلث عدد (حجرم ذخولن جددتن) (حجرخولان جددتان) ، نصاً وسم بـ Jamme 671 وذلك ليكون معبراً عن حمدهم وشكرهم للإلَه (المقه) ، الذي منّ عليهم بنعمه وساعدهم بالقيام بالعمل الذي كلفهم به سيداهم : (ثأران يهنعم) و (ملككرب يامن) (ملك كرب يأمن) (ملكيكرب يأمن) ، (ملكا سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) ، وهو أن يتقدموا ويقودوا (لقتدمن) جيش الأعراب (خمس بعرب) ، ويتجهوا الى السد (عرمن) الذي تهدم (بكن ثبرت عرمن بحببض) ، عند موضع (حببض) (حبابض) وموضع (رحبتن) (رحبتان) (الرحبة) (الرحابة)،فتداعت جدرانه ومبانيه وأحواضه وسدوده

---

١ Jamme 669, MaMb 183, Mahram, P. 174.

٢ Jamme 670, MaMb, 292, Mahram, P. 175.

الفرعية ومضارفه (مضرفن)،الواقعة فيم بين (حبابض) و (رحبتن) (الرحبة) وخرب منه ما مقداره سبعون (شوحطم) (شوحطا) . وقد حمدوا الإلــــه (المقه) وسبّحوه لأنه أجاب دعوتهم ، فحبس الأمطار والأمواج والسيول عنهم حتى تمّ العمل وأقاموا الأسس والجدران والسد . ولأنه وفقهم في خدمة سيدهم (ثأران يهنعم) ؛ و (ملككرب يامـن) (ملك كرب يأمن) (ملكيكرب يأمن)[1] .

ويظهر من هذا النص أن خراباً كان قد حل بسد (حبابض) ، فتهدم قسم منه فأضر ذلك بالمزارع التي كانت ترتوي منه . وأن الملك أمر باصلاحه وباعادة بنائه ، وقد تم هذا العمل في عهده .

وأما الذي حكم بعد (ذرأ أمر أيمن) الذي هو ابن (ياسر يهنعم الثالث)، فهو (ذمر على يهبأر) . وكان قد حكم على رأي (فون وزمن) في حــوالي السنة (٣٤٠ ب. م.) . وقد استنتج (فون وزمن) رأيه هذا من كتابة ورد فيها اسم القائد (سعد تألب يتلف) ، وهو في خدمة (ذمر على يهبأر) . ولما كان هذا القائد قد خدم في عهد (ياسر) وابنه ، رأى ان (ذمر على يهبأر) يجب ان يكون هو الملك الذي تولى الحكم بعد (ذرأ أمر أيمن) . وقد نعتــه بـ (ذمر على يهبأر الثاني) تمييزاً له عن ملك سابق حكم بهذا الاسم[2] .

وقد تمكن القائد المذكور من الوصول الى موضع (صوران) (صورأران) الواقع غربي الطريق المؤدية الى روضة (سررن) (سرران) بوادي حضرموت . واشترك في معركـــة نشبت في (سرران) على مقربة مـــن موضع (مريمت) (مريمات) . وهو موضع تقع آثاره وخرائبه اليوم بين (سيوون) و (تريم)، في المكان الذي سماه (بطلميوس) **Marimatha**[3] .

ولا نعلم من أمر (ذمر على يهبأر) شيئاً يذكر . اما الذي جاء بعـــده في الحكم ، فهو (ثارن يهنعم) ، ثأران يهنعم) ، وهو ابنه . وقد حكم مع أبيه حكماً مشتركاً بعد السنة (٣٤٠ م) على رأي (فون وزمن) . وقد عثر على

---

١ Jamme 671, MaMb 294, Mahram, P. 176.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, PP. 491, 498.

٣ J. Ryckmans, Chronologie, Oriens Antiquus, III, 1964, P. 22, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 491.

عدد من الكتابات من ايامه . وفي عهده تصدع السد ، سدّ مأرب ، للمرة الثالثة على ما جاء في المسند[1] .

ولعل النصوص الموسومة بـ Jamme 669 و Jamme 670 و Jamme 671 هي آخر النصوص التي نقرأ فيها اسم الإلـه (المقه) ، إلـه سبـأ الكبير ورمز السبئيين . وقد عثر عليها المنقبون في معبده بمدينة مأرب ، المعبد المعروف بـ (أوم) (أوام) ، وهي مكتوبة في عهد الملك (ثارن يهنعم) وابنه (ملككرب يهأمن) (ملكيكرب يهأمن)[2] . وإذا كان هذا الانقطاع صحيحاً ، أي أن المنقبين لن يعثروا على كتابات اخرى تحمل اسم ذلك الإلـه وتمجده ، فإنه يمكن تفسيره عندئذ بإعراض ملوك سبأ منذ عهد هذين الملكين ، اي منذ أواخر القرن الرابع بعـد الميلاد ، عن عبادة (المقه) وبقية آلهة سبأ ، ودخولهم في التوحيد .

ولو افترضنا احتمال عثور الباحثين على كتابات مفقودة فيها اسم (المقه) ، فإن عهدها لن يكون طويلاً ، ذلك لأننا سوف نرى بعد قليل أن الملك (ملك كرب يهأمن) (ملكيكرب يهأمن) وهو ابن الملك (ثـأرن يهنعم) (ثاران يهنعم) ، يتجاهل بعد توليه الحكم اسم (المقه) ، ولا يتقرب اليه عـلى سنة الملوك الماضين ، بل يتقرب الى إلـه جديد هو الإلـه (ذ سموى) ، أي الإلـه (رب السماء) ، وهو تحول يدل على حدوث تغير عند هذا الملك بالنسبة الى ديانة آبائه وقومه ، ويدل على دخوله في ديانة جديدة ، هي ديانة (رب السماء)، أو (رب السماوات) ، وهي ديانة تعبر عن عقيدة التوحيد ، وعن اعتقاد الملك بوجود إلـه واحد هو (رب السماء)[3] .

وقد عثر على الكتابات المذكورة بـ (منكث) خارج خرائب (ظفار)[4] .

ويرى بعض الباحثين احتمال حدوث هذا التحول في عهد الملك (ثارن يهنعم)، ويرون ان هذا التحول يتناسب كل التناسب مع الرواية المعزوّة الى (فيلوستورجيوس) Philostorgios عن كيفية تنصير الحميريـين ، اذ زعـم ان (ثيوفيلوس) Theophilos كان قد تمكن من اقناع ملك حمير بالدخول في النصرانية ، فدان

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 496.
٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 461.
٣ Glaser 389.
٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 492.

بها ، وامر ببناء كنائس في (ظفار) وفي (عدن) . وكان القيصر (قسطنطين الثاني) (٣٥٠ — ٣٦١م) هو الـــذي ارسله الى العربية الجنوبيـــة ليدعو الى النصرانية بين اهلها . ويؤيدون رأيهم هذا بالكتابة المذكورة التي يرجع عهدها الى سنة (٣٧٨ م) أو (٣٨٤ م) ، فهي غير بعيدة عن ايام (ثارن يهنعم)، ويحتمل لذلك ان يكون هو الملك الحميري ، الذي بدّل دينه الوثني ، ودخل في ديانة التوحيد[١] .

ويتحدث النص : Jamme 671 من بين النصوص المذكورة عن تصدع أصاب وسط سد مأرب الكبير وعن سقوطه ، وعن قيام الملك (ثأرن يهنعم) (ثأران يهنعم) بإصلاحه واعادته الى ما كان عليه . ويكون هذا الخبر ، هو ثاني خبر يصل الينا مدوناً في كتابات المسند عن تصدع السد الى هذا العهد[٢] .

أما الكتابة التي ورد فيهـا اسم الإلـه (ذ سموى) (رب السماء) ، فتعود الى الملك (ملككرب يهأمن) (ملك كرب يهأمن) (ملكيكرب يهأمن) ، وهو ابن الملك (ثارن يهنعم) . وقد عثر عليها في (منكث) خارج خرائب (ظفار) . وقد ورد فيها مع اسمه اسم ولدين من أولاده ، هما : (ابكرب اسعد) (أبو كرب أسعـــد) ، و (ذرأ أمر أيمن) (ورأ أمر ايمن)[٣] ، وكانا يشاركانه في الحكم لورود لقب الملوكية الكامل بعد اسميها . وقد تقربوا بها الى الإلـه (ذ سموى) ، اي (إلـه السماء) ، وذلك في سنة (٤٩٣) من التأريخ الحميري ، المقابلة لسنة (٣٧٨) أو (٣٨٤) للميلاد[٤] .

وقد أغفل (فلبي) الإشارة الى (ياسر يهنعم الثالث) ثم من جاء بعده الى (ملك كرب يهأمن)،فلم يذكرهم في قائمته لملوك (سبأ وذي ريدان وحضرموت

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 492, J. Ryckmans, Chronologie, Orients Antiquus, III, 1964, P. 22.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 491.

٣ « ورأ أمر أيمن » في بعض القراءات ، و « ذرأ أمر أيمن » في قراءة أخرى ، Le Muséon, 1964, 3-4, P. 492.

٤ Glaser, Skizze, I, S. 12, Dammbruch, S. 14, Le Muséon, 1950, 3-4, P. 270, 1964, 3-4, P. 492, Glaser 389, Die Araber, IV, S. 273.
وقد أخطأ هذا المصدر : (Die Araber) في تدوين التأريخ الحميري ، اذ جعله (٤٧٣) ، بينما هو « ٤٩٣ » ، Le Muséon, 66, (1953), 303.

ويمنت) . وقد قلت إنه جعل (يرم يهرحب) بعد (شمر يهرعش) ، ومن المحتمل — في نظره — أن يكون احد أولاد (شمر) ، ثم ذكر ان الأحبــاش استولوا على العربية الجنوبية بعده ، وذلك في حوالي السنة (٣٤٠ ب. م.) ، وقد دام حكمهم حتى سنة (٣٧٥ م) ، حيث ثار عليهم (ملكيكرب يهأمن) ، ويحتمل في نظره أن يكون أحد حفدة (يرم يهرحب) ، فطرد الأحبــاش من العربية الجنوبية ، وأقام نفسه ملكاً [١] .

وقد ورد اسم (ملك كرب يهأمن) محرفاً في كتب أهل الأخبـار ، فدعاه (حمزة) بـ (كلي كرب بن تبع) ، وقد جعل حكمه خمساً وثلاثين سنة [٢] . وسمّاه (الطبري) (ملكي كرب تبع بن زيد بن عمرو بن تبع) [٣] ، وسمـاه (المسعودي) (كليكرب بن تبع) [٤] ، ودعاه (القلقشندي) (كليكرب بن تبع الأقرن) ، الذي حكم على زعمه بعد (شمر يرعش) (شمر مرعش) ، ثلاثاً وخمسين سنة ، وقيل ثلاثاً وستين سنة ، واسمه زيد . وهو على زعمه ابن (شمر). وذكر أن الأقرن انما عرف بالأقرن لشامة كانت في قرنه [٥] .

وانتقل الملك بعد وفاة (ملك كرب يهأمن) الى ابنه (أب كرب أسعد) (أبي كرب أسعد) ، ويرى المستشرقون أنه (أسعد كامل تبع) الذي يزعم الأخباريون انه أول من تهوّد من التبابعة ونشر اليهودية بين اليمانيين .

وقد جعل (الطبري) حكم (أبو كرب أسعد) بعد حكم (شمر يهرعش) ، اذ قال : (ثم كان بعد شمر يرعش بن ياسر ينعم تبع الأصغر ، وهو تبـان اسعد ابو كرب بن ملكيكرب بن زيد بن تبع الأول بن عمرو ذي الأذعـار ، وهو الذي قد قدم المدينة ، وساق الحبرين من يهــود الى اليمن ، وعمر البيت الحرام وكساه) [٦] وتهود وطلب من قومه الدخول في اليهودية . (وقال الكلبي : تبع هو أبو كرب أسعد بن ملكيكرب ، وإنما سمي تبعاً لأنه تبع من قبله . وقال سعيد بن جبير : هو الذي كسا البيت الحبرات) . وذكر أنه قال شعراً أودعـه

---

١ **Background, P. 143.**
٢ حمزة (ص ٨٥) .
٣ الطبري (٥٦٦/١) (دار المعارف) .
٤ مروج (١٣،٥/٢) (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٥ صبح الأعشى (٢٣/٥) .
٦ الطبري (١١/٢) ، الاكليل (٣٤/١) « حاشية ٤ » .

عند اهل يثرب ، (فكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر الى ان هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فأدّوه اليه . ويقال كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد بن زيد)[1] . وورد في مسند الإمام (أبي حنيفة) : (أول من ضرب الدينار تبع ، وهو أسعد بن كرب)[2] .

وقد تحدث (الهمداني) عن (أبي كرب اسعد) ، فقال : « فأولد ملكيكرب بن تبع الأكبر : أسعد تبع بن ملكيكرب . وهو أسعد الكامل ، وتبع الأوسط » (وكانت امه من فايش بن شهاب بن مالك بن معاوية بن دومان بن بكيل بن جشم بن جبران بن نوف بن همدان ، ومولده بخمر من ديار فايش بن شهاب) . و (خمر) موضع بظواهر همدان . (ونشأ بجبل هَنْوَم من أرض همدان ... فأولد أسعد تبع بن ملكيكرب : كرباً وهو الفدى، وبه كان يكنى ... ومعدى كرب وحسان وعمراً .. وجبلاً .. فهؤلاء ... خمسة نفر بنو أسعد بن ملكيكرب وقال اللبخي وغيره : خطيب بن أسعد . والخطيبون بأكانط ومدر من ولده)[3] فيكون ولد (أسعد) ستة نفر على هذه الرواية .

وذكر (الهمداني) ان والد (أسعد) هو (ملكيكرب بن تبع الأكبر . وهو الرائد بن تبع الأقرن بن شمر يرعش بن إفريقس ذي المنار بن الحارث الرائش بن الى شدد)[4] . وعرف (تبع الأقرن) بالأقرن،لشامة كانت في قرنه[5] .

وقد اورد (الهمداني) في كتابه (الإكليل) أشعاراً كثيرة نسبها الى (أسعد بن ملكيكرب) ، بعضها قصائد ، ذكر انه نظمها في مناسبات مختلفة . وقد تطرق في بعض منها الى أنساب الناس والى أمور ذكر انه تنبأ بها قبل وقوعها بمئات من السنين ، ومنها ظهور الرسول ومبعثه في قريش . وذكر (الهمداني) ان شعر (أسعد) وفصاحته من شعر وفصاحة (همدان) . ونسب له شعراً في ملدحهم[6] .

---

١ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٤٥) .
٢ مسند الامام أبي حنيفة (ص ١٦٣) ، (حلب ١٩٦٢ م) .
٣ الاكليل (٢/٥٦ وما بعدها) .
٤ الاكليل (٢/٥٤ وما بعدها ، ١١٠ وما بعدها) .
٥ الاكليل (٢/٥٤) .
٦ الاكليل (٢/٥٧) .

ويلاحظ ان أهل الأخبار قد صيّروا اسم (اب كرب اسعد) (أبكرب أسعد) (أبو كرب أسعد) على هذا النحو : (أسعد تبع) و (أسعد تبع بن ملكيكرب) و (أسعد الكامل) ، فأسقطوا (اب كرب) (أبكرب) منه ، وأخذوا الجزء الأخير منه وهو (اسعد) . ويظهر ان فتوحاته كانت قد تركت اثراً في ذاكرة أهل اليمن ، وقد بقي ذلك الأثر الى الاسلام ، ولكن الزمن والعصبية لعبا دوراً خطيراً في تكييفه حتى طغى عليه الطابع الأسطوري ، فوصل الينا على نحو ما نجده في كتب أهل الأخبار والتواريخ .

وقد تولى هذا الملك – على رأي المستشرقين – الحكم منفرداً من سنة (٤٠٠) بعد الميلاد حتى حوالي سنة (٤١٥) او (٤٢٠ ب. م.) على رأي[١] ، أو من سنة (٣٨٥) حتى سنة (٤٢٠ ب. م.) على رأي آخر[٢] ، او من سنة (٣٧٨) حتى سنة (٤١٥ ب. م.) على رأي (فلبي)[٣] . والذي أراه ان حكمه امتد الى ما بعد السنة (٤٣٠) للميلاد ، كما سأشرح ذلك في موضعه . وقد أضاف الى لقب (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) الذي ورثه من أبيه اضافة جديدة في آخره ، هي : (واعربهمو طودم وتهمتم) ، أي (وأعرابها في الجبال وفي التهائم) ، فصار بذلك أول ملك يحمل هذا اللقب[٤] .

ولا بد ان تكون للاضافة التي ألحقت بآخر اللقب معنى سياسي مهم ، اذ لا يعقل ان يكون هذا الملك قد ألحقها باللقب اعتباطاً من غير قصد . والظاهر ان الذي حمله على إلحاقها به ، هو ظهور أهمية الأعراب ، ولا سيما أعراب الهضاب وأعراب جنوب نجد من قبائل (معد) وقبائل تهامة او التهائم ، أي المنخفضات الساحلية ، بالنسبة الى زمانه اذ صاروا يؤثرون في سياسة العربية الجنوبية تأثيراً واضحاً ، وصار في استطاعتهم احداث تغيير كبير في الوضع السياسي ، فانتبه لقوتهم هذه وأعارها أهمية كبيرة ، فأضاف اسمهم الى اللقب ، دلالة على سيطرته عليهم وخضوعهم له ، كما فعل الملوك الماضون باضافة أسماء جديدة الى ألقابهم الملكية كلما اخضعوا ارضاً من الأرضين .

---

١ Handbuch, S. 104, Anm. 3, Background, PP. 116, 143.

٢ Background, P. 143, Beiträge, S. 20, 40.

٣ Le Muséon, «Note on the last Kings of Saba», By Philby, LXIII, 3-4, (1950), P. 269.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 492.

ومعنى ذلك ان حكم (أبو كرب اسعد) كان قد شمل التهائم بأعرابها وقراها وكذلك قبائل معدّ التي تمتد منازلها من أرض نجران الى مكة ونجد[1] .

وعلى مقربة من مدينة (غيمان) قبر ينسب الى هذا الملك ، وقد فتح من عهد غير بعيد . وذكر أن (غيمان) كانت مقراً للتابعة مدةً ما ، وان (أب كرب أسعد) أقام بها زمناً . ويظن ان الرأس المصنوع من البرنز الذي يمثل رأس امرأة والمحفوظ في المتحف البريطاني ، والرأس الجميل الذي يمثل مهارة فائقة في الصنعة ويمثل رأس رجل ، كلاهما قد أخذ من ذلك القبر[2] .

ويقع قبر (أسعد أبو كرب) أسفل التل الذي اقيم عليه قصر (غيمان) (حصن غيمان) . وقد دل البحث في موضعه على انه يعود الى عهود متعددة ، وان جملة ترميات واصلاحات أدخلت على هذا القصر[3] .

وقد ذكر (الهمداني) ان (ابيكرب أسعد) كان قد اقام في مدينة (بينون)، أوقام ايضاً في مدينة (ظفار)[4] . اقام في قصر (ريدان) بـ (ظفار) وفي قصر (هكر) بمدينة (بينون) ، كما اقام في قصر (غيمان) وفي قصر (غمدان) بصنعاء وهي كلها من قصور اليمن وحصونها الشهيرة المذكورة في تأريخ اليمن[5] .

وقد أخذ جماعة من المستشرقين برواية أهل الأخبار في تهود (أب كرب أسعد) (أبكرب أسعد) ، فجعلوه على رأس اسرة متهودة حكمت منذ هذا العهد . وجعله (فلبي) رأس الأسرة الثامنة من الأسرة التي حكمت السبئين بحسب ترتيبه لقائمة الأسر الحاكمة[6] .

ويدل عثور (فلبي) على كتابة دوّن فيها اسم (أب كرب أسعد) واسم ابنه (حسان يهأمن) في وادي (مأسل الجمح)(ماسل جمح). في موضع مهم على طريق بين (مكة) والرياض ، ولا يزال يعرف اسم جمح على أن هذا الموضع كان من جملة الأرضين الخاضعة لحكم ذلك الملك،وان نفوذه كان قد جاوز اليمن حتى

---

١ Die Araber, II, S. 321, IV, S. 274.

٢ Beiträge, S. 20.

٣ Arabien, S. 276.

٤ Beiträge, S. 40.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 493.

٦ Background, P. 493, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 493.

بلغ نجداً . وبلغ هذه الأرض المهمة التي تجتازها القوافل والتجارات حتى اليوم[١]، وكانت تعدّ من منازل قبائل (معد) في ذلك الحين ، وهي قبائل متحالفة يجمع شملها هذا الاسم[٢] .

والكتابة التي أقصدها ، هي الكتابة التي وسمت بـ Philby 227 [٣] ، وقد دوّنت عند اقامة حصن في وادي (ماسل الجمح) ، وورد فيها اسم موضع آخر هو (مودم ضمو) . ويرى (فلبي) انه المكان المسمى (دودمي) (دوادمي) في الزمن الحاضر[٤] . وقد وردت فيها أعلام أخرى ، منها : (كدت) (كدة) ، و (سود) ، و (وله) (وده)[٥] .

وقد ذكر (الهمداني) ان (مأسل الجمح) كان من مواضع (نُميَر) : واسم (نمير) ، قريب من اسم قبيلة Nomeritae التي ذكرها (بلينيوس) اذ قال : Nomeritae Mesala Oppido ، ولذلك ذهب بعض الباحثين الى ان (مأسل الجمح) كان من مواضع (نمير) ، وذلك في أيام (بلينيوس) ، أي في اواخر القرن الأول قبل الميلاد فما بعده[٦] .

ويظهر ان الملك (أب كرب أسعد) أقام هذا الحصن في (وادي مأسل) ليكون معقلاً تقيم فيه قوات سبئية لحماية الطريق من هجوم القبائل وتعرضها للقوافل التي تسلك هذا الوادي محملة بالبضائع والتجارات بين اليمن ونجد ، وهو طريق مهم من الطرق التي تصل أرض اليمن بنجد وبشرق الجزيرة[٧] .

وقد افتتح نص : Philby 227 بجملة : (ابكرب اسعد وبنهو حسن يهأمن ملكي سبا وذ ريدان وحضرموت ويمنت واعربهمو طودم وتهمتم بــن حسن ملك كرب يهامن ملك سبا وذ ريدن وحضرموت ويمنت) ، اي (ابو كرب اسعد

---

١ Beiträge, S. 120, Ryckmans 464, Philby 228.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 492, J. Ryckmans, in : Bibl. OR., 14, 1957, P. 93.

٣ Philby 227, Ryckmans 409, 445, 509, Philby, Motor Tracks and Sabaean Inscriptions in Najd., Geogr. Journ., 1950, PP. 211-215,
Le Muséon, LXIV, 1-2, (1951), P. 99.
Le Muséon, 3-4, 1953, P. 303.

٤ المصادر نفسها ، Beiträge, S. 120.

٥ Le Muséon, LXIV, 1-2, (1951), P. 102, Le Muséon, 3-4, 1953, P. 304.

٦ Beiträge, S. 120.

٧ Philby, in The Geographical Journal, Vol., CXVI, No. 4-6, (1950), P. 214.

وابنه حسان يهأمن ، ملكا سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في الأطواد والتهائم ، ابنا حسان ملكيكرب يهأمن ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت). فيفهم منها إذن أن اسم والـد (أبي كرب اسعـد) هو (حسان ملكيكرب يهأمن) ، لا (ملكيكرب يهأمن) . فهل نحن امام ملك واحـد ، عرف بـ (ملكيكرب يهأمن) وبـ (حسان ملكيكرب يهأمن) ، ام امام ملك آخر غير الملك (ملكيكرب يهأمن) ؟

ويتبين من هـذا النص ان الملكين كانا قد غزوا (كسباو) ارض (مودم ضمو) . غزواها بجمع من اهل حضرموت وسبأ وبني مـأرب اي اهل مأرب وبأصاغر الناس (صغرم) . وكان في جيشها (المقتوين) (مقتوتهمو) . اي القادة : قادة الجيش . واشير في النص الى اعراب كندة (باعربهمو كدت)والى (سود) و (وله) (واله)[١] .

ولدينا كتابة وسمت بـ Ryckmans 534 ، ورد فيها اسم الملك (ابو كرب اسعد) وأشير فيها الى ستة اولاد من اولاده . وهي كتابة مؤرخة ، ويقابل تأريخها الحميري (٥٤٣) السنة (٤٢٨ م) او (٤٣٤ م)[٢] ، كما عثر على كتابة اخرى وسمت بـ Ryckmans 534 يرى من درسها انها يجب ان تكون قد كتبت بعد السنة (٤٣٣) او (٤٣٩ م)[٣] . ومعنى هذا ان حكم (أبي كرب اسعد) ، قد جاوز السنـة (٤٢٨ ب . م.) أو السنة (٤٣٠ ب. م. ، أي ان تقدير الذين جعلوا نهاية حكم (أبي كرب اسعد) في سنة (٤١٥ ب. م.) او (٤٢٠ ب. م.) ، هو تقدير خاطىء . والظاهر انهم قد وقعوا في هذا الخطأ،لأن الكتابتين المذكورتين لم تكونا قد نشرتا في ذلك العهد .

وقد أشير في الكتابة Rossi 24 الى ستة او سبعة ابناء للملك (ابو كرب اسعد)[٤] . وتشير الكتابة الموسومة بـ Ryckmans 409 الى حملة قام بها الملك (أبو كرب

١ Philby 227, Ryckmans 509, Le Muséon, 1953, 3-4, P. 303, Die Araber, IV, S. 273.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 492, 1955, P. 308, Die Araber, IV, S. 273.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 492, J. Ryckmans, In Riv. D. Studi. Orient., 37, Rome, 1962, PP. 243, 249, Die Araber, IV, S. 273.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 492, J. Ryckmans, In Riv. D. Studi. Orient., 37, Rome, 1962, P. 249, Die Araber, IV, S. 273.

أسعد) وابنه الأول (حسان يهأمن) على (وادي مأسل) في أرض (معد) . وقد ساهم بها معه جمع من (كندة)[1] . ونجد لقبيلة (كندة) ذكر في الكتابات التي يعود عهدها الى ما بعد الميلاد .

وذهب (كروهمن) الى ان ورود اسم (أبو كــرب اسعد) في النص : Jamme 856 – وهو من النصوص السبئية المتأخرة – يجعل ايامه في السنين الثمانين فما بعد من القرن الخامس للميلاد[2] . وقد قدّر ايام حكمه بحوالي السنة (٤٠٠) بعد الميلاد[3] .

ويظهر ان حكم الملك (ابـي كرب اسعد) ، كـان حكماً طويلاً ، وان عمره كان عمراً طويلاً ايضاً ، وذلك لأنه كان ملكاً الى ما بعد السنة (٤٣٠) بعد الميلاد ، واذ قد ذكر ملكاً مع والده في النص المؤرخ بسنة (٣٧٨ ب. م.) او (٣٨٤ ب. م.) ، فيكون مجموع حكمه قد بلغ زهاء خمسين سنة او اكثر من ذلك بقليل . ولو فرضنا انه كان في حوالي العشرين من عمره يوم ذكر مع أبيه في النص ، فيكون عمره اذن يوم وفاته حوالي السبعين ، أو بعد ذلك بسنين[4] .

لقد استطاع (ابو كرب اسعد) توسيع ملكه ، حتى بلغ البحر الأحمر والمحيط الهندي والأقسام الجنوبية من نجد ، وربما كان قد استولى عـلى جزء كبــير من الحجاز . وفي روايات اهل الأخبار عن فتوحاته وعن غزواته أساس من الصحة ، وان دخل فيها عنصر المبالغة والقصص . ولا بد ان يكون هذا الملك ذا شخصية قوية وكفاية مكنته من القيام بتلك الفتوحات والتغلب على القبائل ، حتى تركت أعماله أثراً بقي يتنقل بين الأجيال ، ويتطور بمروره على الأفواه حتى وصل الينا على الشكل الذي نقرأه في كتب اهل الأخبار .

وقد ذكر (الطبري) ان (اسعد ابو كرب بن ملكيكرب) ، ونعته بـ (تبع) كان قد قدم بجيوشه الأنبار ، وأسكن من قومه الأنبار والحيرة ، ثم رجع الى

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 492.

٢ Arabien, S. 29, 273.

٣ Arabien, S. 276.

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 492.

اليمن[1] . وذكر غيره انه (تبان اسعد أبو كرب بن قيس بن زيد الأقرن بن عمرو ذي الأذعار ، وهو تبع الآخر ، ويقال له الرائد ، وكان على عهد يستأسف أحد ملوك الفرس الكيانية وحافده اردشير ، وملك اليمن والحجاز والعراق والشأم، وغزا بلاد الترك والتبت والصين ، ويقال انه ترك ببلاد التبت قوماً من حمير ... وغزا القسطنطينية ومر في طريقه بالعراق فتحير قومه فبنى هناك مدينة سماها الحيرة .. ويقال انه أول من كسا الكعبة الملأ وجعل لبابها مفتاحاً وأوصى ولاتها من جرهم بتطهيرها ودام ملكه ثلثمائة وعشرين عاماً[2]).

وهذه الفتوحات التي نسبوها الى (تبان أسعد) ، هي مثل الفتوحات التي نسبوها لـ (شمر يرعش) ، وهي في الواقع تكرار لها . والظاهر انها خلط بين فتوحات الملكين التي وضعها لها أهل الأخبار .

ونصب بعض أهل الأخبار من بعده (ربيعة بن نصر بن الحارث بن نمارة ابن لخم) ملكاً على اليمن ، ثم ذكروا انه رأى (رؤيا هالته فسار بأهله الى العراق وأقام بالحيرة ، وحكم عليها،ومن عقبه كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة)[3].

وهناك طريق بري يربط المناطق المرتفعة الزراعية بالمناطق الشمالية، وهي مناطق مأهولة ومن اكثر أرض اليمن كثافة سكان ، يسمى بـ (درب أسعد كامل) أو (طريق اسعد كامل) ، نسبة الى هذا الملك ، وهو يصل الى شمال (الطائف) ويتصل بطريق الحجاز[4] . ويمتد من (خيوان) وأعالي (خولان) في اتجاه (بيشة) و (ريع المنهوت) ، ثم في الممر الضيق المؤدي الى (الطائف) . ويستعمل تجار (عمران) هذا الدرب[5] .

ويظهر هذا الدرب تحولاً خطيراً في الطرق البرية القديمة التي كانت تسير في محاذاة حافة الصحراء الشرقية المتصلة بالجوف ، اذ يشير الى تحول هذه الطرق من

---

١ (وفي ذلك يقول كعب بن جميل بن عجرة بن قمير بن ثعلبة بن عوف بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل :
وغزا تبع في حمير حتى نزل الحيرة من أهل عدن) .
الطبري (١/٦١٢) ، (دار المعارف) .

٢ صبح الأعشى (٥/٢٣) .

٣ صبح الأعشى (٥/٢٣) .

٤ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 493.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 493.

الأرض السهلة الى الهضاب التي يعيش عليها المزارعون الذين يعيشون على الزراعة التي تعتمد على المطر. وقد شمل هذا التحول فيما شمله طريق البخور واللبان القديم[1].

وجعل (فلبي) الحكم لـ (ورو أمر أيمن) بعد وفاة (أبي كرب أسعد). وهو شقيقه . قد حكم على رأي (فلبي) من سنة (٤١٥م) حتى سنة (٤٢٥م)، ولما توفي انتقل الحكم الى (شرحبيل يعفر) (شرحب ايل يعفر) ، وهو ابن (ابي كرب اسعد) . وقد حكم على تقدير (فلبي) ايضاً من سنة (٤١٥ب.م.) حتى سنة (٤٥٥ ب. م.)[2] ، وحكم على تقدير (هومل) من سنة (٤٢٠ م) حتى سنة (٤٥٥ م)[3] . ولكن (فلبي) في كتابه (النجاد العربية) عاد فجارى (هومل) فيما ذهب اليه في تقدير مدة حكم (شرحبيل يعفر) ، فجعلها منذ سنة (٤٢٠ ب. م.) حتى سنة (٤٥٥ ب. م.)[4] .

وأما (جامه) ، فوضع : (ابكرب اسعد) واسم شقيقه (ذرا امر ايمن) (ذرأ أمر أيمن) بعد اسم (ملككرب يهأمن) . وقد حكم (أبكرب أسعد) مع والده في حوالي السنة (٣٦٥) وحتى السنة (٣٧٥) للميلاد . وأما (ذرأ أمر أيمن) ، فجعله مشاركاً لوالده في الحكم وذلك في حوالي السنة (٣٧٥) وحتى السنة (٣٨٥) للميلاد[5] .

ولكن (جامه) عاد فوضع بعد القائمة المتأخرة لحكام سبأ ، والتي انتهت في القائمة(E)، باسمي (ذرأ أمر ايمن) و (أبكرب اسعد) ، قائمة اخرى دعاها بـ (F)،وقد خصصها بمن حكم في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد، ابتدأها باسم (حسن ملككرب يهأمن) (حسان ملكيكرب يهأمن) ، وجعل حكمه من حوالي السنة (٤١٥) حتى حوالي السنة (٤٢٥) للميلاد ، ثم وضع اسم (ابكرب أسعد) من بعده ، وجعل حكمه في حوالي السنة (٤٢٥) وحتى السنة (٤٣٠) للميلاد . ثم ذكر اسم (حسان يهأمن) (حسن يهامن) من بعده ، وقد شارك (ابكرب أسعد) في الحكم من سنة (٤٢٥) حتى سنة (٤٣٠) للميلاد ، ثم دوّن اسم (شرحبيل يعفر) من بعد (أبكرب اسعد) وقد جعله شريكاً في

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 423.
٢ Background, P. 143.
٣ Handbuch, S. 104, Anm. 3.
٤ Philby, Highlands, P. 460, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 174.
٥ Mahram, P. 391.

الحكم لـ (أبكرب اسعد) من حوالي السنة (٤٥٠) حتى السنة (٤٤٠) للميلاد[١].

وقد أغفل (فلبي) وغيره اسم (حسان يهأمن) ، وهو ابن (أب كرب اسعد) ، فلم يذكره بعد اسم ابيه ، مع انه ذكر معه في النص Philby 227 ، ونعت مثله بـ (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابــاً في الجبال والتهائم) .

وقد عرف أهل الأخبار اسم (حسان) ، وذكروا انه حكم من بعد ابيــه (أسعد ابو كرب) ، وذكروا اسمه على هذا النحو : (حسان بن تبع اسعد ابي كرب) ، ولم يذكروا لقبه . وقد زعموا انه أغار على طسم وجديس باليمامة وانه حارب (جذيمة) ملك الحيرة ، وكان (جذيمة) قد خرج يريـــد طسماً وجديس في منازلهم من (جوّ) وما حولهم ، فوجد (حسان) قد أغار على طسم وجديس باليمامة ، فانكفأ راجعاً بمن معه ، فأتت خيول (تبع) على سرية لجذيمة فاجتاحتها[٢] . فهو من معاصري (جذيمة) على رأي أهل الأخبار .

و (حسان) هذا هو الذي أفنى (جديساً) على رواية أهل الأخبار ، وهو الذي فقأ عيني (اليمامة) في شعره[٣] ، وان (النمر بن تولب العكلي) ، أشار في شعره الى قصتها ايضاً[٤] .

وذكر (الطبري) ان (حسان بن تبع) الذي أوقـع بجديس ، (هو ذو معاهر ، وهو تبع بن تبع تبان اسعد ابي كرب بن ملكيكرب بن تبع بن أقرن وهو ابو تبع الذي يزعم اهل اليمن انه قدم مكة ، وكسا الكعبة ، وان الشعب من المطابخ انما سُمي هذا الاسم لنصبه المطابخ في ذلك الموضع واطعامه النـاس ، وان أجياداً انما سمي اجياداً ، لأن خيله كانت هنالك . وانه قـــدم يثرب فنزل منزلاً يقال له منزل الملك اليوم ، وقتل من اليهود مقتلة عظيمة بسبب شكاية من شكاهم اليه من الأوس والخزرج بسوء الجوار ، وانه وجّه ابنه حسان الى المسند وشمراً ذا الجناح الى خراسان ، وأمرهما ان يستبقـــا الى الصين ، فمر بسمرقند فأقام عليها حتى افتتحها ، وقتل مقاتلتها ، وسبى وحوى ما فيها ونفذ الى الصين فوافى حسان بها ، فمن أهل اليمن من يزعم انهما ماتا هنالك ، ومنهم من يزعم

---

١ Mahram, P. 394.

٢ الطبري (١/٦١٥ ، ٦٢٩ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٣ الطبري (١/٦٣٠) ، ديوان الأعشى (٧٢ – ٧٤) .

٤ الطبري (١/٦٣١) .

أنهما انصرفا الى تبع بالأموال)[1] .

وقد ذكر (الطبري) أيضاً ان (حسان بن تبان اسعد ابو كرب بن ملكيكرب ابن زيد بن عمرو ذي الأذعار) سـار بقومه من أهل اليمن يريد ان يطأ بهم ارض العرب وارض العجم ، كما كانت التبابعة قبله تفعل ، فلما كان بالعراق قتله أخوه (عمرو بن تبان اسعـد أبو كرب) ورجع (عمرو) بمن معه من جنده الى اليمن . واصيب بمرض نفسي ، وقتل خلقاً من قومه لندمه على قتله أخاه ، ثم لم يلبث أن هلك[2] .

وقد زعم ان (عمراً) هذا عرف بـ (موثبان) ، وانه قتل أخـاه بموضع (رحبة طوق بن مالك) ، التي عرفت بـ (فرضة نعم)[3] .

وقد زعم الأخباريون،ان الأمر قد مرج في حمير بعد وفاة (عمرو) وتفرّقوا، فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة منهم ، يقال له : (لخنيعة ينوفه ذو شناتر) ، فلكهم ، فقتل خيارهم ، وعبث ببيوت أهل المملكة منهم، حتى قتله (ذو نواس) في قصة من القصص المألوف وروده من أهل الأخبار[4] .

وذكر (القلقشندي) ، ان الذي حكم بعد (ربيعة بن نصر) الـذي حكم اليمن على زعمه بعد (تبان أسعد) ، هو (حسان ذو معاهر) ، وهو (ابن تبان اسعد أبي كرب) ، ثم مَلَّكَ اخاه (عمرو بن تبان اسعد أبي كرب) من بعده ، ونعته بـ (الموثبان) ، وذكر أنه حكم ثلاثـاً وستين سنة ، ومات عن أولاد صغـار واكبرهم قد استهوته الجن ، فوثب على الملك (عبد كلال ابن مثوب) ، فلك أربعاً وتسعين سنة ، وهو تبع الأصغر[5] .

قد ترك لنا (شرحبيل يعفر) (شرحب ايل يعفر) نصاً مهماً وسمه علماء العربيات الجنوبية بـ Glaser 554 [6] ، وهو وثيقة تتعلق بتصدع سدّ مأرب الشهير

---

١ الطبري (١/٦٣٢) .
٢ الطبري (٢/١١٥ وما بعدها) .
٣ الطبري (٢/١١٧) .
٤ الطبري (٢/١١٧) وما بعدها .
٥ صبح الأعشى (٥/٢٣) .
٦ CIH 540, Glaser 554 + 410 + 408 + 408bis + 406 + 407 + 409, CIH, IV, II, III, P. 262, Glaser, Zwei Inschriften über den Dammbruch von Marib, in Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, II, (1897), S. 372, Seper., S. 13, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 493.

في أيامه واعادة بنائه ، فقصّ علينا فيه الحادث ، وتحدث عن مقدار ما أنفقه على الفعلة والعمال لإعادة البناء . ويتألف هذا النص من مئة سطر . جاء فيه : أن (شرحبيل يعفر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في النجاد والتهائم ابن أبي كرب اسعد ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في النجاد والتهائم) ، قام بتجديد بناء سد مأرب وترميمه على مقربة من موضع (رحب) (رحاب)[١] . وعند (عبرن) (عبران) ، وقام باصلاح أقسام منه حتى موضع (طمحن) (طمحان) (الطمح) ، كما قام بحفر مسايل المياه وبناء القواعد والجدران بالحجارة ، وقوّى فروعه ، وبنى اقساماً جديدة ، وأوصلها بعضها ببعض بين (غيلن) (غيلان) (الغيل) و (مفلل) (م ف ل ل) (مفلول)،وجدد سد (يسرن) (يسران) ، وقام باعاشة العمال ومن اشتغل ببنائه ، وتمت هذه الأعمال في شهر (ذي داون) (ذي دأون) من سنة (٥٦٤) (٥٦٥) من التأريخ الحميري ، أي سنة (٤٤٩) (٤٥٠) (٤٥٦) للميلاد[٢]. ويشير هذا العمل بالطبع الى حدوث تصدع في السدّ اضطر الملك الى تجديد بناء أقسام منه،وترميم ما أمكن ترميمه من أقسام اخرى . واضافة أقسام جديدة اليه .

ويظهر من هذا النص ايضاً ان السد قد تهدم بعد مدة قصيرة ، وذلك في شهر (ذو ثبتن) (ذو الثبت) من سنة (٥٦٥) من التقويم الحميري ، أي سنة (٤٥٠) أو (٤٥١) ، (٤٥٥) (٤٥٦) للميلاد ، فأثر ذلك تأثيراً سيئاً جداً فيمن كان ساكناً في جواره ، حتى اضطر من كان ساكناً في (رحبتن) (الرحبة) الى الفرار الى الجبال خوف الموت[٣] ، فأسرع الملك الى الاستعانة بحمير وبقبائل حضرموت لاعادة بناء السد ، فتجمع لديه زهاء عشرين الف رجل اشتغلوا بقطع الحجارة من الجبال وحفر الأسس وتنظيف الأودية وانشاء خزانات لخزن المياه وعمل أبواب ومنافذ لمرور الماء والسيطرة عليه ، حتى تمّ ذلك في شهر (ذو دأو) من سنة (٥٦٥) من تأريخ حمير[٤] . وذكر ما أنفقه على العمال وما قدمه لهم من

---

١ (رجم) ، السطر السادس وما بعده من النص .

٢ Glaser, Mitt., S. 379, Sep., S. 20, Handbuch, S. 105, Background, P. 118, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 494.

٣ السطر ٦٨ من النص .

٤ أي سنة (٤٥٠) أو (٤٥١) للميلاد .

طعام وما ذبحه من بقر وأغنام ، وما صرفه من دبس (دبسم) وخمر وغير ذلك مما ذكره وفصله[1] . وقد استخدم الملك عشرين الف رجل لاصلاح السد[2] .

لقد قلّ شأن مأرب في هذا العهد ، وأخذ الناس يرحلون عنها الى مواضع أخرى مثل (صنعاء) التي تألق نجمها حتى صارت مقراً للحكام الذين أقاموا في قصر (غندن) (غندان) ، أي (غمدان) ، وقد يكون لتصدع السد مراراً ، دخل في هذا التحول ، حيث أجبر المزارعين على ترك أرضهم التي أصابها التلف والجفاف والارتحال الى ارضين أخرى، فتركوها الى الهضاب والجبال. وقد يكون للتحول السياسي الذي اصاب هذا العهد دخل ايضاً فيه[3] . .

وفي تصدع السد بعد مدة ليست طويلة من ترميمه واصلاحه وتجديده ، وبعد انفاق أموال طائلة عليه واشتغال آلاف من العمال في بنائه ، شيء يثير السؤال عن سبب سقوطه أو سقوط جزء منه بهذه السرعة ، فهل تهدّم من سقوط أمطار غزيرة جداً في هذا العام لم يكن في طاقة السد احتمالها فسقط ؟ او ان بناء السد لم يكن قد كمل تماماً ، فسقطت أمطار غزيرة سببت انهيار الأماكن الضعيفة من المواضع التي لم تكن قد تمت ، فانهار لذلك ؟ او انه انهار بفعل كوارث طبيعية مثل زلزال أو بركان ؟ الى هذا الرأي الأخير يميل (فلبي) في كتابه « سناد الاسلام »[4] .

إن مما يؤسف عليه حقاً ان هذا النص لم يذكر أسماء القبائل التي هربت من (رحبتن) (رحبت) (الرحبة) خوفاً من الهلاك . وعلى الجملة ، فالمستفاد منه بكل صراحة ان القبائل التي كانت تقطن هذه المنطقة تفرقت وتشتتت لتهدم السد . وفيه دليل على وجود أصل تأريخي للروايات العديدة التي يرويها الأخباريون عن تهدم سد مأرب وتفرق سبأ[5] . ولكننا لا نستطيع بالطبع أن نقول ان هذا الحادث الذي وقع في أيام (شرحبيل) هو الحادث المقصود في روايات الأخباريين، وهي روايات يتغلب عنصر الخيال والابتداع والمبالغات فيها على عنصر الحقيقة والتأريخ .

١ راجع السطر ٨٤ وما بعده حتى نهاية النص ، Discoveries, P. 74.
٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 494, Glaser 554, CIH, 540, 554.
٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 493.
٤ Background, P. 118.
٥ Glaser, Mitt., S. 387, Sep., S. 28.

وفي النص كما نرى ونقرأ جملة مهمة تشير الى انتشار عقيدة التوحيد في ذلك الزمن بين اليمانين ، والى الابتعاد عن آلهة اليمن القديمة . وتشير الى ظهور (إلـه السماء والأرض) أو (إلـــه السماوات والأرض) . فهو إلـه واحد ، يرعى ملكوت السماء والأرض . وفي هذه العقيدة اعتقاد بوجود إلـه واحد . فقد ورد في النص : (بنصر وردا الهن بعل سمين وأرضن)[1] . أي (بنصر وبعون الإلـه رب السماوات والأرض) ، وهي عقيدة ظهرت عند أهل اليمن بعد الميلاد بتأثير اليهودية والنصرانية ولا شك .

وفي جملة (الهن ذلهو سمين وأرضن) الواردة في النص : Ryckmans 507 ومعناها : (الإلـه الذي له السماوات والأرض)[2] . تعبير عن التوحيـــد أيضاً وهي من نص يرجع الى هذا الملك أيضاً . فنحن اذن في عصر اخذت عقيـــدة التوحيد تنتشر فيه .

وقد انتقل الحكم بعد (شرحبيل يعفر) (شرحب ايل يعفر)[3] الى (عبـد كلال) (عبد كللم) (عبد كلالم) على رأي (هومل) . وجاراه (فلبي) في رأيه هذا ، وجعل حكمه منذ سنة (٤٥٥ م) حتى سنة (٤٦٠ م)[4] . ولم يشرح (هومل) الأسباب التي دفعته الى اعتبار (عبد كلال) ملكاً .

أما (فلبي) ، فرأى انه كان كاهناً ، وسيد قبيلة ثار على ملكه ، طمعاً في الملك أو إخماداً للثورة التي أجج الملك نيرانها على آلهة قومـه ، فغلبه ، وربمـا كان ذلك بفضل مساعدة مملكة (اكسوم) له . ولكنـه لم ينعم بالملك طويلاً ، فلم يزد مدة حكمه على خمس سنين[5] .

وقد ورد اسم (عبد كلال) في النص الموسوم بـ Glaser 7[6] . وذكر معه اسم (هنام) (هنم) (هانيء) و (هعلل) . وهما ابناه . ووردت بعـــد

---

١ السطر (٨١) وما بعده .
٢ Le Muséon, 1961, 1-2, P. 174.
٣ Handbuch, S. 104.
Handbuch, P. 104.
٤ Background, P. 143, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 174.
٥ Philby, Highlands, P. 260.
٦ CIH 6, IV, I, I, P. 15, Glaser 7, Halevy 3, Guttenden 3, Fresnel 3, D.H. Muller, Siegfried Langer's Reiseberichte, Leipzig, 1884, S. 52.

أسمائهم عبارة : (الهت قولم) ، أي (سادة أقيال) ، وهي جملة تدل على انه هو وابناه كانوا أقيالاً ، فان كانت كلمة (قولم) اسم علم ، صار معناها (آلهة قولم) ، أي (سادة قول) ، على اعتبار ان (قول) اسم قبيلة ، ولا يفهم من التفسيرين على كل حال ان (عبد كلال) كان ملكـاً . وقد دوّن هذا النص عند بنائهم بيت (يرت) : (براو وهشقرن بتهمو يرت).وذكرت بعد هذه الكلمات جملة : (بردا رحمنن) ، أي : (بعون الرحمن) وذلك في سنة (٥٧٣) من التأريخ الحميري ، المقابلة لسنة (٤٥٨) الميلادية[1] . وليست في هذا النص اشارة لا الى ثورة ولا الى ملك ، ولا الى تعلق بآلهة قديمة ودفاع عنها بل الأمر على العكس ، فجملة (بردا رحمنن) تدل على انه كان مثل (شرحبيل يعفر) موحداً أيضاً ، يدين بإلـه واحد ، هو (الرحمن) الذي ظهرت عبادته متأخرة كذلك ، وانه لم يكن على دين اجداده في عبادة (المقه) وبقية الأصنام.

وذكر الأخباريون ان من ملوك حمير ملكاً اسمه (عبد كلال) ، وكان مؤمناً يدين بدين المسيح ، فآمن بالنبي قبل مبعثه . ومن ولده (الحارث بن عبدكلال) وهو أحـد الملوك الذين وفدوا عـلى رسول الله من ملوك حـمير ، فأفرشهم رداءه ، وهم : (الأبيض بن حمـال) ، و (الحارث بن عبـد كلال) ، و (أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة بن الصباح) ، و (وائل بن حجر الحضرمي). يضاف اليهم (جرير بن عبدالله البَجَلي) ، و (عبد الجد الحكمي) في رواية أخرى[2] . ودوّن اسمـه في نسخة (كتاب التيجان) المطبوعة على هذه الصورة (عبد كاليل بن ينوف) ، وجعل ملكه أربعاً وستين سنة ، وذكر أنه حكم بعد (عمرو بن تبان) ، وأنه كان مؤمناً على دين عيسى ، ولكنه ستر إيمانه[3] .

وجعله بعض المؤرخين (عبد كلال بن مثوب) ، وذكروا انه وثب عـلى ملك التبابعة بعد وفاة (عمرو بن تبان اسعد) عن أولاد صغار،وأكبرهم استهوته الجن ، فلك أربعاً وتسعين سنة ، وهو تبع الأصغر ، وله مغاز وآثار بعيدة فلما توفي ملك اخوه (مرثد)،وقد ملك سبعة وثلاثين عاماً[4] .

---

١ Background, P. 117, Sab. Inschriften, S. 192.

٢ منتخبات (ص ٩٣) .

٣ التيجان (ص ٢٩٩) ، حمزة (ص ٨٧) .

٤ التيجان (ص ٢٩٩) ، صبح الأعشى (٢٣/٥ وما بعدها) .

ومن روايات الأخباريين هذه ومن تشابه الاسمين ، استنتج (فون كريمر) و (هومل) وغيرهما أن (عبد كلال) المذكور في النص هو (عبد كلال) المذكور عند الأخباريين ، وأنه كان لذلك ملكاً[١] .

و (عبد كلال) ، هو رجل ثائر لم يكن من ابناء الملوك ، وانما اغتصب العرش اغتصاباً على رأي أهل الأخبار ، وقد زعم بعضهم ان الذي حكم بعده اخوه لأمه واسمه (مرثد) ، وقد حكم سبعاً وثلاثين سنة . ثم ملك من بعده ابنه (وليعة بن مرثد) ، ثم ملك من بعده (ابرهة بن الصباح بن لهيعة بن شيبة بن مرثد بن ينف بن معد يكرب بن عبد الله بن عمرو بن ذي أصبح ، الحارث بن مالك) ، وقيل انما ملك تهامة فقط[٢] .

وذكر (الهمداني) ، أن (عبد كلال) ونعته بـ (الأكبر ذي الحدث)، كان قائد (حسان بن تبع) . وكان على مقدمته الى اليمامة يوم قتل جديساً ، وقريش تقول : إن (حسان بن عبد كلال هذا حاربهم وأسروه) ثم ذكر ان (حسان بن عبد كلال بن ذي حدث الحميري) ، أقبل من اليمن (في حمير وقبائل من اليمن عظيمة ، يريد أن ينقل احجار الكعبة من مكة الى اليمن ، ليجعل حج الناس البيت عنده والى بلاده ، فأقبل حتى نزل نخلة ، فأغار على سرح الناس ومنع الطريق ، وهاب أن يدخل مكة ، فلما رأت كنانة وقريش وقبائل خندف ومن كان معهم من أفناء مضر ذلك ، خرجوا اليه ورئيس القوم يومئذ (فهر بن مالك) ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزمت حمير وأسر حسان بن عبد كلال ملك حمير ، أسره الحارث بن فهر ، وقتل في المعركة فيمن قتل : قيس بن غالب بن فهر . وكان حسان عندهم بمكة أسيراً ثلاث سنين ، حتى افتدي منهم ، فخرج به ، فمات بين مكة واليمن)[٣] .

وقد علّق (الهمداني) بعد ذلك على هذا الخبر ، فقال : (ما سمعت العلماء ولا أحد من عُرّاف حمير ، يثبت هذه الحرب التي كانت بين حمير وقريش ، وانما كانت خزاعة الغالبة في عصر فهر على مكة . ولم يكن همّ بحمل حجارة

---

١ Hartmann, Arabische Frage, S. 486, 492, Wellhausen, Skizzen und Vorarbeiten, IV, S. 191, Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschriften, S. 192.

٢ صبح الاعشى (٢٤/٥) .

٣ الاكليل (٢/٣٥٧ وما بعدها) .

البيت سوى تبع بمشورة هذيل بن مدركة)[1] . فهو مثل سائر اهل اليمن المتعصبين لقحطان لا يؤيد خبر تلك الحرب ، التي تجعل النصر لأهل مكة . ويضع تبعة ما يذكره أهل الأخبار من نقل حجارة الكعبة الى اليمن على عاتق (هذيل بن مدركة)، من سادات مكة .

وشاهدت اليمن في سنة (٤٦٠) للميلاد أو قبل ذلك بقليل ملكاً جديداً اسمه (شرحبيل يكف) (شرحب ال يكف) (شرحب ايل يكوف)، كانت نهاية حكمه في سنة (٤٧٠) للميلاد على تقدير (هومل) و (فلبي)[2] . وهو ملك لا نعرف اسم أبيه ، ولا نعرف علاقته بالملك السابق . ويرى (فلبي) انه على الرغم من هذا اللقب الطويل : (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في الأطواد وفي تهامة) ، الذي يشير الى تملك صاحبه العربية الجنوبية الغربية ، فقد ظل الأحباش في بقعتهم الضيقة التي ارتكزوا عليها يحاربون حكومة (حمير) وهم البقية الباقية من عهد الإحتلال السابق[3] .

وقد جاء اسم (شرحب ايل يكف) (شرحبيل يكف) في كتابة مؤرخة بسنة (٥٧٥) من التقويم الحميري ، المقابلة لسنة (٤٦٠) للميلاد . وقد وردت في الكتابة جملة : (رحمنن وبنهو كرشتش غلبن) ، أي (الرحمن وابنه المسيح الغالب) ، وقد استعمل لفظة (كرشتش) في مقابل لفظة Christus مما يدل على ان صاحبها نصراني . وقد استعمل المصطلح اليوناني ، ويظهر ان نصارى اليمن كانوا قد أخذوه من المبشرين ، وعرّبوه على الصورة المذكورة . وقد ذكر بعد تلك الجملة اسم الملك ونعته الذي هو : (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في النجاد وفي التهائم)[4] .

وقد بقي من تأريخ النص اسم الشهر وهو (ذ حجت)،أي (ذو الحجة) (ذو حجة) والعدد الأول من اسم السنة وهو خمسة . ويرى (فلبي) احتمال كون السنة (٥٨٥) أو (٥٧٥) من التأريخ الحميري ، أي سنة (٤٧٠) أو (٤٦٠)

---

١ الاكليل (٣٥٩/٢) .

٢ Background, P. 143, Highlands, P. 260, Handbuch, S. 105, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 174.

٣ Philby, Highlands, P. 260.

٤ A. Jamme, La Dynastie de Sharahbi'il Yakuf et la Documentation Epigraphique Sud-Arabe, Istanbul, 1961, P. 4.

للميلاد[1] .

وورد اسمه في كتابة أخرى ناقصة وقد سقطت منها حروف وكلمات[2] .

وقد ذهب (جامه) الى أن (شرحبيل يكف) (شرحب ايل يكوف) ، كان قد حكم حكماً منفرداً ، وذلك من سنة (٥٧٠) حتى سنة (٥٨٠) من التقويم الحميري ، ثم اشرك معه أولاده الثلاثة في الحكم ، وذلك من سنة (٥٨٠) حتى سنة (٥٨٥) من التقويم المذكور ، ثم حكم مع ولدين من ولده ، وذلك من سنة (٥٨٥) حتى سنة (٥٩٠) من التقويم الحميري ، ثم حكم ابنان من أبنائه وذلك من سنة (٥٩٠) حتى سنة (٥٩٥) من التقويم المذكور ، ثم حكم من بعدهما (معد يكرب ينعم) حكماً منفرداً وذلك من سنة (٥٩٥) حتى سنة (٦٠٠) من ذلك التقويم ، ثم خلفه (عبد كلال) الذي حكم من سنة (٦٠٠) حتى سنة (٦٠٢) من التقويم الحميري[3] .

ووصل الينا نص أرخ بسنة (٥٨٢) من التأريخ الحميري ، أي سنة (٤٦٧) للميلاد ، وفيه كلمات مطموسة ، منها كلمة أو كلمات سقطت بعد كلمة (شرحب ايل) (شرحبيل) ، وبعدها (معد كرب ينعم) (معد يكرب ينعم) . ويستدل بتأريخ هذا النص على ان المراد بـ (شرحبيل) (شرحب ايل) الملك (شرحبيل يكف) (شرحب ايل يكف) الذي نتحدث عنه . ولم يرد في هذا النص اسم ابن آخر من أبنائه غير هذا الابن،وهو (معدكرب ينعم) (معد يكرب ينعم)[4] .

وقد وجد مدوناً في احدى الكتابات أسماء ثلاثة اولاد من اولاد (شرحبيل يكف) ، هم : (نوفم) (نوف) (نوّاف) (نائف) ، و (لحيعت ينف) (لحيعث ينوف) ، و (معديكرب ينعم) وقد نعتوا جميعاً بالنعت الملكي المعروف[5]

---

١ CIH, IV, III, I, P. 78, Le Muséon, 3-4, 1964, P. 270, Jamme, La Dynastie de Sharahbi'il Yakuf, P. 4.

٢ Jamme, La Dynastie., P. 7.

٣ Jamme, La Dynastie, P. 20.

٤ Background, P. 143, Philby, Highlands, P. 260, Handbuch, S. 105, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 174, Joseph et H. Derenbourg, Etudes sur L'épigraphie du Yemen, P. 70.

٥ Jamme, La Dynastie, PP. 8, 19, REP. EPIG. 4919, CIH 537.

مما يدل على أنهم كانوا قد اشتركوا جميعاً في الحكم .

وقد ورد اسم (شرحبيل يكف) في عدد من كتابات أخرى . وقد ذكر معه في بعضها اسم ولدين من أولاده هما : (لحيعت ينف) و (معد يكرب ينعم) (معديكرب ينعم) ، وقد لقبا بلقب (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في الجبال وفي تهامة) ، مما يدل على أنهما حكما حكماً مشتركاً وكانا ملكين[1] .

وحكم بعد (شرحبيل يكف) – في رأي (هومل) – ولداه (معديكرب يهنعم) و (لحيعثت ينف) (لحيعث ينف) (لحيعث ينوف) ، وذلك من حوالي سنة (٤٧٠ م) حتى سنة (٤٩٥ م)[2] . أما (فلبي) ، فقد وضع في قائمته التي رتبها في كتابه (سناد الاسلام) للملوك سبأ ، اسم (نوف) بعد اسم (شرحبيل يكف) ، وقدّر مدة حكمه منذ سنة (٤٧٠ م) حتى سنة (٤٨٠ ٤٩٠ م) ووضع اسم (لحيعثت ينف) بعده ، وجعل مدة حكمه منذ سنة (٤٨٠ ب. م.) حتى سنة (٥٠٠ ب. م.)[3] .

و (لحيعثت ينف) هو (لحيعة بن ينوف ذو شناتر) المذكور عند أهل الأخبار . وقد زعم بعضهم انه حكم سبعاً وعشرين سنة[4] .

وقد ورد اسم (معد يكرب يهنعم) (معد يكرب ينعم) واسم شقيقه (لحيعثت ينف) (لحيعت) في النص : Ryckmans 264 وفي النص CIH 620[5] وورد اسم (لحيعثت) وورد معه اسم (نوف) ، وهو شقيقه في النص : Ryckmans 203[6] .

---

١ CIH 537, IV, II, III, P. 257, CIH 644, 620, Background, P. 118, Le Muséon, LXIII, 3-4, (1950), P. 270, Ott. Mus. 29, CIH, IV, III, I, P. 78, Nordtmann und Müller, Sabaische Denkmaler, (1883), S. 85, Seetzen 4, CIH, IV, III, I, P. 53, J.H. Mordtmann, Miscellen zur Himjarischen Alterthumskunde, In ZDMG., XXXI, (1877), S. 89-90, Hartmann, Arabische Frage, (1909), S. 163, Jamme, La Dynastie, P. 10.

٢ Handbuch, S. 105.

٣ Background, P. 143, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 174.

٤ صبح الأعشى (٥/٢٤) ، الطبري (٢/١١٧) .

٥ CIH 620, IV, III, P. 53, Mordtmann und Muller, Sabaische Denkmaller, 1883, S. 85, Mordtmann, Miscellen, zur Himjarischen Alterthmskunde, In ZDMG., XXXI, (1877), S. 89, Jamme, La Dynastie, P. 17.

٦ Le Muséon, LXIII, 3-4, (1950), P. 271.

وقد ذكر (فلبي) انــه في حوالي سنــة (٤٩٥م) شبّت ثورة قام بها (مرثد الن) (مرثد علن ؟) ، غير انها احبطت . ووضع بعد اسم (لحيعثت ينف) اسم (معد يكرب ينعم) ، وقدّر مدة حكمه بعشر سنين ، منذ سنة (٤٩٠م) حتى سنة (٥٠٠م) ، أي انه شارك ، على رأيه، أخاه في الحكم[1] .

أما الذي حكم بعد الأخوين (معد يكرب يهنعم) و (لحيعثت ينف) – في رأي (هومل) – فهو (مرثد الن) وقال انه قد حكم من حوالي سنة (٤٩٥م) حتى سنة (٥٠أ٥م)[2] .

أما (جامه) ، فقد وضع اسم (عبد كللم) (عبد كلالم) ، أي (عبد كلال) بعد اسم (معد يكرب ينعم) ، وقد جعل حكم (معد يكرب) فيما بين السنة (٥٩٥) والسنة (٦٠٠) من التقويم الحميري ، اي بين سنة (٤٨٠) أو (٤٨٦) للميلاد والسنة (٤٨٥) او (٤٩١) للميلاد . وجعل حكم (عبد كلال) فيما بين السنة (٦٠٠) والسنة (٦٠٢) من التقويم الحميري ، أي سنة (٤٨٥) أو (٤٩١) للميلاد ، والسنة (٤٨٧) أو (٤٩٣) للميلاد . ثم جعل فراغاً لا يدري من حكم فيه ، جعله يمتد من السنة (٦٠٢) حتى السنة (٦١٠) من التقويم الحميري ، أي ثماني سنين ، ثم ذكر بعده اسم الملك (مرثد الن ينف) (مرثد علن) (مرثد علان) ، وجعل حكمه من سنة (٦١٠) حتى السنة (٦٢٠) من التقويم الحميري ، أي من سنة (٤٩٥) او (٥٠١) حتى السنة (٥٠٥) او (٥١١) للميلاد[3] .

ووصل الينا نص وسم بـ CIH 596 ، وهو ناقص ويا للأسف ، ورد فيه اسم الملك (مرثد الن ينف) (مرثد الن ينوف) وقد لقب فيه باللقب المألوف: (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في الجبال وفي التهائم)[4] ، يظهر انه الملك (مرثد الن) الذي عناه (هومل) . وقد اصيبت اسطر النص بأضرار ، أتلفت كلمات منه وأفسدت علينا المعنى . وقد وردت في السطر السابع

---

١ Background, P. 143.

٢ Handbuch, S. 105, Philby, Highlands, P. 260, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 174.

٣ Jamme, La Dynastie, P. 20.

٤ CIH 596, IV, III, P. 1, Rehatsek 2, E. Rehatsek, Twele Sabaean Inscriptions, In Journal of the Bombay Branch of the Royal Asiatic Society, X, 1874, P. 140.

منه كلمة (ومهرجتّم) ، مما يفهم ان حرباً وقعت في البـلاد في تلك الأيام . ف (الهرج) في العربيات الجنوبية بمعنى الحرب ، وان فتنة حدثت ، لا ندري سببها . ومهما يكن من شيء،فهي لم تكن بعيدة عهد عن ايام حكم (ذي نواس) ذلك العهد الذي انتهى بدخول الحبشة ارض اليمن .

ووضع (هومل) بعد اسم (مرثد الن) اسم (ذي نواس) ، وقد حـكم – على تقديره – من سنة (٥١٥ م) حتى سنة (٥٢٥ م) ، وبه ختمت – في رأيه – سلسلة ملوك الحميريين[١] .

وقد عثر على كتابة وسمت بـ Philby 228 ورد فيهـا اسم ملك من ملوك (سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهـا في الجبال وفي تهامـة) ، هو (معد يكرب يعفر)[٢] . وأرخت هذه الكتابة بشهر (ذي القيض) (ذ قيضم) من سنة (٦٣١) من التأريخ الحميري الموافقة لسنة (٥١٦ م)[٣] . ومعنى هذا أن هذا الملك قد حكم قبل حكم (ذي نواس) بمدة قليلة . ونحن لا نعلم في الزمن الحاضر شيئاً من صلة هذا الملك بـ (ذي نواس) .

وقد عبث الدهر ببعض كلمات هذا النص وحروفه،فأضاع علينا معاني مفيدة . وردت فيه أسماء اعلام ، هي : (سبأ) ، و (حميرم) (حمير)،و (رحبتن) أي (رحبة) (الرحابة) . وقد ورد اسم (رحبتن) في عـدد من النصوص على انه اسم موضع[٤] . أما هنا ، فهو اسم قبيلة ، لورود كلمـة (أشعبهمو) قبل (سبا وحميرم ورحبتن)[٥] . ووردت كلمة (واعربهمو) ، وبعدهـا جملة (كدت ومذحجم ... وبني ثعلبت ومذر وسبع)[٦] . وفي النص حروف طامسة حرمتنا معرفة بعض الأعلام .

واما (كدت) ، فقد قلت إن رأي علماء العربيات الجنوبية انها (كندة) . ويظهر من ورود اسمها في النصوص التي ترجع الى ما بعد الميلاد ، أنها اخذت

---

١ Handbuch, S. 105, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 174.

٢ Le Muséon, LXIV, 1-2, (1951), P. 103, The Geographical Journal, Vol. CXVI, Nos. 4-6, (1950), P. 214, Le Muséon, 3-4, 1953, P. 307, 1961, 1-2 P. 174.

٣ السطر التاسع من النص .

٤ CIH 289, IV, I, III, P. 300, Glaser, Die Abessinier, S. 74, 117.

٥ السطر السادس من النص .

٦ السطران السابع والثامن من النص .

تؤثر تأثيراً واضحاً في سياسة العربية الجنوبية بعد الميلاد.ولا سيما بعد توسع سلطان القبائل وتدخل الأعراب في الشؤون السياسية لعدم الاستقرار ولتـدخل الحبش في شؤون العربية الجنوبية ، وتقاتل الملوك والاقيال بعضهم مع بعض .

ويتبين من ورود كلمة (اعربهمو) قبل كلمة (كـدت) في النص ، أن قبيلة كندة كانت من القبائل الأعرابية أي البدوية ، ولم تكن من القبائل المستقرة، النازلة في منازل ثابتة . ولهذا استعان بها حكام اليمن في تأديب القبائل اليمانية او قبائل معد وقبائل نجد التي كانت تغزو اليمن ، كما كانت نفسها تهـاجم حكام اليمن وتغزو أرضهم ، فصار لها من ثم شأن يذكر في سياسة اليمن في هذا الوقت.

و (مذحجم) قبيلة (مذحج) ، وهي من القبائل المعروفة ، وينسبها أهل الأنساب الى مذحج بن مالك بن أدد . ويذكرون ان مذحج اكمة ولدت عليها أمهم فسموا مذحجاً[1] وقد ورد اسم هذه القبيلة في النص : Ryckmans 508[2] المدوّن في ايام الملك (يوسف أسأر) الذي سأتحدث عنـه ، كما ورد في نص قتباني ، هو النص الذي وسم بـ REP. EPIG. 4688[3] . وقد ذكر بعـده اسم قبيلة (رغض) ، ويظن البعض أن في قراءة الحرف الأول شيئاً من التحريف، وأن الحرف الأول هو حرف (ب) لا (راء) ، فيكون اسم القبيلة (بغض) لا (رغض) ، وهو اسم القبيلة (بغيض) . وبغيض من القبائل العربية المعروفة.

وأما (ثعلبة) ، فهي قبيلة (ثعلبان) التي ورد اسمها في السطر الثالث عشر من نص (سميفـع أشوع) المحفوظ في متحف (استانبول)[4] ، وفي نص : Philby 123 حيث ورد : (الهت ثعلبن) ، (آلهة ثعلبان) ، اي : سادة قبيلة (ثعلبان)[5] .

وذكر اسم (دوس ثعلبان) في قصة تعذيب (ذي نواس) لنصارى(نجران).

---

١ الاشتقاق (ص ٢٣٧) .

٢ الفقرة السابعة منه .

٣ السطر الثاني منه ، British Museum 126, 349, Le Muséon, 1953, 3-4, P. 301, Bibliotheca Orientalis, X, 1953, P. 150.

٤ Istanbul 7608, bis, 13, Le Muséon, LXIV, 1-2, (1951), P. 105, Le Muséon, LIX, 1-4, (1964), P. 171, REP. EPIG. 2633, V, I, P. 5.

٥ Le Muséon, LX, 1-2, (1947), P. 150.

ويرى علماء العربيات الجنوبية وجود صلة بين قبيلة (ثعلبان) و (دوس ثعلبان)[1] .
وورد اسم (دوس ثعلبان) في أثناء كلام الطبري على (ذي نواس)[2] .

ويعرف (ذو ثعلبان) المتقدم ذكره بـ (ذي ثعلبان الأصغر) ، وقد قال عنه (نشوان بن سعد الحميري) إنه من نسل (ذي ثعلبان الأكبر) ، وهو ملك من ملوك حمير ، وأحد المثامنة منهم . واسمه (نوف بن شرحبيل بن الحارث)، وزعم ان (ذا ثعلبان الأصغر) هو الذي أدخل الحبشة الى اليمن غضباً لما فعل ذو نواس بأهل الأخدود من نصارى نجران[3] .

واما (مذر) و (سبع) ، فقبيلتين . واظن ان في قراءة اسم القبيلة الأولى بعض التحريف . وان الحرف الذي قرأ بـ (ذ) يجب ان يقرأ (ضاداً) (ض)، وتكون القراءة عندئذ (مضر) ، وهو الاسم الشهير المعروف عند النسابين . وقد رجعت الى الصورة (الفوتوغرافية) المنشورة في مجلة **Le Muséon** ، فوجدت ان الحرف المذكور هو أقرب الى حرف (الضاد) من حرف (الذال)[4] . والذين يقرأون المسند يعرفون ان من السهل الوقوع في الخطأ في قراءة الحرفين اذا كانا قد كتبا على أحجار قديمة وقد عبث الدهر بتلك الأحجار لأن بين الحرفين شيئاً من التشابه . ويظهر لدي ان رسم الحرف أقرب الى الضاد من الذال، لوجود أثر لخط في أعلى وفي أسفل الحرف .

ويفهم من هذا النص ان حرباً او فتنة كبيرة كانت قد حدثت في ايام هذا الملك ، اسهمت فيها القبائل المذكورة، وهي : سبأ وحمير ورحبة وكدت (كندة) ومضر وثعلبة ، وذلك قبل احتلال الحبش لليمن بقليل او في ايام (معد يكرب يعفر) ، وفي سنة (٥١٦م)[5] . وقد مهدت هذه الفتنة الطريق للأحباش أن يدخلوا الى العربية ويحتلوها بسهولة ، وذلك بسبب الخصومات التي كانت بين القبائل وظهور الروح القبلية التي لا تعرف التعاون الا في سبيل مصلحة القبيلة حسب.

---

١ Le Muséon, LXIV, 1-2, (1951), P. 105, M. Hartmann, Die Arabische Frage, S. 335.

٢ الطبري (١/٩٢٥) (طبعة ليدن) ، (٢/١٠٦) (طبعة المطبعة الحسينية بمصر) .

٣ شمس العلوم (حـ١ ق١ ص ٢٥١) .

٤ Le Muséon, 3-4, 1953, P. 307, Plate VI, Ryckmans 510.

٥ The Geographical Journal, Vol., CXVI, Nos : 4-6, 1950, P. 214.

وتولى الملك بعد (معد يكرب يعفر) الملك ذو نواس، وهو زرعة ذي نواس بن تبان اسعد ابي كرب بن ملكيكرب بن زيد بن عمرو في رأي الأخباريين[1]، وهو يوسف ذو نواس بعد تهوّده في رأيهم ايضاً . ولقد زعم بعض أهل الأخبار انه كان من أبناء الملوك ، وزعم بعض آخر انه لم يكن من ورثـه الملك ، ولا من أبناء من حازه قبله ، وانما أخذه أخذاً[2] . قيل : كانت له ذؤابتان تنوسان على عاتقه بهما سمي ذا نواس[3] .

ولا يعرف أهل الأخبار اسم الملك (معد يكرب يعفر) ، بـل ذكروا اسم ملك آخر قالوا انه حكم قبل (ذي نواس) زعموا ان اسمـــه (لخيعة ينوف ذو شناتر) ، وقالوا انه لم يكن من بيوت المملكة ، بل كان من حمير ، وثب على الملك ، فملك حمير ، وقتل خيارهم ، وعبث ببيوت أهل المملكة منهم . وكان أمرءاً فاسقاً ، اذا سمع بالغلام من ابناء تلك الملوك زرعة ذو نواس بعث اليه ، ليفعل به كما كان يفعل بأبناء الملوك قبله ، فلما خلا به ، وثب عليه ذو نواس بالسكين فطعنه به حتّى قتله ، ثم احتز رأسه ، فخرجت حمير والأحراس في أثر ذي نواس حتّى أدركوه ، فقالوا له : ما ينبغي لنا ان علكنا الا انت اذ أرحتنا من هذا الخبيث فملكوه ، واستجمعت عليه قبائل حمير وقبائل اليمن ، فكان آخر ملوك حمير[4] .

أما (ابن قتيبة) ، فقد زعم ان (ذا شناتر) رجل لم يكن من أهل بيت الملك ولكنه من أبناء المقاول ، أي من طبقة الأقيال (اقول) . وقد اتفق مع غيره من أهل الأخبار في قصة غلظه وفحشه ، وفعله القبيح بأبنـاء الملوك ، وفي ارساله الى ذي نواس يستدعيه اليه ليفعل به ما كان يفعله بغيره ، وفي قتله اياه[5] .

وتهوّد ذو نواس وتهوّدت معه حمير،وتسمى (يوسف).هذاما عليه أكثر أهل الأخبار[6]

---

١ التيجان (٣٠٠) ، الطبري (١٠٣/٢) (المطبعة الحسينية) ، المعارف ، لابن قتيبة (٣١١) .
٢ الاصمعي ، تاريخ ملوك العرب الأولية (ص ٤٣ وما بعدها) .
٣ المعارف ، لابن قتيبة (٣١١) .
٤ الطبري (١١٨/٢ وما بعدها) (دار المعارف) .
٥ المعارف (٢٧٧) .
٦ الطبري (١١٩/٢) (دار المعارف) ، المعارف (٢٧٧) .

وقد ذكر (ابن كثير) في تفسيره ، انه كان مشركاً[١] .

وبهذه القصة والطريقة صيّر أهل الأخبار ابتداء ملك (ذي نواس) .

وذكر (ابن هشام) ان ذا نواس كان آخر ملوك حمير ، وذكر آخرون ان ذا جدن،وهو ابن ذو نواس قد خلف أباه على حمير[٢] . وفي رواية أخرى ان ملك حمير لما انقرض وتفرق في الأذواء من ولد زيد الجمهور ، قام ذو يزن بالملك ، واسمه علي بن زيد بن الحرث بن زيد الجمهور ، أو علي بن الحرث بن زيد بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد الجمهور،فسار عليه الحبشة وعليهم أرياط ، ولقيهم فيمن معه ، فانهزم واعترض البحر فأقحم فرسه وغرق ، فهلك بعد ذي نواس وولى ابنه مرثد بن ذي يزن مكانه،وهو الذي استجاشه امرؤ القيس على بني أسد .

وكان من عقب ذي يزن أيضاً ، علقمة ذو قيفال بن شراحبيل بن ذي يزن ملك مدينة (الهون) ، فقتله أهلها من همدان[٣] .

ولم يصل الينا شيء من هذا القصص الذي رواه الأخباريون عن ذي نواس مكتوباً بالمسند . ولم يرد اسمه في أي نص من نصوصه حتى الآن .

وزعم المؤرخ (ابن العبري) Barhebraeus ، أن (ذا نواس) واسمه (يوسف) ، وكان من أهل الحيرة في الأصل ، وكانت امه يهودية من أهل (نصيبين) Nisibis ، وقعت في الأسر ، فتزوجها والد (يوسف) فأولده منها[٤] . ومعنى هذا أنه لم يكن يمانياً ، بل يهودياً وفد على اليمن من الحيرة . وقد لاحظ بعض المستشرقين ان اسم (يوسف ذو نواس) ، ليس على شكل وطراز اسماء وألقاب ملوك اليمن ، وهذا ما دعاهم إلى التفكير في احتمال وجود شيء من الصحة في رواية (ابن العبري) ، لا سيما وأن يهود اليمن ويثرب وخيبر كانوا من المؤيدين للساسانيين ومن المناصرين لهم[٥] .

وقد اختلف الأخباريون في مدة حكمه،فقال بعضهم : انه ملك ثماني وثلاثين

---

١ تفسير ابن كثير (٤/٥٤٨) .
٢ ابن هشام (١/٢٠) ، حمزة (٨٩) ، Fell, In ZDMG., 35, 1881, S. 33.
٣ ابن خلدون (٢/٦١) ، Caussin, Essai., I, P. 135.
٤ Chron. Eccles., I, 201, 14, Chronik Von Se'ert, I, P. 331, Die Araber, I, S. 630.
٥ Die Araber, I, S. 630, Michael Syrus, 2, (1901), PP. 410, 414.

سنة [1] . وذكر المسعودي وآخرون أنه حكم مئتي سنة وستين سنة [2] . وذكر حمزة أنه ملك عشرين سنة [3] . وهكذا هم فيه وفي غيره مختلفون .

واذا ما استثنينا الأخبار التي رويت عن تعذيب (ذي نواس) لنصارى نجران، فإننا لا نعرف شيئاً آخر مهماً عن اعمال هذا الملك ، الذي كان متحاملاً جداً على النصارى والنصرانية حتى انه راسل ملك الحيرة لكي يؤثر عليه فيحمله على أن يفعل بنصارى مملكته ما يفعله هو بهم [4] . ولعله كان يريد بذلك أن يكوّن حلفاً سياسياً مع ملوك الحيرة ومن ورائهم الفرس لمقاومة الحبش الذين كانوا قد وطئوا سواحل اليمن وأقاموا لهم قواعد فيها وعقدوا معاهدات مع الأمراء المنافسين لملوك حمير ، وصاروا يحرضونهم على أولئك الملوك ، ليتمكنوا بذلك من السيطرة على كل من اليمن والتوسع من ثم نحو الحجاز ، للاتصال بحلفائهم الروم.والسيطرة بذلك على أهم جزء من جزيرة العرب ، والهيمنة على البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وانزال ضربة عنيفة بسياسة خصوم الروم - وهم الساسانيون .

وفي حوالي السنة (٥٢٥ م) كانت نهاية حكم (ذي نواس)، إذ احتل الأحباش اليمن كما سنرى ذلك فيما بعد .

وفي موضع (سلع) ، ويسمى (نخلة الحمراء) وهو خربة عادية ، موضع زعم أنه قبر (ذي نواس) ، المتوفى في حوالي (سنة ٥٢٥ م) . وقد فتح الموضع واستخرجت منه آثار فنية ذات قيمة،من بينها تمثالان لزنجيين من البرنز [5] .

ويظن بأن ما جاء بنص(حصن غراب) الموسوم بين المستشرقين بـ REP. EPIG. 2633 من ان الأحباش فتحوا أرض حمير سنة (٦٤٠) من التقويم الحميري الموافقة لسنة (٥٢٥) للميلاد ، وقتلوا ملكها وأقياله الحميريين والأرحبيين ، يشير الى الملك (ذي نواس) ، وان لم يرد بالنص على اسمه [6] .

---

١ التيجان (٣٠١) ، الاكليل (٢٢٦) .
٢ مروج (١/٢٨٠) (المطبعة البهية) ، شرح قصيدة ابن عبدون المعروفة بالبسامة (٩١) .
٣ حمزة (٨٩) .
٤ Die Araber, I, S. II.
٥ Beiträge, S. 22.
٦ REP. EPIG., V. I, P. 5, Glaser, Die Abessinier, S. 131, Mordtmann, In ZDMG., VLIV, (1890), S. 176.

وقد عثر على نصين مهمين هما : Ryckmans 507 والنص Ryckmans 508 ، وقد أشير فيهما الى حروب وقعت بين الأحباش وبين ملك سمي فيهما بـ (يسف اسار) (يوسف أسأر) ؛ ولم يلقب النصان (يوسف) باللقب الطويل المألوف بـل نعتاه بـ (ملكـن يسف أسأر) ، أي (الملك يوسف أسأر) فقط[1] . و (يسف اسار) ، هذا هو الملك (ذو نواس) . وقد كتب النصان في سنة واحدة هي سنة (٦٣٣) من التقويم الحميري ، الموافقة لسنة (٥١٨) للميـلاد . الا انهما كتبا في شهرين مختلفين . فكتب أحدهما في شهر (ذ مذرن) (ذ مذران) (ذو مذران)[2] وكتب الثاني في شهر (ذ قيضن) (ذو قيضن) (ذو القيض). ويستنتج من عدم تلقيب (يوسف) باللقب الملكي الطويل المألوف ، ان ملكه لم يكن متسعاً وان سلطانه لم يكن عاماً شاملاً كل اليمن، بل كان قاصراً على مواضع منها . فقد كان الأحباش يحتلون جزءاً منها بما في ذلك عاصمة حمير مدينة (ظفار) وكان الأقيال ينازعونه السلطة وقد كوّنوا لهم اقطاعيات مستقلة ، نازعت الملك على الحكم والسلطان . وكانت الفتن مستعرة وهذا ممـا مكّن الحبش من انتهاز الفرص، فأخذوا يتوسعون بالتدريج حتى قضوا على استقلال البلاد واستولوا عليها وتلقب حكام الحبش باللقب الملكي اليماني الطويل المألوف دلالة على سيطرتهم على اليمن .

وقد سقطت من النص Ryckmans 507 كلمات من صدره ، فأثر سقوطها هذا بعض التأثير على فهم المعنى فهماً واضحاً . وقد وردت في الفقرة الأولى منه كلمات مثل : (اشعبه) أي (قبائلـه) ، و (اقولهمو ومراسهمو) ، أي (أقيالهم ورؤساؤهم) . وجاءت جملة : (وبنيهمو شرحب ال يكمـل) أي (وبنيهم : شرحبيل يكمل) ، أي (وابنهم : شرحبيل يكمل) . ثم دوّنت بعد هذا الاسم أسماء : (هعن اسانن) ، و (لحيعت يرخم) و (ومرثد ال عملد) (مرثد ايل عملد) ، وقد سقطت كلمات بعد لفظة (بني) أي أبناء ، وهم من مؤيدي (الملك يوسف أسأر) ومن مساعديه . وقد أشير بعد ذلك الى

---

١ راجع الفقرة الثالثة من النص : (Ryckmans 507) ، والفقـرة الثانية والعاشرة من النص : (Ryckmans 508) ، المنشور في مجلة : Le Muséon, 3-4, 1953, P. 284.

٢ راجع الفقرة (١٠) من النص : Ryckmans 507

قتال وقع بينهم أي جماعة الملك وبين الحبش (احبشن) بموضع (ظمو) وفي مواضع أخرى .

وتناول النص الثاني خبر حروب وقعت بين الملك (يوسف اسأر) وبين الحبش ومن كان يؤيدهم من أقيال اليمن . وهو نص سجله القيل (قولن) (شرح ايل يقبل بن شرح ايل يكمل) من بني (يزأن) (يزن) و (جدن) (جدنم) و (حبم) (حب) و (نسان) (نان) و (جبا) (جبأ) .

ويتبين من هذا النص ان الملك (يوسف أسأر) هاجم (ظفر) (ظفار) مقر الأحباش ، واستولى على (قلسن) ، أي (القليس) ، أي كنيسة (ظفار). ثم سار بعد ذلك على (اشعرن) ، أي (الأشعر) (الأشاعر) . قبيلة من قبائل اليمن . ثم سار الجيش الى (مخون) (مخا) ، وحارب وقاتل ، فقتل كل سكانها (حورهو) ، واستولى على كنيستها ، وحارب كل مصانع أي معاقل (شمر) ودكها دكاً ، وحارب سهول (شمر) كذلك . ثم هاجم الملك هجوماً ماحقاً قبيلة (الأشعر) (اشعرن) . ثم أحصى عدد من قتل في هذا الهجوم وعدد ما وقع في أيدي جيشه من غنائم . فكان عدد من قتل: ثلاثة عشر ألف قتيل ، وعدد من أخذ أسيراً تسعة آلاف وخمسمائة اسير ، واستولى على (٢٨٠) ألف رأس من الابل والبقر والمعز (عنزم) (عنز) . واخذت غنائم عديدة اخرى .

واتجه الملك مع جيوشه بعد ذلك الى (نجرن) (نجران) . وفي صعيد هذه المدينة كان قد تجمع (أقرام) (قرم) (بني أزأن) وقبائل همدان وأهل مدنهم واعرابهم واعراب (كدت) (كندة) و (مردم) (مراد) و (ملحج)، فانزلت جيوش الملك خسائر بالأحباش الذين كانوا قد تحصنوا بالمصانع والحصون وبمن ساعدهم من القبائل . وبمن كان قد تجمع في (نجران) لمساعدتهم . وكان مع الملك وفي جيشه (اقولن) الأقيال : (لحيعت يرخم) و (سميفع أشوع) و (شرحب ال اسعد) (شرحبيل أسعد) . اقيال وسادات (يزان) (يزأن) (يزن) ومعهم قبائلهم : قبل (ازانن) (أزأن)[1] .

---

١ راجع النص :
Le Muséon, 3-4, 1953, P. 296, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol., XVI, Part : 3, 1954, P. 434, Ryckmans 508.

وقد جاءت في هذا النص جملة : (سسلت مدبن) . وقد قصد بها (حصن المندب) ، أي ما يسمى بموضع (باب المندب) في الوقت الحاضر[1] .

نرى من خلال قراءتنا لهذين النصين ان الوضع في اليمن كان قلقاً جداً ، وأن الأمور كانت مضطربة ، وان الفتن كانت تعم البلاد،وان الأحباش كانوا يمتلكون قسماً كبيراً من ارض اليمن . وكان مقرهم مدينة (ظفار) . وكان لهم أعوان وأحلاف من الاقيال والقبائل . وقد استعان بهم الحبش في نزاعهم مع (يوسف أسأر) حتى تمكنوا في الأخير من الاستيلاء على كل اليمن ومن انتزاع السلطة من أيدي حكام اليمن الشرعيين ، ومن القضاء على الملك سنة (٥٢٥) بعد الميلاد .

و (بنو يزان) (بنو يزأن) ، هم (ذو يزن) عند أهل الأخبار ، وكانوا من العشائر البارزة التي ورد اسمها في نصوص عديدة ، واليهم ينسب (سيف بن ذي يزن) . وذكر (ابن دريد) ان (يزن) موضع ، ويقال (ذو أزن) و (ذو يزن) ، وهو أول من اتخذ أسنة الحديد ، فنسبت اليه ، يقال للأسنة (يزني) و (أزني) و (يزأني) ، وانما كانت أسنة العرب قرون البقر[2].

والأقيال المذكورون في النصين وهم : (شرحبيل يكمل) و (لحيعت يرخم) و (شرحئيل يقبل) (شرح ال يقبل) و (السميفع أشوع) و (شرحبيل أسعد) كانوا من أقيال (يزان) (يزن) . وقد لعبوا دوراً هاماً في الميدان السياسي والعسكري لهذا العهد .

وقد ورد ذكر القيل (شرحب ال يكمل) (شرحبيل يكمل) في النص : Ryckmans 512 . ومدوّنه رجل اسمه (حجى ابهر) (حجي أبهر) . وذكر اسم قيل آخر اسمه : (شرح ال ذ يزان) (شرحئيل ذي يزأن) (شرحئيل ذي يزن)[3] .

وورد اسم قيل آخر من أقيال (ذي يزن) عرف بـ (شرحئيل ذي يزن) (شرح ال ذ يزان)[4] ، لعله القيل المتقدم . وقد جاء اسمه في نص عرف بـ Ryckmans 515 ، دوّنه شخص اسمه (معويت بن ولعت) (معاوية بن والعة) و (نعمت بن ملكم) (نعمت بن مالك) (نعمة بن مالك) . وقد

---

١ Le Muséon. 3-4. 1953, P. 335.

٢ الاشتقاق (٢/٣١٠) .

٣ Le Muséon, 3-4, 1953, P. 311, Kaukab 2.

٤ Ryckmans 515.

ختم النص بعبارة مهمة هي : (رب هود برحمنن)[١] ، أي : (بالرحمن : رب يهود)[٢] . ويدل هذا النص على ان صاحبيه كانا من اليهود،أو من العرب المتهودة.

وأما (جدنم) فهم (جدن) . وهم أيضاً من العشائر اليمانية المعروفة . وقد ورد اسمها في عدد من الكتابات[٣] . وقد ذكر (ابن دريد) ان من رجال (جدن) (ذو قيفان بن علَس بن جدن)،الذي ذكره (عمرو بن معدى كرب) في شعره:

وسيف لابن ذي قيفان عندي تخيره الفتى من قوم عاد[٤] .

وقد أشير في النص : Ryckmans 51 الى قيل من اقيال هذه القبيلة دعي بـ (لحيعت ذ جدنم) (لحيعت ذي جدن) . وقد دوّنه رجل اسمه (تمم يزد) (تميم يزيد) . وقد نعت نفسه بـ (مقتوت لحيعت ذ جدنم) ، أي ضابط وقائد (لحيعت ذي جدن)[٥] . ومعنى هذا انه قد كان لهذا القيل جيش، وكان (تميم) من قادة ذلك الجيش .

وقد يكون (تميم) هذا هو (تميم) (تمم) مدوّن النص الموسوم بـ Ryckmans 513 وقد جاء فيه : (تمم مقتو لحيعت يرخم ذ جدنم وترحم على ابني ملكم ذ جدنم . رحمنن وامنن)[٦] . ومعناه : (تميم ضابط لحيعت يرخم ذو جدن . وترحم على ابن مالك ذو جدن . الرحمن والأمن (الأمان آمين) . واذا كان تميم هو (تميم) المتقدم ذكره ، فيكون (لحيعت ذو جدن) المذكور هو (لحيعت يرخم) المذكور في هذا النص اذن .

ملوك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت :

وقد رتّب (فون وزمن) ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت على النحو الآتي :

---

١ السطر الخامس من النص .

٢ Le Muséon, 3-4, 1953, P. 314.

٣ Le Muséon, 3-4, 1953, P. 299.

٤ الاشتقاق (٣١١/٢) .

٥ Le Muséon, 3-4, 1953, P. 313, Kaukab 4, Ryckmans 511.

٦ Le Muséon, 3-4, 1953, P. 312, Ryckmans 513, Kaukab 3.

١ – شمر يهرعش الثالث .
٢ – ياسر يهنعم الثالث مع (تارن ايفع) .
٣ – ثارن يكرب .
٤ – ياسر يهنعم الثالث مع ابنه (ذرأ امر ايمن) .
٥ – ذمر على يهبر (ذمر على يهبأر) .
٦ – ذمر على يهبر مع ابنه ثارن يهنعم .
٧ – ثارن يهنعم مع ابنه ملكيكرب يهامن .
٨ – ملكيكرب يهامن مع ابنيه أبو كرب اسعد وذرأ أمر أيمن .
٩ – أبو كرب اسعد مع ابنه حسان يهأمن[١] .
١٠– شرحبيل يعفر[٢] .

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.
٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 495.

الفصل الثاني والثلاثون

امارات عربية شمالية

. لقد استغلت القبائل العربية الضعف الذي ظهر على الحكومة السلوقية ، فأخذت تزحف نحو الشمال وتهدد المدن القريبة من البوادي وتحاول الاستيلاء عليها . وقد استولت فعلاً على بعضها وكونت حكومات يمكن ان نطلق عليها مصطلح (مشيخة) أو إمارة بحسب مصطلحاتنا السياسية في الزمن الحاضر . وهي حكومات توقفت حياتها على كفاية من كونها واقام اسسها ، وعلى كفاية من خلف المؤسسين لها من اشخاص . ولذلك كان عمرها قصيراً في الغالب . وكان حجمها يتوسع أو يتقاص بسرعة ، لأن قوة الحكومات بقوة الحكام ، فاذا كان الحاكم ذا شخصية قوية وارادة وحزم وذكاء ، أغار على جيرانه وهاجم حدود الدول الكبرى ، وأصابها بأضرار تضطرها الى الاعتراف به رئيساً على قبيلته وعلى الأعراب الخاضعين لسلطانه ، ويبقى على مكانته هذه ما دام قوياً ، فإذا خارت قواه ، او ظهر منافس له أقوى منه ، ولا سيما إذا كان منافسه قد جاء حديثاً من البادية بدم نشيط ، ومعه قوم أقوياء أصحاب عدد ، زعزع عن محله المرموق ، وصار الأمر لغيره ، وهكذا .

ويجب ألا ينصرف الذهن الى ان هذه القبائل كانت قد جاءت الى بادية الشأم في هذا الزمن أو قبله بقليل . فقد سبق أن تحدثت عن وجود الأعراب في هذه البادية قبل هذا العهد بزمان . وقد رأينا كيف حارب الآشوريون الأعراب ، ولم يكن اولئك الأعراب الذين كانوا قد كونوا (امارات) لهم في البادية من أبناء

الساعة بالطبع ، بل لا بد ان يكونوا قد هبطوا بها قبل حروبهم مع الآشوريين بزمان لا يعرف مقداره إلا الله ، ولا بد أن يكون اتصال عرب جزيرة العرب بهذه البادية اتصالاً قديماً . فالبادية والهلال الخصيب امتداد لأرض جزيرة العرب والهجرة بين هذه المواضع قديمة قدم ظهور هذه المواضع الى الوجود .

لم يكن أمام اعراب جزيرة العرب من مخرج حينما تجف أرضهم ويقضي الجفاف على البساط الأخضر الذي يفرشه الغيث في بعض السنين على سطح الأرض مدة غير طويلة ، إلاّ الهجرة الى اماكن يجدون فيها الخضرة والماء ، ليحافظوا بها على حياتهم وحياة ماشيتهم ، وإلا تعرضوا للهلاك . والخضرة والخصب لا يكونان إلا حيث يكون الجو الطيب والماء الغزير ، وهما متوافران في الهلال الخصيب وفي أطراف جزيرة العرب في الجنوب ، حيث تسعف أبخرة البحر العربي والمحيط تلك الأرضين فتغذيها بالرطوبة وبالأمطار ، لذلك كانت الهجرات الى مثل هذه الأرضين دائمة مستمرة .

ويجد أعراب نجد في البادية وفي الهلال الخصيب ملاذهم الوحيد في الخلاص من خطر الفناء جوعاً ، فيتجهون بحكم غريزة المحافظة على الحياة نحوها ، غير مبالين بما سيلاقون من صعوبات . وأية صعوبات تواجه الانسان أعظم من تحمل الموت جوعاً وببطء .

كانت كل قبيلة من هذه القبائل تضرب خيامها في المواضع التي ترى فيها العشب والماء والمغنم في البادية أو عند الحضر . فاذا وجدت للحضر حكومة قوية احترمتهم ، وان وجدت فيهم ضعفاً ، هزئت بهم ، واستولت على ما عندهم ، وأخذت ترعى في أرضهم ، ثم هي لا تقبل بكل ذلك ، بل كانت تفرض عليهم (إتاوة) يؤدونها لهم ، مقابل حمايتهم من اعتداء الأعراب الآخرين عليهم . وبذلك تمكن سادات القبائل من فرض سلطانهم على بعض المدن كحمص والرّها والحضر ، وغيرها من المدن التي حكمتها أسر عربية ، في رأي بعض الباحثين[1] .

وقد وقف الأعراب وقفة تربّص وتأهّب من الحكومات القوية المهيمنة على الهلال الخصيب ، كانوا يراقبون ويدرسون بذكائهم وبخبرتهم السياسية أوضاعها ،

١ العرب في سورية قبل الاسلام ، تأليف رينه ديسو ، تعريب : عبد الحميد الدواخلي ، من منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، الجمهورية العربية المتحدة ، (ص ٤) .

فاذا أحسوا فيها ضعفاً بادروا الى استغلاله قبل فوات الأوان . وللأعراب في هذا الباب حاسة غريبة ذات قدرة كبيرة في ادراك مواطن الضعف عند الحضر وعند الحكومات . فاذا تيقنوا بقوة شم حاستهم من وجود ضعف عند الحضر أو عند حكومة ما ، ووجدوا ان في امكانهم استغلاله في صالحهم جاءوا الى من وجدوا فيه ضعفاً بشروط تتناسب مع ضعف مركزه ، وبطلبات يملونها عليه ، قد تكون طلب زيادة (الإتاوات) أي الجُعالات السنوية التي تدفع لهم ، وقد تكون السماح لهم بالزحف نحو ارض الحضر والتوسع في الأرضين الخصبة ذات الكلأ والماء ، وقد تكون طلباً بالاعتراف بسيادتهم على ما استولوا عليه وعلى أعراب البادية ، وما الى ذلك من شروط ، قد تزيد فيها ان وجدت من تتفاوض معهم تساهلاً وقد تتساهل ان وجدت منهم شدة وعجرفة وقوة ، مع اللجوء الى الحيل السياسية وذلك بالاتصال سراً مع الجانب الثاني المعادي للانضمام اليه ، وتأييده بحصولهم على شروط أحسن ، وعلى ربح أعلى واكثر مما يعطيهم أصحابهم الذين هم على اتفاق معهم . وسنجد فيما بعد أمثلة على أمثال هذه المفاوضات السياسية السرية تجري مع الفرس ، وأحياناً مع الرومان أو الروم .

وقد علّمت الطبيعة حكومات العراق وبلاد الشأم دروساً في كيفية التعامل والتفاهم مع الأعراب . علّمتهم ان القوة ضرورية معهم ، وان الصرامة لازمة تجاههم ، لكبح جماحهم والحد من غلواء غزوهم للحدود وللحواضر،وان التساهل معهم معناه في نظر الأعراب وجود ضعف في تلك الحكومات ، وان معنى ذلك طلب المزيد . ولذلك أقاموا مراكز محصنة على حواشي الصحارى ، أقاموا فيها حاميات قوية ذات بأس ولها علم بالبادية وبمعاركها ودروبها ، ومعها ما تحتاج اليه من (الميرة) والماء . وبنوا فيها (أهراء) أي مخازن تخزن فيها الأطعمة لتوزيعها على الأعراب عند الحاجة للسيطرة عليهم بهذا الأسلوب كما خزنوا فيها كميات من المياه في (صهاريج) تحت الأرض ، وحفروا بها الآبار للشرب ، ولتموين الأعراب بها أيضاً عند انحباس المطر وحلول مواسم الجفاف . وضعوا كل ذلك في حصون محصنة ، ليس في استطاعة الأعراب الدنو منها أو اقتحامها، لأن عليها أبراجاً وفي أسوارها الحصينة العالية منافذ يرمي منها الرماة سهاماً تخرج منها بسرعة كأنها شياطين ، تخيف ابن البادية ، فتجعله يتحرج من الدنو من تلك الحصون .

ونجد اليوم في العراق وفي بلاد الشأم آثار بعض تلك الحصون التي أقامها حكام العراق وحكام بلاد الشأم لصد غارات الأعـراب عن أرض الحضر . ولتوجيههم الوجهة التي يريدونها ، حصون منعزلة نائية كأنها جزر صغيرة برزت في محيط من الرمال والأتربة ، بعيدة عن مواطن الحضارة ، عند أصحابها على اقامتها في هذه المواضع ، لتكون خطوط دفاع أمامية تحول بين أبناء البادية وبين الدنو من مواطن الحضر ، وتشغل الأعراب بالقتال حتى تأتي النجدات العسكرية فتصطدم بهم ان تمكنوا من اختراق تلك الخطوط .

وقد علّمت الطبيعة حكام العراق وحكام بلاد الشأم ان القوة وحدها لا تكفي في ضبط الأعراب وتوجيههم الوجهة التي يريدونها ، علّمتهم ان جيوشهم النظامية لا تستطيـــع أبداً أن تتعقب فلول الأعراب التي تتراجـــع بسرعة لا تبلغها عادة الجيوش النظامية في الوصول الى البادية حصن الأعراب الحصين . وعلّمتهم أيضاً ان جيوشهم متى توغلت في البادية فان احتمالات اندحارها واندثارها تزيد عندئذ على احتمالات الانتصار . فالأعرابي هو ابن البادية ، وهو أخبر بها من الحضر ، وهو يعرف مواضع (الإكسير) فيها (إكسير الحياة) وهو الماء . لقد خـــبر آبارها ، وخزن الماء في مواضع احتفرها وجعلها سرية فلا يقف عليها الا خزّانها ، لهذا فان من الحماقة محاربة الأعراب في ديارهم ، وان من الخير مداهنتهم واسترضاؤهم وذلك بالاتفاق مع سادات القبائل الأقوياء أصحاب الشخصيات والمواهب ، على دفع هبات مالية سنوية لهم ترضيهم ، في مقابل ضبط الحدود وحمايتها من خطر مهاجمة الأعراب لها وغاراتهم عليها . مهما كان أصل أولئك الأعراب ، وفي مقابل الاشتراك مع أولئك الحكام المتحالفين معهم في حروبهم لأعدائهـــم ، إما بتقديم الخدمات الضرورية اللازمة لهم في الحروب ، مثل تقديم الجمال لهم لحمـل الجنود والأثقال والماء وكل ما يحتاج اليه الجيش في عبوره الى البوادي .

وتقرن الجعالات السنوية بهدايا وألطاف يقدمها الحكام الى سادات الأعراب ، وبألقاب مشرفة تبهج النفوس الضعيفة لاستوائهم الى جانبهم ، وبدعوات توجـــه اليهم في المناسبات لزيارة أولئك الحكام والنزول في ضيافتهم ، فتخلع عليهم الخلع التي تستهويهم وتجعلهم الى جانب أولئك الحكام .

ولأجل الوقوف على حركات الأعراب وسكناتهم ، ولمراقبة أعمـــال سادات القبائل ، وضعت الحكومات مندوبين عنها في مضارب أولئك السادات ، يتنسمون

الأخبار ويبعثون بها الى الحكام. وقد كانوا في الوقت نفسه بمنزلة المستشارين لهم. وقد يقرنون ذلك بوضع حاميات قوية معهم للدفاع عن أولئك السادات ان جابههم خطر، أو للضغط عليهم ولردعهم في حالة تفكيرهم بنقض حلفهم مع تلك الحكومات. وقد عرف هؤلاء المستشارون أو (المندوبون الساميون) في عرفنا السياسي في الزمن الحاضر بـ (قيبو) في اللغة الآشورية، وكانوا يرسلونهم الى مضارب سادات القبائل لتوجيههم الوجهة التي يريدها ملوك آشور، وللتجسس عليهم وإرسال أخبارهم الى أولئك الملوك حتى يكونوا على بيّنة من أمرهم، ويتخذوا ما يرون من قرارات تجاههم[1].

ولم يكن من العسير على حكام العراق وحكام بلاد الشأم، استبدال سيد قبيلة بسيد قبيلة آخر، إذا ما وجدوا في سيد القبيلة المحالف لهم صداً عنهم أو ميلاً الى عدوّهم، أو نزعة الى الاستئثار بالحكم لنفسه والاستقلال.

فالبادية أرض مكشوفة، وأبوابها مفتوحة لا تمنع أحداً من دخولها، فإذا جاء سيد قبيلة طامعاً في مركز وأرض وكلأ وماء، ووجد في عدده وعدّته قوة، نافس من نزل قبله، وطمع في ملكه وتقرب الى الحكام ليحلوه محله، وليأخذ مكانه. وإذا وجد أولئك الحكام في القادم شخصيةً قويةً وأنه أقوى من السابق، لأنه ظهر عليه بعدد من معه وبقوة شخصيته، وأن السيد القديم لم يظل ذا نفع كبير لهم، فلا يهمهم عندئذ ازاحته عن مكانه، واحلال الجديد محله. وكل ما يطلبه الحكام هو ضمان مصالحهم، ومن يتعهد بحماية مصالحهم صار حليفهم وصديقهم كائناً من كان. وهكذا البشر في كل مكان وزمان من أية أمة كانوا.

لقد سيطرت القبائل العربية على شواطىء الفرات وهيمنت عليها في أيام السلوقيين. ونجد ساداتها وقد نصبوا أنفسهم عمالاً (فيلاركا) على تلك الشواطىء منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد وبعده وتدل أسماء أولئك العمال على أن أصحابها كانوا من أصل عربي، وأن الأسر التي كونوها هي أسر عربية. وكلما كانت أسماء الملوك الأولين لهذه الأسر أسماء عربية، كانت أكثر دلالة على أصل أصحابها العربي. فقد جرت العادة أن الملوك المتأخرين يتأثرون بتيارات زمانهم الاجتماعية وبرسومه وعاداته، فيتخذون ألقاباً وأسماء يونانية أو سُريانية أو فارسية، تظهرهم وكأنهم من أصل يوناني أو سُرياني أو فارسي، على حين هم من أصل عربي،

[1] Musil, Deserta, P. 477.

ولهذا كانت لأسماء مؤسس الأسر أهمية كبيرة في إثبات اصل الأسرة[١] .

وقد استغل الأعراب أهمية الطرق البرية التي تمر بالبوادي،وهي شرايين التجارة العالمية بالنسبة لذلك الوقت ، فتحكموا في مسالكها ، واستغلوا أهمية الماء بالنسبة للقوافل والجيوش ، فلم يكن في وسع جيش قطع البادية من غير ماء ، وأخذوا يعاملون المعسكرين : المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي وهو المعسكر الروماني وفقاً لحاجتهما الى هذه الطرق والماء ويفرضون على المعسكرين شروطاً تتناسب مع مواقفهما العسكرية ومع الأحوال السائدة بالنسبة لتلك الأيام ، وصاروا يجبرون كل معسكر من المعسكرين على تقديم أحسن الترضيات لهم لتقديم خدماتهم له ، والانضمام اليه ضد المعسكر الشحيح البخيل .

ومن هذه الإمارات : إمارة الحضر ، وإمارة (الرُّها) **Edessa** ، وإمارة (الرستن — حمص) **Arethusa — Emesa** وإمارة (سنجار) **Singara** ، وحكومة تدمر ، ثم حكومة الغساسنة في بلاد الشأم ، وحكومة المناذرة في العراق.

ويلاحظ ان بعض هذه الحكومات ، تكونت في مدن كانت قديمة عامرة ، سكانها من غير العرب ، ومع ذلك صارت مقراً لأسر حاكمة عربية ، باستيلاء تلك الأسر عليها وباخضاعها لحكمها واتخاذها مقاماً لهم ، فصار الحكم عليها في أيدي تلك الأسر . أما المحكومون فهم السكان الأصليون،وغالبهم من غير العرب ولسانهم هو لسان بني إرم في الغالب .

وهناك إمارات تكونت على أطراف الحضارة ، وفي مواضع الماء والكلأ في البادية ، أو في مواضع غير بعيدة عن حدود الحاضرة من العراق وبلاد الشأم ، وخاصة في العُقَد التي تتصل بها طرق القوافل ، ويعود الفضل في تكوّنها وظهورها الى هذه الأمور المذكورة ، ولا سيما موضعها من خطوط سير القوافل، حيث يتقاضى سادات تلك المواضع (إتاوات) عن التجارة التي تمر بها ، وعن التجارة التي تحمل اليها لبيعها في أسواقها ، فيتجمع لهم دخل لا بأس به من هذه الجباية التي قد ترتفع أحياناً حتى تصل الى درجات التعسف بالتجار . ويكون سادات هذه المواضع أصحاب حظ عظيم ، اذ كانت مواضعهم عصباً ضرورياً رئيسياً في تجارة البادية ، بحيث لا تجد القوافل الكبيرة المحملة بالتجارة النفيسة بداً

---

١ **Die Araber, I, S. 313.**

من المرور منها ، فان دخلهم يكون حينئذ كبيراً ، يحملهم على التوسع والطموح وعلى السيطرة على الآخرين بقدر الامكان .

وكما كانت القوافل التجارية والطرق البرية رحمة للمستوطنات الصحراوية التي نشأت وتكونت عند عقد العصب الحساس لهذه الطرق، كذلك صارت تلك الطرق نقمة على تلك المستوطنات . اذ طالما قضت عليها وحكمت عليها بالموت ، فقد يجد التجار وأصحاب القوافل طرقاً أسهل وأقصر في قطعهم للباديــة ، أو معاملة أطيب من سيد قبيلة منافس أو حماية عسكرية أقوى ، فيتحولون عن تلك الطرق المسلوكة الى طرق أخرى ، فتموت بذلك المستوطنات المقامة عليها، ويضطر أهلها الى تركها الى مواطن جديدة . وقد كان لاستخدام الطرق المائية من طرق نهرية وبحرية ، أثر كبير في إماتة الطرق البرية أو في منافستها ، كذلك كان للطـــرق البرية ولا سيما الطرق العسكرية الممهدة التي أقامها الرومان والروم في بلاد الشأم ، أو الفرس في العراق أثر كبير في القضاء على المستوطنات التي نشأت في البوادي، اذ فضّل التجار السير في هذه الطرق المأمونة التي لا يتحكم فيها سادات القبائـــل في مقدراتهم ، ولا يدفعون ضرائب مرور عن الأرضين على تلك الطرق الموحشة المقفرة المملوءة بالمخاطر والتي يتحكم فيها أبناء البادية في مقدرات التجار، فيفرضون عليهم ضرائب مرور من أرضهم كما يشاءون من غير تقدير لما سيجر ذلك عليهم وعلى التجار من أضرار . وبذلك أعان أبناء البادية بأنفسهم على إماتة مستوطناتهم في بعض الأحيان .

ويظهر من (جغرافية) (سترابو) أن أرض الجزيرة ومنطقة الفرات والبادية المتصلة ببلاد الشأم ، كانت في حكم سادات قبائل . يحكمون وكأنهم (عمال) (فيلارك) Phylarchus . وكان بعض هؤلاء يحكمون أرضين صغــيرة ، وحكمهم حكم (مشايخ القبائل) في عرف هذا اليوم : يشتغل أتباعهم بالرعي، وبعضهم يشتغلون بالزراعة ، وآخرون بالتجارة . وكان قسم منهم أعراباً يتنقلون في البادية ، ومنهم أشباه أعراب ، ولا سيما أولئك القاطنين على ساحل العقبة ، أي خليج (أيلة) وقد استغل هــؤلاء الأعراب طبيعة أرضهم . فكانوا يجبون (العشر) من التجار . أو يشتغلون هم أنفسهم بالاتجار أو يقومون بنقل التجارة لحساب غيرهم من التجار[١] .

---

١ Die Araber, I, S. 270.

وقد كان الأعراب هم الوحيدين الذين في استطاعتهم حماية الطرق البرية الممتدة بين العالم المتحضر القديم : العراق وبلاد الشأم ، فهم وحدهم سادة البوادي، وفي أيديهم (إكسير الحياة) الماء . لهم آبار أو عيون ، و (صهاريج) سرية يخزنون فيها الماء . ولهم مخازن احتياطية مملوءة بهذه المادة الثمينة الضرورية للحياة، يملأونها من أماكن قد تكون بعيدة عنهم ، ثم يحملونها معهم حيث ذهبوا ، والى منازلهم. وهي قِرَبٌ كبيرة يصنعونها من الجلد ، تمونهم بالماء ، وتمون القوافل المارة بهم بما يحتاجون اليه وبما يكفيهم للتنقل من منزل الى منزل آخر . وقد أطلق اليونان على أكثر هؤلاء اسم Skenitai = Scentitae ، بمعنى الساكنين في الخيام .لأن (السكينه) Skynai = Skenai معناها الخيمة والبيت ، وهي تقابل لفظة (سكوت) (سكوث) Sukkot في العبرانية،التي تعني الخيمة والبيت أيضاً[1] .

والـ (سكينيته) Skenitai ، هم كما قلت أهل الخيام ، الخيام المصنوعة خاصة من شعر المعز[2] ، وهم أعراب يقطنون البادية وطرفي العراق والشأم ، تمتد منازلهم في بلاد الشأم حتى تبلغ الخط الممتد بين Europus و Thapascus في الشمال على رأي (بلينيوس)[3] ، وتمتد في الغرب حتى تبلغ حدود Apamea ، على رأي (سترابون) . أما حدود مجالات هؤلاء الأعراب من الشرق ، فتمتد من أعالي الفرات حتى تبلغ ملتقاه بدجلة في الجنوب على رأي (سترابون) كذلك[4]. ويفصلهم النهر عن منازل قبيلة (أتالي) Athali في كورة Characene[5] .

وذكر (سترابو) أن سادات (سكان الخيام) كانوا يجبون الضرائب من التجار في أثناء مرورهم بمناطق نفوذهم ، وكان بعضهم يشتط عليهم فيتقاضى منهم ضرائب عالية ، ولا سيما أولئك الذين ينزلون على ضفتي النهر ، فتجنب التجار المرور بمناطقهم ، ومنهم من كان يتساهل فيعاملهم بلطف ورعاية[6] . وذكر أيضاً أن الرومان وسادات الأعراب كانوا يسيطرون على الجانب الغربي للفرات

---

١ Die Araber, I, S. 272, W. Gesenius, Hebr. und Aram. Handwörterbuch, (1921), S. 542.

٢ Paulys — Wissowa, Zweite Reihe, Funfter Halbband, (1927), P 513.

٣ Pliny. VI, 21.

٤ Strabo, XVI, 2.

٥ Paulys — Wissowa, Zweite Reihe, Funfter Halbband, (1927) 513.

٦ Strabo, XVI, I, 27.

حتى اقليم بابل ، وأن فريقاً من سادات القبائل كانوا يشايعون الرومان ، وفريقاً آخر كان يشايع الفرس ، وأن الذين كانوا يسكنون على مقربة من النهر كانوا أقل ميلاً وتودداً الى الرومان من الذين كانوا يقيمون على مقربة من العربية السعيدة[1].

وبلغت منازل الـ (السكينيته) سكان الخيام حدود مملكة (حدياب) Adiabene[2] والجبال في العراق على رأي (سترابو)[3]. ويذكر (سترابو) أن من هؤلاء رعاة، وأن منهم متلصصين، يغزون وينهبون ، ويتنقلون من مكان الى مكان حيث يكون المرعى ، أو تتوافر الغنائم والأموال[4] ، وأن طريق بابل و (سلوقية) الى الشام الذي يسلكه التجار يمر في أرض جماعة من هؤلاء الأعراب يعرفون بـ Malli في أيامه . لهم البادية يتحكمون فيها كيفما يشاؤون[5] .

ولا نجد في كتاب (سترابو) شيئاً يتعلق بأصل (السكينيته) ، سكان الخيام، وبالزمن الذي ظهرت فيه هذه التسمية . وقد ذكر ان من مواطنهم مدينة اسمها Skenai ، وهي معروفة عندهم ، تقوم على (قناة) على حدود أرض (بابل) ، وعلى بعد ثمانية عشر (شوينوى) Schoinoi من مدينة (سلوقية) ، كما ذكر انهم يسمون الآن باسم آخر ، هو : (ملوى) Malioi (مالي) Malli[6] .

وقد ذهب الباحثون مذاهب عدة في تعيين موضع مدينة Skenai ، ان جاز التعبير عنها بلفظة (مدينة) ، فذهب بعضهم الى انها (عُكْبَرا) ، وذهب بعض آخر الى انها (الحيرة) ، فالحيرة بمعنى المخيم والمعسكر ، وهو معنى قريب من معنى لفظة Skenai . وذهب آخرون الى انها (مسكن) أو (مسجين) ، وهو موضع يقع شمال بغداد، أو (بيت مشكنة) . ولكل رأي ودليل في اختياره لذلك المكان[7] .

ويظهر من وصف (سترابو) لأحوال (سكان الخيام)، أي الأعراب . انهم كانوا كثرة ، وقبائل تنتقل مع الماء والكلأ . أما الـ Malioi . فانهم كان منهم

---

١ Strabo, XVI, I, 28.

٢ Paulys, Zweite Reihe, Funter Halbband, (1927), 514, Strabo, XVI, I, 27.

٣ Strabo, XVI, I, 26.

٤ Strabo, XVI, I, 26.

٥ Paulys, Zweite Reihe, Funfter Halbband, 1927, 514, Strabo, XVI, I, 27.

٦ Die Araber, I, S. 271, Strabo, 16, 748, XVI, 26, Paulys, Zweite Reihe, Funfter Halbband, 1927, S. 513.

٧ Die Araber, I, S. 272, Ed. Sachau, Die Chronik von Arbela, 1915, 62.

أشباه مستقرين ، وآخرون مستقرون ، تكاد منازلهم تكون ثابتة،ولهم نظام يمكن أن نسميه نظام حكومـــة . ويدير شؤونهم سادات منهم ، يشرفون على أعرابهم ويرعون طرق القوافل التي تمر بأرضهم،لأنها تأتي لهم بفوائد كبيرة[1] .

ومن الإمارات التي يرجع كثير من الباحثين أصول حكامها الى أصول عربية: الحضر Hatra ، و (إمارة حمص) Emesa و (إمارة الرُّها) Edessa ، والرصافة ، وتدمر،وإمارات أخرى . وهي إمارات لا يمكن أن نقول ان ثقافتها كانت ثقافة عربية ، وان غالب سكانها كانوا من العـرب ، ولكننا نستطيـع أن نقول ان العرب كانوا يتحكمون فيها ، وان هنالك أدلة تزداد يوماً بعد يوم ، تزيد في الاعتقاد بأن العنصر العربي كان قوياً فيها ، وان سكانها كانوا عرباً ، ولكنهم تأثروا بالمحيط الذي عاشوا فيـه ، فتثقفوا عـــلى عادة تلك الأيام بثقافة بني إرم ؛ واتخذوا من لسان بني إرم لساناً لهم في الكتابة ، ومن قـلم بني إرم قلماً لهم يكتبون به ويعبّرون عن احساسهم وشعورهم وعلمهم به .

أما (الحضر) ، فهي اليوم آثار شاخصة في البريـــة بوادي الثرثار جنوب غربي الموصل ، على بعـــد (١٤٠) كيلومتراً منها . ولعلماء الآثار آراء في أصل التسمية ، فمنهم من ذهب الى انها من أصل إرمي ، ومنهم من ذهب الى انهـا من أصل عبراني إرمي ، ومنهم من رجح انها من أصل عربي ، بمعنى (الحيرة) أي (العسكر) ، وقد عرفت بـ (اترا) Atra و Atrai في اليونانيـــة ، وبـ (هترا) Hatra في اللاتينية[2] . وهي (حطرا) في الكتابات التي عثر عليها في الحضر[3] .

ويرى (هرتسفلد) E. Herzfeld ان القبائل العربية هي التي أسست هـــذه المدينة ، أسستها في القرن الأول قبل الميلاد حصناً منيعاً أقام ساداتها فيه مستفيدين من الخلاف الذي كان بين الفرث واليونان،حيث استغلوه بذكاء وحنكة: فحصلوا على أموال من الجانبين ، لما لموضعهم من الشأن العسكري والسياسي والاقتصادي . وكانوا كلما ازداد مالهم وبرزت أهميتهم، ازدادت المدينة توسعاً وبهاءً وعمراناً.حتى صارت

---

١ Die Araber, I, S. 274.

٢ Brockelmann, Lexi, Syriacum, 1928, 228, Levy — Goldschmid Wörterbuch über die Talmudim und Midraschim, Bd., 2, 1922, 40a, Die Araber, I, S. 275.

٣ Die Araber, I, S. 275, II, S. 225.

مدينة كبيرة ذات شأن ، سكنتها جاليات أجنبية أيضاً ، أنجزت ، وتولت الوساطة في البيع والشراء ، ونقل تجارة آسية الى تجار أوروبة . وتجارة أوروبة وحاصلاتها الى تجار آسية[1] .

وقد قوّت الكتابات الإرمية التي عثر عليها في (الحضر) سنة (١٩٥١ م) رأي (هرتسفلد) ، القائل بأن الذين أسسوا هذه المدينة هم قبائل عربية، وذلك لورود أسماء عربية فيها مع اسماء إيرانية وإرمية . وقد وجد أن نسبة الأسماء العربية تزيد على نسبة الأسماء العربية في كتابات مدينة (تدمر) ، وهي مكتوبة بلغة (بني إرم) كذلك ، وهذا مما يدل على وجود جالية عربية قوية في الحضر[2] . ولكن ذلك لا يعني في الزمن الحاضر أن غالب السكان كانوا عرباً .

وقد نُعت رئيس معبد الحضر الكبير بـ (سادن العرب) ، على غرار تلقيب ملوك الحضر أنفسهم بـ (ملوك العرب)[3] . واسم هذا السادن ، هو (افرهط) ، وقد قال عن نفسه : (رب ي تا دي عرب) ، أي : (أفرهط سادن العرب) ، وذكر مترجم النص أن المألوف في كتابات الحضر أنها لا تنسب الكاهن الى عبدة الإلـه أي المتعبدين، ولكن تنسبهم الى الآلهة ، بأن يكتب (سادن الإلـه ...) ، لا (سادن عبدة الإلـه ...) ، كما هــو في هذا النص ، ويرى مترجمــه أن (أفرهط) قد خالف المألوف ، وخالف عادة القوم . تقليداً لمــا فعله الملك (سنطروق) ملك الحضر من تلقيب نفسه بـ (ملك العرب)[4] (ملك الأعراب).

وقد عثرت مديرية الآثار العامة في العراق على نص وسمتــه بـ (٧٩) من النصوص التي عثر عليها في الحضر ، جاء فيه اسم المدينــة (الحضر) ، لأول مرة ، فلم يسبق ورود هذا الاسم في نصوص سابقة . وقد ورد على هذا الشكل: (حطرا) ، على نحو ما ينطق به في لغة (بني إرم)[5] . كما وردت فيه جملة :

---

١ E. Herzfeld, Hatra, In ZDMG., 68, 1914, 663, U. Kahrstedt, Artabanss, III, 67, Die Araber, I, S., 275, Th. Nöldeke, Geschichte der Perser und Araber, 1879, 33, F. Altheim, Die Krise der Alten Welt, I, 1943, 132, 206.

٢ Die Araber, I, S. 276.

٣ مجلة سومر ، المجلد الحادي والعشرين ، ١٩٦٥ ، (كتابات الحضر) ، لفؤاد سفر ، (ص ٢٢) .

٤ سومر ، العدد المذكور (النص رقم ٢٢٣) (ص ٣٨) .

٥ راجع السطر ١٤ ، وهو السطر الأخير من النص المذكور ، مجلة سومر ، السنة (١٩٦١) ، المجلد السابع عشر ، الجزء الاول والثاني ، (ص ١٢ ، ١٥ ، ١٧).

« وبالحظوظ العائدة الى العرب »[1] ، وهي جملة ذات دلالة مهمة بالطبع ، لأنها تشير الى العرب ووجودهم في هذه المنطقة ، كما ذكر فيه (عربايا) (عربواو)[2] ، ولاسم اقليم (عربايا) شأن كبير ، لأنه نسبة الى العرب ، وفيه تقع مدينة الحضر.

أما أسماء ملوك الحضر ، فهي أسماء غير عربية النّجار ، يظهر على بعضها أنها إيرانية ، وعلى بعض آخر أنها إرمية . غير ان علينا ان نفكر في أن التسميات لا يمكن ان تكون أدلة يستدل بها على أصل الناس . فقد كانت العادة تقليد الأجانب ومحاكاتهم في اختيار أسمائهم ، ولا سيما عند الحكام والملوك . فقد كانوا يختارون لهم في كثير من الأحيان أسماءً أو ألقاباً من الدول القوية التي تتحكم في شؤونهم والتي لها سلطان عليهم . فقد لقب جماعة من ملوك (اليطوريين) أنفسهم بـ (بطلميوس) ولقب نفر منهم أنفسهم بـ (ليسنياس) **Lysanias** وبـ (فيلبيون) **Philippion** ، وهي من التسميات اليونانية ، مع أن اليطوريين ليسوا يونانيين[3] . كذلك نجد اللحيانيين يقلدون اليونان ، فيلقبون أنفسهم بـ (بطلميوس) ، مع أنهم عرب ، وهكذا قل عن أهل (الرها) و (تدمر) وأمثالهم فـإنهم هم وملوكهم قد قلدوا اليونان في أسمائهم وفي اتخاذ ألقاب يونانية لهم ، وهم مع ذلك ليسوا من اليونان . ولهذا لا نستطيع أن نحكم على أصل الانسان استناداً الى الألقاب والأسماء . وينطبق هذا الرأي عـلى ملوك الحضر أيضاً ، فإن (سنطروق) وهي تسمية إيرانية فرثية ، لا يمكن أن تقوم دليلاً على ان أصله من الفرث[4] .

ويلاحظ ان كثيراً من كتابات الحضر ، لا يكتفى فيها بذكر اسم الشخص واسم أبيه ، وانما يذكر فيها اسم جده أيضاً ، واسم والد جده أحياناً . وقد عثر على كتابة ورد فيها اسم ستة أجداد . ونجد هذه الطريقة في الكتابات الصفوية كذلك ، وقد استدل (اينو ليتمان) **E. Littmann** من طريقة تدوين الصفويين لأنسابهم على هذه الصورة على انهم عرب ، لأن العرب يعتنون بالنسب أكثر من عناية غيرهم به ، فيذكرون أسماء الآباء والأجداد . ولذهاب بعض أهل الحضر هذا المذهب في تدوين أنسابهم ، رأى بعض الباحثين ان أصحاب هذه الكتابات

---

١ العدد المذكور (سطر ١٠) من النص .
٢ العدد المذكور (سطر ١٤) .
٣ Die Araber, I, S. 278.
٤ Die Araber, I, S. 280.

هم من أصل عربي[1] .

وما زال تأريخ الحضر غامضاً ناقصاً ، فيه فجوات واسعة ، لم تملأ حتى الآن . ويرى الذين عنوا بدراسة تأريخها انها تعود الى القرن الأول قبل الميلاد ، وربما امتد تأريخها الى ما قبل ذلك . وأما ازدهارها ، فقد كان في ايام (الفرث) Parthians ، وهم (الاشكانيون) و (ملوك الطوائف) في الكتب العربية . وقد عاركت (الرومان) و (الساسانيين) ، وتعرضت للخراب والدمار في ايام (سابور) المعروف بـ (سابور الجنود) في الكتب العربية ، وذلك سنة (٢٤١) للميلاد . ولم تتمكن بعد هذا الحادث من استعادة نشاطها وقوتها، فذكر ان جيشاً رومانياً مرّ بها سنة (٣٦٣) للميلاد ، فوجدها خراباً[2] .

ومن ملوك الحضر ، الملك (سنطروق) ، وقد ورد اسمه في طائفة من الكتابات . ويظهر انه كان مؤسس سلالة ملكية من السلالات التي حكمت هذه المدينة . وقد عرف ابوه باسم (نصرو مرى) (نصر)[3] . ولعله كان اول من ملك الحضر . ويظهر ان اباه لم يكن ملكاً ، ولكن كان كاهناً . وقد ورد اسمه في نص رقم برقم (٨٢) من نصوص الحضر ، مؤرخ بسنة (٣٨٨) من التقويم السلوقي ، الموافق لسنة (٧٧) للميلاد . ومعنى هذا ان الملك (سنطروق) كان يحكم في النصف الثاني من القرن الأول للميلاد . ولا يستبعد ان يكون قد حكم قبل هذا العهد . ويعد هذا النص من اقدم النصوص المؤرخة التي عثر عليها في هذه المدينة[4] .

وقد عثر على كتابات اخرى ، ورد فيها : (سنطروق ملك بن نصرو مريا)[5] . ولورود جملة (ملك العرب) بعد اسم الملك شأن كبير بالطبع ، لأنها توضح علاقة هذا الملك بالعرب بكل جلاء .

وقد أمكن الحصول في هذا اليوم على أسماء عدد من حكام الحضر . منهم : (اورودس) (ورود) ، وكان يلقب بلقب (مريا) ، اي (السيد)

---

١ Die Araber, I, S. 280.

٢ مجلة سومر ، المجلد الثامن ، الجزء الاول (١٩٥٢) (ص ٣٩ وما بعدها) .

٣ لعله (نصرو مديا) .

٤ مجلة سومر ، (١٩٦١ م) المجلد السابع عشر ، الجزء الاول والثاني (ص ٢٢ وما بعدها) .

٥ سومر ، العدد المذكور (ص ٢٢) ، حاشية (٣) .

و (الرئيس) . و (نصرو) (نصر) ، وقد لقب بلقب (مريا) كذلك. وهو ابن (نشرى هبه) (نشرى هاب)[١] ووالد الملك (سنطرق) (سنطروق) الموسوم بـ (الأول) . ثم (وجس) (ولجش) (ولوجس) ، وقد لقب بـ (مريا) أي (الرئيس) في أحد النصوص وبلقب (ملكا ذي عرب) ، أي (ملك العرب) (ملك الأعراب)[٢] ، في نص آخر . مما يدل على أنه عاف لقب (مريا) ، أي السيد او الرئيس ، الذي لقب به في أول عهده بالحكم ، وهو لقب أسلافه ، واستبدله بلقب (ملك) . وهو أضخم من لقب (مريا) بالطبع .

وقد عثر على تمثال كتبت على قاعدته جملة : (تمثال ولجش ملك العرب) . وقد أقام ذلك التمثال وأمر بتسطير الكتابة (جرم اللات بن حيي)[٣] .

ثم الملك (سنطرق) (سنطروق) الأول ، وهو ابن (نصرو) (نصر) (نصر ومريا) ، وقد لقب بـ (ملكا دي عرب) ، أي (ملك الأعراب)[٤] وقد كان حكمه في النصف الثاني من القرن الأول بعد الميلاد (٧٧ = ٧٨ م)[٥].

ثم الملك (عبد سميا) : الملقب بلقب (ملكا ذي عرب) (ملكا دي عرب)، وهو والد الملك (سنطرق) (سنطروق) الثاني[٦] .

والملك (سنطرق) (سنطروق) الثاني ، وهو ابن الملك (عبد سميا) ، هو والد ملك آخر اسمه (عبد سميا) كذلك[٧] . وملك آخر اسمه (معنا) (معنى) أي (معن) في عربيتنا[٨] .

ولعل (تراجان) (٩٨ — ١١٧ م) الامبراطور الروماني ذا المطامع الواسعة في الشرق الأدنى ، كان قد فكر في الاستيلاء على الحضر في عهد (سنطرق) (سنطروق) او ايام (عبد سميا) . اذ عثر على منار في طريق سنجار دون عليه اسمه ، يشير الى وصوله الى هذه المواضع من العراق . ولكن الرومان لم

---

١ النص رقم ١٩٤ ، Die Araber, IV, S. 266.

٢ النصوص : ١٤٠ ، ١٩٣ ، Die Araber, IV, S. 266.

٣ Nr. 193, Die Araber, IV, S. 260.

٤ النص ١٩٤ و ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٩ .

٥ Die Araber, IV, S. 266.

٦ النص ١٩٥ .

٧ النص ٢٨ و ٣٦ و ١٩٥ ، Die Araber, IV, S. 267.

٨ راجع النص في : Die Araber, II, S. 249, 267.

يتمكنوا من الاستيلاء على الحضر ، وبعد ان حاصروها مدة ، تراجعوا عنها ، لأنهم وجدوا صعوبة في فتحها ، وعادوا الى (أنطاكية)[1] .

وقد ورد في النص (١٣٩) اسم (نشرى هب) ، وهو ابن (نوهرا) ، وهو ابن (سنطرق) (سنطروق) ، الملقب بلقب (ملكا) اي (الملك)[2] .

ويظن ان حكم (اثل ملكا) ، اي الملك (اثل) (أثال) او (اثال الملك) بتعبير اصح ، والذي ورد اسمه في النصوص ، دون ان يذكر اسم والده ، كان بحكم الحضر في منتصف القرن الثاني للميلاد ، او في النصف الثاني منه ، وهوملك لا نعرف صلته بالملوك المتقدمين[3] .

واما (برسميا) ، فقد كان من معاصري (سبتيميوس سفيروس) Septimius Severus الذي كان حكمه في حوالي السنة (١٩٣) الى السنة (٢١١) بعد الميلاد[4] . وكان من خصومه المزعجين . فقد صبر بجنوده ودافع معهم عن اسوار مدينته حتى اكرهه على فك الحصار عن الحضر وعن التراجع عنها ، بسبب العطش الذي اثر في جيشه ، على حين كان الماء كثيراً في المدينة مخزوناً عندهم. وبسبب المقاومة العنيفة التي اظهرها الفرسان العرب : وإلقاء اهل الحضر ، قنابل النفط على جيوش الرومان ومقاومتهم مقاومة عنيدة حملت الرومان على التراجع عن المدينة وفك الحصار عنها[5] .

ولما ظهرت الدولة الساسانية كانت الحضر على صلات طيبة بالرومان . وكانت تلعب دوراً خطيراً في عالم التجارة لموقعها المهم بالنسبة لطرق القوافل لذلك الوقت، فتحرش بها الساسانيون وغزوها ، ثم دمروها في الأخير : وكان سبب ذلك هو أن (اردشير) الأول ، مؤسس الدولة الساسانية ومهدم كيان الدولة الأشكانية ، دولة الفرث ، لما انتصر على دولة الفرث ، حارت الدويلات الصغيرة ، وفي جملتها حكومة الحضر ، في أمرها ، وظنت أن النصر سيكون للفرث ، فوقفت موقف الحذر من الساسانيين ، ورأى ملك الحضر (الضيزن) أن من الأصلح له

---

١ Dilleman, Haute Mesop., 129.

٢ سومر ١٩٦١ ، Die Araber, IV, S. 259, A. Caquot 258.

٣ Die Araber, IV, S. 267.

٤ Die Araber, IV, S. 267.

٥ Dio Cassius, LXXVI, 2.3, LXXVI, 9.4, II, 12, Herodian, III, 9, 12, Fr. Stark, Rome on the Eupfrates, PP. 255.

ان ينضم الى الرومان الذين كانوا قد توجهوا نحو الشرق ، واستولوا على (ميديا)، وان يهاجم الفرس . فهاجمهم وتغلب عليهم في معركة (شهرزور) كما تذكر الموارد العربية ، وأسر بنتاً من بنات ملك الفرس[1] . وكان ذلك في حوالي السنة (٢٣٢) للميلاد تقريباً . فسار (سابور) الأول ، وهو (سابور الجنود)، وهو ابن الملك (أردشير الأول) ، الى الحضر يريد الانتقام من (الضيزن) ، فتحصن (الضيزن) ، وأناخ (سابور) على حصنه أربع سنين ، من غير أن يتمكن من فتحها ، ثم ان ابنة للضيزن اسمها (النضيرة) رأت (سابور) فوقعت في حبه ، فراسلته وأرشدته الى طريقة يتمكن بها من احداث ثغرة في سور المدينة ففتحها ، واستولى عليها وقتل أباها ، وأباد أهل المدينة ، وأخذ (سابور) النضيرة فأعرس بها بعين التمر ، ثم تذكر خيانتها (فأمر رجلاً فركب فرساً جموحاً ، ثم عصب غدائرها بذنبه ، ثم استركضها فقطعها قطعاً)[2] .

وقد تعرض (الطبري) لمدينة الحضر ، فقال : (وكان بحيال تكريت بين دجلة والفرات مدينة يقال لها : الحضر،وكان بها رجل من الجرامقة ، يقال له: الساطرون ، وهو الذي يقول فيه أبو دواد الإيادي :

وأرى الموت قد تدلى من الحضـ ـر على ربّ أهله الساطرون

والعرب تسميه الضيزن ، وقيل : إن الضيزن من أهل باجرمى .

وزعم هشام بن الكلبي انه من العرب من قُضاعة ، وانه الضيزن بن معاوية ابن العبيد بن الأجرام بن عمرو بن النخع بن سليح بن حُلوان بن عمران بن الحاف ابن قضاعة ، وان امه من تزيد بن حلوان اسمها جيهلة ، وانه انما كان يعرف بأمه . وزعم انه ملك ارض الجزيرة،وكان معه من بني عبيد بن الأجرام وقبائل قضاعة ما لا يحصى ، وان ملكه كان قد بلغ الشأم ، وانه تطرّف من بعض السواد في غيبة كان غابها الى ناحية خراسان سابور بن أردشير . فلما قدم من غيبته ، اخبر بما كان منه . فقال : ذلك من فعل الضيزن ، عمرو بن إلة بن الجُدّي بن الدهاء بن جشم بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ... فلما

---

١ مجلة سومر ، المجلد الثامن (١٩٥٢ م) ، الجزء الاول ، (ص ٤٣) .

٢ الطبري (٤٩/٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣٨١/١ وما بعدها) ، Die Araber, III, S. 108.

اخبر سابور بما كان منه ، شخص اليه حتّى اناخ على حصنه ، وتحصن الضيزن في الحصن ، فزعم ابن الكلبي انه اقام سابور على حصنه اربع سنين ، لا يقدر على هدمه ولا على الوصول الى الضيزن[1] . ثم ذكر قصة ابنة الضيزن مع سابور وخيانتها لأبيها وكيف كان مصيرها .

ويذكر (الطبري) في روايته التي يرفعها الى (ابن الكلبي) ، ان سابور أباد أفناء قضاعة الذين كانوا مع الضيزن ، فلم يبق منهم باق ، واصيبت قبائل من بني حلوان ، فانقرضوا ودرجوا . ثم ذكر في ذلك شعراً نسبه الى (عمرو بن إلة) ، وكان مع الضيزن[2] .

وروى (ابن خلدون) ان الملك بالحضر كان لبني العبيد بن الأبرص بن عمرو ابن اشجع بن سليح ، وكان آخرهم (الضيزن بن معاوية بن العبيد) المعروف بالساطرون[3] . وذكر (البكري) ان (سابور ذا الأكتاف) لما اغار على الحيرة وهزم اهلها ، سار معظمهم الى الحضر ، يقودهم (الضيزن بن معاوية التنوخي) فنزلوا به ، وهو بناء بناه الساطرون الجرمقاني ، فأقاموا به مع الزباء ، فكانوا رجالها وولاة امرها . فلما قتلها (عمـــرو بن عدي) ، استولوا على الملك حتّى غلبتهم غسان . وقد فرق البكري بين الضيزن والساطرون[4] .

وقد ورد في أثناء القصص المروي عن الضيزن والحضر شعرٌ نسبوا بعضه الى (أبي دُواد الإيادي) ، وبعضه الى (الأعشى ميمون بن قيس) ، وبعضاً آخر الى (عمرو بن إلة) وبعضاً الى (عدي بن زيد العبادي)[5] . ونجـــد في شعر الأعشى ، خبر حصار (شاهبور الجنود) حولين للحضر ، وذكر (عدي ابن زيد العبادي) في شعره أن صاحب الحضر شاد حصنه بالمرمر ، وجلله كلساً، وللطير في ذراه وكور . ثم باد ملكه. فصار بابه مهجوراً ، بعد أن كانت دجلة تجبى له والخابور[6] . وهو من هذا الشعر الحزين الذي يغلب عليه طابع الموعظـــة

---

١ الطبري (٤٧/٢ وما بعدها) (دار المعارف) ، أيضا (الضيزن بن جلهمة احد الأحلاف) ، البلدان (٢٩٠/٣) ، في الأغاني (جبهلة) ، الاغاني (١٤٠/٢) .

٢ الطبري (٤٩/٢) .

٣ ابن خلدون (٢٤٩/٢) .

٤ معجم ما استعجم (ص ١٧) (طبعة وستنفلد) ، المشرق : السنة الخامسة عشرة ، الجزء ٧ ، تموز ١٩١٢ ، ص ٥١٦ ، Ency., II, P. 207.

٥ الطبري (٤٧/٢ وما بعدها) ، نهاية الارب (٣٨١/١ وما بعدها) .

٦ الطبري (٥٠/٢) .

واحتقار الدنيا وازدرائها ، وهو طابع أغلب الشعر المنسوب الى الشاعر البائس .

والساطرون،هو (سنطروق) في كتابات الحضر ، حرّف ، فصار الساطرون عند أهل الأخبار[1] . وهو لفظ إيراني الأصل انتقل من اللسان الإيراني الى لغة بني إرم ، فصار (سنطروق) ، وصير (سنتروسس) في اللغة الإغريقية . وقد عرف بهذا الاسم أحد الملوك الفرث (الاشكانيين) (سنة ٧٦ أو ٧٥ – حتى ٧٠ أو ٦٩ ق. م.)[2] .

وإذا أخذنا برواية (الطبري) من أن (الساطرون) كان من الجرامقة ، فمعنى ذلك أنه كان من (بني إرم) ، أي من الآراميين . وهم سكان (جرمقايا) (جرمقايه) الواقعة شرق دجلة جنوب (الزاب) الصغير ، وقد عرفوا بالجرامقة نسبة الى هذه الأرض[3] . وإذا أخذنا بروايته ايضاً من أن الساطرون كان يعرف بالضيزن ، وأن (الضيزن) هو من أهل (باجرمى)[4] ، فإن في الرواية الثانية تأييد للرواية الأولى من ان الساطرون كان من بني إرم ، ولم يكن من العرب[5] .

غير ان (ابن الكلبي) يقول انه من العرب وانه من قضاعة من جهة الأب، وانه من (تزيد) من جهة الأم ، وانه ملك ارض الجزيرة ، وان ملكه بلغ الشأم ، وكان معه من (بني عبيد بن الأجرام) وقبائل قضاعة . وانه انتهز فرصة غياب (سابور بن أردشير) الى ناحية خراسان ، وتطرف في بعض ناحية السواد . فلما قدم (سابور) من غيبته اخبر بما كان منه ، فشخص اليه حتى اناخ على حصنه اربع سنين في رواية (ابن الكلبي) ، وحولين كما جاء في شعر (الأعشى)[6] .

وقد انكر (نولدكه) رواية (ابن الكلبي) بشأن حصار (سابور) للحضر . وقد كانت الحضر قد فتحت في عهد (أردشير) الأول ، وذلك قبل وفاته في

---

١ Ency., II, P. 207, Herzfeld, In ZDMG., IXVIII, Nöldeke, Gesch. der Perser und Araber, S. 33.

٢ مجلة سومر ، (١٩٥٢ م) ، المجلد الثامن الجزء الاول ، (ص ٤٠) ، Die Araber, IV, S. 267.

٣ Die Araber, III, S. 13, IV, S. 108.

٤ الطبري (٢/٤٧) (دار المعارف) .

٥ Die Araber, III, S. 108.

٦ الطبري (٢/٤٧) .

سنة (٢٤١) للميلاد . وكان ابتداء حكم (سابور) الأول سنة (٢٤١) . لذلك رأى (نولدكه) وغيره ان قصة (الضيزن) لا علاقة لها بهذا (السابور) ، بل بملك آخر من ملوك الساسانيين . وان (الضيزن) المذكور كان رئيساً من رؤساء قبائل عربية متنفذة كانت تغير من (الجزيرة) ومن الغرب على ارض السواد[1] .

ورجحوا كون (سابور) اهل الأخبار هو (سابور) الثاني الذي حكم من سنة (٣٠٩) حتى سنة (٣٧٩) للميلاد . وقد عرف هذا الملك بغزوه للعرب،وهو صاحب (الأنبار) و (خندق سابور) الذي حفره لحماية الأرض الخصبة المأهولة من هجمات الأعراب . وقد كان هذا الملك قد غزا (خراسان) وغزا ارض بكر وتغلب التي تقع بين الروم والفرس (المناظر) ، وحيث كانت تنزل قضاعة ايضاً[2] .

وقد رأى بعض الباحثين ان تعبير (سابور الجنود) (شاهبور الجنود) الوارد في شعر (الأعشى) و (عمرو بن إلة) تعبيراً يشير الى ان (سابور) المذكور لم يكن ملكاً ، بل كان قائداً من قادة الجيش ، وان هذا التعبير هو ترجمة لمصطلح (اصبهبذ) Spahbad الذي يعني (صاحب الجيش) . وان المقصود به رجل اسمه (شابور) (سابور) وكان بدرجة (اصبهبذ) (اسبهبذ) على (الري) ، وذلك في ايام (قباذ) الأول (٤٨٨ — ٥٣١ م) . واما (الضيزن) ، فهو عامل من العمال العرب من سادات القبائل ، قد يكون (طيزانيس) الذي كان في أيام (قباذ) ، الذي يجوز أن يكون صاحب المدينة المسماة (طيزن آباد) و (مرج الضيازن) على الفرات[3] .

ومن القبائل التي ورد اسمها في كتابات الحضر : قبيلة عرفت بـ (بني تيمو)[4] (بني تيم) . وهي قبيلة قد تكون لها صلة بقبيلة ورد اسمها في كتابات عثر عليها في وادي حوران بالعراق ، وفي كتابات عثر عليها في تدمر . ويظهر أنها

---

١ Die Araber, III, S. 109.

٢ الطبري (٢/٥٥ فما بعدها) (ذكر ملك سابور ذو الاكتاف) .

٣ Die Araber, III, S. III.

٤ سومر ، (١٩٦٥) ،المجلد الحادي والعشرون ، الجزء الاول والثاني ، (ص٣٣)، النص رقم ٢١٤ .

كانت من القبائل المعروفة في الجزيرة وفي بادية الشأم في القرن الأول قبل الميلاد فما بعده ، ويدل اسمها على أنها من القبائل العربية المتنقلة التي انتشرت بطونها في منطقة واسعة في ذلك العهد[1] .

هذا ما عرفه أهل الأخبار عن الحضر وعن أهل الحضر . فهم على رأيهم من عرب قضاعة نزلوا هذه المواضع في زمن لم يحددوه ، وأقاموا هناك .

ولا اظن ان ما أورده (ابن الكلبي) عن الحضر قد جاء به من عنده ، فلا بد أن يكون قد أخذه من موارد فارسية أو ارمية ، وأغلب ظني انه اخذ ذلك عن اهل الحيرة ، وقد كان لرجال الدين فيها من النصارى علم بالتواريخ . أخذوا علمهم هذا من موارد متعددة ، وعنهم نقل ما أورده عن الحضر .

وأما مملكة (الرها) Edessa ، وتعرف بـ (أورفة) (أُرفه) أيضاً ، فإن معارفنا عنها من ناحية صلتها بالعرب لا تزال ضئيلة ، وهي من مدن الجزيرة العليا . وقد أزهرت قبل الميلاد ، وظهرت مثل جملة مـــدن في هذه المنطقة ، منها : (بتنى) ، ونصيبين ، و (سنكارا) Singara أي (سنجار)[2] .

وقد أدخل (بلينيوس) (الرهـا) Edessa و Carrhoe = Callirhoe في جملة مدن (العربية)[3] . ويقال للرها (أورهة) Orhai = Orrhoe في السريانية . وهي من (ديار مضر) المعروفـة باسم Orrhoene = Osrhoéne قديماً[4] . وهي Orroei في تأريخ (بلينيوس)[5] . ومن جملة الأرضـين الداخلة في العربية[6] ، ومن المدن التي جدد بناءها (سلوقيـوس الأول) Seleuces[7] . وعرفت أيضـاً باسم (انطرخية) ، نسبـة الى (انطيوخس) Antiochus الرابع[8] .

---

١ المصدر نفسه ، القسم الانكليزي (ص ١٠) .
٢ مجلة سومر ، (١٩٥٢ م) ، المجلد الثامن ، الجزء الأول ، (ص ٣٨) .
٣ Pliny., V, XXI, 86, Vol., II, P. 287.
٤ المشرق : السنة الخامسة عشرة : الجزء ٣ آذار ١٩٥٢ (ص ٢٠١ وما بعدها) ، Ency., III, P. 993, Hill, P. XGIV, Lane, P. 263.
٥ Pliny., V, XX, 85, VI, 25, 129, VI, IX. 25, Vol. II. P. 285, 355, 437.
٦ Pliny., V, XX, 85, Vol. II, P. 284, 285.
٧ Euseblus - Hieronumus, Chron., P. 127.
٨ Pliny., V, XX, 86, Ency., III, P. 993, Hill, P. XGIV.

وقد تكوّنت في القرن الثاني قبل الميلاد مملكة في هذه المقاطعة، مقاطعة Osrhoene = Orroei . مملكة عدّ الكتبة اليونان والرومان ملوكها من العرب ، وعدّوا سكانها عرباً كذلك ، ويعزو (روستوفتزيف) Rostovtzeff سبب تكوّنها الى حالة الفوضى التي ظهرت في (ما بين النهرين) على أثر انحلال دولة السلوقيين واحتلال الفرث (الاشكانيين لها)[١] . وذكر (بروكوبيوس) ان هذه المقاطعة انما دعيت Osroes نسبة الى ملك اسمه Osroes كان يحكم هذه الأرض في الأيام الغابرة ، وكان حليفاً للفرس[٢] .

وقد وجدت اسماء ملوك (الرها) مرتبة ترتيباً زمنياً بحسب حكم الملوك في (حولية الرها) Edessene Chronicle المدونة حوالي سنة (٥٤٠) بعد الميلاد ، وفي حولية اخرى هي (حولية زقنين) على مقربة من (آمد) المدونة حوالي سنة (٧٧٥) بعد الميلاد، كما وجدت اسماء بعضهم على نقود ضربت في ايامهم[٣] . ويظهر من دراسة هذه الأسماء ان بينها اسماء عربية نبطية ، مثل : (معنو) وهو (معن) ، و (بكرو) وهو (بكر) ، و (عبدو) وهو (عبد) ، و (سهرو) او (سحرو) اي (سهر) او (سحر) ، و (أبجر) ، و (مزعور) او (ملعور) ، و (وائل)[٤] . وقد استدل بعض الباحثين من تسمي ملوك (الرهاء) بأسماء عربية ، ولا سيما الملوك الأولين منهم ، ومن نص (بلينيوس) على ان كورة Osrhoene ، هي كورة عربية ، ومن الوضع السياسي العام في الجزيرة Mesopotamia في القرن الثاني وما بعده قبل الميلاد ، اذ كانت القبائل العربية قد توغلت في هذه المنطقة ؛ استدل من كل ذلك على ان اهل الرها وحكامها كانوا من اصل عربي[٥] .

وقد نسب بعض أهل الأخبار بناء (الرها) الى رجل سمّوه (الرهاء بن البلندي بن مالك بن دعر) (ذعر) ، او الى (الرهاء بن سبند بن مالك بن

---

١ Rostovtzeff, The Social, II, P. 842, Poidebared, Texte, P. X, 72, 94, 129, 138, 148 198.

٢ Procopius, I, XVII, 24.

٣ Ency., III, P. 994, Hill, P. XGV, XGVI.

٤ Ency., III, P. 994.

٥ Die Araber, I, S. 312.

دعر بن حجر بن جزيلة بن لخم)[1] . وذكر (ياقوت) نقلاً عن (يحيى بن جرير النصراني) ان اسم (الرها) هو (أذاسا) في الرومية ، وقد بنيت في السنة السادسة من موت الإسكندر ، بناها الملك (سلوقس)[2] . وقد أخذ (يحيى ابن جرير) قوله هذا من كتب سريانية أو يونانية ولا شك . وقد انتزعها المسلمون في سنة (٦٣٩ م) من ايدي الروم[3] .

ومن آلهة (الرها) ، الإلهان : Azizos = Azizus و Monimos، ويرى (موردتمن) Mordtmann أن اسمي هذين الإلهين ليسا إرميين ، ولكنهما عربيان أصليان ، وأن احدهما وهو Azizus — هو عزيز ، والآخر — وهو Monimos— هو عربي كذلك ، وهم منعم . ودليله على ذلك ورود اسميهما في الكتابات اليونانية التي عثر عليها في (الكورة العربية) Provincia Arabia . وهما في رأيه من آلهة عرب هذه المنطقة ، وإن أضافهما بعض الكتاب الى السريان الوثنين . والإلـه (بعل) و (نبو)[4] .

وللرها شأن خطير في الأدب السرياني والأدب النصراني وتأريخ النسطورية ، وقد أزهرت هذه المدينة خاصة في أواسط القرن الرابع وفي القرن الخامس للميلاد[5]. وتنسب الى ملكها (أبجر) Abgar رسالة قيل إنه بعثها إلى (المسيح) ومراسلات مع الحواريين الأولين[6] .

ويراد بـ (كاليرهو) Callirhoe = Kallirrhoe الموضع الـذي يعرف اليوم باسم (بركة ابراهيم)[7] (نبع خليل الرحمان)[8] .

وذكـر (بلينيـوس) أن سكـان (الجزيرة) Mesopotamia

---

١ البلدان (٣٤٠/٤) ، البكري ، معجم (٤٢٥/١) (طبعة وستنفلد) ، الاصطخري (٧٦) ، ابن حوقل (١٥٤) (ذعر) .

٢ البلدان (٣٤٠/٤) .

٣ Ency., III, P. 996.

٤ Mordtmann, Mythologische Miscellen, In ZDMG., 32, 1878, S. 564, Hill P. XGV.

٥ المشرق ، السنة الخامسة عشرة ، ١٩١٢ م ، الجزء ٣ (ص ٢٠٤) .

٦ Eusebius, The Ecclesiastical History, I, XIII, (Kirsopp Lake), (Loeb Classical Library), Vol., I, PP. 85.

٧ Hill, P. XGV, Buckingham, Travels in Mesopotamia, 1827, I, III, E. Sachau, Reise in Syrien und Mesopotamien, 1883 S. 196.

٨ المشرق ، السنة الخامسة عشرة ، ١٩١٢ م ، الجزء ٣ (ص ٢٠١) .

Arabes, Qui Praetavi Vocantur عرباً . مقرهم Singara . أي سنجار . وهو موضع قديم كان معروفاً في أيام الاشوريين . ويظن أن (تراجـــان) نزل به في أثناء سيره على الحضر قطيسفون Ktesiphon[1] .

اما Emesa = Homesa = Hemesa أي حمص ، فيشبه تأريخها من أوجه عديدة تأريخ مدينة تدمر . فقد حكمتها أسرة عربية ، وازهر تأريخها في الزمن الذي أزهرت فيه حكومات المدن الأخرى التي ظهرت على اثر الضعف الذي حل بالسلوقيين . وتقع في السهل الذي يرويه نهر العاصي Orontes وعلى مسافـة ميل منه . وعرفت بـ Emesa أيضاً عند اليونان والرومان[2] . وفي ايام (بومبيوس) كانت مدينة Arethusa المجاورة لحمص ، وهي (الرستن) ، مقر أسرة عربية حاكمـة[3] . وفيهـــا ولد القيصر Elagabalus[4] . وبلغت أوج ازدهارها في ايام (سبتيموس سفيروس) Septimius Severus وفي ايام Elagabalus واسكندر سفيروس Alexander Severus ، وكانت أسقفية في عهد البيزنطيين .

وقد استدل بعض الباحثين من صور اسماء ملوك حمص على أصلهم العربـي . فالأسماء Sampsigeramus و Iamblichus = Jamblichus وAzizus و Soemus هي اسماء تحمل طابعاً عربياً خالصاً . وهي اسماء ترد في نصوص صفويـة ، وفي نصوص عربية أخرى أيضاً ، مما يحملنا على الذهاب الى ان ملوك حمص هم عرب كذلك[5] . فالاسم الأول وهو Sampsigeramus يمكن ان يقرأ (شمس جرم) ، والاسم Jamblichus يمكن ان يكون (يملك) او (جميل) او ما شابه ذلك ، والاسم Azizo هو (عزيزو) ، اي (عزيز) . وامـــا الاسم Soemus ، فيمكن ان يكون (سخيم) أو (سهيم) او ما شاكل ذلك .

---

١ Pliny., V, XXI, 86, Vol., II, P. 286, Sarre und Ernest Herzfeld, Archeo. Reise, I, S. 203, Ency., IV, P. 435, Lane P. 263.

٢ Ency., II, P. 309, Berytus, VIII, Fasc., I, 1943, P. 54-55, Pauly Emesa.

٣ (الرستن بفتح أوله وسكون ثانيه وتاء متناة من فوق وآخره نون ، بليدة قديمة كانت على نهر الميماس ، وهذا النهر هو اليوم المعروف بالعاصي الذي يمر قدام حماة) ، البلدان ٢٤٩/٤ .

٤ Ency., II, P. 309.

٥ العرب في سوريا قبل الاسلام، تاليف رينه ديسو، تعريب عبد الحميد الدواخلي، (ص ١١) ، R. Dussaud, 10, Die Araber, III, S. 126.

وقد كان حكام (حمص) المذكورين كهنة يخدمون هيكل (الشمس)، شأنهم في ذلك شأن سادات القبائل العربية الذين كانوا كهنة يخدمون آلهة القبيلة ويتحدثون باسمها بين أتباعهم[1] .

وقد ذكر (اصطيفانوس البيزنطي) أن شيخاً عربياً اسمه (مانيكو) Maniko كوّن مشيخة في Chalcis اي (قنسرين) من بلاد الشأم[2] .

وكانت القبائل العربية قد استقرت في هذه المنطقة قبل أيام (اصطيفانوس) بمدة طويلة . وفي (الحيار) ، وهي من اعمال قنسرين ، اصطدم الغساسنة بالمناذرة في سنة (٥٥٤) بعد الميلاد، فانتصر الغساسنة على خصومهم انتصاراً كبيراً . ولما استولى الفرس على (قنسرين) وانتزعوها من البيزنطيين ، كان للقبائل العربية سلطان واسع في مناطق قنسرين وحلب ومنبج وبالس[3] .

ويعد (اليطوريون) Ituraean من القبائل العربية البدوية ، وهي في التوراة من نسل (اسماعيل)[4] . وهم من نسل (يطور) ابن اسماعيل . وتقع ارضهم بين (اللجاة) Trachonitae والجليل ، وتسمى (جدورا) ، وتقع في جنوب غربي دمشق . وهي من المناطق التي امتزج فيها العرب ببني إرم[5] .

وقد توسع اليطوريون فدخلوا لبنان ، وسكنوا البقاع Massyas ، واستولوا على (بعلبك) Heliopolis ، وتوسعوا نحو الغرب حتى هددوا (جبيل) Byblos وبيروت Berytos . وذلك في أيام ملكهم المعروف بـ (بطلميوس) Ptolmaios ابن Mennaios[6] .

وقد استدل بعض العلماء من حشر التوراة اليطوريين في (الإشماعيليين) ومن اسم Mennaios وهو اسم والد الملك (بطلميوس) الذي عاش في القرن الأول

---

١ Die Araber, III, S. 126.

٢ Rostovtzeff, Vol., II, P. 482, Poidebard, Texte, P. 42, 207.

٣ Ency., II, P. 1021.

٤ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ١٥ ؛ أخبار الأيام الاول ، الاصحاح الأول ، الآية ٣١ ، الاصحاح الخامس ، الآية ١٩ ، قاموس الكتاب المقدس (٥١٣/٢) .

٥ قاموس الكتاب المقدس (٥١٣/٢) ، Paulys, 18 ter Halbband, 2377 - 2378.

٦ Die Araber., I, S. 314.

قبل الميلاد[1] ، ومن عثورهم على اسماء يطورية في كتابات لاتينية ويونانية تشير الى انها اسماء عربية الأصل ، استدلوا من هذا كله على انهم من العرب ، وان كانوا قد تأثروا بثقافة بني إرم . فقد تأثر بهذه الثقافة اكثر العرب الشماليين[2] .

ويعلق بعض العلماء اهمية كبيرة على اسماء الأشخاص في اثبات اصولهم. ووجهة نظرهم هذه في الأسماء ، هي التي جعلتهم يذهبون الى ان من ذكرناهم هم عرب في الأصل ، فان الطابع الظاهر على اسمائهم هو طابع عربي . وترد تلك الأسماء في الكتابات الصفوية ، واصحابها هم عرب من غير شك ، وان دوّنوا بقلم نبطي وبلغة نبطية . فالنبط انفسهم هم عرب ، كما أشرت الى ذلك في مواضع من هذا الكتاب ، وكما سأشير الى ذلك في مواضع تأتي .

ان تدوين اهل الشرق الأدنى لأفكارهم ولما يجول في خاطرهم بلغة بني إرم وقلمهم ، جعل من العسير على الباحثين الحكم في اصول الشعوب التي دوّنت بتلك اللغة والتي عاشت في الهلال الخصيب . ويدفعنا هذا التدوين الى وجوب اتخاذ موقف حذر ومتأن في ابداء آراء قطعية في أصول من ذكرنا ، فنظرية الحكم على اصول الناس استناداً الى اسمائهم وان بدت انها نظرية معقولة مقبولة ، لكنها مع ذلك غير علمية . فأكثر اسماء المسلمين في هذا اليوم هي اسماء عربية خالصة ، ما في ذلك شك ، فهل يجوز لنا أن نستنبط من هذه الأسماء بأن حملتها هم من اصل عربي ؟ ثم ان علينا أن نتذكر ان اسماء القبائل والأشخاص عند الشعوب السامية هي متقاربة ومتشابهة ، وهي واحدة في كثير من الأحايين ، بل ان علينا ان نتذكر ان ثقافة تلك الشعوب وآراءها متقاربة . ويعني هذان ان من الواجب علينا الا نتسرع فنحكم بأن ذلك مأخوذ من هذا الشعب أو من تلك الشعوب ، وان ذلك الشعب او هذا هو الأصل ، فمسألة تشابه الأسماء وتقاربها في النطق ، لا يمكن أن تكون في نظري ميزاناً توزن به اصول الناس . وهل يعقل ان يكون الأعاجم المسلمون عرباً ، لأن اسماءهم عربية ، او ان زنوج الولايات المتحدة هم من اصل اوروبي لأن اسماءهم اوروبية ؟

---

[1] كان يهدد مدينة (دمشق) سنة ٨٤ ــ ٨٣ قبل الميلاد ، Die Araber, I, S. 314.

[2] العرب في سورية قبل الاسلام ، رينه ديسو (ص ١١ وما بعدها) ، Die Araber, I, S. 315.

ويتصل الحديث عن هذه الإمارات بالحديث عن (تدمر) المدينة المعروفـــة بـ (بالميرا) Palmyra عنـــد الغربيين الذين ورثوا هذه التسمية من الاغريق واللاتين . وهي (تدمر امورو) في كتابات (تغلات فلاصر الأول) (تغلث فلاسر) (تغلت فلاسر)[1] في رأي بعض الباحثين[2] . وسأتكلم عنها بعد حين .

---

١ (تغلث فلاسر) ، قاموس الكتاب المقدس (١/٢٨٨) .

٢ Ency., III, P. 1020, Syria, Revue D'art Oriental et D'Archéologie, Tome VII, Paris, 1926, P. 77, Dhorme, Palmyre dans les Textes Assyriens, In Revue Biblique, 1924, PP..106, Ency., Brita., Vol., 17, P. 161, Hommel, In ZDMG., XLIV, 547.

الفصل الثالث والثلاثون

ساسانيون وبيزنطيون

حدث تطور خطير في الشرق الأدنى بعد الميلاد،فقد زالت حكومة (البارثيين) (الفرث) (البرث) The Parthians ، في حوالي سنة (٢٢٦ ب. م.) ، وحلت محلها حكومة عرفت بحكومة (الساسانيين) . وهي حكومة نبعت من ثورة على الحكومة السابقة، تولى كبرّها ملوك اقوياء اظهروا حزماً وشدة جعلت الروم يهابونهم ، ويرون انهم مكافئون لهم في القوة . ولم يكن الروم ينظرون الى (الفرث) بهذه النظرة من قبل[1] .

وحدث تطور مشابه في امبراطورية (رومة) ، فقد انقسمت الامبراطورية الى قسمين ، وصارت (القسطنطينية) عاصمة للجزء الشرقي،الذي كوّن الامبراطورية (البيزنطية) ، وذلك في سنة (٣٣٠ م) ، وتولت هذه الامبراطورية إرث النزاع مع الفرس،النزاع الموروث من الاسكندر . واصبحت بحكم وجودها في بلاد الشام وفي مصر على اتصال بالعرب في البر وفي البحر .

وكان لا بد للساسانيين والبيزنطيين من التعامل مع العرب ، ومن استرضائهم، ووضع حساب لهم . فقد كانت لكل من الامبراطوريتين حدود واسعة طويلة معهم كما كان في كل من الامبراطوريتين قبائل ذات شأن نازلة في ارضها في مناطق

---

١ J. B. Bury, History of the later Roman Empire, Vol., I, P. 90.
وسيكون رمزه : Bury

حساسة هي حافات الحدود . واما البادية : بادية الشام التي تملأ الهلال الخصيب، فقد كانت مملوءة بقبائل عربية تعرف عند الروم باسم Saracens و Scenites ، وتعني الكلمة الأخيرة سكان الخيام ، او اهل الخيام ، وهي كما قال احد المؤرخين (الكلاسيكيين) في تنقل مستمر وحركة دائمة من مكان الى مكان[1] . اذا وجدت ارضاً خصبة عاشت عليها ، والا كسبت معيشتها بالغزو . تغير على ارض الفرس او الروم ، فاذا جابهتها قوة ، تقهقرت الى البادية حيث يعسر على غير الأعراب ولوجها لتأديبهم . ولهذا لم يكن امام الحكومات الكبيرة الا استرضاء تلك القبائل ، لصيانة حدودها وللاستفادة منها في إلقاء الرعب في قلوب الأعداء والخصوم[2] .

وسلك البيزنطيون السياسة التي سلكها حكام (رومة) من قبلهم،وهي سياسة التقرب الى سادة (أكسوم) ، وعقد اتفاقيات ود وصداقه معهم،لضمان مصالحهم وللضغط على حكام السواحل العربية المقابلة لهم لجلبهم الى جانبهم ولمنعهم من التحرش بسفنهم وبتجارهم الذين كانوا يرتادون البحار الى الهند والسواحل الافريقية ويقيمون في مواضع من السواحل والجزر على شكل جاليات ، كما هي الحال في جزيرة (سقطرى) . وقد نجحت سياستهم هذه نجاحاً ادى الى غزو الجيش لليمن بتحريض من الروم فيما بعد .

وسلكوا سياسة حكام (رومة) ايضاً في تقوية حدود بلاد الشأم وضمان سلامتها من غارات الأعراب أو الفرس عليها ، ببناء سلسلة من الاستحكامات في البوادي وفي مفارق الطرق المؤدية الى تلك البلاد ، وبتقوية (خطة ديوقليطيان) Diocletian الدفاعية الشهيرة التي وضعها ، بالدفاع عن الحدود من مصر الى نهاية الفرات وفي جملتها تحصين مدينة (تدمر) قلب الدفاع ، والمواقع العسكرية الأخرى المقامة في البادية ، لتكون الموانع الأولى للأعراب من مهاجمة بلاد الشأم، والرادع الذي يردعهم عن التفكير في الغزو[3] .

وفي جملة ما اتخذه البيزنطيون من وسائل التأثير في الشرقيين ، وفي جملتهم

---

١ Ammianus Marcellinus, Rerum Gestarum, Bk., XIV, 4, I.

٢ Bury, I, P. 95.

٣ John Malalas, XII, P. 308, Bury, I, P. 96, Arabien, S. 23.

العرب ، نشر النصرانية ، الديانة التي قبلوها ودانوا بها ، واتخذوها ديانة رسمية للدولة . وفي نشر النصرانية تقوية لنفوذهم ، وسند لسياستهم في نزاعهم مع الساسانيين . ولهذا نراهم يشجعون إرسال البعثات التبشيرية والارساليات الدينية الى افريقية والى بلاد العرب والى الهند،وينفقون بسخاء لبناء الكنائس في تلك الأرضين يرسلون الخشب النفيس اللازم للبناء ، و (الفسيفساء) التي امتازوا بصنعها ، والعمال الروم المهرة في البناء،ليبنوا كنائس فخمة جميلة تبهر العيون وتقر الأفئدة، وتؤثر في العقول ، فتجلب اليها الناس وتستهويهم ، وهناك يتلقاهم المبشرون الذين أوفدوا للتبشير،بتلقينهم النصرانية والاخلاص لإخوانهم في الدين وفي طليعتهم الروم بالطبع،وفي ذلك كسب سياسي عظيم. وبذلك صارت(الكنائس)دوراً لعبادة الله،ودوراً للتبشير السياسي والثقافي،ومركزاً من مراكز الاستعلامات والتبادل الثقافي في مصطلح هذا الزمن.

وتمكنت النصرانية من كسب بعض العرب،فجرتهم اليها . جذبت اليها القبائل الساكنة على حدود الأرياف والأطراف ، اي سكان المناطق الحساسة الدقيقة بالنسبة الى الخطط السياسية والعسكرية للساسانيين وللبيزنطيين على حد سواء . وقد كان من سوء المصادفات أن النصرانية كانت قد تجزأت الى شيع ، وان غالبية النصارى العرب تمذهبت بمذهب يخالف مذهب الروم ، ولكنها كانت تشعر على كل حال أنها مع الروم على دين واحد . ولهذا لم يحفل ساسة (القسطنطينية) كثيراً بموضوع اختلاف المذهب ، وان تألموا من وجوده وظهوره،فساعدوا نصارى اليمن ونصارى الأماكن الأخرى من جزيرة العرب على اختلافهم عنهم . وعملوا في الوقت نفسه على نشر مذهبهم بين العرب ، ليتمكنوا بذلك من ايجاد محيط ثقافي سياسي يؤيد البيزنطيين .

وعني الساسانيون بتقوية حدودهم مع البادية كما فعل البيزنطيون ، وكما فعل (الفرث) وغيرهم ممن حكم قبلهم . وسعوا في استرضاء سادات القبائل وأصحاب السلطان من حكام البوادي ، وبنوا (المسالح) في المشارف المؤدية الى أرياف العراق لحمايتها من الغزو ، ولتقوم بتأديب الأعراب ومراقبة حركاتهم وتجمعاتهم، لتكون الحكومة على علم بما يريدون فعله ، ووضعوا في الخليج سفناً لحماية سفنهم من التحرش بها ، ولحماية حدودهم الجنوبية الواقعة على الخليج من التعرض للغزو واقام (أردشير الأول) (٢٢٥ – ٢٤١ م) . عدة موانيء بحرية ونهرية لهذا الغرض .

وتقابل هذه (المسالح) ما يقال له (المناظر) في عربيتنا بالنسبة الى حماية بلاد الشأم . فقد كان اليونان والرومان ثم البيزنطيون قد اقاموا خطوطاً Limes من التحصينات اسكنوا بها حاميات ألقوا عليها مهمة الدفاع عن الحدود . وهي تتكون من قلاع Castella ومن حصون (ابراج) Burgi ومن Centenaria و Turres . وخطوط التحصينات هذه ، هي (المناظر) عند العرب و (المسالح) بالنسبة لخطوط دفاع الفرس. وواجبها حماية ما يليها من تحصينات اخرى وحاميات اقيمت على (الخنادق) في الامبراطورية الساسانية ، او ما يقال له Fossatum عند الروم . فهي الخطوط الأولى من خطوط الدفاع . اما الذين يقومون بحراستها وبالدفاع عنهـا ، فانهم لا يتقاضون اجـراً ، اي رواتب على عملهم ، لأنهم Limitanei كما يقال لهم في اليونانية . ومعاشهم مما يزرعونه بأنفسهم ، او يدفع لهم من غلاّت الفلاحين الذين يعفون من دفع مـا عليهم من استحقاق للدولة . اي ما نسميه بضرائب Capitatio . وينتخب هؤلاء من السكان المحليين،ليكون من السهل عليهم السكن في هـذه المواضع البعيـدة . وعليهم مشرفون من الفرس او الروم لتوجيههم ولقيادتهم في اثنـاء وقوع غزو او تحرش قبائل بهـذه الخطوط[1] .

وشجع الساسانيون مذهب (نسطور) مع انهـم كانوا مجوساً ، ولم يكونوا نصارى . شجعوه لأنـه مذهب يعارض مذهب الروم ، فانتشر في العـراق وفي ايران وفي سائر الأرضين الخاضعة للحكم الساساني . ودخل في هذا المذهب اكثر النصارى العرب في العراق . ومن يدري ؟ فلعلهم ساهموا من طرف خفـي في توسيع الشقة بين هذا المذهب ومذهب الروم ولإلقاء العداوة بين هؤلاء النصارى والروم .

كانت بادية الشأم ميداناً للقبائل ، تتصارع فيه كيف تشاء . تبرز فيه قبيلة ، ثم ينطفيء اسمها ، لتظهر قبيلة اخرى . ولم يكن ذلك ليهم الدول الكـبرى ، ما دام ذلك الصراع في مواضع بعيدة عن حدودها ، فإذا بلغ الحد ، اضطرت تلك الدول الى الوقوف بحزم وصرامـة أمامه ، اذا كانت تملك الحزم والقوة .

---

١ Die Araber, II, S. 350, Altheim — Stiehl, Finanygeschichte der Spätantike, 31. ff., 117,. f., 162, f.

ولصعوبة قيام جيوشها النظامية بتعقب القبائل المغيرة وملاحقتها في البادية ، عمدت الى استرضاء سادات القبائل الكبيرة ذات العدد الكبير ، بالهدايا والمنح المالية المغرية وبالامتيازات وبالألقاب للقيام بحراسة الحدود ومراقبتها ، وبتعقب القبائل التي قد تتجاسر فتغزو الحدود ، منتهزة مواطن الضعف والثغرات . فالتجاء الساسانيون الى عرب (الحيرة) ، والتجأ البيزنطيون الى الضجاعمة والى اهل تدمر والغساسنة فيما بعد للقيام بهذه المهمة .

ولم تكن مهمة حفظ الحدود مهمة سهلة هينة،حتى على اهل البادية انفسهم ، فمنطق القبائل : ان القبيلة اذا كانت قوية ذات بأس ، وشعرت بقوتها ، جاز لها ان تطلب لنفسها ما تشاء وان تغزو من تشاء كائناً من كان . وطالما صار من توكل اليه حراسة الحدود نفسه هدفاً للغزو ، لأنه لم يطعم الغازين، ولم يقدم لهم ما يرضيهم من ترضيات واعطيات ، او لأن الغازين رأوا في قرارة انفسهم انهم أحق بحماية الحدود من الذين يقومون بحمايتها في هذا الزمن ، ولهذا يرون وجوب انتزاعها منهم بالقوة ، كما انتزعها هؤلاء القائمون بالحماية ممن سلفهم . فلا يكون امام الدول الكبرى غير الموافقة والتسليم ، ودفع الجعالات التي كانوا يدفعونها الى الحرس القديم ، الى الحرس الجدد الذين اظهروا قوة فاقت قوة القدماء في ميدان التنافس والقتال . وما الذي يهم الدول الكبرى في مثل هذه المواقف غير حماية الحدود ؟

ومع رغبة الدول الكبرى في التعامل جهد الامكان مع اصحابهم القدماء الذين اطمأنوا اليهم ، فأوكلوا لهم حراسة حدودهم ، وكانوا يهددون ذلك الحرس بجعل حراستهم الى خصومهم ومنافسيهم إذا ما شعروا بسوء نيتهم أو طمعهم أو إلحافهم في زيادة الجعالات ، او بضعف او تهاون في الدفاع عن الحدود وفي انزال القصاص بالمغيرين . وقد يوكلون الحراسة في الحالات الشاذة الى قوادهم الأشداء . لتعقيب المغيرين . وانزال ضربات شديدة بهم ، الى ان يتفقوا مع حارس جديد او ان يتفق اهل الحارس القديم على اختيار شخص جديد كما في حالات وفاة احد رؤساء آل نصر او آل غسان .

وليس من الصعب بالطبع على حماة الحدود ادراك الأدوار الخطيرة التي يقومون بها ، والخدمات الكبيرة التي كانوا يؤدونها للدولة التي يتولون حماية حدودها وضبطها من غارات الأعراب عليها . ولهذا صاروا يتحينون الفرص السانحة والظروف

المؤاتية لارغام الدولة على رفع جعالاتهم ولزيادة امتيازاتهم ، والا أضربوا عن الحراسة ، وأثاروا الأعراب عليهم،وهاجموا هم انفسهم تلك الحدود حتى تجاب مطالبهم او يسترضوا ، وعندئذ يقبلون بالعودة الى عملهم . وفي تواريخ المناذرة والغساسنة ، أمثلة عديدة من امثلة خروج امراء هاتين الحكومتين على الساسانيين والبيزنطيين ، لعدم تلبية مطاليبهم في زيادة الجعالات وفي الحصول على امتيازات جديدة تزيد على امتيازاتهم السابقة الممنوحة لهم .

وكان من نتائج العداء الموروث بين الساسانيين والبيزنطيين ان انتقلت عدواه الى العرب أيضاً ، فصار اناس منهم مع الفرس ، وآخرون مع الروم ، وبين العربين عداوة وبغضاء ، مع انهما من جنس واحد وكلاهما غريب عن الساسانيين والبيزنطيين . وقد تجسمت هذه العداوة في غزو عرب الحيرة للغساسنة ، وفي غزو الغساسنة لأهل الحيرة ، حتى في الأيام التي لم يكن فيها قتال بين الفرس والروم، مما أدى احياناً الى تكدير صفو السلم الذي كان بين البيزنطيين والساسانيين ، وتجسمت في شعر المدح والهجاء الذي نجده في حق آل نصر او آل لخم ، من الشعراء الذين وجدوا في هذه البغضاء متسعاً لهم ومفرجاً في الرزق . فصار بعضهم يساوم في أجور المدح وفي أجور الذم .

وقد انتهت حدود الأرضين التي خضعت لحكم البيزنطيين او سلطانهم عند حدود (المقاطعة العربية) الجنوبية ، فلم تتجاوزها الى ظهور الاسلام . ولعل محاولة (أبرهة) الاستيلاء على (مكة) كانت خطة سياسية عسكرية من خطط البيزنطيين كانت ترمي الى الاستيلاء على الشقة التي بقيت تفصل بين الروم والحكم الحبشي في اليمن ، فيبسط بذلك البيزنطيون سلطانهم السياسي على العربية الغربية كلها وعلى قسم كبير من العربية الجنوبية ، ومن يدري ؟ فلعلهم كانوا يبغون من بعد ذلك احتلال العربية الجنوبية كلها ، لغرض سيطرتهم على اهم جزء من خطوط الملاحة البحرية العالمية المؤدية الى الهند والسواحل الافريقية .

اما فيما عدا ذلك من جزيرة العرب ، فلم يكن للبيزنطيين سلطان سياسي او تدخل فعلي . ولهذا انفردت فعالياتهم السياسية والعسكرية مع العرب النازلين في الأرضين التي خضعت لحكمهم ولسلطانهم ، ومع عرب بادية الشأم وعرب العراق .

ولا نعلم ان ملوك الروم كانوا يرسلون قوافل تجارية خاصة بهم ، لتتاجر مع جزيرة العرب ، او ان حكام مقاطعاتهم في بلاد الشام كانوا يتاجرون باسم حكومتهم او بأسمائهم مع بلاد العرب. وكل ما نعرفه هو ان التجار العرب كانوا هم الذين يرسلون القوافل الى بلاد الشام فكانت اذا دخلت مناطق الحدود ، تؤدي ضرائب المرور و (المكس) الى رجال (مصلحة الضرائب) التابعين للروم. وعندئذ يسمح لهم ان يذهبوا الى الأسواق لبيع ما يحملونه وشراء ما يحتاجون اليه. وكانت (بصرى) حاضرة (المقاطعة العربية) ، هي السوق الرئيسية للتجار العرب ، ومنتهى قوافلهم في الغالب . فكانت علاقة اهل الحجاز ، ولا سيما اهل مكة ، بالروم علاقة اقتصادية . وعلى هذه العلاقة كانت تتوقف العلاقات السياسية في غالب الأحيان. فقد كان الروم يزيدون الضرائب احياناً،ويتعسفون في الجباية، فيتضرر بذلك التجار العرب ، فكانوا يشتكون ، ويراجعون حكام المقاطعات ، وقد يرفعون الى كبار القادة والحكام التماساً ، او يرسلون الى عاهل القسطنطينية رسلاً ، كما تقول بعض روايات اهل الأخبار للتوسل برفع هذه المظالم عنهم ولتخفيض الضرائب ، وتنتهي مثل هذه الشكايات بترضيات يراد بها ان تكون ترضيات سياسية ، لتوجيه عرب الحجاز ضد الفرس ، او لفتح المجال لتجار الروم بالمرور من الحجاز الى الجنوب ، أو للضغط على التجار لمنع القبائل من التجاوز على حدود الروم الى ما شاكل ذلك من أمور .

أما ملوك الساسانين ، فقد كانوا يتاجرون مع العرب. يشترون منهم ويبيعونهم ويرسلون القوافل بأسمائهم الى العربية الجنوبية ، لبيع ما تحمله في أسواقها،ولشراء سلع العربية الجنوبية يحملونها الى أسواق العراق . وقد كانوا يوكلون حراستها الى جماعة يختارونهم من سادات القبائل المهيبين المعروفين ، بجُعْل يدفعونه لهم . وسأتحدث عن ذلك فيما بعد . ولا أستبعد ان يكون بين تلك القوافل ، قوافل حملت ما كان يرسله الأكاسرة الى عمالهم في اليمن بعد استيلائهم عليها من مؤن وبضائع ، لتعود بما يفضل من الجباية التي يجبيها مرازبتهم على اليمن ، لتكون حصتهم وحصة الخزينة من مال اليمن .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان جماعة من أهل مكة قد تخصصت بالاتجار مع العراق. وقد كان لها تعامل مع كسرى وربما مع كبار رجال دولته أيضاً من أولئك الذين اقتدوا بملوكهم في الاشتغال بالتجارة وبالنزول الى الأسواق . فإننا

نجد أناساً من كبار تجار مكة كانوا يفدون على المدائن،ويتصلون بديوان كسرى، ويتعاملون هناك بيعاً وشراءً . وكانت لهم دالة على ملك المدائن ، وربما كان يساعدهم هو نفسه في مال القوافل ، او يجعل له نصيب من الأرباح .

أما حدود الدولة الساسانية مع البلاد العربية ، فلم تكن ثابتة ، بل كانت تتبدل وتتغير بحسب الظروف والأحوال . فقد كانت تتوسع أحياناً ، وتتراجع وتتقلص احياناً اخرى . كان الساسانيون يتقدمون نحو الجنوب في اتجاه (العروض) وبقية الأقسام الشرقية من جزيرة العرب حين تكون لهم قوة بحرية كافية ، وكانوا ينسحبون منها حين تضعف هذه القوة ، وحين تلهيهم الأحداث الداخلية وحروبهم مع الروم عن التفكير في الجنوب . وقد كان العرب في عهد الساسانيين وقبله قد استوطنوا السواحل الجنوبية من ايران ، وهيمنوا عليها ، وكان لقبائلهم أثر خطير هناك ، ولا سيما قبل ان تكون الدولة الساسانية ، إذ وجدوا في انشغال الدولة اذ ذاك في المنازعات الداخلية فرصة ملائمة لهم ، فبسطوا سلطانهم على مناطقهم مثل (كرمان) Karmania وغيرها [1] ، ولهذا كان اول ما فعله مؤسس الدولة الساسانية (أردشير الأول) (٢٢٤ — ٢٤٠ م) ، (٢٢٥ — ٢٤١ م) (٢٢٦ — ٢٤١ م) أن حارب عرب هذه الأرضين ليخضعهم الى حكمه ، في جملة سياسته التي قررها . وهي القضاء على الإقطاع وعلى الإمارات التي تعددت في هذا العهد نتيجة ضعف الحكومة .

فورد ان (أردشير) سار بعد ان تغلب على خصومه في ايران ، لقتال ملك (الأهواز) ، فغلبه في معركة حاسمة ، واستولى على ولايته ، ثم سار نحو (ميسان) ، وكان حاكمها عربياً ، فاستولى عليها [2] ، وبذلك خضع له العرب الساكنون في المناطق الجنوبية من بلاد ايران .

وذكر (حمزة الأصفهاني) ان (اردشير) ابتنى مدينة بالبحرين سماها (بتّن اردشير) ، وإنما سماها بتّن اردشير لأنه بنى سورها على جثث أهلها ، لأنهم فارقوا طاعته ، وعصوا امره ، فجعل سافاً من السور لبناً ، وسافاً جثثاً، فلذلك

---

١ Die Araber, I, S. 38.

٢ ارثر كريستينسن ، تعريب يحيى الخشاب والدكتور عبد الوهاب عزام ، ايران ، القاهرة ١٩٥٧ م (ص ٧٥) .

سماها اردشير»[1] . ويفهم من هذه الرواية الفارسية التي لا تخلو من الخيال ان اردشير كان قد استولى على البحرين . وقد ورد ان (أردشير) ، كان قد أنشأ عدة موانىء على الأنهار وعلى البحار[2] ، بعد ان قضى على مقاومة القبائل العربية النازلة في المناطق الجنوبية من ايران،وعندئذ صار من الميسور له ركوب البحر والاستيلاء على البحرين وعلى الأرضين العربية الأخرى من جزيرة العرب . ولهذا نص بعض الكتبة (الكلاسيك) عـلى ان ساحل عمان Oman كان تابعاً للفرس يومئذ ، أي لحكم (أردشير)[3] .

وذكر الطبري ان (أردشير) بنى بالبحرين مدينة سمّاها (فنياذ أردشير) وقال انها مدينة (الخط)[4] .

ويفهم من تأريخ (الطبري) ان (عمرو بن عدي) ، وهو أول ملك من ملوك الحيرة ، كان « مستبداً بأمره ، يغزو المغازي ، ويصيب الغنائم ، وتفد عليه الوفود دهره الأول ، لا يدين لملوك الطوائف بالعراق ، ولا يدينون له ، حتّى قدم أردشير بن بابك في أهـل فارس »[5] . ولم يشرح (الطبري) صلته بـ (أردشير) . ولكن الذي يتعمق في دراسة معنى هذه العبارة يخرج منها بأن أردشير فرض سلطانه عليه ، وانه أطاعه ، فلم يعد يغزو المغازي،ويصيب الغنائم كما كان يفعل ايام ملوك الطوائف .

أما (سابور الأول) (٢٤١ — ٢٧٢ م)[6] : وهو ابن الملك (أردشير) مؤسس الدولة الساسانية ، فقد ذكر انه تلقن درساً مهماً في السلوك من (أذينة) ملك تدمر ، اذ يقولون انه لما تمكـن من القيصر (فاليريان) (فالريانوس) Valerian[7] وأسره وانتصر على جيشه انتصاراً كبيراً ، تملكه الغرور والعجب،

---

١ تأريخ سني ملوك الارض والانبياء (ص ٣٤) .

٢ العرب والملاحة (ص ٩١) .

٣ Die Araber, I. S. 37, 41, 56, 61, 109, 343.

٤ الطبري (٢/ ٤١) ، (طبعة دار المعارف بمصر) .

٥ الطبري (١/ ٦٢٧) (دار المعارف) .

٦ « ٢٤٠ — ٢٧٢ م » ، في بعض المراجع ،
Ency., Vol., 4, P. 178, Die Araber, II, S. 67.

٧ « أولارينوس » ، مختصر تأريخ الدول ، لابن العبري (ص ١٢٨) (بـيروت ١٨٩٠) .

وصار يشعر انه ملك الدنيا ، فلما أرسل اليـه (أذينة) رسالة مع هدايا تحملها قافلة كبيرة من الجمال ، وصلت اليه في اثناء عودته منتصراً ، تملكه العجب من من تجاسر (أذينة) على مخاطبته بلهجة ليس فيها كثير من التعظيم والتفخيم والاحترام، وهو (ملك الملوك) و (أذينة) رئيس موضع في البادية ، فأخذته العزة وأمر برمي هداياه في (الفرات) قائلاً : « ومن هو أذينة Odenathus هذا ؟ ومن أي ارض هو حتى يوجه هذه الرسالة الى سيده ؟ فليأت حالاً اذا اراد ان يخفف من العقاب الذي سينزل به ، وليسجد امامي بعد ان توثق يداه الى ظهره ! » . فلما سمع (أذينة) بهذه الاهانـة ، جمع ما عنـده من قوة ، وأسرع فباغت الساسانيين مباغتة افزعتهم ، فوقع الرعب فيهم ، حتى تركوا له اكثر ما حصلوا عليه من غنائم من حربهم مع الرومان ، وفقدوا بعض زوجات الملك ، اذ وقعن أسرى في أيدي قوات (أذينة) . ولم يكتف ملك (تدمر) بهذا الانتقام ، بل اسرع في سنة (٢٦٣ م) فهاجم الجزيرة ، فانتصر على (سابور) ، ثم حاصر عاصمته (طيفسون)[١] .

وقد استمر الساسانيون في محاربة (أذينة) رجاء التغلب عليه والانتقام منه الى سنة (٢٦٥ م) من غير جدوى ، اذ قتل (أذينة) دون ان يتمكن (سابور) من أخذ الثأر منه[٢] .

ولما تغـير الزمن ، واتبعت (الزباء) سياسة معادية للرومان ، وحاصرهـا (أورليان) Aurelian . اتصلت بالساسانيين رجاء الحصول منهم على مساعدة عسكرية ، لتتخلص بها منهم ، إلا أن الملك (بهرام) لم ينجدهـا ، فسقطت أسيرة في ايدي الرومان سنة (٢٧٢ م) ، واخذ نجم المدينة المهمة التي اتخذهـا (هادريان) Hadrian قاعدة عسكرية لحماية حدود بلاد الشأم من المغيرين ، في الأفول منذ ذلك الحين . وكان تقاعس (بهرام) عن مساعدة (الزبـاء) من ضعف سياسة ذلك الملك ، الذي لم يكن ذا همة في ادارة الملك[٣] .

---

١ Sir Percy Sykes, A History of Persia, Vol., I, P. 402.

٢ أرثر كريستنسن ، ايران في عهد الساسانيين (ص ٢١٣ فما بعدها) ،
Ency., Vol., 4, P. 312, Pauly-Wissowa, 2, II, Reihe, I, 2328, 2331.

٣ ايران في عهد الساسانيين (ص ٢١٥) ،
Sykes, History of Persia, Vol., I, P. 207.

ولا نعلم شيئاً يذكر بعدئذ عن صلات الفرس الساسانيين بالعرب منذ عهد (بهرام الأول) الى عهد (سابور الثاني) (٣١٠ – ٣٧٩م) ، فالموارد صامتة لا تتحدث عنها بأي حديث ، الى عهد هذا الملك ، وانما هي تتحدث عن غارات قاسية أغارها هذا الملك على العرب في المنطقة العربية من ايران وفي الخليج العربي وفي العراق .

ويحدثنا (المسعودي) ، أن (سابور بن هرمز) المعروف بـ (سابور ذي الأكتاف) (٣١٠ – ٣٧٩م) ، كان قد أوقع في العرب موقعة عظيمة ، وذلك لأن القبائل العربية وفي طليعتها قبيلة (إياد) ، كانت قد غلبت على سواد العراق ، وأطبقت على البلاد ، ولذلك قيل لها (طبق) في ايام ملكها (الحارث ابن الأغر الإيادي) ، وكانت تصيف بالجزيرة وتشتو بالعراق ، فلما كبر(سابور) واخذ امور الملك بيده من مستشاريه ووزرائه ، إذ جاء الملك اليه بوفاة أبيه وكان في بطن أمه – اراد الانتقام من إياد ، واخضاعها للساسانيين ، كما كانت من قبل ، فأرسل سراياه نحوها ، وكان في حبسه رجل من إياد ، اسمه (لقيط)، سمع بعزم سابور فأرسل اليها شعراً ينذرها به ، ولكنها لم تحفل بانذاره ، ففاجأتها جيوشه ، وأوقعت بهم ، فما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم ، وخلع بعد ذلك اكتاف العرب ، فسمي سابور ذا الأكتاف [١] .

ويفهم من البيت الأول من شعر لقيط ، وهو قوله :

سلام في الصحيفة من لَقيط   على من في الجزيرة من إياد[٢]

أن إياداً كانت قد استبدت في أرض الجزيرة ، وعصت الفرس هناك وكانت قد استوطنت منذ أمد فيها ، ولذلك حذرها (كسرى) .
واذا كان هذا البيت الذي نسب الى (علي بن أبي طالب) :

لقريب من الهلاك كما أهـ   ـلك سابور بالسواد إيادا

---

١ مروج الذهب (١/٢١٥ وما بعدها) .
٢ الأغاني (٢٠/٢٤) ، الآمدي ، المؤتلف (ص ١٧٥) .

حقاً وصحيحاً ، فإن قوله هذا يكون أقدم مورد جاء فيه خبر ايقاع (سابور) بإياد [1] .

وفي خبر (المسعودي) وهمٌ وتسرع فإن الذي حارب إياداً وأنزل بهم خسائر فادحة ، لم يكن (سابور ذا الأكتاف) ، بل كان (كسرى انو شروان) ، او (كسرى بن هرمز) ، وان (كسرى) هذا ارسل جيشاً ضدهم ، وضعه بقيادة (مالك بن حارثة) ومعه قوم من (بكر بن وائل) فأرسل عندئذ (لقيط) اليهم انذاره فلم يحفلوا به ، فوقعت بهم خسائر كبيـرة في (الحرجية) ، وفرّ قسم كبير منهم الى بلاد الشأم [2] .

وينسب بعض الرواة الشعر المذكور الى (عمرو بن جدي) ، ويرجع جماعة من الرواة ايام (لقيط بن معمر) الى ايام (كسرى أنو شروان) (الأول). وفي القولين دلالة على ان الأبيات الشعرية التحذيرية لا يمكن ان تكون قد أرسلت في ايام (سابور) المذكور ، بل في ايام ملك آخر حكم بعده بسنين [3] .

وفي رواية اخرى ان (سابور) سار في البلاد حتى أتى بلاد البحرين،وفيها يومئذ بنو تميم ، فأمعن في قتلهم ، ففرّ من قدر منهم على الفرار،فأراد اللحاق بهم ، ولكن (عمرو بن تميم بن مرّ) ، وهو سيد تميم يومئذ ، وكان قد بلغ ما بلغ ، تحدث اليه حديثاً لطيفاً أقنعه بالكف عمن بقي ، فتركهم وشأنهم [4] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان السبب الذي دعا بـ (سابور) الى الفتك بالعرب ، هو ان القبائل العربية كانت قد توغلت في جنوب ايران ، وصار لها سلطان كبير هناك ، وتزايد عددها ، ثم صارت تتدخل في الأمور الداخلية للدولة الساسانية . فلما أخذ الأمور بيديه ، بدأ يضرب هذه القبائل ، للقضاء على سلطانها ثم قطع البحر ، فورد (الخط) ، فقتل من بلاد البحرين خلقاً كبيراً ، وأفشى القتل في (هَجَر) ، وكان بها ناس من أعراب تميم وبكر بن وائـل وعبد القيس . ثم عطف على بلاد عبد القيس فأباد اهلها ، الا من هرب منهم فلحق

---

١ Ency., Vol., 4, P. 315.

٢ Ency., II, P. 565.

٣ Die Araber, III, S. III.

٤ مروج الذهب (٢١٧/١) .

بالرمال ، ثم أتى اليمامة فقتل بها كثيراً أيضاً ، وسار على خطة طمّ المياه وردم الآبار ، ليحرم الناس الانتفاع بها . ثم سار حتى بلغ قرب (المدينة) ، فقتل من وجد هناك من العرب ، وأسر . ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس و (مناظر الروم) بأرض الشأم ، ففعل بهـا ما فعله في الأرضين الأخرى ، وأسكن من كان من بني تغلب من البحرين (دارين) واسمها (هيج) و (الخط) ، ومن كان من عبد القيس وطوائف من بني تميم (هَجَرَ) ، ومن كان من بكر بن وائل (كرمان) وهم الذين يدعون (بكر بن أبان) ، ومن كان من بني حنظلة بـ (الرميلة) من بلاد الأهواز[1] .

فحملة (سابور) على البحرين وساحل الخليج ، انما هي جـزء من الحملة العسكرية التي وضعها ذلك الملك للقضاء على نفوذ القبائل العربية التي كانت قد سكنت السواحل الجنوبية من ايران وأقامت بها قبل ايامه بزمن . والظاهر انها انتهزت فرصة ضعف الدولة الساسانية، وتناحر الرؤساء ورجال الجيش على السلطة فأخذت تزحف نحو الشمال وتقوي سلطانها في الأرضين الجنوبية من المملكة ، فلما انتقل الحكم الى (سابور) وكان من سياسته اعادة السلطة المركزية للدولة والقضاء على الاقطاعيين وعلى منازعي الحكومة ، حمل على عرب ايران ،حملة شديدة عنيفة حتى أخضعهم ، ثم نزل نحو الجنوب فعبرت جيوشه الى جزر البحرين والسواحل العربية المقابلة ، فأوقع بالعرب وآذاهم على نحو ما نجد وصفه في كتب أهل الأخبار .

وقد كان نزوح العرب الى إيران عن طريق البحر : حيث زحف اهل ساحل الخليج من الخط والبحرين وكاظمة وعمان ، الى السواحل المقابلة : السواحل الجنوبية من ارض الفرس . كما نزحوا اليها من مملكة (ميسان) Mesene ، فتوغلوا شرقاً الى (عيلام) Elam ، اي (خوزستان) ثم الأقسام الجنوبية من فارس . ويفهم مما كتبه (كورتيوس روفوس) Curtius Rufus ، الذي عاش في العشرات الأولى من القرن الثالث للميلاد ، ان العرب كانوا إذ ذاك في (كرمان) وفي (فارس)[2] . ولا بد وان يكون وجودهم في هذه الأماكن قبل هذا العهد

---

١ الطبري (٢/٦٧) ، (٢/٥٧) ، « دار المعارف » .
٢ Curtius Rufus, I, 36-39, Die Araber, II, S. 345, 349.

بأمد طويل . وذلك مما يؤيد ما جاء في تأريخ (الطبري) وغيره من وجود العرب في ايران قبل قيام حكومة الساسانيين .

وقد أنشأ (سابور) اسطولاً قوياً في الخليج العربي ، ليحافظ على حدود امبراطوريته ، وعلى التجارة في هذا الماء ، مع مساهمة أهل الخليج العرب أنفسهم في ركوب البحر وفي نقل التجارة ما بين الهند وسيلان وجزيرة العرب والعراق. ويظهر من روايات أهل الأخبار ان (سابور) نفسه كان في الأسطول الذي وصل الى البحرين للانتقام من العرب الذين كانوا يهاجمون سواحل حكومته الجنوبية المطلة على الخليج[1] .

وفي رواية اخرى نقلها (الطبري) من مورد آخر غير مورد ابن الكلبي : ان سابور ، بعد ان أثخن في العرب وأجلاهم عن النواحي التي صاروا اليها ، مما قرب من نواحي فارس والبحرين واليمامة ، استصلح العرب ، وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوّج والأهواز[2] ؛ وقد كان ذلك بعد حربه مع الروم . والظاهر ان الأوضاع السياسية اضطرته الى استصلاح العرب ، بعد ان تبينت له صعوبة الاستمرار في سياسة العنف والقوة الى أمد غير معلوم ، وبعد ما وجد من خطل في الاستهانة بشأن القبائل ، ولا يستبعد أن يكون للدرس الذي تعلمه من (أذينة) نصيب في هذا التبدل الذي أدخله على سياسته .

ويتبين من وصف (الطبري) لحملات (سابور) على العرب ، انها كانت حملات واسعة ، شملت أرضين بعيدة . بدأت بمن نزل أرض فارس من العرب ممن أناخ على (أبر شهر وسواحل أردشير خرة وأسياف فارس) ، ثم السواحل المقابلة لايران من بلاد العرب ، ثم امتدت نحو الغرب حتى بلغت (المدينة) ، ثم منها نحو بلاد بكر وتغلب ، فيما بين مسالح الساسانيين و (مناظر) الروم . اي انه حارب قبائل بادية السماوة . وهي حملات ان صح انها وقعت فعلاً ، فلا بد وان تكون قد نجحت وتمت بقبائل عربية مؤيدة لـ (سابور) ، اذ يصعب

---

١ العرب والملاحة (ص ٩١) ، Sykes, History of Persia, P. 412.

٢ الطبري (٢/٦٩ وما بعدها) ، (٢/٦١) ، « دار المعارف » .

تصوّر قيام الفرس وحدهم وبدون مساعدة باجتياز البوادي الشاسعة المنهكة لملاحقة العرب ، وهم سادة البادية . ولم يكن في وسع الفرس ، مهما بلـغ جيشهم من التدريب والتنظيم تحمّل العطش وحرارة البادية وجوّها القاسي الصارم .

وفي رواية المؤرخ (أميانوس) Ammianus عن حروب (سابور) (شابور) الثاني تأييد لرواية (الطبري) عن تلك الحروب وتوثيق لأكثرها . وقد وقعت تلك الحروب في ارض اغلب سكانها من عشائر قضاعة[1] .

ولضمان الحدود من غارات الأعراب عليها ، قوّى (سابور) (المسالح)، بأن وضع بها حاميات عسكرية قوية ، لمنع الأعراب من التعرض بالحدود . كما أقام خندقاً عرف بـ (خندق سابور) ليحول بين الأعراب والدنو من الحضر . وقد أباح لرجال الحاميات التي وضعت على الخندق ، اقامة الأبنية وزرع الأرض واستثناهم من دفع الخراج[2] .

وقام (سابور) بعمليات واسعة لاجلاء القبائل من منازلها الى منازل اخرى جديدة ، تأديباً لها ، وضماناً لعدم قيامها بغارات على الحدود . وهي سياسة قديمة معروفة ، استعملتها الحكومات في تأديب القبائل . فكان الآشوريون يجلون القبائل من مواطنها الى مواطن جديدة ، قد تكون بعيدة عن منازل القبيلة القديمة . وقد أجلى (سابور) بعض عشائر (تغلب) الى البحرين ، حيث انزلوا (دارين) وهي (هيّج) ، وأسكن عشائر اخرى (الخط) . ونقل بعض عشائر (بكر وائل) الى (كرمان) و (ابان) ، حيث عرفوا بـ (بكر أبان) . ونقـل (بني حنظلة) الى (الرملية) من (الأهواز) (خوزستان) . ويرى (نولدكه) احتمال كون (الرملية) موضع (قرية الرمل) ، الواقع على مسيرة يوم واحد عن (شوشتر) . ونقل قوماً من (عبد القيس) وتميم الى (هجر)[3] .

وفي جملة ما وضعه (سابور) من خطط لحفظ (السواد) وحفظ الحدود، اقامة (أنابير) اي مخازن في المواضع المهمة ، لخزن الأسلحة والأطعمة لتوزيعها

---

١ Ammianus, 16, 9, 3-4, Die Araber, III, S, 110, Aultheim-Stiehl, Finanzgeschichte der Spätantike, (1957), S. 35, 38.

٢ Die Araber, II, S. 349.

٣ Die Araber, II, S. 351.

على حاميات (المسالح) وعلى الأعراب عند الحاجة . ومن هـذه المواضع : (الأنبار) و (عكبرا) . وقد وضعت كلها تحت حماية عسكرية قوية . كذلك عهد الى (آل نصر) مهمة حماية الحدود ، بضبط العشائر والسيطرة عليها . بأن جعلهم يقومون بدور الشرطة المسؤولة عن حماية الحدود[1] .

ولا استبعد احتمال تقليد (سابور) للرومان في خططهم العسكرية التي كانوا وضعوها لحماية حدودهم في بلاد الشام وفي افريقية من غزو القبائل . فقد كانوا قد حموا حدودهم بسلسلة من التحصينات ضمت Castella و Burgi و Centenaria ، وخطوطاً دفاعية حصينة أقيمت في مؤخرة التحصينات الأمامية عرفت بـ Fossatum . و (المسالح) التي أقامها الفرس أمام (الخندق) أو امام الخطوط الدفاعية المحصنة هي محاكاة لخطط الرومان ، وتقابل ما يقال له Limitanei في اللاتينية[2] .

ولما تحرش (سابور) سنة (٣٣٧ م) بحدود الروم كلف العرب الهجوم على حدودهم أيضاً وغزوها[3]. والظاهر ان هؤلاء العرب كانوا من العرب المحالفين له،ولعلهم عرب الحيرة . وقد وقع هذا الغزو في ايام (قسطنطين) Constantine ملك الروم .

ونجد في الروايات الأعجمية تأييداً للرواية العربية القائلة باسترضاء (سابور) للعرب للاستفادة منهم في محاربة الروم وفي الوقوف أمامهم . اذ ورد في الأخبار اليهودية انه اثناء الحروب الفارسية الرومية الطويلة التي امتدت من سنة (٣٣٨) حتى سنة (٣٦٣) للميلاد . استدعى (سابور) قبائل عربية عديدة وأسكنها في مواضع متعددة من العراق ، وذلك لتساعده في حربه مع الروم[4] .

وفي رواية في تأريخ الطبري : ان (ليانوس) ملك الروم ، حارب (سابور)، فضم الى جيشه من كان في مملكته من العرب ، أي عرب الروم ، « وانتهزت

---

١ Die Araber, II, S. 352.

٢ Die Araber, II, S. 350.

٣ Sykes, History of Persia, I, P. 413.

٤ The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, II, P. 735, V. Funk, Die Juden in Babylonian, II, 41.

العرب بذلك السبب الفرصة من الانتقام من (سابور) وما كان من قتله العرب ، واجتمع في عسكر (لليانوس) من العرب مئة ألف وسبعون ألف مقاتل ، فوجههم مع رجل من بطارقة الروم بعثه على مقدمته ، يسمى (يوسانوس) . أما من بقي في عسكر (لليانوس) من العرب،فقد سألوه ان يأذن لهم في محاربة (سابور) ، فأجابهم الى ما سألوه ، فزحفوا الى (سابور) فقاتلوه ، ففضّوا جمعه، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وهرب (سابور) فيمن بقي من جنده ، واحتوى (لليانوس) على مدينة (طيسفون) محلة سابور ، وظفر ببيوت أموال سابور وخزائنه فيها »[1] عندئذ استنجد سابور بقواده فلما وصل اليه العون ، استخلص طيسغون،ثم تصالح بعد مقتل (لليانوس) مع (يوسانوس) الذي انتخبه الجيش ملكاً على أثر قتل (لليانوس) .[2]

وقصد (الطبري) بـ (لليانوس) الامبراطور (جوليان) (يوليان) Julian ، فقد تقدم هذا بجيوشه سنة (٣٦٣م) ، نحو الدولة الساسانية فاكتسح حدودها، وهرب الفرس من أمامه ، حتّى بلغت جيوشه (طيسفون) عاصمة الساسانيين ، إلا أنه لم يلحق ضربة شديدة قاصمة بـ (سابور) ، بل ترك عاصمته ، وتراجع حيث لاقى مصيره في المعركة في أثناء رجوعه الى بلاده . فانتخب (يوسانوس)، وهو (جوفيان) Jovian في لغة الروم ، خلفاً له[3] .

وقد ورد في بعض الروايات أن (لليانوس) (يوليان) Julian قيصر الروم ، كان متعجرفاً متغطرساً فلما كلف جماعة من العرب Saracen أن ينضموا الى جيشه ، لمحاربة الفرس ، وافقوا على ذلك وحاربوا معه ، إلاّ أنهم لما طالبوه بعطاياهم وبهدايا ، أجابهم جواباً غليظاً : « الامبراطور الشجاع المقدام ، عنده الحديد ، لا الذهب» ، فتركوه وانقلبوا عليه ، وألحقوا به خسائر كبيرة[4] .

ويذكر المؤرخ (أميانوس مرسيللينوس) Ammianus Marcellinus : ان (يوليان) Julian لما بلغ (الفرات) ليلحق بالأسطول الذي بناه في هذا النهر

---

١ الطبري (٢/٦٨) ، اليعقوبي (١/١٣١) .

٢ الطبري (٢/٦٨ وما بعدها) .

٣ Sykes, History of Persia, I, P. 422.

٤ Sykes, History of Persia, I, P. 418.

ويسير به لمحاربة الساسانيين ولينقل جيشه الى حيث يلتقي بالجيش الآخر الزاحف من (دجلة) والطرق البرية ، قدمت له قبائل عربية Saracens الطاعة ، الا ان هؤلاء أناس لم يكونوا يعرفون هل هم أعداء أو أصدقاء ؟[1] ولذلك صار الروم على حذر شديد منهم ، خشية الانقلاب عليهم عند الشدائد .

وذكر هذا المؤرخ : ان سادات القبائل قدّموا الى القيصر تاجاً من ذهب ، ليعبّر عن خضوعهم له . ولقبوه بلقب (ملك كل العرب) فقبل الملك منهم التاج واللقب ، لما في ذلك من أثر معنوي يحدثه في نفوس العرب . وحاربت القبائل التي انضمت اليه الفرس في معارك صغيرة[2] . فكافأها القيصر على عملها هذا . الا انه لم يقدم لها معونات الذهب التي كانت تقدم عادة الى سادات القبائل. فاستاء الرؤساء من ذلك ، وانحاز قسم منهم الى الفرس . وأخذوا يتحرشون بعسكر (يوليانوس) ، وألحقوا به خسائر في الأرواح،وباعوا من وقع في أيديهم أسيراً من الروم ، في أسواق النخاسة[3] .

وكان سبب انضمام تلك القبائل الى الروم ، ما لاقته من شدة (سابور) (شابور الثاني) ومن تنكيله بها ، فأرادت بانضمامها الى (يوليانوس) الانتقام من الفرس ، وأخذ ثأرها منهم عند سنوح أول فرصة . وقد آذوه فعلاً ، مما حمله على تغيير سياسته تجاههم : فأخذ يسترضيهم فعاد اليه من عاد منهم[4].

وذكر (أميانوس) ، ان ممن انضم الى الفرس من الأعراب Saraceos ، سيد قبيلة اسمه (مالك) Malechus . وقد عرف والده بـ Podosacis[5] . وقد تمكن بمعاونة رجل عربي آخر اسمه : (سورينا) Surena من الفتك بكتيبة من كتائب الروم . وذلك بنصب شرك لها ، فوقعت تحت سيوف العرب . وذكر ان (مالك) ، كان عاملاً (فيلارخا) على قبيلة اسمها Assanitarum ، يرى البعض انهم الغساسنة[6] .

---

١ Sykes, I, P. 419.

٢ Ammianus, 23, 5, I, 24, I, 10, Die Araber, II, S. 324.

٣ Ammianus, 25, 6, I, Die Araber, II, S. 325.

٤ Die Araber, II, S. 325.

٥ Ammianus, 24, 2, 4, Die Araber, II, S. 325.

٦ Die Araber, II, S. 325.

ويذكر أهل الأخبار ان (سابور) إنما لقب بـ (ذي الأكتاف) ، لأنه خلع أكتاف العرب[1] . ويرى (نولدكه) أن هذا التفسير مصنوع ، وان اللقب انما جاء عند الساسانيين في معنى آخر لا علاقة له بخلع الأكتاف ، بل قصد به (ذو الأكتاف) ، اي صاحب الأكتاف دلالة على الشدة والقوة ، فهو لقب تمجيد وتقدير . وقد حوّله أهل الأخبار الى معنى آخر ، هو المعنى المتقدم لبطش (سابور) بالعرب وايقاعه القاسي بهم . أما (أرثر كريتنسن) ، فيرى أن تفسير اهل الأخبار تفسير صحيح ، وهو لا يستبعد خلع (سابور) لأكتاف العرب ، فقد كان مثل هذا التعذيب القاسي المؤلم معروفاً في تلك الأيام[2] .

وذكر (حمزة الأصفهاني) ،أن التسمية المذكورة إنما جاءته من الجملة الفارسية، وهي (شابور هويه سنبا) (وهويه اسم للكتف وسنبا أي نقّاب . قيل له ذلك لأنه لما غزا العرب كان ينقب أكتافهم ، فيجمع بين كتفي الرجل منهم بحلقة ويسبيه ، فسمته الفرس بهذا الاسم وسمته العرب ذا الأكتاف)[3] فالتسمية إذن هي تسمية فارسية . ولا استبعد أن تكون القصة شرحاً تكلفه القصاصون ، لتفسير هذا اللقب ، وهناك ألقاب عديدة ، فسرت تفسيراً اسطورياً على هذا النحو من المبالغة والتهويل .

وقد نسب الى (سابور) (شابور) هذا بناء الأنبار ، ذكر أنه بناها ، فسميت بـ (فيروز شابور) . وقد صيرها العرب (الأنبار)[4] . وكانت من المدن التي تغلب عليها العنصر العربي عند ظهور الإسلام ، كما نسبوا اليه بناء (عكبرا)[5] .

ويذكر (المسعودي) أن (سابور بن سابور) . ويريد به (سابور الثالث) (٣٨٣ — ٣٨٨ م)[6] ، كانت له حروب كثيرة مع إياد بن نزار وغيرها من العرب . ويتبين من بيت شعر نسبه الى شاعر نعته بأنه : (شاعر اياد) ولم

---

١ الطبري (٦٧/٢) ، مروج الذهب (٢١٦/١) .
٢ ايران في عهد الساسانيين (ص ٢٢٥) .
٣ حمزة (ص ٣٦) .
٤ « والأنبار : أهراء الطعام ، واحدها نبر ، ويجمع أنابير » ، اللسان ، مادة (نبر)، (١٩٠/٥) (صادر) ، حمزة (٣٤) .
٥ حمزة (٣٧) .
٦ أو سنة (٣٨٧ م) في بعض الروايات .

يسمه. أن إياداً استعادت مكانتهــا ، وأصبحت قبابها و (حولها الخيل والنعم) وذلك (على رغم سابور بن سابور)[1] . ويظهر أن إياداً التي كانت قد لحقت بأرض الروم في أيام (سابور ذي الاكتاف) عادت فرجعت الى العراق وحلت في محلها .

ويذكر (المسعودي) روايةً أخرى ، خلاصتها أن إياداً بعد ان رجعت من أرض الروم ، دخلت في جملة (ربيعة) من ولد (بكر بن وائــل) ، وأن ربيعة كانت قد غلبت على السواد ، وشنت الغارات في ملك هذا الملك ، فصارت إياد في جملة (ربيعــة)[2] . فإياد وإن عادت الى العراق ، لم تتمكن من أن تستعيد مكانتها ، فدخلت في قبائل (ربيعة) التي هي من (بكر وائــل) ، وهي قبائل كانت قد كسبت سلطاناً ومكانةً مستغلة فرصة ضعف هــذا الملك ، فسادت من ثم على (إياد) .

وقد وقع هذا التطور بعد وفاة (سابور ذي الأكتاف) ، وإذا أخذنا برواية (المسعودي) هذه ، وجب أن يكون زمانه ما بين سنة (٣٨٣ – ٣٨٨ م) . ففي خلال هذه المدة كان حكم (سابور الثالث)[3] .

ولا تتحدث الموارد العربية بشيء يذكر بعد ذلك عن علاقة الساسانيين بالعرب الى أيام (بهرام جور) (بهرام كور) (٤٢٠– ٤٣٨ م) ، وهو المعروف بـ (بهرام الخامس) عند المؤرخين[4] . ثم نجدها تعود فتتكلم عن علاقتهم بعرب الحيرة ، حيث يحتل الكلام عليهم الجزء الأكبر من صفحات تأريخ العلاقات العربية الساسانية ، ولهذا السبب وجب البحث في الحيرة وفي علاقاتها بالساسانيين في فصل خاص .

وكان لملك الحيرة فضل في تولي (بهرام) عرش الدولة الساسانية بعد أن قرر الأشراف وأصحاب الجاه والسلطان من رجــال الدين والجيش انتزاعه من أولاد

---

١ على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب اياد حولها الخيل والنعم
مروج الذهب ((٢٢١/١) .

٢ مروج (٢٢١/١) .

٣ Ency., Vol., 4, P. 178.

٤ Ency., Vol., 4, P. 178, R. Ghrishman, Iran, P. 299.

(يزدجرد) والده . فقد أمده بجيش افزع اولئك الأقوياء فوافقوا على أن يمنحه التاج ، كما سأتحدث عن ذلك في أثناء كلامي على ملوك الحيرة .

ويذكر (الطبري) ان (بهرام) المذكور كان قد ربي تربية عربية ، ذلك لأن أباه (يزدجرد) (يزدكرد) كان قد أرسله الى الحيرة لتربيته تربية صحيحة ، فأقام في البادية وبين الأعراب حتى شب مثلهم قوياً شجاعاً مغامراً ، ينظم الشعر بالعربية ، ويتكلم بها بطلاقة وفصاحة . ويرى بعض المؤرخين المحدثين ان اقامة (بهرام) انما كانت في قصر الخورنق ، ويرون ان بناء هذا القصر كان قد تم قبل ذلك بزمن . ويرون ان ارساله الى الحيرة،لم يكن على نحو ما زعمته الروايات العربية ، وانما كان نفياً له في الواقع لخلاف بينه وبين أبيه ، ولأن أباه لم يكن يعطف عليه عطفه على ولديه الآخرين[١] .

وهذا القسم من تأريخ صلات الساسانيين بعرب الحيرة.واضح ومفصل بالقياس الى القسم المتقدم ، وانه يدل على انه أخذ من موارد تأريخية منظمة، غير ساسانية وهي موارد دونها أهل الحيرة أنفسهم ، وفي مقدمتهم رجال الكنيسة الذين ألفوا تدوين التواريخ ، وقد صار رجال الدين النصارى هم رواة التأريخ وحفظته منذ تفشي النصرانية ، فمن هذه الموارد نقل (ابن الكلبي) واضرابه ممن دونوا تأريخ الحيرة .

وذكر بعض أهل الأخبار ان (كسرى برويز) (كسرى أبرويز) ، لما انهزم من (بهرام شوبين) ، كان فراره على فرس من خيل رجل من طيء ، فنجا بفضله ، وذكروا ان ذلك الفرس هو (الضبيب) . وهو من خيل العرب المعروفة[٢] .

وذكر (حمزة الأصفهاني) ان من جملة قواد (كسرى أبرويز) القائد (فنابرزين) ، وهو (نكهان) . وكان (فنابرزين) متولياً على ما يلي الريف من البادية الى حد الحيرة الى حدود البحرين ، والعرب تسميه (خنابزرين ساسان بن روزبة)[٣] .

---

١ ايران في عهد الساسانيين (ص ٢٦٠) .
٢ الاشتقاق (ص ١١٧) .
٣ حمزة (ص ٩١) .

وفي ايام (كسرى أنو شروان) ، طرد الأحباش من اليمن ، اذ أرسل اليها نجدة بقيادة (وهرز) ، وبذلك دخل الفرس اليمن ، وصاروا على مقربة من الحبش حلفاء الروم . وقد لاقت السياسة البيزنطية بذلك ضربة شديدة عنيفة ، لأن الفرس بدخولهم اليمن صار في امكانهم الضغط على التجارة البحرية للروم ، وصار في امكانهم الهيمنة على منفذ البحر الأحمر ، البحر الذي تلج منه سفن الروم الى المحيط الهندي وبالعكس، كما صار في امكان الفرس الاتصال بعرب الحجاز وعقد اتفاقيات تجارية مع أهل مكة ، وهم اذ ذاك من أهم تجار بلاد العرب .

وقد بقي الفرس في اليمن حتى ظهور الاسلام ، فأسلم آخر عامل فارسي ، وزال ملك الفرس عنها بذلك ، كما زالت الدولة التي كان العامل الفارسي يحكم باسمها .

وكانت للفرس قوة في عمان عند ظهور الاسلام ، وقد ذكر ان أول من أغار عليهم (نعام بن الحارث) من (عتيك) ، وكان من فرسانهم في آخر الجاهلية وأول الاسلام[1] .

وذكر (الطبري) : ان (كسرى أنو شروان) (انصرف نحو عدن ، فسكر ناحية من البحر هناك بين جبلين مما يلي أرض الحبشة بالسفن العظام والصخور وعمد الحديد والسلاسل . وقتل عظماء البلاد ... ثم انصرف الى المدائن ، وقد استقام له ما دون هرقلة من بلاد الروم وأرمينية،وما بينه وبين البحرين من ناحية عدن)[2]. وفرّق (كسرى) الولاية والمرتبة بين أربعة اصبهذين . منهم : اصبهذ نيمروز وهي بلاد اليمن[3] .

وذكر (حمزة) أنه في زمن (كسرى أنو شروان) ولى (أنوش بن حشنشبنده) ناحية من ارض العرب ، وبقي عليها بعض ايام هرمز بن كسرى[4] .

وكان الساسانيون كالبيزنطيين قد اتخذوا (مسالح) لهم على مشارف البوادي والحدود لحماية أملاكهم من الغزو ، ولإخبار الحكومة عند دنو العدو وحالة حدوث خطر . وهي أبنية حصينة ، وضعوا فيها قوات تحت امرة أمراء منهم ، يقيمون

١ الاشتقاق (٢/٢٨٤) .
٢ الطبري (٢/١٠٣) ، « دار المعارف » .
٣ الطبري (٢/٩٩) ، « دار المعارف » .
٤ حمزة (ص ٩١) .

فيها ، واتخذوا فيها مخازن لخزن الأسلحة والأطعمة . وحفروا فيها آباراً ، وصنعوا (كهاريز) تخزن الماء . ولما ظهرت جيوش الإسلام لفتح العراق ، كان على هذه المسالح إخبار (طيسفون) بما حدث ، والوقوف أمام تلك الجيوش ، حتى تجيء جيوشهم فتلتحم بالمسلمين .

وفي جزر البحرين قنوات يظن أنها من عمل الساسانيين ، أقاموها للاستفادة من المياه المتدفقة من العيون ، وهي أخاديد حفرت في الأرض ثم بطنت بمادة تمنع الماء من التسرب الى التربة ثم سقفت بصفائح من الحجر ، أهيل عليها التراب لتمنع أشعة الشمس من الوصول الى الماء فتبخره ، وبذلك تقل كمياته . وبين مسافة وأخرى تقدر ما بين عشرة وعشرين ياردة توجد منافذ لمرور الهواء منها الى باطن القناة . وقد بطنت هذه المنافذ بالحجارة،وقد أقيمت جدر عند مخارجها الى الأرض لتحميها من سقوط الأتربة فيها . ولا تزال بعضها عامرة تجري فيها مياه العيون حتى الآن . وهناك آثار قنوات مشابهة لها تقع في السواحل المقابلة للبحرين من المملكة العربية السعودية تعود الى هذا العهد أيضاً [1] .

وقد كانت البحرين تخضع لحكم الساسانيين عند ظهور الإسلام ، أما حاكمها الفعلي فهو رجل من العرب على دين النصرانية ، وعلى مذهب النساطرة . وكان للنساطرة عدة أساقفة في مواضع من الخليج ، كما كانت لليهودية وللمجوسية مواضع في بلدان الخليج أيضاً . أما غالبية العرب ، فعلى الوثنية [2] .

وقد كانت (الأبُلّة) من أهم المواضع المهمة في نظر الساسانيين من الوجهة الحربية . وكانت تعدّ عندهم (فرج أهل السند والهند) [3] . وكان (فرج الهند) أعظم فروج فارس شأناً ، وصاحبه يحارب العرب في البر ، والهند في البحر [4] . وقد وضعوا هذا الفرج تحت امرة قواد عسكريين . ولما سمعوا بمجيء خالد بن الوليد من اليمامة ، أسرع كسرى فأمر قواده بالاتجاه الى (الكواظم) والى (الحفير) لمقابلته . وقد التقى به (هرمز) بكاظمة.وكان جباراً ، كل العرب عليه مغيظ . وقد كانوا ضربوه مثلاً في الخبث ، حتى قالوا : (أخبث من

---

١ James H. D. Delgrave, P. 68.

٢ Belgrave, P. 61.

٣ الطبري (٣٤٧/٣) .

٤ الطبري (٣٤٨/٣) .

هرمز) و (أكفر من هرمز) . فلما التحم العرب والعجم ومن معهم من العرب قتل هرمز وفرّ العجم وأفلت (قباذ) و (أنو شجان) ، وكان على مجنبة الفرس . وقد عرفت هذه الوقعة بـ (ذات السلاسل) ،لاقتران العجم في السلاسل حتّى لا يكون لهم أمل في الفرار[1] .

وفي الحروب الأخرى الّتي وقعت بين الفرس والمسلمين ، توالت الهزائم على العجم على الرغم من كثرة عددهم . ولم يكن الفرس يحاربون وحدهم، بل حارب معهم (عرب الضاحية) ، وآخرون[2] . ففي (وقعة الولجة) ، مما يلي(كسكر) من البر ، كان يحارب الى جانب الفرس قوم من العرب من عرب الضاحية ، وقد أسر فيها ابن لجابر بن بجير وابن لعبد الأسود ، وهلك عدد كبير من (بكر بن وائل) وكانوا نصارى ، فغضبت لذلك بقية نصارى بكر بن وائل وغضب نصارى عرب آخرون ، فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا الى موضع (أليس) ، وعليهم (عبد الأسود العجْلي) في نصارى العرب من بني عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من اهل الحيرة ، وكان جابر بن بجير نصرانياً ، فساند عبد الأسود ، فقابلهم (خالد) وجالد العرب أولاً ، فسقط (مالك بن قيس) ، وهو رأس من رؤوسهم، ثم تهاوت صفوف الفرس أمام سيوف خالد ، ولم تثبت أمامه[3] .

ولما قصد خالد للحيرة ، وجد قائد الفرس ، وهو (الأزاذبه) قد ولّى هارباً ، وكان عسكره بين الغَريّيْن والقصر الأبيض ، فدخل خالد (الخورنق) وأمر بكل قصر رجلاً من قواده يحاصر أهله ويقاتلهم ، فحاصروا (القصر الأبيض) وفيه (إياس بن قبيصة الطائي) ، وحاصروا (قصر العدسيين) وفيه (عديّ بن عدي) المقتول ، وحاصروا (قصر مازن) وفيه (ابن أكال)، وحاصروا (قصر ابن بقيلة) ، وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وكل هؤلاء عرب نصارى . ولكنهم لم يثبتوا أمام المسلمين ، وتهاوت قصورهم ، وطلبوا الصلح .

وكان اول من طلب الصلح (عمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيان بن الحارث) وهو بقيلة ، وتتابعوا على ذلك ، فخلا خالد بأهل كل قصر منهم

---

١ الطبري (٣/٣٤٨) وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٣٥٣ وما بعدها) .
٣ الطبري (٣/٣٥٥ وما بعدها) .

دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عدي وقال: ويحكم ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ او عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ، فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ،فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عدي : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال : صدقت . ثم صالحوه على الجزية[١] .

وصالح (صلوبا بن نسطونا) (صاحب قس الناطف) خالد بن الوليد على (بانقيا) و (بسما) بدفع الجزية له . وقد نقبه خالد على قومه . ولما استقام ما بين أهل الحيرة وبين خالد واستقاموا أتته دهاقين (الملطاطين)[٢] ، وأتاه (زاذ بن بهيش) دهقان فرات سريا ، و (صلوبا بن بصبهري) ، فصالحوه على ما بين الفلالج الى (هرمز جرد) ، ودخل أهل (البهقباذ) الأسفل وأهل (البقباذ) الأوسط والأماكن التابعة للمذكورين في الصلح[٣] ونزل خالد الحيرة ، واستقام له ما بين الفلاليج الى اسفل السواد ، وأقر المسالح على ثغورهم ، ورتب القواد وموظفي الخراج وسائر الأعمال استعداداً لطرد الفرس[٤] .

وكان أهل الأنبار عرباً ، يكتبون بالعربية ويتعلمونها، وكان عليهم حينما بلغها (خالد) (شيرزاذ) صاحب (ساباط) . ولما وجد الفرس ان من غير الممكن لهم الوقوف أمام المسلمين ، تركوا المدينة لخالد ، وخرج (شيرزاذ) في جريدة خيل ليلحق بأصحابه ، ثم صالح أهل (كلواذى)[٥] . ثم قصد خالد (عين التمر) وبها يومئذ (مهران بن بهرام جوبين) في جمع عظيم من العجم ، و (عقة بن أبي عقة) في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لافّهم ، فهجم خالد على عقة ومن معه من العرب . فأسره وانهزم عسكره ،

---

١ الطبري (٣/٣٥٩ وما بعدها) .

٢ (ومنه حديث علي ، كرم الله وجهه : فأمرتهم بلزوم هذا الملطاط حتى يأتيهم أمري ، يريد به شاطىء الفرات) ، اللسان (٧/٤٠٨) «صادر» ، مادة (ملط) ، الطبري (٣/٣٦٧) ، البلدان (١/٣٣١) ، (بيروت ١٩٥٥ م) ، البكري ، معجم (١/٢٢٢) ، (طبعة السقا) ، اليعقوبي (١/١٣١) ، مراصد الاطلاع (١/١٢٣) .

٣ الطبري (٣/٣٦٨) .

٤ الطبري (٣/٣٧٢ وما بعدها) .

٥ الطبري (٣/٣٧٤ وما بعدها) .

ثم سقط الحصن ، وانهزم الفرس . وأمر خالد بعقة وكان خفير القوم ، فضربت عنقه ثم دعا بعمرو بن الصعق ، فضرب عنقه ، وانتهى أمر عين التمر[1] .

وحاول الفرس جمع صفوفهم ثانية،للوقوف أمام خالد واسترداد ما أخذ منهم . وكان خالد اقام بدومة الجندل ، فظن الأعاجم به ، وكاتبهم عرب الجزيرة غضباً لعقة ، فخرج (زرمهر) من بغداد ومعه (روزبة) ، يريدان الأنبار ، واتعدا حصيداً والخنافس ، وانتظرا من كاتبهما من ربيعة ، غير أن المسلمين هاجموا الساسانيين بحصيد ، فقتل (زرمهر) وقتل (روزبة) وفر من كان معهما ، الى (الخنافس) فلما أحس (المهبوذان) بقدوم المسلمين الى المكان ، هرب ومن معه الى (المُصيخ) وبه الهذيل بن عمران ، وخرج (خالد) من (العين) قاصداً للمصيخ ، فأغار على الهذيل ومن معه ومن أوى اليه ، فقتلوهم ، وأفلت الهذيل في اناس قليل[2] .

وأخذ (ربيعة بن بجير التغلبي) يجمع الجموع لمحاربة المسلمين غضباً لعقة ، وواعد الفرس والهذيل ، فباغت خالد جموع (ربيعة) بالثني ، فانتصر عليها وأسر ابنةً له،ثم باغت موضع (الزميل) وكان (الهذيل) قد أوى اليه ، ثم باغت موضع (البشر) ، وكانت تغلب به ، فقتل منهم عدداً كبيراً ، ثم تحرك من البشر الى (الرُّضاب) ، وبها (هلال بن عقة) ، فارفض عنه أصحابه حين سمعوا بدنو خالد منه وانقشع عنها هلال[3] .

ثم قصد خالد (الفراض) ، والفراض تخوم الشأم والعراق والجزيرة، فاغتاظت الروم وحميت ، واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس ، وقد حموا واغتاظوا واستمدوا تغلب وإياداً والنمر ، فأمدوهم ، ثم عبروا الفرات الى الجانب الآخر حيث كان جيش خالد فهزموا ، وانتصر المسلمون[4] .

وكانت صفوف الساسانيين متضعضعة ، والخصومات بينهم شديدة فتهاوى ملكهم ، وسقطت (طيسفون) عاصمتهم ، ثم تهاوت مدنهم في ايران ، وزالت الحكومة من الوجود على نحو ما سنراه فيما بعد .

---

١ الطبري (٣/٣٧٦ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٣٧٩ وما بعدها) .
٣ الطبري (٣/٣٨٢ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/٣٨٣) .

وأما صلات (البيزنطيين) بالعرب ، فلا نعلم عن بدايتها الا شيئاً قليلاً ، لأن الموارد التأريخية لم تهتم بغير الأحداث الكبرى ، التي كان لها شأن في تأريخ الروم .فلم تشر الى العرب الا في أثناء اشتراكهم اشتراكاً جماعياً في جيش البيزنطيين في قتال الساسانيين أو في جيش الفرس إبان قتال البيزنطيين ، وأما القبائل العربية وغاراتها على حدود بلاد الشأم ، فلم تتعرض لها لأنها لم يكن لها شأن ، فهي حوادث اعتيادية محلية ، ثم انها اذا تطرقت الى المهم منها تطرقت اليه بايجاز ، ولهذا حرمنا الوقوف على صلات العرب بالبيزنطيين بصورة مفصلة وعلى أخبار الإمارات العربية التي حكمت في البادية الملاصقة لبلاد الشأم وفي بلاد الشأم ما بين ظهور دولة البيزنطيين وبزوغ نجم آل غسان .

لقد كابد الساسانيون والبيزنطيون من القبائل العربية عنتاً شديداً مثل ما كابده المتقدمون عليهم منهم . فقد كانت تراقب الفرص لتهاجم الحدود أو الجيوش النظامية في أثناء انتقالها الى ساحات القتال أو اشتغالها في القتال ، أو في أثناء تراجعها أو هزيمتها ، فتوقع بها وتكبدها خسائر ، وتربك وضعها ، ثم انها كانت تنتقل من موضع الى موضع ، من الأرضين الخاضعة لسلطان البيزنطيين الى الأرضين التابعة للساسانيين وبالعكس ، وقد تثور وتهاجم القرى في دولة ، فاذا عقبتها ، هاجرت الى الدولة الأخرى المعادية لها ، ولهذا السبب وجد الساسانيون والبيزنطيون ان من مصلحتهما عقد اتفاقية تحرم انتقال الأعراب من أرض احدى الحكومتين الى أرض الحكومة الأخرى من غير ترخيص وتخويل ، وذلك في أيام السلم بالطبع[1] .

لقد أخذت الدولة البيزنطية الأرضين التي كانت خاضعة لروما ، وصارت تديرها من (القسطنطينية) ، وتعيّن حكامها وترسل الجيوش اليها ، وتطبق عليها القوانين التي تصدرها (القسطنطينية) . بقي الحال على هذا المنوال الى ان طرد البيزنطيون عن بلاد الشأم بظهور الاسلام ، وارساله الجيوش الى تلك البلاد لنشر دين الله فيها . فذهب الحكم البيزنطي عنها ، وبقي الأثر الثقافي أمداً يهيمن على البلاد المفتوحة .

وقد كانت بصرى من أهم المدن التي يرد اليها عرب الحجاز للاتجار. وكانت

---

١ Musil, Hegaz, P. 306.

آخر مكان يصل اليه تجار أهل مكة في الغالب في الشمال . يقيمون فيه ، يبيعون ويشترون ويدفعون للروم العشور ، وهي الضرائب المتعارف عليهـا اذ ذاك ، ثم يعودون الى ديارهم ، ومعهم مـا اشتروه من تجارات بـلاد الشأم ، من طرف مصنوع في هذه البلاد ، أو مستورد اليها من بلاد الروم ومن أوروبـة ، ومن سلع حية هي الرقيق الذي يباع في سوق بصرى ، وقد استورد اليها من مختلف الأنحاء .

وتعرف بصرى بـ Bostra عند الرومان واليونان[1] ولأهميتها الحربية والسياسية والتجارية كان يقيم بها حاكم روماني ، ثم حكمها حكّام من اليونان بعد انتقالها الى حكم اليونان ، كما وضعوا بها حاميات بيزنطية . وذلك لقربهـا من الأعراب وللدفاع عن الحدود المهددة بهجوم ابناء البادية عليها . وقد أصيبت بخسائر جسيمة ونزل بها خراب شديد على أثر مهاجمة الفرس لبلاد الشأم واستيلائهم عليهـا ، فتهدم قسم كبير من أبنيتها ، كـما تهدم قسم من أبنية (اذرعات) وذلك في سنة (٦١٣م)[2] .

و (بصرى) هي الآن قرية مهملة من قرى حوران ، ولا تزال بها بقيـة قائمة من آثار . وقد ورد ذكرها في سيرة الرسول ، حيث كان قد نزل بها مع عمه (أبو طالب) حينما قدمها عمه للإتجار . وذكر ان (بحيرا) الراهب، الذي يرد اسمـه في كتب السير ، كان من رهبان بصرى ، وقـد كان يقيم في دير هنـاك .

وكانت (غزة) من المواضع الأخرى المهمة عند أهل مكة ويثرب ، لأنها كانت المورد الأخير لتجار هاتين المدينتين على البحر الأبيض . وكانت من المواضع التابعة للروم . ترد اليها السفن الواردة من بلاد الروم وموانىء ايطاليـة ومصر ولبنان . فتفرغ ما لديها من تجارة ويشتري أصحابها ما يجدون في غزة من أموال، ولهذا صارت فرضة مهمة لتجار أهل الحجاز .

ومن سادات القبائل الـذين انتقلوا من أرض كانت خاضعة للساسانيين الى أرض كانت تابعة للبيزنطيين سيد قبيلـة ذكره (ملخوس الفيلادلفي) Malchus

---

١ Hastings, P. 102.

٢ دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ، (٦٧٢/٣) .

Amorkesos = Amerkesos (امرأ القيس) في تأريخه ، وسماه Philadelphus
وقال : إنه كان يقيم في الأصل في الأرضين الخاضعة لسلطان الفرس ، ثم ارتحل عنها ونزل في ارضين قريبة من حدود الفرس ، واخذ يغزو منها حدود الساسانيين والعرب Saracens المقيمين في الأرضين الخاضعة للروم . وتوغل في (المقاطعة العربية) حتى بلغ البحر الأحمر ، واستولى علـى جزيرة (ايوتابا) Iotaba Jotaba ، وهي جزيرة مهمـة كان الروم قد اتخذوها مركزاً لجمع الضرائب من المراكب الآتية من المناطق الحارة أو الذاهبة اليها ، فتصيب الحكومة أرباحاً عظيمة جداً . فلما استولى على تلك الجزيرة ، طرد الجباة الروم ، وصار يجبيها لنفسه ، فاغتنى . كذلك حصل على ثروة عظيمة من غنائم غزوه للمواضع المجاورة لهذه الجزيرة والواقعة في العربية الحجرية واعالي الحجاز والأرضين الخاضعة لسلطان الساسانيين .

وأراد (امرؤ القيس) ، بعد أن بلغ من السلطان مبلغه ، الاتصال بالروم، والتحالف معهم ، والاعتراف به عاملاً رسمياً أي Phylarch أو Satrap على العرب الذين خضعوا له وعلى العرب المعترفين بسلطان الروم عليهم في (المقاطعة العربية) ، فأوفد رجلاً من رجال الدين اسمه (بطرس) الى (القسطنطينية) يعرض رغبته هذه على القيصر (ليو) . فلما قابل هذا رجال البلاط ، أظهر لهم انه يريد الدخول في النصرانية . فأظهر القيصر (ليو) رغبته في مقابلة (امرىء القيس) للتحادث معه . فقصده (امرؤ القيس) ، فاستقبله استقبالاً حسناً ، وعامله معاملة طيبة ، وأجلسه على مائدته ، ومنحه لقب Patrician ، وجالس رجال مجلس (السنات) Senate . فأدى ذلك الى استياء الروم من سياسة القيصر هذه مع رجل مشرك . ولكنه بيّن لهم انه يريد تنصيره بذلك،واخضاعه لسلطانه. ولما قرر العودة أعطاه القيصر صورة ثمينـة وهدايا نفيسة ، وحث رجال مجلس الدولة ان يمنحوه هدايا سخية . ثم منحه درجة (عامل) Phylarch على الجزيرة وعلى جميع ما استولى عليه وعلى أرضين أخرى جديدة لم يكن قـد أخذها من قبل ، الا ان الروم لم يرتاحوا من هذه المعاملة ، وانزعجوا من اسراف القيصر

في اكرامه ومنحه تلك الأرضين ، ولا سيما تلك الجزيرة التي استرجعوها بعد ذلك بمدة ليست طويلة وفي مدة حكم القيصر (أنستاس) (انسطاس) (انسطاسيوس) Anastasius[1] .

ولما كان القيصر (ليو) Leo (لاون) (اليون) ، قد حكم من سنة (٤٥٧ م) حتى سنة (٤٧٤ م)[2] ، فيكون اعتراف (ليو) بحكم (امرىء القيس) ، ومنحه لقب (فيلارخ) (فيلارك) قد وقع في اثناء هذه المدة .

ويظهر من تأريخ (ثيوفانس) ان هذه الجزيرة كانت في سنة (٤٩٠ م) في أيدي الروم ، استولى عليها حاكمهم Dux على فلسطين بعد قتال شديد[3] . ويدل خبر هذا المؤرخ على ان الروم انتزعوا هذه الجزيرة من (امرىء القيس) أو من خلفائه بعد مدة ليست طويلة من استيلاء (امرىء القيس) عليها، ولعلهم استولوا عليها بعد وفاة هذا العامل على أثر نزاع نشب بين أولاده وورثته ، أضعف مركز الإمارة ، فانتهز الروم هذه الفرصة، وانتزعوا ما تمكنوا من انتزاعه من أملاك .

واذا كانت هذه الجزيرة ، قد كانت في جملة أملاك الروم في سنة (٤٩٠م) كما يدعي (ثيوفانس) ذلك ، وجب أن تكون استعادة حاكم فلسطين لها في أيام القيصر (زينو) (زينون) Zeno الذي ولي الحكم من سنة (٤٧٤) حتى سنة (٤٩١) . أما سنة (٤٩١م) فقد انتقل فيها الحكم الى القيصر (أنسطاس)[4].

وكان (امرؤ القيس) المذكور سيد قبيلة سماها المؤرخ (ملخوس الفيلادلفي) (نكليان) (نخليان) Nokalian . ويظهر أن هذا الاسم هو (النخيلة)[5] موضع معروف قرب (الكوفة) على سمت الشام ، وهو موضع ينطبق عليه ما ذكره (ملخوس) من أنه كان في ارض في سلطان الفرس[6] .

---

١ Malchus of Philadelphia, In Fragmenta Historicorum Graecorum, Vol., 4, Paris, 1951, PP. 112, Musil, Hegaz, P. 306, Bury, History of the Later Roman Empire, London, 1931, Vol., I, P. 8, 95, Socrates, IV, 36, Sozomen, VI, 38.

٢ Runciman, Byzantine Civilisation, London, 1959, P. 301.

٣ Theophanes, Chronographia, P. 121, Musil, Hegaz, P. 307.

٤ Runciman, Byzantine Civilisation, P. 301.

٥ البلدان (٢٧٦/٨ وما بعدها) .

٦ Blau, In ZDMG., 22, 1868, S. 678.

ولم يذكر (ملخوس الفيلادلفي) اسماء الأرضين التي كانت في حكم (امرىء القيس) ، ويرى (موسل) أن هذا الرئيس كان ينزل في بــادىء الأمر مع قبيلته في (الوديان) و (الحجيرة) ايام كانت علاقاتـه بالفرس حسنة . ومن (الحجيرة) هاجر مع قبيلته الى (دومة الجندل) ، ومنها توسع فاستولى عـلى أرضين من (فلسطين الثالثة) Palestina Tertia وهي (العربية الحجرية) . ثم استولى على جزيرة Iotaba ، وهي على رأيه جزيرة (تاران) (تيران)[1]. وذكر (ياقوت) ان سكانها قوم يعرفون بـ (بني جدان)[2] .

ولعل هذه الجزيرة هي جزيرة Ainu التي ذكرها (بطلميوس)[3] ، أخذ تسميته هذه من (حنو) (حاينو) Hainu (حينو) الاسم الذي كانت تعرف به عند الأنباط[4] .

وامرؤ القيس هذا ، هو مثل واحد من امثلة عديدة على سادات قبائل راجعوا البيزنطيين لاستمداد العون منهم ، وللحصول منهم عـلى اعتراف رسمي بتنصيبهم رؤساء على الأعراب النازلين في ديار خاضعة لسلطانهم او لمساعدتهم في مقارعــة عرب الحيرة او الفرس .

وقد ذكر اهل الأخبار اسماء رجال قالوا إنهم ذهبوا الى الروم لهـذه الغاية ، وبعضهم ممن كان يقيم في ارضين بعيدة عن سلطانهم . والظــاهر ان مثل هذا الاعتراف كان يكسب الرئيس قوة ، ويمنحه منزلة ومكانة في تلك الأيام ، وان كان الروم على مبعدة من الرئيس وليس لهم حول مادي يقدمونه اليه .

ولا نجد في الموارد اليونانية اسماء من حكم من رؤساء القبائل في بلاد الشأم بصورة منتظمة قبل الغساسنة ، إلا أن الأخباريين يذكرون ان الغساسنة لما جاؤوا الى بلاد الشأم من اليمن بعد (انتقاص العرم) ، وجدوا (الضجاعمة) قد ملكوا البلاد قبلهم . وهم (آل سليح بن حلوان) ، وهم من قضاعة ، فقتلوهم وأخذوا مكانهم[5].ولا بد ان يكون الضجاعمة قد سُبِقُوا بغيرهم ممن لم يقف اهل الأخبار

---

١ Musil, Hegaz, P. 306.

٢ البلدان (٣٥٢/٢) .

٣ Ptolemy, VI, 7, 43.

٤ Musil, Hegaz, P. 307.

٥ حمزة (ص ٧٦) .

على اسمائهم ، فقد كانت القبائل تهاجم احداها الأخرى ، فتأخذ مكانها ، ولا يستبعد أن يكون (الضجاعمة) قد انتزعوا السلطان من قبائل اخرى لم تبلغ أنباؤها أهل الأخبار .

ان حدود الامبراطورية البيزنطية الجنوبية مع العرب ، لم تتغير ولم تتبدل تبدلاً محسوساً عما كانت عليه في زمان الرومان . وهي بصورة عامة الحدود الجنوبية للمقاطعة العربية . وكانت لهم الجزر المقابلة للمقاطعة العربية في (خليج القلزم) ، وقد اتخذوها مراكز لجباية الضرائب من أصحاب السفن ولحماية البحر من لصوصه مثل جزيرة Iotba التي تحدثت عنها . ولم يشر أحد من المؤرخين المعاصرين للبيزنطيين الى تقدم الروم أكثر من ذلك في جزيرة العرب .

وكان للبيزنطيين بعض المرافىء على سواحل البحر الأحمر ، منها ميناء (كليزما) Clysma ، وهو (القلزم) Qulzum ، ويقع على مسافة قليلة من (السويس) ، تأتي اليه السفن محملة ببضائع الهند وبالسلك وبالمواد الأخرى المستوردة من السواحل الافريقية والعربية الجنوبية . وبه يقيم (الوكيل) Agens in Rebus ، الوكيل التجاري الذي عليه مراقبة سير السفن والتجارة ، ووضع التعليمات لتنظيم التجارة البحرية ، وعرف بـ Logothete في نهاية القرن الرابع للميلاد[1] .

وكانت تجارة الحرير ، من أهم المواد المطلوبة في أسواق البيزنطيين . وقد كان الساسانيون قد احتكروها تقريباً ، وعبثاً حاول الامبراطور (جستنيان) (يستنيانوس) Justinian تحطيم ذلك الاحتكار ، وأخذه من أيديهم بالتوسل الى (نجاشي) الحبشة ، لارسال سفنه الى (سيلان) ولشراء السلك منها ، ومنافسة التجار الفرس الذين كانوا قد سيطروا على تجارة هذه المادة المستوردة من الصين الى هذه الجزيرة . فكانوا ينقلونها الى بلادهم ، بل الى (القلزم) و (أيلة) وموانىء أخرى وأسواق تابعة للبيزنطيين ، فيربحون من هذه التجارة ربحاً حسناً[2] .

وكان القيصر (يوسطنيان) (٥٢٧ — ٥٦٧ م)[3] ، قد نصب (أبا كرب

---

١ Bury, II, 318.

٢ Bury, II, PP. 320.

٣ Runciman, Byzantine Civilisation, P. 301.

ابن جبلة) ، كما يقول المؤرخ (بروكوبيوس) ، (عاملاً) ، اي (فيلاركا) (فيلارخا) Phylarch على عرب (سرسينس) Saracens فلسطين ، وكان (أبو كرب) كما يقول (بروكوبيوس) ، رجلاً صاحب مواهب وكفاية ، تمكن من حفظ الحدود ومن منع الأعراب من التعرض لها ، وكان هو نفسه يحكم قسماً منهم ، كما كان شديداً على المخالفين له . وذكر أيضاً انه كان يحكم أرض غابات النخيل جنوب فلسطين ، وهي أرض واسعة تمتد مسافات شاسعة في البر ليس بها غير النخيل . وقد قدمها هدية الى الامبراطور ، فقبلها منه، وعدّها من أملاكه ، مع انه كان يعرف جيداً انها فياف وبادية لا يمكن الاستفادة منها ، ليس فيها غير النخيل ، وليس لهذه النخيل فائدة تذكر . ويجاور عربها عــرب آخرون يسمون (معديني) (مديني) Maddeni : هم اتباع لـ (حمـير) Homeritae [1] .

وهذه الأرض التي حكمها (ابو كرب بن جبلة) ، هي الأرض التي حكمها (امرؤ القيس) سابقاً نفسها . او يظهر ان الروم لم يتمكنوا من ضبطهـا ومن تعيين حاكم بيزنطي عليها،فاضطر الى الاعتراف بالأمر الواقع ، فثبتوا (أبا كرب) في مكانه ، واعترفوا به اعترافاً رسمياً (عاملاً) على هذه المنطقة التي تقع في جنوب ارض الغساسنة ، وفي الأردن واعالي الحجاز . ويظهر من ذلك ايضاً ان (ابا كرب) كان عامـلاً مستقلاً بشؤونه عن الغساسنة . ونكون بذلك أمام إمارتين مستقلتين .

واذن يكون (أبو كرب) من المعاصرين للحارث بن جبلة ملك الغساسنة . وقد كان حكمه قبل السنة (٥٤٢ م) بدليل ارساله رسولاً الى ابرهة لتهنئتـه عند ترميمه سد مأرب الذي انجز في هذه السنة .

إن اسم (أبو كرب بن جبلـة) يثير فينا الظن بأن هـذا الرجل كان من آل غسان ، فهذا الاسم هو من الأسماء التي ترد بكثرة عندهم . وقد يحملنا على تصور انه كان شقيقاً للحارث بن جبلـة ، غير اني لا أستطيع الجزم بذلك ، لسكوت الموارد السريانية واليونانية عن التصريح بذلك او التلميح اليه .

لقد كان من نتائج توثيق الروم صلاتهم بمملكة (اكسوم) ، تهديدهم اليمن

---

١ Procopius, I, XIX, 8-16, P. 180-181, Glaser, Mitt., S. 437, S. 78-79, Sep.

بغزوها إن قاومت مصالحهم وتعرضت لسفنهم ولتجارتهم ، وذلك بتحريض الجيش على النزول بها . وقد سبق للأحباش ان استولوا عليها ، كما سبق للرومان أن استولوا على بعض مواضع من العربية الجنوبية مثل (عدن) في ايام (كلوديوس) (٤١ — ٥٤ م) او قبل ذلك بقليل[١] . ولا يستبعد ان يكون للروم دخل في الغزو الذي قام به الأحباش لليمن والذي بقي من سنة (٣٠٠) حتى سنة (٣٧٠ب.م)[٢]. وقد ذكر ان القسطنطينية كانت المحرضة لحكومة الحبشة على غزو اليمن أيضاً في سنة (٥٢٥م) ، وقد امتد حتى سنة (٥٧٠م) او (٥٧٥م)[٣] .

ولما عاد الأحباش الى اليمن حيث بقوا فيها مدةً قصيرة ، كرّ الفرس عليهم فطردوهم منها في حوالي سنة (٥٧٥م) (٥٩٥ م) ، وصارت اليمن من سنة (٥٧٥ م) (٥٩٥م) حتى الفتح الإسلامي مقاطعة تابعة للساسانيين[٤] . وقد أصيبت مصالح البيزنطيين بأضرار بليغة من هذا التحول السياسي العسكري ، وأصيبت بضرر بليغ آخر كذلك في أيام (كسرى برويز) (٥٩٠ — ٦٢٨ م) الذي هاجم الامبراطورية البيزنطية واستولى على مصر وفلسطين ، وقطع بذلك عنها شرايين التجارة العالمية المهمة.والبيزنطيون وان استعادوا ما فقدوه في مصر وبلاد الشأم بعد مدة قصيرة ، فعاد الساسانيون الى مواضعهم ، الا ان الحروب المتوالية كانت قد أنهكت الطرفين : البيزنطيين والساسانيين ، وأضرت بالوضع الاقتصادي ، وجعلت الناس يتذمرون في كل مكان من سوء سياسة الامبراطوريتين ، ويودون التخلص من الفرس واليونان ، لذلك لم يكن من المستغرب سقوط الأرضين التي كانت خاضعة لهم بسرعة مدهشة في أيدي المسلمين .

ولما وصلت الجيوش الاسلامية بلاد الشأم ، رحب أهلها بصورة عامة بها . وقد نظر البيزنطيون الى الاسلام على انه نوع من أنواع (الآريوسية) Arrianism المنسوبة الى الكاهن (آريوس) المتوفى سنة (٣٣٦ م) . أو انه مذهب من المذاهب النصرانية المنشقة عن الكنيسة الرسمية . وقد تعوّدوا على سماع أخبار وقوع

---

١ العرب والملاحة (ص ٧٩) .

٢ Stuhlmann, S. 13.

٣ Stuhlmann, S. 14.

٤ Stuhlmann, S. 14, Phillips, P. 223.

الانشقاق في الكنيسة ، وظهور مذاهب جديدة [1] . لهذا لا يستغرب ما أظهره أساقفة بلاد الشأم من تساهل في تسليم المدن الى المسلمين . وما بدر من القبائل العربية المتنصرة من تعاون مع المسلمين في طرد البيزنطيين عن بلاد الشأم [2] .

١ Vasiliev, A. A. Histoire de L'empire Byzantin, 279, Fr. Stark, Rome, P. 388.

٢ Diehl and G. Marcais, Le Monde Oriental, Paris, 1936, P. 104, Fr. Stark, Rome, P. 388.

فهرس

الجزء الثاني من المفصل

●

الدكتور جواد علي

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

الجزء الثالث

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

٣

المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الثالث

○ الطبـعة الثانيـة ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الرابع والثلاثون

مملكة النبط

مملكة النبط ، مملكة عربية لم يعرف الأخباريون من أمرها شيئاً . سداها ولحمتها النبط . وهم قوم من جبلة العرب ، وإن تبرأ العرب منهم ، وعيّروا بهم ، وأبعدوا أنفسهم عنهم ، وعابوا عليهم لهجتهم ، حتى جعلوا لغتهم من لغات العجم ، وقالوا إنهم نبط ، وان في لسان من استعرب منهم رطانةً . وسبب ذلك ، هو أنهم كانوا قد تثقفوا بثقافة بني إرم ، وكتبوا بكتابتهم ، وتأثروا بلغتهم ، حتى غلبت الإرمية عليهم ، ولأنهم فضلاً عن ذلك خالفوا سواد العرب باشتغالهم بالزراعة وبالرعي وباحترافهم للحرف والصناعات اليدوية ، وهي حرف يزدريها العربي الصميم ، ويُعيّر من يقوم بها ويحترفها .

وتكمن عوامل ظهور النبط وغلبتهم على المنطقة التي عرفت بهم ، وتكوينهم دولة بعد أن كانوا أعراباً يعيشون عيشة ساذجة، تكمن في أسباب وأسس اقتصادية[1] فقد تمكن هؤلاء النبط الأذكياء من استغلال موقع بلادهم لمرور شرايين التجارة بين العربية الجنوبية وبلاد الشام بها ، ففرضوا ضرائب على التجار وعلى التجارة عادت عليهم بفوائد كبيرة ، كما قاموا أنفسهم بالوساطة في نقل التجارة بين بلاد الشأم ومصر ومواضع من جزيرة العرب ، فدرّت هذه الوساطة عليهم أموالاً طائلة جعلتهم من الشعوب العربية الغنية بالنسبة الى غيرهم ممن يسكنون البوادي ، والمواقع المقفرة المنعزلة .

---

١ Die Araber, I, S., 288.

وقد كان ميناء (غزة) ميناء النبط المفضل على البحر المتوسط . وهـو في الواقع ميناء كل التجار العرب ، إذ كان المرفأ الوحيد الذي ترفأ اليه تجارة العرب. وقد استفادوا منه كثيراً لقربه من النبط ، صاروا يشترون منه ما يرد عليـه من بضائع من موانيء البحر المتوسط ، ثم يحملونها الى بلادهم فيبيعونها للتجار العرب القادمين اليهم من الحجاز ومن العربية الجنوبية ومن أمـاكن أخرى من جزيرة العرب ، كما أنهم صاروا يشترون من التجار العرب ما عندهم من تجـارة ، ثم يحملونها الى ذلك الميناء لبيعه في أسواقه ، وبذلك حصلوا على أرباح من هـذه الوساطة في الاتجار .

وقد نشأت دولة النبط التي نتحدث عنها قبل الميلاد في المنطقة الشمالية الغربية من جزيرة العـرب ، في المكان الـذي عرف باسم (العربيـة الحجريـة) (Arabia Petraea) عند اليونان والرومان .

وأما أخبارنا عنها ، فمستمدة من كتب الكلاسيكيين ، ومن مؤلفات المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) (Josephus Flavius) (٣٧ – ١٠٠ بعد الميلاد). صاحب (Ioudaike Archaeologia) و (Periton Ioudaikon Polemon) [١] ، ومن كتابات عثر عليها في (العربية الحجرية) وفي الأخرى التي خضعت لحكمها وهي نبطية ولاتينية ويونانية . وعلى هذه الموارد يعول المؤرخ الحديث في تدوين تأريخ قوم كان لهم نفوذ وسلطان وصوت مسموع وكلمة،ثم اذا هم في الذاهبين (وتلك الأيام نداولها بين الناس)[٢] .

وقد تضمن القسم الأكبر من كتابات النبط ، كتاب : Corpus Inscriptionum Semiticarum وقد أشير فيه الى المواضع التي عثر فيها على تلك الكتابات، والى السمات التي وسمت بها لتميز بعضها عن بعض . وأسهمت كتب أخرى بالطبـع في هذا المجهود العسير ، مجهود نشر الكتابات النبطية القديمة وغيرها ، ككتاب : (Handbuch der Nordsemitischen Epigraphik) ، وكتـاب : Corpus Inscriptionum Semiticarum ، للعالم المعروف (مارك ليدزبارسكي)

---

١ Harvey, P. 228, A. R. Shilleto, The Works of Flavius Josephus in 5 Vols., (Bohn's Standard Library).

٢ سورة ال عمران : رقم ٣ ، الاية ١٤٠ .

(Mark Lidzbarski) [١] ، وكتـــاب : (A Text Book of North-Semitic Inscriptions) لـ (كوك) (G. A. Cooke) [٢] وكتـاب (REP. EPIG) [٣] ، وكتب أخرى سأشير اليها في أثناء الحديث ، يضاف اليهـــا ما نشر في المجلات العلمية الاستشراقية كمجلة : (ZDMG) وأمثالها [٤] .

أما لغة النصوص النبطية ، فلغة (بني إرم) [٥] ، وأما خطها فبالقلم الإرمي، ولكنه (إرمي) مأخوذ من القلم الإرمي القديم ، وقد عـرف عند المستشرقـين بـ (القلم النبطي) تمييزاً له عن بقية الأقلام [٦] . وأما المواضع التي عثر على هذه الكتابات فيها فهي عديدة ، منها (بطرا) و (الحجر) (Hegra) و (العلا) و (تيماء) و (خيبر) و (صيدا) (Sidon) و (دمشق) ومواضع متعددة من (حوران) ومن (اللجاة) [٧] و (طور سيناء) والجوف واليمن ومصر وايطاليا وأماكن أخرى سترد أسماؤها في ثنايا هذا الفصل [٨] .

وتختلف الكتابات النبطية القديمة ، من حيث رسم الحروف ، بعض الاختلاف عن الكتابات النبطية المتأخرة المدوّنة بعد الميلاد ، وتختلف أيضاً باختلاف الأماكن التي وجدت فيها ، فلكتابات (طور سيناء) مثلاً خصائص كتابية محلية لا نجدها في النصوص الأخرى . وتفيدنا هذه الخصائص المحلية والتطورات التي طرأت بمرور العصور على أشكال الحروف في مثل (التربيـــع) والانفصال والاتصال وتقاربها و تباعدهـا من الخط الكوفي في دراسة تطور الخطوط السامية ، وعلاقاتها بعضها ببعض [٩] .

---

١ Mark Lidzbarski, Handbuch der Nordsemitischen Epigraphik nebst Ausgewählten Inschriften, Weimar, 1898, Ephemeris für Semitische Epigraphik, I, Giessen 1901, 11, 1903, III, 1912.

٢ G. A. Cooke, A Text-Book of North-Semitic Inscriptions : Moabite, Hebrew, Phoenician, Aramaic, Nabataean, Palmyrene, Jewish, Oxford, 1903.

٣ Repertoire D'Epigraphie Semitique.

٤ Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Geselschaft.

٥ (بنو ارم) ، الطبري (١/٢٢٠) (طبعة ليدن) .

٦ Lidzbarski Nord. Epig., I, S., 180.

٧ البلدان (٧/٣٢٣) .

٨ Musil, Deserta, P., 471, Lidzbarski, I, S., 121, 122.

٩ Lidzbarski, I, S., 121, 194.

وهي على اختلافها تشارك الكتابات العربية التي عثر عليها في العربية الجنوبية أو في المواضع الأخرى من جزيرة العرب في كونها شخصية في الغالب . كتبت في أمور خاصة ، لا علاقة لها بالمجموع . فهي لا تفيد المؤرخ إفادة مباشرة ، ولكنها تفيد الباحثين من غير شك في أمور أخرى ، تفيدهم في الدراسات اللغوية مثلاً ، فهي كنز لا يقدر بثمن من هذه الناحية . أما الكتابات العامة ، أعني النصوص التي لها علاقة مباشرة بالدولة وحياة الشعب وبساسة الحكومة أيام السلم أو الحرب ، فهي قليلة جداً — ويا للأسف — مع انها المادة الأساسية في كتابة التاريخ [1] .

والكتابات النبطية المؤرخة مثل الكتابات السامية الأخرى ، قليلة بالنسبة الى الكتابات الغفل من التأريخ . أما طرائق توريخ الحوادث عند النبط ، فكانت متعددة منها التوريخ بأيام الملوك كأن يذكر اسم الشهر الذي دوّن فيه النص ، ثم يذكر بعده عام التدوين ، فيقال مثلاً : (في شهر كذا من سنة كذا من حكم الملك .....) (بيرح ..... شنت ..... ملك نبطو .....) . وقد استعملت هذه الطريقة في أيام استقلال النبط خاصة . والتوريخ بسني حكم قياصرة (رومة) وذلك بذكر الشهر الذي دوّنت فيه الكتابة ، ثم السنة المصادفة من سني حكم القيصر الذي في أيامه جرى التدوين ، أو السنة المصادفة دون الاشارة الى اسم الشهر [2] .

وقد عثر على كتابات مؤرخة بسني حكم (القناصل) ، وعلى كتابات أخرى أرخت بتقويم (بصرى) ، ومبدأه اليوم الثاني والعشرون من شهر (آذار) من سنة (١٠٦) بعد الميلاد ، وقد أرخ به في كتابات (طور سيناء) كذلك [3] . وظلت الأقسام الجنوبية من (الكورة العربية) تؤرخ به حتى بعد فصلها من هذه الكورة وإلحاقها بـ (كورة فلسطين) [4] . وأرخ بالتقويم (السلوقي) ، وأوله

---

١ Lidzbarski, I, S., 163.

٢ Lidzbarski, I, S., 112, REP. EPIG., 128, I, II, P., 113, Euting, Sinai. Inschr., No : 457.

٣ Lidzbarski, I, S., 113, Euting 319, 457, 463, Berger, No : 1060.

٤ Provincia, III, S., 303.

اليوم الأول من شهر (تشرين الأول) (اكتوبر) من سنة (٣١٢) قبل الميلاد[١] .

وأرخ بأيام القيصر (بومبيوس) حيث اتخذت مبدأ لتقويم يبدأ بشهر (تشرين الأول) . (اكتوبر) من سنة (٦٣) قبل الميلاد ، أرخ به في الكتابات وفي النقود[٢] .

وأرخ في بعض الكتابات النبطية بتواريخ محلية كانت متعارفة عندهم مشهورة ، كما فعل غيرهم في جزيرة العرب حيث أرخوا بالحوادث المحلية المهمة ، نظراً لما كان لها من شهرة بينهم . وقد تمكن العلماء من تشخيص بعض منها، ولم يتمكنوا من تشخيص بعض آخر . ومن الكتابات المؤرخة بتواريخ محلية كتابة عثر عليها في مدينة (فيليبوبولس) (Philippopolis) ، وقد أرخت بتقويم يبدأ بسنة (٢٤٨) تقريباً أو بين سنـــة (٢٤٧) وسنة (٢٤٩)[٣] . ومدينة (شقا) (شقة) ، وقد أرخت في عدد من كتاباتها بسنة (٩٢) بعد الميلاد . ومدينـــة (Constantia) وهي (البراك) في (اللجاة) وفي عدد من الكتابات التي عثر عليها في موضع (شيخ مسكين) ، وهو (Maximinopolis) على رأي بعض الناس[٤] .

والرأي السائد اليوم بين العلماء أن النبط عرب مثل سائر العرب، وان استعملوا الإرمية في كتاباتهم ، بدليل ان أسماءهم هي أسماء عربية خالصة، وانهم يشاركون العرب في عبادة الأصنام المعروفة عند عرب الحجاز، مثل (ذي الشرى) و (اللات) و (العزى) ، وانهم رصعوا كتاباتهم الإرمية بكثير من الألفاظ العربية، وبدليل اطلاق اليونان واللاتين والمؤرخ اليهودي (يوسفوس) كلمة (العرب) على النبط ، واطلاق اسم (Arabia Petraea) أي (العربية الحجرية) على أرضهم ، ولو لم يكن النبط عرباً ، لما أطلق (الكلاسيكيون) كلمة العرب عليهم ، وما كانوا يدخلون بلادهم في ضمن العربية ويجعلونها جزءاً من أجزائها الثلاثة .

وقد كان النبط من أهل جزيرة العرب في الأصل ، نزحوا من البـوادي الى

---

١ Berytus, Archeological Studies, Published by the Museum of Archeology of the American University of Beirut, Vol., I, American Press Beirut, 1934, P., 36.

٢ Provincia, III, S., 304.

٣ Provincia, III, S., 205.

٤ Provincia, III, S., 305, 306.

أعالي الحجاز فأقاموا بها، ثم سرعان ما استقروا وتحضروا وأقاموا يفلحون الأرض ويزرعونها ، فأقاموا لهم مستوطنات زراعية ، واستقروا في المدن والقرى، محترفين بمختلف الحرف وفي طليعتها التجارة وبالاشتغال بالقوافل التجارية التي تنقل التجارة بين مختلف الأمكنة ، فجمعوا من ذلك مالاً وثراءً . وقد ذهب بعضهم الى أن أصلهم من العربية الجنوبية ، وأن عرقهم هذا هو الذي جعلهم يشتغلون بالزراعة وبالعمارة وبالحرف التي كانت مألوفة عند العرب الجنوبيين منذ العهود القديمة[1] .

ولقد وجدنا طائفةً من العلماء تتنكر لهذا الرأي ولا تراه ، وترى في الألفاظ العربية الممزوجة في الإرمية بكثرة،وفي تشابه الأسماء واشتراكها بين النبط والعرب، أثراً من آثار الاختلاط والانصال بحكم السكنى المشتركة والجوار ، ولا علاقة لـه بوحدة الجنس ، وترى لذلك أن النبط إرميون احتكوا بالعرب وتـأثروا بهم ، أو أنهم إرميون استعربوا من بعد[2] .

أما ان النبط من بني (إرم) لأنهم كتبوا بلغتهم ، واستخدموا قلمهم، فهو قول مردود ، فقد كتب غير النبط ومن غير (بني إرم) بلغة (إرم) وبقلم (إرم) ، ولم يقل أحد من العلماء إن جميع من كتب بلغة الإرميـين وبقلمهم هم من (بني إرم) حتماً . ولا يمكن أن يقال ذلك ، لأن الإرمية كانت قد تغلبت على أكثر لغات الشرق الأدنى وصارت لغة الكتابة والتدوين قبل الميـلاد وبعده بقرون . تغلبت على العبرانية مثلاً وزاحمتها حتى فضلت عليها عند المتكلمين بها من الخاصة والسواد الى نهاية القرن السابع بعد الميلاد ، فدوّنت بها كتب من (التركوم) والأدعية والشروح و (مجلة تعنيت) و (أنطيوغيوس) وغيرهـا من مؤلفات القرنين الثاني والأول قبل الميلاد[3] . وألفت بها فيم بعد الميلاد ، فلا عجب إذن إذا ما دوّن النبط أو غيرهم من العرب بالإرمية لغة الفكر والثقافة ، وتكلموا بلغة أخرى هي لغة اللسان[4] . وقد كان الأعـاجم في الإسلام يتكلمون بألسنة أعجمية ، ويدوّنون باللسان العربـي لسان العلم والفكر والقرآن .

---

١ Deltles, P., 4.

٢ Kennedy, P., 34.

٣ قاموس الكتاب المقدس (١/٥٨) .

٤ Ency. Bibli., P., 277, 282.

تلك هي آراء المستشرقين في أصل النبط . أما رأي أصحابنا الأخباريين فيهم فخلاصته ان النبط « جيل من العجم ينزلون البطائح بين العراقين ، سُمّوا بذلك لكثرة النبط عندهم ، وهو الماء . وسُمّي أولاد شيت أنباطاً لأنهم نزلوا هناك . هذا أصله ، ثم استعمل في عوام الناس وأخلاطهم ... »[1] والعرب تنفر من النبط وتنظر اليهم نظرة ازدراء واحتقار ، واذا أراد أحدهم الاستهانة بأحد قال له « يا نبطي » . (وفي حديث الشعبي ان رجلاً قال لآخر يا نبطي ، فقال : لا حدّ عليه كلنا نبط ، يريد الجوار والدار دون الولادة)[2]. وورد في الأخبار: « أهل عمان عرب استنبطوا ، وأهل البحرين نبط استعربوا »[3] . وضرب المثل في رطانة كلام النبط بالعربية وقبحه : « وقد قبح الكلام ، وصار على كلام النبط »[4] الى غير ذلك من كلام فيهم يشير الى ازدراء العرب بنبط العراق ، ونبط الشأم وبالنبط عامة .

وقد أشار المسعودي الى ان « من الناس من رأى ان السريانيين هم النبط ..» وقال في معرض حديثه عن أهل نينوى : « وكان أهل نينوى ممن سمّينا نبطاً وسريانيين ، والجنس واحد ، واللغة واحدة ، وانما بان النبط عنها بأحرف يسيرة في لغتهم ، والمقالة واحدة » . وجعل النبط أهل بابل ، وملوك بابل هم ملوك النبط . وذكر أيضاً ان هنالك من يزعم ان النبط هم (نبيط بن ماش بن إرم ابن سام بن نوح)[5] . فيفهم من كلام (المسعودي) انه لم يكن على علم واضح بأصل أهل نينوى وبأصل أهل بابل ، فجعلهم من السريان ومن النبط. والمسعودي مثل بقية الأخباريين عني بالنبط المتكلمين بالإرمية (الآرامية) من أهل العراق. والسريانية كلمة حديثة عهد ، يراد بها لغة بني إرم ، أي (الإرمية) . ولا يرتقي اسم (السريان) (Syrians) على كل حال أكثر من خمسمئة سنة أو أربعمئة

---

١ تاج العروس (٥/٢٢٩) ، القاموس (٢/٣٨٧) ، اللسان (٩/٢٨٨ وما بعدها) ، البستان (٢/٣٥٠) .
٢ تاج العروس (٥/٢٣٠) .
٣ استعجم العرب في الموامي بعدك ، واستعرب النبيط
الاغاني (٥/٦١) ، صحيح الاخبار عما في بلاد العرب من الاثار ، محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي ، القاهرة (١٩٥ م) (٢/١٨٩) ،
٤ الاغاني (٥/١٦) .
٥ مروج الذهب (١/١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢٦٦) ، (طبعة المطبعة البهية) .

سنة قبل الميلاد . واما اطلاق اسم السريان على الإرميين الشرقيين ، اي إرميي العراق ، فقد حدث بعد الميلاد . أطلق على متنصرة الإرميين ليميزوا عن بني جنسهم الوثنيين ، فصار له مفهوم خاص ، وصارت كلمة (إرمي) (آرامي) تعني الصابيء والوثني أما كلمة (سرياني) فتعني النصراني حتى اليوم[1] .

أما (ماش) (Mash) ، فهو أحد أبناء (أرام) ذكر في (التكوين) ، مع (عوص وحول وجاثر) بمعنى انهم اخوته[2] . ودعي (ماشاك) في (أخبار الأيام الأول)[3] . ويظن أنهم سكان (ماش) (ماشو) في النصوص الأشورية، أي بادية الشأم[4] . و (إرم) هو ابن (سام بن نوح) في التوراة[5] . وتتفق رواية (المسعودي) المأخوذة من أقوال أهل الكتاب ولا شك ، مع ما جاء في التوراة من أن (ماش) هو ابن (آرام) ، وهو (إرم) . وأما ما ذكره على لسان غيره أو لسانه من ان النبط هم (نبيط) وأن (نبيطاً) هو ابن (ماش) ، فهو قول لم يرد في التوراة . ولا يعرف العهد القديم شخصاً اسمه (نبيط بن ماش بن ارام) . ويقصد المسعودي من (نبيط) (نبايوت) ، ولا شك و (نبايوت) هو الابن البكر لاسماعيل في التوراة[6] .

أما أنهم سموا نبطاً لكثرة النبط عندهم وهو الماء ، أو لاستنباطهم الماء ، وإنباطهم الآبار ، وما شاكل ذلك من تفاسير وردت في معنى النبط[7] ، فهو كلام كان يسمع في القديم . أما اليوم فلا يمكن أن يقام له وزن .

والنبط في عرف الباحثين هم (نبط) و (نبطو) في الكتابات[8] ، والكلمة

---

١ لمعرفة ما قيل في اصل لفظة (السريان) وتكونها ، راجع : (دليل الراغبين في لغة الارامبين) تأليف القس يعقوب أوجين حنا الكلداني ، طبع مطبعة دير الاباء الدومنيكيين في الموصل سنة ١٩٠٠ م (ص ٩ وما بعدها) .

٢ التكوين : الاصحاح العاشر ، الاية ٢٢ .

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٠٧) الاصحاح الاول ، الاية ١٧ ، Ency. Bibli., P., 2972

٤ Hastings, PP., 606.

٥ التكوين : الاصحاح العاشر ، الاية ٢٢ .

٦ التكوين : الاصحاح ٢٥ ، الاية ٣ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ٢٩ .

٧ ابن دريد : الاشتقاق (٢/٢٣٦) (طبعة وستنفلد) .

٨ (نبطو) ، CIS, II, I, II, P., 184, II, 157.

اسم علم ليس غير مثل سائر أسماء الأعلام ، لا علاقة له لا بالماء ولا باستنباط الماء . حار الأخباريون فيه فعالجوه على مألوف طريقتهم بإيجاد معان للأسماء ، وتعليلات وأسباب ، وظنوا انهم بهذا التعليل وجدوا سر التسمية ووقفوا عليه ، ولا سيما ان النبط زراع ، ولهم مياه غزيرة وعلم بالماء ، وان النبط : الماء الذي ينبط من قعر البئر اذا حفرت ، فقالوا : النبط من نبط ، فالمسألة اذن سهلة هينة . انهم سمّوا نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين ، وهو الماء[1] .

وأشير الى النبط في حديث عمر : « تمعددوا ولا تستنبطوا » ، أي تشبهوا بمعد ولا تشبهوا بالنبط . وفي الحديث الآخر : « لا تنبّطوا في المدائن » أي لا تشبهوا بالنبط في سكناها واتخاذ العقار والملك . وورد ذكر النبط في خبر مرفوع الى ابن عباس : « نحن معاشر قريش من النبط من أهل كوثى ربّا ، قيل : ان ابراهيم الخليل ولد بها ، وكان النبط سكانها »[2] . وورد في حديث (عمرو بن معديكرب) حين سأله (عمر) عن (سعد بن أبي وقاص) ، فقال : « أعرابي في حبوته ، نبطي في جبوته » ، أراد انه في جباية الخراج وعمارة الأرضين كالنبط حذقاً بها ومهارة فيها،لأنهم كانوا سكان العراق وأربابها. وفي حديث أبي أوفى : « كنا نسلف نبيط أهل الشأم »[3] .

ويقال الآن في نجد للشعر العامي (الشعر النبطي) أو (شعر النبط)، ويرى الباحثون في هذا النوع من الشعر انه منسوب الى نبط العراق[4] . وعلى كل فإن لهذه التسمية علاقة باسم هذا الشعب العربي القديم الذي نتحدث عنه .

والنبط الذين قصدهم الأخباريون إذن ، هم قبط آخر لا نريدهم نحن في هذا الفصل ولا نقصدهم ، هم يقصدون بقايا الشعوب القديمة خاصة النازلين في البطائح منهم ، ومنهم مترسبات الإرميين في العراق والشأم ، وذلك قبيل الإسلام وفي الإسلام ، وكانوا يتكلمون بلهجات عربية ولكن برطانة أعجمية وبلكنة غريبة

---

١ اللسان (٧/٤١١) (صادر) ، البستان (٢/٢٢٥٠) .
٢ اللسان (٧/٤١١) .
٣ اللسان (٧/٤١٢) .
٤ خالد بن محمد المفرج : ديوان النبط ، مجموعة من الشعر العامي في نجد . دمشق ١٩٥٢ م (ص : ط) ، محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي : صحيح الاخبار عما في بلاد العرب من الاثار ، القاهرة ، ١٩٥١ م (٢/١٨٩) .

ظاهرة . أما نبطنـــا ، فهم أصحاب كتابات مدوّنة بالإرمية ، وقد عاشوا في (العربية الحجرية) وفي مناطق أخرى خضعت لسلطانهم لم تكن البطائح منها على كل حال ، كما عاش فرع آخر منهم في (تدمر) ، وسيأتي الحديث عنهم .

وعندي أن النبط عرب ، بل هم أقرب الى قريش والى القبائل الحجازية التي أدركت الإسلام من العرب الذين يعرفون بـ (العرب الجنوبيين) . والنبط يشاركون قريشاً في أكثر أسماء الأشخاص ، كما يشاركونهم في عبادة أكثر الأصنام . وخط النبط قريب جداً من خط كتبة الوحي ، وقد قلت إن من العلـــماء من يرى أن قلمنا هذا مأخوذ من قلم النبط . يضاف الى ذلك ما ذكرته من وجود كلمات عربية كثيرة في النصوص النبطية المدوّنة بالإرمية ، هي عربية خالصة من نوع عربيـــة القرآن الكريم . لهذه الأسباب أرى أن النبط أقرب الى قريش والى العدنانيين على حدّ تعبير النسابين من العرب الجنوبيين الذين تبتعد أسماؤهم وأسماء أصنامهم بعداً كبيراً عن أسماء الأشخاص والأصنام عند قريش وبقية العدنانيين . أضف الى هذا ما ورد في التوراة وما عند أهل الأخبار من أن (نبايوت) وهو (نابت) أهل الأخبـــار ، هو الابن الأكبر لأسماعيل ، واسماعيل في عرف النسّابين هو جدّ العرب العدنانيين .

وقد سبب تدوين النبط كتـاباتهم بالإرمية خسارة فادحة لنا لا تقدر بثمن ، لأنه حرمنا الحصول على نصوص بلهجات عربية قديمة نحن في أشد الحاجة اليها ، لما لها من فائده في دراســـة تطوّر اللهجات العربية واللهجة التي نزل بها القرآن الكريم والمراحل التي مرّت بها . وخاصة أننا لا نملك من النصوص العربية المدوّنة باللهجات العربية الشمالية القريبة من عربية القرآن سوى بضعة نصوص .

ويعد (ديودورس الصقلي) أقدم كاتب (كلاسيكي) تحدّث عن النبط . يليه (سترابون) ، فبقيـــة (الكلاسيكين) الذين عاشوا بعدهما . وفي تأريخ (يوسفوس) اليهودي المتوفى حوالي سنة (٩٥) بعد الميلاد ، أخبـار مفيدة عن النبط ، ولا سيما علاقتهم بالعبرانيين الذين كانوا على اتصال وثيق بهم بسبب الجوار .

وقد تطرق (سترابون) الى أمور لم يتطرق لها (ديودورس) ، أخذها من صديق له اسمه (أثينودورس) (Athenodrous) ، وكان فيلسوفاً ولد بين النبط وعاش بينهم . وقد حدّثه هذا الفيلسوف ان عدداً كبيراً من الرومان ومن الغرباء

من الجنسيات الأخرى كانوا يعيشون بين النبط ، وكانوا في نزاع وخصام بينهم. أما النبط فكانوا على صفاء ووئام ، يعيشون عيشة سلام وراحـة[1] . ويتبين أثر اختلاط الغرباء بالنبط ، في الآثار الباقية وفي الكتابات اليونانية والرومانية التي عثر عليها في أرض النبط وعلى النقود .

وقد شملت مملكة النبط في أوج أيامها منطقة واسعة ضمت (دمشق) و (سهل البقاع) (بقـأث هـ — لبنون) (Biq'ath Ha-Lebanon) (Coele Syria) ، والأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطـين وحوران و (أدوم) (Idumaea) ، ومدين الى (ددن) (ددان) وسواحل البحر الأحمـر . وثبت أيضاً ان جماعة من النبط سكنت في الأقسام الشرقيـة من (دلتا) النيل ، وقد تركت لنا عدداً من الكتابات[2] .

ولا يعرف الموطن الأصلي الذي جاء منه النبط على وجه التحقيق ، ولا الزمان الذي هاجروا فيه منه . ويظن بوجه عـام انهم كانوا بـدواً في الأصل من سكان البادية الواقعة شرق شرقي الأردن ، ثم ارتحلوا نحو الغرب فنزلوا أرض (أدوم) وضايقوا الأدوميين الذين ارتحلوا نحو الشمال والغرب اختيـاراً أو كرهاً ، فسكنوا في المناطق الخصبة المشرفة على البحر المتوسط . وكان ذلك حوالي (٥٨٧) قبل الميلاد . ولا يعرف على وجه العموم في الزمن الحاضر شيء ما عن مبدأ تأريخ النبط[3].

ويرى بعض العلـماء أن النبط هم (نبياطي) المذكورون في أخبـار الملك (أشور بنبال) (Aschurbanipal) ، وهم أيضاً (نبايوث) (Nebojot) = (Nabatene) أولاد اسماعيل في التوراة[4] . وهم سكان أرض (Nabatene) [5] .

---

١ Sir Alexander B.W. Kennedy, Petra, its History and Monuments, London, 1925, P., 33.
وسيكون رمزه : Kennedy

٢ Ency., Vol. III, P. 801, Clermont Ganneau, Les Nabatiens en Egypte, in Recueil d'Arch. Or., VIII, 1924, PP. 229.

٣ Kennedy, P., 29.

٤ J. Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol., IX, P. 121.
وسيكون رمزها : ENCY. RELIG.

٥ Josephus Flavius, Antiquities of the Jews, I, XII, 4, Col., I, P., 103, A. R. Shilleta, London, 1911, (Bell and Sons).

ويعارض هذا الرأي بعض آخر ، ولا يرى وجود صلة ما بين النبط و (نبياطي) أو (نبايوت)[١] . وأما النبط المذكورون في (المكابيين) ، فهم النبط جماعتنا الذين نتحدث عنهم الآن[٢] .

وقد أطلق (يوسفوس) اسم (النبطية) (Nebaioth) على منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات فتصل بحدود الشأم الى البحر الأحمر ، وهي من مناطق أولاد اسماعيل[٣] . ويظهر من تأريخ (يوسفوس) أن مؤلف هذا التأريخ كان يرى وجود صلة بين اسم (نبايوت) وهو اسم ابن (يشمعيل) (اسماعيل) وبين اسم النبط ، والى هذا الرأي ذهب أيضاً (جيروم) (Jerome)[٤] .

ومن أخبار (ديودورس) عنهم أن معظم بلادهم قفرة قليلة الماء والقسم المنبت منها قليل ، لذلك عاش سكانها عيشة أعرابية ، على الغزو ، وعلى التحرش بحدود جيرانهم ، لعلمهم أن من الصعب على الجيوش تعقب آثارهم والالتحام بهم في البادية لقلة الماء ، وإلا تعرضت للتهلكة والموت عطشاً .

أما هم ، فلهم آبار مخفية ، وكهاريس أغلقت فتحاتها ، فلا يعلم أحد من الناس سواهم أين هي ؟ يشربون منها متى شاءوا ، ويأخذون منها ما يحتاجون اليه . وهم قوم يحبّون الحرية ويقدسونها ، ويأبون الخضوع لحكم الغرباء . ولهذا لم يخضعوا لحكم الأشوريين أو الميديين أو الفرس أو لحكم ملوك المقدونيين ، مع ان هذه الدول أرادت استعبادهم فأرسلت عليهم جيوشاً قوية ، ولكنها لم تنجح في تحقيق ما أرادت ، ولم تتمكن من السيطرة على هؤلاء الأنباط[٥] .

وقد ذكر عنهم انهم كانوا يجمعون المطر ويخزنونه في الصهاريج ،التي لا يعرف مواقعها أحد غيرهم ، وانهم كانوا لا يذيقون ماشيتهم الماء الا في كل ثلاثة أيام ، حتى تتحمل عطش البادية وقلة مائها ، وبذلك تتعود هذه البوادي القاسية.

---

١ E. Schrader, K.L.T., S., 151.

٢ المكابيون الاول ، الاصحاح الخامس ، الاية ٢٥ ، الأصحاح التاسع ، الاية ٣٥ ، Hastings, P., 649.

٣ Josephus, Antiqu., I, 12, 4.

٤ Ency. Bibli., P., 3254.

٥ Diodorus, 19, 94, 1-100, 3, Die Araber, I, S. 31, 284, J. Cantineau, Nabatéen et Arabe, I, in L'Inst. des Etudes Orient d'Alger, 1934-1935, 4.

أما الناس ، فكانوا يعيشون على اللحوم والحليب ، يضاف الى ذلك نوع من (الفلفل) ولب بعض الشجر ، حيث تخلط بالماء[1] .

وقد أخذ (ديودورس) أخباره عن النبط من مؤرخ قبله هو (Hieronymos of Kardia) = (Hieronymos of Cardia) ، ويعود خبره الى حوالي السنة (٣١٢) قبل الميلاد ، اذ تحدث هذا المؤلف عن حملة (انطيغونس) (انتيكونس) (Antigonos) على القبائل العربية، فذكر (النبط) (Nabataioi) = (Nabatoioi) وأشار الى الحملة التي أرسلت عليهم[2] .

ويتبين من أقدم الأخبار الواردة في الكتب (الكلاسيكية) عن النبط أنهم كانوا في بادىء أمرهم أعراباً رعاة ماشية ، ومنهم أصحاب قوافل يتعاطون التجارة ، ويقيمون حول البحر الميت ، وكانوا يستخرجون (الاسفلت) من سواحله الشرقية فيحملونه الى مصر لبيعه الى المصريين[3] . وكانت لهم أماكن محصنة تحصيناً طبيعياً يلتجئون اليها فيصعب على العدوّ مباغتتهم ومهاجمتهم في هذه الحصون ، كما أن لهم علماً بصحاريهم وبمواضع الماء فيها ، يحتمون بها عند الحاجة ، ويتخلصون بذلك من تعقيب الجيوش . ويذكر أنهم جنوا أرباحاً كثيرةً من اتجارهم بالاسفلت، إذ كان المصريون يشترونه منهم لاستعماله في (المومياء) ، ولهذا أقبلوا عليه اقبالاً كبيراً ، درّ على النبط ربحاً طيباً[4] .

وقد وصفوا بأنهم كانوا يكرهون الزراعة ويزدرونها ، كما كانوا يزدرون السكنى في بيوت مستقرة ، وكانوا رعاة يربون الأغنام وبقية الماشية . إذا وجدوا غريباً بينهم قتلوه ، لأنهم كانوا يخشون أن يقعوا تحت حكم الأجانب فيفقدوا حريتهم[5] . ووصف (سترابو) النبط ، فقال : إنهم تجار ، أقاموا في بيوت من الحجر ، وقد اشتغل قوم منهم بالزراعة[6] .

لقد أظهر هؤلاء الرعاة مقدرة فائقة وكفاية لا تقدر في تكييف أنفسهم وفي

---

١ Diodorus, 19, 49, Die Araber, I, S., 32.

٢ Diodorus, 19, 94, 1-100, 3, Die Araber, 1, 31.

٣ Ency., Vol., III, P., 801, Deities, P. 4.

٤ Die Araber, I, S., 34.

٥ Die Araber, I, S., 283.

٦ Dieties, P., 4.

أخذهم بالأساليب الحديثة في الحياة . تمكنوا من استغلال أرضهم وما فيهـا من موارد طبيعية ، وتعلموا استغلال مناجم النحاس والحديد القديمة في (أدوم) ، واستخدام هذين المعدنين المهمين في صنع المواد اللازمة لشؤون الحيـاة . وأخذوا من (الهللينية) تنظيم المدن وأصول الادارة والفن وحوّلوا مدينتهم الصخرية الى مدينة حديثة جميلة تنطق حتى اليوم بكفاية أصحابها وبقابلياتهم للمدنية . كما اقتبسوا من (الفرث) (Parthian) ما يلائمهم ويوائم حياتهم وحاجاتهم[1] . وضربوا النقود على طريقة اليونان والرومان فأحسنوا في صنعها وأجادوا وأثبتوا أن العربي كيفما كان أمره قابل للتطور والابداع والأخذ والاقتباس ، وأنه إذا هيئت له الظروف وأرشده المرشدون ووجهوه توجيهاً حسناً : أفاد نفسه وقومه والبشرية خير افادة .

ومن النبط انتقلت المصنوعات النحاسية والحديدية المصنوعة في بلاد اليونان أو الشأم أو في بطرا الى اليمن ، وقد كانوا واسطة لنقل (الهيللينيـة) الى العرب الجنوبيين . وقد عثر في (خولان) من اليمن على رأس مصنوع من النحاس ، محفوظ الآن في المتحف البريطاني ، يشبه وجهه الوجوه المطبوعة على النقود النبطية المضروبة في القرن الأخير قبـل الميلاد ، لذلك يرى الباحثون أنه من صادرات مملكة النبط الى اليمن ، وأنه من المصنوعات المتأثرة بالطابع (الهيلليني)[2] .

ويحدثنا (ديودورس) ان (انطيغونس) (Antigonus) الذى خلف الاسكندر في سورية ، جرّد حملة على النبط قوامها أربعة آلاف جندي من المشاة وستمئة فارس جعلها في قيادة صديقه (أثينيوس) (Athenaeus) ليجبرهم على التحالف معه وتأييد مصالحه . وأمره بمباغتتهم وسلب كل ما يمتلكون من ماشيـة . فسار القائد من مقاطعة (أدوم) (Idumaea) بكل حذر وتكتّم لكيلا يعلم أحد من النبط به . وباغت الصخرة في منتصف الليـل ، فقتل من حاول المقاومـة وأسر خلقاً منهم ، وترك الجرحى ، واستولى عـلى ما وقعت عليـه يده من البخور والتوابل والطيب والفضة . ثم أمر قوته بالاسراع بالرجوع ، فلما قطعت مسافـة مئتي (اسطاديون) أضناها التعب ، ونهكهـا قطع الطريق ، فاضطرت الى قطع

---

١ M. Rostovtzeff, II, PP. 853.

٢ Rostovtzeff, II, P., 855, R. P. Hings, in British Museum Quarterly, XI, 1937, PP., 153, H. Shlobies. Forschungen und Fortschritte X, 1934, S., 242.

السير للاستراحة في معسكر أقامته . وفيما كان الجنود ينعمون بنومهم ، هاجمهم النبط وأعملوا فيهم السيوف ، فلم ينج من رجال الحملة الا خمسون فارساً هربوا بسلام بعد أن أثخن أكثرهم بالجراح . وكان ذلك كما يزعم (ديودورس) بسبب تهاون رجال الحملة بأمر الحراسة وعدم تصورهم ملاحقة النبط لهم ، وتمكنهم من الوصول الى هذا الموضع في خلال يومين أو ثلاث[١] .

وذكر (ديودورس) ان اليونان تخيّروا الوقت المناسب حينما باغتوا (الصخرة) فقد كان من عادة أهلها الذهاب الى أسواق مجاوريهم للامتيار ولمبادلة سلعهم بسلع يحتاجون اليها من جيرانهم، تاركين في صخرتهم أموالهم ونساءهم وأطفالهم وعجزتهم وشيوخهم . ولم تكن الصخرة مع حصانتها ، مسوّرة ، فانتهز رجال الحملة هذه الفرصة ، وباغتوا الحصن على نحو ما ذكرت . فلما بلغ الخبر النبط، تركوا السوق وتراكضوا الى الصخرة ، وأسرعوا يتعقبون أثـر اليونان حتى أدركوهم في ذلك الموضع ، فانتقموا منهم شر انتقام ، وعلموهم درساً لا ينسى ولا شك في وجوب اتخاذ الحذر والحيطة وتقدير كل أمر حقّ قدره مهما صغر وتفه، وقد تأتي التوافه بنتائج لا تأتي من عظائم الأمور . أما تأريخ ارسال هذه الحملة ، فكان في سنة (٣١٢) قبل الميلاد[٢] .

وبعد انتقام النبط ممن حاول استرقاقهم ، عادوا الى الصخرة راضين مطمئنين، فنظموا أمورهم ، ثم كتبوا الى الملك (انطيغونس) كتابـاً كتب بالأبجديـة السريانية يلومـون فيه (أثينيوس) (Athenaeus) على ما فعل بهم، ويعتذرون فيه عما بدر منهم ، ويحمّلون صاحبه وزر صنعه . وقـد أجابهم الملك بأن ما حدث لم يكن بعلمه ورضاه ، وأن قائده عمل برأيه فخالف أمره ، ولـذلك فهو يحمله وزره ، ويرجو أن تتحسن العلاقات فيما بينهم وبينه ، وأن ينسى مـا حدث ، وكان غرضه من هذا الكلام التأثير عليهم ، وجلبهم اليه ولو الى حين حتى يرى أمره ، فان أبوا ضرب ضربته . ونال ما أراد .

وبعد مدة هيأ قوة قوامها أربعة آلاف مسلح من المشاة ، وأربعـة آلاف من الفرسان جعل قيادتها تحت إمرة ابنه (ديمتريوس) (Demetrius) ، للانتقـام

١ Die Araber, I, S., 33, J. Cantineau, Le Nabatéen, I, 1932, II.

٢ Booth, P., Book, XIX, VI, Kennedy, PP., 30, Deities, P., Ency. Relig., Vol., 9, P. 121, Ency., III, P., 801, Die Araber, I, S., 33.

من النبط بأية طريقة كانت . فلما سمع النبط بقدومها ، أمنوا أموالهم في مواضع حصينة يصعب الوصول اليهـا ، ووضعوا عليها حراسة كافية ، وسلكوا طرقاً متعددة تؤدي بهم الى البـادية . فلما وصل (ديمتريوس) الى (الصخرة) ، هاجمها بعنف وشدة ، غير أنه لم يفلح في اقتحامها والاستيلاء عليها ، ورجـع بجيوشه قانعاً بالهدايا التي قدمت اليه[1] .

ويذكر (ديودورس) أن النبط كانوا قد لجأوا الى اتخاذ أماكن حراسة وضعوا فيها حُراساً ، واجبهم تنبيه النبط حين تبدو ظاهرة خطر عليهم ، بإيقاد نيران في مواضع مرتفعة من تلك الأماكن ، تكون علامة على وجود الخطر . فلما ظهر (ديمتريوس) متجهاً نحو الصخرة ، أوقـد الحُرّاس النار ، فهرب النبط الى مواضع أمينة من البادية ، وتخلصوا مع أموالهم منه ، لأنه خاف مـن ملاحقتهم لعدم تمكن جيشه مـن تعقب آثارهم ولخوفهم من ولوج البادية . وقـد كان (المقدونيون) يخشون من دخولها[2] .

كان النبط من الشعوب العربية التي جمعت ثروة عظيمة،واكتنزت الذهب والفضة بفضل اشتغالها في التجارة وموقعها الممتاز الذي تلتقي عنده جملة طرق تجارية برية كانت عمادطرق القوافل في ذلك الزمن اليها يصل طريق اليمن والعربية الجنوبية المهم الموازي للبحر الأحمر ، ومنها يتفرع الطريق الى مصر والشأم وغزة والمدن الفينيقية عـلى البحر المتوسط ، واليها يصل طريق تجاري آخر مهم يصل الخليج بمدينة (بطرا). ويصل مدينة تجارية أخرى لم يكن شأنها في التجارة أقل من شأن عاصمة النبط ، وأعني بها مدينة جرها Gerrha على الخليج . فتحمل اليها تجارة الهند وما وراء الهند ، وحاصلات ايران والعربية الشرقية لتوزع منهـا في الشأم ومصر وموانىء البحر المتوسط . وقد عمل ملوك النبط بكل ذكاء على الاستفادة من هـذه الطرق واستغلالها لمصلحتهم ومصلحة مملكتهم[3] . وقد اقتضى ذلك بالطبـع وضع حرس قوي لحماية القوافل واجراء التسهيلات الضرورية لأصحابها والاتفاق مع سادات القبائل لضمان سلامتها مقابل مبالغ تدفع لهم عن المرور (الترانزيت) .

---

١ Booth, PP., 650, Book, XIX, VI, Kennedy, P., 31, Die Araber, I, S., 32.

٢ Diodorus, 19, 94, 6, 19, 2, Die Araber, I, S., 284.

٣ M. Rostovtzeff, The Social, II, P., 841.

وقد أدت سياسة البطالمة الرامية الى السيطرة على البحر الأحمر واحتكار التجارة البحرية الى إلحاق أضرار فادحة بالنبط وبغيرهم من العرب الذين كانوا يتاجرون في البحر الأحمر . فاضطر النبط الى التحرش بسفن البطالمة وبمهاجمة السفن التي تتجه نحو مصر وبأخذ ما فيها ، فاضطر (بطلميوس الثاني) (٢٨٥ — ٢٤٦ قبل الميلاد) الى انشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية ، وقد ألحقت هذه القوة خسائر فادحة بأسطول النبط[١] ، منعت النبط أمداً من التعرض لقوافل البطالمة ، غير ان النبط كانوا ينتهزون الفرص ، فلما انشغل (بطلميوس) بالحرب مع (سلوقي) سورية عادوا الى مهاجمة سفن البطالمة والسفن الذاهبة أو الآيبة من مصر[٢] .

وألحقت سياسة (بطلميوس فيلادلفيوس) ومشروعاته الرامية الى السيطرة على البحر الأحمر وعلى تجارة البلاد الحارة،أضراراً خطيرة بالتجارة العربية ، أثرت تأثيراً سيئاً جداً في الوضع السياسي في جزيرة العرب . إذ أفقدت العرب السيطرة على البحر الأحمر وأوجدت لهم منافسين خطيرين نافسوهم في أسواق إفريقية والهند ، ولم يكن من السهل التغلب عليهم ، بفضل ما أدخلوا على سفنهم من تحسينات فنية وابتكارات ، وما خصصوا بها من قوات لحمايتها من تعرض سفن العرب لها . وقد ابتنى (بطلميوس فيلادلفوس) مدينة (Berenice) على خليج العقبة (Atlantic Gulf) لحماية التجار والسفن من تعرض النبط . ولعلّ ميناء (امبلونه) (Ampelone) الذي أسسه تجار الروم في جزيرة العرب على ساحل البحر الأحمر تجاه (العلا) على رأي بعضهم ، هو من المواضع التي أنشئت لهذه الغاية في هذا الزمن[٣] . وبإنشاء هذه المواضع سيطر اليونان على البحر والطريق التجاري القريب منه ، كما تمكّنوا من ضمان الحصول على حاجاتهم بشراء ما يريدون من حاصلات الجزيرة ومن بيع ما يريدون بيعه في هذه الموانىء أيضاً .

وكان من نتائج هذه السياسة التي اقتفي أثرها من جاء بعد (بطلميوس فيلادلفوس) من الملوك والقياصرة ، مشاطرة تجار العرب أرباحهم العظيمة التي

---

١ Strabo, III, P., 204.

٢ Murry, The Rock City Petra, P., 80, Die Araber, I, S., 265.

٣ M. Rostovtzeff, The Social., Vol., I, P., 367.

كانوا يجنونها من الاتجار مع مصر والشأم . فلم يدخل في امكانهم وضع الأسعار كما يريدون ويشتهون كما كان ذلك سابقاً . إذ وضع سادة بلاد الشأم ومصر الجدد أسعاراً ثابتة للبضائع العربية والهندية التي تصل الى بلادهم ، كما فرضوا عليها ضرائب معينة بحسب قوائم جديدة . وبذلك تحكموا في الأسعار التجارية العالمية ، وحرموا تجارة جزيرة العرب وسادتها من ملوك متاجرين وأسر غنية متنفذة ربحاً عظيماً ، وألحقوا بخزانتهم خسائر كبيرة . وكان من أثر هذه السياسة الصارمة هبوط الأسعار هبوطاً بيناً في الأسواق[١] .

وقد تمكن الباحثون في تأريخ النبط من ضبط أسماء جملة ملوك حكموا النبط. ولا نستطيع اليوم ذكر اسم أول من أسس مملكة النبط ، ولا الزمن الذي أسست فيه تلك المملكة ولا الأسرة التي نسلت اولئك الملوك . وكل ما نستطيع قوله هو ان استقلال النبط كان قبل الميلاد ، واننا نعرف أسماء بضعة ملوك حكموا قبل الميلاد ، بصورة أكيدة لا مجال فيها لأي شك ، كما نعرف أسماء ملوك كان حكمهم بعد الميلاد .

ويكثر اسم (الحارث) (أرتاس) (ارتياس) (Aretas) = (Arethas) بين أسماء الملوك ، حتى لقد ذهب الظن ببعض الباحثين الى ان هذا الاسم هو لقب ، وانه في معنى (فرعون) بالنسبة الى ملوك مصر ، و (قيصر) بالنسبة الى ملوك الرومان والروم ، و (النجاشي) بالنسبة الى ملوك الحبشة ، و(كسرى) بالنسبة الى ملوك الفرس ، و (تبع) بالنسبة الى ملوك اليمن[٢] . أما الاسم الذي يليه في المرتبة فهو (عبادة) و (مالك) و (رب ال) (رب ايل) . وذهب بعض آخر الى ان لفظة (Aretas) هي اسم الأسرة الحاكمة التي حكمت النبط ، وانها من أصل (آرامي) هو (حرتت) (Charethath) [٣] .

وفي الفصل الخامس من أسفار (المكابيين الثاني) ان (أرتاس) زعيم العرب طرد (ياسون) (Jason) من أرضه (فجعل يفر من مدينة الى مدينة والجميع ينبذونه ويبغضونه بغضة من ارتد عن الشريعة ، ويمقتونه مقت من هو قتال لأهل

---

١ Rostovtzeff, The Social., Vol., I, P., 387.

٢ The Bible Dictionary, Vol., I, P. 107.

٣ Hastings, P. 48.

وطنه حتى دحر الى مصر)[1] . ويظهر من هذه الآية ان الحارث كان قد طرد (ياسون) من أرضه . وتغلب عليه ، وصار يتعقبه حتى هرب الى مصر . وكان (ياسون) قد اختلف مع أخيه (أونياس الثالث) (Onias III) في يهوذا على الكهانة العظمى . وقد حكم (أرتاس) أي (الحارث) المعروف بـ (حرثت) (حرتت) (حارثة) (Harithat) في الكتابة النبطية في حوالي سنة (١٦٩) قبل الميلاد . ونظراً الى انه أول ملك وصل اسمه الينا في الأخبار ، أطلق الباحثون عليه لقب (الأول) تمييزاً له عن بقية من جاء بعده حاملاً هذا الاسم[2] .

ويلاحظ أن الآية المذكورة لم تلقب (الحارث) بلقب (ملك) ، وإنما نعتته بـ (زعيم) ، أو بما شابه ذلك من معان ، هي دون درجة (ملك) . أما الموارد التأريخية ، فقد لقبته بلقب (ملك)[3] .

وقد وردت كلمة (النباطين) ، وهم النبط ، في موضع من الفصل الخامس من سفر المكابيين الأول ، وذكرت بعدها بجملة آيات كلمة (العرب) . وكان هؤلاء العرب يشدون أزر (تيموتاوس) الذي حارب (يهوذا المكابي) (يهوذا مكابيوس) (Judas Maccabaeus) (١٦١ ق. م.)[4] أما النبط فكانوا على وئام مع المكابيين: (يهوذا المكابي) وأخوه (يوناتان) وكانت صلاتهم بجيرانهم المكابيين حسنة . ويظهر من الآية التي ذكر فيها اسم (العرب) أن (تيموتاوس) وأنصاره كانوا قد استأجروا العرب للقتال معهم[5] . وأغلب الظن أن المراد بـ (العرب) . في هذه الآية هم جماعة من الأعراب .

وطلب (يوناثان) (المتوفى سنة ١٤٣ ق. م.) — الذي انتخب مكان أخيه يهوذا المكابي بعد مقتله — من النبط مساعدتهم ، أن يعيروه عدة يستعين بها على أعدائه ، وذلك حين طلب (بكيديس) قتله . وأرسل (يوحنا أخاه في جماعة

---

١ المكابيون الثاني ، الفصل الخامس ، الاية ٨ .

٢ Ency. Bibll., Vol., 9, P. 121, 296.

٣ Die Araber, I, S. 290.

٤ Ency., Vol., III, P. 801, Ency. Relig., Vol., 9, P. 121, E. Schrader, KLT, S., 152, Ency. Bibll., P. 2853.

٥ المكابيون الاول ، الفصل الخامس ، الاية ٢٤ وما بعدها .

بقيادته يسأل النباطين أولياءه . أن يعبروهم عدتهم الوافرة)[1] ، فلما كان يوحنا في (ميدبا) (مأدبا) ، خرج عليه (بنو عمرى) وقبضوا عليـه وعلى كل من كان معه وذهبوا بالجميع[2] . ويظهر من ارسال (يوناثان) أخاه النبط ومن جملة (يسأل النباطين أولياءه) الواردة في (المكابيين) أن علاقة المكابيين بالنبط كانت حسنة جداً ، وأن النبط كانوا إذ ذاك أقوياء أصحاب عدة وعتاد .

وأما (بنو عمري) Bene-Amri/Jambri الذين قتلـوا (يوحنا) شقيق (يوناثان) ، وهو المعروف بـ (يوحنا المكابي)[3] ، فقبيلة عربيـة يظهر ان منازلها كانت في (ميدبا) (مادبا) من أقدم مدن (مؤاب)[4] ، وهي تبعـد ثمانية أميال الى الجنوب الشرقي من (حسبـان) (Heshbon) و (١٤) ميلاً شرقي بحر (لوط)[5] ، وهي مدينة (Mydava) التي ذكرها (بطلميوس) وذكر انها تقع في (العربية النبطيـة) (Arabia Petraea) و (اندبه) (Undaba) و (Ueddaba) لدى (أويسبيوس) و (Medaba) لدى (جيروم)[6] . وصارت في العصور المسيحيـة مركزاً لأسقف المقاطعة المعروفة باسم (المقاطعة العربيـة) (Provincia Arabia) . ولا نعرف في الزمن الحاضر شيئاً من أمـر هذه القبيلة (Bene Amri) ، التي لا يستبعد أن يكون اسمها الصحيح (بنو عمرو) .

وذكر (يوسفوس) ان (يوناثان) وشقيقه (سمعان) (Simon) سمعا ان (بني عمرى) (Bene Amri) (Amaraeus) سيقيمون عرساً عظيمـاً ويزفون العروس من مدينة (Gabatha) = (Gabbatha) ، وهي من أشراف العرب ، فقررا الانتقام من قتلة شقيقهما ، فذهبا مع قوة كبيرة ووضعا كميناً في (ميدابا) (مادبا) . فلما وصل الموكب ، خرج الكمين ، فسقط قتلى كثيرون ، وهرب من تمكن من النجاة الى الجبل[7] .

---

١ سفر المكابيين الاول ، الفصل التاسع ، الاية ٣٥ .
٢ سفر المكابيين الاول ، الفصل التاسع ، الاية ٣٦ ،
Dubnow, II, S., 79, Josephus, Antiqu., XIII, I, II.
٣ (يوحنا مكابيوس) ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٩٧) .
٤ (مادبـا) ، Dubnow, II, S., 79.
٥ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٩٧) ، Ency. Bibli., P. 3002.
٦ Ency. Bibli., P. 3003.
٧ Josephus, Antiq., XIII, I, IV.

وحكم بعد (الحارث الأول) الملك (زيد ال) (زيد ايل) ، وذلك في حوالي السنة (١٤٦) قبل الميلاد . ثم الملك (الحارث الثاني) (حرثت) (حرثت)، الذي حكم حوالى سنة (١١٠) قبل الميلاد ، ودام حكمه حتى حوالي عام (٩٦) قبل الميلاد[١] .

ويرى (شرادر) أنه حكم حوالى سنة (١٣٩) قبل الميلاد ، ودام حكمه حتى سنة (٩٧) قبل الميلاد[٢] . ويرى بعض آخر أنه حكم حوالي سنة (١٢٠ ق.م.[٣]) ويظهر أنه كان يعرف بـ (ايروتيموس) (Erotimus) = (Herotimus)[٤] ويظن (شرادر) أنه هو الذي قصده (يوسفوس) حين ذكره في حوادث سنة (٩٧) قبل الميلاد[٥] .

وتوقف بعض آخر في تثبيت اسم من حكم بعد الحارث الأول ، فوضع فراغاً قدره بنحو نصف قرن ، ذكر أنه لا يدري من حكم فيه ، ثم وضع بعده اسم (الحارث) الثاني المعروف بـ (Erotimus II) ، وقد قدر حكمه فيما بين السنة (١٢٠) والسنة (٩٦) قبل الميلاد[٦] .

ولم تصل الينا أخبار واضحة أكيدة عن هذا (الحارث) . ويذكر المؤرخ اليهودي (يوسفوس) أن أهل (غزة) طلبوا منه العون والمساعدة ليتمكنوا من الثبات أمام محاصرة (اسكندر جنيوس) (Alexander Jannaeus) لمدينتهم ، غير أنه خيّب آمالهم ، فلم يساعدهم . وقد نعته هذا المؤرخ بـ (ملك) ، مما يدل على أن هذا اللقب صار لقباً رسمياً لحكام النبط في هذا العهد[٧] .

وذكر أن (ايروتيمس) (Erotimus) = (Herotimus) (الحارث الثاني)، كان قد اهتبل فرصة ضعف الأوضاع في مصر وبلاد الشأم ، فهاجم بأولاده وبجنوده تلك الأرضين ، وغنم منها غنائم كثيرة ، فكوّن بذلك لنفسه وللعرب

---

١ Ency., III, P. 801, Ency. Relig. ,Vol., 9, P. 121.

٢ Schrader, KLT, S. 153.

٣ Die Araber, I, S., 290.

٤ Ency., III, P., 801, Ency. Relig., Vol., 9, P. 121.

٥ Schrader, KLT, S., 153.

٦ Deities, P. 540.

٧ Josephos, Ant., 13, 360, Die Araber, I, S., 290.

صيتاً بعيداً [١] .

وتبين للنبط على ما يظهر انهم اذا استمروا في تأييدهم ومساعداتهم للحسمونيين (Hasmoneans) المناضلين للخلاص من حكم السلوقيين السوريين ، ألحقوا أضراراً بمصالحهم الخاصة وبحكومتهم نفسها ، فلم تكن سياسة المكابيين مقتصرة على طلب الاستقلال التام والخلاص من الحكم الأجنبي ، بل كانت تنطوي على الاستيلاء على الأردن والتوغل في مناطق النبط نفسها ، وانشاء حكومة قوية قد تزاحم حكومتهم في يوم من الأيام ، فرأوا ان من الخير لهم ان يدعوا هذا التأييد ، وأن يقاوموا ان احتاج الأمر الى المقاومة . وقد حدث ذلك بالفعل في عهد الملك المكابي (اسكندر جنيوس) (اسكندر ينيوس) (Alexander Jannaeus) (١٠٣ — ٧٦ قبل الميلاد) حيث وقعت حرب بينه وبين النبط بسبب الأردن[٢] .

فلما تمكن الملك المكابي مستعيناً بجنود مرتزقة من اليونان ومن أهل آسية الصغرى ومن (المؤابيين) ومن (الجلعاديين) أهل (جلعاد) ، وهم من العرب كما يقول المؤرخ اليهودي (يوسفوس)[٣] ، وأجبرهم على دفع الجزية اصطدم بمعارضة الملك (عبادة) (Obedas) الذي أعلن حرباً عليه ، كاد (اسكندر) يهلك فيها لولا الأقدار التي احتضنته ففر مسرعاً هارباً بنفسه الى القدس، وبذلك كتب لنفسه السلامة والنجاة[٤] .

إن (عبادة) (Obedas) = (Obodas) = (Obadath) هذا الذي ذكره (يوسفوس) ، هو (عبادة) المعروف عند المؤرخين بـ (عبادة الأول) تمييزاً له عن ملوك آخرين عرفوا بـ Obedas ، وقد حكم حوالي سنة تسعين قبل الميلاد[٥] . وجعل (شرادر) حكمه في عام (٩٣) قبل الميلاد . وقد ورد اسمه مضروباً على النقود[٦] .

١ Die Araber, I, S. 290.

٢ The Universal Jewish Encyclopedia, Vol., 8, P. 79.

٣ Josephus, Antiq., XIII, XIII, 5, The Jewish War, Book, 1, IV, 3-4.

٤ Dubnow, II, S., 160, The Cambridge Ancient History, Vol., IX, PP. 399.

٥ Ency. Relig., Vol., 9, P. 121, Ency., III, P. 801, The Cambridge Ancient History, Vol., IX, P. 409.

٦ Die Araber, I, S., 291, Schrader, KLT., S. 153.

لم ينعم (اسكندر جنيوس) (اسكندر يانيوس) بعد عودته الى القدس بأيام طيبة هادئة ، فلقد جوبــه بمعارضة قوية وبجماعة شديدة أخذت تعارض سياستـه وتقاومه ، ودبت الفتنة في كل مكان من مملكته وبلغ من حقد الجماعة عليه انهـا استدعت (دمتريوس أويكروس) (Demetrius Eukarus III) المعروف بالثالث من بقايا حكام مملكة السلوقين السوريين المتداعية ونصبته ملكاً عليها وحاكماً [1] . وهكذا نجد الشعب اليهودي الذي استعاد استقلاله يعود الى طبيعته الأولى ، فينقسم على نفسه ، ويشعل نار حرب أهلية في مملكته ، ويفضل حكم الغرباء على حــكم أبنائه . ولما وجد الملك المكابـي مركزه حرجاً وخصمه قوياً وانه قد يتغلب عليه، وأن له في الجنوب خصماً آخر طموحاً أقوى من خصمه (دمتريوس) وأعنف، رأى التودد الى العرب والتحبب اليهم ، فتزل لهم عن (موآب) و (جلعاد) وعن أماكن أخرى كان يخشى من احتمال انضمامها الى خصومه ، وقدمهـــا إلى ملك النبط وتساهل في أمور أخرى ليأمن على ما تبقى من مملكته على الأقل[2] .

وأما (دمتريوس) الذي ترك (يهوذا) (Judaea) وارتحل عنهـا ، فقد ذهب الى (حلب) (Boroea) ، وانتصر على أخيه (فيليب) (Philip) [3]. غير أن (ستراتو) (Strato) حليف (فيليب) وأحد حكامه،أسرع فاستنجد في (Zizus) بسادات القبائل العربية وبالفرث (Parthians) ، فأنجـدوه وساروا بقوات كبيرة على (دمتريوس) فانتصروا عليه[4] .

وحكم بعد (عبادة الأول) ملك اسمه (رب ال) (Rabb'il) = (Rabilus). يظهر أن حكمه كان حوالي السنة (٨٧) أو (٨٦) قبل الميـــلاد . ويعرف عند المؤرخين بـ (رب ايل الأول) تمييزاً له عن عدد من الملوك حكموا بعده عرفوا باسم (رب ايل)[5] . وقد عثر على كتابة وسمت بـ (CIS II, 349) [6] ، مؤرخة في شهر (كسلو) وشهر (شمـادا) (Schemada) في قراءة[7] و (شمارة)

---

١ Dubnow, II, 160.

٢ Josephus, Antiq., XIII, XIV, 3, Note 2.

٣ Josephus, Antiq., XIII, XIV, 3, Note 2.

٤ المصـدر نفسه .

٥ Ency., III, P. 801, Ency. Reli., Vol., 9, P. 121, Schrader, KLT, S., 153.

٦ CIS, Pars, Secunda, Tomus, I, Fasculus Tertius, P. 306.

وسيكون رمزه : CIS

٧ Provincia Arabia, I, S., 312.

(شمرة) (Schamara) في قراءة أخرى[1] من سنـــة (١٨) على قراءة[2] أو سنة (١٦) على قراءة أخرى من سني ملك اسمه (حرتت ملك) ، أي (حارث الملك) ، أو (الملك الحارث) بتعبير أصح . وقد دُوّنت هذه الكتابـــة على قاعدة تمثال عثر عليه سنة (١٨٩٨م) عند (بطرا) (Petra) [3] دوّنت عليها : « هذا تمثال رب ايـل ملك النبط بن .... ت ملك النبط عملها .... ب رحـــيم (حيم) (نى) (مجنى) الأقدم »[4] . فيظهر من هذه الكتابة ان تمثالاً أقيم للملك (رب ايل) عمل في السنة الثامنـة عشرة أو السادسة عشرة من سني ملك اسمه (حرتت) ، أي (الحارث) ، وان الذي عمل التمثال شخص لعب القدر ببعض حروف اسمه الأول ، فلم يبق منه الا الحرف الأخير ، وهو (ب) ، كما لعب في طمس معالم بعض الحروف الأخرى من الاسم،حمل الباحثين على الاختلاف في قراءتها .

أما اسم الملك وهو (رب ال ملك نبطو) ، فهو ظاهر واضح . وأما اسم أبيه الذي هو (ملك نبطو) أي ملك النبط ، فقد سقطت حروفه ولم يبق منـه الا الحرف الأخير وهو (ت) ، لذلك اختلف فيه الباحثون ، فمنهم من قرأه (عبـــدت) ، أي (عبادة) ، فجعـــل لذلك (رب ايـل) ابناً له ، أي لـ (عبادة الأول) ، ومنهم من قرأه (حرتت) ، أي (الحارث) ، فجعل أباه ملكاً اسمه (الحارث)[5] .

ولا نعرف شيئاً يذكر من أعمال (رب ايل) . ولعل ما ذكره (اصطيفان البيزنطي) (Stephanos of Byzanz) نقـــلاً عن (أورانيوس) من أن ملك العـــرب المسمى (ربليوس) (Rabilus) = (Rabilos) قتـــل (انتيغونس) (Antigonos) المقدوني في موضع يقال له (Matho) ، وهو قرية عربية ، أريد به الملك (رب ايل) الذي نتحدث عنه . وقد ذهب بعض الباحثين الى ان المراد

---

١ CIS, II, I, III, P. 306.

٢ Provincia Arabia, I, S., 312.

٣ Provincia Arabia, I, S., 312, Nr. 405, J. Cantineau, 2, I.

٤ CIS, II, I, III, P. 306, Provincia Arabia, I, S., 312, Clermont-Ganneau, Recueil d'Archéol. Orientale, II, PP. 221, Syria, Tome, IV, 1923, P. 152.

٥ Die Araber, I, S., 295, Deities, P. 540.

من لفظة (موثو) (موتو) الموت ، وان المقصود موضع الموت أو قرية الموت، لما وقع فيها من موت ، فعرفت به[1] .

ولا نعلم من أمر (رب ايل) شيئاً يذكر ، والظاهر ان حكمه كان قصيراً، جعله بعضهم نحو سنـــة ، أي سنة (٨٧) قبل الميلاد ، ثم وضع بعده حـــكم (الحارث) المعـروف بالثالث[2] . وهو من أشهـــر الملوك المتقدمين من النبط ، وأخبـــاره أوضح من أخبـــار من تقدمه ممن ذكرت . وقـــد ذهب بعضهم الى احتمال كونه هو (اروتيموس) (Erotimus) المذكور في التواريخ اليونانية[3] . وذهب بعض الباحثين الى أن حكم الحارث كان من سنة (٨٥) حتى سنـة (٦٠) قبل الميلاد ، أو من سنة (٨٧) حتى سنة (٦٢) قبل الميلاد[4] . وإذ صح أنـــه أدرك سنة (٦٢) أو (٦٠) قبل الميلاد ، يكون الرومان قد استعادوا مدينة دمشق في أيام هذا الملك ، إذ يرى كثير من المؤرخين أن (اللجيونات) الرومانية العاملة بإمرة القائدين (لوليوس) (Lollius) و (ميتيلوس) (Metellus) قد احتلت المدينة عام (٦٥) قبل الميلاد. ثم دخلها (بومبيوس) في سنة (٦٤) قبل الميلاد[5] . وذهب بعض الباحثين إلى أنه اضطر الى اخلاء (دمشق) سنة (٧٠) قبل الميلاد، إذ لم تستطع جيوشه الوقوف أمام جيش الملك الأرمني(تيكرانس) (Tigranes) التي زحفت على بلاد الشأم[6] .

وقد عرف الحارث الثالث بـ (فيلهيلن) (Philhellen) ، وهو لقب يوناني (Aretas Philhellene) ، معناه محب اليونان . وقد اشتهر بتوسيعه رقعة ملك النبط . فلما هاجمه (أنطيوخس الثاني عشر) (أنطيخس) (Antiochus XII) وأخذ يتوغل في أرض النبـــط ، أسرع (الحارث) فجمع قواته ووقف بحزم أمام القوات المهاجمة ، ثم اصطدم به عنـــد موضع (Kana) (Cana) ، حيث قضى على معظم جيش (أنطيوخس) وألحقه مع من قتل بالعالم الآخر . وقـــد

---

١ Die Araber, I, S., 294.
٢ Die Araber, I, S., 291.
٣ Die Araber, I, S., 292.
٤ Schrader, KLT, S., Deities, P. 540.
٥ Ency. Bibli., P. 991, Deities, P. 540.
٦ Deities, P. 541.

وقعت هذه المعركة في سنة (٨٦) أو (٨٤ – ٨٣) قبل الميلاد[١] .

ويرى بعض الباحثين استناداً الى النقود التي ضربت باسم (أنطيوخس) ، بسنة (٨٧ – ٨٦) قبل الميلاد ، والتي استمر ضربها ثلاث أو أربع سنين ثم انقطعت أن نهاية هـذا الملك كانت بسنة (٨٥ – ٨٤) أو (٨٤ – ٨٣) ، وهي السنة التي قتل فيها ، وانتهت بانتصار (الحارث) عليه[٢] .

وقد مكن سقوط (أنطيوخس) في تلك المعركة النبط من تقوية أنفسهم ومن شدّ عزمهم ، فلما مات الملك (رب ايل) الأول سنة (٨٧) قبل الميلاد عـلى بعض الآراء ، وتولى (الحارث) الثالث (حارثة) (Aretas) الحكم من بعده انتهز تلك الفرصة فاستولى سنة (٨٥ ق. م.) على دمشق ، وتوسعت بـذلك رقعة مملكته وأحاطت بمملكة المكابيين من الشرق والجنوب[٣] .

وقد افتتح عهد (الحارث الثالث) باستيلائه على (دمشق) وعلى (سهل البقاع) (Colle-Syria) = (Kolle-Syria) ، فقد استدعاه أهلها لانقاذهم مـن مهاجمة (اليطوريين) (Ituräer) لهم ، بقيـادة ملكهم (بطلميوس بن منيـوس) (Ptolemaios Mennaios) ، أي (بطلميوس بن معن) . وهـو من أصل عربي أيضاً ، فأسرع اليهـا ، وكانت يومئذ قصبة (السلوقيين) ، فاستولى عليهـا ، ودخلت في جملة أملاكه[٤] ، ولقبه أهلهـا (محب اليونان وحاميهم) (Philhellen) ، لأنه أنقذهم من (غزو الأعراب) لهم[٥] .

الآن وقد أصبح (الحارث) ملكاً على مملكة واسعة الأطراف ، وتشرف على مملكة (يهوذا) المتداعية ، وبإمرته جيش قوي ، كان لا بد له من التداخل في

---

١ (Kana) (Cana) على ساحل البحر المتوسط عند (يافا) ،
The Cambridge Ancient History, Vol., 9, P. 400, Josephus, Antiq., XIII, XV, I. Vol., 2. P. 428, The Jewish War, Book, I, IV, 7-8, Die Araber, I, S., 294, Dubnow, II, S., 163, Hastings, P. 147, Deities, P. 540.

٢ Die Araber, I, S., 294.

٣ Bernhard Stade, Geschichte des Volkes Israel, II, S., 504, Berlin, 1888, Deities, P. 540.

٤ Die Araber, I, S., 294, B. Stade, II, S., 405.

٥ Die Araber, I. S., 298, R. Dussaud, Penetration, 55, A. Kammerer, Petra et La Nabatene, 1929, I, 515, A. R. Bellinger, 78.

شؤون هذه الجماعات المتخاصمة المتنافرة التي تكوّن مملكة ، ولكنها لا تخضع لملك ولا لسلطان . واذا لم يتدخل هو بنفسه فإن الأحزاب اليهودية نفسها لا تتركه على الحياد . وهذا ما حدث . فغزا (الحارث) أرض يهوذا ، وفي معركة واحدة وقعت عند موضع (اديدا) (Addida) = (Adida) انهار الجيش اليهودي ، وتشتت شمله ، فلم يبق أمام (اسكندر ينيس) (Alexander Jannaeus) = Alexandros Iannaios) غير طلب الصلح ، فعقد الصلح ، وعاد النبط الى ديارهم الى حين[1] . ولم يشر المؤرخ (يوسفوس) الى محتويات معاهدة الصلح[2].

أما (Adida) = (Addida) المكان الذي وقعت فيه المعركة ، فهو (الحديثة) على مقربة من (اللد) (Ludda) ، المسماة أيضاً باسم (Diospolis)[3] ، وقد عرفت (Adida) باسم (حاديد) (Hadid) و (حديد) (Hadid) و (Aditha)[4] .

لقد تمكن (الحارث) من بناء جيش يعتمد عليه في المعارك ، فبعد أن كان جيش النبط في بادىء أمره جماعات غزو غير منظمة ولا منسقة تهاجم عدوها وتباغته على طريقة الأعراب ثم تتراجع ، يسيّرها العُرف القبلي ، تحسّن جيش النبط بعض التحسن ، وأدخلت على القوات الراكبة بعض الاصلاحات ، غير انها بقيت مع ذلك متأثرة بروح البداوة ، التي لا تقبل الخضوع للأنظمة والأوامر ، والتي لا تهتم الا بالغنائم ، فاذا حصلت عليها رجعت الى مواطنها دون تفكير في العاقبة . فلما استولى (الحارث) على دمشق ، وفيها عدد كبير من اليونان ، انضم بعضهم اليه ، فعملوا على تحسين جيشه وتدريبه ، وعلى تكوين جيش مدرب نظامي ، استعان به في تقوية مركزه حتى صار به من أقوى ملوك النبط الذين حكموا حتى أيامه ، مما حمله على التدخل في شؤون مملكة يهوذا ، ثم على مجابهة الرومان ، وهم أصحاب جيوش منظمة مدربة ، بجيش لم يتعود دخول الحروب النظامية ، فتغلب الرومان من ثم عليه .

---

١ Josephus, XIII, XV, 2, Vol., II, P. 428, Dubnow, II, S., 163, The Cambridge Ancient History, Vol., IX, P. 400.

٢ Die Araber, I, S., 298.

٣ Hastings, P. 12, 324, Ency. Bibli., P. 1932.

٤ المكابيون الاول ، الفصل الثاني عشر ، الاية ٣٨ ، الفصل الثالث عشر ، الاية ١٣، Ency. Bibli., P. 65, 1932, Jerome, Onom., 93, Die Araber. I, S., 298.

فلما دبّ الخلاف بين الأخوين (أرسطوبولس) (Aristobolus) و(هركانوس) (Hyrcanus) ، ابني (اسكنـدرة) (Alexandra) على الملك ، وانقسمت (يهوذا) إلى أحزاب وجماعـات أبرزها جماعـة (الفريسيين) (Pharisées) يؤيدون (هركانوس) وجماعة(الصدوقيين) (Sadducées) أنصار (أرسطوبولس)، وجمع (أرسطو بولس) حوله أنصاره وجيشاً من العرب ومن جنـود مرتزقة ، وتفوق على أخيه ، طلب (هركانوس) مساعدة النبط ، وبعث صديقه (انتيبطر) (انتيباطر) (Antipater) الى (بطرا) ليتوسط لدى (الحارث) ، وكان صديقاً له ، في أمر مساعدة (هركانوس) وفي أمر الالتجاء اليه . فلما نجحت الوساطة ، هرب من القدس ليلاً متجهاً الى النبط ، وطلب من الملك بإلحاح أن يعيده الى (يهوذا) ، وأن يأخذ له التاج من أخيه ، ويثبته في ملكه ، ويتعهد في مقابل هذه المساعدة بإعادة المدن الاثنتي عشرة التي أخذها أبوه (اسكندر) من العرب ، وهي : (مادبا) (مأدبا) (Medaba) و (نبالو) (Naballo) و (ليبياس) (Libias) و (ثربسة) Tharabasa) و (اكله) (Agalla) و (اتونه) (Athone) و (زوره) (Zoara) و (اورونه) (Oronae) و (ريده) (Rydda) و (لوسه) (Lusa) و (اوريبه) (Oryba) و(مريسه) (Marissa) الى النبط . فوافق (الحارث) على هذه الشروط ، وهجم عـلى (يهوذا) (٦٦ ــ ٦٥ ق. م.) بجيش قوامه خمسون ألف جندي راجل وفارس شتت شمـل أصحاب (أرسطو بولس) وتركه وحده ، فهرب الى القـدس . فتعقبه الحارث على رأس جيش عربي يهودي كبـير ، وأحكم عليه الحصار ، وكادت العاصمة تسقط في يديه لولا حدوث تطور سياسي عسكري خطـير قلب الوضع ، ذلك هو هجوم الرومان فجأة في أيام (بومبيوس) على دمشق وسورية وهجوم قائدهم (سكورس) (Scaurus) على (يهوذا) وتدخله في هذا النزاع[1] .

لقد كان تقدم الرومان هذا في بلاد الشأم تهديداً صريحاً لليهود وللنبط ، أدى بعـد قرون الى الاستيلاء التام على كـل فلسطين والأردن وإلحاقها بالمستعمرات الرومانية . وقد كانت فاتحة ذلك تدخل الرومان في شؤون يهوذا ، وتوجيه انذار

---

١ Josephus, XIV, I, 4, II, 1-3, Dubnow, II, S., 172, Josephus, The Jewish War, 302.

تاريخ يوسفوس اليهودي ، المطبعة العلمية ، بيروت (ص ١١٥) .

الى (الحارث) بوجوب فك الحصار عن (القدس) والتراجع عن يهوذا مع جميع جيشه فوراً ان أراد أن تكون علاقاته بـ (رومة) حسنة ، والا عُدَّ عدواً لها ومشاكساً . وقد أدرك (الحارث) ان جيشه لا يستطيع الوقوف أمام جيوش الرومان المدربة المنظمة المسلحة تسليحاً جيداً حديثاً بالنسبة الى أسلحة النبط . ففك الحصار ، وتراجع ومعه (هركانوس) ، فاغتنم (أرسطوبولس) الفرصة ، وكان قد اكتسب ثقة (سكوروس) قائد الرومان ، وتعقب المتراجعين في طريقهم الى (ربت — عمان) (فيلادلفيا) (عمان) ، فالتحم بهم في معركة عند موضع اسمه (بابيرون) (Papyron) ، فانتصر على (الحارث) وقتل ستة آلاف من أتباعه[1] .

وتعقدت الأمور ثانية بين الرومان والنبط ، وهدد (سكوروس) النبط بالزحف عليهم وتخريب بلادهم ، وقرر الحارث في بادىء الأمر تحدّيه ، ثم وجد ان من المستحيل عليه الثبات له ؛ وتوسط (انتيباتر) فيما بينه وبين (سكوروش) بأن يدفع الحارث جعالة للرومان ، وتصالح بذلك معهم . وقد سرّ (بومبيوس) من هـذه النتيجة حتى انـه أمر بوضع صورة (الحارث) في موكب نصره ، كما سرّ (سكوروس) بذلك اذ أمر بضرب نقد ، صوّر الحارث عليه وقد أحنى رأسه راكعاً وحاملاً سعفة تعبيراً عن استسلامه له[2] .

لقد وقع كل ذلك في حوالي السنة (٦٢) قبل الميلاد ، السنة التي هلك فيها هذا الملك ، وذهبت بوفاته معه كل آماله وأحلامه في أن يكون وريث مملكة السلوقيين في بلاد الشأم . ولعل النكسة التي وقعت له قد أثرت فيه فعجلت منيته.

وقد ورد اسم (الحارث) في كتابة عثر عليها في القسم المعروف بـ (المِدراس) (المدرس) (Elmadras) من (بطرا)[3] . و (المدراس) معبد خصص بعبادة الإلـه (ذو الشرى) (Duschara) إلـه النبط الكبير . وقد دوّنها أحد قواد الملك في السنة السادسة عشرة أو السابعة عشرة من حكم (حرتت) (Haritat)

---

١ Josephus, XIV, II, 1-3, Vol., 3, PP. 4, Dubnow, II, S., 176, The Cambridge Ancient History, Vol., IX, P. 382, Die Araber, I, S., 302.

٢ Die Araber, I, S., 303, J. De Morgan, Manuel de Numisme Orient., 2, 1924, 237.

٣ Provincia Arabia, I, S., 209.

في مناسبة تقربه الى الإلـه (ذو الشرى) بصنم لخيره ولخير ملكه[1] .

وحكم بعد (الحارث الثالث) ابنه الملك (عبادة الثاني)،حكم من سنة (٦٢) حتى سنة (٤٧) قبل الميلاد ، أو من سنة (٦٢) حتى سنة (٦٠) على رأي آخر[2] . ولا نكاد نعرف من أمره شيئاً يذكر . وقد عثر على نقد من الفضة ضرب بأمره وهو من فئة الـ (دراخما) (Dirakhma) ، ضرب في السنة الثانيـة أو الثالثة من سني حكمه . وقد صوّر عليه وجه الملك حليقاً ، وشعر رأسه قصيراً[3] .

ويظهر من رواية أوردها المؤرخ (يوسفوس) أن القائد (A. Gabinius) ، انتصر على النبط في إحدى المعارك ، وأن النبط قد هزموا هزيمـةً منكرة . ولم يذكر اسم الملك الذي انتصر عليه هذا القائد . وإذا أخذنا برواية من يجعل هذا الانتصار في السنة (٥٥) قبل الميلاد[4] ، فمعنى هذا أن الملك المغلوب هو (عبادة الثاني) على رأي من يرى أنه حكم من سنة (٦٢) حتى سنة (٤٧) قبل الميلاد ، أو في أيام (مالك الأول) على رأي من يجعل ابتداء حكم هذا الملك من سنة (٦٠) قبل الميلاد .

وحكم الملك (مالك) (Malichus) = (Malchus) المعروف بـ (الأول) بعد (عبادة الثاني) ، وهو ابنه ، من سنة (٤٧) حتى سنة (٣٠) على رأي . ومن سنة (٥٠) أو حوالي السنة (٤٧) حتى سنة (٣١) قبل الميلاد على رأي آخر[5] وذهب بعض المؤرخين الى أن (مالكاً) كان قد حكم بعد (الحارث الثالث) ، وأن حكمه كان فيما بين السنة (٦٢) والسنة (٣٠) قبل الميلاد[6] .

وقد انجد النبط في أيام ملكهم (ملكوس) (مالكوس) (Malichus) ،

---

١ Provincia Arabia, I, S., 210, CIS, II, 442, Euting 16, Lagrange 56, Lagrange, Revue Biblique, VII, 1898, P. 165, Clermont-Ganneau, Recueil d'Archeol. Orient., II, P. 379.

٢ اختلف في تاريخ حكمه ولبعض الباحثين راي اخر ، راجع :
Ency., III, P. 801, Dillmann, Neue Petra-Forschungen, 1912, S., 99.

٣ Hill, P. XII, 3, PL., XLIX, 2, 3.

٤ Josephus, Antiqu., 14, 103, Jud., I, 178, Die Araber, I, S., 306.

٥ Hill. P. XIII, Ency. Relig. Vol., 9, P. 121, Ency., Vol., III, P. Schrader, KLT., S., 153.

٦ Delties, P. 541.

أي (مالك الأول) ،(يوليوس قيصر) (Julius Caesar) سنة (٤٧) أو (٤٨) قبل الميلاد في حصاره لمدينة الاسكندرية ، فأمده بقوة من جيشه[١] . كما ساعده أيضاً عدد من سادات القبائل توسط في ارسالهم اليه (أنتيباطر) (Antipater) ، لعلهم من سادات قبائل طور سيناء[٢] .

وكان (انتيباتر) قد تزوج امرأة عربية من أسرة كبيرة معروفة ، نجلت له أربعة أولاد وبنتاً ، وتمكن بهذا الزواج من تكوين صداقة متينة مع ملك العرب (النبط) كما يقول ذلك (يوسفوس) . ولما وقعت الحرب بينه وبين (ارسطوبولس) (Aristobulus) ، أرسل أولاده الى جدهم ملك العرب ليكونوا في مأمن هناك[٣].

وكان لـ (بطرا) أثر مهم في الخصومات الشخصية التي وقعت في مملكة (يهوذا) أيام الملك (هركانوس بن اسكندر) ، هذه الخصومات التي أدت الى تدخل (الفرث) (Parthians) من جهة ، والى تدخل الرومان من جهة أخرى في شؤون مملكة يهوذا ، ولكل دولة مصلحة في هذا الجزء المهم من الشرق الأدنى ومطمع . وللدولتين أنصار وأعوان ، وطامعون في الملك يريدون المساعدة والمعونة للحصول على العرش.والطامعون في العرش والراغبون في الفتن والخصومات في (يهوذا) كثيرون . فلما بلغت جيوش الفرث حدود (القدس) ، بتحريض من (انطيغونس) ابن أخ (هركانوس)[٤]،أسرع (هيرودوس) (Herodus) ابن القتيل (انتيباتر) الذي كان الحاكم الحقيقي في (يهوذا) ، وصاحب النفوذ في المملكة ، وصاحب الحظوة عند الرومان ، فهرب الى النبط ، الى ملكهم (مالك) (Malchus) في عاصمة (بطرا) ، يلتمس منه العون والمساعدة والمال على سبيل الهبة أو الدين لما كان لوالده القتيل من صداقة به ، ليرشو به من ينقذ حياة أخيه . فلما كان في طريقه الى بطرا وصلت رسل الملك تخبره أن الملك لن يتمكن من مقابلته ، وذلك بناءً على طلب ورجاء تقدم به الفرث اليه ، واتصل عندئذ بسادات قبائل عربية كانت لهم صلات وصداقة بوالده ، فلما رأى ذلك آثر

---

١ Delties, P. 541, Die Araber, I, S., 306.

٢ Josephus, Antiq., XIV, VIII, I, Vol., 3, P. 22.

٣ Josephus, The Jewish War, Book, I, VIII, 8.

٤ تاريخ يوسفوس (ص ١٤٦) (Antigonus)
Josephus, Antiqu., XIV, XIII, 3, Dubnow, II, S., 250.

الذهاب الى مصر ومنها الى ايطالية حيث كان له فيها أصدقاء ليساعدوه في الانتقام من قتلة أبيه[1] . والى هذا الملك ، أي ملك النبط (مالك) هرب (يوسف) (Joseph) شقيق (هيرودس) مع مئتي رجل من رجاله ، على أثر هجوم (انطيغونس) ، وحينما بلغه تغير رأيه بالنسبة الى (هيرودس) أخيه[2] .

وعاد (هيرودس) من (رومة) ملكاً ، لقد تفضل (أغسطس) و (أنطونيوس) ومشايخ الرومان عليه فنصبوه ملكاً على اليهود ، على مملكة يعين ملوكها الرومان أو الفرث . عاد بفضل الرومان ، فصار بالطبع آلة في أيدي سادة (رومة) . ولما نشبت الحرب بين (انطونيوس) و (أوكتافيوس) سنة (٣٢) قبل الميلاد، انضم الى حزب (أنطونيوس) صاحب الفضل عليه . أما واجبه الذي كُلِّفَهُ، فقد كان محاربة النبط ، الذين رفضوا دفع الجزية للرومان ، وأبوا الخضوع لهم ، والذين أيدوا الفرث . ولما تمكن القائد (فنتديوس باسوس) (Ventidus Bassus) من ضرب الفرث ومن انزال هزيمة بهم ، أصاب الضرر الملك (مالك) حليف (الفرث) فانتزعت منه بعض أملاكه . لذلك فرح (هيرودس) بهذا التكليف ، وشجعته على ذلك (كليوبطرة) ملكة مصر وصاحبة (أنطونيوس)، التي طلبت منه الاسراع في محاربة (ملك العرب) الذي أبى دفع الجزية لها ، وكانت تكره (هيرودس) وتريد هلاكه ان أمكن ، فأرادت بعملها هذا أن تقضي عليه ، أو أن تضعف من مركزه ومن مركز ملك العرب، بمحاربتهما بعضهما بعضاً فتتمكن من الملكين فيخضعان لها وتكون سيدة (العربية) . وبادر (هيرودس) بمحاربة النبط ، فالتقى بهم عند (اللد) (Diospolis) وانتصر عليهم ، ثم التحم بهم في (قنا) (Cana) (قنوات) (Canatha) في البقاع (Coele Syria) وكاد يتغلب عليهم لولا هجوم (أثنياوس) (Atheniaus) فتغيرت الحال ، وهاجمه النبط أيضاً فسقط عدد كبير من جيشه في ساحات القتال وأسروا من فرّ منهم الى (Ormiza) فاضطر عندئذ الى الرجوع الى (القدس)[3] .

---

١ Josephus, Antiq., XIV, XIV, 1-3, The Jewish War, I, XIII, 8, Book,, I, XIV, 1-2.

٢ Josephus, The Jewish War, Book, I, XV, I.

٣ تأريخ يوسفوس ص ١٦٨ وما بعدها) ،
Josephus, Antiq., XV, 110, 119, The Jewish War, I, XVIII, 4, 1-4, Die Araber, I, S., 306, 307.

وفي القدس أخذ (هيرودس) يحرض قومه على الانتقام من العرب ، والأخذ بالثأر ، ولا سيما بعد هجوم العرب على مملكته ومباغتة مدنه . فنشبت سلسلة من الحروب كلفت اليهود والعرب خسائر كبيرة ، اذ طالت الحروب ، ولم تنته الا بعد مشقة . ويدعي المؤرخ (يوسفوس) ان النصر كان في الخاتمة في جانب اليهود . فقد جمع (هيرودس) كل قواته وأعاد تنظيمها ، ثم عبر الأردن . ولما بلغ (عمان) (Philadelphia) التحم بالنبط ، فأنزل بهم خسائر كبيرة ، إذ سقط منهم خمسة آلاف قتيل ، واستسلم منهم أربعة آلاف رجل كانوا قد تحصنوا في معسكر حصين ، ولكن أجبرهم العطش في الأخير على الاستسلام . كما قتل سبعة آلاف آخرون كانوا حاولوا الفرار من الحصار ، فتعقبهم اليهود وقتلوهم[1] . واضطر النبط عندئذ الى دفع الجزية الى (هيرودس) ، وعقدوا صلحاً معه ، ولم تخالفه العرب بعد ذلك[2] .

يقول (يوسفوس) : إن العرب كانوا يكرهون (هيرودس) وحاولوا الثورة عليه والانتقام منه حتى بعد عقد هذا الصلح . وقد كان في جملة من دفع الجزية اليه العرب الساكنون في (حوران) (Aurantitis) ، بحكم تبرع القيصر (أغسطس) بأرضهم له،إلا أنهم كانوا يدفعون الجزية اليه أحياناً ، وكانوا يمتنعون من دفعها أحياناً ، أخرى ، ويحاولون التخلص منه . ولم تكن قوة (هيرودس) في الحقيقة هي التي جعلت هؤلاء الأعراب يقبلون بمصالحة اليهود أو دفع الجزية لهم ، إنما كانت قوة الرومان التي تسخرها أيد إدارية قوية تحسن التوجيه للبطش في القبائل المتعادية وفي سادات القبائل المتنافسين على الزعامة المتباغضين ، وفي العساكر المسخرين الذين أكرهوا على القتال ، ولم يكن لديهم علم بأسلوب القتال ولا بكيفية استخدام الأسلحة ، ولا عزم على الوقوف في وجه الخصم ، وليس لهم ضباط وقادة مجربون محنكون ، لهم هدف وطني وخبرة بأساليب القتال ، ولم يكونوا يرون في الفرار ما لا يتفق مع واجبهم العسكري .

ولا ندري متى كانت نهاية الملك (مالك) بعد هذه الخسائر التي حلت بالنبط. والظاهر انه لم يعمر بعدها طويلاً ، أو انه مات في أثنائها، فإن المؤرخ (يوسفوس)

---

١ Josephus, Antiq., 15, 153, 157-158, Jewish War, I, 383, Die Araber, I, S., 306.

٢ تاريخ يوسفوس (ص ١٦٨ وما بعدها) ،
Josephus, Antiq., XV, V, 1-5, The Jewish War, Book, I, XIX, 1-6.

الذي هو مرجعنا في أخبار هذه الحروب لم يشر اليه ولم يذكره في الغارة الانتقامية التي أغارها النبط على أسطول (كليوبطرة) عند موضع (Actium) التي أدت الى احراق السفن المتجمعة هناك[1] .

وقد خلف (عبادة) (Obodas) المعروف بالثانــي عند بعض المؤرخــين وبالثالث عند بعض آخر الملك (مالك الأول) . خلفه على الحكم سنة (٣٠) قبل الميلاد ، ودام حكمه حتى سنة (٩) قبل الميلاد . ويظن انه مات مسموماً سنة (٩ ق. م.) سمه وزيره ومستشاره (صالح) (Syllaeus) الذي قطع رأسه في (رومة) سنة (٥) قبل الميلاد[2] .

وفي أيام هذا الملك كانت حملة الرومان التي أرسلها (أغسطس) بقيادة (أوليوس غالوس) لفتح بلاد اليمن . وهي حملة أسهم فيهـا النبط بتقديم قوات لمساعدة الرومان ، كما أسهم فيها (هيرودس) ملك (يهوذا) بخمسمئة رجل يهودي ، ضمهم الرومان وسار بهم الى اليمن ، كما تحدثت عنها في كلامي على السبئيين .

ويصف (يوسفوس) (عبادة) بالضعف وفتور الهمة والكسل ، ووصف وزيره (صالح) (Syllaeus) بالقدرة والكفاية على صغر سنه . وانه لذلك كان هو المتصرف في الأمر والمدير لشؤون المملكة ورجل الدولة الحقيقي . وكان صديقاً لـ (هيرودس) يزوره وينزل عليه . وكاد يتزوج أخته لولا اختلاف الدين ، ورفض (Syllaeus) الدخول في الديانة اليهودية ليسمح له بالزواج[3] .

وقد انقلبت المودة التي كانت بين (هيرودس) و (صالح) (Syllaeus) عداوة شديدة ، فسعى (صالح) حين ذهب الى (رومة) لاثارة حفيظة (أغسطس) على (هيرودس) بسبب الحملات العسكرية التي قام بها على أرض (اللجـاة) (Trachonites)[4] ، وعلى العرب الذين آووا أهل (اللجاة) وساعدوهم . فلما

---

١ Dio., 51, 7, I, Zon., 10, 30, Plutarch, Anti., 69, Die Araber, I, S., 307.

٢ Deities, P. 541, Ency., III, P. 801, Ency., Relig., Vol., 9, P. 121, Die Araber, I, S., 286.

٣ Josephus, Antiq., XVI, VII, 6, The Jewish War, Book, I, XXVII, I, XXIII, 6.

٤ واللجاة اسم للحرة السوداء التي بأرض صلخد من نواحي الشام فيها قــرى ومزارع وعمارة واسعة يشملها هذا الاسم ، البلدان (٣/٣٢٣) ، Josephus, Vol., 3, P. 186, Note : I, The Jewish War, Book, I, XXIV, 6, Antiq., XVI, IX, I-4.

ذهب (هيرودس) الى (رومة) ليرفع شكايته عن ابنه (اسكندر) الى القيصر، والتماسه من القيصر شمول ابنه الآخر (انتيباتر) بالعطف والحماية ، انتهز أهل اللجاة (Trachonites) فرصة غيابه فأعلنوا الثورة وهاجموا الحدود ، وعادوا الى الغزو ، وكان (هيرودس) قد منعهم منه ، وضرب على أيديهم بشدة . فلما تعقبهم وكلاء (هيرودس) وقتلوا خلقاً منهم ، هرب عدد من رؤسائهم الى النبط واحتموا بهم . ولما عاد (هيرودس) أراد الانتقام منهم، فطلب الاذن من حكام سورية الرومان بتأديبهم والموافقة على ارسال قواته الى المقاطعة لمقاتلتهم. ورجا من (عبادة) ومن وزيره (صالح) اجلاء رؤساء أهل (اللجاة) عن أرض النبط وعدم حمايتهم . فلما رفضا ذلك ، طلب من (صالح) اعادة المال الذي اقترضه منه (عبادة) بوساطته . ولما لم تثمر المفاوضات شيئاً ، هجمت قوات (هيرودس) على المناطق التي التجأ اليها الهاربون من أهل (اللجاة) ، فاستولت على (Raipta) معقلهم وهدمته . فلما سمع النبط بذلك ، بادرت جماعة منهم برئاسة قائد يدعى (Nacebus) لمساعدتهم ، فاصطدمت بجنود (هيرودس) وسقط (Nacebus) مع زهاء عشرين رجلاً من أتباعه قتلى في هذه المعركة . ثم أمر (هيرودس) بإسكان الأدوميين في (اللجاة) ، وكتب بذلك الى حاكم (فينيقية) يبين له الأسباب التي حملته على ارسال هذه الحملة على (التراخونيين) أهل اللجاة . ويدعي (يوسفوس) ان (Syllaeus) استغل فرصة وجوده في (رومة) وذهب الى القيصر شاكياً من العمل الذي قام به (هيرودس) ووشى به كثيراً ، فغضب عليه (أغسطس)[1] . غير ان القيصر بدّل رأيه في (صالح) حين اطلع على الخبر الصحيح ، ولما بلغته أخبار وفاة الملك (عبادة) وانتقال العرش الى (Aeneas) الذي غيّر اسمه حينما تولى الملك ودعا نفسه (Aretas) على عادة أكثر ملوك النبط دون أن يكتب ملك النبط اليه ويخبره بالحدث ، فغضب على (صالح) وأمر بمعاقبته[2] . ويدعي (يوسفوس) ان الملك الجديد كان مبغضاً لـ (صالح) ، لأنه كان يعتقد انه كان نفسه يطمع في الملك لما كان له من نفوذ ومال ، وانه كتب الى (أغسطس) يخبره بأنه سمّ (عبادة) الملك

١ Josephus, Antiqu., XVI, IX, 1-4.

٢ Josephus, Antiq., XVI, IX, 4, X, 8.

السابق ، وانه قتل عدداً من أشراف المملكة في (بطرا)، من بينهم (Sohemus) السيد النبيل ، الذي يحترمه قومه ويجلونه،وانه قتل (Fabatus) خادم (أغسطس) وفعل أموراً أخرى منكرة تستوجب العقاب[1] .

أما (Nacebus) الذي قتل في معركة (Raipta)،وهو في موضع في العربية ، فكان صديقاً لـ (Syllaeus) ومن أبناء عشيرته . ويخيل إليّ أن كلمة (Nacebus) ليست علماً لقائد الحملة ، وإنما هي درجة ومنزلة ، وأن معناها (نقيب) ، وهي درجة من درجات الجيش ، ولكني لا استبعد كونها إسماً حرف في اليونانية حتى صار على الشكل المذكور ، وأن الأصل هو (نقيب) أو (نسيب) أو (نجيب) أو ما شاكل ذلك من أسماء . وأما (Sohemus) ، فهو اسم علم قد يكون (سخيماً) أو (سحيماً) أو (سهيماً) ، وكلها أسماء معروفة في الجاهلية .

وقد أشار (موسل) الى رواية ذكرها (أورانيوس) (Uranius) و(اصطيفان البيزنطي) عن تأسيس مدينة (Auara) في أيام الملك (عبادة) ، خلاصتها أن (حارثة) (Aretas) ابن الملك حلم أن والده سينشيء مدينة ، وأن هذه المدينة هي (Auara) من كلمة (حوراء) أي (البيضاء) . فلما قص (حارثة) حلمه على والده ، أخذ يفتش عن موضع أبيض ينشيء عليه المدينة ، وبينا كان يفتش عن هذا الموضع تراءى له شبح رجل أبيض على جمل أبيض اسنخفى فجأة. فلما دنا من مكان الشبح ، وجد بقايا شجرة ذات عروق ممتدة ، فأمر أن يكون موضع (حوراء) (Auara)[2] .

ويرى (موسل) ان هذه المدينة هي (الحميمة)[3] ، وهي أيضاً (Auara) التي ذكرها (بطلميوس) وتقع في (العربيـــة الحجرية) (Arabia Petraea) على الطريق بين (أيلة) و (بطرا)[4]،وأن الملك المقصود هو (عبادة الأول). وأما الوقت ، فكان في حوالي سنة (٩٣) قبل الميلاد . وقد ذكرت أنه حكم على

١ Josephus, Antiq., XVII, IV, 2.

٢ Musil, Hegaz, P. 59, Note 20, Uranius, Arabica. (Müller, Fragmenta), Vol., 4, P. 523, Stephen of Byzantium, Ethnica, (Meineke), Vol., 1, P. 144.

٣ البلدان (٣/٣٤٦) .

٤ Musil, Hegaz, P. 60, Tabula Paulingeriana, Sheet, 8, (Vienna), 1888.

رأي أكثر الباحثين حوالي سنة (٩٠) قبل الميلاد . وأرى أن (Obadas) الذي ذكر (أورانيوس) و (اصطيفانوس البيزنطي) أنه كان صاحب ولد اسمه (حارثة) (Areta) ، هو (عبادة) الثالث ، فقد كان صاحب ولد اسمه (حارثة) وهو المعروف عندنا بـ (Aretas) الرابع . أما (عبادة) ، فالذي خلفه هو (رب ايل) ، لذلك يكون (عبادة) الثالث الذي نتحدث عنه أكثر ملاءمة لرواية المؤرخين من (عبادة الأول) .

وحكم بعد (عبادة الثالث) الملك (الحارث) (حرتت) (Aretas) المعروف بـ (الرابع) والملقب بـ (راحم عمه) (Philopatris) وبـ (ملك النبط)[١]. وقد حكم من حوالي سنة (٩) قبل الميلاد حتى حوالي سنة (٤٠) بعد الميلاد . وورد اسمه في عدد من الكتابات . منها النصوص المرقمة بـ (CIS 11, 160) و (CIS II, 197-217) و (CIS II, 354) . أما الكتابة الموسومة بـ (CIS 11, 160) فقد أرخت بالعام الخامس من حكمه ، أي سنة (٤) قبل الميلاد[٢] ، وقد ورد فيها اسم الإلـه (دوشرا) أي (ذو الشرى)[٣] .

وأما النص الموسوم بـ (CIS 11, 197) ، فأرخ بشهر نيسان من السنة التاسعة من حكم (حرتت) (الحارث) ، (بيرح نيسن شتت تشع لحرثت ملك نبطو)[٤]، أي في السنة الأولى للميلاد ، وورد فيه أسماء الآلهة : (دو شرا) (ذو الشرى) ، و (منوتو) (مناة) (Manutu) و (قيشح)[٥]. وقد ذكرت في هذا النص بعد جملة : (لحرثت ملك نبطو .....) جملة (رحم عمه) ، أي (محب شعبه) ، وهي من النعوت التي ظهرت في الكتابات في هذا العهد .

وأرخ بأيام صاحبنا (حرثت) (الحارث) النص المعروف بـ (CIS 11, 198) وهو أيضاً من النصوص التي عثر عليها في (الحجر)[٦] . ويعود عهده الى شهر

١ Ency. Relig., Vol., 9, P. 121.

٢ Ency., III, P. 801, Ency. Relig., Vol., 9, P. 121, Schrader, KLT, S., Provincia Arabia, I, S., 152. Die Araber, I, S., 304.

٣ CIS II, 160. M. A. Levy, In ZDMG., 1869, XXIII, P. 435.

٤ CIS II, I. II, PP. 223, CIS II, P. 194, 4, 197.

٥ CIS II, 197, 5, Huber, 20. Euting 2.

٦ CIS II, I. II, P. 224 Douthy 2, Euting 3.

(طبت) من السنة التاسعة من حكم هذا الملك ، أي الى السنة الأولى للميلاد[١] . وقد وردت فيه بعض الأسماء ، مثل (كمكم) (كمكام) و (ودلت) و (ودّلات) و (حرم) (حرام) و (كلبت) (كلبة) (كليبت) (كليبة) و (وهب اللات) و (عبد عبادة) . وأسماء الآلهة : (دوشرا) و (هبلو) و (هبل) و (منوتو) (مناة) و (اللت) (اللات) .

أما النص (CIS 11, 199) ، فقد كتب في شهر (شباط) من السنة الثالثة عشرة من سني حكم (الحارث) (حرثت) وهي السنة الرابعة بعد الميلاد[٢] . وقد أرخت بقية النصوص من (CIS 11,200) حتى (CIS 11, 217) بسني (الحارث) كذلك ، وهي تفيد مثل غيرها فائدة كبيرة من حيث تتبع تأريخ الأسماء، فوردت فيها أسماء كثيرة مثل (كهلن) (كهلان) و (وعلن) (وعلان) و (سعد الله) و (مرت) (مرة) و (سكينت) (سكينه) و (حميد) و (حوشب) و (خلف) و (قين) و (جلهمة) و (تيم الله) و (عميرت) (عميرة) و (وهب) وأمثالها مما كان شائعاً معروفاً عند العرب قبل الإسلام[٣] .

وذكرت في الكتابة (CIS 11, 354) مع اسم (الحارث) أسماء (شقيلت) (شقيلة) ملكة النبط و (مالك) و (عبادت) (عبادة) و (رب ال) (رب ايل). وقد دونت في السنة التاسعة والعشرين من حكم الملك ، وهي سنة عشرين بعد الميلاد ، وذلك عند صنع صنم يوضع في معبد (بطمون) . ويلاحظ ان معظم المقابر الكبيرة التي عثر عليها في (الحجر) هي من السنين الأخيرة من حكم (الحارث)[٤] .

والى هذا الملك يرجع النص الموسوم بـ (REP. EPIG. 54) ويرجع تأريخه الى السنة الثالثة والأربعين من حكم (الحارث) ، وقد دعي فيه بـ (محب شعبه) (رحم عمه) (رحم عمه) كما ذكر فيه اسم زوجته (شقيلة)[٥] . وكذلك

---

١ CIS II, I, II, P. 226.

٢ CIS II, 199, Huber 30, Euting 4, CIS II, I, 11, P. 227.

٣ CIS II, I, II, P. 229.

٤ CIS II, 354, Euting 47, Cooke, North-Semitic Inscriptions, PP. 244, Provincia Arabia, I, S., 283.

٥ REP. EPIG., I, II, P. 44.

النص الموسوم بـ (REP. EPIG. 1103) المكتوب في سنــة (٤٠) من حـكم (الحارث) ، أي سنة (٣١) للميلاد ، وهو من النصوص التي عثر عليها في (مدائن صالح)[١] .

وأرخ بحكم هذا الملك النص (REP. EPIG. 674) ، وهو شاهد قبر من مدينة (مأدبا) يرجع تأريخه الى سنة (٣٧) بعد الميلاد[٢] .

و (الحارث) (Aretas) الذي أمد القائد الروماني (واروس) (فاروس) (Varus) بقوة من المشاة والفرسان حين زحف على (يهوذا) ، هو (الحارث) الرابع الذي نتحدث عنه ، فعل ذلك كما يقول (يوسفوس) انتقاماً من (هيرودس) وتقرباً الى الرومان . وبعد أن استولى (فاروس) على مدن عدة وهو ذاهب الى القدس ، منها مدينة (عكا) (Ptolemais)[٣] (Acco) ، اتجه نحو (الجليل) (Galilée) ثم السامرة فالقدس . أما القوات العربيــة ، فقد سارت الى مدينة (Arus) فأحرقتها ثم سارت الى مدينة (Sampho) وهي مدينة محصنة جداً فاستولت عليها وأحرقتها ، واستولت على أماكن أخرى . حدث ذلك حوالي سنة (٤) قبل الميلاد[٤] .

واصطدم النبط باليهود في أيام القيصر (طيباريوس)[٥] و (هيرودس) ملك (يهوذا) المعروف بـ (هيرود انتيبـاس) (Herodes Antipas)[٦] ، وذلك في سنة (٣٦) بعد الميلاد[٧] ، بسبب زواج (هيرودس) من زوج أخيه على زوجه الأولى ، وهي ابنة (الحارث) (حرثت) . وبسبب اختلافهما على حدود منطقة (Gamalites) ، فجرت حروب بين الطرفين انتهت بانتصار (الحارث) على خصمه انتصاراً كبيراً في (جلعاد) (Gilead) وبتشتيت شمل جيوشه ، فاستنجد (هيرودس) بسيده وحاميه القيصر (طيباريوس) ، فغضب القيصر وكتب الى

١ REP. EPIG., II, III, P. 377.
٢ REP. EPIG., II, I, P. 101, CIS, II, 196.
٣ Josephus, Antiq., Vol., 3, P. 253, (Bohn's Standard) Library), XVII, X, 9.
٤ Dubnow, II, S., 302.
٥ (طيباريوس بن اغوسطوس) ، الطبري (١/ ٧٤١ ، ٧٤٤) ، (طبعة ليدن) .
٦ Dubnow, II, S., 381, Josephus, 3, P. 283.
٧ Dubnow, II, S., 384, The Bible Dictionary, I, P 107.

عامله على سورية (فيتليوس) (Vitellius) ان يسير فوراً بجيشه لمحاربة (الحارث) والقبض عليه حياً وارساله مكبلاً بالسلاسل الى (رومة) أو ارسال رأسه اليه إن قتل[1] . وبينا كان العامل يهم بالزحف على مملكة النبط وتنفيذ أمر القيصر ، جاءته الأخبار بوفاة (طيباريوس) سنة (٣٧) بعد الميلاد فتوقف عن الحرب ، وقرر الرجوع الى مكانه . وساء موقف (هيرودس) ثم نحّاه الرومان عن عرشه ونفوه الى (اسبانية) ، حيث مات هناك[2] .

ويظهر من رسالة (بولس) الرسول الثانية الى أهل (كورنتوس) ان (دمشق) كانت في أيدي ملك اسمه (الحارث) ، وانه همّ بالقبض عليه ، غير انه هرب ونجا منه . قال : « في دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينـة الدمشقيين يريد أن يمسكني ، فتدليت من طاقة في زنبيـل من السور ونجوت من يديه »[3] . ونرى (بولس الرسول) أيضاً في رسالته الى أهـل (غلاطية) وفي حديثه عن نفسه وعن كيفية اهتدائه الى ديانة المسيح ، يقول : « ولا صعدت الى اورشليم الى الرسل الذين قبلي ، بل انطلقت الى العربيـة ، ثم رجعت أيضاً الى دمشق . ثم بعد ثلاث سنين صعدت الى اورشليم لأتعرف ببطرس فمكثت عنده خمسة عشر يوماً »[4] . فهو يذكر هنا العربية وبعدها دمشق . فهل أراد بالعربية البادية ؟ أو أراد بها عربية النبط ، وانه من عربية النبط أو البادية عاد الى دمشق ؟.

والرأي الراجح بين علماء العهد الجديـد ، هو أن (الحارث) الـذي قصده (بولس الرسول) هو هذا (الحارث) ، أي (الحارث) الرابع ، وأما الوقت الذي استولى فيه (الحارث) على دمشق ، فقد كان في حوالي سنة (٣٧) بعـد الميلاد ، وذلك عـلى أثر الحرب التي شنها على (هيرود انتيباس) ، وتدخل

---

١ انجيل مرقس ، الاصحاح السادس ، الاية ١٧ ومـا بعدها تاريـخ يوسيفوس (ص ٢١٣) ، Josephus, Antiq., XVIII, V, I, 4.

٢ Josephus, Antiq., XVIII, V, I, Dubnow, II, S., 384.
Josephus, Antiq., V, 3.
تاريخ يوسيفوس ص (٢١٤ وما بعدها) .

٣ رسالة بولس الرسول الثانية الى اهل كورنتوس ، الاصحاح الحادي عشـر ، الاية ٣٢ وما بعدها .

٤ رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ، الاصحاح الاول ، الاية ١٧ وما بعدها ، N. Gluck, Deities and Dolphins, P. 542, The Story of the Nabataeans, New York, 1965.

(طيباريوس) في الموضوع[1] . ويظهر أن تدخل الرومان هذا أثار غضب (الحارث) عليهم ، فسار بعد انتصاره على (يهوذا) الى (دمشق) فاستولى عليها وأعادها بذلك مدة لا نعلم طولها الى مملكة النبط . ويتخذ هؤلاء من وجود فجوة في النقود الرومانية الدمشقية ، تبدأ بسنة (٣٤) بعد الميلاد وتنتهي بسنة (٦٢ – ٦٣) بعد الميلاد دليلاً على صحة نظريتهم في أن المدينة تحررت في خلال هذه الفجوة من حكم الرومان ودخلت في حكم النبط ، ولهذا السبب حدثت هذه الفترة في ضرب النقود الرومانية في الشأم[2] .

وفي أيام هذا الملك دُوّنت الكتابة المعروفة بـ (REP. EPIG. 1108) ، وهي من الكتابات المدوّنة في (الحجر) (Hegra) ، أي (مدائن صالح) ، دوّنت في السنة (٣٨) للميلاد.وفي جملة الأسماء المذكورة في هذا النص اسم (عبدعدنون) أي (عبد عدنان)[3] .

وقد عثر على كتابة قبرية مؤرخة بالتقويم السلوقي من سنة (٤ – ٥) قبل الميلاد ، وهي أيام حكم (الحارث) الرابع ، صاحبها رجل اسمه (قصي بن تعجلة) ، ولم يشر في الكتابة الى حكم ملك النبط الذي في أيامه دونت هذه الكتابة . ويرى (ليتمان) أن الذي حمل (قصيّ) على إغفال الاشارة الى اسم الملك هو أن القيصر (أغسطس) كان قد فوّض أمر (Trachonitis) و (Batanaea) (Auranitis) في عام (٢٣) قبل الميلاد الى ملك (يهوذا) (هيرودس) (Herodes) ، وقد كان صاحب الكتابة من سكان هذه الأرضين، فلم يؤرخ بسني حكم ملك النبط الذي في أيامه أنشأ ذلك القبر[4] .

لقد كان الحارث الرابع من المتأثرين بالثقافة الهيلينية وبالحياة الهيلينية . ويظهر هذا الأثر في المباني العامة التي أقيمت في أيامه[5] وفي الكتابات اليونانية من عهده . ولا يستبعد أن يكون قد أتقن اللغة اليونانية وأخذ يتكلم بها مع اللسان الإرمي والنبطي ، إذ كانت تلك اللغة هي لغة القوة والثقافة في تلك الأيام .

---

١ Hastings, P. 48, Ency. Bibli., PP. 206.
٢ Hastings, P. 48.
٣ REP. EPIG., II, III, P. 381.
٤ Ephemeris, II, S., 259.
٥ N. Glueck, Rivers, P. 195.

وحكم بعد (الحارث الرابع) ابنه الملك (ملكو) (مالك) المعروف بالثاني، وذلك من سنة (٤٠) حتى سنة (٧١) أو (٧٥) بعد الميلاد[1] . ويظهر أن النص المعروف بـ (CIS 11, 195) لصاحبه (عبد ملكو بن عبيشو) ، أي (عبد الملك ابن عبيش) والمؤرخ بالسنة الأولى من حكم (ملكو) (مالك)، قصد بـ (ملكو) (مالك الثاني) هذا[2] ، ويرجع تأريخه الى سنة (٤١) بعد الميلاد . أمـا ناشر النص في (CIS 11) ، فقد ذهب الى أنه (مالك الثالث) ، وانـه كتب في حوالي سنة (٣٩) بعد الميلاد . ومعنى هذا ان (مالك الثالث) حكم في سنة(٣٨) بعد الميلاد ، وهو وهم . وقد عثر على هذا النص في موضع (أم الرصاص)[3].

وفي السنة الأولى من حـكم (ملكو) (مالك) دوّنت الكتابة الموسومـة بـ (CIS 11, 218)[4] . وقد ذكر ناشرها ان (ملكو) المقصود هـو (ملكو) الثالث ، وأن تأريخها يرجع الى سنة (٣٩) بعد الميلاد[5] ، وهو وهم . وأما النص (CIS 11, 182)[6] ، فقد أرخ كذلك بأيام (ملكو) ، أرخ بشهر (اب) (آب) من السنة السابعة عشرة من حكم (ملكو ملك نبطو برحرثت)[7] ، أي من حكم الملك (مالك النبط بن حارثة) . ويصادف هذا التأريخ عام (٥٧) بعد الميلاد . أما ناشر النص ، فقد جعله أيضاً (ملكو) (مالك) ، وجعل تأريخ التدوين في حوالي سنة (٥٠) بعد الميلاد[8] . وهو يناقض ما ذهب اليه كثير من الباحثين من أن حكم الملك (مالك الثاني) كان من سنة (٤٠) حتى سنة (٧١) بعد الميلاد. ثم إن ما ذهب اليه ناشر النص من أن تأريخه يوافق سنة (٥٠) بعد الميلاد ، هو وهم أيضاً ، اذ يجب أن يكون سنة (٥٧) للميلاد ، لأن ابتداء حكم هذا الملك

---

١ Ency., Vol., III, P. 801, Ency., Relig., Vol., 9, P. 121, Hill, P. XIX, Littmann, in Princeton University Archaelogical Expedition to Syria in 1904-1905, Div., IV, Sect., A, P. 21, W. Glueck, Deities, P. 542.

٢ CIS II, 195, CIS, II, I, II, P. 217.

٣ CIS, II, I, II, P. 218.

٤ CIS, II, 218, Euting 21, Doughty, I.

٥ CIS, II, I, II, P. 256.

٦ CIS, II, 182, Vogue, N. 6.

٧ CIS, II, I, II, PP. 206.

٨ CIS, II, I, II, P. 207.

كان سنة (٤٠) . ولما كان النص قد أرخ بالسنة السابعة عشرة من حكمه تكون السنة إذن سنة (٥٧) للميلاد .

لقد انتزعت (دمشق) من حكم (مالك الثاني) ، في زمن لا نعرفه ، الا أن الأرضين في شرقها وفي جنوب شرقيها بقيت جزءاً من مملكة النبط[١] .

وانتقل الحكم الى (رب ال) (رب ايل) (ربئيل) الثاني المعروف بـ (سوتر) (سوطر) (Soter) بعد وفاة (ملكو) (مالك) الثاني . وقد حكم من حوالي سنة (٧٠) حتى سنة (١٠٦) بعد الميلاد على رأي، ومن سنة (٧٥) حتى سنة (١٠١) على رأي آخر ، أو شيئاً آخر قريباً من ذلك أو بعيداً بعداً قليلاً ، بحسب تعدد أنظار الباحثين[٢] ، لعدم وجود تقاويم ثابتة لدينا أو كتابات تنص على تواريخ حكم كل ملك من هؤلاء الملوك .

والى عهد هذا الملك تعود الكتابة المعروفة بـ (CIS 11, 183) المؤرخة في السنة الخامسة والعشرين من سني حكم (رب ال) (رب ايل) . وصاحبها رجل اسمه (قصي بن ادينت) ، أي (قصي بن أذينة)[٣] . وتكون سنة تدوين هذه الكتابة اذن في سنة (٩٥) أو (١٠٠) بعد الميلاد . أما الكتابة (CIS 11, 161) ، فتعود الى أيامه كذلك ، وقد دونت في شهر (أيار) من السنة الرابعة والعشرين من حكم (رب ايل) ، وقد دوّن مع التأريخ النبطي ما يقابله بالتقويم المستعمل عند الرومان آنئذ وهو سنة (٤٠٥)[٤] .

والتقويم الروماني هو تقويم السلوقيين . وتقابل هذه السنة سنة (٩٤) للميلاد ويكون مبدأ حكم (رب ايل) اذن في سنة (٣٨١) من التقويم السلوقي ، أي سنة (٧٠) بعد الميلاد . ووردت في هذه الكتابة بعض الأسماء ، مثل : (هنى) (هانىء) و (جدلت) (جدلة) و (بجرت) (بجرة) (بجيرة) و (ادرم) و (عبد الملك) ، وهي من الأسماء المعروفة أيضاً عند عرب الحجاز ونجد[٥] .

---

١ Deities, P. 542.

٢ Ency., III, P. 801, Ency. Religi., Vol., 9, P. 121.

٣ CIS II, I, II, PP. 208, Levy, In ZDMG., 1868, I, XXII, S., 262, Vogue, Syrie Centr., Inscr. Semit., P. 112.

٤ CIS II, I, II, P. 191, CIS 11, 161.

٥ CIS II, I, II, P. 192.

والى عهد الملك (رب ايل) الثاني تعود كذلك الكتابة التي دوّنها (منعت بن جديو) (منعة بن جدي) (ببصرابشنت ٢٣ لرب ايل ملكا ملك نبطو)، أي بمدينة (بصرى) ، وذلك في السنة الثالثة والعشرين لحكم (رب ايل) ملك النبط . وقد دونت هذه الكتابة بمناسبة تقرب صاحبها الى الإلـه (دوشرى واعرى) بتقديمه مذبحاً الى معبده في مدينة (بصرى)[1] . ويكون تأريخ تدوين هذه الكتابة سنة (٩٣) للميلاد . وكذلك الكتابة القبرية المؤرخة بالسنة الثالثة والعشرين من حكم (رب ايل) ، أي في سنة (٩٣) للميلاد[2] . ولدينا كتابة أخرى سجلت في أيام هذا الملك صاحبها رجل اسمه (عذرو برجشمو) ، أي (عاذر بن جشم) (عذره بن جشم) (عذيز بن جشم) (عذر بن جشم)، ورد فيها اسم الإلـه (شيع القوم) دوّنها في السنة السادسة والعشرين من حكم الملك ، أي في حوالي سنة (٩٦) بعد الميلاد[3] .

وترينا الكتابة الموسومة بـ (REP. EPIG. 1434) أن للملك شقيقتين هما : (جميلت) أي (جميلة) و (هجرو) أي (هاجر)،وقد نعتتا فيها بـ (ملكتي النبط) . ويظهر ان هنالك شقيقة ثالثة اسمها (فصائل) ، وربما كانت له شقيقة رابعة سقط اسمها من النص[4] .

وقد ذكرت (شقيلت) (شقيلة) أم الملك (رب ايل) الثاني مع ابنها في نقد ، وذلك في أثناء عهد وصايتها عليه حين انتقل العرش اليه ، وكان على ما يظهر صغيراً . وكان للملك شقيق ساعدها في تحمل أعباء الحكم اسمه (انيشو) (Oneishu) لعله (أنيس) . ولما تزوّج (رب ايل) من زوجه (جميلت) (جميلة) (Gamilath) أمر بضرب اسمها مع اسمه على النقود[5] .

وقد ذكر بعض الباحثين ان بعض ملوك النبط ولا سيما المتأخرين منهم ، أقاموا في أكثر أوقاتهم في (بصرى) (Bostra) ، مما أدى الى اضعاف شأن

---

١ Mark Lidzbarski, Ephemeris Semitische Epigraphik, S., 330, (Giessen 1902), Clermont-Ganneau, Recueil, P. 170, Rep. Epig. 83.

٢ REP. EPIG. 83, I, II, P. 67.

٣ Ephemeris, II, I, S., 252, REP. EPIG. 468.
Ephemeris, S., 332, Receuil, P. 173, REP. EPIG. 886.

٤ REP. EPIG., III, I, P. 141.

٥ Hill, P. XX, 12-13, PL., II, 18-23.

عاصمتهم القديمة (بترا) والى اضعاف ادارة أمور النبط[1] .

وآخر ملك نعرفه من ملوك النبط ، هو الملك (ملكو) (مالك) الثالث ، الذي حكم من سنة (١٠١) حتى سنة (١٠٦) بعد الميلاد على بعض الآراء . وفي أيامه قضى (تراجان) في سنة (١٠٦) بعد الميلاد على استقلال هذه المملكة وجعلها تحت حكم حاكم (سورية) (كورنليوس بالما) (Cornelius Palma) (٩٨ — ١١٧ م) ، وأطلق عليها اسم (الكورة العربية) (Provincia Arabia)[2] . وقد نقل مقر الحكم من (بترا) الى (بصرى) ، فتضاءل بذلك شأن العاصمة القديمة فلما كان القرن الثالث للميلاد ، صارت (بترا) مجرد موضع قليل الشأن[3] .

لقد قضى الرومان على استقلال النبط في العربية الحجرية ، فأضافوا بلادهم الى جملة الأرضين التي استولوا عليها . وخسر النبط ملكهم ودولتهم ، ثم خسروا أرضهم فيما بعد . واضطرهم ضغط القبائل العربية الأخرى عليها الى الرحيل الى أماكن أخرى ، والهجرة الى مواطن جديدة طلباً للرزق . كما هاجر من قبلهم سكان الأرضين التي استولى النبط عليها في أيام عزهم وملكهم واندمج أكثرهم في القبائل الجديدة الفتية التي سادت على أرض النبط ، وتسموا باسمهم وانتسبوا اليهم حتى نسوا أصلهم القديم فزال النبط بزوال دولتهم ، وبقي اسمهم ، وبعض رسومهم التي يعود الفضل في إحيائها الى المستشرقين .

وقد بقي النبط يمارسون التجارة وقيادة القوافل حتى بعد فتح الرومان لبلادهم كما يتبين من بعض الكتابات النبطية المؤرخة التي عثر عليها في (طور سيناء) وفي مصر . ومنها كتابة مؤرخة بسنة (١٦٠) من تقويم (بصرى) المقابلة لسنة (٢٦٦) بعد الميلاد . وقد تبين ان أكثر الكتابات التي عثر عليها في الأماكن المذكورة وفي أماكن أخرى هي كتابات وجدها العلماء والباحثون والسياح على الطرق القديمة الموصلة الى جزيرة العرب أو البحر الأحمر ، وفي وجودها في هذه الأماكن دلالة على أن أصحابها كانوا أصحاب تجارة يتجرون بين مصر وجزيرة العرب

١ Deitles, P. 543.

٢ Die Araber, I, S., 304, Groag Stein, Prosopographia, 2, 346, NR : 1412, 1936, Schrader, KLT, S., 153.

٣ N. Glueck, The Story of the Nabataeans, P. 543.

وموانيء ساحل البحر الأحمر ولا سيا ساحل النبط المقابل لبر مصر[1] .

ويظن جماعة من المستشرقين ان عرب (الحويطات) الساكنين في منطقة (حسمى) في الأقسام الشمالية من الحجاز ، في المنطقة التي كانت تسكنها (جذام) ، هم من بقايا النبط[2] .

وتنسب (الحويطات) الى جدّ أعلى لهم اسمه (حويط) ، وهو على زعمهم من أهل مصر ، جاء بيت الله الحرام حاجاً فمات في (العقبة) ودفن في (حسمى). وهم عشائر يتراوح عـددها من عشر عشائر الى اثنتي عشرة عشيرة تسكن في طور سيناء وفلسطين والحجاز[3] ، وتجاور قبيلتي (بلى) و (جهينة)[4] . وهم في الجملة ميالون الى الحرب والغزو ، ولذلك كانوا يغزون العشائر المجاورة لهم ، ويأخذون الأتاوة من القرى والمدن الواقعة في مناطق نفوذهم في أيام العثمانيين[5] .

وتتألف (الحويطات) من ثلاثة بطون هي : (حويطات التهمة) و (حويطات العلويون) (العلاوين) ويعرفون أيضاً بـ (حويطات ابن جـاد) (حويطات ابن جازى)[6] . وتتـألف (حويطات التهمة) (حويطات التهم) التي تقـع منازلها على ساحل البحر الأحمر حتى (الوجه) في الجنوب ، من عشائر عـديدة هي : (العمران)[7] و (العميرات) و (المساعيد) والذبابين والزماهرة والطقيقات والسليمانيين والجرافين والعبيّات والمواسة والمشاهير والفرعـان والجواهرة والقبيضات والفحامين . وأما (حويطات العلويون)،فتتألف من:(الصويلحين) و (المقابلة)

---

١ Winkler, Rock Drawing of South Upper Egypt, (1938), L.A. Tregena and Dr. John Walker, Bulletin of the Faculty of Arts, Fouad University, Vol., XI, Part II, December, 1949, Enno Littmann, Nabataean Inscriptions from Egypt, in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, 1953, PP. 1.

٢ Ency., Vol., I, P. 368, III, P. 802.

٣ Ency., II, P. 349, Burkhardt, Notes on the Bedouins and Wahabys, London, 1831, P. 29, Doughty, Travels in Arabia Deserta, I, 16, 29, 45, 46, 137, 233, 390, II, 24, 323.

٤ Ency., II, P. 349, Musil, Arabia Petraea, III, P. 48.

٥ Euting, Tabuch einer Reise in Inner-Arabien, II, S. 103, Ency., 11, P. 349.

٦ قلب جزيرة العرب (ص ١٤٤) ، Musil, Hegaz, P. 6, Petraea, BD., BD. 3, S., 48, 51.

٧ (حويطات التهم) قلب جزيرة العرب (ص ٧٢ ، ١٣١ ، ٤٢٥) ، (حويطات التهامة) ، (عمران) . Ency., II, P. 349.

و (المحاميد) و (الخضيرات) و (السلامين) و (العزاجين) و (القدمان) و (العواجة) و (السلامات) . ومن (حويطات ابن جازي) (المطالقة) و (الدراوشة) و (العامرة) و (المرايع) و (الدمانية) و (العطون) و (التوايهة)[1] .

لقد عثر على كتابات مدوّنة بالنبطية وعلى كتابات مدونة بثلاث لغات هي النبطية والإرمية واليونانية ، بعضها من بعد ضم مملكة النبط الى (الكورة العربية) ، أي بعد سقوطها في أيدي الرومان ، وقد تبين منها أن النبط بقوا أمداً يكتبون ويدوّنون بلغتهم ، وان كانوا يستعملون معها اليونانية أو الإرمية أو كلتا اللغتين في بعض الأحيان ، كما تبين أن اليهود دوّنوا بالنبطية أيضاً ، أولئك اليهود الذين كانوا على اتصال بالنبط ، وكانت لهم صلات تجارية بهم . وقد دونوا بهذه اللغة حتى بعد سقوط دولة النبط . وقد وصلت كتابات أصحابها يهود فيها عقود بيع وشراء مع النبط ، كما وصلت كتابات نجد فيها خلاصات من عقود ومكاتبات دوّنت باليونانية أو بالإرمية ، على حين دوّنت الخلاصات بالنبطية وبالعكس[2] .

ولا نعرف شيئاً يذكر عن أصول تنظيم الدولة وكيفيتها عند النبط . والملك بالطبع هو رئيس الدولة والشخص الوحيد الأعلى للحكومة . وهو الذي يختار من يوكل اليهم ادارة الأعمال وتسيير أمور الرعية . وللملك حاشية القربة عنده، وُكل اليها النظر في المسائل العليا للدولة وتقديم الاستشارة الى الملك ، ويقال للواحد منها (اخ ملكا) ، أي (أخو الملك) . ويظهر انها كانت طبقة خاصة من الطبقات الأرستقراطية انحصرت فيها هذه الوظائف انحصار الملكية في الأسر المالكة[3] .

ومما يلاحظ على النبط ان ملوكهم كانوا ينعتون أنفسهم بنعوت لا نجدها في الكتابات العربية الأخرى ، فجملة : (ملك رحم عمه) ، أي (الملك الرحيم بشعبه) ، أو (الملك المحب لشعبه) لا نجد لها مثيلاً في الكتابات الأخرى من كتابات ما قبل الاسلام . لكنهم لم يتركوا الجمل التي تنعتهم أيضاً بـ (ملوك

---

١ وأسماء أخرى ، راجع : قلب جزيرة العرب (ص ١٤٤) ، Ency., II, P. 349, Musil, Petraea, III, 48, 51, 407.

٢ Delties, P. 8.

٣ REP. EPIG. 675, 1100, M. Lidzbarski, In Ephemeris, 3, (1909-1915), 89, 297, Die Araber, I, S., 287.

النبط) ، اذ نجدهم يكتبون بعد اسمهم : (ملك ملك نبطو) ، أي (الملك : ملك النبط).

ويلاحظ انه قد كان للمرأة منزلة رفيعة عند النبط : بدليل ما نجده في كتاباتهم وفي نقودهم من ذكر اسم الملكات مع الملوك . فقد كان من عادتهم ورسومهم ذكر الملكات مع الملوك رسمياً ، فقد ورد مثلاً : (شقيلت أخته، ملكت نبطو). أي (شقيلة أخته ، ملكة النبط) . وورد : (شقيلت امه ، ملكت نبطو)، أي : (شقيلة أمه : ملكة النبط) ، وهكذا . ونجد النقود النبطية وقد أشارت الى اسم الملك الذي أمر بضرب ذلك النقد ، كما نجد اسم زوجته أو أمه معه . وقد ضربت صورة رأس الملك ورأس الملكة معه في النقود المضروبة باليونانية [١] .

وبالرغم من ظفر العلماء بنقود نبطية ويونانية ، لم يتمكنوا حتى الآن من الاتفاق على تثبيت أسماء ملوك النبط تثبيتاً زمنياً ، ولم يتمكنوا أيضاً من تعين مدة حكم كل واحد منهم تعييناً مضبوطاً قاطعاً، فما سنذكره عنهم لا يعني إذن انه شيء ثابت وأكيد[٢] .

وقد تأثر النبط بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً . ويظهر هذا الأثر في نقودهم ، إذ قلدوا في ضربها النقود اليونانية ، بل ضربوها بكتابة يونانية في الغالب . وقد نعت (عبادة) الثالث نفسه بـ (الها) في نقد ضربه باسمه ، محاكاة للسلوقيين الذين لقبوا أنفسهم بـ (ديوس) (Deos) ، أي (الإله) . كما يظهر هذا الأثر في ادارة الدولة وفي الحجارة المكتوبة ، إذ نجد أصحابها يكتبون بالنبطية وباليونانية ، بل نجد هذا الأثر على شواهد القبور وغير ذلك[٣] . ولعلهم كانوا قد أخذوا من مناهل العلم اليوناني ، وتعلموا العلوم الشائعة في ذلك العهد من اليونان الذين سكنوا بين النبط ، ومن بلاد الشأم حيث كانوا على اتصال دائم بها ، وفي بلاد الشأم جاليات قوية من الرومان واليونان . ولهذا ظهر أثر اللاتينية واليونانية في الأنباط[٤] .

---

١ Deitles, P. 11.

٢ J. Cantineau, Le Nabatéen, I. 6, R. Dussaud, Pénétration, 51, Die Araber, I, S., 289.

٣ Le Nabatéen, 2, (1932), P. 5, 6, 152, Die Araber, I, S., 288.

٤ N. Glueck, Rivers, P. 194.

ويظهر أن النبط كانوا مولعين بالشراب وبالخمور ، ونجد لصور الكروم مكانة بارزة في فن النحت والنقش عندهم . وقد أظهروا براعة فائقة في حفر صور الكروم وعناقيدها على الألواح ، كما يظهر ذلك من آثارهم التي درسها الباحثون في النبطيات[1] .

مدن النبط :

و (بترا) (البتراء) (بطرا) (Petra) ، هي عاصمة النبط القديمة . ومعنى (Petra) (بطرا) في العربية (الصخر) . أما اسمها القديم فـ(هـ ـ سلع) (هـا ـ سلع) ، (Sela) = (Selah) ، ويعني أيضاً (الصخر) لغة الأدوميين . وهي على خمسين ميلاً تقريباً الى الجنوب من البحر الميت . ولما افتتحها (أمصيا) (٨٣٧ ـ ٨٠٩ ق. م.)،سمّاها (يقتئيل) أي (الخاضع لله)[2]. وكانت عاصمة (أدوم) . وكانت من أشهر المدن في العالم القديم ، ثم صارت لمؤاب[3] . وقد ذكرها (ياقوت الحموي) في مادة (سلع) ، فقال : «وسلع أيضاً حصن بوادي موسى عليه السلام بقرب بيت المقدس »[4] . وتقع آثار المدينة وبقاياها اليوم في وادي موسى ، ويسمى أيضاً (وادي السيق)[5]. وقد عرف هذا الوادي بوادي موسى ، لما زعم ان موسى ضرب الصخر بعصاه فشقه فجرى الماء من موضع العين الى النهر ، فسميت لذلك بعين موسى . وكان السيق مبلطاً، ولا تزال آثار التبليط باقية في بعض المواضع . وتجاه نهاية السيق هيكل منحوت في الصخر ، يسمى : (خزنة فرعون) ، وداخل باب الهيكل دار ، وعلى بعد (٦٠٠) قدم تقريباً من هذا الهيكل بقايا آثار مسرح عظيم منحوت في الصخر يتسع لزهاء أربعة آلاف انسان .

---

١ Delties, P. 4.

٢ قاموس الكتاب المقدس ، (١/٥٢٨) ،
Die Araber, I, S., 283, Kennedy, PP. 78, Hasting, P. 835.

٣ قاموس الكتاب المقدس ، (١/٥٢٨) ،

٤ البلدان (٥/١٠٧) Ency. Bibl., P. 4344, Nöldeke, IN ZDMG., 55, S., 259

٥ قاموس الكتاب المقدس (١/٥٢٩ وما بعدها) ، (باب السيق) .
Provincia, I, S., 195, 215.

ومن آثارها المهمة ، الأثر المعروف باسم (خزنة فرعون)[1] ، وقوس النصر وهياكل وقبور عدة ، بعضها على الطراز النبطي القديم ، وبعضها متأثرة بالفن المصري الآشوري أو اليوناني أو الروماني[2] .

وتشاهد في (بطرا) كتابات كثيرة ، منهـا ما هو مؤرخ يعود بعضها الى ما قبل الميلاد ، أكثرها كتابات نبطية من نوع الكتابات التي توضع على القبور ، وبعضها لاتينية وأخرى يونانية . ووجدت كتابة باليونانية دوّنها أسقف سكن معبداً من معابد المدينة القديمة التي تعود الى ما قبل الميلاد في حوالي سنة (٤٤٧) للميلاد. كما وجدت كتابة لاتينية على قبر بني على النمط (الروماني) صاحبهـا ضابط روماني اسمه (سكستيوس فلورنتينوس) (Sextius Florentinus) لا يعلم زمانه على وجه الصحة ، ويرى بعضهم انه من أيام (هدريانوس) (Hadrianus) أو (أنطونيوس بيوس) (Antoninus Pius) [3] .

وقد منحت (بطرا) درجة (Colonia) رومانية في أيام حـكم الرومان كما يظهر ذلك من بعض النقود الرومانية التي عثر عليهـا . ويرى بعض الباحثين أن ذلك كان في أيام حكم (Elagabalus) (٢١٨ — ٢٢٢) للميلاد[4] . ولكن هنالك من يعارض هذا الرأي من الباحثين في علم النميات[5] .

وقد وصف (سترابو) (بطرا) (بترا) بقوله : كانت (بطرا) عاصمة النبط ومقر حكمهم ودولتهم وهي لا تبعد الا أربعة أيام عن (أريحا) (Jericho) وخمسة أيام عن غابة النخيل (بوسيديون) (Poseidion) . وهـي موضع غني بالماء كثير البساتين بالنسبة الى من يأتي اليها من البوادي القاحلة الجرد . وقد زارها (أثينودور) (Athenodor) صديق (سترابو) ، فوصفها له ، وذكر له انه وجد بها أجانب ، بينهم جمع من الروم . ويظهر من أخبار (سترابو) أن النبط

---

١ راجع وصف (خزنة فرعون) في الجزء الـ (٢١) من السنة الثامنة من مجلـة المشرق الصادر في ١ تشرين الثاني من سنة (١٩٠٥) (ص ٩٦٥ وما بعدها) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٥٢٩ وما بعدها) .
٣ Kennedy, P. 76.
٤ Provincia, III, S., 291.
٥ Berytus, Vol., IX, Fasc., I, 1918, P. 40, « Petra, Colonia », By Stella Ben-Dor, De Saulcy, Numisme de La Terre Sainte, 1874, PP. 292, 353.

كانوا قد بنوا بيوتاً لهم في هذه المدينة كذلك . وقد أبدت التنقيبات التي أجريت عند مدخل المدينة هذا الرأي[1] .

الحجر :

أما (الحجر) ، فمدينة من مدن النبط القديمة المهمة ، تقع على شريان التجارة في العالم القديم ، وهي (Egra) = (Hegra) التي أشار اليها (سترابو) في أثناء حديثه عن حملة (أوليوس غالوس) و (Haegra) = (Hagra) التي ذكرها (بلينيوس) على أنها مقر القبيلة المسماة (ليانيته) (Laenitae)[2] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنها (مدائن صالح)[3] ، وذهب بعض آخر الى أن (مدائن صالح) ، هي (العلا) لا (الحجر)[4] . وفرق بعض آخر بين موضع مدائن صالح و (العلا)[5] .

وقد ذكر (بطلميوس) المدينة أيضاً ، وذكرها المؤرخ (اصطيفانوس البيزنطي) كذلك[6] . وقد كانت من مواضع النبط المهمة ، وقد عثر على خمس كتابات في (مدائن صالح) خرج بعض الباحثين من دراستها إلى أن (الحجر) هي من الأماكن التي أنشأها (المعينيون) . وقد كان اسمها القديم (حجرا) (هجرا) او (حجرو) (هجرو) و (الـ — حجر) في الكتابات[7] .

و (حجرو) و (الـ — حجرو) هي (الحجر) في العربية . وقد ذكر هذا الموضع في المؤلفات العربية . وذكر (ابن حبيب) أن قوم ثمود نزلوا الحجر[8] . وذكر علماء اللغة أن (الحجر) ديار ثمود ناحية الشام عند وادي القرى،

---

١ Die Araber, I, S., 285, Strabo, 16, 779, A. Kramer, Petra et la Nabatène, 1929, P. 510.

٢ Musil, Hegaz, P. 291, 299.

٣ Arabien, S., 55, 59.

٤ Arabien, 4, 15.

٥ Arabien, S., 39, 40.

٦ Ptolemäus, VI, 7, 29, Stephanus Byzantius, I, 260, Arabien, S., 44.

٧ Jaussen-Savignac, I, 157, NR. 9, Arabien, S., 39.

٨ المحبر (ص ٣٨٤) .

وهم قوم صالح النبي،وقد جاء ذكر الموضع في القرآن : (وقد كذب أصحاب الحجر المرسلين)[1] ، كما جاء ذكره في كتب الحديث[2] . وقد تضاءل شأنها في الإسلام ، حتى صارت قرية صغيرة في القرن العاشر للميلاد ، ثم تركها أهلها ، وتقع خرائبها اليوم بين (جبل اثلث) و (قصر البنت) وخط سكة حديد الحجاز ، حيث تشاهد آثار حصن قديم وبعض بقايا أبراج وآثار سور ، كما عثر على بقايا تيجان أعمدة قديمة وعلى مزولة شمسية ، وعلى نقود يرجع عهدها الى (الحارث الرابع) . ويظهر من أسس بعض الدور أنها بنيت بالحجارة . أما الجدران ، فقد بني أكثرها باللبن . وتقع خرائب (العلا) الى الجنوب من (الحجر)[3] .

وقد عثر الباحثون على قبور من بقايا قبور الحجر القديمة ، نقشت مداخلها وجدرانها بنقوش تدل على حذق ومهارة ، ولا سيما المقبرة التي هي من القرن الأول للميلاد ، ومن عهد الملك (الحارث الرابع) . وقد تألفت من غرف نحتت في الصخور ، ولبعضها دروب وطرق توصل بعضها ببعض . وهي قبور لأسر ، ومن هذه المقابر الموضع المعروف بـ (قصر البنت) ، وقد نحت في داخل تل ، ويعد من أغنى تلك المقابر من الناحية الفنية ، وله مدخل خارجي ، ارتفاعه عشرون متراً . وقد زين بالزخارف والنقوش[4] .

ويعدّ الموضع المعروف بـ (ديوان) من الآثار القيمة الباقية من (الحجر) . وقد عمل في (جبل اثلب) . وهو معبد يذكرنا بمعابد (بطرا) . وهو على قاعة ذات زوايا مربعة ، عرضها عشرة أمتار ، وعمقها اثنا عشر متراً،وارتفاعها ثمانية أمتار ، ولها مدخل عرضه ثمانية أمتار و (٣٥) سنتمتراً،وارتفاعه سبعة أمتار وزهاء خمسة سنتيمترات ، على كل جانب منه عمود من حجر ، جعلت زواياه مربعة . أما الباب ، فقد تلف . ويوصل الى هذا المدخل مدرج . وهناك معبد آخر صغير يقع على مسافة (١٥١) متراً الى الجنوب من (جبل اثلب)[5] .

---

١ الحجر ، الرقم ١٥ ، الاية ٨٠ ، المفردات (١٠٧) ، تفسير القرطبي (١٠/٤٥ وما بعدها) .

٢ اللسان (٤/١٧٠) .

٣ Arabien, S., 44.

٤ Arabien, S., 60, Jaussen-Savignac, Mission, I, 316.

٥ Arabien, S., 66, Jaussen-Savignac, Mission, I, 118, 405, Doughty, I, 118, Musil, Arabia Petraea, (1907) 133, 146.

وقد وجدت في (القرية) بالحجاز وهي أطلال ، مدينة قديمة على خمسة وأربعين ميلاً الى الشمال الغربي من (تبوك) في أرض (حسمى) كتابات نبطية ويونانية ، كما عثر على معبد قريب منها في البادية دعاه (موسل) (غوافة) و (روافة) ، وجدت عليه كتابة نبطية يونانية طويلة ورد فيها اسم (مارقوس أورليوس انطونينوس) (Marcus Aurelius Antoninus) و (لوقيوس أورليوس فيروس) (Lucius Aurelius Verus)[1] . ويظهر ان هذه المدينة كان لها شأن في أيام النبط ، ولا سيما في أواخر أيام مملكتهم ، وان هذا المعبد كان قد ابتناه قوم ثمود في أوائل منتصف القرن الثاني للميلاد[2] .

الكورة العربية :

ضمت (العربية النبطية) سنة (١٠٥) أو (١٠٦) بعد الميلاد الى الأملاك الرومانية وكوّن منها ومن أرضين أخرى ضمت اليها مقاطعة جديدة عرفت باسم (الكورة العربية) (Provincia Arabia) (المقاطعة العربية) وجعلت تحت حكم حاكم بلاد الشأم المدعو (كورنليوس بالما) (A. Cornelius Palma)[3] . ولا يعلم على وجه التحقيق أعيّن الرومان والياً على هذه الكورة حال تكوينها ، أم انها جعلت تحت ادارة حاكم (سورية) المباشرة ثم عيّن لها حاكم خاص . والمعروف ان أول والٍ (Legat) عيّن عليها انما عيّن في سنة (١١١) بعد الميلاد[4] .

ولم تكن حدود (الكورة العربية) (المقاطعة العربية) ثابتة،بل كانت تتغير وتتبدل ، وتتقلص وتتوسع تبعاً لمراكز الحكام ومنازلهم . ففي سنة (١٩٥) بعد الميلاد مثلاً أضيف اليها بعض الأرضين الجنوبية من مقاطعة (سورية الفينيقية) (Syria Phonice) ، ولكن هذه الحدود تغيرت مراراً قبل هذا التاريخ وبعده . وتساعدنا (السكة الرومانية) التي أنشأها (تراجان) ثم وسعت فيما بعد مساعدة

---

١ Musil, Hegaz, P. 185, 258.

٢ Musil, Hegaz, P. 185, 258, The Geographical Journal, Vol., CXVII, Part, 4, 1951, PP. 448, « The Ruins of Quraiya », By H. ST. J. B. Phlby.

٣ Provincia, III, S., 250.

٤ Provincia, III, S., 250.

كبيرة في تعين حدود ومساحة هذه المقاطعة . وقد أنشئت هذه السكة لأغراض عسكرية لتيسر للجيوش الرومانية الوصول بسرعة الى المواضع المهمة من الوجهة العربية ، ولتتمكن بواسطتها من السيطرة على الوطنين وضبط الأمن[1] .

ويمكن الاستدلال من أنصاب الأميال ، التي وضعها الحاكم (قلوديوس سويروس) (قلوديوس سفيروس) (Claudius Severus) على هذه الطرق للوقوف بواسطتها على الأبعاد والمسافات والاتجاه ، على معرفة طريقين مهمين : أولها طريق جديد انتهى منه في سنة (١١١) للميلاد ، يمتد من الحدود الشمالية للمقاطعة العربية أي من بلاد الشأم الى (بصرى) (Bostra) ثم الى (فيلادلفيا) (عمان) (Philadelphia) ، ومنها في اتجاه الجنوب ثم الغرب على طريق (بطرا) حتى البحر الأحمر . وثانيها الطريق الممتد من (فيلادلفيا) ماراً ب (جرش) (Gerasa) وربما بـ (أذرح) (Adra) نحو (بصرى) (Bostra) . وقد كان هذا الطريق معروفاً قبل سنة (١٠٥) للميلاد ، غير انه أصلح وعمّر ، وربما حوّل الى طريق عسكري في سنة (١١٢) للميلاد ، أي في أيام (تراجان)[2].

وقد عرفت أسماء أكثر الحكام الذين تولوا منصب حاكم المقاطعة العربية من رومان وبيزنطيين،وردت أسماؤهم مدونة على أنصاب الأميال وفي الكتابات الأخرى التي عثر عليها في مواضع متعددة من هذه المقاطعة . وأولهم (كورنليوس بالما) . وقد تبين أن الألقاب الرسمية التي كان يتلقب بها حكام هذه المقاطعة في القرن الثاني بعد الميلاد كانت من درجة الألقاب الرفيعة التي تمنح عادة لحكام مقاطعة (قيصرية) مثل لقب : (Legatus Augusti Pro Praetore) أو (Augustorum) تضاف اليه جملة : (Consul Designatus) متى يكون الحاكم في درجة (قنصل) (Consul) ، وذلك يكون عادة بالنسبة الى حكام المقاطعات من درجة (Legatus Pro Praetore) وقد يقتصر اللقب على كلمة (Consulares) إذا كان صاحبه قنصلاً . غير أن هذه الألقاب الرسمية لم تكن ثابتة ، بل كانت تتغير بحسب أهمية الحاكم ومنزلته ، والوظيفه التي يشغلها ، والزمان الذي حكم فيه[3] .

١ Provincia, III, S., 250, 264.
المشرق : السنة الثامنة ، العدد ١٠ ، ١٥ ايار ١٩٠٥ ، ص ٤٥٧ وما بعدها .
٢ Provincia, III, S., 264.
٣ Provincia, III, S., 281.

وتفيدنا وثائق المجامع الكنسية التي انعقدت في أوقات مختلفة لمعالجة المشكلات التي جسابهت الكنيسة ، وحضرها ممثلون عن كنائس (الكورة العربية) فائدة كبيرة في تعيين أسماء مدن هذه الكورة وتأريخها . ومن هذه المجالس مجلس (نيقية) (Nicaea) الذي انعقد في سنة (٣٢٥) بعد الميلاد[١]،ومجمع (انطاكية) (Antiochia) المعقود في سنة (٣٤١) بعد الميلاد[٢] ، ومجمع (Sardica) الملتئم عام (٣٤٧) للميلاد[٣]،ومجمع (القسطنطينية) المنعقد عام (٣٨١) بعد الميلاد ، ومجمع (أفسوس) (Ephesus) المجتمع عام (٤٣١) ، ومجمع (خلقدونية) (Chalcedon) الذي انعقد في عام (٤٥١) ، للميلاد ، ومجمع (القسطنطينية) المنعقد سنة (٥٣٦) للميلاد ، ومجمع (القدس) الملتئم عام (٥٣٦) بعد الميلاد ، وغيرها من المجالس والمجامع الدينية[٤] .

وقد عثر على نقود ضربت في أيام الرومان والبيزنطيين في عدد من مدن (الكورة العربية)[٥] . مثل (Adra) (أذرعات) و(بصرى) (Charachmoba) و (ديوم) (Dium) و (Eboda) و (Esbu) و (جرش) (ومأدبا) (Medaba) و (Moca) و (بطرا) و (فيلادلفيا) (Philadelphia) و (فيليب بوليس) (Philippolis) و (Rabbathmoba)[٦] .

أما (Adra) ، فهي (أذرعات) المشهورة عند العرب في الجاهلية والإسلام[٧]. وتعرف في الزمن الحاضر بـ (درعة) و (درعا) كذلك ، وهي (أذرعى) (Edrei) في التوراة ، بمعنى قوة أو حصن[٨] . وهي من مدن (باشان)

---

١ Provincia, III, S., 253, Gelzer, Geographische Bemerkungen zu dem Verzeichnis der Väter von Nikaea, In der Festschrift für Heinrich Kaipert. Berlin, 1898, S., 47-61.

٢ Provincia, III, S., 253, Ency., I, P. 359.

٣ Provincia, III, S., 253.

٤ Provincia, III, S., 255.

٥ Hill, P. XXII, Journal of Roman Studies, Vol., VI, (1961).

٦ Hill, P. XXII — XXIV.

٧ البلدان (١٦٢/١ وما بعدها) ، البكري (٨٣/١) ، المقدس (ص ١٦٢) ، الاب ا· س· مرمرجي الدومنكي : بلدانية فلسطين العربية ، مطبعة (جان دارك) ، بيروت ، ١٩٤٨ م (ص ٤) ·

٨ Ency. Bibl., PP. 118, Hastings, P. 203.

العظيمة[1] . وقد اشتهرت (أدرعات) بخمرها عند العرب ، وقال عنها علماء اللغة إنها موضع بالشأم تنسب اليه الخمور[2] .

و (أذرعات) موطن (عوج) (Og) ملك (باشان) ، وكان جبـاراً قامة وبأساً[3] ، من سلالة الرفائيين ، حاول أن يمنع مرور بني اسرائيل بأرضه ، فاصطدم بهم بأذرعات ، وتغلبوا عليه ، فقتل هو وبنوه ، وانقسمت مدنه الستون المحصنة بين (الرأوبنيين) و (الجاديين) ونصف سبط (منى)[4] . وتقـع (أذرعات) في واد يكوّن القسم الجنوبي من وادي (حوران) وعلى مسافة ستة أميال الى الشرق من طريق الحج ، وفيها كهوف عديدة وصهاريج كبيرة ، وبها خرائب وآثار يقرب محيطها من ميلـين يظهر أنهـا من عهـد الرومان[5] . ومن بقاياها (قناة فرعون) ، وهي تأخذ مياهها من بحيرة صغيرة قرب موضع (يابس) في حوران . ومسجد يشبـه بناؤه (كاتدرائيـة) بصرى ، وآثار الشوارع والحوانيت التي كانت عليها ، وموضع سوق . وعـثر في خرائبها على كتابات باليونانية كما عثر فيها على نقود ضربت فيها من سنة (٨٣) قبل الميلاد . وقد ألحقها (بومبيوس) (Pompeius) بمقاطعة سورية الرومانية،وألحقها (تراجان) بالمقاطعة العربية ، وذكر (أويسبيوس) (Eusebius) و (جيروم) انهـا من أشهر مدن (العربية) ، وكان بها أسقف حضر مع من حضر من الأساقفة في المجالس الكنسيـة التي انعقدت في (سلوقيـة) (Seleucia) و (القسطـطينية) و (خلقدونية) (Chalcedon) (٤٥ م)[6] .

وفي المتحف البريطاني قطع من النقد المضروب في هذه المدينة ، وقد أشير في

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٥٦/١) ، التثنية ، الاصحاح الاول ، الاية (٤) ، Ency. Bibli., PP. 1188, Hill, P. XXIII.

٢ اللســان (٩٧/٨) .

٣ التثنية ، الاصحاح الثالث ، الاية ١١ ، يشوع ، الاصحاح الثالث عشر ، الاية ١٢

٤ العدد ، الاصحاح ٣٢ ، الاية ٢ وما بعدها ، تثنية ، الاصحاح الثالث ، الاية ٣ وما بعدها ، و ١٢ ــ ١٧ ، قاموس الكتاب المقدس (١٢٤/٢) .

٥ قاموس الكتاب المقدس (٥٦/١) و Ency. Bibli., P. 1189.

٦ Ency. Bibli., P. 1189, Wetzstein, Ausgewäste Griechische und Lateinische Inschriften, gesammelt auf Reisen in den Trachonen des Haurangebirges, Reiseberichte über Hauran und Trachonen, 47, on Mast., 118, 4, 213, 370, Hastings, P. 203.

بعضها الى (دو شرى) (ذي الشرى) إلـه النبط . كما صوّر على بعضها صور القياصرة الذين في أيامهم ضرب ذلك النقد[1] .

و (باشان) ، ومعناها (التربة الخفيفة) ، مقاطعة من أرض كنعان واقعة شرقي الأردن بين جبلي حرمون و (جلعاد) ، وسميت (باشان) من جبل في البلاد[2] . وسكانها القدماء هم (الرفائيون) (Rephalite) ، ولهم مملكة ذكر في التوراة من ملوكهم اسم الملك (عوج) الذي قتله الاسرائيليون ، وهو المعروف بـ (عوج بن عوق) عند أهل الأخبار ، والمعروف بـ (عوج بن عنق) عند العوامّ . وقد ذكر الأخباريون انه رجل (ذكر من عظم خلقه شناعة) ، وانه كان ولد في منزل آدم فعاش الى زمن موسى ، وقد قتله موسى[3] . وقد أخذوا أخبارهم هذه عنه عن أهل الكتاب ، أو من وقوفهم على ما جاء في أسفار (التثنية) و (يشوع) و (العدد) عنه . وكان قد حاول منع الاسرائيليين من المرور بأرضه ، فقتلوه ، وجاء انه كان ينام على سرير من حديد طوله تسع أذرع وعرضه أربع أذرع[4]،وذلك لبيان ضخامة جسمه . ونجد في الأسفار المذكورة أخباره مع بني اسرائيل ومقاومته لهم[5] .

وكانت باشان تشمل حوران والجولان واللجاة ، وكلها مؤلفة من صخور وأتربة بركانية ، وتربتها مخصبة ، وماؤها غزير ، ويحدها شمالاً أرض دمشق ، وشرقاً بادية الشأم ، وجنوباً أرض (جلعاد) ، وغرباً (غور الأردن) ، ويخترق جانبها الشرقي جبل الدروز ، وهو جبل (باشان) القديم . ويمر بالجولان سلسلة تلال من الشمال الى الجنوب . أما مقاطعة (اللجاة) ، فهي حقل من (اللافا) أي الصخر البركاني ، سالت من (تل شيحان) ، وهو فم بركان

---

١. Hill, P. XXIII, Dussaud, Notes de Mythologie Syrienne, PP. 167, De Sauley, Terre Sainte, PP. 373.

٢ قاموس الكتاب المقدس (٢٠٦/١) ، المزامير ، ٦٨ ، الاية ١٥ .

٣ اللسان (٣٣٥/٢) ، (٢٨١/١٠) .

٤ التثنية ، الاصحاح الثالث ، الاية ١١ وما بعدها .

٥ التثنية ، الاية ١ وما بعدها ، والاصحاح ٣ ، الاية ١ وما بعدها ، ويشوع ، الاصحاح ١٣ ، الاية ١١ وما بعدها ، والعدد ، الاصحاح ٢١ ، الاية ٣٤ ، و ٣٢ ، الاية ٢ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١٢٤/٢) .

قديم بقرب شحبة[1] .

ومن أشهر مدن (باشان) (الجولان) (Golan) ، وهي من منطقة(الجولان) (Gaulanitis) ، وتعني الكلمة (الدائرة) ، وأصلها مدينة (جولان) ، وبها سميت المقاطعة . وتقع في (باشان)[2] و (عشتاروت) (عشتّروت) (بعشتّرة) (Aschtaroth) = (Ashtoreth) = (Be-Eshterah) ،ويظهر انها (تل عشتّرة) (تل أشعرى) في الجولان[3] . ومدينة (عشتاروت قرنايم) (Asther Karnaim) وهي (قرنيون) (Carnion) أو (قرنين) (Carnain) التي استولى عليهـا (يهوذا المكابي) (Judas Maccabaeus) سنة (١٦٤) قبل الميلاد على ما يظن. وهي من مدن (الرفائيين) في (باشان)[4] . وقد اختلف الباحثون في مكانها في هذا اليوم ، فذهب بعضهم الى انها (الصنمان) وذهب بعض آخر الى انها (قنوات) وذهب آخرون الى انها (تل عشتّرة)[5] .

ويظهر أن كثيراً من (الباشانيين) كانوا يعيشون عيشة سكان المغاور والكهوف (Troglodytes) ، إذ تبين أن قسمـاً منهم سكن الكهوف والمغاور ، وسكن بعض منهم في أنفاق وكهوف تحت الأرض يبلغ طولها (١٥٠) قدماً ، وتتفرع منها أزقة تحت الأرض بجانبها بيوت تنفتح كواها في سقوفها ، فهي في الواقـع مـدن تحت الأرض . وفضل نفر آخر السكنى في بيوت منقورة في الصخر . وسكن بعض منهم في بيوت منفردة مبنية من الحجر[6] .

وأما (بصرى) وتعرف بـ (Bostra) ، فقصبة (حوران) ، ومن أشهر مدنها[7] . وقد عرفت في أيام الرومان بـ (Nova Trajana Bostra)[8] . وقـد ألحقت بالمقاطعة العربية في مبدأ تأسيس هذه المقاطعة ، أي في أيام (تراجان) ،

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/٢٠٦) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٣٤٥) ،
Hastings, P. 303, Schumacher, Across the Jordan, 92.
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٠٢) ، Hastings, P. 57.
٤ التكوين ، الاصحاح الرابع عشر ، الاية ٥ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/١٠٢) .
٥ قاموس الكتاب المقدس (٢/١٠٢) ، Hastings, P. 57.
٦ قاموس الكتاب المقدس (١/٢٠٦) ، Ency. Bibl., P. 4976.
٧ البلدان (٢/٢٠٨) ، المشترك (طبعة وستنفلد) (٥٧) ، بلدانية فلسطين (ص ٢٣ وما بعدها) ، عيون الاخبار (٢/٣٣١) .
٨ Ency., I, P. 765, Hill, P. XXIV.

وصارت عاصمتهـا وقصبتها العظمى بعـد أيام (ديوقليتيان) (Diocletian) (٢٨٦ – ٣٣٧) بعـد الميلاد[1] ، ومركزاً من مراكز النصرانية المهمة . وفي القرن السادس للميلاد كانت أسقفيـة (Avara) ، وهي (الحميمة) على رأي (موسل) تراجع (بصرى)[2] . ويظهر أنها لم تكن تابعة للغساسنة ، وإنما كانت في ادارة البيزنطيين . وقد تضررت مثل (أذرعات) في أثناء غزو الفرس لديار الشأم عام (٦١٤) للميلاد ضرراً بالغاً ، وفقدت مكانتها المهمة من ذلك الحين[3] .

وقد ورد اسم (بصرى) في السيرة في قصة (بحيرا) الراهب ، كما ورد اسمها في خـبر فتوح الشأم . وكان أهلها من (قيس) من (بني مُرَّة) . وذكر (أبو الفداء) انها من ديار (بني فزارة) و (بني مرة)[4] . وقـد اشتهرت بصنع السيوف المعروفة بـ (السيوف البُصْرية)[5] .

وعثر على نقود ضربت في مدينة (بصرى) ، منها ما يعود تأريخها الى أيام (انطونيوس بيوس) (Antonius Pius) ، ومنها ما يعود الى أيام (هدريانوس) (Hadrianus) ، وهي النقود التي ضرب على أحد أوجهها النصف الأعلى لانسان يظهر أنه يرمز الى (العربية) (Arabia) حاملاً جسمين يشيران ، على رأي بعض الباحثين ، الى كورة (Auranitis) أي (حوران) و (العربية الحجرية) (Arabia Petraea) ومنها ما يعود الى آخرين ، وهم : (ديفـا فاوسطينا) الأول (Diva Faustina) ، وقد صور النصف الأعلى من الجسم على أحد وجهي النقد، (ومارقوس أوريليوس قيصر) (Marcus Aurelius Caesar) و(كومودوس قيصر) (Commodus Caesar) و(كومودوس أوغسطس) (Commodus Augustus) و (سبتيميوس سويروس) (Septimius Severus) و (يوليـة دومنـا) (Julia Domina) و (ايلاغبالوس) (Elagabalus)[6] .

ودعيت (بصرى) في النقود التي ضربت بـاسم (سويروس اسكندروس)

١ History of the World, Vol., VI, P. X, Ency., I, P. 765.
٢ Musil, Hegaz, P. 60.
٣ Ency., I, P. 765.
٤ بلدانية فلسطين (ص ٢٣) ، Ency., I, P. 765.
٥ اللسان (٤/٦٨) ، (صادر) ، (بصد) .
٦ Hill, P. XXIV.

(Severus Alexanderus) ، بـ (مستعمرة بصرى) (Colonia Bostra) [1] .
ويعني هذا حدوث تغير في النظام الاداري لهذه المدينة في هذا العهد . ويرى بعض الباحثين أنها جعلت في درجة مستعمرة ، أي (Colonia) قبل أيام (سويروس)، وبقيت في هذه المرتبة حتى عهد (سبتيميوس سويروس) (Septimius Severus) غير أن (هل) وآخرين يعارضون هذا الرأي ويرفضونـــه ، ويرون أن ذلك كـــان في أيام (سويروس اسكندروس) ، لا قبلـــه ، وانهـــا لم تعرف بـ (Colonia Bostra Nova Traiana Alexandriana) إلا في أيامه[2] . وأما في نقود (يولية مامية) (Julia Mamaea) ، فقد دعيت بـ (Colonia Bostra) كذلك[3] .

وأعيـد النظـــر في مرتبتهـــا في أيام (فيليب سنيـور) (فيليب الأقــدم) (Philip Senior) على ما يظهر،فجعلت في درجة (متروبوليس) (Metropolis)، فدعيت (Colonia Metropolis Bostra) . وحافظت على درجتهـا هذه في أيام (فيليب الأصغر) (Philip Junior) [4] . ولم يعثر على نقود ضربت في (بصرى) بعد أيام (تراجان دسيوس) (Trajan Decius) أو (تويبونيانوس غالوس) (طريبونيانوس غالوس) (Trebonianus Gallus) [5] .

وأما (Charachmoba) ، فإنها (قـير موآب) (Kir Moab) في التوراة والتركوم . و (قير حاراش) (قير حراشات) (قير حارسة) من (موآب) وهي (الكرك)[6] . وقد عثر على نقد يعود الى عهد (Elagabalus) يظن انـه من نقود هذه المدينة،وان الصورة المضروبة في الوجه المقابل لصورة (Elagabalus) ترمز الى الإلـه (دو شرى)[7] .

---

١ Hill, PP. XXIV, Morey, In REV. Numes., P. 81, 1911, Berytus, Vol., IX, Fasc., I, (1948), P. 43.

٢ Hill, P. XXV-XXVI.

٣ Hill, P. 22.

٤ Hill., P. 24, The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine Vol., No. 3, 1931, P. 135.

٥ Hill, P. XXVI.

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٣٠) ، Hill, P. XXX, XXXI, Ency., II, P. 855, Musil, Petraea, S., 45-62.

٧ Hill, XXX, XXXI, 27.

وتختلف وجهات نظر الباحثين في موضع مدينة (ديوم) (Dium) (ديون) (Dion) ، فمنهم يرى انها (الحصن) (قلعة الحصن) على مقربة من (اربد) وانها (Dia) عند (بطلميوس)[1] ومنهم من يرى انها (كفر أبيل) ، وآخرون يرون انها (تل الأشعري) ، وهكذا[2] . وهي من مــدن (Decapolis) ، ثم ألحقت بـ (المقاطعة العربية) في عهد (سبتيميوس سويروس) (Septimius Severus) على ما يظن[3] . وقد عثر فيها على نقد ضرب باسم (Geta) [4] ، وأرخ تأريـخ الضرب بتقويم (بومبيوس) ، وأشير في أحد وجهي النقد الى الإله (هدد) الذي صوّرته بعض النقود المضروبة في بعض المدن السورية . وهو يقابـل الإله (زيوس) (Zeus) عند اليونان[5] .

ويراد بـ (Decapolis) الحلف المؤلف من عشر مدن ، تحالفت لـدفع غزو القبائل لها . ويظهر أنه ظهر الى الوجود في القرن الأول للميلاد . والمدن المذكورة هي: (Pella) و (Scythopolis) و (Dion) و (Gerasa) و (Philodelphia) و (Gadara) و (Raphana) و (Kanatha) و(Hippos) و (دمشق) . وقد انضمت اليه مدن أخرى بين حين وآخر . فلكون أرض هذا الحلف ممتـدة من دمشق الى الجنوب الشرقي لبحر الجليل (Sea of Galilee) [6] .

ومدينة (Eboda) ، هي (عبــدة) (العبدة) في (العربيــة الحجرية) (Arabia Petraea)[7] . وقد أشار (بطلميوس) الى أن (Eboda) = (Oboda) و (Gerasa) و (Gypsaria) و (Lysa) هي من مدن (العربية الحجرية) ، وجعلها بعضهم من (النقب)[8] . وتقع خرائب (عبدة) في جنوب (بئر السبع) (Beerscheba) وفي غرب (بطرا) وفي جنوبها سباخ ، غــير أن من المشكوك

---

١ عن (اربد) ، البلدان ، (١/ ١٧٠) ، بلدانية فلسطين (ص ٥) ، Provincia, III, S., 265, Hill, P. XXXI.

٢ Hill, P. XXXI.

٣ Hill, P. XXXI, Provincia, III, S., 264.

٤ Hill, P. 28.

٥ Hill, P. XXXI-XXXII, 28.

٦ Hastings, P. 183.

٧ Provincia, III, S., 268, Hill, P. XXXII.

٨ Provincia, III, S., 268, REV. Bibl., 1904, PP. 403, 1905, PP. 74.

فيه أن تكون هذه السباخ موضع (Ge'ham Maleh) ، أي وادي الملح[1] . وأما صنم (Eboda) ، فقد عرف باسم (زيوس عبودة) (Zeus Oboda)[2] .

وأما (Esbus) ، فإنها (حشبون) (Heshbon) في التــوراة ، وتعرف اليوم بـ (حسبان) ، وتقع بين (فيلادلفيا) (عمان) و(مأدبا)،وعلى مسافة (٢٦) كيلومتراً من شرق النهاية الشماليــة للبحر الميت في صعيد (موآب)[3] . وهي من مدن العربية القديمة الشهيرة[4] . وفي التوراة انها كانت من مدن (الموآبيين) ثم استولى عليها الملك (سيحون) ملك (الأموريين) وجعلهــا عاصمة له ، ثم تغلب عليها الاسرائيليون ، ثم استعادها (الموآبيون)[5] . والظاهر انها كانت من مدن النبط ، ثم دخلت أخيراً في أملاك الرومان فالبيزنطيين . ولا تزال آثار المدينة القديمة باقية حتى الآن . وأما النقود التي ضربت فيها،فهي من أيام (Elagabalus) وبعضها من عهد (كركلا) (كاركلا) (Caracalla) . ويظهـر من بعض النقود انها كانت تعرف أيضاً بـ (Aurelia)[6] . و (Gerasa) هي (جرش) في الزمن الحاضر ، ونسبهــا (ياقوت الحموي) الى رجل زعم أن اسمــه هو (جرش بن عبد الله بن عليم بن جناب بن هبـل بن عبد الله بن كنانـة بن بكر ابن عوف بن علرة بن زيد اللات بن رفيـدة بن ثور بن كلب بن وبرة)[7] . وتقع عند الحافة الجنوبية الشرقية لسلسلة (عجلون) ، ولا يعرف أصلها ومبدأ تأريخها على وجه التحقيق . ولم يرد اسمها في التوراة[8] . وقد أشير اليها في كتب (الحديث)[9] .

---

١ Musil, Hegaz, P. 253, 255.

٢ Hill, P. XXXII.

٣ قاموس الكتاب المقدس (٣٧٤/١) ،
Hill, P. XXXII, Reallexikon, VI, S., 613, Musil, Petraea, I, P. 383.

٤ Ency., Bibl., P. 2044.

٥ العدد ، الاصحاح ٢١ ، الاية ٢٥ وما بعدها ، الاصحاح ٣٢ ، الاية ٣٧ ، اشعيا ، الاصحاح ١٥ ، الاية ٤ ، والاصحاح ١٦ ، الاية ٨ وما بعدها ، وارميا ، الاصحاح ٤٨ ، الاية ٢ ، ٣٤ ، ٤٥ ، والاصحاح ٤٩ الاية ٣ .

٦ Hill, P. XXXIII, Hastings, P. 346.

٧ البلدان (٨٥/٣) ، بلدانية فلسطين (٥٢) .

٨ Ency., I, P. 1017, Hastings, P. 290.

٩ اللسان (٢٧٢/٦) .

ويظن بعض الباحثين انها (راموت جلعاد) (Ramoth-Gilead) المذكورة في العهد العتيق[1] . ويظهر انها من المدن التي عرفت بعد عهد (اسكندر الكبير)، وقد استولى عليها (اسكندر ينيوس) (اسكندر جنيوس) ملك (يهوذا) ، ثم تحررت من اليهود في عهد (بومبيوس) ، وألحقت بكورة (سورية الرومانية)، ثم أضافها (تراجان) في عام (١٠٦) بعد الميلاد الى (الكورة العربية)،وضمت بعد ذلك الى كورة (فلسطين الثانية) (Palestina Secunda) أي الأردن[2] .

وكانت (جرش) مركزاً لعبادة الإلّه (ارتيمس) (Artemis) ، وهو (ديانا) (Diana) عند الرومان، وابنة (زيوس) (Zeus) و (ليتو) (ايطو) (Leto) عند الإغريق[3] ، كما كانت أسقفية معروفة قبل الإسلام ، وتشاهد آثار كنائس ومباني رومانية وبيزنطية ونبطية لا تزال باقية حتّى اليوم[4] .

وأما (Medaba) = (Medeba) ، فهي (مأدبا) وهي (ميدبا) في التوراة. وهي من أقدم مدن (موآب) ، وقد ذكرت في سفر (العدد) مع (حشبون) و (ديبون)[5] . وكانت في أيدي (العمونيين) في ملك (داود) . وفي أيام (أشعيا) عادت الى يد (موآب)[6] . وفيها قتل (يوحنا مكابيوس) (يوحنا المكابي)[7] . وسبق أن ذكرت أن (بني عمرى) (Bne-Imri) = (Bne-Amri) قتلة (يوحنا) كانوا من سكان (ميدبا) (مأدبا) ، وهم من العرب . وقد جعلها (بطلميوس) في جملة مدن (العربية الحجرية)[8] . أما (أويسبيوس) (Eusebius) و (جيروم) ، فذكراها في جملة مدن (العربية)[9] . وتقع خرائب تلك المدينة القديمة على مسافة (١٤) ميلاً شرقي (بحر لوط) ، وهي مبنية على رأس تل وحوله ، وفيه آثار المدينة القديمة . والى الجهة الجنوبية منها

---

١ Hastings, P. 290.

٢ Ency., I, 1017, Schürer: Geschichte des jüdischen Volkes, II, S., 182.

٣ Hastings, P. 290, Harvey, P. 52.

٤ Ency., I, P. 1017.

٥ عدد ، الاصحاح ٢١ ، الآية ٣٠ .

٦ اشعيا ، الاصحاح الخامس عشر ، الاية ٢ .

٧ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٩٧) .

٨ Ptolemy, V, 17, 6, VIII, 20, 20, Ency. Bibl., P. 3003.

٩ Eusebius, 138, 32, 279, 13, Ency. Bibl., P. 3003.

بركة ، والى الشرق والشمال برك أخرى . وتوجد آثار هيكل كبير بينها عمودان واقفان[2] . ومن أنفس ما عثر عليه في هذه المدينة القديمة خارطة من (الموزاييك) الفسيفساء (Mosaic) لفلسطين النصرانية ومصر[2] ، كما عثر فيها على نقود من أيام الرومان واليونان[3] . وقد ازدهرت بعـــد الميلاد : فصارت مركز (أسقف) ، وممثلث في مجمع (خلقيدون) (Chalcedon) [4] .

وأما (فيلادلفيا) (Philadelphia) ، فهي (ربة) و (ربة بني عمون) (Rabbath — Bene — Ammon) في التوراة . وهي في (جلعاد) بالقرب من مخرج نهر (يبوق) وعاصمة (بني عمون)[5] . وذكر (اصطيفانوس البيزنطي) انها كانت تعرف بـ (Astarty) . وقد يكون لهذا القول أصل ، فقد ورد في بعض الكتب ان من مدن (سورية) مدينة عرفت بـ (Asteria) ، وللتسميتين علاقة بالصنم (عشتروت) (Asteria) [6] . وعلى أنقاض هذه المدينة القديمة تقع (عمان) عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية . وأما سبب تسميتها بـ (فيلادلفيا) ، فلتجديد بنائها واعادة تعميرها في عهـــد (بطلميوس فيلادلفوس) (Ptolemy Philadelphus) (٢٨٥ — ٢٤٧) قبل الميلاد فعرفت به[7] . وصارت من أشهر مدن (Decapolis) [8]. وقد انتزعها (أنطيوخس أبيفانوس) (Antiochus Epiphanes) من (بطلميوس فيلوباتر) (بطلميوس فيلوباطر) (Ptolemy Philopater) في سنة (٢١٨) قبل الميلاد[9] ، وكان يحكمها في أيام (هركانوس) ملك (يهوذا) (١٣٥ — ١٠٧) قبل الميلاد ، حاكم اسمه (زينو كوتيلوس) (Zeno Cotyles) [10] .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٩٨) .

٢ Ency. Bibli., P. 3003, Hastings, P. 596, Clermont Ganneau, in: Recueil D'Archeol. Orient., XI, P. 161, 1897), A. Jacoby, Das geogr. Mosaik von Medaba, 1905, Musil, Petraea, I, PP. 113.

٣ Hill, I, XXXV, 33.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٩٧) ، Hastings, P. 596.

٥ قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٧٣) .

٦ N. Glueck: The River Jordan, 1946, P. 839, 93, 189, Hill, P. XXXIX.

٧ Hastings, P. 780, Ency., Bibli., P. 3998.

٨ N. Glueck, P. 48, 89, 175, 189, Ency. Bibli. P. 3998.

٩ Polybius, (Polubios), 5, 17, Ency. Bibli., P. 3998

١٠ Josephus, Antiq., XIII, 8, I, 15, 3. Ency. Bibli., P. 3998.

وكانت بأيدي النبط في سنة (٦٥) قبل الميلاد[١] .

وتنسب (فيليب بولس) (Philippopolis) ، وهي (شهبة) (شحبة) في الزمن الحاضر[٢] ، وتقع على مسافة سبعة كيلومترات شمال (القنوات) الى (فيليب) (فيلفوس)[٣] المعروف بالعربي (M. Julius Philippus Arabus) (٢٤٤ – ٢٤٩ م)[٤] . وقد عرف بالعربي لأنه كان عربي المولد[٥] . وكان قد نشأ وترعرع في (بصرى) ، ثم دخل الجيش الروماني وتقدم فيه ، وأصبحت له مكانة كبيرة أوصلته الى أعلى مراتب الدولة ، وهي (قيصر)[٦] .

ويرى بعض الباحثين انه أنشأ هذه المدينة في سنة (٢٤٨) بعد الميلاد أو بين (٢٤٧) و (٢٤٨) بعد الميلاد . ويرى (كوبيجك) (Kubitschek) انه أسسها في عام (٢٤٤) ، أي قبل ذهابه الى (رومة)[٧] . وجعلها في درجة (مستعمرة) (Kolonia) = (Colonia) رومانية . ولا تزال أنقاض هذه المدينة باقية حيث تشاهد آثار معابدها وشوارعها وبعض أبنيتها ومسرح وغير ذلك مما جاء وصفه في كتاب : (Die Provincia Arabia) [٨] ، كما عثر فيها على كتابات ورد فيها اسم (القيصر) (فيليب)[٩] ، كما عثر فيها على نقود[١٠] .

وأما (Rabbathmoba) ، وتعرف في اليونانية باسم (Areopolis) ، فإنها (ربة) (ربا) ، وهي مدينة بنيت في عهود الرومان المتأخرة على رأي بعض الباحثين[١١] . وقد عثر فيها على نقود ضرب عليها اسم (سبتيميوس سويروس) وأسرته . ويظن أن الصورة الرمزية المضروبة على عدد من نقود (ربة) تشير الى

---

١ Ency. Bibli., P. 3998.

٢ (شحبة) ، Provincia, III, S., 145, 147.

٣ (فيلفوس) الطبري (١/٦٩٤ ، ٧١٩) ، فهرست تأريخ الطبري ، عمل (دي غويه) (ص ٤٥٤) .

٤ Hill, P. XXXIX, Die Araber, II, 4.

٥ The Historians' History of the World, Vol., VI, P. 412.

٦ Leopold von Ranke: Weltgeschichte, BD., 5, S., 163,

٧ Hill, P. XIII, Provincia, III, S., 305.

٨ Hill, P. XII, Provincia, III, S., 305.

٩ Hill, P. XIII.

١٠ Provincia, III, S., 145.

١١ Hill, XIII, Provincia, I, S., 55, Burckhardt, 377, H.B. Tristram: The Land of Israel, 110.

إلـه لعله الإلـه (Kemosh) أو الى معبده الخاص به ، على نحو ما رأينا في بعض النقود من ذكر (متاب) ، وهو معبد (دوشرى) ليرمز إلى الإلـه[١] . ويرى بعض الباحثين أن (Kemosh) هو إلـه الحرب[٢] .

ومن مدن الكورة العربية الأخرى : (Sodoma) ، ولعلها (الزوراء)[٣] ، و (السويداء) (Dionysias) ، و (Beretana) ، وقد وردت أسماؤها في مجمع (نيقية) . وقد ألحقت (السويداء) بالكورة العربية في أيام (سويروس) و (Adrama) و (Constantine) و (Neapolis) ، وقد وردت أسماؤها في جملة الأسماء المدوّنة في أعمال مجمع (القسطنطنية) المنعقد عام (٣٨١) للميلاد[٤] . و (Ziza) و (Dia-fenis) و (Tricomia) و (Areopolis) و (Canotha) و (Nela) و (Zerabena) و (Anitha) و (Eutymia) و (Chrysopolis) و (Erra) و (Neve) و (Maximianopolis) و (Phaena) و (Aena) ، وقد وردت أسماؤها في سجلات أعمال مجمع (خلقدون) (خلقيدون) (Chalcedon) (٤٥١ م)[٥] .

وذكر (بطلميوس) أسماء مواضع أخرى يقع بعضها في النقب (Negeb) = (Negev) غرب (العربة)[٦] . وسجلت في (Notitia Dignitatum) أسماء (Motha) ، وهي : (أمنان) (Speluncae) ، وهي (دير الكهف) ، (Mefa) و (Gadda) وهي (خو) ، و (Betthoro) و (Dia-Fenis) و (Auatha) و (Gomotha) و (Libona) و (Naarsafari) و (Thainatha) و (Aditha) وهي (الحديد) و (Asabaia) و (Ultha) و (Uade Afar) و (Castra Arnonensia)[٧] ، على انها من مواضع الكورة العربية . وهناك أماكن أخرى ذكرت أسماؤها في كتاب : (Die Provincia Arabia) ، قد يخرجنا تعدادها عن

١ Hill., P. XIII.

٢ Hill, XIII, Baethgen: Beiträge zur Semit. Religiongeschichte, S., 14.

٣ Provincia, III, S., 253.

٤ Provincia, III, S., 252, 353.

٥ Provincia, III, S., 263, Harduin, Kritische Angabe der Unterschriften von Geltzer, Leipzig, 1893.

٦ Provincia, III, S., 256, Ptolmey, V, 16.

٧ Provincia, III, S., 256, Notitia Dignitatum. Ori., 37.

أصل الموضوع[١] .

وقد أوكلت مهمة المحافظة على الأمن في (الكورة العربية) الى الكردوس (اللجيون) (Legion VI Ferrata) الروماني الذي كان معسكراً منذ أمد في (سورية) ، فصدر الأمر اليه في سنة (١٠٦) للميلاد على ما يظهر بنقل مقره من شمال سورية الى هذه الكورة الجديدة التي أنشأها (تراجان)[٢] . ثم نقل مقره في أيام (هدريانوس) (Hadrianus) الى (اللجون) (Caparconta) في (الجليل) (Galilee)[٣]. وفي أيام(هدريانوس)أيضاً وفي سنة(١٣٥)للميلاد وهي سنة استيلائه على القدس واخماده الثورة التي قامت في (اليهودية) أمر بانشاء (Aelia Capitolina). لأغراض عسكرية على ما يظهر[٤] .

ويرى بعض الباحثين أن الكورة العربية قد قسمت في القرن الثالث للميلاد وفي (ديوقليطيـــان) (ديوقلطيـــانوس) (Diocletianus) = (Diocletian) الى كورتين : كورة شماليـــة عاصمتها (بصرى) وعرفت بـ (كـــورة بصرى) (Provincia Bostron) ، وكورة جنوبية وعاصمتهـــا (بطرا) وعرفـت باسم (كورة بطرا) ، وبعبارة أصح (الكورة الحجرية) (Provincia Petrae) ، وتعرف بـ (العربية) أيضاً[٥] .

أما في القرن الرابع وفي حوالي سنة (٣٠٧) للميلاد تقريباً ، فقد اقتطعت منها بعض المدن ، مثل (أيلة) و (Phainon) ، وألحقت بفاسطين ، وبذلك تقلصت (Praeses Arabiae) وتوسعت رقعة فلسطـين (Praeses Palestinae) كثيراً . ويظهر أن الضرورات العسكرية هي التي دفعت الى احداث هذه التغيرات[٦] .

وحدثت تغيرات أخرى في (الكورة العربية) في القرنين الخـــامس والسادس

١ Provincia, III, S., 253.

٢ The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine, Vol., II, III, 121, Harvard Excavations at Samaria, 1908-1910, I, 251, I, II, Plate 59.

٣ The Quarterly, II, III, P. 121, 1933.

٤ The Quarterly, II, III, P. 120.

٥ Provincia, III, 271, Mommsen: Verzeichnis der Römischen Provizen, S., 501.

٦ Provincia, III, S., 275.

للميلاد،فانتزعت منها مدن أخرى ألحقت بـ (فلسطين الثالثة) (Palestina Tertia) وتعرف أيضاً بـ (Palestina Salutaris)[1] .

أهل الكهف والرقيم :

ولا بد لي وقد انتهيت من الحديث عن النبط وعن (الكورة العربية) من الكلام عن أهل الكهف والرقيم ، الـذين ذكروا في القرآن الكريم : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً »[٢] . إذ ذهب بعض علماء التفسير الى أن الرقيم واد دون فلسطين فيه الكهف ، وهو قريب من (أيلة) . كان اليهود قد أوحوا الى المشركين من أهل مكة،أن يسألوا الرسول عنهم ، امتحاناً له . وكانوا يتداولون أخبارهم ، ويروون قصصاً عنهم ، كان شائعاً فاشياً اذ ذاك بين النصارى أيضاً ، فجاء الجواب عنهم في سورة (الكهف)[٣] .

وهناك من زعم أن (الرقيم) على فرسخ من (عمّان) ، أو قرية صغيرة بالقرب من البحر الميت ، أو أنها (البتراء) : وذلك بالإضافة الى روايات أخرى رجّحت مكان (الكهف) الى (أفسس) (أفسوس) ، بالأناضول ، أو الى أماكن أخرى لا داعي الى ذكرها في هذا المكان ، لعدم وجود علاقة لها بهذا البحث . وقد بحث عنها المتخصصون ، كما قامت بعثات آثارية بالبحث عن كهف (أهل الكهف) في الأماكن المذكورة ، للتأكد عمّا جاء عنه في الموارد النصرانية والاسلامية ، فإليها أحيل من يريد التبسط في الكلام عنه[٤] .

---

١ Provincia, III, S., 280.

٢ سورة الكهف ، الاية ٩ .

٣ تفسير الطبري (١٥/١٢٦ وما بعدها) ، (طبعة بولاق) ، تفسير النيسابوري (١٥/١١٦ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري ، طبعة بولاق) ، تفسير القرطبي (١٠/٣٥٦ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٣/٧٣) .

٤ راجع دائرة المعارف الاسلامية ، Encyclopedia of Islam ، ومجلة : Review de Qumran, Vol. 5, No. 18, 1965. وما كتبه (ماسنيون) و (بارنيوس) Baronius و (تاليمونت) Tallmont عن الكهف . واشكر دائرة الاثار بعمان في المملكة الاردنية الهاشمية لتفضلها علي بارسال صورة كتابة (بئر ام الرجوم) ، ومقال يقع في (٣) صفحات للسيد رفيق وفا الدجاني عنوانه : كهف ، اهل الكهف في الرجيب ، وذلك بكتابها المرقم بـ ٢ـ١٤ ـ٤ـ١٩٥٨ والمؤرخ لـ (١٨ـ٨ـ١٩٦٦ م) .

ولقد تبين الآن ان الكتابات المدونة عند مدخل (الشق) في (البتراء) ، لا صلة لها بأهل الكهف ، وانما كتبت تخليداً لذكرى جماعة من اليونان البارزين جاءوا من (جرش) فوافاهم أجلهم بـ (البتراء) ، ماتوا قبل (أصحاب الكهف) بأمد . وقد شرح تلك الكتابات (ستاركي) (Starkey)[1] . وذهب الباحثون في (دائرة الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية) الى أن كهف (أهل الكهف) ، هو (كهف الرجيب) ، وهو على مقربة من قرية صغيرة تدعى (الرجيب)،وجدت بداخله مدافن يرجع عهدها الى زمان القيصر (ثيودوسيوس الثاني) (Theodosius II) (٤٠٨ — ٤٥٠م) ، الذي في زمانه كان بعث أهل الكهف . وذهبوا الى ان اسم هذا الموضع في القديم هو (الرقيم) ، تحوّل الى (الرجيب) فيما بعد . وأيد هذا الرأي الأستاذ (هج نيلي) (Hugh Nilley) الذي زار الموضع ودرسه ، وكتب مقالاً عنه[2] .

وذهب من رأى ان كهف الرجيب هو (كهف أهل الكهف) ، الى أن دخول الفتية الكهف ، كان في أيام الطاغية (تراجان) (٩١ — ١١٧م) المشهور ، فاتح (الكورة العربية) ومؤسسها والآمر بانشاء الممر الحربي المعروف باسم (طريق تراجان) وباني مدينة (أيلة) الرومانية وصاحب الملعب الروماني والآثار العديدة للمباني التي أقامها بعمان وبمدن أخرى من الأردن . وقد كان شديداً عاتياً قاسياً على النصارى ، عدّهم خونة مرقة خارجون على الدولة والقانون لذلك أصدر أمره سنة (١١٢م) بقتل كل نصراني لا يخلص للقيصر والدولة ، فخاف منه النصارى وتكتموا ، وكان من جملة من تكتم وانزوى (أصحاب الكهف)[3] .

ووجدت البعثة الأميركية لمدرسة الأبحاث الشرقية بالتعاون مع دائرة الآثار الأردنية في موضع (أم الرجوم) الواقع على بعد (١٥) كيلومتراً شمال (عمان)،

---

١ (ص ٢) من مقال السيد رفيق وفا الدجاني ، المرسل الي ، وهو يشير الى الجزء العاشر من حوليات دائرة الآثار .

٢ من مقال السيد رفيق وفا الدجاني ، المرسل لي بكتاب دائرة الاثار الاردنية المشار اليه ، وقد اشار الى مجلة Review de Qumran, Vol., 5, No : 18, 1965.

٣ المصدر المذكور .

آثار بئر قديمة استدل من كتابة عثر عليها مدوّنة على جدارها انها تعود الى ما قبل الميلاد . وأن الموضع المذكور هو حصن من الحصون التي كانت تدافع عن مدينة (ربّة عمون) ، عاصمة مملكة (عمون) ، التي عاشت بين القرن الثالث عشر والقرن السادس قبل الميلاد . و (ربة عمون) ، هي (عمان) العاصمة

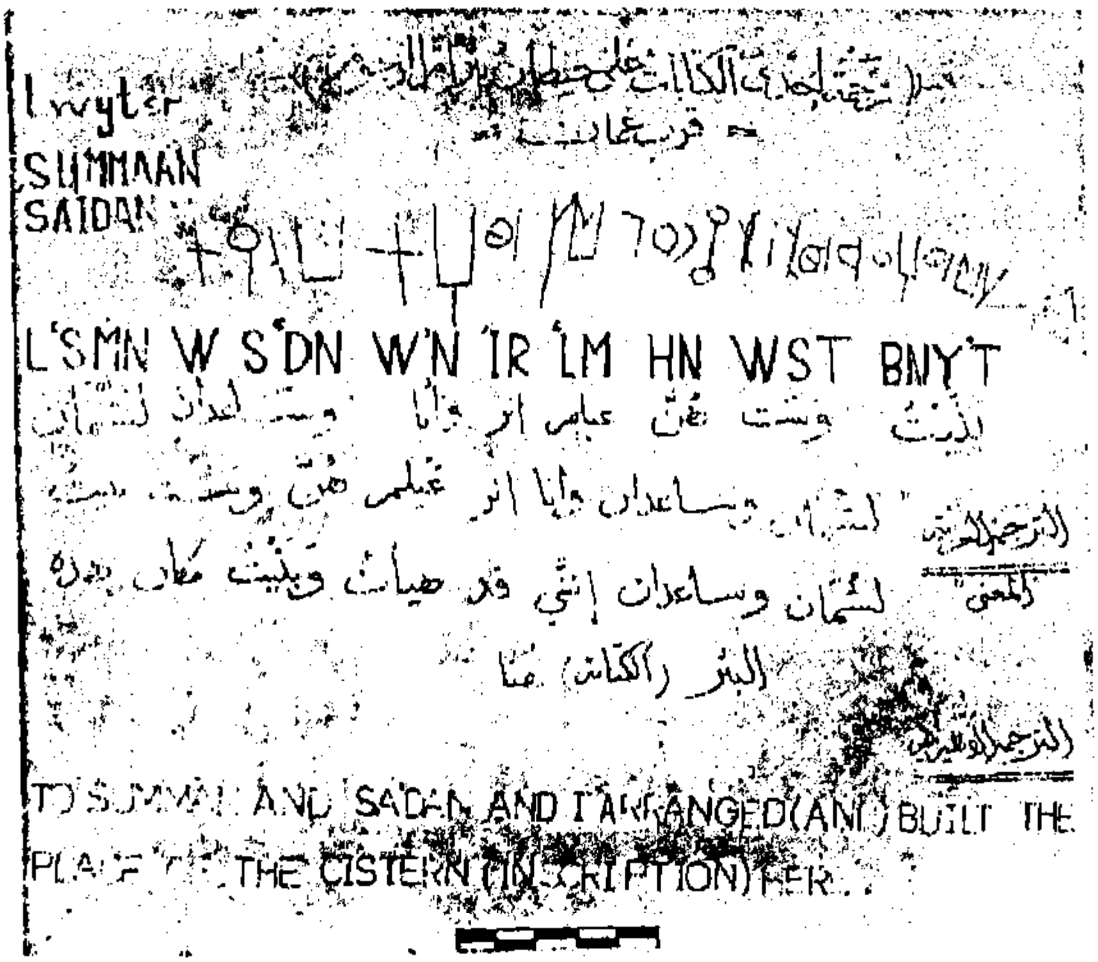

هذه صورة الكتابة التي دونها الباحثون لكتابة بئر ام الرجوم
أهدتها لي دائرة الآثار الأردنية بعمان ، فلها شكري

الآن . وقد كتبت الكتابة بخط مشتق من القلم العربي الجنوبي ، يظن البعض أنها من كتابات القرن السابع قبل الميلاد .

ويظهر من هذه الكتابة المهمة ، أن أصحابها كانوا يكتبون بقلم قريب من

القلم المسند ، وقريب من القلم اللحياني والثمودي والصفوي ، وأن لهجتهم كانت لهجة عربية ، أي ان أصحابها من العرب . وقد كتبوها لمناسبة إقامـــة تلك البئر التي حفرها وهيأها (شمّان) و (سمّان) و (ساعدن) (سعد) (ساعد) وهما أصحاب هذه الكتابة والبئر[1] .

١ كتاب دائرة الاثار الاردنية المؤرخ لـ ١٨ـ٨ـ١٩٦٦ م والمرقم بـ (٢ـ١٤ـ٤ـ ١٩٥٨) .

الفصل الخامس والثلاثون

مملكة تدمر

ويتصل الحديث عن النبط بالحديث عن مكان آخر له علاقة بهم أيضاً ، هو (تدمر) المعروف بـ (Palmyra) عند الغربيين الذين ورثوا هـذه التسمية عن الرومان واليونان . وهو (تدمر امور) المذكور في كتابة من كتابات (تغلث فلاصر الأول) (Tiglat-Pileser I) = (Tiglath-Piles) (١١١٧–١٠٨٠ق.م.)[١] على رأي بعض الباحثين . وقد ورد اسم المدينة وهو (تدمر) في عدد من الكتابات كما ورد اسم علم للأشخاص .

وقد رأى بعض الباحثين ان (Palmyra) من لفظة (Palma) اللاتينية ومعناها (نخل) (نخلة) ، وان الاسكندر ذا القرنين لما تغلب عليها أطلق عليها (Palmyra) أي مدينة النخل ، وذلك لما يكتنفها من غابات النخل العظيمة ، فعرفت عند اليونان واللاتين منذ ذلك الحين بهذا الاسم[٢] . غير ان هذا رأي يحتاج الى اثبات ، فليس لدينا دليل من عهد الاسكندر يؤيد هذا القول . وليست لدينا حجة دامغة تثبت وجود النخل في هذه المدينة اثباتاً يستوجب تسمية الموضع

---

١ Ency., Vol., III, P. 1020, Hommel, in ZDMG., XIIV, 547, Syria, Revue d'Art Oriental et d'Archéologie, Tome, VII, Paris, 1926, P. 77, Dhorme: Palmyre dans les Textes Assyriens, Revue Biblique, 1924, PP. 106, Ency. Brita., Vol., 17, P. 161, Reallex., I, IV, S., 280.

٢ قاموس الكتاب المقدس (٢٨٢/١) ، Ency., III, P. 1020.

بـ (Palmyra) أي مدينة النخل[1] .

وهناك آراء متباينة في سبب تسمية (تدمر) بهذا الاسم ، هي موضع جدل ، وليس فيها رأي يمكن الاطمئنان الى صحته وترجيحه على غيره، لذلك أترك البحث عنه الى المراجع التي بحثته[2] .

ويظن بعض الباحثين أن (Palmyra) هي ترجمة لكلمة (تمار) (تامار) (تمر) (Tamar) العبرانية ومعناهـا (نخلة) (Date — Palm) ، وهي في الأصل اسم موضع الى الجنوب الشرقي من يهوذا ورد ذكره في (حزقيال) ، لا يعرف موضعه اليوم على وجه التحقيق[3] . ويرى علماء التوراة أنه الموضع الذي بناه سليمان والمذكور في (الملوك الأول) وان خطأ وقع قديماً في تعيين الموضع فجعل (تدمر) ، سببه أن كتبة أسفار (أخبار الأيام) أو الكتبة قبلهم أخطأوا في معرفة موضع (تامار) (Tamar) الواقع في الصحراء اليهودية جنوب البحر الميت ، فظنوا انه (تدمر) المدينة الشهيرة المعروفة ، وكتبوه (تدمر) في محل (تامار)[4] . فالأصل اذن هو (تامار) . وصارت (تدمر) نتيجة لهذا التغير في جملة المدن التي بناهـا (سليمان) . وقد كتبت (أسفار أخبـار الأيام) (Chronicles) في حوالي سنة (٣٠٠) أو (٢٠٠) قبل الميلاد ، لذلك يكون هذا التبديل والتغير قد ظهر في حوالي هذا الوقت[5] . ومنه صارت (تامار) (تدمر) ومنه أصبح معنى (تدمر) مدينة النخل ، أي (Palmyra) عند اللاتين واليونان وقد ظهرت هذه الترجمة بعد تدوين أخبار الأيام بالطبع . ومنها جاءت أسطورة بناء سليمان لمدينة (تدمر) في هذه المنطقة البعيدة عن حدود مملكة اسرائيل[6] .

---

١ Hasting, P. 889, Johannes Oberdick: Die Römerfeindlichen Bewegungen im Orient, Berlin, 1869, S., 44.

٢ Ency., III, P. 1020, Hommel, in ZDMG., XLIV, 547, M. Hartmann, in ZDMG., XXXII, 128.

٣ حزقيال ، السفر ٤٧ ، الايـة ١٩ ، والسفر ٢٨ ، قاموس الكتـاب المقدس (٣٠٠/١) .

٤ الملوك الاول ، الاصحاح التاسع ، الاية ١٨ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٨٢/١ وما بعدها) ، Hastings, P. 892, Ency., III, P. 1020, The Universal Jewish Encyclopedia, Vol., 8, P. 381.

٥ Ency. Brita. Vol. 17, P. 161, Hastings, P. 889.

٦ Ency. Bibli., P. 4886, Hastings, P. 889.

وعلى كل حال ، فإن الذي نستنبطه من قصة إضافة (تدمر) الى المباني التي نسب بناؤها الى سليمان ، هو أن هذه المدينة كانت قد اكتسبت شهرة في أيام تدوين أسفار (أخبار الأيام) وأنها كانت مدينة عامرة شهيرة فيما بين السنة (٣٠٠) و (٢٠٠) قبل الميلاد[١] .

ويجوز أن تكون الشهرة التي اكتسبتها مدينة (تدمر) (تذمر) في أيام كتبة أسفار (أخبار الأيام) هي التي حملتهم على إضافتها الى أعمال (سليمان)، لأنها (بمباني سليمان) أليق وأنسب من موضع صغير هو (تامار) ، فأضافوا هذه المدينة الشهيرة اليه ، لتدل على شهرته وعلى مدى بلوغ ملكه في أيامه . وقد أضيف الى ملك سليمان على هذا النحو من الإضافات ما لا تصح إضافته اليه ، وبولغ في ملكه وحكمه في الأيام القديمة التي تلت أيامه ، لأنه كان من أشهر ملوك (بني اسرائيل) ، حتى صارت أخباره من قبيل الأساطير .

وذهب المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) هذا المذهب أيضاً،فنسب بناء (تدمر) الى (سليمان)[٢] . أخذ رأيه هذا من هذا الموضع من التوراة بالطبع ، ومن الروايات التي وصلت اليه وكانت قد ظهرت قبله ، للسبب المذكور .

أما الروايات العربية ، فهي لا تفيد علماً ولا تصلح أن تكون دليلاً ، فهي روايات متأخرة دخلت الى المسلمين من أهل الكتاب ، أشاعها وروّجها أمثال (ابن الكلبي) بين الأخباريين ، فأخذوها بغير تحقيق ولا تدقيق . وقد ذكر (ياقوت الحموي) ان قوماً يزعمون انها مما بنته جنّ سليمان ، وان أهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بزمان[٣] .

ولدينا أبيات نسبت الى (النابغة الذبياني) تتضمن أسطورة بناء جنّ سليمان لتدمر ، امتثالاً لأمره الذي أصدره اليها ، فقد نسب اليه قوله :

---

١ Hastings, P. 889, Die Araber, I, S., 344.

٢ Hommel, in ZDMG., XIIV, 547, Ency., III, P. 1020, P. Dhorme. Palmyre dans les Textes Assyriens, in: Revue Biblique, 1924, PP. 106.

٣ البلدان (٢/٣٦٩) ، (ثم عاد الى الشام ، فوافى تدمر ، وكانت موطنه) ، (ملك سليمان) ، الاخبار الطوال (٢٠) ؛

إلاّ سليمانَ إذ قال الإلـه له ،   قم في البريّة فاحْدُدها عن الفنَد
وجيِّش الجنّ اني قد أمرتهمُ   يبنون تدمرَ بالصُّفّاح والعَمَد[1]

ولا يصلح شعر النابغة ولا أمثاله من شعراء الجاهلية أن يكون حجة في بناء (سليمان) لتدمر . فمن الجائز أن يكون النابغة أو غيره ، قد أخذ فكرته هذه من أهل الكتاب ، ومن الجائز أن يكون هذا الشعر من وضع الوضّاعين نسبوه اليه . وقد وضعت أشعار في الاسلام ونسبت الى الجاهليين ، والى آدم وهابيل وقابيل والجن وابليس .

وبين الأخباريين من ينسب بناء (تدمر) الى (تدمر بنت حسان بن أذينة ابن السميدع بن يزيد بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح) . وذكروا قصة تفيد عثورهم على قبر (تدمر بنت حسان)[2] . وقد أعجبوا ببنائها ووصف الشعراء صورتين جميلتين من بقية صور كانت فيها . وقد حاصرها خالد بن الوليد ثم ارتحل عنها فبعث أهلها رسلاً وصالحوه على ما أدوه له ورضي به[3] . أما قصة العثور على قبر في تدمر ووجود جثة فيه ، فأمر ليس ببعيد ولا بغريب . وأما قصة (تدمر بنت حسان) ونسبها والكتابة التي على قبرها ، فهي من وضع الأخباريين والقصاص ولا شك[4] .

وقد أشار (بلنيوس) (بلينيوس) الى مدينة (Palmyra) ، وهو أول كاتب (كلاسيكي) عرض لها ، فذكر أنها مدينة شهيرة ، ولها موقع ممتاز ، أرضها خصبة ، وبها ينابيع وعيون ، تحيط بحدائقها الرمال . وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الأطراف ، بعيدة المسافات ، وتقع بين انبراطوريتين عظيمتين انبراطورية (رومة) ، وانبراطورية (الفرث) (Parthia) ، ولهذا

---

١ (وخيس الجن • اني قد أذنت لهم) ، اللسان (خ/ى/س) ، معجم ما استعجم (١/١٩٤) ، (وستنفلد) ، البلدان (٢/٣٦٩) ، المشرق ، السنة الاولى العدد ١١ ، حزيران ، ١٨٩٨ م (ص ٤٩٦) ، مروج الذهب (٢/٢٤٤) ، (دار الاندلس) ، (ذكر الاخبار عن بيوت النيران ، وغيرها) •
٢ البلدان (٢/٣٦٩) ، معجم ما استعجم (١/١٩٤) •
٣ البلدان (٢/٣٧١) •
٤ Lidzbarski, Ephemeris, I, S., 207.

استرعت أنظار الدولتين[1] . وورد اسمها في كتب (الكلاسيكين) الذين عاشوا بعد (بلينيوس) مما يدل على ازدياد شهرة هذه المدينة بعد الميلاد[2] .

ويعود الفضل في حصولنا على معارفنا التأريخية عن تدمر الى الكتابات التدمرية التي درسها المستشرقون وترجموها الى لغاتهم وشرحوا ما جاء فيها ، وهي بالإرمية واليونانية ثم اللاتينية والعبرانية ، نشرت في كتب خاصة وفي كتب الكتابات السامية وفي ثنايا المجلات[3] ، والى كتب المؤلفين اليونان واللاتين والسريان . من هذه الموارد الرئيسية استقى المؤرخون معارفهم عن تأريخ هذه المدينة ، تضاف اليها موارد ثانوية ذكرت (تدمر) عرضاً لوجود مناسبة دعت الى ذلك مثل سجلات المجامع الكنيسية والتلمود .

أما تأريخ المدينة فلا نعرف من أمره شيئاً يذكر يعود الى ما قبل الميلاد . وأكثر ما كتب عن مدينة (تدمر) يعود الى ما بعد الميلاد .

وكان غالبية أهل (تدمر) برغم كتابة أمورهم بالإرمية وبالقلم الإرمي من العرب على رأي أكثر الباحثين ، شأنهم في ذلك شأن نبط (بطرا)[5] . وهم يرون ان القبائل العربية التي أخذت تستولي على المناطق الخصبة الواقعة في شرقي أرض (كنعان) ، بعد سقوط الدولة البابلية ، كتبوا بالإرمية، لأنها كانت لغة الكتابة

---

١ Pliny, Nat. Histo., V, XXI, 88, William Wright, An Account of Palmyra and Zenibia with Travels and Adventures in Bashan and the Desert, London, 1896, P. 110. وسيكون رمزه : Wright :

٢ Ency. Bibli. P. 4886.

٣ راجع الموارد الاتية فيما يتعلق بكتابات تدمر :
Répertoire d'Epigraphie Sémitique, Corpus Inscriptionum Latinarum, Corpus Inscriptionum Graecarum; Cantineau. Inventaire des Inscriptions de Palmyre, Beyrouth 1930; Littmann: Semitic Inscriptions, Part IV of «The Publications of an American Archeological Expedition to Syria in 1899-1900»; Sabernheim: Palmyrenische Inschriften, in: Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, 1905; De Vogue: Syrie Centrale — Inscriptions Sémitiques, 1868; J.B. Chabot: Notes d'Epigraphie d'Archéologie Orientales, in: Journal Asiatique, 1897-1901; Cooke: Textbook of North Semitic Inscriptions; Syria, Tome XIV, 1933, PP. 168, 169; Cantineau: Inscriptions Palmyrennes, Damas 1930; Fr. Rosenthal: Die Sprache der Palmyrenischen Inschriffen.

٥ Fr. Rosenthal, Das Sprache der Palmyren Inschriftten.

والثقافة في المنطقة الواسعة الواقعة غربي الفرات[1] . وتظهر في بعض الكتابات بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصيلة ، كما نجد فيها أسماء أصنام عربية مع أصنام إرمية[2] . وبالجملة فإن في (تدمر) ثقافة هي خلاصة جملة ثقافات : عربية وإرمية ويونانية ولاتينية،وأقدم كتابة عثر عليها فيها لا يتجاوز تأريخها سنة (٣٠٤) من التأريخ السلوقي ، أي سنة (٩) قبل الميلاد[3] .

كانت تدمر عقدة من العقد الخطيرة في العمود الفقري لعالم التجارة بعد الميلاد تمر بها القوافل تحمل أثمن البضائع في ذلك الوقت . كانت على اتصال بأسواق العراق وما يتصل بالعراق من أسواق في ايران والهند والخليج والعربية الشرقية ، كما كانت على اتصال بأسواق البحر المتوسط ولا سيما ديار الشأم ومصر ، كما كانت على اتصال بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال افريقية والعربية الجنوبية والهند . ان هذه التجارة هي التي أحيت تلك المدينة ، كما ان تغيّر طرق المواصلات بسبب تغيّر الأوضاع السياسية هو الذي شلّ جسم تلك المدينة فأقعدها عن الحركة بالتدريج .

لقد كانت القوافل الذاهبة من العراق الى بلاد الشأم ، أو القادمة من بلاد الشأم الى العراق ، تمر بمدينة (تدمر) . وكان الموضع الذي تحط فيه قوافل (تدمر) هو موضع (Vologesias) = (Vologesokerta) على نهر الفرات . ومن هذا المكان تنقل التجارة الى الجهات المقصودة في العراق ، ومنه تحمل تجارة العراق بالبر الى (تدمر) فدمشق[4] .

ويظهر من كتابة عثر عليها في احدى المقابر أن القوافل التجارية كانت تمر في حوالي سنة مئة قبل الميلاد بمدينة (تدمر) في أثناء أسفارها بين مدينة (دورا) (Doura) والشأم . وبين الطريق القديم وهذا الطريق ، تسكن قبائل عربية من سكان الخيام ، أي من النوع المعروف باسم (سكينيته) (Skenita) عند (الكلاسيكيين)[5] .

---

١ Ency. Brita, 17, P. 161.

٢ Syria, XIV, 1933, Nöldeke: Uber Orthographie und Sprache des Palmyrener, In ZDMG., XXIV, 1870, S., 85.

٣ Cooke: Northsemitic Inscriptions, No. 141, Vögue: Syrie Centrale, No. 30a, Ency., Brita., 17, P. 162.

٤ Die Araber, II, S., 61.

٥ The Cambridge Ancient History, Vol., IX, P. 599.

وقد اقتضت هذه الأعمال التجارية الواسعة تكوين علاقات سياسيـــة واقتصادية مع الفرس والرومان والروم والقبائل العربية في البادية التي لم يكن من الممكن مرور قوافلها في أرضها بسلام ما لم يتفق مع سادتها على دفع إتاوة سنوية ، أو جُعْل معلوم . ولضمان سلامة قوافلها ، اضطرت كما اضطر غيرهـا إلى إرسال حرّاس معها وإلى انشاء مواضع للحماية والاستراحة في مواضع متعددة من البادية . ونجـــد في الأخبار أن التدمريين جمعوا فلول أهل المدينة الذين سرّحوا من الجيش الروماني أو الذين أجبرهم الاضطراب أو ضعف قادة الجيش الروماني أو عنجهيتهم عـلى ترك الخدمة في جيش الرومان ، وألفوا منهم جيشاً درب تدريباً حسنـاً ، وصار قوة مقاتلة متفوقة على قوات الأعراب بما توفر عندها من حسن التدريب والطاعة والنظام ، واستطاعوا بهذه القوات من الهيمنة على أبناء البادية الجيـــاع الى الغزو والسلب ونهب القوافل ، ووضعوا لهم حاميات في المراكز الضرورية الحساســـة . فقد ورد في الكتابات أنه كان لهذه المدينة حامية (Militia) في (عانة)(عاناتا) (Anath) = (Anatha) في عام (١٣٢) و (٢٢٥) بعد الميلاد ، وفي (الحيرة) (Hirtha) في سنة (١٣٢) بعد الميلاد وفي (دورا) (Doura) في سنة (١٦٨) و (١٧٠) للميلاد[١] .

وقد عثر على مدافن بمقربة من القدس وجدت فيها كتابات تدمريـــة دوّنت عليها أسماء أصحاب تلك القبور ، ويظهر أنهم من جنود (تدمر) الذين التحقوا بالجيش الروماني ، وخدموا فيه ، وقد اشتركوا مع الرومان في محاصرة القدس . ويجوز أن يكون بعضهم من التجار جاؤوا الى هذه المدينة ، فأقاموا بها للاتجار .

وقد كوّن الرومان فرقاً من الجنود التدمريين المرتزقـــة الذين التحقوا بالجيش الروماني ، فاستفادوا منهم في قتال القبائل الغازية بصورة خاصـــة وفي القتال في البوادي لخبرتهم بهـــا ولقدرتهم على القتال في هذه المواضع وتمكنهم منها ، كما استخدموهم في قتال الفرس ومن كان في خدمتهم من الأعراب . واشتهر التدمريون في فن الرماية ، فكانوا في أيامهم من خيرة الرماة بالسهام ، ولذلك استعان بهم الرومان وألفوا كتائب منهم اشتهرت في الحروب . ولما سقطت (تدمر) احتفظ

---

١ Byrtus, Vol., III, Fasc., I, 1943, P. 25, 55, CIS. II. 3973. A. Cantineau: Syria. XIV, 1933, PP. 179, Musil, Palmyrena, P. 234.

الرومان بهم في جيوشهم ، فاستخدموهم في حروبهم في شمال إفريقية . وقد عثر على كتابات أثبتت انهم كانوا في جملة القوات الرومانية التي كانت في بريطانية[1].

واشتهر التدمريون بفرسانهم كذلك ، فقـد ألف (أذينة) قوة من القوات الراكبة لمحاربة أعدائه ، جهزها بأسلحة واقية من دروع ومن صفائح من المعدن يلبسها الفارس من أعلى رأسه الى أسفل قدمه ، فلا يستطيع عدوّه أن يناله بأذى ، كما درعت الخيل والجمـال بصفائح الوقاية ، على نحو ما كان يفعله الفرس في قوافلهم الراكبة في أثنـاء القتال . وقد اكتسبت هذه القوّات شهرة واسعة في حروبها مع الفرس والرومان[2] .

وكان أهل تدمر خليطاً من تجار ومزارعين . أما أطرافها وحواليها ، فكانوا أعراباً ورعاة . وكانت مدينة يونانية ولكنها لم تكن مثل المدن الأخرى المتـأثرة بالهيلينية في الشرق ، ولم تخضع لنظام المدن اليونانية (Greek Polis) ، وكانت خاضعة للرومان وبها حامية رومانية ، ولكن خضوعها كان في الواقع صورياً ، كما أن الحامية لم تكن شيئاً تجاه أهل المدينة والقبائل المحيطة بها . كانت المدينة بالرغم من الطابع الهليني – الروماني الذي يبدو عليها ، مدينة شرقية ، الحـكم فيها في يد الأسر ذات السلطان في البلدة تحكمها في السلم والحرب . لقد خلقت الاضطرابات السياسية التي حدثت في الشرق لضعف الحكومات الكبرى وانحلالهـا وانقسامها الى (ملوك طوائف) جماعة من الحكام السادات (Tyrannies) تزعموا القبائل أو المدن ، وشاركوا الحكومات في الحكم. ومن هؤلاء الأسرة التي حكمت (تدمر) . والأسرة التي حكمت (حمص) (Emesa) = (Hemesa)[3] .

وكانت في تدمر جاليات يونانية ورومانية ، أقامت فيها وفضلت السكنى فيها على المواضع الأخرى . أقامت بين أهل المدينة حتى صارت من سكان المدينـة ، كما كانت فيها جاليات يهودية نزحت اليها في زمن لا نستطيع تعيينه بالضبط ، قد يكون قبل سقوط القدس في أيدي الرومان بأمد للاتجار ، قامت بأعمال التبشير بين

---

١ Enc. Brit. 17, P. 163, Cooke, NSI, PP. 250 312, Lidzbarski, Ephemeris. II, S., 92.

٢ Die Araber, II, S., 259.

٣ Byrtus, Vol., III, I, 1943, P., 54, M. Rostovtzeff: Social and Economic History of the Hellenistic World, Ch., VI, PP., 842, 852.

السكان ، فتهوّد أناس منهم ، ورحل قسم من هـؤلاء المتهودين الى القدس ، وأقاموا فيها قبل خراب الهيكل بأمد[1] .

تمكنت هذه المدينة الصحراوية من رفع منزلتها من منزل منعزل في البادية تنزل به القوافل الى مكانة مدينة من الدرجة الأولى ، ومركز ديني خطير لعبادة الأصنام يحج اليه أعراب البادية،وسوق للتجارة تكدست فيه أنفس البضائع وأثمنها وتجمعت فيه رؤوس الأموال والذهب والفضة والجواهر ولا سيما بعد سقوط (بطرا) بأيدي الرومان ، وذهاب ملكهم ، فانتقلت أسواقهم الى أيدي التدمريين . وتولت قوافل (تدمر) نقل البضائع بين العراق والشأم مخترقة البادية الى المرافىء العراقيـة على الفرات . وقد عادت هذه القوافل على المدينة بخير عميم من أجور الوساطة في البيع والشراء ومن الضرائب التي تجبيها عن البضائع التي تمر بها أو تباع فيها ، والتي يحددها مجلس سادات المدينة . وتتبين مظاهر هذه الثروة في المباني الجميلة المنقوشة والتي تتحدث آثارها عنها ، وفي بقايا الهياكل والأعمدة المرتفعـة الجميلة المصنوعة من الحجر الصلد المصفوفة على جانب الشارع الكبـير من قوس النصر المقام عند المعبد الكبير الى نهايته في مسافة لا تقل عن (١٢٤٠) ياردة[2] .

ولما كانت (تدمر) مدينة حياتها الأساسية بالتجارة ، صار للتجـار وأرباب القوافل ولزعماء القوافل شأن خطير في الحياة الاجتماعية للمدينة ، حتى أشير اليهم في الكتابات ، حيث كثر فيها ورود ذكر (زعيم القافلة) و (زعيم السوق)[3] .

ومدينة مهمة لها مال وثروة وليس لها جيش ضخم قوي ولا مجـال لتكوين هذا الجيش فيها ، لا يمكن أن تبقى في مأمن ومنجاة من مطامع الطامعين . ولو كانت في بقعة منعزلة وفي بادية بعيدة . فقد كان لعاب الدول القوية يسيل عنـد سماعها بوجود شعوب صغيرة أو حكومات مـدن أو مواضع ذات ثراء ومال ، فتكتب اليها إما باعطاء ما عندها اليها ، وإما بدفع جزية ترضيها،راضية مرضية، وإما أن تمتنع فتزحف جيوشها عليها عندئذ فيكون كل ما يصل اليه يدها حلالاً طيباً ، ويكون الناس لها عبيـداً وخولاً ، لا نستثني (تدمر) من هذا الولـع

---

١ The Universal Jewish Encyclopedia, 8, P., 381.

٢ Ency. Brita., 17, P., 162, Syria, XXIV, 1933, P., 396, «Premières Restaurations à l'Arc Monumental de Palmyre», by Robert Amy;

٣ Cooke; North-Semitic, PP., 274, 279.

الانساني بالحصول على الثراء السهل بالطبع . لذلك طمع فيها الطامعون من شرقيين وغربيين . طمع فيها أهل العراق ، وطمع فيها الفرس ، وطمع فيها اليونان والرومان والبيزنطيون . وكان أول طامع فيها وصل خبره الينا من الفاتحين الأقوياء هو الملك (تغلت فلاصر) (تغلات بليزر) (Tiglath — Pilezer) الأول ، تلاه جملة غزاة ورثوا الحكم والملك والتسلط في أرض الشرق الأدنى .

واذا عرفنا ان (تغلت فلاصر الأول) (١١١٧ — ١٠٨٠ ق. م.)، كان قد استولى عليها ، فإن ذلك ينفي ما ورد في أخبار اليهود من بناء سليمان لتلك المدينة على نحو ما ذكرت . فقد جاء حكم (سليمان) بعد حكم هذا الملك الآشوري بنحو قرن ، وقد كانت المدينة قائمة قبل ذلك الملك بالطبع .

وقد صارت (تدمر) في جملة الأرضين التي أخضعها (الاسكندر) الكبير لحكمه . لحكم تلك الامبراطورية التي أراد أن يكوّنها في ذلك العالم ، ليوحد فيها الأجناس والأديان ، وليقيم مملكة واحدة على هذه الأرض . ومن عهد الاسكندر ظهر اسم (تدمر) الأجنبي ، أي (بالميرا) (Palmyra) بين اليونان واللاتين[1] .

ولما انقسمت دولة (الاسكندر) قسمين ، صارت (تدمر) من نصيب (السلوقيين) على ما يظهر . ولكننا لا نعلم شيئاً عن عهد استيلائهم عليها ، ولا عن مدة بقائهم فيها . وقد حاولت (تدمر) أن تقف موقف الحياد بين (الفرث) والرومان ، وتمكنت من ذلك أمداً ، اذ كان من مصلحة الدولتين المتنافستين وجود محل منعزل محايد، كي يتمكن تجار الدولتين من الاتجار فيه ومن التسوق منه[2].

وقد قام أحد القادة السلوقيين ببناء حصن ليضم اليه الجنود المقدونيين في مدينة (تدمر) . فعل ذلك سنة (٢٨٠) قبل الميلاد . ولعلّ هذا الحصن ، هو واحد من سلسلة حصون أقامها السلوقيون في المواضع المهمة ذات المكانة الخطيرة من الوجهة السياسية والعسكرية والتجارية لحماية مصالحهم فيها[3] .

ولا يعرف تأريخ خضوع تدمر للرومان معرفة أكيدة . وقد ورد في تأريخ (أفيفانوس) أن (مرقس أنطونيوس) القائد الروماني بعد أن حارب الملوك

---

١ Agnes Carr Vaughan, P., 7, New York, 1967.
وسيكون رمزه : Vaughan
٢ Vaughan, P., 8.
٣ Freya Sterk: Rome on the Euphrates, P., 242, New York, 1967.

(الأرشكيين) ، ودارت عليه الدوائر توجه الى الشأم عائداً من ثم الى (رومة). فلما قرب من (تدمر) أوفد الى أهلها رسلاً يخبرونهم أنه قاصد مدينتهم ليريح فيها جنوده من أتعاب الحرب ومشقة الطريق . وكان يريد في نفسه الاستيلاء على المدينة وأخذ ما فيها من أموال ونفائس . فأحس التدمريون بالمكيــدة ، وبادروا الى نقل أموالهم وما يملكون من أشياء ثمينــة ، فتعقبهم الرومان حتى أدركوهم فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت الغلبة فيه للتدمريين[1] . أما المدينة نفسها فقد حل بها الخراب وأصبحت ركاماً ، وكان ذلك في حوالي سنة (٤١) قبل الميلاد[2] .

وفي أيام القيصر (طيباريوس) (طبريوس) (Tiberius) (١٤ — ١٧ م) كانت (تدمر) في جملة الأرضين التابعة لحكم الرومان[3] .

ونجد بين الكتابات التي عثر عليها في هذه المدينة قوائم (كمركية) تبـين بعض الرسوم التي كانت تجبى عن البضائع وأثمانها باليونانية والتدمرية يعود تأريخها الى سنة (١٧) بعد الميلاد[4] .

ويظهر من قائمة الضرائب التي وضعت في أيام (جرمانيكوس) (Germanicus) (١٧ — ١٩ م) لجبايتها عن البضائع التي ترد دوائر (كمارك) المدينة ، وفي أيام (دوميطيوس كوربولــو) (Domitius Corbulo) (٥٧ — ٦٦ م) أن مدينة (تدمر) كانت في نفوذ وحكم (رومة) في العصر الأول للميلاد . وقد كانت تابعة للرومان في أيام الأنبراطور (فيسبسيان) (Vespasian) (٦٠—٧٩م). غير أن هذا لا يعني انها كانت خاضعة للرومان خضوعاً تامــاً ، وأن الاشراف على شؤون المدينة كان كله بأيدي موظفي (رومة) ، بل كان ذلك اشرافاً عاماً ، أما الادارة،فكانت بأيدي أهل المدينة[5] . وأن الحكم الروماني لم يتدخل في أمورها تدخلاً فعلياً . حتى ان الرومان سمحوا للمدينة الاحتفاظ بحاميانها (Militia) التي

---

١ المشرق ، السنة الاولى ، العدد ١٣ ، ١ تموز ١٨٩٨ (ص ٥٨٨) ، Appian: De Bello Civili, V, 9, Wright, P., 110.

٢ Oberdick: Syria, Tome, VII, S., 46, 1926, P., 77, Mommsen: Römische Geschichte, 1894, V.S., 243, Ency. Brita., 17, P., 162, Syria. XXII, 1941, PP., 170.

٣ Vaughan, P., 8.

٤ Cooke, PP., 313-332, J. A. Chabot, II, 301.

٥ Ency. Brita., 17, P., 162, Jean Starcky: Palmyre, Paris, 1952, PP., 27.

كانت لها في الخارج في مثل موضع (Vologasia) وفي مواضع أخرى[1] .

وقد زارها الانبراطور (هدريانوس) (Hadrianus) (١١٧ — ١٣٨ م) سنة (١٣٠) بعد الميلاد،ومنحها لقب (هدريانا بالميرا) (Hadriana Palmyra) و (هدريا نوبوليس) (Hadrianopolis)[2] ، وعثر فيها على كتابة مدونة بالإرمية واليونانية يرتقي تأريخها الى سنة (١٣٧) بعد الميلاد ، أي الى أيام هذا الانبراطور ، جاء فيها أشياء تخص الأحوال التجارية في هذه المدينة أصدرها مجلس سادات المدينة لتنظيم التجارة ، وتثبيت الضرائب ، وكيفية الجباية وما الى ذلك من أمور . وهي من الكتابات المهمة الطويلة التي ترينا ناحية خطيرة من نواحي حياة تدمر[3] .

وقد بذل (هدريانوس) عناية كبيرة بـ (تدمر) ، حتى قيل فيه انه مؤسس المدينة الثاني . واعتنى عناية خاصة بحماية الطرق البرية التي تصلها بنهر (الفرات) الذي كان شرياناً مهماً من شرايين التجارة العالمية في ذلك العهد . فقد كان يقوم بالمهمة التي عهدت الى (قناة السويس) ، فيما بعد . ولأهمية هذا النهر الذي هو الممر المائي الذي يوصل تجارة ذلك المحيط الغالية الى الموانىء الواقعة عليه ، سعى لتحسين صلاته بالفرس وبالمحافظة على الأمن في البادية ، لتتمكن القوافل من المرور منها بأمن وسلام . وأوصل حامياته الى شواطىء الفرات الغربية ، بل يقال انه أنشأ أسطولاً فيه،وان التجار التدمريين أقاموا في مدينة (Vologasia) وأقاموا لهم معبداً هناك ، ليتعبدوا فيه لإلٰههم الذي منحهم الخير والرفاه[4] .

وقد منحت (تدمر) درجة مستعمرة رومانية عليا ، فاكتسبت بذلك حق الامتلاك التام والاعفاء من الخراج ، والحرية الكاملة في ادارة سياسة المدينة . ونالت الحقوق الايطالية (Colonia Juris Italici) (Italici Juris) (Jus Italicum) .

---

١ Freya Stark: Rome on the Euphrates, P., 244.

٢ (هدريانوس) ، الطبري (٧٤٢/١) ، (طبعة ليدن) ، (٢٥/٢) (طبعة المطبعة الحسينية) .

٣ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ١٢ ، ١٥ حزيران ، ١٨٩٨ ، (ص ٥٣٨) ، Ency. Brita., 17, P., 162, Cooke, P., 322, Mommsen: Römische Geschichte, V., S., 423, Wright, P., III.

٤ Mommsen: Provinces of the Roman Empire, II, P. 236, Rostovtzeff: Caravan Cities, Oxford, 1932, P., 144, Leon Homo: Le Siècle d'Or de l'Empire Romain, Paris, 1947, P., 224 Fr. Stark: Rome, P., 253.

منحت هذه الدرجة في ايام (هدريانوس) على رأي ، أو في أيام (سبتيميوس سويروس) (Septimius Severus) (١٩٣ – ٢١١ م) على رأي آخر[1]. وكانت تتمتع بهذه المنزلة في أيام (كراكلا) (Caracalla) (٢١١ – ٢١٧ م) كذلك[2]. ولكن منحها درجة (مستعمرة) لا يعني انها صارت مقاطعة رومانية مئة بالمئة ، بل كانت في الواقع حكومة مستقلة ذات سلطة واستقلال في ادارة شؤونها خاضعة خضوعاً شكلياً لحكم الرومان[3].

وقد استفادت (تدمر) من سياسة (هدريانوس) المنطوية على الميل الى السلم ومجانبة الحرب ، ومن سياسة (انطونينوس بيوس) (Antoninus Pius) (١٣٨ – ١٦١ م) الذي نشر ألوية السلم والطمأنينة ، فوسعت تجارتها، وزادت في عدد قوافلها ، وحصلت على ثروة طائلة. وتعدّ المدة المنصرمة بين سنة (١٣٠) و (٢٧٠) بعد الميلاد من أحسن أيام هذه المدينة . فالى هـذه الأيام ترجع معظم النصب والآثار العظيمة التي ما برحت تشاهد بقاياها في جملة ما يشاهد من أشلاء المدينة وجدثها المهشم بين الأتربة والصخور .

وقد كانت في تدمر حامية رومانية أيامَ (ماركوس أوريليوس) (مارقوس أوريليوس) (Marcus Aurelius) (١٦١ – ١٨٠ م) ، على طريقة من سبقه من الحكّام في وضع حامية رومانية في هذه المدينة .

ولسلطان (رومة) على تدمر ، استفاد الرومان من المحاربين التدمريين وكونوا منهم فرقاً وكراديس لحماية الطرق ومصالحهم الممتدة في البوادي ، فأودعوا أمر

---

١ المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٢ ، ١ تموز (ص ٥٨٩) ، Wright, P., 112. Syria, Tome, XIV, 1933, P., 32, The Cambridge Ancient History, XII, 1, 2, P., 18.

٢ المشرق ، الجزء المذكور ، Syria, XIV, 1933, P., 32, Rowell: Inscriptions Grecques de Doura Europos, 1929-1930, PP., 265.

٣ Rostovtzeff: Social and Economic History of the Roman Empire, P., 532, Syme: Cambridge Ancient History, XI, P., XI, P., 139, Dessau: Geschichte der Römischen Kaiserzeit, II, S., 627; Kornemann - Volker: Staaten; Ency. Brit., 17, P., 163; Cooke, NSI, PP., 250, 312, Lidzbarski: Ephemeris; Manner, S., 99, III, Jonnes: Cities of the Eastern Roman Empire, P. 267, Février: Essai sur l'Histoire de Palmyre, P. 14.

الدفـاع عن (دورا) (Doura) الى الكـردوس التـدمري العشرين (XXth Cohore Palmyrenorum) [1] . وتركوا مهمـة حراسة (الفنـادق) (Funduq) التي أقامها الرومان على الطريق الى كراديس الرماة التدمريين لحماية القوافل من لصوص الطرق والسالبين[2] .

وقد تأثرت (تدمر) بأصول اليونان والرومان وطرقهم في ادارة الحكم،فكان للمدينة مجلس (شيوخ) (Senatus) له سلطة سن القوانين والتشريع ، ولـه رئيس وكاتب وجملة أعضاء.ويشرف على السلطة الاجرائية شيخان (Archontes) وديوان يتألف من عشرة حكام . أما السلطة القضائية فينظر فيهـا بعض الوكلاء (Syndices) وغيرهم من العمال[3] .

ويحمل موظفو المدينة عناوين يونانية تشير الى أثر التنظيم اليوناني فيها ، والى انها كانت تنفذ النظم الادارية اليونانية في أعمال الشعب.فالرئيس هو (Proedros) والكاتب أي (السكرتير) هـو (Grammateus) ، وهنالك عناوين وظائف أخرى هي : (Archontes) و (Syndicus) و (Dekaprotoi) ، وهي المجالس المحلية التي يتألف كل مجلس منها من عشرة أعضاء . جرى هذا التنظيم عـلى وفق نظام المدن اليونانية في حماية (الانبراطورية) الرومانية[4] .

ودعيت السلطة التنفيذية ، المؤلفة من أعضاء مجلس الشيوخ ، وكذلك الشعب بـ (Strategoi) وهي تعادل (Duumviri) (Dumviri) عند الرومان[5] .

وتجمل التدمريون الذين حصلوا على حقوق (مواطن روماني) بأسماء رومانية مثل (سبتيميوس) (Septimius) و (يوليوس أوريليوس) (Julius Aurelius) وضعوها في مقدمة أسمائهم النبطية أو العربية[6] . وقـد فعل ذلك قبلهم العبرانيون ونبط (بطرا) وسكان بلاد الشأم وغيرهم من الضعفاء الذين يظنون انهم سيكتسبون بهذه المحاكاة الاحترام والتقدير . والضعيف انما يتشبه بالأقوياء ليخفي ضعفه .

---

١ Ancient Cambridge History, XI, 3, 4, P. 116.

٢ R. Dussaud: Pénétration des Arabes en Syrie, 73.

٣ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ١٢ ، ١٥ ، حزيران ، ١٩٦٨ م (ص ٥٤٢) .

٤ Ency. Brita., 17, P. 161.

٥ Ency. Brita., 17, P. 162.

٦ Ency. Brita., 17, P. 162.

أسرة (أذينة) :

كان للانقلاب الذي وقع في مملكة الفرث أثر كبير في حياة مدينة تدمر ، وأعني بهذا الانقلاب ثورة (أردشير بن بابك بن ساسان) على الملك (أرطبان) الخامس ملك الفرث ، وتأسيسه حكومة جديدة هي دولة (الساسانيين) (٢٢٦م)[١] . فكان من نتائج ظهور الدولة الساسانية تجدد الحروب بين الرومان والفرس ووقوع معارك بين الدولتين .

وقد أحسنت أسرة عريقة من أسر (تدمر) الاستفادة من هذه الحروب ، وجر المغانم اليها ، والحصول على مركز عال لدى الرومان . وزعيم هذه الأسرة هو (أذينة) من (بني السميدع) ، ينسبه (الطبري) الى (هوبر العمليقي) (العملقي) من عاملة العماليق ، فهي من بقايا (العماليق) على رأي الأخباريين[٢] .

و (أذينة) من أسرة قديمة معروفة ، تولى رجالها رئاسة تدمر والزعامة عليها ، واستطاعت بفضل تأييدها للرومان وتقربها اليهم أن تكتسب ودّ القياصرة وعطفهم عليها والانعام على أفرادها بالألقاب والأوسمة وبالمال في بعض الأحيان ، وبالقوة والمعونة وهي غاية كل سيد قبيلة وأمنية كل رئيس في مجتمع قبلي يقوم النظام السياسي والاجتماعي فيه على مفهوم الحكم القبلي في كل زمان ومكان . ولم يتعرض الرومان لحكم أفرادها على المدينة اذ كانت أحكامهم لا تعارض أحكام (رومة) ولا تصطدم بها . فتركوهم يديرون شؤونها على وفق السياسة الرومانية وارادة القياصرة وأوامرهم التي يصدرونها الى (المشيخة)،فكانوا يعدّونهم (Procuratores) لدى قياصرة الرومان[٣] .

ووردت في الكتابات التدمرية أسماء نفر من رجال هذه الأسرة،منهم (نصور) (Naswar) (Nasores) (نصر) (ناصور) ، وهو جدّ (أذينة) . واسمه يشير الى اسم عربي الأصل هو (نصور) أو (ناصر) أو (نصر) تحوّل

---

١ الطبري (٣٥٤/١ ، ٦٨٧ ، ٧٠٤ ـ ٧٠٨ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧٤٤ ، ٧٤٧ ، ٧٩٩ ، ٨١٣ ـ ٨٢٥ ، ٨٣١ ـ ٨٣٣ ومواضع أخرى) ، (طبعة ليدن) ، مروج الذهب (٢٠٦/١) (طبعة دار الرجاء) .

٢ (أذينة بن السميدع بن هوبر) ، مروج الذهب (١٦/٢) ، الطبري (٣١/٢).

٣ Zosim, I, 39, Oberdick, S. 22.

الى (نصرو) ليلائم النطق النبطي . وهو والد (وهبلات) (وهب اللات) (Vahballatat) (Vaballathus) ، و (وهب اللات) ، هو والد ولد اسمه (خيران) (حيران) (Airanes) . و (حيران) (خـيران) ، هو والد (أذينة)[1] .

و (نصور) اذن هو أقدم من وصل الينا اسمه من أسماء الأسرة التي حكمت مدينة (تدمر) . وهو شخص لا نعرف عنه شيئاً ما . وقد يكون من سادات القبائل في الأصل مَن جاء الى هذا المكان فاستقر فيه ، وتولى نسله أو هو الحكم فيه . وقد يكون لهذا الاسم صلة بـ (نصر) الذي ينسب أهـــل الأخبار ملوك الحيرة اليه ، فيقولون انهم من (آل نصر) .

وكان (سبتيميوس خيران) ، على رأس مجلس المدينة ، ولقبه الرسمي الذي عرف به عند أهل مدينته (رأس تدمر) (رش تدمور) إضافة الى لقبه الذي لقبه به الرومان[2] . وقد تمكن من تثبيت حكم أسرته ومن الهيمنة على شؤون المدينة ومن توسيع تجارتها ، فاكتسب بذلك منزلة كبيرة عند أهل تدمر ، وعند الرومان. ورافق (سبتيميوس سويروس) (١٩٣ — ٢١١ م) في حروبه مع الفرث وتقرب اليـــه ، ولقب نفسه بـ (سبتيميوس) ، فصار اسمـــه (سبتيميوس خيران) (سبتيميوس حيران)[3] .

وقد عثر على كتابة يرجع الباحثون زمان كتابتها الى حوالي السنة (٢٣٥) للميلاد، أو بعد ذلك بشيء قليل ، ورد فيهـــا اسم (أذينة بن خـيران بن وهب اللات ابن نصور) . وقد لقب (أذينة) فيها بلقب (سقلطيق) (Skiltyk) . وقد كان يحمل لقب عضو في مجلس (الشيوخ) الروماني[4] .

وقد نعت (سبتيميوس أذينة) بـ (سقلطيقا) (Skiltyka) في الكتابة التي دونت لتكون شاخصاً لأحد القبور . وقد حصل على لقب عضو مجلس الشيوخ ، ثم لقب نفسه بلقب (ملك) (Rex) ، وذلك في حوالي سنة (٢٥٠) للميلاد[5] .

---

١ J. Cantinau: Inventaire des Inscriptions de Palmyra, 8, 1936, No. 55, Die Araber, II, S., 252; Oberdick, S., 152, Syria, Tome XII, 1931, J. Cantineau: Palmyrenien Provenant du Temple de Bel, PP. 138.

٢ Cooke, NSI, No. 125, Die Araber II, S. 252.

٣ المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٣ ، تموز ١٨٩٨ م (ص ٥٩٠) .

٤ Die Araber, II, S., 252.

٥ المشرق : السنة الأولى ، الجزء ١٣ ، تموز ١٨٩٨ م ، (ص ٥٩٢) .

وجمع الناس عليه، فأدرك الرومان ما وراء هذه الدعوة من خطر على مصالحهم، فأوعز القيصر الى (روفينوس) (Rufinus) باغتياله ، فقتل وتخلص الرومان منه[1].

ومن ولد (أذينة) ، (سبتيميوس خيران) (حيران) (Septimius Hairan) تولى رئاسة تدمر بعد مقتل أبيه[2] . وقد ذكر اسمه في كتابة دونت سنة (٢٥١) للميلاد ، ولم يصطدم بالرومان . وقد كان مثل أبيه بدرجة (Senator) كما لقب أيضاً بلقب (رش تدمور) ، أي (رأس تدمر) (رئيس تدمر)[3] . ولقب بلقب (Exarkus) (Exarchus)[4] .

ولما مات (سبتيميوس خيران) ، خلفه (أذينة) (Odenatus) على شؤون المدينة . ولم يرد نسبه في النصوص،فلا ندري أكان ابناً أم شقيقاً لـ (سبتيمبوس خيران)[5] . وقد ذهب بعضهم الى انه كان أخاه[6] . وكان شجاعاً فارساً ألِفَ حياة البداوة جريئاً ، محباً للصيد ولا سيما صيد الذئاب والفهود والأسود[7] . تولى قبل انتقال الحكم اليه قيادة الجيش والقوافل ورئاسة قبائل البادية،فكانت له مؤهلات خاصة وكفايات حسنة مكّنته من رفع شأن (تدمر) في أعين الرومان ، ومن تكوين اسم لها عند رجال الدولتين المتزاحمتين .

وقد تبين من كتابة دونت سنة (٢٥٨) للميلاد ومن كتابتين أخريين انه كان يحمل درجة قنصل (Vir Consularis) في عهد القيصر(فاليريانوس) (Valerianus)[8] كما كان يحمل لقب (مرن) ، أي (سيدنا) ، وهو اللقب الذي يستعمله أهل (تدمر) ، وهو يعادل لقب (Exarkos) (Exarchos) في اليونانية[9] .

---

١ Oberdick, S. 22, Wright, P. 115.

٢ يرى (Oberdick) أن (روفينوس) قتل (سبتيميوس خيران) الابن الأكبر لـ (أذينة) مع والده ، لذلك تولى (أذينة) الثاني الحكم بعد مقتل أبيه فورا ، Oberdick S. 22.

٣ Die Araber II, S. 252.

٤ Die Araber, II, S., 252, Cantineau, 3, No. 16.

٥ Die Araber, II, S., 252, J. Cantineau, 3, No. 16.

٦ المشرق : السنة الأولى ، الجزء ١٣ ، السنة ١٨٩٨ م (ص ٥٩٢) . Die Araber, II, S., 252, J. Cantineau, 3, 22.

٧ المشرق : السنة الأولى ، الجزء ١٣ ، السنة ١٨٩٨ م (ص ٥٩٢) .

٨ Die Araber, II S., 253, H. Seyrg, in: Annales Archéol. de la Syrie, 13, 1963, 159, 162, J. Cantineau, 3, No. 17, Ency. Brita., 17, P. 162, Cooke, NSI, No. 126.

٩ Die Araber, II, S. 253.

وقد ذكر بعض المؤرخين ان (أذينة) الذي نتحدث عنه كان ابناً لـ (أذينة) ابن (خيران) ووالد (سبتيميوس خيران)، وانه كان قد هرب الى الجبال وألف حياة البداوة والربى منذ صغره لينتقم من الرومان الذين اغتال قائدهم (روفينوس) (Rufinus) أباه[1]. فلما انتقل الحكم اليه، عمل جهده على الأخذ بثأر أبيه، فراجع (فالبريانوس) (والريانوس) شاكياً اليه ما فعله (روفينوس) بأبيه، طالباً منه انزال العقاب به. أما القيصر، فلم يأبه لهذه الشكوى، ولم يحسب لها حساباً، فغاظ ذلك (أذينة) وأزعجه وحمله على التفكير في الاتصال بأعداء الرومان، وهم الفرس[2]. فلما بلغه نبأ زحف (فالبريانوس) على الفرس في عام (٢٥٩) بعد الميلاد وخيانة قائده (مكريانوس) وسقوط القيصر أسيراً في أيدي الفرس على مقربة من (الرها)، أرسل رسلاً الى (سابور) حملهم هدايا كثيرة وكتاباً يتودد فيه اليه ويظهر رغبته في مصالحته ومحالفته. فلما بلغ الرسل معسكر الملك، وطلبوا ملاقاته لابلاغه الرسالة، استكبر عليهم وتجبر، وأظهر عجبه من تجاسر (شيخ) على الكتابة اليه، ومخاطبته مع أنه (ملك الملوك)، وهو رئيس مدينة في بيداء قفرة لا قيمة لها ولا أهمية! ومن يكون أذينة؟ هذا الرجل الذي دفعته حماقته الى التجاسر على سيده بالكتابة اليه؟ فإن كان له أمل في عقوبة خفيفة، فليأت إليّ ويداه مغلولتان الى ظهره! وإن لم يفعل، فليعلم بأني سأهلكه وأهلك أسرته وأنزل الدمار بمدينته؟ ثم مزّق الرسالة، ورمى بالهدايا تحت قدميه[3]. فعاد الوفد كاسف البال خائفاً مما قد يقوم به هذا الملك المغرور الطائش من عمل تجاه مدينة خسرت الرومان، ولم تحظ بالاتفاق مع الساسانيين.

ولما رجع الرسل الى تدمر وأعلموه بما جرى، قرر الأخذ بثأره من هذا الملك المتغطرس الطائش، فجمع القبائل بظاهر تدمر وجعلها تحت امرة ابنه (هروديس)، وضم اليها فرسان تدمر بقيادة (زبدا) كبير قواده، وقوّاسيها

---

١ Oberdick, S. 22, Wright, P. 115.

٢ (والريانوس)، (والريبانوس)، الطبري (٧٤٣/١)، (ليدن).

٣ أمر سابور برمي الهدايا في النهر،
Oberdick, S., 23, Wright, P. 118 Gibbon: The Decline and Fall of the Ro-
Empire, Vol., I, P. 236.

بقيادة (زبّاي) ، وهما من (آل سبتيميوس) أي من أقرباء أذينة ، وحشد معهم بعض الكتائب الرومانية وفلول جند (والريانوس) وسار على رأس هـذا الجيش قاصداً المدائن للانتقام من (سابور) الذي كان قد انشغل بغزو الأنحاء الشمالية ، ولانقاذ القيصر من الأسر[1]

وفي أثناء زحف (أذينة) على المدائن ، وصلته أنباء تغلب القائد الروماني (كاليستوس) على الفرس ، وتشتت شملهم وهربهم ، فغير اتجاهه وأسرع اليهم لملاقاتهم ، وقد أدركهم قبل تمكنهم من عبور نهر الفرات،فالتحم بهـم وتغلب عليهم،وولى (سابور) مع فلول جيشه مذعوراً تاركاً أمواله وحرمه غنيمة في أيدي التدمريين.ولم يتمكن الفرس من عبور نهر الفرات الا بعد تعب.ولما عبروه هنأ بعضهم بعضاً على السلامة والنجاح[2] . اما أذينة، المنتصر الظافر ، فكتب الى (غاليانوس ابن والريانوس) (كاليانوس بن والريانوس) يخبره بهزيمة الفرس ، وباخلاصه للامبراطورية ، ففرح القيصر بالطبع بخبر النصر فرحاً عظيماً ، وأنعم عليه بدرجة قائد عام على جميع عساكر المشرق (Dux Romanorum) ، وحثه على مواصلة الحرب لانقاذ (والريانوس) والده من الأسر[3] .

وقد أشار المؤرخ (ملالا) (ملالس) الى ملك دعاه (Enath) ، ذكر انه كان ملك العرب (السرسين) (Saracens) الأجلاف الغلاظ وحاكم (العربية) وحليف الرومان ، وذكر انه هاجم ملك الفرس (سابور) في ايام (والريانوس) وكان قد سار الى حدود الامبراطورية الساسانية،وتوغل فيها وأوقع خسائر بالفرس[4]. وقد قصد به الملك (أذينة) هذا الملك الذي نتحدث عنه .

ويظهر أن (أذينة) كان يتحبب الى الرومان ، فأنعموا عليـه بالألقاب ، ومن ذلك لقب (Vir Consularis) الذي كان يحمله في عـام (٢٥٨) للميلاد . وقد منح قبل هذه السنة على ما يظهر . ولعلّ ضغطه المتزايد على الفرس هـو

---

١ المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٣ ، السنة ١٨٩٨ م ، (ص ٦٣٧ وما بعدها) .
Oberdick, S., 23, Wright, P. 118.

٢ المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٣ ، السنة ١٨٩٨ م ، (ص ٦٣٧ وما بعدها) ، ويروى (بالستا) ، Wright, P. 118, 119, 120, Oberdick, S., 23, 24.

٣ المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٣ ، (ص ٦٣٩) ، ١٨٩٨ م ،
Wright, P. 120, Ency. Brita., 23, P. 944.

٤ Malalas, XXIII, 5, 2, Musil, Palmyrena, P. 247.

الذي حملهم على ترك (دورا) (Dura) (Doura) ففسح بذلك المجـــال لعودة الحامية الرومانية الى هذه المدينة ، فرفع ذلك من شأنه في أعين الروسان[1] .

وتمكن (أذينة) من تحرير الجزيرة من الفرس،وفتح (نصيبين) (Nicibis) (Nisibis) و (حرّان) فاستقبل هو وجنوده استقبالاً عظيماً . وكـان الناس يذكرون بازدراء (غاليانوس) الذي تركهم فريسة للفرس[2] . ثم سار بجيوشه الى (طيسفون) (Ktesiphon) [3] (٢٦٤ م) ، فخاف (سابور) وأمــر بجمع كل ما عنده من قوات للدفاع عن عاصمته ، غير انها لم تتمكن من وقف زحف التدمريين فوصل (أذينة) الى (المدائن) وحاصرها ، ونصب المجانيق وآلات الحصار افتحها ، وكاد (سابور) يلتمس منه الأمان لولا حدوث حادث أكره أذينة على ترك الحصار والتراجع ، هو خروج (مكريانوس) (Macrianus) (Macrinus) القائد الـــذي كان السبب في وقوع (والريانوس) في الأسر على القيصر (غاليانوس) وتنصيبه نفسه قيصراً على آسيـة الصغرى ومصر وفلسطـــين والشأم . فاضطر هذا الانقلاب (أذينة) الى الرجوع الى مدينته بسرعة ، لاتخاذ موقف حاسم تجاه هذا الوضع السياسي الجديد[4] .

لم يكن (أذينة) مطمئناً الى (مكريانوس) (Macrianus) (Macrinus) كان يكرهه ويخشى أن يستولي على ملكه ان تمكن واستأثر في الحكم ، فقرر منازلتـــه قبل منازلة (مكريانوس) له . وبيـــنما كان يهمّ بالزحف عـــلى (حمص) (Emisa) (Emissa) جاء نبأ مقتل (مكريانوس) ، فأعلن السوريون ولاءهم لأذينة وخروجهم على (كياثوس بن مكريانوس) وساروا مع التدمريين لمحاصرة (كياثوس) في مدينة (حمص) . ولما اشتد الحصار على المدينـة وطال ، قتل

---

١ Berytus, VIII, Fascl., I, P. 56.

٢ المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٣ ، سنة (١٨٩٨ م) (ص ٦٤١) ، Oberdick, S., 25. Berytus, Vol., VIII, Fasc., I, 1934, P. 34, Zosim, I, 39, Trebell, Poll. Valer, VII, Rostovtzeff : Res Gestae divi Saporis; Dura, by Michael, I.

٣ (طيسفون) ، بفتح أوله وسكون ثانية وسين مهملة وفاء وآخره نون ، هـــي مدينة كسرى التي فيها الايوان . البلدان (٦/٨٠) .

٤ Syria, XVIII, 1937, P. 2, « Note sur Hérodien, Prince de Palmyre », by Henri Seyric, Oberdick, S., 25.

(كاليستوس) سيده (كيـاثوس) ورمى برأسه من فوق السور تحت قدمـي (أذينة) ثم فتح له أبواب المدينة والتمس منه الأمان ، فمنحه اياه ودخل المدينة في سنة (٢٦٢) للميلاد[١] .

ولم يكن استسلام أهل (حمص) للتدمريين أمراً سهلاً عليهم فقد كانت بين الفريقين شحناء وبغضاء . نظر أهل حمص الى أهل تدمر نظرة ازدراء وغضاضة، إذ كانوا يرونهم ناساً أجلافاً، ليس لهم حظ من حضارة وثقافة، أهل بادية حفاة جفاة . وقد يكون لاتصال حدود (تدمر) بحدود حكومة (حمص) وغارات أعراب تدمر على أرض حمص يد في خلق هـذا النزاع . وقد لاقت حمص من استيلاء أهل تدمر عليها عنتاً شديداً إذ حل بها دمار وخراب لرفضها الاستسلام لـ (برابرة تدمر)[٢].

لقد سقطت حمص في أيدي التدمريين، بالرغم من تضرع أهلها وتوسلهم بالإلهة (الشمس) لتنصرهم على أعدائهم وتنزل بهم خسائر فادحة . وقـد كانوا من عُبّادها المخلصين . ولكن أهل تدمر كانوا يتعبدون للشمس كذلك ، وقد توسلوا وتضرعوا اليها لتنصرهم على أعدائهم أهل حمص . لقد كان موقف (الشمس) موقفاً حرجاً . فالطرفان المتخاصمان ، من عبادها . وقد أقام كل منهما معبداً ضخماً فخماً لعبادتها ، زوقت أبوابه وذهبت قبابه ، وكل منهما يتوسل اليها ، فأي طرف تؤيد إذن ؟ والظاهر ان اختيارها وقع على تدمر إذ انتصروا على أهـل حمص ، ودخلوا المدينة ظافرين[٣] .

وسرّ (أذينة) ولا شك من هذه النتيجة ، فقرر بعد استراحة جنوده بضعة أيام أن يسير نحو الشمال للقضاء على المنشقين . وبينا هو في طريقـه ، تلقى أنباء تمرد (كاليستوس) وخروجه عليه واعلان نفسه ملكاً ، فأمر نفراً من رجالــه بالذهاب الى معسكر (كاليستوس) لاغتياله ، فذهبوا اليه ، وتمكن فارس من الدخول الى خيمته وقتله[٤] . عندئذ تحسن موقفه، فسار الى الجزيرة ، وتعقب الفرس فقبض على عدد من (المرازبة) (Satrapen) وأرسلهم الى (رومة) ، وأظهر

---

١ المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٥ ، آب ١٨٩٨ م (ص ٦٨٧) .

٢ Petr. Patr. Fra., 167, Dio, Ed: Boiss, 3, 744, A. Alfoldi in : Berytus, 5, 84, Die Araber, III, S., 251.

٣ Die Araber II, S., 250.

٤ المشرق ، العدد نفسه (ص ٦٨٧) ، Trebellius, Trig. Tyr., 17,

اخلاصه وطاعته لقيصر ، فرضي عنه واطمأن اليه ، وأعطاه منزلة رفيعة هي : (Dux Orientis) (Imperator Totius) ودعاه انبراطوراً على جميع أنحاء المشرق، أي عـلى الشأم والجزيرة وآسية الصغرى عـدا (بتينية) وبضع نواح شمالية ، (٢٦٤ م)[1] . وضربت نقود باسمه صور عليها أذينة ووراءه بعض أسرى الفرس . وجعل تحت امرته جميع القوات الرومانية المعسكرة في المشرق . وكلفه القضاء على فلول جيش (مكريانوس) وتطهير المقاطعات الرومانية منهم[2] .

واختار أذينة لنفسه لقباً آخر حبيباً الى نفوس الشرقيين هو لقب (ملك الملوك) (ملك ملكا)[3] ، لعله فعل ذلك محاكاة للملوك الفرس . ومنح لقباً آخر هـو (أغسطس) (Augustus) لقب قياصرة الرومان[4] . والانسان متى أبطرته النعمة مال الى اتخاذ أمثال هذه الألقاب ! وفي رواية أن مجلس الشيوخ الروماني منحه لقب (أغسطس) ، فصار مساوياً للقيصر ، وأنه أمر بوضع صورته مع صورة الانبراطور على النقود التي أخذت غنيمة من الفرس[5] .

وعرف (أذينة) بـ (متقنا دي مدنحا كله) ، (متقنـا متقنانوتا) ، وتقـابل معنى (Reparator Totius Orientis) أو (Correctores Italiae) (Utriusque Italiae, Italiae Regionis Transpadanae)[6] ، وتقابل درجـة (Correctores) منزلـة (رئيس) (Praesides)[7] ، أي رئيس مقاطعة من المقاطعات .

وقام (أذينة) باصلاحات جمة أظهر فيها أنه لم يكن قائداً قديراً فقط ، بل كان الى ذلك رجل ادارة وسياسة وتسامح أيضاً . فنع تعصب الوثنيين على النصارى واضطهادهم لهم ، ومنح كل طائفة حريتها في ممارسة شعائر دينهـا ، وخول

---

١ المشرق ، العدد نفسه (ص ٦٨٨) ، Oberdick, S., 31, Ency. Brita., 17 P. 162.

٢ المشرق ، العدد نفسه (ص ٦٨٨) ، Oberdick, S., 31.

٣ Die Araber, II, S., 253.

٤ المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٥ ، السنة (١٨٩٨ م) ، (ص ٦٨٨) ، Gibbon, I, P. 241.

٥ Wright, P. 121.

٦ Die Araber, II, S., 253, Cambridge Ancient History, 12, 175.

٧ Die Araber, II, S. 253.

النصارى حتى بناء الكنائس حيثما شاؤوا [1] . وتعقب اللصوص وقطـاع الطرق من الجنود الهاربين والمسرحين من الخدمة والصعاليك الذين وجدوا في الاعتداء عـلى الآمنين ومهاجمة القوافل والقرى والمدن خير مصدر للحصول على الكسب والمغانم والمال ، وقتل (كاليستوس) زعيم الصعاليك الـذي استمال من لا عمل له إلاّ الفتنة والاعتداء على الناس ، وبذلك أراح أذينة نفسه وأراح المقاطعات الرومانيـة من شر هؤلاء ، واطمأن الناس على أنفسهم ، وعادوا الى أماكنهم التي اضطروا الى تركهم لها بسبب تلك الاعتداءات التي قام بها من أطلق عليهم الكتـاب اسم (الظالمون)[2] .

وصمم (انبراطور الشرق) و (ملك الملوك) بعد هذه الأعمـال على انتزاع القيصر (والريانوس) من أيدي الفرس ، ومحاربة خصمه المتغطرس المتلقب بلقب (ملك الملوك) كذلك . قد يكون حباً في اذلال من استهان به فمزق رسالته أمام أعين رسله ، وقد يكون تقرباً للرومان وتودداً الى القيصر (غاليانوس). والشرقيون مبالغون ويا للأسف في اكرام الغرباء ، متزلفون الى القوي منهم ، ولو كان في ذلك هلاك الوطن والرعية . عيّن ابنه البكر (سبتيميوس هيرودس) (Septimius Herodes) من زوجته الأولى نائباً عنه في ادارة شؤون الملك ، وأخذ هو جيشه وسار به لمحاربة الفرس في أوائل عام (٢٦٥) بعد الميلاد . سار به الى(طيسفون) عاصمة (سابور) فحاصرها أمـداً ، ويظهر ان (سابور) أظهر استعداده لعقد صلح لولا اشتراط (أذينة) فك أسر (والريانوس) ، وهو شرط كان في نظر الفرس جدّ عظيم[3] .

ووقع حادث مهم اضطر (أذينة) الى تبديـل خططه العسكرية وترك حصار (طيـسفون) . ذلك هو انتهـاز (القوط) فرصة محاصرة (أذينـة) للمدائن وابتعاده عن آسية الصغرى وبلاد الشأم ، فعبروا بحر (بنطس) (Pontus) أي البحر الأسود[4] ونزلوا بميناء (هرقلية) (Heraclea) ثم زحفوا عـلى (بثينية)

---

١ المشرق ، العدد المذكور (ص ٦٨٩) .

٢ (الظالمون الثلاثون) ، المشرق (ص ٦٨٩) ، Tribellius : Trig. Tyr., 14.

٣ Oberdick, S., 35, Hieronym. Chron. XII, Gallieni : « Odenatum Persas ita Cecidisse, ut Castra a Ctesiphontem Poneret », Zosim, I, 39, Trebellius, Poll., 2, Gall 10 « Ctesiphon ».

٤ (بنطس) ، البلدان (٦٦/٢ ، ٢٩٣) ، ويعرف أيضا ببحر (طرابزندة) ، البلدان (٦٦/٢) .

و (فريجية) و (غلاطية) و (قيادوقية) ، وكانوا يقصدون من وراء زحفهم هذا التوسع والاستيلاء على آسية الصغرى وبلاد الشأم وكل ما يمكن الاستيلاء عليه من بلاد الشرق . فلما علم (القوط) بمجيء (أذينة) هربوا الى ميناء (هرقلية) مسرعين ، ومنه ركبوا الى بلادهم التي جاءوا منها[1] . فقرر عندئذ الرجوع الى العراق لفتح (طيسفون) . وبينما كان (أذينة) في (حمص) لاراحة الجند ، أعد وليمة كبيرة تذكاراً ليوم ميلاده حضرها قواده وكبار القوم . فانتهز (معنى) (Maeonius) ابن اخيه (خيران) هذه الفرصة ، فقتل هو وعصابته عمه (أذينة) وابن عمه (هيرودس) (Herodus) ، لاغتصاب عمه منه ملكه الذي ورثه من أبيه . ونادى بنفسه ملكاً على المملكة التي أنشأها وكونها (أذينة) القتيل ، وبذلك استرجع حقه من المقتول . ولكن حياة القاتل كما يقول المثل الشرقي لا تطول ، وذلك قولهم : « بشّر القاتل بالقتل » ، فما كاد يتربع على العرش اياماً حتى انتقمت منه سيوف (حمص) ، وألحقته بالعالم الواسع الذي ذهب اليه القتيلان (٢٦٦ — ٢٦٧ م)[2] .

ما أعجب الحياة . في مدة قصيرة طفر فيها رجل (تدمر) من رئيس في مدينة صحراوية الى ملك على عرش مملكة ، فقائد كبير في أعظم انبراطورية في عالم ذلك الزمن ، ومنافس للقيصر وملك على الشرق ، وفي لحظة واحدة انتقل فيها هذا القائد الملك من هذا العالم الى عالم القبر . انها الحياة لا بد لها من نهاية مهما بلغ الانسان من منزلة ومكانة ، لا تعرف قوة وصولة ولا فقراً وضعفاً ، الجميع الى هذه النهاية منتهون ، وللفيلسوف أن يستخرج منها حكمة الحياة .

هل قتل (معنى) عمه لاغتصابه حقه الطبيعي في الملك ؟ أو قتله لأسباب أخرى ؟ وهل كان لأحد مثل الملكة (الزباء) ضلع في الحادث ؟ وهل كان للرومان يد في هذه الجريمة ؟ وهل كان للحزب الوطني التدمري الذي كان يكره اليونان والرومان وكل سيطرة غريبة يد في هذا الاغتيال ؟ لما عرف عن (أذينة)

---

١ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ١٥ ، (١٨٩٨ م) ، (ص ٦٩١) .

٢ راجع خبر مقتل (أذينة) والعداء الذي كان بينه وبين (معنى) والنزاع الذي حدث بينهما حين كانا في الصيد في مجلة المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ١٥ ، (١٨٩٨ م) ، (ص ٦٩١ وما بعدها) ،

Oberdick, S., 38, Zosim, I, 39, Treb. Poll., 30, Tyr. 15, Gibbon, I, P. 263, Vaughan : Zenobia, P. 60.

من دفاعه عن الانبراطورية الرومانية وحماسته في الدفاع عنها ؟ هذه أسئلة سألها المتعمقون في تأريخ (تدمر) والباحثون فيه ، وأجابوا عنها أجوبة مختلفة . فمنهم من رأى ان الجريمة هي انتقام شخصي بسبب اغتصاب (أذينة) حق القاتل الذي ورثه من أبيه ، ومنهم من رأى انها مسألة مدبرة مدروسة وان للزباء يداً فيها . ومنهم من رأى انها بتدبير الرومان وعلمهم ، فعلوها للتخلص من رجل أخذوا يشكّون في اخلاصه ، ويرتابون منه . ومنهم من رأى عكس ذلك : رأى انها فاجعة للرومان وخسارة كبيرة لسياستهم في الشرق ، وانها من أعمال الوطنيين الذين رأوا في ملك تدمر أداة طيعة مسخرة في أيدي سادة(رومة)فقرروا لذلك الانتقام منه.

أما نحن فنرى أن من الصعب البت في سرّ قتل (أذينة) وابنه ، فالأخبار الواردة في هذا الموضوع غامضة ، والأدلة غير متوفرة ، ومبايعة الجيش وقوّاده للقاتل في سرعة ومن غير كلام أو قتال ، ثم قيام أهل حمص بقتل القاتل بعد أيام ، وتولى الملكة (الزباء) الحكم بعده وبسرعة هي قضايا فيها نظر . ولهذا تعددت الآراء ، ولن تتفق ما دامت الروايات المقدمة الينا على هذا النحو من التعقد والأمور[1] .

أظهر (أذينة) مقدرة فائقة جديرة بالاعجاب ، استطاع أن يكوّن جيشاً قوياً يخيف الفرس ويلحق بهم الخسائر ويكتسب تقدير الرومان واحترامهم في مدة قصيرة ، واستطاع أن يكوّن من القلعة الصغيرة المبنية في البادية مملكة كان لها أثر خطير في النزاع السياسي العسكري بين الرومان والفرس . لقد قام بعمل عسكري عظيم في محاولاته الحربية لانقاذ القيصر (والريانوس) محاولات لم يقم بها سيد (رومة) وابن القيصر الأسير ولا أتباعه الرومان . لقد (أرسلته الشمس أسداً مخيفاً مرعباً)[2] .

لقد وقعت في أيام (أذينة) أحداث خطيرة عظيمة في الشرق الأدنى بين المعسكرين : المعسكر الشرقي وهو معسكر الفرس ، والمعسكر الغربي وهو معسكر الرومان يساعدهم التدمريون . كانت انتصارات الفرس في سنة (٢٦٠) بعد الميلاد،

---

١ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ١٥ ، (١٨٩٨ م) ، (ص ٦٩٣) ،
Oberdick, S., 40, Gibbon, I, P. 263, Vaughan : Zenobia, P .60.

٢ Oracula : Sibyllinus, VV, 169, Berytus, Vol., VIII, Fasc., I, 1943.

ثم أسر القيصر (والريانوس) ، وغزو بلاد الشأم ، وقيام (أذينة) بالهجوم على الفرس ، وطردهم من الأرضين التي احتلوها من الأمور الخطيرة التي وقعت في ذلك العهد ، أفادت الرومان ولا شك كثيراً ، ولكنها لفتت أنظارهم في الوقت نفسه الى الخطر الجديد الذي أخذ يتهددهم من ظهور قوة (تدمر) ، وتسدمر في بلاد الشأم . وقد تتزعم الحركات الوطنية المعادية للرومان في الشرق ، فتكون كارثة على (رومة) . ونجد أخبار (أذينة) وأعماله خاصة بعد معركة (الرها) (Edessa) في تأريخ (سوزيموس) (Zosimus) [1] .

ولا بد لي في هذا الموضع ، وقد انتهيت من الحديث عن أذينة ، من الإشارة الى رجل كان له شأن وذكر في أيام (أذينة) ، وكان أقوى شخصية في تدمر الا وهو (ورود) (Worod) الذي ورد ذكره في عدد من الكتابات ، أقدمها الكتابة المدونة بشهر نيسان من سنة (٢٦٢) للميلاد وقد لقب فيها بـ (Procurator Ducenarius) [2] . كما لقب بلقب (مرن) الذي تلقب به (أذينة) أيضاً ، أي (سيدنا) و (أميرنا) ، وبألقاب أخرى مثل (Cursus Honorum) و (قائد القافلة) و (شريف المستوطنة) وغير ذلك من نعوت حملها (أذينة) نفسه ، مما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان الرجل الثاني في تدمر بعد (أذينة) ، ومن الغريب ان اسمه اختفى مع اسم أذينة في السنة التي قتل فيها الملك نفسها ، فلم نعد نقرأه في الكتابات [3] .

وكان (ورود) يقوم مقام (أذينة) بأعباء الحكم عند غياب (أذينة) عن عاصمته . ويرى بعض الباحثين ان اسمه الكامل هو (يوليوس أورليوس سبتيميوس ورود) (جوليوس أورليوس سبتيميوس ورود) (Julius Aurelius Septimius Worod) وانه كان من الطبقة (الأرستقراطية) ، وهو من أصل فارسي روماني. وقد نال أعلى الألقاب المعروفة في أيامه ، حتى ضاهت الألقاب التي لقب بها (أذينة) . والظاهر انه كان شخصاً كفؤاً حازماً لذلك نال مركزاً لم يبلغه أحد غير (أذينة) ، اذ كان الرجل الثاني في تدمر بعد الملك [4] .

١ Oracula : Sibyllinus, XVIII, Zosimus, I, 27, I, 36, I, 39.

٢ J. Cantineau, 3n. II, Die Araber, II, S., 255.

٣ Die Araber, II, S., 255.

٤ Vaughan, P. 58.

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن المكانة التي حصل عليها بعد مقتل (أذينة) وتولى (الزباء) أعباء الحكم نيابة عن ابنها (وهبلات) . والظاهر انه لم ينل عند الملكة المنزلة التي بلغها عند (أذينة) ، وان عيّنته الملكة نائباً عنها في بعض الأوقات ، وكل ما وصل اليه عندها هو منصب (مستشار) ، فقد كانت تستدعيه عند الحاجة لاستشارته في بعض الأمور الخطيرة . وقد كان لها جماعة مستشارين تستعين بآرائهم في ادارة الحكم وفي تنظيم الأمور المالية،ولا سيما الجباية من التجارة والتجار .

ولم يشر (الطبري) ولا غيره من المؤرخين المسلمين الى حروب (أذينة) مع (سابور) على أهميتها وبلوغ ملك (تدمر) فيها العاصمة (طيسفون) . وهذا أمر يدعو الى العجب، حقاً اذ كيف يهمل المؤرخون والأخباريون هذا الحدث الخطير ؟ فلا بد أن يكون هنالك سبب . ورأيي ان سببه الموارد الأصلية التي اعتمد عليها المؤرخون المسلمون والأخباريون واخذوا منها ، وهي موارد فارسية الأصل متعصبة للفرس، أو موارد عراقية ميّالة اليهم .

وقد أخذ المؤرخون المسلمون تأريخ الفرس من موارد فارسية ، أما تأريخ الرومان واليونان ، فقد أخذوه من موارد نصرانية سريانية في الغالب ، ولكنهم أخذوه بقدر ، ولم يتوسعوا في الطلب ، لذلك كان تأريخ الرومان واليونان مختصراً جداً وضعيفاً بالقياس الى ما دوّن عن تأريخ الفرس . عبارة عن جريدة بأسماء القياصرة جافة في الغالب ، ونتف وقطع مبثوثة هنا وهناك في الفصول المدوّنة عن تأريخ الدول الفارسية ذكرت في المواضع التي تكون لها صلات بتأريخ الفرس ، ولذلك أيضاً أدمج أكثر ما دوّن عن تأريخ الغساسنة وعرب الشأم في الأوراق التي دوّنت عن تأريخ الحيرة وعرب العراق . وقد انتزعت من موارد فارسية — عراقية ، ففيها تعصب للفرس وللعراق على الروم والرومان وبلاد الشأم[1] .

واظن ان الموارد الأولى التي نقل منها الأخباريون والمؤرخون كلامهم عن تأريخ الفرس لم ترقها الاشارة الى انتصارات ملك كوّن مملكة في البادية بنفسه ، على (سابور) صاحب انبراطورية واسعة تتباهى بنفسها على الرومان ، فأهملت الكلام عنها بدافع العاطفة والنزعات القومية . فلما ترجمت تلك الموارد الى العربية أو نقل

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الاول والجزء الثاني .

منها ، لم يجد الأخباريون والمؤرخون شيئاً يقولونه عن انتصارت (أذينة) على (سابور) ، وإلا ذكروه كما ذكروا حادث أسر (سابور) للقيصر (والريانوس) في أثناء كلامهم عن سابور . وقد ذكره الطبري فقال : (وانه حاصر ملكاً كان بالروم يقال له الريانوس بمدينة انطاكية ، فأسره وحمله وجماعة كثيرة معه وأسكنهم جنديسابور)[1] .

الزباء :

انتقل الملك بعد مقتل (أذينة) و (معن) الى (وهبلت) و (هبلات) (وهب اللات) ، وهو ابن (أذينة) من زوجه (الزّباء) ويعرف في اليونانية بـ (اتينودورس) (Athenodorus) . وكان لوهبلات اخوة هم : (حيران) (خيران) و (تيم الله) من أذينة (أذينة) وامه (الزباء) . وكان قاصراً، لذلك تولت الوصاية عليه وتأديبه بأدب الملوك حتى يبلغ سن الرشد ، فعلّمته (اللاتينة) والفروسية ، وهيأته ليكون ملكاً كبيراً كقياصرة الرومان أو أكاسرة الفرس وسعت هي لتهذيب الدولة وتوسيعها وبسط نفوذها على أماكن واسعة لم تكن خاضعة لتدمر ، لذلك كان لا بد من حدوث احتكاك وتصادم بينها وبين الرومان .

وللأخباريين احاديث واقاصيص عن الزباء ، واسمها عندهم (نائلة بنت عمرو ابن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العميلقي (العملقي) من العماليق[2] . و (الزباء بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر) على زعم[3] ، و (ليلى) في زعم آخر . وزعموا ان لها اختاً اسمها (زبيبة) بنت (الزباء) لها قصر حصين على شاطىء الفرات الغربي ، فكانت تشتو عند اختها وتربع ببطن النجار ، وتصير الى تدمر . كما كان لها جنود هم في نظرهم بقايا من العماليق والعاربة الأولى ، وتزيد وسليح ابن (حلوان بن عمران

---

١ الطبري (٦١/٢) (طبعة المطبعة الحسينية) .

٢ الطبري (٣١/٢) ، ابن خلدون (٢٦١/٢) ، حمزة (٦٥) .

٣ مروج (١٦/٢) .

ابن الحاف بن قضاعة) ومن كان معهم من قبائل قضاعة [1] . وذكر (ابن خلدون) ان ملك العرب بأرض الحيرة ومشارف الشأم كان لعمرو بن الظرب، وكان جنود الزباء من بقايا العمالقة من عاد الأولى ومن نهد وسليح ابني حلوان ومن كان معهم من قبائل قضاعة ، وكانت تسكن على شاطىء الفرات وقد بنت هنالك قصراً ، وتربع عند بطن المجاز ، وتصيف بتدمر ، أخذ قوله هذا من تأريخ الطبري وتصرّف فيه بعض التصرف [2] . أما الأصل ، فخبر من اخبار الأخباريين ، واما النقل فحكمه حكم الأصل بالطبع . وأما ان جنود (الزباء) من بقايا (العمالقة) ، فهو أمر مقبول في نظر اصحابنا الأخباريين ، ولِمَ لا ؟ إن (الزباء) في رأيهم من بقايا العمالقة ، اي من العرب الأولى فلِمَ لا يكون جنودها اذن من اولئك القوم ؟

وزعم بعض الأخباريين ان (الزباء) من ذرية (السميدع بن هوثر) من (بني قطورا) اهل مكة ، وهي بنت (عمرو بن أذينة بن الظرب بن حسان). وبين (حسان) و (السميدع) آباء . وزعم آخرون ان (عمرو بن الظرب) كان على مشارف الشأم والجزيرة ، وكان منزله بين (الخابور) و (قرقيساء) ، فوقعت بينه وبين (مالك بن فهم) حروب هلك (عمرو) في بعضها ، فقامت بملكه من بعده ابنته (الزباء) . وقد استمرت الحرب بين (مالك) و (الزباء) الى ان الجأها الى اطراف مملكتها . وكان (مالك) على ما يصفه الأخباريون رجلاً قديراً يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما في ايديهم [3] . وهو في نظرهم اول من ملك من (عرب الضاحية) . وكان منزله مما يلي (الأنبار) ، ثم ملك بعده أخوه (عمرو بن فهم) . فلما هلك تولى من بعده (جذيمة الأبرش) الشهير في تأريخ الحيرة [4] .

والذي حارب (عمرو بن الظرب) على رواية منسوبة الى (ابن الكلبي) ذكرها (الطبري) هو (جذيمة الأبرش) . وكان جذيمة على هذه الرواية قد جمع جموعاً من العرب سار بها يريد غزاة (عمرو) ، وأقبل (عمرو) بمجموعة

---

١ الطبري (٣٢/٢) .
٢ ابن خلدون (٢٦١/٢) .
٣ ابن خلدون (٢٥٩/٢ وما بعدها) .
٤ الطبري (٢٨/٢) .

من الشأم فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل (عمرو بن الظرب) وانفضت جموعه. فأجمعت الزباء رأيها لغزو (جذيمة) للأخذ بثأر أبيها، واستعدت لذلك. غير ان اختاً لها هي (زبيبة)، وكانت ذات رأي ودهاء وأدب، نصحتها بترك الحرب، فإن عواقبها غير مضمونة، فاستجابت لنصيحتها، وعمدت الى طرق المكر والحيل فراسلته واستدرجته الى عاصمتها في قصة معروفة مشهورة لا حاجة بي الى اعادتها، فغدرت به وقتلته[1]. وطلب (قصير بن سعد بن عمرو ابن جذيمة بن قيس بن ربي بن نمارة بن لخم)، وكان اريباً حازماً أثيراً عند (جذيمة بن الأبرش) من (عمرو بن عدي) خليفة (جذيمة) على الحيرة الخروج لقتال (الزباء)، فأحجم فلما رأى ذلك منه، صمم على أن يأخذ هو بالثأر، فذهب اليها مدعياً انه مضطهد ممقوت لتهمة نسبت اليه هي انه ساهم في قتل (جذيمة) فوثقت به واطمأنت اليه وهي لا تعلم ما يخفي لها، ثم طلب منها أن يعود الى بلده ليعود بأمواله ونفائس ما لديه فسمحت له وأعطته تجارة لتصريفها هناك، فباعها وعاد بأرباح طائلة وبأموال كثيرة، فزادت ثقتها به وتكرر الحال، حتى اذا ما وثق من اطمئنانها اليه عاد في المرة الأخيرة برجال أشداء من بني قومه ومعهم (عمرو بن عدي)، وضعهم في جوالق كبيرة فلما توسطوا في المدينة، أنزلت الجوالق وخرج الرجال منها، فوضعوا سيوفهم في رقاب أهلها، فلما رأت الزبّاء ذلك، أرادت الهرب من نفق حفرته لمثل هذه الأيام، اطلع قصير عليه، فوضع (عمرو بن عدي) على بابه. فلما رأته الزباء مصت خاتمها، وكان فيه سم، قائلة: (بيدي لا بيدك يا عمرو)، وتلقاها عمرو بن عدي بالسيف فجللها به وقتلها، وغنم كثيراً، وانكفأ راجعاً الى العراق[2].

وهي قصة محشوة بالأمثال المنسوبة الى أبطالها: جذيمة وقصير والزباء وعمرو

---

١ حمزة (٦٥) .

٢ الطبري (٢/٣٤ وما بعدها) ، مروج (٢/١٩ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٢٦١ وما بعدها ،) البلدان (٣/٣٧٩) ، مروج الذهب (٢/٦٩ وما بعدها) ، (قصة جذيمة) . فلما نظرت الزباء الى مشي الجمال ، قالت :

ما للجمال مشيها وئيدا   اجندلا يحملن أم حديدا ؟
أم صرفانا باردا شديدا   أم الرجال جثما قعودا ؟

مروج (٢/٧٢) ، (دار الاندلس) .

ابن عدي ، وفيها على عادة الأخباريين في رواية أمثال هذا القصص شعر نسب بعضه الى هؤلاء الأبطال ، ونسب بعضه الآخر الى شعراء أقحمت أسماؤهم في القصة ليؤكد واضعوها ولا شك صدق حديثهم،وليلوّنوا كلامهم بعض التلوين .

ونجد قصة الزبّاء وجذيمة وقصير المطالب بالثأر في شعر ينسب الى (عديّ بن زيد العبادي) ، جاء فيه :

ألا أيها الملك المرجّى ألم تسمع بخطب الأولينا
دعا بالبقّة الأمراء يوماً جذيمة عصر ينجوهم ثبينا
فطاوع أمرهم وعصى قصيراً وكان يقول لو تبع اليقينا

ثم يستمر في نظم القصة شعراً حتى تنتهي . وقد ختمت بنصح الإنسان ليتعظ بالحوادث والمنايا ، التي لا تعرف أحداً مها كانت درجته ومنزلته ، إلا أخذته، ثم صيرته أثراً بعد عين[1] .

وذكر أهل الأخبار ان (الزبّاء) كانت تأتي الحصون ، فتنزل بها ، فلما نزلت بـ (مارد) ، حصن دومة الجندل ، وبالأبلق ، حصن تيماء ، قالت تمرد مارد وعز الأبلق ، فذهبت مثلاً[2] .

ولم يبخل الأخباريون على الزباء ، فنحوها ابياتاً زعموا انها قالتها ، وجعلوها أديبة في العربية بليغة الى اعلى درجات البلاغة . لها حكم وامثال بهذه العربية ، عربية القرآن الكريم . ولا غرابة في ذلك ، فالذي ينسب شعراً عربياً الى آدم وابليس ويرويه مشكّلاً مضبوطاً على وفق قواعد النحو والصرف ، لا يعجز عن رواية شعر ينسب الى (عمرو بن الظرب) والى ابنته الزباء .

وذكر ان معاوية ذكر في أحد مجالسه (الزباء) وابنة (عفزر) ، فقال : « اني لأحب ان أسمع حديث ماوية وحاتم ، فقال رجل من القوم: أفلا أحدثك يا امير المؤمنين ؟ فقال : بلى ، فقال : إن ماوية بنت عفزر ، كانت ملكة وكانت تتزوج من أرادت »[3] .

---

١ الشعر والشعراء (١١٢ وما بعدها) ، (عدي بن زيد العبادي) ، وفي الكتب الاخرى اختلاف في الالفاظ والعبارات ، مروج (٢/٧٣) ، (دار الاندلس) .
٢ مروج (٢/٧٣) ، (دار الاندلس) .
٣ البيان والتبيين (٣/٩) .

ويذكر اهل الأخبار ان (ابنة عفزر) قينة كانت في الدهر الأول، لا تدوم على عهد ، فصارت مثلاً . وقيل : قينة كانت في الحيرة ، وكان وفْدُ النعمان اذا اتوه لهوا بها . وذكر ان (عفزر) اسم اعجمي ، ولذلك لم يصرفه (امرؤ القيس) في قوله :

أشيمُ بروق المُزنِ أين مَصابُهُ ولا شيء يشفي منك يا ابنة عفزرا[1]

ولم تشأ الكتابات التدمرية الاعلان عن اسم ملكة تدمر ، بل ذكرتها على هذه الصورة : (بت زباي) اي (بنت زباي)[2] . و (زباي) هو اسم والد الملكة ، حذفت كلمة (بت) وهي (بنت) في العربية ، وقلب الحرف الأخير وهو الباء من كلمة (زباي) وصُيِّر همزة ، فصار (زباء) ، وعرفت ملكة تدمر عند العرب باسم (الزباء) .

وقد ذكر المؤرخ (فلافيوس فوبسكوس) (Flavius Vopiscus) ان والد (الزباء) رجل من تدمر اسمه (اخليو) (Achilleo)[3] ، و (Achilleo) هو (انطيوخس) (Antiochus) في رواية اخرى[4] .

وقد أثنى عليها المؤرخ (تريبليوس بوليو) (Trebellius Pollio) ووصفها وصفاً جميلاً ، واشار الى مقدرتها وقابليتها ، وذكر انها كانت تتكلم اليونانية وتحسن (اللاتينية) ، وتتقن اللغة المصرية وتتحدث بها بكل طلاقة ، وتهتم بشؤون المملكة ، وتقطع المسافات الطويلة سيراً على الأقدام في طليعة رجال جيشها ، الى غير ذلك من كلام فيه ثناء واطراء على هذه الملكة[5] .

وقد بلغتنا روايات تفيد ان الملكة ادعت انها من مصر ، من سلالات الملوك وانها من صلب الملكة الشهيرة (قلبطرة)[6] (كليوبطرة) (Cleopatra) ، وانها كانت نفسها تتكلم المصرية بطلاقة ، وانها ألفت كتاباً كتبته بخط يدها اختصرت

---

١ اللسان (٥٩١/٤) .
٢ المشرق ، السنة الأولى ، (١٨٩٨ م) ، آب ، الجزء ١٥ ، (ص ٦٩٣) .
٣ Flavius Vopiscus Aur., 31, Oberdick, S., 143.
٤ Zosimus, I, 61, Oberdick, S., 143.
٥ Trebellius Pollio : Hist. August., P. 192, 199, XXX, Tyranni., C., 14.
٦ مروج (٢٥٩/١) (طبعة دار الرجاء) ، Oberdick, S., 47, Gibbon, I, P. 202.

فيه ما قرأته من تواريخ الأمم الشرقية ولا سيما تأريخ مصر[1] ، وانها استقدمت مشاهير رجال الفكر الى عاصمتها ، مثل الفيلسوف الشهير (كاسيوس ديونيسيوس لونجينوس) (Cassius Longinus) (٢٢٠ — ٢٧٣ م) بعـد الميلاد . وكان فيلسوفاً عـلى مذهب الأفلاطونية الحديثة ومن أصدقاء الفيلسوف (فرفوريس) (Phorphyrios) ، استقدمته الملكة الى عاصمتها واستضافته عندها وجعلته مستشاراً لها ، فأخلص لها في مشورته،فكان ذلك سبباً في قتله . فقتله القيصر (أوريليانوس) (Aurelianus) ، لاتهامه انه كان يحرض الملكة على الرومان[2] .

ومثل الكاتب المؤرخ (كليكراتس الصوري) ، و (لوبوكوس) البيروتي اللغوي الفيلسوف ، و (بوسانياس) الدمشقـي المؤرخ ، و (نيوكوماخس) (Nicomachus) من زمرة الكتّاب المؤرخين،المتضلعين بالإغريقية،ومن الفلاسفة ، وقد تولى الكتابة باللغة الإغريقية ، وصار من مستشاريها كذلك[3] . ولذلك أمر به القيصر (أورليانوس) فقتل بعد محاكمته بمدينة حمص، في الوقت الذي حوكمت فيه الملكة والفيلسوف (لونجينوس) ، الذي قطع رأسه بعد ان مثّل به[4] . وفي حشد هذا النوع من الرجال دلالة على ميول الملكة الفلسفية الأدبية وثقافتها العالية ولا شك .

وملكة شأنها هذا ، لا بد ان تكون حرة الفكر، متساهلة مع اصحاب العقائد والآراء . وهذا ما كان . ففي مدينة (تدمر) الوثنية عاشت جاليـة كبيرة من اليهود تمتعت بممارسة شعائرها الدينية بكل حرية ، ونالت حقوق المواطنة التي كان يتمتع بها التدمريون ، جاءت الى المدينة مهاجرة من فلسطـين خاصة بعد خراب القدس على ايدي القيصر (طيطوس) (تيتوس) (Titus) في سنة (٧٠) بعد الميلاد[5] . فاشتغلت فيها بالتجارة ، فحصلت على ارباح طائلة جداً ، وصار لها في المدينة اسم وشأن حتى ان مجلس المدينة والشعب اقام تمثالاً في سنة (٥٦٩)

---

١ Oberdick, S., 47, Vaughan, P. 79.

٢ فقدت مؤلفات هذا الفيلسوف ولم يبق منها غير : (Le Sublime)
أي كتاب الايغال ، المشرق، السنة الاولى الجزء ٢٠ ، السنة ١٨٩٨م ، (ص٩٢١)، Hervey, P. 245.

٣ المشرق ،الجزء نفسه (٩٢١) ، Vaughan, P. 192.

٤ Vaughan, P. 192.

٥ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ٢٠ (١٨٩٨ م) ، (ص ٩٢٤) .

السلوقية المقابلة لسنة (٢٥٧) الميلادية ليهودي يدعى (يوليوس أورليوس شلميط) (Julius Aurelius Schalmath) قائد القافلة ، لأنه ترأس القافلة ، وأنفق عليها من ماله[١] .

وقد بالغ بعض المؤرخين في عدد اليهود الذين كانوا في (تدمر) ايام حكم الزباء فزعم انه بلغ نصف عدد سكان المدينة ، وهو زعم يحتاج الى اثبات . وزعم القديس (أثناسيوس) (St. Athanasius) ان ملكة تدمر كانت تدين باليهودية[٢] ولكنها مع تهودها لم تهب أبناء دينها الكنائس لتكون لهم مجامع ومحافل[٣] . وذهب الى هذا الرأي المؤرخ (فوتيوس) (Photius)[٤] . وذكر (فيلاستريوس) (Philastrius) ان الذي هوّد الملكة هو (بولس السميساطي) (Paulus Samosatius)[٥] وهو أسقف كان مقرباً الى الزباء ، وله منزلة عالية لديها . ونسبت اليه آراء في المسيح وفي بعض الأمور الدينية الأخرى دعت الى محاكمته في مجمع (انطاكية) الذي انعقد في سنة (٢٦٤) للميلاد ، فوجد المجمع ان تعاليمه تشبه تعاليم (أرتاماس) (أرتامون) الذي حكم عليه قبلاً ، فحرّموا آراءه كذلك ، ثم حكم عليه في (انطاكية) سنة (٢٦٩) بعزله عن الأسقفية ، ولم تتدخل (الزباء) في القرارات التي اتخذها رجال الكنيسة تجاه بولس ، كما انها لم تنفذ قراراتهم بحقه ، بل أبقته في مركزه وتركته على ما كان عليه[٦] .

ويرى بعض المؤرخين أن خبر تهود الملكة خبر مختلق ، وضعه آباء الكنيسة للإساءة الى سمعة (بولس السميساطي) والطعن فيه والحط من تعاليمه وللتأثير في نفوس أتباعه[٧] . وقد لاقى (بولس) من خصومه عنتاً شديداً . ولا يعقل بالطبع أن يعمد رجل كنيسة الى تهويد شخص مهما كان مذهبه ورأيه في طبيعة المسيح

---

١ Oberdick, S., 65, Corpus, Insc. Grea., III, NR. 4486, Levy: Palmyr. Inschr. in ZDMG., VII, 1864, S. 88.

٢ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ٢٠ ، (١٨٩٨ م) (ص ٩٢٤) ، Oberdick, S., 71, Milman: History of the Jews, III, P. 175.

٣ المشرق ، الجزء ٢١ (١٨٩٨ م) ، (ص ٩٩٥) .

٤ Oberdick, S., 71, G. Moss: Jews and Judaism in Palmyra, in : Palestine Exploration Fund QJuarterly, Vol., 60, 1928, 100-107.

٥ المصدر نفسه .

٦ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ٢١ ، ١٨٩٨ م (ص ٩٩١ وما بعدها) .

٧ Oberdick, S., 72.

واللاهوت ، بل المعقول أن يعمد للتأثير فيه وادخاله الى مذهبه . ولدينا خبر آخر أراه من جنس خبر (فيلاستريوس) ذكره (تيودوريت) (Theodoret) ، خلاصته : أن الأسقف (بولس) أخذ رأيه في (الثالوث) من آراء الملكة المتأثرة باليهودية ، وأنه كان قد تأثر بالمرأة حتى سقط الى الحضيض[1] . ولا يخفى ما في هذا الخبر من طعن في عقيدة الرجل الذي أبدى رأياً في (الثالوث) سبب غضب الآباء عليه .

ولم نجد في الآثار اليهودية التي بين أيدينا ما يفيد تهود (الزباء) ، نعم ورد في التلمود خبر يفيد حماية (الزباء) للأحبار[2] ، غير أنه وردت أخبار أخرى تفيد أن اليهود كانوا ناقمين على (تدمر) حاقدين عليها يرجون من الله أن يطيل في عمرهم ليروا نهايتها . هذا الحبر الكبير (يوحانان) (يوخانان) (Johanan) (Jochanan) رئيس (أكاديمية) (طبرية) والمعاصر لأذينة والزباء ، يقول : (مخلد وسعيد من يدرك نهاية أيام تدمر) . ولو كانت الملكة على دين يهود ، لما صدرت هذه الجملة من فم ذلك الحبر ولا شك . ونفهم من بعض الروايات المروية عن فقهاء اليهود وأحبارهم في فلسطين في ذلك العهد ، أن الملكة اضطهدت اليهود وعذبتهم . وهي روايات لا يمكن التسليم بصحتها أيضاً ، ويجوز انها ظهرت على أثر توسع الملكة في الأرضين التي كانت تحت سيطرة الرومان ومنها (اليهودية) غير أن هذا الاستيلاء لم يكن أمده طويلاً[3] .

ووردت روايات أخرى تشير الى كراهية يهود منطقة الفرات لتدمر ، ورد ان الحبر (يهودا) (R. Juda) تلميذ الحبر (صموئيل) (Samuel) تحدث عن تدمر ، فقال : « سيحتفل الاسرائيليون في أحد الأيام بعيد ، انه عيد هلاك ترمود (Tarmud) ، انها ستهلك كما هلكت ثمود (Tamud) . وقد هلكت » . وورد ان الحبر (آشة) (R. Asche) ذكر (ترمود) (Tarmud) فقال : « ترمود مثل ثمود، انهما شيئان لأمر واحد ، اذا هلك أحدهما قام الثاني مقامه »

---

١ Oberdick, S., 73.

٢ Talmud Jeru. Ter., VIII, 46b, Ency. Brita., 23, P. 945.

٣ Simon Dubnow: Weltgeschichte des jüdischen Volkes, III, S., 179, The Universal Jewish Encyclopedia, Vol., 10, P. 639, Graetz: History of the Jews, Vol., 2, PP. 528, 1927, Yer. Taan., VIII, 465.

ويراد بـ (ترمود) مدينة (تدمر)[1] . وقد اشترك عدد كبـــير من اليهود في صفوف أعداء الزباء ، واشتركوا مع الفرس في حروبهم مع تدمر كما اشتركوا مع الرومان . وقبض على عدد من الأحبار أحضروا الى الملكة كانوا يحرضون الناس على التدمريين[2] .

أما (ثمود) ، الذين هلكوا قبل هلاك (ترمود) ، فهم قوم ثمود. ويظهر انهم حلت بهم نكبة أدت الى هلاكهم حتى صار هلاكهم مضرب الأمثال . ولم يشر الى زمن حلول تلك النكبة . ولكن ذلك كان قبل سقوط (تدمر) في أيدي الرومان على كل حال ، كما يفهم من كلام الحبر (يهودا) المتوفى سنة (٢٥٧) للميلاد[3] .

أما أسباب هذا البغض ، فلم تذكر . ويظهـــر ان هنالك جملة عوامل دعت الى ظهوره ، منها آراء الملكة الفلسفية وآراء الفلاسفة والكتّاب الذين كانوا يحيطون بها ، وكانوا يبثونها في تدمر وفي البقاع التي استولى عليهـا التدمريون ، فنفقت نفاقاً كبيراً بين يهود (تدمر) ويهود (الكالوتات) على نهر الفرات ، فأثارت هذه الآراء (الالحادية) عند اليهود حقد الأحبار والمتدينين . ومنها الزواج المختلط الذي انتشر في تدمر بين اليهود وغير اليهود ، ونشوء جيل جديد من هذا الزواج أضاع الدين وتقاليد الإسرائيليين . وهو أمر نهى عنه اليهود . ومنها الحالة السياسية التي نشأت من أسر الفرس للقيصر (والريانوس) ، وهجوم أذينة عـــلى الفرس ومـــا أعقب ذلك من حروب ألحقت ضرراً كبيراً بالجاليات اليهودية الكبيرة التي كانت تسكن شواطىء الفرات ، ومعظمها من التجار الذين كانوا يتـــاجرون مع الفرس والروم ، وبين العراق وديار الشأم ، فأصيبت هذه (الكالوتات) اليهودية التي كانت تتمتع بشبـــه استقلال بأضرار كبيرة ، وفقدت استقلالها خلال مدة استيلاء التدمريين على شواطى الفرات . فلهذه الأسباب كانت نقمة اليهود عـــلى التدمريين[4] .

---

١ Oberdick, S., 80, Jebam 17b.

٢ ذكر (Oberdick) أمثلة عديدة على ذلك في (ص ٨٠) وما بعدها من كتابه . راجع أيضا :
Grätz: Geschichte der Juden, IV, S., 336, Levy, in ZDMG., XVIII, S., 97.
Jost: Geschichte des Judenthums und seiner Sekten, II, S., 156.

٣ Oberdick, S., 79.

٤ Jost: Geschichte der Juden, 4, 14, 7, Oberdick, S., 78.

وحرص بعض المؤرخين على ادخال الملكة في زمرة النصارى فزعموا انها كانت على دين المسيح . وتساهل آخرون بعض التساهل فقالوا انها لم تكن نصرانية أصيلة ولكنها كانت قريبة منها ميالة اليها ، وجحد حجج من قال بتهود الملكة وسخفها. وتوسّط آخرون فقالوا انها لم تكن يهودية محضة ، ولا نصرانية خالصة ، إنما كان دينها وسطاً بين الدينين : كانت تعتقد بوجود الله ، وترى التوحيد،ولكنها لم تكن على اليهودية وعلى النصرانية ، بل رأت الخالق كما يراه الفيلسوف[1] .

وللمؤرخين آراء في أصل (الزباء) ونسبها وأسرتها ، فمنهم من ذهب الى أنها مصرية ، ومنهم من ذهب الى أنها من العماليق ومن هؤلاء المؤرخ (آيشهورن) (Eichhorn)[2] . وقد أخذ هؤلاء آراءهم من الكتب العربية على ما يظهر . وذهب المؤرخ اليهودي (كريتس) (Graetz) (Grätz) الى أنها (ادومية) من نسل (هيرودس) وانها يهودية الدين[3] . ورأى (رايت) (Wright) و(أوبردك) (Oberdick) وآخرون انها من أب عربي ولكنها من دم مصري من ناحية الأم . والذي عليه أكثرهم أنها عربية الأصل[4] .

وقد ذكر (المسعودي) ان بعض المؤرخين كانوا يزعمون انها (رومية) تتكلم العربية[5] .

أظهرت (الزباء) مقدرة فائقة في ادارة شؤون الملك ، فخاف منها الرومان، وعزم (غاليانوس) بتحريض من شيوخ (رومة) على القضاء عليها قبل استفحال أمرها ، فأرسل جيشاً الى الشرق تظاهر انه يريد من ارساله محاربة (سابور) غير انه كان يريد في الواقع مهاجمة تدمر واخضاع الملكة . فبلغ خبره مسامع (الزباء) فاستعدت لمقابلته وخرجت له ، والتحمت فعلاً بكتائب الرومان،وانتصرت عليها انتصاراً باهراً ، وولت هاربة تاركة قائدها (هرقليانوس) (Heraclianus) قتيلاً في ساحة الحرب[6] .

---

١ Oberdick, S., 72, 73.

٢ Eichhorn, Fundgr. des Orients, II, S., 365, Oberdick, S., 47.

٣ Graetz, Geschichte der Juden, IV, S., 335.

٤ Wright, P. 131, Oberdick, S., 47.

٥ مروج (١ : ٢٥٩) .

٦ المشرق ، السنة الاولى ، ايلول١٨٩٨ م ، ١٨ (ص ٨٢٤ وما بعدها) ، Zosimus, I, 40, Oberdick, S., 43, Trebellius Pollio, Gall. 31, Trig. Tyr., 29, Hist. August., P. 180, 181, Gibbon, I, P. 263.

ورأت الملكة الحذر من الفرس ، وذلك بتقوية حدود مملكتها ، فأمرت بانشاء حصن (زنوبيا) (Zenobia) على نهر الفرات ، ليقف أمام الهجمات التي قد يوجهها الساسانيون عليها من الشرق[1] . ويقول (بروكوبيوس) انه سمي بهـذا الاسم نسبة الى الملكة مؤسسته[2] .

وقد اتبعت (الزباء) بعد مقتل زوجها سياسة عربية ، سياسة تعتمد على التقرب من الأعراب والتودد اليهم والاعتماد عليهم في القتال والحروب . وذلك بعـد أن رأت ان الرومان هم أعداء تدمر ، وانهم لا يفكـرون الا في مصالـح الرومان الخاصة . وبهذه السياسة تقربت أيضاً الى العناصر العربية المستوطنة في المـدن ، وأخذت تعمل على تكوين دولة عربية قوية واحـدة بزعامتها ، وخاصة بعد أن أدركت ان الأعراب قوة لا يستهان بهـا ، وانهم لو نظموا واستغلوا استغلالاً جيداً ، صاروا قوة يحسب لها كل حساب ، فأخذت تعمل لتكوين هذه القوة ، ولكن الرومان كانوا أسرع منها ، فقضوا على مآربها قبل أن تتحقق ، فاستولوا على تدمر وأزالوا مملكة ملكة الشرق[3] .

وجهت (الزباء) أنظارها الى مصر ، ووضعت الخطط للاستيلاء على هـذا القطر ، بعد أن مهدت لنفسها الدعوة فيه باعلانها انها مصرية وانها من نسـل الملكة (كليوبطرة) (قلبطرة) فلها إذن فيه ما يسمح لها بالتدخل في شؤونه ، وأخذت تترقب الفرص وتتحين الأسباب ، فلما قتل القيصر (غاليانس) سنة (٢٦٨) للميلاد،وانتقل الحكم الى (أوريليوس فلوديوس) (Marcus Aurelius Claudius) (٢٦٨ — ٢٧٠ م) ، وجدت الجو صالحاً للتدخل،كان الألمان (Alemannen) قد هاجموا حدود الإنبراطورية في مطلع هذا العام ، وكان (الغوط) (القوط) (Gothen) (Goths) قد أربكوا الدولة . وكان أثر الخسارة التي ألحقتها الملكة في الجيش الروماني ، ومقتل (هرقليانوس) بالغاً في نفوس الرومان ، يتجـلى في صياح أعضاء مجلس الشيوخ بصوت واحد سبع مرات في أثناء مبايعة القيصر الجديد : (ياقلوديوس أغسطس نجنّـا من فكتوريا ومن زنوبيا ، ياقلوديوس

١ Oberdick, S., 43.

٢ Procopius, History of the Wars, II, V, IV-VI, P. 295.

٣ Die Araber, II, S., 270, VI, S., 270.

أغسطس أغثنا من التدمريين)[1] . وفي الرسالة المؤثرة التي وجهها القيصر الى مجلس الشيوخ ومدينة (رومة) وهو في طريقه لتأديب المهاجمين ، وفيها (ان جبيني ليندى خجلاً كلما تذكرت أن جميع الرمـــاة بالقسي هم في خدمة زنوبية)[2] . فانتهزت الملكة هذه الفرصة المؤاتية وأرسلت جيشها لاحتلال مصر .

كان القيصر قد أمر عامله على مصر المدعو (بروبوس) (Probus) بالخروج على رأس اسطول الاسكندرية الى عرض البحر : لمطاردة (الغوط) (القوط) (Goths) ولمنعهم من الهرب عبر المضايق ، فخرج على رأس قـــوة كبيرة من الرومان لمطاردتهم ، فانتهز الوطنيون والمعارضون لحكم الرومان — وعـــلى رأسهم (تيماجينيس) (Timagenes) ، وهو رجل يوناني الأصل مبغض للرومـــان — هذه الفرصة ، فكتبوا الى الملكـــة يحضونها على تحرير مصر من حكم (رومة) وتولي الحكم فيها . وأظهر (فيرموس) (Firmus) ، وهو رجل ثري جداً ، استعداده لمساعدة الملكة بالمال وبكل ما ينبغي اذا أرادت الاستيلاء عـــلى مصر . فأمرت (الزباء) قائدها (زبدا) بقصد مصر عـــلى رأس جيش قوامه سبعون الف رجل . وقد قاتل الجيش الروماني الذي كان مؤلفاً من خمسين الف مقاتـــل وتغلب عليه ، ثم قرر العودة الى تدمر تاركاً في مصر حاميـــة صغيرة من خمسة آلاف رجل ، ويظهر انه تركها تحت إمرة (تيماجينيس) الذي عيّن نائباً عن الملكة على مصر . فلما سمع (بروبوس) بهجوم التدمريين وتغلبهم على الرومان ، أسرع عائداً الى مصر ، فألف جيشاً من المصريين الموالين للرومان ، وزحف على الاسكندرية ، وأخذ يتعقب التدمريين ، وأعمل فيهم السيف . فلما سمعت (الزباء) بذلك ، أمرت قائدها بالعودة ثانية الى مصر ، فجرت معارك بين الطرفين انتهت بانتصار التدمريين على (بروبوس) عند (بابلون) أي (الفسطاط) ، وكتب النصر لجيش الملكة في مصر[3] .

---

١ المشرق ، الجزء المذكور (ص ٨٢٥) ،
Oberdick, 53, Trebellius Pollius, Claud., 4, Triq. Tyr., Vaughan, P. 83.

٢ المشرق ، الجزء المذكور (ص ٨٢٦) ،
Oberdick, S., 54, Trebellius Pollius, Claud., 7.

٣ (بروباتوس) ، المشرق ، السنة الاولى ، أيلول ١٨٩٨ م ، الجزء ١٨ (ص٨٢٦)،
Zosimus, I, 39, 44, Hist. August., P. 198, (Pollius, XXX, Tyrani, G. 29), Oberdick, S., 54, Vaughan, P. 84, 122, 130.

وقد ساعد عرب مصر من سكان الأقسام الشرقيــة من مصر ، جيش تدمر مساعدة كبيرة ، ولا سيا فيا جرى من قتال حول حصن (بابلون) (Babylon) الذي عرف بـ (الفسطاط) فيا بعد . ويظن بعض الباحثين ان (تياجينس) (Timagenes) الذي وصفه المؤرخ (زوسيموس) (Zosimos) (Zosimus) بأنه مصري ، كان في الحقيقة عربياً ، واسمه عربي أخذ من (تيم اللات) ، أو من (تيم جن)[1] . وكان من المبغضين للرومان .

ولم تتحدث الموارد التأريخية عن الحوادث التي جرت في مصر بعد هذا النصر ولا عن موقف الرومان من هذا التطور الذي وقع في منطقة خطـيرة من مناطق الانبراطورية . ويظهر ان الملكة تراضت مع (رومة) وعقدت اتفاقية معها، وافقت (رومة) فيها على بقاء جيوش تدمر في مصر،مع اعتراف (تدمر) بسيادة الرومان على وادي النيل . وقد عقدت هذه الاتفاقية في أواخر ايام حكم (قلوديوس) . كما يتبين ذلك من خبر ذكره (تريبليوس بوليو) (Trebellius Pollio) مآله حلف المصريين يمين الولاء والاخلاص للقيصر . وقد دام هذا الاتفاق في أوائـل سني حكم القيصر (اورليانوس) (Aurelianus) (٢٧٠ – ٢٧٥ م) أيضـاً كالذي يتبين من نقد ضرب في الإسكندرية في سنتي (٢٧٠) و (٢٧١) للميلاد، وقد ضربت على أحد وجهي النقد صورة مزدوجة لوجه القيصر (اورليانوس) (Aurelianus) حاملاً لقب (أغسطس) (Augustus) مع وجه (وهبلات)، وقد نعت بـ: (Vir Consularis Romanorum Imperator Dux Romanorum) (Vir Clarissimus Rex Imperator Dux Romanorum) ، ويشـير الى اللقب الذي تلقب به أيام حكمه . وأما ازدواج صورة القيصر مع صورة (وهبلات) ، فيشير الى الحكم المزدوج على مصر[2] .

ولم يدم هــذا الاتفاق بين الرومان وبين الملكة طويلاً ، فقد ضغط سادات

---

١ Die Araber, II, S., 272, G. Ryckmans: Les Noms Propres sud-sémitiques, 62, H. Wuthnow: Die Semitischen Menschennamen in griech. Inschriften und Papyri, 1930, 39.

٢ Mattingly-Sydenham, V, I, 308, No : 381, H. Mattingly, in CAH, 12, 301, Ency. Brita., 17, P. 163, Oberdick, S., 61, Wright, P. 137, Die Araber, II, S., 254.

(رومة) على الإنبراطور بأن ينقذ الامبراطورية مما حاق بها من تصدع في أوروبة وفي الشرق . وفي جملة هذا التصدع ظهور ملكة (تدمر) وأطاعهــا في مصر وفي الأرضين الأخرى من بلاد الشأم وآسية الصغرى . واضطر القيصر (أوريليانوس) بعد الانتهاء من فتنة (رومة) ومن تأديب الجرمان الى التدخل والعمــل للقضاء على عصيان العصاة وطمع الطامعين . وبلغ سمع الملكة من أصدقائها ومخبريهــا في (رومة) عزمُ الانبراطور على القضاء عليها ، فقررت القيام بعمل سريع قبــل مباغتة القيصر لها ، فألغت الاتفاق المعقود مع الرومـان في أيام (قلوديوس) ، وأمرت بمحو صورة (اورليليانوس) من النقود لتبرهن على قطع علاقتها بالقيصر، وعدم اعترافها بسيادة (رومة) الاسمية عليها ، وأمرت بضرب صورة (وهبلات) وحده ، مع اللقب (الانبراطوري) المخصص بقياصرة (رومة) وذلك في السنة الخامسة من حكمه . وقد تلقبت الزباء نفسها بهذ اللقب في النقــود التي ضربت باسمها في الخارج . أما نقود (تدمر) ، فقد لقبت فيها بلقب (ملكـة)[١] ، ولقبت في مصر هي وابنها بلقب (أغسطس) . وهو لقب القيصر (أوريليانوس). وفي هذا التحدي الصريح ، دليل واضح على ما حدث من نزاع شديد في العلاقات السياسية بين تدمر ورومة[٢] .

وتفاوضت الملكة (الزبّاء) على رواية مع الملكة (فيكتوريا) (فيكتورية) (Victoria) عاهلة إقليم (الغال) ، لتوحيد الخطط في مهاجمة القيصرية الرومانية واقتسامها ، وأمرت جيوشها بالسير الى (بيتينية) (Bithynia) فاستولت عليها، وظلت تتقدم دون ملاقاة معارضة تذكر حتّى بلغت (خلقيدون) بازاء (القسطنطينية)[٣]. ويقال ان الملكة كانت قد أمرت بصنع عجلة فاخرة للدخول بها في موكب الظفر الى عاصمة الرومان[٤] .

واضطرت الملكة لتنفيذ خطتها هذه الى سحب القسم الأعظم من جيشها المعسكر في مصر معتمدة عــلى دفاع المصريين انفسهم اذا هجم عليهم الرومان . فانتهز

---

١ Cooke, NSI, No : 131, Wadd., 2628.

٢ Ency. Brita., 17, P. 163.

٣ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ٢٢ (١٨٩٨ م) ، (ص ١٠٣٣) ، Oberdick, S., 84, Vaughan, P. 117, 130, 133.

٤ Oberdick, S., 83.

(اوريليانوس) هذه الفرصة فأرسل مدداً الى (بروبس) ، وكان القائد (زبدا) قد وصل الى مصر لمساعدة (فيرموس) نائب الملكة على صد الرومان . فوقعت معارك بين الفريقين كاد يكون النصر فيها للتدمريين لولا استمالة (بروبس) جماعة من المصريين ، فآزروه ودحروا جيش (زبدا) في سنة (٢٧١) للميلاد . واضطر التدمريون الى ترك مصر الى أعدائهم ، فكانت هذه أول نكبة عظيمة تنزل بالزباء[١] . ومنذ (٢٩) أغسطس من سنة (٢٧١ م) انقطع في الاسكندرية ضرب النقود التي تحمل صورة الزباء ووهبلات[٢] .

ولا نعرف اليوم شيئاً من الموارد التأريخية عن الأثر الذي تركه انتصار (بروبس) في مصر على التدمريين . ولكننا نستطيع أن نقول انه وقع وقعاً عظيماً على الملكة (الزباء) . فخسارة مصر على هذه الصورة ، كانت خسارة كبيرة عليها ، ولا بد أن تكون قد أثرت فيها ، فقد مكنت الرومان من القضاء على سلطان الملكة في تلك البقعة المهمة وجعلت في امكانهم تهديدها من الجنوب ، كما ان توقف جيشها عند (خلقيدون) ، وعدم تمكنها من الاستيلاء على (نيقية) وتوقف خططها العسكرية الهجومية ، ثم اتخاذها خطة الدفاع ثم التراجع ومجيء(أورليانوس) بقوات كبيرة نحو الشرق ، كل ذلك قد يكون نتيجة من نتائج هذا الاندحار الذي مني به جيش الملكة وأحزابها الموالية لها بمصر ، فأضعف معنويات التدمريين ومن كان يواليهم وشدّ من أزر الرومان ومن كان يناصرهم .

قاوم أهل (خلقيدون) التدمريين ، وأبوا التسليم لهم ، وأرسلوا الى القيصر لينجدهم ، ويظهر ان الملكة عرفت حراجة وضعها العسكري ، وعدم استطاعتها التقدم ، فقررت التراجع الى مواضع جديدة تدافع فيها عن نفسها اذا هاجمها الرومان . وقد هاجمها الرومان فعلاً ، اذ عبر القيصر مضيق (البسفور) وفاجأ التدمريين في (بيثينية) في أواخر سنة (٢٧١ م) أو أوائل السنة التالية، وأجلاهم عنها ، ثم سار الى (غلاطية) (Galatia) و (قفادوقية) (Cappadocia) حتى بلغ (أنقرة) (Ancyra) ، فسلمت له . وأخذ الرومان يتقدمون بسرعة الى بلاد الشأم[٣] .

---

١ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ٢٢ ، (١٨٩٨ م) ، (ص ١٠٣٤) .
٢ Oberdick, S., 84.
٣ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٣٤) ، Oberdick, S., 87.

أفزع تقدم الرومان السريع الزباء ورجالها ولا شك ، وأخذت المدن التي كانت تساندها تشك في تمكن الملكة من الدفاع عن نفسها ، وشاعت بين الناس قصص عن نهاية تدمر وخرابها بأيدي الرومان وعن سقوطها لا محالة ، أثيرت مع وصول أنباء اعتزام القيصر القضاء على حكم الملكة واخضاع (تدمر) لحكم الرومان . ومن يدري ؟ فلعل الرومان وأنصارهم وأعوانهم وجواسيسهم هم الذين صنعوها وأذاعوها بين الناس لإماتة همة جيش الملكة وأعوانها ، والايحاء اليه انه مغلوب لا محالة وان ارادة الآلهة قد قضت بذلك ولا رادّ لها . فكان من بين ما أشيع ان معبد (الزهرة) في (أفقة) (Aphaca) أنبأ الحجاج التدمريين الذين حجّوا قبل سنة من سقوط مدينتهم ، يستفتون (الزهرة) فيما سيحل بهم في السنة المقبلة بمصير سيء سيلحق بتدمر ، وان كارثة ستنزل بهم ، أنبأهم بذلك على عادة المعبد في موسم الحج الذي يلي الموسم الذي سئل فيه السؤال[1] .

وكان من بين ما أشيع تخرّصات زعم أنها صدرت من معبد (أبولو) (Apollo) تنبيء بزوال دولة التدمريين ومشيئة الآلهة بانتصار (أورليانوس) على الزباء ، وتخرصات تزعم أن الحبر (يهودا) (R. Juda) تلميذ الحبر (صموئيل) (Samuel) تنبأ بها عن تدمر ، إذ كان قد قال : « سيحتفل الاسرائيليون في أحد الأيام بعيد ، إنه عيد هلال (ترمود) (Tarmud) ، انها ستهلك كما هلكت (تمود) (Tamud) وقد هلكت » . وورد ان الحبر (أشه) (R. Asche) ذكر (ترمود) (Tarmud) فقال : « ترمود مثل تمود ، انهما شيئان لأمر واحد ، اذا هلك أحدهما قام الآخر مقامه » . ويراد بـ (ترمود) مدينة (تدمر)[2] .

الى غير ذلك من تخرصات أوحت بها دعاية الرومان ، وأعداء الملكة من يهود ومن قوميات أخرى قهرتها (الزباء) فأذاعتها بين الناس ، لافهامهم أن من العبث مقاومة القيصر وجنوده ، وان من الخير ترك المقاومة والاستسلام ، وأن اليوم الذي ستحرر فيه تلك الشعوب من حكم الملكة آت قريب ، لأن ارادة الآلهة قضت ان يكون ذلك ، ولا رادّ لأمر الآلهة : نعم ، لم تصدق الملكة العاقلة

---

١ Zosimus, I, 54, 57, 58.

٢ Oberdick, S., 30, Jebam, 17b.

الحكيمة بهذه الخرافات ، فحاربت . ولكن عقول العامة لم تكن على شاكلة عقل الملكة ، لقد أثرت فيها هذه الدعاية ، وقضت على معنويات التدمريين الوثنيين الذين يدينون بهذه الخرافات ويؤمنون بها ، وما زال من طرازهم خلق كثير في القرن العشرين الميلادي هذا .

تهيأت الملكة (الزباء) لملاقاة (أورليانوس) عند مدينة (أنطاكية) (Antiochia) ، وكانت هي على رأس الجيش فارسة تحارب في الطليعة . أما القيادة ، فكانت لقائدها (زبدا) . وفي الوقعة الأولى هجم فرسان تدمر على الكتائب الرومانية فشتتوا شملها ، فأمر القيصر جنوده بالرجوع الى مسافات بعيدة ، ليوهم التدمريين أنه قد فرّ،فإذا ساروا في أثرهم وابتعدوا عن قواعدهم باغتهم بالهجوم ، فلا يتمكن فرسان تدمر من الهزيمة لثقل أسلحة الفرسان ومعداتهم وبطء خيلهم بالقياس الى خيل الرومان . وهو ما حدث . فقد خُدِع التدمريون وظنوا رجوعهم هزيمة ، فتعقبوهم الى مسافات بعيدة ، وفجأة انقلبت الكتائب الرومانية على التدمريين ، وأطبقوا عليهم ، وأعملوا فيهم السيوف وانهزموا هزيمة منكرة الى مدينة (انطاكية) . وفي هذه المدينة قرّ رأي الملكة على ترك أنطاكية والارتحال عنها بسرعة لأسباب ، منها وجود جالية يونانية كبيرة فيها كانت تفضل حكم الرومان على حكم الشرقيين عليهم ، وقد كان لها النفوذ والكلمة في المدينة . ومنها نفرة النصارى من الملكة بسبب موقفها من (بولس السميساطي) الذي قرر مجمع (انطاكية) عزله من وظيفته ، فلم تنفذ الملكة قرار المجمع ، وتركته بتصرف في أموال الكنيسة،ولم تكتف بذلك بل عينته (Procurator Decenarius) على المدينة ، أي انها جعلته الرئيس الروحي والدنيوي على الانطاكيين . أضف الى ذلك كره اليهود الذين في المدينة للتدمريين . وقد نفذت الملكة هذا القرار في اليوم الذي دخلت فيه جيوشها المدينة ، فأمرت قائدها بتركها والسير الى (حمص) فوراً . وفي اليوم الثاني دخل (أورليانوس) تلك المدينة وأعطاها الأمان[1] .

وتعقب القيصر أثر الملكة ففتح جملة مدن حتى بلغ (حمص) (Emisa) ، وهناك وجدها على رأس جيش قوامه سبعون الفاً في مفازة عريضة تقع شمالي المدينة.

---

١ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٣٥) ،
Oberdick, S., 92, Ritter, Erdkunde, 17, 2, S., 1160, 8, Zosimus, I, II; 50; 51; PP. 44.

فاشتبك الرومان والتدمريون في معركة حامية ربح فيها التدمريون الجولة الأولى ، فولى الرومان مدبرين مذعورين تفتك فيهم سيوف تدمر . غـير ان القيصر حزم رأيه ، وأدرك وجود ضعف في خطة قتال الملكة ، سببه ابتعاد فرسان تدمر عن مشاتهم في أثناء تعقب فرسان الروم ، فأمر جنوده بالهجوم على مشاة التدمريين ، ولم يكونوا في التدريب والقابلية مثل مشاة الرومان ، فزقوا مشاة الملكة كل ممزق وحلت هزيمة منكرة عامة بجيش الزباء اضطرتها الى ترك (حمص) وتفضيل الرجوع الى عاصمتها تدمر للدفاع عنها ، فلعل البادية تعصمها منه وتمنعه من الوصول اليها. ودخل القيصر مدينة (حمص) ، فتوجه بالشكر والحمد الى إلـه (حمص) (الشمس) قاطعاً على نفسه عهداً ان يوسع المعبد ويجمّله ويزينه أحسن زينة، مقدماً له نذوراً هي أكثر ما غنمه من الغنائم من التدمريين[1] .

أدرك القيصر ان النصر الحقيقي لن يتم له الا بالقبض عـلى (الزباء) وفتح (تدمر) ، وانه لن يدرك هذا الا اذا سار هو بنفسه على رأس جيشه لفتـح تلك المدينة . لذلك قرر الزحف اليها بكل سرعة قبل أن تتمكن الملكة من تحصين مدينتها ومن الاتصال بالفرس وبالقبائل العربية الضاربة في البادية ، فيصعب عندئذ الاستيلاء عليها . فسار مسرعاً حتى بلـغ المدينـة برغم الصعوبات والمشقات التي جابهت الكتائب (اللجيونات) الرومانية في أثناء قطعها الصحراء ، وألقى الحصار على (تدمر) القلعة الصحراوية الحصينة ، غير ان المدافعين عنهـا قابلوه بشدة وصرامة برمي الحجارة والسهام والنيران على جيشه وبالشتائم والسخرية والهزء ترسل اليه من أعالي السور . ويظهر ان (رومة) سمعت بذلك فسخرت من عجز القيصر عن احتلال مدينة صحراوية ، ومن التغلب على امرأة ، فساء (أورليانوس) ذلك كثيراً ، فكتب الى مجلس الشيوخ يقول : « .... قد يستضحك مني بعض الناس لمحاربتي امرأة .... فاعلموا ان الزبـاء (Zenobia) اذا قاتلت كانت أرجل من الرجال .... »[2] . وبعثت سخرية أهل تدمر وهزؤ أهل (رومة) منه في القيصر عزماً جديداً على فتح المدينة ودكها دكاً مهما كلفه الأمر ، ليمحو عنه هذه الوصمة

---

١ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٣٦) ،
Oberdick, S., 102, Zosimus, I, 53, Flav. Vop. Aur., 25, Gibbon, I, P. 256.

٢ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٣٨) ،
Oberdick, S., 106, Flav. Vospicus Aur., 26-27, Hist. August., P. 218, Wright, P. 167, Gibbon, I, P. 266.

المخجلة التي لحقت به . فكاتب الملكة طالباً منها التسليم والخضوع للرومان لتنال السلامـــة وتستحق العفو ، فيسمح لها بالاقامة مع أسرتها في مدينة يعينها مجلس الشيوخ لها . أما جواب الملكة ، فكان: « انّ ما التمسته مني في كتابك لم يتجاسر أحد من قبلك أن يطلبه مني برسالة . أنسيت ان الغلبـــة بالشجاعة ، لا بتسويد الصفحات . إنلك تريد أن أستسلم لك . أتجهل أن كليوبترة (كليوبطرة) قـــد آثرت الموت عـــلى حياة سبقها عار الدّبرة . فها أنا ذي منتظرة عضد الفرس والأرمن والعرب (Saracens) لفل شباتك وكسر شوكتك . واذا كان لصوص الشأم قد تغلبوا عليك وهم منفردون ، فما يكون حالك إذا اجتمعتُ بحلفائي على مقاتلتك . لا شك أنك ستذل وتخنع لي فتجرد نفسك من كبريائها التي حملتك على طلب المحال كأنك مظفر منصور في كل أين وآن »[1] .

لم ينجد الفرسُ ملكـــة الشرق ، ولم يرسلوا اليها مدداً ما . فقد كانوا هم أنفسهم في شغل شاغل عنها . توفي (سابور) الأول في عام (٢٧١) للميلاد ، فتولى (هرمز) (Ormidus) الملك من بعده ، وكان رجلاً ضعيفاً خائر القوى، فعزل بعد سنة قضاها ملكاً . وظهرت فتن داخليـــة بسبب ذلك لم تسمح للفرس وهم في هذه الحال أن يرسلوا قوة لمساعدة ملكة البادية عـــدوّة (أورليانوس) قيصر الروم . وأما القبائل ، فأمرها معروف ، إنها مع القوي ما دام قوياً ، فإذا ظهرت عليه علائم الضعف ، صارت مع غيره . تحرش قسمٌ منها بجيوش الرومان المحاصرة للمدينة وهاجمتها ، غير أنهـــا منيت بخسائر فادحة ، فتركت التحرش بالمحاصرين . ورأى قسم منها الاتفاق مع القيصر ، ففي الاتفاق الربح والسلامة. وما الذي يجنيه سادات القبائل من ملكة محاصرة ، لم يبق من ملكها غير مدينـــة في بادية وثروة سيستولي عليها الرومان . وإن بقيت لها فلن يصيبها منها ما يصيبهم من القيصر من مال كثير . ومن لقب وجاه يأتيهم من حاكم مدني قوي . وقد عرف القيصر فيهم هذه الخصلة فاشترى أنفس الرؤساء بالمال . فـــأمن بذلك شر القبائل ، وسلم من عدو يحسب لعداوته ألف حساب[2] .

---

١ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٣٨) ،
Oberdick, S., 109, Flav. Vop. Aur., 26, 27, Wright, P. 157, Vaughan, P. 173.

٢ Oberdick, S., 108, III.

ولما رأت الزباء ان ما كانت تأمله من مساعدة الفرس والقبائل والأرمن لم يتحقق ، وان ما كانت ترجوه من مساعدة الحظ لها بإطالة أمد الدفاع لاكراه عدوها على فك الحصار والرجوع لم يتحقق كذلك ، وان وضع القيصر قد تحسن بوصول مدد عظيم اليه من الشأم وبوصول مواد غذائية اليه كافية لاطالة مدة الحصار ، قررت ترك عاصمتها للأقدار ، والتسلل منها ليلاً للوصول بنفسها الى الفرس علهم يرسلون لها نجدة تغيّر الموقف وتبدّل الحال . ودبرت أمر خطتها بكل تكتم وهربت من مدينتها من غير ان يشعر بخروجها الرومان ، وامتطت ناقة واتجهت نحو الفرات ، ولعلها كانت تقصد الوصول الى حصنها (زنوبية) ومنه الى الفرس[1] . على كل حال ، فقد حالفها الحظ في أول الأمر ، فأوصلها سالمة الى شاطىء النهر ، عند (الدير) (دير الزور) قريب من (زلبية)[2] (Halebiya) ثم خانها خيانة فظيعة . فلما علم (أورليانوس) بنبأ هرب الملكة ، أيقن ان أتعابه ستذهب كلها سدى ان لم يتمكن من القبض عليها حية . لهذا أوعز الى خيرة فرسانه وأسرع رجاله باقتفاء أثر الملكة والقبض عليها مهما كلفهم الأمر . وقال الحظ كلمته . انه سيكون في جانب القوي ما دام الناس في جانبه . نقل فرسان القيصر الى موضع وجود الملكة على الشاطىء ، في اللحظة الدقيقة الفاصلة الحاسمة بين الموت والهلاك والدمار وبين العز والسلطان واسترجاع ما ذهب من ملك . كانت الملكة تهم بوضع نفسها في زورق لينقلها الى الشاطىء الثاني من نهر الفرات. ولو عبرت لتغير اذن كل شيء . واذا بالفرسان ينقضون عليها ويأخذون (ملكة الشرق) معهم مسرعين الى معيد الشرق للرومان : (Recepto Orientis) ، وهو على رأس جنوده يحاصر هذه المدينة العنيدة التي أبت الخضوع لحكمه والتسليم له[3].

من الباحثين من يرى ان الملكة هربت من نفق سري يصل معبد المدينة بالخارج يمر من تحت السور له باب سري خارج الأسوار أعدّ لمثل هذه المناسبات ، أو من أنفاق أخرى ، اذ يصعب تصور خروج الملكة ليلاً من مدينتها ولو بحفر نفق في السور دون أن يشعر بذلك الرومان . ويستشهدون على صحة رأيهم هذا

---

١ Oberdick, S., III.

٢ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ٢٣ (١٨٩٨) م ،
Wright, P. 160, Freya Stark, Rome, P. 367.

٣ « Recepto Igitur Orientis », Flav. Vop. Aur., 25.

بالسراديب والقنوات التي ترى بقاياها تحت أسوار تدمر وقلاعها الى اليوم[1] .

أحضرت الزبّاء أمام القيصر ، فقال لها : « صرت في قبضتنا يا زينب ، ألست أنت التي أدت بك الجسارة الى أن تستصغري شأن قيصر روماني » . فأجابت : « نعم ، إني أقر لك الآن بكونك قيصراً ، وقد تغلبت عليّ . وأما غاليانوس وأورليوس وغيرهما ، فلست أنظمهم في سلك القياصرة . وإنما بارتني فيكتورية في السلطنة والعز ، فلولا بعد الأوطان لعرضت عليها أن تشاركني في الملك »[2] . فأثرت كلمات الملكة في نفس (اوريليانوس) ، فمنحها الأمان . وقد أثر أسرها في نفوس التدمريين المتحصنين في بلدتهم ، فرأى قسم منهم الاستمرار في الدفاع وعدم تسليم المدينة مهما كلف الأمر ، ورأى قسم آخر فتح الأبواب والتسليم ، وصاحوا من أعلى الأسوار في طلب الأمان ، وفتحوا له أبواب المدينة في بدء السنة (٢٧٣) للميلاد[3] . فدخلها دخول الظافرين ، فقبض على حاشية الملكة السابقة ومستشاريها ومن كان يحرض على معارضة الرومان ، واستصفى أموال الملكة وجميع كنوزها ، وأخذ الزبّاء ومن قبض عليهم معه وتوجه بهم الى (حمص)[4] .

وتذكر بعض الروايات أن القيصر كان اول ما فعله عند دخوله الى المدينة أن توجه الى معبد الإلـه (بعل) (Bel) ، فشكر الإلـه وحمده على توفيقه له ونصره له على أهل تدمر . ثم اختار له قائداً نصبه على (تدمر) اسمه (Sandarion) على رواية و (Apsaeus) على رواية أخرى ، ليحافظ على الأمن ويحكم المدينة . وجعل في إمرته حامية فيها ستمائة من الرماة ، ثم غادر تدمر تاركاً أمرها الى هذا القائد[5] .

---

١ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٥٨) ،
Oberdick, S., III, Ritter: Erdunde, XVIII, 2, S., 1521.

٢ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٥٨) ،
Oberdick, S., 112, Ritter, Erdunde, XVII, 2 Hist. August., P. 199, 218, Wright, PP. 160, Vospicus Aurel., C. 28, Zosimus, I, I, C. 55, P. 50, Gibbon, I, P. 267, Trebellius Poll., 30, Tyr., 29.

٣ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٥٩) ، Leopold Von Ranke: BD., 5, S., 189.

٤ Zosimus, I, 56.

٥ Vaughan, P. 187.

وفي حمص كما زعم المؤرخ (زوسيموس) (Zosimus) حاكم القيصر الملكة وأصحابهــا (استحضر القيصر سلطانة تدمر وأشياعها فلما مثلت بين يديه ، جعلت تعتذر اليه وتتنصل وتدافع عن نفسها مدافعة الداهية حتى قرفت كثيرين من أصحابها بأنهم أصلوها بسوء نصائحهم وورطوها في الغرور . وكان من جملة الذين وشت بهم عند القيصر (لونجينوس) .... فحكم عليه القيصر من ساعته بالموت بعد أن مثّل به . فكابد لونجينوس العقاب بشجاعة وصبر جميل حتى انه عند وفاته كان يعزى أصدقاءه وأقاربه . وكذلك نكّل بكل من تجرمت زينب عليه)[1] .

وقد اختلف الباحثون في صحة رواية هذا المؤرخ ، فنهم من شك فيها ومن هؤلاء (الأب سبستيان رتزفال) الذي نقلت ترجمته العربية لرواية (زوسيموس) فقد استبعد صدور الوشاية والخيانة من ملكة كانت على جانب عظيم من سمو الأخلاق والثقافة[2] . ومنهم من اعتقد بصحتها وسلّم بها ولام الزباء على صدور مثل هذا العمل الشائن منها، ومن هؤلاء المؤرخ الألماني (مومزن) (Mommsen) الشهير في تأريخ الرومان[3] .

وغادر (أورليانوس) مدينة حمص الى (رومة) ومعه (الزباء) وأبناؤها وعدد من الأسرى أراد إلحاقهم بموكب النصر الذي سيقيمه عند دخوله العاصمة ليتفرج عليهم الناس . وفي أثناء عبور (البسفور) غرق عدة من أصحاب (الزباء) في جملتهم (وهبلات) على رواية المؤرخ (زوسيموس)[4] . وبينما كان القيصر في (تراقية) (Thrazien) اذ جاءته الأخبار تنبىء بثورة أهل تدمر على قائد المدينة (سنداريون) (Sandarion) الذي عيّنه القيصر حاكماً على تدمر[5] ، وبظهور ثورة أخرى في مصر بطلها (فيرموس) (Firmus) الثري الشهير . وكان هدف الثورتين واحداً،هو التحرر من حكم الرومان والحصول على الاستقلال،

---

١ اخذت ترجمة رواية (زوسيموس) من مجلة المشرق السنة الاولى ، الجزء ٢٣ ، السنة ١٨٩٨ م (ص ١٠٥٩) ، راجع الاصل في :
Zosimus, I, I, C. 56, P. 49, 51, Vopiscus: Hist. August., P. 219, (Aurel. C. 30)

٢ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٥٩) .

٣ Oberdick, S., 113, Georg Finaly: Griechenland unter Römern, 1861, Leipzig, S., 104, Mommsen, The Provinces of the Roman Empire, Vol., II, P. 748.

٤ Zosimus, I, 58, ZDMG., 1864, S., 748.

٥ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٦٠) .

فأنفق (فيرموس) وهو من كبار رجال المال في العالم في ذلك الحين أموالاً كبيرة على الجمعيات الوطنية المناهضة لروما ، وألّف جيشاً تمكن به من الاستيلاء على الاسكندرية ، وجمع حوله أشياع (الزباء) في مصر ، ولقّب نفسه بألقاب القياصرة ، وأخذ يتفاوض مع التدمريين في توحيد الخطط والعمل بجد في تقويض الانبراطورية الرومانية في الشرق[١] .

وقرر القيصر الاسراع في العودة الى الشرق لمعالجة الحالة قبل فوات الوقت ، فوصل الى (تدمر) بسرعة كبيرة أذهلت المدينة الثائرة ، فلم تدرِ ما تصنع . كانت قد قتلت القائد (سنداريون) (سوداريون) (Sandarion)[٢] ، وفتكت بالحامية الرومانية، ورفعت راية العصيان في الشرق وتزعمت الحركة الوطنية المعادية للدخلاء وتبنتها ، فبأي وجه ستقابل (أورليانوس) القيصر المتغطرس الجبار ؟ وماذا سيكون موقفه منها ؟ وهي في وضع حرج لا تأمل الحصول على مساعدة لا من الفرس ولا من المصريين . وتداعت المدينة بسرعة حينما مثل أمامها الرومان وسلّمت نفسها للقيصر ، فسلّمها هو غنيمة الى جنده يفعلون بها ما يشاءون بغير حساب .

عفا القيصر (أنطيوخس) عن أقارب الزباء ، وكان التدمريون أقاموه ملكاً عليهم . ولم يعف عن الرعية فتناولتهم سيوف الرعاع من جنود (رومة) وخناجرهم من غير تمييز في العمر أو تفريق في الجنس[٣] . وأباح القيصر لجنوده تهديم أبنية المدينة ، فدُكّت الأسوار وهدمت الأبراج وقوضت الأبنية[٤] ، حتى ان القيصر نفسه رق قلبه على من تبقى حياً من المدينة ، فكتب الى (Cerronius Bassus) قائد المدينة أن يصفح عنهم ، وأن يعيد بناء هيكل الشمس الى ما كان عليه ، وكان جنود (اللجيون) الثالث قد نهبوه وخربوه ، وأمر بالانفاق عليه وبتزيينه وتجميله من الأموال التي استصفيت من خزائن (الزبّاء). وطلب من مجلس الشيوخ في (رومة) ارسال كاهن ليدشن المعبد[٥] . وأرسل

---

١ Oberdick, S., 115.

٢ (سوداريون) : المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٦٠) .

٣ Oberdick, S., 116, Grätz: Geschichte der Juden, IV, S., 336.

٤ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٦٠) . Vaughan, PP. 208.

٥ Flavius Vopiscus Aur., C. 31, « Cerronius Bassus », Wright, P. 163, Flavius Vopiscus: Hist. August., P. 21, Vaughan, P. 209.

بعض نفائس الهيكل الى عاصمته لتوضع في معبد الشمس الذي أقامه هناك ، ومنها أعمدة مصورة[1] . غير أن ما أفسده الدهر لا يصلحه العطّار . ولم يتمكن القيصر من اصلاح ما أفسده الدهر على يديه . فلم يعد المعبد معبداً كما كان ، ولم تعد (تدمر) تدمر الزباء .

وقبل أن يرحل (اوريليانوس) عن أرض تدمر ، غزا الفرس . ويظهر أنه غزا قوة كانت قد أرسلت لمساعدة (تدمر) ، فأرجعها على أعقابها . ثم عيّن قائده المحنك (ساترنينوس) (Saturninus) بدرجة (Dux) قائداً على الحدود لحمايتها من الفرس[2] ، وتوجه الى مصر للقضاء على ثورة (فيرموس) ، فكان الحظ فيها حليفه . احتل الإسكندرية وقبض على التاجر الحاكم ، الذي لقب نفسه قيصراً ، فأمر بمعاقبته بعقاب السرّاق واللصوص ، أي بصلبه علـى الصليب[3] . وبذلك أعاد معيد الشرق الى الرومان الشرق المنفتل منهم مرة أخرى الى الرومان .

بعد هذه الانتصارات وانتصارات أخرى أحرزها في غالية ، عاد الى عاصمته في سنة (٢٧٤) للميلاد في موكب قيصري عظيم وصفه المؤرخ (Flavius Vopiscus) وصفاً رائعاً ، اشترك فيه (١٦٠٠) مصارع وعدد غفير من الأسرى من مختلف الأقوام ، ومن بينهم الملكة الزباء ومعها أحد أبنائها ، وقيـل كلاهما ، وبعض رعاياها ، وثلاثة عجلات ملكية : عجلة (أذينة) زوج الزباء وهي مزينة بالذهب والجواهر ، وعجلة أهداها (هرمز بن سابور) الى القيصر ، وعجلة (الزباء) الخاصة التي أعدتها لتدخل فوقها منتصرة عاصمة الرومان . وتقدم الموكب عشرون فيلاً وعدة وحوش وحيوانات جيء بها من فلسطين وليبيا ومصر وأماكن أخرى. سار الى (الكابيتول) ثم الى قصر (الانبراطور) . واحتفل الشعب في اليوم الثاني احتفالاً خاصاً كانت فيه ألعاب مختلفة وكان فيه تمثيل وسباق مختلف الأنواع[4] .

كان هذا الاحتفال نهاية فصل وبداية فصل جديد ، قضى على الملكة أن تقبع

---

١ Zosimus, I, 61, Oberdick, S., 116.

٢ Oberdick, S., 118.

٣ Flavius Vopiscus, Aur., C. 32, 45, Firmus, C. 2, Hist. August., P. 219, Oberdick, S., 118, Gibbon, I, P. 268.

٤ Oberdick, S., 119, Flavius Vopiscus Aur., C. 33, Hist. August., P. 220, Gibbon, I, P. 269.

منذ نهايته في بيت خصص بها في (تيبور) (Tibur) مع أولادها ، وأن تعتزل السياسة والشرق . عاشت في عزلة في هذه البقعة من ايطاليـة ، ولم يتحدث عنها مؤرخو عصر (أورليانوس) شيئاً بعد أن صارت من سواد الناس . ويظهر ان ما ذكره بعض المؤرخين اليونان عن زواج الزباء بعضو من أعضاء مجلس الشيوخ هو أسطورة من الأساطير العديدة التي راجت بعد ذلك عن حياة ملكة الشرق[١] .

وأما أولاد الملكة، فقد ذكرتُ قريباً ان بعض المؤرخين أشار الى غرق (وهبلات) في أثناء عبور القيصر مضيق (البسفور) . وأشار آخرون الى انه نقل مع أمه الى (رومة) . وأما (تيم الله) (Timolaus) ، فأسكن مع أمه أيضاً في (تيبور). وزعم في رواية انه مات مع أخيه (خيران) (حيران) (Herennianus) في أثناء الاحتفال بموكب النصر . وزُعم أيضاً انه عاش وصار خطيبـاً مصقعاً من خطباء (اللاتين)[٢] . وروي أيضاً انها زوجت بناتها بأعيان من الرومان . وروى المـؤرخ (تربيليوس بوليو) (Trebellius Pollio) ، وهو من رجال القـرن الرابع للميلاد (حوالي سنة ٣٠٤ م) ، ان ذرية الزباء كانت في ايامه[٣] . وذكر ان الأسقف الشهير القديس (زنوبيوس) (Zenobius) أسقف مدينة (فلورنسة) ومعاصر القديس (أنبروسيوس) (Ambrosius) كان من نسلها أيضاً[٤] .

ولم تكن تدمر في عهد (ديوقليطيانوس) (ديوكليتيانوس) (Diocletian) (Diocletian) (٢٨٥ – ٣٠٥ م) سوى قرية صغيرة وقاعة من قلاع الحدود لحمايتها من هجمات القبائل وغزوها للمدن القريبة من البادية[٥] . ويخـبرنا المؤرخ (ملالا) أن (ديوقليطيانوس) ابتنى (Castra) فيها ، وذلك بعد عقده الصلح مع الفرس[٦] ، ورمم بعض ابنيتها . ويرى (الأب سبستيان رتزفال) أنه اضطهد نصارى تدمر كما فعل في سائر الأقاليم[٧] .

---

١ Oberdick, S., 120.

٢ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٦٢) .

٣ Oberdick, S., 120, Trebellius Pollio, 20.

٤ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٦٢) ، Oberdick, S., 120, Eutrop, 9, 13, Hieron, Chron., P. 758, Vol., Baronius, Ann., III, P. 146.

٥ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٦٢) ، Oberdick, S., 116

٦ Oberdick, S., 117, Malalas, S., 308.

٧ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٣٦) .

وفي حوالي القرن الخامس للميلاد (٤٠٠ م) كانت تدمر مقاطعة تابعة لولاية (فينيقية) وقد عين (تاودوسيوس) (تيودوسيوس) (ثيودوسيوس) الثاني (٤٠٨ – ٤٥٠ م) فرقة من الجند لحراسة (تدمر)[١] . والظاهر أن وظيفتها كانت حماية الحدود من هجمات رجال البادية . أما الكتيبة الرومانية التي عسكرت فيها في حوالي سنة (٤٠٠) بعد الميلاد ، فهي (اللجيون الأليري) (Illyrian) الأول[٢] .

وذكر الراهب (إسكندر) (Alexander the Acoemete) المتوفى في حوالي سنة (٤٣٠) للميلاد أنه في أثناء سفره من الفرات الى مصر قابله الجنود الرومان المعسكرون في القلاع بكل ترحاب وقدّموا له ولمرافقيه كل المساعدات الممكنة ، وانه وجد قلاعاً مقامة على طول حدود الفرس والروم على مسافات تتراوح من عشرة أميال الى عشرين ميلاً رومانياً . وقد قطع الحدود هذه حتى بلغ مدينة (سليان) ، ويقصد بها مدينة تدمر[٣] .

وأمر القيصر (يوسطنيانوس) (جستنيانوس) (Justinianus) (٥٢٧ – ٥٦٥ م) في أوائل تبوئه الحكم (٥٢٧ م) (أرمينيوس) (Armenius) بالذهاب الى (تدمر) لترميم ما تهدم من المباني واعادة المدينة الى ما كانت عليه . وأمده بالأموال اللازمة لهذا المشروع[٤] ، كما أمر بتقوية حامية المدينة ، وان تكون مقر حاكم (Dux) مقاطعة (فينيقية لبنان) (Phoenice Libanesia) وذلك لحماية الحدود خاصة حدود الأرض المقدسة[٥]،وذكر المؤرخ (بروكوبيوس) (Procopius) ان القيصر المذكور قوى أسوار المدينة وقلاعها وحصنها تحصيناً قوياً ، وحسن موارد

---

١ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٦٣) ، Oberdick, S., 117, Wright, P. 169, Notitia Dign Orien., P. 84, 380, (Ed. Bocking).

٢ Ency. Brita., 17, P. 163, Notitia Dign., I, 85.

٣ Musil: Palmyrena, P. 248, De S. Alexandra Fundatore Acoemetorum, Constantinopli, in: Bolland «Acta Sanctorum» P. 1025, Edition, E. De Stoop: Vil d'Alexandre Acémété, in: Patrologia Orientalis, P. 683.

٤ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٦٣) ، .Oberdick, S., 117

٥ Oberdick, S., 117, Procoptus: De Aedif. Just., II, II, De Bello Persico, 2, I, P. 88, Theophanus, Chro., I, P. 267, (Ed. Bonn), Malalas, P. 426, Syria, VII, 1926, P. 77.

مياهها . ولا تزال آثار هذا العهد باقية حتى الآن[1] .

وقد كانت مدينة (تدمر) على الحدود الداخلية (Limes Interior) للانبراطورية في أيام (يوسطينيانوس)[2] . ويسكن في المناطق التي بين هذه الحدود وبين الحدود الخارجية (Limes Exterior) القبائل المحالفة للرومان . ومن هـــذه المنطقة تغزو القبائل الحدود[3] . وقد كان سلطان الروم وقواتهم العسكرية أقوى في الحدود الداخلية منها على الحدود الخارجية التي كان يقوم بالدفاع عنها رجال القبائل الحليفة بالدرجة الأولى بأجور ومخصصات تدفعها الحكومة الى رؤسائها لضمان حماية تلك الحدود .

وقد كانت القبائل العربية قبل الميلاد وبعده تقلق راحة سكان الحدود وتزعج الحاميات الموكول اليها أمر سلامتها ، وتكون مصدر خطر دائم للحكومات . وكان من الصعب الاطمئنان اليها. ثم ان البادية كانت تصدّر لهم بين حين وآخر بضاعة جديدة منها ، وموجة عنيفة تزعج القبائل القديمة والحدود معاً ، فكان على تلك الحكومات مداراتها واكتساب ود القوية منها، ويقال ان القيصر(دقيوس) (Decius) (٢٤٩ – ٢٥١ م) سئم في زمانه من هذا الوضع وبرم به ، ففكر في ادخال الرعب في نفوس هذه القبائل وقهرها ، فجاء بأسود اصطادها من افريقية في البادية لتتناسل وتتوالد ولتكون مصدر خطر ورعب للأعراب[4] .

وقد اتخذ بعض ملوك الغساسنة تدمرَ منزلاً لهم ومحل اقامـــة . ولم تزل على هذا الشأن حتى فتحها المسلمون سنة (٦٣٤ م)[5] . غير انها منذ تركتها الزباء لم ترجع الى ما كانت عليه . وقد أثر تحول الطرق التجارية في مركز هذه المدينة كثيراً ولا شك .

وانتهت الينا أسماء عدد من أساقفة مدينة (تدمر) مدونة في سجلات الأعمال الكنسية ، منهم : الأسقف (مارينوس) (Marinus) وقد حضر المجمع النيقاوي (Nicaea) (Nicaa) الذي انعقد سنة (٣٢٥) للميلاد[6] ، والأسقف (يوحنا) (٣٥٧ م) وقد ورد اسمه في سجلات أعمال مجمع (خلقيدون) (Chalcedon)

---

١ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٣٦) .

٢ Musil, Palmyrena, P. 248, Theophanes, Chronographia (Migne), Col : 404.

٣ Musil, Palmyrena, P. 248.

٤ Musil, Palmyrena, P. 247, The Chronicon Paschale, (Migne), Col : 669

٥ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء ٢٣ (١٨٩٨ م) ، (ص ١٠٦٣) .

٦ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٦٣) ، Oberdick, S., 117.

المنعقد عام (٤٥١م)[١] ، و (يوحنا) الثانـي المشهور في أيام (انستاس) (أنسطاس) (نسطاس) القيصر (٤٩١ – ٥٨١م) . وكان نفي في عهـد (يوسطينوس) خليفته لدفاعه عن (المجمع الخلقيدوني) ولقوله بطبيعتـين في المسيح سنة (٥١٨م)[٢]. ويستدل من وجود أساقفة في تدمر على انتشار النصرانية في هذه المدينة .

وفي (تدمر) في الزمن الحاضر ثروة تأريخية مطمورة تحت الأنقاض ستفيدنا ولا شك فائدة كبيرة في تدوين تأريخ المدينة وتأريخ صلاتها بالخارج . لقـد عثر فيها على كتابات أفادتنا كثيراً في تدوين تأريخ المدينة . ولكن ما سيعثر عليه منها مما هو مطمور سيفيدنا أيضاً ، وقد يفيدنا أكثر في كتابة تأريخها . وقد قام علماء بالتنقيب في مواضع منها ، للكشف عن المواقع المهمة منها ، وكتبوا عنها[٣] . غير ان المدينة لا تزال في انتظار من يكشف عنها .

ووردت في الكتابات التدمرية أسماء اصنام عديدة عبدها التدمريون ، بلغ عددها زهاء اثنين وعشرين صنماً ، منها ما هو معروف ومشهور عند العرب ، وأسماؤها أسماء عربية . ومنها ما هو إرمي ، وعلى رأس آلهة تدمر الإلـه (شمش) (شمس). وقد اتصفت دياناتهم بمزايا النظام الشمسي الذي تركزت عليه ديانة عرب الشمال. ومن هذه الأصنام (بل) ، أي (بعل) ، و (يرح بل) (يرح بول) (يرح بعل) ، و (عجل بل) (عجل بول) و (عجل بعل) ، و(الت) أي (اللآت) ، و (رحم) (رحيم) ، (اشتر) أي (عشتار)، و(عثر) عند العرب الجنوبيين[٤] ، و (ملك بل) (ملك بعل)[٥] ، و(عزيزو) (عزيز)

---

١ Oberdick, S., 117.

٢ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٣٦) .

٣ Syria. Tome, VII, 1926, PP. 70, « Recherches Archéologiques a Palmyre », by Albert Gabriel, PP. 128, Syria, Tome, XI, 1930, PP. 242, Tome, XVII, 1936, PP. 229, Bounni A, Les Annales Archéologues de Syrie, Vol., 15, 1965.

٤ Ency. Brita., 17, P. 163, Syria, Tome, IX, 1928, PP. 101, Tome, XIII, 1932, PP. 139, Tome XIV, 1933. PP. 171, J. Février, La Religion des Palmyreniens, PP. 57.

٥ Syria, XIV, 1933, P. 182.

و (سعد) ، و (اب جل) ، و (اشر)[1] ، و (بل شمن) (بل شمين) (بعل شمين) ، أي (بعل السماوات) (رب السماوات)[2] و (جد) (جد بعل) ، وغيرها .

وعثر في تدمر على مقابر عديدة خارج أسوار المدينة على التلال المشرفة عليها تذكّر الأحياء عبّاد المال بالمصير المحتوم الذي سيواجه كل حي غني أو فقير أو متوسط ، تضم رفات من تستقبلهم ثم لا تسمح لهم بالانتقال منها الى دار أخرى. انها دور الأبدية والاستقرار ، وقد أجاد أهل المدينة كل الاجادة باطلاقهم (بيت الأبدية) على القبر[3] . ضمت بيوت الأبدية هذه رفات الآباء والأبناء الى الأبد : بعضها على هيأة أبراج ذوات غرف تودع فيها الموتى ، وبعضها على هيأة بيوت ذوات غرفة واحدة مزينة بالنقوش وأنواع الزخرفة كتبت على جوانبها أسماء ساكنيها في الأبدية ورسمت صورهم عليها[4] . هذه هي مدينة الأموات تشرف على مدينة الأحياء وتضحك منها .

حصن (زنوبية) :

لم تفكر (الزباء) ، على ما يظهر ، في نقل عاصمتها الى موضع آخر ، وقد عملت على تقوية (تدمر) وتحصينها وتجميلها ، ومعظم الآثار الباقية فيها هي من أيامها . ولو ان كثيراً من الأبنية التي كانت فيها قبل أيام الملكة قد صيّرت باسمها ، غير انها عُنيت عناية فائقة بتحسين عاصمتها ولا شك . وابتنت مدينة على نهر الفرات لحماية حدودها من الشرق عرفت بـ (زنوبية) وهو اسمها باليونانية . ويظهر ان هذه المدينة هي التي أشار اليها (الطبري) بقوله : « وكانت للزباء أخت يقال لها زبيبة ، فبنت لها قصراً حصيناً على شاطىء الفرات الغربي »[5] ،

١ Syria, XV, 1934, PP. 173, Tome XVIII, 1937, P. 9, XVIII, 1937, 198, Baethgen, Beiträge zur Semitischen Religionglschichte, S., 84.

٢ Syria, XVIII, 1937, P. 5, REP. EPIG., 30, Tome, I, I, P. 28.

٣ Ency. Brita., 17, P. 162, Syria, XXVI, 1949, PP. 87, « La Tour Funeraire de Palmyre », by Ernest Will, Wood, The Ruins of Palmyra, PL. 56.

٤ Ency. Brita., 17, P. 162.

٥ الطبري (٢/٣٢) .

فجعل المدينة قصراً ، وصيّر اسم المدينة وهو (زنوبية) (زبيبة) وجعله اسم أخت للزباء . وذكر (المسعودي) ان مدائن الزباء على شاطىء الفرات من الجانب الشرقي والغربي ، (وكانت فيما ذكر قد سقفت الفرات وجعلت من فوقه أبنية رومية ، وجعلته أنقاباً بين مدائنها)[١] . وذكر أيضاً انها حفرت سرباً من تحت سريرها وبنته حتى خرج من تحت الفرات الى سرير أختها[٢] . وقد أشير الى هذا النفق في قصة مقتلها . وذكر (ابن الكلبي) ان أبا الزبّاء اتخذ النفق لها ولأختها ، وكان الحصن لأختها داخل المدينة[٣] .

وذكر (البكري) ان المدينة التي بنتها الزباء على شاطىء الفرات هي (الخانوقة)، وزعم ان (الزبّاء) (عمدت الى الفرات عند قلة مائه فسكر ، ثم بنت في بطنه ازجاً جعلت فيه نفقاً الى البرية وأجرت عليه الماء ، فكانت اذا خافت عدواً دخلت الى النفق وخرجت الى مدينة اختها الزبيبة)[٤] . وسمى (ياقوت الحموي) تلك المدينة (الزباء) ، قال : انها (سميت بالزباء صاحبة جذيمة الأبرش)[٥] . ودعاها في موضع آخر (عزان)[٦] وقال : إنّ في مقابلها على الضفة الثانية من الفرات مدينة تدعى (عدان) ، وهي لأخت الزبّاء[٧] .

ويظهر ان هرب (الزبّاء) سراً من نفق سري ، يمر من داخل المدينة من معبدها او من قصر الملكة ومن تحت السور الى الخارج ، هو الذي أوحى الى أهل الأخبار قصة ذلك النفق الطويل الذي زعموا أن الملكة بنته تحت الأرض من قصرها الى نهر الفرات ، حيث مدينتها الثانية ، وهو نفق يجب أن يكون طوله مئات من الأميال . وقد عثر على بقايا سراديب وقنوات تحت أسوار تدمر وقلاعها تشير الى وجود أنقاق للهرب منها عند الاضطرار[٨] ، ولكنها لا يمكن أن تكون على شاكلة نفق أهل الأخبار بالطبع .

---

١ مروج (١٩/٢) .
٢ مروج (٢١/٢) .
٣ الطبري (٣٤/٢) (طبعة المطبعة الحسينية) .
٤ البكري ، معجم (٣٢٠/١) ، (طبعة وستنفلد) .
٥ البلدان (٣٧٢/٤) .
٦ البلدان (١٢٦/٦) .
٧ البلدان (١٢٦/٦) .
٨ المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٠٥٨) ،
Oberdick, S., III, Ritter, Erdkunde, XVII, 2, S., 1521.

ولا يستبعد احتمال وجود نفق في حصن (زنوبية) على الفرات أيضاً، ساعد وجوده في تثبيت هذه القصة في رواية الأخباريين .

ويرى (هرتسفلد) (E. Herzfeld) أن هذه المدينة هي الموضع الذي يعرف اليوم باسم (الحلبية) ، ويقابله في الضفــة الثانية من النهر موضع آخر يسمى (الزلبيية) . وهو يعارض رأي من يدعى أن (الزلبيبة) هي المدينة التي بنتها الزبّاء . وينسب بناء موضع (حلبية) (الحلبيــة) الى (الزبّاء) كذلك[1] . ويرى بعض الباحثين احتمال كون (الحلبية) القصر الثاني الـذي نسب بناؤه الى الزبّاء ، وذكر في الروايات العربية . وذهب بعض آخر الى أن (زنوبية) هي مدينة (السبخة) الحالية[2] .

ويرى (موسل) أن (الحلبية) هـي (دور كرباتي) (Dur Karpati) (Nibarti Aschur) التي بنيت بأمر (آشور نصربال الثالث) (Asurnazirpal) عام (٨٧٧) قبل الميلاد ، وأنها عرفت بـ (زنوبية) ثم (الزبّاء) فيما بعد[3] .

ويعزو (سبستيان رتزفال) سبب بناء مدينة (زنوبية) الى عزم الملكة على اذلال مدينة (فولوغيسية) (Vologasia) (Vologesias) المعروفة في الكتابات التدمرية باسم (ألجيسيا) (Ologesia) (ألجاشيا) ، وهي في نظر بعض الباحثين (الكفل) على نهر الفرات في لواء الحلة بالعراق ، بناها (فلوجاس) (فلوكاس) من ملوك (الأرشكيين) (بنو أرشك) حوالي سنة (٦٠) للميلاد . وذلك لاستجلاب التجارات الواردة عن طريق نهر الفرات من أقاصي الهند والشأم وآسية الصغرى[4]. فرأت (الزبّاء) منافسة هذه المدينة ببناء مدينة جديدة تقع في منطقة نفوذها على نهر الفرات .

---

١ المشرق ، السنة الاولى ، الجزء الـ ٢٠ ، السنة ١٨٩٨ م ، (ص ٩٢٠) ، Friedrich Sarre und Ernst Herzfeld, Archäologische Reise im Euphart und Tigris-Gebiet, Berlin, 1911, I, S., 167, II, 365.

٢ المشرق ، السنة الاولى ، (١٨٩٨ م) ، (ص ٤٩٥ ، ٩٢٠) ، Sarre — Herzfeld, Archäologische, I, S., 164.

٣ Musil, Euphrates, P. 331, Rawlinson, Cuneiform Inscriptions, (1861-1884), Vol., I, PL. 24, Col., 3; II, 49, Budge and King, Annals, 1902, PP. 360.

٤ المشرق ، السنـــة الاولى (١٨٩٨ م) ، (ص ٤٩٥ ، ٩٢٠) ، سماها (الأب رتزفال) (الكفيل) ، Rostovtzeff, Melange Gloz, 749, Seyrig, Syria, XIII, 1932, P. 272.

وكانت قوافل (تدمر) تتاجر مع هذه المدينة العراقية (ألجاشيا) ، تحمل اليها بضائع الشأم وسواحل البحر المتوسط ، وتنقل منها الى (تدمر) بضائع الهند وايران والخليج والعراق . يقود هذه القوافل زعماء شجعان خبروا الطرق وعرفوها معرفة جيدة ، ولهم في المدينة مقام محترم . وطالما عمل لهم رجال القافلة والمساهمون في أموالها ، التماثيل ، تقديراً لهم وتخليداً لأسمائهم وكتبوا شكرهم لهم على الحجارة، ولدينا نماذج عديدة منها . من ذلك كتابة دونها رجال قافلة لزعيمهم وقائدهم (يوليوس أورليوس زبيد بن مقيمو بن زبيدا عشتور بيدا) ، لأنه أحسن اليهم حين قاد قافلتهم وأوصلها سالمة الى (الجاشيا) في العراق . وكتابة أخرى دونها جماعة قافلة تولى قيادتها زعيم اسمه (نسى بن حالا) لمناسبـــة توفيقه في حمايتهم وحماية أموالهم في أثناء ذهابهم وعودتهم الى (الفرات) والى (ألجيسيا) (Ologesia) وقد صنعوا لذلك تمثالاً له في شهر (نيسان) من سنة (١٤٢) للميلاد تخليداً لاسمه[١] .

وقد استولى (خسرو) الأول في حوالي سنة (٥٤٠) بعد الميلاد على(زنوبية) فدمرها . فلـما استرجعها (يوسطنيانوس) (جستنيانوس) (Justinianus) (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) ، أعاد بناء ما تهدم منها . وقد عثر على بقايا المباني التي تعود الى أيامه ، وبعضها من عمل معماريه (يوحنـا البيزنطي) و (أزيدوروس الملطي) (Isidoros Miletus) حفيـــد البنّاء البيزنطي الشهـــير (أيا صوفيا) (Hagia Sophia) كلفهما القيصر انشاء تلك العمارات[٢] . غير ان اصلاحات هذا القيصر لم تضف الى حياة المدينة عمراً طويلا ، لقد كانت نوعاً من أنواع الحقن المقوية، تقوم الجسم الى حين ولكنها لا تمنحه الأبدية . ففي سنة (٦١٠) للميلاد . وفي أيام القيصر (فوقاس) (Phokas) هاجمها (خسرو) الثاني وأنزل فيها الخراب والدمار[٣] . فقد عبر (شهربراز) (Shahrvaraz) نهـــر الفرات في اليوم السادس من شهر (أغسطس) من عام (٦١٠) للميلاد ، واستولى على مدينة (زنوبية) (Zenobia)[٤] . وأخذ نجمها منذ ذلك الحين في الأفول ، فلم يسمع

١ REP. EPIG., I, VI, P. 342.
٢ Sarre-Herzfeld, Archäologische reise, I, S., 167, II, S., 365.
٣ المصدر نفسه ، Land, Anecdota Syriaca, I, 16.
٤ Musil, Euphrates, P. 332.

عنها شيء ، حتى انها لم تذكر في أخبار الفتوح ، ويدل هذا على أنها لم تكن شيئاً يذكر في ذلك الحين[1] .

ويحدثنا المؤرخ (بروكوبيوس) أن الأيام أثرت في مدينة (زنوبية) (Zenobia) مدينة (الزباء) ، فأنزلت فيها الخراب ، وتركها أهلها ، فانتهز الفرس هذه الفرصة ودخلوها وتمكنوا بذلك من الولوج في الأرضين الخاضعة للروم دون أن يشعر الروم بذلك ، ولذلك أعاد (يوسطنيانوس) بناء هذه المدينة وأحكم حصونها وجدد قلاعها وأنزل الناس فيها ، وأسكن فيها حامية قوية جعلها تحت امرة قائد، وأقام لها سدوداً من الحجارة لحمايتها من فيضان الفرات ، وقد كانت مياه الفيضان تصل اليها فتلحق بها أضراراً جسيمة[2] .

وذكر المؤرخ (بروكوبيوس) أن الفرس والروم ابتنوا قلاعاً بنيت جدرانها باللبن لحماية كورة (قوماجين (Commagene) وهي الكورة التي كانت تعرف قبلاً باسم (كورة الفرات) (Euphratesia) ، وحماية حدود الانبراطورية الفارسية الواسعة المشرفة على البادية من الغزو أيضاً . ومن جملة هذه الحصون ثلاثة حصون أمر القيصر (ديوقلطيانوس) (ديوقليتيانوس) (Diocletianus) ببنائها ، منها حصن (Mabri) (Mambri) الذي أصلحه القيصر (يوسطنيانوس) (جستنيانوس) (Justinianus) ورممه . ويقع على مسافة خمسة أميال رومية من (زنوبية) (Zenobia) . و (Mambri) ، هو خرائب (شيخ مبارك) على مسافة سبعة كيلومترات من (الحلبية)[3] .

ولم يبق من آثار عهد (تدمر) في (الحلبية) إلا مقابر خارج أسوار المدينة. وهي على هيأة أبراج تتألف من طابقين أو ثلاثة طوابق وأهرام بنيت على الطريقة التدمرية في بناء القبور ، غير أنها دونها كثيراً في الصنعة وفي الفن . وتشاهد بقايا قبور مشابهة لهذه القبور في المدن الواقعة في منطقة الفرات الأوسط ، أي المنطقة التي خضعت لنفوذ حكومة (تدمر)[4] .

---

١ Land. Anecdota Syriaca, I, 16, Sarre-Herzfeld, Arch., I, S., 167, II, S. 365.

٢ Procopius, De Bello Persico, II, 5, 4-7, Musil, Euphrates, P. 332.

٣ Musil, Euphrates, P. 332, Procopius, De Aedificus, II, 8, 4-8.

٤ Sarre-Herzfeld, Arch., II, S., 367.

ويلاحظ انتشار هذا النوع من القبور في المناطق التي سكنها العرب في أطراف الشأم والعراق في العهد البيزنطي ، خاصة في (تدمر) وفي (حمص) و (الرها) (Edessa) وفي (الحضر) كذلك[1] . بل وفي (بطرا) أيضاً حيث نجد شبهاً كبيراً في أشكال القبور المنحوتة من الصخر على هيأة أبراج ذوات رؤوس تشبه الهرم في بعض الأحيان . ولانتشار هذا النوع من القبور في مناطق سكنتها أغلبية من العرب المتحضرين ، نستطيع أن نقول انها نمط خاص من أنماط بناء القبور كان خاصاً بالعرب المتحضرين[2] .

وذكر (بطلميوس) أسماء عدد من المواضع جعلها في عداد أماكن (كورة تدمر) (Palmyrena)[3]. وهي : (Resapha) و (Cholle) و (Oriza) و (Putea) و (Adaba) و (Palmyra) و (Adacha) و (Danaba) و (Goaria) و (Aueria) و (Casama) و (Admana) و (Atera) و (Alalis) و (Sura) و (Alamatha) ،وتقع هذه المواضع الثلاثة الأخيرة على نهر الفرات[4].

أما (Palmyra) ، فهي (تدمر) العاصمة . وأما (Resapha) ،فهي (الرصافة) وهي مدينة قديمة ورد خبرها في النصوص المسمارية فدعيت فيها بـ (Ra-sap-pa) ومن ذلك نص يعود الى سنة (٨٤٠) قبل الميلاد . وقد اشتهرت بوجود ضريح القديس (سرجيوس) (St. Sergius) بها ، المقدس عند الغساسنة[5] .

وأما (Cholle) ، فهي (الحولة) (الخلة) . وأما (Oriza) ، فهي (الطيبة) ،وتقع هذه المواضع على السكة الرومانية الممتدة من الفرات الى (تدمر)[6].

ويرى (موسل) أن (Putea) ، هو (Beriarac) ، وهو موضع (بيار جحار) ، ويقع على السكة الرومانية المارة من (تدمر) الى موضع (Occaraba)[7].

---

١ Sarre-Herzfeld, Arch., II, S., 367, W. Andrae, Hatra, II, S., 76-106.

٢ Sarre-herzfeld, Arch., II, S., 367, Eissfeldt, Tempel und Kulte Syrischer Städte in Hellinistisch-Römischer Zeit, 1941.

٣ Ptolemy, Geography, V, 14 : 19.

٤ Musil, Palmyrena, P. 233.

٥ Winckler, Keilinschriftliches Textbuch, 1909, S., 75, Musil, Palmyrena, P. 262.

٦ Musil, Palmyrena, P. 233.

٧ Musil, Palmyrena, P. 233.

أما المستشرقان (ميلر) (Müller)[1] و (موريتس) (Moritz)[2] ، فقد ذهبا الى أنه (أبو الفوارس) الواقع على مسافة سبعة كيلومترات في غرب جنوب غربي تدمر . وذهب (موريتس) أيضاً الى احتمال كونه (القطار) ، وهو على مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً الى الشمال الشرقي من (تدمر)[3] .

أما موضع (Adada) ، فكان حصناً رومانياً كذلك ، يعرف في الزمن الحاضر بـ (الحير) ، ويقع على أربعة عشر كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من (الطيبة) (Oriza) ، وعند الحافات الغربية لمرتفع (Adidi) ،وهو اسم قريب من (Adaba)[4] وقد ذهب (ميلر) الى أنه الموضع المسمى بـ (خربة العاشجة) (خربة العاشقة) الواقع على الحافات الشمالية لهضبة تدمر[5] .

ويرى (موسل) أن في كلمة (Adacha) بعض التحريف ، وأن الأصل الصحيح هو (Archa) و (Harac) ، وهو (أرك) (رك) الواقع على طريق تدمر وفي الشمال الشرقي من المدينة[6] .

وأما (Danaba) ، فيقع على طريق (دمشق) (تدمر) ، وهو موضع خرائب (البصيري) على رأي (موسل)[7] .

وأشار المؤرخ (اصطيفانوس البيزنطي) الى (Goaria) كذلك ، ذكرها على هذا الشكل (Goareia)[8] . ويظهر ان هذه المدينة كان لها شأن في تلك الأيام ، واذ أطلق اسمها على منطقة واسعة دعيت باسم (Goarene) ،ويظن انها (البخراء) وهي في زمننا خرائب تقع على ستة وعشرين كيلومتراً الى الجنوب من (تدمر) . وقد عرفت بـ (Goareia) عند بني ارم (الآراميين)[9] . وذهب (ميلر) و(بينتزنكر) (Benzinger) الى ان (Goaria) هو الموضع المسمى بـ (Cehere)

---

١ Müller, Ptolemy, Geography, P. 983.

٢ Moritz, Palmyrena (1889), S., 8.

٣ Musil, Palmyrena, P. 233.

٤ Musil, Palmyrena, P. 233.

٥ Müller, Ptolemy, Geography, P .984.

٦ Musil Palmyrena, P. 234.

٧ Musil Palmyrena, P. 234.

٨ Stephen of Byzantium, Ethnica, P. 210.

٩ Musil, Palmyrena, P. 234.

على الخارطة الرومانية لأيام الانبراطورية [1] . وهو رأي يعارضه (موسل) ، ويرى ان (Cehere) هو المكان المسمى بـ (خان عتيبة) الواقع على مسافة تزيد على مئة كيلومتر في جنوب غرب (البخراء)[2] .

ويظهر ان (Aueria) (Aueira) (Aberia) ، هـو موضع (Eumari) (Euhara) (Euarius) في مؤلفات أخرى ، وهو موضع (الحوارين)[3] .

وأما (Casama) ، فهو على طريق دمشق المؤدي الى تدمر ، وهو خرائب خان (المنقورة) على رأي (موسل)[4] . وأمـا (Admana) (Odmana) (Ogmana) ، فهو موضع (Ad-Amana) في الخارطات الرومانية للانبراطورية على ما يظهر ، وهو موضع (خان الترّاب) على رأي (موسل) كذلك[5] .

وأما (Atera) ، فالظاهر انه موضع (Adarin) عـلى الخارطة الرومانية ، وهو موضع (خان الشامات) (أبو الشامات) (خان أبو الشامات) على رأي (موسل) . أما (ميلر) فيرى انه موضع (دير عطية)[6] ، وهو رأي لا يقره (موسل) عليه[7] .

وموضع (Sura) هو (سورية) على رأي (موسل) . وأمـا (Alalis) فيقع في غرب (Sura) عند (بطلميوس) . ويظن (موسل) أنـه يقع بين موضعي (Sura) و (Alamatha) في مقابل (طابوس)[8] .

عانة :

ذكرت أن التدمريين كانوا قد وضعوا حاميات لهم في مدينة (Anatha) ، أي (عانة)[9] . وهي لا تزال موضعاً معروفاً حياً على نهر الفرات في العراق .

---

١ Müller, Ptolemy, Geography, P. 984, Müller, Palmyrena, S., 22, Pauly-Wisowa, Real-Lex., BD., 7, 1547, Peutingeriana Tabua Itineraria, Wien, 1888.

٢ Musil, Palmyrena, P. 234.

٣ Musil, Palmyrena, P. 235.

٤ Musil, Palmyrena, P. 235.

٥ Musil, Palmyrena, P. 235.

٦ Müller, Ptolemy, Geography, P. 985.

٧ Musil, Palmyrena, P. 235.

٨ Musil, Palmyrena, P. 235.

٩ Berytus, Vol., VIII, Fasc., I, (1943), P., 26, 55, CIS, II, 3973, A. Cantineau Syria, XIV, 1933, PP. 179, Musil, Palmyrena, P. 234.

وعرفت (عانة) بـ (Anat) و (An-at) و (A-na-at) و (A-Na-Ti) في الكتابات المسمارية . وعرف موضعها بـ (خـ ـ نا) (H-na) و (خا ـ نا ـ ت) (Ha-na-at) في النصوص البابلية القديمة . وقد تكونت مملكة صغيرة بهذا الاسم امتدت رقعتها الى الخابور،وعرفت المدينة بـ (Anatha) في مؤلفات (الكلاسيكيين)[١] .

ويشك المستشرق (أدور ماير) (Eduard Meyer) في وجود صلة بين اسم الإلّه (Ana-tu) (Anat) ، واسم مدينة (An-at) ، أي (عانة)[٢] .

ومركز (عانة) الجزر الواقعة في النهر ، وهي خصيبة ، وفي مأمن من غارات الأعراب . وقد تمكن أصحابها بفضل موقعهم هذا من التحكم في القبائل المجاورة لها ومن أخذ الجزية منها . ولهذا السبب استعمل الآشوريون في الغالب رجالاً من أهلها لحكم منطقة (سوخي) (Suhi) . وفيها كان يقيم (ايلو ابني) (Ilu Ibni) حاكم (سوخي) الذي دفع الجزية الى الملك (توكلتي أنورتا الثاني) (Tukulti Enurta) (٨٨٩ – ٨٨٤) قبل الميلاد[٣] .

وقد ذكر اسم (عانة) و (الحيرة) في الكتابة المرقمة برقم (Littmann 6)[٤] . ويرجع تأريخها الى شهر أيلول من سنة (٤٤٣) من التأريخ السلوقي ، أي شهر (سبتمبر) من سنة (١٣٢) للميلاد ، وورد فيها اسم الإلّه (شيع القوم) حامي القوافل والتجارات . ويظهر ان المراد بـ (حيرتا) الحيرة الشهيرة في العراق[٥] . فإذا كان ذلك صحيحاً ، دل على ان نفوذ تدمر قد بلغ هذا المكان،وان للقصص الذي يرويه الأخباريون عن ملوك الحيرة والزباء أصلاً تطور على مرور الأيام

---

١ Sarre-Herzfeld, Arch., II, S., 313, Ency., I, P. 344-345, G. Bell, in Georgr. Journ., XXXVI, P. 535, ZDMG., IXI; 701, Pauly-Wissowa, Real-Lexi., I, S., 2069, I, II, S., 104.

٢ Eduard Meyer, in ZDMG., 31, 1877, S., 716.

٣ Musil, Euphrates, P. 345, Sheil, Annales, PL. 3, (1909), II, 69-73.

٤ CIS, II, III, I, P. 156, 3973, Lidzbarski, Ephemeris für Semi Epigr., I, S., 345-346, REP. EPGR., 285, G. A. Cooke, NSI, NO : 140, Littmann, in Part IV, of the Puplications of an American Archaelogical Expedition to syria in 1899-1900, Palmyrene Inscriptions, NO : 6, P. 70, Syria, Tome IV, 1923, P. 156, Hartwig Derenbourg, un dieu Nabatéen, 1902, PP. 124, REP. EPIG. 285, I, IV, PP. 230.

٥ CIS, II, III, I, P. 157.
والموارد المتقدمة ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٨١) .

فتكونت منه قصة (جذيمة) والزباء .

وصاحب هذه الكتابة رجل اسمه (عبيدو بن غانمو بن سعدلات) ، من قبيلة (روحو) أي (روح) ، وكان فارساً في حامية مدينة (عنا) وهي (عانة) . وقد دوّن كتابته هذه بمناسبة تقديمه مذبحين الى الإلّه (شيع القوم) الذي لا يشرب خمراً ، وهو حامي القوافل . ويلاحظ أن أكثر الكتابات تذكر جملة (الذي لا يشرب خمراً) بعد اسم هذا الإلّه . وهي تعني أن هذا الإلّه كان يشرب الخمر ولا يحبها ، فعلى أتباعه تجنبها . ويظهر ان طائفة من الناس حرّمت عليها الخمرة ، ودعت الى مقاطعتها ، واتخذت (شيع القوم) حامياً لها . وهي على نقيض عباد الإلّه (دسره) (دشرة) (Dussares) أي (ذو الشرى) الذين كانوا يتقربون إلى إلههم هذا بشرب الخمر[1] .

ولا نعرف متى استولى الرومان عليها . ولم يرد ذكرها في قائمة (ماريوس مكسيموس (Marius Maximus) التي عثر عليها في (Dura) والتي يعود تأريخها الى سنة (٢١١) للميلاد في ضمن المخافر الرومانية التي كانت في المناطق الوسطى لنهر الفرات . ويظهر منها أن (عانة) (Anath) كانت في ذلك الوقت في أيدي (الفرث) (Parthians) ، وأن الرومان دخلوها بعد ذلك . قد يكون في أثناء حملة (اسكندر سويرس) (Alexander Severus) كما ذهب (روستوفستزف) (Michael Rostovtzeff) الى ذلك،أو في أيدي (غورديانوس) (Gordianus) كما ذهب (أولمستيد) (A. T. Olmstead) الى ذلك[2] .

وقد ذكر (عانة) (Anatha) المؤرخ (أريان) في أثناء حديثه عن أسطول (تراجان) الذي مرّ بها . وورد اسمها (Anath) في خبر (معين) (Ma'ajn) أحد قواد الملك (سابور الثاني) (٣٠٩ — ٣٧٩ م)،وكان قد اعتنق النصرانية وبنى جملة ديارات،ونصب القس على(سنجار) (شجار) (Schiggar) ، ثم لم يكتف بذلك ، فذهب الى (عانة) ، فبنى على شاطىء الفرات وعلى مسافة ميلين منها ديراً استقر فيه سبع سنوات[3] .

---

١ CIS, II, 182, Lidzbarski, Ephemeris, I, III, 1902, S., 345, REP. EPIG., I, IV, P. 232, Syria, Tome, IV, 1923, P. 156.

٢ Berytus, VIII, Fasc., I, 1943, P. 25.

٣ Musil, Palmyrena, P. 345.

وفي سنة (٣٦٣) للميلاد حاصرها الروم ، وألحقوا بها أضراراً كبيرة . وأجلوا السكان عنها . ولما أرسل (فاراموس) (Varamus) (Varaïous) في عام (٥٩١) للميلاد قوة على (عانة) لمناوشة (كسرى) (Chosroes) وصدّه عن الرجوع الى فارس ، قتل الجنود قائدهم ، وانضموا الى (كسرى) . وفي القرن السابع للميلاد ، كان مقر أسقف قبيلة (الثعلبية) في هذه المدينة[1] .

١ Ammianus Marcellianus, Rerum Gestarum, XXIV, I, 6-9, Musil, Euphrates, P. 346.

الفصل السادس والثلاثون

الصفويون

والى هذا العهد تجب اضافة قوم من العرب أطلق المستشرقون عليهم لفظة (الصفويين) ، نسبة الى أرض (الصفاة)[1] . وهم أعراب ورعاة كانوا يتنقلون من مكان الى آخر طلباً للماء والكلأ . وقد دوّنوا خواطرهم أحياناً على الأحجار ، وتركوها في مواضعها ، ومنها استطعنا الإلمام بعض الشيء بأحوالهم وأخبارهم . وقوم تنتشر الكتابة بينهم على هذا النحو ، لا يمكن أن نتصورهم أعراباً على النحو المفهوم من الأعرابية ، بل لا بد أن نتصور انهم كانوا على شيء من الثقافة والإدراك .

واذا سألتني عن سبب اختيار المستشرقين لهذه التسمية واطلاقها على أصحاب هذه الكتابات ، فإنـي أقول لك : انهم أخذوها من اسم أرض بركانية عرفت بالصفا وبالصفاة ، تغطي قشرتها الخارجية حتى اليوم صخور سود تقول لك انها خرجت الى هذا المكان من باطن الأرض،وان براكين ثائرة مزمجرة غاضبة كانت قد قذفت بها الى ظهر الأرض فاستقرت في أمكنتها هذه ، ومن يدري ؟ فلعلها أصابت أقواماً كانت تعيش في هذه المواضع أو مارة بها فأهلكتها . وهي تسمية

١ E. Littmann, Thamud und Safa, In Abhandlung für die kunde des Morgenlandes, (1940), 25. I, M. Hofner, Die Beduinen in den Vorisamischen Arabischen Inschrriften, in L'antica Societa Beduina, (Studi Semitici 2), 1959, 53.

قديمة تعود الى ما قبل الاسلام ، بدليل انهـا وردت في نص يوناني على هذه الصورة : (Safathene)[1] وورود اسم إلـه عـرف بـ (زيوس الصفوي) (Zeus Safathenos) ، أي نسبة الى هذه الأرض[2] .

أما (الصفوية) ، فتسمية ليست بتسمية عربية قديمة ، وليست علماً على قوم معينين أو على قبيلة معينة ، وانما هي تسمية حديثة أطلقها المستشرقون على قبائل عديدة كانت تنتقل من مكان الى مكان طلباً للماء وللكـلأ ، لرعي ماشيتها التي تكوّن ثروتها ورأس مالها ، تراها يوماً في أرض النبـط ، ويوماً آخر في بلاد الشأم حيث كان الرومان ثم البيزنطيون يسيطرون . فنحن في هـذا الموضع لسنا أمام مملكة أو حكومة مدينة ، بل أمام قبائل عديدة حرفتها الرعي والغزو وكفى.

ومن نسميهم بالصفويين إذن ليسوا بقبيلة واحدة ولا بجنس معين ، وإنما هم قبائل متنقلة ، كانت تتنقل في هذه الأرضين الواسعة ، في أزمنة مختلفة متباينة . ويعـود الفضل الى الكتابات التي عثر الباحثون عليها في اعطائنا فكرة عن تلك القبائل المتنقلة ، وفي حصولنا على أسماء بعض تلك القبائل التي كان ينتسب اليهـا أصحاب تلك الكتابات .

وقد جمعت الكتابات الصفوية من أرضين واسعة ، تمتد من (حماه) في سورية الى نهر الفرات في العراق في الشرق ، والى فلسطين والمملكة الأردنية الهاشميـة فأعالي الحجاز ، وكلها كتابات شخصية في موضوعات متعددة ، ليس بينها وثائق تتعرض للمسائل العامة مثل القوانين والحروب بين الدول بتفصيـل وتبسط ، ذلك لأن الكتابات الصفوية هي كما قلت كتابات أفراد كتبوها تعبيراً عن أمور شخصية لا غير ، ومثل هذه الكتابات لا تتعرض لما يبحث عنه المؤرخ الا بقدر ، وهو قدر لا يقدم في الغالب للمؤرخ ما يبحث عنه ، ولهذا انحصرت فوائدها في مسائل

---

١ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ٢٧) .

٢ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٦٢) .

G. Ryckmans, Inscriptions Safaitiques, Extrait Du Museon, tome, 1-2, Louvain, 1951, Handbuch, S., 46, Ditlef Nielsen, Uber die Nordarabischen Gotter, in Mittel. der Vorderas. Gesellsch., Bd., 21, 1916, E. Littmann, Safaitic Inscriptions, Leiden, 1943, Annual Department of Antiquities of Jordan, Vol., I, 1951, P. 17.

وكذلك الاعداد التالية لهذه المجلة التي تصدرها مديرية الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية .

أخرى ، في مثل الدراسات اللغوية والدينية وتطور الخطوط ودراسة أسماء الأشخاص والقبائل وما شاكل ذلك .

وانتشار هذه الكتابات وتناثرها في أرضين صحراوية ، أمر يلفت النظر ويدعو الى العجب من أمر الأعراب في ذلك العهد الذين كانوا يقرأون ويكتبون مع انهم أبناء بادية ، وقد عاشوا قبل الإسلام بزمان طويل ، ثم إن خطها يلفت اليه النظر أيضاً ، فهو خط عربي ، ولد من الأم التي نسلت الخط العربي الجنوبي ، وهو قريب من الخط الثمودي والخط اللحياني ، ويعني هذا أن العرب كانوا يكتبون قبل الميلاد بخط أود أن أسميه بالقلم العربي الأول ، أو القلم العربي القديم منه تفرعت الأقلام العربية المتنوعة فيما بعد ، فوجد ما نسميه بالقلم المسند وبالأقلام العربية الشمالية ، وذلك لظروف كثيرة لا مجال للكلام عليها في هذا المكان . وهو يدل على أن الصفويين وأمثالهم من الأعراب لم يتأثروا بالثقافة الإرمية مع قربهم منها واتصالهم بها ، وطغيانها على الثقافات الأخرى في العراق وفي بلاد الشام ، فبقوا مخلصين لقلمهم القديم ، فكتبوا به ، ولم يستعملوا قلم بني إرم كما فعل (أهل المدر) المقيمين في مدن العراق والشأم وقراهما . وكتبوا بلهجاتهم أيضاً ولم يكتبوا بلغة بني إرم كما فعل غيرهم من العرب الحَضَر .

وقد رأى (دوسو) (Dussaud) أن الصفويين كانوا يحاكون الجنود الرومان واليونان في تسجيلهم خواطرهم وذكرياتهم على الحجارة ، فقد وجد الباحثون أحجاراً دوّن عليها أولئك الجنود في أثناء أدائهم واجباتهم العسكرية في بلاد الشأم وعلى الطريق الرومانية ذكرياتهم وخواطرهم ونزولهم في تلك الأمكنة. ولكن وجود كتابات صفوية عديدة من القرن الأول قبل الميلاد يثبت ان الصفويين كانوا يدونون خواطرهم بهذا الأسلوب ، وذلك قبل شروع أولئك الجنود الرومان واليونان في تدوين خواطرهم على هذا الأسلوب ، وانهم كانوا يدوّنون خواطرهم هذه على الأحجار وبهذا الشكل لأن هذه الحجارة كانت هي ورق كتابة أهل البادية ، فكتبوا عليها كما يكتب أهل الحضر على الرق والخشب والورق وغيرها من وسائل الكتابة [1] .

ويرجع علماء الصفويات عمر أقدم الكتابات الصفوية الى القرن الأول قبل الميلاد.

---

١ Winnett, F. I.

أما آخر ما عثر عليه من كتابات ، فيرجع الى القرن الثالث بعد الميلاد ، على رأيهم أيضاً[١] . فما عثر عليه من الكتابات الصفوية ، هو من عهد تبلغ مدته زهاء أربعة قرون .

وقد أرخت بعض هذه الكتابات بحوادث محلية عرفت عند أصحابها ، الا انها مجهولة لدينا ، لذلك لم نستطع الاستفادة منها في تكوين رأي في زمن كتابتها . فقد أرخ بعضها بسنة وفاة قريب لصاحب الكتابة ، أو بوقت نزوله في المكان الذي كتب به الكتابة ، أو بوقت هربّه من الرومان أو بعد كذا من الأيام أو من السنين من رؤية قريب له أو وفاته ، ومثل هذه الحوادث، لا تفيد المتأخرين شيئاً ، ولا تساعدهم في تثبيت زمن تدوينها بوجه صحيح مضبوط . وأرخ بعضها بحوادث أعم ، الا انها ذكرت بأسلوب فوّت علينا معرفة زمان وقوع الحادث بوجه مضبوط ، فقد أرخت كتابة منها بـ (سنت نزز اليهد) ، أي (سنة الخصام مع اليهود)[٢] . وهي سنة كان يعرفها صاحب الكتابة وأصحابه . أما نحن فلا نعلم من أمرها شيئاً، فقد خاصم العرب اليهود كثيراً في تأريخهم . فأية خصومة من تلك الخصومات قصد صاحب الكتابة . فإذا كان قد قصد ثورة العرب أهل اللجاة (Trachonitis) على (هيرود الكبير) الملك المكابي ، فهذه الثورة يجب أن تكون قد وقعت فيما بين السنة (٢٣ ق. م.) والسنة (١٤ ق. م.)[٣] . أما اذا كان صاحب النص قد قصد خصاماً آخر ، فإننا لا نستطيع التكهن عنه من نصه هذا ، لما قلناه من تعدد الخصومات بين العرب واليهود .

وأرخت كتابة أخرى بزمن تمرد صاحب الكتابة على الروم ، وذلك سنة مجيء (الميديين) الفرس الى (بصرى) ، (ومرد على رم سنت أتى همذى بصرى)[٤] وقصد بـ (همذى) (الماذويين) ، أي الميديين من الفرس . ولما كانت الأخبار لم تشر الى اكتساح الفرس لـ (بصرى) قبل سنة (٦١٤ م) ، ظن من عالج هذه الكتابة أن صاحبها قصد استيلاء الفرس عليها في ذلك الزمن ، أي في السنين الأولى من سني مبعث الرسول ، حيث غلبت الفرس على الروم ، كما أشار الى

١ Winnett, P. I.
٢ Winnett, P. 95.
٣ Winnett, P. 95, Josephus, Antiq., XVI, IX.
٤ F. V. Winnett, Safaitic, P. 19, 323, M43, Harding 37, T31.

ذلك القرآن الكريم . غير أن هذا الفريق عاد فأبدل رأيه ، لأنه وجد أن هــذا الرأي لا ينسجم مع نوع الكتابــة والأبحاث الاثاريــة التي دلت على ان الكتابة يجب أن تكون أقدم عهداً من سنة (٦١٤ م) ، ورأى لذلك أن استيلاء الفرس على (بصرى) يجب أن يكون قبل ذلك بكثير ، وقد يكون وقع في القرن الأول قبل الميلاد ، غير أننا لا نملك نصوصاً تأريخية تشير الى وصول الفرس الى هـذا المكان ، واستيلائهم عليه في ذلك الزمن . وهكذا نجد أن تلك الكتابة المؤرخة قد أوجدت لنا مشكلة ، لم نتمكن من حلّها بسبب الغموض الوارد فيهـا عن سنة استيلاء الفرس على بصرى[1] .

وطالما قرأنا في الكتابات أن أصحابها (نجوا من الروم) أو فروا من الروم، أو تمردوا على الروم وأمثال ذلك من تعابير . وقد قصدوا بالروم بلاد الشأم التي كانت في أيدي الرومان ، ثم انتقلت الى الروم ، وهم اليونان البيزنطيون . ولما كانت بلاد الشأم تحت حكم المذكورين ، عبّروا عنها بـ (رم) (روم) أي (الروم) (وبلاد الروم) .

لقد كان الصفويون بحكم نزولهم في أطراف بلاد الشأم على اتصال بالروم بـل اضطروا الى الخضوع لحكمهم والاعتراف بسيادتهم عليهم . والتوغل شمالاً وجنوباً في بلاد الشأم بحثاً عن الماء والكلأ وعن القوت ، كما اضطروا الى مراجعة قرى بلاد الشأم ومدنها للامتيار ولبيــع مـا عندهم من فائض من منتوج أيديهـم ومن حاصل حيواناتهم . وهذا مما يدفعهم الى التخاصم أحياناً مع موظفـي الأمن الروم وحراس الحدود ورجال الجباية و (الكمارك) ، في شأن أمور الأمن ، أو أخذ حقوق الحكومة منهم ، فيقبض الروم على من يقاوم منهم،أو يتهرب من الأداء، أو يقتل ، أو يقوم بأعمال مخالفة ، فيلقونه في السجن أو يقتلونه ، ولهذا نجد بعض الكتابات وقــد سجلت حين هرب صاحبها من سجن الروم ، وعاد الى حريته . وهربه من الروم واستنشاقه نسيم الحرية ، معناه اللجوء الى البادية والاحتماء بها حيث يصعب على الجنود الروم الوصول اليها للقبض عليهم والاقتصاص منهم . والبادية حصن أمين للأعراب .

١ Winnett, P. 3, 19, BASOAR, Num : 122, P. 50, Die Araber I, S., 75, CIS 5, 4448, J. Pirenne I, 212.

ويظهر من هذه النصوص أن شأن الصفويين بالروم لم يكن يختلف عن شأن سائر العرب بهم وبأمثالهم من الدول الأجنبية مثل الفرس ، فهم مضطرون بحكم وضعهم الى التسليم لسلطان الدول الأجنبية ما داموا ضعفاء لا يستطيعون مقاومة الأعاجم ، فإذا تغيرت الأحوال ، وظهرت مواضع ضعف في الأجنبي ، اهتبل الأعراب الفرص ، فانقلبوا عليه حتّى يرضيهم أو يظهر قوته . وهكذا كان الصفويون ينتهزون الفرص ، فمتى وجدوا ثغرة في سلطان الروم وموضع ضعف في حراسة حدودهم ، هاجموهم منها حتّى ينالوا ما يبتغون من مغنم ، وقد ينقلب الحادث عليهم بالطبع ، لسوء تقدير في الموقف ، وهذا ما يحدث في كل غزو أو حرب ، وهو شيء طبيعي فقد ينتصر المحارب فيربح ، وقد يندحر فيخسر كل شيء .

ويلاحظ من الكتابات الصفوية أن أصحابها كانوا ينزعون نزعة شديدة الى تخليد أنفسهم وابقاء آثارهم وذكرياتهم بكل الطرق الممكنة ، فأرخوا بكل حادث كان معروفاً عندهم ، حتّى بحادث ولادة ماشيتهم ، أو مقتل أحدهم ، أو فرض غرامة مالية على أحدهم ، أو سفر أحد منهم وبأمثال ذلك من حوادث صغيرة تافهة ، ولكنها مع ذلك وعلى الرغم مما يبدو عليها من سذاجة تدل على وجود نزعة قوية لديهم لتأريخ كل ما يقع عندهم وتدوينه ، ليطلع عليه غيرهم ممن عبر بالأماكن التّي نزلوا بها [1] . هذا وما زال الأعراب وأهل القرى عندنا يسجلون حوادثهم على النحو المذكور من تسجيل التواريخ .

وللطابع الشخصي الذي تحمله الكتابات الصفوية ، لم نتمكن من الاستفادة منها من الوجهة السياسية والعسكرية ، فلم نعثر فيها على اسم ملك ، لا عربي ولا أجنبي ، ولم نعثر فيها على موضوع سياسي يشير الى الحالة السياسية التّي كانت في العراق أو في بلاد الشأم أو في جزيرة العرب في تلك الأيام ، ولم نتمكن أيضاً من الخروج منها بأية فكرة عن نوع الحكم الذي كان يعيش فيه الصفويون: أكانوا في حكم ملوك ، على شاكلة عرب الغساسنة ؟ أم كانوا قبائل متنقلة خاضعة لسلطان الروم ، حين تكون في بلاد الشأم ، وحرة طليقة حين ترد البادية ؟

وقد وردت في الكتابات الصفوية أسماء قبائل ، منها : (بدن) و (بعر)

---

١ راجع النصوص الصفوية .

و (تر) ، و (هجدل) (هكدل) ، و (جر) (كر) و (حزن) و (حضى) ، و (حولت) (حوالـــة) ، و (دمصى) و (سلم) ، و (صبح) ، و (ضف) ، و (عبد) ، و (عوذ) ، و (غر) ، و (فرث) ، (وقر) ، و (يحرب) ، و (همضر) ، و (املكت)[١] .

ومن القبائل الصفوية : (اشلل) ، و (بكس) ، و (جعبر) ، و (جوا)، و (حمد) ، و (حرم) ، و (حظى) (حضى) ، و (حمي) ، و (زد) (زيد) ، و (زهر) ، و (عذل) ، و (عمرت) (عمرة) ، و (فضج) ، و (مسكت) (ماسكة) ، و (معصى) (معيص) ، و (نمرت) (نمرة) (نمارة) (نميرة) ، و (هذر) (هذير) (هذار)[٢] ، و (نسمن) أي (نسيان)[٣] ، و (حمد) (حماد) (حميد)[٤] .

وترد لفظة (ال) قبل اسم القبيلة في كثير من الكتابات الصفوية ، وتؤدي فيها معنى (آل) عندنا ، مثل : (ال تم) ، أي (آل تيم)[٥] ، و (ال عوذ) بمعنى (آل عوذ)[٦] و (ال ادم) (آل آدم)[٧] ، و (ال حد) (آل حد)[٨]. وهي بمعنى ان المذكور أو المذكورين من القبيلة المسماة،أو من العشيرة المذكورة ، أو من البيت المسمى .

وورود (ال) بهذا المعنى في النصوص الصفوية يدل على ان لغة هذه القبائل وهي قبائل عربية شمالية تشارك لغة القرآن الكريم في هذه الخاصية .

وقبيلة (عوذ) ورد اسمها في عدد من الكتابات الصفوية . وقد ورد في احداها ان حرباً كانت قد نشبت بينها وبين قبيلة أخرى ، اسمها (وعل) أو (وبل) أو (وائل)[٩] . وقد يكون لاسم هذه القبيلة صلة باسم الإلـه (جد عوذ) .

---

١ Winnett, P. 4.
٢ Jordan, II, PP. 14.
٣ Littmann, Safa, S., 53, 55.
٤ Safa, S., 62.
٥ Annual Report of the Department of Antiquities of Jordan Vol., I, P. 26.
٦ Jordan, I, P. 27.
٧ G. Ryckmans, Inscriptions Safaitiques Au Britisch Museum et au Musée de Damas, Louvain, 1951, P. 88.
٨ Jordan, I, P. 24.
٩ Jordan, I, P 27.

وقد عثر على اسم قبيلة (نعمن) ، أي (نعمان) في بعض الكتابات الصفوية التي عثر عليها في (وادي حوران) بالعراق . ويرد (نعمان) اسماً لأشخاص ، ومنهم بعض ملوك الحيرة[1] .

وقد ورد اسم قبيلة في احدى الكتابات التي عثر عليها في العراق ، وهي قبيلة (ال صح) ، أي (آل صح) ، أو (آل صائح) ، أو (آل صيح)، أو (الصائح)[2] . وما زال اسم (الصائح) معروفاً في العراق ، وهو اسم عشيرة فقد يكون له صلة بهذه التسمية القديمة .

وقد أفادتنا هذه الكتابات من الناحية الجغرافية ، اذ قدمت الينا أسماء مواضع عديدة لا يزال بعضها يسمى بالأسماء الواردة في تلك الكتابات . وقد يمكن في المستقبل دراسة الأسماء الأخرى لتثبيت مواضعها وتعيينها على مصورات الأرض (الخارطات) .

ومن المواضع التي ورد اسمها في الكتابات الصفوية ، موضع (رحبت) ، وهو (الرحبة) . وقد ورد في نص سجله رجل اسمه (حنن بن هعتق) ، (حنان ابن العاتق) ، أو (حنين بن العاتق) ، أو (خنن بن العاتق) ، وذكر انه (بن ال ـ رحبت) ، أي (من الرحبة) ، أو (من آل رحبة) ، وانه كتب كتابته هذه في السنة التي دار فيها قتال مع قبيلة (ال حمد) (الحمد) أو (آل حمد)[3]. وقد ذهب بعض الباحثين الى أن (الرحبة) هو اسم موضع، كما ان (الحمد) هو اسم موضع كذلك ، وان الذين نزلوا في هذين المكانين وفي أمكنة أخرى نسبوا أنفسهم اليها فقالوا : (آل رحبة) و (آل حمد) ، وذلك على نحو ما نجده في عربيتنا من ذكر (آل) في الانتساب،وان هذا معناه ان أولئك الأعراب الذين نزلوا في الموضعين انتسبوا الى المكانين ، فاستعملوا لذلك لفظة (ال) ، أي (آل) ، قبل الموضع ، فظهر الاسم (ال رجبت) (ال رجبة) وكأنه اسم قبيلة[4] .

---

١ مجلة سومر ، المجلد العشرون ، ١٩٦٤ ، الجزء الاول والثاني (ص ٢٧) من القسم الانكليزي .
٢ مجلة سومر ، المجلد العشرون ، السنة ١٩٦٤ ، الجزء الاول والثاني (ص ٢٧،١٨) من القسم الانكليزي .
٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٠٥) .
٤ العرب في سوريا (ص ١٠٥ وما بعدها) .

ولهذا المظهر من التسميات والانتساب شأن كبير في موضوع دراسة أنساب القبائل ، إذ فيه برهان ودليل على أن الاقامة في موضع تكون سبباً للانتساب اليه، ثم لتحويل ذلك النسب الى اسم جدّ ، وأن ما يرويه أهل الأخبار في هذا الباب مثل انتساب الغساسنة الى (غسان) ، وأن (غسان) اسم موضع ماء نزلوا عليه ، فدُعُوا به ، يجب أن ينظر اليه نظرة اعتبار ، لا رفض وازدراء . وفي أسماء القبائل العربية المدوّنة في كتاب الأنساب والأدب ، أو الواردة في الكتابات الجاهلية أمثلة عديدة من هذا القبيل .

ومن الأماكن التي ورد ذكرها في النصوص الصفوية : (بصرى) وقد ذكرت على هذه الصورة (بصر) ، و (هنمرت) ، (النمرت) ، أي (النمارة)، و (هشبكي) أي (الشبكي)[1] و (حجر)[2] .

و (حجر) موضع قد يراد به (الحجر) المعروف في عربيتنا ، وهو (Hegra) و (Hegrae) عند اليونان واللاتين ، و (حجرا) و (حجرو) عند النبط[3] .

وورد اسم مدينة (تيما) أي (تيماء) في الكتابات الصفوية كذلك ، كالذي ورد في نص دوّنه رجل اسمه (خل – ال بن شبب) أي (خليل – ايل ابن شبيب) ، وقد تذكر فيه رجلاً اسمه (أبرش) ، وهو من أهل (تيماء)[4].

ولم يكن الصفويون كما يبدو بوضوح من كتاباتهم ومن صور الحيوانات التي نقشوها على الأحجار أعراباً ممعنين في الأعرابية على نحو عرب البوادي البعيدين في البادية ، حيث يقضون حياتهم فيها ، فلا يختلطون بالحضر ، ولا يمتزجون بالحضارة ، وإنما كانوا أشباه أعراب وأشباه حضر ، وربما كان تعبير (رعاة) خير تعبير يمكن اطلاقه عليهم ليميزهم عن غيرهم . فقد كان الصفويون أصحاب ماشية ، لهم ابل ، يعيشون عليها ، ويتاجرن بها ، ولهم خيل يركبونها، والخيل كما هو معروف لا تستطيع الحياة في البوادي القاحلة العميقة والرمال القليلة المياه ،

---

١ العرب في سوريا (١٠٦) .
٢ Jordan, II, P. 48.
٣ Jordan, II, P. 48.
٤ Enno Littmann, Zur Entzifferung der Safa — Inschriften, Leipzig, 1901, S., 51.

ولهم المعز والغنم والحمير والبقر،وهي من الحيوانات التي تحتاج الى رعي ومراعي[1]. ولذلك يجب أن يكون أصحابها من طبقة الرعاة . وقد كانت حياتهم حياة رعي، نجدهم في الشتاء في مكان ، ثم نجدهم في الصيف في مواضع أخرى قريبة من الجبال حيث يكون الجو لطيفاً والمياه كثيرة ، ليكون في استطاعتهم الابتعاد من حر الحرار ومن سَمُوم الأرض القاحلة في الصيف ، ولتستمتع ماشيتهم بجو لطيف فيه ما يغريها من خضرة نضرة ومن ماء عذب زلال .

ان في بعض هذه الكتابات تعبيراً عميقاً عن ذكاء فطري يعبر عن طراز حياة الصفويين ، فكتابة مثل : (ورعى همعز وولد شهى) ، ومعناها : (ورعت المعز وولدت الشياه) ، أو (ورعى بقر هنخل) ، أي (ورعت البقر في هذا الوادي) ، أو (وقف على قبر فلان وحزن) ، هي تعابير، وان بدت ساذجة مقتضبة لا يكتبها حضري ، غير انها تمثل في الواقع ذكاءً فطرياً عميقاً ، ونوعاً من التعبير عن حس أهل البادية أو أهل الرعي ، وهو حس مرهف فيه بساطة وفيه اقتضاب نبتا من وحي الصحراء البسيطة الممتدة الى ما وراء البصر على نمط واحد ، وشكل لا تغير فيه ولا تبديل . وكتابات يكتبها أناس يحيون بعيدين عن حضارة المدن ، ويعيشون بين أشعة الشمس وضوء القمر في بيوت وبر أو شعر معز لا تقي ولا تنفع الا بمقدار ، لا يمكن أن تكون الا على هذا النحو من البساطة ، ولكنها بساطة ذكي يحاول بذكائه التعبير عن حياته تلك .

ونجد هذا الذكاء الفطري في الصور المرسومة للحيوانات ، فقد أراد مصوروها أن يعبّروا عن غرائزهم الفنية بصورة محسوسة ترى ، فرسموا صور حيوانات ألفوها ورأوها ، بصورة بدائية ، ولكنها معبّرة أخاذة . ورسموا بعض المناظر المؤثرة في حياتهم مثل الخروج للصيد ومعارك الصيد ، فنرى على بعض الأحجار فارساً وقد حمل رمحاً طويلاً،ونرى مشاة وقد حملوا أقواساً وتروساً صغيرة مستديرة لوقاية أجسامهم من السهام أو من الحيوان ، ونرى رجالاً يطاردون غزالاً أو ضأناً ، ونرى أناساً فرساناً ومشاةً يطاردون أسداً[2] ، ونرى غير ذلك من صور بدائية من هذا القبيل ، مهما قيل فيها ، فإنها صور رائعة لا يمكن أن يحفرها

---

١ العرب في سوريا (١٠٧) .
٢ العرب في سوريا قبل الميلاد (ص ١٠٧ وما بعدها) .

فنان بأحسن من هذا الحفر ، وهو في مثل هذا المحيط ، وليست لديه من آلات الحفر غير هذه الآلات .

والصور المنقوشة على الأحجار التي ترينا الصفوي وقد ركب حصانه معتقلاً رمحاً طويلاً ، هي صورة المحارب الفارس عند الصفويين ، وهي في الواقع صورة الفرسان الأعراب ، سلاحهم الرئيسي الرماح ، يطعنون بها خصمهم . وما زال البدو في بعض البوادي من جزيرة العرب يحملون ذلك السلاح التقليدي القديم ، يحاربون به خصومهم في المعارك القبلية البدائية . وأما المحارب الماشي ، فإنه يحارب بالقوس وبيده الترس كما يظهر من بعض الصور ، وهو لا بد أن يكون قد استعان بأسلحة أخرى بالطبع ، مثل السيوف والفؤوس والحجارة وكل ما تقع يده عليه مما يصلح أن يكون مادة للقتال والعراك[1] .

إن الصور التي تمثل الناس ، وهم يطاردون الغزلان أو بقر الوحش أو الأسد أو الحمار الوحشي ، هي صور مفيدة جداً تتحدث عن وجود تلك الحيوانات في تلك الأماكن وفي تلك الأوقات ، وعن طرقهم في صيدها . وقد كانت لحوم بعض تلك الحيونات طعاماً شهياً لمن يصطادها ولآلهم وجماعتهم ، كما أن لوجود صورة الحصان شأناً في اظهار أن الصفويين وغيرهم كانوا يعرفون الخيل في تلك الأزمنة ، وأن الحصان العربي كان موجوداً يومئذ[2] .

وفي جملة ما عثر عليه من أسماء آلهة الصفويين اسم إلـه عرف بـ (إلـه هجبل) (إلاه هاجبل) (إلـه الجبل) ، وهي تسمية تدل على أن عبدته كانوا من سكان جبل أو أرض مرتفعة ، ولهذا نعتوا إلههم بـ (إلـه الجبل) أو أن عبدته هؤلاء قد أخذوه من أناس كانوا قد خلقوا إلههم من ارتفاع أرضهم ، وصار إلهاً من آلهة الصفويين . وهو يقابل الإلـه المسمى بـ (الاجبل) (Elagabal) وهو كناية عن الشمس ، وكان يعبد في (حمص) (Emesa) فإن لفظة (Elagabal) تعني (إلـه الجبل) . وقد رمز اليه بـ (حجر أسود) وعباد الحجر الأسود كانت معروفة عند الجاهليين . وقد كان أهل مكة يقدسون الحجر الأسود في مكة ويتقربون اليه[3] .

---

١ العرب في سوريا (١٠٧ وما بعدها) .

٢ العرب في سوريا (ص ١٠٨) .

٣ F. Altheim, Aus Spätantike und Christentum, 1951, 28, Die Araber, I, S., 362.

ولا ندري من حلّ في محل الصفويين فأخذ مواطنهم ، ولِمَ اختفت كتاباتهم بعد عهدهم هذا ؟ هل كان الذين أخذوا مكانهم أميين لا يقرأون ولا يكتبون فكانت أيامهم صُمّاً بُكماً ؟ الذين أخذوا مكانهم هم أعراب مثلهم ، كانوا أقوى منهم ، لذلك تغلبوا عليهم على وفق سنة البادية . هذا جواب لا شك فيه. ولكننا لا نستطيع تحديد هوية أولئك الأعراب وتعيين أسماء قبائلهم ، كما أننا لا نستطيع التحدث عن سبب سكوتهم وعدم ترك آثار كتابية لهم تتحدث عن أيامهم وعن قبورهم وأصدقائهم وما شاكل ذلك من أمور الى زمن مجيء الاسلام. إن الغساسنة ، هم آخر من نعرف أنهم كانوا في هذه الأرضين وفيما جاورها وكذلك قبائل عربية أخرى مثل لخم وكلب،ولكننا لا نعرف أنهم تركوا كتابات تتحدث عنهم .

وبين أسماء الأشخاص المدونة في النصوص الصفوية أسماء تشبه أسماء أهل مكة والعرب الشماليين شبهاً كبيراً ، ويحملنا هذا على تصور ان ثقافة الصفويين عربية شمالية . ونجد هذا التشابه في أمور ثقافية أخرى،سأتحدث عنها في الأماكن المناسبة.

ومن الأسماء الواردة في النصوص الصفوية : (قصيو) ، أي (قصي) . وقد ورد اسم (قصيو بن كلبو) ، أي (قصي بن كلاب) في أحد النصوص . وكان من رجال الدين . وورد (قصيو بن روحو) أي (قصي بن روح) . و (قصيو بن اذينت) ، أي (قصي بن أذينة)[1] .

ويرى بعض المستشرقين ان الصفويين هم مثل سائر القبائل العربية الشمالية هاجروا من جزيرة العرب الى الشمال ، فسكنوا في منطقة (الصفاة) ، غير انهم لم يكونوا قد اندمجوا في أثناء تدوينهم كتاباتهم بالثقافة السامية الشمالية كما اندمج غيرهم مثل النبط ، بل كانوا لا يزالون محافظين على صلاتهم بالجزيرة ولا سيما بالعربية الجنوبية منها موطنهم القديم . وتعبّر عن هذه الصلة بعض الخصائص اللغوية التي ترجع على رأيهم الى أصل عربي جنوبي ، غير انهم تأثروا بالطبع بمن اختلطوا بهم وبمن تجاوروا معهم من الساميين الشماليين أو العرب الشماليين،ويظهر أثر هذا الاختلاط على رأيهم أيضاً في الأسماء والكلمات والتعابير الخاصة التي نقرأها في هذه النصوص[2].

---

١ رنيه ديسو ، العرب في سوريا ، (ص ١١٦) .

٢ Handbuch, S., 48. ff., René Dussaud, Les Arabes en Syrie Avant L'Islam, E. Littmann, Götting. Gelberte Angeiger, 1908, S., 144.

قلت : إن كلمة (الصفويون) لا تعني شعباً معيّناً أو قبيلة معينة ، وإنما هي اصطلاح أوجده (هاليفي) ليطلق على الكتابات التي عثر عليها في مواضع متعددة من (اللجاة) و (حوران) ومواضع أخرى ، لـذلك يجب ألا يفهم أننا نقصد أناساً تركوا لنا كتابات متشابهة كتبت بقلم واحد ، ليظهر أنهم كانوا بين البداوة والحضارة فلاحين ورعاة لهم قرى ومزارع ، وربما كانت لهم تجارات أيضاً ، غير أننا لا نعرف من أمرهم شيئاً كثيراً . فقد يكونون اذن من قبيلـة واحدة ، وقد يكونون جملة قبائل ، وقد تكون لهم (امارة) لا نعرف مـن أمرها شيئاً ، وربما لا يكون لهم ذلك . وربما كانوا أتباعاً للسلطة القائمة في بلاد الشأم تتحكم فيهم بنفسها أو بواسطة أمراء أو سادات قبائل .

وقد يكون الصفويون أناساً وصلت أسماؤهم الينا ، وكتب المؤرخون عنهم ، ولكننا لا نعرف أنهم هم الذين نبحث عنهم ، لأننا أمام اصطلاح جديد مبهم ، ظهر كما قلنا في القرن التاسع عشر ، ليست له حدود واضحة ولا معالم مرسومة ، فلا ندري نحن في الواقع ما نريد ، قد يكون هؤلاء أسلاف غساسنة الشأم ، وقد يكونون غيرهم .

الفصل السابع والثلاثون

مملكة الحيرة

وللاخباريين واللغويين وعلماء تقويم البلدان ، آراء في أصل اسم (الحيرة) ، وبينهم في ذلك جدل على التسمية طويل عريض ، كما هو شأنهم في أكثر أسماء المدن القديمة التي بَعُد عهدها عنهم فحاروا فيها . وايرادها هنا يخرجنا عن صلب الموضوع ، وهي أقوال لا تستند الى نصوص جاهلية،ولا الى سند جاهلي محفوظ. ومن أحب الوقوف عليها،وتعرّف مذاهب القوم فيها،فعليه بمراجعة تلك المظان[1] ، كما ان لبعض المحدثين آراء في هذا الباب[2] .

ومعظم المستشرقين،يرون انها كلمة من كلمات بني إرم،وانها (حرتا) (Harta) (حيرتا) (حيرتو) السريانية الأصل ، ومعناها المخيم والمعسكر (Hirta) (Hérta) وانها تقابل في العبرانية كلمة (حاصير) (Haser)[3] ، وان (حيرتا) (حيرتو)

١ ابن الفقيه (١٨١) ، البلدان (٢/٣٧٥) ، أبو تمـام ، الحماسـة (٨١١) ، البيت (٢) ، « والحـيرة .... قرب الكوفـة ، والنسبة حيري وحاري » ، القاموس (٢/١٦) ، البكري ، معجم (٢/٤٧٨ وما بعدها) ، (طبعة السقا) ، المشرق ، السنة ، ١٩٠٨ ، (٧٧) ، (والحيرة ، بالكسر : بلد بجنب الكوفـة ينزلها نصارى العباد ، والنسبة اليها حيري وحاري) ، اللسان : مادة (حير) .

٢ يوسف رزق الله غنيمة ، الحيرة ، المدينة والمملكة العربية، بغداد، سنة ١٩٣٦م، (ص ١١) .

٣ Ency., II, P. 314, Rothstein, Die Dynastie der Lakhmiden, S. 12. وسيكون رمزه : Rothstein.
Fränkel, Aram. Fremdwörter in Arabish, XV, XVIII,
Nöldeke, Sasa., S. 25.

في التواريخ السريانية تقابل (العسكر) عند الاسلاميين[١] وهي في معنى (الحضر) و (حاضر) و (الحاضرة) كذلك . ولهذا زعم بعض المستشرقين ان (الحضر) اسم المكان المعروف في العراق أخذ من هذا الأصل العربي، أي من (الحضر)[٢] .

وقد عرفت (الحيرة) في مؤلفات بعض المؤرخين السريان ، فعرفت بـ (الحيرة مدينة العرب)[٣] ، (حيرتا دي طياية) ، كما عرفت بأسماء بعض ملوكها مثل (النعمان) ، فورد (حيرتو د نعمان دبيث بورسويي) ، أي : (حيرة النعمان التي في بلاد الفرس)[٤] .

ويلاحظ ان تعبير (حيرة النعمان) (حيرتا دى نعمان) ، تعبير شائع معروف في العربية كذلك . ولا بد أن يكون لاشتهار (الحيرة) باسم (النعمان) سبب حمل الناس على نسبة هذه المدينة اليه .

ويرى بعض علماء التلمود أن مدينة (حواطره) (حوطرا) التي ورد في التلمود أن بانيها هو (برعدى) (بن عدى) ، هي الحيرة[٥] . وقد حدث تحريف في الاسم ، بدليل أن التلمود يذكر أنها لا تبعد كثيراً عن (نهر دعه) (Nehardea) ، وأن مؤسسها هو (برعدى) ، ويقصد به (عمرو بن عدي)[٦].

ويظن أن موضع (حرتت دارجيز) (حارتا دار جيز) (حرته دار جيز)، الوارد في التلمود ، هو (الحميرة)[٧] . وقد ورد أن (ارجيز) وهو ساحر ، هو الذي بنى تلك المدينة . ويرى بعض الباحثين احتمال وجود صلة بين هذا الساحر وبين قصة (سنمار) باني (الخورنق)[٨] . وعرفت في التلمود بـ (حيرتا

---

١ Musil, Palmyrena, P. 289, Hoffmann, in ZDMG., 32, (1878), 753, F. Altheim, Geschichte der Hunnen, I, (1959), S. 130.

٢ Die Araber, I, S., 275, Hoffmann, In ZDMG., 32, 1878, 753, F. Altheim, Geschichte der Hunnen, I, 1959, 130, Anm. 34, Brockelmann, Lexi. Syriacum, 2, 1928, 228a, Die Araber, II, S. 225.

٣ الديورة في مملكتي الفرس والعرب (ص ٣٢ ، ٤٧) .

٤ Rothstein, S. 13, John of Ephesus, 352, 10, 13, John of Ephesus, 3, 216, Die Araber, I, S. 275, II, S. 225.

٥ S. Funk, Die Juden in Babylonien, II, S. 154, Sabbat I, 14.

٦ S. Funk, Die Juden, II, S. 154.

٧ Sanhedrin 5b, Sabbat 19b, Erubin 63a.

٨ Die Juden, II, S. 155, J. Obermeyer, Babylonien, S. 234.

دي طيبه) أيضاً ، أي (معسكر العرب) و (حيرة العرب)[1] .

وقد ذكر اسم الحيرة في تأريخ (يوحنا الأفسوسي) (John of Ephesus) من مؤرخي القرن السادس الميلاد (توفي سنة ٥٨٥ م) ، فقال : (حيرتود نعمان دبيت بور سوبي) ، أي : (حيرة النعمان التي في بلاد الفرس)[2] ، كما ذكرها (يشوع العمودي) (Josua Stylites)[3] . وورد اسمها في المجمع الكنسي الذي انعقد في عام (٤١٠ م) ، وكان عليها إذ ذاك اسقف اسمه (هوشع) (Hosha) اشترك فيه ووقع على القرارات باسم (هوشع) اسقف (حيرته) (حيرتا)[4] .

وقد أشرت في أثناء حديثي عن مملكة (تدمر) الى ورود اسم مدينتين هما (حيرتا) (الحيرة) و (عاناتا) (عانة) في كتابة يرجع تأريخها الى شهر أيلول من سنة (١٣٢) للميلاد[5] . وقلت باحتمال أن تكون (حيرتا) هذه هي الحيرة التي نبحث فيها الآن . فإذا كان ذلك صحيحاً ، كانت هذه الكتابة أقدم كتابة وصلت الينا حتى الآن ورد فيها هذا الاسم[6] .

ومدينة (Eertha) التي أشار اليها (كلوكس) (Glaucus) و (اصطيفان البيزنطي) (Stephen of Byzantium)[7]،وذكر أنها مدينة (فرثية) (Parthian) تقع على الفرات ، هي هذه الحيرة على ما يظن[8] .

وورد في بعض مؤلفات السريان مع (الحيرة) اسم موضع آخر قريب منها هي (عاقولا)[9] ، وقد ذهب (ابن العبري) الى أنه (الكوفة)[10] ،

---

١ J. Obermeyer, S. 234.
٢ John of Ephesus, 352, 10, 13.
٣ Rothstein, S. 13.
٤ Musil, Palmyrena, P. 20, ZDMG., 43, S. 388.
٥ راجع تاريخ العرب قبل الاسلام (٨١/٣) ، لجواد علي ، (٦/٤) .
٦ Littmann, 6, CIS, II, III, P. 156, 3073.
٧ Glaucus, Fragmenta, P. 409, (Muller), Stephen of Byzantium, Ethnica, P. 276, (Meineke), Paulys - Wissowa Elfer Halbbend, (1907), S. 552.
٨ Musil, Euphrates, P. 102.
٩ الديورة في مملكتي الفرس والعرب (ص ٥٩) .
١٠ Bar Hebraeus, PP. 94, 101.

وأشار (ياقوت) الى (عاقولاء) غير أنه لم يحدد موقع هذ المكان[1] .

وقد اشتهرت الحيرة في الأدب العربي بحسن هوائها وطيبه ، حتى قيل «يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة »[2] . وقيل عنها انها « منزل بريء مريء صحيح من الأدواء والأسقام »[3] ، وهي على (سيف البادية)[4] ليست بعيدة عن الماء ، وقد ورد ذكرها كثيراً في شعر الشعراء الجاهليين والاسلاميين،وهي لا تبعد كثيراً عن (النجف) و ((الكوفة)[5] .

وقد ذكر (حمزة الأصفهاني) انه بسبب حسن هواء الحيرة وصحته لم يمت بالحيرة من الملوك أحد ، الا قابوس بن المنذر . أما بقية الملوك ، فقد ماتوا في غزواتهم ومتصيّدهم وتغرّبهم ، وانه بسبب ذلك قالت العرب : « لَبيتَةٌ ليلة بالحيرة أنفعُ من تناول شربة »[6] .

وقد نعتت في المؤلفات الاسلامية بنعوت منها : (الحيرة الروحاء)[7] ، و (الحيرة البيضاء)[8] ، أخذوا ذلك من شعر الشعراء . وزعم بعض أهل الأخبار : ان وصفهم اياها بالبياض ، فإنما أرادوا أحسن العمارة .

ويظهر من وصف أهل الأخبار للحيرة أنها لم تكن بعيدة عن الماء وأن نهراً كان يصل بينها وبين الفرات . بل يظهر ان هذا النهر كان متشعباً فيها ، بحيث كوّن جملة أنهار فيها . اما نواحيها ، فكانت قد بنيت على بحر النجف وعلى شاطىء الفرات ، وربما كانت مزارع الحيرة واملاك أثريائها قائمة على جرف

---

١ البلدان (٩٨/٦) .
٢ الاصطخري ، المسالك (٨٢) .
٣ الطبري (٨٥٠/١) .
٤ الاصطخري (٨٢) ، ابن حوقل (١٦٣) ، البلدان (٣٧٥/٢) .
٥ اليعقوبي ، البلدان (ص ٣٠٩) ، «طبعة دي غويه» ، رحلة ابن جبير (ص٢١٠)، (دي غويه) ، الاصطخري (١٦٣) ، « دي غويه » .
٦ حمزة (٧٥) .
٧ قال عاصم بن عمرو :
صبحنا الحيرة الروحاء خيلا ورجلا فوق أثباج الكلاب
البلدان (٣٧٦/٣) .
٨ قال الشريف الرضي :
بالحيرة البيضاء حيث تقابلت شمم العماد عريضة الأعطان
ديوان الشريف الرضي (٨٨٥/٢ وما بعدها) ، البلدان (٣٧٧/٣) .

البحر وشاطىء النهر[١] ومن أنهار الحيرة نهر كافر[٢] . ويرى بعض أهل الأخبار انه هو نهر الحيرة[٣] .

وقد أدى ميلاد الكوفة في الاسلام الى أفول نجم الحيرة ، اذ انتقل الناس من المدينة القديمة الى المدينة الاسلامية الجديدة ، واستعملوا حجارة الحيرة وقصورها في بناء الكوفة ، وهذا مما ساعد على اندثار تأريخ تلك المدينة الجاهلية ولا شك . غير انها ظلت أمداً طويلاً تقاوم في الاسلام الهرم الى أن جاء أجلها فدخلت في عداد المدن المندثرة .

وقد عرف ملوك الحيرة عند أهل الأخبار بـ (آل لخم) وبـ (آل نصر) . كما عرفوا بـ (النعامنة) وبـ (المناذرة) ، وذلك لشيوع اسم النعمان واسم المنذر فيما بينهم[٤] . وعرفوا أيضاً بـ (آل محرق) ، وفيهم يقول الشاعر الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد
أرض الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد[٥]

وفي طليعة أهل الأخبار الذين عنوا بجمع أخبار الحيرة الأخباري الشهير ، بل رأس أهل الأخبار في أمور الجاهلية : (هشام بن الكلبي) . فله كتاب في (الحيرة) سماه (ابن النديم) (كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين) ، وكتاب ثان سماه (ابن النديم) (كتاب المنذر ملك العرب) ، وكتاب ثالث اسمه (كتاب عدي بن زيد العبادي)[٦] . وهي مؤلفات لم تصل الينا — ويا الأسف ! — نرجو أن تكون في عالم الوجود، ليتمكن من يأتي بعدنا من الظفر بشيء جديد فيها ، قد يفيد عشاق تأريخ الحيرة ويزيد في معارفهم .

---

١ تقويم البلدان ، لأبي الفداء (٢٩٩) .
٢ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، للأنباري (١٢٤) .
٣ (قال أبو عمرو : كافر نهر بالحيرة) ، الاغاني (١٢٥/٢١) ، (فقذف المتلمس صحيفته في نهر الحيرة) ، الاغاني (١٢٦/٢١ وما بعدها) ، ابن حبيب ، أسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام (نوادر المخطوطات) ، (ص ٢١٣) .
٤ التنبيه (ص ١٥٨) .
٥ المعارف (ص ٢٨٢) .
٦ الفهرست (١٤٦ وما بعدها) ، (أخبار هشام الكلبي) .

وقد زارها نفر من السياح وكتبوا عنها ، كما نبشت بعض البعثات الآثارية آثارها ، وعالجت مديرية الآثار القديمة في العراق بعض نواحٍ من تأريخها ، وقد توصل الحفّارون الى العثور على نقوش من الجبس مما تُكسى به الجدر للزينة ، وعلى جرار متعددة وآثار من هذا القبيل صغيرة بعضها من العهد الجاهلي وبعضها من العهد الاسلامي[1] . غير انهم لم يعثروا حتى الآن على كتابات جاهلية تتحدث عن تأريخ تلك المدينة القديمة السيئة الحظ .

وتأريخ هذه المدينة قبل الميلاد غامض لا نكاد نعرف من أمره شيئاً ، فلم يرد خبرها في نص تأريخي مدوّن أو كتابة مدوّنة قبل الميلاد . وأقدم ذكر لها هو ما أشرت اليه ، غير ان ذلك لا يتخذ دليلاً على انها لم تكن مولودة قبل هذا العهد ، اذ يجوز انها كانت قبل هذا العهد قرية صغيرة ، أو مدينة تسمى باسم غير هذا الاسم . ولعل المستقبل سيكشف عن تأريخها القديم بالسماح لبطن الأرض بإخراج ما في جوفها من أسرار عن ذلك التأريخ .

أما الأخباريون ، فيرجعون عهدها الى أيام (بختنصر) . هم يقولون : إن (برخيا) لما قدم من (نجران) وأخبر (بختنصر) بما أوحى الله اليه ، وقص عليه ما أمره به من غزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب ، وان يطأ بلادهم بالجنود فيقتل مقاتلتهم ويستبيح أموالهم ، وأعلمه كفرهم به ، واتخاذهم آلهة دون الله ، وتكذيبهم الرسل والأنبياء ، وثب (بختنصر) على من كان في بلاده من تجار العرب ، وكانوا يقدمون عليه بالتجارات والبياعات ، ويمتارون من عندهم الحب والتمر والثياب وغيرها ، فجمع من ظفر به منهم ، فبنى لهم حيراً على النجف وحصّنه ثم ضمهم فيه ، ووكل بهم حرساً وحفظة ، ثم نادى في الناس بالغزو ، فتأهبوا لذلك ، وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب فخرجت اليه طوائف منهم سالمين مستأمنين. فاستشار (بختنصر) فيهم (برخيا) ، فقال : إن خروجهم اليك من بلادهم قبل نهوضك اليهم رجوع منهم عمّا كانوا عليه ، فأقبل منهم ، فأحسن اليهم ، فأنزلهم (بختنصر) السواد على شاطىء الفرات ، فابتنوا موضع عسكرهم بعد ،

---

١ D. Talbot Rice, The Oxford Excavation at Hira, In Ars. Islamica, Vol., I, Part, I, MCM, XXXIV, P. 51,
Ann Arbar University Press, Journal of the Royal Central Asian Society, Vol., XIX, April, 1932, P. 254, Vol., Sept., 1932, P. 276.

فسموه (الأنبار) . ثم سار (بختنصر) لمقاتلة العرب ، فنظم (بختنصر) ما بين (أيلة) و (الأيلة) خيلاً ورجلاً ، ثم دخلوا على العرب . وسار (بختنصر) بجيشه حتى التقى بموضع (ذات عرق) بعدنان فهزمه ، وسار الى بلاد العرب حتى قدم الى (حضور) وقد اجتمع أكثر العرب من أقطار (عربة) ، فخندق الفريقان ، ثم تصالح (بختنصر) و (عدنان) ، بعد أن أكلت السيوف العرب. وعاد (بختنصر) بمن أخذ معه من سبايا العرب فأسكنهم (الأنبار) . وذهب قوم ممن أفلت قبل الهزيمة الى (ريسوب) وعليهم (علك) . وذهب الباقون الى (وبار) . ولما رجع (بختنصر) ، مات (عدنان) ، وبقيت بلاد العرب خراباً حياة (بختنصر) . فلما مات (بختنصر) خرج (معد بن عدنان) ومعه الأنبياء أنبياء بني اسرائيل حتى أتى (مكة) فحج وحج الأنبياء معه ، ثم خرج حتى أتى (ريسوب) فاستخرج أهلها ، وقتل أكثر (جرهم) ، ثم تزوج ابنة معانة ، فولدت له نزار بن معد[1] .

فمؤسس الحيرة على رواية هؤلاء الأخباريين ، هو (بختنصر) . وهو مؤسس (الأنبار) في نظرهم أيضاً . وقد كان ذلك في أيام عدنان .

وقد سبق لي أن تعرضت لهذه الرواية ولجذورها وأصولها في مواضع من الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

وفي بعض روايات الأخباريين أن (الأردوان) ملك النبط ، وكان معاصراً لـ (أردشير) ، هو الذي بنى الحيرة . كما أن (بابا) خصم (الأردوان) هو الذي أنزل من أعانه من الأعراب (الأنبار) . فالحيرة والأنبار إذن هما من عمل ملكين متخاصمين من ملوك النبط تخاصما في أيام أردشير . ولأهل اليمن ، ويمثلهم (الهمداني) ، رواية أخرى في بناء (الحيرة) ، فهم يرجعون بناءها الى (تبع)[2] .

ويحدثنا (ابن الكلبي) بأن تبعاً المعروف بالرائد — وهو تبان أسعد أبوكرب ابن ملكي كرب تبع بن زيد بن عمرو بن تبع وهو ذو الأذعار بن أبرهة تبع ذي المنار بن الرائش بن قيس بن صيفي بن سبأ — لما سار في أيام (بشتاسب

---

١ الطبري (١/٢٩١ وما بعدها) .
٢ البلدان (٣/٣٧٧) .

وأردشير بهمن بن اسفنديار بن بشتاسب) متوجهـاً من اليمن في الطريق الذي سلكه (الرائش) قبلـه ، خرج على جبلي طيء ، ثم سار يريد الأنبار ، فلما انتهى الى موضع الحيرة ليلاً ، تحيّر ، فأقام مكانه ، وسمي ذلك الموضع الحيرة. ثم سار وخلف به قوماً من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقضاعة ، فبنوا وأقاموا به . ثم انتقل اليهم بعد ذلك ناس من طيء وكلب والسكون وبلحارث بن كعب وإياد . ثم توجه الى الأنبار[1] .

وروى الطبري رواية أخرى تشبه هذه الرواية ، ولكنها رواية مختصرة لم تذكر اسم تبع ، وقد أخذ الطبري روايته هذه عن شيخه عبدالله بن أحمد المروزي[2] .

هذه هي أقـوال الأخباريين في كيفية مجيء العرب الى العـراق وفي سكناهم الحيرة والأنبار وما بين المكانين من أرضين . وهي أقوال فيها شيء من الحق ، ولكنْ فيها شيء كثير من الخطأ والضلال . فنحن لا نريد أن ننكر هجرة القبائل العربية من الجزيرة الى العراق ، فهذا أمر ليس الى نكرانه من سبيل ، ولكننا لا نستطيع أن نوافقهم على أقوالهم في مبدأ تلك الهجرة وفي تواريخها ، وفي كيفيتها فتلك أمور لا يعرفها الأخباريون . كما أننا لا نستطيع أن نوافقهم في زعمهم على من قاد تلك الهجرة والهجرات التي تلتها من رجال . فنحن نعلم حق العلم أن من تحدثوا عنهم وجعلوهم في الدهر الداهر وفي العرب العاربة أو في أيام ملوك الطوائف هم في الأكثر أناس عاشوا بعد الميلاد ، وبينهم رجال لا تبعد أيامهم كثيراً عن الإسلام ، وبينهم أناس اخترعتهم مخيلة الأخباريين .

وتأريخ الحيرة مع سعته وكثرة ما يرويه الأخباريون منه ، لا يخلو من اضطراب ومن تناقض يدفعنا أحياناً الى العجب من قول (ابن الكلبي) مثـلاً : « إني كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمـل منهم لآل كسرى وتأريخ سنيهم من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها »[3]. وهو كما نعرف سند الأخباريين ومرجعهم الأول في تأريخ الحيرة . فرجل يدعي هذه الدعوى ويستقي أخباره من مواردها الأصلية ، لا يجوز صدور روايات منه يناقض بعضها بعضاً ، وأخبار لا تؤيد هذا الزعم . فللرجل روايات عن حادث

---

١ الطبري (٣/٢) .
٢ الطبري (٣/٢) .
٣ الطبري (٣٧/٢) .

واحد تثبت ، إن صح أنها له ، أن الرجل لم يكن صاحب رأي ولا اجتهاد فيما يرويه ، وأنه يروي كل ما يقال له دون نقد أو تمحيص . فهو يروي خبراً عن حادث في شكل ، ثم يرويه في شكل آخر يختلف عما رواه كل الاختلاف أو بعض الاختلاف . ثم هو يزيد وينقص في أسماء الملوك وفي مدد حكمهم ، ويذكر اجمالاً ، ثم يناقض ما قاله تفصيلاً . غير أن علينا — ونحن أحياء نكتب عن شخص مضى على وفاته أكثر من ألف عام — أن نكون حذرين في القول. فنحن لا نستند في حكمنا هذا الى مؤلف كامل الرواية لذلك الرجل ، إنما نستند الى كتب اقتطعت من مؤلفات ابن الكلبي وروت عنها . فما يدرينا لعلّ الخطأ في هذه الكتب ، والاضطراب فيها ، أو أن أصل الاضطراب في الموارد التي نقل ابن الكلبي منها . فما رواه ابن الكلبي إذن هو حكاية لما وجده هو أو أخذه من أفواه الرواة ، فلا لوم عليه في هذا الشأن ولا تثريب . ولسنا في هذا المكان قضاة نحاول توجيه اللوم لأحد ، أو نسحب اللوم من أحد . فهذا ليس من شأننا في هذا الموضع ولا من اختصاصنا ، إنما نريد أن نشير الى هذا التناقض العجيب الغريب الذي نراه فيما وصل الينا من روايات تتعلق بحادث واحد ، والذي نراه بين تواريخ الأخباريين عن ملوك الحيرة مثلاً ، فما ذكره (الطبري) من أسماء ملوك لخم ومدد حكمهم ، يختلف بعض الاختلاف عمّا ورد في تأريخ (حمزة) مثلاً أو في (مروج الذهب) للمسعودي ، أو في المؤلفات الأخرى التي سترد أسماؤها في ثنايا البحث ، مع أنها تشير أحياناً الى المورد الذي استقت منه، كابن الكلبي مثلاً . وهذا هو الذي يحملنا على العجب من وقوع هذا الاختلاف .

فهل نقل هؤلاء من كتاب واحد من كتب (ابن الكلبي) مثلاً ، أو انهم نقلوا من مؤلفات متعددة لابن الكلبي ، فحدث من أجل ذلك هذا الاختلاف على انه ، مع افتراض هذه الحالة ، لا يجوز وقوع مثل هذا الاختلاف ، اذ لا يعقل أن يكتب مؤلف واحد فاهم للمادة هاضم لها ، له نقد وتفكير تأريخي ، خبراً في كتاب يختلف اختلافاً بيّناً عما كتبه في كتاب له آخر، الا ان يكون قد عثر على موارد جديدة وروايات حصل عليها بعد تأليف الكتب السابقة . ومهما يكن من شيء فإن أمر مناقضة الأخباريين أنفسهم في رواية الأخبار ، وفي عدم تنسيقها ، من الأمور التي لا ينفرد بها أخباري واحد ، وتجد في تأريخ الطبري أمثلة من هذا القبيل حيث يناقض خبره في موضع خبره المروي في موضع آخر

دون أن يشير اليه أو يشير الى وقوعه من الأخباريين . وقد فطن (ابن الأثير) الى ذلك فأشار الى انه ناقل ، وذاكر ما وجده وما قاله مختلف الأخباريين ليقف عليه القارىء . ثم لم يغفل ، فذكر ما هو مرجح لديه ، أو ما هو مرجح لدى أكثرية الأخباريين .

ومن مواضع الاختلاف بين الأخباريين ، اختلافهم في تسلسل من حكم (الحيرة) من ملوك ، وفي مدد حكمهم . ومن عادتهم ذكر مدة حكم الملك إجمالاً ، كأن يقولوا : « حكم مدة كذا من السنين » ، ثم يذكرون ذلك تفصيلاً محسوباً بالنسبة الى مدة حكم مَن عاصر ذلك الملك من ملوك الفرس ، كأن يقولوا : « منها كذا في حكم الملك الفلاني ، وكذا في حكم الملك الفلاني » ، وهكذا إن كان الملك قد أدرك جملة ملوك من ملوك الفرس . وأنت اذا فحصت ما ذكروه اجمالاً ، ثم ما ذكروه تفصيلاً وجمعته بعضه مع بعض تجد اختلافاً بين حاصل الجمع والعدد المذكور اجمالاً في بعض الأحايين . وقد أوجد اختلاف الأخباريين في تسلسل الملوك وفي مدد الحكم صعوبات جمة للباحثين في هذا التأريخ في تثبيت تواريخ الملوك ، وفي تعيين أيامهم على وجه مضبوط ما برحت قائمة في هذا المدوّن عن تأريخ آل لخم وتأريخ آل غسان .

وقد درج بعض المؤرخين مثل الطبري وأبي حنيفة الدينوي وابن الأثير على ادماج تأريخ الحيرة في تأريخ الفرس في الجملة ، فهم وأمثالهم يذكرون في كلامهم على ملك من ملوك الساسانيين صلات ذلك الملك بعرب الحيرة،ويشيرون الى ملكها الذي كان يحكم في أيامه ، والى عدد من عاصر من ملوك الفرس ، ولذلك تجزأ تأريخ الحيرة وتناثر في صفحات فصول هؤلاء المؤرخين عن تأريخ الساسانيين .

ودرج فريق آخر كاليعقوبي وحمزة والمسعودي على تدوين تأريخ الحيرة في باب مستقل بني على حسب تسلسل حكم الملوك كما استقر ذلك في ذهن الكاتب ، مع ذكر بعض الأمور المتعلقة بالملك من سني حكم،أو من معاصرة لملوك الساسانيين أو من بناء أو ما شابه ذلك . وتجد في مؤلفات هؤلاء الأخباريين أموراً لم يتطرق اليها أصحاب الطريقة الأخرى في بعض الأحيان . وتفيدنا مؤلفات هؤلاء من هذه الناحية في زيادة علمنا بتأريخ الحيرة المستقى من المورد الأول .

ويؤسفنا جداً أن لا نملك حتى الآن دراسة علمية دقيقة للتاريخ وللمؤرخين الإسلاميين وللموارد التاريخية وكيفية أخذ بعضها من بعض ، وهي دراسة لا بد

منها ، إذ بغيرها لا نتمكن من كتابة تأريخ بالمعنى العلمي للعرب قبل الاسلام . وهي تيسر لنا فهم اتجاهات المؤرخين ، وتصنيف الموارد على أساس الأسبقية ، وبذلك تتيسر مهمة المؤرخ بعض التيسر ، وتمهد له الجادة بعض التمهيد .

ومن المؤسف حقاً أن الأخباريين كانوا يتصرفون بالنصوص وبالمقتبسات التي يعتمدون عليها ، ويجرون فيها بعض التغيير ، وربما أغفلوا أسماء أصولها ، فتظهر كأنها منهم على حين أنها نقل وأخذ . ولو أشاروا الى المقتطفات والمقتبسات في الموضع المناسب ، لكان في اشاراتهم هذه خدمة كبرى لمن جاء بعدهم ، وهداية الى الموارد الأصلية التي يجب أن يرجع اليها ويعتمد عليها .

ومن حسن الحظ ان بين أيدينا جملة مؤلفات لاتينية ويونانية ، وردت في ثناياها اشارات الى (عرب الروم) و (عرب الفرس) ، أي عرب الشأم من (آل جفنة) وعرب الحيرة من (آل لخم) . وقد عاصر بعض أصحاب هذه المؤلفات أولئك القوم،واشتركوا هم أنفسهم في الحملات لكونهم مؤرخين رسميين يسيرون مع القيصر أو القواد لتدوين الحوادث والمشاهدات . وقد أفادتنا اشاراتهم هذه فوائد كبيرة ، وعليها كان جلّ اعتماد الباحثين في ايجاد مواضع ارتكاز يطمئن اليها في تعيين تواريخ (آل جفنة) أو (آل لخم) . وبها تمكنا من تصحيح أكثر أغلاط الأخباريين . واقدمها — بالنسبة الى مؤلفات الاسلاميين — ولكون معظمها من عهد ما قبل الإسلام ، وكان لها حق التقديم بالطبع في نظر المؤرخ الحديث ، ولكن هذا لا يدفع عنها مع ذلك مواطن النقد والشبهات .

وللمؤلفات السريانية فضل يجب ألا ينسى أيضاً في تدوين هذا التأريخ، ولكنها ليست على الاجمال كالمؤلفات اليونانية واللاتينية في الدقة وفي النقد . ولما كان الكثير منها تواريخ كنسية ، تعرضت لتأريخ الحيرة أو عرب الشأم أو العرب الآخرين بقدر ما لهؤلاء من صلة بالكنيسة وبالنصرانية . وهي على الجملة تمزج الأخبار بالمعجزات وبخوارق العادات وبرواية كرامات الآباء في هداية الملوك الوثنيين وسادات القبائل ، وهي لا تخلو أيضاً من العصبية التي اتسم بها ذلك الزمن في النزاع المذهبي الذي منيت به النصرانية وفي محاولة الغض من الطرف النصراني الثاني ، كالذي نجده بين المؤلفات النسطورية واليعقوبية والملكية وأمثالها ، فلكل منها رواية بأسلوبها الخاص ، لذلك وجب علينا الانتباه لهذه الناحية حين الرجوع اليها ، وتخليص رواياتها من شوائب العصبية للمذهب ، ونقدها لاستخلاص

العنصر التأريخي منها في تدوين تأريخ صحيح لعرب العراق او عرب بلاد الشأم أو عرب جزيرة العرب .

وأهل الحيرة عرب ، يقسمهم الأخباريون الى طبقات ثلاث : تنوخ، والعباد، والأحلاف[1] . وهؤلاء في نظرهم من قبائل متعددة ، فيها من قحطان وفيها من عدنان . وقد ذكروا ان في لهجة أهل الحيرة هجنة ، رجّعوا سببها الى اختلاط هؤلاء العرب بمن كان يفد عليهم من النبط ممن كانوا يثيرون الأحداث فيلتجئون الى هذا المكان[2] . ولذلك شابت لهجتهم رطانة نبطية . وقد كتبوا بقلم (بني ارم)، شأنهم في ذلك شأن تدمر وأهل (بطرا) اذ استعملوا قلماً نبطياً متأخراً في الكتابات.

أما تنوخ ، فهم قبائل سكنوا بيوت الشعر والمظالّ والوبر غربي الفرات بين الحيرة والأنبار فما فوقها في اصطلاح أهل الأخبار[3] . ويظهر من وصفهم لتنوخ انهم قصدوا بهم من كان يشتغل بالزراعة ومن كان يعيش عيشة أهل البادية من سكان هذه المنطقة : منطقة ما بين الحيرة والأنبار . ولم يقصدوا قبيلة معينة[4] .

وللأخباريين رأي خاص في تفسير أصل كلمة (تنوخ) خلاصته : انه لما مات (بختنصر) ، انضم الذين كان أسكنهم الحيرة من العرب الى أهل الأنبار، وبقيت الحيرة خراباً ، فغبروا بذلك زماناً طويلاً لا تطلع عليهم طالعة من بلاد العرب ولا يقدم عليهم قادم . وبالأنبار أهلها ومن انضم اليهم من أهل الحيرة من قبائل العرب من بني اسماعيل وبني معدّ بن عدنان . فلما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب ، وملأوا بلادهم من تهامة وما يليهم ، فرقتهم حروب وقعت بينهم وأحداث حدثت فيهم ، فتشتتوا . وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين ، وبها جماعة من الأزد كانوا نزلوها في دهر (عمران ابن عمرو) من بقايا (بني عامر) ، وهو : (ماء السماء بن حارثة)، وهو: (الغطريف بن ثعلبة بن امرىء القيس بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة) ، و (مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله

---

١ حمزة (٦٦) . Die Araber, I, S. 268, Nöldeke, Geschichte der Perser, (1879), S. 24.

٢ البلدان (٣/٣٨٠) ، Rothstein, S. 18.

٣ حمزة (٦٦) ، (وتنوخ : حي من اليمن) ، اللسان (نوخ) .

٤ Rothstein, S. 28, Nöldeke, Sassa., S. 24, Anm. 3.

ابن أسد بن وبرة) في جماعة من قومهم ، و (الحيقار بن الحيق بن عمير بن قنص بن معد بن عدنان) في (قنص) كلها . ولحق بهم (غطفان بن عمرو ابن الطمثان بن عوذ مناة بن يقدم بن أنصى بن دعمى بن إياد بن نزار بن معد ابن عدنان) ، و (زهر بن الحارث بن الشلل بن زهير بن إياد) ، و (صنح ابن الحارث بن أفصى بن دعمى بن إياد) . فاجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب ، فتحالفوا على التنوخ ، وهو المقام ، وتعاقدوا على التوازر والتناصر ، فصاروا يداً على الناس ، وضمهم اسم تنوخ .

وتنّخَ على تنوخ بطون من (نمارة بن لخم) ، ودعا (مالك بن زهير) (جذيمةَ الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي) الى التنوخ معه، وزوّجه أخته (لميس) ابنة (زهير) . فتنخ (جذيمة بن مالك) وجماعة ممن كان بها من قومهم من الأزد ، فصار (مالك) و (عمـــرو) ابنا (فهم) والأزد حلفاء دون سائر تنوخ . وكلمة تنوخ كلها واحدة . أما اجتماع من اجتمع من قبائل العرب بالبحرين وتحالفهم وتعاقدهم ، فكان على حد قول (ابن الكلبي) في أزمان ملوك الطوائف الذين ملكهم الاسكندر وفرّق البلدان بينهم عنـــد قتله (دارا) ملك فارس الى أن ظهر (أردشير بن بابك) ملك فارس على ملوك الطوائف ، وقهرهم ، ودان له الناس .

وفي هذا العهد عهد ملوك الطوائف،تطلعت أنفس من كان بالبحرين من العرب الى ريف العراق وطمعوا فيه،واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف، فأجمعوا على السير الى العراق . وكان أول من طلع منها (الحيقار بن الحيق) في جماعة قومـــه واخلاط من الناس ، فوجدوا الأرمانيين (بني إرم) ، وهم الذين بأرض بابل وما يليها الى ناحية الموصل ، يقاتلون الأردوانيين ، وهم ملوك الطوائف ، فاستفادوا من ذلك وانتشروا في السواد . وسكن قسم منهم بين عرب الأنبار ، وسكن قسم آخر منهم بين عرب الحيرة . ثم طلع (مالك) و (عمرو) ابنا (فهم بن تيم الله) ، و (مالك بن زهير بن فهم بن تيم الله)، و(غطفان ابن عمر بن الطمثـــان) ، و (زهر بن الحارث) ، و (صنح بن صنح) فيمن تنخ عليهم من عشائرهم وحلفائهم على الأنبار على ملك الأرمانيين ، فطلع (نمارة بن قيس بن نمارة) و (النجدة) ، وهم قبيلة من العماليق ، يدعون الى (كندة) و (ملكان بن كندة) و (مالك) و (عمرو) ابني (فهم)

ومن حالفهم ، وتنخ معهم على (نفر) على ملك الأردوانيين ، فأنزلهم الحير، أي الحيرة . فلم تزل طالعة الأنبار وطالعة (نفر) على ذلك لا يدينون للأعاجم ولا تدين لهم الأعاجم حتى قدمها تبع ، وهو: (اسعد ابو كرب بن ملكيكرب) في جيوشه فاستولى عليها ، ونزل الحيرة فيمن معه[1] .

وروى (ابن الكلبي) أن كثيراً من تنوخ نزلوا الأنبار والحيرة وما بين الحيرة وطفّ الفرات وغربيه الى ناحية الأنبار وما والاها . نزلوا في المظالّ والأخبية لا يسكنون بيوت المدر ، ولا يزاوجون أهلها . وكانوا يسمون (عرب الضاحية) . فكان اول من ملك منهم في زمان الطوائف (مالك بن فهم) ، وكان منزله مما يلي الأنبار ، ثم مات مالك بن فهم ، فملك من بعده أخوه (عمرو بن فهم) . ثم هلك عمرو بن فهم ، فملك من بعده (جذيمة الأبرش ابن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي)[2] .

وقد أخذ الطبري ما ذكره عن (تنوخ) من روايات ترجع الى (ابن الكلبي) والى (ابن اسحاق) ، وتختلف روايات (ابن اسحاق) التي اخذها (الطبري) عن شيخه (ابن حميد) عن (سلمة) عن (ابن اسحاق) بعض الاختلاف عن روايات (ابن الكلبي) .

ولدينا رواية تذكر أن (بني زهير بن عمرو بن فهم) ، ومنهم (مالك ابن فهم) الذي تَنَخَّتْ عليه تنوخ . هو ومالك بن فهم بن غنم بن الأزدي ، تنخوا بعين هجر ، وتحالفوا هناك ، فاجتمعت اليهم قبائل من العرب ، فنزلوا الحيرة ، فوثب (سليمه بن مالك بن فهم) على أبيه ، فرماه فقتله ، فقال أبوه :

أعلمه الرماية كلّ يوم فلما اشتدّ ساعده رماني

فتفرقت بنو مالك ، وكانوا عشرة ، ولحقوا بعمان ، وملك جذيمة بن مالك عشرين ومئة سنة . وذلك في أيام ملوك الطوائف . وهو أول من اتخذ داراً[3] .

---

١ الطبري (٢/٢٧ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الأثير (١/١٩٥ وما بعدها) ، البلدان (٣/٣٧٧ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٢٨ وما بعدها) .
٣ الاشتقاق (٢/٣١٧ وما بعدها) .

أما ما زعمه أهل الأخبار في معنى تنوخ، فقد أشرت مراراً الى جنوح الأخباريين الى أمثال هذه التفاسير ، حين ترسو سفينة علمهم على شاطىء الجهل بالأشياء . وما تنوخ في نظري الا (Tanueitae) (Thanuitae) القبيلة التي ذكرها (بطلميوس) في جملة القبائل التي كانت في أيامه[1] . وهي وإن كانت في جغرافيته في مواضع بعيدة عن الحيرة غير ان ذلك لا يمنع من انتقال بطون منها الى الحيرة وبادية الشأم واقامتها فيها ، وهو حادث مألوف ليس بغريب ، أو انها كانت في هذه المواضع في ايام (بطلميوس) كما كانت بطون منها تقيم في المواضع التي ذكرها أو انه أخطأ في تعيين مواضعها الصحيحة فظن انها حيث وضعها من الأماكن ، وهو أمر ليس وقوعه من الكتّاب في الزمن الحاضر بغريب ، فكيف بالنسبة الى تلك الأيام .

فتنوخ اذن على الوصف المتقدم ، هم أعراب الحيرة ، لا حضرها وأهل مدرها ، وكانوا يعيشون في اطرافها وحولها ، في بيوت الشعر والمظالّ ، على نقيض (العباديين) . وقد تبين من بعض الموارد ان بطوناً من تنوخ نزلت ارضين تابعة للروم[2] .

واما العباد ، فهم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها، فهم حضر مستقرون[3] . ويقول معظم الأخباريين انهم كانوا على دين المسيح . ويقول بعضهم : انهم قبائل شتّى من بطون العرب ، اجتمعوا على النصرانية ، والنسبة اليهم عبادي[4] . وذهب بعض الى انهم بطن في جزيلة من لخم[5] . وخالف فريق فذهبوا الى انهم كانوا من قبائل شتّى انفردوا من الناس في قصور ابتنوها لنفوسهم ظاهر الحيرة[6] . وانهم دانوا لأردشير[7] .

ونسبهم بعض أهل الأخبار الى (بني عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة

---

١ Sprenger, Alte Geography, 341, Glaser, Skizze, II 283, Blau, In ZDMG., 22, (1868), S. 660, Forster, II, P. 247.

٢ Die Araber, II, S. 251.

٣ حمزة (٦٦) ، Die Araber, I, S. 269.

٤ الاشتقاق (٢/٧) ، (طبعة وستنفلد) ، Rothstein, S. 19.

٥ العقد الفريد (٢/٢٥٣) .

٦ ابن القفطي : الحكماء (١٩٩) ، غنيمة (١٦) .

٧ الطبري (٢/٤٣) .

ابن أسد بن ربيعة) ، وذكروا انهم من نسل أربعة ، هم : عبد المسيح ، وعبد كلال ، وعبدالله ، وعبد ياليل[١] . وأشار (السهيلي) الى ورود اسمهم في الحديث ، فقال : « وفي الحديث المسند : أبعد الناس عن الاسلام ، الروم ، والعباد ، وأحسبهم هؤلاء ، لأنهم تنصّروا . وهم من ربيعة ، ثم من بني عبد القيس »[٢] .

وللأخباريين أقوال في أصل كلمة (العباد) ، فنهم من يقول انهم انما سمّوا بذلك لأن وفداً وفد على كسرى كانت أسماؤهم تبتدىء بكلمة عبد ، فقال كسرى : أنتم عباد كلكم فسمّوا العباد[٣] . ومنهم من يقول : لا ، انما قيل لهم العباد لأنهم كانوا يعبدون الله ، فسمّوا بهذا الاسم[٤] . ومنهم من يرى انهم سمّوا بذلك لأنهم لما قاتلهم سابور الأكبر ، اتخذوا شعاراً لهم ، هو ياآل عباد ، فسموا العباد[٥] . الى غير ذلك من أمثال هذه التعليلات.

واظن ان خير ما نفعله في هذا الباب لمعرفة من كانت تنطبق عليهم هذه التسمية ، هو ان ندرس اسماء مشاهير من نسبوا الى العباديين من اسر ورجال ، مثل : اسرة عديّ بن زيد العبادي ، وبني مرينا ، وبقيلة ، وأمثالهم ممن حشروا في العباديين . فقد شملت التسمية هؤلاء وهم من قبائل مختلفة . كان آل عديّ ابن زيد مثلاً من تميم ، وكان بنو مرينا من لخم ، وكانت بقيلة من الأزد[٦] . فهم اذن من قبائل مختلفة ، ومع ذلك عرفوا بالعباديين ، وذلك يدلّ على ان هذا الاسم لم يكن يعني قبيلة ، او بطناً ، وإنما يعني جماعة من قبائل شتى جمعت بينها وحدة الدين ، ووحدة الموطن . لذلك لم يطلق إلا على النصارى العرب من اهل الحيرة . اما غيرهم من نصارى العرب ، فلم يشملهم اسم العباديين[٧] .

---

١ الروض الأنف (١/٥٣) .

٢ الروض الأنف (١/٥٣) .

٣ اللسان (٣/٢٧٢) ، (عبد) ، ابن قتيبة المعارف (٦٤٩) ، ابن العبري ، تأريخ مختصر الدول (٢٥٠) .

٤ تاج العروس (٢/٤١٠ وما بعدها) ، (عبد) ابن القفطي ، (١٧٣ وما بعدها)، اللسان (٣/٢٧٢) ، الروض الأنف (١/٥٣) .

٥ الاغاني (١١/١٥٦) .

٦ Rothstein, S. 20.

٧ Rothstein, S. 20.

ويمكن ان نقول استناداً الى روايات الأخباريين في تحديد مدلول الكلمة ، واقتصارها على نصارى الحيرة دون غيرهم من نصارى العرب : إن هذه الكلمة اطلقت في الأصل على من تنصر من اهل الحيرة ، ليميزوهم عن غيرهم من سكان المدينة من الوثنيين . ولم يكن اولئك النصارى في بادىء امرهم بالطبع إلا فئة قليلة ، ثم توسعت من بعد . فلما انتشرت النصرانية في الحيرة لازمت هذه التسمية جميع نصاراها ، كائناً من كانوا ، وصارت علماً لهم ، لم تميزهم عن الوثنيين حسب ، وإنما ميزتهم ايضاً عن بقية النصارى العرب من غير اهل الحيرة فلما مضى زمان طويل على هذا الاستعمال ، ظن المتأخرون انه علم ، ثم حاروا في تعليله ، فأوجدوا على طريقتهم تلك التعليلات .

ولعل العباد والعباديين من كلمة (عبد) في الأصل ، أطلقتها متنصرة الحيرة الأولى على نفسها ، لأنها تعبدت لإلـه ، لتميز نفسها عن الوثنيين . او ان اولئك الوثنيين اطلقوها على اولئك المتنصرة ، تمييزاً لهم عن سائر الوثنيين . وقد يكون لـ (عبد المسيح) علاقة بهذه التسمية كذلك . وهي تسمية شائعة بين النصارى شيوع (عبدالله) بين المسلمين[1] .

ولا استبعد ان يكون العباد والعباديين ، هم بقية (اباديدي) (Abadidi) او (إباديدي) (Ibadidi) ،الذين تحدثت عنهم في اثناء كلامي عن الآشوريين .

وقد كان العباديون أكثر أهل الحيرة ثقافة ، حذق بعضهم الصناعات ودرس بعضهم العلوم ، وفاق بعض آخر في اللغات فحذق العربية وتعلم الفارسية،وكانوا يتقنون في الغالب لغة بني إرم بحكم تنصرهم واعتبار النصارى لها لغة مقدسة،لأنها لغة الدين ، لذلك كان لهم وجه ومقام في الحيرة ، ولهذا السبب اختار الفرس تراجمتهم ومن كان يتولى المراسلة بينهم وبين العرب من هؤلاء، كالذي كان مع (زيد العبادي) والد (عدي) .

وأما (الأحلاف) ، فهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها ،ولم يكونوا في الأصل لا من تنوخ ، ولا من العباد الذين دانوا لـ (أردشير)[2] .

وقد كان بين أهل الحيرة جماعة من النبط[3] ، كما كانت بينهم جماعات من

---

١ Nöldeke, Sassa., S. 24, Rothstein, S. 21.

٢ حمزة (٦٦) .

٣ الأغاني (٦١/٨) .

الفرس ومن اليهود . والنبط هم من بقايا قدماء العراقيين ، وقد كان بعضهم يتكلم العربية برطانة ظاهرة ، فتأثر بعض عرب الحيرة بهذه الرطانة ، فبدت على ألسنتهم ، وذلك باختلاطهم بتلك البقية التي تكلمت بلهجة بني إرم وهي التي عرفت بلغة (النبط) عند المسلمين[١] .

وكانت للوثنيين من أهل الحيرة أصنام ، منها : اللات ، والعزى ، وسبد[٢]، و (محرق) وبه تسمى بعض الرجال تبركاً وتقرباً اليه[٣] .

لقد كان معظم نصارى الحيرة على مذهب النساطرة ، وهو مذهب شجعه الفرس في بلادهم نكاية بالروم . غير ان هنالك جماعة كانت على مذهب اليعاقبة، كما كان بعضهم على مذاهب نصرانية أخرى لا مجال للحديث عنها في هذا المكان. وقد حاول أصحاب هذه المذاهب كسب أكبر عدد ممكن من الناس الى مذاهبهم. وطبيعي ألا يجد مذهب الروم صدراً رحباً في الأرضين الخاضعة للفرس، لما في ذلك من أخطار سياسية تهدد مصالحهم .

وقد كانت الحيرة من المراكز المهمة في حركة التبشير بالنصرانية بين العرب . ومن الحيرة ذهب قسم من المبشرين الى اليمن والأجزاء الأخرى من جزيرة العرب لنشر النسطورية والمذاهب النصرانية الأخرى هناك، وفيها انعقد مجمع (دار يشوع) في سنة (٤٢٤)[٤] ، وفي هذه المدينة توفي هذا الجاثليق (دار يشوع) ودفن فيها على بعض الروايات[٥] .

ما ذكرته عن أهل الحيرة ، هو ما يخص أهل المدينة وما حولها من الحضر المستقرين . أما من كان قد خضع لملوك الحيرة ، فكانوا قبائل يعيشون في ارضين واسعة ، كانت تتقلص سعتها وتتوسع بحسب قدرة (ملك الحيرة) ومكانته ، فقد حكم (امرؤ القيس) مثلاً (كُلَّ العرب) على حد قول النص : (نص النمارة) الذي وجد على قبره . ويقصد بذلك (كل الأعراب) ، وخص منهم (أسداً) و (نزاراً) و (مذحجاً) وغيرها ، حتى بلغ حدود (نجران) ،

---

١ (عرب إستنبطنا ، ونبط استعربنا) ، أمالي المرتضى ، (١/١٧٧) .
٢ الاغاني (٢/١٠٤) ، « طبعة دار الكتب المصرية » ، (٢/٢٠) ، (ساسي) .
٣ Rothstein, S. 95, Nöldeke, in ZDMG., 1887, S. 712.
٤ الديورة في مملكتي الفرس والعرب (١٠) .
٥ أوجين نسران ، خلاصة تاريخية للكنيسة السريانية « تعريب القس سليمان الصائغ » ، الموصل ، ١٩٣٩ (ص ٢٦ وما بعدها) .

كما ملك (معداً)[1] . ولكننا لا نستطيع أن نؤكد أن مُلك ملوك الحيرة قد شمل القبائل المذكورة في كل الأوقات ، بل في كل أيام حكم (امرىء القيس) ، فقد تعوّدت القبائل الانتفاضة على من يفرض حكمه عليها عند أول فرصة يشعرون فيها بضعف الحاكم ، أو أن الأوضاع أخذت تسير عكس ما يريد ، فتنقلب عليه وتخرج على طاعته .

ونجد في رسالة (شمعون الارشامي) الحيرة أن في جملة من كان في معسكر (المنذر) الثالث ،(طيايه حنبه ومعداية) ،أي (طيء) ومعد . والأغلب أنه قصد بـ (طياية) الأعراب ، فقد كانت تطلق بهذا المعنى في هذا العهد . ولعله قصد بـ (حنبه) (حنفه) قبيلة (بني حنيفة) أو قبيلة أخرى اسمها قريب من هذا الاسم .

ويلاحظ ان اسم (معد) كان معروفاً مشهوراً على انه من القبائل العربية الكبيرة التي تشمل منازلها أرضين واسعة . وقد ميّز بينها وبين (نزار) في (نص النمارة) مما يدل على ان (نزاراً) كانت منفصلة عن (معد) ولها اسم خاص في القرن الرابع للميلاد .

أما الأنبار التي زعم الأخباريون أنها بنيت في أيام بختنصر ، فقد كانت من المدن المعروفة في أيام الساسانيين ، تلي شهرتها في العراق شهرة مدينة (طيسفون) (Ktesiphon) . وقد تبين من فحص آثارها ومعالمها الباقية انها من المواضع التي كانت قبل عهد الدولة الساسانية ، غير اننا لا نعرف من أمرها شيئاً يذكر قبل عهد هذه الدولة . والذي بعث فيها الحياة وانشأ فيها الأبنية والعمارات ، هو الملك الساساني (سابور الثاني) (شابور) (Shapur II) (٣١٠ — ٣٧٩ م)[2] ، أو سابور الأول في بعض الروايات[3] . وقد حصّنت وقويت وجعلت قلعة حربية لصد غارات الروم على حدود هذه المملكة من ناحية الفرات . وكان لها أثر مهم في الحملة التي قام بها الانبراطور (يوليانوس) (Julianus) على مملكة الساسانيين في سنة ٣٦٣ للميلاد ، اذ دافعت عن نفسها دفاعاً شديداً . ولما تمكن يوليانوس منها ، بعد ذلك الحصار المتعب صارت ركاماً وتلالاً من الرماد ، فأمر عندئذ ببناء (هيليوبوليس) (Heleopolis) . وقد وصف المؤرخ (أميانوس مرسليانوس) (Ammianus Mercellianus) الأنبار ،

---

١ تاريخ العرب قبل الاسلام ، لمؤلف هذا الكتاب (٣٣/٤ وما بعدها) ، Die Araber, II, S. 313.

٢ Paulys - Wissowa, 64, Halbband, 1950, 1725, Ency., I, P. 348.

٣ Paulys - Wissowa, 2 Halbband, 1894, 1791, Musil, Euphrates, P. 354.

وذكر قلاعها الحصينة [1] .

وفي جنوب هذه المدينة وعلى مسافة قليلة منها ، يقـع نهر عيسى الذي يصل الفـرات بدجلة ، وهو نهـر قديم يرجع عهده الى ما قبـل الاسلام ، عرف بـ (Naarsares) أو (Narsares) [2] ويظن ان الملك سابور الثاني المذكور هو الذي أمر بحفره . وقد اكتسبت المدينة بهذا النهر شأنـاً خاصاً اذ صارت فرضة مهمة ، ومخزناً للأموال ، ومركزاً عظيماً في وسط العراق للتجارة ولتبادل السلع المرسلة عن طريق دجلة الى الفرات وبالعكس . ولاسم هذه المدينة،وهو الأنبار ، علاقة بهذا المعنى على ما يظن . وهو من (Ham-bara) الايرانية القديمة،ومعناها المخزن ، ومنها (أنبار) (Anbar) بالفارسية الحديثة . وقد عرف العلماء المسلمون معنى الكلمة فذكروه [3] . ومن هذه الكلمة أخذ البيزنطيون (Anbara) (Abbareny) (Abara) ، ويقصدون بها الأنبار [4] .

وقد عرفت المدينة بـ (فيروز سابور) (بيروز شابور) (Peroz Shapur) كذلك . ومعنى هذه الكلمة (سابور المنتصر) . ومنها جاء اسمها (بيريسابورا) (Pirisaboora) (Bersabora) (Pirisaboras) المذكور في تاريـخ (أميانوس مارسليانوس) و (زوزيموس) . وقد ذكر هذا الاسم في المؤلفات السريانيـة . وكان عليها أسقف نسطوري [5] .

ويظـن ان موضع (أنكوباريتيس) (Ankobaritis) المذكور في جغرافيـة

---

١ Paulys-Wissowa, 64 Halbband, 1950, 1725, Ammianus, XXIV, 2, 9, XXIV, 2, 18, Musil, Euphrates, PP. 234 236, 240, 354.

٢ (نهر صرصر) ، Paulys-Wissoma, 64 Halbband, 1950, 1725.

٣ (وانما سميت الأنبار أنبار ، لأنها كانت تكون فيها انابير الطعام ، وكانت تسمى الاهراء ، لان كسرى يرزق أصحابه رزقهم منها) ، الطبري (٢/ ٢٨) ، البلدان (١/ ٣٦٨) ، اللسان (٥/ ١٩٠) ، (صادر) ، (نبر) ، Ency., I, P. 348, Fränkel, Die Aramaischen Fremdwörter in Arabischen, S. 136, Scheftelwitz, In ZDMG., IX, 699, Nöldeke, Grammatik der Neusyrichen Sprache, S. 403, Paulys-Wissowa, Zweiter Halbband, 1894. 1461.

٤ Ency., I, P. 348.

٥ Ammianus Marcellianus, XXIV, 29, 5, 3, Paulys-Wissowa, 2 Halbband. 1894, 1791.

(بطلميوس) يعني المنطقة التي تقع فيها الأنبار . فإذا كان هذا الظن صحيحاً، كان اسم هذه المدينة معروفاً اذن قبل ايام الساسانيين[1] .

ولم يذكر (ايزيدور الكركسي) (Isidorus of Charax) الذي ساح حوالي ميلاد المسيح في إنبراطورية الفرث ، اسم هذه المدينة ، ولا اسماً آخر يقع في هذا المكان ، لذلك يرى بعض الباحثين أن الأنبار لم تنشأ إلا بعد أيام (ايزيدور) وربما في القرن الأول للميلاد،وأنها أنشئت في بادىء الأمر لخزن المواد فيها وتموين الحاميات بما تحتاج اليه ، ثم توسعت في العصر الساساني حتى أصبحت المدينة الثانية في اقليم بابل بعد طيسفون[2] .

وفي رواية لـ (ثيوفيلكتس) (Theophylactus) أن (كسرى برويز الثاني) (Khusrave Abharvez) (٥٩٠ – ٦٢٨ م تقريباً) ، حينما هرب من وجه (بهرام جوبين) حوالى سنة ٥٩٠ للميلاد ، وترك العاصمة طيسفون عبر دجلة واخترق البادية حتى جاء الأنبار ، ومنها ذهب الى عانة (Anatha) ، ومنها ذهب الى (قرقيساء) حيث اتصل بالروم[3] .

وقد صارت (الأنبار) من أهم المواضع العلمية ليهود العراق في عهد (هرمز الرابع) (٥٧٨ – ٥٩١ م) أو (٥٧٩ – ٥٩٠ م) . فلما اضطهد هذا الملك اليهود ، وأمر بإغلاق مدارسهم الدينية التي كانت من أهم مدارس اليهود في ذلك العهد في مدينتي (سورا) (Surà) و (بومبيدثا) ، (فومبيديثه) (Pombeditha) ،انتقل أحبار المدينتين الى مدينة (فيروز سابور) (Peroz Shapur) أي الأنبار . وكانت إذ ذاك في حكم ملوك الحيرة[4] . وصارت منذ ذلك العهد مركزاً من مراكز الثقافة اليهودية في العراق .

وتقع (فومبديثه) (Pumbeditha) بجوار الأنبار ، وتعني (فم البداة)، وقد كانت من أهم المستوطنات اليهودية في العراق . ومن أهم المراكز العلمية التي أخرجت طائفة من كبار أحبار اليهود ، أسهموا في تدوين التلمود وفي جمع التراث اليهودي القديم . ومن علمائها (مار رابة الغاؤون) وآخرون . وقد قدم

١ Ptolemy, V, 18, 4, Paulys-Wissowa, 2 Halbband, 1894, S. 1791.
٢ Paulys-Wissowa, 2 Halbband, 1894, 1791.
٣ Theophylactus, IV, 10, 4, Paulys-Wissowa, 2 Halbband, 1894, 1794.
٤ Die Araber, I, S. 630, Th. Noldeke, Tabari, 57, Anm., 5.

اليها اليهود من فلسطين هرباً من الرومان الذين لم يعطوا اليهود الحرية الدينية الكافية للانصراف الى ممارسة شعائرهم الدينية والتعليم على وفق ديانتهم . فأسسوا مستوطنات مهمة في العراق ، منها : هذه المستوطنة ، ومستوطنة (نهر دعة) وغيرهما ، وفي هذه المستوطنات دوّن التلمود البابلي الذي هو من أهم أركان كتب التشريع عند اليهود[١] .

وقد جاء في (بابا بثرا) أن العرب الذين أتوا الى (فومبديثه) ، استولوا على أرض اليهود . وقد جاء اليهود الى حبرهم (أبيه) (Abaya) ليكتب لهم نسختين من نسخ تملّك الأرض ، حتى اذا استولى غريب على نسخة التملك تكون لديه نسخة ثانية . وكان ذلك على أثر هذا الحادث[٢] . وكان العرب عندما ينتزعون تلك الأرضين يأخذون سندات التملك أيضاً . ولهذا راجع اليهود هذا الحبر ليكتب لهم سندي تملك ، حتى اذا أُخذت نسخة،احتفظ صاحب الأرض بالنسخة الثانية فيكون في امكانه مقاضاة المغتصب[٣] .

ونجد في (ندّه) (Niddah) ، وهو (كتاب الحيض) من باب (كتاب الطهارة) (Seder Tohoroth) في الفقه العبراني ، قصة تاجر عربي كان في (فومبديثه) ، وكان يرتدي عباءة أو جبة سوداء حالكة السواد،ولما كان السواد من الألوان المكروهة عند اليهود ، جاءه أحد زوار المدينة من اليهود، فسأله عن هذا السواد ، فقال التاجر : وهل يوجد لون كهذا اللون ! فقام عليه اليهود ، وانتزعوا منه عباءته أو جبته ومزقوها،ثم استرضوه بأن عوضوه بأربعمئة (زوز)[٤] .

ملوك الحيرة :

وقد عرف ملوك الحيرة بـ (آل نصر) ، وبـ (آل لخم) ، وبـ (آل محرق) ، وبـ (آل النعمان) ، وبـ (آل عدي) . وورد ان العرب كانت تسمي بني المنذر الملوك (الأشاهب) لجمالهم[٥] .

---

١ J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonien, S. 215.

٢ Baba Bathra 168b.

٣ The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, II, P. 735.

٤ Niddah 20a, The Babylonian Talmud, Seder, P. 131.

٥ الاشتقاق (ص ١١٦) .

ويظهر ان شهرة ملوك الحيرة بـ (آل نصر) ، هي شهرة قديمة تعود الى ما قبل الاسلام بزمن طويل . فقد ورد في الأخبار عن (نهر دعة) (Nehardea) وهي مستوطنة من المستوطنات اليهودية القديمة الكبيرة التي تأسست في العـــراق ، وتقع عند فم نهر ملكا (Nehr Malka) ، أي مخرج نهر الملك من الفرات[1] ، انه في سنة (٥٧٠) من التقويم السلوقي الموافقة لسنة (٢٥٩) للميلاد ، جاء (بابا ابن نصر) الى مدينة (نهر دعة) وخربها ، فهرب بعض أحبارها الى مواضع يهودية أخرى ، كانت ملجأ لليهود[2] . ويظهر ان الأمير المهاجم ، وقد سمي في الخبر بـ (بابا) (Papa) ، كان من أبناء سيد قبيلة عربية اسمه (نصر) . وقد عرف بـ (برنصر) و (بن نصر) في التلمود[3] . وقد ذهب الباحثون الى ان المراد به أحد أمراء الحيرة من (آل نصر)[4] . أما (كريتز) (Grätz) ، وهو من المؤرخين اليهود المشهورين ، فقد ذهب الى انه (أذينة) زوج الملكة (زنوبيا) (الزباء) (Zenobias) ملكة تدمر[5] . غير ان هنالك أدلة تأريخية لا تؤيد هذا الرأي ، ثم ان الموارد العربية تنعت ملوك الحيرة بـ (آل نصر) ، ولم يشتهر ملوك تدمر فيها بـ (آل نصر) .

وقد تحدثت اليك برأي أهل الأخبار في أول من حكم الحيرة من الملوك، ورأينا أن (مالك بن فهم) هو أول ملك حكم هذا الموضع على زعم ، وهو في نظرهم من الأزد[6] . وقد حكم مدة عشرين عاماً على رواية الأخباريين[7] .

وقد زعم (حمزة الأصفهاني) أن (مالك بن فهم) تملك تنوخ العراق في زمان ملوك الطوائف ، وان منزله كان بالأنبار ، وأنه بقي بها الى أن رماه ابنه (سليمة بن مالك بن فهم) رمية بالنبل ، وهو لا يعرفه . فلما علم أن سليمة راميه ، قال :

---

١ J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonien, S. 245.

٢ J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonien, S. 254.

٣ Kethuboth 51b.

٤ J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonien, S. 255.

٥ Grätz, Geschichte der Juden, IV, S. 295.

٦ الطبري (٢/٢٧) .

٧ اليعقوبي (١/١٦٩) ، المعارف (٢٨١) .

جزاني ، لا جزاه الله خيراً سليمة ، إنه شراً جزاني
أعلمه الرمايـــة كل يوم فلما اشتد ساعده رمـــاني

فلما قال هذين البيتين فاظ أي مات ، وهرب سليمة . هرب الى عمان[1] .

وحكم بعد (مالك بن فهم) أخوه (عمرو بن فهم) على رواية[2] ، و(جذيمة الأبرش) المعروف بجذيمة الوضاح أيضاً على رواية أخرى . ولا نعرف من أمر (عمرو) هذا شيئاً يستحق الذكر .

وتزعم رواية أن الذي حكم بعد(مالك بن فهم) هو (جذيمة الأبرش)، وقد جعلته ابناً لمالك ، وجعلت نسبه على هذه الصورة : (جذيمـة بن مالك بن فهم ابن غانم بن دوس بن عدنان بن عبدالله بن الغوث) . وقالت : إن والده(مالك) هو أول من ملك الضاحية في حكم ملوك الطوائف[3] .

أما حظ جذيمة الأبرش ، فهو خير من حظ الرجلين السابقين عند الأخباريين، فله في رواياتهم شعر وحديث . وقد تحدثوا عنه ، ونسبوا اليه الغزوات ، وجاد عليه بعض الرواة فرفعوا زمانه وجعلوه في العاربة الأولى . جعلوه من بني (وبار ابن أميم بن لوذ بن سام بن نوح) ، وصيّروه (من أفضل ملوك العرب رأياً، وأبعدهم مغاراً ، وأشدهم نكاية ، وأظهرهم حزماً . وأول من استجمع له الملك بأرض العراق ، وضم اليه العرب ، وغزا بالجيوش)[4] ، وذكر (المسعودي) انه أول من ملك الحيرة[5] .

وقد وصفوه أيضاً ، فقالوا : إنه (كان به برص ، فكنّت العرب عنه ، وهابت العرب أن تسميه به ، وتنسبه اليه ، إعظاماً له . فقيل : جذيمة الوضاح وجذيمة الأبرش)[6] . وذكر (المسعودي) أن جذيمة هو صاحب النديمين اللذين

---

١ حمزة (٦٤) ، الاشتقاق (٣١٧) .
٢ الحيرة (١١٨) .
٣ الطبري (٦١٢/١) ، (دار المعارف) ، البلدان (٣٧٩/٣) ، مفاتيح العلوم ، للخوارزمي (ص ٦٨) .
٤ الطبري (٢٩/٢) ، البلدان (٣٧٩/٣) ، أسماء المغتالين ، لمحمد بن حبيـب ، (نوادر المخطوطات) ، (ص ١١٢) .
٥ مروج (١٦/٢) .
٦ الطبري (٢٩/٢) ، الكامل (١٣٦/١) ، الاشتقاق (٢٩١/٢) .

يضرب بهما المثل ، واستشهد على ذلك بشعر لـ (متمم بن نويرة اليربوعي) في مرثيته لأخيه مالك بن نويرة :

وكنّا كندمانَيْ جذيمة حقبة من الدهر حتّى قيل لن يتصدعا [1]

وقد ذُكر ان النديمين المذكورين هما : مالك وعقيل ، وهما ابنا (فرج بن مالك) من (بلقين) ، وكانا قد قدما من الشام ، يريدان جذيمة، فوجدا فتىً قد تلبد شعره ، وطالت أظافره ، وساءت حاله ، أسرع نحوهما يرجو الطعام والرعاية ، فلما سألاه عن حاله ، وتبين لهما انه (عمرو بن عدي) ، سرّا به كثيراً ، وعُنيا به ، وأخذاه معهما الى (جذيمة) ، فلما رآه ، فرح به فرحاً كبيراً ، لعودته اليه ، ونظر اليه ، ثم أعاد عليه الطوق ، وكان جذيمة قد صنعه له قبلاً ، ثم قال : « كبر عمرو عن الطوق » . وكان الجن قد استطارته ، أي خطفته . وقال جذيمة لمالك وعقيل : ما حكمكما، أي ما طلبكما ! قالا حكمنا منادمتك . فأصبحا يضرب بهما المثل [2] .

وذكر (المسعودي) ان كنية (جذيمة) التي عرف بها هي (أبو مالك) ، وروى في ذلك شعراً ، زعم ان قائله هو سويد بن كاهل اليشكري :

ان أذق حتفي ، فقبلي ذاقه طسم وعاد وجديس ذو السبع
وأبو مالك القيْل الذي قتلته بنت عمرو بالخدع [3]

وذكر الأخباريون ان جذيمة غزا طسماً وجديساً،غزاهم في منازلهم من (جوّ) وما حولهم . فأصاب (حسان بن تبع أسعد أبي كرب) ، وقد اغار على طسم وجديس باليمامة ، فانكفأ جذيمة راجعاً بمن معه ، وأتت خيول تبع على سرية لجذيمة ، فاجتاحتها وبلغ جذيمة خبرهم ، فقال في ذلك شعراً دوّن منه الطبري

---

1 التنبيه (١٥٨ وما بعدها) ، ابن قتيبة ، عيون الاخبار (١/٢٧٤) ، الروض الانف (٢/٣٠٣) .
2 الكامل ، لابن الاثير (١/١٩٧) ، التنبيه (١٥٨ وما بعدها) ، (أنا شهدت ندماني جذيمة : مالكا وعقيلا ، وصبحتهما الخمر المشعشعة لما وجدا عمرو بن عدي ، فكنت اصرف الكاس عنه) ، رسالة الغفران (٢٧٨) .
3 مروج (٢/١٦) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .

احد عشر بيتاً . وقد أراد ابن (الكلبي) ان يكون حذراً في هذه المرة ، أو ان يظهر نفسه في مظهر الحذر الناقد ، فقال : « ثلاثة ابيات منها حق ، والبقية باطل »[1] . وجميل صدور هذا الحذر من الطبري ، او من ابن الكلبي ، وقد عوّدانا سرد ابيات من الشعر العربي ، نسباها الى من هو اقدم عهداً من جذيمة ولم يذكرا انه باطل ، او ان فيه حقاً وباطلاً .

وفي جملة ما تحدث به الأخباريون عن جذيمة انه تكهن وتنبأ ، وانه اتخذ صنمين يقال لهما الضيزنان ، وضعهما بالحيرة في مكان معروف، وكان يستسقي بهما ويستنصر بهما[2] . فلم يقنع الأخباريون بالحديث عن ملك جذيمة وحده ، فأضافوا اليه التنبؤ والكهانة وعبادة الأصنام .

وذكر بعض أهل الأخبار ان (جذيمة بن مالك بن فهم) وهو جذيمة الأبرش كان ينزل الأنبار ويأتي الحيرة ثم يرجع . وكان لا ينادم أحداً ذهاباً بنفسه ، وينادم الفرقدين . فإذا شرب قدحاً ، صب لهذا قدحاً ولهذا قدحاً ، وهو أول من عمل المنجنيق ، وأول من حذيت له النعال ، وأول من رفع له الشمع[3] . بقي على ذلك حتى نادمه مالك وعقيل[4] ، الى غير ذلك من أقوال وروايات عنه. وهي تدل على انه كان قد ترك أثراً في المجتمع في ايامه غير أثر الملك ، مما حدا بالقوم أن يضعوا هذه الأقوال فيه .

واشتهر (جذيمة) عند أهل الأخبار بفرس له ، ذكر انها كانت من سوابق خيل العرب ، اسمها (العصا) . وفيها ورد في المثل : « إن العصا من العصية » . وقد نجا (قصير بن سعد اللخمي) على فرسه هذه ، فأخذ بثأره وقتل (الزباء) على زعم أهل الأخبار .

وهم يروون أن جذيمة كان يغازي إياداً النازلين بـ (عين أباغ) ، فذكر له اسم غلام من لخم في أخواله من إياد ، هو عديّ بن نصر ، له جمال وظرف، فغزاهم . فبعثت إياد قوماً سقوا سدنة الصنمين الخمر ، وسرقوا الصنمين،فأصبحا

---

١ الطبري (٢/٢٩) .
٢ الطبري (٢/٢٩) ، اليعقوبي (١/١٦٩) ، الكامل ، لابن الاثير (١/١٩٦) .
٣ المعارف (٢٨١) ، « ويذكر أيضا انه أول من أوقد الشمع » ، الروض الانف (٢/٣٠٣) .
٤ اللسان (١٥/٦٨) ، (عصا) ، الخيل لابن الكلبي (٣١) ، نوادر المخطوطات (١٩٩) .

في إياد . فبعثت اليه تفاوضه على ارجاع الصنمين اليه على أن يكف عن غزوهم، ولكنه اشترط عليهم اعطاءه عدي بن نصر مع الصنمين ، فوافقوا علـى ذلك . فانصرف عنهم وضم عدياً اليه ، وولاه شرابه . ويدعون انه تزوج اخته (رقاش) التي أحبته فيما بعد ، في قصه يروونها ، ومن هذا الزواج المزعوم كان (عمرو ابن عدي) ابن أخت جذيمة الذي خلف خاله على الملك[1] .

وفي رواية من روايات الأخباريين ان جذيمة زوّج اخته من ابن عمه :(عدي ابن ربيعة بن نصر) ، فولدت له (عمرو بن عدي) الذي استطار به الجن[2] .

وفي جملة ما نسبه أهل الأخبار الى جذيمة من حروب حربه مع (عمرو بن الظرب بن حسّان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العملقي) (العمليقي) مـن عاملة العماليق . وعمرو هـذا هو أبو الزباء عند الأخباريين . ويذكر هؤلاء أن الطرفين استعدا للقتال استعداداً كبيراً،فجمعا كل ما امكنهما جمعه . ولما اصطدما، قُتل عمرو ، فانهزم أصحابه ، وعاد جذيمة بعد هذا النصر الى قواعـده سالماً . ولم يشر الطبري الى اسم الموضع الذي وقع فيه هذا القتال . وملك من بعد (عمرو) ابنته الزبّاء[3] .

أما ملك جذيمة ، فكان على حد قول الأخباريين ما بين الحيرة والأنبار وبقّة وهيت وناحيتها وعين التمر وأطراف البر الى الغمر والقطقطانة وخفية وما والاها[4] ورقة وسائر القرى المجاورة لبادية العرب . ويفهم من بعض الروايات أيضاً انـه ملك معدّاً وبعض اليمن[5] . وكانت داره بالموضع المعروف بـ (المضيق) بالمصيرة بين الخانوقة وقرقيسيا[6] .

---

١ الطبري (٣٠/٢ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (١٩٦/١) ، ابن خلدون (القسم الاول) ، المجلد الثانـي (٥٤٢ ، ٥٨٦ ، ٦٢٦) ، العقـد الفريـد (٢٦٠/٥) ، الحموي ، المشترك (٣١٩) ، الهمداني ، صفة (١٧٨) ، مراصد الاطلاع (٩٧٦/٢) .

٢ الاخبار الطوال (٥٦) .

٣ الطبري (٣١/٢) ، الكامل ، لابن الاثير (١٩٩/١) ، مروج (٩٠/٢ ومـا بعدها) ، نوادر المخطوطات ، (أسماء المغتالين) (ص ١١٢ ومـا بعدها) ، الاغاني (٧١/١٤) .

٤ الطبري (٢٩/٢) ، بلـوغ الارب (١٧٥/٢) ، محمد بن حبيب ، أسمـاء المغتالين (نوادر المخطوطات) ، (١١٢) .

٥ حمزة (٦٤) .

٦ البلدان (٣٧٨/٣) .

اما الأنبار ، فقد تحدثت عنها . وهي –على ما يظهر من روايات الأخباريين– من المواضع التي كان يخضع اعرابها في الغالب لحكم اللخميين . واما بقـة ، فتقع على الفرات بين هيت والأنبار . وأما هيت ، فهي من المواضع القديمة المعروفة قبل الميلاد،وقدورد اسمها في نص (توكلتي أنورتا الثاني) (Tukulti Enurta II) الذي يعود عهده الى حوالى سنة ٨٨٥ قبل الميلاد[١] . وقد عرفت بـ (ايد) (Id) و (ايت) (It)[٢] . وهي (ايس) (اس) (Is)[٣] و (ايس بوليس) (اسبولسي) (Ispolis) (Ispoolis)[٤] و (ايديكاره) (Idikara)[٥] و (دياكيرة) (Diakira)[٦] في مؤلفات الكلاسيكيين . و (ايهي) (Ihi) و (ايهيداكيرة) (Ihidakira) في مؤلفات عصر التلمود[٧] .

وفي بقة استشار جذيمة قصيراً على حد قول الأخباريين في أمر زيارتـه للزباء[٨] . وتقع بقة على مقربة من الحيرة . وقيل هي حصن كان عـلى فرسخين من هيت على رواية ياقوت[٩] . وقد جعلها (اليعقوبـي) على شط الفرات بالقرب من الأنبار وفي ملك الزباء[١٠] . وهي على الفرات بين الأنبار وهيت ، في رواية أكـثر الأخباريين[١١] .

وأما القطقطانة ، فوضع في البرية لا يبعد كثيراً عن الكوفة،وهو بالطف[١٢] .

وأما خفية ، فهي أجمة في سواد الكوفة ، بينها وبين الرحبـة ، ينسب اليها

---

١ Scheil and Gautier, Annales de Takulti Ninip II, Roi D'Assyrie, 889-884, Paris, 1910, P. 38, Ency., II, P. 322, Musil, Euphrates, P. 350.

٢ Musil, Euphrates P. 350.

٣ Heradotus, I, 179.

٤ Isidore of Charax, Mansiones Parthiace, (Muller), P. 249'
(ايوبوليس) ، المشرق ، السنة ١٩٠٣ ، العدد ١٠ ، (ص ٤٤٠) .

٥ Ptolemy, Geography, V. 19, 4.

٦ Ammianus Marcellianus, Rerum, XXIV, 2, 3, Zosimus, III, 15.

٧ Musil, Euphrates, P. 350.

٨ (ببقة خلفت الراي) ، البلدان (٢/٢٥٣) ، الطبري (٢/٣٧ وما بعدها) ، (كما لم يطع فيما أشار قصير) ، رسالة الغفران (٥٣٣) .

٩ البلدان (٢/٢٥٣) ، الطبري (٢/٣٢) .

١٠ اليعقوبي (١/١٦٩) .

١١ البكري ، معجم (١/٢٦٤ وما بعدها) ، مراصد الاطلاع (١/١٦٦) ، البلدان (١/٤٧٣) ، Musil, Euphrates, P. 160.

١٢ البلدان (٧/١٢٥) .

الأسود المعروفة بأسود خفية ، وهي غربي الرحبة،ومنها الى عين الرهيمة مغرباً . وقيل أيضاً عين خفية[1] .

وقد اشتهرت (عين التمر) القريبة من (شفاثا) بالقصب والتمر،وهي على طرف البادية . فتحها المسلمون على يد (خالد بن الوليد) في سنة ١٢ للهجرة في ايام أبي بكر[2] .

وقد طال عمر جذيمة على حد قول (حمزة الأصبهاني) الى ان لحق ملك (سابور بن أشك الأشغاني) (شابور بن أشلك) ، وحكم على حد قوله أيضاً ستين سنة . أما نهايته ، فكانت على يد الزباء في قصة مشهورة معلومة ، رصّعها الأخباريون بشعر وأمثلة[3] ، تحدثت عنها في أثناء كلامي على الزباء . وجعل بعضهم مدة حكمه مئة وثماني عشرة سنة ، اذ ملك في زمن ملوك الطوائف خمساً وتسعين سنة ، وفي ملك أردشير بن بابك وسابور الجنود ثلاثة وعشرين سنة[4] . وملك يحكم هذه المدة لا بد أن تكون مدة حياته أطول من مدة حكمه .

وذكر (أبو حنيفة الدينوري) ان جذيمة لم يزل ملكاً مقيماً بالحورنق ، حتى دعته نفسه الى تزويج (مارية) ابنة الزباء الغسانية . وكانت ملكة الجزيرة ، ملكت بعد عمها الضيزن الذي قتله (سابور) ، فقتلت جذيمة ، ثم قتلها قصير مولاه[5] . فجعل الملكة القاتلة بنتاً من بنات الزبّاء عينها ، فدعاها مارية ، وبذلك أنقذ الزبّاء من تهمة القتل التي ألصقها الأخباريون بهذه الملكة ، وجعلها ملكة على الجزيرة ، وجعل نسبها في غسّان ، وغسّان معادون منافسون لآل لخم ، ثم أبى إلاّ أن يجعل لجذيمة قصراً منيفاً ، فوقع اختياره على الخورنق ، وهو قصر لائق أن يكون قصر ملك ، وخالف في ذلك رأي الأخباريين الذين ينسبون هذا القصر الى ملك آخر هو النعمان .

وقد جاء اسم (جذيمة) (جديمت) في نص نبطي ويوناني عثر عليه في

---

١ البلدان (٤٥٢/٣) .
٢ البلدان (٢٥٣/٦) .
٣ حمزة (٦٤ وما بعدها) ، البلدان (٣٧٩/٣) ، الكامل ، لابن الاثير (١٩٩/١) الطبري (٤٤٨/١) .
٤ مروج (٩٠/٢ وما بعدها) ، الروض الانف (٢٠/١) .
٥ الاخبار الطوال (٥٦) .

(أم الجمال) ، جاء فيه : (هذا موضع أي قبر فهر بن شلي (سلي) مربي جذيمت ملك تنوح) . ولهذا النص على قصره أهمية بالغة ، لأنه يشير الى الصلة التي كانت بين الأسرة الحاكمة في الحيرة وعرب الشام[1] . ومن الصعب بالطبع استنتاج كيفية وفاة مربي الملك في هذا الموضع : أكان زائراً هذه الديار فأدركه أجله فقبر هناك ! أم جاء مع سيده في حرب فتوفي في ذلك المكان ! مهما يكن من شيء ، فقد أفادنا الحجر فائدة كبيرة بتدوينه اسم صاحب القبر ، واسم جذيمة ملك (تنوح) تنوخ .

ويلاحظ أن النص دوّن اسم (جذيمة) بحرف (الدال) وكتب اسم (تنوخ) بحرف الحاء (تنوح) بدلاً من الخاء . ويكون هذا النص من أقدم النصوص التي ورد فيها اسم (تنوخ) . ويرجع عهده الى حوالي السنة (٢٧٠) بعد الميلاد[2] .

وجعل (ابن دريد) لجذيمة نسلاً ، سماهم (بني جهضم) ، وجعل لفظة (جهضم) من (التجهضم) ، ومعناها التكبر[3] .

وذكر (حمزة الأصفهاني) أنه لم يلد لجذيمة غير (زينب بنت جذيمة) ، وهي أم مرتع . واسمه (عمرو بن معاوية بن كندة) ، فغزا في آخر عمره الشأم، فقتل (عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة) ملك العمالقة والد الزبّاء ، فانطوت له الزبّاء على طلب الثأر حتى قتلته[4] .

وانتقل الملك بعد وفاة جذيمة الى ابن أخته (عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مسعود بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم)[5] . أما أمه ، فهي أخت جذيمة ، وهي : (رقاش بنت مالك بن فهم بن غنم بن عدثان) على رواية من ينسب مالك بن فهم الى عدثان[6] .

---

١ Rep. Epig., 1097, II, III, P. 373, Enno Littmann, Nabataish-Griechische Bilinguen, In Le Florilegium Melchior de Vogue, P. 375, Die Araber, II, S. 251.

٢ Die Araber, I, S. 193, Altheim-Stiehl, Geschiche der Hunnen, I, S. 151, 154.

٣ الاشتقاق (٢/٢٩٢) .

٤ حمزة (٦٥) .

٥ الطبري (٢/٣٠ وما بعدها) ، معجم الشعراء (٢٠٥) ، الاغاني (١٤/٧٢) ، رسالة الغفران (٢٧٨) ، فرائد اللال (٢/١٠٨) .

٦ حمزة (٦٥) ، مروج (٢/٩٢) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، التنبيه (١٥٨) ، نزهة الجليس (٢/٥٩ وما بعدها) .

ويلاحظ أن (الطبري) لم يكن مستقراً في موضوع اسم (عدي) والد عمرو، إذ يجعله (نصراً) في موضع ، فيقول (عدي بن نصر بن ربيعة)[1] ، ويجعله (ربيعة) في موضع آخر ، فيقول : (عدي بن ربيعة بن نصر)[2] . ويظهر ان ذلك انما وقع له بسبب أخذه من روايات مختلفة ، وعدم تدقيقه ونقده لتلك الروايات .

ويفهم من رواية يرجع (الطبري) سندها الى (ابن حميد) عن (سلمة) عن (ابن اسحاق) ان زمان حكم (ربيعة بن نصر اللخمي) كان بين ملك (تبان أسعد ابو كرب) وملك ابنه (حسان بن تبان أسعد)[3] . والرواية مضطربة مشوشة ، يفهم منها ان (ربيعة بن نصر) كان نفسه قد حكم اليمن في الفترة الواقعة بين (تبان أسعد) وبين حكم ابنه (حسان) ، وان (حسان) هذا لم يتمكن من الحكم الا بعد هلاك (ربيعة بن نصر)[4] . ويزيدها اضطراباً وتشويشاً ذكر (الطبري) رواية الرؤيا التي رآها (ربيعة بن نصر) وعرضها على (سطيح) و (شق) لتفسيرها له ، وما كان من جوابهما له في تفسيرها ، حيث (وقع في نفسه ان الذي قالا له كائن من امر الحبشة ، فجهز بنيه وأهل بيته الى العراق بما يصلحهم ، وكتب لهم الى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرزاذ، فأسكنهم الحيرة،فمن بقية ربيعة بن نصر ، كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة)[5] . فيتبين منها ان (ربيعة بن نصر) كان مقيماً باليمن ، وقد أقام بها حياته، وان بنيه هم الذين ذهبوا الى العراق . ولكنها لم تشرح كيف وجد (ربيعة) في اليمن وكيف حكمها وهو من لخم ؟ وهي رواية شاذة ، دسها بعض المتعصبين لليمن — على ما يظهر — على (ابن اسحاق) ، فدونها في أخباره . وقد دست أخبار وأشعار على ابن اسحاق ، فرواها وصدق بها من غير نقد ولا تحقيق . وللعلماء رأي فيه .

ويزعم بعض أهل الأخبار ان (سطيحاً) و (شقاً) أخبرا (ربيعة بن نصر)

---

١ الطبري (٦١٤/١ ، ٦٢٧) ، (دار المعارف) .
٢ الطبري (٦١/٢ ، ١١٢) ، (دار المعارف) .
٣ الطبري (٦١/٢ ، ١١١ وما بعدها) ، (دار المعارف) .
٤ (فكل هؤلاء ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر اللخمي ، فلما هلك ربيعة بن نصر ، رجع ملك اليمن كله الى حسان بن تبان اسعد الطبري (١١٢/٢ ، ١١٥) .
٥ الطبري (١١٤/٢) .

في تأويلهما لرؤيا بما يكون من غلبة الحبش على أرض اليمن، وبغلبة الفرس بعدهم. فلما سمع بذلك ، أوجس في نفسه خيفة ، فأحب ان يخرج ولده وخاصة اهله من ارض اليمن ، فوجه ابنه عمراً الى يزدجرد بن سابور، أو الى سابور ذي الأكتاف ، فأنزله الحيرة ، فيومئذ بنيت ، فضم عمرو اليه اخوته وأهل بيته ، فمن هناك وقع آل لخم الى الحيرة ، واتصلوا بالأكاسرة فجعلوا لهم على العرب سلطاناً ، فلما مات خلفه من بعده ابنه (جذيمة بن عمرو)[1] .

وزعم (الدينوري) ان وفاة ربيعة بن نصر كانت في أيام (قباذ بن فيروز) وانه بوفاته رجع الملك الى حمير ، فملك ذو نواس من بعده ، وهو ذو نواس صاحب تعذيب نصارى نجران نفسه . فأرجع ايام ربيعة الى قباذ (قباد) ، وهو قول يخالف ما يرويه الأخباريون[2] . وجعل ذا نواس المالك من بعده ، وقد عاش ذو نواس بعد قباذ أمداً ، فخالف في ذلك التأريخ وأقوال الأخباريين .

ووصف (الطبري) عمرو بن عدي، فقال عنه : (هو أول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب ، وأول من مجده أهل الحيرة في كتبهم من ملوك العرب بالعراق ، واليه ينسبون ، وهم ملوك آل نصر ، فلم يزل عمرو بن عدي ملكاً حتى مات وهو ابن مائة وعشرين سنة ، منفرداً بملكه ، مستبداً بأمره ، يغزو المغازي ويصيب الغنائم ، وتفد عليه الوفود دهره الأطول ، لا يدين لملوك الطوائف بالعراق ، ولا يدينون له ، حتى قدم أردشير بن بابك في أهل فارس)[3] .

وذكر الطبري أن الحيرة خربت بعد هلاك بختنصر ، لتحول الناس عنها الى الأنبار ، وبقيت خراباً الى أن عمرت في زمن عمرو بن عدي ، باتخاذه إياها منزلاً[4] .

وثمّ رواية تنسب نصراً الى الساطرون ملك الحضر[5] ، وتجعل آل نصر من الجرامقة ، من (رستاق باجرمي)[6] ، ورواية أخرى تجعل ملوك الحيرة من

---

١ الاخبار الطوال (٥٦) .
٢ الاخبار الطوال (٦٢ وما بعدها) .
٣ الطبري (٦٢٧/١) ، (دار المعارف) ، حمزة (٦٥) ، مفاتيح العلوم ، للخوارزمي (٦٨) .
٤ الطبري (٤٣/٢) ، (دار المعارف) .
٥ Rothstein, S. 42.
٦ (وهو جرمقاني من اهل الموصل من رستاق يدعى باجرمي) ، معجم الشعراء ، (٢٠٥) ، Rothstein, 42.

(أشلاء قنص بن معد) . فقد ذكر أن (عمر بن الخطاب) لما أتى بسيف النعمان بن المنذر ، دعا جبير بن مطعم فسلمه إياه ، ثم قال: يا جبير ، ممن كان النعمان ؟ قال : من اشلاء قنص بن معد . وهو من ولد عجم بن قنص ، إلا ان الناس لم يدروا ما عجم ، فجعلوا مكانه لخماً ، فقالوا هو من لخم ونسبوا اليه[1] . وكان جبير من أنسب العرب[2] . والذي عليه اكثر أهل الأخبار ان (آل نصر) هم من اليمن ، كانوا قد تركوا اليمن وهاجروا حتى استقروا بالعراق ، ونزلوا الحيرة ، وأسسوا ملكهم بها[3] .

ويذكر الأخباريون ان عمراً انتقم من الزباء لقتلها جذيمة ، ورووا في ذلك رواياتهم المرصعة بالشعر والأمثال[4] . وهي روايات لا تستند الى اسس تاريخية ، اذا قصدوا بذلك الزباء ملكة تدمر التي عرفنا تأريخها ونهايتها في مكان آخر من هذا الكتاب .

وجعل (الدينوري) مدة حكم (عمرو بن عدي) نيفاً وستين سنة[5] .

وتولى الملك بعد وفاة عمرو ابنه امرؤ القيس . ويقال له امرؤ القيس البدء وامرؤ القيس الأول . أما امه ، فهي ماوية بنت عمرو اخت كعب بن عمرو الأزدي على رواية حمزة[6] . وقد عاصر جملة من ملوك الفرس ، هم : سابور ابن أردشير (شابور بن أردشير)[7] ، وهرمز بن سابور ، وبهرام بن هرمز ، وبهرام بن بهرام ، وبهرام بن بهرام بن بهرام ، ونرسى بن بهرام بن بهرام ، وهرمز بن نرسى ، وسابور ذو الأكتاف على رواية تجدها مدونة في تأريخ حمزة. وجعل مدة ملكه مئة واربع عشرة سنة ، وهي مدة تتفق مع ما ذكره الطبري حكاية على لسان ابن الكلبي .

---

١ الروض الانف (١/١٨) .
٢ الجاحظ ، البيان (١/٣٠٣) .
٣ مفاتيح العلوم (٦٨) .
٤ الطبري (٢/٣٥) ، الكامل (١/١٣٧) ، الاغاني (١٤/٧٣) ، الامثال ، للميداني (١/١٥٨ ، ٢٤٦) ، ابن دريد ، المقصورة (١٧) ، مروج (٢/١٧ وما بعدها) ، حمزة (٥٨) .
٥ المعارف (٢٨٢) .
٦ حمزة (٦٦) .
٧ الطبري (٢/٦٤) ، حمزة (٦٧) .

غير اننا اذا ما وازنّا بين ما ذكره الطبري حكاية على لسان ابن الكلبي في عدد ملوك الفرس الذين حكم (امرؤ القيس) في ايامهم ، وفي مدة حكمه في عهد كل ملك من هؤلاء الملوك[١] . وبين ما ذكره حمزة نجد اختلافاً في العدد واختلافاً في المدة ، مما يدل على ان حمزة نقل من مورد آخر يختلف عن مورد الطبري[٢] .

وإذا كانت مدة حكم امرؤ القيس على نحو ما ذكره ابن الكلبي وغير ابن الكلبي من رواة ، فكم تكون مدة حياة هذا الملك ؟ إنهم لم يعينوا هذه المدة ، ولكنها مدة تزيد بالطبع على هذه السنين في نظر أصحاب تلك الروايات ، ولِمَ لا تطول ؟ وقد ساروا على خطة اطالة أعمار الملوك الأولين ، فملك يتجاوز حكمه مئة عام بسنين أمر لا بأس به في نظر هؤلاء الرواة .

غير اننا نلاحظ انهم بخلوا على الملوك المتأخرين ، فلم يمنحوهم هذه النعمة ، نعمة إطالة مدة الحكم او مدة العمر ، فجعلوا لهم مدداً مقبولة في الغالب معقولة . ولو عاش هؤلاء المتأخرون في زمن بعيد عن اولئك الرواة ، بعيد عن ايام تدوين اخبار ملوك الحيرة ، لما حرمهم الأخباريون كرمهم هذا ، ولأعطوهم ولا شك ما اعطوه من سبقهم من الملوك جملاً من السنين .

وقد نعت امرؤ القيس في بعض الروايات بـ (المحرق)[٣] ، ونعت ايضاً بـ (محرق الحرب)[٤] . ونصادف كلمة المحرق ومحرق وآل محرق في مواضع من التواريخ المتعلقة بالحيرة . وقد اطلقها بعض الأخباريين على الغساسنة ايضاً[٥] . وهم يرون انها لقب ألحق بأولئك الملوك ، لأنهم عاقبوا اعدائهم في اثناء غزوهم لهم بحرق أماكنهم بالنار . ويرى (روتشتاين) انه تفسير لظاهر الكلمة ، وهو تفسير مغلوط . والصحيح في نظره انها اسم علم لأشخاص عرفوا بمحرق ، ولذلك قيل (آل محرق) لا (آل المحرق)[٦] .

---

١ الطبري (٢/٦٥) .
٢ حمزة (٦٧) .
٣ المعارف (٢٨٢) .
٤ Rothstein, S. 64.
٥ (ومحرق أيضا : لقب الحرث بن عمرو ملك الشام من ال جفنة ، وانما سمي بذلك لانه أول من حرق العرب في ديارهم ، فهم يدعون ال محرق) ، اللسان (حرق) .
٦ Rothstein, S. 47.

وفي أصنام الجاهليين صنم يدعي محرق والمحرق ، تعبدت له بعض القبائل مثل بكر بن وائل وربيعة في موضع (سلمان)[1] . وقد ورد بين أسماء الجاهليين اسم له علاقة بهذا الصنم ، هو عبد محرق[2] ، أفلا يجوز أن يكون للمحرق إذن علاقة بهذا الصنم، كأن يكون قد اتخذ من باب التيمن والتبرك للملك الذي عرف بالمحرق أو أنه قدم قرباناً لهــذا الإلـه أحرقه على مذبحه بالنار ، وكان يكثر من حرق القرابين للآلهة ، وتلك عادة معروفة وقد وردت أيضاً عند العبرانيين ، فقيل له لذلك المحرق ؟ والى هذا الاحتمال ذهب بعض المستشرقين[3] .

ويظهر أن محرقاً كان من الشخصيات الجاهلية القديمة الواردة في الأساطــير ، وقد اقترن اسمـــه بالدروع . وورد (بردي محرق) كما اقترن اسمه بـ (نسيج داوود) ، ممـــا يدل على أن هـــذا الاسم من الأسماء المعروفة قديماً في أساطير الجاهليين[4] .

وقد ورد أيضاً صوت محرق وفرخ محرق[5] ، وذلك يدل عـلى أن (محرقاً) في هذا الموضع حيوان قد تكون له علاقة أيضاً بأساطير الجاهليين[6] .

ومما حكاه الأخباريون عن هذا الملك انه كان قد تنصر ، وانه لذلك أول من تنصر من آل نصر[7] . وهو أمر يحتاج الى دليل، كما ذكروا أن ملكه كان واسعاً وانه كان عاملاً للفرس (على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من باديـــة العراق والحجاز والجزيرة)[8] .

ويظن بعض الباحثين ان امرأ القيس ، هو امرؤ القيس الذي ورد اسمه مدوناً في نص (النمارة) . فإذا كان هذا الظن صحيحاً ، كان امرؤ القيس أول ملك من ملوك الحيرة يصل خبره الينا مدوناً ، وكذلك خبر تأريخ وفاته في سنة ٣٢٨

---

١ J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, S. 57.

٢ Rothstein, S. 48.

٣ Reste, S. 57.

٤ Rothstein, S. 49.

٥ الاغانـــي (٨/٦٥) .

٦ Rothstein, S. 49.

٧ الطبري (٢/٦٥) ، ابن خلدون (٢/٢٦٣) .

٨ الطبري (٢/٦٤ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/١٧١) .

للميلاد ، المقابلة لسنة ٢٢٣ من تقويم بصرى ، التقويم المعمول به في تلك الجهات التي قبر فيها امرؤ القيس[١] .

ويظهر من نص النمارة ان امرأ القيس صاحب القبر ، كان رجلاً محارباً ، وقائداً كبيراً ، أخضع قبيلتي أسد ونزار ، وهزم مذحجاً ، وأخضع معداً ، ووزع بنيه في القبائل ، وبلغت فتوحاته أسوار (نجران) مدينة (شمر) . وهو بهذه الفتوحات قد تمكن من معظم أنحاء الجزيرة . وهذا النص يناقض الروايات التي تنسب الفتوحات العظيمة الى (شمر يهرعش) (شمر يرعش) ، فتجعله فاتح العراق وما وراء العراق الى الصين ، وتعكس القضية عكساً تاماً . وروايات فتوحات (شمر) ، هي روايات يمانية وضعها أناس متعصبون لليمن ولا شك .

وقد سبق لي أن بينت ان المستشرقين يرون ان (شمراً) المذكور في هذا النص أي صاحب (نجران) ، هو (شمر يهرعش) (شمر يرعش) . وقد ذكرته في باب (ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) . ومعنى هذا ان (نجران) كانت في ملكه يوم أغار (امرؤ القيس) عليها فوصل أسوارها ، ويظهر انه لم يتمكن منها وانه فرض سلطانه على القبائل الساكنة في البادية ، فاعترفت بسيادته عليها . ولهذا لقب في النص بلقب (ملك العرب كلهم الذي نال التاج) ، وختمت الكتابة بجملة « فلم يبلغ ملك مبلغه » ، وهي جملة تعبر عن اتساع ملكه وامتداده مسافات شاسعة .

ويظهر من ورود كلمة (التبع) أي التاج في هذا النص ان هذه الكلمة كانت معروفة عند العرب الشماليين في ذلك الحين ، أي في القرن الرابع للميلاد ، وانها وردت بالمعنى المفهوم منها في الزمن الحاضر، أي ما يوضع على الرأس تعبيراً عن الملك والحكم .

ويفهم من هذا النص أن (امرأ القيس) كان قد بسط سلطانه على كل العرب ، أي الأعراب ، فلكهم وملك خاصة (بني نزار) و (أسد) وقبائل (معدّ) ، وأنه نصب أولاده على القبائل ليضمن طاعتها وخضوعها له ، وأن

١ François Nau, Les Arabes Chrestiens, P. 32, Réné Dussaud, Arabes en Syrie avant L'Islam, Paris, 1907, P. 35, REP. EPIG., I, (1900-1905), 361, NR. 483, R. Dussaud, Mission, 314, J. Cantineau, Le Nebatéen, 1932, 49, Die Araber, II, S. 313.

سلطانه بلغ بذلك حدود أرض اليمن . فامتد حكمه إذن من الحيرة وبلاد الشام الى نجد والحجاز ، حتى بلغ حدود مدينة (نجران) . وقد كانت منازل (معد) في الحجاز وفي ضمن أرضها (مكة) وتمتد الى (نجران)[1] .

ويظهر من دفن (امرىء القيس) في موضع (النمارة) من بلاد الشأم أن (امرأ القيس) كان في بلاد الشأم حينما نزل به أجله.ويرى بعض الباحثين أنه كان قد جاء الى بلاد الشأم ، لأنه كان من حزب (بهرام) الثالث ومن مؤيديه ، فلما وقع الخلاف بين الفرس على العرش وانتصر (نرسي) (٢٩٣ — ٣٠٢م) (٢٩٣ — ٣٠٣) ، خرج امرؤ القيس من العراق ، وقصد بلاد الشأم ، فأقام هناك . ومال الى الروم فأيدوه وأقروه على عرب بلاد الشأم ، فيكون قد عمل للفرس وللروم معاً[2] .

وكتابة (النمارة) هي شاهد قبر ملك عربي يدعى (امرأ القيس) ، عثر عليها في موضع (النمارة) وهو في الحرة الشرقية من جبل الدروز ، ويرجع تأريخها الى اليوم السابع من شهر (كسلول) من سنة (٢٢٣) من تقويم (بصرى) أي في اليوم السابع من شهر كانون الأول من سنة (٣٢٨) بعد الميلاد[3] . دوّنت على ضريح الملك ، وهو بناء مربع ، لتكون دليلاً للناس يعرفون منها اسم صاحب القبر . وتتألف من خمسة أسطر ، هذا نصها :

١ — تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو اسر التج .
٢ — وملك الاسدين ونزرو وملوكهم وهرب مدحجو عكدى وجا .
٣ — بزجى في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .
٤ — الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
٥ — عكدى . هلك سنة ٢٢٣ يوم بكسلول بلسعد ذو ولده[4] .

---

١ Die Araber II, S. 321.

٢ رينه ديسو ، العرب في سورية قبل الاسلام (ص ٣٦ وما بعدها) .
Die Araber, II, S. 319.

٣ REP. EPIG., I, VII, P. 361, No. 483, Syria, Tome, IV, 1923, P. 154.

٤ ولفنسون (١٩٠) ، زيدان ، العرب قبل الاسلام (٢٠٣) ، رينه ديسو ، العرب في سورية قبل الاسلام (ص ٣٣) ،
Lidzbarski, Ephemeris, Zweiter Band, Erster Heft, S. 34, REP. EPIG., I, VI, P. 362, Dussaud, Nabatéo-Arabe D'An-Nemara in Rev. Arch., 1902, II, 409-421, Halevy, In Rev. Sém., 1903, P. 58-62, Peiser Die Arabische Inschrift Von En-Nemara in Orientalist. Literatur-Zeitung, VI, 15, Col. 277-281.

وإذا أردنا تقريب هذه الكتابة الى أفهامنا وتدوينها بلهجتنا العربية، لهجة القرآن الكريم ، كتبناها على هذا الشكل :

١ ــ هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي نال التاج .
٢ ــ وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم ، وهزم مذحجاً بقوته وقاد .
٣ ــ الظفر الى أسوار نجران ، مدينة شمر . وملك معدّاً واستعمل أبناءه على
٤ ــ القبائل . ووكلهم لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه
٥ ــ في القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول . ليسعد الذي ولده[١] .

وقد استدل المستشرقون من عبارة (ذو أسر التاج) (الذي نال التاج) على أن صاحب هذا التاج هو من الملوك الذين كان لهم اتصال بالفرس، وان المقصود به ملك من ملوك الحيرة ، لوجود صلة لهم بالانبراطورية الفارسية[٢] . ودعواهم في ذلك ان هذه الجملة ، وكلمة (تج) (تاج) هما من الاصطلاحات المستعملة عند الفرس وعند من خالطهم من الملوك ، فلا بــد أن يكون حاملها من الملوك المحالفين لهم . وكلمة (تاج) من الألفاظ المعربة عن الفارسيـة ، من أصل (تاك)[٣] . ولما كان هذا ملكاً عربياً ، فهو اذن امرؤ القيس ملك الحيرة[٤].

---

١ تختلف الترجمات بعضها عن بعض بعض الاختلاف ، بسبب اختلاف العلماء في القراءات ، راجع جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٤٣٧ وما بعدها) ، René Dussaud, Mission, 1903, P. 314-323, R. Dussaud, in Revue Archéologique, 1902, III, Tome 41, PP. 409-421, Les Arabes en Syrie Avant L'Islam, P. 34 Hommel, Grundriss, I, S. 155, Clermont-Ganneau, Recueil D'Archéologie Orient, VI, P. 395, VII, P. 167.

٢ زيدان ، العرب قبل الاسلام (٢٠٣) ، تأريخ العرب قبل الاسلام ، لجواد علي (٣/٤٤١) .

٣ غرائب اللغة (٢٢١) .

٤ Hommel, I, S. 155, De Lagarde, Armen. Stud., 834.

وكان من عمال (سابور بن أردشير) و (هرمز بن سابور) و (بهرام ابن سابور) (على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من بادية العراق والحجاز والجزيرة) في تأريخ الطبري[1] . وورد في تأريخ ابن خلدون نقلاً عن(السهيلي) : ان (امرأ القيس) كان عاملاً للفرس على ملحج وربيعة ومضر وسائر بادية العراق والجزيرة والحجاز[2] . ويظهر ان المورد الذي نقل منه (السهيلي) و(الطبري) يرجع الى منبع واحد ، هو (ابن الكلبي) . وما رواه (ابن الكلبي) يتفق بوجه عام مع ما جاء في نص (النمارة) من أمر ملك وفتوح (امرىء القيس).

و (شمر) صاحب مدينة (نجران) ، هو (شمر يهرعش) في رأي أكثر المستشرقين ، وينطبق زمانه على زمان (امرىء القيس)[3] . واذا صح هذا الرأي نكون قد حصلنا على أول نص عربي جاهلي يشير الى حرب نشبت بين مملكة الحيرة ومملكة (سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) في عهد أول ملك من ملوكها وهو (شمر يهرعش) المعروف بـ (شمر يرعش) عند الاسلاميين .

وفي روايات الأخباريين ما يؤيد نشوب حرب بين عرب الحيرة وعرب اليمن في ايام (شمر يرعش) ، غير انها تناقض هذا المدون في النص عن تغلب (امرىء القيس) على نجران مدينة (شمر) . فـ (شمر) عندها بطل من الأبطال ، فتح الفتوح العظيمة ، وبلغ ملكه حداً لم يصل اليه ملك (اسكندر ذي القرنين) . وعندهم أيضاً انه هو باني مدينة (سمرقند) ، وهو الذي حيّر (الحيرة) . وهو تبع الأكبر وهو وهو ، على حين هو — في هذا النص — ملك مغلوب ، لم يتمكن من الوقوف أمام (امرىء القيس) الذي بلغت جيوشه مدينة (نجران). فهل تجد تناقضاً أغرب من هذا التناقض ؟ على اننا لو فرضنا ان (شمراً) صاحب نجران هو رجل آخر غير (شمر يرعش) ، فهذا النص يهدم بنيان الأخباريين اليمانيين القائم على أساس المبالغة في المفاخرات والمباهاة بالأجداد نكاية بالعدنانيين الذين تعالوا عليهم في الاسلام بفضل النبي وشرف الاسلام،فأحفظهم[4] ذلك جداً .

وقد سبق أن تحدثت عن عثور العلماء منذ عهد غير بعيد على نص أشار الى

---

١ الطبري (٢/٦٤ وما بعدها) .
٢ ابن خلدون (٢/١٧١ وما بعدها) ، (بولاق ١٢٨٤ هـ) .
٣ جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/١٤١ وما بعدها) .
٤ أغضبهم .

غزو غزاه قائد من قوّاد (شمس) على (ملك أسد) وأرض (تنوخ) التي تخص الفرس ، وذكرت أن (شمر) المذكور هو (شمر يهرعش) في رأي الباحثين[1] . وقد تحدثت عنه حديثاً فيه الكفاية في موضعه ، وفي أثناء كلامي على (شمر يهرعش) ، فلا حاجة بي هنا لإعادة الكلام عليه .

ويرى بعض الباحثين أن (المشتى) الأثر الشهير المعروف الذي نقلت أحجار جدرانه المزخرفة الى متحف (قيصر فريدرش ويلهم) ببرلين ، ولا تزال آثاره باقية ، هو من بناء (امرىء القيس) . وقد استدلوا على ذلك بطراز بنائه الذي يشبه الطراز (الحيري) على رأيهم ، وذهبوا الى أنه أقامه في هذا المكان بعد فراره من أرض الحيرة ومن الساسانيين سنة (٢٩٣ م) ، ليكون قصر له وحصناً يدافع به عن ملكه الجديد[2] .

ويذكر الطبري ان وفاة (امرىء القيس) كانت في عهد (سابور) ، أي سابور ذي الأكتاف (٣١٠ - ٣٧٩ م) ، وأنه كان عامل (سابور) على ضاحية مضر وربيعة ، وان سابور استعمل ابنه عمرو بن امرىء القيس في مكان والده[3] .

وحكم بعد امرىء القيس البدء ابنه عمرو . وامه هند بنت كعب بن عمرو على رواية[4] ، و (مارية البرية) أخت (ثعلبة بن عمرو) من ملوك الغساسنة في رواية أخرى[5] . وكان يعاصر من ملوك الفرس سابور ذا الأكتاف (٣١٠-٣٧٩م) وأخاه (أردشير بن هرمز بن نرسي) (٣٧٩ - ٣٨٣ م) وسابور بن سابور (سابور الثالث) (٣٨٣ - ٣٨٨ م)[6]. وقد نعته بعض الأخباريين بموقد الحرب (مسعر حرب) . وذكروا انه حكم خمساً وعشرين سنة[7] . ونعت الأخباريين له هذا النعت ، يدل على انه كان محارباً، ولكنهم لم يذكروا شيئاً من تلك الحروب .

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 487.

٢ Die Araber, II, S. 258, 318, 320.

٣ الطبري (٢/٦١ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٤ حمزة (ص ٦٧) .

٥ المروج (٣/١٩٩) ، (٢/٢٣) ، (طبعة دار الرجاء) .

٦ الطبري (٢/٧٠) .

٧ شرح قصيدة ابن عبدون المعروفة بالبسامة (ص ١٠٠) .

وقد ذهب بعض الأخباريين الى ان مارية التي ضرب المثل بقرطيها فقيل قرطا مارية ، هي مارية هذه ام عمرو[1] .

وقد وضع اليعقوبي بعد امرىء القيس شقيقه الحارث بن عمرو بن عدي ملكاً وجعل مدة ملكه سبعاً وثمانين سنة . ثم وضع عمراً ابن امرىء القيس ملكاً من بعده . وحكم هذا على زعمه مدة أربعين عاماً[2] .

ولا نعرف من أعمال عمرو هذا شيئاً . وللأخباريين في مدة حكمه أقوال عدة تتراوح عندهم من ٢٥ سنة الى ٦٠ سنة[3] . وقد ذكر الطبري ان عمراً (بقي في عمله بقية ملك سابور وجميع أيام أردشير بن هرمز بن نرسي ، وبعض أيام سابور بن سابور) ، ثم قال ان جميع مدة ملكه فيما ذكره ابن الكلبي ثلاثين سنة[4] . واذا أخذنا برواية الطبري المذكورة ، تكون مدة حكمه حوالي الستين سنة ، ومعنى هذا ان عمراً كان قد عمّر أكثر من ستين سنة،وانه توفي بعد وفاة سابور ذي الأكتاف وبعد سنة (٣٨٣ م) ، لأن حكم (سابور بن سابور) المعروف عند المؤرخين بـ (سابور) الثالث كان في حوالي السنة (٣٨٣ م) . فقد تولى سابور هذا الحكم فيما بين (٣٨٣) حتى سنة (٣٨٧) أو (٣٨٨ م)[5] . واذا أخذنا برواية من يقول انه حكم (٢٥) سنة ، أو (٣٠) ، وجب أن تكون وفاته في أيام (سابور ذي الأكتاف) .

وقد جعل الطبري في موضع آخر من تأريخه وفاة (عمرو) في عهد (سابور ابن سابور) ، أي (سابور) الثالث[6] . وبذلك يكون قد أطال مدة حكمه وعمره .

ويذكر الطبري أن (سابور بن سابور) استخلف (على عمله أوس بن قلام في قول هشام) ، وذلك بعد مهلك (عمرو)[7] . ولم يذكر الأسباب التي حملت سابور على هذا التعيين . ويظهر أنه كان من أسرة غريبة عن أسرة (آل لخم)

---

١ البسامة (ص ١٠١) .
٢ اليعقوبي (١/ ١٧٠) .
٣ الطبري (٢/ ٧٠) ، ابن الاثير (١/ ١٥٨) ، حمزة (٦٧) ، مروج (٣/ ١٩٩) .
٤ الطبري (٢/ ٦٢) ، (دار المعارف) .
٥ Ency. 4, P. 178.
٦ الطبري (٢/ ٦٥) .
٧ الطبري (٢/ ٦٥) (طبعة دار المعارف بمصر) ، مفاتيح العلوم (٦٩) .

الحاكمة . ويرجع ابن الكلبي نسبه الى العماليق ، فيقول إنه من (بني عمرو بن عمليق)[1] . وذكر حمزة نسبه عـلى هذه الصورة : أوس بن قلام بن بطينا بن جمهير بن لحيان العمليقي[2] . وجعله ابن خلدون من بني عمرو بن عملاق[3] .

ويتبين من خبر ورد في (الأغاني) أن أوساً كان من أسرة كانت تقيم في الحيرة ، وهي من بني الحارث بن كعب[4] . وقد ورد اسم رجل آخر من هذه الأسرة ، ذكر انه بنى ديراً في الحيرة[5] .

ولا نعرف من أعمال أوس هذا شيئاً،وكل ما نعرفه عنه انه حكم خمس سنوات[6]. وان امرءاً اسمه (جحجبن بن عتيك بن لخم) (جحجبا) ثار به فقتله عـلى رواية لابن الكلبي ذكرها الطبري[7]. أما حمزة فذكر اسمه ونسبه على هذه الصورة، (ححجنا بن عبيل أحد بني فاران) . وقال : (قال ابن الكلبي : وهو فاران ابن عمرو بن عمليق ، وهم بطن بالحيرة يقال لهم بنو فاران ، وححجنا منهم . فقتل ححجنا أوساً ، فرجع الملك الى آل بني نصر)[8] .

فنحن إذن أمام روايتين في أصل جحجبي (جحجبا) أو ححجنـا : رواية ترجعه الى لخم ، ورواية أخرى ترجعه الى بني فاران ، وترجع بـني فاران الى (عمرو بن عمليق) ، أي الى العشيرة التي رجع الأخباريون نسب أوس بن قلام اليها ، إذن فهو بموجبها من العماليق .

أما هذا الاختلاف الذي نراه بين الرواة في كيفية ضبط اسم هـذا الثائر في جحجبا أو حجحنا ، وفي عتيك أو عبيل ، فيمكن رَجْعُهُ الى خطـأ وقع في تدوين الروايات ، إما سهواً وإما جهلاً بحقيقة الاسم ، فمن هذين نشأ لدينـا هذا الاختلاف .

ولم يذكر الأخباريون الأسباب التي حملت (جَحْجَبى) على الثورة والمنافع

---

١ الطبري (٢/٦٥) (طبعة دار المعارف بمصر) .
٢ حمزة (ص ٦٧) .
٣ ابن خلدون (٢/٤٨) .
٤ الاغاني (٢/١٨ ، ٢٦) .
٥ Rothstein, S. 64.
٦ الطبري (٢/٧٢) ، (٢/٦٥) (طبعة دار المعارف بمصر) ، حمزة (ص ٦٧).
٧ الطبري (٢/٦٥) (طبعة دار المعارف بمصر) .
٨ حمزة (ص ٦٧) .

التي جرّها لنفسه منها . وكل ما ذكروه عنه انه ثار به جحجبي فقتله ، وان هلاكه كان في عهد (بهرام بن سابور) (٣٨٨ — ٣٩٩ م) ، وان (بهرام) استخلف بعده في عمله (امرىء القيس البدء بن عمرو بن امرى القيس البدء) خمساً وعشرين سنة . وكان هلاكه في عهد يزدجرد الأثيم[١] .

فيتبين من ذلك ان (جحجبا) (جحجبى) ، قاتل أوس ، لم يحكم الحيرة وان حكمها عاد فانتقل الى آل نصر .

ولم يذكر اليعقوبي أوس بن قلام ولا الثورة التي قام بها جحجبا (جحجبى) ، بل نصب رجلاً آخر بعد عمرو بن امرىء القيس هو المنذر بن امرىء القيس ، ونعته بالمحرق ، نعته بذلك لأنه أخذ قوماً حاربوه ، فحرقهم،فسمي لذلك محرقاً، وجعل بعده النعمان[٢] .

ولم يذكر المسعودي كذلك أوس بن قلام ولا جحجبا (جحجبي) ، بل ذكر النعمان بن امرىء القيس رأساً بعد عمرو بن امرىء القيس ، وقال انه قاتل الفرس خمساً وستين سنة ، وان أمه الهيجانه بنت سلول ، وكانت من مراد أو من إياد[٣] .

وقد نعت الطبري امرأ القيس هذا بالبدء[٤]. أما حمزة فلقبه بالبدن[٥] . وأظن ان مرد هذا الاختلاف خطأ وقع في الروايات من الرواة أو الكتابة للحرف الأخير من كلمة البدء أو البدن ، فصارت الكلمة الواحدة في الأصل كلمتين .

وذكر ابن الأثير ان بهرام بن سابور استخلف من بعد أوس امرأ القيس بن عمرو بن امرىء القيس الكندي ، فبقي خمساً وعشرين سنة ، وهلك في أيام يزدجرد الأثيم[٦] ، واضافة الكندي الى امرىء القيس خطأ ، ولا شك ، فلم يروِ أحد من الأخباريين ان امرأ القيس هذا كان كندياً . ومن المعروف ان ابن الأثير قد اعتمد على تأريخ الطبري اعتماداً كلياً ، حتى ليمكن أن يقال انه اختصره ، والعبارتان خلا زيادة كلمة (الكندي) متشابهتان،ففي استطاعتنا أن نقول بحدوث هذه الزيادة في تأريخ ابن الأثير إما من النساخ وإما من ابن الأثير نفسه ، إذ

---

١ الطبري (٢/٦٥) (طبعة دار المعارف بمصر) .
٢ اليعقوبي (١/١٧٠) .
٣ مروج (٢/٢٣) (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٤ الطبري (٢/٦٥) (طبعة دار المعارف) .
٥ حمزة (ص ٦٧) ، (ثم امرؤ القيس البدن) ، مفاتيح العلوم (٦٩) .
٦ ابن الاثير : الكامل (١/١٧٦) .

استعجل دون تفكير فأضاف كلمة الكندي الى نسب امرىء القيس، لشهرة امرىء القيس الكندي .

ولا نعرف من خبر امرىء القيس شيئاً يذكر . وقد ذكر حمزة أنه هو محرق الأول ، وانه أول من عاقب بالنار . وفي روايته هذه انه حكم إحدى وعشرين سنة[1] . أما الطبري ، فذكر انه حكم خمساً وعشرين سنة[2] .

وذكر الطبري أن (يزدجرد) المعروف بالأثيم (٣٩٩ — ٤٢٠ م) ، الذي في أيامه كان هلاك (امرىء القيس) استخلف مكان (امرىء القيس) ابنه (النعمان) . وهو فارس حليمة ، وصاحب الخورنق[3] .

وهذا النعمان المعروف عند المؤرخين بالنعمان الأول ، هو أول ملك نستطيع أن نتحدث عنه بشيء من التأكيد والتحقيق والتفصيل ، وهو كما يقول الأخباريون : النعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي . أما أمه ، فهي شقيقة ابنة أبي ربيعة ابن ذهل بن شيبان[4] ، وهي أخت عمرو المزدلف .

وقد عرف النعمان بالنعمان الأعور كذلك ، كما عرف أيضاً بالسائح[5] . وكان له شقيق من أمه شقيقة ، هو (حسان بن زهير)[6] .

ويظهر من وصف الأخباريين للنعمان أنه كان رجلاً حازماً قوياً ، محارباً من أشد الناس نكاية في عدوّه . غزا عرب الشأم مراراً كثيرة فسبى منهم وغنم . وكان يغزو بكتيبتين كانتا عنده : دوسر وأهلها تنوخ ، والشهباء وأهلها الفرس. يغزو بهما من لا يدين له من العرب[7] . وقد اشتهرت دوسر بشدة ضربتها حتى قيل أبطش من دوسر[8] . وقد نسب بعضهم له خمس كتائب ، هي : الرهائن

---

١ حمزة (ص ٦٧) ، (وهو محرق الاول ، لانه أول من عاقب بالنار) ، مفاتيح العلوم (٦٩) .

٢ الطبري (٦٥/٢) (طبعة دار المعارف بمصر) .

٣ الطبري (٦٥/٢) (طبعة دار المعارف بمصر) .

٤ الطبري (٦٥/٢) (طبعة دار المعارف) ، ابن الاثير (١٧٦/١) ابن خلدون (٤٨/٢) .

٥ حمزة (ص ٦٨) ، مفاتيح العلوم (٦٩) .

٦ حمزة (ص ٦٨) .

٧ الطبري (٧٣/٢) ، (٦٧/٢) (دار المعارف) ، حمزة (ص ٦٨) .

٨ الميداني : مجمع الامثال (٧٨/١) ، (ضربت دوسر فيه ضربة) ، اللسان (٢٨٥/٤) ، (صادر) ، مادة (دسر) .

والصنائع والأشاهب ، والكتيبتان المذكورتان . أما الرهائن ، فذكروا أنها كانت تتألف من خمسمائة رجل رهائن لقبائل العرب ، يقيمون على باب الملك سنة ، ثم يجيء بدلهم خمسمائة أخرى ، وينصرف أولئك الى أحيائهم ، فكان الملك يغزو بهم ويوجههم في أموره . وأما الصنائع ، فهي : بنو قيس وبنو تيم اللات بن ثعلبة ، وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه .

وذكر أنه كانت له كتيبة تسمى (الوضائع)،وقوامها ألف رجل من الفرس يضعهم ملوك الفرس بالحيرة نجدة لملوك العرب،وكانوا يقيمون سنة،ثم يأتي بدلهم ألف رجل ، وينصرف أولئك[1] .

وقيل إن وجوه العرب وأصحاب الرهائن كانوا يفدون عند رأس كل سنة ، وذلك في أيام الربيع ، الى النعمان وبقية من تولى الملك بعده ، وقد صيّر لهم أكلاً عنده ، وهم ذوو الآكال ، فيقيمون شهراً ، ويأخذون آكالهم ويبدلون رهائنهم وينصرفون الى أحيائهم . والآكال هم سادة الأحياء . وكانوا يأخذون المرباع ، أي ربع الغنيمة في الحرب والغزو[2] .

ونعت بعض المؤرخين مثل الطبري وحمزة النعمان بأنه فارس حليمة[3] ، أي معركة حليمة المعروفة التي وقعت في أيام المنذر بن ماء السماء ، لا في أيام النعمان على روايات آخرين[4] .

وإلى النعمان هذا ينسب أكثر الأخباريين بناء قصر الخورنق الشهير في الأدب العربي . قيل : انه بناه لبهرام جور بن يزدجرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠ م) المعروف بالأثيم . وكان يزدجرد لا يبقى له ولد ، فسأل عن منزل بريء مريء صحيح من الأدواء والأسقام،فدلّ على ظهر الحيرة ، فدفع ابنه بهرام جور الى النعمان هذا ، وأمره ببناء الخورنق مسكناً له ، وأنزله إياه ، وأمره باخراجه الى بوادي العرب[5] .

---

١ بلوغ الارب (٢/١٧٦) .
٢ بلوغ الارب (٢/١٧٦) .
٣ الطبري (٢/٦٥) (دار المعارف) ، حمزة (ص ٦٨) ، مفاتيح العلوم (٦٩) .
٤ البلدان مادة حليمة ، الميداني : مجمع الامثال (١/٢٣١) ، (٢/١٥٠) .
٥ الطبري (٢/٧٣) (٢/٦٥) (دار المعارف) الاغاني (٢/١٤٤) ، (طبعة دار الكتب المصرية) .

وذكر (السهيلي) ان الخورنق قصر بناه النعمان الأكبر ملك الحيرة لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه بناناً عجيباً لم تر العرب مثله . واسم الذي بناه له سنمار ، وكان بناه في عشرين سنة[1] . ويذكر بعضهم انه بني على نهر (سنداد)[2].

وقد ارتبط اسم الخورنق في القصص الذي شاع حوله باسم بانيه المسمى سنمار، وهو في زعم الأخباريين بنّاء رومي كلفه النعمان بناء القصر ، فلما انتهى منه وكمل تعجب من حسنه واتقان عمله ، وبدلاً من أن يوفيه النعمان وفاءً حسناً ، أمر به فطرح من رأس الخورنق ، فمات في قصص يرويه الأخباريون . ويضرب بهذه النهاية المثل في الأدب العربي في الجزاء السيء ، فيقال (جزاه جزاء سنّمار)[3].

وقد وردت قصة سنمار في أبيات تنسب لعبد العُزى بن امرىء القيس الكلبي، وكان أهدى افراساً الى الحارث بن مارية الغساني ووفد عليه ، فأغره واكرمه ، ثم عاقبه لما بلغه خبر وفاة ولد للحارث وكان قد استرضعه لدى بني الحميم بن عوف من بني عبد ودّ من كلب ، نهشته حية فتوفي ، فظن الملك انهم اغتالوه، لذلك طلب من عبد العزى أن يجيء بهم اليه . فلما أبى ، انزل به العقاب . وقد

---

١ الروض الانف (١/٦٧) ، (والخورنق : نهر • والخورنق : المجلس الذي يأكل فيه الملك ويشرب ، فارسي معرب ، أصله خورنكاه ، وقيل : خرنقاه معرب • قال الاعشى :

ويجيء اليه السيلحون ودونها صريفون في أنهارها والخورنق

والخورنق : نبت • والخورنق: اسم قصر بالعراق، فارسي معرب، بناه النعمان الاكبر الذي يقال له الاعور ، وهو الذي لبس المسوح فساح في الارض) ،اللسان (١٠/٧٩) ، مادة (خرنق) •

٢ بلوغ الارب (١/٣٨٦) •

٣ الطبري (٢/٦٥ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، البلدان (٢/١ وما بعدها) ، دائرة المعارف الاسلامية (٩/٣٥) ، الميداني ، مجمع الامثال (١/١٦٧) ، البكري ، معجم (٢/٥١٦) ، (وسنمار : اسم رجل اعجمي ، قال الشاعر :

جزتنا بنو سعد بحسن فعالنا جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

وحكي فيه السنمار بالالف واللام • قال أبو عبيد : سنمار اسم اسكاف بنى لبعض الملوك قصرا ، فلما أتمه أشرف به على اعلاه فرماه منه غيرة منه أن يبني لغيره مثله ، فضرب ذلك مثلا لكل من فعل خيرا فيجزى بضده • وفي التهذيب: من أمثال العرب في الذي يجازي المحسن بالسوأى قولهم : جزاه جزاء سنمار • قال أبو عبيد : سنمار بناء مجيد رومي فبنى الخورنق الذي بظهر الكوفةللنعمان ابن المنذر ، وفي الصحاح : للنعمان بن امرىء القيس ، فلما نظر اليه النعمان كره ان يعمل مثله لغيره ، فلما فرغ منه القاه من اعلى الخورنق فخر ميتا ،، اللسان (٤/٣٨٣) (صادر) ، مادة (سنمر) •

ورد في هذه الأبيات ان سنمار صرف عشرين حجة في بنائه البنيان بالقرميد والسكب ، فلما كمل البناء وآض كمثل الطود ، وظن سنمار انه سينال من صاحبه المودة والقرب ، إذ بصاحب القصر يأمر بقذفه من فوق برجه فيموت . ولم يذكر الشاعر اسم الملك ولا اسم الخورنق ، وهو يخاطب في هذه الأبيات ابن جفنة ، كما اشير الى (المرء حارث) ويقصد به الحارث الغساني[1] .

وقد نسب بعض أهل الأخبار قصة نهاية (سنمار) الى (أحيحة بن الجُلاّح) . فذكروا ان أحيحة أراد بناء أطم له ، فبناه له (سنمار) . فلما كمل ، عجب من بنائه ، فقال له (سنمار) : « اني لأعرف فيه حجراً لو انتزع لتقوض من عند آخره ، فسأله عن الحجر ، فأراه موضعه ، فدفعه أحيحة من الأطم ، فخرّ ميتاً[2] .

وقد ذُكر (جزاء سنمار) في شعر لأبي الطمحان القيني ،وآخر لسليط بن سعد وآخر ليزيد بن إياس النهشلي[3] .

واقترن اسم هذا القصر في الغالب باسم قصر آخر نسب بناؤه أيضاً الى هذا النعمان ، هو السدير[4] .

ويتبين من روايات أهل الأخبار عن (الخورنق) و (السدير) ان القصر الأول لم يكن بعيداً عن الحيرة ، وانما كان على مقربة منها ، وربما كان على مسافة ميل من الحيرة . أما (السدير) ، فكان على مسافة بعيدة ، وقد ورد انه كان في وسط البرية التي بينها وبين الشأم .

---

١ (ودعا ابنيه : شراحيل وعبد الحارث ، فكتب معهما الى قومه :

جزاني جزاه الله شر جزائه ... جزاء سنمار وما كان ذا ذنب
سوى رصه البنيان عشرين حجة ... يعلي عليه بالقراميد والسكب
فلما رأى البنيان تم سموقه ... وآض كمثل الطود ذي الباذخ الصعب
فاتهمه من بعد حرس وحقبة ... وقد هره اهل المشارق والغرب
وظن سنمار به كل حبرة ... وفاز لديه بالمودة والقرب
فقال :اقذفوا بالعلج من فوق برجه ... فهذا لعمر الله من أعجب الخطب)

الطبري (٢/٦٦ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٢ الميداني ، مجمع الأمثال (٢/١٦٧) .

٣ الطبري (٢/٦٦) (دار المعارف) .

٤ البلدان (السدير) ، حمزة (ص ٦٨) ، البكري (٣/٧٢٩) ، الروض الأنف (١/٦٦) .

ويظهر من وصف أهل الأخبار للسدير ، ومن انه كان قبة في ثلاث قباب متداخلة[1] ، ومن وصفهم للخورنق ، ان السدير لم يكن في مثـل ضخامة قصر الخورنق ، وان الخورنق كان قصراً كبيراً أعدّ للسكنى وليكون حصناً يهيمن على مشارف البادية .

ويرى بعض الباحثين أن قصر الخورنق لم يكن من بناء (النعمان) ، وأنـه انما بني قبل ذلك ، ويرى أن النعمان قد أسكن (بهرام) فيه[2] .

وقد ورد ذكر الخورنق في شعر لحسان بن ثابت :

وحارثة الغطريف أو كابن منـذر   ومثل أبـي قابوس ربّ الخورنق[3]

وقد ذهب بعض شرّاح هذا البيت الى أن المراد بـ (ابن منـذر) (عمرو ابن هند) ، وأن المراد من (أبـي قابوس) ، (النعمان بن المنـذر بن امرىء القيس بن عدي اللخمي) ، الذي لبس المسوح وساح في الأرض ، والذي نعته الشاعر عدي بن زيد العبادي بـ (رب الخورنق)[4] . وهـو تفسير ينسجم مع رأي المؤرخين في باني القصر ، إلا أنه يتعارض معهم في تسمية الملك ، فالمعروف عندهم أن (ابا قابوس) هو (النعمان بن المنذر) آخر ملوك الحيرة ، وهـو قاتل الشاعر (عدي بن زيد العبادي) لا (النعمان السائح)[5]. ولا يوجد أحد غيره عرف عندهم بـ (أبـي قابوس) . وقد حكم هذا بعد (عمرو بن هند) بأمد، فيكون هو مراد الشاعر المذكور . غير ان هذا يدفعنا الى تخطئة (حسان) في نسبة الخورنق الى هذا الشاعر ، أو تخطئة المؤرخين في نسبتهم القصر الى (النعمان

---

١ (والسدير : بناء ، وهو بالفارسية سهدلي أي ثلاث شعب أو ثلاث متداخلات . وقال الاصمعي : السدير فارسية ، كأن أصله سادل أي قبة في ثلاث قبـاب متداخلة ، وهي التي تسميها الناس اليوم سدلي ، فأعربته العرب ، فقالـوا سدير . والسدير : النهر ، وقد غلب على بعض الانهار ، قال :

الابن امك ما بدا   ولك الخورنق والسدير

التهذيب : (السدير نهر بالحيرة) ، اللسان (٣٥٥/٤) ، (صادر) ، نهايـة الأرب (٣٨٥/١ وما بعدها) .

٢ ايران في عهد الساسانيين ، أرثر كريستين ، ترجمة يحيى الخشاب (ص٢٦٠) .

٣ البرقوقي (ص ٢٨٧) .

٤ الخورنق (ص ٢٨٧) .

٥ المحبر (٣٥٨ وما بعدها) .

السائح) . والذي اراه ان هذا التفسير ، لا يتعارض مع روايات المؤرخين في باني القصر ، وان مراد الشاعر من (ومثل أبي قابوس رب الخورنق) ، انه صاحب الخورنق ، اي مالكه والنازل فيه ، لا الباني له . وقد ذكره لشهرة القصر في ايامه وبذلك فلا يقع التعارض بين التفسيرين ، ويكون الملك المقصود هو (النعمان أبو قابوس) .

وممن اشار الى القصرين : الخورنق والسدير في شعره من الشعراء الجاهليين ، المنخل ، قال :

واذا صحوت فـــانني	رب الشريهـــة والبعير
واذا سكرت فـــإنني	ربّ الخورنق والسدير

وقد نشأ لقب (السائح) الذي لقب به النعمان من القصة الشهيرة التي يرويها الاخباريون عن هذا الملك ، وهي ان النعمان جلس في يوم من ايام الربيع في قصره الخورنق فأشرف منه على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنـــان والانهار ... فأعجبه ما رأى من الخضرة والنور والانهار ، فقال لوزيره وصاحبه : هل رأيت مثل هذا المنظر قط ؟ فقال : لا ، لو كان يدوم ! قال : فما الذي يدوم ؟ قال : ما عند الله في الآخرة ، قال : فيمَ ينال ذلك ؟ قال : بترك الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده . فترك ملكه من ليلته ، ولبس المسوح مستخفياً هارباً لا يعلم به ، وأصبح الناس لا يعلمون بحاله ، فحضروا بابه ، فلم يؤذن لهم عليه كما كان يفعل . فلما ابطأ الإذن عليهم ، سألوا عنه ، فلم يجدوه ، وساح الملك منذ ذلك الحين في الارض ، فلم يره انسان [1] .

ويلحق الاخباريون بهذه القصة ابياتاً ينسبونها لعديّ بن زيد العبادي . ذكروا انه خاطب بها النعمان بن المنذر ، هي في الواقع اختصار للقصة ، لم يذكر فيها اسم النعمان ، وانما اكتفى الشاعر بذكر ربّ الخورنق ، ورب الخورنق هو النعمان في تفسير الاخباريين [2] .

---

١ الطبري (٢/٧٣ وما بعدها) ، (٢/٦٧) ، (دار المعارف) ، حمزة (ص ٦٨) ، المعارف (ص ٢٨٢) .

٢ الطبري (٢/٦٧ وما بعدها) ، حمزة (ص ٦٩) ، المعارف (ص ٢٨٢) ، نهاية الأرب (١/٣٨٧) .

والأبيات المنسوبة الى عديّ بن زيد ، وهي :

وتذكَّرْ ربُّ الخورنق إذ فكّر يوماً ، وللهدى تفكير
سره ملكه وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى جهله ، فقال : وما غبطة حيٍّ الى الممات يصير ؟

تشير الى النعمان السائح ، وتذكر قصة مفارقته ملكه ، ولبسه المسوح واعراضه عن الملك بعد ان كان ملكاً . ولم يقصد بالنعمان : النعمان بن ابي سلمى صاحبه ، كما تصور بعض الناس [1] ويظهر انه نظمها للنعمان صاحبه على سبيل العظة والتذكير ، ليدخله في النصرانية ، وذلك بعد ان كان يتعبد للأوثان . وقد تمكن من التأثير فيه ، فأدخله فيها كما يذكر الاخباريون .

وقد ورد في بعض الروايات تنصر النعمان [2] ، ونسب تنصره الى سلطان القديس (سمعان العمودي) (Symeon Stylites) عليه ، وكان يقوم ، بالتبشير بين أهل الحيرة [3] . وذكر انه شفاه ببركته من مرض كان به ، فتنصر [4] . وهي رواية في حاجة الى دليل . فلم يثبت ان آل لخم كانوا قد تنصروا في هذا العهد .

وقد ذكر الطبري ان تبع بن حسان بن تبع بن ملكيكرب بن تبع الأقرن،تبع حمير ارسل حينما ولي الملك ابن اخته الحارث بن عمرو بن حجر الكندي في جيش عظيم الى بلاد معد والحيرة وماوالاها ، فسار الى النعمان بن امرىء القيس ابن الشقيقة ، فقاتله ، فقتل النعمان وعدة من اهل بيته ، وهزم اصحابه ، وافلته المنذر بن النعمان الاكبر ، وامه مـــاء السماء امرأة من النمر . فذهب ملك آل النعمان ، وملك الحارث بن عمرو الكندي ما كانوا يملكون [5] .

وقد استدرك الطبري على هذه الرواية ، فذكر بعدها مباشرة هذه الجملة ، قال : (وقال هشام : ملك بعد النعمان بن المنذر ابنه المنذر بن النعمان ، وأمه

---

١ رسالة الغفران (٥٥٥) ، (تحقيق الدكتـورة عائشة عبد الرحمن ، بنـت الشاطىء) .
٢ ابن خلدون (٢٧١/٢) .
٣ شيخو : النصرانية (٨٢) .
٤ السمعاني (٢٤٧/١) ، الحيرة (١٥١) . Causin, 254.
٥ الطبري (٨٦/٢) ، (٨٩/٢ وما بعدها) (دار المعارف) .

هرّ ابنة زيد مناة بن زيد الله بن عمرو الغساني اربعاً واربعين سنة)[1] . وذلك يدل على ان هذه رواية اخرى منسوبة الى ابن الكلبي ايضاً ، ولكنه اخذها من مورد آخر غير المورد الذي نقل منه الرواية السابقة ، وهي منسوبة ايضاً الى ابن الكلبي استهلها الطبري بقوله : (حدثت عن هشام بن محمد)[2] . وهو ابن الكلبي .

وحديث الطبري عن قتل الحارث بن عمرو الكندي للنعمان بن امرىء القيس ابن الشقيقة ، يناقض ما رواه هو نفسه وما رواه غيره عن تنسك النعمان واعتزاله الملك وسياسته في الارض وعن اللقب الذي منحه الاخباريون إياه وهو (السائح) ، ويظهر ان ابن الكلبي وأضرابه رواة هذه الروايات كانوا قد اخذوا رواياتهم من مصادر عربية مختلفة ، غير مدونة ، فوقع هذا التناقض بين الروايتين .

وعاد الطبري فتكلم على هذا الموضوع في اثناء حديثه عن الاحداث التي وقعت بين العرب في ايام قباذ ، فقال : (وحدثت عن هشام بن محمد ، قال : لما لقي الحارث بن عمرو بن حجر بن عدي الكندي النعمان بن المنذر بن امرىء القيس ابن الشقيقة ، فقتله ، وأفلته المنذر بن النعمان الاكبر وملك الحارث بن عمرو الكندي ما كان يملك ، بعث قباذ بن فيروز ملك الفرس الى الحارث بن عمرو الكندي : انه قد كان بيننا وبين الملك الذي قد كان قبلك عهد ، واني احب ان ألقاك . وكان قباذ زنديقاً يظهر الخير ويكره الدماء[3] . فجعل الطبري والد النعمان في هذه الرواية المنذر بن امرىء القيس مع ان والد النعمان المقصود هو امرىء القيس .

وقد ذكر الطبري ان ملك النعمان الى ان ترك ملكه وساح في الارض تسع وعشرين سنة وأربعة أشهر . من ذلك في زمن يزدجرد خمس عشرة سنة ، وفي زمن بهرام جور بن يزدجرد أربع عشرة سنة[4] . واذا اخذنا بهذه الرواية وجب ان يكون ابتداء حكم الملك النعمان في سنة (٤٠٥ م) ، وتركه الملك واختيـــاره في الارض وحياة الزهد في حوالى السنة (٤٣٤ م) . فقد حكم بهرام بن يزدجرد ، المعروف بـ (بهرام الخامس) عند المؤرخين فيما بين السنة (٤٢٠ م) والسنة (٤٣٨)[5] .

وصار عرش الحيرة بعد النعمان الى ابنه المنذر ، وكانت أم المنذر من غسان .

---

١ الطبري (٢/٩٠) (دار المعارف) .
٢ الطبري (٢/٨٩) (دار المعارف) .
٣ الطبري (٢/٨٩) (٢/٩٥) (دار المعارف) .
٤ الطبري (٢/٦٨) (دار المعارف) .
٥ Ency., 4, P. 178.

وهي هند بنت زيد مناة بن زيد بن عمرو الغساني [١] . اما المسعودي ، فذكر أنها : هند بنت الهيجانة من آل بكر [٢] :

وقد ذكر الطبري ان يزدجرد لما ولد بهرام جور ، اختار لحضانته العرب ، فدعا المنذر بن النعمان واستحضنه بهرام ، فسار به المنذر ، واختار لرضاعته ثلاث نسوة ذوات اجسام صحيحة وأذهان ذكية وآداب حسنة ، من بنات الأشراف ، وهن عربيتان وعجمية ، فأرضعنه ثلاث سنين ، فلما بلغ خمس سنين ، احضر له مؤدبين ، فعلموه الكتابة والرمي والفقه . وأحضر له حكيماً من حكماء الفرس . ثم احضر له معلمي الفروسية ، فتعلم الرماية والصيد وركوب الخيل حتى صار من أمهر الناس . وظل هذا شأنه لدى المنذر حتى مات يزدجرد . ففرح الناس بوفاته وقرر الاشراف والموبذان والمرازبة صرف الملك عن اسرة يزدجرد ، لسوء سيرته في الناس ، ونصبوا شخصاً آخر مكانه . فلما رأى بهرام ذلك ، طلب مساعدة المنذر ، فأرسل المنذر قوة بقيادة ابنه النعمان ، وسار هو على رأس قوة اخرى قوامها ثلاثون الفاً من فرسان العرب ، ومعه بهرام ، وبعد مفاوضات وافق الفرس على خلع من نصّبوه كسرى عليهم ، وتعيين بهرام ، وبفضل هذه المساعدة استعاد التاج [٣] .

وتناقض هذه الرواية كما نرى من الرواية السابقة التي دوّنها الطبري نفسه في تعليل سبب بناء الخورنق والتي تحدثت عنها قبل قليل . وقد فطن ابن الأثير الذي نقل الروايتين ايضاً لهذا التناقض ، فقال : (هكذا ذكر أبو جعفر ، في اسم بهرام جور ، ان اباه اسلمه الى المنذر بن النعمان كما تقدم ، وذكر عند يزدجرد الأثيم انه سلم بهرام الى النعمان بن امرىء القيس . ولا شك ان بعض العلماء قال هذا وبعضهم قال ذاك ، الا انه لم ينسب كل قول الى قائله) [٤] . وأبو جعفر هذا هو الطبري .

ولا نعلم شيئاً من أمر النعمان بن المنذر الذي تولى قيادة القوة التي أمر والده بارسالها للتحرش بمملكة الفرس ، بعد ان رفضوا نصب بهرام جور ملكاً عليهم

---

١ حمزة (ص ٦٩) ، الطبري (٢/٨٦) ، (٢/٦٨ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٢ مروج (٢/٢٣) .

٣ الطبري (٢/٧٤ وما بعدها) ، الدينوري ، الاخبار الطوال (ص ٥٧ وما بعدها) ، تحقيق (فلاديمير جرجاس) (طبعة ليدن) ،
Nöldeke, Aufsätye, S. 104.

٤ ابن الأثير : الكامل (١/١٦٢) .

على نحو ما رأيناه في رواية الطبري الثانية [1] . فقد سكت الطبري عنه كما سكت الآخرون .

ونجد رواية نشأة بهرام جور بأرض العرب في رواية لليعقوبي مختصرة ، هي في الواقع جمع للروايتين السابقتين . ذكر اليعقوبي ان يزدجرد دفع بهرام جور الى النعمان ، فأرضعته نساء العرب ، ونشأ على أخلاق جميلة . ولما مات يزدجرد كرهت الفرس أن تولي ابناً له لسوء سيرته ، وقالوا : « بهـرام ابنه قد نشأ بأرض العرب لا علم له بالملك » . وأجمعوا على أن يملكوا رجلاً غيره ، فسار بهرام في العرب ، فلما لقي الفرس ، هابته ، فأذعنوا له وأعطوه الطاعة فوعدهم من نفسه خيراً . وكتب الى الآفاق يعدهم بذلك . وقدم المنذر بن النعمان عليه ، فرفع منزلته [2] . فلم تنكـر هذه الرواية رواية من زعم ان يزدجرد سلم ابنـه الى النعمان ، ولم تنكر صلة المنذر ببهرام جور ، ولكنها كما نرى لم تشر الى اسم من قاد الجيش من العرب وسار على الفرس .

ولا يمنع على كل حال قول الأخباريين في بناء النعمان الأول الخورنق لبهـرام من كون ابنه هو الذي ساعد بهراماً على أخذ التاج . لقد سلمه والده صغيراً الى النعمان ، فلما كبر وترعرع ، ومات والده وهو بين عرب الحيرة ، وامتنع الفرس من توليه التاج ، ساعده المنذر في ذلك ، وأخذ له حقه ممن اغتصبه منه .

ويظهر من أخبار الأخباريين انه كانت للمنذر منزلة عند (يزدجرد) . ذكر الطبري ان يزدجرد (دعا بالمنذر بن النعمان ، واستحضنه بهرام،وشرّفه وأكرمه، وملّكه على العرب وحباه بمرتبتين سنيتين ، تدعى احداهما (رام أبزوذ يزدجرد) وتأويلها (زاد سرور يزدجرد) ، وتدعى الأخرى (بمهشت) وتأويلها (أعظم الخول) ، وأمر له بصلة وكسوة بقدر استحقاقه لذلك في منزلته،وأمره أن يسير ببهرام الى بلاد العرب [3] .

وتناقض هذه الرواية رواية الطبري المذكورة في قصة بناء الخورنق ، ورواية بقية أهل الأخبار عن قصة بناء ذلك القصر ، وتؤكد ان وفاة (النعمان) الأول

---

١ الطبري (٢/٧٢) (دار المعارف) .
٢ اليعقوبي (١/١٣٢) .
٣ الطبري (٢/٦٨ وما بعدها) ، Rothstei,n S. 69.

كانت في أيام يزدجرد ، لا في أيام بهرام بن يزدجرد ، وتفيد ان انتقال الحكم الى المنذر كان في عهد يزدجرد .

واشترك المنذر في الحرب التي وقعت بين الروم والفرس بعد مدة قصيرة من تولي بهرام جور الملك ، واختار بلاد الشأم ساحة لهجومه . والظاهر أن إسهامه في هذه الحرب كان بطلب من بهرام الذي لم يكن موقفه حسناً فيها ، فكلف المنذر مهاجمة بلاد الشأم . ليخفف من شدة ضغط الروم عليه . غير ان التوفيق لم يحالف المنذر في هجومه هذا ، فمني بخسارة كبيرة وهو يحاول مع جيشه عبور الفرات ، فغرق أكثرهم في النهر . وكان ذلك في سنة ٤٢١ م . ولحقت به خسارة أخرى في السنة نفسها ، أو في السنة التي تلتها حينما أعاد الكرة على الروم[١] . وقد ذكر المؤرخ (سقراط) (Socrates) المتوفى في حوالي سنة ٤٣٩ م غرق زهاء مئة ألف رجل من رجال المنذر في النهر ، وهو عدد مبالغ فيه ولا شك .

وقد استند الطبري الى رواية يتصل سندها بابن الكلبي ، فجعل مدة حكم المنذر بن النعمان أربعاً وأربعين سنة ، من ذلك في زمن بهرام جور ثماني سنين وتسعة أشهر ، وفي زمن يزدجرد بن بهرام ثماني عشرة سنة ، وفي زمن فيروز ابن يزدجرد سبع عشرة سنة[٢]. وهذه الرواية تناقض روايات ابن الكلبي السابقة عن تولي المنذر الحكم في أيام يزدجرد الأثيم والد بهرام جور ، كما مرّ معنا . وقد أغفلت أمر (هرمز) وهو ابن يزدجرد ابن بهرام جور ، المعروف بالثالث ، الذي حكم من حوالي السنة ٤٥٧ حتى السنة ٤٥٩ للميلاد . فإذا فرضنا أن حكم المنذر كان ثماني سنين وتسعة أشهر من زمان بهرام جور الذي حكم من حوالي السنة ٤٢٠ للميلاد حتى السنة ٤٣٨ للميلاد ، صارت السنة ٤٢٩ هي السنة ٤٣٠ للميلاد التي يجب أن تكون سنة توليه الحكم ، وإذا أضفنا الى هذا الرقم أربعاً وأربعين سنة ، وهي مدة حكم المنذر ، الى هذه الرواية ، صارت السنة ٤٧٣ — ٤٧٤ للميلاد ، هي سنة انتهاء حكم المنذر بوفاته . وتكون سنة وفاته إذن في زمن (فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور) الذي حكم من حوالي السنة ٤٥٩ حتى السنة

---

١ Rothstein, S. 69, Socrates, VII, 18, Bar Hebraeus, Chron. Syriac., 75, Caussin, Essai, II 63, Noldeke, Sas., 86, Paulys-Wissowa, Erster Halbband, S. 1281.

٢ الطبري (٢/٩٠) (دار المعارف) .

٤٨٤ للميلاد . وبحسب هذه الرواية يكون المنذر قد عاصر بهرام جور المعروف بـ (بهرام الخامس) عند المؤرخين وعاش في زمن يزدجرد الثاني ، وهو ابن (بهرام جور) . وفي زمن (هرمز بن يزدجرد) ، ثم في زمن شقيقه فيروز ابن يزدجرد بن بهرام جور[١] .

وتولى بعد المنذر ابنه الأسود من زوجته هر ّ ابنة النعمان من بني الهيجمانة ابنة عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان على رواية الطبري[٢] . ومن لخم على حد قول حمزة[٣] .

وأما (الدينَوري) ، فـذكر أن الذي ولي الملك بعد (النعمان بن امرىء القيس) الأعور والسائح ، أخوه (المنذر بن امرىء القيس) ، وكانت أمـه من (النمر بن قاسط) ويقال لها : (ماء السماء) لجمالها وحسنها ، وأبوهـا (عوف بن جشم) وقد ولاه (كسرى أنو شروان) العرش ، وزعم أنه تزوج (هنداً) ابنة الحارث بن عمرو الكندي آكل المرار ، وهي التي أولدته ثـلاثة أولاد هم : عمرو بن هند المعروف بمضرط الحجارة ، وقابوس المعروف بقينـة العرس ، والمنذر بن المنذر . وذكر أنه بقي ملكاً على الحيرة الى أن غزا (الحارث ابن أبي شمر الغساني) ، وهو الأعرج ، فقتله الأعرج بالحيار[٤] .

وجعل (الدينوري) (المنذر بن المنذر بن امرىء القيس) بعد (المنذر) المذكور ، وقال : إنه خرج يطلب دم أبيه ، فقتله الحارث أيضاً بعين أباغ ، ويقال : إن قاتله هو (مرّة بن كلثوم التغلبي) ، أخو عمرو بن كلثوم ، ثم نصب من بعده شقيقه عمرو بن هند ، ثم النعمان بن المنذر أبا قابوس ، وبـذلك أنهى قائمته لملوك الحيرة[٥] . وهي قائمة سقط منها عدد من الملوك .

ولا نعرف من أخبار الأسود شيئاً كثيراً . وقد ذكر حمزة أنـه حكم عشرين عاماً ، وذلك في زمن فيروز بن يزدجرد وبلاش بن فيروز وقباذ بن فيروز[٦] .

---

١ راجع ترتيب وسن ملك الساسانيين في : Ency. 4, P. 178.
٢ الطبري (٨٦/٢) ، (٩٠/٢) (دار المعارف) .
٣ حمزة (ص ٦٩) .
٤ المعارف (ص ٢٨٣) .
٥ المعارف (ص ٢٨٣) ، عيون الاخبار (٣٣٠/١) .
٦ حمزة (ص ٦٩) .

وروى أنه حارب الغساسنة وانتصر عليهم ، وأسر منهم ، كما روى أنه وقع في احدى معاركه في أيدي الغساسنة ، فقتله[1] . وذكر الطبري أن الفرس أسرته[2] ، ولم يذكر سبب هذا الأمر . وأنه حكم عشرين سنة ، من ذلك في زمن فيروز ابن يزدجرد عشر سنين ، وفي زمن بلاش بن يزدجرد أربع سنين ، وفي زمان قباذ بن فيروز ، ست سنين[3] .

وقد حكم (فيروز) من سنة (٤٥٩ م) حتى سنة (٤٨٤ م) ، ويكون حكم (الأسود) بحسب رواية الطبري المتقدمة في حوالي السنة (٤٧٤ م) تقريباً، وقد حكم (بلاش) أربع سنين ، من سنة (٤٨٤ م) حتى سنة (٤٨٨ م)، ثم حكم (قباذ الأول) ، وهو ابن فيروز من بعده . حكم من سنة (٤٨٨) حتى سنة (٥٣١) للميلاد . ولما كان (الأسود) قد حكم ست سنين من زمان حكم (قباذ) ، تكون سنة وفاته في حوالي السنة (٤٩٤ م)[4] .

وورد في رواية انه كان للأسود بن المنذر ولد اسمه شرحبيل ، قتل ، قتله الحارث بن ظالم ، وكان طفلاً مسترضعاً عند سنان بن أبي حارثة المري[5] .

وكان سبب ذلك على ما تذكره الرواية ان (خالد بن جعفر بن كلاب) كان قدم على (الأسود بن المنذر) أخي النعمان،ومعه (عروة بن عتبة بن جعفر)، فالتقى خالد بن جعفر والحارث بن ظالم بن غيط بن مرة بن سعد بن ذبيان عند الأسود بن المنذر ، فجعل خالد يقول للحارث : يا حمار ، أما تشكر يدي عندك ان قتلت عنك سيّد قومك زهيراً وتركتك سيدهم ؟ فقال : سأجزيك شكر ذلك. فلما خرج الحارث ، قال الأسود لخالد : ما دعاك الى أن تتحرش بهذا الكلب ، وأنت ضيفي ؟ فقال : انما هو عبد من عبيدي ، ولو وجدني نائماً ما أيقظني. وانصرف خالد الى قبته ، فلامه عروة الرحال ، ثم ناما وأشرجت عليهما القبة ، فلما هدأت العيون ، انطلق الحارث حتى أتى قبة خالد ، فهتك شرجها ، ثم ولجها

---

١ الحيرة (ص ١٥٦ وما بعدها) .

٢ الطبري (٨٦/٢) ، (٩٠/٢) (دار المعارف) .

٣ الطبري (٨٦/٢) ، (٩٠/٢) (دار المعارف) .

٤ راجع أزمنة حكم الملوك الساسانيين في : Ency. 4, P. 178.

٥ ابن الأثير . الكامل (٢٢٩/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣٥٣/١٥ وما بعدها) .

وقتله . فنادى عروة : واجوار الملك ! فأقبل الناس ، وسمع الأسود الهتاف ، وقرر الانتقام ممن خرق جوار الملك . وهرب الحارث منه[1] .

ولما هرب الحارث تنقل في القبائل ، فلجأ الى صديق له من كنـــدة . فطلبه الملك فشخص من عند الكندي ، وأضمرته البلاد حتّى استجار بزياد أحد بني عجل ابن لجيم ، فقام بنو ذُهل بن ثعلبة وبنو عمرو بن شيبان ، فقالوا لعجـــل : أخرجوا هذا الرجل من بين أظهركم ، فانه لا طاقة لنا بالشهباء والدوسر ، وأبت عجل ذلك عليهم . فلما رأى الحارث ذلك ، كره أن تقع الفتنة بينهما بسببه ، فارتحل من بني عجل الى جبلي طيء ، فأجاروه ، فمكث عندهم حيناً . ثم ان الأسود لمـــا أعجزه أمـــره ، أرسل الى جارات كنّ للحارث بن ظالم استاقهن وأموالهن ، فبلغ ذلك الحارث ، فخرج من الجبلين ، حتّى علم مكان جاراته ، فأتاهن ، واستنقذهن ، واستاق ابلهـن ، فألحقهن بقومهن . واندس الى بـــلاد غطفان حتّى أتى سنان بن أبي حارثة المريّ ، وهو أبو هَرِم بن سنان ممدوح زهير . وكان الأسود قد استرضع ابنه شرحبيل عنـــد سنان ، ترضعه امرأته . فاستعار الحارث سرج سنان ، وهو في ناحية الشربة ، فأتـى بـه سلمى امـــرأة سنان ، وقال لها : يقول لك بعلك ، ابعثي شرحبيل مع الحارث ، وهذا سرجه لك آية . فدفعته اليه ، فأتي به من ناحية من الشربة فقتله ، وهرب من فوره ، وهرب سنان لما سمع بخبر قتله .

فلما بلغ الأسود قتل ابنه شرحبيل غزا بني ذُبيان ، فقتل وسبى ، وأخذ الأموال وأغار على بني دودان رهط سلمى ، ثم وجد بعد ذلك نعلي شرحبيـل في جانب الشربة عند بني محارب بن خصفة ، فغزاهم وأسرهم وأحمى لهم الصّفا ، وقال : اني أحذّيكم نعالاً ، فأمشاهم عليها ، فسقطت أقدامهم ، ثم ان سيّار بن عمرو ابن جابر الغزاوي احتمل للأسود دية ابنه ألف بعير ، ورهنه بها قوسه ، فوفاه بها.

ثم هرب الحارث ، فلحق بمعبد بن زرارة فاستجار به ، فأجاره ، وكان من سببه وقعة رحرحان . ثم هرب حتّى لحق بمكة ، ثم غادرها الى الشأم ، فلحق بيزيد بن عمرو الغساني ، فأجاره وأكرمه . ومكث عنده . ثم افتقـــد يزيد ناقة له ، ولم يعلم خبرها ، فأرسل الى الخِمْس التغلبي ، وكان كاهناً ، فسأله عنها ،

---

[1] نهاية الأرب (١٥/٣٤٨ وما بعدها) .

فأخبره ان الحارث صاحبها ، فهم به الملك ثم تذمم من ذلك ، فأوجس الحارث في نفسه شراً ، فأتى الخمس التغلبي فقتله . فلما فعل ذلك دعا به الملك ، وأمر به ابن الخمس فقتله بأبيه . وأخذ ابن الخمس سيف الحارث ، فأتى سوق عكاظ في الأشهر الحرم ، فأراه قيس بن زهير العبسي ، فضربه به قيس فقتله[1] .

وذكر ان الأسود غزا بني ذبيان وبني أسد بشط أربك وأوقع فيهم، وانه وجد نعل ابنه شرحبيل القتيل في بني محارب بن خصفة بن قيس عيلان . فانتقم منهم شر انتقام ، وانه قبل من الحارث بن سفيان دفع دية شرحبيل ، فدفعها اليه ، وهي ألف بعير ، (دية الملوك)[2] .

وخبر هذه الغزوة هو جزء متمم لخبر قتل الحارث بن ظالم لابن الأسود، كما جاء في رواية أخرى .

وروايات أهل الأخبار عن قتل الحارث بن ظالم لخالد بن جعفر بن كلاب ، وعن قتل ابن الملك ، روايات متناقضة مضطربة قلقة ، والتبس الأمر فيها على الرواة ، ولا سيما (ابن الكلبي) و (أبي عبيدة) اللذين هما مرجعا أكثر رواة تلك الروايات . يتداخل فيها اسم النعمان بن امرىء القيس مع اسم النعمان بن المنذر واسم الأسود بن المنذر ، وتنسب القصة مرة الى هذا الملك، ومرة الى ذاك. وقد تتداخل ، فيذكر اسم الملك الأسود ، ثم يورد بعده اسم الملك النعمان .

يذكر الرواة رواية كالرواية السابقة ، جعلت الولد القتيل شرحبيل بن الأسود، وجعلت الحارث بن ظالم يسير متخفياً الى الحيرة ليفتك بالأسود. ولكنهم جعلوه في هذه الرواية يسمع صراخ امرأة أخذ جمع الأسود صرمة من إبلها ، فتوجع لها ، ووعدها على اعادة ابلها فطلب منها أن تذهب الى موضع عيّنه لها ، ليأتي لها بإبلها . فلما وردت ابل النعمان ، أخذ مالها ، فسلمه اليها ، ثم فرّ يطلب له مجيراً فلم يجره أحد قائلين له : من يجيرك على هوازن والنعمان ؟ ويختفي اسم المنذر فجأة في هذه الرواية ، ويظهر اسم الملك النعمان كما في الرواية السابقة ، ولكن دون تصريح باسم والد النعمان ، وهو امرؤ القيس[3] .

---

١ نهاية الأرب (١٥/٣٥٣) ، (يوم الخريبة) ، العقد الفريد (٦/٧ وما بعدها) .
٢ الأغاني (١٠/٢٢ وما بعدها) .
٣ الكامل (١/٢٢٣ وما بعدها) .

ثم تستمر الرواية فتأخذ الحارث الى الشأم ، ليستجير بيزيد بن عمرو الغساني من النعمان وهوازن ، فيجيره ويكرمه ، ولكنه يذبح ناقة ليزيد ، ثم يقتل امرأة أرسلها يزيد لتحرّي بيت الحارث ، ثم يقتل الكاهن الذي تكهن بعقر الحارث للناقة وبقتله للمرأة . فلم يبق أمام يزيد إلاّ قتل الحارث ، فأمر به فقتل[1] . وعلى هذه الصورة انتهت حياة رجل هو في نظر الأخباريين بطل من أبطال المغامرات والمفاجآت .

وأما الرواية التي تذكر أن ذلك الملك هو النعمان بن امرىء القيس فتقول إن النعمان بن امرىء القيس كان قد تزوج بنتاً من بنات زهير بن جذيمة بن رواحة العَبْسي ، وهو من السادة الأشراف ، فأرسل النعمان ذات يوم الى زهير يستزيره بعض أولاده ، فأرسل ابنه شأساً ، وكان أصغر ولده ، فأكرمه وحباه ، ورجع بهدايا وألطاف كثيرة . فلما بلغ ماء من مياه غني بن أعصر ، طمع به رباح بن الأشل ، فقتله ، واستلب ما كان معه . فلما سمع زهير بمقتل ولده ، جاء ديار غني ، وأخذ يغير عليها ، حتى قتل منها مقتلة عظيمة ، فاستجارت غني بحلفائهم بني عامر بن صعصعة ، فأنجدوها . وتوسعت الحرب ، فاشتركت بها هوازن ، وكانت تحقد على زهير لأنه كان يسر بها خسفاً ويجبيها الإتاوة كل سنة بعكاظ ، وترأس خالد بن جعفر بن كلاب غنياً وبني عامر وهوازن ، فقتل زهيراً ، وعاد أبناؤه بجسده ليواروه التراب . وذهب خالد بعد مصرع زهير الى النعمان مستجيراً به حين علم أن غطفان ستطلبه به ، فأجاره ، وضرب له قبّة وحماه . وبينما كان في مجلس النعمان ، قدم الحارث بن ظالم الى المجلس ، وجرى بينه وبين خالد كلام ، أغلظ فيه خالد على الحارث ، فحقد الحارث عليه وقرر الانتقام منه ، فاغتاله وهرب . فجعل النعمان يطلبه ليقتله بجاره ، وهوازن تطلبه لتقتله بسيدها خالد . فلحق ببني دارم من تميم ، واستجار بهم ، فأجاروه على النعمان . فلما علم النعمان ذلك ، جهز جيشاً الى بني دارم ، فلما سمعوا بمجيء الجيش عليهم ، استعدوا له ، وأرسلوا أموالهم الى بلاد بغيض ، واستعدوا مع بني مالك بن حنظلة وبني عامر للقتال . فلما التقوا بجيش النعمان ، قتل رئيس جيش النعمان ، وانهزم الجيش . وقيل : إن الحارث بن ظالم ركب الى الحيرة متخفياً ، واستاق إبلاً

---

[1] الكامل (١/٢٣٤) .

له كان قد استولى عنيها النعمان ، وقتل أحد أبنائه ، وفر[1] .

وهناك رواية تجعل النعمان المذكور النعمان بن المنذر ، وتجعل الولد القتيل إبناً لهذا النعمان . وجعلت رواية أخرى قتل الحارث لخالد في عهد الأسود ، ثم تذكر أنه هرب منه . ثم إن رجلاً من بني زيد مناة كان بعض حشم النعمان قد أخذوا إبله وأهله ، استجار بالحارث فركب الحارث حتى أتى النعمان ، فقال : أبيت اللعن ! إنك أخذت نساء جاري ، وماله ، وأنا له جار . فذكره النعمان بقتله خالداً ، وهو في جوار الأسود أخيه . ثم إن النعمان أوعد الحارث وعيداً شديداً. فمضى الحارث ، وندم النعمان على تركه،وطلبه ففاته ، وكان للنعمان ابن مسترضع عند (سنان بن أبي حارثة) ، وكانت سلمى بنت ظالم تحت سنــان ، فجاء الحارث الى أخته على لسان سنان ، حتى أعطته ابن النعمان ، فضرب عنقه ولحق بمكة . فجاور عبدالله بن جُدعان[2] .

وأما قتل (الحارث بن ظالم) ، فالروايات مختلفة فيه ، منها ما جعل قاتله: (يزيد بن عمرو الغساني) على نحو ما رأيت . ومنها ما جعل قاتلــه ملكاً من ملوك غسان تسميه النعمان . ومنها ، وهي رواية من روايات أهل الكوفة ، مــا جعل قاتل الحارث هو الملك النعمان بن المنذر ، وتذكر قصة كيفية استدراج النعمان للحارث ومراسلته له مصرحاً له أنه قد رضي عنه وعفا عما بدر منــه حتى أمن الحارث . فلما جاء الى النعمان ، وكان في قصر بني مقاتل ، أمر به فقتل . قتله ابن الخمس التغلبي ، وكان الحارث قد قتل أباه[3] .

وجاء في رواية أن (عمرو بن الخمس) هو الذي قتل الحارث ، قتله بأمر الملك الأسود بن المنذر[4] . وذكر (ابن دريد) أن قوماً زعموا أن النعمان قتـل (الحارث بن ظالم) ، وهذا وهم ، لأن الذي قتله إنما هو (المنـذر بن المنذر أبو النعمان)[5] . وذكر (محمد بن حبيب) . أن (سيّار بن عمرو الفزاري) المعروف بـ (ذي القوس) ، كان قد رهن قوسه على ألف بعير في قتل الحارث ابن ظالم من النعمان الأكبر[6] .

---

١ الكامل (١/٢٢٩ وما بعدها) .
٢ المحبر (١٩٣ وما بعدها) .
٣ الأغاني (١٠/٢٧ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (٢/٢٠٣) (طبعة أوربة) .
٥ الاشتقاق (١٧٥) .
٦ المحبر (٤٦١) .

ويظهر من (رسالة الغفران) ان (آل لخم) كانوا يعظمون (الأسود بن المنذر)[1] ، ولم يذكر سبب هذا التعظيم .

وحكم بعد الأسود أخوه المنذر بن المنذر بن النعمان ، وأمه هر ابنة النعمان . حكم على رواية لابن الكلبي سبع سنين[2] ، وذلك في زمان قباذ بن فيروز[3] . ولما كان حكم قباذ ، وهو (قباذ الأول) ويسمى بـ (قباذ بن فيروز) قد امتد من سنة (٤٨٨) حتى سنة (٥٣١) للميلاد[4] ، فيكون حكم المنذر اذن قد وقع في خلال هذه المدة .

واذا أخذنا بهذه الرواية ، وجب أن يكون ابتداء حكم المنذر بن المنذر في حوالي سنة (٤٩٤ م) ، وانتهاء حكمه في حوالي السنة (٥٠١ م) ، وذلك بحسب سني حكم ملوك الفرس عند المؤرخين[5] . ولكننا نواجه روايات أخرى رواها ابن الكلبي أيضاً وغيره تخالف هذا التقدير .

وبعد المنذر انتقل الملك الى ابن أخيه النعمان بن الأسود ، وأمه هي (أم الملك ابنة عمرو بن حجر ، أخت الحارث بن عمرو الكندي)[6] . اذن فهي أميرة من أمراء كندة . وقد حكم هذا الملك على رواية لابن الكلبي أربع سنين[7] ، وذلك في زمن قباذ[8] .

يظهر من رواية لـ (ثيوفانس) ان النعمان هذا أغار على حدود الروم وعلى العرب المحالفين لهم ، فاصطدم بالقائد (أوجينيوس) (Eugenius) عند موضع (بثرابسوس) (Bithrapsos) (البشر) على الفرات ، فأصيب بخسارة فادحة. ولا نعرف على وجه التحقيق سنة وقوع هذا الحادث ، والمظنون انه كان حوالي سنة (٤٩٨ م)[9] .

---

١ رسالة الغفران (١٣٣) .
٢ الطبري (٢/٩٤) ، (٢/١٠٤) (دار المعارف) .
٣ حمزة (ص ٦٩) .
٤ Ency., 4, P. 278.
٥ Ency. 4, P. 178.
٦ الطبري (٢/٩٤) ، (٢/١٠٤) ، (دار المعارف) ، حمزة (٦٩) .
٧ الطبري (٢/٩٤) ، (٢/١٠٤) ، (دار المعارف) .
٨ حمزة (ص ٦٩) .
٩ Rothstein S. 74, Theophanes, 217, Huart, I, S. 66, J. Bury : History of the Later Roman Empire, London, 1931, Vol., I, P. 434.

واشترك النعمان أيضاً في الحرب التي وقعت بين الروم والفرس حوالي سنة (٥٠٢ للميلاد) ، اذ رجا منه قباذ أن يهاجم حدود الروم من جهة الجنوب ، فهاجمها في قطاع (حران) (Carrhae) [١] واصطدم بالقائدين (أوليمبيوس) (Olympius) و (أوجينيوس) (Eugenius) فتغلبا عليه ، غير انه أعاد الكرة فتغلب عليها . وفي المعركة التي وقعت على مقربة من (قرقيسياء) (Circesium) على الخابور أصيب بجرح بليغ في رأسه فقضى عليه[٢] .

وفي أثناء غياب النعمان ومعظم جنوده عن الحيرة ، انتهز العرب الذين في بلاد الروم الملقبون بـ (بني ثعلبة) (طايوس دبيت روموين د متقربن دبيت ثعلبة)[٣] هذه الفرصة ، فأغاروا على عاصمته ، وأخذوا كل ما أمكنهم أخذه، فاضطر من كان قد تخلف في الحيرة من جيش النعمان الى الفرار الى البادية [٤] . ويخيل الي ان ذلك كان على أثر اصابة الملك بجرحه المميت .

وتولى الحكم رجل من (آل لخم) اسمه (أبو يعفر بن علقمة بن مالك بن عدي بن الذميل بن ثور بن أسس بن ربي بن نمارة بن لخم) ، بعد النعمان[٥] . فهو من (ذميل) و (ذميل) بطن من بطون لخم[٦] . ولم يتحدث أصحاب الأخبار عن علاقة هذا الرجل بالأسرة المالكة ولا عن كيفية تعيينه والأسباب التي أدت الى اختياره لهذا المنصب ، وكل ما ذكرته انه حكم ثلاث سنين ، ثم انتقل الحكم من بعده الى المنذر بن امرىء القيس البدء ، وهو ذو القرنين ، وذلك في رواية للطبري عن ابن الكلبي[٧] .

أما حمزة الأصبهاني ، فجعل بعد أبي يعفر ابناً للنعمان الأعور سماه امرأ القيس ابن النعمان بن امرىء القيس . قال : انه هو الذي غزا بكراً يوم (أوارة) في دارها ، وكانوا أنصار بني آكل المرار وهزمهم . وكانت بكر قبله تقيم أود ملوك الحيرة وتعضدهم . ونسب اليه بناء حصن (الصنبر) زاعماً ان الذي بناه

---

١ Josua Stylites, 51, Rothstein, S. 74.
٢ Josua Stylites, 57, Rothstein, S. 74.
٣ Rothstein, S. 74.
٤ Rothstein, S. 74.
٥ الطبري (٢/٩٤) ، (٢/١٠٤) ، (دار المعارف) .
٦ حمزة (ص ٦٩) .
٧ الطبري (٢/٩٤) ، (٢/١٠٤) ، (دار المعارف) .

له هو البنّاء الرومي الشهير سنمار ، وانه هو الذي قتل ذلك البناء . وجعل مدة حكمه سبع سنين[1] ، وذلك في زمن قباد[2] .

وقال (حمزة) : وفيه قال المتلمس :

جزاني أخو لخم على ذات بيننا جزاء(سنمار)وما كان ذا ذنب[3]

وذكر حمزة ان حصن صنبر المذكور ، وهو من عمل (سنمار) ، هو الذي قال فيه أحد الشعراء :

ليت شعري متى تخبّ بـه النا قة نحو العُذَيب والصنبر[4]

ويعرف المنذر هذا عند أكثر الأخباريين بالمنذر بن امرىء القيس بن النعمان وبـ (ذي القرنين) وبـ (المنذر بن ماء السماء) وبـ (ابن ماء السماء) . وماء السماء هي أمه على زعمهم ، وهي : مارية ابنة عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط في رواية ابن الكلبي التي دوّنها الطبري[5] . وذكر حمزة نسب ماء السماء كما ذكره الطبري ، غير أنه جعل الاسم ماوية بدلاً من مارية[6] ، ولا أراه إلا خطأً من النساخ في كتابة الاسم أدى الى هاتين الصورتين .

وأما سبب تلقيبه بذي القرنين ، فيقال إنه لقب بذلك لضفيرتين كانتا له من شعره ، فعرف بهما لذلك[7] .

وتلقيب ابن الكلبي امرأ القيس والد المنذر بالبدء هو خطأ ولا شك ، إذ لا يعقل أن يكون هذا المنذر ابناً لامرىء القيس البدء المتوفي سنة ٣٢٨ للميلاد .

ويلاحظ أن الأخباريين لقبوا امرأ القيس الآخر الذي حكم بعد أوس بن قلام

---

١ حمزة (ص ٧٠) ، (وهو صاحب سنمار الذي قتله حين بنى له الحصن الذي يسمى الصنين) ، مفاتيح العلوم (ص ٦٩) .
٢ حمزة (ص ٧٠) .
٣ حمزة (ص ٧٠) .
٤ حمزة (ص ٧٠) .
٥ الطبري (٢/٩٤) ، الروض الأنف (١/٢٢) .
٦ حمزة (ص ٧٠) (وكانت تسمى مارية) ، مفاتيح العلوم (ص ٦٩) .
٧ الطبري (٢/٩٤) .

بالبدء كذلك ، مع أنه مسبوق على حدّ قولهم بملك آخر اسمه هـذا الاسم . فلا يجوز تلقيب صاحبنا هذا إذن بالبدء . ولا يجوز بالطبع تلقيب امرىء القيس الآخر الذي زعم انه والد المنذر بالبدء أيضاً ، لأنه ثالث المراقسة في ترتيب اسماء الملوك بحسب رواية الأخباريين .

ولا نعلم شيئاً يذكر من أمر امرىء القيس والد المنذر ، فهم لم يشيروا اشارة صريحة الى أنه كان ملكاً . فهل هو امرؤ القيس بن النعمان الذي جعله حمزة ملكاً بعد أبـي يعفر ؟ لا يستبعد أن يكون هو إن صحت رواية حمزة .

ويلاحـــظ أن المؤرخين البيزنطيين واللاتين قـــد أطلقوا على المنذر (Alamoundaros O Sacicus) و (Alamundarus O Sacices)، و (Alamundarus O Secicis) وغير ذلك[1] ، ممـــا يفهم منـــه أنهم قصدوا بـ (Sacicus) و (Secicis)، (Sicices) وأمثال ذلك كلمة (شقيقة) (الشقيقة) العربية ، وأنهم ارادوا المنذر بن الشقيقة ، وهو هذا المنذر الذي نتحدث عنه في رأي المستشرقين ، لذلك ذهب بعض المستشرقين الى أن أم المنذر هي (الشقيقة) (شقيقة) ، وذهب آخرون الى أنها لم تكن امه ، وإنما قيل له ذلك لأنه كان من آل الشقيقة الشهيرة ، فعرف عند أولئك المؤرخين بابن الشقيقة أو بالمنذر ابن الشقيقة كما دعي الملوك بعد المنذر ببني ماء السماء[2] .

أما الأخباريون فقد جعلوا شقيقة أماً للنعمان الأعور كما رأيت ، ولم يشيروا الى ملك اسمه المنذر واسم امه شقيقة ، فأيهما المصيب ؟ الأخباريون أم المؤرخون اليونان واللاتين والسريان ؟ وهل نحن أمام ملك آخر اسمه المنذر بن الشقيقـة حكم في أوائل القرن السادس للميلاد ؟

وذكر الأخباريون ان المنذر كان قد تزوج هنداً بنت آكل المرار[3] ، فولدت له أولاداً منهم عمرو بن هند الذي ولى الملك بعده ، وقابوس ، ثم تزوج أختها أمامة فولدت له ولداً اسمه عمرو وهو المقتول بوادي القضيب[4] .

---

١ Rothstein, S. 76.

٢ Rothstein, S. 76.

٣ الروض الأنف (١/ ٢٢) .

٤ البلدان (٧/ ١١٨) ، (وهو ابن مامة) ، الروض الأنف (١/ ٢٢) .

ويرى بعض الباحثين ان حكم (المنذر) كان في حوالي السنة (٥٠٨ م) ، أو قبل ذلك بقليل في حوالي السنة (٥٠٦ م) . وأما انتهاء ملكه فكان في حوالي السنة (٥٥٤ م)[١] .

وكان قباذ قد عقد صلحاً في عام (٥٠٦) للميلاد مع الروم بعد الحرب التي استمرت من سنة (٥٠٢) حتى سنة (٥٠٦ م) ، غير ان هذا الصلح لم يدم طويلاً . ففي سنة (٥١٨) للميلاد تجدد الخلاف بين الفرس والروم ، وذلك على أثر مطالبة قباذ القيصر (جستينوس) (يوسطينوس) (Justinus) الأول بدفع الاتاوة التي اتفق في صلح (٥٠٦ م) على دفعها للفرس . وبناء على تباطؤ القيصر في دفعها حرّض قباذ المنذر على التحرش بحدود الروم ، وقام المنذر بغزوها في سنة (٥١٩ م)[٢] .

لقد تمكن المنذر في بعض حروبه مع الروم من أسر قائدين هما(ديموستّراتوس) (تيموستّراتوس) (Timostratus) (Demostratus) ويوحنا (Johannes)[٣]. وأراد القيصر أن يفك أسر هذين القائدين ويعقد صلحاً وحلفاً بين الروم والمنذر، فأرسل – على ما يظهر – رسولاً خاصاً الى المنذر هو (ابراهيم) (Abraham) والد الكاتب المؤرخ (نونوسوس) (Nonnosus) ، ومعه (شمعون الأرشامي) (Symeon of Beth Arsham) و (سرجيوس) (Sergius) أسقف الرصافة (بيت رصافة) . وقد وصل الوفد الى المنذر في السنة السادسة (السنة السابعة) من حكم (جستينوس) (يوسطينوس) الموافقة لسنة (٨٣٥) من التقويم السلوقي ولسنة (٥٢٤) للميلاد[٤] . وكان المنذر آنئذ في البادية في موضع اسمه (رمله) (الرملة) . وقد نجحت مهمته فيما يخص فك أسر القائدين .

و (سرجيوس) هو مؤلف القسم السرياني الخاص بشهداء العربية الجنوبية ، أي شهداء نجران[٥] . وقد دوّنت في عهد أسقفيته على الرصافة أسماء الشهداء على

---

١ J. B. Bury, II, P. 91.

٢ Rothstein, S. 79.

٣ Rothstein, S. 80, Land, Anecd., III, 235.

٤ Kitab Al-Unvan, Histoire Universelle Ecrite, par Acapius (Mahbub), de Menbidj, Seconde Partie, II, P. 425.

٥ Musil : Palmyrena, P. 267, Guidi : La Lettera di Simeone Vescova di Beth Arsham, P. 507.

الجدار الشمالي للكنيسة الكبرى ، كنيسة القديس سرجيوس[١] .

وصادف وصول وفد الروم الى المنذر وصول وفد آخر من اليمن أرسله ذو نواس الملك الشهير المعروف بتعذيبه نصارى نجران الى المنذر ليفاوضه على تعذيب من في مملكته من النصارى . وقد دوّن (شمعون الأرشامي) قصة التعذيب هذه مدعياً انه نقلها من الكتاب الذي قريء على الملك ومن أقوال من عرفه من الحاضرين، دوّنها في صورة كتاب ليقرأ في الكنائس ويطلع عليه المؤمنون . وقد نشر هذا الكتاب ، وطبعت ترجمته كذلك[١] .

وذكر ان القيصر (جستينوس) (يوسطينوس) (Justinus) كتب الى المنذر ابن النعمان طالباً منه اخراج من في أرضه من القائلين بالطبيعة الواحدة[٢] . وقد جادلهم في مجلس عقده بحضرة المنذر (شيلا) الجاثليق . فلما سمع هؤلاء بذلك ، هرب بعضهم الى نجران واقاموا هناك . وكان من مؤيديهم الحجاج بن قيس الحيري صاحب المنذر .

يظهر ان امل القيصر في عقد هدنة أو معاهدة مع المنذر لم يتحقق ، أو أنه تحقق ولكن الى حين . فلما ساءت العلاقات بين الروم والفرس ، ووقعت الحرب سنة (٥٢٨ م) بين الجانبين ، هاجم المنذر الروم مؤيداً الفرس ، وكان له أثر خطير في هذه الحرب . وقد توغل في بلاد الشأم ، وغنم منها غنائم كثيرة ، ولكنه لم يبق فيها أمداً طويلاً ، فعاد مع جنوده سريعاً الى قاعدته كعادة سائر الملوك بعد أن أشبع نفسه من غنائم الحرب[٣] .

ونجد المنذر يجدد هجومه على بلاد الشأم ، بعد مدة قصيرة من هجومه الأول. لقد هاجمها سنة (٥٢٩ م) وتوغل فيها حتى بلغ حدود أنطاكية ، وأحرق

---

١ Musil, Palmyrena, P. 265.

٢ Land : Anecd., 3, 235, Assemani : Bibl. Orient., I, 364.

٣ (يوسطينيانس) ، (وفي هذه السنة وجه يوسطينيانس وفدا الى المنذر ملك العرب ليصالحه ، لأنه كان غزا الروم وخرب وسبا . وكان سبب الفتنة بين العرب والروم اضطهاد الملك يوسطينيانس الآباء ، القائلين بالطبيعة الواحدة ، لأن النصارى العرب يومئذ انما كانوا يعتقدون اعتقاد اليعقوبية لا غير) . ابن العبري . تاريخ مختصر الدول (ص ١٤٨) ، Histoire Nestorienne, (Chronique de Seert), Seconde Partie, P. 143.

٤ Nöldeke :Sasa., II, Anm. 3, Malalas, II, 166, Rothstein, S. 81.

عدداً من المواضع ومنها موضع (خلقيدون) (خلقيدونيـة) (Chalcedon) . وقـد زعم بعض المؤرخين السريان أنه ضحى بأربع مئة راهبة للعزّى [1] ، وهي دعوى تحتاج بالطبع الى درس .

وقد عرض ابن العبري لتوغل المنذر في أرض الروم ، واستيلائه على أرضين واسعة شملت كل منطقة الحـدود ، ومنها أرض الخابور ونصيبين ، حتى بلغ (حمص) (Emessa) و (أباميا) (فامية) (Apamea) وأنطاكية (Antioch) زاعماً أنه قتل عدداً كبيراً من السكـان ، وخرب أكثر تلك الأرضين ، ذاكراً أنه اختار من بين الأسرى أربعمئة راهبة أخذهن لنفسه ، غير انه لم يذكر أنـه قدمهن قرباناً الى العزى [2] .

وقد اضطر هذا الغزو القيصر (يوسطنيانوس) (Justinianus) الذي خلف (يوسطينوس) الى نصب الحارث الجفني (فيلارخا) (فيلاركا) (Phylarch) ، أي عاملاً على عرب بلاد الشأم لحماية الحدود من اعتداءات المنذر وعرب العراق [3] .

وقد عوّض قباذ الخسارة التي لحقت به عند موضع (دارا) بربح ناله بواسطة المنذر.لقد قام المنذر وأحد القوّاد الفرس بمهاجمة منطقة الفرات (Euphratesia) وهي منطقة (قوماجين) (Commagene) ، فلما تصدى لها القائد (بليزاريوس) (Belisarius) تراجعا ، ثم التقيا به عند الرقة (Callinikos) فانتصرا عليه. وقد كان ذلك في السنة الرابعة من حكم (يوسطنيانوس) (Justinianus) أي في سنـة (٥٣١ م) [4] .

وقد اشترك الحارث بن جبلة في هذه الحرب مع الروم ، وأنيطت بـه حماية الجانب الأيمن في القتال الذي اضطرم مع الفرس . أما المنذر وجيشه ، فكان يكوّن الجناح الأيسر لجيش الفرس ، أي الجناح المقابل لعرب الروم [5] .

---

١ Malalas II, 166, Nöldeke : Ghass., II, Theophanes, 273.
Land : Anecd: Syr., III, P. 247, Rothstein, S. 81, Pauly-Wissowa, Erster Band, 1893, S. 1281.

٢ Bar Hebraeus, 78, Nöldeke : Aufstäze, 112.

٣ Rothstein, S. 81.

٤ Procopius, I, 17, 18, Rothstein, S. 81, Pauly-Wissowa, Erster Halbband, 1893, 1281.

٥ Musil : Palmyrena, P. 274, Procopius : De Bello, I, 17.

وعلى الرغم من الصلح الذي عقد في عام (٥٣٢ م) بين الفرس والروم ، لم ينقطع النزاع بين الحارث الجفني والمنذر بسبب اختلافهما على الاتاوة التي تجبى من أعراب الـ (Strata) ، أي المنطقة الواقعة في جنوب تدمر ، وهي منطقة رعي لا شجر فيها ولا زراعة . وقد زعم (بروكوبيوس) أن كسرى، حرض المنذر على التحرش بالحارث ، للاخلال بشروط الصلح ، وايجاد سبب لتجديد الحرب ، وأن القيصر يوسطنيانوس (Justinianus) كلف رجلين من ثقاته وهما (ستراتيجيوس) (Strategius) ، وهو من أصحاب الخبرة والحنكة في الشؤون الادارية ، و (سوموس) (Summus) وهو ممن قادوا الجيوش في فلسطين ومن السفراء الذين سبق أن كلفوا القيام بمهمات سياسية فأرسل رسولاً الى نجاشي الحبشة والى ملك حمير (Homeritae) دراسةَ النزاع وايجاد حلٍّ للمشكلة . فأشار (سوموس) على القيصر بعدم اجابة طلب المنذر وبالاحتفاظ بالأرض ، أما (ستراتيجيوس) ،فقد رأى ان الموضوع تافه وأن الأرض المتنازع عليها لا تستحق كل هذا الاهتمام . وقد مضى وقت طويل دون أن يجزم القيصر برأي[١] .

وفي هذه الأثناء ادعى كسرى ان القيصر قد أخل بشروط الصلح باتصاله بالمنذر (Alamoundarus) وبمحاولته التأثير عليه وجرّه اليه . وبارساله (سوموس) الى المنذر مع كتاب خاص من القيصر يمنيه بالوعود وبمبالغ كبيرة من المال اذا انضم الى الروم ، وبأمور أخرى اتخذها حجة لاعلان اخلال الروم بالصلح[٢] . وصار يتهيأ لحرب جديدة حتى تهيأت له الأسباب ، وذلك في عام (٥٤٠ م)[٣] .

وبعد مراسلات بين الفرس والروم دوّن بعضها (بروكوبيوس) ، وهي مراسلات جميلة ترينا فن الدبلوماسية ومنطق الملوك في ذلك العهد ، هاجم الفرس الروم . وغزا الحارث أرض الجزيرة للوقوف على قوة الفرس ومقدرتهم[٤]، وهاجم المنذر بلاد الشأم فبلغ فينيقية ، وتوغل في مناطق واسعة من لبنان[٥] .

وقد أشار الطبري الى هذا النزاع الذي وقع بين المنذر والحارث بن جبلة ،

---

١ Procopius, II, I, Gibbon, II, P. 607, (The Modern Library).

٢ Procopius, II, 12-15.

٣ Procopius, II, V, Vol., I, P. 295, (Dewing).

٤ Procopius, II, XVI, 4-6, II, XIX, 15-20.

٥ Procopius, II, XII, XIX, 32-46.

في أثناء كلامه على الحبشة في اليمن وعلى دخول الفرس اليها، كما أشار الى الموادعة والهدنة التي عقدت بين كسرى أنو شروان والقيصر ، وقد سماه (يخطيانوس) ، أي (جستنيان) (جستنيانوس) (Justinianus) ، فقال : « وكان فيما ذكر بين كسرى أنو شروان وبين يخطيانوس ملك الروم موادعة وهدنة. فوقع بين رجل من العرب كان ملّكه يخطيانوس على عرب الشأم يقال له خالد بن جبلة وبين رجل من لخم كان ملّكه كسرى على ما بين عمان والبحرين واليمامة الى الطائف وسائر الحجاز ومن فيها من العرب يقال له المنذر بن النعمان نائرة . فأغار خالد ابن جبلة على حيز المنذر ، فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة وغنم أموالاً من أمواله فشكا ذلك المنذر الى كسرى وسأله الكتاب الى ملك الروم في انصافه من خالد ، فكتب كسرى الى يخطيانوس يذكر ما بينهما من العهد على الهدنة والصلح ويعلمه ما لقى المنذر عامله على العرب من خالد بن جبلة الذي ملكه على من في بلاده من العرب ، ويسأله أن يأمر خالداً أن يرد على المنذر ما غنم من حيزه وبلاده ويدفع اليه دية من قتل من عربها وينصف المنذر من خالد وان لا يستخف بما كتب به من ذلك فيكون انتقاص ما بينهما من العهد والهدنة بسببه . وواتر الكتب الى يخطيانوس في انصاف المنذر فلم يحفل بها . فاستعد كسرى فغزا بلاد يخطيانوس في بضعة وتسعين الف مقاتل فأخذ مدينة دارا ومدينة الرهاء ومدينة منبج ومدينة قنسرين ومدينة حلب ومدينة انطاكية وكانت أفضل مدينة بالشام ومدينة فامية ومدينة حمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدائن عنوة واحتوى على ما كان فيها من الأموال والعروض وسبى أهل مدينة انطاكية ونقلهم الى أرض السواد »[١] .

ويظهر من سياق هذه الرواية ان الطبري لم يكن على علم واضح بالمنذر بن النعمان ولا بخالد بن جبلة . وقد نقل روايته هذه من غير نقد ولا مناقشة . فالشخص الذي تخاصم المنذر معه هو الحارث بن جبلة ، لا خالد بن جبلة . وقد وهم المورد الذي نقل الطبري منه ، فظن انه خالد بن جبلة . وهو مورد يظهر كما يتبين من سياق الحديث انه اعتمد على كتاب من كتب التأريخ ، لعله من المؤلفات الفارسية أو السريانية، وقد نقل الدينوري منه أيضاً، فذكر خالد بن جبلة [٢].

---

١ الطبري (٢/١٢١ وما بعدها) ، (٢/١٤٩) ، (دار المعارف) .

٢ الأخبار الطوال (٧٠ وما بعدها) .

وفي رواية الطبري عن ملك المنذر مبالغة على ما يظهر ، فليس في الأخبار التي يرويها الأخباريون عن هذا الوقت رواية واحدة يفهم منها ان نفوذ الفرس قد شمل هذه الأرضين الواسعة الممتدة من الحجاز الى ساحل الخليج . وليس فيها خبر واحد يفهم منه ان ملك المنذر قد شمل الطائف وسائر الحجاز . ولو كان ملكه قد بلغ هذه البلاد لوعت ذلك ذاكرة أهل الأخبار شيئاً عنه،اذ انه لم يكن بعيد عهد عن الاسلام .

ولم تنقطع المناوشات بين الحارث والمنذر ، بالرغم من الهدنة التي اتفق الفرس والروم على عقدها لمدة خمس سنوات وذلك في سنة (٥٤٥ م)[١] . فبعد مدة قصيرة من التوقيع عليها ، عادت نيران الحرب فاستعرت بين الحارث والمنذر من غير أن يتدخل الفرس أو الروم في هذا النزاع . وقد تمكن المنذر من مباغتة أحد أبناء الحارث : وكان يكلىء خيله في البادية ، فأسره ، وقدمه على ما يقوله بروكوبيوس ضحية الى العزى (Aphrodite)[٢] . وبعد أن جمع كل واحد منهما كل ما يملك من قوة ومن حديد ، اشتبكا في حرب جديدة انتصر فيها الحارث انتصاراً كبيراً،وقتل عدداً كبيراً من جنود خصمه . فلما رأى ما حل به ، فرّ هو ومن بقي حياً من أتباعه ، تاركاً اثنين من أبنائه في جملة من وقع في الأسر[٣].

وقد تكون غارة قيس بن سلمة بن الحارث الكندي على الحيرة غارة انتقامية من المنذر لما أنزله بآل كندة من خسائر. ويظهر أن قيساً قد باغت المنذر وفاجأه بغارة خاطفة اضطرته الى الهزيمة والالتجاء الى الخورنق مع ابنيه عمرو وقابوس . وبعد مضي عام على هذه الهزيمة ، انتقم المنذر لنفسه بغارة أغارها على كندة كلفت الكنديين اثني عشر أميراً من بني حجر بن عمرو وقعوا في أسره في مكان يسمى ذات الشقوق ، ثم أمر بعد ذلك بضرب أعناقهم في الجفر ، وهو الموضع الذي أطلق عليه لهذه الحادثة جفر الأملاك ، وهو موضع (دير بني مرينا) الذي أشير اليه في الشعر المنسوب لامرىء القيس[٤] .

ويذكر أهل الأخبار أن الشاعر (امرأ القيس الكندي) كان في جملة من

---

١ Procopius, II, 28, 9-11.

٢ Procopius, II, 28, 12-14.

٣ Procopius, II, 28, 13-14.

٤ شعراء النصرانية (ص ٤) .

وقع أسيراً ، الا أنـــه افلت من الأسر ونجا بنفسه ، فقال شعراً يرثي به من قتل ، منه :

ملوك من بني عمرو بن حجر — يساقون العشية يقتلونـــا
فلو في يـــوم معركة أصيبوا — ولكن في ديار بني مرينـــا
ولم تغسل جـــاجمهم بغسل — ولكن في الدماء مُرمّلينا

فهو يتـــألم ويتأفف من سقوط قومه قتلى ، لا في حرب ولا في معركـــة ، ولكن في (ديار بني مرينا) ، فأية مصيبة أعظم من هذه المصيبة ؟ ملوك أحرار شجعان يقتلون في مثل هذه الديار .

وفي رواية أن الذين قتلوا من بني حجر آكل المرار في جفر الأملاك هم تسعة واستشهدت على ذلك بشعر للحارث بن حلزة جاء فيه :

وفـديناهم بتسعة أمـــلا — ك كرام أسلابهم أغلاء[1]

وأشير في قصيدة هذا الشاعر الى الجون . وهو جون آل بني الأوس ، وهو في شرح الزواة ملك من ملوك كندة ، وهو ابن قيس بن معديكرب . قالوا : وكان الجون جاء ليمنع بني آكل المرار ، ومعه كتيبة خشناء ، فحاربته بكر ، فهزموه ، وأخذوا بني الجون ، فجاؤوا بهم الى المنذر ، فقتلهم[2] .

وفي بعض الروايات أن المنـــذر توسط لعقد الصلح بين بكر وتغلب واشترط ان أي رجل وجد قتيلاً في دار قوم فهم ضامنون لدمه ، وإن وجد بين محلتين قيس ما بينهما ، فينظر أقربهما اليه ، فتضمن ذلك القتيل . وأخـــذ من الفريقين رهناً بأحداثهم ، فمتى التوى أحد منهم بحق صاحبه أقاد من الرهن[3] .

وفي عهد هذا الملك وقـــع (يوم طخفة) بحسب رواية بعض الأخباريين .

---

١ الأغاني (١١/٤٨) (طبعة دار الكتب المصرية) ، شرح المعلقات السبع للزوزني (دار صادر) (ص ١٦٦) .
٢ الأغاني (١١/٤٨) (طبعة دار الكتب) ، الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، (ص ١٦٥) (صادر) .
٣ الأغاني (١١/٤٤) (دار الكتب المصرية) .

ويذكر هؤلاء أنه وقع بسبب (الردافة) وقيل : (الرفادة) . فقد كانت ردافة ملوك الحيرة في (بني يربوع) ، وكانت لعتاب بن هرمي بن رياح بن يربوع في عهد (المنذر بن ماء السماء) . فلما توفي ، صارت الى ابنه (قيس ابن عتاب) (عوف بن عتاب الرياحي) بحكم الوارثة ، وكان حديث السن ، فأشار (حاجب بن زرارة) على الملك أن يجعلها لرجل كهل له سن وعقل ، وأشار عليه باختيار (الحارث بن بيبة المجاشعي) (الحارث بن مرثد بن سفيان ابن مجاشع)[1] ولما فاتح الملك (بني يربوع) برأيه هذا : غضبوا وأبوا ، وأصر الملك على رأيه ، والا حاربهم ، فأبوا واستعدوا للقتال ، وساروا الى موضع (طخفة) وتحصنوا به ، فأرسل المنذر في أثرهم جيشاً كبيراً من افناء الناس ، عليه حسان أخوه وقابوس ابنه وبعث معهم الصنائع والوضائع ، اشتبك مع (بني يربوع) في هذا المكان،وصبر بنو يربوع وثبتوا ، ثم أغاروا على جيش المنذر، فانهزم ووقع القتل فيه ، وانهزم قابوس ومن معه،وضرب طارق أبو عميرة (طارق ابن عميرة) فرس قابوس فعقره وأسره،وأراد أن يجز ناصيته ، فقال : إن الملوك لا تجزّ نواصيها ، وأسر حساناً بشر بن عمرو بن جوين[2] ، فعاد المنهزمون الى المنذر،وكان المنذر قد احتبس (شهاب بن عبد (قيس) بن كياس اليربوعي) عنده. فلما رأى سوء العاقبة ، استدعاه ، فقال له : « يا شهاب ، أدرك ابني وأخي، فان أدركتها حيين ، فلبني يربوع حكمهم ، وأردّ عليهم ردافتهم ، وأترك لهم من قتلوا وما غنموا ، وأعطيهم ألفي بعير » ، فذهب الى قومه وأعادهما ، ووفى الملك بما قال . ونجد للأحوص وللفرزدق ولأم موسى الكلابية شعراً في هذا اليوم[3] .

وفي عهد المنذر ، كان يوم (أوارة الأول) على قول أهل الأخبار . وسببه

---

١ نهاية الأرب (١٥/٤١٣) . (٢٢ نهاية الأرب (١٥/٤١٣) ، الاشتقاق (١٤٧) ، (ومنه طخفة لبني يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء) ، اللسان (٩/٢١٣) ، (دار صادر) (طخف) .

٢ نهاية الأرب (١٥/٤١٣) ، (بشر بن عمرو والرياحي) ، العمدة لابن رشيق (٢/٢٠١) .

٣ البلدان (٦/٣٢) ، النقائض (١/٦٦ ، ٢٨٥) ، (٢/٩٢٤) ، الاغاني (٣/١٧٦) ، ابن الأثير (١/٣٩٦) ، العقد الفريد (٣/٣٥٩) ، أيام العرب (٩٤) .

أن تغلب لما أخرجت (سلمة بن الحارث) عنها ، التجأ الى (بكر بن وائل) ولما بلغ بكراً أذعنت له تغلب ودانت لحكمه ، وقالت له : « لا عملكنا غيرك» فأرسل اليهم (المنذر) يدعوهم الى طاعته ، فلم يجيبوه ، فحلف المنذر ليسيرن اليهم فان ظفر بهم ذبحهم على قلة جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض ، وسار اليهم بمجموعه ليبر بقسمه ، والتقى بهم بأوارة ، فهزمت بكر ، وأسر (يزيد ابن شرحبيل الكندي) ، فأمر المنذر بقتله فقتل ، وقتل خلق كثير من بكر ، وأمر المنذر بذبح الأسرى الرجال على قلة جبل أوارة ، وباحراق النساء ، والى ذلك أشار الأعشى بقوله :

سبايا بني شيبان يوم أوارة على النار إذ تجلى به فتياتها [١]

وختم عام (٥٥٤ م) هذا النزاع العنيف الذي أتعب الحارث والمنذر فاستراح الجانبان ، ختم بسقوط المنذر بن النعمان (مونذر بر نعمن) (ملك العرب) صريعاً بيد خصمه الحارث بن جبلة بعيداً عن عاصمة ملكه ، ففي منطقة قنسرين على روايات المؤرخين السريان ، ففي السنة السابعة والعشرين من حكم القيصر (يوسطنيانوس) (جستنيان) (Justinianus) هاجم المنذر منطقة (Rhomaye) التابعة لحكم الروم ، فنازله الحارث بن جبلة ، وتغلب عليه ، وقتله عند عين (عودايا) (Wdaja) في منطقة قنسرين . وقد سقط في هذه المعركة أحد أبناء الحارث ، فدفنه أبوه في قلعة هذا الموضع [٢] .

و (عودايا) ، هو (العذية) على رأي موسل ، وهو من مواضع منطقة (بالميرينا) (Palmyrena) ، أي منطقة تدمر ، ومعظم هذه المنطقة هي من أعمال قنسرين [٣] .

---

١ الأغاني (١٢٢/١) ، الكامل ، ، لابن الأثير (٢٥٩/١) ، العقد الفريد (١٥٤/٣) ، العمدة لابن رشيق (٢١٥/٢ وما بعدها) ، المختصر في أخبار البشر (١٠٠/١) ، مراصد ، (١٢٧/١) ، اللسان (٣٥/٤) ، البكري ، معجم (٢٠٧/١) ، البلدان (٢٧٣/١) ، أيام العرب (٩٩) .

٢ أمراء غسان (ص ١٨) ،
Bar Hebraeus, 81, Vol., I, P. 76,
(The English Translation), London, 1932, Michael the Syrian,
Chronicle, Vol., 4, P. 323, Musil, Palmyrena, P. 144, Rothstein, S. 83.

٣ Musil, Palmyrena, P. 144.

وقد فهم (أوليري) من روايــة للمؤرخ (ثيوفانس) ان المنذر كان حياً حتى سنة (٥٦٢ م) ، وهي السنة التي عقد فيها الصلح بين الروم والفرس ، وفيها توفي[١] .

وقد ذكر (هارتمن) (Hartmann) ان المنذر هــذا حارب في صفوف الرومان في أيام القيصر (طيباريوس الثاني) (Tiberius II) ، غير انه خانهم وغدر بهم في احدى المعــارك التي قادها (موريقيوس) (Mauricius) ، فلما صار (موريقيوس) قيصراً قبض عليه ، ونفى معه زوجته وبعض أبنائه الى جزيرة صقلية[٢] . ولم يقل هذا القول أحد ، وانما قصد المورد الذي استند اليـه هارتمن وهو (ايوا كريوس) (Evagrius) منذراً آخر غير المنذر الذي نتحدث عنه[٣] .

وسبق لأوليري ان ظن هـذا الظن ، فذكــر ان المنذر حدس ان في الفرس ضعفاً ، وذلك بسبب انقطاع الحروب مدة بين الفرس والروم ، فانضم الى الروم وصار حليفاً لهم ، وحارب معهم . فلما تبين لديه الأمر، عاد الى حلفائه القدامى الفرس . فلما وقع في احدى المعارك أسيراً في أيدي الروم،نفاه القيصر موريقيوس سنة (٥٨٠ م) ونفى معه زوجته وبعض أولاده الى صقلية[٤] . ومصدر وهمهما هو اعتمادهما عـلى رواية للمؤرخـين (ايواكريوس) (Evagrius) و (نيقيفورس كالستوس) (Nicephorus Callistus) من غير أن يمحصاها . فالمنذر المقصود في هذه الرواية ليس هذا المنذر ، وانما هو المنذر بن الحارث بن جبلة الذي نفي بعد أن اتهمه الروم باتصاله من طرف خفي بالفرس ، وانه كان السبب في اخفاق الحملـة التي قادها (موريقيوس) يوم كان قائــداً ، فلما صار قيصراً ، انتقم منه بالنفي .

أما الذي عليه أكثر الأخباريين فهو : ان قتل المنــذر كان في عين أباغ في

---

١ O'Leary, P. 160, Theophanes, P. 203.

٢ Paulys-Wissowa, Erster Halbband, S. 1281.

٣ Evagrius Scholasticus, V, 20, VI, 2, Paulys-Wissowa, Erster Halbband, S. 1281.

٤ O'Leary, P. 160, Evagrius, Hist. Eccl., 5, 60, 6, 2; Nicephorus Callistus, 18, 10.

المعركة التي عرفت بـ (يوم عين أباغ)[1] . وعين أبـاغ بحسب وصف بعض الأخباريين واد من أودية العراق وراء الأنبار على الفرات بين الكوفـة والرقة ، لا يبعد كثيراً عن الحيرة[2] . وسبب وقوع هذه المعركة على ما يقولونه ، هو أن المنذر بن ماء السماء سار من الحيرة في معد كلها حتى نزل بعين أباغ ، وأرسل الى الحارث الأعرج بن جبلة : إما أن تعطيني الفديـة فأنصرف عنك بجنودي ، وإما ان تأذن بحرب . فأرسل اليه الحارث : أنظرنا ننظر في أمرنا. فجمع عساكره وسار نحو المنذر، فلما التقى به في عين أباغ،اقتتلا ، فقتل المنذر ، وقتل فيها ابنان للحارث . فسار الحارث بولديه القتيلين الى الحيرة ، فأنهبها وأحرقها ودفن ابنيه بها ثم عاد[3] .

ويذكر أهل الأخبار أن (عين أباغ) كانت منازل (إياد) ، وأن (أباغ) رجل من العمالقة نزل ذلك المكان فنسب اليه . وقد اختلفت الأقوال في(عين أباغ) فنهم من جعلها موضعاً بين الكوفة والرقة ، ومنهم من جعلها عين ماء ، ومنهم من ينكر أنها عين مـاء ، ويرى انها وادٍ وراء الأنبار على طريق الفرات الى الشأم . ومنهم من يجعلها في (ذات الخيار)[4] .

ويظهر من تعليقات ابن الأثير على هذه المعركـة ان من كان يرى أن اسم الملك الغساني الذي انتصر في هذا اليوم هو أبو شمر عمرو بن جبلـة بن الحارث ابن حجر بن النعمان بن الحارث بن الأيهم بن الحارث بن ماريـة الغساني ، أو هو رجل من الأزد تغلب على غيرهما . وقد رجح هو رواية من قال إنه الحارث

---

١ حمزة (ص ٧٠) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٢٢٢) ، العقد الفريد (٣/٣٧٤) ، ديوان الحماسة (٢/٣٤٦) ، اللسان (١٠/٢٩٨) ، أيام العرب (٥١) .

٢ البلدان (١/٧٣) ، (٦/٢٥١) ، (١/٧٣) ، (طهران) ، البكري (١/٦٤)، ابن دريد ، الاشتقاق (٢٠٩) ، الأغاني (٢٧/١٩٨) ، الحموي ، المشترك (٣١٩) ، اللسان (٨/٤١٧) ،
Noldeke, Ghass., 18, Rothstein, S. 2, 38.

٣ ابن الأثير ، الكامل (١/٢٢٢ وما بعدها) ، (١/٣٢٠ وما بعدها) (المنيرية) . أبو الفداء ، المختصر (١/٩٧) ، ديوان النابغة (٧٤-) ، البلدان (١/٧٣) ، ابن خلدون (الجزء الثاني) ، القسم الثالث (ص ٥٤٢) ، (بيروت) ، (حتى نزل بعين أباغ في ذات الخيار) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٣٢٠ وما بعدها) .

٤ أبو الفداء ، المختصر (١/٩٧) ، ديوان النابغة (٧٤) ، البلدان (١/٧٣) ، ابن خلدون (الجزء الثاني) ، القسم الثالث (ص ٥٤٢) ، (بيروت) ، (حتى نزل بعين أباغ في ذات الخيار) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٣٢٠ وما بعدها) .

الأعرج بن جبلة ، وهي رواية أكثرية الأخباريين[1] . ويؤيد هذه الرواية روايات المؤرخين السريان الذين سموا اسم ملك عرب الشأم ، فدعوه (حرث برجابالا) أي الحارث بن جبلة (حارث بن جبل) . ويلاحظ أن ابن العبري استعمل جملة (ملك العرب) للمنذر[2] . كما استعملها غيره من المؤرخين .

ويرى (ابن الأثير) : أن (الحارث) لما بلغ (عين أباغ) ارسل الى (المنذر) يقول : إنا شيخان هنا ، فلا تهلك جنودي وجنودك ، ولكن ليخرج رجل من ولدك ، وليخرج رجل من ولدي ، فمن قتل خرج عوضه . فإذا فني أولادك وأولادي خرجت أنا اليك ، ومن قتل صاحبه ذهب بالملك . فتعاهدا على ذلك . فعهد المنذر الى رجل من شجعانه ، فأمره ان يخرج ، ويظهر أنه ابن المنذر . فلما خرج ، اخرج اليه الحارث ابنه (ابا بكر) . فلما رآه ، رجع الى أبيه ، وقال : إن هذا ليس بابن المنذر ، انما هو عبده او بعض شجعانه . فقال له الحارث: يا بني ، أجزعت من الموت ؟ فعاد اليه وقاتله ، فقتله الفارس، فألقى رأسه بين يدي المنذر . وعاد فأمر الحارث ابنه الآخر بقتاله والطلب بثأر أخيه ، فخرج اليه ، فشد عليه الفارس وقتله . فلما رأى ذلك (شمر بن عمرو الحنفي) ، وكانت أمه غسانية ، وهو مع المنذر ، غضب ، وقال للمنذر . أيها الملك ، إن الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام ، وقد غدرت بابن عمك. فغضب المنذر . وهرب (شمر) الى الحارث فأخبره . فلما كان الغد ، أرسل الحارث اصحابه ، وحرضهم ، وكانوا اربعين الفاً ، واصطفوا للقتال ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل المنذر وهزمت جيوشه . فأمر الحارث بابنيه القتيلين فحملا على بعير ، وسار الى الحيرة فانتهبها وأحرقها ، ودفن ابنيه بها ، وبنى الغريين عليهما في قول بعضهم[3] . والمعروف ان الذي بنى الغريين هو النعمان بن المنذر فوق قبري نديميه .

واشار حمزة ايضاً إلى اختلاف الرواة في القاتل والمقتول في يوم عين اباغ ،

---

١ ابن الأثير (١/٢٢٢) .

٢ مختصر تاريخ الدول (ص ١٤٨) ، (بيروت ١٨٩٠) ،
Bar Hebraeus, 81, Vol., I, P. 76.

٣ الكامل (١/٣٢٠ وما بعدها) ، العقد الفريد (٣/٣٧٤) .

فقال : وقتله الحارث الأعرج ، وهو الحارث الوهاب الجفني يوم عين اباغ . وهو اليوم الذي قيل فيه ما يوم حليمة بسرّ . وفي كتاب المعارف : أن الذي قتله الحارث الأعرج في يوم حليمة هو المنذر بن امرىء القيس . وكان يوم عين اباغ بعد يوم حليمة . والمقتول في يوم عين اباغ المنذر بن المنذر . وكان خرج يطلب بدم ابيه . فقتله الحارث الأعرج ايضاً . وقد سمعنا ان قاتله مرة بن كلثوم أخو عمرو بن كلثوم التغلبي [1] .

وقد ذكر (ابن قتيبة) في (كتاب المعارف) ان الحارث بن ابي شمر الغساني ، وهو الحارث الأعرج ، هو الذي قتل المنذر بن امرىء القيس ، قتله بـ (الخيار [2]) . ويظهر من خبره هذا ان قتل المنذر انما كان بـ (الخيار) ، لا في (يوم حليمة) ، وأن (الخيار) او (الحيار) موضع اقرب ما يكون الى الحيرة منه الى بلاد الشام .

وهناك رواية أخرى عن مقتل المنذر بن ماء السماء نجدها مدوّنة في الأغاني ، لم تشر الى عين اباغ ولا الى يوم حليمة ، او ذات الخيار ، خلاصتها . ان شمراً ابن عمرو الحنفي احد بني سحيم هو الذي قتل المنذر بن ماء السماء ، قتله غيلة لما حارب الحارث بن جبلة الغساني ، فبعث الى المنذر بمئة غلام تحت لواء شمر هذا ، يسأله الامان على ان يخرج له عن ملكه ، ويكون له من قبله . فركن المنذر الى ذلك ، وأقام الغلمان معه ، فاغتاله شمر بن عمرو الحنفي ، فقتله غيلة . وتفرق معه من كان مع المنذر ، وانتهبوا عسكره [3] . وذكر (ابن دريد) ان قاتل المنذر الاكبر ، وهو جدّ النعمان بن المنذر ، يوم عين اباغ ، هو (شمر بن يزيد) ، وهو من (بني حنيفة) ، وكان في جند الملك الغساني [4] .

وتحدث (ابن خلدون) عن (يوم عين اباغ) ، فقال : « كان جبلة بن النعمان صاحب يوم عين اباغ ، يوم كانت الهزيمة له على المنذر بن ماء السماء . وقتل المنذر في ذلك اليوم » [5] . ولكننا نجده يقول في موضع آخر : « عمرو بن

---

١ حمزة (ص ٧٠) .

٢ المعارف (ص ٢٨٣) (طبعة محمد اسماعيل عبد الله الصاوي) .

٣ الأغاني (٤٦/١١) (دار الكتب المصرية) ، العقد الفريد (٦٦/٢) ، الاشتقاق (٢٠٩) ، البكري (٦٤/١) .

٤ الاشتقاق (٢٠٩/٢) .

٥ ابن خلدون ، الجزء الثاني ، القسم الثالث (ص ٥٨٦) (بيروت) .

عمرو بن عبد الله بن عبد العزّى ؛ قاتل المنذر بن ماء السماء في يوم عين اباغ »[1] . وذكر ان (عمراً) هذا هو ابن عم (علي بن ثمامة بن عمر بن عبد العزّي بن سحيم بن مرّة) وهو الذي توّجه كسرى[2] . وقد ذكر ان (جبلة بن النعمان) ، صاحب يوم عين اباغ ، كان منزله بصفين .

وفي رواية اخرى ان (حليمة) كانت قد اخرجت خلوقاً ، فخلقت به الفتيان . ولما خلقت احدهم ، واسمه (لبيد بن عمرو) ، دنا منها فقبلها ، فلطمته وبكت ، فأمسكها ابوها ، ثم ذهب من ذهب وفيهم (شمر بن عمرو الحنفي) وكانت امه من غسان ، الى (المنذر) متظاهرين انهم جاؤوا اليه ليخبروه ان الحارث يدين للمنذر ، وهو يريد ان يعطيه حاجته ، فتباشر اهل عسكر المنذر ، وغفلوا بعض غفلة ، فحمل الغلمان على المنذر وقتلوه ، فقيل : (ليس يوم حليمة بسر) ، فذهب مثلاً[3] .

وذكر (ابن قتيبة) ان « الحارث بن ابي شمر الغساني ، وهو الأعرج وجه الى المنذر بن ماء السماء مئة فارس ، فيهم الشاعر (لبيد بن ربيعة) ، وأمره عليهم ، فصاروا الى عسكر المنذر ، وأظهروا انهم أتوه داخلين في طاعته ، فلما تمكنوا منه قتلوه وركبوا خيلهم فقتل اكثرهم ونجا لبيد ، حتى اتى ملك غسان ، فأخبره الخبر ، فحمل الغسانيون على عسكر المنذر فهزموهم . وهو يوم حليمة . وكانت حليمة بنت ملك غسان . وكانت طيبت هؤلاء الفتيان حين توجهوا وألبستهم الأكفان والدروع وبرانس الأضريج »[4] .

وقد جعل بعض الاخباريين عين اباغ (ذات الخيار)[5] ، ويفيد قولهم هذا ان عين اباغ هو موضع يقع في منطقة تسمى ذات الخيار (الخيار) ، ويرى (نولدكه) ان موضع (الخياران) الوارد في معلقة (الحارث) هو ايضاً هذا

---

١ المصدر نفسه (ص ٦٢٦) .
٢ المصدر نفسه .
٣ الميداني ، مجمع الأمثال (٢/٢٩٥ وما بعدها) .
٤ الشعر والشعراء (ص ١٤٨) ، (طبعة ليدن) .
٥ ابن الأثير (١/٢٢٢) .

المكان [1] . وللتثبت من هذا القول ، لا بد من الوقوف على موضع ذات الخيار (الخيار) و (الخياران) . وقد ذكر ياقوت الحموي ان الخيار صقع من برية قنسرين ، كان الوليد بن عبد الملك اقطعه القعقاع بن خليد بينه وبين حلب يومان [2] . وهذا الوصف لموقع الخيار ينطبق على ما رواه المؤرخون السريان عن موضع مقتل المنذر كما يوافق رأي من جعل عين اباغ ذات الخيار .

وممن ذهب هذا المذهب ، (ابو الفداء) ، فقال في حديثه عن (يوم عين اباغ) . « ومن ايام العرب يوم عين اباغ ، وكان بين غسان ولخم ، وكان قائد غسان الحارث الذي طلب أدراع امرىء القيس ، وقيل : غيره . وكان قائد لخم المنذر بن ماء السماء . وقتل المنذر في هذا اليوم ، وانهزمت لخم ، وتبعهم غسان الى الحـيرة ، وأكثروا بينهم القتل . وعين اباغ في موضع يقال له . ذات الخيار » [3] .

وذكر ابن عبد ربه المتوفي سنة ٣٢٨ هـ ان القتيل في يوم عين اباغ هو المنذر ابن ماء السماء ، وهو الذي تولى ملك الحيرة بعد قابوس وقبل النعمان بن المنذر ، الذي قربه (عدي بن زيد العبادي) الى كسرى . واما القاتل ، فهو الحارث الغساني [4] . ومرد امثال هذا الاختلاف في اسماء الملوك في الروايات ، الى تشابه الاسماء اذ يصعب على الرواة ، وهم يعتمدون في رواياتهم على الحفظ ، ان يميزوا بعد مدة بين امثال هذه الاسماء ، فيحدث لهم مثل هذا الاضطراب .

ونجد هذا الرأي عند (النويري) كذلك ، اذ جعله ايضاً والد (النعمان) الملك الاخير من ملوك الحـيرة . والذي قتله كسرى كما سنرى فيما بعد [5] . والنويري هو عيال على (ابن عبد ربه) في كثير من الاخبار ، ولا سيما اخبار الايام .

---

١ وهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء .
المعلقة . البيت ٨٢ ، شرح الزوزني (ص ١٦٩) .
٢ البلدان (٣/٣٧٥) .
٣ المختصر في تأريخ البشر (١/٩٧) (بيروت) .
٤ العقد الفريد (٦/١١٠) ، (٥/٢٦٠) (لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٦ م) .
٥ نهاية الأرب (١/٤٣٠ وما بعدها) .

ويتبين من غربلة الأخبار الواردة عن (يوم أباغ) ، (يوم عين أباغ) ان من الأخباريين من يرى ان يوم عين أباغ ويوم حليمة ، هما يوم واحد،ولا فرق بينهما ، وقالوا انما عرف ذلك اليوم بـ (يوم حليمة) ، لبروز اسم (حليمة) فيه ، وهي بنت ملك غسان ، تخلّق المحاربين وتحثهم على القتال . وان من الأخباريين من جعل (يوم حليمة) يوماً آخر مغايراً ليوم عين أباغ، ثم اختلفوا فيه ، فنهم من جعله قبل يوم عين أباغ ، ومنهم من جعله بعده . وقد ذكروا انه كان يوماً عظيماً ، اشترك فيه عدد كبير من المقاتلين ، (وعظم الغبار حتى قيل : ان الشمس قد أحجبت وظهرت الكواكب المتباعدة من مطلع الشمس)[1]. وهذا مما يدل على اشتراك عدد كبير من المقاتلين فيه . وممن ذهب الى ان (يوم حليمة) هو يوم آخر (ابن الأثير) ، وقد جعله بعد (يوم عين أباغ) . وقال : انه وقع في موضع يعرف بـ (مرج حليمة) ، وسببه ان المنذر لما قتل أراد ابنه (الأسود) الأخذ بالثأر ، فسار في جيش لجب ، والتقى بجيش (الحارث) في (مرج حليمة) . ولما طالت الحرب ، أمر الحارث ابنته (هند) بأن تخلق فتيان غسان ، ونادى فتيان غسان : من قتل ملك الحيرة زوّجته ابنتي هند . فقال لبيد بن عمرو الغساني لأبيه : يا أبي أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتول ، ثم ركب فرسه ، وشد على الأسود ، فقتله ، وانهزمت لخم ثانية ، وقتلوا في كل وجه . وانصرفت غسان بأحسن ظفر في تفاصيل أخرى لا مجال لشرحها هنا[2] .

فيتبين من خبر (ابن الأثير) هذا ان الموضع الذي وقع فيه القتال اسمه (مرج حليمة) ، وان اسم ابنة الحارث هو (هند) لا حليمة ، وان المقتول فيه هو (الأسود) لا المنذر ، وان هذا اليوم قد وقع بعد (يوم عين أباغ) .

وفي رواية ان الغساسنة تمكنوا في المعركة التي سقط فيها المنذر من أسر أحد أبنائه وهو امرؤ القيس ، وبقي في أسرهم الى أن أغارت بكر بن وائل على بعض بوادي الشام ، فقتلوا ملكاً من ملوك غسان ، واستنقذوا امرأ القيس بن المنذر ، وأخذ عمرو بن هند بنتاً لذلك الملك يقال لها ميسون[3] . وقد ذهب (كوسان دي برسفال) الى أن هذه الغارة كانت بقيادة أحد أبناء المنذر القتيل ، وانها

---

١ البلدان (٢/٣٢٥ وما بعدها) ، أبو الفداء ، المختصر (١/٩٧) .
٢ الكامل (١/٣٢٠) وما بعدها .
٣ الأغاني (١١/٤٨) .

كانت غارة انتقامية وقعت بعد المعركة التي سقط فيها ابن ماء السماء[1] .
وقد أشار الحارث بن حلزة الى ذلك في شعره مفتخراً :

وفككنا غل امرىء القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء

وقد زعم الشرّاح أن امرأ القيس هذا كان معروفاً بماء السماء[2] أما الملك الغساني القتيل ، فلم يشيروا الى اسمه ، وأشك في الذي رواه الأخباريون من أنه كان ملكاً . وأرى احتمال كونه أحد أبناء الملوك . واستعمال جملة (رب غسان) ، هي من باب التفخيم للعمل الذي قامت به بكر .

وذكر بعض الرواة أن حجراً الكندي ، وهو في نظرهم حجر بن أم قطام ، غزا امرأ القيس هذا ، وكانت مع حجر جموع كثيرة من كندة ، غير أن بكراً التي كانت مع امرىء القيس قاتلته ، وقتلت جنوده[3] .

وذهب بعض الأخباريين الى أن مقتل المنذر بن ماء السماء هو في يوم حليمة ، قتله الحارث بن أبي شمر الغساني . وسبب تسمية ذلك اليوم بيوم حليمة أن حليمة ابنة الحارث كانت تخلّق قومها وتحرضهم على القتال في ذلك اليوم . وذهب آخرون الى أنه موضع[4] .

وفي رواية تنسب الى ابن الأعرابي أن بني تغلب حاربوا المنذر بن ماء السماء ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، فلحقوا بالشأم خوفاً منه . وبقوا هناك ، فمرّ بهم عمرو بن أبي حجر الغساني في رواية ، أو الحارث بن أبي شمر الغساني في رواية أخرى ، فلم يستقبلوه ، فانزعج من ذلك ، وتوعدهم ، وأن عمرو بن كلثوم نهاه عن ذلك[5] .

وقد روى بعض أهل الأخبار أبياتاً من الشعر ، زعموا أن ابنة المنذر قالتها في رثاء والدها ، ففي جملتها :

---

١ Caussin, Essai, II, 116.
٢ الأغاني (١١/٤٨ وما بعدها) (دار الكتب المصرية) .
٣ الأغاني (١١/٤٩) (دار الكتب المصرية) .
٤ البلدان (٣/٣٢٠) ، الكامل ، لابن الأثير (١/٣٢٦ وما بعدها) .
٥ الأغاني (١١/٥٧ وما بعدها) .

وقالوا : فارساً منكم قتلنا ، فقلنا : الرمح يكلفُ بالكريم
بعين أباغ قاسمنا المنايا فكان قسيمها خير القسيم[1]

وينسب الى المنذر بناء الغريين في بعض الروايات ، وكان السبب في ذلك كما يقول الأخباريون أنه كان له ندمان من بني أسد يقال لأحدهما خالد بن نضلة (مضلل) (خالد بن المضلل) والآخر عمرو بن مسعود (عمرو بن مسعود الأسدي) ، فثملا ، فراجعا الملك ليلة في بعض كلامه ، فأمر وهو سكران فحفر لهما حفيرتان فدفنا حيين . فلما أصبح استدعاهما ، فأخبر بالذي أمضاه فيهما، فغمّه ذلك ، وقصد حفرتيهما ، وأمر ببناء طربالين عليهما ، وهما صومعتان . فقال المنذر : ما أنا بملك إن خالف الناس أمري . لا يمر أحد من وفود العرب إلا بينهما ، وجعل لهما في السنة يوم بؤس ويوم نعيم ، يذبح في يوم بؤسه كلّ من يلقاه ويغرّي بدمه الطربالين ، ويحسن في نعيمه الى كل من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم . وقد ظل المنذر على عادته هذه الى أن حدث له حادث، أظهر فيه رجل ظهر يوم بؤسه وفاءً عظيماً ، فعفا عنه ، وترك تلك العادة وتنصر. وكان الرجل الذي برّ بوعده فحضر بعد عام ليأخذه سيف الجلاد نصرانياً، ولذلك تنصر المنذر . وذكروا أنه لم يكن يتورع من ذبح أعز الناس عليه اذا ظهر له يوم بؤسه . فلما ظهر الشاعر الشهير عبيد بن الأبرص الأسدي ، لم ينجه شعره من مصير ذلك اليوم[2] . وذكروا أن الرجل كاد يسلمه سوء طالعه الى يد الجلاد، هو حنظلة الطائي ، وأنه ترهب بعد هذا وابتنى ديراً له هو الدير المعروف بدير حنظلة . وأما الذي كفل ذلك الرجل حتى يعود بعد عام ، فرجل من أشراف القوم هو شريك بن عمرو . وذكروا أيضاً أن حنظلة هذا هو عم أياس بن قبيصة الطائي ملك الحيرة[3] .

---

١ اللسان (٤١٧/٨) (بيروت) .

٢ البلدان (٢٨٣/٦ وما بعدها) ، الأغاني (٢١٣/٥) (دار الكتب المصرية) ، البكري ، معجم (ص ٦٩٤) . (طبعة ليدن) ، ابن قتيبة . الشعر (ص١٤٤)، الأغاني (٨٦/١٩) ، القالي . الامالي (١٩٥/٣) ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، ابن هشام (٤٠١/١) ، شرح قصيدة ابن عبدون (١٣٢) ، شعراء النصرانية (ص ٦٠٠) ، الحور العين ، للحميري (ص ٧٦) ، رسالة الغفران (١٨٢) ، طبقات ابن سلام (٣١) .

٣ شعراء النصرانية (ص ٨٩) .

وورد في بعض الروايات أن (المنذر بن ماء السماء) ، خرج في يوم بؤسه، وكان يوماً يركب فيه فلا يلقى أحداً إلا قتله ، فلقي في ذلك اليوم (جابر بن رألان) أحد (بني ثعل) ومعه صاحبان ، فأخذتهم الخيل بالثوية ، فأتى المنذر فقال : اقترعوا ، فأيكم قرع ، خليت سبيله ، وقلت الباقين . فاقترعوا، فقرعهم جابر ، فخلى سبيله ، وقتل صاحبيه ، فلما رآهما يقادان ليقتلا ، قال عزّ بزّ. ورووا في ذلك شعراً نسبوه الى جابر[1] .

ومن الأخباريين من نسب بناء الغريين الى النعمان الثالث ، ومنهم من نسبهما الى جذيمة ، وذهب آخرون الى نسبة الغريّ الى الحارث الغساني[2] . ويرينا هذا الاختلاف مبلغ جهلهم بأصل الغريين .

وقد ذكر (النويري) ان الغريين أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة ، بناهما (النعمان بن المنذر بن ماء السماء) على جاريتين كانتا قينتين تغنيان بين يديه ، فماتتا ، فأمر بدفنهما ، وبنى عليهما الغريين . وذكر أيضاً ان « المنذر غزا الحارث ابن أبي شمر الغساني،وكان بينهما وقعة عين أباغ،وهي من أيام العرب المشهورة، فقتل للحارث ولدان ، وقتل المنذر ، وانهزمت جيوشه ، فأخذ الحارث ولديه وجعلهما عدلين على بعير . وجعل المنذر فوقهما،وقال : ما العلاوة بدون العدلين؟ فذهبت مثلاً ، ثم رحل الى الحيرة ، فانتهبها وحرقها ، ودفن ابنيه بها ، وبنى الغريين عليهما »[3] . وقد ذكر ان (المنصور) أمر بهدم أحدهما ، لكنز توهم انه تحتهما ، فلم يجد شيئاً .

وهذا الذي يرويه أهل الأخبار عن سبب بناء الغريين ، هو من القصص الذي ألفناه ، وعوّدنا أصحاب الأخبار سماعه ، فلا قيمة تأريخية له في نظرنا ، وان أكد لنا الأخباريون أو حاولوا التأكيد بأنه حق ، وانه أمر مسلّم به وشائع معروف ، وان عبيداً لقي حتفه لظهوره يوم بؤس المنذر أو النعمان . وقد يكون ذلك مسلّماً به عندهم ، غير اننا لسنا من السذاجة بحيث نصدق بأمثال هذا القصص لمجرد انه شائع معروف ، فليس كل شائع معروف أمراً صحيحاً يجب الأخذ به .

---

١ الفاخر (ص ٧٣) .
٢ Rothstein, S. 140.
٣ نهاية الأرب (١/٣٨٧) .

ونحن لا نريد أن ننكر وجود الغريين ، فليس الى نكرانهما أو نكران (الغري) من سبيل . ولكننا كما قلت ننكر هذا القصص الذي يرويه الأخباريون عن هذين الغريين ، لأنه قصص نشأ كما نشأ أمثاله عن جهل الناس أو أهل الأخبار بأصول الأشياء ، فلما احتاجوا الى معرفة الأسباب ، أوجدت لهم مواهبهم هذا القصص الطريف ، وهو أمر لم ينفرد به زمان دون زمان ، فما زال الناس يبتدعون قصصاً ثم يروونه ، ويتناقلونه على انه شائع صحيح ، مع ان تأريخ ابتداعه لا يبعد عن زماننا بكثير ، وأهل الحي بهذا القصص عارفون .

أما ان الغريين حفرتان دفن في كل حفرة منهما رجل حي،لأنه عربد وسكر، وتحدث بكلام غاظ الملك ، وما أشبه ذلك من قصص ، فأمر لا نستطيع أن نقف منه موقفاً ايجابياً ، ولا نسلّم به . ففيه شيء من أثر الصنعة والتكلف . ولكننا نستطيع أن نقول ان الغري أو الغريين من المواضع التي كانت لها صلة بعبادة الأوثان، ومن الجائز انهما كانا مخصصين لتقديم الذبائح والقرابين في المواسم الدينية وفي الأعياد . وقد عرفت مثل هذه العادات عند شعوب أخرى ، فكانت تهرق دماء الذبائح عند الأنصاب ثم تطلى بها . وما الغريان الا نصبان من هذه الأنصاب. على ان الأخباريين أنفسهم قد ذكروا ان الغري نصب كان يذبح عليه العتائر ، كما ذكروا ان الغريين كانا طربالين ، والطربال صومعة على رأي ، وشيء مرتفع عند الأكثرين[1] . فلا يستبعد أن يكون الغريان موضعين من مواضع ذبح القرابين للأصنام .

ويذكر أهل الأخبار أن (شريك بن مطر) ، وهو جد (معن بن زايدة) ، كان من أكبر الناس عند المنذر . وكان له ولد اسمه (الحارث) ويلقب بـ (الحوفزان) وهو من بني (شيبان)[2] .

---

١ البلدان (٦/٢٨٢) .

٢ الاشتقاق (ص ٢١٥) .

الفصل الثامن والثلاثون

عمرو بن هند

والذي خلف المنذر على ملك الحيرة بعد وفاته،هو ابنه عمرو بن هند المعروف بـ (مضرط الحجارة) ، وهو لقب يشير بالطبع الى قوة ابن هند وشدة بأسه، وقد عرف عمرو بأمه (هند بنت عمرو بن حجر الكندي آكل المرار) ، فهو كندي من جهة أمه ، وعرف أيضاً بـ (محرق الثاني) على رواية حمزة[1] ، وبـ (المحرق) في رواية لغيره[2] . وقد كان له من الأشقاء من أمه : قابوس والمنذر .

ويرى بعض الباحثين احتمال كون (هند) من (آل غسان) ، واليها ينسب دير هند . ويرى أن حكم ابنها عمرو كان فيما بين السنة (٥٥٤) والسنة (٥٦٩م)[3].

وزعم ابن الأثير أن الذي تولى الملك بعد المنذر بن ماء السماء هو ابنه المنذر ابن المنذر بن ماء السماء المعروف بـ (الأسود) ، وأنه لما استقر الأسود وثبت قدمه جمع عساكره وسار الى الحارث الأعرج طالباً بثأر أبيه ، ونزل برج حليمة. ووصل الحارث الى هذا الموضع كذلك ، واقتتل الطرفان أياماً ولم ينتهيا الى

---

١ حمزة (ص ٧٢) ، معجم الشعراء (ص ٢٠٥ وما بعدها) ، مفاتيح العلوم (٦٩) .

٢ شرح ديوان لبيد (ص ٢٦٣) .

نتيجة . فلما رأى الحارث طول الوقت،نادى في فتيان غسان : « يا فتيان غسان، من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتي هنداً » . فلما سمع ذلك لبيد بن عمرو الغساني، شدّ على الأسود فقتله ، وانهزم أصحابه ، فنزل لبيد واحتز رأس الأسود،واقبل به الى الحارث ، فألقى الرأس بين يديه ، فوافق الحارث على اعطاء لبيد ابنته ، ثم إن لبيداً انصرف ليواسي أصحابه ، فرأى أخاً الأسود يقاتل الناس ، فتقدم لبيد فقاتل فقتل ، ولم يقتل في هذه الحرب بعد تلك الهزيمة غيره . وانهزمت لخم ثانية ، وكثر فيها القتل . وذكر الأخباريون أن هذا اليوم هو من أيام العرب الكبرى إذ سار الأسود بجمع من عنده من عرب العراق ، وأقبل الحارث بجميع من كان عنده من عرب الشأم. فجعلت هذه الرواية بعد المنذر ابنه المنذر الأسود وجعلته صاحب مرج حليمة[1] .

وتذكر رواية ان جيش الحارث الأعرج بن جبلة أسر كثيراً ممن كان مع المنذر من العرب ، وفيهم مئة من تميم ، فيهم شأس بن عبدة . ولما سمع أخوه علقمة ، وفد الى الحارث مستشفعاً وأنشده قصيدة مدح طويلة ، فمنّ عليه،وأطلق له الأسرى من تميم ، وكساه وحباه[2] .

وهناك رواية أخرى عن مقتل المنذر بن المنذر ، خلاصتها : ان الحارث بن أبي شمر جبلة بن الحارث الأعرج خطب الى المنذر ابنته هنداً ، وقصد انقطاع الحرب بين لخم وغسان فوافق المنذر على ذلك . غير ان هنداً أبت عليه ذلك ، فحقد الحارث على آل لخم . فلما خرج المنذر غازياً ، بعث الحارث جيشاً الى الحيرة ، فانتهبها وأحرقها ، فانصرف المنذر عن غزاته وسار يريد غسان . وبلغ الخبر الحارث ، فجمع أصحابه وقومه ، فسار بهم ، فتوافقوا في عين أباغ . فاصطفوا للقتال ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وحملت ميمنة المنذر على ميسرة الحارث وفيها ابنه ، فقتلوه وانهزمت الميسرة . وحملت ميمنة الحارث على ميسرة المنذر ، فانهزم من بها وقتل مقدمها (فروة بن مسعود بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل ابن شيبان) ، وحملت غسان من القلب على المنذر فقتلوه ، وانهزم أصحابه في كل وجه ، وقتل منهم خلق كثير ، منهم ناس من بني تميم ، ومن بني حنظلة.

---

١ ابن الأثير (١/٢٢٣ وما بعدها ، ٢٢٥) ، البلدان (٣/٣٣٠) .
٢ أيام العرب (٥٥ وما بعدها) .

ووقع عددٌ في الأسر ، ومن هؤلاء الأسرى : (شأس بن عبدة) شقيق علقمة ابن عبدة من شعراء الجاهلية المعروفين . فالقتيل في هذه المعركة وعلى هذه الرواية اذن هو المنذر بن المنذر بن ماء السماء ، لا المنذر بن ماء السماء .

وقد تشكى ابن الأثير كما تشكى قبله حمزة من اختلاف الأخباريين في الروايات، ومن تضارب الروايات بعضها ببعض ، ومن تقديم الأيام وتأخيرها، وفي الشخص المقتول ، فذكر ان من الأخباريين من يقول ان يوم حليمة هو اليوم الذي قتل فيه المنذر بن ماء السماء ، ويوم أباغ هو اليوم الذي قتل فيه المنذر بن المنذر ، ومنهم من يقول بضد ذلك ، ومنهم من يجعل اليومين واحداً ، فيقول لم يقتل الا المنذر بن ماء السماء ، وأما ابنه المنذر فمات بالحيرة . وقيل ان المقتول من ملوك الحيرة غيرهما . وقد رجح ابن الأثير رواية القائلين ان المقتول هو المنذر بن ماء السماء ، ورجح أيضاً رواية من يقول ان المنذر بن المنذر لم يقتل ، وانما مات حتف أنفه[1] .

ويذكر أن (علقمة بن عبدة) الشاعر الجاهلي ، ذهب الى الحارث ، فمدحه بقصيدة شهيرة ، رجاء استعطاف الملك ، ليمنّ عليه بالعفو عن أخيه ، فيفكه من أسره ، فاستحسن الملك شعره وفرح به ، ومنّ عليه بفك أسره ، وبفك أسر جميع من وقع من قومه في الأسر . فلما عادوا الى ديارهم ، أعطوا شأساً أموالاً وأكسية وإبلاً ، فحصل من ذلك له مال كثير[2] .

وفي يوم (حليمة) ورد المثل . (ما يوم حليمة بسرّ)[3] .

أعود بعد الكلام على (المنذر بن المنذر) الى الحديث عن عمرو بن هند شقيقه ، فأقول : يظهر من هذه الروايات المذكورة عنه ، ومن هذا الشعر الوارد اسمه فيه ، أنه كان رجلاً سريع الانفعال ، يتألم بسرعة مما يقال له ، ولذلك حدثت له مشكلات عديدة لم تكن لتحدث لولا هذا الحس المرهف عنده ، الذي جعله عرضةً لهجو الشعراء ، والشعراء ألسنة الناس وأبواق الدعاية في ذلك العهد، وقصته مع طرفة بن العبد والمتلمس معروفة مشهورة[4] .

---

١ ابن الأثير (١/٢٢٥) .
٢ ابن الأثير (١/٣٢٦ وما بعدها) .
٣ مجمع الأمثال ، للميداني (٢/٤٠٨) .
٤ (صحيفة المتلمس) ، الأغاني (٢١/١٩٤) ، خزانة الأدب (١/٤١٢) ، اليعقوبي (١/١٧٢) ، الفاخر (ص ٦٠) ، شعراء النصرانية (ص ٣٣٧) .

ويصفه أهل الأخبار بالشدة والصرامة ، بل جعلوه شريراً ، وزعموا أنه كان له يوم بؤس ويوم نعيم ، فيوم يركب في صيده يقتل أول من لقي ، ويوم يقف الناس ببابه فإن اشتهى حديث رجل أذن له ، فكان هذا دهره[1] . وقالوا : إنه كان لا يبتسم ولا يضحك . وكانت العرب تسميه (مضرط الحجارة) لشدة ملكه ، وكانوا يهابونه هيبة شديدة ، وكان عاتياً جباراً ويسمى محرقاً أيضاً، لأنه حرق بني تميم ، وقيل : بل حرق نخل اليمامة[2] .

وقد وصف الشاعر (الرهاب العجلي) الملك (عمرو بن هند) بأنه ملك (يعتدي ويجور) وذلك في معرض وصفه للسدير[3] .

وقد أصبحت الحيرة موئل الشعراء في أيام عمرو بن هند ، فلأكثر مشاهير الشعراء الجاهليين خبر مع هذا الملك ، كانوا يحضرون اليه من أماكن نائية لانشاده شعرهم ولنيل جوائزه ، ولم تكن مجالسه لتخلو من منافسة الشعراء بعضهم لبعض، ومن نقد بعضهم شعر بعض ، كالذي حدث بين طرفة والمسيب بن علس على ما يذكره الأخباريون[4] . وقد كانت لمثل هذه المنافسات أهمية كبيرة في مجتمع ذلك اليوم ، لما كان لها من أثر في نفوس القبائل ، وطالما أدت الى غضب القبائل وغضب الملك نفسه ، وغضب الشعراء على منافسيهم وعلى الملك ، لاعتقادهم بتحزبه لأحد الخصمين .

وذكر بعض الرواة أن سبب هجاء (طرفة) عمرو بن هند ان عمرو بن هند كان يتباطأ في مجلسه في استقبال الناس . فإذا جلس لشرابه ، أخذ الناس بالوقوف على بابه حتى ينتهي من مجلس أنسه ، فيسمح عندئذ لذوي الحاجات بالدخول عليه ، كما كان يصرف وقته بالتلهي بالصيد والقنص ، مما جعل وقته

---

١ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، للأنباري (ص ١٢٢) ، العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين ، (ص ٣١٧) .

٢ خزانة الأدب (١/٤١٧) ،شعراء النصرانية (١/٣٠٥) .

٣ ابى القلب ان يهوى السدير وأهله　　وان قيل : عيش بالسدير غرير
فلا أنذر الحي الذي نزلوا به　　واني لمن لم يأته لنذير
به البق والحمى وأسد خفية　　وعمرو بن هند يعتدي ويجور
الأغاني (٢١/٢٩٥) (القسم الثاني) ، بيروت (١٩٥٧) .

٤ شعراء النصرانية (ص ٣٠٤ ، ٣٥٠ وما بعدها) .

يضيق عن استقبال الناس ، فصاروا يتكالبون على بابه ليجدوا وقتاً يدخلون فيه عليه ، فاستاء طرفة من هذه المعاملة . وقال شعراً يهجوه فيه ، كان في جملة ما جاء فيه .

فليت لنا مكانَ الملكِ عمرو رغوثاً حول قبتنـا تخور
لعمرك إنّ قابوس بن هنـد ليخلط ملكه نوك كثـير
قسمت الدهر في زمن رخيّ كذاك الحكم يقصد أو يجور

فبلغ الشعر (عمرو بن هنـد) ، أبلغه إياه (عبد عمرو) ، وكان من سادات الناس في زمانه ، وكان زوج أخت (طرفة) ، وقد هجاه (طرفة) أيضاً . فلما أنشد (عمرو بن هند) هجاء طرفة له على سبيل المزاح والاستخفاف بشأنه ، قال له (عبد عمرو) : أبيت اللعن ! ومما قال فيك أشد مما قال فيّ فأنشده الأبيات . فقال عمرو بن هند : أو قد بلغ من امره ان يقول فيّ مثـل هذا الشعر . فكتب الى رجل من عبد القيس بالبحرين ، وهو المعلى ليقتلـه . فقال له بعض جلسائه : إنك إن قتلت طرفة ، هجاك المتلمس وهـو رجل مـن مجرب ،وكان حليف طرفة،وكان من بني ضبيعة.فأرسل عمرو الى طرفة والمتلمس فكتب لهما الى عامله بالبحرين ليقتلهما ، وأعطاهما هدية من عنده وحملهما، وقال[1]: قد كتبت لكما بحباء ، فأقبلا حتى نزلا الحيرة ، وارتاب المتلمس بأمر الصحيفة واستقبال عمرو لهما ، ففك ختمها وعرضها على غلام من أهل الحيرة ، فقرأها ، فاذا فيها أمر بقتله ، فأخذ الصحيفة فقذفها في البحيرة وقال :

وألقيتها بالثني من جنب (كافر) كذلك ألقي كل رأي مضال

وأشار على طرفة بفك خاتم صحيفته أيضاً ليقرأها له ، ولكنه أبى ، وذهب الى صاحب البحرين،فوجد هناك نهايته في قصص منمق محبّر يرويه أهل الأخبار[2].

---

١ الشعر والشعراء (ص ٨٩ وما بعدها) ، (ليدن) .

٢ شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ٤٢ وما بعدها) ، الاغاني (٢١/١٢٥) ، ديوان طرفة بن العبد (ص ٩) ، شرح القصائد العشر ، للزوزنـي (١٠) ، الشعر والشعراء (ص ٨٥ وما بعدها) .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان قبر طرفة بهجر ، وهو معروف هناك[1] .

وللشاعر (طرفة بن العبد) شعر يعاتب به (عمرو بن هند) ، ويحرضه فيه على الطلب بحق أخيه (معبد) ، الذي أغير على إبـل له ، وكانت في جوار (عمرو بن هند) فانتهبت . ويقول فيه : نحن في طاعتك ، ومضر في طاعتك، فما بالنا أغير علينا ، وكلنا ندين لك[2] .

ولطرفة شعر في هجاء (قابوس) كذلك . ونرى بعض الأخباريين ينسبون اليه يومين : يوماً يصيد فيه ، ويوماً يشرب فيه ، فيقف الناس ببابه حتى يأذن لهم بالدخول اليه ، ولذلك سئم منه طرفة فهاجاه وهجا عمرو بن هند شقيقه معه[3]. وينسب بعض أهل الأخبار هذه القصة الى عمرو بن هند .

ويتبين من حديث الأخباريين عن صحيفة المتلمس ، ومن قصة نهاية طرفة في البحرين ، ان البحرين كانت تابعة في ذلك العهد لملك الحـيرة ، وان حاكمها كان عاملاً لعمرو بن هند[4] . وقد ورد في رواية ان اسم عامل عمرو بن هند هو (أبو كرب ربيعة بن الحرث) ، وهو من ذوي قرابة (طرفة) فلما علم بخبر (طرفة) لم يقتله ، وكتب الى (عمرو بن هند) انه لن يقتله ، وقد اعتزل عمله[5] . فعيّن عمرو عاملاً آخر مكانه اسمه في بعض الروايات (عبد هند) . وتقول رواية أخرى ان قاتل طرفة هو (المكعبر) عامل البحرين ، قتله بكتاب عمرو بن هند[6] . وكان (المكعبر) عامل عمرو بن هند على عمان والبحرين على رواية هؤلاء الرواة[7] . وتزعم رواية أخرى ان الذي قتله رجل من (الحوائر)

---

١ خزانة الأدب ، (٤١٦/١) ، مجمع الأمثال ، (٤١٢/١) ، الأغاني (٥٢٣/٢٣ وما بعدها) (بيروت ١٩٥٥ م) ، أمالي المرتضى (١٨٣/١ وما بعدها) . الشعر والشعراء (١٣١ وما بعدها) .

٢ لعمرك ما كانت حمولة معبد على جدها حربا لدينك من مضر
المعاني الكبير (١١١٨/٢) ، شرح القصائد العشر (ص ١٨٢) .

٣ شعراء النصرانية (٣٠٥/١) .

٤ البطليوسي . الاقتضاب (١٠٤) ، شعراء النصرانية (ص ٣٢١ ، ٣٣٠ وما بعدها) ، شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ٤٢ وما بعدها) ، (دار صادر) ، البلدان (٢٠٨/٧) .

٥ مجمع الأمثال (٤١٢/١ وما بعدها) .

٦ معجم الشعراء (ص ٢٠١) ، الاغاني (٥٢٤/٣) .

٧ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، للأنباري (ص ١١٦) ، الشعر والشعراء (ص ٩١) .

اسمه (التربيع بن حوثرة) (أبو ريشة) (أبو رائشة الحوثري) وكان،(عمرو ابن هند) قد اختاره وعيّنه على البحرين : حين همت (بكر بن وائل) بعامل (عمرو بن هند) . وتزعم رواية أخرى ، ان قاتله هو (المعلي بن حنش العبدي) وان الذي تولى قتله بيده هو (معاوية بن مرة الأيفلي) من (حي طسم وجديس)[1] .

وفرّ المتلمس الى بلاد الشأم حيث الغساسنة أعداء المناذرة ، وصار يمدحهم ويهجو عمرو بن هند ، واستقر بـ (بصرى) الى أن هلك . وقد خلف ولداً اسمه (عبد المنان) . وهناك قصص عن كيفية عودته الى زوجته ، وعن وصوله اليها ساعة عقد قرانها لرجل جديد في كنيسة ، لظن أهلها انه كان قد مات[2] .

وقد سخر (المتلمس) في أشعاره من (عمرو بن هند) ، وأقذع في هجائه حتّى قال فيه :

ملك النهار فأنت الليل مومسة ماء الرجال على فخذيك كالقرس

ووصفه فقال : انه (أخنس الأنف) ، وان أضراسه كالعدس ، الى غير ذلك من هجاء مرّ شديد .

وأود أن أبيّن ان من الرواة من ينسب هذا الهجاء الى شاعر آخر ، قالوا ان اسمه (عبد عمرو بن عمارة) ، وذكروا انه قاله في هجاء (الأبيرد الغساني)[3] .

ويظهر من رسالة الغفران ، أن للناس أقاويل في مقتل (طرفة) ، ورد فيها:

---

١ ديوان طرفة بن العبد (ص ٥) (كرم البستاني) ، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١٣٧ ، ١٤٤) .

٢ راجع عن طرفة . الأغاني (٢١/١٢٠ وما بعدها) ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، للانباري (ص ١١٥ وما بعدها) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٩٨) ، رسالة الغفران ، لأبي العلاء المعري (ص ٣٢٦ وما بعدها) ، (تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء) ، طبقات ابن سلام (١٦) ، الشعر والشعراء (ص ٨٨) ، شعراء النصرانية ، للويس شيخو ، (ص ٢٩٨ وما بعدها) ، شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقي ، ديوان طرفة . بيروت ، شرح المعلقات السبع للزوزني (دمشق ١٩٦٣ م) ، خزانة الأدب ، للبغدادي (١/٤١٤) الحيوان (٣/٦٦) ، معجم الشعراء ، للمرزباني (ص ٢٠١ وما بعدها) ، المؤتلف والمختلف ، للآمدي (ص ١٤٦) .

٣ قولا لعمرو بن هند غير متئب يا أخنس الأنف والأضراس كالعدس
الأغاني (١ من القسم الثاني ص ٢٩٣) ، الاغاني (١٤/٣٠) .

« ولقـــد كثرت في أمرك أقاويل الناس : فمنهم من يزعم أنك في ملك النعمان اعتقلت ، وقال قوم : بل الذي فعل به ما فعل عمرو بن هند »[1] .

وتطرق (الشريف المرتضى) في أماليه الى موضوع قتل (عمرو بن هند) لطرفة ، فذكر أن عامل البحرين يومئذ هو (المعلى بن حنش العبدي) وذهب الى احتمال كون قاتل (طرفة) هو (النعمان بن المنذر) ، استدل عـــلى ذلك بقول طرفة :

أبا منذر كانت غروراً صحيفتي ولم أعطكم في الطوع مالي ولا عرضي
أبا منـــذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

قال : « وأبو المنذر هو النعمان بن المنذر ، وكان النعمان بعد عمرو بن هند، وقد مدح طرفة النعمان فلا يجوز أن يكون عمرو قتله ، فيشبه أن تكون القصـــة مع النعمان »[2] .

هذا وللمتلمس أشعار في هجاء (عمرو بن هند) ، وقد ظل يهجوه الى أن توفي وهو في الغربة في بلاد الشأم . وفي جملة ما قاله فيه .

أطردتني حذر الهجاء ولا والله والأنصاب لا تَئِلُ

فهو يعيره بأنه إنما ابعده عنه وطرده ، لأنه كان يهجوه ، ولأنه كان يحذر هجاءه ويقول في أبيات أخرى .

ألك السدير وبـــارق ومرابض ، ولك الخورنق
والقصر ذو الشرفات من سنـــداد والنخـل المسبّق

* * *

فلئن تعشـــق فلتبلغن أرماحنـــا منك المُخَنَّق[3]

وللشاعر (سويد بن خذاق) شعر في هجاء (عمرو بن هند) ، وهو أخو الشاعر (يزيد بن خذاق) ، وهما من (عبد القيس) . وذكر أن (يزيد بن

---

١ رسالة الغفران (٣٣٨) .
٢ أمالي المرتضى (١/١٨٣ ، ١٨٥) مجمع الأمثال (١/٣٥٠ وما بعدها) ، ديوان المتلمس (١٧٢ وما بعدها) .
٣ شعراء النصرانية (٣/٣٣٩) .

خذاق) ، كان أول من ذمّ الدنيا في شعر[1] . وفي جملة ما قاله (سويد) في هجاء (عمرو بن هند) ، قوله :

أبى القلب أن يأتي السدير وأهله ... وإن قيل عيش بالسدير غزير
به البق والحُمّى وأسد خَفّيةٍ ... وعمرو بن هندٍ يعتدي ويجور

و (المنخل اليشكري) من معاصري (عمرو بن هند) كذلك . وكان يشبب بـ (هند) اخت (عمرو بن هند) ، واتهم بامرأة لعمرو بن هند ، فقتله على رواية[2] . وذكر انه اتّهم بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر ، وانه كان ينادم النعمان ، وهو الذي اوقع فيما بينه وبين النابغة لحقده عليه ، حتى سبب في فرار النابغة الى (آل غسان) ليخلص نفسه من غضب النعمان عليه[3] . ومعنى هذا ان (عمرو ابن هند) لم يقتله بل عاش الى ايام النعمان .

وقد مدح (المثقب العبدي) (عمرو بن هند) وكان في زمانه ، بقوله :

غلبت ملوك الناس بالحزم والنهى ... وأنت الفتى في سورة المجد ترتقي
ونجب به من آل نصر سميدعٍ ... أغرّ كلون الهندوانيّ رونق

ونعته بالحلم والرزانة (والحلم الرزين) ، وبالفعلات[4] .

وقد عدّ (ابن قتيبة) الشعراء الذين عاصروا (عمرو بن هند) من قدماء شعراء الجاهلية . فلما تحدّث عن الشاعرين (سويد) و (يزيد) ، قال : « وهما قديمان كانا في زمن عمرو بن هند »[5] . ولما تحدث عن (المثقب العبدي) قال عنه : « وهو قديم جاهلي . كان في زمن عمرو بن هند »[6] . وعدّ (المنخل اليشكري) من قدماء الشعراء الجاهليين ، فقال عنه : « وهو قديم جاهلي »[7] .

---

١ الشعر والشعراء (ص ٢٢٨) .
٢ (وقتله عمرو بن هند . وقال قبيل قتله ..) ، الشعر والشعراء (ص ٢٣٩) .
٣ الشعر والشعراء (ص ٢٣٨) .
٤ الشعر والشعراء (ص ٢٣٤) .
٥ الشعر والشعراء (ص ٢٢٨) .
٦ الشعر والشعراء (ص ٢٣٤) .
٧ المصدر نفسه (ص ٢٣٨) .

ويجب أن نتذكر أن الشاعر (امرؤ القيس) كان أيضاً من معاصري (عمرو بن هند) ، وهو شاعر جاهلي قديم ، في نظر علماء الشعر . فيكون زمن أقدم شعر جاهلي ، وصل خبره الينا ، هو النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، أي في سنين لا تبتعد كثيراً عن زمن ميلاد الرسول ، كما سأتحدث عن ذلك في القسم الخاص بالناحية الثقافية للعرب قبل الاسلام .

وورد في إحدى قصائد الأعشى ما يفيد اتساع ملك عمرو بن هند وجباية كل ما بين عمان و (ملح) له[1] . ويذكر بعض الرواة ان المراد بـ (عمان) هنا (عمان) بلاد الشأم ، واما (ملح) ففي اليمامة من بلاد بني جعدة[2] .

ويذكر بعض الأخباريين ان عمرو بن هند كان على (بقة) يدير أعمالها في ايام ابيه المنذر ، واليه لجأ امرؤ القيس الشاعر المعروف مستجيراً به لأنه كان ابن عمته ، فأجاره ، ومكث عنده زماناً . فلما سمع به المنذر ، وكان يتعقبه ، طلبه من ابنه ، فأنذره عمرو ، فهرب حتى أتى حمير مستجيراً[3] .

وقد نسب الى ابن هند غزوة غزا بها تغلب ، فقيل : طلب (عمرو) من بني تغلب ، حينما تولى الملك مساعدته على أخذ الثأر من بني غسان قتلة أبيه ، وكانوا انحازوا عنه ، وطلب منهم الرجوع الى طاعته والغزو معه ، فأبوا، وقالوا: مالنا نغزو معك . نحن رعاء لك فغضب عمرو بن هند ، وجمع الجموع . فلما تهيأت ، كان أول عمل قام به غزو تغلب ، فأوجعهم وآذاهم ، انتقاماً منهم ، لامتناعهم عن نصرته ومعاضدته[4] . وقد أشار الى هذا الحادث (الحارث بن حلزه اليشكري)[5] الشاعر الجاهلي احد اصحاب المعلقات .

ويذكر أهل الأخبار أن (الحارث بن حلزة) حضر مجلس (عمرو بن هند)،

---

١ آنفا يجبى اليه خرجه كل ما بين عمان فملح
ديوان الأعشي (القصيدة ٣٦ ، البيت ٩) .

٢ ديوان الأعشي (ص ١٦٠) ، طبعة كاير) (Geyer) ، (ص ٢٣٧) (طبعة الدكتور م. محمد حسين) ، البلدان (٨/ ١٤٧) .

٣ الأغاني (٨/ ٦٧) .

٤ الأغاني (٩/ ١٧٣) (١١/ ٤٧) (ط. دار الكتب المصرية) .

٥ كتكاليف قومنا اذ دعا المنذر : هل نحن لابن هند رعاء ؟
المعاني الكبير (٢/ ١٠١٢) ، شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٦٢) (طبعة صادر) .

وأنشده معلقته ، أنشده إياها من وراء سبعة ستور ، وذلك لبرص بـه . وكان الملك يأمر بعد خروج (الحارث) بغسل أثره بالماء ، كما يفعل بسائر البُرص . فلما أنشده قصيدته هذه ، طرب لها الملك كثيراً ، فأمر برفع الستور من بينهما ، وأدناه منه ، وأطعمه في جفنته ، وأمر أن لا ينضح أثره بالماء ، ثم جزّ نواصي البكريين السبعين الذين كانوا رهناً عنده وسلمها اليه[1] ، تعظيماً لشأنه ، وتقديراً له ولقومه اليشكريين .

وقد حرض (الحارث) في قصيدته تلك الملك على التغلبيين ، وسرد حوادث تأريخية لها علاقة في هذا التعريض مما هاج الملك ، وراد في حدة غضبه عليهم .

ذكره بالأراقم ، وهم بطون من تغلب ، وصورهم كأنهم أناس عزموا على الاعتداء على قومه انتقاماً منهم ، لوقائع وقعت بينهم وبين قومه ما بين (ملحة فالصاقب) ، حيث ثأر قومه بقتلاهم . أما تغلب ، فلم تثأر بقتلاهم ، ثم ذكر التغلبيين خصومه ، بأن قومه أناس أشداء في الحروب ، يعتمدون في القتـال على أنفسهم ، ولا يركنون الى أحد . ساروا من البحرين سيراً شديداً ، حتى بلغوا (الأحساء) ، طووا المسيرة سيراً واغارة على القبائل ، ثم لم يكتفوا بـذلك ، فأغاروا على (تميم) فلما دخل الشهر الحرام ، كفوا عن القتـال ، حرمةً له ، وعندهم سبايا من بنات القبائل صرن إماءً لهم . ثم ذكر الملك بامتناع (تغلب) من الانضمام اليه للحرب معه ، على حين نصره قومه ، وحاربوا معـه . وكيف غلبوا على أمرهم ، غلبهم الملك . وكيف ذهبت دماء تغلب هدراً ، لم يؤخـذ بثأرها وهو لا يترك قومه دماؤهم هدراً ، إذ يأخذون بالثأر من قتلة قتلاهم . ثم انتقل الى يوم (الشقيقة) ، حيث جاءت (معد) ، ولكل حي منها لواء حول (قيس بن معد يكرب) من ملوك حمير . وبيّن كيف أن قومه تعرضوا لقيس ولمن معهم ، حتى ردّهم بطعن خرج به الدم من جروحهم خروج الماء من أفواه القرب . ثم انتقل الى وصف قتالهم مع (حجر بن أم قطام) ، وكانت له كتيبة فارسية خضراء لما ركب دروع الكتيبة ، وجلا صدأها ، ثم حدث عن كيفية فكهم غل (امرىء القيس) من حبسه بعد أن طال حبسه ونال منه العناء[2].

---

١ شرح المعلقات للزوزني ، (ص ١٥٤) ، (دار صادر) ، (بيروت ١٩٥٨ م) .

٢ ويرى بعض علماء الأدب أن المراد (فارسية خضراء) ، دروع وبيض فارسية ، ركبها الصدأ ، شرح الزوزني (ص ١٦٥) (صادر) .

وتعرض لذكر (الجون : جون آل بني الأوس) ومعه كتيبة شديدة العناد، ولّت الأدبار بعد قتالها مع (بني يشكر) قومه . ثم تعرض لقتالهم مع الغساسنة انتقاماً منهم ، لقتلهم (المنذر) والد (عمرو بن هند) وأسرهم تسعةً من الملوك، وأخذهم أسلابهم منهم ، وأسلابهم غالية الأثمان، لعظم أخطارهم وجلالة أقدارهم. ثم انتقل الى ذكر يوم (ذي المجاز) وكيف جمع (عمرو بن هند) بني (بكر) و (تغلب) وأصلح بينهما ، وأخذ منهما الوثائق والرهون . وكتب العهد بينهما بوجوب الوفاء بما اتفق عليه في هذا اليوم . ثم أخذ يعيرهم ويذكر هزائمهم التي ألحقتها (كندة) و (إياد) و (تميم) و (بنو حنيفة) و (قضاعة) وقبائل أخرى بهم ، ويتهمهم بخرق العهد والمواثيق وبالغدر . وقد جاءت هذه القصيدة معبرة عن حقد (عمرو) على التغلبيين وعن غضبه عليهم لمقاومتهم له .

وغزا عمرو بن هند طيئاً ، بتحريض زرارة بن عدس بن عبدالله بن دارم الحنظلي اياه على غزوها ، ويقول أهل الأخبار ان عمرو بن هند امتنع في بادىء الأمر عن غزو طيء ، لوجود حلف بينه وبينهم ، غير ان زرارة ألح عليه بغزوهم ، فغزاهم وأخذ أسرى منهم[1] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان عمرو بن هند كان قد عاقد طيئاً ألا ينازعوا ولا يغزوا ولا يفاخروا . ثم غزا اليمامة ، فرجع منفضاً ، فمرّ بطيء ، فحرضه زرارة عليهم ، ولم يزل به يحرضه ويغريه بالغنائم ، حتى غزا طيئاً ، وأسر من بني عدي رهط حاتم الطائي سبعين رجلاً ، وفيهم قيس بن جحدر ابن خالة حاتم الطائي ، وحاتم يومئذ بالحيرة . فلما بلغ عمرو بن هند الحيرة، توسط (حاتم) لديه في فك الأسرى فوهبهم له[2] .

وغزا (عمرو بن هند) تميماً فقتل من (بني دارم) مئة نفس انتقاماً منهم لقتلهم أخاه سعداً أو ابنه مالكاً في رواية أخرى . وكان ذلك في يوم أوارة الثاني[3] (يوم أوارة الأخير) . ويزعم الأخباريون انه ألقى بالقتلى في النار، ولهذا السبب عرف بـ (المحرق) (محرق) (المحرق الثاني)[4] . ولبعض الأخباريين تفاسير

١ الأغاني (١٩/١٢٧ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (١٢٤) .

٢ أيام العرب (١٠٢) .

٣ حمزة (ص ٧٣) ، معجم الشعراء (ص ٢٠٥) ، البلدان (١/٣٩٢) ، الكامل (١/٢٥٩) ، العقد الفريد (٣/١٥٤) ، الأغاني (١/١٢٢) .

٤ الأغاني (١٩/١٢٩) ، الكامل (١/٢٢٨) ، الميداني (١/٢٦٦) ، اللسان (١٠/٤٢) .

أخرى في منشأ هذا اللقب[1] ، تحاول ايجاد مخرج لمعنى (محرق) التي ترد مقرونة بأسماء بعض ملوك (آل جفنة) و (آل لخم) .

وفي كتب الأمثال مثلٌ هو : « إن الشقي وافد البراجم » ، زعم أصحاب الأخبار ان قائله هو الملك (عمرو بن هند) قاله يوم قتلت (البراجم) – وهم أحياء من (تميم) : عمرو وقيس وغالب وكلفة وظليم ، وهم (بنو حنظلة بن زيد مناة) تحالفوا على أن يكونوا كبراجم الأصابع في الاجتماع – شقيق (عمرو ابن هند) ، فسار اليهم وآلى أن يحرق منهم مئة ، فقتل تسعة وتسعين،وأحرق القتلى بالنار ، فمر رجل من البراجم وراح رائحة حريق القتلى ، فحسبه قُتار الشواء ، فمال اليه ، فلما رآه عمرو قال له : ممن أنت ؟ قال : رجل من البراجم فقال : ان الشقي وافد البراجم . وأمر فقُتل وألقي في النار ، فبرت به يمينه[2] .

وورد ان عمراً بقي ينتظر وافداً من البراجم ليلقي به في النار فيكمل بذلك العدد ، حتى اذا طال انتظاره قيل له : لو تحللت بامرأة منهم ، فدعا بامرأة من بني نهشل بن دارم اسمها الحمراء بنت ضمرة بن جابر ، فأمر بالقائها في النار . فكمل بذلك العدد[3] .

وكان سبب قتل أسعد أو سعد أخي عمرو بن هند أو ابنه مالك،انه لما ترعرع مرت به ناقة كوماء سمينة ، فرمى ضرعها ، فشدّ عليه ربُّها سويد أحد بني عبدالله بن دارم فقتله ، ثم هرب سويد فلحق بمكة ، واستجار بأهلها. فبلغ الخبر عمرو بن هند ، وكان زرارة بن عدس التميمي عنده ، فاغتاظ زرارة من هذا العمل ، اذ كان الملك قد وضع (سعداً) (اسعد) في بيته ، وانتهز زعماء طيء هذه الفرصة وحرضوا عمرو بن هند على مهاجمة بني دارم قتلته للأخذ بثأرهم منه[4].

---

١ الاقتضاب (ص ٣٥٩) ، العمدة (٢/٢١٦) .

٢ البرقوقي (ص ٥٥) ، العمدة ، لابن رشيق (٢/٢٠٥) ، الأمثال للميداني (١/٩٥) ، ابن الأثير (١/٣٣٤) ، النقائض (٦٥٢ ، ١٠٨١) ، اللسان (١٠/٤٢) ، (حرق) .

٣ أيام العرب (١٠٥) .

٤ العمدة (٢/٢٠٥) ، الأغاني (٢٢/١٨٦) ، (بيروت) ، المسعودي ، مروج (١/٢٣) ، اليعقوبي (١/١٧١) ، ابن خلدون (٢/٥٦٦) ، خزانة الأدب (٣/١٤٠) ، نهاية الأرب ، للنويري ، (٣/١٨) ، البكري ، معجم (١/٢٠٧)، النقائض (٢/٦٥٢ وما بعدها) .

وهناك رواية أخرى تنفي تحريق عمرو بن هند للمذكورين من بني دارم والرجل الآخر من البراجم ، وترى انهم قتلوا ، قتلوا بأمر عمرو بن هند[1] .

وأوارة الموضع الذي أحرق فيه المذكورون من بني تميم ، أو قتلوا فيه ، هو اسم ماء أو جبل لبني تميم قيل انه بناحية البحرين[2] .

وكان (عمرو بن ملقط الطائي) ، هو الذي أصاب (بني تميم) مع (عمرو ابن هند) يوم أوارة ، فسأله فيهم فأطلقهم له ، وكان وفاداً الى الملوك[3] .

والأعشى الشاعر ممن ذكر هذا اليوم في شعره . وعيّر الشاعر جريرُ الفرزدقَ بيوم أوارة[4] .

وتذكر بعض الروايات عن يوم (أوارة) أن (عمرو بن ملقط الطائي) ، هو الذي حرض (عمرو بن هند) على غزو بني دارم ، وأنه شاركه في غزوهم. وقد أشير الى ذلك في شعر للطرماح الطائي يفاخر به الفرزدق ، وهو شاعر من بني تميم[5] . وسبب ذلك أن طيئاً كانت تطلب عثرات زرارة وبني أبيه ، لأنه كان قد حرض عمرو بن هند عليهم . فلما بلغهم ما صنعوا بأخي الملك ، أنشأ (عمرو ابن ملقط) شعراً ، بلغ عمرو بن هند،فتأثر به ، وقرر السير على زرارة وقومه للانتقام منهم بقتلهم شقيقه[6] .

ويفهم من بعض الرواة أن (يوم الشقيقة) كان قد وقع في عهد عمرو بن هند ، إذ تذكر أن قوماً من شيبان جاؤوا مع قيس بن معديكرب ومعهم جمع عظيم من أهل اليمن ، وقصدوا إبلاً لعمرو بن هند ، فردتهم بنو يشكر،وقتلوا فيهم ، ولم يوصل الى الإبل[7] .

---

١ البلدان (٣٩٣/١) ، العمدة (٢٠٥/٢) . قال جرير :
أين الذين بسيف عمرو قتلوا   أم أين اسعد فيكم المسترضع ؟
٢ البلدان (٣٩٣/١) .
٣ ذيل الامالي (٢٤) .
٤ معجم ما استعجم (٢٠٧/١) (طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٥ م) .
٥ واسأل زرارة والمأمون ما فعلت   قتلى أوارة من رعلان واللدد
ودارم قد قذفنا منهم مئة   في جاحم النار اذ يلقون في الخدد
ديوان الطرماح (ص ١٤٥) .
٦ أيام العرب (١٠٣) .
٧ الأغاني (٤٨/١١) (دار الكتب المصرية) .

وقد رأى بعض أهل الأخبار ، استناداً الى قصيدة للنابغة مطلعها :

أتاركة تدللهـا قطـامِ وضَنّاً بالتحيـة والكلامِ

أن الذي قام بالغزو المذكور فيها هو (عمرو بن هند) . وأن غزوه بلـغ حتى جبال حمى[1] . غير أن الأبيات تدل على ان صاحب تلك الغزوة كان قـد دَوّخَ العراق ، وأنه حارب قبائلـه ، ولهذا لا يعقل أن يكون صاحبها عمرو ابن هند ، بل لا بد أن يكون ملكاً من آل غسان غزا العراق والى هذا الرأي ذهب المستشرق (نولدكه)[2] .

وفي بعض الروايات أن عمراً توسط بين بكر وتغلب ابني وائل فأصلح بينهما بعد حرب البسوس،وأخذ رهائن من كل حيّ من الحيين مئة غلام من أشرافهم، ليكف بعضهم عن بعض ، فكانوا يصحبونه في السلم والحرب[3] .

ويرى فريق آخر من الأخباريين أن الذي توسط لعقد الصلح بين القبيلتين هو المنذر بن ماء السماء[4] .

وذكر أن أناساً من تغلب جاؤوا الى (بكر بن وائل) يستسقونهم، فطردتّهم بكر للحقـد الذي كان بينهم ، فرجعوا عطاشاً ، فمات سبعون منهم ، فاجتمع بنو تغلب واستعدوا لملاقاة بكر ومحاربتهم ، ثم خاف عقلاء الطرفـين من عودة الحرب الى ما كانت عليه ، فتداعوا الى الصلح ، فتحاكموا الى الملك (عمرو بن هند) ، فطلب منهم سبعين رجلاً من أشراف وائل ليجعلهم في وثاق عنده ، فإن كان الحق لبني تغلب ، دفعوا اليهم ليأخذوا ثأرهم ، وإن لم يكن رجعـوا سبيلهم،فجاءت تغلب وعلى رأسها عمرو بن كلثوم،وحل الخصومة عمرو بن هند[5] .

وفي رواية يذكرها (ابن دريد) : أن (بني الحارث بن مُرّة) قتلوا ابناً

---

١ شعراء النصرانية (ص ٧١٥) .
٢ الأغاني (١٢٧/١٩) ، شعراء النصرانية (١٢٤) .
٣ الأغاني (٤٢/١١ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) ، شعراء النصرانيـة (ص ١٩٨ وما بعدها) .
٤ الأغاني (٤٤/١١ وما بعدها (دار الكتب المصرية) ، (١٧٢/٩) (مطبعة التقـدم) .
٥ جمهرة أشعار العرب (١٢٠) ، شرح القصائد السبع للزوزني (١٤٦ وما بعدها) .

لعمرو بن هند ، فرهن (سيّار بن عمرو) قوسه بألف بعير ، وضمنها للملك من ملوك اليمن ، فعرف لذلك بـ (ذي القوس)[1] . أما (السكّري) ، فذكر أن سياراً ذا القوس، كان قد رهن قوسه على ألف بعير في قتل الحارث بن ظالم، من النعمان الأكبر[2] .

ويفهم من الموارد الأعجمية أن عمراً كان قد أغار على بلاد الشأم في سنة (٥٦٣ م) ، وكان على عربها الحارث بن جبلة[3] . والظاهر أن الباعث على ذلك كان امتناع الروم عن دفع ما كانوا يدفعونه سابقاً لعرب الفرس مقابل اسكاتهم عن مهاجمة الحدود . فلما عقد الصلح بين الفرس والروم سنة (٥٦٢ م) ، وهدأت الأحوال ، لم يدفعوا لابن هند ما تعودوا دفعه لوالده ، فأثر امتناعهم هذا في نفسه، وطلب من الفرس مساعدته في ذلك . فلما طالت الوساطة ، ولم تأت بنتيجة، هاجم تلك المنطقة ، ثم أعاد الغارة في سنة (٥٦٦ م) وسنة (٥٦٧ م) على التوالي . وقام بهاتين الغارتين أخوه قابوس بأمر أخيه .

ويعزو (مينندر) (Mânander) أسباب الغارة الأخيرة الى سوء الأدب الذي أبداه الروم تجاه رسول ملك الحيرة الذي ذهب الى القيصر (يوسطينوس) (Justinus) لمفاوضته على دفع المال[4] . وكان الروم قد أرسلوا رسولين قبل ذلك الى الفرس للبحث في هذا الموضوع ، أحدهما اسمه بطرس ، والآخر اسمه يوحنا ، غير انهما أنكرا للفرس حق ملك الحيرة في أخذ إتاوة سنوية من الروم . فلما عومل رسول ملك الحيرة معاملة غير لائقة قام قابوس شقيق عمرو بتلك الغارتين[5] .

وتذكر رواية من روايات أهل الأخبار ان (عمرو بن هند) جعل أخاه (قابوس بن المنذر) على البادية ، ولم يعط أخاه (عمرو بن أمامة) شيئاً ، وكان مغاضباً له ، فخرج (عمرو) الى اليمن ، فأطاعته مراد ، وأقبل بها يقودها نحو العراق ، ولكنها ثارت عليه ، ثار عليه المكشوح وهو (هبيرة بن يغوث) فلما أحيط به ضاربهم بسيفه حتى قتل[6] .

---

١ الاشتقاق (٢/١٧٢) .
٢ المحبر (٤٦١) .
٣ Rothstein, S. 96, Theophanes, 371, Noldeke, Sassa., 172, Ghassan., 20.
٥ Rothstein, S. 96, Menander, By Dindorf, Histo. Min., II, 45.
٤ Rothstein, S. 96.
٦ معجم الشعراء (ص ٢٠٦) .

أما (أمامة) أم (عمرو بن أمامة) ، فإنها (أمامة بنت سلمة بن الحارث الكندي) عم امرىء القيس[1] .

ويفهم من بعض الروايات ان عدي بن زيد العبـادي كان من المقربين عند عمرو بن هند ، وكان يصحبه مع من يصحبه من الرؤساء في الصيد[2] .

وانتهت حياة عمرو بن هند بالقتل ، وهو مسؤول عن قتل نفسه إن صحت القصة . وخلاصتها : ان الغرور أخذ مأخذه من صاحبنا عمرو . وأراد يوماً أن يظهر فخره أمام الناس ، فقال لجلسائه : هـل تعلمون ان أحداً من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي ؟ قالوا : ما نعرفه الا أن يكون عمـرو بن كلثوم التغلبي ، فان أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل أعز العرب وزوجها كلثوم وابنها عمرو ، فسكت وأضمرها في نفسه . ثم بعث الى عمرو بن كلثوم يستزيره ، ويأمره أن تزور أمه ليلى أم نفسه هند . فقدم عمرو مع أمه ، فأنزلها منزلاً حسناً ، ثم أمر بالطعام فقدم للحاضرين . وكان عمرو قد قال لأمه : اذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق الا الطرف ، فنحي خدمك عنك ، فاذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها فلتناولك الشيء بعد الشيء . ففعلت هند ما أمرها به ابنها . فصاحت ليلى عندئذ : وأذلاه يا آل تغلب ! فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم في وجهه ، والقوم يشربون ، وثار الى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق ، فأخذه وضرب به رأس مضرط الحجارة ، ونادى في التغلبيين فأخذوا ما تمكنوا من أخذه ، وعادوا من حيث أتوا[3] . وهكذا جنى عمرو بن هند حصاد مـا زرعه إن صحت الرواية . ويروي الرواة في تأييدها هـذا المثل :

---

١ معجم الشعراء (ص ٢٠٦) .

٢ الأغاني (١٥٤/٢) .

٣ ابن الأثير (١٢٦/١) الأغاني (١٧٥/٩) ، (٥٣/١١) (دار الكتب المصرية)، ابن خلدون ، القسم الأول ، المجلد الثانـي (٥٦٦) ، (بيروت ١٩٦٥ م) المحبر (٢٠٢) ، الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (١٨٥) ، الأمالي ، للقـالي (١٩٣/١) .

« أفتك من عمرو بن كلثوم » . كما افتخر بها الشعراء التغلبيون[1] .

ويقال إنّ أخا عمرو بن كلثوم : (مُرّة بن كلثوم) ، هو قاتل (المنذر ابن النعمان بن المنذر) . وفي ذلك يقول الأخطل :

ابـني كليب إن عمي اللذا   قتلا الملوك وفككا الأغلالا

يعني بعميه عمراً ومُرّة ابني كلثوم[2] .

وذكر الشاعر (أفنون) واسمه (صريم بن معشر) ، وهو من بني تغلب (عمرو بن هند) في شعر رواه (ابن قتيبة) على هذا النحو :

لعمرك ما عمرو بن هند اذا دعا   لتخـدم أمّي أمـه بموفق[3]

وفي هذا البيت اشارة الى مقتل (عمرو بن هند) ، بسبب أم الملك . وقد وقع فيه تحريف ولا شك ، صير الأم التي طلبت منها أم عمرو بن هند خدمتها ، أم الشاعر المذكور ، بينما هي (ليلى) أم الشاعر (عمرو بن كلثوم) ، قاتل عمرو بن هند . كما يرويه علماء الشعر على لسان (أفنون) أيضاً ، ولكن على هذا الشكل :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا   لتخدم ليلى أمه بموفق[4]

(وعمرو بن كلثوم ، هو القائل :

ألا هُبّي بصَحنك فاصبحينا

---

١ قانون افنون التغلبي .

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا   لتخـدم ليـلى أمـه بموفـق
فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتا   وامسـك من ندمانـه بالمخنـق
وجلله عمرو على الـراس ضربة   بذي شطب صافـي الحديدة رونق

ابن الأثير (/٢٢٦) ، الاغاني (١٨٣/٩) ، شعراء النصرانية (٢٠٠) .

وقال الأخطل مفتخرا :

ابنى كليب ، ان عمي اللذا   قتلا الملوك وفككا الأغلالا

الأغاني (١٨٣/٩) ، ابن دريد . الاشتقاق (٢٠٤) ، خزانة الأدب (٥٢٠/١)، حمزة (ص ٧٢) .

٢ الشعر والشعراء (ص ١١٩ وما بعدها) .

٣ الشعر والشعراء (١١٩ ، ٢٤٩) .

٤ الأغاني (١٨٣/٩) ، ابن الأثير (٢٦٦/١) .

وكان قام بها خطيباً فيما كان بينه وبين عمرو بن هند . وهي من جيد شعر العرب القديم واحدى السبع ، ولشغف تغلب بها وكثرة روايتهم لها ، قال بعض الشعراء :

ألهى بني تغلب عن كلّ مكرمة ۝ قصيدةٌ قالها عمرو بن كُلثوم
يفاخرون بهـــا مذ كان أولهم ۝ يا للرجال لفخر غير مسؤوم[1]

والى هند أم الملك ينسب دير هند الكبرى من أديرة الحيرة ، وقد أرخ بناؤه في عهد خسرو أنو شروان وفي عهد الأسقف مار افرايم . وقد لقبت فيه بالملكة بنت الأملاك وام الملك عمرو بن المنذر[2] . واذا صحت قراءة الأخباريين هذه ، كان بناء هذا الدير في ايام ابنها عمرو .

وكان الملك من نصيب قابوس بن المنذر بعد وفاة عمرو بن هند أخي (قابوس) وأمه هند . أما المسعودي فجعل امه بنت الحارث من آل معاوية بن معد يكرب[3]. وقد ملك على رواية حمزة أربع سنين في زمن أنو شروان[4] . وذكر حمزة ان من الأخباريين من قال انه لم يملك . (وانما سموه ملكاً لأن أباه وأخاه كانا ملكين). وقد وصفه بالضعف وباللين ، ولذلك قيل له (فتنة العرس) و (قينة العرس) في بعض الروايات . وقد قتله رجل من يشكر ، وسلب ما كان عنده وعليه[5] .

وليس بصحيح ما زعمه حمزة نقلاً عن بعض الأخباريين من أن قابوساً لم يكن ملكاً ، وإنما قيل له ذلك لأن أباه وأخاه كانا ملكين . فقد نعته (يوحنا الأفسوسي (John of Ephesus) في تأريخه الكنسي بـ (ملكا) أي ملك،ويوحنا الأفسوسي من الرجال الذين عاشوا في القرن السادس للميلاد . وقد توفي سنة (٥٨٥ م)تقريباً . ولم يكن لينعته بـ (ملكا) لو لم يكن قابوس ملكاً على الحيرة حقاً[6] .

---

١ الشعر والشعراء (ص ١٢٠) ، شرح التبريزي على المعلقات (٢٣٨) ، أمالي المرتضى (١/٥٧ ، ١٠٥ ، ٢٠١ ، ٣٢٧ ، ٥٥٩) .
٢ الحيرة (ص ٤٧) .
٣ مروج (٢/٢٤) ، (دار الرجاء) .
٤ حمزة (٧٣) ، المحبر (٣٥٩) ، مفاتيح العلوم (ص ٦٩) .
٥ حمزة (٧٣) ، وجعل المسعودي مدة حكمه ثلاث سنين ، مروج (٢/٢٤) ، ابن الأثير (١/٢٠٠) ، المعاني الكبير (٢/١١٨) .
٦ John of Ephesus : Eccl. Histo., 354, II, 3, (Cureton ed.) 6, Rothstein, S. 102.

ويظهر أن الصورة التي رسمها الأخباريون لقابوس إنما حصلوا عليها من شعر الهجاء الذي قيل فيه،وأن ما أورده عنه من لين وضعف هو في حاجة الى دليل، إذ يظهر من الموارد الأخرى مثل التواريخ السريانية أنه كان على العكس[1] . وقد يكون لتوليه الحكم ، وهو رجل متقدم في السن ، أصل في ذلك الهجاء . فالذي يظهر من أخباره انه ولي الحكم وهو شيخ كبير . وأما اللقب الذي لقب به،وهو قينة العرس ، فقد انتزعه الأخباريون من شعر منسوب الى طرفة هجا فيه عمرو ابن هند وقابوساً ، وهو قوله :

يأت الذي لا تخاف سبته عمرو وقابوس قينتا عرس[2]

وقد ذكر المؤرخ (مارسليانوس) (Marsilianus) رجلاً سماه (Chabus) ،ذكرهمع المنذر الثالث في حوادث سنة (٥٣٦ م)[3].ويرى (روتشتاين) أن المراد به رجل آخر غير قابوس . فلو كان هو المقصود به كان قابوس إذن شيخاً هرماً حين انتقل الملك اليه ، ولكنه لا ينفي مع ذلك عدم جوازه[4] . وقد أشرت الى ارسال أخيه عمرو اليه في حملة انتقامية على عرب الشأم ، وذلك في سنة (٥٦٦) وسنة (٥٦٧ م) .

ولما تولى قابوس الحكم ، أغار على بلاد الشأم ، وكان يحكم عرب الشأم المنذر ابن الحارث بن جبلة اذ ذاك . وقد ذكر (ابن العبري) أن المنذر بن الحارث (منذر برحرت) كان نصرانياً وان جنوده كانوا نصارى كذلك . ولم يشر الى نصرانية قابوس . ويفهم من جملة ابن العبري . (وقد أغار قابوس على العرب النصارى) ما يؤيد هذا الظن . وقد ظفر قابوس بغنائم عديدة أخذها وعاد بها غير ان المنذر جمع جيشه وسار يتعقبه . فلما التقى به ، تغلب عليه ، وأخذ منه أموالاً كثيرة وعدداً كبيراً من الجمال . ولما أعاد قابوس الكرة ، انهزم ، فذهب الى الفرس يلتمس منهم عوناً ومدداً[5] . ويظهر من رواية أخرى أن انتصار المنذر على قابوس كان في سنة (٨٨١) من التقويم السلوقي وهي توافق سنة (٥٧٠) للميلاد[6].

---

١ Rothstein, S. 102, Caussin, Essai, II, 129.

٢ اليعقوبي (١/١٧٢) .

٣ Nöldeke : Sassa., 345, Rothstein, S. 102.

٤ Rothstein, S. 103.

٥ Bar Hebraeus, Vol., I, P. 79.

٦ Land : Anecd. Syr. I, 13.

ويظهر من رواية لـ (يوحنا الأفسوسي) (John of Ephesus) ان الملك قابوساً انتهز الفرصة عند وفاة الحارث بن جبلة ، فباغت الغساسنة بهجوم مفاجيء في عقر دارهم ، فأسرع عندئذ المنذر بن الحارث وجمع جمعه ، وفاجأه بهجوم مقابل لم يتمكن قابوس من الثبات له ، فانهزم هزيمة منكرة بحيث لم ينج من أصحابه الا القليل . وقد فر هو ومن سار معه من الناجين في اتجاه نهر الفرات تاركاً عدداً من الأمراء اللخميين أسرى في أيدي المنذر . غير ان المنذر سار في أثرهم حتى كان على ثلاث مراحل عن الحيرة[١] ، ويرى نولدكه ان هذه المعركة هي معركة عين أباغ[٢] .

وبعد قليل من هذه الهزيمة جرب قابوس حظه مرة اخرى،غير انه مني بخسارة جديدة ، وكانت هذه الغارة حوالي سنة (٥٧٠ م)[٣] .

وجـــرب قابوس حظه مرة أخرى منتهزاً فرصة القطيعـــة بين المنذر والقيصر (يسطينوس) (Justinus) ، وهي قطيعة لا نعلم أسبابها على وجه التحقيق ، وانما يعزو ابن العبري سببها الى مطالبة المنذر للقيصر بدفع مال اليه ليتمكن بـــه اعداد جيش قوي منظم يستطيع الوقوف به أمام الفرس[٤] . فأغار على حدود الروم وتوغل في الأرضين التابعة لهم حتى وصل أتباعه الى منطقة (انطاكية)[٥] . وقد دامت تحرشات (عرب الفرس) بحدود الروم ثلاث سنين هي مدة القطيعة،حيث كان المنذر قد ذهب مع اتباعه الى الصحراء فاحتمى فيها،ولم تنقطع هذه التحرشات الا بعد مصالحة الروم له في الرصافة . حينئذ جمع المنذر اتباعـــه وفاجأ المناذرة بهجوم خاطف كابدت منه الحيرة الأمرين ، وأطلق من كان في سجون الحيرة من أسرى الروم . وقـد وقعت هذه المفاجأة حوالي سنـــة (٥٧٨ م) . ويظن (روتشتاين) انها وقعت بعد وفاة قابوس في عهد المنذر الرابع أخي (قابوس) وخليفته في الملك[٦] .

وقد ذكر (البكري) بيتاً من الشعر لأبـي دؤاد وردت فيه اشارة الى غزوة

---

١ John of Ephesus, VI, 3, Rothstein, S. 103.
٢ Rothstein, S. 103.
٣ Rothstein, S. 103.
٤ Bar Hebraeus, I, P. 79.
٥ John of Ephesus, P. 348, Rothstein, S. 104.
٦ Rothstein, S. 104.

غزاها قابوس عرفت بـ (يوم قحاد) . ويظهر ان خصوم قابوس أخذوا بثأرهم من هذا اليوم بغزوة قاموا بها على تنوخ[1] .

ويفاجئنا بعض الأخباريين بذكر رجل يقال له (فيشهرت) أو (السهرب) او (السهراب) ، قالوا انه هو الذي تولى الملك بعد قابوس[2] . وقد جعل حمزة مدة حكمه سنة واحـــدة في ايام (كسرى أنو شروان)[3] . ولم يشر الأخباريون الى الأسباب التي ادت الى تعيين هذا الرجل الغريب ملكاً على الحيرة دون سائر آل لخم ، ومنهم المنذر أخو عمرو بن هند وقابوس ، فلعل اضطراباً حدث في المملكة او نزاعاً وقع بين اولاد قابوس او بين آل لخم ادى الى تدخل الفرس فقرروا تعيين رجل غريب عن اهل الحيرة لأمدٍ حتى تزول أسباب الخلاف ، فقرروا تعيين واحد منهم . فلما زالت تلك المواقع ، عيّن المنذر ملكاً على الحيرة وبذلك عاد الملك الى آل لخم .

ويلاحظ ان بعض الأخباريين لم يذكروا اسم فيشهرت او السهراب، بل ذكروا ان الملك انتقل الى المنذر بعد وفاة اخيه قابوس[4] . وذكر المسعودي في كتابه : مروج الذهب النعمان بن المنذر مباشرة بعد قابوس[5] .

واذا صحت رواية حمزة من ان حكم المنذر كان ثمانية أشهر في عهد (كسرى أنو شروان) وثلاث سنين واربعة أشهر في ايام (هرمز بن كسرى) ، فيجبه ان يكون حكمه قد امتد من سنة (٥٧٩) حتى سنة (٥٨٣) للميلاد[6] ، تقريباً لأن نهاية حكم (أنو شروان) كانت في سنة (٥٧٩) للميلاد عـلى رأي المؤرخين ، وحكم (هرمز) من سنة (٥٧٩) حتى سنة (٥٩٠) للميلاد[7] .

ويظهر من شعر منسوب الى الشاعر (المرقّش) ان (المنذر) كان ينقب عنه أي : يستقصي في طلبه ، ولم يذكر سبب ذلك ، ولعله كان قد هجاه ، او ان

---

١ البكري • معجم (١٤٩/٣) (طبعة السقا) •
٢ حمزة (ص ٧٣) ، المحبر (ص ٣٥٩) ، الطبري (٢١٣/٢) (دار المعارف)•
٣ حمزة (ص ٧٣) ، المحبر (ص ٣٥٩) ، (فيسهرب الفارسي) ، مفاتيح العلوم (٦٩) •
٤ اليعقوبي (١٧٢/١) •
٥ مروج (٢٤/٢) •
٦ حمزة (ص ٧٣) ، المحبر (ص ٣٥٩) ، (ثم ولي بعده المنذر ابو النعمان اربع سنين) ، الطبري (٢١٣/٢) •
٧ Ency., 4, 178.

جماعة وشت به عنده ، فصار يبحث عنه للايقاع به . وقد طلب في شعره هذا من الملك المذكور أن يكف عن طلبه ويسكت عنه ، وتمنى لو انه في (الزج) وهو موضع ، أو (بالشام ذات القرون) . وذلك لأن بلاد الشام بلاد كانت تحت حكم الروم ، فليس للمنذر حكم عليها ، فهو يكون بها في بلاد العدو بعيداً عن المنذر . وذكر (ابن قتيبة) ان معنى (ذات القرون) الروم ، وأراد قرون شعورهم[1] .

ويظهر من شعر لـ (سويد بن خذاق) أن (قابوس بن هند) وأخاً من إخوته لم يذكر الشاعر اسمه ، غزّوا قومه ، وهم من عبد القيس ، وانتصرا عليهم وانزلا بهم خسارة فادحة ، يوم العُطيف : فَفَرّقا القبائل ، وكانت أحلافاً متحالفة ، وشتتا الشمل . ودعا (الله) أن يجزيهما شرّ الجزاء بما فعلا ، وأن يحبس لبن (لبون الملك) ، فلا تدر عليه ، جزاء وفاقاً لما قاما به نحو قومه[2] .

أما الذي خلفه على الحيرة ، فهو النعمان بن المنذر المعروف بأبي قابوس . وقد كنّاه بعض الشعراء بـ (أبي قبيس)[3] . كما كنّاه بعضهم بـ (أبي منذر)[4] . ويذكر أهل الأخبار ان الناس كانوا إذا دخلوا على النعمان أو كلّموه ، قالوا له: (أبيت اللعن) . وذكر المسعودي : انه (هو الذي يقال له : أبيت اللعن)[5] .

اما أم النعمان ، فهي (سلمى بنت وائل بن عطية بن كلب) . او (سلمى بنت عطية)[6] . وقد نسبها بعض الأخباريين الى سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ. وقالوا إنها من فدك ، وزادوا في ذلك انها كانت امة للحارث بن حصن بن ضمضم ابن عدي بن جناب من كلب من دومة الجندل[7] . فهي بنت صائغ من فدك على رواية بعض ، وأمة من دومة الجندل على رواية بعض آخر . وهي في كلتا الحالتين من طبقة وضيعة لا تليق بأسرة مالكة ، ولعلها من أصل يهودي[8] ، إذ

---

١ المعاني الكبير (٢/٧٩٧) .
٢ الشعراء والشعراء (ص ٢٢٩) ، (ليدن) .
٣ في شعر النابغة ٣٠ ، ٧ ، ٣١ ، ١ ، علقمة ١٢ . Rothstein, S. 107.
٤ Rothstein, S. 107.
٥ مروج (٢/٢٤) (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٦ مروج (٢/٢٤) ، الاغاني (١١/١٣) (دار الكتب المصرية) ، الاغاني (٢/١٠٦) ، (القاهرة ١٩٢٨) .
٧ الطبري (٢/١٤٧) .
٨ Rothstein, S. 108.

كان أكثر اهل فدك من اليهود . وكانوا يحترفون الحرف ومنها الصياغة . وقد دُعي النعمان بأمه،فقيل له ابن سلمى في شعر الهجاء ، وقصدهم من ذلك إهانته .

وقد تولى النعمان الثالث ، وهو النعمان الذي نتحدث عنه ، الحكم في حوالي السنة (٥٨٠) أو السنة (٥٨١) للميلاد . ودام حكمه حتى السنة (٦٠٢ م)[١] .

والظاهر من وصف الأخباريين له أنه كان دميم الخلقة ، فقالوا : إنه كان أحمر ، أبرش ، قصيراً[٢] . وهذا مما قوى جانب خصومه في التهكم به ، يضاف الى ذلك أصل أمه ، وقد أثر هذا النقص الذي لا يد له فيه ، في نفسية النعمان، وفي سلوكه ، ولا شك ، فصيره سريع الغضب ، أخاذاً بالوشايات ، فوقع من أجل ذلك في مشكلات عديدة . وقد يكون تسرعه الى تصديق ما قاله الواشون عن عديّ بن زيد ، وتأثره بأقوالهم من غير تحقيق ولا امتحان وقتله له ، من جملة تلك العوامل التي أدت الى هلاكه . وقد يكون اللقب الذي لقب به، وهو (الصعب)[٣] ، وصفاً لتلك السجايا التي اتصف بها الملك ، والتي تعبر عن عقدة (مركب النقص) التي كانت ملازمة له .

وقد كان لقبح النعمان ودمامته ولأصل امه دخل ولا شك في تكوين الخلق العصبي فيه ، فصار يهيج ويتأثر به ، ويأخذ بأقوال الوشاة من غير تمحيص ولا تروٍ ، فنقمت منه الناس ، وهجاه بعض الشعراء .

اما اخوته وكانت عدتهم اثني عشر رجلاً عدا النعمان ، فقد اشتهروا بالجمال والهيبة والوسامة ، ولذلك نعتوا بالأشاهب ، فوصفهم الأعشى بقوله :

وبنو المنذر الأشاهب بالحـ   يرة يمشون غدوة بالسيوف[٤]

وقد أثرت شهرة اخوته بالأشاهب وبالوسامة في طبع النعمان المذكور ، وزادت في عصبيته وفي حدة طبعه وفي تأثره بأقوال الناس .

ويظهر من وصف الشعراء واهل الأخبار للنعمان انه كان صاحب شراب،يحب

---

١ Brockelmann : Die Araber, I, S. 10.

٢ الطبري (٢/١٤٧) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٢٨٥) (الطباعة المنيرية) .

٣ المعاني الكبير (٢/٨٧٨ ، ١٠٢٧) .

٤ الطبري (٢/١٩٤) (دار المعارف) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٢٨٥) (الطباعة المنيرية) .

الخمر ويجالس ندماءه ليشرب معهم ، غير ان الخمر كانت تؤثر فيه وتستولي على عقله ، فتدفعه الى السكر والعربدة والتطاول على ندمائه،مما ازعج اصدقاءه وحولهم الى خصوم وأعداء بسبب اهانات لحقت بهم منه في اثناء فقده وعيه وعدم تمكنه من حفظ اتزانه[1] .

وقد عبّر الشاعر (لبيد بن ربيعة العامري) عن النعمان بـ (الصعب ذي القرنين) في شعره ، مما يدل على ان لقب (الصعب) الذي لقبه به كان معروفاً شائعاً بين الناس[2] . وقد يكون معبّراً عن معنىآخر غير معنى الصعوبة في الملك، كأن يكون اطلاقهم له من قبيل اطلاقهم لفظة (تبع) على من ملك من حمير . وأما (ذو القرنين) فقد قيل : إن القرنين هما الضفيرتان ، وان القرن الضفيرة. وقد دعي بذلك لأنه كان قد ربّى ضفيرتين[3] .

وقد جاء في رواية اخرى ان (الصعب ذا القرنين) لم يكن النعمان المذكور كما ذهبت اليه الرواية المتقدمة ، وانما هو (المنذر بن ماء السماء ، وانه هو ذو القرنين)[4] .

ويظهر من بيت الشعر الذي نتحدث عنه وهو :

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً بالحنو في جدث ، أميم ، مقيم

ان (الصعب ذا القرنين) كان قد ثوى في قبره ، فهو يرثيه ويذكره . وذهب الشراح الى ان (الحنو) اسم بلد ، ومعنى هذا ان الملك الذي يشير اليه (لبيد) قد دفن في هذا الموضع ، والذي نعرفه من بعض الروايات ان قبر (النعمان) كان بالحيرة ، وان ابنته هنداً قد دفنت الى جانبه .

ومن الشعراء الذين نسب اليهم هجاء النعمان الشاعر عمرو بن كلثوم ، وله فيه وفي أمه هجاء مرّ . وقد وصف خاله بأنه ينفخ الكير ، ويصوغ القروط بيثرب أي انه كان من صاغة تلك المدينة،وهو مما يؤيد روايات الأخباريين في أصل امه[5].

---

١ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص ٢٥٧) .
٢ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري (تحقيق الدكتور احسان عباس) ، (ص ١٠٩) .
٣ المصدر المذكور .
٤ شرح ديوان لبيد (ص ١٠٩) .
٥ الاغاني (١١/٥٨ وما بعدها) .

لم ينتقل الملك الى النعمان بسهولة ، فقد كان للمنذر جملة أولاد حين أتته المنية ، عدتّهم ثلاثة عشر ولداً معظمهم طامع في الملك . والظاهر ان المنذر كان عارفاً بالخلاف الذي كان بين اولاده ، فلم يشأ ان يزيده بتعيين احد ابنائه . ولا ندري لِمَ لم ينص على اكبرهم جرياً على السنة المتبعة في انتقال الملك. ولعله كان عارفاً بحراجة الموقف وضعف مركز ابنه الكبير ، وعدم تمكنه من فرض نفسه عليهم إذا عينه ونصبه ، لذلك وكل أمره كله إلى اياس بن قبيصة الطائي، فتولاه أشهراً حتى انفرجت المشكلة على النحو التالي على حد رواية ابن الكلبي .

دعا كسرى بن هرمز عديّ بن زيد العبادي ، فقال له : من بقي من بني المنذر ؟ وما هم ؟ وهل فيهم خير ؟ فقال عدي : بقيتهم في ولد هذا الميت، المنذر بن المنذر ، وهم رجال . فبعث اليهم يمتحنهم . فلما وفدوا على كسرى، أنزلهم على عدي بن زيد . فاحتال عدي على هؤلاء الأخوة كما يقول الأخباريون وتظاهر انه يفضلهم على ربيبه النعمان، واوصاهم ان يجيبوا جواباً معيناً حين يسألهم كسرى ، وامر النعمان ان يجيب جواباً آخر يختلف عن جواب اخوته . وهو جواب يعتقد ان كسرى سيرضى عنه ويعينه . فلما ادخلوا على كسرى واجابوا بجواب واحد هو الجواب الذي لقنهم إياه عدي ، وهو : « إن سألكم الملك . أتكفونني العرب . فقالوا نكفيكهم إلا النعمان ، وقال للنعمان : ان سألك الملك عن اخوتك فقل له : ان عجزت عنهم ، فأنا عن غيرهم أعجز » ، رضي كسرى بجواب النعمان وسر به ، فملكه وكساه ، وألبسه تاجاً قيمته ستون ألف درهم فيه اللؤلؤ والذهب[1] . فانتصر بذلك النعمان على اخوته ، وسر عديّ بن زيد بتولي ربيبه الملك .

وفي خبر لأبي الفرج الأصبهاني ان عدي بن زيد اخذ النعمان الى (جابر بن شمعون) ، وهو من (بني الأوس بن قلام بن بطين بن جمهير بن لحيان من بني الحارث بن كعب) ، وكان أسقفاً على الحيرة ، فاقترضا منه مالاً لتدبير امورهما به ، وذكر ان جابراً هو صاحب القصر الأبيض الذي بالحيرة[2] ، وكان

---

١ الطبري (٢/ ١٤٧) ، (٢/ ١٩٥ وما بعدها) (دار المعارف) ، الاغاني (٢/ ١٠٦ وما بعدها) (دار الكتب المصرية) .

٢ الاغاني (٢/ ١١٥) (دار الكتب المصرية) .

ذا سلطان واسع في بني قومه ، ولذلك فقد يكون لأخذ عدي للنعمان اليه للحصول على تأييده أثر في نجاحه في تولي العرش .

ويروي المفضل الضبي ان عدي بن زيد العبادي لما قدم على النعمان صادفه لا مال عنده ولا اثاث ولا ما يصلح للملك ، وكان آدم اخوته منظراً ، وكلهم اكثر مالاً منه ، فقال له عدي : كيف اصنع بك ولا مال عندك ! فقال له النعمان : ما أعرف لك حيلة الا ما تعرف انت ، فقال له : قم بنا نمضي الى ابن قردس – رجل من أهل الحيرة من دينه – فأتياه ليقترضا منه مالاً ، فأبى ان يقرضهما وقال : ما عندي شيء . فأتيا جابر بن شمعون ، وهو الأسقف وهو أحد بني الأوس بن قلام بن بطين بن جمهر بن لحيان من بني الحارث بن كعب ، فاستقرضا منه مالاً ، فأنزلهما عنده ثلاثة ايام ، يذبح لهم ويسقيهم الخمر . فلما كان في اليوم الرابع ، قال لهما : ما تريدان ؟ فقال له عدي : تقرضنا اربعين الف درهم يستعين بها النعمان على امره عند كسرى ، فقال : لكما عندي ثمانون الفاً ، ثم اعطاهم اياها ، فقال النعمان لجابر : لا جرم ، لا جرى لي درهم الا على يديك إن انا ملكت[1] !

ولكن انتصار النعمان ادى الى هلاك عدي بن زيد على ما يقوله الأخباريون ، فقد كان لعدي ، كما لكل رجل كبير صار له نفوذ وجاه ومركز خطير ، اعداء في مقدمتهم رجل اسمه كاسمه ودينه مثل دينه ، هو (عدي بن اوس بن مرينا) ، وبنو مرينا اسرة لها مكانتها وخطرها في الحيرة . وكان لهذا الرجل شأن يذكر في ايام المنذر ، وكان يميل الى الأسود بن المنذر لأنه ربيب بني مرينا ، فنصحه ان يتجنب الأخذ برأي عدي بن زيد ، لأنه رجل لا ينصح . فلما اخفق الأسود في الامتحان ، وعجز عن نيل التاج ، صار يدبر المؤامرات لخصمه عدي ، ويشي به الى النعمان ، ويغري آخرين بالتظاهر بأنهم من محبي عدي ، ليثق النعمان بهم ، فإذا أمن بهم ، عادوا فوشوا بعدي عنده ، ثم لم يكتف بذلك فوضع رسائل على لسان عدي الى قهرمان لعدي فيه مكر ومؤامرة بالنعمان ، ثم دس له حتى اخذ الكتاب ، فجاء به الى النعمان ، فلما قرأه صدق بما جاء فيه، وغضب على عدي وقرر الانتقام منه[2] .

---

١ الاغاني (٢/١١٥ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/١٤٧ وما بعدها) ، اليعقوبي (١/١٧٣) ، الاغاني (٢/١٠٨ وما بعدها) (دار الكتب المصرية) .

جرت كل هذه المؤامرات على ما يقوله الأخباريون ، وعديّ عند كسرى يقوم بوظيفته لا يدري بها . فلما كتب النعمان اليه : « عزمت عليك الا زرتني ، فإني قد اشتقت الى رؤيتك » . صدّق كلامه ، واستأذن كسرى فأذن له . وسار الى منيته وهو لا يدري ما يخبئه له القدر . فلما وصل الى من كان مشتاقاً الى رؤيته ، ألقاه في سجن منفرد لا يدخل عليه فيه أحد ، وهو لا يدري بمَ سجن . وفي السجن أخذ ينظم أشعاراً يتضرع فيهما الى النعمان أن يفك أسره ، ويعظه فيها بالموت وبمن هلك قبله من الملوك الماضين ، وكاد يطلقه لولا وشاية أعدائه به . فلما طال سجنه، كتب بشعر الى أخيه (ابي) وهو مع كسرى يستجير به للتوسط لدى كسرى أن يكتب الى النعمان يأمره بفك أسره . فلما كتب كسرى بذلك كتاباً أرسله مع شخص الى النعمان ، كتب خليفة النعمان عند كسرى اليه يبلغه بمجيء الرسول ، وعرف أعداء عديّ من (بني بقيلة) من غسان، فقالوا للنعمان : اقتله الساعة قبل وصول الرسول اليك ، فان لم تفعل فسيذهب الى كسرى فلا يستبقي أحداً لا أنت ولا غيرك . فبعث اليه النعمان أعداءه فغموه حتى مات في سجنه بالصنّين . ولما وصل الرسول ، رُشي بهدايا كثيرة نفيسة ، فعاد الى كسرى يخبره أن عدياً مات قبل وصوله بأيام[1] .

وقد أحس عديّ بن زيد كما يقول الأخباريون بامتعاض خصمه عديّ بن أوس بن مرينا من الحيلة التي دبرها لنجاح النعمان وبمحاولته الغدر به ، فأراد مصالحته واسترضاءه كما يقول الاخباريون فعمل له طعاماً دعا اليه من أحب عديّ ابن أوس بن مرينا حضوره ، وحلف بعد انتهاء الطعام في البيعة أنه لن يحقد عليه ، وأنه سيتناسى ما حدث ، ورجا من خصمه أن يفعل مثله . فقام عديّ ابن أوس الى البيعة ، فحلف مثل يمينه أن لا يزال يهجوه أبداً ويبغيه الغوائل ما بقي . وقد كان[2] . وهم يروون شيئاً من هذا التهاجي الذي وقع بين الخصمين.
ويذكر أهل الأخبار ان عدي بن مرينا صار يحرض الأسود ويحثه على الأخذ

---

١ الطبري (٢/١٥٢) ، اليعقوبي (١/١٧٣) ، مروج الذهب (٢/٢٥ وما بعدها) الاغاني (٦/٦٥) (دار الكتب المصرية) ، الكامل لابن الاثير (١/٢٨٦ وما بعدها) (الطباعة المنيرية) ، المعاني الكبير (٣/١٢٦١ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/١٤٧) .

بثأره من عدي بن زيد ، فكان يقول له : « أما اذا لم تظفر ، فلا تعجزن أن تطلب بثأرك من هذا المعدي الذي فعل بك ما فعل،فقد كنت أخبرك ان معداً لا ينام كيدها »[1] . وعدي من تميم ، وتميم من معد .

وهناك روايات أخرى في أسباب غضب النعمان على عدي وحبسه له في الصنين. لا تخرج في جملتها عن حدود هـذه المنافسة التي دبرها عدى بن مرينا وخصوم عدي له ، ولكنها تجمع كلها على قتل النعمان لعدي[2] .

وفي كتاب الأغاني رواية تذكر ان النعمان أرسل ذات يوم الى عدي بن زيد ان يأتيه ، فأبى أن يأتيه ، ثم أعاد رسوله فأبى أن يأتيه ، وقد كان النعمان شرب ، وأمر به فسحب من منزله حتى انتهى به اليه،فحبسه في الصنّين بظاهر الكوفة من منازل المنذر ، وبه نهر ومزارع ، وبقي هناك حتى لاقى حتفه[3] .

ويظهر من شعر ينسب الى عدي ، قاله لابنته يوم باتت عنده مع أمها في السجن ، وهي جويرية صغيرة ، ان النعمان كان قد أمر بوضع الغلّ في يديه[4] .

والقصة كما يرويها الأخباريون قصة طريفة تصلح أن تكون موضوعاً لشريط سينمائي اختلط فيها التأريخ بالخيال ، والواقع بالابداع . أما نحن فلا يهمنا من أمرها الا النتيجة ، وهي ان الفرس قبضوا على النعمان ملك الحيرة وسجنوه ، وان حادثاً وقع بعد ذلك كان وقعه عظيماً في نفوس العرب ، لا في العراق وحده ، انما دوى صداه الى جميع جزيرة العرب كلها ، هو حادث وقعة ذي قار، وهي من الوقائع الفاصلة في تأريخ الجزيرة كان لها أثر في فتح الاسلام للعراق .

وندم النعمان كما يقول الأخباريون على ما صنع ، واجترأ أعداء عدي عليه ، وهابهم هيبة شديدة . وبينما كان يوماً في صيده ، اذ به يشاهد غلاماً ظريفاً ذكياً ففرح به فرحاً شديداً . فلما عرف انه زيد وانه ابن من أبناء عدي، قرّبه وأعطاه وحباه ، ثم أرسله الى كسرى ، وكتب معه كتاب توصية رقيقة يشير فيه الى منزلة عدي منه والى خسارته بوفاته والى عظم المصيبة ، ويوصي كسرى بالولد خيراً . فلما وصل زيد الى كسرى ، جعله مكان أبيه وصرف عمه الى عمل آخر،

١ الاغاني (١٠٩/٢) (دار الكتب المصرية) .
٢ شعراء النصرانية (ص ٤٥٠) .
٣ الاغاني (١١٥/٢ وما بعدها) .
٤ مجالس العلماء (١٦٢ وما بعدها) .

فكان هو الذي يلي ما يكتب به الى أرض العرب وخاصة الملك . ولما مضى وقت على زيد في هذه الوظيفة ، وقع عند الملك بهذا الموقع مكاناً حسناً،وتعالت منزلته عنده . ولما اطمأن الى مركزه أخذ يدبر مكيدة الانتقام من النعمان قاتل أبيه حتى نجح في مسعاه ، اذ قبض عليه كسرى فبعث به الى سجن خانقين ، فلم يزل في السجن حتى وقع الطاعون فمات فيه . وفي رواية انه مات بساباط[1] . وقد رجح الطبري رواية خانقين ، وانه مات بسحق الفيلة له . وفي رواية أخرى انه سجن في القطقطانه في البر[2] . وهكذا نجد الرواة يذهبون جملة مذاهب في سجن النعمان.

والذين يروون ان حبس النعمان كان بساباط يستشهدون بشعر للأعشى جاء فيه:

فذاك وما أنجى من الموت ربه بساباط حتى مات وهو محرزق[3]

وقد ذكر المسعودي قصة حبس النعمان ووفاته فقال : « وأمر كسرى النعمان فجلس في مجلسه بساباط المدائن ، ثم أمر به فرمي تحت أرجل الفيلة ، وقال بعضهم : بل مات في محبسه بساباط »[4]،مما يدل على ان وفاته كانت في المدائن.

وفي رواية سريانية ان كسرى بعد أن قبض على النعمان بن المنذر وأولاده سقاهم سماً فماتوا ، وعصى عندئذ العرب الفرس وأخذوا يهاجمونهم . فأرسل كسرى قائداً سمته الرواية بـ (بولر) تولى أمر الحيرة ، ولكنه لم يتمكن من ضبط أمورها ، لشدة أهلها ، فانصرف عنها وترك أمرها لمرزبان اسمه (رزوبى

---

١ البلدان (٧/١٢٥) ، ابن الاثير (١/١٧٣) ، (هو ساباط كسرى بالمدائن ، اللسان (٧/٣١١) ، (سبط) .

٢ البلدان (٧/١٢٥) ، الاغاني (٢/٢٨) ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الثالثة (٢٥١) .

٣ الاغاني (٦/٦٥) (دار الكتب المصرية) ، الكامل ، لابن الاثير (١/١٨٥ وما بعدها) ، مروج الذهب (٢/١٠٠ وما بعدها .) ، (هوساباط كسرى بالمدائن ، وبالعجمية بلاس آباد ، وبلاس اسم رجل ، ومنه قول الاعشى :

فأصبح لم يمنعه كيد وحيلة بساباط حتى مات وهو محرزق

يذكر النعمان بن المنذر وكان (أبرويز حبسه بساباط ثم القاه تحت أرجل الفيلة . وساباط : موضع ، قال الاعشى :

هنالك ما اغنته عزة ملكه بساباط ، حتى مات وهو محرزق) ، اللسان (٧/٣١١) ، (سبط) .

٤ مروج (٢/٢٦) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ، (ثم النعمان بن المنذر . وهو الذي قتله أبرويز تحت ارجل الفيلة ، وهو اخر ملوك لخم) ، مفاتيح العلوم (٦٩) .

مرزوق) ، أقام في برية الحيرة في حصن حفنة ، وأخذ يقاتل منه الأعراب[1] .

وفي رواية لـ (حمزة الأصفهاني) أن كسرى لما سخط على النعمان بن المنذر واستدرجه اليه من وسط البادية ، رمى به الى أرجل الفيلة ، واستباح أمواله وأهله وولده ، وأمر ان يباعوا بأوكس الأثمان[2] .

وتذكر بعض الروايات سبب غضب (كسرى) على النعمان ، أن (زيد) ، وهو ابن المقتول (عدي بن زيد) الذي نال مكانة عظيمة عند كسرى ، أو عمه ، كانا قد دبّرا مكيدة للإيقاع بالنعمان . فلما طلب (ابرويز) النساء ، دخل عليه (زيد) ، فكلمه فيما دخل فيه ، ثم قال : إني رأيت الملك كتبَ في نسوة يُطلّبن له ، فقرأت الصفة ، وقد كنت بآل المنذر عالماً ، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة . قال : فتكتب فيهن . قال : أيها الملك ، إن شرّ شيء في العرب وفي النعمان خاصة أنهم يتكرّمون عن العجم ، فأنا أكره أن يغيّبهن ، فابعثني وابعث معي رجلاً من العجم من حرسك يفقه العربية ، حتى أبلغ ما تحبه . فبعث معه رجلاً جليداً فخرج به زيد حتى بلغ (الحيرة) . فلما دخل على الملك النعمان ، قال : إنه قد احتاج الى نساء لأهله وولده ، وأراد كرامتك بصهره ، فبعث اليك . فشق عليه ، فقال لزيد : أما في بَقَر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا؟ فقال زيد للنعمان : إنما أراد كرامتك ، ولو علم أنّ هذا يشق عليك ، لم يكتب اليك به . وعادا . فلما دخلا على (كسرى) ، وقصّا عليه ما وقع وحدث ، عرف الغضب في وجهه ، ووقع في قلبه منه ما وقع . وسكت (كسرى) على ذلك أشهراً ، ثم فعل ما فعل بالنعمان[3] . وانتقم (زيد) بهذه المكيدة من النعمان قاتل والده .

وقد أشير الى مصرع النعمان في شعر عدد من الشعراء مثل سلامة بن جندل ،

---

١ Histoire Nestorienne, IIme Partie, pp. 539, 546.

٢ حمزة (ص ٤٢) .

٣ الطبري (٢/٢٠١ وما بعدها) ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الثالثة ، رسالة ابي غرسيه (ص ٢٥٠ ـ ٢٥١) ، رسالة أبي يحيى بن مسعدة (ص ٢٧٧) ، رسالة لابي الطيب بن من القروي (٣١٩ وما بعدها) .

وقد ورد فيه ذكر القاء كسرى للنعمان تحت أرجل الفيلة[١] . ويتفق هذا الرأي مع رأي ابن الكلبي ويعارض رواية لحمّاد جاء فيها أنه مات بحبسه في ساباط[٢] .

وذكر أن هانىء بن مسعود الشيباني كان في جملة من رثى النعمان في شعر . وقد نعته بـ (ذي التاج) ، ويفهم من رثائه له أن موته كانت تحت أرجل الفيلة ، حيث داست على رأسه . وورد في شعر شعراء آخرين أن (فيول الهند) تخبطته وداست عليه[٣] .

وهناك قصيدة نسبها بعضهم الى زهير بن أبي سلمى ، ونسبها آخرون الى صرمة الأنصاري . ذكر فيها كيف ذهب النعمان – قبل ذهابه الى كسرى – الى من كان يحسن اليهم ، ويغدق عليهم الألطاف ، فلما غضب عليه كسرى لم يجره هؤلاء ، ولم يساعدوه إلاّ ما كان من بني رواحة من عبس ، فشكرهم النعمان وودعهم وأثنى عليهم،وقال لهم : لا طاقة لكم بجنود كسرى ، فانصرفوا عنه[٤].

وساباط : هو على ما يذكره أهل الأخبار ، موضع بالمدائن ، به كان حبس النعمان على رواية من صرح بأنه كان محبسه لا موضعاً آخر ، ثم ألقاه تحت أرجل الفيلة . وذكر (ابن الكلبي) أنه إنما سمي بساباط نسبة الى (ساباط بن باما) أخي النخيرجان الذي لقي المسلمين في أهل المدائن[٥] .

ويظهر من شعر (الأعشى) ان (كسرى) أمر بالنعمان فحبس بـ (ساباط) ثم ألقاه تحت أرجل الفيلة فوطئته حتى مات . يقول الأعشى :

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه نحور الفيول بعد بيت مسردق[٦]

وللبيد بن ربيعة العامري قصيدة نظمها في رثاء النعمان . من أبياتها :

له الملك في ضاحي معد،وأسلمت اليه العباد كلهـا مـا يحاولُ

---

١ شعراء النصرانية (ص ٤٩١) .
٢ شعراء النصرانية (ص ٤٦٤) .
٣ مروج الذهب (٢/١٠١) .
٤ شعراء النصرانية (ص ٥٨٤) ، الكامل ، لابن الاثير (٦/٢٨٧) (الطباعة المنيرية) ، مروج الذهب (٢/١٠١) .
٥ ديوان الاعشى ، قصيدة ٢٦ ، (ص ١٢٨) ، اللسان ، (٧/٣٠٨) بيروت ١٩٥٦ م ، البلدان (٣/١٦٦) ، دائرة المعارف الاسلامية ، لمحمد فريد وجدي (٧/٢٤) .
٦ المعارف (ص ٦٥٠) .

وضاحي معد ، بمعنى ظاهر معد، لا في معد نفسها ، لأن (ربّ معد) في ايامه هو (حذيفة بن بدر) . أما النعمان فهو ملك على ما وراء ديار معد . والعباد هنا هي القبائل النصرانية المعروفة من أهل الحيرة[1] .

وقد ذكر الأخباريون انه كان يتوقع ان يدبر له كسرى مكيدة ، فقرر أن ينجو بنفسه قبل حلولها به ، فلحق بجبليْ طيء ، وكان متزوجاً اليهم ، فأراد النعمان ان يدخلوه الجبلين ويمنعوه ، فأبوا عليه خوفاً من كسرى ، فأقبل وليس أحد من العرب يقبله حتى نزل (ذو قار) في بني شيبان سراً ، فلقي هانيء بن مسعود الشيباني ، وكان سيداً منيعاً ، فأودعه أهله وماله وسلاحه ، ثم توجه بعد ذلك الى كسرى ، حيث لقي مصرعه[2] .

أما زوجة النعمان هذه ، فهي ابنة (سعد بن حارثة بن لأم الطائي) ، وهو من أشراف طيء البرص ، وكان (النعمان) قد جعل لبني لأم بن عمر ربع الطريق طعمة لهم ، وذلك بسبب زواجه المذكور[3] .

وذكر ان أحد أولاد (النعمان بن المنذر) كان شاعراً،وقد عرف بـ (المحرق) فلما سمع بقتل (كسرى) لأبيه ، قال شعراً يخاطبه فيه ، منه قوله :

قولا لكسرى ، والخطوب كثيرة : إنّ الملوك بهرمز لم تحبر[4]

ويروى ان النابغة الذبياني لما سمع بمقتل النعمان ، رثاه بأبيات . وهي إن صح انها من شعر النابغة حقاً ، تدل على ان هذا الشاعر قد عاش أيضاً بعد مقتل النعمان[5] . وروي ، ان (زهير بن أبي سلمى) رثى النعمان كذلك[6] .

ويروي أهل الأخبار شعراً زعموا أن (عدي بن زيد) قاله لأهل بيت النعمان ، هو :

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ٢٥٧) .
٢ الكامل (١/١٧٣) .
٣ المحبر (ص ٣٠١) ، الاغاني (حاتم الطائي) .
٤ المؤتلف (ص ١٨٥) .
٥ العقد الثمين ، (ص ١٦٤) ، شعراء النصرانية (ص ٨٢٠) ، النابغة الذبياني ، لعمر الدسوقي (ص ١٠٨) .
٦ الكامل ، لابن الاثير (١/٢٨٥ وما بعدها) .

فلا يميناً بذات الودع ، لو حدثت فيكم ، وقابل قبر المـاجد الزارا

وقد علق (ابن قتيبة الدينوري) عليه بقوله : « ذات الودع . صنم كان بالحيرة ، ويقال : بل هي الإبل التي تسير الى مكة ، يعلق عليها الودع ، ويقال : إن مكة ، يقال لها : ذات الودع . وواجه قبر النعمان الزار ، وهي الأجمة ، أي : دُفِنَ حذاءها [1] » .

إذَنْ لبؤتم بجمع لاكفـاء له أوتاد ملك تليـد ، جدّه بارا

قال : « أي لو مات لغزتكم الجيوش ، فأقررتم ، أو رجعتم بجيش لا مثيل له ، أوتاداً لملك قديم قد سقط جده ، أي : صرتم كذلك . وهو منصوب على الحال ، ولا يجوز أن يكون منصوباً على النداء ، لأنه لا يجوز أن يدعوهم بذلك ، والنعمان لم يمت » [2] .

وذكر أن ملك النعمان بلغ اثنتين وعشرين سنة . وعلى رأس ثلاث سنين وثمانية أشهر مضت من ملكه ، كان الفجار الأكبر ، فجار البراض ، وهو لتمام عشرين سنة من مولد الرسول ، ولثماني عشرة سنة وثمانية أشهر مضت مـن ملك النعمان بُنيت الكعبة . وذلك لاحدى عشرة سنة مضت من ملك أبرويز كسرى بن هرمز [3] .

ولا نعلم عن أعمال النعمان الحربية في بلاد الشأم شيئاً يذكر . وقـد ذكر حمزة أنه غزا (قرقيسياء) (Circesium) ، ولكنه لم يعين تأريخ وقوعها ، ويقصد بذلك بالطبع غارة أغارها على أرض الروم [4] . ولم ينسب غيره من المؤرخين العرب أو السريان اليه حروباً أخرى أجج نارها في بلاد الشأم .

---

١ المعاني الكبير (٢/٨٣٨) ، (والودع : وثن . وذات الودع : وثن أيضا . وذات الودع : سفينة نوح ، عليه السلام ، كانت العرب تقسم بها فتقول : بـذات الودع ، قال عدي بن زيد العبادي :

كلا ، يمينا بذات الودع ، لو حدثت فيكم ، وقابل قبر الماجد الزارا

يريد سفينة نوح ، عليه السلام ، يحلف بها ويعني بالماجد النعمان بـن المنذر ، والزار أراد الزارة بالجزيرة ، وكان النعمان مرض هناك . وقال أبـو نصر : ذات الودع مكة لانها كان يعلق عليها في ستورها الودع ، ويقال : أراد بذات الودع الاوثان) ، اللسان (٨/٣٨٧) .

٢ المعاني الكبير (٢/٨٣٨) .

٣ المحبر (٣٦٠) ، حمزة (٧٤) ، مروج الذهب (٢/٢٤) .

٤ حمزة (ص ٧٣) .

وقد ورد في حديث الطبري عن قصة سجن النعمان لعدي ما يفيد أن النعمان خرج يريد البحرين ، فأقبل رجل من غسان،فأصاب في الحيرة ما أحب.وقد قيل: إن هذا الرجل هو (جفنة بن النعمان الجفني)[١] . ولعل هذه الغارة هي واحدة من جملة غارات قام بها الغساسنة على الحيرة . وفي شعر النابغة الذبياني اشارات الى أمثال هذه الغارات[٢]. ويفيد خبر رواه المؤرخ (ثيوفلكتس) (Theophylaktus) ان عرب الروم أغاروا على عرب الفرس حوالي سنة (٦٠٠م) ، أي في أثناء الصلح الذي عقد بين الروم والفرس[٣] .

وقد ذكر (الطبري) ان هذه الغزوة كانت في أيام وجود عدي بن زيد في سجنه فلما سمع عدي بها قال :

سما صقر فأشعل جانبيها والهاك المروحُ والغريب[٤]

وقد ورد اسم (السيلحون) في جملة المواضع التي كان يجبيها النعمان ، وذلك في شعر لأعشى قيس[٥] . ويقع السيلحون في البرية بين الكوفة والقادسية ، كما ورد اسم هذا الموضع في شعر لهانىء بن مسعود الشيباني يرثي فيه النعمان ويذكر قتل كسرى اياه[٦] . ويظهر انه كان من جملة المسالح التي تحمي الحدود من البادية . والمسالح هي مواضع في الثغور يوضع فيها الجنود والمسلحون لحماية الحدود من الأعداء[٧] .

ولم يكن النصر حليف النعمان في اليوم المعروف بيوم الطخفة (يوم طخفة) ، وهو يوم نسبه بعض الأخباريين أيضاً الى قابوس بن المنذر بن ماء السماء ، كما نسبه

---

١ الطبري (١٤٨/٢) .

٢ ديوان النابغة (٢٧ ، ٣٥) (طبعة Ahlwardt) Rothstein, S. 112

٣ Theophylaktus, VIII, I, Nöldeke, Ghass., S. 39, Rothstein, S. 112.

٤ الطبري (١٩٨/٢) (دار المعارف) .

٥ ولا الملك النعمان يوم لقيته بأمته يعطى القطوط ويافق
وتجبى اليه السيلحون ودونها صريفون في انهارها والخورنق
شعراء النصرانية (ص ٣٨٣) ، البكري ، معجم (٧٧٢/٣) ، تاج العروس (٢٣١/٩) ، مراصد (٧٦٧/٢) .

٦ البلدان (١٩٦/٥) .

٧ البلدان (١٩٨/٥) وما بعدها .

بعض آخر الى المنذر بن ماء السماء . وخلاصة الحادث : ان حاجب بن زرارة الدارمي التميمي سأل النعمان أن يجعل الردافة للحارث بن بيبة بن قرط ابن سفيان بن مجاشع الدارمي التميمي . وكانت لبني يربوع ، يتوارثونها صغيراً عن كبير ، وكان الرديف يجلس عن يمين الملك . فلما سأل النعمان موافقتهم على نقل الرادفة منهم ، أبوا ذلك ، لما لها من منزلة ومكانة ، فبعث اليهم قابوساً ابنه وحسان أخاه على رأس جيش كثيف فيهم الصنائع والوضائع وناس من تميم وغيرهم ، فساروا حتى أتوا طخفة ، فالتقوا هم ويربوع واقتتلوا ، وصبرت يربوع وانهزمت جموع النعمان ، وأخذ قابوس وحسان أسيرين . فلما بلغ خبر هذه الهزيمة سمع النعمان طلب من أحد بني يربوع – وهو شهاب بن قيس بن كياس اليربوعي – أن يذهب عاجلاً الى بني يربوع ليفك أسر ابنه وأخيه مقابل اعادة الردافة اليهم وأداء دية الملوك وهي ألف بعير للرجل الواحد . وبذلك صالح مرغماً (بني يربوع) . وهذا اليوم من الأيام التي يفاخر بها أبناء يربوع . وقد ورد ذكره في شعر مالك بن نويرة[1] والأحوص[2] وجرير[3] .

ويذكر أهل الأخبار أن (النعمان بن المنذر) طلب (مالك بن نويرة) ، وكان قد أراد استرضاءه ، وهو من (بني يربوع) ، فأبى ، وهرب منه ، وقال فيه شعراً يهجوه ، منه :

لن يذهب اللؤم تاج قد حُبيت به   من الزبرجد والياقوت والذهب[4]

ويدل ذلك على أن (النعمان) ، كان يتوج رأسه بتاج ، فيه ذهب وأحجار كريمة .

وكان (مالك بن نويرة اليربوعي) من (بني تميم) ، لأن (بني يربوع) منهم ،وقد لقب بـ (الجفول) . وهو شاعر شريف ، وأحد فرسان بني يربوع ورجالهم المعدودين في الجاهلية ، ومن أرداف الملوك ، أي ملوك الحيرة . وقد أدرك الرسول ، فأسلم ، وعينه على صدقات قومه فلما بلغه وفاة الرسول ، أمسك

---

١ ابن الاثير ، الكامل (٢/٢٧٢ وما بعدها) ، العقد الفريد (٣/١٠٢) .
٢ البلدان (٣/٥١٨) .
٣ البكري (١/٤٥٢) .
٤ الجواليقي (ص ٣٥٦) .

الصدقة ، وفرقها في قومه ، وجفل إبل الصدقة ، فسمي الجفول . قتله (ضرار ابن الأسود الأسدي) بأمر خالد بن الوليد[1] .

وكان نصيب النعمان من يوم السلان كنصيبه من يوم الطخفة ، وسبب وقوع هذا اليوم هو أن بني عامر بن صعصعة، وكانوا حمساً لقاحاً متشددين في دينهم لا يدينون للملوك، تعرضوا للطيمة كان الملك النعمان بن المنذر يريد ارسالها الى عكاظ لبيعها في السوق . وكان من عادته ارسال لطيمة الى عكاظ كل عام لتباع هناك. فلما بلغ النعمان الخبر ، غضب فبعث الى أخيه لأمه ، وهو (وبرة بن رومانس الكلبي) ، والى صنائعه وهم من مكان يصطنعه من العرب ليغزو بهم،والوضائع وهم الذين كانو شبه سادة القبائل ، وأرسل الى بني ضبّة بن أد وغيرهم من الرباب وتميم فجمعهم ، فأجابوه ، وأتاه ضرار بن عمرو الضبي في تسعة من بنيه كلهم فوارس ومعه حبيش بن دلف ، فاجتمعوا كلهم في جيش عظيم . وأرسل النعمان معهم تجارة ، وأمرهم ألا يتحرشوا ببني عامر الا بعد الانتهاء من عكاظ ومن الأشهر الحرم . فلما انتهوا من عكاظ ، أحست قريش بنيّات جماعة النعمان، فأخبروا بني عامر وحذروهم فاستعدوا للقتال . فلما وصل أصحاب النعمان اليهم ، قاتلوهم عند موضع السلاّن ، وهو موضع قريب من منازل بني عامر ، وتغلبوا عليهم ، وأسروا وبرة بن رومانس الكلبي وعدداً من رؤساء القوم ، وانهزمت جماعة النعمان ، ورضي عندئذ من حملته هذه بدفع دية أخيه وبرة ودية عدد من الرؤساء[2] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان الذي أعلم (بني عامر) بعزم الملك النعمان على الانتقام منهم ، هو وجيه مكة وثريها : عبدالله بن جدعان[3] .

---

١ معجم الشعراء (ص ٣٦٠) .

٢ صبح الاعشى (١/٣٤٠) ، جمهرة ، ابن حزم (١/٣٨١) ، ابن خلدون (٢/٢٥٥) ، القسم الاول ، المجلد الثاني ، الاشتقاق (٢٣٧) ، (الطبعة الاولى بمصر) ، ابن الاثير (١/٢٦٨ وما بعدها) ، البلدان (٥/١٠٤) ، سبائك الذهب ، للسويدي (١١٧) ، المسعودي مروج (٢/٥٤) ، الطبري ، (٢/١٤٧)، اليعقوبي (١/١٤٣) ، البكري ، معجم (٣/٧٤٩) ، (لجنة) المختصر ، لابي الفداء (١/١٠٢) (بيروت) ، الروض الانف ، للسهيلي (١/١٣٣) (الجمالية) نهاية الارب ، للنويري (١/٤١٢) ، ذيل الامالي للقالي (٣/١٤٧) مراصد (٢/٧٢٦) ، العقد الفريد (٣/٣٦٤) .

٣ الكامل فى التاريخ لابن الاثير (١/٢٩٥) .

وكان الذي أسر وبرة (يزيد بن عمرو بن خويلد الصعق) ، وقد أبقى (يزيد) (وبرة) لديه حتى افتدى نفسه منه ، أي من يزيد بن الصعق بألف بعير وفرس . فاستغنى يزيد . فلما أسر (وبرة) ، ثبت جيشه (ضرار بن عمرو الضبي) ، فقام بأمر الناس ، ولكنه وقع في الأسر ، ثم وقع رجل آخر من كبار الجيش في الأسر ، وهو (حبيش بن دلف) ، الذي افتدى نفسه بأربع مئة بعير ، وهزم جيش النعمان[1] .

وقد تعرضت لطيمة النعمان مرة أخرى الى النهب حينما وكل أمر حمايتها الى رجل من هوازن ، فتربص بها رجل خليع معروف اسمه (البراض بن قيس بن رافع) من بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فقتل حامي القافلة وساق الركاب[2] . وكان من عادة النعمان أن يشتري بثمن اللطيمة الأدم والحرير والوكاء والحذاء والبرود من العصب والوشي والمسير والعدني من سوق عكاظ[3] .

وذكرت احدى الروايات ان الذي كان يجيز لطيمة النعمان له هو (سيد مضر)[4] ولم تذكر اسم سيد مضر اذ ذاك .

وورد ان (البراض) وهو (رافع بن قيس) كان من فتاك الجاهلية المعروفين. وكان حالف بني سهم من قريش ، فعدا على رجل من هذيل فقتله ، فخلعه بنو سهم ، ثم جاء الى (حرب بن أمية) فحالفه ، فعدا على رجل من خزاعة فقتله وهرب الى اليمن ، ثم جاء مكة بعد سنة ، فاذا الهُذَليّون والخزاعيون يطلبونه وقد خلع ، فلحق بالحيرة ، فوافق وفود العرب بالحيرة عنده . فأقام يطلب الاذن معهم ، فلم يصل اليه حتى خرج النعمان فجلس للناس بالحيرة وكانت لطائمه التي توافي سوق الموسم اذا دخلت تهامة لم تهج ، حتى قتل النعمان أخا بلعاء بن قيس الكناني ، فجعل (بلعاء) يعترض لطائمه فينتهبها . فخاف النعمان على لطيمته ، فقال يومئذ : من يجير هذه العير ؟ فقال البراض : أنا أجيرها لك . فقال الرحال عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب : أنا أيها الملك أجيرها لك من الحيين كليهما ، وسخر من الرحال وازدراه . فدفع النعمان اللطيمة الى عروة

---

١ أيام العرب (١٠٨) .
٢ شرح ديوان لبيد (ص ٤٨) .
٣ الاغاني (١٩/٧٥) .
٤ الاغاني (١٩/٧٥) .

الرحال ، فتعقبها البراض ، حتى اذا انتهى عروة الى أهله دوين الجريب عماء يقال له (أوارة) ، أنزل اللطيمة ودخل قبته فنام ، ووثب عليه البراض فقتله، ثم أتى خيبر ، فكان بسببه حروب الفجاء بين كنانة وقيس[1] .

وقد عرف بعض العلماء اللطيمة بأنها (سوق المسك) أو العير التي كانت تحمل المسك ، ولكن اللطيمة قافلة كانت تحمل تجارة يرسلها ملوك الحيرة ، ولا سيا النعمان بن المنذر الى سوق عكاظ خاصة لبيعها هناك ، وكانت تعود محملة بما تشتريه من تجارة اليمن والحجاز ، وما يأتي به العرب وسائر التجار الى السوق في أثناء الموسم . وهي تجارة ثمينة تعود على النعمان بأرباح طائلة وثروة كبيرة . ولوصولها سالمة الى السوق ثم لعودتها سالمة من السوق الى الحيرة ، كان لا بد من حمايتها بوضعها في جوار سادات أقوياء شجعان يتعهدون بامرارها بسلام في أرض قبائلهم ثم تسليمها الى سادات الأرض التي تليهم ، وهكذا الى السوق أو العكس . وقد يقوم مجير اللطيمة نفسه بتولي اللطيمة في الذهاب والأوبة ، لمقامه ولوجود عهود جوار بينه وبين سادات القبائل الأخرى ، وإلا تعرضت اللطيمة للسلب والنهب . وإذا ما أغضب الملك خُفراء اللطيمة ، أو انتزاع الخفارة منهم فأعطاها لأناس آخرين،أو أزعج بعض سادات القبائل التي تمر القافلة في أرضهم، فلن ينفعه ملكه في حماية سلامة القافلة ، فتنهب فلا يقبض منها شيئاً ما ، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً لأن سلطانه لا يصل الى كل مكان[2] .

وفي أيام النعمان كان يوم شعب جبلة ، وهو لعامر وعبس على ذبيان وتميم . وهو من أيام العرب المشهورة في نظر الأخباريين . وقد اشترك النعمان فيه بمساعدته لقيط بن الجون الكلبي ملك هجر ، وإرساله أخاه لأمه حسان بن وبرة الكلبي لمعاونة لقيط . ويلاحظ أن الرواة قد لقبوا لقيطاً بلقب ملك ، وأشاروا الى اشتراك جملة ملوك في هذا اليوم[3] .

وكان حسان بن وبرة شقيق النعمان لأمه رئيساً على ضبة . وقد أسره يزيد ابن الصعق في الغارة التي قامت بها بنو عامر على تميم وضبة ، وانهزمت فيها

١ المحبر (ص ١٩٦) .
٢ الكامل في التاريخ (١/٣٥٨) .
٣ العقد الفريد (٦/١٠ وما بعدها) (طبعة العريان) .

تميم . وقد فادى حسان نفسه من يزيد بن الصعق بألف بعير هي فدية الملوك . كما سبق أن ذكرت . وأغار يزيد بعد ذلك على عصافير النعمان وهي إبل معروفة شهيرة كانت اذ ذاك بمكان يسمى ذا ليّان[1] .

ويذكر أن (يوم العذيب) كان في عهد حكم (النعمان) . وكان (النعمان) قد بعث الى (الأصهب الجُعْفي) ينكر عليه بلوغ (سعد بن زيد مناة) و (عنزة) العذيب ، فحشد (الأصهب) لهم ولقيهم ، فقتلوه ، قتله (الأحمر ابن جندل) ، وانهزمت اليمانية هزيمة شديدة ، وأخذ منهم مال كثير وسبي[2] .

وروى أهل الأخبار أن (النعمان بن المنذر) لما توج واطمأن به سريره ، دخل عليه الناس ، وفيهم أعرابي ، فأنشأ يقول :

إذا سُسْتَ قوماً فاجعل الجود بينهم وبينك تأمَنْ كلَّ ما تتخوفُ
فإن كشفت عند الملمات عورة كفاك لباس الجود ما يتكشف

فقال : مقبول منك نصحك ، ممن أنت ؟ قال : أنا رجل من جرم ، فأمر له بمئة ناقة ، وهي أول جائزة أجازها[3] .

ويقال ان (المنذر) أحد أبناء النعمان بن المنذر سقط قتيلاً على يد رجل من تغلب يدعى مرة بن كلثوم ، وهو أخو عمرو بن كلثوم ، ويقال انه قتل أيضاً ابناً آخر من أبناء النعمان[4] .

وكانت للنعمان كتائب يقاتل بها هي : الرهائن والصنائع والوضائع والأشاهب والدوسر . وقد اشتهرت هذه الكتيبة الأخيرة بالشدة وبقوة البطش،فقيل في أمثالهم (أبطش من دوسر)[5] .

أما الصنائع ، فقد ورد في بعض الروايات انهم جماعة كان يصطنعهم الملك من العرب ليحارب بهم ، وكان يأخذهم من (بني ثعلبة) خاصة،يتخذهم كالحرس لا يبرحون بابه . وأما الرضائع ، فألف رجل من الفرس ، يخدمون الملك ليقاتل بهم ، ويستبدلون بمثلهم كل سنة .

---

١ العقد الفريد (٦/٤١ وما بعدها) .
٢ العمدة (٢/٢١٧) .
٣ الامالي للقالي (١/٣٢٩) « بيروت » .
٤ Rothstein, S. 112.
٥ الميداني . مجمع الامثال (٧٨١) .

ويذكر أهل الأخبار انه كان للنعمان بن المنذر أخ من الرضاعة يقال له (سعد القرقرة) من أهل (هجر) كان من أضحك الناس وأبطلهم ، وكان يضحك النعمان ويعجبه[1] . وذكر ان أناساً من البطالين المضحكين كانوا يأتونه لإضحاكه ولنيل جوائزه . وذكروا منهم (العيّار بن عبد الله الضبي) . وكان بطالاً ، يقول الشعر ، ويضحك الملوك[2] .

وقد كان النعمان بن المنذر مثل عمرو بن هند محباً للشعر والشعراء ، والخطب والخطباء ، وقد جعله الأخباريون من خير خطباء زمانه، كالذي يظهر من كلامه مع كسرى ، وقد ذكر انه قال له في مجلس كان حافلاً بوفود الروم والهند والصين ، اجتمعوا عند كسرى . كما نسب اليه وفد ضم أكثم بن صيفي وحاجب ابن زرارة التميمي ، والحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريين ، وخالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين ، وعمرو بن الشريد السلمي وعمرو بن معديكرب الزبيدي والحارث بن ظالم المرّي ، وكانوا خيرة من عرف بالخطابة وحسن الكلام في تلك الأيام[3] .

وروى الأخباريون شعراً من الشعر الذي قاله أصحابه في حضرة النعمان أو في مدحه وفي مدح آل لخم ، كما رووا شعراً في هجائه ، ورووا بعض ما قيل في حضرته من حديث وبعض ما صادفه الشعراء حين كانوا يقصدونه لنيل ما يبتغون مثل حديث حسان بن ثابت الشاعر المخضرم المعروف[4] فقد زاره ومدحه غير أن هواه كان الى الغساسنة أكثر منه الى آل لخم . فقد كان يفتخر بهم ، ويسامي الناس بهم ، وينال جوائزهم حتى وإن لم يكن عندهم . يرسلونها اليه إن لم يكن في استطاعته أن يشخص اليه[5] .

وقد جاء في شعر لـ (حسان بن ثابت) أنه زار (ابن سلمى) ، أي

---

١ الفاخر (ص ٥٦) .

٢ وفد على النعمان بن المنذر فقال له :

ابيت اللعن واسعدك الهك   سلخ التيس وذبحه مستهجن

الفاخر (ص ٥٦) .

٣ العقد الفريد (٢٥٣/١ وما بعدها) (طبعة العريان) ، بلوغ الارب (١٤٧/٣ وما بعدها) .

٤ العقد الفريد (٢٦٧/١) ، الاغاني (٢٧/١٥) (دار الكتب المصرية) ، العقد الفريد (٢٢/٢) .

٥ العقد الفريد (٢٢/٢) .

(النعمان بن المنذر) ، وأنه أكرمه وقدره وحباه ، وتكلم اليه في جماعة من قومه، كانوا في سجنه مقيدين مكبلين بالسلاسل حتى صفح عنهم ، وأطلق لهم حريتهم، وهم أبي ونعمان وعمرو ووافد ، وهم جماعة من أهل يثرب ، كانوا قد حبسوا في سجن (النعمان) . فأما (أبي) ، فهو (أبي بن كعب بن قيس بن معاوية) من (بني النجار) . وأما (نعمان) ، فإنه (نعمان بن مالك بن قوقل ابن عوف بن عمرو) ، وأما (وافد) ، فإنه (وافد بن عمرو بن الاطنابة ابن عامر) من الخزرج . ولم يذكر (حسان) سبب حبس (النعمان) لهم، ووضعهم في السجن مكبلين بالحديد ، مقفولاً عليهم[1] .

وقد ذهب (نولدكه) الى احتمال كون (ابن سلمى) أميراً من أمراء الغساسنة ، كما ذهب الى أن (أبياً) الذي كان في جملة المحكومين هو (أبي ابن ثابت) وهو شقيق حسان[2] .

ويظهر من كلام أهل الأخبار أن النابغة الذبياني كان من أكثر الشعراء صلة بالنعمان . وفي الشعر الذي يرويه الأخباريون عنه وينسبون قوله اليه ، شيء كثير من المناسبات التي وقعت بين الملك وبين هذا الشاعر ، وقد استاء خصوم النابغة من قربه من النعمان ، ونيله جوائزه وألطافه ، فسعوا به اليه حتى غضب عليه ، وهمّ بقتله ، ولم ينجه من القتل إلا هربه من آل جفنه ملوك عرب الشأم ، فبقي في كنفهم مدة ، ثم عاوده الحنين الى صاحبه وحاميه القديم النعمان ، فاعتذر اليه ، وتنصل من التهم التي ألصقها خصومه به ، وعاد يأخذ جوائزه ونعمه كما كان[3] .

وذكر ان النعمان بن المنذر كان يكرم (النابغة) ويحبوه دوماً ، أمر له مرة بمائة ناقة بريشها من نوق عصافيرة ، المعروفة بهجائن النعمان ، وجام وآنية من فضة ، وكانوا اذا حبا الملك بعضهم بنوق يغمزون في أسنمتها ريش النعام ليعلم انها حباء الملك[4] . ذكر (حسان بن ثابت) انه وفد على النعمان بن المنذر فمدحه

---

١ البرقوقي (ص ١١٤ ، ٣٧٧) ، ديوان حسان (D. 17) (هرشفلد) .
٢ غسان (ص ٤٧) .
٣ الاغاني (٢٧/١٥ وما بعدها) (دار الكتب المصرية) ، شعراء النصرانية (٦٤١ ، ٦٤٩ وما بعدها) ، المعاني الكبير (١١٣٠/٢) ، امالي المرتضى (٢٦٤/١) .
٤ أمالي المرتضى (٢٦٥/١ وما بعدها) .

وأجازه الملك على مدحه وأكرمه . وبينا هو جالس عنده ذات يوم ، اذا بالنابغة يدخل قبة الملك ، وكان يوم ترد فيه النعم السود ، ولم يكن بأرض العرب بعير أسود الا له ، فأنشده كلمته التي يقول فيها :

كأنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

فدفع اليه مائة ناقة من الإبل السود ، فيها رعاؤها ، فما حسدت أحداً حسدي النابغة ، لما رأيت من جزيل عطيته وسمعت من فضل شعره[1] .

ويذكر المسعودي ان النابغة دخل على النعمان يوماً ، وكان عنده نديمه خالد بن جعفر الكلابي ، وكان ممن يعطف على النابغة ، فمدح النعمان بشعر ، « فتهلل وجه النعمان بالسرور ، ثم أمر فحشي فوه جوهراً ، ثم قال : بمثل هذا فلتمدح الملوك »[2] .

وتذكر رواية أخرى ان النابغة لما سأل حاجب النعمان الاستئذان للدخول عليه، قال له الحاجب : الملك على شرابه . ولما سأله : من عنده ؟ قال : خالد بن جعفر بن كلاب ! فتوسل اليه بأن يبلغه تحية النابغة ، وأن يسهل له الدخول على الملك ، ففعل وأمر النعمان حاجبه بادخاله عليه . فلما دخل ، سلّم عليه وحياه بتحية الملك ، وجلس وهو يقول : « أيها الملك . أيفاخرك صاحب غسان ؟ فوالله لقفاك أحسن من وجهه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولأمك خير من أبيه ولغدك أسعد من يومه . فضحك النعمان . ثم قال لخالد : من يلومني على حب النابغة ؟ ألك حاجة ؟ قال : نعم . فقضى حوائجه بأسرها ، وأحسن جائزته ، فانصرف داعياً له »[3] .

ويذكر الأخباريون ان آخر مرة اتصل بها النابغة بالنعمان كانت في أثناء مرض الملك النعمان . وكان النابغة هارباً آنذاك على أثر الوشاية به . فلما سمع النابغة بمرضه آثر السفر اليه ، والاعتذار منه . فلما وصل الحيرة ، كان الملك لا زال مريضاً، شديد المرض . وقد حمل سريره على العادة المتبعة عند مرض الملوك مرضاً شديداً،

---

١ الشعر والشعراء (ص ٧١ ، ٧٥) ، (النابغة الذبياني) .
٢ مروج (٢/٢٥) (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٣ مجالس العلماء (٢٥٩ وما بعدها) (عبد السلام محمد هارون) ، لابي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي .

يشرف فيه على الموت . فاستأذن للنابغة في الدخول عليه وانشاده ما نظمه في مدحه فسمح له بالدخول . وأنعم النعمان بالنعم عليه . وهناك روايات تذكر انه عاد اليه قبل هذا الحادث ، فقبل عذره وعفا عنه[1] .

وفي جملة من كان له شرف الاتصال بالنعمان ، وبنيل هباته وجوائزه من الشعراء : المنخل اليشكري ، والمثقب العبدي ، والأسود بن يعفر ، وحاتم الطائي وأمثال هؤلاء .

والأسود بن يعفر شعر معروف ، ذكر فيه (آل محرق) و (الخورنق) و (السدير) . وله أشعار أخرى ذكرها الرواة . وكان قد أقام مدة عند النعمان ينادمه ويؤاكله[2] .

ويذكر أن المنخل اليشكري كان ينادم النعمان وينشده القصائد ، وكان النعمان يكرمه ويقربه اليه ، غير أنه يؤثر شعر النابغة على شعره ، وهذا مما غاظ المنخل وجعله يسعى للايقاع به[3] . فأوغر صدر النعمان عليه ، حتى همّ بقتله ، فهرب النابغة منه ، وخلا المنخل بمجالسة النعمان ، وأصبح من أقرب المقربين اليه. ولكن الدنيا كما يقول الناس لا تدوم ، فما لبث مدة حتى انقلب الحظ على المنخل ، فدفع به الى (عكب) صاحب سجن النعمان ، وهو من بني تغلب ، فسجنه وعذّبه ثم قتله . وقيل بل دفن حياً أو أغرق . ومهما يكن من شيء ، فلم تكن خاتمة هذا الواشي خاتمة حسنة ، وضرب بنهايته المثل كما ضرب بالقارظ العنزي وأشباهه ممن هلكوا ولم يعلم لهم خبر[4] .

ويروى أن (يزيد بن خذاق) الشاعر ، وهو من (الهيصم) ، كان قد هجا (النعمان بن المنذر) ، فبعث النعمان كتيبته التي يقال لها (دوسر)، فاستباحت قومه[5] .

ويذكر أن (لبيد بن ربيعة) كان في وفد زار (النعمان بن المنذر) ، فيه

---

١ الاغاني (١٥/٣٨ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (ص ٧٧) .
٢ الاغاني (١١/١٢٨ وما بعدها) (مطبعة التقدم) ، الشعر والشعراء (١٧٦) ، المعارف (ص ٦٤٦ وما بعدها) ، ابن هشام ، سيرة (١/٩١) ، الامالي ، للقالي (١/٢٥ ، ٧١) .
٣ شعراء النصرانية (ص ٦٤١ وما بعدها) .
٤ شعراء النصرانية (ص ٤٢١ وما بعدها) .
٥ الاشتقاق (٢/٢٠٠) .

أبو البراء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ملاعب الأسنة ، وإخوته طفيل ومعاوية وعبيدة ، لقضاء بعض حوائج لهم ، فوجـدوا عنده (الربيع بن زياد العَبْسي) ، وكان يسمى الكامل ، يأكل مع النعمان تمراً مع زبد ، وكان ينادمه ومعه رجل من أهل الشأم ، يقال له (سرجون بن توفل) (نوفل) ، وكان حريفاً للنعمان ، من (الربيع) ومعهما (النطاسي) وهو طبيب كان له ، ومن ندمائه ، فنظم (لبيد) أبياتاً نابية منفرة في (الربيع بن زياد)، جعلت (النعمان) يعاف من مؤاكلته فتركه[1] . ولما كتب (الربيع بن زياد) الى النعمان في ذلك ، كتب النعمان اليه : « إنك لست قادراً على ردّ ما تكلمت بـه الألسن ، فالحق بأهلك » ، ثم كتب اليه شعراً ، كان مما جاء فيه :

قد قيل ما قيل إن حقاً وان كذبا فما اعتذارك من قول إذا قيلا[2]

ويقال إن (النعمان بن المنذر) ، نظر الى (شبق بن ضمرة) ، المعروف بـ (ضمرة بن ضمرة) ، وهو من رجال (بني تميم) في الجاهلية ، وله لسان وبيان وكلام ، فقال (تسمع بالمعيدي لا أن تراه) (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) . فقال (ضمرة) . (أبيت اللعن ، إن الرجال لا تكال بالقفزان، ولا توزن بالميزان) . واليمانية تجعل هذا للصقعب النهدي ، سيد بني نهد ، الذي أخذ مرباعهم دهراً .

وإلى النعمان هذا نسب بعض الأخباريين قتل عبيد بن الأبرص ، وذلك لظهوره في يوم بؤس النعمان[3] . وقد عدّ يوم عبيد من أيام الشؤم ، وضرب به المثل ، فقيل (يوم عبيد) . وإلى النعمان هذا نسب بعض الأخباريين قتل (عمرو بن مسعود) و (خالد بن نضلة) ، وقد استولوا عليه بشعر لمرة بن عمرو الأسدي[4] .

---

١ الفاخر (ص ١٤١ وما بعدها) ، الاغاني (٢٢/١٦) ، نزهة الجليس (٥٠٧/٢ وما بعدها) .

٢ نزهة الجليس (٥٠٩/٢ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (١٨٩/١ وما بعدها) .

٣ حمزة (ص ٧٣) ، مجاني الادب (٣٠٩/٣) ، شعراء النصرانية) (ص ٦٠٠)

٤ قال ابو تمام :

من بعد ما ظن الاعادي أنه سيكون لي يوم كيوم عبيد

شعراء النصرانية (٦٠٢) ، اللسان (٢٦٧/٤) ، (خ ى د) .

وقد نسب حمزة الى النعمان بناء الغريين وغريهما بدم من يقتله في يوم بؤسه[1] . وقد رأينا فيما سلف ان الأخباريين من نسب بناءهما وقصة يومي البؤس والنعيم الى المنذر بن ماء السماء .

وذكر الأخباريون انه كانت للنعمان عادات ، منها انه اذا غلب الرجل عنده وفلج على خصمه ، زاده وسادة ، وأمر فلقم عشر لقمات من طعامه قبل أن يأكل أحد[2] .

وللنعمان حاجب ، اشتهر حتى خلد اسمه في الشعر وفي كتب الأدب . واسم هذا الحاجب (عصام) ، وهو من رجال (جرم) ، وفيه قيل : « نفس عصام سوّدت عصاماً » ، وكان النعمان اذا أراد أن يبعث بألف فارس ، بعث بعصام . ولخطر مركزه ، ولأن في استطاعته ادخال من يريد الوصول الى النعمان أو تأخيره أو منعه ، كان الناس يتوددون اليه ليوصلهم الى الملك . وقد أشار (النابغة) ، اذ قال :

فإني لا ألومك في دخول ولكن ما وراءك يا عصام ؟[3]

وكان النعمان في أول عهده عابد وثن ، يتعبد للعُزى ، ويذبح الذبائح للأوثان ، ثم رأى رأياً فغيّر دينه ، ودخل في النصرانية . ولبعض مؤرخي الكنيسة ولبعض الأخباريين قصص في كيفية اهتدائه الى النصرانية ، مرجعها قصص نصارى أهل الحيرة على ما يظهر . يحدثنا أصحاب تواريخ الكنيسة ان النعمان ولع به الشيطان وأصيب بلوثة ووسوسة ، فحاول الشفاء منها بالتجائه الى كهنة الأصنام . فلما عجزوا من شفائه ، أشير عليه بالالتجاء الى آباء الكنيسة ، فلجأ الى شمعون ابن جابر أسقف الحيرة ، والى (سبريشوع) أسقف (لاشوم) و (ايشوعزخا) (ايشوع زخا) الراهب فانتفع بهم ، فغيّر دينه ، فتنصر واعتمد وحسن ايمانه ، وطرد اليعاقبة من سائر أعماله وتقوت بذلك النسطورية . وكذلك تنصر ولده ، ومنهم الحسن والمنذر . وكان الحسن أشد الجماعة تمسكاً بالنصرانية . وقد سبقته

---

١ حمزة (ص ٧٢) .
٢ شرح ديوان لبيد (ص ٤٠٤) .
٣ الاشتقاق (٢/٣١٨) .

أختاه هند ومارية الى الدخول في هـــذا الدين . وهذه رواية النساطرة في كيفية تنصر النعمان[1]

أما الأخباريون فينسبون تنصره الى تأثير عدي بن زيد عليه . وهم يروون أنه خرج ذات يوم راكباً ومعه عدي بن زيد ، فوقف بظهر الحيرة على مقابر مما يلي النهر ، فقال له عدي بن زيد : أبيت اللعن ، أتدري ما تقول هذه المقابر؟ قال : لا ! قال : إنها تقول :

أيهـــا الركب المخبّون ... على الأرض المجدّون
مثل ما أنتم حيينـــا ... وكـــما نحن تكونون

ثم قال :

ربّ ركب قد أناخوا حولنـا ... يشربون الخمر بالمـــاء الزلال
ثم أضحوا لعب الـــدهر بهم ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

فأثر هذا القول — على حد قول الأخباريين — في نفس النعمان ، وارعوى ، وتنصر[2] .

وقد كان تنصر (النعمان) في حوالي سنة (٥٩٣ م) تقريباً ، وصار يعد نفسه من حماة المذهب النسطوري الذي انتشر في العراق، كما صارت الحـــيرة من معاقل هذا المذهب أيضاً لـــدخول أناس من أصحاب الجاه والسلطان فيه . ومن الحيرة خرج (سرجيوس) (Sergios) في أواسط القرن السادس ، فذهب الى اليمن ، الى نجران ، حيث قام بالتبشير هناك ، مدة ثلاث سنوات حتّى وافتـه منيته بعد ثلاث سنين[3] .

وينسب الى النعمان أبو قابوس دير اللج ، وقـد دعي بـ (دير اللجـنة) في (تأريخ سعرت) ، ونسبه الى اللجة ابنة النعمان . وذكر ان في هـذا الدير قبر

---

١ Histoire Nestorienne, Seconde Partie, P. 468, 478, Evagrius, IV, 22, Pauly-Wissowa, 33, 1936, 1254, Die Araber, I, S. 198.

٢ حمزة (ص ٧٣ وما بعدها) ، ذكر صاحب الاغاني هذه الابيات مع شيء مـــن الاختلاف ، الاغاني (٢/٩٦) (دار الكتب) ، معجم الشعراء (ص ٢٤٩) .

٣ Die Araber, I, S. 198.

(مار آبا الكبير) الجاثليق[١] .

وينسب أهل الأخبار (شقائق النعمان) الى (النعمان بن المنذر) فيقولون : « وكان خرج الى الظهر وقد اعتمّ نبته من بين أحمر وأخضر وأصفر ، واذا فيه من هذه الشقائق شيء كثير ، فقال : ما أحسنها ! احموها . فحموها فسميت : شقائق النعمان »[٢] .

وذكر ان النعمان كان يعتني بتربية الخيل والإبل والماشية ، فكان يشتّري خير فصائلها ويحميها لنفسه ، ولا يسمح لأحد بالحصول عليها أو تلقيح نعمهم أو خيولهم منها الا باذنه . وقد اشتهرت اليحموم والدُّفوف من جملة خيوله[٣] .

وبينما نقرأ في شعر لمالك بن نويرة اليربوعي ، ان تاج النعمان بن المنذر كان من ذهب وزبرجد وياقوت[٤] ، نرى (المعري) يشير الى انه كان خرزات ، ولم يكن كتاج المنذر[٥] . وخرزات الملك : جواهر تاجه[٦] .

ونجد في كتب الأخبار والأدب ، ان وفود العرب كانت تفد على (النعمان ابن المنذر) ، فيكرمها ويحبوها ، ويقضي حوائجها . وكان يتخذ للوفود عند انصرافها مجلساً يطعمون فيه معه ويشربون . وقد يتفاخر رؤساء الوفود بعضهم على بعض ، فيحكمونه في أيهم أفضل . وقد تتحول تلك المفاخرات الى مخاصمات ومهاترات بسبب ترجيح الملك رئيساً على آخر[٧] .

ونسب حمزة الى النعمان أربع بنات . هن : هند ، وحرقة ، وحريقة ، وعنفقير[٨] . وهند هي البنت الوحيدة التي نعرف عنها شيئاً من بنات النعمان ، وقد

---

١ الحيرة (٢٠٣) ، Histoire Nestorienne, (Chronigue de Seert), Second Partie, I, P. 155.

٢ المعارف (ص ٢٦٤) ، اللسان (١٠/١٨١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (ص ١٣٨) ، (ليدن) .

٣ ذيل الامالي والنوادر ، للقالي (ص ١٨٥) .

٤ الجواليقي ، المعرب (٣٥٦) .

٥ رسالة الغفران (٤٧١) ، (بنت الشاطىء) .

٦ اللسان (٥/٣٤٥) .

٧ العمدة (٢/٢٢٠ وما بعدها) .

٨ حمزة (٧٤) .

ورد في بعض الروايات أنها لم تكن بنت النعمان ، بل كانت أخته[1] . وذكر أيضاً أن والدها النعمان زوّجها من عدي[2] . وقد عاشت حتى أدركت الإسلام ، وكانت مترهبة ، فلم تقبل الدخول فيه . ولما ماتت دفنت في ديرها الى جانب قبر أبيها النعمان . وقد بقي الدير والقبران معروفين مدة طويلة في الإسلام .

ويذكر أن (الحرقة) (حرقة) رأت الدنيا كيف أدبرت عن أهلها،ونظرت في حالها بعد هلاك أبيها فقالت :

فبينا نسوس الناس ، والأمر أمرنا   إذا نحن فيهم سوقة نتنصّفُ
فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها   تقلّبُ تاراتٍ بنا وتصرّفُ

و (السوقة) هم العامة وسواد الناس .

وقد ذكر المسعودي هذه الأبيات،وقال إنها قالتها لـ (سعد بن أبي وقاص) يوم أتته في جماعة من قومها ، وقد قال إنها كانت « اذا خرجت الى بيعتها ، يفرش لها طريقها بالحرير والديباج مغشى بالخرز والوشي ، ثم تقبل في جواريها حتى تصل الى بيعتها وترجع الى منزلها . فلما هلك النعمان لفها الزمان فأنزلها من الرفعة الى الذلة »[3] . وقد سماها (خرقاء بنت النعمان بن المنذر) . ولعله قصد (حرقاء) أو (حُرَقة) ، فحرف النساخ الكلمة وصيّرها (خرقاء) .

وكانت للنعمان جملة نساء ، منهن : زينب بنت أوس بن حارثة ، وفرعة بنت سعد بن حارثة بن لأم ، وقد ولدت له ولداً وبنتاً ، وكانت عنده لما طلبه كسرى ، وصار يتجول بين القبائل ليمنعوه[4] . ومارية الكندية، وهي أم هند التي تزوجها عدي بن زيد[5] .

ويذكر (ابن قتيبة) انه كانت للنعمان دار في الحيرة عرفت بـ (الزوراء) . وقد بقيت قائمة الى ايام أبي جعفر المنصور ، فأمر بهدمها ، ولم يذكر السبب

---

١ الاغاني (١/٣٤) .

٢ Assemani, Bibl. Orient., III, 109, Rothstein, S. 125. Rothstein, S. 125.

٣ مروج (٢/٢٧) .

٤ الاغاني (١/١١٥) ، (دار الكتب المصرية) .

٥ الاغاني (١/١١٩) .

الذي حمله على ذلك . وقد ذكرها (النابغة) فقال :

بزوراء في أكنافها المسك كارع[1]

وذكر ان في جملة وزراء النعمان عمرو بن بقيلة والد عبد المسيح،وهو صاحب قصر بني بقيلة بالحيرة . وكان عبد المسيح في جملة من اشترك في المفاوضات مع خالد بن الوليد لعقد الصلح وتسليم الحيرة ، وله دير بناه في ظاهر الحيرة في موضع يقال له الجرعة عرف بـ (دير الجرعة) وبـ (دير عبد المسيح)[2] .

وقد ورد ذكر زوجة من زوجات (النعمان بن المنذر) في كتب الأدب ، هي (المتجردة)[3] . ويظهر أن (جلم بن عمرو) ، كان قد تعرض لها ، فبلغ أمره (النعمان) فحمله على أن يركب فرسه (اليحموم) ، فأرداه[4] . وقد وصفها (النابغة) في (الدالية) المنسوبة اليه . وسمع (النعمان) بالقصيدة كما يذكر أهل الأخبار ، بدسّ حساد النابغة القصيدة والأشعار الأخرى الى النعمان ، فانزعج منها . ولما بلغ (النابغة) الخبر ، فرّ الى الغساسنة لينجو بنفسه من عقابه . وكان النعمان متيماً بـ (المتجردة) وللشعراء فيها قصائد مشهورات[5] .

ويذكر أهل الأخبار أن سيفاً من سيوف (النعمان بن المنذر) جيء به الى الخليفة (عمر) ، فأعطاه (جبير بن مطعم)[6] .

أما عدي بن زيد ، فهو من العباديين ، أي من نصارى الحيرة . وأما والده فهو زيد بن حماد (حماز) بن زيد بن أيوب بن محروف بن عامر بن عصية بن امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم ، فهو تميمي الأصل[7] . وكان لزيد ثلاثة أولاد هم : عدي هذا الذي تحدثنا عنه ، وعمار (حمار) (حماد) واسمه أبي

---

١ المعاني الكبير (١/٤٦٥) ، اللسان (٤/٣٣٨) ، (صادر) ، (زور) .

٢ الاغاني (١٥/١١) ، السجستاني (٣٨) ، البلدان (١/٦٥١ ، ٦٧٧) ،شعراء النصرانية (١٥) .

٣ اللسان (٣/١١٦) ، (صادر) ، (جرد) .

٤ رسالة الغفران (١٩٦) ، اللسان .

٥ رسالة الغفران (١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧) ، الاغاني (١/٨١) ، الشعر والشعراء (٧٦ ، ٢٣٨) .

٦ اللسان (٢/٤٨٧) .

٧ الطبري (٢/١٤٦) ، الاغاني (٢/٩٧) (دار الكتب المصرية) ، معجم الشعراء للمرزباني (٢٤٩ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (١/٤٣٩ وما بعدها) .

وكان مع كسرى وعمرو واسمه سمي ، ولهم أخ من أمهم يدعى بن حنظلة، وهو من (طيء)[1] .

وكان أيوب جد عدي من أهل اليمامة على رواية الأخباريين ، كان يقيم في بني امرىء القيس بن زيد مناة ، ولكنه اضطر الى ترك اليمامة والهجرة الى الحيرة لإصابته دماً ، فخاف على نفسه من القتل ، والتجأ الى أوس بن قلام ، وكان بينه وبين أوس نسب في النساء . فلما قدم أيوب الحيرة ، نزل في دار أوس ، وأقام عنده أمداً . ثم أقام في دار أخرى بعد أن حباه أوس وأكرمه ، وصار له شأن في البلد ومقام . فاتصل بالملوك وتقرب اليهم وغدا من علية القوم[2] .

وصار لزيد بن أيوب شأن يذكر في البلد ، وتزوّج امرأة من آل قلام ولدت له ولداً دعاه حمّاداً . وبينما كان زيد يتصيد في البادية ، اصطاده رجل من بني امرىء القيس ، فقتله بسهم أخذاً لثأر قومه من أبيه أيوب . وعلم حمّاد (حماز) الكتابة والقراءة ، فكان أول من كتب من بني أيوب في رواية الأخباريين ، وغدا من أكتب الناس في الحيرة ، ولذلك اختير كاتباً لملك الحيرة ، واتصل بكبار الفرس ومنهم (فروخ ماهان) الذي تكفل زيد بن حماد بعد وفاته ، وربّاه مع أبنائه . ثم أوصله الى كسرى أنو شروان فجعله على البريد ، لما تبين له من ذكاء زيد وقدرته في العربية والفارسية . وهي وظيفة لم تكن تعطى لغير أبناء الفرس[3] .

وتزوّج زيد امرأة من طيء ولدت له عدياً ، وقد ربي هذا تربية طيبة ، فأرسل الى الكتاب ، فلما حذق ومهر فنه بالعربية ، أرسل الى كتاب الفارسية ، فتعلم مع أولاد المرازبة ومنهم شاهان مرد الفارسية حتى صار من الحاذقين بها العارفين بفنونها ، ثم تعلم الرماية ولعب الصولجان ، واتصل بكبار الفرس . وقد ساعده مركزه هذا على التقرب من آل لخم . والى (زيد بن حمّاد) أوكل

---

١ الطبري (١٤٦/٢) ، الاغاني (١٠٥/٢) (دار الكتب المصرية) .

٢ الاغاني (٩٨/٢) (دار الكتب) ، شعراء النصرانية (ص ٤٣٩) ، طبقات ابن سلام (٣١) ، الشعر والشعراء (١١١) ، رسالة الغفران (١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٨٥، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٦٠٦) .

٣ الأغاني (٩٦/٢ وما بعدها) (دار الكتب المصرية) ، شعراء النصرانية (٤٤١/١) .

تدبير شؤون ملك الحيرة بعد سياحة النعمان عـلى رواية بعض الأخباريين الى أن انتقل الملك الى المنذر بن ماء السماء[1] .

وقرب عدياً الى كسرى أنو شروان المرزبان فروخ ماهان ، فعهد اليه الكتابة بالعربية ، فتولاها وصار له شأن يذكر عند الفرس ، كما صار له مركز خطير في قصور آل لخم . ولما توفي كسرى أنو شروان ، وملك هرمز ابنـه ، أرسل عدياً الى قيصر الروم (طيباريوس) (طبريوس) بمهمة سياسية ، فأظهر لباقة وحنكة وحكمة ، مما جعل القيصر يحترمه ، فأكرمه ، وحباه ، وأراه أطراف مملكته ، وذهب الى دمشق ، وأقام فيها أمداً ، وهو على صلات حسنة بالروم، وفي أثناء اقامته بالشأم ، أراد أهل الحيرة قتل المنذر والخروج عليه ، لظلمـه وأخذه أموالهم بغير حق . فلما علم بذلك المنذر ، طلب من زيد والـد عدي أن يتولى هو الأمر ، وفرح الناس على ما يذكره الرواة بهذا القرار ، فجاؤوه يحيونه بتحية الملك ، ولكنـه أبى أن يسمى ملكاً ، ورضي بالحكم بغير هذا الاسم ، وسر المنذر بهذا الحل ، ورضي به . وبقي في هذا المركز الى ان هلك ، وابنه بعيد عنه في دمشق .

فلما جاء عدي من الشأم ، لم ينس المنذر فضل أبيه عليه ، وانقاذه الملك بهذا الحل ، وسلمه ما كان قد تركه أبوه ، واستقبله استقبالاً عظيماً حينما قدم الحيرة قادماً من المدائن بعد زيارته لكسرى لتقديم هديـة القيصر اليه . وأقام في الحيرة سنين يتصيد ويلهو ويلعب ، ويبدو في فصلي السنة ، فيقيم في حفـير ، ويشتو بالحيرة ، ويأتي المدائن في خلال ذلك فيخدم كسرى . وكان لا يؤثر على بلاد بني يربوع مبدى من مبادي العرب ، ولا ينزل في حي من أحياء بني تميم غيرهم. وكان أخلاؤه من العرب كلهم بني جعفر . وكانت إبله في بلاد بني ضبة وبلاد بني سعد ، ولم يزل على حاله تلك حتى تزوج هنداً بنت النعمان بن المنـذر[2] .

---

١ الاغاني (٢/١٠٠) (دار الكتب المصرية) شعراء النصرانيـة (ص ٤٤٣) ، المرزباني (٢٤٩ وما بعدها) الشعر والشعراء (ص ١١٣ وما بعدها) (عدي بن زيد العبادي) .

٢ الاغاني (٢/١٠٢ وما بعدها) (دار الكتب المصرية) ، المشرق ، الجزء الاول ، كانون الاول ، ١٩٤٤ ، (ص ٤٦ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (١ /٤٣٩ وما بعدها) ، المرزباني (٢٤٩ وما بعدها) .

وأمها (مارية الكندية) فهي من كندة من جهة الأم . ثم أمره (النعمان) بالافتراق منها وتطليقها بعد ما غضب عليه وألقاه في السجن .

وروى الأخباريون لعدي شعراً زعموا انه قال أكثره في حبسه وفي معاتبته للنعمان وفي توسله اليه بأن يطلقه من حبسه ، وفيه مواعظ تذكر النعمان بأن الدنيا زائلة ، وانها دار فناء ، وان الملك لا يدوم ، وأمثال ذلك . وهو شعر لم ينظر اليه علماء الشعر نظرتهم الى شعر الشعراء الفحول ، وذلك لأنه كان قروياً ، أي من أهل الحضر ، ولذلك أيضاً لم يستشهد به علماء اللغة في ضبط قواعد اللغة [1] .

هذا ويذكر (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) ان في جملة مؤلفات (ابن الكلبي) الكثيرة مؤلفاً اسمه (كتاب عدي بن زيد العبادي)[2] ، وهو كتاب لم يصل الينا حتى الآن . ولعله كان في جملة الموارد الرئيسية التي اعتمد عليها المؤرخون وأهل الأدب والأخبار في تدوينهم أخبار ذلك الشاعر السياسي الأديب .

ونجد في (رسالة الغفران) شعراً لعدي . وقد دعي بـ (السروي) في موضع منها ، حين تحدث مؤلفها (المعري) عن المنادمة وعن باطية الخمر[3] . وكُنّي بـ (أبي سوادة) في موضع آخر[4] .

وانتقل ملك الحيرة بعد مقتل النعمان الى رجل غريب لم يكن من لخم ، اسمه إياس بن قبيصة الطائي[5] ، أو إياس بن قبيصة بن أبي عفراء ، أو إياس بن قبيصة بن النعمان بن حية بن سعنة [6] . وله خال اسمه حنظلة بن أبي عفراء بن النعمان . ويقال انه كان نصرانياً . وقد ذكر له أخ اسمه قيس بن قبيصة كان نازلاً بعين التمر[7] . وذكر ان والده كان من شعراء جرم، وجرم رهط من طيء[8] .

---

١ الاغاني (٢/١٠٩) (دار الكتب المصرية) ، الشعر والشعراء (ص ١١٤) ، (عدي بن زيد العبادي) .

٢ الفهرست (ص ١٤٧) .

٣ رسالة الغفران (ص ١٨٥) .

٤ رسالة الغفران (١٨٦ ، ١٩٠ ، ٢٠٣) .

٥ حمزة (ص ٧٤) ، (اياس بن قبيضة بن أبي عفراء بن النعمان بن حية بن سعية بن الحارث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سفر بن هنى بن عمرو بن غوث بن طيء) ، شعراء النصرانية (ص ١٣٥) ، ديوان الاعشى (ص ١٦٢) (طبعة الدكتور م . محمد حسين) .

٦ الاشتقاق (٢٣١) .

٧ Rothstein, S. 119.

٨ شعراء النصرانية (ص ٩٣) .

وآل قبيصة من الأسر المعروفة في الحيرة ، وقد سبق أن عهدت الى إياس ادارة مهمات الحكومة بعد وفاة المنذر ، فكث أشهراً ملكاً يدير أمور الملك الى أن أعطي التاج للنعمان أبي قابوس . ويظهر من روايات الأخباريين انه كان مقرباً من كسرى لأنه ساعده حينما هرب من بهرام ، وأهدى اليه فرساً وجزوراً، ولأنه عاونه في نزاعه مع الروم[1] . فلما فرّ أبناء النعمان بعد مقتل والدهم ، وتشتت شمل البيت المالك مدة ، تذكر كسرى فضل هذا الرجل عليه فعيّنه ملكاً على الحيرة، وعيّن معه رجلاً فارسياً اختلفوا في اسمه ، فقالوا : (الهمرجان) و (البحرجان) و (النخرجان) و (التخرجان)[2] . وهو اختلاف يسير ، يعود سببه على ما يظهر الى عدم تمكن النسّاخ أو الرواة من ضبط الكلمة . والظاهر انها وظيفة ومركز، حسبها الرواة اسم علم ، فأطلقوها على شخص[3] . وقد كان كسرى قد عيّنه مدة أشهر على الحيرة ، وذلك قبل أن ينتقل الملك الى النعمان[4] .

وذكر الأخباريون ان كسرى بن هرمز كان يتيمن بـ (إياس) ، ويفزع اليه في حروبه ويعجبه ، وانه استنجد به في حربه مع قيصر ، فتعقبه حتى أدركه في موضع (ساتيدما) فأثخن القتل في جنوده ، ونجا قيصر في خواص من أصحابه بصعوبة . وأصيب إياس بمرض في هذه السفرة ، أشار الأعشى في شعره اليه[5] . وللأعشى قصائد في مدح إياس ، وكانت له صلة به ، وقد أغدق عليه نعمه[6].

وفي رواية ذكرها أبو الفرج الأصبهاني أن كسرى كان قد عين إياساً على عين التمر وما والاها من الحيرة ، وأطعمه ثلاثين قرية على شاطىء الفرات[7] . ويظهر من هذه الرواية ومن رواية وفاته في عين التمر ووجود أخيه فيها أن عين التمر كانت من مناطق نفوذ هذه الأسرة حتى في أيام ملك آل لخم .

وذكر (الدينوري) أن كسرى ولي أياس بن قبيصة الطائي ثمانية أشهر ،

---

١ الطبري (٢/١٥٢) .
٢ حمزة (ص ٧٤) ، ابن الاثير (١/٢٠٠) شعراء النصرانية (١٣٧) .
٣ Nöldeke, Sassa. 152, Rothstein, S. 120.
٤ شعراء النصرانية (١٣٥) ، الطبري (٢/١٩٤) (دار المعارف) .
٥ ديوان الاعشى (ص ١٥٩) (طبعة كاير) البلدان (٥/٦) (مادة ساتيدما) .
٦ ديوان الاعشى ، القصائد ٢١ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٥٥ ، ٧٩ .
٧ الاغاني (٢١/١٣٤) .

واضطرب أمر كسرى وجـاء الاسلام ومات إياس بعين التمر ، وفيه يقول زيد الخيل :

فان يكُ رب العين خلى مكانه فكـل نعيم لا محالة زائـل

وذكر بعض أهل الأخبار أن حكم إياس دام تسع سنين[1] .

ولا نعرف شيئاً مهماً قام به إياس في أثناء توليه الملك ، ويظهر أن حكمه لم يكن يتجاوز هذه المنطقة التي أشار اليها الاخباريون ، ولم يشر الأخباريون الى قيامه بغارات على عرب الشأم . أما الشيء المهم الذي وقع في أثناء توليه الحكم ، فهو يوم ذي قار .

ذو قار :

وذو قار ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط[2] . وبالقرب منه مواضع منهـا حنو ذي قار وقراقر وجبابات ذي العجرم وجذوان وبطحاء ذي قار[3] . ويقع حنو ذي قار على ليلة من ذي قار[4] .

يرجع الاخباريون سبب وقوع ذي قار الى مطالبة (كسرى ابرويز) هانيء ابن قبيصة بن هانيء بن مسعود أحد بني ربيعة بن ذهل بن شيبان بتسليم الودائع التي أودعها النعمان لديـه اليه .فلما أبى هانيء تسليم ما اؤتمن عليه لغير أهله ، غضب كسرى ، فبعث الى الهامرز التستري ، وهو مرزبانه الكبير ، وكان مسلحه في القطقطانه ، والى جلابزين وكان مسلحه في بـارق ، كما كتب الى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجدين ، وكان كسرى استعمله عـلى سفوان بأن يرافقوا إياساً فإذا اجتمعوا فإياس على الناس . وجاءت الفرس معهـا الجنود والفيلة عليها الأساورة ، فالتحموا بأرض ذي قار . فلما كان اليوم الأول،استظهر الفرس على العرب ، ثم جزعت الفرس في اليوم الثـاني من العطش ، فصارت الى الجبابات ، فتبعتهم بكر وباقي العربان ، فعطش الأعاجم ، ومالوا الى بطحاء ذي قار وبها اشتدت الحرب ، وانهزمت الفرس ، وكسرت كسرة هائلة ، وقتل

---

١ المعارف (ص ٢٨٤) ، المحبر (٣٥٩ وما بعدها) .

٢ البلدان (٨/٧) .

٣ Rothstein, S. 121.

٤ البلدان (٨/٧) .

أكثرهم وفيهم الهامرز وجلابزين ، وانتصر العرب على الفرس انتصاراً عظيماً ، وانتصفت فيه العرب من العجم[1] .

ويوم ذي قار لم يكن اذن يوماً واحداً ، أي معركة واحدة وقعت في ذي قار وانتهى أمرها بانتصار العرب على الفرس ، بل هو جملة معارك وقعت قبلها ثم ختمت بـ (ذي قار) ، حيث كانت المعركة الفاصلة فنسبت المعارك من ثم الى هذا المكان . ومن هذه الأيام : يوم قُراقر ، ويوم الحنو . حنو ذي قار ، ويوم حنو قراقر ، ويوم الجبابات ، ويوم ذي العُجرم ، ويوم الغذوان ، ويوم البطحاء : بطحاء ذي قار ، وكلهن حول ذي قار[2] .

أما متى وقع يوم ذي قار ، فالمؤرخون مختلفون في ذلك ، منهم من جعله في يوم ولادة الرسول ،ومنهم من جعله عند منصرف الرسول من وقعة بدر الكبرى[3] ، ومنهم من جعله قبل الهجرة[4] . وقد ذهب (روتشتاين) الى انه كان حوالي سنة (٦٠٤ م) ، وذهب نولدكه الى انه بين (٦٠٤) و (٦١٠ م)[5] . وأكثر أهل الأخبار انه وقع بعد المبعث ورووا في ذلك حديثاً قالوا إن الرسول لما بلغه من هزيمة ربيعة جيشَ كسرى ، قال : « هذا أول يوم انتصف العرب من العجم ، وبي نصروا »[6] .

والذي يستنتج من روايات أهل الأخبار عن معركة ذي قار ان (هانىء بن مسعود الشيباني) ، لم يكن قائد بني شيبان ولا غيرها من العرب يوم ذي قار ، بل تذهب بعض الروايات الى انه لم يدرك هذا اليوم ، لأنه هلك قبله،وانما هو:

---

١ الطبري (٢/١٥٢ وما بعدها) (المعارف) (ص ٦٠٣) ، البلدان (٧/٨ وما بعدها) شعراء النصرانية (ص ١٣٧) ، مجمع الامثال (٢/٣٥٢) ، العمدة ، لابن رشيق (٢/١٦٩) ، حمزة (ص ٩١) ، ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، (١/١٠١) ، (دار الكتاب اللبناني) ، مروج الذهب (١/٢٣٦) ، (وكتب كسرى الى قيس بن خالد ، وكان عاملا له على الطف) ، العمدة (٢/٢١٨) (وقتل الهامرز بن خلا بزر عامل كسرى) ، العمدة (٢/٢١٨) .

٢ الطبري (٢/١٩٣) وما بعدها .

٣ البلدان (٧/٩ وما بعدها) ، التنبيه والاشراف (ص ٢٤١) . (بيروت ١٩٦٥) ، اليعقوبي (١/١٨٤ وما بعدها) (طبعة النجف) .

٤ المحبر (ص ٣١٠) .

٥ Rothstein, S. 123.

٦ الطبري (٢/١٩٣) (دار المعارف) ، التنبيه ص (٢٤١) (بيروت ١٩٦٥ م) ، الكامل (١/٢٨٥ وما بعدها) .

(هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود)[1] . وترى روايات أخرى أن (هانىء ابن مسعود) ، كان يخشى عاقبة هذه الحرب وانه لم يكن يريد مقابلة الفرس، وكل ما كان يريده هو الاحتفاظ برهينة النعمان ، وأن الفرس عندما دنوا من العرب بمن معهم : « انسل قيس بن مسعود ليلاً فأتى هانئاً ، فقال له : أعط قومك سلاح النعمان فيقووا ، فإن هلكوا كان تبعاً لأنفسهم ، وكنت قد أخذت بالحزم ، وإن ظفروا ردّوه عليك . ففعل . فقسم الدروع والسلاح في ذوي القُوى والجلد من قومه . فلما دنا الجمع من بكر ، قال لهم هانىء : « يا معشر بكر ، إنه لا طاقة لكم بجنود كسرى ومن معهم من العرب ، فاركبوا الفلاة ». فتسارع الناس الى ذلك ، فوثب حنظلة بن ثعلبة بن سيار فقال له : انما أردت نجاتنا ، فلم تزد على أن ألقيتنا في الهلكة ، فرد الناس وقطع وضُن الهوادج ، لئلا تستطيع بكر أن تسوق نساءهم إن هربوا — فسمي مقطّع الوُضن — ، وهي حزم الرحال . ويقال : مقطع البُطُن ، والبطن حزم الأقتاب ، وضرب حنظلة على نفسه قبة ببطحاء ذي قار ، وآلى ألا يفر حتى تفر القبة . فمضى من مضى من الناس ، ورجع أكثرهم ، واستقوا ماءً لنصف شهر ، فأتتهم العجم ، فقاتلتهم بالحنو ، فجزعت العجم من العطش ، فهربت ولم تقم لمحاصرتهم ، فهربت الى الجبابات ، فتبعتهم بكر وعجل»[2] ، « فقاتلوهم بالجبابات يوماً . ثم عطش الأعاجم ، فمالوا الى بطحاء ذي قار ، فأرسلت إياد الى بكر سراً — وكانوا أعواناً على بكر مع إياس بن قبيصة : أي الأمرين أعجب اليكم . أن نطير تحت ليلتنا فنذهب ، أو نقيم ونفر حين تلاقون القوم ؟ قالوا : بل تقيمون فإذا التقى القوم انهزمتم » . فلما التقى القوم في مكان من ذي قار يسمى (الجب) اجتلدوا والتحموا ، فانهزمت (اياد) كما وعدتهم ، وانهزم الفرس[3] .

ويذكر (الطبري) في رواية من رواياته عن (ذي قار) أن الناس توامروا فولوا أمرهم حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العجلي ، وكانوا يتيمنون به ، فقال

---

١ الطبري (٢٠٦/٢) ، معجم (١٠٢٤/٣) ، الكامل (٢٨٥/١ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢٠٦/٢) ، (معجم ١٠٤٢/٣) ، (الكامل ٢٨٥/١ وما بعدها) .
٣ الطبري (٢٠٨/٢ وما بعدها) ، العقد الفريد (٣٨٣/٣ وما بعدها) ، (٢١١/٥) ، الكامل ، (٢٨٥/١ وما بعدها) (الطباعة المنيرية) ، نهاية الارب (٤٣١/١٥ وما بعدها) ، صبح الاعشى ، (٣٩٢/١) (دار الكتب) .

لهم : لا أرى إلا القتال ، فتبعوا أمره ، وهو الذي تولى إدارة القتال ، فكان له شأن كبير فيه ، وقد قاد قومه من (بني عجل) في ذلك القتال ، فله النصيب الأكبر منه[1] . وقد احتل (حنظلة) ميسرة (هانىء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود) رئيس بكر في القتال الذي جرى في ذي قار في موضع الجب[2] .

وكان (هانىء بن قبيصة) رئيس بكر يشغل القلب في أثناء الهجوم على الفرس يوم الجب في ذي قار ، وكان على ميمنته (يزيد بن مسهر الشيباني) ، و (حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العجلي) على ميسرته يحميه من كل هجوم جانبي يقع عليه من الميسرة ، كما ذكرت[3] .

وكان (يزيد بن حمار السَّكُوني) ، وهو حليف لبني شيبان ، قد كمن مع قومه من بني شيبان في مكان من ذي قار هو الجب ، فلما جاء إياس بن قبيصة مع الفرس الى هذا المكان ، خرج مع كمينه ، فباغت إياساً ومن معه ، وولت إياد منهزمة ، فساعد بذلك كثيراً في هزيمة الفرس[4] .

فهؤلاء المذكورون اذن هم الذين قادوا نصر العرب على الفرس . وقد ذهب بعض الأخباريين الى أن الحرب الرئيسية دارت على بني شيبان ، ورئيس الحرب هو (هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود) . أما (حنظلة) فكان صاحب الرأي[5] . ولكن الذي يظهر من دراسة مختلف الروايات ان شأن حنظلة في القتال كان أهم وأعظم من شأن هانىء فيه ، حتى لقد ذكرت بعض الروايات انه هو الذي ولي أمر القتال بعد هانىء ، وان القوم صيّروا الأمر اليه بعد هانىء في معركة (جب ذي قار) وانه هو الذي قتل (جلابزين) ، وان كتيبته (كتيبة عجل) قامت بأمر عظيم في هذه المعركة التي انتهت بهزيمة الفرس[6] .

وكان حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العجلي من سادات قومه ، وهو صاحب قبة،

---

١ الطبري (٢/٢٠٧ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٢٠٩) .
٣ الطبري (٢/٢٠٩) (دار المعارف) ابن خلدون (٢/٦٢٦) (دار الكتب اللبنانية) .
٤ الطبري (٢/٢٠٩) (دار المعارف) .
٥ الكامل ، لابن الاثير (١/٢٨٥ وما بعدها) .
٦ الطبري (٢/٢١٠) (دار المعارف) .

ضربت له يوم ذي قار ويوم فلج[1] ، ولا تضرب قبة الا للملك أو سيد . وكانت له بنت يقال لها (مارية) ، كانت معه في هذه المعركة ، وهي أم عشرة نفر أحدهم جابر بن أبجر . وأورد الطبري شعراً في يوم ذي قار نسبه الى (يزيد بن المكسّر بن حنظلة بن ثعلبة بن سيّار) ، واذا كان يزيد هذا هو حفيد حنظلة كما يظهر من سياق النسب ، يكون حنظلة اذ ذاك كبيراً في السن . وقد نسب الطبري الى حنظلة شعراً ذكر انه قاله في يوم ذي قار[2] .

وذكر ان (النعمان بن زرعة التغلبي) هو الذي أشار على كسرى بمهاجمة (هانىء بن مسعود الشيباني) في ذي قار ، وكان يحب هلاك بكر بن وائل ، وان إياداً وهي في الحرب اتفقت سراً مع بكر على الحرب ، فهربت حين كان إياس بن قبيصة والفرس يقاتلون بكراً ، فاضطرب صف العجم،وولوا الادبار ، فقتل منهم من قتل ، وأسر عدد كبير . وأسر (النعمان بن زرعة التغلبي)[3] .

والروايات عن معركة ذي قار ، هي على شاكلة الروايات عن أيام العرب وعن حروب القبائل وغزو بعضها بعضاً،من حيث تأثرها بالعواطف القبلية وأخذها بالتحيز والتحزب . فنرى فيها تحيزاً لبني شيبان يظهر في شعر (الأعشى) لهم، اذ يمدحهم خاصة ، مما أدى الى غضب غيرهم مثل (اللهازم)[4] ، ونرى فيها اعطاء فخر لفلان وحبسه عن فلان . ولذلك يجب على الباحث عن أيام العرب وعن حروب القبائل وغزواتها أن يفطن لذلك .

وشعر الأعشى ، أعشى بكر ، في ذي قار ، ومدحه قومه (بني بكر)، شعر مهم للوقوف على حوادث تلك المعركة وكيف جرت[5] . ولبكير : أصم بني الحارث ، شعر أيضاً يمدح فيه بني شيبان ويمجد عملهم وفعلهم في هذا اليوم[6] .

وقد هجا (أعشى بكر) في قصيدة له عن يوم ذي قار وعن مقام عشيرته

---

١ الاشتقاق (ص ٢٠٨) .

٢ الطبري (٢/٢٠٩ وما بعدها) .

٣ ابن الاثير (١/١٧٣ وما بعدها) ، الطبري (١/٦١٢) ، الاغاني (٢/١٢٧) ، ابن خلدون ، القسم الاول ، المجلد الثاني (ص ٥٥٦) ، (منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر) بيروت ١٩٥٦ م . العمدة (٢/٢١٨) .

٤ الطبري (٢/٢١١) .

٥ الكامل (١/٢٨٥ وما بعدها) .

٦ الطبري (٢/٢١١) (دار المعارف) الكامل ، لابن الاثير (١/٢٨٥ وما بعدها)

ومكانته فيه تميماً وقيسَ عيلان ، ثم تعرض لقبائل معد ، فقال :

لو أن كل معد كان شارَكنا في يوم ذي قار،ما أخطاهم الشرف[1]

ونجد شعراً للعديل بن الفرخ العِجليّ ، يفتخر فيه بقومه ويتباهى بانتصارهم على الفرس في هذا اليوم ، فيقول :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة إلا اصطلينا ، وكنا موقدي النار
وما يعدون من يوم سمعت به للناس أفضل من يوم بذي قار
جئنا بأسلابهم والخيل عابسة يوم استلبنا لكسرى كل أسوار[2]

وكان هانىء بن قبيصة ، من أشراف قومه ، وكان نصرانياً ، وأدرك الإسلام فلم يسلم ، ومات بالكوفة[3] . أما (قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجدّين) ، فكان سيد قومه في أيامه،وذلك قبل الإسلام . وكان كسرى استعمله على (طف سفوان)[4] .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن هناك يوماً آخر ، عرف بيوم (ذي قار) ، وقد وقع أيضاً بين العرب والفرس ، فانتصر فيه العرب أيضاً ، وقد وقع قبل اليوم المذكور ، فعرف لذلك بيوم ذي قار الأول ، وبيوم صيد ، وبيوم القبة . وكان سببه أن بكر بن وائل أصيبت بسنة (أي قحط) فخرجت حتى نزلت بذي قار ، وأقبل حنظلة بن سيار العجلي ، حتى ضرب قبته بين ذي قار وعين صيد ، وكان يقال له (حنظلة القباب) ، وكانت له قبة حمراء ، إذا رفعها انضم اليه قومه ، فأتاهم عامل كسرى على السواد ليخرجهم منه ، فأبوا،فقاتلهم فهزموه وانتصروا عليه[5] .

وقد نسب الى (زيد الخيل) شعرٌ ، زعم انه قاله يذكر إياس بن قبيصة الطائي هو :

---

١ الكامل (١/٢٨٥ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٥/٤٣١ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣٧٥) .
٣ الاشتقاق (ص ٢١٦) .
٤ الطبري (٢/٢٠٧) (دار المعارف) .
٥ البكري (٣/١٠٤٢) .

أفي كل عـــام سيد يفقدونه تحكك من وجـــد عليه الكلاكل ؟
ثم يكون العقل منكم صحيفـــة كما علقت على السّليم الجلاجل ؟

وقد قال (ابن قتيبة الدينوري) في تفسيره : « كان كسرى أرسل الى مال إياس ليأخذه فنفرت عن ذلك طيء ، وقد أراد أن يبطش بأناس منهم . فلـما رأى ذلك كسرى ، كتب لهم كتاباً في أمان ، فقال زيد شعراً ، هذان البيتان فيه ، يحض قومه ، وينهاهم أن يقبلوا كتابه ، أو يطمئنوا الى قولـه»[1]. وليس في هذا الشرح كما نرى تفسيراً للسبب الذي دفع كسرى الى المطالبة بمال إياس . هل كان ذلك بسبب اختلافه معه ، أو بسبب آخر . ولا يعقل أن تكون هـذه المطالبة في حالة صلح وعلاقات طيبـة بين الجهتين ، بل لا بد أن تكون عن ظروف سيئة لم يتطرق لها (ابن قتيبة) .

وعندي ان هذه الحادثة ان صحت روايتها ، وجب أن تكون قد وقعت بعد موت (إياس) ، وتركه ثروة وأملاكاً طائلة ، فأراد الفرس الاستحواذ عليها، وأخذ ما جمعه من مال ، فحدث ما حدث .

وذكر الأخباريون بعد (إياس) رجلاً فارسياً قالوا انه هو الذي حكم (الحيرة) وملكها في زمن (أبرويز) ، وفي زمن شيرويه بن أبرويز ، وفي زمن أردشير ابن شيرويه ، وفي زمن بوران بنت أبرويز ، وذكروا ان مدة حكمه سبع عشرة سنة أو أقل من ذلك . وسمّوا هذا الرجل (أزادبه بن ماهبيان بن مهرا بنداد)[2] أو (أزاذبه بن يابيان بن مهر بنداذ الهمذاني)[3] ، أو (آزادبه بن ماهان بن مهر بنداد الهمذاني) أو (زادويه الفارسي) . حكم سبع عشرة سنة ، من ذلك في زمن كسرى بن هرمـــز أربـــع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وفي زمن شيرويه بن كسرى ثمانية أشهر ، وفي زمن أردشير بن شيرويه سنة وسبعة أشهر ، وفي زمن بوران دخت بنت كسرى شهراً[4] . ولكنهم لم يذكروا من أمره شيئاً ، فلا نعرف من أعماله أي شيء مع طول مدة حكمه ان صحت رواية الأخباريين .

---

١ المعاني الكبير (١٠٠٨/٢) .
٢ (زاديه بن ماهيبان بن مهرا بنداد الهمداني) ، حمزة (ص ٧٤) ، المحبـــر (٣٦٠) .
٣ الطبري (١٥٦/٢) .
٤ الطبري (٢١٣/٢) ، مفاتيح العلوم (٦٩) .

وأرى ان (دادويه الفارسي) الذي ذكر (حمزة الأصفهاني) انه كان قد ملك الحيرة ، هو (زادويه) المذكور ، وان النسّاخ قد أخطأوا في كتابة الاسم فصيّروه على هذه الصورة ، او ان (حمزة) نفسه قد أخطأ في التسمية ، أو هو نقلها من كتابين مختلفين أو من مصدر واحد كتبها بصورتين ، فشايعه حمزة ولم ينتبه الى انه صيّر الاسم الواحد اسمين .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الذي حكم بعد (آزاذبه) هو (المنذر بن النعمان ابن المنذر) المعروف بـ (الغرور) أو (المغرور) ، وهو المقتول بالبحرين يوم جُواثا)[1] ، « فكان ملكه وملك غيره الى أن قدم خالد بن الوليد الحيرة ثمانية أشهر »[2] . وهو كلام مشكوك فيه . ففي الاخبار أن المنذر لم يحكم الحيرة، وإنما حكم البحرين في أثناء الردة ، وذلك بأن ربيعة حينما ارتدت عن الاسلام قالت : نرد الملك في المنذر بن النعمان بن المنذر . فلما حارب المسلمون المرتدين، منوا بهزيمة منكرة ، وسقط المنذر أسيراً في أيدي المسلمين . ويقال إنه أسلم على أثر ذلك ، وسمى نفسه (المغرور) بدلاً من (الغرور) ، وهو اللقب الذي كان يعرف به قبل اسلامه[3] .

ويظهر أن النصرانية كانت هي المتفشية في البحرين وفي بني عبد القيس ، وقد كان المنذر الغرور مع المرتدين ، الذين تركوا الاسلام وعادوا الى النصرانية بعد دخولهم في الإسلام[4] .

وقد ذكر (الطبري) في حديثه عن يوم المقر وفم فرات بادقلي : أن الذي كان يلي أمر الحيرة هو (الآزاذبه) ، وقال فيه : « كان مرزبان الحيرة أزمان كسرى الى ذلك اليوم »[5] . وقد كان من أشراف الفرس وسادتهم ، وذكر أيضاً: أن قيمة قلنسوته خمسون ألفاً ، وقيمة القلنسوة عند الفرس تدل على مكانة صاحبها وشأنه عند الساسانيين . وانه لما سمع بدنو (خالد بن الوليد) من الحيرة تهيأ لحربه ، وقدم ابنه ، ثم خرج في أثره حتى عسكر خارجاً من الحيرة ، وأمر ابنه بسد الفرات ، ولكن خالداً فاجأه وأصاب جيشه فلما بلغ أباه خبر ما حل

---

١ المحبر (٣٦٠) ، حمزة (٧٥) ، مفاتيح العلوم (٦٩) .
٢ الاغاني (١٤/٤٨) ، ابن الاثير ، الكامل (٢/١٥٤) .
٣ الطبري (٣/١٣٦ وما بعدها) (دار المعارف بمصر) .
٤ الطبري (٣/٣٥٩) .
٥ الطبري (٣/٣٥٩) .

به ، هرب من غير قتال ، وكان عسكره بين الغريين والقصر الأبيض ، وتمكن بذلك خالد بن الوليد من فتح الحيرة[1] .

فيفهم من حديث الطبري عن فتح الحيرة أن المنذر بن النعمان لم يكن قد ولي حكمها ، وأن ما ذكره من توليه الحكم ثمانية أشهر ، يناقض ما ذكره هو فيما بعد عن فتح الحيرة وبقية أرض العراق ويخالف كذلك ما ورد في بقية كتب أهل الأخبار عن فتوح العراق .

وكان ملوك الحيرة مثل غيرهم من الملوك ، كالغساسنة والساسانيين والروم ، يتراسلون مع القبائل وعمالهم بالبريد . وكانت برد ملوك العرب في الجاهلية الخيل[2] ، تنطلق في مراحل ، فإذا بلغ البريد المرحلة المعينة استراح ، وتولى البريد الثاني نقل الرسائل الى المكان المقصود ... وبذلك تم المراسلات .

ومن الأسر المعروفة في الحيرة ، العدسيون ، وهم من (كليب)،وقد نسبوا الى أمهم على ما يذكره أهل الأخبار .

ومن سادات الحيرة وأشرافها (بنو الأوس بن قلام بن بطين بن جمهير (جمهر) بن لحيان) ، وكان منهم (جابر بن شمعون) الأسقف من أساقفة الحيرة المعروفين ، وهو صاحب القصر الأبيض بالحيرة[3] .

وقد اشتهرت الحيرة بسوقها ، إذ كان الأعراب وتجار جزيرة العرب يقصدون السوق لبيع تجارتهم وشراء ما فيها من سلع نفيسة مطلوبة في بلاد العرب . وقد اشتهرت بنوع خاص من السيوف ، قيل لها (السيوف الحارية) ، كما عرفت بصناعة الأنماط[4] .

واشتهرت الحيرة بقصرها المعروف بـ (الخورنق) . وهو قصر يقع على ثلاثة أميال منها ، ويقال إنه بني على نهر : بناه للنعمان المعروف بالأعور بناء رومي اسمه (سنمار) في عشرين سنة . وقد لقي البناء مصرعه بسبب هذا القصر ، في

---

١ الطبري (٣/٣٥٩ وما بعدها) .

٢ قال امرؤ القيس الكندي :

على كل مقصوص الذنابي معاود — بريد السرى بالليل من خيل بريرا

الكامل ، للمبرد (١/٢٨٦) .

٣ الاغاني (٢/١١٥) .

٤ مروج الذهب (٢/٩٠ وما بعدها) ، البلدان (٢/٣٢٨) ، فتوح البلدان (٢٤٥)

قصص يرويه عنه أهل الأخبار ، ويضربون به المثل في المكافأة على الفعل الحسن بالقبيح[1] .

ولأهل الأخبار آراء في التسمية : منهم من يقول إنها عربية ومن أصل عربي ومنهم من يقول إنها فارسية ، وأن اللفظة معربة .

وارتبط باسم (الخورنق) اسم قصر آخر هو (السدير) . وقد بني في البرية، فهو أبعد من الخورنق عن الحيرة[2] . ولأهل الأخبار كعادتهم في تعليل الأسماء العادية مذاهب في التسمية. ويرجح المستشرقون انها من الألفاظ المعربة عن الفارسية[3] . وقد كان ذا قباب ثلاث ، ويتألف من ايوان ينتهي الى غرفه ، وعلى جانبيه غرفتان . ويظهر من روايات أهل الأخبار انه كان أقدم عهداً من الخورنق، وان ملوك آل لخم كانوا يقيمون فيه في قديم الزمان[4] .

وذُكر ان (السدير) نهر بالحيرة ، قال عدي :

سرّه حالُه وكثرة ما يمـ ـلك ، والبحر مُعرِضاً ، والسديرُ[5]

وفي شعر ينسب الى الأسود بن يعفر ، ذكر للقصرين المذكورين، رثى الشاعر فيه حال (آل محرق) ، وتألم وتوجع لما نزل وحلّ بهم ، كما توجع لإياد ، اذ قال :

ماذا أؤمـل بعد آل محرقٍ تركوا منازلهم ، وبعدَ إياد ؟
أرض الخورنق والسدير وبارقٍ والقصر ذي الشرفات من سنداد[6]

---

١ القاموس (٣/٢٢) تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهـري ، (١/٧٩) ، مراصد الاطلاع (١/٤٩٨) ، اللسان (١/٧٨) ، اليعقوبي (١/١٧٠) ،امثال العرب ، للمفضل الضبي (ص ٩٦) .

٢ الجوهري ، تاج اللغة (١/٣٣٠) ، البكري ، معجم (١/٧٢٩) ، ابن سيدة ، المخصص (٥/١٢٦) ، الديـارات ، للشابشتي (١٥٢) ، مراصد الاطـلاع (١/٦٩٩) .

٣ (والسدير : بناء ، وهو بالفارسية سهد لي ، أي ثـلاث شعب ، أو ثـلاث مداخلات . وقال الاصمعي : السدير فارسية) ، اللسان (٤/٣٥٥) .

٤ الديارات (١٥٢) .

٥ اللسان (٤/٣٥٥) ، (صادر) ، (سدر) .

٦ اللسان (١١/١٨ وما بعدها) ، (صادر) ، ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء (١١٦ وما بعدها) .

ويجب أن يكون هذا الشعر قد نظم بعد نكبات حلت بـ (آل محرق) ، حملتهم على ترك ديارهم وعلى زوال سلطانهم عنها ، أي بعد النكبة التي حلت بالنعمان بن المنذر بعد زوال دولة المناذرة .

وبارق : اسم موضع على مقربة من الكوفة ، وموضع آخر في السّواد على مبعدة من الكوفة[1] . أما (سنداد) فمن مواضع إياد .

ومن الأماكن التي تنسب الى ملوك الحيرة موضع يعرف باسم (الدوسر) ، قيل انه من أبنية أحد أمراء الحيرة . وقد ملكه (جعبر بن مالك) ، وهو من (بني قُشير) ، فنسب اليه ، وعرف بـ (قلعة جعبر) . ويظن انه موضع (Dausara) الذي ذكره (اسطيفان البيزنطي) . ويقع على الشاطىء الأيسر لنهر الفرات. ومن أسمائها عند اليونان (Dauses) و (دونه) (Daune) و(Dabanae), [2].

ومن المواضع القريبة من الحيرة موضع يعرف بـ (الخصوص) ، تنسب اليه (الدنان) ، ذكر في (صادية) (عدي بن زيد العبادي)[3] . وموضع (عمير اللصوص) وهو قرية من قرى الحيرة . ودير قرة ، وهو بإزاء (دير الجماجم) منسوب الى (قرة) ، وهو رجل من لخم بناه على طرف البر ايام النعمان[4] .

وقد تأثر فن بناء القصور في الحيرة وما والاها من قصور (آل لخم) بالفن الساساني فصار في القصر رواق في الوسط هو مجلس الملك، وهو الصدر، وجناحان هما كُمّان يكوّنان طرفي الرواق ، ميمنة وميسرة . وقد صار هذا الطراز من البنـاء سمةً من سمات بناء قصور الحيرة ، وكذلك تأثر تزويق جدران بيوت الحيرة ونقشها بطريقة الفن الساساني في تزيين جدران القصور والبيوت ونقشها . وقد أثرت طريقة أهل الحيرة هذه في فن البناء في مدينة (سامراء)[5] .

وفي كتاب (مروج الذهب) إشارة الى قصر المتوكل المعروف بـ (الحيري)

---

١ اللسان (١٨/١١ وما بعدها) ، (صادر) ، البكري ، معجم (٢٢١/١) ، تاج العروس (٢٨٥/٦) ، مراصد الاطلاع (١٥١/١) ، المعارف (٦٤٧) ، (ثروت عكاشة) ، العقد الفريد (٣٨٤/٣) ، مقاييس اللغة (٢٢٧/١) .

٢ رحلة بنيامين ، (ص ١٢٣) .

٣ ابلغ خليلي عبد هند فلا   زلت قريبا من سواد الخصوص
رسالة الغفران (١٨٦) .

٤ رسالة الغفران (١٨٧) .

٥ Die Araber, I, S., 607, Franz Altheim und Futh Stiehl, Asain und Rom, Tübingen, 1952, S., 49.

والكمّين ، قال فيه : « وأحدث المتوكل في أيامه بناءً لم يكن الناس يعرفونه، وهو المعروف بالحيري والكمين والأروقة ، وذلك أن بعض سمّاره حدثه في بعض الليالي : أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر ، أحدث بنياناً في دار قراره ، وهي الحيرة على صورة الحرب وهيأتها للهجته بها وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله ، فكان الرواق مجلس الملك ، وهو الصدر ، والكمان ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكُمّان من يقرب منه من خواصه وفي اليمين منهما خزانة الكسوة وفي الشمال ما احتيج اليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر ، والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق ، فسمي هذا البنيان الى هذا الوقت بالحيري والكمين اضافة الى الحيرة . واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماماً بفعله ، واشتهر الى هذه الغاية »[1] . وفي هذا الوصف وصفه لذلك القصر الذي بناه أحد النعامنة . ولكن أي نعمان هو ؟ هل هو النعمان صاحب الخورنق أو هو نعمان آخر بنى قصراً آخر في عاصمته الحيرة .

وقد وجد بعض المؤرخين في هذا الوصف دلالة على احتمال كون القصر المعروف بـ (قصر المشتّى) ، هو من بناء أحد ملوك الحيرة ، إذ وجد في خطة بنائه، وفي هذا الوصف شبهاً حمله على القول باحتمال كونه من أبنيتهم[2] .

قوائم ملوك الحيرة :

يصعب تصوّر حدوث خلاف بين الأخباريين في أسماء ملوك الحيرة وعددهم ومددهم ، لدعواهم انهم أخذوا علمهم بهم من كتب كانت مدونة محفوظة في الحيرة ومن موارد أخرى هي كتب الفرس ، وقد ذكر بعضهم ملاحظات من مثل قوله : « ذكر هشام عن أبيه انه لم يجد الحادث فيمن أحصاه كتّاب أهل الحيرة من ملوك العرب ، قال : وظنّي انهم انما تركوه لأنه توثب على الملك بغير اذن ملوك الفرس ، ولأنه كان بمعزل عن الحيرة التي كانت دار المملكة ، ولم يعرف له مستقر ، وانما كان سيارة في أرض العرب »[3] . ومثل ملاحظة أخرى

---

١ مروج (٢/٣٦٩) . (القاهرة ١٣٤٦ هـ) (طبعة عبد الرحمن محمد) ، (٤/٤ وما بعدها) ، (دار الاندلس) .

٢ Die Araber, I, S. 595.

٣ حمزة (ص ٧١ وما بعدها) .

لابن الكلبي أشرت اليها سابقاً،هي دعواه انه كان يستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتأريخ سنيهم من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها[1] . فدعاوى مثل هذه لا تصور لنا وقوع اختلاف كبير بين الأخباريين في أسماء ملوك الحيرة:ومبالغ أعمارهم وتأريخ سنيّهم وأمثال ذلك ، مع إننا نجد بين الأخباريين اختلافاً غير يسير في أسماء الملوك وفي ترتيب توليّهم الحكم ومقدار سنيهم وأمثال ذلك . والعجب أنهم يعتمدون على مورد أو موارد مشتركة قد يشيرون اليها ، ثم إذا بهم يختلفون في أمور ما كان ينبغي وقوع اختلاف ما فيها لأخذها من مورد مشترك أو موارد مشتركة .

وعدة ملوك الحيرة قد يزيد على العشرين ملكاً بقليل عند بعض الأخباريين ، وقد ينقص عن هذا العدد عند بعض آخر . وقد ذهب المسعودي الى أن عدة ملوكهم ثلاثة وعشرون ملكاً من بني نصر وغيرهم من العرب والفرس ، وأن مدة ملكهم ستمائة سنة واثنتان وعشرون سنة وثمانية أشهر[2] ؛ وذهب حمزة الى أن مدة ما حكمه ملوك الحيرة منذ عهد عمرو بن عديّ الذي اتخذها منزلاً الى أن وضعت الكوفة واتخذت منزلاً في الإسلام هي خمسمائة وبضع وثلاثون سنة[3] .

ونحن اذا فحصنا القوائم التي سجلها الأخباريون لملوك الحيرة،وفحصنا ما ذكروه من مدة حكم كل ملك إجمالاً ، ثم قابلناه بما ذكروه بالنسبة الى حكم ذلك مجزءاً على مدد حكمه بالقياس الى من حكم في زمانه من ملوك الفرس ، نجد اختلافاً بين ما ذكروه إجمالاً ثم ما ذكروه تفصيلاً ، كذلك نجد مثل هذا الاختلاف بين المدة الاجمالية التي ذكروها لعمر مملكة الحيرة وبين المدد التي ذكروها لحكم كل ملك أيضاً على وجه الاجمال ، مما يدل على انهم لم ينتبهوا الى ملاحظة أمثال هذه الأمور الضرورية للمؤرخين .

ونجد قائمة (ابن الكلبي) لأسماء ملوك الحيرة ومدد حكمهم ومقدار حكم كل ملك بالنسبة الى من عاصره من ملوك الفرس مدوّنة في تأريخ الطبري وفي تأريخ حمزة وفي تواريخ أخرى . ولاقتصار ابن الكلبي على ذكر مدد حكم ملوك

---

١ الطبري (٢/٣٧) .
٢ مروج (٢/٢٨) .
٣ حمزة (ص ٦٦) .

الحيرة إجمالاً ، ثم ذكرها تفصيلاً بما يقابل ذلك من سني حكم الأكاسرة دون الاشارة أبداً الى ما يقابل ذلك أيضاً بالقياس الى القياصرة ، نستطيع أن نقول إن ابن الكلبي لم يغرف من موارد تأريخية استندت الى تواريخ الروم أو السريان ، وانما غرف من مناهل تأريخية فارسية أو معتمدة على الموارد الفارسية، ومن موارد أهل الحيرة وهي موارد يظهر انها لم تكن تعتمد على أصول قديمة مدونة لتواريخ الحيرة ، لأن أكثر ما رووه لا يختلف في طبيعته في الغالب عن النوع الذي ألفناه من أخبار الأخباريين .

وقد جزأ الطبري قائمة ابن الكلبي لملوك الحيرة ، فوضعها قطعاً قطعاً في ثنايا حديثه عن ملوك الفرس وفي المناسبات،ولم يذكرها جملة واحدة في مكان واحد ، أو في فصل مستقل خاص كما فعل غيره من المؤرخين ، وتبلغ جملة ملوك الحيرة عشرين ملكاً ، وقد ذكر مع كل ملك مقدار ما حكمه من سنين وأسماء من عاصرهم ذلك الملك من الأكاسرة .

أما هؤلاء الملوك فهم :

١ — عمرو بن عدي ، وقد عاش مئة وعشرين سنة وحكم على حد قول ابن الكلبي مئة سنة وثماني عشرة سنة من ذلك في زمن (أردوان) و (ملوك الطوائف) خمس وتسعون سنة وفي زمن ملوك فارس أي الساسانيين ثلاثاً وعشرين سنة . من ذلك في زمن أردشير بن بابك أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وفي زمن سابور بن أردشير ثماني سنين وشهران .

٢ — امرؤ القيس البدء ، وقد عاش مملكاً في عمله مئة سنة وأربع عشرة سنة من ذلك في زمن سابور بن أردشير ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً،وفي زمن هرمز بن سابور سنة وعشرة ايام،وفي زمن بهرام بن هرمز بن سابور ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة ايام،وفي زمن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير ثماني عشرة سنة . ولكنك اذا جمعت هذه المدد وقابلت حاصل الجمع ، وجدت فرقاً كبيراً بين ما زعمه ابن الكلبي من انه حكم ١١٤ سنة ، ثم ما زعمه هو نفسه من حكم هذا الملك مجزءاً بالنسبة الى ملوك الفرس .

٣ — عمرو بن امرؤ القيس ، وقد حكم على رواية ابن الكلبي أيضاً ثلاثين سنة . وعاصر من الملوك سابور وأردشير بن هرمز بن نرسي وبعض أيام سابور بن سابور .

٤ ــ أوس بن قلام ، وقد حكم خمس سنين في أيام سابور بن سابور وبعض ايام بهرام بن سابور ذي الأكتاف .

٥ ــ امرؤ القيس البدء بن عمرو بن امرىء القيس ، وقد حكم خمساً وعشرين سنة . حكم في أيام بهرام بن سابور ذي الأكتاف ، وهلك في عهد يزدجرد الأثيم .

٦ ــ النعمان بن امرىء القيس ، وقد ملك تسعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر . من ذلك في زمن يزدجرد خمس عشرة سنة ، وفي زمن بهرام بن يزدجرد أربع عشرة سنة . وينقص ذلك أربعة أشهر عن العدد الاجمالي الذي ذكره ابن الكلبي .

٧ ــ المنذر بن النعمان ، وقد ملك أربعاً وأربعين سنة ، من ذلك في زمن بهرام جور بن يزدجرد ثماني سنين وتسعة أشهر ، وفي زمن يزدجرد بن بهرام ثماني عشرة سنة ، وفي زمن فيروز بن يزدجرد سبع عشرة سنة .

٨ ــ الأسود بن المنذر ، وقد حكم عشرين سنة ، من ذلك في زمن فيروز ابن يزدجرد عشر سنين ، وفي زمن بلاش بن يزدجرد أربع سنين ، وفي زمن قباذ بن فيروز ست سنين .

٩ ــ المنذر بن المنذر بن النعمان وقد ملك سبع سنين .

١٠ ــ النعمان بن الأسود بن المنذر ، وكان ملكه سبع سنين .

١١ ــ أبو يعفر بن علقمة بن مالك بن عدي بن الذميل ، وكان ملكة ثلاث سنين .

١٢ ــ المنذر بن امرىء القيس البدء ، وكان ملكه تسعاً وأربعين سنة .

١٣ ــ عمرو بن المنذر ، وكان جميع ملكه ست عشرة سنة .

١٤ ــ قابوس بن المنذر ، وقد ملك أربع سنين : ثمانية أشهر منها في زمن أنو شروان ، وثلاث سنين وأربعة أشهر في زمن هرمز بن أنو شروان .

١٥ ــ السهرب .

١٦ ــ المنذر بن المنذر أبو النعمان ، وقد ملك أربع سنين .

١٧ ــ النعمان بن المنذر أبو قابوس ، وقد ملك اثنتين وعشرين سنة ، من ذلك في زمن هرمز بن أنو شروان سبع سنين وثمانية أشهر ، وفي زمن كسرى أبرويز بن هرمز أربع عشرة سنة وأربعة أشهر .

١٨ – إياس بن قبيصة الطائي ومعه النخيرجان ، وقد ملك تسع سنين في زمن كسرى بن هرمز .

١٩ – آزاذبه بن بابيان بن مهر بنداذ الهمداني ، وقد حكم سبع عشرة سنة: في زمن كسرى بن هرمز أربع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وفي زمن شيرويه بن كسرى ثمانية أشهر ، وفي زمن أردشير بن شيرويه سنة وسبعة أشهر وفي زمن بوران دخت بنت كسرى شهراً .

٢٠ – المنذر بن النعمان بن المنذر ، وقد ملك ثمانية أشهر .

هذه هي قائمة أسماء ملوك الحيرة كما رواها الطبري عن ابن الكلبي[١] .

ملوك الحيرة بحسب رواية (ابن قتيبة) :

١ – مالك بن فهم .
٢ – جذيمة الأبرش .
٣ – عمرو بن عدي .
٤ – امرؤ القيس ، ويقال : بل ملك الحارث بن عمرو بن عدي .
٥ – النعمان بن امرىء القيس .
٦ – المنذر بن امرىء القيس .
٧ – المنذر بن المنذر بن امرىء القيس .
٨ – عمرو بن هند .
٩ – النعمان بن المنذر .
١٠– إياس بن قبيصة[٢] .

أما (محمد بن حبيب) ، فقد رتب أسماء ملوك الحيرة على هذا الشكل : (عمرو بن عدي بن نصر) و (امرؤ القيس البدء) وهو الأول ، فابنه (عمرو) فـ (أوس بن قلام بن بطينا بن حمير بن لحيان) ، و (امرؤ القيس) البدء،

---

١ الطبري (٢/٢١٣ وما بعدها) ، (ذكر من كان على ثغر العرب من قبل ملوك الفرس بالحيرة بعد عمرو بن هند) ، (دار المعارف) .
٢ المعارف (ص ٦٤٥ وما بعدها) .

وهو (محرق الأول) ، فـ (النعمان بن امرىء القيس البدء) ، فابنه (المنذر)، فابنه (الأسود) ، فأخوه (المنذر) ، فابن أخيه (النعمان بن الأسود) ، فـ (أبو يعفر بن علقمة بن مالك) ، فـ (المنذر بن امرىء القيس) ، فـ (عمرو ابن المنذر بن امرىء القيس) ، فـ (قابوس بن المنذر) ، فـ (السهرب) الفارسي ، فـ (المنذر بن المنذر) ، فـ (أبو قابوس النعمان بن المنذر) ، فـ (إياس بن قبيصة الطائي) ، فـ (آزاذبه) ، فـ (الغرور المنذر بن النعمان ابن المنذر) ، وهو المقتول بالبحرين يوم (جواثا)[1] .

ملوك الحيرة بحسب رواية اليعقوبي :

١ ـ عمرو بن عدي ، وقد ملك خمساً وخمسين سنة .
٢ ـ امرؤ القيس بن عمرو ، وقد ملك خمساً وثلاثين سنة .
٣ ـ الحارث بن عمرو ، وقد ملك سبعاً وثمانين سنة .
٤ ـ عمرو بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي ، وقد ملك أربعين سنة .
٥ ـ المنذر بن امرى القيس .
٦ ـ النعمان .
٧ ـ المنذر بن النعمان ، وقد ملك ثلاثين سنة .
٨ ـ عمرو بن المنذر .
٩ ـ عمرو بن المنذر الثاني .
١٠ ـ قابوس بن المنذر .
١١ ـ المنذر بن المنذر ، وقد ملك أربع سنين .
١٢ ـ النعمان بن المنذر[2] .

ملوك الحيرة بحسب رواية المسعودي:

١ ـ عمرو بن عدي ، وكان ملكه مئة سنة .

---

١ المحبر (ص ٣٥٨ وما بعدها) .
٢ اليعقوبي (١/١٦٩ وما بعدها) ، (طبعة النجف) .

٢ – امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ، وقد ملك ستين سنة .
٣ – عمرو بن امرىء القيس ، وقد ملك خمساً وعشرين سنة .
٤ – النعمان بن امرىء القيس ، وقد حكم خمساً وستين سنة .
٥ – المنذر بن النعمان ، وكان حكمه خمساً وثلاثين سنة .
٦ – المنذر بن الأسود بن النعمان بن المنذر ، وقد ملك أربعاً وثلاثين سنة .
٧ – عمرو بن المنذر ، وكان ملكه أربعاً وعشرين سنة .
٨ – قابوس بن المنذر ، وقد ملك ثلاثين سنة .
٩ – النعمان بن المنذر ، وكان ملكه اثنتين وعشرين سنة .
١٠– إياس بن قبيصة الطائي ، وكان ملكه تسع سنين .

هذه هي أسماء ملوك الحيرة الذين ذكرهم المسعودي ، وقد نص هو على أن عدة ملوك الحيرة ثلاثة وعشرون ملكاً من بني نصير وغيرهم من العرب والفرس، ومدة ملكهم ستمائة سنة واثنتان وعشرون سنة وثمانية أشهر[١] . ونص في كتابه (التنبيه) ، على أن « عدة من ملك الحيرة من بني نصر والعباد وغسان وتميم وكندة والفرس وغيرهم نيفاً وعشرين ملكاً،ملكوا خمس مئة سنة واثنتين وعشرين سنة وشهوراً »[٢] .

قائمة حمزة لملوك الحيرة:

١ – عمرو بن عدي ، وكان جميع ما ملكه مئة وثماني عشرة سنة . ذلك في زمن ملوك الطوائف خمسة وتسعون سنة، وفي زمن ملوك فارس ثلاث وعشرون سنة ، منها في أيام أردشير بن بابك أربع عشرة سنة وعشرة أشهر ، وفي أيام شابور بن أردشير ثماني سنين وشهران .

٢ – امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ، وقد ملك مئة وأربع عشرة سنة ، منها في زمن شابور بن أردشير ثلاث وعشرين سنة ، وفي زمن هرمز بن شابور سنة وعشرة أشهر ، وفي زمن بهرام بن هرمز تسع سنين وثلاثة أشهر، وفي زمن

١ مروج (١٦/٢ وما بعدها) .
٢ التنبيه (ص ١٥٨) .

بهرام بن بهرام ثلاثاً وعشرين سنة ، وفي زمن بهرام بن بهـرام بن بهرام ثلاث عشرة سنة وستة أشهر ، وفي زمن نرسي بن بهرام بن بهرام تسع سنين ، وفي زمن هرمز بن نرسي ثلاث عشرة سنة ، وفي زمن شابور ذي الأكتاف عشرين سنة وخمسة أشهر .

٣ — عمرو بن امرىء القيس ، وقد ملك ستين سنـة ، من ذلك في زمان شابور ذي الأكتاف إحدى وخمسين سنة وسبعة أشهـر ، وفي زمن أردشير أخي شابور خمس سنين ، وفي زمن شابور بن شابور أربع سنين وخمسة أشهر .

٤ — أوس بن قلام ، وقد ملك خمس سنين في زمن أردشير أخي شابور .

٥ — امرؤ القيس ، وقد حكم إحدى وعشرين سنة وثلاثة أشهر ، من ذلك في زمن شابور بن شابور خمس سنين ، وفي زمن بهرام بن شابور إحدى عشرة سنة ، وفي زمن يزدجرد بن شابور خمس سنين وثلاثة أشهر .

٦ — النعمان بن امرىء القيس ، وكانت مدة ملكه ثلاثين سنة ، من ذلك في زمن يزدجرد بن بهرام بن شابور خمس عشرة سنة وثمانية أشهر ، وفي زمن بهرام جور بن يزدجرد أربع عشرة سنة وأربعة أشهر .

٧ — المنذر بن النعمان ، وقد ملك أربعاً وأربعين سنـة ، من ذلك في زمن بهرام جور بن يزدجرد ثماني سنين وتسعة أشهر ، وفي زمن يزدجرد بن بهـرام ثماني عشرة سنة وثلاثة أشهر ، وفي زمن فيروز بن يزدجرد سبع عشرة سنة .

٨ — الأسود بن المنذر ، وقد ملك عشرين سنة ، من ذلك في زمن فيروز ابن يزدجرد عشر سنين ، وفي زمن بلاش بن فيروز أربع سنين ، وفي زمن قباد ابن فيروز ست سنين .

٩ — المنذر بن المنذر ، وقد ملك سبع سنين في زمن قباد بن فيروز .

١٠ — النعمان بن الأسود ، وكان ملكه أربع سنين في زمن قباد .

١١ — أبو يعفر بن علقمة الذميلي : وكانت مدة حكمه ثلاث سنين في زمن قباد بن فيروز .

١٢ — امرؤ القيس بن النعمان ،وكان ملكه سبع سنين في زمن قباد بن فيروز .

١٣ — المنذر بن امرىء القيس ، وقد ملك اثنتين وثلاثين سنـة ، من ذلك في زمن قباد بن فيروز ست سنين ، وفي زمن كسرى أنو شروان بن قبـاد ستاً وعشرين سنة .

١٤ ـ الحارث بن عمرو بن حجر الكندي .

١٥ ـ عمرو بن المنذر ، وكان ملكه ست عشرة سنة .

١٦ ـ قابوس بن المنذر ، وكان حكمه مدة أربع سنين في زمن أنو شروان.

١٧ ـ فيشهرت ، وقد حكم سنة في زمن أنو شروان .

١٨ ـ المنذر بن المنذر ، وقد ملك أربع سنين ، منها ثمانية أشهر في زمن أنو شروان ، وثلاث سنين وأربعة أشهر في زمن هرمز بن كسرى أنو شروان .

١٩ ـ النعمان بن المنذر ، وكان ملكه اثنتين وعشرين سنة ، من ذلك سبع سنين وثمانية أشهر في زمن هرمز بن أنو شروان ، وأربع عشرة سنة وأربعة أشهر في زمن كسرى بن هرمز .

٢٠ ـ إياس بن قبيصة ومعه (البحرجان) (النخرجان) ، وكان ملكه مدة سبع سنين في زمن أبرويز .

٢١ ـ زاديه بن ماهبيان بن مهرا بنداد الهمداني ، وقد ملك سبع عشرة سنة ، من ذلك أربع عشرة سنة وثمانية أشهر في زمن أبرويز ، وثمانية أشهر في زمن شيرويه بن أبرويز ، وسنة وسبعة أشهر في زمن أردشير بن شيرويه، وشهراً واحداً في زمن بوارن بنت أبرويز .

٢٢ ـ المنذر بن النعمان بن المنذر ، وكان ملكه وملك غيره الى أن ورد خالد بن الوليد الحيرة ثمانية أشهر[1] .

وقد ذكر حمزة أن جميع ملوك آل نصر ومن استخلف من العباد والفرس بالحيرة خمسة وعشرون ملكاً حكموا في مدة ستمائة وثلاث وعشرين سنة وأحد عشر شهراً . لكنه ذكر في مكان آخر أن الحيرة عمرت « خمسمائة وبضعاً وثلاثين سنة الى أن وضعت الكوفة ونزلها عرب الاسلام[2] ».

وقد استند حمزة في تأليف قائمته هذه على رواية ابن الكلبي في تأريخ الطبري، وعلى رواية محمد بن حبيب وعلى ابن قتيبة ، ولذلك خالفت قائمته هذه بعض المخالفة قائمة الطبري في الأسماء وفي السنين .

---

١ حمزة (ص ٦٥ وما بعدها) ، (٧٥) .

٢ حمزة (ص ٦٥) .

ملوك الحيرة بحسب رواية الخوارزمي :

وأما (الخوارزمي) ، فقد رتب أسماء ملوك الحيرة على هذا الشكل :

١ – مالك بن فهم .

٢ – ثم ابنه جذيمة الأبرش .

٣ – ثم عمرو بن علي .

٤ – ثم امرؤ القيس البدء .

٥ – ثم ابنه عمرو ، وهو ابن هند .

٦ – ثم أوس بن قلام .

٧ – ثم امرؤ القيس البدن . وهو محرق الأول .

٨ – ثم ابنه النعمان الذي بنى الخورنق والسدير . وفارس حليمة، وهو السائح والأعور .

٩ – ثم ابنه المنذر .

١٠– ثم ابنه الأسود .

١١– ثم المنذر بن المنذر .

١٢– ثم النعمان بن المنذر .

١٣– ثم النعمان بن الأسود .

١٤– ثم أبو يعفر بن علقمة .

١٥– ثم امرؤ القيس بن النعمان . وهو صاحب سنمار .

١٦– ثم ابنه المنذر ، وهو ابن ماء السماء .

١٧– ثم الحارث بن حجر الكندي ، آكل المرار .

١٨– ثم المنذر بن ماء السماء .

١٩– ثم ابنه عمرو بن هند ، وهو مضرط الحجارة ومحرق الثاني .

٢٠– ثم ابنه قابوس بن المنذر .

٢١– ثم فيسهرب الفارسي في زمن أنو شروان .

٢٢– ثم المنذر بن المنذر ، وأخوه عمرو بن هند .

٢٣ ــ ثم النعمان بن المنذر . وهو آخر ملوك لخم .
٢٤ ــ ثم إياس بن قبيصة الطائي .
٢٥ ــ ثم زادويه الفارسي .
٢٦ ــ ثم المنذر بن النعمان بن المنذر[1] .

---

١ مفاتيح العلوم (٦٨ وما بعدها) .

الفصل التاسع والثلاثون

مملكة كندة

كندة قبيلة قحطانية في عرف النسابين ، تنسب الى (ثور بن عفير بن عدي ابن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ) ، و (ثور) هو (كندة)[1] .

وقد عرفت عند الأخباريين بـ (كندة الملوك)[2] ، لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان[3] . ولأنهم ملكوا أولادهم على القبائل . وكانوا يتعززون بنسبهم الى كندة ، والى (آكل المرار) ، لأنهم كانوا ملوكاً[4] .

و (كندة) هي (كدت) القبيلة التي ورد اسمها في نصوص المسند ، مثل نص (أبرهة)[5] . بل ورد اسمها في النصوص المذكورة قبل هذا العهد بكثير .

---

١ الاشتقاق (٢/٢١٨) ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (ص ٣٩٩) ، الاكليل (١٠/٤،٥) ، منتخبات (ص ٩٤) ، ابن خلدون (٢/٢٧٦) نهاية الأرب (٢/٢٨٧) ، البيان والتبيين (٣/٢٢٨) (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، Enc. II, p. 1018.

٢ (كندة حي من اليمن منهم كانت الملوك) ، منتخبات (ص ٩٤) ، (فأخبرني عن كندة ، قال : (ساسوا العباد ، وتمكنوا من البلاد) ، مروج (٢/٣٢٥) ، (ذكر خلافة عمر) .

٣ ابن خلدون (٢/٢٥٧) .

٤ الطبري (٣/١٣٩) (دار المعارف بمصر) .

٥ Glaser, Zei Inschriften über den Dammbruch von Marib, S. 55, Gunnar Olinder, The Kings of Kinda, 1927, P. 33.

وسيكون رمزه : Olinder

اذ ورد في النص : (Jamme 635) ، المدون في أيام الملك (شعر أوتر) ملك سبأ وذي ريدان . وقد كانت قد انضمت الى حلف معاد للملك المذكور على نحو ما تحدثت عنه . وكان يحكم (كدت) كندة في ذلك الوقت ملك اسمه (ربعت) ، أي (ربيعة) ، وذكر انه من (ذ ثورم) (ذ الثورم) ، أي من (الثور) (آل ثور) ، وانه كان ملكاً على (كدت) كندة وعلى (قحطن) أي (قحطان)[1] .

فنحن على هذ النص أمام مملكة كندية كانت قد تكوّنت في أيام (شعر أوتر) أي في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد ، وذلك فيما لو جارينا رأي (جامة) وسرنا مسراه في تقدير أيام (شعر أوتر)[2] . وقبل هذا الوقت فيما لو ذهبنا مذهب غيره ممن يرجعون مبدأ تأريخ سبأ الى أقدم من تقديره ومن تقدير (ريكمنس) . ونحن أيضاً بموجبه أمام ملك من ملوك كندة اسمه (ربعت ذا الثورم) أي (ربيعة) من (الثور) ، أي من (آل ثور) ، فهو إذن من صميم كندة . وقد رأينا أن أهل الأخبار ينسبون كندة الى (ثور بن عفير) ، ويظهر انهم أخذوا (ثور) القديم ، وهو اسم عائلة او بيت او عشيرة من كندة ، فصيروه الجد الأكبر لكندة . وأعطوه النسب الطويل المذكور .

ويلاحظ أن الملك (ربيعة) كان يحكم إذ ذاك (كندة) ، كما كان يحكم (قحطان) . و (قحطان) في هذا الوقت قبيلة ، كانت متحالفة مع (كندة). ومن هذا الاسم أخذ الأخباريون قحطانهم ، فصيّروه جد العرب القحطانيين . وقد ورد اسم قحطان في نص آخر وسم بـ (REP. EPIG., 4304) . هذا نصه : (عبد شمس سبأ بن يشجب ، يعرب بن قحطان)[3] . وهو نص سبق أن تحدثت عنه ، وقلت إنه في نظري مصنوع موضوع ، وأعتقد ان صانعه وضعه لغاية واضحة هي اثبات أن ما يذكره أهل الأخبار عن نسب سبأ ، هو صحيح ، وانه وارد مذكور في المسند . وبين (صنعاء) و (زبيد) مدينة تعرف بـ (قطحان)[4] .

---

١ السطر ٢٧ من النص : .(Jamme 635)

٢ Mahram, P. 391.

٣ REP. EPIG. 4304, Orientalia, V, 1936, P. 63.

٤ Mahram, P. 138.

وكانت كندة (كدت) مستقلة وعلى رأسها ملك،في أيام (الشرح يحضب) كذلك . وكان ملكها إذ ذاك من المناهضين المعادين للملك (الشرح يحضب) ، فاشترك كما رأينا في أثناء بحثنا عن (الشرح) في الحلف الكبير الذي تألف ضد مملكة (سبأ وذي ريدان) ، والذي امتد من الجنوب نحو الشمال ، وشمل البر والبحر . وقد أصيبت (كندة) بهزيمة في القتال الذي نشب بينها وبين جيش (سبأ) ، ووقع ملكها واسمه إذْ ذاك (ملكم) مع عدد من رؤسائها وكبرائها (مراس واكبرت) ، في الأسر . وسيقوا الى (مأرب) ، وأبقوا في الأسر حتى وافقوا على وضع أولادهم رهائن عند ملك (سبأ وذي ريدان) وعلى اعطاء عهد بعدم التحرش مرة أخرى بمملكة (سبأ وذي ريدان) وبمساعدة أعدائها . وقد وافق (مالك) على اعطاء عهد بما طلب منه ووضع ابنه رهينة ، كما وضع رؤساء وكبراء كندة أولادهم رهائن لديه ، فأفرج بذلك عنهم[1] .

وقد فقدت كندة بعد هذا العهد استقلالها في وقت لا نستطيع تحديده الآن ، لعدم ورود شيء عنه في النصوص،وصارت خاضعة لحكم دولة (سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) ، اذ ورد في النصين **(Jamme 660)** و **(Jamme 665)** انها كانت تابعة اذ ذاك لحكم هذه الدولة . يخبر النص : **(Jamme 660)** ، ان كندة كانت تحت حكم حاكم من حكام (شمر يهرعش) ، سقط اسمه الثاني من النص وبقي اسمه الأول وهو : (وهب اوم) (وهب أوم) (وهب أوام) ، وان ذلك الحاكم كان يدير بالاضافة الى كندة قبائل حضرموت ومذحج و (بهلم) (باهلة) و (حدان) و (رضوم) و (أظلم) ، ومعنى ذلك انه كان يدير منطقة واسعة تسكنها قبائل متعددة ، في جملتها كندة التي صارت تحت حكم ملوك سبأ[2] .

ويخبرنا النص : **(Jamme 665)** ، ان رجلاً من (جدنم) (جدن) كان كبيراً (كبر) على (اعراب ملك سبأ) (أعراب ملك سبأ) وعلى (كندة) (كدت) و (مذحج) وعلى (حررم) (حريرم) (حرر) (حرار) (حرير) وعلى (بهلم) (باهلم) (باهل) (باهلة) وعلى (زيد ايل) ، وعلى كل

---

١ Jamme 576, MaMb 212, Mahram, PP. 67, Geukens 3.

٢ السطر الثاني من النص : Jamme 660, MaMb 156, Mahram, P. 164.

أعراب سبأ (وكل اعرب سبأ) وعلى حمير وحضرموت ويمنت[1] . وقد عينّه بدرجة (كبر) أي (كبير) ، وهي من أعلى الوظائف في الدولة الملك (ياسر يهنعم) وابنه (ذرأ أمر أيمن) . ومعنى هذا ان كنـدة كانت تابعة أيضاً في هذا العهد لحكم سبئيين ، وان ذلك الكبير كان يدير منطقة واسعة وضعها الملكان تحت تصرفه .

ويرى (جامة) ان أرض كندة يجب أن تكون في جنوب (قشمم) (قشم) (قشام) (القشم) ، وذلك لأن النص : (Jamme 660) يضعها بين (حضرموت) و (مذحج) ، فيرى لذلك ان منازلها في ذلك الوقت كانت عند هذه المواضع[2] .

والمعروف اليوم ان أول من ذكر اسم (كندة) من المؤلفين الكلاسيكيين على وجه لا يقبل الشك أو الجدل ، هو (نونوسوس) ، وقد دعاها باسم (Kindynoi) أي (كندة) ، وذكر انها وقبيلة (مادينوى) (Maddynoi) (معد) ، هما من أشهر القبائل العربية عدداً ومكانة ، يحكمها رجل واحد اسمه (Kaisos) اي (قيس)[3] .

وعلى أخبار الأخباريين معولنا في تدوين تأريخ كندة . وفي مقدمة هؤلاء ابن الكلبي الأخباري المعروف ، وله مؤلف خصصه بتأريخ كندة ، سماه : (كتاب ملوك كندة) ومؤلفات اخرى لها علاقة بهذه القبيلة[4] ، وابو عبيدة والأصمعي ، وعمر بن شبّة ، وأمثالهم ممن سترد اسماؤهم في ثنايا صحائف هذا الفصل . وهي اخبار تمثل جملة نزعات واتجاهات تصور تحزب اولئك الأخباريين وميولهم الى هذه القبيلة او تلك ، فبينها أخبار تميل الى تأييد اهل اليمن ، وبينها اخبار ترجح كفة (كنـدة) ، وبينها اخبار ترجع الفضل الى كلب ، وبينها اخبار تؤيد بني اسد ، وطبيعتها على العموم من طبيعة ما يرويه لنا الأخباريون من روايات عن تأريخ العرب قبل الاسلام ، فيها العصبية القبلية والتحزب ، فيجب ان ننظر اليها اذن بحذر شديد .

---

١ السطر الاول فما بعده حتى السطر الرابع من النص .

٢ Mahram, P. 318, 372.

٣ Olinder, PP. 114.

٤ راجع ايضا مقدمة (أوليندر) (Olinder) عن الموارد التي يستعان بها في تدوين تاريخ كندة من الصفحة التاسعة فما بعد ، الفهرست (٩٨) ، (طبعة خياط) .

وقد ذكر حمزة انه نقل اخبار ملوك كندة من (كتاب أخبار كندة)[1]، وأظنه قصد كتاب ابن الكلبي ، الذي أشرت اليه . وفي استطاعة الباحث العثور على الموارد التي تفيدنا في تدوين تأريخ كندة ومعرفة اتجاهاتها وتعيين أسمائها . و (المفضليات) و (الأغاني) و (النقائض) وأمثالها وبقية كتب الأدب ، هي خير أمثلة لتطبيق ما أقول .

ويذكر الأخباريون أن مواطن (كندة) الأصلية كانت بجبال اليمن مما يلي حضرموت[2] . وقد أطلق (الهمداني) عليها (بلد كندة من أرض حضرموت)[3]. وذكر ياقوت أن كندة مخلاف باليمن ، هو باسم قبيلة كندة[4] ، وروى رواية لابن الكلبي تفيد أن هذه القبيلة كانت تقيم في دهرها الأول في (غر ذي كندة) أي في مواطن العدنانيين ، ومن هنا احتج القائلون في كندة ما قالوا من نسبهم في عدنان، وهو يدل على وجود فريق كان يرى أن قبيلة كندة من قبائل عدنان[5] ويدل هذا الاختلاف على اختلاط كندة بالقحطانيين والعدنانيين ، ومن أمثال هذا الاختلاط تتولد الأنساب .

ولم يتحدث الأخباريون عن مواطن كندة قبل استقرارهم في (غمر ذي كندة) وكيف وصلوا الى هذا الموضع ، ولا عن كيفية انتقالهم الى حضرموت قبل الإسلام . وقد تحدث اليعقوبي عن حرب وقعت بين كندة وحضرموت . طال أمدها ، وهلك فيها جمع من الرؤساء ، منهم : (سعيد بن عمرو بن النعمان بن وهب) ، و (عمر بن زيد) وكان على (بني الحارث بن معاوية) و(شرحبيل ابن الحارث) وكان على السكون ، وهؤلاء من كندة ، و (مسعر بن مستعر) و (سلامة بن حجر) و (شرحبيل بن مرة) ، وهؤلاء من حضرموت . فلما ملكت حضرموت (علقمة بن ثعلب) وهو يومئذ غلام ، لانت كندة بعض اللين ، وكرهت محاربة حضرموت ، وكان القتل قد كثر فيها ، فصارت كندة الى أرض معد ، ثم ملكوا رجلاً منهم كان أول ملوكهم يقال له (مرتع بن

---

١ حمزة (ص ٩٢) ، (كندة) (السكون) (السكاسك) ، الفهرست (١/٩٨) ، (طبعة فلوكل) .
٢ الصفة (ص ٨٥ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٢٥٧) .
٣ الصفة (ص ٨٥ وما بعدها) .
٤ البلدان (٧/٢٨٤) .
٥ البلدان (٦/٣٠٤) ، الاغاني (١١/١٦٠) ، المفضليات (ص ٤٢٧) .

معاوية بن ثور) فملك عشرين سنة ، ثم ملك ابنه ثور ، ثم ابنه معاوية بن ثور ، ثم الحارث بن معاوية ، وكان ملكه أربعين سنة ، ثم ملك وهب بن الحارث عشرين سنة ، وملك بعده حجر بن عمرو المعروف بـ (آكل المرار) الشهير الذي حالف بين كندة وربيعة بالذنائب وتولى الملك[1] فهؤلاء إذن هم أسلاف (حجر بن عمرو) ، حكموا كندة ومعداً على رأي اليعقوبي قبل حجر بسنين .

وفي رواية لابن الكلبي ان « أول من أنسأ الشهور من مضر مالك بن كنانة ، وذلك ان مالك بن كنانة نكح الى معاوية بن ثور الكندي ، وهو يومئذ في كندة ، وكانت النسأة قبل ذلك في كندة ، لأنهم كانوا قبل ذلك ملوك العرب من ربيعة ومضر ، وكانت كندة من أرداف المقاول »[2] . وتدل هذه الرواية على ان هذه القبيلة كانت على اتصال وثيق بالقبائل المنتسبة الى معد ، وربما كان اتصالها هذا أوثق وأقوى من اتصالها بقبائل قحطان ، مع ان النسابين يعدونها من قبائل قحطان .

وأقدم رجل في كندة تحدث عنه الأخباريون بشيء من التفصيل والوضوح ، هو (حجر) الملقب بـ (آكل المرار)[3] ، وهو ينسب الى (عمرو بن معاوية ابن ثور بن مرتع بن معاوية) على رواية[4] ، والى (عمرو بن معاوية بن الحارث الأصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن كندة) على رواية أخرى[5] .

---

١ (الذئاب) ، الصفة (ص ١٢٣ ، ١٤٦ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨٢ ، ٢٠٩) ، البلدان (١٩٧/٤ وما بعدها) ، اليعقوبي (١٧٦/١ وما بعدها) ، (طبعة النجف) .

٢ الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (١١٨/١) (المطبعة الماجدية بمكة سنة ١٣٥٢) .

٣ المرار : عشب مر اذا أكلته الابل قلصت عنها مشافرها فبدت أسنانها ، قيل سمي حجر آكل المرار لكشر كان به ، وقيل لان ابنة له سباها ملك من ملوك سليح يقال له (زياد بن هبولة) من الضجاعة ، فقالت له ابنة حجر : (كأنك بأبي قد جاء كأنه جمل أكل المرار ، تعني كاشرا عن أنيابه ، وقيل : انه كان في نفر من أصحابه في سفر ، فأصابهم الجوع ، فأما هو فأكل المرار حتى شبع ، فعرف بآكل المرار . وهناك روايات أخرى في هذا المعنى . راجع : اليعقوبي (١٧٧/١) ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر (٧٤/١) ، شرح ديوان امرىء القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الاسلام (ص٦) ، لحسن السندوبي ، اللسان (١٧١/٤) .

٤ حمزة (ص ٩٢) .

٥ ابن خلدون (٢٧٣/٢) .

ورويت روايات أخرى تختلف عن هذه السلسلة بعض الاختلاف[١]. وذكر انه كان أخاً لـ (حسان بن تبع) لأمه . فلما دوّخ (حسان) بلاد العرب ، وسار في الحجاز ، وهمّ بالانصراف ، ولّى أخاه (حجراً) على (معد بن عدنان) كلها ، فدانوا له ، وسار فيهم أحسن سيرة[٢] .

وفي رواية أخرى من روايات الأخباريين ان التابعة كانوا يصاهرون(بني معاوية ابن عنزة) من كندة ، وكانوا يملكون في (دمون) ، ويولونهم على (بني معد ابن عدنان) بالحجاز ، فكان أول من ولي منهم (حجر آكل المرار) ، ولاّه (تبع بن كرب) الذي كسا الكعبة ، وولى بعده ابنه (عمرو بن حجر)[٣] . فيفهم من هذه الرواية ان (بني معد) كانوا أتباعاً للتابعة يعيّنون عليهم من يشاءون من الناس .

وفي رواية ترجع الى ابن الكلبي ، مفادها ان تبعاً المعروف بـ (أبي كرب) حين أقبل سائراً الى العراق نزل بأرض معد ، فاستعمل عليها (حجراً آكل المرار) ، ومضى لوجهه . فلما هلك ، بقي حجر لحسن سيرته مطاعاً في مملكته . وملك الشأم يومئذ (زياد بن الهبولة السليحي) والملك الأعظم في بني جفنة ، وزياد كالمتغلب على بعض الأطراف ، فقتله حجر . وقد بقي حجر حتى خرف، وله من الولد : عمرو ومعاوية[٤] .

فيظهر من الرواية المتقدمة ان حجراً كان معاصراً لـ (زياد بن الهبولة السليحي) وهو ملك عرب الشأم يومئذ ، ويذكر حمزة ان (حجراً) قتله[٥] .

وفي رواية أخرى ان حجراً هو أول ملوك كندة . وكانت كندة قبل أن يملك حجر عليها بغير ملك ، فأكل القوي الضعيف ، فلما ملك حجر سدّد أموالها وساسها احسن سياسة ، وانتزع من اللخميين ما كان بأيديهم من أرض (بكر ابن وائل) . وبقي حجر كذلك حتى مات[٦] . فـ (حجر) على هذه الرواية

---

١ الاغاني (١٥/٨٢) .
٢ ابن خلدون (٢/٢٧٣) ، ابن قتيبة : المعارف (ص ٣٠٨) ،
٣ ابن خلدون (٢/٢٧٦) .
٤ حمزة (ص ٩٢) ، ابن خلدون (٢/٢٧٣) ، الاغاني (١٥/٨٢) المحبر (ص ٣٦٨ وما بعدها) .
٥ حمزة (ص ٩٢) .
٦ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر (١/٧٤) (المطبعة الحسينية) .

أول ملك من ملوك كندة ، واول زعيم من زعمائهـا تمكن من توحيد صفوفها ومن تغليبها على قبائل أخرى ، ومن توسيع رقعة أراضيها حتى بلغت حدود مملكة لخم .

وذكر عدد من الأخباريين أن والد (حسان تبع) هو (أسعد أبو كرب)، المعروف بـ (تبع الأوسط) ، وهو ابن (كلى كرب بن تبع)[1] . وقد ذهب (هارتمن) (Hartmann) الى أن (حسان تبع) هذا هو (شرحبيل يعفر) المذكور في نص (Glaser 554) الذي يعود تأريخه الى سنة (٤٥٠) للميلاد ، وهو ابن (أب كرب أسعد) الذي حكم على تقدير (هومل) من سنة (٣٨٥) حتى سنة (٤٢٠) للميلاد[2] ، غير أننا يجب أن نأخذ أمثال هذه الأمور بحذر[3] ، خاصة فيما يتعلق بفتوحات التبابعة واتساع ملكهم وغير ذلك مما يقصه علينا الأخباريون .

ونزل حجر على رواية بنجد بـ (بطن عاقل) ، وكان اللخميون قد ملكوا كثيراً من تلك البلاد ، ولا سيما بلاد (بكر بن وائل) ، فنهض بهم وحارب اللخميين،واستخلص أرض بكر منهم[4] . ويقع (بطن عاقل) في جنوب (وادي الرمة) على الطريق بين مكة والبصرة[5] .

ويحدثنا بعض الرواة أن حجراً بينما كان يغزو عماناً ، بلغ ذلك (الحارث بن الأهيم (الأيهم) بن الحارث الغساني) ، فأغار على أرض حجر ، وأخذ أموالاً لحجر ، وقينة من أحب قيانه اليه ، وانصرف، فقال للقينة : «ما ظنك بحجر؟» فقالت : « لا أعرفه ينام إلاّ وعضو منه يقظان ، وليأتينك فاغراً فاه كأنه بعير أكل مراراً ، فان رأيت ان تنجو بنفسك فافعل » ، فلطمها الغساني فما لبثوا أن لحقهم حجر كما وصفت ، فرد القينة والأموال ، وكان حجر قد رجع من غزاة عمان وهو يقول بعـد أن بلغه غارة الغساني : « لا غزو إلا بالتعقيب »[6] وذكر (الهمداني) في معرض تفسيره لـ (آكل المرار) مضمون هـذه الرواية دون

---

١ المعارف (ص ٣٠٧) ، حمزة (ص ٨٥ وما بعدها) .
٢ Handbuch, S. 104, Hartmann, Die Arabische Frage, S. 481.
١ Olinder, P. 40.
٤ ابن الأثير (٢٠٩/١) ، شرح القصائد العشر ، للزوزني (ص ٦) .
٤ البلدان (٩٨/٦) ، Olinder, P. 42.
٥ منتخبات (ص ٩٧) .

أن يشير الى اسم الغساني ، او اسم الموضع الذي كان حجر يغزو فيه[1]. وذكرت بعض الروايات الحارث بن جبلة بدلاً من الحارث بن الأهيم (الأيهم) بن الحارث الغساني[2].

وذكر الميداني القصة نفسها عن (الحارث بن مندلة الضجعمي) من (بني سليح) . أما (ابن هشام) ، فجعله (عمرو بن الهبولة الغساني)[3].

وفي رواية أخرى ان الغازي هو (زياد بن الهبولة) ملك الشأم ، وكان من (سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة) ، غزا ملك حجر في أثناء اغارة حجر في كندة وربيعة على البحرين ، فأخذ الحريم والأموال ، وسبى (هنداً بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية) زوجة حجر . فلما سمع حجر وكندة وربيعة ، عادوا من غزوهم في طلب (ابن الهبولة) ومع حجر أشراف ربيعة (عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان) ، و (عمرو بن ابي ربيعة بن ذهل بن شيبان) ، وغيرهما ، فأدركوا (زياداً) (عمراً ؟) بـ (البردان) دون عين أباغ ، وقد أمن الطلب ، فنزل حجر في سفح جبل،ونزلت بكر وتغلب وكندة مع حجر دون الجبل بالصحصحان على ماء يقال له (حفير) ، ووقعت معركة تغلب فيها حجر على خصمه ، وأخذ زياد أسيراً ، ثم قتل، واسترجعت منه هند في قصة معروفة مشهورة فيها شعر على الطريقة المألوفة عند الأخباريين[4] . وتقول الرواية انه بعد ان انتقم وانتصر ، عاد الى الحيرة[5] . وقد عرفت هذه المعركة بـ (يوم البردان)[6] .

ويلاحظ ان ابن الأثير اورد في روايته عمراً بدلاً من زياد أي زياد بن الهبولة ملك الشأم كما هو مقتضى الكلام،وأورد في نهاية القصة هذه الجملة « ثم عاد الى الحيرة» وهي تشعر ان موضع حجر كان في الحيرة ، ولم يذكر أحد انه كان فيها .

---

١ الصفة (ص ٨٦) .

٢ الأغاني (١٣/٦٣) ، Olinder, P. 44.

٣ Olinder, P. 45.

٤ ابن الأثير (١/٢٠٧) ، الأغاني (١٥/٨٢ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣/٣٢٨) (لجنة) ، Olinder, P. 43.

٥ ابن الأثير (١/٢٠٨) ، (البردان) ، تاج العروس (٢/٣٠٠) ، القاموس (١/٢٧٧) .

٦ ابن الأثير (١/٢٠٧ وما بعدها) .

ويظهر أن المورد الذي نقل منه ابن الأثير أو أصحاب القصة ، لم يحسن حبكها، او انه خلط بين قصتين ، فظهرت في هذا الشكل .

وقد انتبه ابن الأثير الى هذا الاضطراب ، فقال : « هكذا قال بعض العلماء : ان زياد بن هبولة السليحي ملك الشأم غزا حجراً . وهـذا غير صحيح ، لأن ملوك سليح كانوا بأطراف الشأم مما يلي البر من فلسطين الى (قنسرين)، والبلاد للروم ، ومنهم أخذت غسان هذه البلاد ، وكلهم كانوا عمالاً لملوك الروم ، كما كان ملوك الحيرة عمـالاً لملوك الفرس على البر والعرب ، ولم يكن سليح ولا غسان مستقلين بملك الشأم ، وقولهم ملك الشام غير صحيح .

وزياد بن هبولة السليحي ملك مشارف الشام ، أقـدم من حجر آكل المرار بزمان طويل ، لأن حجراً هو جد الحارث بن عمرو بن حجر الذي ملك الحيرة والعرب بالعراق أيام قباذ أبي أنو شروان ، وبين ملك قباذ والهجرة نحو ثلاثين ومئة سنة . وقد ملكت غسان أطراف الشأم بعد سليح ستمائة سنة ، وقيل خمسمائة سنة ، وأقل ما سمعت فيه ست عشرة سنة وثلاثمئة سنة ، وكانوا بعـد سليح ، ولم يكن زياد آخر ملوك سليح ، فتزيد المدة زيادة أخرى ، وهذا تفاوت كثير، فكيف يستقيم أن يكون ابن هبولة الملك أيام حجر حتى يغير عليه،وحيث اطبقت رواة العرب على هذه الغزاة ، فلا بد من توجيهها ، وأصلح ما قيل فيه : إن زياد بن هبولة المعاصر لحجر كان رئيساً على قوم ، أو متغلباً على بعض أطراف الشأم . وبهذا يستقيم هذا القول والله أعلم .

وقولهم أيضاً ان حجراً عاد الى الحيرة لا يستقيم أيضاً ، لأن ملوك الحيرة من ولد عدي بن نصر اللخمي ، لم ينقطع ملكهم لها إلا أيام قباذ ، فـإنه استعمل الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار، كما ذكرنا من قبل ، فلما ولي أنو شروان، عزل الحارث ، وأعاد اللخميين . ويشبه أن يكون بعض الكنديين قد ذكر هـذا تعصباً ، والله أعلم .

ان أبا عبيدة ذكر هذا اليوم ، ولم يذكر أن ابن هبولة من سليح ، بل قال : هو غالب بن هبولة ملك من ملوك غسان ، ولم يذكر عوده الى الحيرة ، فزال هذا الوهم »[1].

---

١ ابن الأثير (٢٠٨/١ وما بعدها) .

وبهذا التعليق اراد ابن الأثير اصلاح ما جاء في الرواية المذكورة من اوهام . ولكن تعليقه نفسه فيه اوهام وأخطاء من حيث عدد السنين وتقدير المدد وما شاكل ذلك من أمور ترد في روايات أهل الأخبار .

ولا نعرف متى توفي حجر ، وقد ذكر ابن الأثير انه توفي بـ (بطن عاقل) وبه دفن[1] . ويرى (أوليندر) (Olinder) استناداً الى تقدير سنة وفاة الحارث حفيد (حجر) بسنة (٥٢٨) للميلاد ، والى تقدير مدة حكم الضجاعمة من (بني سليح) ، انه حكم في الربع الأخير من القرن الخامس للميلاد[2] .

ويرى بعض الباحثين ان (حجراً) هو (Ogarus) المذكور في بعض التقاويم في حوادث السنين ٤٩٧ و ٥٠١ و ٥٠٢ للميلاد . وقد ذكر معه اسم أخ له عرف بـ (Badicharimus) أي (معديكرب) ، كما ذكر أحد احفاده وهو (Aretha) اي الحارث[3] .

ونسب الأخباريون لـ (حجر) ثلاث زوجات ، هن : (هند) ابنة (ظالم ابن وهب بن الحارث بن معاوية) ، وتعرف بـ (هند الهنود) ، و (أم أناس بنت عوف بن محلم الشيباني) وهي ام (الحارث بن حجر)[4]، واما الثالثة فمن حمير[5] .

وفي ديوان الشاعر الجاهلي (بشر بن ابي خازم الأسدي) قصيدة يمدح فيها (عمرو بن ام اناس) ، أو (ام أياس)[6] ، وهو من (كندة) . وام اناس هي ابنة (عوف بن محلم الشيباني) الذي يضرب به المثل ، فيقال : « لا حر بوادي عوف » . وهو من بيت شرف قديم ، لهم قبة يقال لها (المعاذة) من لجأ اليها أعاذوه[7] . ومما جاء في مدح هذا الشاعر له :

---

١ ابن الأثير (١/٢٠٩) .
٢ Olinder, P. 46.
٣ Provincia Arabia, III, S. 286.
٤ الاغاني (٩/١٥٩) (١٥/٨٢) ، جمهرة ابن حزم (٣٢٣) ، الزوزني ، شرح القصائد العشر (٧) .
٥ Olinder, P. 41.
٦ بالياء في ديوان بشر حسب تحقيق الناشر .
٧ الاشتقاق (٢١٥) .

والمانح المئة الهجان بأسرها تُزجى مطافلها كجنة يثرب
ولرب زحف قد سموت بجمعه فلبسته رهواً بأرعن مُطنب
بالقوم مجتابي الحديد كأنهم أسد على لحق الأباطيل شزب[1]

ويستفاد من هذه القصيدة ان الممدوح ، وهو عمرو ، كان كريماً سخياً يهب المئات من الإبل الهجان الطيبة الأعراق ، وانه كان صاحب جيش قوي . وينطبق هذا الوصف على (عمرو بن حجر) . أكثر من انطباقه على (عمرو بن الحارث) جدّ (امرىء القيس) ، وذلك على رواية من زعم أنه كان للحارث جدّ الشاعر المذكور ولد اسمه (عمرو) من زوجة له دعوها (أم اناس) ابنة (عوف ابن محلم الشيباني) . إذ لم يكن وضع أولاد الحارث وضعاً حسناً بعد النكبة التي نزلت بمصيبة والدهم وبتعقب المنذر بن ماء السماء لهم ، وبثورة القبائل عليهم . فليس من المعقول أن يهب (عمرو) تلك الهبات وأن يجمع له جيش لجب . خاصة وأن الرواة لم يذكروا اسمه في جملة أسماء ابناء الحارث الذين ملكهم على القبائل في حياته او الذين ورثوا ملكه بعد مماته .

وقد نص (ابن قتيبة) في كتابه : (المعاني الكبير) على أن (عمرو بن أم أناس) ، هو (عمرو بن حجر الكندي) ، الذي كان جدّ (عمرو بن هند) ، وهند أم (عمرو بن هند) هي ابنته . وذكر أن (أم عمرو بن حجر) هي (أم اناس بنت ذهل بن شيبان بن ثعلبة) ، وانه هو المذكور في شعر الحارث بن حلزة ، اذ يقول :

وولدنا عمرو بن ام أناس من قريب لما أتانا الحباء[2]

وقد اختلف أهل الأخبار كما رأينا في السبب الذي حمل الناس على تلقيب (حجر) بـ (آكل المرار) . فذهبوا في ذلك جملة مذاهب ذكروها في أثناء حديثهم عنه[3] .

---

١ ديوان بشر (٣٩) ، الأغاني (١٥/٨٢ وما بعدها) .
٢ كتاب المعاني الكبير (١/٥٣١ وما بعدها) .
٣ الأغاني (٨/٦٠) (طبعة مطبعة التقدم) ، التبريزي ، القصائد العشر ، (ص٤)، الجاحظ ، البيان والتبيين (٣/٣٢٨) (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر) . الكامل ، لابن الأثير (١/٣٠١) ، (الطباعة المنيرية) ، دائرة المعارف ، للبستاني (١/١٢٢) ، الأغاني (١٥/٨٣) .

وصار (عمرو بن حجر) المعروف بـ (المقصور) ملكاً بعد ابيه. ويقولون إنه انما قيل له (المقصور) لأنه قصر على ملك ابيه ، او لأن (ربيعة) قصرته عن ملك أبيه ، وبذلك سمي المقصور[1] .

وكان لـ (عمرو) كما يقول الأخباريون اخ اسمه (معاوية) ، ويعرف بـ (الجون)[2] (الجوف)[3] ، كان نصيبه (اليمامة) . ويظهر من هذا الخبر انه اخذ من شقيقه هذه المنطقة وترك الأرضين الباقية لأخيه .

ويذكر اهل الأخبار ان (عمرو) و (معاوية) شقيقه هي (شعبة بن أبي معاصر بن حسان بن عمرو بن تبع)[4] . ويظهر من هذا النسب انها كانت من أسرة يمانية رفيعة ومن البيوتات التي كانت تحكم بعض المقاطعات .

وورد في رواية ان (عمراً) غزا الشأم ومعه ربيعة ، فلقيه الحارث بن أبي شمر الغساني فقتله . ولم يضف (اليعقوبي) صاحب الرواية المذكورة الى هذه الرواية شيئاً عن حياة (عمرو) المقصور[5] . أما (حمزة) ، فلم يشر اليه بشيء[6].

وفي رواية ان ربيعة حينما قصرت عمراً عن ملك أبيه ، استنجد عمرو المقصور (مرثد بن عبد ينكف الحميري) على ربيعة ، فأمده بجيش عظيم . فالتقوا بـ (القنان) ، فشد عامر الجون على عمرو المقصور فقتله[7] . فهذه الرواية تنفي رواية من يقول ان الحارث بن شمر الغساني هو الذي قتله .

واذا صحت الرواية المتقدمة ، تكون (ربيعة) قد ثارت على (ابن حجر) لأنها أرادت التخلص من حكم كندة لها . وقد تمكنت من ذلك على الرغم من المساعدة اليمانية التي قدمت له .

ويظهر من الروايات الواردة عن عمرو ومن تلقيبه بلقب : (المقصور) ومن

---

١ ابن الأثير (١/٢٠٩) ، المحبر (ص ٣٦٩) ، المفضليات (ص ٤٢٩) ، الاغاني (٨/٦٠) .
٢ ابن الأثير (١/٢٠٩) ، الاغاني (١٥/٨٢) ، المحبر (ص ٣٦٩) .
٣ (الجوف) ، الأغاني (٨/٦١) ، وهو تصحيف ، والصحيح (الجون) ، (٩/٧٩) (طبعة دار الكتب) .
٤ الأغاني (٨/٦٠) .
٥ اليعقوبي (١/١٧٧) ، الأغاني (٨/٦٥) .
٦ حمزة (ص ٩٢) .
٧ يوم القنان ، المفضليات (ص ٤٢٩) ، البلدان (٧/١٦٥) .

الشروح التي ذكرها الرواة في تفسير هذه الكلمة ، أن (عمراً) لم يكن قوياً صاحب عزم وارادة ، وأنه اكتفى بما وقع له من أبيه ، فلم يسع في توسيعه وتقويمه ، وأن حكمه على ما يظهر لم يكن طويلاً ، وقد جعله ابن الكلبي في جملة من كان يخدم (حسان بن تبع) تبع حمير ، ولم يلقبه بلقب ملك، بل قال: إنه كان سيد كندة في زمانه . وذكر ان (حسان بن تبع) حين سار الى جديس ، خلفه على بعض أموره . فلما قتل (عمرو بن تبع) أخاه (حسان بن تبع) ، وملك مكانه اصطنع (عمرو بن حجر) ، وكان ذا رأي ونبل ، وكان مما اراد عمرو اكرامه به وتصغير بني اخيه حسان ان زوّجه ابنة (حسان بن تبع) ، فتكلمت في ذلك حمير . وكان عندهم من الأحداث التي ابتلوا بها ، لأنه لم يكن يطمع في التزويج الى اهل ذلك البيت احد من العرب . وولدت ابنة (حسان بن تبع) لعمرو بن حجر (الحارث) الذي عيّنه (تبع بن حسان بن تبع بن ملكيكرب ابن تبع الأقرن) ، أي خال (الحارث) على بلاد معد[1] .

ويظهر من رواية مرجعها ابن الكلبي ان الأسود بن المنذر ملك الحيرة ، كان قد تزوج ابنة لـ (عمرو بن حجر) ، فولدت له (النعمان بن الأسود) الذي حكم في زمن (قباذ) اربع سنين ، ولذلك عرفت بـ (ام الملك)[2] .

وانتقل الملك على رأي اكثر الأخباريين من عمرو الى ابنه الحارث : وهو المعروف بـ (الحارث الحرّاب) على بعض الروايات[3] . وقد ورد في شعر للشاعر (لبيد) هذا البيت :

والحارث الحرّاب خلّى عاقلاً   داراً أقام بها ولم يتنقل

وقد ذهب الأصمعي الى ان الشاعر المذكور قصد بـ (الحارث الحرّاب) الحارث الذي نتحدث عنه . وذلك لأن (عاقلاً) من ديار كندة . وهو جبل كان يسكنه (حجر أبو امرىء القيس)[4] . واذا أخذنا بهذه الرواية وجب علينا ان نفترض انه كان قد اقام بموضع عاقل وحكم منه في أغلب الأوقات .

---

١ الطبري (٢/٨٦) .
٢ الطبري (١/٩٠٠) ، حمزة (ص ٦٩) .
٣ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري(ص ٥٥ ، ٢٧٥) .
٤ شرح ديوان لبيد (ص ٢٧٥) .

وقد نعت (حمزة) الحارث بـ (المقصور)[1] . وقد رأينا ان جماعة من الأخباريين منحت هذا اللقب لـ (عمرو) .

وقد اختلف الرواة في ام (الحارث) ، فذهب بعض منهم الى انها ابنة (حسان بن تبع)[2]،وذهب بعض منهم الى انها (ام أناس)[3] او (ام اياس)[4] بنت (عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان) ، وامها (أمامة بنت كسر بن كعب ابن زهير بن جشم) من تغلب[5] .

وفي رواية اخرى ، ان (ام اناس) ، كانت زوجة لـ (حجر) وهي ام (الحارث بن حجر) و (هند بنت حجر) . ولذلك فهي ليست أماً للحارث ابن عمرو المقصور ، كما جاء في الرواية المتقدمة . ويظهر ان مرد هذا الاختلاف يعود الى تشابه الاسمين ، والى عدم تمييز الرواة بينهما . ويكون (الحارث بن حجر) المذكور اذن شقيقاً لعمرو بن حجر[6] .

وقد ذكر (ثيوفانس) رئيساً عربياً دعاه (الحارث من بني ثعلبة) (Aretas O. Thalabaynys) ، يظن (أوليندر) انه (الحارث الكندي)[7] ، ويرجح لذلك الرواية الثانية التي تجعل ام الحارث (ام أناس) (ام اياس) . ذلك لأن (ام أناس) من شيبان ، وشيبان هو ابن ثعلبة في عرف النسابين ، فيكون هذا الحارث على رأيه هو الحارث الكندي .

ولست أستطيع الجزم بهذا الرأي ، فان (الحارث) من الأسماء المعروفة الكثيرة الاستعمال عند العرب في بادية الشأم وفي بلاد الشأم ، وشمال الحجاز ونجد ، وقد عرفنا أسماء عدد من الأمراء وسادات القبائل عرفوا بهذا الاسم ، ثم ان نسبة الحارث الى الثعلبانية (ثعلبة) ، لا يدل على ان الحارث الذي ذكره (ثيوفانس) هو (الحارث الكندي) ، بل يدل على انه كان من قبيلة اسمها (ثعلبة) أو (ثعلبان).

وقد ذكر كتبة اليونان والسريان اسم قبيلة (ثعلبة) وكانت من القبائل الخاضعة

---

١ حمزة (ص ٩٢) .
٢ الطبري (١/٩٠٠) ، حمزة (ص ٦٩) .
٣ المفضليات (ص ٤٢٩) ، الاغاني (٨/٦٢) .
٤ Olinder, P. 48.
٥ المفضليات (ص ٤٢٩) .
٦ الاغاني (١٥/٨٣) .
٧ Olinder, P. 48.

للروم . فورد (طايوي ربيث رومرين دبيث ثعلبة) ، أي (العرب الذين في أرض الروم الملقبون ببني ثعلبة) ، وورد ذكرها في اخبار مؤرخي الكنيسة في النصف الثاني من القرن الرابع للميلاد[1] .

وفي (طيء) ثلاثة بطون عرفت بـ (بني ثعلبة) ، هي (ثعلبة بن ذهل)، و (ثعلبة بن رومان) و (ثعلبة بن جدعاء) ، وتعرف بـ (ثعالب طيء). ويوجد أيضاً (بنو ثعلبة بن شيبان) من بطون (تميم)[2] . وقد عرف (بنو (شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل) و (بنو شيبان ابن ذهل بن ثعلبة بن عكابة) بـ (بني ثعلبة) في تواريخ الروم والسريان . ومن (شيبان) كان (حارث بن عباد) سيد شيبان في حرب البسوس . وقد عرفوا بـ (Thalabenes) عند الروم[3] .

وتذكر رواية لابن الكلبي أن (تبع بن حسان بن تبع بن ملكيكرب بن تبع الأقرن) ، اعان (الحارث بن عمرو) وساعده على تولي الملك . و (تبع بن حسان بن تبع) ، هو خاله على هذه الرواية . وتزعم انه بعث الى ابن أخته بجيش عظيم سار معه الى بلاد معد والحيرة وما والاها ، فسار الى (النعمان بن امرىء القيس بن الشقيقة) ، فقاتله ، فقتل النعمان وعدة من اهل بيته ، وهزم اصحابه ، وافلته المنذر بن النعمان الأكبر ، وملك (الحارث بن عمرو الكندي) ما كانوا يملكون[4] .

ولا نعرف من الأسماء المذكورة في الكتابات العربية الجنوبية اسم ملك يدعى (تبع بن حسان بن تبع بن ملكيكرب بن تبع الأقرن) . ويرى (هارتمن) (Hartmann) أن الأخباريين ارادو به (شرحبيل يكف) ، وهو ابن شرحبيل يعف) المذكور اسمه في النص المؤرخ بسنة (٤٦٧)[5] .

يظهر من رواية (ابن الكلبي) المتقدمة ان الملك لم ينتقل الى الحارث من ابيه ارثاً،وانما جاءه بمساعدة خاله (تبع بن حسان بن تبع) . ولم تذكر الرواية

---

١ شيخو ، النصرانية (القسم الاول ص ٧٩) ، Rothstein, S. 74.

٢ النصرانية (القسم الأول ، ص ١٢٧) ٠ ابن حزم ، جمهرة (ص ٢٩٧) ٠

٣ النصرانية (القسم الأول ، ص ١٣١ وما بعدها) ، (القسم الثاني : ٢/٤٢٢) ٠

٤ الطبري (٢/٨٦) ٠

٥ Olinder, P. 54, Hartmann, S. 497.

الأسباب التي دعت الى اعتماد الحارث على (تبـع) في تولي الملك . ولو صحت هذه الرواية كان معناها انه لم يتمكن من الحصول على حقه في الملك إما لامتناع القبائل من قبوله ملكاً عليها ، مما دعاه الى الاستعانة بـ (تبع) او بغيره ، وإما لأن ملك والده يوم توفي لم يكن واسعاً ، بل كان مقتصراً عـلى كندة ومن في حلفها ، او لأنه لقي مقاومة من أشقائه واقربائه ، مما دفعه إلى الاستعانة بالغرباء في تنصيب نفسه ملكاً عـلى كندة وعلى القبائل الأخرى ، ثم على توسيع ملكه فيما بعد .

ولدينا رواية اخرى ، تذكر ان الذي ساعد (الحارث بن عمرو) على تولي الحكم على بلاده معد ، هو (صهبان بن ذي خرب)،وذلك ان معداً لما انتشرت تباغتت وتظالمت ، فبعثت الى صهبان تسأله ان يملك عليها رجلاً يأخذ لضعيفها من قويها مخافة التعدي في الحروب ، فوجّـه اليها الحارث بن عمـرو الكندي ، واختاره لها ، لأن معداً أخواله ، امه امرأة من بني عامر بن صعصعة ، فسار الحارث اليها بأهله وولده . فلما استقر فيها ، ولى ابنه حجر ، وهو أبو امرىء القيس الشاعر على أسد وكنانة ، وولى ابنه شرحبيل على قيس وتميم ، وولى ابنه معدي كرب ، وهو جد الأشعث بن قيس الكندي على ربيعة ، فكثوا كذلك الى أن مات الحارث ، فأقر صهبان كل واحد منهم في ملكـه ، فلبثوا بذلك ما لبثوا . ثم ان بني أسد وثبوا على ملكهم حجر بن عمرو ، فقتلوه . فلما بلغ ذلك صهبان ، وجه الى مضر عمرو بن نابل اللخمي ، والى ربيعة لبيد بن النعمان الغساني ، وبعث برجـل من حمير يسمى أوفي بن عنق الحيـة وأمره ان يقتل بني أسد أبرح القتل . فلما بلغ ذلك أسداً وكنانة ، استعـدوا . فلما بلغ أوفي ذلك ، انصرف نحو صهبان ، واجتمعت قيس وتميم فأخرجوا ملكهم عمرو بن نابل عنهم فلحق بصهبان ، وبقي معدي كرب جد الأشعث ملكاً على ربيعة [1] .

اما صهبان ، فهو رجل لم يكن من اهل بيت الملك في حمير ، بل كان قـد وثب على الملك واخذه عنوة ، وذلك حينما تضعضع امر الحميرية بقتل (عمرو بن تبع) اخاه (حسان بن تبع) ، فانتهز صهبان هذه الفرصة ، ووثب على (عمرو ابن تبع) فقتله واستولى على ملكه وصار الأمر اليه[2] .

١ الدينوري : الاخبار الطوال (ص ٥٣ وما بعدها) .
٢ الاخبار الطوال (ص ٥٢ وما بعدها) .

وهناك رواية اخرى تذكر ان (صهبان بن محرث) هو الذي عين الحارث على معد . فهي تأييد للرواية المتقدمة ، سوى انها عينت اسم والد صهبان ، بأن نصت عليه ، فجعلته (محرثاً) . اما الرواية المتقدمة فدعته (ذي خرب) . و (ذي خرب) لقب ، يعبر عن منصب وليس باسم علم .

وفي رواية يرجع سندها الى ابي عبيدة ، ان بكر بن وائل لما تسافهت ، وغلبها سفهاؤها ، وتقاطعت ارحامها ، ارتأى رؤساؤهم فقالوا : إن سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا فأكل القوي الضعيف . فنرى ان نملك علينا ملكاً نعطيه الشاة والبعير ، فيأخذ للضعيف من القوي ويرد على المظلوم من الظالم ، ولا يمكن ان يكون من بعض قبائلنا ، فيأباه الآخرون ، فيفسد ذات بيننا ، ولكننا نأتي تبعاً فنملكه علينا ، فأتوه ، فذكروا له امرهم ، فملك عليهم الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي ، فقدم فنزل بطن عاقل[1] .

ويدرك من هذه الروايات انه كان للتابعة نفوذ على قبائل معد ، وان تلك القبائل كانت تستشيرهم في أمورها ، وتحتكم اليهم فيما يحدث بينهم من خلاف . وانه كان لهم يد في تعيين الحارث وتنصيبه على تلك القبائل .

والشيء الوحيد الذي يمكن استخلاصه من هذه الروايات المدونة عن تعيين الحارث ملكاً ، انه تولى الحكم على كندة بعد وفاة أبيه ، وانه وسع ملكه بعد ذلك وقد يكون بمساعدة (تبع) ، فصار ملكاً على كندة وبكر وعلى قبائل اخرى وانه تمكن بشخصيته من رفع شأن قبيلته . ويرى (أوليندر) انه حكم حوالي سنة (٤٩٠) للميلاد[2] .

وليس من السهل تعيين اسم (التبع) الذي عين الحارث ملكاً كما جاء ذلك في الروايات اليمانية بالاستناد الى نصوص المسند ، وليس من السهل ايضاً تصور بلوغ نفوذ (ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت واعرابها في الجبال وفي تهامة) المواضع التي ذكرها اخباريو اليمن . وقد رأينا آثار الوهن بادية على تلك المملكة ، بحيث لم تتمكن من مقاومة غزو الحبشة لها . وليس من السهل ايضاً تصور مجيء (بكر) والقبائل الأخرى مختارة طائعة الى الحارث تلتمس منه ان

---

١ نهاية الارب (١٥/٤٠٦) ، العقد الفريد (٦/٧٨) ، (طبعة العريان) .
٢ Olinder, P. 56.

يتفضل عليها بأن يكون ملكاً عليها ، وقد رأيناها كما يقول الأخباريون أنفسهم تنتقض على البيت المالك من كندة وتثور عليه ، وتقتل امراءها منهم ، حال علمها بضعف ذلك البيت ، وبوفاة الرجل الذي جمع تلك القبائل بقوته ، ووحدها بشخصيته. والأقرب الى المنطق هو أن هذه القبائل لم تعترف برئاسة الحارث عليها، وبتاجه عليها إلا لما رأته فيه من القوة ، وإلا بعد استعمال القوة والعنف مع عدد من القبائل ، فرضيت به ملكاً ما دام قوياً والأمر بيديه ، وهو منطق السياسة في الصحراء . وبهذا التفسير نستطيع فهم تكون ممالك أو امارات بسرعة عجيبة ، تظهر فجأة قوية تحتضن جملة قبائل ، ثم تسير بسرعة فتهدد حدود الدول الكبرى وتهاجمها كالفيضان ، فإذا أصيبت بهذه الدول تمزقت أوصالها وتجزأت كما تتجزأ الفقاعة وتذوب . هكذا حياة الممالك في البوادي ، ممالك تولد ، وأخرى تموت .

ويذكر الأخباريون أن الحارث الكندي جمع الى ملكه ملك الحيرة وآل لخم، وذلك في زمن قباذ . ورووا في ذلك جملة روايات عن كيفية تولي الحارث ملك الحيرة ، وطرده لملكها الشرعي وتولى الحكم دونه . فرووا أن الزمن لم يكن مؤاتياً لـ (قباذ) يوم أوتي الحكم . كانت الأحوال مضطربة ، والفتن رافعة رأسها في مواضع متعددة ، والنفوذ في المملكة بيد الموابذة ، ولموبذان موبذ الكلمة العليا ، إذ هو الرئيس الروحي الأعلى في المملكة ، كما كان للأغنياء وللاقطاعيين الشأن الأول في سياسة الدولة . فلم يعجب قباذ الوضع ، لأنه (ملك الملوك) (شاهنشاه) ومن حق (ملك الملوك) الا ينازع في الملك ، ففكر في طريقة لتقليص ظل الموابذة والمتنفذين في المملكة من كبار الأغنياء والملاكين ، ورأى أن خير ما يفعله في هذا الباب ، هو نشر تعاليم مزدك بين الناس . فإذا انتشرت كانت كفيلة بالقضاء على الأغنياء وعلى رجال الدين المتنفذين[1] . وكان مزدك وأصحابه يقولون ان الناس تظالموا في الأموال والأرزاق ، فاغتصبها بعضهم من بعض ، وان الأغنياء قد اغتصبوا رزق الفقراء ، وانهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وانه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة ، فليس هو بأولى به من غيره . فافترص السفلة ذلك ، واغتنموه ، وكانفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلي الناس بهم ، وقوى أمرهم حتى كانوا

[1] Noldeke, Aufsatze zur Persischen Geschichte, Leipzig, 1887, S. 109.

يدخلون على الرجل في داره ، فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم »[1] . هكـذا وصف الطبري وغيره من الأخباريين دعوة مزدك . فهي على هذا الوصف دعوة اشتراكيـة جاءت مقوضة لرجال الدين والاقطاعيين ومتنفذة الأغنياء .

فلما شايع قباذ المزدكية ، اجتمعت كلمة (موبذان موبذ) والعظماء على ازالته من ملكه ، فأزالوه عنه وحبسوه ، وعيّنوا أخاه جاماسب مكانه . ويذكر الطبري ان ذلك كان في السنة العاشرة للملك قباذ ، فيكون ذلك في سنة (٤٩٨ م) على رأي من جعل ابتداء ملكـه في عام (٤٨٨ م)[2] . وقدّر حدوثه أيضاً في سنة (٤٩٦ م)[3] . وقد مكث أخوه ملكاً ست سنوات ثم أزاله عنه أخوه قباذ الذي أفلت من السجن في قصة يرويها الأخباريون ، واستعاد قباذ بذلك ملكه[4] . فتكون استعادته ملكه في حوالي سنة (٥٠٤) أو (٥٠٢ م) . وقد مكث ملكاً حتى انتقل الى العالم الثاني في سنة (٥٣١ م) .

وتذكر رواية الأخباريين هذه ، ان الملك قباذ طلب من المنذر بن ماء السماء الدخول فيما دخل فيه من مذهب مزدك وزندقته ، فامتنع ، فاغتاظ قباذ وانزعج منه ، ودعا (الحارث بن عمرو) الى ذلك ، فأجابه ، فاستعمله على الحيرة . وطرد المنذر من مملكته ، فعظم سلطان الحارث ، وفخم أمره ، وانتشر ولده ، فملكهم على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد[5] . وكان من حلّ نجداً من أحياء نزار تحت سلطان الحارث دون من نأى منهم عن نجد[6] . فتربط هذه الرواية كما نرى بين زندقة قباذ وعزل المنذر وتنصيب الحارث ملكاً على الحيرة،بقبوله مذهب قباذ.

وروى (حمزة) ان الحارث كان قد طمع في ملك (آل لخم) ، وكان قد وجد ان (قباذ) ضعيف الهمة فاتر العزم ، غير ميال الى القتال ، وانه سوف لا يساعد آل لخم ، إن هو هاجمهم ، لذلك ساق كندة ومن كان معه من بكر ابن وائل عليهم ، وباغت سادة الحيرة ولم يتمكنوا من الوقوف أمامه ، فهرب

---

١ الطبري (٨٨/٢) .
٢ Ency. Brita., Vol., 17, P. 574, Ency., 4, P. 178.
٣ Noldeke, Aufs., S. 109.
٤ الطبري (٨٧/٢) .
٥ ابن الاثير (٢٠٩/١) ، الطبري (٨٩/٢ وما بعدها) ، المحبر (ص ٣٦٩) .
٦ حمزة (ص ٩٢) .

(المنذر) من دار مملكته بالحيرة ومضى حتى نزل الى (الجرساء الكلبي) وأقام عنده الى أن تغير الحال بوفاة قباذ ، وتبدّل سياسة الحكومة بتولي (كسرى أنو شروان) الملك. فعاد الى ملكه وقهر الحارث وتغلب عليه واستعاد ما اغتصب منه[1].

وذكر (حمزة) ان سبب لجوء (بكر بن وائل) الى الحارث ، وخضوعها لحكمه واشتراكها معه في مهاجمة (آل لخم) وانتزاع الحكم منهم ، هو أن (امرأ القيس البدء) كان يغزو قبائل (ربيعة) ، فينكي فيهم، ومنهم أصاب (ماء السماء) ، وكانت تحت (أبي حوط الحظائر) فثارت به (بكر بن وائل) فهزموا رجاله ، وأسروه ، وكان الذي ولي أسره (سلمة بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان) ، فأخذ منه الفداء وأطلقه ، فبقيت تلك العداوة في نفوس (بكر بن وائل) الى أن وهن أمر الملك (قباذ) ،فعندها أرسلت بكر الى الحارث بن عمرو فملكوه ، وحشدوا له ، ونهضوا معه حتى أخذ الملك ودانت له العرب[2] .

وبهذه الكيفية شرح (حمزة) كيفية تولي (الحارث) عرش الحيرة ، وسبب بغض (بكر بن وائل) لآل لخم ، بغضاً دعاها إلى تنصيب (الحارث) ملكاً عليها ، وعلى الانتقام من آل لخم .

ولابن الكلبي رواية عن كيفية تولي الحارث ملك الحيرة ، ذكر « ان قباذ ملك فارس لما ملك كان ضعيف الملك،فوثبت ربيعة على النعمان الأكبر ابي المنذر الأكبر ذي القرنين . وإنما سمي ذا القرنين لضفرين كانا له ، فهو ذو القرنين بن النعمان بن الشقيقة . فأخرجوه ، فخرج هارباً حتى مات في إياد ، وترك ابنه المنذر فيهم ، وكان أرجى ولده عنده . فتنطلق ربيعة الى كنده . وكان الناس في الزمن الأول يقولون ان كندة من ربيعة . فجاؤوا بالحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ، فملكوه على بكر بن وائل ، وحشدوا له ، وقاتلوا معه ، فظهر على ما كانت العرب تسكن من أرض العراق ، وأبى قباذ أن يمد المنذر بجيش . فلما رأى ذلك المنذر ، كتب الى الحارث بن عمرو : إني في غير قومي ، وأنت أحق من ضمني واكتنفني ، وانا متحول اليك . فحوّله اليه ، وزوجه

١ حمزة (ص ٧٠ وما بعدها) .
٢ حمزة (ص ٧٠ وما بعدها) .

ابنته هنداً . ففرق الحارث بن عمرو بنيه في قبائل العرب ، فصار شرحبيل بن الحارث في بكر بن وائل وحنظلة بن مالك وبني زيد بن تميم وبني أسد وطوائف من بني عمرو بن تميم والرباب ، وصار غلفاء وهو معديكرب في قيس ، وصار سلمه بن الحارث في بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة بن تميم ... ومع معديكرب الصنائع ، وهم الذين يقال لهم بنو رقيّة أم لهم ينسبون اليها . وكانوا يكونون مع الملوك من شذاذ الناس . فلما هلك أبوهم الحارث بن عمرو ، تشتّت أمرهم وتفرقت كلمتهم ، ومشت الرجال بينهم ، وكانت المغاورة بين الأحياء الذين معهم ، وتفاقم أمرهم حتى جمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع وزحف اليه بالجيوش ... »[1] .

ولابن الكلبي رواية أخرى دونّها الطبري ، هذا نصها : « لما لقي الحارث ابن عمرو بن حجر بن عدي الكندي النعمان الأكبر ، وملك الحارث بن عمرو الكندي ما كان يملك بعث قباذ بن فيروز ملك فارس الى الحارث بن عمرو الكندي انه قد كان بيننا وبين الملك الذي قد كان قبلك عهد ، واني احب أن ألقاك .

وكان قباذ زنديقاً يظهر الخير ويكره الدماء ، ويداري أعداءه فيما يكره من سفك الدماء ، وكثرت الأهواء في زمانه واستضعفه الناس . فخرج اليه الحارث ابن عمرو الكندي في عدد وعدة حتى التقوا بقنطرة الفيوم ... فلما رأى الحارث ما عليه قباذ من الضعف، طمع في السواد ، فأمر أصحابه مسالحه أن يقطعوا الفرات، فيغيروا في السواد، فأتى قباذ الصريخ وهو بالمدائن فقال: هذا من تحت كنف ملكهم. ثم أرسل الى الحارث بن عمرو ان لصوصاً من لصوص العرب قد أغاروا ، وانه يجب لقاءه ، فلقيه . فقال له قباذ : لقد صنعت صنيعاً ما صنعه أحد من قبلك . فقال له الحارث : ما فعلت ولا شعرت ، ولكنها لصوص من لصوص العرب، ولا أستطيع ضبط العرب الا بالمال والجنود . قال له قباذ : فما الذي تريد؟قال: أريد أن تطعمني من السواد ما أتخذ به سلاحاً . فأمر له بما يلي جانب العرب من أسفل الفرات ، وهي ستة طساسيج . فأرسل الحارث بن عمرو الكندي الى تبع وهو باليمن : إني قد طمعت في ملك الأعاجم ، وقد أخذت منه ستة طساسيج،

---

[1] المفضليات (ص ٤٢٧ وما بعدها) ، النقائض (ص ١٠٧٢ وما بعدها) ، (طبعة ليدن) .

فاجمع الجنود ، وأقبل ..... فجمع تبع الجنود ، وسار حتى نزل الحيرة،وقرب من الفرات ، فآذاه البق ، فأمر الحارث بن عمرو أن يشق له نهر الى النجف ، وهو نهر الحيرة ، فنزل عليه ، ووجه ابن أخيه شمر ذي الجناح الى قباذ، فقاتله فهزمه شمر حتى لحق بالري » . وقد ترك ابن الكلبي الاشارة الى الحارث وطفر الى الحديث عن فتوحات شمر الذي أوصل فتوحاته الى القسطنطينية ، ثم الى رومة (رومية) ، ثم الى عودة (تبع) وتهوده بتأثير أخبار يثرب ، ثم الى علم (كعب الأحبار) الذي استمده على حد قوله من بقية ما أورثت أحبار يهود[1] .

ويرى (موسل) ان التقاء (الحارث) بـ (قباذ) (٤٨٨ – ٥٣١ م) عند قنطرة الفيوم ، كان سنة (٥٢٥) للميلاد[2] . والفيوم موضع لا يبعد كثيراً عن (هيت)[3] .

يفهم من رواية ابن الكلبي هذه ان الحارث التقى بملك الحيرة (النعمان بن المنذر) في معركة أسفرت عن مقتل (النعمان) وفرار المنذر ابنه ، وعن انتصار عرب الحارث على عرب الحيرة،واستيلاء الحارث على ما كان يملكه النعمان . فلما حدث هذا ووقع ، اضطر (قباذ) الى ملاطفة الحارث واسترضائه . ولكن الحارث طمع في أكثر من ذلك ، طمع في السواد ، فأقطعه منه ما يلي جانب العرب من أسفل الفرات ، أقطعه منه ستة طساسيج . فليس في هذه الرواية اشارة الى قبول (الحارث) الدخول في المزدكية ، ولا الى طرد النعمان من ملكه نتيجة لرفضه اتباعه في دينه ، انما هو ضعف قباذ وعجزه عن مساعدة صاحبه النعمان وانتهاز الحارث الذكي هذه الفرصة المواتية للاستيلاء على ما طمع فيه من ملك النعمان .

أما الشق الثاني ، وهو خبر (تبع) ، وحروبه ومساعدته له ، فهو على ما يظهر من هذا النحو الذي ألفناه في ربط تأريخ كندة باليمن ، والإشادة بماضي القحطانيين وانفرادهم بالملك دون خصومهم العدنانيين ، والى عدم تمكن كندة من العمل وحدها لولا مساعدة اليمانيين .

يستنتج من كل هذه الروايات أن (الحارث بن عمرو) الكندي اغتصب عرش الحيرة أمداً ، اغتصبه من (النعمان بن امرىء القيس بن الشقيقة) ، أو

---

١ الطبري (٢/٨٩ وما بعدها) .
٢ Musil, Middle Euphrates, P. 350.
٣ البلدان (٦/٤١٤) .

(المنذر الأكبر بن ماء السماء) أو (النعمان الأكبر أبو المنذر الأكبر ذو القرنين)، و (ذو القرنين) ، هو (ذو القرنين بن النعمان بن الشقيقة)[1] ، أو (النعمان ابن المنذر بن امرىء القيس بن الشقيقة)[2]،وذلك في زمن (قباذ) ملك الفرس . ويقصد بـ (قباذ) هذا (قباذ) الأول الذي حكم ثلاثاً وأربعين سنة على ما جاء في الأخبار[3] . ويقدر العلماء ذلك من سنة (٤٨٨) حتى سنة (٥٣١) بعد الميلاد[4].

ولنتمكن من تعيين اسم الملك الذي قصده الرواة ، علينا الرجوع الى أسماء من حكم في أيام قباذ من ملوك الحيرة ، وذلك على نحو ما رواه لنا الأخباريون .

ان أول من حكم في عهد (قباذ) ، على ما يدعيه (حمزة) ، هو الملك (الأسود بن المنذر) ، وقد حكم في أيامه ست سنين . ثم المنذر بن المنذر ، وأمه (هر) ، وقد حكم سبع سنين . ثم النعمان بن الأسود ، وأمه ام الملك بنت عمرو بن حجر أخت (الحارث بن عمرو بن حجر الكندي) ، أربع سنين. ثم أبو يعفر بن علقمة الذميلي ، وقد حكم ثلاث سنين . ثم امرؤ القيس بن النعمان ابن امرىء القيس ، وقد حكم سبع سنين . ثم امرؤ القيس بن النعمان بن امرىء القيس ، وقد حكم سبع سنين . ثم المنذر بن امرىء القيس المعروف بالمنذر بن ماء السماء ، وهو ذو القرنين ، وقد حكم اثنتين وثلاثين سنة من ذلك ست سنين في زمن قباذ . ثم الحارث بن عمرو بن حجر الكندي ، ولم يذكر (حمزة) مدة حكمه ، انما قال : « ذكر هشام عن ابيه انه لم يجد الحارث فيمن أحصاه كتاب أهل الحيرة من ملوك العرب . ثم قال : وظني انهم انما تركوه لأنه توثب على الملك بغير اذن من ملوك الفرس ، ولأنه كان بمعزل عن الحيرة التي كانت دار المملكة ولم يعرف له مستقر وانما كان سيارة في أرض العرب »[5] . ولم يذكر حمزة مدة حكم (قباذ)[6] .

أما (الطبري) ، فجعل (النعمان بن المنذر بن امرىء القيس بن الشقيقة)

---

١ المفضليات (ص ٤٢٧) .
٢ Olinder, P. 58.
٣ الطبري (٨٩/٢) .
٤ Ency., IV, P. 178.
٥ حمزة (ص ٦٩ ـ ٧٢) .
٦ حمزة (ص ٣٩) .

الملك الذي كان قد حكم حينما تولى (قباذ) الحكم ، وجعل (الحارث بن عمرو ابن حجر) الذي قتل النعمان على روايته من بعده . وقد دام حكمه على ما يظهر من رواية الطبري حتى أيام (كسرى أنو شروان بن قباذ) . فلما قوي شأن (كسرى أنو شروان) ، بعث الى المنذر بن النعمان الأكبر ، وأمه ماء السماء ، فملكه الحيرة وما كان يلي آل الحارث بن عمرو بن حجر[1] .

أما (ابن الأثير) ، وهو عيال على الطبري وناقل منه ، فقد ذكر ما ذكره الطبري ، وأضاف اليه : أن المنذر بن ماء السماء لما بلغه هلاك قباذ ، وقد علم خلافه على أبيه في مذهبه ، أقبل الى (أنو شروان) فعرفه نفسه ، وأبلغه أنه سيعيده الى ملكه،وطلب (الحارث بن عمرو) ، وهو بالأنبار ، فخرج هارباً في صحابته وماله وولده ، فمر بـ (الثوية) ، فتبعه المنذر بالخيل من تغلب واياد وبهراء ، فلحق بأرض كلب ، ونجا ، وانتهبوا ماله وهجائنه ، وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار ، فقدموا بهم على المنذر ، فضرب رقابهم بـ (جفر الأميال)[2] (جفر الأملاك) في ديار بني مرينا العباديين بين دير بني هند والكوفة[3] .

ترى مما تقدم اختلاف الروايات وتباينها وتعددها ،حتى ان الراوية الواحد مثل (ابن الكلبي) يروي لنا جملة روايات ، قد يناقض بعضها بعضاً . لقد وجدنا منها ما زعمت ان قباذ طرد المنذر من مملكته،وأحل الحارث محله،ومنها ما زعمت ان المنذر استرضى الحارث بعد أن رأى عجزه وعجز صاحبه ، فحوّله اليه ، وزوّجه ابنته هند ، ومنها ما ذكرت ان الحارث قتل النعمان بن المنذر بن امرىء القيس بن الشقيقة ، وان المنذر بن النعمان الأكبر فرّ ونجا بنفسه ، وان الحارث ملك بالقوة ما كان يملكه ملوك الحيرة وان قباذ داراه واسترضاه لما وجد فيه من البأس . فماذا نستخلص من مجموع هذه الروايات ؟

كل ما يستخلص منها ان الحارث استبد بملك آل لخم ، في أيام قباذ،وكان مركز هذا الملك صعباً بسبب ضعفه ، وبسبب العقيدة التي قبلها ، وهي عقيدة تناقض ما كان عليه الناس . وقد حكم أمداً : يظهر انه امتد مدة حكم قباذ ، ثم

---

١ الطبري (٨٩/٢ وما بعدها) .
٢ ابن الاثير (١٧٥/١) .
٣ البلدان (١٢٧/٤ وما بعدها) .

تغيرت به الأحوال ، فعاد أصحاب البيت الى بيتهم ، وهرب هو الى من حيث جاء . ولا نعرف على وجه التحقيق متى ولي الحكم ، ولا متى غادره .

لقد ذكرت أسماء الملوك الذين حكموا في أيام (قباذ) على رواية حمـــزة ، وهي رواية تكاد تتفق مع القائمة التي دوّنها الطبري في آخر كلامه عن (كسرى أنو شروان) نقلاً عن هشام بن الكلبي لأسمـــاء ملوك الحيرة ومدد حكمهم ، وذلك قبل عهد (كسرى أنو شروان)[1] . فأي ملك من هؤلاء يمكن أن يكون هو الملك المقصود ؟

لقد ذكر (يوشع العمودي) (Joshua the Stylite) ان ملك الحيرة (نعمان) اشترك مع (قباذ) في المعارك التي وقعت بينه وبين الروم،فأصيب النعمان بجروح بليغة على مقربة من (قرقيسياء) (Circesium) قضت عليه ، وذلك في سنة (٥٠٣) للميلاد . ولقد انتهز عرب الروم المسمون بالثعلبيين (بني ثعلبة) هذه الفرصة ، فغزوا الحيرة ، واضطرت القوة التي تركها النعمان في عاصمته الى الفرار للبادية . أفلا يجوز أن يكون هؤلاء الغزاة هم أعراب (الحارث الكندي) ، انتهزوا هذه الفرصة فأغاروا على الحيرة واستولوا عليها ، فصارت في قبضة (الحارث) على نحو ما رواه بعض الأخباريين ؟ ثم ألا يجوز أن يكون بعض الرواة قـــد سمعوا بمقتل (النعمان) ، فظنوا أن القاتل هو (الحارث) ، أو تعمدوا نسبة القتل اليه للرفع من شأن كندة ومن كان معها من قبائل[2] ؟

ولكن من يثبت لنا أن هؤلاء الأعراب الثعلبيين ، أي من (بني ثعلبة) ، وهم من عرب الروم على حدّ قول (يوشع العمودي) هم من أتباع الحارث، أو أنهم من (آل الحارث) أي من كندة ، وأن العائلة الكندية المذكورة كانت تعرف بـ (بني ثعلبة) . وليس في الذي بين أيدينا من موارد ، مورد واحـد يذكر بأن (آل آكل المرار) هم من (بني ثعلبة) او انهم كانوا قد عرفوا بـ (بني ثعلبة) في يوم من الأيام ، او انهم كانوا قد خضعوا لسلطان الروم . لذلك ، لا أظن ان (يوشع العمودي) قصد بالثعلبيين عرب الروم ، كندة ،

---

١ الطبـــري (٢/ ٩٤) .

٢ (قرقيسياء) ، البلدان (٧/ ٥٩) ،
Olinder, P. 59, Ency., II, P. 765, Musil, Euphrates, P. 334.

وانما قصد أعراباً من اعراب الروم ، كانوا يعرفون بـ (بني ثعلبة) أو (آل ثعلبة) ، وكانوا يتمتعون باستقلالهم تحت حماية الروم . ولما وجدوا فرصة ما حل بالنعمان من جروح في الحرب التي خاضها مع الفرس على الروم ، هاجموا الحيرة فانتهبوها ، وكانت حاميتها ضعيفة ففرت الى البادية ، ولم يذكر المؤرخ مدة مكوث هؤلاء الأعراب في الحيرة ، والظاهر انها لم تكن سوى مدة قصيرة ، وانها كانت من نوع غارات الأعراب على المدن : غزو خاطف ، يعقبه انسحاب عاجل لتأمين سلامة ما ينهبونه وايصاله الى ديارهم حتى لا تتمكن القوات التي ستأتي لمعاقبتهم من أخذ ما حصلوا عليه من غنائم وأموال .

ويظهر أن حكم كندة للحيرة لم يكن طويلاً ، ويظن أنه كان بين سنة (٥٢٥) وسنة (٥٢٨) للميلاد ، وذلك في أثناء ظهور فتنة المزدكية في إيران[١] . وليس بمستبعد أن يكون الحارث قد اتصل بالفرس قبل هذا الزمن ، في أثناء صلح سنة (٥٠٦) للميلاد ، او على اثر الفتور الذي طرأ على علاقاته بالبيزنطيين ، لأنه وجد ان الاتفاق مع الفرس يعود عليه بفوائد ومنافع لا يمكن أن يغتنمها من الروم ، ووجد بكراً وتغلب قد زحفتا اذ ذاك من مواطنها القديمة في اليمامة ونجد نحو الشمال تريدان النزول في العراق . وقد أقره الفرس على المناطق الصغيرة أو الواسعة التي استولى عليها لقاء جعل[٢] .

لم يكن من مصلحة ملك الحيرة ، بالطبع ، الرضى بنزول منافس قوي أو منافسين أقوياء في أرضه أو في أرض مجاورة له . فلما ظهر الحارث في العراق ، وعرف ملك الحيرة نياته وتقربه الى الفرس ، وملك الحيرة ، هو باعتراف الفرس (ملك عرب العراق) ، لم يكن من المعقول سكوته انتظاراً للنتائج . ومن هنا وقع الاختلاف[٣] .

لم تكن العلاقات حسنة بين قباذ والمنذر ملك الحيرة ، لسبب غير واضح لدينا وضوحاً تاماً ، قد يكون بسبب المزدكية ، وقد يكون بسبب تقرب الحارث الى الفرس واقطاعهم اياه أرضاً وتودده الزائد الى قباذ ، وقد يكون لأسباب أخرى

---

١ Olinder, P. 65.

٢ O. Blau, Arabien in Sechsten Jahrhundert, in ZDMG., Bd., 23, (1869), S. 579.

٣ حمزة (ص ٦٥) ، Olinder, P. 65.

مثل تردد ملك الفرس وضعفه ، فلم تكن له خطة ثابتة مما أثر في وضع (ملك عرب العراق) . على كل حال ، فقد أدى هذا الفتور الى استفادة الحارث منه واستغلاله ، فتقرب الى الفرس وتودد اليهم حتى آل الأمر بأن يأخذ ملك الحيرة أمداً حتى تغيرت الأحوال في فارس بموت (قباذ) وتولى (كسرى أنو شروان) الملك من بعده ، فعاد المنذر عندئذ الى عرش الحيرة وأبعد الحارث عن ملكه .

وآراء الأخباريين متباينة كذلك في المكان الذي اختاره الحارث للاقامة فيه بعد اغتصابه ملك (آل لخم) ، فبينما يفهم من بعض الروايات انه استقر في الحيرة وأقام فيها ، نرى بعضاً آخر يرى انه أقام في الأنبار[1] . وبينما يذكر (حمزة) ان الحارث حينما بلغه خبر قدوم المنذر عليه واقترابه من الحيرة ، هرب فتبعته خيل المنذر ، مما يفهم انه كان في الحيرة ، نجده يقول في موضع آخر : « ان الحارث كان بمعزل عن الحيرة التي كانت دار المملكة ، ولم يعرف له مستقر ، انما كان سيارة في أرض العرب »[2] . ونجد صاحب الأغاني يذكر في موضع انه كان في الأنبار ، ويشير في موضع آخر انه كان في الحيرة[3] .

وتتفق روايات الأخباريين على ان مجيء (كسرى أنو شروان) كان شراً على الحارث، وخيراً لآل لخم ، فقد كانت سياسة (أنو شروان) مناقضة لسياسة قباذ بسبب المزدكية . وقد ظهر اختلافها هذا في السنين الأخيرة من سني حكم قباذ[4] . وقد أدى هـذا الاختلاف الى محاربة المزدكية وسقوطها . ويحدثنا (مـلالا) (John Malalas) ان سقوطها كان بعد وفاة (الحارث) وقبل غارة المنذر على بلاد الشأم[5] . وقد قام المنذر بها في شهر آذار من سنة (٥٢٨) للميلاد على رواية (ثيوفانس) (Theophanes)[6] . وكانت وفاة الحارث في أوائل سنة (٥٢٨) للميلاد[7] . ومن رواية هذين الكاتبين يتبين ان الحارث كان قد قضى نحبه قبـل

---

١ اليعقوبي (١/١٧٧) ، ابن الاثير (١/٢٠٩) ، الاغاني (٨/٦٢) (طبعـة الساسي) .

٢ حمـزة (ص ٧٢ ، ٩٣) ، Rothstein, Die Dynastie der Lakhmiden, S. 88.

٣ الاغانـي (٨/٦٢) .

٤ Nöldeke, Die Sasaniden, S. 462, Christensen, Le Regne du Roi Kawadh I, et le Communisme Mazdaqite, PP. 124, Olinder, P. 65.

٥ John Malalas, Chronographia, Lib., XVIII, Col. 653, Olinder, P. 65.

٦ Olinder, P. 64, 65.

٧ Olinder, P. 54.

القضاء على المزدكية بمدة غير طويلة، وان المنذر كان في آذار سنة (٥٢٨) للميلاد قد قام بغارته على بلاد الشأم[1].

ويستدل من اشارة (ملالا) و (ثيوفانس) الى موت الحارث في سنة (٥٢٨ م) ومن تلقيبه بلقب (فيلارخس) أي عامل ، على ان علاقات الحارث بالروم في أواخر أيام حياته كانت حسنة . ومعنى هذا ان خلافاً او فتوراً كان قد وقع فيما بينه وبين الفرس ، دفعه على التقرب نحو خصوم الساسانيين وهم الروم ، فاتصل بهم وذلك في أيام (قباذ) ، او في ايام (كسرى انو شروان)[2].

ويظهر ان تودد (الحارث) الى البيزنطيين لم يأت له بنتيجة او بفائدة تذكر. اذ يحدثنا الكاتبان (ملالا) و (ثيوفانس) ان قائد فلسطين الرومي (ديوميدس) (Diomedos) أجبر سيد قبيلة يدعى (اريتاس) (Aritas) ، اي (الحارث) على التراجع في اتجاه الهند (Indica) ، ويقصد بذلك جهة الجنوب او الشرق، حيث كان يطلق البيزنطيون على العربية الجنوبية (الهند) . فلما سمع بذلك (المونداريس) (Alamoundaros) أي (المنذر) رئيس العرب (السرسيني) (Saracens) الخاضعين لنفوذ الفرس،هجم على الحارث فقتله،وغنم امواله وما ملكه،وأسر اهله. فلما بلغ النبأ للقيصر (يوسطنيانوس) (Justinianus) ، أمر حكام (فينيقية) (Phenicia) و (العربية) (Arabia) والجزيرة وعامل الحدود بتعقب المنذر ومهاجمته . وقد اشترك في هذه الحملة عدد من القادة والحكام،وفي جملتهم سيد قبيلة اسمه (اريتاس) (Aritas) ، أي (الحارث) ، وهو الحارث بن جبلة الغساني على ما يظهر[3] .

ولم يتعرض الأخباريون للخبر الذي ذكره الكاتبان عن كيفية قتل (الحارث) ولا عن الأمر الذي أصدره القيصر بتعقيب (المنذر) ، والظاهر انهم لم يقفوا عليه[4].

غير ان الأخباريين رواياتهم الخاصة عن مصير صاحبنا (الحارث) الكندي . حدث صاحب (الأغاني) ان (أنو شروان) حينما ملك ، أمر بقتل الزنادقة ،

---

١ Olinder, P. 65.

٢ Olinder, P. 66.

٣ Olinder, P. 53, Nöldeke, Sasaniden, S. 171.

٤ Olinder, P. 66.

أي أتباع مزدك ، « فقتل منهم ما بين جازر[1] الى النهروان الى المدائن في ضحوة واحدة مئة ألف زنديق وصلبهم »[2] ، وأعاد المنذر الى مكانه ، وطلب « الحارث ابن عمرو ، فبلغه ذلك وهو بالأنبار وكان بها منزله ... فخرج هارباً في هجائنه وماله وولده ، فمرّ بالثوية[3] ، وتبعه المنذر بالخيل من تغلب وبهراء وإياد ، فلحق بأرض كليب ، فنجا وانتهبوا ماله وهجائنه ، وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار ، فقدمت بهم على المنذر ، فضرب رقابهم بـ (جفر الأملاك) (حفر الأملاك) في ديار بني مرينا العبادين بين دير هند والكوفة ..»[4]. وأضاف (ابن الأثير) الى هذا الخبر ان (تغلب) قبضت على ولدين من أولاد الحارث هما : (عمرو) و (مالك) في جملة الثمانية والأربعين ، فجاءت بهما الى المنذر في (ديار بني مرينا) فقتلهم[5] .

ويحدثنا (ابن قتيبة) أن (المنذر) لما اقبل « من الحيرة هرب الحارث ، وتبعته خيل فقتلت ابنه عمراً ، وقتلوا ابنه مالكاً بهيت ، وصار الحارث بمسحلان فقتلته كلب » . وزعم غير ابن قتيبة انه مكث فيهم حتى مات حتف انفه[6] . وذكر (حمزة) الروايات المدوّنة في كتاب (الأغاني) بحذف بعض كلماتها[7] .

ولم يشر اليعقوبي الى من قتل (الحارث) من ملوك الحيرة ، بل أوجز فقال : « ... وكانوا يجاورون ملوك الحيرة ، فقتلوا الحارث . وقام ولده بما كان في أيديهم ، وصبروا على قتال المنذر حتى كافؤوه[8] . ويشعر على كل حال

---

١ (جازر) قرية من نواحي النهروان من اعمال بغداد قرب المدائن ، وهي قصبة طسوج الجازر ، البلدان (٣/٣٦) ، الاغاني (٩/٨٠) (طبعة دار الكتب المصرية) ، (١٩٣٦) ، الاغاني (٨/٦٢) (طبعة مطبعة التقدم) ، وفيها أغلاط عديدة .

٢ الاغاني (٨/٦٢) ، (مطبعة التقدم) ، (٩/٨٠) (طبعة دار الكتب المصرية) .

٣ الثوية : موضع قريب من الكوفة ، وقيل خريبة الى جانب الحيرة على ساعة منها . وقيل انه كان سجناً للنعمان بن المنذر كان يحبس به من أراد قتله ، البلدان (٣/٢٨) .

٤ الأغاني (٨/٦٢) ، (٩/٨٠) (طبعة دار الكتب المصرية) .

٥ ابن الأثير (١/٢٠٩) ، (جفر الاملاك) ، البلدان (٣/١١٥) ، ابن الأثير (١/٣٠٤ وما بعدها) (الطباعة المنيرية) .

٦ الاغاني (٨/٦٢) ، Musil, Middle Euphrates, P. 350.

٧ حمزة (ص ٩٣) ، (مسحلان) ، البلدان (٨/٥١) .

٨ اليعقوبي (١/١٧٨) .

من جملة « وصبروا على قتال المنذر » ومن روايات الأخباريين الأخرى أن القتل كان في ايام المنذر .

وفي رواية أخرى أن الحارث بقي في كلب حتى توفي فيما بينهم حتف أنفه[1]. وقد أضافت الرواية التي تنسب الى (أبي عبيدة) الى هذا الخبر انه دفن بـ (بطن عاقل)[2] . والظاهر ان اضافة (بطن عاقل) إنما وقعت سهواً واشتباهاً، من باب عدم التمييز فيما بين (حجر) الذي زعم انه دفن بـ (بطن عاقل) وبين (الحارث)[3] .

وجاء في رواية أن الحارث خرج يتصيّد ، فرأى جماعة من حمر الوحش فشدّ عليها ، وانفرد منها حمار فتبعه ، وأقسم ألا يأكل شيئاً قبل كبده ، فطلبته الخيل ثلاثة أيام حتى أدركته ، وأتي به ، وقد كاد يموت من الجوع ، ثم شوي على النار واطعم من كبده وهي حارة ؛ فات[4] .

ولا تخلو هذه الروايات المتعلقة بموت (الحارث) ونهايته من مؤثرات العواطف القبلية التي صبغت كل الأخبار التي يرويها الأخباريون بهذه الصبغة . فكلب تدعي انها هي التي قتلته ، وكندة تنكر ذلك مدعية انه مات كما يموت سائر الناس ، وأهل الحيرة يقولون انهم هم الذين قتلوه،قتلوه في حرب . وأبو الفرج الأصبهاني يقول : « فكلب يزعمون انهم قتلوه ، وعلماء كندة تزعم انه خرج الى الصيد فالظ بتيس من الظباء ، فأعجزه فآلى أن لا يأكل أولاً إلا من كبده ، فطلبته الخيل ثلاثاً ، فأتي بعد ثالثة ، وقد هلك جوعاً ، فشوى له بطنه فتناول فلذة من كبده ، فأكلها حارة فمات »[5] .

ولورود خبر مقتل (الحارث) مسجلاً تسجيلاً دقيقاً لدى الكاتبين المذكورين: (ملالا) و (ثيوفانس) ، ومطابقته لرواية أهل الحيرة في النتيجة ، وهو ان مقتله كان على أيدي (المنذر) وجماعته نرجح هذه الرواية على غيرها من الروايات.

---

١ (وزعم ابن قتيبة انه مكث فيهم حتى مات حتف انفه) ، الاغاني (٨/٦٢) ، أبو الفداء (١/٧٤) .

٢ العقد الفريد (٣/٧٧) ، نهاية الارب (١٥/٤٠٦) ، العقد الفريد (٦/٧٨ وما بعدها) (طبعة محمد سعيد العريان) ، Olinder, P. 68.

٣ Olinder, P. 68.

٤ أيام العرب (٤٦) .

٥ الاغاني (٨/٦٢) ، ابن الاثير (١/٢١٠) .

ويظهر من غربلة الروايات التي رواها أهل الأخبار عن نهاية (الحارث) انها قد اختلفت فيما بينها وتضاربت في موضوع نهايته، فزعم بعض منها، انه قتل وان قاتله هو (المنذر بن ماء السماء)، وزعم بعض آخر انه قتل، ولكنه لم يصرح باسم قاتله، وزعم بعض آخر انه هلك، وانه لم يقتل، وانما مات حتف أنفه[1]. والذي أرجحه انه قتل، قتل في أثناء المعارك التي وقعت من جراء تعقب المنذر بن ماء السماء له.

ولا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن أعمال الحارث في أثناء توليه ملوكية قبائل (معد) غير ما ذكره الرواة من انه وزّع أولاده عليها، وجعلهم ملوكاً على تلك القبائل. كذلك لا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن أعماله وهو ملك على الحيرة، فأصحابنا الأخباريون سكتوا عن هذه الأمور. ويفهم من كلام بعض الأخباريين عن (الحارث) انه حينما نزل ببكر بن وائل، أقام بـ (بطن عاقل)، ومنه غزا بهم ملوك الحيرة اللخميين، وملوك الشأم الغسانيين، وفيه كانت نهايته[2].

ويفهم من بيت في ديوان (امرىء القيس) ان ملك الحارث قد امتد من العراق الى عمان. ولا تعني أمثال هذه الأقوال امتلاكاً فعلياً، بل كانت تتحدث في الواقع عن اتفاقات تعقد بين القبائل يعترف فيها بالرئاسة لمن له النفوذ الأكبر والمكانة، فإذا حدث حادث للرئيس الذي تمكن بمكانته ومنزلته من ضم هذه القبائل وتوحيدها، انهدّ كيان ذلك الاتحاد وتشتت شمله، كالذي حدث بعد وفاة الحارث كما سنرى فيما بعد. وقد لا تعني هذه الأقوال سوى المبالغات والفخر، على نحو ما يرد في شعر غيره من الشعراء من امتلاكهم الدنيا ومن عليها، ومن تدويخهم القبائل والناس، وليس في الواقع أي شيء مما جاء في دعوى أولئك الشعراء المفتخرين.

ويحدثنا (ابن الكلبي) انه كان للحارث زوجات ثلاث، هن: أم قطام بنت سلمة بن مالك بن الحارث بن معاوية، وأسماء، ورقية أمة أسماء. وقد زعم ابن الكلبي ان أم قطام وأسماء كانتا شقيقتين، وأما رقية، فكانت أمة لأسماء. وقيل أيضاً: «هن أخوات، فجمعهن جميعاً»[3]. وزوّجه بعض

---

١ البداية والنهاية، لابن كثير (٢/٢٠٨).
٢ نهاية الارب ١٥/٤٠٦)، العقد الفريد (٦/٧٨) (طبعة العريان).
٣ المفضليات (ص ٤٢٩، ٤٣٢).

الأخباريين بامرأة أخرى هي : (أم أناس) بنت (عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان) ، وهي والدة (عمرو بن الحارث) المعروف عندهم بـ (ابن أم أناس) (ابن ام اياس)[1] . وفي رواية (ابن السكيت) ان (أم قطام بنت سلمى) هي امرأة من (عنزة)[2] .

وقد دوّن لنا الرواة أسماء جملة أولاد من أبناء (الحارث) ، ذكروا منهم حجر وشرحبيل ومعديكرب وعبدالله وسلمة، ومحرق ومالك وعمر[3] . وأم (حجر) هي : (أم قطام)[4] .

ويذكر أهل الأخبار انه كان للحارث ابن ، حجّ ففقده ، فاتّهم به رجل من بني أسد يقال له حبال بن نصر بن غاضرة . فأخبر بذلك الحارث ، فأقبل حتى ورد تهامة أيام الحج ، وبنو أسد بها . فطلبهم ، فهربوا منه . فأمر منادياً فنادى من آوى أسدياً فدمه جبار . ثم إن الملك عفا عنهم وأعطى كل واحد منهم عصا أماناً له . وبنو أسد يومئذ قليل . فأقبلوا الى تهامة ومع كل رجل منهم عصا . فلم يزالوا بتهامة حتى هلك الحارث ، فأخرجتهم بنو كنانة ، وسموا عبيد العصا ، بالعصا التي أخذوها[5] .

ويذكر أهل الأخبار انه كانت للحارث بن عمرو بنت اسمها هند ، وقد تزوجها المنذر بن ماء السماء ، وهي والدة الملك (عمرو بن هند) وشقيقة (قابوس) وعمة الشاعر امرىء القيس[6] .

وهم يذكرون أن ملك الحارث لما توسع واشتغل هو بالحيرة عما كان يراعيه من أمور البوادي ، تفاسدت القبائل وفشا بينها الشرّ ، فجاء أشرافها فشكوا ما حل بهم من غلبة السفهاء ، وطلبوا اليه أن يملّك عليهم أبناءه ، فملّك ابنه حجراً على بني أسد وغطفان ، وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأجمعها وعلى

---

١ ابن الاثير (٢٠٧/١) .
٢ الاغاني (٦١/٨) .
٣ الاغاني (٦٢/٨ وما بعدها) ، المفضليات (ص ٤٣٢) ، ابن الاثير (٢٠٩/١)،
٤ شرح القصائد العشر ، للزوزني (ص ٧) .
٥ ديوان بشر بن أبي خازم الاسدي (ص ١١٥ وما بعدها) ، مجمع الامثال ، للميداني (١٩/٢ وما بعدها) .
٦ الشعر والشعراء (٥٠/١ وما بعدها) ، (ص ٤٣) ، (طبعة ليدن) .

بني حنظلـــة بن مالك بن زيد مناة وطوائف من بني درام بني تميم والرباب ، وملك ابنه معديكرب على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن حنظلـــة والصنائع ، وهم بنو رقية : قوم كانوا يكونون مع الملوك من شذاذ العرب ، وملّكَ ابنه عبد الله على عبد القيس ، وملّك ابنـــه سلمه على قيس عيلان[1] . وقيل إن شرحبيل بن الحارث ملك في بكر بن وائـــل وحنظلة بن مالك وبني زيد بن تميم وبني أسيد وطوائف من بـــني عمرو بن تميم والرباب ، ومعديكرب في قيس والصنائع ، وهم بنـــو رقية ، وسلمة في بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة[2] .

وقد اكتفى (حمزة) بقوله : « وانتشر ولده ، فلكهم على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد »[3] . وهنالك روايات أخرى تختلف في التفاصيل وفي الأمور الثانوية عن هذه الروايات التي ذكرتها بعض الاختلاف[4] ، سأشير اليها في أثناء البحث عن هؤلاء الأولاد .

وذكر (ياقوت الحموي) رواية رجعها الى (أبـي زياد الكلابـي)،خلاصتها أن (مضر) و (ربيعة) اجتمعت على أن يجعلوا منهم ملكاً يقضي بينهم ، فكل أراد أن يكون منهم ، ثم تراضوا أن يكون من (ربيعة) ملك ومن (مضر) ملك،ثم أراد كل بطن من ربيعة ومن مضر أن يكون الملك منهم،ثم اتفقوا على أن يتخذوا ملكاً من اليمن . فطلبوا ذلك الى (بني آكل المرار) من كندة ، فلكت بنو عامر شراحيل بن الحارث الملك بن عمرو المقصور بن حجر آكـــل المرار ، وملكت بنو تميم وضبة محرق بن الحارث ، وملكت وائل شراحيل بن الحارث . وتختلف هذه الرواية كما ترى بعض الاختلاف عن رواية لـ (ابن الكلبي) ذكرها (ياقوت) أيضاً ، هي ان سلمة بن الحارث ملك (بني تغلب) و (بكر بن وائل) ، وأما (غلفاء) وهو (معديكرب) (معدي كرب) ، فقد ملك بقية (قيس)،

---

١ الاغاني (٨/٦٢ وما بعدها) ، (٩/٨٢) (طبعة دار الكتب المصرية) ، البلدان (٤/٤٧٢) (كلاب) ، نقائض جرير والفرزدق (١/٤٥٢) (تحقيق بيفـان) (ليدن ١٩٠٧) .

٢ المفضليات (ص ٤٢٨) ، Ency., II, P. 1018.

٣ حمـــزة (ص ٩٢) .

٤ خزانة الادب (٢/٥٠٠) .

وأما (أسد) و (كنانة) ، فقد ملكت عليها (حجر بن الحارث) ، أي والد امرىء القيس[1] .

أما (حجر) ، فهو أكثر هؤلاء الأولاد ذكراً عند الأخباريين . وهو والد الشاعر الجاهلي المعروف (امرىء القيس) . وقد يعود الفضل الى هذا الشاعر في ذيوع شهرة والده وانتشار خبره ، وحفظ أخبار هـذه الأسرة من كندة . وهو أكبر أولاد الحارث ، واليه انتقلت عامة كندة بعد وفاة والده[2] . وهو ابن (أم قطام بنت سلمة بن مالك بن الحارث بن معاوية) من كندة[3] .

ملك (الحارث) ابنه (حجراً) كما ذكرت الأخبار على أسد وكنانة وهما قبيلتان من قبائل مضر . وتقع مواطن (أسد) الرئيسية في القرن السادس للميلاد في جنوب جبلي طيء (أجأ) و (سلمى) ، ويسميان جبـل شمر في الزمن الحاضر على جانبي بطن الرمة (وادي الرمة) ، غير ان بطونها متفرعة منتشرة في مناطق واسعة تمتد من المدينة الى نهـر الفرات[4] . ولكنها لم تكن سيدة هذه الأرضين ، بل كانت تعيش مع غيرها من القبائل متفرقة[5] . ويظن انها (استينوى) (Asatynoi) الساكنة في أرض تسمى بهذا الاسم في (جغرافيا) بطلميوس[6] . وتعد هذه القبيلة في عرف النسابين من نسل (أسد بن خزيمة بن مدركة بن مضر) ، وهي شقيقة (الهون) و (كنانة)[7] .

وروى المؤرخ (ثيوفانس) أن (رومانس) (Romanus) حاكم فلسطين في أيام (أنسطاسيوس) (Anastasius) ، هزم في سنة (٤٩٠) للميلاد سيدي قبيلتين ، هما : (جبلس) (Gabalas) (Jabalas) و (اوكاروس) (Ogaros) ابن (ارتاس) (Aretas) ، أي الحارث من (آل ثعلبة) (Thalabanys) ، ويظن أن (Gabalas) هو (جبلة) ، والد الحارث بن جبلة

---

١ البلدان (٣/٤٢٩) .
٢ Olinder, P. 76.
٣ المفضليات (ص ٤٢٩) .
٤ O. Blau, Arabien Im Sechsten Jahrhundert, In ZDMG., BD., 23, S. 579, Olinder, P. 74.
٥ Olinder, P. 74, Ency., I, P. 474.
٦ Ency., I, P. 474.
٧ Pauly-Wissowa, Ogaros, Olinder, P. 51, Ency., II, P. 1019.

الغساني . وأما (Ogaros) ، فيرى بعض المستشرقين أنه (حجر بن الحـارث ابن عمرو الكندي) . وقد وقع أسيراً في قبضة (رومانوس) . ويرى (أوليندر) أن في تقدير هذا المؤرخ بعض الخطأ وأن التاريخ الصحيح هو سنة (٤٩٧) للميلاد[1]. ثم أشار هذا المؤرخ الى تحرش آخر قام به بعد أربع سنوات سيد قبيلة اسمه (Madikaripos) (Madicaripos) كان شقيقاً لـ (Ogaros) . أوغل في الغزو وأوقع الرعب في جند الروم . وقد قصد (ثيوفانس) بـ (Madikaripos) (معديكرب بن الحارث) شقيق حجر .

وكان من نتائج هذه الغارات كما يقول هذا المؤرخ أن عقد القيصر (أنسطاسيوس) صلحاً مع (Aretas) أي الحـارث ، والد الأخوين المذكورين ، فخيم الأمن بذلك على فلسطين والعربية وفينيقية[2] . وقد أشار الى هذا الصلح المؤرخ (نونوسوس) (Nonnosus) ، حيث ذكر ان القيصر (أنسطاسيوس) أرسل جدّه الى (Aretas) لمفاوضته في عقد صلح . ويظهر من قول هذا المؤرخ أن هاتين الغزوتين كانتا في حياة (Aretas) .

ولم يشر الأخباريون الى هذه الغزوات التي قام بها (حجر) و (معديكرب) على حدود سورية وفلسطين في عهد (أنسطاسيوس) كما روى ذلك هذا المؤرخ[3] .

وورد أن حجراً أغار على اللخميين في أيام امرىء القيس والد المنذر بن ماء السماء . ويظن (نولدكه) أن هذه الحملة التي لا نعرف من أمرها شيئاً انما وقعت بعد وفاة الحارث ، وقد قصد (حجر) منها استرجاع ما خسره أبوه ، واعادة نفوذ كندة الى ما كان عليه[4] .

لقد كانت نهاية (حجر) بأيدي (بني أسد) ، ويظهر انهم قبلوه ملكاً عليهم مكرهين . فلما حانت الفرصة قاموا عليه وقتلوه . حدّث (ابن الكلبي) انه كان لحجر على بني أسد اتاوة في كل سنة مؤقتة . فلما كان بتهامة ، أرسل جابيه الذي كان يجبيهم ، فمنعوه ذلك ، وضربوا رسله وضرجوهم ضرجاً شديداً قبيحاً ، فبلغ ذلك حجراً ، فسار اليهم بجند من ربيعة وجند من جند أخيه من

---

١ Pauly-Wissowa, Ogaros, Olinder, P. 51, Ency., II, P. 1019.

٢ Olinder, P. 51, 74.

٣ Olinder, P. 75.

٤ Olinder, P. 76, Nöldeke, Fünf Mo'Allaqat, I, S. 80.

قيس وكنانة ، فأتاهم وأخذ سراتهم ، فضربهم بالعصا وأباح الأموال وصيّرهم الى تهامة ، وحبس سيدهم (عمرو بن مسعود بن كندة بن فزارة الأسدي) ، والشاعر (عبيد بن الأبرص) ، فأثر ذلك في نفوس « بني أسد وأضمروا له الانتقام »[1] . ثم إن حجراً وفد على أبيه الحارث في مرضه الذي مات فيه ، وأقام عنده حتى هلك ، ثم أقبل راجعاً الى بني أسد ، فلما دنا منهم ،وقد بلغهم موت أبيه ، طمعوا فيه ، فلما أظلهم وضربت قبابه ، اجتمعت بنو أسد الى (نوفل بن ربيعة) ، فهجم على (حجر) ومن معه ، فانهزم جيشه وأسر (حجر) وتشاور القوم في قتله ، فقال لهم كاهنهم : لا تعجلوا بقتله حتى أزجر لكم ، فلما رأى ذلك (علباء) خشي أن يتواكلوا في قتله ، فحرّض غلاماً من بني كاهل على قتله ، وكان حجر قد قتل أباه ، فدخل الخيمة التي احتبس حجر بها فطعنه طعنة أصابت مقتلاً"[2] .

ويزعم أهل الأخبار ان (بني أسد) الذين عصوا حجراً عرفوا منذ ضربهم حجر بالعصا بـ (عبيـد العصا) ، وقد أشير الى هذه التسمية في الشعـر ، ويذكرون أيضاً ان (عبيد بن الأبرص) ، وقف أمام الملك حجر ، فقال شعراً يستعطفه فيه على قومه ، فرق لهم ورحمهم وعفا عنهم ، وأرسل من يردهم الى بلادهم ، فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو (عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي) ، بأنهم سيقتلون حجـراً وسينتقمون منه ومن أهله ، فصدقوا بنبوءته وعادوا الى موضع حجـر فوجدوه نائماً ، فذبحوه ، وشدوا على هجائنه فاستاقوها . وفي رواية أخرى ، انهم هجموا على عسكر حجر ودخلـوا قبته ، فطعنه علباء بن الحرث الكاهلي ، فلما قتل ، استصلحت أسدٌ كنانة وقيساً ، ونهبوا ما كان في عسكر حجر وسلبوه ، وأجار (عمرو بن مسعود) عيال حجر. وقيل أجارهم غيره ، وبذلك تخلصت بنو أسد من حكم كندة[3] .

---

١ الاغاني (٦٣/٢) ، ابن خلدون (٢٧٤/٢ وما بعدها) ، ابن الاثير (٢١٠/١)، الاغاني (٨١/٩) (طبعة دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٧) ، ابن الاثير (٣٠٤/١)، (الطباعة المنيرية ١٣٤٨ هـ) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢١٨/٢) (القاهرة ١٩٣٢) .

٢ أيام العرب (١١٤ وما بعدها) .

٣ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (٥٠/١ وما بعدها) ، (دار الثقافـة بيروت ، ١٩٦٤) ، الاغاني (٦/٨) (التقدم) ، البلدان (١٢٧/٤ ومـا بعدهـا) ، خزانة الادب (١٥٩/١ وما بعدها) .

وهنـــاك روايات أخرى يرجع سندها الى (ابن الكلبي) والى غــيره مثل (أبو عمرو الشيباني) و (الهيثم بن عدي) و (يعقوب بن السكيت) وغيرهم تختلف فيما بينها بعض الاختلاف في كيفيـــة قتل (حجر) . وقد زعمت بعض الروايات بأن (علباء بن الحرث الكاهلي) هو الذي قتله ، طعنه ، فقضت طعنته هذه عليه ، وكان (حجر) قد قتل أباه . وزعمت رواية أخرى أن الذي قتله هو ابن أخت (علباء) ، وكان حجر قد قتل أباه ، ضربه بحديدة كانت معه سببت وفاته[1] .

وتذكر رواية أن (حجراً) لمـــا علم انه ميت أوصى ودفع كتابه الى رجل أمره ان ينطلق الى اكبر أولاده (نافع) ، فإن بكى وجزع ، فليذهب الى غيره حتى يصل الى أصغرهم وهو امرؤ القيس ، فأيهم لم يجزع يدفع اليــه الكتاب . فكان ذلك الولد امرؤ القيس[2] .

ونجد في شعر (بشر بن أبي خازم الأسدي) فخراً واعتزازاً بقتل أسد لحجر والد امرىء القيس . وقد دعاه بـ (ابن ام قطام) في احدى قصائده ، وقـال ان قومه علوه بالسيوف البيض الذكور . وأم قطام هي بنت سلمـة بن مالك بن الحارث بن معاوية[3] . ودعاه بـ (حجر) في قصيدة أخرى ، وافتخر بأن قومه ضربوا رأس حجر بأسياف مهنـدة رقاق[4] . وذكر في قصيدة أخرى أن قومــه ضربوا خيل حجر بجنب الرده . والرّده موضع في ديار قيس ، والظـــاهر أنهم قتلوا حجراً بجنب الرده[5] .

وأما (شرحبيل) ، فقد ملكه ابوه على (بكر بن وائل) و (حنظلة بن مالك) و (بني أسيد) و (الرباب) ، أي على عدد من قبائل ربيعة ومضر، وكان نصيبه القسم الشرقي من مملكة كندة ما عدا البحرين[6] . وليس بـــين الذي

---

١ الكامل ، لابن الاثير (١/٣٠١ وما بعدها) ، الاغاني (٨/٦٤ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٢٧٦) ، ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب (تحقيق عبد السـلام هارون) (دار المعارف بمصر ١٩٦٢) ، (ص ٤٢٧) .

٢ أيام العرب (١١٥) .

٣ ديوان بشر بن أبي خازم ، تحقيق الدكتور عزة حسن (ص ٩١) .

٤ ديوان بشر (ص ١٦٦) .

٥ ديوان بشر (ص ٢٢) .

٦ Olinder, p. 82.

يروي الأخباريون عنه شيء ذو بال ، إلا ما ذكروه عن كيفية مقتله ونهايته ، وهذا ملخصه :

لما هلك الحارث بن عمرو تشتت امر اولاده ، وتفرقت كلمتهم ،ومشت الرجال بينهم ، وتفاقم أمرهم حتى جمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع وزحف اليه بالجيوش . وقد بلغت العداوة أشدها بين (شرحبيل) وسلمة ، بسبب المنذر الذي عاد الى الحيرة وأخذ يشعل نار الفتنة بين الأخوين . فسار شرحبيل ببكر ابن وائل ومن معه من قبائل حنظلة ومن أسيد بن عمرو بن تميم وطوائف من بني عمرو بن تميم والرباب ، فنزلت (الكلاب) ، وهو ماء بين الكوفة والبصرة على بضع عشرة ليلة من اليمامة ، وأقبل (سلمة) في بني تغلب وبهراء والنمر وأحلافها وسعد بن زيد مناة بن تميم ومن كان معهم من قبائل حنظلة وفي الصنائع يريدون الكلاب . وكان نصحاء شرحبيل وسلمة نهوهما عن الفساد والتحاسد ، وحذروهما الحرب وعثراتها وسوء مغبتها ، فلم يقبلا ، ولم يتزحزحا ، وأبيا إلاّ التتابع . فلما تلاقى الجمعان ، اقتتلا قتالاً شديداً ، ثم خذلت بنو حنظلة وعمرو ابن تميم والرباب بكر بن وائل ، وانصرفت وثبتت بكر بن وائل ، وانصرفت بنو سعد وألفافها عن بني تغلب ، وصبرت تغلب ، وساء أمر شرحبيل ، فجاء اليه من عرف موضعه وقتله[1] .

ويذكر أهل الأخبار ان العداوة كانت شديدة بين الأخوين ، حتى ان كل واحد منهما وضع جائزة لمن يأتي برأس أخيه ، فذهب (أبو حنش) وهو عصم ابن النعمان بن مالك (عصيم بن مالك الجشمي) ، فطعن (شرحبيل) ، واحتز رأسه وجاء به الى أخيه ، فطرحه أمامه . ويقال إن شرحبيل لما رأى (أبا حنش) يريد توجيه طعنة اليه قال له : يا أبا حنش اللبن اللبن ، فقال أبو حنش : قد هرقت لنا لبناً كثيراً . فقال : يا أبا حنش أملك بسوقة[2] . وذلك ان دم الملوك

---

١ المفضليات (ص ٤٢٨ وما بعدها ، ١٠٧٢ وما بعدها) ، النويري ، نهاية الارب (٤٠٦/١٥ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (٢٢٧/١) ، العقد الفريد (٧٨/٦) ، البلدان (٢٦٩/٣ وما بعدها) ، نقائض جرير والفرزدق (٤٥٢/١) (ليدن ١٩٠٧) ، (تحقيق بيفان) ، الكامل لابن الاثير (٢٣١/١) (الطباعة المنيرية) ، البكري : معجم (١١٣٢/٤) ، اليعقوبي (١٨٣/١ وما بعدها)العقد الفريد (٢٢٢/٥) (لجنة) ، نقائض (١٠٧٣/٢) ، الكامل لابن الاثير (٣٧٩/١) .

٢ نقائض جرير والفرزدق (٤٥٢/١) (بيفان) ، أيام العرب (٤٧) .

فوق دم العامة ، وهم السوقة . وان الملك لا يقتل بسبب قتله رجلاً من سواء الناس .

ويظن ان (يوم الكلاب) كان قد وقع سنة (٦١٢) للميلاد[١] .

ويقول الرواة ان (بني تغلب) أخرجت (سلمة) ، فلجأ الى (بني بكر ابن وائل) ، فانضم اليهم ، ولحقت تغلب بالمنذر بن امرىء القيس . وتذكر رواية من الروايات التي يقصها أهل الأخبار عن كيفية نهاية ملوك كندة . ان الأمر لما اشتد على أولاد الحارث ، جمع (سلمة) جموع اليمن ، فسار ليقتل نزاراً . وبلغ ذلك نزاراً ، فاجتمع منهم (بنو عامر بن صعصعة) وبنو وائل : تغلب وبكر ، وقيل : بلغ ذلك كليب وائل ، فجمع ربيعة ، وقدّم على مقدمته السفاح التغلبي وأمره أن يعلو (خزازا)[٢] فيوقد عليه ناراً ليهتدي الجيش بها ، وقال له : إنْ غشيك العدو فأوقد نارين . وبلغ سلمة اجتماع ربيعة ومسيرها فأقبل ومعه قبائل مذحج ، وهجمت مذحج على خزاز ليلاً ، فرفع السفاح نارين ، فأقبل كليب في جموع ربيعة اليهم،فالتقوا بخزاز ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت جموع اليمن . وفي رواية (أبي زياد الكلابي) ، ان الذي أوقد النار على خزاز (خزازا) هو الأحوص بن جعفر بن كلاب ، وكان على روايته هذه رئيساً على نزار كلها . ويذكر الكلابي ان أهل العلم من الذين أدركهم ذكروا له انه كان على نزار (الأحوص بن جعفر) . ثم ذكرت ربيعة أخيراً من الدهر ان (كليباً) كان على نزار[٣] . أما (محمد بن حبيب) ، فيروي ان (كليب وائل) هو الذي قاد جموع (ربيعة) و (مضر) و (قضاعة) في يوم خزاز الى اليمن[٤] .

وقال بعض الأخباريين : كان كليب على ربيعة ، والأحوص على مضر[٥] .

---

١ Naval, P. 233.

٢ ويعرف أيضا بيوم خزازا ، ويوم خزازي ، البلدان (٣/٤٣٠) النقائض (ص ٨٨٧) ، البكري : معجم (١٠٦ ، ٣٠٣ ، ٥٦٣) ، ابن الاثير (١/٣١٠) ،العقد الفريد (٦/٩٧) (العريان) ، نهاية الارب (١٥/٤٢٠ وما بعدها) ، (طبعة دار الكتب) .

٣ البلدان (٣/٤٣٠) .

٤ المحبــر (ص ٢٤٩) .

٥ البلدان (٣/٤٣٠) .

ويعود سبب هذا الاختلاف في روايات الرواة الى النزعات القبلية التي كان يحملها الرواة . فـ (أبو زياد الكلابي) يتعصب كما نرى لـ (بني كلاب)، فيرجع الرئاسة اليهم ، لأنه منهم ، وهذا مما يأباه رواة ربيعة وينكرونه عليه اذ يرون ان الرئاسة فيهم . وتوسط رواة بين رواة ربيعة ورواة مضر حسماً للنزاع على ما يظهر ، فقالوا بالرئاستين : رئاسة كليب على ربيعة ، ورئاسة الأحوص على مضر وبذلك أصلحوا ذات البين .

وقد ذكر (أبو زياد الكلابي) أن يوم (خزاز) أعظم يوم التقت فيه العرب في الجاهلية وانه اول يوم استنصفت فيه نزار من اليمن ، وأنها لم تزل منذ هذا اليوم ممتنعة قاهرة لليمن في كل يوم يلتقونه حتى جاء الاسلام[1] .

وذكر (الأصمعي) أن يوم خزاز كان للمنذر بن ماء السماء ولبني تغلب وقضاعة على (بني آكل المرار) من كندة وعلى بكر بن وائل ، وان المنذر وأصحابه من بني تغلب أسروا في هذا اليوم خمسين رجلاً من بني آكل المرار . ويفهم من شعر لـ (عمرو بن كلثوم) قيل إنه قاله متذكراً هذا اليوم ، أن رهطه وهم من بني تغلب آبوا بالنهاب وبالسبايا وبالملوك مصفدين . ولم يشر الشاعر الى هوية هؤلاء الملوك المأسورين ، ولكن (الأصمعي) يقول : إنه قصد بقوله: « وأبنا بالملوك مصفدينا » (بني آكل المرار)[2] .

فيظهر من الرواية المتقدمة ان يوم خزاز ، كان بين سلمة ومن جاء معه من اليمن وبين تغلب ومن انضم اليها من قبائل ربيعة ومضر . ويظهر من رواية الأصمعي ان ذلك اليوم كان بين المنذر بن ماء السماء وتغلب وقضاعة من جهة وبين (بني آكل المرار) ، وبكر بن وائل من جهة اخرى . وهناك روايات أخرى تذكر ان هذا اليوم ، انما كان قد وقع بين ملك من ملوك اليمن وبين قبائل معدّ ، ولا علاقة له بسلمة وببني آكل المرار أو المنذر بن ماء السماء في هذا اليوم ، الذي أدى الى انتصار بني معدّ على اولاد قحطان[3] .

---

١ البلدان (٣/٤٣٠ وما بعدها) .

٢ النقائض (ص ٨٨٧) ، من بيت لعمرو بن كلثوم :

وآبوا بالنهاب وبالسبايا ... وأبنا بالملوك مصفدينا

٣ ابن الاثير (١/٣١٠) ، العقد الفريد (٣/٣٦٤) ، نقائض جرير والفرزدق (٢/١٩٣) ، البكري ، معجم (٢/٤٩٦) .

ويذكر بعض أهل الأخبار أنه : « لولا عمرو بن كلثوم ما عرف يوم خزاز». وأم عمرو بن كلثوم ، هي ابنة (كليب بن ربيعة) ، المعروف بـ (كليب وائل)[1] . فذكره في شعره لذلك اليوم ساعد ولا شك في ابقاء اسمه في ذاكرة الناس ، حتى دوّن خبره في الاسلام .

وليوم (أوارة) الأول علاقة وصلة بـ (سلمة بن الحارث) وبـ (المنذر ابن ماء السماء) على ما يرويه بعض أهل الأخبار . فهم يذكرون ان تغلب لما أخرجت (سلمة) عنها ، التجأ الى (بكر بن وائل) ، فلما صار عند بكر ابن وائل أذعنت له ، وحشدت عليه ، وقالت : لا يملكنا غيرك . فبعث اليهم المنذر يدعوهم الى طاعته ، فأبوا ذلك ، فحلف المنذر ليسيرن اليهم ، فان ظفر بهم فليذبحنهم على قلة جبل أوارة . وسار اليهم في جموعه ، فالتقوا بأوارة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وأجلت الواقعة عن هزيمة بكر وأسر (يزيد بن شرحبيل الكندي) ، فأمر المنذر بقتله وبقتل عدد كبير من بكر[2] .

وأما (شراحيل بن الحارث) ، فقد قتله (بنو جعدة بن كعب بن ربيعة ابن صعصعة)[3] .

ويحدثنا (يعقوب بن السكيت) انه كان لحجر والد امرىء القيس جملة أولاد أكبرهم (نافع) وأصغرهم (امرؤ القيس) ، وبين الأكبر والأصغر جملة أولاد ، غير انه لم يذكر أسماءهم[4] . وقد ورد اسم (نافع) في بيت شعر لامرىء القيس[5] .

وذكر (ياقوت) ولداً لـ (سلمة بن الحارث) سماه (قيساً) قال : انه أغار على (ذي القرنين المنذر بن النعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي) فهزمه، حتى أدخله الخورنق ومعه ابناه قابوس وعمرو . فكث ذو القرنين حولاً ، ثم أغار عليهم بـ (ذات الشقوق) ، فأصاب منهم اثني عشر شاباً من بني حجر ابن عمرو وكانوا يتصيدون ، وأفلت منهم امرؤ القيس على فرس شقراء ، فطلبه

---

١ البكري ، معجم (٢/٤٩٦) .
٢ ابن الاثير (١/٢٢٨) .
٣ البلدان (٣/٤٣٨ وما بعدها) .
٤ الاغاني (٨/٦٥) .
٥ الاغاني (٨/٦٥) . Olinder, P. 94.

القوم فلم يقدروا عليه . وقدم المنذر الحيرة بالفتية فحبسهم بالقصر الأبيض شهرين ثم أمر بضرب أعناقهم فضربت عند (الجفر) ، فعرف منذ ذلك الحين بـ (جفر الأملاك) ، وهو موضع (دير بني مرينا) . وقد أشير الى مقتلهم في شعر لامرىء القيس[1] .

كندة تلحق بحضرموت:

وقد ذكر الرواة ان ملك كندة لما انخرق،وهلك من هلك منهم ، قام « عمرو أفحل بن ابي كرب بن قيس بن سلمة بن الحارث ، الملك ، فقال : يا معشر كندة . إنكم قد اصبحتم بغير دار مقام . وقد ذهب أشرافكم وانخرق ملككم ، ولا آمن العرب عليكم ، فالحقوا بحضرموت »[2] .

ويذكر الرواة ان الملك خرج من (بني آكل المرار) وساد بنو الحارث بن معاوية فأول من ساد منهم (قيس بن معديكرب) ، ثم ابنه الأشعث بن قيس، وهو الذي اتى النبي في ستين او سبعين راكباً من اشراف كندة فأسلموا . أسلم الأشعث ، وكانت كندة قد توجته عليها[3] .

ويذكر (حمزة) ، ان المنذر بن ماء السماء تتبع غابرهم ، فقتل عامتهم ، وصارت رياسة كندة في (بني جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين)، ثم في (معديكرب بن جبلة) ، ثم في (قيس بن معديكرب) ، وعلى عهده قام الاسلام بمكة ، ثم في (الأشعث بن قيس)[4] .

وقد ذكر (ابن حبيب) ، (الأشعث بن قيس بن معديكرب) في جملة الجرّارين من اليمن[5] . والجرّارون من كان يرأس ألفاً[6] ولا يعد الرجل جرّاراً

---

١ البلدان (١٢٧/٤ وما بعدها) ، (٦٤٨/٢) (طبعة وستنفلد) ، التاج (٣٥٣/٩) .

٢ المحبر (ص ٣٧٠) .

٣ الطبري (١٣٩/٣) ، المفضليات (ص ٤٤١) ، حمزة (ص ٩٢) ،

٤ حمزة (ص ٩٣) .

٥ المحبر (ص ٢٥١) .

٦ المحبر (ص ٢٤٦) .

حتى يقود ألفاً[1] . وذكره في باب (أعرق العرب في الغدر) . فقال عنه إنه غدر بـ (بني الحارث بن كعب) . وكان بينهم عهد وصلح ، فعزاهم فأسروه، ففدى نفسه بمائتي قلوص ، فأدى مائة ، ولم يؤد البقية حتى جاء الاسلام ، فهدم ما كان في الجاهلية . وغدر الأشعث ايضاً فارتد عن الاسلام .

وقال عن والده (قيس بن معديكرب بن معاوية بن جبلة الكندي) ، انه كان من « أعرق العرب في الغدر » كذلك ، وكان بينه وبين مراد وَلثٌ الى أجل ، فغزاهم في آخر يوم الأجل غادراً . « وكان ذلك اليوم يوم الجمعة . فقالوا له : انه قد بقي من الأجل اليوم . وكان يهودياً . فقال : انه لا يحل لي القتال غداً . فقاتلهم ، فقتلوه وهزموا جيشه . وكان معديكرب عقد لمهرة صلحاً ، فغزاهم غادراً بالعهد . فقتلوه وشقوا بطنه ، فملأوه حصى »[2] .

وقد لقب (قيس) بالأشج ، لأثر شج في وجهه ، وعرف بالأعشى كذلك وقيل له : (بطريق اليمن) . وذكر بعض الرواة ان كلمة (بطريق) تعني الحاذق في الحرب وأمورها[3] .

وفي حق (قيس) هذا قال (الحارث بن حلزة اليشكري) في جملة ما قاله في قصيدته مفتخراً بقومه :

حول قيس مستلئمين بكبش   قرظي كأنه عبلاء

وقد قال الشرّاح إن قيساً جاء على رأس جيش لجب ومعه راياته متحصن بسيد من بلاد القرظ ، وبلاد القرظ اليمن ، كأنه في منعته وشوكته هضبة من الهضاب ، قد لبسوا الدروع ، فردّتهم (يشكر) قوم الشاعر ، وقتلوا منهم[4] .

ويذكر أهل الأخبار ان الشاعر الأعشى كان ممن يفد على (قيس بن معديكرب)

---

١ المحبر (ص ٢٥٣) .
٢ المحبر (ص ٢٤٤ وما بعدها) .
٣ قيس أبو الاشعث بطريق اليمن   لا يسأل السائل عنه ابن من
اللسان (١٠/٢١) (طبعة بيروت) الاغاني (٨/٧٨) ، البيان والتبيين (١/١٨) ، الاغاني (١١/١٢٦) ، الامالي للقالي (١/٩٢) .
٤ المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٦٤) (طبعة صادر ، بيروت) ابن قتيبة ، كتاب المعاني الكبير (ص ٩٤٣) .

من الشعراء . وقد رووا له شعراً قاله لقيس[1] . في جملته قوله :

وجلنداء في عمانَ مقيماً ثم قيساً في حضرموت المنيف[2]

وقد ذكر (ابن حبيب) ان (خالد بن جعفر بن كلاب) ، أسر (قيس ابن سلمة الكندي) يوم الحرمان[3] .

وذكر أهل الأخبار ان ملوك كندة جعلوا ردافتهم في (بني سدوس)[4] .

وجاء ان (الأشعث بن قيس) ، كان قد غلب على اهل نجران وملك رقابهم وجعلهم (عبيداً مملكة) . وذكر انه خاصمهم عند (عمر) في ايام خلافته ، فاحتجوا عليه ان ذلك كان في الجاهلية ، فلما أسلموا سقطت تلك العبودية عنهم[5] .

امرؤ القيس الشاعر :

ويذكر الأخباريون ان (حجراً) لم يكن راضياً عن ابنه (امرىء القيس) فطرده من عنده وآلى الا يقيم معه أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك . فكان يسير في احياء العرب ومعه اخلاط من شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر بن وائل . فإذا صادف غديراً او روضة او موضع صيد ، اقام فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج الى الصيد فتصيّد ، ثم عاد فأكل واكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه الى غيره . فأتاه خبر ابيه ومقتله وهو بـ (دمّون) من ارض اليمن ، أتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر الأعور أخو الوصاف . فلما أتاه بذلك ، قال :

تطاول الليل عليّ دمّون دمّون ، إنا معشر يمانون
واننا لأهلها محبّون

---

1 الاغاني (٢/٧٨) ، الامالي (١/٩٢) ، الجمحي ، طبقات الشعراء (ص ١٢٣) .
2 ديوان الاعشى (القصيدة ٦٣ ، البيت ١٥) .
3 المحبر (ص ٢٥٢) .
4 الاشتقاق (ص ٢١١) .
5 اللسان (١٠/٤٩٣) .

ثم قال : ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ، ولا سكر غداً ، اليوم خمر ، وغداً أمر . فذهبت مثلاً ثم قال :

خليلي ، لا في اليوم مصحى لشارب   ولا في غد إذْ ذاك ما كان يشرب

ثم شرب سبعاً فلما صحا آلى ألاّ يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدهن بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك بثأره[1] .

وفي رواية أخرى انه طرد لما صنع في الشعر بفاطمة ما صنع،وكان لها عاشقاً، فطلبها زماناً ، فلم يصل اليها ، وكان يطلب غرة حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان ، فقال قصيدته المشهورة : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل). فلما بلغ ذلك والده غضب عليه ، وأوصى بقتله ثم طرده[2] . وهناك من يزعم انه انما طرد ، لأنه تغزل بامرأة من نساء ابيه[3] .

هذا وصف موجز لأصغر أبناء (حجر) : (امرىء القيس بن حجر الكندي) الشاعر الشهير و (الملك الضليل) و (ذي القروح)[4] .

وللرواة أقوال في اسم (امرىء القيس) ، فقد سمّاه بعضهم (حندجاً) ، ودعاه آخرون (عدياً) ، ودعاه قوم (مليكاً) ، ودعاه نفر (سليمان) وهو معروف عندهم بالاجماع بـ (امرىء القيس) ، وهو لقبه[6] . ويكنى بأبي وهب وأبي[5] زيد وأبي الحارث وذي القروح[6] .

ولا نعرف سنة ولادة هذا الأمير الشاعر . ويظن (أولیندر) انه ولد حوالي

---

١ الاغاني (٨/٦٥) ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (١/٥٠ وما بعدها) (دار الثقافة بيروت ١٩٦٤) خزانة الادب (١/١٥٩ وما بعدها) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٦ وما بعدها) ، معجم الشعراء ، للمرزباني (ص ٩) ، المحبر (ص ٣٥٢) ، نزهة الجليس (٢/١٤٨ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (ص ٣١) (طبعة مصطفى السقا) ، القاهرة ١٩٣٢ ، (٣٢).

٣ Olinder, P. 96.

٤ الاغاني (٨/٦١) ، الشعر والشعراء (ص ٣١) ، الخزانة ، للبغدادي (٣/٤٣٢) ، سرح العيون ، لابن نباتة (١٨١) ، العمدة ، لابن رشيق (١/٤١ ، ٤٢ ، ٩٧) ، تقريب الاغاني ، لابن واصل (ص ١٠٠١) .

٥ المزهر (٢/٢١٤) ، الآمدي : المؤتلف والمختلف ، (ص ٩) ، جمهرة أشعار العرب (ص ٤٩) ، (القاهرة ١٩٢٦) ، طبقات فحول الشعراء : (دار المعارف) شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١ وما بعدها) ، المحبر (ص ٢٣٣ ،٣٤٩) الاشتقاق (٢/٢٢٢) ، القاموس المحيط (١/٥٤٦) ،

٦ السندوبي (ص ٦ وما بعدها) . Olinder, P. 95.

سنة (٥٠٠) للميلاد[1] . أما أمه فهي (فاطمة) بنت ربيعة بن الحارث بن زهير ، أخت (كليب) و (مهلهل) التغلبيين[2] . وورد في بيت شعر ينسب الى هذا الشاعر : (امرىء القيس بن تملك)[3] . وقد استنتج بعض العلماء منه ان أمه هي (تملك) ورجعوا نسبها الى (عمرو بن زبيد بن مذحج رهط عمرو بن معديكرب) ، ويرى بعض المستشرقين انه أدخل في ديوان هذا الشاعر ، وانه يعود الى شاعر آخر اسمه (امرىء القيس) ، وقد عد (آلوارت) (Ahlwardt) ، ستة عشر شاعراً أسماؤهم (امرؤ القيس)[4] . ويلاحظ أن من زعم من الرواة ان أم امرىء القيس هي (تملك) جعل نسبه (امرأ القيس بن السمط بن امرىء القيس بن عمرو بن معاوية بن ثور) ، وهو (كندة) ، وهم يخالفون بذلك سلسلة النسب المألوفة عند غالبية الرواة .

وذكر انه ولد ببلاد بني أسد ، وانه كان ينزل بالمشقر وهو موضع ذكر في شعره[5] . وروى (ابن قتيبة) ان (امرأ القيس) من أهل نجد ، وأن الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد[6] . وقد تنقل هذا الشاعر في مواضع متعددة من الجزيرة ، ووصل الى القسطنطينية عاصمة الروم .

وكان امرؤ القيس بـ (دمّون) حينما جاء اليه نبأ مقتل والده على رواية[7] . ودمّون من قرى حضرموت للصدف في رواية[8] . وفي رواية أخرى مرجعها (الهيثم ابن عدي) ان امرأ القيس لما قتل أبوه كان غلاماً قد ترعرع ، وكان في بني

---

١ Olinder, P. 95.

٢ ابن الاثير (١/٢١١) ، الاغاني (٨/٦٠) ، Ency., II, P. 477

٣ ألا هلّ أتاها والحوادث جمة ... بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

ديوان امرىء القيس (٢٠ : ٣٧) ، الاغاني (٨/٦١) ، Olinder, P. 95.

٤ AhlWardt, Bemerkungen über die echtheit der alten Arabischen Gedichte, S. 73.

راجع أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الاسلام : تأليف حسن السندوبي ، القاهرة ١٩٣٩ ، وقد جمع فيه أشعار من كان شاعرا ويسمى بـ (امرىء القيس) .

٥ الاغاني (٨/٦١) ، البلدان (٨/٦٥) ، معجم ما استعجم (٥٦١) .

٦ الشعر والشعراء (ص ٣١) (طبعة السقا) ، القاهرة ١٩٣٢ ، Olinder, P. 95. Maritm, Arabien, S. 53.

٧ الاغاني (٨/٩٥) .

٨ الصفة (٨٥) ، البكري ، معجم (١/٣٤٨) ، (وساكن دمون هو الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار) ، البلدان (٤/٨٥) .

حنظلة مقيماً ، لأن ظئره كانت امرأة منهم ، وقد روت شعراً زعمت أنه قاله حينما بلغه النبأ ، وهو :

أتاني وأصحابي على رأس صيلع حديث أطار النوم عني فأنعما
فقلت لعجليّ بعيد مآبة ابن لي وبين لي الحديث المجمجما
فقال : أبيت اللعن عمرو وكاهل أباحا حمى حجر فأصبح مسلما[1]

ويفهم من هذا أن شاعرنا كان في صيلع حينما أبلغ خبر وفاة والده ، أتاه به رجل اسمه (عجل) ويعرف بعامر الأعور[2] .

أما صيلع ، فوضع من شق اليمن ، كثير الوحش والظباء . ورد اسمه في خبر مجيء وفد همدان الى الرسول[3] . وقد صرح (ياقوت الحموي) أن به ورد الخبر على امرىء القيس بمقتل أبيه حجر[4] .

وهناك خبر يفيد أنه نزل في (بني دارم) وبقي عندهم حتى قتل عمه (شرحبيل) ، وفي رواية تنسب الى (الهيثم بن عدي) أنه كان مع والده (حجر) حين هاجمته بنو أسد ، وانه هرب على فرس له وتمكن من النجاة[5] .

ويقول (ابن الكلبي) و (يعقوب بن السكيت) أن امرأ القيس ارتحل بعد أن بلغه نبأ مقتل والده حتى نزل بكراً وتغلب ، فسألهم النصر على بني أسد ، فبعث العيون على بني أسد ، فنذروا بالعيون ولجأوا الى بني كنانة ، ثم أدركوا ان امرأ القيس يتعقبهم ، ونصحهم (علباء بن الحارث) بالرحيل بليل ، وألاّ يعلموا بني كنانة ،ففعلوا وتركوا (بني كنانة) وارتحلوا عنهم ليلاً دون أن يشعروا.

فلما وصل امرؤ القيس الى بني كنانة ظاناً بني أسد بينهم، نادى : يالثارات الملك . يالثارات الملك . فأخبروه انهم قد تركوهم وارتحلوا عنهم . فتعقبهم مع بكر وتغلب حتى لحق بهم ، فقاتلهم ، فكثرت فيهم الجرحى والقتلى حتى جاء الليل فحجز بينهم ، وهربت بنو أسد فلما أصبحت بكر وتغلب، أبوا أن يتبعوهم وقالوا له : قد أصبت ثأرك . قال : والله ، ما فعلت ولا أصبت من بني كاهل

---

١ (أباحوا حمى حجر فاصبح مسلما) ، السندوبي (١٨١) ، الاغاني (٨/٦٦) .
٢ الاغاني (٨/٦٥) .
٣ البكري ، معجم (٢/٦١٤) .
٤ البلدان (٥/٤٠٦) .
٥ Olinder, P. 96.

ولا من غيرهم من بني أسد أحداً . قالوا : بـلى ، ولكنك رجل مشؤوم ، وكرهوا قتالهم بني كنانة ، وانصرفوا عنه ، ومضى هارباً لوجهه حتى لحق بحمير[1] .

ولما أقبل امرؤ القيس من الحرب على فرسه الشقراء ، لجأ ابن عمته (عمرو ابن المنذر) وأمه (هند بنت عمرو بن حجر آكل المرار) ، وذلك بعد قتـل أبيه وأعمامه ، وتفرق ملك أهـل بيته ، وكان عمرو يومئذ خليفة لأبيه المنـذر بـ (بقة) ، فمدحه وذكر صهره ورحمه ، وانه قد تعلق بحباله ، ولجأ اليه فأرجاه ومكث عنده زماناً . ثم بلغ المنذر مكانه عنده ، وأنذره عمـرو ، فهرب حتى أتى حمير[2] .

وفي رواية يرجعها الرواة الى (ابن الكلبي) و (الهيثم بن عدي) و (عمر ابن شبة) و (ابن قتيبة) : ان (امرأ القيس) خرج فوراً بعد امتناع بكر ابن وائل وتغلب من أتباع بني أسد الى اليمن ، فاستنصر أزد شنوءة ، فأبوا أن ينصروه وقالوا : اخواننا وجيراننا ، فنزل بقيل يدعى (مرثد الخير بن ذي جدن الحميري) ، وكانت بينهما قرابة ، فاستنصره واستمـده على بني أسد ، فأمده بخمسمئة رجل من حمير ، ومات مرثد قبل رحيل امرىء القيس بهم ، وقام بالمملكة بعده رجل من حمير يقال له : قرمل بن الحميم ، وكانت أمـه سوداء ، فردد امرؤ القيس ، وطوّل عليه حتى همّ بالانصراف ... فأنفـذ له ذلك الجيش ، وتبعه شذاذ من العرب ، واستأجر من قبائل العرب رجالاً ، فسار بهم الى بني أسد ، ومرّ بـ (تبالة) ، وبها صنم للعرب تعظمه يقال له (ذو الخلصة) ، فاستقسم عنده بقداحه ، وهي ثلاثة : الآمر والناهي والمتربص ، فأجالها فخرج الناهي ، ثم أجالها فخرج الناهي ، ثم أجالها فخـرج الناهي ، فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم ، وقال : مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ما عقتني ، ثم خرج فظفر بـ (بني أسد)[3] .

فلما ظفر بهم ، فقال هذه الأبيات :

قـولا لدودان عبيـد العصا مـا غرّكم بالأسد الباسل ؟
قد قرت العينـان من مالك ومن بني عمرو ومن كاهـل

---

١ الاغاني (٦٧/٨) ، ابن الاثير ، الكامل (٣٠٦/١ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٦٧/٨) .
٣ الاغاني (٦٧/٨ وما بعدها) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢١٩/٢) .

ومن بـني غنم بن دودان إذ نقذف أعلاهم عـلى السافل

* * *

حلت لي الخمر وكنت امـرأ عن شربها في شغل شاغـل
فاليوم أشرب غـير مستحقب إثمـاً من الله ولا واغـل

وهي أبيات يفهم منها انه أوقع في (بني دودان) و (بني مالك) و (بني عمرو) و (بني كاهل) و (بني غنم بن دودان) ، وهي بطـون من بـني أسد،هي التي قتلت أباه حجراً ، قالها بعد أن أنجده (قرمل بن الحميم الحميري) وانه ألبسهم الدروع المحماة ، وكحلهم بالنـار ، فبرّ بيمينه ، وحل له شرب الخمر[١] .

وبنو دودان ، هم بنو ثعلبة بن دودان بن أسد ، والى ثعلبة هذا تنسب الثعلبية التي بين الكوفة ومكة . وهم جملة بطون ذكرها أهل الأنساب[٢] .

والى (قرمل) أشار (امرؤ القيس) في شعره :

وكنّا أناساً قبـل غزوة قرمل ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا

وهو من (السحول) من (ذي الكلاع)[٣] .

وفي رواية تنسب الى (الخليل بن أحمد الفراهيدي) أن رجالاً من قبائـل (بني أسد) فيهم (قبيصة بن نعيم) وكان في بني أسد مقيماً ، قدموا عـلى امرىء القيس بعد مقتل أبيه ، ليعتذروا اليه وليسوا قضية قتل والـده ، فرفض إلاّ الانتقام من (بني أسد) قائلاً : « لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم ، واني لن أغتاض به جملاً أو ناقة ، فاكتسب بذلك سبّـة الأبد وفت العضد . وأما النظرة ، فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سبباً وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنة علقاً»[٤].
وتذكر الرواية أنه خرج اليهم بعد ابطاء دام ثلاثة أيام ، وهو في قبـاء وخف وعمامة سوداء ، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا بالثارات ، فلما نظروا اليه ، وبدر اليه قبيصة ، يتكلم باسمهم معتذراً ، طالباً الصفح عنهم ، ودفع الدية عن

---

١ السندوبي (ص ١٥١) ، الشعر والشعراء (٤٣ وما بعدها) .Olinder, P. 102
٢ جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم (ص ١٨٢) .
٣ الاشتقاق (ص ٣٠٧ ، ٣٠٩) .
٤ الاغاني (٨/٧٢ وما بعدها) .

حجر ، أخبرهم ، أن دم حجر لا يعتاض بجمل أو ناقة ، وأنه لا بد من أخذه بالثأر ، ثم أمهلهم حتى يجمع طلائع كندة ، فيهجم عليهم[1] .

وهناك رواية أخرى تنسب الى (أبي عبيدة) في هذا المعنى المتقدم مآلها أن (بني اسد) اجتمعت « بعد قتلهم حجر بن عمرو الى ابنه امرىء القيس على أن يعطوه ألف بعير دية ابيه ، او يقيدوه من أي رجل شاء من بني أسد،أو يمهلهم حولاً . فقال : أما الدية ، فما ظننت أنكم تعوضونها على مثلي . وأما القود ، فلو قيد إليّ ألف من بني اسد ما رضيتهم ولا رأيتهم كفؤاً لحجر . وأما النظرة فلكم ، ثم ستعرفوني في فرسان قحطان أحكم فيكم ظبا السيوف وشبا الأسنة حتى اشفي نفسي وأنال ثأري »[2] .

ولم تشر رواية (الخليل) و (أبي عبيدة) الى ما فعله (امرؤ القيس) بعد ذلك في (بني اسد) ، ولكننا إذا ما اردنا ربط هذه الروايات بعضها ببعض وبحسب التسلسل الطبيعي المنطقي ، نستطيع ان نجعلها مقدمة لرواية (ابن الكلبي) و (ابن السكيت) و (خالد الكلابي) وملحقها ، وهي رواية (محمد بن سلام) عن نزول (امرىء القيس) بـ (بكر) و (تغلب) ، وطلبه النجدة منهم والنصرة على بني اسد ، واقتصاصه منهم بعد تركهم لـ (بني كنانة) كما ذكرت ذلك سابقاً. وان نربطها كذلك برواية (ابن الكلبي) (والهيثم بن عدي) و (عمرو بن شبة) وابن (قتيبة) الملحقة بهذه الرواية ، والرواية القائلة بذهاب (امرىء القيس) الى اليمن واستنصاره بـ (أزد شنونة) و (مرثد الخير بن ذي جدن الحميري) بعد ان امتنعت بكر بن وائل وتغلب عن ملاحقة بني اسد.

وقد أشار (ابن قتيبة) اشارة مختصرة الى هجوم (امرىء القيس) على بني أسد حينما كانوا في (بني كنانة) ، وذكر انه اوقع بـ (بني كنانة) ، ونجت (بنو كاهل) من بني اسد ، فقال :

يا لهف نفسي اذ خطئن كاهلا القاتلين الملك الحلاحلا
تالله لا يذهب شيخي باطلا[3]

---

١ الاغاني (٨/٧٢ وما بعدها) .
٢ الاغاني (١٩/٨٥) .
٣ الشعر والشعراء (١/٥٠ وما بعدها) ، البداية والنهاية (٢/٢١٨) ، شرح القصائد السبع الطوال ، للانباري (ص ٤ وما بعدها) (دار المعارف ١٩٦٣) ديوان امرىء القيس (ص ٣٤) (دار المعارف) (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ، الحيوان ، للجاحظ (٥/٥٧٨) .

وأما (اليعقوبي) فذكر ان (امرأ القيس) حين بلغه مقتل أبيه جمع جمعاً وقصد (بني أسد) ، فلما كان في الليلة التي أراد أن يغير عليهم في صبيحتها ، نزل بجمعه ذلك ، فذعر القطا ، فطار عن مجاثمه فمرّ ببني أسد ، فقالت بنت (علباء بن الحارث) أحد (بني ثعلبة) ، وكان القائم بأمر بني أسد : ما رأيت كالليلة قطاً أكثر . فقال علباء : « لو ترك القطا لغفا ونام » فأرسلها مثلاً . وعرف ان جيشاً قد قرب منه ، فارتحل ، وأصبح امرؤ القيس فأوقع بكنانة ، فأصاب فيهم ، وجعل يقول : يالثأرات حجر ! فقالوا : والله ما نحن الا كنانة . فتركهم وهو يقول :

ألا يالهف نفسي بعد قوم ... هم كانوا الشفاء فلم يصابوا
وقاهم جدّهم ببني أبيهم ... وبالأشقين ما كان العقاب
وأفلتهن علباء جريضا ... ولو أدركته صفر الوطاب[1]

ولم يشر اليعقوبي الى محاولة (امرىء القيس) تعقيب (بني أسد) وامتناع من كان معه عن الذهاب معه كما رأينا ذلك في الرواية السابقة بل قال : « ومضى امرؤ القيس الى اليمن لما لم يكن به قوة على بني أسد ومن معهم من قيس ، فأقام زماناً ، وكان يدمن مع ندامى له ، فأشرف يوماً ، فاذا براكب مقبل ، فسأله : من أين أقبلت ؟ قال : من نجد ، فسقاه مما كان يشرب ، فلما أخذت منه الخمرة ، رفع عقيرته وقال :

سقينا امرأ القيس بن حجر بن حارث ... كؤوس الشجا حتى تعوّد بالقهر
وألهاه شرب ناعم وقراقر ... وأعياه ثأر كان يطلب في حجر
وذاك لعمري كان أسهل مشرعاً ... عليه من البيض الصوارم والسمر

ففزع امرؤ القيس لذلك ثم قال : يا أخا أهل الحجاز ، من قائل هذا الشعر؟ قال : عبيد بن الأبرص . قال : صدقت . ثم ركب واستنجد قومه ، فأمدوه بخمسمئة من مذحج ، فخرج الى أرض (معد) ، فأوقع بقبائل معد ، وقتل الأشقر بن عمرو ، وهو سيد بني أسد وشرب في قحف رأسه،وقال امرؤ القيس في شعر له :

---

١ اليعقوبي (١/١٧٨) .

قولا لدودان عبيد العصا : ما غرّكم بالأسد الباسل ؟
يا أيها السائـل عن شأننا ليس الذي يعلم كالجاهل
حلـت لي الخمر وكنت امرءاً عن شربها في شغل شاغل

وطلبت قبائل معد امرأ القيس ، وذهب من كان معه ، وبلغه ان المنذر ملك الحيرة قد نذر دمه ، فأراد الرجوع الى اليمن ، فخاف حضرموت ، وطلبته بنو أسد وقبائل معد ، فلما علم انه لا قوة به على طلب المنذر واجتماع قبائل معد على طلبه ولم يمكنه الرجوع ، سار الى (سعد بن الضباب الإيادي ، وكان عامـلاً لكسرى على بعض كور العراق فاستتر عنده حيناً حتى مات سعد بن الضباب) ، فخرج امرؤ القيس الى جبل (طيء) ونزل بقوم من طيء ، ثم لم يزل في طيء مرة وفي جديلة مرة وفي نبهان مرة حتى صار الى (تيماء) فنزل بالسموأل بن عادياء فأودعه أدراعه وانصرف عنه الى قيصر[1] .

وذكر (ابن خلدون) ان (امرأ القيس) سار صريخاً الى (بني بكـر) و (تغلب) فنصروه ، وأقبل بهم ، فأجفل (بنو أسد) وساروا الى (المنذر ابن امرىء القيس) ملك الحيرة ، وأوقع (امرىء القيس) في (كنانة) ، فأثخن فيهم ، ثم سار في ملاحقة (بني أسد) الى أن أعيا ولم يظفـر منهم بشيء ، ورجعت عنه بكر وتغلب ، فسار الى (مؤثر الخير بن ذي جدن) من ملوك حمير صريخاً بنصره بخمسمئة من حمير ، وبجمع من العرب سواهم . وجمع المنذر لامرىء القيس ومن معه ، وأمده كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة،والتقوا ، فانهزم امرؤ القيس ، وفرت حمير ومن كان معه ، ونجا بدمه ، وما زال يتنقل في القبائل والمنـذر في طلبـه ، وسار الى قيصر صريخاً فأمده ، ثم سعى بـه (الطمّاح) عند قيصر انه يشبب بينته،فبعث اليه بحلة مسمومة كان فيها هلاكه ودفن بأنقرة[2] .

و (أبو الفداء) من الذين نفوا كذلك خبر ايقاع (امرىء القيس) بـ (بني اسد) . فهو يرى انه لم يظفر بهم ، وان (بـني أسد) هربت حينما علمت بمجيء (بكر) و (تغلب) . فلما أعجز القبيلتين الطلب ، تخاذلتا عن (امرىء

---

١ اليعقوبـي (١/١٨٠) .
٢ ابن خلدون (٢/٢٧٤ وما بعدها) .

القيس) ، وتركتاه . ولما عرفت جموع (امرىء القيس) بتطلب (المنذر بن ماء السماء) له ، تفرقت خوفاً من المنذر ، وخاف (امرؤ القيس) ، وصار يدخل على قبائل العرب ويتنقل من أناس الى أناس حتى قصد (السموأل بن عاديا) اليهودي ، فأكرمه وأنزله ، وأقام عنده ما شاء الله ، ثم سار الى قيصر مستنجداً به[1] .

ينفي خبر (ابن خلدون) المتقدم ، خبر انتقام امرىء القيس من بني اسد، وهو يتفق بذلك مع رواية مؤيدة لبني اسد تنكر اخذ امرىء القيس بثأره من بني اسد ، وتروي في ذلك أبياتاً تنسبها اسد الى (عبيد بن الأبرص) شاعر بني اسد . قال ابن قتيبة : « وقد ذكر امرؤ القيس في شعره انه ظفر بهم ، فتأبى عليه ذلك الشعراء » . قال عبيد :

ياذا المخوفنا بقتل أبيه　　　إذلالاً وحيْنا
أزعمت انك قد قتلتَ　　　سراتنا كذباً ومينا[2]

وعبيد هذا هو الذي زعم (ابن الكلبي) وأضرابه انه قال أبياتاً يتوسل فيها الى (حجر) ان يترفق بقبائل بني اسد ، وان يعفو عنها ، ويقبل ندامتها ، فيسمح لها بالعودة الى مواطنها . وكان قد امر باجلائها الى تهامة ، لأنها أبت دفع الاتاوة الى جابي (حجر) ، وضربته ، وضرجته ضرجاً شديداً . ومطلعها:

يا عين فابكي ما بني　　　أسد ، فهم أهل الندامة

ويقول ويقولون : انه لما سمعها رقّ على (بني اسد) ، فبعث في اثرهم وسمح لهم بالعودة من تهامة[3] . وهو قول فيه تحيز على بني أسد .

ويفهم من هذه الأبيات :

كأني إذ نزلت على المعلّى　　　نزلت على البواذخ من شمام
فما ملك العراق على المعلّى　　　بمقتدر ولا الملك الشآمي

---

١ ابو الفداء (١/٧٥) ، خزانة الادب ، (٣/٥٣٢) ، الكامل لابن الاثير (١/٣٠٨ وما بعدها) .
٢ ابن قتيبة (ص ٣٣) ، الشعر والشعراء (١/٥٠ وما بعدها) (دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤) ، خزانة الادب (١/١٥٨وما بعدها) تاريخ اليعقوبي (٢/١٨٩) (طبعة النجف) ، الشعر والشعراء (ص ٣٩) ، (طبعة ليدن) .
٣ الاغاني (٨/٦٣) .

أصد نشاص ذي القرنين حتى تولى عــارض الملك الهـمام
أقر حشا امرىء القيس بن حجر بنو تيم مصـابيح الظـلام

أن امرأ القيس نزل على (المعلّى) احد (بني تيم بن ثعلبة) فأجاره ومنعه . ولم يكن للملكين : ملك العراق وهو المنذر ولا ملك الشآم أي ملك الغساسنة ، اقتدار عليه . وقد بقي لديه زماناً ، ثم اضطر الى الارتحال عنه [1] . فذهب ونزل عند (بني نبهان) من طيء ، ثم خرج ، فنزل بـ (عامر بن جوين الطائي) وهو احد الخلعاء والفتاك ، فبقي عنده زماناً ، ثم أحس منه ماراً به ، فتغفله ، وانتقل الى رجل من (بني ثعل) فاستجار به ، فوقعت الحرب بين (عامر) وبين (الثعلي) ، فخرج ونزل برجل من (بني فزارة) اسمه (عمرو بن جابر بن مازن) فأشار هذا عليه بالذهاب الى (السموأل بن عادياء) بتيماء،فوافق فأرسله في صحبة رجل من (فزارة) اسمه (الربيع بن ضبع الفزاري) كان يأتي السموأل،فيحمله ويعطيه. فنزل عنده وأكرمه ، ثم انه طلب اليه أن يكتب له الى (الحارث بن أبي شمر) الغساني ، ليوصله الى قيصر . ثم أودعه امرؤ القيس ابنته وأدراعه وأمواله، وأقام ابنته مع (يزيد بن الحارث بن معاوية) ابن عمه وخرج[2] . وكان الـذي أشار على (امرىء القيس) بالتوجه الى قيصر هو ذلك الرجل الفزاري[3] .

ويظهر من غربلة كل هذه الروايات ، ان مطاردة (المنـذر بن ماء السماء) لامرىء القيس كانت أعنف شيء أصاب هذا الشاعر بعد مقتل والده . لقد أخافته وجعلته يتنقل من قوم الى قوم . فرّ عنه من انضم اليه من عصبة حمير ، ونجا في جماعة من بني آكل المرار،حتى نزل بالحارث بن شهاب في بني يربوع بن حنظلة ومعه أدراعه الخمسة : الفضفاضة ، والضافية ، والمحصنـة ، والخريق ، وام الذبول ، كن لبني مرار يتوارثونها ملكاً عن ملك ، فقلما لبثوا عند الحارث بن شهاب حتى بعث اليه المنذر مئة من أصحابه يوعده بالحـرب أن يسلم بني آكل المرار فأسلمهم ، ونجا امرؤ القيس ومعـه ابن عمه يزيد بن معاوية بن الحارث وبنته هند ، والأدرع والسلاح ، ومال كان بقي عنده ، ومضى الى أرض طيء

---

١ الاغاني (٨/٦٨) ، السندوبي (ص ١٧٩) ، Olinder, P. 108.
٢ الاغاني (٨/٧٠) .
٣ الاغاني (٨/٦٨ وما بعدها) .

ونزل عند المعلّي بن تيم الذي مدحه شاعرنا ، فأقام عنده ، واتخذ إبلاً ، ثم خرج فنزل بعامر بن جوين على نحو ما ذكرت[1] .

ويذكر الأخباريون ان (عمرو بن قميئة) كان قد رافق (امرأ القيس) في سفره الى (القسطنطينية) . وقد أشير اليه في شعر (امرىء القيس) كذلك . ويذكرون انه كان من قدماء الشعراء في الجاهلية « وانه أول من قال الشعر من نزار ، وهو اقدم من امرىء القيس . ولقيه امرؤ القيس في آخر عمره ، فأخرجه معه الى قيصر لما توجه اليه ، فمات معه في طريقه . وسمته العرب : عمراً الضائع لموته في غربة وفي غير أرب ولا مطلب »[2] . بل روى انه كان من أشعر الناس[3] . وانه كان من خدم والد امرىء القيس ، وانه بكى وقال لامرىء القيس غررت بنا ، فأنشأ امرؤ القيس شعراً فيه[4] .

أما خبر (امرىء القيس) مع الغساسنة في طريقه الى قيصر ، فلا نعلم منه شيئاً،وليس في شعره ما يشير الى انه ذهب اليهم رجاء التوسط في الوصول اليه .

ويظهر من شعر لامرىء القيس ، انه سلك طريق الشأم في طريقه الى (قيصر) وأنه مر بـ (حوران)[5] وبعلبك وحمص وحماة وشيزر[6] . أما ما بعد ذلك حتى عاصمة الروم ، فلا نعرف من امره شيئاً .

ويقول الرواة ان قيصر أكرم امرأ القيس ، وصارت له منزلة عنده ، وأنه دخل معه الحمّام ، وان ابنته نظرت اليه فعشقته ، فكان يأتيها وتأتيه ، وانه

---

١ الاغاني (٦٨/٨) .
٢ الاغاني (١٥٨/١٦ وما بعدها) .
٣ الاغاني (١٥٩/١٦) .
٤ (ثم سار ومعه عمرو بن قميئة أحد بني قيس بن ثعلبة وكان من خدم أبيه . فبكى ابن قميئة ، وقال : غررت بنا . فأنشأ امرؤ القيس يقول :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك انما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا)

الشعر والشعراء (ص ٤٥ وما بعدها) ، (طبعة ليدن) ، امالي الشريف المرتضى (٦٢٩/١) .

٥ فلما بدت حوران والآل دونها ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
سندوبي (ص ٧٠)

٦ لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ... ولابن جريج في قرى حمص انكرا
سندوبي (ص ٧٠) ،
(ابن جريج) ، Olinder, P. 110.

نادمه ، واستمده فوعده ذلك وفي هذه القصة يقول :

ونادمتُ قيصر في ملكه　　　فأوجهني وركبتُ البريدا [1]

ويذكرون أن (القيصر) أنجد (امرأ القيس) وأمده بجند كثيف فيه جماعة من أبناء الملوك ، ولكن رجلاً من بني أسد اسمه (الطمّاح) كان امرؤ القيس قد قتل أخاً له ، لحق بامرىء القيس،وأقام مستخفياً ، فلما ارتحل (امرؤ القيس) اتصل بجماعة من أصحابه ، اتصلوا بقيصر ، وقالوا له : « ان العرب قوم غدر ولا نأمن ان يظفر بما يريد ، ثم يغزوك بمن بعثت معه » . وفي رواية لابن الكلبي انه ذهب الى قيصر ، وقال له : « ان امرأ القيس غوي عاهر ، وانه لما انصرف عنك بالجيش ذكر انه كان يراسل ابنتك ويواصلها ، وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهر بها في العرب فيفضحها ويفضحك . فبعث اليه حينئذ بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب ، وقال له : اني أرسلت اليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك ، فإذا وصلت اليك فالبسها باليمن والبركة ، واكتب اليّ بخبرك من من مزل منزل . فلما وصلت اليه لبسها ، واشتد سروره بها ، فأسرع فيه السم، وسقط جلده ، فلذلك سمي (ذا القروح) . ويستشهدون على قولهم هذا بشعر امرىء القيس [2] .

ويذكر بعضهم أن امرأ القيس كان مصاباً بداء قديم ، وقد عاوده في ديار الروم ، وهو عائد الى دياره ، فلما وصل الى (أنقرة) ، اشتد عليه المرض ، فمات هناك . وانه رأى قبر امرأة من ابناء الملوك ماتت هناك ، فدفنت في سفح جبل يقال له (عسيب) ، فسأل عنها فأخبر بقصتها ، فقال في ذلك شعراً .

١　الاغاني (٨/ ٧٠) ، الشعر والشعراء (ص ٤٦) ، (ليدن) ، أمالي المرتضى (١/ ٥٩١) .

٢　ابن قتيبة (ص ٣٣) ،
Olinder, P. III, FR. Ruckert, Amrilkais der Dichter und Konig, Hannover, 1924.
الاغاني (٨/ ٧٠ وما بعدها) ، (الطماح بن قيس الاسدي) ، الشعر والشعراء (١/ ٥٠ وما بعدها) (دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٤) ، (ص ٤٦) ، (ليدن) .
قولـه :

وبدلت قرحا داميا بعد صحة　　　فيا لك نعمى قد تحول أبؤسا

الشعر والشعراء (ص ٤٧) ، (ليدن) .

ثم مات فدفن في جنب المرأة ، فقبره هناك[1] .

ويرى بعض المستشرقين ان ذهاب (امرىء القيس) الى (القيصر) (يوسطنيانوس) كان حوالي سنة (٥٣٠) للميلاد ، وانه توفي في أثناء عودته بين سنتي (٥٣٠) و (٥٤٠) للميلاد[2] .

وليس في كتب الروم او السريان الواصلة الينا اشارة الى هـــذه الحوادث التي يرويها الأخباريون عن ذهاب امرىء القيس الى القسطنطينية ، وطلبـــه النجدة من القيصر وموته في انقرة ، ولا عن الشعر الذي قاله في حق القيصر ، وفي حق القبر الذي شاهده ، وما الى ذلك مما يذكره الأخباريون .

وأما (المعلّى) الطائي احد بني تيم ، من (جديلة) والذي يعرف قومه بـ (مصابيح الظلام) ، فقد ذكره اهل الأخبار في عداد الوافين من العرب . قيل ان (المعلّى) شخص في يوم لبعض امره ، وبلغ (المنذر بن ماء السماء) ان امرأ القيس عند المعلّى وقد أجـــاره ، فركب حتى اتى (ابن المعلّى) . فعمد ابن المعلّى حتى انتهى الى القبة التي هو فيها . فقال له : « إن فيها حرم المعلّى ولست واصلاً اليها » . ونادى في قومه ، فنعوه ، فقـــال امرؤ القيس شعراً يمدح (بني تيم) وذكر نعتهم (مصابيح الظلام) ، وقال :

فما ملك العراق على المعلّى بمقتدر ولا الملك الشآمي[3]

واما (عامر بن جوين الطائي) الذي نزل امـــرؤ القيس عنده ، فهـو من

---

١ (ولما صار الى مدينة بالروم تدعى أنقرة ثقل ، فاقام بها حتى مات وقبر هناك .
وقال قبل موته :

رب خطبـة مسحنفره وطعنـــة متعنجره
وجعبـــة متحيـــره تدفن غدا بأنقره

ورأى قبرا لامرأة من بنات ملوك الروم هلكت بأنقره ، فسأل عن صاحبه فخبر بخبرها ، فقال :

اجارتنـا ان المـزار قريـب واني مقيـم مـا أقـام عسيـــب
اجارتنـا انـا غريبان هاهنا وكـل غريب للغريـب نسيب)

الشعر والشعراء (ص ٤٧) ، (ليدن) ، الاغاني (٨/٧١) ،
Ency., II, P. 477.

٢ Ency., II, P. 477.

٣ المحبر (ص ٣٥٣ وما بعدها) .

(طيء) ثم من (بني جرم) . وقد أقام امرؤ القيس عنده ، حتى قبّل عامر امرأة امرىء القيس ، فأعلمته بذلك،فسار امرؤ القيس الى (جارية بن مرّ الطائي) ثم (الثعلي) المعروف بـ (أبـي حنبل) ، فلم يصادفه ، وصادف ابنه . فقال له ابنه : « انا أجيرك من الناس كلهم إلاّ من أبـي حنبل » . فرضي بذلك وتحول اليه . فلما قدم ابو حنبل رأى كثرة أموال امرىء القيس وأعلمه ابنـه بما شرط له في الجوار . فاستشار في اكله نساءه . فكلهن أشرن عليه بذلك ، وقلن له : « انه لا ذمة له عندك » . ولكنه خالفهن بعد ان فكر في نفسه وفي سوء عاقبة الغدر ثم قرر الوفاء ، فعقد له جواراً ثم ركب في اسرته حتى نزل منزل عامر بن جوين ومعه امرؤ القيس ، فقـال له : « قبّل امرأته كما قبّل امرأتك . افعل »[1] .

وذكر اهل الأخبار ان (المنذر بن النعمان الأكبر) ، ضغن عـلى (عامر بن جوين الطائي) ، لما أجار (امرأ القيس) ايام كان مقيماً بالجبلين، وقال كلمته التي يقول فيها :

هنالكَ لا أُعطي مليكاً ظلامـة ولا سوقةً حتى يؤوب ابن مندلة

فلما وفد عليه ، وذلك بعد انقضاء ملك كندة ورجوع الملك الى لخم. ودخل عليه ، أنّبه على فعلته وهدّده بغزو قومه ، وبانزاله العقوبة الصارمة بهم. فخرج (عامر) من عنده ، بعد ان قال له: « إن البغي اباد عَمْراً ، وصرع حجراً، وكان أعزّ منك سلطاناً ، واعظم شأناً ، وان لقيتنا لم تلقَ انكاساً ولا أغساساً، فهبّش وضائعَك وصنائعك ، وهلم اذا بدا لك، فنحن الألى قسطوا على الأملاك قبلك » ، ثم اتى راحلته ، وانشأ يقول ابياتاً يتوعد فيها الملك[2] .

وبشير اهل الأخبار الى ملك من ملوك كندة ، عرف بـ (ابـي جـبر) . قالوا عنه ، انه كان ملكاً شديد البأس ، خرج الى (كسرى) يستجيشه عـلى قومه ، فأعطاه جيشاً من الأساورة ، فلما بلغوا (كاظمة) ونظروا الى بلاد العرب قالوا : اين يمضي بنا هـذا الرجل ، وعمدوا الى سمّ ، دفعوه الى طبّاخه ،

---

١ المحبر (ص ٣٥٢ وما بعدها) .

٢ كتاب ذيل الامالي (١٧٧) ، (المجلس الاول : مطلب ما دار من الحديث بـين المنذر بن النعمان الاكبر وعامر بن جوين الطائي لما وفد عليه) .

فألقاه في احب الألوان اليه ، فلما استقر في جوفه،مرض وتوجع ، فجاء الأساورة اليه ، طالبين منه ان يكتب لهم انه قد أذن لهم بالرجوع ، فكتب لهم، فرجعوا وخفّ ما بـه ، فخرج الى (الطائف) الى (الحارث بن كلدة الثقفي) ، ليداويه فداواه وبرىء ، ثم ارتحل يريد اليمن ، فنكس ومات . وكانت له عمّة اسمها (كبشة) فرثته[1] .

هذه قصة (كندة) ، وهذه حكاية شاعرها (امرىء القيس) الذي يعود اليه الفضل في حفظ الأخباريين لتأريخ كندة .

أما شعر امرىء القيس وديوانه وصحيحه وفاسده ، فقد تحدث العلماء فيه ، ولهم فيه كلام يخرجني التعرض له عن صلب هذا الموضوع . فعلى مقالاتهم المعوّل في هذه الأمور .

يتبين للقارىء بعد غربلة الأخبار المتقدمة ، ان كنـدة كانت قد تمكنت من الهيمنة على القبائل النازلة في أواسط جزيرة العرب ، ومن تكوين مملكة لها،بلغت أوج ملكها في القرن الخامس للميلاد. الا ان ملكها على عادة حكومات القبائل لم يدم طويلاً ، فسرعان ما أخذ بنيانه يتآكل ويتداعى ، فأخذت اجزاؤه تتساقط، وعادت القبائل التي اضطرت بقانون القوة المتحكم في البادية إلى الانفصال عنهـا وإلى استعادة حريتها بذلك القانون ايضاً . فخسرت كندة ملكها الذي شمل نجداً ووصل العراق ، وبقي رؤساء منها يتحكمون في حضرموت ، ثم أخذوا يتعاملون مع قبائل عربية جنوبية اخرى لتوسيع ملكهم لا سيما بعد تركهم نجداً ولجوئهم الى حضرموت ، ويقدر بعض الباحثين عدد من جاء الى حضرموت من كندة بحوالي ثلاثين الف رجل ، نزل اكثرهم في (دمون)[2] .

السموأل :

ولا بد من الاشارة باختصار الى (السموأل) الذي مر اسمه في أثناء كلامنا على (امرىء القيس) ، وقصته هي في الواقع جزء من قصة هذا الشاعـر ،

---

١ نزهة الجليس (١/ ٤٨٤) .

٢ Beiträge, S. 121.

وذيل لها . وهو على ما يقوله لنا الأخباريون يهودي ثري ، شاعر ، مقره (الأبلق) بـ (تيماء) يعرف بـ (السموأل بن عاديا) وبـ (السموأل بن غريض بن عاديا) (عادياء) اليهودي[1] . وبـ (السموأل بن حيّان (حسان) ابن عادياء[2]) وبـ (السموأل بن عادياء بن حيا)[3] ، وبـ (السموأل بن حيا ابن عادياء بن رفاعة بن الحارث بن ثعلبة بن كعب)[4] ، وبـ (السموأل بن أوفى بن عادياء)[5] . ويظهر من بيتين من قصيدة للأعشى ، هما :

كن كالسموأل إذ سار الهمام له   في جحفلٍ كسواد الليل جرّار
جار ابن حيّا لمن نالته ذمته   أوفى وأمنع من جار ابن عمّار

أن المراد بـ (ابن حيّا) السموأل ، اي ان اسم والد السموأل هو (حيّا) .

واختلفوا في نسب (عاديا) (عادياء) ، فقالوا : (عادياء بن حباء) وقالوا (عادياء بن رفاعة بن جفنة)،وقالوا : إنه من ولد (الكاهن بن هارون ابن عمران)[6] ، وقالوا عن قبيلته إنه كان من (بني غسّان)[7] . ونسبه (دارم ابن عقال) الى (رفاعة بن كعب بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء) . وهو نسب أنكره (أبو الفرج الأصبهاني) حيث قال : « وهذا عندي محال ، لأن الأعشى أدرك شريح بن السموأل ، وأدرك الإسلام وعمرو مزيقيا قديم لا يجوز أن يكون بينه وبين السموأل ثلاثة آباء ولا عشرة إلا أكثر ... وقد قيل إن أمه كانت من غسان »[8] . ونسب السموأل الى الأزد[9] .

وللأعشى الشاعر الشهير شعر يرويه الرواة في مدح (الشريح بن السموأل) .

---

١ (عادياء) ، الاغاني (٩٨/١٩) ، ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء (ص ٢٣٥) ، (طبعة دار المعارف) ، Ency., IV, P. 133.

٢ الميداني ، الامثال (٢٧٦/٢) ، المشرق ، السنة الثانية عشرة ١٩٠٩ م العدد٣ اذار ص ١٦٢ ، (حسان) ، مروج (١٧٦/٢) ، (طبعة دار الاندلس) .

٣ المعرب ، للجواليقي (ص ١٨٨) .

٤ الاشتقاق (٢٥٩) .

٥ المشرق ، العدد المذكور (ص ١٦٢) .

٦ المشرق ، العدد المذكور ، معاهد التنصيص (١٣١/١) .

٧ الاشتقاق (٢٥٩) ، المحبر (٣٤٩) .

٨ الاغاني (٩٨/١٩) ، المشرق ، العدد المذكور .

٩ المعرب (ص ١٨٨) .

وقد ورد فيه اسم ولدين للسموأل ، هما : (حوط) و (منذر)[1] . ولم يذكر الأخباريون اسم الولد الذي زعم ان (الحارث بن أبي شمر) أو (الحارث بن ظالم) قتله لرفض (السموأل) دفع أدرع الكندي اليه ، على نحو ما يذكره الرواة في قصة الوفاء . ونجد مضمون هذه القصة في قصيدة الأعشى الرائية الموجودة في ديوانه . وهي قصيدة تتألف من واحد وعشرين بيتاً ، يروي الرواة انه قالها مستجيراً بـ (شريح بن السموأل) ليفكه من الأسر . وكان الأعشى على ما يقوله الرواة قد هجا رجلاً من (كلب) ، فظفر به الكلبي وأسره ، وهو لا يعرفه، فنزل بشريح بن السموأل وأحسن ضيافته ، ومرّ بالأسرى ، فناداه الأعشى بهذه القصيدة ، فجاء شريح الى (الكلبي) ، وتوسل اليه بأن يهبه ، فوهبه اياه ، فأطلقه ، وقال له : أقم عندي حتى أكرمك وأحبوك ، فقال له (الأعشى) : « إن تمام احسانك إليّ أن تعطيني ناقة ناجية ، وتخلّيني الساعة ، فأعطاه ناقة ناجية ، فركبها ومضى من ساعته . وبلغ (الكلبي) ان الذي وهبه لشريح (الأعشى) ، فأرسل الى شريح ابعث إليّ الأسير الذي وهبت لكَ حتى أحبوه، فقال : قد مضى ، فأرسل الكلبي في أثره ، فلم يلحقه »[2] .

وروى (ابن قتيبة) القصة المتقدمة على هذا النحو : « قال أبو عبيدة : أسر رجل من كلب الأعشى فكتمه نفسه وحبسه ، واجتمع عند (الكلبي) شَرْبٌ فيهم (شريح بن عمرو الكلبي) ، فعرف الأعشى . فقال للكلبي : من هذا ؟ فقال خَشاش التقطته . قال : ما ترجو به ولا فداء له ! خلّ عنه . فخلّى عنه . فأطعمه شريح وسقاه . فلما أخذ منه الشراب سمعه يترنم بهجاء الكلبي ،فأراد استرجاعه . فقال الأعشى :

شريح لا تتركني بعد ما علقت حبالك اليوم بعد القد أظفاري
كن كالسموأل اذ طاف الهمام به في جحفلٍ كهزيع الليل جرّار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدّار[3]

---

١ المشرق ، السنة الثانية عشرة ، ١٩٠٩ م ، العدد ٣ اذار ، (ص ١٦٣) .
٢ الاغاني (١٩/٩٩ وما بعدها) ، ديوان الاعشى (ص ١٢٦ وما بعدها)، (تحقيق رودلف كاير) ، (لندن ١٩٢٨ م) ، ديوان الاعشى الكبير (ص ١٧٩) ، (تحقيق الدكتور م. محمد حسين) .
٣ الشعر والشعراء (ص ١٣٩) ، (الاعشى ميمون بن قيس) .

فجعل الرجل المجير (شريح بن عمرو الكلبي) ، أي من العشيرة التي أسر أحد رجالها الأعشى ، ولم يجعله ابناً من أبناء السموأل .

وجاء نسب (شريح) في شرح (أبي العباس ثعلب) على ديوان الأعشى على هذا الشكل : (شريح بن حصن بن عمران بن السموأل بن حيّا بن عاديا)[1]، فصار (السموأل) جدّاً من أجداد (شريح) لا والداً له .

وقد اختلف الأخباريون في الرجل الذي طالب السموأل بتأدية سلاح (امرىء القيس) اليه ، فزعم بعضهم أنه (الحارث بن أبي شمر الغسّاني)[2] . وزعم بعض آخر أنه (الحارث بن ظالم) في بعض غاراته بالأبلق ، وزعم آخرون أنه (المنذر) ملك الحيرة ، وجّه بـ (الحارث بن ظالم) في خيلٍ ، وأمره بأخذ مال امرىء القيس من السموأل ، وزعم انه (الأبرد) وهو الملك الغساني. وكان الحارث بن أبي شمس لما قتل المنذر بعين أباغ ، وجه ابن عمّه الأبرد ، فجعله بين العراق والشام . فلما سمع الأبرد بهلاك امرىء القيس ، طالب السموأل بدفع الدروع اليه ، فامتنع ، فذبح ابنه وهو يراه . ولم يصرح بعضهم باسم الملك الذي طالب بتأدية الدروع ، انما ذكروا انه كان بعض ملوك الشأم[3] .

واذا تتبعنا الروايات الواردة في قصة وفاء السموأل ، وذبح ابنه ، وامتناعه عن تأدية الأمانة المودعة لديه ، نجد أنها ترجع الى موردين : قصة (دارم بن عقال) وشعر الأعشى . ويلاحظ أن في شعر الأعشى كثيراً من أخبار السموأل، ومن شعره أخذ الأخباريون (تيماء اليهودي) ، وهذه ملاحظة تستحق الدرس[4] . ويفهم منه أن الأعشى كان ممن يرتادون حصن السموأل . أما (دارم بن عقال)، فهو من ولـد السموأل . وهو راوي خبر قصة الوفاء ، والأشعار المنسوبة الى امرىء القيس المتعلقة بهذا الموضوع . وقد أشار الى ذلك مؤلف كتاب (الأغاني) في أثناء كلامه على قصيدة نسبت الى (امرىء القيس) ، ابتداؤها :

طرقتك هند بعد طولِ تجنب وهنا ولم تك قبل ذلك تطرق

---

١ ديوان الاعشى (١٢٥) ، (تحقيق كاير) .
٢ طبقات فحول الشعراء (٢٣٥) ، الاغاني (١٩/٩٩) .
٣ الاغاني (١٩/٩٩) ، ديوان الاعشى (١٢٦) ، (كاير) ، المحبر (٣٤٩) .
٤ البلدان (٣/٤٤٢) ، الحيوان للجاحظ (٦/١٨٨) ، المشرق ، الجزء المذكور (ص ١٦٣) .

فقال : « وهي قصيدة طويلة ، وأظنها منحولة ، لأنها لا تشاكل كـلام امرىء القيس ، والتوليد فيها بيِّن ، ومـا دوّنها في ديوانه أحد من الثقات ، وأحسبها مما صنعه دارم ، لأنه من ولد السموأل ، ومما صنعه من روى عنه من ذلك فلم تكتب هنا ... »[1] . ولا أستبعد أن تكون هذه القصة ، قصة الوفاء من صنع هؤلاء الصنّاع .

ويرى (ونكلر) (Winckler) ان قصة الوفاء هـذه هي أسطورة استمدت مادتها من أسفار (صموئيل الأول) في التوراة ، ومن الأساطير العربية القديمـة نظمت على هذه الصورة فجعل بطلها شخصان هما : السموأل وامرؤ القيس[2] .

ولا بد لي وقد انتهيت من البحث عن امارة كندة،من الاشارة الى (الأكيدر) صاحب (دومة الجندل) ، فقد نسبه أهل الأخبار الى (كندة) . وقد ذكروا انه من السكون ، والسكون هم من كندة . ومعنى هذا ان عائلة تنتمي الى كندة كانت تحكم هذا الموضع المهم في البادية ، لأنه ملتقى طرق قوافل وسوق معروف من أسواق الجاهليين .

كندة في العربية الجنوبية :

وقفنا على أخبار كندة بنجد وفي العربية الشرقية الى العراق . ثم رأينا ما حل بتلك الامارة وكيف تشتت شملها . ونريد الآن أن نتحدث عن دور هـذه القبيلة في العربية الجنوبية .

يرى بعض الباحثين ان الخصومات التي وقعت في امارة كندة ، وتعقب ملوك الحيرة ولا سيا (المنذر) لساداتها ، وانفضاض القبائل التي كانت تخضع لها عنها ثم سقوط امارة كندة ، دفعت بعشائر كندة إلى الاتجاه نحو الجنوب نحو العربية الجنوبية ، ولا سيا حضرموت ، وهي موطنها القديم ، فنزحت اليها واستوطنت بها . وكوّنت لها امارة كندية بحضرموت .

---

١ الاغانـي (٨/ ٧٠) .

٢ H. Winckler, Arabisch-Semitisch-Orientalisch, in Mittel. der Vorder Asia. Gesel., 1901, S. 112. 6 Jahrgang.

وهـذا القول يجب ألا يفسر على أن مجيء كندة الى العربية الجنوبية انما كان بعد سقوط حكومتهم وتشتت أمرهم ، فقد أشرت فيما سلف في مواضع الى وجود كندة في العربية الجنوبية قبل هذا العهد بزمن طويل ، وأشرت الى ورود اسمها في نصوص المسند والى الأدوار التي لعبتها في ايام ملوك سبأ وذو ريدان ، قبل الاسلام بمئات السنين ، بل ربما كان ذلك قبل الميلاد .

وقد رأينا فيما سلف ورود اسم (كندة) (كدت) في نص أمر بتدوينه الملك (معديكرب يعفر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت واعرابها في النجاد وفي المنخفضات) . وهو من النصوص التي عثر عليها في (وادي مأسل) (وادي ماسل) (مأسل الجمح)[1].وقد دوّن ووضع في موضع (مأسل الجمح)[2] لمناسبة ارسال الحملة العسكرية الى موضع (كتا) لمحاربة (منذر) أي (المنذر) الذي أعلن الحرب على قبائل هذه الجهات . وقد اشتركت في هذه الحرب قبائل سبأ وحمير و (رحبت) (رحبة) وحضرموت و (يمنت) (اليمن) والأعراب و (كدت) أي (كندة) و (مذحج) . واشترك مع المنذر (منذر) بنو ثعلبة (بن ثعلبت) و (شبيع ؟) . وقد أرخ النص بشهر (ذ قيضن) (ذو قيض) (ذو القيض) من سنة (٦٣١) من التقويم الحميري أي في صيف سنة ٥١٦ للميلاد[3] .

ويظهر من هذا النص أن (المنذر) كان قد بلغ في حروبه مناطق بعيدة عن قاعدة ملكه ، وانه هو الذي غزا القبائل القاطنة في وادي مأسل الجمح (ما سلم جمحن).ولعله كان يتعقب عشائر كندة ومن كان يؤازرها ويعادي ملك الحيرة، حتى بلغ هذا المكان الذي كان خطاً أمامياً من خطوط الدفاع لحكومة « سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في الأطواد والمنخفضات » . ولهذا السبب هب الملك (معديكرب) لمساعدة (كندة) على نحو ما ورد في النص .

وقد ذكرت (كدت) كندة مع مراد ومذحج والقبائل الأخرى في الهجوم الذي قام به الملك (يوسف اسار) (يوسف أسأر) على الأحباش في مدينة (ظفار) ، وعلى المدن التي كانت تناصرهم . وقد ورد تأريخ هذا الهجوم في

---

١ كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

٢ (بما سلم جمحن) .

٣ Le Muséon, LXVI, 1953, P. 307, 310, Ryckmans 510-446.

نص سجله القيل (شرح ايل يقبل بن شرحب ابل يكمل) من (ال يزن) (آل يزن) (آل يزأن) بالاشتراك مع (جدن) (جدنم) و (حجم) (حب) و (نسأ) (نسان) (نسن) و (جبا) (جبأ) لهذه المناسبة .

ويتبين من هـذا النص ان الملك (يوسف اسار) (يوسف أسأر) هاجم (ظفار) مقر الأحباش ، واستولى على الكنيسة (قلسن) (القلّيس) ، ثم سار بعد ذلك على (أشعرن) (الأشعر) ، وعيّن القيل على رأس جيش ، ثم سار الى (مخون) (مخا) فقتل سكانها واستولى على كنيستها ، وهدم جميع حصون (شمر) ومعاقلها والسهل . وعندئذ قام بهجوم ماحق على (أشعرن) . وقد قُتل في هذه المعارك عدد كبير من الناس : قُتل ثلاثة عشر الف قتيل ، وأخذ تسعة آلاف وخمسمئة اسير ، واستولى على (٢٨٠) الف من الإبل والبقر والمعز . وأخذت غنائم عديدة أخرى .

وأمر الملك بعد هذه المعارك القيل (شرح ابل يقبل) (شرح ال يقبل) بالالتحاق بالجيش الذي أرسل الى نجران . وفي صعيد هذه المدينة اجتمع رؤساء (بني أزأن) (آل يزأن) (بن يزن) وقبائل همدان وكندة ومراد ومذحج وأعرابها . فتغلبت جيوش الملك على هذه المدينة ، وأنزلت بسكانها خسائر كبيرة في الأموال والأرواح ، ووضعت الأغلال في ايدي الأسرى ، وقتل من وجد هناك من الأحابيش . وكان مع الملك في جيشه من الرؤساء : (لحيعت برخم) و (سميفع أشوع) و (شرحب ايل أسعد) . وقد دوّن هذا النص في شهر (ذ قيضن) (ذو القيض) من شهور صيف سنة (٦٣٣) من التقويم الحميري الموافقة لسنة (٥١٨) للميلاد[1] .

وقد لعبت (كندة) (كدت) دوراً خطيراً في الأوضاع السياسية والعسكرية في أيام استيلاء الحبش على العربية الجنوبية ، كما يتبين ذلك من الفصل الخاص المتعلق بهذا الموضوع . وقد دخل رؤساؤها في الاسلام ، فتبعهم أتباعهم ، كما يرد ذلك في كتب التواريخ والسير .

ويذكر أهل السير والتواريخ ، أن وفداً من وفود (كندة) ، كان في جملة

---

١ Ryckmans 508, Le Muséon, LXVI, PP. 295., Bulletin, P. 458.

الوفود التي قدمت المدينة لمبايعة الرسول في السنة العاشرة من الهجرة . وكان قد رأسه (الأشعث بن قيس الكندي) . « دخلوا على رسول الله مسجده ، وقد رجّلوا اجممهم ، وتكحلوا ، عليهم جبب الحبرة ، قد كفّفوها بالحرير » ، ثم قال الأشعث : « يا رسول الله ، نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار » ، يفتخر بجده (آكل المرار) ، وبـ « أن كندة كانت ملوكاً »[1] .

وقد عرف جد (الأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية) ، بمعاوية الأكرمين ، وانما سمي معاوية الأكرمين لأنه ليس في آبائه إلاّ ملك أو رئيس . وكان كريم الطرفين . وقد ذكره (الأعشى) في شعر له . وكان أحد ملوك كندة بحضرموت[2] .

وكان (مخوص) (مخوس) ومشرح وجمد وأبضعة بنو معديكرب بن وليعة بن شرحبيل بن معاوية من سادات كندة عند ظهور الاسلام . وقد لقب كل واحد منهم نفسه بلقب (ملك) . واختص كل واحد منهم بواد ملكه . وقد نزلوا المحاجر ، وهي أحماء حموها ، وقد عرف هؤلاء بالملوك الأربعة من (بني عمرو بن معاوية) ، وقد لعنهم النبي[3] . وقتلوا في الردة[4] .

ويرجع النسابون نسب كندة الى جدّ أعلى قالوا له (عُفير بن عدي) وهو والد (ثور) . و (ثور) هو كندة[5] . وولد (كندة) معاوية بن كندة وأشرس ، وامها هي رملة بنت اسد بن ربيعة بن نزار[6] . ويمثل هذا النسب صلة كندة بقبائل معد ، وارتباط تأريخها بها ، وتملكها عليها قبل الاسلام بزمن. وهو تملك جعل (كندة) تفتخر به ، حتى صارت تدعو نفسها : (كندة الملوك). ويذكر (الهمداني) ، ان الشاعر (امرؤ القيس) ، كان يفتخر ويقول :

لا ينكر الناس منّا يوم نملكهم كانوا عبيداً وكنا نحن أربابا[7]

---

١ الطبري (٣/١٣٨ وما بعدها) ، (قدوم الاشعث بن قيس في وفد كندة) .
٢ الاكليل (١/٩٠) .
٣ ابن الاثير (٢/١٥٨ وما بعدها) ، البلدان (٣/٢٩٤) ، (حضرموت) ، ابن خلدون (٢/٥٦) ، القسم الثاني : الوفود .
٤ الاشتقاق (٢٢٠) .
٥ الاكليل ((١/١٤٦) .
٦ الاكليل (١/١٤٥) .
٧ الاكليل (١/١٤٥) .

وان (تبعاً الآخر) ، وهو (عمرو بن حسان) ، عيّن حجراً آكل المرار على معد كلها ، فالملك على (معد) لكندة . وان (كنـدة) كانت تقول : « لم تزل لها نزار ومن نزل الحيرة والشأم من العرب طعمة ورعية » .

وقد نسب بعض النسابين (كندة) الى كندة ، وهو ثور بن مرتع بن معاوية ابن كندي بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان[1] . ونسبه بعض آخر الى (كندة بن عفير بن الحارث)، الى غير ذلك من آراء . وقد زعم بعض النسابين ان (الصدف) واسمه (مالك) ، وهو جد (الصدف) ، هو شقيق كندة[2] .

ومن بطون كندة معاوية بن كندة،ومنه الملوك بنو الحارث بن معاوية الأصغر ابن ثور بن مرتع بن معاوية ، أسلاف الشاعر امرؤ القيس ، وقد حكموا القبائل الأخرى من غير كندة ، ومنها قبائل من عدنان[3] .

و (الأشرس بن مرتع)،هو أخو (كندة) ، وهو ابو السكون والسكاسك[4]. ونسب السكاسك الى (حميس السكسك بن أشرس بن ثور . وهو كندة بن عفير)[5]. ومن السكون (تجيب) . وكان (أكيدر بن عبد الملك) صاحب دومة الجندل من السكون . وأخوه بشر بن عبد الملك . يذكرون أنه ذهب الى الحيرة ، وتعلم بها الخط ، ثم رجع الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيـان . ومنه تعلم أهل مكة الكتابة[6] .

ويذكر أهل الأخبار أن كندة لما خرجت من (الغمر) : غمر ذي كندة ، نزلت بحضرموت وتآلفت مع الصدف تـذكرت الأواصر والقرابات التي كانت تربطها بـ (الصدف) فصارت تحارب معها[7]،وجعل (الهمداني) أهل حضرموت من كندة والصدف وحمير .

١ جمهرة أنساب العرب (ص ٣٩٩) ، الاكليل (٤/١٠) ، الانبـاه (١١٤) ، الاشتقاق (٢١٨) ، ابن خلدون (٢/٢٥٧) ، صبح الاعشى (١/٣٢٨) ، نهاية الارب (٢/٣٠٣) ، الروض الانف (٢/٣٤٥) ، تـاج العروس (١/٤٣) ، (٢/٢٨٧) ، اللسان (٤/٣٨٦) .

٢ الاكليل (١٠/٥) .

٣ ابن خلدون (٢/٢٥٧) .

٤ الاكليل (١/٣٥٨) .

٥ الانباه (١١٥) ، الاشتقاق (٢٢١) ،تاج العروس (٧/١٤١) ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٤/٢٨١) .

٦ جمهرة (٤٠٣ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٢٥٧) .

٧ الاكليل (٢/١٥ فما بعدها) . Beiträge, S. 133.

فلسطين الثالثة :

لقـــد ذهب (كوسان دى برسفـــال) (Caussin de Perceval) الى أن (كيسوس) (Kaisus) (Caisus) المذكور عند (بروكوبيوس) و(نونوسوس) (Nonnosus) هو (امرؤ القيس)[1] .

ذكر (بروكوبيوس) ، أن القيصر (يوسطنيـانوس) (Justinianus) ، أرسل رسولاً هو (يوليانوس) (Julianus) الى (Esimiphaaeus) (السميفع أشوع) ليطلب منه بحكم رابطة الدين والمصالح المشتركة تنصيب أحد أبناء الأشراف ورؤساء القبائل واسمه (Kaisus) (Caisus) على (معـــدّ) (Maddeni) ، وأن يرسل قوة كبيرة من رجاله يشتركون مع الـ (سرسين) والـ (Maddenin) في غزو مملكـــة الفرس[2] . وكان (كيسوس) هذا قد قتل أحـــد أقارب (Esimiphaaeus) والتجأ الى البادية ، ولم يقم أي منهـــا بالغزو ، ولم يذكر (بروكوبيوس) شيئاً آخر عن (كيسوس) هذا ، أي (قيس) . وقد كانت سفارة (يوليانوس) الى الحميريين قبل موت (قباذ) اي قبل سنة (٥٣١ م)[3]. وفي الخبر اشارة الى شجاعة (قيس) وكفاءته وحزمه ، لهذه الأسباب ولأسباب سياسية أخرى رغب القيصر في تعيينه رئيساً على معد .

وذكر (نونوسوس) ان القيصر (يوسطنيانوس) كلفه الذهاب في سفـارة الى (Kaisos) (قيس) حفيد (الحارث) (Aretas) ورئيس قبيلتين عظيمتين من أعظم قبائـل الـ (سرسينوى) (Saracynoi) هما (Kindyoi) كنـــدة و (معد) (Maadynoi) لمواجهته ودعوته للذهاب الى الانبراطور اذا أمكنـــه ذلك . فذهب اليه ، ونفذ أوامر القيصر ، وعاد الى بلده سالماً . وكان القيصر (أنسطاسيوس) (Anastasius) قد كلف جـــد (نونوسوس) أن يذهب الى الحارث ليعقد عهداً معه ، كما ان القيصر (يوسطينوس) ، كلف أبا (نونوسوس) وهو (ابراهام) (ابراهيم) أن يذهب الى (المنذر) (Alamoundaros) رئيس الـ (سرسينوى) لمفاوضته في فك أسر قائدين كانا أسيرين لديه، هما (تيموستراتوس)

---

١ Olinder, P. 114, Caussin de Perceval, Essai., II, P. 317.

٢ Procopius, History of the Wars, P. 193, I, XX, 9-13.

٣ Olinder, P. 114.

و (يوحنا) . ثم كلف مرة ثانية في عهد (يوسطنيانوس) (Justinianus) سفارة اخرى لدى قيس ، لعقد معاهدة معه . وقد تمكن من ذلك ، وعاد ومعه أحد أبناء (قيس) واسمه (معاوية) (Mauias) ليكون رهينة في (بوزنطية) عند (يوسطنيانوس) . وكلف (ابراهيم) مرة أخرى ان يذهب الى (قيس) بمهمة سياسية اخرى ، فذهب اليه وأقنعه بالقدوم الى (بوزنطية) ، فقسم ولايته على القبائل بين أخويه (يزيد) (Jezidos) و (Aumros) (عمرو) ، ونال من الانبراطور ولاية (فلسطين) ، وجاء معه بعدد لا يحصى من مرؤوسيه[1] .

وقد ذكر (ملخوس الفيلادلفي) (Malchus of Philadelphia) اسم عامل عربي سمّاه (Amorkesos) أي (امرؤ القيس) . كان كما قال رئيساً على بطن من بطون الأعراب (Sareceni) هو بطن (Nokalian) (Nokhalian) . وذكر ان (بطرس) (Peter) أسقف أهل الوبر (Saraceni) ذهب في عام (٤٧٣) للميلاد الى القسطنطينية ليطلب من القيصر (ليون) (Leo) أن يمنح هذا الرئيس درجة (عامل) (Phylarchus) (فيلارخ) على العرب المقيمين في العربية الحجرية.

وكان هذا الرئيس يقيم مع قبيلته في الأصل كما ذكر (ملخوس) في الأرضين الخاضعة لنفوذ الفرس ، ثم ارتحل عنها ونزل في أرضين قريبة من حدود الفرس وأخذ يغزو منها حدود الساسانيين ، والقبائل العربية المقيمة في الأرضين الخاضعة للروم . فتمكن بذلك من بسط نفوذه وسلطانه على القبائل حتّى بلغ ساحل البحر الأحمر ، واستولى على جزيرة (ايوتابا) (Iotabe) ، وهي جزيرة مهمة كان الروم ينزلون فيها لجمع الضرائب من المراكب الذاهبة الى المناطق الحارة أو الآيبة منها ، فتصيب الحكومة أرباحاً عظيمة جداً . فلما استولى على تلك الجزيرة، صار يجبيها لنفسه ، حتّى صار غنياً جداً . كذلك حصل على ثروة عظيمة من الغنائم التي حصل عليها من غزوه للمواضع المجاورة لهذه الجزيرة والواقعة في العربية الحجرية وأعالي الحجاز[2] .

---

١ المشرق ، السنة الثامنة ، العدد ٢١ ، ١ تشرين الثاني ، سنة ١٩٠٥ م ، (ص ١٠٠٥) ، شيخو ،النصرانية وآدابها ، (القسم الثاني ، الجزء الثاني) (ص ٤٣٣ وما بعدها) ،
Migne, Patrol. Gree., Phot., Bibl. CIII, 46-47, Olinder, P. 114.

٢ Musil, Hegaz, P. 306.

وأراد (امرؤ القيس) (Amorkesos) ، بعد ان بلغ من النفوذ مبلغه ، الاتصال بالروم ، والتحالف معهم ، والاعتراف به عاملاً رسمياً على العرب الذين خضعوا له وعلى العرب المعترفين بسلطان الروم عليهم . ولذلك أرسل الأسقف (بطرس) أسقف قبيلته ، ليكون رسوله الى القيصر . وقد نجح هذا الأسقف في مهمته ، وتوسط في دعوة (امرىء القيس) لزيارة القسطنطنية ، فلما وصل اليها استقبل بها استقبالاً لائقاً ورحب به ترحيباً حاراً ، ولا سيما بعد أن أعلن دخوله في النصرانية ، فأنعم عليه القيصر بالهدايا والألطاف وعينه (عاملاً) (Phylaechus) على تلك الجزيرة وعلى مواضع أخرى وعلى أعراب العربية الحجرية . ثم عاد مكرماً ، بالرغم من أن معاهدة الصلح التي كانت بين الروم والفرس كانت قد حرمت دخول رؤساء الأعراب وقبائلهم النازحين من مناطق أحد الطرفين في أرضين الطرف الثاني[1] .

ويحتمل على رأي (الويس موسل) أن يكون هذا الشيخ قد هاجر من (الوديان) و (الحجيرة) ، الى (دومة الجندل) ومنها صار يغزو أعراب (العربية الحجرية)،والمناطق المجاورة لها من (فلسطين الثالثة) (Palestina Tertia) ويتوسع فيها حتى بلغ ساحل البحر ، فتحكم في جزيرة (Iotabe) المهمة التي كانت محطة تجارية خطيرة للاتجار مع الهند ، وفي الطريق البري المهم الذي يربط ديار الشأم بالعربية الجنوبية ، فحصل على سلطان واسع ونفوذ عظيم[2] .

ولعل هذه الجزيرة هي جزيرة (Ainu) التي ذكرها (بطلميوس) ، أخذ تسميته هذه من (حينو) (حاينو) (Hainu) الاسم الذي كانت تعرف به عند الأنباط[3] . ويظن أنها جزيرة (تاران) (تيران) . وذكر (ياقوت) أن سكانها قوم يعرفون بـ (بني جدان)[4] .

ويحدثنا (ثيوفانس) ان هذه الجزيرة كانت في عام (٤٩٠) للميلاد في أيدي

---

١ Musil, Hegaz, P. 306.

٢ Musil, Hegaz, P. 306.

٣ Musil, Hegaz, P. 307, Ptolemy, VI, 7, 43.

٤ البلدان (٣٥٢/٢) Musil, Hegaz, P. 306.

الروم ، استولى عليها حاكمهم (Dux) على فلسطين بعد قتال شديد[1] . ويدل خبر هذا المؤرخ على ان الروم انتزعوا هذه الجزيرة من (امرىء القيس) أو من خلفائه بعد مدة ليست طويلة من استيلاء امرىء القيس عليها . ولعلهم استولوا عليها بعد وفاة هذا العامل على أثر نزاع وقع بين أولاده وورثته أضعف مركز الإمارة ، فانتهز الروم هذه الفرصة وانتزعوا ما تمكنوا من انتزاعه من أملاك هذا الرئيس .

ويظن ان (Nokalian) هو (النخيلة) . و (النخيلة) موضع معروف قرب الكوفة على سمت الشام[2] ، وهو موضع ينطبق عليه ما ذكره (ملخوس) من انه كان في أرض كانت تحت نفوذ الفرس .

وكان يحكم هذه المنطقة في ايام (يوسطنيانوس) (Justinianus) (Joustinianus) رئيس يدعى (أبو كرب) (Abochorabus) ، وكانت له واحة خصبة مزروعة بالنخيل ، وهبها الى القيصر . فقبلها منه ، وعيّنه رئيساً (Phylarchus) على أعراب (Saracens) فلسطين . فحمى له الحدود من غزو الأعراب ،ومنع اعتداء القبائل في الداخل . وذكر (بروكوبيوس) ان هناك أعراباً آخرين كانوا يجاورون أعراب هذا الرئيس ، يدعون بـ (Maddeni) أي (معد) ، يحكمهم (Homeritae) أي الحميريون[3] . ويظهر من كلام هذا المؤرخ ان قبائل معد كانت في أيامه تابعة لحمير . ومعنى هذا ان نفوذهم كان قد امتد في هذا العهد حتى بلغ أعالي الحجاز . وفي كلامه هذا تأييد لروايات الأخباريين الذين يتحدثون عن بلوغ التبابعة هذه الأماكن ، وعن حروب وقعت بين العدنانيين والقحطانيين.

وليس في الذي أورده (بروكوبيوس) أو (نونوسوس) ، ما يثبت ان (قيساً) هو (امرؤ القيس) . ومجرد تشابه الاسمين لا يمكن أن يكون حجة على انهما لمسمى واحد . ثم ان ما ذكره (نونوسوس) من ان (قيساً) كان رئيساً على قبيلتي (كندة) و (معد) لا يكون دليلاً على انه كان حتماً من (كندة) أو انه كان حتماً (امرأ القيس) الشاعر الذي يعرفه الأخباريون . لذا فنحن لا نستطيع الجزم في الوقت الحاضر بتعيين هوية هذا الرئيس .

---

١ Theophanes, Chronographia, P. 121, Musil, Hegaz, P. 307.

٢ البلدان (٨/٢٧٦ وما بعدها) . Blau, in ZDMG., 22, 1868, S. 578.

٣ Procopius, De Bello Persico, I, 19, Musil, Hegaz, P. 307.

الفصل الأربعون

مملكة الغساسنة

وحكم عرب بلاد الشام في دولة البيزنطيين ، عربٌ عرفوا بـ (آل غسان)، وبـ (آل جفنة) وبـ (الغساسنة) . وقد استمر ملكهم الى الإسلام . فلما فتح المسلمون بلاد الشأم،زالت حكومتهم ، وذهب سلطانهم كما ذهب ملك (آل لخم) منافسوهم في العراق .

وقد نقلت كلمة (غسّان) في زعم الأخباريين من اسم ماء يقال له (غسان)، ببلاد (عك) بزبيد وربيع ، نزل عليه آل غسان ، وأصلهم من الأزد ، بعد خروجهم من اليمن قبيل حادث سيل العرم أو بعده ، فلما أقاموا عليه وشربوا منه،أخذوا اسمهم منه،فسموا (غسان)[1] ، وعرف نسلهم بالغساسنة وبـ (آل غسان) .

ولم يحدد أهل الأخبار زمان حدوث سيل العرم ، وتهدم السدّ . لذلك لا نستطيع أن نستنبط شيئاً من رواياتهم عن هذا الحادث في تحديد وقت وصول الغساسنة الى بلاد الشأم . وحادث تصدع السدّ لم يكن حادثاً واحداً ، حتى نعتبره مبدأ لتأريخ هجرة الازد وغيرهم من قبائل اليمن نحو الشمال . فقد تصدع السدّ مراراً ورمّ

---

١ حمزة (ص ٧٦) ، المروج (٢/٣٠) ، القاموس (٤/٢٥٣) ،

أما سألت فانا معشر نجب ... الازد نسبتنا والماء غسان

البرقوقي (ص ٤١٢) ، شرح ديوان كعب بن زهير لابي سعيد السكري ، (ص ٣٢ وما بعدها) ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، الاشتقاق (ص ٢٥٩) ديوان حسان (ص) (هرشفلد) .

مراراً . والذي يفهم من أقوال الأخباريين أن هذا التصدع كان قد وقع قبل الإسلام بزمن ، وقد بقيت ذكراه عالقة في الذاكرة الى أيام الاسلام .

وأما سبب تسميتهم بآل جفنة وبأولاد جفنة ، فلانتسابهم الى جدّ أعلى يدعونه (جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر) على رأي[1] ، أو الى (جفنة) قبيلة من غسان من اليمن[2] . ويذكر (ابن دريد) ان (جفنة) إما من (الجفنة) المعروفة ، أو من (الجفن) ، وهو (الكرم) ، وجفن السيف وجفن الانسان . ويذكر ان المثل المشهور بين الناس : « وعند جهينة الخبر اليقين » ، هو خطأ تقوله العامة، وان صوابه : « وعند جفينة الخبر اليقين »[3] .

ولم نظفر حتّى الآن باسم غسان في نصوص المسند ، كذلك لم نظفر بـه في الأرضين التي عدّها الأخباريون في جملة ممتلكات هذه القبيلة .

ويزعم الأخباريون ان الذي قاد الغساسنة في خروجهم من اليمن ، هو عمرو المعروف بـ (مزيقيا) ، وهو ابن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث[4] . ولهم في نسبه على هذا النحو من ذكر الآباء والأجداد والألقاب أقوال وحكايات[5] .

وروى (ابن قتيبة الدينوري) ان (عمرو بن عامر مزيقياء) لما خرج من اليمن في ولده وقرابته ومن تبعه من الأزد ، أتوا بلاد عك ، وملكهم (سملقة) (سلمقة) ، وسألوهم أن يأذنوا لهم في المقام حتى يبعثوا من يرتاد لهم المنازل ويرجعوا اليهم ، فأذنوا لهم . فوجه عمرو بن عامر ثلاثة من ولده : الحارث بن عمرو ، ومالك بن عمرو ، وحارثة بن عمرو ، ووجه غيرهم روّاداً فمات عمرو ابن عامر بأرض عك قبل أن يرجع اليه ولده وروّاده ، واستخلف ابنه ثعلبة بن عمرو،وان رجلاً من الأزد يقال له جذع بن سنان احتال في قتل سلمقة (سملقة)،

---

١ أولاد جفنة حول قبر ابيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
شرح ديوان حسان بن ثابت ، (اخراج البرقوقي) ، (طبع المطبعة الرحمانية)، القاهرة ١٩٢٩ م ، (ص ٣٠٩) شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ٣٤٢) ، اللسان (٩١/١٣) ، (جفن) .

٢ شمس العلوم ، (حـ ١ ق ١ ص ٣٤٢) .

٣ الاشتقاق (ص ٢٥٩) ، اللسان (٩١/١٣) ، (صادر) ، (جفن) .

٤ حمزة (ص ٧٧) .

٥ مروج (٣٠/٢) .

ووقعت الحرب بينهم ، فقتلت عك أبرح قتل وخرجوا هاربين ، فعظم ذلك على ثعلبة بن عمرو ، فحلف أن لا يقيم ، فسار ومن اتبعه حتى انتهوا الى مكة وأهلها يومئذ جرهم ، وهم ولاة البيت ، فنزلوا بطن مرّ وسألوهم أن يأذنوا لهم في المقام معهم ، فقاتلتهم جرهم ، فنصرت الأزد عليهم ، فأجلوهم عن مكة ، ووليت خزاعة البيت ، فلم يزالوا ولاته حتى صار (قصي) الى مكة ، فحارب خزاعة بمن تبعه ، وأعانه قيصر عليها ، وصارت ولاية البيت له ولولده ، فجمع قريشاً ، وكانت في الأطراف والجوانب ، فسمي مجمعاً ، وأقامت الأزد زماناً[1].

فلما رأوا ضيق العيش شخصوا ، فصار بعضهم الى السواد، فملكوا بها . منهم (جذيمة بن مالك بن الأبرش) ومن تبعه. وصار قوم الى عمان، وصار قوم الى الشأم، فهم (آل جفنة) ملوك الشأم . وصار جذع بن سنان قاتل سلمقة الى الشأم أيضاً ، وبها سليح ، فكتب ملك سليح الى قيصر يستأذنه في انزالهم ، فأذن له على شروط شرطها لهم ، وأن عامل قيصر قدم عليهم ليجبيهم فطالبهم وفيهم جذع ، فقال له جذع خذ هذا السيف رهناً أن نعطيك . فقال له العامل: اجعله في كذا وكذا من أمك ، فاستل جذع السيف فضرب به عنقه . فقال بعض القوم : خذ من جذعٍ ما أعطاك ، فذهبت مثلاً .

فمضى كاتب العامل الى قيصر فأعلمه ، فوجه اليهم ألف رجل وجمع له جذع من الأزد من أطاعه ، فقاتلوهم فهزموا الروم ، وأخذوا سلاحهم ، وتقووا بذلك ، ثم انتقلوا الى يثرب وأقام بنو جفنة بالشام وتنصروا . ولما صار جذع الى يثرب وبها اليهود ، حالفوهم ، وأقاموا بينهم على شروط فلما نقضت اليهود الشروط ، أتوا تبعاً الآخر ، فشكوا اليه ذلك ، فسار نحو اليهود حتى قتل منهم وأذلهم ، وصار الأمر في يثرب للأزد[2] .

وللأخباريين تفاسير في سبب تلقيب عمرو بن عامر بمزيقياء . وقد ذكر (حمزة) بعض الآراء الواردة في ذلك ، فقال : « وتزعم الأزد أن عمراً انما سمي مزيقياء لأنه كان يمزق كل يوم من سني ملكه حلتين لئلا يلبسها غيره ، فسمي هو مزيقياء . وسمي ولده المزاقية . فهذا قول وقيل : إنما سمي مزيقيا ، لأن الأزد

---

١ المعارف (ص ٦٤٠) ، (تحقيق ثروت عكاشة) .

٢ المعارف (ص ٢٧٨ وما بعدها) ، (٦٤٠) ، (تحقيق ثروت عكاشة) .

تمزقت على عهده كل ممزق عند هربهم من سيل العرم ، فاتخذت العرب افتراق الأزد عن أرض سبأ بسيل العرم ، فقالوا : ذهبت بنو فلان أيادي سبأ »[1] . ومال (نولدكه) الى هذا التفسير الأخير ، فرأى أنه مأخوذ من الآية . « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »[2].

ويظهر أن الغساسنة اخترعوا أسطورة تمزيق الثياب ، الإشارة الى غنى جدّهم (عمرو) واقتداره[3] . وأما ما ذهب اليه (نولدكه) ، فهو في نظري نوع من الظن ، استخرجه من هذا التفسير الثاني الذي رواه الأخباريون في تفسير الكلمة الخاص بتفرق الأزد عن أرض سبأ لحدوث السيل .

وقد زعم أنه نزح معهم من اليمن قومهم من الأزد ، فنزل المدينة رهط « ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر ومنهم الأوس والخزرج،ونزل مكة رهط حارثة ابن عمرو بن عامر،وهم خزاعة،ونزل جفنة بن عمرو بن عامر بالشام،وهم الغساسنة ونزل لخم في العراق ومنهم المناذرة أو آل نصر »[4] . فوصل أهل الأخبار بذلك تأريخ خزاعة والأوس والخزرج وآل لخم بآل غسان . وجعلوا ابتداء ظهورهم في أماكنهم منذ ذلك العهد ، أي منذ وقوع حادث (سيل العرم) .

وقد روى الأخباريون في ذلك شعراً لنفر من الأنصار ، ورد فيه انتساب أهل يثرب الى (عمرو بن عامر) ، واتصال نسبهم بنسب غسان . من ذلك شعر للشاعر الأنصاري المعروف (حسان بن ثابت) ، يقول فيه :

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامر   لنا شرف يعلو على كل مرتقى[5]

ومن ذلك شعر زعم ان قائله أحد الأنصار هو :

أنا ابن مُزيقيا عمرو ، وجدي   أبوه عامر ماء السماء[6]

---

١ حمزة (ص ٧٧) ، (وهو مزيقياء · كان يمزق كل يوم حلة لئلا يلبسها احد بعده) ، الاشتقاق (ص ٢٥٨) ·

٢ سورة سبأ ، ٣٤ ، الآية ١٨ ، نولدكه : أمراء غسان ، (ص ٣) ، ملحوظة ١ (الترجمة العربية) ·

٣ امراء غسان (ص ٣ وما بعدها) ، (ص ٥) من النص الالماني ·

٤ شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص ٢٨٦) ·

٥ البرقوقي (ص ٢٨٦) ·

٦ شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري ، للبرقوقي (ص ٢٨٦) ·

فالأنصار ، أي أهل يثرب ، وهم من الأوس والخزرج ، هم من الدوحة التي أخرجت الغساسنة ، وقد ظهر تأريخهم في يثرب بعد حادث سيل العرم على نحو ما رأيت .

وافتخار أهل يثرب بآل جفنة يزيد كثيراً على افتخارهم بآل لخم،مع انهم على حد قولهم من أصل واحد ، وقد افترقوا جميعاً في وقت واحد ، وهم في درجة واحدة من القرابة . ونجد لحسان بن ثابت شعراً في الغساسنة ، هو أضعاف ما قاله في المناذرة . ويظهر ان لقرب الغساسنة من يثرب ، وللمصالح الاقتصادية، وللهبات والعطايا التي كان ينالها حسان وأمثاله من الغساسنة بيسر وسهولة، لقربهم منهم ، أثر كبير في هذا المدح والتعصب لغسان على آل لخم .

وأما عن نعت عامر بماء السماء ، فقال حمزة : « انه انما سمي ماء السماء لأنه أصابت الأزد مخمصة ، فانهم حتى مطروا ، فقالوا : عامر لنا بدل ماء السماء »[1]. وقد عرف أشخاص آخرون بـ (ماء السماء) من غير غسان ، منهم (المنذر بن امرىء القيس اللخمي) و (ماء السماء بن عروة) من ملوك (الحيرة) على زعم (ابن الكلبي)[2] . وقد نعت (حسان بن ثابت) الغساسنة الذين جاءوا من بعده بـ (أولاد ماء المزن) . و (المزن = المطر) . يريد بذلك (أولاد ماء السماء) ، أي : (بني ماء السماء) ، وماء السماء هو المطر ، وذلك كناية عن الجود والكرم والإغاثة . والمطر هو غوث للناس ورحمة والجود هو غوث لمن يجاد عليه ، فهو بمنزلة المطر للأرضين . فقصد الشاعر بذلك ان (آل غسان)، للناس بمنزلة المطر للأرض . وقد يكون جدّ الغساسنة قد عرف بكرمه وسخائه ، فنعت بهذا النعت الدال على السخاء والجود . ولا أستبعد أن تكون هذه النعوت من النعوت التي أطلقها الشعراء على المذكورين ، فلازمتهم حتى اليوم[3] .

ونسب آل غسان الى جد آخر ، يعرف بـ (ثعلبة) . وقد أشير الى (عرب الروم من آل ثعلبة)[4] . وقد ذكر (محمد بن حبيب) ، أن رئيس غسان

---

١ حمزة (ص ٧٧) (مانهم – أي احتمل مؤنتهم ، أي قوتهم حتى يأتيهم الخصب) البرقوقي (ص ٢٨٧) .

٢ المحبـر (ص ٣٦٥) .

٣ كحفنة والقمقام عمرو بن عامر وأولاد ماء المزن وابني محرق
البرقوقي (ص ٢٨٧) .

٤ غسان (ص ٤) .

الذي قضى على (الضجاعمة) ، وانتزع الملك من (سليح) ، هو (ثعلبة) ابن عمرو بن المجالد بن عمرو بن عدي بن مازن بن الأزد[1] . ومن نسله كان ملوك غسان ، فهو اذن (ثعلبة) المذكور .

ويظهر من روايات الأخباريين أن الغساسنة أخذوا الحكم بالقوة من أيدي عرب كانوا يحكمون هذه المنطقة قبلهم ، ويدعون بـ (الضجاعمة) ، وهم من (سليح ابن حلوان)[2] .

وبنو سليح ، هم عرب ينسبهم النسابون الى (سليح بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة)[3] . وقد نسبهم (ابن دريد) الى (سليح بن عمران ابن الحاف) ، وجعل لـ (سليح) شقيقاً هو (تزيد) جدّ (التزيديين)[4] . ونسبهم (السكري) الى (سليح بن عمرو بن الحاف بن قضاعة)[5] . ولكن اختلاف النسابين هذا في نسبهم ، يقف عند نهاية سلاسل النسب ، إذ تنتهي هذه النهاية في (قضاعة) حيث يتفق الكل أن (سليحاً) ، هم من قضاعة . أما صاحب كتاب المعارف ، فقد جعل سليحاً من غسان ، إلا أنه عاد فاستدرك على ذلك بقوله : « ويقال من قضاعة »[6] .

وقد ذكر أهل الأخبار ان (بني سليح) بقوا في بلاد الشأم ، اذ ذكروهم في أخبار الفتوح ، وكانوا في جملة من أقام على النصرانية من عرب الشأم . وقد أسلم قسم منهم ، وكانوا في (قنسرين) في ايام المهدي[7] .

ومن ملوك سليح الذين ذكرهم الأخباريون زياد بن الهبولة ملك الشأم، جعلوه من معاصري حجر بن معاوية بن الحارث الكندي آكل المرار ، وذكروا انه سمع بغارة قام بها حجر على البحرين ، فسار الى أهل حجر ومن تركهم ،فأخذ الحريم والأموال وسبى منهم هند بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية . فلما سمع

---

١ المحبر (ص ٣٧١) .
٢ حمزة (ص ٧٦ وما بعدها) .
٣ حمزة (ص ٧٦ وما بعدها) ، الاكليل (١/١٨٢) .
٤ الاشتقاق (٢/٣١٤) .
٥ المحبر (ص ٣٧٠) .
٦ المعارف (ص ٢٧٨) ، (أول من دخل الشام من العرب : سليح ، وهو من غسان ، ويقال من قضاعة) ، (ص ٦٤٠) ، (تحقيق ثروت عكاشة) .
٧ فتوح البلدان ، للبلاذري (ص ١٥٢) (طبعة القاهرة (١٩٠) .

حجر وكندة وربيعة بغارة زياد ، عادوا عن غزوهم في طلب ابن هبولة ، ومع حجر أشراف ربيعة : عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان ، وعمرو بن أبي ربيعة ابن ذهل بن شيبان وغيرهما . فأدركوا قوم زياد بـ (البردان) دون عين أباغ ، فحمل أتباع حجر علـى أتباع (ابن الهبولة) ، فانهزموا ، ووقع زياد أسيراً ثم قتل[1] .

وتذكر رواية ان (حجـراً) أرسل (سدوس بن شيبان) و (صليع بن عبد غنم) الى عسكر (زياد) يتجسسان له الخبر ، ويعلمان علم العسكر، ثم عادا فأخبراه بخبره ، فسار على جيش ابن الهبولة ، واقتتلوا قتالاً عنيفاً، فشد (سدوس) على زياد واعتنقه وصرعه ، وأخذه أسيراً ، فلما رآه (عمرو بن أبي ربيعـة) حسده فطعن زياداً فقتله ، فغضب سدوس لأنه قتل أسيره ، وطالب بديته ، دية الملوك ، فتحاكما الى حجر ، فحكم على عمرو وقومه لسدوس بدية ملك، وأعانهم من ماله[2] .

ويقتضي على هذه الرواية ان يكون ملك (زياد بن الهبولة) في وقت متأخر اذ لا ينسجم هذا القول مع ما يذكره أهل الأخبار من ان ملك (بني سليح) كان قبل الغساسنة[3] . ولو أخذنا بالخبر المتقـدم ، وجب علينا القول بأن زياداً كان يحكم في ايام الغساسنة لا قبل ذلك .

وقد ذكر (ابن الأثير) أن (زياد بن هبولة) لم يكن ملكاً على الشأم ، لأن ملوك سليح كانوا بأطراف الشأم مما يلي البر من فلسطين الى قنسرين والبلاد للروم ، ولم تكن سليح ولا غسان مستقلين بملك الشأم ولا بشبر واحـد ، وزياد ابن هبولة السليحي أقدم من حجر آكل المرار بزمان طويل . ولم يكن زياد آخر ملوك سليح . ثم خلص من قوله برأي توفيقي ، بأن افترض ان زياد بن هبولة المعاصر لحجر كان رئيساً على قوم او متغلباً على بعض أطراف الشأم ، فهو غير ذلك الملك المذكور[4] .

---

١ ابن الاثير (٢٠٨/١) ، حمزة (ص ٩٢) ، الاغاني (٨٢/١٥) ، أيام العرب (٤٢) .
٢ أيام العرب (٤٥) .
٣ ابن الاثـير (٢٠٨/١) .
٤ أيام العرب (٤٥) .

وقد تحدث (أبو عبيدة) عن ذلك اليوم،ولم يذكر ان ابن هبولة من سليح، بل قال : هو غالب بن هبولة ملك من ملوك غسان[1] .

وقد تحدثت بعض الروايات عن (زياد بن هبولة) على هذا النحو : « منهم داوود اللثق بن هبالة بن عمرو بن عوف بن ضجعم . كان ملكاً ، ومنهم زياد ابن هبالة بن عمرو بن عوف بن ضجعم . كان ملكاً . وهو الذي أغار على حجر آكل المرار . وهو محرق ، وكان أول من حرّق بالنار »[2] . فجعلت والد زياد رجلاً اسمه (هبالة) ، وجعلت (داوود اللثق) شقيقاً له . أما الروايات الشائعة ، فتجعل (داوود اللثق) ابناً لـ (هبالة) أي انه أخو (هبولة ابن عمرو بن عوف)،فهبولة على هذا وهبالة أخوان ، وزياد وداوود ابنا عم[3] .

وأما ملوك (سليح) على رواية (ابن قتيبة الدينوري) ، فهم : (النعمان ابن عمرو بن مالك) ، وقد عينه ملك الروم على قومه — على حد قوله — بعد ان دانوا بالنصرانية ، ثم مالك وهو ابنه ، ثم (عمرو) ، وهو ابن مالك . قال : ولم يملك منهم غير هؤلاء الثلاثة . اذ انتقل الملك من بعد (عمرو) الى الغساسنة[4] .

ونسب الأخباريون (الضجاعمة) الى (بني ضجعم بن حماطة بن سعد بن سُليح بن عمرو بن الحاف بن قضاعة)[5] . فهم على هذا النسب ، ومن (بني سليح) ومن قبايل قضاعة ، وقد حكموا بعد حكم (بني سليح) .

ونسب بعض الأخباريين (ضجعم) الى (سعد بن سليح) ، أي باسقاط اسم (حماطة) من النسب ، بأن جعلوا (سعد بن سليح) والداً لضجعم . وقد ذكروا ان منهم (داوود اللثق بن هبولة بن عمرو) وهو شقيق (زياد بن هبولة) المذكور . وذكر بعض منهم ان (داوود بن هبولة) هو شقيق (هبالة بن عمرو ابن عوف بن ضجعم)[6] .

---

١ أيام العرب (٤٥) .
٢ الاشتقاق (٣١٩/٢) .
٣ الاشتقاق (٣١٩/٢) .
٤ المعارف (ص ٢٧٨ وما بعدها) ، (ص ٦٤٠) ، (ثروت عكاشة) .
٥ المحبر (ص ٣٧٠) ، الاشتقاق (٣١٩/٢) ، ابن خلدون (٢٧٩/٢) ، حمزة (٧٦) ، غسان (٦) ، الاكليل (١٨٢/١) .
٦ الاشتقاق (٣١٩/٢) .

ويظهر ان (داوود اللثق) كان قد اعتنق النصرانية ، وكان قد عمل للروم . واليه ينسب (دير داوود) (دير الداوود)[1] .

ويظهر من بعض الروايات ان (زياد بن هبولة) الذي حارب (حجراً آكل المرار) ، كان أخاً لـ (داوود) . ويظهر من روايات أخرى انه كان ابن عم له[2] . واذا اخذنا برواية من زعم ان (زياداً) هذا حارب (حجراً آكل المرار) ، فمعنى هذا ان (جفنة) ، وهو مؤسس إمارة آل جفنة ، أي الغساسنة ، قد حكم بعد (زياد) . وقد زعم (حمزة) ان ملكاً من ملوك الروم اسمه (نسطورس) هو الذي ملك جفنة على عرب الشام[3] . وذهب بعض أهل الأخبار الى ان القيصر الذي عيّن (جفنة) على عرب بلاد الشام هو (أنسطاسيوس) (Anastasius) الأول ، الذي حكم من سنة (٤٩١) حتى سنة (٥١٨) للميلاد . فتكون نهاية حكم الضجاعمة وبداية حكومة (آل جفنة) في هذا العهد[4] .

و (ضجعم) هو (Zocomus) أحد (العمال) (Phylarch) الذين نصبهم الروم على عرب بلاد الشأم ، حرّف اسمه فصار على الشكل المذكور . وقد حكم في أواخر القرن الرابع للميلاد . وقد ذكره (ثيوفلكتوس) (Theophylactus) على هذه الصورة : (Zeokomos) [5] ، وذكر انه هو وقبيلته دخلوا في النصرانية وان الله وهبه ولداً بفضل دعاء النساك النصارى[6] .

وقد كان الضجاعم من القبائل العربية المعروفة عند ظهور الاسلام . وقد كانوا مثل سائر القبائل المستعربة المستنصرة ضد الاسلام ، وقد وقفوا مع (دومة الجندل) في عنادهم ومقاومتهم لخالد بن الوليد، وكان رئيسهم اذ ذاك هو (ابن الحدرجان)[7].

لقد أشار المؤرخون اليونان والسريان الى ملكة عربية دعوها (ماوية) (Maula) (Mavia) (Mawiya) ، حكمت القبائل العربية الضاربة في بلاد الشأم، وهاجمت

---

١ Die Araber, II, S. 331.

٢ الاشتقاق (٣١٩/٢) ، ابن الاثير (٣٧٢/١) ، ابن خلدون (٢٧٨/٢) .

٣ حمـزة (ص ٧٧) .

٤ Die Araber, II, S. 332.

٥ Sozomenus, VI, 38, Theophylactus, 2, 2, Die Araber, II, S. 330.

٦ غسان (ص ٦) ، (ص ٨) من النص الالماني ،
Zosimus, 6, 38, Socrates, 4, 30, Rufinius, II, 6, Theodoretus, 40, 21.

٧ الطبري (٣٧٨/٣) (خبر دومة الجندل) .

فلسطين و (فينيقية) ، ويظهر ان هذا الهجوم كان قد حدث بعد ترك القيصر (والنس) (Valens) (٣٦٤ – ٣٧٨ م) انطاكية وذلك سنة (٣٧٨ م)[١] .

وقد حاربت الروم مراراً ، وانتصرت غير مرة ، ثم تصالحت معهم . وكان من جملة ما اشترطته عليهم أن يُسَقَّف على عربها راهب يدعى موسى كان يتعبد في بادية الشأم ، فوافق القيصر على ذلك ، وكان هـذا الراهب كاثوليكياً معارضاً لمذهب أريوس[٢] .

ويذكر المؤرخون أن غارات تلك الملكة على حدود الروم ، كانت عنيفة كاسحة ، أنزلت الدمار والخراب بقرى وبمدن عديدة ، وألحقت خسائر فادحة بالأرواح والمال . وقد شملت تلك الغارات أرض فلسطين و (الحدود العربية) (Arabici Limites) . وتذكر أن عربها كانوا من الـ (سارسين) (سرسين) (Saracene)[٣] .

وقد وليت (ماوية) الحكم بعد وفاة زوجها ، ويظهر أن نزاعاً وقع بينها وبين الروم أدى الى توتر العلاقات بينهما ، آل الى هجوم الملكة على حدود الروم. ولما عجز الروم من الانتصار عليها ، استعانوا ببعض سادات القبائل للتغلب عليها ، ولما وجدوا ان القبائل لم تفعل شيئاً ، اضطروا على التفاوض معها ، وعلى ترضيتها على نحو ما ذكرت[٤] .

وقد قام موسى (Moses) بنشاط كبير في نشر النصرانية بين العرب . وقد كان من مصلحة الروم تنصر الأعراب ، لأن في تنصرهم تأييداً لهم ، حتى وان خالف مذهبهم مذهب الروم[٥] .

وقد حكم قبل (ماوية) (عامل) عربي أشار اليه المؤرخ (أميانوس) (Ammianus) ، غير أنه لم يذكر اسمه ، قال إنه (Assanitarum) وإنه من (السرسين) ، (Phylarchus Saracenorum Assanitarum)[٦] ، وقد حكم

---

١ Provincia Arabia, III, S. 286, Theophanes, 64, (Ed. De Boor), Socrates, IV, 36, Sozomenus, VI, 38, Eusebios, 2, 2.

٢ المشرق ، السنة العاشرة ، العدد ١١ ، حزيران ، ١٩٠٧ ، (ص ٥٢٤) ، Theodoretus, 4, 21, Socrates, Hist. Eccl., 4, 36.

٣ Die Araber, II, S. 328.

٤ Die Araber, II, S. 328.

٥ Die Araber, II, S. 330.

٦ Ammianus, 24, 4, 2, Provincia Arabia, III, S. 286.

في أيام (يوليان) (جوليان) (Julian) (٣٦١ – ٣٦٣م) . ويظن البعض أن مراد المؤرخ بـ (اسانيتـه) (Assanitae) الغساسنـة ، أي ان الكلمة من أصل (غسان)[1] .

غير أن هذا الظن معناه أن حكم الملكة (ماوية) ، كان في أيام الغساسنة ، وأنها أزعجت الروم في وقت كان فيه (آل جفنة) عـلى عرب بلاد الشأم . وهذا ما لا تؤيده الموارد التأريخية المتوفرة لدينا الآن . لذلك أرى ان حكم (ماوية) كان قبل تولي (الغساسنة) الحكم رسمياً من الروم ، أو ان الملكة كانت تحكم في الأقسام الجنوبية من بادية الشأم ، ومنها أخذت تهاجم حدود الروم المؤلفة لكورة فلسطين ، وتتوغل بها حتى بلغت (فينيقية) و (مصر) ، ولم يكن حـكم الغساسنة متمكناً إذ ذاك ، فاستغلت هذا الضعف ، وأخذت تهاجم الحدود .

وزعم المسعودي أن ملك العرب بالشأم يعود الى أيام (فالغ بن هور) (فالغ ابن يغور) . وقد صيّره من صميم أهل اليمن ، ملك ثم ترك الحكم الى (يوتاب) (سومات) ، وهو (أيوب بن رزاح) . ثم انتقل ملك الشأم على رأيه أيضاً الى الروم . وكانت قضاعة من مالك بن حمير أول من نزل الشأم ، وانضافوا الى ملوك الروم،فملّكوهم بعد أن دخلوا في النصرانية على من حوى الشأم من العرب. وكان النعمان بن عمرو بن مالك أول من تولى من تنوخ بالشأم . ثم ملك بعـده عمرو ، ثم (الحواري بن النعمان) . ثم انتقل الملك الى سليح . وانتقـل الملك منهم الى آل غسان[2] .

وقد كانت سليح – كما يذكر الأخبـاريون – يجبون من نزل بساحتهم من مضر وغيرها للروم. فأقبلت غسان في جمع عظيم يريدون الشأم حتى نزلوا بهم ، فقالت سليح لهم:إن أقررتم بالخرج،وإلا قاتلناكم . فأبوا عليهم ، فقاتلهم سليح، فهزموا غسان . ورئيس غسان يومئذ (ثعلبة بن عمرو بن المجـالد بن عمرو بن عدي بن مازن بن الأزد) . فرضيت غسان بأداء الخرج اليهم . فكانوا يجبونهم لكل رأس ديناراً،وديناراً ونصفاً،وديناران في كل سنة على أقدارهم فلبثوا يجبونهم حتى قتل (جذع بن عمرو الغساني) جابي سليح،وهو سبيط بن المنذر بن عمرو

١ Musil, Kusejr 'Amra, Wien, 1907, P. 130.

٢ مروج (٢/٢٩ وما بعدها) ، (٢/٨٢ وما بعدها) ، (طبعة دار الاندلس) .

ابن عوف بن ضجعم بن حماطة . فتنادت سليح بشعارها وتنادت غسان بشعارها . فالتقوا بموضع يقال له (المحفف) ، فأبارتهم غسان . وخاف ملك الروم أن يميلوا مع فارس عليه ، فأرسل الى ثعلبة ، فقال: أنتم قوم لكم بأس شديد وعدد كثير . وقد قتلتم هذا الحي ، وكانوا أشد حي في العرب وأكثرهم عدة وإني جاعلكم مكانهم ، وكاتب بيني وبينكم كتاباً : إن دهمكم دهم من العرب أمددتكم بأربعين الف مقاتل من الروم بأداتهم ، وان دهمنا دهم من العرب فعليكم عشرون الف مقاتل على أن لا تدخلوا بيننا وبين فارس . فقبل ذلك ثعلبة،وكتب الكتاب بينهم . فملّك ثعلبة وتوّجه . وكان ملك الروم يقال له (دبقيوس)[١] .

وقد تحدث الأخباريون وأصحاب كتب الأمثال عن هذا الحادث في معرض كلامهم عن المثل : « خذ من جذع ما أعطاك » . وقد اتفقوا كلهم في اسم القائل ، وهو منصوص عليه في المثل ، ولكنهم اختلفوا في اسم المقتول ، فقال بعضهم انه سبيط ، وقال آخرون : انه سبطة[٢] ، ويقول بعض آخر : انه كان رجلاً من الروم[٣] .

وقد زعم بعض أهل الأخبار،ان اليوم الذي انتصر فيه الغساسنة على الضجاعمة هو (يوم حليمة) . وذلك أن الحرب لما ثارت بين الضجاعمة والغساسنة للسبب الذي ذكرته ، وقالوا « خذ من جذع ما أعطاك » ، كان لرئيس غسان ابنة جميلة يقال لها (حليمة) ، فأعطاها خلوقاً لتخلق به قومها ، وانتصر الغساسنة بذلك اليوم على الغساسنة . فقالوا : « ما يوم حليمة بسر »[٤] .

ونسب ابن خلدون (سبطة) القتيل الى المنذر بن داوود[٥] ، ويظهر انه قصد (داوود اللثق) . والى داوود ينسب دير داوود ، وذلك يدل على انه كان نصرانياً[٦] ، كما أشرت الى ذلك قبل قليل .

وعندي أن (سبطة) هو (Aspehetos) (Aspehbet) (Aspatylatos) ،

---

١ المحبر (ص ٣٧٠ وما بعدها) ، حمزة (ص ٧٦) .
٢ ابن خلدون (٢/٢٧٩) .
٣ اليعقوبي (١/١٦٧) (طبعة النجف) .
٤ البلدان (٢/٣٢٥ وما بعدها) (طهران ١٩٦٥ م) .
٥ ابن خلدون (٢/٢٧٩) .
٦ غسان (ص ٧) ، الاصل الالماني (ص ٨) .

الذي قيل إنه كان عاملاً (فيلارك) (Phylarch) عربياً من عمال الفرس ، فأغار على (الكورة العربية) (Arabia Provincia) ، وذلك في أواسط القرن الخامس للميلاد ، وأعلن نفسه عاملاً على الأرضين التي استولى عليها ، واعترف به وبأبنائه عمالاً عليها [1] .

وزعم المؤرخ حمزة أن أول ملك ملك من غسان هو جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد بن الغوث . وقد زعم انه ملك في أيام نسطورس ، وهو الذي ملكه على عرب الشأم . فلما ملك ، قتل قضاعة من سليح الذين يدعون الضجاعمة ، ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم ، وبني جلق والقرية وعدة مصانع ، ثم هلك . وكان ملكه خمساً وأربعين سنة وثلاثة أشهر [2] .

وقد ابتدأ (حسان بن ثابت) بجفنة هذا في قصيدته التي افتخر فيها بنسبه [3]. وبجفنة هذا سمي ملوك الغساسنة (آل جفنة) ، كما سُمّي خصومهم (المناذرة) بـ (آل لخم) . والى هذا الرأي ذهب (الأصمعي) ، حيث قال : « وجفنة أول ملك ملك من غسان ، واليه تنسب ملوك غسان التي ذكرها حسان بن ثابت الأنصاري في شعره » [4] . وقد نسب الأصمعي له وصية زعم أنه أوصى بها بنيه في كيفية السير بالناس ، وتسيير الملك [5] .

وعند المسعودي ان اول من ملك من بني غسان بالشأم الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن غسان بن الأزد بن الغوث، ومن بعده الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة،وهو ابن مارية

---

١ Provincia Arabia, III, S. 286, Euthymili Vita, Ed : Cotelerius, Ecclesiae Graeca Monumenta, II, P. 221.

٢ حمزة (ص ٧٦) ، (جفنة بن علية بن عمرو بن عامر) ، اليعقوبي (١/١٦٧) (طبعة النجف) (جفنة بن مزيقيا) ، ابن خلدون (٢/٢٨١) ، شرح ديوان النابغة الذبياني ، للبطليوسي (ص ٦) ، التنبيه (ص ١٥٨) .

٣ اولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

الاصمعي ، تأريخ ملوك العرب الاولية ، (ص ١٠٢) ، (محمد حسن آل ياسين)

كجفنة والقمقام عمرو بن عامر وأولاد ماء المزن وابني محرق .

البرقوقي (ص ٢٨٧) .

٤ الاصمعي ، تاريخ ملوك العرب الاولية (ص ١٠٢) .

٥ المصدر نفسه (ص ١٠١) .

ذات القرطين[1] . أما ابن قتيبة ، فذهب الى ان أول من ملك منهم هو الحارث ابن عمرو المعروف بـ (محرّق) . وسمي بمحرّق لأنه أول من حرّق العرب في ديارها ، وهو الحارث الأكبر ويكنى بأبي شمر[2] .

وقد ذكر ابن دريد ان الحارث بن عمرو بن عامر ، (هو محرّق ، وهو أول من عذّب بالنار)[3] . فأيد بذلك رواية من يرى انه أول من عذّب وحرق الناس بالنار .

وذهب (محمد بن حبيب) الى أن أول من ملك من الغساسنة بالشأم هو (ثعلبة بن عمرو بن المجالد بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد)، وذلك بعد فتك (جذع) بالضجاعمة فعهد اليه ملك الروم (ديقيوس) أمر تولي رئاسة عرب بلاد الشأم ، وملّكه وتوّجه ، فصار بذلك أول ملك من ملوك غسان[4] ، على نحو ما ذكرته قبل قليل .

و (جفنة) الذي صيّره حمزة أول من ملك من غسان ، هو (جفنة بن عمرو ، وهو مزيقيا بن عامر ماء السماء) . وقد نجل عمرو بن عامر على رواية ابن خلدون ، جملة أولاد ، منهم : جفنة ، والحارث وهو محرّق، وثعلبة وهو العنقاء (العنقاه) ، وحارثة ، وأبو حارثة ، ومالك ، وكعب ، ووادعة ، وعوف ، وذهل ، وواكل[5] . فيكون جفنة على هذه الرواية أخاً للحارث بن عمرو الذي عدّه المسعودي وابن قتيبة أول من تملك من الغساسنة في ديار الشأم .

وتولى الحكم بعد جفنة على رواية حمزة ابنه عمرو بن جفنة ، وكان ملكه خمس سنين . ونسب حمزة اليه بناء عدة أديرة ، منها : دير حالي ، ودير أيوب ، ودير هند[6] .

أما (الأصمعي) فقد أورد اسم (الحارث بن جفنة بن ثعلبة بن عمرو) ، بعد اسم (جفنة) . وقال عنه (وهو الحارث الأكبر) ثم ذكر له وصية وصى

---

١ مروج (١/٢٩٨) (طبع المطبعة البهية) .
٢ المعارف (ص ٢٨٠) ، (ولد عمرو بن عامر الحارث . وهو محرق . وهو أول من عذب بالنار) ، الاشتقاق (ص ٢٥٩) .
٣ الاشتقاق (ص ٢٥٩) .
٤ المحبر (ص ٣٧١ وما بعدها) .
٥ ابن خلدون (٢/٢٧٩) ، الاشتقاق (٢٥٩) .
٦ حمزة (ص ٧٧) .

بها ابنه (عمرو بن الحارث) وهي وصية نظمها شعراً. وقد قال له فيها إن هذه الوصية هي وصية أبي لي ، وبها يا عمر أوصي وفيها الملك مرسوم[1] .

وأما (محمد بن حبيب) ، الذي جعل ثعلبة أول من ملك من الغساسنة، فقد جعل الحكم للحارث بن ثعلبة من بعده ، ثم لابنه جبلة بن الحارث بن ثعلبة ، ثم لابنه الحارث ، وهو ابن مارية ذات القرطين ، ثم للنعمان بن الحارث ثم للمنذر ابن الحارث ثم للمنيذر بن الحارث ، ثم لجبلة بن الحارث[2] .

وأما (ابن قتيبة) ، الذي جعل (الحارث بن عمرو بن محرّق) أول ملوك آل غسان ، فقد وضع (الحارث بن أبي شمر) من بعده. وقال : انه الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر ، وأمه مارية ذات القرطين . وكان خير ملوكهم ، وأيمنهم طائراً ، وأبعدهم مغاراً . وكان غزا (خيبر) ، فسبى من أهلها ، ثم أعتقهم بعد ما قدم الشأم . وكان سار اليه المنذر بن ماء السماء في مئـة الف ، فوجه اليهم مئة رجل ، فيهم لبيد الشاعر وهو غلام ، وأظهر انه انما بعث بهم لمصالحته ، فأحاطوا برواقه فقتلوه ، وقتلوا من معه في الرواق ، وركبوا خيلهم فنجا بعضهم وقتل بعض وحملت خيل الغسانيين على عسكر المنذر فهزموهم، وكانت له بنت يقال لها (حليمة) كانت تطيب أولئك الفتيان يومئذ وتلبسهم الأكفان والدروع وفيها جرى المثل : « ما يوم حليمة بسر » . وكان فيمن أسر يومئذ أسارى من بني أسد ، فأتاه النابغة ، فسأله اطلاقهم ، فأطلقهم ، وأتاه علقمة ابن عبدة في أسارى من بني تميم ، فأطلقهم اكراماً لشأنه . وفي جملة من أطلق حريتهم شأس بن عبدة شقيق علقمة[3] .

وروى (ابن قتيبة) أيضاً ان (علقمة بن عبدة) قال في (الحارث بن أبي شمر) هذه الأبيات :

الى الحارث الوهاب أعلمتُ ناقتي بكلكلها ، والقُصْرَيَيْنِ وجيبُ
وفي كل حيّ قد خبَطت بنعمة فحقّ لشأس من نداك ذُنوب

فقال الحارث : نعم وأذنبة[4] .

---

١ الاصمعي ، تاريخ (١٠٣ وما بعدها) .
٢ المحبر (ص ٣٧٢) .
٣ المعارف (ص ٢٨٠) ، (ص ٦٤١ وما بعدها) ، (طبعة ثروت عكاشة) .
٤ المعارف (ص ٢٨٠) ، (ص ٦٤١ وما بعدها) ، (ثروت عكاشة) .

وزعم (ابن قتيبة) ان الذي ولي الملك بعد (الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر) ، هو ابنه (الحارث بن الحارث بن الحارث) ويسميه بالحارث الأصغر ابن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر . وكان لـه اخوة ، منهم : النعمان بن الحارث ، يقول ، وهو الذي قال فيه النابغة :

هـذا غلام حسن وجهـه مستقبل الخـير سريع التمام
للحرث الأكبر والحارث الأصغر والحرث الأعرج خير الأنام

وله يقول النابغة أيضاً ، وكان خرج غازياً :

إن يرجع النعمان نفرح ونبتهج ويأتي معداً ملكها وربيعهـا
ويرجع الى غسان ملك وسؤدد وتلك المنى لو أننا نستطيعها[1]

وقد وهم (ابن قتيبة) في (الحارث بن أبي شمر) إذ صيّره الملك الثاني ، وجعله ابناً للحارث الأكبر ، في حين أنـه (الحارث بن جبلة) الذي حارب المنذر بن ماء السماء ، وهو صاحب يوم حليمة . ووهم في (الحارث الأصغر) أيضاً حين صيّره في هذا المكان ، وجعله على هذا النسب ، ولابن قتيبة أوهام أخرى من هذا القبيل .

وتولى بعد عمرو بن جفنة ابنه ثعلبة على رواية حمزة ، وكان ملكه سبع عشرة سنة . ونسب اليه بناء عقة وصرح الغدير في أطراف حوران مما يـلي البلقاء[2] . وقد نسب البطليوسي اليه بناء صرح السدير في أطراف حوران مما يـلي البلقاء . وذكر مثل حمزة أنه حكم سبع عشرة سنة[3] .

ثم تولى من بعـده (الحارث) ، وهو ابنه ، وكانت مدة ملكه عشرين سنة ، وذكر حمزة أنه لم يبنِ شيئاً . ثم ذكر من بعده (جبلة بن الحارث) ، وهو ابنه ، وحكم على روايته عشر سنين[4] . وجعل (البطليوسي) مدة حكمـه عشر سنين أيضاً[5] .

---

١ المعارف (ص ٢٨٠) .
٢ حمزة (ص ٧٧) .
٣ البطليوسي (ص ٦) .
٤ حمزة (ص ٧٧) .
٥ البطليوسي (ص ٦) .

وجبلة هو أول من يمكن أن نطمئن الى وجوده من ملوك الغساسنة كل الاطمئنان وهو (جبلس) (Jabalac) عند ثيوفانس . وقد ذكر عنه أنــه غزا فلسطين حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد[1] . ولا نعرف من أمر هذا الرجل شيئاً يستحق الذكر . وقد نسب حمزة والبطليوسي اليه بناء القناطر وأدرج والقسطل . وقالا إنه حــكم عشر سنين[2] . وذكره (ابن دريد) على هذا النحو : « ومنهم جبلة بن الحارث الملك . وهو ابن مارية التي يقال لها قرطا مارية »[3].

وجاء بعد (جبلة) ابنه (الحارث بن جبلة) ، الذي يمكن عدّه أول ملك نعرف من أمره شيئاً واضحاً يذكر من ملوك آل جفنة . وهو في نظر (نولدكه) (اريتاس) (Aretas) (Arethas) الــذي ذكره المؤرخ السرياني (ملالا) (Malalas) . وقد ذكر انه كان عاملاً للروم[4] . ويظــن أن حكمــه كان من حوالي سنة (٥٢٩) حتى سنة (٥٦٩) للميلاد تقريباً[5] . وأرى ان حكمه كــان قبل سنة (٥٢٩) للميلاد بقليل ، اذ ذكر أنه حارب (المنذر) (Alamundarus) في حوالي السنة (٥٢٨) للميلاد[6] . ومعنى ذلك أنه ولي الحكم في هذه السنة ، أو قبلها بقليل .

وقد عرف الحارث هذا عند أهل الأخبار بـ (الحارث الأعرج) وبـ(الحارث الأكبر) .

وذكر حمزة والبطليوسي وآخرون أن والدة الحارث هي (مارية ذات القرطين، بنت عمرو بن جفنة)[7] . وذكر المسعودي ومحمد بن حبيب أنهــا (مارية بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة) . واستدرك (محمد بن حبيب) على ذلك بقوله : « ويقال : بل هي مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاويــة ابن ثور ، من كندة »[8] . وهي أخت هند الهنود امرأة حجر الكندي ، وقــد

---

١ غسان (ص ٨) ، Theophanes, 218, O'Leary, P. 164.
٢ حمزة (ص ٧٧) ، البطليوسي (ص ٦) .
٣ الاشتقاق (ص ٢٥٩) .
٤ غسان (ص ٩) ، Malalas, (Melalas), 2, 166.
٥ Provincia Arabia, II, S. 174, III, S. 285.
٦ Provincia Arabia, III, S. 352.
٧ حمزة (ص ٧٨) ، البطليوسي (ص ٦) .
٨ المحبــر (ص ٣٧٢) .

ضرب المثل بحسنها ، فقيل : « خذوه ولو بقرطي مارية » . وقالو : وكان في قرطيها مئتا دينار[1] .

وذكر البطليوسي ان الحارث كان يسكن البلقاء ، وبها بنى (الحفير) ومصنعة بين (دعجان) وقصر أبير ومعان[2] . وكان حكمه على رأيه عشرين سنة[3] . وهو دون العدد الذي يقدره الباحثون لحكمه ، حيث قدّر بأربعين سنة . إذ حكم على تقديرهم من حوالي السنة (٥٢٩) حتى السنة (٥٦٩) للميلاد[4] .

ويشك بعض الباحثين في صحة نسبة الأبنية المذكورة الى الحارث ، اذ يرون أنها من عمل شخص آخر . غير أنهم يرون احتمال بنائه للقصر الأبيض في (الرحبة). ولقصر الطوبة[5] .

وجعل (ابن دريد) للحارث بن جبلة من الولد : النعمان والمنذر والمنيـــذر وجبلة وأبا شمر ، ذكر انهم ملوك كلهم[6] .

وذكر الأخباريون ان الحارث بن مارية الغساني ، كان قد اجتبى أخوين من بني نهد اسمها حزن وسهل ، وهما ابنا رزاح ، فحسدهما زهير بن جناب الكلبي وسعى بهما لدى الحارث ، وأظهر له انهما عين للمنذر ذي القرنــين عليه حتى قتلهما : ثم تبين له فيما بعد بطلان قول زهـــير ، فطرده من عنده . واسترضى الحارث والد القتيلين رزاح ، وأبقاه عنده ، فلم يطق زهير عـــلى ذلك صبراً ، حتى تخلص منه بمكيدة انتهت بقتل الحارث له وبرجوع زهير الى ما كان عليه[7]. وهي قصة من هذه القصص التي يرويها الأخباريون تشير الى معاصرة زهير للحارث وللمنذر الأكبر ذي القرنين ، أي المنذر بن ماء السماء .

وقد ذكر ملالا ان الحارث بن جبلة حاربت (المنداروس) (Alamundarus) (Alamoundros) أمير عرب الفرس ، وانتصر عليه في شهـــر نيسان من سنة (٥٢٨ م)[8] ، وذكر معه اسم أميرين ، هما : (جنوفاس) (Jnophas) ،

---

١ المحبر (ص ٣٧٢) ، البرقوقي (ص ٣٠٩) .
٢ حمزة (ص ٧٨) ، البطليوسي (ص ٧) ، Provincia Arabia, II, S. 8.
٣ البطليوسي (ص ٧) ، حمزة (ص ٧٨) .
٤ Provincia Arabia, II, S. 174.
٥ Provincia Arabia, II, S. 174.
٦ الاشتقاق (٢٥٩) .
٧ الاغاني (١١٨/٥ وما بعدها) .
٨ غسان (ص ١٠) . Melalas, 2, 166.

و (نعمان) (Naaman) . ويرى (نولدكه) ان (جنوفاس) هو (جفنة) وهو اسم أحد الأمراء الجفنيين ، سمي باسم جفنة مؤسس تلك الأسرة . وأما نعمان فهو أيضاً اسم أمير من أولئك الأمراء الجفنيين[1] .

وقد تحدث الطبري عن الحرب التي وقعت بين المنذر بن النعمان ملك الحيرة ، والحارث بن جبلة ، الا انه وهم في اسمه فصيّره (خالد بن جبلة) . وقال عن الحرب : « وقع بين رجل من العرب كان ملّكه يخطيانوس على عرب الشأم ، يقال له خالد بن جبلة ، وبين رجل من لخم ، كان ملّكه كسرى على ما بين عمان والبحرين واليمامة الى الطائف وسائر الحجاز ومن فيها من العرب ، يقال له المنذر بن النعمان نائرة ، فأغار خالد بن جبلة على حيز المنذر ، فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة ، وغنم أموالاً من أمواله ، فشكا المنذر الى كسرى، وسأله الكتاب الى ملك الروم في انصافه من خالد . فكتب كسرى الى يخطيانوس[2] ، الا انه لم يحفل بكتاباته فغزا كسرى بلاده ، وتوغل فيها واضطر (يخطيانوس) عندئذ الى عقد صلح معه ، والى ارضائه .

ويرى (نولدكه) أيضاً ان هذا الحارث هو الحارث الذي ذكر عنه المؤرخ ملالا انه أخمد ثورة السامريين الذين ثاروا في فلسطين في سنة (٥٢٩)[3] .

وقد ورد في تأريخ (بروكوبيوس) (Procopius) ان المنذر ملك العرب (سركينوى) (Sarakynou) الذين كانوا في مملكة الفرس ، لما أكثر من الغارات على حدود انبراطورية الروم ، وعجز قواد الروم من أرباب لقب (Dux) (Duce) (Duxe) وسادات القباب من أرباب لقب (فيلارخ)(Phylarchus) المحالفين للروم عن صدّه والوقوف أمامه،رأى القيصر(يسطنانوس)(Justinianus) ان يمنح الحارث بن جبلة الذي كان يحكم عرب العربية (Arabia) لقب (ملك) ليقف بوجه (المنذر) (Alamoundaros) . وقد ذكر ان هذا اللقب لم يمنح لأحد من قبل . ولكن المنذر لم يرعو مع ذلك عن غزو الحدود الشرقية لبلاد الشأم والعبث بها مدة طويلة من الزمن[4] . وقد ذهب (نولدكه) الى أن هذه الحوادث

---

١ غسان (ص ١٠) .
٢ الطبري (٢/١٤٩ وما بعدها) (طبعة دار المعارف بمصر) .
٣ غسان (ص ١٠) ، O'Leary, P. 164, Malalas, 2, 180.
٤ Procopius, I, XVII, 43-48, J. B. Bury, II, P. 91.

كانت في سنة (٥٢٩ م)[١] .

وقد بلغ المنذر في هجومه على بلاد الشأم أسوار (انطاكية) ، ولكنه تراجع بسرعة حينما سمع بمجيء قوات كبيرة من قوات الروم ، تراجع بسرعة أعجزت الروم عن اللحاق به[٢] . ويشك نولدكه في رواية بروكوبيوس بشأن منح الحارث لقب ملك ، ذلك لأن لقب ملك كان خاصاً بقياصرة الروم ، فلا يمنح لغيرهم[٣] .

ويلاحظ أن بعض كتبة اليونان أطلقوا أيضاً لقب ملك على الأمراء العرب ، مثل (ماوية) ، فقد لقبت بـ (ملكة) . ولم يستعملوا كلمة (فيلارخوس) (Phylarkos) (Phylarque) (Phylarcos) التي تعني العامل أو سيد قبيلة . وأما الكتبة السريان ، فقد لقبوا رؤساء القبائل العربية بلقب (ملك) في بعض الأحيان على نحو ما نجده في الشعر العربي[٤] . ولكن نولدكه يرى أن هذا الاستعمال لا يمكن أن يكون سنداً لاثبات أن الروم أطلقوا لقب ملك على الحارث أو على خلفائه رسمياً ، لأن الوثائق الرسمية لم تطلق هذا اللقب عليهم .

والذي صح اطلاقه من الألقاب على أمراء الغساسنة ، وثبت وجوده في الوثائق الرسمية ، هو لقب (بطريق) (Patricius) ، ولقب (عامل) أو سيد قبيلة (فيلارخوس) (Phylarchus) (Phylarkos) (Phylarcos) مقروناً بنعت من النعوت التابعة له ، أو مجرداً منه ، كالذي جاء عن المنذر الذي حكم بعد الحارث بن جبلة البطريق الفائق المديح ، ورئيس القبيلة (فلارخوس المنذر) ، و (المنذر البطريق الفائق المديح) ، وما ورد عن الحارث (الحارث البطريق ورئيس القبيلة)[٥] .

ولقب (البطريق) من ألقاب الشرف الفخمة عند الروم ، ولذلك فلم يكن يمنح إلا لعدد قليل من الخاصة ، ولصاحبه امتيازات ومنزلة في الدولة حتى ان بعض الملوك كانوا يحبذون الحصول على هذا اللقب من القيصر[٦] . وقد منح القيصر

---

١ غسان (ص ١١) .
٢ J. B. Bury, I, P. 81.
٣ غسان (ص ١٢) ، المشرق . السنة الاولى ، الجزء ١١ ، حزيران ١٨٩٨ (ص ٤٨٥) .
٤ غسان (ص ١٢) .
٥ غسان (ص ١٢ وما بعدها) .
٦ المشرق . السنة الاولى . الجزء ١١ ، حزيران ١٨٩٨ (ص ٤٨٥) .

(يسطنيانوس) (Justinianus) (الحارث) هذا اللقب ، وكذلك لقب (فيلارخ) فكان بذلك أول رجل من الغساسنة يمنح هذين اللقبين اللذين انتقلا منه الى أبنائه فيما بعد[1] .

ويلاحظ ان نص أبرهة الذي ذكر في جملة ما ذكره ان الحارث بن جبلة أرسل رسولاً عنه الى مدينة مأرب ليهنئه بترميمه سد مأرب ، لم يدوّن كلمة (ملك) مع اسم الحارث ، ولكن ذكر (ورسل حرثم بن جبلت) ، أي : (ورسول الحارث بن جبلة)[2] . فلم يلقبه بلقب (ملك) ، ويدل عدم اطلاق أبرهة لقب ملك على الحارث على انه اتبع الأصول الدبلوماسية المقررة عند البيزنطيين وان لقب ملك لم يكن لقباً رسمياً له مقرراً دولياً. وقد كان وصول رسول الحارث أو رسله في سنة (٥٤٢ م) .

ويتبين من رواية المؤرخين بروكوبيوس وملالا ان الحارث بن جبلة كان قد اشترك في المعركة التي نشبت بين الفرس والروم في ١٩ نيسان سنة (٥٣١ م)، وانتهت باندحار الروم ، وكان قائدهم (بليزاريوس)[3] . وذكر ان الفرس أسروا رجلاً اسمه (عمرو) (Amros) ، وكان حائزاً على درجة (قائد) (Dux)[4] .

وقد أثار تصرف الحارث في الحرب التي نشبت في سنة (٥٤١ م) بين الفرس والروم ، شك الروم في إخلاصه لهم ، والحذر منه ، اذ ما كان يعبر هذا الأمير نهر دجلة مع القائد بليزاريوس حتى بدا له فرجع الى مواضعه بعد أن سلك طريقاً آخر غير الطريق الذي اتبعه معظم الجيش دون أن يقوم بعمل يذكر في هذه الحرب[5] . وهذا مما حمل الروم على الشك في صداقته لهم ، وجعلهم يحذرون منه ويراقبون حركاته ، خوفاً من انقلابه عليهم وإلحاقه الأذى بهم واتفاقه سراً مع الفرس .

وقد عاد النزاع فتجدد بين الحارث والمنذر حوالي سنة (٥٤٤ م) ، وانتهى

---

١ Provincia Arabia, II, S. 174.

٢ راجع النص الموسوم Glaser 618.

٣ غسان Musil, Palmyrena, P. 274, Procopius, I, 8. Malalas, 2, 199.

٤ غسان (ص ١٨) . Malalas, 2, 202.

٥ غسان (ص ١٨) . Malalas, 2, 203, Procopius 2, 5, 16, 18, Musil, Palmyrena, 266.

بسقوط ملك الحيرة قتيلاً في معركة حدثت في سنة (٥٥٤ م) ، على مقربة من (قنسرين) بالقرب من الحيار . وهذه المعركة هي معركة يوم حليمة على رأي تولدكه[1] . ويظهر أن المنذر كان قد هاجم بلاد الشأم ، وتوغل فيها حتى وصل الى حدود قنسرين ، فصرع هناك . حدث ذلك في السنة السابعة والعشرين من حكم (يوسطنيانوس) (Justinianus) على رواية ابن العبري .

وقد كان سبب اختلاف الحارث مع المنذر ، تنازعهما على ارض يطلق الروم عليها اسم (Strata) جنوب تدمر ، تمر بها الطرق البرية الموصلة الى بلاد الشأم وهي من الطرق العسكرية المهمة ومرعى مهم للأعراب ، يرعى فيها أعراب العراق وأعراب بلاد الشأم . وقد ألف (جستنيان) لجنة تحكيم ، لم تتمكن من فض النزاع . وقد اتهم الفرس أعداءهم الروم بأنهم يريدون الاتصال سراً بالمنذر ورشوته لتحريضه على القيام على الفرس[2] .

وقد ذكر ابن العبري في أثناء كلامه على هذه الحرب أن (برحيرت) ، (Bar-Herath) أي (ابن الحارث) سقط قتيلاً في الحرب[3] . وكان قد ذكر قبل كلمات ان المنذر بن النعمان ، لما هاجم منطقة (Rhomaye) وتوغل فيها ، نازله (الحارث بن جبلة) (Herath bar Gebala) بهجوم مقابل ، فهزمه وقتله في قنسرين . ثم ذكر ان ابن الحارث سقط قتيلاً في هذا الموضع . ويعرف هذا الولد باسم جبلة[4] .

ونجد في شعر (حسان بن ثابت) إشارة الى (زمين حليمة) أي زمن حليمة[5] . كما نجد في الأمثال (ما يوم حليمة بسر)[6] ، دلالة على شهرة ذلك اليوم .

وكان الحارث من أنصار (المنوفستيين) (Monophysites) ، أي القائلين بوجود طبيعة واحدة في المسيح ، ويقال انه سعى لدى الانبراطورة (ثيودورة)

---

١ غسان (ص ٢٠) .
٢ J. B. Bury, II, P. 92.
٣ Bar Hebraeus, Vol., I, P. 76.
٤ Michael the Syrian, Chronicle, (ED : Chabot), Vol., 4, PP. 323, Musil, Palmyrena, P. 144.
٥ البرقوقي (ص ١٤٦) .
٦ كذلك (ص ١٤٦) .

في تعين (يعقوب البرادعي) ورفيقه (ثيودورس) ، أسقفين للمقاطعات السورية العربية . فنجح في مسعاه هذا في سنة (٥٤٢ – ٥٤٣ م) ، وبذلك وطد هذا المذهب في بلاده[١] .

ونسب المؤرخ السرياني (ميخائيل الكبير) الى الحارث محاورة جرت بينه وبين البطريق (افرام) (٥٢٦ – ٥٤٥ م) في السريانية أو اليونانية في طبيعة المسيح وفي مذهبه القائل بوجود طبيعة واحدة فيه . وهو مذهب (يعقوب البرادعي) المتوفي سنة (٥٧٨ م) . وقد صيغت الحكاية بأسلوب يفهم منه انه تغلّب بأدب ولطف على خصمه البطريق[٢] .

ولمعارضة مذهب اليعاقبة أتباع يعقوب البرادعي لمذهب الكنيسة الرسمي للانبراطورية عدّ الروم هذا المذهب من المذاهب المنشقة المعارضة فقاوموه وناضلوا أصحابه ولا سيما في أيام القيصر يوسطنيانوس ، باعتباره مذهباً من المذاهب المناهضة لسياسة الملوك والدولة ، كمعارضة الأحزاب السياسية في الزمن الحاضر[٣] ، الا ان الحارث سعى جهد امكانه في تخفيف حدة غضب الحكومة على رجال هذا المذهب ، ومن التقريب ما أمكن بين آراء رجال الكنيستين . ولجهود الحارث ومسعاه في حماية هذا المذهب ، فضل كبير ولا شك في بقائه ، وفي انتشاره بين السريان وعرب الشأم[٤] .

وقد زار الحارث القسطنطينية في تشرين الثاني من سنة (٥٦٣ م) ، فاستقبل استقبالاً حافلاً . وأثر أثراً عميقاً في نفوس أهل العاصمة وفي رجال القصر والحاشية، ويقال ان رجال البلاط كانوا يخوفون القيصر (يوسطينوس) (Justinius) بعد خرفه بالحارث ، فكان يهدأ ويسكت روعه حين سماعه اسمه[٥] . والظاهر ان الغاية التي من أجلها ذهب الحارث الى القسطنطينية هي مفاوضة رجال الحكم فيمن سيخلفه على عرشه بعد وفاته من أولاده ، وفي السياسة التي يجب سلوكها تجاه عمرو

---

١ François Nau, Les Arabes Chrestiens, PP. 52.

٢ المشرق ، المجلد ٣٤ (السنة ١٩٣٦) ، الجزء الاول (ص ٦١ وما بعدها) .

٣ E. Gibbon, Der Sieg, S. 66.

٤ المشرق . السنة الاولى . الجزء ١١ ، حزيران ١٨٩٨ ، (ص ٤٨٦) .

٥ غسان (ص ٢٠) .
J. of Ephesus Eccl., 3, 2, O'Leary, P. 165, Huart, I, 60, Les Arabes Chrestiens, PP. 58, Michel the Syrer, Chronique, I, II, P. 314.

ملك الحيرة [1] .

والى هذا الحارث قصد امرؤ القيس الكندي الشاعر ، ليوصله الى القيصر ليشكو له ظلامته ، ويطلب منه مساعدته في استرجاع حقه وأخذه بالثأر حسب رواية الأخباريين . واليه تنسب أيضاً قصة مطالبة السموأل بن عاديا باعادة دروع امرىء القيس التي أودعها لديه في القصة الشهيرة التي يحكيها الأخباريون في معرض كلامهم على امرىء القيس وقصة السموأل والوفاء . وهناك جماعة من الأخباريين ترى ان الحارث الذي طالب بتسليم دروع امرىء القيس اليه ، هو شخص آخر اسمه الحارث بن ظالم [2] . ولكنها لم تذكر الصلة التي كانت بين الحارث بن ظالم وامرىء القيس ، وحملته على المطالبة بتلك الدروع .

وقد ذكر (الجمحي) أن (الحارث بن أبي شمر الغساني) هو الذي طلب الى (السموأل بن عادياء) أن يدفع اليه سلاح (امرىء القيس) الذي استودعه عنده ، فأبى السموأل أن يسلمه اليه [3] . وقد ذكر (أبو زبيد الطائي) أنه زاره ونعته بأنه (الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشأم) . وقد كان (أبو زبيد) هذا « من زوّار الملوك ، وللملوك العجم خاصة . وكان عالماً بسيرها » [4] .

وقد تعرّض (ابن قتيبة) لموضوع (امرى القيس) ، فقال : « وكان امرؤ القيس في زمان أنو شروان ملك العجم ، لأني وجدت الباعث في طلب سلاحه الحارث بن أبي شمر الغسّاني ، وهو الحارث الأكبر ، والحارث هو قاتل المنذر بن امرىء القيس الذي نصبه أنو شروان بالحيرة . ووجدت بين أول ولاية أنو شروان وبين مولد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أربعين سنة » [5] . وذكر أيضاً ان « الحارث بن أبي شمر الغساني ، وهو الحارث الأكبر ، لما بلغه ما خلّف امرؤ القيس عند السموأل ، بعث اليه رجلاً من اهل بيته يقال له (الحارث بن مالك) وأمره ان يأخذ منه سلاح امرىء القيس وودائعه فلما انتهى الى حصن السموأل أغلقه دونه ، وكان للسموأل ابن خارج الحصن يتصيد فأخذه

---

١ غسان (ص ٢٠) .
٢ الاغاني (٦/٣٣١ وما بعدها) .
٣ طبقات الشعراء (ص ٧٠) .
٤ طبقات الشعراء (ص ١٣٢) .
٥ الشعر والشعراء (ص ٥٠) .

الحارث ، وقال للسموأل : إن انت دفعت إليّ السلاح وإلا قتلته ، فأبى ان يدفع اليه ذلك . وقال له : اقتل أسيرك ، فإني لا ادفع اليك شيئاً ، فقتله ، وضربت العرب المثل بالسموأل في الوفاء»[1] .

وذكر الأخباريون أن الحارث الأعرج – وهو في روايتهم هذه الحارث بن أبي شمر الغساني – غزا قبيلة تغلب ، وكان السبب الذي حمله على هذا الغزو مروره بجماعات منهـا لم تهتم به كما كان يجب ان يكون . وقد نصحه الشاعر (عمرو بن كلثوم) – على حدّ قولهم – بعدم غزوهم ، واعتذر عنهم اليه . ولكنه لم يأخذ بنصيحته ، فلما تقابل معهم ، انهزم مع قومه من غسان ، وقُتل منهم عدد كثير كان في جملتهم أحد إخوة الحارث[2] .

ويظن بعض الباحثين ان الحارث هو الذي أمر ببناء كنيسة الرصافة الكبرى لا الملك يوسنيانوس ، ذلك لأن المؤرخ (بروكوبيوس) لم يشر في أثناء كلامه على هذا القيصر الى أي أثر له في هذه المدينة،على حين أشار الى تسوير الحارث لها والى احترامه العظيم للقديس (سرجيوس) المدفون بها ، وهو قديس له منزلة كبرى في نفوس نصارى عرب الشأم[3] .

وينسب الى الحارث اصلاح ذات البين فيما بين قبائل طيء ، وكانت متخاصمة متحاربة ، فلما هلك عادت الى حربها،ووقع بينها يوم اليحاميم حيث دارت الدائرة فيه على جديلة من طيء ، ويعرف أيضاً بقارات حوق[4] .

ومن الأمراء العرب الذين عاصروا الحارث بن جبلة ، أمير اسمه (أبو كرب ابن جبلة) ، لعله شقيق الحارث . وقد ورد اسمه في نص (أبرهة) ، حيث كان (أبو كرب) قد أرسل اليه رسولاً لتهنئته بترميمه سد مأرب . والأمير (قيس) (Kaisus) وكان عاملاً على (فلسطين الثالثة) في حوالي سنة ٥٣٠ م . والأسود ، ويظهر انه كان قد تحارب مع الحارث[5] .

---

١ الشعر والشعراء (ص ٤٦) ، (طبعة ليدن) .
٢ ابن الاثير (١/٢٢٢) .
٣ Rusafah, P. 12, Hertzfeld., I, S. 167.
٤ أيام العرب (٦٠) .
٥ غسان (ص ١٧ ملحوظة ٤٨) .

وعثر في احدى الكتابات في حرّان على اسم أمير يدعى (شرحيل بن ظالم) يرى نولدكه انه أمير كندي ، لأن هذين الاسمين من الأسماء الشائعة في كنـدة ويرجع تأريخ هذه الكتابة المدونة باليونانية والعربية الى حوالي سنة (٥٦٨ م) . وقد دُوِّنت عند تدشين هذا العامل بناءً اقامه للقديس يوحنا المعمدان ، فيكون (شراحيل) شرحيل اذن من المعاصرين للحارث بن جبلة[١] . ويستنتج نولدكـه من ذلك ان عدداً من المشايخ ظلوا يتمتعون بسلطانهم حتّى بعد تألق نجم آل غسان. ويرى ان ذلك ممـا يوافق سياسة الروم الذين لم يكن من مصلحتهم ظهور أمير واحد قوي وإنما كان من مصلحتهم وجود جملة امراء متنافسين ، ليتمكنوا بذلك من السيطرة عليهم جميعاً بضرب بعضهم ببعض[٢] .

وقد دعي الأمير المذكور بـ (Asaraelus) ودعي أبـوه بـ (Talemus) وكان يحكم (اللجاة) ، فيظهر من ذلك ان إمارات كانت تنافس امارة الغساسنة في هذا العهد[٣] .

وقد توفي الحـارث في سنة (٥٦٩ م) او (٥٧٠ م) على رأي نولدكه ، استنتج ذلك من ورود اسمه في الوثائق الكنسية التي يعود تأريخها الى سنتي (٥٦٨ و ٥٦٩) ، والى ربيع سنة (٥٧٠ م) حيث حل اسم ابنه المنـذر في محلّه ، فاستدل من هذا التغيير على أنه توفي في هذا الزمن[٤] .

وقد حكم (المنذر) من سنة (٥٦٩ – ٥٧٠ م) حتّى سنة (٥٨١ م) ، على تقدير بعض الباحثين[٥] .

وقد عرف المنذر بـ (Alamundaros) (Alamoundaros) عند اليونان والسريان وقد استهل حكمه بالحرب مع ملك الحيرة قابوس . والظاهر ان عرب الحـيرة كانوا هم البادئين بها ، فانتصر عليهم في يوم ٢٠ أيار (مايس) من سنة ٥٧٠م[٦].

---

١ غسان (ص ١٧) ، Waddington, Inscriptions Grecques, 3, P. 563, ZDMG., 38, 53.

٢ غسان (ص ١٦) ، النص الالماني (ص ١٦) .

٣ Provincia Arabia, III, S. 268, Waddington 2464, Nöldeke, S. 13, Anm : 2.

٤ غسان (ص ٢٥) .

٥ Die Araber, I, S. 10.

٦ غسان (ص ٢٥) . Land : I, 13.

ثم انتصر عليهم في معركـة أخرى فيما بعد[1] . ويرى نولدكه ان المعركة الأولى هي عين أباغ[2] .

والمنـذر هو أبوكرب الذي ذكر اسمه في نص سرياني عثر عليه في احدى ضواحي تدمر ، وهو نص ديني ورد فيه اسم الأسقفين يعقوب وثيودور ، وهما: يعقوب البرادعي وصاحبه[3] .

لقد حدث سوء تفاهم بين القيصر (يسطينوس) (Justinus) وبين المنذر تطوّر حتى صار قطيعة . ولما أحس المنذر بأن القصر قد دبّر له مؤامرة ، وأنه أمر عامله البطريق (مرقيانوس) (Marcianus) بأن يحتال عليه ليقتله ، تمرّد على الروم ، وغادر أرضهم الى البادية . فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة المؤاتية فأمعنوا في غزو بلاد الشام ، وايقاع الرعب في نفوس سكان القرى المجاورة لهذه الحدود مما حمل الروم عـلى مراسلة المنذر والتودد اليه لاسترضائه ، حتى اذا ما تلطف الجوّ أرسلوا اليه البطريق (يوسطنيانوس) ليجتمع به في مدينة الرصافـة عند قبر القديس (سرجيوس) لاقناعه بترك موقفه والموافقة على العودة الى محله. وعند القبر المقدّس عقد الصلح بينهما في صيف سنة (٥٧٨ م) . فعـاد المنذر الى أرضه ، ليقوم بالدفاع عن حدود الشأم[4] .

وقد أشار ابن العبري الى هذا الحادث ، فذكر أن العرب (طيايـة) كانوا منقسمين الى جماعتين : جماعة المنذر بن الحارث (منذر برحيرت) (Mundar bar Herath) ، وكان نصرانياً وكذلك كان جنوده وجماعة قابوس ، فهـاجم قابوس وجنوده العرب النصارى ، وقصد بذلك الغساسنة ، واستاق ما وجده أمامه من ماشية ، ثم قفل الى بلاده . فلما رأى المنذر ما حدث ، جمـع جيشاً هجم به على قابوس ، فتغلب عليه ، ورجع بغنائم عديـدة وعدد كبير من الابل . وعاد قابوس فهاجم المنذر ، غير أنه مُني بهزيمة ثانية اضطرته الى طلب النجدة من الفرس . فأخبر القيصر يسطينوس بذلك ، وطلب منه امداده بالمال ليؤلف به جيشاً يقف أمام الفرس ، فاستاء القيصر منه ، وقرر التخلص منه بقتله ، لظنـه

---

١ J. of Ephesus, 6, 3.

٢ غسان (ص ٢٧ وما بعدها) ، Provincia Arabia, III, S. 355.

٣ غسان (ص ٢٧) Provincia Arabia, II, S. 174.

٤ غسان (ص ٢٦) J. of Ephesus, 6, 3-46, Provincia Arabia, II, S. 174.

أنه كان السبب في غزو الفرس لـ (Rhomaye) وكتب الى عامله مرقيانوس وكان معسكراً يومئذ في منطقة (نصيبين) (Nisibis) أن يتربص بالمنذر فيقبض عليه، ويقطع رأسه . وقد أخطأ كاتب الرسالة،فأرسل الرسالة الخاصة بالبطريق مرقيانوس الى المنذر،وأرسل الرسالة الخاصة بالمنذر الى البطريق . فلما قرأ المنذر الكتاب وعرف بما أراد القيصر أن يفعله به،غضب غضباً شديداً،وتصالح مع قابوس،وصارا يهاجمان بلاد الشأم.فظن يسطينوس ان مرقيانوس قد خانه،وانه أخبر المنذر بالمؤامرة، فأمر بالقبض عليه ، وحبسه ولما صار (طيباريوس) (Tiberius) قيصراً ، ذهب المنذر الى القسطنطينية ، فلامه القيصر على ما صنع ، ولكنه قدّره واحترمه كثيراً حينما أراه رسالة يسطينوس التي أراد توجيهها الى عامله لاغتيال المنذر ، وأنعم عليه بهدايا كثيرة ، وألطاف سنيّة ، ثم عاد مكرماً الى مركزه السابق[1] .

لقد قام المنذر بالزيارة المذكورة للقسطنطينية في اليوم الثامن من شباط سنة ٥٨٠م مصطحباً معه ابنين من أبنائه . فلما بلغها ، استقبل بكل احترام وتبجيل ، وأنعم القيصر (طيباريوس) (Tiberius) عليه بلقب (Rex) وبالتاج وهو لقب كان له شأن كبير في انبراطورية الروم . ويرى نولدكه ان الروم لم يمنحوا عمالهم العرب على بلاد الشأم من قبل الا (الاكليل) ، ودرجته دون درجة (التاج)[2] . وقد أغدق القيصر عليه بالهدايا الثمينة النفيسة ومن بينها مصوغات من ذهب وفضة ، مما لم ينعم به على أي ملك عربي من قبل . كما أنعم على ولديه بدرجات عسكرية[3] .

وكان المنذر مثل والده من القائلين بمذهب (الطبيعة الواحدة) والمدافعين عنه، ولذلك انتهز فرصة وجوده في القسطنطينية ، فسعى في اقناع رجال القصر بالتسامح مع رجال مذهبه والصفح عنهم . ويظهر انه عقد هناك مجمعاً في اليوم الثاني من شهر آذار سنة (٥٨٠ م) لمعاضدة هذا المذهب والدفاع عنه،كما اتصل بالبطاركة للتوفيق بين رجال الكنيستين ، غير انه خابت مساعيه بالرغم من اظهار البطاركة رغبتهم في ذلك وعدم ممانعتهم فيه[4] .

١ Bar Hebraeus, Vol., I, P. 80, 82.

٢ غسان (ص ٢٦) J. of Ephesus, 4, 39, 42, P. 265, 271.

٣ J. of Ephesus, 4, 39, P. 265, 4, 43, P. 271, Provincia Arabia, II, P. 174, Die Araber, I, S. 10.

٤ غسان (ص ٢٧) ، المشرق ، السنة ٣٤ ج ١ (ص ٦٤) ، السنة ١٩٣٦ ، J. of Ephesus, 4, 40, Les Arabes Chrestiens, P. 63, Die Araber, I, S. 10.

وقد ذكر ان المنذر بنى صهاريـج لايصال المـاء الى الرصافة مدينة القديس (سرجيوس) ذي المكانة العظيمة عند عرب الشأم . وظهر من كتابة عثر عليها في أنقاض كنيسة في الرصافة ان المنذر بنى أو جدّد بناء تلك الكنيسة . وأما بناؤها فهو على الطراز البيزنطي[1] .

ولم تمنع قدسية مدينة الرصافة الأعراب ، ولا سيما أعراب العراق من التحرش بها ، فغزتها مراراً ، وأخذت قبيلة تغلب صورة القديس بعد عودتها من غـزو المدينة[2] ، وهدّم أهل الحيرة صهاريج المدينة مراراً ، ولحمايتها من الهجمات أحاطها القيصر (يوسطنيانوس) بسور قوي ، بدلاً من سورها القديم[3] .

وذكر ان المنذر لما كان في القسطنطينية طلب من البيزنطيين مساعدته في بناء قصر يكون أعظم قصر غساني بُني حتى أيامه ، وذلك بأن يرسلوا اليـه أحسن المعمارين والبنّائين الحاذقين . فلبى البيزنطيون طلبه فأمدوه بما يحتاج اليه من معمارين ومن مواد بناء. ومن أبنيته الحربة المعروفة اليوم بناء يعرف باسم(البرج). وقد عثر على اسمه مدوناً على حجارة من ذلك البناء[5] .

ولما حاول الروم غزو حدود الفرس في سنـة (٥٨٠ م) ، وجدوا الجسر المنصوب على نهر الفرات مهدّماً ، فاضطروا الى التراجع وترك الغزو . وكان المنذر معهم في هذه الحملة ، فذهبوا الى ان المنذر كان على اتفاق سري مع الفرس ، وانه هو الذي أوعز بهدم الجسر ، ليكتب للحملة الاخفاق ، وقرروا القبض عليه والايقاع به ، انتقاماً منه للخيبة التي منوا بها . ولما عاد المنذر فغزا أرض الحيرة بنفسه فيما بعد ملحقاً بالمدينة أذى كثيراً ، جاعلاً اياها طعمة للنيران ، اتخذ الروم هذه الغزوة دليلاً على تحدي المنذر لهم ، ورغبته في الخروج على طاعتهم،فقرروا الانتقام منه بقتله،فأصدروا الى حاكم بلاد الشأم (ماكنوس) (Magnus) صديق

---

١ Kirchengeschichte., V, S. 315, H. Gelzer, in Byzantinischer Zeitschrift, I, 1892, S. 245. Les Arabes Chrestiens, P. 69, Musil, Palmyrena, PP. 165, 264, 323.

٢ ديوان الاخطل (ص ٣٠٩) ، (طبعة الصالحاني) ، Musil, Palmyrena, PP. 263, 267.

٣ Musil, Palmyrena, P. 264, Rusafah, P. 12.

٤ Provincia Arabia, II, P. 175.

٥ Wetzstein, NO : 173, Waddington 2562C, Provincia Arabia III, S. 200.

المنذر أمراً سرياً بالعمل على قتله . وصادف ان الروم كانوا قد انتهوا من بنـاء كنيسة في (حوارين) ، وقد عزم (ماكنوس) علـى تدشينها ، فكتب يدعو صديقه الى الاحتفال بذلك . فلما كان على مقربة منه ، قبض عليه وأرسله مخفوراً الى العاصمة حيث أجبر على الاقامة فيها مع احدى نسائـه وبعض أولاده وبناته ، وذلك في أيام القيصر طباريوس وفي ابتداء السنة (٥٨٢) للميلاد . ولما انتقل العرش الى موريقيوس ، وكان يكرهه ويعاديه ، أمر بنفيهما الى صقلية وبقطع المعونة التي كان الروم يدفعونها الى الغساسنة في كل عام[1] .

وقد لقب حمزة المنذر بلقب الأكبر ، وجعل مدة حكمه ثلاث سنين، ونسب اليه بناء (حربا) وموضع (زرقا) على مقربة من الغدير[2] . وقد أخطأ (حمزة) في مدة حكم المنذر ، إذ هي تزيد على تلك المدة ، فقد حكم عـلى رأي الباحثين من سنة (٥٦٩) حتى سنة (٥٨٢) للميلاد[3] .

أثار عمل الروم هذا ثائرة أبناء المنذر ، فتركوا ديارهم ، وتحصنوا بالبادية ، وأخذوا يهاجمون منها حدود الروم ملحقين بها أذى شديداً ، فاضطر القيصر على أثره أن يوعز إلى القائد (ماكنوس) بتجهيز حملة من أبناء المنذر ألحق بها أحد إخوة المنذر . وكان قد أعدّ ليتولى مقام أخيه ، غير انه توفي بعد أيام . ولما كان من الصعب على الروم مهاجمة أبناء المنذر في البادية ، عمد القائد الى المكيدة فأرسل الى النعمان كبير أبناء المنذر انه يريد مقابلته للاتفاق معه على وضع شروط للصلح . وقد ظن الأمير أن القائد صادق فيما دعا اليه فذهب لمقابلتـه ، فقبض الروم عليه ، وأرسلوه مخفوراً الى العاصمة حيث حجروا فيها عليه[4] .

وكان موضع (حوارين) في جملة المواضع التي هاجمها النعمان بعـد ارتحال (ماكنوس) عنها ، وقد استولت عساكره عليها ، وقتلوا بعض أهلها، وأسروا قسماً من الباقين، ثم عادوا بغنائم كثيرة الى البادية للاحتماء بها من هجمات الروم[5] .

---

١ غسان (ص ٣٠ وما بعدها) .
Evagrius, 6, 2, Bar Hebraeus, Vol., I, P. 82, J. J. of Ephesus, Eccl. His., III, PP. 40, 42, 54, Provincia Arabia, II, P. 175.

٢ حمزة (ص ٧٨) ، البطليوسي (ص ٧) .

٣ Provincia Arabia, II, S. 174.

٤ غسان (ص ٢٢ وما بعدها) Evagrius, 6-2.

٥ Musil, Palmyrena, P. 38.

وذكر ابن العبري ان النعمان لما بلغته رسالة القائد ماكنوس لم يذهب اليه ، وإنما أرسل اليه بعض الشبان وأمره أن يتظاهر له بأنه هو النعمان . فلما وصل الشاب الى القائد ، سأله : أأنت النعمان ؟ فقال له : نعم ، جئتك بحسب أمرك ، فقال القائد لمن معه : أقبضوا على عدوّ الملك ، وقيدوه بالحديد . ولما تبين للقائد أنه لم يكن النعمان ، همّ بقتله ، ثم أمر باخراجه ، فعاد الى أهله . وتوفي ماكنوس بعد ذلك بأمد قصير[1] .

ويدعي ابن العبري أن النعمان ذهب بعد ذلك الى (موريقيوس) (Mauricius) واعتذر اليه،وبين له أنه إنما حارب مع الفرس ليتمكن بذلك من انقاذ والده من الأسر . ولما طلب منه (موريقيوس) أن يدخل في المذهب الخلقيدوني ، أجابه ان جميع القبائل العربية (طياية) هي على المذهب الحنيف (الأرثذوكس) (Orthodox) ، وانه اذا بدل مذهبه لا يأمن على نفسه من القتل . ولما قفل راجعاً ، قبض عليه ونفي[2] .

لقد تصدّع بناء الغساسنة وتفكك ، وانقسم الأمراء على أنفسهم،وذلك حوالي سنة (٥٨٣) أو (٥٨٤ م) على تقدير نولدكه . ويشير ميخائيل السوري وابن العبري الى انهم انقسموا بعد القبض على النعمان الى خمس عشرة فرقة تركت بعضها ديارها فهاجرت الى العراق وتشتت الباقون ، ولم يبق لهم شأن يذكر . ولم يشر الكتبة السريان أو البيزنطيون الى ملك الغساسنة بعد هذا الحادث[3]،وهو أمر يؤسف له غاية الأسف . اذ حرمنا بذلك من الحصول على وثائق مهمة تساعدنا في معرفة تأريخ عرب الشام .

وقد عقب هذا التصدع حدوث اضطراب في الأمن وفوضى بين القبائل التي أخذت تتنافس بينها للحصول على الرئاسة والسيادة ، ولخطورة مثل هذه الأحوال بالنسبة الى الروم وسلامة الحدود ، كان هذا مما حمل البيزنطيين على التفكير في اختيار رئيس قوي من سادات القبائل المتنافسين ليقوم بضبط هذه القبائل واعادة الأمن الى نصابه وحماية الحدود من هجمات عرب الحيرة[4] .

---

١ Bar Hebraeus, Vol., I, P. 82.

٢ Bar Hebraeus, I, P. 82.

٣ غسان (ص ٣٣ ، ٣٥) .

٤ Nöldeke, S. 31, Ency., II, P. 143.

ولم يشر الأخباريون الى هذا الحادث ، ويظهر انهم لم يعرفوه . وقد ذكر حمزة ان الذي حكم بعد المنذر هو شقيقه النعمان . وقد جعل مدة حكمه خمس عشرة سنة وستة أشهر[1] .

وزاد في رَبْك وضع الغساسنة وفي انقسامهم على أنفسهم ، غزو الفرس لبلاد الشأم سنة (٦١٣ – ٦١٤م) ، فقد اكتسح الفرس كل بلاد الشأم ، وصار عرب بلاد الشأم أمام حكام جدد ، لم يألفوا حكمهم من قبل ، ولكن ألفوهم دائماً في جانب عرب الحيرة أعداء الغساسنة ومنافسيهم .

وقد تمكن الغساسنة من رؤية وجوه البيزنطيين مرة أخرى وذلك في حوالي سنة (٦٢٩م) ، فقد تمكن البيزنطيون من طرد الفرس من الأرضين التي استولوا عليها ومن إجلائهم نهائياً عنها ، وإعادة فرض حكمهم عليها ، غير أن الأقدار أبت ان تبقيهم هذه المرة مدة طويلة في بلاد الشأم . فأكرهتهم على فتح أبوابها للإسلام ، فتساقطت مدنها في أيدي المسلمين تساقط ورق الشجر في أيام الخريف . وصارت دمشق درة بلاد الشأم من أهم حواضر الاسلام . أما ملك الغساسنة ، فقد ولى ، ولم يبق للغسانيين حكم في هذه البلاد منذ هذا الزمن .

وقد خمد اسم رؤساء غسان في الموارد اليونانية والسريانية منذ قبض على النعمان، فبَعْدنا لا نجد في تلك الموارد شيئاً يذكر عنهم . وفي سكوت هذه الموارد عن ايراد أخبارهم ، دليل على زوال شوكتهم وهيبتهم وعدم اهتمام الروم بأمرهم ، حيث ضعف أمرهم بسبب تفرق كلمتهم وتنازعهم بينهم. أما الموارد الاسلامية ، فإنها بقيت تذكر أسماء رجال منهم زعمت انهم ملكوا وحكموا ، بل زعمت أن بعضهم حكموا دمشق ، وبقيت تذكر أسماءهم الى ايام الفتح الاسلامي . ومن هذه الموارد تأريخ حمزة الاصفهاني، الذي استمر يذكر أسماء من ملك من آل غسان حتى انتهى بآخرهم وهو جبلة بن الأيهم . وفي هذه الأسماء تكرار وزيادات ، لذلك زاد عدد من ذكرهم من ملوك غسان على عدد ما ورد عند سواه من المؤرخين .

وأنا لا استطيع أن اوافق حمزة على العدد المذكور ، واخالفه في مدد حكمهم

---

١ حمزة (ص ٧٨) ، البطليوسي (ص ٧) .

وفي ترتيبهم على النحو المدوّن في تأريخه . فالذين ذكرهم على أنهم ملوك لم يكن مجال حكمهم كبيراً واسعاً،وهم لم يكونوا في الواقع إلا سادات بيوت أو سادات عشائر منشقة ، تمسكت باللقب القديم الموروث : لقب ملك . وقد كان بعضهم يعاصر بعضاً ، ويدعي الرئاسة لنفسه ، وذلك بسبب تخـاصمهم ، ولهذا كثرت أسماؤهم في قائمة حمزة . وقد انحسر مدّ حكمهم وانكمش فاقتصر على البوادي، ولا يتعارض ذلك بالطبع مع ورود أخبار بسكناهم في قصورهم عند أطراف المدن ومشارف القرى ، فإن سادات القبائل في هذا اليوم أيضاً يحكمون القبائل ويعيشون في قصور في المدن ، وهم لا يحكمون المدن بالطبع .

والذي يظهر من روايات أخرى من روايات أهل الأخبار من غير حمـزة ان أبين رجـل من غسان ظهر بعد النعمان ، هو (الحارث) المعروف بـ (الأصغر) ثم (عمرو بن الحارث) ، وهو الذي مدحه (النابغة) ، ثم (النعمان بن الحارث) وهو شقيق (عمرو) ، وقد مات مقتولاً كما يظهر ذلك من شعر للنابغة الذبياني ، ثم (شرحبيل بن عمرو الغساني) ، و (جبلة بن الأيهم) .

ولما كنا قد سرنا على قائمة حمزة في ترتيب الملوك ، فاننا نجاريه في ترتيبه لهم فنذكر أسماء من حكم الغساسنة بعد النعمان على وفق هذه القائمة ، فنقول :

حكم بعد النعمان على رواية حمزة وآخرين (المنذر بن الحارث) أي شقيق المنذر والنعمان ، وجعل حمزة مدة حكمه ثلاث عشرة سنة ، ولقّبه بلقب (الأصغر) وكنّاه بـ (أبي شمر)[١] .

وتولى بعده على رواية حمزة أخوه جبلة ، وجعل منزله بـ (حارب) ونسب اليه بناء (قصر حارب) و (محارب) و (صنيعة) ، وكانت مدة حكمـه على رأيه أربعاً وثلاثين سنة[٢] .

وحكم بعد جبلة على رواية حمزة أخوه الأيهم . وقد حكم على رأيه ثلاث سنين ونسب اليه بناء (دير ضخم) و (دير النبوة) و (دير سعف)[٣] .

ثم انتقل الحكم على رواية حمزة أيضاً الى عمرو ، وهو أيضاً على رأيه أحـد

١ حمزة (ص ٧٨) ، المحبر (ص ٣٧٢) .
٢ حمزة (ص ٧٨) ، البطليوسي (ص ٧) .
٣ حمزة (ص ٨٧) .

أبناء الحارث بن جبلة . وقد حكم ستاً وعشرين سنة وشهرين ، وذكر انه نزل السدير ، وبنى قصر (الفضا) (قصر الفضة) و (صفاة العجلات) و (قصر منار)[1] .

وعمرو هذا هو الذي مدحه النابغة الذبياني،وقد كان متكبراً دميماً قبيح السيرة أنشأ في دمشق وضواحيها – على حد قول أهل الأخبار – عدة قصور شامخات ، منها : قصر الفضة ، وقصر (صفات العجلات) ، وقصر منار . وقد صوّر في بعض هذه القصور مجالسه وجلساءه ورؤساء دولته ، وأشكال صورته . ثم اتعظ وتغير على أثر شعر قاله له عمرو بن الصعق العدواني ، وكان قد أسر الأمير أخته ، وحسنت سيرته ومات بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة[2] .

ويقول أهل الأخبار إن من قديم الشعر الذي قاله النابغة في مدح عمرو بن الحارث ، قصيدته البائية التي يقول في جملة ما يقول فيها :

عليّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب

وقد أوغل فيها في مدح الغساسنة وفي ذكر ملوكهم ، وهي من عيون شعره . وقد قال هذا الشعر حينما اختلف مع النعمان بن المنذر في موضوع الشعر الذي وصف به زوجة النعمان (المتجردة) ، وصفاً استغله أعداؤه ، فوشوا به الى النعمان ، فهرب منه ، وانحاز الى خصومه آل غسان . ولجأ الى زعيمهم في تلك الأيام ، وهو (عمرو بن الحارث)[3] .

وللنابغة أشعار أخرى في مدح (عمرو بن الحارث بن أبي شمر الغساني) ، في جملتها أبيات يعتذر النابغة فيها اليه من وشاية أثارت حنق عمرو عليه ، فنظمها في استرضائه، وقد ذكر فيها انه اكرمه وحباه بمئة من الابل ، وانه يريش قوماً ويبري آخرين ، وانه يجزي الناس على أفعالهم[4] .

ونجد في قصيدة للنابغة مطلعها :

أهاجك من أسماء رسم المنازل   بروضته نعمى فذات الأجاول

---

١ حمزة (ص ٨٧) .
٢ البطليوسي (ص ٧) .
٣ ديوان النابغة الذبياني (ص ٩ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٢٩) .
٤ ديوان النابغة (ص ٤٦) (بيروت ١٩٢٩) .

خبر غزو قام بـه (عمرو بن الحارث) لبني مرة ، وقد أوجعهم فيها على ما يظهر من هذه القصيدة[1] .

هؤلاء الستة الذين ذكرهم حمزة بعـد الحارث بن جبلة ، هم أبناؤه إذن ، وقد حكموا على زعمه بالتعاقب دون فترة . ثم نقل الحكم من عمرو الى رجل دعاه جفنة الأصغر ، وهو على رأيه ابن المنذر بن الحارث . ولم يذكر أي منذر قصد . وذكر أنه كان سيّارة جوّاباً . ثم هلك ، وكان ملكه ثلاثين سنة[2] .

وحكم بعد جفنة الأصغر على رواية حمزة النعمان الأصغر بن المنذر الأكبر . حكم سنة واحدة ، ولم ينسب اليه بناء ما[3] .

ثم انتقل الحكم على زعم حمزة الى النعمان بن عمرو بن المنذر ولم يكن أبوه عمرو على رأي حمزة ملكاً ، وانما كان غازياً يغزو بها بالجيوش ، وكان ملكه سبعاً وعشرين سنة ، ونسب اليه بناء (السويدا) و (قصر حارب)[4] .

وذكر حمزة ان (عمرو) المذكور ، أي والد النعمان على زعمه ، هو الذي مدحه النابغة بقوله :

على لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

وذكر انه ، أي النابغة (ذكر أباه المنذر بقوله)[5] :

وقصر بصيداء التي عند حارب

وقد أخطأ حمزة في ذهابه الى أن الشخص الممدوح هو (النعمان بن عمرو) ، فان رواة هذا الشعر يذكرون ان الملك الممدوح الذي قصده النابغة بمديحه ، هو (عمر بن الحارث بن أبي شمر) المتقدم ذكره ، وهو شقيق (النعمان بن الحارث ابن أبي شمر) الذي مدحه النابغة كذلك ، وكانت له صلات حسنة وثيقة به[6] .

---

١ ديوان النابغة (ص ٨٥) (بيروت ١٩٢٩ م) .
٢ حمزة (ص ٧٨) .
٣ حمزة (ص ٧٩) .
٤ حمزة (ص ٧٩) .
٥ حمزة (ص ٧٩) .
٦ ديوان النابغة (ص ٩ وما بعدها) .

وجعل حمزة بعد النعمان ابنـــه جبلة وزعم ان منزله بـ (صفّين) ، وانه صاحب (عين أباغ) ، وقاتل المنذر بن ماء السماء ، وكان ملكه ست عشرة سنة [1] .

ثم ملك – بعد جبلة – النعمان بن الأيهم بن الحارث بن مارية ، وكان ملكه إحدى وعشرين سنة لم يحدث خلالها على حد قول حمزة شيء ، فتولى من بعـده النعمان بن الحارث ، وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة ، وكان بعض ملوك لخم خربها ، وكان ملكه ثماني عشرة سنة [2] .

ويرى (الويس موسل) ان النعمان هذا كان قـد حارب الفرس من حوالي سنة (٦٠٤) حتى سنة (٦١٦ م) ، وانه قد احتمى مراراً بأسوار الرصافة . وبهذه المناسبات على ما يظهر قام بترميم صهاريج المدينة لخزن الماء [3] .

وذكر حمزة اسم (المنذر بن النعمان) بعد النعمان بن الحارث ، وهـو ابنه . قال : ولم يحدث شي في أيامه ، ثم هلك وكان ملكه تسع عشرة سنة [4] .

ثم صار الحكم من بعده – على رأي حمزة – الى عمرو بن النعمان . وهو شقيقه ولم يحدث شيئاً في أيامه ، ثم هلك ، وكان ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر [5] .

ثم انتقل الحكم الى حجر بن النعمان ، وهو شقيق عمرو ، وجعـل حمزة ملكه اثني عشرة سنة . ثم صيّر الملك الى ابنه من بعده ، وهو الحارث بن حجر . وجعل ملكه ستاً وعشرين سنة [6] .

وصيّر حمزة الملك الى جبلة بن الحارث ، بعد وفاة والده (الحارث بن حجر). وجعل مدة حكمه سبع عشرة سنة وشهراً واحداً [7] .

ثم صيّر حمزة الحكم الى (الحارث بن جبلة) ، وهو على رأيـــه ابن الملك المتوفى (جبلـــة بن الحارث) . وذكر حمزة أنه يسمى أيضاً بـ (الحارث بن أبـي شمر) ، وهو الذي أوقع ببني كنانة ، وكان يسكن الجابية . وكان ملكه

---

١ حمزة (ص ٧٩) .
٢ حمزة (ص ٧٩) .
٣ Musil, Palmyrena, P. 267.
٤ حمزة (ص ٧٩) .
٥ حمزة (ص ٧٩) .
٦ حمزة (ص ٧٩ وما بعدها) .
٧ حمزة (ص ٨٠) .

إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر[1] . ويجب أن يكون هذا الحارث هو (الحارث ابن أبي شمر الغساني) ، الذي ذكر أن الرسول وجه كتاباً اليه ، حمله اليه : شجاع بن وهب كما سيأتي فيما بعد .

وذكر حمزة أن الذي حكم بعد (الحارث بن جبلة) ، هو ابنه (النعمان بن الحارث) ، وكنيته (أبو كرب) ، ولقبه (قطام) ، وهو الذي بنى ما أشرف على (الغور الأقصى) . وكان ملكه سبعاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر[2] .

وقد أخطأ حمزة في إضافة لقب (قطام) الى النعمان بن الحارث ، ولا نعرف ان أحداً اضاف هذا اللقب اليه .

ونجد للنابغة الذبياني أشعاراً في مدح (النعمان) المذكور،وكان يزوره ويتوسط لديه في فك أسرى قومه الذين كانوا يقعون في أسر الغساسنة ، وذلك بسبب غاراتهم المتوالية على بني غسان وأعرابهم . وكان قومه (بنو ذبيان) وحلفاؤهم (بنو أسد) الى جانب عرب الحيرة ، وكانوا ينقمون على الغساسنة ويغيرون دوماً على أرضهم ، فيتدخل النابغة لدى الغساسنة للصفح عن قومه ، ويتوسل اليهم في فك أسرهم . ولما أغار قومه على وادي (ذي اقر) ، نهاهم النابغة عن هذه الغارة ، وحذرهم من عواقبها ، وهوّلهم بكثرة ما لدى (النعمان بن الحارث) ، من جموع وحشود ، غير انهم لم يهتموا بنصح النابغة ، ولم يحفلوا بتخويفه لهم ، بل عدّوا نصيحته هذه لهم من امارات الخوف والجبن ، فتصدت لهم أعراب (النعمان) بقيادة (النعمان بن الجلاح الكلبي) ، وأوقعت بهم خسائر فادحة ، ويذكر بعض الرواة أن (ابن الجلاح) سبى ستين أسيراً وأهداهم الى قيصر الروم[3] . ولم يتطرقوا لبيان الأسباب التي أدت بالغساسنة الى اهداء هؤلاء الأسرى الى الروم . وأعتقد ان اقحام (قيصر الروم) في هذا الاهداء ، هو من مبالغات الرواة ، وقد عودونا أمثال هذه المبالغات . إلا أن يكون أولئك الأعراب قد غزوا حدود الروم ، فأوجعوا أهلها ، فقدم (ابن الجلاح) الذي تعقبهم ، من وقع في أسره الى حاكم من حكام الروم لتأديبهم .

---

١ حمزة (ص ٨٠) .
٢ حمزة (ص ٨٠) .
٣ ديوان النابغة (ص ٥٤) (بيروت ١٩٢٩ م) .

وقد طلب (النابغة) في شعره في وصف هذه الغارة من (حصن بن حذيفة) سيد (ذبيان) ومن (ابن سيّار) فك من وقع أسيراً من النساء دفعاً للخزي والعار من وقوعهن أسيرات في أيدي العضاريط من الأتباع والأجراء .

ونجد النابغة يحذّر (النعمان) من غزو (بني حُن بن حرام) ، وينصحه بعدم التورط في قتالهم ، لأنهم أناس محاربون صعاب . فلما أبى إلا قتالهم، بعث النابغة الى قومه يخبرهم بغزو النعمان لهم ، ويأمرهم أن يمدوا بني حُن ، ففعلوا . فلما غزاهم النعمان ، هزم بنو حُن وبنو ذبيان جمعه ، وحازوا ما معهم من الغنائم ، فقال النابغة في ذلك شعراً منه :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بني حُنٍ ببرقة صادر
تجنب بني حُنٍ فان لقاءهم كريه، وإن لم تلق إلا بصابر

فهو يعاتب بذلك النعمان ، ويذكره بعدم اهتمامه بنصحه له ، وتخويفه اياه من عاقبة هذه الغارة[1] .

وكان في جملة ما قاله النابغة عن بني حُن بن حرام ، وهم من عذرة ، انهم كانوا قد منعوا (وادي القرى) عن عدوهم ومن أهله وحموه منهم ، وهو كثير النخل ، فتمتّعوا بثمره ، وطردوا (بَليّاً) ، وهم من (بني القين) وهم أصحابه من هذا الوادي ، واستولوا على نخيلهم ، ونفوهم الى غير بلادهم، وهم الذين ضربوا أنف الفزارى ، وهم الذين منعوها من قضاعة كلها ومن (مضرّ الحمراء) ، وقتلوا الطائي بالحجر عنوة ، ويريد به (أبا جابر الجلاّس ابن وهب بن قيس بن عبيد) ، وكان ممن اجتمع عليه جديلة طيء . ومثل هؤلاء قوم لا يغلبون[2] .

ويظهر من شعر للنابغة ان (النعمان) كان قد غزا تميماً وقيس وائل ، وانه أوجعهم ، وقد غزاهم في الربيع[3] .

وللنابغة أشعار أخرى في مدح (النعمان) هذا ، منها أبيات استهلها بقوله :

---

١ ديوان النابغة (ص ٦٠ وما بعدها) (بيروت ١٩٢٩ م) .
٢ ديوان النابغة (ص ٦٠ وما بعدها) .
٣ ديوان النابغة (ص ٨٢) .

والله والله لنعم الفتى إذ أعرجُ، لا النكسُ ولا الخامل[1]

وقد أدرك النابغة أجل (النعمان بن الحارث بن أبي شمر) ، اذ مات مقتولاً فرثاه بقصيدة ، يظهر منها انه كان يكنى بـ(أبي حجر) ، وانه قبر في موضع يقع بين (بصرى) و (جاسم)[2] .

وقد غزا (النعمان) العراق ، ولا يستبعد (نولدكه) أن يكون هو الذي قصده المؤرخ (ثيوفلكتوس) حين تحدث عن غزوٍ قام به عرب الروم على العراق في زمن الصلح أي حوالي سنة (٦٠٠م)[3] .

وقد مدح النابغةُ (النعمان بن الحارث الأصغر) في القصيدة التي تبدأ بقوله :

إن يرجع النعمان نفرح ونبتهج ويأت معداً ملكها وربيعها
ويرجع الى غسان ملك وسؤدد وتلك التي لو اننا نستطيعها[4]

ورثى (النابغة) النعمان في قصيدة جاء فيها ان شيبان وذهلاً وقيس بني ثعلبة وتميماً سُرّوا بوفاته ، لأنهم أمنوا بذلك على أنفسهم من غاراته ومن غزوه لهم[5]. ويظهر من شعر النابغة فيه انه كان محارباً يغزو القبائل ، ولذلك هابته . وقد بكاه بقوله :

بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منه خاشع متضائل[6]

وذكر (ابن قتيبة) ان النابغة لما صار الى غسان ، انقطع الى (عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شمر الغساني) والى أخيه (النعمان بن الحارث) ، فأقام النابغة فيهم فامتدحهم ، فغمّ ذلك النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وبلغه ان الذي قُذف به عنده باطل ، فبعث اليه من يسأله أن يعود ، فاعتذر النابغة في شعر ، وقدم عليه مع زبّان بن سيّار ومنظور بن سيار الفِزاريين ، وقبل عذره ورحب به[7] .

---

١ ديوان النابغة (ص ٩٠) .
٢ ديوان النابغة (ص ٨٤) .
٣ غسان (ص ٤٢) ، Theophylactus, Historiae, 8, I.
٤ البطليوسي (ص ٥٧) .
٥ البطليوسي (ص ٦٠ وما بعدها) .
٦ حمزة (ص ٨٠)
٧ الشعر والشعراء (ص ٧٧) (النابغة الذبياني) .

ثم ملك بعده – على رأي حمزة – الأيهم بن جبلة بن الحارث بن أبي شمر، وهو على حد تعبيره صاحب (تدمر) و (قصر بركة) و (ذات أنمار) وغير ذلك[1] .

ثم ملك بعد الأيهم بن جبلة شقيقه المنذر بن جبلة ، وكان ملكه على رواية حمزة ثلاث عشرة سنة[2] .

ثم صار الملك الى شقيقه (شراحيل بن جبلة) على رواية حمزة . وكان ملكه خمساً وعشرين سنة وثلاثة أشهر[3] .

ثم انتقل الحكم الى (عمرو بن جبلة) بعد وفاة (شراحيل) وهو على رأي حمزة شقيقه ، وقد حكم عشر سنين وشهرين[4] .

ثم حوّل حمزة الحكم الى (جبلة بن الحارث) ، بعد وفاة (عمرو بن جبلة). وهو على رأيه ابن أخيه . وجعل حكمه أربع سنين[5] .

ثم صيّر حمزة الملك الى (جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن مارية)، وهو على رأيه آخر ملوك غسان . وكان ملكه ثلاث سنين . وهو الذي كان أسلم ثم تنصر ، ولجأ الى الروم[6] . وقد سرد المسعودي نسبه على هذه الصورة : (جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن حجر بن النعمان بن الحارث بن الأيهم ابن الحارث بن جبلة بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة)[7]،وسرده على هذه الصورة : (جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن مازن) في مكان آخر[8] .

وذكره (ابن عبد ربه) على هذه الصورة: (جبلة بن الأيهم بن أبي شمر الغساني)[9] . وذكر (الذهبي) أن الأصل هو (الأهيم) ، لا (الأيهم) ، وكنّاه بـ (أبي المنذر) ، وقال إنه كان ينزل (الجولان)[10] .

---

١ حمزة (ص ٨٠)
٢ حمزة (ص ٨٠)
٣ حمزة (ص ٨٠)
٤ حمزة (ص ٨٠) .
٥ حمزة (ص ٨١) .
٦ حمزة (ص ٨١) ، المحبر (ص ٣٧٢) ، لسان العرب (١١/٩٦) .
٧ التنبيه (ص ١٥٨) .
٨ مروج (٢/١٠٨) ، (٢/٣٠) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٩ العقد الفريد (١/١٨٧ وما بعدها) (القاهرة ١٩٣٥ م) .
١٠ تاريخ الاسلام ، للذهبي (٢/٢١٤) (نسخة دار الكتب المصرية) .

وقد وُصِف بأنه كان طويلاً ، طوله اثني عشر شبراً ، وكان اذا ركب مسحت قدمه الأرض[1] .

وقد ورد اسم (جبلة بن الأيهم) في أخبار الفتوحات الاسلامية لبلاد الشأم، إذ ذكر في (فتوح البلدان) للبلاذري : أن (هرقل) لما سمع بتجمع المسلمين ومقدمهم (يوم اليرموك) ، بعث على مقدمته (جبلة بن الأيهم الغساني) في مستعربة الشأم من لخم وجذام وغيرهم لمقاتلة المسلمين ، غير أن (جبلة) انحاز في القتال الى الأنصار قائلاً : « أنتم إخوتنا وبنو أبينا ، وأظهر الإسلام »[2] . أما الطبري فقد ذكر : أن خالداً لما صار الى (مرج الصفر) ، لقي عليه غسان ، وعليهم (الحارث بن الأيهم)[3] . ولم يشر الى جبلة . فيظهر أن وهماً في الاسم قد وقع للرواة ، فصار (جبلة) عند بعض ، وصار (الحارث) عند بعض آخر ، ولعل مرده الى سهو وقع من النساخ .

ولحسّان بن ثابت شعر في مدح (جبلة بن الأيهم) ، وفي ذكر ملكه وملك (آل جفنة) ، يظهر منه شدة تعلقه بهم على بعده عنهم وزوال ملكهم وابتعاده عنهم بالاسلام[4] . وقد أورد المسعودي بعض الأشعار التي مدح حسان بها (جبلة ابن الأيهم) منها :

أشهرنهـا فإن ملكك بالشا م الى الروم فخر كل يماني[5]

وقد ورد في رواية من روايات أهل الأخبار أن حسان بن ثابت زار (جبلة ابن الأيهم) ، وعنده (النابغة) و (علقمة بن عبدة) فأنشده شعراً ، فأعطاه ثلاثمئة دينار وعشرة أقمصة لها جيب واحد ، في كل عام مثلها . وتذكر رواية أخرى ان الشخص الذي زاره (حسان) هو (عمرو بن الحارث الأعرج) ، وأنه مدحه فأعطاه ألف دينار مرجوحة ، وهي التي في كل دينار عشرة دنانير[6].

---

١ المعارف (ص ٢٨١) .
٢ فتوح البلدان (١٤١ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٠١ م) .
٣ الطبري (٢/٤١٠) (دار المعارف بمصر) .
٤ مروج (٢/١٣) (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، البرقوقي (٤١٤ وما بعدها) .
٥ مروج (٢/٣١) (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٦ الاغاني (١٤/٢ وما بعدها) .

وذُكر ان (جبلة بن الأيهم) لما سمع ، وهو ببلاد الروم ، أن حساناً قد صار مضرور البصر كبير السن ، أرسل اليه خمسمائة دينار وخمسة أثواب ديباج ، فلما سلمها الرسول الذي حمل الهدية اليه ، نظم شعراً في مدحه أوله :

ان ابن جفنة من بقية معشر لم يغـذهم آباؤهم باللـؤم
لم ينسني بالشأم إذ هو ربُّها كـلاً ولا متنصراً بالروم

وأخذ يراجع ذكريات تلك الأيام الخالية التي قضاها معه ومع بقية آل غسان[1].

وقد اتفقت روايات أهل الأخبار في موضوع دخول جبلة في الاسلام ، ثم في ارتداده ، إلا رواية واحدة ذهبت الى انه لم يسلم . وقد ذهب أكثرهم في سبب ردته الى ان أعرابياً من فزارة وطيء فضل إزار جبلة وهو يسحبه في الأرض بمكة ، فلطمه جبلة ، فنابذه الأعرابي الى عمر ، فحكم عمر له بالقصاص ، فعدّ جبلة القصاص اهانة له وهو ملك ، ففرّ الى بلاد الروم وارتد بها ، وبقي بها مرتداً حتى وافته منيته[2] . ولكن رواية (ابن قتيبة) ، تختلف عن رواية أكثر أهل الأخبار في موضوع المكان الذي كان السبب في ارتداده عن الاسلام، اذ جعلته مدينة (دمشق) ، قالت : « وكان سبب تنصره انه مرّ في سوق دمشق ، فأوطأ رجلاً فرسه ، فوثب الرجل فلطمه ، فأخذه الغسانيون فأدخلوه على أبي عبيدة بن الجراح ، فقالوا : هذا لطم سيدنا . فقال أبو عبيدة بن الجراح : البينة ان هذا لطمك . قال : وما تصنع بالبينة ؟ قال : إن كان لطمك لطمته بلطمتك . قال : ولا يقتل ؟ قال : لا . قال : ولا تقطع يده . قال : لا . انما أمر اللهُ بالقصاص ، فهي لطمة بلطمة . فخرج جبله ولحق بأرض الروم وتنصر »[3] .

ونجد خبر (ابن قتيبة) المذكور مدوناً في كتاب (الطبقات) لابن سعد ، حيث جاء : « وكتب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه الى الاسلام ، فأسلم وكتب باسلامه الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأهدى له هدية ولم يزل مسلماً حتى كان في زمان عمر بن الخطاب ،

1 البرقوقي (ص ٣٩١ وما بعدها) .
2 مروج (٣١/٢ وما بعدها) (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ابن خلدون (٥٨٦/٢) ، تاريخ الخميس (٦١/٢) ، الاغاني (٢/١٤ وما بعدها) .
3 المعارف (ص ٢٨١) .

فبينما هو في سوق دمشق اذ وطىء رجلاً من مزينة ، فوثب المزني فلطمه، فأخذ وانطلق به الى أبي عبيدة بن الجراح ، فقالوا : هذا لطم جبيلة،قال : فليلطمه، قالوا : وما يقتل ؟ قال : لا ، قالوا : فما تقطع يده ؟ قال : انما أمر اللهُ، تبارك وتعالى بالقود. قال جبلة : أو ترون اني جاعل وجهي نداً لوجه جدي جاء من عمق ! بئس الدين هذا ! ثم ارتد نصرانياً ! وترحل بقومه حتى دخل أرض الروم ، فبلغ ذلك عمر ، فشق عليه ، وقال لحسان بن ثابت : أبا الوليد ، أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانياً ؟ قال : وحق له ، فقام اليه عمر بالدرة فضربه بها »[1] .

وذكر بعض أهل السيَر والأخبار ، ان الرسول كتب الى جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان ، كتاباً دعاه فيه الى الاسلام . فلما وصل الكتاب أسلم ، وكتب الى الرسول يعلمه باسلامه[2] . وذُكر أن (شجاع بن وهب) انما بعثه رسول الله الى جبلة ، فأسلم[3] ، وأرسل الى رسول الله هدية . وكان ينزل بالجولان[4] .

وتزعم بعض الروايات أنه زار المدينة في خلافة (عمر) . وقد عدّ يوم مجيئه اليها من الأيام المشهورة ، اذ جاء اليها في موكب حافل كبير فيه خيول كثيرة لم تر المدينة مثلها من قبل ، وخرج الناس الى الطرق لرؤية موكبه. وفرح عمر بمجيئه ، وعدّ ذلك توفيقاً من الله للاسلام ، وأكرمه غاية الاكرام . وبعد أن قابل الخليفة ، استأذن منه بالذهاب الى الحج ، فوقع له عندئذ حادث الإزار مع الأعرابي ، ففرّ الى بلاد الروم ، ويقال : انه توفي بالقسطنطينية سنة عشرين من الهجرة[5] . وذكر أنه لما قدم المدينة كان في خمسمئة فارس من علك وجفنة . فلما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوشي المنسوج بالذهب والفضة، ولبس تاجه وفيه قرط مارية وهي جدته ، فلم يبق يومئذ بالمدينة أحد الا خرج ينظر اليه[6] .

وقد ذكر (البلاذري) أن (جبلة بن الأيهم) حكم بعد (الحارث بن أبي شمر) . وروى أنه لما قدم (عمر) الشأم سنة (١٧) للهجرة ، حدث أن لطم

---

١ طبقات (١/٢٦٥) .
٢ تاريخ الخميس (٢/٦١) .
٣ ابن خلدون (٢/٢٨١) .
٤ تأريخ الاسلام ، للذهبي (٢/٢١٤) ، (نسخة دار الكتب المصرية) .
٥ ابن خلدون (٢/٢٨١) .
٦ العقد الفريد (١/١٨٧ وما بعدها) (القاهرة ١٩٣٥ م) .

(جبلة) رجلاً من مزينة على عينه ، فأمره عمر بالاقتصاص منه ، فقال : أو عينه مثل عيني ! والله لا أقيم ببلد عليّ به سلطان . فدخل بلاد الروم مرتداً . وروى رواية أخرى خلاصتها أن جبلة أتى عمر على نصرانية ، فعرض عمر عليه الاسلام ، ولكنه لم يتفق مع عمر . فلما قال له عمر : ما عندي لك الا واحدة من ثلاث : إما الاسلام ، وإما أداء الجزية ، وإما الذهاب الى حيث شئت . فدخل بلاد الروم في ثلاثين ألفاً فلما بلغ ذلك عمر ندم[1] .

وتذكر رواية أن (جبلة بن الأيهم) عاش في القسطنطينية حتى مات سنة عشرين من الهجرة[2] .

فنحن أمام روايتين بشأن مكان ردة جبلة ، وتجاه رواية عن إسلامه . رواية تجعل ارتداده في مكة ، ورواية تجعل ارتداده بدمشق، ورواية تذكر أنه لم يدخل مطلقاً في الاسلام . ويظهر أن رواية دمشق هي أقرب الى المنطق ، اذ لا يعقل فرار جبلة من مكة الى بلاد الروم بمثل هذه السهولة التي تخيلها أهل الأخبار ، وبينه وبين بلاد الروم مسافات شاسعة ما كان في امكانه قطعها قط والنجاة من تعقب المسلمين له ، لو كان موضع هربه هو مكة . أما دمشق ، فانها قريبة من حدود الروم ، ولدى جبلة فيها وسائل كبيرة تساعده على الهرب .

والرأي عندي أن جبلة ، لم يدخل أبداً في الاسلام ، وانما بقي مع الروم . وغادر بلاد الشأم معهم ، وكان يحارب المسلمين الى جانبهم ، وانتقل بأتباعه ممن بقوا على دينهم الى بلاد الروم فأقاموا بها ، وقد مات هناك ودفن في تلك البلاد. وما هذا الذي روي عن اسلامه وعن زيارته ليثرب ولمكة إلا من قصص القصاص وضعوه فيما بعد .

إنّ ما يذكره أهل الأخبار من ملك (جبلة) ، لا يخلو من مبالغة . وما يقال عن ملكه وعن استقبال (هرقل) له ، ذلك الاستقبال العظيم ، لا يخلو من مبالغة أيضاً . نعم من الجائز أن الروم قبلوه لاجئاً ، ورحبوا به وساعدوه على أمل استخدامه لمهاجمة المسلمين ، واسترداد بلاد الشأم منهم . غير أننا لا نستطيع أن نوافق على ما ورد في روايات أهل الأخبار من ذلك الوصف الذي ذكروه من احتفال الروم في القسطنطينية ومن المعيشة التي كان يعيشها في عاصمتهم

١ فتوح البلدان (ص ١٤٢ وما بعدها) .
٢ ابن خلدون (٢٨١/٢) .

الى حين وفاته[١] . بل لقد شك بعض المستشرقين مثل (نولدكه) حتى في موضوع تملكه وتولية الحكم له على عرب الشأم[٢] .

ونجد في خبر فتح دومة الجندل ، رجلاً من غسان كان قد تزعم قومه وجاء في (طواف من غسان وتنوخ) لنجـــدة أهل (دومة الجندل) . وقد دعاه (الطبري) ، (ابن الأيهم) . ولم يشر الى اسمه[٣] .

ونجد في (العقد الفريد) وصفاً لمجلس (جبلة) ولمسكنه في القسطنطينيـــة لا يخلو من مبالغة ، وقد نسب وصفه الى رسول ذكر أن الخليفة عمر كان قـد أرسله الى (هرقل) ليدعوه الى الاسلام . ويذكر الرسول الموفد أن (هرقلاً) هو الذي أشار عليه بزيارة قصر (جبلة) فلما ذهب اليه ، وجد عـلى بابه من القهارمة والحجّاب وكثرة الجمع مثل الذي عـــلى باب (هرقـل) ، ثم وصف مجلسه وأرائكه المرصعة بالجواهر ، وغناء الجواري في مجلسه بغناء حسان بن ثابت مما يجعله في ثراء الملوك الحاكمين لا الملوك الفارين[٤] .

واسم الرسول المذكور هو (جثامة بن مساحق الكناني)[٥] . ويـــذكر بعض أهل الأخبار أن الخليفة معاويـــة أرسل (عبدالله بن مسعود الفزاري) الى ملك الروم فوجد عنده (جبلة بن الأيهم)،فوصف مجلسه وما كان عليه من فاخر الملبس والمأكل والمسكن ، وهو كلام فيه مبالغات وغلوّ في الكلام ، على نمط ما رأيناه في وصف (جثامة)[٦] . وهو يتفق معه في الخبر . والظاهر أن الرواة قد أخطأوا في هذا الخبر ، فنسبوه مرة الى رسول عمر ،ونسبوه مرة أخرى الى رسول معاوية.

ملوك الغساسنة

وعدة ملوك الغساسنة على رواية حمزة اثنان وثلاثون ملكاً ، ملكوا ستمائة وست عشرة سنة[٧] . أما (المسعودي) ، فجعل عددهم أحد عشر ملكاً[٨] .

---

١ العقد الفريد (١/١٨٨ وما بعدها) .
٢ غسان (ص ٤٥) من النص الالماني ، Provincia Arabia II, S. 174.
٤ الطبري (٣/٣٧٨) (خبر دومة الجندل) .
٣ راجع الوصف في العقد الفريد (١/١٨٨ وما بعدها) .
٥ الاغاني (١٤/٢ وما بعدها) .
٦ الاغاني (١٤/٢ وما بعدها) ، البرقوقي (٢٣٤ وما بعدها) ، ابن قتيبـــة ، الشعر (٢٢٣) .
٧ حمزة (ص ٨١) .
٨ مروج (٣٢/٢) (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ، ابن خلدون (٢٨١/٢)

وقد رتّب المسعودي أسماء الملوك على هذا النحو : (الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس) ، ثم (الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو) ثم (النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة) ، ثم (المنذر أبو شمر بن جبلة بن ثعلبة) ، ثم (عوف بن أبي شمر) ، ثم (الحارث بن أبي شمر) ، وكان ملكه حين بعث رسول الله ، ثم جبلة بن الأيهم[1] .

والأسماء المذكورة هي أقل من الرقم المذكور كما نرى بكثير ، إذ هي سبعة فقط ، على حين يجب أن تكون بحسب روايته أحد عشر اسماً .

وفي الذي ذكره حمزة عن مدة حكم الغساسنة ، مبالغة . فلو أخذنا بالعدد الذي ذكره لمجموع حكم ملوكهم ، وهو ست عشرة وستمائة سنة ، لوجب علينا القول بأن ابتداء حكمهم كان حوالي الميلاد . وهو قول لم يقله أحد ، ولا يؤيده أي سند أو دليل . والذي نعرفه أن مدة حكمهم هي دون المدة المذكورة بكثير، كما أن في الترتيب الذي ذكره حمزة لملوكهم تكراراً وزيادات . وهو يخالف ما نراه عند المؤرخين الآخرين الذين تعرضوا لآل غسان .

وتختلف قائمة (ابن قتيبة الدينوري) بأسماء ملوك غسان اختلافاً كبيراً عن قائمة (حمزة) وعن قائمة (المسعودي) . وقد ذكرت فيما مضى أنه جعل (الحارث بن عمرو) المعروف بمحرق أول ملك من ملوك غسان ، ثم جعل من بعده الحارث الأعرج، ثم الحارث الأصغر ، ثم النعمان، وهو شقيق الحارث الأصغر .

وقد ذكر أنه كان للنعمان بن الحارث ثلاثة بنين هم : حجر بن النعمان وبه كان يكنى ، والنعمان بن النعمان ، وعمرو بن النعمان . وقال ان فيهم يقول حسان ابن ثابت :

من يغر الدهر أو يأمنه   من قتيل بعد عمرو وحجر
ملكا من جبل الثلج الى   جانبي أيلة من عبد وحر[2]

وقال (ابن قتيبة الدينوري) : ومن ولد الحارث الأعرج أيضاً عمرو بن الحارث، الذي كان النابغة صار اليه حين فارق النعمان بن المنذر، وفيه يقول النابغة :

---

١ مروج (٢/ ٣٠) (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ، (٢/ ٨٣ وما بعدها)، (طبعة دار الاندلس) .

٢ المعارف (ص ٢٨١) .

عليّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمة لوالده ليست بذات العقارب

قال: وكان يقال لعمرو أبو شمر الأصغر ، ومن ولده المنذر بن الحارث ، والأيهم بن الحارث ، وهو والد جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان[1] .

وقد ذكر في كتب السيَر والتواريخ اسم أمير غساني ، هو الحارث بن أبي شمر الغساني ، وهو الذي أرسل الرسول اليه شجاع بن وهب ليطلب اليه الدخول في الاسلام ، وكان ملكه على ما يذكره الأخباريون في الشأم ، وكان له قصر منيف وحجّاب[2] . وذكر الطبري أنه كان (صاحب دمشق)[3] . وقد أدخله (محمد بن حبيب) في جملة (العرجان الأشراف)[4] . وقد عرف بـ (الحارث الأصغر) في شعر لحسان بن ثابت[5] .

وأرى ان الحارث بن أبي شمر هذا هو (الحارث) معاصر (جبلة بن الأيهم) الذي أشار حسان اليه .

وقد كان (حسان بن ثابت) زار الحارث بن أبي شمر الغساني ، وكان النعمان بن المنذر اللخمي يساميه ، فقال له وهو عنده : يا ابن الفريعة، لقد نبئت أنك تفضل النعمان عليّ فقال : وكيف أفضله عليك ثم أخذ يشرح تفضيله له على النعمان حتى سرّ الحارث ، ثم عاد حسان فنظم ما قاله نثراً فيه في أبيات زادت من سروره ، وحصل على جوائزه وعطاياه[6] .

وذكر أن حسان بن ثابت كان يفد على جبلة بن الأيهم سنة ، ويقيم سنة في أهله . فقال : « لو وفدت على الحارث أبي شمر الغساني فإنّ له قرابة ورحماً بصاحبي ، وهو أبذل الناس للمعروف ، وقد يئس مني أن أفد عليه لما يعرف من انقطاعي الى جبلة » . فخرج في السنة التي كان يقيم فيها بالمدينة ، حتى قدم على الحارث ، وقد هيأ له مديحاً . فقال له حاجبه وكان له ناصحاً : « إن الملك قد سُرّ بقدومك عليه ، وهو لا يدعك حتى تذكر جبلة . فإياك أن تقع فيه ،

١ المعارف (ص ٢٨١) .
٢ السيرة الحلبية (٣/٢٥٥) ، (طبعة مصر) ابن خلدون (٢/٣٦) .
٣ الطبري (٢/٦٥٢) (دار المعارف) .
٤ المحبر (ص ٣٠٤) .
٥ البرقوقي (ص ١٨٢) .
٦ البرقوقي (ص ١٨١ وما بعدها) ، مروج (٢/٣١) (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .

فانما يريد أن يختبرك ، وإن رآك قد وقعت فيه زهد فيك ، وإن رآك تذكر محاسنه ثقل عليه ، فلا تبتدىء بذكره ، وإن سألك عنه ، فلا تطنب في الثناء عليه ولا تعيبه ، امسح ذكره مسحاً وجاوزه الى غيره » . ثم نصحه بنصائح أخرى تنم عن سلوك الحارث ، وقد أفادته كثيراً . فلما دخل عليه ، حسنت منزلته عنده وصار يدعوه ،ثم حباه وأعطاه خمسمئة دينار وكسي والطافاً وعاد الى أهله[1].

ولو صح هذا الخبر ، فانه يدل على ان أمر الغساسنة في هذا الوقت لم يكن واحداً ، وان حكمهم كان قد تبدد وتشتت . وان جبلة بن جبلة كان يحكم على جماعة من غسان ، والحارث بن أبي شمر كان يحكم في الوقت نفسه على جماعة أخرى ، وكل منهما كان يحلّي نفسه بحلية الملك ، ومن يدري فلعل أشخاصاً آخرين كانوا ينازعونهما الحكم أيضاً ، ويحلّون أنفسهم بلقب (ملك) ، اللقب الحبيب الذي لم يكن يرتفع في الواقع عن درجة سيد قبيلة أو (شيخ) عشيرة في اصطلاحنا في الوقت الحاضر .

وقد ذكر أهل الأخبار اسم رجل قالوا انه كان قائداً من قواد (الحارث بن أبي شمر) ، ودعوه بـ (النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبي) ، وذكروا أنه أغار على بني فزارة وبني ذبيان ، فاستباحهم ، وسبى سبياً من غطفان . وأخذ (عقرب) بنت النابغة الذبياني . فلما سألها ، فانتسبت الى أبيها ، منّ عليها ثم أطلق له سبي غطفان . فلما سمع بذلك النابغة ، مدحه بقصيدة[2] . وسبق أن تحدثت عن (النعمان بن الجلاح الكلبي) في أثناء كلامي على الملك (النعمان بن الحارث) حين أغار قوم النابغة على أعراب (النعمان بن الحارث) بوادي أقر ،وكان النابغة قد نهى قومه وحذرهم من التحرش بهم ، فخالفوا رأيه،فأوقع بهم (ابن الجلاح) خسائر فادحة .

وفي ديوان حسان قصيدة ، مطلعها :

إني حلفت يميناً غير كاذبة لو كان للحارث الجفني أصحاب

يذكر شرّاحها أنه نظمها في رثاء (الحارث الجفني) ، وقالوا إن الحارث

---

١ الاغاني (١٤/٢ وما بعدها) .
٢ الاشتقاق (٣١٦/٢) ، ديوان النابغة (ص ٣٢ ، ٤٠) .

الجفني المذكور هو الحارث بن أبي شمر الغساني . وقد ذكروا أنه دافع فيها عن هزيمة أدركت الحارث في إحدى حروبه ، فعاد ومن معه بغير أسلاب ولا أسرى بل يظهر من أبياتها أن العدوّ أوقع به فقتل من جمعه ، وقد اعتذر الحارث بأن من معه لم يكونوا من (جذم غسان) وإنما كانوا من (مأشبة الناس) اي جماعة أوشاب الناس وأوباشهم أي الأخلاط التي تجتمع من كل أوب . ومثل هؤلاء لا تكرثهم الهزيمة ، ولا يبسالون بذلك ، إذ لا أحساب لهم ولا شرف ، فلا عجب ان أصيب بخيبة في هذه المعركة ومعه مثل هؤلاء الناس[1] .

ويظهر من القصيدة المذكورة ، أن الحارث بن أبي شمر ، كان قد توفي قبل (جبلة بن الأيهم) . وذلك لرثاء حسان له ولاجماع أهل الأخبار على ان جبلة عاش أمداً بعد ظهور الاسلام ، وأنه مات في بلاد الروم بعيداً عن بلاد الشأم وعن أرض آبائه وأجداده . وبدليل ما ورد في تأريخ الطبري من أن الرسول أرسل شجاعاً بن وهب الى رجل من غسان اسمه (المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني) . يدعوه الى الإسلام[2] . وهذا الرجل هو أحد أبناء الحارث المذكور .

وذكر الأخباريون رجلاً آخر من غسان ، دعوه (عدياً) ، وقالوا إنه ابن اخت الحارث بن أبي شمر الغساني ، وإنه أغار على بني أسد ، فلقيته (بنو سعد ابن ثعلبة بن دودان) بالفرات ، ورئيسهم (ربيعة بن حذار الأسدي)،فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتلت بنو سعد عدياً[3] . وقد سمي (محمد بن حبيب) هذا اليوم الذي وقع فيه القتال (يوم الفرات)[4] .

وأشار الواقدي الى ملك غساني اسمه (شرحبيل بن عمرو الغساني) ، وذكر أنه قتل رسولَ رسولِ الله الى ملك بصرى في مؤتة[5]. ويشك(نولدكه)في نسبة هذا الأمير الى الغسانين ، وحجته في ذلك أن الواقدي ذكره في موضع آخر مع أخويه (سدوس) و (بر) ، ونسبه في هذا الموضع الى الأزد . ثم انه لم يكن من عادة الغساسنة على رأيه ذكر لقب الغساني بعد الاسم[6] .

---

١ البرقوقي (ص ٢٩) .
٢ الطبري (٦٥٢/٢) (دار المعارف) .
٣ الاغاني (١٩٩/١١) (طبعة دار الكتب المصرية) .
٤ المحبر (ص ٢٤٧) .
٥ الواقدي (ص ٣٠٩) ، (طبعة ولهوزن) ، السيرة الحلبية (٦٦/٣) .
٦ غسان (ص ٤٨) .

وأشير في كتب الأدب الى اسم ملك من ملوك (غسان) قالوا له (قرص)، لم يذكروا عنه شيئاً ذكروه في حديثهم عن (عدي) قالوا : انه ابن (أخي قرص الغساني) ، وكان (عدي) هذا قد غزا (بني أسد) فقتلوه،وأوردوا في ذلك شعراً نسبوه الى الغساني :

لعمرك ما خشيت على عديّ   رماح بني مقيدة الحمار
ولكني خشيت على عديّ   رماح الجن أوايّاك حار[1]

ولم يرد اسم هذا الملك في القوائم التي وضعها المؤرخون أمثال اليعقوبي والطبري والمسعودي وابن خلدون وأمثالهم لملوك غسان . وعدي المذكور في خبر (قرص)، هو (عدي) المتقدم ولا شك .

وقد وفد (حسان بن ثابت) على (عمرو بن الحارث) ، فاعتاص الوصول اليه ، فلما طال انتظاره ، قال للحاجب : « إن أذنت لي عليه ، وإلاّ هجوت اليمن كلها ، ثم انقلبت عنكم » . فأذن له ودخل عليه ، فوجد عنده (النابغة) وهو جالس عن يمينه ، و (علقمه بن عبدة) وهو جالس عن يساره ، فقال له (عمرو) : « يا ابن الفريعة قد عرفت عيصك ونسبك في غسان فارجع ، فاني باعث اليك بصلة سنية ، ولا احتاج الى الشعر ، فإني أخاف عليك هذين السبُعين : النابغة وعلقمة ، أن يفضحاك ، وفضيحتك فضيحتي » ثم تلا عليه شعراً مما قاله الشاعران في مدحه . فأبى إلا ان يقول شعراً فيه ، وطلب من الشاعرين أن يسمحا له بالقول ، فقال فيه قصيدته التي تبدأ بقوله :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل   بين الجوابي فالبضيع فحومل[2]

وقد أورد في هذه القصيدة أسماء مواضع ، منها : (الجوابي) ، أي (جابية الجولان) ، و (البُضيع) أو (البصيع) ، وهو جبل قصير أسود على تل بأرض البلسة فيما بين (سيل) و (ذات الصنمين) و (حومل) و (مرج الصفرين) ، وهو موضع بغوطة دمشق ، و (جاسم) ، وهي قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الى طبرية . وكل هذه الأماكن التي ذكرها

١ ديوان حسان ، (ص ٢١٩) ، (البرقوقي) ، (ص ٧٩) (هرشفلد) .
٢ ديوان حسان (ص ٣٠٥) ، (البرقوقي) .

هي منازل كانت لآل جفنة ، الا انها خربت، وتركها أهلها حتى صارت دوارس تعاقبها الرياح[1] .

ثم تطرق الى ذكر من كان ينادمهم بـ (جلق) ، وهو موضع قيل انه بقرب دمشق ، وقيل انه (دمشق) : كيف كانوا كرماء أجواداً يجودون على من يفد عليهم ، لا فرق عندهم بين غني وفقير ، يمشون في الحلل القشيبة المضاعف نسجها ، ويجيرون من يستجير بقبر أبيهم (ابن مارية الكريم المفضل)، فلا يخاف من عدو ولا يخشى من اعتداء يقع عليه . كلابهم لا تهر ، لأنها ألفت الضيوف وأنست بهم من كثرة تدفقهم عليهم ، يسقون ماءً بارداً من (البريص) ، ومن (بردا) ، وهما نهران بدمشق ، ممزوجاً بالرحيق . ثم تذكر (قصر دومة) أي دومة الجندل ، وكيف شرب الخمر في حانوتها من ساق متنطف، أي مُقَرَّط وضع القرط في أذنه ، والمنطقة في وسطه[2] .

وجلق كما ذكرت موضع من مواضع الغساسنة ، ويظهر أن سلطان البيزنطيين لم يكن كبيراً عليه . وقد اشتهر ببساتينه وبكثرة أشجار الزيتون به، وبوفرة مياهه وقد تغنى به الشعراء في الاسلام ، فورد ذكره في شعر أبي نواس[3] . وكان الغساسنة يدفنون فيه موتاهم . ولهم ضريح ضم رفات ملوكهم . ومع شهرة المكان فقد اختلف الناس في تثبيت موضعه وتعيينه . والرأي الغالب انه ليس من أطراف دمشق كما ذهب الى ذلك بعض أهل الأخبار[4] .

وقد ترك الروم ساقتهم بـ (ثنية جلق) ، وعليها صاحب الساقة ، وذلك ليراقب المسلمين حينما تقدموا لطردهم من بلاد الشام . ولم يرد للغساسنة أي ذكر في الدفاع عن هذا المكان[5] .

ويظهر من نظم هذه القصيدة ، ومن أسلوبها ونفسها ، ومن تذكر (حسان) لآل جفنة بعد أن كبر وتقدمت به السن ، ان هذا الشعر هو من الشعر المتأخر،

---

١ ديوان حسان (ص ٣٠٧) ، (البرقوقي) ، (ص ٣٢) ، (هرشفلد) .
٢ البرقوقي (ص ٣٠٨ وما بعدها) .
٣ اللسان ، مادة (جلق) ، البلدان ، (جلق) .
٤ الموسوعه الاسلامية (٨٦/٧) ، الاغاني (٢/١٤) اللسان (٣٦/١٠) .
٥ الطبري (٣٩٢/٣) .

ولا أستبعد أن يكون قد نظمه بعد زوال ملك (الغساسنة) ، وقد أنشده أمام أحد الغساسنة المتأخرين ، ولم يكن ملكاً بالمعنى المفهوم من الملك .

وقد رثى حسان بن ثابت رجلاً من غسان قتله كسرى ، ولم يذكر اسمه ، ولا الأسباب التي حملت كسرى على قتله ، ولا الأحوال التي قتل فيها [1] . ويظهر من سياق الشعر الذي رثي به ذلك القتيل أن هذا القتيل قد وقع بعد أفول نجم آل غسان وادبار الدنيا عنهم . ولعلّه كان قد قتله بعد احتلال الفرس لبلاد الشأم. فكان هذا الغساني من المعارضين للفرس المناوئين لهم ، ولذلك قتلوه في فترة احتلالهم لها .

وقد أشار (أبو الفرج الأصبهاني) الى أمير غساني سمّاه : (يزيد بن عمرو الغساني) ، ذكر أنه قتل الحارث بن ظالم[2] . ولا نعرف من أمر هذا الأمير شيئاً يذكر . وهناك روايات أخرى تنسب قتل الحارث الى (النعمان الغساني) ، على حين تنسبه روايات ثالثة الى آل لخم ويرجح نولدكه الرأي الأخير[3] .

وقد ورد في شعر لحسان بن ثابت هجاء لـ (سلامة بن روح بن زنباع الجذامي) ، وكان يلي العشور للروم . ولا بد أن يكون ذلك في أيام الغساسنة المتأخرين . وقد شبهه بـ (دمية في لوح باب) ، أي كأنه صورة مصورة ، أو صنماً معلقاً على لوح باب[4] .

ومن الأماكن التي وردت في شعر (حسان بن ثابت) على أنها من مواضع الغساسنة (الجواء) و (عذراء) ، وهما موضعان بالشأم بأكتاف دمشق . والى (عذراء) هذه يضاف (مرج عذراء) ، وكانت في هذه المواضع منازل بني جفنة ، لذلك ذكرها (حصان) في شعره[5] . وذكر كذلك (بطن جلّق) و (البلقاء) ، و (المجبس) و (السند) و (بُصْرى) و (جبل الثلج)[6].

أما ما يفهم من شعر (حسان) وغير حسان من شمول ملك الغساسنة مدينة

---

١ البرقوقي (ص ٣٨٧ وما بعدها) .
٢ الاغاني (١٠/ ٢٨ وما بعدها) .
٣ غسان (ص ٤٨) .
٤ البرقوقي (ص ٢١٩) .
٥ البرقوقي (ص ١ وما بعدها) .
٦ البرقوقي (ص ١١٠) .

(دمشق) أو تجاوزها ومن وصوله مواضع قريبة منها أو ملتصقة بها ، فيجب أن نحمله محمل المجاز أو محمل مبالغات الشعراء في التفاخر والتباهي والمدح . فإذا استثنينا هذا الشعر لا نجد أي مورد تأريخي يقول باستيلاء الغساسنة على (دمشق) أو على مواضع متصلة بها . وكل ما نعرفه من الموارد التأريخية أن سلطانهم كان على أطراف بلاد الشأم ، أي على المواضع التي رأى الروم أن من الأصلح لهم تركها الى أمراء غسان ، لصعوبة ضبطها من الوجهة العسكرية بالنسبة اليهم . ولعل ما يذكره أولئك الشعراء هو تعبير عن قصور وأملاك اشتراها ملوك الغساسنة وأمراؤهم في (دمشق) وفي مواضع حضرية أخرى لقضاء بعض الوقت فيها كما يفعل الأمراء في الزمن الحاضر من شراء بيوت وقصور في لبنان وفي اوروبة يقيمون فيها بعض الوقت للتسلية والراحة . فزارهم فيها أولئك الشعراء ، ووصفوها وصفاً شاعرياً ، صوّر الشأم وما حولها كأنها ملك من أملاك الغساسنة .

لقد كان (آل جفنة) كلهم على النصرانية عند ظهور الاسلام ، وكانوا أصحاب دين وعقيدة، يدافعون عن مذهبهم كما رأينا . وكانت لهم بيع وكنائس بنوها لهم ولرعيتهم . وقد أشير الى رجل عرف بـ (أرطبان المرني) ، قيل انه كان (شماساً) في (بيعة غسان)[1] ، مما يدل على انها كانت بيعة خاصة بآل غسان .

وقد نسب بعض أهل الأخبار أماكن أخرى الى الغساسنة ، وذلك بالاضافة الى الأماكن التي سبق ان تحدثت عنها . ومن هذه الأماكن : صفين. وقد زعموا ان منزل (جبلة بن النعمان) كان به . وقد كان في الوقت نفسه صاحب عين أباغ[2].

ومن الأماكن المنسوبة الى الغساسنة موضع (حارب) . وقد ورد اسمه في شعر ينسب الى النابغة حيث يقول :

لئن كان للقبرين قبر بجلق وقبر بصيداء التي عند حارب[3]

وورد (قصر حارب) . وقد نسبه (حمزة) الى النعمان بن عمرو بن المنذر[4] .

---

١ الاصابة (١/١٠٢) .
٢ ابن خلدون : المجلد الثاني من القسم الاول ، (ص ٥٨٦) .
٣ البلدان (٣/١٨٣) ، البكري ، معجم (١/٤١٧) ، المعاني الكبير (٢/١٠١٥)
٤ حمزة (ص ٧٩) ، الهمداني ، صفة (ص ١٧٩) .

ويذكر أهل الأخبار (السويداء) في جملة الأماكن التابعة للغساسنة . وقد رجع (حمزة) بناءها الى (النعمان بن عمرو بن المنذر)[1] . وتقع في (حوران)[2] .

والرصافة من المواضع المهمة عند الغساسنة ، ففيها مشهد القديس (سرجيوس) وهو من القديسين الجليلين عند الغساسنة ، وكانوا يتبركون بزيارة قبره، ويتقربون اليه بالهدايا والنذور . وكان لآل جفنة مساكن فيها ، وقد قاموا باصلاح ما كان يتهدم منها ، فقام (النعمان بن الحارث بن الأيهم) باصلاح وترميم صهاريج المدينة . وكان (النعمان بن جبلة) فيمن أقام بها[3] .

أما حدود مملكة الغساسنة ، فلم تكن على وجه العموم ثابتة ، بل كانت تتبدل وتتغير بحسب تبدل سلطة الملوك ، وتغيّرها ، وهي عادة نجدها لدى جميع الممالك والامارات التي تكوّنت في البادية أو على أطراف البوادي ، حيث تكون معرضة لغزو القبائل ، ولنفوذ القبائل الفتية القوية التي تطمع في ملك الإمارات التي تجد فيها شيئاً من الوهن والضعف ، وفي رؤسائها دعة أو حزماً . ولهذا نجد ملك الغساسنة يتوسع ويتقلّص بحسب الظروف فيصل الى مقربة من دمشق، والى فلسطين الثانية و (الكورة العربية) و (فلسطين الثالثة) و (فينيقية لبنان) . والى ولايات سوريا الشمالية في بعض الأحيان[4] . وفي مساحات شاسعة من البادية الى المدى الذي يصل اليه سلاحهم . ثم نجده تارة أخرى أقل من ذلك بكثير، لضعف الأمير المالك ولطمع القبائل فيه ولاختلافه مع السلطات . ويظهر من شعر حسان ابن ثابت ان ملك الغساسنة كان يمتد من حوران الى (خليج العقبة)[5] .

وتعدّ منطقة الجولان من أشهر مناطق الغساسنة . وقد ورد ذكرها في الشعر العربي ، وفيها قُبر بعض الأمراء الغسانيين . وهي من الأرضين التابعة لولاية فلسطين الثانية في التقسيم الاداري عند الروم، وبها كان في الغالب مقر آل غسان[6]. وقد اشتهرت (الجابية) بأنها كانت مقر الملوك ، ولذلك عرفت بجابية الملوك ،

---

١ حمزة (ص ٧٩) .
٢ الحموي ، المشترك (ص ٣١١) ، مراصد الاطلاع (٢/ ٧٠ وما بعدها) .
٣ البلدان ، مادة الرصافة ، البكري ، معجم ، الرصافة .
٤ غسان (ص ٥١) .
٥ المشرق ، السنة الاولى ، حزيران ١٨٩٨ م (٤٨٥) .
٦ غسان (ص ٥١ وما بعدها) ، John of Ephesus, 4, 22.

كما عرفت أيضاً بجابية الجولان[1] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن قصر المشتّى الذي نقلت بعض أحجار جدرانه المحفورة بالصور الجميلة الى متحف برلين ، هو من القصور التي أنشأها الغساسنة ، وكذلك بعض الآثار الأخرى الواقعة في البادية .

وفي (البرج) عثر على كتابة يونانية جاء فيها : « البطريق الشريف والأمير المنذر » . ويدل ذلك على أنه من آثار (المنذر) . أما بقية المواضع ، وهي عديدة منتشرة في أماكن واسعة ، فللعلماء في أصلها نظريات وآراء .

أمراء غساسنة :

وذكر الأخباريون أميراً جفنيّاً دعوه (جفنة بن النعمان الجفني) ، قالوا إنه غزا الحيرة في أثناء ذهاب النعمان بن المنذر الذي قتله كسرى الى البحرين ، فأصاب في الحيرة ما أحب . وذكروا أنه هو الذي عناهُ عديّ بن زيد العبادي في قصيدة مطلعها :

سما صقرٌ فأشعل جانبيها وألهاك المروّح والعزيب[2]

وذكر (أبو حنيفة الدينوري) اسم رجل من غسان ، دعاه (خالد بن جبلة الغساني) ، قال عنه : « قالوا : وإن خالد بن جبَلة الغساني غزا النعمان بن المنذر ، وهو المنذر الأخير ، وكانا منذرين ، ونُعمانين ، فالمنذر الأول هو الذي قام بأمر بهرام جور ، والمنذر الثاني الذي كان في زمان كسرى أنو شروان ، وكان عمّال كسرى على تخوم أرض العرب ، فقتل من أصحاب المنذر مقتلة عظيمة ، واستاق إبل المنذر وخيله ، فكتب المنذر الى كسرى أنو شروان يخبره بما ارتكبه منه خالد بن جبلة »[3] . وقد ذكره في موضع آخر ، في أثناء كلامه على ذهاب (كسرى) الى قيصر ، إذ قال : « وسار كسرى حتّى انتهى الى اليرموك ، فخرج اليه خالد بن جبلة الغساني فقراه ، ووجه معه خيلاً حتّى بلغ قيصر »[4] .

---

١ Ency., I, P. 1029.

٢ الاغاني (٢/١١٧ وما بعدها) ، (طبعة دار الكتب) .

٣ الاخبار الطوال (ص ٦٨) .

٤ الاخبار الطوال (ص ٩١) .

وقد مدح حسان بن ثابت الأنصاري أميرين من أمراء غسان ، هما : عمرو وحجر . وقد ذكر أنهما ملكا من (جبل الثلج) حتى جانبي (أيلة) ، وانهما غزوا أرض فارس[1] . ويرى (نولدكه) احتمال كون حجر هذا هو أحد أبناء النعمان الذي كُنّي بأبي حجر[2] .

وقد ذهب بعض الأخباريين الى أن عمراً المذكور في هذه الأبيات هو عمرو بن عدي بن حجر بن الحارث . وأما حجر ، فهو حجر بن النعمان بن الحارث بن أبي شمر[3] . والذي يتبين من هذه القصيدة أن الملكين المذكورين حكما في زمن واحد ، وغزوا مشتركين أرض فارس ، ويقتضي ذلك أن يكونا قريبين ، كأن يكونا أباً أو ابناً ، أو أخوين ، أو أن كل واحد منهما كان يحكم فرعاً من فروع غسان ، وذلك بعد تصدع أمر غسان وانقسامهم الى جملة (مشيخات) .

ويرى (ابن الأثير) أن : أبا جبيلة عبيد بن مالك بن سالم ، وهو ملك من ملوك غسان على رواية بعض الأخباريين ، لم يكن من آل غسان، وانما كان من (بني غضب بن جشم بن الخزرج)،ذهب الى غسان فصار عظيماً عند ملكهم ، مطاعاً بينهم ، واليه ذهب (مالك بن العجلان الخزرجي) مستجيراً به من يهود يثرب ، فأنجده وسار معه حتى أوقع في اليهود ، ثم رجع عائداً الى غسان[4] .

ولعل (أبا جبيلة الغساني) ، الذي ذهب اليه الشاعر الجاهلي (الرمق بن زيد ابن غنم)[5] ، هو هذا الملك الذي نتحدث عنه .

ويتبين من شعر للأعشى ميمون بن قيس أنه زار الغساسنة ، وصحب ملوكهم في ديار الشأم[6] ، واتصل بهم ، وقد خاطب أحدهم بقوله : «اليك ابن جفنة»[7] ،

---

١ من يغر الدهر أو يامنه   من قبيل بعد عمرو وحجر
ملكا من جبلَ الثلج الى   جانبي أيلة من عبد وحر
الاغاني (٣/١٦) ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، البرقوقي (ص ٢٠٥) .

٢ غسان (ص ٤٤) .

٣ الاغاني (٣/١٦) ، (طبعة دار الكتب المصرية) .

٤ الكامل ، لابن الاثير (١/٢٧٦) .

٥ البيان (١/٢٣٨) .

٦ وصحبنا من آل جفنة املاكا   كراما بالشام ذات الرفيف
ديوان الاعشى (ص ٣١٥) ، (طبعة الدكتور م . محمد حسين) ، (ص ٢١١) (طبعة كاير) (Geyer) ، القصيدة رقم ٦٣ ، البيت ١٣ .

٧ اليك ابن جفنة من شقة   دأبت السرى وحسرت القلوصا
القصيدة ٣١ ، البيت العاشر ، ديوان الاعشى (ص ٢٠٧) ، (طبعة م. محمد حسين) ، (١٣٩) ، (طبعة كاير) (Geyer) .

غير أنه لم يذكر اسمه .

ووصل الينا اسم أمير من غسان ، هو (الشيظم بن الحارث الغساني) ، قتل رجلاً من قومه ، وكان المقتول ذا أسرة ، فخافهم فلحق بالعراق أو بالحيرة متنكراً ، وكان من أهل بيت الملك ، ومكث أمداً متنكراً ، حتى وافق غرة من القوم،فركب فرساً جواداً من خيل المنذر وخرج من الحيرة يتعسف الأرض، حتى نزل بحيّ من (بهراء) فأخبرهم بشأنه ، فأعطوه زاداً ورمحاً وسيفاً وخرج حتى أتى الشام فصادف الملك متبدّياً ، فأتى قبته ، وقصّ قصته،فبعث الى أولياء المقتول فأرضاهم عن صاحبهم[1] .

قوائم ملوك الغساسنة :

ولا بد لي ، وقد انتهيت من الكلام على الغساسنة ، من الاشارة الى ضعف مادة الأخباريين عنهم ، وقلة معرفتهم بهم ، فأنت اذا درست هذا الذي رووه عنهم ، وحللته تحليلاً علمياً لا تخرج منه الا بنتائج تأريخية محدودة ضيقة تريك انهم لم يكونوا يعرفون من أمرهم الا القليل ، وانهم لم يحفظوا من أسماء أفراد الأسرة الحاكمة غير أسماء قليلة ، وما عداها فتكرار واعادة لهذه الأسماء القليلة ، أو أوهام . وأنت اذا راجعت التواريخ مثل تأريخ الطبري لا تكاد تجد فيها شيئاً يذكر عن هذه الأسرة . وقد تفوق كتب الأدب كتب التأريخ في هذا الباب . ويعود الفضل في ذلك الى الشعر ، فلعدد من شعراء الجاهلية أشعار في مدح آل جفنة أو ذمهم ، ولهم معهم ذكريات حفظت بفضل هذا الشعر الذي يرويه الرواة ويروون المناسبات التي قيل فيها . فلولاه ضاع أيضاً هذا القليل الذي عرفناه من أخبار الغساسنة .

وحتى القوائم ، وهي جافة في الغالب ، لا تستند أيضاً الى علم بالرغم من هذا الترتيب الذي يحاول أصحابه اظهاره لنا بمظهر الواقع والحق . ولن تكسب سنوات الحكم المذكورة مع كل ملك ثقتنا بها . ولا اعتمادنا عليها . وقد اعتمد

---

١ النوادر ، للقالي (ص ١٧٩) ، (خبر الشيظم الغساني ونزوله بملك الشام مستجيرا) .

أكثر من رتّب أسماء أمراء الغساسنة على رواية (ابن الكلبي) ، غير أنهم كما يظهر من مدوّناتهم لم يرووها عنه رواية تامة ، بل تصرفوا فيها ، فزادوا عليها أو نقصوا منها وحرّفوا فيها بعض التحريف . وأخذ آخرون من موارد أخرى، واستعان بعض آخر بما رواه (ابن الكلبي) وبما رواه غيره وأضافوا اليه ما عرفوا من أسماء المذكورين في الشعر ، وهم من سادات قبيلة (غسان) ، ولم يكونوا كلهم ملوكاً ، فجاءت النتيجة قوائم متعددة بتعدد مشارب أصحابها،وهي على العموم شاهد عدل على ضعف الأخباريين في المحاكمات وفي منطق التأريخ .

وقد درس (نولدكه) معظم القوائم التي رواها الأخباريون لأمراء الغساسنة، ونقدها وغربلها ، وقارن الحاصل بما وجده في الموارد السريانية والبيزنطية ، واستخلص من تلك الدراسة هذه القائمة :

أبو شمر جبلة . حكم حوالي سنة ٥٠٠ م تقريباً .

الحارث بن جبلة . استمر حكمه من حوالي سنة ٥٢٩ حتى سنة ٥٦٩ م .

أبوكرب المنذر بن الحارث . حكم من سنة ٥٦٩ حتى سنة ٥٨٢ م .

النعمان بن المنذر . وكان حكمه من سنة ٥٨٢ حتى سنة ٥٨٣ م .

الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر .

الحارث الأعرج بن الحارث الأصغر .

أبو حجر النعمان . بين سنة ٥٨٣ وسنة ٦١٤ م .

عمرو .

حجر بن النعمان .

؟ ؟ ؟ ؟

جبلة بن الأيهم . حوالي سنة ٦٣٥ م .

ورتب (ابن قتيبة الدينوري) ، أسماء ملوك الغساسنة على هذا النحو :

الحارث بن عمرو بن محرق ، وهو (الحارث الأكبر)،ويكنى (أبا شمر).

الحارث بن أبي شمر ، وهو (الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر) . وأمه (مارية ذات القرطين) .

الحارث بن الحارث بن الحارث . وهو الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج ابن الحارث الأكبر .

وكان له أخوة ، منهم : النعمان بن الحارث . وهو والد ثلاثة بنين : حجر ابن النعمان ، وبه كان يُكنى ، والنعمان بن النعمان ، وعمرو بن النعمان .

ومن ولد الحارث الأعرج أيضاً عمرو بن الحارث ، وكان يقال له : أبو شمر الأصغر . ومن ولده : المنذر بن المنذر والأيهم بن الحارث . وهو أبو (جبلة ابن الأيهم) ، وجبلة آخر ملوك غسان[1] .

وأما المسعودي ، فيرى أن عدة من ملكوا من آل غسان أحد عشر ملكاً ، ذكر منهم :

١ ـ الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن ماس (مازن) ، وهو غسان بن الأزد بن الغوث .

٢ ـ الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة . وأمه مارية ذات القرطين بنت أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمر .

٣ ـ النعمان بن الحارث بن ثعلبة بن جبلة بن جفنة بن عمرو .

٤ ـ المنذر أبو شمر بن الحارث بن جبلة بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو .

٥ ـ عوف بن أبي شمر .

٦ ـ الحارث بن أبي شمر . وكان ملكه حين بعث رسول الله .

٧ ـ جبلة بن الأيهم[2] .

وذكر المسعودي ، أن جميع من ملك من ملوك غسان بالشام أحد عشر ملكاً . ولم يذكرهم في قائمته كلهم[3] .

أما ملوك (الغساسنة) ، على ما جاء في (كتاب المحبر) ، فانهم على هذا النحو : (ثعلبة) ، فابنه (الحارث) ، فابنه (جبلة) ، فابنه (الحارث) وهو المعروف بـ (ابن مارية ذات القرطين) ، و (النعمان بن الحارث) ، و (المنذر) ابنه ، و (المنيذر بن الحارث) ، و (جبلة بن الحارث) ، و (أبو شمر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن عمرو بن جفنة) ، و (الحارث الأعرج بن أبي شمر بن عمرو بن الحارث بن عوف بن

---

١ المعارف (٦٤٢ وما بعدها) ، (طبعة ثروت عكاشة) .
٢ مروج (٨٢/٢ وما بعدها) ، (دار الاندلس) .
٣ مروج (٨٦/٢) ، (دار الاندلس) .

عمرو بن عدي بن عمرو بن الحسحاس) وهو (حارثة بن بكر بن عوف بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد) وليس بجفني ، ولكن أمه جفنية، فلم يزل الملك فيهم حتى كان آخرهم (جبلة بن الأيهم بن جبلة) ، وهو الذي اتصل ملكه بخلافة عمر بن الخطاب[1] .

وجاء ترتيب ملوك الغساسنة في التعليقات التي طبعها (هرشفلد) مع ديوان (حسان) على هذا النحو : « كان أول من ملك من غسان : الحارث بن عمرو ابن عدي بن حجر بن الحارث ، ثم عمرو بن الحارث ، ثم الحارث بن عمرو، وهو أبو شمر الأكبر ثم الحارث بن الحارث بن أبي شمر ، فالحارث الأصغر بن الحارث الأوسط وهو الأعرج ، فالنعمان بن الحارث ، فجبلة بن الأيهم ، وهو الذي أدرك الاسلام »[2] .

قائمة حمزة :

وأشهر قائمة ذكرها الأخباريون لملوك غسان،القائمة التي ذكرها حمزة الأصبهاني وتتألف من :

١ ـ جفنة بن عمرو المعروف بمزيقياء .
٢ ـ عمرو بن جفنة .
٣ ـ ثعلبة بن عمرو .
٤ ـ الحارث بن ثعلبة .
٥ ـ جبلة بن الحارث .
٦ ـ الحارث بن جبلة .
٧ ـ المنذر بن الحارث .
٨ ـ النعمان بن الحارث .
٩ ـ المنذر بن الحارث .
١٠ـ جبلة بن الحارث .
١١ـ الأيهم بن الحارث .

---

١ المحبر (ص ٣٧٢) .
٢ ديوان حسان (ص ٩٦) ، (هرشفلد) .

١٢ ــ عمرو بن الحارث .
١٣ ــ جفنة بن المنذر الأكبر .
١٤ ــ النعمان بن المنذر الأكبر .
١٥ ــ النعمان بن عمرو .
١٦ ــ جبلة بن النعمان .
١٧ ــ النعمان بن الأيهم .
١٨ ــ الحارث بن الأيهم .
١٩ ــ النعمان بن الحارث .
٢٠ ــ المنذر بن النعمان .
٢١ ــ عمرو بن النعمان .
٢٢ ــ حجر بن النعمان .
٢٣ ــ الحارث بن حجر .
٢٤ ــ جبلة بن الحارث .
٢٥ ــ الحارث بن جبلة (ابن أبي شمر) .
٢٦ ــ النعمان بن الحارث (أبو كرب) .
٢٧ ــ الأيهم بن جبلة بن الحارث .
٢٨ ــ المنذر بن جبلة .
٢٩ ــ شراحيل بن جبلة .
٣٠ ــ عمرو بن جبلة .
٣١ ــ جبلة بن الحارث .
٣٢ ــ جبلة بن الأيهم .

وقد نقل ابن خلدون من جملة كتب ألف منها الفصل الذي كتبه عن تأريخ آل غسان ، وكذلك الفصل الذي دونه عن تأريخ الحيرة . أما الموارد التي نقل منها فصل آل غسان ، فتواريخ ابن سعيد والمسعودي وابن الكلبي والجرجاني . وأما الموارد التي نقل منها ابن خلدون مادة فصله عن تأريخ الحيرة ، فتواريخ السهيلي وأبي عبيدة والطبري وابن اسحاق والمسعودي وابن سعيد والجرجاني والبيهقي[١] . واكثر اعتماده في النقل على الطبري .

١ ابن خلدون (٢/٢٥٩ وما بعدها) .

وقد اكتفى ابن خلدون بالنبذ التي أخذها من هذه الموارد ولم يُبدِ رأيه فيها ولم يرتبها ترتيباً زمنياً مع ذكر أهم الأعمال التي قام بها كل ملك من أولئك الملوك كما فعل حمزة مثلاً، فأورد أسماء ملوك الغساسنة، كما ذكرتها الموارد التي أخذ منها، أو نقلها في شيء من الاختصار، فنقل قائمة المسعودي، والمسعودي نفسه لا يتقيد بالترتيب والتدقيق، ونقل قائمة الجرجاني وتبدأ بثعلبة بن عمرو شقيق جذع بن عمرو قاتل ملك سليح. وتنتقل بالملك من ثعلبة الى ابنه الحارث ابن ثعلبة، وهو ابن مارية عند بعضهم، يليه ابنه المنذر، ثم ابنه النعمان، ثم أبي بشر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة على رواية بعض النسابين أو أبي بشر بن عوف بن الحارث بن عوف بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن، ثم الحارث الأعرج، ثم ابن أبي شمر، ثم عمرو ابن الحارث الأعرج، ثم المنذر بن الحارث الأعرج، ثم الأيهم بن جبلة بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، ثم ابنه جبلة[1].

وقد ناقش نولدكه في كتابه عن آل غسان هذه القوائم التي نقلها ابن خلدون كما ناقش غيرها من القوائم التي وجدها في التواريخ المخطوطة أو المطبوعة التي تمكّن من الحصول عليها، وأظهر ما فيها من خلل ونقص في نهاية ذلك البحث[2].

١ ابن خلدون (٢/ ٢٨٠) .

٢ (ص ٥٨ وما بعدها) من النص العربي ، (وصفحة ٥٣) من النص الالماني .

الفصل الحادي والأربعون

العرب والحبش

صلات العرب بالحبشة صلات قديمة معروفة ترجع الى ما قبل الميلاد . فبين السواحل الافريقية المقابلة لجزيرة العرب وبين السواحل العربية اتصال وثيق قديم ، وتبادل بين السكان . اذ هاجر العرب الجنوبيون الى السواحل الافريقية وكوّنوا لهم مستوطنات هناك ، وهاجر الأفارقة الى العربية الجنوبية ، وحكموها مراراً ، وقد كان آخر حكم لهم عليها قبل الاسلام بأمد قصير .

ويرى بعض الباحثين ان أصل الحبش من غرب اليمن من سفوح الجبال ،وفي اليمن جبل يسمى جبل (حُبَيْش) ، قد يكون لاسمه صلة بالحبش الذين هاجروا الى افريقية وأطلقوا اسمهم على الأرض التيعرفت باسمهم،أي (حبشت) أو الحبشة[1] .

ويرون أيضاً ان (الجعز) أو (جعيزان) كما يدعون كذلك ، Cesani هم الذين وضع (بليني) منازلهم على مقربة من (عدن) . فهم من أصل عربي جنوبي . هاجر الى الحبشة وكوّن مملكة هناك[2] . والى هؤلاء نسبت لغة الحبش، حيث عرفت بالجعزية ، أي لغة الجعز[3] .

---

١ Beiträge, S. 75, 119, Conti Rossini, in Expeditions et Possessions des Habasat en Arabie, Journal Asiatique, 1921, P. 5, Die Araber, I, S. 114, E. Littmann, in : Handbuch der Orietalistik, III, 2-3, 350, 376.

٢ Die Araber, II, S. 274.

٣ Die Araber, I, S. 114.

ويظن ان العرب الجنوبيين هم الذين موّنوا السواحل الافريقية المقابلة بالعناصر السامية . وكانوا قد هاجروا مراراً اليها،ومن بين تلك الهجرات القديمة ، هجرة قام بها السبئيون في القرن الخامس قبل الميلاد . وقد هاجر معهم (الحبش) في ذلك الوقت أيضاً . وقد توقف سيل الهجرات هذه حين تدخل (البطالمة) في البحر الأحمر،وصار لهم نفوذ سياسي وعسكري على جانبي هذا البحر. غير أنها لم تنقطع انقطاعاً تاماً ، إذ يرى بعض الباحثين أن العرب كانوا قد دخلوا الحبشة والسواحل الإفريقية المقابلة فيما بعد الميلاد أيضاً ، فنزحوا اليها فيما بين السنة (٢٣٢) والسنة (٢٥٠) بعد الميلاد مثلاً ، حيث ركبوا البحر ونزلوا هناك[١] .

وقد تبين أن السبئيين كانوا قد استوطنوا في القرن السادس قبل الميلاد المناطق التي عرفت باسم (تعزية) Ta'izziya من أرض (أريتريا) ونجد الحبشة ، وكوّنوا لهم حكومة هناك . وأمدوا الأرضين التي استولوا عليها بالثقافة العربية الجنوبية[٢] . ولم يقطع هؤلاء السبئيون صلاتهم بوطنهم القديم ، بل ظلت أنظارهم متجهة نحوه في تدخلهم وهم في هذا الوطن بشؤونه وارسالهم حملات عليه واحتلالهم له في فترات من الزمن . ولعلّ ما جاء في أحد النصوص من (مصر) الحبشة ، قصد به هؤلاء الذين كانوا قد استوطنوا تلك المنطقة من إفريقية[٣] .

وفي القرن السادس قبل الميلاد،كان الأوسانيون قد نزحوا الى السواحل الافريقية الشرقية ، فاستوطنوا الأرضين المقابلة لـ Pemba ولـ (زنزبار) Zanzibar وهي (عزانيا) Azania ، وتوسعوا منها نحو الجنوب . وقد عرف هذا الساحل في كتاب « الطواف حول البحر الأريتري » ، باسم Ausaniteae ، وهو اسم يذكرنا بـ (أوسان) . وقد ذكر مؤلف الكتاب ، أنه كان خاضعاً في أيامه (القرن الأول بعد الميلاد) ، لحكّام Mapharitis[٤] . ويريد بهم حكام دولة (سبأ وذو ريدان)[٥] .

وقد عثر الباحثون على حجر مكتوب في حائط كنيسة قديمة بالقرب من

١ Die Araber, I, S. 126.

٢ Arabien, S. 25.

٣ Glaser 1076, Arabien, S. 25.

٤ Periplus Maris Erythraei, 22, Arabien, S. 25.

٥ Arabien, S. 25.

(أكسوم) ، وإذا به كتب بالسبئية ، وفيها اسم الإلهة السبئية (ذت بعدن) (ذات بعدن) (ذات البعد) وعثر على بقايا أعمدة في موضع (يحا) الواقع شمال شرقي (عدوة) Adua ، تدل على وجود معبد سبئي في هذا المكان ، كما عثر على مذبح سبئي خصص بالإله (سن) (سين) . وعثر على كتابات وأشياء أخرى تشير كلها الى وجود السبئيين في هذه الأرضين[1] .

وعرف ملك الحبش بـ (النجاشي) عند العرب . واللفظة لقب تطلقه العربية على كل من ملك الحبشة ، فهي بمنزلة (قيصر) ، اللفظة التي يطلقها العرب على ملوك الروم ، و (كسرى) التي يطلقونها على من حكم الفرس ، و (تبع) التي يطلقونها على من يحكم اليمن . أما في العربية الجنوبية ، فقد أطلقت لفظة (ملك) على من ملك الحبشة . وقد ورد (ملك اكسمن)،أي (ملك اكسوم) وورد (ملك حبشت) ، أي ملك الحبشة . فأخذ العرب اللفظة من الحبش . وهي في الحبشية بمعنى جامع الضريبة ، والذي يستخرج الضريبة ، فهي وظيفة من الوظائف في الأصل ، ثم صارت لقباً[2] . وورد في بعض النصوص العربية الجنوبية اذ لقب به (جدرة) مثلاً[3] .

ويظن ان مملكة (أكسوم) التي ظهرت في أوائل أيام النصرانية ، قد كانت دولة أقامها العرب الجنوبيون في تلك البلاد . وقد استطاع الباحثون من العثور على عدد من الكتابات تعود الى ملوك هذه المملكة ، دوّن بعض منها باليونانية مما يدل على تأثر ملوك هذه المملكة بالثقافة اليونانية وعلى وجود جاليات يونانية هناك نشرت ثقافتها في الحبشة . وقد عرفت هذه المملكة بمملكة (أكسوم) (اكسمن) نسبة الى عاصمتها مدينة (اكسم) (أكسوم)[4] .

وقد كان ملوك أكسوم وثنيين . بقوا على وثنيتهم الى القرن الرابع أو ما بعد ذلك للميلاد . ويظن ان الملك (عزانا) Ezana وهو ابن الملك (الاعميدا) Ela-Amida ، هو أول ملك تنصر من ملوك هذه المملكة وذلك لعثور الباحثين على آثار تعود الى عهده ، ترينا القديمة منها أنه كان وثنياً ، وترينا الحديثة منها

---

١ Handbuch, I, S. 34.

٢ Die Araber, II, S. 293.

٣ Die Araber, I, S. 115, II, S. 295.

٤ Die Araber, I, S. 114.

أنه كان نصرانياً ، مما يدل على أنه كان وثنياً في أوائل أيام حكمه ، ثم اعتنق النصرانية ، فأدخل شعارها في مملكته ، وذلك بتأثير المبشرين عليه[1] .

وفي جملة ما يستدل به على تأثير العرب الجنوبيين في الحبش ، هو الأبجدية الحبشية المشتقة من الخط العربي الجنوبي . وقرب لغة الكتابة والتدوين عندهم من اللهجات العربية الجنوبية . وبعض الخصائص اللغوية والنحوية التي تشير الى أنها قد أخذت من تلك اللهجات . ثم عثور العلماء على أسماء آلهة عربية جنوبية ومعروفة في كتابات عثر عليها في الحبشة والصومال . ووجودها في هذه الأرضين هو دليل على تأثر الافريقيين بالثقافة العربية الجنوبية،أو على وجود جاليات عربية جنوبية في تلك الجهات .

وكما تدخل العرب في شؤون السواحل الإفريقية المقابلة لهم ، فقد تدخل الافريقيون في شؤون السواحل العربية المقابلة لهم . لقد تدخلوا في أمورها مراراً. وحكموا مواضع من ساحل العربية الغربية ومن السواحل الجنوبية وتوغلوا منها الى مسافات بعيدة في الداخل حتى بلغوا حدود نجران .

ويظهر من الكتابات الحبشية ، أن الحبش كانوا في العربية الجنوبية في القرن الأول للميلاد . وقد كانوا فيها في القرن الثاني أيضاً . ويظهر أنهم كانوا قد استولوا على السواحل الغربية ، وهي سواحل قريبة من الساحل الافريقي ومن الممكن للسفن الوصول اليها وانزال الجنود بها . كما استولوا على الأرضين المسماة بـ Kinaidokolpitae في جغرافية (بطلميوس)[2] .

وورد في نص من النصوص الحبشية ، أن ملك (أكسوم) ، كان قد أخضع السواحل المقابلة لساحل مملكته ، وذلك بارساله قوات برية وبحرية تغلبت على ملوك تلك السواحل من الـ (Arrhabite) (الأرحب) (الأرحبية) (أرحب)[3] والـ Kinaidokolpite ، وأجبرتهم على دفع الجزية ، وعلى العيش بسلام في البر

---

١ Handbuch, S. 34, D.H. Müller, Epigraph., S. 37, 44, Aksum Expedition, 1913, BD., IV, S. 32.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٣ (ارحب : حي أو مكان . وفي المعجم : انه مخلاف باليمن يسمى بقبيلة كبيرة من همدان) ، (أرحب : بلد على ساحل البحر بينه وبين ظفار نحو عشرة فراسخ) ، تاج العروس (٤٩٢/٢) ، (طبعة الكويت) ، (رحب) .

وفي البحر . ويرى بعض الباحثين أن المراد بـ (Arrhabite) بدو الحجاز . وأن Kinaidokolpite ، هم (كنانة) . وأن السواحل التي استولى الأحباش عليها تمتد من موضع (لويكه كومه) Leuke Komé (القرية البيضاء) الى أرض السبئيين[1] .

ويرى (فون وزمن) أن احتلال الحبش لأرض Kinaidokolpitae ، الأرض المسماة باسم قبيلة لا نعرف من أمرها شيئاً ، والتي ورد اسمها في كتابة Monumentum Adulitanum فقط وفي جغرافية (بطلميوس) ، كان قبل تدوين تلك الكتابة وربما في حوالي السنة (١٠٠) بعد الميلاد . ويراد بها ساحل الحجاز وعسير من ينبع Ianbia في الشمال الى السواحل الجنوبية الواقعة على البحر العربي شمال (وادي بيش) ،فشملت الأرض المذكورة والتهائم والساحل كله[2] .

غير اننا نجد أن مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) يشير من جهة أخرى الى أن الساحل الافريقي المسمى بـ (تنجانيقا) في الوقت الحاضر كان في أيدي الحميريين في ذلك الوقت[3] . ومعنى ذلك ان ملك حمير استطاع في أيام ذلك المؤلف من الاستيلاء على ذلك الساحل ومن ضمه الى ملكه . كما فعل أهل حضرموت وعمان فيما بعد .

ووردت جملة (احزب حبشت) في النص الموسوم بـ (CIH 314+954) . وهي تشير الى وجود (أحزاب) أي جماعات من الحبش في العربية الجنوبية . وقد يراد بها مستوطنات حبشية وقوات عسكرية كانت قد استقرت في تلك البلاد[4]. كما وردت في النص الموسوم بـ Ryckmans 535 الذي يتحدث عن حرب أعلنها (الشرح يحضب) على (احزب حبشت) ، و (ذى سهرتن) و (شمر ذى ريدان)[5] .

وأشار (اصطيفان البيزنطي) الى قوم دعاهم Abasynoi ، يظهر من قوله ان مواطنهم كانت في شرق حضرموت . ويفهم من كلامه أن هؤلاء كانوا حبشاً

---

١ Beiträge, S. 119.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 472.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 480.

٤ Die Araber, II, S. 275.

٥ Le Muséon, 1956, P. 154, Die Araber, II, S. 275.

يقيمون في هذه الأرضين . وقد يكونون قد استولوا عليها بالقوة وألحقوا ما استولوا عليه بمملكة أكسوم[1] .

وورد في كتابات تعود الى أيام (علهان نهفان) ، بأن هـذا الملك كان قد تفاوض مع (جدرت) (جدرة) ملك (أكسوم) والحبشة لعقد صلح معه . ويظهر من جملة « واقول وقدمن واشعب ملك حبشت » ،أي « وأقيال وسادات وقبائـل ملك الحبشة » ، الواردة فيها ، أن ملك الحبشة كان يحـكم جزءاً من العربية الجنوبية في ذلك الوقت ، وان الملك (علهان نهفان) تفاوض معه لتحسين العلاقات السياسية فيما بينه وبين الحبش ولضمان مساعدتهم في حروبه مـع منافسيه وخصومه[2] . ويرى (فون وزمن) أن تلك المفاوضات كانت قد جرت في حوالي السنة (١٨٠) بعد الميلاد[3] .

وقد عقد (علهان) حلفاً مع الحبش ، ويظهر أنه عقده بعـد انتهائه من الحرب التي أعلنها على حمير . تلك الحرب التي اشترك الحبش فيها أيضاً وكذلك أهل حضرموت . ولما عقـد (علهان) الحلف مع الحبش ، كان ابنه (شعر أوتر) قد اشترك معه في الحكم[4] .

ولم يدم الحلف الذي عقد بين (علهان) وابنه (شعر أوتر) من جهـة والحبش من جهة أخرى ، إذ سرعان ما نقض ووقعت الحرب بين (شعر أوتر) وبين (الحبش) على نحو ما ذكرت في أثناء حديثي عن حكم (شعر أوتر) . إلا أنه لم يتمكن من القضاء عليهم ، ولم يزحهم عن اليمن . بل بقوا في الأرضين التي كانت خاضعة لهم والتي تقع في الجزء الغربـي من اليمن[5] .

وقد جـاء اسم (جدرت) (جدرة) على هذه الصورة : (جدر نجش اكسم) في النصوص . وورد على هذه الصورة : (جدرت ملك حبشت واكسمن) في النص الذي وسم بـ Jamme 631[6] .ومعنى الجملة الأولى (جدر نجاشي أكسوم).

---

١ Die Araber, II, S. 275.

٢ Nami 71 + 73, CIH 308.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 47. 1.

٤ CIH 308, 308a, Le Muséon, 1964, 3-4, P. 471.

٥ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 475.

٦ Die Araber, II, S. 284, IV, S. 274.

ومعنى الجملة الثانية (جدرة ملك الحبشة وأكسوم) . وقد قدّر بعض الباحثين زمان حكم هذا النجاشي بحوالي السنة (٢٥٠) بعد الميلاد[1] .

ويظهر أن الحبش كانوا قد تمكنوا من دخول (ظفار) عاصمة حمير ، وذلك فيما بين السنة (١٩٠) و (٢٠٠) بعد الميلاد . وذلك في أيام (لعزز يهنف يهصدق)[2]. ولا ندري الى متى بقوا فيها . والظاهر أن حكمهم فيها كان قصيراً .

وقد كان نزول الحبش في أرض اليمن في أيام حكم الملك الحبشي (عذبة) على ما يظن . وكان هذا الملك على صلات حسنة بالرومان، ففتح بلاده للمصنوعات الرومانية النفيسة ، وظل الحبش في اليمن في أيامه حتى وفاته ، فلما توفي أو عزل تولى ملك آخر مكانه هو (زوسكالس) Zoskales وقد أدى هذا التغيير الى تبدل الحال ، اذ اضطر الحبش الى النزوح من الأماكن التي كانوا قد استولوا عليها . ويرى بعض الباحثين ان ثورة قامت في الحبشة على حكم (عذبة) وأحلت (زوسكالس) محله . فانتهز أهل اليمن فرصة انشغال الحكومة بالاضطرابات التي وقعت بهذه الثورة ، ونهضوا على الحبش فأخرجوهم عن ديارهم، وأخرج الحبش من السواحل التي كانوا قد استولوا عليها ، المعروفة بـ Kinaidokolpitae ، ويراد بها ساحل الحجاز وعسير[3] .

ووردت في النص الموسوم بـ (Ryckmans 535) ، لفظة (و ذ ب ه) (وذبه) ثم ذكرت بعدها جملة : (ملك اكسمن) ، أي (ملك أكسوم) ، أو (ملك الأكسوميين) . وهو الملك الذي استعان به (شمر ذو ريدان) . وقد قرأ بعض الباحثين لفظة (وذبه) على هذه الصورة (عذبة) أو (وزبه) . وذهبوا الى أنه ملك الحبشة الذي استعان به (شمر ذو ريدان)[4] ، والذي تدخل في شؤون اليمن فيما بين السنة (٣٠٠) و (٣٢٠) بعد الميلاد[5] .

ويظهر من اللقب الطويل الذي تلقب به ملك (أكسوم) ، أي الحبشة Ethiopia وهو الملك (عيزانا) Ezana، أن اليمن وما جاورها من أرضين كانت خاضعة

---

١ Le Muséon, 1958, 147, Die Araber, II, S. 285.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 498.

٣ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 480.

٤ Die Araber, II, S. 285.

٥ Die Araber, II, S. 295.

لحكم الحبش في أيامه أيضاً . أما لقبه الذي تلقب به فهو : (ملك اكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحن) ، ويذكر بعد هذا اللقب أسماء ثلاثة مناطق افريقية كانت تحت حكمه ، ثم ختم هذا اللقب بتتمته ، وهي جملة : (ملك الملوك)[1] . و (سلحن) (سلحين) ، هو قصر ملوك سبأ وذو ريدان بمأرب .

وكان الملك (عيزانا) (عزانا) ، قد دخل في النصرانية بتأثير المبشر (فرومنتيوس) ، الذي أرسله اليه الملك (قسطنطين) ملك البيزنطيين عام (٣٥٠) للميلاد أو (٣٥٦) . وقد فرض هذا الملك النصرانية على شعبه وأعلنها ديانة رسمية لمملكته كما جعلها الديانة الرسمية للعربية الجنوبية[2] .

وكانت العربية الجنوبية خاضعة لحكم أبيه ، ولعلّه هو الذي أدخلها في حكمه. اذ كان أبوه وهو (الاعميدا) Ella 'Amida ، قد لقب نفسه باللقب المذكور[3].

ويرى بعض الباحثين أن حكم (عيزانا) لم يكن فيما بين السنة (٣٣٠) و (٣٥٠) بعد الميلاد أو بعد ذلك كما ذهب الى ذلك بعض الباحثين ، بل كان في حوالي السنة (٤٥٠) للميلاد . ويرى أن ملكاً آخر كان قد تدخل في شؤون اليمن واستولى على ساحل Kinaidokopitae ،هو الملك (سمبروتس) Sembruthes وقد حكم على رأيهم في حوالي السنة (٤٠٠) بعد الميلاد[4] .

ويرى بعض الباحثين أن الحبش استولوا على العربية الجنوبية بعد وفاة (شمر يهرعش) ، وأن ذلك كان في حوالي السنة (٣٣٥م) . وأن (ثيوفيلس) نصّر عرب اليمن في حوالي السنة (٣٥٤م) ، إذ أنشأ كنيسة في (ظفار) . وقد صار رئيس أساقفة (ظفار) يشرف على الكنائس التي أنشئت في اليمن وفي ضمن ذلك كنيسة (نجران) والكنائس الأخرى التي بنيت في العربية الجنوبية الى الخليج[5] .

وأعرف تدخل للحبش في العربية الجنوبية ، تدخلهم في شؤون اليمن في النصف الأول للقرن السادس واحتلالهم اليمن ، إذ بقوا فيها أمداً حتّى ثار أهل اليمن

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 448.

٢ Handbuch, I, S. 35, 36.

٣ Handbuch, I, S. 36, 104, E. Littmann, Deutsche Aksum Expedition.

٤ Altheim-Stiehl, Geschichte der Hunnen, 5, 175, Die Araber, II, S. 295.

٥ Grohmann, S. 29.

عليهم ، فتمكنوا من انقاذ بلادهم من الحبش بمعونة من الفرس . وتركوا بذلك اليمن أبداً .

ويظهر من بعض الكتابات أن حصن (شمر) والسهل المحيط به كان في أيدي الحبش ، وقد ورد فيها اسم موضع (مخون) ، وهو (مخا) . ويرد اسم هذه المدينة لأول مرة . وتتناول هذه الكتابات حوادث وقعت سنة (٥٢٨) بعد الميلاد[1] .

وتبدأ قصة دخول الحبش الى اليمن على هذا النحو : لما قتل ذو نواس من أهل نجران قريباً من عشرين ألفاً ، أفلت منهم رجل يقال له (دوس ذو ثعلبان) أو رجل آخر اسمه (جبار بن فيض) أو غير ذلك ، ففـر على فرس له ، فأعجزهم حتى خرج فوصل الحبشة،وجاء الى ملكها ، فأعلمه ما فعل(ذو نواس) بنصارى نجران ، وأتاه بالانجيل قد أحرقت النار بعضه ، فقال له : الرجال عندي كثير ، وليست عندي سفن . وأنا كاتب الى قيصر أن يبعث إليّ بسفن أحمـل فيها الرجال ، فكتب الى قيصر في ذلك وبعث اليه بالانجيل المحرق . فبعث اليه قيصر بسفن كثيرة عبر فيها البحر ودخل اليمن[2] .

وفي رواية أخرى ان (دوس ذو ثعلبان) قدم على قيصر صاحب الروم ، فاستنصره على (ذي نواس) وجنوده وأخبره بما بلغ منهم ، فقال له قيصر : بعدت بلادك من بلادنا ونأت عنا ، فلا نقدر على أن نتناولها بالجنود . ولكني سأكتب لك الى ملك الحبشة ، فانه على هذا الدين ، وهو أقرب الى بلادك منا ، فينصرك ويمنعك ويطلب لك بثأرك ممن ظلمك . فكتب معه قيصر الى ملك الحبشة يذكر له حقه وما بلغ منه ومن أهل دينه ، ويأمره بنصره وطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه . فلما قدم دوس ذو ثعلبان بكتاب قيصر على النجاشي، بعث معه سبعين ألفاً من الحبشة ، وأمر عليهم رجلاً من أهل الحبشة يقال له أرياط، وعهد اليه إن أنت ظهرت عليهم فاقتل ثلث رجالهم ، وأخـرب ثلث بلادهم ، واسب ثلث نسائهم وأبنائهم . فخرج أرياط ومعه جنوده ، وفي جنوده أبرهـة الأشرم ، فركب البحر ومعه دوس ذو ثعلبان حتى نزلوا بساحـل اليمن . وسمع بهم ذو نواس ، فجمع اليه حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فاجتمعوا اليه على

---

١ Le Muséon, 1964, 3-4, P. 438.

٢ الطبري (٢/١٠٥) ، المحبر (ص ٣٦٨) ، تفسير القرطبي (١٩/٢٩٣) .

اختلاف وتفرق لانقطاع المدة وحلول البلاء والنقمة ، فلم تكن له حرب ، غير أنه ناوش ذا نواس شيئاً من قتال ، ثم انهزموا ودخلها أرياط بجموعه . فلما رأى ذو نواس ما رأى مما نزل به وبقومه ، وجّه فرسه الى البحر ، ثم ضربه فدخل فيه ، فكان آخر العهد به . ووطىء (أرياط) اليمن بالحبشة ، فقتل ثلث رجالها وأخرب ثلث بلادها وبعث الى النجاشي بثلث سباياها ، ثم أقام بها[1] .

ويظهر من دراسة هذا المروي،أن الرواة كانوا على اختلاف بينهم في حديثهم عن (أصحاب الأخدود) . وقد أشار العلماء الى هذا الاختلاف[2] . وقد اختلفوا في زمانهم أيضاً ، واكتفى بعضهم بقولهم : « وكانوا بنجران في الفترة بين عيسى ومحمد »[3] . وقال بعضهم : انهم كانوا باليمن قبل مبعث الرسول بأربعين سنة، أخذهم « يوسف بن شراحيل بن تبع الحميري ، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً ، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه[4] . وجعل بعضهم عدد من قتل من نصارى نجران عشرين ألفاً ، وجعله بعضهم اثني عشر ألفاً ، وذكر بعض آخر ان أصحاب الأخدود سبعون ألفاً . وقد قتلهم (ذو نواس اليهودي) واسمه (زرعة بن تبان أسعد الحميري) ، واسمه أيضاً (يوسف) . وجعله بعضهم (يوسف بن ذي نواس بن تبع الحميري)[5] . وجعلوا زعيم نصارى نجران ، والذي ثبت النصرانية فيها ونشرها بين النجرانيين رجل من أهل نجران ، اسمه (عبدالله بن ثامر) . وكان قد أخذ النصرانية عن راهب ، رآه فلازمه وتعلق به ، وأثر في قومه ، بشفائه الأمراض بالدعاء لهم الى الله لشفائهم ، فدخل كثير ممن شفوا وبرؤوا بدينه ، وبذلك انتشرت النصرانية في نجران[6] .

ولم يبين رواة الخبر المتقدم الأسباب التي دعت نجاشي الحبشة الى الطلب من قائده (أرياط) بأن يقتل ثلث رجال اليمن ، ويخرب ثلث البلاد ، ويسبي

---

١ الطبري (٢/١٠٥ وما بعدها) ، ابن قتيبة (ص ٣١١) ، الكشاف للزمخشري (٢/١٥٩٤) . تفسير البيضاوي (٢/٣٩٥) .
٢ تفسير القرطبي (١٩/٢٨٧) .
٣ تفسير القرطبي (١٩/٢٨٧) .
٤ تفسير القرطبي (١٩/٢٨٩) .
٥ تفسير القرطبي (١٩/٢٩٠) .
٦ تفسير القرطبي (١٩/٢٨٩ وما بعدها) .

ثلث النساء وأبناءهم وأن يتبع هذا النظام الثلاثي في العقوبة . ولم يذكروا الموارد التي أخذوا منها خبرهم على طريقتهم في أخذ الأخبار من غير تمحيص .

وزعم (ابن الكلبي) أن السفن لما قدمت على النجاشي من عند قيصر ، حمل جيشه فيها ، فخرجوا في ساحل المندب . فلما سمع بهم ذو نواس ، كتب الى المقاول يدعوهم الى مظاهرته ، وأن يكون أمرهم في محاربة الحبشة ودفعهم عن بلادهم واحداً . فأبوا ، وقالوا : يقاتل كل رجل عن مقولته وناحيته . فلما رأى ذلك ، صنع مفاتيح كثيرة ، ثم حملها على عدة من الابل ، وخرج حتى لقي جمعهم فقال : هذه مفاتيح خزائن اليمن قد جئتكم بها . فلما وجه الحبشة ثقات أصحابهم في قبض الخزائن ، كتب (ذو نواس) الى كل ناحية أن اذبحوا كل من يريد اليكم منهم . ففعلوا . فلما بلغ النجاشي ما كان من ذي نواس ، جهز سبعين ألفاً ، عليهم قائدان : أحدهما أبرهة . فلما صار الحبشة الى صنعاء ورأى ذو نواس أن لا طاقة له بهم ، ركب فرسه واعترض البحر فاقتحمه ، فكان آخر العهد به[1] .

هذا مجمل ما ورد في كتب المؤرخين الاسلاميين والأخباريين عن ذي نواس . وقد أخذ بعضه مما علق في أذهان أهل اليمن عن ذلك الحادث ، وأخذ بعض آخر مما علق بأذهان أهل الكتاب عنه ، ويعود الفضل في تدوينه وجمعه الى القرآن الكريم ، إذ أشار بايجاز اليه : « قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود »[2] . فكانت اشارته هذه الى أصحاب الأخدود حافزاً دفع بالمفسرين وأصحاب التأريخ والأخبار على جمع ما علق بالأذهان من هذا الحادث ، فجاء على الصورة المذكورة[3] .

ولم يرد الينا شيء من هذا القصص الذي رواه الأخباريون عن ذي نواس مكتوباً في المسند . وكل ما ورد مما له علاقة بحادث دخول الحبشة اليمن ، هو ما جاء في النص المهم المعروف بنص حصن غراب والموسوم بـ REP. EPIGR. 2633 من أن الأحباش فتحوا أرض حمير وقتلوا ملكها وأقياله الحميريين والأرحبيين .

١ الطبري (٢/١٢٧) (دار المعارف بمصر) ، المحبر (ص ٣٦٨)

٢ سورة البروج : رقم ٨٥ ، الآية ٤ وما بعدها .

٣ Loth, Tabari's Korancommentar, Die « Leute der Grube », in ZDMG., 1881, S. 610.

ولم يذكر في النص اسم هذا الملك . ويعود تأريخه الى سنة (٦٤٠) من التقويم الحميري الموافقة لسنة (٥٢٥) للميلاد[١] .

ويرى ونكلر مستنداً الى نص (حصن غراب) أن (ذا نواس) كان هو البادىء بالحرب ، وأن السميفع أشوع وأولاده أصحاب النص كانوا في معية الملك ذي نواس في حملته على الحبشة ، غير انه لم يكتب له التوفيق ، وأصيب بهزيمة اذ سقط فهزم جمعه . وعندئذ غزا الحبش أرض اليمن واستولوا عليها . فأسرع السميفع أشوع وأولاده في الذهاب الى حصن (ماوية) للتحصن فيه ولتقوية وسائل دفاعه ، ولم تكن قلوب هؤلاء مع ذي نواس ، وانما أكرهوا على الذهاب معه . وبقوا في حصنهم هذا الى أن دخل الحبش أرض اليمن ، فتفاهم معهم[٢] .

وقد أشرت الى ماخص ما جاء في التواريـــخ الاسلامية عن ذي نواس وعن حادث تعذيب نصارى نجران ، وهو حادث لم يكن بعيد العهد عن الاسلام . فقد أشير اليه بايجاز في القرآن الكريم : « قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . اذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنـــين شهود »[٣] . فجمع المفسرون والأخباريون ما علق بالأذهان من هذا الحادث ورووا أخباراً متناقضة متباينـــة في أصحاب الأخدود .

أما رأي اليهود — وهم طرف من أطراف هذا النزاع — عن حادث نجران فلا علم لنا برأي رجاله المعاصرين في الحادث . إذ لم يصل الينا شيء مدوّن بقلم مؤلف يهودي معاصر له . وقد أخذ الأخباريون — كما قلت — ما كان علق عن ذلك الحادث بأذهان يهود اليمن ويثرب ، على لسان وهب بن منبه ، وأضرابه ، أخذوه عن طريق الرواية والحفظ ، فهذا المدوّن في كتب أهل الأخبار والمنصوص على سنده هو كل ما نعرفه من رأي اليهود المتأخرين في حادث نجران .

وأما ما رواه النصارى عنـــه ، وهم الطرف الثاني في النزاع ، فإنه أطيب جداً وأوضح مما ورد في الموارد الاسلامية وفي الرواية اليهودية الشفوية اذ اعتمدت

---

١ REP. EPIGR., V, I, P. 5, Glaser, Die Abessinier, S. 131-132, Mordtmann,in ZDMG., XLIV, 1890, S. 176.

٢ Winckler, AOF., IV, 1896, « Zur Alten Geschichte Yemens und Abessiniens », S. 327.

٣ سورة البروج : رقم ٨٥ ، الآية ٤ وما بعدها .

المواد الاسلامية واليهودية على منابع شفوية ، هي السماع والرواية ، فجاء وصفها للحادث مزوّقاً . أما الموارد النصرانية فقد اعتمدت على السماع والمشافهة أيضاً ، ولكنها أخذت من موارد ووثائق مسجلة دوّن بعضها بعد وقوع الحادث بقليل ، وكان لتدوينها الحادث أهمية كبيرة بالنسبة لمن يريد تأريخه والوقوف على كيفية حدوثه ، وإن كانت لا تخلو أيضاً من المبالغات والتهويل ، والعواطف ، لأنها كتبت في ظروف عاطفية حماسية . ونقلت من محيط للمبالغة فيه مكانة كبيرة ومن أفواه أناس ليس لهم علم بمنطق المحافظة على صدق الواقع . وقد دوّنت لبعث حمية النصارى على انقاذ أبناء دينهم المضطهدين في اليمن .

وقد أدرك بعضها زمن الحادث وأخذ سماعاً من رجال شهدوه ، أو من رجال نقلوا رواياتهم من شهود العيان . فلهذه الوثائق إذن شأن عظيم في نظر المؤرخ . ومن هؤلاء الرحالة : (قزما) ، والمؤرخ (بروكوبيوس) المتوفي في حوالي السنة (٥٦٠) للميلاد[١] . ومن المتأخرين: المؤرخ (ملالا) Johannes Malala[٢]. وقد نقل من كتابه بعض المؤرخين المتأخرين عنه،مثل (ثيوفانس) Theophanes (٧٥٨ – ٨١٨)[٣] و (سدرينس) Georg Cedrenus ، و (نيقيفورس كالستي) Nicephorus Callisti[٤] .

وكان (قزما) المعروف بـ Cosmas Indicopleutes أي (قزما بحار البحر الهندي)،وصاحب كتاب (الطبوغرافية النصرانية) Christian Cosmography وكتاب (البحار الهندية) (بحار البحر الهندي) Indicopleutes في مدينة (أدولس) Adulis ، الواقعة على ساحل الحبشة على المحيط الهندي ينقل كتابة (بطلميوس) Ptolemaeus اليونانية بأمر النجاشي (Elesboas) (Elesboan) في العهد الذي كان فيه النجاشي يتهيأ لغزو أرض حمير[٥] . فكتب في جملة ما كتبه

---

١ Procopius, History of the Wars, Musil, Palmyrena, P. 336.

٢ Johannes Malala, Chron., ED : Bonn.

٣ Theophanes, Chronographia, ZDMG., 1881.

٤ Nicephorus Callisti, Hist. Eccl., Lib., XVII, Cap. 32, 2, Gibbon, The Decline and fall of the Roman Empire, II, P. 625.

٥ ED : Montfaucon, P. 141, ZDMG., 1881, S. 5.

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : المجلد الثالث والعشرون : الجزء الاول ، ١٩٤٨ ، (ص ١٨ وما بعدها) .

قصة غزو الحبشة لليمن بعد ٢٥ عاماً من وقوعه[1] . فلروايته عن الحملة شأن كبير لأنها غير بعيدة عهد عن الحادث ، ثم ان صاحبها نفسه كان قد أدركها وقد سمع أخبارها من شهود عيان . ولعله كان نفسه من جملة أولئك الشهود ، شاهد السفن وهي تحمل الجنود لنقلهم الى اليمن ، واتصل بالرسميين الحبش واستفسر منهم عن الحملة .

ويفهم من رواية (قزما) ، ان الحملة كانت في أوائل أيام حكم القيصر (يسطينوس) Justinus (٥١٨ – ٥٢٧ م)[2] . أما (ثيوفانس) Theophanes و (سدرينوس) Cedrenus ومن اعتمد عليها ، فقد جعلوا الحملة في السنة الخامسة من حكم هذا القيصر ، وذكروا ان الذي حمل النجاشي على هذا الغزو هو تعذيب ملك حمير لنصارى نجران ، وقد قتل هذا الملك[3] .

ويحدثنا (ثيوفانس) و (سدرينوس) عن غزو ثانٍ قام به الحبش على حمير لاعتداءاتهم على تجار الروم، وذلك في السنة الخامسة عشرة من حكم (يوسطنيانوس) Justinianus (٥٢٧ – ٥٦٥م) ، وفي عهد النجاشي (أدد) Adad . أما ملك حمير ، فاسمه (دميانوس) Damianus . وقد ذكر (ملالا) هذا الحديث محرّفاً بعض التحريف ، فجعل اسم النجاشي (أندس) Andas بدلاً من ادد، وصيّر اسم ملك حمير (دمنوس) Damnus عوضاً عن (دميانوس) Damianus، وذكر حملة (اندس) هذه قبل جملة Elesbaas . وأشار الى أن النصرانية كانت قد انتشرت في الحبشة قبل أيام (اندس) . وذكر المؤرخان الآخران ان (أدد) تنصر على أثر احرازه النصر على الحميريين[4] .

وتحدثنا رواية سريانية ان النجاشي المسمى (ايدوك) Aidog حارب الملك (اكسينودون) Xenedon ملك الهنود . ثم حارب (دميون) Dimion ملك حمير لاعتدائه على التجار الروم واستيلائه على أموالهم . فانتصر (ايدوك) على ملك حمير ، ثم تنصر ، وعيّن على حمير ملكاً نصرانياً . فلما مات هذا الملك ،

---

١ J.B. Bury, History of the Roman Empire, II, P. 323.

٢ Cosmas, P. 141, ZDMG., 31, 1877, 66.

٣ ZDMG., 31, 1877, 66, Theophanes, I, 260.

٤ Mordtmann, in ZDMG., 31, 1877, S. 67, Theophanes, I, 346, Cedrenus, I, 656.

عذّب خلفه نصارى نجران ، فغزا (ايدوك) حمير وانتصر عليها . وأقام عليها (ابرهام) (ابراهيم) Abraham [1] . ولا يشك المستشرق (فيل) Fell في أن المراد بـ (Adad) (Andas) (Aidog) رجل واحد هو النجاشي (كالب)، وهو Elesbaas (كلب الا أصبحه) (كالب الا اصبحـــه) . وأمـــا Dimion و Dimianus و Xenodon ، فيراد بها (ذو نواس) . وقد تحدث (فل) Fell باطناب عن مختلف الروايات الواردة عن النجاشي (كالب) (كلب الا أصبحه) و (الاعاميدة) (عيلاميده) وعن انتشار النصرانية في الحبشة ، وأمثال ذلك ، فإليه يرجع من يطلب المزيد[2] .

وفي المرويات اليونانية عن الشهداء أن الذي قام بتعذيب نصارى نجران هو الملك (ذو نواس) Dunaas ملك حمير ، وان ذلك كان في السنة الخامسة من حكم (يوسطينوس) Justinus ، أن الذي غزا اليمن هـــو النجاشي Ela Atzbeha Elesbas . فلما دخلت جيوشه أرض حمير ، فر Dunaas الى الجبـــال فتحصن فيها ، حتى إذا سنحت له الفرصة خرج فقتل من بقي من جيش النجـــاشي في اليمن واحتل مدينة (نجران) فقام عندئذ Elesbas بحملة ثانية فانتصر بها على (Dunaas) وعين Abrames في مكانه[3] .

وفي جملة ما لحق بقصص الشهداء الحميريين ، المناظرة التي جرت بين أسقف (ظفـــار) المسمى (كريكنتيوس) Gregentius وبين Herban اليهودي ، والظاهر أنها من القصص الذي وضع في السريانية وليست لها قيمة تأريخية بالطبع[4].

وقد دوّن (يوحنا الأفسي) John of Ephesus المتوفي في حوالي سنة (٥٨٥) للميلاد في تأريخه الكنسي وثيقة مهمة جداً عن حادث تعـــذيب نصارى نجران ، هي رسالة وجهها (مار شمعون) أسقف (بيت أرشام) Simon of Beth Arsham المعاصر لهذا الحادث الى (رئيس دير جبلة) Abt von Gabula يصف فيهـــا ما سمعه وما قصّه عليه شهود عيان من أهل اليمن عن تعذيب نصـــارى نجران

---

١ Mordtmann, in ZDMG., 31, 1877, S. 67, Assemani, Bibl. Orient., I, 359, Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 19.

٢ Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 19.

٣ Mordtmann, in ZDMG., 31, 1877, S. 67, Anecdota Graecca, Vol., V, P. I, (Boissonade Ed.).

٤ Mordtmann, in ZDMG., 31, 1877, S. 69, Bury, II, P. 327.

وما لاقوه هنــاك من أصناف العذاب[1] . ومنه أخذهـا البطريق (ديونيسيوس) Patriarch Dionysius ، فأدخلها في تأريخه المؤلف بالسريانية . وقـد نشرهـا (السمعاني) في مؤلفه (المكتبة الشرقية) . وتجد هذه الرسالـة أيضاً في تأريخ (زكريا) Zacharias von Mitylene المتوفي في حوالي سنة (٥٦٨) للميلاد ، وهو بالسريانية أيضاً[2] . وفي الرسالة اختلافات عن نسخ الرسالة الأخرى ، ولكنها غير مهمة على كل حال ولا تغير من جوهرها شيئاً[3] .

وقد ذكر (شمعون) في رسالته أنه كان قد رافق (ابراهيم) (ابراهام) Abraham والد (نونوسوس) Nonnosus الشهير في رسالة خاصة أمر بها القيصر (يوسطينوس) Justinus الأول الى ملك الحيرة (المنذر الثالث) . وكان ذلك في العشرين من كانون الثاني من سنة (٨٣٥) من التأريخ السلوقي، وتقابل هذه السنة سنة(٥٢٤) للميلاد. فلما بلغا قصر الملك ، سمعا بأخبار استشهاد نصارى نجران . وعلم به (شمعون) من كتاب وجّهه ملك حمير الى ملك الحيرة ، يطلب منه أن يفعل بنصارى مملكته ما فعله هو بنصارى نجران . وقد قرىء الكتاب أمامه ، فوقف على ما جاء فيه، وعلم به أيضاً من رسول أرسله في الحال الى نجران ليأتيه بالخبر اليقين عن هـذه الأعمال المحزنة التي حلت بالمؤمنين[4] .

وقد وجّه شمعون في نهاية الرسالة نداءً الى الأساقفة خاصة أساقفة الروم ليعلمهم بهذه الفاجعة التي نزلت باخوانهم في الدين ، والى بطريق الاسكندرية ليتوسط لدى

---

١ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، المجلد الثالث والعشرون الجـزء الاول السنة ١٩٤٨ (كتاب الشهداء الحميريين) ، لمار اغناطيوس أفرام ، النصرانية (١/٦١) ،
Fell, « Die Christenverfolgung, in Südarabien und Himjarish Athiopischen Kriege nach Abessinischer Uberlieferung », in ZDMG., 35, 1881, S. 2, Assemani, Bibl. Orient., I, P. 364, Bury, II, P. 323.

٢ النصرانية (١/٦١) ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء المذكـور (ص ١٨) ، اللؤلؤ المنثور في تاريخ الآداب والعلوم السريانية (٢٥٤) ، حمص سنة ١٩٤٣ ،
Assemani, Bibl. Orient., I, 369, ZDMG., 35, 1881, S. 3.

٣ Zacharias, Historia Miscellanea, by J.P.N. Land, Entitled Zachariae Episcopi Mitylenes Allorumquae Scripta Historica Graeca Plerumque Deperdita, Constituting, Land, Anecdata Syriaca, vol., 3, Leiden, 1890.

٤ ZDMG., 35, 1881, S. 3, Bury, II, P. 323, Fragmanta Histori. Greega, IV, P. 177.

نجاشي الحبشة في مساعدة نصارى اليمن ، كما وجّه نداءه الى أحبار (طبرية) للتأثير على ملك حمير ، والتوسط لديه بالكف عن الاضطهاد والتعذيب[1] .

وقد درس عدد من الباحثين هذه الرسالة ، ونقدوها ، وهي في الجملة صحيحة ووثيقة مهمة لا شك في ذلك بالنسبة الى من يريد الوقوف على موضوع استشهاد نصارى نجران. أما ما جاء فيها على لسان ملك حمير من جمل وعبارات استخلصت على حد قول (شمعون) من الرسالة التي وجهها ملك حمير إلى المنذر، فمسألة فيها نظر ، وقضية لا يمكن التسليم بها ، فلا يعقل أن يكون ما قيل فيها على لسانه قد صدر منه . وما دوّن فيها من عبارات بحق الشهيد (حارثة) (الحارث) Arethas ونصارى نجران لا يعقل أن يكون قد صدر من ملك يهودي . ولكننا لا نستطيع أن ننكر أو نتجاهل أمر الرسالة التي أرسلها الملك إلى المنذر لحثه على اضطهاد نصارى مملكته مقابل مبلغ يقدمه ملك حمير اليه . ولا داعي يدعو إلى نكرانها والشك فيها . وكل ما نستطيع أن نقوله إن الرسالة صحيحة ، ولكن ما دوّنه شمعون من جمل وعبارات على انها من كلام ملك حمير ، هو من انشائه وكلامه، لا ترجمة حرفية للكتاب . وخلاصة ما يقال في الرسالة انها وثيقة مهمة ، ولها قيمة تأريخية في الجملة بغض النظر عن التفصيلات الواردة فيها وعن عواطف كاتبها وعن المبالغات التي وردت فيها . وفي مركز صاحبها والمكانة التي كان فيها ما يسوغ صدور مثل هذه الأمور منه ووقفه عليها[2] .

ومن الوثائق التأريخية التي تتعلق بشهداء نجران كتاب ينسب إلى (يعقوب السروجي) في السريانية في نصارى نجران ، وقصيدة في رثاء الشهداء لـ (بولس) Paulus Bishop of Eddessa أسقف (الرها) Eddassa = Edessa ومدحه اياهم، ونشيد كنسي سرياني لـ (يوحنا بسالطس) Johannes Psaltes رئيس دير قنسرين المتوفى سنة (٦٠٠) للميلاد[3] ، وميمر ليعقوب الرهاوي[4] .

---

١ ZDMG., 35, 1881, S. 3.

٢ ZDMG., 35, 1881, S. 4.

٣ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء المذكور (١٨) ، اللؤلؤ المنثور في تاريخ الآداب والعلوم السريانية (٢٥٤) ، وفي رواية أنه توفي في ٣٠ اكتوبر ٥٢٦ للميلاد راجع :
Bury, II, P. 324, ZDMG., XXXI, 324, 363, 400, XXXV, 1881, S. 4.

٤ النصرانية (١/٦١) ، Bedjan, Acta Martyrum et Sanctorum, I, 372, 397.

ويظهر مما ورد في (كتاب الشهداء الحميريين)[1] وفي رسالة (شمعون الأرشامي) أن (يعقوب السروجي) أسقف (سرجيوبولس) Sergiopolis ، أي (الرصافة) كان من رجال البعثة المذكورة التي أوفدها القيصر (يوسطين الأول) (يسطينوس) Justin I الى الملك (المنذر) . و (الرصافة) Sergiopolis هي (متروبولية منطقة الفرات) Metropolis of Euphratensis بالنسبة الى نصارى العرب . ويذكر مؤلف الكتاب المذكور أنه عمّد وهو في (حيرة النعمان) (حيرتا دى نعمانا) Hirtha Dhe' Na'mana أحد سادات حمير ، واسمه (أفعو) Af'u ، وكان أحد الوثنيين الذين جاؤوا من اليمن الى الحيرة ، وقد شاهد بنفسه تعذيب نصارى (نجران)[2] . وقد كلفه ملكه ، أي ملك حمير، السفارة عند ملك الحيرة. ولكنه كان رقيق القلب ، فرق قلبه وهو في الحيرة على النصرانية ، فتنصر على يديه[3] .

وقد نقل مؤلف كتاب الشهداء الحميريين صورة الكتاب الذي أرسله ملك حمير، وقد دعاه (مسروقاً) Masruq ، الى (المنذر بن الشقيقة) (منذر بر شقيقة) Mundhar bar Zaqiqa وهو يحرضه فيه على النصارى[4] .

ولا بد من الإشارة الى الأثر المهم المنشور باليونانية لـ (يوحنا بولند) Johann Bolland وجماعته في عشرات المجلدات ، والى أثر آخر نشره (بويسونا) Boissona في اليونانية كذلك في خمسة مجلدات[5] . فقد دوّنت في الكتاب الأول قصة الشهيد القديس (الحارث) Arethas وبقية شهداء نجران ، وقصة الحرب التي وقعت بين النجاشي وذي نواس . ودوّنت في الأثر الثاني مضامين رسالة (مار شمعون) . وقد بين (فيننذ فل) Winand Fell رأيه فيما جاء في مجموعة (بولند) Bolland[6] .

---

١ Axel Moberg, The Book of the Himyarites, Lund, 1924, Le Muséon, 1963, 3-4, P. 349.

٢ Shshid, The Book of the Himyarites, in, Le Muséon, 1963, 3-4, P. 354.

٣ Le Muséon, 1963, 3-4, P. 352.

٤ The Book of Himyarites, Chapter XXV.

٥ النصرانية (١/٦١) ، وفي مكتبة الآباء اليسوعيين نسخة عربية من هذه الاعمال : (أعمال البولنديين) ، Acta Sanctorum Oct. Tom. X, 721, Antwerp, 1643.

٦ ZDMG., 35, 1881, S. 5.

وللنصوص الحبشية ولا شك أهمية عظيمة عند من يريد تدوين غزو الأحباش لليمن وتأريخ شهداء نجران إذ كانوا الطرف الرئيسي في هذا الحادث، وهم الذين أغاروا على اليمن فقتلوا ملك حمير . لـــذا وجّه الباحثون أنظارهم نحوها وفتشوا عنها ، غير انهم لم يعثروا على نصوص فيها أمور جديدة عن الحادث تنفرد بها. وما عثر عليه ليس بكثير. ومن ذلك كتابة عثر عليها (يوسف سابيتو) **J. Sapeto** أشير فيها باختصار إلى القديس الحارث (حيروت) **Herut** وبقية الشهداء ، وجملة مخطوطات حبشية محفوظة في المتحف البريطاني وردت فيهـــا أخبار الشهداء وغزو الحبشة لليمن،وأمر (ذو نواس) المسمى فيها بـ (فنحاس)،وهي لا تختلف في الجملة اختلافاً كبيراً عما جاء في أعمال (البولنديين) وأعمال القديس (أزقير) التي نشرها (روسيني) ، وهو الذي استشهد بأمر ملك حمير (شرحبيل بن ينكف) مع (٣٨) آخرين[١] .

يتبين من بعض الموارد الإغريقية والحبشية أن الأحباش كانوا قد نزلوا بأرض حمير قبل قيـــام ذي نواس بتعذيب نصارى حمير بسنين ، وانهـــم انتصروا على ذي نواس ، فاضطر إلى التقهقر إلى الجبال للاحتماء بها ، وانهم تركوا في اليمن جيشاً لحماية النصارى والدفاع عنهم . فلما مات قائد الجيش ونائب الملك ، انتهز ذو نواس هذه الفرصة فأغار على الحبش فتمكن منهم ، وعـــذّب من وجد في بلاده من النصارى واضطهدهم ، وأغار على نجران ، وحاصرها مدة طويلة بلغت سبعة أشهر على زعم الرواية الحبشية . فلما طال الحصار،عمد ذو نواس إلى الخداع والغش ، ففاوض النجرانيين على التسليم له ، وتعهد إن فتحوا له المدينة ، ألاّ يتعرض لهم بسوء . فلما صدقوه وفتحوا المدينة له ، أعمل فيهم السيف ، فحمل ذلك الحبش على غزو اليمن[٢] .

وورد في كتاب الشهداء الحميريين ، ما يفيد بأن الحبش بعد أن نزلوا أرض حمير ، عارضهم رجل اسمه (مسروق) وحاربهم وقاومهم ، وهاجم مدينـــة

---

١ النصرانية (١/ ٦١ وما بعدها) ، **Sapeto, Viaggio e Mission e Cattalica fra I Mensa i Bogos etc., Roma, 1857, P. 412, ZDMG., 35, 1881, S. 9, Conti Rossini, Rendic. d. Reale Accad. d. Lencei, 1910, Ser., V, Vol., XIX, P. 705.**

٢ **ZDMG., 35, 1881, s. 13, Bury, II, P. 323.**

(ظفار) عاصمة حمير ، وكان الحبش قد استولوا عليها وتحصنوا بها ، ولما رأى (مسروق) أنه لا يتمكن من التغلب على الحبش الذين كانوا يحاربونه في مدينة (ظفار) ، أوفد اليهم كهاناً ويهوداً من طبرية ورجلين من الحيرة كانا نصرانيين في الاسم ، يحملون معهم كتاباً يعدهم فيه أنهم إن سلّموا له (ظفار) فلن يؤذيهم ، بل يعيدهم الى الحبشة سالمين . فوثقوا بكلامه وصدّقوه ، وخرجوا اليه وكانوا ثلاث مئة محارب على رأسهم القائد (أبابوت) ، فقبض عليهم وغدر بهم ، إذ سلمهم إلى اليهود فقتلوهم . ثم أرسل من حرق بيعة ظفار بمن كان فيها من الحبش ، عددهم مئتان وثمانون رجلاً ، وكتب إلى الحميريين آمراً بقتل النصارى قاطبة إن لم يكفروا بالمسيح ويتهوّدوا . وكتب الى الحارث من أشراف مدينة نجران أن يأتيه مع من عنده من حملة السلاح لحاجته الشديدة اليهم . فلما بلغ الحارث مدينة ظفار ، وسمع بما حدث ، رجع الى نجران . فحاصر مسروق المدينة، وطال الحصار ، فراسل أهلها على الأمان . فلما فتحوا له مدينتهم ، غدر بهم ، وأحرق بيعتهم وأحرق خلقاً منهم بالنار رجالاً ونساءً وأطفالاً . وكان بعض قسيسيهم من حيرة النعمان ومن الروم والفرس والحبشة[١] .

فلما تمادى مسروق في غيه وفي قتل النصارى في نجران وغير نجران من مدن اليمن وقراها،سار سيد من سادات القوم اسمه (أميّة) الى الحبشة فأخبر مطرانها (أوبروبيوس) و (كالب) النجاشي بما حل بنصارى اليمن ، فأمر (كالب) جيوشه بغزو حمير ، فغزتها وقضى على (مسروق) اليهودي ، وهو (ذو نواس) في كتب الإسلاميين[٢] .

هذه رواية في السبب المباشر لغزو اليمن . وفي رواية أخرى أن الملك (دميون) **Dimion** (دميانوس) **Dimianos** ، ملك حمير **Homeritae** ، كان قد أمر بقتل التجار الروم الذين كانوا في بلاده وبنهب أموالهم انتقاماً من الروم الذين أساؤوا في بلادهم معاملة اليهود واضطهدوهم ، فتجنب التجار الروم الذهاب إلى اليمن أو إلى الحبشة والى المناطق القريبة من حمير ، فتأثرت التجارة مع الحبشة ، وتضرر الأحباش . فعرض النجاشي على ملك حمير عروضاً لم يوافق عليها،فوقعت

---

١ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء المذكور (١١ وما بعدها) ، Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 48.

٢ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء المذكور (١٥) .

الحرب . وتزعم الرواية أن النجاشي لم يكن نصرانياً ، فقيل له : إن كتب الك النصر فادخل في دين المسيح . فوافق على ذلك . فلما انتصر ، تنصّر ، وانتقم من حمير . ثم أرسل رجلين من ذوي قرابته الى القيصر يلتمس منه إرسال أسقف وعدد من رجال الدين . وبعد بحث واستقصاء وقع الاختيار على Johannes Paramonaris من كنيسة القديس يوحنا ، فذهب مع عدد من الكهان ، فعمّد النجاشي وأتباعه ، وأقام الكنائس ، وأرشد الناس الى الدين الصحيح.[١]

وقد عرف ذو نواس في النصوص النصرانية باسم Dimnus = Damian و Damnus = Dimianos و(مسروق)[٢] . ونرى تشابهاً كبيراً بين Dimnus و Damian و Damnus وكلمة (ذو نواس) العربية . فالظاهر أنها تحريف نشأ عن هذا الأصل . وأما النصوص الحبشية فقد دعته (فنحاس) Phin'has ، وهو اسم من أسماء يهود[٣] .

أما النجاشي الذي حارب حمير وغزا أرضها ، فقد دعاه (بروكوبيوس) باسم Hellestheaeus[٤]. ودعاه غيره بأسماء قريبة منه مثل Elesbowan = Elisbahaz و Elesboas = Elesbaas = Ela-Atzbeha . ويظهر انها أخذت من (ايلا اصباح) Ela-Asbah أو (ايلاصباح) Ela-Sebah في الحبشية[٥] . ودعي أيضاً باسم آخر، هو Aidug ،دعاه به (يوحنا الأفسي) Johannes von Ephesus[٦] و (اندس) Andas وقد دعاه (ملالا) بذلك[٧] . و Adad ودعاه به (ثيوفانس) و (سدرينوس) Cedrenus[٨] . أما في الروايات الحبشية ، فقد سمي (كالب)

---

١ Glaser, Die Abessinier, S. 175, Bury, II, P. 322, Dillmann, in ZDMG., VII, 357, Noldeke, Tabari, S. 188.

٢ Glaser, Die Abessinier, S. 177, Fell, in ZDMG., 35, S. 17, 1881, Ludolf, Comm. Ad. Hist. Aeth., P. 233.
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء المذكور (١٥) .

٣ Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 17, Ludolf, Comm., P. 233.

٤ Procopius, History of the Wars, P. .189

٥ ZDMG., 35, 1881, S. 18.

٦ Galser, Die Abessinier, S. 176, ZDMG., 35, 1881, S. 19, Assemani, Bibl. Orient. I, 359.

٧ ZDMG., 35, 1881, S. 19, Malala, P. 434, Glaser, Die Abessinier, S. 176.

٨ Theophanes, I, P. 346, Cedrenus, I, P. 656.

Kaleb[1] . فهو إذن (الا أصبحة كالب) Elle 'Asbeha Kaleb وتعني (الا) Elle = Ella (ذو) أو من (آل) . وأما (أصبحـة) ، فاسم أجداده وعشيرته التي انحدر منها . كما أن (ذا نواس) ، لا يعني اسم الملك ، بل لقب أسرته . فاسمه هو (يوسف) . ويكون النجاشي ، أي ملك الحبشة الذي جهز الجيش وفتح اليمن هو (كالب) من (آل أصبحة) أو (الا أصبحة كالب) كما عرف بذلك[2] .

وقد تحوّل اسم النجاشي Elesbass = Ela Sebah إلى (أصحمة) في العربية . فقد ذكر بعض العلماء أن (أبرهة ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي)[3]، فـ (أصحمة) إذن هو النجاشي المذكور .

والنجاشي Elesboas = Ela Atybeba،وهو ابن النجاشي Tayena الذي كان على النصرانية . وقد خلف هذا النجاشي[4] ، النجاشي Andas الذي كان قد أقسم أنه اذا انتصر في الحرب يتنصر . فانتصر،فدخل في النصرانية . وصارت النصرانية ديانة رسمية للحبشة . وقد لقب Tayena بلقب (ملك اكسوم وحمير Homer وريدان وسبأ وسلحين) في كتابة من كتاباته ، مما يدل على أنه كان قد حكم اليمن[4] .

وقد عثر في خرائب مدينة (مأرب) القديمة ، عـلى نص مصاب بتلف في مواضع عديدة منه ، تبين من دراسة ما بقي منه أنه مدوّن بلغـة أهل الحبشة ، وأنه يتحدث عن غزو بحري لمينـاء لم يذكر اسمه في النص ، وقد يكون ذلك بسبب التلف الذي أصاب النص ، قام بذلك الغزو مدوّن النص ، وقد كان في سفينة تبعتها إحدى عشرة سفينة أخرى ، فنزل بذلك الميناء وتغلب عليـه ونزل المحاربون من سفنهم ودخلوا الميناء ، فأخذوا غنائم وأسرى . ثم تلت هذه السفن دفعة ثانية من سفن جاءت محملة بالمحاربين ، نزلوا في موضع يقع جنوب الموضع الذي نزل هو فيه . لم يذكر اسمه في النص كذلك . وقد انتصر الغزاة على الأماكن

---

١ ZDMG., 35, 1881, S. 20.

٢ Die Araber, III, S. 28.

٣ تفسير النيسابوري (٣٠/١٦٣ ، (حاشية على تفسير الطبري) .

٤ Dillmann, in ZDMG., VII, 357, Nöldeke, Tabari, S. 188, Bury, II, P. 223.

التي هاجموها ، لأنهم كانوا مع الحق والشرع ، فكان الله معهم ، وكان أهل الميناء على الباطل وضد الشريعة الحقة فعوقبوا بالهزيمة[1] .

والنص المذكور — وإن كان خلواً من كل إشارة الى (ذي نواس) ، أو الى اسم (نجاشي) الحبشة ، أو الى زمن وقوع الغزو والأماكن التي وقع عليها — يشير الى غزو الحبش لليمن في حكم (ذي نواس) ، والى تغلب الحبش عليه . ويظهر منه أن القافلة الأولى تركت ساحل الحبشة من موضع (ادولس) (عدولس) (عدولي) Adulis على ما يظهر وكانت بإمرة (الا اصبحة) ، فعبرت باب المندب ، حتى وصلت الى ساحل اليمن . وقد اختارت ميناء (مخا) موضعاً للنزول ، فنزلت به وتغلبت على أصحابه . ثم جاءت قافلة أخرى نزلت في موضع يقع جنوب هذا الميناء ، وتغلبت على أصحابه كذلك . وبذلك تم النصر للحبش . ولم يشر النص الى أسماء الموانىء التي تحرك منها الجيش ، أو الموانىء التي نزل بها في ساحل اليمن .

وقد عالج الباحثون هذه الأسماء ، فرأى قسم منهم أنها تعني شخصاً واحداً هو ملك الحبشة الذي حارب ذا نواس . ورأى آخرون أن المراد بـ Aidug و Adad و Andas شخص واحد هو نجاشي حكم قبل هذا العهد ، أي في القرن الرابع للميلاد ، وهو (الا عاميدة) (علا عاميدة) Ela Amida ، المعاصر للقيصر قسطنطين ، وكان أول من تنصر من ملوك الحبشة على بعض الروايات . وذلك لعدم انسجام هذه الرواية التي تنص على تنصر Aidug بعد انتصاره على حمير ، كما أشرت الى ذلك ، مع روايات أخرى تشير إلى تنصر ملوك الحبشة قبل غزو اليمن هذا بكثير[2] .

وترى الروايات العربية أن ذا نواس لما غُلب على أمره ورأى مصيره السيء، ركب فرسه وسار إلى البحر فدخله فغرق فيه . أما الروايات الحبشية والإغريقية ، فإنها ترى أنه سقط حياً في أيدي الأحباش فقتلوه[3] .

---

١ Die Araber, III, S. 24. ff., Journ. af. Semit. Stud., 9, (1964), P. 56.

٢ ZDMG., 35, 1881, S. 20.

٣ ZDMG., 35, 1881, S. 16, Procopius, I, XX, I, Malala S. 433.

وهناك شعر نسب إلى علقمة ذي جدن زعم انه قائله ، هو :

أو ما سمعت بقتل حمير يوسفاً أكل الثعالب لحمه لم يقتبر ؟

وقد استدل منه (فون كريمر) على أن ذا نواس لم يغرق في البحر كما في الروايات العربية الأخرى ، بل قتل قتلاً كما ورد في روايات الروم[1] .

حكم السميفع أشوع :

وذكر (بروكوبيوس) ان الذي حكم حمير بعد مقتل ملكهم هو رجل اسمه Esimiphalos = Esimiphaeus اختاره النجاشي من نصارى حمير ليكون ملكاً على أن يدفع إلى الأحباش جزية سنوية فرضي بذلك وحكم . غير أن من تبقّى من جنود الحبشة في أرض حمير ثاروا عليه وحصروه في قلعة ، وعينوا مكانه عبداً نصرانياً اسمه (ابراهام) Abraham كان مملوكاً في مدينة (أدولس) (عدول) Adulis لتاجر يوناني . فغضب النجاشي وأرسل قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل لتأديبه وتأديب من انضم اليه . فلما وصلت إلى اليمن ، التحقت بالثوار ، وقتلت ائدها وهو من ذوي قرابة النجاشي . فغضب Hellestheaeus عندئذ غضباً شديداً ،وسيّر اليه قوة جديدة لم تتمكن من الوقوف أمام أتباع Abram فانهزمت ولم يفكر النجاشي بعد هذه الهزيمة في إرسال قوة أخرى . فلما مات ، صالح Abraham خليفته على دفع جزية سنوية ، على أن يعترف به نائباً عن الملك على اليمن ، فعيّن نائباً عنه[2] .

وذكر (بروكوبيوس) أيضاً أن القيصر (يوسطنيانوس) أرسل رسولاً عنه إلى النجاشي Ela Atzbeha Hellestheaeus والى Esimiphaeus اسمه (جوليانوس) Julianus ليرجو منهما اعلان الحرب على الفرس وقطع العلاقات التجارية معهم، لأنهما والقيصر على دين واحد ، فعليهما مساعدة أبناء دينهم الروم والاشتراك معهم في قضيتهم ، وهي قضيــة عامة مشتركة ، على النصارى جميعاً الدفاع عنها .

١ ZDMG., 35, 1881, S. 16, Von Kremer, Südarabische Sage, 92, 127.

٢ Procopius, I, XX. 1-2, Bury, II, P. 324, John Malalas, XVIII, 457.

وطلب من ملك حمير Homeritae خاصة أن يوافق على تعيين (قيس) Kaisos = Caisus (Phylarch) سيداً على قبيلة معد Maddeni ، وأن يجهز جيشاً كبيراً يشترك مع قبيلة معد في غزو أرض الفرس . وكان قيس كما يقول (بروكوبيوس) من أبناء سادات القبائل ، وكان شجاعاً قديراً وكفؤاً جداً وحازماً ، قتل بعض ذوي قرابة Esimiphaeus فانهزم الى البادية هائماً . وقد وعد الملك خيراً ، غير أنه لم ينجز وعده ، إذ كان من الصعب عليه اجتياز أرض واسعة بعيدة وطرق طويلة تمر بصحارى وقفار لمحاربة أناس أقدر من قومه في الحرب[1] .

وقد وصل رسول (جستنيان) (يوسطنيان) Justinian سنة (٥٣١ م) الى ميناء (ادولس) من البحر ، ثم ذهب منه الى (اكسوم) حيث وجد النجاشي Ela Atybeba واقفاً على عربة ذات أربع عجلات ، وقد ربطت بها أربعة فيلة ، وكان عارياً إلا من مئزر كتان مربوط بذهب ، وقد ربط على بطنه وذراعيه حلياً من ذهب . وبعد أداء هذا الرسول رسالته ، ثار (ابرام) Abram على Esimiphios ، وقضى على حكمه[2] .

وقد رجع السفير فرحاً مستبشراً بنجاح مهمته ، معتمداً على الوعود التي أخذها من الملكين . غير انهما لم يفعلا شيئاً ، ولم ينفذا شيئاً مما تعهدا به للسفير . فلم يغزوا الفرس ، ولم يعين (السميفع أشوع) (قيساً) (فيلارخاً) على قبيلة معد . وقد تحرش Abramos = Abram بالفرس، غير انه لم يستمر في تحرشه بهم ، فما لبث أن كفّ قواته عنهم[3] .

ولا يعقل بالطبع توسط القيصر في هذا الموضوع لو لم يكن الرجل من أسرة مهمة عريقة ، له عند قومه مكانة ومنزلة،وعند القيصر أهمية وحظوة . ولشخصيته ولمكانة أسرته ، أرسل رسوله إلى (السميفع) لاقناعه بالموافقة على إقامته رئيساً على قومه . وبهذا يكتسب القيصر رئيساً قوياً وحليفاً شجاعاً يفيده في خططه السياسية الرامية إلى بسط سلطان الروم على العرب ، ومكافحة الساسانيين .

وقد زار (ابرام) Abram والد (نونوسوس) Nonnosus الذي أرسله

---

١ Procopius, I, XX, 9-13.

٢ Bury, II, P. 325. f.

٣ Procopius, I, XX, 9-13.

(جستنيان) Justinian إلى النجاشي وإلى اليمن وإلى معد Caisos = Kaisos (قيساً) هذا مرتين ، وذلك قبل سنـة (٥٣٠ م) ، وزاره (نونوسوس) نفسه في أثناء حكمه ، فأرسل (قيس) ابنه (معاوية) معه إلى القسطنطينية إلى (يوسطنيان) ، ثم استقال (قيس) ، وصار أخوه رئيساً على معـد ، وزار القسطنطنية ، فعيّن (فيلارخاً) على فلسطين[1] .

ويظهر من دراسة خبر المؤرخ (بروكوبيوس) أن قيصر الروم المذكور كان قد أرسل رسولاً عنه إلى (النجاشي) وإلى (السميفع) ، إبان حكم السميفع لليمن ، أي قبل ثورة (أبرام) (أبرهة) عليه . ولهذا كلمه الرسول في أمر (قيس) ، ولكنه أخفق في اقناعه بالعفو عنه وبالاعتراف به رئيساً على معد ، فلم يعترف به الى مقتله . فلما توفي ، جاء رسول القيصر ثانية الى النجاشي والى أبرهة والى (قيس) بمهمة تحريضهم لمعارضة الفرس ، وتوحيد كلمتهم . وكان (أبرهة) على عكس (السميفـع) على علاقة طيبة بـ (قيس) ، وقد قرر تنصيبه رئيساً على معد .

وقد أشار المؤرخ (ملالا) الى خبر الرسول الذي أرسله القيصر الى النجاشي لاقناعه بالاشتراك مع الروم في محاربة الفرس ، غير أنه لم يذكر اسم الرسول الذي أوفده القيصر الى بلاط (أكسوم) . وقد ذكر أن النجاشي بعد أن تغلب على ملك حمير عيّن أحد ذوي قرابته ويدعى Anganes = Aggan على الحميريين[2] . وأما (يوحنـا الأفسي) ، فقد دعـاه Abramios ، ودعاه (ثيوفانس) (الحارث) Arethas[3] .

و Esimiphaeus الذي نصبه النجاشي ملكاً على حمير بعد مقتل ملكهم اليهودي ،

---

١ تاريخ العرب قبل الاسلام ، لجواد علي (٣٩٤/٤) ،
Bury, II, P. 326, Fragmenta Historicorum Graecorum, IV, P. 179, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol., XVI, Part : 3, P. 435.

٢ Malala, P. 456, Fell in ZDMG., 35, 1881, S. 34, ZDMG., 7, 473, Bury, II, 324, Malala, XVIII, 457.

٣ Theophanes, I, P. 377, Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 35, Glaser, Mitt., S. 428, S. 69, Seper.

هو (السميفع أشوع) ، صاحب النص الموسوم بـ CIH 621 بين العلماء . وقد دوّنه مع أولاده : (شرحبيل) يكمل) و (معديكرب يعفر) ، وجماعة من سادات القبائل منهم : أبناء ملحم (ملحهم) ، وكبراء (كبور) قبائل محرج سيبان ذو نف . وقد كان السميفع أشوع من (بني لحيعت يرخم)،وكان هو وأولاده سادة (الهت) على : (كلعن) (كلعان) أي الكلاع و(ذ يزن) (ذى يزان) (ذى يزأن) و (ذى جدن) و (مثلن) (مثلان) (مطلحن) (مطلحان) و (شرفن) (شرفان) (شرقان) و (حب) (حبم) ويثعن (يثعان) و (يشر) يشرم ويزر ومكرب (مكربم) و (عقهت) (عقهة) و (بزاي) (بزايان) ويلجب (يلجبم) وغيمن (غيمان) (جيهان) ويسب وجبح وجدوى (جدويان) و (كزر) (كزران) و (رخيت) وجردان (الجرد) وقبيل (قبلان) و شرجى (شرجا)[١] .

أما أبناء ملحهم ، فقد كانوا على وحظت (وحظة) و (الهان) (الهن) و (سلفن) (سلفان) (السلف) ، و (ضيفتن) (ضيفت) (الضيفة) و (ريان) (رثاج) و (رياح) و (ريحن) و (ركب) (ركسبن) و (مطلن) (مطلان) و (مطلفن) (مطلفان) و (ساكلن) (ساكلان)، و (زكرد)[٢] .

وقد دوّنوا النص المذكور ، لمناسبة ترميمهم واصلاحهم أسوار ودروب ومنافذ وصهاريج حصن (مويت) (عرمويت) ، (ماويت) (ماوية) ، وتحصنهم فيه بعد أن جاء الحبش إلى أرض حمير ففتحوها ، وقتلوا ملكها وأقياله الحميريين والأرحبيين ، وذلك في شهر (ذو حجت) (ذي الحجة) من سنة (٦٤٠) من

---

١ CIH 621, CIH, IV, III, I, P. 54, REP. EPIG. 2633, REP. EPIG., V, I, P. 5, Mlaker, in Zeitschrift für Semitistik, VII, I, 1929, S. 63, Le Muséon, LXIII, 3-4, 1950, P. 271.

٢ Glaser, Die Abessinier, 132.

التأريخ الحميري الموافق لسنة (٥٢٥) للميلاد[١] .

ويظهر ان (السميفع أشوع) ، كان من أهل (نصاب) ، وكان قد هاجر لسبب لا نعرفه هو وأولاده الى الحبشة فأقام بها ، ثم عاد فاستقر في (عرّمويت) أي في (حصن ماوية) ، وأخذ يوسع من هذا الحصن أرضه ويفتح أرضين جديدة ويتقدم نحو الأرضين التي حكمها (ذو نواس) . فلما جاهر (ذو نواس) بمناصبة النصرانية والحبش والروم العداء، كلفه الحبش والروم بمهاجمة (ذي نواس) وقدّموا له المساعدات المادية من عون عسكري ومالي ، ليستعين بها في تنفيذ مشروعه هذا . وأخذ يشتري القبائل ويفرض نفوذه عليها بالقوة وبالمال حتى انتهى الأمر بزوال ملك (ذي نواس) ، فعيّن (السميفع) حاكماً على اليمن ونائباً عن ملك الحبشة عليها ، الا أن ثورة وقعت فيها ، قضت على حكمه ، فولى الأحباش شخصاً آخر في مكانه . وذلك بعد السنة (٥٣١) للميلاد[٢] .

و (شرحب ال لحمى عت يرخم) (شرحبيل لحيعت يرخم) ، هو والد (السميفع أشوع) ، ولم يكن ملكاً ، غير أنه لم يكن من العامة ، بل كان من (اقول) الأقيال . وذلك لعدم ذكر لقب الملك بعد اسمه ، وعدم نص ابنه (السميفع) على أن والده كان ملكاً . ويجوز أن يكون للسميفع أشوع أبناء آخرون، غير الولدين : (شرحب ال يكمل) (شرحبيل يكمل) و (معديكرب يعفر) المذكورين في النص[٣] .

وفي متحف استانبول نص وسم بـ Osma. Mus. No: 281 نشره وترجمه العالم

---

١ (سطرو ذن مزندن بعرن مويت) ، السطران السادس والسابع من النص ، (عرن) الحصن في الحميرية ، العرب قبل الاسلام لزيدان (١٢٥) ، وقد اختلف الباحثون بعض الاختلاف في قراءة أسماء الاعلام الواردة في هذا النص • السطر الحادي عشر من النص •
G. Hunt, Himyaric Inscriptions of Hisn Ghurab, Translated and Elucidated, 1848, Praetorius, Himjarische Inschriften, in ZDMG., XXVI, 1872, S. 436, J.H. Mordtmann, Neue Himjarische Inschriften, in ZDMG., XXXIX, 1885, S. 230, Von Maltzen, Reise nach Sudarabien, 1873, S. 225, REP. EPIG. 2633, REP. EPIG., V, I, P. 5, Glaser, Zwei Inschriften, S. 86, M. Hartmann, Die Arabische Frage, 1909, S. 367, J. Raymond Wellsted, Travels to the City of the Caliphs, P. 21 Rodiger, Versuch, S. 13.

٢ Beiträge, S. 92, 120.

٣ Le Muséon, LXIII, 3-4, 1950, P. 273.

البلجيكي (ريكمنس) G. Ryckmans في مجلة Le Muséon ،وردت في مطلعه جملة : « نفس قدس سميفع أشوع ملك سبا » ، وفي آخره عبارة : « بسم رحمنن وبنهو كرشتش غلبن » ، ومعناها « بسم الرحمن وابنه المسيح الغالب »[١] . وفي هاتين الجملتين دلالة صريحة على أن السميفع أشوع كان ملكاً على سبأ وأنه كان على دين النصارى . وقد استعمل النص كلمة (كرشتس) بمعنى المسيح ويستعملها أهل الحبشة كذلك . وقد أخذوها ، ولا شك من الروم . ويؤيد كون (السميفع أشوع) نصرانياً ، ما ذكره المؤرخ (بروكوبيوس) من أن الحبشة عينت رجلاً نصرانياً من حمير اسمه Esimiphaeus ملكاً على حمير ، وذلك بعد قتل الملك الحميري الذي عذّب النصارى في بلاده ، ويقصد به ذو نواس .

ولم يكن (السميفع أشوع) ملكاً مستقلاً كل الاستقلال يتصرف بملكه كيف يشاء ، بل كان في الواقع تابعاً لحكومة (أكسوم) . يُفهم ذلك صراحة من هذا النص الذي أتحدث عنه . جاء في السطر الثالث منه:(امراهمو نجشت اكسمن برو وهوثرن) ، أي (في أيام أميرهم نجاشي أكسوم بنوا وأسسوا) . وجاء في السطر السادس : (املكن الابحه ملك حبشت) ، أي (الملك الابحة ملك الحبشة) ، ويقصد بـ (الابحة) نجاشي الحبشة (الا أصبحة) Elle 'Asbeha الذي كان ملك الحبشة في ذلك العهد ، وعاصمته مدينة (أكسوم)[٢] .

وتعني كلمة (نجشت) الواردة في النص ملكاً أو أميراً في العربية ، وقد أخذها العرب من الحبش ، وأطلقوها على ملوك الحبشة ، وهي (نجاشي) و (النجاشي) في عربيتنا ، كما أطلقوا كلمة (قيصر) على أباطرة الروم[٣] .

وقد ذكرت في النص أسماء (ذويزان) (ذو يزن) و (حسن) (حسان) و (شرحبال) (شرحبيل) قيل (ذو معفرن) ، أي قيل المعافر . و(اسودن) أي الأسود (وسميفع) قيل (ذو بعدان) (ذ بعدن) ، وزرعة قيل مرحبم ، أي مرحب (المراحب) و (حارث) و (مرثد) أمراء (ثعبان)و(شرحبيل

---

١ Handbuch, S. 105, Note : 4, Le Muséon, LIX, 1-4, 1964, P. 165, REP. EPIG. 3904, REP. EPIG., VI, II, P. 376, Le Muséon, LXIII, 3-4, 1950, P. 272, Istanbul, 7600, Bis, Conti Rossini, Storia D'Etiopia, Milano, 1925, Vol., I, P. 180.

٢ Le Muséon, LIX, 1-4, 1946, P. 167.

٣ Ency., III, P. 817.

يكمل)[1] . وجاء بعض هذه الأسماء في نصوص أخرى ، ومنها نص (حصن غراب) المتقدم وقد اشتهر بعض هذه القبائل في الإسلام .

ولدينا نص غفل من التاريخ وسمه العلماء بـ REP. EPIG. 4069 ، وردت فيه جملة أسماء ، هي : (شرحب ال يكمل) (شرحبيل يكمل) و (شرحب ال يقبل) (شرحبيل يقبل) ، و (مرثد علن احسن) (مرثد علن أحسن) (مرثد عـلان أحسن) ، و (سميفع أشوع) أبناء (شرحب ال لحى عت يرخم) (شرحبيل لحيعت يرخم) أقيال (اقول) (ذو يزان) (ذو يزن) و (جدنم) (ذو جدن) و (يلجب) و (يصبر)[2] . ويظن أن (السميفع أشوع) المذكور هنا ، هو الملك الذي نتحدث عنه[3] . ولم يلقب في هذا النص بلقب ملك ، كما لم يلقب به والده كذلك . والظاهر أنه كتب قبل عهد توليـه الملك . وأنه لم يكن من الأسرة المالكة ، ولكن من أبناء الذوات والأعيان .

ووردت في نهاية النص جملة « الرحمن ربّ السماء والأرض » ، وهي عبارة تختلف عن العبارات المألوفة التي نعهدها في النصوص الوثنية القديمة ، تظهر منها عقيدة التوحيد والابتعاد عن الآلهة القديمة بكل جلاء[4] . غير أننا لا نستطيـع أن نستخرج منها أن صاحبها كان يهودياً كما ذهب الى ذلك بعض الباحثين ، أو أنه كان نصرانياً[5] . انما نستطيع أن نقول ان أصحاب هـذا النص كانوا على دين التوحيد وكفى .

ومن الأسماء الواردة في هذا النص : (ضيفنّ) (ضيفت) (ضيفـة) و (ريحم) (ريح) (رياح) و (مهرت) (مهرة) وقبيلة (سيبن) (سيبان)[6] . وقد تكون مهرت (مهرة) ، هي مهرة التي تنسب الى (مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة) في اصطلاح النسابين[7].

ويقع (عرمويت) ، أي حصن (مويت) (ماوية) في جزيرة بركانيـة

---

١ Le Muséon, LIX, 1-4, 1946, PP. 167, 171.

٢ REP. EPIG., VII, I, P. 66, Boscawen, 13.

٣ Ryckmans 63, Le Muséon, LXIII, 3-4, 1950, P. 272, Beiträge, S. 92.

٤ السطر الحادي عشر من النص .

٥ Le Muséon, LXIII, 1950, PP. 273, 274.

٦ السطران الرابع والخامس من النص .

٧ منتخبات (١٠٠) .

تسمى (حصن الغراب) وهو الآن خراب . وقد عثر الباحثون في أنقاضه على كتابة وسمت بـ CIH 728 دوّنها (صيد ابرد بن مشن) (صيـــد ابرد بن مشان) ، أحد أقيال (بدش) (باداش) . وورد فيها اسم (قنا) . وقد كان لهذا الحصن شأن كبير في تلك الأيام لحماية الجزيرة والميناء من الأعداء المهاجمين ومن لصوص البحر . وللدفاع عن التجار الذين كانوا يتاجرون مع افريقية والهند. ولهذا اهتمّ (السميفع أشوع) وأولاده بترميمه وبإصلاحه وتقويته[1] .

وأما ميناء (قنا) الذي ذكرته في مواضع من هذا الكتاب ، وهو في الموضع المسمى بـ (بير علي) في الوقت الحاضر على رأي بعض الباحثين ، فقد كان من الموانىء المهمة على البحر العربي . وقد كان مرفأ للتجارة الآتية من الشمال ، أو من البحر لارسالها الى (شبوة) ومواضع أخرى في شمال هذا الميناء[2] .

ومما يلاحظ أن المواضع الآثارية التي على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب قليلة معدودة . وتكاد تنحصر في أرض عدن وأبيَن وحصن الغراب وفي مواضع من أطراف (ظفـــار) وحول (المكلا) و (الشحر) وساحل مهرة . مـــع أن السواحـــل هي من المواضع التي يجب أن تكون في العادة عامرة بالمدن والمرافىء بسبب سهولة اتصالها بالعالم الخارجي ، ووقوعها على طرق مائية تجلب اليهن السفن والناس . والظاهر أن وخامة الجوّ في هذه السواحل وصعوبة حماية الساحل من لصوص البحر ، وتفشي الأمراض ، وملوحة المياه الجوفية ، وأسباباً أخرى ، كانت في جملة ما حال بين الناس وبين بناء المدن على هذه السواحل[3] .

وقد اشتهرت (ظفار) بأنها المرفأ المعد لتصدير اللبان والمرّ وحاصلات البلاد العربية الجنوبية الأخرى . وكان محاطاً بسور . أمـــا المواضع الأخرى ، فلم تكن مسوّرة في الغالب . وقـــد أشار (كرب ايل وتر) في أخباره عن حروبه في السواحل الجنوبية أنه خرب مدينـــة (تفض) في (أبين) ، وأحرق مواضع أخرى على البحر ، يظهر أنها لم تكن مسوّرة . ويظهر أن هذه السواحل لم تكن مأهولة مثل الأرضين الشمالية العالية ، فلم يعثر الباحثون على كتابات كثيرة فيهـــا

---

١ Beiträge, S. 91.

٢ Beiträge, S. 93.

٣ Beiträge, S. 87.

حتى الآن . وصارت مدينة (عدن) ومدينة (قنــا) من أهم المرافىء عــلى الساحل الجنوبي[1] .

هذا ولا بد لي هنا من الإشارة الى كتابة حبشية ناقصة عثر عليها (أحمد فخري) سنة (١٩٤٧م) بمأرب ، فيها إشارة إلى دخول الحبشة إلى اليمن ، وإن لم ينص على ذلك نصاً . ويظن أنها تشير الى استيلاء (الا اصبحة) النجاشي على اليمن سنة (٥٢٥) للميلاد . وانتصاره على (ذي نواس)[2] .

ويظهر من هذه الكتابة أن حملة الحبش على اليمن نقلت في قافلتين من السفن: تحركت القافلة الأولى بقيادة النجاشي الــذي كان قد احتجز سفينة خاصة به ، فعبرت به باب المندب ورست عند ساحل اليمن . وكانت سفينــة النجاشي أول سفينة بلغته ، ثم تلتها بقية السفن . وقد سقط من الكتابة اسم الموضع الذي رست السفن فيه ، ولعلّه (مخا) . فوقعت معارك بين الحبش وبين الحميريين ، انتصر فيها الأحباش فأخــذوا أسرى وغنائم . ولما كان النص ناقصاً وقد طمست من الكتابة الباقية منه كلمات ، فقد صار غامضاً مقتضباً، لا يفهم منـه إلا إشارات[3] .

أبرهة :

و Abraham و Abramios ، هما اسمان لمسمى واحد ، أريد به (أبرهة) المشهور عند أهل الأخبار الذي اغتصب الملك باليمن ، ونصب نفسه حاكماً عليها، ولقب نفسه بألقاب الملوك ، وإن اعترف اسمياً بأنه (عزلى ملكن اجعزين) ، أي (نائب ملك الأجاعزة) على اليمن[4] . وحكم اليمن أمداً ، وترك في نفوس اليمانيين اثراً قوياً .

ويرى بعض الباحثين أن (كالب ايلا أصبحة) ، كان قد أرسل حملة سنـة (٥٢٣) للميلاد على اليمن ، حملتها اليها سفن بيزنطية ، نزلت في البـلاد وتغلبت على (ذي نواس) فهــرب (ذو نواس) من (ظفــار) ، ثم عاد فباغت

---

١ Beiträge, S. 88.

٢ Die Araber, III, S. 24.

٣ Die Araber, III, S. 24.

٤ راجع السطر الخامس من النص .

الحبش وأنزل بهم خسائر كبيرة ، واضطهد النصارى وعذّبهم . فحمل النجاشي على ارسال حملة جديدة عليه نزلت اليمن سنة (٥٢٥) للميلاد . وصارت في أيدي الحبش حتى سنة (٥٣٠) للميلاد . اذ قامت ثورة على الحبشة ، وانتهز (أبرهة) الفرصة ، فأخذ الأمر بيديه ، وبقي حاكماً على اليمن منذ هـذا الوقت تقريباً حتى سنة (٥٧٥) للميلاد . وكان قد انتزع الحكم من (السميفع أشوع) ، الذي نصّبه الحبش ملكاً على اليمن حين دخولهم اليها وعيّنوا رجلين من الحبش يحكمان معه ويراقبان أعماله لئلا يقوم بعمل يضر مصالحهم[١] .

ولأهل الأخبار روايات عن كيفيـة استئثار (أبرهة) بالحكم واغتصابه له . لهم رواية تقول : إنه جاء الى اليمن جندياً من جنود القائد الحبشي (أرياط) الذي كلفه نجاشي الحبشة بفتح اليمن ، فلما أقام باليمن سنين ، نازعـه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشي ، حتى تفرقت الحبشة ، وخرج أبرهة على طاعة قائده ، ثم غدر به وأخذ مكانه[٢] . ورواية أخرى ، تقول إن النجاشي أرسل جيشاً قوامه سبعون ألفاً ، جعل عليه قائدين ، أحدهما : أبرهة الأشرم[٣] . فلما ركب ذو نواس فرسه واعترض البحر فاقتحمه وهلك به ، نصب أبرهة نفسه ملكاً على اليمن ، ولم يرسل له شيئاً ، فغضب النجاشي ووجه اليه جيشاً عليه رجل من أصحابه ، يقال له أرياط ، فلما حل بساحته ، بعث اليه أبرهة : « إنه يجمعني واياك البلاد والدين ، والواجب عليّ وعليك أن ننظر لأهل بلادنا ودينـنا ممن معي ومعك ، فإن شئت فبارزني ، فأينا ظفر بصاحبه كان الملك له ، ولم يقتل الحبشة فيما بيننا» . فرضي بذلك أرياط ، وأجمع أبرهة على المكر به . فاتعدا موضعاً يلتقيـان به ، واكمن أبرهة لأرياط عبداً يقال له : « أرتجده ، في وهدة قريب من الموضع الذي التقيا فيه ، فلما التقيا سبق أرياط فزرق أبرهة بحربته ، فزالت الحربة عن رأسه وشرمت أنفه ، فسمي الأشرم ، ونهض أرتجده من الحفرة ، فزرق أرياط فأنفذه ، فقتله »[٤] . وأخذ أبرهة الحكم لنفسه ، واستأثر به .

---

١ J. Ryckmans, L'Inst., P. 320, Grohmann, S. 31.

٢ الطبري (٢/١٢٥) (دار المعارف) .

٣ الطبري (١٢٧/٢) (دار المعارف) .

٤ وذكر الطبري في خبر آخر أن اسم العبد الذي قتل ارياط (عتودة) الطبري (١٢٨/٢ ، ١٢٩) .

وتذكر رواية أخرى ، أن النجاشي كان قد وجه أرياط أباصحم (ضخم) في أربعة آلاف الى اليمن ، فأداخهـا وغلب عليها ، فأعطى الملوك ، واستذل الفقراء ، فقام رجـل من الحبشة يقال له أبرهة الأشرم أبو يكسوم ، فدعا الى طاعته . فأجابوه ، فقتل أرياط ، وغلب على اليمن[1] .

وتذكر رواية أن (أرياط) أخرب مع ما أخرب من أرض اليمن سلحـين وبينون وغمدان ، حصوناً لم يكن في الناس مثلهـا . ونسبوا في ذلك شعـراً إلى (ذي جدن) ، زعموا أنه قاله في هذه المناسبة[2] . ويظهـر من روايات أخرى أن تلك الحصون بقيت إلى ما بعد أيامه . وذكر أن (أرياط) كان فوق أبرهة ، أقام باليمن سنتين في سلطانه لا ينازعه أحد ، ثم نازعه أبرهة الحبشي الملك[3] .

وتجمع روايات أهل الأخبار على أن النجاشي غضب على أبرهة لما فعله باليمن ولما أقدم عليه من قتل أرياط ، وأنه حلف ألاّ يدع أبرهـة حتى يطأ بلاده ، ويجز ناصيته ، ويهرق دمه . فلما بلغ ذلك أبرهة ، كتب إلى النجاشي كتاباً فيه تودد واعتذار وتوسل واسترضاء ، فرضي النجاشي عنه ، وثبته على عمله بأرض اليمن[4] .

ولما استقام الأمر لأبرهة باليمن ، بعث إلى (أبي مـرة بن ذي يزن) ، فنزع منه امرأته (ريحانة ابنة علقمة بن مالك بن زيد بن كهلان) ، و (علقمة) هو ذو جدن . وكانت ولدت لأبي مرّة معديكـرب بن أبـي مـرّة ، وولدت لأبرهة بعد أبـي مـرّة مسروق بن أبرهـة ، وبسباسة ابنـة أبرهة . وهرب منه أبو مرة[5] .

ولأبرهة ذكر وشهرة في كتب أهل الأخبار والتأريخ . وقد ورد اسمه في الشعر الجاهلي ، وضرب به المثل في القوة والصيت والسلطان ، حتى لنجد أهل الأخبار يذكرون أسماء جملة أشخاص دعوهم (أبرهة) ذكـروا أنهم حكموا اليمن .

---

١ الطبري (٢/١٣٧) (دار المعارف) ، أخبار مكة ، للازرقي (١/٨١ وما بعدها) ، (١/٨٨) ، (طبعة خياط) .
٢ الطبري (٢/١٢٥) ، (دار المعارف) .
٣ أخبار مكة ، للازرقي (١/٨٧) ، (خياط) ، الطبري (٢/١٢٨) (سنين) ، (دار المعارف) .
٤ الطبري (٢/١٢٨ وما بعدها) (دار المعارف) .
٥ الطبري (٢/١٣٠) (دار المعارف) .

والظاهر أن الشهرة التي بلغها في أيامه وغزوه القبائل العربية واستعماله القسوة معها، أحاطته بهالة في أيامه تضخمت فيما بعد ، فأحيط بقصص وأساطير وصير من اسمه جملة حكام حكموا باسم (أبرهة) .

فقد ذكروا اسم (أبرهة تبع ذي المنار بن الرائش بن قيس بن صيفي بن سبأ). وكان يقال له (الرائد)[1] . وجعلوا لأبرهة هذا ولدين ، هما : إفريقس ، والعبد ذو الأذعار . وأولد إفريقس شمر يرعش[2] . وذكروا (أبرهة) آخر ، قالوا له : (أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة) . وسمّى (الهمداني) جملة رجال (أبرهة) ، وأدخلهم في (الأصابح)[3] . ويظهر من دراسة اسم (أبرهة) ونعته في الحبشية أن الأخباريين أخذوها فصيّروا منها أسماء عربية ربطوا بينها وبين تأريخ اليمن كما فعلوا مع أشخاص آخرين .

وقد ضرب (لبيد بن ربيعة العامري) المثل بـ (أبي يكسوم) وهو أبرهة في وجوب الاتعاظ بهذه الدنيا الفانية التي لا تدوم لأحد ، فقال :

لو كان حيّ في الحياة مُخلداً ... في الدهر ألقاه أبو يكسوم[4]
والتُبّعان كلاهما ومُحَرِّق ... وأبو قبيس فارس اليحموم[5]

وقد ترك أبرهة وثيقة مهمة على جانب خطير من الأهمية ، وهي النص الذي وسم بـ Glaser 618 وبـ CIH 541 عند الباحثين في العربيات الجنوبية[6] . وهي ثاني نص طويل يصل الينا من اليمن ، يتألف من (١٣٦) سطراً ومن حوالي (٤٧٠) كلمة[7] .وتبحث عن ترميم سدّ مأرب ذي المكانة الخالدة في القصص

---

١ الطبري (٥٦٦/٢) (دار المعارف) ، (١١١/٢) .
٢ الاكليل (٥٣/٢) .
٣ الاكليل (١٤٣/٣) .
٤ ديوان لبيد (ص ١٠٨) ، (الكويت ١٩٦٢ م) .
٥ الاكليل (١٥٩/٢) .
٦ Glaser 618, (+ 553 + 555 + 556), CIH 541, CIH, IV, II, III, P. 278, Glaser, Zwei Inschriften uber den Dammbruch von Mareb, in Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, , 1897, S. 390, Seper., S. 31-126, Ryckmans, 506, Jamme 546, A. J. Drewes, Inscriptions de L'Ethiopie Antique, 1962, 71, 1961, 65.
٧ Handbuch, S. 106, Die Araber, I, S. 587, Le Muséon, 66, 1953, P. 340, Beeston, in BSOAS, 16, 1954.

العربي وتجديده مرتين ، وذلك في أيام أبرهة . المرة الأولى في شهر (ذو المدرح) من سنة (٦٥٧) من التأريخ الحميري المقابلــة لسنة (٥٤٢) للميلاد ، والثانية في شهر (ذو معان) (ذ معن) من سنة (٦٥٨) من التأريخ الحمــيري ، أي في سنة (٥٤٣) من الميلاد[١] .

وقد افتتح النص بالعبارة الآتية : « بخيل وردا ورحمت رحمنن ومسحو ورح قدس سطرو ذن مزندن . ان ابره عزلى ملكن اجعزين رمحــز زبيمن ملك سبأ وذ ريدن وحضرموت ويمنت واعربهمو طودم وتهمت »[٢] أي « بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح القدس سطروا هذه الكتابة . إن أبرهة نائب ملك الجعزيين رمحز زبيمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في النجـاد وفي تهامة » . ويلاحظ أن أبرهة قد لقب نفسه في هذا النص باللقب الرسمي الذي كان يتلقب به ملوك حمير قبل سقوط دولتهم ، مع أنه كان (عزلى ملكن اجعزين)،أي نائب ملك الجعزين . والواقع أنه كان قد استأثر بالحكم في اليمن ، وحصر السلطــة في يديه ، وصار الحاكم المطلق ، ولم يترك لنجاشي أكسوم غــير الاسم ، حتى أنه دعاه في هذا النص بـ (ملك الجعز) حسب[٣] .

وفي النص حديث عن ثورة قام بها (يزد بن كبشت) (يزيد بن كبشة) من السادات البارزين في اليمن . وكان أبرهة قد أنابه عنه ، وجعله خليفته على قبيلتي (كدت) و (دا)[٤] ، غير أنه ثار عليه لسبب لم يذكر في النص ، وأعلن العصيان . وانضم اليه أقيال (اقول) سبأ و (اسحرن)،وهم : (ذو سحر) و (مرة) و (ثمامت) (ثمامــة) و (حنش) (حنشم) و (مرثد) و (حنف) (حنفم) (حنيف) و (ذ خلل) (ذو خليل) و (ازانن) (الأزان) والقيل (معديكرب بن سميفع) ، و (هعن) (هعان) واخوته أبناء أسلم . فلما بلغ نبأ هذه الثورة مسامع (أبرهة) ، سيّر اليه جيشاً بقيــادة (جرح ذزبنر) (جراح ذو زبنور) ، فلم يتمكن أن يفعــل شيئاً ، وهزمه

---

١ F. Praetorius, Bemerkungen zur den beiden grossen Inschriften vom Dammbruch zu Marib, in ZDMG., 1899, 5, 15.

٢ السطور الاولى من النص : CIH 541, Glaser 618.

٣ Glaser, Zwei Inschriftten uber den Dammbruch von Marib, II, 1897, S. 421.

٤ (خلفتهوذ ستخلفو على كدت ردا) ، السطر الحادي عشر من النص ، Glaser, Zwei, S. 401, 413, Seper., 42, 54.

(يزيد) ، واستولى على حصن (كلىر) (كدار) ، وجميع من أطاعه من (كددت) (كدة) ومن (حريب) حضرموت وهاجم (هجن اذمرين) (هجان الذماري) وهزمه واستولى على أملاكه ، وحاصر موضع (عبرن) (عبران) (العبر) . عندئذ قرر أبرهة معالجة الموقف بارسال قوات كبيرة لرتق الخرق قبل اتساعه ، فجهز في شهر (ذ قيضن) (ذو القيض) (ذو قيضان) من سنة (٦٥٧) من التقويم الحميري أي سنة (٥٤٢) للميلاد جيشاً لجباً من الأحباش والحميريين ، وجهه نحو أودية (سبأ) و (صرواح) ثم (نبط) على مقربة من (الوادي) (عبرن) (عبران) (العبر) . وفي (نبط) جعل أهل (الو) (الوى) و (لمد) والحميريين في المقدمة . أما القيادة ، فكانت بأيدي القائدين: (وطح) (وطاح) و (عوده) (ذو جدن) . وبينما كان الجيش في طريقه لحرب (يزيد بن كبشة) إذا به يظهر مع عدد من أتباعه أمام (أبرهة) يطلب منه العفو والصفح . أما الباقون،فقد تحصنوا في مواضعهم ، وأبو الخضوع والاستسلام.

وبينما كان أبرهة يفكر في أمر بقية الثائرين إذا به يسمع بخبر سيء جداً ، هو تصدع سد (مأرب) وتهدم بعض توابعه ، وذلك في شهر (ذ مذرن) (ذو مذران) (ذو المذرى) من سنة (٦٥٧) من تقويم حمير ، أي سنة (٥٤٢) للميلاد . فأمر مسرعاً بتحضير مواد البناء والحجارة ، وحدد أجل ذلك بشهر (ذ صربن) (ذو الصرب) من السنة نفسها . وفي أثناء مدة التحضير هذه ، افتتح أبرهة كنيسة في مدينة مأرب يظهر أنه هو الذي أمر ببنائها، ورتب لخدمتها جماعة من متنصرة سبأ . ولما انتهى من ذلك عاد إلى موضع السدّ لوضع أسسه واقامته مستعيناً بحمير وبجنوده الحبش ، ولكنه اضطر بعد مدة الى السماح لهم باجازة ، ليهيئوا لأنفسهم الطعام وما يحتاجون اليه ، وليريحهم مدة من هذا العمل المضني الذي تبرموا منه ، وليقضي بذلك على تذمر العشائر التي لم تتعود مثل هذه الأعمال الطويلة الشاقة . ورجع أبرهة في أثنائها إلى مأرب ، فعقد معاهدة مع أقيال سبأ وتحسنت الأحوال ، وأرسلت اليه الغلات والمواد اللازمة للبناء ، ووصلت اليه جموع من الفعلة وأبناء العشائر ، فعاد إلى العمل بهمة وجد، فأنجزه على نحو ما أراد ، فبلغ طوله خمسة وأربعين (أمماً) ، أي ذراعاً ، وبلغ ارتفاعه خمسة وثلاثين (أمماً) . أما عرضه ، فكان أربع عشرة ذراعاً ، بني بحجارة حمر من (البلق) . وانجزت أعمال قنواته وأحواضه والمشروعات الفرعية

المتعلقــة به في (خبشم) (خبش) وفي (مفــلم) (مفلل) (مفلول) . وقد دوّن أبرهة في نهاية النص ما أنفقه على بناء هذا السد من أموال، وما قدّمه إلى العمال والجيش الذي اشترك في العمل من طعام واعاشة من اليوم الذي بدىء فيه بالانشاء حتى يوم الانتهاء منه في شهر (ذو معن) (ذو معان) من سنة (٦٥٨) الموافقة لسنة (٥٤٣) للميلاد .

مدينة مأرب ، وتقع على أنقاض مأرب القديمة
من كتاب : (Qataban and Sheba)

ويظهر من النص أن ثورة (يزيد بن كبشة) (يزد بن كبشت) كانت ثورة عنيفة قوية، وأنها شملت حضرموت و (حريب) و (ذو جدن) و (حباب) عند (صرواح) . ولكنها فشلت وتغلب أبرهة عليها بمساعدة قبائل يمانية ذكرها في النص[١] .

أما (يزيد بن كبشة) فلا نعرف من أمره في الزمن الحاضر إلا شيئاً يسيراً، وهو ما ذكره أبرهة في نصه عنه ، من أنه عيّنه عاملاً ووكيلاً عنه على قبيلة (كدت) (كدة) . وهي كندة على رأي أكثر العلماء[٢] .

١ Beiträge, S. 121.

٢ Glaser, Mitt., S. 434.

وأما الأقيال الذين انضموا اليه وساعدوه ، وهم : (ذو سحر) و (مرّة) و (ثمامة) و (حنش) و (مرثد) و (حنيف) وآل ذو خليل وذو يزان (ذ يزن) (ذو يزن) ، و (معديكرب بن سميفع) و (هعن) (هعّان) واخوته أبناء أسلم . فهم يمثلون على الجملة الطبقات الأرستقراطية القديمة في سبأ . فآل ذو خليل وذو سحر ، من الأسر التي ذكرت أسماؤها في النصوص المدونة قبل الميلاد . وقد أرخ بأسرة (ذي خليل) في نصوص المسند ، وذكروا في كتابات السبئيين العتيقة التي تعود إلى أيام المكربين . وكان لهم في أيامهم شأن يذكر في تأريخ سبأ ، إذ كان منهم المكربون[1] . وذكر (الهمداني) اسم جماعة يقال لهم (البحريون) ، قال : انهم من ولد ذي خليل من حمير[2] .

وليس من السهل تشخيص (مرّة) و (ثمامة) ، فهما من الأسماء المتعددة المذكورة في الكتب العربية . وقد أشير إلى (ثمامة بن حجر) ملك (قصر الدهاد) في (عمران)[3] . وذكر الهمداني (بني ثمامة) وقال : إن جبأ مدينة المعافر ، وهي لآل الكرندي من بني ثمامة آل حمير الأصغر[4] ، فهل يكون لهؤلاء صلة بـ (ثمامة) النص ؟

وذكر بعض الأخباريين اسم ملك من ملوك اليمن سمّوه (مرثداً) زعموا أنه كان آخر الملوك ، وزعم قسم منهم أنه حكم مدة قصيرة بعد (ذي نواس) ، فهل صاحب هذا الاسم هو (مرثد) المذكور في النص ؟ ولا عبرة بالطبع بما ذكر من أنه كان ملكاً،فقد كان من عادة الأقيال والأذواء التلقب بلقب ملك[5] .

وورد (ذو مراثد بن ذو سحر) ، في الموارد العربية[6] ، فجمعت بين (مراثد) و (سحر) ، وورد اسم (سحر) واسم مرثد في النص ، فهل هنالك صلة بين هذه الأسماء ؟

ويرى (كلاسر) أن (ازان) ، هم (يزن) ، ومنهم (سيف بن

---

١ Glaser, Mitt., S. 456.
٢ الصفة (١١٢) .
٣ Glaser, Mitt., S. 458.
٤ الصفة (٥٤) .
٥ Glaser, Mitt., S. 100.
٦ Glaser, Mitt., S. 100.

ذى يزن) الذي ثار على الحبش،واستعان بالفرس لانقاذ بلاده من أيدي الأحبا

وأما معديكرب بن سميفع ، فيرى الباحثون أنه ابن (السميفع أشوع)[٢]. جاء اسمه بين أسماء الأقيال الذين ثاروا على أبرهة ، وانضموا الى ثـورة (ابن كبشة) . فهو من الأقيـــال الحاقدين على أبرهة لاغتصاب أبرهة الملك والده . ولهذا انضم الى (يزين بن كبشة) سيد (كدت) (كندة) وحـ معه الحبش[٣] .

وفي أثناء وجود أبرهة في مأرب قضي على عصيان الأقيال الـذين انضموا ثورة (يزيد) ، وأبوا الخضوع لحكم أبرهة بعد استسلام يزيد وخضوعه.وكـ استسلمت قبيلة كدار (كيدار) (كـدر)[٤] ، وتحسن موقفه بـــذلك كثير وأصبح سيد اليمن وصاحب الأمر . أمـــا الذين ساعدوه وآزروه وعاونوه واا حوله ، فهم : ذو معاهر[٥] و (بن ملكن) ابن الملك[٦] ومرجزف وذو ذر وعدل (عادل) و ذو فيش ، وذو شولمان (ذو الشولم)[٨] و (ذو شعبان (ذو الشعب) وذو رعين (ذرعن) ، و (ذو همدان)[١٠] و(ذو الكلاع)[١] و (ذ مهلم) (ذو مهد) و (ذ ثت) (ذو ثت) (ذو ثات)و(علد و (ذو يزان) (ذ يزن) (ذو يزن) ، و (ذو ذبـين) (ذو ذبيان و (كبر حضرموت) كبير حضرموت ، وذو فرنة (ذ فرنة) . وقـد ذ النص انهم كانوا إلى جانب الملك ، وانهم كانوا عـــلى ود وصداقة معه . و بالطبع من أسر عريقة ، ومن كبراء القوم ، وقد وردت أسماء بعض أسرهم النصوص المدونة قبل الميلاد .

---

١ Glaser, Mitt., S. 101.

٢ Handbuch, S. 106.

٣ Beiträge, S. 93.

٤ (كدر) في النص ، السطر ٣٤ من النص .

٥ (ذ معهر) في النص السطر ٨٢ .

٦ (بن ملكن) السطر ٨٣ .

٧ (ذ ذرنح) ، السطر ٨٣ من النص .

٨ (ذ شولمن) ، السطر ٨٤ من النص .

٩ (ذ شعبن) ، السطر ٨٤ من النص .

١٠ (ذ همدن) ، السطر ٨٥ من النص .

١١ (ذ كلعن) ، السطر ٨٥ من النص .

ولم يذكر في هذا النص اسم (كبر حضرموت) ، أي كبير حضرموت الذي كان يحكم حضرموت في أيام أبرهة ، ويظهر من ذكره مع الرجال الذين حضروا إلى مأرب أنه كان تابعاً لأبرهة ، أو أنه كان حليفاً له[1] .

وتدل جملة (بن ملكن) ، على أن المراد بها (ابن الملك) ، أي (ابن أبرهة) ، ولم يشر النص إلى اسمه . فلعله قصد أكبر أولاده . ويرى البعض انه كان يحكم (وعلان) (ذو ردمان) ، وانه كان يلقب بـ (ذ معهر) .(ذو معاهر) (ذو معهر) . وقد أشار (الهمداني) إلى (ذي المعاهر) . وذكر انه قصر (وعلان) بـ (ردمان)[2] .

وفي اثناء وجود أبرهة في مأرب ، وفدت اليه وفود من النجاشي ومن ملك الروم (ملك رمن) ومن ملك الفرس (ملك فرسن) ، ورسل من (المنذر) (رسل مذرن) ومن (الحارث بن جبلة) (رسل حرثم بن جبلت) ومن (أب كرب بن جبلة) (أبكرب بن جبلة) (رسل ابكرب بن جبلت)ومن رؤساء القبائل[3] . ويلاحظ ان النص قد قدّم النجاشي على ملك الروم ، كما قدم ملك الروم على ملك الفرس ، ثم ذكر من بعد ملك الفرس اسم المنذر والحارث ابن جبلة وأبي كرب بن جبلة (ابكرب بن جبلت) . أما تقديم النجاشي على غيره فأمر لا بد منه ، وذلك لسيادة الحبشة ولو بالاسم على اليمن ، واعتراف أبرهة بسيادة مملكة اكسوم عليه . وفي ارسال مندوب عن النجاشي إلى أبرهة في مهمة سياسية ، دليل ضمني على انفراد أبرهة بالحكم ، واستقلاله في ادارة اليمن حتى صار في حكم ملك مستقل ، يستقبل وفود الدول ورسلهم ومن بينهم وفد من ملك قامت حكومته بغزو اليمن والاستيلاء عليها . وأما تقديم ملك الروم على ملك الفرس ، فلصلة الدين والسياسة بين الحبشة والروم واليمن ، فللروم الأسبقية والأفضلية اذن على الفرس .

ويلاحظ أيضاً أن النص قد استعمل كلمة (محشكت) للوفد أو الرسل الذين جاؤوا الى أبرهة من النجاشي ومن ملك الروم ، فكتب (محشكت نجشين)

---

١ Glaser, Mitt., S. 467.

٢ Beiträge, S. 39.

٣ السطر ٨٨ من النص ، وما بعده الى السطر ٩٣ .

و (محشكت ملك رمن) أي (رسل النجاشي) (سفراء النجاشي) (سفير النجاشي) و (رسل ملك الروم) . وتعني كلمة (محشكت) في اللغة السبئية (الزوجة) ، فعبّر في هذا النص بهذه الكلمة عن معنى (سفير) (سفراء) و (رسل حكومة صديقة مقربة) ، فلها إذن هنا معنى دبلوماسي خاص[1] . أما بالنسبة الى رسل (ملك الفرس) ، فقد أطلق عليهم كلمة (تنبلت) ، فكتب (تنبلت ملك فرس) ، أي (وفد ملك الفرس) وذلك يشير الى أن لهذه الكلمة معنى خاصاً في العرف السياسي يختلف عن معنى (محشكت) ، وأن الوفد لم يكن في منزلة وفدي الحبشة والروم ودرجتها .

ولقد أحدث مجيء مندوب النجاشي (رمحيز زبيمن) ومندوب ملك الروم ومبعوث ملك الفرس،ورسل المنذر ملك الحيرة ، والحارث بن جبلة وأبي كرب ابن جبلة ، أثراً كبيراً ولا شك في نفوس العرب الجنوبيين ، وفي نفوس الأقيال وقبائلهم ، فمجيء هؤلاء الى اليمن ، وقطعهم المسافات الشاسعة ، ليس بأمر يسير، وفيه أهمية سياسية كبيرة . وفيه تقدير لأبرهة ولمكانته في هذه البقعة الخطيرة المسيطرة على البحر الأحمر وفمه عند باب المندب ، وعلى المحيط الهندي . كما أحدثت الأبهة التي اصطنعها أبرهة لنفسه في اليمن . والقوة التي جمعها في يديه أثراً كبيراً ولا شك أيضاً في نفوس المبعوثين الذين قطعوا تلك المسافات للوصول إلى عاصمة سبأ ذات الأثر الخالد في النفوس[2] .

ولم يكن مجيء هؤلاء المبعوثين الى أبرهة لمجرد التهنئة أو التسلية أو المجاملة أو ما شاكل ذلك من كلمات مكتوبة في معجمات السياسة . ولكن لأمور أخرى أبعد من هذه وأهم ، هي جرّ أبرهة الى هذا المعسكر أو ذلك ، وترجيح كفة على أخرى ، وخنق التجارة في البحر الأحمر ، أو توسيعها ، ومن وراء ذلك اما نكبة تحل بمؤسسات الروم وتجاراتهم ، واما ربح وافر يصيبهم بما لا يقدر . لقد كان العالم إذ ذاك كما هو الآن ، جبهتين : جبهة غربية ، وجبهة أخرى شرقية : الروم والفرس . ولكل طبّالون ومزمرون من الممالك الصغيرة وسادات القبائل يطبّلون ويزمرون ، ويرضون أو يغضبون ، ويثيبون أو يعاقبون إرضاء

---

١ Glaser, Mitt., S. 408, Praetorius, in ZDMG., 48, S. 650.

٢ Glaser, Mitt., S. 421.

للجبهة التي هم فيها ، وزلفى اليها وتقرباً . لقد سخر الروم كل قواهم السياسية للهيمنة على جزيرة العرب ، أو ابعادها عن الفرس وعن الميالين اليهم على الأقل. وعمل الفرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميل إلى الروم وتؤيد وجهة نظرهم وعلى منع سفنهم من الدخول إلى البحر الهندي ، والاتجار مع بلاد العرب . وعمل المعسكران بكل جد وحزم على نشر وسائل الدعاية واكتساب معركة الدعاية والفكر، ومن ذلك التأثير على العقول . فسعى الروم لنشر النصرانية في الجزيرة ، فأرسلوا المبشرين وساعدوهم ، وحرضوا الحبشة على نصرها ونشرها ، وسعى الفرس لنشر المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب الروم والحبشة ولتأييد اليهودية أيضاً، وهي معارضة لسياسة الروم أيضاً . ولم يكن دين الفرس كما نعلم نصرانياً ولا يهودياً ، وإنما هو دين بغيض إلى أصحاب الديانتين . ولم يكن غرض الروم من بث النصرانية أيضاً خالصاً لوجه الله بريئاً من كل شائبة .

أما النجاشي الذي أرسل الوفد إلى أبرهة فاسمه (رمحيز زبيمن) (رمحيز زبيمان) كما ذكر ذلك أبرهة نفسه . ولا يعرف من أمر هذا النجاشي شيء كثير ، ولا يعرف كذلك أكان قد خلف النجاشي (كالب ايلا أصبحة) Kaleb Ela Asbeha الذي بأمره كان الفتح،أم كان خلفاً لخليفته[1] . وقد أشرت من قبل إلى ما ذكره (بروكوبيوس) وأهل الأخبار عن التوتر الذي كان بين نجاشي الحبشة وأبرهة، وعن امتناع أبرهة عن دفع جزية سنوية اليه . ويظهر ان أبرهة رأى أن من الخير له مصالحة النجاشي والاعتراف بسلطانه اسمياً ، وفي ذلك كسب سياسي عظيم ، كما هو كسب للنجاشي ولو صورياً ، فدفع الجزية له ، وتحسنت العلاقات .

وأما (ملك رمن) ملك الروم ، فلم يذكر (أبرهة) اسمه في نصه . ولكن يجب أن يكون هو القيصر (يوسطنيانوس) Justinian الذي حكم من سنة(٥٢٧) حتى سنة (٥٦٦) للميلاد ، وكان حكمه بعد حكم (يسطين) الذي ولي الحكم من سنة (٥١٨) حتى سنة (٥٢٧) للميلاد . وكان (يوسطنيانوس) (يوسطنيان) قد وضع خطة للتحالف مع الحبش ومع حمير للإضرار بالفرس . وراسل (السميفع أشوع) Esimiphaeus للاتحاد معه ولمحاربة الفرس . فلما تولى (أبرهة) الحكم عاد القيصر فاتصل به ، وتودد اليه لتنفيذ ما عرضه على (السميفع أشوع)

---

١ Glaser, Mitt., S. 427.

من مهاجمـــة الفرس . فوافق أبرهة على ذلك ، وأغار عليهم ، غير أنه ترجع بسرعة[1] .

وأما (حرثم بن جبلت) ، فهو الحارث بن جبلـة ملك الغساسنة ، وأمـــا (ابكرب بن جبلت) ، فإنه Abochorabus المذكور في تأريخ (بروكوبيوس). وقد ذكر هـذا المؤرخ أن القيصر (يوسطنيانوس) (يوسطنيان) Justinian كان عينـــه عاملاً (فيلارخا) Phylarch عـــلى عرب السرسين Saracens بفلسطين ، وأنه كان رجلاً صاحب قابليات وكفاية ، تمكن من تأمين الحدود ومن منع الأعراب من التعرض لها ، وكان هو نفسه يحكم قسماً منهم ، كما كان شديداً على المخالفين له . وذكر أيضاً أنه كان يحكم أرض غابات النخيل جنوب فلسطين ، ويجاور عربها عرب آخرون يسمون (معديني) (معد) Maddeni هم أتباع لـ (حمير) Homeritae[2] .

أراد هذا الرئيس أن يتقرب الى القيصر ، وأن يبالغ في تقرّبه اليه وفي إكرامه له ، فتنزل له عن أرض ذات نخل كثير ، عرفت عنـد الروم بـ Phoinikon (واحة النخيل) ، أو (غابة النخيل) وهي أرض بعيدة ، لا تُبلغ إلا بعـــد مسيرة عشرة أيام في أرض قفرة . فقبل القيصر هذه الهدية الرمزية ، إذ كان يعلم، كما يقول المؤرخ (بروكوبيوس) عدم فائدتها له ، وأضافها الى أملاكه ، وعين هذا الرئيس عاملاً (فيلارخاً) على عرب فلسطين[3] .

وقد قام ملك هذا الرئيس على ملك رئيس آخر كانت له صلات حسية بالروم كذلك ، هو (امرؤ القيس) Amorkesos الذي سبق ان تحدثت عنه في كلامي على علاقة العرب بالبيزنطيين .

و (غابة النخيل) التي ذكرناها ، تجاور أرض قبيلة (معد) Maddenoi ، وكانت معد كما يظهر من أقوال المؤرخ (بروكوبيوس) خاضعة في عهده لحكم الحميريين . وقد ذكرت كيف أن القيصر توسط لدى (السميفع أشوع) ليوافق

---

١ ZDMG., 35, 1881, S. 36.

٢ Procopius, I, XIX, 8-16, P. 180, Glaser, Mitt., S. 437.

٣ Procopius, I, XIX, 2-16, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol., XVI, Part : 3, 1954, P. 428, Musil, Hegay, P. 307.

على تعيين (قيس) رئيساً على معد . وقد تمردت هذه القبيلة على (أبرهة) ، فسيّر اليها قوة لتأديبها ، كما يظهر ذلك من كتابة أمر (أبرهة) بكتابتها لهذه المناسبة . أدّبها بقوة سيّرها اليها في شهر (ذو ثبتن) من شهور فصل الربيع ، فانهزمت معد ، وأنزلت القوة بها خسائر فادحة . وبعد أن تأدبت وخضعت ، اعترف (أبرهة) بحكم (عمرو بن منذر) عليها ، وتراجعت القوة عنها[١] .

و Maddenoi ، هي قبيلة Ma'addaya التي ذكرها (يوحنا الأفسوسي) John of Ephesus مع (طياية) Taiyaye في كتابه الذي وجّهه إلى أسقف (بيت أرشام) Beth Arsham ،ويظهر من هذا الكتاب أن عشائر منها كانت مقيمة في فلسطين .

وفي القرآن الكريم سورة ، أشارت إلى سيل العرم ، هي سورة سبأ ، ورد فيها : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنّات عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكل خمطٍ وأثلٍ وشيءٍ من سدرٍ قليل»[٢]. ولم يحدد المفسرون الوقت الذي تهدّم فيه السد[٣] .

ولـ (أبرهة) نص آخر ، كتبه بعد النص المتقدم ، لمناسبة غزوه (غزيو) (معداً) ، في شهر (ذ ثبتن) (ذى ثبت) (ذى الثبت) (ذى الثبات) من شهور سنة (٦٦٢) من التقويم الحميري الموافقة لسنة (٥٤٧) أو (٥٣٥) للميلاد . وهذا النص عثرت عليه بعثة (ريكمنس) مدوّناً على صخرة بالقرب من بئر (مريغان) . فوسم بـ Ryckmans 506 . وقد ترجمه (ريكمنس) G. Ryckmans الى الفرنسية ، ثم الى لغات أخرى[٤] .

---

١ Le Muséon, LXVI, 1953, 3-4, P. 277, Ryckmans, No. 506.

٢ سورة سبأ ، الآية ١٥وما بعدها .

٣ تفسير الطبري (٥٢/٢٢ وما بعدها) ، تفسير النيسابوري (٥٠/٢٢ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) تفسير الالوسي (١١٥/٢٢) .

٤ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٩٦/٤ وما بعدها) ،
Le Muséon, 66, 1953, P. 275, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 1954, Vol., XVI, Part, 3, P. 435, W. Caskel, Entdeckungen in Arabien, S. 27, Sidney Smith, Events in Arabia in the 6th Century A. D. BSOAS, 1954, P. 435, A. F. L. Beeston, Notes on the Muraighan Inscriptions, in BSOAS, 1954, P. 389.

وفي النص مواضع طمست فيها معالم بعض الحروف ، عزّ بذهابها فهم المعنى وضبط الأعلام . كما أن فيها بعض تعابير معقدة ، عقدت على من عالجه فهم المعنى فهماً واضحاً ، ثم هو نص قصير لا يتجاوز عشرة أسطر ، واختصر وصف الحوادث حتى صيّره وكأنه برقية من برقيات (التلغراف) ، ولكنه مع كل هذا ذو خطر بالغ، لأنه يتحدث عن حوادث لم نكن نعرف عنها شيئاً ، ويصف الأوضاع السياسية في ذلك العهد ، ويشير الى اتصال ملوك الحيرة بالحبش والى سلطان حكّام اليمن على القبائل العربية ، مثل معدّ ، مع أنها قبائل قوية وكثيرة العدد . وهو مما يؤيد رواية أهل الأخبار في أنه كان لليمن نفوذ على قبائل معدّ وأن تبابعة اليمن كانوا ينصبون الملوك والحكّام على تلك القبائل .

وقد تلقب (أبرهة) في هذا النص كما تلقب في نص سدّ مأرب بلقب الملك الذي كان يتلقب به ملوك اليمن ، وهو : (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت (اليمن) وأعرابها في النجاد (طودم) وفي المنخفضات (تهمتم) ، (تهامة) ، كما افتتحه بجملة : (بخيل رحمنن ومسحهو) ، أي (بحول الرحمن ومسيحه) ، وقد سبق لـ (ابرهة) أن افتتح نصه الذي دوّنه على (سد مأرب) بجملة : (بخيل ودا ورحمت رحمنن ومسحهو ورح قدس) ، ومعناها : (بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه روح القدس) ، والجملتان من الجمل التي ترد في نصوص اليمن لأول مرة، وذلك بسبب كون أبرهة نصرانياً ، وقد صارت النصرانية في أيام احتلال الحبش لليمن ديانة رسمية للحكومة ، باعتبار أنها ديانة الحاكمين . وعرف (أبرهة) في النصين بـ (ابره زيبمن) ، أي (أبرهة زيبمان) ، ولفظة (زي ب م ن) (زيبمن) من ألقاب الملك في لغة الأحباش[1] .

واليك هذا النص كما دوّنه (ريكمنس) عن النص الأصيل :

« بخيل رحمنن ومسحهو ملكن ابره زبيمن ملك سبا وذ ريدن وحضرموت ويمنت واعربهمو طودم وتهمت سطرو ذن سطرن كغزيو معدم غزوتن ربعتن بورخن ذ ثبتن كقسدو كل بنيعمرم وذكى ملكن ابجبر بعم كدت وعل وبشرم بنحصنم بعم سعدم و م . خ ض . و وضرو قدمى جيشن على بنيعمرم كدت وعلى ود . ع . ز . رن . مردم وسعدم بود بمنهج تربن وهرجو وازرو ومنمو ذ عسم ومخض ملكن

---

1 Le Muséon, 1953, 3-4, P. 279.

بحلبن ودنو كظل معدم ورهنو وبعدنهو وزعهمو عمـــرم بن مذرن ورهنهمو بنهو وستخلفهو على معدم معـــدم وقفلو بن حلبن بخيل رحمـــنن ورخهو ذلثي وسثي وست ماتم »[1] .

ونصه في عربيتنا :

« بحول الرحمن ومسيحه . الملك أبرهة زيبان ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت (اليمن) وأعرابها في الطود (الهضبة) وفي تهامة (المنخفضات) . سطروا هذه الأسطر لما غزت معد : الغزوة الربيعية بشهر ذو الثبات (ذ ثبتن) (ذو الثبت). ولما غلظ (ثار) كل (بنو عامر) . أرسل الملك (أبا جبر) بقبيلة (كدت) كندة وقبيلة (عل) و (بشر بن حصن) (بشرم بن حصنم) بقبيلة (سعد) لحرب (بني عامر) فتحركا بسرعة[2] وقدّما جيشهما نحو العدو: فحاربت (كدت) كندة وقبيلة (عل) بني عامر ومراداً ، وحاربت (سعد) بواد (بمنهج) ينهج (يؤدي) إلى (تربن) (الترب) . فقتلوا من بني عامر وأسروا وكسبوا غنائم[3] . وأما الملك ، فحارب بـ (حلبن) (حلبان) ، وهزمت معد ، فرهنت رهائن عنده .

وبعدئذ ، فاوض (عمرو بن المنذر) (عمرم بن مـذرن) ، وقدّم رهائن من أبنائه . فاستخلفه (اقره) على معد . وقفل (أبرهة) راجعاً من (حلبن) (حلبان) . بحول الرحمن . بتأريخ اثنين وستين وست مئة » .

وقد درس بعض الباحثين هذا النص ، فذهب بعضهم الى أنـه يشير الى حملة أبرهة على مكة في العام الذي عرف عند أهل الأخبار بـ (عـام الفيل) وأشير اليها في القرآن الكريم[4] . وذهب بعض آخر الى أنه يشير الى غزو قام به أبرهة تمهيداً لحملة كان عزم القيام بها نحو أعالي جزيرة العرب ، فتوقفت عند مكة[5] .

---

١ Le Muséon, 1953, 3-4, P. 277.

٢ (ومخضو) ، (وفي الحديث : أنه مر عليه بجنازة تمخض مخضا ، اي تحرك تحريكا سريعا) ، اللسان (٧/٢٣١) ، (صادر) ، (م/خ/ض) .

٣ (ذعسم) (العسـم : الاكتسـاب ، والاعتسام : الاكتسـاب) ، اللسـان (١٢/٤٠٢) ، (صادر) ، (ع/س/م) .

٤ سورة الفيل ، الآية ١ فما بعدها) ،
F. Altheim — R. Stiehl, Araber und Sasaniden, Berlin, 1954, S. 200-207, Finanzgeschichte der Spatantike, S., 145, 353, Le Muséon, 1965, 3-4, P. 426.

٥ W. Caskel, Entdeckungen in Arabien, S. 30, Le Muséon, 1965, 3-4, P. 426.

وذهب آخرون الى أن ما جاء في هذا النص لا علاقة له بحملة الفيل ، ذلك لأن هذه الحملة كانت في سنة (٥٤٧) للميلاد على تقديرهم ، على حين كانت حملة الفيل سنة (٥٦٣) على تقديرهم أيضاً[١] .

وذهب (بيستن) الى أن هذا النص يتحدث عن معركتين : معركة قام بها (أبرهة) في (حلبان) : ومعركة كندة وسعد – مراد بموضع (تربن) (الترب) (تربة) ، وقد حاربت فيها جماعة من القبائل[٢] .

ويظهر من النص ان (أبرهة) غزا بنفسه معداً في شهر (ذى ثبتن) من ربيع سنة (٦٦٢) من التقويم السبئي ، والتقى بها في موضع (حلبن) (حلبان) ، فهزمها وانتصر عليها ، فاضطرت عندئذ الى الخضوع له ومهادنته ، والى وضع رهائن عنده تكون ضماناً لديه بعدم خروجها مرة ثانية عليه . فوافق على ذلك . وفيما كان في (حلبان) بعد اتفاقه مع معد ، جاءه (عمرو بن المنذر) (عمرم ابن مذرن) ، وكان أبوه (المنذر) عينه أميراً على معد ، ليفاوضه في أمر (معد) فقابله بـ (حلبان) ، وأظهر له استعداد أبيه (المنذر) على وضع رهائن عنده لئلا يتكرر ما حدث ، ولحصول اعترافه على تولي عمرو حكم (معد) فوافق أبرهة على ذلك ، وقفل (وقفلو) أبرهة راجعاً الى اليمن ، وسوّى بذلك خلافه مع معدّ . وصار (عمرو بن المنذر) رئيساً على معد بتعيين أبيه له عليها وبتثبيت (أبرهة) هذا التعيين[٣] .

و (حلبان) موضع في اليمن في أرض (حضور) ، وذكر انه موضع في اليمن على مقربة من (نجران) ، وانه موضع ماء في أرض (بني قُشَير) . وقد وعت ذاكرة أهل الأخبار على ما يظهر شيئاً عن المعركة التي نشبت في هذا الموضع إذ رووا شعراً للمخبّل السعدي يفخر بنصرة قومه (أبرهة بن الصباح) ملك اليمن[٤] . وكانت (خِندف) حاشيته . ذكروا أنه قال :

---

١ A. G. Lundin, Yujnaya Arabia W VI Weke (Palestynski Sbornik, 1961, PP. 73, 82), Le Muséon, 1965, 3-4, P. 427.

٢ Le Muséon, 1965, 3-4, P. 426, BSOAS, 1954, P. 391.

٣ في النص ثغرات والفاظ تجعل من الصعب على الباحث ضبط الترجمة الحرفية والمعنى للنص .

٤ البكري ، معجم (٢/٤٦١) ، (حلبان) (حلبان من ارض الأخروج بين حضور وحدان) ، الاكليل (٢/١٥٨) ، (حاشية ١) .

صرموا لأبرهة الأمور محلها حلبان فانطلقوا مع الأقوال
ومحرق والحارثان كلاهمـــا شركاؤنا في الصهر والأموال[1]

وأورد (الهمداني) أبياتاً فيها اسم موضع (حلبان) واسم (أبـي يكسوم) ، وهي قوله :

ويوم أبـي يكسوم والناس حضرٌ على حلبـــان إذْ تقفي محامله
فتحنا له باب الحضير وربّـــه عزيز يمشي بالسيوف أراجلــه

وقد روى هذان البيتان وهما من شعر (المخبل المعدي) في هذا الشكل :

ويوم أبـي يكسوم والناس حضر على حلبـــان إذ تقفي محامله
طوينا لهم باب الحصين ودونه عزيز يمشي بالحراب مقاوله[2]

ويظهر من هذا الشعر أن (أبرهة) لما جاء بجيشه إلى موضع (حلبان) ، وجد مقاومة ، ووجد أبواب الحصن مقفلة ، وقد تحصن فيه المقاومون له ردافعوا عنه ، فهجم قوم الشاعر عليه ، ففتحوا باب الحصن ، ودخلوه .

أما تأديب (بني عامر) ، فلم يقم به (أبرهة) بنفسه ، بل قام به قائد اسمه (اجبر) (أبو جبر) ، قاد قبيلتي (كدت) ، أي (كندة) و (عل)، وقائد آخــر اسمه (بشرم بن حصنم) ، أي (بشر بن حصن) ، قاد قبيلة (سعدم) ، أي (سعد) (بنو سعد) . وسار القائـدان بجيشها وتقدما بهما الى (بني عامر) ، وحاربا على هذا النحو : حاربت (كنـدة) و (عل) قبائل سقطت بعض الحروف من اسم كل واحدة منها،فبقي من احداهما (ود.ع) وبقي من الأخرى (زرن) (ز. رن) وقبيلة (مردم) ، أي (مراد) . وحاربت (سعد) بواد يؤدي الى (تـربن) (الـترب)[3] ، فقتلوا وأسروا (ازرو) وأصابوا غنائم[4] . ولم يسم النص الوادي الذي يؤدي الى (الترب) .

---

١ اللسان (١/٣٣٤) ، (صادر) ، تاج العروس (٣/٣١٤) ، (طبعة الكويت) ، (ضربوا) بدلا من (صرموا) ، البكري (٢/٤٦١) .

٢ Le Muséon, 1965, 3-4, P 430.

٣ (بود بمنهج تربن) ، السطران الخامس والسادس من النص .

٤ السطر السادس من النص .

ويظهر أن موضع (تربن) الذي يؤدي اليه الوادي الذي جرت فيه المعركة، هو موضع (تربة) ، مكان في بلاد بني عامر ، ومن مخاليف مكة النجدية ، على مسافة ثمانين ميلاً تقريباً الى الجنوب الشرقي من الطائف[1] . وذكر أنه واد بقرب مكة على يومين منها ، يصب في بستان ابن عامر ، حوله جبال السَّراة، وقيل انه وادٍ ضخم ، مسيرته عشرون يوماً أسفله بنجد وأعلاه بالسراة،وقيل : يأخذ من السرّاة ويفرغ في نجران ، وقيل : موضع من بلاد بني عامر بن كلاب واسم موضع من بلاد بني عامر بن مالك[2] .

و (عمرم بن مذرن) ، هو (عمرو بن المنذر) ملك الحيرة ، وكان أبوه (المنذر) حليفاً للساسانيين . فيكون قد عاصر (ابراهة) اذن ، ويكون (عمرو) ابنه من المعاصرين له أيضاً .

وقصد بـ (بنيعمرم) ، (بني عامر) . وهم (بنو عامر بن صعصعة) من (هوازن)[3] .

ومراد ، هي قبيلة مراد التي منها (غطيف) . وفي أيام الرسول وفد عليه (فروة بن مسيك المرادي) مفارقاً لملوك كندة . وقد كانت بين مراد وهمدان قبيل الاسلام وقعة ظفرت فيها همدان ، وكثر فيها القتلى في مراد . وعرفت تلك الوقعة بيوم الروم . ورئيس همدان الأجدع بن مالك والد مسروق[4] .

وأما (سعدم) أي قبيلة (سعد) ، التي قادها (بشر بن حصن) في هذه المعركة ، فلم يذكر النص هويتها . غير أننا إذا ما أخذنا بشعر (المُخبّل السعدي) الذي افتخر به بنصرة قومه لأبرهة في يوم (حلبان) وبانضمامهم اليه، ففي استطاعتنا أن نقول حينئذٍ : إن قومه هم (سعدم) أي (سعد) القبيلة المذكورة في النص .

و (ابجبر) اسم قد يقرأ (أبو جبر) ، وقد يكون (أبو جابر) وقد

---

١ البكري (٣٠٩/١) ، (مادة تربة) ،
Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, VOL., XVI, Part 3, 1954, P. 430.

٢ تاج العروس (٦٨/٢ وما بعدها) (طبعة الكويت) ، اللسان (٢٣١/١) ، (صادر) .

٣ الاشتقاق (١٧٧/٢ ، ١٧٨) ، Le Muséon, 3-4, 1953, P. 341.

٤ ابن الاثير (١٢٣/٢) .

يكون (أبجر) وقد يكون (أبو جبار) . وكل هذه الأسماء هي أسماء معروفة عند الجاهليين . وقد ذهب (كستر) (M. J. Kister) الى احتمال كونه (يزيد ابن شرحبيل الكندي) أو (أبو الجبر بن عمرو) ، وهو من كندة أيضاً [١] . وهو من (آل الجون) من بطون كندة [٢] .

وقد أشير في كتب أهل الأخبار الى أمير من أمراء كندة عرف بـ(أبي الجبر) وقد ذكر في مقصورة (ابن دريد) [٣] . وروى أنه زار (كسرى) ليساعده على قومه ، فأعطاه جماعة من (الأساورة) أخذهم معه ليساعدوه ، فلما وصل إلى (كاظمة) سئموا منه ، وأرادوا التخلص منه فدسّوا السم له في طعامه . ولكنه لم يمت منه ، بل شعر بألم منه ، فأكرهه الأساورة على أن يكتب كتاباً لهم يحملونه معهم الى (كسرى) يذكر فيه أنه سمح لهم بالعودة ، فكتب لهم كتاباً ثم سافر الى (الطائف) ، فعالجه (الحارث بن كلدة الثقفي) ، حتى شفي ، فوهبه جارية كانت له اسمها (سميّة) أهداها له (كسرى)، ثم ذهب الى اليمن ، ولكن عاوده مرضه في طريقه اليها فمات . وقد رأى (كستر) أنه هو (أبو جبر) المذكور في النص [٤] .

وأما (بشرم بن حصنم) ، أي (بشر بن حصن) ، أو (بشر بن حصين) أو (بشار بن حصن) أو (بشار بن حصين) أو (بشير بن حصن) ، فقد ذهب (لُندن) Ludin ، الى أنه احد سادات (كندة) [٥] .

لقد أشرت الى رأي بعض الباحثين في هذه الحملة ، والى ذهاب بعضهم الى انها كانت حملة الفيل ، أي حملة أبرهة المذكورة في القرآن الكريم على مكة . كما أشرت الى رأي آخر ، ذكر أن هذه الحملة كانت مقدمة لحملة الفيل ، أي حملة

---

١ Le Muséon, 1965, 3-4, P. 434.

٢ Le Muséon, 1965, 3-4, P. 436.

٣ Le Muséon, 1965, 3-4, P. 434.
مقصورة ابن دريد ، (ص ٨٢) (طبعة الجوائب) ، القاهرة ١٣٠٠ هـ ، نزهة الجليس (١/ ٤٨٤) .

٤ Le Muséon, 1965, 3-4, P. 434.

٥ Le Muséon, 1965, 3-4, P. 435, A. G. Lundin, Yujnaya Arabia W VI Weke Palestyniski Sbornik 1961, PP. 73-84.

تجريبية سبقت تلك الحملة . وحجة الفريق الأول ما ورد في بعض الروايات من أن مولد الرسول كان بعد عام الفيل بثلاث وعشرين سنة[1] . أي في حوالي السنة (٥٤٧) للميلاد . وهو تأريخ ينطبق مع السنة المذكورة في النص ، اذا أخذنا برأي من يجعل مبدأ التقويم الحميري سنة (١١٥) قبل الميلاد[2] . ومن ورود رواية أخرى في حساب السنين عند قريش ، تظهر بنتيجة حسابها وتحويلها أن عام الفيل كان في سنة (٥٥٢) بعد الميلاد ، وهو تأريخ ينطبق مع تأريخ النص أيضاً اذا أخذنا برأي (ريكمنس) في مبدأ التقويم الحميري من أنه كان سنة(١٠٩)لا(١١٥) قبل الميلاد[3] .

وأبرهة هذا هو (صاحب الفيل) الذي قصد بفيلته وجنده هدم الكعبة وإكراه الناس على الحج الى (القُلَّيْس) الكنيسة التي بناها بمدينة (صنعاء) في روايات الأخباريين . وهي كنيسة قال عنها أهل الأخبار ، انها كانت عجيبة في عظمتها وضخامتها وتزويقها من الداخل والخارج ، حتى ان (أبرهة) لما انتهى من بنائها كتب الى النجاشي : « إني قد بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبنِ العرب ولا العجم مثله »[4]. أو « إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك»[5]. ويبالغ أهل الأخبار في وصفها فيذكر (الأزرقي) ، انه بناها بجانب قصر غمدان ، وأنه أقامها بحجارة قصر بلقيس بمأرب ، نقلها العمال والفعلة والمسخرون من مأرب الى صنعاء . فهدموا ذلك القصر وأخذوا حجره وما يصلح للبناء من مادة ، ثم نقلوه الى صنعاء لاستعماله في بناء تلك الكنيسة التي بنوها بناءً ضخماً عالياً ، وجعلوا جدرانها من طبقات من حجر ذي ألوان مختلفة . لون كل طبقة يختلف عن الطبقة التي تحتها أو التي فوقها . وزينوا الجدران بأفاريز من الرخام والخشب المنقوش . وجعلوا الرخام ناتئاً عن البناء ، وجعلوا فوق الرخام

---

١ البدء والتاريخ (٤/١٣١ وما بعدها) ، تاريخ العرب في الاسلام (١/٩١) .

٢ Le Muséon, 1965, 3-4, PP. 426, 427.

٣ Le Muséon, 1965, 3-4, PP. 427, 428.

٤ الازرقي (١/٨٢ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣٠/١٩٣) ، تفسير القرطبي (٢٠/١٨٧) .

٥ ابن هشام (١/٤٣) ، ابن كثير ، البداية (٢/١٦٩) ، (٢/١٧٠ وما بعدها ، (مطبعة السعادة ، سنة ١٩٣٢ م) ، (القاهرة ، تفسير ابن كثير (٤/٥٤٨ وما بعدها) ، (عيسى البابي الحلبي) .

حجارة سوداً لها بريق ، وفوقها حجارة بيضاً لها بريق ، فكان هذا ظاهر حائط القليس . وكان عرضه ست أذرع . وكان للقليس باب من نحـاس عشر أذرع طولاً في أربع أذرع عرضاً . وكان المدخل منه الى بيت في جوفه ، طوله ثمانون ذراعاً في أربعين ذراعاً معلق العمد بالسياج المنقوش ومسامير الذهب والفضة ، ثم يدخل من البيت إلى إيوان طوله أربعون ذراعاً ، عن يمينه وعن يساره، وعقوده مضروبة بالفسيفساء مشجرة ، بين أضعافها كواكب الذهب ظاهرة ، ثم يدخـل من الإيوان الى قبة ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً ، جدرها بالفسيفساء ، فيهـا صلب منقوشة بالفسيفساء والذهب والفضة ، وفيها رخامة مما يلي مطلع الشمس من البلق مربعـة عشر أذرع في عشر أذرع ، تغشي عين من ينظر اليها من بطن القبّـة تؤدي ضوء الشمس والقمر الى داخل القبة ، وكان تحت القبة منبر من خشب اللبخ ، وهو عندهم الآبنوس ، مفصد بالعاج الأبيض . ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهباً وفضة . وكان في القبة سلاسل فضة[1] . وفي القبة أو في البيت خشبة ساج منقوشة طولها ستون ذراعاً يقال لها كعيب ، وخشبة من ساج نحوها في الطول يقال لها : امرأة كعيب كانوا يتبركون بهما في الجاهلية . وكان يقال لكعيب الأحوزي،والأحوزي بلسانهم الحر[2] .

وكان أبرهة قد أخذ العمال بالعمل أخذاً شديداً ، وأمر بالعمل في بناء الكنيسة ليل نهار . وإذا تراخى عامل أو تباطأ عن عمله أنزل وكلاؤه به عقاباً شديداً ، يصل الى قطع اليد . وبقي هذا شأنه ودأبه حتى أكمل بناؤها وسرّ من رؤيتها، فأصبحت بهجة للناظرين .

ونجد في وصف (الأزرقي) ومن تقدم عليه من أهل الأخبار للقليس شيئـاً من المبالغة ، ولكنه على الاجمال وصف يظهر أنه أخذ من موارد وعته وشاهدته وأدركته . لذلك جاء وصفاً حياً نابضاً بالحياة ، ينطبق على الكنائس الضخمة التي أنشئت في تلك الأيام في القسطنطنية أو في القـدس أو في دمشق ، أو في المدن الأخرى . والظـاهر من هذا الوصف ، أن فن العمارة اليماني القديم قد أثر في شكل بناء هذه الكنيسة ، التي تأثرت بالفن البيزنطي النصراني في بناء الكنائس .

---

١ نهاية الأرب (٣٨٢/١) .
٢ الأزرقي (٨٤/١ وما بعدها) ، (٩٠/١) ، (خياط) .

ويذكر (الأزرقي) ان القليس بقي في صنعاء على ما كان عليـــه حتى ولى أبو جعفر المنصور الخلافة ، فولي (العباس بن الربيـــع بن عبيد الله الحارثي) (العباس بن الربيع بن عبد الله العامري) اليمن ، فذكـــر له ما في القليس من ذخائر ، وقيل له انك تصيب فيه مالاً كثيراً وكنزاً فتاقت نفسه الى هدمه . ثم استشار أحد أبناء وهب بن منبه وأحد يهود صنعاء فألحا عليه بهدمه،وبيّن اليهودي له أنه اذا هدمه فإنه سيلي اليمن أربعين سنة ، فأمر بهدمـــه ، واستخرج ما فيه من أموال وذهب وفضة . وخـــاف الناس من لمس الخشبـــة المنقوشة التي كانوا يتبركون بها،ثم اشتراها رجل من أهل العراق كان تاجراً بصنعاء وقطعها لدار له[1]. وخرب القليس حتى عفى رسمه وانقطع خبره[2] .

واذا كان ما يقوله الأزرقي نقلاً عن رواة أدركوا تلك الكنيسة من أن أبرهة أقامها بأحجار قصر بلقيس باليمن ، فإنه يكون بذلك قد قوّض أثـراً مهماً من آثار مدينة مأرب ، وأزال عملاً من الأعمال البنائية التيأقامها السبئيون في عاصمتهم قبله . وهو عمل مؤسف .

وفي صنعاء اليوم موضع يعرف بـ (غرفة القليس) ، يظن أنـه موضع تلك الكنيسة ، وهو موضع حُفَيْر صغير ترمى فيه القمامات وعليه حائط ويقع أعـــلى صنعاء في حارة القطيع بقرب مسجد نصير[3] .

وذكر (الهمداني) اسم قصر دعاه (القليس) نسب بناءه الى (القليس بن عمرو) ، وهو في زعمه من أبناء (شرحبيل بن عمرو بن ذي غمدان بن الى شرح يحضب) . وقال : انه بناه بصنعاء ، وهو بناء قديم . وذكر أيضاً أن (عمرو ينأر ذو غمدان ابن الى شرح يحضب بن الصوار) هو أول من شرع في تشييد (غمدان) بعد بنائه القديم[4] .

---

١ الازرقي (١/٨٦) ، نهاية الارب (١/٣٨٣) ، وفي رواية أخرى ، أن السفاح أول خلفاء بني العباس ، هو الذي أمر بهدمها ، البداية ، لابن كثير (٢/١٧٠ وما بعدها) • (السعادة) •

٢ البلدان (٧/١٥٦) (القليس) •

٣ الاكليل (٢/٨٧) ، حاشية لـ (لمحمد بن علي الاكوع الحوالي) ، رحلة في بلاد العرب •

٤ الاكليل (٢/٨٦وما بعدها) •
السعيدة ، لنزيه مؤيد العظم ، (١/١٦٥) ، مصطفى مراد الدباغ ، الجزيرة العربية (١/٢٨٥) •

وقد أمر (أبرهة) ببناء كنيسة في (مأرب) أشار الى بنائها في نصه الشهير، أقامها في سنة (٥٤٢ م) ، ورتب لخدمتها جماعة من متنصرة سبأ ، واحتفل هو نفسه بافتتاحها ، ولعله استعان ببنائها بحجارة قصور مأرب ومعبدها الكبير ، ذلك لأن حجارتها منحوتة نحتاً جيداً، يجعل من السهل استعمالها في البناء على حين يتطلب الحجر الجديد وقتاً طويلاً وأموالاً باهظة . ولهذا السبب ذهب أهل الأخبار الى أنه أمر بنقل حجارة قصر مأرب الى صنعاء .

جدار معبد (أوم) (أوام) بمارب ، وهو معبد اله سبا
من كتاب (Qataban and Sheba)

لقد أصيب مشروع أبرهة الرامي الى هدم الكعبة والاستيلاء على مكة باخفاق ذريع ، يذكرنا بذلك الاخفاق الذي مُني به مشروع (أوليوس غالوس) . لقد كان في الواقع مشروعــاً خطيراً ، لو تمّ إذن لاتصل ملك الروم بملك حلفائهم وأنصارهم الحبش في اليمن ، ولتحقق حلم الإسكندر الأكبر وأغسطس ومن فكر في الإستيلاء على هذا الجزء الخطير من العالم من بعدهما ، ولتغير الوضع السياسي في الجزيرة من غير شك . لكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، حدث أن مكة التي أريد هدمها هي التي هدمت ملك الحبشة في اليمن ، وملك من جاء بعدهم لنجدة أهل اليمن ، وملك البيزنطيين في بلاد الشأم وملك الفرس في العراق وفي

كل مكان[1] .

ويظهر من الرواية العربية أن نهاية (أبرهة) كانت بعد عودته من مكة بقليل إذ لازمه الوباء الذي نزل برجال حملته أثناء محاصرتهم لها ، ولم يتركه حتى بلغ صنعاء وهو مريض متعب ، فهلك بها عند وصوله[2] . ويجب أن يكون ذلك سنة (٥٧٠) أو (٥٧١) للميلاد . أما المصادر اليونانية ، فلم تشر الى سنة وفاته .

ويذكر الأخباريون أن الذي حكم بعد (أبرهة) ، هو ابنـــه (يكسوم) . وبه كان أبرهة يكنى . فذلّت حمير وقبائل اليمن ووطئتهم الحبشة ، وعم أذاهم وقتلوا خلقاً من رجالهم ، وأخذوا نساءهم ، واتخذوا أبناءهم تراجمة بينهم وبين العرب[3] . ويذكر (المسعودي) أن (يكسوم) كان سيء السيرة في أهل اليمن فعمّ أذاه سائر الناس ، الى أن هلك بعد عشرين سنة من الحكم[4] .

وذكر (أبو حنيفة الدينوري) ، أن (النجاشي) أقر (أبرهة) على سلطان اليمن ، فمكث على ذلك أربعين عاماً[5] . أما ابنه (يكسوم) ، فمكث على اليمن تسع عشرة سنة[6] . وصيّر (حمزة) مدة حكم أبرهة ثلاثاً وعشرين سنة ، مذ قتل (أرياطاً) ، الذي حكم على زعمه عشرين سنة . وجعل حكم (يكسوم) سبع عشرة سنة ، وملك مسروق اثنتي عشرة سنة ، ومدة حكم الحبشة، اثنتين وسبعين سنة[7] .

ويرى (كلاسر) أن أبرهة كان قد عيّن ابنه (أكسوم) (يكسوم) على أرض (معاهر) (معهرن) ، وكانت له (ذي معاهر) ، فعرف (يكسوم) بـ (ذي معاهر) . وفي معاهر (عر وعلن) ، أي حصن وعلان[8] .

---

١ Nöldeke, Geschichte der Perser, S. 188, Paullys — Wissowa, Supplementband, VII, 1950, S. 75.

٢ الطبري (٢/١٣٧) (دار المعارف) .

٣ الطبري (٢/١٣٩) ، مروج (٢/٨ وما بعدها) (محيي الدين) ، المعارف (٢٧٨) .

٤ مروج (٢/٨ وما بعدها) (محيي الدين) .

٥ الاخبار الطوال (ص ٦٢) .

٦ المصدر نفسه (ص ٦٣) .

٧ حمزة (ص ٨٩) .

٨ Glaser, Mitt., S. 420, 461.

وانتقل الحكم من بعد هلاك (يكسوم) الى شقيقه (مسروق) . وهو من أم عربية هي (ريحانة ابنة علقمة بن مالك بن زيد بن كهلان) وهو (ذو جدن). وكانت تحت (أبا مرة الفيّاض ذا يزن) فانتزعها منه أبرهة، وأولدها مسروقاً . ففرّ (ذو يزن) من اليمن ، ولحق ببعض ملوك بني المنذر ، ويظن (الطبري) بأنه (عمرو بن هند) وأقام هناك[1] . وقد كان أسوأ سيرة من (يكسوم) ، ويذكر (المسعودي) أنه حكم ثلاث سنين[2] . وقد قتل الفرس مسروقاً ، وذلك حين دخولهم اليمن ، وأخرجوا الحبشة عن اليمن[3].

وقد ذكر المؤرخ (ثيوفانس) ملكاً من ملوك حمير قال ان الفرس أسروه ، وذلك في حوالي السنة (٥٧٠) للميلاد ، دعاه باسم (سنطرق) (سنطرقس) Sanaturces . وهو فيما يرى (كلاسر) تحريف (شناتر) ، والأصل (ذو شناتر). و (شناتر) اسم موضع ، والمراد به (مسروق بن أبرهة) ، وكان والده قد عيّنه على هذا الموضع فعرف به . وقد ذكر (ابن قتيبة) أن (ذا شناتر) ، هو الابن الثاني لأبرهة ، ولهذا يرى (كلاسر) أن Sanaturces هو (مسروق)[4] .

وبهلاك (مسروق) هلك حكم الحبش لليمن . اذ أخرجوا بعد انتصار الفرس وأهل اليمن عليهم . ويذكر الطبري ، أن حكم الحبشة لليمن دام اثنتين وسبعين سنة ، توارث ذلك منهم أربعة ملوك : أرياط، ثم أبرهة ، ثم يكسوم بن أبرهة ثم مسروق بن أبرهة[5] .

وجاء في شعر للشاعر (لبيد بن ربيعة العامري) انه دخل على ملك من ملوك الحبش، اسمه (خمير) ، أتاه فكلمه في فداء قوم ، فأجازه ، وأحسن اليه ، وحمله على خيل ، (وبذرقه)[6] ، أي : أرسل معه من يحرسه ، وأجازه ، وأعطاه (طِرساً) ، اي كتاباً ، كتبه له لأن يعطى ، وغلاماً أطلس اي حبشياً[7] . ولم يذكر كيف

---

١ الطبري (١٤٢/٢) .
٢ مروج (٨/٢) (محيي الدين) .
٣ الطبري (١٣٩/٢) .
٤ Glaser, Zwei Inschriften, S. 486.
٥ الطبري (١٣٩/٢) .
٦ (بذرقه : فارسي معرب) ، شرح ديوان لبيد (ص ١٥٥) .
٧ (والاطلس : الحبشي) ، شرح ديوان لبيد (ص ١٥٥) .

وصل الى (خمير) ، ولا في اي مكان كان يحكم . وما علاقة ذلك الملك الحبشي بجزيرة العرب إن صح انه ملك الحبش حقاً ؟ وإذا أخذنا بقول هذا الشاعر وصدّقناه ، فقد يكون ذهب ليتوسل الى الحبش لفك أسر جماعة من قومه أو من أصحابه قد يكونون ذهبوا للاتجار أو لشراء الرقيق ، فقبض عليهم لسبب من الأسباب واحتجزوا ، فذهب لالتماسهم فنجح في وساطته وقد يكون (خمير) هذا احد الحكّام أو الاقطاعيين ، لا النجاشي ملك الأحباش .

ويظهر من كتاب (الإشتقاق) أنه كان لأبرهة حفيد اسمه (ابن شمر) إذ ذكر مؤلفه (ابن دريد) اسم رجل سماه (ابن شمر بن أبرهة بن الصباح) ، قال : إنه قتل مع (علي بن أبي طالب) بصفين[1] . ومعنى هذا أنه كان لأبرهة ولد اسمه (شمر) . ونجد في كتب أهل الأخبار أسماء رجال كانوا من حفدة (أبرهة) .

وقد سعى الأحباش ، مدة مكثهم في اليمن ، في نشر النصرانية بين الناس ، وبناء الكنائس . ويحدثنا (قزما الرحالة) Cosmas Indicopleustes في نحو سنة (٥٣٥ م) ، اي بعد اندحار (ذي نواس) ، عن كثرة الكنائس في العربية السعيدة ، وعن كثرة الأساقفة والمبشرين الذين بشروا بين الحميريين والنبط وبني جرم[2] . وقد اشتهرت كنيسة (نجران) ، وكذلك كنيسة صنعاء ، وكنيسة (ظفار) التي بناها الحبش،وقد أشرف عليها الأسقف (جرجنسيوس) صاحب (كتاب شرائع الحميريين) ، وكان مقرباً لدى النجاشي ومستشاره ومساعده في تنصير الحميريين[3] .

وورد أن القيصر (يوسطين) (جستين) كان قد أرسل (كريكنتيوس) Gregentius of Ulpana من الاسكندرية الى (ظفار) ليكون (أسقفاً) على نصاراها . وقد تناظر مع (حبر) من أحبار يهود فيها ، فغلبه . وقدّم قانون الشريعة الى (أبرام)(Abram)ملك حمير[4] .

---

١ الاشتقاق (٢/٣٦١) ، جمهرة أنساب العرب ، (لابن حزم (٤٣٥) .
٢ النصرانية (١/٦٥) ، Migne, Patrolo. Gre., Vol., LXXX, Col., 169.
٣ النصرانية (١/٦٤) ، الاغاني (٢/٧٥) ،
Migne, Patrolo. Gre., Vol., 86, col. 567-620.
٤ Bury, II, P. 327.

حملة أبرهة :

وفي أيام عبد المطلب كانت حملة أبرهة على مكة ، وهي حملة روّعت قريشاً وأفزعتهم ، لما عرفوه من قساوة أبرهة ومن شدته في أهل اليمن ، ومن انفراده بالحكم ، واستبداده في الأمور، حتى انه لما مات وذهب مع الذاهبين لم تمت ذكراه كما ماتت ذكرى غيره من الحكام ، بل تركت أثراً عميقاً في ذاكرة أهل اليمن، انتقل منهم الى أهل الأخبار ، فرووا عنه أقاصيص ، ونسجوا حوله نسيجاً من أساطير وخرافات ، على عادتهم عند تحدثهم عن الشخصيات الجاهلية القوية التي تركت أثراً في أهل تلك الأيام ، حتى انهم لم يكتفوا بكل ما قالوه فيه ، وكأنه لم يكن كافياً ، فجعلوا منه جملة رجال سمّوهم (أبرهة) نصبوهم ملوكاً وتبابعة على مملكة سبأ وحمير .

والرأي الغالب بين الناس ان حملة أبرهة على مكة ، كانت قبل المبعث بزهاء أربعين سنة ، وميلاد الرسول كان في عام هذه الحملة ، وهو العام الذي عرف بـ (عام الفيل) . وهو يوافق سنة (٥٧٠) أو (٥٧١ م) . وانما عرف بعام الفيل ، لأن الحبش كما يزعم أهل الأخبار جاءوا الى مكة ومعهم فيل سمّوه (محموداً) ، وقد جاءوا به من الحبشة . وفي بعض الروايات أن عدد الفيلة كان ثلاثة عشر فيلاً ، أو اثني عشر ، أو دون ذلك ، أو أكثر ، وأوصلوا العدد إلى ألف فيل . ولوجود الفيل أو الفيلة في الحملة ، عرفت بحملة الفيل ، وعبر عن الحبش في القرآن الكريم بـ (أصحاب الفيل)[1] .

وقد ذهب بعض الرواة الى أن عام الفيل إنما كان قبل مولد النبي بثلاث وعشرين سنة ، وذكر بعضهم أنه كان في السنة الثانية عشرة من ملك (هرمز ابن انو شروان) . ولما كان ابتداء حكم (هرمز بن أنو شروان) سنة (٥٧٩) فعام الفيل يكون في حوالى السنة (٥٨١) للميلاد لا سنة (٥٧٠) او (٥٧١) للميلاد

---

١ سورة الفيل ، الطبري (٢/ ١٣٠ وما بعدها) (دار المعارف) ، الكامل (١/ ٢٦٠)، تفسير ابن كثير (٥٤٨/٤ وما بعدها) ، مروج (٧١/٢) ، روح المعاني (٢٨/ ٢٣٣) ، الطبرسي ، مجمع (٣٠/ ١٩١) ، الازرقي (١/ ٨٣ وما بعدها) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢/ ١٧٠) ، تفسير الطبري (١٦٦/٣٠) ، (المطبعة الميمنية) ، دائرة المعارف الاسلامية (٦١/١ وما بعدها) ، ترجمة الشنتاوي .

كما يذهب الأكثرون الى ذلك . وأما إذا اخذنا برواية من قال من الرواة وأهل الأخبار من أن عام الفيل قد كان لاثنتين واربعين سنة من ملك (انو شروان)، فيكون هذا العام قد وقع في حوالى السنة (٥٧٣) للميلاد[١] وهو رقم قريب من الرقم الذي ذهب اليه أكثر المستشرقين حين حوّلوا ما ذكره اهل الأخبار عن سنة ولادة الرسول الى التقويم الميلادي .

وقد ورد ذكر هذا الحادث في القرآن الكريم : « ألم تر كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وارسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »[٢] ؟ وقد خاطبت هذه الآيات الرسول بأن قريشاً سوف تخيب وتحل بها الهزيمة ، كما حلت بأصحاب الفيل ، واصحاب الفيل اعظم منهم قوة واشد بطشاً ، وهم لا شيء تجاههم ، وفيها تذكير لقريش بما حل بالحبش ، وما كان عهد الحبش عنهم ببعيد .

وينسب الأخباريون حملة أبرهة على مكة الى تدنيس رجل من كنانة (القليس) التي بناها أبرهة في اليمن ، لتكون محجة للناس . فلما بلغ أبرهة خبر التدنيس كما يقولون ، عزم على السير الى مكة لهدم الكعبة،فسار ومعه جيش كبير من الحبش واهل اليمن ، وهو مصمم على دكها دكاً ، وصرف الناس عن الحج اليها الى الأبد . فلما وصل ، هلك معظم جيشه ، فاضطر الى العودة الى اليمن خائباً مدحوراً[٣] .

ويذكر اهل الأخبار ان الرجل الذي دنس القليس،هو من النّسأة أحد بني فقيم، ثم احد بني مالك من كنانة . وقد غضب لما رآه من شأن تلك الكنيسة،ومن عزم أبرهة على صرف حاج العرب اليها ، ومن مبالغته في الدعاية لها ، ففعل ما فعل[٤] .

---

١ تفسير القرطبي (٢٠/١٩٤) .

٢ سورة الفيل ، الرقم ١٠٥ ، تفسير الطبري (٣٠/١٩٣) ، (بولاق) ، القرطبي (٢٠/١٨٧ ومابعدها) .

٣ الروض الانف (١/٤٠ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٢٠/١٨٨) ، الازرقي (١/٩٠ وما بعدها) ، (خياط) .

٤ الطبري (٢/١٣٠) ، تاج العروس (٩/١٤) ، الكشاف (٤/٢٣٣) ، تفسير الطبري (٣٠/١٦٧) ، تفسير النيسابوري (٣٠/١٩٣) ، (حاشية على تفسير الطبري) .

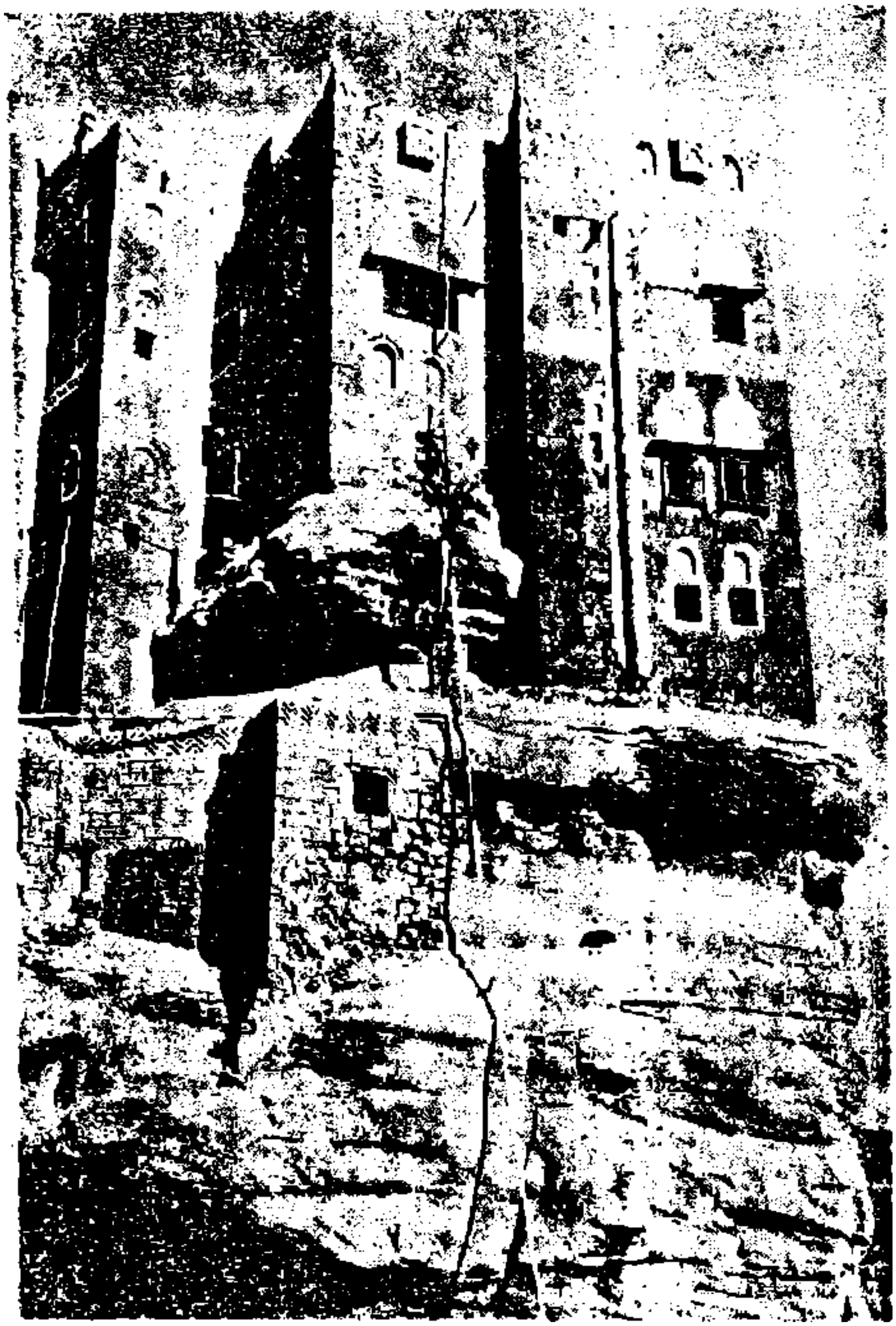

أحد القصور ، وهو يمثل الطراز اليماني في البناء
من كتاب : (JEMEN) (Günther Pawelke)

وقيل ان الرجل المذكور كـان من النساك ، من نساك بـني فقـيم ، غاظه ما كان من عزم ابرهة على صرف العرب عن الحج الى مكة،فأحدث في القليس للحط من شأنها في نظر العرب ، ولطخ قبلتها بحدثه ، فشاع خبره بين الناس ، وهزىء القوم من (قُلّيس) حدث به ما حدث. وغضب أبرهة من عمله المشين هذا الموجه اليه والى كل الحبش ، فعزم على هدم البيت الذي يقدسه ذلك الكناني

ومن يحج اليه[1] .

وينسب أخباريون آخرون عزم (أبرهة) على دك الكعبة وهدمها إلى عامل آخر ، فهم يذكرون ان فتية من قريش دخلوا القليس فأججوا فيها ناراً ، وكان يوماً فيه ريح شديدة ، فاحترقت وسقطت الى الأرض ، فغضب أبرهة ، وأقسم لينتقم من قريش بهدم معبدهم ،كما تسببوا في هدم معبده الذي باهى النجاشي به[2] .

وذكر أن (أبرهة) بنى القلّيس بصنعاء ، وهي كنيسة لم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض ، وكان نصرانياً ، ثم كتب الى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبنَ مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنتهٍ حتى أصرف اليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك الى النجاشي ، غضب رجل من النّسأة ، فخرج حتى أتى الكنيسة ، فأحدث فيها ، ثم خرج فلحق بأرضه ، فأخبر بذلك أبرهة ، فغضب عند ذلك ، وحلف ليسيرن الى البيت حتى يهدمه . وبعث رجلاً كان عنده الى بني كنانة يدعوهم الى حج تلك الكنيسة ، فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل ، فزاد أبرهة ذلك غضباً وحنقاً ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل[3] .

وذكر (السيوطي) سبباً آخر في قرار أبرهة غزو مكة ، زعم أن أبرهة الأشرم كان ملك اليمن ، وان ابن ابنته أكسوم بن الصباح الحميري خرج حاجاً، فلما انصرف من مكة ، نزل في كنيسة بنجران ، فعدا عليها ناس من أهل مكة، فأخذوا ما فيها من الحلي وأخذوا قناع أكسوم ، فانصرف الى جده مغضباً ، فبعث رجلاً من أصحابه يقال له (شهر بن معقود) على عشرين ألفاً من خولان

---

١ الكامل (١/٢٦٠ وما بعدها) ، تفسير البيضاوي (٣٠/٢٦٩) ، روح المعاني (٣٠/٢٣٣ وما بعدها) ، الكشاف (٣/٢٨٨) (بولاق) (٣/٣٥٨ وما بعدها) (١٩٤٨ م) .

٢ الكشاف ٤/٢٣٣) ، روح المعاني (٢٨/٢٣٣) ، تفسير الفخر الرازي (٣١/٩٦) ، تفسير ابن كثير (٤/٥٤٩) ، تفسير أبي السعود (٥/٢٨٥) ، تفسير النيسابوري (٣٠/١٦٣) ،وهو حاشية على تفسير الطبري (بولاق) ، التيجان في ملوك حمير ، لوهب بن منبه (ص ٣٠٣) ، حيدر آباد الدكن) بالهند . تفسير الطبرسي ، مجمع (١٠/٥٣٩) ، (طهران) ، ابن هشام السيرة (١/٤٤ وما بعدها) ، روح المعاني ، للالوسي (٣٠/٢٣٣ وما بعدها)، تفسير البيضاوي (٣٠/٢٦٩) .

٣ (تفسير القرطبي (٢٠/١٨٨) ، تفسير الطبري (٣٠/١٩٣ وما بعدها) .

والأشعريين ، فساروا حتّى نزلوا بأرض خثعم فتيمنت خثعم عن طريقهم . فلما دنا من الطائف خرج اليه ناس من بني خثعم ونصر وثقيف ، فقالوا : ما حاجتك الى طائفنا ، وإنما هي قرية صغيرة ؟ ولكنا ندلك على بيت بمكة يعبد فيه ، ثم له ملك العرب ، فعليك به ، ودعنا منك ، فأتاه حتّى إذا بلغ المغمس ، وجد إبلاً لعبد المطلب مئة ناقة مقلدة ، فأنهبها بين أصحابه . فلما بلغ ذلك عبد المطلب جاءه ، وكان له صديق من أهل اليمن يقال له : ذو عمرو ، فسأله أن يردّ عليه ابله ، فقال : إني لا أطيق ذلك ، ولكن إن شئت أدخلتك على الملك . فقال عبد المطلب : افعل . فأدخله عليه ، فقال له : ان لي اليك حاجةً . قال قضيت كل حاجة تطلبها ، ثم قصّ عليه قصة ابله التي انتهبها جيشه . فالتفت الى ذي عمرو ، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى عجباً ، فقال : لو سألني كل شيء أحوزه ، أعطيته اياه ، ثم أمر بإرجاع ابله عليه . وأمر بالرحيل نحو مكة لهدمها . وتوجه ألف شهر وأصحاب الفيل ، وقد اجمعوا ما اجمعوا نحو مكة ، فلما بلغوها ، خرجت عليهم طير من البحر لها خراطيم كأنها البلس ، فرمتهم بحجارة مدحرجة كالبنادق ، فشدختهم ، ونزل الهلاك بهم فانصرف شهر هارباً وحده ، ولكنه ما كاد يسير ، حتّى تساقطت اعضاء جسده فهلك في طريقه الى اليمن وهم ينظرون اليه[1] .

ويتفق خبر (السيوطي) هذا في جوهره وفي شكله مع الروايات الأخرى التي وصلت الينا عن حملة (أبرهة) ، ولا يختلف عنها الا في أمرين : في السبب الذي من أجله قرر أبرهة هدم الكعبة ، وفي الشخص الذي سار على مكة . اما السبب الذي اورده السيوطي ، فهو غير معقول ، لسبب بسيط واضح ، هو ان ابن ابرهة ، وهو أكسوم بن الصباح الحميري ، هو رجل نصراني ، والنصارى لا تحج إلى مكة ، لأنها محجة الوثنيين ، وقد عزم جدّه ابرهة على صرف العرب من الحج اليها ، فكيف يحج اليها ابن ابنته ، وهو على دين جدّه ؟ واما ما زعمه من ان (شهر بن معقود) (مقصود) هو الذي سار على مكة لهدمها ، وذلك بأمر من ابرهة ، فإنه يخالف اجماع اهل الأخبار والمفسرين من ان ابرهة هو نفسه

---

١ السيوطي ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣٩٤/٦) ، الاصبهاني ، دلائل النبوة (١٠٠ وما بعدها) ، الكشاف (٢٨٨/٣) .

قاد تلك الحملة ، وانه هو الذي اخذ الفيل او الفيلة معه،وسار على رأس جيش كبير من الحبش ومن قبائل من اهل اليمن كانت تخضع له . ثم إن السيوطي يشير الى وجود (الملك) في الجيش ، ولم يكن شهر بن معقود ملكاً ولم يلقبه اهل الأخبار بلقب (ملك) ، وانما أنعموا بهذا اللقب على ابرهة وحده . أضف الى ذلك ان ما ذكره السيوطي من حوار وقع بين عبد المطلب وبين الملك هو حوار يذكر اهل الأخبار انه جرى بين عبد المطلب وبين ابرهة . لذلك ارى ان الأمر قد التبس على السيوطي،فخلط بين ابرهة وبين شهر احد قادته من العرب ، وانه قصد بالملك ابرهة لا القائد ، وإن لم يشر اليه ، بل جعل الفعل كل الفعل للقائد المذكور .

وأورد (القرطبي) رواية اخرى نسبها الى مقاتل بن سليمان وابن الكلبي ، خلاصتها : ان سبب الفيل هو ما روى ان فتية من قريش خرجوا تجاراً الى ارض النجاشي ، فنزلوا على ساحل البحر الى بيعة للنصارى ، تسميها النصارى : الهيكل ، فأوقدوا ناراً لطعامهم ، وتركوها وارتحلوا ، فهبت ريح عاصفة على النار فأضرمت البيعة ناراً واحترقت ، فأتي الصريخ الى النجاشي ، فأخبره ، فاستشاط غضباً ، فأتاه ابرهة بن الصباح وحجر بن شرحبيل وابو يكسوم الكنديون وضمنوا له احراق الكعبة . وكان النجاشي هو الملك ، وابرهة صاحب الجيش ، وابو يكسوم نديم الملك ، وقيل وزيره ، وحجر بن شرحبيل من قواده . فساروا معهم الفيل ، وقيل ثمانية فيلة ، ونزلوا بذي المجاز ، واستاقوا سرح مكة [1] .

وتتفق هذه الرواية مع الروايات السابقة من حيث الجوهر ، ولا تختلف عنها الا في جعل الكنيسة المحترقة بيعة في ارض النجاشي ، اي في ساحل الحبش ، لا في ارض اليمن ، والا في جعل الآمر بالحملة النجاشي ، لا ابرهة نفسه . أما المنفذون لها ، فهم ابرهة ومن معه .

وهناك سبب آخر سأتعرض له فيما بعد ، يذكره أهل الأخبار في جملة الأسباب التي زعموا انها حملت ابرهة على السير نحو مكة لتهديمها . وهو سبب ارجحه وأقدمه على السببين المذكورين ، لما فيه من مساس بالسياسة ، ولأنه مشروع سياسي خطير من المشروعات العالمية القديمة التي وضعها اقدم ساسة العالم للسيطرة على

---

١ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١٨٧ ، ١٩٢ وما بعدها) .

الطرق الموصلة الى المياه الدافئة والى الأرضين المنتجة لأهم المواد المطلوبة في ذلك العهد .

وتذكر روايات اهل الأخبار ان أبرهة لما رتب كل شيء وجهز نفسه للسير من اليمن نحو مكة ، خرج له رجل من اشراف اليمن وملوكهم ، يقال له : (ذو نفر) وعرض له فقاتله ، فهزم (ذو نفر) واصحابه ، واخذ له ذو نفر اسيراً . ثم مضى ابرهة على وجهه ذلك ، يريد ما خرج له ، حتى اذا كان بأرض خثعم ، عرض له (نفيل بن حبيب الخثعمي) في قبيلي خثعم : شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة ، وأخذ له نُفيل أسيراً وخرج معه يدلّه على الطريق ، حتى إذا مرّ بالطائف ، خرج اليه (مسعود بن معتب) في رجال ثقيف ، فقال له : أيها الملك ، انما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس لك عندنا خلاف،وليس بيتنا هذا بالبيت الذي تريد – يعني اللات – انما تريد البيت الذي بمكة ، يعنون الكعبة ، ونحن نبعث معك من يدلّك ، فتجاوز عنهم ، وبعثوا معه أبا رغال ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس ، فهلك أبو رغال به . فرجمت العرب قبره،فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس[1] .

وكان نفيل بن حبيب الخثعمي من سادات خثعم ، ولما أخذه أبرهة أسيراً واحتبسه عنده ، جعله دليله إلى مكة ، وهو الذي أوصله إلى الطائف ، حيث تسلم أبرهة الدليل الآخر من ثقيف ، وهو أبو رغال[2] . وذكر بعضهم أن (نفيل ابن حبيب) كان دليل أبرهة على الكعبة ، وأنه عرف بـ (ذي اليدين)[3] .

ولأهل الأخبار قصص عن (أبي رغال) ، صيّره أسطورة ، حتى صيّره بعضهم من رجال ثمود ومن رجال (صالح) النبي . فزعموا ان النبي كان قد وجهه على صدقات الأموال ، فخالف أمره ، وأساء السيرة ، فوثب عليه (ثقيف) وهو قسيّ بن منبه ، فقتله قتلة شنيعة . وهو خبر وضعه أناس من ثقيف ولا

---

١ الطبري (٢/١٣١ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣٠/١٦٧) ، (٣٠/١٩٤) (بولاق) ، تفسير القرطبي (٢٠/١٨٨) .

٢ الاشتقاق (٣٠٦) ، تفسير الطبري (٣٠/١٩٤) (بولاق) .

وارجم قبره في كلّ عام   كرجم الناس قبر ابي رغال

٣ نوادر المخطوطات (القاب الشعراء) (ص ٣٢٧) .

شك ، للدفاع عن أنفسهم ، إذ اتهموا بأن (أبا رغال) منهم ، وقد جاءوا بشعر ، زعموا أن (أمية بن أبـي الصلت) قاله في حقه ، منه :

وهم قتلوا الرئيس أبا رغالٍ   بمكة إذ يسوق بها الوضينا [1]

فصيّروا القاتل جدّ ثقيف ، ونسبوا له فضل مساعدة نبي من أنبياء الله .

وقد أشار (جرير بن الخطفي) في شعر قاله في الفرزدق إلى رجم الناس قبر أبـي رغال ، إذ قال :

إذا مات الفرزدق فارجموه   كرجمكم لقبر أبـي رغال [2]

وذكر (المسعودي) ، أن العرب ترجم قبراً آخر ، يعرف بينهم بقبر العبادي في طريق العراق الى مكة . بين الثعلبية والهبير نحو البطان . ولم يذكر شيئاً عن سببه ، إذ أحال القارىء على مؤلفاته الأخرى [3] .

وذكر (الهمداني) ان قبر أبـي رغال عند (الزيمة) . و (الزيمة) موضع معروف حتى هذا اليوم [4] .

ولما نزل أبرهة المغمس ، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له ، حتى انتهى الى مكة : فساق اليه أموال أهل مكة من قريش وغيرهم ، وأصاب منها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله ، ثم عرفوا انه لا طاقة لهم به . فتركوا ذلك . ثم قرروا على أن يرسلوا سيدهم (عبد المطلب) لمواجهة أبرهة والتحدث اليه ، فذهب وقابله ، وتذكر رواية أهل الأخبار ان أبرهة لما سأله عن حاجته وعما معه من أنباء ، قال له : حاجتي الى الملك أن يردّ علي مئتي بعير أصابها لي ، فعجب أبرهة من هذا القول وقال له : أتكلمني في مئتي بعير قد أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : إني أنا رب الابل ، وان

---

١ مروج (٢/٥٣) .

٢ اذا مات الفرزدق فارجموه   كما ترمون قبر ابي رغال

مروج (٢/٥٣) ، (دار الاندلس) ، البداية (٢/١٧٠ وما بعدها) .

٣ مروج (٢/٥٤) .

٤ الاكليل (١/٣٧٣) .

للبيت رباً سيمنعه[1] .

وتذكر هذه الرواية أن أبرهة ردّ على عبد المطلب ابله ، فرجع الى قومه ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم من معرّة الجيش . فلما وصل جيش الحبش ، لم يجد أحداً بمكة،وتفشى الوباء فيه ، واضطر الى التّراجع بسرعة . فلما وصل أبرهة الى اليمن، هلك فيها بعد مدة قليلة من هذا الحادث[2] .

ويذكر (الطبري) ان الأسود بن مقصود لما ساق أموال اهل مكة من قريش وغيرهم ، وفي ضمنها ابل عبد المطلب ، وأوصلها الى أبرهة ، وأن قريشاً وكنانة وهذيل ومن كان معهم بالحرم من سائر الناس عزمت على ترك القتال ، إذ تأكدوا انهم لا طاقة لهم به . بعث ابرهة (حناطة الحميري) إلى مكة، وقال له : سل عن سيد هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له إن الملك يقول لكم : إني لم آتِ لحربكم ، إنما جئت لهدم البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب ، فلا حاجة لي بدمائكم ، فإن لم يُرد حربي فائتني به ، فلما دخل حناطة مكة ، سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب ، فقال له ما أمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب : واللهِ ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم ، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا له من دافع عنه . ثم انطلق معه الى أبرهة . فلما وصل المعسكر، سأل عن (ذي نفر) ، وكان له صديقاً ، فدلّ عليه ، فجاءه وهو في محبسه، فكلمه ، ثم توصل بوساطته إلى سائق فيل أبرهة وهو أنيس ، وأوصاه خيراً بعبد المطلب ، وكلمه في إيصاله الى ابرهة ، وان يتكلم فيه عند ابرهة بخير . ونفذ انيس طلب (ذو نفر) ، وأدخله عليه ، فكان ما كان من حديث[3] .

وذكر الطبري : أن بعض اهل الأخبار زعموا ان نفراً من سادات قريش رافقوا عبد المطلب في ذهابه مع حناطة الى ابرهة ، ذكروا منهم : يعمر (عمرو)

---

١ الطبري (٢/١٣٢ وما بعدها) (دار المعارف) ، ابن الاثير (١/٣٢١) ، تفسير القرطبي (٢٠/١٨٩) .

٢ الطبري (٢/١٣٧ وما بعدها) .

٣ تفسير الطبري (٣٠/١٩٤ وما بعدها) (بولاق) ، تفسير القرطبي (٢٠/١٨٩ وما بعدها) .

ابن نفاثة بن عديّ بن الدُّئل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة ، وهو يومئذ سيد بني كنانة ، وخويلد بن واثلة الهُذلي ، وهو يومئذ سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث اموال اهل تهامة على ان يرجع عنهم ، ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم[1] .

ويذكر أهل الأخبار ان جيوش (ابرهة) حين دنت من مكة، توسل عبد المطلب الى ربه وناجاه بأن ينصر بيته ويذل (آل الصليب) وأنه أخذ بحلقة باب الكعبه وقال :

يا ربّ لا أرجو لهم سواكا   يا ربّ فامنع منهم حماكا
إن عدوّ البيت من عاداكا   امنعهم أن يخربوا قراكا

وقال :

لاهُمّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدواً محالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك[2]

وقد بلغ أبرهة مكة ، غير انه لم يتمكن من دكّها ومن هدمها ، وخاب ظنه ، إذ تفشى المرض بجيشه وفتك الوباء به ، فهلك أكثره ، واضطر الى الإسراع في العودة ، وكان عسكره يتساقطون موتى على الطريق ، وهم في عودتهم الى اليمن. وذكرت بعض الروايات ان أبرهة نفسه أصيب بهذا المرض . ولم يبلغ صنعاء الاّ بعد جهد جهيد . فلما بلغها ، مات إثر وصوله اليها[3] .

وعلى هذه الصورة أنهى اهل الأخبار أخبار حملة ابرهة ، فقالوا انها انتهت

---

١ تفسير الطبري (١٩٥/٣٠) ، الطبري (١٣٤/٢) (دار المعارف) ، تفسير القرطبي (١٩٠/٢٠) .

٢ السيرة الحلبية (٢٤/١ وما بعدها) ، يرد البيت الثاني بشكل آخر في كتاب أخبار مكة للأزرقي (٢٨٣/١) ، تفسير الطبري (١٩٥/٣٠ وما بعدها) (بولاق) .

٣ تفسير الطبري (١٩٥/٣٠ وما بعدها) (بولاق) ، تفسير البيضاوي (٢٦٩/١) ، مروج (٤٦/٢) ، روح المعاني (٢٣٣/٣٠) ، تفسير القرطبي ، (١٨٧/٢٠) ، تفسير الخطيب الشربيني ، السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٥٦٣/٤) ، تفسير الرازي (٩٦/٣١) ، البداية والنهاية (١٦٩/٢) ، ابن هشام (٢٨/١) ، الكامل (٢٥٤/١) ، الطبرسي (١٩١/٢٥) حمزة (٨٩، ٩٤) .

باخفاق ذريع ، انتهت باصابة ابرهة بوباء خطير ، وبإصابة عسكره بذلك المرض نفسه : مرض جلدي ، أصاب جلود أكثر جيشه ، فزقها ، وأصابها بقروح وقيوح في الأيدي خاصة ، وفي الأفخاذ ، أو بمرض وبائي هو الحصبة والجُدري ، فيذكر أهل الأخبار في تفسير سورة الفيل ، وفي أثناء تحدثهم عن هذه الحملة وبعد شرحهم لمعنى (طير أبابيل) : مباشرة ، هذين المرضين ويقولون : «ان أول ما رئيت الحصبة والجُدري بأرض العرب ذلك العام»[1] . وتفسير ذلك بعبارة أخرى ان ما اصاب الحبش ، هو وباء من تلك الأوبئة التي كانت تكتسح البشرية فيما مضى ، فلا تذهب حتى تكون قد أكلت آلافاً من الرؤوس .

وكان لرجوع الأحباش الى اليمن وهم على هذه الصورة من مرض يفتك بهم ، وتعب ألمّ بهم ، أثر كبير أثر فيهم وفي قريش ، ثم ما لبث ابرهة ان مات بعد مدة غير طويلة ، فازداد اعتقاد قريش بـ (رب البيت) وبأصنامها ، وهابت العرب مكة ، فكانت نكسة الحبش نصراً لقريش ولأهل مكة قوّى من معنوياتها . ويتجلى ذلك في القرآن الكريم في سورة الفيل ، وهي من السور المكيّة القديمة : (ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول)[2] .

وقصة تدنيس (القليس) ، قد تكون حقيقية وقعت وحدثت ، وقد تكون أسطورة حيكت ووضعت ، على كل حال ، وفي كلتا الحالتين لا يعقل أن تكون هي السبب المباشر الذي دفع النجاشي إلى السير الى مكة لهدم البيت ونقضه من أساسه ورفع أحجاره حجراً حجراً ، على نحو ما يزعمه أهل الأخبار بل يجب أن يكون السبب أهم من التدنيس وأعظم ، وأن يكون فتح مكة بموجب خطة تسمو على فكرة تهديم البيت وتخريبه ، خطة ترمي الى ربط اليمن ببلاد الشأم ، لجعل العربية الغربية والعربية الجنوبية تحت حكم النصرانية ، وبذلك يستفيد الروم والحبش

---

١ تفسير الطبري (٣٠/١٩٦) (بولاق) ، (وهو اول جدري ظهر في الارض) ، تفسير النيسابوري (٣٠/١٦٥) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، (أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام ، وأول ما دعي من مراير الشجر : الحرمل والحنظل والعشر ، ذلك العام) ، الازرقي (١/٩٧ وما بعدها) ، (خياط) .

٢ السورة رقم ١٠٥ .

وهم نصارى ، وان اختلفوا مذهباً ، ويحققون لهم بذلك نصراً سياسياً واقتصادياً كبيراً ، فيتخلص الروم بذلك من الخضوع للأسعار العالية التي كان يفرضها الساسانيون على السلع التجارية النادرة المطلوبة التي احتكروا بيعها لمرورها ببلادهم، إذ سترد اليهم من سيلان والهند رأساً عن طريق بلاد العرب ، فتنخفض الأسعار ويكون في امكان السفن البيزنطية السير بأمان في البحار العربية حتى سيلان والهند وما وراءهما من بحار .

وآية ذلك خبرٌ يرويه أهل الأخبار يقولون فيه إن (أبرهة) توّج (محمد ابن خزاعي بن حزابة الذكواني) ، ثم السلمي ، وكان قد جاءه في نفر من قومه ، مع أخٍ له ، يقال له (قيس بن خزاعي) ، يلتمسون فضله ، وأمّره على مضر ، وأمره أن يسير في الناس ، فيدعوهم في جملة ما يدعوهم اليه الى حج (القليس) ، فسار محمد بن خزاعي ، حتى اذا نزل ببعض أرض بني كنانة ، وقد بلغ أهل تهامة أمره ، وما جاء له ، بعثوا اليه رجلاً من هذيل ، يقال له عروة بن حياض الملاصي فرماه بسهم فقتله . وكان مع محمد بن خزاعي أخوه قيس ، فهرب حين قتل أخوه ، فلحق بأبرهة ، فأخبره بقتله ، فغضب وحلف ليغزون بني كنانة وليهدمنّ البيت[1] .

فقتل (محمد بن خزاعي) ، هو الذي هاج أبرهة وحمله على ركوب ذلك المركب الخشن . ولم يكن هياجه هذا بالطبع بسبب أن القتيل كان صاحبه وصديقه بل لأن من قتله عاكس رأيه وخالف سياسته ومراميه التوسعية القاضية بفرض ارادته وارادة الحبش وحلفائهم على أهل مكة وبقية كنانة ومضر ، وبتعيين ملك أو أمير عليهم ، هو الشخص المقتول ، فقتلوه . ومثل هذا الحادث يؤثر في السياسة وفي الساسة ، ويدفع إلى اتخاذ اجراءات قاسية شديدة ، مثل ارسال جيش للقضاء على المتجاسرين حتى لا يتجاسر غيرهم ، فتفلت من السياسي الأمور .

ومن يدري ؟ فلعلّ الروم كانوا هم المحرضين لأبرهة على فتح مكة وغير مكة حتى تكون العربية الغربية كلها تحت سلطان النصرانية ، فتتحقق لهم مآربهم في طرد سلطان الفرس من بلاد العرب . وقد حاولوا مراراً اقناع الحبش بتنفيذ

---

١ الطبري (٢/١٣١) ، تفسير الطبري (٣٠/١٩٤) ، (بولاق) ، الازرقي (١/٨٦ وما بعدها) .

هذه الخطة والاشتراك في محاربة الفرس ، وهم الذين حرضوا الجبشة وساعدوهم بسفنهم وبمساعدات مادية أخرى في فتح اليمن . وهم الذين أرسلوا رسولاً اسمه (جوليانوس) Julianus ، وذلك في أيام القيصر (يوسطنيان) Justinian لاقناع النجاشي Hellestheaeus و (السميع أشوع) Esimiphaeus بالتحالف مع الروم ، وتكوين جبهة واحدة ضد الفرس والاشتراك مع الروم في اعلان الحرب على الفرس بسبب الرابطة التي تجمع بينهم ، وهي رابطة الدين[1] . وكان في جملة ما رجاه القيصر من (السميفع أشوع) ، هو أن يوافق على تنصيب (قيس) Casius رئيساً على (Maddeni) معد[2] .

وقد ذكر (المُسكَّري) ، أن (محمد بن خزاعي بن علقمة بن محارب ابن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان السلمي) كان في جيش ابرهة مع الفيل، أي انه لم يقتل كما جاء في الرواية السابقة[3] .

وقد ورد في بعض الأخبار أن عائشة أدركت قائد الفيل وسائسه ، وكانا أعمين مقعدين يستطعمان . وقد رأتهما[4] .

وقد كان من أشراف مكة في هذا العهد غير عبد المطلب ، المطعم بن عدي، وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، ومسعود بن عمرو الثقفي ، وقد صعدوا على حراء ينظرون ما سيفعل أبرهة بمكة[5] .

وذكر بعض أهل الأخبار ، أن فلالاً من الحبش من جيش أبرهة وعفاء وبعض من ضمّه العسكر ، أقاموا بمكة ، فكانوا يعتملون ويرعون لأهل مكة[6].

وليس في كتب أهل الأخبار اسماء القبائل العربية التي جاءت مع (أبرهة) للاستيلاء على مكة بتفصيل . وكل ما نعرفه انه كان قد ضم الى جيشه قوات عربية قد يكون بينها قوم من كندة ، وقد أشير الى اشتراك خولان والأشعريين فيها ،وذكر أن (خِندفاً) كانوا ممن اشترك في جيش أبرهة،وكذلك (حميس بن أد)[7].

---

١ Procopius, I, XIX, 6-16, P. 180, Glaser, Mitt., S. 437.

٢ Procopius, I, XX, 9-12, P. 193.

٣ المحبر (١٣٠) .

٤ الكشاف (٤/٢٣٣) .

٥ تفسير ابن كثير (٤/٥٤٨ وما بعدها) .

٦ الأزرقي (١/٩٧ ، وما بعدها) ، (خياط) .

٧ Le Muséon, 1965, 3-4, P. 433.

وقد اشير الى أبرهة الأشرم والى الفيل في شعر شعراء جاهليين ومخضرمين واسلاميين . وقد ورد في شعر (عبدالله بن الزبعرى) أنه كان مع (أمير الحبش) ستون ألف مقاتل[1] . وورد في شعر (امية بن ابي الصلت) ان الفيل ظل يحبو بـ (المغمس) ولم يتحرك ، وحوله من ملوك كندة أبطال ملاويث في الحروب صقور[2] . ومعنى هذا أن سادات كندة كانوا مع الحبش في زحفهم على مكة .

وذكر (عبدالله بن قيس الرقيّات) : ان (الأشرم) جاء بالفيل يريد الكيد للكعبة ، فولى جيشه مهزوماً ، فأمطرتهم الطير بالجندل ، حتى صاروا وكأنهم مرجومون يمطرون بحصى الرجم[3] .

وذكر ان (عمر بن الخطاب) كان في جملة من ذكر (أبا يكسوم أبرهة) في شعره ، واتخذه مثلاً على من يحاول التطاول على بيت الله وعلى (آل الله) سكان مكة . وذكر أهل الأخبار انه قال ذلك الشعر في هجاء (زنباع بن روح ابن سلامة بن حداد بن حديدة) وكان عشاراً ، أساء الى (عمر بن الخطاب) وكان قد خرج في الجاهلية تاجراً وذلك في اجتيازه واخذ مكسه ، فهجاه عمر ، فبلغ ذلك الهجاء (زنباعاً) ، فجهز جيشاً لغزو مكة . فقال عمر شعراً آخر يتحداه فيه بأن ينفذ تهديده ان كان صادقاً ، لأن من يريد البيت بسوء يكون مصيره مصير أبرهة الأشرم،وقد كف زنباع عن تنفيذ ما عزم عليه ولم يقم به[4] .

لقد تركت حملة (الفيل) أثراً كبيراً في أهل مكة ، حتى اعتبرت مبدأ تقويم عندهم،فصار أهل مكة يؤرخون بعام الفيل (في كتبهم وديونهم من سنة الفيل). فلم تزل قريش والعرب بمكة جميعاً تؤرخ بعام الفيل ، ثم أرخت بعام الفجار ، ثم أرخت ببنيان الكعبة[5] .

لقد كان لأهل مكة صلات باليمن متينة ، إذ كانت لهم تجارة معها،تقصدها قوافلها في كل وقت ، وخاصة في موسم الشتاء ، حيث تجهز قريش قافلة كبيرة يساهم فيها أكثرهم ، واليها أشير في القرآن الكريم في سورة قريش : « لإيلاف

---

١ بلوغ الأرب (٢٥٨/١) ، روح المعاني (٢٣٣/٢٨) .
٢ بلوغ الأرب (٢٦٠/١) .
٣ بلوغ الأرب (٢٦٠/١) .
٤ بلوغ الأرب (٢٦١/١ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٢٥) .
٥ الأزرقي (١٠٢/١) .

قريش . ايلافهم رحلة الشتاء والصيف »[1] . ولهذا فقد كان من سياستهم مداراة حكام اليمن وارضاؤهم ، ومنع من قد يعتدي منهم على أحد من أهل اليمن أو الحبش ممن قد يقصد مكة للاتجار أو للاستراحة بها في أثناء سيره الى بلاد الشأم، خوفاً من منع تجارهم من دخول أسواق اليمن . فلما وثب أحدهم على تجار من اليمن كانوا قد دخلوا مكة ، وانتهبوا ما كان معهم ، مضت عدة من وجوه قريش الى (أبي يكسوم) ، أي أبرهة وصالحوه أن لا يقطع تجار أهل مكة عنهم . وضماناً لوفائهم بما اتفقوا عليه وضعوا (الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار) وغيره رهينة ، فكان (أبرهة) يكرمهم ويصلهم ، وكانوا يضعون البضائع الى مكة لأنفسهم[2] .

وقد وضع أهل الطائف رهائن عند أبي يكسوم كذلك ، ضماناً لحسن معاملتهم للحبش ولمن قد يقصد الطائف للاتجار من الحبش أو من أهل اليمن[3] .

طرد الحبشة :

لقد عجل الحبش في نهايتهم في اليمن ، وعملوا بأيديهم في هدم ما أقاموه بأنفسهم من حكومة ، باعتدائهم على أعراض الناس وأموالهم ، وأخذهم عنوة كل ما كانوا يجدونه أمامهم ، حتى ضجّ أهل اليمن وضجروا ، فهبوا يريدون تغيير الحال ، وطرد الحبشة عن أرضهم ، وإن أدى الأمر بهم الى تبديلهم بأناس أعاجم أيضاً مثل الروم أو الفرس ، اذا عجزوا هم عن طردهم ، فلعل من الحكام الجدد من قد يكون أهون شراً من الحبش ، وان كان كلاهما شراً ، ولكن اذا كان لا بد من أحد الشرين فإن أهونهما هو الخيار ولا شك .

وهبّ اليمانون على الحبش ، وثار عليهم ساداتهم في مواضع متعددة غير أن ثوراتهم لم تفدهم شيئاً ، اذ أخمدت ، وقتل القائمون بها . ومن أهم اسباب إخفاقها انها لم تكن ثورة عارمة عامة مادتها كل الجماهير والسادات ، بل كانت ثورات سادات ، مادة كل ثورة مؤججها ومن وراءه من تبع . هنا ثورة وهناك

---

١ الآية الأولى وما بعدها .
٢ Le Muséon, 1965, 3-4, P. 432.
٣ Le Muséon, 1965, 3-4, P. 431.

ثورة ، ولم تكن بقيادة واحدة ، أو بإمرة قائد خبير أو قادة متكاتفين خبراء بأمور الحرب والقتال ، فصار من السهل على الحبش، الانقضاض عليها واخمادها، أضف الى ذلك انها لم تؤقت بصورة تجعلها ثورات جماعية ، وكأنها نيران تلتهب في وقت واحد، يعسر على مخمدي النيران إخمادها ، او اخمادها على الأقل بسهولة .

ولتحاسد الأقيال وتنافسهم على السيادة والزعامة نصيب كبير في هذا الإخفاق ، لذلك وجه بعض السادة أنظارهم نحو الخارج في أمل الحصول على معونة عسكرية أجنبية خارجية ، تأتيهم من وراء الحدود ، لتكره الحبش على ترك اليمن. وكان صاحب هذا الرأي والمفكر فيه (سيف بن ذي يزن) ، من ابناء الأذواء ومن أسرة شهيرة . وقد نجح في مشروعه ، فاكتسب صفة البطولة وانتشر اسمه بين اليمانيين ، حتى صير أسطورة من الأساطير ، وصارت حياته قصة من القصص أمثال قصة أبي زيد الهلالي وعنترة وغيرهما ممن تحولوا الى أبطال تقص حياتهم على الناس في المجالس وفي المقاهي وحفلات السمر والترفيه،أو تقرأ للتسلية واللهو .

و (سيف بن ذي يزن) ، هو (معديكرب بن ابي مرة) ، وقد عرف ابوه ايضاً بـ (ابي مرة الفياض) ، وكان من أشراف حمير ، ومن الأذواء[1].
وأمه (ريحانة ابنة علقمة) ، وهي من نسل (ذي جدن) على نحو ما ذكرت.
يقال إن أبرهة لما انتزع ريحانة من بعلها (ابي مرة) ، فر زوجها الى العراق فالتجأ الى ملك الحيرة (عمرو بن هند) على ما يظن ، وبقي (معديكرب) مع امه في بيت (أبرهة) على ذلك مدة ، حتى وقع شجار بينه وبين شقيقه من امه (مسروق) الذي ولي الملك بعد موت اخيه (يكسوم) فأثر ذلك في نفسه وحقد على (مسروق) ، فلما مات يكسوم ، خرج من اليمن ، حتى قدم على قيصر ملك الروم ، فشكا ما هم فيه ، وطلب اليه ان يخرجهم عنه ، ويليهم هو ويبعث اليهم من يشاء من الروم ، فيكون له ملك اليمن ، فلم يشكه ولم يجد عنده شيئاً مما يريد ، فخرج حتى قدم الحيرة على النعمان بن المنذر ، فأسكنه عنده ثم اوصله بكسرى ، وحدثه في شأنه وفي خاطره في قومه ، فأمده بثماني مئة محارب ، وبـ (وهرز) أمّره عليهم ، وبثماني سفن جعل في كل سفينة مئة

---

1 الطبري (٢/١٣٠ ، ١٤٣) ، (معد يكرب بن سيف) ، مروج (٢/٥٥) ، (دار الاندلس) .

رجل وما يصلحهم في البحر ، فخرجوا ، حتى اذا لجوا في البحر غرقت من السفن سفينتان بما فيها ، فخلص الى ساحل اليمن من ارض عدن ست سفائن فيهن ستمئة رجل فيهم وهرز وسيف بن ذي يزن ، نزلوا ارض اليمن، فلما سمع بهم مسروق بن أبرهة ، جمع اليه جنده من الحبشة ، ثم سار اليهم ، فلما التقوا رمى (وهرز) مسروقاً بسهم ، فقتله ، وانهزمت الحبشة ، فقتلوا ، وهرب شريدهم ، ودخل (وهرز) مدينة صنعاء ، وملك اليمن ونفى عنها الحبشة ، وكتب بذلك الى كسرى . فكتب اليه كسرى يأمره ان يملك سيف بن ذي يزن على اليمن وارضها وان يرجع وهرز الى بلاده ، فرجع اليها . ورضي سيف بدفع جزية وخرج يؤديه في كل عام[1] .

وذكر (الطبري) في رواية له اخرى عن (سيف بن ذي يزن) وعن مساعدة الفرس له ، فقال : « فخرج ابن ذي يزن قاصداً الى ملك الروم ، وتجنّب كسرى لابطائه عن نصر ابيه ، فلم يجد عند ملك الروم ما يحب، ووجده يحامي عن الحبشة لموافقتهم اياه على الدين ، فانكفأ راجعاً الى كسرى »[2] . فقابله وحيّاه وقال لكسرى : « انا ابن الشيخ اليماني ذي يزن ، الذي وعدته ان تنصره فما ببابك وحضرتك ، فتلك العدة حق لي وميراث يجب عليك الخروج لي منه . فرقّ له كسرى ، وامر له بمال . فخرج ، فجعل ينثر الدراهم ، فانتهبها الناس . فأرسل اليه كسرى : ما الذي حملك على ما صنعت : قال : إني لم آتك للمال ، انما جئتك للرجال ، ولتمنعني من الذل ، فأعجب ذلك كسرى ، فبعث اليه : ان أقم حتى انظر في امرك . ثم إن كسرى استشار وزراءه في توجيه الجند معه ، فقال له الموبذان : إن لهذا الغلام حقاً بنزوعه وموت ابيه بباب الملك وحضرته ، وما تقدم من عدته اياه ، وفي سجون الملك رجال ذوو نجدة وبأس؛ فلو ان الملك وجههم معه ، فإن أصابوا ظفراً كان له ، وان هلكوا كان قد استراح وأراح اهل مملكته منهم ، ولم يكن ذلك ببعيد الصواب . قال كسرى : هذا الرأي . وعمل به[3] ».

---

١ الطبري (٢/١٣٦) (دار المعارف) ابن خلدون (٢/٦٣) ، المعارف (٢٧٨) ،
٢ الاخبار الطوال (ص ٦٣ وما بعدها) ، مروج (٢/٥٥) ، (دار الاندلس) ·
الطبري (٢/١٤٤) ، (دار المعارف) ·
٣ الطبري (٢/١٤٤) ، (دار المعارف) ·

ويظهر من هذه الرواية ، ان (ابا مرّة) ، والد (معديكرب) ، كان قد فرّ من اليمن الى العراق ، وقد حاول عبثاً حث كسرى على تقديم العون العسكري له لطرد ابرهة وقومه الحبش عن اليمن ، وبقي يسعى ويحاول حتى مات بالعراق ، مات بالمدائن على حد زعم هذه الرواية . ويظهر منها أيضاً ، ان سيف بن ذي يزن ، أي ولد ابي مرّة ، كان قد أيس هو من كسرى بعد ان رأى ما رأى من موقفه مع ابيه ، فذهب أولاً الى ملك الروم ، على أمل مساعدته ومعاونته في طرد الحبش عن بلاده ، حتى وان أدى الأمر الى استيلاء الروم على اليمن ، فلما خاب ظنه ذهب الى الفرس ، فساعدوه .

ويذكر (الطبري) أن وهرز لما انصرف الى كسرى ، ملّك سيفاً على اليمن ، ف « عدا على الحبشة فجعل يقتلها ويبقر النساء عما في بطونها ، حتى اذا أفناها الا بقايا ذليلة قليلة ، فاتخذهم خولاً ، واتخذ منهم جمّازين يسعون بين يديه بحرابهم ، حتى اذا كان في وسط منهم وجأوه بالحراب حتى قتلوه ، ووثب بهم رجل من الحبشة ، فقتل باليمن وأوعث ، فأفسد ، فلما بلغ ذلك كسرى بعث اليهم (وهرز) في أربعة آلاف من الفرس ، وأمره الا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من اسود الا قتله ، صغيراً كان او كبيراً. فأقبل وهرز ، حتى دخل اليمن ففعل ذلك . ثم كتب الى كسرى بذلك ، فأمره كسرى عليها . فكان عليها ، وكان يجبيها الى كسرى حتى هلك»[1].

لقد كان استيلاء الحبشة على اليمن بأسرها سنة (٥٢٥) للميلاد . أما القضاء على حكمهم فكان قريباً من سنة (٥٧٥) للميلاد[2] . ولكن الحبش كانوا في اليمن قبل هذا العهد ، اذ كانوا احتلوا بعض الأرضين قبل السنة (٥٢٥) للميلاد ، وكانوا يحكمونها باسم ملك الحبشة .

وجاء في تأريخ الطبري وفي موارد اخرى ان حكم الحبش لليمن دام اثنتين وسبعين سنة ، توارث ذلك منهم اربعة : أرياط ، ثم أبرهة ، ثم يكسوم بن ابرهة ، ثم مسروق ابن ابرهة[3] . وهو رقم فيه زيادة ، اذا اعتبرنا ان نهاية

---

١ الطبري (١٤٨/٢) (دار المعارف) ، المعارف (٢٧٨) .
٢ W. Phillips, P. 223.
٣ الطبري (١٣٩/٢) .

حكم الحبش في اليمن ، كانت في حوالى السنة (٥٧٥ م) . اما اخذنا برواية اهل الأخبار مثل حمزة ، الذي ذكر كما سبق ان بيّنت ان حكم (أرياط) دام عشرين سنة ، وان حكم ابرهة ثلاثاً وعشرين سنة ، وان حكم (يكسوم) سبع عشرة ، وان حكم مسروق اثنتي عشرة سنة ، فيكون ما ذكره (الطبري) وحمزة صحيحاً من حيث المجموع ، لأن مجموعه (٧٢) سنة . ولكني أشك في ان حكم (أرياط) كان (٢٠) سنة . إذ يعني هذا ان حكمه استمر الى سنة (٥٤٥) للميلاد، والمعروف من نص (ابرهة) المدون على جدار سد مأرب ، ان ابرهة رمم السد وقوّى جدرانه سنة (٥٤٢) للميلاد . ومعنى هذا انه كان قد استبد بأمر اليمن قبل هذا الزمن .

وقد تعرّض (حمزة) لهذا البحث ، ولفت النظر الى تفاوت الرواة في مدة لبث الحبشة باليمن وفي تأريخ اليمن كله . فقال : « وليس في جميع التواريخ تأريخ أسقم ولا أخلّ من تأريخ الأقيال ملوك حمير ، لما قد ذكر فيه من كثرة عدد سني من ملك منهم ، مع قلة عدد ملوكهم » ، و « قد اختلف رواة الأخبار في مدة لبث الحبشة باليمن اختلافاً متفاوتاً »[1] . والواقع اننا نجد اختلافاً كبيراً بين اهل الأخبار في تأريخ اليمن،حتى في المتأخر منه القريب من الاسلام .

ويذكر (ابو حنيفة الدينوري) ، ان (وهرز) كان شيخاً كبيراً ، قد أناف على المائة ، وكان من فرسان العجم وابطالها،ومن اهل البيوتات والشرف ، وكان اخاف السبيل ، فحبسه كسرى . ويقال له (وهرز بن الكاسجار)،فسار بأصحابه الى (الأبلة) فركب منها البحر . وذكر ان (كسرى) لما ردّه الى اليمن ، بعد وثوب الحبش بـ (سيف بن ذي يزن) ، وبقي هناك الى ان وافاه اجله ، قُبر في مكان سمّي (مقبرة وهرز) ، وراء الكنيسة ، ولم يشر الى اسم الكنيسة[2] ، ولعله قصد موضع (القليس) .

أما (المسعودي) ، فصير (وهرز) موظفاً كبيراً بدرجة (اصبهبذ) ، ودعاه بـ (وهرز اصبهبذ الديلم) . اي انه كان اصبهبذاً على الديلم اذ ذاك . وذكر انه ركب ومن كان معه من اهل السجون البحر في السفن في دجلة ومعهم

---

١ حمزة (ص ٨٩) .
٢ الاخبار الطوال (ص ٦٤) .

خيولهم وعُددهم وأموالهم حتى أتوا (الأبلة) ، فركبوا في سفن البحر، وساروا حتى أتوا ساحل حضرموت في موضع يقال له (مثّوب) ، فخرجوا من السفن فأمرهم (وهرز) ان يحرقوا السفن ، ليعلموا انه الموت . ثم ساروا من هناك براً حتى التقوا بـ (مسروق)[1] .

وذكر (المسعودي)، ان (كسرى انو شروان) ، اشترط على (معديكرب) شروطاً : منها أن الفرس تتزوج باليمن ولا تتزوج اليمن منها ، وخراج يحمله اليه . فتوج (وهرز) معديكرب بتاج كان معه وبدنة من الفضة ألبسه اياها ، ورتبه بالملك على اليمن ، وكتب الى (أنو شروان) بالفتح[2] .

قال (المسعودي) ولما ثبت (معديكرب) في ملك اليمن ، أتته الوفود من العرب تهنّيه بعود الملك اليه ، وفيها وفد مكة وعليهم عبد المطلب ، وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وخويلد بن أسد بن عبد العُزى ، وابو زمعة جد اميّة بن ابي الصلت ، فدخلوا اليه ، وهو في اعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف بغمدان ، وهنأوه ، وارتجل عبد المطلب خطاباً ، ذكر المسعودي وغيره نصه ، وأنشد (ابو زمعة) شعراً ، فيه ثناء على الملك وحمد للفرس (بنو الأحرار) الذين ساعدوا أهل اليمن ، على (سود الكلاب)[3] .

واذا أخذنا برواية (المسعودي) عن وفد مكة ، وبما يذكره اهل الأخبار عن مدة حكم الحبش على اليمن ، وهي اثنتين وسبعين سنة ، وجب ان يكون ذهاب الوفد الى صنعاء بعد سنة (٥٩٧) للميلاد ، وهذا مستحيل . فقد كانت وفاة (عبد المطلب) في السنة الثامنة من عام الفيل ، والرسول في الثامنة اذ ذاك فتكون وفاة (عبد المطلب) اذن في حوالي السنة (٥٧٨) أو (٥٧٩) للميلاد ، اي في ايام وجود الحبش في اليمن ، وقبل طردهم من بلاد العرب . اما لو اخذنا برواية الباحثين المحدثين التي تجعل زمن طرد الحبش عن اليمن سنة (٥٧٥) للميلاد ، او قبلها بقليل ، فيكون من الممكن القول باحتمال ذهاب (عبد المطلب) الى اليمن ، على نحو ما يرويه (المسعودي) .

---

١ مروج (٢/٥٥ وما بعدها) .
٢ مروج (٢/٥٦ وما بعدها) ، دار الاندلس .
٣ مروج (٢/٥٨ وما بعدها) .

لم يذكر اهل الأخبار السنة التي تولى فيها (سيف بن ذي يزن) الحكم على اليمن بعد طرد الحبش عنها ، ويرى بعض الباحثين انها كانت في حوالي السنة (٥٧٥) للميلاد . وان حكمه لم يكن قد شمل كل اليمن ، بل جزءاً منها . ويظهر ان الفرس إستأثروا بحكم اليمن لأنفسهم ، اذ نجد ان رجالاً منها تحكمها منذ حوالي السنة (٥٩٨) للميلاد تقريباً،وكان احدهم بدرجة (ستراب) (سطراب) Satrapie[١] .

وذكر (ابن دريد) ان من ذرية (سيف بن ذي يزن) ، (عُفير بن زرعة بن عفير بن الحارث بن النعمان بن قيس بن عبيد بن سيف) . وكان سيد حمير بالشأم في ايام عبد الملك بن مروان[٢] .

ورووا ان (وهرز) كان يبعث العير الى كسرى بالطيوب والأموال فتمر على طريق البحرين تارة وعلى طريق الحجاز اخرى،فعدا بنو تميم في بعض الأيام على عيرة بطريق البحرين ، فكتب الى عامله بالانتقام منهم ، فسار عليهم وقتل منهم خلقاً ، وذلك يوم (الصفقة)[٣] . وعدا بنو كنانة على عيره بطريق الحجاز حين مرت بهم ، وكانت في جوار رجل من أشراف العرب من قيس ، فكانت حرب الفجار بين قيس وكنانة[٤] .

وامر كسرى بتولي ابن وهرز ، وهو (المزربان بن وهرز) منصب ابيه ، لما توفي والده . فكان عليها الى ان هلك[٥] .

ثم امر كسرى (البينجان بن المرزبان) اي حفيد (وهرز) بتولي منصب ابيه حين داهمته منيته . فأمّر كسرى بعده (خُرّخرة بن البينجان) ، فكان عليها ، ثم غضب كسرى عليه . واستدعاه الى عاصمته ، فذهب اليها ، فخلعه كسرى وعين باذان (باذام) في مكانه ، فلم يزل على اليمن حتى بعث الرسول[٦] . وذكر بعض اهل الأخبار ان (خذ خسرو بن السيحان بن المرزبان) هو الذي

---

١ Beiträge, S. 121, W. Phillips, P. 223.
٢ الاشتقاق (٢/٣٦٠) .
٣ ابن خلدون (٢/٦٥) ، الاغاني (١١/١٣١) .
٤ ابن خلدون (٢/٦٥) ، اللسان (٦/٣٥٤) ، القاموس (٢/١٠٨) .
٥ الطبري (٢/١٤٨) ، صبح الأعشى (٥/٢٥) .
٦ الطبري (٢/١٤٨) .

حكم بعد (المرزبان بن وهرز) ، وهو الذي عزله كسرى ، وولى (باذان) (باذام) بعده على اليمن[1] .

لقد كانت السنة السادسة من الهجرة ، سنة مهمة جداً في تاريخ اليمن . فيها دخل (باذان) (باذام) في الاسلام ، وفيها قضى الاسلام على الوثنية واليهودية والنصرانية وعلى الحكم الأجنبي في البلاد ، فلم يبق حكم حبشي ولا حكم فارسي[2]. ويرى بعض المستشرقين ان دخول باذان في الإسلام كان بين سنة (٦٢٨) و(٦٣٠) للميلاد[3] . ويذكر (الطبري) ، ان اسلام (باذان) ، كان بعد قتل (شيرويه) لأبيه (كسرى أبرويز) ، وتوليه الحكم في موضع والده . فلما جاء كتاب شيرويه اليه يبلغه بالخبر ، ويطلب منه الطاعة ، اعلن اسلامه ، وأسلم من كان معه من الفرس والأبناء[4] . وقد ولى (شيرويه) الحكم في سنة (٦٢٨) للميلاد ، ولم يدم حكمه اكثر من ثمانية اشهر . وقد عرف بـ (قباذ)[5] .

وقد ذكر ان (باذان) (باذام) كان من (الأبناء) ، أي من الفرس الذين ولدوا في اليمن ، وأن الرسول استعمل ابنه (شهر بن باذان) مكانه ، أي بعد وفاة والده[6] .

ويذكر أهل الأخبار ان الفرس الذين عاشوا في اليمن وولدوا بها واختلطوا بأهلها ، عرفوا بـ (الأبناء) ، وبـ (بني الأحرار)[7] .

ولما قتل (الأسود العنسي) (شهر بن باذام) (شهر بن باذان) ، واستبد (العنسي) بأمر اليمن ، خرج عمال الرسول عن اليمن . فلما قتل (العنسي) ورجع عمال النبي الى اليمن ، استبد بصنعاء (قيس بن عبد يغوث المرادي) ، وتوفي الرسول والأمر على ذلك . ثم كانت خلافة ابي بكر ، فولى على اليمن (فيروز الديلمي)[8] .

---

١ صبح الاعشى (٥/ ٢٥) .
٢ الطبري (٢/ ٦٥٥ وما بعدها) .
٣ W. Phillips, P. 223.
٤ الطبري (٢/ ٦٥٥ ، وما بعدها) ، (دار المعارف) .
٥ Ency., 4, P. 178.
٦ الاصابة (١/ ١٧٠) .
٧ الاغاني (١٦/ ٧٣) .
٨ صبح الأعشى (٥/ ٢٦ ، ٤٦) .

وقد تطرق (ابن قتيبة) الى (ملوك الحبشة في اليمن) ، فذكر اسم (أبرهة الأشرم) ، ثم (يكسوم بن أبرهة) ، ثم (سيف بن ذي يزن) ، فقال عنه : انه (أتى كسرى أنو شروان بن قباذ) في آخر ايام ملكه — هكذا تقول الأعاجم في سيرها، وانا احسبه هرمز بن أنو شروان على ما وجدت في التأريخ —»[1] مما يدل على أنه نقل أخباره عن حملة الفرس على اليمن من كتب سير ملوك العجم ، المؤلفة بلغتهم ، كما نقل من موارد أخرى غير أعجمية . وقد ذكر أيضاً أن المؤرخين اختلفوا اختلافاً متفاوتاً في مكث الحبشة في اليمن[2] .

وكوّن الأبناء طبقة خاصة في اليمن ، ولما قدم (وبر بن يُحنّس) على الأبناء باليمن ، يدعوهم الى الاسلام ، نزل على بنات النعمان بن بُزرج فأسلمن ، وبعث الى فيروز الديلمي فأسلم ، والى (مركبود) وعطاء ابنه ، ووهب بن منبه ، وكان أول من جمع القرآن بصنعاء ابنه عطاء بن مركبود ووهب بن منبه[3] .

ونجد عهد استيلاء الحبشة الأخير على اليمن عهداً كريماً من ناحيته التأريخية ، اذ دوّن جملة نصوص ، تحدثت عنها فيما سلف . أما عهد استيلاء الفرس على اليمن الى دخولها في الاسلام ، فلم يترك شيئاً مدوناً ولا أثراً يمكن أن يفيدنا في الكشف عن اليمن في هذا العهد . لم يترك لنا كتابة ما، لا بالمسند ولا بقلم الساسانيين الرسمي يشرح الأوضاع السياسية أو أي وضع آخر في هذا العهد .

وحالنا في النصوص الكتابية في أول عهد دخول اليمن في الاسلام ، مثل حالنا في استيلاء الفرس عليها ، فنحن فيه معدمون لا نملك ولا نصاً واحداً مدوناً من ذلك العهد . وهو أمر مؤسف كثيراً ، وكيف لا وهو والعهد الذي قبله المتصل به ، من أهم العهود الخطيرة في تأريخ اليمن وجزيرة العرب ، ونص واحد من هذين العهدين ثروة لا تقدّر بثمن لمن يريد الوقوف على التطورات التأريخية التي مرّت بالعرب قبيل الاسلام وعند ظهوره .

---

١ المعارف (ص ٦٣٨) ، (ثروت عكاشه) .
٢ المصدر نفسه .
٣ الطبري (١٥٨/٣) .

بئر من آبار صنعاء
من كتاب : Jemen, das Verbotene Land
لمؤلفه : Günther Pawelke

هذا ولا بد لي من الاشارة الى أن حكم الفرس لليمن لم يكن حكماً فعلياً واقعياً ، فلم يكن ولاتهم يحكمون اليمن كلها ، وانما كان حكمهم حكماً اسمياً صورياً ، اقتصر على صنعاء وما والاها ، أما المواضع الأخرى ، فكان حكمها لأبناء الملوك من بقايا الأسر المالكة القديمة والأقيال والأذواء . ذلك أن أهل كل

ناحية ملّكوا عليهم رجلاً من حمير ، فكانوا (ملوك الطوائف)[1] فكان على حمير عند مبعث رسول الله سادات نعتوا أنفسهم بنعوت الملوك،من بينهم (الحارث ابن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر وزرعة ذو يزن بن مالك بن مرة الرهاوي) . وقد أرسلوا الى الرسول مبعوثاً عنهم يخبره برغبتهم في الدخول في الاسلام ، وصل اليه مقفله من أرض الروم ، ثم لقيه بالمدينة وأخبره باسلامهم وبمفارقتهم الشرك ، فكتب اليهم رسول الله كتاباً يشرح فيه ما لهم وما عليهم من واجبات وحقوق[2] .

همدان وصنعاء ومأرب :

وكانت همدان عند مبعث الرسول ، مستقلة في ادارة شؤونها ، وقد أسلمت كلها في يوم واحد على يد علي بن أبي طالب[3] .

ولقد صارت (صنعاء) عاصمة لحكام اليمن منذ عهد الحبش حتى هذا اليوم، أما (مأرب) فقد صارت مدينة ثانوية ، بل دون هذه الدرجة ، وأفل كذلك شأن ظفار ، وسائر المواضع التي كان لها شأن يذكر في عهد استقلال اليمن وفي عهد الوثنيـة . ويرجع بعض أهل الأخبار بناء صنعاء الى (سام بن نوح) ، وزعموا أنها أول مدينة بنيت باليمن ، وأن قصر (غمدان) كان أحد البيوت السبعة التي بنيت على اسم الكواكب السبعة ، بناه (الضحاك) على اسم الزُهرة . وكان الناس يقصدونه الى أيام (عثمان) فهدمه ، فصار موضعه تلاً عظيماً[4] .

---

١ المعارف (٢٧٨) .

٢ (قدوم رسول ملوك حمير على رسول الله بكتابهم) ، الطبري (٣/١٢٠) (دار المعارف) .

٣ الطبري (٣/١٣٢) ، (دار المعارف) .

٤ صبح الأعشى (٥/٣٩ وما بعدها) ، (وكان الضحاك بناه على اسم الزهـرة ، وخربه عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، فهو في وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ خراب قد هدم فصار تلا عظيما ، وقد كان الوزير علي بن عيسى الجراح ، حين نفي الى اليمن وصار الى صنعاء ، بنى فيه سقاية وحفر فيه بئرا . ورأيت غمدان ردما وتلا عظيما قد انهدم بنيانه ، وصار جبل تراب كأنه لم يكن) ، (وقد قيلّ ان ملوك اليمن كانوا اذا قعدوا في أعلى البنيان بالليل واشتعلت الشموع ، رأى الناس ذلك من مسيرة ثلاثة ايام) ، مروج (٢/٢٢٩ وما بعدها) ، (والبناء القائم مكانه يدعى باسمه ويختصر في صنعاء ، فيقولون: القصر ، وفيه معمل للخرطوش) ، مصطفى مراد الدباغ ، الجزيرة العربيـة (١/٢٨٤) .

وقد ورد اسم (صنعاء) لأول مرة على ما نعلم في نص يعود عهده الى أيام الملك (الشرح يحضب) (ملك سبأ وذي ريدان) ، ودعيت فيه بـ (صنعو)[1]. وذكر الأخباريون أنها كانت تعرف بـ (ازال) وبـ (أوال)[2] . أخذوا ذلك على ما يظهر من (أزال) في التوراة بواسطة أهل الكتاب مثل (كعب الأحبار) ووهب بن منبه[3] . وذكروا أن قصر غمدان الذي هو بها قصر (سام بن نوح)، أو قصر (الشرح يحضب) (ليشرح يحضب)[4] . وذكروا أيضاً أنها أول مدينة اختطت باليمن بنتها (عاد)[5] . ورووا قصصاً عن (غمدان) ، فزعم بعضهم أن بانيه (سليمان) أمر الشياطين ، فبنوا لبلقيس ثلاثة قصور : غمدان وسلحين وبينون . وزعم بعضهم أن بانيه هو : (ليشرح يحضب) أراد اتخاذ قصر بين صنعاء و (طيوة) ، فانتخب موضع (غمدان)[6] . وقد وصف (الهمداني) ما تبقى منه في أيامه ، وأشار الى ما كان يرويه أهل الأخبار عنه[7] .

نجران :

وأما (نجران) ، فقد كانت مستقلة بشؤونها ، يديرها ساداتها وأشرافها ، ولها نظام سياسي واداري خاص تخضع له ، ولم يكن للفرس عليها سلطان . وكان أهلها من (بني الحارث بن كعب) ، وهم من (مذحج) و (كهلان) ،

---

١ Glaser 424.

٢ (وكانت تسمى أوال من الاولية بلغتهم) ، مختصر تأريخ اليمن المنقول عن كتاب العبر لابن خلدون ، (ص ١٢٥) ، تحقيق ((H. C. Kay)) لندن ١٨٩٢ م ، Ency., IV, P. 144, Glaser, Skimme, II, S. 310, 424.

٣ الاكليل (ص ١٨) .

٤ الاكليل (ص ٤) ، القزويني ، آثار البلاد (٥١) .

٥ مختصر تأريخ اليمن (١٢٥) .

٦ البلدان (٦/٢٠١ وما بعدها) ، Ency., II, P. 166, Niebuhr, Reisebeschreibung nach Arabien, I, S. 418, 421.

٧ الاكليل (٨/١٢ وما بعدها) .

وكانوا نصارى . ومن أشرافهم (بنو عبد المدان بن الديّان) ، أصحاب كعبة نجران [1] وكان فيهـا أساقفة معتمون ، وهم الذين جاؤوا الى النبي ودعاهم الى المباهلة ، مع وفد مؤلف من ستين أو سبعين رجلاً راكباً ، فيهم أربعـة عشر رجلاً من أشرافهم ، منهم ثلاثة نفر اليهم يؤول أمرهم . العاقب أمـير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه ، واسمه عبد المسيح ، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم (وهب) ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل ، أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مِدْراسهم [2] .

ويذكر الأخباريون ،ان أبا حارثة كان قد شرف في أهل نجران ودرس الكتب حتى حسن علمه في دينهم ، وصار مرجعهم الأكبر فيه . وكانت له حظوة عند ملك الروم ، حتى أنه كان يرسل له الأموال والفعلة ليبنوا له الكنائس ،لما كانت له من منزلة في الدين وفي الدنيا عند قومه . وكان له أخ اسمه (كوز بن علقمة). وقد أسلما مع من أسلم من الناس بعد السنة العاشرة من الهجرة [3] .

ويظهر من الخبر المتقدم أن ملوك الروم كانوا عـلى اتصال بنصارى اليمن ، وانهم كانوا يساعدون أساقفتهم ويموّلونهم ، ويرسلون اليهم العطايا والهبات . وقد أمدّوهم بالبنّائين والفعلة وبالمواد اللازمة لبناء الكنائس في نجران وفي غيرهـا من مواضع اليمن . وقد كان من مصلحة الروم مساعدة النصرانية في اليمن وانتشارها ، لأن في ذلك كسباً عظيماً لهـم . فبانتشارها يستطيعون تحقيق مـا عجز عنه (أوليوس غالوس) حينما كلفه انبراطور روما اقتحام العربية السعيـدة والاستيلاء عليها .

وذكر أهل الأخبار أيضاً ، أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم ، كلما مات رئيس منهم فأضيفت الرئاسة الى غيره ، انتقلت الكتب اليه. وقد عرفت

---

١ الطبري (٣/١٣٢) (دار المعارف) . صبح الأعشى (٥/٣٩وما بعدها) .
٢ ابن هشام (٢/٢٢٢ وما بعدها) ، ابن الاثير (٢/١٢٢) ، ابن خلـدون (٢/٥٧) (الوفود) ، البلدان (٨/٢٥٨ وما بعدها) ، الطبري (٣/١٣٩) ، تاج العروس (١/٣٨٩) ، Raccolta, III, P. 128.
٣ ابن هشام (٢/٢٢٢ وما بعدها) .

تلك الكتب بـ (الوضائع) . وكانوا يختمونها ، فكلما تولى رئيس جديد ختم على تلك الكتب فزادت الخواتم السابقة ختماً[1] . وذكر علماء اللغة ان الوضائع هي كتب يكتب فيها الحكمة . وفي الحديث : أنه نبي وان اسمه وصورته في الوضائع[2] .

ونجران أرض في نجد اليمن خصبة غنية ، وفيها مدينة نجران من المدن اليمانية القديمة المعروفة قبل الميلاد . وقد ذكرها (سترابون) في جغرافيته ، وسمّاها Negrana = Negrani في معرض كلامه على حملة (أوليوس غالوس) على العربية ، كما ذكرها المؤرخ (بلينيوس) في جملة المدن التي أصابتها يد التخريب في هذه الحملة[3] . كما ذكرها (بطلميوس) ، فسماها Negara Metropolis = Nagera Mytropolis[4] .

وفي ذكر (بطلميوس) لها على أنها (مدينة) دلالة على أنها كانت معروفة أيضاً بعد الميلاد . وأن صيتها بلغ مسامع اليونان .

ويعدّ النص الموسوم بـ Glaser 418, 419 ، من أقدم النصوص التي ورد فيها اسم مدينة نجران . إذ يرتفع زمنه الى أيام (المكربين) . وقد ذكر كما سبق في أثناء كلامي على دور المكربين ، في مناسبة تسجيل أعمال ذلك (المكرب) وتأريخ حروبه وما قام به من فتوح . وورد ذكرها في النص: (Glaser 1000) ، الذي يرتقي زمنه الى أيام المكرب والملك(كرب ايل وتر) آخر (مكربي) سبأ، وأول من تلقب بلقب (ملك سبأ)[5] . فورود اسم (نجران) في النصين المذكورين يدل على أنها كانت من المدن القديمة العامرة قبل الميلاد ، وأنها كانت من المواضع النابهة في أول أيام سبأ .

وورد اسمها في نصوص أخرى . كما ذكرت في جملة المواضع التي دخلها رجال

---

١ ابن هشام (٢/٢٢٢ وما بعدها) .

٢ اللسان (٨/٣٩٩) ، (و/ض/ع) .

٣ Strabo, XVI, IV, 24, vol., III, P. 212, Pliny, Nat. Histo., II, P. 458, VI, 160.

٤ Ptolemy, VI, 7, 37.

٥ Beiträge, S. 9.

حملة (أوليوس غالوس) على اليمن . وذكرها نص (النمارة) الذي يرتقي زمنه الى سنة (٣٢٨) بعد الميلاد . وقد كانت في أيدي الملك (شمر يهرعش) إذ ذاك على رأي أكثر الباحثين . اذ كان قد وسع رقعة حكومة (سبأ وذي ريدان وحضرموت) وأضاف اليها أرضين جديدة منها أرض (نجران)[١] ، وأشار الى تدمير ذلك الملك لـ (نبطو) ، أي النبط[٢] .

وقد ذهب (ريستر) الى أن Negara Mytropolis ، هو الموضع المسمى بـ (القابل) على الضفة الغربية لوادي نجران[٣] . أما (هاليفي) ، فذهب الى أنها الخرائب المسماة (الأخدود)[٤] . وذهب (كلاسر) الى أنها الأخدود أو (رجلة) ، أو موضع آخر في (وادي الدواسر)[٥] .

وقد ذكر (الهمداني) ان موضع (هجر نجران) أي مدينة نجران ، هو الأخدود . ومدح خصب أرض نجران . ولم يكن (نجران) اسم مدينة في الأصل كما يتبين من النص CIH 363 ، بل كان اسم أرض بدليل ورود أسماء مواضع ذكر انها في (نجرن) نجران . ويرى بعض الباحثين أن مدينة (رجمت) كانت من المدن الكبرى في هذه الأرض ، ثم تخصص اسم نجران فصار علماً على المدينة التي عرفت بنجران[٦] .

وذهب بعض الباحثين الى أن (رجمت) (رجمة) هي (رعمة) المذكورة في التوراة . وقد تحدثت فيما سلف عن (رعمة) وعن اتجار أهلها وتجار (شبا) Sheba مع (صور) Tyrus[٧] .

---

١ Beiträge, S. 11.

٢ Beiträge, S. 11.

٣ Paulys-Wissowa, 32ter Halbband, 1574.

٤ Halevy, Rapport sur une Mission Archéologique dans le Yemen, in Journal Asia., VI, XIX, 1872, 39, 90.

٥ Glaser, Skizze, II.

٦ Beiträge, S. 10.

٧ أخبار الايام ، الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ٩ ، التكوين الاصحاح العاشر ، الآية ٧ ، حزقيال ، الاصحاح ٢٧ ، الاية ٢٢ ، Beiträge, S. 11.

ويذكر الأخباريون أن قوماً من (جرهم) نزلوا بنجران ، ثم غلبهم عليها بنو حمير ، وصاروا ولاة للتبابعة ، وكان كل من ملك منهم يلقب (الأفعى) . ومنهم (أفعى نجران) واسمه (القلمس بن عمرو بن همدان بن مالك بن منتاب ابن زيد بن وائل بن حمير) ، وكان كاهناً . وهو الذي حكم على حد قولهم بين أولاد نزار . وكان والياً على نجران لبلقيس ، فبعثته الى سليمان ، وآمن ، وبث دين اليهودية في قومه ، وطال عمره ، وزعموا انه ملك البحرين والمشلل . ثم استولى (بنو مذحج) على نجران . ثم (بنو الحارث بن كعب) ، وانتهت رياسة بني الحارث فيها الى بني الديّان ، ثم صارت الى بني عبد المدان ، وكان منهم (يزيد) على عهد الرسول[1] .

ويرى بعض أهل الأخبار أن (السيد) والعاقب أسقفي نجران اللذين أرادا مباهلة رسول الله هما من ولد الأفعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن الحارث الجرهمي ، الذي حكم بين بني نزار بن معد في ميراثهم ، وكان منزله بنجران[2].

وقد سميت (نجران) بنجران بن زيد بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان على رأي بعض أهم الأخبار . وقد اشتهرت بالأدم[3] .

وقد أرسل الرسول خالد بن الوليد الى (بني الحارث بن كعب) بنجران ، وأمره أن يدعوهم الى الإسلام قبل أن يقاتلهم ، فإن استجابوا اليه قبل منهم ، وإن لم يفعلوا قاتلهم . فلما دعاهم الى الاسلام أجابوه ، ورجع خالد مع وفد منهم الى رسول الله ، فأعلنوا إسلامهم أمامه ، ثم رجعوا وقد عين الرسول (عمرو ابن حزم) عاملاً على نجران . فبقي بنجران حتّى توفي رسول الله[4] .

ولما عاد خالد بن الوليد من نجران الى المدينة ، أقبل معه وفد (بلحارث بن

---

١ (مختصر تاريخ اليمن المنقول من كتاب العبر لابن خلدون (١٣٣ وما بعدها) ، مطبوع مع كتاب تاريخ اليمن لعمارة اليمني ، سنة ١٨٩٢ ، بلندن ، بعناية : Henry Cassels Kay. صبح الأعشى (٥/٤٥) .

٢ المحبر (١٣٢) .

٣ صبح الأعشى (٥/٤٠ وما بعدها) ، الاكليل (١/١٤) .

٤ الطبري (٣/ ١٢٦ وما بعدها) (سرية خالد بن الوليد الى بني الحارث بن كعب واسلامهم) .

كعب) ، فيهم قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذي الغصة ، ويزيد بن عبد المدان ، ويزيد بن المُحجّل، وعبد الله بن قريظ الزيادي ، وشداد بن عبد الله القناني ، وعمرو بن عبد الله الضبابي . فلما رآهم الرسول ، قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ ثم كلمهم ، وأمَّر (قيس بن الحصين) عليهم، ورجعوا ، وكان ذلك قبل وفاة الرسول بأربعة أشهر[1] .

وقد اشتهرت نجران بثيابها ، ولما توفي الرسول ، كُفِّن في ثلاثة أثواب نجرانية[2] .

وقد زار (فلبي) وادي نجران ، وعثر على خرائب قديمة ، يرجع عهدها الى ما قبل الإسلام ، كما تعرف على موضع (كعبة نجران) . ووجد صوراً قديمة محفورة في الصخر على مقربة من (أم خرق) ، وكتابات مدوّنة بالمسند. وعلى موضع يعرف بـ (قصر ابن ثامر) ، وضريح ينسب الى ذلك القديس الشهيد الذي يرد اسمه في قصص الأخباريين عن شهداء نجران . ويرى (فلبي) أن مدينة (رجمت) (رجمة) هي (الأخدود) ، وأن الخرائب التي لا تزال تشاهد فيها اليوم تعود الى أيام المعينيين[3] . ويقع (قصر الأخدود) الأثري بين (القابل) و (رجلة) ، وهو من المواضع الغنية بالآثار[4] . وقد تبسط (فلبي) في وصف موضع الأخدود ، ووضع مخططاً بالمواضع الأثرية التي رآها في ذلك المكان[5] .

ويتضح من مخطط (فلبي) لمدينة (نجران) أنها كانت مدينة كبيرة مفتوحة، وعندها أبنية محصنة على هيأة مدينة مربعة الشكل ، وذلك للدفاع عنها، وبها مساكن وملاجىء للاحتماء بها ولتمكين المدافعين من صدّ هجمات المهاجمين لها[6] .

---

١ الطبري (١٢٨/٣) ، سيرة ابن هشام (٣٤٧/٢ وما بعدها) .

٢ اللسان (١٩٥/٥) ، (ن/ج/ر) .

٣ Philby, Arabian Highlands, PP. 221, 238, 252, 257.

٤ فؤاد حمزة ، في بلاد عسير (١٩٠) (القاهرة ١٩٥١ م) .

٥ Philby, Arabian Highlands, P. 237.

٦ Beiträge, S. 11. Beiträge, S. 17.

أثر الحبش في أهل اليمن :

ولا بد أن يكون فتح الحبش لليمن قد ترك أثراً في لهجات أهلها ، ولا سيما بين النصارى منهم ، ممن دخلوا في النصرانية بتأثير الحبش من ساسة وادارين ومبشرين ، فاستعملوا المصطلحات الدينية التي كان يستعملها الأحباش لعدم وجود ما يقابلها عندهم في لهجاتهم لوثنيتهم . ولكني مع ذلك لا أستطيع أن أقول إن تلك المصطلحات كانت كلها حبشية الأصل والأرومة ؛ لأن الكثير منها لم يكن حبشياً في المنشأ والوطن ، وانما كان دخيلاً مستورداً ، جاءت به النصرانية من لغة بني إرم ، أو من اللغات الأخرى المتنصرة ، فأدخلتها الى الحبشة ، فاستعملها الأحباش وحرّفوا بعضها على وفق لسانهم ، ومنهم انتقلت بالفتوح وبالاتصال الى اليمن .

وقد عرض علماء اللغة المسلمون والمستشرقون لعدد من الألفاظ العربية ، ذكروا انها من أصل حبشي ، وهي من الألفاظ التي كانت مستعملة معروفة قبل الاسلام ، وقد ورد بعضها في القرآن الكريم وفي الشعر المنسوب الى الجاهليين . ومثل هذه الألفاظ تستحق أن تكون موضع درس وتمحيص لمعرفة صحة أصلها ونسبها ودرجة أرومتها في الحبشية ، لمعرفة أثر الأحباش في العرب ، وأثر العرب في الأحباش ، لأن بعض ما نسب الى الأحباش من كلم هو من أصل عربي جنوبي ، هاجر من اليمن بطرق متعددة الى افريقية ، واستعمل هناك ، ظن انه حبشي الأصل ، وان العرب أخذوه من الأحباش .

وقد أثر فتح الحبش لليمن على سحن الناس أيضاً . فظهر السواد على ألوانهم عند غلبة الحبشة على بلادهم . وقد تأثروا بأخلاق الحبش كذلك[1] .

---

١ الروض (٢/٣١٥) .

الفهرس

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

الجزء الرابع

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الاسلام

٤

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الرابع

○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الثاني والأربعون

مكة المكرمة

ومكة بلد في وادٍ غير ذي زرع ، تشرف عليها جبال جُرْد ، فتزيد في قسوة مناخهـا . ليس بها ماء ، غير ماء زمزم ، وهي بئر محفورة ، وآبار أخرى مجة حفرها أصحاب البيوت ، أما مياه جارية وعيون غزيرة ، على ما نرى في أماكن أخرى ، فليس لها وجود بهذا المعنى هناك . وكل ما كان يحدث نزول سيول ، قد تكون ثقيلة قوية ، تهبط عليهـا من شعاب الهضاب والجبال ، فتنزل بهـا أضراراً فادحة وخسائر كبيرة ، وقد تصل الى الحرم فتؤثر فيه ، وقـد تسقط البيوت ، فتكون السيول نقمة ، لا رحمة تسعف وتغيث أهل البيت الحرام[1] .

لذلك لم تصلـح أرض مكة لأن تكون أرضاً ذات نخيـل وزرع وحَب ، فاضطر سكانها الى استيراد ما يحتاجون اليه من الأطراف والخارج ، وأن يكتفوا في حياتهم بالتعيش مما يكسبونه من الحجاج ، وأن يضيفوا الى ذلك تجارة تسعفهم وتغنيهم ، وتضمن لهم معاشهم ، وأماناً وسلماً يحفظ لهم حياتهم ، فـلا يطمع فيهم طامع ، ولا ينغص عيشهم منغص . (وإذ قال ابراهيم : ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات ...)[2] .

---

١ تاريخ مكة ، للأزرقي (١/٣٨ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٦٥ وما بعدها) .
٢ البقرة ، الآية ١٢٦ .

ويعود الفضل في بقاء مكة وبقاء أهلها بها الى موقعها الجغرافي ، فهي عقدة تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشأم ، أو القادمة من بلاد الشأم تريد العربية الجنوبية ، والتي كان لا بـد من أن تستريح في هـذا المكان ، لينفض رجالها عن أنفسهم غبار السفر ، وليتزودوا ما فيه من رزق . ثم ما لبث أهلها أن اقتبسوا من رجال القوافل سرّ السفر وفائدتـه ، فسافروا أنفسهم على هيأة قوافل ، تتولى نقل التجارة لأهل مكة وللتجـار الآخرين من

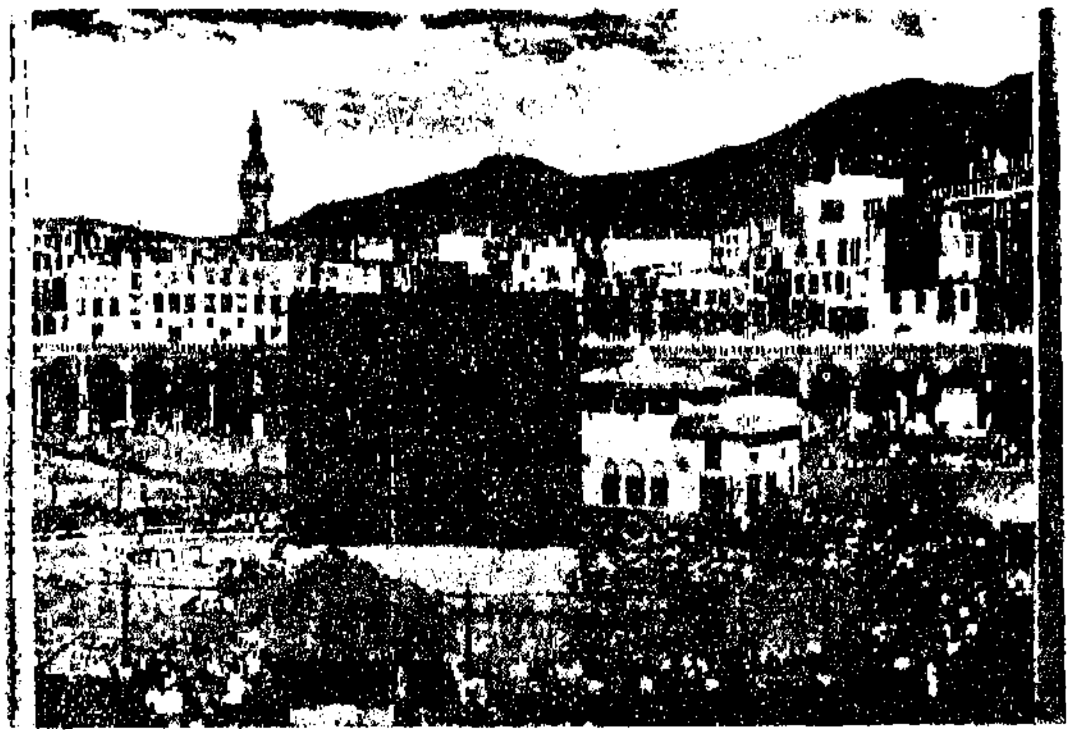

مكة المكرمـة

أهل اليمن ومن أهل بلاد الشأم . فلما كان القرن السادس للميلاد ، احتكر تجار مكة التجارة في العربية الغربية ، وسيطروا على حركة النقل في الطرق المهمة التي تربط اليمن ببلاد الشأم وبالعراق [1] .

---

١ W.M. Watt, Muhammad at Mecca, P. 3.

وللبيت فضل كبير على أهل مكة ، وبفضله يقصدها الناس من كل أنحاء العالم حتى اليوم للحج اليه . وقد عرف البيت بـ(الكعبة) لأنه مكعب على خلقة الكعب . ويقال له : (البيت العتيق) و (قادس) و (بادر) ، وعرفت الكعبة بـ (القرية القديمة) كذلك [1].

وبمكة جبل يطل عليها ، يقال له جبل : (أبو قبيس) ، ذكر بعض أهل الأخبار انه سُمّي (أبا قبيس) برجل حداد لأنه أول من بنى فيه . وكان يسمى (الأمين) لأن الركن كان مستودعاً فيه [2] . وأمامه جبل آخر ؛ وبين الجبلين وادٍ ، فيه نمت مكة ونبتت . فصارت محصورة بين سلسلتين من مرتفعات .

وقد سكن الناس جبل (أبي قبيس) قبل سكنهم بطحاء مكة ، وذلك لأنه موضع مرتفع ولا خطر على من يسكنه من اغراق السيول له . وقد سكنته (بنو جرهم) ، ويذكر أهل الأخبار انه إنما سُمّي (قبيساً) بـ (قبيس بن شالخ) رجل من جرهم . كان في أيام (عمرو بن مضاض) [3] .

١ نهاية الأرب (١/٣١٣) ٠

٢ نزهة الجليس (١/٢٧) ٠

٣ اللسان (ق ب س) ، (وأبو قبيس مصغرا جبل بمكة ٠ هذه عبارة الصحاح ، وفي التهذيب جبل مشرف على مسجد مكه ، سمي برجل من مذحج حداد ، لأنه أول من بنى فيه ٠ وفي الروض للسهيلي : عرف أبو قبيس بقبيس بن شالح ، رجل من جرهم كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنه عمه مية ٠ فنذرت أن لا تكلمه ٠ وكان شديد الكلف بها ، فحلف ليقتلن قبيسا ، فهرب منه في الجبل المعروف به ، وانقطع خبره ، فاما مات واما تردى منه ، فسمي الجبل أبا قبيس ٠ قال : وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب ٠ وكان أبو قبيس الجبـــل هذا يسمى الأمين ، لأن الركن أي الحجر الأسود كان مستودعا فيه ٠ كما ذكـــره أهل السير والمغازي) ، تاج العروس (٤/٢١٢) ، (قبس) ، (والأخشبان : جبلا مكة ، وفي الحديث في ذكر مكة لا تزول مكة حتى يزول أخشباها ، أي جبلاها ٠٠٠ الأخشبان الجبلان المطيفان بمكة ، وهما : أبو قبيس وقعيقعـــان ويسميان : الجبجاب أيضا ٠ ويقال بل هما أبو قبيس والأحمر ٠ وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان ٠ وقال ابن وهب : الأخشبان جبلا منى اللذان تحت العقبة ، وكل خشن غليظ من الجبال ، فهو أخشب ٠ وقال السيد العلوي : الأخشب الشرقي أبو قبيس والأخشب الغربي وهو المعروف بجبل الخط ٠ والخط من وادي ابراهيم عليـــه السلام ٠ وقال الأصمعي :=

ويظهر انه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين ، فقد كان نُسّاك مكة وزهادها ومن يتحنف ويتحنث ويترهب من أهلها في الجاهلية يصعده ويعتكف فيه . ولعله كان مقام الطبقة المترفة الغنية من أهل مكة قبل نزوح (قريش) الى الوادي ، وسكنها المسجد الحرام المحيط بالبيت .

ويظهر من سكوت أهل الأخبار عن الإشارة الى وجود أطم أو حصون في مكة للدفاع عنها ، ان هذه المدينة الآمنة لم تكن ذات حصون وبروج ولا سور يقيها من احتمال غزو الأعراب أو أي عدو لها . ويظهر ان ذلك إنما كان بسبب ان مكة لم تكن قبل أيام (قصيّ) في هذا الوادي الذي يتمركزه (البيت) ، بل كانت على المرتفعات المشرفة عليه .

اما الوادي ، فكان حرماً آمناً يغطيه الشجر الذي انبتته السيول ورعته الطبيعة بعنايتها ، ولم يكن ذا دور ولا سكن ثابت متصل بالأرض ؛ بل كان سكن من يأوي اليه بيوت الخيام . واما أهل المرتفعات فكانوا ، إذا داهمهم عدو أو جاءهم غزو ، اعتصموا برؤوس المرتفعات المشرفة على الدروب ، وقاوموا العدو والغزو منها ، وبذلك يصير من الصعب على من يطمع فيهم الوصول اليهم ، ويضطر عندئذ الى التراجع عنهم ، فحمتهم الطبيعة بنفسها ورعتهم بهذه الرؤوس الجبلية التي أقامتها على مشارف الأودية والطرق . فلما أسكن (قصي) أهل الوادي في بيوت ثابتة مبنية ، وجاء ببعض من كان يسكن الظواهر لنزول الوادي ، بقي من فضل السكن في ظواهر مكة ، أي على المرتفعات . يقوم بهمة

= الأخشبان أبو قبيس ، وهو الجبل المشرف على الصفا ، وهو ما بين حرف اجياد الصغير المشرف على الصفا الى السويداء التي تلي الخندمة . وكان يسمى في الجاهلية الأمين ، والأخشب الآخر الجبل الذي يقال له الأحمر ، وكان يسمى في الجاهلية الأعرف ، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان) ، تاج العروس (١/ ٢٣٤) ، (خشب) ، (قال الزبير بن بكار : الجباجب جبال مكة حرسها الله تعالى ، أو أسواقها أو منحر . وقال البرقي : حجر بمنى كان يلقى به الكروش ، أي كروش الأضاحي في أيام الحج . أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا . والعرب تعظمها وتفخر بها) ، تاج العروس (١/ ١٧٤) ، (جبب) .

حماية نفسه وحماية أهل البطحاء من تلك المرتفعات ، وهـم الذين عرفوا بقريش الظواهر . فلم تعد لأهل مكة سكان الوادي ثمة حاجة الى اتخاذ الأطم والحصون، وبناء سور يحمي المدينة من الغزو ، لا سيا والمدينة نفسها حرم آمن وفي حمايـة البيت ورعايته . وقـد أكد (قصي) على أهلهـا لزوم إقراء الضيف ورعاية الغريب والابتعاد عن القتال وحل المشكلات حلاً بالتي هي أحسن . كما نظم أمور الحج ، وجعل الحجاج يفدون الى مكة ، للحج وللاتجار . ثم أكد من جاء بعده من سادة قريش هذه السياسة التي افادت البلد الآمن ، وأمنت له رزقه رغداً .

ولم يرد اسم (مكة) في نص الملك (نبونيد) ملك بابـل ، ذلك النص الذي سرد الملك فيه أسماء المواضع التي خضعت لجيوشه ، ووصل هو اليهـا في الحجاز فكانت (يثرب) آخر مكان وصل اليه حكمه في العربيـة الغربية على ما يبدو من النص .

ولم نتمكن من الحصول على اسم (مكة) من الكتابات الجاهلية حتى الآن . اما الموارد التأريخية المكتوبـة باللغات الأعجمية ، فقد جـاء في كتاب منها اسم مدينة دعيت بـ (مكربة) (مكربا) (Macoraba) ، واسم هذا الكتاب هو (جغرافيا) (جغرافية) (للعالم اليوناني المعروف (بطلميوس) (Ptolemy) الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد . وقد ذهب الباحثون الى ان المدينـة المذكورة هي (مكة) [1] . وإذا كان هذا الرأي صحيحاً يكون (بطلميوس) أول من أشار اليها من المؤلفين وأقدمهم بالنظر الى يومنا هذا . ولا أستبعد مجيء يوم قـد لا يكون بعيداً ، ربما يعثر فيـه المنقبون على اسم المدينـة مطموراً تحت سطح الأرض ، كما عثروا على أسماء مدن أخرى وأسماء قرى وقبائل وشعوب .

ولفظة (مكربة) (Macoraba) ، لفظة عربية أصابها بعض التحريف ليناسب النطق اليوناني ، أصلها (مكربة) أي (مقربة) من التقريب . وقـد رأينا في أثناء كلامنا على حكومة (سبأ) القديمة ، ان حكامها كانوا كهاناً ،

---

١ Ptolemy, Geography, VI, 7, 32.

أي رجال دين ، حكموا الناس باسم آلهتهم . وقد كان الواحد منهـم يلقب نفسه بلقب (مكرب) أي (مقرب) في لهجتنا . فهو أقرب الناس الى الآلهة ، وهو مقرب الناس الى آلهتهم ، وهو مقدس لنطقه باسم الآلهة ، وفي هذا المعنى جاء لفظة (مكربة) ، لأنها (مقربة) من الآلهة ، وهي تقرب الناس اليهم ، وهي أيضاً مقدسة و (حرام) ، فاللفظة ليست علماً لمكة ، وإنما هي نعت لها ، كما في (بيت المقدس) و (القدس) إذ هما نعت لها في الأصـل . ثم صار النعت علماً للمدينة .

أما ما ذهب اليه بعض الباحثين من ان المعبد الشهير الذي ذكره (ديودروس الصقلي) (Diodorus Siculus) في أرض قبيلة عربية دعاها (Bizomeni) [1] ، وقال إنه مكان مقدس له حرمة وشهرة بين جميع العرب ، هو مكـة — فهو رأي لا يستند الى دليل مقبول معقول . فالموضع الذي يقع المعبد فيه ، هو موضع بعيد عن مكة بعـداً كبيراً ، وهو يقع في (حسمى) في المكان المسمى (روافة) (غوافـة) على رأي (موسل) . وقد كانت في هـذه المنطقة وفي المحلات المجاورة لها معابد أخرى كثيرة أشار اليهـا الكتبة اليونان والرومان ، ولا تزال آثارها باقية ، وقد وصفها السياح الذين زاروا هذه الأمكنة [2] .

وإذا صح رأينا في ان موضع (Macoraba) هو مكة ، دلّ على انها كانت قد اشتهرت بين العرب في القرن الثاني بعد الميلاد ، وانها كانت مدينـة مقدسة يقصدها الناس من مواضع بعيدة من حضر ومن بادين . وبفضل هـذه القدسية والمكانة بلغ اسمها مسامع هذا العالم الجغرافي اليوناني البعيد . ودلّ ايضاً على انها كانت موجودة ومعروفة قبل أيام (بطليموس) إذ لا يعقل ان يلمع اسمها وتنال هذه الشهرة بصورة مفاجئة بلغت مسامع ذلك العاليم الساكن في موضع بعيـد . ما لم يكن لها عهد سابق لهذا العهد .

١ C.H. Oldfather, Diodorus Siculus, Bibliotheca, Book, III, XXXI, Booth, The Historical Library of Diodorus The Sicilian, 105, Gerald De Gury, Rulers of Mecca, London, 1951, P. 12.

٢ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٣٥٣) .

وقد عرفنا من الكتابات الثمودية أسماء رجال عرفوا بـ (مكي) . ولم تشر تلك الكتابات الى سبب تسمية اولئك الرجال بـ (مكي) . فلا ندري اليوم إذا كان اولئك الرجال من (مكة) أو من موضع آخر ، أو من عشيرة عرفت بـ (مكت) (مكة) . لذلك لا نستطيع ان نقول ان لهذه التسمية صلة بمكة .

ولم يشر الأخباريون ولا من كتب في تأريخ مكة الى هذا الاسم الذي ذكره (بطلميوس) ، ولا الى اسم آخر قريب منه ، وإنما أشار الى اسم آخر هو (بكة) . وقد ذكر هذا الاسم في القرآن[1] . قالوا إنه اسم مكة ، أبدلت فيه الميم باءً ، وقال بعض الأخباريين : إنه بطن مكة ، وتشدد بعضهم وترمت ، فقال : بكة موضع البيت ، ومكة ما وراءه ، وقال آخرون : لا . والصحيح البيت مكة وما والاه بكة ، واحتاجوا الى ايجاد اجوبة في معنى اسم مكة وبكة ، فأوجدوا للاسمين معاني وتفاسير عديدة تجدها في كتب اللغة والبلدان وأخبار مكة[2] .

وذكر أهل الأخبار ان مكة عرفت بأسماء اخرى ، منها : صلاح ، لأمنها ، ورووا في ذلك شعراً لأبي سفيان بن حرب بن أمية[3] ، ومنها أم رحم ، والباسّة ، والناسّة[4] . والحاطمة . و (كوثى)[5] . وذكرت في القرآن الكريم

---

١ آل عمران : الآية ٦٩ ، (وتسمى بكة ، نبك أعناق البغايا اذا بغوا فيها ، والجبابرة)، الطبري (٢/٢٨٤) ، نزهة الجليس (١/٢٧) .

٢ المفردات ، للاصفهاني (ص ٥٦ وما بعدها) ، البلدان (٢/٢٥٦ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٤/٢٤٨) ، تاج العروس (٧/١٧٩) ، الصحاح ، للجوهري (٤/١٦٠٩)، القاموس (٣/٣١٩) ، أخبار مكة (١/١٨٨) ، ابن هشام ، سيرة (١/١٢٥ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٣/٤٧٧ وما بعدها) ، البلدان (٨/١٣٤) ، نهاية الأرب (١/٣١٣) .

٣ بلوغ الأرب (١/٢٢٨) ، القاموس المحيط (١/٢٣٥) ، فتوح البلدان (١/٦٠ وما بعدها) ، الأحكام السلطانية (١٥٧ وما بعدها) .

٤ بلوغ الأرب (١/٢٨٨) ، الطبري (٢/٢٨٤) ، أخبار مكة (١/١٨٩ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٤/٢٤٨) ، القاموس (١/٢٣٩) .

٥ القاموس المحيط (٣/٩٧) ، صبح الأعشى (٤/٢٤٨) ، أخبار مكة (١/١٨٩) .

بـ (أم القرى) [1] .

ولعلماء اللغة بعد ، تفاسير عديدة لمعنى (مكة) [2] ، يظهر من غربلتها انها من هذا النوع المألوف الوارد عنهم في تفسير الأسماء القديمة التي ليس لهم علم بها ، فلجئوا من ثم الى هذا التفسير والتأويل . ولا استبعد وجود صلة بين لفظة مكة ولفظة (مكربة) التي عرفنا معناها . ولا استبعد ان يكون سكان مكة القدامى هم من أصل يماني في القديم ، فقد أسس أهل اليمن مستوطنات على الطريق الممتد من اليمن الى أعالي الحجاز ، حيث حكموا أعالي الحجاز وذلك قبل الميلاد . وقد سبق ان تحدثت عن ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، فلا يستبعد ان تكون مكة احداها . ثم انضم اليهم العرب العدنانيون ، ولأهل الأخبار روايات تؤيد هذا الرأي .

وقد ذهب (دوزي) الى ان تأريخ مكة يرتقي الى أيام (داوود) ففي أيامه — على رأيه أنشأ (الشمعونيون) (السمعونيون) ، الكعبة وهم (بنو جرهم) عند أهل الأخبار [3] . وهو يخالف بذلك رأي (كبن) (GIBBON) ، ورأي جماعة من المستشرقين رأت ان مكة لم تعرف ولم تشتهر إلا في القرن الأول قبل الميلاد ، مستدلةً على ذلك بما ورد في تأريخ (ديودورس الصقلي) من وجود معبد ، ذكر عنه انه كان محجة لجميع العرب ، وان الناس كانوا يحجون اليه من أماكن مختلفة . ولم يذكر (ديودورس) اسم المعبد ، ولكن هذه الجماعة من المستشرقين رأت ان هذا الوصف ينطبق على الكعبة كل الانطباق ، وان (ديودورس) قصدها بالذات [4] .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار ان (العماليق) كانوا قد انتشروا في البلاد ، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز ، وعتوا عتواً كبيراً . فبعث اليهم موسى جنداً

---

١ الأنعام ، السورة ، الرقم ٦ ، الآية ٩٢ ، الكشاف (٢/٢٥) ، البيضاوي (١٨٤) ، تفسير ابن عباس (١٠٧) ، نهاية الأرب (١/٣١٣) .

٢ تاج العروس (٧/١٧٩) ، (مكّ) .

٣ R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka, S., 15.

٤ Dozy, Die Israeliten, S., 13. Gibbon, History of the Decline and fall of the Roman Empire, Cha., 50. Cussin De Perceval, Essai sur L'Histoire des Arabes Avant L'Islamisme, I, P. 174.

فقتلوهم بالحجاز . وجاء اليهود فاستوطنوا الحجاز بعد العماليق [1] . ويظهر انهم أخذوا أخبارهم هذه من اليهود ، ففي التوراة ان العماليق (العمالقة) ، هم أول الشعوب التي حاربت العبرانيين ، لما همّوا بدخول فلسطين ، وقد حاربهم موسى ، فوسع يهود الحجاز هذه القصة ونقلوا حرب موسى مع العمالقة الى الحجاز ليرجعوا زمان استيطانهم في الحجاز الى ذلك العهد .

ثم جاءت (جرهم) فنزلت على قطورا ، وكان على (قطورا) يومئذ (السميدع بن هوثر) ، ثم لحق بجرهم بقية من قومهم باليمن وعليهم (مضاض ابن عمر بن الرقيب بن هاني بن نبت بن برهم) فنزلوا بـ (قعيقعان) . وكانت قطورا بأسفل مكة ، وكان (مضاض) يعشر من دخل مكة من أعلاها ، و (السميدع) من أسفلها . ثم حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا ، فتغلب (المضاض) وغلب (السميدع) .

وجرهم قوم من اليمن ، فهم قحطانيون إذن ، جدهم هو ابن (يقطن بن عابر بن شالخ) : وهم بنو عم (يعرب) . كانوا باليمن وتكلموا بالعربية ، ثم غادروها فجاؤوا مكة [2] .

والعمالقة من الشعوب المذكورة في (التوراة) ، وقد عدّهم (بلعام) (أول الشعوب) [3] . وقد كانوا يقيمون بين كنعان ومصر وفي (طور سيناء) ، أيام الخروج ، وبقوا في أماكنهم هذه الى أيام (شاؤول) (SAUL) [4] . وقد تحدثت عنهم في الجزء الأول من هذا الكتاب [5] .

ومن جرهم تزوج (إسماعيل بن ابراهيم) على رواية الأخباريين ، وبلغتهم تكلم . وكانت (هاجر) قد جاءت به الى (مكة) . فلما شبّ وكبر ، تعلم لغة جرهم ، وتكلم بها . وهم من (اليمن) في الأصل . وكانت لغتهم هي اللغة العربية [6] . تزوج امرأة أولى قالوا إن اسمها (حرا) وهي بنت (سعد بن

١ ابن رستة ، الاعلاق (٦٠ وما بعدها) .
٢ مروج الذهب (١/٥٤) .
٣ العدد ، الاصحاح ٢٤ ، آية ٢٠ .
٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/١١٢ وما بعدها) .
٥ (ص ٣٤٥ وما بعدها) .
٦ اللسان (١٢/٩٧) .

عوف بن هنيء بن نبت بن جرهم) ، ثم طلقها بناءً على وصية أبيـه ابراهيم له ، فتزوج امرأة أخرى هـي السيدة بنت (الحارث بن مضاض بن عمرو بن جرهم) . وعاش نسله في جرهم ، والأمر على البيت لجرهـم الى ان تغلبت عليهم (بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر) ، وهم خزاعة في رأي بعض أهل الأخبار [1] .

وطبقت خزاعة على جرهم قانون الغالب ، فانتزعت منها الملك ، وزحزحتها عن مكة ، وأقامت عمرو بن لحيّ — وهو منها — ملكاً عليها ، وكان دخول خزاعة مكة على أثر خروجها من اليمن ، بسبب تنبؤ الكاهن بقرب انفجـار السدّ ، في قصة يذكرها الأخباريون . وظلت خزاعة صاحبة مكة ، الى ان كانت أيام عمرو بن الحارث وهو (أبو غبشان) (غبشان) ، فانتزع قصي منه الملك ، وأخذه من خزاعة لقريش [2] .

وكان (عمرو بن لحيّ) أول من نصب الأوثان وأدخل عبادة الأصنام الى العرب ، وغيّر دين التوحيد على زعم أهل الأخبار . ويظهر مما يرويه الأخباريون عنه انه كان كاهناً ، حكم قومه ووضع لهم سنن دينهم على طريقة حكم الكهان ، واستبدّ بأمر (مكة) وثبت ملك خزاعة بها . فهو مثل (قصيّ) الذي جاء بعده ، فأقام ملك (قريش) في هذه المدينة . ويظهر من بقاء خبره في ذاكرة أهل الأخبار ان أيامه لم تكن بعيدة عن الإسلام ، وان حكمه لمكة لم يكن بعيد عهد عن حكم (قصيّ) ، وان اليه يعود فضل تنحية (جرهم) عن مكة ، وانتزاع الحكم منهم ونقله الى قومـه من (خزاعة) ، وذلك بمساعـدة (بني اسماعيل) أسلاف (قريش) من (بني كنانة) [3] .

وهو أول رجل يصل الينا خبره من الرجال الذين كان لهـم أثر في تكوين مكة وفي انشاء معبدها وتوسيع عبادته بين القبائل المجاورة لمكة . حتى صيّر لهذه

١ الطبري (١/٢٥١ وما بعدها) ، أخبار مكة (١/٤٢) ، ابن خلدون (٢/٣٣١ وما بعدها) ، الأحكام السلطانية (١٦٠) .

٢ ابن خلدون (٢/٣٣٢ وما بعدها) ، الأزرقي : أخبار مكة وما جـاء فيها من الآثار (١/٤٦ وما بعدها) ، (طبعة المطبعة الماجدية بمكة المكرمة) ، (ص ٥١ وما بعدها) (طبعة وستنفلد) ، (لايبزك ١٨٥٨ م) .

٣ الأصنام (ص ٥) .

المدينة شأن عند القبائل المجاورة . وذلك باتيانه بأصنام نحتت نحتاً جيداً بأيد فنية قديرة ، وعلى رأسها الصنم (هبل) ووضعهـا في البيت ، فجلب بذلك أنظار أهل مكة وأنظار القبائل المجاورة نحوها ، فصارت تقبل عليها ، وبذلك كوّن للبيت شهرة بين الأعراب ، فصاروا يقدمون عليـه للتقرب الى (هبل) والى بقية الأصنام التي جاء بها من الخارج فوضعها حوله وفي جوفه .

ومـن بطون خزاعـة : (بنو سلول) و (بنو حُبْشية بن كعب) ، و (بنو حليل) ، و (بنو ضاطر) . وكان (حُليّل) سادن الكعبـة ، فزوج ابنته (حبى) بقصي . و (بنو قمير) ومن (بني قمير) (الحجاج بن عامـر بن أقوم) شريف ، و (حلحـة بن عمرو بن كليب) : شريف ، و (قيس بن عمرو بن منقذ) الذي يقال له (ابن الحدادية) شاعر جاهلي[1] . و (المحترش) ، وهو (أبو غُبشان) الذي يزعمون انـه باع البيت مـن (قصي)[2] . ومن خزاعة (بديل بن ورقاء بن عبـد العُزّى) ، شريف ، كتب اليه النبي يدعوه الى الإسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة[3] .

(وكنانة) التي استعان بها (عمرو بن لحيّ) في تثبيت حكمه بمكة ، هي من القبائل العدنانية في عرف أهل الأنساب ، ومن مجموعة (مضر) . ولما استبد (عمرو بن لحيّ) ومن جاء بعـده بأمر مكة ، وأخذوا بأيديهم أمر مكة ، تركوا الى (كنانة) أموراً تخص مناسك الحج وشعائره ، وهي الإجازة بالناس يوم (عرفة) والإضافة والنسيّ . وهي أمور سأتحدث عنها في أثناء كلامي عن الحج .

ويذكر أهل الأخبار أن (الإسكندر) الأكبر دخل مكة ، وذلك أنه بعد أن خرج من السودان قطع البحر فانتهى الى ساحل (عدن) ، فخرج اليه (تبع الأقرن) ملك اليمن ، فأذعن له بالطاعة ، وأقرّ بالإتاوة ، وأدخله مدينة (صنعاء) ، فأنزله ، وألطف له من الطاف اليمن ، فأقام شهراً ، ثم سار الى (تهامة) ، وسكان مكة يومئذ خزاعة ، قد غلبوا عليها ، فدخل عليه (النضر بن كنانة) ،

---

١ الاشتقاق (ص ٢٧٦ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (ص ٢٧٧) .

٣ الاشتقاق (ص ٢٨٠) .

فعجب الإسكندر به وساعده ، فأخرج (خزاعة) عن مكة ، وأخلصها للنضر ، ولبني أبيه ، وحج الإسكندر ، وفرّق في ولد معد بن عدنان صلاتٍ وجوائزَ ، ثم قطع البحر يؤم الغرب .[١]

وإذا كان أهل الأخبـار قد أدخلوا (الإسكندر) مكة ، وصيّروه رجلاً مؤمناً ، حاجاً من حجاج البيت الحرام ، فلا غرابة اذن إن جعلوا أسلاف الفرس فيمن قصد البيت وطاف به وعظمه وأهدى له . بعد أن صيّروا (ابراهيم) جداً من أجدادهم وربطوا نسب الفرس بالعرب العدنانيين . فقالوا : وكان آخر من حج منهم (ساسان بن بابك) ، وهو جدّ (أردشير) . فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل ، فقيل إنما سميت زمزم لزمزمته عليها ، هو وغيره من فارس . واستدلوا على ذلك بشعر ، قالوا عنه : إنه من الشعر القديم . وبه افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام ، وقالوا : وقد كان (ساسان بن بابك) هذا ، أهدى غزالين من ذهب وجوهراً وسيوفاً وذهباً كثيراً ، فقذفه ، فدفن في زمزم . وقد أنكروا أن يكون بنو جرهم قد دفنوا ذلك المال في بئر زمزم ، لأن جرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك اليها .[٢]

ويزعم الأخباريون أن (حسان بن عبد كلال بن مثوب ذي حرث الحميري) ، (أقبل من اليمن مع حمير وقبائل من اليمن عظيمة ، يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة الى اليمن ، ليجعـل حج الناس عنده ببلاده ، فأقبل حتى نزل بنخلة فأغار على سرح الناس ، ومنع الطريق ، وهاب أن يدخل مكة . فلما رأت ذلك قريش وقبائل كنانة وأسد وجذام ومن كان معهم من أفناء مضر ، خرجوا اليه ، ورئيس الناس يومئذ فهر بن مالك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزمت حمير ، وأسر حسان بن عبد كلال ملك حمير ، أسره الحارث بن فهر ، وقتل في المعركة — فيمن قتل من الناس — ابن ابنة قيس بن غالب بن فهر ، وكان حسان عندهم بمكة أسيراً ثلاث سنين ، حتى افتـدى منهم نفسه ، فخرج به ، فمات بين مكة واليمن) .[٣]

ويشير هذا الحادث إن صحّ وقوعه وصدق ما رواه أهل الأخبار عنه ، الى

---

١ الأخبار الطوال (٣٣ وما بعدها) .
٢ مروج (٢٦٥/١ وما بعدها) ، (ذكر ملوك الطوائف) .
٣ الطبري (٢٦٢/٢ وما بعدها) .

طمع الملك (حسان) والى خطة وضعها للاستيلاء عليها . وهو شيء مألوف ، فقد كانت قبائل اليمن تتجه دوماً نحو الشمال ، غير أن أهل مكة قاوموا الملك وتمكنوا من الصمود تجاهه ، بل من التمكن من جيشه ومن الحاق هزيمة به .

ويذكر أهل الأخبار حادثاً آخر مشابهاً لهذا الحادث ، بل يظهر أنه الحادث نفسه وقد صيغ في صيغة أخرى ، خلاصته أن (الملوك الأربعة) الذين لعنهم النبي ، ولعن أختهم (أبضعة) ، ولم يذكروا أسماءهم ، لما هموا بنقل (الحجر الأسود) الى صنعاء ليقطعوا حج العرب عن البيت الحرام الى صنعاء ، وتوجهوا لذلك الى مكة ، فاجتمعت (كنانة) الى (فهر بن مالك بن النضر) ، فلقيهم ، فقاتلهم ، فقتل ابن لفهر ، يسمى الحارثة ، وقتل من الملوك الأربعة ثلاثة ، وأسر الرابع ، فلم يزل مأسوراً عند (فهر بن مالك) حتى مات .

وأما (أبضعة) ، فهي التي يقال لها (العنقفير) ، ملكت بعد اخوتها على زعم أهل الأخبار .[1]

ويشير الأخباريون الى احترام التبابعة لمكة ، فيذكرون مثلاً أن التبع (أسعد أبو كرب) الحميري وضع الكسوة على البيت الحرام ، وصنع له باباً ، ومنذ ذلك الحين جرت العادة بكسوة البيت ،[2] ويذكرون غير ذلك من أخبار تشير الى اهتمام التبابعة بمكة . أما نحن ، فلم يصل الى علمنا شيء من هذا الذي يرويه الأخباريون ، مدوناً بالمسند ، كما أننا لا نعلم أن أصنام أهل اليمن كانت في مكة حتى يتعبد لها التبابعة . ولسنا الآن في وضع نتمكن فيه من إثبات هذا القصص الذي يرويه الأخباريون ، والذي قد يكون أوجد ، ليوحي أن ملوك اليمن كانوا يقدسون الكعبة ، وأن الكعبة هي كعبة جميع العرب قبل الإسلام .

ولا نملك اليوم أثراً جاهلياً استنبط منه علماء الآثار شيئاً عن تأريخ مكة قبل الإسلام ، ولذلك فكل ما ذكروه عنها هو من أخبار أهل الأخبار ، وأخبارهم عنها متناقضة متضاربة ، لعبت العواطف دوراً بارزاً في ظهورها . ولا يمكن لأحد أن يكتب في هذا اليوم شيئاً موثوقاً معقولاً ومقبولاً عن تأريخ هذه المدينة المقدسة في أيام الجاهلية القديمة ، لأنه لا يملك نصوصاً أثرية تعينه في التحدث عن ماضيها

١ الأخبار الطوال (ص ٣٩ وما بعدها) .

٢ وقد نسبوا الى الرسول أحاديث في هذا المعنى ، أعتقد أنها من الأحاديث الموضوعة ، راجع الأزرقي ، أخبار مكة (١/١٦٥) .

القديم . وأملنا الوحيد هو في المستقبل ، فلعلّ المستقبل يكون خيراً من الحاضر والماضي ، فيجود على الباحثين بآثار تمكنهم من تدوين تأريخ تلك المدينة ، تدويناً علمياً يفرح نفوس الملايين من الناس الذين يحجون اليها من مختلف أنحاء العالم ، ولكنهم لا يعرفون عن تأريخها القديم ، غير هذا المدوّن عنها في كتب أهل الأخبار .

وإذا كنا في جهل من أمر تأريخ مكة قبل أيام (قصيّ) وقبل تمركز قريش في مكة ، فإن جهلنا هذا لا يجوّز لنا القول بأن تأريخها لم يبدأ إلا بظهور قريش فيها وبتزعم قصيّ لها . وان ما يروى من تأريخها عن قبل هذه المدة هو قصص لا يعبأ به . لأن ما يورده أهل الأخبار من روايات تفيد عثور أهل مكة قبل أيام الرسول على قبور قديمة وعلى حليّ وكنوز مطمورة وكتابات غريبة عليهم ، يدل كل ذلك على ان المدينة كانت مأهولة قبل أيام قصي بزمن طويل ، وان مكة كانت موجودة قبل هذا التأريخ . وان تأريخها لذلك لم يبدأ بابتداء ظهور أمر قصيّ ونزول قريش مكة في عهده .

وتأريخ مكة حتى في أيام قصيّ وما بعدها الى ظهور الإسلام لا يخلو مع ذلك من غموض ومن لبس وتناقض . شأنه في ذلك شأن أي تأريخ اعتمد على الروايات الشفوية ، واستمد مادته من أقوال الناس ومن ذكرياتهم عن الماضي البعيد . لذلك نجد الرواة يناقضون أنفسهم تناقضاً بيناً في أمر واحد ، ما كان في الإمكان الاختلاف فيه لو كانوا قد أخذوه من منبع قديم مكتوب . وسنرى في مواضع من هذا الكتاب وفي الأجزاء التي قد تتلوه عن تأريخ العرب في الإسلام نماذج وأمثلة تشير الى تباين روايات أهل الأخبار في أخبارهم عن مكة في تلك الأيام .

قريش :

و (قصيّ) من (قريش) . و (قريش) كلها من نسل رجل اسمه (فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان) . فهي من القبائل العدنانية . أي من مجموعة العرب المستعربة في اصطلاح علماء النسب . ومن (فهر) فما بعده عرف اسم (قريش) في رأي أهل الأخبار . أما ما قبل (فهر) من آباء فلم يعرفوا بقريش . فقريش إذن هم (فهر)

وأبناؤه ، من سكان مكة أو من سكان ظواهرها ، أي كل من انحدر من صلبه من أبناء .[1] وما كان فوق (فهر) فليس يقال له (قرشي) ، وإنما يقال له كناني .[2]

ومعارفنا عن (قريش) لا بأس بها بالنسبة الى معارفنا عن خزاعة وعن من تقدم عليها من قبائل ذكَر أهل الأخبار أنها سكنت هذه المدينة . وتبدأ هذه المعرفة بها ، ابتداءً من (قُصَيّ) زعيم قريش ومجمّعها ، والذي أخذ أمر مكة فوضعه في يديه ، ثم في أيدي أولاده من بعده ، فصارت (قريش) بذلك صاحبة مكة .

وقد اشتهرت قريش بالتجارة ، وبها عرفت وذاع صيتها بين القبائل . وتمكن رجالها بفضل ذكائهم وحذقهم بأسلوب التعامل من الاتصال بالدول الكبرى في ذلك العهـــد : الفرس والروم والحبشة ، وبحكومة الحيرة والغساسنة ، وبسادات القبائل ، ومن تكوين علاقات طيبة معها ، مع تنافر هذه الدول وتباغضها . كما تمكنوا من عقد أحلاف مع سادات القبائل ، ضمنت لهم السير طوال أيام السنة بهدوء وطمأنينة في كل أنحاء جزيرة العرب . والطمأنينة ، أهم أمنية من أماني التاجر . وبذلك أمنوا على تجاراتهم ، ونشروا تجاراتهم في كل أنحاء جزيرة العرب . حتى عرفوا بـ (قريش التجار) . جاء على لسان كاهنة من كهان اليمن قولها : (لله درُّ الديار ، لقريش التجار) .[3]

وليس لنا علم بتأريخ بدء اشتغال قريش بالتجارة واشتهارها بها . وروايات أهل الأخبار ، متضاربة في ذلك ، فبينما هي ترجع ظهور (قريش) بمكة الى أيام قصي ، ومعنى ذلك أن تجارة قريش إنما بدأت منذ ذلك الحين ، تراها ترجع تجارتها الى أيام النبي (هود) ، وتزعم أنه لما كان زمن (عمرو ذي الأذعار الحميري) ، كشفت الريح عن قبر هذا النبي ، فوجدوا صخرة على قبره كتب عليهـــا بالمسند : (لمن ملك ذمار ؟ لحمير الأخيار . لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الأشرار . لمن ملك ذمار ؟ لفارس الأحرار . لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار) .[4] والرواية أسطورة موضوعة ، ولكنها تشير الى أن اشتغال قريش بالتجارة يرجع

---

١ البلاذري ، انساب (٣٩/١) ، نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار (٩) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٥٥/١) .

٣ رسائل الجاحظ ، (جمع السندوبي) ، (ص ١٥٦) (المطبعـــة الرحمـانية ، ١٩٥٨ م) .

٤ الاكليل ، الجزء الثامن (خبر آخر عن قبر هود وقبر قضاعة بن مالك بن حمير) .

الى عهد قـديم ، عجز اصحاب هذه الرواية عن ادراك وقته ، فوضعوه في أيام هود .

ثم نرى روايات أخرى ترجع بدء اشتهار قريش التجارة الى ايام (هاشم) ، وهي تزعم ان تجارة قريش كانت منحصرة في مكة ، يتاجر اهلها بعضهم مع بعض ، فتقدم العجم عليهم بالسلع ، فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها لمن حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب (هاشم بن عبد مناف) فنزل بقيصر ، وتعاقد معه على ان يسمح له ولتجار قريش بالاتجار مع بلاد الشام، فوافق على ذلك ، وأعطاه كتاباً بذلك . فلما عاد ، جعل كلما مرّ بحيّ من العرب بطريق الشام ، أخذ من أشرافهم إيلافاً ، اي عقد امان ، فضمن بذلك لقومه حرية الاتجار بأمن وسلام . واشتهرت قريش بالتجارة منذ ذلك العهد . [1]

وقد علّمت الأسفار سادة قريش اموراً كثيرة من امور الحضارة والثقافة . فقد أرتهم بلاداً غريبة ذات تقدم وحضارة ، وجعلتهم يحتكون بعرب العراق وبعرب بلاد الشام ، فتعلموا من (الحيرة) اصول كتابتهم ، وهذّبوا لسانهم ، ودوّنوا به امورهم . وذكر انهم كانوا من افصح العرب لساناً ، وقد شهد العرب لهم بفصاحـة اللسان ، حتّى ان الشعراء كانوا يعرضون عليهم شعرهم ، وذكر ان الشاعر (علقمة الفحل) عرض عليهم شعره ، فوصفوه بـ (سمط الدهر) . [2]

وقد علّمت الطبيعة أهل مكة انهم لا يتمكنون من كسب المال ومن تأمـين رزقهم في هذا الوادي الجاف ، إلا إذا عاشوا هادئين مسالمين ، يدفعون الإساءة بالحسنة ، والشر بالصبر والحلم ، والكلام السيء البذيء بالكلام الحسن المقنـع المخجل . فتغلب حلمهم على جهل الجاهلية ، وجاءت نجدتهم في نصرة الغريب والذب عن المظلوم والدفاع عن حق المستجير بهم ، بأحسن النتائج لهم ، فصار التاجر والبائع والمشتري يفد على سوق مكة ، يبيع ويشتري بكل حرية ، لانـه في بلد آمن ، أخذ سادته على أنفسهم عهداً بألا يتعدى أحد منهم على غريب ، لأن الإضرار به ، يبعد الغرباء عنهم ، وإذا ابتعد الغرباء عن مكـة ، خسروا جميعاً مورداً من موارد رزقهم : يعيش عليه كل واحد منهم بلا استثناء . لذلك

١ ذيل الأمالي (ص ١٩٩) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها) .
٢ الأغاني (٢١/١١٢) .

كان الغريب إذا ظُلِمَ ، نادى يا آل قريش ، أو يا آل مكة أو يا آل فلان . ثم يذكر ظلامته ، فيقوم سادة مكة أو من نودي باسمه بأخذ حقه من الظالم له .

وقد اصطلحت قريش على ان تأخذ ممن ينزل عليها في الجاهلية حقاً . دعته : (حقّ قريش) وفي جملة ما كانوا يأخذونه من الغريب القادم اليهم عن هـذا الحق بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر . ويأتي أهل الأخبار بمثل على ذلك ، هو مثل : (ظويلم ويلقب مانع الحريم ، وإنما سُمّي بذلك لأنه خرج في الجاهلية يريد الحج ، فنزل على المغيرة بن عبد الله المخزومي ، فأراد المغيرة ان يأخـذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهليـة ، وذلك سُمّي : الحريم . وكانوا يأخذون بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر ، فامتنع عليه ظويلم)[1] . وظويلم منع عمرو بن صرمة الإتاوة التي كان يأخذها من غطفان[2] .

وقد جعلت طبيعة هذا الوادي أهل مكة يميلون الى السلم ، ولا يركنون الى الحرب والغزو إلا دفاعاً عن نفس . وهو شيء منطقي محترم ، فأهـل مكة في وادٍ ضيق بين جبلين متقابلين ، وفي استطاعة الأعداء إنزال ضربات موجعة بهم من المرتفعات المسيطرة عليه ، وبسد منفذيه ، يحصر أهله فتنقطع عنهم كل وسائل المعيشة من ماء وطعام . لذلك لم يجدوا أمامهـم من سبيل سوى التجمل بالحـلم والصبر واتباع خطة الدفاع عن النفس ، بالاعتماد على أنفسهم وعلى غيرهـم من أحلافهم كالأحابيش حلفائهم وقريش الظواهر . وقد أدت هذه الخطة الى اتهام قريش انها لا تحسن القتال ، وانها إن حاربت خسرت ، وانها كانت تخسر في الحروب ــ فخسرت ثلاثة حروب من حروب الفجار الأربعة ، الى غير ذلك من تهم . ولكن ذلك لا يعني ان في طبع رجال قريش جبناً ، وان من سجية قريش الخوف . وإنما هو حاصل طبيعة مكان ، واملاء ضرورات الحياة ، لتأمين الرزق . ولو ان أهل مكة عاشوا في موضع آخر ، لما صاروا أقل شجاعة وأقل اقبالاً في الاندفاع نحو الحرب والغزو من القبائل الأخرى .

وقد تمكنت مكة في نهايـة القرن السادس وبفضل نشاط قريش المذكور من القيام بأعمال هامة ، صيّرتها من أهم المراكز المرموقة في العربية الغربية في التجارة

---

١ الاشتقاق (ص ١٧١ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (١٧٢) .

وفي اقراض المال للمحتاج اليه . كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة ، واتخاذ بيوت مناسبة لائقة لان تكون بيوت أغنياء زاروا العالم الخارجي ورأوا ما في بيوت أغنيائه من ترف وبذخ وخدم واسراف .

وقد ذكر (الثعالبي) ان قريشاً صاروا (أدهى العرب ، وأعقل البرية ، وأحسن الناس بياناً) لاختلاطهم بغيرهم ولاتصالهم بكثير من القبائل فأخذوا عن كل قوم شيئاً ، ثم انهم كانوا تجاراً (والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق والتدقيق) ، وكانوا متشددين في دينهم حمساً ، (فتركوا الغزو كراهة السبي واستحلال الأموال) الى غير ذلك من أمور جلبت لهم الشهرة والمكانة [1] . وقد أشيد ايضاً بصحة اجسامهم وبجمالهم حتى ضرب المثل بجمالهم فقيل : (جمال قريش) [2] .

وقصيّ رئيس قريش ، هو الذي ثبت الملك في عقبه ، ونظم شؤون المدينة ، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حين شعر بدنو أجله . فلما أشرق الإسلام ، كانت أمور مكة في يد قريش ، ولها وحدها الهيمنة على هذه المدينة ، حتى عرف سكانها بـ (آل قصي) ، فكان أحدهم اذا استغاث او استنجد بأحد ، صاح : (يا لقصيّ) ، كناية عن انهم (آل قصيّ) . جامع قريش [3] .

وهو أول رئيس من رؤساء مكة يمكن ان نقول إن حديثنا عنه ، هو حديث عن شخص عاش حقاً وعمل عملاً في هذه المدينة التي صارت قبلة الملايين من البشر فيما بعد . فهو إذن من الممهدين العاملين المكونين لهذه القبلة ، وهو أول رجل نتكلم عن بعض أعماله ونحن واثقون مما نكتبه عنه ونقوله . وهو أول شخص نقض البيوت المتنقلة التي لم تكن تقي أصحابها شيئاً من برد ولا حرّ ، والتي كانت على أطراف الوادي وبين أشجار الحرم ، وكأنها تريد حراسة البيت ، وحولها من خيام مهلهلة الى بيوت مستقرة ثابتة ذات أعمدة من خشب شجر الحرم ، وذات سقوف .

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٢٩) .
٣ يالَ قصيّ لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنَفَر
الأحكام السلطانية (ص ٧٨ وما بعدها) .

ولم نعثر حتى الآن على اسم قريش أهل مكة في نص جاهلي . كذلك لم نعثر عليه أو على اسم مقارب له في كتب اليونان أو اللاتين أو قدماء السريان ممن عاشوا قبل الإسلام . فليس في امكاننا ذكر زمن جاهلي نقول اننا عثرنا فيه على اسم قريش ، وانها كانت معروفة يومئذ فيه .

وقد وردت لفظة (قريش) اسماً لرجل عرف بـ (حَبْسل قريش) . وذلك في نص حضرمي من أيام الملك (العز) ملك حضرموت [1] .

هذا ، وان لأهل الأخبار كلاماً في سبب تسمية قريش بقريش ، (فقيل : سُمّيت بقريش بن بدر بن مخلد بن الحارث بن مخلد بن النضر بن كنانة ، لأن عير بني النضر كانت اذا قدمت ، قالت العرب : قد جاءت عير قريش ، قالوا : وكان قريش هذا دليل النضر في أسفارهم ، وصاحب ميرتهم ، وكان له ابن يسمى بدراً ، احتفر بدراً ، قالوا فيه سميت البئر التي تدعى بدراً ، بدراً . وقال ابن الكلبي : انما قريش جماع نسب ، ليس بأب ولا بأم ولا حاضن ولا حاضنة ، وقال آخرون : انما سُمي بنو النضر من كنانة قريشاً ، لأن النضر بن كنانة خرج يوماً على نادي قومه ، فقال بعضهم لبعض : انظروا الى النضر ، كأنه جمل قريش .

وقيل : إنما سميت بدابّة تكون في البحر تأكل دواب البحر ، تدعى القرش ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها ، لأنها أعظم دواب البحر قوة [2] .

وقيل : إن النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس ، فيسدها بماله ، والتقريش — فيما زعموا — التفتيش وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيسدّونها بما يبلّغهم [3] . (وقيل إن النضر بن كنانة كان اسمه قريشاً . وقيل : بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصي بن كلاب ، فقيل لهم : قريش ، من أجل ان التجمع هو التقرش ، فقالت العرب : تقرش

١ تاريخ العرب في الاسلام (٤١/١) .
٢ وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا . تفسير الطبري (٢٥/ ١٩٩) .
٣ الطبري (٢٦٣/٢ وما بعدها) .

بنو النضر ، أي قد تجمعوا . وقيل : إنما قيل قريش من أجل انهـا تقرشت عن الغارات)[1] .

وذكر ان قريشاً كانت تدعى (النضر بن كنانة) ، وكانوا متفرقـين في (بني كنانة) ، فجمعهـم (قصيّ بن كلاب) ، فسموا قريشاً ، التقرش التجمع . وسُمّي قصي مجمّعاً . قال حذافة بن غانم بن عامر القرشي ثم العدوي :

قُصيٌّ أبوكم كان يدعى مجمعاً   بـه جمع الله القبائل من فهر[2]

وذكر ان قريشاً إنما قيل لهم (قريش) لتجمّعهم في الحرم من حوالي الكعبة بعد تفرقهم في البلاد حين غلب عليها (قصي بن كلاب) . يقال تقرش القوم إذا اجتمعوا . قالوا وبه سمّي قصي مجمعاً . أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعـات فيشترونها ، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً ، فقالوا تقرش ، فغلب عليه اللقب ، أو لأنه جاء الى قومه يوماً ، فقالوا كأنه جمل قريش أي شديد ، فلُقب به ، أو لأن قصياً كان يقال له القرشي ، وهو الذي سمّاهم بهذا الاسم ، أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدّون خلتها ، فمن كان محتاجاً أغنوه ومن كان عارياً كسوه ومن كان معدماً كسوه ومن كان طريداً آووه ، أو سمّوا بقريش بن مخلد بن غالب بن فهر ، وكان صاحب عيرهم ، فكانوا يقولون : قدمت عير قريش وخرجت عير قريش ، فلقبوه به . أو نسبة الى (قريش بن الحرث بن مخلد بن النضر) ، والد (بدر) ، وكان دليلاً لبني (فهر بن مـالك) في الجاهلية ، فكانت عيرهم إذا وردت (بدراً) ، يقال : قد جاءت عير قريش، يضيفونها الى الرجل حتى مات . أو لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع . أو الى قريش بن بدر بن مخلد بن النضر . وكان دليل بني كنانة في تجارتهم ، فكان يقال : قدمت عير قريش . فسميت قريش بذلك . وأبوه بدر بن مخلد ، صاحب بدر ، الموضع المعروف[3] .

١ الطبري (٢/٢٦٤) ، ابن كثير ، البداية (٢/٢٠١) .
٢ العقد الفريد (٣/٣١٢ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) ، كتاب نسب قريش ، للزبيري (ص ١٢) .

ونعتت قريش بـ (آل الله) و (جيران الله) و (سكان حرم الله)[1] . وبـ (أهل الله)[2] .

الى غير ذلك من آراء حصرها بعضهم في عشرين قولاً في تفسير معنى لفظة (قريش) ومن أين جاء أصلها . تجدها في بطون الكتب التي أشرت اليها في الحواشي . وفي موارد أخرى . وهي كلها تدل على ان أهل الأخبار كانوا حيارى في أمر هذه التسمية ، ولما كان من شأنهم ايجاد أصل وفصل ونسب وسبب لكل اسم وتسمية ، كما فعلوا مع التسميات القديمة ، ومنها تسميات قديمة تعود الى ما قبل الميلاد ، أوجدوا على طريقتهم تلك التعليلات والتفسيرات لمعنى (قريش) . وقد نجد هذه التعليلات تروى وتنسب الى شخص واحد كابن الكلبي مثلاً ، وهو ينسب روايتها عادة الى رواة تقدموا عليه أو عاصروه ، وقد لا يرجعها الى أحد ، وربما كانت من وضعه وصنعته أو من اجتهاده الخاص في ايجاد علل للمسميات[3] .

فهذا هو مجمل آراء أهل الأخبار في معنى اسم قريش .

أما رأيهم في أول زمن ظهرت فيه التسمية ، فقد اختلف في ذلك وتباين أيضاً . فذكر قوم (ان عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير : متى سميت قريش قريشاً ؟ قال : حين اجتمعت الى الحرم من تفرقها ، فذلك التجمع التقرش . فقال عبد الملك : ما سمعت هذا ، ولكن سمعت ان قصياً كان يقال له القرشي ، ولم تسم قريش قبله) . وورد : (لما نزل قصي الحرم وغلب عليه ، فعل أفعالاً جميلة ، فقيل له : القرشي ، فهو أول من سُمّي به) . وورد أيضاً ان (النضر بن كنانة كان يسمى القرشي)[4] .

وقد نسب الى علي وابن عباس قولهما ان قريشاً حي من النبط من أهل كوثى[5] . وإذا صح ان هذا القول هو منهما حقاً ، فإن ذلك يدل على انهما قصدا بالنبط (نبايوت) : وهو (ابن اسماعيل) في التوراة . واما (كوثى)

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠) .
٣ نهاية الأرب (١٦/١٦) ، تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) .
٤ الطبري (٢/٢٦٤ وما بعدها) .
٥ البرفوفي (ص ٢٢٨) .

فقصدا بذلك موطن ابراهيم ، وهو من أهل العراق على رواية التوراة أيضاً . ولعلها أخذا هذا الرأي من أهل الكتاب في يثرب .

ويذكر أن جِذْم قريش كلها (فهر بن مالك) فما دونه قريش وما فوقه عرب ، مثل كنانة وأسد وغيرهما من قبائل مضر . وأما قبائل قريش ، فانما تنتهي الى فهر بن مالك لا تجاوزه[1] . ومن جاوز (فهراً) ، فليس من قريش[2] . ومعنى هذا ان جذم قريش من أيام (فهر بن مالك) فما فوقه ، كانت متبدية تعيش عيشة أعرابية ، فلما كانت أيام (فهر) أخذت تميل الى الاستقرار والاستيطان ، ولما استقرت وأقامت في مواضعها عرفت بـ (قريش) .

وذكر ان قريشاً قبيلة ، وأبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فكل من كان من ولد (النضر) ، فهو (قرشي) دون ولد كنانة ومن فوقه . وورد كل من لم يلده (فهر) فليس بقرشي . وهو المرجوع اليه[3] .

وقد صيرت رابطة النسب هذه قريشاً قبيلة تامة تقيم مجتمعة في أرض محدودة ، وبصورة مستقرة في بيوت ثابتة فيها بيوت من حجر ، بين أفرادها وأسرها وبطونها عصبية ، وبينهم تعاون وتضامن . كما جعلت أهل مكة في تعاون وثيق فيما بينهم في التجارة ، حتى كادوا يكونون وكأنهم شركاء مساهمون في شركة تجارية عامة . يساهم فيها كل من يجد عنده شيئاً من مال ، وإن حصل عليه عن طريق الاقتراض والربا ، ليكون له نصيب من الأرباح التي تأتي بها شركات مكة .

ويقسم أهل الأخبار قريشاً الى : قريش البطاح ، وقريش الظواهر . ويذكرون ان قريش البطاح بيوت ، منهم : بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار ، وبنو عبد العزّى ، وبنو عبد بن قصي بن كلاب ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم ، وبنو جمح ابنا عمرو ابن هصيص بن كعب ، وبنو عدي بن كعب ، وبنو حسل بن عامر بن لؤي ، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هلال بن

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٢ نهاية الأرب (١٦/١٥) .
٣ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) .

مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر . وبنو عتيك بن عامر بن لؤي [1] . و (قصي) هو الذي أدخل البطون المذكورة الأبطح ، فسُمّوا البطاح [2] . ودخل (بنو حسل ابن عامر) مكة بعد ، فصاروا مع قريش البطاح ، فأما من دخل في العرب من قريش فليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء [3] .

ويذكر أهـل الأخبار ان (قريش البطاح) ، الذين ينزلون أباطح مكـة وبطحاءها . أو هم الذين ينزلون الشعب بين أخشبي مكة . وأخشبا مكة جبلاها : أبو قبيس والذي يقابله . ويقال لهم قريش الأباطح وقريش البطاح ، لأنهم صبابـة قريش وصميمها الذين اختطوا بطحاء مكة ونزلوها [4] . وهـم أشرف وأكرم من قريش الظواهر . ذكروا ان سادة قريش نزول ببطن مكة ، ومن كان دونهم ، فهم نزول بظواهر جبالها ، أي قريش الظواهر [5] .

اما قريش الظواهر : فهم : بنو معيص بن عامر بن لؤي ، وتيم الأدرم بن غالب بن فهر ، والحارث ابنا فهر ، إلا بني هلال بن أهيب بن ضبة ، وبني هلال بن مالك بن ضبة [6] . وعامة بني عامر بن لؤي ، وغيره [7] . عرفوا جميعاً بقريش الظواهر ، لأنهم لم يهبطوا مع قصيّ الأبطح . الا ان رهط (أبي عبيدة ابن الجراح) ، وهم من (بني الحارث بن فهر) ، نزلوا الأبطح فهم مع المطيّبين أهل البطاح [8] . وورد ان (بني الأدرم من أعراب قريش ليس بمكة منهم أحد) [9] .

١ المحبر (ص ١٦٧ وما بعدها) ، العمدة (٢/١٩٣) ، رسائل الجاحظ، (ص ١٥٦. (السندوبي) ، (المطبعة الرحمانيـة ١٩٣٣ م) ، مـروج الذهب (١/٥٨ . ١٩٥٨ م) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٧١) .
٣ البلاذري ، أنساب (١/٤٠) .
٤ فلو شهدتنـي من قريش عصـابة قريش البطـاح لا قريش الظـواهر
تاج العروس (٢/١٢٥) ، (بطح) .
٥ تاج العروس (٣/٣٧٢) ، (ظهر) .
٦ المحبر (١٦٨) ، البلاذري ، أنساب (١/٣٩) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (٩٧) .
٧ العمدة (٢/١٩٤) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٧١) .
٩ نهاية الأرب (١٦/١٧) .

ويبدو من وصف أهل الأخبار لقريش البطاح ، انهم إنما سُموا بالبطاح لأنهم دخلوا مع قصي البطاح ، فأقاموا هناك[1] . فهم مستقرون حضر ، وقد أقاموا في بيوت مهما كانت فإنها مستقرة ، وقد انصرفوا الى التجارة وخدمة البيت . فصاروا أصحاب مال وغنى ، وملكوا الأملاك في خارج مكة ، ولا سيما الطائف ، كما ملكوا الإبل ، وقد تركوا رعيها للأعراب . وعرفوا أيضاً بقريش الضبّ للزومهم الحرم[2] .

واما قريش الظواهر[3] ، فهم الساكنون خارج مكة في أطرافها ، وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعراباً ، أي انهم لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار وفي اتخاذ بيوت من مدر . وكانوا يفخرون على قريش مكة بأنهم أصحاب قتال ، وانهم يقاتلون عنهم وعن البيت . ولكنهم كانوا دون (قريش البطاح) في التحضر وفي الغنى والسيادة والجاه ، لأنهم أعراب فقراء ، لم يكن لهم عمل يعتاشون منه غير الرعي . وكانوا دونهم في مستوى المعيشة بكثير وفي الوجاهة بين القبائل . ومع اشتراكهم وقريش البطاح في النسب ، ودفاعهم عنهم أيام الشدة والخطر ، إلا انهم كانوا يحقدون على ذوي أرحامهم على ما أوتوا من غنى ومال وما نالوه من منزلة ، ويحسدونهم على ما حصلوا عليه من مكانة دون ان يعملوا على رفع مستواهم ، وترقية حالهم ، والاقتداء بذوي رحمهم أهل الوادي في اتخاذ الوسائل التي ضمنت لهم التفوق عليهم وفي جلب الغنى والمال لهم . كان شأنهم في ذلك شأن الحساد الذين يعيشون على حسدهم ، ولا يبحثون عن وسائل ترفعهم الى مصافّ من يحسدونه . ولعل نظرتهم الجاهلة الى أنفسهم من انهم أعلى وأجل شأناً ممن يحسدونهم ، وإن كانوا دونهم في نظر الناس في المنزلة والمكانة ، حالت دون تحسين حالهم والتفوق على المحسود بالجد والعمل ، لا بالاكتفاء بالحسد وبالتشدق بالقول والمباهاة .

ويذكر أهل الأخبار ان قسماً ثالثاً من قريش ، لم ينزل بمكة ولا بأطرافها ،

---

١ المحبر (١٦٨) .

٢ ابن الأثير (٢/ ٨) ، البلاذري ، انساب (١/ ٣٩) .

٣ (قريش الظواهر الذين ينزلون خارج الشعب) ، تاج العروس (٢/ ١٢٥) ، (بطح) ، البلاذري ، انساب (١/ ٣٩) ، (كانوا يفخرون على قريش الظواهر لظهورهم للعدو ، ولقائهم المناسر) ، البلاذري ، أنساب (١/ ٤٠) .

وانما هبط أماكن أخرى ، فاستقر بها ، وتحالف مع القبائل التي نزل بينها . من هؤلاء : سامة بن لؤي ، وقع الى عمان ، فولده هناك حلفاء أزد عمان . والحارث ابن لؤي وقع الى عُمان ، فولده هناك حلفاء أزد عمـان . والحارث بن لؤي ، وقع الى اليامة ، فهـم في بني هزان من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار . والحـارث ، هو جُشَم . وخزيمـة بن لؤي ، وقعوا بالجزيـرة الى بني الحارث بن همام بن مرة بن ذهـل بن شيبان وسعد بن لؤي ، وبنو عوف بن لؤي ، وقعوا الى غطفان ولحقوا بهم ، ويقال لبني سعد بن لؤي بنانة ، وبنانة أمهم ، فأهل الباديـة منهم . وأهل الحاضرة ينتمون الى قريش . ويقال لبني خزيمة بن لؤي : عائذة قريش . وكان عثمان بن عفان ألحق هذه القبائل ، حين استخلف بقريش[1] .

ويلاحظ ان هذا الصنف من أصناف قريش ، هو من نسل (لؤي) ، أي : من نسل (لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر) . وقد تباعدت مواطنهم عن قريش .

ومن قريش الظواهر : بنو الأدرم من نسل الأدرم ، وهو تيم بن غالب ، ومن رجالهم : عوف بن دهر بن تيم الشاعر ، وهو أحد شعراء قريش . وهلال ابن عبد الله بن عبد مناف ، وهو صاحب القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجاء النبي ، وهو ابن الخطل الذي كان يؤذي النبي وارتد فأهدر النبي دمه يوم الفتح ، قتله أبو برزة الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة ، أو سعد بن حريث المخزومي على رواية قريش[2] . ومن قريش الظواهـر أيضاً : بنو محارب ، والحارث بن فهر وبنو هصيص بن عامر بن لؤي .

ولم يكن أهل مكة كلهم من قريش ، بل ساكنهم أيضاً من كان بها قبلهم ، مثل خزاعة وبنو كنانة . وقريش وإن كانت من (كنانة) ، إلا انهـا ميزت نفسها عنها ، وفرقت بينها وبين كنانة . ولكنانة إخوة منهم : أسد وأسده ، ووالدهم هو (خزيمة) وهو جدّ من أجداد قريش ، كما ان (كنانـة) هو

١ المحبر (ص ١٦٨ وما بعدها) ، الطبري (٢٦١/٢) ، (وهي قريـش من ليس بابطحية ولا ظاهرية) ، تاج العروس (١٢٥/٢) ، (بطح) .
٢ الاشتقاق (ص ٦٦) .

جد من أجدادهم . وللأخباريين رأي في معنى كنانة [1] .

وقد عرفت قريش بين أهل الحجاز بسخينة . والسخينة طعام رقيق يتخذ من سمن ودقيق . وقيل دقيق وتمر — وهو دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء . وانما لقبت قريش بسخينة لاتخاذها اياه ، أي لأنهم كانوا يكثرون من أكلها ولذا كانت تعيّر به [2] .

الأحابيش :

ومن أهل مكة جماعة عرفت بـ (الأحابيش) . ذكر أهل الأخبار انهم حلفاء قريش ، وهم : بنو المصطلق ، والحياء بن سعد بن عمرو ، وبنو الهون ابن خزيمة . اجتمعوا بذنب حبشي — وهو جبل بأسفل مكة — فتحالفوا بالله إنا ليَدٌ على غيرنا ما سجا ليل وأوضح نهار ، وما أرسى حبشي مكانه . وقيل : إنما سُمّوا بذلك لاجتماعهم . والتحابش : هو التجمع في كلام العرب [3] . وذكر انهم اجتمعوا عند (حبشي) فحالفوا قريشاً . وقيل : أحياء من القارة انضموا الى (بني ليث) في الحرب التي نشبت بينهم وبين قريش قبل الإسلام ، فقال إبليس لقريش : إني جارٌ لكم من بني ليث فواقعوا دماً ، سُمّوا بذلك لاسودادهم ، قال :

ليث وديل وكعب والذي ظأرت جمع الأحابيش ، لما احمرت الحدقُ

1 الاشتقاق (ص ١٨) ، الطبرى (٢/٢٦٦) .

2 (وفي الحديث أنه دخل على حمزة ، رضى الله تعالى عنه . فصنعت لهم سخينة فأكلوا منها . قال كعب بن مالك :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

وفي حديث معاوية ، رضي الله تعالى عنه ، انه مازح الأحنف بن قيس ، فقال : ما الشيء الملفف في البجاد ؟ فقال : هو السخينة يا أمير المؤمنين ! الملفف في البجاد : وطب اللبن يلف به ليحمى ويدرك . وكانت تميم تعير به . والسخينة الحساء المذكور يؤكل في الجدب ، وكانت قريش تعير بها . فلما مازحه معاوية بما يعاب به قومه مازحه الأحنف بمثله) ، تاج العروس (٩/٢٣٢) .

3 العمدة (٢/١٩٤) ، اللسان (٦/٢٧٨) ، (حبش) .

فلما سميت تلك الأحياء (الأحابيش) من قبل تجمعها ، صار التحبيش في الكلام كالتجميع . [1]

وورد ان (عبد مناف) و (عمرو بن هلال بن معيط الكناني) ، عقدا حلف الأحابيش . والأحابيش ، بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة ، وبنو الهون بن خزيمة بن مدركة ، وكانوا مع قريش . [2] وقيل ايضاً ان الأحابيش ، هم : بنو الحــارث بن عبد مناة بن كنانة ، وعضل ، والديش من بني الهون بن خزيمة ، والمصطلق ، والحيا من خزاعة . [3]

وقد وصف (اليعقوبي) (حلف الأحابيش) بقوله : (ولما كبر عبد مناف ابن قصي جاءته خزاعــة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، يسألونه الحلف ليعزوا به . فعقد بينهم الحلف الذي يقال له : حلف الأحابيش . وكان مُدبّر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الحلف عمرو بن هلل (هلال) بن معيص ابن عامر . وكان تحالف الأحابيش على الركن . يقوم رجل من قريش والآخر من الأحابيش فيضعان ايديهما على الركن ، فيحلفان بالله القاتل وحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وعلى التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً ، ما بلّ بحرٌ صوفة ، وما قام حر او ثبير ، وما طلعت شمس من مشرقها الى يوم القيامة . فسمي حلف الأحابيش) . [4]

وقد ُذكر أن (المطلب بن عبد مناف بن قصي) ، قاد بني عبد مناف وأحلافها من الأحابيش ، وهم من ذكرتُ يوم ذات نكيف ، لحرب بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . [5] كما ورد ان (الأحابيش) ، الذين ذكرت اسماءهم ، كانوا يحضرون مع من يحضر من طوائف العرب مثل قريش وهوازن ، وغطفان ،

١ اللسان (٦/٢٧٨) .

٢ قال الشاعر :

ان عمــراً وان عبد منــاف — جعلا الحلــف بيننــا أسـبابا

البلاذري ، أنساب (١/٥٢ ، ٧٦) .

٣ المحبر (ص ٢٤٦) .

٤ اليعقوبي (١/٢١٢) ، (طبعة النجف ١٩٦٤ م) .

٥ المحبر (ص ٢٤٦) .

وأسلم ، و (طوائف من العرب) سوق عكـاظ ، فيبيعون ويشترون .[1] كما ذكر انهم كانوا مثل قريش يقدسون اسافاً ونائلة .[2]

وورد في بعض اخبـار الأخباريين ، ان يوم (ذات نكيف) ، وقع بين قريش وبني كنانة . فهزمت قريش بني كنانة ، وعلى قريش عبد المطلب .[3] وقد بقي (الأحابيش) بمكة ، الى ايام الأمويين . فذكر ان (عبد الله المتكبر) ، وكان من اشراف قريش في ايام (معـاوية) ومن اغناها مالاً ، لما وفد على (معاوية) وكان خليفة إذ ذاك ، كلّمه في (قريش) ووجوب الاعتماد عليهم ثم في (الأحابيش) ، إذ قال له عنهم : (وحلفاؤك من الأحابيش) قد عرفت نصرهم ومؤازرتهم ، فاخلطهم نفسك وقومك) .[4]

وقـد بحث (لامانس) في موضوع الأحابيش ، فرأى انهم قوة عسكرية ألفت من العبيد السود المستوردين من افريقية ومن عرب مرتزقة ، كونتها مكة للدفاع عنها . وقد بحث مستشرقون آخرون في هذا الموضوع ، فمنهم من ايده ، ومنهم من توسط في رأيه ، ومنهم من ايد الرواية العربية المتقدمة التي ذكرتها . وعندي رأي آخر ، قد يفسر لنا سبب تسمية (بني الحارث بن عبد مناة) من (كنانة) ومن ايدها من (بني المصطلق) و (بني الهون) بالأحابيش . هو ان من الممكن ان تكون هذه التسمية قد وردت اليهم من اجل خضوعهم لحكم الحبش ، وذلك قبل الإسلام بزمن طويل . فقد سبق ان ذكرت في الجزء الثالث من كتابي : (تأريخ العرب قبل الإسلام) ، وفي اثناء كلامي على (جغرافيا بطلميوس) ،[5] ان الساحل الذي ذكره (بطلميوس) باسم : (Cinaedocolpitae) انما هو ساحل (تهامة) وهو منازل (كنانة) . وقد بقي الحبش به وقتاً طويلاً . واختلطوا بسكانه . فيجوز ان تكون لفظة (الأحابيش) قد لحقت بعض (كنانة)

---

١ المحبر (ص ٢٦٧) .
٢ المحبر (٣١٨) .
٣ اللسان (٣٤٢/٩) ، (نكف) ، قال ابن سخلة الفهري :
فلله عينـا من رأى من عصـابة غـوت غـى بـكر يوم ذات نكيف
أناخـوا الى أبياتنـا ونسـائنا فـكانوا لنا ضيفـا لشر مضيف
تاج العروس (٢٦١/٦) ، (نكف) .
٤ نسب قريش (٣٨٩) .
٥ (٣٩٣) .

من خضوعهم للحبش ، حتى صارت اللفظة لقباً لهم ، او علماً لكنانة ومن حالفها . ويجوز ان تكون قد لحقتهم ولحقت الآخرين معهم لتميزهم عن بقية (كنانة) ومن انضم اليهم ممن سكن خارج تهامة . او لتزوج قسم منهم من نساء حبشيات ، حتى ظهرت السمرة على سحنهم . ولهذا وصفوا بالأحابيش فليس من اللازم اذن ان يكون (الأحابيش) ، هم كلهم من حبش افريقية ، بل كانوا عرباً وقوماً من العبيد والمرتزقة ممن امتلكهم اهل مكة . ومما يؤيد رأيي هذا هو ورود (من بني كنـــانة) مع اهل تهامة في اخبار معارك قريش مع الرسول . ففي معركة (أحد) ، نجد (الطبري) يقول : (فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين فعل ذلك ابو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها ومن اطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة) .[1] ونجد مثل ذلك في اخبار معارك اخرى . مما يشير الى ان الأحابيش ، ليسوا عبيد افريقية حسب ، بل هم عرب وحبش ومرتزقة . وأن اولئك الأحابيش هم من ساحل تهامة في الغالب من كنانة، اي ممن اقام بذلك الساحل المستقر به من الحبش واندمج في العرب ، فصار من المستعربة الذين نسوا اصولهم وضاعت انسابهم ، واتخذوا لهم نسباً عربياً ،

وقد كان للأحابيش سادة يديرون امورهم ، منهم (ابن الدغنة) وهو (ربيعة بن رفيع بن حيّان بن ثعلبة السلمي) الذي اجار (ابا بكر) . وشهد معركة حنين .[2]

ومن سادات الأحابيش (الحليس بن يزيد) . ويظهر انه كان يتمتع بمنزلة محترمة بمكة . وقد ذكر (محمد بن حبيب) (الحليس) على هذه الصورة : (الحليس بن يزيد) . وذكر انه من (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) . وكان من رؤساء حرب الفجار من قريش .[3] وذكره غيره على هذه الصورة : (وحليس بن علقمة الحارثي . سيد الأحابيش ورئيسهم يوم أحد . وهو من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) .[4]

وقد حارب الأحابيش مع قريش يوم أحد ، وقـــد رأسهم (ابو عامر)

١ خبر (غزوة أحد) ، (فخرجت قريش بحدها وجدّها وأحابيشها ، ومن معها من بني كنانة واهل تهامة) ، الطبري (٢/ ٥٠١) .

٢ تاج العروس (٩/ ٢٠٠) ، (دغن) .

٣ المحبر (١٦٩ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٤/ ١٣٠) ، (حلس) .

المعروف بـ (الراهب) .[1] وقاتل بهم ، مع ان رئيسهم وسيدهم اذ ذاك هو (الحليس بن زبان) أخو (بني الحارث بن عبد مناة) . وهو يومئذ (سيد الأحابيش) . وقد مرّ بـ (ابي سفيان) ، وهو يضرب في شدق (حمزة) بزج الرمح ، فلامه على فعله وأنبه .[2] ولعلّ هذا الحليس هو الحليس المتقدم ، كتب اسم والده بصور مختلفة بحذف اسم والده واضافة جده او غيره اليه ، فصار وكأنه انسان آخر .

وقد ورد ذكر (الحليس) في خبر (الحديبية) . فقد ذكر الطبري ان قريشاً اوفدت (الحليس بن علقمة) او (ابن زبان) ، وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو احد (بلحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، الى رسول الله ، فلما رآه الرسول ، قال : ان هذا من قوم يتألهون ، فلما رأى الحليس هديَ المسلمين في قلائده ، وأحس ان الرسول انما جاء معتمراً لا يريد سوءاً لقريش ، قصّ عليهم ما رأى ، فقالوا له : اجلس ، فإنما انت رجل أعرابي لا علم لك . فغضب (الحليس) عند ذلك ، وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، ان تصدّوا عن بيت الله من جاءه معظماً له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلّن بين محمد وبين ما جاء له او لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ! فقالوا له : مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نوصي به .[3]

وقد ساهم (الأحابيش) في الدفاع عن مكة عام الفتح . وكانوا قد تجمعوا مع (بني بكر) و (بني الحارث بن عبد مناة) ومن كان من الأحابيش ، اسفل مكة . كما امرتهم قريش بذلك . فأمر رسول الله خالد بن الوليد ان يسير عليهم ، فقاتلهم حتى هزموا . ولم يكن بمكة قتال غير ذلك .[4] ولم يذكر (الطبري) اسم سيد الأحابيش في هذا اليوم .

ويتبين من دراسة اخبار اهل الأخبار عن الأحابيش ، ومن نقدها وغربلتها ، ان الأحابيش ، كانوا جماعة قائمة بذاتها ، مستقلة في ادارة شؤونها ، يدير امورها رؤساء منهم ، يعرف احدهم ب (سيد الأحابيش) . وقد ذكرت اسماء

١ الطبري (٢/٥١٢) ، (غزوة أحد) .
٢ الطبري (٢/٥٢٧) ، (غزوة أحد) .
٣ الطبري (٢/٦٢٧ وما بعدها) ، (الحديبية) .
٤ الطبري (٣/٥٦) ، (فتح مكة) .

بعض منهم قبل قليل . وقد عاشوا عيشة اعرابية ، خارج مكة على ما يظهر من الروايات . وذلك بدليل قول قريش للحليس : (اجلس ، فإنما انت رجل اعرابي ، لا علم لك) . [1] اي انهم كانوا اعراباً ويعيشون عيشة اعرابية . ويظهر من هذه الاخبار ايضاً ان (الحليس) (سيد الأحابيش) ، كان من (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، وأن (ابن الدغنة) ، كان من (بني سليم) . ولم ينص اهل الاخبار فيما اذا كانا عربيين صريحين ام انهما كانا من (بني الحارث) ومن (بني سليم) بالولاء ، فنسبهما الى القبيلتين ، هو نسب ولاء .

ويظهر من خبر (الحديبية) ، ومن قول النبي لما رأى (الحليس) قادماً اليه : (ان هذا من قوم يتألهون) ، ان الأحابيش لم يكونوا على دين مكة اي من عباد الاصنام بل كانوا مؤلهة ، يدينون بوجود إلّه . وقد يشير الرسول بذلك الى انهم كانوا نصارى ، اخذوا نصرانيتهم من الحبش . ولذلك كانوا من المؤلهة بالنسبة لقريش . وأنا لا استبعد ايضاً ان تكون تلك التسمية قد غلبت على هؤلاء لأنهم كانوا من الساحل الافريقي المقابل لجزيرة العرب . جاؤوا اليها بالفتوح وبالنخاسة ، وأقاموا في تهامة الى مكة ، وعاشوا عيشة اعرابية متبدية ، وتحالفوا مع القبائل العربية المذكورة ، وتخلقوا بأخلاق عربية حتى صاروا اعراباً في كل شيء . وقد لازمتهم التسمية التي تشير الى اصلهم ، وانما تحالفوا مع (بني الحارث) وبقية المذكورين ، عرف حلفهم بـ (حلف الأحابيش) ، ثم عرف المتحالفون بـ (الأحابيش) . وقد نسي الأصل وهو الأحابيش ، اي اسم الحبش الذين تحالفوا مع (بني الحارث) و (عضل) و (الديش) و (المصطلق) و (الحيا) . لسبب لا نعرفه ، قد يكون بسبب كونهم عبيداً سوداً ، وأطلق الحلف على المذكورين . غير ان روايات اهل الاخبار تشير الى كثير من الأحابيش في مثل قولها : (وخرجت قريش بأحابيشها) الى ان الأحابيش المذكورين كانوا في حكم قريش ، اي جماعة من الحبش من اهل افريقية ، كانت كما ذكرتُ تكوّن وحدة قائمة بذاتها ، ولكنها تدين بولائها لقريش ، ولها حلف مع بعض كنانة ومع قبائل اخرى . ولما كان عام الفتح امرتها قريش بالتعاون مع (بني بكر) و (بني الحارث بن عبد مناة) ، للدفاع عن مكة من جهة الجنوب . فامتثلت لأمر قريش ، وأخذت مواضعها هنالك ، حتى زلزلها (خالد بن الوليد) .

١ الطبري (٢/٦٢٧) ، (الحديبية) .

وقد منح (لامانس) الأحابيش درجة مهمة في الدفــاع عن قريش . حتى زعم ان قريشاً ركنت اليهم في دفاعهم عن مكة ، وعهدت اليهم دوراً خطيراً في حروبها مع الرسول . وقد استند في رأيه هذا الى ما رواه أهل الأخبار من اشتراكهم مع قريش في تلك الحروب . غير اننا نجد من دراسة أخبار الحروب المذكورة ، ان الأحابيش وان ساهموا فيها ، الا انهم لم يلعبوا دوراً خطيراً فيها . وانهم لم يكونوا في تلك الحروب سوى فرقة من الفرق التي ساعدت قريشاً ، مقابل مال ورزق ووعود . ولم يكن الأحباش وحدهم قد ساعدوا أهل مكة في حروبهم مع غيرهم ، فقد ساعدهم ايضاً طوائف من الأعراب ، أي من البدو الفقراء الذين كانوا يقاتلون ويؤدون مختلف الخدمات في سبيل الحصول على خبز يعيشون عليه .

وقريش جماعة استقرت وتحضرت ، واشتغلت بالتجارة ، وحصلت منها على غنائم طيبة . ومن طبع التاجر الابتعاد عن الخصومات والمعارك والحروب . لأن التجارة لا يمكن ان تزدهر وتثمر إلا في محيط هادىء مستقر . لذلك ، صار من سياستها استرضاء الأعراب وعقد (حبال) مع ساداتهم ، لتأمين جانبهم ، ليسمحوا لقوافلها بالمرور بسلام . كما صار من اللازم عليها عقد أحلاف مــع المجاورين لهم من الأعراب مثل (قريش الظواهر) و (الأحابيش) وأمثالهم للاستعانــة بهم في الدفاع عن مكة والاشتراك معهم في حروبهم التي قد يجبرون على خوضها مع غيرهم . بالإضافة الى عبيدهم (الحبش) الذين اشتروهم لتمشية أمورهــم وليكونوا حرساً وقوة أمن لهم .

ولم تكن قريش تعتمد على القوة في تمشية مصالحها التجارية ، بقدر اعتمادها على سياسة الحلم واللين والقول المعسول والكلام المرضي في الوصول الى غايتهــا وأهدافها ومصالحها التجارية . وبهذه السياسة : سياسة اللين والمفاوضة والمسالمة ، كانت تبدأ بحل ما يقع لها من صعوبات مع الناس . ولم يكن من السهل عليها في الواقع إرضاء الأعراب واسكاتهم لولا هذه السياسة الحكيمة التي اختاروها لأنفسهم ، وهي سياسة أكثر سكان القرى العامرة الواقعة في البوادي بين أعراب جائعين ، سياسة الاسترضاء بالحكمة واللسان الجميل ، واداء المال رشوة لهــم بأقل مقدار ممكن ، لأن الاكثار من السخاء يثير في الأعرابي شهوة طلب المزيد . وشهوتـه هذه متى ظهرت ؛ فسوف لا تنتهي عند حدّ . وأهل مكة بخبرتهـم الطويلة في تجولهم بمختلف أنحاء جزيرة العرب أعرف من غيرهم بنفسية الأعراب .

وكان لأشرافها أحلاف مع سادات القبائل ، تحالفوا معهم لتمشية مصالحهم والحماية تجارتهم . فكان (زرارة) التميمي مثلاً حليفاً لـ (بني عبد الدار) . وكان عامر بن هاشم بن عبد مناف ، قد تزوّج (بنت النباش بن زرارة) ، وأولد منها (عكرمة بن عامر بن هاشم) الشاعر ، و (بغيض بن عامر) الذي كتب الصحيفة على (بني هاشم) في أمر مقاطعة قريش لبني هاشم[1] .

وقد عيرت قريش بأنها لا تحسن القتال ، وانها تجاري وتساير من غلب ، وانها لا تخرج إلا بخفارة خفير ، وبحلف حليف ، وبحبل من هذه الحبال التي عقدتها مع سادات القبائل . فلما سمع (النعمان بن قبيصة بن حيّة الطائي) ابن عم (قبيصة بن إياس بن حيّة الطائي) صاحب الحيرة ، بـ (سعد بن أبي وقاص) ، سأل عنه ، فقيل : (رجل من قريش ، فقال : امـا إذا كان قرشياً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتال . إنما قريش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفيراً ، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير)[2] . ونجد أمثلة أخرى من هذا القبيل تشير الى ميل قريش الى السلم ، وعدم قدرتها على القتال .

وذكر الأخباريون انه كان لكنانة جملة أولاد ، ذكر ابن الكلبي منهم : النضر ، والنضير ، ومالكاً وملكان ، وعامراً ، وعمراً ، والحارث ، وعروان (غزوان) ، وسعداً ، وعوفاً ، وغنماً ، ومخرمة ، وجرولاً . وهم من زوجته (برة بنت مرّ) أخت (تميم بن مرّ) . ولهذا رأى النسابون وجود صلة بين أبناء هؤلاء الأولاد وقبيلة (تميم) . وأما (عبد مناة) ، فإنه ابن كنانة من زوجته الأخرى ، وهي (الذفراء بنت هانىء بن بليّ) من قضاعة . ولذلك عدّ أبناؤه من قضاعة .

ويذكر أهل الأخبار ان من أجداد (قصيّ) ، رجل كانت له منزلة في قومه اسمه (كعب بن لؤي) . كان يخطب للناس في الحج ، وكان رئيساً في (قريش) فلما توفي ، أرخت قريش بموته اعظاماً له ، الى ان كان عام الفيل فأرخوا به[3] . وذكر بعض أهل الأخبار ان أم (كعب) هي من (القين بن

١ نسب قريش (٢٥٤) .
٢ الطبري (٣/٥٧٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) .
٣ البلاذري ، أنساب (١/٤١) .

جسر) من قضاعة ، وان كعباً هذا أول من سمى يوم الجمعة الجمعة ، وكانت العرب تسمي يوم الجمعة : العروبة . وأول من قال : (أمـا بعد) ، فكان يقول : (اما بعد ، فاستمعوا وافهموا) ، وان بين موته والفيل خمسمائة سنة وعشرون سنة [1] .

وفي قول أهل الأخبار عن وقت موت كعب مبالغة شديدة بالطبـع ، فإن كعباً هو والد (مُرّة) و (مُرّة) هو والد (كلاب) و (كلاب) هو والد (قصيّ) . فلا يعقل إذن ان يكون بين موت (كعب) وبين الفيل هذا المقدار من السنين .

وهم يذكرون ايضاً ان والد (قصيّ) وهو (كلاب) كان قـد تزوج (فاطمة بنت سعد بن سيل) ، فأنجبت له (قصيّـاً) . وهي من الأزد ، من نسل (عامر الجادر) . وقد عرف بـ (الجادر) لانه بنى جدار الكعبة بعد ان وَهَنَ من سيل أتى في أيام ولاية جرهم البيت ، فسمي الجادر . وذكر ايضاً ان الحاج كانوا يتمسحون بالكعبة ، ويأخذون من طيبها وحجارتها تبركاً بذلك ، وان عامراً هذا كان موكلاً باصلاح ما شعث من جدرها فسُمّي الجادر . وذكر ان (سعد بن سيل) ، كان أول من حـلى السيوف بالفضة والذهب . وكان أهدى الى (كلاب) مع ابنته (فاطمة) سيفين محليين ، فجعلا في خزانـة الكعبة [2] . وذكر ان (كلاباً) ، هو أول من جعل في الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة [3] . وجاء ايضاً انه أول من جدر الكعبة [4] .

و (قصيّ) رئيس قريش ، ، هو الذي ثبت الملك في عقبـه ، ونظـم شؤون المدينة ، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حين شعر بدنو أجله . فلما أشرق الإسلام ، كانت أمور مكة في يد قريش ، ولم يكن لغـير قريش نفوذ يذكر على مكة . فهو الذي بعث الحياة الى قومه من قريش ، وجعل لهم مكانة في هذه القرية ونفوذاً وشهرة في الحجاز . وهو الذي أوجد لمكة مكانة ، وخلق

---

١ نهاية الأرب (١٦/١٨) .
٢ البلاذري ، انساب (١/٤٨)، (كلاب) ، الدميري ، حياة الحيوان (٢/٢٧٨) .
٣ نهاية الأرب (١٦/١٩) .
٤ نسب قريش ، للزبيري (ص ١٤) .

لها نوعاً من التنظيم والإدارة . ومن عهده فما بعد نجد في أخبار مكة ما يمكن ان يركن ويطمأن اليه من أخبار .

وقد روى (ابن قتيبة) خبراً مفاده ان (قيصر) أعان (قصياً) على (خزاعة)[1] . واذا صح هذا الخبر ، فإن مساعدة (قيصر) له قد تكون عن طريق معاونة الغساسنة له ، وهم حلفاء الروم . وقد تكون قبيلة (بنو عذرة) وهي من القبائل المتنصرة التي عاشت على مقربة من حدود بلاد الشأم ، هي التي توسطت فيما بين قصي والروم ، وقد كانت خاضعة لنفوذهم ، فأعانه أحد الحكام الروم — وقد يكون من ضباط الحدود ، أو من حكام المقاطعات الجنوبية مثل (بصرى) — بأن أمده بمساعدة مالية أو بايعاز منه الى الأعراب المحالفين للروم بمساعدته في التغلب على خزاعة[2] . ولا أهمية كبيرة في هذا الخبر لكلمة (قيصر) . فقد جرت عادة أهل الأخبار على الإسراف في استعمالهم لهذه اللفظة . وقد ورثوا هذا الإسراف من الجاهليين ، فقد كان من عادتهم تسمية أي موظف بارز من موظفي الحدود الروم ، أو من حكام المقاطعات بـ (قيصر) . وفي روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من هذا القبيل .

ويذكر ان (عثمان بن الحويرث) ، وكان من الهجائين في قريش ومن العالمين بأخبار رجالها ، قد توسط فيما بعد لدى البيزنطيين لتنصيب نفسه ملكاً على مكة . وهو من (بني أسد بن عبد العزى) . ويظهر انه أدرك المرارة التي أصيب بها البيزنطيون من خروج الحبش عن اليمن ومن دخول الفرس اليها ، وسيطرتهم بذلك على باب المندب ، مفتاح البحر الأحمر ، فتقرب الى الروم وتوسل اليهم لمساعدته بكل ما عندهم من وسائل لتنصيب نفسه ملكاً على مكة ، علماً منه ان هذا الطلب سيجد قبولاً لديهم ، وان في امكانهم في حالة عدم رغبتهم بمساعدته مساعدة عسكرية أو مالية ، الضغط على سادات مكة ضغطاً اقتصادياً ، بعرقلة تجارتهم مع بلاد الشأم ، أو بمنع الاتجار مع مكة ، أو برفع مقدار الضرائب التي تؤخذ عن تجارتهم ، وبذلك يوافقون على الاعتراف به ملكاً

١ المعارف (ص ٦٤٠) ، (وأعانه قيصر عليها) ،
Lammens, Macque, P. 269.

٢ W. M. Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

عليــه ، على نحو مـــا كان عليه الملوك الغساسنة . وكما سأتحدث عن هـــذا الموضوع فيما بعد .

والظاهر ان مشروعه هذا لم يلاق نجاحاً ، لأن سادات مكة وفي جملتهـــم رجال من (بني أسد بن عبد العزى) ، مثل (الأسود بن المطلب) و (أبو زمعة) ، والأثرياء من الأسرة الأخرى عارضوه ، لأنهم كانوا تجاراً يتاجرون مع الفرس والروم ، وانحيازهم الى الروم ، معناه خروج مكة عن سياسة الحياد التي اتبعوها تجاه المعسكرين : الفرس والروم ، وسيؤدي هذا الانحياز الى عرقلة اتجارهم مع الفرس ومع الأرضين الخاضعة لنفوذهـــم ، وتؤدي هـــذه العرقلة الى خسارة فادحة تقع بتجارتهم ، لا سيما وان الفرس كانوا قد استولوا على اليمن ، ولأهل مكة تجارة واسعة معها . ثم إن بين أهل مكة رجال لهم شأن ومكانة في قومهم ، وكانوا أرفع منزلة من (عثمان بن الحويرث) ، لذلك لم يكن من الممكن بالنسبة لهم الانصياع له حتى وإن أرسل الروم جيشاً قوياً منظماً على مكة ، لذلك لم يتحقق حلم (عثمان) في الرياسة ولو بمساعدة قوات أجنبية .

وزعم بعض أهـــل الأخبار ان (الحارث بن ظـــالم المري) ، ذكر (آل قصي) في شعره ، ودعاهم بـ (قرابين الإله) ، إذ قال :

وإن تَعصيب بهم نسبي فنهـــم قرابـــين الإله بنو قصي[1]

وهو في عرف بعض النسابين : (قصي بن كلاب بن مُرة ين كعب بن لؤي بن فهر)[2] . و (قصي بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مـــالك بن النضر بن كنانـــة بن خزيمـــة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معـــد بن عدنان) ، في شجرة نسبه التي توصله الى جـــده الأعلى (عدنان)[3] . فأبوه هو كلاب . اما أمه ، فهي (فاطمة بنت سعد بن

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٦) .
٢ ابن الأثير ، الكامل ، (٢/٧ وما بعدها) ، المعارف (٧٠ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠) ، ابن سعد ، طبقات (١/٦٨) .
٣ الطبري (٢/٦٦١ وما بعدها) ، (دار المعارف بمصر) ، مروج (٢/١٦٤) ، (طبعه محمد محيي الدبن عبد الحميد) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام ، (١/١٨) ، أبو الفداء ، المختصر (١/١١٢) .

سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جعثمة ابن يشكر) من أزد شنوءة حلفاء في (بني الدّيل) [1] . توفي أبوه وهو صغير ، وتزوجت أمه بعد وفاة (كلاب) أبيه من رجل من بني عذرة ، هو ربيعة بن حرام . ولصغر سن قصي ، أخذته أمه معها الى أرض زوجها في بني عذرة ، على مقربة من تَبُوك ، وتركت أخاه الأكبر (زهرة) في أهله بمكة . ولما شب قصيّ وترعرع ، وعرف من أمه أصله وعشيرته ، رجع الى قومه ، فنزل بمكة وأقام بها : ونظم أمر قريش [2] .

ولم يكن اسم قصي قصيّاً يوم سُمي ، بل كان (زيداً) ، وانما سُمّي قصيّاً بعد ذلك ، سُمّي قصيّاً على ما يذكر أهل الأخبار ، لأنه قصيّ عن قومه ، فكان في بني عذرة ، فسمي قصيّاً لبعد داره عن دار قومه [3] . وبينا قصي بأرض قضاعة لا ينتمي إلا الى ربيعة بن حرام ، زوج أمه ، وهو من أشراف قومه ، إذ كان بينه وبين رجل من قضاعة شيء ، فأنبه القضاعي بالغربة ، فرجع قصي الى أمه ، وقد وجد في نفسه مما قال له القضاعي ، فسألها عما قال له ذلك الرجل ، فقالت له : أنت ، والله ، يا بني أكرم منه نفساً وولداً . فأجمع قصي الخروج الى قومه واللحوق بهم ، فقالت له أمه : يا بني ، لا تعجل بالخروج حتّى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاج العرب ، فإنّي أخشى عليك ان يصيبك بعض البأس ، فأقام قصي حتّى إذا دخل الشهر الحرام ، خرج حاج قضاعة ، فخرج فيهم حتّى قدم مكة فلما فرغ من الحج ، أقام بها ، واتخذها له مستقراً ومقاماً [4] .

وتعرف قصي وهو بمكة على (حليل بن حبشية الخزاعي) ، وكان يلي الكعبة وأمر مكة ، ثم خطب اليه ابنته ، وهي (حبى) ، فزوجه إياها ، وولدت

---

١ الطبري (٢/٢٥٤) ، (دار المعارف بمصر) ، (وسيل ، هو خير بن حمالة ، من الجدرة من أزد شنوءة) ، المحبر (٥٢) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٦٦ وما بعدها) .

٣ واسمه (زيد) وكنيته (أبو المغيرة) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/٧ وما بعدها) ، (فاطمة بنت سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر) ، الاشتقاق (١٣ ، ٢٥) ، الطبري (٢/٢٥٥) ، (دار المعارف بمصر) ، الأزرقي ، أخبار مكة (١/٥٧) ، السويدي ، سبائك (٦٧) .

٤ الطبري (٢/٢٥٥) (دار المعارف بمصر) ، نهاية الأرب (١٦/٢٠ وما بعدها) .

له ولده : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزّى ، وعبد قصي . وكثر ماله ، وعظم شرفه ، فلما توفي (حليل) رأى قصي انه أولى من خزاعة بولاية البيت ، وان قريشاً فرعة اسماعيل وابراهيم ، واستنفر رجال قريش ، ودعاهم الى اخراج خزاعة من مكة . وكتب الى أخيه من أمه ، وهو (رزاح بن ربيعة بن حرام العذري) يستنصره ، فأجابه ومعه قومه من بني عذرة من قضاعة ، ووصلوا مكة ونصروه ؛ وغلبت قضاعة وبنو النضر خزاعة ، وزال ملكهم عن مكة ، وصار الامر الى قصي وقريش[1] .

وفي رواية أخرى انه اشترى ولاية البيت من (أبي غَبْشان) بزق خمر وبعود . وكان (حليل) كما يقول أصحاب هذه الرواية قد جعل ولاية البيت الى ابنته (حُبى) ، فقالت : قد علمت اني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه ، قال : فاني أجعل الفتح والاغلاق الى رجل يقوم لك به ، فجعله الى (أبي غبْشان) ، وهو (سليم بن عمرو بن بويّ بن ملكان بن أفصى) ، فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وبعود . فلما سمعت خزاعة ذلك ، تجمعت على قصي ، فاستنصر أخاه ، فقاتل خزاعة وأصيب خزاعة بوباء العدسة ، حتى كادت تفنيهم . فلما رأت ذلك ، جلت عن مكة . ويذكرون ان العرب لما سمعت بقصة (أبي غبشان) ، قالت : (أخسر صفقة من أبي غبشان) ، فذهب القول مثلاً[2] .

وأبو غبشان ، هو (المحترّش)[3] . وقد ورد اسم رجل عرف بالحارث ، قيل عنه انه غبشان بن عبد عمرو ، وانه كان قد حجب البيت[4] ، فلعلّ له علاقة بأبي غبشان المذكور ، كأن يكون ابنه .

وفي رواية ان القتال حينما اشتد بين قصي وخزاعة ، تداعوا الى الصلح ، على

١ الطبري (٢/٢٥٥ وما بعدها) ، ابن الأثير (٢/٧ وما بعدها) ، الأزرقي (١/٥٥ وما بعدها) ، (طبعة الماجدية) ، (٦٥ وما بعدها) ، (طبعة وستنفلد) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٦٨) (صادر) ، البلاذري ، أنساب (١/٤٧ وما بعدها) .

٢ الطبري (٢/٢٥٦) (دار المعارف بمصر) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/٨) ، السويدي ، سبائك (٦٧) ، المسعودي ، مروج (٢/٥٨ وما بعدها) .

٣ الاشتقاق (ص ٢٧٧) .

٤ الاشتقاق (ص ٢٨٢) .

ان يحكم بينهم (عمرو بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة) (يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث) ، فوافـق . فكان حكمه ان قصياً أولى بالبيت ومكة من خزاعة ، وان كل دم أصابه من خزاعة موضوع ، فيشدخه تحت قدميه ، وان كل دم أصابت خزاعة وبنو بكر حلفاؤهم من قريش وبني كنانـة ، ففي ذلك الدية مؤداة . وبذلك انتصر قصي عـلى خصومه . ويقولون إن (عمراً) سُمّي منذ ذلك الحين الشدّاخ ، بمـا شدخ من الدمـاء[1] .

ولم يشر بعض أهل الأخبار الى ان شدخ الشدّاخ الدماء بين قريش وخزاعة ، كان في عهد قصي ، فأغفلوا اسم (قصي) ، بل اكتفوا بالاشارة الى شدخه الدماء واصلاح ما بين قريش وخزاعة ، وذكر بعضهم انه حكم في جملة ما حكم به على ألا يخرج خزاعـة من مكة[2] . وأكثر الرواة على ان اسمه (يعمر بن عوف ، لا (عمرو بن عوف) كما جاء في الرواية المتقدمة[3] .

ولم تشر رواية أخرى ذكرها (ابن دريد) الى وقوع نزاع بين قصي وبين خزاعة ، بل قالت : إن حليلاً سادن الكعبة ، كان قد أوصى اليها أمر الكعبة واعطاها مفتاحها ، فأعطته زوجها قصياً ، فتحولت الحجابـة من خزاعـة الى بني قصي[4] .

وترجع بعض الروايات نزاع خزاعة مع قصي الى عامل آخر غير ولاية البيت ، فتذكر ان خزاعة كانت قد سلمت لقصي بحقه في ولاية البيت ، وانها زعمت ان (حليلاً) أوصى بذلك قصياً ، وبقيت على ولائها له ، الى ان اختلف (قصي) مع (صوفة) . وكانت (صوفة) وهي من (جرهم) تتولى أمـر الإجازة

---

١ ابن الأثير (٢/٨) ، (الشداخ : وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر) المحبر (ص ١٣٣) ، (يعمر بن عوف) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٦٩) (صادر) ، نهاية الأرب (١٦/٣٨) .

٢ المحبر (ص ١٣٣ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ١٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٠٦) ، سيرة ابن هشام (١/٧٩ وما بعدها) ، الطبري (١٠٩٧) (طبعة ليدن) ، (٢/٢٥٨) (طبعة دار المعارف بمصر) .

٤ الاشتقاق (ص ٢٧٦) .

بالناس من عرَفَة . فتجيزهم إذا نفروا من (مِنى) تولت ذلك من عهد جرهم وخزاعة . فلما كان قصي ، أتاهم مع قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة ، فقالوا : نحن أولى بهذا منكم ، فناكروه ، فناكرهم ، فقاتلوه ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً ، ثم انهزمت صوفة ، وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم من ذلك ، وحال بينهم وبينه ، فانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي بن كلاب ، وعرفوا انه سيمنعهم كما منع صوفة ، فوقع من ثم ما وقع على نحو ما مر[1] .

غير ان الرواة يذكرون في مكان آخر ان قصياً أقر للعرب في شأن حجهم ما كانوا عليه ، وذلك انه كان يراه ديناً في نفسه ، لا ينبغي له تغييره ، وكانت صوفة على ما كانت عليه ، حتى انقرضت — فصار ذلك من أمرهم الى (آل صفوان بن الحارث بن شجنة) وراثة[2] . فهذه الرواية تنافي ما ذكرته آنفاً من قولهم بقتال قصي لهم ، وغلبته عليهم . وبقي أمر (عدوان) والنسأة ، ومرة ابن عوف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام ، فهدم به ذلك كله[3] .

ويذكر الأخباريون ان قصياً بعد ان تمت له الغلبه ، جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال الى مكة ، فسُمّي لذلك مُجمّعاً ، وانه حكم منذ ذلك الحين فيهم ، وملك عليهم . فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً ، وأطاعه قومه به ، وأنه قسم مكة أرباعاً بين قومه ، فبنوا المساكن ، وان قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم ، فقطعها قصي بيده ، وأعانوه ، وانها تيمنت به ، فكانت لا تعقد أمراً ، ولا تفعل فعلاً إلا في داره ، فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي ، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره ، يعقدها لهم بعض ولده ، وما تدرّع جارية إذا بلغت ان تدرّع من قريش إلا في داره ، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها الى أهلها ، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع ، لا يعمل بغيره تيمناً بأمره ومعرفة

---

١ الطبري (٢٥٧/٢ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (٦٨/١) .
٢ الطبري (٢٥٩/٢) .
٣ نهاية الأرب (٢٩/١٦) .

بفضله وشرفه ، واتخذ قصي لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضي أمورها [١] .

ويذكر الأخباريون ايضاً ، ان قريشاً كانوا إذا أرادوا إرسال عيرهم ، فلا تخرج ولا يرحلون بها إلا من دار الندوة · ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفاً له وتيمناً برأيه ومعرفة بفضله ، ولا يعذر لهم غلام إلا في دار الندوة . وكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة . وكان يعشر من دخل مكة سوى أهلها [٢] .

وقد وردت في الشعر لفظة (مجمع) :

أبونا قصي كان يدعي مجمّعاً   بـه جمع الله القبائل من فهر [٣]

فيظهر من هذا البيت انه جمع قبائل فهر ، ووحدها .

ويذكر الرواة ان (بني بكر بن عبد مناة) ، صاروا يبغضون قريشاً لما كان من (قصي) حين أخرجهم من مكة مع من أخرج من خزاعة حين قسمها رباعاً وخططاً بين قريش . فلما كانوا على عهد (المطلب) ، وهموا باخراج قريش من الحرم وان يقاتلوهم حتى يغلبوهم عليه ، وعدت (بنو بكر) على نعم لبني الهون فأطردوها ، ثم جمعوا جموعهم وجمعت قريش واستعدت . وعقد المطلب الحلف بين قريش والأحابيش ، فلقوا بني بكر ومن انضم اليهم وعلى الناس (المطلب) ، فاقتتلوا بـ (ذات نكيف) ، فانهزم بنو بكر ، وقتلوا قتلاً ذريعاً ، فلم يعودوا لحرب قريش .

وقتل يومئذ (عبيد بن السفّاح القاري) من القارة : قتادةَ بن قيس أخا

١ الطبري (٢/٢٥٨ وما بعدها) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/١٣ وما بعدها) ، ابن هشام ، سيرة (٢/١٢٤ وما بعدها) ، (طبعة مصطفى البابي) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٢) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٧٠) .

٣ الاشتقاق (٩٧) ، وفي رواية : (أبوكم قصي) ، الطبري (٢/١٦) (الاستقامة) ، اليعقوبي (١/٢١٠) ، المقدسي ، البدء والتاريخ (٤/١٠٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧١) (بيروت) ، السويدي ، سبائك (٦٧) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٠) .

(بلعاء بن قيس) . والقارة من ولد (الهون بن خزيمة)[1] .

ويظهر من هذه الروايات ان أرض حرم مكة كانت مشجرة ، وان تلك الأشجار كانت مقدسة ، وان بعض بيوت مكة كانت ذات أشجار ، ويظهر انها انتزعت من أرض الحرم ، ولذلك كانوا يهابون قطعها ولا يتجاسرون على إلحاق سوء بها . فلما جاء قصي ، خالف عقيدة القوم فيها ، فقطعها . ولما وجد أهل مكة ان قطعها لم يلحق أي سوء بقصي ، وانه بقي سالماً معافى ، تجاسروا هم وفعلوا فعله في قطع الشجر[2] .

وذكر العلماء : ان (الحرم) ، أي حرم مكة ، ما أطاف بمكة من جوانبها ، وحدّه من طريق المدينة دون (التنعيم) عند بيوت (بني نفار) على ثلاثة أميال ، ومن طريق العراق على ثنيّة جبل بالمنقطع على سبعة أميال ، ومن طريق الجعرانة بشِعْب (آل عبد الله بن خالد) على تسعة أميال ، ومن طريق الطائف على عرفة من بطن (نمرة) على سبعة أميال ، ومن طريق (جُدَّة) منقطع العشائر على عشرة أميال[3] .

والحرم المذكور ، هو الأرض الحرام التي كانت مقدسة عند الجاهليين أيضاً ، وهي مكة وأطرافها الى حدودها التي اصطلح عليها . وأما الحرم الذي أحاط بالكعبة فقد عرف بـ (المسجد) و (بالمسجد الحرام) و بـ (الحرم) . ولا نعرف حدوده في الجاهلية على وجه واضح معلوم . وقد كان الجاهليون قد وضعوا أنصاباً على الحدود ليعلم الناس مكان الحرم ، ولم يكن له جدار محيط به . وذكر انه كان في عهد الرسول وأبي بكر فناء حول الكعبة للطائفين ، ولم يكن له على عهدهما جدار يحيط به . فلما استخلف (عمر) وكثر الناس ، وسّع المسجد ، واشترى دوراً هدمها وزادها فيه ، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة ، وكانت المصابيح توضع عليه . فكان عمر أول من اتخذ جداراً للمسجد .

١ البلاذري ، انساب (١/ ٧٥ وما بعدها) ، المحبر (٦٤٦) ، نهاية الأرب (١٦/ ٣٥ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، انساب (١/ ٥٨) ، ابن سعد ، طبقات (١/ ٧١) ، (صادر) ، السيرة الحلبية (١/ ١٤) ، اليعقوبي (١/ ٢١٠) .
٣ الاحكام السلطانية (١٦٤ وما بعدها) .

ثم وسّع المسجد (عثمان) ومن جاء بعده ، ثم صار كل من ولي من الخلفاء والسلاطين يزيد في اتساع الحي ، حتى صار على ما هو عليه الآن .[1]

ودار الندوة اذن هي دار مشورة في أمور السلم والحرب ، ومجلس المدينة التي عرف رؤساؤهـا كيف يحصلون على الثروة وكيف يستعيضون عن فقر ارضهم بتجارة تدرّ عليهم ارباحاً عظيمة وبخدمة يقدمونها الى عابدي الأصنام ، جاءت اليهم بأموال وافرة من الحجيج . في هذه الدار يجتمع الرؤساء وأعيان البلاد للتشاور في الأمور والبت فيها . وفي هذه الدار ايضاً تجري عقود الزواج ، وتعقد المعاملات ، فهي دار مشورة ودار حكومة في آن واحد ، يديرها (الملأ) ، وهم مثـل اعضاء مجلس شيوخ (اثينا) الذين كانوا يجتمعون في (المجلس) (Ekklesia) للنظر في الأمور .[2] يمثلون زعماء الأسر ، ورؤساء الأحياء ، وأصحاب الرأي والمشورة للبت فيما يعرض عليهم من مشكلات .[3]

وقد ذكر بعض اهل الاخبار ان دار الندوة لم يكن يدخلها الاّ ابن اربعين او ما زاد ، فدخلها ابو جهل ، وهو ابن ثلاثين لجودة رأيه .[4] ودخلها غيره للسبب نفسه . فيظهر من ذلك ان المراد من دخول الدار ، هو حضورها للإسهام في ابداء رأي وتقديم مشورة .

ولما كانت سن الأربعين في نظر العرب هي سن النضج والكمال ، اخذوا بمبدأ تحديده باعتباره الحد الأصغر لسن من يسمح له بالاشتراك في الاجتماعات وابداء الرأي ، الا اذا وجدوا في رجل اصغر سناً جودةً في الرأي ، وحدة في الذكاء ، فيسمح له عندئذ بالاشتراك وبابداء الرأي بصورة خاصة .

وذكر ايضاً ، انه لم يكن يدخل دار الندوة احد من قريش لمشورة حتى يبلغ اربعين سنة ، الاّ حكيم بن حزام ، فانه دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة . وكان ولد في الكعبـة ، وذلك ان أمه دخلت الكعبة مع نسوة من قريش وهي حامل به ، فضربها المخاض في الكعبة ، وأعجلها عن الخروج ، فوضعت به بها . وجاء

١ الأحكام السلطانية (١٦٢) ، نزهة الجليس (١/٢٤) .

٢ Watt, p. 9.

٣ O'Leary, p. 183.

٤ الاشتقاق (ص ٩٧) .

الإسلام ودار الندوة بيد حكيم ، فباعها بعد من معاوية بمائة الف درهم . [1]

فدار الندوة اذن ، هي دار (ملأ) مكة . وهم سادتها ووجوهها وأشرافها وأولو الأمر فيها . ولم تكن (برلماناً) او (مجلس شيوخ) على النحو المفهوم من اللفظتين في المصطلح السياسي . وانما كانت دار (أولي الشورة) و (الرأي) . تتخذ رأياً عند ظهور حاجة او اتخذ (الرأي) وعند وجوب حصول زعماء الملأ على قرار في امر هام . ولم تكن قراراتها ملزمة ، بل قد يخالفها سيد ذو رأي ومكانة ، فيتفرد برأيه . ولا يحتمل الاجماع الا باتفاق . والغالب ألا يحصل هذا الاتفاق . ويتوقف تنفيذ رأي (الملأ) على شخصية المقررين وعلى كفاءتهم وعلى ما يتخذونه من اجراء بحق المخالفين المعاندين من مقاطعة ومن مساومة ومن اقناع . والغالب ان الملأ لا يتخذون رأياً الا بعد دراسة وتفكير ، ومفاوضات يراعى فيها جانب المروءة والحلم والمرونة ، حتى لا يقع في البلد انشقاق قد يعرض الأمن الى الاهتزاز .

وربما قام وجوه (الشعب) ، وهم سادة الأسر ، بدور هو اكثر فعالية من دور (دار الندوة) في فض الخصومات . والعادة عندهم ان الخصومات الداخلية للأسر ، تفض داخل الأسرة ، لأن (آل) الأسرة أقدر على حل خلافاتهم من تدخل غيرهم في شؤونهم ، ثم انهم لا يقبلون بتدخل غريب عن الأسرة في شأن من شؤون تلك الأسرة . لذلك كان (الملأ) لا ينظرون الا في الامور التي هي فوق مستوى الاسر و (الشعاب) ، والتي تخص امور المدينة كلها ، والتي قد تعرض أمنها الى الخطر ، او التي يتوقف على قراراتهم بصددها مستقبل المدينة .

والانسان بمكة بأسرته وبمقدرته وقابلياته وكفاءته . وقد يرفع الاشخاص من مستوى اسرهم ، وقد يهبط مستوى الأسر ومكانتها بسبب هبوط مستوى رجالها وعدم ظهور رجال اغنياء اقوياء فيها . ولما كانت مكة مدينة عمل وتجارة ومال ، والمال يتنقل بين الناس حسب اجتهاد الافراد وجدهم في السعي وراءه ، لذلك تجد من بين رجالها من يخمل ذكره بسبب خمول اولاده وتبذيرهم لما ورثوه من مال ، وعدم سعيهم لاضافة مال جديد اليه . ويستتبع ذلك تنقل النفوذ من بيت الى بيت .

فالحكم في مكة اذن حكم لا مركزي ، حكم رؤساء واصحاب جاه ونفوذ ومنزلة

---

[1] الثعالبي ، ثمار القلوب (٥١٨ وما بعدها) .

تطاع فيها الاحكام ، وتنفذ الاوامر ، لا لوجود حكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على اهل مكة ، بل لأن الاحكام والاوامر هي احكام ذوي الوجه والسن والرئاسة والشرف ، واحكام هؤلاء مطاعة في عرف اهل مكة وفي عرف غيرهم من اهل جزيرة العرب . حكمت بذلك العادة وجرى عليه العرف ، ولا مخالفة للعرف والعادة . فالعرف قانون اهل جزيرة العرب حتى اليوم . وانتهاك احكامها معناه انتهاك سيادة القانون ، وتمرد على الهيأة والنظام ، وتحقير الحاكمين واهانة لهم ولاتباعهم ، وليس لاحد الخروج على اوامر سادات القوم وذوي الحسب والشرف والسن والعقل .

ولم تكن في مكة حكومة مركزية بالمعنى المفهوم المعروف من الحكومة ، فلم يكن فيها ملك له تاج وعرش ، ولا رئيس واحد يحكمها على انه رئيس جمهورية او رئيس مدينة ، ولا مجلس رئاسة يحكم المدينة حكماً مشتركاً او حكماً بالتناوب ، ولا حاكم مدني عام او حاكم عسكري . ولم يتحدث اهل الاخبار عن وجود مدير عام فيها واجبه ضبط الامن . او مدير له سجن يزج فيه الخارجين عن الانظمة والقوانين او ما شابه ذلك من وظائف نجدها في الحكومات . وكل امرها انها قرية تتألف من شعاب . كل شعب لعشيرة . وأمر كل شعب لرؤسائه ، هم وحدهم اصحاب الحل والعقد والنهي والتأديب فيه . وليس في استطاعة متمرد مخالفة احكامهم . والا ادبه حيه ، وملؤه اي اشرافه . هؤلاء الرؤساء هم الحكام الناصحون وهم عقلاء الشعب .

وقد اشير الى رؤساء مكة في القرآن الكريم في آية : (وقالوا : لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) . [1] فرؤساء مكة هم علماؤها وساداتها ، وهم أعلى الناس منزلة ودرجة ومكانة فيها . و (عظماء) مكة او (عظماء الطائف) هم الطبقة (المختارة) والصفوة المترعمة في الناس . واليها وحدها تكون الزعامة والرئاسة والرجاحة في الرأي .

وقانون القوم ودستورهم : (إنا وجدنا آباءنا على امة وانّا على آثارهم مقتدون) . [2] فهم محافظون حريصون على كل ما وصل اليهم ، لا يريدون له تغييراً ولا تبديلاً . مهما بدا لهم في الجديد من منطق وحق . (قال : أوَ لو

١ الزخرف ، الآية ٣١ .
٢ الزخرف ، الآية ٢٣ .

جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم . قالوا انّا بما أرسلتم به كافرون) .[1] وفي القرآن الكريم آيات اخرى ترينا تمسك نخبة مكة ورجال الملأ بحقوقهم وبما ورثوه من عرف مكّنهم من الملأ ، وفي تمسكهم بها محافظة على حقوقهم الموروثة وعلى مصالحهم وعلى زعامتهم في الناس .

فملأ مكة اناس محافظون لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً ، سنتهم التعلق بالماضي ، وكره الثورة والخروج عن العرف والعادة مهما كانت . فالعرف جرى الناس عليه ، فلا خروج على العادة والعرف . اما المستهين بالعرف المخالف لسنة الآباء والاجداد ، فيعاقب حتّى يعود الى رشده وصوابه . وهم باستماتتهم في التمسك بالماضي كيف كان ، وبتطرفهم في المحافظة على العرف ، انما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية ، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد ، المحافظة على مصالحها ، استناداً الى العادات . هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجّل ، وعلى الناس الطاعة والانقياد . (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله . قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) .[2]

وقد توارث بنو عبد الدار الندوة ، حتّى باعها (عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار) من معاوية ، فجعلها دار الامارة بمكة ، ثم أدخلت في الحرم[3] . وورد في رواية اخرى ان (حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الاسلمي) وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد ، كان هو الذي باعها من معاوية وكانت بيده . باعها بمئة ألف درهم .[4] وكان قد اشتراها من (منصور بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار .[5]

ودار الندوة ، هي أول دار بنيت بمكة على حدّ قول الرواة . وكانت اشهر

١ الزخرف ، الآية ٢٤ .

٢ البقرة ، الآية ١٧٠ .

٣ ابن الأثير ، الكامل (٢/١٤ وما بعدها) ، تاج العروس (١٠/٣٦٢ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) ، (وعكرمه بن عامر بن هشام بن عبد الدار بن قصي) ، الأحكام السلطانية (ص ١٦٤) ، البلاذري ، انساب (١/٥٣) .

٤ ديوان حسان (٦٩) ، (البرقوقي) .

٥ نسب قريش (٢٥٤) .

دار بمكة وانشرها في الناس خبراً.[1] ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه. ويذكر اهل الاخبار : ان مكة لم تكن ذات منازل ، وكانت قريش بعد جُرْهُمْ والعمالقة ينلجعون جبالها وأوديتها ولا يخرجون من حرمها انتساباً الى الكعبة لاستيلائهم عليها وتخصصاً بالحرم لحلولهم فيه . ولما كان (كعب بن لؤيّ بن غالب) ، جمع قريشاً صار يخطب فيها في كل (جمعة) ، وكان يوم الجمعة يسمى في الجاهلية (عروبة) فسماه كعب (الجمعة) . وبذلك ألف بين قريش حتى جاء (قصي) ففعل ما فعل .[2]

ولدينا خبر آخر ، يذكر انه قد كان حول الحرم شجر ذو شوك ، نبت من قديم الزمن وكوّن غُوطة ، فقطعها (عبد مناف بن قصي) ، وهو أول من بني داراً بمكة ، ولم تُبن دار قبلها ، بل كان بها مضارب للعرب من الشعر الاسود .[3]

وزعم بعض اهل الاخبار ان اهل مكة كانوا يبنون بيوتهم مُدوّرة تعظيماً للكعبة ، وأول من بنى بيتاً مربعاً (حُمَيْد بن زهير) ، فقالت قريش : (رَبَّعَ حُمَيْد بن زهير بيتاً) ، امّا حياةً واما موتاً) .[4] و (الربع) : المنزل ودار الإقامة والمحلة .[5] وهو احد (بني أسد بن عبد العزى) . وان العرب تسمي كل بيت مربع كعبة ، ومنه كعبة نجران .[6] وذُكر ايضاً ان (حُمَيْد بن زبير ابن الحارث بن اسد بن عبد العزى) ، هو اول من خالف سنة قريش وخرج على عرف اهل مكة فبنى بيتاً مربعاً . وجعل له سقفاً . وفي عمله هذا قال الراجز :

اليوم يبني لحُمَيْد بيته   امّا حياته واما موته[7]

وورد في رواية اخرى ، ان ثاني دار بنيت بمكة بعد دار الندوة ، هي (دار

١ الأحكام السلطانية (ص ١٦٣ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٦٤) .
٢ الأحكام السلطانية (ص ١٦٢ وما بعدها) .
٣ نزهة الجليس (١/٢٤) .
٤ نهاية الأرب (١/٣١٣) .
٥ اللسان (٨/١٠٢) .
٦ ابن رسته ، الاعلاق النفيسة (٥٨) .
٧ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٣) ، مؤرج السدوسي ، حذف من نسب قريش (٥٤) ، الزبير بن بكار ، نسب قريش (١/٤٤٣) ، Kister, p. 126

العجلة) ، وهي دار سعيد بن سعد بن سهم . وزعم (بنو سهم) انها بنيت قبل (دار الندوة)[1] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن بيوت مكة ان بيوتها ، وهي بيوت أثريائها وساداتها ، بيوت كانت مقامة بالحجر ، وبها عدد من الغرف ، ولها بابان متقابلان باب يدخل منها الداخل وباب تقابلها يخرج منها الخارج ، ولعلها بنيت على هذا الوضع ليتمكن النساء من الخروج من الباب الأخرى عند وجود ضيوف في رحبة الدار عند الباب المقابلة . ومعنى هذا ان أمثال هذه الدور كانت واسعة تشرت على زقاقين . ولبعض الدور (حجر) عند باب البيت ، يجلس تحته ليستظل به من أشعة الشمس ، وكان منزل (خديجة) ذو حجر من هذا الطراز[2] .

ولو أخذنا بالرواية المتقدمة عن التغيير الذي طرأ على طراز العمارة في مكة ، فإن ذلك يحملنا على القول : إنه يجب ان يكون قد حدث في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد . في وقت ليس ببعيد عهد عن أيام النبي . لأننا نجد ان أحد أبناء (حُمَيْد) ، وهو عبد الله) ، كان قد حارب في معركة (أحد)[3] .

ويتبين من غربلة روايات الأخباريين المتقدمة عن مدى سعة الحرم وعن زمان بناء الدور بمكة ، ان بطن مكة لم يعمر ولم تبن البيوت المستقرة فيه إلا منذ أيام (قصي) . أما ما قبل ذلك ، فقد كان الناس يسكنون (الظواهر) : ظواهر مكة ، أي أطرافها وهي مواضع مرتفعة تكون سفوح الجبال والمرتفعات المحيطة بالمدينة . أما باطن مكة ، وهو الوادي الذي فيه البيت ، فقد كان حرماً آمناً ، لا بيوت فيه ، او ان بيوته كانت قليلة حصرت بسدنة البيت وبمن كانت له علاقة بخدمته . لذلك نبت فيه الشجر حتى غطي سطح الوادي ، من السيول التي كانت تسيل اليه من الجبال . ولم يكن في وسع أحد التطاول على ذلك الشجر ، لأنه شجر حرم آمن ، وبقي هذا شأنه يغطي الوادي ويكسو وجهه بغُوطة ، حتى جاء (قصي) . فتجاسر عليه بقطعه كما ذكرنا . وخاف الناس من فعله ، خشية

١ البلاذري ، فتوح (٦٤) .
٢ الطبري (٢/٢٨٢) ، (ذكر تزويج النبي) .
٣ Kister, P., 127

غضب رب البيت ، ونزول الأذى بهم إن قطعوه . فلما وجدوا ان الله لم يغضب عليهم ، وانه لم ينزل سوءاً بهم ، اقتفوا أثره ، فقطعوا الشجر ، واستحوذوا على الأرض الحرام ، وظهرت البيوت فيه ، وأخذت تتجه نحو البيت حتّى أحاطت به ، وصغرت مسجده ، ولم يكن له يومئذ جدار . وظلت البيوت تتقرب اليه حتّى ضايقته وصغرت فناءه : مما اضطر الخليفة (عمر) ومن جاء بعده الى هدم البيوت التي لاصقته لتوسيع مسجده ، ثم الى بناء جدار ليحيط به حتّى صار على نحو ما هو عليه في هذا اليوم .

ويتبين من خطبة الرسول عام الفتح ويوم دخوله البيت الحرام وقوله : (لا يُختلى خلا مكة ولا يعضد شجرها) [1] ، ان حرم مكة كان لا يزال ذا شجر . ولم يكن قد قطع تماماً منه في أيام الرسول .

وتذكر بعض الموارد ان قصيّاً أول من بنى الكعبة بعد بناء تبع ، وكان سمكها قصيراً ، فنقضه ورفعها [2] . وإذا صحت الرواية ، يكون قصي من بناة الكعبة ومن مجدديها . وذكر انه كان أول من جدد بناء الكعبة من قريش ، وانه سقفها بخشب الدوم وجريد النخل . وقد أشير الى هذا البناء في شعر ينسب الى الأعشى [3] . وهذه الرواية تناقض بالطبع ما يرويه الأخباريون من ان الكعبة لم تكن مسقفة ، وانها سقفت لأول مرة عندما جدد بناؤها في أيام شباب الرسول . وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة [4] .

والظاهر من روايات الأخباريين ، ان البيت كان في الأصل بيتاً مسقوفاً ، غير انه أصيب بكوارث عديدة ، فتساقط وتساقط سقفه مراراً بسبب السيول ، وبسبب حريق أصيب به ، فصار من غير سقف في أيام شباب الرسول . حتّى اذا ما نقضت قريش البيت وأعادت بناءه سقفته ، وزوّقت جدره الداخلية والخارجية بالأصنام والصور . وأعادت اليه خزائنه حتّى كان يوم الفتح ، إذْ أمر الرسول

---

١ فتوح البلدان ، للبلاذري (ص ٥٥) .
٢ الاشتقاق (٩٧) ، ابن كثير ، البداية والنهاية (٢/٢٠٧) .
٣ بلوغ الأرب (١/٢٣٢) ،
حلفت بثوبي راهب الشام والتي بناها قصي جده وابن جرهم
لئن شبّ نيران العداوة بيننا ليرتحلن مني على ظهر شيهم
الأحكام السلطانية (١٦٠) .
٤ الأحكام السلطانية (١٦٠) ، الطبري (٢/٢٨٣) ، (دار المعارف) .

بتحطيم الأصنام وبطمس الصور على نحو ما سأتحدث عنه في تأريخ الكعبة وذلك في القسم الخاص بأديان الجاهليين .

وفي روايات أهل الأخبار عن البيت — كما سنرى فيما بعد حين أتكلم عنه في هذا القسم الخاص بأديان أهل الجاهلية — غموض وتناقض ، يجعل من الصعب تكوين رأي واضح عنه . فبينما هم يقولون إنه كان من غير سقف وان الطيور كانت تقف عليه ، وان الأتربة المحملة بالأهوية كانت تتساقط في أرض البيت ، نراهم يذكرون انه كان مسقفاً ، وانه سقف بالخشب في أيام قصي وانه احترق ، ثم يقولون إنه كان في داخله أصنام قريش ، مع ان الوصف الذي يقدمونه لنا عن الكعبة من انها (كانت ضمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك ان نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كنزَ الكعبة ، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة)[1] ، لا يمكن ان يجعل البيت سوى غرفة بسيطة ساذجة من أحجار رصت بعضها فوق بعض .

وفي روايــة : ان قصيــاً هو أول من أظهر (الحجر الأسود) ، وكانت (إياد) دفنته في جبال مكة ، فرأتهم امرأة حين دفنوه ، فلم يزل (قصي) يتلطف بتلك المرأة حتى دلته على مكانه ، فأخرجه من الجبل ، واستمر عنــد جماعة من قريش يتوارثون حتى بنت قريش الكعبة فوضعوه بركن البيت ، بإزاء باب الكعبة في آخر الركن الشرقي[2] .

ويذكر ان قصيــاً بعد ان تمكن من مكة ، حفر بها بئراً سماها (العجول) وهي أول بئر حفرتها قريش[3] . وكانت قريش قبل قصي تشرب من بئر حفرها لؤي بن غالب خارج مكة تدعى (اليسيرة) ومن حياض ومصانع على رؤوس الجبال . ومن بئر حفرها (مُرّة بن كعب) مما يلي عَرَفَة ، تدعى (الروى) ، ومن آبار حفرها (كلاب بن مرة) ، هي (خم) و (رم) و (الجفر)

١ الطبري (٢/٢٨٣) .
٢ نزهة الجليس (١/٢٦) ، البلاذري ، أنساب (١/٥١) ، نهاية الأرب (١٦/٣١) .
٣ ابن الأثير (٢/٩) ، البلاذري ، أنساب (١/٥١) .

بظاهر مكة[١] . فكانت (بئر العجول) أول بئر حفرتها قريش في مكة[٢] .

وازدادت حاجة أهل مكة ، بعد قصي وقد تزايد عددهم الى الماء ، ولم تعد (العجول) تكفي لتموينهم به ، فاقتفى أولاده أثره في حفر الآبار ، واعتبروا حفرها منقبة ومحمدة ، لما للماء من أهمية لأهل هذا الوادي الجاف . وقد حازت بئر زمزم على المقام الأول بين آبار مكة ، فهي بئر البيت وبئر الحجاج تموتهم مما يحتاجون اليه من ماء .[٣]

وذكر أهل الأخبار ان في جملة ما أحدثه قصي في أيامه وصار سنة لأهل الجاهلية ، انه أحدث وقود النار بالمزدلفة : حيث وقف بها حتى يراها من دفع من عرفة ، فلم تزل توقد تلك النار تلك الليلة في الجاهلية[٤] . ويظهر ان قريشاً حافظت على هذه السُنّة أمداً في الإسلام . وكانت تلك النار توقد على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان[٥] .

ويذكرون أيضاً ان في جملة ما أحدثه : (الرفادة) ، وهي إطعام الحجاج في أيام موسم الحج حتى يرجعوا الى بلادهم . وقد فرضها على قريش إذْ قال لهم : (يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم ، وان الحاج ضيف الله وزوّار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم) . ففعلت قريش ذلك ، فكانوا يخرجون في كل عام من أموالهم خرجاً ، فيدفعونه الى قصي ، لكي يصنعه طعاماً للناس أيام منى وبمكة وقد بقيت هذه السنة في الإسلام[٦] . وذكر ان (الرفادة شيء كانت

---

١ البلاذري ، فتوح البلدان (ص ٦٠) ، (المكتبة التجارية) .

٢ البلاذري ، فتوح (٦٠) ، وفيها قال بعض رُجّاز الحجاج .

تروى على العجول ثم تنطلق ان قصيًا قد وفى وقد صدق

بالشبع للناس وريّ مغتبق

البلاذري ، أنساب (١/٥١) ، (دار المعارف) .

٣ البلاذري ، فتوح البلدان (ص ٦٠ وما بعدها) .

٤ الطبري (٢/٢٦٥) ، ابن الأثير ، البداية (٢/٢٠٧) ، السويدي ، سبائك الذهب (١١٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٢) (بيروت) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٧٢) (صادر) .

٦ ابن كثير ، البداية (٢/٢٠٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٦٩٣) (بيروت) ، الطبري (٢/١٩) (الاستقامة) (٢/٢٦٠) (دار المعارف) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٧٣) .

تترافد به قريش في الجاهلية ، فيستخرج فيما بينها كل انسان مالاً بقدر طاقته وتشتري به للحاج طعاماً وزبيباً للنبيذ ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام موسم الحج[1] .

وكانت الى قصي أيضاً : الحجابة ، والسقاية واللواء . فحاز شرف قريش كله[2] . وصار رئيسها الوحيد المطاع ، الناطق باسمها الآمر والناهي ، إذ لا أحد أحكم وأعقل وأحسن إدارةً للملك منه .

وذكر ان قصيّاً أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد اسماعيل ، وذلك في أيام المنذر بن النعمان ملك الحيرة ، وملك الفرس الساسانيين (بهرام جور)[3] . وقد كان حكم (بهرام جور) من سنة (٤٢٠ م) حتى سنة (٤٣٨ م)[4] ، أي في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد ، واذا أخذنا برواية من جعل قصيّاً من المعاصرين لهذا الملك ، يكون حكم قصي إذن في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد .

وقد نسب أهل الأخبار الى قصي أقوالاً وأمثالاً وحكماً وجعلوه غاية في الحكمة والمنطق . وروي (ان أمر قصي عند قريش ديناً يعملون به ولا يخالفونه)[5] .

وقد ترك قصي أثراً كبيراً في أهل مكة ، وعدّوه المؤسس الحقيقي لكيان قريش . وكانوا يذكرون اسمه دائماً بخير . وكانوا لا يطيقون سماع أحد يستهين بشأنه . فلما تطاول الشاعر (عبد الله بن الزِبَعْرَى) ، على ما جاء في بعض الروايات ، وتجاوز حدّه بذكر قصي بسوء في شعر له ، كتبه كما يقولون في أستار الكعبة ، غضب بنو عبد مناف ، واستعدّوا عليه (بني سهم) ، لأنه كان من (بني سهم) ، فأسلموه اليهم ، فضربوه وحلقوا شعره وربطوه الى

١ تاج العروس (٢/٣٥٥) ، (رفـد) .
٢ ابن الأثير ، الكامل (٢/١٣ وما بعدها) ، الأزرقي ، أخبار مكة (١/٦١) ، ابن كثير ، البداية والنهاية (٢/٢٠٧) .
٣ بلوغ الأرب (١/٢٤٧) .
٤ Ency., 4, P. 178.
٥ أنساب الأشراف ، للبلاذري (١/٥٢) .

صخرة ، فاستغاث قومـه ، فلم يغيثوه ، فجعل يمـدح قصياً ويسترضيهم ، فأطلقه بنو عبد مناف وأكرموه ، فمدحهم بأشعار كثيرة[1] .

ولم نعثر في نصوص المسند على اسم رجـل يُدعى قصيّاً ، وإنمـا ورد في النصوص النبطية اسم علم لأشخاص . وهذا الاسم هو اسم صنم في الأصل ، بدليل ورود عبد قصيّ . أما حديث الأخباريين عن أصله وفصله ، فهو ممـا لا قيمة له . وقد ابتدعته مخيلتهم على الطريقة المألوفة في اختراع تفاسير لأسباب التسميات . والظاهر ان هذا الاسم من الأسماء التي كان يستعملهـا العرب النازلون في أعالي الحجاز ، وربما في بلاد الشأم .

وفي جملة النصوص النبطية التي عثر عليها في (صلخد) اسم رجل عرف بـ (روحو بن قصيو) (روح بن قصي) ، كما عثر على نصّ جاء فيـه اسم (مليكو بن قصيو) (مالك بن قصي) ، وورد اسم (قصيو بن اكلبو) ، أي (قصي بن كلاب) . وقد تبين من هذه الكتابات ان المذكورين هم من أسرة واحدة ، وقد كانوا كهاناً أو سدنة لمعبد من معابد (صلخد)[2] . فقصي إذن من الأسماء الواردة عند النبط . والغريب أننا نرى بين قصي صلخد وقصي مكة اشتراكاً لا في الاسم وحده ، بل في المكانة ايضاً ، فلقصي صلخد مكانـة دينية ، ولقصي مكة هذه المكانة أيضاً في مكة .

ويلاحظ ان الاسم الذي زعم الأخباريون انه اسم قصي الأصلي الذي سُمّي به يوم ولد بمكـة ، وهو (زيد) ، هو أيضاً اسم صنم . فقد نص أهـل الأخبار على ان (زيداً) هو صنم من أصنام العرب[3] .

ويذكر الأخباريون انه كان لقصي أربعة أولاد ، ورووا قولاً زعموا انه قاله . فقد ذكروا انه قال : (ولد لي أربعـة ، فسميت اثنين بصنمي ، وواحـداً بداري ، وواحداً بنفسي) . وكان يقال لعبد مناف : القمر ، واسمه المغيرة ، وكانت أمه (حُبّى) دفعتـه الى مناف ، وكان أعظم أصنام مكة ، تدينـاً

---

١ ابن هشام ، السيرة (١٤٣/١) .
٢ رينو دبسو : العرب في سوريا قبل الاسـلام ، تعريب عبدالحميد الدواخلي . (ص ١١٦) ، تاريخ العرب في الاسلام ، لجواد علي (٤٠/١) .
٣ الاشتقاق (١٣) .

بذلك ، فغلب عليه عبد مناف [1] . وأولاده هم : (عبد مناف) ، واسمه (المغيرة) ، وعبد الله ، وهو (عبد الدار) ، و (عبد العزى) ، و (عبد قصي) ، و (هند) بنت قصي ، تزوجها (عبد الله بن عمّار الحضرمي) [2] .

ولما مات قصي ، دفن بالحَجُون ، وقد كانوا يزورون قبره ويعظمونه [3] . والحجون جبل بأعلى مكة كان أهل مكة يدفنون موتاهم فيه [4] . فعليه مقبرة جاهلية من مقابر مكة القديمة . وقد ذكر في شعر جاهلي [5] .

وقد أنكر بعض المستشرقين وجود (قصي) ، وعدّوه شخصية خرافية من شخصيات الأساطير ، واستدلوا على ذلك بالأقاويل التي رواها ابن الكلبي وابن جريج عنه ، وهي ذات طابع قصصي [6] . غير ان هذه المرويات لا يمكن ان تكون دليلاً قوياً وسنداً يستند اليه في انكار وجود رجل اسمه قصي ، وإذا كان ما قيل عنه خرافة ، فلن تكون هذه الخرافة سبباً لإنكار وجود شخص قيلت عنه .

وقد ترك (قصي) جملة أولاد هم : عبد العزى وعبد الدار وعبد مناف وعبد بن قصي . وقد تكتل أبناء هؤلاء الأولاد وتحزبوا ، ونافسوا بعضهم بعضاً ، فنافس بنو عبد مناف بني عبد الدار ، وكونوا حلفاً فيما بينهم كان جماعته وأنصاره بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم والحارث بن فهر . وتراص بنو عبد الدار وجمعوا شملهم وشمل من انضم اليهم ، وكونوا جماعة معارضة تألفت من بني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي بن عامر بن لؤي ومحارب . وهم من (قريش الظواهر) . وقد عرف حلف (بني عبد مناف) بـ (حلف المطيبين)

١ الطبري (٢/٢٥٤) ، نهاية الأرب (١٦/٣٢) .
٢ البلاذري ، انساب (١/٥٢) .
٣ ابن الأثير (٢/٩) ، (٢/١٤ وما بعدها) (المطبعة المنيرية) ، اليعقوبي (١/٢١٢)، ابن سعد ، الطبقات (١/٧٣) ، البلاذري ، أنساب (١/٥٢) ، نهاية الأرب (١٦/٣١) ، تاج العروس (١٠/٢١١) ، (صما) .
٤ البلدان (٢/٢٢٥) .
٥ قال (عمرو بن الحارث بن مضاض) ، أو الحارث الجُرهمي :
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ، ولم يسمُر بمكة سامر
اللسان (١٣/١٠٩) ، تاج العروس (٩/١٧١) ، (حجن) .
٦ Ency., Vol., II, pp. 1158.

و بـ (المطيبون) ، وعرف بنو عبد الدار بـ (الاحلاف) .

ولما ظهر الاسلام ، كان هذا النزاع العائلي على رئاسة مكة قائماً ، وقد تمثل في تنافس الأسر على الرئاسة . اشتهر بعضها بالثراء والغنى ، واشتهر بعضها بالوجاهة الدينية أو بالمكانة الاجتماعية .

ويلاحظ ان هذا النزاع لم يكن نزاعاً عائلياً تماماً ، قام على النسب الى الأب والجد بل كان نزاعاً على الرئاسة والسيادة في الغالب ، فنجد جماعة من عائلة تنضم الى العائلة الأخرى المنافسة ، وتترك عشيرتها ، لأن مصلحتها الخاصة وتخاصمها مع أحد أقربائها دفعاها على اتخاذ ذلك الموقف .

ولما أسنّ قصي ، جعل لابنه (عبد الدار) على حدّ رواية أهل الأخبار دار الندوة والحجابة أي حجابة الكعبة ، واللواء ، فكان يعقد لقريش ألويتهم ، والسقاية وهي سقاية الحاج ، و (الرفادة) ، وهي خرْج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها الى قصي ليصنع به طعاماً للحاج يأكله الفقراء ، وكان قصي قد قال لقومه : (انكم جيران الله وأهل بيته ، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شراباً وطعاماً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم) ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون من أموالهم ، فيصنع به الطعام أيام منى ، فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية ، حتى قام الإسلام [1] .

ويذكر الأخباريون في تعليل إعطاء عبد الدار هذه الامتيازات ان عبد الدار كان ضعيفاً ، وان عبد مناف شقيقه كان قد ساد في حياة أبيه ، وكثر ماله ، فأراد قصي بذلك تقويته بهذه الامتيازات [2] .

وقد توارث بنو عبد الدار اللواء ، فلا يعقد لقريش لواء الحرب الا هم . وهي وظيفة مهمة جداً ، لما للواء من أثر خطير في الحروب والمعارك في تلك الأيام . ولهذا كانوا يتدافعون في الذّبّ عن اللواء ، حتى لا يسقط على الأرض بسقوط حامله ، وسقوطه معناه نكسة معنوية كبيرة تصيب المحاربين تحت ظل

---

١ الطبري (٢/٢٥٩ وما بعدها) ، ابن الأثير (٢/١٠ وما بعدها) ، اللسان (٣/١٨١) ، تاج العروس (٢/٣٥٥) ، الأزرقي (١/٦١ وما بعدها) .

٢ ابن الأثير (٢/٩) ، نسب قريش ، للزبيري (١٤) .

ذلك اللواء . ولما أسلم (بنو عبد الدار) ، قالوا : يا نبيّ الله ، اللواء الينا . فقال النبي : الإسلام أوسع من ذلك . فبطل اللواء[1] .

ويذكر الأخباريون ان قصيّاً لما هلك ، قام (عبد مناف بن قصي) على أمر قصي بعده ، وأمر قريش اليه ، واختط بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان بني عبد مناف أجمعوا على ان يأخذوا من بني عبد الدار (الرفادة) و (السقاية) ، فأبى بنو عبد الدار ترك ما في أيديهم واصروا على الاحتفاظ به ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بني عبد الدار ، وطائفة مع بني عبد مناف ، وتحالف كل قوم مؤكداً ، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعوها عند الكعبة ، وتحالفوا ، وجعلوا أيديهم في الطيب ، فسموا المطيبين . وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم ، وتحالفوا ، فسموا الأحلاف ، وتعبأوا للقتال ، ثم تداعوا الى الصلح ، على ان يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، فرضوا بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، واقترعوا عليها ، فصارت لهاشم بن عبد مناف[3] .

وأما الذين كوّنوا حلف الاحلاف ولعقة الدم ، فهم : بنو مخزوم ، وبنو جمح ، وبنو سهم ، وبنو عدي بن كعب[4] .

وقد خرجت من ذلك (بنو عامر بن لُؤيّ) و (بنو محارب بن فهر) . فلم يكونوا مع واحد من الفريقين[5] .

---

١ البلاذري ، أنساب (١/٥٤ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٤٧) ، نهاية الارب (١٦/٣٢) .
٣ ابن الأثير (٢/٩) (١/٢٦٧) (المنبرية) ، (١/١٨٣) ، الطبري (٨/١١) (طبعة ليدن) اللسان (١٠/٤٠٠) ، ابن هشام (١/١٤٣) ، المعارف (٦٠٤) (دار الكتب) ، اليعقوبي (١/٢٨٧ (طبعة هوتسما) ، التنبيه (١٨٠) ، (الصاوي) ، ابن كثير ، البداية (٢/٢٠٩) ، ابن خلدون ، (٢/٦٩٤) ، مروج (٢/٥٩) (السعادة) ، المحبر (١٦٦) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، القاموس (٣/٢٨٠) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .
٤ البلاذري ، انساب (١/٥٦) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .

وتذكر بعض الروايات ان (آل عبـد مناف) قد كثروا ، وقلّ (آل عبد الدار) ، فأرادوا انتزاع الحجابة من (بني عبد الدار) ، فاختلفت في ذلك قريش ، فكانت طائفة مع (بني عبد الدار) وطائفة مع (بني عبد مناف) ، فأخرجت (أم حكيم البيضاء) توأمة ابي رسول الله ، جفنـة فيها طيب ، فوضعتها في الحجر ، فقالت : من كان منّا فليدخل يده في هذا الطيب . فأدخلت عبد مناف ايديها ، وبنو اسد بن عبد العزّى ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، وبنو الحارث بن فهر ، فسمّوا المطيبين . فعمدت بنو سهم بن عمرو ، فنحرت جزوراً ، وقالوا : من كان منّا ، فليدخل يده في هذه الجزور ، فأدخلت ايديها عبد الدار وسهم ، وجمح ، ومخزوم ، وعدي ، فسُمّيت الاحـلاف . وقام الاسود بن حارثة بن نضلة ، فأدخل يده في الدم ، ثم لعقها ، فلعقت بنو عدي كلها بأيديها ، فسموا لعقة الدم .[1]

وتذكر رواية ان (بني عبد مناف) اقترعوا على الرفادة والسقاية فصارتا الى (هاشم بن عبد مناف) ، ثم صارتا بعده الى (المطلب بن عبد مناف) بوصية ، ثم لعبد المطلب ، ثم للزبير بن عبد المطلب ، ثم لأبي طالب . ولم يكن له مال ، فاستدان من اخيه العبّاس بن عبد المطلب عشرة آلاف درهم ، فأنفقها ، فلما لم يتمكن من رد المبلغ تنازل عن الرفادة والسقاية الى (العباس) : وأبرأ ابا طالب مما له عليه .[2]

وتذكر رواية اخرى ، ان هاشماً وعبد شمس والمطلب ونوفل بني عبد مناف أجمعوا ان يأخذوا ما بأيدي (بني عبد الدار) مما كان قصي جعل الى (عبد الدار) من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة ، ورأوا أنهم أحق بها منهم ، فأبت (بنو عبـد الدار) ، فعقد كل قوم على امرهم حلفاً مؤكداً على الاّ يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً . وعرف حلف (بني عبد مناف) بحلف المطيبين وعرف حلف (بني عبد الدار) بحلف الاحلاف ولعقة الدم . ثم تداعوا الى الصلح ، على ان تكون الحجابة واللواء ودار الندوة الى بني عبد الدار ، وأن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة .[3] وولي هاشم بن عبد مناف السقاية

---

١ نسب قريش (٣٨٣) .
٢ البلاذري ، انساب (١/٥٧) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .

والرفادة .[1] وتصرح بعض الروايات ، ان هاشما هو الذي قام بأمر بني عبد مناف ، ثم عامر بن هاشم .[2]

ومعنى هذا ان الحلفين المذكورين : حلف المطيبين وحلف (الاحلاف) ، انما عقدا في حياة (هاشم بن عبد مناف) ، اي قبل ميلاد الرسول . وأن حلف (لعقة الدم) هو نفسه حلف الاحلاف ، او من حلف الاحلاف ، عرف بهذه التسمية ، لأن (بني عدي بن كعب ، الذين حالفوا عبد الدار وانضموا اليهم ، لعقوا الدم ، فقيل لهم لعقة الدم ، تمييزاً لهم عن الذين لم يلعقوا الدم ، وهم الاحلاف .[3] وذُكر ان (بني عبد الدار) و (بني عدي) ، أدخلوا جميعاً ايديهم في ذلك الدم في الجفنة ، فسموا كلهم (لعقة الدم) بذلك .[4]

ولكننا نصطدم بروايات اخرى ، ترجع تأريخ حلف (لعقة الدم) الى ايام بنيان الكعبة ، الذي كان قبل المبعث بخمس سنين ، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة . فهي تذكر ان اهل مكة لما وصلوا الى موضع الركن اختصموا في وضع الحجر الاسود ، حتى تجاوزوا وتحالفوا وتواعدوا على القتال ، (فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماء ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في الجفنة ، فسموا لعقة الدم بذلك) ،[5] ثم اتفقوا على ان يجعلوا بينهم حكماً ، يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، على ان يكون اول من يدخل من باب المسجد ، فكان اول من دخل عليهم رسول الله . فحكم على نحو ما هو معروف .

كما نصطدم بروايات اخرى تذكر ان حلف المطيبين ، انما عرف بذلك ، لان خمس قبائل هي : بنو عبد مناف ، وبنو اسد ، وبنو تيم ، وبنو زهرة ، وبنو الحارث بن فهر ، لما ارادت بنو عبد مناف اخذ ما في ايدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية وأبت بنو عبد الدار تسليمها اياهم — اجتمع المذكورون في دار عبد الله بن جدعان ، وعقد كل قوم على امرهم حلفاً

١ ابن سعد ، طبقات (١/٧٨) .
٢ نهاية الأرب (١٦/٣٤ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، انساب (١/ ٥٦) .
٤ الطبري (٢/٢٨٩ وما بعدها) .
٥ الطبري (٢/٢٩٠) .

مؤكداً على التناصر وأن لا يتخاذلوا ، ثم اخرج لهم بنو عبد مناف جفنة ثم خلطوا فيها اطياباً وغمسوا ايديهم فيها وتعاقدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً فسُمّوا المطيبين . وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها وهم ست قبائل : عبد الدار وجمح ومخزوم وعدي وكعب وسهم حلفاً آخر مؤكداً ، فسُمّوا بذلك الاحلاف .[1]

وقيل بل قدم رجل من بني زيد لمكة معتمراً ومعه تجارة اشتراها منه رجل سهمي فأبى ان يقضيه حقه فناداهم من أعلى ابي قبيس ، فقاموا وتحالفوا على انصافه ، وكان النبي من المطيبين لحضوره فيه ، وهو ابن خمس وعشرين سنة وكذلك ابو بكر . وكان عمر احلافياً لحضوره معهم .[2]

وقد وهم بعض اهل الاخبار فجعلوا حلف المطيبين هو حلف الفضول ، ويظهر انهم وقعوا في الخطأ من كون الذين دعوا الى عقد حلف الفضول وشهدوه هم من (المطيبين) ، فاشتبه الامر عليهم ، وظنوا ان الحلفين حلف واحد . وقد ردّ عليهم بعض اهل الاخبار ايضاً ، اذ ذكروا ان الرسول لم يدرك حلف المطيبين ، لانه كان وقع بين بني عبد مناف ، وهم هاشم واخوته ومن انضم اليهم ، وبين بني عمهم عبد الدار واحلافهم ، فقيل لهم الاحلاف ، قبل ان يولد الرسول .[3]

اما ان الحلفين قد عقدا في ايام (عبد الله بن جدعان) ، فخطأ ، فقد اجمع اهل الاخبار على ان بني عبد مناف كانوا يلون الرفادة والسقاية قبل هذا العهد ، وأن (هاشم) كان يليهما في حياته ، وأما انهما وقعا في ايام (هاشم) او في ايام ابنائه ، فان ذلك اقرب الى المنطق ، وذلك فيما اذا اخذنا برواية من يقول : ان (قصياً) اوصى بالرفادة والسقاية واللواء والحجابة ودار الندوة الى ابنه (عبد الدار) ، وحرم بذلك ابنه (عبد مناف) من كل شيء ، بحجة انه كان غنياً ، وجيهاً وقد ساد في حياة ابيه ، فلا حاجة له به اليها ، فتأثر هاشم او ابناؤه من ذلك ، فأجمعوا على انتزاعها من ايدي (بني عبد الدار) وحدث ما حدث ، وتولى هاشم الرفادة والسقاية على النحو المذكور .[4]

---

١ تاج العروس (١/٣٥٩ وما بعدها) ، العمدة (٢/١٩٤) ، البلاذري ، انساب (١/٥٦ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٧) .

٢ تاج العروس (١/٣٦٠) .

٣ السيرة الحلبية (١/١٥٦) .

٤ (ولما صارت الرفادة والسقاية لهاشم ، كان يخرج من ماله كل سنة للرفادة مالا عظيما) ، البلاذري ، انساب (١/٦٠) .

وهناك رواية اخرى رواها (اليعقوبي) ، تفيد ان قصياً كان قد قسم السقاية والرفادة والرئاسة والدار بين ولده . فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف ، والدار لعبد الدار ، والرفادة لعبد العزّى ، وحافة الوادي لعبد قصيّ . [1] وأخذ كل ابن ما اعطاه والده له .

ويتبين من دراسة الروايات المختلفة الواردة عن الحلفين المذكورين ، انهما قد عقدا لاغراض اخرى لا صلة لها بالسقاية والرفادة ، وربما كانا قد عقدا قبل ايام هاشم ، بسبب نزاع وقع بين بطون قريش على الزعامة ، فتحربت تلك البطون وانقسمت على نفسها الى (مطيبين) و (احلاف) ، وربما كان حلف لعقة الدم حلفاً آخر عقده (بنو عدي) فيما بينهم ، وهم الذين انحازوا الى الاحلاف ، ودخلوا معهم في حلف . خاصة ونجد (اليعقوبي) يشير الى حلف عقده (عبد مناف) بعد وفاة والده (قصي) مع (خزاعة) و (بني عبد مناة ابن كنانة) ، عرف بحلف (الاحابيش) . وكان مدبّر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الحلف (عمرو بن هلل بن معيص) . [2] مما يشير اذا صح هذا الخبر الى ان (بني مناف) او الذين انضموا اليهم ، كما يقول ذلك (اليعقوبي) ارادوا تقوية انفسهم وتكوين قوة مهابة بتأليف ذلك الحلف . وربما كان هذا الحلف موجهاً ضد (بني عبد الدار) مما دفع (بني عبد الدار) على جمع صفوفهم وتأليف حلف بهم ، للدفاع عن مصالحهم .

واسم هاشم على رواية الاخباريين (عمرو) وهو اكبر اولاد عبد مناف . وانما قيل له هاشم ، لانه اول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه . ذكر ان قومه من قريش ، كانت اصابتهم لزبة وقحط ، فرحل الى فلسطين ، فاشترى منها الدقيق ، فقدم به مكة ، فأمر به فخبز له ونحر جزوراً ، ثم اتخذ لقومه مرقة ثريد بذلك . [3] ويذكرون ان شاعراً من الشعراء ، هو مطرود بن كعب الخزاعي ،

١ اليعقوبي (٢١١/١) ، (طبعة النجف) .
٢ اليعقوبي (٢١٢/١) .
٣ الطبري (٢٥١/٢ وما بعدها) ، اللسان (٦١١/١٢) ، القاموس (١٩٠/٤) ، الكامل لابن الاثير (٩/٢) .

او ابن الزبعرى ، ذكر ذلك في شعره حيث قال :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسْنِتون عجاف [١]

ويظهر من وصف الاخباريين لهاشم انه كان تاجراً ، له تجارة مع بلاد الشام ، وأنه جمع ثروة من تجارته هذه ، حتى زعموا انه هو اول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف . [٢]

ويذكر اهل الاخبار ان هاشماً كان يحُثّ اهل مكة على اكرام الحجاج واضافتهم وتقديم كل معونة لهم ، لانهم يأتون يعظّمون بيت الله ، ويزورونه ، وهم جيران بيت الله ، وقد أكرموا به ، وشرفوا بالبيت على سائر العرب ، فعليهم تقديم كل معونة لحجاج البيت . وكان يطلب منهم مساعدته باخراج ما يتمكنون من اخراجه من اموالهم يضعونه في دار الندوة ، ليخدم به الحجاج ، لانه لا يتمكن وحده من اكرامهم وتقديم الطعام من ماله وحده اليهم . [٣] فكان هاشم يخرج في كل عام مالاً كثيراً ، وكان قوم من قريش اهل يسار يترافدون . وكان كل انسان يرسل بمئة مثقال هرقلية ، فيجمع هاشم ما يتجمع ويصنع به طعاماً للحجاج . [٤]

ولشح الماء في مكة ، واضطرار الناس الى جلبه من اماكن بعيدة ، فعل (هاشم) ما فعله قصيّ حين حفر بئراً على نحو ما ذكرت ، فحفر بئراً عرفت بـ (بذّر) وهي البئر التي في حق (المقوم بن عبد المطلب) في ظهر دار الطلوب مولاة زبيدة بالبطحاء في اصل المستنذر . وحفر بئراً اخرى ، وهي البئر التي يقال لها بئر (جبير بن مطعم) ، ودخلت في (دار القوارير . [٥] فيسر بذلك لمكة الماء ، وساعد على اكثاره عندهم .

---

١ عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
الطبري (٢/٢٥٢) ، الاشتقاق (٩) ، أمالي المرتضى (٢/٢٦٩) ، أخبار مكة ، للازرقي (١/٦٧) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٦) ، نهاية الأرب (١٦/٣٣) .
٢ الطبري (٢/٢٥٢) (دار المعارف بمصر) .
وهو الذي سن الرحيل لقومه رحل الشتاء ورحلة الأصياف
البلاذري ، انساب (١/٥٨) ، ابن سعد ، طبعات (١/٧٥) .
٣ النويري ، نهاية الأرب (١٦/٣٤) .
٤ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٨) .
٥ ابن سعد ، الطبعات (١/٧٥) ، الأزرقي ، أخبار مكة (١/٦٧) ، تاج العروس (٣/٣٦) ، (بذر) .

وأخذ (هاشم) عهداً على نفسه بأن يسقي الحجاج ويكفيهم بالماء ، قُربةً الى رب (البيت) ما دام حياً . فكان إذا حضر الحج ، يأمر بحياض من أدم ، فتجعل في موضع (زمزم) ، ثم تملأ بالماء من الآبار التي بمكة ، فيشرب منها الحاج . وكان يطعمهم قبل التروية بيوم بمكة ، وبمِنى وعرَفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم ، والخبز والسمن والسويق والتمر ، ويحمل لهم الماء ، فيستقون بمنى ، والماء يومئذ قليل في حياض الأدم الى ان يصدروا من (مِنى) ، ثم تنقطع الضيافة ، ويتفرق الناس الى بلادهم[1] .

وموضوع السقاية موضوع غامض . فبينا نجد أهل الأخبار يفسرون السقاية باسقاء المحتاجين من الحجاج بالماء مجاناً ، نجدهم يتحدثون عن السقاية على انها إسقاء الحجاج من الزبيب المنبوذ بالماء . وذكر ان العباس كان يليها في الجاهلية والإسلام[2] .

وتحدث أهل الأخبار عن (سقاية) عرفت بـ (سقاية عديّ) ، زعموا انها كانت بالمشعرين بين الصفا والمروة ، وان مطرود الخزاعي ذكرها حين قال :

وما النيل يأتي بالسفين يكفّه بأجود سيباً من عديّ بن نوفل
وأنبطت بين المشعرين سقاية لحجاج بيت الله أفضل منهل

وذكر ان هذه السقاية ، كانت بسقاية اللبن والعسل[3] .

ويظهر من وصف الأخباريين لهاشم انه كان تاجراً ، له تجارة مع بلاد الشأم ، وانه جمع ثروة من تجارته هذه ، حتى زعموا انه هو أول من سنّ الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف[4] . وانه كان صاحب (إيلاف قريش)[5] .

---

١ ابن سعد ، الطبقات (٧٨/١) النويري ، نهاية الأرب (٣٥/١٦) .
٢ تاج العروس (١٨١/١٠) ، (سقى) .
٣ نسب قريش (١٩٧) .
٤ الطبري (٢٥٢/٢) ، (دار المعارف بمصر) .
وهو الذى سنّ الرحيل لقومه رحل الشتاء ورحلة الأصياف
البلاذري ، أنساب (٥٨/١) ، ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١) ، تفسير القرطبي (٢٠٥/٢٠) ، (سورة قريش) .
٥ نهاية الأرب (٣٣/١٦) .

وذلك ان قريشاً كانوا تجاراً ، ولكن تجارتهم — كما يقول أهل الأخبار — لم تكن تتجاوز مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها على من حولهم من العرب . فكانوا كذلك حتى ركب هاشم ابن عبد مناف الى الشأم ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون . وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر ، فدعا به فلما رآه وكلمه ، أعجب به . فكان يبعث اليه في كل يوم ، فيدخل عليه ويحادثه فلما رأى نفسه تمكن عنده ، قال له : أيها الملك : إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندكم ، فهو أرخص عليكم . فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم . فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرّ بحي من العرب بطريقه الى مكة ، عقد معهم عقداً على ان تقدم قريش اليهم ما يرضيهم من بضائع وهدايا تؤلف بينهم وبين قريش ، فكان الإيلاف . فلما وصل الى مكة ، كان هذا الإيلاف أعظم ما جاء به هاشم الى قريش . فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوزهم يوفيهم إيلافهم الذي أخذ من العرب حتى أوردهم الشأم ، وأحلهم قراها . فكان ذلك بدء إيلاف قريش[١] .

وذكر ان متجر (هاشم) كان الى بلاد الشأم[٢] ، ويصل بتجارته الى (غزة) وناحيتها ، وربما توغل نحو الشمال ، حتى زعم بعض أهل الأخبار انه كان ربما بلغ (أنقرة) (فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه)[٣] . ويجب علينا ألا نتصور دائماً ان أي (قيصر) يرد ذكره في أخبار أهل الأخبار ، هو قيصر الروم حقاً ، بل هو أحد عمّاله في الغالب ، وأحد الموظفين الروم في بلاد الشأم ، وربما كان أحد قادة الحدود . وربما أخذوا اسم (أنقرة) من قصة للشاعر امرؤ القيس ، فأدخلوها في قصة (هاشم) . فلم تكن (أنقرة) ، مقرّاً

١ القالي ، ذيل الآمالي والنوادر (ص ١٩٩) ، الثعالبي ، ثمار القلوب ، (١/٨ وما بعدها) ،

Caetani, Annali, I, 109, (90), M.J. Kister, p. 116

٢ المحبر (١٦٢) .

٣ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٥ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٦/٣٣) ، البلاذري ، انساب (١/٥٨) .

للقياصرة إذ ذاك حتى يذهب هاشم اليها ليدخل على قيصر ويزوره فيها ، بل كانت (القسطنطينية) ، هي عاصمة البيزنطيين .

وقد فسر (الجاحظ) (الإيلاف) ، انه (جعلٌ فرضه هاشم على القبائل لحماية مكة من الصعاليك ومن المتطاولين ، إذ قال : (وقد فسّره قوم بغير ذلك . قالوا : ان هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة . فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الطوائل ، كانوا لا يؤمَنون على الحرم ، لا سيا وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً . مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب)[1] . فيفهم من ذلك إذن ان الإيلاف ، هو نوع من تأليف قلوب سادات القبائل ، لصدهم عن التحرش بأهل مكة ومن التعرض بقوافلهم ، فألفهم هاشم وصاروا له مثل (المؤلّفة قلوبهم) في الإسلام . لا سيا وان بين الإيلاف و (ألف) (ألف بينهم) و (المؤلفة) صلة . وان فيا قاله (الجاحظ) عن (هاشم) من قوله : (وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ... وجعل لهم معه ربحاً)[2] ، وبين تأليف القبائل صلة تامة ، تجعل تفسير الإيلاف على انه عهود ومواثيق مع سادات القبائل في مقابل اسهامهم بأموالهم وبحمايتهم لقوافل قريش في مقابل ضرائب معينة تدفع لهم ، وسهاماً من الأرباح تؤدى لهم ، مع اعطائهم رؤوس اموالهم وما ربحته في الأسواق هو تفسير منطقي معقول . وبذلك كسبت قريش حياد هذه القبائل ودفاعها عن مصالحها .

وقد تعرض (الثعالبي) لموضوع (إيلاف قريش) ، فقال : إيلاف قريش : كانت قريش لا تتاجر إلا مع من ورد عليها من مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ ، وفي الأشهر الحرام لا تبرح دارها ، ولا تجاوز حرمها ، للتحمس في دينهم ، والحب لحرمهم ، والإلف لبيتهم ، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم ، وكانوا بوادٍ غير ذي زرع ... فكان أول من خرج الى الشأم ووفد الى الملوك وأبعد في السّفر ومرّ بالأعداء ، وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله هاشم بن عبد مناف ، وكانت له رحلتان : رحلة في الشتاء نحو العباهلة من

١ رسائل الجاحظ (٧٠) ، (السندوبي) ، Kister, p. 143.

٢ رسائل (٧٠) ، السندوبي) (٧٠) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها) .

ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة ، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم . وكا يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين : إحداهما ان ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم ، والخصلة الاخرى ان اناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً ، كبني طيء وخثعم وقضاعة ، وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له . ومعنى الإيلاف انما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، ويحمل لهم متاعاً مع متاعه ، ويسوق اليهم إبلاً مع إبله ليكفيهم مؤنة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤنة الأعداء ، فكان ذلك صلاحاً للفريقين ، إذ كان المقيم رابحاً ، والمسافر محفوظاً ، فأخصبت قريش ، وأتاها خير الشام واليمن والحبشة ، وحسنت حالها ، وطاب عيشها . ولما مات هاشم قام بذلك المطّلب ، فلما مات المطلب قام بذلك عبد شمس ، فلما مات عبد شمس قام به نوفل ، وكان أصغرهم)[1] .

والى هذا الإيلاف أشير في شعر (مطرود الخزاعي) بقوله :

يا أيها الرجل المحولُ رحله   هلا حللت بآل عبد مناف
الآخذين العهد في إيلافهم   والراحلين برحلة الإيلاف[2]

وعمل قريش هذا هو عمل حكيم ، بدّل وغيّر اسلوب تجارة مكة ، بأن جعل لها قوافل ضخمة تمر بأمن وبسلام في مختلف أنحاء الجزيرة جاءت اليها نتيجة لذلك بأرباح كبيرة ، ما كان في امكانها الحصول عليها ، لو بقيت تتاجر وفقاً لطريقتها القديمة ، من ارسالها قوافل صغيرة للمتاجرة مع مختلف الأسواق ، فكانت القافلة منها اذا سلبت ، عادت بأفدح الأضرار المادية على صاحبها أو على الأسرة التي أرسلتها ، وربما أنزلت الإفلاس والفقر بأصحابها ، بينما توسعت القافلة وفقاً للطريقة الجديدة بأن ساهم بأموالها كل من أراد المساهمة ، من غني أو صعلوك أو متوسط حال ، ومن سادات قبائل . وبذلك توسع الربح ، وعمت فائدته عدداً كبيراً من أهل مكة ، فرفع بذلك من مستواها الاجتماعي ، كما ضمن لقوافلها الأمن والسلامة ، وصيّر مكة مكاناً مقصوداً للأعراب .

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٦) .

ويذكر أهل الاخبار أنه كان المطلب وهاشم وعبد شمس ، ولد عبد مناف من أمهم : (عاتكة بنت مرّة السُلمية) ، و (نوفل) من (واقـدة) ، قد سادوا بعد أبيهم عبد مناف جميعاً ، وكان يقال لهم : (المجبرون) ، وصار لهم شأن وسلطان . فكانوا اول من أخذ لقريش (العِصَم) [1] ، اي (الحبال) ، ويراد بها العهود . أخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الروم وغسّان ، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الاكبر ، فاختلفوا بذلك السبب الى ارض الحبشة ، وأخذ لهم نوفل حبـلاً من الاكاسرة ، فاختلفوا بذلك السبب الى ارض العراق وأرض فارس ، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير ، فاختلفوا بذلك السبب الى اليمن ، فجُبرت بهم قريش ، فسمّوا المجبرين . [2] حتى ضرب بهم المثل ، فقيل : أقرش من المجبرين . والقرش الجمع والتجـارة ، والتقرش التجمع . والمجبرون هم الاربعة المذكورون . [3]

وفي رواية اخرى ان (المطلب) هو الذي عقد الحلف لقريش من النجاشي في متجرها الى ارضه . وأن هاشم ، هو الذي عقد الحلف لقريش من (هرقل) لأن تختلف الى الشام آمنة . ولو اخذنا بهذه الرواية وجب ان يكون هاشم قد أدرك ايام (هرقل) (٦١٠ — ٦٤١) (Heracleous I) ، وهو امر غير ممكن . لأن معنى ذلك انه عـاش في ايام الرسول وأدرك رسالته . ولا يهم ورود اسم (هرقل) في هذه الرواية ، فأهل الاخبار لا يميزون بين ملوك الروم ، ويذكرون اسم (هرقل) ، لانه حكم في ايام الرسول وفي ايام الخلفاء الراشدين الأُول .

واذا صحت الرواية ، يكون (آل عبـد مناف) ، قد احتكروا التجارة وصاروا من أعظم تجار مكة . وقد وزّعوا التجارة فيما بينهم ، وخصّوا كل بيت من بيـوتهم الكبيرة بالاتجار مع مكان من امكنة الاتجار المشهورة في ذلك العهد ، وأنهم تمكنوا بهذه السياسة من عقد عقود تجارية ومواثيق مع السلطات الاجنبية التي تاجروا معها لنيل حظوة عندها ، ولتسهيل معاملاتها التجارية ، فجنوا

١ العِصَم ، بكسر ففتح .
٢ الطبرى (٢/٢٥٢) ، اليعقوبى (١/٢٠٠) ، ذيل الأمالي (ص ١٩٩) ، امالي المرتضى (٢/٢٦٨) .
٣ مجمع الأمثال (٢/٧٢) ، البلاذري ، انساب (١/٥٩) .

من هذه التجارة ارباحاً كبيرة .

فما كان في استطاعة (قريش) ارسال (عيرها) الى بلاد الشام او العراق او اليمن او العربية الجنوبية ، بغير رضاء وموافقة سادات القبائل التي تمر قوافل قريش بأرضها : ورضاء هؤلاء السادات بالنسبة لقريش هو أهم جداً من رضاء حكومات بلاد الشام او العراق او اليمن عن مجيء تجار مكة الى بلادها للاتجار في اسواقها ، فما الفائدة من موافقة حكومات تلك البلاد على مجيء تجار مكة للبيع والشراء في اسواقهـا ، ان لم يكن في وسع اولئك التجار تأمين وصول تجارتهم اليها ، او تأمين سلامة ما يشترونه من اسواقها لايصاله الى مكة او الى الاسواق الاخرى . لهذا كان من اهم ما فعله تجار مكة في هذا الباب ، هو عقـدهم (حبالاً) و (عصماً) وعهوداً مع رؤساء القبائل ، لترضيتهم بدفع جعالات معينة لهم او تقـديم هدايا والطاف مناسبة مغرية لهم ، او اشتراكهم معهم في تجارتهم . يقول الجاحظ في باب (فضل هاشم على عبد شمس) ، (وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ... وجعل لهم معه ربح) .[1] وبهذه العقود المتنوعة سيطر تجار قريش على الاعراب ، وحافظوا على اموالهم ، وحدّوا من شره فقراء ابناء البادية الى الغنائم . وصار في امكانهم الخروج بكل حرية من مكة ومن الاسواق القريبة منها بتجارتهم نحو الاماكن المذكورة بكل أمن وسلام .

ولما كان البحث في هذا الموضع ، هو في تأريخ مكة بصورة عامة ، لذلك فسأترك الكلام عن (الايلاف) الى الموضع المناسب الخاص به ، وهو التجارة والاتجار ، وعندئذ سأتكلم عنه بما يتمم هذا الكلام العام .

ويذكر اهل الاخبار ان عبد شمس وهاشماً توأمان ، وقد وقع بينهما تحاسد ، وانتقل هذا التحاسد الى ولد الاخوين ، حتى في الاسلام .

وذكروا ان (أمية بن عبد شمس) حسد عمّه هاشماً ، وكان أمية ذا مال ، فدعا عمّه الى المنافرة ، فرضي عمّه بذلك مكرهاً ، على ان يتحاكما الى الكاهن (الخزاعي) ، فنفّر هاشماً عليه ، فأخذ هاشم الإبل التي نافر عليها من أمية ، فنحرها وأطعمها من حضره ، وخرج أمية الى الشام ، فأقام بها عشر سنين ، بحسب حُكم الكاهن ، وكان هاشم قد نافر على الجلاء عن مكة عشر سنين .

---

١ الجاحظ ، رسائل (٧٠) ، السندوبي) ،

فكانت هذه اول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .[1]

ويذكر اهـل الاخبار ان أمية بن عبد شمس كان من جملة من ذهب من رجال مكة الي (سيف بن ذي يزن) لتهنئته بانتصار اليمن على الحبش وطردهم لهم . وقد دخل عليه مع وفد مكة في (قصر غمدان) . وكان مثل ابيه عبد شمس حامل لواء قريش ، اي انه كان يحملها في الحرب .[2]

وكان هاشم اول من مات من ولد عبد مناف ، مات بغزة فعرفت بـ (غزة هاشم) ، وكان قد وفد بتجارة اليها فمات بها ، ومات عبد شمس بمكة ، فقبر بأجياد ، ثم مات نوفل بسلمان من طريق العراق ، ثم مات المطلب بردمان من ارض اليمن .[3] ويتبين من ذلك ان جميع هؤلاء الاخوة ، ما خلا عبد شمس ، ماتوا في ارض غريبة ، ماتوا تجاراً في تلك الديار .

وورد في رواية اخرى ، ان هاشماً خرج هو وعبـد شمس الى الشام ، فماتا جميعاً بغزة في عام واحد . وبقي مالهما الى ان جاء الاسلام .[4]

وأجياد جبل مكة على رأي ، وموضع مرتفع في الذرا غربيّ (الصفا) كما ورد ذلك في شعر للأعشى . ذكر ان (مضاضاً) ضرب في ذلك الموضع اجياد مائة رجل من العمالقة ، فسمّي الموضع بذلك (اجياد) .[5]

ويذكر الاخباريون : ان هاشماً كان قد خرج في عير لقريش فيها تجارات ، وكان طريقهم على المدينة ، فنزلوا بـ (سوق النبط) ، فصادفوا سوقاً مقامة ، فباعوا واشتروا ، ونظروا الى امرأة على موضع مشرف من السوق تأمر بما يشترى ويباع لها . وهي حازمة جلدة مع جمال ، فسأل هاشم عنها : أأيّم هي ، أم

---

١ الطبري (٢/٢٥٢ وما بعدها) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/٩) ، (الطباعة المنيرية) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٦) ، نهاية الأرب (١٦/٣٤) ، انسان العيون (١/٤٠) ، سيرة ابن دحلان (١/١٥ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (ص ١٠٣) ، دائرة المعارف الاسلاميه (١/٣٢٤) .

٣ الطبري (٢/٢٥٤) ، ابن الأثير (٢/٧) ، شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (١/٨٣) ، ذيل الأمالي (ص ١٩٩) ، البلاذري ، أنساب (١/٦٣) ، ابن سعد ، طبقات (١/٧٩) .

٤ نهاية الأرب (١٦/٣٧) ، الكامل لابن الأثير (٢/٤ وما بعدها) ، الطبـري (٢/١٧٦) .

٥ تاج العروس (٢/٣٣٠) ، (الجيد) .

ذات زوج ؟ فقيل له : أيّم ، كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها ان امرها بيدها : فاذا كرهت رجلاً ، فارقته ، وهي (سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عديّ بن النجار) ، وهو (تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج) ، فخطبها فزوّجته نفسها ، ودخل بها ، وصنع طعاماً ، دعا اليه من كان معه من اهل مكة ، ودعا من الخزرج رجالاً . وأقام بأصحابه اياماً ، وعلقت (سلمى) بعبد المطلب .[1] وكانت (سلمى) ، قد تزوجت من (أُحَيْحَة بن الجُـلاّح بن الحريش بن جَحْجَبَا الأوسي) ، وهو من المعروفين في قومه كذلك .[2]

ويذكر اهل الاخبار ، ان عمر هاشم لما توفي ، كان عشرون سنة ، ويقال خمساً وعشرين .[3] وهو عمر قصير اذا قيس بما يذكره اهل الاخبار ويوردونه عنه من اتجار وأعمال ، اعمال لا تتناسب مع تلك السن .

ومن سادات مكة في هذه الايام (قيس بن عدي بن سهم) من بني هصيص ابن كعب) ، قد تكاثروا بمكة ، حتى كادوا يعدلون بعبد مناف . وهو الذي منع (عديّ بن كعب) و (زهرة بن كلاب) من (بني عبد مناف) ، ومنع (بني عديّ) ايضاً من (بني جمح) . وكان (عبد المطلب بن هاشم) ينقز ابنه (عبد المطلب) ، وهو صغير ، ويقول :

كأنه في العز قيس بن عديّ — في دار قيس ينتدى اهل الندى[4]

مما يدلّ ان صح ان هذا الشعر هو من شعر (عبد المطلب) حقاً ، على ان (عديّـاً) كان اعزّ رجال قريش في ايامه ، حتى ضربوا به المثل في العزّ . وأنه كان سيّد قومه : بنو سهم بن هصيص بن كعب .

ومن ولد هاشم (عبد المطلب) ، وأمه من اهل يثرب من بني النجار فهي

---

١ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٦) ، ابن هشام ، السيرة (١/١٤٤) ، نهاية الأرب (١٦/٣٦ وما بعدها) ، المحبر (ص ٣٩٨) ، الطبري (٢/٢٤٦ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٢ المحبر (ص ٤٥٦) ، البلاذري ، أنساب (١/٦٤) .

٣ البلاذري ، أنساب (١/٦٣) .

٤ نسب قريش (٤٠٠) .

خزرجية تدعى (سلمى بنت عمرو بن زيد) على نحو ما ذكرت قبل قليل . تزوّجها هاشم في اثناء رحلة من رحلاته التي كان يقوم بها الى الشام للاتجار . ولما مات هاشم بغزة ولدت سلمى (عبد المطلب) ، ومكث عند أخواله سبع سنين ، ثم عاد الى قومه بمكة ، عاد به عمه (المطلب) . ولما كبر تولى السقاية والرفادة وتزعم قومه .

ويذكر أهل الأخبار ، ان هاشماً كان قد أوصى الى أخيه (المطلب) ، فبنو هاشم وبنو المطلب يد واحدة . وبنو عبد شمس وبنو نوفل يد[1] . ومعنى هذا ان نزاعاً كان قد وقع بين أبناء هاشم وأبناء إخوته ، جعلهم ينقسمون الى فرقتين .

ويذكر أهل الأخبار ان اسم عبد المطلب ، هو (شيبة) . وقد عرف بين الناس بعبد المطلب ، لان عمّه (المطلب) لما حمله من يثرب الى مكة ، كان يقول للناس ، هذا عبدي ، أو عبدٌ لي ، فسُمّي من ثمّ بعبد المطلب ، وشاعت بين قومه أهل مكة حتى طغت على اسمه . وقيل انه عرف بين أهل مكة بـ (شيبة الحمد) لكثرة حمد الناس له ، وكان يقال له (الفيّاض) لجودة ، و (مطعم طير السماء) و (مطعم الطير) لانه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال[2] .

وقد كان (المطلب) عمّ (عبد المطلب) مثل سائر أفراد أسرته وأهل مكة تاجراً ، فخرج الى أرض اليمن تاجراً ، فهلك بـ (ردمان) من اليمن[3] .

وهم يروون انه كان مَفزّع قريش في النوائب ، وملجأهم في الأمور ، وانه كان من حلماء قريش وحكائها ، وممن حرم الخمر على نفسه ، وهو أول من

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٧٩) .

٢ وفيه يقول حذافة بن غانم :

بنو شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

(شيبة الحمد لنور وجهه ، وذلك أنه كانت في ذؤابته شعرة بيضاء حين ولد ، فسمي شيبة الحمد) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (٩٧) ، الطبري (٢/٢٤٧ وما بعدها) (دار المعارف بمصر) ، الأصنام (٢٨) ، بلوغ الأرب (١/٣٢٤) ، ابن حزم ، جوامع السير (٢/٢) ، البداية ، لابن كثير (٢/٢٥٢) ، السيرة الحلبية (١/٢٢ وما بعدها) ، شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (١/٨١) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٣) .

٣ طبقات ابن سعد (١/٨٣) ، اليعقوبي (١/٢١٦) .

تحنث بغار حراء . والتحنث التعبد الليالي ذوات العدد . وكان اذا دخل شهر رمضان ، صعده وأطعم المساكين ، وكان صعوده للتخلي من الناس ، ليتفكر في جلال الله وعظمته[1] . وكان يعظم الظلم بمكة ، ويكثر الطواف بالبيت[2] .

وذكر انه كان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيات الأمور . وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه ، وان وراء هذه الدار ، داراً يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسيء باساءته . ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ، ووحّد الله . وروي : انه وضع سنناً جاء القرآن بأكثرها ، وجاءت السنة بها . منها : الوفاء بالنذر ، وتحريم الخمر والزنا ، وان لا يطوف بالبيت عُريان[3] . وذكر انه كان أول من سنّ دية النفس مئة من الإبل ، وكانت الدية قبل ذلك عشراً من الإبل ، فجرت في قريش والعرب مئة من الإبل . وأقرها رسول الله على ما كانت عليه[4] .

ويذكرون ان قريشاً كانت اذا أصابها قحط شديد ، تأخذ بيد عبد المطلب ، فتخرج به الى جبل ثَبِير ، تستسقي المطر[5] .

وقد وقع خلاف بين عبد المطلب وعمه (نوفل) ، كان سببه ان نوفل بن عبد مناف ، وكان آخر من بقي من بني عبد مناف ، ظلم عبد المطلب على أركاح له ، وهي الساحات ، فلما أصر نوفل على انكاره حق عبد المطلب ، تدخل عقلاء قريش في الأمر على رواية أهل مكة ، أو أخوال عبد المطلب ، وهم من أهل يثرب . فأكره (نوفل) على إنصاف عبد المطلب حتى عاد اليه حقه[6] .

ومن أهم أعمال (عبد المطلب) الخالدة الى اليوم (بئر زمزم) في المسجد الحرام ، على مقربة من البيت . وهي بئر يذكرون انها بئر اسماعيل ، وان جرهماً

---

١ السيرة الحلبية (١/٢٢ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، انساب (١/٨٤) .
٣ السيرة الحلبية (١/٢٤ وما بعدها) .
٤ ابن أبي الحديد (١/٨٩) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٩) .
٥ السيرة الحلبية (١/٢٤ وما بعدها) .
٦ الطبري (٢/٢٤٨ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

دفنتها ، وانها تقع بين أساف ونائلة في موضع كانت قريش تنحر فيه . فلما حفرها (عبد المطلب) ، أقبل عليها الحجّاج وتركوا سائر الآبار [1] .

ويذكر أهل الأخبار ان عبد المطلب لما كشف عن بئر زمزم ، وجد فيها دفائن ، من ذلك غزالان من ذهب ، كانت جرهم دفنتهما ، وأسياف قلعية ، وأدراع سوابغ ، فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب أحد الغزالين صفائح من ذهب ، وجعل المفتاح والقفل من ذهب فكان أول ذهب حُليّته الكعبة [2] . وجعل الغزال الآخر في الجبّ الذي كان في الكعبة أمام هبل . وذكر ان قريشاً ارادت منعه من الحفر ، ولكنه أصر على ان يحفر حتى يصل الى موضع الماء ، وذلك بسبب رؤيا رآها ، عينت له المكان ، وأوحت اليه انه موضع بئر قديمة طمرت وعليه إعادة حفرها [3] .

ويذكر الأخباريون ، ان عبد المطلب ، لما حلى بالمال الذي خرج من بئر زمزم الكعبة ، جعله صفائح من ذهب على باب الكعبة . فكان أول ذهب حُلّيته الكعبة [4] . وتذكر بعض الروايات ، ان ثلاثة نفر من قريش عدوا على هذا الذهب وسرقوه [5] . وتذكر رواياتهم انه ضرب الأسياف التي عثر عليها في البئر باباً للكعبة ، وضرب بالباب الغزالين من ذهب [6] .

ويظهر من وصف أهل الأخبار لما فعله (عبد المطلب) من ضرب الغزالين صفائح في وجه الكعبة ، ومن جعل المفتاح والقفل من ذهب ، أو من ضرب أحد الغزالين صفائح على الباب ، وجعل الغزال الآخر في الجبّ الذي كان أمام (هُبَلْ) أي الغبغب ، ان الكعبة لم تكن على نحو ما يصفها أهل الأخبار من البساطة والسذاجة ، بغير سقف وذات جدر ضمة بقدر قامة انسان . إذْ لا يعقل

---

١ ابن الأثير (٢/٥ وما بعدها) ، الطبري (٢/٢٤٧) ، البلاذري، انساب (١/٧٨) .
٢ الطبري (٢/٢٥١) ، البداية (٢/٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٤٥) ، أخبار مكة (١/٢٨٢) ، ابن الأثير (٢/٧ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٥) ، البلاذري ، انساب (١/٧٨) .
٣ أخبار مكة (٢٨٤ وما بعدها) .
٤ اليعقوبي (١/٢١٨) ، الطبري (٢/٢٥١) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٥) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٨٥) .
٦ سيرة ابن دحلان (١/٢٦) ، (حاشية على السيرة الحلبية) .

ان يضرب وجه باب الكعبة بالذهب وتوضع في داخلهـا تلك النفائس وهي على تلك الحالة ، اللهم إلا اذا شككنا في أمر هذه الروايات وذهبنا الى انها من نوع القصص الذي وضعه أهل الأخبار .

وقد طغى ماء (بئر زمزم) على مياه آبار مكة الأخرى . فهو أولاً مـاء مقدس ، لانه في أرض مقدسة ، وفي المسجد الحرام ، ثم هو أغزر وأكثر كمية من مياه الآبار الأخرى ، وهو لا ينضب مهما استقى أصحاب الدلاء منه ، ثم انه ألطف مذاقاً من مياه آبار مكة الأخرى . وقد استفاد (عبد المطلب) من هذه البئر ، مادياً وأدبياً ، وصارت ملكاً خالصة له ، على الرغم من محاولات زعماء مكة والمنافسين له مساهمتهم له في حق هذه البئر ، لانها في أرض الحرم ، والحرم حرم الله ، وهو مشاع بين كل أهل مكة . وصار يسقي الحجاج من هذه البئر ، وترك السقي من حياض الأدم التي كانت بمكة عنـد موضع بئر زمزم ، وصار يحمل الماء من زمزم الى عرفة فيسقي الحاج[1] .

وكان أبناء (قصي) قبل حفر بئر (زمزم) يأتون بالماء من خارج مكة – كما يقول أهل الأخبار – ثم يملأون بهـا حياضاً من أدم ويسقون الحجاج ، جروا بذلك على سنة (قصيّ) ، فلما حفرت بئر زمزم ، تركوا السقي بالحياض من المياه المستوردة من خارج مكة ، وأخذوا يسقونهم من ماء زمزم[2] .

وقد كان عبد المطلب يزور اليمن بين الحين والحين ، فكان اذا وردها نزل على عظيم من عظماء حمير . ويذكر أهل الأخبار ان أحد هؤلاء علّم عبد المطلب صبغ الشّعر ، وذلك بأن أمر بـه فخضب بحنّاء ، ثم عُلِيَ بالوسمة ، وصار يصبغ شعره بمكة ، وخضب أهل مكة بالسواد[3] . ويذكر أهل الأخبار ايضاً انه اتصل بملوك اليمن ، وأخذ منهم إيلافاً لقومه ، بالاتجار مـع اليمن . وكانت قريش تنظم عيراً الى اليمن في كل سنة[4] .

---

١ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٨٣/١ ، سيرة ابن هشام (٨٩/١) ، أخبار مكة (٢٨٥ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٣٧/١) ، الروض الأنف (٩٧/١) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (٨٣/١) .

٣ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٨٦/١) ، ابن سعد ، الطبقات (٨٦/١) .

٤ ذيل الأمالي (ص ١٩٩) .

ويذكر (المسعودي) ان (معديكرب) حينما ولي الملك باليمن ، أتته الوفود لتهنئته بالملك . وكان فيمن وفد عليه من زعماء العرب ، (عبد المطلب) ، و (خويلد بن أسد بن عبد العزّى) وجد أميّة بن أبي الصلت ، وقيل : أبو الصلت أبوه . فدخلوا عليه في قصره بمدينة صنعاء : قصر غمدان . ويذكر له ، كلاماً قاله عبد المطلب له ، وجواب (معد يكرب) عليه . ويذكر ايضاً ان (عبد المطلب) كان فيمن وفد على (سيف بن دي يزَن) ليهنئه بطرد الحبش[1] .

ولم يكن عبد المطلب أغنى رجل في قريش ، ولم يكن سيد مكة الوحيد المطاع كما كان قصي ، إذْ كان في مكة رجال كانوا أكثر منه مالاً وسلطاناً . انما كان وجيه قومه ، لانه كان يتولى السقاية والرفادة وبئر زمزم ، فهي وجاهة ذات صلة بالبيت . وقد تكون صلته هذه ، هي التي جعلته يذهب الى أبرهة لمحادثته في شؤون مكة والبيت .

ويروي أهل الأخبار ان عبد المطلب كان قد نذر : لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ان يذبح أحدهم . فلما تكاملوا عشرة ، همَّ بذبح أحدهم ، فضرب بالقداح فخرج القداح على عبد الله ، ولكن القوم منعوه ، ثم أشاروا عليه بأن يرضي الله بنحر إبل فدية عنه ، وكان كلما ضرب القداح يخرج على عبد الله حتى بلغ العدد مئة فخرج على الإبل . فنحرها بين الصفا والمروة . وخلّى بينها وبين كل من يريد لحمها من إنسيّ أو اسبع أو طائر ، لا يذب عنها أحداً ، ولم يأكل منها هو ولا أحد من ولده شيئاً[2] . وكان نحر الإبل قبل الفيل بخمس سنين[3] . إذن فيكون ذلك حوالى سنة (٥٦٥) للميلاد .

وكان لعبد المطلب ماء بالطائف ، يقال له (ذو الهرم) وكان في أيدي ثقيف ردحاً ، ثم طلبه عبد المطلب منهم ، فأبوا عليه . وكان صاحب أمر

١ المسعودي ، مروج الذهب (٢/ ١٠ وما بعدها) ، (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) .
٢ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/ ٨٨ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/ ٨٨ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، انساب (١/ ٧٩) .

ثقيف : (جندب بن الحارث) فأبى عليه وخاصمه فيه ، فدعاهما ذلك الى المنافرة الى الكاهن (العذري) ، وكان يقال له : (عزى سلمة) ، وكان ببلاد الشام ، وتنافرا على إبل ، وأتيا الكاهن ، فنفّر عبد المطلب عليه ، فأخذ عبد المطلب الإبل فنحرها .[1]

وقد نادم (عبد المطلب) على عادة اهل مكة جماعة من أقرانه ، لقد كانت عادتهم ان يجتمعوا مساءً فيتحادثوا او يشربوا ويأكلوا او يستمعوا الى غناء ، حتى يحل وقت النوم ، وكان ممن نادمهم عبد المطلب (حرب بن أمية) ، ثم اختلف معه ، ونافره عند (نفيل بن عبد العزّى) جد (عمر بن الخطاب) ، فنفره على (حرب) ، فافترقا .[2] وكان سبب افتراقه عنه ، إغلاظ (حرب) القول على يهوديّ كان جوار عبد المطلب .[3] وتذكر رواية اخرى ان عبد المطلب و (حرب) ، تنافرا اولاً الى النجاشي الحبشي ، ولكنه أبى ان ينفر بينهما ، فلهبا الى نفيل . وأن (حرب بن امية) غضب حين نفر عبد المطلب عليه ، وقال له : ان من انتكاس الزمان ان جعلناك حكماً ، وصار نديماً لعبد الله ابن جدعان .[4]

وذكر (ابن الأثير) ان سبب افتراق (عبد المطلب) عن (حرب) ، كان بسبب جار عبد المطلب اليهودي ، واسمه (أذَيْنَة) ، وكان تاجراً وله مال كثير ، فغاظ ذلك (حرب بن امية) ، فأغرى به فتياناً من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله . فقتله (عامر بن عبد مناف) و (صخر بن عمرو بن كعب التَيْميَ) ، فلم يعرف عبد المطلب قاتله ، فلم يزل يبحث حتى عرفهما ، واذا هما قد استجارا بحرب بن امية ، فأتى حرباً ولامه وطلبهما منه ، فأخفاهما ، فتغالظا في القول حتى تنافرا الى النجاشي ملك الحبشة ، فلم يدخل بينهما ، وذهبا الى نفيل . وترك عبد المطلب منادمة حرب ، ونادم عبد الله بن جدعان ، وأخذ من

١ ابن سعد، طبقات (١/٥١ وما بعدها)، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة (١/٨٨)، ابن سعد، طبقات (١/٨٨) ، (دار صادر) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٥١) وما بعدها) ، (١/٨٧) ، (صادر) .
٣ السيرة الحلبية (١/٢٥) ، البلاذري ، انساب (١/٧٤) .
٤ ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/٨٧) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٨٧) (صادر) .

حرب مئة ناقة ، فدفعها الى ابن عم اليهودي ، وارتجع ماله ، الا شيئاً هلك ، فغرمه من ماله .[1]

وقد صاهر عبد المطلب ، رجال من أسر معروفة بمكة ، فصاهره (كُريز ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس) ، وكانت عنده (أم حكيم) ، وهي (البيضاء بنت عبد المطلب) . وصاهره (ابو أميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكانت عنده (عاتكة بنت عبد المطلب) ، و (عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكانت عنده (برة بنت عبد المطلب) . وناسبه (ابو رُهم بن عبد العزى بن ابي قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك ابن حسل بن عامر بن لؤي) ، خلف على (برة) بعد عبد الأسد . وصاهره (جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة) ، وكانت عنده (اميمة بنت عبد المطلب) ، و (العوّام ابن خويلد بن اسد بن عبد العزّى) ، خلف على (صفية بعد عمير بن وهب) .[2]

ويذكر ان (عبد المطلب) ، كان يفرش له في ظل الكعبة ، ويجلس بنوه حول فراشه الى خروجه ، فاذا خرج ، قاموا على رأسه مع عبيده ، اجلالاً له .[3] وكانت عادة سادة مكة تمضية اوقاتهم في مسجد الكعبة ، حيث يجلسون في ظل الكعبة او في فنائها يتحدثون ويتسامرون ، ثم يذهبون الى بيوتهم .

وفي ايام عبد المطلب كانت حملة (أبرهة) على مكة . وقد ارخت قريش بوقوعها ، وصيّرت الحملة مبدءاً لتأريخ ، لأهميتها بالنسبة لمكة . وقد تركت اثراً كبيراً في نفوس قريش ، بدليل تذكير القرآن لهم بما حلّ بـ (اصحاب الفيل) ،[4] على نحو ما تحدثت عنه في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

وقد رأينا ان (عبد المطلب) وقد اشار على قومه بالتحرز بشعاب الجبال ،

---

١ الكامل (٢/٨ وما بعدها) .
٢ المحبر (ص ٦٢ وما بعدها) ، ابن سعد ، (٨/٢٧ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، انساب (١/٨١) .
٤ الفيل ، رقم ١٠٥ ، الآية ١ وما بعدها ، تفسير الطبري (٣٠/٢٩٩) ، تفسير ابن كثير (٤/٥٤٩) ، الأزرقي (١/٨٥) ، مروج الذهب (٢/٧١) ، الكامل ، لابن الأثير (١/٢٦٠) ، البداية (٢/١٧٠ ، ١٤٥) ، الملل والنحل (٣/٢٧٩) .

وبترك البيت وشأنه لأن للبيت ربّاً يحميه ، وبعدم التحرش بالحبش وتركهم وشأنهم . والظاهر انه وجد ان عدد الاحباش كان كبيراً وان من غير الممكن مقاومتهم والذبّ عن مكة في الوادي . ثم انها حرم آمن ، لا يجوز القتال فيه ، وليس فيها حصون وآطام يُتَحصَّن بها ، لهذا رأى الرحيل عن الوادي والاحتماء برؤوس الجبال ، والاشراف منها على الدروب والطرق ، فذلك انفع واحمى للمال والنفس . ثم ان من الممكن مباغتة الحبش منها ومهاجمتهم وانزال خسائر بهم حين يشاؤون ويقررون ، على حين تكون القوة والمنعة في ايدي الأحباش لو حصروا انفسهم بمكة ، اذ يكونون في منخفض بينما العدوّ على شُرف يشرف عليهم ، وليس في امكانهم مقاومته ، وليس لهم حصون ولا مواضع دفاع . فتكون الغلبة لأبرهة حتماً ، وقد نجحت فكرة عبد المطلب ، ولم يُصب اهل مكة بسوء .

وقد كان من عادة اهل مكة ، انهم اذا داهمهم الخطر توقّلوا الجبال واعتصموا بها ، ولما حاصرهم الرسول عام الفتح ، هرب اكثرهم واعتصموا برؤوس الجبال ، اذ ليس في امكانهم الحرب والصمود في البطحاء .[1]

ومات (عبد المطلب) بعد ان جاوز الثمانين . مات في ملك (هرمز بن أنو شروان) ، وعلى الحيرة قابوس بن المنذر ، أخو (عمرو بن المنذر) على رواية ، وعمر الرسول ثمان سنين . ومعنى ذلك انه توفي في حوالي السنة (٥٧٨) للميلاد . ولما حمل على سريره ، جزّت نساء (بني عبد مناف) شعورهن ، وشق بعض الاولاد قمصانهم حزناً على وفاته . ودفن بالحجون .[2] وذكر انه لم يقم بمكة سوق اياماً كثيرة لوفاة عبد المطلب .[3]

وذكر ان عبد المطلب كان اول من تحنث بحراء ، وكان اذا أهلّ هلال شهر رمضان ، دخل بحراء فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر ، ويطعم المساكين . وكان يعظّم الظلم بمكة ويكثر الطواف بالبيت .[4]

ومن ولد عبد المطلب : عبد الله وهو والد الرسول ، وأبو طالب ، واسمه

١ البلاذري ، انساب (٣٥٥/١) .
٢ البلاذري ، انساب (٨٤/١ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، انساب (٨٧/١) .
٤ البلاذري ، انساب (٨٤/١) .

عبد مناف ، والزبير ، وعبد الكعبة ، وعاتكة ، وبرّة وأميمة [1] وعدة ولده اثنا عشر رجلاً وست نسوة . [2]

ولم يكن ولد عبد المطلب من رجال مكة الأثرياء ، وكل ما كان عندهم ثراء روحي ، استمدوه من اسم (قصيّ) وهاشم . فكانوا من وجهاء مكة من هذه الناحية . اما من ناحية المادة والمال ، فلم يكونوا من السبّاقين فيه . لقد كانوا وسطا ، وربما كانوا دون اوساط تجار مكة . مات (عبد الله) ، ولم يخلف لأهله شيئاً ، ومات ابو طالب ، وحالته المالية ليست على ما يرام . لقد كانوا تجاراً يخرجون بتجاراتهم على عادة فيهم الى بلاد الشام ، او الى اليمن فيبيعون ويشترون ، ولكنهم على ما يبدو من الاخبار لم يتمكنوا من جمع ثروة تغنيهم وتجعلهم من اغنياء مكة . وقد تُوُفيّ (عبد الله) وهو في طريقه من (غزة) الى مكة ، وكان قد اقبل بتجارة له ، فنزل بالمدينة وهو مريض ، وتوفي هناك . [3] وأن (عبد المطلب) بعث اليه (الزبير بن عبد المطلب) اخاه ، ودفن في دار النابغة . [4] وأنه ترك عند وفاته (أم أيمن) ، حاضنة الرسول ، وكان يُسمّيها : (أمّي) ، فأعتقها وخمسة اجمال أوارك ، وقطعة غنم ، وسيفاً مأثوراً ، وورقا . [5]

وخرج (ابو طالب) بتجارة له في (عير قريش) ولكنه لم يتمكن من كسب شيء يربحه ويسعده من كل تجاراته . وآية ذلك ان الرسول اخذ منه ابنه (عليّاً) ، ليخفف عنه مشقة الانفاق على ولده ، وأخذ (العباس) (جعفراً) منه لينفق عليه . ووضعٌ مثل هذا لا يدل على يسر . [6] وكانت له مع فقره هذا وجاهة عند اهله وقومه . قيل : (لم يَسُد من قريش مُمِلق الا عتبة وأبو طالب ، فانهما سادا بغير مال) . [7] وقال (عليّ) في والده : (ابي ساد فقيراً وما

---

١ الطبري (٢/٢٣٩) (دار المعارف) ،

٢ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١/٨٩) ٠

٣ الطبري (٢/٢٤٦) (دار المعارف) ، البلاذري ، انساب (١/٩٢) ، ويقال كان عبد المطلب بعثه الى المدينة يمار له تمرا ٠ ويقال : بل أتاهم زائرا لهم ٠ ويقال بل قدم من غزة بتجارة له ٠

٤ البلاذري ، انساب (١/٩٢) ، ابن سعد ، طبقات (١/٩٩) ٠

٥ البلاذري ، انساب (١/٩٦) ٠

٦ ابن الأثير ، الكامل (٢/٣٧) (المنيرية) الطبري (٢/٢١٣) (الحسينية)

٧ السهيلي الروض الانف (١/١٢١) ٠

ساد فقير غيره)[١] . وذكر ان عياله كانوا في ضيقة وخدة . لا يكادون يشبعون لقلة ما عندهم[٢] .

وعتبة بن ربيعة ، هو أبو هند زوج (أبـي سفيان) ، وهي أم معاويـة . ويذكر أهل الأخبار أيضاً : (ساد عتبـة بن أبـي ربيعة وأبو طالب ، وكانا أفلس من أبـي المزلق . وهو رجل من بني عبد شمس ، لم يكن يجد مؤنة ليلته ، وكذا أبوه وجدّه وجدّ جدّه كلهم يعرفون بالافلاس)[٣] .

ويظهر ان (عبد شمس) و (نوفل) و (مخزوم) ، كانوا قد تمكنوا من منافسة (عبد المطلب) و (آل هاشم) على التجارة ، ومن انتزاع تجارة بلاد الشأم منهم ، ومن مزاحمتهم في الاتجـار مع اليمن والعراق ، حتى حصلوا على ثراء طائل ، صيّرهم من أغنى رجال مكة ، وجعل لهم التفوق على البلد ، حتى صار رجال من (بني مخزوم) من أغنى رجال مكة. وكذلك رجال من (عبد شمس).

وتعدّ (أيام الفجار) من الحوادث المؤثرة في تأريخ مكة . وهي أفجرة . وانما سميت بذلك لأنها كانت في الأشهر الحرم ، ومن أهمها (فجار البراض) ، نسبت الى (البراض بن قيس) الذي قتل (عروة الرحّال) (عروة بن عتبة الرحال) ، الى جانب (فدك) بأرض يقال لهـا (أوارة) ، فأهاج مقتله الحرب بين (قريش) ومن معها من (كنانة) وبين (قيس عيلان) ، وكانت الدبرة على (قيس)[٤] . وذكر في رواية أخرى ، ان الفجارات الأربعة : فجار الرجل ، أو فجار بدر بن معشر الغفاري ، وهو الفجار الأول ، وفجار القرد ، وفجار المرأة ، والفجار الرابع هو فجار البراض[٥] . وان يوم (البراض) أو يوم نخلة، هو أعظم أيام الفجار ، وكان البراض قد قدم باللطيمة الى مكة، فأكلها، وهي لطيمة (النعمان بن المنذر) ، التي وضع (النعمان) زمامها بيد (عروة بن عتبة الرحال) ، وكان سُمّي الرحال لرحلته الى الملوك . فكان ذلك ممـا أهاج

١ اليعقوبي (٢/٩) .
٢ البلاذري ، أنساب (١/٩٦) .
٣ السيرة الحلبية (١/١٥٣) .
٤ تاج العروس (٣/٤٦٥) ، (فجر) ، عن حروب الفجار ، العمدة (٢/٢١٨ وما بعدها) .
٥ المسعودي ، مروج (٢/٢٧١) ، تاج العروس (٣/٤٦٥) .

الحرب . وقد رأس قريش : حرب بن أمية ، وكان موضعه في القلب ، وعبد الله ابن جدعان في إحدى المجنبتين ، وهشام بن المغيرة في الأخرى ، فالتقوا بـ (نخلة) ، فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم ، وجنّ عليهم الليل . فكان اليوم لهوازن[1] .

وذكر ان هذا اليوم قد وقع بعد عشرين سنة من عام الفيل . وقد شهده الرسول وعمره عشرون سنة .

ثم إن قريشاً وبني كنانة لقوا هوازن بشمطة . وعلى بني هاشم : الزبير بن عبد المطلب ، وعلى بني عبد شمس وأحلافها : حرب بن أمية ، وعلى بني عبد الدار وحلفائها : عكرمة بن هاشم ، وعلى بني أسد بن عبد العزى : خويلد بن أسد ، وعلى بني زهرة : مخرمة بن نوفل ، وعلى بني تيم : عبد الله بن جدعان ، وعلى بني مخزوم : هاشم بن المغيرة ، وعلى بني سهم : العاص بن وائل ، وعلى بني جمح : أمية بن خلف ، وعلى بني عديّ : زيد بن عمرو بن نفيل ، وعلى بني عامر بن لؤي : عمرو بن شمس ، وعلى بني فهر : عبد الله بن الجرّاح ، وعلى بني بكر : بلعاء بن قيس ، وعلى الأحابيش : الحليس الكناني ، فالتقوا أول النهار على هوازن ، فصبروا . ثم استحر القتل في قريش ، وانهزم الناس[2] .

وروي ان (البراض بن قيس) لقي (بشر بن أبي خازم) الأسدي الشاعر ، فأخبره الخبر ، وأمر ان يعلم ذلك (عبد الله بن جدعان) و (هشام ابن المغيرة) ، و (حرب بن أمية) و (نوفل بن معاوية الديلي) و (بلعاء ابن قيس) ، فوافى (عكاظا) ، فأخبرهم فخرجوا الى الحرم ، وبلغ (قيساً) الخبر ، فخرجوا في آثارهم فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ، ولم تقم في تلك السنة (عكاظ) . ومكثت (قريش) وغيرها من (كنانة) و (أسد) بن خزيمة ومن لحق بهم من الأحابيش ، وهم الحارث بن عبد مناة وعضل والقارة وديش والمصطلق من خزاعة لحلفهم بالحارث بن عبد مناة ، سنة يتأهبون للحرب ، لانذار (قيس) لها . وتأهبت (قيس عيلان) وسارت على (قريش) ، وكان فيها (أبو براء عامر بن مالك بن جعفر) ، و (سُبيع بن ربيعة بن معاوية

---

١ البلاذري ، انساب (١/٤٣ ، ١٠١ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١/١٥٢) .
٢ البلاذري ، انساب (١/١٠٢ وما بعدها) .

النصري) و (دريد بن الصمة) ، و (مسعود بن معتب الثقفي) و (أبو عروة بن مسعود) و (عوف بن أبي حارثة المرّي) و (عباس بن رعل السُلمي) . واستعدت (قريش) ورؤساؤها (عبد الله بن جدعان) ، و (هشام ابن المغيرة) ، و (حرب بن أمية) و (أبو أحيحة سعيد بن العاص) ، و (عتبة بن ربيعة) ، و (العاص بن وائل) ، و (معمر بن حبيب الجمحي) ، و (عكرمة بن هاشم) ، وخرجوا متساندين . ويقال بل أمرُهم الى عبد الله بن جدعان . فالتقوا فكانت الدبرة أول النهار لقيس على قريش وكنانة ومن ضوى اليهم ، ثم صارت الدبرة آخر النهر لقريش وكنانة على قيس ، فقتلوهم قتلاً ذريعاً . فاصطلحوا على ان عَدّوا القتلى ، وودت قريش لقيس ما قتلت فضلاً عن قتلاهم ، وانتهت الحرب . وقد شهد الرسول هذه الفجار ، ورمى فيها بسهم ، فكان يوم حضر ابن عشرين سنة ، وكان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة[1] .

وأغلب حروب الفجار معارك ومناوشات ، ولم تكن حروباً بالمعنى المفهوم من كلمة (حرب) . اما أهميتها وسبب اشتهارها فلوقوعها في شهور حرم ولخروج المتحاربين فيها على سنة قريش ودينهم في تحريم القتال في هذه الشهور . ولهذا السبب حفظ ذكرها وجاء خبرها في كتب أهل الأخبار . وقد كان النصر فيها على كنانة وقريش في الغالب . وهو شيء مفهوم معقول . فقد كانت (قيس عيلان) كما كانت (هوازن) قبائل محاربة تعيش على الغزو والقتال ، بينما كانت (قريش) قبيلة مستقرة اتخذت التجارة لها رزقاً ، كما عاشت على الأرباح التي تجنيها من مجيء الأعراب اليها في مواسم الحج أو أيام العمرة ومن الامتيار من أسواقها . وقوم هذا شأنهم في حياتهم وفي تعاملهم لا يمكن ان يميلوا الى الغزو والقتال ، بل كانوا يحبون حياة السلم والاستقرار ، يشترون السلم ولو عن طريق ترضية الأعراب بتقديم الأموال لهم والهدايا والهبات . لذلك لم يصر رجالها رجال حروب وقتال ، بل صاروا رجال سياسة ومساومة ومفاوضات تنتهي بنتائج طيبة بالنسبة لهم ، لا يمكن ان يحصلوا عليها من القتال .

وقد رأس (الزبير بن عبد المطلب) بني هاشم ، غير ان رئاسته هذه

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٨) ، السيرة الحلبية (١/١٥٢) .

لم تكن متينة وقد كان في جملة من شهد (حلف الفضول) في دار (عبد الله ابن جدعان) [١] . كما رأس (بني هاشم) في حرب الفجار [٢] . وذكر انه كان نديماً لمالك بن عُميلة بن السباق بن عبد الدار [٣] . وقد تاجر الزبير مع بلاد الشأم إلا انه لم ينجح في تجارته على ما ظهر ، بدليل انه لم يكن موسراً . وذكر انه كان أحد حُكام العرب الذين يتحاكمون اليهم [٤] .

وحلف الفضول من الأحداث المهمة التي يذكرها أهل السير والأخبار في تأريخ مكة . وإذا صحّ ما يذكرونه من انه عقد بعد الفجار بشهور ، وفي السنة التي وقع فيها الفجار الذي حضره الرسول ، ومن ان الرسول حضره وهو ابن عشرين سنة ، فيجب ان يكون عقد هذا الحلف قد تم في حوالي السنة (٥٩٠) للميلاد [٥] . ويذكر ان الذي دعا اليه هو الزبير بن عبد المطلب [٦] .

وقد شهد حلف الفضول بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم وذكر انهم تعاهدوا على ان يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه ، وفي التآسي في المعاش . وقد عقد منصرف قريش من الفجار وكان الفجار في شوّال وعقد الحلف في ذي العقدة [٧] . وذكر ايضاً انهم (تحالفوا ألا يُظلم أحد بمكة إلا قاموا معه حتى ترد ظلامته) . وقد ذكره الشاعر (نبيه بن الحجّاج السهمي) [٨] . وليس لأهل الأخبار رأي ثابت عن سبب تسمية هذا الحلف بحلف الفضول . فذكر بعضهم انه سُمّي بذلك لانهم تحالفوا ان يتركوا عند أحد فضلاً يظلمه أحداً إلا أخذوه له منه . وقيل : سُمّي به تشبيهاً بحلف كان قديماً بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوي والغريب من القاطن . وسُمّي حلف الفضول ، لانه قام به رجال

١ المحبر (ص ١٦٧) .
٢ المحبر (ص ١٦٩) .
٣ المحبر (ص ١٧٦) .
٤ البلاذري ، انساب (١/٨٨) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٨ وما بعدها) .
٦ السيرة الحلبية (١/١٥٣ وما بعدها) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٨ وما بعدها) .
٨ نسب قريش ، (٢٩١) ، الأغاني (١٦/٦٤) .

من جرهم كلهــم يسمى الفضل ، فقيل حلف الفضول جمعاً لأسماء هؤلاء[١] . وذكر انه سُمّي حلف الفضول ، لأن قريشاً قالت : هذا فضول من الحلف ، فسمي حلف الفضول[٢] . وقيل لأن قريشاً تعاقدوا فيما بينهم على (مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم)[٣] . وهو في بعض الروايات تحالُف ثلاثــة من الفضلين على ألا يروا ظلماً بمكة إلا غيّروه . وأسماؤهم : الفضل بن شراعة ، والفضل بن قضاعــة ، والفضل بن نصاعة . فسُمّي من ثم باسمهــم : حلف الفضول[٤] .

وذكر أكثر أهل الأخبار ، ان الغاية التي أريد بها منه ، هي إنصاف المظلومين من أهل مكة ، من الضعفاء والمساكين ومن لا يجد له عوناً ليحميه ويدافع عن حقوقه ، وإنصاف الغرباء الوافدين على مكة من حجاج أو تجــار ، ممن يعتدي عليهم فيأخذ أموالهم أخذاً ويأكلها ولا يدفع لأصحابها عنها شيئاً . فذكر ان رجلاً من (زبيد) من اليمن ، وكان باع سلعة له (العاصَ بن وائل السهمي) ، فطله الثمن حتى يئس ، فعــلا جبل (أبي قيس) ، وقريش في مجالسها حول الكعبة ، فنادى رافعاً صوته يشكو ظلامته ، ويطلب انصافه مستجيراً بقريش ، فشت قريش بعضهــا الى بعض ، وكان أول من سعى في ذلك (الزبــير بن عبد المطلب) ، واجتمعت في (دار الندوة) ، وكان ممن اجتمع بهــا من (قريش) (بنو هــاشم) و (بنو المطلب) و (زهــرة) و (تــيم) و (بنو الحارث) ، فاتفقوا على انهم ينصفون المظلوم من الظــالم ، فساروا الى دار عبد الله بن جدعان ، فتحالفوا هنالك[٥] .

وذكر ان رجلاً من (بني أسد بن خزيمة) جاء بتجارة فاشتراها رجل من (بني سهم) ، فأخذها السهمي وأبى ان يعطيه الثمن ، فكلّم قريشاً وسألهــا اعانته على أخذ حقه ، فلم يأخذ له أحد بحقه ، فصعد الأسدي (أبا قبيس) ،

١ تاج العروس (٨/٦٣) .
٢ اليعقوبي (٢/١٤) ، (طبعة النجف) .
٣ Kister, p. 124.
٤ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠٤) .
٥ مروج الذهب (٢/٢٧٠ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١/١٥٦ وما بعدها) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٤٠) .

وصرخ بشعر يشكو فيه ظلامته ، فتداعت قريش ، وعقدت حلف الفضول .

وقيل لم يكن من (بني أسد) ، ولكنه (قيس بن شيبة السُلمي) ، باع متاعاً من (أبي خلف الجمحي) وذهب بحقه ، فاستجار بـ (آل قصي) ، فأجاروه ، فكان ذلك سبب عقد حلف الفضول [1] . وقيل : بل كان الرجل من (بارق) ، فلما يئس من أخذ حقه من (أبي) ، صعد في الجبل ورفع عقيرته بقوله :

يا للرجال لمظلومٍ بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ان الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فلما سمعه (الزبير بن عبد المطلب) ، أجابه :

حلفتُ لنعقدن حلْفاً عليهم وإن كُنّا جميعاً أهل دارِ
نُسمّيه الفضول إذا عقدنا يقربه الغريب لذي الجوار

ثم قام وعبد الله بن جدعان ، فدعوا قريشاً الى التحالف والتناصر والأخذ للمظلوم من الظالم ، فأجابوهما ، وتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان ، فهذا حلف الفضول [2] .

وذكر ان رجلاً من (خثعم) قدم مكة ومعه بنت وضيئة ، فاغتصبها منه (نبيه بن الحجاج) ، فقيل له عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة ، ونادى : يا لحلف الفضول ، فاجتمعوا حوله ، واستردوا الجارية من نبيه . وقالوا له : (ويحك . فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه) فأعادها اليه [3] .

ويظهر من هذا الخبر ان حلف الفضول كان قد عقد قبل هذه الحادثة ، وان جماعته كانت شديدة متراصة في دفع الحق الى أهله واسترجاعه ممن اغتصبه كائناً ما كان .

ويظهر ان هذا الحلف استمر قائماً الى وقت ما في الإسلام ، ثم فقد

---

١ اليعقوبي (٢/١٣ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٤١) ، السهيلي ، الروض الأنف (١/٩١) .
٣ السيرة الحلبية (١/١٥٧) .

قيمته ، فمات . فورد انه كان بين (الحسين بن عليّ بن أبي طالب) وبين (الوليد بن عتبة بن أبي سفيان) منازعة في مال متعلق بالحسين ، فماطله الوليد . (فقال الحسين للوليد : أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون لحلف الفضول ، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه)[1] .

وقد تفسر دعوة (الحسين) المذكورة ، بأن الحسين ، لم يقصد بقوله (لأدعون لحلف الفضول) ، الحلف القديم المعروف ، وانما قصد لأدعون لحلف كحلف الفضول ، وهو نصرة المظلوم على ظالمه . وقد أيده على حقه جماعة ، منهم عبد الله بن الزبير ، مما دفع الوليد على ارجاع حق الحسين ، خشية وقوع فتنة وتدخّل في هذه الخصومة[2] . ومعنى هذا أننا لا نستطيع ان نستنتج من الخبر المتقدم ، ان حلف الفضول كان قد بقي الى ذلك العهد .

ويرجع حلف الفضول الى أحلاف سابقة على ما يتبين من أخبار أهل الأخبار . الى عهد (هاشم) والى ما قبل أيام هاشم . والظاهر ان أهل مكة ، بعد ان اجتمعوا وتكتلوا في واد ضيق وفي أرض فقيرة ، وجدوا ان من العسير عليهم رؤية حفنة منهم وقد استأثرت بالمال والغنى ، بينما عاش الكثير بينهم في فقر وفاقة . وانهم ان أصموا آذانهم عن سماع نداء الإغاثة ، فإن حالة من الذعر ، ستسود مدينتهم . لذلك تواصوا فيما بينهم على مواساة أهل الفاقة وجبر خاطر المحتاج ، وعلى تراحمهم فيما بينهم وتواصلهم . وكان مما فعلوه لرفع مستوى الفقير ، وللقضاء على الفوارق الكبيرة التي صارت فيما بين سادات مكة وسوادها ، ان حثوا كل مكيّ على المساهمة في أموال القوافل ، حتى اذا ما عادت رابحة ، وُزّعت أرباحها على هؤلاء ايضاً ، كلّ حسب مقدار ما ساهم به من مال في القافلة . وبذلك خفف أهل مكة من حدة التضاد الذي كان بين النقيضين . وأمنوا من تطاول الشباب الفقراء على الأغنياء . بأن فتح بعض الأغنياء أبواب بيوتهم

١ السيرة الحلبية (١٥٧/١) .
٢ السيرة الحلبية (١٥٧/١) .

للجياع ، فآووهم وساعدوهم على نحو ما جاء في شعر لمطرود بن كعب الخزاعي إذْ يقول :

هبلتك أمك لو حللت بدارهم ضمنوك من جوع ومن اقراف [١]

وقوله :

والخالطين غنيهـم بفقيرهـم حتى يصير فقيرهم كالكافي [٢]

والعطف على الفقراء ومواساة الضعفاء وذوي الحاجة من خلال الأشراف السادات . لأنهم إن لم يغيثوا الغائث ويرحموا المسكين فمن يرحمهم إذن على وجه هذه الأرض ! وقد مدح من يخلط الفقير بالغني فيساوي بينهما ، وذم من يبيت شبعاناً وجاره يبيت خامصاً لا شيء عنده يعتمد عليه [٣] .

وكان من أهم الأحداث التي وقعت في أيام الرسول ، يوم كان في الخامسة والثلاثين ، بناء الكعبة . بسبب سيل ملأ ما بين الجبلين ، ودخل الكعبة حتى تصدعت ، أو بسبب حريق أصاب أستار الكعبة ، فتصدعت ، فعزمت قريش على بنائها ، فهدمتها وأعادت بناءها . وذكر ان قريشاً كانت قد أفردت ببناء كل ربع من أرباع البيت قوماً ، وكان ذلك بقرعة بينهم . فلما انتهوا الى موضع الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن يضعه وتشاحّوا عليه ، فرضوا بأول من يدخل من الباب . فكان أول من دخل رسول الله ، فوضعه بيده ، بعد ان قال : ليأت من كل ربع من قريش رجل ، وبذلك فض النزاع [٤] . ويجب ان يكون حادث بناء البيت إذن في حوالي السنة (٦٠٥) للميلاد .

---

١ اليعقوبي (٢١٤/١) ، (طبعة النجف ١٩٦٤ م) .

٢ (فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فجاء الاسلام وهم على هذا ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالا ولا اعز من قريش ، وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله) ، تفسير القرطبي ، (٢٠٥/٢٠) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٥٤٦/١٠) ، (طبعة طهران) ، البلاذري ، أنساب (٥٨/١) ، ابن العربي ، محاضرات الأبرار (١٩/٢) .

٣ القالي ، الأمالي (١٥٨/٢) . Kister, P. 123.

٤ البلاذري ، أنساب (٩٩/١) ، ابن رسته ، الاعلاق النفيسة (وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يومئذ قد ناهز الحلم) ، (ص ٢٩) .

وجهاء مكة :

وكان امر مكة الى وجهاء امرها ، مثل (بنو مخزوم) ، و (بنو عبد شمس) ، و (بنو زهرة) و (بنو سهم) و (بنو المطلب) و (بنو هاشم) و (بنو نوفل) و (بنو عديّ) و (بنو كنانة) و (بنو اسد) و (بنو تَيْم) و (بنو جمح) و (بنو عبد الدار) و (بنو عامر بن لؤيّ) و (بنو محارب بن فهر) وذكر بعض اهل الاخبار ، ان الشرف والرياسة في قريش في الجاهلية في (بني قصيّ) ، لا ينازعونهم ولا يفخر عليهم فاخر . فلم يزالوا ينقاد لهم ويرأسون . وكانت لقريش ست مآثر كلها لبني قصيّ دون سائر قريش . منها الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والرياسة . فلما هلك (حرب بن امية) ، وكان حرب رئيساً بعد المطلب ، تفرقت الرياسة والشرف في (بني عبد مناف) . فكان في بني هاشم : الزبير وأبو طالب وحمزة ، والعباس بن عبد المطلب . وفي بني امية : ابو احيحة ، وهو سعيد بن العاص بن امية ، وهو (ذو العمامة) ، كان لا يعتم احد بمكة بلون عمامته اعظاماً له . وفي بني المطلب : عبد يزيد بن هاشم بن المطلب . و (عبد يزيد) هو (المحض لا قذى فيه) وفي (بني نوفل) : المطعم بن عديّ بن نوفل . وفي بني اسد بن عبد العُزى : خويلد ابن اسد ، وعثمان بن الحويرث بن اسد . وقد كانت النبوة والخلافة لبني عبد مناف ، ويشركهم في الشورى : زهرة وتيم وعدي وأسد . [1]

وقد اختص (بنو كنانة) بالنسيء . فكان نسأة الشهور منهم . وهم (القلامسة) . وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم . [2] فكانتهم اذن بين الناس هي مكانة روحية ، فبيدهم الفقه والافتاء .

ومكة وان كانت مجتمعاً حضرياً ، اهله اهل مدر في الغالب ، غير انهـا لم تكن حضرية تامة الحضارة بالمعنى الذي نفهمه اليوم ، لأن الحياة فيها كانت مبنية على اساس العصبية القبليـة . المدينة مقسمة الى شعاب ، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة ، تحكمها الاسر ، وبين الاسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ .

١ المحبر (ص ١٦٤ وما بعدها ، ١٦٩) .
٢ المحبر (ص ١٥٦) .

نزاع وان لم يقلق الأمن ويعبث بسلام المدينة ، الا انه اثر في حياتها الاجتماعية اثراً خطيراً ، انتقلت عدواه الى ايام الاسلام .

لقد حاول بعض رؤسائها ووجوهها التحكم بأمر مكة ، واعلان نفسه ملكاً عليها يحلي رأسه بالتاج شأن الملوك المتوّجين ، ولكنه لم يفلح ولم ينجح . حتى ذكر ان بعضهم التجأ الى الغرباء ، لمساعدتهم بنفوذهم السياسي والمادي والعسكري في تنصيب انفسهم ملوكاً عليها ، فلم ينجحوا ، كالذي ذكروه عن (عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى) ، المعروف بـ (البطريق) ، من انه طمع في ملك مكة ، فلما عجز عن ذلك ، خرج الى قيصر ، فسأله ان يملكـه على قريش ، وقال : احملهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك ، ففعل ، وكتب له عهداً وختمه بالذهب ، فهابت قريش (قيصر) وهمّوا ان يدينوا له ، ثم قام الاسود بن المطلب ، ابو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : ان قريشاً لقاح ! لا تملك ولا تملك ، وصاح الاسود بن اسد بن عبد العزى : الا ان مكة حي لقاح ، لا تدين للملك . فاتسعت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ، ولم يتم له مراده ، فمات عند ابن جفنة . فاتهمت بنو اسد ابن جفنة بقتله . [1] وابن جفنة هو عمرو بن جفنه الغساني . [2]

ولم يكن عثمان بن الحويرث اول زعيم جاهلي فُتن بالملك وبلقب ملك،الحبيب الى النفوس ، حتى حمله ذلك على استجداء هذا اللقب والحصول عليه بأية طريقة كانت ، ولو عن سبيل التودد الى الأقوياء الغرباء والتوسل اليهم ، لمساعدتهم في تنصيبهم ملوكاً على قومهم . ففي كتب اهل الاخبار والتواريخ اسماء نفر كانوا على شاكلته ، فتنهم الملك وأعماهم الطمع وحملهم ضعف الشخصية وفقر النفس حتى على التوسل الى الساسانيين والروم ، لتنصيبهم على قومهم ومنحهم اللقب الحبيب ، ووضع التـاج على رأسهم ، في مقابل وضع انفسهم وقومهم في خدمة السادة المساعدين اصحاب المنة والفضل .

لقد استمات عثمان بن الحويرث في سبيل الحصول على ملك مكة ، حتى ذكر

١ نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١/١٤٦) .
٢ جمهرة ابن حزم (١٩٠) ، الروض الأنف (١/١٤٦) ، نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) .

انه تنصر وتقرب بذلك الى الروم ، وحسنت منزلته عندهم . ومن يدري ؟ فلعلّه كان مدفوعاً مأموراً حرضه الروم ودفعوه للحصول على المدينة المقدسة ، ليتمكنوا بذلك من السيطرة على الحجاز والوصول الى اليمن والسيطرة على العربية الغربية والعربية الجنوبية . واخضاع جزيرة العرب بذلك لنفوذهم . ولقد جمع القوم ورغّبهم وانذرهم وحذرهم بغضب الروم عليهم ان عارضوا مشروعه وقاوموا تنصيبه ملكاً عليهم . قائلاً لهم : (يا قوم ، ان قيصر قد علمتم امانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه . وقد ملكني عليكم ، وأنا ابن عمكم ، وأحدكم ، وانما آخذ منكم الجُراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ، ثم اذهب اليه . وأنا اخاف ان ابيتم ذلك ان يمنع منـــكم الشام ، فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه) . [1]

واذ صحّ ان هذا الكلام هو كلام (عثمان بن الحويرث) حقاً ، وانه خاطب به قومه لحثهم على الاعتراف به ملكاً على مكة ، فانه يكون كلام رجل عرف من اين يكلم قومه ، وكيف يأتيهم ! فقد هددهم بأن الروم سيمنعونهم من الاتجار مع الشام ان خالفوه ولم يبايعوه ولم يسلّموا له بالملك ، وقد كلفه (قيصر) به . لأنه يعلم ان تجارة قريش مع بلاد الشام هي مصدر من اهم مصادر رزقهم . ولهذا ظن بأنهم سيخضعون له ويقبلون بما جاء به . ولكن أشراف مكة من اصحاب المال والنفوذ ، لم يحملوا هذا التهديد محمل الجد ، فالروم لا يهمهم امر (عثمان) كثيراً ، ثم ان تهديدهم بقطع تجارة قريش مع الشام ، تهديد لا يمكن تحقيقه ، وحدود الشام طويلة ومفتوحة ، ولعلّهم وجدوا ان كلام (عثمان) هو ادعاء لم يصدر عن الروم ، تفوه به ، من حيث لا يعلمون . فلم يقيموا له وزناً .

ولم يذكر اهل الاخبار شيئاً عن لقب (البطريق) الذي منحوه لـ (عثمان ابن الحويرث) . [2] ولا اظن ان الروم قد منحوه له ، لأنهم لم يكونوا يمنحون هذا اللقب المهم الا لكبار العاملين في خدمتهم ، ممن ادى لهم خدمات جليلة ، ولا اظن انه يشير الى درجة دينية ، لأنه لم يشتهر بين النصارى شهرة كبيرة ولم ينل من العلم والمكانة ما يؤهله لأن يكون (بطريارخاً) على الكنيسة . وقد ذكر

---

١ الروض الأنف (١٤٦/١) .

٢ نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١٤٦/١) .

علماء اللغة ان (البطرق) ، القائد ، معرب ، وهو الحاذق بالحرب وأمورها ، وهو ذو منصب عند الروم[1] . فلا يعقل ان يكون (عثمان) ، قد نال هذه المنزلة عند البيزنطيين . وهي منزلة لم ينلها إلا بعض ملوك الغساسنة مع صلتهم القوية بهم .

ومما يذكره أهل الأخبار عن (عثمان) هذا ، انه كان في رؤساء حرب الفجار من قريش . وانه كان من (بني أسد بن عبد العزّى) ، وانه كان أحد الهجائين[2] .

ومن وجهاء مكة وساداتها المقدمين المعروفين : عبد الله بن جدعان ، وكان ثريّاً واسع الثراء ، كما كان كريماً ، أسرف في أواخر عمره في إكرام الناس وبالغ في اعطائهم حتى حجر رهطه عليه لما أسن ، فكان اذا أعطى أحداً شيئاً ، رجعوا على المعطى فأخذوه منه . فكان اذا سأل سائل ، قال : (كن مني قريباً اذا جلست ، فإني سألطمك ، فلا ترضَ إلا بأن تلطمني بلطمتك ، أو تفتدى لطمتك بفداء رغيب ترضاه)[3] . والى هذا الحادث أشار ابن قيس الرقيات :

والذي إن أشار نحوك لطماً تبع اللطم نائل وعطاء[4]

وينسبه النسّابون الى (بني تيم بن مُرّة) ، ويقولون في نسبه إنه (عبد الله ابن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة) . وهو ابن عم والد الخليفة (أبي بكر)[5] ، ويذكرون (انه كان في ابتداء أمره صعلوكاً ترب

١ اللسان (٩/١٠) ، (بطرق) .
٢ الاشتقاق (٥٩) ، نسب قريش (٢١٠) ، المحبر (١٦٥ ، ١٧٠) .
٣ المحبر (ص ١٣٨) ، نسب قريش ، (٢٥٦) ، عيون الأخبار ، لابن قتيبة (٣٣٥/١) ، تاريخ الخميس (٢٥٦/١) ، سمط النجوم (٢٠١/١ وما بعدها) .
٤ المحبر (ص ١٣٨) ، نسب قريش (٢٩٣) ، وهو من (بني تيم) ، وقد أخطأ المستشرق (ليفي بروفنسال) او من اشرف نيابة عنه على طبع كتاب (نسب قريش) ، فصير (بنو تيم) (بنو تميم) ، راجع (ص ٢٩٢ س ١٠) ، و (ص ٢٩٣ س ١) . والخطأ خطأ مطبعي ولا شك ، ولاهميته اشرت اليه .
٥ ابن خلدون ، القسم الأول ، المجلد الثاني (ص ٦٧٤) (بيروت) ابن كثير ، البداية والنهاية (٢١٧/٢) (مطبعة السعادة) ، ابن حزم ، جمهرة انساب العرب (١٣٦) .

اليدين ، وكان مع ذلك شريراً فاتكاً ، لا يزال يجني الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه ، وحلف ان لا يؤويه أبداً ، فخرج في شعاب مكة حائراً مائراً يتمنى الموت ان ينزل به ، فرأى شقاً في جبل ، فظن ان فيه حيّة ، فتعرض للشق يرجو ان يكون فيه ما يقتله فيستريح ، فلم يجد شيئاً ، فدخل فيه) ، فإذا به أمام غار هو مقبرة من مقابر ملوك (جرهم) ، وفيه كنوز وأموال من أموالهم ثمينة من بينها (ثعبان) مصنوع من ذهب ، له

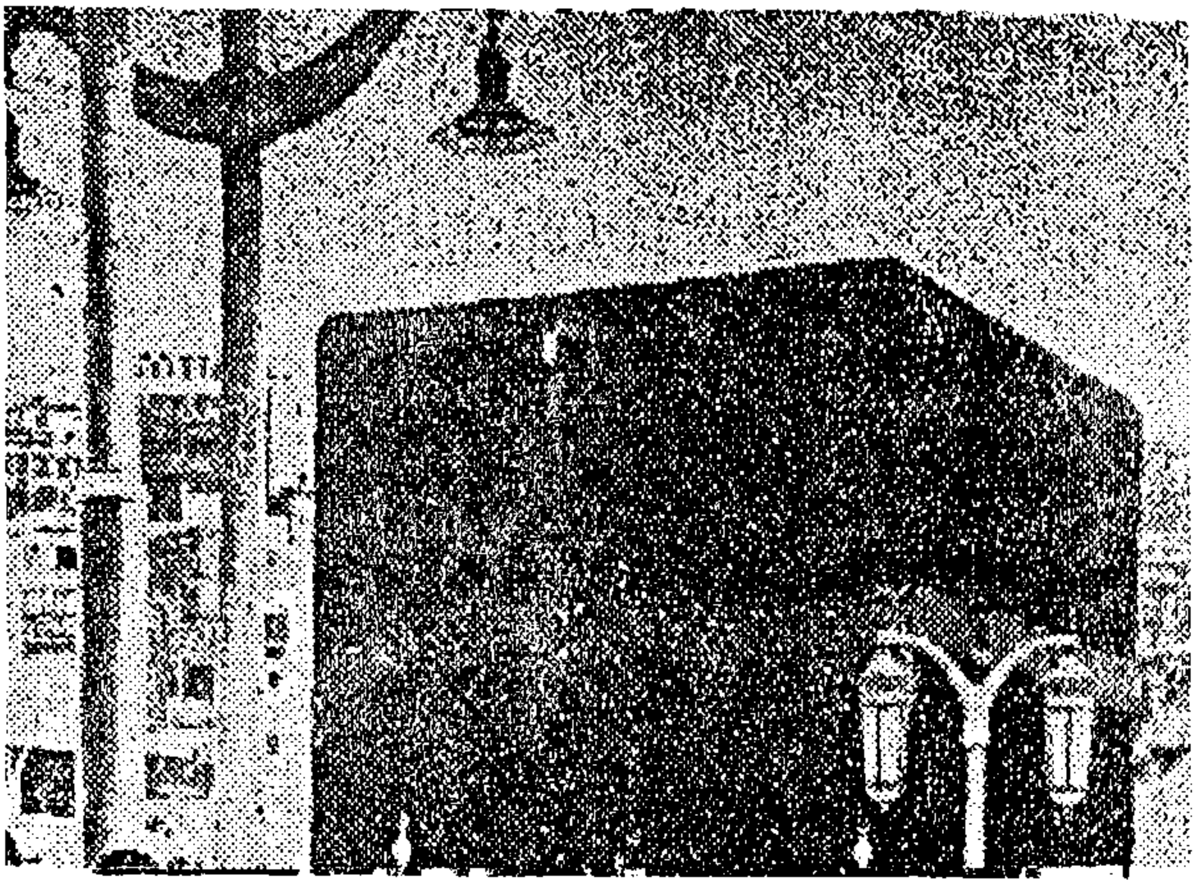

الكعبـــة الشريفـــة

عينان من ياقوت . ووجد جثث الملوك على أسرّة ، لم يرَ مثلها ، وعليها ثياب من وشي ، لا يُمَسُّ منها شيء إلا انتثر كالهباء من طول الزمان ، فأخذ من الغار حاجته ثم خرج ، وعلّم الشق بعلامة ، وأغلق بابه بالحجارة ، وأرسل الى أبيه بالمال الذي خرج بــه منه يسترضيه ويستعطفه ، ووصل عشيرتــه كلهم ، فسادهم ، وجعل ينفق من ذلك الكنز ، ويطعم الناس ، ويفعل المعروف . وكان

كلما احتاج الى مال ذهب . فاستخرج ما يحتاج اليه من ذلك الكنز حتى صار من أغنى أغنياء مكة [1] .

فثراء (عبد الله بن جدعان) هو من هذا الكنز على زعم رواة هذه القصة التي يتصل سندها بـ (عبد الملك بن هشام) راوية (كتاب التيجان) ، وهو كتاب مليء بالأقاصيص والأساطير . وقد تكون القصة صحيحة . فعثور الناس على كنوز ودفائن من الأمور المألوفة ، وقد عثر غيره ممن جاؤوا قبله أو جاؤوا بعده على كنوز ، بل ما زال الناس حتى اليوم يعثرون عليها مصادفة أو في أثناء الحفر والتنقيب . والشيء الغريب فيها هو هذا التزويق والتنميق ، وهو أيضاً شيء مألوف بالنسبة الينا ، وغير غريب وقد تعودنا قراءته ، فمن عادة القصاصين ورواة الأساطير والأباطيل الإغراب في كلامهم والكذب فيه لأسباب لا مجال لذكرها هنا ، وعلى رأس هذه الطائفة (وهب بن منبه) ، صاحب (كتاب التيجان) .

وذكر انه لثرائه كان لا يشرب ولا يأكل إلا بآنية من الذهب والفضة ، فعرف لذلك بـ (حاسي الذهب) [2] .

ويذكر أهل الأخبار ان (عبد الله بن جدعان) كان نخاساً ، له جوار يساعين ، ويبيع أولادهن . فكانت جواريه تؤجر للرجال ، وما ينتج عن هذا السفاح من نسل ، يربى ، فيبقي منه عبد الله ما يشاء ويبيع منه ما يشاء [3] . ولكنه مع اتجاره بالرقيق ، وعلى النحو المتقدم ، كان كما يقولون يعتق الرقاب ويعين على النوائب ، ويساعد الناس ويقضي الحاجات [4] ، ولا سيما بعد تقدمه في السن .

١ البدايه والنهاية ، لابن كثير (٢/٢١٧ وما بعدها) ، تأريخ الخميس (١/٢٥٥) ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المالكي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، (١/١٩٩) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٣٥٩) .

٢ أيام العرب (٢٤٨) .

٣ المسعودي ، مروج (٤/١٥٤) (طبعة باريس) ، الثعالبي ، لطائف المعارف (١٢٨) (الأبياري) ، المعارف ، لابن قتيبة (٥٧٦) .

٤ البداية ، لابن كثير (٢/٢٢٩) .

ولا يستبعد ان يكون ما ذكره أهل الأخبار عن (عبد الله بن جدعان) ، هو من صنع حساده ومبغضيه ، ممن حسدوه على ما بلغ اليه بمكة من مركز وجاه. ومثل هذا التشنيع على الناس شائع مألوف . لا سيما وقد كان في الأصل فقيراً غير موسر ، فغني بجده واجتهاده فتقوّل عليه حساده من أهل زمانه تلك الأقوال .

وقد عرف (ابن جدعان) بإكرام الناس وبالإنفاق على أهل مدينته وروى أهل الأخبار أمثلة عديدة على جوده وسخائه . من ذلك ما رووه من انه كان قد وضع جفنة كبيرة ملأها طعاماً ليأكل منها الناس ، وكانت الجفنة على درجة كبيرة من السعة بحيث غرق فيها صبي كان قد سقط فيها . وذكروا ان الرسول قال : لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكَّة عُمَيّ ، أي وقت الظهيرة [1] . ووصفوا الجفنة فقالوا إنها (كانت لابن جدعان في الجاهلية . يطعم فيها الناس ، وكان يأكل منها القائم والراكب لعظمها) [2] . يأكل الراكب منها ، وهو على بعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها [3] .

وذكروا انه كان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن ، حتى سمع قول أمية بن أبي الصلت :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم   فرأيت أكرمهم بني الديّان
البر يُلبَكُ بالشهاد طعامهم   لا ما يُعللنا بنو جُدعان

فبلغ ذلك عبد الله بن جدعان ، فوجه الى اليمن من جاءه بمن يعمل الفالوذج بالعسل ، فكان أول من أدخله بمكة . وجعل منادياً ينادي كل ليلة بمكة على ظهر الكعبة ان هلموا الى جفنة ابن جدعان . فقال أمية بن أبي الصلت :

له داعٍ بمكة مشمعل   وآخر فوق كعبتها ينادي [4]
الى ردحٍ من الشيزى ملاءٍ   لُباب البر يلبك بالشهاد [5]

---

١ ابن كثير ، البداية (٢١٧/٢) ، اللسان (٤٥٧/١٠) ، عيون الاخبار (٢٦٨/٣) (كتاب الطعام) .
٢ ابن كثير ، البداية (٢١٧/٢) ، سمط النجوم (١٩٩/١) ، اللسان (٤٥٧/١٠) .
٣ ابن كثير (٢٢٩/٢) .
٤ وفي رواية أخرى (فوق داره) بدلا من (فوق كعبتها) ، وهناك اختلافات أخرى في رواية هذه الابيات وغيرها .
٥ البداية (٢١٧/٢) ، ذيل الامالي والنوادر ، للقالي (٣٨) ، الاغاني (٣٢٩/٨) .

ويذكر اهل الاخبار ان (امية) كان قد أتى (بني الديان) فدخل على (عبد المدان بن الديان) من بني الحارث بن كعب بنجران ، فاذا به على سريره ، وكأن وجهه قمر ، وبنوه حوله ، فدعا بالطعام ، فأتي بالفالوذج ، فأكل طعاماً عجيباً ، ثم انصرف فقال في ذلك الشعر المذكور ، فلما بلغ شعره (ابن جدعان) ، ارسل ألفي بعير الى الشام تحمل اليه البر والشهد والسمن ، وجعل له منـاديين يناديان : احدهما بأسفل مكة والآخر بأعلاها ، وكان احدهما سفيان بن عبد الاسود ، والآخر أبا قحافة ، وكان احدهما ينادي ؛ ألا من اراد اللحم والشحم ، فليأت دار ابن جدعان ، وينادي الآخر : ان من اراد الفالوذج فليأتِ الى دار ابن جدعان . وهو اول من اطعم الفالوذج بمكة .[1]

وذكر (الجاحظ) ان من اشرف ما عرفه اهل مكة من الطعام ، هو (الفالوذ) ولم يطعم الناس منهم ذلك الطعام ، الا عبد الله بن جدعان .[2]

ولبعض اهل الاخبـار رواية اخرى في كيفية وقوف (ابن جدعان) على الفالوذ (الفالوذج) وادخاله الى مكة ، وترجع هذه الرواية مصدره الى الفرس ، فيقول : وفد (ابن جدعان) على كسرى ، فأكل عنده الفالوذ ، فسأل عنه ، فقيل له : هذا الفالوذ . قال : وما الفالوذ ؟ قالوا : لُباب البُرِّ يُلْبَكُ مع عسل النحل . فأعجبه ، فابتاع غلاماً يعرف صنعه ، ثم قدم به مكة معه ، ثم امره فصنع له الفالوذ بمكة ، فوضع الموائد بالأبطح الى باب المسجد ، ثم نادى مناديه : ألا من اراد الفالوذ فليحضر ، فحضر الناس . فكان فيمن حضر أميّة ابن أبي الصَّلْت .[3]

وذكر انه كان يضع (الحَيْس) على انطاع على الارض ليأكل منها القاعد والراكب . والحَيْس : الأقِطُ يخلط بالتمر والسمن . وقد يجعل عوض الأقِطِ الدقيقُ والفَتيت . وقيـل ، الحَيْس : التمر والأقِطُ يُدقّان ويعجنان بالسمن عجناً شديداً حتى يندر النوى منه نواةً نواةً ، ثم يسوّى كالثريد . وهو الوَطْبة ايضاً ، الا ان الحَيْس ربما جُعل فيه السويق ، واما الوطبة فلا .[4]

١ سمط النجوم (١٩٩/١) ، ذيل الامالي والنوادر (٣٨) .
٢ البخلاء (٢١٠) (طه الحاجري) .
٣ الاغاني (٣٢٩/٨) .
٤ الجاحظ ، الحيوان (٤٠٣/٣) ، لسان العرب (٦١/٦) .

ويروي اهل الاخبار ان اهل مكة كانوا يفدون على مائدة (ابن جدعان) ، وأن رسول الله كان فيمن حضر طعامه .[1]

وروي ان الرسول لما امر بأن يستطلع خبر القتلى من قريش يوم بدر ، وأن تلتمس جثة (ابي جهل) في القتلى ، قال لهم : (انظروا ان خفي عليكم في القتلى ، الى اثر جرح في ركبته ، فإني ازدحمت يوماً انا وهو على مأدبة لعبد الله ابن جدعان ، ونحن غلامان ، وكنت اشف منه بيسير ، فدفعته فوقع على ركبتيه) ، فخدشت ساقه وانهشمت ركبته ، فأثرها باقٍ في ركبته). فوجدوه كذلك .[2]

ويذكر اهل الاخبار ان (عبد الله بن جدعان) كان قد مثل قومه (بني تيم) في الوقت الذي ارسلته قريش الى (سيف بن ذي يَزَن) ، واسمه (النعمان بن قيس) ، لتهنئته بظفره بالحبشة ، واخراجهم من وطنه . وكان هذا الوفد في وفود من العرب جاءته لتهنئته ، وفيها شعراء وأشراف وسادات قبائل . وقد كان في وفد قريش : عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وخويلد بن أسد ، ووهب بن عبد مناف . وقد قدمت تلك الوفود الى صنعاء ، ودخلت قصره : قصر غُمدان .[3]

ويروى ان عبد الله بن جدعان كان عقيماً ، لم يولد له ولد.[4] فتبنى رجلاً سمّاه (زهيراً) ، وكنّاه (ابا مليكة) ، فولده كلهم ينسبون الى (ابي مليكة) . وفقد (ابو مليكة) فلم يرجع .[5]

وكانت له بئر بمكة تسمى (الثريا) . وقد ذكر ان (بني تَيْم) حفروها .[6]

١ اللسان (١٠/٤٥٧) ، أيام العرب (٣٢٩) .

(٢/٢١٧) .

٢ ابن هشام (٢/٢٨٨) ، سمط النجوم (٢/٢٠٢) ، البداية ، لابن كثير

٣ ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، (١/٣٦١) ، العقد الفريد (٢/٢٣) (لجنة التاليف) ابن كثير ، البداية والنهاية (٢/٣٢٨) .

٤ المحبر (ص ٩٧) ، (ومن ولده : عبدالله بن عبيدالله بن عبدالله بن أبي مليكة ابن عبدالله بن جدعان ... وعلي بن عبدالله بن أبي مليكة بن عبدالله بن جدعان)، نسب قريش (٢٩٣) .

٥ المعارف (ص ٤٧٥) ، المحبر (ص ٣٠٧) .

٦ الحموي ، المشترك (٨٧) ، البلدان (٢/٧٧) ، الأزرقي ، أخبار مكة (٤٤٠) (لايبزك) .

وذكر ان دار عبد الله بن جدعان كانت في (ربع بني تيم) ، وكانت شارعة على الوادي .[1] وكانت داراً فخمة ، وبقيت مشهورة معروفة بمكة حتى بعد وفاته .

وبهذه الدار عقد (حلف الفضول) ، وذلك لشرفه ومكانته بين اهل مكة اذ ذاك . ولثرائه الضخم دخل كبير في ذلك ، ولا شك . وقد صنع للمدعوين طعاماً كثيراً قدمه اليهم ، ثم عقد الحلف . وكان الرسول ممن شهده ، وهو ابن عشرين او خمس وعشرين . وكان يتذكره ويقول : (لقد شهدت في دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحبّ ان لي به حمر النعم . ولو دعي به في الاسلام لأجبت) .[2] او (اما لو دعيت في الاسلام لأجبت ، وأحبّ ان لي به حمر النعم . واني نقضته وما يزيده الاسلام الا شدة) .[3]

وقد تكون حلف الفضول من هاشم ، و (المطلب) ، و (أسد) ، و (زهرة) ، و (تيم) ، وربما من (بني الحارث بن فهر) ايضاً . وهم الذين كونوا حلف المطيبين . ولذلك ذهب بعض الباحثين الى ان حلف الفضول ، هو استمرار للحلف المذكور ، اذ تألف من الأسر التي كانت ألفت ذلك الحلف ما خلا (بني عبد شمس) و (بني نوفل) . وكان قد وقع نزاع بين (نوفل) و (عبد المطلب ابن هاشم) ، فعلّه كان السبب في عدم انضمام (نوفل) الى هذا الحلف . وقد تعاون (نوفل) و (عبد شمس) ، ووجدا في استطاعتهما التعاون بينهما من غير حاجة الى الدخول في حلف الفضول . ولهذا لم يكن حلف الفضول ، في نظر هؤلاء ، غير حلف من احلاف الأسر ، ولم يكن على رأيهم لنصرة الضعيف وانصاف المظلوم ، على نحو ما جاء في روايات اهل الاخبار .[4]

---

١ اخبار مكة (ص ٤٦٨) (لايبزك) .

٢ المقدسي ، البدء والتاريخ (٤/١٣٧) ، تاريخ الخميس (١/٢٦١) ، النويري ، نهاية الارب (٦/٢٦٧) ، البخلاء (٢/١٢) ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١٥/٢٠٣) ، طبقات ابن سعد (١/١٢٦ ، ١٢٨) ، مروج (٤/١٢٢ وما بعدها) (باريس) .

٣ النويري ، نهاية الارب (٦/٢٦٧) ، سمط النجوم العوالي ، (١/١٩٠) ، ابن هشام (١/١٩٠) ، البداية (٢/٢٩١ وما بعدها) ، ابن خلدون (القسم الاول ، المجلد الثاني ص ٧٠٦ وما بعدها) ابن الاثير ، الكامل (ذكر حلف الفضول) ، اللسان (١١/٥٢٧) .

٤ Annali, I, 164, Watt, Muhammad at Mecca, p. 6.

وروي انه لمكانة (عبد الله) التي بلغها عند قومه وعند العرب ، كانت العرب اذا قدمت عكاظ دفعت اسلحتها اليه حتى يفرغوا من اسواقهم وحجهم ، ثم يردها عليهم اذا ظعنوا .

وكان يحافظ على الأمانات محافظة شديدة . فلما جاءه (حرب بن امية) ، صديقه ، وهو من وجهاء مكة وأثريائها كذلك ، قائلاً له : احتبس قبلَكَ سلاحَ هوازن وذلك يوم نخلة من ايام الفجار الثاني ، اجابه ابن جدعان : أبالغدر تأمرني ، يا حرب ؟ والله لو اعلم انه لم يبقَ منها سيف الا ضُربت به ، ولا رمح الا طعنت به ، ما امسكت منها شيئاً . ثم أبى الا تسليم السلاح اليهم .[1]

وقد اسهم (ابن جدعان) في ايام الفجار ، وكان على (بني تيم) .[2] وأمدّ قومه بالسلاح والمال ، فأعطى مئة رجل سلاحاً تاماً كاملاً ، وذلك (يوم شمطة) غير ما ألبس من بني قومه والأحابيش .[3] وحمل مئة رجل على مئة بعير ، وقيل : ألف رجل على ألف بعير ، وذلك (يوم شرب) .[4] او يوم عكاظ .[5] وله أخ اسمه (كلدة بن جدعان) قتل في الفجار .[6]

وكان (ابن جدعان) يشرب الخمر على عادة الجاهليين في شربها ، بقي يشربها حتى كبر ، فعافها . ودخل فيمن عاف الخمر على كِبَره من سادات قريش وأشرافها . وكان من عادتهم اذا كبروا ولعب بهم العمر ، حرموا شرب الخمر على انفسهم . (ما مات احد من كبراء قريش في الجاهلية الا ترك الخمر استحياءً مما فيها من الدنس . ولقد عابها ابن جدعان قبل موته) .[7]

ويروون في سبب تركه لها قصتين : قصة تقول انه عافها لأنه سكر مرة

١ أيام العرب (٣٢٩) .
٢ ابن الاثير ، الكامل (٣٥٩/١ وما بعدها) ، تاريخ الخميس (٢٥٥/١) ، البدء والتاريخ (١٣٤/٤ وما بعدها) .
٣ ابن الاثير ، الكامل (٣٦١/١) ، الصحاح (٧٧٨/٢) ، نهاية الارب (٤٢٧/١٥ وما بعدها) أيام العرب (٣٣١) .
٤ سمط النجوم (١٩٦/١) ، نهاية الارب (٤٢٩/١٥) .
٥ أيام العرب (٣٣٤) .
٦ نسب قريش (٢٩١) .
٧ الاغاني (٣٣٢/٨) ، نسب قريش ، (٢٩٢ وما بعدها) .

ففقد رشده فاعتدى على أمية بأن لطم عينه ، فندم على ما فعل حين سمع بالخبر ، وقال : (وَبَلَغَ مني الشراب ما أبلغ معه من جليس هذا المبلغ ؟ فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر عليّ حرام ، ألا لا أذوقها ابداً) ثم قال شعراً في ذم الخمر وفي وصف حاله اذ ذاك .[1]

ومن الرقيق الذي كان في ملك (ابن جدعان) واكتسب شهرة في الاسلام (صهيب الرومي) . بيع في سوق النخاسة ، ثم وضع في شراء (ابن جدعان) ، وبقي في ملكه الى ان هلك سيده ، ويقال انه اعتقــه وهو في حياته وأنه لازمه حتى مماته .[2]

وقد كان (ابن جدعان) يلتزم من يستجير به ، ويحمي من يأوي اليه . وكان (الحارث بن ظالم) قاتل (خالد بن جعفر بن كلاب) ، وهو في جوار ملك الحيرة في جملة من لجأ الى (ابن جدعان) حين طلبه ملك الحيرة ، وبقي في جواره وبمكة حتى أتاه ملك الحيرة. ويقال ان (الحارث بن ظالم) قدم على عبد الله بن جدعان بعكاظ ، وهم يريدون حرب قيس . فلذلك نكس رمحه ، ثم رفعه حين عرفوه وأمن . وكانوا اذا خافوا فوردوا على من يستجيرون به ، او جاءوا لصلح ، نكسوا رماحهم . ويوم عكاظ من ايام الفجار .[3]

ورجل ثري وجيه له مكانة ومنزلة عند بني قومه ، لا بد ان يصير مرجعاً للناس ، يرجعون اليه في المنازعات والخصومات ، ليحكم بينهم بما لديه من رجاحة عقل وسلطان ، لذلك كان في جملة حكام العرب ، اللذين تحوكم اليهم .[4]

ولأمية بن ابي الصلت شعر في مدح (عبد الله بن جدعان) ، نجــده في ديوان أمية وفي كتب الأدب . وقد كان من المقربين عنــد (أبي زهير) .[5] ومن المكرمين له بسخاء . وكان يعطيه دائماً ، ونجد لأمية شعراً يطلب فيه من

١ نهاية الارب (٤/٨٨) .
٢ المعارف (٢٦٤) ، انساب الاشراف (١/١٨٠) .
٣ انساب الاشراف (١/٤٢ وما بعدها) .
٤ البخلاء (ص ٢١٤) .
٥ الجاحظ البيان والتبيين (١/١٧) الاغاني (٨/٣٢٧ وما بعدها)

(ابن جدعان) اعطاه مالاً .[1]

وكان هلاك (ابن جدعان) قبل سنوات من المبعث .[2] وذكر (البلاذري) ان هلاكه كان (قبـــل المبعث ببضع عشرة سنة .[3] ولما مات دفن بمكة .[4] وذكر في رواية اخرى انه دفن بموضع (برك الغماد) ، وراء مكة بخمس ليال بينها وبين اليمن مما يلي البحر او بين حلى وذهبان .

وفيه يقول الشاعر :

سقى الامطار قبر ابي زهير　　　الى سقف الى برك الغماد[5]

ومن رجال مكة الأغنياء (الاسود بن المطلب) المعروف بـ (أبي زمعة) . و (زمعة) ابنه ، قتل يوم (بدر) في جملة من قُتل من رجال قريش . وكان يقال له : (زاد الركب)[6]. وقد عرف ولده الأسود بـ (زاد الركب) كذلك[7] . وكان الأسود ممن ادرك ايام الرسول وعارضه ، وعدّه (ابن حبيب) في جملة المستهزئين من قريش بالرسول ، وممن مات كافراً ، بعد ان اصابه العمر[8] .

وكان (الأسود) نديمـــاً للأسود بن عبد يغوث الزهري . وكانا من اعز قريش في الجاهلية ، وكانا يطوفان بالبيت متقلدين بسيفين سيفين . وكانا من المستهزئين بالرسول[9] . وذكر ان (الأسود بن عبد يغوث) كان اذا رأى المسلمين ، قال لأصحابه : (قد جاءكم ملوك الارض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر . ويقول للنبي ، صلى الله عليه وسلم : اما كلمت اليوم من السماء ، يا محمد ؟

---

١ أأطلب حاجتي ؟ أم قد كفاني　　حياؤك ؟ ان شيمتك الحياء
ابن عساكر ، التاريخ الكبير (٣/١٢٢) .

٢ الإصابة (٢/٢٧٩) ، البداية (٢/٢١٨) ، تاريخ الخميس (١/٢٥٦) ، سمط النجوم (١/٢٠٢) .

٣ أنساب الاشراف (١/١٨٠) .

٤ المعارف (ص ١٧٥) .

٥ تاج العروس (٧/١٠٧) ، (بـرك) .

٦ الاشتقاق (ص ٥٨) ، نسب قريش (٢١٨ وما بعدها) .

٧ المحبر (ص ١٣٧) .

٨ المحبر (ص ١٥٩) ، البلاذري ، انساب (١/١٤٩ وما بعدها) .

٩ المحبر (١٧٤) .

وما اشبه هذا القول). مات حين هاجر النبي ، ودفن بالحجون . [1]

وكان (زمعة بن الأسود) ، تاجراً ، متجره الى الشام . وعرف بالدقة في العمل وفي وضع خطط سفره وتجارته . (فكان اذا خرج من عند ابيه في سفر ، قال : أسير كذا وكذا ، وآتي البلد يـــوم كذا وكذا ، ثم اخرج يوم كذا وكذا ، فلا يخرم مما يقول شيئاً) . [2]

ومن سادات قريش : (يزيد بن زمعه بن الاسود) . وكانت اليه المشورة . وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على امر حتى يعرضوه عليـــه ، فان وافقه ، ولاّهم عليه ، والا تخير ، وكانوا له اعواناً . وقد اسلم ، واستشهد مع الرسول بالطائف . [3]

ويعد حرب بن امية من وجهاء مكة وسيداً من سادات كنانة . وكان امر كنانة كلها اليه يوم شمطة . [4] واشترك يوم عكاظ ، وقيد نفسه ومعه سفيان وأبو سفيان بن امية بن عبد شمس ، وذلك كي يثبتوا في اماكنهم ، ويتقوى بذلك قومهم فيثبتوا في القتال . [5] وكان من اثرياء مكة المعروفين .

ومن سادات مكة : (هشام بن المغيرة ، بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكان له ولبنيـــه صيت بمكة وذكر عالٍ . [6] وذكر انه كان سيد قريش في دهره . ولما مات صار يوم موته من ايام مكة المشهورة ، حتى انهم أرّخوا بموته . [7] ونادى منادي مكة في امثال هذه المناسبات : (اشهدوا جنازة ربكم) . وكان سيداً مطعـــاماً . [8] وظل يوم وفاة (هشام) يوماً يؤرخ به سبع سنين الى ان

١ البلاذري ، انساب (١/١٣١ وما بعدها) .
٢ المحبر (ص ١٥٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١/٢٤٩) .
٤ أيام العرب (٣٣١) .
٥ أيام العرب (٣٣٤) .
٦ الاشتقاق (٦٠)
٧ واصبح بطن مكة مقشعرا كان الارض ليس بها هشام
الاشتقاق (٩٢) ، نسب قريش (٣٠١) .
٨ الاشتقاق (٦٣) ، المحبر (١٣٩) ، المعارف (٣٢) .

كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة ، فأرخوا بها .[1] وهو من الرجال الذين نعتوا بين قومهم بـ (زاد الركب) ، لأنه كان يقري المسافرين الذين يسافرون معه .[2]

ومن ابناء (هشام بن المغيرة) المذكور (ابو جهل) و (الحارث بن هشام) . اما (الحارث بن هشام) ، فقد عرف بالكرم والجود . ذكر ان داره كانت مفتوحة للضيوف . يدخلون واذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً . وهو جالس على سرير يحث الناس على الأكل . ويروى ان (ابا ذر) قدم مكة معتمراً ، فقال : (اما من مضيف ؟) قالوا : (بلى كثير وأقربهم منزلاً الحارث بن هشام) . فأتى بابه ، فقال : (اما من قرى ؟) . فقالت له جارية : (بلى) . فأخرجت اليه زبيبا في يدها . فقال : (ولِمَ لَمْ تجعليه في طبق ؟) فعلُم انه ضيف . وقالت : (ادخل) فدخل . فاذا بالحارث على كرسي وبين يديه جفان فيها خبز ولحم وأنطاع عليها زبيب . فقال : (أصب) . فأكل ثم قال : (هذا لك) . فأقام ثلاثاً ثم رجع الى المدينة ، فأخبر النبي خبره . فقال : (انه لسري ابن سري . وددت انه أسلم) .[3] وكان نديمـاً لحكيم بن حزام بن خويلد ابن اسد .[4]

وأما (أبو الحكم : عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ابن مُرّة) . فكان من رجـال (بني مخزوم) المعدودين ، ومن المعـادين للإسلام ، بل كان على رأس أشد الناس عداوة للرسول . وقـد كَنّاه الرسول بـ (أبي جهل) لأنه كان يكنى قبل ذلك بـ (أبي الحكم) فاشتهر بهـذه الكنية ، حتى لم يعد يعرف إلا بها في الإسلام[5] . وكان من المقتسمين . وهم سبعة عشر رجلاً من قريش ، اقتسموا عقاب مكة . فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون الناس عن رسول الله . وفيهم نزلت : (كما أنزلنا على المقتسمين)[6] .

---

١ المحبر (١٣٩) ، الاغاني (١٥/١١) .
٢ الاشتقاق (٩٢) .
٣ المحبر (ص ١٣٩ وما بعدها) نسب قريش (٣٠١) .
٤ المحبر (ص ١٧٦) .
٥ المحبر (ص ١٣٩) ، البلاذري ، أنساب (١/١٢٥) .
٦ المحبر (١٦٠) .

وكان من المطعمين لحرب يوم بدر . نحر عشراً[1] . وكان نديماً للحكم بن أبي العاص بن أمية . و (الحكم) هذا هو الطريد[2] .

وأخبر (ابن الكلبي) ، ان اخوين من (بني سليم) ، دخلا مكة معتمرين فما وجدا بها شراءً ولا قرى . فبينا هما كذلك إذ رأيا قوماً يمضون ، فسألا (أين هؤلاء القوم ؟) فقيل لهما : يريدان الطعام . فمضيا في جملتهم حتى أتوا داراً فولجوها . فإذا رجل آدم ، أحول ، على سرير وعليه حلة سوداء واذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً . فقعدوا فأكلوا . فشبع أحد الأخوين وقال لأخيه : (كم تأكل ؟ أما شبعت ؟) . فقال الجالس على السرير : (كل فإنما جعل الطعام ليؤكل) . فلما فرغوا خرجوا من باب الدار غير الذي دخلوا منه . فإذا هم بإبل موقوفة . فقالوا : (ما هذه الإبل ؟) قيل : للطعام الذي رأيتم . وكان الرجل الجالس على السرير : صاحب الطعام . فإذا به أبو جهل بن هشام[3] .

ويظهر انه كان قاسياً قسا حتى على النساء ، فعذب عدداً منهن بنفسه عذاباً أليماً . عذب (زنيرة) ، وكانت لبني مخزوم حتى عميت ، وعذب غيرها حتى هلكت ، وممن هلكن (سمية) أم عمار بن ياسر[4] . وكان يأتي من يسلم ، فيكلمه ليفتنه عن دينه : يأتي الرجل الشريف ، ويقول له : أتترك دينك ودين أبيك ، وهو خير منك ؟ ويقبح رأيه وفعله ، ويسفه حلمه . وان كان تاجراً يقول له : ستكسد تجارتك ، ويهلك مالك . وان كان ضعيفاً ، أوصى بمن يعذبه ، حتى يترك دينه . جاء مرة دار أبي بكر ، فلما لم يجده لطم خدّ أسماء ابنته لطمة طرح قرطها . وكان فاحشاً بذيئاً[5] .

ويذكر أهل الأخبار انه كان لا يبالي في أكل حقوق الغرباء القادمين الى

١ المحبر (١٦١) .
٢ المحبر (ص ١٧٦) .
٣ (فاذا هو أبو جهل بن هشام) ، هكذا في نهاية الخبر . بينما الخبر يخص (الحارث ابن هشام ، كما جاء في اوله ، راجع المحبة (ص ١٣٩) ، ويظهر أن مراده من الخبر الثاني الخاص بالاخوين : (أبا جهل) ، لانه كان أحولا كما هو بهذا الخبر ، وقد كان أبو جهل من الحولان الاشراف ، المحبر (ص ٣٠٣) .
٤ ابن الاثير ، الكامل (٢/٤٧ وما بعدها) .
٥ ابن الاثير ، الكامل (٢/٤٧ وما بعدها) .

مكة ، فاطل مرة في أثمان إبل اشتراها من رجل من (أراش) ، وماطل مرة أخرى في إبل أخذها من رجل من (زبيد) ، ولم يدفع أثمانها ولم يعوض عنها إلا بالتجاء الرجلين الى النبي ، فأخذ حقهما منه ، وانتصف منه . ويظهر ان (أبا جهل) وان كان قاسياً بغيضاً للرسول مؤذياً له ، غير انه كان يخشاه اذا رآه ووقف أمامه ، وأما ايذاؤه له ، فكان بانتهاز غفلة يعتدي فيها على الرسول ، أو بتحريض غيره للتحرش به[1] .

وعرف (عمرو بن عبد الله بن صفوان بن أمية) بالجود . وذكر انه كان معرقاً به . كان جوادا ابن جواد ابن جواد ابن جواد[2] .

وكان الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، من أشراف مكة وسادتها . وقد عرف بين قومه بـ (العدل) . وذكر انه إنما عرف بذلك ، لأنه كان يعدل قريش كلها ، فكانت قريش تكسو الكعبة جميعها ، ويكسوها الوليد وحده ، وذلك لثرائه وغناه . قيل انه كان له مال وزع بالطائف ، وكان علك حديقة بها غرس فيها الأشجار والفواكه[3] . وقد كان لذلك متعالياً متغطرساً ، فلما أظهر الرسول الإسلام ، كان مثل بقية سراة مكة وأغنيائها من المعادين له ، لأنه أنف ان يتبع رجلاً هو دونه في المال والاسم والثراء . فكافح الإسلام ، واستهزأ بالرسول وبالإسلام ، وكان أحد (المستهزئين) الذين نزلت بحقهم آيات تعنفهم وتوبخهم وتصفهم بالكفر وبالغرور والاستكبار ، وانه كان يرى ان من الذلة الخضوع للرسول لأنه دونه مالاً ونفراً[4] .

وقد كان (الوليد) الحكّام الذين تحوكم اليهم ، واليه تحاكم بنو عبد مناف في موضوع قتل (خداش) إنساناً منهم[5] . وقد عرف بـ (ابن صخرة) نسبة الى أمه[6] . وذكر انه كان في جملة من حرّم في الجاهلية الخمر على نفسه

---

١ البلاذري ، انساب (١٣٠/١) .
٢ المحبر (ص ١٤٠ وما بعدها) .
٣ Ency., IV, P. 111.
٤ تفسير الطبري (٣٦/٥) ، ابن هشام (٧٢/١ وما بعدها) .
٥ المحبر (ص ٣٣٧) .
٦ المحبر (ص ٣٣٧) .

وضرب فيها ابنه هشاماً على شربها[١] . وقد عدّه (ابن حبيب) في جملة زنادقة قريش ، وذكر انه وجماعته تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة[٢] ، ولم يفسر قصده من الزندقة .

ويذكرون ان (الوليد) كان أسنّ قريش يوم حكم في قضية (خداش) ، وحكم فيها بـ (القسّامة) ، فكان بذلك أول من سنّ (القسامة) في قريش[٣] .

ومات الوليد بعد الهجرة بثلاثة أشهر أو نحوها ، ودفن بالحجون[٤] . وذكر (محمد بن حبيب) ان (أبا أحيحة) كان نديماً للوليد بن المغيرة . على عادة القوم في اتخاذ الندماء[٥] .

وأبو (أحيحة) هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، المعروف بـ (ذي العمامة) ، لأنه كان لا يعمّ أحد بمكه بلون عمامته إعظاماً له[٦] . كما عرف بـ (ذي التاج) وذلك للسبب نفسه[٧] . وقد ذكره (أبو قيس بن الأسلت) في شعر ينسب اليه[٨] . وكان مثل أكثر رجال قريش تاجراً . قدم مرة الشأم في تجارة ، فحبسه (عمرو بن جفْنة) ، حبسه مع هشام بن سعد العامري ، وبقي في محبسه حتى جاء بنو عبد شمس ، فافتدوه بمال كثير[٩] .

وكان أبو أحيحة ممن أخذتهم العزة من أشراف مكة ، فلم يقبلوا الدخول في الإسلام . وممن أظهر عداوته للرسول ، خاصة بعد تحريض النضر بن الحارث والوليد بن المغيرة له على معاداته . وقد كان مثل سائر أشراف مكة يرى ان الأمر العظيم يجب ان يكون في العظماء . وهو من العصبة التي أشير اليها في هذه

---

١ المحبر (٢٣٧) .
٢ المحبر (١٦١) .
٣ المحبر (ص ٢٣٧) .
٤ البلاذري ، أنساب (١/١٣٤) .
٥ المحبر (١٧٤) ، البلاذري ، أنساب (١/١٣٤) .
٦ المحبر (ص ١٦٥) ، الاشتقاق (ص ٤٩) .
٧ الطبري (٢/٣٩٨) ، المحبر (١٦٥) ، البلاذري ، أنساب (١/١٤١) .
٨ البيان والتبيين (٣/٩٧) ، البلاذري ، أنساب (١/١٤١) .
٩ البيان والتبيين (٣/٩٧) ، الاصابة (٣٨٥٩) .

الآية : (وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظم ، أهـم يقسمون رحمة ربك ؟) [1] .

وقد مات أبو أحيحة بماله في الطائف في السنة الأولى ، أو في السنة الثانيـة من الهجرة . مات كافراً ، وقد بني له قبر مشرف . وقد رأى أبو بكر قبره ، فسبه ، فسبّ ابناه أبا قحافة ، فنهى النبي عن سبّ الأموات ، لمـا يثير ذلك من عداوة بين الأحياء ، ولما فيه من إهانة للأموات [2] .

وقد ساهم (أبو أحيحة) بثلاثين ألف دينار في رأس مال القافلة التي تولى قيادتها أبو سفيان . ومبلغ مثل هذا ليس بشيء قليل بالنسبة الى الوضع المالي في تلك الأيام .

ومن سادة قريش : الأسود بن عامر بن السبّاق بن عبد الدار بن قصي [3] .

ومن رجال بني فهر : ضرار بن الخطاب بن مرداس بن كبير بن عمرو بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب . وكان فارس قريش في الجاهلية ، وأدرك الإسلام . وكان شاعراً فارسياً ، وقد أخذ مرباع بني فهر في الجاهلية [4] .

ومن رجال بني عامـر بن لؤي : عمرو بن عبد ودّ بن أبي قيس . كان فارس قريش في الجاهلية ، بل فارس كنانة . قتله علي بن أبي طالب [5] . ومن (بني عبد ودّ) ، سهيل بن عمرو ، وكان من رجال قريش في الجاهلية ، ثم أسلم ، وهو الذي بعثته قريش بحكم الهدنة بينهم وبين النبي يوم الحديبية [6] .

ومن سادات قريش : قيس بن عديّ بن سعد بن سهم . وقد ضرب بـه المثل في العز ، حتى قيل : (كأنه في العزّ قيس بن عديّ) . وكان يأتي الخمار وبيده مقرعة ، فيعرض عليه خمره ، فإن كانت جيدة ، وإلا قال له : (أجد

١ الزخرف ، الرقم ٤٣ الآية ٣١ وما بعدها ، البلاذري ، أنساب (١٤١/١) .
٢ الطبري (/٣٩٨) ، انساب الاشراف (١٤٢/١) .
٣ الاشتقاق (ص ١٠٠) .
٤ الاشتقاق (ص ٦٤) .
٥ الاشتقاق (ص ٦٨) .
٦ الاشتقاق (ص ٦٩) .

خمرك ، ثم يقرع رأسه وينصرف)[1] . وذكر انه كانت له قينتان يجتمع اليهما فتيان قريش : أبو لهب وأشباهه ، وهو الذي أمرهم بسرقة الغزال من الكعبة ، ففعلوا ، فقسمه على قيانه ، وكان غزالاً من ذهب مدفونـــاً ، فقطعت قريش رجالاً ممن سرقه ، وأرادوا قطع يد أبي لهب ، فحمته أخواله من خزاعة[2] . وذكر ان (مقيس بن عبد قيس بن قيس بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم) ، هو صاحب قصة الغزال[3] .

وكان (الحارث بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم) ، أحد المستهزئين المؤذين لرسول الله ، وهو (ابن الغيطلة) . وهو الذي نزلت فيه : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) . وكان يأخذ حجراً ، فإذا رأى أحسن منه تركه وأخذ الأحسن . وكان دَهْرياً يقول : (لقد غرّ محمد نفسه وأصحابه ان وعدهم ان يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث)[4] .

وممن اشتهر من بني عبـــد شمس : (عتبة بن ربيعة بن عبد شمس)[5] ، وكان نديماً لمطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف[6] .

اما أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبـــد شمس بن مناف ، ويكنى أيضاً بأبي حنظلة ، فكان مثل سائر رجال مكة تاجراً صاحب أسفار ، ثرياً ، جمع مالاً من تجارته . وكان صاحب (عير قريش) ، فهو المؤتمن عليها ، وهو قائدها ، وهو رجل جد خبير بالطرق والمسالك . وقد نجح في كل أسفاره ، وأوصل تجارة مكة الى أماكنها سالمة مضمونة . فلم يتمكن المسلمون من مفاجأته وأخذه مع أموال قريش وتجارتهم العظيمة التي تحت قيادته ، حينما كان قافلاً من

---

١ المحبر (ص ١٧٨) ، جمهرة النسب (١٥٦) .

٢ فلذلك يقول بعض شعرائها :

هموا منعوا الشيخ المنافيَّ بعدما ... رأى حمة الازميل فوق البراجم

الاشتقاق (٧٦) .

٣ شرح ديوان حسان (٤٧) ، (للبرقوقي) .

٤ البلاذري ، انساب (١/١٣٢) .

٥ المحبر (ص ١٦٠) ، ابن هشام ، السيرة (٢/٢٦٢) .

٦ المحبر (ص ١٧٥) .

بلاد الشأم يريد مكة ، اذ أحسّ بالخطر ، فغير طريقه ، وسلك طريق الساحل ، وأفلت مع قافلته ورجالها ، وعدّتهم سبعون ، ووصل الى مكة سالماً ، فنشبت على أثر ذلك معركة بدر [1] .

وكانت قيادة قريش في الحرب الى أبي سفيان أيضاً ، ورثها من أبيه [2] . ورجل له فضل قيادة عير قريش ، وقيادة مكة في الحرب ، لا بد ان يكون في مقدمة سادات مكة وعلى رأس طبقتها المحافظة ذات العنجهية ، التي ترى ان لها حق الرئاسة والزعامة ، والكلمة والرأي .

وليس لأحد مكانة إلا اذا كان ذا مال وجاه وحسب . وعلى الباقين طاعة السادة ، ومراعاة سنن الآباء والأجداد ، والإخلاص لعبادة الآباء والأجداد ، والدفاع عن آلهة الكعبة التي كانت السبب في اعطاء قريش منزلة خاصة عند العرب .

وكان فضلاً عن هذا وذاك رجلاً صاحب لسان ، ينظم الشعر ويجيد الهجاء ، ويحسن النزول الى أسوأ مستوى يصل اليه السوقي والحوشة من الإقذاع في الكلام وإلحاق الأذى بالناس . وقد أظهر قابلياته في ذلك في عناده ضد الإسلام وفي ايذائه الرسول وفي الحاقه الأذى بالمسلمين . وقد هيأ كل ما عنده من مواهب وكفايات وقدرات مالية لمقاومة الإسلام ولمحاربة الرسول وللقضاء على الدعوة التي جاءت مقوضة لديانة الآباء والأجداد من عبادة الأصنام ، ومن المحافظة على العرف ، ومن تحطيم الزعامة ، والخضوع لحكم الفقراء والرقيق . وفي القرآن الكريم آيات نزلت في حقه . وقد كان من المحرضين العاملين في معركة أحد [3] . ويذكر انه ذهب الى الشأم واتصل بـ (هرقل) وأخذ يحرضه على الرسول ، ولكن الروم لم يبالوا بتحريضه ، فعاد الى مكة [4] .

---

١ الطبري (٢/١٣١) .

٢ اخبار مكة (١/٦٦) .

٣ (البداية (٤/٩) ، (المطبعة السلفية) اليعقوبي (٢/٣٥) ، الطبري (٢/١٥٧) (الاستقامة) الطبرسي ، مجمع (سورة آل عمران ، الآية ١٧٢) .

٤ الاغاني (٦/٣٢٩) ، (بيروت ١٩٥٦ م) ، تهذيب ابن عساكر (٧٣) .

ويُعدّ (عبد العزّى بن عبد المطلب) من هذا الرعيل من وجهاء مكة الذين حاربوا الرسول ، ونصبوا له العداوة . كان موسراً ، جمع مالاً طائلاً ، كما يفهم ذلك من (سورة المسد) : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) . وكان من التجار ، له تجارة مع بلاد الشأم [1] . وكاو من هؤلاء الذين أبوا التنكر لدين آبائهم وأجدادهم وإطاعة رجل فقير ، وهم أكثر منه مالاً ، وأكبر سناً . روي ان رسول الله كان بسوق ذي المجاز يقول : (أيها الناس . قولوا : لا إله إلا الله ، تفلحوا) وإذا برجل يأتي من خلفه ويرميه بحجارة ، أدمت ساقيه وعرقوبيه ، وهو يقول للناس : انه كذاب لا تصدقوه [2] .

ويُعَدّ (أبو لهب) وهو (عبد العزّى) ويكنى ايضاً بـ (أبي عتبة) ، من هذه الطبقة الوجيهة المعروفة من قريش . وهو عم الرسول [3] ، وكان مع ذلك من الذين حملوا حقداً شديداً عليه . وكانت زوجته تحرضه على معاداته وايذائه ، وفي حقها نزلت سورة (تبت) . وهي السورة الحادية عشرة من السور التي نزلت بمكة على رأي أكثر العلماء .

وكان بيته في جوار بيت رسول الله . فذكر ان رسول الله قال : كنت بين شرّ جارين : بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ، ان كانا ليأتيان بالفروث فيطرحونها في بابي . وكان النبي يقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا ؟ ثم يميطه عن بابه [4] .

ويذكر أهل الأخبار ان هنالك عشرة أبطن من بطون قريش انتهت اليهن الشرف في الجاهلية ، ووصل في الإسلام ، وهم ، أمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعديّ ، وجمح ، وسهم [5] .

---

١ حاشية الشهاب (٤٠٩/٨) .
٢ الطبرسي (٥٥٩/١٠) .
٣ ابن أبي الحديد (٨٩/١) .
٤ البلاذري ، انساب (١٣١/١) .
٥ العقد الفريد (٣١٣/٣ وما بعدها) .

كسب مكة :

ومكة كما ذكرت بلد في وادٍ غير ذي زرع ، لذلك كان عماد حياة أهلها التجارة ، والأموال التي تجبى من القوافل القادمة من الشأم الى اليمن والصاعدة من اليمن الى الشأم ، وما ينفقه الحجيج القادمون في المواسم المقدسة ، للتقرب الى الأصنام . وهناك مورد آخر درّ على أثرياء هذه المدينة المقدسة ربحاً كبيراً ، هو الربا الذي كانوا يتقاضونه من إيداع أموالهم الى المحتاجين اليها من تجار ورجال قبائل .

لقد استفادت مكة كثيراً من التدهور السياسي الذي حلّ باليمن ، ومن تقلص سلطان التبابعة ، وظهور ملوك وأمراء متنافسين ، إذْ أبعد هذا الوضع خطر الحكومات اليمانية الكبيرة عنها ، وكانت تطمع فيها وفي الحجاز ، لأن الحجاز قنطرة بين بلاد الشأم واليمن . ومن يستولي عليه يتصل ببلاد الشأم ، وبموانىء البحر الأبيض المهمة . وأعطى تدهور الأوضاع في العربية الجنوبية أهل مكة فرصة ثمينة عرفوا الاستفادة منها . فصاروا الواسطة في نقل التجارة من العربية الجنوبية الى بلاد الشأم ، وبالعكس . وسعى تجار مكة جهد إمكانهم لاتخاذ موقف حياد تجاه الروم والفرس والحبش ، فلم يتحزبوا لأحد ، ولم يتحاملوا على طرف ، وقوّوا مركزهم بعقد أحلاف بينهم وبين سادات القبائل ، وتوددوا اليهم بتقديم الألطاف والمال اليهم ، ليشتروا بذلك قلوبهم . وقد نجحوا في ذلك ، واستفادوا من هذه السياسة كثيراً .

وفي القرآن اشارة الى تجارة مكة ، والى نشاط اهلها ومتاجرتهم مع الشام ، واليمن : (لإيلاف قريشٍ ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) .[1] قال المفسرون : ان رحلة الشتاء كانت الى اليمن ، اما رحلة الصيف فكانت الى بلاد الشام . وانهم كانوا يجمعون ثروة طائلة من الرحلتين تدر على قريش خيراً كثيراً ، وتعوضهم عن فقر بلادهم .

ويظهر ان اهل هذه المدينة كانوا يسهمون جميعاً في الاتجار ، فيقدم المكّي

١ سورة قريش ، الآية الاولى .

افريقية والعربية الجنوبية ، كما اخذ ملوك الحيرة يرسلون بـ (لطائمهم) الى اليمن للبيع والشراء .

وقد اثر هذا الوضع في تجارة اهل مكة اثراً كبيراً ، اذ انتزع الفرس وملوك الحيرة من ايديهم قسطاً من ارباحهم ، وربما لا يبعد ان يكون الهجوم الذي وقع على (لطيمة) (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، بتشجيع من اهل مكة ، ذلك الهجوم الذي عرف بـ (الفجار) ، وذلك للإضرار بالفرس وبملوك الحيرة ، ولتخويف القوافل التي صارت تسلك طريق (الطائف) ، ثم منها الى مواضع في البادية الى الحيرة متجنبة طريق مكة .[1]

وكانت (الشعيبة) ميناء مكة ، اليها ترد السفن قبل جُدَّة ، ثم أخذت جُدَّة موضعها في ايام الخليفة عثمان بن عفّان .[2]

وقد قصدت ميناء (الشعيبة) سفن الروم وسفن الحبش ، اذ كانت السفن القادمة من افريقية ، لبيع تجارتها لأهل مكة ، ترسو في هذا الميناء .

ويظهر من كتب اهل الاخبار ان تجار مكة لم يكونوا يملكون سفناً خاصة بهم ، لنقل تجارتهم الى موانىء افريقية ، او لنقل ما يشترونه من الموانىء الافريقية لتصريفه في اسواق العراق او اسواق بلاد الشام . فنحن لا نكاد نجد في هذه الكتب شيئاً يفيد ان اهل مكة كانوا يملكون سفناً يسيرها بحارة منهم . بل نجد انهم كانوا يركبون سفناً حبشية ، عند ذهابهم الى الحبشة . وهي سفن لم تكن شيئاً بالقياس الى سفن الروم في ذلك العهد .

ولمركز مكة ونشاطها في التجارة ، توافد عليها ايضاً تجار من الخارج من بلاد الشام ومن العراق ومن بلاد الروم والفرس وغيرهم . ساكنوا المكيّين ، وتحالفوا مع أثريائهم ، ومنهم من اقام فيها في مقابل دفع جزية لحمايته ولحفظ امواله وتجارته . وكان تجار بلاد الشام خاصة يجلبون القمح والزيوت والخمور الجيدة الى تجار مكة . وقد اتخذوا مستودعات فيها لخزن بضاعتهم هذه ولتصريفها .

١ الازرقي ، اخبار مكة (١٢٨) ، المرزوقي ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١) ، الاغاني (٦/٦٤) ، (بيروت ١٩٥٦ م) ، صبح الاعشى (١/٤٠١ وما بعدها) .

٢ البلدان (٥/٢٧٦) ، Ency., III, p. 440.

ولا يستبعد (أوليري) ان يكون من بين تجار الروم في مكة من كان عيناً للبيزنطيين على العرب ، يتجسس لهم ، ويتسقط اخبارهم ، ويكتب لهم عن صلاتهم بالفرس ، وعن انباء الفرس في جزيرة العرب واتصالهم بالقبائل ، لشدة حاجة الروم الى تلك الاخبار ، لافساد خطط الفرس وابعادهم عن بلاد العرب وعن البحار . والعالم يومئذ معسكران متخاصمان : معسكر للروم ، ومعسكر للفرس .[1]

وقوم هم اصحاب تجارة واتصال بالعالم الخارجي بحكم اتجارهم معه ، وذهابهم اليه ، لا بد ان يكون لهم اهتمام بما كان يجري ويقع في السياسة الدولية . وكان لهم علم بما يحدث بين الفرس والروم ، وبين الحبش وأهل اليمن ، لأن لما يحدث علاقةً كبيرة بتجارتهم وبالاسواق التي كانوا يخرجون اليها للبيع والشراء .

ونجد في القرآن الكريم ما يؤيد ذلك . فلما وقعت الحرب بين الفرس والروم ، هذه الحرب التي استولى فيهـــا الفرس على القدس ، وعلى (الصليب) المقدس عند النصارى ، كان اهتمام مكة بها كبيراً وانقسم اهل مكة فريقين : مؤيد للروم ، ومؤيد للفرس ، مما يدل على وقوف اهل مكة على ما كان يقع في الخارج ، وقد اشار الى ذلك القرآن الكريم في سورة « الروم » .

وقد كان المكيون يهتمون اهتماماً خاصاً بما كان يقع في بلاد الشام وفي اليمن من احداث ، اذ كانت تجارتهم مرتبطة بهذه البلاد بالدرجة الاولى . فما يقع فيها يؤثر تأثيراً مباشراً في تجارتهم . ولذلك حاولوا جهد امكانهم انشاء صلات حسنة مع الحاكم على بلاد الشام والحاكم على اليمن ، كما كان من مصلحة الروم مصالحة حكام العربية الغربية وترضيتهم ، ليأمنوا بذلك على سلامة تجارتهم في البحر الأحمر وعلى وصول بضائع افريقية والبلاد العربية الجنوبية والهند اليهم عند تعسف الفرس بالتجارة البرية التي كانت تأتي من الهند ومن الصين لتباع في بلاد الروم ، وعند نشوب الحرب ، وهي متوالية كثيرة ، فيما بينهما ، فتنقطع التجارة عندئذ بينهما ، وترتفع الاسعار . اما التجارة عن طريق العربية الغربية ، فلم تكن تصاب بأذى الحروب وبالنزاع بين الفرس والروم ، لأنها كانت بعيدة عن ساحة الحروب ، وهي في مأمن من الغارات .

١ O'leary, P. 184.

ويظهر من روايات اهل الأخبار ان سادات مكة والمواضع الاخرى من الحجاز كانوا يتوددون الى الروم والى حكام اليمن ليمكّنوهم من التحكم في شؤون مواطنيهم وللسيادة عليهم . وقد روى (ابن قتيبة) ان (قُصَيّاً) استعان بـ (قيصر) في نزاعه مع خزاعة .[1] وقد تكون مساعدة قيصر له ، باشارته على الغساسنة حلفاء الروم لتقديم العون اليه . ويجوز ان يكون (بنو عذرة) وهم من العرب النصارى النازلين في اطراف بلاد الشام قد ساعدوه بطلب من الروم .[2]

ولا يستبعد ان يكون تجـــار اليمن في ايام قصي وبعد موته ، كانوا يأتون بتجارتهم الى (مكة) ، ثم يقوم تجار مكة بنقلها الى بلاد الشام ، او بشرائها من تجار اليمن ، ثم يقومون هم ببيعها على حسابهم في (بُصْرى) او غزة من بلاد الشام . وقد كان يقع اختلاف في بعض الاحيان بين تجار اليمن وتجار مكة ، وقد يقع اعتداء على تجار اليمن فيصادر بعض اهـــل مكة اموالهم ويغتصبونها ، كالذي حدث لتاجر من تجار اليمن ، مما حداه بالاستجارة بأشراف مكة وسادتها لإنصافه ، وأدى الحال الى عقد حلف الفضول .[3]

ولطبيعة اهـــل مكة المستقرين التجار ، لزم الابتعاد عن الحروب وعن خلق المشكلات ، وحلّ كل معضلة بالمفاوضات اولاً وبالسلم . كما سعت للاتفاق مع القبائل المجاورة على محالفتها ومهادنتها . وقد افادت هذه السياسة قريشاً كثيراً ، فظهرت زعامة مكة على القبائل بعد تدهور ملك حمير في السياسة وفي الدين والاقتصاد . ولارتفاع مستوى مكة الثقافي بالنسبة الى الاعراب ، ولزعامتها الدينية على القبائل المجاورة لها ، ولاتصال سادتها بالعالم الخارجي ، ولوجود جاليات اجنبية فيهـــا طورت حياتها الاقتصادية والصناعية مما جعل القبائل تعترف لها بالتفوق عليها ، وتسير في ركابها ، وتتبع تقويمها ، وتحضر في مواسمها ، حتى صارت مكة عند ظهور الاسلام القـــاعدة للغربية العربية والزعيمة لها ، ولذلك كانت رمز مقاومة الاسلام ، والحصن العتيد المقاوم له . فلما دك هذا الحصن ، دكت المقاومة دكاً ، واستسلمت المواضع والقبائل للاسلام دون مقاومة تذكر .[4]

---

١ المعارف (ص ٣١٣) .

٢ Lammens, Mecque, 269, Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

٣ Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

٤ Wellhausen, Restr, S., 92.

وبلد مثل مكة فيه تجار وتجارة ورقيق وغنى وفقر وراحة وأصنام وعبادة وحجاج يأتون للتقرب الى الأصنام ، لا بد ان يضع اهله لهم وللقادمين اليه انظمة وقوانين لتنظيم الحياة ، وتأمين الأمن وحفظ الحقوق وحماية من يفد اليه من الأذى لدوام مجيء الحاج اليه على الأقل .

فالكعبة ، وهي بيت الأصنام ، ارض حرام ، لا يجوز البغي فيها ، ولا المعاصي واقتراف الآثام . والمدينة ، وهي في جوار البيت ذات حرمة وقدسية . ودار الندوة دار مشورة وحكم وزعامة . وسكان البلد الحرام هم في حمى البيت وفي جواره ، ولا بد من انصافهم واحقاق حقهم . ولانصافهم ودفع الأذى عن فقيرهم ، عقد حلف الفضول ، وتعهد سادات مكة بالدفاع عمن يستجير بهم ، وبتأديب من يتجاسر منهم على العرف والسنة ، وبذلك ، جعلوا مكة بلداً آمناً مستقراً في محيط تتعارك فيه الأمواج .

ولسياسة اهل مكة القائمة على المسالمة وحل الخلاف بالتشاور والتفاوض ، رميت قريش البواطن ، وهم غالبية اهل المدينة بعدم القدرة على القتال وبالاتكال على غيرهم في الدفاع عن بلدهم ، وباعتمادهم على الأحابيش وعلى قريش الظواهر وعلى القبائل المحالفة لهم في الدفاع عن مكة . ولم تكن مكة وحدها بدعاً في هذا الأمر ، اذ كان اهل يثرب وأهل الطائف وسائر اهل القرى والمدر مثل اهل مكة ، غير ميالين الى الغزو والقتال ، ولهم حبال وأحلاف مع القبائل الساكنة بجوارهم ، لمنع تعدياتهم عليهم ، ولمنع من يطمع فيهم من تنفيذ ما يريد .

الرقيق :

وقد كانت بمكة جالية كبيرة من اصل افريقي ، عرفت بـ (الأحابيش) وهم سود البشرة ، اشتراهم اثرياء مكة للعمل لهم في مختلف الأعمال ولخدمتهم . وقد كان هذا الرقيق ضرورة لازمة لاقتصاد مكة ولنظامها الاجتماعي في ذلك الزمن . فقد كان يقوم مقام الآلة في خدمة التاجر وصاحب العمل ، فكان مصدراً من مصادر الثروة ، وآلة مسخرة تخدم سيدها بأكل بطنها ، كما كان سلاحاً يستخدم

للدفاع عن السادة في ايام السلم وفي ايام الحرب .[1]

وقد سبق ان أشرتُ الى وجود (احابيش) بين اهل مكة ، زعم الاخباريون انهم عرب ، وانهم انما عرفوا بالاحابيش ، لانهم تحابشوا ، اي تحالفوا وتعاهدوا على التناصر والتآزر عند جبل (حبشي) ، فهم على زعم هؤلاء الاخبـاريين احابيش آخرون لا صلة لهم بالاحابيش الذين اتحدث عنهم .

وقد اشار اهل الاخبار الى ان قوماً من اشراف مكة تزوّجوا حبشيات فأولدن لهم اولاداً . ذكروا منهم (نضلة بن هاشم بن عبد مناف) و (نفيل بن عبد العُزّى) و (عمـرو بن ربيعة) و (الخطاب بن نفيل) ، والد (عمر بن الخطاب) ، ويذكر ان (ثابت بن قيس بن شماس الانصاري) عيّر (عمر بن الخطاب) فقـال له : يا ابن السوداء) ، فأنزل الله : (يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى ان يكونوا خيراً منهم)[2] و (عمرو بن العاص) وجماعةً آخرين .[3]

وقامت بخدمة قريش طائفة اخرى من الآلات الحية ، هي ادق عملاً وأحسن خدمة وأرقى في الانتاج من الطائفة الأولى : الأحابيش ، استوردت من الشمال من بلاد الشام والعراق ، هي الأسرى البيض الذين كانوا يقعون في ايدي الروم او الفرس او القبائل المغيرة على الحدود ، فيباعون في اسواق النخاسة ، ومنها ينقلون الى مختلف أنحاء جزيرة العرب للقيام بمختلف الاعمال . يضاف الى هؤلاء ، الرقيق المستورد من اسواق اوروبة ، لبيعه في اسواق الشرق . وأسعار هذه البضاعة وان كانت أغلى ثمناً من اسعار البضاعة المستوردة من افريقية ، الا ان الجودة في الانتاج والتفنن فيه ، والبراعة في الصناعات التي لا تعرفها بضاعة الجنوب تعوّض عن هذا الفرق .

---

١ راجع مقال الاب لامانس في مجلة المشرق ، السنة الرابعة والثلاثين (١٩٣٦) ، (ص ١ وما بعدها) ، (ص ٥٢٧ وما بعدها) ، وعنوانه (الاحابيش والنظـام العسكري في مكة) .

٣ الحجرات ، الآية ١١ .

٢ المحبر (ص ٣٠٦) (أبناء الحبشيات) .

ومن جملة ما وُكِلَ الى رقيق العراق وبلاد الشأم والروم وغيرهم من ذوي البشرة البيضاء من أعمال ، ادارة المبيعات ، والقيام بالحرف التي تحتاج الى خبرة ومهارة وفن ، وهي من اختصاص أهل المدن والمستقرين : مثل أعمال البناء والنجارة والأعمال الدقيقة .

وهذه البضاعة التي استوردتها قريش الى مكة — وان كانت تابعة ، تؤمر فتفعل ، وتكلف فتستجيب — كانت بضاعة حيّة ، لها قلب نابض ، ودماغ يعمل ، ولحم ودم ، ولبعضها علم وفهم ومعرفة تفوق معرفة أصحابها المالكين لها . فبضاعة هذا شأنها لا بد ان تترك أثراً في البيئة التي استوردت اليها . والأخباريون الذين هم مرجعنا الوحيد في رواية أيام الجاهلية قبيل الإسلام ، وان لم يحدثونا عن أمر هؤلاء القوم في نفوس ساداتهم والذين اختلطوا بهم ، تستطيع بالاعتماد على نقد بعض النتف من رواياتهم ان نصل الى هذه النتيجة التي هي شيء طبيعي وأمر ليس بغريب : نتيجة تقول ان هذه البضاعة تركت في نفوس أهل مكة وفي نفوس العرب الآخرين ممن كان لهم رقيق ، أثراً ليس الى إنكاره من سبيل ، وان بعض المصطلحات الفارسية والرومية والحبشية التي كانت معروفة عند العرب قبيل الإسلام ، والتي أكدوا هم أنفسهم انها لم تكن عربية ، ولا سيما ما كان يتعلق منها بالصناعات والأعمال التي يأنف العربي من الاشتغال بها ، انما دخلت لغتهم وشاعت بينهم من طريق هؤلاء [1] .

وقد كان أغلب الرقيق الأبيض على النصرانية ، وقد ذكر الأخباريون أسماء لبعضهم من نزلاء مكة تشير بوضوح الى تنصرهم . وقد كان فيهم من يتقن العربية ، ويعبر عن أفكاره بها تعبيراً صحيحاً واضحاً ، وفيهم من لا يفقه هذه اللغة ، لانه حديث عهد بها ، فكان يتكلم بلسان أعجمي أو بعربية ركيكة . ومنهم من كان يتباحث في أمور الدين ويشرح لمن يجالسه ما جاء في ديانته وفي كتبه المقدسة . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في الآيات : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشرٌ . لسان الذي يلحدون اليه أعجميّ ، وهذا لسانٌ عربيٌ

١ صحيح مسلم : (١٨٩/٢) ، أسد الغابة (٥٧٩/٥) ، المشرق ، السنة (٣٥) (١٩٣٧) ، (٨٢) .

مبينٌ) [1] . (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون . فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلاً) [2] .

وقال (ابن هشام) في تفسير الآية : (ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشرٌ ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) : (وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغني ، كثيراً ما يجلس عند المرْوةِ الى مبيعة غلام نصراني ، يقال له جبر ، عبد لبَني الحَضْرميّ ، وكانوا يقولون : واللهِ ما يعلّم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، غلام بني الحضرمي . فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهم : ولقد نعلم) [3] . وهناك أشخاص آخرون كانوا موالي لا يحسنون العربية ولا يجدون النطق بها [4] .

وروي عن (عبد الله بن مسلم الحضرمي) انه (قال : كان لنا عبدان : أحدهما يقال له يسار ، والآخر يقال له جبر . وكانا صيقلين . فكانا يقرآن كتابهما ويعملان عملهما . وكان رسول الله يمرّ بهما فيسمع قراءتهما . فقالوا : إنما يتعلم منهما . فنزلت : ولقد نعلم انهم يقولون) [5] .

وأشير الى غلام آخر كان بمكة ، اسمه (بلعام) ، وكان قيناً ، ذكر ان الرسول كان يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا انه كان يتعلم منه . وقيل : إن ذلك الرجل الذي قال أهل مكة ان الرسول كان يتعلم منه ، اسمه (أبو اليسر) ، وكان نصرانياً [6] .

وفي جملة من أشار اليهم أهل اليسر من النصارى الذين كانوا بمكة ، رجل اسمه (نسطاس) ، وكان من موالي (صفوان بن أمية) [7] ، ونسطور الرومي ،

---

١ النحل ١٦ ، الآية ١٠٤ وما بعدها .
٢ الفرقان ، الآية ٥ وما بعدها .
٣ ابن هشام : السيرة (ص ٣٦٠) .
٤ الواحدي : أسباب النزول (٢١٢) ، أسد الغابة (٣/١٣١) ، (٥/١٩٤ ، ٤٦٢) .
٥ الاصابة (١/٢٢٢) .
٦ الاصابة (١/١٦٥) .
٧ الاغاني (٤/٤٢) ، ابن هشام ، السيرة (٦٤٠) ، أسد الغابة (٢/٢٤٠) ، المشرق ، السنة الخامسة والثلاثين ، (١٩٣٧) م) ، (ص ٨٨) .

ويوحنا مولى صهيب الرومي ، وصهيب الرومي نفسه ، وهو من الصحابة ، جاء من بلاد الشأم ، ونزل بمكة ، وتشارك مع مثري قريش عبد الله بن جدعان ، ثم استقل عنه ، وصار ثرياً من أثرياء مكة . ثم دخل في الإسلام [1] . ومنهم مولى يوناني تزوج سمية أم بلال [2] . وقد بقي نفر من النصارى محتفظين بدينهم بمكة في أيام الرسول [3] .

وفي حديث الأخباريين عن بناء الكعبة ان قريشاً استعانت بعامل من الروم ، أو من الأقباط ، اسمه باقوم ، كان نجاراً مقيماً بمكة ، في تسقيف البيت . وفي حديث آخر لهم : ان هذا الرجل كان في سفينة جهزها قيصر الروم لبناء كنيسة ، وقد شحنها بالرخام والخشب والحديد ، فجنحت عند (الشعيبة) فاستعانت قريش بما تبقى من أخشابها وبخبرة هذا الرومي في تسقيف البيت [4] . وقد دعي بـ (بلقوم الرومي) أيضاً [5] .

وفي كتب السير وكتب تراجم الصحابة أسماء جوارٍ يونانيات أو من بلاد الشأم أو من العراق ، وقد تزوجن في مكة وتسلن ذرية كانوا فيها قبل الإسلام . وقد كان منهن في مواضع أخرى من جزيرة العرب بالطبع .

ويعود قسط كبير من وجود الكلمات الحبشية والرومية والفارسية في العربية الى الرقيق الأسود والأبيض . وهذه الكلمات هي مسميات لأمور غريبة عن العربية لم يكن لأهل مكة ولا لغيرهم علم بها ، فاستعملوها كما وردت وأخذت ، أو صقلت حتى لاءمت اللسان العربي ، كما حدث ويحدث في اللغات الأخرى ، وعربت وصارت من ألفاظ العربية . وقد لاحق قسماً منها علماء اللغة ، فوضعوا

---

١ ابن هشام (٣٢١) .

٢ المشرق ، الجزء المذكور (ص ٨٩) .

٣ (ضرب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على نصراني بمكة دينارا كل سنة) ، كتاب الخراج ليحيي بن آدم (٥٣) ، ابن سعد ، الطبقات (٣٩/١) ، المشرق ، الجزء المذكور (ص ٩٥) .

٤ الطبري (٢٠٠/٢) ، السيرة الحلبية (١٤٣/١) ، الاصابة (١٣٦/١ وما بعدها) ، Ency., III, P. 584.

٥ الاصابة (١٦٦/١) .

فيها كتباً بحثت في تلك المعربات ، وفي القرآن الكريم طائفة منها لم يغفل عنها أرباب اللغة والمفسرون [1] .

أغنياء ومعدمون :

كان أهل مكة بين غني مُتخَم وفقير معدم . وبين الجماعتين طبقة نستطيع ان نقول انها كانت متوسطة . وأغنياء مكة ، هم أصحاب المال ، وقد تمكنوا من تكثيره بإعمال ما عندهم من مال بالاتجار وباقراضه للمحتاج اليه ، وبإعماله بالزراعة ، واستغلاله بكل الطرق المربحة التي يرون انها تنفحهم بالأرباح .

وقد تمكن هؤلاء الأغنياء من بسط سلطانهم على قبائل الحجاز ، ومن تكوين صلات وثيقة مع أصحاب المال في العربية الجنوبية وفي العراق وبلاد الشأم ، بحيث كانوا يتصافقون في التجارة ويشاركونهم في الأعمال ، حتى صاروا من أشهر تجار جزيرة العرب في القرن السادس للميلاد .

ويظهر مما جـاء في القرآن الكريم ان بعض هؤلاء الأغنياء كان قاسياً ، لم تدخل الرحمة ولا الشفقة قلبه . فكان يقسو على المحتاج ، فـلا يقرضه المال إلا بربىً فاحش وكان يشتط عليه . وكان بعضهم لا يتورعون من أكل أموال اليتيم والضعيف ، طمعاً في زيادة ثرائه . وكان يستغل رقيقه استغلالاً شنيعاً ، حتى انه كان يكره فتياته على البغاء ليستولي على ما يأتين به من مـال . وفي ذلك نزل النهي عنه في الإسلام . (ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) [2] . قال (الطبري) : (كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا . يأخذون أجورهن . فقال الله ، لا تكرهوهن على الزنا من أجل المنالة في الدنيا . ومن يكرههن ، فإن الله من بعـد اكراههن غفور رحيم لهن . يعني إذا أكرهن) . وقال : (كانوا يأمرون ولائدهم يباغين ، يفعلن ذلك ، فيصبن فيأتينهم بكسبهن) . وروي ان هذه الآية نزلت في حق (عبد الله ابن أبي سلول) [3] .

---

١ المعرب ، للجواليقي .
٢ النور ، الآية ٣٣
٣ تفسير الطبري (١٠٣/١٨ وما بعدها) ، سورة النور .

وكان من أغنياء مكة من يأكل بصحاف من ذهب وفضة ، ويشرب بآنية من ذهب وفضة ومن بلور ، ويأكل على طريقة الروم والفرس بسكاكين وشوكات مصنوعة من ذهب أو من فضة ، على حين كان أكثر أهل مكة فقراء لا يملكون شيئاً . وكانوا يلبسون الحرير ، ويتحلون بالخواتم المصنوعة من الذهب ، تزينها أحجار كريمة . ولعلّ هذا الإسراف والتبذير كانا في جملة العوامل التي أدت الى منع المسلمين من استعمال الأواني المصنوعة من الذهب والفضة للأكل والشرب ، ومن صدور النهي من استعمال الحرير للرجال [1] .

وقد حرص هؤلاء الأغنياء على اكثار أموالهم ، وعلى توسيع تجارتهم ، لذلك كانت هجرة الرسول الى يثرب وتحرش المسلمين بقوافلهم الذاهبة الآيبة بين بلاد الشأم ومكة لطمة كبيرة أصابتهم . لقد اجتمع ملأهم بعد وقعة بدر للتداول في أمرهم . فقال قائل منهم : (قد عوّر علينا محمد متَّجَرنا وهو على طريقنا . وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية : إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا . قال زمعة بن الأسود : فأنا أدلكم على رجل يسلك بكم النجدية ، لو سلكها مغمض العينين لاهتدى . قال صفوان : من هو ؟ فحاجتنا الى الماء قليل . إنما نحن شاتون . قال : فرات بن حيان ، فدعواه فاستأجراه ، فخرج بهم في الشتاء ، فسلك بهم على ذات عرق ، ثم خرج بهم على (غمرة) . وانتهى الى النبي صلى الله عليه وسلم خبر العير وفيها مال كثير ، وآنية من فضة حملها صفوان بن أمية ، فخرج زيد بن حارثة ، فاعترضها ، فظفر بالعير ، وأفلت أعيان القوم ، فكان الخمس عشرين الفاً ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم الأربعة أخماس على السرية ، وأتى بفرات بن حيّان العجلي أسيراً ، فقيل : إن أسلمت لم يقتلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلم ، فأرسله) [2] . وقد عرفت هذه الغزوة بـ (غزوة القردة) . وقد كانت في السنة الثالثة من الهجرة .

وقد أشير في ديوان (حسان بن ثابت) الى (فرات) هذا ، كما أشير

---

١ شمس العلوم (حـ ١ قسم ٢ ص ٢٩٣) .

٢ الطبري (٤٩٢/٢) ، (دار المعارف) ، الاشتقاق (٢٠٨) ، البلاذري ، انساب (٣٧٤/١) .

الى رجل آخر هو (قيس بن امرىء القيس العجلي) ، استأجرته قريش كذلك ، ليكون لها دليلاً يهدي قوافلها الطريق [1] .

وقد كانت قريش ، كما كان غير قريش ، ومنهم المسلمون يستعينون بالأدلاء لإرشادهم الطرق ، ولا سيما في أيام الخطر . وأيام جزيرة العرب كلهـا خطر دائم بالنسبة للتجار ، لما كانوا يحملونه معهم من أموال ، تسيل لعاب الطامعين في المال ، وتنسيهم كل عهد وموثق . لذلك كانوا يتحسسون جهدهم الطرق ، ولا يسيرون إلا في الطرق الآمنة التي يوثق من ذمم أصحابها ومن قدرة سادتها على ضبطها وعلى انزال أقصى العقوبة بالخلعاء وبالخارجين على الطاعة والعرف . ويستأجرون الأدلاء أصحاب العلم والدراية العملية بالطرق وبمخارجها وبكيفية الخروج من مآزقها ومهالكها وأخطارها ، يتفقون معهم على ارشادهـم ، على ان يكون لهم أجر حسن ان نجت القافلة من الخطر ووصلت سالمة الى مكانها المقصود .

وقد استغل تجار مكة أموالهم في الخارج ، وامتلكوا الضياع ، فامتلك (أبو سفيان ابن حرب) أيام تجارتـه الى الشأم في الجاهلية ضيعة بالبلقـاء تدعى بقيش ، فصارت لمعاوية وولده) [2] .

ولم يبال رجـال مكة من الاشتغال بالصناعات ، فقـد اشتغل قوم منهـم بالبزازة ، واشتغل بعض منهم بالخياطة ، فكان (العوّام أبو الزبير خياطـاً) و (كان الزبير جزّاراً ، وكان عمرو بن العاص جزاراً ، وكان عامر بن كريز جزاراً ، وكان الوليد بن المغيرة جزاراً . وكان العاص بن هشام أخو أبو جهل حداداً ، وكان عقبة بن أبي معيط خمـاراً . وكان عثمان بن أبي طلحة الذي دفع اليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مفتاح البيت خياطاً ، وكان قيس بن مخرمة خياطاً ، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والأدم ، وكان عتبة بن أبي وقاص أخو سعد نجاراً ، وكان أمية بن خلف يبيع البرم ، وكان عبد الله ابن جدعان نخاساً ، له جوار يساعين ويبيع أولادهن ، وكان العاص بن وائـل أبو عمرو بن العاص يعالج الخيل والإبـل ، وكان النضر بن الحارث بن كلدة

---

١ ديوان حسان (٢٩٥) ، (البرقوقي) ، (ص ٣٨) ، (هرشفلد) .
٢ البلاذري ، فتوح (١٢٥) .

يضرب بالعود ويتغنى ، وكان الحكم بن أبي العاص أبو مروان بن الحكم حجاماً ، وكذلك حريث بن عمرو)[1] .

وإذا صح ما ذكرته من كلام نقلته من (الأعلاق النفيسة) لابن رستة ، فإن ذلك ينفي ما يذكره أهل الأخبار من عدم وجود (نجّار) في مكة كالذي ذكروه من عدم وجود نجار بها يوم جددوا بناء الكعبة ، فحاروا في كيفية العثور على نجار يقوم بتسقيف البيت ، وبقوا في حيرتهم حتى اهتدوا الى رومي تحطمت سفينته عند الساحل ، فجاؤوا به وبخشب سفينته فسقف الرومي (باقوم) لهم عندئذ الكعبة . وتنفي رواية (ابن رستة) ما ذكره غيره من ترفع ذوي الأسر من قريش من الاشتغال بالحرف اليدوية لأنها حرف لم تخلق للأشراف . ويكون ذلك دليلاً على ان بعض ما يذكره أهل الأخبار عن أهل مكة بعيد عن الواقع وتناقض فيما يروونه ، لم يفطنوا اليه ، لأنهم كانوا ينقلون الأخبار ، ويأخذونها أنّى جاءت ، وغايتهم الجمع ، وعلينا الآن واجب التمحيص بين تلك الروايات ونقدها وغربلتها ، لاستخراج اللب من القشور .

وعندي ان الإسلام ، هو الذي صيّر قريشاً قريشاً المذكورة في الكتب . وهو الذي سوّدها على العرب ، وجعل لها المكانة الأولى بين القبائل ، والخلافة فيها ، بفضل كون الرسول منها وظهور الإسلام في مكة . ولولا الإسلام ، لكانت مكة قرية من القرى ، لبعض أسرها ثراء حصلت عليه بفضل نشاطها وتقرّب رجالها الى سادات القبائل وحكام العراق وبلاد الشأم واليمن ، وبفضل دعوة رجال قريش القبائل المحيطة بمكة لحج البيت والتقرب الى الأصنام التي كدسوها فيه وحوله ، ومنها أصنام القبائل التي لها تعامل مع مكة ، فحصلت على ربح هو (حق قريش) من الغرباء وحق تعشير التجار وتعاطي البيع والشراء معهم .

ويبدو من أخبار الأخباريين عن البيت ؛ ان العناية لم توجه اليه إلا قبيل الإسلام ، وان الإسلام هو الذي رفع قواعده ، وعني بعمارته ، وهو الذي فرش مسجده بالرخام ، وجعل له أشياء كثيرة لم تكن موجودة في أيام الجاهلية . وقد صرف عليه الخلفاء أموالاً طائلة وذلك قربة لله رب البيت .

والواقع ان في كثير مما يذكره أهل الأخبار عن مكة ، ما يناقض بعضه

---

١ ابن رستة ، الاعلاق (٢١٥) .

الفصل الثالث والأربعون

يثرب والطائف

وكان ليثرب مكان مهم عند ظهور الإسلام ، وفيها وفي أطرافهـا سكنت جاليات من يهود . وهي من المواضع التي يرجع تأريخها الى ما قبل الميلاد . وقد ذكرت في الكتابات المعينية ، وكانت من المواضع التي سكنتها جاليات من معين ، ثم صارت الى السبئيين بعد زوال مملكة معين[1] . ولعلّ هـذا السكن هو الذي حمل النسّابين على ارجاع نسب أهل يثرب الى اليمن ، فقالوا إنهم من الأزد ، وإنهم من (قحطان) .

وللأخباريين كعادتهم آراء في الاسم ، قالوا إنها سميت (يثرب) نسبة الى (يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح) ، وكان أول من نزلها فدعيت باسمه . وقالوا : بل قيل لها (يثرب) من التثريب ، وقالوا أشياء أخرى من هذا القبيل[2] .

وزعم أهل الأخبار ان الرسول لما نزلها كره ان يسميها (يثرب) ، فدعاها (طيبة) و (طابة) . وذكروا لها تسعاً وعشرين اسماً ، منها : (جابرة)

١ Ency., III, P 83, Hartmann, Die Arabische Frage, S., 253, H. Winckler, Arabisch-Semitisch-Orientalisch, in Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, (1901), S., 63.

٢ البلدان (٨/٤٩٨) ، ابن خلدون (٢/٢٨٦) .

و (مسكينة) و (مجبورة) و (يندر الدار) و (دار الهجرة) [١] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان أقدم من سكن (يثرب) في سالف الزمان قوم يقال لهم (صُعل) و (فالج) ، فغزاهم النبي (داوود) وأخذ منهم أسرى ، وهلك أكثرهم وقبورهم بناحية (الجرف) . وسكنها (العماليق) ، فأرسل عليهم النبي (موسى) جيشاً انتصر عليهم ، وعلى من كان ساكناً منهم بـ (تيماء) ، فقتلوهم ، وكان ذلك في عهد ملكهم الملك (الأرقم بن أبي الأرقم) . ولم يترك الاسرائيليون منهم أحداً ، وسكن اليهود في مواضعهم [٢] . ونزل عليهم بعض قبائل العرب ، فكانوا معهم واتخذوا الأموال والآطام والمنازل . ومن هؤلاء (بنو أنيف) ، وهم حيّ من (بليّ) ، ويقال انهم بقية من العماليق ، و (بنو مُريد) مزيد (مرثد) ، حيّ من (بليّ) ، وبنو معاوية ابن الحارث بن بُهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ، وبنو الجذمى (الجذماء) حيّ من اليمن ، فعاشوا مع من كان بيثرب وأطرافها من اليهود ، واتخذوا المنازل والآطام يتحصنون فيها من عدوهم الى قدوم الأوس والخزرج اياها [٣] .

وكان قدوم (الأوس) و (الخزرج) على أثر حادث (سيل العرم) ، فأجمع (عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة) ، الخروج عن بلاده وباع ماله بمأرب ، وتفرق ولده ، فنزلت الأوس والخزرج (يثرب) وارتحلت (غسان) الى الشأم ، وذهبت (الأزد) الى عمان وخزاعة الى تهامة . وأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخل في أيدي اليهود ووجدوا العدد والقوة معهم ، فمكثوا معهم أمداً وعقدوا معهم حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم بعضاً ويمتنعون به ممن سواهم ، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلاً ، حتى نقضت اليهود عهد الحلف والجوار ، وتسلطها على يثرب ، فاستعان الأوس والخزرج

١ البلدان (٤٢٥/٧) ، (٤٩٨/٨) ، المقدسي : أحسن التقاسيم (ص ٣٠) ، (الطبعة الثانية) (ليدن ١٩٠٦ م) ، ابن رستة ، الاعلاق (ص ٥٩) ، (للمدينة في التوراة (التوريه) أحد عشر اسما) ، ابن رستة (ص ٧٨) .

٢ ابن رستة ، الأعلاق (٦٠ وما بعدها) ، ياقوت ، البلدان (٤٦١/٤ وما بعدها) ، الأغاني (٩٤/١٩) .

٣ ابن رستة ، الأعلاق (٦٢) .

بأقربائهم على اليهود ، فغلبوهم ، وصارت الغلبة للعرب على المدينة منذ ذلك العهد ، على نحو ما سأتحدث عنه بعد قليل .[1]

وأقدمُ مورد أُشير فيـه الى (يثرب) ، هو نص الملك (نبونيد) ملك بابل ، الذي سكن (تيماء) امداً ، وذكر فيه انه بلغ هذه المدينة ، كما سلف ان تحدثت عن ذلك في اثناء حديثي عن صلات العرب بالبابليين . وقد عرفت بـ (يثربه) (Jathripa) في جغرافيا (بطلميوس) وعند (اصطيفان البيزنطي) .[2] وعرفت بـ (المدينة) كذلك من كلمة (Medinta) (Medinto) الإرمية ، التي تعني (مدينة) في عربيتنا و (هكر) في العربية الجنوبية .[3] وقد ورد اسمها في الكتابات المعينية .[4]

ويظهر انها عرفت بـ (مدينة يثرب) على نحو ما وجدنا في كتاب (اصطيفان البيزنطي) ، ثم اختصرت ، فقيل لها (مدينتا) ، اي (المدينة) . ولما نزل الرسول بها ، عرفت بـ (مدينة الرسول) في الاسلام .[5]

ولقدم تأريخ (يثرب) ولورود اسمها في نص (نبونيد) ، الذي يدل على انها كانت معروفـة اذ ذاك ، لا يستبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على كتابات وآثار قد تكشف عن بعض تأريخ هذه المدينة في ايام ما قبل الاسلام .

ولم يشر اهل الاخبار الى وجود حرم او بيت بيثرب ، كان يتعبد فيه اليثربيون ويتقربون اليه بالنذور ، مع انهم اشاروا الى بيت اللات في الطائف . ويثرب مدينة مثل الطائف ومثل مدن اخرى كانت ذات محجّات ومعابد . وقد كان اهل يثرب مثـل غيرهم من العرب مشركين يتقربون الى الأصنام ، وكانوا يحفظون

---

١ ابن رستة ، الأعلاق (٦٢ وما بعدها) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢/١٦٠) ، (مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ م) .

٢ تاريخ العرب قبل الاسلام ، لجواد علي (٣/٣٩٥) ، (٤/١٨١) .
Ptolemy, VI, 7, 31.

٣ Blau, in ZDMG., 22, (1868), S. 668, Ency., III, P. 83. Paulys-Wissowa, 17 ter Halbband, 1914, 791.

٤ Ency., III, P. 83, Winckler, Arabisch — Semitisch, in Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, 1901, S., 63.

٥ Ency, III, P. 83.

اصناماً لهم في بيوتهم يتقربون اليها ، كما كانوا يحجون الى محجات كانت على مسافة من يثرب . ولذلك يبدو غريباً سكوت اهل الاخبار عن ذكر بيت في هذه المدينة ، يحج له الأوس والخزرج ومن والاهم من قبائل وعشائر .

وعثر في مواضع لا تبعد كثيراً عن (يثرب) على كتابات جاهلية ، لم تعرف هويتها الآن ، لأن الباحثين لم يتمكنوا من فحص مواضعها ومن نقلها الى العلماء المختصين لقراءتهـــا . كما انهم لم يتمكنوا من تصويرها ولا من التنقيب في تلك الأماكن تنقيباً علمياً . وقد اشار (عثمان ورستم) الى وجود كتابات من هذا النوع على جبل (سلع) ، وعند موضع (بئر عروة) بوادي العقيق وفي أماكن اخرى . [1] ارجو ان يصل اليها الباحثون للتنقيب فيها وحل رموز هذه الكتابات .

وقد يعثر على كتابات اخرى مطمورة في تربة (يثرب) وفي الأماكن القريبة منها ، تكشف للقادمين من بعدنا اسرار هذه المدينة المقدسة .

ويثرب ، مثل مكة من شعاب ، تسكنها بطون الأوس والخزرج : الأوس في شعاب ، والخزرج في شعاب ، واليهود في شعاب . وفي الشعاب (حوائط) ، بساتين صغيرة ، وفي الحوائط (آبار) يستقون منها للشرب والسقي وللغسل ، [٢] كما كانت فيها دور مبنية بالآجر ودور مبنية باللبن . وبعضها ذو طابقين . وقد احتفر اليهود آباراً ، كانوا يبيعون الماء منها بالدلاء ، مثل (بئر ارومة) ، وكانت ليهودي ، وقد امر الرسول بشرائها ، فاشتراها عثمان . [٣] ومن آبار المدينة (بئر ذروان) ، وهي البئر التي ذكر ان لبيد (ابن الأعصم) اليهودي سحر بها الرسول . [٤]

ويثرب على شاكلة مكة ، بغير سور ولا حائط يحيط بها ، ولا خندق يقف حائلاً امام من يريد بالمدينة سوءاً . وقد كان عماد دفاع اهلها بالتحصن في بيوتهم وبسدّ منافـــذ الطرق في اثناء الخطر . والأغنياء الموسرون يعتمدون على آطامهم

---

١ Osman R. Rostem, Rok Inscriptions in the Hijaz, PP. 4.

٢ الطبري (٢/٣٥٧) (دار المعارف) ، اللسان (٧/٢٧٩) .

٣ المعارف (ص ٨٣) .

٤ نزهة الجليس (١/٦١) ، تفسير النيسابوري (٣٠/٢١٥) ، حاشية على تفسير الطبـــري .

وحصونهم وقصورهم ، يلجؤون اليها عند الشدة ومن معهم من اتباعهم يرمون اعداءهم من فوق السطوح بالسهام وبالحجارة ، اذ لا حائط يحيط بها على نحو ما كان لمدينة الطائف . وقد تحارب الأوس والخزرج على الآطام ، وأرخوا بتلك الحرب ، وصاروا يؤرخون بـ (عام الآطام) . وذكر ان اهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا يمتنعون بها ، فأخربت في ايام عثمان . [1]

ويظهر من وصف اهل الاخبار ليثرب ، انها كانت تشبه مدينة (الحيرة) بالعراق من حيث خلوّها من سور ومن تكوّنهـا من (قصور) ، هي بيوت السادة ومعاقل المدينة ومواضع دفاعها آناء الشدة وأوقات الحروب . وقد عرفت بـ (أطم) و (آطام) عند اهل يثرب . وذكر ان (الأطم) كان حصن بُنِيَ بحجارة ، او كل بيت مربع مسطح . وورد ان (الأُطوم) : القصور وحصون لأهل المدينة والأبنية المرتفعة كالحصون . [2]

والمدينة عند (وادي اضم) . يقال للقسم الذي هو عند المدينة منه (القناة) والذي هو أعلى منهـا عند السدّ : الشظاة ، اما ما كان اسفل ذلك ، فيسمى أضماً الى البحر . وذكر ان اضم وادٍ يشق الحجاز حتى يُفرغ في البحر . وأعلى اضم القناة التي تمر دُوين المدينة . [3] وان المدينة هي ما بين طرف قناة الى طرف الجرف ، وما بين الماء الذي يقال له (البوا) الى (زبالة) . [4]

وجوّ (يثرب) على العموم خير من جوّ مكة ، فهو ألطف وأفرح . ولم يعانِ اهلها ما عانى اهل مكة من قحط في الماء ومن شدة في الحصول عليه ، حتى بعد حفر (بئر زمزم) . فالماء متوفر بعض الشيء في المدينة ، وهو غير بعيد عن سطح الأرض ، ومن الممكن الحصول عليه بسهولة بحفر آبار في البيوت . ولهذا صار في امكان اهلها زرع النخيل ، وانشاء البساتين والحدائق ، والتفسح فيها ، والخروج الى اطراف المدينة للنزهة ، فأثر ذلك في طباع اهلها فجعلهم ألين عريكة وأشرح صدراً من اهل البيت الحرام .

---

١ الأغاني (١٤/١) (ساسي) التنبيه (ص ١٧٦) .
٢ تاج العروس (١٨٧/٨) ، (اطم) ، اللسان (١٩/١٢) ، (اطم) .
٣ تاج العروس (١٨٧/٨) ، (اضم) .
٤ ابن رسته ، الأعلاق (٦٢) .

وتأريخ المدينة مثل سائر تواريخ هذه الأماكن التي نتحدث عنها ، مجهول لا نعرف من أمره شيئاً يذكر ، وانما ما يذكره الاخباريون عن وجود العماليق وجرهم بها [1] فأمرٌ وان قالوه ، لا يستند الى دليل ، وحكمه حكم الأخبار الاخرى التي يروونها والتي عرفنا نوع اكثرها وطبيعته . ولكن الشيء الذي نعرفه يقيناً ان اهل المدينة كانوا ينتسبون عند ظهور الاسلام الى يمن ، وكانوا يقسمون انفسهم فرقتين : الأوس والخزرج . وبين الفرقتين صلة قربى على كل حال . ثم يذكرون انه كان بينهم يهود ، وهم على زعمهم من قدماء سكان يثرب .

ويلاحظ ان الأوس والخزرج لا يدعون انفسهم بأبناء حارثة ، وانما يدعون انفسهم بـ (بني قيلة) وبـ (ابني قيلة) ويقصدون بها (قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة) ، او (قيلة بنت هالك بن عُذْرَة) من قضاعة ، او (قيلة بنت كامل بن عُذْرَة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن اسلم بن الحاف ابن قضاعة) . [2] ولا بد ان يكون لهذه الامرأة التي ينتسبون اليها شهرة في الجاهلية حملتهم على الانتساب اليها . وقد ورد ان (قيلة) اسم ام الأوس والخزرج ، وهي قديمة . [3]

وقد ذكر بعض اهل الاخبار ان الأوس والخزرج ابنا قيلة لم يؤدوا اتاوة قط في الجاهلية الى احد من الملوك ، وكتب اليهم تُبَّع يدعوهم الى طاعته ، فغزاهم تبع ابو كرب ، فكانوا يقاتلونه نهاراً ويخرجون اليه العشاء ليلاً ، فلما طال مكوثه ورأى كرمهم رحل عنهم . [4]

ويُرجع الاخباريون مجيء الأوس والخزرج الى المدينة الى حادث سيل العرم ، ويقولون انهم لما جاءوا الى يثرب وجدوا اليهود وقد تمكنوا منها ، فنزلوا في ضنك وشدة ، ودخلوا في حكم ملوك يهود الى ايام ملكهم المسمى (الفيطوان)

---

١ البلدان (٤٢٧/٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٨٦/٢ وما بعدها) .
٢ البلدان (٤٢٨/٧) ، الكامل (٢٧٥/١) ، ابن حزم ، جمهرة (٣٣٢/٩) ، ابن خلدون ، المجلد الثاني ، القسم الأول (٥٩٦) ، (منشورات دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦ م بيروت) .
٣ اللسان (٥٨٠/١١) ، (صادر) ، (قيل) .
٤ العقد الفريد (١٩٢/١ وما بعدها) ، الأصمعي ، ملوك العرب الأولية (٨٧ وما بعدها) .

أو (القيطون) أو (الفيطيون) ، وكان رجلاً شديداً فظاً يعتدي على نساء الأوس والخزرج ، فقتله رجل منهم اسمه (مالك بن العجلان) وفرّ الى الشأم الى ملك من ملوك الغساسنة اسمه (أبو جبيلة) . وفي رواية انه فرّ الى (تبع الأصغر بن حسان) . وتذكر الرواية ان أبا جبيلة سار الى المدينة ونزل بذي حرض ، ثم كتب الى اليهود يتودد اليهم ، فلما جاؤوا اليه قتلهم ، فتغلبت من يومئذ الأوس والخزرج ، وصار لهم الأموال والآطام . ثم رجع (أبو جبيلة) الى الشأم . وصارت اليهود تلعن (مالك بن عجلان) . وهم يروون في ذلك أبياتاً ينسبونها الى شاعر اسمه (الرمق بن زيد الخزرجي[١] . ويذكر الأخباريون ان اليهود صوّرت (مالك بن عجلان) في كنائسهم وبيعهم ليراه الناس فيلعنوه[٢] .

وذكر (ابن دريد) ان (الفيطيون) ، اسم (عبراني) ، وكان تملّك بيثرب ، وكان هذا أول اسم في الجاهلية الأولى . وقد شهد بعض ولد الفطيون بدراً ، واستشهد بعضهم يوم اليمامة ، فمن ولد (الفطيون) : أبو المقشعر ، واسمه أسيد بن عبد الله[٣] . ويذكر بعضهم ان اسم (الفطيون) ، هو (عامر ابن عامر بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الحارث المحرق بن عمرو مزيقياء)[٤] . فهو من العرب على رأي هذا البعض ، ومن اليمن ، وليس من أصل عبراني .

وأبو جبيلة عند بعض الأخباريين ، هو (عبيد بن سالم بن مالك بن سالم) ، أحد بني غضب بن جشم بن الخزرج . فهو على هذه الرواية رجل من الخزرج ذهب الى ديار الشأم ، فملك على غسان . وذهب بعض آخر من الأخباريين الى انه لم يكن ملكاً ، وإنما كان عظيماً ومقرباً عند ملك غسان[٥] . ونسبه بعض

١ البلدان (٧/٤٢٨ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٥٩) ، الكامل (١/٢٧٥) ، البداية ، ابن كثير (٢/١٦٠) ، (مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ م) .

٢ ابن خلدون (٢/٢٨٧) ، الاشتقاق (ص ٢٧٠) ، الأغاني (١٩/٩٥ وما بعدها) ، السمهودي خلاصة الوفاء (٨٢ وما بعدها) ، الطبري (٢/٣٧١) ، تأريخ اليهود في بلاد العرب ، اسرائيل ولفنسون (٥٦ وما بعدها) ، Graetz, BD., 3, S., 91, 410.

٣ الاشتقاق (ص ٢٥٩) .

٤ الاشتقاق (ص ٢٥٩) .

٥ الكامل (١/٢٧٦) ، ابن خلدون (٢/٢٨٦ وما بعدها) .

أهل الأخبار الى (بني زريق) ، بطن من بطون الخزرج . ونعته بـ (أبي جبيلة الملك الغساني)[1] .

ونحن إذا أخذنا بهذه الرواية ، وجب علينا القول : ان أخذ الأوس والخزرج أمر المدينة بيدهم ، وزحزحة اليهود عنها ، يجب ان يكون قد وقع في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، أي في زمن لا يبعد كثيراً عن الاسلام . لأننا نجد ان أحد أولاده وهو (عثمان بن مالك بن العجلان) في جملة من دخل في الاسلام وشهد بدراً ، كما نجد جملة رجال من (بني العجلان) ، من أبناء أخوة (مالك) وقد شهدوا (بدراً) ومشاهد أخرى[2] ، وهذا مما يجعل زمن (مالك) لا يمكن ان يكون بعيداً عن الاسلام .

ويظهر من دراسة هذه الأخبار المروية عن اليهود وملكهم (الفطيون) وعن الأوس والخزرج وما فعلوه باليهود ، ان عنصر الخيال قد لعب دوراً في هذا المروي في كتب أهل الأخبار عن الموضوع . ونجد في القصص المروي عن ملوك اليمن وعن ولعهم بالنساء وعملهم المنكر بهن ، ما يشبه هذا القصص الذي نسب الى (الفطيون) . ونجد للعلاقات الجنسية مكانة في هذا القصص الجاهلي الذي ايرويه أهل الأخبار عن ملوك الجاهلية . وما قصة (الفطيون) إلا قصة واحدة من هذا القصص الذي نجد للغرائز الجنسية مكانة بارزة فيه .

ويظهر ان كلمة (الأوس) هي اختصار لجملة (أوس مناة) . و (مناة) كما نعلم صنم من أصنام الجاهلية . و (الأوس) هو جدّ الأوس ، وهو في عرف النسّابين (أوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن مرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد)[3] .

١ الاشتقاق (ص ٢٧٢) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٧١ ومواضع اخرى) .
٣ البلدان (٧/٤٢٨) ، (أوس بن حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امريء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٢٧٥ ح ، ابن خلدون (٢/٢٨٨) ، اللسان (٤/١٨ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/١٠٣) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٣٢٢) ، العقد الفريد (٣/٣٦ ، ١٥٩) ، (لجنة) ، ابن هشام (٢/٣٤٧) ، دائرة المعارف الاسلامية (٣/١٥٠) .

وينقسم الأوس الى بطون ، منهم : عوف ، والنبيت ، وجشم ، ومُرّة ، وامرؤ القيس . وقد عرف (بنو مرّة) بالجعادرة كذلك . واتفقت جشم ومرة وامرؤ القيس وكونت حلفاً عرف بـ (أوس اللاة) . وبـ (أوس) كذلك . وانقسمت هذه الكتلة الى أربعة أقسام ، هي : ختمة وهي (جشم) في الأصل ، وأمية ، ووائل وهي مرّة ، وواقف وهي امرؤ القيس . وانقسمت هذه البطون الى أفخاذ عديدة ، حدثت بينها منازعات وحروب[١] .

ويرجع أهل الأخبار نسب أهل (قباء) الى (عوف) ، ونسب (النبيت) الى (عمرو) ، ونسب (الجعادرة) الى (مرّة) . وقيل انهم سمّوا بذلك لانهم كانوا يقولون للرجل اذا جاورهم (جعدرْ حيث شئت ، فأنت آمن . أي اذهب حيث شئت) . ومنهم بنو كلفة وبنو حنش وبنو ضبيعة[٢] .

ومن الأوس (أحيحة بن الجلاّح بن الحريش بن جحجبا) ، سيّد الأوس في الجاهلية شاعر . وكانت عنده (سلمى بنت عمرو النجارية) ، وأولاده منها إخوة عبد المطلب . وهو من (بني جحجبا) . ومن ولده (المنذر بن عقبة ابن أحيحة بن الجلاّح) ، شهد بدراً وقتل يوم بئر معونة[٣] . وله أشعار ذكرها الرواة ، منها أبيات في رثاء ابن له[٤] .

وأما الخزرج ، فانهم إخوة الأوس في عرف النسابين . فالخزرج ، وهو جدّ الخزرج ، هو شقيق أوس . وهو (الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ابن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد) . وقد جاء نسله كما جاء نسل الأوس من اليمن بعد حادث سيل العرم ، وسكنوا يثرب والى الشمال منها حتى (خيبر) و (تيماء) . وتأريخهم مثل تأريخ الأوس في رأي الأخباريين بدأ بالاتصال باليهود وبالعيش معهم وبينهم الى ان تمكنوا منهم بعد الحادث الذي ذكرته وبعد مجيء أبي جبيلة لنصرتهم[٥] .

---

١ الاشتقاق (ص ٢٥٩) .

٢ الاشتقاق (ص ٢٥٩ وما بعدها) .

٣ الاشتقاق (ص ٣٦٢) .

٤ رسالة الغفران (٥٥٤ ، ٥٦٢) .

٥ البلدان (٧/٤٢٨) ، الكامل (١/٢٧٥) ، السويدي ، سبائك الذهب (٦٩) ، المعارف لابن قتيبة (٢٦٠) ، دائرة المعارف الاسلامية ، (٣/١٥٠) ، السهيلي ، الروض الأنف (١/١٤) ، سيرة ابن هشام (٢/٢٠٤) ، (القاهرة ١٩٣٦ م) ، Ency., I, P. 523

ومن سادات الأوس عند ظهور الاسلام ، (سعد بن معاذ) ، الذي قتل يوم (الخندق) ، وأخوه (عمرو بن معاذ) ، وقتل يوم أحد) . و (سماك ابن عتيك) فارسهم في الجاهلية ، وابنه (حضير الكتائب) ، وكان سيد الأوس ورئيسهم يوم بعاث . وابنه (أسيد بن حضير) ، شهد بدراً [1] . ومنهم (أبو الهيثم بن التيهان) ، وكان نقيباً ، شهد العقبة وبدراً . و (قيس بن الحطيم بن عدي) الشاعر [2] . و (سعد بن خيثمة) ، وكان نقيباً ، وقتل يوم بدر ، وأبو قيس بن الأسلت الشاعر . و (شاس بن قيس بن عبادة) ، وكان من أشراف الأوس في الجاهلية [3] .

والخزرج أيضاً بطون ، أشهرها : بنو النجار وينتسبون الى (تيم الله بن ثعلبة) والحارث ، وجشم ، وعوف ، وكعب [4] . ويلاحظ ان جشماً وعوفاً هما اسما بطنين أيضاً من بطون الأوس .

ومن الخزرج (أبو أيوب خالد بن زيد) ، نزل عليه النبي أيام قدم المدينة . و (نعمان بن عمرو) ، وكان النبي يستخف نعمان ، لم يلقه قط إلا ضحك اليه . و (أسعد الخير بن زرارة بن عدس) ، شهد العقبة وكان نقيباً ، و (أبو أنس بن صرمة) الشاعر ، وهو جاهلي [5] ، و (ثابت بن قيس بن شاس) ، خطيب رسول الله ، وعمرو بن الاطنابة الشاعر ، جاهلي وهو أحد فرسان الخزرج [6] . و (سعد بن عبادة بن دليم) وابنه (قيس بن سعد بن عبادة) وكان نقيباً سيداً جواداً ، وابنه قيس أجود أهل دهره في أيام معاوية ، ومنهم (مالك بن العجلان) قاتل (الفطيون) ، وابنه (عثمان بن مالك بن العجلان) ، شهد (بدراً) [7] ، و (خالد بن قيس بن العجلان) ، شهد بدراً ، و (عمرو بن النعمان بن كلدة بن عمرو بن أمية بن عامر بن بياضة) .

---

١ الاشتقاق (ص ٢٦٣) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٦٤) .
٣ الاشتقاق (ص ٢٦٥ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (ص ٢٦٦) .
٥ الاشتقاق (ص ٢٦٧) .
٦ الاشتقاق (٢٦٨) .
٧ الاشتقاق (٢٧٠ وما بعدها) .

رأس الخزرج يوم بُعاث[1] . و (رافع بن مالك بن العجلان) ، وهو أول من أسلم من الأنصار ، و (النعمان بن العجلان)[2] . و (مرداس بن مروان) ، شهد يوم الحديبية ، وبايع تحت الشجرة ، وكان أمين النبي على سُهمان خيبر[3] ، و (خشرم بن الحباب) ، وكان حارس النبي . و (البرّاء بن معرور) ، عقبيّ وكان نقيباً ، وهو أول من أوصى بثلث ماله وأول من استقبل القبلة ، وأول من دفن عليها[4] . و (أبو قتادة بن ربعي) فارس النبي[5] .

ويذكر الأخباريون انه كان للخزرج رئيس منهم ، هو (عمرو بن الأطنّابة) ، وقد ملك الحجاز . وكان ملكه على رأيهم في أيام (النعمان بن المنذر) ، قتله الحارث بن ظالم قاتل خالد بن جعفر بن كلاب[6] . وكانت بينه وبين (عمرو) خصومة . وذكر ان (عمراً) ، قال شعراً يهزأ فيه بالحارث جاء فيه :

أبلغ الحارث بن ظالم المُوعِدَ والناذر النذور عليّا
إنما تقتل النيام ولا تقتل يقظان ذا سلاحٍ كميّا

وكان عمرو شاعراً ومن الفرسان[7] .

وبالرغم من صلة الرحم القريبة التي كانت بين الأوس والخزرج ، فقد وقعت بينها حروب هلك فيها من الطرفين خلق كثير . وأول حرب وقعت بين الأوس والخزرج هي على رواية الأخباريين حرب (سمير) (سميحة) . و (سمير) في روايتهم رجل من الأوس من بني عمرو ، شتم رجلاً اسمه كعب بن العجلان ، وهو من بني ثعلبة من سعد بن ذبيان ، نزل على مالك بن العجلان رئيس الخزرج وحالفه وأقام معه ، ثم قتله . فثارت الثائرة بين الأوس بسبب هذا القتل وبسبب دفع دية القتيل ، ثم وقعت الحرب . ثم اتفقوا على ان يضعوا حكماً بينهم يفصل في الأمر ، فوقع اختيارهم على (المنذر بن حرام النجاري الخزرجي) . وهو

١ الاشتقاق (ص ٢٧١ وما بعدها)
٢ الاشتقاق (٢٧٢) .
٣ الاشتقاق (٢٧٣) .
٤ الاشتقاق (٢٧٣) .
٥ الاشتقاق (٢٧٥) .
٦ ابن خلدون (٢/٢٨٩) ، الاغاني (١١/١٢١ وما بعدها) .
٧ الاشتقاق (٢٦٨) .

جدّ حسان بن ثابت ، فحكم بينهم بأن يؤدوا لكعب دية الصريح ، ثم يعودوا الى سنّتهم القديمة ، وهي دفع نصف الدية عن الحليف . فرضوا وتفرقوا ، ولكن بعد ان تمكنت العداوة والبغضاء في نفوس الطرفين[1] .

واشتعلت نيران حرب أخرى بين الأوس والخزرج لسبب امرأة من (بني سالم) . وقد كانت الحرب في هذه المرة بين (بني جحجبا) من الأوس و (بني مازن بن النجار) من الخزرج . وقد وقعت في موضع (الرحابة) انهزمت فيه (بنو جحجبا)[2] .

ثم تجددت الحرب بين (عمرو بن عوف) من الأوس وبني الحارث من الخزرج بسبب مقتل رجل من بني عمرو . وقد عرفت هذه الحرب باسم : (يوم السرارة) . وقد كان على الأوس (حضير بن سماك) . وهو والد (أسيد بن حضير) ، وكان على الخزرج (عبد الله بن سلول) (عبد الله بن أبيّ) المعروف في الاسلام ب (رأس المنافقين) . وقد انتهت بانصراف الأوس الى دورها ، فعدت الخزرج ذلك نصراً لها[3] .

ووقعت حرب أخرى لأسباب تافهة كهذه الأسباب . وما كانت لتقع لولا هذه العصبية الضيقة يثيرها في الغالب أفراد لا منازل كبيرة لهم في المجتمع ، ومنهم من الصعاليك والمغمورين بأمور سخيفة ، فإذا وقع على أحدهم اعتداء نادى قومه للأخذ بثأره ، فتثور الحرب . ومن هذه الحروب ، حرب بني وائل ابن زيد الأوسيين ، وبني مازن بن النجار الخزرجيين ، وحرب بني ظفر من الأوس وبني مالك من الخزرج ، وحرب فارع ، وحرب حاطب ، ويوم الربيع ، وحرب الفجار الأولى ، وهي غير حرب الفجار التي وقعت بين قيس وكنانة ، ثم حرب معبس ومضرس ، وحرب الفجار الثانية ، ثم يوم بُعاث . وكان هذا

١ الكامل (١/٢٧٧) ، الأغاني (٣/١٨ وما بعدها) (٢٠/٢٤ وما بعدها) ، المفضليات (ص ١٣٥) ، الاشتقاق (ص ٢٦٦) ، ابن رستة ، الأعلاق (٦٤) ، البلخي ، (البدء والتاريخ (٣/١٣٠) .

٢ الكامل (١/٢٧٧) .

٣ الكامل (١/٢٧٨ وما بعدها) ، (فمن بني الحبلى : عبدالله بن أبي بن مالك ، الذي يقال له ابن سلول . وسلول امه . وكان رأس المنافقين . وكان أبنه عبدالله من خيار المسلمين) ، الاشتقاق (٢٧١) .

اليوم آخر الأيام المشهورة التي وقعت بين الأوس والخزرج [1] .

وكان رئيس الخزرج في يوم بعاث (عمر بن النعمان بن صلاءة بن عمرو بن أمية بن عامر بن بياضة) . أمـا رئيس الأوس ، فكان (حضير الكتائب بن سماك بن عتيك بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل) . وقد ساعد الخزرج في هذا اليوم أشجع من غطفان ، وجهينة من قضاعة . وساعد الأوس مزينة من أحياء طلحة بن إياس ، وقريضة والنضير . وقد قتل فيـه (عمرو بن النعمان) رئيس الخزرج . فانهزم الخزرج ، وانتصرت الأوس [2] .

وكان (حضير الكتائب بن سماك) سيد الأوس ورئيسهم يوم بعاث . ركز الرمح في قدمه وقال : ترون أفر ! ؟ فقتل يومئذ . وابنه (أسيد بن حضير) من الصحابة الذين شهدوا العقبة وبدراً [3] .

وقد تخلل أخبار هذه الأيام كالعادة شعر ، ذكر ان شعراء الطرفين المتخاصمين قالوه على الطريقة المألوفـة في الفخر ، وفي انتقاص الخصم ، وفي اثارة النخوة لتصطلم الحرب ويستميت أصحاب الشاعر في القتال . وقد كان المحلّق في هـذه الأيام حسان بن ثابت الشاعر المخضرم الشهير ، شاعـر الرسول . وهـو لسان الخزرج والمدافع عنهم ، و (قيس بن الخطيم) وهو من الأوس ، ثم جماعة ممن اشتركوا في المعارك ، مثل : عامر بن الاطنابة ، والربيع بن أبي الحقيق اليهودي ، وعبد الله بن رواحة وآخرون .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن يثرب ان الأوس والخزرج ، لم يكونوا كأهل مكة من حيث الميل الى الهدوء والاستقرار ، بل كانوا أميل من أهل مكة الى حياة البداوة القائمة على الخصومة والتقاتل . وقد بقي الحيّان يتخاصمان حتى جاء الرسول اليها ، فأمرهما بالكفّ عنه ، ووجّههما وجهة أخرى أنستها الخصومة العنيفة التي كانت فيما بينهما . ويظهر من رواياتهم ايضاً ان الأوس والخزرج ، وإن

---

١ الكامل (١/٢٨٠ وما بعدها) .

٢ ابن خلدون (٢/٢٨٩ وما بعدها) ، ابن هشام (ص ٣٨٥) ، البرقوقي (ص ٢٧٨ وما بعدها) ، البلدان ، لياقوت (١/٤٥١) ، الميداني ، الأمثال (١/٢) ، اللسان (٦/١٨) ، (اوس) ، تاج العروس (١/٦٠٤) ، البكري ، معجم (١/٢٦٠) .

٣ الاشتقاق (٢٦٣) .

كانوا قد تحضروا واستقروا ، غير أنهم لم يتمكنوا من التخلص من الروح الأعرابية تخلصاً تاماً ، بل بقوا محافظين على أكثر سجاياها ، ومنها النزعة الى التخاصم والتقاتل ، فألهتهم هذه النزعة عن الانصراف الى غرس الارض والاشتغال بالزراعة كما فعل اليهود ، وعن الاشتغال بالتجارة بمقياس كبير على نحو ما فعل أهل مكة .

ونظراً لمساعدة أهل يثرب للرسول ومناصرتهم له وللمهاجرين ، عرف الأوس والخزرج بـ (الأنصار) في الاسلام . وصاروا يفتخرون بهذه التسمية ، حتى غلبت عليهم ، وصارت في منزلة النسب .

وكان أهل (يثرب) مثل غيرهم تجاراً ، يخرجون الى أسواق الشأم فيتجرون بها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال منها تاجروا مع بلاد الشأم . وكان (يهود) يثرب يتاجرون أيضاً ، ويأتون الى أهل (يثرب) بما يحتاجون اليه من تجارات . كما (كانت الساقطة تنزل المدينة في الجاهلية والاسلام يقدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش ، وما يكون في الشأم) [1] . وكانوا يتسقطون الاخبار وينقلونها الى الروم عند ظهور الاسلام . فقدم بعض الساقطة المدينة ، وأبو بكر ينفذ الجيوش ، وسمعوا كلام أبي بكر لعمرو بن العاص ، وهو يقول : عليك بفلسطين وإيليا ، (فساروا بالخبر الى الملك هرقل) [2] ، وتهيأ لملاقاة المسلمين .

ولم يذكر الرواة جنس هؤلاء (الساقطة) ، الذين كانوا يأتون بالتجارة من بلاد الشأم الى المدينة ، هل كانوا روماً أم عرباً ، أم يهوداً ، أم كانوا خليطاً من كل هؤلاء . على كل كانوا تجاراً يأتون يثرب في الجاهلية لبيع ما يحملونه من تجارة ، ولشراء ما يجدونه هناك ، وبقوا شأنهم هذا الى الاسلام ، كما نرى من الخبر المتقدم .

هذا هو مجمل ما نعرفه عن تأريخ (يثرب) وهو شيء قليل ، لا يكفي المتعطش لمعرفة تأريخ هذه المدينة التي تعدّ من المواضع المقدسة في الاسلام . ولا

---

١ الواقدي ، فتوح (ص ١٦) ، (طبعة بيروت ١٩٦ م) .
٢ الواقدي ، فتوح (١٦ وما بعدها) .

بد وان يأتي يوم سنكتشف فيه الأقنعة عن تأريخ المدينة قبل الاسلام . وذلك حين يقوم المنقبون المتخصصون بالبحث في تربتها عن الماضي المستور الدفين .

الطائف :

والطائف على مسافة خمسة وسبعين ميلاً تقريباً الى الجنوب الشرقي من مكة . وهي على عكس مكة أرض مرتفعة ذات جوّ طيب في الصيف فيه زرع وضرع ، وغنى جادت الطبيعة به على أهله . وقد كان وما زال مصيفاً طيباً يقصده أهل مكة فراراً من وهج الشمس .

وتقع الطائف على ظهر جبل غزوان ، وهو أبرد مكان في الحجاز ، وربما جمد الماء في ذروته في الشتاء ، وليس بالحجاز موضع يجمد فيه الماء سوى هذا الموضع . وبينها وبين مكة وادٍ اسمه نعمان الأراك . وهي كثيرة الشجر والثمر ، وأكثر ثمارها الزبيب والرمان والموز والأعناب ، ولا سيما الصديفي ، وفواكه أخرى عديدة . وهي تموّن مكة بالفواكه والبقول [1] . وتحيط بها الأودية . ومن مواضعها ، (الوهط) ، وهو وادٍ ، أو مكان مطمئن من الارض مستوٍ ، تنبت فيه العضاه والسمر والطلح والعرفط ، وقد اتخذ بستاناً ، صار لـ (عمرو ابن العاص) ، ثم لابنه . وقد عرف بكثرة كرمه وأنواع أعنابه [2] .

والى الشرق من الطائف وادٍ يقال له (ليّة) ، ذكر بعض أهل الأخبار ان أعلاه لثقيف وأسفله لـ (بني نصر بن معاوية) من هوازن [3] .

وتأريخ مدينة الطائف تأريخ غامض ، لا نعرف من أمره شيئاً . إذْ لم تمسّ تربتها أيدي علماء الآثار بعد ، كما ان السياح لم يجلوا في الطائف كتابات قديمة بعد . ولكن مكاناً مثل الطائف لا بد ان يكون له تأريخ قديم ، ولا يعقل ان يكون من الأمكنة التي ظهرت ونشأت قبيل الاسلام . وليس لنا من أمل في

١ تقويم البلدان (٩٥) ، صورة الأرض ، لابن حوقل (٣٩) ، البكري ، معجم (٣/٣١ ، ٨٨٦) .
٢ تاج العروس (٥/٢٤٣) ، (وهط) .
٣ صفة (١٢٠) ، ، تاج العروس (١٠/٣٣٤) ، (لوو) .

الحصول على شيء من تأريخ الطائف إلا بقيام العلماء بمناجاة تربتها واستدراجها لتبوح لهم بما تكنّه من كتابات مسجلة في الالواح يتحدث عن تأريخ هذا المكان المهم .

وقد عثر الباحثون فعلاً على كتابات مدوّنة على الصخور المحيطة بمدينة الطائف الحديثة وفي مواضع غير بعيدة عنها . وقد تبين ان بعضاً منها بالنبطية وبعضاً آخر بالثمودية ، وان بعضاً بأبجدية أخرى ، وان بعضاً بأبجدية القرآن الكريم ، أي بقلم اسلامي . ولا يستبعد عثور العلماء في المستقبل على كتابات ستكشف عن تأريخ هذه البقعة ، وعن تأريخ من سكنها قبل الاسلام وقبل ثقيف . وذُكر ان بعض كتابات يشبه شكلها شكل الأبجدية اليونانية ، وكتابات أخرى يشبه خطها الخط الكوفي عثر عليها في (بستان شهار) على مسافة كيلومترين الى الجنوب من الطائف [1] . غير انها لم تدرس حتى الآن . ومكان مهم بالنسبة للطرق التجارية ولموقعه المعتدل الجميل ، لا بد وان يكون قد لفت أنظار سكان العربية الغربية قبل الميلاد فسكنوه ، ولا أستبعد امكانية تدوين تأريخ صحيح لهذه المدينة اذا ما قام المنقبون بالبحث فيها وفي الأماكن القريبه منها لاستنطاقها ، لتتحدث لهم عما عرفته من أخبار تلك الشعوب التي سكنت هذا الموضع قبل ثقيف .

ويزعم أهل الأخبار ان الطائف انما سميت طائفاً ، بحائطها المطيف بها . اما اسمها القديم ، فهو (وَجّ) . ولهم روايات عن كيفية قيام ذلك الحائط . وقد حاول بعض أهل الأخبار اعطاء الطائف مسحة دينية ، فزعموا بأنها من دعوات ابراهيم ، وانها قطعة من أرض ذات شجر كانت حول الكعبة ، ثم انتقلت من مكانها بدعوة ابراهيم ، فطافت حول البيت ، ثم استقرت في مكانها ، فسميت الطائف ، وزعمت ان جبريل اقتطعها من فلسطين ، وسار بها الى مكة فطاف بها حول البيت ، ثم أنزلها حول الطائف [2] . وهكذا أكسبت هذه الروايات الطائف

---

١ Osman R. Rostem, Rock Inscriptions in the Hijaz, P. 11.

٢ البلدان (٣ /٤٩٩ وما بعدها) ، المقدسي البدء والتاريخ (١٠٩/٢) ، الكامل ، لابن الاثير (٤٢٠/١ وما بعدها) ، (والطائف من بلاد ثقيف . قال أبو طالب بن عبد المطلب :

منعنا أرضنا من كل حيٍّ كما امتنعت بطائفها ثقيف

وهي في واد بالغور ، أول قراها : لقيم وآخرها الوهط . سُمّيت لانها طافت على=

قدسية ، وجعلت لها مكانة دينية . وهي روايات يظهر انهـا وضعت بتأثير من سادات ثقيف المتعصبين لمدينتهم ، والذين كانوا يرون ان مدينتهم ليست بأقل شأناً من مكة أو يثرب . وقد كان بها سادات وأشراف كانوا أصحاب مال وثراء .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ان الذي أقام حائط الطائف رجل من الصدف ، يقال له (الدمون بن عبد الملك) ، قتل ابن عمٍّ له يقال له (عمرو) بحضرموت ، ثم فرّ هارباً ، ثم جاء الى (مسعود بن معتب الثَّقَفيّ) ومعه مال كثير ، وكان تاجراً ، فقال : أريد ان أحالفكم على ان تزوجوني وأزوجكم

= الماء في الطوفان ، أو لأن جبريل عليه السلام طاف بها على البيت سبعا . نقله الميورقي عن الأزرقي . أو لأنها كانت قرية بالشام فنقلها الله تعالى الى الحجاز بدعوة ابراهيم عليه السلام اقتلاعا من تخوم الثرى بعيونها وثمارها ومزارعها وذلك لما قال: ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . نقله أبو داود الأزرقي في تاريخ مكة وابو حذيفة اسحاق بن بشر القرشي في كتاب المبتداء وهو قول الزهري . وقال القسطلاني في المواهب : ان جبريل عليه السلام اقتلع الجنة التي كانت لاصحاب الصريم فسار بها الى مكة ، فطاف بها حول البيت ثم أنزلها حيث الطائف ، فسمي الموضع بها . وكانت أولا بنواحي صنعاء . واسم الأرض وج . وهي بلدة كبيرة على ثلاث مراحل أو اثنتين من مكة من جهة المشرق كثيرة الأعناب والفواكه . وروى الحافظ بن عات في مجالسه أن هذه الجنة كانت بالطائف ، فاقتلعها جبريل وطاف بها البيت سبعا ثم ردها الى مكانها ثم وضعها مكانها اليوم . قال أبو العباس الميورقي : فتكون تلك البقعة من سائر بقع الطائف ، طيف بها بالبيت مرتين في وقتين ، أو لأن رجلا من الصدف ، وهو ابن الدمون بن الصدف . واسم الصدف : مالك بن مرتع بن كندة من حضرموت أصاب دما في قومه بحضرموت ففر الى وج ولحق بثقيف وأقام بها وحالف مسعود بن معتب الثقفي أحد من قيل فيه انه المراد من الآية : على رجل من القريتين عظيم . وكان له مال عظيم . فقال لهم : هل لكم أن ابني لكم طوفا عليكم يطيف ببلدكم يكون لكم ردءا من العرب . فقالوا : نعم فبناه وهو الحائط المطيف المحدق به . وهذا القول نقله السهيلي في الروض عن البكري وأعرض عنه . وذكر ابن الكلبي ما يوافق هذا القول . وقد خصت الطائف بتصانيف . وذكروا هذا الخلاف الذي ساقه المصنف وبسطوا فيه ، أورد بعض ذلك الحافظ ابن فهد الهاشمي في تأريخ له خصه بذكر الطائف) ، تاج العروس (١/١٨٤) ، (طوف) .

وأبني لكم طوفاً عليكم مثل الحائط لا يصل اليكم أحد من العرب ، فوافقوا على ذلك ، وبنى لهم طوفاً عليهم ، فسميت الطائف ، فزوّجوه [1] .

وقد كان لأهل الطائف معبد يحجّون اليه ، هو معبد (اللات) . وكانوا يعظّمونه ويتبركون به . ويذكر أهل الأخبار ان اللات كان صخرة مربعة يلتّ يهودي عندها السّويق . وكان سَدَنته (بنو عتاب بن مالك) وهم من ثقيف . وقد بنوا له بناءً ضخماً . وكانت العرب ، ومنها قريش ، تعظمه ، وتحجّ اليه وتطوف به . وقد هُدم في الإسلام ، عند فتح الطائف ودخول أهلها فيه . وقد هدم الصنم : المغيرةُ بن شعبة ، وأحرقه بالنار . ويقع موضعه تحت منارة المسجد ، الذي بني على أنقاض ذلك المعبد ، وهو مسجد المدينة . فمسجد الطائف إذنْ هو معبد اللات القديم ، وهو في الطائف نفسها [2] .

ويُرجع أهل الأخبار زمان الطائف الى العمالقة ، ويقولون : انها انما سميت (وَجّاً) بوجّ بن عبد الحيّ ، من العماليق ، وهو أخو (أجأ) الذي سُمي به جبل (طيّ) . ثم غلب عليها (بنو عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان ابن مُضَر) ، ثم غلبهم (بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر هَوازن) ، وذلك بعد قتال شديد . ثم استغلّت ثقيف الظروف ، فاست عليها ، وأخذتها من (بني عامر) ، فارتحل (بنو عامر) عنها ، ونز الى تهامة ، وتحكم بها بنو ثقيف [3] .

١ البلدان (٦/١٠ فما بعدها) ،
٢ ابن الكلبي ، الأصنام (١٦ وما بعدها) ، القزويني ، آثار البلاد ، (٦٤ وما بعد
٣ الكامل ، لابن الأثير (١/٤٢٠ وما بعدها) ، ابن قتيبة ، المعارف (٩١) ، (
اسم واد بالطائف بالبادية (؟) سمي بوج بن عبد الحي من العمالقة وقيل من خز
قال عمرو بن حزام :

احقا يا حمامة بطن وج ... بهذا النوح انك تصدقينا
غلبتك بالبكاه لأن كيلي ... أواصله وأنك تهجعينا
وإني ان بكيت بكيت حقا ... ولكني أسرّ وتعلنينا
فنوحي يا حمامة بطن وج ... فقد هيجت مشتاقا حزينا

قرات هذه الأبيات في الحماسة لأبي تمام · والذي ذكرت هنا رواية المعجم ، وبينه تفاوت قليل) ، تاج العروس (٢/١١٠) ، (الوج) ، (ووج موضع بالبادية وقيل : هي الطائف) ، (وفي الحديث صيد وج وعضاهه حرام محرم ؛ قال : هو=

ويذكر بعض أهل الأخبار ان أول من ملك الطائف (عدوان بن عمرو بن قيس ابن عيْلان بن مضر) . فلما كثر (بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر ابن هوازن) ، غلبوهم على الطائف بعد قتال شديد[1] . وقد كانت مواطن (بني عامر) بنجد . وكانوا يصيفون بالطائف ، حتّى غلبتهم ثقيف . فخرجوا الى تهامة . وكان منهم (عامر بن الظرب العدواني) أحد الحكماء العرب[2] .

وقد ورد في بعض الأخبار ان قوم ثمود هم الذين نزلوا بالطائف بعد العماليق ، فأخذوها منهم ، وذلك قبل ارتحالهم عنها الى وادي القُرى ، بسبب منازعة القبائل لهم ، ومن ثم ربط رواة هذه الأخبار نسب ثقيف بثمود . وقد صيّر بعض أهل الأخبار ثقيفاً مولى من موالي هوازن ، ونسبهم آخرون الى إياد[3] .

وجاء في رواية أخرى ان أقدم سكان الطائف هم بنو مهلائيل بن قينان ، وهم الذين عمروها وغرسوها وأحيوا مواتها . وقد سكنوها قبل الطوفان . فلما وقع الطوفان ، كانوا في جملة من هلك فيه من الأمم الباغية . فخلت الطائف منهم ، وسكنها بعدهم بنو هانىء بن هذلول بن هوذلة بن ثمود ، فأعادوا بناءها وعمروها حتّى جاءهم قوم من الأزد على عهد (عمرو بن عامر) ، فأخرجوهم عنها ، وأقاموا بها وأخذوا أماكنهم ، ثم توالى عليها العرب حتّى صارت في أيدي ثقيف[4] .

وصيّر بعض أهل الأخبار ثقيفاً رجلاً منتشرداً ، اتفق مع ابن خاله النَّخَع على الهجرة في طلب الرزق والعيش ، فذهب النَّخَع الى اليمن ، فنزل بها ، وذهب (ثقيف) الى وادي القُرى ، فنزل على عجوز يهودية لا ولد لها ، واتخذها ثقيف أماً له . فلما حضرها الموت ، أوصت له بما كان عندها من دنانير وقضبان ، ثم دفنها وذهب نحو الطائف . فلما كان على مقربة منها ، وجد أمة

= موضع بناحية الطائف ويحتمل ان يكون حرمه في وقت معلوم ثم نسخ . وفي حديث كعب : ان وجا مقدس ، منه عرج الرب الى السماء) ، اللسان (٢/٣٩٧) ، (وجج) .

١ الكامل ، لابن الأثير (١/ ٤٢٠ وما بعدها) .

٢ ابن خلدون (٥/٦٣) .

٣ ابن خلدون (٢/٦٤١ وما بعدها) .

٤ الهمداني ، صفة (١/٣١٢ وما بعدها) ، البلدان (٣/٤٩٨ وما بعدها) ، اللسان (٩/٢٢٥) ، صورة الأرض (٣٩) .

حبشية ترعى غنماً ، فأراد قتلها ليستولي على ماشيتها ، فارتابت منه ، وأخبرته بأن يصعد الى الجبل . فيستجير بـ (عامر بن الظَّرِب العَدْواني) فإنه سيجيره ويغنيه ، ويربح أكثر من ربحه من استيلائه على هذه الغنم . فذهب اليه ، وأجاره ، وأغناه ، وأنزله عنده ، وزوّجه ابنة له ، وبقي مقيماً في الطائف ، وتكاثر ولده ، حتى زاحموا بني عامر ، وتلاحيا ثم اقتتلا ، فتغلبت ثقيف على بني عامر ، واستولت على الطائف[1] .

ويذكر هؤلاء الرواة ان ثقيفاً اتفقوا مع (بني عامر) على ان يأخلوا الطائف لهم ويرحل بنو عامر عنها ، فيدفعوا لهم نصف ما يحصلون عليه من غلات . وقد بقوا على ذلك أمداً ، حتى ثبّتت ثقيف نفسها في الطائف وقوّت دفاعها وأحكمت مواضعها ، ثم امتنعت عن دفع أي شيء كان لبني عامر ، فوقع قتال بين الطرفين انتهى بانتصار ثقيف . وصارت بذلك سيدة الطائف بلا نزاع .

وقد حسدهم طوائف من العرب ، وقصدوهم لما صار لهم من مركز ومن رزق رغد وأثمار وجنان ، ولكنهم لم يتمكنوا من الظفر بطائل ، وتركوهم على حالهم[2] .

وذكر بعض أهل الأخبار ان (عبد ضخم) كانوا فيمن سكن الطائف . وقد كانوا من عاد الأولى ، وهلكوا فيمن هلك من عاد ومن أقوام بائدة .

وذكر انه كان بالطائف قوم من يهود ، طُردوا من اليمن ومن يثرب ، فجاؤوا الى الطائف ، وسكنوا فيها ، ودفعوا الجزية لساداتها ، ومن بعضهم ابتاع (معاوية) أمواله بالطائف[3] .

وقد كان لوقوع الطائف على مرتفع ، ولحائطها المزود بأبراج واستحكامات

---

١ البلدان (٣/٤٩٨ وما بعدها) ، (وثقيف كأمير ، أو قبيلة من هوزان ، واسمه قسي بن منبه بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان . وقد يكون ثقيف اسما للقبيلة والأول أكثر . قال سيبويه : وأما قولهم هذه ثقيف فعلى ارادة الجماعة . وانما قال ذلك لغلبة التذكير عليه . وهو مما لا يقال فيه من بني فلان) ، تاج العروس (٦/٥١ ، (ثقف) .

٢ البلدان (٣/٤٩٨ وما بعدها) .

٣ البلاذري ، فتوح (٦٨) .

الفضل بالطبع في صدّ الاعراب ومنعهم من نهبها وغزوها . والظاهر ان اهل الطائف كانوا قد اقتفوا اثر اليمن في الدفاع عن مدنهم وقراهم ، حيث كانوا يبنونها على المرتفعات في الغالب ، ثم يحيطون ما يبنونه بأسوار ذات ابراج لمنع العدوّ من الدنوّ منها ، ولا سيا الاعراب الذين لم يكونوا بحكم طبيعة معيشتهم في ارض منبسطة مكشوفة ، ولفقرهم وعدم وجود اسلحة حسنة لديهم يستطيعون مهاجمة مثل هـذه التحصينات ، وأخذها على غرّة حيث تقفل ابواب الأسوار وتغلق ليلاً ، وفي اوقات الخطر – فلا يكون في استطاعة احد ولوجها ، لذلك صارت هذه التحصينات من اثقل الاعداء على قلوب الاعراب .

ولما همّ (أبرهة) بالسير الى مكة ، كانت الطائف في جملة المواضع التي نزل بها في طريقـه اليها . وقد خرج اليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف ، فأتوه بالطاعة ، وبعثوا معه (أبا رغال) دليلاً ، فانزله المغمّس بين الطائف ومكة ، فهلك (ابو رغال) هناك وقبره في ذلك الموضع .

وعند ظهور الاسلام كان أغلب سكان هذا الموضع ينتسبون الى قبيلة ثقيف . وترجع هذه القبيلة نسبها مثل القبائل الاخرى الى جدّ أعلى ، يقولون ان اسمـه (قسيّ بن منبه) ، ويقول الأخباريون انما دعي قسيّاً لأنه قتل رجلاً ، فقيل قسا عليه ، وكان غليظاً قاسياً .[1]

والنسابون يختلفون في نسبه ، فمنهم من ينسبه الى إياد ، فيجعله قسيّ بن نبت ابن منبه بن منصور بن مقدم بن أفصى بن دُعميّ بن إياد بن معدّ ، ومنهم من يجعله من هوازن ، فيقول : قسيّ بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان .[2]

ونحن اذا درسنا ما رواه اهل الاخبار عن نسب ثقيف ، وعن القبائل التي اتصلت بها ، نجد انها كانت ذات صلة وثيقة بقبائل (قيس عيلان) من مجموعة مضَر . ومعنى هذا انها كانت على مقربة منها ، وانها كانت من قبائل مضر . كما نجد في الوقت نفسه انها كانت على صلات وثيقة مع بعض قبائل اليمن . وقد

---

١ الاشتقاق (١٨٣) .

٢ ابن الأثير ، الكامل (١/٢٨٨) ، الأغانى (٤/٧٤) ، البلاذري ، انساب الاشراف (٢٥ وما بعدها) ، Ency., IV, P. 734.

فسرت هذه الصلات بوجود نسب لثقيف باليمن . وهذا النسب المزدوج ، هو كناية عن الصلات التي كانت تربط بين (ثقيف) ومجموعة (مضر) ، وبينها وبين قبائل اليمن . وهو تعبير عن موضع الطائف المهم الوسط ، الذي يربط بين اليمن والحجاز والطرق المارة الى نجد . مما جعله وسطاً وموضعاً للاحتكاك بين قبائل هذه الأرضين .

وصيروا ثقيفاً في رواية اخرى ابناً لأبي رغـــال ، ثم رفعوا نسب الابن والأب الى قوم ثمود ، وجعله حمّاد الرواية ملكاً ظالماً على الطائف ، لا يرحم احداً ، مرّ في سنة مجدبة بامرأة ترضع صبيّاً يتيماً بلبن عنز لها ، فأخذهـا منها فبقي الصبي بلا مرضعة ، فمات ، فرماه الله بقارعة فأهلكه ، فرجمت العرب قبره ، وصار رجم قبره سُنة للناس.[1] فهل تجد رجلاً ألأم من هذا الرجل على هذا الوصف ؟ .

وقد قيل في (ابي رغال) انه كان رجلاً عشّاراً في الزمن الأول ، جائراً ، وقيل كان عبـــداً لشعيب ، وقيل : اسمه (زيد بن مخلف) عبدٌ كان لصالح النبيّ ، وأنه ارسله الى قوم ليس لهم لبن الا شاة واحدة ، ولهم صبي قد ماتت أمه يغذونه بلبن تلك الشاة ، فأبى ان يأخذ غيرها ، فقالوا : دعها نحايي بها هذا الصبي ، فأبى ، (فيقال : انه نزلت به قارعة من السماء ، ويقال : بل قتله رب الشاة . فلما فقده صالح ، قام في الموسم ينشد الناس ، فأخبر بصنيعه ، فلعنه ، فقبره بين مكة والطائف يرجمه الناس) .[2]

١ الاغانـي (٧٤/٤) .

٢ (عن أنس . قال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين خرجنا معه الى الطائف فمررنا بقبر ، فقال : هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثقيف . وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التي اصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه . الحديث . وأورده القسطلاني هكذا في المواهب في وفادة ثقيف . وبسطه الشرّاح . وقول الجوهري والصاغاني كذلك انه كان دليلا للحبشة حين توجهوا الى مكة حرسها الله تعالى ، فمات في الطريق بالمغمس . قال جرير :

اذا مات الفـــرزدق فارجمـــوه كما ترمون قبـــر ابي رغـــال

غير جيد . وكذا قول ابن سيده كان عبدا لشعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام . وكان عشّارا جائرا فقبره بين مكة والطائف يرجم اليوم . وقال ابن المكرم : ورايت في هامش الصحاح ما صورته: أبورغال اسمه زيد بن مخلف عبد كان لصالح النبي.

وفي رأيي ان معظم هذه الروايات التي يرويها الاخباريون عن ثقيف انما وضعت في الاسلام ، بغضاً للحَجاج الذي عرف بقسوته وبشدته ، فصيروا ثقيفاً عبداً لأبي رغال ، وجعلوا اصله من قوم نجوا من ثمود . وأبو رغال نفسه جاسوس خائن في نظر الاخباريين ، حاول إرشاد أبرهة الى مكة ، فكيف يكون اذن حال رجل من قوم فَسَقَة كَفَرَة ، ثم صار عبداً لجاسوس لئيم ! وقد رأيت ان من اهل الاخبار من صيّر (ثقيفاً) رجلاً مهاجراً ، هاجر في البلاد يلتمس العيش حتى جاء وادي القُرَى ، فتبنّته عجوز يهودية ، وعطفت عليه ، حتى اذا ما ماتت اخذ مالها ، وهاجر الى الطائف ، وكان لئيماً فطمع في غنم لأَمَة حبشية ، وكاد يقتلها لولا اشارتها عليه باللجوء الى (عامر بن الظَّرِب) ، الجواد الكريم وصاحب الطائف ، فأعطاه وحباه ، ولكن أبى لؤم ثقيف الا ان ينتقل الى ولده ، فتنكروا لبني عامر وأخرجوهم عن الطائف ، واستبدوا وحدهم بها .

وبنو ثقيف حزبان : الأحلاف ومنهم : (غيلان بن سلمة) و (كنانة بن عبد ياليل) و (الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب) ، و (ربيعة بن عبد ياليل) و (شرحبيل بن غيلان بن سلمة) و (عثمان بن أبي العاص) و (أوس بن عوف) و (نُمير بن خرشة بن ربيعة) ، وقد ذهب هؤلاء الى الرسول وأسلموا ، فاستعمل عليهم (عثمان بن ابي العاص) . وأما القسم الثاني ، فعرف بـ (بني مالك) ، وقد ذهب نفر منهم مع هذا الوفد الى الرسول ، فضرب لهم قبة في المسجد . واما الاحلاف ، فنزلوا ضيوفاً على (المغيرة بن شعبة) وهو من ثقيف .[1]

= عليه السلام بعثه مصدقا ، انه أتى قوما ليس لهم لبن الا شاة واحدة ولهم صبي قد ماتت أمه ، فهم يعاجونه بلبن تلك الشاة ، يعني يغذونه ، فابى ان يأخذ غيرها . فقالوا : دعها نحايي هذا الصبي ، فابى . فيقال انه نزلت به قارعة من السماء . ويقال : بل قتله رب الشاة ، فلما فقده صالح عليه السلام ، قام في الموسم ينشد الناس ، فاخبر بصنيعه ، فلعنه ، فقبره بين مكة والطائف يرجمه الناس) ، تاج العروس (٣٤٨/٧) ، (رغل) ، (والمغمس كمعظم ومحدث ، الأول هو المشهور عن اهل مكة والثاني نقله الصاغاني ، وقال لغة فيه بطريق الطائف بالقرب من مكة . فيه قبر ابي رغال دليل أبرهة الحبشي الى مكة ويرجم الى الآن . قال أمية بن أبي الصلت :

حبس الفيل بالمغمس حتى ظــل فيه كأنه معقــور) ، تاج العروس (٢٠٣/٤) ، (غمس) .

١ ابن سعد ، طبقات (١ / ٣١٢ وما بعدها) .

ومن الاحلاف في الاسلام : المختار بن أبي عبيد ، والحجاج بن يوسف .

ومن زعماء الاحلاف عند ظهور الاسلام : اميّة بن ابي الصلت ، والحارث ابن كلدة ، ومعتب ، وعتاب ، وأبو عتبة ، وعتبان .[1]

ويذكر اهل الاخبار ان حرباً وقعت بين (مالك) والاحلاف ، فخرجت الاحلاف تطلب الحلف من اهل يثرب على (بني مالك) ، وعلى رأسها (مسعود ابن معتب) رأس الاحـــلاف . فقدم على (احيحة بن الحلاّج) ، احد بني عمرو بن عوف من (الأوس) . فطلب منه الحلف . فأشار عليه (احيحة) ، ان عليه ان يعود الى الطائف ويصالح اخوانه ، فان احداً لن يبر له اذا حالفهم . فانصرف (مسعود) عن (عتبة) بعد ان زوّده بسلاح وزاد وأعطاه غلاماً يبني الاسوار . فلما وصل ، أمر الغلام ببناء سور حول الطائف . فبناه له ، وأحيطت الطائف بسور قوي حصين ، وأمنت بذلك على نفسها من غارات الاعراب .[2]

ويختلف اهل الطائف عن اهل مكة ، وعن الاعراب من حيثُ ميلُهم الى الزراعة واشتغالهم بها وعنايتهم بغرس الاشجار . وقد عرفت الطائف بكثرة زبيبها وأعنابها واشتهرت بأثمارها . وقد كان اهلها يُعنون بزراعة الأشجار المثمرة ، ويسعون الى تحسين انواعها وجلب انواع جديدة لها ، فقد استوردوا اشجاراً من بلاد الشام ومن أماكن أخرى وغرسوها ، حتى صارت الطائف تموّن مكة وغيرهـــا بالأثمار والخضر .

وثقيف حضر مستقرون متقدمون بالقياس الى بقية اهل الحجاز . فاقوا غيرهم في الزراعة اذ عنوا بها كما ذكرت ، واستفادوا من الماء فائدة كبيرة ، وأحاطوا المدينة ببساتين مثمرة ، كما فاقوا في البناء فبيوتهم جيدة منظمة ، وكان لهم حذق ومهارة في الأمور العسكرية . وقد تجلى ذلك في دفاعهم عن مدينتهم يوم حاصرها الرسول وتحصنهم بسورهم ، ورميهم المسلمين بالسهام وبالنار من فوق سورهم ، يوم لم يكن لمكة ولا للمدينة سور ولا خنادق .

كذلك اختلف اهل الطائف عن غيرهم من أهل الحجاز في ميلهم الى الحرف

١ المعارف (٩١) .
٢ ابن الأثير ، الكامل (١/ ٤٢٠ وما بعدها) .

اليدوية مثل الدباغة والنجارة والحدادة ، وهي حرف مستهجنة في نظر العربي ، يأنف من الاشتغال بها . ولكن أهل الطائف احترفوها ، وربحوا منها ، وشغّلوا رقيقهم بها . وقد استفادوا من خبرة الرقيق ، فتعلموا منهم ما لم يكن معروفاً عندهم من اساليب الزراعة وأعمال الحرف ، فجددوا وأضافوا الى خبرتهم خبرة جديدة .

وقد عاش أهل الطائف في مستوى هو أرفع من مستوى عامة أهل الحجاز ، فقد رزقوا فواكه أكلوا منها ، وجففوا بعضا منها مثل (الزبيب) ، وأكلوا وصدروا منه ما زاد عن حاجتهم ، كما اقتاتوا بالحبوب واللحوم . حتى حظ فقراء الطائف ، هو أرفع وأحسن درجة من حظ فقراء المواضع الأخرى من الحجاز .

وقد ذهب المفسرون الى أن كلمة القريتين الواردة في القرآن الكريم ، تعني مكة والطائف . (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .[1]

وكان رؤساؤها من المثرين الكبار ، لهم حصون يدافعون بها عن انفسهم وعن أموالهم ، ولهم علم بالحرب . ولحماية مدينتهم أقاموا حصوناً على مسافات منها ، وحوّطوا مدينتهم بسور حصين عال ، يردّ من يحاول دخولها ، وجمعوا عندهم كل وسائل المقاومة الممكنة التي كانت معروفة في ذلك العهد ، مثل أوتاد الحديد التي تحمى بالنار لتلقى على الجنود المختفين بالدبابات ، وغير ذلك من وسائل المقاومة والدفاع ، كما كانوا قد تعلّموا من أهل اليمن مثل مدينة « جرش » صناعة العرادات والمنجنيق والدبابات .[2]

وكان أغنياء (الطائف) ، كأغنياء مكة وأغنياء المواضع الاخرى من جزيرة العرب أصحاب ربا ، ولما اسلموا اشترط عليهم الرسول أن لا يرابوا ، ولا يشربوا الخمر . وكتب لهم كتاباً .[3] وكانت لهم تجارة مع اليمن ، ولكننا لا نسمع

١ الزخرف ، الآية ٣١ ، الطبرسي ، مجمع (٤٦/٥) ، تفسير الطبري (٣٩/٢٥) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٣١٢/١) (بيروت ١٩٥٧ م) ، السيرة الحلبية (١٣١/٣ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، فتوح (٦٧) .

شيئاً عن قوافل كبيرة كقوافل أهل مكة ، كانت تتاجر مع بلاد الشام أو العراق. ولعلهم كانوا يساهمون مع تجار مكة في اتجارهم مع تلك الديار.

وقد اشتهرت الطائف بدباغة الجلود ، وذكر أن مدابغها كانت كثيرة ، وأن مياهها كانت تنساب الى الوادي ، فتنبعث منها روائح كريهة مؤذية. [1] واشتهرت بفواكهها وبعسلها . [2]

وقد استغل أثرياء قريش أموالهم في الطائف ، فاشتروا فيها الأرضين وغرسوها واستثمروها ، واشتروا بعض المياه ، وبنوا لهم منازل في الطائف ليتخذوها مساكن لهم في الصيف ، وأسهموا مع رؤساء ثقيف في أعمال تجارية رابحة ، وربطوا حبالهم بحبالهم ، وحاولوا جهد امكانهم ربط الطائف بمكة في كل شيء . [3]

ولما فتحت مكة ، وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها ، حتى اذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المكيين ، وصارت أرض الطائف مخلافاً من مخاليف مكة . [4]

وقد كان بين أهل مكة وأهل الطائف تنافس وتحاسد ، وقد حاول أهل الطائف جلب القوافل اليهم ، وجعل مدينتهم مركزاً للتجار يستريحون فيه ، وقد نجحوا في مشروعهم هذا بعض النجاح يوم استولى الفرس على اليمن ، وتمكنوا فيه من طرد الحبش عن العربية الجنوبية ، فصارت قوافل (كسرى) التجارية و (لطائم) ملوك الحيرة تذهب الى اليمن وتعود منها من طريق الطائف ، ونغصت بذلك عيش أهل مكة ، غير أن أهل مكة تمكنوا من التغلغل الى الطائف ومن بسط سلطانهم عليها ، باقراض سادتها الأموال ، وبشراء الأرضين. فبسطوا بذلك سلطانهم عليها ، وأقاموا بها أعمالاً اقتصادية خاصة ومشتركة ، وهكذا استغل أذكياء مكة هذا الموضع المهم ، وحولوه الى مكان صار في حكم التابع لسادات قريش .

ومن سادات الطائف : (عبد ياليل) وإخوته (حبيبا) و (مسعودا) و (ربيعة) و (كنانة) وهم (بنو عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن

١ البلدان (٦/١٠ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (٦٨ وما بعدها) .
٣ البلاذري ، فتوح (٦٨) .
٤ البلاذري ، فتوح (٦٨) .

غيرة الثقفي) ، وكانوا أثرياء أجواداً يطعمون بالرياح [1] . وأمهم (قلابة بنت الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج) الثقفي [2] . وبيت (بني علاج) من البيوت القديمة المعروفة بالطائف [3] .

وقد لقي الرسول مقاومة عنيفة من أهل الطائف حين حاصرها وأحاط بها ، فقد تحصن أهلها بحائطهم وبحصونهم ، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم ، وصنعوا الصنائع للقتال . اما من كان حول الطائف من الناس ، فقد أسلموا كلهم . ولما ضيق المسلمون الحصار عليها ، وقربوا من الحائط ، دخل نفر من أصحاب رسول الله تحت دبّابة ، ثم زحفوا بها الى جدار الطائف فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، وقتلوا رجالاً ، فأمر رسول الله بقطع أعناب ثقيف ، كي يحملهم على فتح أبواب مدينتهم ومهادنة الرسول ، للإبقاء على أموالهم ، غير انهم لم يبالوا بما رأوا من قطع أعنابهم وتخريب بساتينهم ، وبقوا على عنادهم ، مما حمل الرسول على ترك حصارهم والرحيل عنهم انتظاراً لفرصة أخرى [4] .

ويذكر أهل الأخبار ، ان (سلمان الفارسي) ، اتخذ منجنيقاً نصبه المسلمون على الطائف ، وان المسلمين كانت لهم دبّابة ، جاء بها (خالد بن سعيد بن العاص) من (جرش) [5] .

ويذكر الطبري ان عروة بن مسعود ، وهو من وجوه الطائف ، كان قد تعلم مع غيلان بن سلمة صنعة الدبابات والضّبور والمجانيق من أهل جرش [6] . وقد اشتهرت هذه المدينة بصنع آلات الحرب .

ولما انصرف الرسول عن الطائف ، اتبع أثره (عروة بن مسعود بن معتب) حتى أدركه قبل ان يصل الى المدينة ، فأسلم . فلما رجع الى الطائف على أمل

---

١ المحبر (٤٦٠) .
٢ المحبر (٤٦٠) .
٣ الإشتقاق (١٨٥) .
٤ الطبري (٣/٨٢ وما بعدها) (غزوة الطائف) .
٥ البلاذري ، أنساب (١/٣٦٦) .
٦ الطبري (٣/٨٢) .

اقناع أهلها بالدخول في الإسلام ، لمكانته فيهم ، رموه بالنبل من كل وجـه ، فأصابه سهم فقتله . ثم أقامت ثقيف بعد مقتل عروة أشهراً ، ثم انهم ائتمروا بينهم ألا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، فأرسلوا وفداً الى المدينـة لمفاوضة الرسول على الدخول في الإسلام . فلما دخلوا عليـه أبوا ان يحيّوه إلا بتحية الجاهلية ، ثم سألوه ان يدع لهم (الطاغية) ، وهي اللات لا يهدمها الى أجل ، لأنهم أرادوا بذلك (فيما يظهرون ان يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ، ويكرهون ان يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام . فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك إلا ان يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها . وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية ان يعفيهم من الصلاة ، وان يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه . وأما الصلاة ، فلا خير في دين لا صلاة فيه . فقالوا : يا محمد ، أمـا هذه فسنؤتيكها وإن كانت دناءة) [1] .

فلما وصل الوفـد ومعه أبو سفيان والمغيرة بن شعبة ، الى الطائف ، وأرادا هدم الصنم ، (أراد المغيرة ان يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بماله بذي الهرم [2] ، فلما دخل المغيرة بن شعبة ، علاها يضربها بالمعول ، وقام قوم دونه — بنو مُعتب — خشية ان يرمى أو يصاب ... وخرجن نساء ثقيف حسّراً يبكين) (ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس : واهاً لك . فلما هدمها المغيرة ، أخذ مالها وحُليّها ، وأرسل الى أبي سفيان وحليّهـا مجموع ، ومالها من الذهب والجزع ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبا سفيان ان يقضي من مال اللات دين عروة والأسود ابني مسعود ، فقضى منه دينهما) [3] .

وذكر عن (عروة بن مسعود الثقفي) انه كان من الرجـال الذين كانوا عندهم عشر نسوة عند مجيء الاسلام [4] ، وانه نادى على سطحه بالطائف بالأذان

١ الطبري (٣/٩٩ وما بعدها) .
٢ (الهدم) .
٣ الطبري (٣/٩٩ وما بعدها) .
٤ المحبر (ص ٣٥٧) .

أو التوحيد ، فرماه رجل من أهل الطائف فقتله ، وان الرسول قال فيه : (مثله مثل صاحب ياسين)[1] . (ويقال إنه الذي ذكره الله عز وجل في التنزيل من القريتين عظيم . وذكر بعض أهل العلم ان أربعة اتصل سؤددهم في الجاهلية والإسلام : عروة بن مسعود ، والجارود واسمه : بشر بن المعلى ، وجرير بن عبد الله ، وسراقة بن جعشم المُدْلِجي)[2] .

وثقيف أقرب في الواقع الى اليمن منهم الى أهل الحجاز . وتكاد تكون ثقافتهم ثقافة يمانية ، وحياتهم الاجتماعية حياة اجتماعية من النوع المألوف في اليمن . حتى في الوثنية نجد لهم معبداً خاصاً بهم ، يتقربون اليه ويحجون له . ولعلّ هذه الاختلافات وغيرها هي من جملة العوامل التي صيّرت ثقيفاً مجتمعاً خاصاً معارضاً لمجتمع مكة ، وجعلت أهل الطائف يكرهون أهل مكة الذين امتلكوا أملاكاً في الطائف ، وكانوا يأتون اليها في الصيف هرباً من جوّ مكة المحرق .

ومن بطون ثقيف ، (بنو الحطيط) و (بنو غاضرة) . ومن (بني الحطيط (مالك بن حطيط) ، وكان من ساداتهم في الجاهلية ، ومن ثقيف الشاعر أمية بن أبي الصلت . (وكان بعض العلماء يقول لولا النبي صلى الله عليه وسلم ، لادعت ثقيف ان أمية نبيّ ، لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم ودارس اليهود وكل الكتب قرأ . ولم يسلم ورثى قتلى بدر[3] . ومن رجالهم (أبو محجن) ، كان شاعراً فارساً شجاعاً شهد يوم القادسية ، وكان له فيها بلاء عظيم ، وقد شهد يومئذ (عمرو بن معد يكرب) وغيره من فرسان العرب ، فلم يبل أحد بلاءه . و (الأخنس بن شريق) ، وتزعم ثقيف انه أحد الرجلين اللذين ورد ذكرهما في القرآن ، على رجل من القريتين عظيم : (الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة . وقد كان حليفاً لبني زهرة . وقد خنس ببني زهرة يوم بدر[4] .

ومن ثقيف (بنو علاج) ، ومنهم (الحارث بن كلدة) . (كان طبيب

١ المحبر (ص ١٠٦) .
٢ الاشتقاق (١٨٦) .
٣ الاشتقاق (١٨٤) .
٤ الاشتقاق (١٨٥) .

العرب في زمانه وأسلم ومات في خلافة عمر)[1] . والمغيرة بن شعبة[2] .

ومن بني ثقيف عثمان والحكَم ابنا أبي العاص بن بشر بن دهمان الثقفي ، كانا شريفين عظيمي القدر ، ولى (عمر) عثمان عمانَ والبحرين وأقطعه الموضع المعروف بالبصرة بـ (شط عثمان) . ومنهم (تميم بن خَرَشة بن ربيعة) ، أحد وفد ثقيف الى رسول الله ، ومن فرسانهم في الجاهلية : (أوس بن حذيفة) وأدرك الإسلام ، و (ضبيس بن أبي عمرو) ، و (همام بن الأعقل) وآخرون[3] .

---

١ الاشتقاق (ص ١٨٥ وما بعدها) .
٢ الاشتقاق (١٨٦) .
٣ الاشتقاق (١٨٤) .

الفصل الرابع والأربعون

مجمل الحالة السياسية في جزيرة العرب عند ظهور الاسلام

استعرضنا في الفصول المتقدمة من هذا الكتاب حالة العرب السياسية قبل الاسلام على قدر ما أدّى اليه بحثنا ، وساعفتنا عليه الموارد . أما في هـــذا الفصل وهو خاتمة فصول القسم السياسي ، فنستعرض حالة العرب السياسية في القرن السادس للميلاد بوجه عام .

والقرن السادس للميلاد ، فترة من الفترات المهمة في تأريخ البشرية ، فيه ظهرت أمارات الشيخوخة على الانبراطورية الساسانية التي شيدها (أردشير الأول) على أثر الثورة التي انـــدلعت عام (٢٢٤ م) أو (٢٢٦ م) ، ثم لم تلبث ان انهارت في القرن السابع للميلاد بسرعة عجيبة ، وبأيد لم يحسب لوجودها حساب ، ومن مكان لم يكن له قبل ظهور الاسلام أثر ما فعال في السياسة العالمية . وفي هذا القرن أيضاً برزت الأمراض العديدة التي ألمت بالقيصريـــة ، والأملاك التي كانت خاضعة لها ، وهي أمراض لم تنج منها إلا ببتر بعض أطرافهـــا في القرن التالي له . فخرجت من ردهة العمليات تئن من فاجعة الألم الذي حل بها ، ومن هول ما أصيبت به بذلك البتر .

وفي النصف الثاني من هذا القرن وُلدَ الرسول ، وبميلاد الرسول ظهر حدث تأريخي خطير للبشرية في النصف الأول من القرن السابع للميلاد ، يكفي ان أثره

قائم حتى الآن ، وانه سيقوم الى ما شاء الله ، وانه أوجد مفاهيم خلقية جديدة للبشرية ، وانه بشر برسالة قائمة على ان الدين لله ، وان الناس أمامه سواء ، لا فرق بين فرد وآخر وجنس وجنس ، ولا تمييز للون على آخر ، ثم لم يلبث ان انتشر بسرعــة عجيبة لم ينتشر بمثلها دين من الأديان ، فقضى على إحــدى الانبراطوريتين العظيمتين في عــالم ذلك العهد ، واستأصل الأعضاء الثمينة مــن الانبراطوريــة الأخرى ، وأوجد من أشتات سكان جزيرة العرب أمــة ، ومن قبائلها المتنازعة حكومة ذات سلطان ، وفاض على سداد الجزيرة ، وسقى ما وراءها من أرضين ، ثم وحد بين أقوام عديدين وجمعهم في صعيد دين الله .

وقــد ابتلي هذا القرن والنصف الأول من القرن التالي له بأوبئــة وبآفات وبمجاعات زادت في مشكلاته الكثيرة التي ورثها من القرون السابقة له ، ففيــه انتشرت أوبئة ابتلعت بضع مئات من البشر في كل يوم من أيام انتشارها ، كانت كالعواصف تنتقل من مكان الى مكان مكتسحة من تجده أمامهــا من مساكين ، وتعود بين الحين والحين لتبتلع ما يسدّ حاجتها من البشر والحيوانات . وفيه مُني العالم بزلازل وبنقص كبير في الغلات أوجد قحطاً ومجاعــة وفقراً في كثير من الأقطار ، حتى اضطر كثير من الناس الى هجر الأماكن المنكوبة والارتحال عنها الى أماكن أخرى فيها النجاة والسلامة .

ولا ريب ان ظروفاً هذه حالتها ، لا بد ان تتولد منها مشكلات اجتماعيــة وسياسية واقتصادية للحكومات وللرعية ، فاختل الأمن خاصة في المناطق الواقعــة تحت أقدام الجيوش ، فيوماً تكتسحها جيوش الفرس فتهدم كل ما تجده أمامها من قرى ومدن ، ويوماً تغزوها جيوش الروم فتستولي على ما تجده أمامهــا من حاصلات زراعية ومن أموال . وفي ظروف هذه شأنها لا بد ان يجد الخارجون على النظام والطامعون في الربح السهل الحرام فرصاً مواتية لا يفرّط فيها للكسب والظفر بما يرغبون فيه ، فتأثرت بذلك حالة سكان هذه الأرضين ، كما تعرضت التجارة للأخطار ، واضطر التجار الى سلوك طرق نائيــة ليكونوا بمأمن من شر قطاع الطرق وفسادهم . وترك أكثر الناس مزارعهم وقراهم فراراً من هذا الوضع الى المدن الكبيره البعيدة عن مواطن الغزو والأخطار ، فتحولت خيرة الأرضين الخصبة الى أرضين مجدبة ، نتيجة لهــذه الهجرة ، ولتراكم الأتربــة في شبكات

الري . ولكن هذا القرن لم يعدم مع ذلك ُحكّاماً حاولوا جهد امكانهم إصلاح الخطأ ، وأناساً كان لهم حسّ وشعور بما وصلت اليه الحالة ، فنادوا بالإصلاح . ولكن صيحاتهم لم تكن ذات أثر خطير في قوم قلقين حائرين ، وليس في أيديهم زمام أمورهم ، وقد اعتراهم ذهول جعلهم لا يعرفون كيف يتصرفون . ثم ان الحمل كان ثقيلاً ، والأخطاء كثيرة ، والأمراض عديدة لا يقومها طبيب واحد أو أطباء معدودون .

لقد عزم (كسرى) الأول (٥٣١ – ٥٧٩ م) المعروف بـ (كسرى أنو شروان) ، على إصلاح الحال في مملكته ، فأمر بوضع دستور جديد للجباية يخفف عن كاهل الدافعين بعض الثقل ، وأمر باصلاح الأرض وتوزيعها على شعبه بالعدل وبالإنصاف بين الناس حتى عرف للملك بالعادل ، واستعان بمستشارين حكماء كانوا يعظونه ويرشدونه بطريقة الحكم والأمثال والعظات الى كيفية سياسة الرعية وتدبير أمورها ، كما ولى النواحي الروحية عنايته كذلك ، فأعاد الزردشتية القديمة ، وقاوم الحركة المزدكية التي قام بها (مزدك) في عهد والده (قباذ الأول) (٤٨٣ – ٥٣١ م) (٤٨٨ – ٥٣١ م)[1] ، وهي حركة تدعو الى الغاء الملكية ، والى الإباحية ، والى القضاء على امتيازات النبلاء ورجال الدين على ما تقوله الموارد التأريخية العربية المستندة الى موارد (فهلوية) شجعها (قباذ) لما وجد فيها من مبادىء توافق سياسته الرامية الى مقاومة تلك الطبقات المتنفذة التي عارضت في انتقال العرش اليه ، والتي اجتمعت كلمتها برئاسة (موبذان موبذ) والعظماء على انزاله من عرشه ، لما بدا لهم من ازوراره عنهم ، وانحرافه عن الزردشتية الى تعاليم مزدك المناهضة للموابذة ولعظماء المملكة الذين كانوا يتمتعون في المملكة بنفوذ واسع حدّ من سلطان (شاهنشاه) .

ورسالة مزدك وتعاليمه ، غامضة ، لا نعلم من حقيقتها شيئاً ، فقد أبيدت كتبهم وطمست معالم دينهم في عهد (أنو شروان) ، ولم يبق منها إلا هذه النتف المدوّنة في الكتب العربية عن موارد (فهلوية) ُدوّنت في أيام محنة المزدكية وبعدها . ويظهر من هذه النتف انها حركة دينية اجتماعية سياسية تدعو الى توزيع الثروات بين الناس بالتساوي ، والى انتزاع الأموال والأرضين من الأغنياء لاعطائها

١ Ency., IV, P. 178.

للمقلّين ، حتّى من كان عنده جملة نساء تؤخذ منه لتعطى لغيره من المحتاجين ، فهي على هذا التعريف فكرة اشتراكية متطرفة عارضت النظم الاجتماعية القائمه ، وهددت الدين القائم ، وجرّأت العامة على تلك الطبقات ، كان الملك في حاجة اليها للإنتقام ممن عارضه فأيدها [1] .

هذا وحيث أننا قد تعلمنا من التجارب التي تجري في الوقت الحاضر ومن دراستنا للموارد التأريخية القديمة ، ان ما يكتب عن قوم غضب الحاكمون عليهم لا يمكن ان يكون مرآة صافية يعبر عن وجه أولئك القوم وعن ملامحهم الحقيقية ، لذا فإننا لا نستطيع ان نقول ان ما وصل الينا عن المزدكية يمثل رأيها وعقيدتها تمام التمثيل ، إذ يجوز ان يكون منه ما هو مصنوع موضوع حمل عليهم ، وان رواة الأخبار قد غرفوا منه ، ودوّنوه على نحو ما وصل الينا في كتبهم . لذلك يجب الانتباه الى هذه الملاحظة .

وحمل عدل الملك الساساني وحلمه وتسامحه مع رعيته ومساعدته للخارجين على الكنيسة الرومية الرسمية (من الفلاسفة والمثقفين بالثقافة الإغريقية القديمة ممن كانوا هدفاً لهجمات الكنيسة الأرثودكسية في الانبراطورية البيزنطية) على الهجرة الى المملكة الساسانية ، طامعين في عدل الملك وحمايته ، وفي بيأة تكون فيها الحرية الفكرية مكفولة مضمونة ، لا ضغط فيها ولا إكراه . ولكنهم ما لبثوا ان وجدوا ان الزردشتية التي نصرها وأيدها (كسرى أنوشروان) ، وهي ديانة المملكة غير ملائمة للفلسفة ، وانها ليست أرحب صدراً من (الأرثودكسية) ، وانهم لم يكونوا على صواب بمجيئهم الى هذه الأرض ، فرجوا من (ملك الملوك) الترفق بهم ، بالسماح لهم بالعودة الى بلادهم . فلما كانت الهدنة ، طلب (كسرى) من قيصر في سنة ٥٤٩ م إباحة العودة الى ديارهم والتلطف بهم والعفو عما بدر منهم من الذهاب الى مملكته [2] .

---

١ الطبري (٢/٨٧ وما بعدها) ،
Nöldeke, Geschichte der Perser, S., 455, A. Christensen, Le Regne du Roi Kawadh I et le Communisme Mazdakite In der Kongl. Danske, Videnskalernes Selskab., Copenhagen, 1935.

٢ H. G. Wells, The Outline of History, P. 564.

وكان مما فعله (كسرى أنو شروان) أن هاجم الامبراطورية البيزنطية وقيصرها في عهد (يوسطفيان) (يسطنيانوس) (جستنيان) (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) ، واشتبك معها في جملة حروب ، ووسع حدوده في الشرق ، وساعد الاحزاب المعارضة للروم ، وأرسل حملة الى اليمن بناء على طلب الأمراء المعارضين لحكم الحبشة عليها ، ساعدتهم في وضع خطة لازاحة الحبشة عنها .[1] والحبش هم حلفاء البيزنطيين واخوانهم في الدين وهم الذين حثّوا النجاشي على فتح اليمن بعد ان يئسوا من الاستيلاء عليها ومن الاستيلاء على الحجاز وبقية جزيرة العرب .

واتبع (كسرى الثاني) (٥٩٠ ــ ٦٢٨ م) المعروف بـ (كسرى أبرويز) ، وهو ابن (هرمز بن كسرى أنو شروان) ، خطوات جدّه وأسلافه الملوك الماضين في الحرب مع البيزنطيين ، فبلغ (خلقيدونية) ثلاث مرات ، واستولى على بلاد الشام ، ودخلت جيوشه القدس في سنة (٦١٤ م) . ثم استولى على مصر في سنة (٦١٩ م) ودوّخ بفتوحاته الروم الى أن عاجله ابنه بخلعه ، فاستراح الروم منه ، ثم لم يلبثوا أن استردوا من الفرس أكثر ما أخذوه منهم في تلك الحروب .

وقد اضعفت هذه الحروب المتوالية الحكومة الساسانية وآذت الشعوب التي خضعت لحكمها وأفقرتها ، وأثرت على الأمن الداخلي وعلى الأوضاع الاقتصادية والعمرانية تأثيراً كبيراً ولا سيما في البلاد التي صارت ساحة تعبئة وتلاحم جيوش ، وهي بلاد العراق . ولم يعد الانسان يأمن على حياته وعلى ماله ، وصار سواد الناس وكأنهم أبقار واجبها اعطاء الحليب وأداء الاعمال الأخرى للحكام ، والذبح للاستفادة من لحومها ومن جلودها وعظامها حينما تنتفي الحاجات الأخرى منها . وتأسد المرازبة وقادة الجيوش في الحكم ، حتى صار الحكم حكم عواطف وأهواء ومصالح ، و (الشاهنشاه) عاجز عن عمل كل شيء لأن (الشاهنشاهية) ، لم تعد متقيدة بالوراثة القديمة وبالآداب السلطانية ، بل صارت لمن يستعين بأصحاب العضلات وبمثيري الفتن والاضطرابات . أضف الى ذلك أن من بيده مفتاح الدفاع عن الدولة ، وهم الجنود ، والضباط الصغار ، شعروا أنهم يقاتلون لا في سبيل وطن ودين وعقيدة ، بل يقاتلون لأنهم يساقون الى القتال قسراً ، وهم في حالة سيئة ووراءهم عوائلهم لا تملك شيئاً ، وقد جيء بهم الى الجيش قسراً وعلى

---

١ الطبري (٢/٩٣ وما بعدها) .

طريقة (السخرة) . وهم يحاربون ولا سلاح لهم ، لأن الحكومة لا تملك سلاحاً ، ولا نظام لهم ، لأنهم لم يدربوا على القتال ولم يتعلّموا أصوله ، أجسامهم تقاتل ، وقلوبهم مشغولة في مصير أولادهم وزوجاتهم وبيوتهم ، وهم المعيلون لهم ، ليس لهم غيرهم من معين .

وحكومة هذا شأنها ، لا يمكن لها أن تحافظ على حدود طويلة مفتوحة سهلة تقيم عليها قبائل غازية ، تترقب الفرص لتجد فرصة تهتبلها لتغير فيها على الحضر ، فتنتزع منهم ما قد تقع أيديهم عليه من أي شيء . فصار الاعراب يغيرون على الحدود من كل مكان فيه نفوذ وجنود للساسانيين ، ولا سيما بعد معركة (ذي قار) التي منحتهم قوة معنوية عالية ، وعلمتهم مواطن الضعف عند الساسانيين . فلما جاء الاسلام من جزيرة العرب صاروا عونـاً له في تقويض تلك الدولة ، ودالة ساعدته في تفهم مواطن الضعف فيها ، ومنها نفذ الاسلام الى ما وراء البحار ، وقوض الحكومة الضخمة بسرعـة عجيبة وبمحاربين لم يكونوا قد عرفوا من قبل أساليب القتال المنظم ، ولا المعارك الضخمة التي صادفوها لأول مرة في حروبهم مع الساسانيين والبيزنطيين .

وقد طمعت القبائل في حكومة الحيرة أيضاً ، هذه الحكومة التي ظهر عليها الوهن كذلك . فأخذت تغير عليها وتتعرض لحدودها ، وتتحرش بقوافلها التي كان يرسلها ملوكها للإتجار في أسواق الحجاز واليمن . حتى صارت الطرق التي تسلكهـا خطرة غير آمنة ، لا يتمكن رجالها من المرور بها بسلام . ولم يستطع الساسانيون من مساعدتها وحمايتها ، لأن أوضاعهم الداخلية ، كانت كما ذكرت على غير ما يرام . وهذا مما زاد في تصميم القبائل على مهاجمة ملوك الحيرة وحدود الفرس في آن واحد . ولعل هذه الغارات ، كانت في جملة الأسباب التي حملت (كسرى) على القضاء على النعمان وعلى انهاء حكم (آل نصر) ، اما بسبب ما رآه (كسرى) من عدم تمكن الملك (النعمان) من تأديب القبائل ومن ضبط الطرق والأمن ؛ فارتأى استبداله بعربي آخر أو برجل قوي من قادة الجيوش الفرس . واما لظنه أو لما وصل الى علمه من خبر يفيد بأن النعمان قد أخذ يفاوض سادة القبائل الكبار لارضائهم وضمهم اليه . وفي هذا العمل تهديد لمصالح الفرس ومحاولة للابتعاد عنهم . فأراد الملك القضاء عليه وعلى الأسرة الحاكمة ، قبل أن

يتمكن من الحصول على تأييـــد أولئك السادة الذين أدركوا نواحي الضعف في حكومة الساسانيين .

وهناك روايات يشتمّ منها أن (النعمان) ، قال لسادات القبائل : (انما انا رجل منكم ، وانما ملكتُ وعززتُ بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم ... ليعلم أن العرب على غير ما ظن وحدث) . [1] وروايات تفيد أن (كسرى) انما قتل (النعمان) ، لأنه وسائر أسرته سايروا سادات القبـــائل وتواطئوا معهم على الساسانيين . [2] ولعل عجز ملوك الحيرة عن حماية قوافل الفرس الذاهبة الى اليمن والآيبة منها ، وعن حماية الطرق البرّية المهمة التي توصل العراق باليمن ، ثم عجز ملك الحيرة من منع الاعراب من الاغارة على حدود الساسانيين ، ثم اضطرار الملك (النعمان) على الاتصال بسادات القبـــائل لترضيتهم ولضمهم اليه لتأييده ولتقوية ملكه الضعيف ، الذي كان يهدده خصوم له . لعلّ هذه الأسباب وغيرها ، كانت في جملة العوامل التي حملت (كسرى) على القضاء على (النعمان) وعلى استبدال الأسرة الحاكمة بأسرة أخرى ، أو تسليم أمور الحيرة نهائياً الى قائد فارسي ، يحكمها حكماً عسكرياً . [3]

وقد نصب الفرسُ حاكماً منهم على الحيرة ، لكنه لم يتمكن من سد أبواب الحدود الطويلة وغلقها ، ومنع الاعراب من دخولها . لقد اجتازوها ثم جاوزوها الى مسافات بعيدة في الاسلام ، أوصلت العرب الى الصين والهند وتركستان الصينية . ذلك لأن الفرس كانوا منهوكي القوى في الداخل وفي الخـــارج ، وقد أتعبتهم الأوجاع ، بينما جاء العرب بايمان برسالة ، وبعزم وتصميم ، وباعتماد على النفس ، من أن النصر سيكون لهم حتماً . لقد بدأ هذا العزم قبل (ذي قار) ، ثم تجسم في (ذي قار) ، فكان نصر المعركة في هذا الموضع ، ناقوس النصر ، و (الهرمون)

---

١ ابن عبد ربه ، العقد (١/١٦٩) ،
M. J Kister, In Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol., VIII, Part : II, November 1965, P. 114.

٢ Rothstein, PP. 116, Kister, P. 115.

٣ Nöldeke, Geschichte der Perser, S. 332, Rothstein, S., 116, Levi Della Vida, In The Arab Heritage, P. 50, Brockelmann, History of the Islamic Peopl., P. 8, Kister, P. 114.

الذي بعث الحيوية في جسم القبائل ، فجعلها تشعر أن في استطاعتها أن تفعل شيئاً ، لو وحدت نفسها ، وعملت عملاً ايجابياً منتظماً ، بعد دراسة وتفكير ، وباعدت نفسها عن الهياج والحماس والكلام الكثير ، الذي يذهب بعد تكلمه مع الهواء .

ولم تكن مشكلات الروم أقل خطورة أو عدداً من مشكلات الساسانيين . لقد تمكنت النصرانية ، بعد عنت واضطهاد ومقاومة ، أن تكون ديانة رسمية للحكومة والشعب . وكان المأمول أن تتوحد بذلك صفوف الأمة ، غير أن التصدع الذي أصاب هذه الديانة لم يحقق لها ذلك الأمل ، فتدخلت المذهبية في السياسة ، في المذهبيّات . وتولدت من هذا التدخل مقاومة رسمية من الحكومة للمذاهب المعارضة ، واضطهاد لكل من يعارض مذهب القيصر . وظهرت كنيسة شرقية وكنيسة غربية ، وتجزأ النصارى الشرقيون الى شيع وفرق عُدّ بعضها خارجاً على تعاليم الحق والايمان ، هي في نظر (الأرثوذكسية) مذاهب الحادية باطلة ، فعوملت كما عاملت وثنيةُ روما النصرانية حين ظهورها ، فحوربت بغير هوادة واضطر الكثير من المخالفين الى التكتم أو الهرب الى مواضع ليس للبيزنطيين عليها سلطان .

والحروب المتوالية التي شنها الفرس على البيزنطيين ، والبيزنطيون على الفرس ، وانقسام الإنبراطورية الى حكومتين : حكومة روما وحكومة القسطنطينية ، ثم مهاجمة الملوك والأقوام الساكنة في أوربة لهاتين الحكومتين من الشمال والغرب ، كل هذه انتجت مشكلات خطيرة للعالم الغربي عامة وللروم خاصة . وقد كان ازعاج الروم واقلاقهم ، مما يفيد بالطبع منافسيهم الفرس ويسرهم ، فكانوا يشجعون الثائرين ويتحالفون معهم لأن في ذلك قوة لهم ، كما كان الروم أنفسهم يشجعون الاحزاب المعارضة للفرس ويحرضونها على الثورة على الساسانيين والتمرد عليهم ، وعلى مهاجمة حدودهم نكاية بأعدائهم وللانتقام منهم حتى صارت الحروب بين الانبراطوريتين تقليداً موروثاً ، لا يتركها احد الطرفين الا اضطراراً ، ولا تعقد هدنة بينهما الا بدفع جزية تكون مقبولة لدى الطرف الغالب تغنيه عن المكاسب التي يتأملها من وراء الحرب . يدفعها المغلوب صاغراً بسبب الاحوال الحرجة التي هو فيها ، آملاً تحسن الموقف للانتقام من الخصم . فتأريخ الساسانيين والروم ، هو تأريخ هدن وحروب عادت الى بلاد الطرفين بأفدح الاضرار . وما الذي يكسبه الانسان من الحروب غير الضرر والدمار ؟

لقد وجد (كسرى أنوشروان) (٥٣١ — ٥٧٩ م) في انشغال (يوسطنيان) (جستنيان) (Justinian) (٥٢٧ — ٥٦٥ م) بالحروب في الجبهات الغربية فرصة مواتية للتوسع في المناطق الشرقية من الإنبراطوريــة البيزنطية ، فتحلل من (الهدنة الأبدية) التي كانت قد عقدت بين الفرس والروم ، وهاجم الإنبراطورية متنحلاً أعذاراً واهيةً ، واشترك في قتال دمويّ مرّ بجيوش الروم . ولم يفلــح مجيء القائد (بليزاريوس) (Belisarius) من الجبهات الايطاليــة لايقاف تقدم الفرس ، فسقطت مدن الشأم وبلغت جيوش الفرس سواحل البحر المتوسط ، وبعد مفاوضات ومساومات طويلة تمكن الروم من شراء هدنة من الفرس أمدهـا خمس سنوات بشروط صعبة عسيرة ، وبدفع أموال كثيرة . ثم مُددت هذه الهدنة على أثر مفاوضات شاقة مع الفرس خمسين عاماً حيث عقد الصلح في سنة (٥٦١) أو (٥٦٢ م) . تعهد الروم لكسرى بدفع إتاوة سنوية عالية ، وتعهد الفرس في مقابل ذلك بعدم اضطهاد النصارى ، وبالسماح للروم في الإتجــار في مملكتهم على شرط معاملة الروم لرعايا الفرس المعاملة التي يتلقاهــا تجار الروم في أرض الساسانيين[1] .

و (يوسطنيان) معاصر (كسرى أنوشروان) شخصية فــذة مثل شخصية معاصره ، ذو آراء في السياسة وفي الملك ، من رأيــه ان الملك يجب ان يكون دليلاً وقدوةً ونبراساً للناس ، وانه لا يكون عظيماً شهيراً لحروبه ولكثرة ما يملكه من سلاح وجند ، إنما يكون عظيماً بقوته وبقدرته وبالقوانين التي يسنهــا لشعبه للسير عليها ، تنظيماً للحياة . فالملك في نظره قائد في الحروب ومرشد في السلم ، حامٍ للقوانين ، منتصر على أعدائه . وكان من رأيه ان الله قــد جعل الأباطرة ولاةً على الأرض ، وأدلة للناس ، قوامين على الشريعة . ولذلك فإن من واجب كل انبراطور ان يقوم بأداء ما فرضه الله عليه بسنّ القوانين وتشريع الشرائع ، ليسير الناس عليها . ولما كانت القوانين التي سارت عليها الانبراطورية الرومانيــة كثيرة جداً ، حتى صعب جمعهــا وحفظها ، تطرق اليهــا الخلل ، وتناقضت

[1] A. A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, 1952, PP. 138, K. Guterbock, Byzanz und Persien in ihren Diplomatischen Volkerrechtlichen Beziehungen In Zeitalter Justinians, S. 57, 105, Bury, Later Roman Empire, II, PP. 120.

الأحكام . لذلك رأى ان من واجبه جمعها وتنسيقها وتهذيبها واصدارها في هيأة دستور انبراطوري يسير عليه قضاة الانبراطورية في تنفيذ الأحكام بين الناس ، وعهد بهذا العمل الشاق الى (تريبونيان) (Tribonian) من المشرعين المعروفين في أيامه[1] . فجمع هذا المشرع البارع القوانين في مدوّنات ، ورتبها في كتب وأبواب ، وصان بتدوينه هذا بعض القوانين البيزنطية والرومانية من الضياع ، وأورث المشرعين ذخيرة ثمينة من ذخائر البشرية في التشريع .

ويعد هذا العمل من الأعمال العظيمة في تأريخ التشريع ، ولم يكن (يوسطنيان) أول من فكر في جميع القوانين السابقة في مدوّنة ، ولكنه كان أول من أقدم على تنسيقها وجمع ما تشتت منها وتيسيرها للمشرعين ، وقد وحد بذلك قوانين الانبراطورية ، فعُدَّ صنيعه هذا اصلاحاً كبيراً يدل على شعور الملك وتقديره للعدالة في مملكته . وقد أدخل معاصره (كسرى أنو شروان) اصلاحات على قوانين الجباية ، فعد القرن السادس من القرون المهمة في تأريخ التشريع . ولكن الذي يؤسفنا اننا لا نملك موارد تفصل اصلاحات (كسرى) وهل هي نتيجة شعور بضرورة ملحة وحاجة ، أو هي صدى للعمل الذي قام به (يوسطنيان) ، ثم أي مدى بلغته تلك الإصلاحات ؟

وفكرة اخضاع الانبراطورية لقانون واحد نابعة من أصل عام كان يدين به (يوسطنيان) ، يتلخص في دولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة . كان يوسطنيان يرى ان الدولة المنظمة هي الدولة التي يخضع فيها كل أحد لأوامر القيصر ، وان الكنيسة إنما هي سلاح ماض يعين الحكومة في تحقيق أهدافها ، لذلك سعى لجعلها تحت نفوذ الحكومة وفي خدمة أغراضها ، فتقرب الى رجال الدين ، وساعد على انشاء كنائس جديدة ، واستدعى الى عاصمته رؤساء الكنيسة (المنوفيزيتية) (Monophysites) القائلين بالطبيعة الواحدة واليعاقبة وأتباع (آريوس) (Ariaus) وغيرهم من المعارضين لمباحثتهم ولعقد مناظرات بينهم وبين الكنيسة الرسمية للتقريب فيما بينهم وايجاد نوع من الاتفاق يخدم أهداف الملك المذكور . ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، ومحاولات التوفيق لم تثمر ، ولتحقيق نظريته في الكنيسة الواحدة اضطهد أصحاب المذاهب المعارضة وكذلك اليهود .

---

[1] Vasiliev, PP. 142.

واضطر بعضهم الى ترك الانبراطورية والهجرة الى مملكة الساسانيين والى المحلات التي ليس للحكومة عليها سلطان [1] .

وزادت نظريته المذكورة في الدولة وفي الكنيسة في حدة المشكلات التي ورثها من أسلافه وجاءت بنتائج معاكسة لما كان يريد منها . فمحاولة تقربه من (البابا) وتأييـــده له ، اصطدمت بفكرة كانت مسيطرة عليه ، هي ان علمه باللاهوت لا يقل عن علم رجال الدين به ، وان من حقه التدخـــل في أمور الكنائس وفي تسيير المجامع الكنيسية ، لتوحيد الكنائس واعادتها الى أصلهـــا ، فأزعج بذلك (البابا) ، وصار من أضداده ، وأزعج أصدقاءه ومعارضوه من رجال المذاهب الأخرى ، لأنه خالفهم ، وجاء بتفسيرات لم ترضي أي مذهب منها . واضطر أخيراً على الخضوع لعقيدته المهيمنة على عقله ، وهي ان ما يراه في الدين ، هو الصحيح ، وهو الحـــل الوسط للنزاع الكنسي ، وهو الأصلـــح للدولة . فخلق معارضين له . وأغلق (جامعـــة أثينا) ومدارس البحث ، واصدر أمـــراً بمنع الوثنيين وكل من ليس نصرانياً من الاشتغال في الدولة . وهكذا ولدت نظريته في (أنا الدولة) مشكلات خطيرة لدولته وللدولة من جاء بعده من قياصرة .

وكانت لدى الروم مثل هذه المشكلة التي كانت عند الفرس : مشكلة تهرب كبار الملاكين والمتنفذين من دفع الضرائب ، وزيادة نفوذهم وسلطانهم في الدولة . فعزم (يوسطنيان) على الحـــد من سلطانهـــم ، والتشديد في استيفاء الضرائب لمعالجة الوضع الحربي الناتج من قلة المال اللازم للانفاق على جيش كبير ، ممـــا اضطر الحكومة الى تقليص عدد الجنود . فأصدر أوامر عديدة بالتشديد في جمع الضرائب ، وباجراء الإصلاحات في الإدارة ، غير ان اصلاحاته هذه لم تنفذ ، إذ لم يكن في مقدور الحكومة تنفيذها لعدم وجود قوة لديها تمكنها من الحد من نفوذ المتنفذين ورجال أكفاء أقوياء يقومون بالتنفيذ .

واهتم (يوسطنيان) بأمر التجارة . والتجارة مورد رزق للدولة كبير ، ولا سيما مع الأقطار الشرقية ، فقد كانت بضائعها مرغوباً فيها في أوربة ومطلوبة ، تجني الحكومة منها أرباحاً كثيرة ، وفي مطلع قائمة هذه البضائع النفيسة الأموال

---

[1] Vasiliev, PP. 150, Knecht, Die Religions Politik Kaiser Justinianus, S, 36.

التي ترد الى الانبراطورية من الصين والهند ، فقد كانت تلاقي اقبالاً كبيراً من أثرياء الانبراطورية ومن أثرياء انبراطورية روما الغربية وبقية أنحاء أوربة .

وأثمن بضاعة في قائمة البضائع الواردة من الصين مادة الحرير ، ولثمن الحرير الباهض حرص الصينيون على ألا يسمحوا لأي غريب كان ان ينقل معه البيض أو الديدان التي تتولد منه الى الخارج ، خشية المزاحمة والمنافسة التي تلحق بهم أفدح الأضرار . وتلي هذه المادة البضائع النفيسة الأخرى مثل العطور والقطن الوارد من الهند والتوابل وأمثالها من المواد التي كان يعجب بها أصحاب الذوق في ذلك الزمن . كل هذه يشتريها تجار الروم ، وبعد ان تأخذ الدولة البيزنطية الضرائب المفروضة ، تسمح للتجار بالتصرف فيها وبيعها على بقية الأوربيين .

وأسعار هذه المواد عالية باهظة الى درجة كبيرة صارت مشكلة من مشكلات الدولة البيزنطية ، ولهذا كانت تتصل دوماً بالانبراطورية الساسانية لمحاولة الاتفاق على تحديد الأسعار ، وتعيين مقدار الضرائب ، وذلك بسبب ورود أكثرها من هذه الانبراطورية ، إذْ كان التجار يأتون بالأموال من أسواق الصين تنقلها القوافل التي تجتاز أرض الدولة الساسانية لتسلمها الى حدود الانبراطورية البيزنطية ، ومنها الى العاصمة لتوزع في الأسواق الأوربية .

هذا طريق . وهناك طريق آخر هو طريق البحر . يحمل تجار الصين أموالهم على سفن توصلها الى جزيرة (تبروبانة) (Taprobane) وهي جزيرة (سيلان) ثم تفرغ هناك ، فتُحمل في سفن تنقلها الى خليج البصرة ، ثم تحمل في سفن أخرى تمخر في دجلة والفرات الى حدود الروم .

ولما كانت علاقات الروم بالساسانيين غير مستقرة ، والحرب بين الانبراطوريتين متوالية صارت هذه التجارة معرضة للتوقف والإنقطاع طوال أيام الحروب ، وهي كثيرة ، فترتفع أسعارها هناك ، كما ان الساسانيين كانوا يزيدون في أسعار البيع وفي ضريبة المرور ، فتزيد هذه في سعر التكليف ، ولهذا فكر (يوسطنيان) في التحرر من تحكم الساسانيين في مورد مهم من موارد رزقهم ، وذلك باستيراد

بضائع عن طريق البحر الأحمر ، وهو بعيد عن رقابة الساسانيين [١] .

والخطة التي اختطهـا (يوسطنيان) لتحرير التجارة البيزنطيـة من سيطرة الساسانيين عليها ، هي الإتصال بالأسواق الرئيسية المصدرة ، ونقل المشتريات الى الانبراطورية بالبحر الأحمر الذي كان يسيطر الروم على أعاليه . لقـد كان ميناء (أيلة) في أيدي البيزنطيين ، وكان هذا الميناء موضعاً لتفريـغ السفن الموسقة بالبضائع المرسلة من الهند الى فلسطين وبلاد الشأم ، كما كان مينـاء (القلزم) (Clysma) في أيديهم كذلك ، تقصده السفن التي تريد ارسال حمولتها الى موانىء البحر المتوسط . أمـا جزيرة (أيوتابة) (Iotabe) وهـي جزيرة (تاران) (تيران) ، فقد كانت مركزاً مهماً لجباية الضرائب من السفن القادمة من الهند ، وكانت في أيدي بعض سادات القبائل ، فأمر (يوسطنيان) باقامة موظفي الجباية البيزنطيين بها ، ليقوموا بالجباية . وأما ما بعد هـذه المنطقة حتى مضيق المندب والمحيط الهندي فلم يكن للبيزنطيين عليه نفوذ [٢] .

ولتحقيق هذه الخطة ، كان عليه وجوب السيطرة على البحر الأحمر والدخول منه الى المحيط الهندي ، للوصول الى الهند وجزيرة (سيلان) . ولا يمكن تحقيق هذه الخطة إلا بعملين : عمل عسكري يعتمد على القوة ، وعمـل سياسي يعتمد على التقرب الى الحبشة الذين كانوا قد استولوا على اليمن ، فصار مدخل البحر الأحمر : (مضيق باب المندب) بذلك في أيديهم . ثم بالتودد الى سادات القبائل العربية النازلة في العربية وفي باديـة الشأم ، لضمهـم الى صفوف البيزنطيين ، ولتحريضهم على الفرس ، وبذلك يلحق البيزنطيون ضرراً بالغاً بالفرس ويكون في استطاعتهم نقل التجارة نحو الغرب عن جزيرة العرب والبحر الأحمر الى أسواقهم بكل حرية وأمان .

أما العمل العسكري ، فلم يكن في وسع البيزنطيين القيام به في ذلك الوقت ، لعدم وجود قوات برية كبيرة كافية . لتتمكن من اجتياز العربية الغربية للوصول

١ Vasiliev, P. 163, Bulletin of the School of Oriental and African Studies University of London, Vol., XVI, Parts 3, 1954, P. 425.

٢ W. Heyd, Histoire du Commerce du Lavant au Moyen Age, I, 10, 1885, (1935 2 end.), Vasiliev, P. 167.

الى اليمن ، حيث الحبش هناك ، اخوان البيزنطيين في الدين . وقد علموا من التجارب السابقة ، أن الجوع والعطش يفتكان بالجيش فتكاً ، وان القبائل لا يمكن الاطمئنان اليها والوثوق بها أبداً ، لذلك تركوا هذا المشروع . فلم يبق أمامهم غير تنفيذه من ناحيـة البحر ، وقد وجدوا ان هذا التنفيذ غـير ممكن أيضاً ، لأن أسطولهم في البحر الأحمر لم يكن قوياً ، ولم يكن في استطاعته السيطرة عليه سيطرة تامة . فتركوه ، ولو الى حين ، مفضّلين عليه العمل السياسي .

أما العمل السياسي ، فقـد تم بالاتصال بالحبش ، وقـد كان ملكهم على النصرانية ، لذلك كان من الممكن جلبه الى البيزنطيين بالتودد اليه باسم الاخوّة في الدين . كما تم بالتقرب الى سادات القبائل المتنصرين ، والتودد اليهم باسم الدين ايضاً . وتم بارسال المبشرين الى جزيرة العرب ، وبتشجيعهم على المعيشة بـين الأعراب وفي البوادي لتنصير سادات القبائل ، وللتأثير عليهم بذلك . وباقامـة الكنائس وارسال المال وعمال البناء لبنائها باسلوب يؤثر في عقول الوثنيين ، فيجعلها تميل الى النصرانية ، ولتكون هذه المعابد معاهد تثقيف تثقف بالثقافة البيزنطية كما تفعل الدول الكبرى في هذه الأيام .

وأرسـل (يوسطنيان) — كما سبق ان بينا ذلك [1] — رسولاً عنـه يدعي (يوليانوس) (جوليانس) (Julianus) الى النجاشي والى (السميفع أشوع) (Esimphanus) حاكم اليمن في ذلك العهـد ، ليتودد اليها ، وليطلب منهـما باسم (العقيدة المشتركة) التي تجمعهم ان يكوّنا مع الروم جبهة واحدة في محاربة الساسانيين ، وان يقوما مع من ينضم اليهم من قبائل العرب بمهاجمتهم ، وحمل السفير الى (السميفع أشوع) رجاء آخر ، هو موافقته على تعيين رئيس عربي اسمه (Kaisos أي (قيس) عاملاً (فيلارخ) (Phylarch) على قبيلة عربية تدعى (معديني) (Maddeni) ، أي قبيلة (معد) ، ليشترك معه ومـع عدد كبير من أفراد هذه القبيلة بمهاجمة الساسانيين .

وقد رجع السفير فرحـاً مستبشراً بنجاح مهمته ، معتمـداً على الوعود التي أخذها من العاهلين . غير أنهما لم يفعلا شيئاً ، ولم ينفذا شيئاً ما مما تعهدا بـه

---

١ الجزء الثاني والثالث من هذا الكتاب .

للسفير ، فلم يغزوا الفرس ، ولم يعين (السميفع أشوع) (قيساً) (فيلارخاً) عاملاً على قبيلة معدّ .

وورد أيضاً ان القيصر جدّد في أيام (ابراموس) (Abramos) الذي نصب نفسه في مكان (Esimiphaeus) ، طلبه ورجاءه في محاربة الفرس ، فوافق على ذلك وأغار عليهم ، غير انه تراجع بسرعة [1] .

ويظهر ان اتصال البيزنطيين بـ (ابراموس) (Abramos) كان بعد القضاء على (السميفع أشوع) الذي لم يتمكن من مهاجمة الفرس إذْ كان من الصعب عليه اجتياز أرض واسعة بعيدة وطرق بعيدة تمرّ بصحارى وقفار لمحاربة أناس أقدر من رجاله على القتال [2] . فلما تمكن (ابراموس) من التحكم في شؤون اليمن ومن تنصيب نفسه حاكماً عاماً على اليمن وصارت الأمور بيديه تماماً ، فكر البيزنطيون في الاستفادة منه بتحريضه على الساسانيين ، وذلك باسم الأخوة في الدين .

وقد تحرش (ابراموس) بالفرس ، غير انه لم يستمر في تحرشه بهم . فما لبث ان كفّ قواته عنهم [3] . ولم يذكر المؤرخ (بروكوبيوس) كيف هاجم (ابراموز) الساسانيين ، ومن أين هاجمهم ومتى هاجمهم . لذلك أبقانا في جهل بأخبار هذا الهجوم .

و (ابراموس) هو (أبرهة) الذي تحدثت عنه في أثناء كلامي عن اليمن . أما ما أشار اليه (بروكوبيوس) من تحرشه بالفرس ومن تركه لهم بعد قليل ، فقد قصد به حملته على (مكة) على الغالب ، وهي حملة قصد بها (أبرهة) على ما يظهر الاتصال بالبيزنطيين عن طريق البر ، واخضاع العربية الغربية بذلك الى حكمه وهو من المؤيدين البيزنطيين . وبذلك تؤمن حرية الملاحة في البحر الأحمر ، ويكون في إمكان السفن البيزنطية السير به بكل حرية . ولعلّه كان يقصد بعد ذلك مهاجمة الفرس من البادية بتحريض القبائل المعادية للساسانيين عليهم ، وبتأليف حلف من قبائل يؤثر عليها فيهاجم بها الفرس .

١ Procopius, I, XX, 1-13, ZDMG., (1881), S., 36

٢ Procopius, I, XX, 9-13.

٣ Procopius, I, XX, 9-13.

اما (Kaisos) (Caisus) ، فكان كما وصفه المؤرخ (بروكوبيوس) شجاعاً ذا شخصية قوية مؤثرة حازماً من أسرة سادت قبيلة (معدّ) . وقتل أحد ذوي قرابة (السميفع أشوع) (Esimaphaios) (Esimiphaeus) ، فتمادى بذلك معه ، حتى اضطر الى ترك دياره والهرب الى مناطق صحراوية نائية . [1] فأراد القيصر الشفاعة له لدى (Esimaphaios) ، والرجاء منه الموافقة على اقامته رئيساً (Phylarch) على قبيلته قبيلة معدّ .

ولا يعقـــل بالطبع توسط القيصر في هذا الموضوع ، لو لم يكن الرجل من أسرة مهمة عريقة ، لها عند قومها مكانة ومنزلة ، وعند القيصر أهمية وحظوة . ولشخصيته ومكانة أسرته أرسل رسوله الى حاكم اليمن لاقناعه بالموافقة على اقامته رئيساً على قومه . وبهذا يكتسب القيصر رئيساً قوياً وحليفاً شجاعاً يفيده في خططه السياسية الرامية الى بسط نفوذ الروم على العرب ، ومكافحة الساسانيين .

ونحن لا نعرف من أمر (قيس) هذا في روايات الاخباريين شيئاً غير أن هناك رواية لابن اسحاق جاء فيها أن أبرهة عين محمد بن خزاعى عاملاً له على مضر ، وأن (قيساً) كان يرافق أخاه محمداً حين كان في أرض كنانة . فلما قتل (محمد) ، فرّ الى (ابرهة) . [2] وقد ورد نسب (محمد) على هذه الصورة : (محمد بن خزاعي بن علقمة بن محارب بن مرّة بن هلال بن فالج ابن ذكوان السلمي) في بعض الروايات ، وذكر أنه كان في جيش أبرهـــة مع الفيل . [3]

فهل قيس هذا هو قيس الذي ذكره (بروكوبيوس) ؟ . اتصل مع اخيه محمد بأبرهة ، وصار من المقربين لديه ؟ أو هو رجل آخر لا علاقة له بـ (قيس) الذي يذكره (ابن اسحاق) ؟

وقد زار والد (نونوسوس) (Nonnosos) (قيساً) هذا مرتين ، وذلك قبل سنة (٥٣٠ م) وزاره (نونوسوس) نفسه في اثناء حكمه . وأرسل (قيس)

---

١ Procopius, I, XX, 9-13.

٢ Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol., XVI, Part : 3, 1954, PP. 434.

٣ المحبر (١٣٠) .

ابنه (معاوية) الى (يوسطنيان) ، ثم أعطى أخاه ثم ابنه الامارة . وعينه القيصر عاملاً (Phylarch) على فلسطين . [1]

وكانت للقيصر (يوسطنيان) صداقة مع رئيس آخر اسمه (أبو كرب) (Abochorabus) ، يقع ملكه في أعالي الحجاز وفي المناطق الجنوبية من فلسطين . عرف هذا الرئيس بالحزم والعزم فخافه الأعداء ، واحترمه الأتباع ، واتسع للملك ملكه ، وتوسع سلطانه حتى شمل مناطق واسعة ، ودخلت في تبعيته قبائل عديدة أخرى على القـــانون الطبيعي في البادية الذي يحتم دخول القبائل طوعاً وكرهاً في تبعية الرئيس القوي .

أراد هذا الرئيس أن يتقرب الى القيصر ، وأن يبالغ في تقربه اليه وفي اكرامه له ، فتزل له عن أرض ذات نخيل كثيرة ، عرفت عند الروم بـ (فوينيكون) (Phoinikon) (واحة النخيل) ، أو (غابة النخيل) . وهي أرض بعيدة لا تبلغ الا بعد مسيرة عشرة أيام في أرض قفرة . فقبل القيصر هذه الهدية الرمزية ، اذ كان يعلم ، كما يقول المؤرخ (بروكوبيوس) عدم فائدتها له ، وأضافها الى أملاكه ، وعين هذا (الشيخ) عاملاً (فيلارخا) على عرب فلسطين . [2]

وقد قام ملك هذا الرئيس على ملك رئيس آخر كانت له صلات حسنة بالروم كذلك ، هو (امرؤ القيس) (Amorkesos) وكان (Amorkesos) في الأصل من عرب المناطق الخاضعة للفرس ، ثم هجر دياره لسبب لا نعرفه الى الأرضين الخاضعة لنفوذ الرومان ، وأخذ يغزو الاعراب ، حتى هابته القوافل ، فتوسع نفوذه ، وامتد الى العربية الصخرية ، واستولى على جزيرة (تاران) (Iotaba) وترك رجاله فيها يجبون له الجباية من السفن القادمة من الهند ، حتى حصل على ثروة كبيرة ، وعزم في سنة (٤٧٣ م) على ارسال الأسقف (بطرس) أسقف الاعراب التابعين له الى القسطنطينية ، ليتصل بالقيصر ، وليتوسط لديه هناك أن يوافق على تعيينـــه عاملاً (Phylarch) على الاعراب المقيمين في العربية الحجرية

١ Bulletin, Vol., XVI, Part : 3, P. 435, Muller, Fragmenta Historicorum, Graecorum IV, 179.

٢ Procopius, I, XIX. 2-16, Bulletin, Vol., XVI, 1954, P. 428, Musil, Hegaz, P. 307.

والخاضعين لنفوذ الروم مقابل دخوله في حلف معهم ، فاستجاب القيصر (ليون) (Leo) الى طلب (بطرس) ، فأرسل دعوة الى (امرىء القيس) لزيارة القسطنطينية ، فذهب اليها بالرغم من وجود شرط في معاهدة الصلح التي كانت قد عقدت بين الفرس والروم لا يسمح بموجبه لعربي ما من سكنة المناطق الخاضعة لنفوذ الامبراطورية الساسانية بالذهاب الى مناطق الروم. ولما وصل الى القسطنطينية ، رحب به البيزنطيون ترحيباً جميلاً واستقبلوه استقبالاً حسناً . فأعلن هناك دخوله في النصرانية . وأغدق عليه القيصر الهدايا والألطاف ، ومنحه لقب (فيلارخ) (Phylarch) ، وثبته على المواضع التي أرادها وعلى جزيرة (تاران) (Iotaba) .[١]

وكان دخل البيزنطيون كبيراً من الضرائب التي يجبيها موظفو الكمارك المقيمون في جزيرة (تاران) (Iotaba) . وكان لهؤلاء الموظفين واجب آخر ، هو واجب مكافحة التهريب والقبض على كل مهرب يريد ادخال التجارة خلسة الى بلاد الشام أو مصر ، ومصادرة الاموال التي يحملها معه . ولهم حق مكافأة المخبرين الذين يرشدونهم للقبض على المهربين .[٢]

و (غابة النخيل) التي ذكرناها ، تجاور ارض قبيلة (معدّ) (Maddenoi) ، وكانت معدّ خاضعة لحكم حمير . وقد رأينا كيف أن القيصر (يوسطنيان) توسط لدى (السميفع أشوع) ليوافق على تعيين (قيس) رئيساً على معدّ . وقد تمردت هذه القبيلة على (أبرهة) فسير اليها قوة لتأديبها ، كما يظهر ذلك من كتابة أمر (أبرهة) بكتابتها لهذه المناسبة : أدّبها بقوة ، سيرها اليها في شهر (ذو ثبّن) من شهور فصل الربيع ، فانهزمت معد ، وأنزلت القوة بها خسائر فادحة . وبعد أن أدبت وخضعت ، اعترف (أبرهة) بحكم (عمرم بن ملدن) عليها ، وتراجعت القوة عنها .[٣]

و (عمرم بن مذرن) ، أي (عمرو بن المنذر) ، هو (عمرو بن المنذر) ملك الحيرة . وقد كانت (معدّ) في حكم ملوك الحيرة . وعلى هذا تكون هذه الغزوة (غزوتن) التي قام بها (أبرهة) على قبيلة (معد) موجهة الى (عمرو

١ Malchus of Philadelphia, (Muller Ed.), PP. 112, Musil, Hegaz P. 300
٢ Bury, Later Roman Empire, Vol. II, P. 8, Runciman, P. 105
٣ Le Museon, LXVI, 1953, 3-4, P. 277, Ryckmans, 506

ابن المنذر) حليف الفرس . بمعنى أنه تعرض لجماعة كانت في جانب الساسانيين . فهل الغزاة التي أشار اليها المؤرخ (بروكوبيوس) هي هذه الغزاة ؟

و (Maddenoi) هي قبيلة (معداية) (Ma'addaye) التي ذكرها (يوحنا الأفسوسي) (John of Ephesus) مع (طياية) (طيايا)) (طيايه) (Tayaye) (Taiyaya) في كتابه الذي وجهه الى أسقف (بيت أرشام) (Beth Arsham) ، ويظهر من هذا الكتاب أنها كانت مقيمة في فلسطين .

وقد تحدثتُ سابقاً عن ورود اسم قبيلة (معدّ) في نص النمارة الذي يرجع عهده الى سنة (٣٢٨ م) حيث ورد أن (امرىء القيس بن عمرو) ملك العرب ملك على (معدّ) وعلى قبائل أخرى ذكرها النص ، منها أسد ونزار ومذحج . ويربط الاخباريون في العادة بين ملوك الحيرة وقبيلة معدّ ، وطالما ذكروا أن ملوك الحيرة غزوا بمعدّ ، مما يدل على وجود صلة تأريخية متينة بين الحيرة وهذه القبيلة المتبدية التي كانت تمعن في سكنها مع البادية .

ويظهر من روايات اهل الاخبار أنه قد كان للتبابعة شأن في تنصيب سادات على معدّ . فهي تذكر أنهم هم الذين كانوا يعينون أولئك السادة ، فينصّبونهم (ملوكاً) على معدّ . وذلك بسبب تنازع سادات معد فيما بينهم وتحاسدهم وعدم تسليم بعضهم لبعض بالزعامة . ولهذا كانوا يلجأوون الى التبابعة لتنصيب (ملوك) عليهم . يضاف الى ذلك أن معدّاً كانت قبـائل متبدية : منتشرة في أرضين واسعة تتصل باليمن ، وقد كان أهل اليمن المتحضرون أرقى منهم ، وجيوشهم أقوى وأنظم نسبياً من محاربـي معدّ ومقاتليهم الذين كانوا يقاتلون قتال بدو ، لا يعرفون تنظيماً ولا تشكيلاً ولا توزيعاً للعمل . وكل ما عندهم هو كَرّ وفرّ ، اذا وجدوا خصمهم أشطر منهم وأقدر على القتال هربوا منه .

وقد منيت الانبراطورية البيزنطية بانتكاسات عديدة بعد وفاة (يوسطنيان) ، فاشتدّ الاضطهاد للمذاهب المخالفة للمذهب الارثوذكسي ، وعادت الفوضى الى الحكومة بعد أن سعى القيصر الراحل في القضاء عليها ، وتجددت الحروب بين البيزنطيين والساسانيين ، وعاد الناس يقاسون الشدائد بعد فترة من الراحة لم تدم طويلاً . وبعد حروب متتالية دخل الساسانيون بلاد الشام . وفي سنة (٦١٤ م) ، احتل اتباع ديانة زرادشت عاصمة النصرانية القدس ، فأصيبت المدينة بخسائر كبيرة

في أبنيتها التأريخية وفي ثروتها الفينة التي لا تقدَّر بثمن . ثم أصيبت الانبراطورية بنكبة عظيمة جداً هي استيلاء الفرس على مصر ، وبلوغ جيوش الساسانيين في هذه الأثناء الساحلَ المقابل للقسطنطينية عاصمة الانبراطورية [1] .

لقد وقعت هذه الأحداث ونزلت هذه الهزائم بالروم في وقت كان أمر الله قد نزل فيه على الرسول بلزوم ابلاغ رسالته للناس . والرسول إذْ ذاك بمكة ، يدعو أهلهـا الى دين الله . فلما جـاء الخبر بظهور فارس على الروم ، فرح المشركون ، وكانوا يحبون ان يظهر أهل فارس على الروم لأنهم واياهم أهـل أوثان . وكان المسلمون يحبون ان تظهر الروم على فارس لأنهم أهـل كتاب . فلقي المشركون أصحابَ النبي ، فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، ونحن اميون . وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من أهل الكتاب ، وانكم إن قاتلتمونا لنَظهرن عليكم ، فأنزل الله : (الم غُلبت الروم . في أدنى الأرض ، وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ؛ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) [2] . وفرح المسلمون بنزول هذه الآيات المقوية للعزمة وأيقنوا ان النصر لا بد آت ، وانهم سينتصرون على أهل مكة أيضاً ويغلبونهم باذن الله . وخرج أبو بكر الى الكفار (فقال : أفرحتم بظهور اخوانكم على اخواننا . فلا تفرحوا ولا يقرنَّ الله أعينكم ، فوالله ليَظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، فقام اليه أُبيّ بن خلف . فقال : كذبت يا أبا فضل . فقـال له أبو بكر ، رضي الله عنه : أنت أكذب يا عدوّ الله . فقال أناحبك على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس على الروم غرمت الى ثلاث سنين . ثم جاء أبو بكر الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فقال : ما هكذا ذكرت إنما البِضع مـا بين الثلاث الى التسع ، فزايدْه في الخطر ومادَّه في الأجـل . فخرج أبو بكر فلقي أبيـاً ، فقال : لعلك ندمت ؟ فقال لا . فقال : أزايدك في الخطر وأمادك في

---

1 Vasiliev, PP. 193.

٢ سورة الروم ، الآية ١ وما بعدها ، تفسير الطبري (٢١/١١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٤/١ وما بعدها) .

الأجل ، فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوص الى تسع سنين . قال قد فعلت)[1] .

لقد وقعت هذه الهزائم الحربية الكبيرة في عهد القيصر (هرقل) (Heraclius) (٦١٠ — ٦٤١ م) . ففي عهــده ، اقتطعت بــلاد الشأم ومصر من جسم الانبراطورية ، وهي أعضاء رئيسية في ذلك الجسم . غير ان طالع هــذا القيصر لم يلبث ان تحسن بعد سنين من النحس ، فاستعاد تلك الأملاك في المعارك التي نشبت بين سنة ٦٢٢ وسنة ٦٢٨ م . في هذه الفترة نال هرقل أعظم نصر له في ثلاث معارك كبيرة . ولكن نصره الأكبر جاءه يوم قتــل (كسرى أبرويز) صاحب هذه الفتوحات بيد ابنه (شيرويــه)[2] . فورد طائر السعد على القيصر بهــذا الخبر المفرح ، ثم تحققت البشرى بالصلح الذي عقــد بين القيصر وبين (شيرويه) . وفيــه نزل الفرس عن كل مــا غنموه ، ورضوا بالرجوع الى حدودهم القديمة قبل الفتح . فعادت الشأم وفلسطين ومصر الى البيزنطيين ، وأعيد الصليب المقدس الى موضعه في القدس في موكب حافل عظيم[3] .

وسُر المسلمون وهم بالمدينة بانتصار الروم على الفرس ، وزاد أملهم في قرب مجيء اليوم الذي ينتصر فيه المسلمون على المشركين ، وقويت عزيمتهم في التغلب على قريش . (وأسلم عند ذاك ناس كثير)[4] . وتضعضت معنويات قريش ، وغلب (أبو بكر) أبيّاً) على الرهان ، وكسبه ، أخذه من ورثته ، لأنـه كان قد توفي من جرح أصيب به ، فــلم يدرك زمن طرد من تعصب له من بلاد الشأم وخسارته الإبل التي تراهن عليها .

وشاء ربك ألا يكون النصر في هذه المرة لا للروم ولا للفرس ، بل للمسلمين . وشاء ألا يبقى الروم في بلاد الشأم إلا قليلاً ، إلا سنين ، إذ تهاوت مدن بلاد الشأم ثم مصر فشمال إفريقية ، الواحدة بعد الأخرى ، في أيدي أناس لم يخطر ببال الروم أبداً انهم سيكونون شيئاً ذا خطر في هــذا العالم ، أعني بهم أبناء مكة ويثرب ومن تبعهــم من أهل جزيرة العرب . تهاوت بسرعــة عجيبة لا تكاد

١ تفسير الطبري (١٣/٢١) ، تفسير القرطبي (١/١٤ وما بعدها) .
٢ الطبري (١٠٨/٢ وما بعدها) .
٣ Vasiliev, P. 198.
٤ تفسير القرطبي (٢/١٤) .

تصدق ، وبطريقة تشبه المعجزات . وقد بدأ هذا الانهيار بكتاب يذكر أهل السِّيَر والاخبار ان الرسول أرسله الى (هرقل عظيم الروم) ، يدعوه فيه الى الاسلام ، فإن أبى وبقي على دينه فعليه تَبِعته ، فلما لم يسلم ، جاءه الانذار ، قوات صغيرة لا تكاد تكون شيئاً بالنسبة الى جيوش الروم الضخمة ، أخذت تُمَهِّد الطريق لنشر الايمان في بلاد رفض حكامها الدخول فيه . طهرت الارض الموصلة الى الحدود من المخالفين ، ثم أخذت تتحرش ببلاد الشام ، ولم يأخذ الروم ذلك التحرش مأخذاً جدّياً ، اذ تصوّروه غزواً من غزو العرب المألوف يمكن القضاء عليه بتحريك عرب بلاد الشام من الغساسنة ومن لَفّ لفهم عليهم ، أو بإرشاء رؤسائهم بالهدايا والمال وتنصيبهم ملوكاً على عرب بلاد الشام في موضع الغساسنة كما كانوا يفعلون مع القبائل القوية الكبيرة التي كانت تتحرش بالحدود ، وينتهي بذلك الغزو وتصفو الأمور .

ولم يعلم البيزنطيون أن المسلمين يختلفون عن الجاهليين ، يختلفون عنهم في أن لهم عقيدة ورسالة ، وأن من يسقط منهم يسقط شهيداً في سبيل إعلاء كلمة ربّه ، وله الجنة ، وأن من يعيش منهم وينجو فلن يركن الى الدعة والحياة الهادئة والرجوع الى البادية بل لا بد له من أحد أمرين : اما نصر حاسم ، واما موت شريف في سبيل الله ورسوله . وبقوا في جهلهم هذا الى أن نبهتهم الضربات العنيفة التي وقعت بينهم وبين العرب في (أجنادين) (Gabatha) وفي (اليرموك) (Hieromax) بأن المعارك التي وقعت ليست غزواً من الغزو المألوف ، بل خطة مهيأة لطرد الروم الذين لا يؤمنون برسالة الرسول من كل بلاد الشام وما وراءها من أرضين . وعندئذ جمعوا جموعهم ، وألفوا قلوب (العرب المستعربة ، أي العرب النصارى القاطنين في بلاد الشام ، بالمال وباسم الدين ، وجعلوهم معهم وتحت قيادتهم في جيوشهم الضخمة لمقابلة المسلمين الذين لم يعرفوا الحروب الكبيرة ، ذات العدد الضخم من المحاربين ، والاسلحة المتنوعة الحديثة ، بالنسبة الى اسلحتهم المكوّنة من سيوف وسهام ورماح وحجارة وخناجر . وهنا وقعت غلطة فنية حربية أخرى من الروم ، اذ قابلوا المسلمين بجيوش ضخمة ، يسيرها قوّاد كبار تعودوا الحرب بأساليبها النظامية وبالطرق المدرسية الموروثة عن الرومان ، وتزوّدوا بالخبرة الفنية العالية التي كسبوها من حروبهم مع الفرس ومع الاوربيين ، فظنوا ان الحرب مع

المسلمين شيئاً بسيطاً ، بل ابسط من البسيط ، حتى أن كبار القادة وجدوا أن من المهانة الاهتمام بأمر أولئك البدو الغزاة ، فتركوا الأمر لمن دونهم في الدرجات يديرونهـا مع العرب ، الذين أظهروا ذكاءاً فطريـاً عظيماً في هذه الحروب ، بتجنبهم الالتحام بالجيوش ، اذ لا قبل لهم بمقاتلتها ، وباتخاذهم خطة المناوشات والكرّ والفرّ بقوات غير كبيرة العدد ، وبذلك تتوفر لهم السرعة في العمل ومباغتة الجيوش الضخمة من ورائها ومن مجنباتها ، وبغزو خاطف كالبرق يلقي الفزع في القلوب . وبذلك أفسدوا على الروم خطتهم بالهجوم على العرب ، بجيوش نظامية كبيرة مُدرّبة على القتال يكون في حكم المحال بالنسبة للعرب الوقوف أمامها لو أنهم حاربوهم حربهم ، ووقفوا أمامهم وجهاً لوجه . وبركون العرب الى هذه الخطة المبتكرة ، وبمعاملتهم من خضع لهم واستسلم لأمرهم معاملة حسنة ، وبتحريض (العرب المستعربة) ، (العرب المتنصّرة) ، وسكان بلاد الشام من غير الروم ، بل ومن الروم على الانضمام اليهم ، غلبوا البيزنطيين ، وحصلوا ما حصلوا عليه من أرضين .

وعند ظهور الاسلام كانت اليمن في حكم الساسانيين كما رأينا ، غير أن حكمهم لم يكن في الواقع حكماً تاماً فعليـاً ، بل كان حكماً شكلياً اسمياً ، محصوراً في صنعاء وما والاها . أما الاطراف والمدن الاخرى ، فكان الحكم فيها لسادات اليمن من حضر ومن أهل وبر . وهو حكم نسميّه حكم (اصحاب الجاه والنفوذ) . وقد شاء بعض منهم أن يظهر نفسه بمظهر الملوك المنفردين بالحكم والسلطان والجاه ، فلقبوا أنفسهم بلقب (ملك) وحملـوه افتخاراً واعتزازاً ، ولم يكن أولئك الملوك ملوكاً بالمعنى المفهوم ، انما كانوا سادات ارض وقبائل ، جمّلوا أنفسهم بالقاب الملك :

فقد نعتت كتب التواريـخ والسير سادات حمير في أيام الرسول : الحارث بن عبد كلال ، وشريـح بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، و (النعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر) ، و (زرعة ذو يزن) (زرعة بن ذي يزن) بـ (ملوك حمير) ، وذكرت أنهم أرسلوا الى الرسول رسولاً يحمل اليه كتاباً منهم يخبرونه فيه باسلامهم ، وقد وصل اليه مقفله من تبوك ، ولقيه بالمدينة ، فكتب الرسول اليهم جوابه ، شرح لهم فيه ما لهم وما عليهم ، وما يجب عليه

مراعاته من أحكام.[1] ويذكر (ابن سعد) أن هذا الرسول هو (مالك بن مُرارة الرهاوي) (مالك بن مرة الرهاوي) ، وقد وصل المدينة في شهر رمضان سنة تسع ، وذلك بعد رجوعه من أرض الروم.[2]

ودوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر أن الرسول أرسله الى (الحارث) و (مسروح) و (نعيم) أبناء (عبد كلال) من حمير. حمله اليهم (عياش ابن أبي ربيعة المخزومي). وأوصاه بوصايا ليوصي بها أبناء (عبد كلال) ان أسلموا. منهـا أنهم اذا رطنوا (فقل ترجموا) ، حتّى يفقه كلامهم. واذا أسلموا ، فليأخذ (قضبهم الثلاثة التي اذا حضروا بها سجدوا. وهي من الأثل قضيب ملمع ببياض وصفرة ، وقضيب ذو عجر كأنه خيزران ، والأسود البهيم كأنه من ساسم. ثم اخرجها فحرّقها بسوقهم. فذهب اليهم ووجدهم في دار. ذات ستور عظام على أبواب دور ثلاثة. فكشف الستر ودخل الباب الاوسط ، وانتهى الى قوم في قاعة الدار. ففعل بمثل ما أمره به الرسول.[3]

ويظهر من قوله : (فاذا رطنوا فقل ترجموا) ، أنهم لم يكونوا يحسنون عربية أهل مكة. وأنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم بلهجاتهم الخاصة بهم. وأن معنى تحريق القضب الثلاثة ، هدم ما كان لهم من عزة وسلطان وتكبر على الرعية ، لأن الاسلام قد أمر باجتثاث ذلك. وبأن يكون الحكم للرسول وحده. ولما كانت تلك القضب رمزاً للحكم والسلطان ، وقد جعل الاسلام الحكم للرسول وحده ، لهذا أمر الرسول بكسر تلك القضب ، وفي كسرها اشعار لهم بأن حكمهم القديم قد زال عنهم ، وأن الحكم الآن للرسول.

ويظهر من نص الكتاب الذي وجهه الرسول الى (زرعة بن ذي يزن) ، وفيه : (اما بعد ، فإن محمداً يشهد أن لا إلٰه الا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم ان مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من اول حمير ، وقتلت

١ الطبري (٣/١٢٠ وما بعدها) (دار المعارف) ، ابن الأثير (٢/١٢١) ، ابن خلدون (٢/٥٢) (القسم الثاني) (الوفود) ، الطبري (٣/١٥٣ ، ١٥٦) ، البلاذري ، فتوح (٨١) ، (اليمن) ، (وشرح بن عبد كلال) ، (ونعمان قيل ذي يزن) ، (وزرعة ذي رعين) ، ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٤) ، نهاية الأرب (١٨/١١٨).

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٥٦).

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٣).

المشركين .... الخ) ، [1] أن (زرعة) هذا كان رأس حمير ، والمطاع فيها ، ولهذا ارسل اليه رسولاً خاصاً به هو (مالك بن مرة الرهاوي) ، واستلم جواباً خاصاً من الرسول كتب باسمه ، ولم يذكر اسمه في الجواب الذي ارسله الى الباقين بصورة مشتركة .

وذكر (ابن سعد) أن رسول الله كتب كتاباً الى (بني عمرو) من حمير ، ولم يذكر من هم (بنو عمرو) ، وأشار الى أن في الكتاب : (وكتب خالد ابن سعيد بن العاصي) ، [2] ما يدل على أنه كان كاتب ذلك الكتاب . ويشير (ابن سعد) ايضاً الى ان الرسول ارسل (جرير بن عبد الله البجلي) الى (ذي الكلاع بن ناكور بن حبيب بن مالك بن حسان بن تبع) والى (ذي عمرو) ، يدعوهما الى الاسلام ، فأسلما وأسلمت (ضريبة بنت ابرهة بن الصباح) امرأة (ذي الكلاع) . وتوفي رسول الله ، وجرير عندهم ، فأخبره (ذو عمر) بوفاته . [3]

ويشير نسب (ذو الكلاع) المذكور الى انه من الأسرة التي كانت تحكم اليمن قبيل غزو الحبش لها . فهو من الأسر الشريفة الحميرية في اليمن . وقد عرف بـ (ذي الكلاع الأصغر) عند اهل الاخبار تمييزاً له عن (ذي الكلاع الأكبر) الذي هو في عرفهم (يزيد بن النعمان الحميري) من ولد (شهال بن وحاظة بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن شدد بن زرعة بن سبأ الأصغر) .

وأما صاحبنا (ذو الكلاع) الأصغر الذي راسله الرسول ، وأسلم . فهو أبو (شراحيل سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الأكبر) . قال اهل الأخبار : والتكلّع الحلف (وبه سُمّي ذو الكلاع الأصغر ، لأن حمير تكلّعوا على يده . أي تجمعوا ، الا قبيلتين : هوازن وحراز ، فانهما تكلعتا على ذي الكلاع الأكبر : يزيد بن النعمان) . [4]

وذكر نسب (ذو الكلاع الاصغر) على هذا الشكل : (سميع بن ناكور

---

١ الطبري (٣/١٢١ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٥) ، نهاية الأرب (١٨/١٦٨) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٨/٢٦٥ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٥/٤٩٦) ، (كلع) .

ابن عمرو بن يعفر بن يزيد بن النعمان الحميري) . و (يزيد) هـذا هو (ذو الكلاع الأكبر) . وذكر ان (أبا شراحيل) هو الرئيس في قومه المطاع المتبوع ، أسلم في حياة النبي ، فكتب اليه النبي على يد جرير بن عبد الله البجلي كتاباً في التعاون على الأسود ومسيلمة وطليحة . وكان القائم بأمر معاوية في حرب صفين ، وقتل قبل انقضاء الحرب ، ففرح معاوية بموته ، وذلك انـه بلغه ان (ذا الكلاع) ثبت عنده ان علياً بريء من دم عثمان ، وان معاوية لبّس عليهم ذلك ، فأراد التشتيت عليه فعاجلته منيته بصفين وذلك سنة سبع وثلاثين[١] .

ويكون (ذو الكلاع) الأصغر ، قد تزوج بنتاً من بنات أبرهة هي (ضريبة) [٢] .

ونسب الى النابغة قوله :

أتانـا بالنجاشـة مجليوهـا وكندة تحت راية ذي الكلاع

يريد تميماً وأسداً وطيئاً اجلبوا الجيش على بني عامر مع أبي يكسوم وذو الكلاع كان معه أيضاً[٣] .

وذكر ان رسول الله كتب الى (معد يكرب بن أبرهة) ان له مـا أسلم عليه من أرض خولان[٤] . ولم يشر (ابن سعد) الى بقية اسم أبرهـة أو الى شهرته ، لذلك لا ندري إذا كان قصد (أبرهة) المعروف ، أم شخصاً آخر اسمه (أبرهة) . ولكننا نعرف اسم قيل عرف بـ (معد يكرب) اسم والده (أبو مرة الفياض) ذو يزن ، كان متزوجاً من (ريحانة) ابنة (ذي جدن) ، فولدت له (معـد يكرب) المذكور . ثم انتزعهـا منه (الأشرم) ، ونشأ (معد يكرب) مع أمه (ريحانة) في حجر (أبرهة) [٥] ، فلعلّه نسب اليه ، لذلك قال له (ابن سعد) (معد يكرب بن أبرهة) .

وكان للفرس وللجيل الجديد الذي ظهر في اليمن من تزاوجهم باليمانيين ، وهو

---

١ تاج العروس (٥/٣٨٩) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٣ تاج العروس (٥/٤٩٦) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٥ الطبري (٢/١٤٢ وما بعدها) .

الجيل الذي عرف بـ (الأبناء) نفوذ كبير في اليمن ، وقد تحدثت عنه في الجزء السابق من هذا الكتاب . والى هذا الجيل أرسل الرسول (وبر بن يُحنس) ، يدعوه الى الإسلام ، فنزل على بنات (النعمان بن بزرج) فأسلمن ، وبعث الى فيروز الديلمي فأسلم ، والى مركبود وعطاء ابنه ، ووهب بن منبه . وكان أول من جمع القرآن بصنعاء ابنه عطاء بن مركبود ووهب بن منبه [1] .

وقد كان الفرس الذين أقاموا باليمن مثل سائر الفرس على المجوسية ، ولما دخل أهل اليمن في الإسلام دخل بعض هؤلاء فيه . وأقام بعض آخر على دينه ، وفرض الرسول على من بقي على دينه جزية [2] . وقد نفر منهم بعض سادات اليمن من الأسر القديمة ، بسبب أنهم غرباء عن اليمن ، جاؤوا الى اليمن فحكموها ، ولهذا انضم بعض منهم الى (الأسود) في ردّته . لأن (الأسود العنسي) ، كان كارهاً للأبناء ، حاقداً عليهم . يرى أنهم عصابة دخيلة ، استأثرت بحكم اليمن [3] . وقد شاءت الأقدار ان تكون نهايته بأيديهم . إذْ كان قاتله منهم فكأن قلبه كان يعلم بما سيفعلونه به ، ولهذا كرههم .

وكانت الأزد من القبائل المعروفة في اليمن ، وقد جاء وفد منهم الى الرسول على رأسه (صرد بن عبد الله) في بضعة عشر ، فأسلم ، وأمره ان يجاهد بمن أسلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن ، وكان أول ما فعله انه حاصر (جرش) ، وكانت قد تحصنت وضوت اليها خثعم ، فلما وجد ان من العسير عليه فتحها بالقوة آوى الى جبل (كشر) ، فظن أهل جرش ، انه إنما ولى عنهم منهزماً ، فخرجوا في طلبه ، حتى اذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً . ثم أسلم من نجا منهم . وحمى الرسول لهم حمى حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس ، وللراحلة ، وللمثيرة تثير الحرث ، فمن رعاها من الناس سوى ذلك فماله سحت [4] .

وكتب الرسول كتاباً الى (خالد بن ضماد الأزدي) ان له ما أسلم عليه من

---

١ الطبري (٣/١٥٨) .

٢ البلاذري ، فتوح (٨٣) .

٣ البلاذري ، فتوح (١١٣ وما بعدها) .

٤ الطبري (٣/١٣٠ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، ابن سعد ، طبقات (٣٣٧/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٩٦/١٨ وما بعدها) .

أرضه ، وكان كاتب كتابه (أُبَيّ)[1] . وكتب مثل ذلك لجنادة الأزدي وقومه ، وكان كاتب هذا الكتاب (أُبَيّ) كذلك[2] . وكتب الرسول الى (أبي ظبيان الأزدي) من (غامد) يدعوه ويدعو قومه الى الإسلام . فأجابه في نفر من قومه بمكة . وكانت لأبي ظبيان صحبة ، وأدرك عمر بن الخطاب[3] .

وذكر ان (ضماد بن ثعلبة) الأزدي ، كان صديقاً للرسول في الجاهلية ، وكان يتطبب ويرقي من هذه الرياح ، ويطلب العلم ، فقدم مكة قبل الهجرة ، واجتمع بالرسول وكلّمه ، ثم أسلم . وهو من (أزد شنوءة) .[4]

ونجد (ابن سعد) يدوّن صورة كتاب ذكر ان الرسول كتبه لبارق من الأزد . نظم فيه حقوقهم مثل ان لا تُجدّ ثمارهم وان لا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسألة من بارق . وغير ذلك . وكتب الكتاب (أُبَيّ بن كعب) ، وشهد عليه أبو عبيدة بن الجراح وحذيفة بن اليمان[5] .

ويجاور الأزد من الشرق (خثعم) و (مذحج) و (مراد) و (همدان) و (بلحارث) ، ويجاورهم في غربهم (بنو كنانة) و (بنو عك) . وأما من الجنوب ، فتتصل ديارهم بديار (همدان) و (حمير) .

وتجمع بعد وفاة النبي قوم من الأزد وبجيلة وخثعم ، عليهم حميضة بن النعمان وذلك بـ (شنوءة) ، وعلى أهل الطائف (عثمان بن ربيعة) ، فبعث عليهم (عثمان بن أبي العاص) ، عامل النبي على الطائف بعثاً التقى بهم بشنوءة ، فهزموا تلك الجُمّاع ، وتفرقوا عن (حميضة) ، وهرب وفسدت ثورة هؤلاء المرتدين[6] .

وتمرد قومٌ من (خثعم) على (أبي بكر) حينما بلغهم نبأ وفاة الرسول وخرجوا غضباً الى (ذي الخلصة) يريدون إعادته ، فأمر (أبو بكر) (جرير

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٦٧/١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧٠/١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٨٠/١) .
٤ نهاية الأرب (٧/١٨ وما بعدها) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٢٨٧/١) .
٦ الطبري (٣٢٠/٣) ، (دار المعارف) .

ابن عبد الله) ان يدعو من قومه من ثبت على أمر الله ، وان يستنفر (مُقويهم) ، فيقاتل بهم خثعم ، فنفذ أمره فتتبعهم وقتلهم وعاد الى الإسلام من تاب [1] . وكان الرسول قد بعث سنة تسع للهجرة (قطبة بن عامر بن حديدة) الى خثعم بناحية (تبالة) ، فتغلب عليهم [2] .

وبقيت (همدان) قبيلة قوية من قبائل اليمن ، وقد أسلمت كلها في يوم واحد ، أسلمت يوم مقدم (علي بن أبي طالب) الى اليمن على رأس سرية أمر الرسول بارسالها الى هناك . وقد فرح الرسول باسلامها ، وتتابع أهل اليمن على الاسلام [3] .

وقد كانت همدان بطون عديدة ، من بطونها (بنو ناعط) ، ومن رجالهم (حمرة ذو المشعار بن أيفع) ، وكان شريفاً في الجاهلية ، والظاهر انه كان صاحب موضع (المشعار) [4] . وهو (أبو ثور) . وقد وفد على الرسول ، ووفد معه (مالك بن نمط) و (مالك بن أيفع) ، و (ضمام بن مالك السلماني) ، و (عميرة بن مالك الخارفي) ، فلقوا رسول الله بعد مرجعه من تبوك ، وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم المعدنية ، برحال المَيْس على المهرية والأرحبية [5] .

ويذكر أهل الأخبار . ان الوفد لما وصل المدينة ، ارتجز (مالك بن نمط) رجزاً ، ثم خطب بين يدي الرسول ، ذاكراً له ان نصيّة ، أي أخياراً أشرافاً من همدان ، يريد رجال الوفد ، قدمت الى الرسول ، وهي (من كل حاضر وباد) أي من أهل الحضر ومن أهل البادية ، ومن أهل مخلاف خارف ويام وشاكر ، ومن أهل الإبل والخيل ، قدموا اليه ، بعد ان عافوا الأصنام واعتنقوا الإسلام . فأثنى الرسول عليهم ، وشكرهم وكتب لهم كتاباً ، وجهه (لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب ، وحقاف الرمل مع وافدها ، ذي المشعار : مالك بن نمط ، ومن أسلم من قومه) ، ثم بين لهم ما عليهم وما لهم [6] .

١ الطبري (٣/٣٢٢) .
٢ نهاية الأرب (١٧/٣٥٠) .
٣ الطبري (٣/١٣١ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (ص ٢٥١) .
٥ نهاية الأرب (١٨/١٠ وما بعدها) .
٦ نهاية الأرب (١٨/١١ وما بعدها) .

وورد ان (قيس بن مالك بن سعد بن لأي الأرحبي) قدم على رسول الله وهو بمكة ، فعرض رسول الله عليه الإسلام فأسلم ، ثم خرج الى قومه فأسلموا بإسلامه ، ثم عاد الى الرسول فأخبره بإسلامهم ، فكتب له عهداً على قومه (همدان) . وذكر ان رجلاً مرّ بالرسول ، وهو من (أرحب) من (همدان) ، اسمه (عبد الله بن قيس بن أم غزال) ، فعرض عليه الرسول الإسلام ، فأسلم ، فلما عاد الى قومه قتله رجل من (بني زُبَيْد) [1] ، وجاء وفد آخر من (همدان) الى الرسول فأسلم على يديه ، وكان فيه (حمزة بن مالك) من (ذي مشعار) ، وكان على الوفد مقطعات الحبرة مكففة بالديباج ، فكتب الرسول لهم كتاباً ، وأوصاهم بقومهم من بقية بطون همدان [2] .

وورد ان الرسول كتب لـ (قيس بن مالك بن سعد الأرحبي) ، عهداً ثبته فيه على قومه (همدان : أحمورها وعربها وخلائطها ومواليها ان يسمعوا له ويطيعوا) [3] . وذكر ان الأحمور : قدم ، وآل ذي مران ، وآل ذي لعوة ، وأذواء همدان . وقيل : حمورها : أهل القرى . وأرى ان المراد بالأحمور هم بقايا حمير الناطقون بالحميرية وهم سكان القرى والمدن. ذُكروا وخصوا بالذكر ، لأنهم اختلفوا عن غيرهم ممن كان يتكلم بلهجات أخرى ، ولهذا ميزوا عن (عربها) ، أي عرب همدان ، وهم الأعراب ، وعن الخلائط وهم الذين يكونون أخلاط الناس وعن الموالي . وذهب بعض الباحثين ، الى ان (عربها) بالغين ، أي (غربها) ويراد بهم : أرحب ، ونهم ، وشاكر ووداعة ، ويام ، وموهبة ، ودالان ، وخارف ، وعذر ، وحجور [4] .

وأما (بنو زُبَيْد) ، فكان على رأسهم (عمرو بن معد يكرب الزبيدي) ، وكان قد قدم على الرسول في أناس من قومه ، ليعرض عليه الإسلام . فأسلم وأسلم من كان معه [5] . وقد نعت بالشجاعة فدعي بـ (فارس العرب) [6] ، وهو

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٠ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٨/٩ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٠ وما بعدها) .
٣ نهاية الأرب (١٨/٩) .
٤ الطبري (٣/١٣٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) .
٥ الاشتقاق (ص ٢٤٥) .
٦ الطبري (٣/١٣٤ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٨) .

لقب يلقب بـه الشجعان الفرسان . وأقام في قومه من بني زُبَيْد . وعليهم (فروة بن مسيك المُرادي) ، الذي كان قد استعمله الرسول على مراد وزبيد ومذحج كلها : فلما توفي رسول الله ارتد عمرو بن معديكرب . ووثب (قيس بن عبد يغوث) على (فروة بن مسيك) ، وهو على مراد ، فأجلاه ونزل منزله[1] .

وكان (عمرو بن معديكرب) قد لقيَ (قيس بن مكشوح المرادي) حين انتهى اليه أمر رسول الله ، فعرض عليه ان يذهب معه الى رسول الله حتى يعلم علمه ، فإن كان نبيّاً ، فإنه لا يخفى أمره عليهم ، وإن كان غير ذلك علم علمه أيضاً وتركه ، فلم يأخذ (قيس) برأيه وسفّه فكرته . ثم أوعد (قيس) (عمرو بن معد يكرب) يوم سمع بذهابه الى الرسول وباعتناقه الإسلام . وقال : (خالفني وترك رأيي)[2] .

وكان (فروة بن مسيك المُرادي) من (بني مُراد)[3] . وقد عدّه (ابن حبيب) في جملة الجرارين ، أي الذين قادوا الفاً[4] . وقد كان مفارقاً للملوك كِندة ، ومعانداً لهم . وقد شهد يوم الرزم ، وهو يوم كان بين مراد قوم فروة وبين همدان ، انتصرت فيه همدان على مراد . وقد نسبوا شعراً لفروة ذكروا انه قاله يعتذر فيه عن الهزيمة التي أصابت مراداً في ذلك اليوم ، وكان الذي قاد همدان فيه (مراد الأجدع بن مالك)[5] .

ولما وصل (فروة) المدينة ، نزل على (سعد بن عبادة) ، وقد أكرمه الرسول ، واستعمله على مراد وزبيد ومذحج ، وبعث معه (خالد بن سعيد بن العاص) على الصدقات[6] .

والى بني الحارث بن كعب أرسل الرسول خالد بن الوليد يدعوهم الى الاسلام ،

---

١ الطبري (٣/١٨٥) .
٢ الطبري (٣/١٣٢ وما بعدها) ، (قدوم وفد زبيد) ، نهاية الأرب (١٨/٨٥) .
٣ الاشتقاق (ص ٢٤٦) .
٤ المحبر (ص ٢٥٢) .
٥ الطبري (٣/١٣٤ وما بعدها) ، (دار المعارف) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٧) ، نهاية الأرب (١٨/٨٤ وما بعدها) .

أو البقاء على دينهم وهو النصرانية مع دفع الجزية . فأسلم أكثرهم ، وذهب وفد منهم فيه (قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذي الغصة) ، و (يزيد بن عبد المدان) ، و (يزيد بن المحجل) ، و (عبد الله بن قريظ الزيادي) ، و (شدّاد بن عبد الله القناني) ، و (عمرو بن عبد الله الضبابيّ) ، فقابل الرسول ، وكان السواد غالباً على لونهم ، فقال الرسول لما رآهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال من الهند ؟ . قيل : يا رسول الله ، هؤلاء بنو الحارث ابن كعب[1] . وأمر رسول الله (قيس بن الحصين) على (بني الحارث بن كعب) . كما زار الرسول (عبدة بن مسهر الحارثي) في المدينة ، وأسلم على يديه[2] .

وكتب الرسول لبني الضباب من (بني الحارث بن كعب) ان لهم ساربة ورافعها ، لا يُحاقّهم فيها أحد ما داموا مسلمين ، وكتب كتابهم هذا المغيرة[3] . وكتب لبني قنان بن وعلة من بني الحارث كتاباً ان لهم محبساً وانهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، كتبه له المغيرة ايضاً . وأمر الرسول كاتبه : الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، ان يكتب لعبد يغوث بن وعلة الحارثي ، ان له ما أسلم عليه من أرضها وأشيائها ، أي نخلها ما دام يقوم بما يفرضه الاسلام عليه من واجبات . وكتب له (علي بن أبي طالب) ان لبني زياد بن الحارث جَمّاء وأذنبة . وأمر رسول الله المغيرة بن شعبة ان يكتب ليزيد بن المحجل الحارثي ، ان له ولقومه نمرة ومساقيها ووادي الرحمان من بين غابتها . وانه على قومه من (بني مالك) و (عقبة) لا يغزون ولا يحشرون[4] .

وأمر الرسول ان يكتب كتاباً لـ (قيس بن الحصين ذي الغصة) أمانة لبني أبيه بني الحارث ولبني نهد حلفاء بني الحارث ، يؤمنهم على أموالهم ما داموا مسلمين . وكتب كتاباً يشهد بإسلام (بني قنان بن يزيد) الحارثيين ، ويؤمنهم فيه ايضاً ان لهم مِذْوداً وسواقيه . وكتب مثل ذلك لعاصم بن الحارث الحارثي ،

١ الطبري (٣/١٢٦ وما بعدها) (دار المعارف بمصر) ، ابن سعد ، طبقات (١/٣٣٩ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٠) .
٣ ابن سعد (١/٢٦٧ وما بعدها) .
٤ ابن سعد (١/٢٦٨) .

ان له نجمة من راكس لا يُحاقّه فيها أحد[1] .

وكان (عوز بن مُسرير الغافقي) في جملة من وفـد من (غافق) على الرسول ، كما كان فيهم (جليحة بن شجار بن صُحار الغافقي)[2] .

وقد آلم ولا شك خروج الحبش من اليمن البيزنطيين كثيراً ، وأصيبوا بخروجهم منها بخسارة من الوجهة العسكرية والاقتصادية ، غير ان مما خفف من هذه المصيبة ان الفرس لم يكن لديهم آنذاك أسطول قوي يستطيع الهيمنة على مضيق المندب ، مدخل البحر الأحمر ، بل ولا سفن كافية يكون في وسعها حماية سواحل اليمن والعربية الجنوبية . لذلك لم يهدد دخولهم اليمن السواحلَ الافريقية المقابلة لسواحل جزيرة العرب وهي مهمة بالنسبة للروم ، ثم انهم عوّضوا عن خسارتهم الكبيرة الفادحة التي نزلت بهم باحتلال الفرس لبلاد الشأم ، بطردهم الفرس واجلائهم عن كل الأرضين التي استولوا عليها وباعادتهم (الصليب المقدس) الى مكانه . فرفعوا بذلك من معنوياتهم في الشرق الأوسط وفي افريقية .

وقد سُرّ اليهود من خروج الحبش من اليمن ومن استيلاء الفرس عليهـا . إذْ صاروا في حكم حكومة لا تحقد عليهم ، حكومة لا يهمها أمر اليهود لعدم وجود علاقة لها بها . بل ربما ساعدتها لأنها تناهض الروم ، على عكس النصرانية التي كانت قد وجدت في الحبشة نصيراً ومساعداً ، لذلك قلّ أتباعها وانحسروا تدريجياً ، وبقيت متمركزة بمدينة نجران .

ولنجران وضع خاص . فقد تمتعت باستقلال ذاتي في الغالب . وقد تحرشتُ بتأريخها في مواضع متعددة من هذا الكتاب وبحسب المناسبات . ولما استولى الفرس على اليمن لم تدخل في طاعتهم ولم تخضع لحكم (عاملهم) ، بـل أخذت تدير شؤونها بنفسها وبمجلس تنفيذي حصر أمور البلد في أيدي سادات ثلاثـة اختص أحدهم بالحكم المدني ، واختص ثانيهم بالنظر في أمور الدين ، واختص الثالث في شؤون الأمن والدفاع عن المدينة . وقد عرفوا بالعاقب والسيد والأسقف . وقد قدموا على الرسول وباهلوه ؛ وكتب لهـم كتاب الصلح وذلك سـنة عشر للهجرة .

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٨) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٥٢) .

واشترط عليهم في جملة ما اشترطه فيه ، ان لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به[1] وكتب الكتاب : المغيرة[2] .

وذكر ان الوفد الذي خرج الى الرسول من نجران كان مؤلفاً من أربعة عشر رجلاً من أشرافهم نصارى . فيهم : العاقب ، وهو عبد المسيح ، رجل من كندة ، وأبو الحارث بن علقمة ، رجل من بني ربيعة ، والسيد وأوس إبنا الحارث ، وزيد بن قيس ، وشيبة ، وخويلد ، وخالد ، وعمرو ، وعبيد الله ، وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم ، والعاقب ، وهو أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، والسيد ، وهو صاحب رحلهم . فتقدمهم (كرز) أخو (أبو الحارث) ، ثم قدم الوفد بعده ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحبرة ، وأردية مكفوفة بالحرير ، ثم كلّموا الرسول ، وصالحهم على شروط ، ثم عادوا الى ديارهم ، ثم عاد السيد والعاقب الى المدينة فأسلما ، وبقي الآخرون على دينهم الى زمن (عمر) فأجلاهم ، لانهم أصابوا (الربا) وكثر بينهم . واشترى عقاراتهم وأموالهم ، فتفرقوا ، فنزل بعضهم الشأم ونزل بعضهم (النجرانية) بناحية الكوفة[3]

وكان الحكم في نجران لـ (بني الأفعى) ، ثم تحول الى (بني الحارث بن كعب) ، فلما ظهر الاسلام كان حُكامها من بني الحارث بن كعب . أما بنو الأفعى فكانوا كثرة فيها . غير ان الحكم لم يكن في أيديهم[4] .

ولما توفي رسول الله ، كان عامله (عمرو بن حزم) بنجران[5] . ولما قام (ذو الحمار عبهلة بن كعب) وهو (الأسود) ، بعامة ملحج على الاسلام في حياة الرسول وكان كاهناً شعباذاً ، يري الناس الأعاجيب ، ويسبي قلوب من سمع منطقه ، أخرج (عمرو بن حزم) من نجران ، واستولى عليها ثم سار

---

١ الطبري (١٣٩/٣) ، (دار المعارف) ، البلاذري ، فتوح (٧٥ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٣٥٨/١ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٧٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٢١/١٨ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣ / ٣٢١ وما بعدها) .
٥ الطبري (١٣٠/٣) .

(عبهلة) الى صنعاء فأخذها ، وأخذ يدعو الناس اليه ، حتى قضى عليه .[1] وأرسل الرسول قبل وفاته بقليل (وبر بن يُحنس) الى (فيروز) و (جُشيش الديلمي) و (داذويه الاصطخري) ، و (جرير بن عبد الله) الى (ذي الكلاع) و (ذي ظليم) ، و (الاقرع بن عبد الله الحميري) الى (ذي زود) و (ذي مران) وذلك للقضاء على (الأسود) وعلى من استجاب اليه ، فقتل . قتله : (فيروز الديلمي) و (قيس بن مكشوح المرادي) ، وعاد من ارتد واتبعه الى الاسلام ، ولم يكن الرسول قد فارق الدنيا بعد .[2]

وكان النبيّ حين وفاته قد نصب عمالاً على عمالات تمتد من مكة الى اليمن ، فكان على مكة وأرضها (عتاب بن أسيد) و (الطاهر بن أبي هالة) . عتاب على بني كنانة والطاهر على عك . وعلى (الطائف) وأرضها (عثمان بن أبي العاص) و (مالك بن عوف النصريّ) . (عثمان) على اهل المدر ومالك على أهل الوبر أعجاز هوازن . وعلى نجران وأرضها عمرو بن حزم وأبو سفيان بن حرب . عمرو بن حزم على الصلاة ، وأبو سفيان بن حرب على الصدقات ، وعلى ما بين (رمع) و (زبيد) الى حد (نجران) خالد بن سعيد بن العاص . وعلى همدان كلها (عامر بن شهر) ، وعلى (صنعاء) فيروز الديلمي يسانده داذويه وقيس بن المكشوح ، وعلى الجند يعلى بن امية ، وعلى مأرب أبو موسى الأشعري ، وعلى الأشعريين مع عك الطاهر بن ابي هالة ، ومعاذ بن جبل يعلم القوم ، يتنقل في عمل كل عامل . بقي الحال على هذا المنوال حتى نزا بهم الأسود الكذّاب .[3]

وورد في رواية اخرى ، ان رسول الله وجه (خالد بن سعيد بن العاص) أميراً الى صنعاء وأرضها ، وذكر انه ولى (المهاجر بن ابي امية بن المغيرة المخزومي) صنعاء ، فقبض وهو عليها . وقال آخرون انما ولى (المهاجر) (أبو بكر) ، وولى (خالد بن سعيد) مخاليف اعلى اليمن . وذكر ايضاً ، ان رسول الله ولى (المهاجر) كندة والصدف ، فلما قبض رسول الله ، كتب

١ الطبري (١٨٥/٣) ، (ثم دخلت سنة احدى عشرة) .
٢ الطبري (١٨٧/٣ ، ٢٢٧ وما بعدها) ، (بقية الخبر عن أمر الكذاب العنسي) .
٣ الطبري (٣١٨/٣ وما بعدها) .

ابو بكر الى (زياد بن لبيد البياضي) من الانصار بولاية كندة والصدف الى ما كان يتولى من حضرموت . وولى المهاجر (صنعاء) . والذي عليه الاجماع ان رسول الله ولى (زياد بن لبيد) حضرموت . [1]

ولما ارتد (قيس بن عبد يغوث المكشوح) ردته الثانية ، وعمل في قتـــل فيروز وداذويه وجشيش ، وكتب الى (ذي الكلاع) وأصحابه : (ان الأبناء نُزّاع في بلادكم ، وثقلاء فيكم ، وأن تتركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد أرى من الرأي أن اقتل رؤوسهم ، وأخرجهم من بلادنا) ، كتب (ابو بكر) الى (عمير ذي مران) والى (سعيد ذو زود) والى (سميفع ذي الكلاع) والى (حوشب ذي ظلم) ، والى (شهر ذي يناف) ، يأمرهم بالتمسك بالاسلام ، وبمقاومة (قيس) والمرتدين . فكاتب (قيس) (تلك الفالة السيارة اللحجية ، وهم يصعدون في البلاد ويصوّبون ، محاربين لجميع من خالفهم) (وأمرهم ان يتعجلوا اليــه ، وليكون امره وأمرهم واحداً ، وليجتمعوا على نفي الابناء من بلاد اليمن) ، فاستجابوا له ، ودنوا من صنعاء . وعمد الى الحيلة لقتل (فيروز) ، و (داذويه) ، و (جشيش) . وتمكن من (داذويه) ، فقتله . فأحسّ (فيروز) و (جشيش) بالمكيدة ، فهربا الى (خولان) ، وهم اخوال (فيروز) ، وامتنع (فيروز) بأخواله . فثار (قيس) بصنعـاء ، وجمع (فيروز) من تمكن جمعه من الابناء ، وكتب الى (بني عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) والى (عك) يستنصرهم ويستمدهم على (قيس) . فساروا اليه ووثبت (عك) وعليهم (مسروق) ، وسار (فيروز) بهم نحو (قيس) ، فهرب في قومه والتحق بفلول (العنسي) التي تذبذبت بعد مقتله ، وسار فيما بين صنعاء ونجران . وانضم الى (عمرو بن معديكرب) . وكان (عمرو) قد فارق قومه (سعد العشيرة) في (بني زبيد) وأحلافها وانضم الى (العنسي) .

ولما ارسل (ابو بكر) مدداً الى من ارسله الى اليمن ، انضم اليه قوم من (مهرة) وسعد زيد والأزد وناجية وعبد القيس وحُدبان من بني مالك ، وقوم من العنبر والنخع ، وحمير ، واختلف (قيس) مع (عمرو بن معديكرب) ،

---

١ البلاذري ، فتوح (٨٠) .

وإنفلّ من كان معها وأخذا أسيرين الى ابي بكر ، فعفى عنها . وانتهت بذلك ردة هذين المرتدين .[1]

ومن (بني خُشَين) (ابو ثعلبة الخشني) ، وقد وفد على الرسول وأسلم ووفد عليه نفر من (خشين) فنزلوا عليه وأسلموا وبايعوه ورجعوا الى قومهم.[2]

وكان من جملة وفود اهل اليمن الى الرسول ، وفد (بهراء) ، جاؤوا الى المدينة فأسلموا ، وقد نزلوا على (المقداد بن عمرو) .[3]

ومن قبائل اليمن قبائل (مذحج) ، وتقع منازلها جنوب منازل (خثعم) وفي شمال ديار (فهد) . ومن بطونها (الرهاويون) ، وهم حيّ من مذحج ، قدم وفد منهم على الرسول سنة (عشر) للهجرة فأسلموا . وقدم رجل منهم اسمه (عمرو بن سبيع) على الرسول فأسلم ، فعقد له رسول الله لواءً.[4]

وأرسل (النخع) رجلين منهم الى النبيّ : (ارطاة بن شراحيل بن كعب) من (بني حارثة بن مالك بن النخع) و (الجهيش) واسمه (الأرقم) من (بني بكر بن عوف بن النخع) فأسلما ، وعقد لأرطاة لواء على قومه ، وجاء وفد آخر من وفد النخع من اليمن سنة احدى عشرة ، وهم مائتا رجل ، وكان فيهم (زرارة بن عمرو) ، وقيل هو (زرارة بن قيس بن الحارث بن عداء) ، وكان نصرانياً ، فأسلموا ، وبايعوا الرسول ، وكانوا قد بايعوا (معاذ بن جبل) باليمن .[5]

وقدم (جرير بن عبد الله البجلي) سنة عشر المدينةَ على رأس وفد من قومه (بجيلة) ، فأسلموا وبايعوا الرسول . وقدم وفد آخر منهم فيه (قيس بن عزرة الأحمسي) فأسلموا وعادوا الى ديارهم .[6]

---

١ الطبري (٣/٣٢٣ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٩) ، نهاية الأرب (١٨/٢٣) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٤ وما بعدها) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٣١).
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٦) ، (زرارة بن قيس بن الحارث بن عدي بن الحارث ابن عوف) ، نهاية الأرب (١٨/١١٠) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٧) .

وجاء وفد (خثعم) وفيه (عثعث بن زحر) و (أنس بن مدرك) ، فأسلموا ، وكتب النبي لهم كتاباً .[1] وقد دَوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر أن الرسول كتبه لـ (خثعم) (من حاضر بيشة وباديتها) ، وأن اللذي كتبه له وشهد عليه (جرير بن عبد الله) ومن حضر .[2] ودَوّنَ (ابن سعد) صورة كتـــاب آخر ، أمر الرسول بكتابته لـ (مطرف بن الكاهن الباهلي) . جاء فيه : (هذا كتاب من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ولمن سكن بيشة من باهلة) .[3] ويظهر منه أن (مطرفا) المذكور وقومه من باهلة كانوا يقيمون اذ ذاك بـ (بيشة) . ودَوّن (ابن سعد) صورة كتـــاب آخر كتبه الرسول الى (نهشل بن مالك الوائلي) من (باهلة) .[4] ولم يذكر الكتاب مواضع منازلهم .

وكان من رجال (جُعْفى) الذين وفدوا على الرسول : (قيس بن سلمة ابن شراحيل) ، و (سلمة بن يزيد) ، فأسلما ، وأستأذنا الرسول بالعودة الى منازلها . فلما كانا في الطريق ، لقيا رجلاً من اصحاب رسول الله ، معه إبل من ابل الصدقة ، فطردا الابل ، واوثقا الراعي . ومن (جعفى) ، (ابو سبرة) ، وهو (يزيد بن مالك بن عبد الله الجعفي) وابناه (سبرة) و (عزيز) ، قدم بهما أبوهما على الرسول ، وأسلموا .[5]

وأما (تهامة) ، فكان بها عَك والأشعرون . وكانوا قد ارتدوا بعد سماعهم خبر وفاة الرسول ، ولكنهم غُلبوا على امرهم ، وعادوا الى الاسلام .[6]

ولما توفي الرسول ، كان اول منتقض بعد النبي بتهامة عَكّ والأشعرون ، وذلك انهم حين بلغهم موت النبي ، تجمعوا واقاموا على الاعلاب طريق الساحل . فسار عليهم (الطاهر بن ابي هالة) ومعه (مسروق المكّي) ، فهزمهم وقتلهم كل قِتْلَة ، وعرفت الجموع من عَكّ ومن تأشب اليهم : الأخابث ، وسُمّي

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٨) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٤) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٤) .
٥ نهاية الأرب (١٨/٨٣ وما بعدها) .
٦ الطبري (٣/٣٢٠ وما بعدها) .

الطريق الذي تجمعوا به (طريق الأخابث) .[1]

وجاء وفد من الأشعريين ، فيه (أبو موسى الاشعري) ، ومعه رجلان من (عكّ) قدم في سفن في البحر ، ثم نزلوا الساحل وذهبوا برّاً الى المدينة ، فرأوا الرسول وبايعوه .[2]

وأرسلت (جيشان) نفراً الى المدينة فيهم (ابو وهب الجيشاني) ، فأسلموا .[3]

وكان الحكم في حضرموت الى الاقيال كذلك . وفي ايام الرسول قدم عليه (وائل بن حجر) راغباً في الاسلام ، وكانت له مكانة كبيرة في بلده ، وقد نعته كتاب الرسول الذي كتبه اليه بـ (قيل حضرموت) .[4] وقد كان لكندة والسكاسك والسكون والصدف اثر كبير في تأريخ حضرموت في هذا العهد الذي نتحدث عنه .

وذكر (ابن سعد) ، ان الرسول كتب الى اقيال حضرموت ، وعظمائهم ، كتب الى (زرعة) و (فهد) و (البسّي) و (البحيري) و (عبد كلال) و (ربيعة) و (حجر) .[5]

وكانت كندة هي القبيلة المتنفذة بحضرموت ، كان (الاشعث بن قيس بن معديكرب الكندي) من رؤساء هذه القبيلة البارزين ، وقد مدح الأعشى (قيس ابن معديكرب) بقوله :

وجلنـــداء في عُمان مقيماً ثم قيساً في حضرموت المنيف[6]

وكان (الأشعث بن قيس) على رأس وفد كندة الذي وفد على الرسول سنة عشر ، فأسلم مع قومه على يديه .[7] وقد كان رجال الوفد قد رجّلوا جمعهم واكتحلوا ، ولبسوا جبـــاب الحبرة قد كفّفوها بالحرير ، وعليهم الديباج ظاهر مخوص بالذهب ، فأمرهم الرسول بترك ذلك . فألقوه .[8]

١ الطبري (٣/٣٢٠ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٨) ، نهاية الأرب (١٨/٢٣) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٥٩) .
٤ ابن خلدون (٢/٥٦ وما بعدها) ، (القسم الثاني) ، (الوفود) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٣ وما بعدها) .
٦ ديوان الأعشى (القصيدة ٦٣ ، البيت ١٥) .
٧ الطبري (٣/١٣٨ وما بعدها) ، (قدوم الأشعث بن قيس في وفد كندة) ، نهاية الأرب (١٨/٨٧ وما بعدها) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٨) .

وذكر (أبو عبيدة) ، ان (الأشعث بن قيس) لم يكن كندياً ، وإنما صار في كندة بالولاء . وزعم ان والد (قيس) وهو (معد يكرب) كان علجاً من أهل فارس إسكافاً اسمه (سيبخت بن ذكر) ، قطع البحر من توج الى حضرموت . وللفرزدق شعر في ذلك قاله في حق (عبد الرحمن) حين خالف عبد الملك بن مروان . كما زعم ان (وردة بنت معد يكرب) عمة الأشعث كانت عند رجل من اليهود ، فماتت ولم تخلف ولداً ، فأتى الأشعث (عمر بن الخطاب) يطلب ميراثها ، فقال له عمر : لا ميراث لأهل ملتين[1] .

وقد عرف ملوك كندة الذين راسلهم الرسول بـ (بني معاوية)[2] ، وهم الذين عرفوا بـ (بني معاوية الأكرمين) ، في شعر مدحوا به .

وكان مخوص (مخوس) ومشرح وجمد (حمدة) وأبضعة بنو معديكرب ابن وليعة بن شرحبيل بن معاوية من الرؤساء الملقبين بلقب ملك ، لأن كل واحد منهم قد اختص بواد ملكه ، ولقب نفسه بلقب ملك[3] . وقد نزلوا المحاجر ، وهي أحماء حموها ، وقد عرف هؤلاء بالملوك الأربعة من بني عمرو بن معاوية وقد لعنهم النبي[4] . وعرفوا بـ (بني وليعة) ملوك حضرموت وقد جاؤوا الى الرسول مع وفد كندة فأسلموا[5] .

ووفد رئيس آخر من رؤساء حضرموت على الرسول اسمه (وائل بن حجر) ، ويظهر انه كان ذا منزلة كبيرة عند قومه ، فلما وصل المدينة أمر الرسول (معاوية بن أبي سفيان) باستقباله وبانزاله منزلاً خاصاً بـ (الحرة) ، وأمر بأن ينادى ليجتمع الناس : الصلاة جامعة ، سروراً بقدومه ، ولما أراد الشخوص الى بلاده كتب له الرسول كتاباً دعاه فيه بـ (قيل حضرموت) ، وذكر فيه انه جعل له في يديه من الأرضين والحصون . ولما أمر الرسول معاوية بأن ينزل (وائلاً) بالحرة ، مشى معاوية معه ووائل راكب ، فقال معاوية : الق إلي

---

١ ابن رسته ، الأعلاق (٢٠٥) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٥/١) .
٣ البلدان (٢٩٤/٣) (حضرموت) ، ابن خلدون (٥٦/٢) ، (القسم الثاني) ، (الوفود) البلاذري ، فتوح (١٠٩) .
٤ ابن الاثير (١٥٨/٢ وما بعدها) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٣٤٩/١) .

نعليك أتوقّى بهما من الحرّ ، فقال له : لا يبلغ أهل اليمن ان سوقة لبس نعل ملك ، ولما قال له : فأردفني ، قال : لستَ من أرداف الملوك ، ولكن إن شئتَ قصرت عليك ناقتي فسرتَ في ظلها ، فأتى معاوية النبي ، فأنبأه بقوله ، فقال رسول الله : إن فيه لعُبِّيَة من عُبِّيَّة الجاهلية [1] .

وكان (الأشعث الكندي) وغيره من (كندة) نازعوا (وائل بن حجر) على وادٍ بحضرموت فادعوه عند رسول الله ، فكتب به رسول الله ، لوائل ابن حجر . بعد ان شهد له أقيال حمير وأقيال حضرموت . فكتب له بذلك ، وأقره على ما في يده من الأرضين [2] .

ومن قرى حضرموت : تريم ومشطة والنجير وتنعة وشبوة وذمار [3] .

وكان الرسول قد استعمل (المهاجر بن أبي أميــة) على كندة والصدف و (زياد بن لبيد البياضي) من (بني بياضة) على حضرموت ، و (عكاشة ابن محصن) على (السكاسك) و (السكون) [4] . ولما توفي الرسول ، خرج (بنو عمرو بن معاوية) ، الى محاجرهم ، ونزل (الأشعث بن قيس الكندي) محجراً ، و (السمط بن الأسود) محجراً ، وطابقت (معاوية) كلها على منع الصدقة وأجمعوا على الردة ، إلا ما كان من (شرحبيل بن السمط) وابنه ، فإنهما خالفوهم في رأيهم ، فهجم المسلمون على المحاجر ، وقتلوا الملوك الأربعة . وساروا على (الأشعث) ومن انضم اليه من (كندة) ، والتقوا بمحجر الزرقان فهزمت كندة وعليهم الأشعث : فالتجأت الى حصن النجير ، ومعهم من استغووا من السكاسك وشذاذ من السكون وحضرموت والنجير ، فلحقتهم جيوش المسلمين ، ومنعت المدد عنهم ، وأخضعت من بقرى (بني هند) الى (برهوت) ، وأهل الساحل وأهل (محا) ، فخاف من بالحصن على نفسه ، واستسلم الأشعث وانتهت

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٨٧/١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٣٤٩/١ وما بعدها) .
٣ المحبر (ص ١٨٥) .
٤ المحبر (ص ١٨٦ وما بعدها) ، الطبري (٣٣٠/٣) ، (ذكر خبر حضرموت في ردتهم) .

فتنته [1] . وأُخذ الى المدينة ، فحقن (أبو بكر) دمه ، وزوّجه أخته ، ثم سار الى الشأم والعراق غازياً ومات بالكوفة [2] .

وكان (شرحبيل بن السمط) الكندي مقاوماً للأشعث بن قيس الكندي في الرئاسة ، وانتقل العداء الى الأولاد [3] .

وينسب (الصدف) الى الصدف بن مالك بن مرتع بن معاوية بن كندة) ، فهم إذن من كندة .

وذكر ان من سادات حضرموت في هـذا العهد : (ربيعة بن ذي مرحب الحضرمي) . وقد كتب اليه الرسول كتاباً أقره فيه وأقر أعمامه وإخوته وكل (آل ذي مرحب) على أرضهم وأموالهم ونحلهم ورقيقهم وآبارهم ونخلهم وشجرهم ومياههم وسواقيهم ونبتهم وشراجعهم وان (أموالهم وأنفسهم وزافر حائط الملك الذي كان يسيل الى آل قيس) هو لهم . وكتب الكتاب للرسول معاوية بن أبي سفيان [4] .

وكان يتنازع على رئاسة مهرة رجلان منهم عند ظهور الاسلام ، أحدهما (شخريت) وهو من (بني شخراة) ، وكان بمكان من أرض مهرة يقال له : (جَيْروت) الى (نضدون) . وأما الآخر فبالنّجد . وقد انقادت مهرة جميعاً لصاحب هذا الجمع ، عليهم (المصبح) أحد بني محارب ، والناس كلهم معه ، إلا ما كان من شخريت ، فكانا مختلفين ، كل واحد من الرئيسين يدعو الآخر الى نفسه : وقد قتل (المصبح) في أثناء ردة مهرة ، أما شخريت الذي كان قد أسلم ثم ارتد ، فقد سلم على نفسه بعودته الى الاسلام ، وأرسل مع الأخماس الى (أبي بكر) [5] .

ويذكر أهل الأخبار ان بعض رجال (مهرة) وفدوا على الرسول ، منهم (مَهْرى بن الأبيض) ، وقد كتب له الرسول كتاباً ، و (زهير بن قِرْضم

١ الطبري (٣/٣٣٢ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (١١٠) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٤٣) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٥ الطبري (٣/٣١٦ وما بعدها) ، (ذكر خبر مهرة بالنجد) .

ابن العُجيل بن قباث بن قومي) ، وقد أسلم ، وكتب له الرسول كتاباً حين هم بالانصراف الى قومه [1] .

ومن مواضع (مهرة) (رياض الروضة) ، بأقصى أرض اليمن من مهرة ، و (جيروت) و (ظهور الشحر) و (الصبرات) و (ينعب) و (ذات الحيم) [2] .

وأما عمان ، فكان المتنفذ والحاكم فيها (الجلندى بن المستكبر) ، وكان قد نصب نفسه ملكاً عليها ، ويفعل في ذلك فعل الملوك ، فيُعشّرُ التجار في سوق (دبا) و (سوق صحار) . وكانت سوق دبا من الأسواق المقصودة المشهورة ، يأتي اليها البائعون والمشترون من جزيرة العرب ومن خارجها ، فيأتيها تجار من السند والهند والصين [3] .

وورد في باب الرسل الذين أرسلهم رسول الله الى الملوك، انه أرسل (عمرو بن العاص) الى (جيفر بن جلندى) و (عباد بن جلندى) (عبيد) (جيفر بن جلندى بن عامر ابن جلندى) (عبدا) الأزديين صاحبي عمان [4] . مما يدل على انهما كانا هما الحاكمين على عمان في هـذا الوقت . وتعني لفظة (جلنداء) الواردة في شعر الأعشى في مدح (قيس بن معديكرب) (الجلندى) صاحب عمان [5] . وتذكر الروايات ان (جيفر) ، كان هو الملك منهما : وكان أسن من أخيه [6] .

وكان يُسامي (الجلندى) (ذو التاج) (لقيط بن مالك الأزدي) ، وقد ارتد وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ : وغلب على عمان ، والتجأ (جيفر) و (عباد) الى الجبال . فأرسل (أبو بكر) اليهما مدداً ، فتغلبا عليه وعلى من

---

١ ابن سعد ، طبقات (٣٥٥١ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٣١٧) .
٣ المحبر (ص ٢٦٥ وما بعدها) ، البلاذري (٨٧) ، (عمان) .
٤ الطبري (٣/٦٤٥) ، المحبر (ص ٧٧) ، الطبري (٣ /٢٩) (دار المعارف) .
٥ وجلنـداء في عمان مقيمـا ثم قيسا في حضرموت المنيف
ديوان الأعشى (٣١٢) (طبعة الدكتور م. محمد حسين) ، القصيدة ٦٣ ، البيت ١٥ ، البلاذري ، فتوح (٨٧) ، ابن الأثير ، الكامل (٢/٢٥٢) ، تاج العروس (٢/٣٢٣) ، (جلد) .
٦ نهاية الأرب (١٨/١٦٧ وما بعدها) .

التف حوله[1] . ويظهر ان (لقيطاً) كان ينافس (آل الجلندى بن المستكبر) على السلطان ، وقد اعتصم (آل الجلندى) بالاسلام . وانتصروا بفضل المدد الذي وصل اليهم عليه . وقد قتل (لقيط) وسُبي أهل (دبا) .

وكلمة (الجلندي) على ما يظهر من روايات الأخباريين ليست اسماً لشخص ، وإنما هي لقب ، وقد تعني (لقباً) أو (قيلاً) أو (كاهناً) في لهجات أهل عمان . ويؤيد ذلك ما ورد من انه (ادعى به من كان نبيّاً)[2] .

وارتدت طوائف من أهل (عمان) ، ولحقوا بالشحر ، وارتد جمع من (مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة) ، فجهز عليهم (أبو بكر) (عكرمة بن أبي جهل بن هشام المخزومي) و (حذيفة بن حصن البارقي) من الأزد ، فتغلبا عليهم جميعاً ، وعادوا عن ردتهم الى الاسلام[3] .

ودوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر أن الرسول كتبه لرجل من (مهرة) اسمه (مهري بن الأبيض) . كتبه له : (محمد بن مسلمة الأنصاري)[4] .

وغالب أهل عمان من الأزد . وهم من (القحطانيين على رأي أهل الأنساب . من نسل (أزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ) . وقد عرفوا بـ (أزد عمان) ، تمييزاً لهم عن أزد شنوءة وأزد السراة وعن أزد غسان . وذكر ان أصل كلمة (أزد) هي (أسد) ، وان (أسد) (أفصح من (أزد) [5] . وان الأزد نزلت عمان بعد سيل العرم ، فغلبت على من كان بها من ناس[6] . واما أزد (شنوءة) فقد اتجهوا نحو الشمال ، فذهب قوم منهم الى العراق ، ذكر انهم سُموا (شنوءة) لشنآن ، أي تباغض وقع بينهم أو لتباعدهم عن بلدهم[7] . وإذا أخذنا بهذا التفسير ، قلنا إنه يعني ان هذه الجماعة من الأزد ، كانت مستبدية أعرابية ، عاشت متباغضة يقاتل بعضها بعضاً ، وهذا ما دفع فلولها على الارتحال

---

١ الطبري (٣/٢١٣ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، ابن الأثير (٢/١٥٦ ، ٢٥٢) .
٢ الطبري (٣/٣١٤) .
٣ البلاذري ، فتوح (٨٧ وما بعدها) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦) .
٥ اللسان (٣/٧١ وما بعدها)، الاشتقاق (٢٨٣) ، تاج العروس (٢/٣٨٩) .
٦ السالمي ، تحفة الأعيان (١/٧) .
٧ تاج العروس (١/٨٢) .

عن مواضعها الاصلية وعلى الانتشار والتفكك والذهاب الى أماكن بعيدة عن مواطنها شأن الأعراب المتقاتلين المتخاذلين .

ثم نراهم يذكرون ان أول من لحق بعمان من الأزد : (مالك بن فهم بن غانم بن دوس بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن عبد الله ابن مالك) وكان سبب خروجه عن قومه الى عمان : ان كان له جار وكان لجاره كلبة ، وكان بنو أخيه (عمرو بن فهم بن غانم يسرحون ويروحون على طريق بيت ذلك الرجل ، وكانت الكلبة تعوي عليهم وتفرق غنمهم ، فرماها أحدهم بسهم فقتلها . فشكا جار مالك اليه ما فعل بنو أخيه ، فغضب مالك وقال : لا أقيم في بلد ينال فيه هذا من جاري . ثم خرج مراغماً لأخيه عمرو ابن فهم . ثم لحقت به قبائل أخرى من الأزد)[1] .

ويذكر الأخباريون ان (عمان) نسبة الى رجل اسمه (عمان بن قحطان) : وكان أول من نزلها بولاية أخيه يعرب ، وذكر أيضاً ان (عمان) اسم واد ، كان ينزل الأزد عليه حين كانوا بمأرب ، وان الفرس كانوا يسمون (عماناً) (مزون)[2] . وذكر ان العرب كانت تسمي (عمان) المزون . وذكر ان (أردشير بابكان) جعل الأزد ملاحين بشحر عمان قبل الاسلام بستمائة سنة . وقيل ان المزون ، قرية من قرى عمان يسكنها اليهود والملاحون ليس بها غيرهم[3] .

ونزل بعمان ناس من غير الأزد . منهم جمع من (بني تميم) ، ومنهم (آل جذيمة بن حازم) ، وقوم من (بني النبيت) من الأنصار ، ومنازلهم في قرية يقال لها (ضنك) من أعمال (السر) ، و (بنو قطن) من أهل يثرب كذلك ، ومنازلهم (عبرى) و (السليف) و (تنعم) من أرض السر ، وقوم من (بني الحارث بن كعب) ، وآخرون من (قضاعة) ، وفروع من (عبس)[4] .

وكان في جملة من وفد من أزد عمان على الرسول ، (أسد بن يبرح

١ السالمي ، تحفة الأعيان (١/ ٩) .
٢ اللسان (٢٨٩/١٣) ، السالمي ، تحفة الأعيان (١/ ٧)
٣ اللسان (٤٠٧/١٣) .
٤ السالمي ، تحفة الأعيان (١/ ٩) .

الطاحي ، خرج في وفد ، فبايعوا الرسول ، وطلبوا منه ان يرسل اليهم رجلاً يقيم أمرهم ، فأمر رسول الله (مخربة العبدي) ، واسمه (ملرك بن خوط) بأن يذهب اليهم ، ويعلمهم القرآن والأحكام . وجاء بعده وفد آخر فيه (سلمة ابن عياذ (عباد) الأزدي) [1] .

ومن عمان (صحار) ، وقد اشتهرت بسوقها . و (قلهات) ، وهي فرضة عمان على البحر ، اليها ترفأ أكثر سفن الهند [2] . و (دبا) (دما) و (مهرة) [3] . ويعقد سوق صحار في أول يوم من رجب ، ولا يختفر فيها بخفير ، ثم يرتحلون الى سوق دبا ، فيعشرهم (آل الجلندى) [4] .

ودوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر ان الرسول كتبه الى وفد (ثمالة) و (الحُدّان) . جاء فيه (هذا كتاب من رسول الله لبادية الأسياف ونازلة الأجواف مما حاذت صُحار) ، ثم ورد بعدها ما وضع عليهم الرسول من حقوق . وقد كتب الصحيفة (ثابت بن قيس بن شماس) ، وشهد عليهـا : سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة .

وأما البحرين ، فجلّ سكانها من (بني عبد القيس) وبكر بن وائل وتميم . وهم بين أهل شرك أو نصرانية وبين شراذم من يهود ومجوس . أما الوالي عليها في أيام ظهور الرسول ، فكان (المنذر بن ساوى) [5] . وهو من بني عبد الله ابن زيد) من (بني تميم) . وكانوا ملوك المشقر بهجر ، وكانت ملوك الفرس قد استعملتهم عليها [6] . و (عبد الله بن زيد) هذا هو (الأسبذي) ، نسبة الى قرية بـ (هجر) يقال لها (الأسبذ) ، ويقال انه نسب الى (الأسبذيين) ، وهم قوم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين [7] .

---

١ ابن سعد ، طبقات (٣٥١/١) ، نهاية الأرب (١١٥/١٨) .
٢ السالمي ، تحفة الأعيان (٨/١) ، البكري ، معجم (١٠٩/٣) .
٣ البلاذري ، فتوح (٨٨) .
٤ السالمي ، تحفة الأعيان (٨/١) .
٥ ابن الأثير (٨٩/٢) ، الطبري (١٦١/٢ وما بعدها) ، البلدان (٧٤/٢) ، المحبر (ص ٢٦٥) .
٦ المحبر (ص ٢٦٥) .
٧ البلاذري ، فتو) (٨٩) ، تاج العروس (٥٦٤/٢) ، (السبذة) .

و (المشقر) حصن آخر من حصون البحرين المعروفة ، وهو من الحصون العادية للذلك نسب بعض أهل الأخبار بناءه الى (سليمان بن داوود) على عادتهم في ارجاع نسب الأبنية العادية اليه في الغالب عند عجزهم عن معرفة أصل الأبنية . وذكر بعض آخر انه من بناء (طسم) . وقد كان لعبد القيس ، ولهم حصن آخر يليه اسمه (الصفا) قبل مدينة (هجر) . وبين الصفا والمشقر نهر يجري يقال له (العين) . ويذكر أهل الأخبار ان (بني عبد القيس) لما جاؤوا بها (إياداً) ، فأخرجوهم عنها قهراً ، وأخذوا مكانهم . وان (كسرى) حبس (تميماً) بهذا الحصن ، وفيه فتك (المكعبر) والي (كسرى) ، ببني تميم . وعرف الموضع لذلك بـ (فج بني تميم) [1] .

وقد ورد اسم هذا الحصن في شعر (لبيد بن ربيعة العامري) ، إذْ قال :

وأعوص بالدوميّ من رأس حصنه وانزلن بالأسباب رب المشقر

وقد ذكر شارح الديوان ان الشاعر (لبيد) قصد بالدوميّ ملك دومة الجندل . وان المشقر حصن بالبحرين . (قال أبو عمرو : وكان ربّه رجلاً من الفرس) [2] . وجاء في هامش التحقيق ان (المشقر : قصر بالبحرين بناه معاوية بن الحارث بن معاوية الملك الكندي ، وكانت منازلهم ضرية ، فانتقل أبوه الحارث الى الغمر ، وبنى ابنه المشقر ، وقال ابن الأعرابي : المشقر بمدينة قديمة في وسطها قلعة ، وهي مدينة هجر) [3] .

وتقع ديار (عبد القيس) الى الشمال من ديار (أزد عمان) ، وهي تشرف على الخليج ، وتمتد نحو الشمال حتى تصل الى منازل قبائل (بكر بن وائل) ، وقد خالطتها قبائل أخرى . وسكنت الى الغرب من ديار (عبد القيس) قبائل (تميم) ، التي تمتد ديارها موازية لديار (بني عبد القيس) الواقعة الى شرقها حتى تصل الى ديار (بكر بن وائل) وديار (أسد) التي تؤلف الحدود الشمالية الغربية لها . وأما القبائل النازلة الى الغرب من ديار تميم ، فهي : أسد وهوازن

---

١ وهناك مواضع أخرى عرفت باسم (المشقر) ، البلدان (٤/٦١٥) (طهران) ، القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد (٧٣) ، مراصد الاطلاع (٣/١٢٧٥) ، البكري ، معجم (٣/١٢٣٢) .

٢ شرح ديوان لبيد (ص ٥٦) .

٣ شرح ديوان لبيد (ص ٥٦) ، هامش رقم (١) .

و (غني) و (باهلة) ، وأما القبائل النازلة الى الجنوب من بلاد تميم ، فهي (أزد عمان) و (عبد مناة) و (ضبّة) .

ويظهر من دراسة الروايات التي يرويها أهل الأخبار عن هجرة القبائل ، ان (بني عبد القيس) ، لما جاؤوا الى البحرين ، كانت البلاد إذْ ذاك لإياد ، فجلت إياد من البحرين ونزحت نحو العراق ، فكان ما كان لها من مواقف هناك مع الفرس [1] .

وسبب غدر (المكعبر) ببني تميم ، هو وثوبهم على قافلة كانت محملة بالطرف والأموال أرسلها (وهرز) عامل كسرى على اليمن الى كسرى ، فاغتاظ (كسرى) من ذلك ، وأراد ارسال جيش عليهم ، فأخبر ان بلادهم بلاد سوء ، قليلة الماء ، وأشير اليه ان يرسل الى عامله بالبحرين ان يقتلهم ، وكانت تميم تصير الى هجر للميرة . فلجأ العامل الى الغدر بهم ، فأمر مناديه ان ينادي لا تطلق الميرة إلا لتميم ، فأقبل اليه خلق كثير ، فأمرهم بدخول المشقر وأخذ الميرة ، والخروج من باب آخر ، فدخل قوم منهم فقتلهم . ثم أجهز على الباقين ، وبعث بذراريهم في سفن الى فارس [2] .

وذكر ان (المكعبر) واسمه (فيروز بن جشيش) ، تحصن بـ (الزارة) وانضم اليه مجوس كانوا تجمعوا بالقطيف ، وامتنعوا عن أداء الجزية ، فحاصرها (العلاء) وفتحها في أول خلافة (عمر) . وفتح (العلاء) (السابون) و (دارين) في الساحل المقابل من الخليج [3] .

وتميم من القبائل الكبيرة التي كان لها شأن عند ظهور الاسلام . وقد سكنت في مواضع متعددة من جزيرة العرب وفي العراق وبادية الشأم . وكان من أشرافها عند ظهور الاسلام : عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي ، والأقرع ابن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وقيس بن عاصم [4] ،

١ الأغاني (٢٠/٢٣) ، البكري (١/٦٧ ، ٨٢) ، البلاذري ، أنساب (١/٢٥) ، الجاحظ ، البيان (١/١٢١) .
٢ آثار البلاد (ص ٧٣) .
٣ البلاذري ، فتوح (٩٥ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/١١٥) ، (قدوم بني تميم ونزول سورة الحجرات) ، نهاية الأرب (١٨/٣٢ وما بعدها) .

وربيعة بن رفيع ، وسبرة بن عمرو ، والقعقاع بن معبد ، ووردان بن محرز ، ومالك بن عمرو ، وحنظلة بن دارم ، وفراس بن حابس [1] ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن سعد ، ورباح بن الحارث [2] . و (سفيان بن الحارث بن مصاد) [3] .

وكان (الزبرقان بن بدر) على الرباب وعوف والأبناء ، وقيس بن عاصم على (مقاعس) والبطون ، و (صفوان بن صفوان) على (بهدى) ، و (سبرة بن عمرو) على (خضم) من (بني عمرو) . و (بهدى) و (خضم) قبيلتان من (بني تميم) . و (وكيع بن مالك) و (مالك بن نويرة) على (بني حنظلة) : (وكيع) على (بني مالك) و (مالك) على (بني يربوع) . ولما وقعت (الردة) ، ارتبك موقف زعماء (تميم) ، وكانوا متخاصمين غير متفقين فيما بينهم ، وبينهم تحاسد وتباغض ، منهم من أدى الصدقة ومنهم من امتنع ، وتخاصموا فيما بينهم بسبب ذلك . وزاد في ارتباكهم هذا قدوم (سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان) من الجزيرة ، وكانت ورهطها في (بني تغلب) تقود أفناء (ربيعة) ، ومعها (الهذيل بن عمران) في (بني تغلب) و (عقة بن هلال) في النمر ، و (تاد) في إياد ، و (السُليل بن قيس) في (شيبان) ، وحاروا في أمرهم ، منهم من انضم اليها ومنهم من خالفها وقاتلها ، ثم اتجهت نحو (مسيلمة) باليمامة واتفقت معه ، ثم غادرته راجعة الى قومها [4] .

ولما امتنع (مالك بن نويرة) عن دفع الصدقة ، سار عليه (خالد بن الوليد) الى (البطاح) ، وكان قد فَرَّقَ قومه ، وأمرهم بعدم التعرض والمقاومة ، ولكنه قتل . وانتهى بذلك أمر تميم [5] .

وكان (الاقرع بن حابس بن عقال) المجاشعي الدارمي في جملة المؤلفة

---

١ الطبري (٣/١٥٧) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٩٣ وما بعدها) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٣/٢٦٧ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/٢٦٧ وما بعدها) .
٥ الطبري (٣/٢٧٦ وما بعدها) ، (ذكر البطاح وخبره) ، الميداني ، مجمع الأمثال (٢/١٣٩) ، العقد الفريد (٣/٢٦٤) ، زهر الآداب (٣/٧٦١) ، تاريخ خليفة بن خياط (١/٧٠) .

قلوبهم .[1] وهو من سادات تميم. وذكر انه كان على دين المجوس .[2]

ولقبيلة تميم صلات بملوك الحيرة ، وقد كانت (الردافة) اليها . وهي مكانة ودرجة مهمة جداً ، لا تعطى الا للقبائل المتنفذة القويّة . ومع ذلك فقد وقعت بينها وبينهم خطوب ومعارك . لما في طبع القبائل من شق عصا الطاعة عند شعورها بوجود وهن في الحـــكم . وبأن في امكانها الانفراد بنفسها في الحكم . كما كانت لها صلات متينة برجال مكة التجار ، ولها معهم اعمال وتجارة وعهود وحبال . لحماية قوافل قريش ولتأمين وصولها سالمة الى الاماكن التي كانت تقصدها .

ونجد تميماً تحارب (بكر بن وائل) ومن يشد ازرها ويعاونها من (الاساورة) وذلك يوم (الصليب) . وقد انتصر (بنو عمرو) وهم من تميم على (بني بكر) ، وقتل (طريف) (رأس الاساورة) .[3] وقد كانت (بكر بن وائل) من القبائل المؤيدة للساسانيين . وكان الفرس يقومونهم ويجهزونهم . ويشرف على تجهيزهم عاملهم على (عين التمر) .[4]

وتظهر صلات (تميم) الطيبة بقريش من اخبار اهل الاخبار عن تجارة قريش وعن الطرق التي كان يسلكها تجارهم لوصولهم الى الاسواق ، مثل سوق دومة الجندل والمشقر والاسواق الاخرى . لقد كانت الطرق المؤدية الى تلك الاسواق تمر بأرضين هي لاحياء من تميم . ولم تكن هذه الاحياء تتعرض لتجار مكة او للتجار المتحالفين معهم والذين يتاجرون باسمهم ، بأي سوء . على العكس كانت تحترمهم وتقدم لهم المعونة ، لوجود حبال وعهود عقدها ساداتهم مع سادات قريش . ونظراً الى ما كان من حلف بين (كلب) و (تميم) ، فقد صار في وسع تاجر مكة ومن هو في حلفه او يتاجر بحماية تجار مكة ، المرور في منازل (كلب) بأمن وسلام .[5]

ومن ديار تميم (الحزن) ، وهو لـ (بني يربوع) . وهو مرتع من مراتع

١ تاج العروس (٤٤/٦) ، (الف) .

٢ الأعلاق النفيسة (٢١٧) .

٣ M. J. Kister, VIII, II, November, 1965, P. 114. Kister, P. 114.

٤ النقائض (٥٨١) .

٥ Kister, P. 128.

العرب ، فيه رياض وقيعان . وقيل هو صقع واسع نجدي بين الكوفة وفيد . وقيل : هو قف غليظ ، ومربع من مرابع العرب ، بعيد عن المياه ، فليس ترعاه الشياه ولا الحمر . فليس فيها دمن ولا ارواث . [1] وعرف بأنه بلاد بني يربوع . وهناك حزن آخر ما بين زبالة فما فوق ذلك مصعداً في بلاد نجد . وفيه غلظ وارتفاع . وقد ورد ذكر (الحزن) في شعر للأعشى ، حيث يقول :

ما روضة من رياض الحزن ، معشبة خضراء جاد عليها مُسبل هطل

وذكر انه موضع كانت ترعى فيه إبل الملوك ، وهو من ارض (بني اسد) . [2]

وكانت قوافل قريش اذا قصدت (دومة الجندل) ، وسلكت السبل التي تمر بـ (الحزن) ، فانها تكون آمنة مطمئنة ، لانها تمر ببلاد مضر . ولا يتحرش مضريّ بمضريّ . وكانت اذا عادت وأرادت سلوك مواضع الماء ، مرّت بديار كلب ، فتكون عندئذ آمنة مطمئنة ، لأن لكلب حلفاً مع (تميم) و (تميم) من مضر ولها صلات وعلاقات بمكة . واذا مرت بحزن اسد ، فانها تكون آمنة كذلك ، لأن (بني اسد) من مضر . واذا دخلت ديار (طيء) ، صارت آمنة ايضاً ، لأن لطيء حلفاً مع بني اسد . [3]

ويظهر انه قد كانت لتميم صلات بقريش وبمكة تعود الى ايام سابقة على الاسلام . اذ نجد في روايات اهل الاخبار ان نفراً منهم كانوا يذهبون الى مكة ومنهم من كان يذهب اليها للاتجار . فقد ذكر ان تميمياً كان متجره بمكة ، وقد اختلف مع (حرب) ، فاعتدى عليه (حرب) . فذهب التميمي الى (بني هاشم) واستجار بهم ، فأجاره (الزبير بن عبد المطلب) ، رئيس (بني هاشم) ، [4] وذكر ان نفراً من (بني دارم) كانوا في جوار رجال من (بني هاشم) . [5]

بل يظهر انه قد كان لهذه القبيلة علاقة بمكة نفسها وبسوق عكاظ . وهو

١ اللسان (١١٣/١٣) ، (حزن) ، تاج العروس (١٧٤/٩) ، (حزن) .
٢ اللسان (١١٣/١٣) ، (حزن) ، تاج العروس (١٧٤/٩ وما بعدها) ، (حزن) .
٣ المرزوقي ، الأمكنة (١٦٢/٢) .
٤ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٤٦٥/٣) ، ابن عساكر ، تاريخ ، (٣٢٩/٧)، سيرة ابن دحلان (٢٢/١) . Kister, P. 130.
٥ Kister, P. 131.

سوق مهم تقصده قريش ، وكانت تتحكم في شؤونه . فلتميم صلة بـ (الإفاضة) ، ولها صلة بالحكومة في سوق عكاظ ، وقد ذكر اهل الاخبار اسماء عدد من حُكّام تميم حكموا بعكاظ . وكانت هي وقريش وكنانة ، تدير مراسم الحج وتحافظ على شعائره . مما يدل على انها كانت ذات صلة قديمة بمكة ، ولا سيما بعض احياء منها ، مثل (بنو دارم) ، الذين ظهروا على اكثر احياء تميم . ولعل ابتعادها عن مكة وارتحال احيـــائها الى مواطن بعيدة عن مكة ، قد باعد فيما بينها وبين قريش ، وقلل من صلاتها بهم .

وتتجلى هذه العلاقة في تزوّج قريش من (تميم) ، مع ما عرف عن قريش من الامتناع من التزوج من غير قريش . وقد روى اهل الاخبار اسماء جماعة من اشراف مكة ، كانت أمهاتهم من (تميم) . ونجد في مكة رجالاً من تميم تحالفوا مع رجال من مكة . فصاروا من حلفائهم . [١]

وقيام (تميم) بمهمة (الحكومة) في سوق عكاظ ، وبـ (الإجازة) ، يدل على اهمية مركز هذه القبيلة بالنسبة لقريش . وما كانت قريش تعطي (الإجازة) لتميم ، لولا ما كان لها من نفوذ ومن علاقات طيبة بقريش . وقد افتخر (بنو تميم) ، بالحكومة في (عكاظ) وبالاجازة في الجاهلية وفي الاسلام . [٢]

وكان (بنو عبد القيس) من قبائل البحرين المتنفذة . وكانت غالبيتهم على النصرانية ، ومنهم كان (الجارود بن عمرو بن حنش بن المعلي) ، الذي قدم في وفد عبد القيس الى الرسول ، فأسلم على يديه . وقد رفض الدخول فيما دخل فيه قومه من الردة عن الاسلام والعودة الى النصرانية وتأييد (الغرور) : المنذر ابن النعمان بن المنذر . [٣] وكان في جملة الوفد الذي قدم على الرسول عام الفتح : (عبد الله بن عوف الأشج) و (منقذ بن حيّان) ، وهو ابن اخت الأشج ، فأسلما وعادا الى ديارهما . [٤]

ودوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر ان الرسول وجهه الى (الأكبر بن عبد القيس) . ولم يشر الى المراد من (الاكبر بن عبد القيس) . ومما جاء فيه

١ المصعب الزبيري ، نسب قريش (٢٦٧) ، Kister, P. 167

٢ Wellhausen, Reste, S., 57, Grünebaum, Mohammadan Festivals, P. 32. F., Kister, P. 156.

٣ الطبري (٣/١١٣٦) ، (قدوم الجارود في وفد عبد القيس) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤١) ، نهاية الأرب (١٨/٦٥ وما بعدها) .

ان (العلاء بن الحضرمي) (امين رسول الله على برّها وبحرها وحاضرها وسراياها وما خرج منها ، وأهل البحرين خفراؤه من الضيم وأعوانه على الظالم وأنصاره في الملاحم) : [1]

وكان الرسول قد ارسل (العلاء بن الحضرمي) سنة ثمان قبل فتح مكة الى (المنذر بن ساوي العبدي) ، يدعوه الى الاسلام ، فأسلم ، فهلك بعد وفاة الرسول بشهر ، وارتد بعده أهل البحرين . [2] واجتمعت (ربيعة) بالبحرين وارتدت ، وملكوا عليهم (المنذر بن النعمان بن المنذر الغرور) ، وكان يعاونه (الغرور بن سويد) اخي النعمان بن المنذر ، ويسمى (المنذر بن سويد بن المنذر) ، [3] وكان رأس اهل الردة (الحطم بن ضُبَيْعة) أخو بني قيس بن ثعلبة ، فجمع من اتبعه من بكر بن وائل ، حتى نزل القطيف وهجر ، واستغوى الخط ومن فيها من الزط والسيابجة ، وبعث بعثاً الى (دارين) وبعث على (جواثي) فحصرهم . [4] وكان قد منى (سويد بن المنذر) بأن يجعله كالنعمان بالحيرة ، غير انه فشل وغلب المسلمون اهل الردة ، وقتل (الحطم) . [5]

وكان (المنذر بن النعمان) يسمى (الغرور) ، فلما ظهر المسلمون ، قال : لست بالغرور ولكني المغرور ، ولحق هو وفُلّ (ربيعة) بالخط ، فأتاها (العلاء) ففتحها وقتل المنذر ومن معه . وذكر انه نجا فدخل الى (المشقر) ، ثم لحق بسليمة فقتل معه . وذكر انه قتل (يوم جواثا) ، وذكر انه استأمن ثم هرب فلحق فقتل . [6] وقيل انه اسلم .

والمنذر بن ساوى هو رجل عربي من (بني تميم) من (بني دارم) على رأي اكثر أهل الاخبار . وقد ذهب بعضهم الى انه من (بني عبد القيس) . ولكن اكثرهم على انه (المنذر بن ساوى بن الاخنس بن بيان بن عمرو بن عبد الله ابن زيد بن عبد الله بن دارم التميمي الدارمي) . [7] وكان هو المتولي على البحرين في ايام الرسول .

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٣) .
٢ الطبري (٣/١٣٦) وما بعدها ، (٣٠) ، البلاذري ، فتوح (٨٩) .
٣ الطبري (٣/٣٠٤٣/٣٠٩ وما بعدها) .
٤ وهو حصن بالبحرين ، البلاذري ، فتوح (٩٤) .
٥ الطبري (٣/٣٠٤ وما بعدها) .
٦ البلاذرى ، فتوح (٩٥) .
٧ أسد الغابة (٤/٤١٧) .

ونجـد في طبقات ابن سعد صورة كتاب أرسله الرسول الى (المنـذر بن ساوى) ، يذكر فيه ان رسُل رسول الله قد (حمدوك ، وانك مهما تصلح أصلح اليك واثبتك على عملك وتنصح لله ولرسوله) ، كما نجد للرسول كتاباً آخر ، يخبر (المنذر) فيه انه قد بعث اليه (قدامة) و (أبا هريرة) ، و (فادفع اليهما ما اجتمع عندك من جزية أرضك) . وأرسل كتابـاً مثله الى (العلاء بن الحضرمي) يخبره فيه ، انه بعث الى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية ، فعجله بها . وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور) . وكاتب الكتابين أبي[1] . وكتب المنذر كتاباً الى الرسول ، جاء فيه : (إني قرأت كتابك على أهل هجر ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه)[2] .

وفي طبقات ابن سعد ، كتاب من الرسول ، ذكر انه أرسله (الى الهلال صاحب البحرين) ، فيه دعوة لهلال الى الاسلام والى عبادة الله وحده والدخول في الجماعة فان ذلك خير له[3] . ويظهر ان هلالاً هذا كان أحد سادات البحرين في هذا الوقت ، وانه كان قد تأخر عن (الجماعة) أي قومـه في الدخول في الاسلام ، فكتب الرسول له ذلك الكتاب .

وأما (هجر) ، فكان عليها عند ظهور الاسلام مرزبان يدعى (سيبخت) واليه ذهب أيضاً العلاء بن الحضرمي يدعوه الى الاسلام ، فأسلم وأسلم معه جميع العرب وبعض العجم[4] . وأما أهل الأرض هناك من اليهود والنصارى والمجوس ، فقد صالحوا العلاء على الجزية[5] . وهَجَرَ سوق من أسواق الجاهلية ، يؤمها (بنو محارب) من (عبد القيس)[6] . ويظهر من كتاب أمر رسول الله بتدوينه اليه ، انه لما أسلم وصدق أرسل الى رسول الله رسولاً يخبره بذلك اسمه (الأقرع) ، فكتب اليه الرسول كتاباً حمله اليه الأقرع صاحبه ، ويذكر رسول الله فيه انـه

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٦/١) .
٢ نهاية الأرب (١٦٧/١٨) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٥/١) .
٤ البلدان (٧٤/٢) ، البلاذري ، فتوح (٨٩ وما بعدها) .
٥ أسد الغابة (٧/٤) ، فتوح البلدان (٨٦) ، البلدان (٧٢/٢) .
٦ صفة (١٣٦ وما بعدها) (ابن بليهد ١٩٥٣ م) .

علم بما جاء في كتاب (سيبخت) اليه ، وانـه يحثه ويدعوه الى القيام بشعائر الاسلام[1] .

وقد ذهب بعض أهل الأخبار الى ان هجراً كانت قاعـدة البحرين ، وقال بعض آخر انها اسم لجميع أرض البحرين . وقـد اشتهرت بالتمر ، فقيل في المثل : كمُبضِع التمر الى هجر ، كما عرفت بأوبئتها ، وقـد روي ان الخليفة عمر قال : (عجبت لتاجر هجر وراكب البحر) ، كأنـه أراد ذلك لكثرة وبائها ، فعجب من تاجر يذهب لذلك اليها ، كما عجب من راكب البحر ، لأنه سواء في الخطر . ويظهر انها كانت كثيرة المياه ذات مستنقعات ، لذلك تفشت بها الأوبئة . وذكر الأخباريون انها عرفت بـ (هجر) ، نسبة الى (هجر بنت المكفف) ، وكانت من العماليق ، أو من العرب المتعربة ؛ وكان زوجها : محلم ابن عبد الله صاحب النهر الذي بالبحرين ، ويقال له : نهر محلم وهناك عين ماء عرفت بعين هجر وبعين محلم[2] .

وذكر أهل الأخبار ان (ملك هجر) ، ولم يشيروا الى اسمه ، كان قـد سوّد (زُهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية) ، ووفّده على النبي ، وانـه كان في جيش (سعد بن أبي وقاص) الذي أرسله الى العراق ، فجعله (سعد) من (أمراء التعبية)[3] . ولعلهم قصدوا بذلك المرزبان (سيبخت) ، الذي ذهب اليه (العلاء بن الحضرمي) بأمر الرسول ليدعوه الى الاسلام ، فأسلم على يديه .

ويعرف الساحل المقابل لجزيرة (أوال) من جزر البحرين ، بـ (السيف) سيف البحر . والسيف في اللغة ساحـل البحر[4] . ويليه (الستار) : (ستار البحرين)[5] .

و (كاظمة) جوّ على سيف البحر ، وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب[6] .

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٥) .
٢ تاج العروس (٣/٦١٣ وما بعدها) ، البكري ، معجم (٣/٣٤٦) ، البلدان (٥/٣٩٣) ، المعاني الكبير ، لابن قتيبة (٢/٩٥٤) .
٣ الطبري (٣/٤٨٨) .
٤ اللسان (٩/١٦٧) .
٥ صفة (١٣٦ وما بعدها) ، (طبعة ابن بليهد) ، اللسان (٤/٣٤٥) .
٦ اللسان (١٢/٥٢١ وما بعدها) .

وعرفت بـ (كاظمة البحور)[1] . وقد أكثر الشعراء من ذكرها[2] . وهي موضع مجهول في الوقت الحاضر ، يظن ان مكانه على ساحل الجون المقابل لموضع (الجهرة) . ويعرف ذلك الموضع بـ (دوحة كاظمة)[3] .

وكان على الأبلة وما والاها (قيس بن مسعود بن خالد) ، فلما علم بما فعله كسرى بملك الحيرة ، تفاوض سراً مع بكر ، واتفق معها على مساعدتها . فلما انتهت معركة (ذي قار) لم يجرأ كسرى ان يلحق به أذى ما هو في أرضه ، فعمد الى الحيلة للانتقام منه ، بأن كتب اليه يطلب منه المجيء لرؤيته . فلما ذهب اليه ، قبض عليه وحبسه في قصره بالأنبار أو بساباط[4] . وقد عدّه أهل الأخبار في المعدودين من (أجواد الجاهلية) . ذكروا انه كانت له مائة ناقة مُعدّة للأضياف إذا نقصت أتمها . وقد مدحه لذلك الشعراء . وعدّ من (ذوي الآكال) . وذكر ان كسرى كان قد أطعمه (الأبلة) وثمانين قرية من قراها[5] .

وكان على اليمامة (هوذة بن علي الحنفي) ، وكان ملكاً على دين النصرانية ، واليه أرسل رسول الله (سليط بن عمرو) (سليط بن قيس بن عمرو الأنصاري) يدعوه الى الاسلام . فأرسل (هوذة) وفداً الى الرسول ليقول له : (إن جعل الأمر له من بعده أسلم ، وسار اليه ونصره ، وإلا قصد حربه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، ولا كرامة)[6] . ثم مات بعد قليل . وذكر انه كان شاعر قومه وخطيبهم ، وكانت له مكانة عند العرب[7] .

وذكر انه كان من (قُرّان) من مواضع اليمامة ، وأهلها أفصح بنو حنيفة .

١ صفة (١٣٦ وما بعدها) ، (ابن بليهد) .

٢ البلدان (٤/ ٤٣١) ، (بيروت ١٩٥٧ م) ، صبح الأعشى (٣/ ٢٤٧) ، تقويم البلدان (٥/ ٥٦) ، البكري (٤/ ١١٠) ، شرح مقامات الحريري (٢/ ٣٥٩) ، (الشريشي) .

٣ التحفة النبهانية في تاريخ جزيرة العرب ، لخليفة بن أحمد آل نبهان (٨/ ٥٧) .

٤ ديوان الأعشى (القصيدة ٣٦) ، (ص ١٢٨) ، (طبعة كاير) ، Geyer

٥ المحبر (ص ١٤٣ وما بعدها ، ٢٥٣) .

٦ ابن الأثير (٢/ ٨٩) ، البلاذري ، فتوح (٩٧) .

٧ (سليط بن عمرو العامري) ، نهاية الأرب (١٨/ ١٦٦) .

وانه كان من وجهاء قومه . وقد نسب على هذه الصورة : (هوذة بن عليّ بن ثمامة بن عمرو الحنفي) من بكر بن وائل [1] . وورد ان تميماً كانت قد قتلت والد (هوذة) ، وان هوذة كان يكره بني تميم كرهاً شديداً حتى ان كسرى حين سأله عنهم أجابه : (بيني وبينهم حساء الموت ، فهم الذين قتلوا أبي) . وورد ان كسرى سأل هوذة عن عيشه وعن ماله ، فقال : (أعيش عيشة رغيدة ، واغزو المغازي ، واحصل على الغنائم) [2] . ولكن الظاهر انه لم يكن كفؤاً لبني تميم . وان ملكه لم يتجاوز حدود اليمامة .

وزعم أهل الأخبار ان (كسرى) تَوَجَّهَ الى اليمامة ، أو انه سمع بجوده وكرمه ، فاستدعاه اليه ، ولما وجد فيه عقلاً وسياسةً ورجاحة رأي تَوَّجه بتاج من تيجانه ، ولذا لقب هوذة بـ (صاحب التاج) ، وأقطعه أموالاً بـ (هجر) ، وكان نصرانياً . وقيل إن كسرى دعا بعقد من الدُرّ فعقد على رأسه وكساه قباء ديباج مع كسوة كثيرة ، فمن ثم سُمّي هوذة ذا التاج . وذكر ان سبب استدعاء كسرى له ، انه أكرم رجال العير التي حملت الطاف وهدايا وأموال (وهرز) التي أرسلها من اليمن الى (كسرى) ، وكانوا قد انتُهبوا حتى لم يبق عندهم شيء ، فصاروا الى (هوذة) ، فأكرم مثواهم وآواهم وكساهم وزوّدهم وحباهم ، وسار معهم اليه ، فأكرمه كسرى على النحو المذكور [3] . وقيل إنه لم يكن صاحب تاج ، وإنما كان يضع على رأسه إكليلاً رصعه بأحجار ثمينة كأنه التاج تشبها بالملوك [4] .

ويروي أهل الأخبار ان الشاعر الأعشى قال في حق هوذة :

له أكاليل بالياقوت فصّلها   صوّاغها لا ترى عيبا ولا طبعا

١ البكري ، معجم (ص ١٠٦٣) ، (وقران كرمان باليمامة ، وهي وملهم لبني سحيم من بنى حنيفة) ، تاج العروس (٣٠٩/٩) ، (قرن) .

٢ الكامل ، لابن الأثير (٢٧٨/١) ، المعارف ، لابن قتيبة (٩٧ وما بعدها) ، الأغاني (٧٥/١٦ وما بعدها) .

٣ الأغاني (٧٥/١٦ وما بعدها) ، العمدة ، لابن رشيق (٢٠٦/٢) ، الطبري (١٦٩/٢ وما بعدها) (طبعة دار المعارف بمصر) .

العقد الفريد (٢٤٣/٢) .

وذكر انه كان أول معدّي لبس التاج ، ولم يلبس التاج معدي غيره [1] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن يوم الصفقة وعن يوم المشقر ، ان نفوذ (هوذة) لم يكن واسعاً بعيداً ، بل كان محدوداً بحدود قبيلته ، وانه لم يكن في مستوى ملوك الحيرة أو آل غسان ، بل كان سيد قومه إذْ ذاك ، حتى انه لما طمع في الجعالة التي كان الفرس يعطونها لمن يتولى خفارة قوافلهم الآتية من اليمن الى العراق أو الذاهبة من العراق الى اليمن ، ووافق الفرس على ان يعطوه ما أراد ، وسار مع القافلة خفيراً لها من (هجر) حتى (نطاع) ، وبلغ (بنو سعد) ما صنعه (هوذة) ، خرجوا عليه وأخذوا ما كان مع الأساورة والقافلة وما معه ، وأسروه ، حتى اشترى منهم نفسه بثلاثمائة بعير ، وقد عُيّر في ذلك ، وتغنى شاعر (بني سعد) بذلك اليوم ، الذي سيق فيه هوذة ، وهو مقرون اليدين الى النحر ، فلما استلم بنو سعد الإبل المذكورة جاؤوا به الى اليمامة فأطلقوه [2] .

ويذكر أهل الأخبار ان هوذة سار مع من تبقى من الأساورة وبقية فلول القافلة الى (كسرى) ، ليخبره بما حدث له ، وبما فعلت به بنو تميم ، ودخل على ملك الفرس فأكرمه ، وأمر بإسقائه بكأس من ذهب ، ثم أعطاه إياه وكساه قباءاً له ديباج منسوج بالذهب واللؤلؤ وقلنسوة قيمتها ثلاثون ألف درهم وحباه ثم عاد الى بلاده . ولو كان هوذة قد جاء كسرى بخبر انتصار وانقاذ للقافلة جاز لنا أخذ هذا الوصف على محمل الصدق ، أما وأن الرواية هي في موضوع هزيمة واندحار ، فإن من الصعب علينا التصديق بها ، ولا سيما وان ملوك الفرس كانوا أصحاب غطرسة وكانوا إذا جاءهم أحد بخبر هزيمة قابلوه بالازدراء والتبكيت وبإنزال اللعنات عليه في الغالب . وليس في هذا الموقف ما يدعو الى اسقاء هوذة بكأس من ذهب .

ويذكر أهل الأخبار ان اليمامة من نجد ، وقاعدتها (حجر) ، وكانت

١ وكل زوج من الديباج يلبسه أبو قدامة مجبورا بذاك معا
له أكاليل بالياقوت زينها صواغها ، لا ترى عيبا ولا طبعا
الامالي ، للمرتضى (١٧٢/٢) ، ديوان الأعشى (٨٦) .
٢ الأغاني (٨/٥) ، الطبري (٥٨١/١) .

تسمى (جـدا) في الأصل ، كما عرفت بـ (جو) . وذكروا انهـا سميت (يمامة) نسبة الى (اليمامة بنت سهم بن طسم) ، وكانت منازل طسم وجديس في هذا المكان . وقد تناولتها الأيدي حتى صارت في أيدي (بني حنيفة) عند ظهور الاسلام في قصص من قصص أهل الأخبار [١] .

واليمامة من الأماكن الخصبة في جزيرة العرب . وبها (وادي حنيفة) . وبه مياه ومواضع كانت عامرة ثم خربت ، وهي اليوم خراب أو آثار . وقد اشتهرت قراها ومزارعها ، وكانت من أهم الأرضين الخاضعة لمملكة كندة . ويظهر ان سيلاً جارفاً أو سيولاً عارمة اكتسحت في الاسلام بعض قراها ، فهجرت إذ ترى في هـذا اليوم آثار أسس بيوت مبنية من اللبن ومن الطين ، يظهر انهـا اكتسحت بالسيول وجاءت الرمال فغطتها بغطاء لتستر بقاياها عن رؤية النور [٢] . وقد ذكر أهل الأخبار ان اليمامة كانت من (أحسن بلاد الله أرضاً وأكثرها خيراً وشجراً ونخيلاً) [٣] . وبها مياه كثيرة . وقد عرف أهلها بالنشاط وبالتحضر ، وذلك بسبب وجود الماء بها ، إذ أغرى سحر الماء الناس على الإقامة عند مواضع المياه ، فنشأت مستوطنات كثيرة . ولا زال أهل اليمامة يعدون من أنشط سكان المملكة العربية السعودية .

وحدود اليمامة من الشرق البحرين ومن الغرب تنتهي الى الحجاز ، وأما من الشمال فتتصل بوادٍ متصل بالعذيب والضرية والنباج وسائر حدود البصرة وجنوبها بلاد اليمن . هذا على تعريف (ابن رسته) . وتبعـد (جو) وهي الخضارم من حجر يوماً وليلة [٤] . ومن مواضع اليمامة (منفوحة) ، وهي قرية مشهورة ، كان يسكنها الأعشى ، وبها قبره . وهي لبني قيس بن ثعلبة بن عكابة [٥] . ومن مواضع اليمامة الأخرى (المعلاة) من قرى (الخرج) [٦] .

١ البلدان (٥/٤٤١) ، فتوح البلدان (١١٨) ، البكري ، معجم (١/٨٣) ، المعاني الكبير لابن قتيبة (٢/١٠٤١) ، الهمداني ، صـفة (١٤١) ، تاج العـروس (٩/١١٤ وما بعدها) (يمم) .

٢ Naval, R., 233.

٣ تاج العروس (٩/١٥) ، (يمم) .

٤ ابن رستة ، الأعلاق (١٨٢) ، تاج العروس (٩/١١٥) ، (يمم) .

٥ تاج العروس (٢/٢٤٢) ، (نفح) .

٦ تاج العروس (١٠/٢٥٠) ، (علا) .

ومن أبرز قبائل اليمامة في أيام الرسول ، (بنو حنيفة) . و (حنيفة) لقب (أثال بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل) . ويذكر أهل الأخبار ، ان (الأحوى بن عوف) المعروف بجذيمة ، لقي أثالاً فضربه فحنفه ، فلقب حنيفة . وضربه أثال فحذمه جذيمة . فقال جذيمة :

فإن تسلك خنصري بانت فإني ... بها حنَّفت حاملتي أثال[1]

وقد وفد وفد منهم ، فيه (مسيلمة بن حبيب) الذي عرف بـ (الكذّاب) لادعائه النبوة ، وكان قد طلب من الرسول ان يشركه معه في الأمر . وادعى النبوة ، ثم قتل . وكان يسجع السجعات مضاهاة للقرآن[2] . وممن كان في هذا الوفد : (رحال بن عنفوة) ، وقد شهد لمسيلمة ان رسول الله أشركه في الأمر فافتتن الناس به ، و (سلمي بن حنظلة السحيمي) و (طلق بن علي بن قيس) و (حمران بن جابر بن شمر) و (علي بن سنان) و (الأقعس بن مسلمة) و (زيد بن عبد عمرو) ، وعلى الوفد (سلمي بن حنظلة)[3] .

ويذكر ان (سجاحاً) ، وهي (سجاح بنت أوس بن العنبر بن يربوع) التميمية التي تكهنت وادعت النبوة ، أتت (مسيلمة الكذّاب) ، وهو بـ (حجر) ، فتزوجته ، وجعلت دينها ودينه واحداً . وكان قد اتبعها قوم من (بني تميم) وقوم من أخوالها من (بني تغلب)[4] .

ومن (بني حنيفة) ، (عُمير) و (قُرين) ابنا (سلمي) . وكان (عُمير) أوفى العرب ، قتل أخاه (قرينا) بقتيل قتله من جيرانه[5] . ومنهم (مجاعة بن مرارة بن سلمي) ، وكان رسول الله قد أقطعه (الغورة) و (غرابة) و (الحبل) ، ثم أقطعه (أبو بكر) (الخضرمة) ثم أقطعه (عمر) (الرياء) ، ثم أقطعه (عثمان) قطيعة أخرى[6] .

١ تاج العروس (٦/٧٨) ، (حنف) .
٢ الطبري (٣/١٣٧ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، (قدوم وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٣١٦ وما بعدها) .
٤ البلاذري ، فتوح (١٠٨) .
٥ الاشتقاق (ص ٢٠٩) .
٦ البلاذري ، فتوح (٩٨ ، ١٠٢ وما بعدها) .

ومن رجال اليمامة (محكم بن الطفيل بن سبيع) الذي يقال له (محكم اليمامة) ، وقد ارتد وقتل مع من قتل من المرتدين[1] .

ومن قبائل اليمامة : بنو باهلة بن أعصر ، وبنو نمير وأحياء من تميم . واستقرت بطون من بكر وعنزة وضبيعة في القسم الشرقي من اليمامة حتّى البحرين ، واتصلت منازل بطون منها بالعراق[2] . كما كان بها (بنو هزان) ، وهم من قطنة اليمامة القدامى : إذْ نجد أهل الأخبار يرجعون تأريخهم بها الى أيام طسم ، أي الى أيام العرب العاربة أو العرب البائدة الأولى . والظاهر ان أهل الأخبار قد حاروا في أمر (هزان) . فجعلوهم من العرب البائدة ودعاهم الهمداني بـ (هزان الأولى)[3] ، وجعلوهم من اليمن ونسبوهم الى (قحطان) وجعلوهم من (معدّ) . وهم الذين بقوا في ديارهم اليمامة الى الاسلام وفي الاسلام[4] . ويظهر من روايات أهل الأخبار ، انهم قصدوا قبائل مختلفة لا قبيلة واحدة هي (هزان) التي ظلت باقية ولها بقية في اليمامة حتّى اليوم . ولكننا نستبعد كون القبائل الثلاث قبيلة واحدة في الأصل . بدليل ان أهل الأخبار يذكرون ان هزان اليمانية الأصل كانت تقيم في اليمامة ، وان هزان (معدّ) هم من أهل اليمامة أيضاً ، أي ان مواطن القبيلتين واحدة ، بل ان منهم من يرجع مواطن هزان الأولى الى اليمامة كذلك . وهذا ما يحملنا على القول إن الهزانيين كلهم من قبيلة واحدة ، بقيت فروعها في مواطنها القديمة اليمامة حتّى اليوم . ولا قيمة لما يرويه أهل الأنساب من سرد نسب كل قبيلة من القبائل الثلاث الى العرب البائدة أو الى العرب العاربة أو الى العرب المستعربة .

والظاهر ان (بني حنيفة) ضغطوا على الهزانيين ، فاغتصبوا معظم أرضهم باليمامة ، فقَلّ بذلك شأنهم ، وصاروا دون (بني حنيفه) في القوة . ومن (بني هزان) تزوج الأعشى ، ثم أكرهوه على تطليقها ، فطلقها حين ضربوه ، وأصروا عليه بلزوم تخليه عنها ففعل ، فقال في ذلك شعراً ، رواه الرواة .

---

١ البلاذري ، فتوح (٩٨) ، الاشتقاق (٢١٠) .
٢ البكري ، معجم (٨٥/٤ وما بعدها) .
٣ الاكليل (٧٣/١ وما بعدها) .
٤ العرب ، الجزء السابع ، السنة الثالثة ، نيسان ١٩٦٩م . الرياض .

ومنهم نفر أسروا (الحارث بن ظالم المرّيّ) ، ولم يكونوا يعرفونه ، وظنوه صعلوكاً ، ثم باعوه الى نفر من القيسيين بزق خمر وشاة ، وقيل من بني سعد. ومنهم كان قاتل حيان بن عتبة بن جعفر بن كلاب. وهو المعروف بصاحب الرداع [1] .

ومن مواطن (هزان) العلاة ، وهو جبل من جبال اليمامة ، وبرك ، ونعام ، وشهوان ، وماوان ، والمجازة . ويلاحظ ان أخلاطاً من قبائل أخرى جاورت (بني هزان) ، وسكنت معهم. منهم (بنو جرم) و (بنو جشم) ، و (الحارث بن لؤي بن غالب بن فهر) من قريش ، و (ربيعة) وهم من اليمن [2] .

وأما منازل طيء عند ظهور الاسلام فجبلا طيء : أجأ وسلمى . غير ان هناك بطوناً من طيء كانت قد انتشرت في أماكن أخرى ، فنزلت في العراق وفي بلاد الشأم وفي أماكن أخرى في جزيرة العرب .

وطيء من القبائل التي كان لها شأن كبير قبل الاسلام . ولعلّها كانت من أشهرها وأعرفها قبيل الميلاد وفي القرون الأولى للميلاد . بدليل اطلاق السريان كلمة (طيايا) على كل العرب ، من أي قبيلة كانوا . أي انها استعملت عندهم بمعنى (عرب) ، وأصلها من اسم القبيلة التي نتحدث عنها وهي قبيلة (طيء) .

ولم تكن طيء متصافية فيما بينها متحابة ، فوقعت بين عشائرها حروب ، حتى تداخل (الحارث بن جبلة) الغساني فيما بينها ، فأصلح حالها ، فلما هلك عادت الى حربها ، فالتقت جديلة وغوث بموضع تحاربت فيه ، قتل فيه قائد بني جديلة ، وهو أسبع بن عمرو بن لأم ، وأخذ رجل من سنبس أذنيه فخصف بهما نعليه ، فعظم ما صنعت الغوث على أوس بن خالد بن لأم ، وعزم على لقاء الغوث بنفسه ، وحلف ألا يرجع عن طيء حتى ينزل معها جبليها أجأ وسلمى ، وتجبى له أهلها ، وكان لم يشهد الحروب المتقدمة ، لا هو ولا أحد من رؤساء طيء ، كحاتم ، وزيد الخيل ، وغيرهم من الرؤساء . فلما اقبلت جديلة وعلى

---

١ الاشتقاق (٣٢١) ، العرب ، نيسان (١٩٦٩م) (ص ٦٦٥ وما بعدها) .
٢ العرب ، نيسان ١٩٦٩م (٢٦٢ وما بعدها) .

رأسها أوس بن حارثة بن لأم ، وبلغ الغوث جمع أوس لها ، اوقدت ناراً على ذروة أجأ ، وذلك في اول يوم توقد فيه النار ، فأقبلت قبائل الغوث ، كل قبيلة وعليها رئيسها ، ومنهم زيد الخيل ، وحاتم ، وتلاحمت بجديلة في يوم اليحاميم ويعرف ايضاً بقارات حوق ، الذي انتهى بهزيمة منكرة حلت بجديلة ، فلم تبق لها بقية للحرب ، فدخلت بلاد كلب ، وحالفتهم وأقامت معهم .[1]

وكان سيد طيء في ايام الرسول ، (زيد الخيل بن مهلهل الطائي).[2] وهو ممن قدم على الرسول في وفد طيء . وقد قطع له الرسول فيداً وأرضين معه ، وكتب له بذلك ، ولكنه توفي في موضع يقال له (فردة) من بلاد نجد من حمى علقت به اثناء اقامته بيثرب ، فلما يبلغ مكانه .[3] وقد مدحه الرسول وأثنى عليه .[4] و (زيد الخيل) الذي سمّاه الرسول (زيد الخير) ، هو من (بني نبهان) من (طيء) . وكان في الوفد رجال آخرون منهم : (وزر بن جابر ابن سدوس) من (بني نبهان) ، و (قبيصة بن الاسود بن عامر) من (جرم طيء) ، و (مالك بن عبد الله بن خيبري) من (بني معن) ، و (قُعين ابن خليف بن جديلة) .[5]

ومن (طيء) الرجل الذي ضرب بجوده المثل ، والذي لا زال الناس يذكرون اسمه على انه المثل الأعلى في الكرم ، وهو (حاتم الطائي) . مقري الضيوف ومغيث الفقراء . فمدحه لجوده الشعراء : عبيد بن الابرص والنابغة الذبياني وبشر ابن ابي حازم وغيرهم . وكان مضربه ملجأ للمحتاجين ولمن يسلك الطريق يريد (الحيرة) . ونظراً لجوده وكرمه هابته العرب وصارت له دالة ومكانة عند ملوك الحيرة وعند آل غسان .[6] وذكر انه (اذا أسر اطلق . ومرّ في سفره على عنزة وفيهم اسير ، فاستغاث به الأسير ، ولم يحضره فكاكه فاشتراه من العنزيين ،

١ ابن الأثير (٣٨٨/١) ايام العرب (٦٠) .
٢ المحبر (ص ٢٣٣) .
٣ الطبري (١٤٥/٣) .
٤ الاشتقاق (٢٣٦) ، الطبري (١٤٥/٣) ، (قدوم زيد الخيل في وفد طيء) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٣٢١/١ وما بعدها) .
٦ الأغاني (٩٣/١٦ وما بعدها ، ١٠٤ وما بعدها) ، العقد الفريد (٣٣٢/١) (طبعة اللجنة) .

وأقام مكانه في القدّ حتى أدي فداؤه .[١]

وقد توفي (حاتم الطائي) قبل الاسلام ، وانتقلت رئاسة طيء منه الى ابنه (عدي بن حاتم طيء) ، وكان نصرانياً يسير في قومه بالمرباع ، وكان بمثابة الملك فيهم ، فلما جاءت خيل الرسول سنة تسع بلاد طيء ، قرر اللحوق بأهل دينه من النصارى بالشام ، ثم ترك الشام ولحق بالمدينة فأسلم وأكرمه الرسول .[٢] وعينه الرسول على صدقة طيء وأسد .[٣]

وذكر ان (عمرو بن المسبح بن كعب بن عمرو بن عصر بن غنم) ، الذي كان ارمى العرب ، وهو الذي ذكره (امرؤ القيس) في شعره وأشار اليه ، هو من (طيء) ، كان قد ادرك الرسول ، ووفد عليه .[٤]

وقد وقع بين طيء نزاع ادى الى وقوع حروب وأيام بينها ، ومن بينها يوم عرف بـ (يوم اليحاميم) . وقد كان (الحارث بن جبلة الغساني) قد اصلح بين قبائلها ، فلما هلك عادت الى حروبها . فالتقت جديلة والغوث ، فقتل (اسبع ابن عمرو بن لأم) ، وهو من جديلة وقائدها ، قتل في موضع يقال له (غرثان) ، وأخذ رجل من (سنبس) اذنيه فخصف بهما نعليه ، فغضبت (بنو جديلة) ، واقسم (اوس بن خالد بن لأم) على الانتقام من (الغوث) ومنهم (بنو سنبس) ، وأخذ في حشد قومه (جديلة) ، وبلغ الغوث ذلك ، فأوقدت النار على (اجأ) ، فأقبلت قبائل الغوث ، وعلى رأسها ساداتها ومنهم (زيد الخيل) و (حاتم الطائي) ، ووقع القتال بين جديلة والغوث في موضع يقال له (قارات حوق) ، فانهزمت جديلة ، وقتل فيها ابرح القتل ، حتى لم تبق لها بقية للحرب ، فدخلت بلاد كلب وحالفوا كلباً واقاموا معهم . وعرف هذا اليوم بـ (يوم اليحاميم) .[٥]

وكتب الرسول كتباً الى جماعة من (طيء) . منهم (بنو معاوية بن جرول) ،

---

١ الشعر والشعراء (ص ١٢٣) .

٢ الطبري (٣/١١٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، نهاية الأرب (١٨/٧٧ وما بعدها) .

٣ الطبري (٣/١٤٧) ، (خروج الأمراء والعمال على الصدقات) ، ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٢) (وفادات أهل اليمن : وفد طيء) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٢ وما بعدها) .

٥ ابن الأثير ، الكامل (١/٢٦٦) .

و (عامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي) ، وجماعة من (بني جوين) ، و (لبني معن) الطائيين .[1]

وتقع الى الشرق من ديار (طيء) منازل (اسد) . والى الشمال من ديار اسد منازل (بكر) ، واما الى الجنوب من منازل (اسد) فديار (هوازن) و (غطفان) . وتتاخم ديار اسد من الشرق قبائل (عبد القيس) و (تميم) .

ولما اخذت الوفود تترى على المدينة لمبايعة الرسول والدخول في الاسلام ، كان وفد (اسد) في جملة الوفود التي بايعت الرسول ودخلت في الاسلام ، وذلك سنة تسع للهجرة . وكان فيه (حضرمي بن عامر) و (ضرار بن الأزور) و (وابصة ابن معبد) و (قتادة بن القايف) و (سلمة بن حبيش) و (طلحة بن خويلد) و (نقادة بن عبد الله بن خلف) ، ومعهم قوم من (بني الزنية) وهم من (مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن اسد) .[2]

وكتب رسول الله كتاباً الى (بني اسد) كتبه له (خالد بن سعيد) ، ورد فيه : (الا يقربن مياه طيء وارضهم فانه لا تحل لهم مياههم ولا يلجن ارضهم من اولجوا . وأمّر عليهم (قضاعي بن عمرو) وهو من (بني علر) ، بأن جعله عاملاً عليهم .[3] وكتب الرسول الى (حصين بن نضلة الأسدي) (ان له اراما وكسة ، لا يحاقه فيها احد) .[4]

ومن ديار (بني اسد بن خزيمة) ، (قطن) ، وهو جبل بناحية (فيد) به ماء . وأمر الرسول (ابا سلمة بن عبد الاسد المخزومي) بغزوه ، لما بلغه ان (طليحة) و (سلمة) ابني (خويلد) قد سارا في قومهما ومن اطاعهما يدعوانهم الى حرب الرسول ، فذهب الى (قطن) ، ثم عاد ، ومعه إبل وشاء .[5]

وتقع الى الشمال الغربي من ديار (طيء) ، ديار (بكر) ، وهي (بكر ابن وائل) . وهي قبائل ضخمة ذات فروع عديدة ، سكنت في مواضع عديدة اخرى غير هذه المواضع .

١ ابن سعد ، طبقات (٢٦٩/١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٩٢/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣١/١٨) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٠/١) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٤/١) .
٥ نهاية الأرب (١٢٧/١٧ وما بعدها) .

وذكر في خبر فتوح السواد ، ان (المثنى بن حارثة الشيباني) كان يغير على السواد ، فبلغ (أبا بكر) خبره ، فسأل عنه ، فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، وأثنى عليه . ثم ان المثنى قدم على (ابي بكر) ، فقال له : يا خليفة رسول الله،استعملني على من اسلم من قومي اقاتل هذه الأعاجم من اهل فارس ، فكتب له ابو بكر في ذلك عهداً ، فسار حتى نزل (خفان) ودعا فيه الى الاسلام فأسلموا . ثم ان ابا بكر امر (خالد بن الوليد) بالمسير الى العراق ، وكتب الى (المثنى بن حارثة) يأمره بالسمع والطاعة له وتلقيه . وكان (مذعور بن عدي العجلي) ، قد كتب الى ابي بكر يعلمه حاله وحال قومه ويسأله توليته قتال الفرس ، فكتب اليه يأمره ان ينضم الى خالد ويسمع له بالطاعة . [١]

و (خفان) [٢] مأسدة وموضع أشب الغياض كثير الأسد ، أو اجمة قرب (الكوفة) . [٣]

ونجد في موارد اخرى ان (المثنى بن حارثة الشيباني) و (سويد بن قطبة العجلي) ، وكلاهما من (بكر بن وائل) كانا يغيران على الدهاقين ، فيأخذان ما قدرا عليه . فاذا طُلبا امعنا في البرّ فلا يتبعها احد ، وكان المثنى يغير من ناحية الحيرة ، و (سويد) من ناحية (الأبلة) . فكتب الى (ابي بكر) ، يعلمه ضراوته بفارس ويعرفه وهنهم ، ويسأله ان يمدّه بجيش ، فكتب اليه (ابو بكر) يخبره انه مرسل اليه (خالد بن الوليد) وان يكون في طاعته ، فكره (المثنى) ورود خالد عليه ، وكان ظن ان ابا بكر سيوليه الأمر ، ولكنه لم يتمكن ان يفعل شيئاً فانضم الى خالد . [٤]

ومن (بني عجل) (فرات بن حيّان للعجلي) ، كان دليل (ابي سفيان)

١ البلاذري ، فتوح (٢٤٢) .
٢ (وخفان كعفان) بتشديد الفاء ، تاج العروس (٩٣/٦) ، (خف) .
٣ قال الأعشى :
وما مخدر ورد عليه مهابة أبو أشبل أضحى بخفان حاردا
تاج العروس (٩٣/٦) ، اللسان (٨١/٩) ، (خفف) .
٤ الأخبار الطوال (١١١ وما بعدها) .

الى الشام . [1] وذلك ان قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكون الى الشام حين وقعة (بدر) ، فكانوا يسلكون طريق العراق ، فخرج بهم دليلهم (فرات) ، في السنة الثالثة من الهجرة ، ومعه ابو سفيان وصفوان بن امية ، وحويطب بن عبد العُزّى ، وعبد الله بن ابي ربيعة ، ومعهم مال كثير ، فيه فضة كثيرة ، وهي اعظم تجارتهم ، فلما بلغوا موضع (القردة) ، وكان (فرات) قد سلك بهم على ذات عرق ، اعترض (زيد بن حارثة) القافلة ، وكان الرسول قد ارسله للتحرش بها ، يوم بلغه امر القافلة ، فهرب اعيانها واستولى زيد على العير ، وجاء بها الى الرسول . وأسر فرات ، فأسلم . [2]

ويذكر اهل الاخبار ان قبائل مضر كانت تنزع الى العراق ، وكان اهل اليمن ينزعون الى الشام . وانه لم يكن احد من العرب اجرأ على فارس من ربيعة وقد قيل لها لذلك : ربيعة الأسد ، وكانت العرب في جاهليتها تسمى : فارسُ الاسد . [3]

وقد قدم وفد من (بكر بن وائل) على الرسول ، فيه (بشير بن الخصاصية) و (عبد الله بن مرثد) ، و (حسّان بن حوط ، (خوط) ، فأسلموا وعادوا الى ديارهم . [4] وذهب (حريث بن حسان الشيباني) في وفد من (بكر بن وائل) الى الرسول ، فأسلم على يديه . [5] وذكر ان (عبد الله بن اسود بن شهاب بن عوف بن عمرو بن الحارث بن سدوس) ، قدم مع الوفد المذكور ، وكان ينزل اليمامة ، فباع ما كان له من مال باليمامة واستقر بالمدينة . [6]

وذكر ان رسول الله كتب كتاباً الى (بكر بن وائل) ، فما وجدوا رجلاً يقرؤه حتى جاءهم رجل من (بني ضبيعة بن ربيعة) فقرأه . وكان الذي اتاهم بكتاب رسول الله : (ظبيان بن مرثد السدوسي) . [7]

وخرج (خالد) الى العراق ، فمرّ بـ (فيد) و (الثعلبية) وأماكن اخرى

---

١ الاشتقاق (ص ٢٠٨) .
٢ نهاية الأرب (٩٧/ ٨٠) .
٣ الطبري (٣/ ٤٨٧) ، (دار المعارف) .
٤ طبقات ابن سعد (١/ ٣١٥) .
٥ طبقات ابن سعد (١/ ٣١٨ وما بعدها) .
٦ نهاية الأرب (١٨/ ٦٧) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/ ٨١ ، وما بعدها) .

منها (العذيب) و (خفان) ، ثم سار قاصداً (الحيرة) وهي اهم موضع للعرب في العراق . فخرج اليه ساداتها في هذا الوقت : (عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيّان بن بقيلة) ، وهو من الأزد ، وصاحب القصر الذي يقال له : (قصر بني بقيلة) بالحيرة . وهو من (بني سبين) . وكان من المعمرين .[١] و (هانيء بن قبيصة بن مسعود الشيباني) ، ويقال (فروة بن اياس) . وكان (اياس) عامل كسرى ابرويز على الحيرة ، بعد النعمان بن المنذر ، و (عدي ابن عدي بن زيد العبادي) ، وأخوه (عمرو بن عدي) ، و (عمرو بن عبد المسيح) و (حيرى بن أكّال) ، وهم نقباء اهل الحيرة . فصالحوه على دفع الجزية وعلى ان يكونوا عيوناً للمسلمين على اهل فارس .[٢]

وفيد موضع مهم بطريق مكة في نصفها من الكوفة ، به حصن عليه باب حديد ، وعليه سور دائر . كان الناس يودعون فيه فواضل ازوادهم وما ثقل من امتعتهم الى حين رجوعهم . وذكر ان فيداً فلاة في الارض بين أسد وطيء في الجاهلية . فلما قدم (زيد الخيل) الفارس المشهور على رسول الله اقطعه فيداً . وذكر اهل الاخبار ، ان فيداً ، انما سميت فيد بفيد بن حسام اول من نزلها . والظاهر انها من المواضع القديمة وقد ورد اسمها في الشعر الجاهلي والاسلامي .[٣]

و (العذيب) ، اذ ذاك مسلحة كانت للفرس على طريق البادية ، ومن القادسية التي تبعد عن الكوفة (١٥) ميلاً الى العذيب (٦) اميال ، ويؤدي الطريق من العذيب الى البرية .[٤] وكان لبني تميم .[٥] وذكر اهل الاخبار ان (محلم بن سويط الضبي) أخا بني صباع ، قاد الرباب كلها . وهو الرئيس الأول : اول من سار في ارض مضر برئاسة ، وغزا العراق وبه كسرى حتى بلغ العذيب . فجعلت الإبل تهيب خرير الماء . ويظهر من شعر لبعض الضبّيين ان العذيب كان احساءاً ، يخرج الماء فيه من باطن الارض ويندفع مكوّناً خريراً ،

١ الاشتقاق (٢٨٥) ، الطبري (٣/٣٤٥ ، ٣٦٤) ، (دار المعارف) ، البلاذري ، فتوح (٢٤٤) .
٢ البلاذري ، فتوح (٢٤٤) ، الطبري (٣/٣٦٤) ، (دار المعارف) .
٣ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .
٤ ابن رسته ، الأعلاق (١٧٥) .
٥ تاج العروس (١/٣٧٠) ، (عذب) .

لذلك هابته الإبل ، فكانت تتخوف من الشرب منه .[1] وبعد العذيب ، نهاية حدّ نجد في الشمال .[2]

ويذكر (ابن رسته) ان (البطانية) ، هو (قبر العبادي)[3] ، وسمّاه بعضهم (بطان) . وذكر (اليعقوبي) ان هذا الموضع من ديار (بني اسد) .[4]

وكان للثعلبية شأن يذكر ، فقد ذكر انها كانت موضعاً معروفاً ، بل ذكر انها مدينة عامرة عليها سور وفيها حمامات وسوق ، وهي على ثلث الطريق للقادم من بغداد الى مكة . وقد صار لها شأن في صدر الاسلام فما بعد ، لأنها تقع على طريق التجـارة والحاج . وهي على جادة مكة من الكوفة ، ومن منازل اسد ابن خزيمة .[5]

وكان اهل الحيرة قد تحصنوا بقصورهم : في القصر الابيض ، وهو قصر (النعمان بن المنذر) وقصر ابن بقيلة ، قصر العدسيين ، والعدسيون من (كلب) نسبوا الى امهم ، وهي كلبية ايضاً .[6] وذكر انه كان في طرف الحيرة ، لبني عمار بن عبد المسيح بن قيس بن حرملة بن علقمة بن عدس الكلبي ، نسبوا الى جدتهم (علسة بنت مالك بن عوف الكلبي) ، وهي (أم الرماح) و (المشظ) ابني عامر المذم .[7]

وعدة قصور الحيرة ثلاثة على ما ورد في بعض الروايات . وهي عدة الحيرة وملاجئها ايام الخطر ، فاذا سقطت ، سقطت الحيرة ، لأنها هي المكونة لها . وقد صالحت (خالد بن الوليد) لما وجدته ان ليس في استطاعتها الصمود امام المسلمين .[8] ولم يكن لها على ما يظهر من روايات اهل الاخبار سور .

ومن مواضع الحيرة ، (ربيعة بني مازن) ، لقوم من الأزد من بني عمرو

---

١ المحبـر (٢٤٨) .
٢ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري (٨١) .
٣ ابن رستة ، الاعلاق (١٧٥) .
٤ اليعقوبي ، البلدان (٣١١) .
٥ ابن رسته ، الاعلاق (١٧٥) ، اليعقوبي ، البلدان (٣١١) .
٦ البلاذري ، فتوح (٢٤٥) .
٧ البلاذري ، فتوح (٢٨٤) .
٨ الاخبار الطوال (١١٢) ، تاج العروس (١٦٥/٣) (حارة) .

ابن مازن من الأزد ، وهم من غسان .[1] و (دير هند) ، لأم (عمرو بن هند بن ماء السماء) ، و (ربيعة بني عدي بن الذميل) من لخم .[2]

وقد هدمت قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر واستخدمت حجارتها وأنقاضها لبناء المسجد الجامع بالكوفة ولأبنية اخرى ، وقد عوض اصحاب القصور عنها . وفقاً لما جاء في (قراطيس هدم قصور الحيرة) .[3] وقد هدم بعض الخلفـــاء العباسيين قصور الحيرة وأزالوا بذلك من معالمها . منهم الخليفة (ابو جعفر المنصور) ، فقد هدم (الزوراء) ، وهي دار بناها النعمان بن المنذر على ما يذكره اهل الاخبار .[4]

وذكر (اليعقوبي) ان الحيرة (هي منازل آل بقيلة وغيرهم) ، وان عليّة اهل الحيرة نصارى ، منهم من قبائل العرب من بني تميم ومن (سليم) ومن (طيء) وغيرهم . وان (الخورنق) بالقرب منها مما يلي المشرق ، وبينـــه وبين الحيرة ثلاثة اميال ، والسدير في برية .[5]

وكان الفرس يستعينون بعرب الحيرة في امر الترجمة فيما بينهم وبين العرب . ومن هؤلاء أسرة (عدي بن زيد العبادي) على نحو ما ذكرت . وترجمان كان يترجم لـ (رستم) اسمه (عبـــود) . وكان عربياً من اهل الحيرة .[6] كما استخدم المسلمون تراجمة ، ليترجموا ما كان يدور بينهم وبين الفرس من حوار ، او بينهم وبين من يقبضون عليه من اسرى الفرس ، من هؤلاء رجل اسمه (هلال الهجري) . واستخدموا كتبة لكتابة الكتب والاخبار ، ذكروا منهم (زياد بن ابي سفيان) .[7]

وقد استعان الفرس ببعض (آل لخم) لمحاربة العرب ولاشغالهم ، في معارك

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٨٠) .
٢ البلاذري ، فتوح (٢٨٢) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٨٤) .
٤ تاج العروس (٣/٢٤٦) ، (زار) .
٥ البلدان (٣٠٩) ، (مع ابن رسته) ، تاج العروس (٣/٢٦١) ، (سـدر) . (٦/٣٣٢) .
٦ الطبري (٣/٥٢٤) .
٧ الطبري (٣/٤٨٩) .

صغيرة ، من هؤلاء (قابوس بن قابوس بن المنذر) ، وقد كلفه (الآزاذبة مرد بن الآزاذبة) بالذهاب الى (القادسية) لاشغال المسلمين ، وأن يكون للفرس كما كان آباؤه قبله من النصر والعون ، فنزل القادسية ، وكاتب بكر بن وائل ، بمثل ما كان النعمان يكاتبهم به ، فلما بلغ خبره المسلمون حاصروه .[1]

والقادسية موضع مهم جداً من الوجهة العسكرية ، وقد قال عنه الخليفة (عمر) في كتابه الذي وجهه الى (سعد) بأنه (باب فارس) وأجمع ابوابهم لمادتهم.[2] وقد وضعوا ما بعده الحصون والقناطر والانهار لحماية مواقعهم من وقوعها في ايدي من قد يأتي اليهم من البادية . وأهله من العرب ، وكان الفرس قد اقاموا فيه مسالح عبئت بجنود من فارس ، للدفاع عن خطوطهم الامامية ، ولمشاغلة الغزاة الى حين وصول المدد الكبير .

وممن ساعد الفرس ودافع عنهم (النعمان بن قبيصة) ، وهو ابن (حيّة الطائي) ابن عم (قبيصة بن اياس بن حيّة الطائي) صاحب الحيرة ، وكان مرابطاً في قصر (بني مقاتل) ، وكان منظرة له . وقد قتله (سعد بن عبد الله بن سنان الأسدي) لما سمعه يستخف بقريش وبالقريشيين . فلما سأل عن (سعد بن ابي وقاص) ، وقيل له انه من قريش ، قال : (اما اذا كان قرشيّاً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتال ، انما قريش عبيد من غلب ، واللهِ ما يمنعون خفيراً ، ولا يخرجون من بلادهم الا بخفير) .[3]

ونجد في (فتوح الشام) للواقدي ، خبراً مفاده ان (سعد بن ابي وقاص) لما وجهه الخليفة (عمر) الى العراق قدم ارض (الرحبة) ، فاتصلت الاخبار بـ (اليعمــور بن ميسرة العبسي) ، فكتب الى كسرى يخبره بمجيئه الى هذا المكان ، وان (سعداً) لما ارتحل من (الرحبة) الى (الحيرة البيضاء) في ثلاثين ألفاً من بجيلة والنخع وشيبان وربيعة واخلاط العرب ، وجد هناك جيش (النعمان بن المنذر) ، وقد ضرب خيامه والسرادقات الى ظاهرها ، وهو في ثمانين ألفاً من جميع عرب العراق ، فكتب (النعمان) الى (كسرى) بمجيئهم

---

١ الطبرى (٣/٤٨٩) .
٢ الطبرى (٣/٤٩١) .
٣ الطبري (٣/٥٧٢ وما بعدها) .

وحثّ عربه على الصمود وعلى مقاومة سعد قائلاً لهـم : (إن هؤلاء عرب وأنتم عرب وهلاك كل شيء من جنسه) (وليس لأصحاب محمد فخر يفتخرون به علينا ، ولكن نحن لنا الفخر عليهم . وهم يزعمون ان الله بعث فيهم نبيـاً وأنزل عليهم كتاباً يقال له القرآن ، ونحن لنا الإنجيل وعيسى بن مريم ، وجميع الحواريين ، ولنا المذبـح ، ولنا القسوس والرهبان والشمامسة ، وعلى كل حال ديننا عتيق ودينهم محدث ، فاثبتوا عند اللقاء وكونوا عند ظن الملك كسرى بكم) [1] .

ويذكر رواة هذا الخبر ان عم (النعمان بن المنذر) ، وكان صاحب حرسه ، دخل اليه وقال له : إن أعداءنا قد أنفذوا الينا رسولاً ، فأمر بادخاله عليه ، وكان الرسول (سعد بن أبي عبيد القاري) ، فلما وقف بين يدي النعمان صاح به الحجاب والغلمان : قبّل الأرض للملك فلم يلتفت اليهـم ، وقال : إن الله أمرنا ان لا يسجد بعضنا لبعض . ولعمري إن هذه كانت العادة المعروفـة في الجاهلية قبل ان يبعث الله نبيّه محمداً ، فلما بعث جعل تحيته السلام ، وكذا كانت الأنبياء من قبله . وأما السلام ، فهو من أسماء الله تعالى ، وأما تحيتكم هـذه ، فهي تحية جبابرة الملوك . فقال النعمان : لسنا من الجبابرة ، بل نحن أجلّ منكم ، لأنكم توحدون في دينكم وتقولون إن الله واحد وتجحدون ولده عيسى بن مريم) . ويذكرون ان (سعداً) جـادل (النعمان) في طبيعة (المسيح) ، فأعجب بكلامه . ثم كلمه في الاسلام أو دفع الجزية ، فغضب (النعمان) ، وقال له : (يا ويح قومك ، فليس عندنا جواب إلا السيف) [2] .

وتقدمت جيوش المسلمين حتى التحمت بجيش (النعمان) بظاهر الحيرة ، وان (القعقاع بن عمرو التميمي) أو (بشر بن ربيعة التميمي) ، أحدهما التقى بالنعمان في كبكبة من الخيل والازدهارات على رأسه ، فحمل القعقاع أو بشر على الكبكبة ففرقها ، وعلى الكتيبة فمزّقها وعلى النعمان بطعنة في صدره فقتل . فلما نظرت جيوش الحيرة الى الملك النعمان مجندلا ولوا الادبار يريدون القادسية نحو جيش الفرس . وأخذ المسلمون أسرى وغنائم ، واحتوى (سعد) على قصر الخورنق والسدير ، وترك جميع ما أخذه بالحيرة . وتحرك نحو القادسية . وكانت أخبار هزيمة النعمان

---

١ الواقدي ، فتوح الشام (٢/١٨٥ وما بعدها) .
٢ الواقدي ، فتوح الشام (٢/١٨٦) .

قد وصلت الفرس وهم بالقادسية ، وقد وصلت اليهم الفلول المنهزمة من جيش النعمان ، فوقع التشويش في عسكر الفرس ، وخارت قواهم ، مما أدى الى انتصار المسلمين عليهم في هذا المكان[1] .

ولا نجد هذا الخبر في أيّ مورد آخر من موارد أهل الأخبار ، فقد نصت جميع الموارد الأخرى على ان النعمان كان قد لقي مصرعه على نحو مـا تحدثت عنه في أثناء كلامي على مملكة الحيرة . فلعل (النعمان) هذا هو أحد أبناء (آل لخم)، واستعان به الفرس للدفاع عن الحيرة ومنّوه في مقابل مساعدته لهم بالملك ، كما استعانوا بـ (قابوس بن قابوس) . وقد يكون خبره من صنع أهل الأخبار ، أقحموا اسمه إقحاماً ، وما فطنوا الى انه كان قد توفي قبل هذا الوقت بسنين ، على كل فقي الخبر كلام منمق وحوار وجدل ينبئك لونه ان فيه تكلفاً وصنعة ، وان الخبر قد وضع وضعه أناس ، لغايات لا مجال للبحث عنها في هذا المكان .

وسار (خالد) من (الحيرة) الى الأنبار ، فحاصرهـا ، وكان أصحاب النعمان وصنائعه يعطون أرزاقهم منها ، ثم صالحهم ، ثم أتى (خالد) بعـد مواقع أخرى (عين التمر)[2] .

وكان على رأس العرب الذين عاونوا الفرس وانحازوا اليهم : (عقة بن أبي عقة) و (هلال بن عقة بن قيس بن البشر) النمري ، على النمر بن قاسط بعين التمر ، و (عمرو بن الصعق) و (بجير) أحد بني عتبة بن سـعد بن زهير ، والهذيل بن عمران ، ومعهم رجال من قبائلهم[3] . ولكنهم لم يتمكنوا من الوقوف أمـام (خالد بن الوليد) ، إذْ انهزم جندهـم ، وأسرَ (عقـة) و (عمرو بن الصعق) ، وكان (عقـة) خفير القوم ، وسقط حصن عين التمر في الاسلام[4] . وورد في خبر آخر ان (خالد) قتل (هلال بن عقة) (هلال بن عقبة) ، وصلبه . وكان من (النمر بن قاسط) ، وكان خفيراً بعين التمر[5] .

---

١ الواقدي ، فتوح الشام (٢/١٨٧ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (٢٤٦ وما بعدها)
٣ البلاذري ، فتوح (٢٤٩) .
٤ الطبري (٣/٣٧٦ وما بعدها) .
٥ الاخبار الطوال (١١٢) .

وتعرف (عين التمر) بـ (شفاثا) (شفاثى) وبـ (عين شفته) ، وقد اشتهرت بالقسب والتمر ، وكانت تصدرهما الى البادية والى أماكن أخرى ، ويقصدها الأعراب للامتيار . وبها حصن يتحصن به وعين ماء . ولما اقترب المسلمون منها ، كان بها (مهران بن بهرام جوبين) في جمع عظيم من الفرس للدفاع عنها ومعه جمع عظيم من النمر وتغلب واياد ومن لافّهم، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وفر الفرس[1] . وكان بعين التمر مسلحة لأهل فارس[2] .

وقد وجد (خالد) في كنيسة (عين التمر) جماعة سباهم ، ووجد أولاداً كانوا يتعلمون الكتابة في الكنيسة ، وقد اشتهر وعرف عدد من هؤلاء الذين سبوا ، واشتهر أولادهم أيضاً . وقد كان من هؤلاء من كان من (بني النمر ابن قاسط) النازلين بعين التمر[3] .

وكانت قُريّات السواد وهي : بانقيا وباروسما وأُلّيس خليط من العرب ومن النبط وسواد العراق ، وقد صالح أهلها (خالد بن الوليد) حينما ظهر أمامها ، صالحوه على الجزية ، وكان الذي صالحه عليها (ابن صلوبا السوادي) المعروف بـ (بصبرى ين صلوبا) ، ومنزله بشاطىء الفرات . وقد ورد في كتاب الصلح الذي أعطاه (خالد بن الوليد) له ، (وقد أعطيتَ عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان في قريتك — بانقيا وباروسما — ألف درهم)[4] .

وذكر (البلاذري) ان الخليفة (عمر) وَجّهَ (أبا عبيدة الثقفي) الى العراق ، فلما وصل الى هناك ، وهزم (جابان) بالعليب ، ثم هزم الفرس في معارك أخرى ، حتى بلغ (باروسما) ، صالحه (ابن الأندر زعر) (ابن الأندر زعر) عن كل رأس على أربعة دراهم[5] . ولم يشر الى الصلة التي كانت بين (ابن صلوبا) و (ابن الأندر) .

ويرجع أهل الأخبار تأريخ (بانقيا) الى أيام (ابراهيم) ، فهم يذكرون

١ الطبري (٣/٣٧٦) ، (دار المعارف بمصر) .
٢ الاخبار الطوال (١١٢) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٤٩) ، تأريخ خليفة بن خياط (١/٨٦) .
٤ الطبري (٣/٣٤٤ ، ٣٤٦) .
٥ البلاذري ، فتوح (٢٥١) ، تأريخ خليفة (٩٢) .

انه كان ينزل بها . وان اليهود كانوا يدفنون موتاهم بها . ويذكرون انها أرض بالنجف دون الكوفة ، وان سكانها كانوا على النصرانية عند ظهور الاسلام . وان الساسانيين كانوا هم الذين يدافعون عنها ويتولون أمر إدارتها ، أما شؤونها المحلية فكان أمرها بيد ساداتها ورؤسائها[1] .

وكانت عشائر (إياد) من العشائر التي نزحت الى العراق قبل الاسلام بوقت طويل . نزل بعضهم بـ (عين أباغ) ونزل بعض منهم بسنداد . فأمروا هناك ، وكثروا ، واتخذوا بسنداد بيتاً ذا شرفات تعبدوا له . ثم انتشروا ، وغلبوا على ما يلي الحيرة . وصار لهم (الخورنق) و (السدير) . فلهم (أقساس مالك) . وهو مالك بن قيس بن زهر بن إياد . ولهم دير الأعور ، ودير السواء ، ودير قرة ، ودير الجماجم . وإنما سُمّي دير الجماجم لأنه كان بين إياد وبهراء القين حرب ، فقتل فيها من إياد خلق ، فلما انقضت الحرب ، دفنوا قتلاهم عند الدير . فكان الناس بعد ذلك يحفرون فتظهر جماجم . فسمي دير الجماجم[2] . وقيل غير ذلك ، مما لا مجال للذكره في هذا الموضع .

وكانت إياد تغير على السواد وتفسد . فجعل (سابور) ذو الأكتاف مسالح بالأنبار وعين التمر وغير هاتين الناحيتين . لحماية الحدود منهم . ثم ان إياداً أغارت على السواد في ملك كسرى أنوشروان ، فوجه اليهم جيوشاً كثيفة . فخرجوا هاربين ، واتبعوا ، فغرق منهم بشر ، وأتى فُلُّهم (بني تغلب) ، فأقاموا معهم على النصرانية ، فأساءت (بني تغلب) جوارهم ، فصار قوم منهم الى الحيرة ، ودخل منهم في جند ملوك الحيرة ، ولحق جُلّهم بغسّان بالشأم . فلما جاء الاسلام دخل بعضهم بلاد الروم ، ودخل منهم قوم في خثعم وفي تنوخ وفي قبائل أخرى .

ويقال إن مواطن إياد قبل نزوحها الى العراق ، كانت بالبحرين ، واجتمعت عبد القيس والأزد على إياد ، فأخرجوا عن الدار فأتت العراق[3] .

---

١ البلدان (١/٣٣١) (طبعه بيروت) ، البكري ، معجم (١/٢٢١) (طبعة السقا) ، اليعقوبي (١/١٣١) ، مراصد الاطلاع (١/١٢٣) .

٢ البلاذري ، أنساب (١/٢٦) .

٣ البلاذري ، أنساب (١/٢٩) .

وقد وصف (ابن قتيبة) إياداً على هذا النحو : (وكانت إياد أكثر نزار عدداً وأحسنهم وجوهاً وأمدهم وأشدهم ، وأمنعهم . وكانوا لقاحــاً لا يؤدون خرجاً . وهم أول معدّي خرج من تهامة ، ونزلوا السواد وغلبوا على ما بين البحرين الى سنداد والخورنق) . فاصطدموا بالساسانيين لأنهم أغاروا على أموال فأخذوها ، فهزموهم الى الجزيرة ، ووجه اليهم (كسرى) ستين ألفــاً فكتب اليهم (لقيط) ينبههم . وانتصر عليهم كسرى ، وانقسموا ثلاث فرق . فرقة لحقت بالشأم ، وفرقة أقامت بالجزيرة ، وفرقة رجعت الى السواد [1] .

ولما سار (خالد) من (عين التمر) أتى (صندوداء) وبها قوم من كندة وإياد والعجم . وتركها واتجه نحو جمع من (تغلب) كانوا بـ (المضيح) و (الحصيد) مرتدين عليهم ، (ربيعة بن بجير) ، فأتاهم فقاتلوه فهزمهم . ثم أغار (خالد) على (قراقر) ، وهو ماء لكلب ، ثم فوّز منه الى (سُوى) ، وهو ماء لكلب أيضاً . ومعهم فيه قوم من (بهراء) ، فقتل (حرقوص بن النعمان البهراني) ؛ من (قضاعة) . وكان المسلمون لما انتهوا الى (سوى) وجدوا (حرقوصاً) وجماعة معه يشربون ويتغنون فهجموا عليهم وقتلوا (حرقوصاً) . وخرج خالد من (سوى) الى (الكواثل) ، ثم أتى (قرقيسيا) وانحاز الى البرّ ، وأتى (أركة) (أرك) ، فأغار على أهلها ، وفتحها ، وسار منها نحو (دومــة الجندل) [2] .

وذكر (ابن سعد) ان الرسول كتب الى (نفاثة بن فروة بن الدئلي ملك السماوة) [3] . ولم يشر الى موضع ملكه من بادية السماوة ومقداره في البادية .

وكانت (دومة الجندل) عند ظهور الاسلام في ملك (أكيدر بن عبد الملك الكندي السكوني) . والسكون من كنــدة ، فهو كندي النسب أيضاً . وكان يتنقل في البادية فيصل الى الحيرة والى أرض الغساسنة ، ويقال إنه ملك (دومة الحيرة) ونزل بها قبل جلائه عن (دومــة الجندل) أو بعده على رأي أهــل الأخبار . وكان مثل أكثر رؤساء القبائل في العراق وفي البادية وبلاد الشأم على

---

١ الشعر والشعراء (٩٧ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (١١٩) ، الواقدي ، فتوح الشام (١/ ٣٠) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٨٤) .

النصرانية ، وله عقود ومعاهدات مع القبائل العربية الشمالية الضاربة في البادية ، تأتي الى مقره في الموسم أيام افتتاح السوق لتمتار ولبيع ما تحمله من تجارات .

وكان لأكيدر بن عبد الملك أخ اسمه (بشر بن عبد الملك) ، يذكر أهل الأخبار انه ذهب الى الحيرة ، وتعلم بها الخط ، ثم رجع الى مكة فتزوج (الصّهباء بنت حرب) أخت أبي سفيان[1] .

وقد أرسل الرسول خالد بن الوليد الى دومة الجندل ليفتحها ، فسار خالد على رأس خيل الى (دومة) ، فلما بلغها وجد الأكيدر خارج حصنه يصطاد مع نفر من قومه فيهم أخ له يقال له : حسان ، فهجم رجال خالد على الأكيدر وأسروه ، وقتل حسان ، وأخذ خالد قباء (أكيدر) وكان من ديباج مخوص بالذهب ، وبعث به الى الرسول ليقف عليه المسلمون ، فلما رأوه عجبوا منه وجعلوا (يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله : أتعجبون من هذا . فوالذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا)[2]. وقد زاد عجبهم حين وصل خالد ومعه أسيره (أكيدر) ، فحقن له دمه ، وصالحه الرسول على الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع الى قريته[3] .

ويذكر الرواة ان الرسول استقبل خالداً ومعه أسيره (الأكيدر) في المدينة ، فعرض الرسول الاسلام على الأكيدر ، فقبله وحقن الرسول دمه وكتب له كتاباً، وعاد الى (دومة) . فلما قبض النبي منع الصدقة وارتد الى النصرانية ديانته الأولى . وخرج من دومة الجندل فلحق بالحيرة وابتنى بها بناءً على مقربة من (عين التمر) سمّاه (دومة) أو (دومة الجندل) على اسم موضعه ، وسكن هناك . ثم عاد الى (دومة الجندل) ، وتحصن بها ، فأمر (أبو بكر) خالد بن الوليد بالتوجه اليه ، فسار اليه وقتله . أما أخوه (حريث بن عبد الملك) فقد أسلم ، وحقن دمه . وقد تزوج (يزيد بن معاوية) إبنة له[4] .

---

١ جمهرة (ص ٤٠٣ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٢٥٧) .

٢ الطبري (٣/١٠٨ وما بعدها) (طبعة دار المعارف) ، ابن هشام (٢/٣١٩) ، البلاذري فتوح (٧٢ وما بعدها) .

٣ الطبري (٣/١٠٨) ، البكري ، معجم (٢/٥٦٤ وما بعدها) ، فتوح البلدان (٢٢٣) الكامل (٢/١٩٢) (المنيرية) ، تاج العروس (٣/٥١٨) . (كدر) .

٤ فتوح البلدان (٢٢٣) ، البلدان (٢/٦٢٥ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٧٣) ، تاريخ خليفة بن خياط (١/٥٦) ، (تحقيق أكرم ضياء العمري) .

وتذكر رواية أخرى ان (الأكيدر) بعد ان نقض الصلح وعاد الى نصرانيته ، أجلاه (عمر) من (دومة) فيمن أجلى من مخالفي الاسلام الى الحيرة ، فأقام في موضع قرب (عين التمر) ، ابتناه فسمّاه (دومة) وقيل (دوماء) باسم حصنه[1] . وهي رواية لا تتفق مع المشهور بين أهل الأخبار من ان خالداً قتل (الأكيدر) في السنة الثانية عشرة أو السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، وذلك في أيام (أبي بكر) بعد ان أمره الخليفة بالتوجه اليه . وهي رواية أقوى من الرواية المتقدمة في نظر المؤرخين .

ويظهر ان أهل (دومة الجندل) كانوا قد سمعوا بخبر مسير (خالد اليهم ، فأرسلوا الى حلفائهم وأحزابهم من بهراء وكلب وغسان وقبائل تنوخ والضجاعم ليساعدوهم في الوقوف أمامه . فأتاهم (وديعة) في (كلب) وبهراء ، وسانده (رومانس بن وبرة بن رومانس) الكلبي ، وجاءهم (ابن الحدرجان) في الضجاعم ، و (جبلة بن الأيهم) في طوائف من غسان وتنوخ . وكذلك (الجودي بن ربيعة الغساني) . وكان من المتزعمين في (دومة) ، وقد احتمى أهل (دومة) بحصنهم وخلف أسوار المدينة ، والتفت حول السور من الخارج نصارى العرب الذين جاؤوا لمساعدة أهلها . وقد تمكن (خالد) يساعده (عياض) من الغلب على أهل المدينة وحلفائهم ، وقتل رؤساءهم ، ودخل المدينة منتصراً ، فغنم جيشه غنائم كثيرة وقُتِلَ من أهلها خلق كثير . وسبي ابنة (الجوديّ) . وكان الأكيدر في جملة القتلى[2] .

وكان الرسول قد غزا (دومة الجندل) بنفسه ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة الخامسة من الهجرة ، وبلغها ، ولم يلق كيداً . كان سبب غزوه لها ، ان رسول الله أراد ان يدنو الى أراضي الشأم ، لأن ذلك مما يفزع الروم ، ثم ان أهل دومة الجندل كانوا يظلمون من يمر بهم وينزل عندهم ، ومن يحل بسوقهم للبيع والشراء ، وقد كان الناس يذهبون اليها ويعودون الى المدينة ، فقرر غزوها ، فلما وصل الرسول كان أهلها قد فرّوا وتركوا قريتهم ، فنزل بها

---

١ البلدان (٢/٦٢٥ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٥٧٨ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٣٩ م) ، الكامل (٢/٢٧٠) ، الطبري (٣/٣٧٨ ، ٣٨٥) (دار المعارف) ، البلاذري ، فتوح (٧٤) .

ولم يجد احداً ، فرجع عنها ، وذلك قبل غزو خالد لها .[1]

وورد في سبب غزو الرسول لها ، ان جمعاً من قضاعة ومن غسان تجمعوا ، وهمّوا بغزو الحجاز . فسار في ألف انتخبهم ، فلما انتهى الى موضعهم ألفاهم قد تفرقوا أو هربوا ، لم يلق كيداً .[2]

وفي هذه الغزوة وادع رسول الله (عيينة بن حصن) على ان يرعى بـ (تغلمين) وما والاه الى (المراض) .[3]

ويفهم من حديث بعض اهل الاخبار عن (دومة الجندل) ، انها كانت قرية عادية ، الا ان الدهر كان قد لعب بها ، فخربت وقتّل عدد من كان بها ، الى ان نزل بها (أكيدر) ، فأعاد اليها رواءها ، وغرس الزيتون بها ، فتوافد اليها الاعراب . ويذكر هؤلاء ان (أكيدر) ، كان ينزل مع اخوته قبل مجيئه الى (دومة) (دومة الحيرة) ، ولما جاء يزور اخواله من (كلب) ونزل بخرائب (دومة الجندل) أعجبته فنزل بها ، وأمر باعادة بناء ما تهدم من حائطها وبعث الحياة بها حتى صارت قرية عامرة يقصدها الاعراب للبيع والشراء .[4] وصار (اكيدر) يتردد بينها وبين (دومة الحيرة) .[5]

ويحمي (دومة) سور قديم ، بني قبل (اكيدر) في زمان لا يحيط علم اهل الاخبار به . يقولون انه بُني من (الجندل) ، وانه هو الذي جعل الناس يسمون الموضع بـ (دومة الجندل) . ويذكرون انه كان في داخل السور حصن منيع يقال له (مارد) ، وهو حصن (اكيدر بن عبد الملك بن الحي بن أعيا ابن الحارث بن معاوية بن خلاده بن ابامه بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن اشرس بن شور بن عفير ، وهو كندة) فهو سكوني كندي .[6]

١ الطبري (٢/٥٦٤) ، (دار المعارف) ابن عساكر ، التأريخ الكبير (١/١٧) ، ابن خلدون القسم الاول من المجلد الثاني (ص ٧٧٣) ، ابن هشام (٢/٦٦٨) (الطبعة الاوربية) ، شرح المواهب (٣/٣٦٠) ، الكامل (٢/٢٧٠ وما بعدها) .

٢ البلاذري ، انساب (١/٣٤١) .

٣ نهاية الارب (١٧/١٦٣) ، (غزوة دومة الجندل) .

٤ البلاذري ، فتوح (ص ٢٢٣) (بيروت ١٩٥٧ م) .

٥ البلدان (٢/٦٢٥ وما بعدها) (طهران ١٩٦٥ م) ، (٤/١٠٦) (طبعة ١٩٠٦) .

٦ البلدان (٢/٦٢٥ وما بعدها) (طبعه طهران ١٩٦٥ م) .

وحصن (مارد) ، حصن شهير له ذكر بين اعراب الشمال بُني قبل ايام (اكيدر) . قال عنه بعض اهل الاخبار انه حصن عادي ، اي من الحصون الجاهلية القديمة . وقد رأينا فيما سلف ان (دومة) من المواضع المعروفة التي يعود عهدها الى ما قبل الميلاد . وذكر اهل الاخبار ، ان سكانها كانوا اصحاب نخل وزرع ، يسقون على النواضح ، وحولها عيون قليلة وزرعهم الشعير . وانها (دوماء الجندل) ايضاً .[1]

وكان اكثر سكان (دومة الجندل) من (بني كنانة) من (كلب) . ويعدّها بعض اهل الاخبار من (القريّات) ويقصدون بمصطلح (القريات) : دومة وسكاكة وذو القارة .[2] وتحيط بدومة مستوطنات وقرى تحتمي بسلطان حاكم (دومة) . وكان (اكيدر) يلقب نفسه بلقب (ملك) على عادة ذلك الوقت في تلقيب سادات المواضع انفسهم بهذا اللقب ، وان كان لا يعني في الواقع اكثر مما يعنيه مصطلح (شيخ) في الوقت الحاضر .

وكان اهل (دومة) على النصرانية ، شأنهم في ذلك شأن اكثر اهل القرى في العراق وفي بادية الشام وبلاد الشام . وكان اهل (اكيدر) على هذه الديانة ايضاً . اذ ورد ان الرسول ارسل (عبد الرحمن بن عوف) على رأس جيش الى دومة ، فذهب اليها ودخلها ، وأسلم (الأصبغ) ، وتزوج عبد الرحمن ابنته (تماضر) ، اذ كان الرسول قد كتب اليه ان يتزوج ابنة ملكها ، اي ملك (دومة) ، وهو (الأصبغ) .[3] فيظهر من هذا الخبر ، ان (الأصبغ) كان يلقب نفسه بلقب (ملك) ايضاً ، وأنه كان يحكم (دومة) في ايام الرسول . في نفس الوقت الذي كان فيه (الأكيدر) يحكم (دومة) ، ويلقب نفسه بلقب (ملك) .

---

١ التاريخ الكبير ، لابن عساكر (٨٩/١ وما بعدها) (مطبعة روضة الشام) ، تاج العروس (٢٩٧/٨) ، (دوم) .

٢ البلدان (٦٢٥/٢ وما بعدها) (طهران ١٩٦٥ م) ، مراصد الاطلاع (٥٤٢/٢ وما بعدها) .

٣ التاريخ الكبير ، لابن عساكر ، (٨٩/١ وما بعدها) ، البكري ، معجم (٥٦٤/٢ وما بعدها) ، المحبر (ص ١٢٠) .

وذكر بعض الاخباريين ان اهـل دومة الجندل كانوا من عُباد الكوفة.[1] ويقصدون بذلك انهم كانوا نصارى ، فقد كانت عادتهم اطلاق لفظة (عباد) على النصارى العرب ، عرب الحيرة بصورة خاصة . وقصدوا بالكوفة ، الحيرة ، لأن الكوفة لم تكن موجودة في الجاهلية ، اذ بنيت في ايام الخليفة (عمر) .

ويظهر من اهل الاخبار ان (اكيدر السكوني) لم يتمكن من تثبيت ملكه على (دومة الجندل) بصورة دائمة ، اذ كان ينافسه زعماء كلب الأقوياء. فقد ذكر (محمد بن حبيب) ان ملكها كان بين (اكيدر العبادي ثم السكوني وبين قنافة الكلبي . فكان العباديون اذا غلبوا عليها وليها اكيدر ، واذا غلب الغسانيون ولّوها قنافة . وكانت غلبتهم ان الملكين كانا يتحاجيان فأيما ملك غلب صاحبه باخراج ما يلقى عليه ، تركه والسوق فصنع فيها ما شاء . ولم يبع بها احد شيئاً الا باذنه حتى يبيع الملك كلما اراد بيعه مع ما يصل اليه من عشورها).[2] ويؤيد هذا الخبر ما ذكرته من وجود ملك آخر على دومة ، هو (الأصبغ) الكلبي المتقدم الذكر .

وهنالك خبر آخر يفيـد ان (الجودي بن ربيعة) ، كان مثل (الاكيدر) رئيساً على (دومة) ، وان الإثنين كانا رئيسين عليها .[3] وورد انه كان من غسان وأن اسمه (عدي بن عمرو بن أبي عمرو الغساني) ، وأن (عبد الرحمن ابن ابي بكر) ، (كان يختلف الى الشام في تجارة قريش في الجاهلية ، فرأى هناك امرأة يقال لها : ابنة الجودي من غسان ، فكان يهذى بها ، ويذكرهـا كثيراً في شعره) ، (وأصيبت حين غزو الروم ليلى ابنة الجودي ، فبعثوا بها الى عبد الرحمن بن ابي بكر لذكره اياها) .[4] فهو اذن على هـذه الرواية من غسان .

ويظهر من غربلة روايات الاخباريين ان هنالك موضعاً آخر عرف بـ (دومة) و (دوماء) . يقع في العراق على مقربة من (عين التمر) ، ذكر الاخباريون

---

١ البلاذري ، فتوح (٧٤) .
٢ المحبر (ص ٢٦٣ وما بعدها) ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١ وما بعدها) .
٣ الكامل (٢/٢٧٠ وما بعدها) .
٤ نسب قريش (٢٧٦) .

ان اسمه (دومة) و (دوما) و (دومة الجندل) . ونسبوا كما ذكرت قبل قليل بناءه الى (الاكيدر) . وهو موضع لا نعرف من امر تأريخه شيئاً يذكر .

وذكر ان (حارثة بن قطن) ، و (حمل بن سعدانة بن حارثة بن مغفل) ، وهما من (كلب) قدما الى رسول الله وأسلما ، فكتب رسول الله لحارثة كتاباً (لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب مع حارثة بن قطن) ، ثم بين ما على المذكورين من حقوق وواجبات ، وما عليهم من احكام فرضها الاسلام على المسلمين .[1]

وترك (خالد) (دومة الجندل) ، ثم اتى (قصم) ، فصالحه (بنو مشجعة بن التيم بن النمر بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة) ، وكتب لهم اماناً . ثم اتى (تدمر) ، فأمنهم ، ثم اتى (القريتين)، ثم (حوارين) من (سنير) ، ثم اتى (مرج راهط) ، فأغار على (غسان) .[2]

وكان (حاضر) (قنسرين) لتنوخ ، من اول ما تنخوا بالشام ، نزلوه وهم في خيم الشعر . ثم ابتنوا به المنازل . فدعاهم (ابو عبيدة) الى الاسلام ، فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية (بنو سليح) . وكان بهذا الحاضر قوم من (طيء) ، نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين . فلما ورد (ابو عبيدة) عليهم اسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية ، ثم اسلموا بعد ذلك .[3]

وقضاعة قبائل عديدة ، منها (بنو جرم بن ربّان) و (بنو سليح) و (تزيد) ابنا (عمران بن الحاف بن قضاعة) و (كلب بن وبرة) ، وهو قبيل عظيم . منهم (الأسبع) ، ومن قبائل قضاعة (عذرة بن زيد اللآت) و (العبيد بن زيد اللآت) ، و (بنو كنانة) ، و (بنو جناب بن هبل) ، و (بنو عليم بن جناب) ، و (بنو مصاد) ، و (بنو حصن) ، و (بنو معقل) . ومن (بني جناب) (بحدل بن أنيف) ، جدّ (يزيد بن معاوية) لأمه . ومن رجالهم (ابن الجلاّح) ، وكان قائداً للحارث بن ابي شمر الجفني ،

---

١ نهاية الارب (٩٣/١٨ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (١١٨ وما بعدها) ، الطبري (٤١٧/٣) ، تأريخ خليفة (٨٧/١) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٥١) .

واسمه (النعمان) . وهو الذي اغـار على (بني فزارة) و (بني ذبيان) ، فاستباحهم وسبى (عقرب) بنت النابغة ، ومَنّ عليها ، فمدحه (النابغة) .[1]

وقد انتشرت بطون (كلب) في ارضين واسعة ، شملت دومة الجندل وبادية السماوة والاقسام الشرقية من بلاد الشام . ولما أخرج الروم عن ديار الشام ، لعبت بطون كلب دوراً بارزاً في السياسة ، اذ أيدت الامويين ، وتزوّج (معاوية) (ميسون) أم (يزيد) وهي كلبية ، فصارت كلب في جانب الامويين .

ومن قبائل (قضاعة) ، (بنو عامر الاجدار) . ومن رجال (بني وبرة) غير كلب ، (بنو القيس بن جسر) ، و (بنو مصاد بن مذعور) و (بنو زهير بن عمرو بن فهم) . ومن قبـائل (جرم بن ربان) : (بنو اعجب) و (بنو طرود) و (بنو شميس) . ومن بطون (جرم) : (بنو خشين) ، ومن رجالهم (رأس الحجر) ، وقد رأس في الجاهلية وأخذ المرباع . ومن رجال (جرم) ، (عصام بن شهبر) ، حاجب النعمان . وكان النعمان اذا اراد ان يبعث بألف فارس بعث بعصام .[2]

وقد ذهب وفد من (جرم) الى المدينة ، فيه (الاصقع بن شريح بن صريم) و (هوذة بن عمرو) ، فأسلما ، وكتب الرسول لهما كتاباً .[3] وذهب وفد آخر ، اخبر الرسول باسلام حواء من جرم ، كان عليه (سلمة بن قيس الجرميّ) ومعه ابنه (ابو زيد عمرو بن سلمة بن قيس الجرمي) .[4]

وقد ساعد الغساسنة الروم في حروبهم مع المسلمين ، وكان على رأسهم (جبلة ابن الايهم الغساني) ، الذي حارب مع مقدمة جيش الروم في مستعربة الشام من غسان ولخم وجذام وغيرهم يوم اليرموك . ثم انحاز (جبلة) الى المسلمين ، وأظهر الاسلام ، ثم عاد ، ففرّ الى بلاد الروم ، واستقر بها ، وبها مات .[5] وقد استمر (المستعربة) يناصرون الروم ، فلما تراجع قوادهم نحو الشمال لضغط

---

١ الاشتقاق (٣١٣ وما بعدها) .

٢ (عصام بن شهبر الجرمي ، حاجب النعمان بن المنذر ملك العرب . ومنه قولهـم : ما وراءك يا عصام ؟ يعنون به اياه) ، تاج العروس (٣٩٩/٨) ، (عصم) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٣٣٥/١) ، (الاسقع) ، نهاية الارب (٩٤/١٨ وما بعدها) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٣٣٦/١ وما بعدها) .

٥ البلاذري ، فتوح (١٤٠ وما بعدها) . (٢) البلاذري ، فتوح (١٦٩) .

المسلمين عليهم ، التحق بهم هؤلاء (المستعربة) من غسان وتنوخ وإياد ، وقد التحموا بالمسلمين في (درب بغراس) [1] .

ويذكر الأخباريون ان (دمشق) كانت منازل ملوك غسان . وبها آثار لآل جفنة . والظاهر ، انهم كانوا قد اشتروا وابتنوا بها قصوراً ، عاشوا فيها ، ومنها كانوا يتصلون بكبار الموظفين الحاكمين البيزنطيين . فإذا أرادوا الاتصال بقومهم الغساسنة عادوا الى قصورهم بين قومهم . وكانت الغوطة : غوطة دمشق من المناطق التي سكن بها الغساسنة [2] .

ويظهر من رواية يرجع سندها الى (محمد بن بُكير الغساني) عن قومه (غسان) ان الغساسنة لم يقبلوا على الاسلام إقبال غيرهم من العرب ، وانهم لم يسلموا إلا بعد فتوح الشأم . ولما ذهب ثلاثة نفر منهم الى المدينة ، وأسلموا وبايعوا الرسول ، لم يستجب قومهم لهم في دعوتهم الى الاسلام ، فكتموا أمرهم عنهم ، خوفاً من بطش قومهم بهم [3] .

وورد في أخبار الرسل الذين أرسلهم الرسول الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، ان الرسول أرسل (شجاع بن وهب) الى (الحارث بن أبي شمر الغسانيّ) من غسان ، وكان يقيم إذْ ذاك بغوطة دمشق في قصر منيف ، ليدعوه الى الاسلام ، فلما دفع (شجاع) كتاب رسول الله الى (الحارث) رمى به ، ولم يدخل في الاسلام وبقي على النصرانية حتّى توفي عام الفتح [4] .

وكان (جبلة) مع الروم يوم (اليرموك) ومعه (المستعربة) من غسّان وقضاعة وذلك سنة (١٥) للهجرة ، وكان قد انضم الى المسلمين بعض لخم وجذام ، فلما وجدوا جدّ القتال فرّوا ونجوا الى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين [5] .

وقد كان (جبلة بن الأيهم) على رأس (العرب المتنصرة) يحارب مع

١ البلاذري ، فتوح (١٦٩) .
٢ ابن رستة ، الاعلاق (٣٢٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٣٨ وما بعدها) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦١) ، نهاية الارب (١٨/١٦٥) .
٥ الطبري (٣/٥٧٠ وما بعدها) .

الروم ، لمنع المسلمين من التقدم نحو (قنسرين) ، ويذكر أهل الأخبار ان محاورات جرت بينه وبين المسلمين في موضوع اشتراكه مع الروم ، ومنها محاورات مع (خالد بن الوليد) صاغوها باسلوب قصصي منمق ، وذكروا انه كان جالساً (على كرمي من ذهب أحمر وعليه ثياب الديباج الرومي وعلى رأسه شبكة من اللؤلؤ وفي عنقه صليب من الياقوت) [1] . وكان ذلك بعد ارتداده عن الاسلام [2] ، فلما غلب الروم ، (كان جبلة أول من انهزم والعرب المتنصرة أثره) [3] .

ومن الغساسنة (شرحبيل بن عمرو الغسانيّ) ، الذي قتل رسولَ رسول الله (الحارث بن عمير الأزدي) ، الذي كان الرسول قد بعثه الى ملك (بصرى) . فلما نزل (مؤتة) قتله (شرحبيل) . فأمر رسول الله بارسال حملة عليه ، سنة ثمان للهجرة جعل أميرها (زيد بن حارثة) . ولما سمع بها (شرحبيل) جمع جمعاً من قومه وتقدم نحوهم ، وكانوا قد نزلوا (معان) . وبلغ المسلمين ان (هرقل) كان قد نزل (مآب) من أرض البلقاء في جمع من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام والقين ، عليهم (مالك بن رافلة) الاراشي من (بليّ) ، فانحازوا الى (مشارف) ، ولما دنا العدو انحازوا الى (مؤتة) ، وقتل فيها فيها (جعفر بن أبي طالب) ، و (عبد الله بن رواحة) و (ثابت بن رواحة) و (ثابت بن أرقم) ، ثم (زيد بن حارثة) ، ثم تراجعوا الى المدينة . وقتل من العرب الذين كانوا مع الروم (مالك بن رافلة) (زافلة) [4]. واعتزل بعض (حَدَس) وهم (بنو غنم) الحرب ، لاشارة كاهنتهم عليهم بذلك ، فأخذوا بقولها ، فاعتزلوا عن (بني لخم) وصلم الحرب بعض منهم ، وهم (بنو ثعلبة) [5] .

وكان بقرب (حلب) حاضر ، عرف بـ (حاضر حلب) ، جمع أصنافاً من العرب من تنوخ ، فصالحهم (أبو عبيدة) على الجزية [6] . ويرجع هذا

---

١ الواقدي ، فتوح الشام (١/١٠٦) ، (ذكر فتح قنسرين) .
٢ الواقدي (١/١١٠) .
٣ الواقدي (١/١١٤) .
٤ نهاية الأرب (١٧/٢٧٧) ، (سرية مؤتة) .
٥ الطبري (٣/٤١) ، ذكر الخبر عن غزوة مؤتة) .
٦ البلاذري ، فتوح (١٥١) .

الحاضر الى أيام الجاهلية ، فقد كان العرب قد توغلوا الى هذه الديار قبل ظهور الاسـلام ، وأقاموا في الحواضر بظواهر المـدن يتعيشون من اتصالهم بأهـل تلك المدن .

ولم تكن الرابطة الدينية التي ربطت بين أكثر عرب بلاد الشأم والبيزنطيين ، هي العامل الوحيد الذي جعل أولئك العرب ينضمون الى صفوف الروم في الدفاع عنهم وفي مقاومة جيوش المسلمين ، بل كانت هنالك عوامل أخرى ، مثل المنافع المادية التي كان يجنيها سادات الأعراب من البيزنطيين ، حيث كانوا ينالون هدايا ورواتب منهم في مقابل حماية الحدود والمحافظة عليهـا من غارات الأعراب وفي مقابـل الغارات التي كان البيزنطيون يكلفونهم بها لغزو حدود العراق لازعـاج أعدائهم الفرس وقت الحاجة والضرورة ، ومثل التسهيلات التي كانوا ينالونها من البيزنطيين في الإتجار مع مدن الشأم وفي معاملات البيع والشراء والرواتب السخية التي تدفع للأعراب إذا خدموا في صفوف العساكر المتطوعة ، وهي رواتب سخية إذا قيست بالنسبة لحالة أهل البادية المنخفضة من الناحية المادية كثيراً بالنسبة الى حالة سكان بلاد الشأم .

وكان (الحيار) : (حيار بني القعقاع) بلداً معروفاً قبل الاسلام . وبه كان مقيل (المنذر بن ماء السماء) اللخمي ، ملك الحيرة . فنزله (بنو القعقاع) من (عبس بن بغيض) [1] .

وكانت البلقاء في أيدي قبائل من العرب مثل لخم وجذام وبلقين وبهراء وبليّ ، وهي قبائل يطلق عليها المؤرخون اسم (المستعربة) [2] . وكانوا على النصرانية في الغالب ، لذلك كان هواهم الى جانب الروم . فكانوا معهم في غزوة (مؤتة) يقاتلون مع (هرقل) ضد المسلمين وعليهم (مالك بن رافلة) وهو من (بليّ) ثم أحد إراشـة . وكان المسلمون إذْ ذاك في (معان) . وهي من أعمـال البلقاء يستعدون للروم [3] . وكان صاحب هذه المدينة في أيام الرسول رجـلاً من (جذام) ، هو (فروة بن عمرو الجُذاميّ) . وكان عاملاً للروم على من

---

١ البلاذري ، فتوح (١٥١ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٣٧) (دار المعارف) .
٣ ابن الاثير (٢/٩٧) ، الطبري (٣/١٠٨) ، (غزوة مؤتة) ، البلدان (٨/٩٣) ، (معـان) .

يليهم من العرب ، ومنزله بمعان . فلما أرسل فروة رسولاً عنه الى الرسول يبلغه بإسلامه ، قبض الروم عليه وحبسوه ، ثم ضربوا عنقه وصلبوه [1] .

ومن (لخم) (بنو الدار بن هانىء) . وقد قدم وفد منهم على رسول الله منصرفه من (تبوك) ، فيه : (تميم بن أوس بن خارجة الداري) و (نعيم ابن أوس بن خارجة) ، و (يزيد بن قيس بن خارجة) ، و (الفاكه بن النعمان بن جبلة بن صفارة) ، و (جبلة بن مالك بن صفارة) ، و (أبو هند) و (الطيب) إبنا (ذر) . وهو (عبد الله بن رزين بن عِمّيت بن ربيعة درّاع) ، و (هانىء بن حبيب) و (عزيز) و (مُرّة) إبنا (مالك بن سواد بن جذيمة) ، فأسلموا ، وأهدى (هانىء بن حبيب) لرسول الله ، راوية خمر وأفراساً وقباءاً مخوصاً بالذهب . فقبل الأفراس والقباء . وقال تميم : لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لإحداهما (حِبرى) والأخرى (بيت عينون) ، فإن فتح الله عليك الشأم فهبهما لي . فوهبهما رسول الله له . فلما توفي الرسول وقام أبو بكر أعطاه ذلك وكتب له كتاباً [2] .

ولما أمر الرسول (أسامة بن زيد بن حارثة) ان يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، تجهز معه المهاجرون الأولون ، ولكن وفاة الرسول لم تمكنه من السفر ، فكان أول ما فعله خليفته (أبو بكر) ان أمره بتنفيذ ما أمره به رسول الله [3] . ولكنه لم يتقدم كثيراً ، بل بلغ الموضع الذي قتل أبوه زيد بن حارثة فيه ، وهو من أرض الشأم فرجع ، لأن الرسول أمره في حياته بالمسير اليه [4] .

و (الداروم) قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر . يجاورها عربان بني ثعلبة بن سلامان بن ثعل من بني طيء . وهم درماء وزريق [5] .

١ ابن الاثير (٢/١٢٤) ، البكري (٤/١٢٤٢) (معان) ، ابن سعد ، طبقات (١/٢٦١ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٣ وما بعدها) .
٣ الطبري (٣/١٨٤ وما بعدها) ، (ثم دخلت سنة احدى عشرة) .
٤ الطبري (٣/٢٤١) ، نهاية الارب (١٧/٣٧٠) .
٥ تاج العروس (٨/٢٨٨) ، (درم) .

وكانت (جذام) نازلة في (حسمى) عند ظهور الإسلام. وهي من مواطن (ثمود) . و (جُذام) من نسل (جذام) شقيق (عاملة) و (لخم) أبناء (عدي بن الحارث بن مرّة بن كهلان) . واسم (جذام) الحقيقي في رأيهم (عمرو) [1] . وتقع أرض جذام في الأقسام الجنوبية من بلاد الشأم ، وتصل الى (أيلة) ثم تمتد مع الساحل حتى تبلغ (ينبع) [2] .

ويرجع بعض النسابين نسب جُذام الى اليمن ، ويرجعها بعض آخر الى مضر ، وتوسط قوم فقالوا إنهم كانوا من مضر في الأصل ، ثم غادروا ديار مضر ، فذهبوا الى اليمن ، وعاشوا بين قبائل قحطان ، فنسوا أصلهم بتقادم العهد ، وعُدّوا في القحطانيين . ويظهر ان هذا الرأي هو محاولة للتوفيق بين الرأيين السابقين . أما الذي عليه غالبية جُذام ، فهو انها من قحطان [3] .

وقد وفد رجال من (جذام) على رسول الله ، منهم (رفاعة بن زيد بن عمير بن معبد الجُذامي) ثم أحد (بني الضبيب) ، فأسلم وكتب الرسول له كتاباً . أما (فروة بن عمرو بن النافرة) الجُذامي ، فقد كان كما سبق ان ذكرت عاملاً الروم على ما يليهم من العرب ، وكان منزله (معان) وما حولها أو على (عمان) ، فلما بلغهم انه كاتب الرسول وانه أسلم أخذوه فحبسوه ، ثم ضربوا عنقه [4] . ويذكر أهل الأخبار ان (فروة) كتب الى الرسول كتاباً أرسله مع (مسعود بن سعد) ، وبعث اليه ببغلة وفرس وحمار ، وأثواب لين ، وقباء سندس مخوص بالذهب [5] . وان الرسول كتب الى فروة جواب كتابه . ويذكر أهل الأخبار ان الروم لما قبضوا على (فروة) ، قال شعراً يذكر فيه

١ البلدان (٣/٢٧٦) ، الاشتقاق (٢٢٥) ، المعارف (ص ٥٠) .
٢ صفة (١٢٩) .
٣ (وجذام قبيلة من اليمن تنزل بجبال حسمى ، وراء وادي القرى . وهو لقب عمرو ابن عدي بن الحرث بن مرة بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . وهو أخو لخم وعاملة وعفير . ويقال اسم جذام عوف وقيل عامر . والاول أصح . ونزعم نساب مضر أنهم من معد بن عدنان) ، (وانما سمي جذام جذاما ، لان أخاه لخما وكان اسمه مالكا، اقتتل واياه، فجذم أصبع عمرو. فسمي جذاما. ولخم عمرو مالكا فسمي لخما) ، تاج العروس (٨/٣٢٣) ، (جذم) .
٤ طبقات ابن سعد (١/٣٥٤ وما بعدها) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨١) .

نفسه والرسول ، وقال مثل ذلك لما نقله الروم الى موضع يقع على ماء لهم بفلسطين اسمه (عفراء) ، فلما أرادوا ضرب عنقه ، قال بيتاً من الشعر في إسلامه وفي إيمانه [1] .

وقد انتشرت النصرانية بين كلب ، كما انتشرت بين أكثر القبائل النازلة بديار الشأم . والظاهر انها كانت على مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة (Monophysitles) [2] .

وفي جوار (الحجر) وفي شرق (حرة ليلى) ، أقامت بنو عذرة ، وهي من قبائل قضاعة ، وتنسب الى (عُذرة بن سعد بن هُذيم بن زيد بن ليث بن أسلم بن الحاف بن قضاعة) [3] . ولا نعلم من تأريخ هذه القبيلة في الجاهلية شيئاً يذكر . ولم يرد اسمها كثيراً في الأيام ، والظاهر ان ذلك لقلّة شعرائها ، فإن شعر الشعراء هو الذي خلد أسماء القبائل عند الأخباريين . ويظن انها قبيلة (Adrital) (Adraetal) التي ذكرها (بطلميوس) [4] .

أما ديار هذه القبيلة ، فكانت في وادي القرى وتبوك . ولكنها امتدت حتى بلغت قرب أيلة ، ويذكر الأخباريون ان هذه القبيلة هاجرت مع من هاجر من قبائل قضاعة بعد حربها مع حمير ، فنزلت في هذه الديار [5] . وتعاهدت مع قوم من يهود على مجاورتهم ، والا تتحرش بهم وبنخيلهم وبساتينهم . وتجاور ديار عذرة ديار قبائل أخرى من قضاعة مثل نهد وجهينة وبليّ وكلب ، كما جاورت من الشمال قبيلة غطفان [6] .

ولعذرة حلف مع عدد من بطون سعد هذيم ، مثل بني ضنة ، ويعدهم النسابون بطناً من عذرة ، وكذلك مع بني سلامان . وقد عرفوا بصحار . وكان لهم حلف مع جهينة ، ويرجع الأخباريون عهد هذا الحلف الى أيام حرب قضاعة ، وهي الحرب المسماة بـ (حرب القريض) [7] .

---

١ نهاية الارب (٢٩/١٨) .

٢ Ency., II, P. 689.

٣ Ency., II, P. 989.

٤ Sprenger, Geographie, S., 205, 333.

٥ البكري (١٨ ، ٢٢ ، ٢٧) ، الاغاني (١٦١/١٦) .

٦ Ency., IV, P. 988.

٧ البلدان (٣٦٨/٣) ، وهم ابناء (صحار) ، الاشتقاق (٣٢٠) ، Ency., IV, P. 988.

وهنالك جملة قبائل ذكر الأخباريون أربعاً أو خمساً قالوا انهـا كانت تعرف بـ (عذرة) [1] . وقد سبب تعدد هذه الأسماء للنسابين بعض التشويش .

ويظهر من روايات الأخباريين انه كان لهذه القبيلة صلة بقريش ، فزعموا ان أم (قصي) تزوجت رجلاً من (بني عذرة) ، وان أخاه من أمه (رزاح ابن ربيعة بن حرام) اشترك مع قريش في الدفاع عن الكعبة وفي طرد خزاعـة عنها . ورووا أيضاً انه كان لها صلة بالأوس والخزرج كذلك ، لأن أم القبيلتين ، وهي (قيلة بنت كاهل أو بنت هالك) ، كانت من هذه القبيلة [2] .

ولما قدم وفد (عذرة) على الرسول في صفر سنة تسع ، وفيه (حمزة بن النعمان العذري) و (سليم) و (سعد) ابنا مالك ، و (مالك بن أبي رباح) ، سلّموا على الرسول (بسلام أهل الجاهلية ، وقالوا : نحن إخوة قصي لأمـه ، ونحن الذين أزاحوا خزاعة وبني بكر عن مكة ، ولنا قرابات وأرحام) . وكان من رجال عذرة الذين وفدوا على الرسول : (زمل بن عمرو العذري) [3] .

وذكر (ابن سعد) ان الرسول كتب الى (عـذرة) في (عَسيب) ، وبعث به مع رجل من (بني عذرة) ، فعدا عليه (ورد بن مرداس) أحد (بني سعد هذيم) ، فكسر العسيب وأسلم واستشهد مع (زيد بن حارثة) في غزوة وادي القرى أو غزوة القردة [4] .

وكانت مواطنها عند ظهور الاسلام في منطقة مهمة جداً تقع بين الحجاز وبلاد الشأم ومصر ، فتمتد من منازل (كلب) في الشمال حتّى منطقة المدينة . وكانت بطونهـا منتشرة في (وادي القرى) وحول (تبوك) وعنـد (أيلة) وفي طور سيناء . ولمرور طريق القوافل منها ، تولى رجالها حراستها وجبايـة رسوم المرور منها . ولما رأى بعض المستشرقين انها تقطن منطقة كان يسكنها (أهـل

١ محمد بن حبيب ، مختلف القبائل (ص ٣٧) ، (طبعة وستنفلد) ،
Ency., IV, P. 289.

٢ Ency., IV, P. 989, Wustenfeld, Genealo, I, 24.

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٣١ وما بعدها) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٤) .

مديـــن) وكذلك النبط ، ذهبوا الى انهـــا من نسل (مديـــن) أو من بقايا (النبط)[1] .

ومن المستشرقين من يرى ان (بني النضير) هم فرع من جُذام ، دخلوا في دين يهود ، ودليلهم على ذلك انتشار اليهودية بين بعض بطون جذام التي تقع منازلها على مقربة من (يثرب) . وكانت النصرانية قد وجدت لها سبيلاً بين جذام ، وذلك باتصالها ببلاد الشأم ومصر . وقد كانت مـــع (المستعربة) أي النصارى العرب ، تحارب المسلمين مع الروم في حروب بلاد الشأم[2] .

وفي أرض جـــذام موضع يقـــال له (السلاســـل) ، وقعت غزوة عرفت بـ (ذات السلاسل) . وقد قام بها (عمرو بن العاص) ، وكان الرسول قد بعثه الى أرض (بليّ) و (عذرة) يستنفر الناس الى الشأم[3] .

ومن جذام (رفاعة بن زيد الجذامي) ثم (الضُبيبي) ، وكان قـــد قدم الى الرسول فأسلم ، وكتب الرسول له كتاباً ، وذهب الى قومه ، ونزل الحرة : حرة الرجلاء[4] . و (ضبيب) بطن من جُذام . ولما أغار (الهُنيد بن عوص) ، وهو من (الضليع) ، بطن من جُذام على (دحية بن خليفة الكلبي) ، حين قدومه من بلاد الشأم ، وكان رسول الله بعثه الى (قيصر) صاحب الروم ومعه تجارة له ، فأصاب كل شيء كان مع (دحية) نَفَرَ (رفاعةُ) وقومه ممن أسلم ، الى (الهنيد) ، فاستنقذوا ما كان في يده ، فردّوه على (دحية) . وكان المعتدون يقيمون بحسمى[5] .

ومن (جـذام) (زنباع بن روح بن سلامـــة بن حُداد بن حديدة) ، وكان عَشّاراً ، مرّ به (عمر بن الخطاب) في الجاهليـــة تاجراً الى الشأم ، فأساء اليه في اجتيازه وأخذ مكسه ، فقال (عمر) فيه شعراً يتوعده ويهجوه ، فبلغ ذلك (زنباعا) فهجز جيشاً لغزو مكة ، فنهي عن ذلك وأشير عليه بعدم تمكنه منها ، فكَفّ عنها[6] .

١ Ency., I, P. 1058.
٢ Ency., I, P. 1058.
٣ الطبري (٣٢/٣) .
٤ الطبري (١٤٠/٣) ، (قدوم رفاعة بن زيد الجذامي) .
٥ نهاية الارب (٢٠٧/١٧) .
٦ بلوغ الارب (٣٦١/١ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٢٥) .

وكانت (أيلة) في ايام الرسول ، في ايدي (يوحنا بن رؤبة) (يحنة بن رؤبة) . ولما سمع (يوحنا) بمجيء الرسول مع جيش الى (تبوك) ، جاء اليه ، وصالحه على الجزية ، وصالحه اهل (جرباء) و (اذرح) على الجزية ايضاً . كما صالح اهل (مقنا) على ربع كروعهم وغزولهم وحلقتهم وعلى ربع ثمارهم ، وكانوا يهوداً .[1] وقد دوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر ان الرسول كتبه لـ (يحنة بن رؤبة) (يحنة بن رَوْبَة) وأهل ايلة (لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر ... ولمن كان معهم من اهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر) .[2]

وأورد (ابن سعد) نص كتاب ارسله الرسول الى (يوحنا بن رؤبة) (يحنة ابن رَوْبَة) و (سَرَوات) اهل ايلة : جاء فيه ان رسول الله قد ارسل اليه رسلاً هم : (شرحبيل) و (ابيّ) و (حرملة) ، و (حريث بن زيد الطائي) . و (أن حرملة) قد شفع له ولأهل ايلة لدى الرسول وأن عليه ان يكسو (زيداً) كسوة حسنة . وأنه قد اوصى رسله بهم . ويظهر من هذا الكتاب ، ان حامله كان (زيداً) ، وجاء فيه (وجهزوا اهل مقنا الى ارضهم) .[3]

وكتب الرسول كتباً الى اهل (اذرح) و (جربا) ولأهل مقنا ، وذكر ان اهل مقنا ، كانوا يهوداً على ساحل البحر . وأهل جربا واذرح يهود ايضاً .[4]

اما (كلب) التي كانت ديارها تتاخم ديار جذام ، فينسبها النسابون الى (كلب بن وبرة) ، وهي من القبائل التي كانت تنزل ديار الشام عند ظهور الاسلام . غير اننا لا نعرف من تأريخها شيئاً يذكر قبل الاسلام .[5]

وتتصل بديار كلب من الشرق ارض الحيرة وديار (بني بكر) ، ومن الجنوب ديار طيء ، ومن الغرب ديار (بنو بليّ) و (جذام) ، ومن الشمال (بنو بهراء) وقبائل غسان .

ويرجع نسب (كلب) في عرف النسّابين الى قبائل (قضاعة) . ومن كلب

١ الطبري (٣/١٠٨) ، البلاذري ، فتوح (٧١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٩) ، نهاية الارب (١٧/٣٥٧) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٨) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٩ وما بعدها) .
٥ Ency., II, P. 688.

الأسبع : وهي بطون ثعلب وفهد ودب والسيد والسرحان وبرك . ومن قبائلها : ثور وكلب ورفيدة وعوذي وعرينة وقبائل اخرى يذكرها النسابون .[1]

وينسب الى هـذه القبيلة (زهير بن جناب الكلبي) ، وهو في جملة من يذكرهم الاخباريون من المعمرين . ويذكرون انه كان رئيساً من رؤساء هذه القبيلة ، وأنه كان شاعراً ، وأنه كان في ايام (كليب وائل) و (المهلهل بن ربيعة) ، ومعنى ذلك انه عاش في القرن السادس للميلاد .[2]

وقد ذكر الاخباريون اسماء رجال برزوا في الجاهلية ، ينتمون الى بطون هذه القبيلة ، منهم (هوذة بن عمرو) ، نعتوه بـ (رب الحجاز) ،[3] وهذا النعت يدل على منزلة الرجل ومكانته التي كان عليها قبل الاسلام . وهو من (حَرْدش) وقد مدحه (النابغة الذبياني) . وقد نسب الاخباريون هوذة الى (عص) او (عيثر بن لبيد) ، وهو في زعمهم من المعمرين في الجاهلية .[4]

وقد وفد رجل من (كلب) على الرسول اسمه (عبد عمرو بن جبلة بن وائل بن الجلاّح الكلبي) ، ومعه (عاصم) ، من (بني وقاش) من (بني عامر) ، فأسلما . ووفد (حارثة بن قطن بن زائر بن حصن بن كعب بن عليم الكلْبي) و (حمل بن سعدانة بن حارثة بن مغفل بن كعب بن عليم) ، فأسلما . وكتب الحارثة بن قطن ، كتاباً ، لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب ، دوّن فيه أوامره لهم ونواهيه وشروطه ان ارادوا الدخول في الاسلام .[5]

وأورد (ابن سعد) صورة كتاب ، ذكر ان الرسول كتبه (لبني جناب) من كلب وأحلافهم ومن ظاهرهم . وقد بين فيه الامور التي يجب عليهم مراعاتها من حقوق وأحكام . وأشهد عليه فيه : سعد بن عبادة ، وعبد الله بن انيس ، ودحية الكلبي .[6]

---

١ الاشتقاق (ص ٣١٤ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (ص ٢٠٤) . Ency., IV, P. 1237.

٣ الاشتقاق (٣٢٠) .

٤ الاشتقاق (٣٢٠) . Ency., IV, P. 989.

٥ ابن سعد ، طبقات (٣٣٤/١ وما بعدها) .

٦ ابن سعد ، طبقات (٢٨٦/١) .

ولعذرة عدة بطون ، منها : بنو الجلحاء ، وبنو جلهمة ، وبنو زقزقة ، وبنو ضنة ، وبنو حردش ، وبنو حنّ ، وبنو مدلج . [1] ويظهر من ابيات للشاعر النابغة ان (النعمان بن حارث الغساني) لما هم بغزوّ (بني حنّ) في موضعهم بـ (برقة صادر) ، نهاه عن ذلك ، غير انه لم ينته ، فاصيب غزوه بهزيمة . [2] وحنّ ، هم الذين قتلوا (الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد) من طيء ، في الحجر . وكان الجلاس ممن اجتمعت عليه جديلة طيء . [3]

وتبوك هي من جملة مواضع بني عــذرة ، وهي موضع (Thapaua) الذي ذكره (بطلميوس) ، [4] ولا نعرف من امرها قبل الاسلام شيئاً يذكر . وقد ذكرت في الفتوح ، اذ وصل الرسول اليها ، وصل الرسول ، وصالح اهلها على الجزية ، مما يدل على ان سكانها كانوا من اهل الكتاب . [5]

وكان غزو الرسول لها سنة تُسع للهجرة ، اذ بلغه ان الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وانهم قد جمعوا اليهم جمعاً من لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم الى البلقاء ، فأراد الرسول مباغتتهم قبل ان يباغتوه ، فلما وصل اليها ، وجد ان الروم بعيدون عنه فرجع . [6]

ويذكر اهل الاخبار ان (بني عذرة) نصروا قصياً وساعدوه ، لوجود صلة له بهم . ويظهر انه قد كان عند القدامى من (بني عُذرة) كتاب في اخبارهم كانوا يرجعون اليه اذا احتاجوا الى الوقوف على خبر يخص هذه القبيلة . فقد ذكر (ابو عمرو بن حريث العذري) ، انه رجع الى كتاب من كتب آبائه في امر (وفد عذرة) الذي ذهب الى الرسول . [7]

---

١ الاشتقاق (٣٢٠) ، Ency., IV, P. 989

٢ الاشتقاق (٣٢٠) ، البلدان (١٤٣/٢) .

٣ البلدان (٧٤/٧) ، (قرى) .

٤ Ptolemy, Geography, VI, 7, 27.

٥ البلدان (٨٢٤/١) ، ابن هشام (٩٠٢) ، الطبري (١٦٩٢/١) ، غزوة تبوك ، فتوح البلدان (٥٩) ، شمال الحجاز ، تأليف الويس موسل ، ترجمة : الدكتور عبد المحسن الحسيني ، سنة ١٩٥٢ م ، (ص ١٤٠ وما بعدها) .

٦ نهاية الارب (٣٥٢/١٧ وما بعدها) .

٨ (عن أبي عمرو بن حريث العذري قال : وجدت في كتاب آبائي ، قالوا...) ، ابن سعد ، طبقات (٣٣١/١) .

وتقع ديار (غطفان) جنوب (طيء) ، وشمال (هوازن) و (خيبر) والى الغرب من بليّ وديار سعد . وهم من القبائل الكبيرة التي يرجع النسابون نسبها الى (سعد بن قيس بن مضر) . فهي من القبائل المضرية في اصطلاح أهل الأنساب . وهم قبائل : منهم : ريث وبغيض وأشجع ، ومن بغيض ذبيان ، وهو والد عبس ، وانما أجداد قبائل كبيرة [1] . وتقع ديار أشجع على مقربة من المدينة ، وأما ديار (بغيض) فتقع عند شربة والربذة ، وتجاورها (خصفة بن قيس عيلان) ، وسليم الذين تقع ديارهم في جنوبهم .

ومن رجال (أشجع) (مسعود بن رخيلة بن نويرة بن طريف) ، وقد وفد على الرسول على رأس وفد قوامه مئة رجل ، وادّعوا رسول الله ، ثم أسلموا [2] .

وقد كانت بين (غطفان) وبين (بني عامر بن صعصعة) وهم بطن من هوازن حوادث وأيّام . من ذلك (يوم النفراوات) ، وفيه قتل خالد بن جعفر ابن كلاب العامري زهير بن جذيمة سيد عبس . وكانت هوازن تخضع لزهير . وتقدم له الإتاوة كل سنة في سوق عكاظ . فلما استبد بهم زهير ، ولم يرع لهم حرمة ، ولم ينصفهم ، نقموا عليه . وأقسم جعفر ليقتلنه ، وقد وفى بقسمه في يوم (النفراوات) . [3]

وقد غزا الرسول قوماً من (غطفان) ، هم من (بني محارب) و (بني ثعلبة) ، حتى نزل نخلاً فلقي جمعاً من (غطفان) ، ولم تقع بينهم حرب ، وعرفت الغزوة بـ (غزوة ذات الرقاع) [4] . وكانت هذه الغزوة في أول السنة الثالثة من الهجرة . وعرفت أيضاً بـ (غزوة ذي أمر) ناحيـة (النخيل) . وكان قد جمعهم رجل يقال له : (دعثور بن الحارث) من (بني محارب) ، وهم من الأعراب ، فلما وصل الرسول اليهم ، هربوا في رؤوس الجبال ، ثم

١ الاشتقاق (١٦٤ وما بعدها) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٢٣٧ وما بعدها) ، Ency., II, P. 144.

٢ نهاية الارب (٢٢/١٨) .

٣ العقد الفريد (٣٠٤/٣) ، الاغاني (١٠/١٠) .

٤ الطبري (٥٥٥/٢ وما بعدها ح .

أسلم (دعثور) ودعى قومه الى الاسلام [1] .

وقد تجمع جمع من غطفان بالجناب ، وأرادوا مباغتة المسلمين ، فوصلت الأنباء بذلك الى الرسول ، فأرسل سرية عليهم فلت ذلك الجمع [2] .

وقد استجابت (غطفان) لدعوة سادات (بني النضير) أمثال : (سلام ابن أبي الحقيق) ، و (حيي بن أخطب) و (كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق) ، ودعوة نفر من (بني وائل) ، فيهم (هوذة بن قيس الوائلي) و (أبو عمار الوائلي) ، ولزعماء مكة وعلى رأسهم (أبو سفيان) ، فخرجت وقائدها (عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري) في بني فزارة ، و (الحارث بن عوف بن أبي حارثة المُرّي) في (بني مُرّة) و (مسعود (مسعّر) بن رخيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة الأشجعي) فيمن تابعه من أشجع . واستجابت لهم (بنو سليم) ، يقودهم (سفيان بن عبد شمس) وهو أبو (أبي الأعور السلمي) ، وانضمت اليهم (بنو أسد) يقودهم (طليحة بن خويلد الأسدي) ، وكوّنوا الأحزاب . وساروا باتجاه المدينة ، فوجدوا المسلمين وقد حفروا خندقاً حولها ، حال بينهم وبين اقتحامها ، ووقعت مناوشات ، انتهت برجوع الأحزاب . ونجاح المسلمين في الدفاع عن أنفسهم [3] .

ومن رجال (عبس) الذين وفدوا على الرسول : (ميسرة بن مسروق) و (الحارث بن ربيع) وهو الكامل ، و (قنان بن دارم) ، و (بشر بن الحارث بن عبادة) و (هدْم بن مسعدة) ، و (سباع بن زيد) ، و (أبو الحصن بن لقمان) ، و (عبد الله بن مالك) ، و (فروة بن الحصين بن فضالة). وذكر ان رسول الله سأل نفراً من (عبس) عن (خالد بن سنان)، فقالوا : لا عقب له ، فقال : نبيّ ضيعه قومه ، ثم أنشأ يحدث أصحابه حديث خالد [4] .

---

١ نهاية الارب (٧٧/١٧ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢٣/٣) .
٣ الطبري (٥٦٤/٢ وما بعدها) ، (غزوة الخندق) ، نهاية الارب (١٦٦/١٧ وما بعدها) .
٤ طبقات ابن سعد (٢٩٥/١ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٨/١٧) .

وقد كتب الرسول الى (بني زهير بن أقيش) كتاباً ، أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم [1] . و (بنو أقيش) هم حيّ من (عكل) . و (عكل) من (الرباب) . وهم (تيم) و (عدي) و (عكل) و (مزينة) . وذكر ان الرسول كتب لبني أقيش في ركية بالبادية [2] .

ومن ديار (هوازن) ، (تربة) ، وهي ناحية (العبلاء) على طريق صنعاء ونجران . وتقع في (عجز هوازن) . وقد أرسل الرسولُ عليهم سرية بقيادة (عمر) وذلك سنة سبع للهجرة [3] . وتقع ديار هوازن بغور تهامة الى الى بيشة والسراة وحنين وأوطاس [4] .

وفي جنوب شرقي (حسمى) أقامت بطون (فزارة) [5] ، وتنسب الى (فزارة بن ذبيان بن بغيض بن غيث بن غطفان) . وقد اشتركت في حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وفي معارك أخرى ، وتعاونت مع يهود خيبر ضد الرسول [6] . ومن رجال (فزارة) (خارجة بن حصن) ، وكان فيمن وفد على النبي من وفد (بني فزارة) سنة تسع للهجرة [7] .

ومن (بني فزارة) في أيام الرسول (عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر) ، أغار على لقاح رسول الله وهي ترعى بالغابة ، وهي على بريد من المدينة ، فوجه رسول الله جمعاً عليه ، قتل (مسعدة بن حَكَمَة بن مالك بن حذيفة بن بدر الفزاري) و (حبيب بن عيينة) ، ثم لحقهم الرسول بـ (ذي قرد) ، فوجدهم قد مضوا [8] . وقد نعت النبي (عيينة) بـ (الأحمق المطاع في قومه) [9] . ومن بني فزارة الذين وفدوا الى الرسول بعد رجوعه من تبوك سنة تسع للهجرة ،

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .
٢ الاشتقاق (١١٣/١١١) .
٣ نهاية الأرب (٢٧٠/١٧) .
٤ البكري ، معجم (٨٨/١) .
٥ Musil, Hegaz, P. 315.
٦ Ency., II, P. 93.
٧ الطبري (١٢٢/٣) .
٨ البلاذري ، انساب (٣٤٨/١ وما بعدها) .
٩ الاشتقاق (١٧٣) .

(خارجة بن حصن) و (الحرّ بن قيس بن حصن [1] . وذكر ان (عيينة بن حصن) كان من المؤلفة قلوبهم . شهد حنيناً والطائف . وكان أحمق مطاعاً دخل على النبي بغير إذن وأساء الأدب ، فصبر النبي على جفوته وأعرابيته . وقد ارتد وآمن بطليحة ، ثم أسر ، فمنّ عليه الصدّيق ، ثم لم يزل مظهراً للإسلام . وكان يتبعه عشرة آلاف قناة . وكان من الجرارة . واسمه حذيفة ولقبه عيينة لشتر عينه [2] .

ولما خرج (زيد بن حارثة) في تجارة له الى الشأم ، ومعه بضائع لأصحاب رسول الله ، وكان دون (وادي القرى) لقيه ناس من (فزارة) من (بني بدر) ، فضربوه وأخذوا ما كان معه ، فعاد (زيد) الى المدينة وأخبر الرسول بما حدث . فأعاده مع سرية لغزوهم ، فحاصرهم ، ولكنهم كانوا قد هربوا ، فأسر منهم (فاطمة بنت ربيعة بن بدر) وابنتها (جارية بنت مالك بن حذيفة ابن بدر) ، وقُتل (النعمان) و (عبد الله) ابنا (مسعدة بن حكمة بن مالك ابن بدر) [3] .

وعلى السُنّة الجارية بين القبائل ، تشتّت شمل عشائر غطفان بسبب الحروب التي نشبت بينها من جهة ، وبينها وبين بطون خصافة من جهة أخرى . ونعني بخصافة هوازن وسليماً . وقد استمر التنافس بين عشائر غطفان وعشائر خصافة الى ظهور الإسلام ، وتميز بحوادث الفتك والاغتيالات ، وبرز في هذا النزاع اسم (دريد بن الصمة) وهو من هوازن ، ومعاوية وصخر أخوي الخنساء وهما من سُليم [4] .

ولما انتقل الرسول الى جوار ربه ، ارتد كثير من غطفان ، وأيد بعضهم طليحة ، ولم يرجعوا الى الإسلام إلا بعد انتصاره على المرتدين .

وكان من وجوه (بني عامر بن صعصعة) ، عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس بن مالك بن جعفر ، (أربد بن ربيعة بن مالك بن جعفر) ، وجبار بن

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٩٧/١) ، نهاية الأرب (٢٠١/١٧ وما بعدها) ، (٤١/١٨) .
٢ تاج العروس (٤٥/٦) ، (ألف) و (عين) .
٣ نهاية الارب (٢١٠/١٧ وما بعدها) .
٤ Ency., II, P. 145.

سلمى بن مالك ، وكان هؤلاء رؤوس القوم وشياطينهم . وقد وفدوا على الرسول . ولم يسلم (عامر بن الطفيل) ، بل رجع كافراً ومات على الشرك[١] . وكان معجباً بنفسه ، جريئاً على الناس[٢] ، من الفرسان[٣] . طلب من الرسول ان يجعل الأمر له من بعده في مقابل إسلامه ، أو ان يقتسم معه الحكم على الناس مناصفة ، فيكون للرسول حكم أهل المدر ، وله حكم أهل الوبر . فلما قال له الرسول : « لا ، ولكني أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس » قال : أوليست لي ؟ لأملأنها خيلاً ورجالاً . ثم ولى ، فلما كان في طريقه الى منازله مرض وهلك[٤] .

وكان (أبو براء عامر بن مالك بن جعفر) المعروف بـ (ملاعب الأسنة الكلابي) ، بعث الى رسول الله ان ينفذ اليهم قوماً يفقّهونهم ويعرضون عليهم الإسلام وشرائعه ، فبعث اليهم قوماً من أصحابه . فعرض لهم (عامر بن الطفيل) يوم بئر معونة فقتلهم أجمعين . واغتمّ (أبو براء) لاخفار عامر بن الطفيل ذمته في أصحاب رسول الله ، ثم توفي بعد ذلك بقليل . وكان سيد (بني عامر ابن صعصعة) في أيامه[٥] . و (بئر معونة) ، أرض بين أرض (بني عامر) و (حرة بني سُليم) ، وهي الى حرة بني سليم أقرب[٦] . وقد استصرخ (عامر بن الطفيل) جماعة من (بني سليم) و (عصية) و (رعلا) و (ذكران) فنفروا معه على المسلمين[٧] .

ولما أرسل (أبو بكر) (خالد بن الوليد) الى (بني عامر بن صعصعة) ، لم يقاتلوه ودفعوا الصدقة . وكان (قرة بن هبيرة) القشيري امتنع من أداء الصدقة ، وأمدّ (طليحة الأسدي) ، فأخذه خالداً ، فحمله الى (أبي بكر) فحقن أبو بكر دمه[٨] .

---

١ الطبري (٣/١٤٤) ، (وفد بني عامر بن صعصعة) .
٢ مروج (٣٢٨/٢) ، (دار الاندلس) .
٣ الاشتقاق (١٨٠ ، ٢١٥) .
٤ نهاية الارب (١٨/٥١ وما بعدها) .
٥ المحبر (٤٧٢) ، الطبري (٥٤٥/٣) ، (ذكر خبر بئر معونة) .
٦ الطبري (٥٤٦/٢) .
٧ نهاية الارب (١٣٠/١٧ وما بعدها) .
٨ البلاذري ، فتوح (١٠٦) .

ومن بني (عامر بن صعصعة) ، بنو (رؤاس بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) . ومنهم (عمرو بن مالك بن قيس) الذي وفد على الرسول فأسلم[١] . ومنهم (بنو البكّاء) . ووفد وفد من (بني البكّاء) على الرسول كان فيه (معاوية بن ثور بن عبادة بن البكّاء) و (الفُجيع بن عبد الله بن جندح بن البكّاء) و (عبد عمر البكّائي) ، وهم الأصم[٢] .

وتقع ديار (بني عامر بن صعصعة) في الأقسام الغربية من نجد وتمتد الى الحجاز . وذكر انهم كانوا يصيفون بالطائف لطيب هوائها ، فلما اشتدّ عود ثقيف وقوي أمرهم ، منعوهم منها ، واستقلوا بها وحدهم[٣] .

ويرجع نسب (بني سليم) الى (قيس عيلان) ، وتقع منازلها في مواطن حرار ذات مياه ومعادن عرفت بـ (معدن سُليم) . وكانوا يجاورون عشائر غطفان وهوازن وهلال . ولخيرات أرضهم ووقوعها في منطقة مهمة تهيمن على طرق التجارة ، صارت بنو سليم من القبائل الغنية . وكانت صلاتها حسنة بيهود يثرب ، كما كانت صلاتها وثيقة بقريش . وقد تحالف عدد كبير من رجالات مكة مع بني سليم ، واشتغلوا معهم في الاستفادة من المعادن والثروة في أرض سليم[٤] .

وقد قدم رجل من (بني سليم) اسمه (قيس بن نسيبة) ، على الرسول فأسلم ، ذكر انه كان على علم بلسان الروم وهينمة الفرس ، وبأشعار العرب ، وانه كان ذا حظ بثقافة ذلك اليوم . فلما رجع الى قومه ، وكلمهم بالإسلام ، اقتنعوا بحديثه فأسلم منهم عدد كبير ، وذهب وفد عنهم الى الرسول ، فيه (العباس بن مرداس) و (أنس بن عياض بن رعل) و (راشد بن عبد ربه) ، فأسلموا على يديه . وكان (راشد) يسدن صنماً لبني سليم . وكان اسمه (غاوي) ، وكان قد رأى ثعلبين يبولان على صنمه فشدّ عليه فكسره ، ثم جاء مع الوفد الى الرسول فأسلم ، وسمّاه الرسولُ (راشدا) على طريقته في تغييره

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٠٠) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٠٤) .
٣ البكري ، معجم (١/٧٧ وما بعدها) .
٤ البلدان (٢/٢٥٠) ، (٨/٩٤) ، Ency., IV, P. 518.

أمثال هذه الأسماء . وأعطاه الرسول (رهاطاً) ، وفيها عين ماء .

ويذكر أهل الأخبار ، ان سيداً من سادات (بني سليم) ، اسمه (قدْر ابن عمّار) ، كان قد قدم على النبي بالمدينة فأسلم ، وعاهده على ان يأتيه بألف من قومه ، فلما ذهب الى قومه ، وعاد ليأتي الى الرسول برجاله ، نزل به الموت ، فأوصى الى رهط من (بني سليم) بالذهاب الى الرسول ، هم (عباس ابن مرداس) و (جبار بن الحكيم) و (الأخنس بن يزيد) وأمّر كل واحد منهم على ثلاثمائة ، ليقدموا على الرسول ، ثم جاء من بعدهم (المنقع بن مالك ابن أمية) وهو على مائة رجل ، فصار عددهم ألفاً[1] .

وكتب الرسول الى (سلمة بن مالك بن أبي عامر) السلمي) من (بني حارثة) ، انه أعطاه مَدْفَوّاً لا يحاقّه فيه أحد[2] . وأعطى (العباس بن مرداس) (مَدْفَوّاً) ، لا يحاقه فيه أحد ، كتبه له العلاء بن عقبة ، وشهد عليه[3] . ويظهر ان (سلمة بن مالك السلمي) ، الذي ذكر (ابن سعد) ان الرسول (أعطاه ما بين ذات الحناظى الى ذات الأساور)[4] ، هو (سلمي بن مالك بن أبي عامر) المتقدم .

وكان العباس بن مرداس يهاجي (خفاف بن ندبة السلمي) أحد الشعراء المعروفين . ثم تمادى الأمر الى ان احتربا ، وكثرت القتلى بينهما ، ولما تماديا في هجائهما ، ولم يسمعا نصيحة (الضحاك بن عبد الله السلمي) ، وهو يومئذ صاحب أمر بني سليم ، ولجّا في السفاهة ، خلعتهما بنو سليم . ثم أتاهما (دريد ابن الصمة) و (مالك بن عوف النصري) رأس هوازن ، وأصلحا بينهما . واستراح منهما بنو سليم[5] .

وأسلم (العباس بن مرداس) قبل فتح مكة وحضر مع النبي يوم الفتح في جمع من (بني سليم) بالقنا والدروع على الخيل . وله ولد اسمه جلهمة ، روى

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٠٧ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٨/٢٤) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٥) .
٥ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (ص ٤٦٧ وما بعدها) .

عن النبي [1] . ويروى ان العباس بن مرداس ، شهد حُنيناً على فرسه العُبيد ، فأعطاه النبي أربع قلايص ، فقال العباس : أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع ، فقال النبي : (اقطعوا عني لسانه ، فاعطوه ثمانين أوقية فضة) [2] . وكان فيمن اشترك مع العباس بن مرداس من قومه في فتح مكة : (أنس بن عباس بن رعل) و (راشد بن عبد ربه) ، وقد طلب العباس وقومه من الرسول ، ان يجعل لهم لواءً أحمر ، وشعاراً مقدماً ، ففعل ذلك بهم [3] . وكان للعباس أخ اسمه (عمرو بن مرداس) ، ويعدّ مثل أخيه في جملة المؤلفة قلوبهم كذلك [4] .

وأعطى الرسول (هوذة بن نبيشة السلمي) من (بني عُصيّة) . (ما حوى الجفر كله) [5] . وكتب للأجبّ رجل من (بني سليم) (انه أعطاه فالساً) ، وكتب كتابه وشهد عليه (الأرقم) [6] . وأعطى الرسول (راشد بن عبد السلمي) (غلْوتين بسهم . وغلوة بحجر برهاط) (لا يحاقه فيها أحد) [7] . كما أعطى (حرام بن عبد عوف) من (بني سليم) (إذاماً وما كان له من شواق) [8] .

ومن (بني سُليم) (نبيشة بن حبيب) ، قاتل (ربيعة بن مكدّم) الكناني . وكان فارس كنانة [9] .

ويذكر ان الردة لما وقعت بوفاة الرسول ، جاءت (بنو سليم) الى (أبي بكر) ، فطلبوا منه ان يمدهم بالسلاح لمقاتلة المرتدين ، فأمر لهم بسلاح ، فأقبلوا يقاتلون (أبا بكر) : فبعث أبو بكر خالد بن الوليد عليهم ، وجعلهم في حَظَائر ثم أضرم عليهم النيران [10] .

١ ابن قتيبة ، الشعر (ص ٤٦٧ وما بعدها) ، المعارف (٣٣٦) .
٢ الاشتقاق (١٨٨) .
٣ نهاية الارب (١٨/ ٢٤) .
٤ تاج العروس (٦/ ٤٥) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٧٣) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٧٣ وما بعدها) .
٧ المصدر نفسه (١/ ٢٧٤) .
٨ المصدر المذكور .
٩ الاشتقاق (١٨٩) .
١٠ تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٦٨) .

ومن ديار (بني سُليم) معدن بني سُلَيم ، وهو منزل كثير الأهل فيه اعراب بني سليم ، وماؤه من (البرك) ، وهي قرى قديمة .[1] وقد غزا الرسول على رأس ثلاثة وعشرين شهراً من مُهاجَره (قرقرة الكدر) (قراقرة الكدر) ، ناحية معـدن (بني سليم) بينه وبين المدينة ثمانية بُرُد ، وذلك لما سمع ان بهذا الموضع جمعاً من (بني سليم) و (غطفان) ، فلما لم يجد احداً ، اخذ ما عثر عليه من جمال تعود اليهم ، كانت ترعى هناك ، ورجع الى المدينة .[2] وغزا الرسول في السنة الثالثة من الهجرة موضعاً آخر من مواضع (بني سليم) اسمه : (بحران) من ناحية الفرع ، وهي قرية من ناحية المدينة ، لما بلغه ان بها جمعاً كثيراً من (بني سليم) .[3]

وكانت منـازل عجز هوازن بموضع شربة .[4] ومن رجال (هوازن) في ايام الرسول (مالك بن عوف النصري) احد بني نصر . وهو الذي جمع جموع هوازن وثقيف وأقبل عامداً الى النبي ، حتى وافاه بـ (حنين) فوقعت غزوة حنين . وقد جمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عيلان الا هؤلاء وغابت عنها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب . وفي جشم (دريد بن الصمة) ، شيخ كبير ، ليس فيه شيء الا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب . وكان شيخاً كبيراً مجرباً ، وفي ثقيف سيدان لهم في الاحلاف : قارب بن الاسود بن مسعود ، وفي بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث في بني هلال .[5]

وبنو سليم ايضاً قبائل ، منها : بنو ذكوان ، وبنو بهثة ، وبنو سمّال ، وبنو بهز ، وبنـو مطرود ، وبنو الشريد ، وبنو قنفذ ، وبنو عُصيّة ، وبنو ظفر .[6] وقد نجلت هذه القبائل رجالاً عرفوا في الجاهلية والاسلام ، منهم : العباس بن مرداس الشاعر الشهير ، ممن شهدوا معركة حنين مع الرسول ، ومجاشع بن مسعود

١ ابن رسته ، الاعلاق (١٧٩) .
٢ نهاية الارب (٧١/١٧ وما بعدها) .
٣ نهاية الارب (٧٩/١٧) .
٤ الطبري (٢٢/٣) ، (دار المعارف) ، نهاية الارب (٣٢٣/١٧ وما بعدها) .
٥ الطبري (٧٠/٣ وما بعدها) .
٦ الاشتقاق (١٨٧ وما بعدها) .

ممن قاد الجيوش . وهو من المهاجرين ، والعباس بن انس الأصم من فرسان الجاهلية ، ورجال آخرون . ولسليم شقيق في عرف النسابين اسمه (مازن) . اما ابوهما فهو منصور . [1]

و (جهينة) بطن مثل (بليّ) و (بهراء) و (كلب) و (تنوخ) من بطون (قضاعة) ، كانت ديارها في نجد ، ثم هاجرت الى الحجاز ، فسكنت على مقربة من يثرب في المنطقة التي بين البحر الأحمر ووادي القرى ، عند ظهور الاسلام . وقد دخلت في الاسلام في حياة الرسول ولم تشترك مع من اشترك في الردة بعد وفاته . [2] وينسب النسابون جهينة الى صحار والد جهينة ، ومن بطونها بنو حميس . [3]

ومن ديار (جهينة) ، موضع (بواط) ، وهو من (جبال جهينة) من ناحية (رضوى) قريب من (ذي خشب) مما يلي طريق الشام . وبين (بواط) والمدينة نحو اربعة برد . ويمر به طريق الى بلاد الشام . ولما سمع الرسول ، وهو على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجَره ، ان قافلة لعير قريش : فيها امية بن خلف الجمحي ومئة من رجال قريش وألف وخمسمائة بعير ، تمر من هناك ، خرج في مئتين لاعتراضها ، ولكنها فرت ونجت ، فلم تقع في الأسر . [4]

وكان في جملة من وفد على الرسول من جهينة : (عبد العزّى بن بدر بن زيد بن معاوية الجهني) من (بني الربعة بن رشدان بن قيس بن قيس بن جهينة) ، ومعه أخوه لأمه (أبو روعة) . وكان لهم واد اسمه (غويّ) . ومن (بني جهينة) (بنو دهمان) ومنهم (عمرو بن مرّة الجهني) ، وكان سادن صنمهم ، فأسلم وكسر الصنم ، وقدم المدينة ، واعلن اسلامه امام الرسول . [5]

وقد كتب الرسول كتاباً لبني زرعة وبني الربعة من جهينة ، أمنهم فيه على انفسهم وأموالهم . [6] كما كتب لعوسجة بن حرملة الجهني من (ذي المروة) ،

---

١ الاشتقاق (١٨٩) ، الصفة (١٣٢ ، ١٥٤ ، ١٧٠) .

٢ Ency., I, P. 1060.

٣ الاشتقاق (ص ٣١٩ وما بعدها) .

٤ نهاية الأرب (١٧/٤ وما بعدها) .

٥ طبقات ابن سعد (٣٣/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٨/١٨ وما بعدها) .

٦ ابن سعد ، طبقات (٢٧٠/١) .

وقد (أعطاه ما بين بَلَكثة الى المصنعة الى الجفلات الى الجدّ جبل القبلة لا يحاقه أحد) ، وشهد على صحة الكتاب وكتبه (عقبة) [١] كما كتب الرسول كتاباً لقوم آخرين من جُهينة ، هم من (بني شنخ) ، وقد (أعطاهم ما خطّوا من صفينة وما حرثوا) ، وكتب الكتاب وشهد عليه (العلاء بن عقبة) . [٢] كما كتب الرسول كتاباً لبني الجرمز بن ربيعة ، وهم من (جهينة) ، كتبه المغيرة . [٣] وكتب كتاباً لـ (عمرو بن معبد الجهني) و (بني الحرقة) من جهينة وبني الجرمز ، أهم ما جاء فيه (وما كان من الدين مدوّنة لأحد من المسلمين قضى برأس المال وبطل الربا في الرهن . وأن الصدقة في الثمار العشر) . [٤] ويظهر من ذلك أن هذا الكتاب قد دُوّن بعد نزول الأمر بتحريم الربا .

وبليّ من قبائل قضاعة كذلك ، وتنسب الى بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . وتقع ديارها على مقربة من تيماء بين ديار جهينة وديار (جُذام) ، وهي مثل اكثر قبائل قضاعة ، لا نعرف من تأريخها في الجاهلية شيئاً يذكر . أما في أول ظهور الاسلام ، فقد اشتركت مع القبائل النصرانية في جانب الروم ضد المسلمين . [٥] ومنهم (مالك بن رافلة) ، قاتل (زيد بن حارثة) يوم (مؤتة) . [٦]

وفي سنة ثمان من الهجرة ارسل الرسول (عمرو بن العاص) الى ارض (بليّ) و (عـذرة) ، فلما بلغ موضع (السلاسل) خاف ، فبعث الى رسول الله يستمدّه ، فأمده بجماعة من المهاجرين الأولين ، فيهم (ابو عبيدة بن الجراح) و (ابو بكر) و (عمر) وقد عرفت تلك الغزوة بـ (ذات السلاسل) . [٧]

وقد دخل دين يهود فرع من بليّ ينسب الى (حشنة بن اكارمة) ، وسكن

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١ وما بعدها) .
٥ الطبري (١/١٦٠٤ ، ١٦١٠ وما بعدها) ، ابن هشام (٧٩٢) ، الاشتقاق (٣٢٢)، Ency., I, P. 618, Caussin de Perceval, Essai., III, 212, Blau, in ZDMG., XXII, 664, XXIII, 573.
٦ الاشتقاق (ص ٣٢٢) .
٧ الطبري (٣/٣٢) .

على مقربة من تيماء مع يهود ، وظل في هذا الدين وفي هذه الديار الى ان امر (عمر) باجلائهم عنها في الاسلام .[1]

وقد وفد نفر من (بليّ) على الرسول ، وكان (شيخ الوفد) (ابو الضباب) (ابو الضبيب) فأسلم وأسلم من كان معه ، ثم عادوا الى ديارهم .[2]

وتقع الى الجنوب من ديار (بليّ) ديار (مزينة) ، وهي في الشرق من منازل (جُهينة) والى الغرب من ديار (سعد) والى الشمال من بلاد (خزاعة) . ويرجع نسب (مُزينة) الى (مضر) . وقد وفد قوم منهم الى الرسول فيهم (خزاعي بن عبد نهم) فبايع الرسول على قومه مزينة ، وقدم معه جماعة من اعيان مزينة منهم : (بلال بن الحارث) و (النعمان بن مقرن) و (عبيد الله ابن بردة) ، و (عبد الله بن درة) ، و (بشر بن المحتفر) . و (خزاعي) هو الذي حمل لواء مزينة يوم الفتح ، وكانوا يومئذ ألف رجل ، وهو أخو المغفل ابي عبد الله بن المغفل وأخو عبد الله ذي البجادين .[3]

وأما وادي القرى ، فهو واد كثرت قراه ، لذلك قيل له وادي القرى وأهله عرب ويهود . وهو من المواضع المعروفة بالخصب في جزيرة العرب ، وبه عيون وآبار .. لذلك اشتهر بالعمار منذ ايام ما قبل الميلاد . فنزلت به قبائل عديدة ، منها قوم ثمود . وقد جلب خصب هذا الوادي انظار من نزح اليه من اليهود ، فحفروا فيه الآبار وأساحوا العيون ، وزرعوا فيه النخيل والحبوب ، وعقدوا بينهم حلفاً وعقداً . ودفعوا عنه قبائل بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، وغيرهم من القبائل .[4] وعقدوا لهم احلافاً مع القبائل القوية ، لتحميهم ولتدافع عنهم ، مقابل جعل سنوي .

وقد غزا الرسول بعد فراغه من خيبر هذا الوادي ، فقاتله اهله ، ففتحه

---

١ Ency., I, P. 618.

٢ ابن سعد ، طبقات (١/ ٣٣٠) ، نهاية الأرب (١٨/ ٩٠) .

٣ طبقات ابن سعد (١/ ٢٩١ وما بعدها) ، (دار صادر) ، نهاية الأرب (١٨/ ١٩ وما بعدها) .

٤ البكري ، معجم (١١/ ٤٥ وما بعدها) .

عنوة ، وترك الرسول النخل والارض في ايدي اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل عليه اهل خيبر .[1]

وكانت (فدك) حكومة مستقلة كسائر الواحات والقرى في اعالي الحجاز ، اهلها من اليهود ، وعليهم في ايام الرسول (يوشع بن نون اليهودي) ، واليه بُعث (مُحيصة بن مسعود) لدعوته ولدعوة قومه الى الاسلام .[2] وبها قوم من (بني مُرّة) .[3] وقوم من (بني سعد بن بكر) .[4]

وكان اهل خيبر من يهود كذلك . يتحكم فيهم رؤساء منهم ، ولهم حصون وآطام تحمي اموالهم ومساكنهم ، فتحت في ايام الرسول بسبب معاداة اهلها للاسلام واتفاقهم مع المشركين . وكان يظاهرهم (غطفان) . ومن حصونهم (حصن ناعم) و (حصن القموص) ، حصن (ابي الحقيق) ، و (الوطيح) و (السلالم) ، وكان آخر حصون خيبر و (الشق) و (النطاة) .[5]

وكاتب الرسول (بني غاديا) ، وهم قوم من يهود . وكتب كتاب رسول الله اليهم : (خـــالد بن سعيد) .[6] وكتب (خالد) كتاباً آخر الى (بني عريض) وهم ايضاً قوم من يهود ، حدد لهم الرسول ما فرضه عليهم ، يؤدونه لحينه في كل عام .[7]

وكان يهود (بنو قينقاع) ، قد تحالفوا مع الأوس والخزرج ، تحالفوا مع (عبد الله بن ابي سلول) ، كما تحالفوا مع (عبادة بن الصامت) ، وكانوا صاغة ، ولهم سوق عرف بـ (سوق بني قينقاع) ، وكانوا أشجع يهود . فلما كانت وقعة (بدر) ، اظهروا ميلاً الى قريش ، فحاصرهم الرسول ، ثم غلبهم فأجلاهم عن ديارهم ولحقوا بأذرعات .[8]

١ البلدان (٨/٢٧٥) (وادي القرى) ، (٥/٣٤٣) (بيروت ١٩٥٧) ، تاريخ الخميس (٢/٥٨) ، البلاذرى ، فتوح (٤٧) .
٢ ابن الأثير (٢/٩٣) ، البلدان (٦/٣٤٣ وما بعدها) .
٣ الطبري (٣/٣٢) ، (ذكر مقاسم خيبر وأموالها) ، نهاية الأرب (١٧/٢٧٢) .
٤ نهاية الأرب (١٧/٢٠٩) .
٥ الطبري (٣/٩ وما بعدها) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٩) .
٧ المصدر نفسه .
٨ نهاية الأرب (٦٧/٦٧) ، (ذكر غزوة بني قينقاع) .

ومن منازل (بني لحيان) موضع (غُرَّان) ، وادٍ بين أمج وعُسفان الى بلدٍ يقال له (ساية) . وهو موضع مرتفع غزاه الرسول غزوته التي عرفت بـ (غزوة بني لحيان) في سنة ست للهجرة [1] . وكان بنو لحيان ومن لافهم من غيرهم قد استجمعوا ، فلما بلغهم إقبال الرسول اليهم هربوا ، فلم يلق كيداً [2] . واعتصموا في رؤوس الجبال ، فلم يقدر منهم على أحد . ولم تستطع السرايا ان تقبض على أحد منهم ، فرجع الرسول [3] .

وأقام (القُرطاء) ، وهم (بنو قرط) ، (قريط) من (بني كلاب) ، بناحية (ضرية) ، فبعث رسول الله عليهم (محمد بن مسلمة) ، فاستاقَ إبلاً وغنماً منهم ، وهرب القرطاء [4] . وقد أرسل الرسول (أبا بكر) لغزو (بني كلاب) بنجد ، وذلك سنة سبع للهجرة ، وذكر انه غزا (بني فزارة) [5] . وأرسل عليهم سنة تسع (الضحّاك بن سفيان الكلابي) ، ومعه (الأصيد بن سلمة بن قرط) ، فلقيهم (بالزجّ) موضع بنجد ، وتغلب على (القرط) [6] .

ولما غزا الرسول غزوة (الأبواء) ، وهي غزوة (ودّان) ، وكانت أول غزوة غزاها الرسول ، وادعه (مخشي بن عمرو الضميري) ، وكان سيد (بني ضمير) (بني الضمير) في ذلك الوقت . والأبواء قرية من أعمال (الفرع) من المدينة ، بينها وبين (الجحفا) مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً [7] .

وتقع ديار (بني مدلج) بناحية (ينبع) ، ومن أرضهم (ذو العشيرة) ، وهو لبني مدلج . وقد غزاهم الرسول غزوته المعروفة بـ (ذي العشيرة) على رأس ستة عشر شهراً من مُهاجَره ، فوادعهم ووادع حلفاءهم من (بني ضمرة) [8] .

---

١ الطبري (٢/٥٩٥) .
٢ البلاذري ، انساب (١/٣٤٨) .
٣ نهاية الأرب (١٧/٢٠٠ وما بعدها) .
٤ نهاية الأرب (١٧/٢٠٠) .
٥ نهاية الأرب (١٧/٢٧١) .
٦ نهاية الأرب (١٧/٣٥٠ وما بعدها) .
٧ نهاية الأرب (١٧/٤) .
٨ نهاية الأرب (١٧/٦) .

ويظهر ان هذا الموضع إنمـا سمي بـ (ذي العشيرة) ، نسبة الى الصنم (ذو العشيرة) ، كان له معبد في هذا المكان ، فعرف به .

ومن القبائل التي أقامت على مقربة من مكة (خزاعة) ، ومن رجالهم عند ظهور الإسلام ، (عمرو بن الحمق) الكاهن ، صحب النبي وشهد المشاهد مع (عليّ) وقتله (معاوية) بالجزيرة . وكان رأسه أول رأس نصب في الاسلام [1] . و (عمرو بن سالم الخزاعي) ، الذي جاء الى الرسول يشكو تظاهر (بنو بكر ابن عبد مناة بن كنانة) وقريش على خزاعـة ، ونكث قريش عهدهم الذي قطعوه للرسول ألا يظاهروا أحداً على خزاعة ، فكان ذلك من عوامل فتح مكة [2] .

ومن رجال خزاعة (بديل بن ورقاء بن عبد العزّى) ، شريف كتب اليه النبي يدعوه الى الاسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة [3] . ومن بطون خزاعة (بنو المصطلق) ، وعرفـوا بـ (بلمصطلق) أيضاً ، وقـد كانوا ينزلون بـ (المريسيع) ، وهو ماء لهم ، من ناحية (قُديد) الى الساحل . وقد كان قائدهم وسيّدهم (الحارث بن أبي ضرار) ، أبو (جويرية) ، التي تزوجها النبيّ بعد ان خرج اليهم في غزوة (بني المصطلق) من سنة ست . وهم من (خزاعة) [4] . وكان (الحارث) قد سار في قومه ومن قدر عليه من العرب ، ودعاهم الى حرب الرسول . فلما وصـل الرسول الى (المريسيع) ، تفرق من كان مع الحارث من العرب . وتغلب الرسول على (بني المصطلق) وأخذ منهم أسرى وغنائم ، وكانت (جويريـة) في جملة من وقع في الأسر فتزوّجهـا الرسول . ومن بطون خزاعة (بنو الملوّح) ، وكانوا بـ (الكديد) [5] .

وكان في جمله من يقيم بتهامة (بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة) ، ومن مياههم (الغميصاء) [6] . ولما توفي الرسول تجمعت بتهامة جموع من مدلج ،

١ الاشتقاق (٢٧٩) .
٢ الطبري (٤٢/٣) ، الاشتقاق (٢٨٠) ، البلاذري ، أنساب (٣٥٣/١) .
٣ الاشتقاق (٢٨٠) .
٤ الطبري (٦٠٤/٢) ، (دار المعارف) ، ارشاد الساري (٣٣٦/٦) .
٥ الطبري (٢٧/٣ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٨٠ وما بعدها) .
٦ الطبري (٦٦/٣ وما بعدها) .

تأشب اليهم شذاذ من خزاعة وأفناء من كنانة ، عليهم جندب بن سلمي ، أحد (بني شنوق) ، من بني مدلج ، فحاربهم (خالد بن أسيد) وشتت شملهم ، وأفلت جندب ، ثم ندم على ما صنع [1] .

وكتب الرسول لقوم من (أهل تهامة) : بديل وبسر ومَرَوات بني عمرو ، ذكر فيه انه لم يأثم مالهم ، ولم يضع في جنبهم ، ثم قال لهم : (وان أكرم أهل تهامة عليّ وأقربهم رحماً مني أنتم ومن تبعكم من المطيبين) . ثم أخبرهم ان (علقمة بن علاثة) قد أسلم . وأسلم (ابنا هوذة وهاجرا وبايعا على من تبعهم من عكرمة) [2] .

وينقل (ابن سعد) صورة كتاب كتبه (أُبيّ بن كعب) وجهه (لجماع كانوا في جبل تهامة قد غصبوا المارة من كنانة ومزينة والحكم والقارة ومن اتبعهم من العبيد) ، فلما ظهر رسول الله ، وقوي أمره ، وفد منهم وفد على النبي ، فكتب لهم كتاباً جاء فيه : (هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء . انهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فعبدهم حرّ ومولاهم محمد . ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها . وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه ، فهو لهم . وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان) [3] .

ويظهر من مضمون هذا الكتاب . ومن بيان أهل الأخبار عن الذين كانوا قد اعتصموا في جبل تهامة ، انهم كانوا من الخارجين على الأعراف ، ومن الرقيق الآبق ، تجمعوا في هذا المكان المرتفع وتحصنوا وأخذوا يغتصبون منه المارة . وبقوا على ذلك حتى ظهر الرسول على أعدائه ، فوجدوا إذْ ذاك انهم لن يتمكنوا بعد ظهور الرسول من الاستمرار في التحرش بالمارة والتحرز بهذا الجبل ، وان ظروفاً جديدة قد ظهرت ، ستؤمن لهم سبل العيش ، وان الرسول سيعفو عنهم

١ الطبري (٣/٦٧ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٢) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٨) .

ويغفر لهم ما وقع منهم قبل الإسلام ، فجاؤوا اليه وأسلموا عنده . وكتب لهم كتاب أمان بذلك .

ومنازل (كنانة) بتهامة ، وهم فيها قبل الإسلام بأمدٍ طويل .

و (علقمة بن علاثة) : هو (علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب) [1] . وهو الذي نافر (عامـــر بن الطفيل) عند (هرم بن قطبة بن سنان) [2] .

وأما (ابنا هوذة) فهما : العدّاء وعمرو ابنا خالد بن هوذة من بني عمرو ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة [3] .

وأما (عكرمة) ، فعكرمـــة بن خصفة بن قيس عيلان . وذكر ان مراد الرسول بـ (ومن تبعـــكم من المطيبين) ، (بنو هاشم) وبنو زهرة ، وبنو الحارث بن فهر ، وتيم بن مرة ، وأسد بن عبد العزّى [4] .

وكتب الرسول الى (العدّاء بن خالد بن هوذة) ، ومن تبعه من (عامر ابن عكرمة) ، انه (أعطاهم ما بين المصباعة الى الزّح ولوابة) . يعني لوابة الخرّار . وكتب لهم الكتاب : خالد بن سعيد [5] .

ومن منازل (هذيل) (الرجيع) ، وهو ماء لهم [6] . ويقع الى الشرق من (هذيل) ديار (ضَبّة) وديار (عبد مناة) ، وأما في جنوبهـــا فتقع ديار (خثعم) وثقيف ، وتمتد ديارها في الشمال حتى تتصل بديار (بني سُليم) ، ومن (هذيل) (سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي) ، وكان قـــد جمع جمعاً ليغزو بـــه الرسول ، وكان قـــد نزل (نخلة) أو (عرنة) ، موضع بقرب عرفة ، أو قرية بوادي عرفة ، فأرسل رسول الله اليه (عبد الله بن أنيس)

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٢/١) .
٢ المحبر (١٣٥) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣/١) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣/١) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣/١) .
٦ البلاذري ، انساب (٣٧٥/١) .

فقتله[1] . ومن القبائل المجاورة لهذيل : (فهم) و (عدوان) وكانت ديارهم بالسراة[2] .

وممن كتب اليهم الرسول ، ودوّن (ابن سعد) صور كتبه اليهم : (سعيد ابن سفيان الرعلي) ، وقد أعطاه الرسول (نخل السوارقية وقصرها ، لا يحاقه فيها أحد) . وكتب الكتاب وشهد عليه (خالد بن سعيد)[3] . و (عتبة بن فرقد) ، وقد أعطاه الرسول موضع دار بمكة ، يبنيها مما يلي المروة[4] .

على هذا النحوا كان الوضع السياسي في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام وفي أوائل أيامه : قوى مستقلة تخشى القبائل المحيطة بها . وأذواء وأقيال في اليمن وحضرموت ورؤساء قبائل يتحكمون في مناطق نفوذ قبائلهم ، ويعيشون على ما يأخذونه من أتباعهم من حق الرئيس على المرؤوس في السلم وفي الحرب ، وهم فيما بينهم في خصام وتنافس ، لم تتركهم الخصومة من الانصراف الى شؤون رعيتهم ، وهم أنفسهم لم يفكروا في الانصراف الى ذلك . فتدهورت الأحوال ، وظهر أفراد ينادون باصلاح الحال ، وبالتفكير في تحسين الأوضاع وبالتعقل . وكان الصراع بين الفرس والروم ، قد جسّر الأعراب على الدولتين . وأخذت النصرانية ترسل المبشرين الى العرب ، لنشر النصرانية بينهم . وتغلب القلم المتصل الحروف ، الذي صار قلم العرب والإسلام على القلم المنفصل الحروف . قلم العرب القديم ، القلم المسند . وانتشر في مكة ويثرب . ونادى الأحناف بنبذ الوثنية والأوثان . ونزل الوحي على الرسول في أول العشر الثاني من القرن السابع للميلاد . وظهر الإسلام داعياً العرب وغيرهم الى الإيمان بإله واحد خالق لهذا الكون . وبرسالة رسوله وبما جاء به من أوامر وأحكام . فكان ظهوره نهاية للجاهلية ، وبداية لعهد جديد ، عهد الإسلام .

وبظهور الإسلام على أعدائه في جزيرة العرب ، وبقضائه على أهل الردة ، أوجد لجزيرة العرب وجهاً جديداً من وجوه الحياة ، لم تشهده في حياتها ولم

---

١ نهاية الأرب (١٢٨/١٧ وما بعدها) .
٢ البكري ، معجم (٨٨/١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٨٥/١) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٢٨٥/١) .

تعرفه . فقد أوجد الإسلام لأهلها موارد غنية من موارد الرزق ، وبسط لهم الأرض من الصين الى المحيط (الاطلانطي) وأخرج سكانها من ديارهم الفقيرة وأنزلهم في ديار غنية كثيرة السكان . وعرفوا بذلك نظماً لم تكن مألوفة عندهم ، وأمماً لم يسمع أكثرهم بها ، وخرج المؤمنون الأولون والمؤلفة قلوبهم ومن دخل الإسلام وقلبه غير مطمئن به ، الى خارج جزيرة العرب يحكمون باسم الإسلام . حدث كل ذلك في مدة لا تعدّ طويلة بالنسبة الى ما وقع فيها من أحداث .

فالإسلام ، إذنْ نهاية حياة قديمة ، وبداية حياة جديدة ، تختلف عن الحياة الأولى كل الاختلاف .

الفصل الخامس والأربعون

المجتمع العربي

المجتمع العربي : بدو وحضر . أهل وبر وأهل مدر ، يتساوى في هذه الحال عرب الشمال وعرب الجنوب وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب الأخرى .

وقسّم بعضهم عرب الجاهلية الى ملوك وغير ملوك . وقسموا سائر الناس بعد الملوك الى طبقتين : أهل مدر وأهل وبر . فأما أهل المدر ، فهم الحواضر وسكان القرى، وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة . وأما أهل الوبر ، فهم قطان الصحارى يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، منتجعين منابت الكلأ ، مرتادين لمواقع القَطر ، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي ، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه ، فلا يزالون في حلّ وترحال [1] .

ويعرف الحضر ، وهم العرب المستقرون بـ (أهل المدر) ، عرفوا بذلك لأن أبنية الحضر إنما هي بالمدر . والمدر : قطع الطين اليابس . قال (عامر للنبي ، صلى الله عليه وسلم : لنا الوبر ولكم المدر) ، فعنى به المدن أو الحضر [2] . ومن هنا قيل للحضر : بنو مدراء [3] . وورد في حديث (الجسّاسة والدجال) :

---

١ ابن العبري ، مختصر الدول ، (١٥٨ وما بعدها) .
٢ اللسان (٥/١٦٢) ، (مدر) .
٣ اللسان (٥/١٦٢) ، (مدر) .

(تبعه أهل الحجر وأهل المدر ، يريد أهل البوادي الذين يسكنون مواضع الأحجار والرمال ، وأهل المدر ، أهل البادية)[1] . ويظهر من روايات أخرى ان (أهل المدر) هم أهل البادية . ولكن أكثرها ان (أهل المدر) ، هم الحضر ، لأن اتخاذ بيوت المدر لا يكون في البادية ، بل في الحضر .

وورد أن أهل البادية إنما قيل لهم (أهل الوبر) ، لأن لهم أخبية الوبر . تمييزاً لهم عن أهل الحضر الذين لهم مبانٍ من المدر ، ومن هنا قيل للقرية (المدرة) ، لأنها مبنية بالطين واللبن ، وذكر ان (المدرة) القرية والمدينة الضخمة أيضاً ، لأن المدن تبنى بالمدر أيضاً . ومن هنا قيل للحضر عموماً : بنو مدراء[2] .

ويذكر علماء اللغة ان الحضر والحاضرة والحضارة خلاف البادية والبداوة والبدو . والحضارة الإقامة في الحضر . والحاضر والحضر هي المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[3] . وقد عرفوا بأهل القارية ، وذلك في مقابل أهل البادية ، لأهل البدو[4] .

و (أهل القرار) ، هم الحضر ، لأنهم اختاروا القرار وأحبوا الاستقرار والإقامة في مكان واحد . ولأن الطبيعة حبتهم بكل شيء يغري على الارتباط بالأرض ، ولو ولد الأعرابي بين الحضر وتوفر لديه ما يؤمن له رزقه الدائم في مكانه الذي ولد فيه ، لما تنقل وارتحل ، ولصار حضرياً من دون شك مثل سائر أهل الحضر . ولكن الطبيعة حرمته من نعم الاستقرار ، فصار بدوياً يتتبع العشب والماء . فالطبيعة هي المسؤولة عن البداوة وعن انتشارها في جزيرة العرب .

ومن هنا قيل للحضري الذي لا ينتجع ويكون من أهل الأمصار (القراري) . ولما كان أكثر (أهل القرار) ، هم من الصناع ، قيل لكل صانع (قراري) .

---

١ اللسان (١٦٦/٤) ، (حجر) .
٢ تاج العروس (٥٣٥/٣) ، (مدر) .
٣ تاج العروس (١٤٦/٣) ، (حضر) .
٤ اللسان (١٧٨/١٥) ، (قرا) .

وذكر بعض علماء اللغة ان (القراري) : الخياط . واستشهدوا على ذلك ببيت شعر للأعشى ، هو :

يشق الأمــور ويجتابهـــا   كشق القراري ثوب الردن

وذكر بعض آخر انه القصّاب . وقد تجوّز الناس فيا بعد ، فقالوا : خياط قراري ، ونجّار قراري[1] .

ويقال لساكن القرية القاريّ ، كما يقال لساكن البادية البادي . والقارية سكنة القرى أي خلاف البادية والأعراب . والقرية كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً . وتقع على المدن وغيرها[2] . وسكانها من الحضر . ويذكر علماء اللغة ان (المدينــة من مَدَنَ ، بمعنى أقام بمكان . ويراد بهــا الحصن يبنى في اصطمة الأرض[3] . وتقابلها لفظة (مدينتو) في الارميـة[4] . و (هكرن) (هكر) (هجر) في العربية الجنوبية . وأما (البلدة) ، فذكر علماء اللغة انهــا كل موضع أو قطعة من الأرض مستحبزة عامرة أو عامرة ، خالية أو مسكونة[5] . فالبلدة ، إذن من مواطن الحضر أيضاً .

وقد كان من الصعب التمييز عند الشعوب القديمة بين القرى والبلدان والمدن . وكل بلدة أو مدينة كانت قرية في الأصل ، أي مستوطنة صغيرة غير محصنة ، وعندما ازداد عدد سكانها ، وكثر عمرانها ومالها لأسباب عديدة ، توسعت وحصن أهلها أنفسهم بحصون وبأطم أو بسور وخندق يحيط بــه لمنع العدوّ من الدنوّ منها[6] . وبهذه التحصينات وبكثرة عدد السكان تميزت هذه المستوطنات السكنية بعضها عن بعض ، ولهذا كانت الشعوب القديمة لا تطلق لفظة (مدينــة) إلا على القرى المحصنة المسوّرة ، وفي ضمن هذه الشعوب العرب .

وتطلق لفظة (عرب) على أهل المدر خاصة ، أي على الحضر و (الحاضر)

---

١ تاج العروس (٤٩٠/٣) ، (قرر) .
٢ تاج العروس (٢٩٠/١٠) ، (قرى) .
٣ تاج العروس (٣٤٢/٩) ، (مدن) .
٤ غرائب اللغة (٢٠٥) .
٥ تاج العروس (٣٠٥/٢) ، (بلد) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٣٢١/٢) ، (مدينة) ،
Hastings, P. 143, 944, 958.

و (الحاضرة) من العرب ، اما اهل البادية ، فعرفوا بـ (اعراب) . مع ان كلمة (العرب) قد أطلقت في لغتنا لتشمل العربين : عرب الحـــاضرة وعرب البادية .[1] ويظهر ان هذا الاطلاق انما وضع قبيل الاسلام . فقد سبق لي أن بينت في الجزء الاول من هذا الكتاب تأريخ كلمة (عرب) ، وبينت كيف تطورت اللفظة الى ظهور الاسلام ، وقد رأينا أنها كانت تعني اهل البادية ، أي الاعراب في الأصل . أما الحضر فعرفوا بأسماء أماكنهم أو قبائلهم ، وآية ذلك أن التوراة والكتابات الآشورية والبابلية بل والجاهلية ، أي الكتابات العربية التي تعود الى ما قبل الاسلام ، كانت كلها اذا ذكرت الحضر ، ذكرتهم بأسمائهم ، ولم تطلق عليهم لفظة (عرب) ، أما اذا ذكرت أهل البادية ، فانها تستعمل لفظة (عرب) و (عربي) ، أي أعراب وأعرابي مع أسمائهم ، وذلك مثل (جندب) ، وهو رئيس قبيلة ، وقد حارب الآشوريين ، فقد دعي في الكتابات الآشورية بـ (جندب العربي) ، أو (جندب الأعرابي) بتعبير أصح ، ومثل (جشم) الذي نعت في سفر (نحميا) من أسفار التوراة بـ (جشم العربي) اشارة الى كونه من الاعراب ، لا من الحضر ، وهو من الملوك كما سبق أن تحدثت عنه في الجزء الاول من هذا الكتاب .[2] الى غير ذلك من أمثلة تحدثت عنها في أثناء حديثي عن لفظة عرب .

اما (يقطن) وهو (قحطـــان) : ونسله مثل : سبأ وحضرموت . واما (اسماعيل) ونسله ، وأما اهل (تيماء) و (مدين) وأمثالهم ، فلم تطلق التوراة عليهم لفظة (عرب) ، لأنهم لم يكونوا اعراباً ، بـــل كانوا حضراً ، ولهذا ذكرتهم بأسمائهم ، فاستعمال (عرب) اذن بمعنى اهل الحاضر والحاضرة ، او اهل المدر ، هو استعمال متأخر ، ظهر بعد الميلاد .

لقد ذهب علماء العربية كما سبق ان بينت في الجزء الاول من هذا الكتاب ، الى ان العربية هي لغة (يعرب) ، وهو اول من اعرب بلسانه على حدّ قولهم ، وذهبوا الى ان العـــدنانيين متعربون ، ولم يكونوا عرباً في الاصل ، ثم تعلموا

---

١ بلوغ الارب (١/١٢) .
٢ (ص ٦٤٦ وما بعدها) .

واختلطوا بالعرب حتى صاروا طبقة خاصة منهم.[1] وذهبوا الى ان التبابعة كانوا عرباً ينظمون الشعر بالعربية التي نظم بها الشعراء الجاهليون شعرهم. ثم ذهبوا الى ان (حمير) كانت تتكلم بلسان غريب عـدّه بعض العلماء غير عربي.[2] مع انها من لبّ العرب الصرحاء على حسب رأيهم، ولم يبينوا كيف وقع ذلك عندهم، الى آخر ما نراه عندهم من آراء، لم تبن على دراسات تأريخية اصلية ونصوص جاهلية.

ولو كان المذكورون احياء في هذا اليوم، ولو كانوا قد وقفوا على النصوص الجاهلية المختلفة وقرأوها، لغيّروا رأيهم حتماً من غير ريب، ولقالوا قولاً آخر غير قولهم المتقدم في العربية وفي سبب تسميتها. فعربية القرآن الكريم هي عربية اهل مكة وما والاها، وهي عربية الاعراب، اي عربية اهل البادية. اما عربية اهل اليمن، وهم صلب القحطانية، فعربية اخرى. وان اردتَ قولاً اصح تعبيراً وأدق تحديداً، فقل: عربيات اخرى. فعربية يعرب ان تجوزتَ وجاريتَ رأي اهل الانساب والاخبار وقلت قولهم في وجود جدّ وهو يعرب، يجب ان تكون عربية اخرى، بل عربيات مخالفة لعربية اهل مكة، وذلك استناداً الى النصوص الجاهلية المدوّنة بأقلام ابنائه وحفدته والواصلة الينا. ولما كانت اللغـة العربية، هي عربية القرآن الكريم في رأي علماء اللغة، وهي عندهم وحدها اللغة الفصحى، وأشرف لغات العرب، اذن فلغة يعرب على هذا القياس لغة اعجمية غير عربية، او عربية من الدرجات الدنيا ان اردنا التساهل في القول. وعندئذ يكون يعرب هو العربي المتعرب، ويكون نسله على وفق هذا المنطق، هم العرب المستعربة، لا العرب العدنانيين.

ويكون العدنانيون هم أصل العرب ولبّها والعرب العاربة الأولى، أي عكس ما يراه ويزعمه اهل الاخبار. أحكي هذا القول بالطبع متجوزاً أو مجارياً رأي اهل الاخبار ولا أحكيه لأني أراه، فأنا لست من المؤمنين بمثل هذه الاقاصيص التي يقصها علينا القصّاص، ولا سيما قُصّاص اهل اليمن من امثال وهب بن منبه وابن اخته، أو ابن الكلبي، وبعض القصّاص الذين هم من اصل يهودي

---

1 تاج العروس (١/٣٧١)، (عرب).

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٥ وما بعدها).

مثل وهب المذكور ومحمد بن كعب القرظي . فرأيي أن كل لغات العرب الجاهلية هي لغات عربية ، وأنها كانت متباينة عديدة ، وبعضها لغات وصلت مرحلة التدوين مثل المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية وغيرها . ولغاتٌ تصل الى درجة التدوين عند المتكلمين بها ، لا يمكن أن تعدّ لغات سوقة ولهجات عامة .

وبعد فلست أرى أن بين (يعرب) المزعوم ، وبين لفظة (العربية) والعرب أية رابطة أو صلة ، وأن الصلة المزعومة المذكورة التي يذكرها أهل الاخبار في تفسير اللفظة ، هي صلة خلقت خلقاً وصنعت صنعاً ، لكي يجد صانعوهـا لهم مخرجاً في تفسيرها ، وليس تفسيرهم هذا هو أول تفسير أوجدوه ، فلدينا مئات من التفاسير المصنوعة ، لألفاظ أشكل أمرها على الرواة وأهل الاخبار ، فوضعوا لها تفسيرات على هذا النمط ، ليظهروا أنفسهم مظهر العالمين بكل شيء .

هذا وقـد قلنا ان العربية هي بمعنى الاعرابية ، أي البداوة في لغة الأعاجم وفي لغات أهل جزيرة العرب أنفسهم ، وهي نسبة الى العرب ، والعرب هم الأعراب في البدو في لغات المذكورين . فتكون العربية اذن بمعنى عربية الاعراب : اي لغة اهل الوبر ، وقد نسبت اليها ، لا الى يعرب بن قحطان . وهي بالطبع لم تكن لهجة واحدة ، أي عربية واحدة ، بل كانت لهجات . قيل لها عربية ، لأن الاعراب وان كانوا قبائل ، تجمع بينهم رابطة واحدة ، هي رابطة البداوة ، فكأنهم طبقة واحدة ، تقابلهم طبقة (اهل المدر) ، وهم الحضر . لذلك نعت لسانهم بلسان عربي . ولما كانت البـداوة أعم من الحضارة في بادية الشام وفي طرفي الهلال الخصيب ونجد والحجاز والعربية الشرقية ، صار لسانها اللسان الغالب في هذه الأرضين ، وبلسانها نظم الشعراء شعرهم ، وبلسان عرب الحجاز نزل القرآن الكريم ، فصار لسانهم لسان الوحي والاسلام .

ومن ثَمّ صار اعتماد اوائل علماء العربية في دراستهم لقواعد اللغـة من نحو وصرف ومن استشهاد بشواهد على (العرب) ، أي أهل الوبر من ابناء البادية ، من الاعراب المعروفـين بصدق لسانهم وبصحة اعرابيتهم وبعدم تأثر ألسنتهم بألسنة الحضر من اهل الحواضر ، بل لم يكتف اولئك العلماء بألسنة هؤلاء الاعراب القادمين عليهم من البوادي ، لأسباب لا مجال لذكرها هنا ، فركبوا ابلهم وذهبوا بأنفسهم الى صميم البوادي البعيدة عن الحضر ، ليأخذوا اللغة صافية نقية من افواه رجالها الأصلاء الذين لم يتعلموا خدع اهل الحاضرة وغشهم وكذبهم ، ولم تنحرف

ألسنتهم عن ألسنة أجدادهم ، ولم تتأثر بأحرف الأعاجم المندسين في القرى والمدن والأرياف . فكان (سيبويه) مثلاً اذا استشهد بشاهد أشار الى أنه من (العرب اللذين ترضى عربيتهم) أو من (العرب الموثوق بعربيتهم) [1] ، أو من (العرب الموثوق بهم) ، أو من (فصحاء العرب) . وكان يرى أن لسان اهل الحجاز هو (الأول والأقدم) [2] . وكان علماء اللغة اذا اختلفوا في شيء من اللغة من ألفاظ أو قواعـد ، حكّموا أهل البادية ، اي الأعراب فيما شجر بينهم من خلاف ، حتى وإن كان اولئك العلماء من اوثق الناس علماً بعلم العربية ، فحكموا الاعراب مثلاً في المناظرة اللغوية التي وقعت بين سيبويه والكسائي والأخفش في حضرة (يحيى بن خالد) مع أنهم اعلم الناس بعلوم العربية[3] . وقد اورد (ابن النديم) اسماء عدد من (الاعراب) كان علماء العربية يلجؤون اليهم في الملمّات ، ويأخذون عنهم ، ويحكّمونهم فيما يقع بينهم من خلاف . فهم (حُكّام) ذلك الزمن وقضاته ، يحكمون في منازعات الناس في اللغة . [4]

والحد الفاصل بين الحضارة والبداوة ، هو طراز الحياة ونوعها ، فالحضر اهل قرار . والاعراب ينتجعون ويتتبعون مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب اذا اعشبت البلاد ، ويشربون (الكرع) وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع الى ان يهيج العشب من عام قابل وتنش الغدران ، فيرجعون الى محاضرهم على إعداد المياه . [5] وحياتهم على الإبل فلا يعتنون بتربية ماشية غيرها . ومن هنا اقترنت البداوة بالبادية وبتربية الإبل ، التي تنفرد عن غيرها من الحيوانات بقابليتها على المعيشة في البادية وبقوة صبرها على تحمل الجوع والعطش اياماً ، بينما تقصر همم الحيوانات الاخرى عن مجاراتها في هذا الباب . ومن هنا نقصد بالاعراب : البدو الحقيقيين ابنـاء البادية وأصحاب الجمال الذين ينتجعون ويتتبعون مساقط الغيث ويشربون الكرع ويكون تماسهم بالحضارة والحضر قليلاً . [6]

---

١ الكتاب (٩٣/١ ، ١٥٣ ، ٤٥١) ، (٢٦٤/٢ ، ٤٢٣ ، ٤٥١) .

٢ الكتاب (٤١/٢ ، ٤٢٤) ، يوهان فك ، العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، (ص ٥٠ وما بعدها) ، (تعريب عبد الحليم النجار) .

٣ الفهرست (٨٢ وما بعدها) .

٤ الفهرست (ص ٧١ وما بعدها) .

٥ تاج العروس (٥١٩/٥) ، (نجع) .

٦ De Vaux, Ancient Israel, P. 3.

وما أقوله يخصُّ اعراب نجد وبادية الشام بالدرجة الأولى . أما أعراب العربية الجنوبيـــة ، فإن وضعهم يختلف عن وضع هؤلاء الاعراب . فهم وان عدّوا اعراباً ونُص عليهم بـ (اعرب) (أعراب) في نصوص المسند . لكنهم لم يكونوا اعراباً نقّلاً ، يعيشون على تربية الإبل والغارات وعلى بعض الزراعة وكره الاشتغال بالحرف ، بل كانوا شبه مستقرين سكنوا خارج المـــدن والقرى في مستوطنات متجمعة مؤلفة من بيوت وأكواخ وعشش من طين . ومارسوا تربية الإبل والماشية الاخرى ، واشتغلوا بالزراعة وبالحرف اليدوية لم يجدوا في ذلك بأساً . وكانوا يغيرون على الحضر ان وجدوا فرصة مؤاتية ولم يكونوا اقوياء بالنسبة الى الحضر ، لوجود حكومات منظمة ، في استطاعتها ضربهم ان تحرشوا بأهل المدن والقرى . ولهذا لا نجد للأعراب دكراً في نصوص المسند القديمة ولم يظهر اسمهم فيها كقوة ضاربة الا بعد الميلاد وقبيل الاسلام . حين ارتبك الوضع السياسي في العربية الجنوبية ، وتدخل الحبش في شؤونها ، وولع بعض ملوكها مثـــل الملك (شمر يهرعش) في اثارة الحروب . مما أفسح المجال للأعراب فجربوا حظهم بالدخول في لعب الحروب . فلما وجدوا لهم حظـاً حسنـاً وربحاً طيباً ، مارسوها مع هذا الحاكم أو ذاك ، وظهر اسمهم عندئذ في المسند . بل دخل في اللقب الرسمي الذي حمله الملوك فصار اللقب : (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في الهضاب وفي التهائم) . وطمع أعراب نجد في الحصول على مغانم في العربيـــة الجنوبية فارتحلوا نحوها ، وزاد بذلك عدد الاعراب . ومن هؤلاء كندة الذين تركوا ديارهم بنجد بعد نكبتهم وانضموا الى اخوانهم في العربية الجنوبية فصار لهم فيها شأن كبير ، حتى ذُكروا في النصوص ، ومنها نصوص أبرهة .

ومعاش الحضر ، على الارض يزرعونها ويعيشون عليها ، أو على التجارة أو على الحرف اليدوية ونحوها . ومن طبيعة أهل الحضر الاستقرار في أرض تكون وطناً ثابتاً لهم ، ومقاماً يقيمون فيه فيحبونه ويموتون في سبيله . أما أهل الوبر ، فهم رُحّل ، ينتقلون طلباً للماء والكلأ والامتيار ، فوطنهم متنقل قلق غير مستقر . الارض كلها وطنهم ، ولكنها الارض التي يكونون فيها ، فاذا ما ارتحلوا عنها ، صارت الارض الجديدة وطناً لهم جديداً . أما الارض القديمة فتكون وطنـاً لمن يحل فيها من طارىء جديد أو طارىء قديم .

والمشهور عند العرب وعند الأعاجم ، أن العرب قوم يكرهون الزراعة والاشتغال

بالحرف والصناعات . ويستخفون بشأن من يشتغل بها ويزدرونه ، فلا يتزوجون منه ولا يزوّجونه منهم . وينطبق هذا القول على الاعراب وعلى بعض الحضر الى حد ما . لكنه لم ينطبق على كل العرب . فالعرب الحضر ، الذين وُجد الماء بغزارة عندهم ، غرسوا الأشجار أيضاً وزرعوا ، لم يجدوا في ذلك خسّة ولا دناءة . والعرب الذين توفرت لهم مواد العمل وظروف العمل ، اشتغلوا بالحرف وبالصناعات ، كما هو شأن الطائف والعربية الجنوبية بل وبعض رجال مكة ايضاً . أما الذين ازدروها وكرهوها فهم الذين لم تتوفر لهم الاسباب التي تغريهم على الاشتغال بالحرف والصناعات ، ولم تتوفر لديهم المواد الأولية ولا الظروف المساعدة على قيام الحرف . لذلك كرهوها كره من يكره شيئاً لأنه لا يملكه ولا يناله ، أو لأن يده لا تصل اليه ، ولو ملكه لغيّر حكمه عليه من غير شك .

وقد أشار (أمية بن خلف الهذليّ) الى اشتغال أهل اليمن بالحرف ، بقوله :

يمانياً يظل يشدّ كيراً ••• وينفخ دائباً لهب الشواظ [1]

وقد أمدّ أهل اليمن الحجاز وأماكن أخرى من جزيرة العرب بالسيوف وبمصنوعات المعادن وبالبرد والأنسجة الأخرى . كما عرفوا باتقانهم البناء والنجارة وغير ذلك من حرف الحضر ، التي أشير اليها في الشعر الجاهلي .

وقد عيب على اهل اليمن اشتغالهم بالحرف : كالحدادة والحياكة والصياغة وما شاكل ذلك من حرف ، على نحو ما تحدثت عن ذلك في فصل : (طبيعة العقلية العربية) . ولكنّ مَنْ عابهم كان عالة عليهم وعلى غيرهم من أهل الحرف في أكثر الأمور التي كانت تخصّ شؤون حياتهم اليومية ، كالسيوف والخناجر الجيدة مثلاً التي هي عماد المحافظة على حياة الانسان في البادية . كما اعترف لهم بالتفوق على مَنْ كان يزدري الصناعة والحرف . فكانوا يخافونهم في الحروب ، ويهابونهم عند القتال ، لامتلاكهم أسلحة لا يملكونها هم . وكانوا يلجئون اليهم لتنصيب رئيس منهم عليهم . تهابه القبائل لصعوبة انصياع القبائل لقيادة رئيس منها ، بسبب التحاسد القبلي ، كما كانوا يخضعون لحكم أهل اليمن بسبب تفوقهم عليهم في السلاح وفي الثقافة الى غير ذلك من أسباب ترجع في الواقع الى الطبيعة التي

---

١ تاج العروس (٣٧١/٩) ، (يمن) .

عطفت على اليماني وعلى العربي الجنوبي ، ففوّقته على الاعراب .

ولما كانت طبيعة الجفاف هي الغالبة على جزيرة العرب ، كان لهذه الطبيعة أثرها في حياة العرب ، فغلبت البداوة على الاستقرار ، وأثرت في النظم والآراء السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية وفي سائر نواحي الحياة الأخرى . لقد حالت دون قيام المجتمعات الكبرى القائمة على الاستقرار والاستيطان واستغلال الارض ، وجعلت من الصعب قيام الدول الكبيرة في هذه البلاد ، وتكوين حكومات تقوم على احترام حقوق جميع أبناء الحكومة دون نظر الى البيوتات والعشائر والقبائل والرئاسات .

وفي الأماكن التي توافرت فيها المياه ، المياه النابعة من الارض او النازلة من السماء ، نشأت مجتمعات مستقرة : وظهرت حكومات ، غير أنها حكومات اختلف طابعها وشكلها باختلاف المحيط الذي ظهرت فيه ، والاحوال الطبيعية التي ألمت بها ، والقدرة المادية التي تيسرت لديها . فيها الحكومات الصغيرة التي قد تكون حكومات (قرية) ، أو رئاسات عشائر ، وفيها ما يمكن أن يعبر عنه بحكومات مدن ، إن جاز اطلاق مصطلح (المدن) عليها ، وفيها حكومات أكبر وأوسع مثل حكومات الحيرة والغساسنة ، وفيها حكومات مثل حكومات العرب الجنوبيين ، وهي حكومات كبيرة اذا قيست الى الحكومات التي كونها سادات القبائل في أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، ولم تعمر طويلاً ، بل كانت مثل رغوة الصابون ، لا تكاد تنتفخ حتى تزول ، وذلك لأسباب وعوامل لا يتسع لها صدر هذا المكان .

فالطبيعة هي التي صيّرت العرب على هذا الحال ، وهي التي غلبت عليهم البداوة . إذ حرمتهم من الماء وجادت عليهم برمال تلفح الوجوه ، وبسموم مؤذية وبحرارة شديدة ، وبأرض متسعة تظهر وكأنها بحر من رمل لا حدّ له ، صيّرت من وُلد فيها انساناً قلقاً هائماً على وجهه ، يتنقل من مكان الى مكان بحثاً عن ماء وأكل . خلا الأماكن السخية التي خرجت منها دموع جرت فوق الأرض بقدر وبمقدار ، أو مواضع قَرُبَ الماء فيها من سطح التربة فاستنبطه الانسان ، أو أماكن انهمرت من سمائها العاشقة للأرض دموع حبها في مواسم من السنة فأصابت الأرض بطلّ ، فاستهوت الانسان ، واستقر بها وتحضر . وصار العرب من ثم بدواً وحضراً ، أهل بادية وأهل حاضرة .

ومن آيات ذلك ، أننا نجد قبيلة واحدة ، فيها بادية وفيها حاضرة ، استقرت وتحضرت وسكنت في بيوت ثابتة ، لا يهمنا أكانت بيوتها من صخر أو من حجر أو من مدر أو من بيوت شعر ، إنما المهم انها بيوت ثابتة ارتبطت بالأرض ، شعر قطّانها ان لهم صلة بهذه الأرض وان لهم بها رابطة ، لا يحلّ عقدها إلا الموت أو الضرورات القصوى . فقريش حاضرة وبادية . وجهينة حضر ، أقاموا بينبع وقرية (الصفراء) ، وأعراب هبطوا رضوى و (عزْوَرّ) [1] . و (همدان) حاضرة وبادية . ونهد حضر ، وهم من سكن الصفراء منهم ، وأهل وبر ، وهم من سكن دون المدر في جبلي رضوى وعزْوَر [2] . وتنوخ حضر ، وتنوخ أهل بادية وتنقل . الى غير ذلك من قبائل ، استقرت أحياء منها ، وتبدت أحياء أخرى منها .

ثم إننا نجد قرى منتشرة في مواضع من العربية الغربية وفي نجد والعربية الشرقية أو العربية الجنوبية ، وقد سكنها قوم عرب حضر زرعوا وحفروا لهم الآبار وتعهدوا العيون بالرعاية ليستفيدوا من مياهها ، وجاؤوا بأشجار من الخارج لزرعها هناك . وفي كتب (الهمداني) و (عرام) ، وكتب غيرهما ممن بحث عن جزيرة العرب أسماء قرى ومدن جاهلية ، كانت ذات مزارع وحدائق ، أما اليوم ، فبعضها أثر ، وبعض منها قد زال وذهب مع الذاهبين ، لم يترك له حتى بقية من أثر . وتلك المواضع هي دليل في حدّ ذاته على ان الماء إذا وُجد في مكان ما أكره سكانه على الاستقرار به ، وأجبر قسماً من أهله على الاشتغال بالزرع . ولم ينضب الماء من تلقاء نفسه عن المواضع التي اندثرت وماتت وإنما وقعت أحداث لا مجال لي للبحث عنها في هذا المكان ، ومنها الهجرة الى خارج جزيرة العرب بالفتح وتحوّل الطرق التجارية العامة وإعراض الحكومات عن الاهتمام بشؤون جزيرة العرب ونحوها ، فأكرهت السكان على الارتحال عنها ، فأهملت آبارها وترستها الرمال فجفت وذهب ماؤها عنها .

وفي تلك المواضع التي توفرت فيها المياه من مطر وعيون وآبار ومياه جوفية

---

١ بفتح العين وسكون الزاي وفتح الواو ، اللسان (٥٦٣/٤) ، (عزر) ، عرام ، اسماء جبال تهامة (٨ وما بعدها) .

٢ عرام (٧) .

قريبة من سطح الأرض ظهرت الحضارة على شكل قرى ومستوطنات وأسواق موسمية ، كان لها كلها أثر خطير في حياة العرب عموماً من عرب وأعراب . لما كان يقع فيها من اتصال ومن تبادل آراء بين الحضر والبدو ، وبين هؤلاء جميعاً وبين الأعاجم الذين كانوا يؤمونها للاتجار بها بصورة مؤقتة أو دائمة ، حيث كانوا يقيمون بها اقامة طويلة أو أبدية ، وبالأعاجم الذين كانوا يقيمون فيها رقيقاً مملوكاً لمن اشتراهم من الملاكين . وبذلك حدث نوع من التلقيح في الآراء والأفكار وفي شؤون الحياة : تلقيح مهما قيل فيه وفي درجته ، فإنه تلقيح على كل حال [1] . وهذه المواضع هي التي كونت وخلقت تأريخ العرب فيما قبل الإسلام .

وقد نبّه (الجاحظ) الى الاختلاف بين البدوي والحضري ، والسهلي والجبلي ، فأشار الى اختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، والى اختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحزون ، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار ، ثم الى ما ترك هذا الاختلاف في المواضع والمكان من أثر في اختلاف اللغة ، فتحالفت عليا تميم ، وسُفلى قيس ، وعجز هوازن وفصحاء الحجاز في اللغة . وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وسكان مخاليف اليمن . (وكذلك في الصورة والشمائل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربي خالص) . وأشار الى ما تركه هذا السكن من أثر في أخلاق العرب ، حتى ليقال : (إن هذيلاً أكراد العرب) [2] . بسبب طباعهم وصبرهم على تحمل القتال .

كما أشار (الجاحظ) الى ان هذا الاختلاف ظاهر في العرب جميعاً ، قحطانيين وعدنانيين . ومع ذلك فهم كلهم عرب ، لأنهم استووا في التربة وفي اللغة والشمائل والهمة وفي الأنفة والحمية ، وفي الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ، وأفرغوا افراغاً واحداً [3] .

وكان من أثر اختلاف طبيعة الجوّ والأرض والضغوط الجويّة في أهل جزيرة العرب ، ان صار لأهل المدر مجتمع يختلف في شكله وتكوينه عن مجتمع أهل الوبر ، وان صار مجتمع أهل المدر جملة مجتمعات اختلفت في تكوينها باختلاف

١ Hastings, Dictionary of the Bible I, P. 133.

٢ رسائل الجاحظ (١/١٠ ، ٧١) ، (مناقب الترك) .

٣ رسائل الجاحظ (١/١٠ وما بعدها) ، (مناقب الترك) .

الظروف المؤثرة التي تحدثت عنها ، وباختلاف المؤثرات الخارجية المحيطة بها أو المجاورة لها والقريبة منها في ظروف تلك المجتمعات . وصار من ثم مجتمع العرب الجنوبيين ، ولا سيما مجتمع اليمن ، مجتمعاً خاصاً له طبيعة خاصة وشخصية مستقلة متأثرة بظروف اليمن الكلية من طبيعة أرض وطبيعة جوّ ، وصار لأهل مكة وهم أشبه بأهل الحضر مجتمع خاص له طابع متميز ، وصار لأهل الحيرة طابع خاص بهم ، وصار لأهل يثرب كذلك مجتمع وطبيعة خاصة متميزة ، وهكذا قل عن بقية المجتمعات الحضرية .

فمجتمع اليمن مثلاً مجتمع خاص نجد فيه صفات المجتمع الحضري أكثر مما نراه في أي مجتمع حضري آخر في جزيرة العرب ، مجتمع يختلف حتى (عربه) أي بدوه وهم الطبقة الثانية من هذا المجتمع ، عن أعراب بقية جزيرة العرب . فهم بالقياس الى بدو الجزيرة شبه أعراب ، ووسط بين البداوة الصرفة وبين أدنى درجات الحياة الحضرية الساذجة ، المستندة الى الاستقرار والتعلق بالأرض . ومجتمع اليمن الحضري مجتمع استغل عقله ويده في سبيل تكييف حياته واسعاد أيامه في الدنيا ، فاستغل الأرض وكيفها بحسب قُدَره واستعداده في انتاج الغلة الزراعية وفي انتاج المعادن وفي تربية الحيوان ، وأقام له قصوراً وحصوناً ، واستورد آلات حية يستعملها وتُيسر له ما يحتاج اليه — استوردها من كل الأنحاء من الشمال ومن العراق ومن بلاد الشأم ، واستوردها من إفريقية . وسخرها في استغلال الأرض وفي إقامة الأبنية وفي أداء الأعمال اليدوية التي تحتاج الى حذق ومهارة ، فتفوق هذا المجتمع من ثمّ وبمزايا إقليمه من جوّ وأرض على المجتمعات العربية الأخرى ، وأنتج حضارة لا نجد لها مثيلاً في بقية أنحاء جزيرة العرب .

فعرف اليمن في جاهليته واشتهر بمهارته وبحذقه بحرف وبمنتجات بقي ذكرها خالداً الى الإسلام ، وتميز عن غيره بحسن الذوق وبالبراعة في استعمال أنامله . وحين برع بقية عرب الجزيرة في التعبير عن أحاسيسهم بكلام منظوم ، نجد عرب اليمن وبقية العربية الجنوبية يعبرون عن أحاسيسهم بنقشها على المرمر وعلى بقية الأحجار وعلى المعادن والخشب ، ونجد السيوف اليمانية ، ولها شهرة وخبر ، ونجد بُسُطَ اليمن وبرودهم واكسيتهم مشهورة لها صيت في كل مكان ، لا يدانيه صيت أي صنف مما ينتج في مكان آخر من أمكنة جزيرة العرب ، ونجد لهم ذكراً في الصياغة وفي سوق الأحجار الكريمة والعطور ، وغير ذلك من المنتجات التي تحتاج الى يد وفكر .

ومجتمع اليمن المتحضر ، مجتمع طبقي ، تكوّن من طبقات : طبقات رفيعة ذات منزلة ومكانة عالية ، تتلوها طبقات أخرى أقل درجـة ومنزلة حتى تنتهي بالطبقات الدنيا التي تكون قاعدة لهرم هذا المجتمع وسواد الناس . وهي طبقات تكاد تكون مقفلة ، أو شبه مقفلة إن صح هذا التعبير ، ولا سيما بالقياس الى الطبقات الدنيا ، التي تجنبت الطبقات التي هي فوقها التصاهر معها والاتصال بها ، للفروق المنزلية التي تشعر بوجودها فيما بينها . ثم إن الناس فيهـا يرثون منازل آبائهم ودرجاتهم ، فابن النجار نجار ، وابن الحداد حـداد في الغالب ، وابن التاجر يرث عمل والده ، ويستطيع تغيير حرفته وتحسين حاله ، إذ ليس لديهم قوانين الزامية تجبر الناس على البقاء في طبقتهم الى أبد الآبدين ، ولكن مثل هذا التغيير لا يقع إلا إذا كان الشخص ذا استعداد وكفاية وطموح ، فيشق طريقه بنفسه هاتكاً ستور الأعراف والعادات .

وما زالت الحياة الاجتماعية في العربية الجنوبية ، تستمد قوتها وحياتها من جذور الحياة الاجتماعية القديمة التي كانت عليها قبل الإسلام . فقد نشأت هـذه الحياة ونبتت من حاصل ظروف ذلك المجتمع الذي تحدثت عنه ، وحافظ على خصائصه الى هذا اليوم ، لأنـه عاش في عزلة عن العالم الخارجي ، أو في شبه عزلة ، ولهذا بقي يعيش على ما تغذيه به بقايا جذور تلك الأيام من غذاء[1] .

والحضر ، وان استوطنوا واستقروا في أماكن ثابتة ، لم يكونوا حضراً بالمعنى المفهوم من اللفظة عندنا ، فلم يكونوا على شاكلة حضر الروم أو الفرس ، ولا على شاكلة حضر العراق أو حضر بلاد الشام من غير العرب . انهـم حضر من ناحية السكنى والاستقرار ، أي من ناحية تعلقهم بالأرض ونزولهم بها واستيطانهم فيها ، وعدم ارتحالهم عنها على نحو ما يفعل الأعراب ، واتخاذهم مساكن دائمة في مكان ما . أما من ناحية التفكير وطراز المعيشة ونظم الحياة الاجتماعية : فقد بقوا مخلصين لمُثُل البوادي ولطبيعتها في الحياة . فهم في قراهم ومدنهم (بيوت) و (بطون) ، يقيمون في (شعاب) ولهم عصبية . وهـم مثل الأعراب في أكثر مألوف حياتهم . وما زال هذا الطابع الأعرابي بادياً على حياة من نسميهم الحضر في جزيرة العرب وفي خارجها ، مؤثراً في حياتهم السياسية والاجتماعية بل

---

١ Naval, P. 405

في عقلية من نسميهم (المثقفين) الدارسين من مدنيين وعسكريين ، ذلك لأن عقول هؤلاء المثقفين وإن حُشيت بالمعلومات وبالعلوم ، لم تتمكن مع ذلك من التخلص من إرث البداوة المستمدة من طبيعة الجوّ وأثرها في الناس ، في الماضي السحيق وفي الحاضر ، ومن طبيعة المجتمع الذي خلقته هذه الطبيعة وجبلت الناس عليه . ومن أهم صفاته : العنجهية ، والتغني بذكريات الماضي : والابتعاد عن الواقع وعن مشكلات الحياة العلمية ، واللجوء الى العواطف والخيال ، والاسراف في تمجيد النفس الى حد أدى الى ازدراء كل ما هو غير عربي من إنسان ومن نتاج إنسان . أضف اليها (العصبية) بأنواعها : العصبية للأهل والعصبية للعشيرة ثم القبيلة فالحلف في حالة الأعرابية ، والعصبية للأهل والبيوت والشعاب ثم للقرية أو المدينة والقبيلة التي يرجع أهل القرى نسبهم اليها في الأخير ، وذلك بالنسبة الى أهل المدن . ثم الفردية المفرطة التي جعلت من الصعب على الفرد الانقياد لغيره والخضوع لأحد إلا اذا وجد نفسه أمام مصلحة خاصة أو أمام قوة ، ذلك لأنه يرى نفسه أشرف الناس ، وان من المذلة خضوعه لحكم أحد ، ولا سيما اذا كان من يحكمه من أناس هم دون أهله ، ومن عشيرة دون عشيرته . ثم ليس هو هو من أهل الجاه ولا من أهل المال ، فكيف يسلم أمره اليه ؟

الرعـاة :

وندخل في الحضر الرعاة : رعاة الغنم والمعز والبقر ، ذلك لأنهم اضطروا بحكم طبيعة حياة حيواناتهم الى شيء من الاستقرار ، والى عدم التنقل مسافات بعيدة طويلة في البوادي على نحو ما يفعل الأعراب . ثم انهم يعيشون على الآبار وبرك الماء وعلى مقربة من الحضر ، وفي وضع يجعلهم شبه مستقرين في أكثر أيام حياتهم . وهم (أعراب الضواحي) ، وعنصر مهم من عناصر تكون القرى والمستوطنات ، إذ ان قربهم من الحضر واعتماد حياتهم عليهم ، يحملانهم على التأثر بهم ، وعلى التقرب منهم ومن مستوطناتهم . فتصير (الخيمة) بيتاً مستقراً ، ثم تصير (كوخاً) من طين أو من أغصان شجر ، ثم تتحول بيتاً من بيوت قرية أو حيّ من أحياء مدينة ، لما في المدينة من وسائل معاشية تستهوي الناس ، لا تتوافر في الضواحي البعيدة ، فتحول الرعاة قطّان مدن .

ولا يشترط في الرعاة الاقتصار في حياتهم على تربية الغنم ، إذ فيهم من يربي الإبل أيضاً ، وهم (رعاة الإبل) [1] . والفرق الوحيد بينهم وبين الأعراب وهم رعاة الإبل ، ان الرعاة يلازمون أرضهم واذا تنقلوا طلباً للماء والكلأ فلا يذهبون الى مسافات بعيدة ولا يمعنون في اختراق البوادي ، لأنهم لا يستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً ولا يستطيعون الاكتفاء بكلأ البادية لوجود ماشية أخرى عندهم لا تستطيع الصبر على الجوع طويلاً ، كما ان اتصالهم بالحضر أكثر من اتصال الأعراب بهم . ومنازلهم هي في الغالب خليط من بيوت مدر ومن بيوت وبر . ولكنها ثابتة على العموم وحياتهم وسط بين البداوة والحضارة . والأرض التي يقيمون بها تكون ذات آبار وعيون ومتجمعات أمطار ، وهم لا يبتعدون عنها كثيراً ولا يفارقونها لارتباط معيشتهم بها . بينما تكون حياة الأعراب على الغيث في الغالب ، وعلى الآبار والتنقل .

وفي العربية لفظة (جشر) . ذكر علماء اللغة انها تعني القوم يبيتون مع الإبل في المرعى لا يأوون بيوتهم . والقوم يخرجون بدوابهم الى المرعى ويبيتون مكانهم لا يأوون البيوت . والمال الذي يرعى في مكانه لا يرجع الى أهله بالليل . وان تخرج بخيلك فترعاها أمام بيتك [2] . الى آخر ذلك من معان تدل على ان الجشر رعاة يخرجون الى المجاشر ، أي المراعي لرعي إبلهم أو خيلهم بعض الوقت ، اذا شبعت إبلهم واكتفت ، عادوا بها الى بيوتهم فأقاموا بها .

الأعراب :

أما أهل الوبر ، وهم الأعراب ، فحياتهم حياة تنقل وارتحال ، وعماد حياتهم (الإبل) ، ولولا هذا الحيوان الصبور لما تمكن الاعرابي أن يقهر البوادي ، وأن يوسع تنقله في أنحائها ، وأن يعيش في هذه الأرضين المقفرة الشحيحة التي يشح فيها سقوط المطر ، ويضطر الانسان فيها الى ضرب الارض بأرجل جمله بحثاً عن الكلأ والماء . ولهذا صار (الجمل) (المال) الوحيد الذي يملكه

١ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعي) .
٢ اللسان (٥/٢٠٧) ، تاج العروس (٣/١٠٠) ، (جشر) .

الاعرابي ، به يقدر الأسعار ، وبه يقدر (الصداق) وثراء الانسان .

وقد سبق لي أن تحدثت عن معنى (عرب) ، وعن المراد منها الى قبيل الاسلام ، فلا حاجة لي هنا الى اعادة الكلام عن شيء سبق ان تكلمت عنه . أما مصطلح (أهل الوبر) ، فمعناه (عرب) ، أي أعراب بالمعنى الجاهلي القديم . وذلك لأن الأعراب قوم نقل ، يتنقلون من مكان الى مكان ، حاملين بيوتهم وما يملكونه معهم ، وبيوتهم هي الخيام ، وهي مصنوعة من (الوبر) : وبر الإبل في الغالب ، ولذلك عرفوا بها [1] . وعرفوا في الموارد اليونانية بـ (أهل الخيام) وبـ (سكنة الخيام) ، وقد استعمل أعراب العراق وبادية الشأم وأعراب بلاد الشأم الخيام المصنوعة من شعر الماعز ، وهي خيام لونها السواد ، وقد أشير اليها في التوراة وفي موارد تأريخية أخرى .

وذكر علماء اللغة ان العرب : سكان القرى والمدن أي الحضر ، أهل الحاضرة . أما الأعراب ، فهم سكان البادية من هذا الجيل . ويقال للرجل أعرابياً اذا كان بدوياً همه البحث عن الكلأ وتتبع الغيث والرعي . وأما من يترل الريف ويستوطن القرى والمدن ، فهو عربي ، وان كان دون الأعراب في الفصاحة وفي سلامة اللغة . ويقال للأعراب (الأعاريب) ، وذلك جمع للاعراب . فالأعرابي البدوي ، وهو صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلأ ، وتتبع لمساقط الغيث ، وسواء كان من العرب أو من مواليهم [2] . ومن نزل البادية ، أو حاور البادين وظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم : فهم أعراب . ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي الى العرب : فهم عرب ، وان لم يكونوا فصحاء [3] .

ويذكر علماء اللغة ان البادية من البروز والظهور . قيل للبرية لكونها ظاهرة بارزة . وان البادية اسم للأرض التي لا حضر فيها ، وهي خلاف الحاضرة

١ تاج العروس (٣/٥٩٤) ، (وبر) .
٢ روح المعاني ، للألوسي (١١/٤) ، (المنيرية) ، اللسان (١/٥٨٦) ، (صادر) (عرب) .
٣ اللسان (١/٥٨٦) (صادر) ، (عرب) ، تاج العروس (١/٣٧١) ، (عرب) .

والحضارة . وقيل لسكان البادية البدو والبداة[1] . ومن هذا الأصل جاءت لفظة (Bedouin) في الإنكليزية وفي عدد من اللغات الأوربية الأخرى ، بمعنى أعراب .

والأعرابي بالمعنى العلمي المفهوم من اللفظة ، هو — كما قلت قبل قليل — المتبدي ، أي الذي قطن البادية وعاش معظم حياته فيها وانقطع معظم حياتــه عن القرى والمدن . مكتفياً باتخاذ الإبل شريكة له في حياته هذه . قاطعاً البوادي الجافة التي يقل معدل سقوط الأمطار فيها عن (٤) عقد في السنة ، للبحث عن الكلأ والماء[2] . قانعاً بحياته التي يحياها والتي أحبها وتعلق بها على مـــا فيها من قساوة وضراوة وفقر وشح في العيش . حتى صار لا يفارقها لأنه ولد بها . فهو لا يعرف دنيا غيرها ، ولا يعرف ان في الدنيا مكاناً أطيب من وطنه الذي يعيش فيـه . وكل مولود على ما يولد عليه .

وتعيش بين الحضر والبادية قبائل ، صيّرتها اقامتها بين العالمين عالماً وسطاً ، لا هو مجتمع حضريّ ولا هو بدوي أصيل ، حافظ على خصائصه البدوية الموروثة من البادية ، واكتسب باحتكاكه بالحضر ما يلائم طبعه ومـــا فرضه عليه محيطه الجديد من حياة أهل الحضر . فصار يزرع بعض الزرع ويرعى البقر والخيــل والأغنام والمعز ويأتي الى القرى والمدن للامتيار ، ويستخدم موادّ لا يستخدمهـــا الأعراب لعدم وجود حاجة لهم بها ، ولفقرهم الذي لا يسمح لهـــم بشرائها ، وأخذ يبيع لأهل الحضارة ما يفيض عن حاجته من الألبان والزبد والجلود والأصواف والحيوانات . فأهل هذا العالم إذنْ هم عالم وسط عالمين ، وقنطرة تربط بــين العتبة الأولى من عتبات الحضارة والدرجة الأولى من درجات البداوة . وخير مثل على هؤلاء هم عرب مشارف الشأم ، وعرب مشارف العراق . ويراد بالمشارف القرى والمستوطنات والمضارب القائمة على ما بين بلاد الريف وبين البوادي[3] .

و (الريف) في رأي بعض علماء اللغة الخصب والسعة في المأكل والمشرب وما قارب الماء من الأرض . أو حيث يكون الخضر والميـــاه والزرع . ولهـــذا قيل : (تريف) اذا حضر القرى وهي المياه ، و (راف البدويّ) يريف

١ De Vaux A 3:
٢ تاج العروس (٣٢/١٠) ، (بدا) .
٣ تاج العروس (١٥٤/٦) ، (شرف) .

اذا أتى الريف . ومن هنا عرف البدويّ بأنه جوّاب بيداء ، لا يأكل البقل ولا يريف[1] .

وورد في الحديث : (كنّا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف . أي إنا من أهل البادية لا من أهل المدن)[2] . ولكن المفهوم من لفظة (ضرع) ، انها لفظة تطلق على الماشية ذوات الظلف والخف ، أو للشاء والبقر[3] ، ولهذا فيجب تفسيرها ، بإنا من أهل ذوات الظلف والخف ، أي من الرعاة لا أهل الزرع ، والرعاة هم قطّان المشارف ، القريبين من القرى والريف ، ولا يقيمون في البادية ، لأن الشاء والبقر وبقية الماشية باستثناء الإبل لا تعيش في البادية وإنما ترعى الأماكن الخصبة من الماء والريف .

والحاضرة خلاف البادية ، وهي القرى والمدن والريف ، سمّوا بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار . وذكر ان كل من نزل على ماء عدّ ولم يتحول عنه شتاءً ولا صيفاً ، فهو حاضر ، سواء نزلوا في القرى والأرياف وبيوت المدر أو بنوا الأخبية عند المياه فقرّوا بها ورعوا ما حواليها من الكلأ . ولهذا قالوا : الحاضر : القوم نزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه . وقد يكون ذلك في البوادي . إذْ يقيمون حول بئر أو ماء دائم ، ولا يرتحلون عنه . فهذا نوع من أنواع الحاضرة في جزيرة العرب[4] . وهم بهذا حضر جزيرة العرب ، فهم سكان مستوطنات صغيرة ظهرت في مواضع الماء وعند مفترق الطرق ، في هذه البوادي الجافة الواسعة .

وفي هذه الحواضر التي أسعفها الحظ بالماء ، ظهرت مجتمعات متحضرة ، أي مستقرة ، استفادت من الماء فبنت بعض البيوت وزرعت بعض النخيل والأشجار. ومقياس هذه الحواضر ، هو الماء . فاذا وجد بغزارة أو كان قريباً من سطح الأرض توسعت به رقعة الحضارة ، بمقدار سعة الماء وسعد الناس بالعيش في بيوت

١ جواب بيداء بها غروف لا يأكل البقل ولا يريف
ولا يرى في بيته القليف
اللسان (١٢٨/٩ وما بعدها) ، (ريف) ، تاج العروس (١٢٣/٦) ، (تريف) .
٢ اللسان (١٢٨/٩) ، (ريف) .
٣ اللسان (٢٣/٨) ، (ضرع) ، تاج العروس (٤٣٠/٥) ، (ضرع) .
٤ اللسان (١٩٧/٤ وما بعدها) ، (حضر) .

مستقرة دائمة ثابتة ، أما اذا كانت الارض ضحيحة مخيلة ، لا تسعف من يعيش فوقها بماء ، فان الانسان يتحاشاها بالطبع ويبتعد عنها خلال أيام الغيث . وحواضر البوادي هي المواضع التي يجب أن نوجه اليها أنظارنا للبحث فيها عمّا قد يكون الدهر قد خبأه فيها من كنوز وآثار . وهي منتشرة في مواضع عديدة من جزيرة العرب ، لا سيما عند الأودية وقرب الحسي والجعافر والعيون .

و (عرب الضاحية) أو (عرب الضواحي) ، هم العرب النازلون بظواهر الريف والحضارة وبظواهر البادية . و (الضاحية) الظاهرة الخارجة من الشيء التي لا حائل دونها ، و (الضامنة) ما أطاف بالشيء مثل سور المدينة ، أي ما كان داخل شيء . وضواحي الروم : ما ظهر من بلادهم وبرز .[1] ويراد بـ (عرب الضاحية) ، عرب مشارف العراق وعرب مشارف الشام ، لأنهم أقاموا ضواحي العراق وبلاد الشام ، وعلى تخوم البادية .[2] وقد تأثر أكثر الاعراب الساكنين بأطراف الحضارة وبأخلاق الحضر ، ودخلوا مثلهم في النصرانية ، بحكم تأثرهم بهم وبعوامل التبشير والسياسة ، الا أن نصرانيتهم كانت نصرانية أعرابية مكيفة بالعقيــدة الوثنية الموروثة من السنين الماضية التي كونتها طبيعة البداوة في عقلية أهل الجاهلية .

وسوف نجد في بحثنا عن اللغة ، أن لغة (أهل المشارف) أو (أهل الضواحي) و (عرب الارياف) ، قد تأثرت بلهجات (إرم) العــراق وبلاد الشام ، فظهرت في لغتهم رطانة ، وبرزت فيها ألفاظ ارمية وأعجمية ، وانحازت في النطق بعض الانحياز عن عربيات أهل البوادي ، وكتبوا بقلم نبطي وبلهجات عربيــة ، لا تقرّها عربية القرآن الكريم ، التي صارت لسان الاسلام . ولهذا حذر علماء اللغة من الاستشهاد بشعر شعراء القرى والريف وأهل المشارف والضواحي ، لاعوجاج لسانهم بالنسبة الى لسان الاسلام .

فأعراب الضواحي ، أو عرب الضاحية ، هم أعراب أيضاً ، لكنهم لم يعزلوا أنفسهم عن العالم الخارجي ، وانما عاشوا على مقربة منه ومن مواطن الحضر ، فصار حالهم أحسن من حال الاعراب الأقحاح ، وارتفع مستواهم العقلي عن اولئك

---

١ اللسان (٤٧٤/١٤ وما بعدها) ، (ضحا) .
٢ تاريخ الطبري (٣٥٣/٣) ، (ذكر وقعة الولجة) .

المعنيين في حياة الاعرابية . سبب اتصالهم بالأجانب وأخذهم عنهم واحتكاكهم بالحضر ، الذين هم ارقى من الاعراب بكثير . فأخذوا عنهم وتعلّموا منهم أشياء كثيرة ، من مادية ومعنوية . سأتحدث عنها في المواضع المناسبة من أجزاء هذا الكتاب .

وقد عرفت الارض التي تقع بين الفرات وبين بَرّيّة العرب بـ (العبر) قال علماء اللغة : (والعبر بالكسر ما أخذ على غربي الفرات الى بَريّة العرب) . لأنها المعبر الذي يعبر عليه للوصول الى البادية ، أو الدخول من البادية الى الفرات . وقد تكونت بها قرى عربية لعبت دوراً مهماً في تأريخ العراق لموقعها العسكري المهم ، ولأنها الخط الامامي الذي كان يواجه الاعراب الغزاة ومن كان يحكم بلاد الشام من حكام . ولكونه المنطلق الذي تنطلق منه الجيوش التي تريد غزو بلاد الشام ، أو صدّ القوات الزاحفة على العراق من الغرب .

والبـــداوة هي التي أمدت العراق وبلاد الشام وسائر جزيرة العرب بالحضر ، فقد كان الاعراب يأتون الحواضر وينيخون هناك ، ويستقرون ثم يتحولون الى حضر . لذلك تكون البادية المنبع الذي يغذي تلك الارضين بالعرب الحضر .

عبية الجاهلية :

ولقد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن العقلية العربية بصفة عامة : عقلية العرب أي الحضر وعقليـــة الاعراب . وأعود في هذا الموضع الى الحديث عن عقلية الاعراب وما رماهم به أهل الحضر من الغلظة والجفاء والجهالة والعنجهية والكبر الى غير ذلك من نعوت عرفت عند العلماء بـ (عبية الجاهلية) . وذلك لما لهذه العبية من صلة بهذا الموضوع في هذا المكان .

واذا اردت الوقوف على عنجهية الجاهلية وتكبر سادات القبائل وعلى نظرتهم الى من هم دونهم في ذلك الوقت ، فخذ ما روي من قصة وقعت لمعاوية بن أبي سفيان على ما يرويه أهل الاخبار . فقد رُوي أن الرسول أمر معاوية بانزال (وائل بن حجر) الحضرمي منزلاً بالحـــرة ، فمشى معه ووائل راكب وكان

تاج العروس (٣/٣٧٧) ، (عبر) .

النهار حاراً شديد الحرارة . فقال له معاوية : ألق اليّ نعلك ، قال : لا ، اني لم اكن لألبسها وقد لبستها . قال فأردفني ، قال : لست من أرداف الملوك . : قال : ان الرمضاء قد أحرقت قدمي ، قال : لا يبلغ اهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك . ولكن ان شئت قصرت عليك ناقتي فسرت في ظلها . فأتى معاوية النبيّ ، فانبأه . فقال : (ان فيه لَعُبِّيَّة من عُبِّيَّة الجاهلية) .[1]

و (العُبِّيَّة) الكبر والفخر . (وعُبِّيَّة الجاهلية : نخوتها . وفي الحديث : ان الله وضع عنكم عُبِّيَّة الجـاهلية ، وتعظمها بآبائها ، يعني الكِبْر) . وقد وصفت (قريش) ونعتت بتكبرها حتى قيل : (هذه عُبِّيَّة قريش) .[2] ونجد في القرآن الكريم اشارات الى عبية زعمـاء قريش وفخرهم على غيرهم بالآباء وبالأحساب وبأمور لا تستوجب فخر مفاخر ، لأنها لا تتناول عمل انسان ليحمد أو ليذمّ عليه . وقد ذمها الاسلام ونهى المسلمين عن عبية الجاهلين .

ونظراً الى ما للبداوة من فقر وقساوة وغلظ في المعاش ، ومن ضيق أفق في المدارك وقصر نظر في شؤون هذا العالم الخارجي وفي فهم الحياة – نظر العربي الى الاعرابي نظرة استجهال وازدراء ، ونظر الى نفسه نظرة فيها علو واستعلاء . فورد أن الاعرابي اذا قيل له : يا عربي . فرح بذلك وهشّ له ، والعربي اذا قيل له : يا اعرابي ! غضب له .[3] لما بين الحياتين من فروق وتضاد . فقد جبلت البادية ابناءها على أن يكونوا غرباء عن العالم الحضر وعن عقلية أهل القرى والمدن . متغطرسين مغرورين على فقرهم وفقر من يحيط بهم . فخورين بأنفسهم الى حدّ الزهو والاعجاب والخروج عن الحدّ ، فكانوا اذا تكلموا رفعوا اصواتهم ، وظهرت الخشونة في كلماتهم ، واذا تعاملوا مع غيرهم ظهر الحذر عليهم ، خشية الغدر بهم . ولهذا قال الحضر : (اعرابي جلف) ، أي جاف .[4] وفي الحديث : (من بدا جفا) ، أي غلظ طبعه لقلة مخالطة الناس .[5] وقالوا : (اعرابي قحّ) و (اعرابي قُحاح) ، وهو الذي لم يدخل الامصار ولم يختلط

---

١ ابن سعد ، طبقات (٣٤٩/١ وما بعدها) ، (وفد حضرموت) .
٢ تاج العروس (٥٧٤/١ وما بعدها) ، (عبب) .
٣ اللسان (٥٨٦/١) ، (صادر) ، (عرب) .
٤ تاج العروس (٦٠/٦) ، (جلف) .
٥ تاج العروس (٧٤/٦) ، (جفا) .

بأهلها .[1] ولهذه الخشونة التي خلقتها طبيعة البادية في الاعرابي ، وهو لا دخل له بها بالطبع ، كما انه لا يشعر بها ولا يرى أن فيه شيئاً منها ، كان العرب اذا تحدثوا عن شخص فيه عنجهية وخشونة ، قالوا عنه : فيه اعرابية . كالذي ذكروه مثلاً عن (عيينة بن حصن الفزاري) ، من أنه كان أحق مطاعاً ، دخل على النبي من غير اذن وأساء الأدب فصبر النبي (على جفوته وأعرابيته) .[2] الى غير ذلك من نعوت تصف الاعرابي بالغلظ والقسوة والانانية وما شاكل ذلك من نعوت تحدثت عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب . وهي حاصل هذا المحيط الذي ولد فيه وعاش ، والظروف التي ألمت به ، فعزلته عن العالم الخارجي ، وأبعدته عن التحسس بتنوع مظاهر الطبيعة وبتغيرها ، فلم ير الثلج في حياته وهو يتساقط من السماء . ولم يتعود على رؤية الامطار وهي تتساقط عليه على نحو ما يقع في عالم أوربة أو في البلاد الحارة ذات الامطار الموسمية الواضحة ، حتى يستفيد منها في استغلال ارضه ، ولم تعطه الطبيعة انهاراً ومياهاً جارية ، الى غير ذلك من امور تحدثت عنها اثناء كلامي على العقلية العربية في الجزء الاول من هذا الكتاب .

ووصف الاعرابي بالجهل ، بل بالجهل المطبق . فهو وثني ولكنه لا يفهم شيئاً من امور الوثنية ، وهو نصراني ، لكنه نصراني بالاسم ، لا يعرف عن النصرانية في الغالب شيئاً ، وهو مسلم ولكنه لا يعرف عن الاسلام الا الاسم . ونجد في كتب اهل الاخبار والأدب قصصاً مضحكاً يمثل هذا الجهل الذي رُمي به الاعراب في بعضه حق وفي بعضه باطل لأنه موضوع حمل عليهم حملاً للانتقاص منهم وليكون قصصاً وتفكهة وتسلية يتسلى بها الحضر في مجالسهم في اثناء قتلهم للوقت .

وهو حقود ، لا يرى ان يغفر ذنب من اساء اليه . بل يظل في نفسه حاقداً عليه حتى يأخذ بثأره منه . (قيل لاعرابي : أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسيء الى من أساء اليك ؟ فقال : بل يسرني أن أدرك الثأر وأدخل النار) .[3]

ويذكر ان الرسول كان يميز بين الاعراب وبين البادية ، وهم الذين كانوا

١ تاج العروس (٢٠٢/٢) ، (قح) .
٢ تاج العروس (٤٥/٦) ، (الف) .
٣ نهاية الأرب (٦٧/٦) .

ينزلون أطراف القارة (القارية) وحولهم . فلما أهدت (أم سنبلة) الأسلمية لبناً الى بيت رسول الله ، أبت عائشة قبــوله ، لأن الرسول قد نهى أهله عن قبول هدية اعرابيّ . وبينما كانت أم سنبلة في بيته ، دخل رسول الله ، فقال : ما هذا ؟ قالت عائشة : يا رسول الله ، هذه أم سنبلة أهدت لنا لبناً ، وكنت نهيتنا ان نقبل من أحد من الاعراب شيئاً . فقــال رسول الله : خذوها ، فان أسلم ليسوا بأعراب ، هم أهل باديتنا .[1] ويفهم من هذا الخبر ، ان الرسول فرّق بين العرب البادية المقيمين حول (القارية) أهل الحاضرة ، الذين هم على اتصال دائم بالحضر ، وبين الاعراب ؛ وهم البادون البعيدون عن أهل الحواضر . وهم الذين نهى الرسول عن قبــول هدية منهم . وذلك بسبب جفائهم على ما يظهر ولأنهم لا يهدون شيئاً الا طمعوا في ردّ ما هو أكثر منهم لغلظ معاشهم وضيق تفكيرهم . وآية ذلك ما ورد عنهم في القرآن الكريم .

فأهل البادية المجاورون للحضر أخف على النفس من الاعراب ، لتأثرهم بحياة الحضر . ولعل منهم من شارك أهل الحضر في التعاطي والتعامل . ونرى اهــل الاخبار يروون ان أهل القرى كانوا اصحاب زرع ونخيل وفواكه وخيل وشاء كثير وإبل ، يقيم حولهم أناس بادون . كالذي كان حول مكة ويثرب والطائف وقرى الحجاز واليمن وغير ذلك ، فان هؤلاء لم يكونوا اعراباً اي بدواً صرفاً ، هجروا الحــواضر وأقاموا في البوادي البعيدة ، بل هم وسط بين الحضر وبين الاعراب . فأخلاقهم ألين من اخلاق الاعراب وطباعهم أرق . ويمكن الاعتماد عليهم نوعاً ما ، بينما لا يمكن الركون الى قول اعرابي .

وقد بلغ من استعلاء الحضر على اهل البادية ، ان الاعراب لما أرادوا التسمّي بأسماء المهاجرين قبل أن يهاجروا ، منعوا من ذلك ، فأعلموا ان لهم أسماء الاعراب لا أسماء المهاجرين ، وعليهم التسمّي بها .[2]

والاعراب أهل منة ، اذا فعلوا معروفاً بقوا يتحدثون عنه ، ويمنّون بصنعه على من قدموه له . وهم يريدون منه صنع اضعاف ما صنعوه له . وهم تخشنون اذا تكلّموا رفعوا أصواتهم . وقد وبّخهم القرآن وأنّبهم لفعلهم هذا . فجاء فيه :

١ ابن سعد ، الطبقات (٢١٥/٨) .
٢ تفسير الطبري (٩/٢٦) .

(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . ان الذين يغضون أصواتهم عند رسولِ اللهِ أولئك الذين امتحن اللهُ قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) [1] . وأمر المسلمين بالتأدب بأدب الاسلام . فقال : (واقصد في مشيك واغضض من صوتك . ان انكر الاصوات لصوت الحمير .) [2] وقد كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون اصواتهم ، فوعظهم اللهُ ونهاهم عن ذلك) ، يقول تعالى ذكره (يا ايها الذين صدقوا اللهَ ورسوله لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت رسول اللهِ تتجهموه بالكلام وتغلظون له في الخطاب) . [3]

وكان من خشونتهم وأعرابيتهم ان احدهم اذا جاء الرسول فوجده في حجرته نادى : يا محمد يا محمد ؟ وذكر ان وفداً من (تميم) وفد على رسول اللهِ ، فوجده في حجرته ، ونادى منـاديه : اخرج الينا يا محمد ؟ فان مدحنا زين وذمّنا شين . او : يا محمد ! ان مدحي زين وان شتمي شين . فأنزل اللهُ : (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون . ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم . والله غفور رحيم) . [4]

وقد اتهم الأعرابي بماديته المفرطة وبطمعه الفظيع . فهو يحارب معك ، ثم ينقلب عليك ويصير مع خصمك ، اذا وجد ان في الجانب الثاني حلاوة ، وانه مستعد لاعطائه أكثر مما أعطيته . حاربوا مع الرسول ثم صاروا عليـه وانتهبوا عسكره ، وجاؤوا اليه فعرضوا عليه الإسلام ، فلما أرادوا العودة الى بلادهم وهم مسلمون ، وجدوا رعاءً للرسول ، فانتهبوه وقتلوا حماته مع علمهم بأنه له ، وان انتهاب مال المسلم حرام ، فكيف بهم وهم ينتهبون مال رسول الله . وقد ندد القرآن الكريم بطمعهم في الآية : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا) . فهؤلاء قوم من بوادي العرب قدموا على النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، المدينة ، طمعاً في الصدقات ، لا رغبة في الإسلام ، فسمّاهم الله تعالى

١ الحجرات ، الآية ٢ وما بعدها .
٢ لقمان ، الآية ١٩ .
٣ تفسير الطبري (٧٤/٢٦ وما بعدها) .
٤ الحجرات ، الآية ٤ ، تفسير الطبري (٧٦/٢٦ وما بعدها) .

الأعراب . ومثلهم الذين ذكرهم الله في سورة التوبة ، فقال : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً)[1] . وذكر عن (قتادة) قوله : (قالت الأعراب آمنّا ، قل : لم تؤمنوا ، ولعمري ما عمت هذه الآية الأعراب . إنّ من الأعراب مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولكن إنما أنزلت في حيّ من أحياء الأعراب امتنوا باسلامهم على نبيّ الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان . فقال الله تعالى : لا تقولوا آمنّا ولكن قولوا أسلمنا)[2] . (وقال آخرون : قيل لهم ذلك لأنهم منّوا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، باسلامهم . فقال الله لنبيّه ، صلى الله عليه وسلم ؛ قل لهم لم تؤمنوا ولكن استسلمتم خوف السباء والقتل)[3] .

ولا يعرف الأعرابي شيئاً غير القوة ولا يخضع إلا لسلطانها . وبموجب هذه النظرة بني أصول الحق والعدل ، وما يتبعها من حقوق . كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد . وهو فخور بنفسه متباه بشجاعته ، لكنه لا يصبر اذا طال القتال وجدّ ، ولا يتحمل الوقوف طويلاً في ساحة المعركة ، لا سيما اذا شعر ان القتال غير متوازن ، وان أسلحة خصمه أمضى وأقوى في القتال من أسلحته ، فيولي عندئذ الادبار ، ولا يرى في هروبه هذا من المعركة شيناً ولا عيباً . وفي تأريخ معارك الجاهلية ولا سيما في معاركهم مع الأعاجم ومع القوات النظامية العربية أمثلة عديدة من هذا القبيل . ففي الحروب التي وقعت بين المسلمين والفرس أو الروم ، خذلت بعض القبائل المسلمين ، وتركتهم لما رأت جد القتال وان لا فائدة مادية ستحصل عليها منه . (وقد كان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم ناس من لخم وجذام ، فلما رأوا جد القتال فرّوا ونجوا الى ما كان قربهم من القرى ، وخذلوا المسلمين)[4] . فروا وهربوا لأنهم وجدوا ان القتال قد طال وانه قتال جد ، ولا قبل للقبائل على القتال الطويل الشديد الجد . فاختاروا الهروب دون ان يفكروا في عقدهم الذي عقدوه مع اخوانهم في الجنس على القتال معهم والاستمرار فيه حتّى النهاية ، فإما نصر وإما هزيمة وموت وهلاك . ولكن طبيعة الأعراب لا تقيم

١ اللسان (٥٨٦/١) ، (عرب) .
٢ تفسير الطبري (٩٠/٢٦) .
٣ تفسير الطبري (٩٠/٢٦) .
٤ الطبري (٥٧١/٣) ، (دار المعارف) .

وزناً ولا تعطي أهمية للعقود في مثل هذه المواقف . إنْ رأت هواها في القتال قد تغيّر وتحول ، وان الأمل في كسب مغنم قد تضاءل ، انسحبت منه بعذر قد يكون تافهاً وبغير عذر أيضاً . وقد لا تنسحب ، وإنما تبدل الجبهة ، بأن تذهب الى الجانب الآخر فتحارب معه ، وتقاتل عندئذ من كانت تقاتل معه . لأنها وجدت ان الربح من هذا الجانب مضمون ، وان ما ستناله منه من فائدة أكثر . وذلك بعد مفاوضات سرية تجرى بالطبع . وهذا ما أزعج الروم والفرس ، وجعلهم لا يطمئنون الى قتال العرب معهم وفي صفوفهم ، فرموهم بالغدر . فكانوا اذا كلفوهم بالحرب معهم عهدوا اليهم القيام فيها بأعمال حربية ثانوية ، أو الانفراد بحرب الأعراب الأعداء الذين هم من أنصار الجانب الآخر . فقد حدث مراراً ان هرب الأعراب من ساحة القتال حين سعرت نار الحرب ، وارتفع لهيبها ، فأحدث هروبهم هذا ارتباكاً في جانب من كان يقاتلون معه أدى الى هزيمته هزيمة منكرة ، لما أحدثه فرارهم هذا من فجوة في صفوف المقاتلين . وقد أشارت الى هذه الحوادث مؤلفات الكتاب اليونان واللاتين .

وهو صارم عبوس ، اذا ضحك ضحك بقدر ، وكأنه يدفع بضحكته هذه ضريبة فرضت عليه . يكره الدعابة ، ويرى فيها تبذلاً لا يليق صدوره من إنسان كريم . بقي هذا شأنه حتى في الإسلام . فلما وصف (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري) (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق) قال عنه : (كان امرءاً صالحاً ، وقد كانت فيه دعابة) [١] . حتى ان من العلماء من عدّ (الدعابة) من الشوائب التي تنقص المروءة ، وتؤثر في صاحبها ، وتطعن فيه ، فلا تجعله أهلاً لأن يؤخذ عنه الحديث . أي جعلوه شخصاً غير موثوق به .

وقد بحث (غوستاف لبون) و (رينان) و (الأب لامانس) في عقلية الاعرابي . وما رأوه فيه من وجود (فردية) متطرفة عنده ، الى درجة تجعله يقيس كل شيء بمقياس الفائدة التي يحصل عليها من ذلك الشيء . ثم ما وجدوه فيه في الوقت نفسه من خوفه من الأمعان في القسوة ، ومن الامعان في القتل ، لما يدركه من رد الفعل الذي سيحدث عند اعدائه ضده اذا تمكنوا منه ، ومن

١ نسب قريش (٢٧٨) .

نتائج الأخذ بالثأر . كما بحثوا عن ميل الاعرابي الى المبالغة . المبالغة في كلامه والمبالغة في اعطائه اذا أعطى ، والمبالغة في مدح نفسه ، والتباهي بشجاعته وبكرمه وبشدة صبره الى غير ذلك ، مع وجود تناقض فيه بالنسبة الى دعاويه هذه . وهو يحب المديح كثيراً ، وهو على حدّ قولهم اذا اعطى ، صور ذلك غاية الجود ، وبالغ فيه ، ويظل يذكره في كل وقت ويحب ان يطرى عليه ، لا سيما اذا كان من شاعر وهو صحافي ومذيع ذلك الوقت[1] .

وللفوارق الموجودة بين العرب والأعراب ، بين الحضر وبين أهل البوادي رأى (الأزهري) وجوب التفريق بين الاثنين . إذْ قال : (والذي لا يفرق بين العرب والأعراب والعربي والأعرابي ، ربما تحامل على العرب ، بما يتأوله في هذه الآية . وهو لا يميز بين العرب والأعراب . ولا يجوز ان يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ، إنما هم عرب ، لأنهم استوطنوا القرى العربية ، وسكنوا المدن . سواء منهم الناشىء بالبدو ، ثم استوطن القرى والناشىء بمكة ، ثم هاجر الى المدينة . فان لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم واقتنوا نعماً ورعوا مساقط الغيث بعد ما كانوا حاضرة أو مهاجرة . قيل : قد تعربوا أي صاروا أعراباً بعد ما كانوا عرباً . وفي الحديث تمثل في خطبته مهاجر ليس بأعرابي . جعل المهاجر ضدّ الأعرابي . قال والأعراب ساكنو البادية من العرب الذين لا يقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلا لحاجة . وقال أيضاً المستعربة عندي قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم وحكوا هيآتهم وليسوا بصرحاء فيهم . وتعربوا مثل استعربوا[2]) . وقد ذهب هذا المذهب (ابن خلدون) ، إذْ رأى ان الأعراب يختلفون عن العرب . ولذلك فإن ما أشار اليه (ابن خلدون) من ان العرب اذا دخلوا بلداً أسرع اليه الخراب انما قصد به الأعراب . لا العرب الحضر .

ولكي نكون منصفين في الأحكام عادلين غير ظالمين علينا التفريق بين الأعراب وبين العرب . فما يقال عن الأعراب يجب ألا يتخذ قاعدة عامة تطبق على العرب . لما بين العرب والأعراب من تباين في الحياة وفي النفسية والعقل . ثم علينا لكي

١ المشرق عدد (٢) سنة ١٩٣٢ (ص ١٠١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١ / ٣٧١) ، (عرب) .

تكون منصفين أيضاً ان نفرق بين عرب وعرب . لما أصاب عرب كل أرض من أرض العرب من أثر تركه الأجانب فيهم ، ومن امتزاج الأعاجم في العرب ودخولهم فيهم واندماجهم بهم حتى صاروا منهم تماماً . والامتزاج والاندماج يؤثران بالطبع في أخلاق أهل المنطقة التي وقعا فيها ، أضف الى ذلك عوامل البيئة والمحيط . ولهذا يرى المرء تبايناً بيّناً بين عرب كل قطر ، تبايناً يلمسه حتى الغريب . فبين أهل العراق وأهل بلاد الشأم العرب ، تباين وفروق في الملامح الجسمية وفي المظاهر العقلية والاجتماعية وغيرها ، مع انهم جميعاً عرب يفتخرون بانتسابهم الى العروبة . وبين عرب العربية الجنوبية وبين عرب عالية نجد فروق واضحة جليّة . وهكذا قل عن بقية بلاد العرب . بل نجد هذا التباين أحياناً بين أجزاء قطر واحد . فاذا كان هذا هو ما نراه ونلمسه في الجاهلية وفي الإسلام ، فهل يجوز لأحد التحدث عن عقلية عامة جامعة تشمل كل العرب ؟

وقد أدرك المتقدمون علينا بالزمن اختلاف العرب في الصفات والشمائل ، فتحدثوا عن (حلم قريش) ، وعن لينها ورقة ذوقها وعن براعتها في التجارة ، وتحدثوا عن عمق تفكير أهل اليمن وعن اشتهارهم بالحكمة ، حتى قيل : الحكمة يمانية . وورد ان (علي بن أبي طالب) ، لما وافق على اختيار (أبي موسى الأشعري) ليكون ممثله في التحكيم ، قال له (أبو الأسود الدؤلي) : (يا أمير المؤمنين لا ترضَ بأبي موسى ، فإني قد عجمت الرجل وبلوته ، فحلبت أشطره ، فوجدته قريب القعر ، مع انه يمان)[1] .

الحنين الى الأوطان :

ومع فقر البادية وغلظ معاشها وشحها ، فإن الأعرابي يحن اليها ، ولا يصبر عن فراقها حتى وان أخذ الى جنان الريف . قال الجاحظ : (وترى الأعراب تحن الى البلد الجدب ، والمحل القفر ، والحجر الصلد ، وتستوخم الريف)[2] . (واعتل أعرابي في أرض غربة ، فقيل له : ما تشتهي ؟ فقال : حسل

١ امالي المرتضى (٢٩٢/١) .
٢ رسالة في الحنين الى الأوطان ، من (رسائل الجاحظ) (٣٨٨/٢) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

فلاة ، وحسو قلات)[1] . ويروى ان (ميسون بنت بحدل) الكلبية ، زوجة معاوية ، كانت تحن الى وطنها ، وقد سمعها زوجها وهي تنشد أبياتاً فيها شوق وحنين الى البادية ، فخيمتها التي تلعب الأرياح بها ، خير عندها وأحب لها من العيش في قصر منيف ، ورجل من بني عمها نحيف أحب اليها من (علج عليف) ، أي حضري سمين من كثرة الأكل[2] . وانتقل أعرابي من البداوة الى الحضارة ، فرأى المكاء في الحضر ، فقال مخاطبه : فارق هذا المكان ، فإنه ليس لك فيه الشجر الذي تعشش عليه ، وأشفق من ان تمرض كما مرضت[3] .

والعربي الذي ألف الحضارة وأمعن في الترف وتفنن في العيش بالمدن ، لا يفقه سحر البادية الذي يجلب اليه أهل البادية . لأنه يرى ان كل ما فيها ضيق وجوع وحرّ شمس وفقر . فيسخر من الأعرابي ويضحك عليه لحنينه الى باديته . ولما استظرف (الوليد بن عبد الملك) أعرابياً واستملحه ، فأبقاه عنده وسأله عن سبب حنينه الى وطنه أجابه جواباً خشناً ، مثّل جفاء الأعراب وصلفهم . فقال الوليد ، وهو يضحك : أعرابي مجنون[4] . ولم يتأثر منه ، لأنه أعرابي ، والأعرابي في حكم المجانين . وقد سقط حكم القلم عنه .

ويروي أهل الأخبار حديثاً لكسرى أنوشروان مع وفد وفدّ عليه فيه بعض خطباء العرب . فسألهم عن سبب تفضيلهم السكن بالبادية وعن حياتهم بها وعن طبائعهم الى غير ذلك من أسئلة وأجوبة دوّنوها على انها اسئلة كسرى وأجوبة العرب عليها[5] . وفيها أمور مهمة عن حياة الأعراب . وقد يكون الخبر قصة موضوعة ، غير اننا لا ننظر اليها من جهة تأريخية ، إنما نأخذها مثالاً على ما كان يدور في خلد من صنعها عن نفسية الأعراب وعن نظرة الحضر الى أهل البوادي .

وللمسعودي كلام في اختيار العرب سكنى البادية وسبب ذلك ، كما تحدث

١ المصدر المذكور (٣٩٠/٢) .
٢ بلوغ الأرب (٤٢٦/٣ وما بعدها) .
٣ بلوغ الأرب (٤٢٨/٣) .
٤ رسالة في الحنين الى الاوطان (٣٩٧/٢) .
٥ بلوغ الأرب (٤٣٣/٣) .

عن أثر البوادي في صحة أجسام العرب وفي تكوين أخلاقهم ، مما جعلهم يختلفون بذلك عن بقية الناس .

والعرب وإن عرفوا بالترحل والتنقل ، بسبب البداوة ، إلا انهم يحنون الى أوطانهم ، ولا ينسون موطنهم القديم . يستوي في ذلك العربي والأعرابي . وهم يرون ان في الغربة كربة ، وان الانسان اذا صار في غير أهله ناله نصيب من العذل[1] . (وكانت العرب اذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع)[2] . (وقيل لأعرابي : كيف تصنع في البادية اذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك ، يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً ، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه ، ويجلس في فيئه يكتال الريح ، فكأنه في ايوان كسرى)[3] .

وجاء ان (الوليد بن عبد الملك) استظرف أعرابياً فاحتسبه عنده وحباه ، فرض فبعث اليه (الوليد) بالأطباء ، وعالجوه ، ورأى من الخليفة كل رعاية . لكن هواه بقي في وطنه ، ولم يطق على هذه المعيشة الراضية الطيبة صبراً ، فهلك بعد قليل[4] . الى غير ذلك من قصص وشعر ورد في الحنين الى الأوطان ، وفي تفضيل الوطن على كل منزل آخر ، ولو كان آية في الجمال ومثالاً من الراحة والاطمئنان .

وهو يعجب من لغة اهل الحضر ، ولا سيما حضر ريف العراق وريف بلاد الشام ومن الاكرة الذين لا يفهم عنهم ولا يستطيع افهامهم ، فكان يجد نفسه وكأنه في سجن مطبق ، يريد الخلاص منه . حدث ذلك حتى في الاسلام ، وقد ذكر (ابو عثمان الجاحظ) ، انه رأى اعرابياً ، وكان عبداً حبشياً لبني أسيد ، وقد صار (ناظوراً) ، وكأنه اصيب بمس من الجن ، فلما رآه ، قال له : لعن الله ارضاً ليس بها عرب[5] .

١ رسالة في الحنين الى الأوطان (٢/ ٣٩٠ وما بعدها) .
٢ رسالة في الحنين الى الأوطان (٢/٣٩٢) .
٣ المصدر نفسه .
٤ رسالة في الحنين الى الأوطان (٢/٣٩٧ وما بعدها) .
٥ رسائل الجاحظ (٢/٤٠٣ وما بعدها) .

حياة الاعراب :

وحياة الاعراب حياة تكاد تكون حياة واحدة لا تغير فيها ولا تبدل ، فهي على وتيرة واحدة . على تعدد القبائل ، وابتعاد مواضع بعضها عن بعض . ذلك لأن الظروف المخيمـــة عليهم ، ظروف واحدة لا اختلاف فيها ولا تبدل . الا ما كان منها بالنسبة الى اعراب الضواحي والحواضر ، فان ظروفهم تختلف عن هؤلاء ، ومجال تفكيرهم اوسع من مجـــال تفكير الاعراب . بسبب نوع المعيشة المتغير ، المتصل بالارض ، وقربهم من الحضر . ولو درسنا حياة القبائل في الجاهلية ، وجمعنا دراستنا من المرويّ عنها في الكتب ، وجدنا ان بين الماضي البعيد وبين الحاضر شبهاً في نمط الحياة ، وان ما ذكرته عن قبائل الجاهلية يكاد ينطبق على حياة قبائل البادية في وقتنا هذا ، ذلك لأن الظروف والمؤثرات بالنسبة الى حياة الاعراب المعنين في البادية لا تزال كما كانت عليه. ولكنها سوف لن تبقى على ما هي عليه والى أبد الآبدين بالطبع ، لأن التقدم الحضاري والاكتشافات المادية ، قد اخذت تغزو الاعراب وتضيق الخناق عليهم ، لتغير من حالهم . فبعد ان كان البدو قوم غزو ، أكرهتهم الحكومات القوية على الابتعاد عن الغزو ونبذه ، حتى اضطروا الى توديعــه الى الأبد او كادوا وصاروا مغزوّين ، تغزوهم الحضارة الحديثة والآليّات بما لا قبل لهم بمقاومته ، لتفوق الغزو الجديد عليهم . وهم سيكونون ولا شك بمرور الوقت على شاكلة النصف الآخر من العرب . أي اخوانهم الحضر . يوائمون انفسهم مع التطور الجديد. وسوف يبدل هذا من حياتهم ولا شك ، ومن اهم ما سيفعله فيهم ، تحويل حياتهم من حياة غير مرتبطة بالارض ، الى حياة ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، فتتحول البداوة عندئذ الى حضارة ، وسيشعر الاعرابي عندئذ انه مواطن له ارض ووطن وقوم هم إخوة له يشعرون بشعوره . وأن من يعزل نفسه عن العالم ، فلن يعزل بذلك الا نفسه ، ولن يُضر الا بصالحه . وان الانسان بغير عمل ولا انتاج ، انسان تافه لا قيمة له . وأن العنتريات والعُبِّيّة الجاهلية من جملة مؤخرات الحياة في كل الأزمنة والأوقات .

ملامح العرب :

والعرب وان كانوا من الجنس السامي ، الا انهم يختلفون عن بقية (ابناء سام) في الملامح الجسمانية وفي فصائل الدم ، وفي امور اخرى . ذلك لأن السامية ،

كما سبق ان قلت – جنسية ثقافية ، اما من الناحية (البيولوجية) وهي تتعلق بالملامح وبأمور بيولوجية اخرى فليست بجنسية خاصة يمكن تمييزها من بين قبائل الاجناس البشرية ، لما نراه فيما بين شعوبها من تباين. ثم ان بين العرب انفسهم ، تبايناً واختلافاً في الملامح ، بسبب قرب العرب وبعدهم من الأعاجم ، وأثر فعل الرقيق والأسرى في امتزاج الدم بينهم ، ثم اثر فعل الطبيعة وعملها في الانسان ، وما تقدمه له من غذاء ونوع ماء وحرّ وبرد ومطر وضغط جوّي ونوع تربة .

واليهود هم من الجنس السامي ، جنس خليط كذلك في القديم وفي الحديث فقد دخل اليهود دم غريب ايضاً ، ونجد في التوراة وفي اسفار المكابيين والكتب العبرانية الاخرى ، اكراه اليهود للشعوب التي استولوا على ارضها على التهود . فدخلت في اليهـودية ، وهي ليست من اصل يهودي ، وصارت من يهود وقد دخلت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث كعب وكندة ، وهم من العرب.[1] ودخل آخرون في اليهودية ، وصاروا يهوداً فاليهود مثل غيرهم ، فيهم اليهودي الخالص ، وفيهم اليهودي الغريب ، وفي ملامحهم المتباينة ما هو دليل على وجود الاختلاط في الدم .

وأنا اذ اتكلم عن ملامح العربي ، فإني لا ازعم ان لديّ او لدى الباحثين مقاييس خاصة ثابتة نستطيع ان نقيس بها ملامح العرب ، بحيث نحددها في حدود ونرسم لها رسوماً ، لا تتعداها ولا تتخطاها . فحدود مثل هذه لا يمكن ان توجد ولا يمكن ان ترسم ، لأن بين العرب تبايناً وتنابزاً في الصور وفي الملامح بحيث يكون من الصعب علينا وضع حدود ثابتة لملامح العرب ، يخضع لها كل العرب او اكثرهم . وسبب ذلك اتساع جزيرة العرب ، ووجود سواحـــل طويلة جداً تقابل قارتين : قارة سوداء هي افريقية ، وقارة اخرى هي آسية ، لون بشرة سكان سواحلهـــا الجنوبية الشرقية السواد والسمرة الغامقة . وهي سواحل مفتوحة غذّت جزيرة العرب بعناصر ملوّنة اختلط دمها بالدم العربي حتى اثر ذلك اللون في سحن الناس هناك فبان السواد او اللون الداكن على السواحل العربية المقـــابلة لسيلان والهند . وظهرت الملامح الافريقية على سحن الساحل الغربي لجزيرة العرب من تهامة فيما بعد حتى ساحل عمان . وظهرت سحن وملامح اقوام بيض من روم

١ الأعلاق النفيسة (٢١٧) .

وروماني وأهل فارس في مواضع اخرى من جزيرة العرب ، بسبب سياسة الحكومات القاضية بالتهجير نكاية بالمهجرين ، او بسبب تنقلات الجيوش والحروب ، او التجارة ، او الخطط العسكرية القاضية بحماية المصالح الاقتصادية . وذلك بوضع حاميات عسكرية على سواحل الجزيرة لحماية السفن من غارات الاعراب ولصوص البحر . ثم يحدث ان تنقطع الاسباب برجال تلك الحاميات ، وتنقطع صلاتهم بالأم لعوامل عديدة ، فيستقرون في مواضعهم ويتعربون حتى صاروا عرباً . نسوا أصلهم وعدّوا من خلص العرب . ولكن العرق دساس كما يقول الناس ، فبقي أثره بارزاً ظاهراً على الوجوه ، نراه حتى اليوم في تغاير وتمايز سحن سكان السواحل فيما بينها ، وفي تغايرها عن سحن أهل باطن جزيرة العرب تغايراً ملحوظاً . وقد أشرت في كتابي (تأريخ العرب قبل الاسلام) وفي الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب الى أثر المستعمرات اليونانية في سحن العربُ ، كما هو الحال في جزيرة (فيلكة) في الكويت والى أثر الرقيق والتجارة في باطن جزيرة العرب مما يجعلني في غنى عن اعادة الكلام عن ذلك مرة اخرى .

وقد ذكر اهل الاخبار ان الروم سكنت في الجاهلية جبل (ملكان) وهو جبل في بلاد طيء .[1] فلا يستبعد بقاء هؤلاء فيه وسكنهم فيه ، وتحولهم الى عرب بتعربهم كما تعرب غيرهم من اليونان ممن نزل المستوطنات اليونانية في بلاد العرب .

ونجد بمكة ويثرب وبمواضع اخرى من جزيرة العرب موالي اصلهم من الفرس او الروم برز منهم بعض الصحابة مثل : (سلمان الفارسي) و (رومان الرومي) ، وهو من موالي الرسول ،[2] وغيرهم . وقد ترك هؤلاء الموالي اثراً في ملامح الناس ولا شك .

ثم يلاحظ ان اجسام سكان السواحل اقصر من اجسام ابناء الجبال والنجاد . وان اهل التهائم والسواحل الجنوبية لجزيرة العرب اقصر قامة من اهل نجاد اليمن او اهل نجد . كما نجد اختلافاً بين ملامح القبائل لا زال بارزاً حتى اليوم . اختلافاً يتحدث عن طبيعة الامتزاج الذي وقع في الدم في ايام الجاهلية ايضاً ،

---

١ تاج العروس (١٨٤/٧) ، (ملك) .
٢ تاج العروس (٣٢٠/٨ ، (روم) .

لاختلاط الدماء وامتزاجها بالعوامل التي ذكرتها ، وان ذهب البعض الى ان جزيرة العرب كانت في عزلة عن العالم ، فهذه العزلة التي يتحدثون عنها ، هي عزلة لم تكن عامة ولا يمكن ان نسميها عزلة صحيحة الا بالنسبة للقبائل المتبدية التي عاشت في صميم البوادي ، غير ان تلك القبائل لم تتمكن مع ذلك من عزل نفسها عن الرقيق والأسرى الغرباء .

ثم نجد فروقاً بين العرب والاعراب ، سببه اختلاف المحيط والظروف والغذاء . فالعربي ممتلىء الجسم بالقياس الى الاعرابي الرشيق القليل اللحم ، الدقيق العظم . وتظهر هذه النحافة في وجه الاعرابي ايضاً ، فوجهه ممشوق قليل اللحم ، دقيق ممتد ذو ذقن بارز ، وأنف دقيق ، وعينان براقتـــان . وتعد الرشاقة في جسم العربي من محاسنه لأنها تجعله معتدل القوام . خفيف الحركة . وقد مدح (امرؤ القيس) الغـــلام الخف ، اي الخفيف الجسم ، السريع الحركة الذي يتزل عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقل . اي الثقيل الجسم السمين . وقيل : الخفيف في الجسم والخفاف في التوقد والذكاء . [1] ويعد ثقل الجسم من المعيبات . ومن المجاز التخفيف ضد التثقيل والخفيف ضد الثقيل . وقد اعتبروا الثقل ذمّاً في الانسان . فقيل : هو ثقيل على جلسائه ، وهو ثقيل الظل ، ويقال مجالسة الثقيل تضني الروح ، حتى ألف بعض العلماء في اخبار الثقلاء . [2]

و (الربع) من الرجال ، اي المتوسط القـــامة ، النموذج الأوسط للانسان وحدّ الكمال في الجسم عند العرب . ويقال له : (ربعة) و (مربوع) . وقد نعت رسول الله بأنه (ربعة) من الرجال ، وورد أنه كان أطول من المربوع وأقصر من المشذب . [3] والوسط عند العرب هو بين الجيد والرديء . وأوسط الشيء افضله وخيـــاره . ومنه الحديث : خيار الامور اوساطها . [4] وقد هابت العرب اصحاب الطول في الجسم ، والكبر في الرأس ، واحترموا اصحاب الهيبة والتأثير في النفس ، وقد ذكر بعض منهم في كتب اهل الاخبار . وقد رموا القصير

١ تاج العروس (٦/٩٢ وما بعدها) ، (خفد) .
٢ (قال الراغب : الثقيل في الانسان يستعمل تارة في الذم وهو أكثر في التعارف . وتارة في المدح) ، تاج العروس (٧/٢٤٥) ، (ثقل) .
٣ تاج العروس (٥/٣٣٨) ، (ربع) .
٤ تاج العروس (٥/٢٤٠ وما بعدها) ، (وسط) .

بالمكر والخديعة ، ولكنهم اعتبروا القصر في الجسم من العيوب ، لا سيما اذا كان ذلك القصير غليظ البطن . وقد عرف الانسان الموصوف بهذه الصفة بالدحداح وبالمداح وبالدودح وبالدحداح[1] . والدودحة القصر مع السمن[2] . وأما (الدرحاية) ، فالرجل الكثير اللحم القصير السمين البطين ، اللئيم الخلقة . وعرف الرجل المسنّ الذي ذهبت أسنانه بـ (الدردح)[3] .

واعتبر العرب طول العنق من سمات المدح . ولذلك وصف رؤساء العرب بطول العنق . وعُبّر عن الرؤساء والكبراء والأشراف بـ (الأعناق) و (أعناق). وعبّر عن الجماعة الكثيرة بـ (الأعناق) كذلك[4] . وذكر الشاعر (عروة بن الورد) عنق الآرام في شعر له في وصفه للناشئات الماشية بتبختر . إذ قال :

والناشئات الماشيات الخوزرى   كعنق الآرام أوفى أو صرى[5]

والعرب مثل غيرهم لا يحبون الصلع . ويكثر ظهوره بين العجزة والمسنين والأشراف . وقد ذكر ان أكثر الأشراف من العرب كانوا من الصلع ، وتفسير ذلك ان أكثر الأشراف هم من ذوي الأسنان ، وان الإنسان إذا تقدمت به السن ، أخذ الصلع يجد له مكاناً في رأسه فيلعب فيه . ومن ذلك قول الناس يوم بدر : (ما قتلنا إلا عجائز صلعاً) أي مشايخ عجزة عن الحرب . وأنشد (ابن الاعرابي) : (يلوح في حافات قتلاه الصلع) أي يتجنب الأوغاد ولا يقتل إلا الأشراف[6] .

وهم يفضلون (الأفرع) على الأصلع . والأفرع هو الكثير الشعر . وكان (أبو بكر) أفرع ، وكان عمر أصلع . وكان رسول الله أفرع ذا جمة[7] . والصلع خير من (القرع) ، لأن القرع داء يصيب الرأس ، فيؤثر في منظره

١ تاج العروس (٢/١٣٥) ، (دح) .
٢ تاج العروس (٢/١٣٦) ، (دودحة) .
٣ تاج العروس (٢/١٣٦) ، (دردح) .
٤ تاج العروس (٧/٢٦) ، (عنق) .
٥ اللسان (٤/٢٣٧) ، (خزر) .
٦ تاج العروس (٥/٤١٦) ، (صلع) .
٧ تاج العروس (٥/٤٤٩) ، (فرع) .

ويسبب سقوط شعره وحدوث أثر دائم فيه ، وقد تنبعث رائحة كريهة منه [1] . وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد من الأشراف عرفوا بقرعهم .

وقد اشتهر بعض العرب بطول القامة ، حتى زعم ان بعضاً منهم كان اذا ركب الفرس الجسام خطت ابهاماه في الارض . وذكروا من هؤلاء : (جذيمة ابن عاقمة بن فراس) ، المعروف بـ (جذل الطعان) الكناني ، و (ربيعة بن عامر بن جذيمة بن علقمة بن فراس) ، وكان يماشي الظعينة فيقبلها ، فسمّي (مقبل الظعن) . و (زيد الخيل بن المهلهل الطائي) ، و (أبو زيد حرملة ابن النعمان الطائي) ، وعديّ بن حاتم بن عبد الله الطائي ، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، وأبوه سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، وعبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وبشير بن سعد ، أخو بني الحارث بن الخزرج ، وجبلة بن الأيهم الغساني ، وحمل بن مرداس النخعي ، ومالك الأشتر بن الحارث النخعي ، وعبد الله بن الحصين ذي الغصة الحارثي ، وعامر بن الطفيل الجعفري ، وقيس ابن سلمة بن شراحيل بن أصهب الجعفي [2] .

العرب أفخر الأمم :

يرى الجاحظ ان العرب أفخر الأمم ، وأرفعها وأحفظها لأيامها ، وينسب ذلك الى طبيعة بلادهم . إذْ (كانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون الغَمق ولا اللثق ، ولا البخار ولا الغلظ ولا العفنّ ، ولا التخم ، أذهان حِداد ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدّهم ووجهوا قولهم لقول الشعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الأثر وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرّف الأنواء ، والبصر بالخيل وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية . وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهمهم أرفع من جميع الأمم وأفخر ، ولأيامهم أحفظ وأذكر) [3] . وهم

١ تاج العروس (٤٦٣/٥) ، (قرع) .
٢ المحبر (ص ٢٣٣ وما بعدها) .
٣ مناقب الترك ، من رسائل الجاحظ (٧٠/١) .

لطبيعة الأرض التي ولدوا بها صاروا على هذه الحال ، ولم يصيروا كاليونان في الحكمة وفي العلوم ، ولا كالصين في السبك والصياغة والإفراغ والاذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير ، ولا كالهنود أو الفرس[1] .

وقد وصف الأعرابي بالتفاخر وبالتباهي ، فهو فخور معجب بنفسه مترفع عن غيره حتى لكأنه النمر . مع انه من أفقر الناس . ولهذا صاروا اذا أرادوا وصف شخص متغطرس متجبر مع انه لا يملك شيئاً يفوّق به نفسه على غيره ، قالوا عنه : (نبطيّ في حبوته . أعرابي في نمرته ، أسد في تامورته) .[2]

العجم :

ويطلق العرب على غيرهم ممن لا ينتمون الى العرب ، لفظة (أعاجم) . و (العجم) عندعم خلاف العرب . والرجل الواحد (أعجمي) . ولعلماء اللغة آراء في تفسير هذه اللفظة[3] . وهي من الألفاظ الجاهلية ، لورودها في القرآن الكريم . ففيه : (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي)[4] . و (أأعجمي وعربي . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء)[5] ، و (لو جعلناه قرآناً أعجمياً ، لقالوا لولا فصلت آياته)[6] ، و (لو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين)[7] . ففي هذه الآيات دلالة واضحة على ان المراد من (أعجمي) خلاف العربي ، وان هذا المصطلح كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام .

ويطلق العرب على العجم (الحمراء) لبياضهم ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم . وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالباً على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم : انهم الحمراء . والعرب اذا قالوا : فلان أبيض

١ مناقب الترك من رسائل الجاحظ (٦٦/١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥٨٥/٣) ، (نمر) .
٣ تاج العروس (٣٨٩/٨ وما بعدها) ، العقد الفريد (٢٢٩/٣) .
٤ النحل ، الآية ١٠٣ .
٥ فصلت ، الآية ٤٤ .
٦ فصلت ، الآية ٤٤ .
٧ الشعراء ، الآية ١٩٨ .

وفلان بيضاء ، فمعناه الكرم في الأخلاق لا لون الخلقة . واذا قالوا : فلان أحمر وفلانة حمراء عنوا بياض اللون . والعرب تسمي الموالي : الحمراء[1]. جاء في الحديث : (بعثت الى الأحمر والأسود) ، أي الى العجم والعرب كافة[2] .

وورد ان العرب تقول : جاء بغنمه حمر الكلى وجاء بها سود البطون ، معناهما المهازيل . وهو مجاز[3] . ويذكرون ان معنى حمر الكلى الامتلاء والسمن ، والسواد بمعنى الهزال والرشاقة . ولما كان الأعاجم ممتلئي الجسم بالنظر الى العرب ، قالوا لهم (الحمراء) . وقد كان العرب يطلقون على الموالي (الحمراء) ، واذا سبّوا أحدهم قالوا ، (يا ابن حمراء العجان أي يا ابن الأمة . كلمة في السب والذم[4]) . ولعلّهم فعلوا ذلك بسبب امتلاء أجسام الموالي ولا سيما العجان ، الذين لا يتحركون ولا يتنقلون من أماكنهم ، ويأكلون الخبز فامتلأت لذلك بطونهم وتكرشوا .

ولم يشرح علماء العربية الاسباب التي حملت العرب على تلقيب العجم بـ (رقاب المزاود) (رقاب المزود)[5] . وقد ذكر بعض العلماء ، ان العرب إنما لقبت العجم بـ (رقاب المزاود) ، لطول رقابهم أو لضخامتها كأنها ملأى[6] .

ويكنى العرب بـ (السبط) عن العجمي وبـ (الجعد) عن العربي[7] . وذلك لان سبوطة الشعر هي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب . ولكنهم كانوا يفرقون بين جعودة شعر العرب وجعودة شعر الزنج والنوبة . لانهم ينظرون الى الزنج والسود على انهم دونهم في المنزلة والمكانة . ولهذا قالوا ان العرب تمدح الرجل إذْ تقول رجل جعد ، أي كريم جواد كناية عن كونه عربيّاً سخيّاً ، لان العرب موصوفون بالجعودة ، وتذم الرجل أيضاً حين تقول : رجل جعد ، إذْ يقصدون بذلك

١ اللسان (٤/٢١٠) ، (حمر) ، تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) .
٣ تاج العروس (٣/١٥٨) .
٤ تاج العروس (٣/١٥٨) .
٥ اللسان (ز/و/د) ، (٣/١٩٨) .
٦ تاج العروس (٢/٣٦٦) ، (زاد) .
٧ تاج العروس (٥/١٤٩) ، (سبط) .

رجلاً لئيماً لا يبض حجره ، وقد يراد به رجل قصير متردد الخلق . فهو من الأضداد . لذلك فالجعد في صفات الرجال يكون مدحاً وذماً . واذا قالوا رجل جعد السبوطة فدح ، الا ان يكون قططا مفلفل الشعر فهو حينئذ ذم[1] .

ومن المجاز قول العرب : الأعداء صهب السبال وسود الأكباد ، وان لم يكونوا كذلك ، أي صهب السبال ، فكذلك يقال لهم . ورد في الشعر :

جـاؤا يجرون الحديث جراً صهـب السبال يبتغون الشراً

وانما يريدون ان عداوتهم كعداوة الروم . والروم صهب السبال والشعر ، والا فهم عرب والوانهم الأدمة والسمرة والسواد[2] .

ويذكر علماء اللغة ان العرب تصف ألوانهـا بالسواد ، وتصف ألوان العجم بالحمرة . وقـد افتخر الشعراء بذلك في الجاهلية وفي الإسلام . من ذلك قول الفضل بن عباس بن عتبة اللهبي :

وأنـا الأخضر مـن يعرفني أخضر الجلدة في بيت العرب

يقول : أنا خالص لأن ألوان العرب السمرة . ومن ذلك قول مسكين الدارمي :

أنـا مسكين لمـن يعرفـني لوني السمرة ألوان العرب[3]

قال (الجاحـظ) : (والعرب تفخر بسواد اللون .. وقد فخرت خُضر محارب بأنها سود ، والسود عند العرب الخضر) . ثم ذكر أمثلة من أمثلة افتخار بعض القبائل والأشخاص بكونهم (خضراً) . حتى قال : (وخضر غسان بنو جفنة الملوك ؟ قال الغساني :

إن الحضارمة الخضر الذين ودّوا أهل البريص ثمانى منهم الحكم

وقد ذكر حسان أو غيره الخضر من بني عُكيم ، حين قال :

ولستَ من بني هاشم في بيت مكرمة ولا بني جمحٍ الخضر الجلاعيد

١ تاج العروس (٣٢٠/٢ وما بعدها) ، (جعد) .
٢ تاج العروس (٣٤٢/١) ، (صهب) .
٣ تاج العروس (١٧٩/٣ وما بعدها) ، (خضر) ، رسائل الجاحظ ، كتاب فخر السودان على البيضان (٢٠٧/١) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

قالوا : وكان ولد عبد المطلب العشرة السادة دُلماً ضخماً ، نظر اليهم عامر ابن الطفيل يطوفون كأنهم جمال جون ، فقال : بهؤلاء تمنع السدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلم ضخماً ، وآل أبي طالب أشرف الخلق ، وهم سود وأدم ودلم)[1] .

واشتهر بعض سودان العرب بالشجاعة والاقدام ، منهم أربعة عرفوا بـ (أغربة العرب) وذؤبان العرب . منهم : عنترة وخفاف بن ندبة السلمي ، سرى فيه السواد من قبل أمه ، وهو من حرة بني سليم . أدرك النبي ، وكان شاعراً شجاعاً ، وقل ما يجتمع الشعر والشجاعة في واحد . ومنهم السليك بن السلكة[2] .

وهناك قبائل غلب على لونها السواد ، حتى عبر عنها بـ (دلم) . والدلم الرجل الشديد السواد[3] . جاء اليها السواد ، لكون أصلها من افريقية على ما يظهر ، وكانت قد استقرت بجزيرة العرب وتعربت ، حتى عدت من العرب . أما الأسر والأفراد الدلم ، فقد ظهر السواد على لونهم بالتزاوج من الملونين . فقد كان من عادة الأشراف الاتصال بالإماء السود ، فاذا ولدن منهم أولاداً نجباً شجعاناً ألحقهم آباؤهم بهم ، ونسبوهم اليهم كالذي كان من أمر عنترة العبسي . وقد مال قوم من قريش الى التزوج بالإماء السود ، وقد ظهرت هذه النزعة بين السادات والأشراف .

وقد ذكر (الجاحظ) في معرض حجج السودان على البيضان ، وعلى لسان الزنج قولهم للعرب : (من جهلكم أنكم رأيتمونا لكم أكفاء في الجاهلية في نسائكم ، فلما جاء عدل الإسلام رأيتم ذلك فاسداً ، وما بنا الرغبة عنكم . مع ان البادية منا ملأى ممن قد تزوج ورأس وساد ، ومنع الذمار ، وكنفكم من العدو)[4] . وفي هذا القول اشارة الى التزاوج الذي كان بين العرب والزنج ، أي السودان المجلوبين من افريقية ، في أيام الجاهلية . والى انصراف العرب عنه

١ فخر السودان ، للجاحظ (١/٢٠٧ وما بعدها) ، من (رسائل الجاحظ) ، تحقيق عبد السلام هارون) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١٥٩ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٨/٢٩٢) ، (دلم) .
٤ من رسائل الجاحظ (١/١٩٧) .

في الإسلام ، مـا خلا البادية ، وذلك بسبب اقبالهـم على التزوج بالفارسيات والروميات وبغيرهن على ما يظهر ، بسبب الفتوح وتوسع أسواق النخاسة في هذا الوقت . وارتفاع مستوى الوضع الاقتصادي للعرب في الإسلام عنه في الجاهلية ، مما مكنهم من التزوّج بالأجنبيات البيض الجميلات وتفضيلهن على السودانيات . وظهور نظرة الازدراء الى السودان في الإسلام ، بسبب الأعاجم المسلمين الذين كانوا يزدرون العبيد وينظرون اليهم على انهم دونهم في المنزلة ، فانتقلت هـذه النظرة منهم الى العرب .

ويظهر من رسالة الجاحظ : (فخر السودان على البيضان) ، ان نزاعاً كان قد دبّ بين السودان والعرب في الإسلام ، بسبب نظرة الازدراء التي أخذ الفاتحون ينظرون بها اليهم فصاروا يترفعون عنهم ولا يخالطونهم . وهذا مما أغاضهم ، وحملهم على نبش الماضي ، والاتيان بالأخبار وبالأشعار عن دور الحبش في جزيرة العرب قبل الاسلام ، وكيف انهم كانوا قد ملكوا (بلاد العرب من لدن الحبشة الى مكة)[1] ، وهزموا ذا نواس ، وقتلوا أقيال حمير ، فملكوا العرب ولم يملكهـم العرب[2] . الى غير ذلك من دعاوي تجدها في قصيدة الشاعر الزنجي (الحيقطان) ، التي يفتخر فيها بالحبش على العرب ، على نحو فخر الشعوبية بأصولهم على العرب . وهي قصيدة شهيرة ، قالها يوم سمع (جرير) يسخر منه بشعر قاله في وصفه . فرد عليه رداً شديداً بقصيدته هذه التي نظمها وهو باليمامة[3] .

وقد عُرفت بعض القبائل ببياض بشرتها ، واشتهرت نساؤها ببياض البشرة ، ورد (في الحديث انه لما خرج من مكة قال له رجل : إن كنت تريـد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج)[4] . ويقال للمرأة التي يغلب على لونها البياض (الحمراء) ، وقد لقب الرسول زوجته (عائشة) بـ (الحميراء) ، لبياض لونها .

١ رسائل الجاحظ (١/١٩٣ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه .
٣ رسائل الجاحظ ١/١٨٠ ، ١٨٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٨/١٨١ وما بعدها) ، (ادم) .

القبيلة :

والقبيلة هي عماد الحياة في البادية ، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله ، حيث لا (شُرَط) في البوادي تؤدب المعتدين ، ولا سجون يُسجن فيها الخارجون على نظام المجتمع ، وكل ما هناك (عصبية) تأخذ بالحق و (أعراف) يجب ان تطاع .

والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو (النسب) . ويفسر ذلك بارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد وبدم واحد وبصلب جدّ أعلى من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم . ولهذا نجد أهل الأنساب يرجعون نسب كل قبيلة الى جدّ أعلى ، ثم يرجعون أنساب الجدود ، أي أجداد القبائل الى أجداد أقدم ، وهكذا ، حتى يصلوا الى الجدّين للعرب : قحطان وعدنان .

وقد حفظت الكتابات العربية الجنوبية أسماء عدد كبير من القبائل ، لم يعرف أسماء أكثرها أهل الأخبار . وهي تفيدنا من هذه الناحية فائدة كبيرة في الوقوف على هذه القبائل ، وبعضها كان قد هلك وانحلّ واختلط في القبائل الأخرى قبل الميلاد وبعضها بعد الميلاد وقبل الإسلام بأمد .

وتتألف القبيلة من بيوت ، يختلف عددها باختلاف حجم القبيلة ، وباختلاف المواسم . ففي مواسم الربيع ، تضطر أحياء القبيلة على الانتشار والابتعاد ، لتتمكن إبلها من الرعي ومن املاء بطونها بالعشب . فتتجمع على شكل مستوطنات يتراوح عدد بيوت كل مستوطنة منها ما بين الخمسين والمائة والخمسين بيتاً . أما في المواسم الأخرى ، حيث تنحبس الأمطار وتجف الأرض ، فتعود أحياء القبيلة الى تكتلها وتجمعها ، فتكون كل مجموعة حوالى (٥٠٠) بيت أو أكثر . تتجمع حذر وقوع غزو عليها ، وللتعاون فيما بينها عند الشدة والعسر [١] .

والقبيلة في عرف علماء اللغة جماعة من أب واحد ، والقبائل في نظرهم من قبائل الرأس لاجتماعها ، أو من قبائل الشجرة وهي أغصانها [٢] ، فهي إذنْ جماعة من الناس تضم طوائف أصغر منها ، وهي تنتمي كلها الى أصل واحد وجذر

---

١ W. Caskel, Die Bedeutung der Beduinen, S., 8.

٢ تاج العروس (٧٢/٨) ، (قبل) .

راسخ ، ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة . فالرابط الذي يربط بين أبناء القبيلة ويجمع شملها ويوحد بين أفرادها هو (الدم) ، أي النسب . والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية . والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي ، حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها . وما تقرره حكومته هذه من قرارات يطاع وينفذ ، وبها يستطيع ان يأخذ حقه من المعتدي عليه .

وهذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة ، هي التي حملت أهل الأنساب والأخبار على اطلاق لفظة (القبيلة) على الحضر أيضاً . مع انهم استقروا وأقاموا . فقريش عندهم قبيلة ، والأوس ، والخزرج قبيلة ، وثقيف قبيلة . ذلك لأن هؤلاء الناس وان تحضروا واستقروا وأقاموا ، وتركوا الحياة الأعرابية ، إلا أنهم بقوا رغم ذلك على مذهب أهل الوبر ودينهم في التمسك بالانتساب الى جد أعلى والى أحياء وبطون . وفي اجابة النخوة والعصبية ، وما شابه ذلك من سجايا البداوة ، فعدّوا في القبائل ، وان صاروا حضراً وأهل قرار ، وقد طلقوا التنقل وانتجاع الكلأ .

وتشارك الشعوب السامية العرب في هذه النظرة . لأن نظامها الاجتماعي القديم هو كالنظام العربي قائم على القبيلة . والقبيلة عندها جماعة من بيوت ترى انها من أصل واحد ، وقد انحدرت كلها من صلب جدّ واحد . فهم جميعاً أبناء الجدّ الذي تتسمى به القبيلة . وهم مثل العرب في النداء وفي النسب . قد يذكرون الاسم فقط ، فيقولون مثلاً : أدوم ومؤاب واسرائيل ويهوذا ، أو أبناء اسرائيل وأبناء يهوذا ، وبنو اسرائيل وبنو يهوذا . وقد يقولون : بيت اسرائيل وبيت يوسف وبيت خمرى وبيت اديني ، بمعنى أبناء المذكورين . تماماً كما نقول : غسان ، وآل غسان ، وأبناء غسان وأولاد غسان ومن غسان ، وغساني ، وما شاكل ذلك ، ويريدون بها شيئاً واحداً ، هو النسب . أي الانتماء الى جد واحد به تسمى القبيلة واليه يرجع نسبها .

وهم يشعرون كالعرب ان أبناء القبيلة هم إخوة وهم من دم واحد ، ومن لحم ودم ذلك الجد . وهم يخاطبون بعضهم بعضاً بقولهم : (أنت من لحمي ودمي) . وفي التوراة أمثلة عديدة من هذا القبيل . فلما ذهب (ابو مالك بن

يربعل) الى عشيرة أمه خاطب أبناءها بقوله : (أيما خير لكم ! أن يتسلط عليكم سبعون رجلاً جميع بني يربعل ، أم ان يتسلط عليكم رجل واحد. واذكروا أني أنا عظمكم ولحمكم)[1] . وقد اعتبر (داوود) جميع أبناء عشيرته إخوة له[2] . وخاطب (شيوخ يهوذا) بقوله : (أنتم إخوتي ، أنتم عظمي ولحمي)[3] . فأبناء القبيلة هم إخوة من دم واحد . يسري في أجسامهم جميعاً ما دامت القبيلة حية باقية . ووحدة الدم هذه هي الرابط الذي يجمع شمل القبيلة . وهي صلة رحم ، وعصبية ، والحكومة الصحيحة التي يجب ان تطاع .

والعربي مثل بقية الساميين لم يفهم الدولة إلا انها دولة القبيلة . وهي دولة صلة الرحم التي تربط الأسرة بالقبيلة . دولة العظم واللحم ، دولة اللحم والدم ، أي : دولة النسب . فالنسب هو الذي يربط بين أفراد الدولة ويجمع شملهم . وهو دين الدولة عندهم وقانونها المقرر المعترف به . وعلى هذا القانون يعامل الإنسان . وبالعرف القبلي تسير الأمور . فالحكام من القبيلة ، وأحكامهم احكام تنفذ في القبيلة ، واذا كانت ملائمة لعقلية القبيلة والبيئة ، وهذا هو ما يحدث في الغالب ، نصير سنة للقبيلة ، نستطيع تسميتها بـ (سنة الأولين) . ووطن القبيلة هو بالطبع مضارب القبيلة حيث تكون ، وحيث يصل نفوذها اليه ، فهو يتقلص ويتوسع بتقلص وبتوسع نفوذ القبيلة .

وقد واجه المسلمون في أيام الفتوح صعوبة كبيرة في فتوحهم بسبب العقلية القبلية وضيق أفقها ، وعدم تمكنها من التخلص من مثلها الجاهلية بسهولة . فقد كان على القائد ان يقاتل عدوّه بجيش يحارب على شكل كتل قبائل ، تتكون كل كتلة من مقاتلي قبيلة واحدة ، لا من جنود ينتمون الى أمة هي فوق الكتل والقبائل . وكان على رأس كل وحدة مقاتلة رؤساء من القبيلة التي ينتمي اليها الجنود. وقد واجه الإمام (عليّ) صعوبة حينما حارب في معركة الجمل وفي معركة صفين وغيرها ، إذ اشترطت عليه القبائل المحاربة ، ألا تحارب إلا رجال قبيلتها الذين يكونون ضده ، فالهمدانيون الذين معه يحاربون الهمدانيين الذين يحاربون مع خصمه . وهكذا فعلت بقية القبائل ، للعصبية القبلية ، لأنهم لم يكونوا يستطيعون رؤية قبيلة غريبة تفتك

---

١ سفر القضاة ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢ .
٢ صموئيل الأول ، الاصحاح ٢٠ ، الآية ٢٩ .
٣ صموئيل الثاني ، الاصحاح التاسع عشر ، الآية ١٣ .

بإخوانهم من قبيلتهم ، وهم ينادون بشعار العصبية ، شعار القبيلة . أما هم فإن قاتلوا إخوانهم من قبيلتهم ، فإن قتالهم هذا يختلف عن قتال الإخوة حين يقتتلون قتالاً قد يكون أشد ضراوة من قتال الغرباء ، لا يلتفت فيه الى وجود دم واحد بين المتقاتلين ، والى أنهم من بيت أب وأم ، يحتم عليهم التكتل والتعصب ، إذ لا غريب هنا أمامهم في هذا القتال .

ولست بحاجة وأنا في هذا المكان ، لتكرار قول سبق ان قلته في الجزء الأول من هذا الكتاب — من ان أسماء القبائل لا تعني بالضرورة انها أسماء أجداد حقيقيين عاشوا وماتوا . فبينها كما سبق ان قلت أسماء مواضع ، مثل غسان ، وبينها أسماء أصنام مثل (بنو سعد العشيرة) وبينها أسماء أحلاف مثل (تنوخ) وبينها نعوت وألقاب .. الى آخر ذلك من أسماء قبائل وصلت الى علم علماء الأنساب ، فأوجدوا لها معاني واعتبروها أسماء رجال حقيقيين تزوّجوا ونسلوا ومنهم من كان عاقراً فلم ينسل ، فذهب أثره ، ولم تبق له بقية[1] .

والمفهوم من لفظة (القبيلة) في العادة : القبائل التي تتألف من عمائر وما وراء العمائر من أقسام . فاذا ذكرت القبيلة انصرف الذهن الى آلاف من البيوت تجتمع تحت اسم تلك القبيلة . ولكن الناس يتجوزون في الكلام وفي الكتابة أحياناً فيطلقونها على عدد قليل من الناس قد يبلغ ثلاثة نفر أو أربعة مثل : (بنو عبد الله ابن أفصى بن جديلة) ، و (بنو جساس بن عمرو بن خويّة بن لوذان) ، من (بني فزارة) ، و (كليب بن عديّ بن جناب بن هبل) ، و (بنو شقرة) من تميم . وقد يطلقونها على أكثر من ذلك ، ولكن على عدد قليل من الناس أيضاً ، كأن يكون خمسين رجلاً أو ستين[2] . وهذا الاستعمال ، هو على سبيل التجوز لا الاصطلاح .

ويرى علماء العربية ان هناك تجمعات ، هي في نظرهم أكبر حجماً من القبيلة أطلقوا عليها (الشعوب) . فذكروا ان الشعوب فوق القبائل ، ومثاله : بنو قحطان ، وبنو عدنان ، فكل منها شعب . وما دونها قبائل . وذهب بعض منهم الى ان (الشعوب) للعجم ، فإن الشعوب بالنسبة لهم ، مثل القبائل

---

١ راجع الجزء الأول من كتابي (ص ٢٩٤ وما بعدها) .

٢ المحبر (ص ٢٥٦) ، (القبائل التي لا يزيد عددها) .

للعرب ، ومنه قيل للذي يتعصب للعجم (شعوبي) ، وقيل : بل هي للعرب وللعجم . والذي عليه أكثر علماء الأنساب ، ان الشعب أكبر من القبيلة ، وان الشعب أبو القبائل الذي ينتسبون اليه ، أي يجمعهم ويضمهم[1] .

ويظهر ان مردّ هذا الاختلاف هو ما ورد في القرآن الكريم من قوله : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)[2] . فقدم (الشعوب) على القبائل . فذهب أكثر المفسرين والعلماء الى ان هذا التقديم يعني ان الشعب أكبر من القبيلة ، وان الشعوب الجمّاع والقبائل البطون ، أو الشعوب الجمهور والقبائل الأفخاذ ، أو الشعوب : النسب البعيد ، والقبائل : دون ذلك ، كقولك فلان من بني فلان ، وفلان من بني فلان . وتأول بعض آخر هذا المعنى ، فذهبوا الى ان هذا التقديم أو التأخير ، لا علاقة له بالكبر ، أي بحجم الشعب أو القبيلة ، والآية لا تريد ذلك ، وانما تريد الأنساب ، وانها نزلت في بيان ان الإنسان لا بنسبه ، وانما بعمله . وعلى هذا ، فإن الشعب ، في نظرهم دون القبيلة في الترتيب . والشعب بعد القبيلة في الدرجة[3] .

وقد أخذ العلماء بالتأويل الأول للفظة (الشعب) ، حتى صار هذا المعنى هو المعنى المفهوم منها عند الناس في الإسلام . فهي انما تعني اليوم جنساً من أجناس البشر له خصائصه ومميزاته ، كالشعب العربي والشعب اليوناني والشعب التركي والشعب البريطاني والشعب الامبركي ، وهكذا . أو جزءاً كبيراً مستقلاً من أجزاء أمة واحدة ، كأن نقول : الشعب العراقي ، والشعب السوري ، والشعب السعودي ، والشعب المصري ، أي وحدة جغرافية سياسية ذات كيان .

ولفظة (الشعب) ، من الألفاظ الواردة في نصوص المسند . وهي فيها بمعنى قبيلة ، وتكتب (شعبن) ، بمعنى (الشعب) . وحرف النون في أواخر الأسماء أداة للتعريف في العربيات الجنوبية . فهي إذن مرادف (قبيلة) بالضبط . والجمع (اشعب) ، أي (شعوب) . ورد (سباواشعبهمو) ، أي (سبأ وشعوبهم) ،

١ تاج العروس (١/٣١٨) ، الخوارزمي ، مفاتيح العلوم (٧٤) .
٢ سورة الحجرات ، السورة رقم ٤٩ ، آية ١٣ ، تفسير الطبري (٢٦/٨٨) ، تفسير الالوسي (٢٦/١٤٧) .
٣ تفسير الطبري (٢٦/٨٨) .

أو (سبأ وقبائلهم) بتعبير أدق وأصح . وورد (شعبن معن) ، أي (قبيلة معين) ، و (شعبن همدان) ، أي (قبيلة همدان) . والظاهر ان أهل مكة ، وقفوا في الجاهلية على هذه اللفظة أيضاً فاستخدموها ، وان قبائل حجازية مجاورة لمكة ، كانت تستعمل لفظة (شعب) و (الشعب) ، بمعنى قبيلة ، ونظراً لورودهما معاً في القرآن الكريم ، فرّق العلماء بين اللفظتين ، باعتبار ان ذكرهما معاً ، يعني وجود بعض الاختلاف في المراد منهما . فوقع من ثمّ بين المسلمين هذا التمييز ، وصارت لفظة (الشعب) تدل على معنى يختلف عن معنى كلمة (قبيلة) و (القبيلة) .

ويلي الشعب في اصطلاح أهل النسب : القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر ، والعمارة مثل قريش وكنانة ، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ومثل بني هاشم ، وبني أميّة ، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس[1] . وجعل (ابن الكلبي) مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة ، وهي رهط الرجل[2] .

وورد ان البطن دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العمارة . وذكر بعضهم ان أول العشيرة : الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ[3] . وذلك على رأي من جعل العشيرة : العامة . مثل : بني تميم وبني عمرو بن تميم . أي الجماعة العظيمة[4] .

وزاد بعض العلماء الجذم قبل الشعب ، وبعد الفصيلة العشيرة ، ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتبها آخرون على هذه الصورة ، جذم ، ثم جمهور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ،

١ اللسان (١٤/٥٧) ، (١٦/١٩٩) . بلوغ الأرب (٣/١٨٧ وما بعدها (، تاج العروس (٨/٧٢) ، السيرة الحلبية (١/٣٧) ، العمدة (٢/١٩١) ، (محمد محي الدين عبد الحميد) ، تاج العروس (٩/١٤١) ، (بطن) .

٢ العقد الفريد (٣/٢٨٣ فما بعدها) ، المقريزي ، النزاع والتخاصم (٦٥) ، نهاية الأرب للنويري (٢/٢٦٢ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٩/١٤١ ، (بطن) .

٤ تاج العروس (٣/٤٠٣) ، (عشر) .

ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة هي : بيت ، وحيّ ، وجماع .[1] وذكر بعض علماء اللغة أن (الجذم) ، الأصل في كل شيء . فيقال : جذم القوم أهلهم وعشيرتهم . ومنه حديث حاطب ، لم يكن رجل من قريش الا له جذم بمكة .[2]

وذكر بعض العلماء ان العمارة الحيّ العظيم يقوم بنفسه .[3] وان الفرق بين الحيّ والقبيلة هو ان الحيّ لا يقال فيه بنو فلان نحو قريش وثقيف ومعدّ وجذام . والقبائل يقال فيها بنو فلان مثل بني نعيم وبني سلول[4] . وذكر ايضاً ان العمارة : الحيّ العظيم الذي يقوم بنفسه ، ينفرد بظعنها واقامتها ونجعتها . وقيل هو اصغر من القبيلة . وفي الحديث : انه كتب لعمائر كلب وأحلافها كتاباً . قال التغلبي :

لكل اناس من معدّ عمارة عروضٌ ، اليها يلجأون ، وجانب[5]

وقسم (النويري) النظام القبلي عند العرب الى عشر طبقات[6] . وابتدأ بـ (الجذم) وهو الاصل : وهو قحطان وعدنان ، والطبقة الاولى . ثم الجماهير ، وهي الطبقة الثانية ، ثم الطبقة الثالثة : الشعوب ، والطبقة الرابعة القبيلة ، وهي التي دون الشعب تجمع العمائر ، ثم الطبقة الخامسة : العمائر ، وهي التي دون القبائل ، وتجمع البطون ، ثم الطبقة السادسة : البطون ، وهي التي تجمع الأفخاذ ، والطبقة السابعة : الأفخاذ . وهي اصغر من البطن . والفخذ تجمع العشائر . والطبقة الثامنة : العشائر ، واحدها عشيرة ، وهم الذين يتعاقلون الى اربعة آباء . والطبقة التاسعة : الفصائل ، واحدها فصيلة ، وهم اهل بيت الرجل وخاصته ، والطبقة العاشرة : الرهط ، وهم الرجل واسرته .[7]

١ اللسان (١٨/٢٣٥) ، نهاية الأرب ، للنويري (٣/٢٦٢ فما بعدها) ، الخوارزمي ، مفاتيح العلوم (٧٤) .
٢ تاج العروس (٨/٢٢٢) .
٣ المفضليات (ص ٤١٤) ، القاموس (٢/٩٥) .
٤ الخوارزمي ، مفاتيح (ص ٧٤) .
٥ اللسان (٤/٦٠٦) ، (عمر) .
٦ نهاية الأرب (٢/٢٧٧) ، (الباب الرابع من القسم الاول من الفن الثاني في الانساب) .
٧ نهاية الأرب (٢/٢٨٤ وما بعدها) .

ما ذكرته يمثل مجمل آراء علماء النسب عند العرب في موضوع كيان القبيلة وفروعها التي تتفرع منها درجة درجة ، حتى تصل الى البيت ، الذي يتكون من الأب والأم وأولادهما . وقد رأينا انهم قد اختلفوا فيما بينهم وتباينوا في الترتيب وفي العدد . منهم من يقدم ، ومنهم من يؤخر ، ومنهم من يزيد ، ومنهم من ينقص . واختلافهم هذا فيما بينهم ، هو دليل يشعرنا ان التقسيم المذكور لم يكن تقسيماً ثابتاً عند كل القبائل وأنه لم يكن تقسيماً جاهلياً بل كان تقسيماً محلياً اختلف بين قبيلة وأخرى ، وأن اسماء اجزاء القبيلة ، لم تكن اسماء عامة متبعة عند الجميع ، أي اسماء مقررة عند كل قبيلة ، بل هي اسماء اخذها العلماء من هنا وهناك ، ولهذا وقع بينهم هذا الاختلاف ، ولو كان عند الجاهليين تقسيم واحد لاجزاء القبيلة فما كان من المعقول ان يقع علماء النسب واللغة فيما رأينا من تباين واختلاف ، ولوجب اتفاقهم في الترتيب وفي العدد . فالتقاسيم المذكورة اذن ، هي من وضع وترتيب وجمع علماء النسب واللغة في الاسلام .

وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي : الأسرة ، اي (البيت) . فهي نواة القبيلة وبذرتها وجرثومتها ، ومن نموها ظهرت شجرة القبيلة ـ التي يختلف حجمها ويختلف كثرة اغصانها وفروعها باختلاف منبت الشجرة والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها . من بذرة جيدة ومن تربة صالحة وماء كاف . والبيت هو نواة القبيلة عند العرب ، وهو نواة القبيلة عند كل الشعوب القبلية . بل هو نواة المجتمع في كل مجتمع انساني .

القحطانية والعدنانية :

تحدثت في الجزء الاول من هذا الكتاب عن القحطانية والعدنانية بما فيه الكفاية [1] ، وأعود هنا فأقول ان ما ذكرته عن اهل المدر وأهل الوبر ، اي عن الحضر والبدو او الاعراب وهم اهل البادية ، لا يعني ان الحضر هم القحطانيون ، وان الاعراب هم العدنانيون . كما ذهب الى ذلك بعض المستشرقين باعتبار ان غالبية من نسميهم القحطانيين هم حضر ، او اقرب من غيرهم الى الحضر ، وأن غالبية العدنانية

---

١ (٤٩٣/١ وما بعدها) .

اعرابية متبدية. والصواب عندي ان في القحطانيين عرباً واعرابا ، وفي العدنانيين حضراً وبادية ، وان غلبت البداوة على العدنانيين . لأن من وجد الماء الدائم تنخ عليه وتحضر ، قحطانياً كان النازل أم عدنانياً ، فالحضارة تنبت حيث يكون الماء ، والماء لا يعرف النسب والقبائل . من وجده وظفر به وأقام عليه تحضر واستقر ، فصار حضرياً .

ولهذا نجد في حضر جزيرة العرب اقواماً يحشرهم اهل الانساب في قحطان ، ونجد في حضرها اقواماً يرجعون نسبهم الى عدنان .

ونحن اذا ما رسمنا خارطة لكيفية توزع الحضر والاعراب ، أو لكيفية انتشار القبائل ، فاننا نجد ان منازل القبائل متداخلة مشتبكة . ليست بينهـا حدود ولا اسوار حاجزة تحجز القبائل القحطانية عن القبائل العدنانية . الا في العربية الجنوبية حيث يرجع النسابون نسب اكثر قبائلها الى أصل قحطاني . أما في الاماكن الاخرى ، فان القبائل القحطانية وكذلك القبائل العدنانية منتشرة ، انتشاراً لا يدل على وجود تكتل وتحزب . بل نجد القحطانية تجاور العدنانية وتخالطها ونجد القحطانية في جوار القحطانية ، والعدنانية في جوار العدنانية ، مما يدل على ان هذا التوزيع لم يقم ولم يستند على عنصرية وحزبية وعلى هجرات منتظمة ، وانما قام على حق القوة وتحكم القوي في الضعيف ، مهما كان عنصر القوي وأصله . وأن التكتل قد حدث بدوافع سياسية عسكرية لعبت دوراً خطيراً في تكون النسب .

وظاهرة اخرى نراها عند القبائل ، تتجلى في ان القبائل وان تنقلت وارتحلت من مكان الى مكان ، سعياً وراء الماء والكلأ ، كما يذكر اهل الاخبار ، الا ان ذلك لا يعني ان هذه الحركة هي حركة دائمية مستمرة ، وان القبـائل كانت تتنقل دوماً من مكان الى مكان . بحيث صار الترحل لها سنة دائمة لازمة . فلو ثبتنا منازل القبائل على (خريطة) صورة جزيرة العرب ، استناداً الى روايات اهل الاخبار عنها ، وجدنا ، ان منازل القبائل لم تتبدل الا للضرورات ولأسباب قاهرة تكره القبيلة على ترك ديارهـا والارتحال عنها الى منازل جديدة . كأن تغزوها قبائل كثيرة العدد أقوى منها او ينحبس عنها المطر سنين ، تهلك الضرع ، او تحاربها قوة نظامية اقوى منها ، كالذي وقع لـ (إياد) ، حيث ازاحهـا (بنو عبد القيس) عن مواطنها في البحرين ، ثم شتتت الفرس شملها في العراق فعندئذ تضطر القبيلة وهي مكرهة مجبورة على ترك ديارها للبحث عن ديار اخرى

جديدة. وتكاد تكون اكثر اسباب هجرات القبائل وارتحالها من اماكنها الى اماكن اخرى هي الأسباب المذكورة .

وطراز حياة القبائل في جزيرة العرب باستثناء العربية الجنوبية ، متشابه ، بحيث يصعب ان نجد فروقاً واضحة ظاهرة بين القبائل التي ينسبها النسابون المسلمون الى قحطان او الى عدنان ، فهي متشابهة وعلى وتيرة واحدة . وأما اللغة ، فاننا لا نجد فيما بين القبائل العدنانية والقحطانية اي خلاف يذكر على ما يظهر من روايات علماء اللغة . بل نجد ان لهجات القبائل القحطانية الشمالية هي لهجات عدنانية ، مخالفة للهجات اهل اليمن المعروفة التي كانت سائدة في اليمن الى ظهور الاسلام . فلهجات اهل اليمن من الحميرية وغيرها ، بعيدة عن لهجات القبائل القحطانية والعدنانية بعداً متساوياً ، حتى بالنسبة الى القبائل اليمانية التي غادرت اليمن في عهد متأخر ، كما سأبحث عن ذلك فيما بعد ، وفي القسم الخاص بلغات اهل الجاهلية . ولهذه الظاهرة اهمية كبيرة بالنسبة الى دراسة اللغة والنسب عند العرب الجاهليين .

وعندي أن ما يذهب اليه المستشرقون من تقسيم العرب الى عرب جنوبيين وعرب شماليين ، هو تقسيم لا يمكن اعتباره تقسيماً علمياً . فان ما نشاهده من فروق في الملامح والمظاهر بين اهل العربية الجنوبية من اهل اليمن وحضرموت ومسقط وعمان وبين اهل الحجاز ونجد ، والعرب الشماليين الآخرين ، وان كان واضحاً ظاهراً ولا مجال الى نكرانه ، الا ان هذه الفروق لا يمكن اعتبارها مع ذلك حداً فاصلاً يقسم العرب الى مجموعتين : مجموعة شمالية ومجموعة جنوبية ، لسبب بسيط جداً سبق ان بينته في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وتحدثت عنه في مواضع اخرى منه . وهو ان كل مجموعة من المجموعتين لا تكون في نفسها وحدة متناسقة متجانسة ، بل تتألف من مجموعات تختلف بعضها عن بعض في السحن وفي الملامح ، بسبب عوامل الاتصال بالعالم الخارجي ، وبسبب اختلاف الظروف الطبيعية التي يعيش بها افراد كل مجموعة . فأهل جبال اليمن والجبال المتصلة بها الممتدة الى عمان ، يختلفون اختلافاً بيناً عن اهل السواحل والارضين المنخفضة ، ليس في الملامح والسحن فحسب ، بل وفي العمل وفي النشاط وفي المدارك ايضاً . وأهل السراة في العربية الغربية يختلفون عن اهل تهامة وبقية ساحل البحر الأحمر ، وأهل نجد يختلفون عن اهل ساحل الخليج . يختلفون عنهم في السحن والملامح كما

يختلفون عنهم في المدارك وفي حدة الذهن . وهذا الاختلاف هو شيء واقعي بين للعيون ، يراه كل انسان حين يزور بلاد العرب . وهو في حدّ ذاته شاهد على فساد نظرية المستشرقين في تقسيم العرب الى مجموعتين .

وبعد ، فهذه الطبيعة طبيعة جزيرة العرب – من جوّ وأرض ، من انحباس مطر ومن ارتفاع في درجات الحرارة . ومن يبوسة في الهواء ، وقلة في الرطوبة ؛ ومن اختلاف في ضغط الجوّ اختلافاً يخل بتوازنه فيثير فيه اعاصير وعواصف ، تعتدي على حرمة التربة الهادئة الراقدة ، فترفع رمالها الى ارتفاعات متباينة ، وتلفح الأوجه والأجسام بـ (سموم) وبما شاكله من اهوية مزعجة ، تثير الغضب وتلهب العصب ، وتجعل الجوّ داكناً اظلم مغبراً ، اضف الى ذلك ما نراه من نور ساطع وأشعة لامعة تحمل أمواجاً غير مرئية تؤثر في خلايا البشرة وفي النفس ، ثم هذه الرطوبة المفرطة المتحكمة في التهائم ، وهذه الندرة في الأنهار ، والاسراف في ظهور البوادي والصحارى ، وتحكم الطبيعة تحكماً جائراً في توزيع النبات والحيوان على اهـــل جزيرة العرب : كل هذه الامور وامثالها أثرت اثراً كبيراً في نفس اهل جزيرة العرب ، وفي شكل اجسامهم ، وفي حالة معيشتهم ، فجعلتهم يختلفون عن غيرهم بأمور ، ويتبـــاينون فيما بينهم بأمور ، وذلك لاختلاف طبيعة اجزاء الجزيرة نفسها . ونحن لن نستطيع فهم العرب فهماً صحيحاً دقيقاً ، الا اذا درسنا هذه الامور المذكورة وأمثالها دراسة علمية دقيقة . وعندئذ فقط نستطيع فهم سبب تفشي البداوة بين العرب ، وسبب تطبع العرب بطباع خاصة ، واتسامهم بسمات وعلامات خاصة وبملامح ومظاهر جسمية متباينة ، وأمثال ذلك مما تعرضت له في بحث الجنس والسامية وفي بحث طبيعة العقلية العربية وما قيل في حقها من اقوال ، وما ورد في العرب من مدح او ذم ومن وصف صادق او كاذب .

اركان القبائل :

يرجع كل العرب من حيث النسب الى ركن من (اركان القبائل) . فقد اصطلح علماء النسب على ان للنسب عند العرب بعد قحطان وعدنان أربعة أركان :

ربيعة ومضر ويمن وقضاعة.[1] وذلك على رأي من جعل قضاعة ركناً قائماً بذاته. ولا يمكن ان يخرج نسب عربي أصيل عن أصل من هذه الأصول.

وورد ان العرب في النسب على أربع طبقات: خندفي وقيسي، ونزاري، ويمني[2]. ويمن هي قحطان. وكان العرب يتعزون بانتسابهم الى اليمن، فكان من ينقلب على نسبه يتخذ لنفسه نسباً يمانياً. (وأكثر العزوة لمن ينقلب عن نفسه الى اليمن، لأجل أن الملوك كانت في اليمن: مثل آل النعمان بن المنذر من لخم، وآل سليح من قضاعة، وآل محرق، وآل العرنج، وهو حِمْيَر الاكبر ابن سبأ كالتبابعة والأذواء وغيرهم. والعرب يطلبون العز ولو كان في شامخات الشواهق، وبطون الامالق البوائق، فينتسبون الى الأعز لحماية الحميّة واباءة الدنية..)[3]

ورجع بعض النسابين المعروفين نسب العرب الى ثلاث جراثيم: نزار، واليمن وقضاعة[4]. ويمثل رأيهم هذا رأي القائلين بالأركان الاربعة للقبائل بالضبط، لأن نزاراً هو في عرفهم والد ربيعة ومضر، وكل ما فعلوه هنا، هو انهم حذفوا اسمي الولدين وأحلوا اسم والدهما في محلها.

ورجع (المأمون) الخليفة العباسي، اصول العرب الى قيس ويمن وربيعة ومضر. فلما تعرض عربيٌّ بالمأمون وهو في زيارته لبلاد الشام، ولامه في تقديم أهل خراسان على العرب، بقوله: (يا امير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان)، أجابه الخليفة: (أكثرت عليَّ يا أخا اهل الشام، واللهِ ما انزلت قيساً عن ظهور الخيل الا وأنا ارى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحد. وأما اليمن فواللهِ ما احببتها ولا أحبتني قط. وأما ربيعة فساخطة على ربّها منذ بعث اللهُ نبيّه من مضر، ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شارياً، اعزب عني فعل الله بك...)[5]

فأركان العرب في رأي المأمون اربعة: قيس ويمن وربيعة ومضر. وهي كتل

---

١ بلوغ الأرب (٣/٢٠٣).
٢ نهاية الأرب (٣/٢٧٨).
٣ نهاية الأرب (٢/٢٨٣).
٤ الانباه (٦٣).
٥ الاسلام والمشكلة العنصرية، لعبد الحميد العبادى (ص ٩٠ بعدها).

كانت على عادة العرب متنافسة متحاسدة متباغضة ، ترى كل واحدة منها نفسها وكأنها أمة دون سائر الأمم » و (يمن) كناية عن العرب الجنوبيين من همدان وحمير وكندة وأمثالها ، وأما قيس وربيعة ومضر ، فكناية عن تكتلات وتجمعات العرب من غير اليمن .

وذهب (ابن حزم) الى ان جميع العرب من أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعُتق ، وغسان ، فان كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وذلك ان تنوخاً اسم لعشر قبائل اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسُمّوا تنوخاً ، والعتق جمعٌ اجتمعوا على النبي ، فظهر بهم فأعتقهم فسُمّوا بذلك ، وغسان عدة بطون نزلوا على ماء يسمى غسان فسمّوا به .[1]

ولما جاء (خالد بن الوليد) الى العراق كان جيشه من (ربيعة) و (مضر)[2] ومن قبائل يمانية . ومعنى هذا وجود ثلاثة اركان قبائل محاربة . ولما قال (خالد ابن الوليد) لـ (عديّ بن عديّ بن زيد العباديّ) : (ويحكم ! ما انتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ! فما تنقمون من الانصاف والعدل ! فقال عديّ : بل عرب عاربة واخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهـوا امرنا ؟ فقال له عديّ : ليدلك على ما نقوله انه ليس لنا لسان الا بالعربية ، فقال : صدقت)[3] ولا تعني جملة (بل عرب عاربة واخرى متعربة) معنى : ان العرب عربان،عرب عاربة وعرب متعربة ، على النحو المفهوم منها عند اهل الاخبار . بل هي تعبر عن واقع اصل اهل الحيرة . فقـد كان اهلها بين عرب صرحاء وبين عرب متعربة اي جماعة لم تكن عربية في الأصل وانما كانت من اصل عراقيّ وفارسيّ اقامت في الحيرة ، وتأثرت بأهلها العرب فتكلمت العربية حتى صارت العربية لسانها ، فهي من العرب المتعربة . وقد كان كل عرب العراق على هذا النحو في ذلك الوقت . فهم بين عرب خلّص وبين عرب متعربة ،لم تكن اصولها من منبت عربيّ ، وانما دخلت في العرب فتطبعت بطباعهم وأخذت لسانهم حتى نسيت ألسنتها القديمة ، وصارت من العرب .

---

١ بلوغ الأرب (٣/١٩١) .
٢ الطبري (٣/٣٤٧) ، (مسير خالد الى العراق وصلح الحيرة) .
٣ الطبري (٣/٣٦١) .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان العرب من (نزار) ملكتهم الفرس . وأن العرب من غسان ملكتهم الروم [1] . فجعل (نزاراً) في مقابل غسان . ولم يكن كل عرب العراق من (نزار) . يدلك على ذلك ان ملوك الحيرة على رأي اهل الاخبار من قحطان . والذي يلاحَظ من كيفية توزيع القبائل على حسب رواية اهل الاخبار أن معظم قبائل العراق ، هي من قبائل (نزار) او من (ربيعة) و (مضر) بتعبير آخر . اما معظم قبـــائل بلاد الشام فهي من (يمن) . اي على عكس الحال في العراق . فهل يمثل هذا التقسيم توزيعاً تأريخياً صحيحاً ؟ بمعنى ان اكثر قبائل العراق ، قد وردت العراق من العربية الشرقية والعربية الوسطى ، اي من سواحل الخليج ونجد ، وان عرب بلاد الشام انما جاؤوا الى هناك من اليمن ، عن طريق الحجاز ونجد . او انه تقسيم سياسي اصطلاحي ، نشأ قبل الاسلام بعهد طويل من المنافسة التي كانت بين العراق وبلاد الشام ، المنافسة التي ظلت باقية في الاسلام . فقد كان بين العراق وبين بلاد الشام عداء وتباغض ، لعوامل لا مجال للبحث فيها في هذا المكان . وقد استولت حكومات العراق من حكومات وطنية وأجنبية على بلاد الشام مراراً ، مما ولد مرارة وأوجد حقداً بين اهل العراق وأهل الشام ، فانتقل ذلك الى عرب القطرين ايضاً . فحارب عرب العراق عرب بلاد الشام ، حتى وصل هـــذا العداء الى دعوى وجود فرق بين اصل عرب العراق وأصل عرب بلاد الشام . فصارت اكثر قبائل العراق في عرف اهل الانساب من ربيعة ومضر ونزار ، وصار معظم بلاد الشام في عرفهم من اليمن . قياساً على ما كان عليه العرب عند ظهور الاسلام من انصار ومهاجرين ، او من يمن وعدنان ، او قحطان وعدنان وما شابه ذلك من اسماء . اما رأيي ، فان لأهل الاخبار يداً طولى في هذا التقسيم الذي ظهر واينع في الاسلام . وان الجاهلية لم تكن تخلو من تجمعات وتكتـــلات قبلية ، لكنها كانت تختلف عن التجمعات التي اثارتها النعرة القبلية الجديدة التي برزت في الاسلام ، والتي اثرت على ظهورها عوامل عديدة الى ان ثبتت ودُوّنت في كتب اهل الانساب والاخبار .

وجعل بعض اهل الاخبار العرب يمناً ونزاراً . وذكر ان اليمن اصحاب بحر وبني نزار اصحاب بر [2] . وقصدوا باليمن اصحاب الساحل ، الذين عركوا البحر

---

١ المعاني الكبير (٢/٩٤١ وما بعدها) .

٢ المعاني الكبير (٢/٦٤٠) .

وخبروه . عكس (نزار) ، عرب البر ، وهم قوم لا علم لهم بالبحر ، انهم لم يتعودوا على ركوبه . اذ سكنوا البرّ ولم يعركوا البحر ، فخافوا منه وتجنبوه .

والآراء المتقدمة في تقسيم العرب الى اركان وكتــل ، هي آراء عربية محضة أخذت من واقع الحال ، ولم تستمد من التقسيم المألوف للعرب الى قحطانيين وعدنانيين ، التقسيم المأخوذ من التوراة على نحو ما شرحت ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب . ذلك لأن الحياة في بلاد العرب هي حياة تكتل وتحزب ، فكان لا بد للقبائل من عقد احلاف فيما بينها للمحافظة على نفسها من افتراس القبــائل الكبيرة لها ، ومن استذلالها وأخذ ما تملكه . وبهذه الاحلاف حافظت القبائل الضعيفة على حياتها ، وحدّت من طمع القبائل الضخمة في القبائل الهزيلة ، وصار في الامكان السيطرة على الأمن والتقليل من حمى غزو القبائل بعضها بعضاً .

وحاجة الاعراب الى الاحلاف اكثر وأشد من حاجة الحضر اليهــا ، وذلك بسبب ان الغزو في البادية ضرورة من ضرورات الحياة لفقر البادية وشحها ، لانبساط ارضها وعــدم وجود حواجز طبيعية تعوق الغزو وتحمي المغزو منه . فاضطرت القبائل على خلق حماية طبيعية لها هي الاحلاف . والاحلاف هي لغاية حماية المال والنفس في الغالب ، ولكبح جماح المعتدين اذن . اما الاحلاف الهجومية التي تعقد لتحقيق اغراض هجومية مثل غزو حلف حلفاً آخر او قبيلة ضخمة قبيلةً ضخمة اخرى ، فانها لا تعمر طويلاً كما تعمّر الاحلاف الدفاعية ، لأن اسباب انعقادها تزول بتنفيذ ما اتفق عليه ، وقد يتحطم الحلف بسبب ظهور اختلافات مصالح لم تكن في حسبان المتحالفين يوم عقدوا حلفهم ، فيتصدع بنيان الحلف ويتهدم ويزول الحلف ليظهر محله حلف آخر جديد .

اما الحضر ، فان لهم من حماية ارضهم لهم ، ومن طبيعة الحياة التي يحيونها ما يخفف من حاجتهم الى الحلف القبلي ، ويجعل احلافهم احلافاً من طراز آخر . فقد منحت الطبيعة الحضر حجراً صلداً بنوا به ابراجاً وحصوناً ومعاقل حموا بها مستوطناتهم ، من طمع الطامعين فيهم ، ولا سيما من الاعراب الذين لا يسهل عليهم اقتحام الحصون ولا تهديمها لعدم وجود اسلحة تؤثر فيها ؛ ومنحتهم تربة صار من الممكن عمل الاجر او اللبن منها لبناء المحافد والآطام وما شاكل ذلك من وسائل الدفاع ، كما امدّتهم بمواد بناء مكنتهم من انشاء الحيطان والأسوار حولها ،

وهي مانع يصد الأعراب عن الحضر . وهم بالاضافة الى ذلك أقدر على الدفاع عن أنفسهم وعلى اللجوء الى الحيل للتخلص من الأعراب بسبب تحضرهم وتقدمهم في التفكير على عقلية الفطرة التي جبل البدو عليها . وغاية ما فعله الحضر من الأحلاف ، هو تحالفهم مع من أحاط بهم من الأعراب لضمان عدم تحرشهم بهم أو لمنع الأعراب الآخرين من التحرش بهم . وعقد حبال مع القبائل لمرور تجارهم من أرضها بأمن وسلام مقابل هدايا أو أرباح أو أموال تعين ، تدفع الى ساداتها تأليفاً لقلوبهم وضماناً منهم لهم بعدم تحرش أحد بهم .

ولما تقدم انحصرت الأحلاف الكبرى أو التكتلات القبلية الضخمة بالأرضين المكشوفة التي غلب عليها الطابع الصحراوي . وبين القبائل التي غلبت البداوة عليها . والأحلاف الكبرى ، هي في نظري كناية عن النسب الاكبر عند العرب. فربيعة ومضر وإياد وأنمار وقضاعة ، هي في الواقع تكتلات قبيلة تكونت من قبائل غلبت البداوة على طبعها ، وقد ظهرت خارج العربية الجنوبية ، أي خارج الأرضين التي غلب على سكانها طابع الارتباط بالارض والقرار . اما القبائل القحطانية ، التي هي في التوراة كناية عن قبائل عربية جنوبية مستقرة ، فكتل أخذت أسماءها من الأرضين التي كانت تحكمها أو من اسم القبيلة التي سميت باسمها . وبين أسماء القبائل وأسماء الأرضين صلة متينة ، بحيث يصعب الحكم فيما اذا كانت الارض قد أخذت اسمها من اسم القبيلة ، أو ان القبيلة أخذت اسمها من اسم الأرض .

وقد لعبت فكرة (قحطان) و (عدنان) دوراً مهماً في حصر الأنساب عند العرب في الإسلام . يذكر الجاحظ ان رجلاً اسمه (شويس الساسي التميمي العدويّ) ، المعروف بـ (أبي فرعون) ، كان قد قدم البصرة ، فذهب الى رجل منها اسمه (كهمس) يلتمس العون منه ، فأعطاه رغيفاً من الخبز الحواري ، ثم ذهب الى رجل آخر اسمه (عمر بن مهران) ، فلم يعطه ما كان يريد ، فضاق ذرعاً من هذا الرغيف ، وذهب الى حلقة (بني عديّ) فوقف عليهم وهم مجتمعون ، وأخرج الرغيف من جرابه وألقاه في وسط المجلس ، وقال : يا بني عديّ ، استفحلوا هذا الرغيف ، فإنه أنبل نتاج على وجه الأرض ! ثم قال شعراً سخر فيه من أهل البصرة ومن تشدقهم في الانتساب الى قحطان

أو عدنان ، وفحش بهما ومن انتساب الناس اليها ، بينما الناس هنالك ما بين نبط أو خوزان[1] .

ومن أهم القبائل القحطانية التي كان لها شأن يذكر عند ظهور الإسلام ، وفي الإسلام . حمير وكهلان . ومن مجموعة حمير قضاعة ، في رأي من جعل قضاعة من اليمن . ومن قضاعة كلب وأسد ومن أسد تنوخ . واما مجموعة كهلان ، فتتألف من الأزد وهمدان ومذحج وطيء، ومن الأزد: غسان والأوس والخزرج .

وربيعة من القبائل العربية الكبيرة العدد ، وقد سبق ان تحدثت عنها في مواضع من الأجزاء السابقة من هذا الكتاب . وقد عرفت (ربيعة) بـ (ربيعة الفرس) . ويعلل أهل الأخبار اشتهارها بذلك بقولهم : (وربيعة الفرس . هو ابن نزار بن معدّ بن عدنان ، أبو قبيلة . وإنما قيل له ربيعة الفرس لأنه أعطي من ميراث أبيه الخيل ، وأعطي أخوه مضر الذهب . فسمّي مضر الحمراء . وأعطي أنمار أخوهما : الغنم ، فسمي أنمار الشاة[2] . وذكروا أيضاً : ان نزاراً لما حضرته الوفاة ، آثر إياداً بولاية الكعبة ، وأعطى مضر ناقة حمراء ، فسمّي مضر الحمراء ، وأعطى ربيعة فرسه ، فسمّوا ربيعة الفرس ، وأعطى أنمار جارية له تسمى : بجيلة فحضنت بنيه ، فسمّي بجيلة أنمار)[3] . وذكر أيضاً ان نزاراً لما حضرته الوفاة قسم ماله بين بنيه ، (وهم أربعة : مضر وربيعة وإياد وأنمار . وقال : يا بني ، هذه القبة وهي من أدم حمراء وما أشبهها من المال لمضر، وهذا الخباء الأسود وما شبهه من المال لربيعة ، وهذه الخادم وما أشبهها من المال لإياد ، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه) . ولما مات توجهوا الى (الأفعى بن الأفعى الجرهمي) وكان ملك نجران ، وصادفوا في طريقهم أعرابياً ضل بعيره ، فوصفوه له ، فقال لهم دلّوني عليه ، ولما حلفوا له أنهم لم يروه وإنما وصفوه من أثره ، لم يصدقهم بل أخذهم الى (الأفعى) ليحلفوا أمامه انهم لم يروه ، فلما بلغوه قصّوا قصتهم مع الأعرابي ، وذكروا انهم إنما وصفوه من أثره على الارض . فحكم لهم (الأفعى) بأنهم صادقون ، وانهم لم يشاهدوه ، ثم احتفل بهم بعد ان عرفهم وجرب ذكاءهم ، وحكم بأن لمضر القبة الحمراء والدنانير

---

١ كتاب البغال ، من رسائل الجاحظ (٢/٣١٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٣٤٣) ، (ربع) .
٣ نهاية الأرب (١٦/١٠) .

والإبل ، وهي حمر فسميت : مضر الحمراء ، وان لربيعة الخباء الأسود من دابة ومال ، فصارت له الخيل ، وهي دهم ، فسميت ربيعة الفرس . ثم قال : وما اشبه الخادم ، وكانت شمطاء ، فهو لإياد ، فصارت له الماشية البلق من الخيل وغيرها ، وقضى لأنمار بالدراهم والارض[1] .

و (مضر) من القبائل الكبيرة . وقد عرفت بـ (مضر الحمراء) كما ذكرت . وفسر علماء اللغة والنسب اشتهار (مضر) على نحو ما ذكرت قبل قليل ، وفسره بعضهم بقوله ومضر الحمراء ، لأنه أعطي الذهب من ميراث أبيه . وأخوه ربيعة أعطى الخيل . فلقب بالفرس . أو لأن شعارهم في الحرب الرايات الحمر[2] . وقال بعض علماء اللغة ، وإنما سُمّي مضر بمضر : (لولعه بشرب اللبن الماضر أو لبياض لونه) ، (والعرب تسمي الأبيض أحمر ، فلذلك قيل مضر الحمراء)[3] . وذكر بعض أهل الاخبار ان مضر مضران : مضر الحمراء لسكناها قباب الأدم ، ومضر السوداء لسكناها المظالّ[4] .

ويظهر من هذه التفسيرات ، ان (مضر) كانت قد نعتت بـ (الحمراء) قبل ظهور الاسلام . وان (ربيعة) كانت قد عرفت بـ (ربيعة الفرس) ، ولعل هذا بسبب ، ان (مضر) كانت إذْ ذاك قبائل ذات إبل وتجارة ومال ، ومنها (قريش) التي عرفت بتجارتها وبما جمعته من مال ، فقالوا (مضر الحمراء) . واما (ربيعة) ، فكانت قبائل متبدية غازية محاربة ، لها خيل وفرسان لهذا عرفت بـ (ربيعة الفرس) .

وقد أشار الشاعر (لبيد) الى ربيعة ومضر في شعره حين تعرض لذكر الموت ، فقال :

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر[5]

١ الدميري ، حياة الحيوان (١/٣١) (الافعى) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٨) ، (حمر) .
٣ تاج العروس (٣/٥٤٤) ، (مضر) .
٤ نهاية الأرب (٩١٦) .
٥ ديوان لبيد (١/٢٨) ، (٢/١) .

أراد : هل أنا إلا من أحد هـذين الجنسين ، فسبيلي ان أفنى كما فنيا[1] .
ونسب اليه قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان والداً ودون معدّ فلترعك العواذل[2]

فأشار بذلك الى (عدنان) و (معد) .

ومن أشهر قبائل مضر (قريش) ، حتى ان الناس كانوا إذا قالوا : مضري انصرف ذهنهم الى قرشي . على سبيل الشهرة ، لاشتهار قريش بالمضرية . فلما رأى رجل (أبا سفيان) واقفاً بباب (عثمان بن عفان) ينتظر الإذن بالدخول عليه . قال له : (يا أبا سفيان ، ما كنت أرى ، ان تقف بباب مضري ، فيحجبك ! فقال أبو سفيان : لاعدمت من قومي من أقف ببابه فيحجبني)[3] .

القبائل القوية :

والقبائل مثل الدول ، أنماط ودرجات . منها قبائل قويـة نشطة تعتمد على نفسها في الدفاع عن كيانها ، ومنها قبائل أقل من هذه القبائل شأناً وقوة تتحالف مع غيرها في الدفاع عن نفسها ، لتكون من الحلف كتلة قبلية مهابة . وقبائل صغيرة ليست لها قدرة على الدفاع عن حياضها لوحدها ، لذلك تركن الى التحالف مع قبائل أخرى أقوى منها لتحافظ بذلك على وجودها .

والقبائل القوية هي القبائل الكثيرة العدد والموارد . واذا ترأسها سادات ذوو كفاءة وقدرة ، هابتها القبائل الأخرى ، وسادت على غيرها ، وكونت منهـا ومن القبائل التي تستولي عليها مملكة ، كالذي فعلتـه كندة . ولم يورد العلماء شروطاً في الحد الأدنى أو الحد الأكبر للقبيلة . وذلك من ناحية عـدد العشائر والبطون والأفخاذ ، فلم نعثر على حد معين إذا بلغته جماعة من الناس وجب اطلاق لفظة (قبيلة) عليها . بل نجد علماء النسب يطلقونها أحياناً على بطون وأفخاذ ،

---

١ أمالي المرتضى (١/١٧١) ، (٢/٥٥) ، (تود ابنتاي) .
٢ امالي المرتضى (١/١٧١) .
٣ نهاية الأرب (٦/٨٨) .

فيقولون : قبائل قريش ، ويذكرون أسماءها ، بينما هي في الواقع (آل) أو أرهاط وبطون .

ويقال للقبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها (الأرحى) [1] . وعرفت القبيلة التي لا تنضم الى أحد بـ (الجمرة) . ذكر انها القبيلة تقاتل جماعة قبائل . وكل قبيل انضموا فصاروا يداً واحدةً ولم يحالفوا غيرهم ، فهم جمرة . وقيل : الجمرة : كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحداً ولا ينضمون الى أحد . تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لقراع القبائل كما صبرت عبس لقبائل قيس . ولما سأل (عمر) الحطيئة) عن عبس ومقاومتها قبائل قيس . قال : (يا أمير المؤمنين كنا ألف فارس كأننا ذهبة حمراء ، لا نستجمر ولا نحالف ، أي لا نسأل غيرنا ان يجتمعوا الينا لاستغنائهم عنهم) . والجمرة اجتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها من سائر القبائل [2] .

وذكر ان (الجمرة) ألف فارس ، أي القبيلة التي يكون فيها ذلك العدد من الفرسان ؛ وقيل ثلثمائة فارس أو نحوها . والذي يستنتج من آراء علماء اللغة والنسب في تعريف (الجمرة) ، انها القبائل المقاتلة القوية التي تعتمد على نفسها في القتال ، ولا تركن الى غيرها ، ولا تحالف غيرها لتستفيد من هذا الحلف في قراع القبائل [3] .

ومن مفاخر هذه القبائل كثرة ما عندها من فرسان ، والفرسان في ذلك اليوم هم عماد حركة الجيوش ، ومن أسباب القوة والانتصار . وقد عدّوا القبيلة التي يكون فيها ثلاثمائة فارس أو نحوها جمرة ، وقيل الجمرة : ألف فارس [4] .

ومن جمرات العرب : ضبّة بن اد ، وعبس بن بغيض ، والحارث بن كعب ، ويربوع بن حنظلة [5] . وذكر بعض العلماء ان جمرات العرب ثلاث

١ اللسان (١٤/٣١٤) ، (صادر) ، (رحا) ، تاج العروس (١٠/١٤٦) ، (رحا) .
٢ اللسان (٤/١٤٥) ، (صادر) ، (جمر) ، الحصري ، زهر الآداب (١/٢٥) .
٣ تاج العروس (٣/١٠٧) ، (جمر) .
٤ اللسان (٤/١٤٥) ، (صادر) ، (جمر) .
٥ المحبر (ص ٢٣٤) .

جمرات : بنو ضبّة بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو نمير بن عامر . فطفئت منهم جمرتان . طفئت ضبّة ، لأنها حالفت الرباب وطفئت بنو الحارث ، لأنها حالفت مذحج . وبقيت (نمير) لم تطفأ ، لانها لم تحالف . وورد ان الجمرات : عبس بن ذبيان بن بغيض ، والحارث بن كعب ، وضبّة بن اد ، وهم إخوة لأم . لأن أمهم امرأة من اليمن . تزوجها (كعب بن عبد المدّان يزيد بن قطن ، فولدت له : الحارث بن كعب ، وهم أشراف اليمن . ثم تزوجها (بغيض بن ريث بن غطفان) ، فولدت له عبساً وهم فرسان العرب ، ثم تزوّجها (اد) فولدت له ضبّة . فجمرتان في مضر ، وهما عبس وضبّة وجمرة في اليمن ، وهم بنو الحارث بن كعب . وذكر بعض آخر ان الحارث ، هم بنو كعب بن علة بن جلد . ومنهم من عدّ تميماً من الجمرات [1] .

(قال الخليل : الجمرة كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم ، لا يحالفون أحداً ، ولا ينضمون الى أحد ، تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لمقارعة القبائل كما صبرت عبس لقيس كلها) [2] .

واذا تأملت كلام العلماء في جمرات العرب ، تجده يصادم بعضه بعضاً حتى ان الواحد منهم يذكر عدداً ، ثم يذكر عدداً غيره في موضع آخر من كتابه . وقد اعتذر عن ذلك بعض العلماء إذْ قال : (قلت فاذا تأملت كلامهم تجده مصادماً بعضه مع بعض) ، ثم ذكر أمثلة من أمثلة هذا التصادم ، ثم خلص الى هذه النتيجة ، واعتذر عنهم بقوله : (واذا تأملت كلامهم علمت انه لا مخالفة ولا منافاة ، إلا ان البعض فصل والبعض أجمل) [3] .

وعندي ان للعواطف القبلية دخل في هذا الاضطراب ، فمن النسّابين من تعصب لقبيلة ، فجعلها من الجمرات ، بسبب صلته بها ، ومنهم من تعصب لغيرها ، ومنهم من تعصب على هذه القبيلة أو تلك ، فأخرجها من الجمرات ، فمن هنا وقع هذا الارتباك عند العلماء حين سألوا نسابي القبائل ورواة الأخبار عن أيام

١ تاج العروس (١٠٧/٣) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١٦٠) .
٣ تاج العروس (١٠٧/٣) .

الجاهلية ، وعن الأنساب والقبائل ، وهي من أهم الامور حساسية عند العرب ، فظهرت العصبية في مؤلفات أهل النسب والاخبار حين شرعوا بالتدوين .

وعرفت القبائل القوية الكبيرة التي تفرعت منها جملة قبائل بـ (أم القبائل) . ومن هذه القبائل (بكر بن وائل) [1] . وسبب ذلك ان القبيلة القوية تكبر بسبب انضمام القبائل الصغيرة ، فاذا توسعت وتضخم عددها صار من الصعب عليها البقاء في منازلها ، فتضطر عندئذ على التوسع والانتشار في أرضين جديدة . وقد تغادر أحياء منها منازلها لتجد لها منزلاً طيباً جديداً ، فتبتعد بذلك عن القبيلة الكبيرة التي جمعت تلك الأحياء . فتكون بمثابة الأم للقبائل النازحة . تربطها بها رابطة ذكرى الأمومة ، التي تتحول الى نسب تحفظه ذاكرة حفاظ الأنساب .

وعرفت أربع قبائل بشدتها وبأسها ، فقيل لها : (رضفات العرب) . وهي : (شيبان وتغلب وبهراء وإياد) [2] .

وقيل لـ (كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان) من قضاعة ، و (طيء ابن ادد) ، و (حنظلة بن مالك بن زيد مناة) من (تميم) ، و (عامر بن صعصعة بن معاوية) من (هوازن) ، (جماجم العرب) [3] . وذكر ان (الجماجم) السادات والرؤساء ، وان القبائل المذكورة ، كانت من جماجم القبائل ، أي من رؤسائها ، وقد دعيت بـ (جماجم) ، لأنها بمنزلة جمجمة الرأس بالنسبة للإنسان [4] . أي ان هذه القبائل من القبائل الرئيسة عند الجاهليين .

وبين القبائل ، قبائل دعاها (ابن حبيب) (أثافي العرب) . وهي (سليم) و (هوازن) من (قيس عيلان) ، و (غطفان) ، و (أعصر) و (محارب ابن خصفة) [5] . و (الإثفية) العدد الكثير والجماعة من الناس [6] . والظاهر انها إنما عرفت بذلك لكثرة عددها .

١ المعارف (ص ٩٦) ، (بكر بن وائل) .
٢ تاج العروس (٦/١١٩) ، (رضف) ، المحبر (٢٣٤) .
٣ المحبر (ص ٢٣٤) .
٤ تاج العروس (٨/٢٣٣) .
٥ المحبر (٢٣٤) .
٦ تاج العروس (٦/٣٧) (اثف) ، الثعالبي ، ثمار (١٦١) .

ومن مفاخر القبائل اعتزالها القبائل الاخرى وعدم مخالطتها قبيلة ثانية . وتفخر الاحياء بحردها ايضاً . فيقـال (حي حريد منفرد) ، ومعناه معتزل من جماعة القبيلة لا يخالطهم في ارتحاله وحلوله لعزته ، لأنه لا ينزل في قوم من ضعف وذلة لما هو عليه من القوة والكثرة [1] .

وذكر أن القوم الذين يكون امرهم واحداً يعرفون بـ (الخليط) . وذلك انهم كانوا ينتجعون ايام الكلأ ، فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد ، فتقع بينهم ألفـة ، ويكونون يداً واحدة . فاذا افترقوا ورجعوا الى اوطانهم ساءهم ذلك وربعوا [2] .

وهناك قبائل ضعيفة ، لم تتمكن ان تعيش لوحدها ، لذلك تحالفت مع غيرها من قبائل اقوى منها ، واندمجت بها . كما يندمج الاشخاص بالقبائل ، بالحلف أو بالجـوار او بالموالاة . وعند انضمام الاحياء والعشائر والقبائل الضعيفة الى الاقوى منها ، بطريقة من الطرق ، يتم ذلك ، بطقوس دينية على نحو ما سأتحدث عنه في عقد الاحلاف . بسبب ان العقود في نظر العرب تستوجب البرّ بها والوفاء ، ولهذا تعقد في ظروف خاصة امام الكهنة وفي المعابد .

القاب بعض القبائل :

ولقد لقبت بعض القبائل بألقاب . فقد قيل : مازن غسان ارباب الملوك ، وحمير ارباب العرب ، وكندة كندة الملوك ، ومذحج الطعان ، وهمدان احلاس الخيل ، والأزد اسد البأس ، والذهلان : احدهما ذهل شيبان بن ثعلبة ويشكر ، والآخر ضبيعة وذهل بن ثعلبة ، واللهزمتان : احداهما عجل وتيم اللات ، والأخرى قيس بن ثعلبة وعنزة ، وكلهم من بكر بن وائل ، الا عنزة بن ربيعة [3] .

١ وفي هذا المعنى قول جرير :

نبني على سنن العدو بيوتنا لا نستجير ولا نحل حريدا

تاج العروس (٢/٣٣٣ وما بعدها) ، (حرد) .

٢ ديوان بشر بن أبي خازم (١٢٩) ، (تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) ، نهاية الأرب (٩/١٨) .

٣ العمدة (٢/١٩٤) .

وبعض هذه الالقاب ألقاب حسنة جميلة ، وبعضها ألقاب تشير الى قوة وبأس وشدة ، وبعض منها مقبول لا بأس به . وهي القاب كانت القبائل الملقبة بها تفاخر وتتباهى بها ، او تقبلها ولا ترى فيها أي بأس . وهي على العموم اما ان تكون قد نبعت من القبيلة ، كأن ينعت سيد قبيلة قبيلته بنعت ، فتتمسك به ، او ان ينعتها بذلك شاعر منها او شاعر من قبيلة اخرى ، فيذهب هذا النعت بين الناس ، ويصير سمة للقبيلة . غير ان في الألقاب بعض آخر يشير الى استصغار شأن القبيلة التي نعتت به ، مثل (القين) [1] و (الأجارب) [2] و (الأقارع) [3] ، و (قراد) [4] ، وما شاكل ذلك من ألقاب ، تحولت الى مسميات . اي تحول اللقب فصار اسم علم . وهي نعوت يظهر ان مصدرها شعر الهجاء والقبائل المعادية المتنابزة بالألقاب . وقد شاعت وثبتت لأنها أثرت في القبائل المهجوة وآلمتها ، فتمسك قائلوها بها ، وشاعت بين الناس حتى نسي سبب قولها ، وصارت اسم علم للقبيلة ، ولم ير من جاء بعد ذلك بأساً من الانتماء الى القبيلة المنبوزة به .

وقد رمت بعض القبائل قبيلة إياد بالفسو ، وعيّرتها به ، حتى اذا كان أحد رجالها بعكاظ ، ومعه بردا حبرة ، قام فقال : من يشتري مني عار الفسو بهذين البردين ؟ فقام عبد الله بن بيدرة احد (مَهْو) حيٌّ من عبد القيس ، فقال : هاتها ، واشهدوا اني اشتريتُ عار الفسو من إياد لعبد القيس بالبردين . فلما أتى رحله وسئل عن البردين ، قال : اشتريت لكم بهما عار الدهر ، فوثبت عبد القيس ، وقالت :

ان الفساة قبلنا إياد   ونحن لا نفسو ولا نكاد

وتفرق الناس عن عكاظ بابتياع عبد القيس عار الفسو . ثم ان هذا العار زال عن اياد ولصق بعبد القيس ، فهجوا به كثيراً . وضرب المثل ب (عبد الله بن بيدرة) ، فقيل : (شيخ مَهْو) ، ضرب به المثل في الخسران . وقيل : أخسر صفقة من شيخ مهو [5] .

١ تاج العروس (٣١٦/٩) ، (قان) .
٢ تاج العروس (١٨١/١) ، (جرب) .
٣ تاج العروس (٤٦٦/٥) ، (قرع) .
٤ تاج العروس (٤٦٥/٢) ، (فرد) .
٥ الثعالبي ، ثمار (١٠٦)

وبعض هذه النعوت قيل في الاسلام،من ذلك رمي (تميم) بالبخل واللؤم ، بسبب هجاء الطرماح لها وقوله فيها :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت [1]

ونجد لجرير وللفرزدق وللأحابيش ولغيرهم ذماً في قبائل الشعراء المتهاجين.

ومن القبائل الملقبة : الأحابيش ، وقد تحدثت عنهم ، والمطيبون والأحلاف ، وهم من قريش ، وقد تحدثت عنهم ايضاً ، والأراقم ، وهم : جشم ، ومالك ، وعمرو بن ثعلبة ، ومعاوية ، والحارث ، بنو بكر بن حبيب بن غنم بن ثعلب ابن وائل [2] . وهم احياء من ثعلب ، جعلهم بعضهم ستة . هم : جشم ومالك وعمرو وثعلبة ومعاوية والحرث بنو بكر بن حبيب بن غنم بن ثعلب بن وائل : وقال بعض علماء اللغة ، الأراقم : بطون من بني تغلب يجمعهم هذا الاسم . قيل سمّوا بذلك لأن ناظراً نظر اليهم تحت الدثار وهم صغار ، فقال : كأن أعينهم اعين الأراقم ، فلج عليهم اللقب [3] .

وعرفت بعض القبائل بـ (البراجم) ، وهم خمسة بطون من بني حنظلة : قيس ، وغالب ، وعمرو ، وكُلفة ، والظليم ، وهو مرّة . قيل انهم انما سموا بذلك ، لأنهم تبرجموا على اخوتهم يربوع وربيعة ومالك ، وكلهم ابوهم حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مرة [4] . وذكر ايضاً انهم انما سموا البراجم ، وذلك لأن اباهم قبض اصابعه ، وقال كونوا كبراجم يدي هذه . اي لا تفرقوا ، وذلك اعز لكم . وقيل : لا ، وانما سموا بذلك ، لأنهم تحالفوا ان يكونوا كبراجم الأصابع في الاجتماع [5] .

وعرف (الثعليات) بهذه التسمية ، لانهم بطون ، اسم كل بطن منهم (ثعلبة) . وهم : ثعلبة بن سعد بن ضبّة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وثعلبة بن عديّ

١ امالي المرتضى (١/٢٨٩) .
٢ العمدة (٢/١٩٤) .
٣ تاج العروس (٨/٣١٧) ، (رقم) .
٤ العمدة (٢/١٩٥) .
٥ تاج العروس (٨/١٩٩) ، (البرجمة) .

فزارة ، وأضاف اليهم قوم : ثعلبة بن يربوع [1] . ويقال لهم (الثعالب) ايضاً . وهم قبائل شتى ، فثعلبة في (بني اسد) ، وثعلبة في تميم ، وثعلبة في ربيعة ، وثعلبة في قيس . ومنهما الثعلبتان من طيء . وهما ثعلبة بن جذعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة من طيء . وثعلبة بن رومان بن جندب المذكور . وذكر ان الثعالب في طيء يقال لهم مصابيح الظلام ، كالربائع في تميم . [2]

وأما (الرباب) ، فهم ضبة بن أد بن طابخة ، وتيم ، وعدي ، وعوف ، وهوعكل ، وثور ، وكل هؤلاء بنو عبد مناة بن أد بن طابخة [3] . قيل انهم انما سمّوا بذلك لتفرقهم ، وقيل : سمو رباباً لترابهم ، اي تعاهدهم وتحالفهم على تميم . وقيل : سمّوا بذلك لأنهم أدخلوا أيديهم في رُبٍّ وتعاقدوا وتحالفوا عليه فصاروا يداً واحدة [4] .

واما (الأجارب) ، فهم : خمس بطون من (بني سعد) ، وهم : ربيعة ، ومالك ، والحارث ، وعبد العزى ، وبنو حمار [5] . وورد الأجارب حيّ من بني سعد بن بكر من قيس عيلان ، واذا قيل : الأجربان ، فهما : عبس وذبيان [6] .

و (الحرام) ، هم : بنو كعب بن سعد بن زيد مناة [7] . وذكر ان في العرب بطوناً ينسبون الى (آل حرام) . منهم بطن في تميم وبطن في جذام وبطن في بكر بن وائل . وهناك بطون اخرى عرفت بـ (حرام) [8] .

وأما (الضباب) ، فهم (بنو عمرو بن معاوية بن كلاب) ، قال بعض اهل الانساب انهم اربعة بطون من (بني كلاب) . وقال بعض آخر . انهم اكثر ، وأوصلوهم الى اربعة عشر بطناً [9] .

---

١ العمدة (٢/١٩٥) .
٢ تاج العروس (١/١٦٥) ، (ثعلب) .
٣ العمدة (٢/١٩٥) .
٤ تاج العروس (١/٢٦٤) ، (ربب) .
٥ العمدة (٢/١٩٥) .
٦ تاج العروس (٢/١٨١) ، (جرب) .
٧ العمدة (٢/١٩٥) .
٨ تاج العروس (٨/٢٤٣) ، (حرم) .
٩ العمدة (٢/١٩٥) ، تاج العروس (١/٣٤٥) ، (ضبب) .

واشتهرت بعض القبائل والعشائر والبيوت بنعوت لازمتها في الجاهلية وامتدت الى الاسلام ، فقد عرف بنو مخزوم وبنو جعفر بن كلاب بالتّيه والكبر ، حتى قيل : (اربعة لن يكونوا ومحال ان يكونوا : زبيديّ سخيّ ، ومخزوميّ متواضع ، وهاشميّ شحيح ، وقريشيّ يحب آل محمد) [1] .

واشتهرت (طيء) بالجود . لكون حاتم وأوس بن حارثة بن لأم منهم [2] . وعرفت (باهلة) باللؤم ، حتى ضرب بها المثل في اللؤم ، فقيل : لؤم باهلة [3] . واشتهر (بنو ثعل) بالرمي ، وذكروا بذلك في شعر لامرىء القيس [4] . واكتسبت (مدلج) شهرة واسعة في القيافة ، اذ اختصت بها من بين سائر العرب [5] . وبرز (بنو لهب) في العيافة . فهم أزجر العرب وأعينهم [6] . وعرفت (إياد) بخطبائها ، وملوك غسان بثريدهم ، الذي قيل له : (ثريدة غسان) [7] . وعرفت كندة بغلاء مهور بناتهم [8] ، وعرفت (خزاعة) بالجوع والأحاديث ، قيل لزهمان : ما تقول في خزاعة ؟ قال جوع وأحاديث [9] . اي فقر ودعاوى فارغة وأضغاث أحلام .

وعرفت بعض القبائل بـ (الضبيعات) . وهي (ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) ، أشرفهن . و (ضبيعة أضجم بن ربيعة بن نزار) ، و (ضبيعة بن عجل بن لجيم) [10] . وذكر أيضاً أن في العرب قبائل تنسب الى (ضبيعة) : (ضبيعة ابن ربيعة بن نزار) ، وهو المعروف بـ (الأضجم) ، و (ضبيعة بن اسد ابن ربيعة) ، قال بعضهم انما ضبيعة أضجم ، و (ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ابن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل) ، وهو ابو رقاش أم مالك وزيد مناة ابني شيبان ، وهم رهط الأعشى : ميمون بن قيس . و (ضبيعة بن عجل بن

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٧) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٧) .
٣ المصدر نفسه (١١٩) .
٤ كذلك (١٢٠) .
٥ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٢٠ وما بعدها) .
٦ المصدر نفسه (١٢١) .
٧ كذلك (١٢٢ وما بعدها) .
٨ كذلك (١٢٣) .
٩ البيان (١/٩) ، (لجنة) .
١٠ المحبر (٣٣٥) .

لجيم بن صعب بن بكر بن وائل ، رهط الوصاف . و (ضبيعة بن فريد) . بطن من الأوس من بني عوف بن عمرو ، وضبيعة بن الحارث العبسي [1] .

وذكر (ابن حبيب) اسماء قبائل عرفت بـ (الربائع) . هي في (تميم) . وهي : (ربيعة الجوع بن مالك بن زيد مناة بن تميم) ، و (ربيعة بن حنظلة ابن مالك بن زيد بن تميم) ، و (ربيعة بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم) ، كل واحد منهم عم صاحبه . و (ربيعة بن كعب بن سعد ابن زيد مناة) ، وهم (الحباق) [2] . وورد : في تميم ربيعتان : الكبرى وهي ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وتدعى : ربيعة الجوع . والصغرى وهي : ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة من تميم [3] .

اسماء اجداد القبائل :

ولكلّ قبيلة – كما ذكرت – جد تنتمي اليه وتفاخر وتباهي به . وقد يكون هذا الجـدّ جداً حقيقياً ، اي انساناً عاش ومات ، وساد القبيلة . وترك اثراً كبيراً في قبيلته ، حتى نسبت القبيلة اليه . وقد يكون الجد اسم حلف تكوّن ، وتألف من قبائل عديدة ، حتى عرفت به ، ودعيت بذلك الحلف ، وصار وكأنه اسم جد وانسان عاش . ومن هذا القبيل اسم (تنوخ) على حد زعم أهـل الأخبار ، فقد رووا ان تنوخ قبائل عديدة ، اجتمعت وتحالفت ، وأقامت في مواضعها [4] .

وقد يكون اسم موضع ، اقامت قبيلة به ، فنسبت اليـه . كما يذكر اهل الاخبار من اسم (غسان) . وقد يكون اسم إلَه عبد ، فنسب عباده اليه مثل (بنو سعد العشيرة) ، و (تالب ريام) جد قبيلة (همدان) ، وقد يكون اسم حيوان أو نبات أو ما شابه ذلك ، مما يدخل في دراسة أصول الأسمـاء

---

١ تاج العروس (٤٢٧/٥) ، (ضبع) .
٢ المحبر (٢٣٥) .
٣ تاج العروس (٣٤٢/٥) ، (ربع) .
٤ تاج العروس (٢٥٤/٢) ، (تنخ) .

ومصادرها واشتقاقها ، وهو شيء مألوف نراه عند غير العرب ايضاً ، فليس العرب بدعاً وحدهم في هذه الأمور .

وما يذكره ويرويه اهل الاخبار عن ازمنة اجداد القبائل ، فيه اغلاط وأوهام . فقد يرفعون زمان رجل فيبعدونه كثيراً عن الإسلام ، بينما هو من الرجال الذين عاشوا قبيل الإسلام . وقد يجعلون الرجل من الجاهلية القريبة من الإسلام ، بينما يجب وضعه قبل الإسلام بقرون . ثم هناك أخطاء فاضحة في سرد سلاسل النسب ، وفي اسماء الاشخاص ، ولا سيما في الانساب القديمة ، بحيث يصعب على الباحث الأخذ بها والتأكد منها . اما بالنسبة الى الأنساب القريبة من الإسلام ، فان وضعها يختلف عن وضع الأنساب المذكورة ، اذ يغلب عليها طابع الصحة والضبط .

وقد ذهب المستشرق (بلاشير) الى ان طريقة النسابين بالنسبة الى الارهاط ، هي طريقة ايجابية مقبولة ، ولكنها لا تستند الى اسس صحيحة بالنسبة للقبائل والاحلاف . بسبب ان تحالف القبائل وتكتلها ، راجع الى عوامل المصلحة الخاصة والمنافع السياسية ، وهي تتغير دوماً بتغير المصالح ، تتولد تبعاً لذلك احلاف لم تكن موجودة وتموت احلاف قديمة . وتظهر قبائل كبيرة وتموت غيرها . ولهذا التغير فعل قويّ في تكوين الانساب وفي نشوئها اذ تتبدل وتتغير الانساب تبعاً لذلك التغير ، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد على الانساب الكبرى ، التي دوّنها علماء النسب وجمعوها في مجموعات ، وشجروها حفدة وآباءً وأجداداً [1] .

والمصالح السياسية للقبائل لا تقيم وزناً للأخوة وللنسب . فاذا اختلفت المصلحة ، فلا تجد القبائل عندئذ اي غضاضة في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها لتتحالف مع قبيلة غريبة عنها في النسب ، ومحاربة اختها التي انفصمت عنها . فعبس مثلاً تحالفت مع (بني عامر) في حرب البسوس على (ذبيان) ، وهي اختها ، وتحالفت ذبيان مع (تميم) على (عبس) ، مع ما بين (تميم) و (عبس) و (ذبيان) من عداء قديم . وقد وقعت ايام بين (تغلب) و (بكر) مع

---

١ بلاشير ، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) تعريب الدكتور ابراهيم كيلاني (ص ٢٥ وما بعدها) .

صلة الرحم والقرابة القوية التي ربطت بين القبيلتين الاختين [1] . وقع كل ذلك وحدث بسبب تغير المصالح التي كانت تربط فيما بين هذه القبائل .

ارض القبيلة :

ولكل قبيلة ارض تعيش عليها وتنزل بها وتعتبرها ملكاً لها ، تنتشر بها بطونها وعشائرها ، ولا تسمح لغريب النزول بها والمرور بها الا بموافقتها وبرضاها . وقد اختص كل بطن منها بناحيته فانفرد بها واعتبرها ارضاً خاصة به .

وتكون الارض التي تحل القبيلة بها (منزلاً) لها ، و (منازل) لأبنائها الذين ينزلون بها . يضربون بها خيامهم . فتكون الارض مضارب لها . تستوطنها وتقيم بها وتصير وطناً لها ، اي دار اقامة ، ما دامت تقيم بها . وموضع بيوتها . لذلك يعبر عن الارض التي تقيم بها القبيلة بـ (بيوت القبيلة) و بـ (بيوت العشيرة) ، لأنها مضرب البيوت .

وتمتد ارض القبيلة الى المواضع التي تصل بيوتها اليها . فما يقع الى الداخل فهو من موطن القبيلة ، وما وقع خارج حدود نفوذ القبيلة خرج عن مواطنها . وتعين الحدود بالظواهر الطبيعية البارزة ، مثل تلال أو أودية أو رمال أو ما شاكل ذلك . ونظراً الى عدم تثبيت القبائل لحدودها على الأرض برسم معالم بارزة لها ، صارت الحدود سبباً من اسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بين القبائل .

وتكون مواضع الماء في ارض القبيلة قبلة ابنائها ، يستقون منها ما يحتاجون اليه من (اكسير الحياة) . وتكون هذه المواضع آباراً او عيون ماء او حسياً وما شاكل ذلك . وتتفق القبيلة فيما بينها على حقوق السقي . ويؤدي الاخلال بحقوق السقي الى وقوع نزاع ، قد يؤدي الى قتال ، ولا سيما في ايام القيظ وانحباس المطر ، حيث تشتد الحاجة الى الماء ، ويصير افتقاده سبباً لهلاك الانفس والمال . والقاعدة ان ماء القبيلة مشاع في القبيلة . اما المياه المحمية : المياه التي تحمى للسادة والرؤساء ، والمياه الخاصة ، كالآبار التي يحفرها اصحابها ، فتكون خاصة بهم . لا يجوز الاستقاء منها الا باذن .

١ بلاشير (٢٥) .

ولكل قبيلة حق حماية ارضها . شأنها في ذلك شأن الدول . واذا اراد غريب اجتياز ارضها فلا بد من ان يكون في حماية انسان منها . واذا كان المجتاز جماعة ، كأن يكون قافلة او قبيلة او حيّاً يريد التنقل الى ارض اخرى ، ولا بد له من المرور بأرض هـذه القبيلة للوصول الى هدفه ، فعليه اخذ اذن من القبيلة يخوله جواز المرور بها ، والا تعرض للمنع والقتال . لذا كان لا بد للتجار من ترضية سادات القبائل للسماح لهم بالمرور ، بدفـع حق المرور ، وهي اتاوات تعارفت القبائل آنذاك على اخذها من المارة .

سادات القبائل :

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة ، مثـل ملك مملكة بالنسبة لمملكته . فهو الرئيس والمرجع والمسؤول عن أتباعه في السلم والحرب . يقصده ذوو الحاجات من ابناء القبيلة ان احتاجوا الى حاجة . وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل ، ويترأسها ، وقد ينصب نفسه ملكاً عليها ، كالذي فعله ملوك كندة من بني (آل اكل المرّار) وغيرهم من الملوك . وقد لا نخطىء اذا ما قلنا ان اكثر مؤسسي الأسر المالكة في بلاد العرب ، كانوا سادات قبائل في الأصل ، استغلوا مواهبهم وقابلياتهم ، وامكانية قبيلتهم ، وسخروها في سبيل الحصول على الملك ، وعلى التلقب بلقب (ملك) ، فنالوه .

ويقال للسيد : المسوّد . ويذكر علماء اللغة ان السيد يطلق على الربّ والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومحتمل أذى قومه والزوج والمقدم والرئيس . وسيد القبيلة هو رئيسها . تقول العرب : (فلان سيدنا) اي رئيسنا والذي نعظمه ، وتقول (ساد قومه) [١] . وهي من الألفاظ المستعملة عند عرب الحجاز ونجد والعراق وبلاد الشام ، اما العربية الجنوبية ، فقد استخدمت ألفاظاً اخرى بدلاً عنها .

ويقال لسيد القبيلة (رئيس القبيلة) . والرئيس ، سيد القوم . والرياسة : السيادة . ويقال فلان رأس ورئيس القوم [٢] . ورؤساء القبائل هم سادات القبائل

---

١ اللسان (٣/٢٢٨ وما بعدها) ، (سود) .
٢ اللسان (٦/٩٢) ، (رأس) .

والمتولون لامورها . كما يقال فلان : ساد قومه ، وهو سيد القوم وسيدهم . فاللفظتان مترادفتان وفي معنى واحد . ووردت لفظة (زعيم) بمعنى سيّد القوم ورئيسهم والمتكلم عنهم . والجمع زعماء . كما وردت الزعامة ، الشرف والرياسة على القوم وحظ السيد من المغنم [1] . غير ان استعمال (زعيم القبيلة) ، أقل في الكلام من استعمال (سيد) و (رئيس) .

وأنا حين استعمل (سيد قبيلة) ، اقصد بها الرئيس الفعلي لقبيلة ، المسؤول عنها ، والمدبر لامورها والمرجع الاخير لها ، والذي يكون كالملك او الحاكم بالنسبة لقبيلته لأن هناك سادات آخرين سادوا في القبيلة وقد عرف خبرهم في كل مكان ، وربما اشتهر ذكرهم اكثر من اشتهار اسم سيد قبيلتهم ، ومع ذلك فانهم لا يُعدون رأس تلك القبيلة . لأن الرأس المسؤول عن القبيلة رأس واحد ، الا ان العرف ان يسود الرؤساء في القبائل ، هو كما يترأس الاشراف امر مدينة ، بان يترأسوا عمائر القبيلة ثم فروعها الدنيا التي تلي العمائر ، فهم رؤساء في قبيلة بالمعنى المجازي ، الذي جوز اطلاق لفظة (القبيلة) حتى على الأفخاذ والبطون ، بل والبيوت . بأن يزوا الرئيس بالخصال الحميـــدة ، التي تجلب لهم الشهرة والسيادة ، وتجعل اسمهم يعلو اسم رئيس القبيلة في كثير من الاحايين .

صفات الرئيس :

وعلى من يسود في قومه ان يتحلى بخلال حميدة وسجايا طيبة ، تجعل الناس يعترفون بسيادته عليهم ، كأن يتحمل أذى قومه ، ولذلك قيل للسيد (محتمل أذى قومه) ، وأن يكون شريفاً في افعاله حليماً كريماً ، يغض نظره عن اعمال الحمقى والجهلة ، وأن يتجاهل السفلة والسفهاء الجاهلين . فلا يغضب ولا يثور ، وأن يكظم غيظه . جاء في المثل : (احلم تسد) [2] . وان يحترم الناس مهما كانت منازلهم ، وأن يؤلف بينهم ويكتسب محبتهم ، وأن يكون ملاذهم ، وأن يجعل

١ تاج العروس (٣٢٤/٨ وما بعدها) ، (زعم) ،
Goldziher, Muh. Stud., II, S., 52.

٢ بلوغ الأرب (٩٩/١ وما بعدها) .

بيته بيتاً للجميع ومضيفاً لكل من يفد اليه من كبير أو حقير أو صغير ، وأن يفتح قلبه للجميع [1] .

وعلى الرئيس ان يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو ، وأن يكون شجاعاً لا يهاب الموت ، حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه ، وعليه ان يكون قائد قبيلته وواضع خطط الحرب . لأنه رمز القبيلة ورمز النصر وباعث الهمم في نفوس ابنائه ، وهو أب القبيلة . واذا لا يكون قدوة لأبنائه في ساعات الشدة والخطر ، فترت همم ابناء القبيلة . ولا يثير القبائل الا الشعارات والنخوة وإلهاب المشاعر ، حتى تندفع اندفاعاً في القتال . والرئيس هو روح القبيلة وشعارها ، فاذا اصيب بمكروه أو جبن في القتال ، واذا خرّ صريعاً في المعركة ، هربت قبيلته في الغالب ، وتراجعت القهقرى ، الا اذا وجد في القبيلة من يؤجج فيها نار الحماسة ويبث فيها العزيمة للوقوف والصمود . ويكون مثل هذا الرجل من الشجعان الأقوياء اصحاب الارادة القوية الذين يعرفون نفسية قبيلتهم ، والا فليس من السهل على رجل التأثير على قبيلة وهي في مثل هذا الوضع .

ولأثر الرئيس في مصير الحرب ، كان الفرسان يوجهون كل قوتهم نحو الرؤساء ، لأنهم على علم بأنهم ان تمكنوا من الرئيس فقتلوه ، غلبوا علوّهم في الغالب وقضوا عليه . فهو الروح المعنوية عند الاعراب . يليه حامل اللواء فاذا سقط حامل اللواء قتيلاً أسرع من عُين ليكون خليفته في التقاط الراية وحملها ، واذا سقط هذا ايضاً اسرع من يأتي بعده ، وهكذا . فان سقوط الراية معناه هزيمة منكرة ستحيق بمن سقطت رايته ، ولهذا كانوا يختارون رجالاً شجعاناً يولونهم أمر اللواء ، بحيث اذا سقط احدهم اخذ من يليه مكانه ، وهكذا حتى النصر .

صعوبة انقياد القبائل :

وليست قيادة القبيلة بأمر سهل يسير ، لا سيما اذا كانت القبيلة قبيلة كبيرة ذات عشائر وأرهاط منتشرة في مواضع متباعدة . فان رؤساء العشائر يستغلون فرصة ابتعادهم عن ارض الأم ، ويعلنون انفصالهم عنها ، وتوليهم امرهم بأنفسهم .

---

[1] لامانس ، مجلة المشرق ، ١٩٣٢م عدد ٢ (١١٠) .

فيحدث الانفصام والانقسام ، وقد يعلن الرئيس حرباً على العشيرة العاقة المنشقة ، ولهذا يعد سيّد القبيلة الذي تجتمع له رئاسة قبيلة كبيرة من السادات المحظوظين . وحظه هو ثمرة ذكائه ومواهبه وقابلياته ولا شك . ومن هؤلاء المحظوظين الذين دوّن اهل الاخبار اسماءهم : (جَحْدَل بن ثعلبة اليشكري) ، سيد (بكر بن وائل) ، فقد اجتمعت (بكر) حوله ، و (عمرو بن شيبان بن ذهل) ، و (عمرو بن قيس الأصم) و (الكلح) و (بشر بن عمرو بن مسعود) ، و (همام بن مرة) و (الحارث بن عباد) [1] ، وقد اجتمعت حولهم (بكر ابن وائل) ، وانضوت تحت لوائهم ، وذلك في مناسبات أشار اليها اهل الأخبار ، مثل وقوع بعض الايام . ولولا هذه الايام ، وتلك المناسبات التي اضطرت القبيلة على التكتل والتجمع فيها حول زعيم واحد ، ليخلّصها من المخاطر ، لما تجمعت حوله ، لأن التجمع لا يلتئم مع طبع أهل البادية ، الذين جبلتهم الطبيعة على التشتت والتفرق .

وذكر اهل الاخبار ان (خالد بن جعفر بن كلاب) ، و (عروة الرحال ابن عتبة بن جعفر) ، و (الأحوص بن جعفر) ، و (عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب) ، هم اربعة اجتمعت عليهم (هوازن) ، ولم تجتمع (هوازن) كلها في الجاهلية الا على هؤلاء الاربعة . وهم كلهم من (بني جعفر بن كلاب) [2] . مما يدل على صعوبة انقياد عشائر (هوازن) لزعامة رجل واحد . وهذا مثل واحد من أمثلة صعوبة انقياد القبائل لرئاسة رئيس ، لأن الانقياد لرئيس واحد ، معناه في نظر رؤساء العشائر ، خضوعهم لغيرهم واستذلالهم له وتنازلهم عن حريتهم وعن استقلالهم في ادارة شؤون عشائرهم لغيرهم ولو كان هذا الرئيس منهم ، أضف الى ذلك الخسائر المادية التي قد يصابون بها من هذا الانقياد .

وقد عرفت قبائل (ربيعة) خاصة بتخاصمها وبتباغضها وبتحاسد رؤسائها ، لذلك لم تقبل في الغالب بتملك رئيس منها عليها . بل كان سادتها يراجعون التبابعة على ما يقوله اهل الاخبار لتمليك سيد منهم عليهم . كانوا يراجعون اليمن كلما اختلفوا فيما بينهم على تمليك ملك عليهم . وقد ذكر اهل الاخبار ان من جملة

١ المحبر (ص ٢٥٤) .
٢ المحبر (٢٥٣ وما بعدها) .

اسباب تعين والد الشاعر (امرىء القيس) الكندي ملكاً على بني اسد وتعيين أعمامه ملوكاً على القبائل الاخرى ، هو تناحر سادات ربيعة فيما بينهم ، وتباغضهم وتفرق كلمتهم ، حتى كان كل واحد منهم يرى انه أولى من غيره بالملك ، فدبّ الخــلافُ بين القبائل ، وتطاول السفهاء على الاشراف وأهل البيوتات ، وعندئذ وجد سادات القبائل ان الأمن لا يرجع اليهم الا بذهابهم الى كندة لتنصيب ملوك منها عليهم . فكان ما كان من تنصيب والد الشاعر على (بني اسد) وتنصيب أعمامه على القبائل الاخرى . الا ان الأمن لم يستتب ولم يستقرّ طويلاً بين هذه القبائل المتنازعة ، اذ قرر الرحيل عنها ، وعاد الخصام داء (ربيعة) الى وطنه . وعادت حليمة الى عادتها القديمة على ما يقوله اهل الامثال .

وقد أشار اهل الاخبار الى رجال ذكروا انهم تمكنوا من حكم معدّ وربيعة . ومعنى ذلك انهم كانوا من ذوي الشخصيات القوية . وبذلك تمكنوا من فرض انفسهم على هذه القبائل المتباغضة . من هؤلاء : حذيفة بن بدر . وهو من سادات غطفان وبيتهم . وهو والد (حصن) ابو عيينة . وقد ادرك (عيينة) النبيّ ، فأسلم ثم ارتد وأسلم بعد ذلك على يد ابي بكر [1] . وقد قاد (حذيفة) (بني فزارة) و (مرّة) يوم النسار ، ويوم الجفار ، وفي حرب داحس حتى قتل فيها يوم الهباءة . وقد عرف بـ (ربّ معدّ) [2] . وما كان ليعرف بذلك لو لم يكن من اصحاب القوة والمكانة حتى ساد قبائل معدّ .

ومن سادات (ربيعة) (الأفكل) ، و (عمرو بن جعيد) من (بني الديل) . وكان ذا بغي ، فسارت اليه (بنو عَصَر) فقتلوه [3] . و (الحارث الأضجم بن عبد الله بن ربيعة بن دوفن) ، من (بني دوفن) . قديم السؤدد فيهم كانت تجبى اليه اتاوتهم [4] . و (عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تيم بن النمر بن قاسط) ، وكان سيد (النمر بن قاسط) في الجاهلية وصاحب مرباعهم [5] .

١ ابن دريد ، الاشتقاق (١٧٣) .
٢ المحبر (٢٤٩) ، (٤٦١) ، جمهرة (٢٤٣) .
٣ الاشتقاق (١٩٧) .
٤ الاشتقاق (١٩٣) ، جمهرة (٢٧٥) .
٥ الاشتقاق (٢٠٢) ، جمهرة (٢٨٣) .

وكان (القُدار بن الحارث) رئيس ربيعة في أول الإسـلام [1] . وورد ان (القدار بن عمرو بن ضبيعة) ، كان رئيس ربيعة ، يلي العزّ والشرف فيهم [2] .

ويمتاز سيد القبيلة عن سائر رجال قبيلته ببيتـه الكبير ، المكوّن من خيمة ضخمة ، والّتي قد تتكون من جملة قطع من النسيج خيطت بعضهـا الى بعض لتتكون منها خيمة كبيرة . تكون مضيفاً للرئيس ومجلساً للقوم ، يؤمـه سادات القبيلة وأشراف الأحياء . وموئلاً لذوي الحاجات من الناس . وله خيام أخرى ، أعدت لحريمه ولأهله . فهي منازل رئيس القبيلة الخاصة به وبأفراد أسرته .

وامتاز الرئيس عن أفراد قبيلته بكثْرة عـدد نسائه . فسيد القبيلة مزواج في الغالب ، عنده المال ، وعنده الجاه والرئاسة ، فلا يجد صعوبة في الحصول على زوجات صغيرات السن لينجبن له أولاداً ، يكونون له حصناً حصيناً وأمناً له على ماله ، وعوناً له على القبيلة . فيحمي بهم نفسه ممن قـد يطمع في الرئاسة وفي انتزاع السيادة منه بالقوة .

ومن واجب الرئيس الاشراف على تقسيم الغنائم ، ومن حقه المرباع إن كان من ذوي المرباع ، وله ان ينفق من جيبه على الضيوف ، وان يفتح بيته للقادمين اليه من مختلف الناس ، وان يستقبل ضيوف القبيلة بوجـه فرح بشوش . وان يرعى شؤون قبيلته ، ويسأل عن أبنائها ، وعليه ان يسعى لفك من يقع من أبناء عشيرته أسيراً في أيدي قبيلة أخرى ، وان يشارك قومه في تحمل الديات ، حين يعجز رجال القبيلة عن حملها ، وعليه ان يعين أتباعه في كل جناية يجنونها ، فهي وان صدرت من غيره لكنها تقع في النهاية على رأس سيد القبيلة . فعليه وحده ايجاد حل لها ومخرج . ومن هنـا كَنَّتِ العربُ عن سيد القبيلة بقولها (سيد معمم) ، يريدون ان كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه [3] .

رئاسة القبائـل :

لا نملك نصاً جاهلياً فيه شيء عن الشروط الّتي يجب ان تتوفر في الرجل كي

١ الاشتقاق (١٩٥) .
٢ تاج العروس (٤٨٣/٣) ، (قدر) .
٣ عيون الأخبار (٢٢٦/١) .

يكون رئيساً على قبيلة . ولا نجد في روايات أهل الأخبار أخباراً واضحة صريحة عن طريقة تولي الرئاسة عند الجاهليين . لذا لا نستطيع البت في موضوع شروط انتقال الرئاسة من رئيس قبيلة متوفى أو مخلوع الى رئيس جديد . وهل كانت الرئاسة وراثية على طريقة انتقال العروش في النظام الملكي ، أم كانت اختياراً وانتخاباً وشورى ، بمعنى ان اختيار الرئيس يكون برأي من رؤساء القبيلة ، وليس بسنة الارث . والذي ظهر لنا من دراسة أخبار أهل الأخبار في هذا الموضوع ان الجاهليين كانوا قد ساروا على سنة الارث في تولي الرئاسة كما ساروا على طريقة الاختيار .

أما انها كانت رئاسة وراثية ، فلأنها رئاسة مثل سائر الرئاسات عند العرب ، كرئاسة المكربين والملوك والأقيال والأذواء والأقيان وكل الرئاسات الجاهلية الأخرى . وقد كانت هذه الرئاسات رئاسات وراثية في الأغلب ، لذا كانت رئاسة القبيلة بالوراثة أيضاً . تنتقل الرئاسة من الأب الى الابن الأكبر . ويؤيد هذا الاستنتاج ما نجده في أكثر روايات القبائل ، وتولي الأبناء رئاستها بعد الآباء .

وأما انها بالنص والتعيين ، فكالذي ذكروه من أمر اختيار (حصن بن حذيفة ابن بدر) ابنه (عيينة) لرئاسة قومه من بعده . ولم يكن عيينة أليق من غيره بأن يكون سيد قومه ، فاستدعى أولاده وقال لعيينة : أنتَ خليفتي ورئيس قومك من بعدي . ثم قال لقومه (بني بدر) : لوائي ورياستي لعيينة ، ثم أوصاهم عما يجب ان يفعلوه على عادة السادات عند اشتداد المرض بهم وشعورهم بدنوّ أجلهم . من وجوب التكتل والتهيؤ للقتال وعدم التجرؤ على الملوك ، فان أيديهم أطول من أيدي الرعية . فسمعوا له وأطاعوا ، واختاروه رئيساً عليهم [1] .

وأما انها شورى ورأي ، فعند عدم وجود عقب للرئيس المتوفى ، أو عند وجود تنافس وتباغض بين أبناء الرئيس المتوفى بسبب كونهم من زوجات مختلفات فيما بينهن ، فيخشى عندئذ من انقسام القبيلة على نفسها ، ويحسم الخلاف باختيار أحزم الأبناء أو تنصيب رجل قريب أو بعيد عن الرئيس ، يجدونه أهلاً وكفؤاً لتولي الرئاسة فيولونها إيّاه . وقد يلجأون الى الرأي في حالة تشتت شمل القبيلة ، بظهور رجال أشراف فيها ، لهم كفاءات وقابليات وشهرة تفوق شهرة أسرة

---

١ امالي المرتضى (١/٥٣١) .

الرئيس المتوفى ، يطمعون في الرئاسة ، فينتخبون اكفأهم وأقواهم ليكون الرئيس الجديد .

وقد لا تجتمع كلمة المتنافسين على الرئاسة ، ولا تتفق على اختيار رئيس ، فلا يكون أمام القبيلة في مثل هذه الحالة سوى اللجوء الى الملوك في الغالب لتعيين رئيس عليهم يختارونه من جماعتهم وينصبونه سيداً عليهم . وقد كان هذا شأن قبائل (معدّ) في الغالب ، إذْ كانت قبائلها متبدية متنافرة ، ذات رؤساء متحاسدين ، لا يقرون برئاسة واحد منهم ، لذلك كانوا يلجأون الى ملوك اليمن لتعيين رئيس من غيرهم عليهم ، وبذلك يحل الخلاف .

ونجد في شعر (عامر بن الطفيل) ، وهو أحد مشاهير فرسان العرب - تغنّياً بفعاله وبشجاعته وبدفاعه عن قومه ، وتبجحاً بسيادته على قومه : واعتزازاً بأن سيادته هذه لم تأت اليه عن وراثة ، وانما جاءته بفعاله وبدفاعه عن قومه وذبّه عن حماهم ، فسوّدوه لهذه الخلال عليهم ، ولم يسوّدوه لانه (ابن سيد عامر) ، وفي هذا الشعر دلالة على ان الرئاسة كانت بالوراثة ، وان والد (عامر) كان سيّداً ، فأراد (عامر) ان يتبجح بنفسه على غيره ، بأنه ليس من أولئك الرؤساء الذين يرثوا السيادة إرثاً ، فلا دخل لهم بمجيئها اليهم ، وانما أخذها عن جدارة واستحقاق ، ولو لم يكن أبوه سيّداً ، لجاءته السيادة تركض اليه ، لما فيه من محامد ومكارم . فسيادته سيادة وراثة لانه ورثها عن أبيه ، وسيادة بجدارة جاءته لما فيه من خصال السادة الأشراف [1] .

خصال السادة :

يذكر أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا لا يسوّدون إلا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان وقالوا : قيل :

١ انى وان كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة ابى الله ان اسمو بام ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب
الشعر والشعراء (١٩٢) ، البلاذري ، انساب (١٧٩/٢) ، ابن قتيبة ، عيون الأخبار (٢٢٧/١) .

لقيس بن عاصم بم سدت قومك؟ قال ببذل الندى وكفّ الأذى ونصرة المولى ، وتعجيل القرى . وقد يسود الرجل بالعقل والعفة والأدب والعلم . ووصف بعضهم السؤدد : بأنه اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة . وقد سئل أحد السادات بأي شيء سدت قومك ؟ فقال : (إني — والله — لأعفو عن سفيههم ، وأحلم عن جاهلهم ، وأسعى في حوائجهم وأعطي سائلهم ، فمن فعل فعلي فهو مثلي ، ومن فعل احسن من فعلي فهو أفضل مني ، ومن قصر عن فعلي فأنا خير منه) [1] .

وذكر أهل الأخبار أيضاً ، ان العرب كانت تسوّد على أشياء . فكانت مضر تسود ذا رأيها . وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب [2] .

والرئيس الناجح ، هو الرئيس الذكي الفطن الذي تكون له قدرة وقابلية على التصرف بذكاء وبحذر وفقاً لعقلية القبائل . فيعرف كيف يعامل كل شخص يأتي اليه المعاملة التي تلائمه وتليق به ، بحلم وصبر وأناة . وبقساوة وغلظة أحياناً من أجل اخافة أتباعه ، لخوف القبائل من البطاش الظالم . على ألا يسرف في ظلمه ويمعن في غيّه ، فيقع له ما وقع لكليب وائل ولأمثاله من الذين أسرفوا في الاعتماد على أنفسهم وعلى قابلياتهم ، فأهلكوا أنفسهم . ولهذا كان من شأن عقلاء سادات القبائل عرض المنازعات والخصومات القبلية للحكم فيها . وبذلك يخلصون أنفسهم من مشكلات صعبة كانت ستقع تبعتها على أكتافهم فيما اذا انفردوا بالنظر بها دون سائر الرؤساء .

ومن أعراف الحكم عند القبائل ، ان سيد القبيلة يستمد رأيه من رأي أشراف قبيلته ووجوهها في الامور الهامة التي تخص حياة القبيلة . ليستنير برأيهم ، وليعرف رأي أتباعه في معالجتها . وتساعد هذه المشورة سادات القبائل مساعدة كبيرة في التمكن من ادارة القبيلة ادارة حسنة ترضي الغالبية . وقد توصل الرئيس الى النجاح والنصر في الغزو . فيرتفع اسمه ويعلو نجمه . ولا زال سادات القبائل يستمعون الى مشورة رؤساء القبيلة ، ويقيمون لرأيهم وزناً الى يومنا هذا . ورأيهم هنا هو مجرد مشورة ونصح . بمعنى انه لا يلزم سيد القبيلة بوجوب العمل بموجبه . فقد ينبذه ويعمل برأيه وبقراره ، لا سيما اذا كان قوي الشخصية متجبراً عنيداً .

---

١ بلوغ الأرب ٢/١٨٧ وما بعدها) .

٢ بلوغ الأرب (٢/١٨٧) .

وقد يكون النجاح حليفه ، فتزداد بذلك هيبته على أتباعه ، وقد يمنى بخسارة فادحة ، فتقضي عليه وعلى رئاسته وربما تقضي على حياته أيضاً . والنظام القبلي بعد ، هو نظام استشاري ، الرأي فيه لأصحاب الرأي فقط ، أما الأفراد أي أبناء القبيلة وسوادها ، فلا رأي لهم في تسيير الأمور ، إلا اذا برز أحدهم وظهر في قبيلته بمواهب يعترف بها ، كالحكمة أو الشرف ، فقد يدخل في عداد أولي الرأي ، ويكون له عندئذ عندهم رأي مسموع .

وعلى الرغم من استبداد بعض السادة برأيهم ، وحكمهم بما يوحي اليه به حسهم وشعورهم ، وتصرفهم في الأمور تصرفاً كيفياً ، فانهم كانوا يقيمون مع كل ذلك وزناً للرأي ، وقد يكون هذا الرأي رأي رجل مغمور من عامة أبناء القبيلة ، أو رأي شاعر أو خطيب أو أي شخص آخر من أبناء القبيلة . فالحكم عند القبائل بهذا ، حكم فردي استشاري يتوقف الرأي فيه على شخصية وكفاءة رئيس القبيلة ، وعلى شخصية وكفاءة رؤساء البطون والأحياء .

وقد أدت غطرسة وعنجهية بعض سادات القبائل بهم الى الموت فقد لجأوا الى القسوة والقهر في الحكم واستبدوا برأيهم استبداداً فرّق بينهم وبين رؤساء قبيلتهم ، مما دفع بعض فرسان القبيلة وشجعانها على قتلهم للتخلص منهم ، كالذي كان من أمر (كليب وائل) ، الذي تعسف في حكمه وتجبر فاختار خيرة الأرضين الخصبة ، فجعلها حمى له ، لا يحق لأحد الرعي بها ، إلا باذن منه . فأزعج عمله هذا من خضع لحكمه ، فكانت عاقبته القتل .

والحلم عند العرب من أهم الصفات التي تؤهل الإنسان لحكم الناس . وهو عندهم الأناة والعقل ، وقيل ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب[1] . ومعالجة الأمور بهدوء وضبط أعصاب . وهو أحزم سياسة تلائم طبع الحكم . وقد عدّوه من خلال الحكماء .

وممن عرف واشتهر أكثر من غيره بالحلم : (الأحنف بن قيس) . حتى ضربت العرب به المثل . فقالت : هو أحلم من الأحنف . وقد نسب أهل الأخبار

---

١ تاج العروس (٢٥٦/٨) ، (حلم) .

له حكماً كثيرة وأمثالاً ، هي من الأمثال التي ينسبونها في العادة الى الحكماء [1] . وذكروا من أمثلة حلمه انه كان قاعداً يوماً بفناء داره محتبيا بحمائل سيفه يحدث قومه ، حتى أتي بمكتوف ورجل مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك ، فما قطع كلامه حتى انتهى ، ثم كلم ابن أخيه وأنبه وعفى عنه ، ثم قال لابن آخر له : وار أخاك وحلّ كتاف ابن عمك وسق الى أمك مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة . الى قصص آخر من هذا القبيل [2] .

النسب :

النسب هو جرثومة العصبية وأساسها ولهذا حرص العربي على حفظ نسبه ، ولا يزال يحرص عليه ، فيروي لك شجرة نسبه حفظاً ويرفعها الى جملة أجداد .

وقد وجد السياح أعراباً سردوا لهم نسبهم سرداً من غير كتاب مكتوب الى عشرات من الأجداد ، وقد تأكدوا بعد فحوص واختبارات ان ما قيل لهم وسرد عليهم كان صحيحاً في الغالب .

واما أهل المدر ، فإن حرصهم على حفظ نسبهم ، وإنْ لم يكن حرص أهل الوبر ، غير ان فيهم من يحفظ شجرة نسبه ، وفيهم من يحتفظ بها مكتوبة ، وقد شهد على صحتها جماعة من النسّابين . وفي جملة من يعتني بنسبه اعتناءً كبيراً ، ويأبى الزواج من غير الأسر الكفوءة له ، السادة المنتمون الى الرسول ، من ذوي الجاه والحسب والنسب ، والأشراف السادات من أهل الحضر والوبر .

وحفظ النسب هذا هو استمرار لما كان عليه الجاهليون من حرص على حفظ أنسابهم . واذا كنّا لا نملك اليوم جرائد جاهلية في النسب ، فإن في بعض الكتابات الجاهلية تأييداً لما نقول . فبين أيدينا في هذا اليوم كتابات جاهلية ذكرت أسماء جملة أجداد لأشخاص دوّنوا أسماءهم في تلك الكتابات . وقد دوّن على شاهد قبر (معنو) (معن) ، اسم أبيه وجدّين من أجداده [3] ، كما عثر على

١ الفاخر (٢٤٢) ، الثعالبي ، ثمار (٩٢،٨٥،٤) .
٢ نهاية الأرب (٦/٥٠ وما بعدها) .
٣ F. Altheim und R Stiehl, Die Araber. I, S., 280

أسماء عشرة أجداد في بعض الكتابات الصفوية [١] . وهنالك امثلة أخرى من هذا القبيل ، تثبت عناية العرب في الجاهلية بتدوين أنسابهم وحفظها . وهي من أهم المزايا التي حافظ عليها العرب الى هذا اليوم .

ويبدأ النسب بالأب في الغالب ، وبـ (الأم) في الأقل في حالات تتغلب فيها شهرة الأم على شهرة الأب ، ويكون (البيت) إذن جرثومة النسب . وحين ينسب إنسان يقول انه : (ابن فلان) . ويشمل نسب البيت الأب والأولاد والبنات والزوجة أو الزوجات ، وهم أكثر الناس التصاقاً بالأب . وقد يقال انه من (بيت فلان) تعبيراً عن الانتساب الى رئيس ذلك البيت . وقد عرف بعض علماء اللغة النسب : انه القرابة ، أو هو في الآباء خاصة ، وان النسب ان تذكر الرجل فتقول : هو فلان ابن فلان ، وذكر انه يكون من قبل الأم والأب [٢] .

والبيت هو بيت أب . ولما كان المجتمع مجتمع بيوت ، صار النظام فيه نظاماً أبوياً . السلطة العليا فيه للأب ، اليه يُنتسب وهو المسؤول قانوناً عن العائلة . يتساوى في ذلك مجتمع الحضر ومجتمع أهل الوبر .

ويذكر أهل الأخبار ان العرب تنسب ولد المرأة الى زوجها الذي يخلف عليها بعد أبيهم . وذلك عنى حسان بن ثابت بقوله :

ضربوا علياً يوم بدر ضربة ... دانت لوقعتها جميع نزار

أراد بني عليّ هؤلاء من كنانة . وهم بنو عبد مناة . وانما قيل لهم بنو عليّ عزوة الى عليّ بن مسعود الأزدي . وهو أخو عبد مناة لأمه ، فخلف على أم ولد عبد مناة . وهم : بكر وعامر ومرة وامهم : هند بنت بكر بن وائل النزارية فرباهم في حجره فنسبوا اليه [٣] .

واذا توفي والد وله مولود في بطن زوجته ، أو كان طفلاً رضيعاً وكان له

١ Littmann, Thamud und Safa, 1940. S. 98, Inschriften. 4, 5, S., 121, Die Araber, I. S., 280.

٢ تاج العروس (٤/٢٦٠ وما بعدها) (طبعة الكويت) ، (ن س ب) .

٣ تاج العروس (١٠/٢٥٣) ، (علو) .

أعمام ، تركه أعمامه عند أمه حتى يكبر ، ثم يأخذه أعمامه . وقد تأتي أمه معه . ولكن العادة ان الأم تبعُ أهلها أي عشيرتها ، فاذا توفي زوجها وهي من عشيرة أخرى ، تركت عشيرته لتعود الى عشيرتها ، فاذا كبر المولود خُيّر بين البقاء مع أمه أو الالتحاق بأعمامه ، أي بعشيرة والده . والأغلب ان يختار الولد عشيرة الوالد ، لأن نسب الولد من نسب والده . فيلتحق المولود بعشيرة الأب . وتقدّم عشيرته على عشيرة الأم . إذْ يشعر ان عشيرة أمه وان كانت قريبة منه ، إلا ان قربه منها ليس كقربه من عشيرة والده ، وقد يعير باختياره عشيرة أمه عشيرة له . ولدينا أمثلة تشير الى تعيير الأولاد أولاداً آخرين ، لالتحاقهم بعشيرة أمهم وتركهم عشيرة والدهم ، كالذي كان ، من أمر عبد المطلب يوم كان طفلاً ، إذْ عيره أطفال عشيرة أمه بلجوئه الى عشيرتهم ، إذْ لا عشيرة له . ولو كانت له عشيرة للحق بها . مما حمله على ترك يثرب والرجوع الى أعمامه بمكة . فالعم في نظرهم بمنزلة الوالد . وهو أقرب الناس اليه ، وهو وريثه في العصبات . . وبهذه الحجة احتج العباسيون على العلويين في تقدمهم عليهم بحق الخلافة .

ومن هنا نجد العرب يوصون بأولاد العم خيراً ، والا يتهاتروا معهم ولا يختلفوا مهما وقع بينهم من خلاف . وفي هذا المعنى يقول أبو الطمحان :

إذا كان في صدر ابن عمك إحنة فلا تستثرها سوف يبدو دفينها [1]

وللخؤولة مكانة كبيرة في العصبة عند العرب . قد تقوى على العمومة ، فاذا هلك انسان ، وكان إخوته على خلاف مع زوجته أو كان حالهم ضعيفاً ، قامت الخؤولة مقام العمومة في رعاية الأولاد وحمايتهم ومدّهم بالعصبية . بل قد نجد ان عصبية الخؤولة أقوى عند العرب في الغالب من عصبية العمومة . وفي تأريخ الجاهلية والإسلام أمثلة كثيرة على ذلك .

ومن حسن حظ الإنسان في الجاهلية ان يكون له أعمام وأخوال كثيرون ، خاصة اذا كانوا أصحاب جاه وسيادة . لأنه سيعتز بهم ، ويفتخر بكثرتهم . وكان الجاهليون يقولون : رجل معم ورجل مخول وأخول ، اذا كان له أعمام

١ امالي المرتضى (٢٥٩/١) .

وأخوال . ويقال: كريم الأعمام والأخوال ، على سبيل المدح والتقدير [1] ومنه قول امرىء القيس : بجيدٍ معمٍّ في العشيرة مخول . وقول الشاعر :

تروح بالعشيّ بكـــل خرق كريم الأعمين وكل خـــال [2]

والنسب ، نسب أهل ، ويقوم على الدم القريب ، ونسب قبيلة ، ويقوم على العصبية للدم الأبعد . دم جد القبيلة يجري في عروق المنتسبين اليه .

والعرب من حيث النسب صرحاء . وحلفاء وجيران وموالي وشركاء يستلحقون بالنسب . أما الصريح ، فهو المحض من كل شيء ، والخالص النسب . ويقال جاء بنو فلان صريحة اذا لم يخالطهم غيرهم [3] .

والنسب إذن ، نسب آباء ، وهو نسب الصرحاء الخلص من العرب المنحدرين من صلب جد القبيلة ، على حد تعبير أهل الأنساب ، ونسب حلف أو جوار ، أي نسب استلحاق . والغالب ان يتحول نسب الاستلحاق الى نسب صريح ، حين تطول اقامة الدخيل بين من دخل بينهم : فينسى أصله ، ويأخذ أحفاده نسب من دخل جدهم فيهم . ويشمل ذلك نسب القبائل أيضاً . ونجد في كتب أهل الأخبار أمثلة كثيرة من أمثلة تحول الأنساب ، حيث نجدهـــا تنص على دخول نسب فلان في نسب بني فلان ، ونسب قبيلة في نسب قبيلة أخرى .

ويقال للقوم الذين ينتسبون الى من ليسوا منهم (الدخل) . والدخيـــل هو الرجل الغريب الذي ينتسب الى قوم ليس هو بواحد منهـــم . وذكر أيضاً ان (الدخل) بمعنى الخاصة ، وأيضاً الحشوة الذين يدخلون في قوم وليسوا منهم ، أي في المعنى المتقدم [4] .

وفي كتب أهل الأخبار أمثلة عديدة على تنقل الأنساب واثبات نسب قوم في قوم ليسوا منهـــم لغاية ومأرب . وقـــع ذلك في الجاهلية وفي الإســـلام . قال (الكندي) : (كان أبو رجب الخولاني وفلان وفلان يتحرشون أهل الحرس

١ تاج العروس (٣١٢/٧) ، (خول) .
٢ تاج العروس (٤٠٩/٨ ح ، (عمّ) .
٣ اللسان (٥٠٩/٢) ، (صرح) ، بلوغ الارب (١٩١/٣ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٣٢٠/٧ وما بعدها) ، (دخل) .

ويؤذونهم ، فمشى أهـل الحرس الى زكريا بن يحيى كاتب العمري ، فقالوا له حتى متى نؤذى ويطعن في أنسابنا . فأشار عليهم زكريا بجمع مال يدفعونـه الى العمري ليسجل لهم سجلاً باثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، فلما صار المال الى العمري لم يجسر على ان يسجل لهم ، وقال : ارفعوا الى الرشيد في ذلك ، فخرج وفد منهم الى العراق وانفق مالاً عظيماً هناك ، وادعى الوفد ان المفضل بن فضالة قد كان حكم لهم باثبات أنسابهم وانهم بنو خوتكة بن الحاف ابن قضاعة ، ثم عاد الوفد بكتاب محمد الأمين الى العمري بالتسجيل لهم ، فدعاهم العمري الى اقامة البينة عنده على أنسابهم فأتوا بأهل الجوف الشرقي وأهل الشرقية . وقدم جماعة من بادية الشأم ، فشهدوا انهم عرب فسجل لهم العمري . ثم تجدد نظر القضية فيما بعد وفسخ حكم القاضي العمري . ورد أهل الحرس الى أصلهـم القبطي)[1] .

وأشار أهل الأخبار الى قبائل كانت تتنقل من قوم الى قوم ، فتنتمي اليهم ، قالوا لها : (النواقل) . والنواقل من انتقـل من قبيلة الى قبيلة أخرى فانتمى اليها[2] . والتنقل دليل على ان النسب لم يكن من الصرامة والشدة على نحو ما يصوره لنا النسابون المتأخرون .

وفي الذي يذكره علماء النسب عن أنساب القبائل ، أمور لا يمكن لنا قبولها ، لا سيما ما يتعلق منها بالتعصب القبلي وبسرد الأنساب وتشجيرهـا وفي تفرعها . وأنساب القبائل موضوع لم يبحث بعد بحثاً علمياً ، وهو يحتاج الى تفرغ وتتبـع والى مقارنة ما جاء عند العرب فيه بما جاء عند غيرهم من الساميين وغيرهـم عنه . فقد لعبت الأنساب دوراً خطيراً عند البشرية ، لانها كانت الحماية والوقاية للإنسان ، قبل ان تتولد الحكومات الكبيرة التي رعت الأمن وبسطت سلطانها ، وبذلك خففت من غلواء النسب والانتساب .

الاستلحاق :

والاستلحاق ، هو ان يستلحق انسان شخصاً فيلحقه بنسبه ، ويجعله في حمايته

١ كتاب قضاة مصر (٣٩٧) ، العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٨٨) .
٢ تاج العروس (٨/١٤٣) ، (نقل) .

ورعايته ، أي في عصبيته . وقد يكون الرجل صريحاً معروف النسب ، وقد يكون أسيراً أو مولى أو عبداً ، فيسميه مولاه وينسبه اليه .

ومن هذا القبيل ما كان يفعله أهل الجاهلية من استلحاق أبناء الإماء البغايا بهم . وذلك انه كان لأهل الجاهلية إماء بغايا وكان سادتهن يلمّون بهن ، فاذا جاءت احداهن بولد ربما ادعاه السيد والزاني ، فيقع خلاف بينهما على الولد . وقد وقع مثل هذا الخلاف في أيام الرسول ، في أول زمان الشريعة ، فقضى الرسول بالحاقه بالسيد ، لأن الأمة فراش كالحرة ، فان مات السيد ولم يستلحقه ثم استلحقه ورثته بعده لحق بأبيه . وفي ورثته خلاف [1] .

الدعيّ :

ويقال للمستلحق (الدعيّ) . والدعيّ المنسوب الى غير أبيه . و (الدعوة) [2] في النسب ان ينتسب الانسان الى غير أبيه وعشيرته وقد كانوا يفعلونه فنهي عنه وجعل الولد للفراش . ومن هذا القبيل المتبنّى الذي تبناه رجل فدعاه ابنه ونسبه الى غيره ، وكان النبي ، تبنى (زيد بن حارثة) ، ثم الحقه بنسبه ، بعد ان نزل الوحي عليه (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم) [3] . وقال : (ما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم) [4] .

ويكون حكم الدعيّ من الناحية القانونية في حكم النسب الصحيح والبنوة الشرعية عند الجاهليين ، لذلك كان الجاهليون يورثونه كما يورثون الأبناء [5] .

ويقال للدعيّ ينتمي الى قوم : منوط مذبذب ، سمّي مذبذباً لأنه لا يدري الى من ينتمي [6] . وقد يكون الرجل دعي أدعياء ، فيكون هو دعيّاً في رهطه ،

---

١ اللسان (١٠/٣٢٨) ، (صادر) ، (لحق) ، تاج العروس (٧/٦٠) ، (لحق) .
٢ الدعوة بكسر الدال .
٣ سورة الأحزاب ، الرقم ٣٣ الآية ٥ ، اللسان (١٤/٢٦١) .
٤ سورة الأحزاب ، الرقم ٣٣ ، الآية ٤ ، اللسان (١٤/٢٦١) ، (صادر) ، (دعا) .
٥ الأغاني (١٧/٩٤) .
٦ اللسان (٧/٤٢٠) ، (صادر) ، (نوط) .

ورهطه دعي في قبيلة مثل (ابن هرمـة) ، فقد كان دعيـاً في الخلج وكان الخلج دعيـاً في قريش [1] . ويقال للدعي (ملصقا) ، والملصق ، هو المقيم في الحي وليس منهم بنسب [2] .

وقد ورد في حديث (علي بن الحسين) : المستلاط لا يرث ، ويُدعى له ويدعى به ، المستلاط المستلحق في النسب ، ويدعى له ، أي ينسب اليه؛ فيقال : فلان بن فلان ، ويدعى به أي يكنى ، فيقال : هو أبو فلان ، وهو مع ذلك لا يرث لأنه ليس بولد حقيقي [3] . ومن ذلك قولهم : (لاط القاضي فلانا بفلان ألحقه به) ، وورد ان أناساً في الجاهلية كانوا يليطون الأولاد بآبائهـم ، أي يلحقونهم [4] . والظاهر ان استلحاق الأبناء بالآباء ، كان معروفـاً بين الجاهليين بسبب الاتصال بالإماء وببعض الأعراف الأخرى التي حرمت في الإسلام .

ويقال للدعيّ : المخضرم . وقيل هو من لا يُعرف أبوه أو أبواه ورجـل مخضرم أسود وأبوه أبيض ، أو هو من ولدته السراري . وذلك ذم في الانسان [5] .

ويقال رجل (خلط ملط) ، بمعنى : مختلط النسب . وذكر ان الملط الذي لا يعرف له نسب ولا أب . وأما خلط ، فإما بمعنى المختلط النسب ، وإما بمعنى ولد الزنا . والخليط المشارك في حقوق الملك كالشرب والطريق ونحو ذلك . ومنه الحديث : الشريك أولى من الخليط ، والخليط أولى من الجار . والشريك المشارك في الشيوع . والخليط القومُ الذين أمرهم واحد [6] .

و (الأهل) أهل الرجال وأهل الدار ، وأهل الرجل أخص الناس بـه . وأهل الدار أهل البيت . و (آل الرجل) أهله . ويقال في النسب : هو من آل فلان [7] .

١ الأغاني (٧٦/٣) .
٢ تاج العروس (٦١/٧) ، (لزق) ، (ألصق) .
٣ اللسان (٢٦٢/١٤) ، (دعا) .
٤ تاج العروس (٢١٨/٥) ، (لاط) ، اللسان (٣٩٥/٧) ، (لوط) .
٥ تاج العروس (٢٨١/٨) ، (الخضرم) .
٦ تاج العروس (١٣٢/٥) ، (خلط) ، (٢٢٦/٥) ، (ملط) .
٧ اللسان (٢٨/١١ وما بعدها) ، (صادر) (أهل) .

وينتهي النسب بجد القبيلة الأكبر . فلكلّ قبيلة جدّ أكبر تنتمي اليه ، وتتسمى به ، وله ابن ينتسب اليه أو أبنـاء ينتسبون اليهم ، ويكون هـذا الجدّ محور (النسب) و (العصبية) للقبيلة . ونجد هذا النوع من النسب معروفاً عند غير العرب أيضاً .. عند العبرانيين والآراميين وعند الإغريق والرومان مثلاً .

الجـوار :

وللجوار صلة كبـيرة بـ (النسب) وبالعصبية عند العرب ، فقـد يتوثق الجوار ، وتتقوى أواصره فيصير نسباً ، فيدخل عندئذ نسب (المستجير) بنسب (المجير) ، ويصير وكأنه نسب واحد ، هو نسب (المجير) . وقد اندمجت بـ (الجوار) أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة ، أو القبائل التي تشعر بخوف من قبيلة أخرى أكبر منها ، فتضطر الى طلب (جوار) قبيلة أكبر منها ، لتدافع عنها ، ولتكون بذلك قوة رادعة تحمي حياتها وتحافظ على نفسها وما لها بهذا الجوار .

وهو من السنن التي حافظ عليهـا الجاهليون ، واعتدّوها كالقوانين . فاذا استجار شخص بآخر ، أو استجارت قبيلة بأخرى ، اكتسب هذا الجواز صيغة قانونيـة ، ووجب على المجير المحافظـة على حق الجوار . والا ، نزلت السبة بالمجير ، وازدراه الناس .

ويكتسب الجوار حكمه بإعلان الطرفين قبولهم له على الملأ ، في أماكن الاجتماع في الغالب ، في مثل المواسم من حج أو سوق . فاذا أعلن ذلك ، وعلم الناس الخبر ، صار المجار في ذمة المجير ، وترتب على المجير ان يكون مسؤولاً عن كل ما يقع على المجير وما يصدر منه .

وقد ورد في القرآن الكريم ، (والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل) [١] . والجار ذو القربى هو نسيبك النازل معك في الحواء ، ويكون نازلاً في بلدة وأنت في أخرى ، فله حرمة جوار القرابة . والجار الجنب ان لا يكون له مناسب فيجيء اليه ويسأله ان يجيره ، أي يمنعـه فينزل معه ،

١ النساء ، الآية ٣٦ .

فهذا الجار الجنب له حرمة نزوله في جواره ومنعته وركونه الى أمانه وعهده . لأنه جاوره وان كان نسبه في قوم آخرين ولا قرابة له به .

وكان سيّد العشيرة إذا أجار عليها إنساناً لم يخفروه[1] . وإذا دخل قبته أو خباءه أو دار حول خيمته ، ونادى بالجوار والأمان صار آمناً . وقد وجب على صاحب القبة أو الخباء أو الخيمة حمايته ، حتى وان كان من سائر أبناء القبيلة .

والجار والمجير والمعيذ واحد . ومن عاذ بشخص استجار به[2] . ومن هذا القبيل استجارة أهل الجاهلية بالجن . (قيل : إنّ أهل الجاهلية كانوا اذا نزلت رفقة منهم في وادٍ ، قالت : نعوذ بعزيز هذا الوادي من مردة الجن وسفهائهم . أي نلوذ به ونستجير)[3] .

وللجوار حرمة كبيرة عند الجاهليين . فإذا استجار شخص بشخص آخر ، وقبل ذلك الشخص ان يجعله جاراً ومستجيراً به ، وجبت عليه حمايته ، وحق على المجار الدفاع عن مجيره : والذبّ عنه . وإلا عدّ ناقضاً للعهد ، ناكثاً للوعد ، مخالفاً لحق الجوار . وعلى القبائل استجارة من يستجير بها . والدفاع عنه دفاعها عن أبنائها . ويقال للذي يستجير بك (جار) . والجار الذي أجرته من ان يظلمه ظالم . وجارك المستجير بك ، والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك . وأجاره : أنقذه من شيء يقع عليه[4] .

وقد أوصوا بالجار خيراً ، ورجوا من الجار ان يكون كذلك قدوة حسنة في جواره ، فلا يسيء الى جاره او الى جيرانه ، وعلى الجار ان يغض نظره عن عيوب جاره ، وأن يكون يقظاً في حفظ حقوق جاره ، فطناً في الدفاع عنه .

١ اللسان (١٥٥/٤) ، (جور) .
٢ اللسان (١٥٥/٤) ، (جور) .
٣ اللسان (٥٠٠/٣) ، (عوذ) .
٤ اللسان (١٥٤/٤ وما بعدها) ، (جور)

ليس له أن يتملص من حقوق الجوار اذا استحقت ووجبت ، لأن للجار حقاً عليك .[١]

وكان يقال في الجاهلية للرجل اذا استجار بيثرب : قوقل في هذا الجبل ثم قد أمنت . فاذا فعل أحد ذلك ، وجب على اهل يثرب قبول جواره والدفاع عنه . وذكر ان (قوقل) رجل من الخزرج ، اسمه (غنم بن عوف بن عمرو ابن عوف بن الخزرج) ، سمّي به (لأنه كان اذا اتاه انسان يستجير به او بيثرب قال له : قوقل في هذا الجبل ، وقد أمنت . أي ارتق) . وقيـل : (لانهم كانوا اذا أجاروا أحداً أعطوه سهماً . وقالوا : قوقل به حيث شئت . أي سر به حيث شئت) . وذكروا ايضاً أن (القوقـل) اسم أبي بطن من الانصار ، اسمه تعلبة بن دعد بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن الخزرج . وقالوا : هو النعمان بن مالك بن ثعلبة .[٢]

والغاية من الجوار طلب الحماية والمحافظة على النفس والأهل والمال ، لذلك لا يطلبه في العادة الا المحتاج اليه . ولا يشترط في الجوار نزول الجار قرب المجير ، أو في جواره أي أن يكون بيته ملتصقاً ببيته . فقد يكون على البعد كذلك . لأن الجوار حماية ورعاية ، وتكون الحماية حيث تصل سلطة المجير ، وتراعى فيه حرمته وذمته . ويكون في امكانه الدفاع عن جاره . ولهذا كان على الجار أن يعرف حدود (الجوار) ، وقد يعلقانه بأجل احترازاً وتحفظاً من الجوار المطلق ، الذي لا يعلق بزمن وانما يكون عاماً .

ولا يجير أحد انساناً الا اذا أحس ان في امكانه اداء امانة الجوار . والا عرض نفسه وأهله وقبيلته للأذى والسبّة ، ان قبل شخصٌ جوار أحد ، وهو في وضع لا يمكنه من الوفاء بحقـوق الجوار . ولا يطلب رجل مجاورة رجل آخر الا اذا شعر أن من سيستجير به هو كفؤ لأن يجيره . والا فما الفائدة من الاستجارة برجل ضعيف قد يكون هو نفسه في حاجة الى الاستجارة بأحد .

ولا يشترط في الجوار أن يكون جوار أحياء . فقد يستجير انسان بقبر ، فيصير

١ قال قيس بن عاصم :

لا يفطنـون لعيب جارهـم وهـم لحفظ جـواره فـطن

المرزوقي ، شرح الحماسة (٥٨٤/٤) .

٢ المعارف (ص ٥٠) ، تاج العروس (٨٤/٨) ، (القوقل) .

في جواره وفي حرمة ذلك القبر . وعلى أصحاب ذلك القبر الذبّ عن هذا الجار والدفاع عنه . ومن هذا القبيل استجارة الناس بقبر (عامر بن الطفيل) . فقد ذكر أن قومه من (بني عامر) ، وضعوا حول قبره أنصاباً على مسافة منه ، اذا اجتازها اللاجيء ودخل (الحرم) المحيط بالقبر ، صار آمناً على ماله ونفسه ، لا يخشى خشية أحد ، يريد انزال سوء به . وقد منعوا دخول حيوان اليه أو مرور راكب به ، احتراماً لحرمة صاحب هذا القبر . [1] وكالذي كان من أمر قبر (تميم بن مرّ) جدّ قبيلة تميم في عرف النسابين .

وقد يستجير الانسان بمعبد أو بأي موضع مقدس ، فيكون في جوار وحرمة ذلك المكان . وعلى اصحابه اداء حقوق الجوار . ومن هذا القبيل جوار مكة . فمن دخل حرم (البيت) صار في جواره ، آمناً مطمئناً لا يجوز الاعتداء عليه ولا اخافته ، لانه في حرمة (البيت) وعلى قريش الذبّ عنه .

وقد كان لآل (محلم بن ذهل) قبة بوادي (عوف) عرفت بـ (قبة المعاذة) ، من لجأ اليها أعاذوه . و (آل عوف) من اشرافهم في الجاهلية ومن رجالهم (عوف) الذي يضرب به المثل : لا حرّ بوادي عوف . [2] والعوذ الالتجاء . ولهذا عرفت بتلك التسمية . وهو (عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان) . وقد ضرب به المثل في الوفاء . فورد : (هو أوفى من عوف) . وذلك لأن عمرو ابن هند طلب منه مروان القرظ . وكان قد أجاره فمنعه عوف وأبى أن يسلمه ، فقال عمرو : لا حرّ بوادي عوف . أي أنه يقهر من حل بواديه وكل من فيه كالعبيد له لطاعتهم إيّاه . وهو من أمثال العرب في الرجل العزيز المنيع الذي يعز به الذليل ويذل به العزيز . وقيل ان كل من صار في ناحيته خضع له . أو قيل ذلك لأنه كان يقتل الأسارى . [3] ولما توفي (عوف) دفن بواديه، وأقاموا قبة على قبره صارت ملاذاً لمن يطلب الجوار .

ومن طرق الجوار ، أن يأتي رجل الى رجل ليستجير به فلا يجده ، فيعقد

---

١ الاغاني (٢/١٨٤) ، (١٥/١٤٩) .
٢ الاشتقاق (٢١٥) .
٣ تاج العروس (٦/٢٠٦) ، (نعوف) .

طرف ثوبه الى طنب البيت ، فاذا فعل ذلك عدّ جاراً ، ووجب على صاحب البيت أن يجيره .[1]

والجوار جواران : جوار جماعــة كجوار بيت أو فخذ أو بطن أو ظهر أو عشيرة أو قبيلة ، وجوار أفراد . وللجوارين حرمة وقدسية ليس أحدهما دون الآخر في الحرمة والوفاء.

واذا نزل انسان على انسان آخر جاراً ، فان من المتعارف عليه أن تكون حرمة جواره ثلاثة أيام ، : (وكانت خفرة الجــار ثلاثاً)[2] فاذا انتهت ، انتهت مدة الجوار . وعلى الجار الارتحال ، الا اذا جدد (المجير) جواره له ، وطلب منه البقاء في جواره . فيكون عندئذ لهذا الجوار حكم آخر ، اذ يبقى الجوار قائماً ما دام عقده باقياً . وقد استفاد من حق الجوار الغرباء والمسافرون ، والمحتاجون وأمثالهم . فقد أمنوا على راحتهم ورزقهم وهم في محيط صعب ، كما أمنوا على حيــاتهم ، حتى أن المجير ليغفر لجاره ما قد يبدر منه من سوء بسبب حكم الجوار . قال مجير لجاره : (لولا أنك جار لقتلناك)[3] . ويشمل هذا الجوار المسافر والضيف .

ومن عاداتهم في الجوار ، أن أحدهم اذا خاف ، فورد على من يريد الاستجارة به ، نكس رمحه ، فاذا عرفه المجير ، رفع رمحه . فيصير في جواره . فلما هرب (الحارث بن ظالم المرّي) من ملك الحيرة ، وأخذ يتنقل بين القبائل حتى وصل عكاظ وبها (عبد الله بن جدعان) ، نكس رمحه أمام مضرب (ابن جدعان) ، ثم رفعه حين عرفوه ، وأمن . وأقام بمكة ، حتى أتاه أمان ملك الحيرة .[4]

وقد يحدد الجوار بحــدوده . كأن يذكر من يطلب الاستجارة لمن يريد ان يستجير به ، ان استجارته به من قبيلة كذا أو من القبائل الفلانية أو من الشخص

---

١ الأغاني (٢/١٨٤) .
٢ الفاخر (٢٢٠) .
٣ الفاخر (٢٢٠) .
٤ البلاذري (١/٤٢ وما بعدها) .

الفلاني. فاذا قبل المجير ذلك حدد جواره بما حدد في عقد الجوار. فاذا اعتدت على المستجير قبيلة أخرى لم تذكر في نص الجـوار ، فلا ذمة للمستجير على المجير ، وليس من حقه طلب مساعدته له. كما قد يحدد الجوار بزمن ، كاقامة شخص في مكان ، أو ايصاله من موضع الى موضع ، أو تعيين أمد له .

والخفارة الخفرة : الأمان ، والخفير : المجير ، والخفارة : الذمة. ويقال : خفرت الرجل : أجرته وحفظته ، وتخفرت به اذا استجرت به. وأخفرت الرجل اذا نقضت عهده وذمامه .[1] بأن يعلن ذلك ليقف عليه الناس ، والا بقيت التبعة في عنق الخفير .

وعلى من أعطى خفارته لأحد ، الوفاء بما أعطى ، والوفاء بما ألزم نفسه به عليه ، والا عد ناكثاً للعهد حقيراً .[2]

المؤاخاة :

وتكون المؤاخاة بين الأفراد كما تكون بين الجماعات ، كالعشائر والقبـائل . وهي تدعو الى العناصر والمؤازرة والمساعدة. وتؤدي الى الموارثة. وخير مثل على المؤاخاة ، ما فعله الرسول يوم مقدمه المدينة من مؤاخاته بين الأنصار والمهاجرين لتوحيد الكلمة وليساعد بعضهم بعضاً .[3]

ولا يشترط في المؤاخاة أن تكون بين أعراب وأعراب ، أو بين حضر وحضر ، اذ يجوز أن تعقد ايضاً بين العرب والأعراب ، اي بين الحضر والبدو . لأن المؤاخاة عقد ، والعقد يقع بين كل الناس ، كما قد تقع بين عربي وأعجمي ، فقد آخى الرسول بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء.

١ اللسان (٢٥٣/٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١٨٦/٣) ، (خفر) .
٣ تاج العروس (١١/١٠) ، (أخا) .

الموالي :

والمولى : الولي والعصبة والحليف وابن العم والعم والأخ والابن وابن الأخت والعصبات كلهم والجار والشريك [1] . فاللفظة إذنْ معان عديدة ، أهمهـا بالنسبة لنا ، ان المولى : العبد ، أي المملوك الذي يمنّ عليه صاحبه ، بأن يفك رقبته ، فيعتقه ، ويصير المملوك بذلك مولى لعاتقه . وسوف نرى ان الموالي أنواع . وهم الذين نبحث عنهم في هذا المكان .

و (الموالي : العصبة . هم كانوا في الجاهلية الموالي ، فلما دخلت العجم على العرب لم يجدوا لهم اسماً ، فقال الله تبارك وتعالى : فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم . فسمّوا الموالي .. والمولى اليوم موليان : مولى يرث ويورث ، فهؤلاء ذوو الأرحام ، ومولى يورث ولا يرث . فهؤلاء العتاقة) [2] .

والعرب تسمّي ابن العم المولى ، ومنه قول الشاعر :

ومولى رمينا حوله وهو مدغـل   بأعراضنا والمندبـات سروع

يعني بذلك وابن عمّ رمينا حوله . ومنه قول الفضل بن العباس :

مهلاً بني عمّنا ، مهلاً موالينا   لا تظهرنّ لنا ما كان مدفونا [3]

والموالي أنواع . موالي عتق وموالي عتاقة ، وهو الرقيق أو الأسير الذي تفك رقبته بعتقه . كأن يشتري رجل مملوكاً فيشتريه فيعتقه [4] . وفي جملة مـا كان يفعله الجاهليون في مقابل فك رقبة المملوك اشتراطهم على الملوك عملَ عملٍ يعيّن له ، فإنْ قام به وأتمه ، اعتقت رقبتـه . ويصير مولى لمعتقه إنْ شاء ، وله الخيار في ان يختار غير سيده مولى له ، إن اشترط ذلك على سيده ، أو اشترط

١ اللسان (١٥/٤٠٨ وما بعدها) ، (صادر) ، (ولي) . قال الشاعر :

هم المـولى وإن جنفـوا علينـا   وإنـا من لقـائهم لـزور

يعني بني العم . وقال اللهبي يخاطب بني أمية :

مهـلا بنـي عمنا مهـلا موالينـا   امشوا رويـدا كما كنتم تكونونا

تاج العروس (١٠/٣٩٩) ، (ولي) .

٢ تفسير الطبري (٥/٣٣) .

٣ تفسير الطبري (٥/٣٢) .

٤ اللسان (١٠/٢٤٣) ، (عتق) .

سيده عليه ذلك الشرط . وقد يقع الاختيار على ذلك بعد وقوع العتق .

ومن الموالي : موالي مكاتبة (موالي المكاتبة) وذلك ، بأن يشترط في عقد البيع ، ان العبد يكاتب على نفسه بثمنه ، فإذا سعى وأداه عتق . وذكر أيضاً ان المكاتبة ، ان يكاتب الرجل عبده على مال يؤديـــه اليه منجّماً ، فاذا أداه صار حرّاً . والعبد مكاتب . وقيل : المكاتبة : ان يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجّمه عليه ، ويكتب عليه انه اذا أدى نجومه في كل نجم كذا وكذا ، فهو حرّ ، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه ، فقـــد عتق ، وولاؤه لمولاه الذي كاتبه . وذلك ان مولاه سوغه كسبه الذي هو في الأصل لمولاه ، فالسيد مكاتب ، والعبد مكاتب اذا عقد عليه ما فارقه عليه من أداء المال . سميت مكاتبة لما يكتب للعبد عليه على السيد من العتق اذا أدى ما فورق عليه ، ولمـــا يكتب للسيد على العبد من النجوم التي يؤديها في محلها ، وان له تعجيزه اذا عجز عن أداء نجـــم يحلّ عليه[1] .

والأصل في ولاء المكاتبة ، ان من أعتق عبداً كان ولاؤه له ، فينسب اليه . واذا مات كان هو وارثه . وقد لا يتحول الولاء للولي ، اذا اشترطوا أولاً ألا يكون ولاؤه لمعتقه ، بل لمن يؤدي ثمن المكاتبة مثلاً . وقـــد يعتق المملوك ولا يكون لأحد ولاء عليه . وتكون العتاقة عندئذ (سائبة) . و (السائبة) : العبد يعتق على ان لا ولاء له ، أي عليه . ويحق عندئذ ان يضع ماله حيث يشاء[2] .

ومن أسباب العتاقة : التدبير . وهو ان يعلق المالك عتق مملوكه على شرط ، هو بعد وفاته . كأن يقول له : أنت حرّ بعد موتي . فلا يرثه أهله[3] .

واما مولى العقد ، ويقال له مولى حلف ومولى اصطناع ، فيكون بانتماء رجل الى رجل آخر بعقد ، أو قبيلة الى قبيلة أخرى بحلف . وذلك بأن يتعاقد ضعيف مع قوي على ان يساعده ويعاضده ، ويقوم في مقابل ذلك بأداء مـــا اتفق عليه من شروط . وينتسب المولى عندئذ الى سيده ، أي مولاه الذي قبل ولاءه . ومن هذا القبيل يهود يثرب ، فقد كانوا في ولاية الأوس والخزرج ، لجأ كل بطن

١ اللسان (١/ ٧٠٠) ، (كتب) .
٢ تاج العروس (١/ ٣٠٥) .
٣ تاج العروس (٣/ ٢٠٠) ، (دبر) .

منهم الى بطن من الأوس أو الخزرج يتعززون بهم، وصاروا موالي لهم. اذا وقع عليهم ضيم لجأوا الى من انتموا اليه بالولاء للدفاع عنه. ولما ظهر الإسلام كان من دخل في ولاء (عبد الله بن أبي) ، ومنهم من دخل في ولاء (سعد بن معاذ) ومنهم من كان في ولاء (عبادة بن الصامت) . وكان عليهم في مقابل ذلك ، العون والنصرة لمن دخلوا في ولائه أو ولائهم ، والدفاع عنهم ، وان يكونوا بمثابة العون لهم .

وكان من موالي الحلف ، قوم من اليهود والنصارى والمجوس . ولما ظهر الإسلام ، أبطل عن تولي أهل الكتاب [1] . إذْ جعلهم في ذمة المسلمين . ويدخل في هذا الولاء ولاء قبائل وعشائر صغيرة لقبائل أكبر منها . وذلك في سبيل الحصول على حمايتها لها ودفاعها عنها . فيتوجب عليها أداء ما شرط عليها من شروط عند طلبها الولاء ، من العصبية والعقل وما شاكل ذلك من حقوق .

أما مولى الرحم ، فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل ، فينسب الى القبيلة التي تزوج من مواليها [2] .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الموالي ثلاثة : مولى اليمين المحالف، ومولى الدار المجاور ، ومولى النسب ابن العم والقرابة . وقد ذكرت هذه الأنواع في هذا البيت :

نبئت حيّاً على نعمان أفرادهم   مولى اليمين ومولى الدار والنسب [3]

وقد ذكر (الجاحظ) (ان الموالي أقرب الى العرب في كثير من المعاني ؟ لأنهم عرب في المدّعى ، وفي العاقلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل لقوله : مولى القوم منهم ، ومولى القوم من أنفسهم . والولاء لحمة كلحمة النسب) [4] . ولهذا عدّ الموالي في نسب من دخلوا في ولائه . وتعصبوا وتحزبوا لولاء المولى .

والموالي مهما كانوا : عرباً أم عجماً ، كانوا أقل شأناً في مجتمعهم من

---

١ المائدة ، الآية ٥١ ، تفسير الطبري (١٧٧/٦) ، الألوسي ، تفسير (١٤٠/٦) .
٢ تاريخ التمدن الاسلامي (٣١/٤) .
٣ العمدة (١٩٨/٢) .
٤ مناقب الترك (١٢/١) ، من رسائل الجاحظ ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

الأحرار . إذ نظر اليهم على انهم دون العرب الأحرار في المكانة . ولهذا فقلما زوج الأحرار بناتهم للموالي . حتى ضرب بهم المثل في القلة والذلة ولا سيما اذا كان الانسان مولى موالي . فقيل : (مولى الموالي) ، قيل ذلك في الاسلام أيضاً . ورد في الشعر :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا [١]

وقد بقيت نظرة الازدراء المذكورة حتى في الاسلام . فمع مساواة الاسلام للعرب بغيرهم واتيانه بمقياس جديد في تفضيل الخلق بعضهم على بعض هو مقياس العمل الصالح ، المتجسم في قوله : (أيها الناس إنّ الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربيّ على عجميّ فضل إلا بالتقوى) [٢] . أو قوله : (الناس في الاسلام سواء ، الناس طف الصاع لآدم وحواء . لا فضل لعربيّ على عجميّ ، ولا عجميّ على عربيّ إلا بتقوى الله) ، (لا تأتوني بأنسابكم وأتوني بأعمالكم ، فأقول للناس هكذا ولكم هكذا) [٣] ، نجد ان العرب بقيت في الاسلام أيضاً تأنف من تزويج بناتها الى الموالي بسبب شرط (الكفاءة) الذي كان سنة من سنن أهل الجاهلية في الزواج : كفاءة النسب والمنزلة والحرفة . واذا تزوج مولى بنتاً عربية ، عُيرت القبيلة به . وقد هجا الشاعر (أبو بجير) (عبد القيس) ، لتزويجهم بناتهم للموالي [٤] . وذهب البعض الى قاعدة : (الكفاءة في النسب والدين والصنعة والحرية ، ولا تزوج عربية بأعجمي ولا قرشية بغير قرشي ، ولا هاشمية بغير هاشمي ، ولا عفيفة بفاجر) [٥] . وان (قريشاً بعضهم أكفاء لبعض بطن ببطن ، والعرب بعضهم أكفاء لبعض ، قبيلة بقبيلة ، والموالي بعضهم أكفاء لبعض رجل برجل) [٦] .

١ الثعالبي ، ثمار (٦٩٠) .
٢ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٥٨) .
٣ اليعقوبي (٢/١٠٠) ، (حجة الوداع) ، وتروى الخطبة بصور مختلفة .
٤ العقد الفريد (٣/٢٣٢) .
٥ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٦٧) ، أبو اسحاق الشيرازي كتاب التنبيه في الفقه على مذهب الامام الشافعي (٩٥) .
٦ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٦٦) .

أما كفاءة النسب ، فيراد بها النسب العربي ، أي ان الرجل لا يزوج بنتاً عربية إلا اذا كان عربياً . وأما المنزلة ، فيراعى فيها الكفاءة في المكانة ، كأن يراعى في اختيار الزوجة ان تكون من عائلة ليست منزلتها دون منزلة الزوج ، وإلا عيّر بزواجه ، وأما الحرفة ، فان يتزوج الرجل بنتاً من بنات حرفته ، فلا يتزوج الرجل ابنة صائغ مثلاً وإلا عيّر ابنها به ، كالذي كان من أمر (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، فقد عيّره الناس بأمه لأنها ابنة صائغ ، ثم لأنها يهودية . وكان هذا العرف صارماً في اليمن ، فحصروا الزواج بأصحاب الحرف على نحو ما سأتحدث عنه في باب الزواج .

ونظراً الى ازدراء العرب لشأن الموالي ، وما كان يجلبه الولاء من ازدراء العرب بعضهم بعضاً لهذا السبب ، بسبب ولاء العتق أو ولاء الموالاة ، فقد أمر الخليفة (عمر) بإبطال الولاء بين العرب ، وجوز بقاءه فيما بين العرب وغير العرب [1] ، فاقتصر الولاء على هذا النوع وحده في الاسلام .

الأحلاف :

وكان للأحلاف شأن خطير في حياة الجاهليين . والحلف في اصطلاح علماء اللغة العهدُ بين القوم ، والحلف والمحالفة : المعاهدة ، وأصله اليمين الذي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد ، ثم عُبّر به عن كل يمين . والمحالفة ان يحلف كل للآخر [2] . فمعنى الحلف في الأصل المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . وتحالفوا بمعنى تعاهدوا وعقدوا اتفاقاً وعهداً ، وتآخوا على العمل يداً واحدةً ، وقد حالف الرسول بين المهاجرين والأنصار ، أي آخى بينهم [3] .

وفي كلمة الحلف شيء من الدلالة على الشعائر والأيمان والمعاني الدينية ، ولذلك قيل للحلف اليمين ، لأن من عادتهم عند عقد الحلف بسط أيمانهم إذا حلفوا

١ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٧٤) .
٢ المفردات (ص ١٢٨) ، اللسان (٩/٥٣) (بيروت) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، المخصص (١٣/١٠٩) ، روح المعاني (١٦/١٢٥) .
٣ تاج العروس (٦/٧٥) ، اللسان (٩/٥٣) ، الصحاح (١/٥١٢) ، اللسان (١٢/٤٠٣) ، الصحاح (٤/١٣٤٦) ، اساس البلاغة (١/١٩٣) .

وتحالفوا وتعاقدوا وتبايعوا[1] . وكانوا ينظرون اليها على ان لها قداسة خاصة وحرمة ، والحانث بيمينه ينظر اليه بأشد أنواع التحقير والازدراء . ويُعد الحنث باليمين من الموبقات ومن الكبائر التي لا يغتفر صدورها من شخص في شريعة الجاهليين . وقد أمر الإسلام بالوفاء بالعهد[2] .

و (العهد) بمعنى الحلف أيضاً وقيل : العهد كل ما عوهد عليه ، وكل ما بين الناس من المواثيق . وهو أيضاً الموثق واليمين . ولذلك ورد : (على عهد الله) و (أخذت عليه عهد الله) ، و (ولي العهد) ، لأنه وليّ الميثاق الذي يؤخذ على من بايع الخليفة . وعلى من يعطي العهد الوفاء به : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)[3] . (وما وجدنا لأكثرهم من عهد)[4] ، أي من وفاء[5] . ووردت لفظة (عاهدتم) بمعنى التحالف والتعاقد في مواضع من كتاب الله[6] .

ويرد (الميثاق) بمعنى العهد . والمواثقة المعاهدة . وأما (التواثق) ، فالتحالف والتعاهد . وفي القرآن الكريم : (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق)[7] (فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)[8] ، (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه)[9] . وقد قال العلماء في الميثاق إنه : عقد مؤكد بيمين

---

١ اللسان (٣٥٦/١٧) ، (٤٦٢/١٣) (بيروت) ، تاج العروس (٧٥/٦) .

٢ تفسير ابن كثير (٥٠٩/٢) ، تفسير الرازي (١٤٧/٢) ، تفسير الطبري (١٨٢/١) ، جامع أحكام القرآن ، للقرطبي (٢٤٦/١) ، (٣٠٧/٩) ، تفسير ابن حيان الأندلسي: البحر المحيط (١٧٤/١) ، تفسير الطبرسي (٤٠/١) ، تفسير ابن مسعود (٧٦/١) ، تفسير الخازن (٦١/١) ، تفسير البيضاوي (٨٣/١) .

٣ النحل ، الآية ٩١ ، الكشاف (٤١/١) ، تفسير الطبري (٣١٩/٣) ، (١٨٢/١)، تفسير الطبرسي (٣٧٩/٢) .

٤ الأعراف ، الآية ١٠٢ .

٥ اللسان (٣١١/٣) .

٦ التوبة ، الآية ١ ، ٤ ، ٧ النحل ، ٩١ ، تفسير الرازي (٤٧/٥) ، شرح صحيح البخاري (٢٠٣/١١) ، النهاية لابن الأثير (١٥٩/٣) ، تفسير الخازن (٤٢٣/١) .

٧ الرعد ، الآية ٢٠ .

٨ الأنفال ، الآية ٧٢ .

٩ الرعد ، الآية ٢٥ .

وعهد[1] . والحلف الذي نتحدث عنه هو (ميثاق) ، لأنه عهد يؤخذ بحلف مؤكد بيمين .

وتكون بين المتحالفين مواثيق على الوفاء بالالتزامات التي نص عليها ، واتفق الطرفان المتعاقدان أو الأطراف المتعاقدة على الوفاء بها كاملة غير منقوصة .

ويكون الحلف بين الأفراد ، كما يكون بين الجماعات والحكومات ، فيتحالف الأفراد بعضهم مع بعض ، ويعلن ذلك الحلف ليكون معلوماً بين الناس ، وتتحالف القبائل بعضها مع بعض ، ويعلن حلفها هذا ليكون معلوماً عند أفرادها وعند القبائل الأخرى ، وتتحالف الحكومات : حكومات عربية مع حكومات عربية ، أو حكومات عربية مع حكومات أعجمية . وفي المسند أمثلة عديدة على محالفات الحكومات العربية بعضها مع بعض ، أو محالفتها لحكومة أجنبية مثل : الحبشة ، كما في الكتابات الآشورية وفي مؤلفات اليونان واللاتين ، وفي كتب أهل الأخبار أمثلة من محالفات العرب مع غيرهم ، أو محالفاتهم بعضهم مع بعض .

والفكرة التي حملت العرب على عقد الأحلاف ، هي نفس الفكرة التي تدفعهم اليوم على عقد الأحلاف بينهم أو مع غيرهم . وهي الضرورة والدفاع عن مصالح خاصة أو عامة ، أي نفس الفكرة التي تدفع الدول على التكتل والتحزب وعقد الأحلاف الدولية ، في هذا اليوم ، أو في المستقبل . وهناك أحلاف عقدت لأغراض هجومية ، وأحلاف عقدت لمصالح اقتصادية ، مثل أكثر أحلاف قريش مع القبائل . وأحلاف لتثبيت نظم واقرار قوانين وأخذ حقوق وردع ظالم وانصاف مظلوم .

وقد تعقد الأحلاف لأغراض معينة ، فتكون لها آجال محددة ، كأن تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى لمساعدتها في صد غزو سيقع عليها أو لمساعدتها في غزو قبيلة أخرى ، أو الوقوف موقف حياد تجاه الغزو . أو مساعدة قبيلة قبيلة أخرى للأخذ بثأر من قبيلة لها ثأر معها . ومثل هذه الأحلاف لا تعمر طويلاً ، إذ ينتهي أجلها بانتهاء الغاية التي من أجلها عقد الحلف .

---

١ المفردات (٥٢٢) ، اللسان (١٢/١٥٤) ، الصحاح (٤/١٥٦٤) ، الكشاف (١/١٧) ، البيضاوي (٧/١٦١) ، تفسير الطبري (٣/٣٢٩) ، اللسان (١٠/٣٧٠) (بيروت) ، تفسير الطبرسي (٦/١٥٧) .

والغالب ان الضعيف هو الذي يبحث عن حليف يحالفه ، ليقوّي بهذا التحالف نفسه ، ويعز به مكانه . قال البكري : (فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضعاف القوي للضعيف ، انضم الذليل منهم الى العزيز وحالف القليلُ منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالّهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم)[١] .

لقد دفعت الضرورات قبائل جزيرة العرب الى تكوين الأحلاف ، للمحافظة على الأمن وللدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول . واذا دام الحلف أمداً ، وبقيت هذه الرابطة التي جمعت شمل تلك القبائل متينة ، فإنّ هذه الرابطة تنتهي الى نسب يشعر معه أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جدّ واحد ، وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة ، أو ما يدعو الى انفصال بعض قبائل الحلف ، فتنضم القبائل المنفصلة الى أحلاف أخرى ، وهكذا نجد في الجزيرة أحلافاً تتكون ، وأحلافاً قديمة تنحل أو تضعف[٢] .

لم يكن في مقدور القبائل أو العشائر الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي يشدّ أزرها إذا هاجمتها قبيلة أخرى ، أو أرادت الأخذ بالثأر منها . لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف ، إلا عدداً قليلاً من القبائل القوية الكثيرة العدد ، وكانت تتفاخر بنفسها ، لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها ، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف . ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن ، وقد تنزل القبائل على حلفائها ، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه للقبائل الكبيرة[٣] .

وقد عرفت مثل هذه الأحلاف عند سائر الشعوب السامية كالعبرانيين مثلاً ، وطالما انتهت تلك الأحلاف كما انتهت عند العرب الى نسب ، فيشعر المتحالفون انهم من أسرة واحدة يجمع بينهم نسب واحد[٤] . ويقال للحلف (تكلع)

---

١ معجم ما استعجم (٥٣/١) .

٢ Goldziher, Muh. Stud., I, S., 64.

٣ الأغاني (١١٨/١٢ ، ١٢٣ وما بعدها) .

٤ Keunen, De Godsdienst van Israel, I, P. 113, Noldeke, in ZDMG., XI, S. 15.

عند اليمانيين[1] . (وبه سمّي ذو الكلاع ، وهو ملك حميريّ من ملوك اليمن من الأذواء ، وسُمّي ذا الكلاع ، لأنهم تكلعوا على يديه أي تجمعوا ، واذا اجتمعت القبائل وتناصرت فقد تكلعت)[2] .

ولما كانت المصالح الخاصة هي العامل المؤثر في تأليف الأحلاف ، كان أمد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح . وقد تعقد الأحلاف لتنفيذ شروط اتفق عليها ، كأن تعقد لغزو قبيلة ، أو للوقوف أمام غزو محتمل ، أو لأجل معين . ومتى نفذت أو تلكأ أحد الطرفين في التنفيذ ، انحل الحلف . وتعدّ هذه الناحية من النواحي الضعيفة في التاريخ العربي ، فإن تفكير القبائل لم يكن يتجاوز عند عقدهم هذه الأحلاف مصالح العشائر أو القبائل الخاصة ، لذلك نجدها تتألف للمسائل الداخلية التي تخص قبائل جزيرة العرب ، ولم تكن موجهة للدفاع عن بلاد العرب ولمقاومة أعداء العرب . ولا يمكن ان نطلب من نظام يقوم على العصبية القبلية ان يفعل غير ذلك . فإن وطن القبيلة ضيق بضيق الأرض التي تنزل فيها ، فاذا ارتحلت عنها ، ونزلت بأرض جديدة ، كانت الأرض الجديدة هي الموطن الجديد الذي تبالغ القبيلة في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادات القبائل ، أصبحت حتّى اليوم من أهم العوائق في تكوين الحكومات الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية للأعراب .

وخير مثال للقبائل التي اقتضت مصالحها التكتل والتحالف بينها ، هو الحلف الذي قيل له (تنوخ) . فقد اجتمع بالبحرين قبائل من العرب ، وتحالفوا وتعاقدوا على التناصر والتساعد والتآزر فصاروا يداً واحدةً ، وضمهم اسم (تنوخ)[3] . وحلف (فرسان) ، وهو حلف آخر قديم تكوّن من انضمام قبائل عديدة بعضها الى بعض للتناصر والتآزر[4] . ولما لم يعرف أهل الأخبار واللغة شيئاً من تلك الأمور العادية ، أوجدوا تلك القصص والأخبار والأنساب المدوّنة

١ المخصص (٣/١٠٩) .
٢ اللسان (٨/٣١٣) ، (كلع) .
٣ تاريخ ابن الأثير (١/١٣٥) ، تاريخ الطبرى (١/٧٤٦) (طبعة لندن) ، الأغاني (١١/١٥٥) .
٤ الاشتقاق (ص ٨) ، Muh. Stud., I, S. 60.

عن تنوخ وأمثال تنوخ[١] .

ومن هذا القبيل ، الحلف الذي قيل له : (البراجم) . وهو من عمرو وظليم وقيس وكلفة وغالب . زعم أهل الأخبار ، ان (حارثة بن عمرو بن حنظلة) ، قال لهم : أيتها القبائل التي قد ذهب عددها ، تعالوا فلنجتمع ولنكن كبراجم يدي هذه . فقبلوا ، فقيل لهم البراجم . وهم يد مع عبد الله بن دارم . فنحن أمام حلف من أحياء قلّ عددها وذهب أمرها ، وخافت على نفسها ، فلم تجد أمامها من وسيلة للمحافظة على حياتها سوى التحالف ، فكان من ذلك حلف البراجم[٢] .

ونجد لفظة (الحليفان) للدلالة على تحالف قبيلتين ، أو (الأحلاف) تعبيراً عن حلف عقد بين قبيلتين أو أكثر ، تتردد في كتب أهل الأنساب والأخبار . وقد قصد بها أحلاف عديدة . فقد قيل لأسد وغطفان (الحليفان) ، لأنهما تحالفا وتعاقدا وعقدا حلفاً بينهما على التناصر والتآزر ، كما قيل لهما (الأحلاف) . والأحلاف أسد وغطفان[٣] . وقيل لقوم من ثقيف : (الأحلاف) . والظاهر أنهم كانوا في الأصل طوائف لم تتمكن من البقاء وحدها في وسط عالم لا يعيش فيه إلا القويّ ، فتحالفت للدفاع عن نفسها ، ويقال لأسد وطيء (الحليفان) ولِفَزارة وأسد (حليفان) ، لأن خزاعة لما أجلت بني أسد عن الحرم ، خرجت فحالفت طيّئاً ، ثم حالفت بني فزارة[٤] .

ولما تحالفت غطفان وبنو أسد وطيء ، قيل لهم : الأحاليف ، لعقدهم حلفاً على التناصر والتآزر[٥] .

١ Muh. Stud., I. S., 66.

٢ خلق الانسان (٢٣٠ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/١٩٩) ، (البرجمة) .

٣ قال زهير :

فمن مبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم ؟

وفي رواية (ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة) ، اللسان (١٠/٤٠٠) ، ديوان زهير (ص ١٨) ، اللسان (٩/٥٤) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٩) ، الصحاح (٤/١٣٤٦) .

٤ اللسان (١٠/٤٠١) .

٥ قال ربيعة بن مقروم :

اذا حل أحياء الأحاليف حوله بـذي لجب هداته وصواهله

المفضليات (ص ٣٦٤) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، شرح ديوان زهير (١٨) .

وقد ورد في معلقة (الحارث بن حلِّزة اليشكُري) اسم (حلف ذي المجاز) الذي عقد بين بكر وتغلب بوساطة (عمرو بن هند)، وقد أخذ فيه عمرو بن هند العهود والمواثيق والكفلاء من الطرفين حذر الجور والتعدي.[1]

وتكون الهيمنة في الاحلاف التي تعقد بين قبائل غير متكافئة للقبائل القوية، أي للقبائل التي لجأت اليها القبائل الضعيفة لعقد حلف معها. فتكون الكلمة عندئذ لسادات القبائل البارزة في هذا الحلف. وعلى القبائل الضعيفة دفع شيء للقبائل القوية في مقابل حمايتها لها وبسط سلطانها عليها، ومنع ما قد يقع من اعتداء من قبائل اخرى عليها.

وقد كانت هذه الاحلاف تدوم ما دامت المصالح متشابهة، فاذا اختل التوازن بين المتحالفين، أو وجد أحد الطرفين أن مصالحه تقتضي الانضمام الى حلف آخر، فسخ ذلك العقد، وعقد حلفاً آخر، وحالف قبائل أخرى قد تكون معادية لقبائل الحلف السابق، ويقال لفسخ الأحلاف (الخلع).[2]

وهكذا كانت الحياة السياسية في الجاهلية: أحلاف تتكون وأخرى قديمة تنحل. ولا سيما اذا كانت قد تكوّنت من قبائل لا رابطة دموية بينها ولا اشتراك في المواطن، وانما كانت عوامل مؤقتة وأحوال طارئة اقتضت تكتلها، ثم اقتضت انحلالها لزوال تلك الأسباب.

وتعقد الاحلاف احياناً بين عشائر وبطون قبيلة واحدة، تعقد على نمط الأحلاف التي تعقد بين القبائل. وقد يعقد الحلف بين عشائر وبطون قبيلة، وبين عشائر وبطون قبائل غريبة. وذلك بسبب حدوث مشاحنات ومنافسات بين عشائر وبطون القبيلة، فتتكتل العشائر والبطون وتتحزب وقد تتقاتل، وتضطر عندئذ الى تأليف أحلاف بينها لتتغلب بها على العشائر والبطون المنافسة. ومثل هذه الاحلاف تضعف القبيلة وتؤدي الى تصدعها ما لم يتدارك أمرها أصحاب الرأي والسداد فيتولوا

١ وادكروا حلف دي المحاز وما قد م فيه العهود والكفلاء
شرح المعلقات السبع، للزوزني (ص ١٦٦).
٢ Muh. Stud., I. S., 68.

اصلاح ما قد وقع بين رجال القبيلة من فساد وتهدئة الحال حفظاً لمصلحة القبيلة. ونجد أمثلة من هذا القبيل عند أهل الاخبار.

ولم يكن من الواجب على كل أحياء قبيلة، الاشتراك في الاحلاف التي تعقدها غالبية أحياء تلك القبيلة. فقد اعتزلت (حنيفة) الحلف الذي عقدته قبائل (بكر) في الجاهلية. لأنها كانت من أهل المدر، وكان الحلف في أهل الوبر. فلما جاء الاسلام، دخلت في (عجل)، وصارت لهزمة. [1]

وكان في العرف الجاهلي أن الاحياء التي تتحضر من قبيلة ما، لا تدخل في الاحلاف التي تعقدها الاحياء المتبدية، لاختلاف الحالة، لا سيما اذا كانت المواطن بعيدة. فالحضارة تبعد الاعراب عمن يتحضر منهم. الا اذا وجدت مصالح خاصة، والمصالح اساس التعامل.

ونظراً الى ما للحلف من قدسية في النفوس، أصبح من المعتاد عقده في مراسيم مؤثرة ورد وصفُ بعضها في الاخبار، مثل حلف (المطيّبين) الذي عقد في مكة بعد اختلاف بني عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفل مع بني عبد الدار بن قُصيّ، واجماعهم على أخذ ما في أيدي بني عبد الدار مما كان قُصيّ قد جعله فيهم من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً، على ألا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً (ما بَلّ بحرٌ صوفةً)، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، فيزعمون أن بعض نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم، فوضعوها لاحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسكوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسُمّوا المطيبين، وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً، فَسُمّوا الاحلاف. [2]

١ النقائض (٧٢٨)، تاج العروس (٩/٦٩)، (لهزم).
٢ ابن هشام (١/١٤٣ وما بعدها)، ابن الاثير، الكامل (١/١٨٣)، الطبري (١/١١٣٨) (ليدن)، اللسان (١٠/٤٠٠)، المعارف (٢٠٤) (طبعة وستنفلد)، اليعقوبي (١/٢٨٧) (هوتسما)، التنبيه (١٨٠) (طبعة الصاوي)، تاج العروس (٦/٧٥)، (حلف).

(والأحلاف ست قبائل : عبـد الدار ، وجمح ، ومخزوم ، وبنو عدي ، وكعب ، وسهم) . [1]

ومن هـذا القبيل حلف الفضول ، اذ تداعت قبائل من قريش الى حلف وتعاهدوا وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من اهلها ومن غيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عنه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول . [2] وهو من الاحلاف التي ظل الناس يحترمون أحكامها حتى في الاسلام . وقد عقد على هذه الصورة : اجتمعت بنو هاشم وأسد وزهرة وتيم في دار عبد الله بن جدعان ، وصنع لهم طعاماً كثيراً ، ثم (عمدوا الى ماء من ماء زمزم فجعلوه في جفنة ، ثم بعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه ، ثم أتوا به فشربوه) . [3]

وأضيف الى هذه الاحلاف ، حلف (الرباب) . وهو حلف عقـد بين المتحالفين بادخال أيديهم في (رُبّ) وتحالفوا عليه ، أو لانهم جاؤوا بربّ فأكلوا منه ، وغمسوا أيديهم فيه ، وتحالفوا عليه . فصاروا يداً واحدة ، وقيل : لأنهم اجتمعوا كاجتماع الربابة ، وهم : تيم وعديّ وعُكْل ومُزَيْنَة وضَبّة ، او : ضبّة وثور ، وعُكْل ، وتيم ، وعديّ . [4]

ومن تلك الاحلاف ، حلف لَعَقَة الدم . وقد عقد على أثر تخاصم القبائل من

١ اللسان (٥٤/٩) ، ابن هشام ، سيرة (٨٤/١) ، البداية والنهاية (٢٠٩/٢) ، ابن الأثير ، الكامل (٢٦٧/١) ، المسعودي ، التنبيه (١٨٠) ، المروج (٥٩/٢) ، ابن خلدون (٦٩٤/٢) ، المحبر (١٦٦) ، تاج العروس (٧٥/٦) ، القاموس (٢٨٠/٣) ، النويري ، نهاية الأرب (٣٥/١٦) ، المعارف (ص ٢٠٤) (طبعة هوتسما) ، دائرة المعارف الاسلامية (٤٩/٨) (الترجمة العربية) ، لسان العرب(٥٤/٩) .
Caetani, Annali, Vol., I, Intro., 120, 2, I, Anno., 8, 20-21, Ency.; 2; P. 307.

٢ ابن هشام (١٤٥/١) ، الأغاني (٦٤/١٦ وما بعدها) ، المعارف (٢٠٤) (طبعـة هوتسما) ، الاشتقاق (١١١) (طبعة وستنفلد) ، العقد الفريد (٤١/٢) ، اللسان (٣٩٩/١٠) ، السـيرة الحلبية (١٤٦/١) ، تاريـخ الخميس (٢٦١/١) ، المحبر (١٦٧) ، عيون الأثر (٥٢/١) .

٣ الأغاني (٦٤/١٦) .

٤ الاشتقاق (١١١) ، الصحاح (١٣١/١) ، اللسان (٣٨٨/١ ، ٤٠٣) ، تاج العروس (٢٦٤/١) ، الأغاني (١٤/٩) ، العقد (٥٩/٢) .

قريش في وضع الحجر الأسود في موضعه . فلما استعدت للقتال (قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لُؤيّ على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا (لَعَقَةَ الدم) . [١] ويظهر أن عقد الحلف بادخال الأيدي في الدم من المراسيم المعروفة . وقد عرف قوم من بني عامر بن عبد مناة بن كنانة بلعقة الدم . وكانوا ذوي بأس شديد . [٢] وجاء أن خَثْعَماً انما سُموا خثعماً لانهم غمسوا ايديهم في دمِ جَزُور . [٣]

وتعقد الاحلاف على النار كذلك ، وقد وصف (هيرودوتس) طريقة من طرق التحالف والمؤاخاة والمحافظة على العهود عند العرب ، فذكر أن العرب يحافظون على العهود والمواثيق محافظة شديدة ، لا يشاركهم في ذلك أحد من الأمم ، ولها قداسة خاصة عندهم ، حتى تكاد تكون من الامور الدينية المقدسة . واذا ما أراد أحدهم عقد حلف مع آخر ، أوقفا شخصاً ثالثاً بينهما ليقوم باجراء المراسيم المطلوبة في عقد الحلف ، ليكتسب حكماً شرعياً ، فيأخذ ذلك الشخص حجراً له حافة حادة كالسكين يخدش به راحتي الشخصين قرب الإصبع الوسطى . ثم يقطع قطعة من ملابسهما فيغمسها في دمي الراحتين ، ويلوث بها سبعة أحجار . ويكون مكان هذا الشخص الذي يقوم باجراء هذه الشعائر في الوسط ، يتلو أدعية وصلاة للإلٰهين (باخوس) (Bachus) و (اورانيا) (Urania) ، حتى اذا انتهوا منها قاد الحلف حليفه الى أهله وعشيرته لإخبارهم بذلك ، وللاعلان عنه ، فيصبح الحليف أخاً له وحليفاً ، أمرهما واحد بالوفاء . [٤]

وما ذكره (هيرودوتس) عن عقد العرب احلافهم على النار ، هو صحيح على وجه عام . يؤيده ما ذكره اهل الاخبار عن (نار التحالف) . وقولهم : كان أهل الجاهلية اذا أرادوا أن يعقدوا حلفاً ، اوقدوا ناراً وعقدوا حلفهم

١ ابن هشام (١/٢١٣) ، عيون الأثر ، لابن سيد الناس (١/٥٢) ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر (١/١١٤) ، تاج العروس (٧/٦٢) ، القاموس (٣/٢٨٠)، نسب قريش (٢٨٣) .
٢ الأغاني (٧/٢٦) .
٣ المفضليات (ص ٧٠٥) (واشتقاق خثعم فيما ذكر ابن الكلبي أنهم نحروا جزورا ، فتخثعموا عليه بالدم ، اي تطلوا به) ، الاشتقاق (٢/٣٠٤) .
٤ Harodotus, Vol., I, P. 213, (Rawlinson).

عندها ، ودعوا بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ، ويحل العقد ، وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت ، فاذا استشاطت ، قالوا للحالف : هذه النار تهددتك ، يخوفونه بها حتى يحافظ على العهد والوعد ، ولا يحلف كذباً ، ويضمر غير ما يظهر . ولذلك عرفت هذه النار بنار التحالف . وهي نار يقسم المتخاصمون عليها كذلك ، فان كان الحالف مبطلاً نكل ، وان بريئاً حلف ولهذا سموها أيضاً (نار المهول) و (الهولة) [1] . وذكر أنهم كانوا لا يعقدون حلفاً الا عليها . وقد أشار الى هذه النار (أوس بن حجر) ، اذ قال :

اذا استقبلته الشمس ، صد بوجهه   كما صد عن نار المهول حالف

كما أشار اليها الكميت :

هُمو خوفوني بالعمى هُوّة الردى   كما شبّ نار الحالفين المهول [2]

وقد ذكر أهل الاخبار حلفاً سموه : (حلف المحرقين) ، وزعموا أن المتحالفين تحالفوا عند نار حتى أمحشوا أي احترقوا ، وأن (يزيد بن أبي حارثة ابن سنان ، وهو أخو هرم بن سنان الذي مدحه زهير ، بمحش المحاش ، وهم بنو خصيلة بن مرة وبنو نشبة بن غيظ بن مرة على بني يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة ، فتحالفوا على بني يربوع على النار ، فسُمّوا المحاش بتحالفهم على النار . [3] وزعموا أن المحاش القومُ يجتمعون من قبائل شتى ، فيتحالفون عند النار . [4]

وذكر علماء اللغة أن (المحاشن) : القوم يجتمعون من قبائل يحالفون غيرهم من الحلف عند النار . وكانوا يوقدون ناراً لدى الحلف ليكون أوكد . وقد أشير الى ذلك في شعر للنابغة ، اذ يقول :

جمع محاشك يا يزيد ، فإنني   أعددت يربوعاً لكم ، وتميما

قيل : يعنى صرمة وسهماً ومالكاً بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض وضبّة بن سعد ، لانهم تحالفوا بالنار ، فسمّوا المحاش . [5]

---

١ صبح الأعشى (١/٤٠٩) ، اللسان (١١/٧٠٣) ، سبائك الذهب ، للسويدي (١١٩) ، بلوغ الأرب (١/١٦٢) .

٢ نهاية الأرب (١/١١١) .

٣ اللسان (١٤/٢٣٨) ، و (ورد غيط) و (غيظ) .

٤ تاج العروس (٤/٣٨٤) .

٥ اللسان (٦/٣٤٤ وما بعدها) ، (محش) ، تاج العروس (٤/٣٤٨) ، (محش) .

وقريب من هذا ما كانت تفعله قريش حين تعقد حلفاً ، فيأخذ الحليف حليفه الى الكعبــة ، ثم يطوفان بالأصنام لإشهادها على ذلك ، ثم يعود الحليف بحليفه لاشهاد قريش ومن يكون في الكعبة آنئذ على صحة هذا الحلف ، وقبوله بمحالفة الحليف ، اذ أصبح وله ما له وعليه ما عليه ، وعلى قومه حمايته حمايتهم له . وقد ذكرت كتب السيرة والاخبار والأدب طرفاً من اخبار المحالفات التي كانت تعقد بمكة وكيفيتها وبعض المراسيم التي تمت فيها .

ولا تعرف صيغة واحدة معينة للقسم الذي يقسم به المحالفون . فمنهم من أقسم بالاصنام التي يعبدونها ويقفون عندها حين يعقدون الحلف . ومنهم ، وهم أغلب أهل مكة ، من كانوا يحلفون عند الركن من الكعبة ، فيضع المتحالفون أيديهم عليه ، فيحلفون . وقد ذكر أن قَسَمَ قريش والاحابيش عند الركن يوم تحالفوا وتعاقدوا ، حلفوا (بالله القاتل وحرمة البيت والمقام والركن والشهر الحرام على مصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الارض ومن عليها ، وعلى التعاقد والتساعد على من عاداهم من الناس ما بلّ بحرٌ صوفةً ، وما قام حراء وثبير ، وما طلعت شمس من مشرقها الى يوم القيامة) . [1]

ومنهم من أقسم بالآباء والاجداد ، لما لهم من مكانة ومقام في نفوسهم . ومنهم من حلف وعقد الحلف عند المشاهد العظيمة ، أو في معابد الاصنام ، أو عند قبور سادات القبائل المحترمين ، فيحلفون بصاحب هذا القبر ويذكرون اسمه على التعاقد والتآزر أو على ما يتفق المتحالفون عليه ، وعلى الوفاء بالعهد . وقد روي أن النبي أدرك (عُمَرَ) في رَكْب وهو يحلف بأبيه ، فنادى رسول الله : (اما ان الله عزّ وجلّ ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . من كان حالفاً ، فليحلف بالله ، أو يصمت) . [2]

وفي كتب أهــل الاخبار والأدب اسماء قبائل يظهر أنها كانت أسماء أحلاف عقدت في مراسيم خاصة ، يمكن الوقوف عليها وتعيينها من دراستها والوقوف على معانيها ، مثل الرباب والمحاش وما شاكل ذلك من أسماء .

ومن عاداتهم في عقد الاحلاف ما ذكرته من التحالف على الطيب أو النار أو

١ اليعقوبي (٢١٢/١) .
٢ التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ، للشيخ منصور على ناصف (٧٤/٣) .

القسم عند صنم . (وفي حديث الهجرة : وقد غمس حلفاً في آل العاص ، أي أخذ نصيباً من عقدهم وحلفهم يأمن به . وكان عادتهم أن يحضروا في جفنة طيباً أو دماً أو رماداً ، فيدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليـه باشتراكهم في شيء واحد)[1] . وحلفوا بالملح وبالماء . (قال ابن الاعرابي) : (والعرب تحلف بالملح والماء تعظيماً لهما) .[2] ومن المجاز (ملحه على ركبته) ، بمعنى قليل الوفاء .[3] وحلفوا بالخبز والملح ، وعلى من يأكل خبز وملح شخص الوفاء لذلك الشخص . ولا يجوز الاعتداء على من أكل خبز وملح قبيلة . وعليها الدفاع عنه وأخذ حقه ممن ظلمه من أهل تلك القبيلة .

وتدوّن الاحلاف احيـاناً لتوكيدها وتثبيتها ، وتحفظ عند المتعاقدين ، وقد تودع في المعابد ، كالذي روي في خبر (صحيفة قريش) يوم تآمر المشركون وتحالفوا على مقاطعة (بني هاشم) في شِعْبهم ، اذ كتبوا صحيفة بما اتفقوا عليه ، ثم أودعوها كما يقول أهل الاخبار جوف الكعبة ، وكالذي ورد من تحالف ذبيان وعبس وتدوينهم ما تحالفوا عليه في كتاب ، وتعاهدوا وأقسموا على اتبـاع ما كتب فيه ، والعمل به ، والى ذلك أشير في شعر قيس[4]

ونجد في شعر (زهير) :

الا أبلغ الاحلاف عني رسالة وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم ؟

اشارة الى قسم أخذ من المتعاقدين ، ليلتزموا الوفاء بما تحالفوا عليه ، وهم (الاحلاف) . كما نجد في شعر الحارث بن حلزة اليشكري :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قد م فيـه العهـود والكفلاءُ
حذر الجور والتعدّي ، وهل ينـ قض ما في المهـارق الاهواءُ

اشارةً الى العهـود والرهائن التي أخذت من (بني تغلب) و (بني بكر) للوفاء بما توافقوا وتعاهدوا عليه ودوّنوه من شروط على (المهارق) ،

١ تاج العروس (٤/٢٠٣) ، اللسان٦/١٥٧) ، (غمس) .
٢ تاج العروس (٢/٢٣٠) ، (ملح) .
٣ قال مسكين الدارمي :
لا تلمهـا انهـا من نسـوة ملحهـا موضوعـة فوق الـركب
أي هذه قليلة الوفاء ، تاج العروس (٢/٢٣٠) ، ملح .
٤ لعمري لقد حالفت ذبيـان كلها وعبسـا على ما في الأديـم الممدد
شعر قيس (٢١) .

أي القراطيس ، توكيداً لما اتفقوا عليه مشافهة . وكان الملك (عمرو بن هند) ، قد أصلح بين الطرفين بحلف ، سمّي حلف ذي المجاز ، فأخذ عليهم المواثيق والرهائن [1] .

ويوثق ما اتفق عليه عن عهود وأحلاف ومواثيق ، رؤساء الأطراف المتعاقدة ، بأن تدوّن أسماؤهم وتختم بخواتيمهم ، لتكون شهادة بصحة ما اتفق عليه ، كما يفعل المتعاهدون على صحة العقد ، وعلى صحة الخواتيم ، وبأن ما اتفق عليه كان بحضورهم ، وبأنهم شهود على كل ذلك .

وفي أخبار أهل الأخبار شواهد تشهد بتدوين الجاهليين لعقود الأحلاف . ورد في شرح (التبريزي) على المعلقات قوله في معرض شرحه لمعلقة (الحارث بن حلزة اليشكري) : إن كانت أهواؤكم زيّنت لكم الغدر والخيانة بعد ما تحالفنا وتعاقدنا ، فكيف تصنعون بما هو في الصحف مكتوب عليكم من العهود والمواثيق والبيّنات فيما علينا وعليكم [2] ؟ وورد ان أهل الجاهلية (كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان) [3] . وورد في شعر ينسب الى (درهم بن زيد الأوسي) ، ما يفيد بوجود صحف مكتوبة بعهود عقدت بين الأوس والخزرج [4] . ووردت اشارة الى (الصحف) : صحف العهود والمواثيق في شعر للشاعر : قيس بن الخطيم [5] .

وروي انه قد كان عند (عمر بن ابراهيم) من ولد (أبرهة بن الصباح) الحبشي المعروف ، كتاباً دوّن (الدينوري) صورته ، فيه حلف اليمن وربيعة في حكم الملك (تبع بن ملكيكرب) . وقد دون بشهر رجب الأصم [6] . وهو كتاب يظهر انه دوّن في الاسلام ، وان واضعه لم يكن له علم بأحوال اليمن في

١ شرح القصائد العشر ، للزوزني (٣٤٥) ، شرح القصائد السبع (٢٠١) ، الحيوان ، للجاحظ (١/٦٩ وما بعدها) ، المعرب للجواليقي (٣٠٣) .
٢ شرح المعلقات (٢٦٨ وما بعدها) .
٣ الحيوان ، للجاحظ (١/٦٩ وما بعدها) .
٤ وان ما بيننا وبينكم حين : يقال : الأرحام والصحف
ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي (ص ٦٦) .
٥ ديوان قيس بن الخطيم (١٩) .
٦ الأخبار الطوال (٣٥٤) .

ذلك العهد . على كلّ ، فإنه يشير الى وجود تدوين العهود عند الجاهليين . ولما تحالفت قريش على مقاطعة (بني هاشم) و (بني المطلب) كتبت كتاباً بما اتفقت عليه ، كتبه (منصور بن عكرمة العبدري) ، وذكر انه حفظ عند (أم الجُلاّس بنت مُخربة الحنظلية) خاله أبي جهل ، وذكر انه علق في جوف الكعبة[1] .

وشهادات الشهود على صحة العقود أو الأوامر ، معروفة عند أهل اليمن ، إذْ وردت في الأوامر الملكية التي أصدرها ملوك اليمن وفي قوانينهم التي كانوا يصدرونها لأتباعهم . وقد عرفت عند أهل مكة ، وهم قوم تجار وأصحاب مصالح ، ولهم عقود ومواثيق ومعاهدات مع غيرهم من أهل القرى وسادات القبائل . وفي القرآن الكريم ألفاظ لها صلة بالشهادة والشهود ، منها : (شهدتم) ، و (شهدوا) ، و (أشهد) و (تشهد) ، و (تشهدون) ، و (شاهد) ، و (الشهادة) ، وقد أمر بوجوب المحافظة على الشهادة وعدم كتمانها : (ولا تَكْتُموا الشَهادَةَ ، ومن يكتمها فإنه آثم قَلْبُهُ)[2] .

ولما كانت مراسيم الأحلاف من المراسيم المهمة ومن الأحداث الخطيرة ، اقترنت من أجل ذلك بتقديم الطعام للمتحالفين . فيجلس المتحالفون من جميع الفرقاء على مائدة واحدة كالذي ذكرته من تقديم عبد الله بن جدعان الطعام للمتحالفين يوم عقدوا (حلف الفضول) . وقد تكون الوليمة نفسها مظهراً من مظاهر مراسيم عقد الأحلاف ، لما للخبز والملح من أثر عند العرب . فعلى من يأكل خبز رجل وملحَه ان يبرّ به ويوفي له ، ولهذا يعنف الإنسانُ الإنسانَ الغادر ويوبخه ، لأنه لم يراع حرمة الخبز والملح ، وهي حرمة تكاد تصل الى حرمة الدم والرحم .

يتبين مما تقدم ان العرب كانت ترى توكيد الأحلاف بكسوتها بقدسية خاصة ، وذلك بعقدها مراسيم ذات صبغة دينية . وقد راعت في تلك المراسيم جهد إمكانها إيلاج ما يوضع في تلك المراسيم الى أجسام المتحالفين ، وكأنهم أرادوا بذلك ادخال القسم وما حلف عليه في جسم المتحالفين ، ولهذا كان الذين يغمسون اصبعهم في جفنة الدم أو في دم الجزور ، يلطعون إصبعهم ، وكان الذين يغمسون

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٠٨ وما بعدها) .
٢ البقرة ، الآية ٢٨٣ .

أصابعهم في الطيب يلطعون أصابعهم أيضاً ، وكان الذين يقسمون على الماء المقدس يشربون من ذلك الماء ؛ وكان الذين يجرحون أيديهم ويعقدون الحلف يضعون راحتي المتحالفين اليمنى إحداهما فوق الأخرى ، الى آخر ذلك من مظاهر توحي ان المتحالفين لم يكونوا قد فعلوا ذلك عبثاً ومن غير هدف ولا قصد ، بل أرادوا من كل ذلك التأثير في المتحالفين وجعلهم يشعرون بأن حلفهم هذا أي قسمهم على التحالف لتنفيذ ما اتفق عليه قد صار جزءاً من جسمهم ، وقد حل في دمهم ، كما يحل الدم والخبز في دم الجسم .

وتعقد الأحلاف الخطيرة المهمة أمام الأصنام وفي المعابد في الغالب ، وذلك كي تكتسب قدسية خاصة . ويشرف على عقدها سادن الصنم ، وقد يساعده مساعدون ، ليقوموا بمساعدته في إتمام المراسيم .

ويكون بين قبائل الحلف سلم وود ، لذلك يستطيع أبناء القبائل المتحالفة المرور بمواطن هذه القبائل غير خائفين ، وتمر قوافلهم بأمان لا يُتعرضُ لها ، ولا تجبى إلا على وفق ما اتفق عليه وجرت عليه عادة المتحالفين . وعلى أبناء هذه القبائل حماية من يجتاز بأرضهم وتقديم المساعدات له واضافته ودفع الأذى عنه ، وإذا وقع عليه اعتداء من قبائل غريبة فعليه مساعدته والذب عنه واستصراخ قومه لنجدته ، لأنهم من حلف واحد . وعلى الإنسان ان يتعصب للحلف تعصبه لقبيلته .

ويلاحظ ان الأحلاف إذا طالت وتماسكت ، أحدثت اندماجاً بين قبائل الحلف ، قد يتحول الى النسب . بأن تربط القبائل والعشائر الضعيفة نسبها بنسب القبيلة البارزة المهيمنة على الحلف . وينتمي الأفراد الى سيد تلك القبيلة البارزة ، فتدخل أنسابها في نسب الأكبر . وفي كتب الأنساب والأدب أمثلة عديدة على تداخل الأنساب ، وانتفاء قبائل من أنسابها القديمة ودخولها في أنساب جديدة .

ويؤدي انحلال الحلف أو انحلال عقد عشائر القبيلة الذي هو في الواقع حلف سمي (قبيلة) الى انحلال الأنساب وظهور أنساب جديدة ، فان القبائل المنحلة تنضم الى حلف جديد ، فيحدث ما ذكرته آنفاً من تولد أنساب جديدة ، ومن تداخل قبائل في قبائل أخرى ، وأخذها نسبها . ومن هنا قال (كولد زيهر) : إنه لفهم الأنساب عند العرب ، لا بد من معرفة الأحلاف والتحالف ، فإنها تكوّن القبائل ، لأن أكثر أسماء أجداد القبائل هي أسماء أحلاف ، ضمت عدداً

من القبائل توحدت مصالحها فاتفقت على عقد حلف فيما بينها على نحو ما مر [1] .

وفي كتب الأنساب والأدب أدلة عديدة معروفة على أسماء أحلاف ، مشت بين الناس وفشت وشاعت حتى صارت كأنها نسب من الأنساب . من ذلك (الأحلاف) و (المطيبون) . جاء (ابن صفوان) الى (عبد الله بن عباس) ، فقال له : (نعم الإمارة إمارة الأحلاف ، كانت لكم) فقال (ابن عباس) : (الذي كان قبلها خيراً منها . كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من المطيبين ، وكان عمر من الأحلاف) يعني (إمارة عمر) [2] . وقيل لعمر : أحلافي ، لأنه عدَويّ . والأحلاف صار إسماً لهم كما صار الأنصار إسماً للأوس والخزرج [3] .

وقد أشرت سابقاً الى اسم (تنوخ) . و (الأحابيش) ، حلف عقد عند جبل حبش بأسفل مكة ، فعرف المتحالفون به . وهم (بنو المصطلق ، والحيا ابن سعد بن عمرو ، وبنو الهون بن خزيمة) ، وذلك على حدّ قول أكثر أهل الأخبار [4] .

و (الرباب) حلف أيضاً ، ضم خمس قبائل ، هي : تيم ، وعديّ ، وعُكْل ، ومزينة ، وضبّة ، ولكنه سار بين الناس ومشى وكأنه اسم جماعة ترجع الى نسب واحد [5] . وأما (الأحلاف) ، الذين ورد اسمهم في شعر (زهير ابن أبي سلمي) ، فهم (أسد) و (غطفان) ، ويقال لحلفهما المذكور أيضاً (الحليفان) [6] . و (الأحلاف) : كذلك قوم من (ثقيف) [7] .

لقد تركت الأحلاف أثراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل

---

١ Muh. Stud., I, S., 64.

٢ اللسان (٩/٥٤) (بيروت) ، (وفي حديث ابن عباس : وجدنا ولاية المطيبي خيرا من ولاية الأحلافي .)يريد أبا بكر وعمر . يريد أن أبا بكر كان من المطيبين ، وعمر من الأحلاف .

٣ اللسان (٩/٥٤) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، المعارف (٦١٦) .

٤ اليعقوبي (١/٢١٢) ، البلدان (٢/٢٢٥) .

٥ الاشتقاق (ص ١١١) ، اللسان (١/٤٠٣) .

٦ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٩) ، شرح ديوان زهير ، لثعلب (١٥) ، اللسان (٩/٥٤) .

٧ اللسان (٩/٥٥) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، الصحاح (٤/١٣٤٦) .

الإسلام وعند العرب في الإسلام كذلك ، على الرغم من الحديث المنسوب الى الرسول الذي يناهض الحلف : (لا حلف في الإسلام)[1] . وقد أدرك الرسول ، ولا شك ، ضررها بالمجتمع العربي إذ كانت من أسباب التفريق ، فحلّ الأحلاف وأحل الدولة مكانها ، وحتّم على القبائل إطاعة الرسول أو من يقوم مقامه من المسلمين .

وأما ما رواه (قيس بن عاصم) من ان الرسول قال : (لا حلف في الإسلام ، ولكن تمسكوا بحلف الجاهلية) ، فالظاهر انه قصد بذلك الجوار[2] . وقد أكد الإسلام احترام الجار ، ووجوب الدفاع عنه ، كما أيد الأحلاف الجاهلية التي تدعو الى الخير ونصرة الحق . أما الممنوع ، فما خالف حكم الاسلام ، ودعا الى الهلاك والضرر والفتن والقتال ، فذلك الذي ورد النهيّ عنه في الاسلام[3] .

واستعمل الجاهليون لفظة (حبل) و (حبال) للعهود والمواثيق . ف (الحبل) هو العهد والذمة والأمان ، وهو مثل الجوار . وكان من عادة العرب في الجاهلية ان يخيف بعضهم بعضاً ، فكان الرجل إذا أراد سفراً أخذ عهداً من سيّد كل قبيلة ، فيأمن به ما دام في تلك القبيلة ، حتى ينتهي الى الأخرى ، فيأخذ مثل ذلك أيضاً ، يريد به الأمان . فهذا حبل الجوار ، أي ما دام مجاوراً أرضه . وفي هذا المعنى جاء قول الأعشى :

واذا تجوّزها حبال قبيلة   أخذت من الأخرى اليك حبالها

وجاء في الحديث : (بيننا وبين القوم حبال) ، أي عهود ومواثيق . وفي هذا المعنى ، أي العهد والذمة والأمان ، جاء :

ما زلت معتصماً بحبل منكُمُ   مَن حلّ ساحتكم بأسبابٍ ، نجا[4]

١ تاج العروس (٦/٧٥) ، النهاية في غريب الحديث (١/٢٤٩) ، اللسان (٩/٥٣) ، الكامل ، لابن الأثير (١/٢٦٧) .

٢ الاغاني (١٢/١٥١) .

٣ اللسان (١/٥٤) ، النهاية في غريب الحديث (٣/١٤٣) .

٤ اللسان (١١/١٣٤ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٤/٣٠) ، روح المعاني ، للآلوسي (٤/١٧) ، تفسير الرازى (٨/١٧٣) ، جامع احكام القرآن ، للقرطبى (٤/١٥٨) .

وقد استفادت قريش من (الحبال) التي عقدتها بينها وبين القبائل ، إذْ أمنت بذلك على تجارتها ، وقد كانت واسعة تشمل كل جزيرة العرب ، وتتصل بالعراق وببلاد الشأم ، فصارت قوافلها العامة والخاصة تمرّ بأمن وسلام من كل مكان بفضل حنكة سادة مكة وذكائهم في تأليف قلوب سادات القبائل وربطهم بهم بعهود ومواثيق . جعلت التحرش بقوافلهم من الأمور الصعبة ، واذا طمع بها طامع أدبه سيد قبيلته الذي يخضع له .

ولقريش ولغيرها أحلاف مع أسر وأفراد . فقد كان لـ (بني دارم) من تميم حلف مع (بني عبد مناف) من قريش . وكان لـ (عكاشة بن محصن) حلف مع رجال من مكة . روي ان رسول الله قال : (منا خير فارس في العرب : عكاشة بن محصن . فقال ضرار بن الأزور الأسدي ذاك رجل منا يا رسول الله . قال : بل هو منا بالحلف . فجعل حليف القوم منهم . كما جعل ابن أخت القوم منهم)[1] . وكان للأخنس بن شريق ، وهو رجل من ثقيف ، وكذلك (يعلى بن منبه) ، وهو رجل من (بلعدويّة) ، وكذلك (خالد ابن عرفطة) وهو رجل من عذرة حلف مع قريش ، فصاروا منها بالحلف . ذلك لأن (حليف القوم منهم ، وحكمه حكمهم)[2] .

وقد يقع أسير في أسر آسر ، فلا يتمكن من فداء نفسه ، ثم يطلب من آسره ان يكون حليفاً له ، فإذا قبل آسره منه ذلك ، صار في حلفه وفي حلف قبيلته . أي يكون ذلك الشخص حليفاً لقبيلة آسره . ويكون حكمه بالنسبة للإرث ، إنه يرث من القبيلة كما يرث الصريح من أبنائها . أما إذا قتل ، فديته نصف دية الصريح[3] . وكان (معيقيب بن أبي فاطمة) حليفاً لبني أسد ، وكان يكتب مغانم الرسول[4] .

التخالع :

واذا أراد المتحالفون انهاء حلفهم وعهدهم الذي تعاهدوا عليه بينهم ، أعلنوا

---

١ مناقب الترك ، من رسائل الجاحظ (١/١٣) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .
٢ مناقب الترك (١/١٢ وما بعدها) .
٣ تاريخ التمدن الاسلامي (٤/٢٣) .
٤ الجهشياري (١٢) ، (القاهرة ١٩٣٨) .

عن ذلك ، وكتبوا به كتاباً ، ليكون مشعراً بتخالعهم ، وانهم نقضوا الحلف الذي كان بينهم ، فتسقط بذلك كل مسؤولية تولدت عن الوفـاء بذلك الحلف أو العهد ، فلا يطالب طرفٌ الطرف الثاني بالوفاء به . ورد في كتب اللغة : وتخالعوا : نقضوا الحلف والعهد بينهم وتناكثوا [١] .

ويكون التخالع باتفاق الطرفين عليه ، وبرضائهما عنه . أما إذا نكل طرف واحد بتنفيذ ما جاء في الحلف، أو أعلن عن انسحابه منه ساعة الحاجة اليه، كأن يتبرأ منه في وقت يكون فيه حليفه في شدة وضيق ، عدّ ذلك غدراً وخيانـة ، لتلكؤه عن تنفيذ ما اتفق عليه . وليس الغدر من سجايا إنسان شريف .

وقد كان للحلف أثر مهم في تلاحم الأنساب وفي انفكاكها وتجزُّئها ، وطالما نقرأ في الكتب عبارات تشير الى تلاحم الأنساب وتداخلها بسبب العوامل المتقدمة . مثل : (ومنهم سليم بن عباد . كان حليفاً لأبـي طالب . وولده اليوم يدعون في آل أبي طالب) [٢] .

والأحلاف بنوعيها أحلاف القبائل وأحلاف الأفراد قد لا تدوم أمداً طويلاً ، ولا سيما أحلاف القبائل ، فالقبائل في تنقل وحركة ، ومصالحها وضرورات الحياة عندها متغيرة غير ثابتة ، وهي قلقة غير مستقرة . وأحلاف تقوم على مثل هذه الأسس لا يمكن ان تدوم وتعمر ، ولا سيما إذا ما تشتت شمل الحلف ، وتنقلت قبائله ، وتحولت الى أماكن بعيدة . فتضعف الروابط والصلات التي تجمـع بين شملها ، ثم ترخى وتزول ولا يبقى من الحلف غير الاسم . تزول بغير تخالع ولا تقاتل أو تباغض ، تزول لأن الظروف التي دعت الى عقدها ، تكون قد زالت وتغيرت ولأن التباعد قد برّدَ من نار الحب التي كانت قد قاربت بين القلوب فجعلها تنسى ذلك الحب ، ولا تذكره إلا عندما تتذكره .

اخاء القبائــل :

وإخاء القبائل ، هو إخاء اصطناعي ، وان عدّه أهل الأنساب والأخبار اخاءً

---

١ اللسان (٨/٧٦ ح ، (صادر) ، (خلع) ، تاج العروس (٥/٣٢٢) ، (خلع) .
٢ الاشتقاق (١٨٩) .

حقيقياً من اقتران والد بأم . فنحن نعلم في هذا اليوم ومن قراءاتنا للكتابات الجاهلية ، ومن نقدنا وغربلتنا لأخبار أهل الأخبار ولروايات أهل الأنساب ، ان التآخي ، هو في الواقع جوار ، ونزول قبيلة بجوار قبيلة أخرى ، أو نتيجة حلف تآخت قبائله واتحدت ، فعد تآخيها تآخياً بالمعنى المفهوم من الاخوة . أو حاصل تضخم قبيلة لم تعد أرضها يتسع صدرها لها ، فاضطرت عشائرها وبطونها على التنقل والارتحال الى مواطن جديدة ، وعدت نفسها لذلك من نسل تلك القبيلة التي كانت تعيش معها ، فعدّ ذلك أهل الأنساب نسباً حقيقياً بالمعنى المفهوم من النسب عندنا .

وقد تضطر بعض القبائل على ترك مواطنها والارتحال عنها ، بسبب غزو قبيلة أقوى منها لها ، فتنزل بين قبيلة جديدة وتتحالف معها ، أو تقهرها على النزول بأرضها . وفي كتب أهل الأنساب والأخبار أمثلة عديدة على ذلك . فتتداخل أنسابها ، ويتولد من ذلك نسب جديد . من ذلك ، ما يرويه أهل الأنساب عن (علك) وهو أخو (معد) على زعم أهل النسب ، فلما حارب (بختنصر) (عدنان) ، والد (معدّ) و (علك) ، هاجر أبناء (علك) نحو الجنوب فراراً من (بختنصر) وأقاموا في اليمن ، فدخل نسبهم في اليمن ، وعدّهم بعض أهل الأنساب من قحطان ، ومن ذلك قضاعة وقبائل أخرى عديدة .

الهجن :

وتزوج العرب من الإماء ، وذلك ان من الإماء من كانت جميلة الصورة حلوة المنظر والكلام ، ولهذا تزوّج ساداتهن منهن ، فولد لهم نسل ، قيل للواحد منه الهجين . والهجين : ولد العربي من غير العربية ، قيل له ذلك لأن الغالب على ألوان العرب الأدمة [1] ، ويقال للزواج الذي يقع بين عربي وأعجمية : (مهاجنة) . وقد عابته العرب وعدت الهجين دون العربيّ الصريح ، لوجود دم أعجميّ فيه . والأعاجم هم ، مهما كانوا عليه من منزلة ، دون العرب في نظر العرب [2] .

ويظهر من تعريف علماء اللغة للفظة (الهجين) ، انها خصصت بمن يولد

١ اللسان (أ/د/م) ، (٤٣١/١٣) .
٢ اللسان (أ/د/م) ، (٤٣١/١٣) .

من أم أعجمية بيضاء ، كأن تكون الأم رومية أو فارسية . فقد ذكروا ان العرب أطلقت على أولادها من العجميات اللائي يغلب على ألوانهن البياض ، الهجن والهجناء ، لغلبة البياض على ألوانهم وإشباههم أمهاتهم ، فيجب ان تكون الأمهات الأعجميات إذنْ من ذوات البشرة البيضاء ، تمييزاً لهن عن ذوات البشرة السوداء من الرقيق المستورد من إفريقية . ويذكر علماء اللغة أيضاً ان العرب قالت للعجم (الحمراء) و (رقاب المزاود) ، لغلبة البياض على ألوانهم ، ويقولون لمن علا لونه البياض : أحمر [1] . وقد هجا (حسان بن ثابت) (سعد بن أبي سرح) بأن اتهمه بأنه عبد هجين ، أحمر اللون فاقع ، موتر عِلْباءِ القفا ، قَطَطٌ ، جعد [2] .

والهجنة من الكلام : ما يعيبك [3] . وقد جاء هذا المعنى من الفساد الذي قد يظهر في كلام الهجن ، بسبب عجمة الأمهات وعدم اتقانهن العربية . ولما كان الخطأ في اللغة عيباً ، عدت الهجنة من الأمور المعيبة .

ويطلق العرب لفظة (رجل مولَّد) على الرجل إذا كان عربياً غير محض . و (المولدة) الجارية المولودة بين العرب ، وقيل : تُولَد بين العرب وتنشأ مع أولادهم ويغذونها غذاء الولد ويعلمونها من الأدب مثل ما يعلمون أولادهم . و (التليد) التي ولدت ببلاد العجم وحُملت فنشأت ببلاد العرب ، وقيل : هي التي تولد في ملك قوم وعندهم أبوها [4] .

الجوار :

وللجوار حرمة كبيرة عند الجاهليين . فإذا استجار شخص بشخص آخر ، وقبل ذلك الشخص ان يجعله جاراً ومستجيراً به ، وجبت عليه حمايته ، وحق على المجار الدفاع عن مجيره ، والذبّ عنه . وإلا عدّ ناقصاً للعهد ، ناكثاً للوعد ، مخالفاً

---

١ اللسان (١٣/٤٣١) ، الأغاني (١٦/٧٣) .
٢ أعبد هجين أحمر اللون فاقع موتر علباء القفا قطط جعد
ديوان حسان (ص ١٤٩) (البرقوقي) .
٣ اللسان (هـ/ج/ن) ، (١٣/٤٣١) .
٤ اللسان (ولد) ، (٣/٤٦٧ وما بعدها) .

لحق الجوار . وعلى القبائل استجارة من يستجير بها ، والدفاع عنه دفاعهـا عن أبنائها . ويقال للذي يستجير بك (جار) . والجار الذي أجرته من ان يظلمه ظالم . وجارك المستجير بك ، والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك . وأجاره : أنقذه من شيء يقع عليه [1] .

العصبيــة :

وأساس النظام القبلي هو العصبية ، العصبية للأهل والعشيرة وسائر متفرعـات الشعب أو الجذم أو القبيلة ، أو العشيرة . ومن شروطها ان يدعو الرجـل الى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ، ظالمين كانوا أو مظلومين ، وليس له ان يتساءل : أهو ظالم أم مظلوم [2] ، وهي ضرورية للقبائل ، لأنها لا تستطيع ان تدافع عن نفسها إلا اذا كانت ذات عصبية ونسب ، وبذلك تشتد شوكتها ، ويخشى جانبها ، كما انه لا يمكن وقوع العدوان على أحد مع وجود العصبية . وتقوم العصبية على النسب ، وهي تختلف لذلك باختلاف درجات تقارب الأنساب ، ولذلك تجد عصبيات مختلفة [3] . وتشمل العصبية الصرحاء والموالي والجيران .

وتشمل العصبية أهل المدر كذلك ، فأهل المدر وإن تحضروا واستقروا واقاموا في بيوت ثابتة ، إلا ان نظامهـم الاجتماعي والسياسي بني على العصبية أيضاً ، فتألفت المدن والقرى من (شِعاب) ، وتكوّنت الشعاب من جماعات بينها روابط دم ووشائج قرابة . والشِعْب هو وحدة ، وهو الذي يأخـذ بحق المظلوم من الظالم ، وبظلامة من تقع عليه ظلامة . وغالباً ما تكون بـين الشعاب المتجاورة قرابة وصلة رحم ، وإذا حدث حادث لهذه الشعاب ، هبّت للنظر فيه واتخـاذ ما ينبغي اتخاذه من موقف ، ثم تكون عصبية الشعاب للمدينة أو للقريـة ثم إن سكان هذه المدن وإن تحضروا واستقروا كانوا يُرجعون أنفسهم كأهل الوبر الى

---

١ اللسان (٤/١٥٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/١١١ وما بعدها) ، (جار) .

٢ (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) ، الأمثال (٢٢) ، لسان العرب (١/٦٠٦) ، قاموس المحيط (٢/١٤٠٥) ، (للبستاني) .

٣ راجع بحث العصبية في مقدمه ابن خلدون (ص ١٠٨ فما بعدها) ، الحيـوان (١/١٦٦) .

قبائل وعشائر . فهم اذن أعراب من حيث التعصب والأخذ بالعصبية ، واختلافهم عن الاعراب ، هو في استقرارهم وفي عيشهم في محيط ضيق محدود وفي خطط مثبتة مرسومة .

وفي المعنى المتقدم من العصبية ، ورد قول الشاعر :

اذا أنا لم أنصر أخي وهو ظـالم على القوم ، لم أنصر أخي حين يظلَم

فالعصبية : أن يدعو الرجل عصبته الى نصرته . وهي (النصرة على ذوي القربى وأهل الارحام ، أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة) [1] .

وفي هذا المعنى أيضاً ورد قول الشاعر ، قريط بن أنيف ، حيث يقول :

قـوم اذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم طـاروا اليه زُرافات ووحدانا
لا يسألون أخـاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا [2]

فهو يهبّ اذا سمع نداء العصبية حاملاً سيفه أو رمحه أو أي سلاح يملكه ، وبغير سلاح ، لينصر أخاه : لا يسأله : لِمَ ؟ فليس من العصبية والاخوة القبلية أن تسأل أخاك عمّا وقع له ، بل عليك تلبية ندائه وتقديم العون له ، معتدياً كان أم معتدى عليه .

وللعصبية صلة كبيرة بالمسؤولية وبالعقوبات . فعلى درجة العصبية تقع المسؤولية . فأقرب الناس الى الجاني ، يكون أول من يتناوله الأخذ بالثأر ، ثم الأبعد فالأبعد . ومن هنا كان الطالبون للثأر يبدأون بالجاني أولاً . فان فاتهم أخذوا أقرب الناس رحماً به ، فان فاتهم أخذوا الذي يليه أو من هو في درجته وهكذا .

وكلما بعدت العصبية عن دم الأبوين ، خفت حدتها ، وطبيعي ألا تكون العصبية الى القبيلة مثل العصبية الى الاهل في الشدة . ولهذا فان العصبية ترتبط بدرجة الدم والتحام النسب ارتباطاً طردياً . وهذا شيء طبيعي ، وهو حاصل هذه الحياة .

ولا تمنع العصبية بطون القبيلة من مخاصمة بعضها بعضاً ومن التقاتل فيما بينها ، بسبب تغلب المصالح الشخصية على عاطفة (العصبية) . ومتى اصطدمت المصالح

١ اللسان (١/٦٠٦) ، (عصب) ، ابن خلدون ، مقدمة (١٣٨) .
٢ المرزوقي ، شرح الحماسة (١/٢٧ وما بعدها) .

بالعواطف ، تغلبت المصلحة عليها . فالمصلحة حاجة وواقع عمليّ ، والعصبية شعور ، والحاجة أقوى منها . ولهذا نجد المصلحة تدفع بطون القبيلة المتخاصمة على الاستعانة ببطون غريبة عنها ، أو بقبائل بعيدة عنها في النسب لمقارعتها أخواتها والتغلب عليها ، مدفوعة الى ذلك بدافع المصلحة وغريزة المحافظة على الحياة . فتقاتلت بطون من طيء وتحاربت فيما بينها ، وتقاتلت قبائل بكر ووائل مع وجود النسب والدم ، وتقاتل بنو جعفر والضباب .[1] تقاتلت لظهور مصالح تغلبت على العصبية وعلى الشعور بالاخوة . ومتى ظهرت المصالح المادية عجزت عاطفة النسب والعصبية من التغلب عليها .

وجرثومة العصبية ، العصبية للدم ، وأقرب دم الى انسان هو دم أسرته وعلى رأسها الأبوان والاخوة والاخوات ثم الأبعد فالأبعد ، حتى تصل الى العصبية للقبيلة . ولهذا تكون شدة العصبية وقوتها تابعة لدرجة قرب الدم والنسب وبعدهما . فاذا ما حلّ حادث بإنسان ، فعلى أقرب الناس دماً اليه أن يهب لاسعافه والأخذ بالثأر ممن ألحق الأذى بقريبه . ولهذا صارت درجات العصبية متفاوتة بحسب تفاوت الدم ومنازل النسب .

وآخر مرحلة من مراحل العصبية ، العصبية للقبيلة ، والعصبية للحلف ، أو العصبية للنسب الاكبر ، وذلك في حالة تكتل القبائل وتخاصمها كتلاً . وتكون العصبية للقبيلة أقوى من العصبية للحلف أو النسب الاكبر مثل معدّ أو نزار أو حمير أو ما شاكل ذلك ، وذلك لشعور أبنـاء القبيلة بأن الرابطة التي تربطهم هي رابطة الدم ، والدم أبرز وأظهر في القبيلة من رابطة الحلف أو رابطة النسب الاكبر ، ولا سيما رابطة الحلف ، فانها رابطة مصلحة في الغالب لا رابطة دم ، والشعور بروابط المصالح لا يكون مثل الشعور بروابط الدم .

وتدفع العصبية للحلف ، قبائل الحلف على التناصر والتآزر والتكتل ، والوفاء بالعهد ، والا لم تكن للمتحالفين فائدة ما من الحلف ، وعلى أفراد الحلف أن ينصر بعضهم بعضاً ، وعلى قبائل الحلف أن يتآزروا في دفع الديات أيضاً . وبالمطالبة بديات من يُقتل من قبائل الحلف ، اذا عجز أهل القتيل أو قبيلة القاتل عن الأخذ بحقه .

---

[1] ابن الأثير (١/٣٨٨) ، البلدان (٨/٤٥٠) ، العمدة (٢٠٠ وما بعدها) .

وتشمل العصبية كل منتمٍ الى القبيلة ، تشمل أحرارها أي أبناءها الخلّص الصرحاء ، وتشمل الموالي أي الرقيق وكل مملوك تابع لحرّ ، كما تشمل أهل الولاء والجوار . فالعصبية لا تعرف تفريقاً في هذه الناحية ، فعلى كل من ينتمي الى قبيلة ويحمل اسمها أن يتعصب لقبيلته ويذود عنها ، وان كان عبداً مملوكاً ، ذلك قانون وأمر محتوم ، لا جدال فيه ولا نقاش ، من حيث وجود حقوق أو عدم وجودها ، ومن حيث ان اصل هذا حرّ وأصل هذا عبد . لأن ما يصيب الحر يصيب المولى والجار ، وما يصيب المولى والجار يؤثر على الحر ، لأنه مسؤول عن مولاه وعن جاره بحكم التملك والجوار ، وعلى الرقيق والجار تبعة الدفاع عن الصريح وعن القبيلة التي ينتمي اليها الصريح .

وتلزم العصبية أبناء القبيلة بوجوب تحمل التبعة والقيام بواجبها وتلبية ندائها واجابة الصارخ بالعصبية ، ليس له ان يسأل عن السبب ، ولا ان يعتذر عن تلبية النداء ، وانما عليه ان يعمل بقول الشاعر :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا [1]

واذا قُتل قتيل لزم الأخذ بثأره ، واذا كان القتيل سيد قبيلة وجب على القبيلة الأخذ بثأر سيدها ، وهيهات ان تسكت عن قتله ، وعلى كل فرد من افراد تلك القبيلة واجب الأخذ بثأره ممن قتله .

ويفرض قانون العصبية على القبيلة تحمل التبعة ، اذ جعلها تبعة جماعية . فاذا جنى رجل جناية قتل ، تكون قبيلته مسؤولة عن جنايته ، وعليها تقع تبعة قتل القاتل اذا تعذر الأخذ بالثأر منه او تعذر تسليم القبيلة له ، كما يقع على القبيلة دفع الدية اذا عجز القاتل او آله عن دفعها ، وذلك لتوزيعها على المتمكنين من افرادها ، او بقيام ساداتها او سيدها بدفعها كاملة او بدفع ما تبقى منها .

ومن هنا خضعت فردية الاعرابي المتطرفة لقانون الجماعة ، اي لسلطان العصبية فصار واجباً عليه ان يضع نفسه تحت إمرة القبيلة ، وذلك بتلبية ندائها حين يبلغه ذلك النداء ، وتقديم نفسه طائعاً مختاراً لإمرة القبيلة ليدافع عنها او ليشترك معها في الغزو ، ليس له ان يفرّ او يعتزل او يتلكأ ، فهذا واجب مفروض عليه ، اذا خالفه خالف جماعته وخسر حمايتها له ، وصار مسبُوباً من الناس .

---

١ حماسة أبي تمام (١/١٦) .

الحمية :

ومن مظاهر العصبية : (الحميّة) وهي الأنفة والغيرة والغضب ، وذلك أن الشخص كان يأنف من عمل قبيح ، وتأخذه حميته من أن يفعل شيئاً يعاب ويعار عليه .[1] وهو يغضب وتأخذه حميته من أن يترك سنة آبائه وأجداده . وقد نهى الاسلام عن الحمية ، واعتبرها من أخلاق أهل الجاهلية والكفر . ونزل الوحي يندد بها : (اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حميّة الجاهلية . فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى) .[2] وذلك حين جعل (سهيل بن عمرو) في قلبه الحمية فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين الرسول والمشركين بسم الله الرحمن الرحيم ، وأن يكتب فيه محمد رسول الله ، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله مكة عـامه ذلك .[3] فوضع الاسلام (السكينة) في موضع حمية الجاهلية .

و (النعرة) ، وهي الصياح ومناداة القوم بشعارهم طلباً للغوث والاستعانة ، أو لإهاجتهم ولتجمعهم في الحرب . ومن هنا ورد في الحديث (ما كانت فتنة الا نعر فيها فلان) . أي نهض فيها . وفي حديث الحسن : كلما نعر بهم ناعر اتبعوه ، أي ناهض يدعوهم الى الفتنة ويصيح بهم اليها .[4] ولما كان العرب اصحاب حس مرهف ، وعاطفة ذات حساسية شديدة ، لذلك لعبت النعرات فيهم دوراً خطيراً في اثارة الفتن بينهم . وكانت سبباً لحدوث حوادث مؤسفة عنـد الحضر وعند الاعراب .

واذا أصيب شخص بضيم ، او نزلت به اهانة أو نازلة ، نادى قومه بشعائر العصبية ، وعلى قومه تلبيتـه ونصرته . وقد ينادي الانسان شخصاً طالباً منه العون والنصرة ، فتلزمه مساعدته كأن ينادي (يا لَفلان) ، وهو شعار يستعمل عند التحزب والتعصب ، ينادي به بصوت عال مسموع ، عند بيت المنادى او في موضع عام او في مكان مرتفع ليصل الصوت الى ابعد مكان .[5]

١ تاج العروس (١٠/٩٩) ، (حمى) ، اللسان (١٨/٢١٦ وما بعدها) ،
٢ سورة الفتح ، رقم ٤٨ ، الآية ٢٦ .
٣ تفسير الطبرى (٢٦/٦٥) ، تفسير القرطبى (١٦/٢٨٨ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٣/٥٧٧) ، (نعر) .
٥ الروض الأنف (١/٩٣ وما بعدها) ، الأغاني (١٥/٧١) ، شرح ديوان الحماسة (١/١٦٨) .

Muh. Stud , I, S., 61 Kinship, P. 44.

وللقبائل شعار ينـــادون به عند العصبية ، فاذا وقع على احد من اهل يثرب اعتداء وأراد المؤآزرة والنصرة ، نادى : يا لآل قيْلة ، واذا كان من تميم نادى : يا لتَميم ، وهكذا ، فيهرع من يكون حاضراً ساعة النداء لينصر صاحبه الذي هو من قومه وليـــؤآزره . وتعد التلبية من اهم مفاخر الرجال والقبائل وواجباً من الواجبات .[1]

ويتداعى الناس الى العصبية في القتال . واذا ارادوا اهاجة قومهم نادوا بالعصبية . وقد وقع خلاف بين المهاجرين والانصار في المدينة والرسول فيها . فقال قوم : يا للأنصار . وقال قوم يا للمهاجرين . فسمع النبي تداعيهم وصراخهم ، فقال لهم : دعوها فإنها منتنة . ودعاها بـ (دعوى الجاهلية) . (وفي الحديث : ما بال دعوى الجاهلية ؟ هو قولهم : يا لفلان كانوا يدعون بعضهم بعضاً عند الأمر الشديد) .[2]

الاسلام والعصبية :

وقد تركت (العصبية) اثراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل الاسلام . وقد كانت اذ ذاك ضرورة من الضرورات اللازمة بالنسبة الى الحياة في الجاهلية ، لأنها الحائل الذي يحول بين الفرد وبين الاعتداء عليه ، والرادع الذي يمنع الصعاليك والخلعاء والمستهترين بالسنن من التطاول على حقوق الناس ، اذ لا حكومة قوية رادعة ولا هيئة حاكمة في استطاعتها الهيمنة على البوادي وعلى الإعراب المتنقلين . بل هنالك قبائل متناحرة وامارات متنافرة ، اذ ارتكب انسان جريمة في ارضها ، وفرّ الى ارض اخرى ، نجا بنفسه وأمن على حياته هناك ، ولكنه كان يخشى من شيء واحد ، لم يكن لأحد فيه عليه سلطان ، هو (العصبية) وسمة (الأخذ بالثأر) ، وهي العصبية في ثوبها العملي . كان يخشى من سلطان الأخذ بالثأر ، حيث يتعقبه اهل الثأر ، فلا يتركون الجاني يهنأ بالحياة ولو بعد مضي عشرات من السنين ، حتى يُقتل او يقتل اقرب الناس اليه . وبذلك صارت العصبية ضرورة من ضرورات الحياة ، بالنسبة لسكان جزيرة العرب ، لحمايتهم وصيانتهم من عبث العابثين .

---

١ اللسان (٦/٨١) ، ابن هشام (٤/٢٨) ، الأغاني (١٥/٧١) ، (يالطيء) ، شرح ديوان الحماسة (١/١٦٨) .

٢ اللسان (دعا) ، (١٤/٢٥٩) .

وقد أدرك الإسلام ما في العصبية من أخطار على المجتمع ، ولما في الأخذ بالثأر من ضرر على الأمة ، إذْ يحول المجتمع الى مجتمع ذئاب ، يأخذ كل ذئب حقه من غريمه ، فنهى عنها ، وحوّل العصبية الجاهلية الى عصبية إسلامية . بأن يتعصب المسلم لأهل عصبيته ، ولدينه ، فيدافع عنه ويقاتل في سبيله وفي سبيل رفع الظلم عمن وقع الظلم عليه بمساعدة من بيدهم الأمور على إحقاق الحق وإظهار حق المظلوم لديهم . وحرم العصبية الجاهلية المعروفة ، فورد في الحديث : (ليس منا من دعا الى عصبية أو قاتل عصبية)[1] . ومنع الأخذ بالثأر ، إذْ جعل حقه من حقوق أولي الأمر ، ومن بيده سلطان المسلمين ومن ينيبونه عنهم للقضاء بين الناس .

من أعراف العرب :

وللأعراب بصورة خاصة أعراف أوجبت الطبيعة عليهم اطاعتها والعمل بها لأن في تنفيذها مصلحة الجميع ، وفي الخروج عليها ضرراً بالغاً . من ذلك وجوب الأخذ بالثأر ، والبحث عن القاتل لقتله مهما طال الزمن ، لان (الدم لا يغسل إلا بالدم) . وقد أملت طبيعة المحيط الذي يعيش فيه العرب عليهم هذا العرف . فليس في البادية مَن يحول بين قتل الناس بعضهم بعضاً إلا الأخذ بالثأر ، وقيام أهل القتيل والعصبية بالأخذ بدمه . ولولا الخوف من الأخذ بالثأر لَعَمّ القتل الحياة : فالحياة في البوادي وفي أكثر أنحاء جزيرة العرب شدة ومحنة وفقر وقسوة . وليس في البادية أي خير كان مما يستمتع به أهل الحواضر ، ولا سيما تلك التي امتازت بوفرة الماء فيها وبحسن جوّها واعتداله . لذلك صارت حياة الأعراب ضنكاً في العيش وفقراً مُرّاً ، وصار كل شيء تقع عليه عين الاعرابي ذا قيمة وفائدة عنده مهما كان تافهاً ، فيريد الاستيلاء عليه وسلبه من صاحبه ، لانه محتاج اليه وفقير ، ويرى ان من حقه ان يستولي على كل ما يراه عند من هو أضعف منه ، وان أدى ذلك الى ازهاق حياته . ولكن الطبيعة التي علمت

١ اللسان (٦٠٦/١) ، (عصب) .
ونوقد ناركم شررا ويرفع   لكم في كل مجمعة لواء
المفضليات (ص ٥٦) ، تاج العروس (٤٤٠/٣) ، بلوغ الأرب (١٦٢/٢) .

الاعرابي هذا المنطق ودرّسته هـذا الدرس درّسته في الوقت نفسه ان الاستهتار بالسلب والنهب والقتل ، يؤذيه ويهلكه ، وانه لا بدّ له من الحدّ من غلوائه ومن أعدائه على غيره ، ووضعت له حدوداً وقيوداً من طبيعة هـذه الحياة التي يحياها . منها عرف (العصبية) ، والأخذ بالثأر ، وغير ذلك من أعراف أملتها الطبيعة على سكان هذه البوادي ، وصارت سنناً متبعة بعضها يتعلق بالأعراف التي تخص داخل القبيلة ، وبعضها يتعلق بالاعراف التي تتعلق بالقبائل المتحالفة ، ومنها ما يتعلق بالاعراف التي تكون بين القبائل المتعادية .

والقاعدة عنـد العرب ان الدم — كما سبق ان قلت — لا يغسل إلا بالدم ، وان تعويض الدم بمال يرضى عنه (آل) القتيل ، منقصة وذلة لا يقبل بها إلا ضعاف النفوس . أما أهل البيوت والحمولة ، فلا يقبلون إلا بالقصاص وبأخـذ الثأر ، وبقتل رجل كفء يكافىء المقتول في المنزلة والدرجة والمكانة ، فإذا كان القتيل سيد قبيلة والقاتل من عامّة الناس أو من عبيدهم ، أبوا الاكتفاء بقتله به اقتصاصاً منه ، إذْ انه دون القتيل في المنزلة والشرف والمكانة ، بل لا بـد عندهم من قتل سيد من سادات القبيلة التي يكون منها القاتل ، على ان يكون مكافئاً للقتيل ، حتى يغسل الدم . وان كان ذلك السيد بعيداً عن القاتل ولا صلة له به . فالسيّد سيّد ولا يغسل دمه إلا بدم سيد مثله . ولعلّ الطبيعة وضعت لهم هـذه السنة لتأديب سادات القبيلة أو غيرهم ، ممن قد يحرضون العبيد أو غيرهم من السوقة على قتل خصومهم وأعدائهم ، فاذا عرفوا ان أهل القتيل سينتقمون منهم بقتلهم ، حاربوا سفكة الدماء من أتباعهم ولاحقوهم ، وبذلك ينظفون المجتمع منهـم ، ويخلصون الناس من سفاكي الدماء .

والأصل في القتل : القصاص ، وقتل القاتل بدل القتيل . فيطالب أهل المقتول بالقوَد وهو قتل النفس بالنفس . وقد ورد ذكره في الحديث ، إذْ جاء : (من قتل عمداً ، فهو قود)[1] . واذا لم يتم القود ، أو لم يحدث التراضي على الدية ، أو اذا فرّ القاتل ، فلا بد من الأخذ بالثأر . ولا يستقر لأهل القتيل قرار الا بعد الأخذ بثأر القتيل . وقـد يتركون الخمر والطيّبات ولا يقربون النساء طيلة طلبهم للثأر . وقد يلبسون ألبسة الحزن ويجزّون شعورهم ، ولا يأكلون لحماً ،

١ تاج العروس (٢/٤٧٨) ، (قود) .

ولا يميلون الى ضحك ولا سماع دعابة ولا الى الاستراحة ، حتّى ينالوا منالهم من الأخذ بثأر القتيل . كالذي روي في قصة طلب امرىء القيس الكندي ثأر أبيه من بني أسد . وقد آلى على نفسه ان لا يمس رأسه غسل ولا يشرب خمراً حتى يثأر بأبيه . فلما ظفر ببني أسد قتَلَتَه وأدرك ثأره حلّ له ما حرم على نفسه [١] . وكالذي روي في قصة طلب قيس بن الخطيم ثأر أبيه [٢] . أو عن (يوم الأقطانين) ، إذْ أقسموا ألا يغسلوا أجسامهم حتّى يأخذوا بثأرهم [٣] .

وقد يستغرق طلب الأخذ بالثأر عشرات السنين ، لا يكلّ في خلال هذه المدة أصحاب القتيل عن إدراك الثأر . وينظر الى الذين يتوانون عن ادراك الثأر نظرة ازدراء واحتقار ، وقد يلحق بهم وبنسلهم العار من هذا الاهمال ، وقد يلحق ذلك العشيرة أو القبيلة برمتها ويكون لها سُبّة ، اذا كان القتيل من أشرافها أو من سادتها . لهذا لا يتهاون أهل القتيل عن تتبع آثار القاتل أو أقربائه أو أفراد قبيلته التي ينتمي اليها لغسل هذا العار ، فإن الدم لا يغسل الا بالدم . ومتى أدرك أهل الثأر ثأرهم ، ووجدوا المقتول كفؤاً لدم القتيل ورضوا عن ذلك ، قالوا لهذا النوع من الثأر (الثأر المنيم) [٤] . وقد عرفه بعضهم : أنه الذي اذا أصابه الطالب رضي به فنام بعده . وقيل هو الذي يكون كفؤاً لدم وليّك . ويقال أدرك فلان ثأراً منيّماً ، اذا قتل نبيلاً فيه وفاءٌ لطلبته ، وكذلك أصاب الثأر المنيم . قال أبو جندب الهذلي :

دعوا مولى نفاثة ثم قالوا : لعلك لست بالثأر المنيم

أي لست بالذي ينيم صاحبه ، أي ان قتلتك لم أنم حتى أقتل غيرك ، أي لست بالكفؤ فأنام بعد قتلك [٥] .

ومتى أخذ بثأر القتيل بكته النساء . لأن من عادة نساء الجاهليين ألا يبكين المقتول

١ حلت له من بعد تحريم لها أو ان يمس الرأس منه غسولا
شرح ديوان امرىء القيس (ص ١٥٦) .
٢ شعر قيس بن الخطيم (١ ، ١٥) ، بلوغ الأرب (٣/٢٤) .
٣ الفاخر (٢٥٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٧/٧٠) .
٤ اللسان (٥/١٦٧) ، المعاني الكبير (٢/١٠١٨) .
٥ تاج العروس (٣/٧٢) ، (ثأر) .

إلا ان يدرك بثأره ، واذا أُدرك بثأره ، بكينه [1] .

ويشبه الثأر ان يكون عقيدة من العقائد الدينية عند العرب . لما يكتنفه أحياناً من (حلف) و (قسم) بوجوب الأخذ بالثأر . ولما تحوط بـه من شعائر خافظ عليها ، من أخذ على نفسه القسم بوجوب الأخذ بالثأر . وهي من شعائر الدين عند الجاهليين . ولا يتركها حتى يبر بقسمه [2] .

واذا عجز الإنسان عن أخذ ثأره بنفسه ، استغاث بغيره لينجده على ثأره . وعلى من قبل نداء الاستغاثة ووافق على النجدة ، مساعدة المستغيث في الأخذ بالثأر وعدم تركه حتى يأخذ بثأره من طلبته .

وقد لعب الأخذ بالثأر دوراً خطيراً في الاسلام كذلك . ولا سيما في الأحداث السياسية . فلما قتل (عثمان) ارتفع نداء : يا لثارات عثمان . قال حسان :

لتسمعن وشيكاً في ديارهـم   الله أكبر يـا ثارات عثمانـا

ومن ذلك قولهم : (يا لثارات الحسين) ، و (يا لثارات زيد) الى غير ذلك [3] . وهو لا يزال يلعب دوراً خطيراً في الحياة العربية الى اليوم .

وقد عيَّر أحد الشعراء (بني وهب) ، لانهم أخذوا دية قتيل ، فاشتروا بها نخلاً ، فقال لهم :

الا أبلغْ بني وهب رسولاً   بأن التمرَ حلو في الشتاء

أي اقعدوا وكلوا التمر ولا تطلبوا بثأركم [4] .

وهناك رجال ضُرب بهم المثل في ادراكهم الثأر . ويقال للواحد من هؤلاء : البيهس [5] .

١ نهاية الأرب (١٢٢/٣) .
٢ حلفت فلم تأثم يميني لاثأرن   عدياً ونعمان بن قيل وأيهما .
تاج العروس (٧١/٣) ، (ثأر) .
٣ تاج العروس (٧١/٣) ، (ثأر) .
٤ المعاني الكبير (١٠١٩/٢) .
٥ تاج العروس (١١٣/٤) ، (البهس) .

الاستغاثـــة :

ومن مظاهر العصبية : الإستغاثة . وهي ان يصيح الإنسان واغوثاه . طلبـاً للعون والنصرة [1] وعلى من يسمع نداء الاستغاثة من أهل المستغيث أو من رجـال قبيلته أو الحلف الذي تكون قبيلته فيه مدّ يد العون له ونصرتـه . ويعاب من يسمع الاستغاثة فلا يعمل على مساعدة المستغيث . وقد يهجو المستغيث قومـه اذا تباطأوا في إغاثة المستغيث أو لم يستجيبوا لندائه ، وقد يتبرأ منهم ويتركهم ليلحق بقوم آخرين .

ومن أخلاق الجاهلية المناداة بالنصرة [2] . وقد ذكرت معناها في العصبية فهي أيضاً وجه من وجوهها . ذكر ان الرسول قال : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ، وتفسيره ان يمنعه من الظلم ان وجده ظالماً . وان كان مظلوماً أعانه على ظالمه . والتناصر التعاونُ ، وقد حول الإسلام نصرة الجاهلية الى تناصر ، أي تعاون وتعاضد لأن المسلمين إخوة . ويكون بالانتصار من الظالم وبالانتصاف حتّى يؤخـذ بحق المظلوم من الظالم [3] .

الوفـــاء :

وعلى الانسان الوفاء لأهل عصبيته ، ليس له مخالفتهم ولا معاكستهم مهما كانت درجة الخلاف بينه وبينهم ، لانه واحد ، وهم جماعة ، ان أصابه ضيم فلا بـد لجماعته من مواساته ومن الانتصار له مهما كانت أسباب الفرقة . وما يصيب جماعته سيصيبه ، وما سيصيبه ، سيؤثر في جماعته حتماً ، فيجعلها الى جانبه في الأخير .

وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوت غَوَيْتُ وإن تَرشُدْ غَزِيّةُ أرشد [4]

وهي في الأخير كما يقول الشاعر (المتلمّس) لشخص ظن انه منتقل عنهم

١ اللسان (٢/١٧٤) ، (غوث) ، المعاني (٢/١١٠٦) .
٢ العقد الفريد (١/٥٨) .
٣ اللسان (٥/٢١٠) ، (نصرة) .
٤ هذا البيت لدريد بن الصمة ، حماسة أبي تمام (٢/٣٠٦) ، شرح المرزوقي على الحماسة (٢/٨١٥) ، الأصمعيات (١١٢) .

لخلاف وقع بينه وبينهم :

أمنتقلاً من نصر بهثة خِلتني ألا إنني منهم وان كنت أينما
ألا إنني منهم وعرضي عرضهم كذي الأنف يحمي أنفه ان يصلّما [1]

فإذا أعطى رجلٌ رجلاً عهداً ، فلا يسعه ان يغدر به ، ولا بد له من المحافظة على العهد وما برح العرب يحافظون على عهودهم حتى اليوم . وقد يضحي الإنسان بنفسه على ان يخدش سمعته فيوسم بالغدر . وكانوا في الجاهلية اذا غدر الرجل رفعوا له في سوق عكاظ لواءً ليعرفوه الناس [2] . وقد ورد : (ان لكل غدرة لواء) ونصبُ اللواء في المواضع العامة وفي المواسم للإشارة الى غدر شخص بشخص آخر من أشهر الأشياء عند العرب [3] .

والى هذا اللواء أشار (الحادرة) ، (قطبة بن أوس) إذْ قال :

أسميّ ويحك هل سمعت بغدرةٍ رفع اللواء لنا بها في مجمع [4]

واذا غدر الرجل بجاره ، أوقدوا النار بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين، ثم صاحوا : (هذه غدرة فلان) ليحذره الناس [5] . وقد قيل لهذه النار : نار الغدر [6] .

وربما جعلوا للمغادرِ مثالاً من طين ، ينصبونه ليراه الناس ، وكانوا يقولون : ألا ان فلاناً قد غدر فالعنوه . جاء في الشعر :

فلنقتلن بخالد سَرَوَاتكم ولنجعلن لظالمٍ تمثالا

فهذا التمثال ، هو تمثال الغدر والخيانة ، نصب ليقف الناس على خبر غدر الشخص الذي نصب له [7] .

---

١ نوادر أبي زيد (١٦٠) ، الأصمعيات (٢٨٦) .
٢ (ان لكل غادر لواء) ، المفضليات (ص ٥٦) .
٣ ارشاد الساري (٩/١٠٦) .
٤ المفضليات (٥٦) ، البحتري ، حماسة (٢١٦) .
٥ ونوقد ناركم شررا ويرفع لكم في كل مجمعة لواء
٦ المفضليات (ص ٥٦) ، تاج العروس (٣/٤٤٠) ، بلوغ الأرب (٢/١٦٢) .
نهاية الأرب (١/١١١) .
٧ بلوغ الأرب (٣/٢٨) .

وقد عاب الناس الغادر وعيّروا به فاذا شتموا شخصاً قالوا : يا غُدَر ! وقد جعلوا الذئب من الحيوانات الغادرة ، فقالوا : الذئب غادر ، أي لا عهد له . كما قالوا : الذئب فاجر [1] .

أهل الغدر :

وقد حفظ أهل الأخبار أسماء رجال عرفوا بالغدر . وقد قال بعضهم : أعرف الناس بالغدر (آل الأشعث بن قيس بن معد يكرب) . وذكر ان الغدر ارث فيهم انتقل بهم الى الاسلام [2] . وضربوا المثل بغدر الضيزن بأبيها صاحب الحصن [3] .

ومن الوفاء : الوفاء بالعهود والمواثيق . فلا يجوز لمن أعطى عهداً وميثاقاً الغدر بهما والتنصل من الوفاء بهما . والوفاء من أنبل الخصال الحميدة التي يتخلق بها انسان . وهو من المثل العليا عند العرب ومن أخلاق (الإنسان الفاضل) عندهم . وقد أوفى (حنظلة الطائي) بعهده الذي أعطاه للملك (النعمان) يوم بؤسه بأن يعود اليه ، ليرى الملك رأيه في قتله . فعاد ، وهو يعلم ان الملك سيقتله ، لأنه أعطاه قولاً بالعودة ، وجعل (شريكاً) نديم الملك ضامناً له بالعودة . فلما عاد ، واستمع الملك الى قصة وفائه أبطل عادته في قتل أول من كان يظهر أمامه يوم بؤسه ، اكراماً لعمله [4] . ورأى (السموأل) ابنه وهو في أيدي أحد ملوك الغساسنة أو ملوك كندة ، وهو يناديه بوجوب دفع ما عنده من دروع وأسلحة مودعة عنده ، من دروع وأسلحة (امرىء القيس) فقال له : (ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي فاصنع ما شئت) . فذبح ولده واحتسب السموأل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه ، ولم يسلم الوديعة إلا الى ورثة امرىء القيس [5] .

وقد دوّن أهل الأخبار أسماء أناس عرفوا بالوفاء . منهم : (أوفى بن

١ اللسان (٥/٨) ، (غدر) .
٢ نهاية الأرب (٣٦٥/٣) .
٣ نهاية الأرب (٣٦٦/٣) .
٤ المستطرف في كل فن مستظرف (١٩٩/١ وما بعدها) ، (عبد الحميد أحمد الحنفي) .
٥ المحبر (٣٤٨ وما بعدها) .

مطر المازني) ، جاوره رجل ومعه امرأة له ، فأعجبت قيساً أخاه ، فقتل زوجها غيلة ، فبلغ ذلك (أوفى) فقتل قيساً بجاره [١] . و (الحارث بن عبّاد) ، وكان من وفائه انه أسر يوم (قضة) (عدي بن ربيعة أخا مهلهل) ، وهو لا يعرفه . فقال له : دلني على عدي . فقال له عدي : ان دللتك عليه فأنا آمن ؟ فأعطاه ذلك . فقال له : فأنا عدي . فخلّى سبيله [٢] .

ومن أوفياء العرب (عوف بن محلم الشيباني) ، وهو من مشاهير سادات العرب . وكان من وفائه ان (مروان بن زنباع العبسي) كان قد وتر (عمرو بن هند) ، فجعل على نفسه ألا يؤمنه حتى يضع يده في يده . وان (مروان) غزا (بكر بن وائل) فأسر ، ولم يكن آسره منيعاً ، فطلب من أم آسره ان توصله الى (عوف بن مسلم) ، ولها منه مئة بعير ، فحمل الى (عوف) ، ولاذ بقبته ، وبلغ (عمرو بن هند) مكانه ، فبعث يطلبه ، فأبى عوف ان يسلمه الا ان يؤمنه . ثم أخذه عوف الى (عمرو بن هند) ، وجعل يده بين يد عمرو ويد مروان ، وأصلح بينهما ، فعفا (عمرو) عنه وآمن مروان . فقال عمرو : (لا حر بوادي عوف) فذهبت مثلاً [٣] .

وعدّ (مروان بن زنباع) من أوفياء العرب ، لأنه وفى بعهده الذي أعطاه لأم آسره ، وكان قد أعطاه عوداً التقطه من الأرض ليكون رمز وفائه ، على ان توصله الى (محلم) فلما أوصلته دفع اليها المئة بعير ، كما تعهد لها بذلك [٤] .

وضرب المثل بوفاء (عمير بن سلمى الحنفي) ، وله قصة في الوفاء تشبه قصة (أوفى بن مطر المازني) . ذكروا ان من وفائه ان رجلاً من (بني عامر بن كلاب) استجار بعمير وكانت معه امرأة جميلة . فرآها (قرين بن سلمى الحنفي) أخو عمير ، وصار يتحدث اليها حتى بلغ ذلك زوجها ، فنهاها . فخافته فانتهت . فلما رأى (قرين) ذلك وثب على زوجها ، فقتله . وعمير غائب ، فأتى أخو المقتول قبر (سلمى) فعاذ به . فقدم (عمير بن سلمى)،

١ المحبر (٣٤٨) .
٢ المحبر (٣٤٨) .
٣ المحبر (٣٤٩ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢١٥) ، الأمثال للميداني (٢/٥٣١) .
٤ المحبر (٣٥١) .

فأخذ أخاه . وبلغ وجوه (بني حنيفة) الخبر ، فأتوه فكلموه ، فأبى الا ان يقتله أو يعفو عنه جاره ، وأبى أخو المقتول أخذ دية أخيه القتيل ولو ضوعفت ، فأخذ عندئذ (عمير) أخاه وقتله لغدره بجاره [1] .

ومن الأوفياء (أبو حنبل : جارية بن مرّ الطائي ثم الحنبلي) . وكان من وفائه ان (امرىء القيس بن حجر الكندي) ، كان جاراً (لعامر بن جوين الطائي) فَقَبَّل (عامر) امرأة (امرىء القيس) ، فأعلمته ذلك فارتحل الى (جارية) ليستجير به . فلم يجده ، ووجد ابناً له أجاره ، فلما جاء (جارية) ورأى كثرة أموال (امرىء القيس) طمع فيها ، وعزم على الغدر بـ (امرىء القيس) ، ثم فكر في أمره ورأى ان الغدر عار ، فعقد له جواره ، ثم أخذه الى (عامر بن جوين) ، فقال لامرىء القيس : قبل امرأته كما قبل امرأتك . ففعل [2] .

ومنهم (المعلى الطائي) ، أحد (بني تيم) من جديلة . وهم (مصابيح الظلام) . وكان (المنذر) يطلب امرىء القيس ، فلجأ الى (المعلى) فأجاره ، وبلغ المنذر مكان (امرىء القيس) فركب حتى أتى منزل المعلى ، ولم يكن المعلى موجوداً ، وأبى ابنه تسليم امرىء القيس الى المنذر ومنعوه [3] .

ومن الأوفياء (عصيمة بن خالد بن سنان بن منقر) ، وكان (النعمان) قد غضب على (بني عامر بن صعصعة) ، فقتل منهم ناساً وشردهم ، فالجأهم (عصيمة) وأجارهم . فبعث اليه النعمان : (ابعث اليّ بعبيدي) فأبى ونادى في قومه شعاره (كوثر) ، وأقبل (النعمان) فأهوى (عصيمة) بالرمح الى معرفة فرسه ، ورجع الملك خائباً . ثم كسا (عصيمة) (بني عامر) وبلّغهم مأمنهم [4] .

وقد عدّ الوفاء محمدة وواجباً ، ولأجل توكيد الوفاء وترسيخه ، كانوا يضعون رهناً ، قد يكون ثميناً مثل أبناء سادات القبائل ، يقدمونهم رهينة لدى

---

١ المحبر (ص ٣٥٢) .
٢ المحبر (٣٥٢ وما بعدها) .
٣ المحبر (٣٥٣ وما بعدها) .
٤ المحبر (٣٥٤) .

الملوك ضماناً لهم في مقابل وفائهم بما تعهدوا للملك وبما عاهدوه عليه من شروط ، وقد يكون شيئاً لا قيمة كبيرة له من الوجهة المادية ، مثل رهن قوس ، أو سهم ، أو التقاط عود من الأرض وايداعها رهناً بالوفاء ، كما مرّ معنا في قصة (مروان ابن زنباع العبسي) مع (عوف بن محلم الشيباني)[1] ، أو في مقابل اعطاء كلمة بالوفاء ، كما في قصة (الحارث بن عباد)[2] ، أو الوفاء بسبب استجارة انسان بقبر ، كما في قصة وفاء (عمير بن سلمى الحنفي)[3] .

العرض :

وعرض الرجل نفسه وبدنه ، وقيل العرض : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره . وقيل أيضاً : هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه ان ينتقص ويثلب . وذكر أيضاً ان العرض : عرض الانسان ، ذم أو مدح[4] . ويحرص الجاهليّ على ألا يمس بسوء . واذا تحرش أحدهم به ، أو شعر ان شخصاً أراد الانتقاص منه . ولو بتلميح أو باشارة أو بغمز ثار وهاج مدافعاً عن نفسه وعرضه ، لأن عرض الانسان أشرف شيء بالنسبة له في هذه الحياة .

ومن العرض صيانة أعراض الناس ، لأن من ينتهك عرض غيره ، ينتهك الناس عرضه ويعرض نفسه وماله وأهله للتهلكة . فقد لا يصبر شخص أهينت كرامته على هذه الإهانة فينتقم ممن تعرض به شرّ انتقام . ان لم يتمكن هو بنفسه ، ساعده في أخذ حقه أهل عصبته ورجال قبيلته ، حتى يثأر لنفسه ممن تعرض لعرضه بسوء .

ونجد في الشعر الجاهلي تبجحاً بالنفس واشادة في الدفاع عن العرض ، وتهديداً ووعيداً لمن يحاول النيل منه بأي سوء . وهو كلام يحمل حساد المتبجح بنفسه على الردّ

١ المحبر (٣٤٩) .
٢ المحبر (٣٤٨) .
٣ المحبر (٣٥١) .
٤ اللسان (١٧١/٣) ، (عرض) .

عليه وعلى الطعن فيما قاله . وبذلك تتولد خصومة قد تطول وتكبر وتؤدي الى سقوط قتلى كانوا في غنى عنها لولا هذه الحمية الجاهلية القائمة على التفاخر والتباهي والزهو والحمق .

الحرية :

والعربي مجبول على الحرية ، وهو لا يطيق الخضوع لأحد غير قبيلته على ان لا يؤثر ذلك في حريته الشخصية ، وقد أعجب (هيرودوتس) وغيره من كتبة اليونان والرومان بحب العرب للحرية ولمقاومتهم للاسترقاق ، فذكروا انهم كانوا الشعب الوحيد من بين الشعوب الآسيوية الذي لم يخضع لحكم الفرس ، فلم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم ، وانما اضطروا الى معاملتهم معاملة اصدقاء حلفاء ، فقاموا لهم بخدمات جليلة سهلت لهم فتح مصر ، ولو كان العرب حرباً على الفرس لما تمكنوا قط من حملتهم على مصر .

والعربي من هذه الناحية شديد التعلق بالحرية ، والاعرابي يشعر ، وهو في الحضر بين سكان القرى او المدن ، انه في سجن لا يطاق ، لكثرة القيود التي تقتضيها عادات المتحضرين ، ويسعى للعودة الى وطنه حيث ينطلق حراً كما يشاء . والقبائل تشعر هذا الشعور نفسه ، فهي تعيش متمتعة بأعظم قسط من الحرية ، لا تضحي بها ، الا لمقتضيات المحافظة على الحياة حيث ترتبط بواجبات التحالف مع القبائل الاخرى للدفاع عن النفس وضمان ضروريات الحياة .

ولما كان لكل شيء حد ونهاية ، غدت هذه الحرية انانية شديدة ، وفردية مطلقة حالت دون تعاون الافراد ، ومنعت من مساعدة القبائل بعضها بعضاً مع وجود خطر اجنبي داهم ، وحالت دون تكون المجتمعات الكبرى وهي الحكومات ، واقتصرت التنظيمات السياسية على القبائل ، وأصبحت العصبية للقبيلة تعني القومية . وزاد في حدة هذه الانانية القبلية اعتقادهم بالرابطة الدموية التي تربط الأسر بالعشائر ، والعشائر بالقبائل ، وارجاع ذلك الى الانساب فلا تتعصب القبائل الا لتلك القبائل التي تعتقد انها واياها من شجرة واحدة وأصل واحد .

ان الحياة الصحراوية التي طبعت اصحابها بطابع الافراط في حب الحرية الفردية ، قد اثرت كثيراً في الحياة السياسية والتفكير السياسي في بلاد العرب ، فاقتصرت

الافعال السياسية على افعال القبيلة ، وتراجع الفرد بل الاهل والعشيرة تجاه القبيلة ، وأثرت في اشكال الحكومات التي تكونت في الاماكن الخصبة وبين المتحضرين ، فجعلت منها اتحاداً مع قبائل جمعت بينها مصالح متشابهة ومنافع مشتركة . فاذا ما شعرت بزوال مصلحتها او ان من مصلحتها الانفصال عن هذا الاتحـــاد فلا تتوانى عن تنفيذ رغباتها وتحقيقها بالقوة . ولهذا نجد القبائل تهيج وتثور على الحكومات التي تخضع لها ، وتدين بالولاء لها ، لأسباب تافهة منبعها ومبعثها هذه الانانيـــة الضيقة التي تدفع سادات القبائل الى الانفصال والخروج من عبودية الخضوع لحاكم ، عليهم تقديم واجب الاخلاص والطاعة له . حاكم يرون انه لا يمتاز عنهم بشيء ، بل يرى كل واحد منهم لأنانيته انه اولى منه بالحكم وبتسلم القيادة ، وان من حقه الخروج عن طاعته ان وجد ظروفـــاً ملائمة متهيئة للانفصال عنه . فلما وجدت القبائل التي خضعت لحكم (ملوك كندة) ضعفاً في الاسرة الكندية الحاكمة ، ثارت عليها ، وقتلت منهم من قتلت ، وطردت من طردت ، وكوّن سادات القبائل امارات عديدة ، حلت محل مملكة كندة . ولما كان سادات القبائل يجدون ضعفاً في العلاقات بين ملوك الحيرة والفرس ، وبين ملوك الغساسنة وبين الروم ، كانوا يسارعون الى الاتصال بالفرس وبالروم لتنصيبهم مكان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة ، لا يرون في هذا العمل اي شين او بأس .

ويصعب في الحقيقة التوفيق بين الفكرة القبلية الضيقة والفكرة القومية التي تسمو فوق القبائل ، فالفكرة القبلية لا تعترف بوجود قومية غير قومية القبيلة ، ولا ترى وجود وطن غير الوطن الذي تنزل فيه القبيلة . فاذا ارتحلت عنه ، وحلت في ارض اخرى اصبحت هذه الارض وطن القبيلة الجديد ، الذي يجب أن يدافع عنه . وأما الأوطان الاخرى ، ومنها وطن القبيلة السابق ، فليست بأوطانها . ومن هنا كان بون شاسع بين هذه الفكرة الوطنية الضيقة ، وبين الفكرة القومية التي تدين بعقيدة الايمان بالقوم اي الجنس الذي هو فوق القبائل والأمكنة ، وبالوطن العام الذي يشمل كل الارضين التي يستوطنها ذلك الجنس .

وقد جابهت الحكومات العربيـــة في الجاهلية ثم في الاسلام متاعب كثيرة من الروح القبلية العنيفة ، ومن الفردية المتطرفة ، فكانت هذه من اهم عوامل هدم المجتمعات السياسية الكبرى في بلاد العرب ، وكانت من اعنف اعداء القومية العربية ، لا في الجاهلية حسب ، بل في الجاهلية وفي الاسلام كذلك .

وأهم ما يعوز العرب في الجاهلية الشعور بفكرة (الأمة) ، التي تسمو فوق القوميات القبليـة ، وفوق الاقليميات الضيقة التي هي ايضاً صفحة من صفحات الانانية. والشعور بلزوم الحد من الفردية الجامحة التي لا تعترف بحريات الآخرين ، وبضرورة اطاعة المجتمع في سبيل المصلحة العامة ، واخضاع ارادة الحاكمين لمصلحة حكم الجماعة ، والتحديد من انانيتهم المفرطة ومن البت في امور الرعية ، وكأن الرعية سواد من ماشية ، عليها اطاعة سوط الحاكم وأوامره ، دون ان يكون لها حق في ابداء الرأي. فان غلطة الاستبداد بالرأي تؤدي الى أسوأ العواقب ، غير أن الحرية المفرطة ، أو الانانية الشديدة بتعبير أصح ، التي كادت تجعل المجتمع فوضى ، ضبطتها من ناحية أخرى قوة كبحت جماعها ، وحدت من حريتها ، وأجبرتهـا على التقيد بقيود ، وعدم التحرك الا بحد وحدود . هي سنة وجوب اطاعة أوامر المجتمع ، والاستجابة لنداء الجماعة ، ولأحكام رؤساء الاحياء والبطون والافخاذ ، والصيحات التي تصرخها القبيلة أو فروعها لتنادي بنداء ، (العصبية) . والا عدّ الخـارج على نداء الجماعة والمخالف لقرار رؤساء الأسرة او الحي أو القبيلة خارجاً على القانون وعلى العصبية فاستحق بذلك واجب خلعه من عصبية القبيلة له وطرده من قومه . وهو اشد عقاب يفرض على مخالف ما . عقاب : الخلع .

الخلع :

ويبقى الفرد متمتعاً بعطف قبيلته عليه ، وبحمايتها له ما دام قائماً بواجباته المترتبة عليه ، شاعراً بعظم التبعة . فاذا أجرم ، أو عمل عملاً ينافي شرفه أو شرف قبيلته ، واستمر في غيّه لا يسمع نصائح أهله وعشيرته ، كاسراً اعرافَ آله وقبيلته ، فقد عصبية اهله وقبيلته له ، وهام على وجهه طريداً يلتمس مجاورة رجل من عشيرة أو قبيلة اخرى قريبة من موطنه او بعيدة عنه . وتكون هذه الفترة من حياة الانسان شرّ فترة في حياته ، ولا يهدأ للطريد بال الا اذا وجد له حليفاً او جاراً يتعهد له بحمايته وببذل (العصبية) له ، وبالدفاع عنه .

ويقال للرجل الذي تغضب عليه قبيلته وتحرمه عطفها وعصبيتها له (الخليع) ، ويقـال ذلك لمن يخلعه اهله أيضاً . وقد يقال له (الرجل اللعين) و (اللعين) . واللعين هو المطرود ، ولذلك يقال له (الطريد) ، الى غيرها من مصطلحات .

وربما خلعوا الرجل من القبيلة ولو كان من صميمها ، ويسقط عن أهله وقبيلته كل واجب يترتب عليهم أو عليها اذا عمل عملاً يستوجب خلعه ، كما تسقط عن القبائل التي قد تتعرض للخليع بشرّ كل تبعة تقع عليها من الاعتداء عليه ، لخلع اهله او قبيلته له ، وتبرئهم او تبرئها منه ، فلا يطالبون بثأر .

ولا بد من اعلان خلع أهل (الخليع) او خلع قبيلته له وتبرئها منه ، ليكون ذلك معلوماً عند افراد قبيلته او القبـائل الاخرى ، فتسقط العصبية عندئذ عن (الخليع) عند اعلان قرار الخلع ، والا بقيت في رقبة أولياء امره وقبيلته ، وذلك كأن يعلن الأب في المواضع العامة وفي المواسم انه خلع ابنه ، بأن يقول : الا ، اني قد خلعت ابني هذا ، فان جرّ لم اضمن ، وان جر عليه لم اطلب . او يعلن قومه : انما خلعنا فلاناً ، فلا نأخذ احداً بجناية تجنى عليه ، ولا نؤخذ بجناياته التي يجنيها .

وقد كان الحج من المواسم المناسبة لاعلان خلع الخلعاء ، وكذلك كانت مواسم الاسواق كسوقِ عكاظ . فهي مواسم تجمُّع ، ينادي فيها المنادي بخلع من يراد خلعه . وكان أهل مكة يكلفون منادياً بالطواف بالاحياء ، ينادي بأعلى صوته عن خلع الخليع . وقد يكتبون كتاباً يحفظونه عندهم او يعلقونه في محلٍ عـام ليقف عليه الناس . [1]

وقد عاش الخلعاء عيشة صعبة ، لا احد يساعدهم أو يؤويهم خشية ان ينزل بهم أذى ، او يترتب على قبول جوارهم تبعة تجاه من يقتص آثارهم طلباً للثأر منهم . ولذلك تكتل الصعاليك احياناً وكوّنوا عصابات تغزو وتغير وتقطع الطريق . وكان الشاعر (عروة بن الورد) وهو منهم يجمع حوله الصعاليك والفقراء في حظيرة ويغزو بهم ويرزقهم مما يغنمه ، ولذلك سُمّي (عروة الصعاليك) . [2] ذكر أنه كان اذا شكا اليه فتى من فتيان قومه الفقر ، أعطاه فرساً ورمحاً ، وقال له : ان لم تستغن بهما فلا أغناك الله . [3]

١ الأغاني (٨/٥٢) .
٢ اللسان (١٠/٤٥٦) ، (صعلك) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠٣) .

والصعلوك الفقير الذي لا مالَ له .[1] ومن الصعاليك (السليك بن سلكة) الشاعر العدّاء . وهو من العدّائين الذين ضرب بهم المثل في العدوْ .[2] وكان (حاجز بن عوف بن الحــرث) ، وهو شاعر جاهليّ مقلّ ، احد الصعاليك العدّائين . كان يعدو على رجليه عدواً يسبق به الخيل . وكان يغير على قبائل العرب .[3] وكان (قيس بن الحدادية) من الشعراء الصعاليك الفاتكين الشجعان . خلعته خزاعة بسوق عكاظ ، وأشهدت على نفسها بخلعها اياه ، فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه .[4]

ومن بقية الصعاليك (الشنفرى) و (تأبط شرّاً) . غير ان اعرفهم وأشهرهم وحامل لواء الصعلكة فيهم ، هو (عروة بن الورد) ، الذي نصب نفسه سيّداً على الصعاليك . فكان يجمعهم ويشركهم فيما يغنمه ويرزقهم من رزقه . ويبذل جهده لمواساتهم . فاجتمع حوله صعاليك (عبس) ، وهو منهم واتخذ لهم حظائر آووا اليها ، ولهذا نعت بـ (عروة الصعاليك) . قال اهل الاخبار : انما قيل له عروة الصعاليك مع انه عروة بن الورد ، لانه كان يجمع الفقراء في حظيرة ، فيرزقهم مما يغنمه .[5] فعروة لم يكن فقيراً محتاجاً معدماً ، كما يفهم من لفظة (صعلوك) . لقد كان في وسعه ان يجمع مالاً مما كان يغنمه من غاراته على العرب ، فيكون حسن الحال غنياً . لكنه فضّل الصعلكة على اكتناز المال ، ورجّح اشراك الفقراء فيما يغنمه على جمعه له واستئثاره له وحده ، لأن له مروءة تأبى عليه ان ينام شبعاناً وجاره فقير جائع . فكان ينفق ما يغنمه على المحتاجين . فهو صاحب مذهب انساني أحس بالألم ، وأدرك ما أصابه يوم خلعه اهله من شدة وضنك ، فأراد ان يخفف من آلام امثاله ممن خلعهم مجتمعهم لعدم وقوفه على اسباب خروجهم عليه . فصار بذلك نصير الصعاليك . ولقد ذكره (عبد الملك ابن مروان) ، فقال : (ما كنت احب ان احــداً ولدني من العرب الا

١ اللسان (١٠/٤٥٥ وما بعدها) ، (صعلك) .
٢ الأغاني (١٨/١٣٣) .
٣ الأغاني (١٢/٤٧) .
٤ الأغاني (١٣/٢) .
٥ تاج العروس (٧/١٥٣) ، (صعلك) .

عروة بن الورد). [1] فعروة صعلوك فلسف الصعلكة ، بأن جعلها مثلاً من مُثل الحياة . بينما كانت تعني فقراً مدقعاً وجوعاً قتالاً وهياماً على وجه الارض للاستجداء .

وقد كوّن الصعاليك عصابات تنقلت من مكان الى مكان تسلب المارة وتغير على احياء العرب ، لترزق نفسها ومن يأوي اليها . [2] انضم اليها الصعاليك من مختلف القبائل . ولكون اكثر الصعاليك من الشبان الطائشين الخارجين على اعراف قومهم ، ومن الذين لا يبالون ولا يخشون احداً ، صاروا قوة خشي منها ، وحسب لها حساب . خاصة وفيها شعراء فحول ، يحسنون الهجاء ويتقنون فن ثلب الاعراض ، وفيها مقاتلون شجعان لا يعبأون بالموت ، يفتكون عن يريدون الفتك به . وخافهم الناس وامتنعوا جهد امكانهم من التحرش بهم ومعاداتهم ، ومنهم من قبل جوار الصعاليك وردّ عنهم وأحسن اليهم ، فاستفاد منهم واستفادوا منه .

وقد كان العرب ينفون الخلعاء الى اماكن معينة مثل (حَضَوْضى) ، وهو جبل في الجزيرة العربية كان الناس في الجاهلية ينفون اليه خلعاءها . [3] وقيل جبل في البحر او جزيرة فيه ، كانت العرب تنفي اليه خلعاءها . [4]

١ الأغاني (٧٨/٣) ، ديوان عروة بن الورد (ص ١٣٨ وما بعدها) ، العقد الفريد (١٩١/١) .
٢ الأغاني (١١١/١٩) .
٣ البلدان (٢٩٦/٣) .
٤ تاج العروس (٢٠/٥) ، (حض) .

الفصل السادس والأربعون

أنساب القبائل

تحدثت في مواضع متعددة من هذا الكتاب عن تقسيم القبائل العربية المألوف عند الأخباريين . أما الحديث في هذا الفصل ، فهو عن أثر القبائل العربية في الجاهلية المتصلة بالإسلام . وبعبارة أخرى القبائل العربية التي كانت في القرن السادس للميلاد . ويضيق بنا هذا الفصل لو أردنا الكلام على جميع القبائل وبطونها وأفخاذها وعمائرها ، لذلك سأكتفي في هذا الفصل بذكر القبائل الكبرى وبالاشارة الى بطونها ان كانت مهمة . وفي كتب الأخباريين والمؤلفات المدونة في الأنساب الكفاية لمن طلب المزيد .

والتصنيف المألوف للقبائل هو حاصل عرف جرى عليه النسّابون ، ولا نعرف تدويناً لأهل الجاهلية للأنساب ، انما نعرف ان أول تدوين رسمي كان هو التدوين الذي تم في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، حيث ظهرت الحاجة الى التسجيل ، فسجلت . ولم تصل ويا للأسف سجلات ذلك الديوان الينا ، ولم يصرح أحد من النسابين انه أخذ مادة أنسابه من تلك السجلات . وانما الذي بين أيدينا هو خلاصة وجهة نظر النسابين في أنساب القبائل ، وعلى هذا التقسيم اعتمد المعنيّون بهذا الموضوع .

واذا غضضنا الطرف عن التصنيف المتبع في حصر أنساب العرب كلها في أصلين أساسين قحطان وعدنان ، فاننا نرى القبائل كما يفهم من روايات الأخباريين كتلاً ، ترجع كل كتلة منها نسبها الى جدّ قديم تزعم ان قبائلها انحدرت من صلبه . وقد تحدثت مراراً عن طبيعة هؤلاء الأجداد .

ومن هذه الكتل التي كانت عند ظهور الإسلام ، كتلة حمير ، وكتلة كهلان ، وكتلة قضاعة ، وكتلة مضر ، وكتلة ربيعة . وكل كتلة مجموعة قبائل كبيرة ، ترجع في عصبيتها الى تلك الكتلة .

أما حمير ، فقد تحدثت عنها سابقاً ، وأشرت الى ورود اسمها لدى بعض الكتبة الكلاسيكيين مثل (سترابون) والمؤرخ (بلينيوس) وذلك في أثناء كلامه على حملة (أوليوس غالوس) حيث عدّها من أشهر القبائل العربية التي كانت في اليمن إذْ ذاك[١] ، كما أشرت الى ورود اسمها في نصوص المسند التي يعود تأريخها الى ما بعد الميلاد[٢] ، وهو اسم أرض معينة واسم شعب. أما الذي نفهمه من الأخباريين ، فهو ان حمير اسم واسع يشمل قبائل قحطان عند ظهور الاسلام[٣] . وقد يكون مرد ذلك الى ظهور هذه القبيلة في هذا الزمن وبروزها في هذا العهد في اليمن ، فانتمى اليها كثير من القبائل على العادة الجارية في الانتماء الى المشاهير .

ويرجع النسابون نسب حمير الى حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب ، ويقولون ان اسمه (العرنج)[٤] (العرنجج)[٥] ، وهو في نظرهم والد جملة

١ Pliny, VI, 161

٢ تاريخ العرب قبل الاسلام (١٣٧/٣) .

٣ Rubin, Ancient West Arabian, P. 42

٤ منتخبات (ص ٢٨ ، ٧٠) ، المبرد ، نسب عدنان وقحطان (ص ١٨) ، (العرقح) شرح قصيدة ابن عبدون (ص ٨٤) .

٥ (والعرنجج ، اسم حمير بن سبأ . قاله السهيلي في الروض وابن هشام وابن اسحاق في سيرتهما) ، تاج العروس (٧٣/٢) ، لسان العرب (١٤٧/٣) ، (وحمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، أبو قبيلة . وذكر ابن الكلبي أنه كان يلبس حللا حمرا . وليس ذلك بقوي . قال الجوهري : ومنهم كانت الملوك في الدهر الأول . واسم حمير العرنجج . قال الهمداني :: حمير في قحطان ثلاثة :الأكبر والأصغر والأدنى . فالأدنى : حمير بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة . وهو حمير الأصغر بن سبأ الأصغر بن كعب بن سهل بن زيد بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدار بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج وهو حمير الأكبر بن سبأ الأكبر بن يشجب) ، تاج العروس (١٥٨/٣)، (وزرعة هو الأصغر) ، الاشتقاق (ص ٣١١ ، حاشية) .

أولاد ، جعلهم بعضهم تسعة ، هم : الهميسع ، ومالك ، وزيد ، وعريب ، ووائل و (مشروح) مسروح[١] ، ومعد يكرب ، وأوس ، ومرة[٢] . وجعلهم بعض آخر أقل من ذلك ، أو أكثر عدداً[٣] .

وهم أنفسهم أجداد قبائل حمير . ومن نسل هؤلاء : بنو مرة ، وهم في حضرموت ، والأملوك ، وبنو خيران ، وذو رعين ، وبنو هوزن ، والأوزاع[٤] ، وبنو شعبان[٥] ، وبنو عبد شمس ، وبنو شرعب ، وزيد الجمهور . وبنو الصوّار ، وأكثر قبائل حمير منهم . وقد كان الملك فيهم وبقي الى مبعث الرسول . ومنهم الحارث الرائش الذي غزا — على زعم الأخباريين — الأعاجم والروم . وعرف بـ (ملك الأملاك) ، وحملت اليه الهدايا من أرض الصين وبلاد الترك والهند ، وملك الأرض بأسرها ، وأدت اليه جميع الناس الخراج[٦] . وقد جعلوا مدة حكمه خمساً وعشرين ومئة سنة ، وهي مدة لا أدري كيف اكتفى بها أصحاب الأخبار الذين اعتادوا منح العمر الطويل للملوك هم أقل شأناً ودرجة بكثير من هذا الملك المظفر السعيد .

ويظهر لنا من تدقيق منازل القبائل والبطون المنسوبة الى حمير ، انها كانت في العربية الجنوبية ، وانها بقيت في مواضعها على الغالب في الاسلام . بينما نجد قبائل (كهلان) وبطونها ، وهي فرع سبأ الثاني وقد سكنت في مواضع بعيدة عن اليمن . وهي قبائل ضخمة . أضخم من قبائل حمير . ثم انها كانت تتكلم بلهجة قريبة من لهجة القرآن الكريم في الاسلام . أما بطون حمير ، فقد كانت تتكلم بلغة ركيكة رديئة غير فصيحة بعيدة عن العربية على حد تعبير الأخباريين ، ويظهر ان هذا التباين كان عاملاً مهماً في تمييز حمير عن غيرها وفي حشر البطون في جذم حمير . فمن حافظ على لهجته القديمة ، وبقي يستعملها ، عُدّ في هذا

١ (مسروح) ابن حزم : جمهرة (ص ٤٠٦) (تحقيق ليفي بروفنسال) .
٢ ابن خلدون (٢٤٢/٢ وما بعدها) (والهميسع أحد قبيلي حمير ، وهما الهميسع ومالك ابن حمير الأكبر) . منتخبات (ص ١١٠) .
٣ سبائك الذهب ، (ص ١٨) .
٤ ابن حزم (ص ٤٠٦ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٤٢/٢ وما بعدها) .
٥ خلاصة الكلام (ص ٥٢) ، منتخبات (ص ٥٦) . سبائك الذهب ، (ص ١٨) .
٦ طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب (ص ٤٣ وما بعدها) .

الجنم . ولم يحافظ على هذه اللهجات الا الذين بقوا في أماكنهم وفي مواضعهم، ولم يختلطوا بالقبائل الأخرى التي تأثرت لهجتها بلهجة القرآن الكريم .

وحمير عند الأخباريين أبو الملوك التابعة والادواء والأقيال ، وهو شقيق كهلان أبي الملوك من الأزد من بني جفنة ومن لخم[1] . ويلاحظ انهم قد حصروا حكم اليمن والقبائل القحطانية المقيمة بها في حمير ، على حين جعلوا الملك على عرب الشأم وعرب العراق ويثرب في أيدي المنتسبين الى كهلان ، أي انهم خصوا الحكم في خارج اليمن بأيدي إخوة حمير ، فوزعوا الملك في اليمن وفي خارجها بين الأخوين . وحمير في عرفهم هو الابن الأكبر لسبأ ، فلعلّ هذا الكبر هو الذي شفع له ان يكون الوارث لليمن ، والحاكم على قبائل قحطان وعدنان فيها . وأخذ مكانة الأب بعد موته والجلوس على عرشه ، ميزة لا ينالها الا الابن البكر ، وقد ملك حمير بعد أبيه على حدّ قولهم أكثر من مئة عام[2] .

ويذكر قوم من الأخباريين ان حكم حمير كان للملوك منها ، ثم للأقيال . والقيل هو الذي يخلف الملك في مجلسه ، فيجلس في مكانه ، ويحكم فلا يرد حكمه . ومن هؤلاء الأقيال على زعمهم المثامنة ، (وهم ثمانية رجال كانوا من حمير ، وكانوا ملوكاً على قومهم ، وهم من تحت أيدي ملوك حمير ، وأولادهم قبائل من حمير ، ويسمون المثامنة . وكان من شأنهم لا يتملك ملك من حمير الا بارادتهم ، وان اجتمعوا على عزله عزلوه . وهم : يزن ، وسحر ، وثعلبان الأكبر ، ومرة ذو عثكلان . هؤلاء من أولاد سبأ الأصغر . ومقار بن مالك من أولاد حمير الأصغر ، وعلقمة ذو جدن ، وذو صرواح)[3] .

١ طرفة الأصحاب (ص ٤٣) .

٢ المصدر نفسه .

٣ طرفة الأصحاب (ص ٤٨ وما بعدها) ، (ثمانية أملاك من ولد حمير الأصغر بن سبأ الأصغر يسمون المثامنة ، جعلوا ذلك اسماً علماً لهم للفرق بينه وبين ثمانية العدد النكرة . قال رجل من العتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، لرجل من بني يربوع :

تطول علي بالأنساب حتى ... كأنك من مثامنة الملوك
من آل مراثد أو ذي خليل ... وذي جدن بني القيل المليك
وذي صرواح او ذي ثعلبان ... ومن ذي حزفر عالي السموك
ومن ذي عثكلان وذي مقار ... ذوي العلماء والجد العتيك .

ويلي الأقيال في الحكم الأذواء ، وهم كثيرون منهم : ذو فيقان ، وذو بهر ، وذو يزن، وذو أصبح، وذو الشعبين، وذو حوال ، وذو مناخ ، وذو يحضب ، وذو قينان [1] .

ولما أعاد (عمر بن يوسف بن رسول) مؤلف كتاب (طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب) المتوفى سنة ست وتسعين وسبّمائة ، وهو نفسه ملك من ملوك اليمن ، الحديث عن المثامنة ، ذكر انهم ثمانية أقيال استقاموا بعد سيف بن ذي يزن ، وهم : آل ذي مناخ ، وآل ذي يزن ، وآل ذي خليل ، وآل ذي مقار ، وآل ذي عثكلان ؛ وآل ذي ثعلبان ، وآل ذي معاهر ، وآل ذي جدن . وأعظمهم آل ذي يزن لخؤولة أسعد الكامل [2] . وهكذا نجده يرجع تأريخ ظهورهم الى ما بعد أيام سيف بن ذي يزن ، ثم يرجعها الى مـا قبل ذلك ، ويغير في الأسماء ويبدل . ولكن علينا ان نعلم ان الأخباريين لا يعرفون التواريخ على وجه صحيح مضبوط ، ثم انهم يخلقون من الرجل جملة رجال ، فخلقوا من أبرهة مثلاً ، وقد عرفنا زمانه ، جملة أبرهات ، ووزّعوا أيامها في أزمان تبدأ عندهم قبل أيام سليمان بن داوود وتنتهي بأبرهة الحقيقي حاكم اليمن بعد الميلاد . فلا غرابة إن ذكروا أكثر من سيف بن ذي يزن ورجعوا بتاريخ أيامه الى الوراء .

وكثير من أسماء البطون والقبائل التي يرجع النسابون نسبها الى حمير ، هي أسماء وردت في نصوص المسند ، ومنها أسماء قبائل وبطون حقاً ، ولكنها ليست بالطبع على الشكل الذي يراه الأخباريون ، ولا من حمير بالضرورة . هي أسماء أقوام ولكنها خالية من الآباء والأجداد . أما الآباء والأجداد ، فهي من مولدات

= اولئـــك خير أمـــلاك البرايـــا ... وارباب الفخـــار بـــلا شريك

فأجابه اليربوعي :

تفاخرنـــي بقوم لست منهـــم ... فما سببه الملـــوك الى العتيـــك

شهدت بمـــا شهدت به فابلـــغ ... بصـــدق شهادتي لهـــم ألوكـــي

ولكن لي عليـــك قديـــم مجد ... وعالـــي مفخر صعـــب السلوك

بيربوع وغلـــب مـــن بنيـــه ... لهم كانت ردافـــات الملـــوك

مسجات (ص ١٦) .

١ طرفة الأصحاب (ص ٥٠ وما بعدها) .

٢ طرفة الأصحاب (ص ٥٥) .

المتأخرين منهم ، وأغلب ظني انها من المستحدثات التي ظهرت في الجاهلية المتصلة بالإسلام وفي الإسلام . وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد كبير من البطون والقبائل المنتسبة الى حمير ، كان لها شأن كبير في تأريخ اليمن في الإسلام . أمـا في خارجها ، فقد أعطى الأخباريون الأدواء الكبرى لأبناء كهلان .

وأما (قضاعة) فللنسابين في أصلها آراء ، منهم من أرجع نسبها الى حمير ، فجعل نسبها قضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرّة بن زيد بن حمير [1] . ومنهم من نسبها الى معدّ ، فجعل قضاعة الابن البكر لمعدّ [2] ، ومنهم من صيرهـا جذماً مستقلاً مثل جذم قحطان وعدنان . ومرد هذا الاختلاف الى عوامل سياسية أثرت تأثيراً كبيراً في تصنيف الأنساب ، ولا سيما في أيام معاوية وابنه يزيـد اللذين بذلا أموالاً جسيمة لرؤساء قضاعة في سبيل حملهم على الانتفاء من اليمن والانتساب الى معدّ ، لكونها قوة كبيرة في بلاد الشأم في ذلك العهد ، ولا سيما ان منهم بني كلب ، فذكر ان زعماءها وافقوا تجاه هذه المغريات على الانتساب الى معدّ ، غير ان الأكثرية رفضت ذلك ، وأبت إلا الانتساب الى قحطان [3] . ويرى بعض النسابين والمستشرقين ان انتساب قضاعة الى يمن غير قديم [4] . (قال أبو جعفر بن حبيب النسّابة : لم تزل قضاعة في الجاهليـة والاسلام ، تعرف بمعدّ حتى كانت الفتنة بالشأم بين كلب وقيس عيلان أيام مروان بن الحـكم . فالت كلب يومئذ الى اليمن ، فانتمت الى حمير ، استظهاراً منهم بهم الى قيس . وذكر ابن الأثير في الأنساب هذا الاختلاف ، ثم قال : ولهـذا قال محمد بن سلام البصري النسّابة لما سئل : أنزار أكثر أم اليمن ؟ فقال : إن تمعددت قضاعة ،

١ منتخبات (ص ٨٧) ، ابن خلدون (٢٤٧/٢) ، المبرد (ص ٢٣) ، ابن حزم : جمهرة (ص ٤١١ وما بعدها) ، (عمرو بن مالك بن حمير) ، القاموس (٦٩/٣) ، الاشتقاق (ص ٣١٣) ، خلاصة الكلام، (ص ٤٩) ، سبائك الذهب (ص ١٩ ، ٢٣) .

٢ ابن عبد البر . الانباه على قبائل الرواة (ص ٥٩ ، ١٢١) ، (ونزعم نساب مضر ، انه قضاعة بن معد بن عدنان ، والصواب هو الأول) تاج العروس (٤٧٠/٥) ، اللسان (١٤٧/١٠) .

٣ منتخبات (ص ٨٧) ، وتجد القصة في شكل آخر في كتاب : الانباه على قبائل الرواة لابن عبد البر (ص ٦٠ وما بعدها) . ولكنها لا تغفل العامل السياسي في هذا الباب . الجاحظ : كتاب الحيوان (١٠٧/٤) ، الأغاني (٧٧/٧ وما بعدها) .

٤ Wellhausen, Das Arabische Reich, S., 113, Ency. II, P. 1093

فنزار أكثر ، وان تيمنت ، فاليمن)[١] . والظاهر ان اختلاط قبائل قضاعة بقبائل قحطان وبقبائل عدنان هو الذي أحدث هذا الارتباك بين أهل الأنساب ، فجعلهم ينسبونها تارة الى قحطان ، وأخرى الى عدنان . تضاف الى ذلك العوامل السياسية التي يغفل عن ادراكها أهل الأخبار .

ولا استبعد كون قضاعة كتلة من القبائل كانت قائمة بنفسها قبل الاسلام . ربما كانت حلفاً كبيراً في الأصل ، ثم تجزأت وتشتتت ، فالتحق قسم منها بمعد ، وقسم منها باليمن .

وقد صرح بعض النسّابين المعروفين ان العرب ثلاث جرائم : نزار ، واليمن وقضاعة[٢] . فجعل قضاعة جذماً قائماً بذاته مما يشير الى أهميتها قبل الاسلام وفي الاسلام ، خاصةً اذا ما تذكرنا مكانة القبائل المنتمية اليها وأثرها الكبير في السياسة في الجاهلية وبعدها . ولما للنسب من أثر خطير في الميزان السياسي لذلك العهد ، خاصة في أيام معاوية وفي دور الفتن التي وقعت في صدر دولة الأمويين ، ولثقل هذه الكتلة ، كان من المهم لمعاوية اجتذابها اليه ، وضمّها الى معدّ وهو منها ، لتقوية هذا الحزب .

وكان قضاعة جد القضاعيين الأكبر على رواية أهل الاخبار ، مثل سائر أبناء سبأ ، مقيماً في اليمن أرض آبائه وأجداده . ولكنه تشاجر مع وائل بن حمير ، وتخاصم معه وآثر الهجرة الى الشّحر ، فذهب اليها ، وأقام في هذه الارض مع ابنائه ، وصار ملكاً عليها الى ان توفي بها ، فقبر هناك . فصار الملك لابنه (الحاف) (الحافي)[٣] ، وهو في زعم الاخباريين والد ثلاثة أولاد ، هم : عمرو ، وعمران ، وأسلم . ومن نسل هؤلاء تفرعت قبائل قضاعة[٤] . وأما أمهم ، فبنت غافق بن الشاهد بن علك[٥] . .فكان من صلب عمرو : حيدان :

---

١ تاج العروس (٥/٤٧٠) .
٢ الانباه (ص ٦٣) .
٣ (والحافي بن قضاعة والد عمران ، معروف) تاج العروس (١٠/٩٤)
٤ ابن خلدون (٢/٢٤٧) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٦) ، سبائك الذهب (ص ٢٣) ، (ولد الحاف رجلين : عمران بن الحاف ، وعمرو بن الحاف . هذا ما لم يختلف فيه) ، الانباه (ص ١٢١) .
٥ ابن حزم ، جمهرة (ص ٤١٢) .

وبليّ ، وبهراء . وكان من عمران ابنه حلوان [1] ، وأمه ضرية بنت ربيعة بن نزار بن معدّ . فولد حلوان : تغلب ، وربان [2] ، ومزاحا وعمرا وهو سليح ، وعابدأ وعائذاً وقد دخلا في غسان ، وتزيد وقد دخل نسله في تنوخ [3] . وكان من نسل أسلم : سعد هذيم ، وجهينة [4] ، ونهد [5] .

وجعل من رجّع نسب قضاعة الى معد ، الارض التي أقام فيها قضاعة وأبناؤه

١ (وحلوان بالضم بن عمران بن الحاف بن قضاعة) القاموس (٣١٩/٤) ، (وحلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة من ذريته الصحابيون • وهو باني حلوان بالعراق)، تاج العروس (٩٦/١٠) •

٢ (وربان ، ككتاب ، اسم شخص من جرم • وليس في العرب ربان بالراء غيره ومن سواه بالزاي قلت : الذي صرح به أئمة النسب : انه ربان ، كشداد • وهو : ابن حلوان • وهو والد جرم من قضاعة • ينسب اليه جماعة من الصحابة وغيرهم • وهكذا ضبطه الحافظ الذهبي وابن حجر وابن الجواني النسابة • وقوله : اسم شخص من جرم غلط أيضا • فتأمل) ، تـــاج العروس (٣١١/٩) ، القاموس (٢٢٦/٤) •

٣ الاشتقاق (ص ٣١٤) ، ابن حزم ، جمهرة (٤٢١) ، (وتزيد بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة • هكذا بالمثناة الفوقية • وفي نسختنا بالفوقية والتحتية • أبو قبيلة • ومنه البرود التزيدية • وقال علقمة :

رد القيان جمال الحي فاحتملوا فكلهـــا بالتزيـديات معـــكوم

وهي برود ، فيها خطوط حمر • يشبه بها طرائق الدم • قال أبو ذؤيب :

يعثرن في حـد الضبــاة كأنمــا كسيت برود بنــي تزيـد الأذرع

قال أبو سعيد السكري : العامة تقول بني تزيد • ولم أسمعها • هكذا قال شيخنا • قيل وصوابه تزيد بن حيدان كما نبه عليـــه العسكري في التصحيف في لحن الخاصة • وفي كتاب الايناس للوزير المغربي في قضاعة : تزيد بن حلوان • وفي الأنصار : تزيد بن جشم بن الخزرج بن حارثة • وسائر العرب غير هذين فبالياء المنقوطة من أسفل • وقال السهيلي في الروض • ان في بني سلمى من الأنصار شاردة بن تزيد بن جشم بالفوقية • ولا يعرف في العرب الا هذا وتزيد بن الحاف ابن قضاعة • وهم الذين ينسب اليهم الثياب التزيدية) ، تاج العروس (٣٦٨/٢) •

٤ ابن خلدون (٢٤٧/٢) ، (وجهينة : قبيلة من قضاعة • وهو ابن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة • وقضاعة من ريف العراق • وسبب نـزول جهينة في الحجاز قرب المدينة ، مذكور في الروض •) تاج العروس (١٦٩/٩) •

٥ ابن حزم ، جمهرة (٤١٥) ، (ونهد) ، قبيلة باليمن • وهم : بنو نهد بن زيد بن ليث بن أسلم بن الحاف بن قضاعة ، وفي همدان : نهد بن مرهبة بن دعام بن مالك ابن معاوية بن صعب) ، تاج العروس (٥١٩/٢) ، (وفي قضاعة سعد هذيم) ، تاج العروس (٣٧٧/٢) •

جُدّة وما دونها الى منتهى ذات عرق ، الى حيّز الحرم ، من السهل والجبل . وبجُدّة ولد جُدّة بن جرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وبها سُمّي على قول أصحاب الأخبار [1] .

أما حيدان [2] ، فتنسب الى حيدان بن عمرو بن الحاف ، والد مهرة في نظر النسابين [3] ، فهو جدّ قبيلة عربية جنوبية على هذا الرأي [4] ، وما زال اسم مهرة معروفاً حتى الآن . ولمهرة لغة خاصة ، عني بدراستها المستشرقون . وهـم من القبائل العربية القديمة التي ورد ذكرها في مؤلفات (الكلاسيكيين) [5] . وقد علل بعض العلماء القدماء بعد لغة مهرة عن العربية بقوله : (مهرة انقطعوا بالشّحر ، فبقيت لغتهم الأولى الحميرية لهم ، يتكلمون بها الى هذا اليوم) [6] . وذكر ابن حزم لحيدان أولاداً آخرين ، هم يزيد ، وعُريب ، وعربد ، وجنادة [7] .

ويظهر من روايات النسابين ان بطون حيدان لم تكن كثيرة ، وان مواطنهـا لم تتجاوز العربية الجنوبية ، وانها كانت تتكلم بلهجات العربية الجنوبية القديمة ، وحافظت عليها في الاسلام . فهي مثل بطون حمير ، تختلف في لهجتها عن القبائل الأخرى التي تكلمت بلهجة مقاربة من اللهجة العربية الفصحى . إذنْ فما الرابط الذي جعل النسابين يرجعون نسب قبائل حيدان الى قضاعة مع هـذا الاختلاف البين في اللهجات ؟ ومع سكناها في محل قاصٍ ناءٍ عند الساحل الجنوبي للجزيرة ؟

---

١ البكري (١/١٧) ، (وبجُدة ولد جده بن جرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فسمي جدة باسم الموضع) البلدان (٣/٦٧ وما بعدها) .

٢ (وبنو حيدان . قال ابن الكلبي : هو أبو مهرة بن حيدان)، تاج العروس (٢/٣٤٢) . (وحيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، أبو مهـرة بن حيـدان) ، منتخبات (ص ٣٠) .

٣ منتخبات (ص ٣٠) ، ابن خلدون (٢/٢٤٧) . القاموس (٣/١٣٧) ، (ومهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة بالفتح ، أبو قبيلة . وهم حي عظيم واليها يرجع كل مهري.) تاج العروس (٣/٥٥١) .

٤ منتخبات (ص ١٠٠) .

٥ Ency., III, P. 138

٦ الاشتقاق (٣٢٣) .

٧ جمهرة (ص ٤١٢).

اللهم إلا ان تكون كل فروع قضاعة على هذا الطراز من اللهجات ، وهذا أمر لم يتحدث عنه الأخباريون ولم يعرفوه .

وأما بليّ[1] ، فقد كانت مواطنهم عند ظهور الاسلام على مقربة من تيماء بين مواطن جهينة وجُذام ، أي في المنطقة التي كانت لثمود في جغرافية (بطلميوس) . ومن بليّ ، بنو فرّان[2] وهني[3] .

ولم يذكر الأخباريون بطوناً ضخمة عديدة لبهراء[4] ، ويظهر انها لم تكن من القبائل الكثيرة العدد . ومن بطونها : قاسط ، وعبـدة ، وأهود (أهوذ) ، ومبشر ، وبنو هنب بن القـين[5] ، وبنو فائش (بنو قاس) ، وشبيب ابني دريم ، ومطرود ، وثمامة ، وعكرمة ، وثعلبة ، ودهر ، وسعد[6] .

وأما عمران بن الحاف (الحافي) ، فولد حلوان ، وقد ولد هـذا جملة أولاد هم: تغلب ، وربان وهو عـلاف ، وبزاح ، وعمرو ، وهو سليح[7] ،

١ (بلى • فعيل) ، بلى قبيلة من اليمن من قضاعة والنسبة اليهم بلوى • وهم ولد بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة • قال المسلم بن قرط البلوى :

ألم تر أن الحـى كانوا بغبطـة … بمأرب اذ كانـوا يحلونهـا معـا
بلـى وبهـراء وحـولان إخـوة … لعمرو بن حاف فرع من قد تفرعا

منتخبات (ص ٩) •

٢ الاشتقاق (ص ٣٢٢) ، القاموس (٤/٢٥٥) •

٣ ابن حزم ، الجمهرة (ص٤١٣) •

٤ (بهراء : قبيلة من اليمن ، وهم ولد بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، والنسبة اليهم بهراني بنون على غير قياس) منتخبات (ص ١٠) •

٥ ابن حزم ، جمهرة (ص ٤١٢ وما بعدها) ، (وهنب اسم رجل • وهو أبو قبيلة • وهو هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد • وهو أخو عبد القيس وأبو عمرو وقاسط • قاله ابن قتيبـة • ولا عجب في تفسير المصنف • كما توهمه شيخنا • وقبيلة أخرى ، تعرف بهنب بن القين بن أهوذ بن بهراء بن عمرو بن الحافي بن قضاعة • ذكره الصاغاني) • تاج العروس (١/٥١٨) •

٦ (بنو فائش) ، Wustenfeld Genea., Tab. 2 (بنو قاس) هكذا ضبطه ليفي بروفنسال وهو خطأ ، ابن حزم (ص ٤١٣) •

٧ (سليح كجريج) ، قبيلة باليمن • هو سليح بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة قلت : واسمه عمرو • وهو أبو قبيلة • وإخوته أربع قبائل : تغلب الغلباء ، وغشم (غنم) ، وربان ، ويزيد بني حلوان بن عمرو) ، تاج العروس (٢/١٦٥) ، سبائك الذهب (ص ٢٣) •

وعابد ، وعائذ ، وهم أجداد قبائـــل ، كما ذكرت ذلك آنفاً .

ومن بني سليح [1] : حماطة [2] ، وهم ضجعم بن سعد بن سليح ، وهم الضجاعمة الذين ملكوا بالشأم قبل غسان . وبنو سليح هم أسلاف الغساسنة كذلك ، وهم في نظر النسابين أبنـــاء : سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف [3] . ونسبت الى سليح بطون أخرى منها : أشجع وعمرو والأبصر والعبيد [4] .

ومن نسل (ربان) (زبان) [5] ، قبيلة (جرم) ، ومـــن ولد جرم : قدامة ، وملكان ، وناجيـــة ، وجدّة [6] . ومن جرم كان (عصام) حاجب النعمان [7] . ومن بطون جرم الأخرى : بنو راسب ، وبنو شمخ [8] .

أما تغلب بن حلوان ، فولد وبرة ، وولد وبرة أسداً ، والنمر وكلباً . وهي قبائل ضخمة ، والبرك ، والثعلب ، وهما بطنان ضخمان [9] . وولد أسد ، تيم الله وشيع اللآت . فولد تيم الله بن أسد : فهم ، وهم من تنوخ ، وقسم ، وهم بالجزيرة ، حلفاء لبني تغلب ، ومن فهم : مالك بن زهير بن عمرو بن فهـم ابن تيم الله بن أسد بن وبرة . وعليه تنخت تنوخ وعلى عمّ أبيه مالك بن فهم ، فتنوخ على ثلاثة أبطن : بطن اسمه فهم ، وهم هؤلاء . وبطن اسمه نزار ، وهم

---

١ (وعمرو ، وهو سليم) ، (وهؤلاء بنو سليم ، وهو عمرو بن حلوان) ، ابن حزم : جمهرة (ص ٤٢١) ، (تحقيق ليفي بروفنسال) ، (بنو سليم) ، هكذا ضبط (ليفي بروفنسال) الاسم ، وهو خطأ ، وصوابه : سليح ، سبائك الذهب (ص ٢٣) ، راجع كتب الأنساب الأخرى ، Wustenfeld Genea., Tab. 2

٢ جمهرة (ص ٤٢١) .

٣ الانباه (ص ١٢٣) .

٤ سبائك الذهب (ص ٢٤) .

٥ الانباه (ص ١٢١) ، منتخبات (ص ٢٠) ، الاشتقاق (٣١٤ ، ٣١٨) ، (جرم بن زبان) ، تاج العروس (٢٢٦/٨) ، اللسان (٣٦٢/١٤) . راجع ملاحظة رقم (٣) من صفحة ٢٤٠ من كتابي . تاريخ العرب قبل الاسلام .

٦ ابن حزم . الجمهرة (٤٢١) .

٧ الاشتقاق (ص ٣١٨) ، ابن خلدون (٣٤٧/٢) ، (وجرم بن زبان بن حلوان بن عمران ابن الحافي ، بطن في قضاعة) ، تاج العروس (٢٢٦/٨) ، (وجرم بطنان : بطن في قضاعة . وهو جرم بن زبان ، والآخر في طيء) ، اللسان (٣٦٢/٤) .

٨ ابن حزم . الجمهرة (ص ٤٢٢) .

٩ ابن حزم : الجمهرة (ص٤٢٣ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٢٤) .

لوث ، ليس نزار لهم بوالد ولا أم . ولكنهم من بطون قضاعة كلها ، من بني العجلان بن الثعلب ، ومن بني تيم الله بن أسد بن وبرة ، ومن غيرهم ؛ وبطن ثالث يقال له الأحـــلاف ، وهم من جميع القبائل كلها ، ومن كندة ولخـــم وجذام وعبد القيس[١] .

ومن نسل شيع اللآت : بنو القين . وهو النعمان بن جسر بن شيع اللآت بن أســد بن وبرة[٢] . ومن بطون بني القين ، جشم (جسم)[٣] ، وزعيزعـــة ، وأنس ، وثعلبة ، وفالج ، وبنو مالك بن كعب بن القين . وكعب وكنانة ، ومالك ومعاوية . وبطون أخرى ذكرها (وستنفلد)[٤] . وكان للقين جمع عظيم وثروة في أكناف الشأم ، فكانوا يناهضون كلب بن وبرة ، ثم ضعف أمرهـــم ووهن حتى ما يكاد ان يعرفوا[٥] .

ومن نسل النمر بن وبرة بن تغلب : التيم ، وجعشمة ، ووائل وهو خُشَيْن ، وقتبة ، وغاضرة ، و (عاينة) عاتية ، وبطون أخرى دخلت في قبائل عديدة ، فعدت منها[٦] ، مما يدل على انها لم تكن ذات عدة وعدد ، لذلك كان لا بد

---

١ ابن حرم : الجمهرة (ص ٤٢٣) .

٢ ابن حرم ، الجمهرة (ص ٤٢٤) . (القين هذا الذي نسبوا اليه اسمه : النعمان بن شيع الله ثن أسد بن وبرة بن ثعلب ؟ (تغلب) بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة . وقال ابن الكلبي : النعمان حضنه عبد يقال له القين ، فغلب عليه . ووهم ابن التين . فقال : بنو القين قبيلة من تميم) ، تاج العروس (٣١٦/٩) . (شيع الله) هكذا ضبطه (ليفي بروفنسال) ، والأصح (شيع اللآت) الانباه (ص ١٢٣) (بنو القين بن جسر بن شيع اللات بن أسد بن وبرة) ، (القين بن جسر) ، الاشتقاق (ص ٣١٧) .

٣ (جدسم) هكذا حققه (ليفي بروفنسال) ، جمهرة (ص ٤٢٤) ، والصحيح (جشم) ،

٤ Wustenfeld Genea., Tab. 2

٥ الانباه (ص ١٢١) .

٦ ابن حزم ، جمهرة (ص ٤٢٤) ، (وخشين بن النمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان في قضاعة . واسمه وائل بن النمر) ، تاج العروس (١٩١/٩) ، (وفي قضاعة تيم بن النمر بن وبرة . منهم الأفلج الشاعر الفارس) ، تاج العروس (٢١١/٨) ، (وجعشمة بالضم ، اسم . وقال أبو نصر : حي من هذيل ، أو حي من أزد السراة . قالـــه الأزهري . وفي شرح الديوان من أزد شنوءة أو من اليمن)، تاج العروس (٢٣٠/٨) .

لها من الدخول في القبائل الاخرى والاندماج فيها ، لحماية نفسها من تعديات القبائل والبطون القوية عليها .

وكلب من قبائل قضاعة الشهيرة . وتنسب الى هذه المجموعة : تغلب بن حلوان فجدّها في عرف النسابين كلب بن وبرة بن تغلب [1] بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . وكانوا ينزلون في الجاهلية دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام . [2] وقد كانت لهم لهجة خاصة لم يستعملها احد من الشعراء الجاهليين . [3] ولعل ذلك بسبب اتصال هذه القبيلة بالنبط ، اي ببقية بني ارم وبغيرهم ممن لم تكن لهم لهجة عربية نقية ، فتأثرت لهجتها بهذا الاختلاط .

واشتهر من رجال هذه القبيلة زهير بن جناب ، وهو ممن يدخله الاخباريون في المعمرين الجاهليين . [4] وجعلوا عمره أربع مئة وعشرين سنة ، ونسبوا اليه مئتي وقعة ، وجعلوه سيد قومه وخطيبهم وشاعرهم ووافدهم الى الملوك وطبيبهم وكاهنهم وفارسهم ، ونسبوا اليه الامثال والشعر ، وذكروا ان من شعره قوله :

ونادمت الملوك من آل عمرو وبعدهم بني ماء السماء [5]

وأنه قاله وقد بلغ من العمر مئتي عام ، فجعلوه بذلك معاصراً للمناذرة ملوك الحيرة ، فيكون على قولهم هذا قد عاش طويلاً في الاسلام . وقد ادرك هشام ابن الكلبي هذا التناقض في احدى رواياته ، فصحح عمر زهير واقتصر على مئتي عام . [6] وهو عمر كاف ولا شك يشتاق ان يبلغه كل انسان . ولكنه عمر استقله

---

١ الانباه (ص ١٢١) ، خلاصه الكلام (ص ٤٩) ، سبائك الذهب (ص ٣٠) ، ابن حزم : جمهرة (ص ٤٢٥) ، (وكلب وبنو كلب ، وبنو أكلب ، وبنو كلبة ، وبنو كلاب . قبائل من العرب . قال الحافظ ابن حجر في الاصابة : حيثما أطلق الكلبي ، فهو من بني كلب بن وبرة . قال شيخنا : هو اخو نمر ونوح ، كما في معارف ابن قتيبه ، وقال العيني : في طي كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة . وأما تغلب بن وائل فعدناني ، وهذا قحطاني .) ، تاج العروس (١/٤٦١) ، (وكلب . حي من قضاعة .) ، اللسان (٢/٢٢٢) .

٢ خلاصه الكلام (ص ٤٩) .

٣ Ency., II, P. 688.

٤ السجستاني . كتاب المعمرين (٢٧ وما بعدها) .

٥ السجستاني (ص ٢٨) .

٦ السجستاني (ص ٢٨) .

الأشياخ الكلبيون الذين لا يرضيهم هذا التنقيص في السن .

ولم يكن زهير رئيساً لكلب خاصة ، بل كان على رأي الرواة الكلبيين رئيساً على كلّ قضاعة . ويذكر الاخباريون ان قضاعة لم تجمع على اطاعة رئيس الا زهيراً والا رزاح بن ربيعة ، وهو من عذرة . وكان رزاح هذا اخا قصي بن كلاب لأمه .[1] وقد جعل الاخباريون زهيراً معاصراً لكليب بن وائل . ويفهم من شعر منسوب الى المسيب بن الرفل ، وهو من ولد زهير بن جناب قاله مفتخراً بزهير متبجحاً به : ان ابرهة كان قد اصطفى آل زهير ، وسوّدها على الناس ، وأعطاه الإمرة عليهم ، وجعله اميراً على حيي معدّ وعلى ابني وائل حيث أهانهما وأذلها .[2] ومعنى ذلك ان زهيراً كان في ايام ابرهة ، اي في النصف الاول من القرن السادس للميلاد ، وأنه على ذلك كان معاصراً لقصي زعيم قريش .

ولم يقنع الرواة الكلبيون بكل ما ذكروه عن حياة زهير ، بل أرادوا ان تكون خاتمة زهير خاتمة غريبة كذلك كغرابة حياته ، فذكروا انه كبر حتى خرف وحتى استخفت به نساؤه ، وأنه لم يتمكن من الأكـل بنفسه ، فصارت معزبته تطعمه بنفسها ، الى ان ملّ الحياة على هذا النمط ، فأخذ يشرب الخمر صرفاً اياماً حتى مات . وذكروا ان احداً من العرب لم يفعل هذا الفعل غير زهير وغير أبي براء عامر بن مالك بن جعفر ، والشاعر عمرو بن كلثوم .[3]

ومن حروب زهير حربه مع بكر وتغلب ابني وائل ، ويروي الاخباريون في ذلك ان ابرهــة حين طلع على نجد اتاه زهير فأكرمه وفضله على من أتاه من العرب ، ثم أقرّه على بكر وتغلب ابني وائل ، فوليهم . وصار يجبي لهم الخراج ، وحدث ان اصابتهم سنة شديدة لم يتمكنوا فيها من دفع ما عليهم اليه . فلما طالبهم بها ، اعتذروا عن الدفع ، فاشتدّ عليهم ، ومنعهم من النجعــة حتى يؤدوا ما عليهم ، فكادت مواشيهم تهلك . فلما رأى ذلك (ابن زيابة) احد بني تيم الله ابن ثعلبة ، وكان فاتكاً معروفاً ، اتى زهيراً وهو نائم ، فاغمد السيف في بطنه ، ثم فرّ هارباً ظاناً انه قد أهلكه . ولما افاق زهير ، اخذه من كان معه من قومه

---

١ السجستاني (ص ٢٨) .

٢ السجستاني (ص ٢٩) .

٣ السجستاني (ص ٢٨) .

حتى وصلوا به الى قبيلته ، فجمع عندئذ جموعه ومن قدر عليه من اهل اليمن ، وغزا بهم بكراً وتغلب ، وقاتلهم قتالاً شديداً انهزمت به بكر ، وقاتلت تغلب بعدها ، فانهزمت ايضاً ، وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة ، وأخذت الأموال ، وكثرت القتلى في بني تغلب ، وأسرت جماعة من فرسانهم ووجوههم ، وانتصر زهير نصراً عظيماً . [1]

ونسبت اليه حرب اخرى مع غطفان ، قالوا ان سببها ان بني ريث بن غطفان حين خرجوا من تهامة ساروا بأجمعهم ، فتعرضت لهم صداء ، وهي قبيلة من مذحج ، فقاتلوهم ، وبنو بغيض سائرون بأهليهم وأموالهم ، فقاتلوهم عن حريمهم فظهروا على صداء وفتكوا فيهم ، فعزت بغيض بذلك ، وأثرت ، وكَثُرَت اموالها ، فلما رأت ذلك ، قالت : (والله لنتخذن حرماً مثل مكة لا يقتل صيده ولا يهاج عائذه) ، فبنوا حرماً ، ووليه (بنو مرة بن عوف) فلما بلغ فعلهم وما اجمعوا عليه زهير بن جناب ، أبى ذلك ، وفرر منع غطفان من اتخاذ هـذا الحرم ، فسار اليها بجموع كبيرة ، فظفر بها ، وأصاب حاجته منها ، وأخذ فارساً منهم في حرمهم فقتله ، وعطل ذلك الحرم . [2]

وروى الاخباريون انه حارب بني القين بن جسر . وكانت له اخت متزوجة فيهم ، فأرسلت من اخبره بعزم بني القين على محاربته ، فاستعد لها ، فقاتلها ، وقتل رئيسها وانصرفت خائبة عنه . [3]

ويظهر من غربلة روايات الاخباريين عن زهير بن جناب ، ان بطل كلب هذا كان من رجال القرن السادس للميلاد ، وأنه لم يكن بعيد عهد عن الاسلام ، وأنه كان معاصراً لأبرهة ، ولعلّه كان قد تحالف معه ، فترك حلفه معه اثراً في ذاكرة الاخباريين . والظاهر انه كان ذا شخصية قويّة ، محارباً ، حارب جملة قبائل فاخضعها ، وبذلك بسط نفوذه عليها ، ورفع اسم قبيلته على القبائل الاخرى . ولعل اتصاله بابرهة وباليمن هو الذي أوجد رابطة نسب قبائل قضاعة بحمير . وقد سبق ان قلت ان المحالفات كانت تؤدي في الغالب الى الالتحام في الانساب .

---

١ ابن الأثير (١/٢٠٥) .
٢ ابن الأثير (١/٢٠٥) .
٣ ابن الأثير (١/٢٠٦) .

اما ما أورده الاخباريون بشأن زمانه وعمره ، فهو مما لا قيمة له . فمن عادة القصاص ، رفع من كانوا يتحدثون عنهم من الشخصيات البارزة التي كانت لها شأن وخطر في القدم ، واضافة السنين الطويلة الى اعمارهم ، والمبالغات والاغراب الى قصصهم ليكون ذلك اوقع في نفوس السامعين وفي مخيلة المعجبين بهذا النوع من الحكايات . ولهذا الاغراب جعل بعض المستشرقين زهيراً شخصية خرافية ، وبطلاً خيالياً اوجدته على رأيهم مخيلة الاخباريين . [1] ولكن الاغراب في القصص مهما بولغ فيه لا يكون حجّة قاطعة في كون من قيل فيه شخصية خرافية لا وجود لها . فقد اغرب الاخباريون في ابرهة معاصر زهير ، وبالغوا في الذي رووه عنه ، ورفعوا ايامه الى ايام داوود وأيام سليمان ، وجعلوا له اياماً اخرى . ولكن ابرهة فنّد اقاصيصهم عنه وبيّن في كتاباته التي دوّنها على سد مأرب انه من رجال القرن السادس للميلاد .

ومعظم من روى عنهم الاخباريون هذا النوع من القصص ، هم رجال مثلنا ، عاشوا وماتوا ، وكانت ايامهم في الغالب في القرن السادس للميلاد ، أي في عهد لم يكن بعيداً جداً عن الاسلام لم تتمكن ذاكرة الرواة وحفظة الاخبار من حفظ شيء عنهم ، الا هذا النوع من القصص المحبوب ، المطلوب من الناس ، يقصه القصّاصون في الليالي المقمرة الجميلة ويقصه المعمرون من رجال القبيلة ليكون فخراً لقبيلتهم . وهذا النوع من القصص هو نوع بدائي من انواع حفظ التأريخ ، وأكثر من حفظ وروى اخبار زهير بن جناب الشرقي بن القطامي ، وهشام بن الكلبي ، وأبوه محمد ، وجماعة آخرون من المشايخ الكلبيين . [2] كانوا يروون هذا النوع من القصص عن رجال كلب ، حملهم على ذلك تعصبهم لقبيلتهم كلب .

وأكثر ما روي عن كلب ، هو من اخراج تلك الأيدي الكلبيـــة ، نشرته وأذاعته بين الناس ، ومن حسن حظ كلب ان شيوخ الاخباريين الذين ذكرتهم كانوا منها ، فكان لقصصهم هذا صداه البعيد عند جمهرة الاخباريين .

---

١ Ency., II., P. 688

٢ Ency., II., P. 688.

وكلب في حد ذاتها جملة قبائل وبطون ضخمة ، منها : رفيدة ، وعُرَيْنة ، وصحب ، وبنو كنانة ، وهي قبيلة ضخمة من بطونها : بنو عدي ، وبنو زهير ، وبنو عليم ، وبنو جناب .[1]

وذكر بعض الاخباريين ان كلباً كانت تحكم دومة الجندل ، وأن اول من حكمها منهم هو دجانة بن قنافة بن عدي بن زهير بن جناب . وذكروا ايضاً ان الملك على دومة الجندل وتبوك ، كان لهم الى ان ظهر الاسلام ، وانهم كانوا يتداولونه مع السكون من كندة . فلما ظهر الاسلام ، كان على دومة الجندل الأكيدر بن عبد الملك بن السكون .[2]

وأظهر قبائل مجموعة أسلم ، جهينة ، وسعد هذيم ، ونهد . ابناء زيد بن ليث ابن الأسود بن اسلم بن الحاف بن قضاعة . اما جهينة ، فقد كانت منازلها في نجد في الأصل ، وعند ظهور الاسلام كانت تقيم في الحجاز على مقربة من المدينة بين ساحل البحر الاحمر ووادي القرى .[3]

ومن جهينة : قيس ومودعة . فولد قيس : غطفان وغيّان . ويعرفون برشدان كذلك . عرفوا في ايام الرسول .[4]

وأما نهد ، فقد سكنت اكبر بطونها في منطقة نجران . وقد دخلت بطون منها في قبائل اخرى واندمجت فيها . وأما سعد هذيم ،[5] فأشهر قبائلها : بنو عذرة ، وبنو ضنة .[6]

---

١ الجمهرة (ص ٤٢٦) ، سبائك الذهب (ص ٢٩) .

٢ ابن خلدون (٢/٢٤٩) .

٣ Ency., I, P 1060, Caetani, Annali, II, 367.

٤ الجمهرة (ص ٤١٥ وما بعدها) ، الانباه (ص ١٢٣) .

٥ الجمهرة (ص ٤١٨ وما بعدها) . (وسعد ابن هذيم كزبر ، باثبات الألف بين سعد وهذيم ، أبو قبيله . وهو ابن زيد بن ليث بن سود . لكن حضنه عبد حبشي أسود، اسمه هذيم ، فغلبة عليه . ونسب اليه . ومن سعد هذيم هذا ، بنو عذرة بن سعد اليه يرجع كل عذرى ، ما خلا ابن عذره بن زيد اللآت في كلب . قاله ابن الجواني النسابة) ، تاج العروس (٩/١٠١) .

٦ (وضنة بالكسر . خمس قبائل من العرب . وقول الجوهري . و .له قصور . قال شيخنا : اذا قصد من قبيله جنس القبيلة ، فتصدق بكل قبيله ، فلا قصور ، على أن

وتقع منازل بني عذرة في اعالي الحجاز في جوار عدد من القبائل المنتمية الى مجموعة قضاعة ، وهي : نهد ، وجهينة ، وكلب ، وبلي . وتقع ارضها في جوار غطفان ، ومن مواضعها : وادي القرى ، وتبوك حتى ايلة . ويذكر الاخباريون ان بني عذرة حيا وفدوا الى وادي القرى من مواطنهم الاصلية على اثر الحروب التي وقعت بين قبائل قضاعة وحمير ، وجدوا اليهود في هذه الديار ، فتحالفوا معهم ، وعاشوا في هذا الوادي وفي المواضع المجاورة له . [١]

وقد ذهب شبرنكر الى ان (عذرة) هي (ادريته Adrithae) القبيلة التي ذكرها (بطلميوس) . [٢] اما تأريخ (عذرة) البعيدة عن الاسلام فلا نعرف عنه شيئاً يذكر . وما نعرفه منه يخص الايام القريبة من الاسلام . والى صلاتها الوثيقة وحلفها مع قبائل سعد هذيم ، خاصة بني ضنة وبنو سلامان ، يعود نشوء هذا النسب الذي ربط فيما بين فروع هذه الكتلة ، وكذلك كتلة بني أسلم ومنها جهينة التي كانت ذات صلات حسنة ببني عذرة . ولهذا السبب أطلق النسابون على هذه الجماعة (صحار) . [٣]

وكان لبني عذرة صلات بقبيلة قريش تتجلى في خبر الأخباريين عن مساعدة رزاح ، وهو منهم لأخيه من أمه قصي زعيم قريش في نزاعه مع خزاعة كما أشرت اليه في أثناء كلامي على مكة . كذلك كانت لهم صلات بالأوس والخزرج

الجوهري لم يلزم ذكر كل شيء كالمصنف حتى يلزمه القصور ، بل يلزمه أن يذكر ما يصح عنده . ضنة بن سعد هذيم في قضاعة ، وضنة بن عبد الله . كذا في النسخ . والصواب : ضنة بن عبد بن كبير في عذرة بن سعد هذيم ، فهم أشرافهم الى اليوم . من ذريته : رزاح بن ربيعة بن حزام بن ضنة أخو قصي بن كلاب . وضنة ابن الحلاف في أسد بن خزيمة ، وضنة بن العاص بن عمرو في الأزد . وضنة بن الحرث في بني نمر بن عامر بن صعصعة . أخي خويلعة بن عبدالله بن الحرث بطن أيضا .) ، تاج العروس (٩/٢٦٦) .

١ الأغاني (١٤/١٦١) .

٢ Wustenfeld, Die Wohnsitze und wanderungen der Arabischen Stamme, S., 25, 31, 37, 41, Ency., VI, P. 988.

٣ Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, S., 205

حيث يذكر الأخباريون ان والدة الأوس والخزرج كانت من تلك القبيلة ، فهي – في عرفهم – قَيْلَة بنت كاهل (هالك) بن عذرة . وهكذا نجد لبني عذرة علاقات بأهل المدينتين المتنافستين : يثرب ، ومكة [1] . والزواج بين القبائل من الأمور التي تقرب بينها وتصل أنسابها بعضها ببعض .

ومن بطون هذه القبيلة . بنو ضنة ، وبنو جلهمة ، وبنو زقزقة ، وبنو الجلحاء ، وبنو حردش ، وبنو حُن ، وبنو مدلج على رأي بعض النسّابين [2] ، وبنو رفاعة ، وبنو كثر ، وبنو صرمة ، وبنو حرام ، وبنو نصر ، وبطون أخرى يذكرها أهل الأنساب [3] .

وتنتسب قبائل كثيرة من اليمن الى كهلان بن سبأ ، وكهلان هو شقيق حمير ، فهناك إذن صلة بين قبائل حمير وقبائل كهلان . ويذكر النسّابون ان بني كهلان وبني حمير كانوا يتداولون الملك في بادىء الأمر بينهم ، ثم انفرد به بنو حمير ، وبقيت بطون كهلان في حكمهم في اليمن . فلما تقلص ملك حمير ، صارت الرياسة على العرب البادية لبني كهلان ، لما كانوا بادين لم يأخذ ترف الحضارة منهم. وهكذا نجد النسّابين يقسمون أبناء سبأ الى قسمين: حضر، وهم في رأيهم أبناء حمير ، وأهل وبر أو متزعمون لأهل الوبر وهم من نسل كهلان . والابن الذي ذكره الأخباريون لكهلان ، هو زيد ومن ظهره تسلسلت قبائل كهلان [4] .

وقد نَحَلَ زيد ، على حد قول النسابين ، ولدين ، هما : مالك وعريب . وأضاف الهمداني الى هذين الولدين ولداً ثالثاً سمّاه غالباً . ومن صلب هؤلاء الأبناء انحدرت قبائل كهلان [5] .

١ Ency., VI, P. 989

٢ الاشتقاق (ص ٣٢٠) ، Ency., VI, P 989

٣ سبائك الذهب (ص ٢٨) .

٤ منتخبات (ص ٩٤) ، الاكليل (١/١٠) وما بعدها) . الهمداني . مشتبه (تحقيق أوسكار لوفكرن Oscar Lofgren) (سنة ١٩٥٣) (ص ١٦) ، جمهرة النسب الكبر لابن الكلبي . رواية محمد بن حبيب . مخطوطة المجمع العلمي العراقي مصورة (ورقة ٢٤٧) . وسيكون رمزها . جمهرة النسب .

٥ الاكليل (١/١٠ وما بعدها) . سبائك الذهب (ص ٣٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢١٨) .

ونَجَلَ مالك من الولد الخيار ونبتاً ، فولد نبت الغوثَ وولد الغوث أدَدَ ، وهو الأزد ، وعَمْراً . ومن ولد عمرو خثعم [1] وبجيلة [2] . ونَجَل عمراً وقدار ومقطعان (مقطعا) على رواية للهمداني [3] .

أما الخيار فقد ولد ربيعة ، وولد ربيعة أوسلة ، وولد أوسلة زيد بن أوسلة ، وولد زيد بن أوسلة مالكاً وسبيعاً وساعاً الأكبر على رأي [4] . ومالكا وتبع ، وعبداً ، على رواية ابن حزم [5] . وقد دخل تبع وعبد في همْدان . وولد مالك ابن زيد من الولد همدان [6] والهان . وقد ولد همدان نوفا (نوفل ؟) بن همدان [7] على رأي . وجملة أولاد آخرين على روايات أخرى [8] . ومن نسل نوف [9] تفرعت

١ (وخثعم بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث من اليمن · واسمه أفتل · أبو قبيلة · وخثعم لقبه · قال الجوهري · ويقال : هم من معد بن عدنان ، وصاروا من اليمن · وقيل : خثعم ، جمل نحره ، فسمي به أبو القبيلة) ، تاج العروس (٢٦٨/٨) ·

٢ ابن حزم ، جمهرة (ص ٣١٠ وما بعدها) · (وبجيلة ، كسفينة · حي باليمن من معد · والنسبة اليه بجلي · محركة · قال ابن الكلبي في جمهرة نسب بجيلة : ولد عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، أراشا ، فولد أراش ، أنمارا ، فولد أنمار ، أفتل ، وهو خثعم · وأمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد بن عك · وعبقرا ، والغوث ، وصهيبة ، وحزيمة · دخل في الأزد ، ووادعة . بطن مع بني عمرو بن يشكر ، وأشهل وشهلا ، وطريفا ، وسمية رجل ، والحرث ، وخدعة ، وأمهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة · بها يعرفون · قال · وقد اختلف أئمة النسب في بجيلة ، فمنهم من جعلها من اليمن · وهو قول ابن الكلبي الذي تقدم · وهو الأكثر · وقيل . هم من نزار بن معد · قاله مصعب بن الزبير · كأن المصنف جمع بين القولين · وفيه نظر لا يخفي) ، تاج العروس (٢٢٢/٧) ·

٣ الاكليل (٥/١٠) · (مقطعا) ، جمهرة النسب (ورقة ٢٤٧) ·

٤ الاكليل (٦/١٠) ·

٥ جمهرة (ص ٣٦٩) ·

٦ ابن حزم ، جمهرة (ص ٣٧٤ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٣٣) ·

٧ (وهمدان . بفتح فسكون · قبيلة باليمن من حمير ، واسمه أوسلة بن مالك بن زيد ابن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ) ، تاج العروس (٥٤٧/٣) ·

٨ الاكليل (١١/١٠) ، سبائك الذهب (ص ٧٨) ، (ولد همدان ، نوفا ، وخيران ، فمنهم بنو حاشد ، وبنو بكيل) ، الاشتقاق (ص ٢٥٠) ·

٩ (نوفل) هكذا ضبطه (ليفي بروفنسال) ، جمهرة (ص ٣٦٩) ، وهو خطأ وصوابه · نوف ، ابن خلدون (٢٥٢/٢) ، الاشتقاق (ص ٢٥٠) ، (فأولد همدان بن مالك . نوفا وفيه العدد والعز ، وعمرا وفيه الشرف والملك · ورفاش زوج عدي بن الحارث) ، الاكليل (١١/١٠) · (وبنو نوف : بطن من همدان) ، القاموس (٢٠٣/٣) ·

قبائل همدان : حاشد[1] ، وبكيل[2] ابنا جشم بن خيران بن نوف .

أما عريب ، فولد يشجب على رواية ابن حزم[3] ، وعمْراً على رواية الهمداني[4] ، فولد يشجب أو عمرو زيد بن يشجب أو زيد بن عمرو على اختلاف الروايتين . والهميسع وهو ذو القرنين السيّار ويكنى بالصعب على رواية ذكرها الهمداني[5] . ونَجَلَ زيد أدد بن زيد ، فولد أدد مرة ، ونبتاً ، وهو الأشعر ، وجلهمة وهو طيء ، ومالكاً ، وهو ملحج . وقد تفرعت من هؤلاء قبائل وبطون .

والأزد قبائل عديدة تنتمي كما قلت الى الأزد ، وهو الغوث . وينسب الأخباريون بيتاً من الشعر الى حسان بن ثابت ، يقولون : إنه قاله في نسب الأزد ، هو :

ونحن بنو الغوث بن نبت بن مالكٍ   بن زيد بن كهلانٍ وأهل المفاخر[6]

يذكرون انه قاله مفتخراً بهذا النسب ، وهو منهم . وهو شعر قد يكون وضعه النسابون وأهل الأخبار على لسانه ، وهو ما أظنه ، ليكون دليلاً لهم على صحة دعواهم في نسب الأزد ، وهم يعلمون ما كان عليه الشاعر من تعصب لليمن . وقد ذكر الأخباريون أيضاً ان حمير تقول ان الأزد منهم ، وانه هو الأزد بن الغوث الأكبر بن الهميسع بن حمير الأكبر . ولم يكفهم ذلك ، بل أرادوا ان يثبتوا هذا القول ويؤيدوه بشعر . والشعر في نظرهم سندٌ قوي لاثبات رأي ، ولا سيما اذا كان من شعر معمر أو ملك من الملوك القدماء . وقد قرأت في كتبهم ولا شك ما كتبوه من الأشعار على لسان آدم وهابيل وقابيل وعاد وثمود وأمثال ذلك من شعر زعموا انهم نظموه بهذه العربية الجميلة التي نكتب اليوم بها ، فكيف لا يأتون بشعر لإثبات رأيهم في هذا الباب ينسب الى التبابعة ،

---

١ (وحاشد : حي من همدان . يذكر مع بكيل ، ومعظمهم في اليمن) ، تاج العروس (٣٣٦/٢) .

٢ (وبكيل : كأمير حي من همدان . وهو : بكيل بن جشم بن خيران بن نوف بن همدان) ، تاج العروس (٢٣٢/٧) .

٣ ابن حزم : جمهرة (ص ٣٧٤) .

٤ الاكليل (١/١٠) .

٥ الاكليل (١/١٠) .

٦ منتخبات (ص ٣) .

وهم من خلص العرب وملوكها المعروفين البارزين ؟ فرووا شعراً للتبع أسعد تبع ، قالوا ، انه ذكر فيه الأزد ، وكانوا معه ، فهم من حمير إذن وهو :

ومعي مَقاولُ حميرٍ وملوكَها والأزدُ أزد شنوءة وعمـان [1]

وهكذا أضافوا الى حمير الأزد بجملتها .

وأسعد تبعٌ من التبابعة الذين لهم حظ سعيد عند الأخباريين ، فهو مؤمن في نظرهم ، وهو ذو القرنين . وهو من أعظم التبابعة ، وأفصح شعراء العرب . ولم يكتفوا بما أغدقوا عليه من نعوت ، بل أرادوا أكثر من ذلك وأبعد ، فقالوا انه كان نبيـاً مرسلاً الى نفسه ، وانه تنبأ بظهور الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قبل ظهوره بسبع مئة سنة ، وانه قال شعراً في ذلك حفظه الناس هـذه السنين الطويلة عنه ، وانه لذلك نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن سبّه [2] . فهو إذن من المؤمنين الصالحين ومن رجال الجنة ولا شك ، وهو قصص روّجه ولا شك الحميريون والقحطانيون المتعصبون في الاسلام ، ليُسكتوا بذلك خصومهم السياسيين. وهم في نظرهم العدنانيون الذين شرفتهم النبوة ورفعت مقامهم في الاسـلام ، فافتخروا بها على القحطانيين ، ولم يكن القحطانيون أقل باعاً في توليد القصص في الفخر من منافسيهم القحطانيين ، فأوجدوا هذه الحكايات عن تبابعتهم ، وأوجدوا لهم الفتوحات العظيمة ، ثم لم يكفهم ذلك كله ، فقالوا : ان النبوة اذا كانت في العدنانيين ، فانها كانت أيضاً في القحطانيين ، بل هي أقدم عهداً فيهم منهم ، فنهم كان عدة أنبياء . وهكذا سدّوا الثغرة التي كان يهاجم منها العدنانيون .

وقد ولد الأزد عدة أولاد ، منهم : مازن ، ونصر ، وعمرو ، وعبد الله ، ووقدان ، والأهبوب [3] . ومن ولد مازن عمرو ، وعدي ، وكعب ، وثعلبة . ومن ولد ثعلبـة : عامر ، وامرؤ القيس ، وهو البطريـق ، وكرز . فولد امرؤ القيس حارثة ، وهو الغطريف ، وولد حارثة هذا عامراً المعروف بمـاء

---

١ منتخبات (ص ٣) .

٢ منتخبات (ص ١٢ وما بعدها) .

٣ جمهرة (ص ٣١١) ، تاج العروس (٢/٢٨٩) ، سبائك الذهب (ص ٤٥) ، جمهرة النسب (ورقه ٢٤٧) ، Wustenfeld, Genea, Tab. 10,

السماء ، والتوأم ، وهو عامر ، وعدياً .[١]

وولد عامر ماء السماء عمرانَ الكاهن ، وعمراً مزيقياء (مزيقيا) ، فولد عمرو مزيقياء ذُهْل بن عمرو ؛ وهو وائل ، وقد سكن نسله بنجران ، وعمران بن عمرو ، وحارثة بن عمرو ، وجفنة بن عمرو ، وثعلبة العنقاء بن عمرو ، وأبا حارثة بن عمرو ، ومالك بن عمرو ، وكعب بن عمرو . وقد نزل بعض هؤلاء الولد على موضع ماء اسمه غسان ، فشربوا منه ، فسُمّوا به . وهم بنو الحارث ، وجفنة ، ومالك ، وكعب .[٢]

ويظهر من فحص روايات الاخباريين عن الأزد انها كانت مجموعة ضخمة من القبائل ، ودليل ذلك عدّ النسابين اياها جرثومة من جراثيم قحطان ، وقد ذكروا انها كانت سبعاً وعشرين قبيلة ،[٣] منها الأوس والخزرج . وهم من نسل حارثة ابن ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف ،[٤] وأمهم قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء .[٥]

ومن ولد عديّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء ، سعد ، وهو بارق جد القبيلة المسماة بهذا الاسم[٦] . اما من ولد عمران بن عمرو مزيقياء ، فقد ولد الأزد والحجر[٧] ، وولد الأزد لعتيك وشهميــلاً[٨] ، ومن ولد الحجر زهران

---

١ جمهرة (ص ٣١١) ، Wustenfeld, Tab. 11. جمهرة النسب (ورقه ٢٤٧) .
٢ جمهرة (ص ٣١٢) ، منتخبات (ص ٨٠) ، البلدان (٢٩٢/٦) .
٣ الانباه (ص ١٠٦) .
٤ (ومزيقياء : لقب عمرو بن عامر ماء السماء . أى حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن السبراح بن الأزد . ملك اليمن ، وهو جد الأنصار ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما بالعشي . يكره العود فيهما ، ويأنف أن يلبسها غيره . وقيل : انه كان يمــزق كل يوم حلــة ، فيخلعها على أصحابه . وقيل لأنه كان يلبس كل يوم ثوبا ، فاذا أمسى مزقه ووهبه والأقوال متقاربة) ، تاج العروس (٦٩/٧) جمهرة النسب (ورقة ٢٤٧) .
٥ جمهرة (ص ٣١٢) ، جمهرة النسب (ورقة ٢٤٩) .
٦ منتخبات (ص ٦) ، جمهرة (ص ٣٤٧) .
٧ سبائك الذهب (ص ٦٥) .
٨ جمهرة (ص ٤٧) ، الاشتقاق (ص ٨) .

وزيد مناة ، وسود ومرحوم وعمرو .[1]

وذكر ابن حزم ان الازد تدعي ان عمرو بن حجر هذا كان نبياً [2] ، وبذلك يكون القحطانيون قد اضافوا اليهم نبياً آخر من الانبياء الذين نسبوهم الى قحطان .

وقد نزلت بارق في ارض تسمى بارقاً ، فنسبت اليها . وقيل وجاء في نسبها انها من نسل سعد بن عديّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الازد ، وهم اخوة الأوس والخزرج ، وليسوا من غسان . ولابن الكلبي اخبار عن بارق وعن القبيلة التي نزلت بها .[3] وقد نزل مع سعد بن عديّ ابنا اخيه عمرو بن عدي بن حارثة ، وهما مالك وشبيب فسمّوا بارقاً كذلك .[4]

ومن نسل جفنة بن عمرو مزيقياء كان آل جفنة ملوك الشام ، [5] ويقال ان اسم جفنة هو علبة ، ولذلك عرف آله بآل علبة كذلك .[6] وعرف ولد عمرو ابن مازن بن الازد ، وهم عديّ وزيد الله ولوذان ، وامرؤ القيس ، والحارث ، وحارثة ومالك وثعلبة وسوادة وعوف والعاصي وخالد والوجيه بغسان كذلك ، وكان منهم بنو شقران وهم بالشام ، وبنو زمّان بن تيم الله بن حقال ، وهو بالحيرة من العبـــاد . واليهم نسبت بيعة ربيعة بن زِمّان ، ومنهم ايضاً الحارث الاعرج ابن ابي شمر الغساني على رأي بعض النسابين ممن اخرجه من آل جفنة وأدخله في نسل عمرو بن مازن ، ومنهم عبد المسيح بن عمرو بن حيّان بن بقيلة وهم من آل بقيلة ، وكان نصرانياً ، وهو الذي صالح خالد بن الوليد عن اهل الحيرة ، ومنهم ثعلبة بن عمرو بن المجالد رئيس غسان ايام ساروا من بطن مرّ الى الشام وشقيق جذع ، وكذلك سطيح الكاهن على رأي ابن حزم . ومنهم

١ منخبات (ص ٦) ، حمهرة (ص ٣٥١) ، مع بعض الاختلاف فى سبائك الذهب (ص ٦٥) .
٢ حمهرة (ص ٣٥١ وما بعدها) .
٣ البلدان (٢/٣٢ وما بعدها) .
٤ الانباه (ص ١١٢) .
٥ جمهرة (٣٥١) ، منخبات (ص ٢١) .
٦ طرفه الأصحاب (٦٩) .

بنو غافق ، وبنو صوفة ، وبنو تفلذ . وبطون اخرى اشار اليها النسابون . [١]

وولد عبد الله بن الازد عدثان وقرناً ، وهما قبيلتان ، والحارث ، وعبد الله بنو عبد الله بن الازد . والى عدثان يرجع بعض النسابين نسب عك ، فيقولون : انه علك بن عدثان بن عبد الله بن الازد . [٢] وكان من ولد عمرو بن الازد ماوية وعرمان ، وهما بطنان بعمان ، وألمع وجدجنة وهما ازديون بالحجاز ، وسعد والضيق وقد دخلا في عبد القيس ، وربيعة وامرؤ القيس وهما من غسان . [٣]

ومن ولد دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب ، منهب وغنم ، فولد غنم فهم ابن غنم ، وولد فهم مالك بن فهم وأكثرهم بعمان ، وسليم بن فهم ، وطريف بن فهم ، وهم بالحجاز . فولد مالك بن فهم ثوابة وولده بعمان ، وجذيمة الوضّاح ملك الحيرة ، وعوفاً وجهضماً وسلمة ، ومعناً وهناءة وشبابة والحارث وعمّراً وثعلبة بني مالك بن فهم . وقد دخلت ثعلبة في تنوخ . [٤]

ومن قبائل الازد المعروفة خزاعة . [٥] وتنسب الى عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو مزيقياء ، [٦] او عمرو بن ربيعة ، وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن

١ جمهرة (ص ٣٥٤) ، الاشتقاق (٢٨٥) .

٢ جمهرة (ص ٣٥٤) .

٣ جمهرة (ص ٣٥٤) .

٤ جمهرة (ص ٣٥٨) .

٥ العقد الفريد (٢/٧٥) ، فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب (ص ٢٣١ وما بعدها) ، البكري (١/٢٩٦) ، الهمداني ، صفة (ص ١٢٠ ، ٢١١) ، الأغاني (١٣/٣ ، ١٩/٧٦) ، أبو الفداء (١/١٠٧) ، نهاية الأرب (٢/٣٠١ و ٣٢٥) ، كحالة ، (١/٣٣٩) ، Ency., II, P. 984.

٦ خلاصة الكلام (ص ٥٣) ، (وخزاعة ، حي من الأزد . قال ابن الكلبي : ولد حارثة ابن عمرو مزيقياء بن عامر ، وهو ماء السماء : ربيعة وهو لحي ، وأفصي ، وعديا ، وكعبا وهم خزاعه . وأمهم بنت أد بن طابخة بن الياس بن مضر . فولد : ربيعة عمرا . وهو الذى بحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي ، ودعا العرب الى عبادة الأوثان . وهو خزاعة . وأمه فهيرة بنت عامر بن الحارث بن مضاض الجرهمي . ومنه تفرعت خزاعة . وإنما صارت الحجابة الى عمرو بن ربيعة من قبل فهيرة الجرهمية ، وكان أبوها آخر من حجب من جرهم . وقد حجب عمرو .) ، تاج العروس (٥/٣١٧) .

عامر ،[1] او خزاعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن الغطريف ،[2] ويذكر الاخباريون عن عمرو والد خزاعة انه اول من بحر البحيرة وسيب السايبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي .[3] وانها سميت بخزاعة لأنها تخزعت عن بقية قومها وهم الأزد ، اي تخلفت عنهم فلم تذهب معهم ، ثم أقامت بمكة .[4]

ويروي الاخباريون بيتاً ينسبونه الى الشاعر حسّان بن ثابت هو :

ولما هبطنا بطن مر تخزعت خزاعة عنا في حلول كراكر[5]

ويفهم من هذا البيت ان خزاعة انما تخلفت عن الارد بموضع (بطن مرّ) ، وهو موضع من نواحي مكة ، فأقامت به ، ولم تلحق ببقية ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من مأرب يريدون الشام ، وقد نسب (ياقوت الحموي) هذا البيت

---

١ المبرد · نسب عدنان وقحطان (ص ٢٢) ، (وسبب خزاعه بهذا الاسم ، لأنهم لما ساروا مع قومهم من مأرب ، فانتهوا الى مكة ، تخزعوا عنهم ، فأقاموا وسار الآخرون الى الشام · وقال ابن الكلبي : إنما سمّوا خزاعة ، لأنهم ، انخزعوا من قومهم حين أقبلوا من مأرب ، فنزلوا ظهر مكة · وقيل خزاعة من الأزد · مشتق من ذلك لتخلفهم عن قومهم · وسمّوا بذلك لأن الأزد لما خرجت من مكة لتتفرق في البلاد تخلفت عنهم خزاعة وأقامت بها · قال حسان بن ثابت :

فلما هبطنا بطن مرّ تخزعت خزاعة عنّا في حلول كراكر

وهم بنو عمرو بن ربيعة · وهو لحي بن حارثة · فإنه أول من بحر البحائر ، وغير دين ابراهيم ·(، اللسان (٩/٤٢٢) ·

٢ البلدان (٨/٢١) ·

٣ الاشتقاق (ص ٢٧٦) ·

٤ منتخبات (ص ٣٢) ، (وهذه خزاعة · سمّوا بذلك ، لأنهم لما ساروا مع قومهم من مأرب ، فانتهوا الى مكة ، تخزعوا عن قومهم وقاموا بمكة · وسار الآخرون الى الشأم · وقال ابن الكلبي : لأنهم انخزعوا عن قومهم حين أقبلوا من مأرب ، فنزلوا ظهر مكة · وفي الصحاح ، لأن الأزد لما خرجت من مكة ، لتتفرق في البلاد ، تخلفت عنهم خزاعة ، وأقامت بها · قال الشاعر :

فلما هبطنا بطن مر تخزعت خزاعة عنا في حلول كراكر

والبيت لحسان ، كما هو في هوامش الصحاح · وهكذا أنشده له الليث ، والصواب انه لعدي بن أيوب الأنصاري أحد بني عمرو بن سواد بن غنم كما حققه الصاغاني)، تاج العروس (٥/٢١٧) · منتخبات (ص ٣٣) ، الاشتقاق ص ٢٧٢) ، الأزرقي (١/٥٠) ·

٥ البلدان (٢/٢٠ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٢٥٣) ·

مع ابيات اخرى الى عون بن ايوب الانصاري الخزرجي .[١]

ولبعض النسابين والاخباريين رأي في نسب خزاعة : فهم يرون انها من معدّ ، اي من العدنانية ، وانها من نسل خزاعة بن لحي بن قمعة بن الياس بن مضر .[٢] ولكن الاكثرية من النسابين ترى انها من الازد ، اي من قحطان .

وقد اختارت خزاعة بعد اعتزالها الازد الذاهبين الى الشام الاقامة بمكة ، وكانت مكة بأيدي جرهم يومئذ اخذتهـــا في ايام ملكها مضاض بن عمرو من العماليق اصحابها قبل جرهم ، وساعده في ذلك (السميدع) ملك قطورا ، وبقيت جرهم فيها الى ان أجلتهم خزاعـــة عنها اجلاهم رئيسها يومئذ ، وهو ثعلبة بن عمرو مزيقياء بعد حرب ، فانتقل الحكم الى الخزاعيين . وتولاها رجال منهم تلقبوا كسابقيهم بألقاب الملوك .

وانفرد زعيم خزاعـــة لحيّ بالحكم ، وتزوّجَ فهيرة بنت عامر بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي ملك جرهم ، فولدت له َعمْراً ، وهو عمرو بن لحيّ على نحو ما ذكرت . ثم انتقل الحكم من بعده الى اولاده ، فكان مجموع ما حكموا خمس مئة عام ، وآخرهم حليل بن حبشية في ايام قصيّ .[٣]

وللأخباريين روايات في كيفية استيلاء خزاعة على مكة ، وفي الذي استولى عليها من رؤساء خزاعة ، وهم يبالغون كثيراً في الزمن الذي استولت خزاعة فيه على مكة . وربما لا يتجاوز ذلك القرن الخامس للميلاد[٤] . اما تأريخ انتهاء حكمها على مكة وانتقاله الى قريش في أيام قصيّ ، فقد كان في النصف الأول من القرن السادس للميلاد . ولكن انتقال السلطة منها الى قريش لا يعني انها أصيبت بمـــا أصيبت جرهم أو غير جرهم به من ضعف واندثار ، فقد بقيت خزاعة معروفة مشهورة ذات بطون عديدة في الاسلام .

---

١ البلدان (٢/٢١) .
٢ الانباه (ص ٩٢) .
٣ الأزرقي (١/٤٦ وما بعدها) .
٤ Ency., II, P. 984.

فمن جملة خزاعة كعب ومليح وسعد ، ومنهم بنو سلول بن عمرو ، وبنو حليل بن حبشية سادن الكعبة ، وبنو قمير ، وبنو المصطلق الذين غزاهم الرسول [١] ، وبطون اخرى عديدة يذكرها النسّابون [٢] .

وكانت خزاعة محالفة للرسول في نزاعه مع قريش . ولما وقعت حرب بينهما وبين بني بكر ، وأعان مشركو قريش حلفاءهم بني بكر ، ونقضوا بذلك العهد ، نصر الرسول خزاعة ، وأعلن الحرب على قريش ، فكان ذلك سبب فتح مكة [٣] .

ويعد آل الجُلَنْدي ، وهم ملوك عُمان ، من الأزد كذلك . والجُلندي لقب لكل من ملك منهم عُمان . وآخر من ملك منهم جيفرٌ وعبد ابنا الجلندي ، أسلما مع أهل عمان على يد عمرو بن العاص [٤] ، وقد كان (الجُلندي بن المستكبر) يعشر من يقصد سوق (صحار) ، ومن يقصد ميناء (دبا) من التجار القادمين من مختلف أنحاء الجزيرة أو من الهند والصين وافريقية . ويفعل في ذلك فعل الملوك [٥] . ويرجع نسب (المستكبر) الى (بني نصر بن زهران بن كعب) . وهو في عرف النسّابين (المستكبر بن مسعود بن الجرار بن عبد الله ابن مغولة بن شمس بن عمرو بن غنم بن غالب بن عثمان بن نصر بن زهران) . أما جيفر ، فهو ابن الجُلندي بن كركر بن المستكبر وكان أخوه عبد الله ، ملك عمان .

وقد جعل بعض علماء الأنساب الأزد ستاً وعشرين قبيلة يجمعها جميعها الأزد ،

١ خلاصة الكلام (ص ٥٢) .

٢ المبرد : نسب عدنان وقحطان (ص ٢٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٧٦ وما بعدها) .

٣ الانباه (ص ٩٥) ، تاريخ أبي الفداء (١٠١/١ وما بعدها) .

٤ خلاصة الكلام (ص ٥٤) . (جيفر بن الجُلندي الأزدي ، ملك عمان ورئيسها ، أسلم هو وأخوه عبدالله على يد سيدنا عمرو بن العاص بن وائل السهمي ، رضي الله عنه ، لما وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهما ، وهما على عمان) ، تاج العروس (١٠٥/٣)، (وجلنداء : بضم أوله وفتح ثانية وممدودة وبضم ثانية مقصورة اسم ملك عمان) ، (قال الأعشى :

وجلنداء في عمان مقيما ثم قيسا في حضرموت المنيف)

تاج العروس (٣٢٣٢) ، لسان العرب (١٠١/٤) .

٥ المحبر (٢٦٥ وما بعدها) .

وهي : جفنة ، وغسّان والأوس والخزرج ، وخزاعة ، ومازن ، وبارق ، وألمع ، والحجر ، والعتيك (العتيق) وراسب ، وغامد ، ووالبة ، وثمالة ، ولهب ، وزَهْران ، ودهمان ، والحُدان، وشكر ، وعَكّ ، ودوس، وفهم ، والجهاضم ، والأشاقر ، والقسامل والفراهيد [1] . وهي أكثر من ذلك ، أو أقل عدداً على حسب مذاهب أهل الأنساب في ضبط أسماء البطون [2] .

ويصنف النسّابون قبائل الأزد جميعها في أربعة أصناف من الأزد ، هي : أزد عمان وأزد السراة وهم الذين أقاموا في سراة اليمن ، وأزد شنوءة أبناء كعب ابن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد ، وهم من سكنة السراة كذلك ، وأزد غسان وهم من شرب من ماء غسان [3] . ويلاحظ ان هذا التصنيف مبني على أسماء مواضع نزلت فيها قبائل الأزد .

ومواطن الأزد القديمة هي مثل مواطن بقية القحطانيين في اليمن ، وقد تركتها على أثر حادث سيل العرم ، فتفرقت مع من تفرق من القحطانيين الى الأماكن المذكورة . وذكر ان أزد السراة حاربت قبيلة خَثعم التي كانت نازلة في السراة ، فتغلبت عليها وانتزعت الارض منها ، وان (أردشير) الاول أسكن الازد في عمان . فبقوا فيها تحت حكم الفرس [4] .

وكان مناة وذو الخلصة من أصنام الأزد الرئيسية التي تعبدت لها ، كما تعبدت لصنم اسمه العائم كان في السراة [5] . ولصنم آخر اسمه باجر ، كان للأزد ولمن جاورهم من طيء [6] .

وأما القبائل المتفرعة من عمرو بن الغوث ، فهي أنمار ، وتنسب الى أنمار بن

١ ابن خلدون (٢٥٣/٢) ، أبو الفداء (١٠٢/١) .

٢ راجع شجرة الأزد في كتاب سبائك الذهب (٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩) ، المبرد : نسب عدنان (ص ٢١ وما بعدها) و Wustenfeld Genea, Tab., 10 ، نهاية الأرب (٢٩٦/٢) .

٣ Ency . I, P. 529. ، صبح الأعشى (٣١٩/١) ، كحالة (١٥/١ وما بعدها) .

٤ Ency., P. 530

٥ في Ency., I, P. 530. ذو الحمة وهو خطأ مطبعي ولا شك : Wellhausen, Reste, S., 45.

٦ القاموس (٣٦٢/١) ، لسان العرب (١٠٣/٥) . صبح الأعشى (٣٢٩/١) .

(أراش)[1] (إراش) (أراشة)[2] ، وأراش هو ابن عمرو ، وقد نسب بعض النسابين أنماراً الى أنمار بن نزار بن معدّ بن عدنان ، فجعلوها من العدنانيين[3] ، ويدلّ ذلك على اختلاط هذه القبيلة بالقبائل التي ترجع نسبها الى مجموعة معدّ .

وولد أنمار أفتل[4] ، وهو خثعم ، وأمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد ابن علكّ ، فهي ذات صلة بعلكّ من ناحية الأم . وولد أنمار أيضاً خزيمة وقد دخلت في الأزد ، ووادعة ، وعبقراً ، والغوث ، وصهيبة ، وأشهل ، وشهلاً ، وطريفاً ، وسنية ، والحارث ، وخذعة . وأمهم كلهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة ، وكانوا كلهم متحالفين على ولد أخيهم خثعم[5] . ولهذا يرجع كثير من النسّابين قبائل أنمار الى أصلين : خثعم وبجيلة[6] .

١ حمهرة (ص ٣٦٥) ، الاشتقاق (ص ٣٠٢) ، (وإراشة بالكسر : أبو قبيلة من بلي وهو إراشة بن عامر بن عبيلة بن شميل بن فران بن عمرو بن بلي • وأريش كبير ، بطن • وقال ابن حبيب : من لخم جدس بن أريش بن إراش بالكسر • وأراش هو ابن الحيان بن الغوث • وقيل . اراش هو ابن عمرو بن الغوث • وهو والد انمار أبو بجيلة من خثعم • وأراشة بطن من خثعم ، واراشة ، أيضا من العماليق ••• وبالضم في أزد وفي قضاعة) ، تاج العروس (٤/٢٨٠) • صبح الأعشى (١/٣٢٩) •

٢ الاكليل (١٠/٥) ، منتخبات (ص ٣١ ، ١٥٠)•

٣ (أنمار بن نزار • مضى الى اليمن ، فتناسل بنوه ، ثم حسبوا من العرب اليمانية •)، تاريخ ابن الوردي (١/٩٢) ، ابن هشام : (ص ٤٩) (طبعة وستنفلد) ، ابن قتيبة : المعارف (ص ٥٠) ، البلخي : كتاب البدء والتاريخ (٤/١٠٧) (تحقيق كليمان هوار) • وسيكون رمزه : البلخي •

٤ (أقبل) جمهرة (أفتل) الاشتقاق (ص ٣٠٤) ، وهو الصحيح • تاج العروس (٣/٣٢١) • الصحاح للجوهري (٢/٢٨٠) ، النووي : تهذيب الأسماء (ص ٢٨٩) ، نهاية الأرب (٢/٣١٠) ، لسان العرب (٨/٢٩٥) ، (١٥/٥٦) تاج العروس (٦/٢١٦) ، لسان العرب (٨/٢٩٥) ، (١٥/٥٦) تاج العروس (٦/٢١٦) ، الفائق للزمخشري (١/٦٦) ، كحالة (١/٢٣١ وما بعدها) • (أقبل) نسب قريش (ص ٧) •

٥ جمهرة (ص ٣٦٥) •

٦ البلخي (٤/١٠٧) ، تاريخ ابن الوردي (١/٩٠) •

وولد خثعم ولداً اسمه حلف أو خلف ، ويعود هـذا الاختلاف الى غلط النسّاخ ، ومـن نسله عفرس ، فولد عفرس ناهساً[1] وشهران[2] وناهبـاً ونهشاً وكوداً وربيعة أبا اكلب[3] . ومن بني (ناهش) ناهس حام بن (ناهس)[4] ناهش[5] ، وهم بطن ، وبنو أجرم وهم بطن أيضاً . ويُسمّون ببني معاويـة كذلك ، وأوس مناة بن ناهس ، وهو الحنيك ، وهـم بطن ، وبنو عُنّة ، وبنو قحافة[6] .

وكانت منازل خثعم في الهضبة الممتدة من الطائف الى نجران عند طريق القوافل الممتدة من اليمن الى الحجاز .

ولا تزال بطون خثعم معروفة حتى الآن . ومنها بطون في تهامة وفي عسير . منها ما هي بادية ، ومنها ما هي مستقرة تتكسب قوتها من الزرع[7] .

وذهب (ليفي ديلافيدا) في (المعلمة الإسلامية) الى ان خثعماً ليست قبيلة في الأصل إنما هي حلف تألف من قبائل متعددة تحالفت بينهـا لمصالح مشتركة

١ (وناهس بن خلف ، بطن من خثعم) ، تاج العروس (٢٦٦/٤) . (عفرس ... أبو حي باليمن . وهو عفرس بن خلف بن أقبل ؟ وهو خثم ؟ بن أنمار) ، تاج العروس (١٩٣/٤) ، العقد الفريد (٢/ ٧٨) ، كحالة (٧٩٤/٢) ، ناهش بن عفرس) ، كحالة (١١٦٩/٣) . (شهران وربيعه وناهش أولاد عفرس بن خلف بن أفتل) نهاية الأرب (٢٩٤/٢) .

٢ جمهرة (ص ٣٦٩) ، (خثعم بن أنمار بن أراشة بن عمرو بن الغوث بن نبت بن زيد بن كهلان بن سبأ الأكبر . ويقال انما سمي خثعم بجمل له اسمه خثعم . فكان يقال ارتحل آل (خثعم) ، منتحبات (ص ٣١) ، الاشتقاق (ص ٣٠٤) وشهران ابن عفرس بن خلف بن أفتل) ، أبو قبيلة من خثعم . وأفتل هو خثعم) . تاج العروس (٣٢١/٣) ، نهاية الأرب (٢٩٣/٢) ، العقد الفريد (٧٨/٢) ، كحالة (٦١٧/٢) .

٣ الاكليل (٥/١٠) .

٤ جمهرة (٣٦٨) .

٥ Ency, II, P. 924

٦ الاشتقاق (ص ٣٠٥) ، (أجرم) القاموس (٨٩/٤) ، تاج العروس (٢٢٦/٨) ، كحالة (٥/١) . (بنو قحافة) ، لسان العرب (١٨٣/١١) ، القاموس ، (١٨٣/٣) ، كحالة (٩٣٩/٣) .

٧ فؤاد حمزة : في بلاد عسير (ص ٦٠) ، (القاهرة ١٩٥١) .

جمعت بينها ، كما يحدث في سائر الأحلاف[١] ، والذي أداه الى هـذا الفهم اختلاط هذه القبيلة في القبائل العدنانية واختلاف النسابين في نسب خثعم وتفسيرهم معنى كلمة خثعم .

وقد ورد ذكر خثعم في روايات الاخباريين عن حملة أبرهة على مكة ، إذْ هم يذكرون انها عزمت على منعه من الوصول الى مكة ، وان نفيل بن حبيب الخثعمي رئيس خثعم إذْ ذاك ، خرج بقبيلي خثعم : شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب ، وقاتله حينما بلغ أرض خثعم ، غير ان أبرهة تغلب عليه ، وأسره ، وأبقاه حيّاً على ان يكون دليله في طريقه الى مكة ، وقد سار معه حتى أبلغه الطائف ، وهناك قام بوظيفة إرشاد الحبش الى مكة أبو رغال الثقفي ، وذلك بأمر من مسعود بن معتب رئيس ثقيف[٢] . ويقول الأخباريون ان العرب صارت ترجم قبر أبي رغال بالمغمس ، وصار سبّة للناس ، ولست أدري لم خص الأخباريون قبر أبي رغال بالرجم ، ولم يشركوا معه قبر مسعود بن معتب ، وهو الذي كلف — على حد قولهم — أبا رغال ان يرشد أبرهة الى مكة .

وقد اشتركت خثعم في المعركة المعروفة عند الأخباريين باسم يوم فيف الريح ، وهو يوم كان لِمَذْحِج على بني عامر بن صعصعة . اشتركت فيه عدة قبائل أخرى مع المتخاصمين[٣] . وقد كانت بطون من مذحج تسكن في جوار خثعم ، وعند ظهور الاسلام كانت خثعم في حلف مع مراد ، وقد اشتركت معها في حربها مع قيس[٤] .

وقد تعبدت خثعم مثل بجيلة ودوس وباهله والأزد للصنم المسمى بذي الخلصة الذي هدم في الاسلام ، هدمه عبد الله بن جرير البجلي[٥] . وكان لها بيت يدعى كعبة اليمامة به الخلصة . تعبدت اليه[٦] .

---

١ Ency., II, P. 924

٢ الطبرى (٢/١١١) ، الاشتقاق (ص ٣٠٦) .

٣ ابن الأثير (١/٢٦٥) ، الأمثال : للميداني (٢/٣٠٨) ، البلدان (٦/١٣) ، الأغاني (٥/٢١) النقائض (ص ٤٦٩) العقد الفريد (٣/٣٥٩) .

٤ Blau, In, ZDMG, 23, (1869), S., 562.

٥ المحبر (ص ٣١٧) ، Ency., II, P. 924.

٦ كحالة (١/٣٣٢) .

أما بجيلة[1] ، فهم بطون عديدة متفرقة ، تفرقت في أحياء العرب منذ يوم حربها مع كلب بن وبرة بالفجار ، وقد أعاد شملها وجمعها جرير بن عبد الله ابن جابر البجلي ، وهو الشليل بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم ، صاحب رسول الله[2] . ومن أشهر بطون بجيلة قسر ، وعلقمة ، وبنو أحمس[3] . وقيس كبة ، وبنو عرينة بن نذير ، وبنو دهن بن معاوية . ومن قسر خالد بن عبد الله القسري[4] .

وأعرف قبائل المجموعة الثانية من قبائل كهلان ، وهي المجموعة التي ترفع

١ منتخبات (ص ٥ وما بعدها) ، (بجيلة : امرأة ، وهي ابنة صعب بن سعد العشيرة ، ولدت لأنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث ، وعمرو بن الغوث ، أخو الأزد بن الغوث) ، الانباه (ص ١٠٠) ، (وبجيلة ، هو عبقر بن أنمار بن أراش ، ولد عبقر ، والغوث وصهيبة ، أمهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة ، فنسبوا اليها ، وعرفوا بها) ، الانباه (ص ١٠١) ، البلخي (١١٨/٤) ، الاشتقاق (ص ٣٠٢) ، البكري (٦٣/١) ، وبجيلة كسفينة ، حي باليمن من معد والنسبة اليه بجلي ، محركة ، قال ابن الكلبي في جمهرة نسب بجيلة : ولد عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان اراشا ، فولد أراش أنمارا ، فولد أنمار أفتل وهو خثعم ، وأمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد بن عك ، وعبقرا ، والغوث ، وصهيبة ، وخزيمة ، دخل في الأزد ، وودادعة بطن مع بني عمرو بن يشكر ، وأشهل وشهلا ، وطريفا ، وسنية رجل والحارث وخدعة ، وأمهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة ، بها يعرفون ، قلت وقد اختلف أئمة النسب في بجيلة ، فمنهم من جعلها من اليمن ، وهو قول ابن الكلبي الذي تقدم وهو الأكثر ، وقيل هم من نزار بن معد ، قال مصعب بن الزبير ، كان المصعب جمع بين القولين ، وفيه نظر لا يخفى) ، تاج العروس (٢٢٢/٧) ، كحالة (٦٣/١) .

٢ جمهرة (ص ٣٦٥ وما بعدها) ، ابن الوردي (٩٠/١) .

٣ الاشتقاق (ص ٣٠٥) ، المبرد ، نسب عدنان (ص ٢٣) .

٤ المبرد : نسب عدنان وقحطان (ص ٢٣) ، وفي بجيلة ، أحمس بن الغوث بن أنمار ، وقيس كبة بن الغوث بن أنمار بن أراش ، بطون ، وفي بجيلة بطون غير هؤلاء ، ومن بطون بجيلة : دهن بن معاوية بن أسلم بن أحمس بن الغوث بن أنمار ... وقد مضى دهن في عبد القيس ، ومن بطون بجيلة : قسر بن عبقر بطن ، وهو رهط خالد بن عبد الله القسري ، وعرينة بن نذير بطن ، ومنهم النضر) ، الانباه (ص ١٠٢) ، البلخي (١١٨/٤) ، (وبنو دهن بالضم ، حي من بجيلة ، وهم بنو دهن بن معاوية بن أسلم بن أحمس بن الغوث) ، تاج العروس (٢٠٥/٩) لسان العرب (٢٠/١٧) ، القاموس (٢٢٤/٤) .

نسبها الى الخيار بن زيد بن كهلان ، هي قبيلة همدان . وهي من القبائل المعروفة في الجاهلية والإسلام ، وكان لها شأن خطير في كلا العهدين .

وقد تحدثت في الجزء الثاني من كتاب : تأريخ العرب قبل الإسلام عن همدان استناداً الى كتابات المسند ، وأشرت الى صنمها وهو (تألب ريام) والى نفر من ملوكها ، والى منازل في الأرض التي عرفت ببلد همدان[١] . أما الأخباريون وأهل الأنساب ، فيروون ان هذه القبيلة من نسل جد أعلى هو (همدان) وكان يسمى (تلاد الملك)[٢] ، وهو في نظرهم والد نوف[٣] (نوفل)[٤] ، وعمرو ، ورقاش زوج عديّ بن الحارث[٥] . ويختلف النسّابون بعض الاختلاف في سرد أسماء آباء همدان[٦] ، وهو اختلاف لا يهمنا نحن كثيراً أو قليلاً بعد ان وقفنا على طبيعة هذه الأنساب .

وأولد نوف بن همدان (حُبران)[٧] (خيوان)[٨] (خيران)[٩] ، ويعود اختلاف هذا الاسم الى الخطأ الذي وقع فيه النُسّاخ ولا شك . وولد حبران (خيوان) ولداً اسمه جُشم ، وهو والد حاشد وبكيل . وهما قبيلا همدان

---

١ (٢/٢١٤ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٣٢٨/١) ، كحالة (١٢٢٥/٣ وما بعدها) .

٢ الاكليل (١٠/١٠) .

٣ الاكليل (١١/١٠) .

٤ (نوفلا) هكذا حققه (ليفي بروفنسال) ، جمهرة (ص ٣٦٩) . وهو خطأ . وصوابه (نوف) نهاية الأرب (٢٠٣/٢) .

٥ الاكليل (١١/١٠) .

٦ طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب (ص ٢٩ وما بعدها) .

٧ (حبران) هكذا في طبعة الاكليل (٢٨/١٠) ، وفي منتخبات (ص ٢٧) .

٨ (خيوان) هكذا في طبعة جمهرة ابن حزم (ص ٣٦٩) ، (تحقيق ليفي بروفنسال) . (خيوان) ، سبائك الذهب (ص ٧٨) .

٩ (خيران) هكذا في الاشتقاق (ص ٢٥٠) . (خيران : هكذا ذكره ابن الجواني النسابة . ولد نوف بن همدان . وقال شيخ الشرف النسابة : هو خيوان بالواو ، فصحف) ، تاج العروس (١٩٥/٣) ، (وخيران ... والد نوف بن همدان) القاموس (٢٥/٣) .

العظيمان ، والحارث وقد غبر في قيس ، وزيد وقد دخل في حاشد [1] .

وأولد حاشد جشماً ، وعوصاً وقد دخل في كلب . وولد جشم بن حاشد مالكاً ومعد يكرب وعمراً وأسعد وعريباً وزيداً ومرثداً وضماماً ويريم الأكبر وعامراً وربيعة . وأولد يريم بن جشم حاشد الوحش ، وهم بطن بالوحش من أرض الكلاع بين السحول وزبيد ، وعمراً . وأولد عمرو زيداً وهو والد تباع جد التباعين ، وتقع منازلهم بالسحول من بلد الكلاع بعلفان ووادي النهى [2] .

والى حاشد [3] تنسب مرثد ، وهو مرثد بن جشم بن حاشد في عرف النسّابين . وقد سبق ان أشرتُ الى مرثد ، وهو والد ولد اسمه ربيعة ، وهو ناعط ، وهو بطن ، وولد آخر اسمه الحارث وهم اسم بطن كذلك . وأولد ناعط مرثداً وشراحيل وعامراً وشرحبيل ، فولد شرحبيل أفلح ، وأولد أفلح عُمَيْراً ذا مرّان وكان معاصراً للنبي [4] .

ومن هَمَدان بطون عديدة كان لها صيت في الجاهلية وفي الاسلام ، مثل بني عليان ، وبني حجور ، وبني قدم ، وبني فائش ، وبني شاحذ ، وبني جحدن ، وبني ابزن ، وبني شبام . وذي جعران وذي حدّان ، وبني ناعط . وهم في الواقع عدة بطون ، [5] ومنهم آل ذي المشعار . [6]

ومن بطون بكيل [7] بن جشم بن حيران آل ذي لعوة ، وبنو جذلان وثعلان ،

١ الاكليل (٢٨/١٠) ، (حاشد وبكيل قبيلا همدان بن جشم بن حيران بن نوف بن همدان مالك زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ) الهمداني : مشتبه . (ص ٤٥) .

٢ الاكليل (٢٩/١٠) ، سبائك الذهب (٧٨) ، وفي فائمة الاسماء أوهام واخطاء .

٣ (حاشد) الصفة (١١١) ، تاج العروس (٣٣٦/٢ ، ٥٤٧) ، كحالة (٢٣٥/١) .

٤ الاكليل (٣٠/١٠) .

٥ الاشتقاق (ص ٢٥٠ وما بعدها) ، الاكليل (٩٦/١٠ وما بعدها) .

٦ الاكليل (٣٦/١٠) .

٧ (بكيل) البلدان (٧٠٧/١) ، الاشتقاق (٢٥٠) ، تاج العروس (٢٣٢/٢ ، ٥٤٧) ، الصفة (١١٠ وما بعدها) ، القاموس (٣٣٦/٣) ، لسان العرب (٦٧/١٣) ، نهاية الأرب (٣٠٣/٢) .

وبنو دومان، ومنهم النشقيون، وبنو صعب بن دومان، وبنو مرهبة من الصعب، وبنو أرحب من الصعب كذلك، وبطون اخرى ذكرها الهمداني في الجزء العاشر من الاكليل.[1] وهو الجزء الخاص بقبائل همدان.

ويظهر من روايات الاخباريين أن الهمدانيين كانوا يتعبدون للصنمين : يغوث ويعوق عند ظهور الاسلام.[2] ومعنى ذلك ان تطوراً خطيراً كان قد طرأ على عبادة هذه القبيلة، فابتعدت عن صنمها الخاص بها وحاميها الذي كانت تلجأ اليه في الملمات، وهو (تألب) الذي كان معبده بمدينة (ريام)، ونسيته وتعبدت للصنمين المذكورين اللذين لم يرد اسمها في كتابات المسند، وهما من الاصنام التي استوردت الى الحجاز ونجد على ما يظن من الشمال.

وقد وقع بين مراد وهمدان والحارث بن كعب يوم عرف بيوم رزم (يوم الرزم)، وهو موضع في بلاد مراد،[3] وقد اخذ فيه الصنم يغوث.[4]

اما قبائل مجموعة عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، فاشهرها الأشعر، وطيء، ومذحج، وبنو مرّة.

اما الاشعر، فولد نبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، وهم الأشعريون والأشعرون والأشاعرة، وتقع منازلهم في ناحية الشمال من زبيد.[5]

---

١ (ص ١٠٨ وما بعدها)، الاشتقاق (ص ٢٥٦ وما بعدها)، سبائك الذهب (ص ٧٨ ومابعدها).

٢ Ency., II, P. 246 (وكان يعوق لهمدان، وخولان، وكان في أرحب، المحبر (ص ٣١٦).

٣ البلدان (٢٤٧/٤).

٤ Blau, in, ZDMG, 23, S, 562.

٥ جمهرة (ص ٣٧٤)، ابن خلدون (٢ / ٢٥٤)، (الأشعرون. اختلف فيهم. فمنهم من يقول انهم من ولد الأشعر بن سبا ... ومنهم من يقول انهم من ولد الأشعر بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان بن سبا. واسم الأشعر : (نبت بن أدد)، الانباه (ص ١١٥)، طرفة الأصحاب (ص ١٠)، البكري (٥٣/١)، الصفة (١١٩،٥٣)، الصحاح (٣٤١/١)، تاج العروس (٣٠٢/٣)، لسان العرب (٨٤/٦)، صبح الأعشى (٣٣٥/١).

ومن بطون الأشعر : الجماهر ، وجدّة والأنغم (الانعم) (الاتعم) ، والأرغم ، ووائل ، وكاهل . ومن بطونهم : غاسل ، وناجية ، والحنيك ، والركب [1] .

وأما طيء ، فانهـا من ولد جلهمة بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد كهلان ، ويذكر الاخباريون انها كانت باليمن ، ثم خرجت على اثر الازد الى الحجاز ، ونزلوا سميراً وفيداً في جوار بني اسد ، ثم استولوا على اجأ وسلمى وهما جبلان من بلاد اسد ، فأقاموا في الجبلين حتى عرفا بجبلي طيء [2] .

وتفرقت طيء الى بطون عديدة ، يرجـع اصولها النسابون كعادتهم الى آباء وأجداد ، ومن هؤلاء جديلة ، وتيم الله (بنو تيم) وحيش والأسعد ، وقد جلا هؤلاء عن الجبلين . وبحتر بن عتـود ، وبنو نبهان ، وبنو هنيء ، وبنو ثعل والثعالب . وهم بنو ثعلبة بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء ، وهم في طيء نظير الربائع في بني تميم . ومن بني ثعلبة بن جدعاء تيم بن ثعلبة ، وعليهم نزل امرؤ القيس بن حجر ، وعمرو بن ثعلة بن غياث ، وكان على مقدمة عمرو بن هند يوم اوارة [3] ، وبنو لأم بن ثعلبة [4] .

ويذكر الاخباريون ان طيئاً بعد ان بلغت جبلي اجأ وسلمى ، شاهدت هناك شيخاً كان مع ابنته يمتلكان جبلي اجأ وسلمى ، وقد ذكرا لطيء انهما من بقايا

١ طرفة الأصحاب (ص ١٠) ، الجمهرة (ص٣٧٤ وما بعدها) ، Wustenfeld, Genea. Taf., 8. الاشتقاق (٢٤٨) ، كحالة (١/٣١) .

٢ ابن خلدون (٢/٢٥٤) ، (وعاش طيء بن أدد ... خمسمائة سنة . وذكر هشام أنه سمع أشياخا من طيء ، يذكرون ذلك ، وانه حمل من جبله باليمن . وكان يقال له طريب الى جبلي طيء . وأقام بهما حينا . وقتل العادي الذي كان بالجبلـين) ، كتاب المعمرين من العرب (ص ٦٤) . أبو الفداء (١/١٠٢) ، القاموس (١/٦٥ ، ٤/٦٤ ، ٢٢٩ ، ٣٤٨) ، لسان العرب (١/١٥ ، ١٦٠) ، صبح الاعشى (١/٣٢٠)، الاشتقاق (٢٢٧ وما بعدها) ، ابن صاعد (٤٣) ، تاج العروس (١/٩٢ ، ٢/٥ ، ٣٦٢ ، ٦/١٩٧ ، ٢٨٧ ، ٧/١٥٠) ، الاغاني (١٠/٤٧ ، ١٨/١٩٣ ، ١٩/١٢٨)، الميداني الامثال (١/١٩٤) النويري ، تهذيب الاسماء واللغات قسم أول (٢/٢٨٩)، كحالة (٢/٦٩١) .

٣ جمهرة (ص ٣٧٥ وما بعدها) . الاشتقاق (ص ١١٦) ، (وبحتر من طيء) ، الهمداني : مشتبه (ص ٤٧) ، طرفة الأصحاب (ص ١٠) .

٤ ابن خلدون (٢/٢٥٤) .

صحار ، وذكروا ان لغة طيء هي لغة هذا الشيخ الصحاري .[1] وقد اوجد الاخباريون هذه القصة تفسيراً لبعض المميزات اللغوية التي امتازت بها لهجة طيء. وصحار اسم موضع واسم بطن من قضاعة ايضاً. وقد اخذت بطون قضاعة مواطن طيء في الشمال ، واختلطت بعض بطون طيء بقضاعة. فهل عنى الاخباريون بصحار هذا البطن من قضاعة ، ولا سيما اذا تذكرنا ان علماء اللغة يذكرون وجود التلتلة في لغة طيء ، وقد نسبوا التلتلة الى قضاعة كذلك ؟ ولا يستبعد ان يكون لأسطورة الاخباريين عن الشيخ الصحاري ، شيء من الواقع ، كأن يشير ذلك الى صلة صحار بطيء .

ويذكر الاخباريون ان الرئاسة في الجاهلية على طيء كانت لبني هنيء بن عمرو ابن الغوث بن طيء ، وهم رمليون واخوتهم جبليون ، ويعنون بذلك انها كانت تنزل البوادي ، لا جبلي طيء . ومن ولده اياس بن قبيصة بن ابي غفر بن النعمان بن حيّة بن سعنة بن الحارث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سفر بن هنيء بن عمرو بن الغوث بن طيء[2] الذي ولي ملك الحيرة بأمر كسرى — كما سبق ان اشرت الى ذلك في الفصل الخاص بتأريخ الحيرة — وكان له شأن يذكر عند الفرس .

وكان لطيء جد هذه القبيلة من الولد : فطرة ، والغوث والحارث . فأما ولد الحارث فدخلوا في مهرة بن حيدان . وأما ولد فطرة[3] ، فمنهم : جديلة ، وولد خارجة بن سعد بن فطرة ، وتيم الله ، وحيش ، والأسعد . ومن نسل هؤلاء تفرعت سائر بطون طيء[4] .

ومن بني الغوث بن طيء بنو ثعل[5] ، ومنهم سلامان وجرول[6] . ومن بني

١ البلدان (١/١١٧) .
٢ الجمهرة (٣٧٧) .
٣ نهاية الارب (٢/٢٩٨) ، كحالة (٣/٩٢٣) .
٤ الجمهرة (ص ٣٧٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٢٨ وما بعدها) ، الانباه (ص ١١٦) .
٥ (بنو ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء) ، نهاية الارب (٢/٢٩٩) ، الاشتقاق (٢٣١) . لسان العرب (١٣/٨٩) ، كحالة (١/١٤٢) .
٦ (سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء) ، الاشتقاق (٢٣١) ، صبح الاعشى (١/٣٢١) ، كحالة (١/١٨٤) (٢/٥٣١) .

سلامان بحتر ، ومعن ، وهما بطنان ضخمان ، وجرول بن ثعل . ومن بني جرول ابن ثعل ربيعة بن جرول . وهم بطن ضخم ، ولوذان بن جرول بن ثعل . ومن بني ربيعة بن جرول اخزم والنجد . والأخزم بطون عديدة ، ومنها عدي بن اخزم ، ومن رجالها حاتم الطائي المعروف بجوده [1] . وعمرو بن الشيخ وكان أرمى الناس في زمانه [2] .

وفي استطاعتنا ان نقول عن طيء ، وان كنا لا نعرف شيئاً يذكر من تاريخها في الجاهلية ، انها كانت ذات مكانة خطيرة في تلك الايام ، بدليل اطلاق اسمها عند بعض الكتبة الكلاسيكيين وعند الفرس والسريان وعند يهود بابل ، على جميع العرب كما اشرت الى ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب . ولا يعقل اطلاق اسم هذه القبيلة على جميع العرب لو لم تكن لها منزلة ومكانة في تلك الايام ، ولو لم تكن قوية كثيرة العدد ممعنة في الغزو ومهاجمة الحدود ، حتى صار في روع السريان انها اقوى العرب ، فأطلقوا اسمها عليهم . وبدليل اختيار الفرس لإياس بن قبيصة ، وهو من طيء لتولي الحكم في الحيرة مرتين ، ولا بد ان يكون لمركز قبيلته سند قوي اسنده في الحكم . وليس بمستبعد ان تكون قبائل قضاعة قد حلت محل طيء في الشمال مما اضطر الاخيرة الى التزحزح من أماكنها والدخول في غيرها والاكتفاء بمنطقتها في جنوب النفود . أي في جبلي طيء [3] .

وبالرغم من انتزاع طيء لجزء من أرض بني أسد ، وهم من مضر ، وسكناهم فيها ، فإن بني أسد وكذلك بني ضبة التي كانت قد تحولت عن بني تميم الى طيء ، انضموا الى طيء وساعدوها في الحرب التي وقعت بينها وبين بني يربوع ، وهم من تميم ، تساعدهم بنو سعد . وانتهت بهزيمة بني يربوع في

١ الجمهرة (ص ٣٧٨) .
٢ أبو الفداء (١٠٢/١) .
٣ ARABIN, ANCIENT WEST — Arabian, P 193

موضع « رجلة التيس » [١] . ولكن ذلك لا يعني ان العلاقات بين بطون طيء وأسد كانت حسنة دوماً ، وثيقة لم يعكر صفوها ما يقع عادة بين القبائل من حروب . فقد وقعت بين القبيلتين حروب كذلك . منها : الحرب التي وقعت بالخص في العراق على مقربة من قادسية الكوفة . وقد انتهت هذه الحرب كما تنتهي الحروب الأخرى بتصفية حسابها بدفع الديات وبعقد صلح [٢] .

وقد وقعت بين عبس وطيء جملة غزوات . قضت احداها على حياة (عنترة ابن شداد) ، البطل الأسود الشهير [٣] . أغار عنترة مع قومه على بني نبهان من طيء ، وهو شيخ كبير ، قد عبثت به يد الدهر ، فجعل يرتجز ، وهو يطرد طريدة لطيء . فانهزمت عبس . وأصيب عنترة بجرح قضى عليه [٤] . وهناك رواية أخرى في مقتل بطل عبس [٥] .

وفي رواية للاخباريين ان ابن هند ملك الحيرة أغار على إبل لطيء ، فحرض زرارة بن عدس ، عمرو بن هند على طيء ، وقال له انهم يتوعّدونك ، فغزاهم فوقعت بسبب ذلك جملة حوادث تسلسلت الى يوم أوارة . وكان عمرو ابن هند كما يقول الأخباريون قد عاقد الحيّ الذي غزاه على ان لا ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا ، فلما غزا عمرو بن هند اليمامة ، ورجع ، مرّ بطيء ، انتهز زرارة بن عدس — وكان كارهاً لطيء مبغضاً لها — هذه الفرصة ، وأخذ يحرضه على غزوها ، ويشجعه عليه . وما زال به على ذلك ، حتى غزاها ، بعد ان بلغه هجاء الشعراء الطائيين له ، لاصابته بعض النسوة من طيء . فتمكن منها وأخذ جملة أسرى ، من بطن (أخزم) ، وهم رهط حاتم الطائي [٦] .

وكانت صلة هذه القبيلة بالفرس حسنة ، ولما أراد الملك النعمان الالتجاء اليهم والدخول فيهم ليمنعوه من الفرس ، لمصاهرته لهم ، وأخذه زوجتين هما فرعة

١ Ency, IV, P. 623. (رجلة التيس) ، البلدان (٢٢٨/٤) ، البكري (٦٤٠/٢) (تحقيق السقا) .
٢ الاغاني (١٦٣/١٨) ، (الخص : قرية قرب القادسية) ، البلدان (٤٤٤/٣) .
٣ الاغاني (٢٣٩/٨ ، ٢٣٥) (طبعة دار الكتب المصرية) .
٤ الاغاني (٣٤٥/٨) (طبعة دار الكتب) ، (١٤٥/٧) (طبعة الساسي) .
٥ المصدر نفسه .
٦ الاغاني (١٢٧/١٩ وما بعدها) .

بنت سعد بن حارثة بن لام وزينب بنت أوس بن حارثة بن لام منهم ، لم تقبل طيء جواره ولا مساعدته ، وقالت له : (لولا صهرك قاتلناك ، فإنه لا حاجة لنا في معاداة كسرى) [1] . وقد جعل كسرى إياس بن قبيصة على الرجال من الفرس والعرب في حرب بكر بن وائل في معركة ذي قار .

ويظهر من روايات الأخباريين ان رؤساء طيء كانوا يحكمونها ، وكانوا يلقبون بملك . فقد ذكروا ان عدي بن حاتم الطائي كان رئيس طيء في أيام الرسول ، وكان مالكاً عليهم يأخذ منها المرباع . فلما جاءت خيل الرسول اليه بقيادة علي بن أبي طالب ، فرّ الى الشأم ، ثم ترك الشأم ، وذهب الى الرسول فأسلم [2] .

أما صنم طيء ، فكان (الفلس) ، وكان بنجد ، قريباً من فيد . وسدنته من بني بولان [3] . هدمه علي بن أبي طالب بأمر النبي ، وكانت طيء قد قلدت الصنم سيفين يقال لأحدهما مخذم وللآخر رسوب ، أهداهما اليه الحارث بن أبي شمر ، فأخذهما عليّ بن أبي طالب . وتعبدت طيء لصنم آخر هو (رضى) [4] . كما تعبدت لصنم ثالث هو سهيل [5] .

ومذحج من القبائل اليمانية الكبيرة ، وقد تفرعت منها قبائل كبيرة كذلك . وتنتسب الى جدّ أعلى لها ، هو مذحج . وهو مالك بن أدد بن زيد بن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان ، وأبو عدة أولاد ، هم : جلد بن مذحج ، ويحابر . وهو مراد : وزيد . وهو عنس ، وسعد العشيرة [6] ، ولهيس بن مذحج .

١ الطبري (٢/١٥١ وما بعدها) .

٢ (ذكر غزوة طيء واسلام عدي بن حاتم) ، ابن الاثير (٢/١١٩) .

٣ المحبر (ص ٣١٦) .

٤ Ency., IV, P. 624

٥ كحالة (٢/٦٩١) .

٦ الجمهرة (ص ٣٨١) ، ابن خلدون (٢/٢٥٥) . الاشتقاق (ص ٢٣٧ وما بعدها) Wustenfeld, Genea., Taf., 7, 8. ، (فولد يحابر مذحج . وولد مذحج مرادا ، وجلدا ، وعنسا ، وسعد العشيرة . وانما سمي سعد العشيرة ، لانه شهد الموسم ، ومعه بنون عشرة ، فقيل له من هؤلاء ؟ فقال : هم العشيرة . وولد سعد العشيرة جعفي بن سعد ، وحبيب بن سعد ، وصعب بن سعد ، وعائذ الله بن سعد) ، البلخي (٤/١١٩ وما بعدها) ، (واما مذحج ، فكل من انتسب الى مالك بن أدد=

وأمهم كلهم سلمى بنت منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر [1]. ومن بني عَنْس بن مذحج : عمّـار بن ياسر الصحابي المعروف ، والأسود العنسي المتنبي [2].

ولمذحج مثل القبائل الأخرى أيام . منها يوم فيف الريح [3] ويوم السلان . وهو لربيعة على مذحج [4]. وسأتحدث عن أيام مذحج في الفصل الخاص بأيام العرب قبل الإسلام .

ويشير هذا النسب الذي يذكره النسّابون الى وجود صلات قديمة وثيقة بين مراد وخثعم ، وبين مجموعة القبائل المعروفة بمذحج . وهم أبناء اخوة على رأي النسابين [5].

ويذكر الأخباريون ان مواطن مراد القديمة هي في الجوف ، في منطقة رملية جرداء . ويظهر انها كانت متبدية وكان معبودها الصنم يغوث [6] ، الصنم الذي تعبدت له مذحج كذلك [7]. روي ان الصنم يغوث ، كان لمذحج كلها . وكان في

= ابن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، فهو مذحجي ومن لم ينسب الى مالك بن أدد ، فليس بمذحجي . ومالك بن أدد ، هو جماع مذحج . وقال ابن اسحاق : مذحج بن يحابر بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . ولم يتابع ابن اسحاق في ذلك) ، الانباه (ص ١١٦) ، ابن الوردي (١/ ٩٠) ، أبو الفداء (١٠٢/١) ، القاموس (١٧١/١) ، لسان العرب (٤٨٠/٢) ، (١٠٣/٣) ، الروض الانف (١٣٩/١) ، البكري (٢٩٨/١) ، كحالة (١٠٦٢/٣ وما بعدها) .

١ الجمهرة (ص ٣٨١) .

٢ الاغاني (١٣٥/١٨) ، ابن الوردي (١/ ٩٠) ، (عنس ابن مالك وهو مذحج) ، الاشتقاق (٢٤٧) ، نهاية الارب (٣٠١/٢) صبح الاعشى (٣٢٧/١) ، الصفة (٥٤ ، ١٠٤) ، كحالة (٨٤٧/٢ وما بعدها) .

٣ نهاية الارب (٤١٤/١٥) ، العقد الفريد (٨٠/٢) ، الامالي للقالي (١٤٧/٣) ، البكري (١٠٣٨/٣) (طبعة السقا) .

٤ بين معد ومذحج وكلب يومئذ معدون . وشهدها زهير بن جناب الكلبي .. فقال

شهدت الموقدين على خزاز ... وفي السلان جمعا ذا زهاء

البلدان (١٠٤/٥) .

٥ Wustenfeld, Genea., I.

٦ Ency., III, P. 726

٧ الاصنام (١٠) .

أنعم ، فقاتلتهم عليه غطيف من مراد ، حتى هربوا به الى نجران ، فأقروه عند بني النار من الضباب ، من بني كعب ، واجتمعوا عليه جميعاً [1] .

ويذكر الأخباريون ان المنذر بن ماء السماء حينما بغى على أخيه عمرو ، هرب عمرو الى مراد ، فاحتفلت به ، وعينته رئيساً عليها . غير انه اشتدّ عليها حينما تمكن وقويَ أمره ، فغدرت به وقتلته . لذلك غزاهـا عمرو بن هند ، وقتل قتلة عمرو [2] .

وكانت بين مراد وهمدان حرب ، وقعت في عهد لم يكن بعيداً عن الاسلام . عرفت بيوم الرزم ، انتصرت فيهـا همدان على مراد . وكان رئيس مراد أيام الرسول فروة بن مسيك المرادي . وقد استعمله الرسول على صدقات مراد وزبيد ومذحج ، فاستاءت زبيد ومذحج من ذلك . وارتد عمرو بن معـديكرب في مرتدين من زبيد ومذحج . فاستجاش فروة النبيّ ، فوجه اليهـم جيشاً ، هزم المرتدين [3] .

وقبيل الإسلام كان هبيرة بن المكشوح بن عبد يغوث رئيساً بارزاً على مراد ، وقـد عدّه الأخباريون من (الجرارين) في اليمن ، ويقصد بالجرار من ترأس ألفاً في الجاهلية [4] . وقد كان ابنه قيس من رؤساء مراد البارزين عنـد ظهور الاسلام [5] . وهو الذي قتل الأسود العنسي [6] . وكان هناك رئيس آخر على مراد عند ظهور الاسلام هو فروة بن مسيك المتقدم ذكره ، كان كذلك من الجرارين [7] .

وأشهر أولاد يحابر ، وهو مراد ، ناجية وزاهر [8] . ومن ولد ناجية مفرج ، وكنانة ، وعبد الله ، ومالك ، ويشكر ، وردمان . وقـد انتسب ردمان الى

١ المحبر (ص ٣١٧) .
٢ Ency., III, P. 726
٣ البكري (٦٤٩/٢ وما بعدها) ، الاغاني (٢٥/١٥ وما بعدها) .
٤ المحبر (ص ٢٥٢) .
٥ Ency., III, P. 726
٦ الاشتقاق (ص ٢٤٧) .
٧ المحبر (ص ٢٥٢) .
٨ (ويحابر بن مالك ، وهو مراد ، وانما سمي مرادا ، لانه أول من تمرد باليمن) ، الاشتقاق (ص ٢٣٨ ، ٢٣٦) نهاية الارب (٢٨٥/٢) .

حمير . ومن ولد عبد الله غَطيف[1] ، وهم بطن[1] . ومن نسل ردمان[2] قرين ونابية ، وهما بطنان . ومن بني زاهر قيس بن المكشوح ، وبنو الحصين والربض والصنابح وهما بطنان[3] .

وأولاد سعد العشيرة كثيرون ، تفرعت منهم قبائل وبطون ، ويذكر الأخباريون ان سعد العشيرة كان رجلاً كثير الأولاد حتى انه كان اذا ركب ركب معه ثلاث مئة فارس من صلبه . والظاهر انها كانت من القبائل الكبيرة ، وأظن انها كانت تحتمي بصنم هو (سعد العشيرة) ، ثم نسبته فتصور أبناؤها انه إنسان ، وانهم من صلبه منحدرون ، وليس هذا بأمر غريب ، وقد ذكرت أمثلة من هذا القبيل ، ومنه (تالب) صنم همدان المذكور في المسند ، الذي صيره النسابون جداً من أجداد همدان .

ومن أولاد سعد العشيرة : الحكم[4] ، والصعب[5] ، وتمرة ، وجعفي ، وعائذ الله ، وأوهن الله ، وزيد الله ، وأنس الله ، والحر . ومن البطون المتفرعة من هؤلاء الدئل ، وهم من نسل الحكم ، وقد دخلوا في تغلب[6] . وأسلم . ومن جعفي مرّان وحريم[7] . أما بنو صعب فأشهرهم أود ومنبه[8] ، ويسمى أيضاً بزبيد . ومن نسل زبيد مازن ، وهم بطن[9] . ومن قبيلة أود الأفوه الأودي الشاعر المعروف[10] .

١ (عطيف بن عبدالله بن ناجيه بن مراد) ، تاج العروس (٦/٢١٣) ، القاموس (٣/١٨١) ، كحالة (٣/٨٨٩) .
٢ (ردمان بن ناجيه) ، الاشتقاق (ص ٢٤٧) ، تاج العروس (٨/٣١٠) .
٣ الجمهرة (ص ٣٨٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٨/٢٥٥) ، نهاية الارب (٢/٣٠١) لسان العرب (١٥/٣٤) ، كحالة (١/٢٨٧) .
٥ (الصعب بن سعد العشيرة بن مالك) ، نهاية الارب (٢/٣٠١) ، كحالة (٣/٦٤١) .
٦ الجمهرة (ص ٣٨٣) .
٧ (جعفي بن سعد العشيرة) ، الاشتقاق (ص ٢٤٢) ، نهاية الارب (٢/٣٠١) ابو الفداء (١/١٠٨) ، لسان العرب (١٠/٣٧١) .
٨ البكري (١/٥٧) ، تاج العروس (٢/٢٩٧) ، لسان العرب (٤/٤١) ، أبو الفداء (١/١٠٨) ، كحالة (١/٤١) .
٩ الجمهرة (ص ٣٨٥) ، الاشتقاق (ص ٢٤٥) ، نهاية الارب (٢/٢٨٥) .
١٠ ابن الوردي (١/٩٠) ، الاغاني (١١/٤٤ وما بعدها) ، الجمهرة (ص ٣٨٦) .

وأبين بطون جلد بن مالك بن أدد ، أي جلد بن مذحج، بنو عُلة بن جلد . ومن أولاد عُلة : عمرو ، وعامر ، وحرب تفرعت جملة قبائل أظهرها : النخع بن عمرو بن علة . وبنو الحارث بن كعب بن عمرو بن علة . ورهاء وهو ضبة بن الحارث بن عُلة [1] ، وصداء وهم من نسل يزيد بن حرب ابن علة [2] .

وقد تحالفت منبّه والحارث والعلاء (العلى) وسيحان (سيحان) (سنجان) وهفان وشمران ، وهم ولد يزيد بن حرب بن علة بن جلد على بني أخيهم صداء ابن يزيد بن حرب ، فسُمّوا جَنْباً ، لأنهم جانبوا عمهم صداء ، وحالفوا بني عمهم بني سعد العشيرة . ومن جنب ، معاوية الخير الجنبي ، صاحب لواء مذحج في حرب بني وائل ، وكان مع تغلب [3] .

أما صداء ، فحالفت بني الحارث بن كعب . ومن بني منبّه ، كان معاوية ابن عمرو بن معاوية بن الحارث بن منبّه بن يزيد الذي تزوّج بنت مهلهل بن ربيعة التغلبي [4] .

وتنتسب قبيلة النخع الى النخع وهو جسر بن عمرو [5] بن علة بن جلد بن

---

١ (رهاء بن منبه بن حرب بن علة بن جلد بن مالك) ، تاج العروس (١٠/١٦١) ، لسان العرب (١٩/٦٣) ، الاشتقاق (ص ٢٤٢) ، نهاية الارب (٢/٢٨٦) ، كحالة (٢/٤٤٨) .

٢ الانباه (ص ١١٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٣٧ ، ٢٤٢) .

٣ خلاصة الكلام (ص ٥٥) ، ابن الوردي (١/٩٠) ، الاشتقاق (ص ١٣٠) ، صبح الاعشى (١/٣٢٦) ، كحالة (١/٢١٠) ، تاج العروس (١/١٩٢) ، أبو الفداء (١/١٠٨) .

٤ الجمهرة (ص ٣٨٨) ، الاشتقاق (ص ٢٤٢) ، تاج العروس (١/٨٨) ، القاموس (١/٢٠) نهاية الارب (٢/٢٨٦) .

٥ (ولد عمرو بن علة كعبا ، وعامرا ، وجسرا وهو النخع) ، الجمهرة (ص ٣٨٩) . وبعد اسطر من هذا النسب ، وفي باب (وهؤلاء بنو جسر أخيه ، وهو النخع بن عامر) جاءت هذه الاسطر (ولد النخع بن عامر بن علة .. الخ) ، فصار والد النخع عامر في هذا الباب ، بينما هو (عمرو) . ولم يشر (ليفي بروفنسال) الى هذا التناقض الناشيء من تحريف النساخ ، وفي تحقيقه هفوات من هذا القبيل . الانباه (ص ١١٦) .

مالك ، وهو مذحج[1] . ومن النخع الأشتر النخعي ، واسمه مالك بن الحارث ، صاحب رسول الله ، ثم علي بن أبي طالب . وللنخع بطون عديدة[2] منها : صُهبان ، ووهبيل . وجسر ، وجذيمة ، وقيس ، وحارثة[3] ، وصلاءة ، ورزام ، والأرت ، ومن الأرت بنو عبد المدان وعبد الحجر بن المدّان[4] .

وولد مرّة بن أدد رُهمًا ، والحارث . ومن رهم كان الأفعى الذي كان يتحاكم اليه بنجران على رواية ابن حزم[5] ، أو من رهم ، من طيء على رواية ابن دريد[6] . أما الهمداني ، فذهب الى انه من رهم بن مرة بن أدد ، أي على نحو ما ذهب ابن حزم اليه[7] .

وبنو مُرّة بن أدد ، اخوة طيء ومذحج والأشعريين ، بطون كثيرة تنتهي كلها الى الحارث بن مُرّة ، مثل خولان ومعافر ولخم وجذام وعاملة وكندة[8] . أما خولان ، فيرجع نسبها الى خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرّة ابن أدد . ويسمي النسابون خَوْلان فكلا (أفكلاً) كذلك[9] . والخوليون هؤلاء هم خولان أدد ، وعرفوا بخولان العالية أيضاً[10] ، وهم غير خولان بن عمرو ابن الحاف (الحافي) بن قضاعة ، أي خولان القُضاعية ، وهي قبيلة يمانية كذلك في نظر من جعل قضاعة من اليمانيين[11] . وأظن ان هناك صلة بين (فكل)

١ منتخبات (ص ١٠٢) ، الاشتقاق (ص ٢٣٧) ، ابن خلدون (٢/٢٥٥) ، نهاية الارب (٢/٣٠٢) ، أبو الفداء (١/١٠٨) ، لسان العرب (١٠/٢٢٦) ، القاموس (٣/٨٧) ، المصباح المنير (٢/١١٤) ، كحالة (٣/١٨٧٦) .
٢ أبو الفداء (١/١٠٣) صبح الاعشى (١/٣٢٧) .
٣ جمهرة (ص ٣٨٩) .
٤ الاشتقاق (ص ٣٣٧) .
٥ جمهرة (ص ٣٩٢) .
٦ الاشتقاق (ص ٢١٨) .
٧ الاكليل (١٠/٢) ، (مرهم) ، نهاية الارب (٢/٢٨٦) ، كحالة (٣/١٠٧٧) .
٨ ابن خلدون (٢/٢٥٦) ، نهاية الارب (٢/٢٨٦ وما بعدها) .
٩ جمهرة (ص٣٩٢) ، الاشتقاق (ص ٢٢٧) ، ابن خلدون (٢/٢٥٦) ، نهاية الارب (٢/٢٨٧) ، تاج العروس (٦/٦٥٢ ، ٧/٣١٢) ، القاموس (٢/٢٣٢) ، لسان العرب (١٣/٢٤٠) ، صبح الاعشى (١/٣٢٥) ، القاموس (٣/٢٧٢) ، كحالة (١/٣٦٥ وما بعدها) .
١٠ الاكليل (١٠/٢،٤٢) .
١١ منتخبات (ص ٣٥) ، الاكليل (١٠/٢٩٣) ، الانباه (ص ١١٥ ، ١٢٠) .

و (أفكل) و (يكلى) أو (ركلى) المذكور عند بعض الأخباريين ، وقد زعم الهمداني انـه شقيق خَولان ، وابن الابن الآخر لعمرو بن مالك . وقـد نشأت هذه الصور للاسم من تحريف النُسّاخ ، ومن التبلبل الذي يحدثـه أمثاله للنسّابين والباحثين في الأنساب . واما ان يكلى أو فكل هو شقيق خَولان ، أو انه خولان نفسه ، فأمر لا قيمة له .

ورجح نشوان بن سعيد الحميري كون المراد بـ (خولان العاليـة) خَولان قضاعة ، وقد ذكر الرأيين وناقش كل واحـد منها ، ثم رَجّحَ ان خولان العالية هي خولان قضاعة [1] .

واسم خولان من الأسماء التي ورد ذكرهـا في كتابات المسند . ورد اسـماً لأرض ، كما ورد اسماً لقبيلة ، هي قبيلة خولان [2] ويعود تأريخ هذه الكتابات الى ما قبل الميلاد . وتقع أرض خولان في نفس المكان الذي عرف في الإسلام بـ (عرّ خَولان) وبأرض خولان [3] . وقد ذهب (شبرنكر) الى ان خولان هي (حويلة) إحدى القبائل العربية المذكورة في التوراة [4] .

وعند ظهور الاسلام ، كانت خولان تتعبد للصنم ، عم أنس (عميأنس) وللصنم يعوق . [5] وفي السنة العاشرة للهجرة ، وصل وفد منها الى الرسول معلناً له الدخول في الاسلام . وقد اشتركت خولان مع من اشترك من القبائل العربية في الفتوح ، فلعبت دوراً هاماً فيها خاصة في فتوحات مصر . [6]

والى جعفر بن مالك بن الحارث بن مُرّة يرجع نسب المعافر . [7] جدّ المعافرين ، ويسمى بالمعافر الاكبر تمييزاً له عن المعافر الاصغر ، وهو ابن حضرموت . [8]

١ منتخبات (ص ٣٥ وما بعدها .
٢ Halevy 585, Glaser 1076, Glaser 119.
٣ Ency , II, P. 933.
٤ Ency., II, P. 933.
٥ الاصنام (٤٣) . كحالة (٣٦٦/١) .
٦ Ency., II, P 933.
٧ جمهرة (ص ٢٩٣) ، نهاية الارب (٢٨٧/٢) ، كحالة (١١١٥/٣) .
٨ الاكليل (٣/١٠) ، الاشتقاق (ص ٢٢٨) ، ابن خلدون (٢٥٦/٢) ، الانبـاه (ص ١١٨) .

وقد اشتهرت المعافر بنوع من الثياب سميت باسمهم . [١]

ومن ولد عديّ بن الحارث بن مرّة بن أدد بن يشجب ، كان الحارث بن عديّ وهو عاملة ، وعمرو بن عديّ وهو جذام ، ومالك بن عديّ وهو لخم ، وعفير بن عدي وهو والد كندة . [٢] وكلها كما نرى قبائل معروفة شهيرة تنتسب الى القحطانيين . وأما أمهم ، فهي رقاش بنت همدان . [٣]

وذكر ابن خلدون ان الحارث بن عديّ والد عاملة ، سمي عاملة باسم أمه عاملة ، وهي من قضاعة . وذكر انها كانت في بادية الشام . [٤]

وقد يستنتج من هذه الصلة بين القبائل الثلاث ، انها كانت حلفاً في الأصل جمع بينها لمصالح مشتركة ولظروف متشابهة ألفت بينها على نحو ما رأينا عند قبائل اخرى فصارت نسباً بمرور الايام . [٥] وقد كانت هذه الصلة قوية خاصة بين لخم وجذام ، حيث اقترن اسمها معاً في الغالب ، ولا سيا في الاسلام ، مما يدل على اشتراك المصالح بين القبيلتين .

وكانت عاملة حليفة لكلب ، (وغزت معها الى طيء ، فأسر رجل من عاملة ، اسمه قعيسيس ، عديّ بن حاتم ، فانتزعه منهم شعيب بن مسعود العُليمي من كلب ، وقال له : ما أنت وأسر الاشراف ؟) ، وأطلقه بغير فداء . [٦] ومن عاملة الشاعر عديّ بن الرقاع . [٧]

ويذكر الاخباريون ان بطوناً من عاملة كانت في الحيرة ، كما ان بعضاً منها كانت خاضعة للزبّاء . [٨] واذا صح زعم الاخباريين هذا ، فانه يدل على قدم

---

١ (المعافرية) منتخبات (ص ٧٣) .
٢ جمهرة (ص ٣٩٤) .
٣ الاكليل (١٠/٤) .
٤ ابن خلدون (٢/٢٥٧) ، (عاملة) ، تاج العروس (٨/٣٥) ، القاموس (٤/٢٢) ، نهاية الارب (٢/٢٨٧) ، صبح الاعشى (١/٣٣٥ وما بعدها) .
٥ Ency., III. P. 11.
٦ جمهرة (ص ٣٩٤) .
٧ منتخبات (ص ٧٧) ، جمهرة (ص ٣٩٤) .
٨ Ency., I, P. 327.

وجود هـذه القبيلة في بلاد الشام والعراق ، ولكننا لا نجد لها ذكراً مثل اكثر القبائل الاخرى في كتب (الكلاسيكيين) .

وكانت منازلها عند ظهور الاسلام في المنطقة الجنوبية الشرقية للبحر الميت . وقد اشتركت مع القبائل العربية الاخرى التي ساعدت الروم ، وانضمت الى جانب (هرقل) (Heraclius) ، ولكن اسمها لم يرد كثيراً في اخبار فتوح المسلمين لبلاد الشام ، وانما كان من الاسماء المعروفة في ايام الامويين . وتدل اقامتها في هذه البلاد منذ ايام الجاهليـة على ان صلتها ببلاد الشام كانت اقوى وأمتن من صلتها بالعراق .

وصنم عاملة هو الأقيصر ، وكان في مشارف الشام ، يحجون اليه ، ويحلقون رؤوسهم عنده .[١]

وولد جذام : وهو عمرو بن عديّ بن الحارث بن مرّة [٢] والد قبيلة جذام الشهيرة من الولد حراما ، و (جُشَمَ) . [٣] ومن بني حرام غطفان وأفصى ، وهما ابنا (سعد بن اياس بن افصى بن حرام بن جذام) . وذكر ابن حزم : ان روح بن زنباع ، وهو من بني افصى ، اراد ان يردّ نسب جذام الى مضر ، فيقال جذام بن أسدة اخي كنانة وأسدٍ ابني خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فعارضه في ذلك نائل بن قيس .[٤]

ومن بطون جذام : (بنو ضبيب ، وبنو مخرمة ، وبنو بعجة ، وبنو نفاثة ، وديارهم حوالي ايلة من اول اعمال الحجاز الى ينبع من اطراف يثرب . وكانت لهم رياسة في معان وما حولها من ارض الشام لبني النافرة من نفاثة ، ثم لفروة ابن عمرو بن النافرة . وكان عاملاً للروم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب . وهو الذي بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامه ، وأهدى

١ كحالـة (٧١٤/٢) .
٢ منتخبات (ص ١٩) ، ابن خلدون (٢٥٧/٢) . تاج العروس (٣٢٣/٨) ، لسـان العرب (٣٥٦/١٤) ، أبو الفداء (١٠٩/١) ، نهـايه الارب (٣٠٣/٢) ، صبح الاعشى (٣٣٠/١) ، الصحاح (٢٦٩/٢) ، كحالة (١٧٤/١) .
٣ (جشم) ، جمهرة (ص ٣٩٥) ، وهو في الاشتقاق (ص ٢٢٥) (حسَم) .
٤ جمهرة (ص ٣٩٥ وما بعدها) Ency., I, P. 1058

له بغلة بيضاء وسمع بذلك قيصر ، فأغرى به الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان ، فأخذه وصلبه بفلسطين)[1] .

أما لخم ، الأخ الآخر لعاملة وجذام ، فولد جزيلة ونمارة ، وولد نمارة عدياً ، وهو عَمَم وحبيب وجذيمة ، وهم العباد ، وغيرهم . وولد حبيب ، هانئاً ، ومن نسله تميم الداري صاحب رسول الله ، ومن نمارة عمرو بن رزين ابن لخم ، ومن ولده قصير الوارد اسمه في قصة الزبّاء ، ومن نسل عَمَم بنو نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن مسعود بن مالك بن عمم بن نمارة ابن لخم ، رهط آل المنذر ملوك الحيرة[2] .

ويظهر ان اللخميين كانوا أقدم جماعة في هذا الحلف ، وقد كانوا قبل الاسلام في بلاد الشأم والعراق وفي البادية الفاصلة بينهما وفي مواضع متعددة من فلسطين . ومنهم كما رأينا كان آل لخم ملوك الحيرة . ولا يستبعد ان يكون ظهور هذه القبيلة على أثر تصدع حكومة تدمر . حيث مكن هذا التصدع رؤساء القبائل الكبرى من الظهور . وقد كان اللخميون على النصرانية مثل الغساسنة في الشأم[3] .

ويدل القصص المروي عن أصل لخم ، وانحدارها من صلب ابراهيم ، على قدم هذه القبيلة في نظر أهل الأخبار . ومما جاء في هذا القصص ان أحد بني لخم هو الذي أخرج يوسف من البئر[4] . وقد لعب اللخميون دوراً هاماً كما رأينا في سياسة البادية وفي مقدرات عرب الشأم والعراق .

وفي الاسلام صارت كلمة (لخم) تطلق على جذام . ويدل ذلك على الصلات الوثيقة التي ربطت بين القبيلتين . ثم قل استعمال كلمة (لخم) ولخمي ، بالقياس الى جذام . حتى صارت لخم تعني في الغالب الأمراء اللخميين .

١ ابن خلدون (٢/٢٥٧) .
٢ جمهرة (٣٩٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٢٥) ، صبح الاعشى (١/٣٣٤ وما بعدها) لسان العرب (١٦/١٢) ، تاج العروس (٤/١٢٦) ، الصحاح (٢/٣٣٣) ، كحالة (٣/١٠١٢) .
٣ Ency , III, P. 11.
٤ Ency., III, P. 11

وشقيق لخم هو عفير بن عديّ والد ثور ، وهو كندة جـد قبيلة كندة الشهيرة . وولد كندة معاوية بن كندة ، وأشرس ، وأمها هي رملة بنت أسد ابن ربيعة بن نزار [1] . ويمثل هذا النسب صلة كندة بقبائل معدّ . وقـد نسب بعض النسّابين كندة الى كندة ، وهو ثور بن مرتع بن معاويـة بن كندي بن عفير بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيـد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان [2] ، وقد ولد هذا النسب من نسب آخر جعـل اسم ولد عفير (كندي) ، ثم ساقوا النسب على هذا النحو الى ان وصلوا الى ثور بن مرتع ، فقالوا : إنه هو كندة وانه شقيق مالك وهو الصدف ، وقيس [3] .

ومن بطون كندة معاويـة بن كندة ، ومنه الملوك بنو الحارث بن معاويـة الأصغر بن ثور بن مرتع بن معاوية [4] أسلاف الشاعر امرؤ القيس ، وقد حكموا القبائل الأخرى من غير كندة ، ومنها قبائل من عدنان .

ومن ولد أشرس : السكون والسكاسك [5] ، ومن السكون بنو عديّ وبنو سعد وأمها من مذحـج اسمها تجيب بنت ثوبان بـن سُليم بن رهـا بن مذحج ،

١ جمهرة (ص ٣٩٩) ، الاكليل (٤/١٠) • (كندة ، واسمه ثور بن غفير بن عدى ابن الحارث بن مرة بن أدد بن شجب بن عرب بن زبد كهلان بن سبأ • هـذا فول ابن الكلبي • وقال ابن هشام : كندي ونقال كمدة بن ثور بن مرتع ••• وقال ابن اسحاق : كندة هو ثور بن مرتع • وقال الزبير . ثور بن مرتع بن كندة من ولد معاوية الاصغر) الانباه (ص ١١٤) ، الاشتقاق (ص ٢١٨) ، تاريخ ابن خلدون (٢/٢٥٧) ، تاج العروس (١/٤٣ ، ٢/٢٨٧) ، لسان العرب (٣/٣٨٦) ،صبح الاعشى (١/٣٢٨) ، نهاية الارب (٢/٣٠٣) ، الروض الانف (٢/٣٤٥) ، كحالة (٣/٩٩٨ وما بعدها) •

٢ منتخبات (ص ٩٤) • (كندة بن غفير بن الحارث • من ولد زيد بن كهلان) ، خلاصة الكلام (ص ٥٥)ومابعدها •

٣ الاكليل (١٠/٥) •

٤ ابن خلدون (٢/٢٥٧) •

٥ الانباه (ص ١١٥) • (السكاسك • نسل حمس السكسك بن أشرس بن ثور • وهو كندة بن عفير من بطونها : خداش ، صعب ، ضمام ، والاحدر) ، الاشتقاق (٢٢١) ، تاج العروس (٧/١٤١) ، كحالة (٢/٥٢٧) •

ولذلك عرفوا بـ (تجيب) [1] .

وكان أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل في أيام الرسول من السكون ، وأخوه بشر بن عبد الملك . يذكرون انه ذهب الى الحيرة ، وتعلم بها الخط ، ثم رجع الى مكة فتزوج الضهياء بنت حرب أخت أبي سفيان [2] .

وأما الصدف ، فهو عقب مالك بن أشرس على رواية . وقد نسب الى كندة ، كما نسب الى حضرموت . ونسبه بعض النسابين الى حمير . فمن نسبه الى كندة ، قال : الصدف هو : عمرو بن مالك بن أشرس بن شبيب بن السكون ابن أشرس بن ثور وهو كندة [3] ، أو عمرو بن مالك بن أشرس أخي السكون ابن أشرس . ومن نسبه الى حضرموت ، قال : الصدف ، هو الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر [4] . وقد قال عنه بعض الأخباريين : انه مالك بن الصياح ، أخو أبرهة بن الصياح [5] . وأبرهة بن الصباح هو عربي في نظر أكثر الأخباريين . ولم يعرفوا انهم يقصدون به أبرهة الحبشي ، صاحب حملة الفيل . ومن نسبه الى حمير قال : الصدف هم من نسل : الصدف ابن عمرو بن ديسع بن السبب بن شرحبيل بن الحارث بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر [6] . أو : الصدف بن سهلة بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن

١ (نجيب • قال الزبير وغيره : نجيب امرأة • وهي ابنة ثوبان بن سليم بن رها بن مذحج • نسب اليها ولدها • وولدها عمر بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد • وعمير بن عدي ، بنو عم خولان ، بجمعهم الحارث بن مرة بن أدد • ولدت بجيب في السكون من كندة ، فهم أشراف السكون) ، الانباه (ص ١١٥) • ابن خلدون (٢٥٧/٢) ، نهاية الارب (٣٠٤/٢) ، الاشتقاق (٢٢١)، كحالة (٥٢٨/٢ وما بعدها) •

٢ جمهرة (ص ٤٠٣ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٥٧/٢) •

٣ كحاله (٦٣٧/٢) ، نهاية الارب (٣٠٤/٢) ، لسان العرب (٩٠/١١) •

٤ الجمهرة (ص ٤٣١) •

٥ الانباه (ص ١١٤) ، نهايه الارب (٣٠٤/٢) ، لسان العرب (٩٠/١١) ، كحاله (٦٣٧/٢) •

٦ منتخبات (ص ٥٩) ، (الصدف بن مرتع ، والصدف من حمير هذا قول الهمداني • وغيره نقول . جميع الصدف من حمر) ، الهمداني : مشتبه (ص ٤٠) ، (الصدف بالضم ابن عمرو بن الغوث بن حيدان • الصدف بن دسع : الصدف بالفتح وهو مالك بن مربع اخو كندة في قول الهمداني • وفي قول غيره : الصدف من حمير) ، الهمداني : مشتبه (ص ٣٢) •

عبد شمس بن وائل بن الغوث بن هميسع بن حمير [1] .

واختلاف أهل الأنساب ، وأهـــل الأخبار في نسب الصدف ، دليـــل على اختلاط هذه القبيلة ببطون كندة وحمير وحضرموت . ودخول بطونها فيهـــا ، وانتسابهـــا الى البطون التي دخلت فيهـــا ، ويؤدي ذلك في الغالب كما رأينا الى اختـــلاط الأنساب .

١ كحالة (٢/٦٣٧) .

الفصل السابع والأربعون

القبائل العدنانية

أوجزت الكلام في الفصل المتقدم على القبائل القحطانية ، أي القبائل التي يرجع نسبها الى اليمن ، وفي هـذا الفصل سأحاول الكلام على قبائل القسم الثاني من العرب ، اي قبائل العدنانيين ، مقتصراً في الغالب على ذكر القبائل الكبرى ، سالكاً ما سلكته في الفصل المتقدم من طريقة أهل الانساب في ترتيب القبائل .

وجدّ قبائل هذا الفصل عدنان من سلسلة تنتهي باسماعيل بن ابراهيم الخليل ، جد الاسماعيليين . وهو مثل قحطان شخصية لا نعرف من امرها شيئاً ، ولا من خبرها غير هذا الذي يقصّه علينا الاخباريون . وهو على حد قولهم من معاصري الملك بختنصر ملك بابل (٦٠٤ — ٥٦١ ق.م) الذي اوحى الله اليه على لسان (برخيا بن احنيا بن زربابل بن سلتيل) ان يغزو العرب في ايام ابنه معدّ بن عدنان على حد قول الاخباريين [١] .

ويزعم الاخباريون انهم وجدوا في كتب (برخيا) هذا نسب عدنان ، وأنه كان معروفاً عند اهل الكتاب وعلمائهم ، مثبتاً في اسفارهم . واستشهدوا على نسبه بشعر لأمية بن ابي الصّلت [٢] . فمن ذرية عدنان اذن ، تفرعت هذه القبائل التي سأتحدث عنها في هذا الفصل .

١ الطبري (١/٢٩١) .
٢ الانباه (ص ٤٧) .

وقد بخل الاخباريون على عدنان ، فلم يمنحوه من الولد غير ولدين ، هما : معد ، والحارث وهو علكّ . [١] وأمهما : منهاد بنت لهم بن جليد بن طسم . [٢] وقـــد بخلوا عليه بأسماء نسائه ايضاً على ما يظهر ، اذ لم يذكروا لنا اسم زوجة اخرى له . ولا ندري نحن ، وقد عشنا بعدهم بقرون ، سرّ هذا البخل الشنيع .

ومن نسل هذين الولدين تفرعت قبائل عدنان ، فأولد معد نزاراً ، [٣] وأضاف بعض النسابين قضاعة اليه . وأمها محانة بنت جوشم بن جهلمة بن عامر بن عوف ابن عديّ بن دُب بن جرهم . [٤] وقـــد اشرت الى اختلاف النسابين في نسب قضاعة وارجاع بعضهم اياه الى معدّ وبعضهم الى قحطان ، والى محاولة كل فريق جرهم اليه ، لعوامـــل سياسية بحتة وان اكتسبت صبغة نسب وأصل وحسب ، فالموضوع هو تكتل وتحزب وتنافس . وقضاعة كتلة من القبائل كبيرة ، لذلك كان لاجتذابها الى احد المعسكرين السياسيين المتطاحنين اهمية عظيمة في سياسة ذلك العهد ، لذلك نجد نَسّابي كل فريق يحاولون جهدهم اثبات نسب قضاعة في فريقهم ، حريصين على نفي نسبتها الى الفريق المعارض ، واخراجها منها ، وتفنيد حجج الخصوم . هذا ابو عبد الله الزبيري (١٥٦ – ٢٣٦ هـ) وهو قرشي ، ومعدود من مشاهير النسابين ، يذكر نسب قضاعة فيقول : « وقد انتسبت قضاعة الى حمير ، فقالوا : قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ ، وامه عُكبرة ، امرأة من سبأ ، خلف عليها معد ، فولدت قضاعة على فراش معدّ ، وزَوّروا في ذلك شعراً فقالوا :

يا ايها الداعي ادعنا وأبشر ... ولكن قضاعياً ولا تَتَنَزّرْ
قضاعة بن مالك بن حمير ... النسب المعروف غير المنكرْ

١ وقد منحه ابن الكلبي خمسة أولاد . هم . (معد ، والديث ، وأبى ، والعي ، وعدبد . فولد الديث : الحارث ، وهو عك . فولد عك بن الديث : الساهد وصحارا . وهو غالب .) جمهرة النسب (ورقة ٣) .

٢ أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري : كتاب نسب قريش تحقيق (ليفي بروفنسال) (ص ٥) . (وقد قيل . عك بن الديث بن عدنان) ، جمهـــره (ص ٨) ، وامهم مهدد بنت اللهـــم بن جلحب من جديس) ، جمهـــره النسب (ورقة ٣) .

٣ طرفة الاصحاب (ص ٥٧) ، سبائك الذهب (ص ٢٠) ، ابن خلدون (٢/٣٠٠) .

٤ نسب قريش (ص ٥) .

قال : وأشعار قضاعة في الجاهلية ، وبعد الجاهلية ، تدلّ على ان نسبهم في معدّ ، [1] .

وجعل ابن حزم لمعدّ خمسة اولاد ، هم : نزار بن معدّ ، واياد بن معدّ ، وقنص بن معدّ ، وعبيد الرماح بن معدّ ، والضحاك بن معدّ . وذكر ان من الاخباريين من يزعم ان ملوك الحيرة من المناذرة هم من ولد قنص ، وأن عبيد الرماح دخلوا في بني مالك بن كنانة ، وأن الضحاك بن معد هو الذي اغار على بني اسرائيل في اربعين من تهامة [2] . ونسب ابن الكلبي لمعد جملة اولاد آخرين [3] .

ويذكر بعض الاخباريين ان الامارة بعد معدّ على العرب كانت الى قنص بعد ابيه ، فأراد اخراج اخيه نزار من الحرم ، فأخرجه اهل مكة ، وقدّموا عليه نزاراً [4] .

وقد ولد لنزار مضر واياد ، وأمهما ، خبيّة بنت عك بن عدنان ، وربيعة وأنمار ، وأمهما حُدالة بنت وعلان بن جوشم بن جهلمة بن عامر بن عوف بن عديّ بن دُبّ بن جرهم ، فهما ليسا صريحين في نظر النسابين كمضر واياد ، لأنهما ليسا مثلهما من أب عدناني وأم عدنانية . ومن النسابين من قال : ان (ربيعة ومضر الصريحان من ولد اسماعيل) [5] ، فلم يجعل ايادا بذلك من العدنانيين الصريحين .

وفي رواية الاخباريين ان نزاراً حينما شعر بدنوّ اجله قسم ما عنده على اولاده ، فجعل لربيعة الفرس ، ولمضر القبة الحمراء ، ولأنمار الحمار ، ولإياد الحلمة والعصا . ثم تخاصموا بعد ذلك ، واتفقوا على التحكيم ، فحكم بينهما أفعى نجران [6] .

١ نسب قريش (ص ٥) .

٢ جمهرة (ص ٨) .

٣ جمهرة النسب (ورقة ٣ وما بعدها) .

٤ ابن خلدون (٢/٣٠٠) .

٥ نسب قريش (ص ٦) ، (ولد نزار بن معد مضر وايادا ، وأمهما سودة بنت عك ابن الديث بن عدنان . وربيعة ، وأنمارا ، وأمهما الحدالة بنت وعلان بن جوشم بن جلهمة بن عمرو بن هلبنية بن دوة) ، جمهرة النسب (ورقة ٤) ، سبائك الذهب (ص ٢٠) .

٦ ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، نهاية الارب (٢/٣١٠) .

ولم يجزم ابن حزم في نسبة انمار نزار ، فبعد أن ذكر مضر وربيعة واياداً ، وهم ولد نزار ، قال : (وقيل : أنمار) ، ثم قال : (وذكروا أن خثعماً وبجيلة من ولد أعار)[1] . أما ابو عبدالله المصعب بن عبدالله مصعب الزبيري ، فأثبت نسب أنمار في نزار ، وذكر ان من انمار بجيلة (انتسبوا الى اليمن ، الا من كان منهم بالشام والمغرب ، فانهم على نسبهم الى انمار بن نزار)[2] .

ويظهر ان نسابي خثعم وبجيلة يأبون انتسابهم الى انمار ، اذ ذكروا ذلك ، ويرون ان اراش بن عمرو تزوّج ابنة انمار ، وهي سلامة ، فولدت له ولداً سمي انمار بن اراش. ويذكر النسابون انه لم يشتهر احد من ولد انمار[3] . ومعنى هذا ان هذه القبيلة ، كان قد ضعف حالها ودابت في غيرها ، لذلك لم يذكر لها النسابون شيئاً من البطون .

وقد نسب (الزبيري) خثعماً الى اقبل (افتل) بن انمار بن نزار ، وذكر ان خثعماً هم اسم جبل تحالفوا عليه ، (فنسبوا اليه ، وهم بالسراة على نسبهم الى انمار بن نزار . واذا كانت بين اليمن فيما هنالك وبين مضر حرب ، كانت خثعم مع اليمن على مضر) . كذلك نسب خزيمة ، وهو يشكر إلى انمار[4] .

وكان اياد على رواية الأخباريين اكبر اولاد معدّ[5] ، واليه يرجع نسب كل ايادي . وأولد اياد زهراً ودعمياً ونمارة ، ومن نسلهم تفرعت سائر اياد[6] .

وقد ارتحلت اياد عن منازلها الأصلية ، بسبب الحروب ، فذهب قسم كبير منها الى العراق حيث نزلوا في الانبار وفي عين أباغ وسنداد وتكريت وبطن اياد وباعجة وأماكن اخرى ، وذهب قسم آخر منهم الى البحرين حيث انضموا الى قضاعة ، كما سكن قسم منهم في بلاد الشام[7] .

---

١ جمهرة (ص ٩) .
٢ نسب قريش (ص ٧) .
٣ سبائك الذهب (ص ٢٠) .
٤ نسب قريش (ص ٧) .
٥ خلاصه (ص ٥٨) .
٦ جمهره (ص ٣٠٨) ، نهايه الأرب (٢/٣١٠) (طبعة الكتب المصريه) ، صبح الأعشى (١/٣٣٦) (طبعة دار الكتب المصرية) .
٧ الأغاني (١٥/٩٣) ، Ency., II, P. 565.

ويروي الاخباريون ان اياداً الذين كانوا اختاروا الاقامة في البحرين وهجر بعد تركهم مواطنهم القديمة في تهامة اضطروا الى ترك مواطنهم الثانية والهجرة منها الى العراق على اثر قدوم بني عبـــد القيس وشن بن افصى ومن معهم مهاجرين من منازلهم الى هجر والبحرين ، فان هؤلاء القادمين الجدد لما بلغوا هجر والبحرين ضاموا من وجدوهم بها من اياد والازد ، ثم اجلت عبد القيس اياداً عن تلك البلاد ، فساروا نحو العراق ، وتبعتهم شن بن افصى ، فعطفت عليهم اياد واقتتلوا معهم حتى كاد القوم يتفانون ، وقد بادت بسبب ذلك قبائل من شن [1] .

اما منازل اياد القديمة ، فكانت تهامة مع ابناء انمار ما بين حد ارض مضر الى حد نجران وما والاها وصاقبها من البلاد [2] . ثم فارقت انمار اخوتها ربيعة ومضر واياداً ، فكثرت اياد وزاد عددها وكثرت قبائلها ، فأخذت تعتدي على ابناء ربيعـــة ومضر ، فوقعت بينها وبينهم من جراء بغيها هذا حروب ، واجتمعت مضر وربيعة عليها ، ثم تحاربوا في موضع من ديارهم يسمى (خانقاً) وهو لكنانة ، فغلبت اياد ، وظعنت من منازلها ، وافترقت عن اخوتها ، وتفرقت على رأي بعض الاخباريين ثلاث فرق : (فرقة مع اسد بن خزيمة بذي طوى ، وفرقة لحقت بعين اباغ . وأقبل الجمهور حتى نزلوا بناحية سنداد . ثم اتفقوا ، فكانوا يعبدون ذا الكعبـــات : بيتا بسنداد — وعبدتها بكر بن وائل بعدهم — فانتشروا فيما بين سنداد وكاظمة ، والى بارق والخورنق وما يليها ، واستطالوا على الفرات ، حتى خالطوا ارض الجزيرة ، فكان لهم موضع دير الأغور ودير الجماجم ودير مُرة ، وكثر من بعين اباغ منهم ، حتى صاروا كالليل كثرة ، وبقيت هناك تعير على من يليها من أهل البوادي ، وتغزو مع ملوك آل نصر المغازي) [3] ، وحالها حسن معهم ومع الأكاسرة ، حتى حدث حادث افسد ما بينهم وبين الفرس ، يرجعه الاخبـــاريون الى اعتداء نفر من اياد على نسوة من اشراف الأعاجم ، وذلك في ايام (انو شروان بن قباذ) او (كسرى بن هرمز) ، فسار اليهم الفرس ، فانحازت اياد الى الفرات ، وجعلوا يعبرون ابلهم بالقراقير ، ويجوزون الفرات . فتبعتهم الأعاجم ، وكان على اياد يومئذ (بياضة

١ البكري (٨٠/١ وما بعدها) .
٢ البكري (١٨/١) .
٣ البكري (٦٩/١ وما بعدها) .

ابن رياح بن طارق الايادي) . فلما التقى الناس ، ارتجزت (هند بنت بياضة) شعراً مشهوراً معروفاً ، اوله :

نحن بنـــات طارق   نمشي على المفارق [1]

ثم هجمت اياد على الفرس ، وهزمتها آخر النهار ، وقتلت الجيش الذي كان يتعقبها ، فلم يفلت منه الا الشريد ، وجمعوا جماجمهم ، فجعلوها كالكوم ، فَسُمّي ذلك الموضع دير الجماجم [2] .

هذه رواية من عدة روايات وردت عن الحرب التي وقعت بين الفرس واياد ، وهي الرواية الوحيدة التي يرد فيها خبر انتصار اياد على الفرس . اما الروايات الاخرى ، فتقـــول بانتصار الفرس على اياد . فرواية ابـي علي القالي مثلاً عن رجاله تنص على غزو انو شروان لاياد على اثر اعتداء نفر من اياد على نسوة الاعاجم ، وتعقيبه لهم ، وقتله خلقـاً منهم ، حتّى اضطر بعضهم الى النزول بتكريت ، وبعضهم ارض الموصل والجزيرة ، عندئذ بعث انو شروان ناساً من بكر بن وائل مع الفرس ، فنفوهم عن تكريت والموصل الى قرية يقـــال لها الحَرَجيّة . ثم التقوا بهم ثانية في هذا الموضع ، فهزمهم الفرس ، وقتلت منهم كثيراً ، ودفنت اجسادهم بها في مقبرة ذكر صاحب الرواية انها كانت معروفة بها الى يومه . وسارت البقية حتّى نزلت بقرى من ارض الروم ، وسار بعضهم الى حمص وأطراف الشام . وكان الحارث بن همام بن مرّة بن ذهل بن شيبان فيمن سار اليهم من بكر بن وائل مع الأعاجم ، فأجار ناساً من اياد ، كان فيهم : ابو دواد الايادي [3] .

وفي رواية اخرى ان اياداً كانت مقربة عند الفرس ، حتّى ان كسرى بن هرمز كان قد اتخذ جماعة منهم امتازوا بحسن الرماية ، فجعلهم رماة عنده ، وجعلهم مراصد على الطريق فيما بينه وبين الفرات لئلا يعبره احد عليهم ، الى ان حدثت حادثة الاعتداء على النسوة ، فغضب كسرى على اياد ، وأرسل جيشاً

١ وهو من الرجز القديم ، نسب الى نساء أخريات غير هند بنت بياضة ، البـــكري (١/ ٧٠ حاشيه ٢) ، شرح الحماسة للتبريزي (٣/ ٣٥) .
٢ البكرى (١/ ٧٠) .
٣ (جار كجار أبي داود) ، البكري (١/ ٧١) .

عليهم ، لحقهم وقد عبروا دجلة ، فجثا الاياديون على الركب ، ورموا الفرس رشقاً واحداً . عندئذ امر كسرى بارسال الخيل عليهم ، وأمر (لقيط بن يعمر ابن خارجة بن عَوْبَثان الايادي) ، وكان كاتبه بالعربية وترجمانه ، وكان محبوساً عنده ان يكتب الى من كان من شداد قومه ، فيما بينهم وبين الجزيرة ، ان يقبلوا الى قومهم ، فيجتمعوا ، ليغير على اياد كلهم ، فيقتلهم . فكتب لقيط الى قومه ينذرهم كسرى ، ويحذرهم اياه في جملة قصائد رواها الاخباريون [١] ، فهربت اياد وأمر كسرى الخيل ، فأحدقت بهم وبالذين بقوا من خلف الفرات . ثم وضعوا فيهم السيوف ، ومن غرق منهم بالماء اكثر ممن قتل بالسيف . ولما بلغ كسرى شعر لقيط قتله [٢] .

اما من هرب من اياد الى الشام ، ومن كان قد هاجر اليها ، فقد دان للغساسنة ، وتنصر كأكثر عرب الروم ، ولحق اكثرهم بلاد الروم فيمن دخلها مع جبلة بن الايهم من غسان وقضاعة ولخم وجذام [٣] .

ولدينا رواية اخرى في اسباب تسمية موضع دير الجماجم بهذا الاسم ، تشير الى حدوث معركة بين الفرس واياد ، وقتل اياد لقوم من الفرس ، ولكنها حادثة اخرى غير الحادثة المتقدمة على ما يظهر ، يرويها ابن الكلبي ، خلاصتها : ان رجلاً من اياد اسمه بلاد الرماح او بلال الرماح ، وهو انبت بن محرز الايادي ، قتل قوماً من الفرس ، ونصب رؤوسهم عند الدير ، فسمي دير الجماجم . ولم تذكر هذه الرواية زمن حدوث هذا القتل ، وهل كان قبل اجلاء اياد عن العراق او بعده كما جاء في الروايات السابقة ؟ وهل كان هذا انتقاماً من الفرس بعد ما فعلوه بإياد ؟ غير ان هناك رواية اخرى يرويها ابن الكلبي ايضاً تشير بوضوح الى ان فتك اياد بالفرس في موضع دير الجماجم انما كان بعد نفي كسرى اياهم الى الشام وفتكه بهم ، اي ان هذا الفتك كان عملاً انتقامياً من الفرس ، لما فعلوه بإياد . يقول ابن الكلبي : (كان كسرى قد قتل اياداً ، ونفاهم الى الشام ، فأقبلت ألف فارس منهم حتى نزلوا السواد ، فجاء رجل منهم وأخبر كسرى

١ منهـــا :

سلام في الصحيفـة من لقيـط　　　على مـن بالجـزيرة من إيـاد

البكري (١/٧٢ وما بعدها) .

٢ البكري (١/٧٣) .

٣ البكري (١/٧٥) ، الاغاني (٢/٢٣ وما بعدها) ، كحالة (١/٥٣) .

بخبرهم ، فأنفذ اليهم مقدار ألف وأربع مئة فارس ليقتلوهم ، فقال لهم ذلك الرجل الواشي : انزلوا قريباً حتى أعلم لكم علمهم . فرجع الى قومه وأخبرهم ، فأقبلوا حتى وقعوا بالأساورة ، فقتلوهم عن آخرهم ، وجعلوا جماجمهم قبة . وبلغ كسرى خبرهم ، فخرج في اهليهم يبكون . فلما رآهم ، اغتم لهم ، وأمر ان يبني عايهم دير سمي دير الجماجم) [1] . وهذه الرواية عن فتك اياد بالفرس ، هي اقرب الى المنطق من الرواية الاولى التي ذكرتها عن النزاع بين كسرى واياد .

على ان هنـــاك اخباراً اخرى ذكرها الاخباريون في تعليل اسم موضع (دير الجماجم) لا تشير اشارة ما الى هـــذا الاصطدام بين الفرس واياد ، انما اشار بعضها الى حرب وقعت بين اياد وبين بني نهد في هذا المكان ، قتل فيها خلق من اياد وقضاعة ، ودفنوا هناك ، فسمي الموضع بهذا الاسم ، كما نسبت الحرب الى قبائل اخرى لم يرد بينها اسم اياد [2] .

وفي رواية الاخباريين عن فتك كسرى بإياد ، ونفيه اياهم الى الشام ، مبالغة كبيرة ولا شك . فاننا نجدهم انفسهم يذكرون اياداً مع الفرس تحارب في معركة (ذي قار) ، ثم يذكرون انها اتفقت سراً مع بكر على ان تخذل الفرس يوم اللقاء . وقد خذلتهم بالفعل ، اذ ولت منهزمة ساعة اشتداد القتال فانهزمت الفرس [3] . ثم تراهم يذكرون اياداً في اخبار الفتوح ، فيروون انها حاربت تحت امرة (بهران ابن بهران جوبين) المسلمين ، اي انها كانت تحارب مع الفرس في العراق [4] . وأن صلاتهم كانت حسنة بهم . وهذا يناقض ما زعموه عن نفي الفرس لهم عن العراق .

ولم تكن اياد من القبائل العربية النصرانية التي مالت الى تأييد المسلمين ، ففي الفتوحات الاسلامية للعراق كانوا مع الفرس على المسلمين وإن ساعدهم قسم منهم بالاتفاق معهم سراً ، كما حدث في فتح تكريت . وفي الشام انضم قسم منهم الى (هرقل) (Heraclius) في محاولاته اليائسة التي قام بها للاحتفاظ ببلاد الشام ولاستخلاص ما استولى عليه المسلمون من تلك البقاع . ولما حلت الهزائم بالروم ، فضل قسم منهم الهجرة الى بلاد الروم والاقامة فيها . وقد كان ذلك عن عاطفة دينية ولا شك . [5] غير ان هذا لا يعني ان جمهرة اياد كانت كلها مع الروم .

---

١ البلدان (١٣١/٣) .

٢ البلدان (١٣١/٤) .

٣ الطبري (٢٥٣/٢ وما بعدها) .

٤ Ency., II, P. 566.

٥ Ency., II, P 566.

ذكرت ان من المواضع التي كانت لإياد في العراق ، موضع سنداد . ويفهم من روايات الأخباريين عنه ، انه قصر ونهر ومنازل نزلت بها إياد حين مجيئها الى العراق ، وانه كان في الأصل اسم حاكم فارسي كان قد عين على هذه المنطقة ، فأقام بها مدة طويلة ، وبنى أبنية كثيرة من جملتها القصر الذي ذكر في شعر ينسب الى الأسود بن يعفر النهشلي ، جاء فيه :

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

وانه أيضاً اسم قصر كانت العرب تحج اليه[1] ، هو الذي قصده الهمداني بقوله : (وكانوا يعبدون بيتاً يسمى ذا الكعبات ، والكعبات حروف الترابيع)[2] . ويظهر من روايات الأخباريين عن هذا القصر انه كان من القصور الضخمة المعروفة . يظهر انه كان مربع الشكل ، أو ذا مربعات ولذلك عرف بـ (الكعبات) ، وبـ (ذي الكعبات) . وذكر أيضاً انه كان لربيعة ، وانها كانت تطوف حوله حيث قالوا : (الكعبات ، بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به)[3] .

ويظهر من أقوال الأخباريين وجود عدة بيوت كانت على هيأة كعبات في جزيرة العرب لعبادة الأصنام ، تحج القبائل اليها وتطوف حولها ، سأتحدث عنها في الجزء الخاص بالحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام ، ومنها بيت كان بـ (أحد) على رواية ، أو على مقربة من شداد (سنداد) على رواية ابن دريد ، أو على شاطىء الفرات على رواية تنسب الى ابن الكلبي عرف بـ (السعيدة) كانت ربيعة تحجه في الجاهلية[4] ، وأظنهم يقصدون هذا البيت بيت سنداد .

أما مضر[5] ، فولد الياس والناس ، ويعرف أيضاً بعيْلان ، وأمهما الحنفاء

١ البلدان (١٤٩/٥ وما بعدها) ، (والبيت ذي الكعبات من سنداد) ، اللسان (٢١٣/٢) . تاج العروس (٤٥٧/١) ، الأصنام (ص ٤٥) .
٢ الصفة (ص ١٧١) (طبعة القاهرة ١٩٥٣ ، بعناية محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي) .
٣ تاج العروس (٤٥٧/١) ،اللسان (٢١٣/٢)، (وكان لربيعة بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات وقيل ذا الكعبات) .
٤ تاج العروس (٣٧٨/٢) ، لسان العرب (١٩٩/٤) .
٥ تاج العروس (٥٤٤/٤) ، جمهرة (٩) ، صبح الأعشى (٣٣٩/١) ، منتخبات (ص ٣٥ ، ٥٥) .

ابنة إياد بن معد [١] ، وسماها ابن حزم (أسمى بنت سود بن أسلم بن الحارث ابن قضاعة) [٢] ، فهي قضاعية على هذا الرأي . وجعل بعض النسابين أم الياس امرأة دعوها الرباب بنت إياد المعدية [٣] ، فهي إذن على هذه النسبة من معد .

ومضر هو شعب في نظر أهل الأنساب ، والشعب في عرفهم أعظم من القبيلة [٤] ، فهو أكبر وحدة اجتماعية سياسية في اصطلاح النسابين . وهو من أعظم شعوب مجموعة عدنان ، ولم يعثر على هذا الاسم في الكتابات الجاهلية ، ولا في مؤلفات الكلاسيكيين . أما اسم معدّ ، فقد أشير اليه كما ذكرت سابقاً في بعض مؤلفات الكلاسيكيين . وأما اسم نزار فقد ورد في نص النمارة الذي يرجع عهده الى سنة ٣٢٨ للميلاد . وقد عرف مضر بـ (مضر الحمراء) عند النسابين ، ويقولون انه عرف بذلك (لأن أباه أوصى له من ماله بالذهب) . ويظهر انها كانت قبيلة عظيمة عند ظهور الاسلام ، ثم اندمجت في غيرها من قبائل هذه المجموعة : مجموعة عدنان . حتى تغلبت على مضر تسمية قيس ، أي تسمية أبناء قيس عيلان (قيس بن عيلان) (قيس عيلان) في الاسلام ، فصارت (قيس) تؤدي معنى العدنانية ، واستعملت في مقابل عرب اليمن قاطبة ، فيقال : قيس ويمن [٥] .

وولد لألياس مدركة واسمه عامر ، وعمرو وهو طابخة ، وقمعة واسمه عمير ، وأمهم خندف ، واسمها ليلى بنت حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . وقد نسبوا الى أمهم فقيل لهم خندف [٦] . وقد حصر بعض النسابين نسل خندف في مدركة وطابخة ، ولذلك حصروا قبائل مضر في أصلين خندف وقيس عيلان [٧] .

١ نسب قريش (ص ٧) ، سبائك الذهب (ص ٢١) .
٢ جمهرة (ص ٩) .
٣ نهاية الأرب (٢/٣٢٥) .
٤ منتخبات (ص ٥٥) .
٥ صبح الأعشى (١/٣٢٩) ، وهناك حملة بماسر لـ (مضر الحمراء) ، نهاية الأرب (٢/٣١٠) .
٦ (خندف : فعلل ، بكسر الفاء واللام) منتخبات (ص ٥٥) ، جمهرة النسب (ورقة ٤)، وتجد في هذه الورقة تفسير ابن الكلبي على طريقته المألوفة في وضع القصص عن معنى مدركة وطابخة وقمعة وخندف ، نهاية الأرب (٢/٣٣٠) ، اللسان (خندف) .
٧ نسب قريش (ص ٧) ، جمهرة (ص ٩) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٧) ، تاج العروس (٣/٥٤٤) ، صبح الأعشى (١/٣٣٩) ، كحالة (٣/١١٠٧) ، منتخبات (ص ٥٥) .=

أما مدركة[1] ، فولد له خزيمة ؛ وهذيل . وأمهما سلمى بنت أسد بن ربيعة ابن نزار[2] ، ونسب بعضهم له ولداً آخر هو غالب[3] . وولد خزيمة كنانة ، وأمه عوانة بنت قيس بن عيلان[4] ، وأسداً ، وأسدة ، والهون ، وأمهم برّة بنت مرّ بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار ، وهي أخت تميم ابن مرّ[5] . وهذيل قبيلة متسعة ، لها بطون كثيرة[6] .

وليس النسابون على اتفاق بينهم في تعيين أولاد أسدة ، فجعلهم بعضهم جذاماً ولخماً وعاملة ، ونسب هؤلاء في اليمن كما أشرت الى ذلك في أنساب قبائل قحطان على رأي أكثر النسابين[7] .

وأما نسل الهون[8] فهم : عضل[9] ، وديش[10] ، ويعرفون

= قال العجاج :

لا قدح إن لم نور نارا بهجر ذات سنى يوقدها من افتخر
من شاهد الأمصار من حيي مضر

يعني قيسا وخندف . وقال جرير :

إذا اخذت قيس عليك وخندف بأقطارها لم تدر من حيث تسرح

المبرد (ص ١ وما بعدها) .

١ صبح الأعشى (١/٣٤٨) ، ابن خلدون (٢/٣١٩) .

٢ نسب قريش (ص ٨) ، وهي (سلمى بنت أسلم بن الحاف بن قضاعة) ، في جمهرة النسب (ورقة ٤) .

٣ جمهرة (ص ٩) ، وأضاف ابن الكلبي ، اليهم (غالبا) و (سعدا) و (قيسا) ، وأمهم (ليلى بنت السيد ؟ بن الحاف بن قضاعة) ، جمهره النسب (ورقة ٤) .

٤ (ويقال : هند بنت عمرو بن قيس عيلان) ، جمهرة النسب (ورقة ٤) .

٥ نسب قريش (ص ٨) ، جمهرة (ص ٩) ، (وعبد الله) ، جمهرة النسب (ورقة ٣) .

٦ صبح الأعشى (١/٣٤٩) .

٧ نسب قريش (ص ٨ وما بعدها) . (وأسدة . فجذام ، تنسب الى أسدة) ، جمهرة (ص ٩) جمهرة النسب (ورقة ٤) .

٨ (الهون بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر) ، نهاية الأرب (٢/٣٩٤) ، صبح الأعشى (١/٣٤٩) ، لسان (١٧/٢٣١) ، كحالة (٣/١٢٣٥) ، أبو الفداء (١/١٠٧) .

٩ صبح الأعشى (١/٣٤٩)، لسان العرب (١٣/٤٨٠)، الصحاح للجوهري (٢/٢١٥)، كحالة (٢/٧٨٧) .

١٠ (الديش بن مليح بن الهون) ، صبح الأعشى (١/٣٤٩) ، تاج العروس (٧/٣١٦) ، (الديش بن الهون . وهو أخو عضل . ويقال لهاتين القبيلتين ، وهما : عضل والديش القارة) أبو الفداء (١/١٠٧) .

بالقارة[1] ، وهم بنو بيشع بن مليح بن الهون[2] . على حدّ قول بعض النسابين وبطنان من خزاعة هما الحيا والمصطلق ، حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة . ويعرفون على حد قولهم بالأحابيش : أحابيش قريش . لأن قريشاً حالفت بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة على بكر بن عبد مناة ، فهم حلفاء قريش[3] .

وأولاد كنانة ، هم : النضر ، وهو أكبر أولاده وبه يكنى ، ومالك (مالكا) ، وملكان ، ومليك وغزوان ، وعمرو ، وعامر ، وأمهم برّة بنت مرّ أخت تميم بن مرّ[4] ، وهي نفسها زوج خزيمة والد كنانة ، تزوجها كنانة بعد وفاة أبيه . وكانت العادة في الجاهلية ان يتزوج الولد البكر زوجة أبيه بعد وفاته إذا لم تكن أمه ، وان يرث خيار ماله ، وهو زواج منعه الاسلام . ويعرف هذا الزواج بزواج المقت[5] .

وكانت لكنانة زوج أخرى ، هي هالة بنت سويد بن الغطريف ، ويقصدون بالغطريف حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأرد بن الغوث بن النبت ، وقد ولدت له حُدال وسعداً وعوفاً ومجربة . وقد ترك هؤلاء الأولاد ذرية ، فكان من نسل حدّان جماعة أقامت بعدن أبين ، وكان من نسل مجربة بنو ساعدة[6] .

أما زوج كنانة الثالثة ، فكانت الذفراء : واسمها فكيهة . وهي بنت هنى ابن بليّ بن عمرو بن الحاف بن قصاعة . وقد ولدت له : عبد مناة[7] .

١ جمهرة (ص ١٧٩) ، تاج العروس (٣/ ٥١٠) ، لسان العرب (٦/ ٤٣٦) ، الاشباه (ص ٧٣) ، كحالة (٣/ ٩٣٥) .

٢ جمهرة (١٧٩) .

٣ (فأما الهون بن خزيمة ، فهم عضل ، ودبش ، والقارة ، بنو يثيع بن الهون ، وهم ، وبطنان من خزاعة يقال لها الحيا والمصطلق ، حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وهم كلهم يقال لهم . الأحابيش أحابيش قريش) ، نسب قريش (ص ٩) .

٤ نسب قريش (ص ١٠) ، (وبنو عبد مناه) ، الجمهرة (ص ٤٣٤) ، وأضاف ابن الكلبي اليهم أولادا آخرين ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .

٥ نسب قريش (ص ١٠)، جمهرة النسب (ورقه ٥)، بلوغ الأرب (٢/ ٥٢ وما بعدها) .

٦ نسب قريش (ص ١٠) .

٧ نسب قريش (ص ١٠) .

وولد النضر ، وهو قريش على بعض الآراء[١] مالكاً على رأي أكثر النسابين، وأضاف بعضهم اليه ولدين آخرين ، هما : يخلد الصلت ، وأمهم عكرشة بنت عدوان بن عمرو بن قيس ابن عيلان[٢] . ومن يخلد قريش بن بدر بن يخلد بن النضر ، وكان دليل قريش في التجارة في الجاهلية ، وبه سميت قريش على رأي بعض النسابين ، وباسم بدر والده دعي بدر[٣] ، والى الصلت بن النضرة ينسب بنو مليح[٤] (ملح)[٥] ، على رأي ، بينما يعدّون من خزاعة في رأي آخر[٦] .

أما ولد مالك ، فهو فهر ، وهو قريش ، وأمــه جندلة بنت الحارث بن جندل بن عامر بن سعد بن الحارث بن عضاض بن جرهم[٧] ، فهي جرهمية على هذا النسب . وبه سميت قريش قريشاً على رأي أكثرية أهل الأخبار . ولهــذا يقال لهم بنو فهر[٨] . وللأخباريين روايات عديدة في معنى قريش[٩] .

وولد فهر غالباً والحارث ومحارباً وجندلة ، وأمهم ليلى بنت الحارث بن تميم ابن سعد بن هذيل بن مدركة[١٠] ، وولد غالب بن فهر لؤياً وتيماً وهو الأدرم ، وأمهما عاتكة بنت يخلد بن النضرة بن كنانة[١١] ، وقيس بن غالب وقد انقرض نسله[١٢] .

---

١ المبرد (ص ٢) .
٢ نسب قريش (ص ١١) ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
٣ الجمهرة (ص ١٠) ، البلدان (٢/٨٨) ، البكري (١/٢٣١) . (تحقيق السقا) .
٤ نسب قريش (ص ١١) .
٥ الجمهرة (ص ١١) .
٦ الجمهرة (ص ١١) ، نسب قريش (ص ١١) .
٧ نسب قريش (ص ٢٢) ، الجمهرة (ص ١١) ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
٨ قال الحطيئة :

وإن الــذي أعطيتهم أو منعتهم ... لكالتمر أو أحلى لحلف بنــي فهر

المبرد (ص ٢) .
٩ راجع كتب اللغة مادة (قريش) ، نهاية الأرب (٢/٣٣٣) ، القاموس (٢/٢٨٤) ، الصحاح (١/٤٩٥) .
١٠ نسب قريش (ص ١٢ وما بعدها) ، وأضاف ابن الكلبي أولادا آخرين اليه ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
١١ نسب قريش (ص ١٢) ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
١٢ جمهرة (ص ١١) .

ومن ولد لؤي كعب وعامر ، وهما البطاح ، وسامة ومن نسله بنو ناجية ، وخزيمة وهم عائذة ، وقد نزلوا في بني أبي ربيعة من شيبان ، والحارث وهو جشم ، وهم في همدان ، وأمهم مارية بنت كعب بن القين بن جسر بن شيع الله ابن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وسعد ابن لؤي وهم بنانة ، وقد نزلوا في بني شيبان ، وأمه يسرة بنت غالب بن الهون بن خزيمة[1] ، وعوف بن لؤي وقد دخل سله في بني ذبيان بن غطفان ابن قيس عيلان ، وهم بنو مرّة بن عوف بن ذبيان رهط الحارث بن ظالم المري . وقد دخل أكثر هؤلاء الأبناء في غيرهم . ولذلك أدخلهم النسّابون فيمن دخلوا فيهم ، وعدوا نسْلَ كعب وعامر الصرحاء من ولد لؤي وحده[2] .

وولد كعب مرّة[3] ، وهصيصاً[4] ، وأمها وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر ، وعديّ وأمه حبيبة بنت بجالة بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر[5] ، وولد مرّة كلاباً ، وأمه هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة ، وسرير والد هند هو أول من نسأ الشهور ، ثم نسأها القلمس ابن أخيه من بعده واسمه عديّ بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة . ثم صار النسيء في ولده ، وكان آخرهم جنادة بن عوف . وولد أيضاً تيم بن مرّة ويقظة بن مرّة ، وأمها بنت سعد ، وهو بارق بن حارثة بن عمرو بن عامر . جد قبيلة بارق[6] ، ومن عديّ بن كعب عمر بن الخطاب وريد[7] .

أما كلاب ، فكان له من الولد قصيّ وزهرة . ومن نسل قصي : عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى[8] . وقد تحدثت سابقاً عن قصيّ منظم قريش .

١ نسب قريش (ص ١٣) ، ويجد في هذا الكتاب بعض الاختلاف عما ورد في جمهرة النسب (ورقة ٥ وما بعدها) .
٢ جمهرة (ص ١١) .
٣ ابن خلدون (٢/٣٢٦) ، صبح الأعشى (١/٣٥٤) ، القاموس (٢/١٣٣) ، لسان العرب (٢/٣٢٦) ، تاج العروس (٣/٥٣٩) .
٤ نهاية الأرب (٢/٣٥٥) ، كحالة (٣/١٢١٩) .
٥ نسب قريش (ص ١٣) ، الجمهرة (ص ١٢ وما بعدها) ، جمهرة النسب (ورقة ٦) .
٦ نسب قريش (ص ١٣ وما بعدها) .
٧ المبرد (ص ٣) .
٨ نسب قريش (ص ١٤) ، الجمهرة (ص ١٢) ، جمهرة النسب (ورقة ٦) .

فولد عبد مناف بن قصيّ : عمراً وهو هاشم ، والمطلب وهو عبد شمس ونوفلاً . وأم هاشم وعبد شمس والمطلب عاتكة بنت مرّة بن هلال بن فالج بن ذكوان السلمية ؛ وأم نوفل واقدة من بني مازن بن صعصعة السلمية ، خلف عليها هاشم بن عبد مناف بعد أبيه ؛ فولدت له ابنتين خالدة وضعيفة [1] .

ومن بطون كلاب بنو زهرة [2] ، ومن بطون تيم [3] بن مرّة أبو بكر الصديق ، وعبد الله بن جدعان سيد قريش في الجاهلية ، ومن بطون يقظة بن مرّة بنو مخزوم ، ومنهم خالد بن الوليد [4] .

ومن نسل هصيص بن كعب ، بنو جمح . وهم ولد جمح بن عمرو بن هصيص [5] ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص [6] . ومن بني سهم ، عمرو ابن العاص [7] .

وقد وقعت حرب بين بني جمح وبني محارب بن فهر في موضع عرف بردم بني جمح بمكة ، قتلت فيه بنو محارب بني جمح أشد القتل ، فعرف ذلك الموضع بالردم ، بما ردم عليه من القتلى يومئذ [8] . وكان أمية بن خلف على بني جمح في حرب الفجار [9] .

---

١ الجمهرة (ص ١٢) .

٢ (بنو زهرة بن كلاب) ، تاج العروس (٣/٢٤٨) ، أبو الفداء (١/١١٤) ، نهاية الأرب (٢/٣٥٧) ، جمهرة (١١٩ وما بعدها) .

٣ (تيم بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر) ، نهاية الأرب (٢/٣٥٧) ، أبو الفداء (١/١١٣) ، صبح الأعشى (١/٣٥٤) ، كحالة (١/١٣٨) .

٤ المبرد (ص ٣) ، الاشتقاق (ص ٦١ ، ٨٨) ، (بنو يقظة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر) ، نهاية الأرب (٢/٣٥٦) ، ابن خلدون (٢/٣٢٦) ، أبو الفداء (١/١١٣) ، صبح الأعشى (١/٣٥٤ ، ٣٥٥) ، (بنو مخزوم بن يقظة) جمهرة (١٣١ وما بعدها)، لسان العرب (١٥/٦٨) ، الاشتقاق (٦٠) ، تاج العروس (٦/٢٦٣) ، (٨/٢٧٦) ، الانباه (١٧) ، كحالة (٣/١٠٥٨) .

٥ الجمهرة (ص ١٥٠) ، تاج العروس (٢/١٣٣) ، صبح الأعشى (١/٣٥٣) ، نهاية الأرب (٢/٣٥٦) ، الانباه (ص ٧١) ، كحالة (١/٢٠٢ وما بعدها) .

٦ الجمهرة (ص ١٥٤ وما بعدها) .

٧ المبرد (ص ٣) ، أبو الفداء (١/١١٣) ، القاموس (٤/١٣٤) ، الانباه (٧١) ، نهاية الأرب (٢/٣٥٦) ، تاج العروس (٨/٣٥٢) ، كحالة (٢/٥٦٠) .

٨ البكري (٢/٦٤٩) (تحقيق السقا) ، أبو الفداء (١/١١٣) .

٩ الأغاني (١٩/٧٧) .

أما نسل ربيعة بن نزار ، فهم أسد وضبيعة [1] . ويضاف اليها أكلب [2] على بعض الروايات . ومن نسل هؤلاء تفرعت قبائل ربيعة . فمن أسد كانت جديلة وعنزة وعمير [3] . ومن بني عنزة بنو هزّان بن صباح بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة . وبنو جلاّن بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة . وبنو الحارث بن الدؤل بن صباح بن عتيك بن أسلم . كان إذا مصر ثوبية مصرت عنزة معه . وعرف من بني هزان آل ضور بن رزاح بن مالك بن سعد بن وائل بن هزّان ، والحارث بن رزاح أخو ضور بن رزاح وهو الذي يقال انه الحارث بن لؤي بن غالب الذي يسمى جشماً ، وجشم كان عبداً لأبيه ، حضنه فسمى به [4] .

وتعد عنزة [5] من القبائل العربية الكبيرة ، وهي لا تزال من القبائل البارزة في الزمن الحاضر ، ولها بطون عديدة في الحجاز ونجد وبادية الشأم والشأم . أما تأريخها قبل الاسلام ، فهو مثل تواريخ القبائل الأخرى من حيث الغموض . وقد كانت تتعبد في الجاهلية لمحرق ولسعير [6] .

وأما ولد ضبيعة [7] ، فهم أحمس [8] والحارث . ومن بني أحمس الشاعر المسيب ، وهو زهير بن علس ، والحارث الأضجم بن عبد الله بن ربيعة بن دوفن سيد

١ ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، نسب ربيعة بن مصر بن عدنان . وهو ربيعة بن مصر بن نزار بن معدّ بن عدنان) ، طرفة الأصحاب (ص ٦٢) ، سبائك الذهب (ص ٥٣) ، لسان العرب (٩/٤٦٩) ، صبح الأعشى (١/٣٣٧ ، ٣٣٩) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٨) ، لسان العرب (٤/٣٩) ، الاشتقاق (١٩٤) ، كحالة (١/٢٢٤ ، ٢/٦٦٣) ، تاج العروس (٥/٤٢٧) .

٢ جمهرة (ص ٢٧٥) ، نهاية الأرب (٢/٣١٠ ، ٣٢٨) .

٣ نهاية الأرب (٢/٣٢٨) ، الاشتقاق (١٩٤) .

٤ جمهرة (ص ٢٧٦ وما بعدها) .

٥ ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٨) ، الاشتقاق (ص ١٩٤ ، ٢٠٢) ، لسان العرب (٧/٢٥١) ، جمهرة (٢٧٧) ، تاج العروس (٣/٦٢) ، القاموس (٢/١٨٤) ، كحالة (٢/٨٤٦ وما بعدها) .

٦ Ency, I, P 346

٧ الاشتقاق (ص ١٩٠) ، ابن خلدون (١/٣٠٠) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٨) صبح الأعشى (١/٣٣٩) ، تاج العروس (٥/٤٢٧) ، كحالة (٢/٦٦٣) .

٨ الاشتقاق (ص ١٩٠) ، كحالة (١/١٠) .

ربيعة الذي نشبت بسبب مقتله حرب بين بني ربيعة ، والمتلمس الشاعر . ومن بني أحمس أيضاً بنو الكلبة ، وهم أولاد مرّة بن مازن بن أوس بن زيد بن أحمس بن ضبيعة . ومنهم الحُلَيْس وابن المسيب[1] .

أما جديلة[2] ، وهو جدّ جديلة ، فولد دُعمياً[3] وجدْياً[4] . وقد دخل بنوه في بني شيبان ، وجدار (جداناً)[5] ، وقد دخل نسله في بني زهير بن جشم من بني النمر بن قاسط . وولد غير ذلك في بعض الروايات[6] . وولد دعمي أفصى[7] . وولد أفصى هنبساً وعبد القيس وجشماً ودخل بنوه في عبد القيس ، وناسما ، ودخل بنوه في بنى تغلب[8] .

ومن نسل عبد القيس بن أفصى ، شن[9] ولكيز[10] . ومن ولد لكيز وديعة وهو جدّ بطن ، وصباح ، وهم بطن كذلك ونكرة ، ومن بطون وديعة عمرو ، وغنم ، ودهن ، ومن عمرو بن وديعة مالك وثعلبة وعائذة وسعد وعوف والحارث ، ومن الحارث ، ابن أنمار بن عمرو بن وديعة البراجم ، وهم عبد شمس وعمرو وحيّ بني معاوية بن ثعلبة بن عوف بن أنمار بن عمرو بن ربيعة ، وهؤلاء

---

١ جمهرة (ص ٢٧٥ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (١٩٦)، ابن خلدون (٢/ ٣٠٠) ، نهاية الأرب (٢/٣١١) ، كحالة (١/١٧٣) ، (جديلة بفتح الجيم وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام ، وهاء في الآخر ، والنسبة اليهم جدلي) ، صبح الأعشى (١/٣٢٧) .

٣ (دعمي) ، لسان العرب (١٥/٩٢) ، القاموس (٤/١١٢) ، تاج العروس (٨/٢٩١) ، نهاية الأرب (٢/٣١١) .

٤ جمهرة (٢٧٨) .

٥ (جدار) جمهرة (٢٧٨) ، (جدان بن جديلة بن أسد بن ربيعة) ، تاج العروس (٢/٣١٦ ، ٩/١٦٠) ، كحالة (١/١٧٠) ، جمهره (ص ٢٧٨) ، سبائك الذهب (ص ٥٣) ، المبرد (١٨) .

٦ سبائك الذهب (ص ٥٣) .

٧ نهاية الأرب (٢/٣٢٩) .

٨ جمهرة (ص ٢٧٨) ، سبائك الذهب (٥٣) .

٩ (شن بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار) ، الاشتقاق (ص ١٩٦) ، تاج العروس (٩/٢٥٦) ، لسان العرب (١٧/ ١٠٩)، الصحاح للجوهري (٢/٣٨٧)، جمهرة (٢٨٢) ، سبائك الذهب (ص ٥٤).

١٠ سبائك الذهب (ص ٥٤) ، الاشتقاق (١٩٦) ، لسان العرب (٧/٢٧٢)) .

البراجم هم غير براجم تميم [١] ، والجارود وقد كانت له صحبة بالرسول وولي أولاده منازل رفيعة في الاسلام [٢] .

ومن نسل عجل بن عمرو بن وديعة بن لكيز . ذهل وذاهل ، ومن بني ذهل ليث وثعلبة ، وهما ابنا حداد بن ظالم بن ذهل بن عجل بن عمرو . ومن ليث بن حدّاد ، بنو دهل بن ليث ، ومنهم جيفر بن عبد عمرو بن خوليّ ابن همام بن الفاتك [٣] ، ومن نسل عمرو بن وديعة بنو محارب [٤] ، ومنهم الحطم بن محارب ، واليه تنسب الدروع الحطمية ، وبنو الدّيل بن عمرو بن وديعة [٥] ، ومن نسل وديعة بن لكيز بنو دهن وبنو غنم . ومنهم الدّيل ومازن [٦] .

واشتهر من ولد نكرة بن لكيز ، الشاعر المثقب ، والشاعر الآخر الممزق ، وهو شأس ، والمفضل بن معشر بن أسجم وهو شاعر كذلك [٧] .

أما شن بن أفصى ، فكان من نسله يزيد بن شن ، يذكر أهل الأخبار انه أول من ثقف القنا بالخط ، وعديّ ، والدّيل . ومنهم عمرو بن الجعيد بن صبرة بن الدّيل بن شن بن أفصى بن عبد القيس ، وهو الذي ساق عبد القيس من تهامة الى البحرين ، وعرف بالأفكل [٨] ، وكان سيد ربيعة في الجاهلية ، وكان ذا بغي ، فسارت اليه بنو عصر ، فقتلوه . ومن بني عمرو رئاب بن البرّاء ، وكان على دين المسيح [٩] .

ومواطن بني عبد القيس بتهامة في الأصل ، ثم ارتحلت عنها بسبب الحروب التي وقعت بين أبناء ربيعة ، فذهبت الى البحرين ، فتغلبت على من كان قد

---

١ الأغاني (٢٠٩/١) .
٢ الجمهرة (ص ٢٧٨ وما بعدها) ، المبرد (١٨) ، الاصابة (١٠٤٢) ، الاشتقاق (١٩٧) ، المعارف (١١٥) .
٣ جمهرة (ص ٢٨٠) .
٤ الصفة (١٣٢) ، كحالة (١٠٤٣/٣) .
٥ الصحاح (١٨٦/٢) ، لسان العرب (٢٤٩/١٣) .
٦ جمهرة (ص ٢٨٠ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٥٤) .
٧ جمهرة (٢٨٢) ، شيخو : شعراء النصرانية (القسم الثالث : في شعراء بكر بن وائل من بني عدنان — ص ٤٠٠ وما بعدها) .
٨ جمهرة (ص ٢٨٢) ، الاشتقاق (ص ١٩٧) .
٩ الاشتقاق (ص ١٩٧) .

سكن قبلهم بها من اياد ومن بكر بن وائل وتميم . واقتسمتها بينهم ، فنزلت جذيمة بن عوف بن بكر بن عوف بن انمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز الخط وأفناءها ، ونزلت شن افصى طرفها وأدناها الى العراق ، ونزلت نكرة بن لكيز القطيف وما حوله والشفار والظهران الى الرمل وما بين هجر الى قطر وبينونة ، ونزلت عامر بن الحارث بن انمار بن عمرو بن وديعة والعمور ، وهم بنو الديّل ابن عمرو ، ومحارب بن عمرو ، وعجل بن عمرو الجوف والعيون والاحساء ، ودخلت قبائل منهم جوف عُمان فصاروا شركاء للأزد في بلادهم [1]. وقد بقيت بنو عبد القيس في هذه المواضع محتفظة بها عند ظهور الاسلام .

ويظن ان (Aboukaıun) ، وهو اسم قبيلة وموضع ذكر في جغرافيــة (بطلميوس) هو (عبد القيس) [2] . ولم يتحدث (الكلاسيكيون) شأنهم في اكثر ما كتبوه عن بلاد العرب بشيء عن هذه القبيلة . ولكن الاخباريين يروون ان عرب بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة غزوا السواحل المقابلة لهم من ارض ايران ، وذلك لضيق معاشهم ، وللضنك الذي حلّ بهم في عهــد سابور ذي الاكتاف (سابور الثاني) منتهزين فرصة اضطراب الأمن في تلك البلاد وضعف الحكومة بسبب صغر سن المملك . فلما كبر الملك واشتد ، جمع جموعه وسار بها على الغازين ، ففتك بهم ، وأسر منهم خلقاً كثيراً ، ثم عبر البحر (فورد الخط واستقرى بلاد البحرين ، يقتل اهلها ولا يقبل فداء . ولا يعرج عن غنيمة ، ثم مضى على وجهه ، فورد هجر ، وبها ناس من اعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس ، فأفشى فيهم القتل) (ثم عطف على بلاد عبد القيس ، فأباد اهلها) ثم سار الى اليمامة ، فقتل بها مقتلة كبيرة ، ولم يمر في طريقه بماء الا غوره ، ولا جب من جبابهم الا طمّه ، حتى وصل قرب المدينة ، فقتل من وجد هناك من العرب ، وأسر . ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس ومناظر الروم بأرض الشام ، فقتل من وجد بها من العرب ، وسبى وطمّ مياههم ، ثم أسكن من

---

١ البكري (١/ ٨٠ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/ ٣٠٠) ، نهاية الأرب (٢/ ٣٢٩) ، الاشتقاق (ص ١٩٦) ، صبح الأعشى (١/ ٣٣٧) ، القاموس (٢/ ٢٤٤ ، ٣٨٧) ، لسان العرب (٨/ ٧٢ ، ٣٩٨) ، الأغاني (١٣/ ٥٦ ، ١٤/ ٤٤ ، ١٠٣ وما بعدها) ، كحالة (٢/ ٧٢٦ وما بعدها) .

٢ Ency., I, P. 45

بني تغلب من البحرين دارين واسمها هيبج والخط ، ومن كان من عبد القيس وطوائف من بني تميم هجرَ ، ومن كان من بكر بن وائل كرمان ، ومن كان منهم من بني حنظلة بالرملية من بلاد الاهواز [١] .

وهم يذكرون ايضاً ان عرب الشام قد تأثروا بما فعله سابور بهم ، فاتفقوا مع الروم ، وانتقموا منه . ولكن سابور بعد انتصاره على الروم ، عاد فاتبع سياسة استرضاء العرب ، فاستصلحهم ، وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوج والاهواز [٢] . وهذه الرواية الثانية هي ، ولا شك الجزء الاخير من حديثهم عن حملة سابور على بلاد العرب ، اخذها الطبري أو المورد الذي اعتمد عليه من مورد كان قد جزأ الكلام ، فصار الحديث الواحد حديثين اثنين . ونجد ذلك واضحاً وضوحاً تاماً في اتفاق العبارات بين الروايتين ، ثم ان الاسكان الاجباري في ارض ما ليس نوعاً من الاستصلاح والاسترضاء .

وفي حديث الاخباريين عن حملة سابور على بلاد العرب ووصوله الى مقربة من المدينة وعن تنكيله بالعرب وحرقه المدن وطمّه المياه ، مبالغات كبيرة ولا شك ، اخذت من موارد فارسية بولغ فيها ، وليس في روايات المؤرخين الروم عن هذا الحادث ما يؤيد هذا الزعم .

وكان والي البحرين عند ظهور الاسلام ، المنذر بن ساوى ، وهو من بني تميم ، يحكمها باسم الفرس على حدّ رواية الاخباريين ، وقد ارسل اليه الرسول رسولاً عنه يدعوه وقومه من بني عبد القيس الى الاسلام . وكان رسول رسول الله هو العلاء بن الحضرمي . فلما اتاه العــلاء يدعوه ومن معه بالبحرين الى الاسلام أو الجزية ، اسلم المنذر ، وأسلم جميع العرب بالبحرين [٣] . وقد اوفدوا وفداً عنهم الى الرسول برئاسة المنذر بن الحارث بن النعمان بن زياد بن نصر بن عمرو بن عوف بن جزيمة بن عوف بن انمار بن عمرو بن وديعة بن بكر ، فاتصل بالرسول ، وصارت له صحبة ومكانة منه . ووفد منهم الى الرسول ايضاً الجارود وهو (بشر

---

١ الطبرى (٢/٦٦ وما بعدها) .

٢ الطبري (٢/٧٠) .

٣ ابن الأثير (٢/٨٦ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢ بقية الجزء الثاني ص ٢٦) ، المحبر (ص ٢٦٥) .

ابن عمرو بن خناش) ، وثعلبة أخو عوف بن جذيمة ، وفدا في بني عبد القيس سنة تسع مع المنذر بن ساوى . وكان نصرانياً فأسلم .

وكان بين بني عبدالقيس وسكان البحرين والعربية الشرقية بصورة عامة جماعة على دين يهود ، وجماعة اخرى على دين المجوس ، وجماعة على دين النصارى . وقد صالح من قرر البقاء في دينه العلاء بن الحضرمي والمنذر بن ساوى على الجزية [1] .

وينسب الى ابي عبيـدة معمر بن المثنى كتاب في اخبار بني عبد القيس ، اسمه (كتاب خبر عبد القيس) والى علاّن الشعوبي كتاب اسمه (مثـالب عبد القيس) ، كذلك ينسب الى المدائني كتاب اسمه (كتاب اشراف عبد القيس) [2] .

ومن ولد هنب بن أفصى [3] قاسط بن هنب [4] ، وهو والد وائل بن قاسط [5] ، والنمر [6] ومن بني النمر تيم الله وأوس مناة وعبد مناة وقاسط ، ومن بني تيم الله ابن النمر عامر الضحيان ، وقد ساد ربيعة اربعين عاماً وأخذ منها المرباع وهو عامر بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط . وأبو حوط الحظائر ابن جابر ، والد جابر الخير ، اخو المنذر بن ماء السماء لأمه [7] .

ومن رجال بني النمر بن قاسط سنان بن مالك ، وكان على الأبلة ، استعمله كسرى عليها . وهو والد صهيب من اصحاب الرسول . وقد عرف (صهيب) بصهيب الرومي . وذكر ابن خلدون انه ينسب الى الروم [8] ، فهل عني بذلك

---

١ ابن الأثير (٢/٨٩) .

٢ Ency. I, P. 46

٣ تاج العروس (١/٥١٨) ، لسان العرب (٢/٢٨٧) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٩) ، ابن خلدون (١٢/٣٠١) ، كحالة (٣/١٢٢٩) .

٤ لسان العرب (٩/٢٥٥) ، الاشتقاق (٢٠٢) .

٥ نهاية الأرب (٢/٣٣٠) ، الاشتقاق (٢٠٢) ، لسان العرب (١٤/٢٤٥) ، القاموس (٤/٦٣) ، كحالة (٣/١٢٤٤) ، ابن خلدون (٢/٣٠١) .

٦ جمهرة (٢٨٣) ، القاموس (٢/١٤٩) ، لسان العرب (٧/٩٥) ، تاج العروس (٣/٥٨٦) ، صبح الأعشى (١/٣٣٨) ، كحالة (٣/١١٩٣) .

٧ جمهرة (ص ٢٨٣ وما بعدها) .

٨ جمهرة (ص ٢٨٣ وما بعدها) .

ان امه من الروم ، او ان اجداده من اصل رومي ، عُدّوا من النمر بن قاسط ؟ ومن اشهر ديار النمر بن قاسط رأس العين (رأس)[1] .

وقد كانت النمر بن قاسط في جمله القبائل العدنانية الاخرى التي خضعت لحكم كندة ، ويذكر الاخباريون في تعليل ذلك ان الحارث بن ابى شمر الغساني لما قتل عمرو بن حجر (ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو ، وأمه بنت عوف بن محلم ابن ذهل بن شيبان . ونزل الحيرة . فلما تفاسدت القبائل من نزار ، أتاه اشرافهم ، فقالوا : انا في دينك ، ونحن نخاف ان نتفانى فيما يحدث بيننا ، فوجه معنا بنيك ، ينزلون فينا ، فيكفون بعضنا عن بعض . ففرق ولده في قبائل العرب ، فملك ابنه حُجَراً على بني اسد وغطفان ، وملك ابنه شرحبيل قتيل يوم الكلاب على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم والرباب ، وملك ابنه معديكرب ، وهو غلفاء ، على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن مالك بن حنظلة والصنائع ، وهو بنو رُقَيَّة قوم كانوا يكونون مع الملوك من شذاذ العرب ، وملك ابنه عبد الله على عبد القيس ، وملك ابنه سلمى على قيس)[2] . فكانت هذه القبيلة اذن في جملة القبائل العدنانية التي جمع شتاتها تاج كندة . وليس في رواية الاحباريين هذه غرابة ، فقد رأينا امرأ القيس يحكم قبله قبائل عديدة ، ويفرض تاجه عليها ، ثم يوزّع ابناءه على تلك القبائل . ولكن هذا التوحيد لا يدوم في العادة امداً طويلاً ، انما يتوقف على حكمة الحكام ، وعلى حسن تصرفهم ، وعلى قوتهم وقدرتهم ، وسلطة ذات يدهم . فاذا ظهر ضعف على الحاكم او الحكام ، او حدث حادث ، يتبين منه للقبائل الخاضعة ان من خضعت له لم يعد قوياً متمكناً ، ثارت عليه ثم لا يلبث ذلك البناء ان ينهار .

اما نسل وائل بن قاسط ، فهم بكر ودثار ، وهو تغلب ، وعبد الله ، وهو عنز ، والشُّخيص[3] ، وقد دخل نسله في بني تغلب ، والحارث وقد دخل في بني عائش بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن بكر بن وائل . امهم كلهم هند

---

١ ابن خلدون (٢/٣٠١) .
٢ الأغانى (٩/ ٨١ وما بعدها) .
٣ الجمهرة (٢٨٥) .

بنت مُرّ بن طابخة بن الياس بن عامر [1]

وولد تغلب بن وائل غنماً ، والأوس ، وعمران . ومن ولد غنم عمرو ووائل ومن ولد وائل شيبان ولودان ، ومن ولد عمرو بن غنم بن تغلب حبيب ومعاوية وزيد ، ومن نسل حبيب بكر وجشم ومالك ، ومن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب كان الشاعر عمرو بن كلثوم ، وبنوه : عبدالله والأسود ، وهما شاعران كذلك ، وعباد ، وهو قاتل بشر بن عمرو بن عدس . وكان من بني جشم مُرّة بن كلثوم ، وهو فارس من فرسان الجاهلية ، وكان أخاً لعمرو ابن كلثوم ، وأبو حنس عاصم بن النعمان بن مالك بن عتاب وهو ابن عم عمرو ابن كلثوم ، وعاصم هـذا هو قاتل شرحبيل بن الحارث الملك آكل المرار يوم الكلاب [2] .

ومن بني الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب ، كليب ، ومهلهل ، وعديّ ، وسلمة بنو ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم ، ومن نسل مهلهل ليلى وهي أم عمرو بن كلثوم ، ومن نسل كليب هجرس بن كليب [3] .

تغلب :

وتغلب من القبائل العربية الكبيرة التي ورد اسمها كثيراً في مؤلفات الاخباريين والمؤرخين ولها ايام مع القبائل الاخرى ، وهي مثل سائر القبائل العدنانية الاخرى مهاجرة على عرف النسابين ، تركت ديارها وارتحلت الى الشمال ، فسكنت في العراق وفي بادية الشام ، واتصلت منازلها بالغساسنة والمناذرة والروم والفرس . وكانت غالبيتها على النصرانية عند ظهور الاسلام .

1 الجمهرة (ص ٢٨٧) ، المبرد (١٧) .
2 الجمهرة (ص ٢٨٧) .
3 (تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار) ، لسان العرب (١٤٥/٢) ، تاج العروس (٣٣١/١) ، الاشتقاق (ص ٢٠٢) ، القاموس (١١٣/١) ، الصحاح (٨٨/١) ، نهاية الأرب (٣١٦/٢) .

وينسب النسابون تغلب الى جدّ أعلى زعموا ان اسمه (تغلب) ، وهو (تغلب ابن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار)[1] .

وقد عرفت هذه القبيلة بـ (الغلباء)[2] . وهو نعت يدل على فخر القبيلة بنفسها وعلى تباهيها على غيرها من القبائل . وقد ذكر بعض أهل الأخبار عنها قوله : (لو أبطأ الاسلام قليلاً ، لأكل بنو تغلب الناس)[3] . تعبيراً عن قوتها وكثرتها وأهميتها إذ ذاك بين القبائل .

وقيل في اسمها تغلب بنت وائل بالتأنيث ، ذهاباً الى القبيلة ، كما قالوا : تميم بنت مر . جاء في شعر الفرزدق :

لولا فوارس تغلب ابنة وائل ورد العدو عليك كل مكان[4]

وقد كانت لرؤساء تغلب الرئاسة على قبائل ربيعة ، كما صار لها اللواء . أي رئاسة الحرب . فمن يحمل اللواء تكون له الرئاسة في الحرب[5] .

ويرى أهل الأخبار ان قبيلة تغلب مثل سائر قبائل ربيعة كانت تسكن في الأصل في تهامة ، ثم انتشرت فنزلت الحجاز ونجد والبحرين ، فلما تحاربت مع (بكر بن وائل) ، زحفت نحو الشمال حتى بلغت أطراف الجزيرة ، فسكن قوم منها جهات سنجار ونصيبين ، حتى عرفت تلك الديار بـ (ديار ربيعة)[6] . وديار ربيعة بين الموصل الى رأس عين ونصيبين و (دنيسر) والخابور ، وما

١ لسان العرب (١٤٥/٢) ، تاج العروس (٢٣١/١) ، الاشتقاق (ص ٢٠٢) ، القاموس (١١٣/١) ، الصحاح (٨٨/١) ، نهاية الأرب (٣١٦/٢) ، جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم (٢٨٦) .

٢ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، للقلقشندي (ص ١٣٠) ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، للقلقشندي (ص ٢٨٧) .

٣ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٢٨٣) (القاهرة ١٩٦٢ م) ، النصرانية (١٢٥) ، شرح التبريزي لمعلقة عمرو بن كلثوم (١٠٨) ، (طبعة لايل) ، النصرانية (١٢٥) .

٤ القلقشندي ، نهاية الأرب (١٨٦) .

٥ ابن الأثير ، الكامل (٣١٢/١) .

٦ نهاية الأرب (١٧٠) ، قلائد الجمان (١٣٢) ، سبائك الذهب (٥٢) .

بين هذه من المدن والقرى . وجمعت هذه الديار بين (ديار بكر) و (ديار ربيعة) وسميت كلها بـ (ديار ربيعة) [1]. وقد انتشرت بطون تغلب في الثرثار، بين سنجار وتكريت [2] .

ويروي أهل الأخبار ان أول من نزل بطون تغلب في الجزيرة الفراتية هو : (علقمة بن سيف بن شرحبيل بن مالك بن سعد بن جشم بن بكر) وقد قاتل أهل الجزيرة حتى غلبهم ، وأنزل قومه بها . ويؤيدون رأيهم هذا بما جـاء في معلقة (عمرو بن كلثوم) :

ورثنا مجـدَ علقمة بن سيف   أباح لنا حصون المَجد دِينا [3]

وقد كان شريفاً رئيساً في الجاهلية [4] .

وقد أدى اتصال تغلب بالروم وبنصارى العراق والجزيرة وبلاد الشأم الى دخول قسم منهم في النصرانية كمعظم القبائل التي دخلت العراق وبلاد الشأم . وهي من القبائل المتنصرة ومن سكان الخيام [5] .

وقد تغلب الشاعر (جابر بن حني التغلبي) ، ويقال انـه قال في شعر له مخاطباً بهراء :

وقد زعمت بهراء ان رماحنا   رماح نصارى لا تخوض الى الدم [6]

وهو بيت من قصيدة يفتخر فيها بقومه وبشجاعتهم : ومعنى هذا البيت إن صح ، ان النصارى لم يكونوا أشداء في الحروب ، وانهم لم يكونوا على شاكلة العرب الوثنيين في الطعن والضرب .

ومن ولد تغلب في رأي النسابين : غنم والأوس وعمران . ومن بطون غنم :

---

١ ابن خلدون (٢/١٠٤) ، صبح الأعشى (١/٣٣٧) ، البلدان (٢/٤٩٤) (بيروت ١٩٥٦م) .

٢ البلدان (١/٩٢١) (طهران) .

٣ جمهرة أشعار العرب (١٢٤) ، شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٢٩) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٤١١) .

٤ الاشتقاق (٢٠٣) .

٥ Raccolta, P 142

٦ النصرانية (١٢٦) ، شعراء النصرانية (١٩٠) .

(الأراقم) . وهم جشم ومالك وعمرو وثعلبة والحارث ومعاوية وهم بنو بكر ابن حبيب بن عمرو بن غـنـم بن تغلب[1] . ومنهم : عمرو بن الخنس قاتـل (الحارث بن ظالم) ، وكان (الأسود بن منذر) ملك الحيره قد طلب ذلك منه . ومنهم (الهذيل بن هبيرة) وكان قد رأس تغلب في الجاهلية[2] . وكان جراراً للجيوش ، أسره يزيد بن حذيفة السعدي[3] .

ومن (بني تغلب) (السفّاح بن خالد) ، واسمه (سلمة) . وكان جراراً للجيوش في الجاهلية . وإنما سمي (السفاح) ، لأنه سفح المزاد يوم كاظمة ، وقال لأصحابه : قاتلوا فإنكم ان أهزمتم مُتم عطشاً[4] .

ومن بني غنم : بنو جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب . ومنهم الشاعر : عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم ، ومن ولده : عبد الله والأسود ، وهما شاعران سيدان . وعبّاد ، وهو قاتـل بشر بن عمرو بن عدس[5] .

ومنهم (أبو حنش) ، عاصم بن النعمان بن مالك بن عتاب ، وهو ابن عم عمرو بن كلثوم . وهو قاتل (شرحبيل بن الحارث) الكنـدي ، وذلك يوم الكلاب[6] . ومنهم (الفدوكس) الذين منهم (الأخطل)[7] .

ومن بني جشم بن بكر بن الحارث ، (كليب وائل) ، ذو الصيت الشهير في كتب أهل الأخبار شقيق (مهلهل) . و (كليب وائل) هو (وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير) . وقد ضرب بـه المثل في العز فقيل (أعز من

---

١ المبرد ، نسب عدنان وقحطان (ص ١٧) ، المعارف (٣٢) ، الاشتقاق (٢٠٣) ، ابن رشيق ، العمدة (١٥٧) .

٢ الاشتقاق (٣٣٩) .

٣ الاشتقاق (٢٠٣) .

٤ قال الشاعر :

وأخوهما السفّاح ظمأ خيله — حتى وردن جباء الكلاب نهالا

الاشتقاق (ص ٢٠٣) .

٥ المعارف ، لابن قتيبه (ص ٤٣) ، شرح المعلقات ، للتبريزي (ص٢٨٣) ، جمهرة ابن حزم (ص ٢٨٧) .

٦ ابن حزم ، جمهرة (ص ٢٨٧) .

٧ الاشتقاق (٢٠٤) .

كليب وائل)[1] . وكان والده (ربيعة) ، قد قاد مضر وربيعة يوم السلاّن الى أهل اليمن ، وأدخله (السكرى) في جملة (الجرارين)[2] .

أما السبب الذي حمل (ربيعة بن مرّة بن الحارث بن زهير التغلبي) على مقارعة قبائل اليمن وحروبها ، فهو شعور أبناء تغلب بوجوب التخلص من نفوذ اليمن عليها ، ومن حكم (زهير بن جناب الكلبي) عليها . فقد زعم أهل الأخبار ان (تغلب) كانت مثل سائر قبائل (معدّ) خاضعة لنفوذ حكّام اليمن ، وقد سئمت من جوار الحكّام الذين ينصبهم (التبابعة) عليها ، فظهر رجال فيها عزموا على التخلص من ذلك النفوذ ، وتكوين حلف قويّ يكبح جماح اليمن يتألف من قبائل معدّ . وكان من بين أولئك الرجال (ربيعة بن الحارث ابن زهير) والد (كليب وائل) ، وكانت خطته ضرب اليمن للتخلص من حكم (زهير بن جناب) الذي كان حكّام اليمن قد أقاموه على قبائل معدّ . وجمع قبائل مضر وربيعة تحت زعامة واحدة ، وبذلك تتخلص تلك القبائل من تحكم اليمن في شؤونها ومن دفع الاتاوة لها .

ويذكر أهل الأخبار ان (زهير بن جناب) الكلبي القضاعي ، كان قد ولي أمر (معد) بمساعدة حكّام اليمن وتأييدهم له ، ويذكر بعض منهم ان (أبرهة) الحبشي هو الذي نصب زهيراً عليها وأيده وأعانه على معدّ . وذاك حينما غزا (أبرهة) نجداً وتوسع فيها ، فجاءه (زهير) ليتقرب اليه ، وليعينه على بعض قبائل معدّ[3] .

وسار (زهير) في حكم معدّ ، حتى اشتط وبغى وقسا في جمع الاتاوة ، فضجر الناس منه ، وهاجمه (زيابة) من (بني تيم الله) ، وطعنه طعنة ظن انه قد قضى بها عليه . ولكن زهيراً نجا منها ، فجمع عندئذ قومه ومن كان معهم من قبائل قحطان وغزا بكراً وتغلب ، فانهزمت بكر ثم تغلب ، وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة ، وجماعة من أشراف تغلب . فتأثرت قبائل ربيعة من هذه الهزيمة ، وعينت (ربيعة بن مرّة بن الحارث بن زهير التغلبي) رئيساً

١ الاشتقاق (٢٠٤) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٢١٤) .
٢ المحبر (ص ٢٤٩) .
٣ ابن الأثير ، الكامل (١/٢٠٥) .

عليها ، فحمل ربيعة ومن انقاد اليه على زهير ، واسترجع الأسرى ولكن زهيراً لم يلبث ان عاد الى ما كان عليه من جمع الاتاوة من معدّ [1] .

وكليب وائل ، كما يظهر من روايات الأخباريين ، رجل صلب قوي ، ارتفع نجمه بعد يوم (خزازى) (خزاز) الذي أظهر قوة معدّ لما اجتمعت ، فانتخب رئيساً مطاعاً على هذه القبائل ، وأعطي الملك والتاج ، وبقي على ذلك دهراً ، حتى دخله زهو شديد ، فأخذ يبغي على القبائل ويشتط في أخذ الاتاوة منها وفي اتخاذ خيرة الأرض المخصبة ذات المياه الغزيرة مناطق حمى لا يجوز لإبل غيره الرعي فيها ، وفي الاستيلاء على مواضع الماء ، حتى ضجرت الناس منه وسئمت حكمه وودت لو تمكنت من التخلص من جوره وتعسه [2] .

قال (ابن الكلبي) : لم تجتمع معدّ كلها إلا على ثلاثة من رؤساء العرب، وهم : عامر بن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحارث : والثاني ربيعة ابن الحارث بن مرّة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب ، وهو قائد معدّ يوم السلان . وهو كما رأينا والد (كليب) . والثالث : كليب بن ربيعة [3] . ويظهر من ذلك انه ورث رئاسة قومه ورئاسة معدّ من والده ، وانه زاد في قومه وفي مكانته يوم قاوم قبائل اليمن ، وتغلب عليها في (يوم خزاز) ، وكانت معدّ تهاب اليمن ، وتخضع لملوكها ، لذلك كان يوم السلان ويوم خزاز ، نصراً معنوياً كبيراً لها ، جرأها على الوقوف أمام اليمن ، وعلى تحديها . وجعلها تشعر بأنها قوة وأن في امكانها صد اليمن لو اتحدت قبائل (معدّ) فيما بينها ، ووحدت كلمتها تحت رئاسة رئيس قوي قدير .

ويذكر أهل الأخبار ان معداً اجتمعت كلها تحت رايته ، وجعلت له قسم الملك وتاجه وتحيته وطاعته ، فغبر بذلك حيناً من الدهر ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ،

١ المحبر (ص ٢٤٩) ، العقد الفريد (٦/٩٧) (العريان) ، نهاية الأرب (١٥/٤٢٠ وما بعدها) .
٢ ابن الأثير ، الكامل (١/٢١٤) ، النقائض (٩٠٥ وما بعدها) الميداني ، الأمثال (١/٢٥٤) ، خزانة الأدب (١/٣٠١ وما بعدها) ، المحبر (٢٤٩) ، المعارف (٦٠٥ وما بعدها) (دار الكتب (سنة ١٩٦٠م) .
٣ نهاية الأرب (١٥/٣٩٦ وما بعدها) .

ويقول : وحش أرض كذا في جواري ، فلا يهاج ، ولا تورد إبل أحد مع إبله ولا توقد ناره . وكان اذا رأى أرضاً فأعجبته حماها ومنع الناس عنها ، وذلك بأن يطلق جرواً يعوي ، فيكون المكان الذي ينقطع فيه صوت العواء فلا يسمع ، هو حد تلك الأرض . قيل ولذلك عرف بـ (كليب) [1] .

وكان (كليب) قد تزوج (جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة)، وهي أخت (جسّاس بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة) [2] . وهي أيضاً من أشراف قومها ، و (ذهل بن شيبان) من الأسر المعروفة التي نجد لها اسماً بين الجاهليين .

وقد أدت عنجهية (كليب) وغطرسته الى مقتله ، وسبب ذلك على ما يقوله أهل الأخبار ان ناقة كانت للبسوس خالة (جسّاس) ، أو الى (جليلة أخت جسّاس) على رواية ، أو الى رجل اسمه (سعد الجرمي) واسم الناقة (السراب) كانت قد اختلطت بإبل (كليب) وأخذت ترعى معها ، فلما رآها كليب ، أنكرها واستعظم أمر دخولها المرعى مع إبله ، فرمى ضرعها بسهم فنفرت وهي ترغو . فلما رأت (البسوس) ، أو (جليلة) أو رأى (سعد الجرمي) الناقة وقد أصيبت بسهم كليب ، عز على صاحبها ذلك ، أو على صاحبتها حسب اختلاف الروايات ، وذهب أو ذهبت كل واحدة منها الى (جساس) ، صارخاً أو صارخة ، وكل منهم في جواره وعند فناء بيته ، فثار الدم في رأسه ، وأخذته العزة ، وذهب غاضباً الى (كليب) ومعه (عمرو بن الحارث) فكلماه ، وأظهر جسّاس ما حلّ به من ذل وإهانة برمي (السراب) بالسهم ، فلم يبال بهما ، فطعنه (جساس) وضربه (عمرو بن الحارث) ، فقتل كليب [3] .

وقد أثار مقتل (كليب وائل) هذا حرباً استمرت أربعين سنة على ما يذكره أهل الأخبار عرفت بـ (حرب البسوس) . وهي في الواقع معارك وغزوات

١ نهاية الارب (٣٩٦/٥١) ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر (٦٥/١ وما بعدها) (طبعة بيروت) ، السويدي ، سبائك الذهب (١٠٥) .
٢ المحبر (ص ٣٠٠) .
٣ العقد الفريد (١٥٠/٥) ، النويري ، نهاية الأرب (٣٩٦/١٥) ، اللسان (٢٨/٦) ، (دار صادر) .

وقعت في أوقات متقطعة وقعت بين (تغلب) ومن حالفها وبين (بكر) . أثارها وأشعل نارها (مهلهل) أخو (كليب) أخذاً بثأر أخيه من (بني بكر) قوم (جساس) . وأعلنها دون اهتمام لتوسط عقلاء (بكر) بحلّ القضية حلاً سليماً حقناً لدماء الطرفين . بتأدية دية الملوك ، وهي ألف ناقة سود المقل ، أو ان يأخذوا أحد أبناء (مرة بن ذهل) والد جساس، فيقتلوه بدم (كليب) [1].

وأبت بعض قبائل بكر الدخول في حرب مع (تغلب) . واعتزلت عن (بني شيبان) قوم جساس ، ومن هؤلاء (بنو لجيم) و (بنو يشكر) . وانسحبت (الحارث بن عباد) . وعشائر أخرى . وتولى (مرة بن ذهل) قيادة قومه من (بني شيبان) من بكر . فكانت معارك وملاحم ذكر أسماءها أهل الأخبار . منها (يوم النهى) ، وهو أول يوم من أيام حرب البسوس على رواية ، ويوم عنيزة ، وهو أول يوم من هذه الأيام على رواية أخرى [2] . ثم وقعت أيام أخرى منها يوم الذنائب ، وهو يوم قتل فيه : (شراحيل بن مرّة بن همام) والحارث بن مرة ، وهمام بن مرّة أخو جساس من أمه وأبيه . وعمرو بن سدوس بن شيبان . وهو من بني دهل بن ثعلبة ، وسعد بن ضبيعة ، وهو من بني قيس بن ثعلبة وآخرون . وقد قيل إن منهم من قتل في أيام أخرى .

ومن بقية الأيام : يوم واردات ، ويوم عويرضات ، ويوم الحنو ويوم أنيق ، ويوم ضرية ، ويوم القصيبات ، ويوم العصيات ، ويوم قضة ، وهو يوم التحالق ، وفيه حلّق رجال بكر لمتهم ، وذلك ليميز البكريون عن غيرهم ، الى غير ذلك من أيام تجد أسماءها في كتب الأخبار والتأريخ والأدب .

وقد توسط رؤساء بكر عند (مهلهل) بأن يوقف القتال ، بعد ان سقط القاتل وهو (جسّاس) قتيلاً في معركة من هذه المعارك ، يقال انها معركة (يوم واردات) لكنه لم يقبل وأبى إلا الاستمرار في القتال حتى يشفي نفسه من (بني بكر) ، فتدخل (الحارث بن عباد) عندئذ واشترك مع البكريين ، وتولى أمر (بني بكر) ، ووقعت أيام أخرى أثرت في (بني تغلب) . وقد وقع

١ نهاية الأرب (٣٩٦/١٥) ــ ابن الاثير ، الكامل (٣١٢/١) .

٢ أبو الفداء ، المختصر (٩٥/١ وما بعدها) (طبعه بيروت) ، المعارف (٦٠٥ وما بعدها)، (دار الكتب المصريه) .

(مهلهل) في يوم (قصة) وهو يوم (تحلاق اللمم) أسيراً في أيدي (الحارث ابن عباد) ولم يكن يعرفه . فسأله الحارث عن مكان (مهلهل) قائلاً له : دلني على عدي بن ربيعة (وهو اسم مهلهل) وأخلي عنك . فقال له عدي : عليك العهود بذلك إن دللتك عليه ؟ قال . نعم . قال : فأنا عدي . فجزّ ناصيته وتركه . وقال فيه :

لهفَ نفسي على عديّ ولم أعرف عديّاً إذْ امكنتني اليدان [1]

وورد في بعض الأخبار ان الذي قتل (جساساً) هو (الهجرس) ، وهو ابن كليب ، وابن أخت جساس ، إذْ ان أمه هي (جليلة) . وكان جسّاس قد سباه ، ثم زوجه ابنته ولكنه أبى إلا ان يقتل خاله ، أخذاً منه بدم والده . ويقال ان جسّاساً لم يقتل وإنما مات حتف أمه [2] .

وفي هذا الأسر وجز الناصية كانت نهاية زعامة (مهلهل) على قومه ، فقد ترك أهله ، وفرّ الى (مذحج) ، حيث نزل بـ (بني جنب) ، فخطبوا اليه ابنته وقيل أخته فنعهم ، فأجبروه على تزويجها ، وساقوا اليه جلوداً من أدم . وكان قد كبر وتقدم في السن وضعف حاله فجاءه أجله بعد مدة غير طويلة ، ويقال إن عبدين من عبيده اشتراهما (مهلهل) ليغزوان معه ، سئما منه ، فلما كانا معه بموضع قفر أجمعا على قتله ، فقتلاه ، وبذلك انتهت حياته ، وحياة حرب البسوس [3] .

ويذكر أهل الأخبار ان العرب صارت تضرب المثل في شؤم (البسوس) وفي شؤم (سراب) ، فقالت (أشأم من البسوس) و (أشأم من سراب) [4] .

١ العقد الفريد (٥/٢١٣ وما بعدها) ، صبح الأعشى (١/٣٩١) .
٢ الكامل ، لابن الاثير (١/٣١٩) ، الأغاني (٤/٢٩٤) ، (٥/٢٩٤) (بيروت) .
٣ النويري ، نهاية الأرب (١٥/٣٩٦) ، ابن الأثير (١/٣١٢) ، صبح الأعشى (١/٣٩٩) ، العقد الفريد (٥/٢١٣) ، سبائك الذهب ، الفصل الحادي عشر ، لسان العرب (٦/٢٨) .
٤ الميداني ، مجمع الأمثال (١/٣٨٧) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٣١٢) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، مقامات الحريري (٢٦٠) ، (المكتبة التجارية) ، فرائد اللآل في مجمع الأمثال (١/٣١٩ وما بعدها) (المطبعة الكاثوليكية بيروت) ، ابراهيم بن السيد على الأحدب الطرابلسي ، جمال الدين محمد بن محمد بن نباته المصري ، سرح العيون =

وقد اقحم الرواة شعراً في قصصهم عن هذه الحرب ، وذلك على عادتهم في رواية اخبار الايام ، وهو لا يخلو من أثر الإثارة والعواطف القبلية . ونجد في الشعر المنسوب الى البسوس تحريضاً أثار جساساً حتى دفعه على قتل (كليب) دون أن يفكر في سوء عاقبة ذلك القتل . ويعرف هذا النوع من الشعر بـ (الموثبات) . وهو من شعر التحريض . ومن هذا النوع الشعر الذي تقوله النساء في ندب الموتى لإثارة شجون الحاضرين [1] .

ويعد (مهلهل) في جملة فرسان العرب الشجعان المعروفين . كما يعد في جملة الشعراء المتقدمين . لقب بـ (مهلهل) ، لانه اول من رقق الشعر ، او لقوله :

لما توغل في الكراع هجينهم هلهلت أثأر مالكاً او صنبلا فتدبر [2]

وقد كان لتغلب جملة رؤساء ، منهم رئيس يقال له الجرّار ادرك النبي ، وأبى الاسلام فبعث رسول الله زيد الخيل الشاعر المشهور وأحد الشجعان المشهورين ، ليطلب منه الدخول في الاسلام كما تقول احدى الروايات او القتال ، فأبى الاسلام وقاتل حتى قتل [3] .

ولاعتزاز تغلب بنفسها ، ولشعورها بعزتها ، امتنعت عن دفع الجزية المفروض اداؤها على اهل الكتاب ، وذهبت الى عمر بن الخطاب قائلة له : (نحن عرب لا نؤدي ما يؤدي العجم ، ولكن خذ منّا كما يأخذ بعضكم من بعض) . ورضيت بدفع ضعف ما يدفعه المسلمون صدقة أنفه من كلمة (جزية) [4] . واقتدت قبائل

= شرح رسالة ابن خلدون (٤٨ وما بعدها) (مصطفى البابي) ، الشعر والشعراء (٩٩ وما بعدها) ، شعراء النصرانية ، القسم الثاني (١٦٤ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٣٩١/١) .

١ دائرة المعارف الاسلامية (٦٤٥/٣) (ترجمة ابراهيم شنتناوي وجماعته) .

٢ بلوغ الأرب (١٠٨/٣) ، الشعر والشعراء (٩٩) ، جمهرة أشعار العرب (٢١٨) ، شرح التبريزي (٢١٠)، الاشتقاق (٣٣٩)، شرح العيون (٥٦) ، الكامل (٣١٦/١) .

٣ الأغاني (٥٢/١٦) (أخبار زيد الخيل) .

٤ السنن الكبرى (٢١٦/٩) ، (باب نصارى تغلب تضعف عليهم الصدقة) ، (فصل في شأن نصارى تغلب وسائر أهل الذمة وما يعاملون به) . كتاب الخراج (١٢٠ وما بعدها) ، (القاهرة ١٣٥٢ هـ) . البلاذري ، فتوح (١٨٥ وما بعدها) .

اخرى مثل تنوخ وبهراء بتغلب ، فرضيت بدفــع الصدقة التي يدفعها المسلمون مضاعفة مفضلين اياها على دفع الجزية ، لكي لا تكون في مصاف النبط ، ومن اهـ لفهم من غير العرب ، والمساواة فيها تعد اهانة لهم في نظرهم ، وان كان دافعوها نصارى مثلهم ، وهم اخوانهم في الدين .

وذكر ان (عمر بن الخطاب) لما همّ بفرض الجزية عليهم ، قطعوا الفرات وأرادوا اللحاق بأرض الروم ، فانطلق (النعمان بن زرعة) أو (زرعة بن النعمان) الى (عمر) ، فقــال له : انشدك الله في بني تغلب ، فانهم قوم من العرب نائفون من الجزية ، وهم قوم شديدة نكايتهم ، فلا يعن عدوك بهم . فأرسل عمر في طلبهم وأضعف عليهم الصدقة [1] .

ومن مواضعها التي كانت تتبرك بها قبر القديس مارسرجيوس (مارسرجس) بالرصافة [2] .

وكانت تغلب ايضاً في جملة القبائل العدنانية التي خضعت لآل كندة ، حكم منهم عليها معديكرب المعروف بغلفاء [3] ، وخضعت ايضاً لحكم ملوك الحيرة الذين حاولوا اصلاح البين بين تغلب وبين بكر بن وائل ، فأخذوا رهائن من الطرفين ، ليمنعوهم بذلك من القتال [4] . وقد وقعت بين الحيين حروب طويلة ترد اخبارها في الايام ، كما وقعت بينها وبين يربوع وقبائل اخرى حروب سأتحدث عنها في الفصل الخاص بأيام العرب قبل الاسلام .

وقد ثار التغلبيون مراراً على ملوك الحيرة وحاربوهم ، والواقع ان خضوع تغلب والقبائل الكبيرة الاخرى لملوك الحيرة لم يكن الا خضوعاً اسمياً ، يتمثل في حمل الاتاوات الى الملوك ما داموا اقــوياء ، ولذلك كان ملوك الحيرة كما كان

١ البلاذري ، فتوح (١٨٥ وما بعدها) .

٢ من شعر الأخطل :

لـمـا راونـا ، والصليب طالعـا ومـار سرجس ، وسـما نافعـا
وأبصـروا راياتنـا لوامعـا خلـوا لنـا راذان والمزارعـا

المشرق ١٩٣٦ (ص ٢٤٧) .

٣ الأغاني (٩/٨٢) .

٤ الأغاني (١١/٤٢ وما بعدها) .

الأكاسرة والقياصرة يسترضون الرؤساء بالهبات والمال ، ومن جملة هؤلاء ، سادات (مشايخ) هذه القبيلة .

وأما بكر بن وائل ، فكان من نسله عليّ ، ويشكر ، وبدن . وقد دخل بنو بدن في بني يشكر ، ومن بني يشكر الشاعر الحارث بن حلزه ، والريّان اليشكري ، سيد بني بكر في حربهم مع بني تغلب . وكان من نسل عليّ بن بكر ، صعب بن عليّ ، وهو والد مالك ولُجَيْم وعكابة . ومن مالك بن صعب سهلْ بن شيبان بن زمان المعروف بالمفد [1] . ومن بطون يشكر ، بنو غُبر بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر ، وبنو كنانة ، وبنو حرب بن يشكر ، وبنو ذبيان بن كنانة بن يشكر [2] .

وبكر بن وائل ، من القبائل الكبيرة التي كان لها شأن معروف عند ظهور الاسلام . وهي مثل القبائل العدنانية الاخرى من القبائل المهاجرة التي تركت ديارها القديمة على حد قول الاخباريين ، وهي تهامة ، على اثر الحروب الكثيرة المملّة التي وقعت بين العدنانيين ، فهاجرت الى اليمامة ثم الى البحرين والعراق . ويذكر انها اخذت تغزو مع تميم وعبد القيس حدود الفرس ، حتى اضطر (سابور) الثاني المعروف بـ (سابور ذي الاكتاف) حوالي سنة (٣٥٠ للميلاد) على مهاجمة هذه القبائل ومحاربتها ، وتخريب المنازل التي كانت تنزل بها . فلما انتهى من حروبه ، أمر بنقل كثير من الأسرى الى الأهوار وكرمان لإسكانهم هناك [3] .

وفي القرن الخامس للميلاد ، كان الحكم على بكر وأكثر قبائل معدّ على حد رواية الاخباريين في ايدي التبـــابعة ، ثم في ايدي ملوك كندة ، نصبهم التبابعة انفسهم ملوكاً على تلك القبائل . وكان أولهم حجر آكل المرار الذي انتزع من اللخميين ما كان في ايديهم من ملك بكر بن وائل ، ووسّع ملكه . فلما توفي حجر تولى الملك ابنه عمرو المعروف بالمقصور من بعده ، وبقيت بكر تابعة له ، وكذلك لابنه الحارث مغتصب عرش الحيرة على نحو ما ذكرت . وكان الحارث

١ جمهره (ص ٢٩١) ، (بنو زمان) ، الاشتقاق (٢٠٧) ، المعارف (٣٢) .
٢ المبرد (١٧) .
٣ أبو الفداء (٤٨/١) ، الطبرى (٦٦/٢) .

قد وزّع ابناءه على القبائل ، ليتولوا ادارة شؤونها فعين ابنه شراحيل او شرحبيل او سلمة حاكماً على بكر . فلما اعاد انو شروان عرش الحيرة الى اصحابه اللخميين ، وانتكس الأمر مع الحارث ، حتى اضطر الى الهرب الى ديار كلب او غيرها ، حيث لاقى مصيره بكيفيــة لم يتفق على وصفها الاخباريون ، وقعت النفرة بين اولاده ، ودبّ الخلاف بين ابنائه ، فاقتتلوا ، وتحزبت القبائل واقتتلت . ثمّ وجد رؤساؤها انها فرصة سانحة ، فاستقلوا عن كنده ، وعادت الى ما كانت عليه من الفرقة والاستقلال . وترأس كليب وائل تَغْلِبَ وبكراً وقبائل معد ، وقاتل جموع اليمن ، وهزمهم ، وعظم شأنه ، وصار ملكاً زماناً من الدهر ، ثم داخله الزهو والغرور ، فبغى على اتباعه ، وحمى اكثر الارضين ، فلم يسمح لأحد بالرعي فيهـــا الا باذنه ، فقتله رجل من بكر اسمه (جساس) في قصة يرويها الاخباريون ، فثارت تغلب ، وطالب اخو كليب وهو (مهلهل) بالأخذ بالثأر من بكر . فجرت بين القبيلتين حروب طويلة استمرت على ما يذكر الاخباريون اربعين عاماً ، هلك فيها خلق كثير وانتهت بمقتل جساس ، وهلاك مهلهل في قصص مُنَمَّق من هذا القصص الذي يرويه اهل الاخبار .[1]

وقد أضعفت هذه الحروب القبيلتين ولا شك ، وقد تدخل ملوك الحيرة في الأمر ، فأصلحوا بينهم : أصلح بينهم المنذر بن ماء السماء على رواية ، أو عمرو ابن هند في رواية اخرى[2] ، وقد كانوا مع المنذر الثالث في غزوته التي غزا بها الغساسنة ، كما كانوا مع النعمان بن المنذر . وقد حاربوا الفرس مع بني شيبان ، فانتصروا عليهم في معركة ذي قار . وكان يؤيد الفرس من العرب تغلب وطيء واياد وبهراء وقضاعة والعباد والنمر بن قاسط . وقد اتفقت اياد سراً مع بكر بن وائل ، فانهزمت حين اشتباك المعركة ، فانهزمت الفرس ومن ساعد الفرس من القبائل التي اشتركت معها تأييداً لإياس بن قبيصة ، او بغضاً لبكر كما هو شأن تغلب ، او طمعاً في ربح من الفرس او رغبة في التقرب اليهم . وقد كان لهذه المعركة اثر كبير في نفوس القبائل ، ومركزها مع الفرس .

١ أبو الفداء (١/٧٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٣٠١) .
٢ الأغاني (١١/٢٢ ، ٤٤ وما بعدها) .

ويظهر ان بكراً لم تخضع للفرس ، ولا لحكم الحيرة بعد معركة ذي قار . وفي السنة التاسعة من الهجرة دخل قسم منهـا في الإسلام ، فعين الرسول المنذر بن ساوى عليها وعلى بني عبد القيس . غير انها ارتدت عنها بعد وفاة الرسول ، فهاجمت مع قيس بن ثعلبة بوئاسة الحطم بن ضبيعة البحرين ، وعينت (الغرور) ملكاً على هذه الديار . عندئذ أرسل أبو بكر عليهم جيشاً بقيادة العلاء الحضرمي ومن بقي على الإسـلام من بكر وشيبان ، تمكن منهم وَرَحَمَهُمْ الى حظيرة الإسـلام .

ومن لُجَيْم بن صعب ، بنو حنيفة ، وبنو عجل ، ابنا لجيم بن صعب بن عليّ ، وبنو حنيفة هم أهل اليمامة [1] . ومن حنيفة الدئل ، وتقع مواطنهـم في اليمامـة كذلك [2] . ومن ولد الدئل بن حنيفة بنو مرّة وعبد الله وذهل وثعلبة . ومن بني مرّة هودة بن عليّ بن ثمامة الذي توجّه الى كسرى ، وعمرو بن عبد الله ابن عمرو بن عبد العُزّى ، وهو قاتل المنذر بن ماء السماء يوم عين أباغ [3] . ومن عديّ بن حنيفة مسيلمة الكذّاب [4] .

وأما ولد عُكابة بن صعب [5] . فهم : ثعلبة وهو الحصن ، وقيس وقد دخل بنوه في بني ذهل بن ثعلبة . فولد ثعلبة بن عكابة شيبان ، ودهل ، وقيساً ، والحارث . وقد دخل بنوه في بني أنمار بن دب بن مرّة بن ذهل بن شيبان . وأمهم رقاش ، وهي البرشاء بنت الحارث بن العتيك بن غنم بن تغلب . وولد ثعلبة أيضاً تيم الله بن ثعلبة . وأمه الجدماء بنت حلّ بن عديّ بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر ، وأتيد ، وضنّة . ودخـل بنو ضنّة في بني عذرة . ودخل بنو أتيد في بني هند من بني شيبان [6] .

١ الجمهرة (٢٩١ ، ٤٣٩) ، نهاية الأرب (٢/٣٣١) ، الاشتقاق (٢٠٧) ، (لجيم) ، سبائك الذهب (٥٦) ، الانباه (ص ٩٧) .
٢ تاج العروس (٧/٣٢٧) ، لسان العرب (١٣/٢٤٩) ، الاشتقاق (٢٠٩) ، نهاية الأرب (٢/٢٣١) ، ابن خلدون (٢/٣٠٢) .
٣ جمهرة (ص ٢٩٢) ، التبريزي ، شرح الحماسة (٤/١٥) .
٤ المبرد (١٦ وما بعدها) .
٥ لسان العرب (٢/١٨) ، الاشتقاق (٢١٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٢/٣٣١) ، ابن خلدون (٢/٣٠٣) ، كحالة (٢/٨٠٣) .
٦ جمهرة (ص ٢٩٥ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٥٨) .

ومن ولد ثعلبة بن عكابة ، تيم الله[1] . ومن ولد تيم الله بن ثعلبة بن عكابة ، شيبان[2] ، ومنهم أوس بن محصن ، وهو الذي أطلق له السبي يوم أوارة ، وصعير بن عامر وكان من فرسان بكر[3] .

ومن بني ذهل بن ثعلبة بن عكابة ، بنو سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة ، وتقع مواطنهم في اليمامة ، وكانوا أرداف ملوك كندة[4] . وبنو رقاش وهم الرقاشيون أبناء مالك (ملكان) وزيد (زيد مناة) ابني شيبان بن ذهل ابن ثعلبة بن عكابة من زوجه رقاش بنت ضبيعة بن قيس بن ثعلبة[5] . وكان بنو شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة من البطون الضخمة ، ورئيسهم في الجاهلية مرّة بن ذهل بن شيبان ، ومن نسله جساس قاتل كليب[6] .

ومن نسل قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ، ضبيعة ، وتيم ، وثعلبة ، وسعد . ومن نسل ضبيعة الأعشى ميمون بن قيس الشاعر المعروف ، والمرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، وشعراء آخرون . وتعدّ هذه القبيلة في طليعة القبائل بكثرة من ظهر فيها من الشعراء[7] . وتقع منازل قيس في اليمامة . وكانت صلاتهم وثيقة بالمناذرة . ومنهم كتيبة الصنائع إحدى كتائب النعمان بن المنذر[8] .

ومن بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ، عمرو بن أبي ربيعة بالمزدلف ، وابنه حارثة ذو التاج ، وكان على بني بكر يوم أوارة ، وهانىء بن مسعود

١ تاج العروس (٧/٢٠٣) ، (٨/٢١٦) ، الاشتقاق (٢١٢) ، ابن خلدون (٢/٣٠٣) .
٢ لسان العرب (١/٤٩٥) ، صبح الأعشى (١/٣٣٨) ، نهاية الأرب (٢/٣٣٢) ، ابن خلدون (٢/٣٠٣) ، الاشتقاق (٢١٠) .
٣ جمهرة (ص ٢٩٦) .
٤ لسان العرب (٧/٤١٠) ، الاشتقاق (٢١١) .
٥ جمهرة (ص ٢٩٨ وما بعدها)، القاموس (٢/٢٧٥) ، لسان العرب (٨/١٩٥) ، تاج العروس (٩/٨٤) ، كحالة (٢/٤٤٢) .
٦ ابن خلدون (٢/٣٠٣) .
٧ جمهرة (ص ٣٠٠) ، شيخو : شعراء النصرانية : القسم الثالث في شعراء بكر بن وائل من بني عدنان (٢٦٤ وما بعدها) ، كحالة (٣/٩٧١) .
٨ ابن خلدون (٢/٣٠٣) ، تاج العروس (٢/٢٤٢) ، (١٠/٢٣٣) ، نهاية الأرب (٢/٣٣٢) ، جمهرة (٣٠٠ وما بعدها) .

الشيباني الذي هاج القتال بين بني بكر وبني تميم وضبة والرباب يوم ذي قار ، ومفروق واسمه النعمان بن عمرو الأصم ، وهو من فرسان بكر وساداتهم ، وأعشى بني ربيعة ، وهو عبد الله بن خارجة بن حبيب بن قيس بن عمرو ابن أبي ربيعة الشاعر [1] .

ومن بني مرّة بن ذهل بن شيبان ، همام ، وجساس قاتل كليب التغلبي ، والمثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرّة بن ذهل الشيباني القائد الإسلامي الشهير قاتل مهران [2] .

وأما عكّ ، فهم من القبائل العربية القديمة ، وهم (أكيته) (Akkitai) عند (بطلميوس) ، ولا نعرف من أخبارها في نصوص المسند شيئاً . ويظهر من اختلاف النسّابين في نسبها ، ومن جعلها من قحطان تارة ومن عدنان تارة أخرى ، انها كانت على اتصال بالجماعتين ، واختلطت بهما بالفعل ، ولهذا الاختلاط أثره في تكوين الأنساب ، كما ان لمحالفاتها لقبائل عدنان وقحطان أثره في النسب .

ولهذا نجد بعض النسابين يجعلون عكّاً ابناً لعدنان ، فهو على حد قولهم شقيق معدّ ، ونجد بعضاً آخر يسمّيه الحارث ، ويجعل عكّاً لقباً له ، ثم يصيره ابناً للديث بن عدثان فيقول : هو عكّ بن الديث بن عدثان ، أي انه حفيد عدنان . ثم نجد قسماً آخر يصيره من الأزد ، أي من قحطان ، فيجعله عكّ ابن عدثان بن عبد الله بن الأزد ، بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان [3] . وأرى ان (عدثان) و (عدنان) كلمة واحدة . وقع فيها تحريف ، فصارت الكلمة الواحدة كلمتين ، وليس من المستغرب وقوع ذلك . فالكلمتان واحدة في الحروف ، ما عدا حرفي الثاء والنون اللذين يتشابهان في الرسم أيضاً فيما عدا عدد النقط .

١ جمهرة (ص ٣٠٥) .
٢ جمهرة (ص ٣٠٥ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٢/٣٣٣) ، الاشتقاق (١٥) ، كحالة (٣/١٠٧١) .
٣ جمهرة (ص ٣٠٩) ، ابن خلدون (٢/٢٩٩) ، طرفة الأصحاب (ص ٦٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/١٦٤) ، لسان العرب (١٢/٣٥٧) ، الصحاح (٢/١٤١) ، الصفة (٥٤) .

وقد رجح نشوان بن سعيد الحميري ، وهو من اليمن من حمير ، رأي القائلين من النسّابين برجوع نسب عكّ في الأزد ، فقال : (عكّ قبيلة من العرب يقال لهم ولد علك بن عدنان أخي معد ، ويقال لهم ولد علكّ بن عدثان بن عبد الله بن الأزد ، وهو أصح القولين . وإنما سبب انتسابهم في معدّ ان غسان وقت خروج الأزد من مأرب نزلوا تهامة وبها علكّ ، فخيرتهم عكّ بين شرقي تهامة وغربيها ، فاختارت غسّان الشرقي ، ومكثت به زماناً ، حتى قيل لهم إن عكاً أثخن منكم لبَناً ، وأدسم منكم سمناً ، لأن أموالكم إذا سرحت استقبلت الشمس ، وإذا راحت استقبلت الشمس ، فأحرّت الشمس رؤوسها ، وأموال عكّ تستدبر الشمس عند الطلوع والغروب ، فاستقالت غسّان عكّاً ، فلم تقلها ، فاقتتلوا ، فقتلت غسان عكّاً قتلاً ذريعاً وأجلتها عن كثير من أوطانها، فمن ثم انتفت عكّ من اليمن ، وانتسبت الى معدّ) [1] .

وقد ذكر نشوان شعراً جاء فيه :

ألم ترَ عكّاً هامة الأزد أصبحت مذبذبة الأنساب بين القبائل
وعقت أباها الأزد واستبدلت به أباً لم يلدها في القرون الأوائل ؟

ومن ولد علكّ علقمة ، ومن ولد علقمة الشاهد ، ومن ولد الشاهد غافق ، من نسل هؤلاء تفرعت سائر علكّ [2] . ونجد بعض النسابين يغفلون علقمة ، ويجعلون الشاهد ولداً من أولاد عدنان ، ومنهم من جعل لعلك ولدين ، هما : الشاهد ، وعبد الله ، وجعل للشاهد ولدين كذلك ، هما غافق ، وساعدة ، ولعبد الله بطنين كذلك ، هما : عبس وبولان . ومن بطون غافق ، القيانة ، والمقاصرة ، ودهنة . ومن بطون ساعدة : لام ، وصخر ، ودعج ، ونعج ، وزعل ، وقين ، وقاضية ، وعلاقة ، وهامل ، ووالبة ، وقحر . ومن بطون عبس : زهير ، ومالك ، وطريف ، وزيد ، والعسالق ، والحجبية ، وغنم ،

١ منتخبات (ص ٧٤) .
٢ سبائك الذهب (ص ٦٣) ، جمهرة (ص ٣٠٩) ، ابن خلدون (٢/٢٩٩) ، نهاية الأرب (٢/٣١٢) ، تاج العروس (٧/٣٧) ، أبو الفداء (١/١٠٧) ، كحالة (٣/٨٧٥) .

وتاج ، ومنسك ، ومن بطون بولان : الهليلي ، والحربي[1] . ويلاحظ ان معظم قبائل علكّ وبطونها ، هي في اليمن ، بينما هي قبائل عدنانية على رأي أكثرية النسّابين . وقد علل بعض النسابين ذلك بقوله : (وإنما كثرت قبائل عكّ بن عدنان باليمن ، لأن عكّاً تزوّج بنت أشعر ، فأولد فيهم ، فكانت الدار واحدة لذلك السبب)[2] .

وسمى النسابون ابن مضر عيلاناً كذلك[3] ، وقال بعضهم (إن عيلاناً لم يكن بأب لقيس ولا ابنٍ لمضر ، وإنما هو قيس بن مضر . وعيلان اسم فرس لقيس مشهور في خيل العرب مفضل ، وكان قيس بن مضر يسابق عليه . وكان رجل من بجيلة يقال له قيس كبة الفرس له مشهورة أيضاً ، وكانا متجاورين في دار واحدة قبل ان تلحق بجيلة بأرض اليمن . وهذا على مذهب من جعل بجيلة ابناً لأنمار بن نزار . وكان فرساهما مشهورين مذكورين ، ، فكان الرجل إذا سأل عن قيس ، أو ذكر قيساً ، قيل له : أقيس عيلان نريد ، أم قيس كبّة ؟ فصار قيس لا يعرف إلا بقيس عيلان ، وهو قيس بن مضر بن نزار .. وقد قيل إن قيساً سُمّي عيلان بغلام كان له ، وقيل سُمّي عيلان بكلب كان له يقال له عيلان)[4] الى غير ذلك من تفاسير وتعليلات تشير الى اضطراب النسابين والاخباريين في الناس وفي قيس عيلان[5] .

وقد عرف المنتسبون الى قيس عيلان بـ (قيس) و (بقيس عيلان) و بـ (عيلان) و بـ (القيسيين) و بـ (القيسية) كذلك[6] ، وهي من الكتل القبائلية الضخمة . ومع ذلك لا نعرف من تأريخها قبل القرن السادس للميلاد شيئاً يذكر . ولم يرد اسمها في كتب (الكلاسيكيين) . وقد ذكر لها الاخباريون

---

١ طرفة الأصحاب (ص ٦٤ وما بعدها) .

٢ طرفة الأصحاب (ص ٦٦) .

٣ سبائك الذهب (ص ٢١) ، الصحاح للجوهري (٤٧٢/١) ، لسان العرب (٧١/٨) . تاج العروس (٤٠/٨) ، القاموس (٢٤٤/٢) ، الاشتقاق (١٦٢) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، أبو الفداء (١١١/١) ، نهاية الأرب (٣٣٤/٢ وما بعدها) . كحالة (٩٧٢/٣ وما بعدها) .

٤ الانباه (ص ٨١ وما بعدها) .

٥ راجع التفاسير الأخرى لمعنى عيلان في : الاشتقاق (ص ١٦٢ وما بعدها) .

٦ Ency. II, P 652

أياماً عديدة ، تشمل حروباً وقعت بين القبائل القيسية نفسها ، وحروبـاً وقعت بين قيس وقبائل أخرى من غير قيس . وقد خضعت قبائل قيس مثل أكثر القبائل العدنانية الأخرى لحكم مملكة كندة القصير [1] .

وقد ولد الناس او عيلان قيسا ودهمان . وقد جعل بعض النسابين . قيساً ابناً لمضر ، وقالوا : انه عيلان ، وان عيلان عبد حضنه ، فنسب قيس اليه [2] . وقد ولد قيس عدة اولاد ، هم : خصفة [3] ، وسعد ، وعمرو [4] . ومن ولد عمرو فهم ، والحارث وهو عدوان [5] ، وأمها جديلة بنت مرّ بن أد ، فنسبوا اليها . وقيل : هي جديلة بنت مدركة بن الياس [6] .

وكان لفهم عدة أولاد ، منهم : قَيْن ، وسعد ، وعامر ، وعائذ ، ومن بني سعد تأبط شراً الشاعر [7] . وكانت الطائف من مواطن فهم ، وعدوان ، ثم غلبتهم عليها ثقيف ، فخرجوا الى تهامة ونجد . ومن بني طرود ، وهم بطن من فهم ، كان بأرض نجد ، الأعشى [8] .

أما أبناء عدوان بن عمرو ، فهم زيد ، ويشكر ، ودَوْس . ويقال انهم دَوْس التي في الأزد ، وكانت ديارهم بالطائف ، ثم تركوها بعد نزول ثقيف فيها وارتحلوا الى تهامة [9] . ومن ولد زيد بن عدوان ، أبو سيّارة الذي كان يدفع

---

١ Ency., II, P. 654.

٢ جمهرة (ص ٢٣٢) ، الاشتقاق (ص ١٦٢) .

٣ ابن خلدون (٢/٣٠٧) ، لسان العرب (١٠/٤٢١) الصحاح (٢/٢٠) ، كحالة (١/٣٤٥) .

٤ جمهرة (ص ٢٣٢) ، سبائك الذهب (ص ٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٦٢) ، المبرد (ص ١٠) .

٥ طرفة الأصحاب (ص ٦١) .

٦ جمهرة (ص ٢٣٢) ، لسان العرب (١٣/١١٢) ، الانساه (٨٣) ، كحالة (١/١٧٣) .

٧ جمهرة (ص ٢٣٢) ، الاشتقاق (ص ١٦٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٢/٣٤٣) ، ابن خلدون (٢/٣٠٥) ، تاج العروس (٩/١٦) .

٨ الأغاني (٤/٧٥) ، ابن خلدون (٢/٣٠٥) .

٩ ابن خلدون (٢/٣٠٥) ، نهاية الأرب (٢/٣٤٣) ، صبح الأعشى (١/٣٤٦) أبو الفداء (١/١١٢) ، لسان العرب (١٩/٢٧٠) القاموس (٤/٣٦٠) ، كحالة (٢/٧٦٢ وما بعدها) .

بالناس في المواسم . ومن بني يشكر بن عدوان ، عامر بن الظرب بن عمرو بن عيّاذ بن يشكر بن عدوان ، وقد عرف عامر بن الظرب هـذا بـ (حـاكم العرب) في الجاهلية . وهو شقيق سعد ، وعمر ، وصعصعة ، وثعلبـة . ومن بني ثعلبة بن الظرب ، ذو الأصبع العدواني من الشعراء المعروفين[1] . ومن بطون عدوان الأخرى ، بنو خارجة ، وبنو وابش ، وبنو رهم بن ناج[2] .

ومن نسل سعد بن قيس عيْلان ، غطفان ومنبه وهو أعصر[3] . أما غطفان ، فقبيلة كبيرة معروفة ، وهناك قبيلة أخرى تسمى بـ (غطفان) كذلك ، وهي يمانية ، تنسب الى غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام[4] . أما هذه ، فعدنانية في عرف النسّابين ، وتقع منازل هذه القبيلة شرقي خيبر وحدود الحجاز الى جبليّ طيء[5] .

وقد وقعت بين غطفان وبني عامر بن صعصعة عـدة أيام ، منهـا : يوم الرقم ، ويوم القرنتين ، ويوم طوالة ، ويوم قرن[6] . وقد كانوا مع الأحزاب في محاربة الرسول . وكانوا يعبدون العزّى . شجرة بنخلة عندها وثن تعبدهـا غطفان ، سدنتها من بني صرمة بن مرّة ، وكانت قريش تعظمهـا ، وكانت غني وباهلة تعبدها معهم . هدمها خالد بن الوليد ، وهدم البيت وكسر الوثن . وكانوا يطوفون حول البيت ، بيت بساء تشبهاً بطواف القبائل الأخرى حول الكعبة بمكة ، ولهم صنم آخر موضعه في مشارف الشأم يسمى الأقيصر[7] .

ومن رؤساء غطفان الذين سادوا فيها ، زهير بن جذيمة العبسي ، وقـد قاد غطفان كلها ، وعمرو بن جؤيّة بن لوذان الفزاري ، وقد قاد غطفان كلها الى

١ جمهرة (ص ٢٣٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ١٦٤) .
٢ الاشتقاق (ص ١٦٣) .
٣ جمهرة (ص ٢٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٦٤) ، المرد (ص ١٠) .
٤ ابن خلدون (٢/٢٥٦) ، نهاية الأرب (٢/٣٠٨) ، كحالة (٣/٨٨٩) .
٥ Ency , II, P. 144.
٦ كحالة (٣/٨٨٨) .
٧ المحبر (ص ٣١) ، كحالة (٣/٨٨٩) .

يوم الخنان الى بكر بن وائل ، وبلد بن عمرو ، وقد قاد غطفان لبني أسد ، وعيينة بن حصن بن حذيفة ، قاد غطفان الى بني تغلب يوم الساجسي [1] .

ويبدأ تأريخ غطفان باستقلال قبائل معدّ ، وخروجها من حكم اليمن على ما يرويه الاخباريون . وكان رئيس قبائل غطفان في هذا العهد زهير بن جذيمة العبسي سيد عبس ، وعبس من عطفان . وقد تلقب بلقب ملك وجبى الإتاوة من هوازن ، ثم قتله خالد بن جعفر بن كلاب ، فترأس عبس ابنه قيس ، وترأس ديبان — وهي من قبائل غطفان كذلك — حذيفة بن الفزاري . وتمكن الحارث بن ظالم أحد الفُتّاك في الجاهلية من قتل خالد بن جعفر ، وهو في جوار ملك الحيرة ، وقد أدت هذه الحوادث الى تشتيت قبائل غطفان ، والى نشوب حروب بينها خاصة بين عبس وذبيان [2] .

وقد كانت قبائل غطفان في جملة القبائل التي قاومت الإسلام ، واشتركت مع القبائل الأخرى في محاربة الرسول ومهاجمة المدينة ، ثم أسلمت في السنة الثامنة للهجرة . وبعد وفاة الرسول عادت أكثرية غطفان ، فارتدت عن الإسلام ، وهاجمت المدينة . ولكن أبا بكر تمكن من صدّها ، ثم عادت كما عاد غيرها الى حظيرة الإسلام .

وولد غطفان ثلاثة أولاد ، هم : ريث ، وبغيض وأشجع على رواية [3] ، وولد ريثاً وعبد العُزّى على رواية أخرى . وقد بدل رسول الله اسم عبد العُزّى فجعله عبد الله ، فعرف نسله بالاسم الجديد [4] . وقد ولد ريث من الولد أهون ، ومازناً وأشجع وبغيضاً [5] ، وذلك على رواية من جعل لغطفان ولدين ، هما : ريث وعبد العُزّى .

١ المحبر (ص ١٩٢ ، ٢٤٨ وما بعدها) .
٢ المحبر (ص ١٩٢ وما بعدها) ،
٣ الاشتقاق (ص ١٦٧) ، تاج العروس (٦٢٦/١) .
٤ جمهرة (ص ٢٣٧) .
٥ جمهرة (٢٣٨) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، تاج العروس (٦٢٦/١) ، Wustenfeld, Genea , Taf. H.

ومن بطون أشجع[1] بكر وسبيع ، ومن سبيع حـلاوة[2] (خلاوة)[3] ، وهفّان وفتيان ، وقنفذ ، وذبيان[4] .

وتقع مواطن أشجع في الحجاز بضواحي يثرب ، وكانوا حلفاء للخزرج من الأزد . وقد ساعدوهم في يوم بعاث[5] . وقد كان بينهم وبين سُليم بن منصور يوم كان في موضع الجر[6] .

ومن ولد بغيض[7] : عبس ، وذُبيان ويضاف اليها أنمار في بعض الروايات . ومن نسل عبس قطيعة ، وورده ، والحارث ، وورفة[8] . ومن نسل قطيعـة[9] زهير بن جذيمة سيد بني عبس ، وجميع غطفان ، وقيس بن زهير بن جذيمة صاحب حرب داحس والغبراء ، والربيـع بن زياد وزير النعمان ، والحارث بن زهير قتله كليب يوم عراعر ، وشأس بن زهـير قتله فزارة[10] ، ومن عبس عنترة بن شدّاد البطل الجاهلي الشهير[11] .

وهناك جملة قبائل وبطون عرفت بعبس ، ففي أسد وحنيفة وهوازن وعمرو

١ (أشجع) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، تاج العروس (٩٢/٣ ، ٣٩٣/٥) ، البكري (٣٢٩/١ وما بعدها) ، لسان العرب (٤٠/١٠) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، صبح الأعشى (٣٤٤/١) .

٢ (حلاوة) جمهرة (ص ٢٣٨) ، (هكذا ضبط الاسم ليفي بروفنسال) .

٣ سبائك الذهب (ص ٥٠) ، تاج العروس (١١٩/١٠) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، Wustenfeld, Genea, Taf H.

٤ سبائك الذهب (ص ٣٥) ، (نجد أخطـاء عديدة في الطبـع) ، تاج العـروس (٢٧٦/١٠) . Wustenfeld, Genea, Taf H.

٥ الأغاني (١٥٢/١٥) .

٦ كحالة (٢٩/١) .

٧ نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، لسان العرب (٣٩٠/٨) ، كحالة (٨٦/١ وما بعدها) .

٨ جمهرة (ص ٢٣٩) ، أما ابن دريد فاكتفى بذكر ولدين لعبس ، هما : قطيعـة وورفة . الاشتقاق (ص ١٦٩) نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، Wustenfeld, Genea, Taf H

٩ (قطيعة بن عبس) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) .

١٠ جمهرة (ص ٢٣٩ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٦٩) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، ابن خلدون (٣٠٦/٢) .

١١ طرفة الأصحاب (ص ٦٢) .

ابن قيس عيلان وعاتّ بطون عرفت بعبس ، وهي تسمية معروفـة وردت في الكتابات الصفوية والتدمريـة والنبطية [١] ، فهي من الأسماء القديمة المعروفة عنـد العرب الشماليين .

وتعد عبس جمرة من جمرات العرب ، وجمرات العرب هي : ضبّة بن أد ، وعبس بن بغيض ، والحارث بن كعب ، ويربوع بن حنظلة ، وبنو نمـير بن عامر أو أقل من ذلك على حسب تعـدد الروايات [٢] . ويقصدون بالجمرة القبيلة التي لا تنضم الى أحد ، ولا تحالف غيرها ، وتصبر في قتال من يقاتلهـا من القبائل ، أو القبيلة التي يكون فيهـا ثلاث مئة فارس أو ألف فارس [٣] . وهو تعريف لا يمكن ان ينطبق على قبيلة ما من القبائل ، حتّى على هذه القبائل التي قالوا عنها انّها الجمرات ، فلا بد في القتال بين القبائل من حلف ، ومن طلب مساعدة القبائل الأخرى . ولذلك نجد الأخباريين يذكرون ان بعض هـذه القبائل طفئت لأنها حالفت القبيلة الفلانية . فذكروا ان ضبة طفئت لأنها حالفت الرباب ، وان الحارث طفئت لأنها حالفت مذحجاً ، وان عبْساً طفئت أيضاً لانتقالها الى بني عامر بن صعصعة يوم جبلة [٤] . وهكذا إذا استقيصت كلام الاخباريين الوارد في مناسبات أخرى عن هذه القبائل ، تجد انه يصادم ما قالوه من عدم تحالف القبائل المذكورة وانضمامها الى القبائل الأخرى . وظنّي ان شهرة عبس في الشجاعة خاصة من دون القبائل الأخرى إنمـا وردت اليها من هذا القصص المروي عن عنترة ابن شدّاد .

ومن ولد ذبيان [٥] فزارة وسعد [٦] ، وفي روايات أخرى ان والد سعد هو ثعلبة

١ Ency., I. P. 73.

٢ المحبر (ص ٢٣٤) .

٣ تاج العروس (١٠٧/٣) ، لسان العرب (٢١٥/٥) ، القاموس (٣٩٣/١) .

٤ من شعر ينسب لأبي حية النميري :

لنا جمـرات ليس في الارض مثلها   كـرام وقد جربن كل التجـارب
نمـير وعبس يتقـى بفنـائهـا   وضبـة قـوم بأسهـم غـير كاذب

تاج العروس (١٠٧/٣)، لسان العرب (٢١٥/٥) ، منتخبات (ص ٢٢) .

٥ ابن خلـدون (٣٠٦/٢) ، تاج العروس (٢٨٧/٦ ، ١٣٥/١٠) ، الصحـاح (٤٧٧/٢) ، لسان العرب (٣٠٩/١٨) ، الاشتقاق (١٧١) .

٦ الاشتقاق (ص ١٧١) ، جمهرة (ص ٢٤٠) .

ابن ذبيان [1] . وولد سعد عوفاً ، وهو والد مُرّة وثعلبة [2] . ومن بني مرّة بن عوف خزيمة ، وغطفان ، وسنان . ومن بني سنان هَرِم بنُ سِنان ، وبنو يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف ، ومنهم النابغة الذبياني ، والحارث بن ظالم ابن جذيمة بن يربوع بن غيظ من الفتاك ، ومن بني مرة بنو سهم بن مرة [3] . ومن بني ثعلبة بن سعد ، بنو بجالة بن تعلبة بن سعد ؛ وبنو عجب بن ثعلبة بن سعد ، وبنو رزام بن ثعلبة بن سعد [4] .

وقد وقعت بين بني عبس وذبيان حروب عديدة ، سأتحدث عنها في الايام ، والظاهر انه كانت بين القبيلتين منافسة شديدة .

اما فزارة ، [5] فولد عديّاً ، وظالماً ، ومارباً ، وشمخاً [6] (سمخا) [7] (شمجا) [8] ، ومرّة . ومن بني عديّ : بغيض بن مالك بن سعد الذي اجتمعت عليه قيس في الجاهلية ، وبنو بدر بن عمرو بن حويّة بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة ، وهم بيت فزارة وعددهم ، وبنوه حذيفة الذي يقال له ربّ معد ، وحمل ، المقتولان يوم الهبأة ، ومالك ، وعوف ، المقتولان في حرب داحس والغبراء ، والحارث ، وربيعة ، وقد سادوا كلهم [9] . ومن بني ظالم ،

١ الاشتقاق (ص ١٧٤) ، كحالة (٢/٥١٤) .
٢ جمهرة (ص ٢٤٠) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٤) .
٣ جمهرة (٢٤١) ، المحبر (١٩٢) .
٤ نهاية الأرب (٢/٣٢٤) .
٥ (فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٤) ، لسان العرب (٦/٣٦١) ، القاموس (٢/٨٤ ، ١٤٩) ، تاج العروس ، (٣/٤٧٠) (٩/١١٧) ، المبرد (١١) ، أبو الفداء (١/١١٢) .
٦ الاشتقاق (ص ١٧١) ، القاموس (١/٢٦٢) ، لسان العرب (٣/١٣٣) ، ابن خلدون (٢/٣٠٦) ، تاج العروس (٢/٦٥) ، المقريزي . البيان (ص ٥٣) .
٧ (سمخ) هكذا ضبطه (لبفي بروفنسال) ، جمهرة (ص ٢٤٣) .
٨ (شمج) (شمح) ، كحالة (٢/٦٠٨) ، بنو شمح بن فزارة من ذبيان . قال ابن بري : قال الجوهري : بنوشمج من ذبيان بالجيم قال : والمعروف عند أهل النسب : بنو شمخ بن فزارة بالخاء المعجمة ساكنة الميم ، لسان العرب (٣/١٣٣) .
٩ جمهرة (ص ٢٤٣ وما بعدها) .

نعامة الذي يتمثل به في ادراك الثأر ، وكان فيه هوج ، ورويت له امثال كثيرة [1] .
ومن بني شمخ ، ظويلم المعروف بمانع الحريم ، (سُمّي بذلك لأنه خرج في الجاهلية يريد الحج ، فنزل على المغيرة بن عبد الله المخزومي ، فأراد ان يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية ، ولذلك سُمّي الحريم . وكانوا يأخذون بعض ثيابه او بعض بدنته التي ينحر ، فامتنع عليه ظويلم ، وقال :

يا ربّ ، هل عندك من غفيره ان مني مانعه المغيره
ومانع بعد منى ثبيره ومانعي ربّي أنْ أزوره

وظويلم الذي منع عمرو بن صرمة الإتاوة التي كان يأخذها من غطفان) [2] .

وتقع مواطن فزارة بنجد وبوادي القرى [3] ، وانتشروا بعد ذلك – وخاصة في الفتوحات الاسلامية – في مواطن اخرى ، وذهبت بطون منهم الى شمال افريقية . وكان لحذيفة بن بدر رئيس فزارة اثر خطير في حرب داحس التي وقعت بين عبس وذبيان ، ولهم حروب وايام مع القبائل الأخرى مثل حربها مع عمرو بن تميم ومع التيم ومع هوازن ومع بني جشم بن بكر ومع بني عامر . يذكرها اهل الاخبار في حديثهم عن الايام . وقد قاد حذيفة بن بدر فزارة ، ومرّة يوم النسار ، ويوم الجفار ، وفي حرب داحس حتى قتل فيها يوم الهباة [4] . وقد عرف (حذيفة) هذا بـ (ربّ معد) [5] . وكان ابنه (حصن) من سادات فزارة .

ومن بني مازن بن فزارة : بنو العشراء [6] ، (وبنو سيّار بن عمرو الذي

---

١ الاشتقاق (ص ١٧١) .
٢ الاشتقاق (١٧٢) .
٣ الهمداني : الصفة (١٧٤ ، ١٧٧ وما بعدها) ، البكري (١/٦٣ ، ١٦٠ ، ٢٢٣ ، ٢٥٦ ومواضع أخرى) ، لسان العرب (٦/٣٦١) .
٤ المحبر (ص ٤٦١) .
٥ المحبر (ص ٢٤٩) . Ency., II, P. 93.
٦ (بنو العشراء ، وهو عمرو بن جابر بن عقيل بن هلال) ، الاشتقاق (ص ١٧٢) ، القاموس (٢/٩٠) ، لسان العرب (٦/٣٥١) ، المحبر (ص ١٣٥) .

رهن قومه بألف بعير ، وضمنها للملك من ملوك اليمن ، وذلك ان بني حارث بن مرّة ، قتلوا ابناً لعمرو بن هند ، فرهن سيّـار قوسه [1] . ومن ولد سيّـار ، زبّـان ، وقطبة . ومن ولد قطبة هرم بن قطبة ، وهو من حكماء العرب ، واليه تحاكم عامر بن طفيل وعلقمة بن علاثة ، وكان ممن أدركوا الاسلام [2] .

وأما ولد أعصر بن سعد بن قيس عيـلان [3] ، فهم : مالك ، ومن نسله باهلة ، وعمرو وهو غنيّ ، وأمها من همدان ، وثعلبة وعامر ومعاوية ، وأمهم الطفاوة بنت جرم بن (زبان) [4] .

ومن ولد مالك ، سعد مناة ، وأمه باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة من مذحج ، وبها عرف سعد مناة ونسله . ومعن بن مالك وهو الذي خلف أباه على باهلة ، ومن نسله عمارة بن عبد العزىّ ، قاتل عبد الدار بن قصيّ [5] . ومن بطون باهلة بنو قتيبة ، ومنهم بنو سهم ، وبنو أصمع ، ووائل بن معن [6] . وتقع منازل هـذه القبيلة في اليمامة في الأصل [7] ، ويظن بعض المستشرقين انها قبيلة (Bahilitae) (Pachylitae) التي ذكرها (بلينيوس) [8] . وقبيلة (Bliulaei) الوارد اسمها في جغرافية (بطلميوس) [9] .

١ الاشتقاق (ص ١٧٢) ، (سيار ذو القوس الذي رهن قوسه على الف بعير في قتل الحارث بن ظالم ، من النعمان الاكبر) ، المحبر (ص ٤٦١) .
٢ الاشتقاق (ص ١٧٢) ، المحبر (١٣٥) .
٣ تاج العروس (٤٠٦/٣) ، الصحاح (٣٦٦/١) ، لسان العرب (١٤٦/٦) ، كحالة (٣٥/١) .
٤ لسان العرب (٢٣٤/١٩) ، نهاية الأرب (٣٣٤/٢) ، جمهرة (ص ٢٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٦٤) ، المبرد (ص ١٠) ، (الطفاوة) ، البلخي (١٢٣/٤) .
٥ جمهرة (ص ٢٣٣ ومابعدها) ، تاج العروس (٤٠٦/٣) ، وقد نسبت (باهلة) الى همدان كذلك ، الصحاح (١٥٩/٢) ، لسان العرب (٧٦/١٣) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، أبو الفداء (١١١/١) .
٦ المبرد (١٠) ، الاشتقاق (١٦٤ وما بعدها) ، منتخبات (ص ١٠) .
٧ (ديار باهلة) ، (أرض باهلة) ، مراصد (٣٠/١ ، ٤٩٦ ، ٢٦/٢) ، Ency., I, P 576, Blau, in ZDMG., 1869 (XXIII), S., 584.
٨ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٢١/٣) ، Pliny, 6, 32, Glaser, Skizze, II, P. 145.
٩ تاريخ العرب قبل الاسلام (٤١٦/٣) ، Blau, in ZDMG , (1898), 22, S , 670, 1869, 23, S , 584.

وأما غَنيّ ، فقبيلة كانت ديارها في جوار طيء وعند حمى ضَرِيَّة [1] . ومنها رباح بن الأشل ، وابن اخيه ثعلبــة قاتل شأس بن زهيرة بن خزيمة العبسي . وقيل : ان رباحاً هو قاتل شأس . وكانت لهم ظاعنة ضحمة بالشام [2] . ومن بطون غنيّ عبد ، وزبان ، وصريم ، وضبينة [3] ، وبنو عتريف [4] . وكانت لهم حروب مع عبس ومع زيد الخيل . ومن اصنامهم التي عبدوها : اللآت ، ومناة ، والعُزّى [5] . ومن شعرائهم طفيل بن عمرو الغَنَوي [6] ، وكعب بن سعد الغَنَوي [7] .

ومن ولد خصفة بن قيس عيلان . عكرمة ، وأمه اخت كلب بن وبرة لأبيه [8] ، ومحارب [9] . ومن محارب : عامر بن وهب بن مجاشع المعروف بذي الرمحين ، وكان سيّد قومه ، وقد غزا باهلة وأوقع فيها ، وأسر منها ، وسبع الوارث ، وهو مالك بن عمرو بن حارثة بن عبد بن سلول الكيذبان ، واسمه عبد الله . القائل لرسول الله : (جملي احب اليّ من ربّك) [10] ، والعقب من

---

١ نهاية الارب (٣٢٣/٢) ، البكري (٨٦٦/٣) (تحقيق السقا) ، الصفة (ص١٥٣، ١٧٠ ، ١٧٤) ، الأغاني (١٤٧/٧ ، ٩/١٠ وما بعدها) ، كحالة (٨٩٦/٣) ، Ency. II. P. 584.

٢ جمهرة (ص ٢٣٦) .

٣ وفيهم يقول لبيد :

ابني كلاب كيف ينفى جعفر   وبنو ضبينة حاضروا الأجباب

الاشتقاق (١٦٥) ، المبرد (١٠) ،
Wustenfeld, Genea., 2 Abt., Taf., Register, S, 170.

٤ المبرد (١٠) ، Register, S. 170

٥ Ency., II, P 140

٦ Ency., II, P 140

٧ شيخو : شعراء النصرانيه (القسم الخامس في شعراء نجد والحجاز والعراق) (ص ٧٤٦) .

٨ لسان العرب (٣١٠/١٥) ، القاموس (١٥٣/٤) ، جمهرة (٢٤٧ وما بعدها) ، كحالة (٨٠٤/٢) .

٩ جمهرة (٢٤٧) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، المبرد (١٢) ،
Wustenfeld, Geagea, Taf., F.

١٠ جمهرة (ص ٢٤٨) .

محارب لصلبه في فخذين : طريف ، وجسر [1] .

والفرع الثاني من فرعي خصفة ، فرع ضخم كبير بالقياس الى فرع محارب ، فهو يشتمل على ولد منصور بن عكرمة ، وهم : مازن ، وهوازن ، وسُليم ، وسلامان ، وأبو مالك [2] . ومن بني هوازن : بكر بن هوازن ، ومن ولد بكر : معاوية ، ومنبه ، وسعد ، ويزيد . وقد قتل معاوية ، فجعل عامر بن الظرب العدواني ديته مئة من الإبل . ويقول الاخباريون ان هذه اول دية قضى فيهـا بذلك ، وان لقمان كان قد جعلها قبل ذلك مئة جدي [3] . وفي بني سعد بن بكر ابن هوازن استرضع الرسول . ومن بطون بكر الاخرى : جشم بن معاوية بن بكر ، ومنهم بنو جداعة ، رهط دريد بن الصمّة ، وبنو سلول وهم بنو مرّة ابن صعصعة بن معاوية بن بكر ، وعامر بن صعصعة [4] .

وهوازن من القبائل العربية الضخمة ، وقد تفرعت منها قبائل كبيرة معروفة كانت لها شهرة بين القبائل . سكنت في مواضع متعددة من نجد على حدود اليمن وفي الحجاز [5] . ويظهر من انتساب هذه القبائل المعروفة الكبيرة اليها ، ثم من اقتصار اسم هوازن على قبيلة واحدة فيما بعد ، واختصاصها به ، أنها كانت في الأصل حلفاً ضم جملة قبائل ، ثم انفصل لعوامل سياسية واقتصادية مختلفة ، فلم يبق من ذلك الحلف الا الرابطة التأريخية التي بقيت في ذاكرة نسابي القبائل ، وهي رابطة النسب . وقد وقعت بين القبائل التي ترجع نسبها الى هوازن وبين قبيلة هوازن حروب عديدة .

وقد كانت هوازن في جملة القبائل الخاضعة للتابعة ، فلما استقلت قبائـل معدّ عن اليمن ، كانت هوازن في جملة من استقل من تلك القبائل . ولكنهـا أخذت تدفع الإتاوة لزهير بن جذيمة سيد عبس من غطفان . فلما قتل زهـير ، استقلت من غطفان ، ولم تدفع الإتاوة اليها . ولما انتهت حرب عبس وذبيان ، وعقد الصلح بين القبيلتين المتنافستين ، وقعت حروب وأيام بـين بطون غطفان

١ نهاية الأرب (٢/٣٢٣) .
٢ جمهرة (ص ٢٤٨) ، طرفة الأصحاب (ص ٦١) نهاية الأرب (٢/٣٢٣) .
٣ جمهرة (ص ٢٥٢) .
٤ المبرد (١٣) ، الاشتقاق (ص ١٧٧) ، طرفة الأصحاب (ص ٦١) .
٥ Ency , II, P 293, Blau, in ZDMG , 1869, 23, S , 586

وهوازن ، منها : يوم الرقم ، ويوم النباع ، ويوم اللوى ، دارت الدائرة فيها على هوازن ، كما وقعت بينها وبين قبائل كنانة وقريش وثقيف أيام عديدة [1] .

وكانت هوازن في جملة القبائل التي قاومت الاسلام . وقد غزاها الرسول ، بعد فتح مكة ، فتمكن منها ، ودخلت في الاسلام ثم ارتدت بعد وفاته ، ثم عادت مع التوّابين بعد ان غلبهم الخليفة أبو بكر الصديق .

وكان لهوازن صنم يعظمونه في عكاظ اسمه جِهار ، سدنته من آل عوف النصريين ، تشاركهم في عبادته محارب . وكان في سفح أطْحَل [2] .

ومن ولد مُنبّه بن بكر بن هوازن بن منصور ، قَسيّ وهو ثقيف [3] . وولد قسي جشماً وعوفاً ودارساً [4] . وقد دخل ولده في الأزد . ومن بني عوف بن ثقيف ، الحجاج بن يوسف الثقفي . ومن بني غِيَرة بن عوف بن ثقيف ، الشاعر أمية بن أبي الصلت . والأخنس بن شريق ، والحارث بن كلدة وأبو عبيد بن مسعود ، والد المختار [5] . ومن بطون ثقيف الأخرى بنو عُقدة بن غيرة ، وبنو مُعتب ، وبنو حبيب ، وبنو اليسار بن مالك بن حطيط [6] . ومن بني مُعتب ، غيلان بن مسلمة بن معتب ، وكانت له وفادة على كسرى [7] .

ولثقيف حروب يظهر انها كانت في الغالب دفاعاً عن النفس ، إذْ نجد ثقيفاً تهاجم فيها في الطائف ، فتضطر عندئذ الى الدفاع عنها . وقد كان من أصنامها اللآت ، وله بيت بالطائف على صخرة يضاهون به الكعبة بمكة . وكانوا يهدون

---

١ Ency., II, P., 293

٢ المحبر (ص ٣١٥) ، (أطحل) ، البكري (١/١٦٧) (طبعة السعا) ، البلدان (١/٢٨٢ وما بعدها) ، Ency., II, P., 293.

٣ ابن خلدون (٢/٣٠٩) ، الأغاني (١٢/٤٤) ، القاموس (٣/١٢١) ، لسان العرب (١٠/٣٦٣) ، الصحاح (٢/١١) ، الاشتقاق (١٨٣) .

٤ (جشم بن ثقيف) ، لسان العرب (١٤/٣٦٧) ، تاج العروس (٨/٢٣٩) ، الصحاح (٢/٢٧١) ، (جشم بن ثقيف) ، ابن خلدون (٢/٣٠٩) ، كحالة (١/١٤٨) .

٥ الجمهرة (ص ٥٢٦ وما بعدها) ، (غيرة بن عوف بن ثقيف) ، ابن خلدون (٢/٣٠٩) ، تاج العروس (٣/٤٥٩) ، الاشتقاق (١٨٥) ، كحالة (٤/٩٠٢) .

٦ المبرد (ص ١٣) ، الاشتقاق (ص ١٨٥ وما بعدها) .

٧ ابن خلدون (٢/٣٠٩) .

اليه الثياب لسترِه بـه ، ويطوفون حوله . وسدنته من آل أبـي العاص بن أبـي يسار بن مالك من ثقيف [1] .

وولد سليم بن منصور ، بُهثة [2] (بُهتة) . ومن ولد بهثة الحارث ، وثعلبة ، وامرؤ القيس ، وعوف ، ومعاويـــة . ومن بطون امرىء القيس ، بنـــو عصيّة . ومـــن بني عصية ، مالك ذو التاج ، وكرز ، وعمرو ، وهند ، وبنو خالد بن صخر بن الشريد . وقد توجت بنو سليم مالكاً ملكاً عليها ، وقتل مالكاً وكرزاً عبد الله بن جذل الطعان الكناني . وقـــد اشتهرت بلاد بني سليم بالمَعدِن الذي فيها ، ولذلك قيل لهـــا معدن بني سليم [3] . ومن بني الحارث بن بهثة بنو ذكوان [4] . ومن بني عبس بن رفاعة بن الحارث ، العباس بن مرداس [5] ، وهم من القبائل التي لعنها الرسول ، لقتلها أهل بئر معونة . وقد لعن الرسول بني عصية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة كذلك للسبب نفسه [6] . ومن بني ثعلبة بن بهثة بن سليم حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص ، وكان بمكة في الجاهلية محتسباً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر [7] .

وتعد قبيلة بني سليم من القبائل المهمة الساكنة في الحجاز في أرض اشتهرت بمعادنها وبخصبها ، وبها حِرارٌ منها : حرة بني سليم ، وحرة ليلى ، وبها مياه

---

١ المحبر (ص ٣١٥) .
٢ (بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر) ، لسان العرب (٢/٤٢٤) ، الاشتقاق (١٩٢) ، الحماسه للتبريزي (١/٢٣١) صبح الأعشى (١/٣٤٥) .
٣ جمهرة (ص ٢٤٩ ، / ٢٥١) ، الصفة (١٥٤) .
٤ (ذكوان بن رفاعه بن الحارث بن رجا بن الحارث بن بهثة بن سليم) ، الاشتقاق (٢٨٧) لسان العرب (١٣/٣٠٧) ، تاج العروس (١٠/١٣٧) ، ابن خلدون (٢/٣٠٧) .
٥ (بنو عبس بن رفاعه بن الحارث بن رجا بن الحارث بن بهثة بن سليم) ، ابن خلدون (٢/٣٠٧) ، الأغاني (١١/١٣٨) ، الاشتقاق (١٨٨) .
٦ جمهرة (ص ٢٥١) ، الاشتقاق (ص ١٨٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٣٠٨) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٣) ، لسان العرب (١٩/٢٩٨) ، كحالة (٢/٧٨٦) .
٧ جمهرة (ص ٢٥١) .

استفادت منها القبيلة في الزرع . وتجاورها من القبائل غطفان وهوازن وهلال . وكانوا على صلات حسنة باليهود ، كما كانوا على صلات وثيقة بقريش . وقد تحالف معهم أشراف مكة وكبارها لما لهم من علاقات اقتصادية بهذه القبيلة [١] .

ويروى ان النعمان بن المنذر كان قد نقم على بني سُليم لأمر أحدثوه ، فأرسل عليهم جيشاً ، ولكنه لم يتمكن منهم ، وهزم الجيش [٢] . ولبني سليم ككل القبائل الأخرى أيام : منها : يوم ذات الرَّمرمْ وهو لبني مازن على بني سُليم ، ويوم تثليث وهو بين مراد وبني سُليم [٣] .

وكان لهم صنم يقال له (ضمار) كان عند مرداس والد العباس بن مرداس . فلما توفي مرداس ، وضعه العباس في بيت يتعبد له . فلما ظهر الاسلام ، أسلم ، وأحرق ذلك الصنم [٤] .

وولد معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور أولاداً ، هم : نصر ، وجشم ، وصعصعة ، وعوف . ويسمون بنيه الوقَعَة [٥] . وقد دخلوا في بني عمرو بن كلاب بن الحارث [٦] . ومن بني نصر معاوية ربيعة بن عثمان ، وهو أول عربي قتل عجمياً في يوم القادسية . ومن بني جشم بن معاوية ، دُريد بن الصمّة من

---

١ صبح الأعشى (٣٤٥/١ وما بعدها) ، Ency., IV, P. 518

٢ كحالة (٥٤٤/٢) . بعث النعمان بن المنذر جيشا (الى بني سليم لشيء كان وجد عليهم من أجله . وكان مقدم الجيش عمرو بن فرتنا ، فمر الجيش على غطفان ، فاستجاشوهم على بني سليم ، فهزمت بنو سليم جيش النعمان ، وأسروا عمرو بن فرتنا . فأرسلت غطفان الى بني سليم . وقالوا ننشدكم بالرحم التي بيننا الا ما أطلقتم عمرو بن فرتنا . فقال أبو عامر هذه الأبيات ، أي لا نسب بيننا وبينكم ولا خلة . أي ولا صداقة بعدما أعنتم جيش النعمان ، ولم تراعوا حرمة النسب بيننا وبينكم) ، لسان العرب (٤٢٨/٦) .

٣ كحالة (٥٤٤/٢) .

٤ الاغاني (٩٢/١٣) .

٥ (بنو عوف بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور) ، الاشتقاق (١٧٧) ، لسان العرب (٢٩٠/١٠) ، القاموس (٩٦/٢) ، كحالة (١٢٥١/٣) .

٦ جمهرة (ص ٢٥٧) ، الصفة (١٢١) ، ابن خلدون (٣١٠/٢) ، تاج العروس (٣٠٠/٢ ، ١٠٥/٣٠ ، ٥٧٠ ، ١٣/٤) الاشتقاق (١٧٨) ، كحالة (١١٨١/٣) .

الفرسان المعروفين . ولهم حروب مع أسد وغطفان وعبس ، وكانت مواطنهم بالسروات [1] .

اما ولد صعصعة بن معاوية ، فهم : عامر ، ومرّة ويعرف أبناؤه ببني سلول نسبوا الى أمهم [2] ، وغالب وأمه تماضر ، وقد نسب ولده الى أمهم . وربيعة وأمة عويصرة ، واليها نسب . وعبد الله ، والحارث : وأمهما عادية [3] ، واليها نُسبا ، وكبير ، وعمرو ، وزبير وأمهم واثلة ، واليها نسبوا . وقيس ، وعوف ، ومساور ، وسيار ، ومشجور أمهم عدبة ، فنسبوا اليها [4] . ويلاحظ ان النسابين قد جعلوا لصعصعة عدة نساء ، ونسبوا الى هؤلاء النسوة أولادهن ، فعلوا ذلك للتمييز بين هؤلاء الأولاد ولا شك .

وذهب بعض المستشرقين الى احتمال كون بني عامر هم : (Hamirei) ، (Hamirou) ، (Hamirinoei) المذكورين في تأريخ (بلينيوس) [5] . وتقع منازلهم بين منازل قبائل هوازن وسلم وثقيف ، ولهم مع القبائل الأخرى مثل بني حنيفة وعبس وذبيان وفزارة وتميم وبني نهد وسعد والرباب حروب عديدة ، ترد أخبارها في الأيام .

ومن نسل عامر بن صعصعة : ربيعة ، وهلال ، ونمير ، وسواءة . ومن بني ربيعة بن عامر بن صعصعة كلاب ، وعامر ، وكليب [6] . ومن بني عامر

١ جمهرة (ص ٢٥٨) ، ابن خلدون (٢/ ٣١٠) ، الاشتقاق (١٧٧) ، ابو الفداء (١/ ١١١) ، لسان العرب (١٤/ ٣٦٨ ، ١٥/ ٢٨٧) ، تاج العروس (٤/ ٥٢) ، ٨/ ٢٢٩ ، ٩/ ١٤٦) ، القاموس (٢/ ٣٢٧ ، ٤/ ٤٤) ، الصحاح (٢/ ٢٧١) ، صبح الأعشى (١/ ٣٤٣) ، المحبر (٢١١ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩) .

٢ (وهى ابنة ذهل بن شيبان بن ثعلبه بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل) تاج العروس ، (٧/ ٣٧٨) ، لسان العرب (١٣/ ٣٦٥) ، الصحاح (٢/ ١٩٩) ، ابن خلدون (٢/ ٣١٠) ، القاموس (٣/ ٣٩٧) ، جمهرة (ص ٢٥٩) .

٣ تاج العروس (١٠/ ٢٣٨) ، كحالة (٢/ ٧٠١) .

٤ جمهرة (ص ٢٥٩) .

٥ Ency., I, 329

٦ جمهرة (ص ٢٦٣ وما بعدها) ، صبح الأعشى (١/ ٣٤٠ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٧٨) ، ابن خلدون (٢/ ٣١٠) ، تاج العروس (٧/ ٣٥٠) ، القاموس (٢/ ١٤١) ، لسان العرب (٣/ ٢٧٢ ، ٦/ ٢٨٦) ، كحالة (٢/ ٧٠٨ وما بعدها) .

ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، معاوية ذو السهمين ، لأنه كان يأخذ سهمه من غزوات بني عامر ، أقام أو غزا [1] . وبنو عمرو بن عامر المعروف بـ (فارس الضحياء) [2] . ومن بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة [3] . وهم خالد الأصبغ وربيعة الأحوص ، ومالك الطيّان ، أمهم بنت رياح بن الأشل الغنويّ . وعتبة ، وعوف ، أمهما فاطمة بنت عبد مناف بن قصيّ بن كلاب . فولد الأحوص عوفاً ، وعمراً ، وشريحاً ، قاتل لقيط بن زرارة يوم جبلة ، وقد سادوا جميعاً . ومن عوف بن الأحوص علقمة بن علاثة الذي نافر عامر ابن الطفيل [4] .

ومن نسل خالد بن جعفر بن كلاب أرْبَدُ بن قيس بن جزء بن خالد ، وهو الذي أراد مع عامر بن الطفيل قتل رسول الله [5] . ومن نسل مالك بن جعفر ابن كلاب ، عامر ، وهو أبو براء ربيعة ملاعب الأسنة ، والطفيل ، وهو والد عامر بن الطفيل ، ولبيد الشاعر [6] . ومن نسل عتبة بن جعفر بن كلاب عروة الرحّال بن عتبة بن جعفر الذي أجار لطيمة الحيرة ، فقتله البرّاض الكناني ، ومن أجله كانت حرب الفجار . وابنته كبشة هي أم عامر بن الطفيل ، ولدته يوم جبلة [7] .

ومن نسل عمرو بن كلاب الصعق ، وهو عمرو بن خويلد بن نفيل بن عمرو ابن كلاب . وكان سيداً يطعم بعكاظ ، ومن ولده الشاعر يزيد بن عمرو الصعق [8] . ومن بني الضباب بن كلاب بن ربيعة شَمِرٌ بن ذي الجوشن قاتل

---

١ جمهرة (ص ٢٦٤ وما بعدها) .
٢ جمهرة (ص ٢٦٤) ، المحبر (ص ٤٥٨) .
٣ الأغاني (١١/١٣٢ ، ١٥/٥٢ وما بعدها) ، المحبر (ص ٢٥٣) ، جمهرة (٢٦٤ وما بعدها) الاشتقاق (١٨٠) ، كحالة (١/١٩٥) .
٤ جمهرة (٢٦٧ ، وما بعدها) .
٥ الاغاني (٥/١٣٧ وما بعدها) ، جمهرة (ص ٢٦٨) .
٦ الاغاني (١٤/٩٣) ، جمهرة (ص ٢٦٨) ، المحبر (٢٥٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣) .
٧ جمهرة (ص ٢٦٨ وما بعدها) .
٨ جمهرة (ص ٢٦٩) ، الاشتقاق (ص ١٨٠ وما بعدها) .

الحسين بن علي[1] . ومن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة جَعدة ، والحَريش ، وعُقيل ، وقشير ، وعبد الله ، وحبيب . ومن ولد عبد الله نهم والعجلان[2] ، وهم قبيلة . ومن جعدة الشاعر النابغة الجعدي[3] . ومن بني قُشير مالك ذو الرقيبة بن سلمة الخير الذي أسر حاجب بن زرارة يوم جبله . ومن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، المنتفق بن عامر بن عقيل ، وهم بطن ، وربيعة بن عامر ، ومنهم الحارث الأبرص قاتل زيد بن عمرو بن عدس يوم جبلة ، وبنو خفاجة بن عمرو بن عقيل .

وتقع منازل الضباب في أرض كلاب ، ومن بطونهم ضبّ وضبيب وحسل وحسيل ، وقد وقعت بينهم وبين جعفر بن كلاب يوم عرف بيوم حرابيب[4] ، ويوم آخر عرف بيوم هراميت[5] .

وأما منازل جعدة ، فهي في الفلج من اليمامة[6] . وأما الحريش ، فكانت منازلهم باليمامة ، واشتركت في يوم الرحرحان[7] . وكانت مساكن عقيل بالبحرين ، وهاجروا الى العراق ، وكان لهم أثر ملحوظ في تأريخ العراق في الإسلام .

والفرع الثاني من فروع مضر ، هو من نسل الياس[8] ، ويتكون هذا الفرع من ثلاث كتل : طابخة ، وقمعة ، ومدركة . ولكلّ كتلة من هذه الكتل قبائل وبطون .

١ جمهرة (٢٧٠) ، الميداني (٢٦٩/٢) ، العمدة لابن رشيق (١٥٧/٢ ، ١٦٧) ، كحالة (٦٦٠/٢) ، الاشتقاق (ص ١٨٠) .

٢ جمهرة (ص ٢٦٩ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٨١) .

٣ جمهرة (ص ٢٧٣) ، الاشتقاق (ص ١٨١) ، صبح الأعشى (٣٤١/١ وما بعدها) ، الأنساب للمقدسي (ص ١١٠) ، نهاية الأرب (٣٢٢/٢) ، كحالة (٨٠١/٢) .

٤ كحالة (٦٦٠/٢) ، نهاية الارب (٣٢١/٢) .

٥ (هراميت بالفتح وكسر الميم ثم ياء وتاء مثناة) ، (يوم الهراميت) البلدان (٤٥٠/٨) ، البكري (١٣٠٥/٤) وبهذا الموضع آبار يسبون حفرها الى لقمان ابن عاد ، مما يدل على أنها من الآبار القديمة .

٦ Ency, I, P 991

٧ الاشتقاق (١٨٣) ، كحالة (٢٦٧/١) .

٨ صبح الأعشى (٣٤٦/١) ، سبائك الذهب (ص ٢١) ، جمهرة النسب (ورقة٤) .

أما طابخة ، واسمه عمرو (عامر) [1] ، فهو والد ولد يسميه النسّابون أداً ، وأد والد عدة أولاد هم : مرّ ، وضبّة ، وعمرو وهو مزينة ، وعبد مناة ، وحميس (خميس) . وذكروا ان بني حميس ، شهدوا يوم الفيل مـع الحبشة ، فقتلوا ، فقل نسلهم [2] .

أما ضبّة بن أد ، فولد سعد بن ضبّة ، وسعيد ولا عقب له ، قتله الحارث ابن كعب ، ثم قتل ضبّة الحارث بن كعب ، وفي ذلك سارت الأمثال الثلاثة : (أسعد أم سعيد) و (الحديث ذو شجون) و (سبق السيفُ العذلَ) قالها كلها ضبة [3] ، وباسل بن ضبّة . ويذكر الأخباريون ان الديلم من نسله . وولد سعد ابن ضبّة بكر بن سعد ، وثعلبة ، وصريم . ومن بكر بن سعد ضرار بن عمرو ابن مالك ، سيد بني ضبّة . وقد شهد يوم القرنتين ، والمفضل بن يعلى صاحب المفضليات ، وحبيش بن دلف بن العون ، وكان ينازع ضرار بن عمرو الرياسة وحضر يوم القرنتين ، وبني تيم بن ذهل [4] .

وتعد ضبّة جمرة من جمرات العرب التي أشرت اليها ، وتقع منازلهـا في اليمامة ، وفي خلال الحرب التي وقعت بين عبس وذبيان دخلت عبس أرض ضبّة ، ولكنها اضطرت الى مغادرتها بعد النزاع الذي حدث بين عبس وضبّة . وجاورت بني عامـر بن صعصعة . وفي يوم (جبَلَة) ، وهو من الأيام المشهورة التي وقعت بعد يوم رحرحان بعام ، ويصادف ذلك عام مولد النبي على روايـة [5] . أو قبل مولده بسبع عشرة سنة على رواية أخرى [6] . كانت ضبة مع ذبيان وتميم

١ (عامر) جمهرة النسب (ورقة ٤) ، ابن خلدون (٢/٣١٥) ، صبح الأعشى (١/٣٤٧) ، جمهرة (١٨٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٥) .

٢ (حميس) ، جمهرة (ص ١٨٧) ، ويختلف النسابون فيما بينهم في عدد ولد طابخه ، سبائك الذهب (ص ٢٥) ، نسب قريش (ص ٨) ، المبرد (ص ٦) ، ابن خلدون (٢/٣١٥) ، (بنو خميس) نهاية الأرب (٢/٣٢٥) ، **Wustenfeld, Genea., Taf., J.**

٣ الميداني : مجمع الأمثال (١/٣٥٠ ، ٥٩٩ ، ٦٠١) .

٤ جمهرة (ص ١٩٢ وما بعدها) .

٥ البكري (٢/٣٦٥) (طبعة السقا) (مادة جبلة) ، نهاية الأرب (١٥/٣٥٠ وما بعدها) .

٦ البلدان (٣/٥٢) .

وأسد والرباب وفزارة في مهاجمة بني عامر بن صعصعة [1] . وبالرغم من كثرة هذه القبائل ، تمكنت بنو عامر من الظفر به ومن إلحاق الهزيمة بتميم وبمن ضامها . والى مشورة قيس بن زهير العبسي يعود الفضل في انتصار بني عامر . وفي رواية ان لقيطاً استنجد أيضاً بالنعمان بن المنذر ، فأنجده بأخيه لأمه حسّان ابن وبرة الكلبي ، وبصاحب هجر وهو الجون الكندي ، فأنجده بابنيه معاوية وعمرو وغزا بني عامر [2] . وقد أصيب تميم ومن كان معها من القبائل بخسائر ، وبوقوع عدد من الزعماء أسرى في أيدي بني عامر ، فقتل في هذا اليوم لقيط بن زرارة ، وأسر حاجب بن زرارة ، أسره ذو الرُقيبة ، وأسر سنان بن أبي حارثة المرّي وجزت ناصيته ، وأطلق إمعاناً في امتهانه ، وأسر عمرو بن عدس وجزت ناصيته كذلك ثم أخلي سبيله . وقتل معاوية بن الجون ، ومنقذ بن طريف الأسدي ، ومالك بن ربعي بن جندل [3] . ويعد حزّ الناصية بعد الأسر خاصة من أشد درجات الامتهان ، ولا سيا جزّ نواصي السادة والرؤساء .

وفي يوم النسّار ، لحقت ضبّة وعديّ بأسد وطيء وغطفان في غزوهم لبني عامر ، وقد ألحقوا خسائر فادحة ببني عامر ، وهذا مما غاظ تميماً ، فجعلها تلحق طيئاً وغطفان وحلفاءهم من ضبّة وعديّ يوم الفجار ، حتى قتلت من طيء أكثر مما قتلت طيء يوم النسار [4] .

ومن ذُرية عبد مناة بن أد : تيم [5] ، وعديّ ، وعوف ، وثور ، وأشيب . وهؤلاء هم الرّباب ، لأنهم تحالفوا مع بني عمهم ضبّة على بني عمهم تميم بن

---

١ Ency , I, P 884.

٢ البكري (٢/٣٦٦) .

٣ نهاية الأرب (١٥/٣٥٠ وما بعدها) .

٤ (يوم الفجار) نهاية الأرب (١٥/٤٢١) ، (يوم الحمار) ، البكري (٤/١٣٠٦) (تحقيق السقا) ، مادة ، (النسار) ، (النسار .... جبال صغار كانت عندها وقعة بين الرباب وبين هوازن وسعد بن عمرو بن تميم ، فهزمت هوازن ، فلما رأوا العلة ، سألوا ضبه أن تشاطرهم أموالهم وسلاحهم ويحلوا عنهم) ، البلدان (٨/٢٨٤) .

٥ المبرد (ص ٦) ، الاشتقاق (ص ١١٤) ، تاج العروس (٨/٣١٦) ، كحالة (١/١٣٨) .

مرّ ، فغمسوا أيديهم في رُبّ[1] . ومن بني عوف بن عبد مناة بنو عكل . ومن بني عمرو بن أد : مزينة ، نسبوا الى أمهم مُزينة بنت كلب بن وبرة[2] . وتقع ديار الرباب بالدهناء في جوار بني تميم[3] .

ومن ولد أد بن طابخة مرّ بن أُد[4] فولد مرّ تميماً وثعلبة ، وهو ظاعنة ، وبكر بن مرّ ، وهو الشعراء ، ومحارب بن مرّ ، وهو صوفة . ومن النساء برة أم النضر ، وملك وملكان بني كنانة . وهي أيضاً أم أسد بن خزيمة ، وهند ابنة مرّ وقد ولدت بكراً وتغلب وعنز بني وائل بن قاسط ، وتُكمة بنت مرّ وقد ولدت غطفان بن سعد ، وسُليماً وسلامان بن منصور ، وجديلة بنت مرّ وقد ولدت فهماً وعدوان ، واليها ينسبون ، وعاتكة بنت مرّ . وهي والدة عذرة ابن سعد وإخوته[5] .

وأما صوفة ، فانهم كانوا يجيزون بالحاج . وقد انقرضوا عن آخرهم في الجاهلية ، فورث ذلك آل صفوان بن شجنة (سجنة) (شحمة) ، من بني سعد بن زيد مناة بن تميم[6] . ومن هؤلاء على رواية كان عامر بن احيمر السعدي

١ جمهرة (ص ١٨٧) ، (فالرباب ، تيم ، وعدى ، وعكل ، ومزينة ، وضبة ، وانما سموا الرباب لانهم تحالفوا ، فقالوا اجمعوا كاجتماع الربابة . وهي خرقة تجمع فيها القداح . وقال قوم : بل غمسوا أيديهم في رب وتحالفوا . والقول الأول أحسن) ، الاشتقاق (ص ١١١)، المبرد (ص ٦) ابن خلدون (٣١٨/٢) ، لسان العرب (٣٨٨/١) (والرباب : ولد تيم بن عبد مناة وعدى بن عبد مناة وعوف بن عبد مناة : سموا الرباب لانهم غمسوا ايديهم في رب ، اذ تحالفوا على بني تميم . قال : ومن النسابين من يجعل الرباب بني تميم وعدى وثور وعكل وهم بنو عبد مناة وضبة بن أد) ، نهاية الأرب (٣٢٩/٢) .

٢ جمهرة (ص ١٩٠) ، صبح الأعشى (٣٤٨/١) ، ابن خلدون (٣١٨/٢) ، الاشتقاق (١١١) ، ابو الفداء (١١٢/١) ، تاج العروس (٣٤٥/٩) ، لسان العرب (٢٩٤/١٧) ، القاموس (٣٦٦/١) ، كحالة (١٠٨٣/٣ وما بعدها) .

٣ ابن خلدون (٣١٨/٢) ، كحالة (٤١٥/٢) .

٤ المبرد (ص ٦) ، الصحاح (٣٩٨/١) ، نهاية الأرب (٣٢٥/٢) ، ابن خلدون (٣١٥/٢) .

٥ جمهرة (١٩٥ وما بعدها) ، (طابخة ، مر ، أد) ، سبائك الذهب (ص ٢٥) .

٦ القاموس (١٦٤/٣)، (وبنو صوفة ، وهم ولد الغوث ، وهو الربيط بن مر) ، نهاية الأرب (٣٢٥/٢) ، (شحمة) ، ابن خلدون (٣١٩/٢) ، (سجنة) ، كحالة (٦٥٥/٢) الصحاح (٣٩/٢) ، اللسان (١٠٢/١١) ، جمهرة (١٩٦) .

الذي حصل على بردي مُحرّق من النعمان بن المنذر في مجلس مفاخر حضرته وفود العرب عقد بحضره النعمان بن المنذر في الحيرة. وقد بزّ عامر هذا الحاضرين في الفخر وفي الانتساب على الطريقة المألوفة . ولما سأله النعمان : بِمَ أنت أعز العرب ؟ قال : العزُّ والعدد من العرب في معدّ ، ثم في نزار ، ثم في تميم ، ثم في سعدّ ، ثم في كعب ، ثم في عوف ، ثم في بهدلة ، فمن أنكر هذا من العرب فلينافرني ؟ فلما لم ينافره أحد ، ذهب بالبردين [1] .

وتميم من القبائل العربية الكبيرة المعروفة ، وقد نعتهم ابن حزم بقوله : (وهم قاعدة من أكبر قواعد العرب) [2] . وتعدّ في مقابل قيس وربيعة ، وهي الممثلة لمجموعة مضر في بعض الأحيان . وهي أقرب جغرافياً وتأريخياً الى قيس وربيعة منها الى كنانة [3] . ومعارفنا عن تأريخها مستمدة مثل معارفنا عن القبائل الأخرى المماثلة من الروايات المدوّنة في كتب الأخباريين [4] .

ويزعم الأخباريون ان جدّ هذه القبيلة مدفون في موضع (مُرّان) [5] ، وهم يروون قصصاً عنه وعن ميلاد أولاده من هذا النوع الذي ألفنا وروده عن الأخباريين [6] .

ولا نستطيع في الوقت الحاضر ان نرتقي بتأريخ تميم عن القرن السادس للميلاد ، فليست لدينا موارد تأريخية يعتمد عليها ترفع تأريخ هذه القبيلة الى

---

١ وفيه يقول الفرزدق :

فما تم في سعد ولا آل مالك ... علام اذا ما قيل لم يتبهدل
لهم وهب النعمان بردي محرق ... بمجد معد والعديد المحصل

وفي أهل هذا البيت من سعد بن مناة ، يقول أوس بن مغراء السعدي :

ولا يريمون في التعريف موقفهم ... حتى يقال أجيزوا آل صفوانا

العقد الفريد (٦٥/٢) ، (تحقيق محمد سعيد العريان) .

٢ جمهرة (ص ١٩٦) .

٣ Ency., IV, P. 643

٤ ابن قتيبة : المعارف (٣٧ وما بعدها) (طبعة وستنفلد) ، جمهرة النسب (ورقة ٦٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ١٢٣ وما بعدها) ، الأغاني (٧/٤ وما بعدها) ، ٣٦/١٢ ، ٦٩/١٥ وما بعدها) ، ابن خلدون (٣١٥/٢) ، أبو الفداء (١١٢/١) .

٥ البلدان (٧/٨) .

٦ Ency., IV, P. 644

ما قبل ذلك ، ولا يعني هذا اننا ننكر ان يكون لها تأريخ قديم ، اذ يجوز ان يكون لهـا عهد اقدم من هذا العهد الذي نتحدث عنه . ولكننا لا نملك الآن نصوصاً جاهلية او موارد اسلامية يُطْمأن اليها ، ترجع تأريخ تميم الى ما قبل هذا القرن .

اما في القرن السادس ، فقد كانت تميم قبيلة بارزة ظاهرة ، بطونها منتشرة في العربية الشرقية ، وفي نجد وفي العراق ، وفي انحاء مختلفة من جزيرة العرب ، مجاورة لقبائل معروفة مثل اسد وغطفان وبني عبد القيس وتغلب ، متصلة بها . ومن بني دارم من تميم كان المنـذر بن ساوى حاكم البحرين والذي أسلم في ايام الرسول [١] .

وكانت لتميم صلات متينة بملوك الحيرة ، وكان من عادتهم جعل الردافة في بطن من بطونهم ، وهو بطن بني يربوع . وقد ثار هذا البطن وهاج ، لما حولت الردافة الى بطن آخر من بطون تميم ، هو بطن بني دارم ، ولم يقبلوا الا برجوعها اليهم ، لما كان للردافة من مكانة ومنزلة في ذلك الوقت [٢] .

ونجد في كتاب الاخباريين اسماء ايام عديدة وقعت بين تميم وغيرها من القبائل ، خاصة قبـائل بكر بن وائل ، كما نجد اشارات الى حروب وقعت بينهم وبين بعض ملوك الحيرة . وقد اشرت الى القصص الذي يرويه اهل الاخبار عن غزو (سابور ذي الاكتاف) لجزيرة العرب والى ما زعموه من تنكيله بالقبائل وانتزاعه اكتافهم ، ومن هذه القبائل قبيلة تميم [٣] . ويذكر الاخباريون ايضاً ان (كسرى برويز) (كسرى أبرويز) (Khusrawparwez) ، كتب الى عامله على هجر ، وهو (المكعبر) ، ان ينتقم من تميم ، لتعرضها لقافلة كانت محملة بالتجارات وبالهدايا مرسلة اليه ، فقتل المكعبر بالمشقر عدداً كبيراً منهم [٤] .

ولتميم صلات متينة برجال مكة ، وقد كان لرجالهم ذكر وخبر في سوق

---

١ Ency., IV, P. 644.

٢ Ency., IV, P. 945.

Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol., VIII, 1965 PP. 113.

٣ Noldeke, Geschichte der Perser und Araber, S., 56.

٤ Ency., IV, P. 645

(عكاظ) . فنهم كان حكّام الموسم . كما تولوا القيام ببعض مناسك الحجّ . وقد صاهرهم بعض رجال مكة .

ويظهر من بعض روايات الاخباريين ان تميماً وبقية القبائل المنتمية الى (أد) كانت تتعبد لـ (شمس) . وكان لشمس بيت (تعبده بنو أد كلها : ضبّة، وتيم، وعدي، وعُكل، وثور . وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم، فكسره هند بن أبي هالة بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن) [1] . وعبدت طائفة من تميم (الدَّبَران) من النجوم، ولهم قصة عن هذه النجوم [2] .

وكان بعض تميم على النصرانية، ومنهم عدي بن زيد العبادي، كما كان بعض منهم من دان بالمجوسية، ومن هؤلاء زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب ابن زرارة والأقرع بن حابس [3] .

وفي شواهد كتب النحو والصرف امثلة عديدة من لهجة تميم [4]، وهي تشير الى وجود فوارق ومميزات في تلك اللهجة تميزها عن اللهجه التي نزل بها القرآن الكريم . وقد اخرجت هذه القبيلة عدداً من الشعراء في الجاهلية والاسلام . وللاستشهاد بلهجة تميم، ولوجود عدد من الشعراء الذين يعدون من كبار الشعراء عند علماء الشعر، اهمية كبيرة ولا شك في دراسة اللهجات العربية، وعلاقاتها بلهجة القرآن الكريم [5] .

وقد أدى تعدد بطون تميم وانتشارها الى نشوب حروب بينها، والى تكتّلها كتلاً وتكوين احلاف بينها، كالحلف الذي كان بين بني يربوع وبني نَهْشَل . وقد نسب لأبي اليقظان النسابة كتاب في احلاف تميم اسمه : (كتاب حلف تميم بعضها بعضاً) [6] .

---

١ المحبر (ص ٣١٦) .

٢ بلوغ الأرب (٢/٢٣٩) .

٣ بلوغ الأرب (٢/٢٣٣ وما بعدها) .

٤ ابن فارس : الصاحبي (٢٤) . المزهر (١/٢١١) ، السيوطي : الاتقان (ص١٠٩) .

٥ Voller, Volkssprache und Schriftsprache in Alten Arabien, S. 8ff., Ency., IV, P. 645.

٦ الفهرست (ص ٩٤) ، Ency, IV, P 644.

وبطون تميم عديدة ، تفرعت على رأي النسابين من الحارث ، وعمرو ، وزيد مناة اولاد تميم [1] . ومن ولد عمرو : العنبر ، والهجيم ، وأسيد ، ومالك ، والحارث ، وقليب [2] . والحرماز ، وكعب على رواية اخرى [3] . ومن بطون بني كعب بنو فهد . وقد عرف نسل الحارث بالحَبِطات [4] . ومن بطون بني مالك ابن عمرو بن تميم : مازن ، والحرماز ، وغيلان ، وغسان [5] . ومن بني أسيد ابن عمرو بن تميم بنو كاهل ، ومنهم أوس بن حجر الشاعر الجاهلي المعروف . وكان شاعر مضر حتى أسقطه زهير [6] ، وبنو شريف ومنهم أكثم بن صيفي من حكماء العرب في الجاهلية ، وحنظلة بن ربيعة ، ابن اخي اكثم . وقد كتب للنبي الوحي [7] . ومن بني مالك بن زيد مناة بن تميم البراجِم ، وبنو دارم [8] ، ومن بني حنظلة بنو يربوع ، ومن بني يربوع بنو ثعلبة [9] ، ومن بني الحارث بن يربوع بنو سليط ، ومن نسل مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد ماة بن تميم : بنو فُقَيْم ، وبنو نهشل ، وبنو مجاشع [10] ، وفي بني رياح بن يربوع كانت ردافة قبل الاسلام [11] ، ومن بني العنبر بن يربوع كانت سجاح [12] .

١ جمهرة (ص ١٩٦) ، (وبنو أسد بن عمرو بن تميم) ، هكذا في الصفحة (٤٣٥)، من الجمهرة ، (والحارث أبا شعرة ، وانما سمى أبا شعرة لبيت قاله :
وقد اخضب الرمح الاصم كعوبه به من دماء القوم كالشقراب
المبرد (ص ٦) ، الانباه (٧٦) الاشتقاق (١٢٦) ، المعارف (٢٦) .
٢ جمهرة (ص ١٩٧) ، المبرد ص (٧) ، الاشتقاق (١٢٦) ، المعارف (٢٦) .
٣ الاشتقاق (ص ١٢٣ وما بعدها) ، المبرد (ص ٧) .
٤ المبرد (ص ٧) ، الاشتقاق (ص ١٢٤) ، العقد (٢/٢٢٢) .
٥ الاشتقاق (ص ١٢٤) ، جمهرة (ص ٢٠٠) .
٦ الاشتقاق (ص ١٢٧) .
٧ الاشتقاق (ص ١٢٧) ، جمهرة (ص ٢٠٠) .
٨ الانباه (ص ٧٦ وما بعدها) ، جمهرة (ص ٢١٢) ، المبرد (ص ٧) ، طرفة الأصحاب (ص٦٠) .
٩ جمهره (٢١٣) ، الاشتقاق (ص ١٢٥) ، المبرد (ص ٧) .
١٠ جمهره (ص ٢١٧ وما بعدها) ، المبرد (ص ٧) ، (وأما تميم بن مر ، فهي قبيلة كبيرة ، ترجع الى طابخة بن الياس بن مضر ، فطونها . دارم ومجاشع) ، طرفة الأصحاب (ص ٦٠) الاغاني (١٢/٤٨) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٦ وما بعدها) .
١١ المبرد (ص ٨) ، الاشتقاق (١٣٥) ، العمدة لابن رشيق (٢/١٦٥)، تاج العروس (٥/٣٥٨) ، لسان العرب (٣/٢٩٥) ، كحالة (٢/٤٥٧) .
١٢ المبرد (ص٨) ، جمهرة (٢١٥) ، صبح الأعشى (١/٣٤٨) ، ابن خلدون (٢/٣١٧) ، كحالة (٢/٨٤٥) .

وذكر (البلاذري) ان (بكر بن وائل) أغارت على (بني عمرو بن تميم) يوم (الصليب) ، ومعها ناس من الاساورة ، فهزمتهم بنو عمرو وقتلت (طريفا) رأس الأساورة [1] . وذكر ان (بكراً) كانت تحت يدِ كسرى وفارس ، فكانوا يقوونهم ويجهزونهم . وكان يشرف عليهم عامل (عين التمر) [2] . ويظهر ان (بني عمرو) ، كانوا قد اعتدوا على (عِيرِ كسرى) ، فجهز (بكر بن وائل) عليهم .

اما بنو قمعة بن الياس ، فهم من نسل عامر بن قمعة ، واسم قمعة عمير [3] . وقد ولد عامر أفصى وربيعة وهي لحيّ ، فولد لحيّ عامر بن لحيّ ، وولد عامر ابن لحيّ عمْراً وهو عمرو بن لحي ، نسب الى جدّه ، فعرف بعمرو بن لحيّ . وهو على قول الاخباريين اوّل من غير دين اسماعيل ودعا العرب الى عبادة الأوثان [4] .

وأشهر بطون قمعــة أسلم ، وخزاعه في رأي بعض النسابين [5] . ولم يشر الى عقب يذكر لقمعة بعض آخر من علماء الانساب [6] . اما اسلم ، فهم بنو أفصى ابن عامر بن قمعة ، وأما خزاعة ، فهم بنو عمرو بن عامر بن لحيّ وهو ربيعة . وقد كانت مواطن خزاعة في انحاء مكة في مرّ الظهران وما يليه . وكانوا حلفاء لقريش . ودخلوا في عام الحديبية في عهد رسول الله ، وقد ذهب بعض النسابين كما اشرت سابقاً الى ذلك ان خزاعة من غسان ، وانها من نسل حارثة بن عمرو (عامر) مزيقياء ، وانها اقامت بمرّ الظهران حين سارت غسان الى الشام ، وتخزعوا عنهم ، فَسُمّوا خزاعة . والى نسبة خزاعة الى غسّان ذهب نسابو خزاعة [7] .

---

1 M J. Kister, in Journal of the Economic and Social History of the Orient, p 114.

٢ النقائض (٥٨١) .

٣ نسب قريش (ص ٨) .

٤ الجمهرة (ص ٢٢٣) ، (ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : أول من سيب السائبة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامي ، عمرو بن لحى بن قمعة . رأيته في النار يجر قصبة . واشبه ولده به أكثم بن أبي الجون . فقال أكثم . أيضرني ذلك يا رسول الله ؟ قال . أنت مؤمن ، وهو كافر) ، نسب قريش (ص٨).

٥ ابن خلدون (٣١٥/٢) ، جمهره (ص ٤٣٧) .

٦ صبح الأعشى (٣٤٨/١) .

٧ نسب قريش (ص ٨) .

ومن صلب عمرو بن لحيّ ، اي خزاعة ، بنو سلول بن كعب بن عمرو بن عامر بن لحيّ ، ومنهم قمِر (قمر) ، ومطرود ومازن وسعد وحليل ، وحُبْشيّة وهم بطن ، وهو حاجب الكعبة [1] . ووالد حُبّي التي تزوجها قُصيّ بن كلاب . ومن نسل حليل ابو غبشان ، واسمه المحترش ، باع الكعبة بزق خمر من قصيّ ابن كلاب . ومن ولد حبشية بن كعب بن عمرو بن عامر بن لحي : حرام ، وغاضرة [2] . ومن نسل بني عوف بن عمرو بن عامر بن لحيّ : جفنة (بنو جهينة) ، وهم عباد بالحيرة . ومن نسل سعد بن عمرو بن لحي بنو المصطلق . ومن بني افصى بن عامر بن قمعة بن عامر بن قمعة : بنو اسلم ، وسلامان وهوازن ، وبنو ملكان بن افصى بن عامر بن قمعة وبنو مالك بن افصى [3] .

وقد تحدثت سابقاً عن رأي نسابي اليمن في خزاعة ، وعدّها من جماعة قحطان . ونظراً لعد بعض النسابين اياها من عدنان تحدثت عنها في هذا الباب .

اما فرع مدركة ، فيتكون من اصلين : خزيمة ، وهذيل . وأمها سلمى بنت أسد بن ربيعة بن نزار [4] . واضاف بعض النسابين ولداً آخر اليها اسمه غالب بن مدركة ، دخل نسله في بني الهون بن خزيمة بن مدركة [5] .

اما ولد خزيمة ، فهم كنانة وأمه عوانة بنت قيس بن عيلان ، وأسد ، وأسدة ، والهون ، وأمهم برّة بنت مر بن أد بن طابخة . اخت تميم بن مر [6] . ويرى بعض النسابين ان جذاماً ولخماً وعاملة هم نسل أسدة ، ولكنهم انتسبوا في اليمن ، فقالوا جُـذام بن عدي بن الحارث بن مُرّة بن أُدَدْ بن زيد بن يشجب بن عريب بن مالك بن زيد بن كهلان ، وأن هذا الانتساب كان لعوامل سياسية كما حدث لقبائل اخرى ، خاصة في ايام الامويين [7] .

١ نهاية الارب (٢/٣٠١) ، الاشتقاق (ص ٢٧٦) ، جمهره (٢٢٣) .

٢ نهاية الارب (٢/٣٠١) ، جمهرة (٢٢٣) ، الاشتقاق (٢٧٨) ، كحالة (٢/٨٧٤) .

٣ نهاية الأرب (٢/٣٠١) ، جمهرة (٢٢٣ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٣١٥) .

٤ ابن خلدون (٢/٣١٩) ، جمهرة (٩) ، نسب قريش (ص ٨) ، سبائك الذهب (ص ٢٢ وما بعدها) ، (مدركة .... وله فرع واحد على حاشية عمود النسب ، وهو هذيل) ، صبح الأعشى (١/٣٤٨) .

٥ جمهرة (ص٩) .

٦ نسب قريش (ص٨) ، الجمهرة (ص٩) ، (فولد خزيمة بن مدركة كنانة وأسد والهون) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٩) .

٨ نسب قريش (ص ٩) .

وكانت منازل كنانة عند ظهور الإسلام في أطراف مكة بين هذيل وأسد بن خزيمة ، وكان لها أثر مهم في تأريخ مكة على ما يفهم من روايات الأخباريين. وقد ساعدت قريشاً ، وقريش من كنانة في نزاعها على رئاسة مكة مع خزاعة ، ولها مع خزاعة جملة وقائع ، كما كان لها أثر خطير في حروب الفجار [1] .

وتتألف كنانة من بطون عديدة ، هي : النضر ، والنضير ، ومالك ، وملكان ، وعامر ، وعمرو ، والحارث ، وعروان (عزوان) ، وسعد ، وعوف ، وغنم ، ومخرمة ، وجرول . وفي رواية لابن الكلبي ان جميع هؤلاء الأبناء هم من أم واحدة هي برّة بنت مرّ ، أخت تميم بن مرّ [2] ، وهي أم أسد وأسدة والهون أبناء خزيمة في رواية أخرى . أما أم عبد مناة بن كنانة ، وذلك في رواية من جعله ابناً لكنانة ، فهي بنت هنيء بن بليّ من قضاعة . ولهذا السبب تسبت الى قضاعة عند بعض النسابين [3] .

ومن بطون عبد مناة بن كنانة : بكر ، وعامر ، ومرّة ، وغفار . وهي بطون . ومن بكر : ليث ، والدئل وأمها أم خارجة البجلية ، وضمرة ، وعريج . ومن ليث بن بكر : عامر وجُندع ، وسعد . ومن الدُؤل أبو الأسود الدُؤلي . ومن بني مرّة بن عبد مناة : بنو مدلج ، وقد اشتهروا بالقيافة [4] . ومن بطون مالك بن كنانة : ربيعة بن مكدّم ، فارس بني كنانة ، وبنو فراس بن تميم ، وبنو فُقَيم ، وهم الذين كانوا ينسأون الشهور في الجاهلية ،

١ نسب قريش (ص ١٠) ، الصفة (٥٤) ، القاموس (٢/٦٦ ، ٣/١٠) ، تاج العروس (٨/٢٤٠ ، ١٠/١٧٨) ، لسان العرب (١٢/١٥٤ ، ١٧/٢٤٣) ، ابن خلدون (٢/٣٢٠) ، صبح الأعشى (١/٣٥٠) ، الانباه (٧٢) ، زيدان : العرب قبل الاسلام (٢٤١) ، كحالة (٣/٩٩٦) ، Ency., II, p. 1017.

٢ جمهرة النسب (ورقه ٤) ، الاشتقاق (١٠٥ وما بعدها) ، Wüstenfeld, Genea., Taf., N

٣ Ency., II, p. 1018

٤ جمهره (ص ١٧٠ وما بعدها) ، (الدئل) ، الاشتقاق (١٠٥ وما بعدها) ، المعارف (٢٢ ، ١٥٠) المبرد (ص٤) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٩) ، صبح الأعشى (١/٣٥٠ وما بعدها) ، الأغاني (١٩/٧٧) ، تاج العروس (٩/٣٢٣) ، أبو الفداء (١/١١٢) ، ابن خلدون (٢/٣٢٠) ، كحالة (٢/٧٣٥) ، (٣/١٠٦١) .

ثم أبطل ذلك في الاسلام[1] .

ومن نسل الهون : عضل[2] ، وديش[3] ، والقارة[4] . وبنو يثيع (يتثع)[5] (يثيع)[6] ، بن مليح بن الهون . وهـم ، وبطنان من خزاعة هما : الحيا والمصطلق ، حلفاء لبني الحارث بن عبـد مناة بن كنانة . ويقال لهـم جميعاً الأحابيش ، أحابيش قريش ، لأن قريشاً حالفت بني الحارث بن عبد مناة على بكر بن عبد مناة ، فهم وأحلافهم حلفاء قريش[7] .

أما نسل أسد بن خزيمة ، فهم : دُودان[8] ، وكاهل[9] . وعمرو ، وصعب ، وحلمة[10] . ويقال لبني عمرو بنو نعامة[11] . وجعل بعض النسابين بني النعامة من نسل عبد الله بن صعب بن أسد ، وهم : بنو جعدة ، وبنو البحير بن عبد الله

١ صبح الأعشى (١/٣٥١) ، الانباه (٧٤) ، المعار (٢٢) ، المبرد (٥) ، الأغاني (١٢/٤٨) ، (فعيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، كحالة (٣/٩٢٦) ، نهاية الأرب (٢/٣٥١) .
٢ لسان العرب (١٣/٤٨٠) ، الصحاح (٢/٢١٥) ، أبو الفداء (١/١١٢) ، صبح الأعشى (١/٣٤٩) ، كحالة (٢/٧٨٧) .
٣ تاج العروس (٧/٣١٦) ، أبو الفداء (٢/١١٢) ، صبح الأعشى (١/٣٤٩) .
٤ طرفة الأصحاب (ص ٦٠) ، الاشتقاق (ص ١١٠) ، ويطلق بعض النسابين القارة على عضل والديش مجتمعين ، تاج العروس (٣/٥١٠) ، لسان العرب (٦/٤٣٦) ، الصحاح (١/٣٩١) ، الانباه (ص٧٣) ، كحالة (٣/٩٣٥) ، (عضل والديش ابنى ملمع بن الهون وهم القارة ، سموا قاره لأن يعمر بن عوف بن الشداخ أحد بني ليث لما أراد أن يفرقهم في بطون كنانه قال رجل منهم :

دعونـا قارة لا تنفرونـا ... فنجفل مثل اجفال الظليم

فسموا قارة . وهم رماة العرب) ، نهايه الأرب (٢/٣٣١) .
٥ نسب قريش (ص ٩) ، Wustenfeld, Genea., Taf., N.
٦ (يثيع) جمهرة (ص ١٧٩) .
٧ نسب قريش (ص ٩) ، جمهرة (ص ١٧٩) .
٨ لسان العرب (٤/١٤٧) ، صبح الأعشى (١/٣٤٩) ، تاج العروس (٢/٣٤٧) ، أبو الفداء (١/١١٢) ، نهاية الأرب (٢/٣٢١) .
٩ لسان العرب (١٤/١٢٤) ، الصحاح (٢/٢٣٧) ، أبو الفداء (١/١١٢) ، ابن خلدون (٢/٣٢٠) ، نهايه الأرب (٢/٣٣١) ، صبح الأعشى (١/٣٥٠) ، كحالة (٣/٩٧٦) .
١٠ جمهرة (ص ١٧٩) ،
١١ الاشتقاق (ص ١١٠) ، المبرد (ص٦) .

ابن مرّة بن عبد الله بن صعب بن أسد [1] . وحصر بعض النسابين بطون أسد ابن خزيمة في كاهل ، وفقعس ، والقعين ، ودُودان [2] .

ومن نسل عمرو بن أسد بن خزيمة : القليب ، ومعرض واسمه سعد ، والهالك [3] ، ومن نسل كاهل بن أسد بن خزيمة مازن بن كاهل ، ومنهم علباء ابن حارثة بن هلال الشاعر قاتل حجر بن عمرو الكندي والد الشاعر امرىء القيس [4] .
وولد دودان بن أسد : ثعلبة ، وغنما [5] . فولد غنم بن دُودان كبيراً ، وعامراً ، ومالكاً . ومن بني غنم بنو جحش [6] . ومن بني ثعلبة [7] بن دودان الشاعر عبيد بن الأبرص ، والكميت الشاعر . ومن بني سعد بن مالك بن ثعلبة ابن دُودان عمرو بن مسعود الذي يقال إن النعمان بنى عليه الغَرِيّ . ومن بني الحارث بن ثعلبة بن دُودان : قُعين ، ووالبة ، وسعد ، ومن بني قُعين عامر ابن عبد الله بن طريف بن مالك بن نصر بن قُعين ، صاحب لواء بني أسد في الجاهلية . ومن بني عمرو بن قُعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان ، طليحة ابن خويلد بن نوفل الذي ادعى النبوة [8] . وأشهر بطون بني ثعلبة : بنو غاضرة ، وبنو مالك ، وبنو والبة ، وبنو نصر بن قعين ، وبنو الصيداء ، وبنو فقعس ، وبنو دبير [9] .

أما ولد هُذيل بن مدركة ، فهم : سعد ، ولحيان . وولد لحيان طابخة ، ودابغة . ومن طابخة أبو قلابة الحارث بن صعصعة الشاعر . ومن سعد بن هذيل :

١ جمهرة (ص ١٨٠) .
٢ طرفة الأصحاب (٥٩) .
٣ جمهرة (ص ١٨٠) .
٤ جمهرة (ص ١٨٠) ، وفيه يقول امرؤ القيس :
أفلتهن علباء جريضا ولو أدركته صفر الوطاب
المبرد (ص٦) .
٥ تاج العروس (٨/٩) ، ابن خلدون (٢/٣٢٠) ، كحالة (٣/٨٩٤) .
٦ جمهرة (ص ١٨٠ وما بعدها) .
٧ ابن خلدون (٢/٣٢٠) ، تاج العروس (١/١٦٥) ، لسان العرب (١/٢٣١) ، كحالة (١/١٤٤) .
٨ جمهرة (ص ١٨٠ ـ ١٨٥) ، وهو من بني فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين ابن الحارث بن ثعلبة بن دودان ، المبرد (ص ٥) ، الاصابة (٤٢٩٠) .
٩ جمهرة (ص ٤٣٥) ، المبرد (ص ٥) .

الشاعر أبو كبير الهذلي ، وحوية . وقيل إن الحُطيأة منهم . ومنهم خناعة وهم بطن ، ورهم ، وتميم ، والحارث ، ومعاوية ، وعوف . ومن سعد هذيل : عبد الله بن مسعود ، والمؤرخ المسعودي . وقد اشتهرت هذيل بكثرة من نبغ فيها من الشعراء ، حيث بلغ عددهم نيفاً وسبعين شاعراً [1] . ومن بطون هذيل الأخرى : بنو دهمان ، وبنو عادية ، وبنو صاهلة ، وبنو ظاعنة [2] ، وبنو مخزوم ، وبنو قُريم ، وبنو قرد بن معاوية [3] .

وتعدّ هذيل من القبائل العربية الكبيرة التي كانت في القرن السادس للميلاد ، أما منازلهم في هذا الوقت ، ففي سراة هذيل بين مكة والمدينة وفي جوار بني سُليم وكنانة [4] ، وهي مثل أكثر القبائل الأخرى لا نعرف من تأريخها قبل الإسلام شيئاً يذكر . ويذكر الأخباريون انها كانت في جملة القبائل التي أرادت الدفاع عن مكة حينما عزم أبرهة على احتلالها . وكانت تتعبد للصنم سواع بيَنْبُع ، وسدنته بنو صاهلة من هذيل ، وتعبدت له بنو كنانة وبنو مزينة وبنو عمرو بن قيس عيلان كذلك [5] . وله معبد آخر بموضع (رهاط) [6] ، كما تعبدت للصنم (مناة) ومعبده بقديد [7] .

إن ما ذكرته في هذين الفصلين ، هو خلاصة آراء علماء الأنساب في أنساب القبائل . وهي آراء لا نستطيع ان نذهب مذهبهم في انها جاهلية قديمة ، وانها على هذه الصيغة كانت معروفة قبل الإسلام ، وإن قالوا إنهم توارثوها عن الجاهليين ، ونقلوها عن المشتغلين بالنسب في الإسلام والجاهلية كابراً عن كابر ، ولا نستطيع أيضاً ان نزعم انها تمثل أنساب القبائل على نحو ما دوّنت وصنفت في الديوان بأمر الخليفة عمر بن الخطاب . فلم نجد في أقدم ما انتهى إلينا من

١ جمهرة (ص ١٨٥ وما بعدها) .
٢ طرفة الأصحاب (ص ٦٠) .
٣ جمهرة (ص ٤٣٥) ، المبرد (ص ٦) .
٤ الصفة (ص ١٧٣) ، ابن خلدون (٢/٣١٩) ، صبح الأعشى (١/٣٤٨) ، نهاية الأرب (٢/٣٣٠) ، كحالة (٣/١٢١٣ وما بعدها) .
٥ المحبر (ص ٣١٦) .
٦ البكري (٢/٦٧٩) (طبعة السقا) (مادة رهاط) ، Ency., II, p. 329
٧ Ency., II, p. 329.

كتب النسب إشارة تفيد ان ما قصوّه علينا وما ذكروه في النسب ، منتزع من سجلات ديوان الخليفة . ثم اننا رأينا أمثلة عديدة ، لتنقل نسب القبائل في أيام الأمويين بين قحطان وعدنان لأسباب سياسية وعوامل ترجع الى هـذا التعصب المزري الذي انتشر في ذلك العصر ، حتى جزّأ العرب الى قيس ويمن .

وهذه الخصومة السياسية العنيفة التي جزأت العرب ويا للأسف الى جزءين ، وأسالت الدماء بـين الفريقين ، صارت سبباً لتثبيت أنساب القبائـل وضمها في مجموعتين : إما الى قحطان ، وإما الى عدنان ، ولا وسط بين الكتلتين . وقد صادف هذا التحزب عصر بـدء التدوين ، فكان النسب (لأهميته عند القبائـل والناس وفي الحياة السياسية في ذلك العهد) في طليعة الأمور التي شملتهـا حركة التدوين ، فبدلاً من ان يعتمد النسابون على الذاكرة والرواية سطّروا تلك الروايات في الأوراق ، وضبطوا أنساب القبائل التي عاشت قبيل الاسلام وفي صدر الاسلام بهذا التدوين .

وقد أحدث عدم ضبط قواعد الخط في صدر الاسلام ، وعدم استعمال النقط في أول العهد بالتدوين بعض المشكلات للمتأخرين في ضبط الأعـلام . فاختلاف النقط يحدث كما هو معروف اختلافاً في ضبط الأسماء ، وهذا ما حدث فعلاً . وإنك لتجد في كتب الأنساب المطبوعة والمحفوظة أمثلة عديدة من هـذا القبيل . كذلك أدى إهمال بعض النسابين ذكر الآباء أو الأجـداد الى حدوث شيء من الارتباك في ضبط الأنساب . يضاف الى هذا تشابه أسماء بعض القبائـل والبطون في قحطان وعدنان .

وقد أشار الهَمْداني الى العصبية التي كان لها أثر خطير في وضع الأنساب في عهد معاوية وغيره في الشأم وفي العراق ، ثم الى تقصير نسابي العراق والشأم في عدة آباء كهلان وحمير ، ليضاهوا بذلك على حد تعبير الهمداني عدة الآباء من ولد اسماعيل ، وذكر انه كانت عنـد أهل اليمن مثل حمير وهمـدان والمرانيين وغيرهم زُبُر مُدوّنة فيها أنسابهم ، يتناقلها الناس ، وهي تختلف عن الأنساب التي يتداولها أهل النسب في العراق والحجاز والشأم بعض الاختلاف ، وان بعضاً من أنساب عرب الحجاز دخل في أنساب الناس من أهـل اليمن ، وذلك على رأيه لأسباب ، منها : فتك (بخت نصر) بأقيال اليمن في عهد أسعد تبّع ،

وفي أيام حسان بن أسعد وتخريبه حصونهم ، وقتل حسان لجديس التي أفنت طسماً [1] . وفي هذا الحديث على علاتـه ما فيه من اعتراف صريح باضطراب النسابين في ضبط الأنساب .

ولا يخلو بعض هذه الأنساب من تحامل العصبية التي كانت في نفوس القبائل والبطون ، إذْ خلقت هذه مثالب لصقتها بآباء القبائل المتباغضة وأجدادها حفظت على مرور الأيام ، ولازمت من قيلت فيهم ، ليس من الصعب الوقوف عليها ومعرفتها كما هو الحال في نسب ثقيف مثلاً . وقد أوجدت قسوة الحجاج بن يوسف ، وهو من ثقيف ، ذلك القصص الذي قيل في جدّ ثقيف ولا شك .

وقد أشرت فيما سبق الى أثر التوراة وأثر نفر من أهل الكتاب ممن ادعوا العلم بكتب الأولين في النسّابين والأخباريين ووضعهم أسس النسب ، وارجاعها الى قحطان وعدنان ، وبناء نسب القبائل على هذين الأساسين . وقد وجدنا (يقطان) في التوراة أباً لشبا وحضرموت وبقية إخوتهما ، وهم من العرب الساكنين في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية . ويقطان هو قحطان . ثم وجدنا الإشماعيليين في التوراة كذلك ، والإشماعيليون هم الاسماعيليون أبناء اسماعيل جدّ العرب العدنانيين . ووجدنا نابت وقدار في التوراة كذلك وعند النسابين أيضاً ، ونابت هو (نبابوت) .

أما الذي يتجلى لنا من استعراض كل هذه الأنساب ودراستها ، سواء أكانت قحطانية أم عدنانية ، فهو ان الحياة السياسية للقبائل كانت حياة كتل ، وهي حياة اقتضتها ضرورات الحياة للدفاع عن النفس والمصالح ، كما هو شأن الدول في كل زمان ، حيث تعقد بينها المحالفات . فالحلف بين القبائل ، هو كالحلف بين الدول بكل ما للحلف من معنى . وقد رأينا نماذج من تلك الكتل الضخمة أشرت اليها في أثناء كلامي على القبائل . ويخيل إليّ ان فكرة رجوع العرب الى قحطان وعدنان ، فكرة تثبتت في الإسلام ، ساعد في ترسيخها وتثبيتها تلك العصبية التي أشرت اليها ، وتلك النظرية التي انتزعها ابن الكلبي وأضرابه من التوراة ومن أهل الكتاب بخصوص يقطان وقيدار .

---

[1] الاكليل (٨/ ١٠٠ وما بعدها) (طبعة نبيه أمين فارس) ، (١٠/ ٣٠ وما بعدها).

وفي الذي يذهب اليه أهل الأخبار والأنساب من ادعاء وجود خلاف بين القحطانيين والعدنانيين ، شيء من الصحة ، لا سبيل الى نكرانه ، غير انه ليس على النحو الذي ذهبوا اليه . والكتابات الجاهلية التي تحدثت عنها سابقاً ، وأسماء الأشخاص والأصنام ، شواهد على وجود هذا الاختلاف . ولكنه ليس اختلافاً بالمعنى الذي ذهب اليه الأخباريون . فبين العرب الذين يطلق الأخباريون عليهم (القحطانيين) اختلاف في اللهجة وفي الأسماء لا يقلّ عن الاختلاف بين القحطانيين والعدنانيين . كذلك نجد مثل هذا الاختلاف بين العدنانيين أنفسهم . وقد وجدنا نص النمارة لامرىء القيس ، وهو أصل قحطاني على حدّ تعبير الأخباريين وأهل الأنساب ، بلهجة قريبة من لهجة القرآن الكريم بعيدة عن لهجات أهل اليمن . بلهجة نستطيع ان نقول إنها من الأم التي ولدت عربية القرآن الكريم . كذلك نجد النصوص الأخرى قريبة من هذه العربية ، مع انها لأناس يجب عدّهم من قحطان إن سرنا مع النسّابين في مذهبهم في تقسيم العرب الى قحطانيين وعدنانيين . ثم ان الأخباريين لم يشيروا الى وجود فروق في اللسان بين القحطانيين والعدنانيين ، وإنما جعلوهم يتكلمون بعربية واحدة هي عربية القرآن الكريم ، ونسبوا اليهم أصناماً مشتركة . وشعراء الجاهلية هم في عرفهم من قحطان وعدنان . ولهذا قالوا عن اللهجات العربية الجنوبية التي ظلت حية في اليمن وفي حضرموت انها غير فصيحة وانها ليست بعربية ، وان لسان حمير ليس بلساننا ، الى غير ذلك مما أشرت اليه في أجزاء الكتاب السابقة مأخوذة من أقوال العلماء .

وقد ذكرت في كتابي : تأريخ العرب قبل الاسلام ، في أثناء كلامي على النبط ما كان من وجود أداة (ال) المستعملة في عربية القرآن الكريم ، في كتاباتهم ، وأشرت الى استعمالهم أسماءً استعملتها قريش وغيرهم من العرب العدنانيين [1] . وهي اسماء لم نعثر عليها في الكتابات العربية الجنوبية حتى الآن ، كما أشرت الى مشاركتهم العرب الشماليين في أسماء الآلهة التي تعبدوا لها ، وأوردت آراء بعض المستشرقين في أصلهم ، وفي انهم عرب مثل العرب الآخرين .

ولهذه الملاحظات اهمية كبيرة في الحديث عن العرب الشماليين ، وفي النواحي التي يختلفون فيها عن العرب القحطانيين . كما أن لنص النمارة ولتأريخ (بروكوبيوس)

---

١ (١٣/٣) .

اهمية خطيرة كذلك في هذا الموضوع لإشارتها لأول مرة الى (معدّ) . فقد وردت كلمة (معدو) اي معدّ في السطر الثالث من النص ، ووردت كلمة (نزرو) اي (نزار) في السطر الثاني منه . يضاف الى ذلك ورود اسماء قبائل اخرى هي (الأسدين) ، اي قبيلة أسد ، ومذحج .

أما تأريخ (بروكوبيوس) ، فقد وضع (Maddeni) اي معدّاً في الاقسام الشمالية من الحجاز . وقد ذكر هذا المؤرخ ان القيصر (يوسطنيان) طلب من (السميفع أشوع) (Esimiphaius) أن يوافق على تعين سيد قبيلة اسمه (قيس Kaisus) (Caisus) رئيساً على (معدّ) [1] . وقد ذكرت ان هذا يدلّ ضمناً على خضوع معدّ لحمير ، ولو كان خضوعاً بالاسم . ولوجود معدّ في هذا الزمن ، أي في القرن السادس للميلاد ، في أرض كانت مأهولة بالنبط اهمية كبيرة ولا شك .

كما أشرت الى ورود كلمة (مضر) في نص يماني ، والى اشتراكها في حرب خاصتها سبأ وحمير ورحبة وكدت ومضر وثعلبة [2] . وهي حرب يظهر انها كانت واسعة من الحروب التي وقعت قبيل الاسلام . ومضر في هذا النص قبيلة من هذه القبائل التي اشتركت في الحرب ، وليس اسماً عاماً لقبائل كثيرة ، أي على نحو ما يذهب اليه الاخباريون .

فيتبين من هذه النصوص ان معداً ونزاراً ومضر كانت قبائل تقيم في الأقسام الشمالية من جزيرة العرب وفي العربية الغربية . وقد لاحظنا ان نص النمارة قد فرق بين معدّ ونزار ، ولم يشر الى وجود رابطة بين القبيلتين ، بمعنى ان كُلاًّ من نزار ومعدّ كان قبيلة مستقلة ، في حين يضع النسابون نسباً بينهما ويربطون بين القبيلتين . والظاهر ان هذا الارتباط الذي ذهب اليه الاخباريون وأهل الانساب انما حدث في صدر الاسلام ، بعد تثبيت القبائل في الديوان .

وفي اثناء كلام الاخباريين على تأريخ الحيرة ، ذكروا ان معداً كانت خاضعة لها ، وأن ملوكها كانوا يحكمون معداً . ذكروهم في جملة من كان قد خضع

---

١ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٢٠٥ وما بعدها) .
٢ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/١٦٦) .

لحكم أولئك الملوك . والذي يستنتج من كلامهم أن معـــداً كانوا بادين ، أي اعراباً ، وأنهم كانوا يقطنون مناطق كانت في نفوذ ملوك الحيرة . فهل قصد الاخباريون معداً الذين كانوا يسكنون في أعالي الحجاز كما ذكر ذلك (بروكوبيوس) أم قصدوا جماعات منهم هاجرت الى بادية الشام ، وخضعوا لحكم أهل الحيرة ؟ ويلاحظ ان الاخباريين يتوسعون احياناً في مُلك ملوك الحيرة فيبلغون به البحرين والحجاز .

اما كيف تطورت هذه الانساب ، وكيف توزعت ، وكيف حصرت في جدّين ومن قام بذلك ، وأمثال هذا ؟ فليس من السهل ايجاد جواب لأمثال هذه الأسئلة ما دمنا لا نملك الاسباب التي تهيىء لنا العلم الكافي للاجابة عنها .

الفصل السابع والأربعون

الناس منازل ودرجات

وأهل الجاهلية مثل غيرهم من شعوب ذلك الزمن : أحرار وعبيد ، يستوي في ذلك الأعرابيّ وأهل المدر . والحرّ نقيض العبد ، والحرة نقيض الأمة[1] . والحرّ هو الذي يتصرف بأموره كما يشاء . وأما العبد فلا ، فأمره بيد مالكه ، فلا يجوز له ان يفعل شيئاً من غير رضا سيده ومالك رقبته . ويعبر عن الحر بلفظة (حرم) في المسند ، فيقال : (حرم) ، أي (حرّ) . والجمع (أحرر) ، أي (أحرار)[2] .

والجاهليون وان بدوا (دمقراطيين) شعبيين ، لا فرق عندهم بين حر وعبد ، كبير أو صغير . يخاطب الفقير ملكه أو سيد قبيلته بلهجة بسيطة تنم عن (دمقراطية) عميقة أصيلة إلا انهم في الواقع طبقيون يعاملون الناس حسب منازلهم ودرجاتهم ، ويعملون بمبدأ عدم التكافؤ بين الناس . وآيـة ذلك عُرف جلوس الناس في مجالس الملوك والمجتمعات ، وعرف تقديم الطعام أو الشراب مبتدئين بالملك ثم بمن يجلس على جانبه الأيمن باعتبار انه أشرف القوم ثم بالجالس على الجانب الأيسر من الملك ، على ترتيب الناس في درجات جلوسهم أو حسب إشارة الملك الى الساقي أو مقدم الطعام . ثم في نظرتهم الى (الحق) والى الأعراف الاجتماعية كالأخذ بالثأر والزواج . فلهم في الأخذ بالثأر مبدأ مقرر

---

1 اللسان (٤ / ١٨١) .

2 Rep. Epig., VII, p. 416, Nu. 4912, Philby 84

معروف . هو ان القتيل اذا كان شريفاً في قومه ، وكان قاتله وضيعاً صعلوكاً ، أو عبداً فلا يقبل أهل القتيل بـ (القوَد) ، بل يعرف تكافؤ الدم . فعندهم ان دم القتيل الشريف ، لا يغسل إلا بدم شريف مثله ومن أهل مكانته ، ومعنى هذا ان قتل القاتل لا يكفي ، بل لا بد لأهل القتيل في هذه الحالة من البحث عن شريف من قوم القاتل يكون مكافئاً للقتيل في المنزلة والمكانة حتّى يقتل به ، فيغسل عندئذ بقتله دمه . وينام الثأر . وقد يكون المقتول وهو ما يحدث في الغالب بريئاً ولا علاقة له بالقتيل ولا القاتل . ولكن العرف القائم على نظرية التكافؤ بين الطبقات ، لا يفهم براءة بريء ، وحق قتل القاتل وحده ، بل يدين بعقيدة ان الدم لا يغسل إلا بدم موازٍ له ، فلا بد من قتل شريف بشريف إذنْ حتّى ينام أهل القتيل .

والى ما تقدم من الإسراف في القتل وقتل البريء بدم مقتول ، أشير في القرآن الكريم : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً ، فقد جعلنا لوليه سلطاناً ، فلا يسرف في القتل)[1] . (وذلك ان أهل الجاهلية ، كانوا يفعلون ذلك ، اذا قتل رجل رجلاً عمد ولي القتيل الى الشريف من قبيلة القاتل فقتله بوليه ، وترك القاتل ، فنهى الله عزّ وجلّ عن ذلك عباده ، وقال لرسوله ، عليه السلام ، قتل غير القاتل بالمقتول معصية وسرف ، فلا تقتل به غير قاتله . وان قتلت القاتل بالمقتول ، فلا تمثل به)[2] .

وعلى هذه النظرية الطبيعية بنوا تقييم أثمان الديات ، أي ثمن الدم . فدية الملوك في الجاهلية أغلى ما دفع ثمناً عن دم . إذْ جعلت دية الملك ألفاً من الإبل ، فعرفت للملك بدية الملك . تليها في الثمن ديات الأشراف وسادات القوم حسب الشرف والمنزلة حتّى تصل الى ديات المغمورين المطمورين فتكون أقلها ثمناً . إذْ تبلغ خمساً من الإبل ، وقد تنقص في ذلك . وعلى هذه النظرية القائمة على (الفوقية) و (التحتية) ، قدرت فدية الأسرى أيضاً . ففدية الملوك الذين يقعون في أسر آسر ألف من الإبل ، وعرفت بـ (فدية الملوك) وفدية من هم دونهم أقل حتّى تصل الى أبخس ثمن ، وهي فدية سواد الناس . ولهذا حرص

١ الاسراء ، الآية ٣٣ .

٢ تفسير الطبري (١٥/٥٩) .

الأسير الشريف الذي لا يعرفه آسره على اخفاء شخصيته وعلى التظاهر بالإملاق وبأنه من المغمورين ليجنب نفسه دفع فدية عالية قد يفرضها آسره عليه ، فتوجعه وتؤلمه .

ومن هذه النظرة أيضاً ولد اعتقاد أهل الجاهلية ان دم الرئيس يشفي من عضة الكلب الكلب[1] . فإذا كُلب إنسان أتوا رجلاً شريفاً فيقطر لهم من دم إصبعه فيسقون المكلوب فيبرأ . أو يسقونه من دم ملك فيشفى . جاء في المثل : دماء الملوك شفاء الكلب . ودماء الملوك أشفى من الكلب . قال أهل الأخبار عن الكلب : (وأجمعت العرب ان دواءه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاه) ، فيشفى بذلك من الكلب[2] . ولو لم يكن للجاهليين رأي خاص في الملوك والأشراف ، وفي وجود تفوق لهم على سواد الناس ، لما اعتقدوا هذا الاعتقاد في اشفاء دماء الملوك والأشراف لمن يصاب بالكلب . وبعدم شفاء دم غيرهم لهؤلاء المرضى .

ومن هذه النظرة أيضاً ، تولد امتناعهم من تزويج بنات الأشراف والأمر من رجال هم دون البنت في المنزلة . وهو عرف يراعونه ويحافظون عليه الى يومنا هذا . ويزدرون من شأن الخارج على (التكافؤ) بين البنت والولد في الزواج . وقد يرفضون تزويج رجل ثري مكتنز للمال ، من امرأة فقيرة شريفة الأصل ، اذا كان الرجل من أصل ذابل ، كأن يكون أبوه أوجده (صانعاً) أو (خضاراً) ، لأن الأصل في نظر العرب فوق المال . والشريفة يجب ألا تزوج إلا من شريف مثلها ، مراعاة منهم لمبدأ نقاوة الأصل وانجاب الأولاد النجباء . ومن هذه النظرة امتنع العرب من تزويج بناتهم من الأعاجم حتى لو كان ذلك الأعجمي ملكاً . وقد رأينا كيف ان (النعمان بن المنذر) ، رد طلب (كسرى) لما طلب منه تزويجه إحدى بناته من أحد أبنائه . وشقّ ذلك عليه حتى انه لم يتمالك من ضبط نفسه ، فقال للرسول : أما في عين السواد وفارس ما تبغون حاجتكم . ومراده من لفظة (عين) البقر . ومن اغتنام (زيد بن عديّ بن زيد العبادي) هذه الفرصة ، وكان هو الذي اقترح على (كسرى) ان يزوج أحد ولده من بنات النعمان ، فقال لكسرى : (قد كنت أخبرتك بضنهم بنسائهم على غيرهم،

---

١ بلوغ الأرب (٢/٣١٩) .

٢ تاج العروس (١/٤٦٠) ، (كلب) .

وان ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعري على الشبع والرياش ، واختيارهم السموم والرياح على طيب أرضك هذه حتى انهم ليسمّونها السجن) . ومن قوله له : (أيها الملك : إن شرّ شيء في العرب وفي النعمان انهم يتكرمون عن العجم)[1] . فكان ما كان من غضب (كسرى) على النعمان ومن القضاء عليه على النحو الذي تحدثت عنه[2] .

وقد جعل بعض العلماء تخوف العرب من القهر عليهم ومن طمع غير الأكفاء في بناتهم ، في جملة العوامل التي حملتهم على وأد البنات . (قال قتادة : كان مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء ، وأشدّهم في هذا تميم . زعموا خوف القهر عليهم ، وطمع غير الأكفاء فيهن)[3] . ومن شروط الكفاءة في الزواج عند الجاهليين ، التكافؤ في النسب والحسب والمكانة وفي الأصل .

وسبب امتناع العربي من تزويج ابنته الى أعجمي ، هو تكرم العرب عن الأعاجم واستعلاؤهم عليهم . ونظرتهم الى الأعاجم على انهم دونهم في المنزلة والكرامة . لذلك رأوا ان تزويج بنت عربية الى علج أعجميّ ، خسة ما بعدها خسّة ودناءة ما وراءها دناءة . حتى وان كان العربي فقيراً لا يملك شيئاً . بل عابوا العربي الذي يتزوج أعجمية بسبب النسل ، واستصغروا شأن المولود من أب عربيّ ومن أم أعجمية . فهو وان كان عربياً في عرف العرب من أجل ان النسب الى الأب ، ولكنه أعجميّ من ناحية الأم ، فهو دون الأصيل في المرتبة .

وفي غنى العربية بالمصطلحات الكثيرة التي تطلق على السادة والأشراف وعلى الفقراء والمعدمين التربين وعلى الطبقات الأخرى ، دلالة ليس فوقها دلالة على وجود هذه النظرة الطبقية عندهم ، وعلى نظرتهم الى أنفسهم على انهم منازل ودرجات ، وانهم غير متكافئين . وان القيادة في المجتمع يجب ان تكون للبيوت .

١ الطبري) ٢/٢٠٢ وما بعدها) ، (ذكر خبر يوم ذي قار) .

٢ (وقد هجا عبد القيس بن خفاف البرجمي ، النعمان بن المنذر ، في الجاهلية ، وذكر ولادة الصائغ له ، فقال :

لعن الله ثم ثنى بلعن ... ابن ذا الصائغ ، الظلوم الجهول
يجمع الجيش ذا الالوف ويغزو ... ثم لا يرزأ العدو فتيلا)

الحيوان ، (٤/٣٧٩) ، (هارون) ، الأغاني (٩/١٥٨) .

٣ القرطبي ، الجامع (١٠/١١٧) ، (تفسير سورة النحل)) .

ثم ان الأحرار على منازل ودرجات . وهم متفاوتون من حيث الشرف والمال . ويظهر التفاوت بين أهل المَدَر أكثر مما يظهر بين أهل الوبر ، ذلك لأن الأعرابي فخور بنفسه ، يرى انه « شريف » مثل غيره نبيل وان قل ماله وشح . ثم ان التفاوت بين الطبقات لا يمكن ان يظهر في البادية ظهوره بين الضواحي والقرى ، لأن طبيعة البادية لا تساعد على ظهور ذلك التباين ، حتى ان عبيد الأعراب لم يكونوا يكوّنون طبقة خاصة مضطهدة ، ينظر اليها نظرة أهل القرى بازدراء ، بل كانوا يعدون في البادية كأعضاء من أعضاء الأسرة [1] .

والتباين الطبقي هو على ما أوضح ما يكون في اليمن ، لأن الطبيعة قد حبت أرض اليمن خيرات وجواً لم تحبُ المناطق الأخرى من جزيرة العرب مثلها ، فكانت نتيجة ذلك ظهور الاقطاع فيها ، واشتدت الحاجة الى شراء الرقيق واستجلابه لاستغلال التربة واستثمار خيرات الأرض وتشغيله في المهن الوضيعة ، وظهر في اليمن أغنياء ومتوسطو حال وفقراء معدمون ، أي طبقات اجتماعية كونت ذلك المجتمع بشكل واضح لا نراه في المجتمعات العربية الأخرى ، أشير اليهم في الكتابات .

رجال الدين :

ورجال الدين طبقة في رأس طبقات المجتمع مكانة ومنزلة ، ولها امتيازات خاصة ، لأنها ألسنة الآلهة الناطقة على هذه الأرض ، والآمرة والناهية باسمها ، وهي تقرب الناس الى الآلهة ، وتحرّم وتحلل . وقد رأينا ان أوائل حكّام العربية الجنوبية هم « مكربون » ، أي رجال دين . ولرجال الدين أملاك وأموال ، ولهم على الناس حقوق ، يأخذونها منهم ، كما تأخذ الحكومة حقها من الشعب . وهم طبقة كبيرة ذات قوة وسلطان مصالحها مع مصالح الحكّام بالرغم من الانفصام الذي وقع فيما بين الدولة والمعبد ، وإبعاد « المكرب » عن الحكم ، وحصر حق الحكم في الملك وحده ، وحصر حق ادارة المعبد في رجال الدين وحدهم ، وذلك لأن مصالح الملك ومصالح رجال الدين متشابهة ، وكل جهة من

---

١ Ancient Israel, p. 68.

الجهتين بها حاجة الى مساعدة الجهه الأخرى .

وكثيراً ما نقرأ في كتابات معين : ان الـ « شوع » او الـ « رشو » الفلاني قدّم قرباناً الى آلهة معين ، او بنى معبداً ، او أقام بناءً ، او عمل عملاً تقدمةً لآلهة معين . ولفظتا « شوع » و « رشو » تعنيان الكاهن والسادن ، أي منزلة دينية ذات مركز سام ، وهي أعلى درجات الكهنوت في العربية الجنوبية .

السادة والأشراف :

ويعبر عن السادة والأشراف بتعابير التعظيم والتفخيم ، ومنها لفظة « أبعل » « ابعل » ، ، أي سيد ورئيس . وهي لفظة استعملت للآلهة كذلك . استعملت بمعنى رب وإله . فورد « ود بعل ... »و « عشتر بعل ... » وهكذا . وقد استعملت في النصوص القديمة خاصة .

ويقال للسادة « أسود » « اسواد » في العربية الجنوبية ، وهم السادة الأشراف [1] . وتقابل اللفظة لفظة « سادات » في عربيتنا . وهم سادة القوم وأشرافهم وأصحاب المنزلة والمكانة في المجتمع .

ويعدّ أعضاء الأسرة المالكة في طليعة السادات ، وهم في السيادة على حسب قربهم او بعدهم من الملك ، ويقدمون على هذا الأساس عند حضورهم الى الملك وفي المواسم الرسمية . ولهم أرضون يستغلونها ، ورقيق يخدمهم .

ويعبر عن وجيه القوم وذي المنزلة والمكانة بلفظة « كهثم » « كهث » [2] وعكسها الوضيع والخامل والصغير والحقير ، فقد ورد : « كل انسم كهثم وقطنم » ، ومعناها : « كل إنسان : كبير وصغير » او « كل انسان وجيه ووضيع » . وتطلق لفظة « القطين » وهي « قطنم » و « قطن » في لغة المسند ، على الخدم والأتباع والإماء في لغة القرآن الكريم [3] . فهي إذنْ في نفس

١ Arabien, S 128.

٢ راجع النص . Glaser 509, Rhodokanakis, Stu . I, S . 68

٣ اللسان (٢٢٢/١٧) .

المعنى المراد من اللفظة في لغة المسند . وقد ذكر علماء اللغة ان القطين أتباع الملك ومماليكه [1] .

ويقابل أهل الوجاهة والمنزلة في المجتمع ، من يطلق عليهم « ص غ ر م » « صغرم » ، أي صغير .ويراد بها سواد الناس ، ممن لا وجاهة لهم ولا مركز لدى الحكومة والمجتمع ، كما في هذه الجملة : « كبرم فاوصغرم » ، ومعناها : « كبير أو صغير » [2] .

وفي الدرجات العليا من درجات المجتمع ، الأقيال وهم إقطاعيون كبار ، لهم أرضون واسعة وسلطان ، وقد نجد « القول » القَيْلُ قوة في نفسه ومنعة ، فينازع الملوك على الملك ، ويأخذ الحكم بيده .

وترد في الموارد الاسلامية درجة أخرى تذكر عادة مع الأقيال ، هي درجة « ذو » وتجمع أذواء . ويظهر انها من الدرجات الإقطاعية التي صار لها شأن في العهود المتأخرة القريبة من الاسلام . ويراد بها أصحاب الأرضين ورؤساء الإقطاعيات ، كما تطلق على رؤساء القبائل . وقد أخذت من (ذ) التي ترد في المسند ، ومعناها (ذو) في عربيتنا وهي بمعنى (صاحب) في العربيات الجنوبية .

الوجوه :

وسادة القوم هم وجوه المجتمع وسادات القبائل وقادة الجيوش . من (مقتوين) ومن أمراء حرب ، ومن المقربين الى الملوك وكبار موظفي الدولة . وهم أنفسهم من الطبقات العالية في الغالب . وقد ورثوا منازلهم إرثاً ؛ ولهم أرضون وثراء وقصور يقيمون فيها ، وبيوت مشيدة ، وخدم يخدمونهم ، وقد حصلنا على أسماء عدد منهم من الكتابات .

والتجارة من أشرف ما يشتغل به إنسان عند قريش وعند غيرهم من العرب .

---

١ اللسان (٢٢٢/١٧) .

٢ راجع الفقرة السادسة من النص الموسوم بـ : Oslander 35

وقد اشتغل بها أكثر أشراف مكة ، إذْ كانوا تجاراً يتاجرون مع اليمن ومع بلاد الشأم والعراق . وقد كانت الحرفة الوحيدة المربحة في جزيرة العرب . فالزراعة لا تدر عليهم ربحاً كبيراً ، لعدم توفر الماء الكافي لزراعة أرضين واسعة تأتي لأصحابها بغلات واسعة وبأموال طائلة ، والصناعة غير متيسرة ، لذلك عافوها وعابوها ، ولم تكن لديهم وسيلة مربحة أخرى غير التجارة .

ومن الألفاظ الدالة على الوجاهة والمكانة عند العرب الجنوبيين ، لفظة « قرمن » ، أي « القرم »[1] . وهي في هذا المعنى في عربيتنا كذلك ، فيقال للسيد قرم . والقرم من الرجال السيد المعظم و (المقرم) ، هو أيضاً السيد المعظم[2] .

المحاربون :

ويكون المحاربون طبقة خاصة بهم ، وهم أناس احترفوا الخدمة العسكرية وعاشوا عليها ، وقد أشير اليهم في الكتابات وعرفوا بـ « قسم » « قسد » « ق س د » . وقد ذكروا بعد أصحاب الأرض في إحدى الكتابات[3] ، وقبل « التجار » « مكر » و « الكيالين » « سلا » في كتابة أخرى[4] . وقد أشار اليهم « سترابو » إذْ جعلهم في الطبقة الأولى من طبقات المجتمع في « العربية السعيدة » . وكان قد قسم هذا المجتمع ثلاثَ طبقات : المحاربين ، والمزارعين ، وأصحاب الحرف اليدوية[5] .

ويظهر من دراسة بعض النصوص التي وردت فيها كلمة (قسدن) ، ان

١ Ryckmans 508.

٢ اللسان (٤٧٣/١٢) ، تاج العروس (قرم) .
قال أوس بن حجر :
اذا مقرم منا زر أحد نابه نخمط مادرا ناب اخر مقرم
أمالي المرتضى (٢٥٨/١) .

٣ Glaser 1210, A. Grohmann, S., 123.

٤ Glaser 1571, Rhodokanakis, Bodenwirtschaft, S., 183, Altsabäische Texte, I. 105, Kata Texte, I, 73.

٥ Handbuch, I, 123, A. Grohmann, S., 123

(القسود) ، كونوا طبقة كبيرة خاصة في دولة سبأ ، كانت منزلتها دون منزلة الاشراف واصحاب الاقطاع وفوق رقيق الارض ، المسمون بـ (ادومت) ، التابعين للأرض والذين يباعون معها عند بيع الأرض . وكانوا يستغلون الارض التي تعطى لهم لاستغلالها في مقابل اداء الخدمة العسكرية والاشتراك في القتال عند وقوعه ، فهم عساكر وفلاحون في آن واحد . ويشبه حالهم حال العساكر الذين منحهم الخلفاء الراشدون ارضين زراعية لاستغلالها في مقابل هرعهم الى القتال مع المحاربين عند توجيه الدعوة لهم . وهو نظام كان عند الساسانيين والبيزنطيين .

وقد كان الاشراف وأصحاب الاقطاع يستأجرون من لا ارض له ، باعطائه ارضاً لاستغلالها في مقابل الدفاع عنهم والقتال دونهم . ولذلك كان لكل اقطاعي (قسود) استطيع تسميتهم بالفلاحين المحاربين . يحاربون معه ويدافعون عنه . واذا مات سيدهم ، صارت السيادة الى من ينتقل الارث اليه .

ويعرف المحارب بـ « اسدم » « اسد » في العربيات الجنوبية ، اي جندي وعسكري في اصطلاحنا اليوم . وهم احرار وعبيد . وورد في بعض الكتابات حملة « اسد املكن » « اسد املكان » ، اي « جنود الملك » و « جنود الملوك » وذلك تعبيراً عن جماعة اختصت بالخدمة في جيش الملك . وقد اشير اليهم في كتابة بمناسبة انشاء طريق [1] .

ويلحق هذه الطبقة طبقة الـ « اتمت » ويراد بها الجنود المرتزقة ، او ما يعبر عنه بـ (العساكر) في الزمن الحاضر [2] ، وقد كوّن « العساكر » أو « عساكر السلطان » كما عرفوا في بعض البلاد الاسلامية في ايام الخلافة طبقة خاصة ، اعتمدت على سلطانها وقوتها ، فلم تحفل بأحد وأخذت تعتدي على الاهلين . وقد كانوا خليطاً من الاحرار ومن الرقيق ، اعتمد عليهم الحكّام في الدفاع عنهم وفي القضاء على خصومهم ، فعاشوا على خدمة سادتهم ، وقد صارت حرفتهم وراثية ، فابن الـ « اتمت » ، ينتسب الى الخدمة في المعسكر ايضاً حين بلوغه سن الخدمة ويعيش في خدمة سيده .

١ Rep Epig 4624, J Ryckmans, L'institution Monarchique, 147, Arabien, S. 123.

٢ A Grohmann, S , 123

التجار وتوابعهم :

ويكوّن « التجار » طبقة خاصة من طبقات المجتمع العربي الجنوبي . ويقال لهم « مكر » في لغة المسند . وقد كانوا يتاجرون في البرّ والبحر ، ولهم قوافل وطبقات دنيا من رقيق وخدم تؤدي الواجبات التي يريدها سادتهم منهم . وكان لهذه الطبقة شأن خطير في تأريخ العربية الجنوبية في القديم ، وأثر بليغ في اقتصاد البلاد ، وتزويد الحكومة بمصدر كبير من مصادر دخلها وهو الضرائب التي كانت تدفعها اليها .

وقد تعرض علماء العربية للفظة (المكر) ، فقالوا : ان من معانيها السوق ، وفيها يقع المكر والخداع . وان (الماكر) العير تحمل الزبيب ، والتمكر احتكار الحبوب في البيوت [1] . ولهذه المعاني صله مباشرة بالتجارة وبالاتجار في البرّ والبحر .

وفي العربية طبقة عرفت بـ « سلا » ، تعاطت تجارة الملح ، كانت تبيعه وتستورده وتصدره وتقوم بنقله من مواضعه الى الاسواق . وقد شبه « رودوكناكس » هذه الطبقة بـ « الكواليان » في الوقت الحاضر [2]

الطبقات الدنيا :

ومن الطبقات الدنيا عند العرب الجنوبيين : الـ (ادم) والـ (صغرم) (الصغر) (الصغار) ، والأجراء (اجرم) ، والمتربون (غبر) ، والـ (ومي) (امي) .

الادم :

وترد في كتابات المسند كلمة هي « ادم » و « ادومت » . وتقابل لفظتي « ادم » و « ادومت » و « آدمي » و « أوادم » في العراق ، بمعنى خادم وخدم [3] . ووردت في صورة : « ادمت » « اديمت » و « ادوم » في الكتابات

١ تاج العروس (٥٤٩/٣) ، (مكر) .

٢ Glaser 1571, A Grohmann, S., 124

٣ راجع النصوص الموسومة بـ : ٦٨٩ ، ٦٩٧ ، ٧٠٤ ، ٧٠٧ ، ٧١٢ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٣٠ ، ٧٨٤ من كتاب :
Jamme, Southarabian Inscriptions, p 76, 77

راجع النقش رقم (١٦) ، ص ٢٣) ، من كتاب خليل يحيى نامى : نقوش خربة معين .

القتبانية المتأخرة [١] . وتؤدي معنى التبعية . وأعني بالتبعية الاعتراف بسيادة رئيس على مرؤوس [٢] . فقد كان اصحاب الارض يؤجرون الارض لمن لا ارض لهم ، ومن لا مال لهم ، فيقيمون فيها يشتغلون لأصحابها ، ويكونون تبعاً لهم . ويعبرون عن هذه التبعية بتلك اللفظة المعبرة عنها . فهم في هذه الحالة اذن مزارعون يعيشون من كراء الارض [٣] .

وقد وردت هذه اللفظة بهذا المعنى ، خاصة في النصوص المتعلقة بقبيله « سخيم » [٤] . وهي ذات املاك واسعة وأرضين خصبة ، وأجرتها لمن لا ارض له من الوافدين عليها من الاماكن الاخرى ، لتستغل هذه الارضين وتعيش عليها ، معترفة بذلك انها في حماية هذه القبيلة وفي خدمتها .

وهي فضلاً عن ذلك تعبر عن التبعية بكل اشكالها ، فتعبر عن الانتماء الى شخص او قبيلة كذلك ، بمعنى ان « الادم » تابع لذلك الشخص او القبيلة ، منتمٍ اليه . ولذلك يذكر الـ « ادم » اسم سيده الذي ينتمي اليه ويحتمي به ، كأن يذكر اسمه او اسم القبيلة التي ينتمي إليها . وقد يعبر باللفظة عن معنى (تابع) و (خادم) بالمعنى المجازي ايضاً ، في مثل مصطلح « ادم ملكن » أي « خادم الملك » و « عبد الملك » و « آدم الملك » [٥] . وذلك تعبيراً عن الاحترام للملك وعن الاقرار بتبعية الشخص المذكور له ، وباخلاصه له اخلاص العبد لسيده ، وان كنا نجد ان للملك حاشية كبيرة هي حاشية (ادم) حقيقية ، اي طبقة لا تملك ارضاً ولا ملكاً ، ومعاشها من خدمة الملك ، حيث يتولى القصر الانفاق عليها ، كما كانت للأسرة الكبيرة جماعات من الـ « ادم » تخدمها وتؤدي لها مختلف الأعمال .

١ Glaser 1398, Handbuch, I, S., 122, Anm 4.

٢ Rep Epig. VII, p. 296, 4651.

٣ Rep Epig, VII, p. Num 4651, 4662.

٤ Rep. Epig., VII, p 301, 4659, p 302, 4660, p. 303, 4662.

٥ SE 80, Rhodokanakis, Die Inschriften an der Mauer von Kohlan-Timna', 25, A. Grohmann, S. 124.

فالـ « ادم » إذن وفي الغالب ، تعبير عن جماعة من الناس كانوا أحراراً ، إلا انهم لم يكونوا من المتمكنين في حياتهم من حيازة أرض أو ملك ، لذلك جعلوا أنفسهم في خدمة غيرهم ، بأن كروا الأرضين من أصحابها ، لاستغلالها في مقابل حق معلوم ، او اتفقوا مع ثري على أداء عمل له في مقابل أجر يقدمونه اليه . وهم طبقة واسعة العدد . وهي لذلك أرقى منزلة وأحسن حالاً من حال العبيد المملوكين ، والرقيق المشترى من الأسواق .

وقد فسر بعض الباحثين كلمة (ادوم) (ادوام) و (ادمت) ، و (ادومت) ، بمعنى عمال الأرض ، او طبقة واطئة من المزارعين الذين لا يملكون أرضاً ، أحوالهم ضعيفة ، لأن ما ينتجونه لا يكفي لاعاشتهم . وذكروا ان كلمة « ضعيف » المستعملة في العربية الجنوبية تعبر عن ذلك المعنى المراد من تلك الكلمات [١] .

وقد ورد في بعض النصوص لفظ (ا ج ر م) بمعنى (أجير) و (أجراء) [٢] ، وهم الأشخاص الذين يشتغلون بأجور يدفعها لهم أصحاب الأرضين أو أصحاب المال أو أصحاب العمل . وقد كانوا طبقة من الطبقات الدنيا ، بدليل ذكرهم في هذه الجمله : « كل معنم حرم واجرم » [٣] ، (كلّ معينيّ حرّ وأجير) ، أي كل فرد من أبناء معين حر وأجير ، بتعبير أوضح . والأجراء هم أكثر حرية من العبيد ، لأنهم يشتغلون بأجر وبعقود يتفقون عليها . فإذا انتهى العقد ، او حصل خلاف ، جاز للأجير الانتقال الى موضع آخر ، او الى صاحب محل آخر للعمل لديه ، على حين لا يجوز للعبد فعل ذلك ، لأنه ملك يمين . والأجراء أناس أحرار ، يستطيعون التنقل والتصرف بحرية ، ولكنهم فقراء معدمون لا يملكون شيئاً ، وعيشتهم من العمل الذي يقومون به لغيرهم مقابل الأجر الذي يقدمه رب العمل لهم .

وقد يكون الأجر الذي يدفع عن عمل مقطوع ، وقد يكون عن أمد محدد كأن يكون أجر يوم واحد او أيام ، فإذا تم النهار دفع الآجر للأجير . وقد

---

١ A Grohmann, S, 124

٢ النقش رقم ٥٧٧ ، Jamme, Southerarabian Inscriptions.

٣ النقش رقم ٥ ، الفقرة ٣ من كتاب . نقوش خربة معين (ص ٥) .

يكون الأجر لموسم كامل ، كموسم زرع . وقد كان الأجراء يشتغلون في الزراعة خاصة كحرث الأرض وزرعها او حصاد الزرع او قطف الثمر . ولضعف هذه الطبقة ، وعدم تمكنها من أخذ حقها بالقوة ، كان بعض من يؤجرهم يأكل حقوقهم ، ولا يدفع أجورهم ، او يأكل قسماً منها . ونجد هذه الطبقة في العراق حيث أشير اليها في شريعة « حورابي » ، كما نجدها في أماكن أخرى من العالم ، وما زال العامل يستخدم في مقابل أجور يومية للقيام بمختلف الأعمال [1] .

وقد ورد في الكتابات القتبانية ذكر جماعتين : جماعة عرفت بـ « غبر » ، وجماعة عبر عنها بـ (ومي) ، او (امي) [2] . و « الغبر » في عربية القرآن الكريم هم الفقراء والصعاليك ، وفي العربية كلمة أخرى تؤدي هذا المعنى هي لفظة (غَبْراء الناس) ، أي فقرائهم ، ومنه قيل للمحاويج بنو غَبْراء ، كأنهم نسبوا الى الأرض والتراب . وبنو غبراء الفقراء . وأما (الغرباء) ، فهم الصعاليك [3] . فالغبر ، إذن هم طبقة من الطبقات البائسة الدنيا التي كانت في قتبان وفي غير قتبان ، طبقة من الفقراء والصعاليك ، لا تملك شيئاً ، ليس لها في حياتها غير البؤس والتعاسة لأنها ولدت بائسة تاعسة فعاشت في تعاستها هذه في هذا العالم على صدقات الناس وعلى ما يحصلون عليه بالسرقة او بالاستجداء وبالقيام بالخدمات والأعمال المتعبة في سبيل الحصول على ما يقوتهم الى يوم خلاصهم من هذا العالم بالوفاة .

وبمعنى المحاويج والصعاليك فُسّر بيت (طرفة بن العبد) ، بقوله :

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدّد [4]

وعرف (بنو غبراء) بـ (المدقعين) للصوقهم بالدقعاء ، وهي الأرض . كأنهم لا حائل بينهم وبينها [5] ، و (الدوقعة الفقر والذلّ) و (جوع أدقع وديقوع شديد) [6] .

١ Ancient Israel, p. 76
٢ A Grohmann, S., 124.
٣ اللسان (٥/٥ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٣/٤٣٧) ، (غبر) .
٥ المصدر نفسه .
٦ تاج العروس (٥/٣٣١) ، (دقع) .

وأما (الومي) (امي ؟) ، فطبقة من الطبقات الدنيا كذلك ، من هذه الطبقات العاملة البائسة التاعسة التي لا تحصل على عيشها إلا بشق الأنفس. ولعلّها الطبقة التي يقال لها « شفلوت » في العربية الجنوبية في هذه الأيام[1] . ويجوز ان تكون للكلمة صلة بلفظة « امي » في عربيتنا التي تعني الجاهل والشخص الذي لا يقرأ ولا يكتب .

وفي العربية لفظة « الحشم » ، قيل انها تعني المماليك والأتباع ، مماليك كانوا او أحراراً[2] . وورد ان الحشم الأحرار ، والقطين : المماليك[3] .

رؤوس وأذناب :

ونجد التفاوت الاجتماعي في ذروته عند العرب الجنوبيين كما بينت ذلك من إيرادي للمصطلحات الاجتماعية المتقدمة . ويقع هذا التفاوت في الدولة وفي المجتمع عند الحضر وعند (اعربن) الأعراب . ويقع بين القبائل كما يقع في القبيلة الواحدة . فالقبائل أيضاً منازل ودرجات . وعلى رأس القبائل القبيلة التي ينتسب لها المكربون او الملوك . مثل (معين) و (سبأ) و (قتبان) و (حضرموت) و (أوسان) . ولهذا ذكرت مع الآلهة والحكّام ونسبت اليها الحكومات . ثم ذكر بعدها القبائل الأخرى التي هي أقل أهمية منها . أما في القبيلة الواحدة ، فنجد تفاوتاً بين أبنائها ، وقد رتبوا وصنفوا في درجات ومنازل . أعلاها عند السبئيين مثلاً أعضاء الـ (مزود) و (حسود ؟) ، أصحاب المشورة والرأي والذين يستشيرهم الملوك ، وهم طبقة ممتازة كانت فوق القانون ، ذات امتيازات خاصة . يليها أصحاب الأملاك والأرض والمال المسمّون بـ (مسحن) في السبئية ، و بـ (طبنن) في القتبانية . ثم تليها طبقات أخرى تتدنى حتى تصل الى أسفل ، وهي طبقة (الادومت) (ادم) : طبقة (الاوادم) أي الخدم .

ويعدّ المقربون الى الملوك من أشراف الناس ومن أصحاب الحظوه والجاه .

---

١ A. Grohmann, S. 125

٢ اللسان (١٣٦/١٢) .

٣ اللسان (٣٤٣/١٣) .

وهذا شيء طبيعي ، بالنسبة لكل مكان وزمان ، فالذي يصل الى الملك او الحاكم لا بد وان يكون من ذوي الجاه والمنزلة والمكانة . وقد عرف من اختص بالملوك بـ (أصفياء الملوك) وبـ (أحباء الملك) وبـ (ندماء الملوك) ، وهم من الخاصة بالطبع . ويعبر عنهم بـ (مودد ملكن) في العربيات الجنوبية .

وأدنى الطبقات منزلةً في المجتمع ؛ هي طبقة العبيد ، هي طبقة تقوم بالخدمة وبسائر الأعمال التي يأنف الإنسان الحر من ممارستها . وقد يكون معظم أفرادها من الزنوج المستوردين من افريقية . وأما الباقون فمن الرقيق الأبيض المستورد من أسواق العراق ومن أسواق بلاد الشأم . وقد كان العبيد ملكاً يباع ويشترى بيع الأموال المنقولة ، ويتصرف صاحب العبد به تصرفه بملكه الخاص ، ولم يخول القانون العبد حق ابداء رأيه في مستقبله في أي حال من الأحوال ، لأنه ملك وبضاعة مملوكة ، وكالماشية ، وان كان إنساناً حيّاً له ما لكل إنسان من روح وادراك وشعور .

ويعرف العبد بلفظة (عبدم) في الكتابات العربية الجنوبية ، أي (عبد) . وبلفظة (عبدن) ، أي « العبد » [1] . وتشمل كل العبيد ، مهما اختلفت ألوان بشرتهم . وترد هذه اللفظة في عربية القرآن الكريم كذلك ، وفي سائر اللهجات العربية الأخرى مثل اللهجة (اللحيانية) [2] ؛ كما ترد في لغة بني إدم (عبدو) وفي اللغة العبرانية [3] . وتستعمل اللفظة للتعبير أيضاً عن العبودية المعنوية ، مثل نسبة عبودية الإنسان الى الآلهة أو للملوك أو الكبار وللأشراف والسادات .

وتؤدي لفظة (قن) معنى عبد ؛ أما (قنت) (قنيت) (قنية) ، فتؤدي معنى عبدة . وردت بهذا المعنى في الكتابات الصفوية [4] . وتعبر عن طبقة العبيد التي كانت منتشرة في كل أنحاء جزيرة العرب ، وفي كل أنحاء العالم إذْ ذاك . إذْ كانت القوانين الحكومية والقوانين الدولية تعدّ الاتجار ببيع الرقيق تجارة

---

١ Rep. Epig., VII, p. 148, Num 4217, p. 155, Num. 4230, Southarabian Inscriptions, P. 444.

٢ Lihyan und Lihyanisch. S., 143

٣ Hastings, p 864

٤ Littmann, Safa., p. 139

مشروعة وتعدّ العبد ملك يمين لصاحبه ، متى أبق جاز لصاحبه ومالكه قتله . وهو ملك مثل أي ملك ، وحق الملكية حقّ مقدس مصون .

و « القن » في عربية القرآن : العبد الذي مُلك هو وأبواه . وعرف انه العبد الذي ولد عندك ، ولا يستطيع ان يخرج عنك . وورد (لم نكن عبيد قن ، إنما كُنّا عبيد مملكة) . وقيل : عبد قن الذي كان أبوه مملوكاً لمواليه ، فإذا لم يكن كذلك فهو عبد مملكة [1] . فالقن إذن هو عبد بالولادة ، وقد ورثه سيده ؛ فهو عَبْد عبدٍ ، أو عبدُ عبيدٍ .

و (القنّي المملوك ، فهو في ملك سيده . وقد اقتني وصار في مقتنيات مالكه ، فهو من طبقة المملوكين . ومن هذه الطبقة المملوكة جماعة عرفت بـ (رب ملكن) (ربب ملكن) (ربيب الملوك) (ربيب الملك) ، بمعنى (عبد الملك) و (عبيد الملك) [2] .

أبناء الحبش والأبناء :

وقد تولد من استيلاء الحبش على اليمن جيل جديد تعرّب وكوّن طبقة خاصة من طبقات مجتمع اليمن . وقد تكون هذا الجيل من عنصرين : حبش ولدوا في اليمن من أبوين حبشيين ، ثم بقوا في اليمن وعاش أبناؤهم فيها ، وحبش تزوّجوا من اليمن ، فنشأ لهم نسل فيه دماء الحبش ودماء أهل اليمن . وقد عاش الجيلان في اليمن وتعربا ونسيا أصلهما وصارا يتكلمان العربية واعتدّاها لغتهما ، ولكن ملامحها الافريقية ، أو الملامح المختلطة دماسة ، لم تتمكن من الاختفاء عن الجيلين ، بل بقيت تنطق بأصلهما وبصلتهما القديمة بالأرض السوداء .

وعرف الجيل الذي ظهر في اليمن من تزوّج الفرس في العرب بـ « الأبناء » ، وغلب عليهم الإسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم [3] . وقد كتب اليهم النبي يدعوهم الى الاسلام . وقد ساعدوا المسلمين ودافعوا عن الاسلام وقاوموا الردة ،

---

١ اللسان (٣٤٨/١٣) ، تاج العروس (٣١٤/٩) ، (قن) .

٢ Rep. Epig 4145, Arabien, S , 125

٣ اللسان (٩١/١٤) ، (بنى) .

ومنهم وهب بن منبه بن سيج بن ذكبار ، وطاووس ، وذادويه ، وفيروز الديلمي[1] . وقد قيل عنهم : الأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن لما جاء يستنجده على الحبشة فنصروه وملكوا اليمن وتديروها وتزوّجوا في العرب ؛ فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم . وذكر أنهم عرفوا بـ (أبناوي) في لغة (بني سعد) و (بنوي) في لغة بعض العرب[2] .

ويظهر من بعض الأخبار ان العرب توسعت في مفهوم الأبناء فأطلقتها على كل الفرس الذين اجتذبتهم الحروب الى جزيرة العرب[3] .

وعرف « الأبناء » بتسمية أخرى أيضاً هي (بنو الأحرار) . أما الذين ولدوا من آباء فرس وأمهات عربيات فقد عرفوا في الكوفة بالأحامرة ، وفي البصرة بالأساورة ، وفي جزيرة العرب بالخضارمة ، وفي الشأم بالجراجمة[4] .

وقد ذهبت بعض كتب التواريخ التي ألفها أهل اليمن ، (ان أبناء اليمن ينتسبون الى (هرمز) الفارسي الذي أرسله كسرى مع سيف بن ذي يزن . فاستوطن اليمن . وأولد ثلاثة ، بهلوان ودادوان وبانيان ؛ فأعقب بهلوان بهلول . والدادويون يسعوان ، ومنهم بنو المتمير بصنعاء وصعدة وجراف الطاهر ونحر البون . والدادويون خوارج . ومنهم غزا كراذمار وهم خلق كثير)[5] .

وعرف العربيّ المولود من أمة بـ (الهجين) . وهو معيب . وقيل هو ابن الأمة الراعية ما لم تحصن ، فإذا حصنت فليس الولد بهجين . أو (مَنْ أبوة خير من أمه) . (قال المبرد : قيل لولد العربي من غير العربية هجين ، لأن الغالب على أولاد العرب الأدمة . وكانت تسمى العجم الحمراء ورقاب المزاود ، لغلبة البياض على ألوانهم)[6] .

١ الروض الأنف (٥٤/١) .
٢ تاج العروس (٤٨/١٠) ، (بنى) .
٣ البيان (١١٤/٣) .
٤ الأغاني (٧٣/١٦) .
٥ تاج العروس (٤٨/١٠) ، (بنى) .
٦ تاج العروس (٣٦٥/٩) ، (هجن) .

أما طبقات المجتمع الحضري بالنسبة الى العرب الآخرين وأسماؤها ، فلا ذكر لها في النصوص الجاهلية ، وانما ذكرت في الموارد الاسلامية،وأكثره مما يخص عرب الحجاز ؛ لأن اكثر ما ورد عن الجاهلية القريبة من الاسلام هو مما يخص موطن الاسلام . فكل اعتمادنا فيه على هذه الموارد الاسلامية .

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبر عن منازل الناس في الشرف والسيادة . هي في الواقع من النعوت التي اطلقها الناس على الاشراف مبالغة في مدحهم وتفخيمهم . وأشراف القوم هم سادتهم من ارباب البيوت . ونجد في الموارد الاسلامية ذكر (اشراف قريش) . وهم كبار قريش وسادتها وأصحاب البيوت فيها . كما نجد تعبيراً يدل على الرئاسة والزعامة هو (رحى القوم) ، يقال لسيد القوم الذي يصدرون عن رأيه وينتهون الى أمره [1] .

وقد عيّر السودان في الجاهلية وفي الاسلام . عيّروا بسوادهم وبملامح اجسامهم وبطريقة تكلمهم . هذا حسان يهجو احدهم بقوله :

وأمّك سوداء نوبيّــة   كأن أناملها الحنظب [2]

و (الخلاسي) الولد [3] بين أبوين أبيض وأسود ، ابيض وسوداء او اسود وبيضاء . فهو المضرب . وقال بعض علماء اللغة : تقول العرب للغلام اذا كانت امه سوداء وأبوه عربياً آدم فجاءت بولد بين لونيها غلام خلاسي والأنثى خلاسية قال الجاحظ : (ورأينا الخلاسيّ من الناس ، وهو الذي يتخلق بين الحبشيّ والبيضاء ، والعادة من هذا التركيب انه يخرج اعظم من ابويه وأقوى من أصليه ومثمريه . ورأينــا البَيْسريّ من الناس ، وهو الذي يخلق من بين البيض والهند ، لا يخرج ذلك النتاج على مقدار ضخم الأبوين وقوتهما ، ولكنه يجيء أحسن وأملح) . [4]

وقد شابت السنة هؤلاء (طمطانية) ، اي عجمة . قال عنترة :

تأوي له فلص النعام كما اوت   خرق يمانيــة لأعجمَ طمطم [5]

---

١ اللسان (٣١٤/١٤) ، (صادر) ، (رحا) .
٢ العمدة (٣٠٠/١) .
٣ تاج العروس (١٣٨/٤) ، (خلس) .
٤ الحيوان (١٥٧/١) ، (هارون) .
٥ تاج العروس (٣٨١/٨) ، (طم) .

السادات :

وسادة القوم اشرافهم ورؤساؤهم ، وذكر ان السيد الذي فاق غيره بالعقل والمال والدفع والنفع ، المعطي ماله في حقوقه المعين بنفسه . وذكر ان السيد : الحليم لا يغلبه غضبه [1] .

والسيادة منزلة ودرجة ، ولا تأتي احداً الا باعتراف قومه له بسيادته عليهم وبتنصيبهم له سيّداً عليهم . وكانوا اذا سوّدوا شخصاً عصّبـوه ، والتعصيب التسويد ، ولهذا كانوا يسمّون السيّد المطاع معصّباً . وذكر ان العصابة العمامة . وكانت عمائم سادة العرب هي العمائم الحمر [2] .

وتعدّ الأسر الحاكمة التي ينشأ فيها عدد كبير من الملوك والحكام اسراً عريقة في الشرف ، وينظر اليها نظرة تقدير واحترام ، لأنهم ورثوا المجد عن آبائهم أباً بعد أب . وينطبق ذلك على سادات القبائل الذين يرثون سيادتهم قبائلهم أباً عن جد ، فانهم يفتخرون بذلك على غـيرهم ، لأنهم ليسوا من اولئك الذين انتزعوا السيادة فصاروا سادة ، على حين كان آباؤهم او اجدادهم من الخاملين .

وقصد سادات القبائل وبعض الشعراء الكبار الملوك ، ورحلوا اليهم من منازلهم ، وتقربوا اليهم ، وتوسطوا لديهم لبعض الناس . وقد عرف هؤلاء بـ (الرحال) . ولهذا نجد في الكتب ، انها اذا تعرضت لمثل هؤلاء قالت عنهم انهم من (الرحال) . فقد عرف (عروة بن عتبـة بن جعفر بن كلاب) بـ (عروة الرحال) ، (وانما سُمّي الرحال لرحلته الى الملوك) [3] . كما عرفوا بـ (زوّار الملوك) ، ومنهم (ابو زيد الطائي) .

وأشراف الناس ، هم الذين نالوا الشرف والسؤدد بين قومهم ، فسادوهم . والسيد هو الرئيس ، ويطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم وعلى من ساد قومه ، مثل سادات القبائل . وقد نعت رسول الله (سعد بن معاذ) بـ (سيّد الانصار) . وتقول العرب (هذا سيّدنا) و (فلان سيّدنا) ،

١ اللسان (٣/٢٢٨ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/٣٨٦) (طبعة الكويت) .
٣ البلاذري (١/١١٠) .

أي رئيسنا والذي نعظمه. وتقول (ساد قومه) ، اي صار سيدهم ورئيسهم [١] . ونعت (قيس بن عديّ) بـ (سيد قريش) [٢] . وكان يوم وفاة (سعد بن معاذ) بالمدينة يوماً مشهوداً . حتى حضر الرسول جنازته وكبر عليه تسعاً ، كما كبر على حمزة ، تعظيماً لشأنه . وشهد دفنه [٣] . وكان من عادة اهل مكة في الجاهلية انه اذا مات لهم سيد كبيرٌ اغلقوا اسواقهم اعظاماً لموته ، وتعبيراً عن تقديرهم له [٤] . فغلق الاسواق عند الجاهليين عند وفاة رجل خطير من امارات التقدير والتعظيم .

ومن امارات تكريم الميت الشريف ، تجمع الناس عند بيته ، احتفالاً به لنقله الى موضع دفنه . واذا كان الميت خطير الشأن كان الجمع اكبر . وهو يتناسب في كثرته مع مكانة ودرجة الميت في المجتمع . وقد ذكر انهم كانوا يقولون للرجل الشريف يقتل : (العقيرة) [٥] .

والسادات هم الرؤوس ، رؤوس الناس . اما من دونهم فأذناب . وعرفوا بـ (أذناب الناس وذنباتهم) ، اي اتباعهم وسفلتهم ، والاتباع دون الرؤساء . يقال : جاء فلان بذنبه ، اي اتباعه . قال الحطيئة يمدح قوماً :

قوم هم الرأس والاذناب غيرهم ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا [٦]

والسادات (مصابيح الظلام) ومشاعله ، بنورهم يهتدي الفقراء واصحاب الحاجة والفاقة ، فينالون منهم ما يخفف عن كربهم وفقرهم . يطعمون الناس في الحضر والسفر ، فهم سادة الناس وملاذهم حين تغلق كل الابواب بأوجه الاذناب التاعسين البائسين .

ويقال لأشراف قوم وللبارزين منهم وجوه القوم ووجهاء القوم ، فورد (وكان من وجوه القرشيين) ، و (كان من وجوه قريش) . وأما (سروات) مثل

١ اللسان (٢٢٩/٣ وما بعدها) ، (صادر) ، (سود) .
٢ نسب قريش (٤٠٠) .
٣ الثعالبي ، ثمار (٦٤) .
٤ البلاذري ، انساب (٨٧/١) .
٥ تاج العروس (٤١٥/٣) ، (عقر) .
٦ تاج العروس (٢٥٤/١) ، (ذنب) .

(سروات الانصار) و (سروات قريش) ، ففي هذا المعنى ايضاً ، وجوه الانصار وأشرافهم ووجوه قريش وأشرافهم . و (السرّي) ، هو الرئيس [1] . وتعني كلمة (النواصي) خيار العرب واشرافهم . فيقال هو ناصية قومه ، وهو من ناصيتهم ونواصيهم . و (النصية) من القوم الخيار الاشراف [2] .

ويعرف الاشراف المعرقون بـ « النجوم » ، وواحدهم « نجم » . وقد اشار اليهم « حسان » في شعره ، فذكر ان الذين يحملون « اللواء » اي « لواء الحرب » ، هم النجوم [3] . ويقال لسادة الناس (الجحاجح) كذلك [4] . ويقال لهم : (العُرى) ، وهم سادات الناس الذين يعتصم بهم الضعفاء ، ويعيشون بعُرفهم . شبهوا بعرى الشجر العاصمة الماشية في الجدب [5] .

وأما لفظة (ربّ) التي تعني بعلا ايضاً ، وإلـهاً ، والتي تعبر عن معنى (إلـه) في الزمن الحاضر ، فقد اطلقت في لغة المسند على السيد والشريف ، لتعبر عن معاني التفخيم والاحترام ، وأطلقت في معنى (إلـه) ايضاً في النصوص المتأخرة في الغالب ، وهي من الألفاظ السامية القديمة التي وردت في معظم لغات الساميين .

وقد وردت في عربيتنا بمعنى المالك والسيد والمدبّر ، وأطلقت بمعنى الملك كذلك . وقد كان اهل الجاهلية يطلقونها على الملك ، قال الحارث بن حِلزّة :

وهو الربّ والشهيد على يو م الحيارين والبلاء بلاء [6]

هذا وللسنّ اهمية كبيرة عند العرب ، لأن الانسان اذا ما تقدم في السن ازدادت حكمته وتجاربه في الحياة ورجح عقله . لذلك يكون مرجعاً لمن هو دونه في العمر ، وملاذاً في المشورات ، ويعبر عنهم بـ (ذوي الاسنان) [7] . وهم الطبقة الذكية

---

١ تاج العروس (١٠/١٧٦) ، (سره) .
٢ تاج العروس (١٠/٣٧٠) ، (نصا) .
٣ لم تطق حمله العواتق منهم انما يحمل اللواء النجوم
البرقوقي (ص ٣٨٠) ، ديوان حسان (هرشفلد) (ص ١٩) .
٤ ديوان حسان (ص ٣٦) (هرشفلد) .
٥ اللسان (١٥/٤٦) ، (عرا) .
٦ تاج العروس (٢/٤٥٩) (الكويت) ، (رب) (ربب) .
٧ اللسان (١٣/٢٢٢) ، (صادر) ، (سنن) .

الفطنة المجربة من ذوي المكانة في الناس بالطبع . ولهذا نجد القبائل تتمسك بأخذ الرأي والمشورة من ساداتها المسنين ومن حكمائها المعمّرين ، لأنهم عركوا الحياة وخبروها وعرفوا ما فيها من مرّ وحلو . لذلك جعلوهم في الطبقات العليا من الناس .

و (الربّ) الرئيس والمرجع ومن تكون اليه الطاعة . والارباب ، هم السادات (قال المنذر يوماً لخالد ، وهم على الشراب ، يا خالد ، من ربك ؟ فقال خالد : عمرو بن مسعود ربّي وربك . فأمسك عليها) [١] . و (المنذر) هو المنذر الأكبر اللخمي ، وخالد ، هو خالد بن نضلة . ولهذا كان يقول العبد لسيّده : ربّي . وتقول حاشية السيّد والملك لسيدها وملكها : ربّنا .

قال الحارث بن حلزة :

ربُّنا وابننـــا وأفضل من يمـ ـشي ومن دون ما لديه الثناء

وقال لبيد حين ذكر حذيفة بن بدر :

وأهلكن يوماً ربّ كندة وابنه ورب معدّ بين خبت وعرعر [٢]

و (الخُطر) [٣] الاشراف من الرجال العظيمو القدر والمنزلة . والخطير الواحد . ويقال للرجل الشريف ، هو عظيم الخطر . وقوم خطيرون : قوم اشراف [٤] . ويقال (العبقري) للكامل والسيد من الرجال . وهو سيد القوم وكبيرهم والذي ليس فوقه شيء والشديد القوي [٥] .

وقد عرف سادة قريش ووجوهها بـ (خضراء قريش) . ولما صعد الرسول (الصفا) ، عام الفتح ، وجاءت الانصار فأطافوا بالصفا وجاء (ابو سفيان) ، فقال : (يا رسول اللهِ أُبيدت خضراء قريش ! لا قريش بعد اليوم) [٦] . يقصد

١ أسماء المغتالين ، (ص ١٣٣) ، (نوادر المخطوطات) ، (عبدالسلام هارون) .
٢ الحيوان (٣٢٨/١ وما بعدها) ، (هارون) .
٣ بضم الخاء .
٤ تاج العروس (١٨٤/٣) ، (خطر) .
٥ تاج العروس (٣٧٩/٣) ، (عبقر) .
٦ صحيح مسلم (١٧٢/٥) ، (باب فتح مكة) .

نخبة قريش وخاصتها ، في مقابل (أوباش قريش) ، الذين قال عنهم الرسول للأنصار : يا معشر الانصار ! هل ترون أوباش قريش [1] .

والأخضر عند العرب الأسود . وقد افتخر (الفضل بن عبّاس بن عتبة اللهبي) بلونه ، اذ قال :

وأنـــا الأخضر من يعرفـــني ... أخضر الجلدة في بيت العرب

يقول : أنا خالص لأن الوان العرب السمرة ، وأنه عربي محض لأن العرب تصف ألوانها بالسواد ، وتصف الوان العجم بالحمرة ، والخضرة عند العرب السواد [2] . وورد (خضر غسان) ، و (خضر محارب) . قال الشاعر :

ان الخضارمة الخضر الذين غدوا ... أهل البريص ثمانٍ منهم الحكم

والخضارمة جمع خضرم ، وهو السيّد الحمول [3] .

ويقال لمن هم دون الاشراف وفوق الطبقات الدنيا ، (اوساط الناس) ، و (الاوساط) ، و (اللهازم) . يقال هو من لهازم القبيلة ، اي من اوساطها لا اشرافها [4] .

المستضعفون من الناس :

والمستضعفون من الناس ، كثيرون ، وقد نظر اليهم مجتمعهم نظرة ازدراء واستهجان ، واعتدّهم من الطبقات الدنيا . إما لفقرهم وضيق ذات يدهم ، ومنهم الفقراء والصعاليك والمحتاجون وأبناء السبيل ، واما لطيشهم وخروجهم من مجتمعهم ، ومنهم الطريد والضالّ والخليع ، واما لانشغالهم بحرف يدوية ، وهي حرف لا تليق بالرجل الكريم ، ولا سيما الحرف الدنيا مثل الحلاقة والحجامة والحيالة وأمثالها ، واما من ناحية اصلهم ، مثل ان يكونوا عبيداً او عبيداً مملوكين .

ولاستصغارهم شأن الحرف اليدوية ، لم يقبل عليها الاحرار وابناء البيوت، الا

١ صحيح مسلم (٥/ ١٧٠ وما بعدها) ، (باب فتح مكة) .
٢ تاج العروس (٣/ ١٧٩ وما بعدها) ، (خضر) .
٣ الحيوان (٣/ ٢٤٧) ، (هارون) .
٤ تاج العروس (٩/ ٦٩) ، (لهزم) .

من اضطرته الفاقة ووجد الا سبيل له الى العيش الا بالاشتغال بها ، فانصرف اليها صاغراً . ولهذا كان اكثر اصحاب الاعمال اليدوية من الرقيق والاعاجم واليهود. واذا اخذنا بروايات اهل الاخبار نجد ان عدد اصحاب الحرف اليدوية كان قليلاً جداً ، فلم يكن في مكة مثلاً احد من النجارين البارعين على ما يفهم من رواياتهم كروايتهم عن اعادة بناء الكعبة قبل النبوة بخمس سنين ، او كانوا قلة يعدّون عداً . وكذلك يقال عن بقية الحرف ، ويقال مثل ذلك عن يثرب . ولا استبعد ان تكون في روايات اهل الاخبار مبالغات ، ولكننا لا نستطيع نكران ازدراء العرب للحرف والصناعات .

وكانوا يعيرون من يتزوج من ابنة صائغ او حداد او نجار ، ويعيرون نسله ، ولا سيما اذا كان من بيت رفيع . وقد وجد اعداء (النعمان بن المنذر) آخر ملوك الحيرة وحساده في أمه (سلمى) التي قيل انها ابنة قين او صائغ يهودي ، سبباً قوياً من اسباب استهزائهم به والاستصغار لشأنه . اما الحرفي ، اي الذي يشتغل بالحرف اليدوية ، فلم يكن من السهل عليه التزوج من بنات الاحرار ، لما قد تتعرض له أسر البنات من تعيير وسبّة واهانة بين الناس ، بتزويجهم ابنة حرة لشخص وضيع مستصغر .

وأدنى المتعيشين بالحرف منزلة ، الحلاقون والحجّامون والحمّالون ، ثم اولئك الذين يعيشون على تلهية الناس ، مثل سائس قرد ، وهو الشخص الذي يربي القردة ويعلمها القيام ببعض الالعاب لتسلية المتفرجين واضحاكهم في مقابل صدقة يقدمونها لقردته وله ، ومثل اناس آخرون يربون حيوانات اخرى للغرض نفسه ، او يتخذون لهم مهنة اضحاك الناس عليهم لدر عطفهم والجود عليهم ، ومثلهم المخنثون والمغنون المطربون .

وقد عرف المعدمون المتربون ، وهم الذين لا يملكون شيئاً بـ (بني غبراء) ، للزقهم بغبراء الارض ، ويقال لهم (الصعاليك) ايضاً [1] ، وقد ذكرت قبل قليل

١ اللسان (١٤/٩٢) ، (بمى) ، (هم اللصوص والصعاليك المهتدون في مجاهل الارض ، والعالمون بطرقها . وقيل : بل هم الفقراء اللاصقون بالغبراء من سوء الحال ، على غير عطاء ولا وطاء ، قال طرفة بن العبد :

رأيت بني غبـــراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطـــراف الممدد

يقول : أنا معروف عند الاحبار والاشرار ، وعند اللئام والكرام) ، الثعالبي ، ثمار (١/٢٧٠) .

ورود لفظة « غبر » في الكتابات القتبانية ، وان لها صلة بـ (غبراء الناس) وبـ (بني غبراء) في عربيتنا . وقد تكون لهذا المصطلح صلة بمصطلح اختلف علماء التوراة في المراد منه ، هو مصطلح (عم هـ — ارز) ، أي (ناس الأرض) (أهل الأرض) ، فقد ذهب بعض العلماء الى انها تعني طبقة وضيعة من سواد الناس ، أو (الفلاحين) الذين يعيشون على استغلال الأرض .

ونعت الخادم الذي يخدم بطعام بطنه (بالعضروط) ، وهو الصعلوك ، والعضاريط الصعاليك . وتعهد الى العضروط مختلف الخدمات ، مثل العناية بالراحلة وأداء أي عمل آخر يقوم به في مقابل طعام بطنه [1] . ويقال للعضروط : اللعموظ ، وهو الذي يخدم بطنه . و (العضارِط) الأجراء [2] .

و (الخول) العبيد والخدم ، ويقال : القوم خول فلان ، أي أتباعه ، وهم حشم الرجل وأتباعه . ويقع على العبد والأمة [3] فهم إذن الأتباع المغلوبون على أمرهم الخاضعون لحكم المتحكمين في رقابهم من السادة .

والمملوك خلاف الحر ، والرقيق : المملوك واحد وجمع . والرقيق العبد [4] . ورقّ صار في عبودية [5] . والعبد : المملوك خلاف الحر [6] . ونجد لعلماء اللغة تفاسير كثيرة لمعنى (العبد) ، والرقيق ، وفي مدى حرية كل واحد منها . وقد استعملت لفظة (العبد) للدلالة على معان مجازية ، ومعان حقيقية . فقد قصد بها الخضوع والتذلل ، ولهذا نهي عن استعمالها بهذا المعنى في الاسلام ، فورد : (لا يقل أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي) [7] . وقصد بها أيضاً العبودية الحقيقية .

ولفظة (عبد) و العبد) لفظة عامة في الأصل ، وقد وردت بهذا المعنى في أكثر اللغات السامية ، فاستعملت في معانٍ مجازية وفي معان حقيقية ، ولم تكن

١ اللسان (٣٥١/٧) .
٢ اللسان (٣٥١/٧ ، ٤٦٠) .
٣ اللسان (٢٢٥/١١) ، (صادر) ، (حول) .
٤ اللسان (١٢٤/١٠) ، (صادر) ، (رق) .
٥ اللسان (١٢٣/١٠) ، (صادر) ، (رق) .
٦ اللسان (٢٧٠/٣) ، (عبد) .
٧ اللسان (٢٧١/٣) ، (عبد) .

تعني شخصاً مملوكاً بالمعنى الحقيقي من لفظة (مملوك) بالضرورة . وطالما نقرأ في كتب أهل الأخبار جملاً ، مثل : (ومن هو ؟ إنما هو عبد من عبيدي) ، و (أنت عبد من عبيدي) ، وذلك تعبيراً عن ازدراء شخص لشخص آخر ، واستصغاراً لشأنه ، لأنه جعله في منزلة خدمه وعبيده .

واستعملوا لفظة : (عبد) و (العبد) بالمعنى الحقيقي الخاص بالعبودية ، وقصدوا بها (مملوكاً) ، فقالوا : (كان عبداً روميّاً) ، وقالوا : (كان عبداً حبشياً) ، فقصدوا بها (مملوكاً) كائناً ما كان لونه ، أو جنسه . والظاهر ان المتأخرين قد غلّبوا استعمالها على العبيد والسُّود ، فأطلقوها عليهم من غير ذكر صفتهم ، وعنوا بها الرقيق الأسود حَسْبُ .

وقد ذكر بعض علماء اللغة ان (العبد) اذا مُلك ولم يملك أبواه ، أو الذي سبي ، ولم يُملك أبواه . وقالوا : هم عبيد مملكة ، وهو ان يغلب عليهم ويُستعبدوا وهم أحرار . وفي الحديث : « ان الأشعث بن قيس خاصم أهل نجران الى عمر في رقابهم ، وكان قد استعبدهم في الجاهلية ، فلما أسلموا ، أبوا عليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا انما كنا عبيد مملكة ولم نكن عبيد قن [1] . أي ان يغلب عليهم فيستعبدهم وهم في الأصل أحرار .

وذكر علماء العربية ان القن : العبدُ الذي مُلك هو وأبواه ، وان العبد القن الذي ولد عندك ولا يستطيع ان يخرج عنك . وعبد قن خالص العبودة [2] . فالقن إذنْ ، هو العبد المملوك ، الذي تنقل اليه العبودية عن أبيه . وقد أسلفت ان هذه اللفظة وردت في لغة المسند ، وانها كانت تعني هذا المعنى عندهم أيضاً . ويشبه العبد القن ، العبد الذي يقال له (CERF) عند الرومان . و « القين » : العبد والجمع قيان [3] .

ويعبر عن العبد بلفظة « مولى » أيضاً ، ويراد بها المعتق كذلك . وتؤدي معاني اجتماعيـة أخرى ذكرها علماء اللغة منها : الحليف ، والعقيد ، والربّ

١ اللسان (١٠/٤٩٣) ، (ملك) .
٢ اللسان (١٣/٣٤٨) ، (قنن) .
٣ اللسان (ق/ي/ن) ، (١٣/٣٥١) .

والمالك ، والسيد . ويتبين معناها من الاستعمال [1] . وقد كان بمكة وسائر الأمكنة الأخرى من جزيرة العرب عدد كبير من الموالي .

والعبيد هم حاصل الحروب . فإذا وقع انسان أسيراً في غزو او حرب صار ملكاً لآسره ، ان شاء مَنّ عليه ففك رقبته ، وان شاء ملكه فصار عبداً له . يحتفظ به لنفسه ان أراد ، او أن يهديه لغيره فيصير في ملك من أهدي له ، او ان يبيعه ، فيقبض ثمنه ، فتنتقل ملكية العبد الى شاريه . فالسباء هو مصدر مهم من مصادر الرقيق .

ومورد آخر أمدّ الجاهليين بالعبيد ، هو التجارة : تجارة العبيد . وقد اختص بها قوم عرفوا بالنخاسين . يأتون بالرقيق من مختلف الأماكن ويبيعونه . وكانت تجارة رابحة .

ومن العبيد ، قوم كانوا مدينون فلم يتمكنوا من سداد ديونهم فبيعوا رقيقاً . ومنهم من صار رقيقاً لعدم تمكنه من دفع مال يجب عليه تأديته . كالذي روي من تقامر أبي لهب والعاص بن هشام ، على ان من قمر صار عبداً لصاحبه ، فقمره أبو لهب فاسترقه واسترعاه ابله [2] .

ويكون عدد ما يملكه الانسان من الرقيق امارة على الغنى والمنزلة والجاه والقوة . هم قوة لأنهم عُدّة لسيدهم في القتال وفي الدفاع عنه حتى وان كرهوه . وهم خدم له يؤدون له كل ما يطلبه سهم من أعمال ، ولا يخلو منهم بيت . وذكر ان بعض السادات كان يملك المئات من العبيد فلما وفد (ذو الكلاع ملك حمير) على أبي بكر (ومعه ألف عبد دون من كان معه من عشيرته وعليه التاج ، وما وصفنا من البرود والحلل) [3] .

وكان كثير من ملاك الرقيق ذوو قلوب غلاظ ، لا يرحمون عبيدهم ولا يرفقون بهم . واذا شهد العبد غزواً أو حرباً وغنم فلا يعطى حقه له ، ويؤخذ

١ اللسان (و/ل/ي) ، (١٥/٤٠٩) .
٢ الأغاني (٣/١٠٠) .
٣ التنبيه (٢/٢٩٩) ، (باب ذكر خلافه أبى بكر الصدىق) .

سهمه ويعطى الى سيده . ولم يكونوا يثقون بأمانة رقيقهم [1] لذلك حقد العبيد على سادتهم ، وانضموا الى أعدائهم ان وجدوا فرصة مؤاتية لهم أملاً منهم باصلاح الحال . ولما حاصر الرسول الطائف نادى مناديه : (أيما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله) فنزل جمع منهم وأسلموا وصاروا أحراراً [2] .

ويذكر علماء اللغة طبقة سمّوها (القطين) ، وهم في عرفهم تبّاع الملك ومماليكه ، والخدم والأتباع . وقالوا أيضاً : ان القطين تبع الرجل ، ومماليكه وخدمه [3] .

ويقال للرعية من الناس (السُّوقة) سمّوا بذلك لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم [4] . وأما (سواد الناس) ، فعامتهم .

وكل من ذكرت من الطبقات الدنيا هم « سوقة » . و « عوام » ، و « سواد » .

ويقال للأخلاط والسفلة من الناس : الأوباش . وهم مثل الأوشاب [5] . وأما الأشابة فأخلاط الناس تجتمع من كل أوب والتأشب التجمع . ويقال : أوباش من الناس وأوشاب . وهم الضروب المتفرقون [6] .

ويذكر علماء اللغة ان أهل اليمن يطلقون على المستضعفين من الناس (مستخمرون) . و (المستخمرون) هم الجيران الضعفاء . من (أخمره الشيء) ، بمعنى أعطاه إياه أو ملكه بلغة اليمن [7] .

ويقال لأوغاد الناس وأرذالهم (الطغام) و (الطغامة) . وذكر ان (طغامة)

١ الأغاني (١/٣٢) ، (١٤/١٢٤١) .
٢ العقد الفريد (٣/٢) .
٣ اللسان (١٣/٣٤٣) ، (قطن) .
٤ ديوان بشر بن أبي خازم (ص ٢٠٠) .
٥ تاج العروس (٤/٣٦١) ، (وبش) .
٦ تاج العروس (٢/١٤٨) ، (أشب) ، (هل ترون أوباش قريش) ، صحيح مسلم (٥/١٧١) ، (فتح مكة) .
٧ اللسان (٤/٢٥٨) ، (خمر) .

و (دغامة) الأحمق . وورد (ياطاسة الأحلام) ، بمعنى من لا عقل له ولا معرفة ، وقيل : هم أوغاد الناس وأسافلهم[1] .

وعرف أوغاد الناس بـ (أولاد درزة) . وذكر ان أولاد درزة : السفلة والسقاط والغوغـاء من الناس ، كذلك أولاد ترنى . و (أولاد درزة) أيضاً الخيّاطون . ويقال : أولاد درزة هـم الحاكة ، وهم من أسافل الناس ، كما صرح به المفسرون في قوله تعالى : واتبعك الأرذلون . وابن درزة الدعي ، أو ابن أمة تُساعي ، فجاءت به من المساعاة ولا يعرف له أب[2] .

أهل الوبر :

ما ذكرته عن المجتمع يتناول الحضر ، أمـا المجتمع البدوي ، أي مجتمـع الأعراب ، فمجتمع ساذج ليس في تكوينه تعقيد ولا تعدد طبقات . صقلت البادية أهلها ، وبسطت لهم أسلوب الحياة ، وقلصت من الفروق الطبقية ، فلا تجـد فيها ما نجده عند الحضر من اختلاف كبير في منازل الناس .

وكل ما هنالك من طبقات : سادات القبائل ، وهم رؤساء القبيلة وأشرافها ، وأحدهم (سيد القبيلة) أو رئيس القبيلة . ثم أشراف العشائر ومتفرعاتها . ولهم أموال ، ورقيق يخدمونهم . أما سواد القبيلة ، فهـم منتشرون في أرض القبيلة على هيأة مجتمعات صغيرة متفرقة مبعثرة ، لضيق العيش الذي لا يساعد على تجمع أفراد القبيلة تجمعاً كبيراً في محل واحد ، تظهر فيه الحرف وتتنوع الأعمال التي تكون ضرورية لمجتمع الحضر .

ولسادات القبائـل المال ، وهي : الإبل . يشربون من ألبانهـا ، ويأكلون لحومها ، وهم الذين في استطاعتهم الذهاب الى القرى والمدن ومواطن الحضارة للعيش فيها زمناً ، ولشراء ما يجدون في أسواقهـا مما يحتاجون اليه من سلع .

---

١ اللسان (١٢/٣٦٨) ، (صادر) ، (طغم) ، تاج العروس (٨/٣٨٠) ، (طغم) .

٢ تاج العروس (٤/٣٥) ، (درز) ، (أبناء درزة كناية عن السفل والسقاط ، ويقال لهم : أولاد درزة . قال المبرد : هم خياطون من أهل الكوفة خرجوا مع زيد بن علي)، النيسابوري ، ثمار (٢٧١) .

وللتمتع بمناظر الحضارة . ولزيارة الملوك والحكام . والساكن منهم على مقربة من الحضر ، يخالطهم وقد يشتري له ملكاً يعيش فيه بينهم . فاذا جاء الربيع ، وحمد وقت البادية عاد الى وطنه ، ليرعى ماله ، ولينظر في شؤون قبيلته .

وقد استخدم الاعراب (العبيد) ايضاً ، ولكنهم لم يكثروا من استخدامه استخدام اهل الحضر له ، لعدم وجود حاجة كبيرة عندهم اليه . وقد كان عبيد الاعراب اكثر حرية وأحسن حالاً من عبيد اهل الحضر ، ذلك لأن البادية لا تعرف الاعمال المرهقة ، ولا الحرف الكثيرة التي فرضتها الحضارة على اهل الحضارة ، لذلك صارت الاعمال التي يقوم بها عبيد الاعراب اقل بكثير من الاعمال التي يقوم بها عبيد اهل القرى ، وصار العبد في البادية الصق بصاحبه من مثيله في القرية ، حتى صار وكأنه جزء من اهل البيت الذي اشتراه أو ورثه .

بيوت العرب :

لقد تبين لنا مما تقدم ان العرب وان بدوا وكأنهم سواسية كأسنان المشط ، الكل متساوون في المعاملة لا فرق عندهم بين غني وفقير ، كل معتز بنفسه فخور بفعاله ، الا انهم مع ذلك وفي الواقع طبقيون ، لكل طبقة عرف وتقاليد ، فبيوتهم تتفاوت عندهم في الشرف والمكانة ، هناك بيوت اشتهرت في القبيلة وحافظت على فعالها ومكانتها ، وكانت تتفاخر وتتباهى على غيرها فلا تزوّج احداً من ابنائها او بناتها الا لمن كان كفؤاً لها .

وقد تحدث اهل الاخبار والانساب عن بيوت برزت في القبائل وتفوّقت على غيرها في ناحية من نواحي الفضل والفخر . فذكر ابن الكلبي : مثلاً ان العدد من تميم في بني سعد ، والبيت في بني دارم ، والفرسان في بني يربوع ، والبيت من قيس في غطفان ، ثم في بني فزارة ، والعدد في بني عامر ، والفرسان في بني سليم ، والعدد من ربيعة في بكر ، والبيت والفرسان في شيبان [1] .

وكان يقال : اذا كنت من تميم ففاخر بحنظلة ، وكاثر بسعد ، وحارب بعمرو ،

[1] العمدة (٢/١٩١) .

واذا كنت من قيس ففاخر بغطفان ، وكاثر بهوازن ، وحارب بسليم ، واذا كنت من بكر ففاخر بشيبان ، وكاثر بشيبان ، وحارب بشيبان [1] .

وقد اشتهرت ثلاثة بيوت شهرة خاصة في الجاهلية القريبة من الاسلام ، وهي : بيت بني زرارة ، وهم من (بني عبد الله بن دارم) في تميم ، وبيت (بني بدر) ، وهم من (بني فزارة) من (بني قيس) ، وبيت (ذي الجدّين) ، وهم من (بني شيبان) من (بكر بن وائل) [2] .

وجعل (أبو عبيدة) بيوت العرب ثلاثة : فبيت قيس في الجاهلية بنو فزارة ، ومركزه بنو بدر ، وبيت ربيعة بنو شيبان ، ومركزه ذو الجدين ، وبيت تميم بنو عبد الله ابن دارم ، ومركزه بنو زرارة [3] . وذكر انه قال : ليس في العرب اربعة اخوة انجب ولا أعدّ ولا اكثر فرساناً من بني ثعلبة بن عكابة . وكان يقال له الأغر والحصن . وبنوه : شيبان وذهل وقيس وتيم الله . وفارس غطفان الربيع بن زياد العبسي ، وفاتكها الحـارث بن ظالم ، وحكمها هرم بن قطبة ، وجوادها هرم بن سنان المريّ ؛ وشاعرها النابغة الذبياني . وفارس بني تميم عتيبة بن الحرث بن شهاب احد بني يربوع . وفارس عمرو بن تميم طريف بن تميم العنبري . وفارس دارم عمرو بن عدس ، وفارس سعد فدكي بن المنقري ، وفارس الرباب زيد الفوارس ابن حصين الضبيّ ، وفارس قيس عـامر بن الطفيل ، وفارس ربيعة بسطام ابن قيس [4] .

وقال ابو عمرو بن العـلاء : بيت بني سعد الى الزبرقان بن بدر من بني بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد ، وبيت بني ضبة بنو ضرار بن عمرو الرديم ، وبيت بني عديّ بن عبد مناة آل شهاب من بني ملكان ، وبيت التيم آل النعمان ابن جساس [5] .

وزعم (ابن الكلبي) ان آل حصن الفزاريين ، وآل الجدّين الشيبانيين ،

---

١ العمدة (١٩٢/٢) ، بلوغ الأرب (١٨٩/٢) .
٢ الكامل (٣٥/١) .
٣ العمدة (١٩٢/٢) .
٤ بلوغ الأرب (١٨٩/٢) .
٥ العمدة (١٩٢/٢ وما بعدها) .

وآل عبد المدان الحارثيين ، هم اعلى بيوت العرب . ويقال : بيت تميم في بني حنظلة ، اي شرفها [1] . فهذه البيوت هي البيوت البارزة المسلم لها بالسيادة والشرف عند الجاهليين على رأي (ابن الكلبي) .

وذكر (الجمحيّ) : ان الفروسية في اليمن في بني زبيد بن عمرو بن معديكرب . وان شاعر اليمن امرؤ القيس ، وأن بيتها في كندة : في الأشعث ابن قيس . لا يختلف في هذا وانما اختلف في نزار . وقال اخباريّ : كان بيت قيس في آل عمرو بن الظرب العدواني ، ثم في غني في آل عمرو بن يربوع ، ثم تحوّل الى بني بدر . فجاء الاسلام وهو فيهم . وقال الاخفش : فرعا قريش هاشم وعبد شمس . وفرعا غطفان بدر بن عمرو بن لودان وسيّار بن عمرو بن جابر . وفرعا حنظلة رياح وثعلبة ابنا يربوع . وفرعا ربيعة بن عامر بن صعصعة جعفر وأبو بكر ابنا كلاب . وفرعا قضاعة عذرة والحرث بن سعد [2] .

وقد ذكر (الجاحظ) ان هناك قبائل في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شرف وضعة . (فمن القبائل المتقادمة التي في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شرف وضعة ، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ، ومثل فزارة ومرّة ، وثعلبة ، ومثل عبس ، وعبد الله بن غطفان ، ثم غنيّ وباهلة ، واليعسوب والطفاوة . فالشرف والخطر في عبس وذبيان ، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم ، مثل باهلة وغنيّ . ومن هذا الضرب تميم بن مرّ ، وثور وعكل ، وتيم ومزينة . ففي عُكل وتيم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور) [3] .

وذكر (الجاحظ) ان بعض الناس تكبّروا على غيرهم ، لما وجدوا لأنفسهم من الجاه والثراء والمكانة ، ومنهم : بنو مخزوم ، وبنو أمية ، وبنو جعفر بن كلاب ، وبنو زرارة بن عدس . فلم يكونوا كبني هاشم في تواضعهم ، وفي انصافهم لمن دونهم [4] .

الشرف :

وللشرف مقام كبير عند العرب . واذا دخل شريف قوم في مجتمع جلس في

١ تاج العروس (١/ ٥٣٠) ، (ست) .
٢ بلوغ الأرب (٢/ ١٩٠) .
٣ الحيوان (١/ ٣٥٩ وما بعدها) ، (هارون) .
٤ الحيوان (٦/ ٧٢) ، (هارون) .

المقام اللائق به. ويلعب هذا المقام دوراً كبيراً في مجالس الملوك وفي مجالس سادات القبائل وفي اندية الحضر. واذا لم يأخذ الشريف مكانه، كأن يجلس في مجلس هو دون مجلسه اللائق بمقامه بالنسبة الى الحاضرين، عدّ ذلك اهانة له، ومعاملة سيئة متعمدة. قد تأتي بأوخم النتائج اذا كان الشريف من اصحاب الحول والطول. ولهذا كان الملوك خاصة وسادات القبائل يراعون حرمة المكان، ويُعيّنون للقادم مكانه، بأسلوب لطيف لا يثير مشاعر الجالسين ولا يشعرهم بأنهم فصلوا اهانتهم ان طلبوا من القادم التقدم على الحاضرين، والجلوس على مقربة منهم. وذلك على حسب مكانته ومنزلته. والغالب أن ينص على المكان الذي سيجلس به.

والشرف في العرف الجاهلي، هو الحسب بالآباء. والشرف والمجد عندهم لا يكونان الا بالآباء. اما الحسب والكرم فيكونان، وان لم يكن له آباء لهم شرف[1]. ولهذا حرصوا على استمرار الشرف في الأسر الشريفة، وعلى امدادها بالحيوية والنشاط حتّى يبقى الشرف متألقاً لامعاً فيها. ومن ذلك الزواج المكافىء والفعال الحميدة والمحافظة على سجايا الأسرة الطيبة، والأعراف المثالية، والتمسك بالنسب وعدم تلويثه بدم من هو دونهم في الشرف، ورعاية ذلك النسب وحفظه، ليكون نسب كل شريف بيّناً واضحاً ظاهراً للناس.

ومن الشرف: التخلق بالأخلاق الحميدة، وعمل الامور المُحبّبة المفيدة التي تخلد الذكر لصاحبها وتجعل الناس يلهجون باسمه من ذلك.

العرض:

والعرض في معنى الشرف، ويتجلى في مظاهر متنوعة يراد بها صيانة السمعة وطرد سوء الظن وما يخدش شرف الانسان من سوء او مكروه. وهو لا يكتفي بالدفاع عن عرضه، بل يلزم نفسه ايضاً بالدفاع عن عرض قبيلته وعن عرض من يدخل في جواره او في حلفه، لأن اعراضهم عرضه. فهو يلزم نفسه بلوازم كثيرة ثقيلة، يحاول مهما كلفه الأمر الوفاء بها خشية العار. وهو في سبيل الوفاء بالتزامات العرض يفعل ما يشاء، ويدخل في ذلك القتل والعنف في سبيل الدفاع عن الالتزامات التي ألزم نفسه بها في سبيل حماية العرض[2].

---

١ اللسان (١٦٩/٩)، (شرف).
٢ بلاشير (ص ٣٨ وما بعدها).

واذا مُسّ عرض امرىء بأذى هاج وأهاج مَنْ هو من ذوي دمه ولحمه ، للاقتصاص ممن دنس عرضه . وهو لا يهدأ حتى يأخذ بثأره ممن داس على عرضه . فثأر العرض مثل ثأر القتـــل ، لا يهدأ صاحبه ولا يهجع الا اذا اخذ بثأره ممن تجاوز على عرضه . والغالب في عقوبة هذا الثأر الذبح . اي بقطع الرأس عن الجسد . يذبح حتى في حالة اذا كان قد توفي من طعنة بخنجر يقضي عليه ، فانه يذبحه عندئذ . ويكون هذا غسلاً للعار الذي الحقه ذلك المتجاسر بعرض القاتل .

المروءة :

وتتمثل المثل الجاهلية العليا في (المروءة) ، وقد فسرت المروءة بأنها كمال الرجولية . ومن المروءة : الحلم ، والصبر ، والعفو عند المقدرة ، وقرى الضيف ، واغاثة الملهوف ، ونصرة الجار ، وحماية الضعيف . فاذا تمثلت امثال هذه السجايا في رجل ، كان كاملاً ، عظيم الشأن في قومه . والمروءة عند الجاهليين كالدين عند المسلم .

وقد ورد ان المروءة الا تفعل في السرّ امراً وأنت تستحي ان تفعله جهراً [1] فهي اقصى ما تكون من اخلاق في الرجل الكامل الشجاع . وقد اقرها الاسلام في جملة ما اقره من فضائل الجاهلية ، ورد : الدين ، المروءة ، ولا دين الا بالمروءة [2] .

والشهامة هي من صفات السيّد الشريف النبيل . والشهم ، هو السيّد النجد ، الذي اذا دُعي أنجد ، واذا طلب أجاب [3] .

الكملة :

وتحدث اهل الاخبـــار عن جماعة من الجاهليين قالوا انهم عرفوا بين قومهم بالكملة . منهم (بنو زياد العبسيون) ، وهم أنس الحِفاظ ، ويقال له ايضاً أنس الفوارس ، وعمارة الوهاب ، وربيع الكامل ، وقيس الجواد . وقيل : ربيع الحِفاظ ، وعمارة الوَهّاب ، وأنس الفوارس ، امهم فاطمة بنت الخُرشب الانمارية [4] .

---

١ اللسان (١/١٤٩) ، (١/١٥٤ وما بعدها) ، (صادر) ، (مرأ) .
٢ Muh Stud, I, S, 14
٣ تاج العروس (٨/٣٦١) ، (شهم) .
٤ العمدة (٢/١٩٧ ، المحبر (٣٩٨) .

وكان (الربيع بن زياد العبسي) المعروف بالكامل ، ممن ينادم الملك النعمان، ويكثر عنده ، ويتقدم على من سواه . وينزله في قبة يضربها له . حتى أفسد (لبيد) الشاعر ، وكان إذْ ذاك غلاماً ما كان بينهما من ودّ في خبر ترويه كتب الأدب والأخبار [1] .

وعرف قوم بـ (الأكابر) ، قيل هم : شيبان ، وعامر ، وجليحة ، والحارث بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل [2] .

والإنسان الكامل عند الجاهليين وفي أول الاسلام ، هو الذي يكتب بالعربية ، ويحسن العوم والرمي . وقد لقب رجال عديدون بهذا اللقب ، منهم : (أوس ابن خولي) ، وهو من المخضرمين [3] . قال (ابن سعد) عنه : (وكان أوس ابن خوَلي من الكَمَلة ، وكان الكامل عندهم في الجاهلية وأول الاسلام الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي) [4] .

من الخصال الحميدة :

ومن الخصال الحميدة عند العرب : النخوة . والنخوة في اللغة الافتخار والتعظم ، والنخوة الكبر والعظمة . ومن صفات العرب أنها كانت تنتحي من الدنايا أي تستنكف [5] .

الكرم :

ومن الأعراف عرف إكرام الضيف ، وتقديم حق الضيافة له مهما كانت درجة تلك الضيافة ومنزلة المضيف . يقدم له ما يقدر عليه وما يتسع حاله له . والضيافة درس من الدروس التي لقنتها الطبيعة للإنسان أيضاً . لقنته ان الانسان مهما كان

---

١ المرتضى ، أمالي ١ / ١٨٩ وما بعدها) ، المعارف (٨٢) .
٢ العمدة (٢/١٩٦) .
٣ ابن سعد ، الطبقات (٣/٥٤٢) ، الاصابة (١/٩٥ وما بعدها) ، (رقم ٣٣٤) .
٤ ابن سعد ، الطبقات (٣/٥٤٢) .
٥ تاج العروس (١٠/٣٦٢) ، (نخا) .

فقيراً ، عليه ان يقدم ما عنده لمن يأتيه من ضيف قريب أو غريب ليضيفه ، إنقاذاً لحياته من قحط البادية ومن شحها . فليس في البادية ملجأ يلجأ الفرد اليه غير الخيام المضروبة هنا وهناك ، ملاجىء مهما قيل فيها ، لكنها قوارب النجاة أو جزر صغيرة في محيط واسع شاسع . لا يطمع الانسان منها إلا في الاستراحة وإمضاء أمور سفره الى الموضع الذي يريده ، واذا امتنع صاحب الخيمة عن أداء حق الضيافة ، عرض حياة ضيفه للخطر ، وعرّض حياته نفسه الى ذلك الخطر ، فلا بد ان تنزل به في يوم ما حاجة ما ، ولا بد ان يقطع البادية مراراً في حياته بحثاً عن رزق ، فإذا بخل ولم يضيّف غيره ، لم يستضيفه الآخرون فيقع في ضنك قد يكون به هلاكه وهلاك من معه .

والعرف ان الضيافة ثلاثة أيام وثلاث ليال ، فاذا انتهت المدة ، سقط حق الضيافة من رقبة (المضيف) إلا اذا جددها ، وزاد عليها . ويعبر عن منزلة الضيف عند المضيف بجمل وتعابير تعبر عن ترحيب المضيف بضيفه ، مثل جملة : (بيتي بيتك) ، وعلى الضيف بالطبع ان يتأدب بأدب الضيافة ، فيصون حرمة بيت مضيفه ، فلا يسرق منه ، ولا ينظر الى العائلة بسوء وألا يقوم بأي عمل يخل بعرف الضيافة [1] .

ونظراً الى ما للمعابد من حرمات ، اعتبر الوافدون عليها لزيارتها والتقرب لأصنامها ضيوفاً لها ، وعدّوا الذين يعتدون عليهم خارجين عن العرف مارقين بالنسبة لمجتمعهم . فمن كان يفد الى مكة يقال له (ضيف الله) ، وقيل للحُجّاج (ضيوف الكعبة) ، فلا يجوز الاعتداء عليهم ، ومن وقع اعتداء عليه ، يجد حمياً من بين أهل مكة من يدافع عنه [2] .

والجود ، وهو السخاء صفحة أخرى من صفحات الكرم . وهو ان يمطر الرجل غيره بمعروفه ، وان يجود على غيره بما هو عنده [3] . وقد بالغ بعضهم بجوده حتى ضرب به المثل . ومن هؤلاء حاتم الطائي . وهو (حاتم بن عبد الله ابن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عديّ بن أحزم) من قبيلة طيء .

١ Smith, Kinship, P. 70.

٢ Smith, Kinship, P. 41, Hastings, P., 427

٣ اللسان ، العقد الفريد (٣٣٧/١) ، نهاية الأرب (٢٠٨/٣) .

وقد ضرب به المثل في الجود والسخاء ، فقيل (أجود من حاتم) ، ورووا عنه قصصاً كثيراً في الجود والسخاء ، يريننا ان الجود فيه سجية ، نبت فيه مُذْ كان صغيراً ، فقد روي انه اختلف مع والده ، وهو صغير ، لأنه فرق إبله وغنمه وكان يرعى بها على قوم مرّوا به ، فيهم : عَبِيد بن الأبرص ، وبشر ابن أبي خازم ، والنابغة الذبياني ، فطرده أبوه ، وقال له : إذن لا أساكنك بعدها أبداً ولا آويك ، فقال حاتم : إذن لا أبالي [١] .

ويذكر : انه كان إذا أهل شهر رجب نحر في كل يوم عشرة من الإبل ، وأطعم الناس ، وانه كان يقول لغلامه يسار ، اذا اشتد البرد وكلب الشتاء : أوقد ناراً في يفاع من الأرض : لينظر اليها من أضل الطريق ليلاً فيقصد نحوه [٢] . وكان يوقد نار القِرى ، ليقصدها من يريد الضيافة من الناس . وذكروا انه كانت لحاتم قدور عظام بفنائه لا تنزل عن الأثافي ، الى غير ذلك من أخبار في كرمه وسخائه [٣] .

وذكر عنه انه قَسم ماله بضع عشرة مرّة ، وانه مرّ في سفر له على بني عنزة ولهم أسير في القدّ ، فاستغاث به ، ولم يحضره فكاكه ، ففداه وخلاّه ، وأقام مقامه في القدّ حتى أُدي فداؤه . ورووا انه ذبح فرسه ، ووزع لحمها على جيرانه ، لأن امرأة كانت جارة له جاءت اليه مستغيثة به ، تقول له : أتيتك من صبية يتعاوون من الجوع ولم يكن لديه ما يعطيها ، فذبح فرسه ، مع انه وعائلته كانوا جياعاً مثل صبيتها ، فلما مانعت زوجته في ذبح فرسه ، قال لها : إن هذا للؤم ان تأكلوا وأهل الحيّ جياع [٤] .

وينسب أهل الأخبار اليه شعراً ، في جملته قصيدة تتعلق بالكرم وبمكارم الأخلاق وبالحكم [٥] ، وقد جمعوا من شعره ديواناً ، وذكروا انه من الشعر

---

١ بلوغ الأرب (١/٧٢ وما بعدها) .
٢ بلوغ الأرب (١/٧٣ ، ٧٧ وما بعدها) ، العقد الفريد (١/٣٣٢) .
٣ ثمرات الأوراق للحموي (حاشية على المستطرف) ، (١/١٢٧) ، الشعر والشعراء (١٢٣ وما بعدها) .
٤ الثعالبي ، ثمار القلوب (٩٧ وما بعدها) .
٥ بلوغ الأرب (١/٧٩) .

البليغ الجيد[1] .

وضرب المثل بجود (كعب بن مامة الإيادي) . ويذكر أهل الأخبار انه هلك بسبب جوده ، فقد مات عطشاً ، لأنه أعطى الماء غيره ، فمات هو من العطش[2] . وقد فضله (الجاحظ) ورجّحه على (حاتم الطائي) في الجود . ذلك لأن حاتماً كان يجود على غيره بماله ، أما (كعب) ، فقد بذل النفس حتى أعطبه الكرم ، وبذل المجهود في المال ، فساوى حاتماً من هذا الوجه وباينه ببذل المهجة . فهو على رأيه فوقه في الكرم بمنازل ودرجات[3] . وذكر ان من عادة (كعب بن مامة) انه اذا جاوره رجل قام له بكل ما يصلحه وعياله ، وحماه ممن يريد . وان هلك له بعير أو شاة أو عبد أخلف عليه ، وان مات وداه ، فجاوره (أبو دواد الإيادي) الشاعر ، فكان يفعل به ذلك ويزيد في برّه ، فصارت العرب اذا حمدت جاراً بحسن جواره ، قالوا: كجار أبي دُواد[4] . وقد افتخرت به إياد . وعدّ من مفاخرها[5] . وذكر (عبد الملك بن مروان) إياداً ، فقال : هم أخطب الناس لمكان قس ، وأسخى الناس لمكان كعب ، وأشعر الناس لمكان أبي دواد ، وأنكح الناس لمكان ابن الغز[6] .

و (أوس بن حارثة بن لأم الطائي) . يذكرون ان (النعمان بن المنذر) حباه حلة نفيسة بحضور وفود العرب من كل حيّ ، وكانوا قد اجتمعوا عنده ، فقال لهم : (إني ملبسّ هذه الحلة أكرمكم) فألبسه النعمان الحلة[7] . ويذكرون انه تمكن من الشاعر (بشر بن أبي خازم) ، وكان (أوس) قد نذر لئن

---

١ بلوغ الأرب (١/٧٥) ، تأريخ الادب العربي ، لـ (كارل بروكلمان) ، (١/١١١ ، ١١٢ ، ١١٣) .

٢ بلوغ الأرب (١/٨١) ، العقد الفريد (١/٣٣٧) ، نهاية الأرب (٣/٢٠٨) ، ثمرات الأوراق (١/١٢٧) ، (حاشية على المستطرف) .

٣ الثعالبي ، ثمار (١٢٦) .

٤ قال قيس بن زهير :

أطوف ما أطوف ثم آوي ... الى جار كجار أبى دواد

الثعالبي ، ثمار (١٢٧ وما بعدها) .

٥ الثعالبي ، ثمار (١٢٢) .

٦ الثعالبي ، ثمار (١٤٢) .

٧ الثعالبي ، ثمار (١١٨) .

ظفر به ليُحرقنَّه ، لأنه أسرف في هجائه ، حتى تجاسر فهجا أمه (سُعدى) . فلما ظفر به ، أشارت (سُعدى) على (أوس) بأن يمنّ على بشر ، فخلى سبيله وأكرمه وأحسن كسوته وحمله على نجيبه وحباه ، فصار (بشر) يمدحه[1] ويذكر أهل الأخبار ، ان أوساً وحاتما وفدا على (عمرو بن هند) ، فأراد امتحانهما ، والوقوف على رأي أحدهما في الآخر ، فما انتقص واحد منهما الآخر . فقال عمرو : والله ما أدري أيكما أفضل ! وما منكما إلا سيد كريم[2] .

و (هرم بن سنان المُريّ) ، من أجواد الجاهلية أيضاً . وهو سيد غطفان . وكان والده سيّد غطفان كذلك . وقد مدحه الشاعر زهير بن أبي سلمى في أبيات لا يزال الناس يحفظونها ويذكرونها عن هرم وقد كان هرم أعطاه مالاً كثيراً من خيل وإبل وثياب وغير ذلك مما أغناه ، وفيه ورد المثل : (أجود من هرم) . وقد أدركت بنت له أيام عمر فسألها عن أبيها وعن صلته بزهير[3] .

قال (أبو عبيدة) : (أجواد العرب ثلاثة : كعب بن مامة ، وحاتم الطائي ، وكلاهما ضُرب به المثل ، وهرم بن سنان صاحب زهير)[4] .

وقد ضرب المثل بجود (عبد الله بن حبيب العنبري) فقيل : (أقرى من آكل الخبز) . ذكر انه سُمّي آكل الخبز ، لأنه كان لا يأكل التمر ولا يرغب في اللبن . وأكل الخبز ممدوح عند العرب . وهو عندهم من علامات الغنى والمال . وعرف (ثور بن شحمة العنبريّ) بالجود كذلك ، وقد كان قومه (بنو العنبر) اذا افتخروا ، قالوا : (منّا آكل الخبز ، ومنا مجير الطير)[5] . وقد عرف (ثور بن شحمة) بـ (مجير الطير) لأنه كان يشفق على الطيور فيطعمها ويشبعها لجوده وكرمه .

واشتهر (عبد الله بن جُدعان) بجوده كذلك ، وقد كان يسمى بـ (حاسي الذهب) ، لأنه كان يشرب في إناء من الذهب ، وقيل : (أقرى من حاسي

١ بلوغ الأرب (١/٨٣ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١١٨) .
٣ بلوغ الأرب (١/٨٤ وما بعدها) ، ثمرات الأوراق (١/١٢٧) حاشية على المستطرف، العقد الفريد (١/٣٣٧) ، نهاية الأرب (٣/٢٠٨) ، الشعر والشعراء (١٢٣) .
٤ الشعر والشعراء (١٢٣) .
٥ بلوغ الأرب (١/٨٧) .

الذهب) . وكان يجود على (أمية بن أبي الصلت) ، ويقري أهل مكة ومن يأتي اليها ، وله جفنة كبيرة يأكل منها الناس ، ويصنع لهم (الفالوذج) ، ولم يكن معروفاً قبله بمكة ، فلما كان بالعراق ، أكله واستذوقه ، وجاء منه بطبّاخ ليطبخ له (الفالوذج) . وهو من (بني تيم) . وكان ممن حرم الخمر على نفسه بعد ان كان بها مغرى ، لما رأى فيها من ضرر واسفاف يلحق بشاربها . وذكر انه لما كَبُرَ وهرم ، أراد قومه ان يمنعوه من تبذير ماله ، ولاموه في العطاء ، فكان يدعو الرجل ، فإذا دنا منه ، لطمه لطمة خفيفة ، ثم يقول له : قم فانشُدْ لطمتك واطلب ديتها ، فاذا فعل ، أعطته بنو تيم من مال ابن جُدعان [1] . وقد ضرب المثل بفالوذج ابن جُدعان في أطايب الأطعمة [2] .

وقد عدّ في (مطعمي قريش) ، وهم سادات قريش وأشرافها ممن كان يطعم الناس ويفتح بيته للضيوف ، ولا يمنع جائعاً من دخول داره . كهاشم بن عبد مناف . وكانت له جفان يأكل منها القائم والراكب ، اذا وقع في احداها صبيّ غرق . فجرى بها المثل في العظم [3] .

وللتعبير عن إسراف الأجواد في جودهم ، وفي قراهم الضيوف ، نعت أحدهم بـ (مطعم الطير) ، كناية عن كرمهم ، وعن كثرة طعامهم المهيأ ، حتى كانت الطيور تشارك الضيوف في أكل الزاد ، وهو كثير . وقد نعت (حسان ابن ثابت) عمه (خالد بن زيد) المعروف بـ (ابن هند) ، وهو من (بني النجّار) ، بـ (مطعم الطير) ، كناية عن انه كان ينحر الإبل للأضياف ، فيأكل منها الناس والطير [4] . ونعتت (ليلى بنت الخَطيم بن عديّ بن عمرو) ، وهي أخت الشاعر (قيس بن الخطيم) أباها بأنه (مطعم الطير ومباري الريح) ، وذلك أمام الرسول [5] .

---

١ بلوغ الأرب (١/٨٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣/٢١٧) ، مجمع الأمثال (٢/٧٢) ، الثعالبي ، ثمار (٦٧٢) ، البيان والتبيين (٣/١٢٤) ، الأغاني (٨/٣٣٤) ، نسب قريش (٢٩١) .

٢ الثعالبي ، ثمار (١٢٣) ، الحيوان ، للجاحظ (٣/٤٠٣) ، عيون الاخبار (٣/٢٦٨) .

٣ الثعالبي ، ثمار (٦٠٩) ، البخلاء (٢١٠) ، سمط النجوم ، للعصامي (١/٢٠٠) .

٤ البرقوقي (ص ١١٧) .

٥ المحبر (ص ٩٦) .

ومن الأجواد من كان يجود في أوقات الشدة والحاجة بصورة خاصة ، في مثل حلول الجدب . وقد عرف نفر من العرب بـ (مطاعيم الريح) ، وذلك لأنهم كانوا يطعمون اذا هبت ريح الصبا ، لأنها لا تهب إلا في جدب ، فملحوا . ومن هؤلاء : (كنانة بن عبد يا ليل الثقفي) عم أبي محجن[1] . وزعم (ابن الأعرابي) ان (مطاعيم الريح) ، هم أربعة . منهم : كنانة ابن عبد يا ليل الثقفي المذكور و (لبيد بن ربيعة)[2] .

ويقال للرجل الذي يهتز للمعروف والعطية (الأريحي) ، وهو السخي . و (الأريحية) السخاء[3] .

وقد ضرب المثل بجماعة من الجاهليين عرفوا بجودهم وكرمهم ، حفظ العرب ذكرهم لجودهم ، وما زالوا يحفظونه حتى اليوم ، يتذاكرونه ويروونه في كتاباتهم وفي أنديتهم وفي كلامهم . من هؤلاء ثلاثة سُمّوا (زاد الراكب) و (أزواد الركب) ، لأنهم كانوا اذا سافروا مع قوم لم يتزودوا معهم . كانوا من أهل مكة هم : أبو عمرو بن أمية (مسافر بن أبي عمرو بن أمية)، وأبو أمية بن المغيرة المخزومي ، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزّى (زمعة بن الأسود بن المطلب) . وقد ضرب بهم المثل ، فقيل : أقرى من زاد الراكب[4] .

وقد كان (عبد الله بن أبي أمية) ، المعروف بـ (زاد الركب) شديد الخلاف على المسلمين ، ثم خرج مهاجراً من مكة يريد النبي ، فلقيه بـ (الصلوب) فوق العرج ، فأعرض عنه رسول الله ، ثم عفى عنه[5] .

وفي معنى (زاد الركب) معنى (جفنة الركب) ، والجفنة : الرجل

١ بلوغ الأرب (١/٩١ وما بعدها) .
٢ بلوغ الأرب (١/٩١ وما بعدها) .
٣ اللسان (٢/٤٦٠ وما بعدها) ، (صادر) ، (روح) .
٤ مجمع الأمثال (٢/٧٢) ، اللسان (٣/١٩٨) ، (صادر) ، (زود) ، المحبر (١٧٧ ، ٤٥٧) ، تاج العروس (٢/٣٦٦) ، (زاد) ، نسب قريش (٣٠٠ ، ٣١٥) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠٣) .
٥ نسب قريش (ص ٣١٥ وما بعدها) .

الكريم . قيل له : (جفنة الركب) ، لأنه كان مطعامــاً يضع جفنته ويطعم الناس فيها ، ومن يكون معه في ترحاله . فسمّي باسمها [1] .

وكانت العرب تقول : السفر ميزان القوم ، كأنه يزنهم بأوزانهــم ويفصح عن مقاديرهم في الكرم واللؤم [2] . إذْ يتبين الكريم من اللئيم في سفره . فاللئام اذا ما سافروا ضجروا ، لخوفهم من تقديم ما عندهم الى من هم دونهــم من فقير ومحتاج ، أما الكريم ، فإنه لا يبــالي في سفره فيعطي وينفق ويساعد من يسافر معه بما يجود به عليهم . فهو على عكس اللئيم فرحٌ بسفره هذا مستبشر .

وزعم الأخباريون ان (سويــد بن هرمي بن عامر الجمحي) ، كان أول من وضع الأرائك وسقى اللبن والعسل بمكة [3] . ومعنى هذا انــه أول من وضع الأرائك لراحة الناس في الجاهلية ، ولعلهــم قصدوا أرائك وضعت في الحرم لجلوس الناس عليها . كما ذكروا ان (أبا أمية بن المغيرة المخزومي) و (أبا وادعة بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم) وكانا يسقيان العسل بمكة ، بعد سويد بن هرمي [4] . وقد كان (عديّ بن نوفل) يسقي الحجيج اللبن والعسل على ما ذكره أهل الأخبار [5] . وقد عدّت السقاية من مفاخر قريش .

وقــد كان من عادة الأجواد ايقاد النار في الظلام ليراهــا الغريب والمحتاج والجائع من مسافة بعيدة فيفد اليها ، فيجد له من يقريه ويقدم له ما يحتاج اليه من طعام . ويقال لها (نار القرى) و (نار الضيافة) . وهي نار توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل . وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة ، لتكون أشهر. حتى زُعم ان منهم من كان يوقدها بالمندلي الرطب ، ليهتدي اليهــا العميان ، بشم رائحة الطيب التي تفوح منها عند الاحتراق . وهي من أجل الأعمال عنــد العرب . وقد ذكرت في الشعر الجاهلي [6] .

---

١ اللسان (١٣/ ٩٠ وما بعدها) ، (صادر) ، (جفن) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٦٨٨) .
٣ المحبر (ص ١٧٦ وما بعدها) .
٤ المحبر (١٧٧) .
٥ نسب قريش (١٩٧) .
٦ بلوغ الأرب (٢/ ١٦١) .

ويعدّ الشتاء محكاً للأجواد ولكرام الأنفس. فالشتاء عدوّ الفقير، يؤلمه ببرده ويوجعه بفقره ويضيف آلاماً على آلامه. فخيمته الممزقة البالية، لا تقيه من رياح ولا من مطر ولا من برد. والصيد يختفي ويقلّ، والاعشاب تزول، فلا يجد الفقير امامه سوى ما ادخره من قوت ليعيش عليه. فاذا اكله او كان قليلاً، فليس امامه من ملجأ سوى الاستجارة بأهل الجود والسخاء. ممن كان اذا جاء الشتاء ادنوا اليهم الناس وأطعموهم، فيقتلون بذلك جوع الشتاء. ولهذا عرف الواحد منهم بـ (قاتل الشتاء) [1].

وغاية الجود ان يجود الانسان بأعز ماله لغيره، يقال: (انه لمنحار بوائكها، اي ينحر سمان الإبل)، وهو للمبالغة، يوصف للجود [2]. فهو ليس من اولئك الذين يبخلون بمالهم العزيز، فينحرون الهزيل من الإبل، حرصاً على العزيز، بل يقدم اقصى ما عنده لضيوفه.

ويعد العرب (إقراء الضيف) و (الرفادة) : (رفادة الحج) في جملة (ارث ابراهيم واسماعيل). ويدخل اهل الاخبار في جملة هذا الإرث: تعظيم الحرم ومنعه من البغي فيه وقمع الظالم ومنع المظلوم [3]. فالكرم اذن من السنن القديمة الموروثة عن سنة ابراهيم على اهل الاخبار.

ولا يعدّ الكريم كريماً اذا وهب ماله في سبيل غرض. فمن وهب المال لجلب نفع او دفع ضرر او خلاص من ذم فليس بكريم [4].

ويقال للعطيّة الجزيلة (الدسيعة). ويقال للجواد، هو ضخم الدسيعة، اي كثير العطيّة. وقيل هي المائدة الكريمة والجفنة على سبيل المجاز [5]، لما عرف به الأجواد من تقديم الطعام للأضياف. ويقال للجواد المعطاء السيد الحمول: (الخضرم)، تشبيهاً بالبحر الخضرم وهو الكثير الماء [6].

---

١ تاج العروس (٨/٧٦)، (قتل).
٢ تاج العروس (٣/٥٥٨)، (نحر).
٣ الكلاعي، الاكتفاء (١/١٥٠).
٤ تاج العروس (٩/٤١)، (كرم).
٥ تاج العروس (٥/٣٢٧)، (دسع).
٦ تاج العروس (٨/٢٨٠ وما بعدها)، (الخضرم) بكسر الخاء.

وقد يعبر عن غاية الجود بقولهم : (هو جبان الكلب) ، اي نهاية في الكرم وكثرته ، لانه لكثرة تردد الضيفان اليه يأنس كلبه فلا يهر ابداً . قال حسان ابن ثابت :

يُغشون حتى ما تهر كلابهم   لا يسألون من السواد المقبل [1]

ومن الجود والكرم : الرفادة . والرفد : العطاء واعانة المحتاج . ومن ذلك ما فعلته قريش من (الرفادة) ، حيث اتفقت ان يخرج كل انسان مالاً بقدر طاقته ، يشترون به للحاج الجُزر والطعام والزبيب للنبيذ ، فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي ايام موسم الحج . وذكر ان (هاشم بن عبد مناف) ، كان اول من قام بالرفادة ، وأول من هشم الثريد ، وقد سُمّي هاشماً لهشمه الثريد [2] .

وذكر علماء اللغة ان السخاء مراتب ثلاث : سخاء وجود وإيثار . فالسخاء اعطاء الاقل وامساك الاكثر . والجود اعطاء الاكثر وامساك الاقل ، والايثار اعطاء الكل من غير امساك شيء . وهو اشرف درجات الكرم [3] .

ويعبر عن السخاء بـ (الندى) . ويقال (هو ندي الكف) ، اذا كان سخياً [4] . و (طلحة الندى) [5] ، اي السخي الكريم .

من شيم السادة :

ويعد حمل اثقال الديات من شيم السادة ، اذ لم يكن من الممكن للأسر الفقيرة دفع دية القتلى حين توزع في العشيرة او القبيلة ؛ لذلك يحملها السادة عن الضعفاء . وقد مدح « حسان بن ثابت » « حكيم بن حزام بن خويلد » ، فكان مما مدحه به انه (انه حمال اثقال الديات) [6] .

١ تاج العروس (٩/١٥٩) ، (جبن) .
٢ اللسان (٣/١٨١) ، (صادر) (رفد) .
٣ نهاية الأرب (٣/٢٠٤) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٦٣) ، (ندا) .
٥ نسب قريش (٢٣٧) .
٦ البرقوقي (ص ٧٠) .

ومن حمل الدماء ودفع أثمان دياتها : (عمرو بن عصم) ، الذي حمل الدماء التي كانت بين (بني سدوس) و (بني عنزة) في الجاهلية [1] ، وهرم بن سنان ، والحارث بن عوف ، اذ تحمّل ديات قتلى الحرب التي وقعت بين عبس وذبيان [2] .

كما يعد حمل ثقل المولودة التي يراد وأدها من الشيم ومن الاعمال الحميدة التي تحمد القائم بها عليها . وقد ذكر اهل الاخبار اسماء جماعة دفعوا مالاً لآباء كانوا قد همّوا بوأد بناتهم لإملاقهم ولضعف حالهم ، فأبقوا بذلك على حياتهن . وهو عمل يقدر حقاً ، لأنه عن حس انساني ودافع خيري نبيل .

فك الأسر :

ومن شيم الرجال المنّ على الاسرى بفكّ رقابهم واعطائهم حريتهم . وقد أبت مروؤة بعض السادات الا ان يقوموا بفك أسر الأسرى واعتاق رقبتهم ، ولو بشراء أسرهم بثمن . وقد ذكر العلماء اسماء رجال منهم عاشوا في الجاهلية عرفوا بعدم رضاهم عن الأسر ، فكانوا يدفعون مالاً في مقابل فكّ رقبتهم . من هؤلاء (سعد بن مُشمت بن المُخَيّل) ، وهو من رجال (بني المخيل) في الجاهلية . وكان آلى ان لا يرى اسيراً الا افتكه [3] .

ومن شيم الرجال العفو عند المقدرة والحلم والصفح عن المسيء ، وكان من عاداتهم في غفران الذنب ، حفر بئر ، ثم ينادي من يريد غفران الذنب والعفو عن المذنب : اشهدوا اني جعلت ذنبه في هذه البئر . ثم يرد فيها ترابها ، وبذلك يغفر الذنب [4] . وقد ضرب العرب المثل بحلم (قيس بن عاصم) ، وبـ (الأحنف ابن قيس) . و (قيس بن عاصم) ، هو من بني منقر من تميم . وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وذكر انه كان اول من وأد ، لأنه خشي ان يخلف على بناته من هو غير كفء لهن . وكان قد وأد ثماني بنات ، ووفد في وفد

---

١ الاشتقاق (١٩٢) .

٢ الشعر والشعراء (٦١) ، (ليدن) .

٣ الاشتقاق (١٩٣) .

٤ شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص ١٠٧) .

(بني تميم) على الرسول فأسلم . وقد قال له الرسول لما دنا منه : (هذا سيد اهل الوبر) [1] .

وأما (الأحنف بن قيس) ، فهو تميمي كذلك . ادرك النبي ولم يجتمع به . وكان يضرب بحلمه المثل . وله قصص مع الخلفاء . وسكن البصرة ، وبها مات سنة سبع وستين [2] .

وقد رجّح الجاحظ (الاحنف) على كل من عرف عند العرب واشتهر بينهم بالحلم ، حتى رجحه على لقمان ولقيم وقيس بن عاصم ومعاوية بن ابي سفيان . وله قصص مع معاوية [3] . ونسبوا له حكماً وشعرا [4] . وذكر انه هو القائل : (لا تزال العرب بخير ما لبست العمائم ، وتقلدت السيوف ، وركبت الخيل ، ولم تأخذها حميّة الأوغاد . قيل : وما حمية الأوغاد ؟ قال : ان يروا الحلم ذلاً ، والتواهب ضيماً) [5] . وقيل للأحنف بن قيس : بماذا سدت ؟ فقال : بثلاث ، بذل الندى ، وكفّ الأذى ، ونصر المولى . وقال: انما تعلمت الحلم من قيس بن عاصم : أتي بقاتل ابنه فقال : رعبتم الفتى . وأقبل عليه فقال : يا بني لقد نقصت عددك ، واوهنت ركنك ، وفتت في عضدك ، وأشمتّ عدوّك ، وأسأت بقومك ، خلوا سبيله ، وما حل حبوته ، ولا تغير وجهه [6] .

وللعرب كلمة تقولها عند طلب العفو والحلم وفي مواطن الغضب والتشاجر ، هي : (اذا ملكت فاسجح) ، يقصد بها طلب العفو والحلم عند ثوران الغضب . ولهم كلمات اخرى كثيرة في الحث على التحلي بالحلم والصبر [7] .

ومن خصال السادة : النخوة . وقد عرف بها العرب حتى ضرب بها المثل ، فقيل : نخوة العرب ، وورد : (لؤم النبيط ونخوة العرب) . وهم ينتخون لمن

---

١ الاصابة (٣/٢٤٢) ، (رقم ٧١٩٦) ، أمالي المرتضى (١/١١٢) .
٢ الاصابة (١/١١٠) ، (رقم ٤٢٩) ، أمالي المرتضى (١/١١٢) .
٣ الثعالبي ، ثمار (٨٩) ، أمالي المرتضى (١/٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨) .
٤ كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ، من رسائل الجاحظ (١/٣٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٨١) ، عيون الأخبار (٤/٩) ، أدب الدنيا والدين (١٣٥) .
٥ كتاب فصل ما بين العداوة (١/٣٦١) .
٦ أمالي المرتضى (١/١١٢ وما بعدها) .
٧ بلوغ الأرب (١/١٠١ وما بعدها) .

لمن ينتخيهم مع ترفع وتعزز [1] . فاذا نخى شخص ، فعلى من انتخى اجابة داعي النخوة والا عدّ جباناً وصار سبة للناس .

ولا يعني ان ما ذكرته كان يجب ان يتوفر حتماً في رجل ليستحق ان يكون سيداً . فقد رمي بعض الرؤساء بالبخل وبشدة الحرص وبامساك يدهم ، ووصف بعض السادات بالظلم وبالقسوة ، ومع ذلك ، فقد حكموا قبيلتهم وساد بعضهم وهم شُبّان ، والعادة عند العرب ان الرئاسة للمسنّ ، وانما الذي ذكرته يمثل رأي ذوي الرأي في الرئيس المثالي الذي يعرف كيف يحكم قومه وكيف يوجه قبيلته . وهي ليست بالضرورة مؤهلات وصفات يجب ان تكون لازمة في الرجل الذي سيسود قومه ، لقد ذكرت ان السيادة بالوراثة ، وأن هذه الخلال اذا تحلى بها انسان آخر من رجال القبيلة عدّ ايضاً سيداً من ساداتها ، بمعنى انه صار شريفاً مقدماً فيها ووجهاً من وجوهها . تماماً كما يكون لمدينة ما رئيس مدينة ، يحكمها بصفة رسمية ، ويكون لها في الوقت نفسه وجهاء وأشراف قد يكون من بينهم من هو اكثر ذكراً وأعلى مكانة وأشرف منزلة من رئيس المدينة ، ولكنه مع ذلك لا يمثل المدينة في الحفلات والمجتمعات ، لأنه ليس برئيسها العامل المعين . وهكذا هو شأن تلك الخصال ، خصال مثالية قد تتوفر في رئيس القبيلة ، وقد لا تتوفر فيه ، بل تتوفر في غيره من ابناء القبيلة ومن رؤساء فروعها ، ليكون لهم السيادة والشرف فيها ويشار اليهم على انهم سادة القبيلة ، ولكنهم لا يعنون بذلك رئاسة فعلية ، وانما رئاسة شرف ومكانة وتقدير في مجتمع . ومن هنا نجد اهل الاخبار يذكرون اسماء جملة سادات ، على انهم سادات قبيلة واحدة وفي وقت واحد ، فهم في الواقع سادات مجتمع وفروع قبيلة .

المدح والهجاء :

وللمدح وللهجاء شأن كبير عند الجاهليين اذ كان الجاهليون يقيمون وزناً كبيراً للقيم المعنوية . فربّ مدح يخلد الممدوح ويبقي ذكره ، ورب هجاء يغض من شأن المهجو ويحط من اسمه . ونحن هذا اليوم نقرأ ما ورد عندهم من المدح ، ونسمع اسماء الممدوحين وما حصلوا عليه من جاه وفخر بين الناس ، ونقرأ ما ورد في ذم أناس وما قيل فيهم من ذمّ وقدع . ولولا الاهمية التي اعطاها الماضون للمدح وللهجاء لما بقي الذم والمديح حتى اليوم .

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٦١) .

ومن أسباب المدح سخاء الممدوح أو شهامته ومجدته وشجاعته وعفته وحلمه وصبره وتضحيته وما الى ذلك من صفات وخلال حميدة . فكان اذا جاءه ضيف يعرفه أو لا يعرفه قدم اليه واجب الضيافة ، وبالغ في اكرامه وان كان فقيراً لا يملك شيئاً . ويقدمه على نفسه وعلى أهله ، لأن الضيافة حق وواجب ، وعلى من يقصَد للضيافة أداء هذا الواجب .

وقد كان الملوك يهبون على المدح ويثيبون المادح على قدر ما جاء في مدحهم لهم من تفنن في المدح ومن اطراء زائد ومبالغة في المدح . ولما دخل (النابغة الذبياني) على (النعمان بن المنذر) ، وحيّاه بتحية الملوك ، ثم مضى مسترسلاً في مدحه ، تهلل وجه النعمان سروراً ، وأمر ان يقدم له الدرّ ، و (كسُيَ أثواب الرضى . وكانت جُبّات أطواقها الذهب بقصب الزمرد . ثم قال النعمان : هكذا فليمدح الملوك)[1] . وفي كتب الأدب والأخبار أشعار قيل عن كل شعر منها (انها أمدح بيت قالته العرب)[2] . وفيها مبالغات وغلوّ في المدح ، تجعل الممدوح شمس والملوك كواكب ، اذا طلعت لم يبد منهن كوكب[3] . وأمثال ذلك .

وهذ الشعر وشعر الفخر وأمثالها ، يجب ان يكونا موضوعين لدراسات نفسية ، لأنهما يمثلان أعمق الأحاسيس النفسية للعرب ، ويتحدثان عن المواطن الرقيقة عند العرب ، التي تهتز أوتارها بسرعة عند سماعها هذا النوع من المدح . والنواحي العاطفية التي يمكن منها التأثير في العرب . ونحن لا نستطيع بالطبع ، ان نأخذ هذا الفخر أو ذاك المدح على انهما يمثلان الواقع ويمثلان الممدوح تمام التمثيل . أو انهما تعبير عن نفس صادقة مخلصة في كل ما قالته أو نظمته . فنحن نعلم ان من الشعراء من يمدح للعطاء ويهجو اذا حرم منه . وان الممدوح اذا قطع عطاءه عن الشاعر ، كفّ الشاعر عن مدحه ، وربما انقلب عليه فيغسل كل ما قاله في مدحه له ، بشعر يشتمه فيه بأبشع أنواع الشتم وأمضه . فشعر مثل هذا ، وان كنا نرويه ونتحدث عنه ونحفظه ، ولكنا نرويه ونستلذ بروايته ، لأنه لذيذ من

١ نهاية الأرب (٣/١٧٧) .
٢ نهاية الأرب (٣/١٨٢ وما بعدها) .
٣ نهاية الأرب (٣/١٨٢) .

ناحية الأدب ، ولأنه شعر قديم يمثل ضرباً من ضروب الحياة في ذلك الوقت .

وقد يمدح الشخص بنعته بنعوت مشرفة ، مثل (فلان أبيض) و (قوم بيض) ، و (البيض المناجيد) وهم لا يريدون من اللفظة بياض البشرة ، وانما يريدون المدح بالكرم ونقاء العرض من الدنس والعيوب [1] . وقد ينعت قوم بالخضرة ، ويريدون بذلك ان المنعوتين قوم عرب خلص . والأخضر بمعنى الأسود ، والعرب تسمى الأسود أخضر ، يريدون بذلك سواد الجلد ، والمراد بسواد الجلد انهم عرب خلص [2] .

ويمدح المحافظون على الوفاء بالعهد والمتمسكون بالودّ ، والمحامون على عوراتهم الذابّون عنها . ويعبر عنهم بـ (أهل الحفاظ) [3] .

التفاخـــر :

والتفاخر ، وهو التعاظم ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية عند أهل الجاهلية [4] . وفي الكتب العربية أمثلة كثيرة من تفاخر الجاهليين بعضهم على بعض ، وتباهيهم بالأشياء الخارجة عن الانسان والتمدح بالخصال . وتكون المفاخر بالآباء والأجداد، وبالسيادة والشرف ، وبالكثرة ، وبالحسب والنسب ، حتى انهم انطلقوا في بعض الأوقات الى القبور فكانوا يشيرون الى القبر بعد القبر ، ويقولون : فيكم مثل فلان ومثل فلان ؟ وفي ذلك نزلت الآية : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، كلاّ سوف تعلمون ، ثم كلاّ سوف تعلمون) [5] . فذكر ان حيين من قريش ، بني عدنان وبني سهم ، تكاثروا بالسيادة والأشراف ، فقال كل حيّ بهم : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) . وقيل : ان قبيلتين من قبائل الأنصار ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت احداهما : فيكم مثل فلان وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا الى القبور ، فجعلت احدى

---

١ البرقوقي (ص ١٣٤) .
٢ البرقوقي (ص ١٣٥) .
٣ اللسان (٤١٢/٧) ، (صادر) ، (حفظ) .
٤ اللسان (ف/خ/ر) ، (٤٨/٥ وما بعدها) .
٥ سورة التكاثر ١٠٢ ، الآية ١ فما بعدها ، بلوغ الأرب (٢٧٩/١) .

الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون الى القبر ، وقال الآخرون مثل ذلك . فأنزلت : (ألهاكم التكاثر) [1] .

وتقع المفاخرات بحضور محكمين في الغالب ، أو طرف ثالث محترم ، وعلى الطرفين قبول الحكم واطاعته ، وسماع رأي الطرف الثالث في حجج وأقوال المتخاصمين المتفاخرين . وتكون المفاخرة بإظهار كل طرف ما عنده من خصال يفاخر بها ، ومن مناقب يستأثر بها ، ومن مجد يرى انه انفرد به دون خصمه ، ثم يذكر ما امتاز به على خصمه ، بكلام منثور ومنظوم ، منسق منمق ، وما قام به من أعمال فريدة ، وما حصل عليه في حروبه مع الناس . وبعد ان يفرغ المتفاخرون من إلقاء ما عندهم من حجج وبيان ، ينظر المحكمون في الحجج التي استمعوا اليها ، ليبدوا حكمهم بموجبها ويكون حكمهم أصعب شيء يواجهونه ، لما يتركه من أثر في نفوس المتخاصمين ، ولما سيكون له من تأثير في مكانة من سيخسر المفاخرة .

ويقال للمفاخرة (المنافرة) . و (المنافرة) المحاكمة في الحسب ، وان يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ، ثم يحكما بينهما رجلاً ، كفعل (علقمة بن علاثة) مع (عامر بن طفيل) حين تنافرا الى (هرم بن قطبة الفزاري) ، وفيها يقول الأعشى يمدح (عامر بن الطفيل) ويحمل على (علقمة ابن علاثة) :

قد قلت شعري فمضى فيكما   واعترف المنفور للنافر

وقد نافر (أنيس) أخو (أبي ذرّ الغفاري) شاعراً على شعره ، إذْ كان يرى انه أجود منه شعراً [2] . وتكون المنافرة في كل شيء ، يرى انسان انه يفوق به غيره ، كالمنعة والعزّ والجاه والكرم وما شاكل ذلك من خصال . قال (ابن سيده) : (وكأنما جاءت المنافرة في أول ما استعملت انهم كانوا يسألون الحاكم : أينا أعز نفراً ؟) [3] .

و (النفار) ان يتنافروا الى حاكم يحكم بينهم . و (النفورة) الحكومة .

١ بلوغ الأرب (١/٢٧٩) .
٢ اللسان (٥/٢٢٦) .
٣ اللسان (٥/٢٢٦) ، القاموس (٢/١٤٦) .

وورد (يوم نفورة) : أي يوم حكومة ، حكم فيه بالنفار [1] .

ومن المفاخرات ، مفاخرةُ وفود ربيعة ومضر ابني نزار عند النعمان بن المنذر . فكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة (بسطام بن قيس) و (الحوفزان بن شريك) . وفيمن قدم عليه من وفد مضر من قيس بن عيلان (عامر بن مالك) وعامر بن الطفيل . ومن تميم قيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس [2] . ومفاخرة (آل حذيفة بن بدر) و (آل الأشعث بن قيس الكندي) عند كسرى . وهم من أعرق الأسر في أيامهم ، وأشرفها . وقد عَجِب (كسرى) بذكائهم وبحدة أذهانهم [3] . ومفاخرات أخرى مدوّنة في الكتب .

ومن مفاخرات أهل الجاهلية ، منافرة (عامر بن الطفيل) مع (علقمة بن علاثة) [4] المذكورة ، ومنافرة (بني فزّارة) و (بني هلال) [5] ، ومنافرة (الفقعسي) و (ضمرة) [6] ، ومنافرة (جرير البجليّ) و (خالد بن أرطاة الكلبيّ) [7] ، ومنافرة (القعقاع بن زُرارة بن عدس) و (خالد بن مالك ابن رُبعي بن سلم بن جندل بن نهشل) [8] ومنافرة (هاشم بن عبد مناف) و (أمية بن عبد شمس) [9] .

ومن المنافرات ، منافرة (عامر بن أحيمر) عند (المنذر بن امرىء القيس ابن ماء السماء) . فقد ذكر ان (المنذر) أخرج بُردَين يوماً يلو الوفود ، وقال : ليقم أعز العرب قبيلة ، فليأخذهما . فقام (عامر بن أحيمر) فأخذهما واتّزر باحدهما وارتدى بالآخر ، فقال له المنذر : أأنت أعز العرب قبيلة ؟ فقال : العز والعدد في معدّ ، ثم في نزار ، ثم في مضر ، ثم في خندف ،

١ البيان والتبيين (١/ ٢٤٠ ، ٣٠٤ ، ٣٥١) .
٢ بلوغ الأرب (١/ ٢٨٠ وما بعدها) .
٣ بلوغ الأرب (١/ ٢٨١ وما بعدها) .
٤ بلوغ الأرب (١/ ٢٨٨) .
٥ بلوغ الأرب (١/ ٢٩٧) .
٦ بلوغ الأرب (١/ ٢٩٨ وما بعدها) .
٧ بلوغ الأرب (١/ ٣٠١) .
٨ بلوغ الأرب (١/ ٣٠٦) .
٩ بلوغ الأرب (١/ ٣٠٧ وما بعدها) .

ثم في تميم ؛ ثم في سعد ، ثم في كعب ، ثم في عوف ، ثم في بهدلة ، فمن أنكر هذا فلينافرني ، فسكت الناس ، فقال المنذر : هذه عشيرتك كما تزعم ، فكيف أنت في أهل بيتك وفي نفسك ؟ فقال : أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وخال عشرة ، وعم عشرة ، وأما أنا في نفسي ، فشاهد العز شاهدي ، ثم وضع قدمه على الأرض ، فقال : من أزالها عن مكانها ، فله مئة من الإبل . فلم يقم اليه أحد من الحاضرين ، ففاز بالبردين ، وعرف بـ (ذي البُردَين) [1] .

وطالما كانت تؤدي هذه المفاخرات الى وقوع حروب وسفك دماء ، ولذلك أبطلها الاسلام ، ونهى عنها ؟ وعدّها من شعار الجاهلية [2] .

والمساجلة في معنى المفاخرة ، بأن يصنع مثل صنيعه في جري أو سقي . وتساجلوا بمعنى تفاخروا . ذكروا ان أصل المساجلة : ان يستقي ساقيان ، فيخرج كل منهما في سَجْله مثل ما يخرج الآخر ؛ فأيهما نكل فقد غلب ، فضربته العرب مثلاً للمفاخرة ، فإذا قيل فلان يساجل فلاناً فمعناه انه يخرج من الشرف مثل ما يخرجه الآخر ، فأيهما نكل فقد غلب [3] .

وتعرف (المفاخرة) بـ (المُباهاة) أيضاً . فيقال : تباهوا اذا تفاخروا . وأما اذا صابحه ، فيقال هاباه [4] . وذلك بأن يذكر كل متباه مناقبه ومناقب قومه ، يتفاخر بها على خصمه . وطالما أدت المباهاة الى وقوع خصومات ومعارك .

ومن مفاخر العرب التفاخر بمن برز عندهم في عمل فذّ وفي عمل خصال كريمة ، أو قام بفعل استحق الإعجاب . فكانت القبائل تتفاخر بذكر أسماء هؤلاء ، وتحفظ أسماءهم للتباهي بهم ، كما تفعل الدول في التباهي برجالها . ومن مفاخرهم : الفروسية ، فعدّ (الحوفزان) مثلاً وهو (الحوفزان بن شريك) فارس بكر بن وائل .

١ بلوغ الأرب (٧٦/١) .

٢ سورة لقمان ، ٣١ ، الآية ١٨ ، سورة الحديد ، ٥٧ ، الآية ٢٣ ، سورة النساء ٤ ، الآية ٣٦ ، العقد الفريد (١٠١/٦) ، (طبعة العريان) ، بلوغ الأرب (٢٧٨/١) .

٣ قال الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب :

من يساجلني يساجل ماجدا يملأ الدلو الى عقد الكرب

اللسان (٣٢٦/١١) ، (صادر) ، (سجل) .

٤ اللسان (٩٩/١٤) ، (بها) .

وافتخروا بـ (الأصم عمرو بن قيس) ، ولقب عند المتفاخرين به بـ (صاحب رؤوس بني تميم) ، وافتخروا بـ (مفروق بن عمرو) (حاضن الأيتام) والظاهر انه كان يحن على الأيتام ويعطف عليهم ، لذلك لقب بهذا اللقب ، وافتخر بـ (سنان بن مفروق) ، الذي عرف بـ (ضامن الدمن) . كما افتخر بـ (عمران بن مرة) لأنه أسر (يزيد بن الصعق) مرتين[1] .

الخيلاء :

وقد عرف بعض الجاهليين بالخيلاء والزهو والتغطرس . وقد اعتبرها الاسلام من سمات أهل الجاهلية . وقد اشتهر (سماك بن خرشة الأنصاري) بمشية خاصة به ، فيها تبختر وخيلاء ؛ حتى عرفت بـ (مشية أبي دجانة)[2] . والتبختر هي مشية العجب والخيلاء . وكانت من مشية بعض المغرورين المترفين من أصحاب الجاه والمال .

الهجاء :

والهجاء عكس المدح ، وهو ذم الشخص والانتقاص منه وشتمه . وقد نبغ فيه بعض الشعراء ، وتخصص به ، ويجب ان نقف منه موقف الحذر الشديد ، لما للعواطف والهوى من أثر فيه . وقد يهجو شخص شخصاً أو قوماً لسبب تافه ، أو بسبب حادثة وقع له لا يستوجب صدور ذلك الهجاء منه . وهناك أشخاص جبلوا على ازدراء الناس وشتمهم والانتقاص منهم ، فهجوا أكثرهم ، بل بلغ بهم الهجاء حداً حملهم على هجو أقاربهم وأهلهم ، بل أنفسهم في بعض الأحيان .

ويستحق الهجاء من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخلاق الأرذال ، والأنذال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطاءه ودثاره . وقد حفظ الرواة بعض الأشعار التي قيل انها كانت من أهجى أشعار العرب في الجاهلية

---

١ العمدة (٢٢١/٢) .
٢ الثعالبي ، ثمار (٨٧ وما بعدها) ، تاج العروس (١٩٦/٩) ، (دجن) .

وفي الاسلام . وذكر ان من شعر الهجاء المرّ القاسي قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا [1]

وقوله في الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي [2]

وقول الطرمّاح :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضلّت [3]

الى غير ذلك من شعر ، يجب ان نأخذه بحذر . وان نعالجه دائماً على انه يمثل العواطف الشخصية والانفعالات النفسية ، والتهييج الآني . وان شعراً من هذا القبيل لا يمكن ان يحمل محمل الصدق ، وان نقول عنه انه يعبر عن الواقع . بل نأخذه كما سبق ان ذكرت عن شعر المديح على انه تعبير عن نوع من أنواع الأدب في ذلك الوقت . وعلى انه باب يجب ان يدرس من الوجهة النفسية ، لأنه يفيد في الوقوف على النفسية العربية والعقلية الجاهلية في ذلك الوقت .

ولم يكن الهجاؤون يراعون الصدق في كلامهم ، وكيف يراعونه وهم يريدون هجو خصومهم والإساءة اليهم والى سمعتهم بأيـة طريقة ووسيلة كانت ، حتى وان علموا ان سامعي الهجاء لا يصدقونه . ومن هذا القبيل رمي بعض القبائل أو الأُسر بأنها من أصل أعجمي ، وفي كتب الأخبار أمثلة عديدة على ذلك ، وقد يكون ذلك بسبب وجود دم أعجمي من أم أو من أب بعيد أو قريب ، وقد لا يكون أي أثر من ذلك . شتم (عمرو بن الأهتم) (قيس بن عاصم) ، فقال له ولقومه :

إن تبغضونا ، فإن الروم أصلكم والروم لا تملك البغضاء للعرب [4]

وقد عير (حسان بن ثابت) (بني المغيرة) وسبهم بأنهم عبيد قيون ، أبوهم

١ نهاية الأرب (٣/٢٧٢) .
٢ نهاية الأرب (٣/٢٧٥) .
٣ نهاية الأرب (٣/٢٧٦) .
٤ ديوان حسان (ص ٤٤) (هرشفلد) .

قين لدى (كيره) جاثم . يأخذون (الاهالة) ، وهو الدهن الذي يستخرج من اللحم ، ويبيعونه من الدبّاغين [1] . فما ذكره فيهم هو من اعمال العجم والصعاليك ، لا العرب الأصلاء والأقحاح .

وذكر ان (الوليد) المعروف بـ (الوليد بن المغيرة) لم يكن عربياً ، وانما كان عبداً رومياً ، وكان اسمه (ديم) ، واسم ابيه (صقعب) ، فرغب فيه (المغيرة) ، فادّعاه ، والحق صقعباً بالشام ، فاشتاق اليه ، فصوره في الحائط . وقد هجاه (حسان بن ثابت) ، فقال له ان والدك (صقعباً) كان قيناً ، وأما امك فهي (حباشة) ، وهي عبدة سوداء . وقد تباهيتَ اذ صرت غنياً ، وانما صرت ثرياً بكلبتك هذه ، وهي آلة من آلات الحدادين ، يشير بذلك الى انه كان حداداً ، يعرف ضرب النصال ، وحسن الرقع للبرم ، وهي القدور [2] . ويظهر من شعر حسان ومن شرح الشرّاح ان (الوليـــد) كان مصوّراً ماهراً متمكناً من فنه ، حتى صور اباه ، ان صح هذا الادعاء من (حسان) .

ولحسان بن ثابت هجاء شديد لثقيف ، قال في بعضه خلّوا (معداً) ولا متسبوا إليها ، واتركوا (خِنْدفاً) ، فما لكم من ولادة فيها ، وذلك على عاداته وعادة الشعراء والناس عند هجاء قوم ، حيث يرمونهم بكل قبيح ، ويجردونهم من كل مكرمة ، الا انه لم يصرح في شعره بأنهم من ثمود ، اذ كانوا وقت هجاء (حسان) إياهم من (قيس) . وقد نسبهم بعضهم الى (الفهود بن بني جائر بن إرم ، اخوة ثمود) ، ونسبهم آخرون الى (وحاظة) بن حمير ؛ وقال آخرون ان (ثقيفاً) ، هو عبد [3] . كل ذلك نكاية بثقيف .

وذكر اهل الاخبار ان (الازرق) ، وهو غلام رومي في الأصل كان للحارث ابن كلدة الثّقفي . وقد ادعى نسله ان (الازرق) هو ابن (عمرو بن الحارث ابن ابي شمر الغساني) ، فهم من غسان . وذكر انهم ادعوا في اول امرهم انهم من تغلب ، ثم من بني عكب ؛ ثم افسدتهم خزاعة ، ودعوهم الى اليمن ، وزينوا لهم ذلك ، وقالوا : انتم لا يغسل عنكم ذكر الروم الا ان تدعوا انكم

---

١ البرفوفي (ص ٤٠٣) .
٢ البرقوفي (ص ٤٠٠ وما بعدها) .
٣ البرقوقي (ص ٣٤٦) .

من غسان . فانتموا الى غسان بعد [1] .

وقد عيّرت العرب وسبّت من كان ذا أصل خامل ، كأن يكون قينا ، والقين العبد والحداد . ولعلها جمعت هذا المعنى من الترابط بين الحرفة والمنزلة ، فقد كان القيون من العبيد . وقد عيّر (حسان بن ثابت) (بني عوف بن عوف) بأنهم منتسبون الى قريش ، ولكن نسبهم ليس منهم ، بل من جذع قين لئيم العروق عرقوب والده اصهب [2] . فرماهم بأنهم ليسوا من قريش ، ولا من العرب ، بل من الروم ، ووالدهم اصهب به حمرة ، وليست الصهبة من لون العرب . وقال لهم : واذا اردتم الانتساب الى العرب ، فانتسبوا الى (تغلب) ، انهم شرّ جيل ، وليس لكم غيرهم مذهب [3] . ويبعث قول « حسان » هذا في « تغلب » على الظن بأن أقواماً من الغرباء دخلوا في تغلب ، وصاروا منهم . ولعله قصد ان من تنصر ، دخل في تغلب ، حتى دخل فيهم من ليس من العرب بسبب نصرانيته ، حتى دخل فيهم قوم اصلهم من الروم .

وعُيّر بـ (اولاد درزة) ، ويراد بهم الغوغاء . وبنو درز : الخياطون والحاكة ، والعرب تقول للدعيّ : هو ابن درزة وابن ترني . وذلك اذا كان ابن أمة تُساعي ، فجاءت به من المساعاة ، ولا يعرف له أب ، . وقال : هؤلاء اولاد درزة وأولاد فرتني للسفلة والسقاط [4] .

والسب : الشتم ، والسباب : الشتائم والمشاتمة . وأما (السبّة) فالعار [5] . وكانوا يتشاتمون جماعات وفُرادى ، ويعير بعضهم بعضاً وقد يقذعون في السب ، ولا سيما في الامور التي تتغلب فيها العواطف على العقل .

ومن شتائم الجاهليين وسبابهم (عضضت بأير أبيك) [6] ، ويا ابن الزانية ،

١ طبقات ابن سعد (٣/٢٤٧) (دار صادر) .
٢ الى جذم قين لئيم العروق عرقوب والده اصهب
البرقوقي (ص ٦٣) .
٣ الى تغلب انهم شر جيل فليس لكم غيرهم مذهب
البرقوقي (ص ٦٣) .
٤ اللسان (٥/٣٤٨) ، (صادر) ، (درز) .
٥ تاج العروس (٣/٣٤ وما بعدها) .
٦ البرقوقي (١٢١ وما بعدها) .

ويا ابن الفاعلة ، و (يا عاض اير ابيه) ، و (يا مصفر أسته) [1] ، و (يا ابن ملقى ارحل الركبان) [2] .

وعيرت العرب بالبخـــل . والبخل هو على نقيض الكرم . وقد ذُمّ بعض الجاهليين لبخلهم ولحرصهم الشديد على مالهم وعدم مساعدتهم الفقراء والمحتاجين . وقد انتخبوا من بينهم رجلاً زُعم انه ابخل الناس في الجاهلية اسمه (مادر) ، (بخل مادر) و (ابخل من مادر) . وهو رجل من (بني هلال بن عامر) . ذكر انه كان اذا اتى ماءً روي وأروى ثم ملأه مدراً ضنا على غيره بوروده . وانه بلغ من بخله انه سقى ابله ، فبقي في الحوض ماء قليل ، فسلح فيه ومدر الحوض بالسلح ، اي لطخه [3] . وورد في الامثال : (ألأم من مادر) [4] .

وعيّرت بالغدر . قال بشر :

رَضيعَةُ صَفْحٍ بالجباه ملمةٌ لها بَلَقٌ فوقَ الرؤوس مشهّرُ

وصفح رجل من (بني كلب بن وبرة) ، جاور قوماً من (بني عامر) ، فقتلوه غدراً . يقـــول غدرْتكم بـ (زيد بن ضباء الاسدي) ، انحت غدرتكم بصفح الكابي [5] .

وعيرت من ينكر الصنيع الجميل والفعل الحميد ، فينسى احسان من احسن له . وعيرت من لا يفي ، ولا سيما من أكل الخبز والملح ، وهما من موجبات الوفاء ، فقالوا : (ملحه على ركبته) ، في عدم الوفاء [6] .

واذا سبت العرب احد الموالي ، قالت : يا ابن حمراء العجان ، اي يا ابن الأَمة . كلمة تقولها في السبّ والذمّ . والعرب تسمّي الموالي : الحمراء [7] . وكانوا يعيرون (الأتاوي) ، وهو الغريب في غـــير موطنه ، ولا يعدلون احداً من

---

١ الثعالبي ، ثمار (٢١) .
٢ تاج العروس (٧/٣٤٢) ، (رحل) .
٣ الثعالبي ، ثمار (١٢٧) .
٤ تاج العروس (٣/٥٣٦) ، (مدر) .
٥ تاج العروس (٢/١٨٠) ، (صفح) ، اللسان (٢/٥١٦) ، (صفح) .
٦ تاج العروس (٢/٢٣٠) ، (ملح) .
٧ تاج العروس (٣/١٥٨) ، (حمر) .

الأتاوين بأصحاب المحلات . قال الشاعر :

لا تعدلن اتاويــين قد نزلوا وسط الفلاة بأصحاب المحلات

وقالت امرأة من الكفّار ، وهي تحرض الأوس والخزرج ، حين نزل فيهم النبي :

أطعتم أتاويّ من غــيركم فلا من مُراد ولا مذحــج

ارادت ان تؤلب وتذكي العصبية [1] .

وكانوا اذا ارادوا الاستهزاء برجل جاهل سفيه ، قالوا له : هذا من اشد سباب العرب ، أي ان يقول الرجل لصاحبه اذا استجهله يا حليم ! اي انت عند نفسك حليم وعند الناس سفيه [2] .

ويعيَّر الانسان بأبويه ، او بأحدهما ، اذا كان بهما او بأحدهما مثلبة ومنقصة يؤاخذ عليها ، كأن يكون ابن أمة او ابن سبي بيع في السوق . وقد رأينا انهم كانوا يزدرون الهجين ، ولا ينظرون اليه نظرتهم الى انسان صريح ، كما كانوا يزدرون منّ أمه او ابوه من اصحاب الحرف . وقد عُيِّر (النعمان بن المنذر) لأن امه (سلمى) كانت ابنة قَيْن ، على زعم بعض الرواه . وكانوا اذا شتموا ابن امة ، قالوا له : يا ابن استها [3] .

وقد كان للجاهليين اعراف في اهانات الناس ، من مثل سب الشخص على ما ذكرت ، وتحريض الاطفال على العبث بمن يريدون اهانته ، ورميه بالحجارة والركض خلفه ، وبأمثال ذلك ، او بتحريض السفهاء على التحرش بالشخص ، او تحريض النسوة بسبِّه ، وبالاقذاع في كلامهم معه ، وبما شاكل ذلك من وسائل دنيئة لا تنم على قدرة المحرض ولا على جرأة عنده ، فيعمد الى امثال هذه الامور .

وأما المقتدرون المتمكنون ، فكانوا اذا ارادوا اهانة انسان اهانوه بأسلوب يدلّ على قدرة المهين وتمكنه من مُهانه وازدرائه ، فكان احدهم اذا تمكن من عدوّه ،

---

١ الحيوان (٥/٩٧) ، (هارون) .

٢ اللسان (١٢/١٤٦) ، (صادر) ، (حلم) .

٣ قال الأعشى :

أسفهــا أوعدت يا ابن استهــا لست علــى الأعــداء بالقــادر

وقال حسان بن ثابت :

فما منــك أعجب يا ابن استــها ولكنــي من اولــي أعجـــب

البرقوقي (ص ٦١) .

عمد الى اهانته بنتف لحيته . ونتف اللحية من الاهانات الشديدة عند العرب ، لأن اللحية من سماء الرجولة ، فاذا نتفت عدّ نتفها انتقاصاً من شأن ذلك الرجل وازدراءً شديداً به .

وما يقال عن الاهانة التي توجه الى الرجل بنتف لحيته ، ينطبق كذلك على (جز الناصية) . فجزّ الناصية من وسائل التحقير والازدراء ، وفيه دلالة على ازدراء مَنْ جَزّ الناصية بمن جُزّت ناصيته ، بعد ان تمكن منه . وقد كان في امكانه استرقاقه ، او المنّ عليه بفك أسره ، او بفك رقبته بفدية ، ولكنه لم يفعل كل ذلك ، ولم يطمح في الفدية امعاناً في ازدراء خصمه بافهام الناس ان ذلك الشخص لا يساوي شيئاً ، وان المتمكن ارفع من ان يقبل فدية عن رجل وضيع خامل .

وكانوا اذا ذكروا خصومهم ، تمنوا لهم الشرّ والأذى ، واستعملوا جملاً فيها هذه المعاني . مثل : أخس الله حظه [1] ، وأبعده الله وقبحه ، او رضيع اللؤم ، او ابعد الله دار فلان ، وأوقد ناراً في أثره [2] ، وقد يذكرونهم بهزء وسخرية . ويكثر ذلك عند اهل الفرار .

ومن معـاني الشتم لفظة (لحى) ، التي تعني (شتم) . يقال (لحى الله فلانا) ، اي قبحه ولعنه . و (الملاحاة) المنازعة . وفي المثل من لاحاك ، فقد عاداك [3] .

وكان من دعاء بعضهم على بعض قولهم : (حبناً وقداداً) . والحبن الاستسقاء ، والقداد ، وجع في البطن [4] .

وكان اذا دعا الرجل على صاحبه ، يقول : قطع الله مطاك . فيقول الآخر : بسلا بسلاً ، اي آمين آمين . وكان يحلف الرجل ثم يقول بسل ، أي : آمين . وكان (عمر) يقول في دعائه : آمين وبسلاً ، اي ايجاباً وتحقيقاً . وهي في معنى الويل ، يقال : بسلاً له اي ويلاً له [5] .

---

١ تاج العروس (١٣٨/٤) ، (خسس) .
٢ اللسان (٤٦٦/٣) ، (وقد) .
٣ تاج العروس (٣٢٣/١٠ وما بعدها) ، (لحا) .
٤ تاج العروس (٤٦١/٢) ، (قد) .
٥ تاج العروس (٢٢٧/٧) ، (بسل) .

وكانوا اذا ما أرادوا التكنية عن الكذاب ، قالوا : (أبو بنات عبر) . و (بنات عبر) الكذب والباطل [1] .

الخسة والدناءة :

والخسة والدناءة ، والخسيس الدنيء والحقير [2] . والدنيئة القبيصة [3] . والدنيّة الخصلة المذمومة [4] . وهي من المثالب التي تكون في الانسان . فيزدرى من شأنه ويحتقر بين قومه . ومنها الحسد واللؤم وعدم احترام العرض . والعرب تتنخى من الدنايا وتستنكف منها [5] .

والحسد من الصفات السيئة التي كرهها العرب . وقد كان الحسد إذْ ذاك كثيراً ، بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية وانتشار الفقر . فكان الفقير يحسد غيره على ما عنده ، مهما كان ما عنده قليلاً ، لأنه لا يملك حتى هذا القليل . وقد بحث (الجاحظ) في الحسد ، ووضع رسالة فيه دعاها : كتاب فصل ما بين العداوة والحسد . والحسد عنده شيء مألوف يقع لكل طبقة ولكل إنسان . ومن أسبابه حبّ الرياسة ، ووجود النعمة ، وأمور أخرى ذكرها وتحدث عنها . كما تكلم عن مظاهر الحسد وأشكاله عند الجاهليين والاسلاميين ، وقد جعله فوق العداوة ، لأن العداوة تزول بزوال أسبابها ، أما الحسد ، فإنه دائم باق [6] .

و (الجبن) ، من الصفات التي يعير (الجبان) بها . وهو الذي لا يحب القتال ولا يستعمل سيفه . ولما كانت الحياة عند العرب حياة قتال صارت الشجاعة في الانسان صفة من صفات التكريم والتعظيم والتقدير ، عكس (الجبن) ،

١ اذا ما جئت جاء بنات عبر وان وليت أسرعن الذهابا
تاج العروس (٣٧٧/٣) .
٢ تاج العروس (١٣٧/٤) ، (خس) .
٣ تاج العروس (٦٦/١) ، (دنأ) .
٤ تاج العروس (١٣٢/١٠) ، (دنو) .
٥ تاج العروس (٣٦٢/١٠) ، (نخا) .
٦ راجع رسالته في رسائل الجاحظ (٣٢٥/١ وما بعدها) ، تحقيق (عبدالسلام محمد هارون) .

وينظر الناس الى (الجبان) نظرتهم الى النساء ، بل هو عندهم دونهن شأناً . لأن المرأة ولدت وفي طبعها اللين والاستسلام ، أما الرجل فقد خلق للعراك والقتال ، وقد حفظ أهل الأخبار قصصاً عن الجبناء وعن تحايلهم في سبيل تخليص أنفسهم من القتال ومن استعمال السيف . وقد اتهموا بتهم . منها : انهم كانوا ينتابهم (الضراط) عند شعورهم بخوف وبأصوات السيوف . حتى استخفت النساء بهم من أجل ذلك . قيل في المثل : أجبن من المنزوف ضرطاً . ومن ذلك ان نسوة من العرب لم يكن لهن رجل ، فتزوجت احداهن رجلاً كان ينام الصبحة ، فاذا أتينه بصبوح ، قلن قم فاصطبح ، فيقول : لو نبهتنني لعادية ، فلما رأين ذلك . قال بعضهن لبعض : إنّ صاحبنا لشجاع ، فتعالين حتى نجربه ، فأتينه كما يأتينه ، فأيقظنه . فقال : لو لعادية نبهتني . فقلن هذه نواصي الخيل . فجعل يقول : الخيل الخيل ويضرط ، حتى مات . الى غير ذلك من قصص يرويه الأخباريون [1] .

الشرف والخمول في قبائل العرب :

والقبائل كالأفراد والأُسر ، فيها النابه المذكور المهاب ، وفيها الخامل المزيل الضعيف الذي لا ينظر اليه نظرة تقدير وتبجيل . والقبيل الكثير الذّرء والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء ، وكثير السادات في العشائر ، وكثير الرؤساء في الأرحاء ، هو القبيل المقدر المعظم ، ذو الشأن بين القبائل [2] . وقد تقع أحداث وعوامل ، تؤدي الى خمول القبيل والى انفصام وحدته ، والى طمع غيره فيه ، فيهزل عندئذ ويخمل ، ويأخذ مكانه من هو أقوى منه . وقد ذكر (الجاحظ) ، ان القبيل الذرء والعدد ، والذي لا يكون فيه خير كثير ولا شرّ كثير ، يخمل ويدخل في غمار العرب ، ويغرق في معظم الناس ، وصار من المغمورين ومن المنسيين ، وسلم من ضروب الهجاء ومن أكثر ذلك ؛ وسلم من ان يُضرب به

---

١ تاج العروس (٥/١٧٦) ، (ضرط) .
٢ الحيوان (١/٣٥٧ وما بعدها) ، (هارون) .

المثل في قلة ونذالة اذا لم يكن شرّ ، وكان محلّهم من القلوب محلّ من لا يغيظ الشعراء ، ولا يحسدهم الأكفاء ... واذا تقادم الميلاد ولم يكن الثرء وكان فيهم خير كثير وشرّ كثير ، ومثالب ومناقب ، لم يسلموا من ان يُهجوا ويضرب بهم المثل ... وقد يكون القوم حلولاً مع بني أعمامهم ، فإذا رأوا فضلهم عليهم حسدوهم ، وان تركوا شيئاً من انصافهم اشتدّ ذلك عليهم ، وتعاظموا بأكثر من قدره ، فدعاهم ذلك الى الخروج منهم الى أعدائهم . فإذا صاروا الى آخرين نهكوهم وحملوا عليهم ، فوق الذي كانوا فيه من بني أعمامهم ، حتى يدعوهم ذلك الى النّدم على مفارقتهم ، فلا يستطيعون الرجوع ، حميّة واتقاء ، ومخافة ان يعودوا لهم الى شيء مما كانوا عليه ، والى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم ، ومن شدة الصولة عليهم)[1] .

وقد ذكر (الجاحظ) ، ان مما تبتلى به القبائل فيصيبها الخمول : الشعر ونبوغ الأقارب أو المنافسين . فالشعر عند العرب يرفع من قدر الناس ويحطّ من درجاتهم . فقد يقال بيت واحد يربطه الشاعر في قوم ليس لهم جاه ، فيرفع من شأنهم ، وقد يقال بيت واحد في قوم لهم النباهة والعدد والفعال . فيغض من مكانتهم ، ويكون سبّة لهم . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء ، كما بكى مخارق بن شهاب ، وكما بكى علقمة بن عُلاثة ، وكما بكى عبد الله بن جُدعان . والبلية الأخرى : ان يكون القبيل متقادم الميلاد ، قليل الثرء قليل السيادة ، وتهيأ ان يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التامّ ، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكلّ من رآهم أو سمع بهم ، أضعاف الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتلوا بشرف إخوتهم .

ومن شؤم الإخوة ان شرفهم ضعة إخوتهم ، ومن يمن الأولاد ان شرفهم شرف من قبلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم[2] . ولذلك كانت القبائل تفخر بنبوغ الشعراء بها ، لانهم لسانها الذابّ عنها ، وسيفها المصلت على رقاب

---

١ الحيوان (٣٥٧/١ وما بعدها) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٣٦٥/١) .

الأعداء . وتتباهي بما يقوم به ساداتها من فعال حميدة وأعمال مجيدة ترفع رأس أبناء القبيلة بين الناس .

ولأهمية الشعراء عند الجاهلين ، قال بعض العلماء : كلاب الحيّ شعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ، ويحمون أعراضهم . وفي هذا المعنى جاء قول عمرو بن كلثوم :

وقد هرّت كلابُ الحيّ منّا وشذّبنا قتادة من يلينا[1]

الاسلام والجاهلية :

وقد أبطل الاسلام كل سمة من سمات الجاهلية وعلامة من العلامات التي كانت تعدّ من صميم حياة الجاهلين . وفي جملتها المثل الأعرابية والحياة البدوية ، فاعتبر الأعرابية بعد الاسلام ردة . ونهى عن الهجرة من المدن الى البوادي ، فكان الأعرابي اذا دخل في الاسلام ، لزم الحضارة ، وكلّف بواجب الجهاد في سبيل نشر الاسلام ، لما في التبدي والأعرابية من ابتعاد عن الجماعة وترك للواجب الملقى على المواطن في الدفاع عن الاسلام وفي العمل على انهاض المجتمع والانتاج في سبيل الخير العام . لذلك لام الناس (أبا ذر الغفاري) ، حين لجأ الى (الربذة) فأقام بها وتعزب بذلك عن الجماعة[2] .

وفي جملة ما حاربه الاسلام من أمور الجاهلية الأصنام والأوثان ، فطُمست وأزيلت معالمها ، بل غير أموراً أقلّ منها شأناً وخطراً ، مثل : خضرمة النوق . وكان أهل الجاهلية يخضرمون نعمهم ، فلما جاء الاسلام أمروا ان يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم منه أهل الجاهلية[3] . وذلك منعاً من التشبه بالجاهلين ، وابعاداً للمسلمين عن تذكر أيام ما قبل الاسلام . ونهى عن تسنيم القبور وعن لبس بعض الملابس ، وعن أمور أخرى ، لأنها كانت من صميم أعمال الجاهلين .

---

١ الحيوان (١/٣٥١) ، (هارون) ، (كلاب الجن) ، الثعالبى ، ثمار (٦٩) .
٢ تاج العروس (١/٣٨٠) ، (عزب) .
٣ تاج العروس (٨/٢٨١) ، (الخضرم) .

وحارب الاسلام العصبية التي كانت من أهم سمات الجاهلية ، والتي بقيت مع ذلك كامنة في نفوس الناس . عصبية القبائل وعصبية القرى والمواضع . من ذلك ما كان بين يمن وأهل مكة من نزاع ، تحول الى نزاع قحطان وعدنان . فعير أهل مكة اليمن بأنهم قيون ، وأجابهم أهل اليمن بكلام غليظ شديد . هـذا (أمية بن خلف) يهجو حسان بن ثابت بقوله :

أليس أبوك فينـا كان قيناً لدى القينات ، فسلاً في الحفاظ ؟
يمانياً يظلّ يشدّ كيراً وينفـخ دائبـاً لهب الشواظ [1]

وهذا (حسان) يجيبه ويرد عليه في شعر مطلعه :

أتاني عن أميّـة زورُ قولٍ وما هو في المغيب بذي حفاظ [2]

وطالما ظهرت هـذه العصبية في أيام الرسول ، بتنازع الأنصار وقريش وتفاخرهـم بعضهم على بعض . وذكر ان في جملة أسباب تحريم الخمر ، ان رجلاً من الأنصار صنع طعامـاً ، فدعا جمعاً من الأنصار وقريش ، وشربوا الخمر حتى انتشوا ، فتفاخرت الأنصار وقريش ، فقالت الأنصار · نحن أفضل منكم . وقالت قريش نحن أفضل منكم ، وتخاصموا ، فبلغ ذلك الرسول ، فنزل الأمر بتحريم الخمر [3] .

وفي جملة ما نهى الاسلام عنه (دعوى الجاهلية) من التفاخر بالأحساب والأنساب والتباهي بالمـال والبنين والأموات ، وتحـريم بعض الطعام والشراب والعادات الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية على نحو ما رأينا فيما تقدم ، وما سنراه فيما بعـد .

وقد ترك المسلمون أموراً كثيرة أخرى مما كان مستعملاً في الجاهلية ، فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة ، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان : الحُملان والمكس . وكما تركوا : أنعم صباحاً ، وأنعم ظلامـاً ، وصاروا يقولون : كيف أصبحتم ؟ وكيف أمسيتم ؟ كما تركوا ان يقولوا للملك أو السيّد المطاع :

١ اللسان (٧/٤٤٦) ، (شوط) ·
٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) ·
٣ تفسير الطبري (٧/٢٢) ·

أبيت اللعن ، وتركوا ان يقول العبد لسيده : ربي ، وان تقول حاشية الملك والسيد للملك وللسيد : ربنا . وكما تركوا ان يقولوا لقوّام الملوك السدنة ، وقالوا : الحجبة . كما تركوا أشياء أخرى مثل المرباع والنشيطة والصفايا ، الى غير ذلك ، مما كان مستعملاً في الجاهلية . فكره للناس استعماله في الاسلام [1] .

١ الحيوان ، للجاحظ (٣٢٧/١) ، (ما ترك الناس من الفاظ الجاهلية) .

الفصل الثامن والأربعون

الحياة اليومية

لا نستطيع ان نتصور وجود حياة يومية صاخبة أو متغيرة عند أهل الوبر ؛ فحياة البادية في غاية البساطة ساذجة الى أقصى حدّ من السذاجة . تذهب وتأتي على وتيرة واحدة ونمط واحد . فليس للرجل في الباديـة من عمل سوى رعي الإبل والإشراف عليها . وهو عمل لا يستوجب مجهوداً ولا يتطلب بذل طاقة ، لذلك يعهد به الى الأحداث في الغالب ، أما الرجال ، فليس لهـم عمل مهم يذكر . لذلك يقضون معظم وقتهم جلوساً بغير عمل ، أو في التحدث بعضهم الى بعض . وحياة على هذا النحو تجبـل الانسان على الكسل والخمول . فصار الأعرابي خاملاً كسولاً على صحة جسمه وتوقد ذهنه وذكائه . يحسن الكلام ويجيد تنميق الحديث ويتلاعب في كلامه وفي ايجاد معانٍ وحيـل ومخارج له ، ويسترسل في الخيال وفي التصور وفي شعوره الذي سبكه وصاغه في كلام موزون منظوم مقفّى ، وفي كلام مسترسل غير مقفى ، وفي كل حرفة لسانية ، أو تعبير عن شعور ذاتي كالحب والبطولة وما شاكل ذلك مما لا يحتاج الى مجهود وعمل . أما النواحي العملية من الحياة ، النواحي التي تحتاج الى جهد وعمل ، فقد ترك أمرهـا لغيره ، بل ازدراها وازدرى شأن من يعمل بهـا ، واحتقر الحرف والصناعات ، لأنها من عمل الأعاجم والعبيد . ورأى ان من العار ان يصاهر أهل الصناعات والحرف والزراعة ، لأنهم دونه في المنزلة بكثير . وهو غير ملوم على نظرته هذه الى العمل اليدوي المجهد ، فالانسان عدوّ ما جهل معظّم لما يكون عنده ، كاره لما لا يملكـه ويكون عنـد غيره . فقد حرمته الطبيعة من كل

ما يحمله على بذل الجهد للاشتغال في صناعة او حرفة او زراعة ، ولم تهيّىء له البذور والمواد اللازمة لاقامتها ، لذلك جهلها فحاربها وازدراها وازدرى شأن من يشتغل بها . كما سأتحدث عن ذلك في المواضع المناسبة لهذا البحث .

والبادية ارضون واسعة شاسعة جرداء في اغلب ايام السنة ، خلا مواسم نزول الغيث وهي قليلة ، وقد تنحبس . اذا امطرت السماء ظهر (الربيع) ، فتفرح الارض وتكسى بخضرة تتخللها اوراد وأزهار وشقائق ، ويضحك عندئذ وجهها ، بعد يبوس وعبــوس ، ضحكاً يُفهم الانسان الحضري عندئذ سرّ تعلق الاعرابي ببادیته . ففي البادية على ما فيها من شقاء وجفاف ويبوسة ، سحر ينسي الانسان صعوبة الحياة ، وحلاوة تنسيه مرارة الايام القاسية التي يعيشها البدوي في باديته . بعيداً عن الحضر وعن المجتمع المتكثف في مستوطنة او قرية او مدينة ، بل بعيداً حتّى عن ابناء عشيرته . فمن طبيعة الصحراء ان قلبها لا يتقبل المجتمعات الكبيرة ، بل يفضل المجتمعات الصغيرة المتناثرة . فصارت البيوت فيها متباعدة منتشرة هنا وهناك انتشار النجوم في السماء . كل بيت مسؤول عن حماية نفسه وعن وقاية افراده من اذى الانسان والحيوان ، وعن حماية جاره وذوي رحمه وأبناء عشيرته . لأنه ان لم يفعل ذلك ، لم يجد من يدافع عنه ايام الشدة والعناء ، حتّى صار الجار عنده بمنزلة الأهل والدار .

وحياة من هذا النوع هي حياة لا بد وأن تصير بسيطة جداً ساذجة الى اقصى حدود السذاجة . احاديثها اليومية تكرار واعادة ، وأحاسيسها نسخة لأحاسيس اليوم الماضي والايام السابقة . وافق التفكير فيها محدود ضيق . اذ لا مجال فيها للفكر ان يتفتق وأن يتفتح ويتوسع . ومن هنا طبعت الحياة العقلية والاجتماعية بطابــع الفطرة والبساطة . وهي لا يمكن الا ان تكون كذلك . وكيف تريد منها ان تكون غير ذلك ، ومحيطها وظروفها هي على هذا النحو من الحدود والقيود !

وفي وسع الرجل بفضل ما أوتي من قوة ومن بسطة في الجسم ، قطع المسافات لزيارة الاقارب والجيران ، لقتل الوقت بالكلام معهم ، او للتحدث عن غزو سابق او عن شؤون سيد القبيلة او عن اشراف العشيرة او للخروج الى صيد لاصطياد ما قد يجده من حيوان مسكين ، حتّم عليه سوء طالعه ان يولد في هذه الارض الفقيرة ، فهو مثل الانسان تائه بهذه الحياة في هذه البادية الواسعة المكشوفة الشحيحة ، يشكو الى خالقه من ظلم طبيعةٍ أنبتته في هذه الارض الفقيرة ، على

حين زرعت غيره في غابات كثيفة ذات ظروف حياتية غنية ، فيها من المأكول أشكال وألوان. بينما هو لا يكاد يجد امامه شيئاً ، حتى اذا اشتد عوده واستوى ، وقع في قبضة اناس جائعين ، لا يقل جوعهم عن جوعه ، فلا يخرج من قبضتهم ابداً . يتلذذون في اكله شواءً ، ويتحدثون عن صيدهم ويفتخرون به . وقد يكون الصيد ظبياً او ضباً او يربوعـاً . ويفخرون بصيدهم لانهم محرومون من اللحم ، وكل ما تقع عليه عين المحروم من الأكل ، هو أكل لذيذ دسم في نظر المحروم .

اما الاطفال فهم اطفال اينما وجدوا . لا يعرفون من اسرار الحياة وعنـائها وشقائها شيئاً . همهم اللعب ، يلعب الذكور مع الاناث ، الأخوة مع الأخوات ، فهم اطفال البيوت . وقد يلعب معهم اطفال جيرانهم ، اذا كانت البيوت متقاربة . يلعبون العاباً هي من نتاج طبيعة ارضهم ومحيطهم . لا يعبأون بحرّ ولا برد ، ولا بريح او بأشعة شمس محرقة ، وما الذي يفعلونه تجاه طبيعة قوية قهارة لم تعطهم امكانيات بناء بيوت من مدر يأوون اليها لحماية انفسهم من اشعة الشمس لهم على الأقل . وانما مكنت آباءَهم من صنع بيوت من وبر او صوف او شعر معز قد تقيهم من الأشعة بعض الوقاية ، بأن تمنحهم شيئاً من ظل . ولكنها عاجزة عن حمايتهم من البرد ومن الحر ومن الغيث اذا نزل عليهم مدراراً . لا سيما اذا طال عهد هذه البيوت ولعب بها العمر ، وصارت مهلهلة بالية ، ذات جيوب وشقوق كالغرابيل ، تعبث بها الرياح ساخرة من جهل هذا الانسان القانع الراضي بحياته هذه على ما فيها من شظف وعسر وفقر ، بينما هناك مجال واسع له لتحسين حاله ، لو حرك نفسه واستخدم عقله وذراعه لتسخير الطبيعة في خدمته ، لتحسين وضعه والترفيه عن نفسه ولو الى حد .

الرجل :

والرجل بحكم تفوق بنيته على بنية المرأة ، وبفضل قوة عضلاته ومقاومته للطبيعة وللأخطار سيد الأسرة و (رب العائلة) و (بعل المرأة) ، اي سيدها . منح نفسه حقوقاً لم يعطها للنساء . وبنى مفاهيم العدل والحق على اساس ان العدل هو القوة ، فاغتصب حق المرأة والبنت والولد والرجل العاجز لقوته ولأنه مقاتل ، اما غيره

من المذكورين فعاجز عن القتال ، فحرمهم من الحقوق . ومنها حقوق الإرث : وأباح لنفسه حق الاستمتاع بملاذ الحياة ، وفي جملتها الاستمتاع بالنساء وبالخمور وببقية الأطايب . فله ان يتزوج ما يتمكن من النساء ، وجعل بيده حق الطلاق ، وجوّز لنفسه الاتصال بأية امرأة شاء وان كان متزوجاً ، وله ان يتسرى ما يشاء ، وله غير ذلك من امتيازات وحقوق ، بسبب قوته وتفوقه على الجنس الآخر وعلى المستضعفين من المخلوقات ، لأن الحق للمخلوق القوي ، ولا حق عند القوي لانسان ضعيف .

اللحية :

ومن الرجولة الشجاعة والاقدام وعدم المبالاة والمحافظة على مقوّمات الرجل وما منحته الطبيعة اياه من ملامح ميزته عن المرأة ، وأهمها : اللحى . فاللحية عند العرب رمز الرجولة وزينتها وسيماء تكريم الرجل وتقديره . واهانة اللحية عند العرب وعند الساميين هي من اعظم الاهانات التي لا تغتفر ، وتقبيلها عندهم من علامات التقدير والاحترام والاجلال . ويعد نتف اللحية او جزها او حلقها اهانة كبيرة تنزل بصاحبها . يفعلها من يريد الازدراء بشأن الملتحي ، ويعد عدم الاكتراث بتسوية اللحية من سيماء الحزن او الغيظ او المرض او الارتباك وتضعضع الحال . ونجد في التوراة ان في جملة الاهانات التي تلحق بالناس حلق انصاف لحاهم [١] . ويقسم باللحية ، ويعدّ القسم بها من الايمان المغلظة . يمسك بها الحالف بيده اليمنى فيحلف بحقها انه لا يكذب او انه سيفعل ، او ما شابه ذلك . ولكن العادة ان الحالف بها يكون بامساكها باليد ، واذا مدّ غريب يده على لحية رجل اكبر منه في المنزلة والدرجة وأقسم بها او استجار بها ، وجب على صاحبها الأخذ بنفسه والاهتمام بأمره ومساعدته . وقد يمسك غريب محتاج او مطارد بلحية سيد قبيلة او شريف قوم ، ويبين له انه في حماه ومنعتـه ، وعلى الرجل بذل الحماية والمنعة له .

والعربي يكرم لحيته ، ولا يحلقها ، وتكون لحيته مدببة في الغالب على نمط

١ صموئيل الثاني ، الاصحاح العاشر ، الآية ٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٩١) .

اللحى الفرنسية . ويصرف بعض الوقت لاصلاحها حتى لا تكون متناثرة بشعة ، وقد يعير الانسان بلحيته ، فيقال : له لحية تيس . وتنسب عادة اكرام اللحى الى سنن ابراهيم . وقد تكون اللحية كثة كبيرة منتظمة . ويقال للرجل ذي اللحية الطويلة : (اللحياني) و (رجل لحيان) [1] .

ويحلف العربي بشاربه ، فاذا اراد اعطاء عهد او جوار او اي عهد آخر واقسم بشاربه ، وجب عليه الوفاء بعهده . ومن عادة العرب تخفيف الشارب ، وقد تحف وتسب هذه العادة الى سنن ابراهيم ، ومن السنن الاخرى تقليم الاظافر وحلق العانة [2] . وذكر ان الرسول كان يقص شاربه وأنه قال : قصوا الشوارب وأرخوا اللحى وخالفوا المجوس . وورد انه قال : (خالفوا المشركين ووفرو اللحى وأحفوا الشوارب) [3] .

ويعدّ قص الشارب من (الفطرة) . وهي عشرة او خمسة امور [4] . يذكرون انها من سنن ابراهيم ومن اتبعه من العرب . وفي جملتها الختان .

ويذكر العلماء ان الله ابتلى (ابراهيم) بسنن الفطرة ، وهي التي ذُكرت في القرآن في قوله تعالى : (وإذِ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمَّهنّ) [5] ، وهي الكلمات العشر : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد . فأما التي في الرأس فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب والفرق والسواك . وأما التي في الجسد فالاستنجاء وتقليم الاظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان . فلمّا جاء الاسلام ، قرّرها سنة من السنن [6] .

والعرب من أصحاب الشعور السوداء . وهم مثل غيرهم يفاخرون بشعر

١ تاج العروس (١٠/٣٢٤) ، (لحى) .
٢ القسطلاني ، ارشاد الساري (٢/١٦١) .
٣ زاد المعاد (١/٤٥ وما بعدها) .
٤ زاد المعاد (١/٤٤ وما بعدها) .
٥ البقرة ، الآية ١٢٤ .
٦ بلوغ الأرب (٢/٢٨٧) .

رأسهم ، ويتركونه ينمو ولا يحلقونه على نحو ما كان يفعل اليهود والمصريون[1] . وكانوا يدهنونه ؛ ويمشطونه بالمشط ، ويتركونـــه يتدلى على المنكبين . وقـــد يضفرونه ضفائر . ومنهم من يضفره ضفيرتين يجعلها تتدليان على جانبي الوجـه . وذكر ان العرب تسمي الخصلة من الشعر أو الضفيرة قرناً . ولهذا عرف (المنذر ابن ماء السماء) جدّ (النعمان بن المنذر) بـ (ذي القرنين) لضفيرتين كانتا في قرني رأسه[2] . والعرب تكني عن العربيّ بالجعـــد وعن العجمي بالسبط[3] . والجعد من الشعر خلاف السبط ، أو هو القصير منه . وهـــم يعنون بذلك ان سبوطة الشعر هي الغالبـــة على شعور العجم من الروم والفرس ، وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب . وكانوا اذا قالوا رجلاً جعداً عنوا رجلاً كريماً ؛ كناية عن كونه عربيـــاً سخيـــاً ، لأن العرب موصوفون بالجعودة . وقد يقصدون بذلك رجلاً بخيلاً لئيماً ، فهو من الأضداد . وذكر ان العرب تقول : رجلاً جعداً ، اذا كان قصيراً متردد الخلق . وإذا قالت جعد السبوطة ، فإنها تريد بذلك المدح ، إلا ان يكون مفلفلاً كشعر الزنج والنوبة ، فهو حينئذ ذمّ[4] .

وكان الرسول يسدل شعره ، ثم فرقه . والفرق ان يجعل شعره فرقتين كل فرقة ذؤابة . والسدل ان يسدله من ورائه ولا يجعله فرقتين[5] . وذكر انـه كان يضفره غدائر ، والغدائر الضفائر . وكان إذا طال شعره جعله غدائر أربعـــاً . وكان يكثر دهن رأسه ولحيته ويكثر القناع كأن ثوبه ثوب زيّات . وكان يحب الترجّل ، وكان يرجل نفسه تارة وترجله عائشة تارة[6] . وترجيل الشعر تسريحه .

١ أشعياء ، الاصحاح السابع ، الآية ٢٠ ، حزقيال ، الاصحاح الخامس ، الآية الأولى، قاموس الكتاب المقدس (٦٨/١ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٣٠٧/٤) ، (قرن) .

٣ تاج العروس (١٤٩/٥) ، (سبط) .

٤ تاج العروس (٣٢٠/٢ وما بعدها) ، (جعد)

٥ زاد المعاد (٤٤/١) .

٦ زاد المعاد (٤٥/١) .

وقد تقوم به المرأة [١] . ويكون ذلك بالمشط . قال امرىء القيس :

كأن دماء الهاديات بنحره   عصارة حنّاء بشيب مرجّل [٢]

وللعرب عادات بالنسبة الى شعرهم . فهم إذا غضبوا وأرادوا الأخذ بالثأر ، لم يغسلوا شعورهم وتركوا تدهينها حتى يأخذوا بثأرهم . كالذي رووه من قصة امرىء القيس ، حينما جاءه خبر مقتل والده . وهم اذا أرادوا إذلال رجل واهانته كإذلال سيد قبيلة أو شريف قوم سقط أسيراً ، وأرادوا الإمعان في اذلاله جزّوا ناصيته وتركوه يذهب فذلك عندهم شرّ إذلال . والناصية مقدم الرأس [٣] .

ويستوي الرجل والمرأة في دهن شعر الرأس . ولا زال الأعراب يدهنون شعورهم على الطريقة القديمة . ويستعمل أغنياؤهم الدهون الجيدة المستوردة من الخارج . مثل (الزيت) المطيب بالعطور وبأنواع الطيب ، يدهنون به شعورهم ولحاهم في أيام الأفراح بصورة خاصة وفي الأعياد . وكان الرومان واليونان يدهنون الجسم كله بالزيت . ويعدّ دهن شعر الرأس من علامات الفرح والسرور ، وتركه من علامات الغم والحزن [٤] . وقد كان الصحابة يطلون شعر رأسهم ولحيتهم بالدهن ليزيلوا شعث رؤوسهم ولحاهم به [٥] .

ويضفر شعر الأولاد والبنات ضفائر ، تتدلى على جانبي الوجه ومؤخرة الرأس . وأما الرجال ، فكان منهم من يضفر شعر رأسه ضفيرتين يتركها تتدليان على جانبي وجهه ، ومنهم من يضفره جملة ضفائر ، قد تبلغ سبعاً . وعادة ضفر شعر الرأس سبع ضفائر عادة معروفة عند غير العرب أيضاً . وكان شعر (شمشون) المشهور مضفوراً في سبع خصل [٦] . ولا زال الأعراب يضفرون شعورهم . ويقال للضفيرة (الذؤابة) . والذؤابتان اللتان تسقطان على الصدر .

---

١ شرح النووي على صحيح مسلم ، المطبوع حاشيه على ارشاد الساري ، القسطلاني (٣٣٨/٢) ، (باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله) .

٢ تاج العروس (٣٣٧/٧) ، (رجل) .

٣ تاج العروس (٣٦٩/١٠) ، نصا .

٤ مزامير ٥،٢٣ ، متى ١٧،٦ ، صموئيل الثاني الاصحاح ١٤ ، الآية ٢ ، قاموس الكتاب المقدس (٥٢٢/١) .

٥ القسطلاني ، ارشاد الساري (١٦١/٢) .

٦ قاموس الكتاب المقدس (٦١٩/١) .

ويقال لها (غديرتان) . وكل عقيصة غديرة . قال امرؤ القيس :

غدائره مستشزرات الى العلى تضل العقاص في مثنى ومرسل [1]

ولما قدم (ضِمام بن ثعلبة) من (بني سعد) على الرسول ، كان رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين . فلما ولى قال رسول الله : إن صدق ذو العقيصتين [2] . ويقال لها (القرنين) كذلك . والعرب تسمي الخصلة من الشعر القرن . والقرن الذؤابة عامة . ومنه : الروم ذات القرون ، لطول ذوائبهم [3] .

وهم مثل غيرهم من الناس يعتبرون الشعر الأشيب أكليل مجد للشيخ ، والشعر الأبيض رمزاً للحكمة والجلالة [4] . وذلك بسبب ان تقدم العمر بالإنسان يكسبه خبرة وحكمة ، لما يراه في حياته من تجارب وعظات . لذلك أقاموا للسن وزناً كبيراً في أخذ الرأي وفي التقدم في الدخول وفي الجلوس في المجالس .

ولم يكن شيوخ الجاهلية وشيبها أقل عناية بمظهرهم ومرآهم من شيوخ هذا اليوم وشيبه ، فحاولوا ما قدروا إخفاء شيبهم واطماء لعب الزمان بشعرهم وبأوجههم بمختلف الوسائل والسبل ، ومنها إخفاء الشيب بصبغه وباستعمال الخضاب ، وبعضه أسود ، كما خضبوا بالعِظْلِم وبالحنّاء [5] . وصبغوا لحاهم . ولم يهملوا العيون ، فاكتحلوا لتظهر براقة مؤثرة . ولا تزال « الوسمة » ، وهي خضاب أسود معروف ، ويستعملها بعض الناس اليوم .

وذكر بعض علماء اللغة ان الخضاب ، اخفاء الشيب بالحنّاء ، واذا كان بغير الحناء قيل : صبغ شعره ، ولا يقال خضبه . وذكر آخر ان أول من خضب بالسواد من العرب (عبد المطلب) [6] . وقد تعلمه من أهل اليمن . إذْ كان قد زارهم فوجد شيّبهم يخضبون شعورهم بالسواد ، فأعطوه خضاباً ، فجاء الى مكة ، وعنه شاع الخضاب بين أهلها .

---

١ تاج العروس (٣/٤٤١) ، (عذر) .
٢ الطبري ٣/١٢٤ وما بعدها) ، (قدوم ضمام بن ثعلبه وافدا عن بني سعد) .
٣ تاج العروس (٩/٣٠٧) ، (قرن) .
٤ دانيال ، الاصحاح السابع ، الآية ٩ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٦١٩) .
٥ المعرب (ص ١٦) ، تاج العروس (١/٢٣٦) ، (خضب) .
٦ تاج العروس (٢/٣٦٦) ، (الكويت) ، (خضب) .

وقد استعملوا الزعفران في صبغ لحاهم وشعورهم . واستعملوا لون الزعفران في صبغ ثيابهم أيضاً . وذلك لغلاء ثمن (الزعفران) الطبيعي . كما استعمل (العصفر) في الصبغ ، وهو من نبات ينبت في جزيرة العرب ، اذا صبغ الثوب به قيل : عصفر الثوب به [1] . كما استعملوا (الكتّم) في تخضيب الشعر . وهو نبت يخلط بالحنّاء ويخضب بالشعر فيبقى لونه . وقد أشار اليه (أميّة بن ابي الصلت) بقوله :

وسوّدت شمسهم اذا طلعت بالجلب هفـاً كأنه كتم

والمكتومة : دهن من أدهان العرب أحمر . يجعل فيه الزعفران أو الكتّم . وطبخوا الكتّم بالماء واستخرجوا منه مداداً للكتابة [2] .

ويكون الخضاب بالحنّاء ، كما يكون بالحناء والكتّم كما ذكرت ، وقد يكون بالحناء والوسمة . وتجعل الوسمة الشعر أسود فاحماً . وكل هذه من النباتات التي تنبت في الحجاز وفي اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد استعملوا (السواد) ويكون بالوسمة في الغالب لتسويد شعر الجارية والمرأة الكبيرة والشيخ للغش والتدليس ، حتى اذا جاء سيّد لشراء جارية ظن أن شعرها على هـذه الصورة من السواد ، أو جاء رجل يطلب المرأة الكبيرة ظن أنها أصغر من عمرها ، أو عرض الرجل الشيخ نفسه للزواج ، ظهر أصغر من عمره . ونظراً الى ما في هذا العمل من غش نهي عنه في الاسلام [3] .

وخوفاً من أن يقملوا لبّدوا شعر رؤوسهم بالخطمي والصمغ . وقد عرف من يفعل ذلك بـ (الملبد) . وقيل : ان « الملبد » المحرم ، الذي لبد شعره حتى لا يقمل ، اذا دخله الغبار بعد العرق [4] . وقد كان القمل قد عشش في آباط كثير من الناس ، لا سيما الفقراء والاعراب منهم . وفي شعر رؤوسهم وفي المواضع المشعرة من أجسامهم ، نظراً لسوء وضعهم من الناحية الاقتصادية وفقرهم : وعدم تمكنهم من غسل أجسامهم . وقد أشير الى القمل والتلبيد في الشعر . ذكر أن القمل

١ تاج العروس (٣/٤٠٨) ، (عصفر) .
٢ تاج العروس (٩/٣٩) ، (كتم) ، (٩/٩٣) ، (وسم) ، العقد الفريد (٣/٤٩) .
٣ ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد (٣/١٨٣ وما بعدها) .
٤ المعاني الكبير (١/٤٢٦) ، تاج العروس ٢/٤٩١) ، (لبد) .

كان يتهافت من رأس (كعب بن عجوة بن عديّ) على وجهه ، وكان محرماً ، فرآه الرسول ، فأمره أن يحلق رأسه وأن يطعم فرقاً بين ستة مساكين [1] .

وذكر أن التلبيد ، أن يأخذ شيئاً من خطمى وآسٍ وسدر ، وشيئاً من صمغ ، فيجعله في أصول شعره وعلى رأسه ، كي يتلبد شعره ولا يعرق ويدخله الغبار ، فيخمّ ويقمل [2] .

وتطيّب الرجال بالطيب ، ودهنوا شعورهم بالدهن المطيب . وكانوا يتطيبون اذا ذهبوا الى زيارة بيت ، وفي المجتمعات العامة كالمواسم والأفراح . وللرجال طيب يختلف عن طيب النساء .

وقد يرقن الرجل كما ترقن المرأة بالحناء وبالزعفران . يقال : أرقن الرجل لحيته ورقنها ، أي خضبها بالحناء وبالزعفران . قال الشاعر :

ومسمعة اذا ما شئت غنت مضمخة الترائب بالرقان [3]

والرقان والرقون الحناء والزعفران .

ويكثر العرب من حمل (العصا) معهم . اذ هي ضرورة بالنسبة لحياتهم . يستعينون بها في طرد الكلاب عنهم ، ورد الحيوانات المتوحشة التي قد تصادفهم ، كما يستعملونها في ضرب إبلهم حتى تطيع أوامرهم . حتى أنهم جعلوا العصا رمزاً لأمور عديدة . منها الطاعة والجماعة . ومنها (شق العصا) بمعنى مخالفة الجماعة . والعصا الجماعة . ومنها (القى المسافر عصاه) ، أي بلغ موضعه وأقام . وضرب مثلاً لكلٍّ من وافقه شيء فأقام عليه . ومنها (هو لين العصا) ، أي رقيق لين حسن السياسة ، و (هو ضعيف العصا) ، أي قليل ضرب الإبل . و (إن العصا من العصية) ، يقال ذلك اذا شُبه بأبيه ، أي : إن بعض الأمر من بعض [4] .

كما حملوا القضب ، وهي من علائم السلطة والقوة والحكم والنفوذ عندهم . وقد ورد في خبر ارسال رسول الله (عباس بن أبي ربيعة المخزومي) الى

١ الحيوان (٥/٣٧٧) ، (هارون) .
٢ المصدر نفسه .
٣ تاج العروس (٩/٢١٨) ، (رقن) .
٤ تاج العروس (١٠/٢٤٤ وما بعدها) ، (عصا) .

(الحارث) و (مسروح) و (نعيم) بني عبد كلال من حمير ، انهم كانوا يحملون قضباً معهم . وهي من الأثل : قضيب ملمّع ببياض وصفرة وقضيب ذو عُجَر وكأنه خيزران ، وقضيب أسود بهيم كأنه من ساسم [1] . وكان أحدهم اذا جلس وفكر في أمره ، أو أراد الاجابة على سؤال يحتاج الى عمل روية نكت الارض بالقضيب الذي يحمله بيده .

المرأة :

والمرأة في المحيط البدوي أنشط وأكثر عملاً من الرجل ؛ فعليها تهيأة الطعام وحلب النياق وغسل الملابس وغزل الصوف والوبر ، والعناية بالأطفال وتحضير مادة الوقود ، الى غير ذلك من أعمال لا يقوم بها الرجل ، لأنها من عمل المرأة ، ولا يليق بالرجل القيام بها .

ولم نقرأ في كتب اهل الاخبار ما يفيد سيادة النساء على القبائل ، في الجاهلية القريبة من الاسلام . ولم نقرأ في المسند ما يفيد بوجود ملكات حكمن اليمن . بينما قرأنا في الكتابات الآشورية وجود ملكات عربيات حكمن قبائل عربية ، كانت تنزل البوادي من بادية الشام . ووقفنا أيضاً على حكم الملكة (الزباء) لتدمر وذلك بعد الميلاد . ولكننا نقرأ في أخبار أهل الاخبار أخبار كاهنات ، كانت لهن مراكز خطيرة عند القبائل . وكذلك أخبار حاكمات حكمن فيما بين الناس في الخصومات . وقد كان منهن من يقرأ ويكتب كما سنرى فيما بعد .

وللمرأة الشريفة ذات السؤدد حظ في المجتمع لا يدانيه حظ المرأة الحرة الفقيرة . فسؤددها حماية لها ودرع يصونها من الغض من منزلتها ومكانتها . وأسرتها قوة لها ، تمنع زوجها من اذلالها أو الحاق أي أذى بها ، وهي نفسها فخورة على غيرها لأنها من الأسر الكريمة . والعادة بالطبع أن الأسر الكريمة لا تزوج بناتها الا من أسر كريمة موازية لها في المنزلة والشرف . من ذلك قولهم : (استنكح العقائل ، اذا نكح النجيبات) [2] .

حال المرأة في الجاهلية :

وقد اختلف حال المرأة في الجاهلية عن حالها في الاسلام ، بسبب تغير الأحوال

١ ابن سعد (٢٨٢/١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٤١/٩) ، (كرم) .

وتبدل الظروف . (فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ولا لحظة الخلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، ويزدوجوا في المناسمة والمثافنة ، ويسمى المولع بذلك من الرجال الزير ، المشتق من الزيارة . وكل ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ما ليس بمنكر اذا أمنوا المكر)[1] . (فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء ، في الجاهلية والاسلام ، حتى ضرب الحجاب على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة)[2] . (ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عاراً في الجاهلية ، ولا حراماً في الاسلام)[3] .

وما نراه اليوم من اعتكاف النساء في بيوتهن ومن عدم اختلاطهن بالرجال ومن التشدد في الحجاب وأمثال ذلك ، هو بين أهل الحضر خاصة . وقد كان هذا التحفظ معروفاً نوعاً ما عند أهل الحواضر والقرى في الجاهلية ، الا أن الترمت والتشدد في وجوب ابتعاد الرجل عن المرأة وانفصالها بعضها عن بعض انما نشأ في الاسلام ، بسبب تغير الظروف واختلاط العرب بالأعاجم ، وظهور حالات جعلت العوائل الكبيرة تحرص على حصر المرأة في بيتها . أما في البادية فإن المرأة لا تزال تشارك الرجل في أعماله وتجالسه وتكلمه ولو كان غريباً عنها ، لأن محيط البادية محيط بعيد عن مواطن الريبة والشبهات ، وينشأ البنات والأولاد فيه سوية ، ويلعبون سوية ويشبون سوية ، ولذلك لم تنشأ عندهم القيود والحدود التي تفصل بين المرأة والرجل . وقد كان حال المرأة الأعرابية على هذه الحال في الجاهلية .

وقد عرفت المرأة بالكيد بين الجاهليين . ونظروا اليها نظرتهم الى الشيطان . وليست هذه النظرة العربية الى المرأة هي نظرة خاصة بالجاهليين ، بل هي نظرة عامة نجدها عند غيرهم أيضاً . بل هي وجهة نظر الرجل بالنسبة للمرأة في كل العالم في ذلك الوقت . وهي نظرة نجدها عند الحضر بدرجة خاصة ، لما لمحيط الحضر من خصائص التجمع والتكتل ، والتصاق البيوت بعضها ببعض ، ولما لهم من حياة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وقد تجبر المرأة على دس أنفها ، والاتصال بالغرباء ، فنشأ من ثم هذا الرأي بين أهل الحضر أكثر من الاعراب .

---

١ كتاب القيان ، من رسائل الجاحظ (١٤٨/٢) ، (تحقيق عبد السلام هارون)
٢ كتاب القيان (١٤٩/٢) .
٣ كتاب القيان (١٤٩/٢) .

وعرفت المرأة عندهم بالمكر والخديعة . إذ كان في وسعها استدراج الرجل والمكر به . وهم يتمثلون بمكر (الزبّاء) . واستدراجهـا (جذيمة الأبرش) اليها ، ثم فتكها به . على نحو ما ورد من قصص عنها في كتب أهل الأخبار . غير انهم يروون في الوقت نفسه قصة (قصير) معها ، وكيف تمكن من الأخذ بثأره منها ، في حيلة ومكر ومكيدة ، حتى فتك بها في قصة من قصص المكر والخديعة ، ضرب بها المثل [1] . وعُدّت المرأة كالحيّة في المكر .

ونظر الرجل الى رأي المرأة على ان فيه وهناً وضعفاً وانه دون رأيه بكثير ، وتصور ان مقاييس الحكم عندها ، دون مقاييسه في الدقة والضبط ، ولهذا رأى العرب ان من الحمق الأخذ برأي المرأة . فكانوا اذا أرادوا ضرب المثل بضعف رأي وخطله قالوا عنـه : (رأي النساء) [2] و (رأي نساء) وقـالوا : شاوروهن وخالفوهن ، لما عرف عن المرأة من تأثر بأحكام العاطفة عندها . حتى ذهب البعض الى عدم وجود رأي للمرأة ، ولهذا قالوا : يقال للرجل (الفند) إذا خرف وخف عقله لهرم أو مرض ، وقد يستعمل في غـير الكبر وأصله في الكبر . ولا يقال (عجوز مفندة ، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي أبـداً فتفند في كبرها . وفي الكشاف : ولذا لم يقل للمرأة مفندة لأنها لا رأي لهـا حتى يضعف . قال شيخنا : ولا وجه لقول السمين انه غريب ، فإنه منقول عن أهل اللغة . ثم قال : ولعلّ وجهه أنّ لها عقلاً وإن كان ناقصـاً يشتد نقصه بكبر السن) [3] .

ويكني العرب عن المرأة بـ (الدُّمية) . والدمية الصنم . وقيل : الصورة المنقشة : العاج ونحوه . وقيل هي الصورة . وقول الشاعر :

والبيض يرفلن في الدُمى والريـط والمذهب المصون

يعني ثياباً فيها تصاوير [4] .

ويقال للمرأة البذيئة القليلة الحياء (العنفص) . وقال بعض علماء اللغة انها

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣١١) ، الميداني (٢/٢٧٢) ، تاج العروس (١/٢٣٧) ، (خطب) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٦) .
٣ تاج العروس (٢/٤٥٤) ، (فند) .
٤ اللسان (١٤/٢٧١) ، (دمي) .

المرأة القليلة الجسم الكثيرة الحركة . أو الداعرة الخبيثة. وقيل هي القصيرة المختالة المعجبــة . أو المرأة الكثيرة الكلام ، وهي المنتنة الريــح[1] . وقد ذمت المرأة (النمامة) ، والبذيئة التي تشتم الناس وتنطق بالبذاء. والسليطة اللسان التي تتطاول على الناس ، ولا تبالي أحداً . وقد كان بعض الناس يحرضون أمثال هؤلاء النسوة لاهانة كرام الناس والتحرش بهم ، لما يعرفونه من ان في طبع الرجل الكريم عدم الردّ على المرأة رداً قبيحاً والتعرض لها بسوء .

وتشائموا من بعض النسوة. وقالوا : (مرأة مشؤومة) ، و (عقرى حلقى) ، أي عقرها الله وحلقها ، بمعنى حلق شعرها أو أصابها بوجع في حلقها ، أو أنها تعقر قومها وتحلقهم بشؤمها وتستأصلهم[2] . وقد كانوا يطلقونها إذا تشاءم الزوج أو أهله منها ، لاعتقادهم الشديد بالشؤم . وتشاءموا من الفرس الأشقر ومن عتبة الباب ، ومن أشياء أخرى سأتحدث عنها في موضوع التفاؤل والتشاؤم عند العرب .

وجمال المرأة في حــلاوة العينين ، وفي جمال الأنف ، والملاحة في الفــم . قال الشاعر :

خزاعيّة الأطراف مريّة الحشا فزارية العينين طائيّــة الفم[3]

المرأة القبيحة :

وذكر بعض علماء اللغة ان العرب تصف بـ (السعلاة) العجائز والخيــل . وقيل السعالى : النساء الصخابات البذيئات ، والمرأة القبيحة الوجه السيئة الخلق . ومن ذلك قول الأعشى :

ونساء كأنهن السعالى[4] .

والعرب تكني عن المرأة بالعتبة والنعل والقارورة والبيت والدمية والغل والقيد والريحانة والقوصرة والشاة والنعجة[5] .

١ تاج العروس (٤/ ٤١٠) ، (العنفص)
٢ تاج العروس (٣/ ٤١٥) ، (عقر) .
٣ الدينوري ، عيون الأخبار (٤/ ٢٧) ، (كتاب النساء) .
٤ تاج العروس (٧/ ٣٧٦) ، (سعل) .
٥ تاج العروس (١/ ٣٦٤) ، (عتب) .

وما قلته يمثل الفكرة العامة عن المرأة بين سواد الناس . غير ان هناك نسوة اشتهرن بالعقل والحكمة عند الجاهليين . وكنّ مرجعاً للرجال في أخـذ الرأي . حتّى إن منهن من تولين أمر الحكومات ، وقد سبق ان ذكرت فيما مضى ان قبائل بادية الشام كانت تحت حكم ملكات في أيام الآشوريين . ومنهن الملكات (شمس) و (زبيبة) . كما أشرت الى الملكة (الزبّاء) . فلم يجد العرب قبل الميـلاد ولا بعده غضاضة من تعيين النساء ملكات عليهم . وقد كن يصاحبن الرجال الى القتال لإثارة هممهم عند اشتداد المعارك ولمداواة الجرحى ، وحمل الماء الى العطشى من المقاتلين . وقد كانت (رفيدة) تداوي جرحى المسلمين في مسجد الرسول بيثرب[1] . وكانت (زينب) طبيبة (بني أود) تعالـج المرضى وحازت على شهرة بين العرب[2] .

حتّى الشعر ، برزت به شاعرات . مثل الخنساء ، وخرنق ، وجليلة ، وكبشة أخت عمرو بن معديكرب ، وغيرهن . ومنهن من حكمن بين الشعراء المتنافسين في تفضيل شعر شاعر على شعر شاعر آخر . وكان من بينهن كاتبات ومتاجرات الى غير ذلك من حقول الأعمال التي تحتاج الى عقل وذكاء .

زينـة المرأة :

والمرأة الحضرية أكثر تفنناً واعتناءً بنفسها من الأعرابيـة ، بسبب اختلاف المحيط والوضع الاقتصادي . ولها من أمور الزينة ما لا تعرفه الأعرابيات ، من وسائل تجميل وتحلية جسم وملبس . ولا سيما النساء الغنيات القريبات من مواطن الأعاجم . فقد تأثرن بالأعجميات وأخذن منهن ما راق لهن من ملبس وزينـة وطيب وحلية .

والعـادة ان المرأة تضفر شعر رأسهـا ضفائر وغدائر ، أمـا الرجـال فيتخذون لهم ضفيرتين ، تتدليان على طرفي الوجه الى المنكبين[3] . ويقال للضفيرة :

١ نهاية الأرب (١٧/١٩١) .
٢ جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/٤٠) ، (١٩٥٧ م) .
٣ تاج العروس (٣/٣٥٢) ، (ضفر) .

العقيصة . وذكر ن (العقيصة) الذؤابة . وذكر بعض علماء اللغة ان كل عقيصة غديرة . والغديرتان الذؤابتان تسقطان على الصدر . وقيل الغدائر للنساء ، وهي المضفورة . والضفائر الرجال [1] . وقيل العقص الفتل ، أي فتل الشعر ، وهو ان يلوى الشعر حتى يبقى ليّه ثم يرسل . وذكر بعض علماء اللغة ان العقص ان تأخذ المرأة كل خصلة من شعر فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها ، فكل خصلة عقيصة . وقد عرف (ضِمام بن ثعلبة) أحد بني سعد بن بكر بـ (ذي العقيصتين) ، وكان أشعر ذا غديرتين . وكان خصل شعره عقيصتين وارخاهما من جانبيه . وهو من الصحابة [2] .

ويعدّ شعر المرأة من أثمن الأشياء عندها لذلك تستعز به وتحافظ عليه ، وتسعى لاثارته وتنشيطه ، وهي لا تحلقه إلا إذا نزلت بها نازلة ، مثل موت زوجها أو عزيز آخر عليها ، ويعدّ ذلك غاية في التضحية وفي اظهار حزنها على رجلها الراحل العزيز [3] . فاذا مات عزيز حلقت المرأة شعرها وذرّت التراب أو الرماد على رأسها ، اظهاراً لشدة ألمها وحزنها على ميتها . ويقال لها (الحالقة) . وقد لعن الرسول من النساء الحالقة والصالقة والخارقة . والحالقة التي تحلق شعرها في المصيبة [4] . وقد ضرب بها المثل في الشؤم . لأن من عادة الناس في الجاهلية انهم إذا أصيبوا بمصيبة حلقت النساء شعورهن . والى ذلك أشير في شعر الخنساء :

ولكني رأيت الصبر خيراً   من النعلين والرأس الحليق

وأصل ذلك ان المرأة كانت إذا أصيب لها كريم حلقت رأسها وأخذت نعلين تضرب بهما رأسها وتعفره . وفي هذا المعنى جاء في الشعر :

ألا قومي أولو عقرى وحلقى   لما لاقت سلامان بن غنم

ولهذا السبب اعتبرت الحالقة علامة من علامات الشؤم ونذيراً من نذر الفرقة

١ قال امرؤ القيس :
غدائره مستشزرات الى العلى   تضل العقاص في مثنى ومرسل
تاج العروس (٣/٤٤١) ، (غدر) .
٢ تاج العروس (٤/٤٠٨) ، (عقص) .
٣ Hastings, A Dictionary of the Bible, II, p. 283
٤ تاج العروس (٦/٣٢٠) ، (حلق) .

يضرب بها المثل . وفي الحديث : (دبّ اليكم داء الأمم : البغضاء والحالقة) . (هي قطيعة الرحم والتظالم والقول السيء) [1] .

ويسرح الشعر بـ (المشط) . وقد عرفه الجاهليون ، وهو من آلات التجميل القديمة . . وقد أشير اليــه في الحديث . كما أشير اليــه في الشعر . ورد قول عبد الرحمن بن حسان :

قد كنت أغنى ذي غنى عنكُم كما أغنى الرجالِ عن المِشاطِ الأقرع [2]

وتمشط شعر العرائس (الماشطة) ، فتقوم بترجيله وتجميله لخبرتهــا فيه [3] . ويكون المشط من خشب في الغالب ، وقد يعمل من ذهب أو فضة أو من معدن آخر ، وقد يتخذ من (العاج) .

وتغسل المرأة رأسهــا بطينٍ وأشنان وخطمي ونحوه لتنظيفه . وقــد تغتسل بالطيب ، وذلك بالنسبة للغنيات . وإذا انتهت من غسله استعملت (الغسلة) [4] ، وهو ما تجعله المرأة في شعرها عند الامتشاط من طيب وورق الآس يطرّى بأفاويه من الطيب ويمتشط به [5] . والطين أنواع ، يختلف باختلاف طبقات الأرض . واجوده الحرّ النقي الخالص بعد رسوب الماء ، ويستعمل في تنظيف الشعر .

وقد كانت القبائــل إذا أرادت الصبر في القتال ، والوقوف في الحرب الى النهاية وحتّى النصر ، حلقت نساؤها شعورهن ، لبث الشجاعة في نفوس المقاتلين وإذكاء نار الشجاعة فيهم . وذكر ان (يوم تحلاق اللِّمم) ، إنما سمّي بذلك ، لأن شعارهم كان الحلق . وكان لتغلب على بكر بن وائل [6] .

وتجملت المرأة الجاهلية وتزينت على قدر حالها وامكانها ، لتظهر بذلك جمالها وأنوثتها على سنة الطبيعة ، وعلى عادة المرأة بل والانسان : رجلاً كان أو امرأة

---

١ تاج العروس (٦/٣٢٠) ، (حلو) .

٢ قد كنت أحسبني غنيا عنكم   ان الغني عن المشط الأقرع
تاج العروس (٥/٢٢٣) ، (مشط) . اللسان (٧/٤٠٣) .

٣ تاج العروس (٥/٢٢٤) ، (مشط)

٤ بالكسر

٥ تاج العروس (٨/٤٥) ، (غسل)

٦ تاج العروس (٦/٣٢٠) ، (حلو) .

في كل وقت وزمان ، من حبّه في إظهار الزينة وحسن المظهر . جمّلت نفسها بالاعتناء بالنظافة وبالثياب وبالحلية ، كالخلخال والسوارين والخاتم والقُلْبين والقلب والفتخة والمسكة والقرطين والقلائد الأخرى ، وبالتجميل بالكحل وبالمساحيق التي توضع على الوجه والدهن الذي يدهن به الشعر وخضاب الكف والقدم ، وبالوشم وما شاكل ذلك من أمور تجميل وتحلية كانت معروفة في ذلك العهد .

ومن وسائل الزينة : الوشم . غرز إبرة ونحوها في عضو حتى يسيل الدم ثم يحشى بنؤور أو بالكحل أو بالنيلج أو نحوها فيزرق أثره أو يخضر [1] . وكانوا يقصدون بذلك التزين فينقشون به غالب أبدانهم ، أنواعاً من النقوش من صور حيوانات أو نبات أو صور انسان وكذلك الشفاه ، فترى غالب شفاه نسائهم زرقاً . والأطفال منهم يوشمون في بعض المحال من وجوههم لقصد الزينة . وكذلك الرجال . وذكر ان الرسول قد نهى عن ذلك في حديث : لعن الله الواشمة . أو لعن الله الواشمة والمستوشمة [2] .

وكانوا يعتنون بتجميل حواجبهم وازالة الشعر من وجوههم بـ (النماص) وهو (المنقاش) . وعرفت مزينة النساء بـ (النامصة) . وهي مزينة بالنمص . وذكر ان النمص نتف الشعر . وان المشط ينمص الشعر وكذلك المحسّة لأن لها أسناناً كأسنان المشط . ويقال ان النماص مختص بازالة الشعر من الحاجبين ليرققها أو ليسوّيها . وفي الحديث : لعنت النامصة والمتنمصة [3] .

وعنوا بالأسنان فاستعملوا المبرد لبرد ما بين الثنايا والرباعيات ، لتجميلها . وقد لعنت المتفلّجات في الحديث . والمتفلجات جمع متفلجة التي تفلج بين الأسنان [4] . وعنوا بتبيض الأسنان باستخدام (المسواك) ، وهو ما يدلك به الفم . ويكون من عيدان بعض الأشجار ذات الرائحة الطيبة . وقد أشير اليه في الحديث [5] .

١ تاج العروس (٩/٩٤) ، (وشم) .
٢ تاج العروس (٩/٩٤) ، (وشم) ، بلوغ الأرب (٣/١٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤/٤٤٣) ، (نمص) ، بلوغ الأرب (٣/١١) .
٤ بلوغ الأرب (٣/١١) .
٥ تاج العروس (٧/١٤٦) ، (سوك) .

ويقص الشعر والظفر بالمقص ، أي المقراض وهما مقصان [1] . يقص به الرجل شعره ، كما تقص بـه المرأة . وتتخذ المرأة (القُصة) في مقدم رأسها تقص ناصيتها ما عدا جبينها [2] .

وذكر ان من نساء الجاهلية من كنّ يقمحن لثّتهن بـ (النوور) ، حصاة كالإثمد تدق فتسفهـا اللثة . وكن يتّسمن بـ (النؤر) . وهو دخان الشحم أو دخان الفتيلة ، يتخذ كحلاً أو وشماً ، وخصصه بعضهم بالوشم [3] .

ولم تنسَ المرأة الجاهلية زينتها ، فزينت نفسها بـ (الحليّ) من ذهب وفضة ومعادن أخرى ومن أحجار كريمة وأحجار تلفت النظر وبالعظام أيضاً وبالخرز . ومن الحـليّ (الأساور) المصنوعة من الذهب ، بالنسبة الى المرأة الموسرة ، والحليّ المطعمة باللؤلؤ . ومن الحليّ ، ما يزين به الرأس والعنق ، ومنه ما يزين به الأيدي أو الأرجل [4] . وسأتحدث عنهـا في القسم الخاص بالحرف . بشيء من التفصيل .

و (الكرم) : القلادة . وقيـل هي القلادة من الذهب والفضة ، وقيـل تكون من لؤلؤ أيضاً [5] .

ويضفر شعر رأس الأطفـال ذوائب ، أي ضفائر تتدلى على رأسـه وعلى ناصيته . ومتى كبر الطفل وبلغ سنّ الرشـد ، أو شعر برجولته ، ضفرت له ذؤابتان ، وهي علامة الشباب والرجولة عندهم . وقـد كان الساميّون يحتفلون بحلق الذوائب ، لأن هذا الحلق معناه إنتهاء مرحلة من الحياة ودخول الطفل مرحلة الرجولة ، وهي مرحلة الحياة الصحيحة . وكانوا يرمون الذوائب أمام الأصنام . والعادة انهم يضفرون للأطفال سبع ضفائر . وهي عادة معروفة عنـد الجاهليين أيضاً ، ولا تزال متبعة عند الأعراب وأشباه الحضر . وقـد يعلقون حليّـاً على

١ تاج العروس (٤٢٢/٤) ، (قصص)
٢ تاج العروس (٤٢٣/٤) ، (قصص) .
٣ تاج العروس (٥٨٩/٣) ، (نور) .
٥ تاج العروس (٩٧/١٠) ، (حلى) .
تاج العروس (٤٢/٩) ، (كرم) .

كل ضفيرة ، وذلك إمعاناً منهم في تدليل الطفل وفي إراءة جماله . فالزينة وتعليق الحلي من مظاهر التدليل والتجميل .

نساء شهيرات :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نساء ذكروا أنهن عشن في الجاهلية . منهن : صحر بنت لقمان بن عاد . وكان أبوها لقمان وأخوها لقيم خرجا مغيرين ، فأصابا إبلاً كثيرة فسبق لقيم الى منزله ، وعمدت صحر الى بعض ما جاء بـه لقيم ، فصنعت منه طعاماً يكون معداً لأبيها لقمان إذا قدم ، وقد كان لقمان حسد لقيماً في تبريزه عليه ، فلما قدمت صحر اليه الطعام وعلم انه من غنيمة لقيم ، لطمها لطمة قضت عليهـا ، فصارت عقوبتها مثـلاً لكل من لا ذنب له ويعاقب[1] (فقيل : مالي دنب إلا ذنب صحر) ، ولم يكن لها ذنب[2] .

وقد حصلت (الزبّاء) على شهرة بين العرب ، ووضعوا حولها القصص . دكروا انها امرأه من العماليق ، وأمها من الروم . وكانت تغزو بالجيوش ، وهي التي غزت مارداً والأبلق فاستعصيا عليها ، فقالت : تمرد مارد وعز الأبلق ، فذهبت مثلاً . ويروي أهل الأخبـار لها أمثلة أخرى[3] . ورموهـا بالغدر ، فقالوا : (قال عديّ بن زيد يذكر قصة جذيمة الأبرش لخطبة الزبّاء :

لخطبي التي غدرت وخانت وهنّ ذوات غائلة لحينا

أي لخطبـة زباء . وهي امرأة غدرت بجذيمة الأبرش حين خطبهـا فأجابته وخاست بالعهد فقتلته[4] .

واشتهرت (البسوس) بالبؤس والشؤم حتى قالوا (شؤم البسوس) . وهي بنت منقذ التميمية ، زارت أختها أم جسّاس بن مُرّة ومع البسوس جار لهـا من جَرْم ، يقال له سعد بن شمس ، ومعه ناقة له ، فرماها كليب وائل لما رآها

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٧) .
٢ تاج العروس (٣٢٧/٣) ، (صحر) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣١١) .
٤ تاج العروس (٢٣٧/١) ، (حطب)

في مرعى قد حماه ، فأقبلت الناقة الى صاحبها وهي ترغو وضرعهـا يشخب لبناً ودماً ، فلما رأى ما بها انطلق الى البسوس فأخبرها بالقصة ، فقالت : واذلاّه ! واغربتاه ! وأنشأت تقول أبياتاً تُسمّيها العرب أبيات الفناء . فسمعها ابن اختها جسّاس فثار الدمُ في رأسه ، وخرج معقباً كليباً حتى وجده فطعنه طعنة قضت عليه . ووقعت الحرب بين بكر وتغلب ودامت أربعون سنة . وسار شؤم البسوس مثلاً ، ونسبت الحرب اليها لكونها سببها ، فقيل : حرب البسوس [1] . وهكذا فسر أهل الأخبار سبب وقوع حرب البسوس .

وقصّ أهل الأخبار قصة امرأة أخرى ، قالوا إن رغيف خبز لها صار سبباً في وقوع شرٍّ بين حيّين ، وأدى الى وقوع قتلى . حتى قيل : أشأم من رغيف الحولاء . والحولاء خبّازة في (بني سعد بن زيد مناة) ، فمرّت وعلى رأسها كارة خبز ، فتناول رجل عن رأسها رغيفاً ، فاشتكت الى رجل كان جاراً لها . فثار وثار معه قومه الى الرجل الذي أخذ الرغيف وقومه فقتل بينهم ألف نفس ، وسار رغيف الحولاء مثلاً في الشيء اليسير يجلب الخطب الكبير [2] .

وذكر أهل الأخبار اسم امرأة أخرى اشتهرت بعطرها ، حتى ضرب بـه المثل ، فقيل : (عطر منشم) . ولهم أقوال في سبب ضرب هـذا المثل . وخلاصتها ان (منشم) امرأة عطارة تبيع الطيب ، فكانوا إذا قصدوا حرباً غمسوا أيديهم في طيبها ، وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب ولا يولوا أو يقتلوا ، فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول الناس : قد دقّوا بينهم عطر منشم ، فلما كثر هذا القول صار مثلاً . فمن تمثل به زهير حيث قال :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم [3]

واختار أهل الأخبار من بين النساء امرأة جعلوها مثالاً للحمق ، حتى قالوا : (حمق دغه) . وهي دغة بنت منعج . روي لها حماقات كثيرة . وجعلوها مثلاً

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٧ وما بعدها) ، الميداني ، الأمثال (١/٣٧٢) .
٢ الثعالبي ، ثمار (٣١٠) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٨ وما بعدها) ، ديوان زهير (١٥) ، ابن قتيبة ، المعارف (٦١٣) .

سائراً بين الناس في الحمق [1] .

وضرب المثل بـ (أم خارجة) في السرعة ، فقال أسرع من نكاح أم خارجة . وهي (عمرة بنت سعد بن عبد الله بن بجيلة) . كان يأتيها الخاطب فيقول : خطب ، فتقول : نكح . ولدت أم خارجة في نيف وعشرين حيّاً من آباء متفرقين ، وكانت إذا تزوج منها الرجل فأصبحت عنده كان أمرها اليها ، إن شاءت أقامت ، وإن شاءت ذهبت ، وكانت علامة ارتضائها للزوج ان تصنع له طعاماً كلما تصبح [2] .

وضربوا المثل بـ (عز أم قرفة) ، فمن أمثالهم إذا أرادوا العزّ والمنعة قالوا : انه لأمنع من أم قرفة . وهي بنت (مالك بن حذيفة بن بدر) : وكان يحرس بيتها خمسون سيفاً بخمسين فارساً ، كلهم لها محرم [3] .

كما ضربوا المثل بـ (برد العجوز) . ولهم قصص في سبب ضربه . وهم متفقون على أن المثل جاهلي ، وليس بإسلامي . ذكر بعضهم ان عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في أواخر الشتاء وأوائل الربيع ، فيسوء أثره على المواشي ، فقالوا : هذا برد العجوز ، يعني العجوز الذي أنذرت به . وذكر بعض آخر ؛ أن عجوزاً كانت بالجاهلية ولها ثمانية بنين فسألتهم ان يزوّجوها ، وألحت عليهم ، فتآمروا بينهم ، وقالوا لها : إن كنت تزعمين أنك شابة فابرزي للهواء ثمان ليال ، فإننا نزوجك بعدها ، فوعدت بذلك ، وتعرضت تلك الليلة والزمان شتاء كلب ، وبرزت للهواء ، وبقيت تفعل ذلك سبع ليال ، ثم ماتت في الليلة السابعة . فضرب بها المثل : وقيل برد العجوز [4] .

أهل الحضر :

وما ذكرته يتناول حياة الاعراب ، وحياتهم الاجتماعية هي حياة أخرى تختلف

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٩)
٢ الثعالبي ، ثمار (٣١١ وما بعدها) .
٣ الثعالبي ، ثمار (٣١٠ وما بعدها) .
٤ الثعالبي ، ثمار (٣١٣ وما بعدها) .

عن حياة أهل الحاضرة . ففي حياة الحضر تجمع وتكتل . واذا تجمع الانسان وتكتل في موضع وكوّن جماعة ، ظهرت عنده خلال ، لا يمكن ظهورها عند الاعراب . تتسع وتكبر كلما بعدت الشقة بين البداوة والحضارة . لذا فان بين حياة أهل الحيرة أو يثرب أو مكة أو المستوطنات الحضرية الأخرى المنتشرة في جزيرة العرب وبين حياة أهل البادية فروقاً كبيرة ، تختلف في الدرجة والشدة ، بدرجة تكاثف السُكّان في المستوطنة الحضرية ، وبدرجة قربها أو بعدها من الاعاجم ، وبدرجة اتصالها بالعالم الخارجي . فالمستوطنات التي تقع على سواحل البحر يكون لها اتصال خاص بالعالم الخــارجي ، لا يمكن أن يتوفر لأهل البواطن ، ويؤدي هذا الاتصال الى التلاحم في الأفكار والى الاختلاط والامتزاج والى توسع أفق أهل الساحل بالنسبة الى من وراءهم في الباطن ، بسبب هذا الاختلاط في الموقع .

لقد تأثر أهل الحواضر من عرب العراق بأخلاق أهل النبط وغيرهم من أهل العراق ، حتّى بان ذلك على لسانهم وعلى طراز معاشهم كما بان ذلك على عرب بلاد الشام لاختلاطهم بالروم وبأهل بلاد الشام . فعرفوا عنهم أكل الأعــاجم وأحبوا غناء الفرس وغناء الروم . ودخل من دخل منهم في النصرانيه . وقلّد ملوك الحيرة ملوك الفرس في بعض شؤون حياتهم ، وتشبه ملوك عرب الشام بملوك الروم ، حتّى في أمور دينهم حيث اعتنقوا النصرانية ، وجاؤوا الى قصورهم بقيان يغنين بغناء الروم وبقيان يغنين بغناء الفرس . وزار سادات عرب العراق (المدائن) ، ووقفوا على حيــاتها ؛ وعاش سادات عرب الشام بدمشق وبمــدن بلاد الشام الأخرى ، وجلبوا الى قصورهم وبيوتهم شيئاً مما أعجبهم ونال حبهم . فصارت حياتهم من ثم حياة تختلف عن حياة الاعراب من هذه النواحي .

وكان لأهل قرى العربيه الشرقية اتصال دائم بالعراق وبسواحل الهند الغربية ، وبايران وبالتجار الروم ، فأخذوا منهم وتأثروا بهم ، كالذي يظهر من الآثار التي عثر عليها ويعثر عليها المنقبون في مواضع العاديات . وتأثر أهل العربية الغربية بأهل بلاد الشام والعراق لما كان لهم من اتصال تجاري دائم بهم . ولما كانوا يجلبونه من هذه البلاد من رقيق . كما كان لهم ولأهل العربية الجنوبية اتصال بأهل افريقية ، سكان السواحل المقابلة لبلاد العرب ، فأثروا فيهم وتأثروا بهم . ومن آيات هذا التأثير الملامح الافريقية التي ظهرت في العربية الجنوبية بصورة خاصة ، لا سيما باستيلاء الأحباش مراراً على السواحل العربية المقابلة لافريقية ، وظهور جيل أخذ

من ملامح الجنسين ، نتيجة للازدواج الذي صار بين العرب والافريقيين .

ونجد أثر هذا الاختلاط في اللغة كما نجده في الغناء وفي آلات الطرب . اذ يختلف غناء أهل سواحل جزيرة العرب عن غناء القبائل الساكنة في الباطن ، بعيدة بعض البعد عن السواحل وعن التأثر بمؤثرات الأعاجم الذين يقصدون الموانى الساحلية للاتجار .

الزواج :

والزواج هو من أهم الافراح في حياة الانسان ، وهو ما زال وسيبقى من أهم الافراح في حياته ، لما له من علاقة سعيدة به . ولهذا يحتفل الناس به عادة ، بإقامة المآدب فيه وبدعوة ذوي القرابة والاصدقاء اليها لمشاركة الزوجين أفراحهما .

وقد صنف (روبرتسن سمث) زواج العرب ثلاثة أصناف : زواج يكون في حدود القبيلة فلا يتعدّاه ، ولا يسمح لرجال القبيلة الا بالزواج من بنات القبيلة نفسها ، وهو ما يسمى بـ (Endogamous) ، وزواج يفرض فيه على الرجل أن يتزوج امرأته من قبيلة أخرى ، وهو ما يعرف بـ (Exogamous) أي (زواج خارجي) . وزواج يجمع الطريقتين المذكورتين ، أي الزواج في داخل القبيلة والزواج من خارجها [1] .

ويظهر من دراسة كل ما ورد في كتب أهل الاخبار وفي كتب التفسير والحديث عن الزواج والطلاق عند الجاهليين أن أهل الجاهلية لم يكونوا يسيرون على سنّة واحدة في عرف الزواج والطلاق ، ولكن كانوا يسيرون على أعراف مختلفة اختلفت باختلاف الأماكن وباختلاف الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية واتصالها بالخارج . وقد وردت الينا مسميّات بعض تلك الأنواع ، مثل (الخدن) و (المتعة) و (البدل) و (الشغار) و (البعولة) وزواج ذوات الرايات وغير ذلك مما ورد وصفه وشرحه ، ولكنه لم ينعت باسم معين .

وأنواع الزواج هذه ، ليست خاصةً بالجاهليين ، وانما هي معروفة عند غيرهم أيضاً ، ولا سيما عند الشعوب السامية ، وهي مراحل مرّ بها جميع البشر ، ولا

١ Kinship and Marriage, p., 60.

يزال الكثير منها قائماً في أنحاء متعددة من العالم . وهي في الغالب مرآة صافية للظروف التي يعيش فيها الناس . وبعض هذه الأنواع رناء معيب في عرفنا ، غير أننا يجب أن نفكر دائماً ان اولئك القوم كانت لهم مقاييس دينية وخلقية خاصة بهم ، وهي سليمة صحيحة بالقياس اليهم ، وأنهم عاشوا قبل الاسلام وفي ظروف تختلف عن ظروفنا ، وأن ما نسميه عيباً لم يكن عيباً بالقياس الى المراحل التي كانوا فيها والى عرف ذلك العهد .

ويقال للرجل العزب الذي لا زوج له (الخالي) ، قال امرؤ القيس :

أَلَمْ ترني أُصْبِي ،على المرء عِرْسَهُ وأَمْنَعُ عِرْسِي ان يُزَنَّ بها الخالي [1]

وللرجولة عند العرب أثر بارز ، لما في طبيعة بلادهم من الحرّ وعدم وجود أمور مسلّية لديهم تصرف ذهنهم عن التفكير فيه وتلهيهم بعض الشيء عن الغريزة الجنسية . ونجد في الأدب العربي شيئاً كثيراً مما يتعلق بهذا الموضوع . وللغلمة المفرطة صار العربي مزواجاً ، يتشبب بالنساء ويتغزل ، والتشبيب من أمارات الرجولة عند الجاهليين .

ونجد في القصص المنسوب الى الجاهليين وفي شعرهم شيئاً كثيراً يتعلق بالحب : حب الرجل للمرأة ، وليس العكس ، ذلك لأن في طبع الرجل التباهي والتفاخر بحبه للنساء . أما المرأة فإن في طبعها الخجل الذي يمنعها من اظهار حبها وتعلقها برجل ما ، ثم ان المجتمع لا يسمح لها بذلك ، وهو يردعها عن أن تبوح بحبها لرجل ما ، ويعد ذلك نوعساً من الخروج على الآداب العامة وجلب العار الى البنت والى الأسرة . ويعبر عن النسيب بالنساء ، أي بذكرهن في ابتداء القصائد ، بـ (التشبيب) . ويعد ابتداء القصيدة بالتشبيب من العرف الجاهلي ، ويقولون ان في ذلك ترقيقاً للشعر [2] .

والنسيب في الشعر ، التشبب بالمرأة والتغزل بها ، وذلك في أول القصيدة ، اذا ذكرها في شعره ووصفها بالجمال والصبا ، ووصف أعضاء جسمها وغير ذلك . ثم يخرج الشاعر بعد ذلك الى المديح . ويدخل في النسيب ، ووصف مرابع الأحباب ومنازلهم واشتياق المحب الى لقائهم ووصالهم وغير ذلك [3] .

١ اللسان (١٤/٢٣٩) ، (حلا) ، تاج العروس (١٠/١١٨) ، (خلا)
٢ تاج العروس (١/٣٠٨) ، (شب) .
٣ تاج العروس (١/١٨٣) ، (نسب) .

والغزل في نظر بعض العلماء كالتشبيب والنسيب ، كلها بمعنى واحد . وهو وصف الأعضاء الظاهرة من المحبوب ، أو ذكر أيام الوصل والهجر أو نحو ذلك . وفرق بعض آخر بينها ، بأن جعل التشبيب ذكر صفات المرأة وهو القسم الأول من النسيب ، فلا يطلق التشبيب على ذكر صفات الناسب ولا على غيره . والتغزل بمعنى النسيب ذكر الغزل . فالغزل غير التغزل ، والنسيب والغزل في رأي بعض آخر هو الأفعال والأقوال والأحوال الجارية بين المحب والمحبوب نفسها . وأما التشبيب فهو الاشادة بذكر المحبوب وصفاته واشهار ذلك والتصريح به . وأما النسيب فذكر حال الناسب والمنسوب به والأمور الجارية بينهما . وقال بعض : الغزل انما هو التصابي والاستهتار بمودّات النساء [1] . والى غير ذلك من آراء لا صلة لها بهذا الموضوع .

والعادة أن يتغزل الرجل بامرأة فيجعلها بطلة غزله . يلف ويدور في غزله حولها ويلج ويلهج بذكرها . وقد يذكر اسمها وقد لا يذكره . وهي قد تكون امرأة حقاً ، رآها الشاعر فأعجب بها ، وقد لا تكون امرأة معينة خاصة ، وانما امرأة تخيلها ذهن الشاعر ، فصار يتغزل بها ويلهج بذكرها ويلج في اظهار وصفها وصفاتها وما قالت له وما قال لها الى غير ذلك . وسبب ذلك هو أذواق أهل ذلك العهد ، وعادتهم في وجوب الابتداء بالقصيدة بهذا النوع من المقدمات ، حتى يكون شعراً رقيقاً مرموقاً ، وقد أدى تغزل بعض الشعراء بنساء رجال معروفين او بناتهم الى وقوعهم في مهالك . ومن امثلة ذلك ما زعم من تغزل (النابغة الذبياني) بالمتجردة زوج الملك (النعمان بن المنذر) ، وما كان من غضب الملك عليه وتهديده له بالقتل ، مما اضطر النابغة الى الهرب الى الغساسنة اعداء النعمان ، ليسلم بريشه من سيد الحيرة وما ورد في قصة الشاعر (طرفة بن العبد) .

والطابع العام في هذا الغزل البراءة والعفة ونقاء الألفاظ المؤدّبة ، لا يتطرق فيه الشاعر الى ما وراء اظهار الوجد والحب والتلهف الى زيارة معشوقته له ، أو زيارته لها ، وذكر الايام الجميلة وأحلام الحب الصافية الخالصة النقية ، وقلّما نجد في الشعر الجاهلي اقذاعاً وفحشاً . فالشاعر متأدب في شعره ، يعرف حدوده في الغزل فلا يتجاوزها ، لأنه يعلم حقاً انه اذا ذكر الفحش في شعره وتعرض بامرأة معينة ، فأصابها بسوء قول ، فانها لن تسكت عنه ، واذا سكتت هي ، فلن يفلت من عقاب اسرتها وآلها له . وقد يكون ذلك العقاب القتل .

---

١ تاج العروس (٨/٤٣) ، (غزل) .

وقد ضرب العرب المثل ببعض الرجال في شدة النكاح وكثرته . ومن هؤلاء (حوثرة) رجل من بني عبد القيس ، ضربت به العرب المثل في ذلك فقالت (أنكح من حوثرة) [1] ، و (خوات بن جبير الأنصاري) ، وكان يأتي أحياء العرب يتطلب النساء ، فإذا سئل عن حاجته قال : قد شرد لي بعير فخرجت في طلبه . وأدرك الاسلام ، ورأى الرسول ، فقال له : « ما فعل بعيرك الشرود ؟ فقال : أما منذ قيده الاسلام فلا [2] . وكان يحسن الغناء . وكان اذا رأى النساء لبس حلته وجلس اليهن . وذُكر انه (صاحب ذات النحيين) [3] .

ويقال : (اغتلم الرجل) اذا هاج من الشهوة ، وكذلك الجارية وفي الحديث : « خير النساء الغِلمةُ على زوجها » . والغِلمة : شهوة الضراب ، (وفسره جماعة بالشبق واشتهاء الغلمان) [4] . و (الشبق) شدة الغلمة وطلب النكاح ، يقال : رجل شبق ، وامرأة شبقة [5] . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال عرفوا بالشبق والغلمة ، ومن هؤلاء (ابن الغز) . فذكر ان عبد الملك ابن مروان ذكر إياداً ، فقال : « هم أخطب الناس لمكان قس ، وأسخى الناس لمكان كعب ، وأشعر الناس لمكان أبي دؤاد ، وأنكح الناس لمكان ابن الغز » [6] .

وفي المثل : « أنكح من ابن الغز » ، وهو من بني إياد ، واسمه سعد أو عروة أو الحارث بن أشيم . وذكروا أنه كان نكّاحاً عظيم الأير ، زعموا ان عروسه زفت اليه ، فأصاب رأس أيره جنبها ، فقالت : أتهددني بالركبة [7] .

وقد عرف من يحب محادثة النساء ومجالستهن ومخالطتهن بـ (الزير) [8] ، ومن هنا قيل : (زير نساء) . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر من المشهورين بذلك .

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٤١) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١٤١) .
٣ الاصابة (١/ ٤٥١ وما بعدها) ، (٢٢٩٨) .
٤ اللسان (١٢/ ٤٣٩) ، (غلم) ، تاج العروس (٩/ ٤) ، (غلم) .
٥ اللسان (١٠/ ١٧١) ، (شبق) ، تاج العروس (٦/ ٣٩٠) ، (شبق) .
٦ الثعالبي ، ثمار (١٤٢) .
٧ تاج العروس (٤/ ٧٨) ، (لغز) .
٨ تاج العروس (٣/ ٣٤٧) ، (زير) .

ويقال لمن لا يأتي النساء عجزاً أو لا يريدهن (العنين) . كما يقال للمرأة التي لا تريد الرجال ولا تشتهيهم (العنينة) على بعض الآراء [1] . ويقال امرأة مساحقة . وامرأة سحاقة ، لمن تشتهي النساء . ويقال انها لفظة مولدة [2] .

وقد عرف (التبتل) عند بعض الجاهليين ، ممن تأثر بآراء الرهبان . ويراد به ترك النكاح والزهد فيه ، ويكون ذلك للرجال كما يكون للنساء . وتعرف المرأة المقطعة عن الرجال بـ (البتول) . وقد نهى الرسول (عثمان بن مظعون) عن التبتل . وورد في الحديث : (لا رهبانية ولا تبتل في الاسلام) [3] . ويقال لمن لم يأت النساء ولم يتزوج (الصارور) . و (الصارورة) ، المتبتلة ، فلم تتزوج ولم تتصل برجل . ومن ذلك : (لا صرورة في الاسلام) [4] . و (الصرورة) عند الجاهليين أرفع الناس في مراتب العبادة ، وقد أطلقت على الراهب المتعبد ، كما جاء ذلك في شعر (ربيعة بن مقروم) الضبي ، من مخضرمي الجاهلية والاسلام :

لو أنها عرَضت لاشمط راهب عبد الإله صرورةٍ متبتل
لدنا لبهجتها وحسن حديثها ولهمَّ من ناموره بتنزلِ [5]

وقد عيب العازف عن اللهو والنساء ، والذي لا يطرب للّهو ويبعد عنه . ولا يقرب النساء ، ولا يحدثهن ولا يريدهن ولا يلهو . فإن مثل هذا الرجل هو كالحجر الصلد الجلمد ، وفيه غفلة . ويقال له (العزهاة) [6] .

عدد الزوجات :

ومن حق الرجل في الجاهلية ان يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد ولا

١ تاج العروس (٢٨١/٩) ، (عن)
٢ تاج العروس (٣٧٨/٦) ، (سحق) .
٣ تاج العروس (٢٢٠/٧) ، (بتل) ، (رد النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان ابن مظعون التبتل) ، الاصابة (٤٥٧/٢) ، (رقم ٥٤٥٥) .
٤ تاج العروس (٣٣١/٣) ، (صرر) .
٥ الحيوان (٣٤٧/١) ، (هارون) .
٦ اللسان (٥١٤/١٣ وما بعدها) ، (عزه) .

حصر . إذْ لم تحدد شرائعهم للرجال عدد ما يتزوجونه من نسائهم . فلما جاء الاسلام ، حدد العدد وجوّز للرجل ان تكون له أربع زوجات في وقت واحد ، ومنعه من تجاوز العدد في حالة الجمع ، بمعنى انه لا يسمح له ان يجمع بين خمس زوجات أو أكثر من ذلك في وقت واحد بشرط العدالة بينهن ، فإن خاف الزوج ألا يعدل بينهن فواحدة .

ويذكر أهل الأخبار ان أهل الحرم أول من اتخذ الضرائر [1] ، والضرائر زوجات الرجل الواحد ، وكل منها ضرة للأخرى .

والغاية الأولى من الزواج هي النسل ، لذلك قالت العرب : من لا يلد لا وُلد [2] . وكرهت العاقر وعدتها شؤماً . واتخذ العقر من الأسباب الشرعية للطلاق ، إذْ كان الرجل يأبى البقاء مع امرأة لا تلد . لذلك كان يطلقها في الغالب ، لانتفاء الفائدة منها مع انفاقه عليها ، أو يتزوج عليها ليكون له عقب ، وعندهم ان المرأة القبيحة الولود ، خير من الحسناء العاقر ، وان (سوداء ولوداً خير من حسناء عاقر) [3] . وليست هذه العادة من عادات العرب وحدهم ، ولكن يشاركهم فيها أكثر الشعوب الأخرى ، ومنها الشعوب السامية .

ولسادات القبائل والأشراف والملوك غرض آخر من الزواج ، هو غرض كسب الألفة واجتذاب البعداء ، والنصرة ، حتى يرجع المنافر موالياً ، ويصير العدوّ مؤالفاً ، فهو زواج (سياسي) . يتزوج الملك أو سيد قبيلة ابنة سيّد قبيلة أخرى ، فيشدّ بزواجه هذا من أزر ملكه أو من قوة قبيلته . لا سيما اذا كانت البنت من قبيلة كبيرة . وقد عمل بهذا الزواج كثيراً في الجاهلية ، كما عمل به في الاسلام . فقد استفاد معاوية كثيراً من زواجه من قبيلة (كلب) ، إذْ ساعدته وأيدته . وروعي هذا الزواج في المواضع التي تغلبت عليها الحياة القبلية بصورة خاصة للتغلب على طباع البداوة ، القائمة على النفرة من الخضوع لحكم حاكم غريب عنها . وبهذا الزواج تخف هذه النفرة ، فتشعر القبيلة انها من أصهار هذا الحاكم ، وعليها واجب مساعدته بحكم عصبية المصاهرة .

---

١ اللسان (١٢/١٢١) ، (حرم) .
٢ بلوغ الأرب (٢/٩) .
٣ بلوغ الأرب (٢/١٠) .

وكثرة الاخوة عزة ، فمن كثرت اخوته استظهر بهم . فلا يتمكن أحد من النيل منه بسوء ، ولا من ابتزاز حق من حقوقه ، ولا من الاعتداء عليه [1] .

وحظ الرجل العقيم خير من حظ المرأة العاقر . فهو يتزوج عدة زوجات فإن لم يلدن منه ، آمن عندئذ بعقمه . أما المرأة ، فتبقى قانعة راضية في بيت الزوجية ، إن أراد زوجها ذلك ، لأن من الصعب عليها الحصول على زوج آخر إن طلقت ، إذ كان الرجال يفضلون الأبكار على المطلقات ، واذا طلقت المرأة العاقر ، تبقى بين أهلها من غير زواج في الغالب .

ويرغب العرب في التزوج بالأبكار ، ويفضلون الأبكار الصغار على الأبكار الكبار ، والبكارة من الشروط التي يجب توافرها في الزواج ، واذا تبين ان البنت ليست بكراً ، عُدَّ ذلك نكبة [2] وعير أهلها بها ، ولذلك يكون مصيرها القتل تخلصاً من عارها . أما الزواج بالثيب ، فلا يشترط فيه البكارة لأن المرأة كانت قد تزوجت من قبل ، ثم طلقها زوجها أو مات عنها ، فهي مما لا يتوافر فيها شروط البكارة ، وهو زواج يعزف عنه الشباب ويعير به من يقدم عليه ، إذ يتهم بالوهن الجنسي وبالطمع في مال الزوجة ، فليس يجمل بالشاب ان يتزوج امرأة أعطت بكارتها غيره . ومن صارت ثيباً من النساء ، صار نصيبها الثيب من الرجال في الغالب ، وان كانت لا تزال شابة صغيرة السن .

ويكره العرب الجمال البارع ، لما يحدث عنه من شدة الإدلال ، ومن الخوف من شدة الرغبة وبلوى المنازعة وشدة الصبوة وسوء عواقب الفتنة ، لكنهم كانوا يراعون حسن الصورة وجمال الجسم وتناسق أعضائه . ولهم صفات ونعوت ذكروا انها تمثل جمال المرأة ، تختلف باختلاف الأذواق [3] ، كما ان لهم رأياً في محاسن أخلاق المرأة وفي الخصال التي يجب ان تتحلى بها في معاشرة زوجها وفي العناية ببيتها وفي تربية أولادها [4] . من ذلك ان تكون حريصة على إرضاء زوجها وخدمة أولادها والعناية ببيتها .

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٤٣) .

٢ تاج العروس (٥٦/٣ وما بعدها) ، (بكر) .

٣ بلوغ الأرب (١٣/٢ وما بعدها) .

٤ بلوغ الأرب (١٤/٢ وما بعدها) ، عيون الأخبار (١/٤ وما بعدها) .

وللعرب نعوت رأوا انها ان وجدت في المرأة عابتها ، منها ان تكون بذيئة اللسان ، نمامة كذوباً ، عابسة قطوباً ، كثيرة الانتباه والتدخل ، طويلة مهزولة ، ظاهرة العيوب ، سبابة وثوبة ان ائتمنها زوجها خانته ، وان لان لها أهانته ، وان أرضاها أغضبته ، وان أطاعها عصته ، الى غير ذلك من نعوت رووها عن الجاهليين في ذم المرأه المتخلقة بها [1] . وقد نعتت المرأة التي تلبس درعها مقلوباً ، وتكحل إحدى عينيها وتدع الأخرى بـ (القرثع) ، وهي المرأة الجريئة القليلة الحياء البذيئة الفاحشة [2] .

ويرغب العرب في الزواج بالنساء الشقراوات البيض البشرة ، وورد ان بعض العرب قالوا لبعض الملوك : هل لكم في النساء الزهر ، والخيل الشقر ، والنوق الحمر [3] .

والعادة ان أمر الزواج بيد الأبوين ، وليس للبنت معارضة وليّها الشرعي في الزواج ، غير ان بعض بنات الأسر الشريفة لم يكن يقبلن بالزواج بأحد إلا بموافقتهن ، فإلى البنت يكون حق قبول الزوج أو رفضه [4] . كما اشترطت بعض النسوة أنهن ان أصبحن عند زوجهن ، كان أمرهن اليهن ، ان شئن أقمن معهم ، وان شئن تركنهم ، أي ان حق الطلاق بيدهن . وذلك لشرفهن وقدرهن . ومن هؤلاء (سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش) ، وهي أم عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف ، و (فاطمة بنت الخرشب الأنمارية) ، وهي أم الكَمَلَة من بني عبس ، وهم : الربيع الكامل ، وعمارة الوهاب ، وقيس الحفاظ ، وأنس الفوارس ، بنو زياد [5] .

ومنهن (عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة) ، وهي أم هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب بني عبد مناف . و (السوا بنت

١ بلوغ الأرب (٢/٢٢ وما بعدها) .
٢ عيون الأخبار (٣/٤) .
٣ كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٤٢) .
٤ ابن سعد ، طبقات ج ١ قسم ١ ص ٤١) ، ابن هشام ، سيرة (١/١٤٨) ، القالي ، أمالي (١/١٩٨) .
٥ المحبر (٣٩٨)

الأعيس) من عنزة ، وكانت تحت خالد بن جعفر بن كلاب [1] . و (مارية بنت الجعيد بن صنبرة بن الديل بن شن بن أفصى) من لكيز [2] .

وقد اشتهرت (أم خارجة) وهي – (عمرة بنت سعد بن عبد الله بن قداد ابن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن انمار) من بجيلة – بأنها كانت قد اشترطت ان يكون طلاقها بيدها ، فكانت كما يقول أهل الأخبار تتزوج وتطلق. وقد أكثرت من الولد في العرب ، وبها ضرب المثل فقيل : « أسرع من نكاح أم خارجة » [3] . كان يقال لها : خِطبٌ ، فتقول : نكح وخارجة ابنها ، ولا يعلم ممن هو [4] . وولدت لـ (بكر بن عبد مناة) : الليث والدُّول ، وعُريجاً ، وهي أم العبر . والهجيم ، وأُسَيْد . وولدت أيضاً في (بني القين) من اليمن ، قوم يقال لهم : بنو الحرة ، وولدت في بهراء [5] . وللعداوات بين القبائل أثر بليغ في احتلاق أمثال هذا القصص ، كما لا يخفى .

وذكر أهل الأخبار أسماء نساء تزوجن ثلاثة أزواج فصاعداً . منهن (مارية بنت الجعيد) ، ذكر (ابن حبيب) انها تزوجت من عشرة رجال . ونسوة أخر ذكر أسماءهن (محمد بن حبيب) [6] .

تخفيف غلمة النساء :

وقد أمر بعض الجاهليين بختان النساء للحدّ من طغيان الشهوة ، فإن البظراء تجدُ من اللذة ما لا تجده المختونة ، وفي حديث : يا ابن مقطعة البظور . دعاه بذلك ، لأن أمه كانت تختن النساء . والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذم ،

١ المحبر (٣٩٩) .
٢ المحبر (٣٩٨) .
٣ المحبر (٣٩٨) ، (وهي أم خارجة بنت قراد) ، الدينوري ، (المعارف) ، (ص ٦٠٩) .
٤ تاج العروس (٢٩/٢) ، (حرج) .
٥ الدينوري ، المعارف (٦٠٩ وما بعدها) .
٦ المحبر (٤٣٥) ، (أسماء من تزوج ثلاثة ازواج فصاعدا من النساء) .

وان لم تكن أم من يقال له هذا خاتنة [1] . وذكر ان الرسول قال لأم عطية الخاتنة : « أشمّيه ولا تنهكيه ، فإنه أسرى للوجه ، وأحظى عند البعل » . كأنه أراد انه ينقص من شهوتها بقدر ما يردها الى الاعتدال ، فإن شهوتها اذا قلّت ذهب التمتع ، ونقص حب الأزواج ، وحب الزوج قيد دون الفجور [2] .

وذكر ان العرب اتخذت بعض الطرق لتضييق فرج المرأة ، من ذلك استعمال عجم الزبيب . وذكروا ان نساء ثقيف فعلن ذلك ، ويظهر ان أعداء ثقيف في أيام الحجاج قد أشاعوا قصصاً من هذا النوع نكاية به . ويقال لذلك التفريب [3] والتفريم [4] .

حق التقدم في الزواج :

ويقدم ابن العم على غيره في الزواج ، فإذا جاء رجل يريد خطبة ابنة رجل ، سُئل ابن عمها ان كان لها ابن عم عن رأيه في ابنة عمه ، فإن أظهر رغبته في الاقتران بها قدّم على غيره ، وزوّجت منه ، وان أظهر انه غير راغب فيها زُوّجت من غيره . ذلك لأن ابن العم مقدم على كل أحد في الزواج من ابنة العم ، وقد يأبى ابن العم من تزويج ابنة عمه من غيره ويصر على ان تكون له ، ولكنه يأبى ان يحدد موعداً للزواج منها ، ويتركها أمداً طويلاً تنتظر حتى يرى رأيه ، وقد تأبى ابنة العم الزواج من ابن عمها ، ويأبى ابن عمها إلا الزواج منها ، فتنشأ من ذلك منازعات وخصومات قد تصل الى اراقة الدم .

١ تاج العروس (٣/٥٢) ، (بظر) ، وهو حديث مناقض لما عرف عن الرسول من عدم النطق بمثل هذا الهجر . وفي تاج العروس احاديث ضعيفة أو موضوعة ذكرها من غير روية ولا تثبت .
٢ الثعالبي ، ثمار (١/٣٠٣) .
٣ (فرّب المرأة تفريبا) ، (ضيق فلهمها ، أي فرجها بالأدوية . وهي عجم الزبيب وما اشبه ذلك) ، تاج العروس (١/٤١٧) ، (فرّب) .
٤ الفرام . ككتاب ... دواء تضيق به المرأة قبلها . فهي فرماء ومستفرمة . وقد استفرمت ، اذا احتشت بحب الزبيب ونحوه) ، تاج العروس (٩/١١) ، (فرم) .

ومع وجود عرف ان القريب أولى بالبنت من البعيد ، فإن العرب تراعي في الغالب إنكاح البعداء والأجانب . يرون ان ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة ، وأحفظ لقوة النسل ؛ لأن إنكاح الأهل والأقارب يضر بالمولود ويسمه بالضعف والهزال ، ويزعمون ان تقارب الأنساب مدح في الإبل ، لأنه انما يكون في الكرائم يحمل بعضها على بعض حفظاً لنوعها ، وذم للناس لأنه فيهم سبب الضعف . وبهذا المعنى ورد الحديث : « اغتربوا ولا تضووا » أي ان تزوج القرائب يوقع الضوى في الولد ، والضوى : الضعف والهزال [1] . وقد أوصى (حصن بن حذيفة بن بدر) قومه ان (ينكحوا الكفء الغريب ، فإنه عز حادث » [2] . وقال (عمر) مخاطباً آل السائب : « يا بني السائب ، انكم قد أضويتم ، فانكحوا في النزائع » . أي تزوجوا في البعاد الأنساب ، لا في الأقارب ، لئلا تضوى أولادكم . والنزائع جمع نزيعة ، وهي المرأة التي تزوج في غير عشيرتها . وأضوى : ولد له ولد ضاو أي ضعيف [3] .

وروي ان رجلاً قال : بنات العم أصبر والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن أعجمية [4] . وقد أدركوا أثر العرق في الولد . قال رجل : لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدي منها ، قيل له : كيف ذلك ؟ قال : أنظر الى أبيها وأمها ، فإنها تجر بأحدهما [5] . وقال بعض الشعراء :

إذا كنت تبغي أيّماً بجهالة ... من الناس فانظر من أبوها وخالها
فإنهما منها كما هي منهما ... كقدك نعلاً ان أريد مثالها
فإن الذي ترجو من المال عندها ... سيأتي عليه شؤمها وخبالها [6]

ويراعى التكافىء في الزواج ، فالأشراف لا يتزوجون إلا من طبقة مكافئة لهم ، والسواد لا يتجاسرون على خطبة ابنة سيد قبيلة أو ابنة أحد الوجهاء ، ويعير السيد الشريف ان تزوج بنتاً من سواد الناس ، ولا سيما اذا كانت ابنة

١ بلوغ الأرب (٢/١٠) .
٢ امالي المرتضى (١/٥٣١) .
٣ الدينوري ، عيون (٤/٣) .
٤ عيون الأخبار (٤/٣) .
٥ عيون الأخبار (٤/٣) .
٦ عيون الأخبار (ص ٦) .

صائغ أو نجار أو ابنة رجل يشتغل بحرفة من الحرف اليدوية لأنهـا من حرف العبيد . وقد عيّر (النعمان بن المنذر) بأمه ، لأنها كانت ابنة يهودي صائغ ، على ما يزعمه أهل الأخبار . ولم يكن من المستساغ عرفاً تزويج ابنـة رجل حرّ من عبد مملوك أو مفكوك الرقبة ، ولم يكن من الممكن تزويج البنت الأصيلة الحرّة من ابن عبد أو من حفيد عبد ، أو من حفيد حفيد عبـد ، وهكذا لأن سمة العبودية والضَّعَة تلازم الأسر ، وان تحررت وحسن حالها وصارت غنية ، وما زال هذا العرف قائماً في جزيرة العرب .

ويقدم العرب البيت على الجمال . فللبيت أثر في أخلاق المرأة وفي نجابة الأولاد ، وهو أثر دائم . والجمال صورة زائلة . فكانوا يهتمون بالبيت الطيب المنجب ، ليكون النسل نجيباً صحيح البنية والعقل [1] . لقد علمتهم الطبيعة ، وتبين من تجارب الحياة ان لبيت البنت أثراً كبيراً في مستقبل الأسرة وفي نجابـة الأولاد وصحة أجسامهم وسلامتهم من المرض . لذلك فضلوا أصالة البيت على جمال المرأة . لما للأصالة من أثر في الوراثة التي تنتقل من الأبوين الى الأولاد . ونجد هذا المسلك عند غير العرب من الساميين أيضاً ، ورد في التلمود : « لا تحمل بجمال المرأه . وانظر الى أسرتها » [2] . ورُوي ان رجلاً شاور حكيماً في التزوج ، فقال له : إفعل ، وإياك والجمال الفائق ، فإنه مرعى أنيق . فقال : مـا نهيتني إلا عمـا أطلب ، فقال : أما سمعت قول القائل :

ولن تصادفَ مرعىً مُمْرِعاً أبداً إلا وجدتَ به آثار منتجع [3]

وورد في الحديث : (إياكم وخضراءَ الدمن ، قيل : يا رسول الله ، وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء » [4] . فللمنبت شأن كبير في الزواج وفي أخلاق الولد ، فلا قيمة للمرأة الحسناء اذا كانت من بيت سوء .

١ اذا تزوجت فكن حاذقا ... اسأل عن الغصن وعن منبته
وأول خبث الماء خبث ترابه وأول خبث القوم خبث المناكح
(لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء ، فان اللبن يعدي) ، المستطرف (٢/٢١٨) .
٢ Taan, IV, 8, Everyman's Talmud, p. 175.
٣ عيون الأخبار (٤/٩) .
٤ ثمار القلوب (١/٣٠٢ وما بعدها) .

المناكح الكريمة :

وقد روي عن (أكثم بن صيفي) قوله : « المناكح الكريمة مدارج الشرف »[1] . ولهذا حرصوا على تطبيق قاعدة التكافؤ في الزواج ، واختيار كرائم البنات لكرائم الرجال . وروي ان جملة ما أوصى به (الحارث بن كعب) سيّد مَذْحِج قومه ان « تزوجوا الأكفاء ، وليستعملن في طيبهن الماء ، وتجنبوا الحمقاء . فان ولدها الى أفنٍ ما يكون ، إلا انه لا راحة لقاطع القرابة »[2] . وقد عرفت هذه القاعدة بـ (الكفاءة في النكاح) . وهي ان يكون الزوج مساوياً للمرأة في حسبها ودينها ونسبها وبيتها وغير ذلك[3] .

والمرأة في نظر العرب وعاء للولد . هذه نظرتهم اليها في الجاهلية وفي الاسلام . قال (عروة بن الزبير) : « لعن الله فلانة ، ألفتُ بني فلان بيضاً طوالاً ، فقلبتهم سوداً قِصاراً » . وفي هذا المعنى جاء في الشعر :

وأول خبث الماء خبث ترابه   وأول خبث القوم خبث المناكح[4]

وللأم أثر خطير في الولد . وقد ذكر (الجاحظ) ان العرب تقول : « عرق الخال لا ينام » . وان كثيراً من العلماء يزعمون ان عرق الخال أنزع من عرق العم . ومن دلائل دلك تباهي الناس بأخوالهم ، واعتبار الخال بمنزلة الوالد . وقول العرب : « لئيم الخال » ، واحتماء الأولاد بأخوالهم ولجوؤهم اليهم أكثر من لجوئهم الى أعمامهم[5] . ودعوتهم لهم عند العصبية . وقول العرب « العرق دساس » و « عرق الخال » .

ولكننا لا نستطيع القطع برأي العرب في موضوع (دس العرق) . وفي ان أيّاً هو أكثر أثراً ووضوحاً في الولد : عرق الخال ، أم عرق العم ؟ فهناك أمثلة في التأريخ الجاهلي تظهر ان من الجاهليين من كان يقدم العم على الخال ،

١ ثمار القلوب (٦٩١) .
٢ أمالي المرتضى (٢٣٣/١) .
٣ تاج العروس (١٠٨/١) ، (كفأ) .
٤ عيون الأخبار (٢/٤ وما بعدها) .
٥ الثعالبي ، ثمار (٣٤٣ وما بعدها) .

ويرى ان العم مقام الوالد . ولما كان الوالد هو الأصل في النسب عند الجاهليين ، وهو الولي وصاحب الحق الشرعي الأول في ولده ، يكون هذا الحق في إخوته بعد وفاته . كما أننا نجد ان بعض الأولاد كانوا ينزعون الى أعمامهم أكثر من نزوعهم الى أخوالهم . وموضوع نزع العرق عند العرب ، اعتباري اصطلاحي بالطبع ، يمثل وجهة نظرهم في النسب ، ولا يقوم على أسس (بيولوجية) أي من ناحية أثر الدم وانتقال الخصائص الدموية من الوالد ، او من الأم الى الولد. وهو موضوع علمي ، يختلف عن هذه النظرة الاعتبارية ، من حيث انه يقوم على الدراسات العلمية ، ولا يأخذ بالاعتبارات والآراء المبينة على اعتبارات أهل النسب في خصائص الولد .

والظاهر ان الوئام لم يكن واقعاً دائماً بين أبناء العم ، إذْ نجد ان الخصومات طالما كانت تحدث بينهم . ولعل ذلك بسبب ما ألقاه المجتمع على عاتق العمّ من تبعات أولاد إخوته حين وفاة الأخ ، فانه يكون بحسب العرف القبلي الوصي الشرعي على أولاد المتوفى ، وله حق في إرثه بحسب قانون (العصبة) عند وفاة الأخ عن بنات ومن غير أبناء ، أو لطمع الأعمام في أموال اليتامى ، الى غير ذلك من أمور سببت حدوث خصومات أحياناً بين الأعمام وبين أبناء الاخوة ، أو بين أبناء الأعمام . ولعل هذه الخصومات هي التي جعلت (الجاحظ) يتصور ان أبناء العم محسودون[1] .

ونجد العرب يقولون : « عرق فيه أعمامه وأخواله »[2] ، فقدموا الأعمام على الأخوال ، واعترفوا بأثر عرق الاثنين في الولد ، من كرمٍ أو لؤم ، إذْ يكون دس العرق في اللؤم والكرم[3] .

ولاحظ العرب ان الأبوين قد يلدان ولداً يكون لونه مغايراً للونهما ، فيحدث نزاعاً بين الرجل وزوجته في هذه الولادة الغريبة ، وتتهم المرأة أحياناً باتصالها برجل غريب جاء منه هذا المولود ، إلا ان منهم من أدرك (دس العرق) في هذه الولادة ، واحتمال انتقال هذا اللون من آباء أحد الوالدين. وقد اختصم رجل

---

١ كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ، من رسائل الجاحظ (١/٣٤٤) .
٢ تاج العروس (٧/١٠) ، (عرق) .
٣ المصدر نفسه .

مع زوجته في مولود ولد له ، فجاء الى رسول الله وقال له : ان امرأتي قد ولدت غلاماً أسود ، فقال له الرسول : « لعل عرقا نزعه »[1] . فاعتقاد العرب ان الولد قد ينزعه عرق من الأب . وفي هذا المعنى أيضاً قول (ابن الزبير) : « لا يمنعكم من تزوّج امرأة قصرها ، فإن الطويلة تلد القصير ، والقصيرة تلد الطويل ، وإياكم والمذكَّرة فانها لا تنجب »[2]. والمذكّرة المتشبهة بالذكور .

وقد حرص العرب لما تقدم على التزوج في الأسر الصحيحة السالمة من الأمراض والعيوب ، ليكون النسل صحيحاً نجيباً . قال أعرابي لصاحب له : (اذا تزوجت امرأة من العرب فانظر الى أخوالها ، وأعمامها ، واخوتها ، فانها لا تخطىء الشبه بواحد منهم)[3] .

لبن الأم :

وللبن الأم شأن كبير عند العرب ، لما يتركه من أثر في طبيعة الولد ، ولذلك كانوا يرون ان تكون الأم مرضعة الولد ، إلا اذا تعذر ذلك لسبب ، فترضعه مرضعة قريبة من أهل المولود او من المرضعات السليمات من المرض ، ومن ذوات العرق الطيب . لأن اللبن دساس يؤثر في شاربه .

واهتم العرب باختيار المرضعات . لما يكون للبان الرضاع من أثر في الرضيع ، ولما يكون للمرضعة وليبتها من أثر فيه ، كما اهتموا باختيار من يتأبط المولود ويحمله ، لتسليته وتلهيته ، لما يتركه ذلك من أثر في تربيته وخلقه . وفي حديث عمرو بن العاص : « ما تأبطتني الإماء ولا حملتني البغايا في غبرات المآلي » أراد انه لم تتول الإماء تربيته . وغبرات المآلي : بقايا خرق الحيض[4] .

واذا أراد مدح انسان والثناء عليه ، ذكروا مرضعته وصفاء لبنه الذي رضعه ، فقالوا : « نعمت المرضعة » ، و « نعمت المرضعة مرضعته » . واذا أرادوا

١ الدميري ، حياة الحيوان (٤/١) .
٢ عيون الأخبار (٣/٤) .
٣ الحيوان (١٦٥/٣) ، (هارون) .
٤ تاج العروس (٤٣٦/٣) ، (غبر) .

ذمّ انسان قالوا : « بئست المرضعة مرضعته » ، كناية عن انها هي التي أرضعته ، فخرج رضيعها على شاكلتها . وفي الحديث حين ذكر الامارة ، فقال : « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » ، ضرب المرضعة مثلاً للامارة وما يوصله الى صاحبها من الأحلاب ، يعني المنافع ، والفاطمة مثلاً للموت الذي يهدم عليه لذاته ويقطع منافعها [1] .

وتعدّ الرضاعة بمنزلة الأخوة بين المتراضعين ، ويفتخر ويتعزز الواحد منهم بالآخر ، خاصة اذا كان من السادات والأشراف . والعرب تقول : « هذا رضيعك » أي أخوك من الرضاع [2] ، وتقول : « استرضع في بني فلان » [3] . ويصير كأنه واحد من القوم الذين استرضع فيهم . وتكون المراضع بمنزلة الأم للرضيع .

ويبدأ الزواج برغبة يبديها الرجل لوالديه ، او برغبة من والديه ، أو من أحدهما تقدم الى الولد تطلب اليه ان يتزوج ، فإن حصلت الموافقة اختيرت له زوجة ، وقد يكون الرجل قد اختار خطيبته وعينها ، فاذا وافق أهله خطبوها الى وليّ أمرها ، واذا أبوا فعليه ان يختار أخرى زوجاً له ، واذا أبى أهل البنت عليه ذلك تركها ، وقد يصر على الزواج بها ، ويصر أهله أو أهلها على رفضهم ذلك ، وقد يزداد الرجل أو البنت إصراراً على الاقتران معاً حتى يتحول ذلك الى هرب من مكانهما الى مكان آخر . وقد تقع بغضاء بين أهلي الرجل والبنت من وقوع هذا الزواج .

الخطبة :

واذا استقر الرأي على البنت ، يذهب ولي أمر الرجل او أقرب الناس اليه الى ولي أمر البنت ، كالأب أو الأخ أو العم أو بني عمها أو غيرهم ممن هم أقرب الناس اليها ، يخطب البنت بعد ان يكونوا قد مهدوا لذلك وحددوا الصداق .

---

١ تاج العروس (٣٥٦/٥) ، (رضع) .
٢ تاج العروس (٣٥٦/٥) ، (رضع) .
٣ المصدر نفسه (ص ٣٥٧) .

وكان الخاطب اذا دخل بيت أهل البنت حيّاهم ومن كان حاضراً بتحية أهل الجاهلية ، مثل : انعموا صباحاً ، او عموا صباحاً ، او أمثال ذلك ، فاذا استقر به المقام ، تكلم فيما جاء فيه ، كأن يقول : نحن اكفاؤكم ونظراؤكم ، فإن زوجتمونا فقد أصبنا رغبة واصبتمونا وكنّا لصهركم حامدين ، وان رددتمونا لعلة نعرفها رجعنا عاذرين . ثم يجيب ولي أمر البنت جواباً مناسباً يضمنه الرضى والقبول ، وبذلك تكون البنت قد خطبت لذلك الرجل [1] .

ووصف بعض أهل الأخبار طريقة من طرق الخطبة عند بعض الجاهليين ، فقال : كان الرجل في الجاهلية يأتي الحي خاطباً ، فيقوم في ناديهم ، فيقول : خطب ، أي جئت خاطباً . فيقال له : بعد الموافقة نكح ، أي قد انكحناك إياها ، ومن ذلك ما قدمت من خبر أم خارجة ان صحّ . وذكر ان (نكحاً) هي كلمة كانت العرب تتزوج بها [2] .

ويرتدي أهل الخاطب وأهل المخطوبة خير ما عندهم من ملابسهم ويزينون أنفسهم عند مجيء أهل الرجل الى بيت البنت لخطبتها . واذا تمت الخطبة ضمخ والد الخطيبة بالعبير وخلّق بالطيب ونُحر بعير او أكثر على حسب منزلة أهل البنت . والعادة عند العرب ان ينحروا بعيراً او شاة في المناسبات المفرحة المبهجة ، فلا بد لمثل هذه المناسبات من (ذبيحة) وإسالة دم . ولما خطب النبي (خديجة) واجابته ، استأذنت أباها في ان تتزوجه وهو ثمل ، فأذن لها في ذلك ، وقال : هو الفحل لا يقرع أنفه . فنحرت بعيراً ، وخلّقت أباها بالعبير ، وكسته برداً أحمر [3] .

وكان الجاهليون يقولون للإبل تساق في الصداق : النوافج . وكانوا يقولون عند تقديمها : تهنئك النافجة . على ان بعضهم من كان يكره ذلك . وقد بطل هذا القول في الاسلام [4] .

١ بلوغ الأرب (٢/ ٣) .
٢ تاج العروس (١/ ٢٣٧) ، (خطب) ، (٢/ ٢٤٣) ، (نكح) ، المحبر (٣٩٨) .
٣ تاج العروس (٣/ ١١٨) ، (حبر) .
٤ قال الشاعر :
وليس تلادي من وراثة والدي ولا شان مالي مستفاد النوافج
الصاحبي (ص ٩٢)

وتلبس العروس ثوباً يجعل له ذيل تسحبه حين تمشي . لأنه يكون طويلاً ، وقد أشير اليه في شعر لامرىء القيس . إذْ قال :

لها ذنب مثل ذيل العروس تسد به فرجهـا من دبر

كما أشير اليه في شعر لخداش بن زهير . إذْ قال :

لها ذنب مثل ذيل الهديّ الى جؤجؤٍ أيـدِ الزافر [1]

والهديّ : العروس التي تهدى الى زوجها .

واستعملت المرأة الغنية المسك والطيب في تطييب جسمها وثيابها . حتى كان المسك يفوح من أردانها . قال قيس بن الخطيم :

وعمرة من سروات النسا ء تنفحُ بالمسك أردانها [2]

و (الصَّداق) هو مهر المرأة ، أي ما يدفعه الرجل الى أهل البنت عند عقد الزواج ، ويقال له الصَّدَقة والصَّدُقة والصُّدُقة والصَّداق . وترادف هذه الكلمة كلمة أخرى هي « مهر » ، وهي من المصطلحات الجاهلية كذلك [3] .

وطريقة العرب من جاهليين وإسلاميين في دفع الرجل (المهر) للزوجة ، تناقض المألوف عند اليونان والرومان ، حيث جرت عادتهم ان تقدم المرأة صداقها الى زوجها نقوداً أو عيناً . وهي الطريقة المألوفة عند الغربيين حتى الآن . وكان الرومان يستغربون طريقة الجاهليين هذه في دفع المهر [4] .

ويروي (روبرتسن سمث) ان ترادف معنى (الصداق) و (المهر) انما حدث في الاسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان هناك فرق بين مدلول الكلمتين . فان المراد من كلمة الصداق عند الجاهليين هو ما يقدم الى العروس . أما المهر ، فهو ما يقدم الى الوالدين [5] .

١ أمالي المرتضى (٢/٩٤ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٣/١٧٧) ، (ردن) .
٣ اللسان (١٢/٦٥) ، النهاية (٤/١٢٢) ، جامع الاصول (٧/٥٧٩) ، عمدة القارىء (٢٠/١٣٦) ، تاج العروس (٣/٥٥٠) ، (مهر) .
٤ Ency Religl , 8, p 447.
٥ Kinship, p. 76, Ency., III, p 137.

والرجل إما ان يكون من ذوي قرابة البنت وإما ان يكون من الأباعد ، أي غريباً عنها . فان كان من ذوي قرابتها ، قال لها ولي أمرها اذا حملت اليه : أيسرتِ وأذكرتِ ولا انثتِ ، جعل الله منك عدداً وعزاً وخلداً . أحسني خلقك ، وأكرمي زوجك ، وليكن طيبك الماء ... ومثل ذلك من كلام . واذا زوّجت في غربة قال لها : لا أيسرتِ ، ولا ذكرتِ ، فانك تدنين البعداء ، أو تلدين الأعداء . أحسني خلقك ، وتحببي الى أحمائك ، فان لهم عيناً ناظرة اليك ، وأذناً سامعة اليك ، وليكن طيبك الماء [1] .

واذا كان العرس أولموا وليمة ، ودعوا اليها ذوي قرابة الزوجين وأصدقاءهم . وتتناسب الولائم مع مكانة العريس وأهله ، للهو ، فإن كان غنياً كانت وليمته ضخمة ، وربما دعوا اليها أهل الطرب ، وقدّموا فيها المأكولات الشهية والخمور . ويقال للوليمة التي تقام « الملاك » ويقال « الإملاك » ، ويقال للطعام الذي يقدم في « الإملاك » « الشندخ » لأنه يقدم الدخول . واما ما يصنع للدخول بالمرأة ، فيقال له : « وليمة » و « وليمة العرس » [2] . وكانوا يعدون ولائم العرس من الأمور اللازمة ، ويفعل ذلك حتى القفير الضعيف الحال . وقد حث الاسلام عليها ، فورد في الحديث ان الرسول قال لعبد الرحمن بن عوف : « أولم ولو بشاة » [3] .

وتزف العروس الى زوجها ، ومعها أصدقاؤها وأهلها : وقد يقترن ذلك بضرب الدفوف والغناء . وقد كان الأنصار يعجبهم اللهو ، ولهذا كانوا يهتبلون هذه المناسبات للهو فيها . ومما كان يقال في زف العروس :

أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمرا ما سمنت عذاريكم [4]

ويقال لليلة التي تزف فيها العروس الى زوجها ليلة الزفاف . ويعرف موكب

١ بلوغ الأرب (٢/٣) .
٢ بلوغ الأرب (٣٨٦/١) .
٣ البخلاء (٢٤٦) ، المخصص (١٢٠/٤) .
٤ ارشاد الساري (٦٧/٨) .

الزفاف وبـ (الزفة) ويزف (العروس) الى بيته أيضاً ، فقد كان من عادة ذوي القرابة والأصدقاء إقامة وليمة له ، اذا انتهت رافق المدعوون العريس الى بيته في موكب يغنى فيه ويضرب بالدفوف . وقد يبقى المدعوون الى الصباح ، حيث يحيون ليلتهم ، وهي ليلة العرس ، بالشرب والغناء واللعب .

وتحلّق العروس بالعبير وبأنواع الطيب بحسب سعة حالها وأحوال أهلها المعاشية . وذكر ان (العبير) الزعفران وحده عند أهل الجاهلية . وذكر انه أخلاط من الطيب يجمع بالزعفران ، ، وورد ان العبير غــير الزعفران . وقد اشتهر رداء العروس بطيب رائحته ، لما فيه من العبير . قال الأعشى :

وتَبْرُدُ بَرْدَ رداءِ العــروس في الصيف رقْرَقْتَ فيه العبيرا [1]

وتزف العروس الى زوجها ليلاً : تزف على قدر حال العروسين ، وقــد تزف في النهار ، ويرافق العروس (موكب) موكب من نساء ورجــال على الإبل المزينة يسير والنيران بين يديّ العروس . وقد توضع الأنمــاط على هودج العروس وفي بيتها . وقد منع استعمال النيران في الاسلام ؛ لما في ذلك من التشبه بالمشركين ، كما نهي عن استعمال أنماط الحرير [2] .

وقد تزف العروس في محفة يقال لها (المزفة) ، ومعها أصحاب (الزفة) . وذكر ان (الزفة) ، الزمرة . « ومنه الحديث : انه صلى الله عليــه وسلم ، قال لبلال حين صنع طعاماً في تزويج فاطمة ، رضي الله عنها : « أدخل الناس عليّ زفةً زفةً » أي : فوجاً بعد فوج ؛ وطائفةً بعد طائفة [3] .

وفي المثل : « لا عطر بعد عروس » أول من قال ذلك امرأة اسمها : أسماء بنت عبد الله العُذْرية ، واسم زوجها – وكان من بني عمّها – (عروس) . ثم مات عنها ، فتزوجهــا رجل من قومها أعسر أبخر بخيل دَميم ، يقــال له (نوفل) . فلما أراد ان يظعن بها ، قالت : لو أذنت لي ، رثيت ابن عمّي ، وبكيت عنــد رمسه ؟ فقال : إفعلي . فقالت : أبكيك يا عرس الأعراس ،

---

[1] تاج العروس (٣/٣٧٧) ، (عبر) ، اللسان (٤/٥٣١) ، (عبر) .
[2] عمدة القاري (٢٠/١٤٨ ، ١٥٨) .
[3] تاج العروس (٦/١٢٨ و ما بعدها) ، (زفف) .

يا ثعلباً في أهله ، وأسداً عند الباس ، مع أشياء ليس يعلمها الناس ! فقال : وما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان من الهمة غير نَعّاس ، ويعمل السيف صبيحات الباس . ثم قالت : يا عروس الأغر الأزهر ، الطيب الخيم ، الكريم المحضر ، مع أشياء لا تذكر ! فقال : ومـــا تلك الأشياء ؟ قالت : كان عيوفـــاً للخنا والمنكر ، طيب النهكة غير أبخر ، أيسر غير أعسر . فعرف الرجل انها تعرّض به . فلما رحل بها ، قال : ضمّي عطرك . وقد نظر الى قشوة عطرها مطروحة . فقالت : « لا عطر بعـــد عروس » فذهبت مثلاً . أو « لا مخبأ لعطر بعـــد عروس »[1] .

وتحمل العروس معها أدوات زينتها وموادها الأخرى تضعها في قشوة : قفة من خوص يجعل فيهـــا مواضعها للقوارير بحواجز بينها لعطر المرأة وقطنهـــا ، قال الشاعر :

لها قشوة فيهـــا ملابٌ وزنبقٌ   إذا عزبٌ أسرى اليها تطيبا[2]

ويقال للبنت العذراء التي لم تفتض (البكر)[3] . ويقال ذلك للرجل الذي ، لم يقرب امرأة بعد[4] . وزوجها الأول هو الذي يفتض بكارتها . وإذْ كانت لسلامة بكارة البنت مكانة عند العرب ، كانوا يعرضون دم البكارة على الأقارب ، ليكون شهادة على سلامة بكارتهـا . ويكنى عن البكارة والبنت البكر بـ (بنت ســـعد)[5] .

والزواج حادث مهم في حياة الانسان ، ولذلك يعلن عنـــه بفرح وسرور ، ويقال لذلك (بشاشة العرس)[6] . يعلن عنه بدعوة (وليمة) تولم لذوي القربى والأحباء والجيران والأصدقاء ، تقترن بالغناء وبالضرب على الدفوف أحيانـــاً ، وبارتداء ملابس نظيفة مناسبة ، أو ملابس مصبوغة بصفرة ، والصفرة عند أهل

---

١ تاج العروس (١٨٨/٤) ، (عرس) .
٢ تاج العروس (٢٩٤/١٠) ، (قشا) .
٣ بالكسر .
٤ تاج العروس (٥٧/٣) ، (بكر) .
٥ تاج العروس (٣٧٩/٢) ، (سعد) .
٦ عمدة القارىء (١٣٨/٢٠ وما بعدها) .

الحجاز في ذلك العهد علامة العرس والفرح والسرور ، كما كانوا يصبغون أيديهم ولحاهم بالزعفران ، ويكحلون عيونهم ، والكحل عندهم من الزينة أيضاً [1] . ويقال للطعام يصنع لعرس : (الوليمة) . وقد ذهب بعض علماء اللغة الى ان اسم الوليمة مختص بطعام العرس . وقد حث الاسلام عليها . ورد في الحديث قوله لعبد الرحمن بن عوف : أولم ولو بشاة [2] .

ويقابل الزوج على تفضله بالدعوة الى الوليمة بكلمات فيها خير وشكر وتمنيات للحياة الزوجية الجديدة ، ويقال له عند الانتهاء والانصراف : على الطائر الميمون ، وبالرفاه والبنين . وقد كره في الاسلام القول : بالرفاه والبنين لأنه من أقوال الجاهلية ، ولما فيه من الاشارة الى بغض البنات ، لتخصيص البنين بالذكور [3] ، وإحياء سنن الجاهلية [4] .

المال والبنون :

واذا ولد مولود ذكر ، سُرّ أهله بميلاده . والعرب مثل غيرهم من الشعوب القديمة كانوا يفرحون بميلاد ولد ذكر ، ويغتمون اذا ولدت لهم أنثى ، ويقيمون وليمة لميلاده ، وكثرة البنين من المفاخر التي يفتخر بها أهل الجاهلية . ان كثرتهم نعمة وعزة . والبنون والمال زينة الحياة الدنيا . بالبنين يدافع الرجل عن نفسه وعن بيته ، وبهم ينال المال والحق والأخذ بالثأر ، فهم الحماية ورأس المال . ونقرأ في أخبار أهل الأخبار افتخار الآباء والأمهات بكثرة ما أنجبوا من أولاد ، ولا سيما اذا كان الأولاد حازوا شهرة بالجود أو بالشجاعة أو بأمثال ذلك ، أو سادوا قومهم ورأسوهم . ورد في القرآن : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) [5] . صحيح ان اعالتهم مسألة صعبة عسيرة ، ولا سيما إعالة الفقراء أولادهم ، غير ان الحياة الاجتماعية في ذلك العهد لم تكن على مستوى عال من المعيشة تطلب مالاً

---

١ عمدة القارىء (١٤٣/٢٠ وما بعدها) ، (٢٢/٢٢) .
٢ تاج العروس (٩٦/٩) ، (أولم) .
٣ عمدة القارىء (١٤٥/٢٠ وما بعدها) .
٤ اللسان (٨١/١) ، (رفا) ، تاج العروس (٧١/١) ، (رفا) .
٥ الكهف ، الآية ٤٦ .

يضمن الوالد به عيش أولاده ، انما كانت المعيشة سهلة لا تتطلب حاجات كثيرة ، ولم تكن بالناس حاجة شديدة الى النقود ، فما يقوم به المرء من مجهود بدني هو أصيلة[1] كل انسان ، وبه يعيش ، وبه يحصل على ما يحتاج اليه من وسائل معيشة محدودة . فاذا كثر الأولاد ، ازدادت وسائل المعيشة ، وعاش الوالد عيشة ناعمة طيبة ، وحصل بفضلهم على قوة ومنعة .

وقد ذكر أهل الأخبار عدداً من الرجال عرفوا ببنين حصلوا على شهرة وذكر ، فكانوا يفتخرون بهم بين الناس . من هؤلاء (سعد العشيرة) ، قيل له (سعد العشيرة) لأنه كان يركب في عشرة من أولاده الذكور ، فكأنه منهم في عشيرة ، فصار مثلاً للرجل يستكثر بأبنائه وعشيرته ويتعزز بهم[2] . و (الحارث بن سدوس) . وكان له واحد وعشرون ولداً ذكراً[3] .

ويكون الذكور فخراً للأمهات وقوة لهن ، ويقال للمرأة التي تلد الأولاد الكرماء الأشراف منجبة ومنجاب . (ولم تكن العرب تعد منجبة من لها أقل من ثلاثة بنين أشراف)[4] . وتعرف بـ (أم البنين) كذلك . ومنهن (أم البنين بنت عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) ، و (عمرو بن عامر) هو (فارس) . ولدت (أبا براء) ملاعب الأسنة ، و (طفيلاً) فارس قرزل و (ربيعة) ربيع المقترين ، و (معاوية) معوذ الحكماء ، (سلمى) نزال المضيق ، بني مالك بن جعفر بن كلاب[5] .

وقد أشار القرآن الكريم الى نفرة العرب من البنات ، وما كان يصاب به الرجل من ضيق صدر ومن هم اذا بلغ ان مولوده أنثى ، قال تعالى : (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم)[6] . ويزداد كربه اذا زاد عدد بناته ، وقد يعمدون الى (الوأد) ، أي دفنهن أحياء للتخلص منهن .

١ الأصيلة : رأس المال .
٢ ثمار القلوب (١٠٤) .
٣ ثمار القلوب (١٤٢) .
٤ المحبر (ص ٤٥٥) ، تاج العروس (٤٧٧/١) ، (نجب) .
٥ المحبر (٤٥٨) ، تاج العروس (٤٢٣/٣) ، (عمر) .
٦ النحل ، الآية ٥٨ .

قيل : « إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار »[1] . والى ذلك أشار القرآن الكريم : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق . نحنُ نرزقهم وإياكم)[2] ، (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم وإياكم)[3] .

وقد افتخرت (بنو عبس) بـ (زهير بن جذيمة بن رواحة) العبسي ، لأنه كان أبا عشرة ، وعم عشرة ، وأخا عشرة ، وخال عشرة ، ورأس غطفان كلها في الجاهلية ولم يجمع على أحد قبله[4] . فكثرة البنين من موجبات الفخر والاعتزاز والتباهي عند الجاهليين .

العقيقة :

واذا كانت نهاية الانسان عند الجاهليين مقترنة بالدم ، فإن مبدأ حياته مقترن عندهم بالدم كذلك . لقد كان من عادتهم ذبح شاة عند ميلاد مولود وتلطيخ شيء من دمها برأس المولود ، ويقال لهذه الذبيحة « العقيقة » ، وهي كلمة جاهلية وردت في الشعر الجاهلي[5] . وتذبح عادة في اليوم السابع من ميلاد المولود[6] . وقد أقر الاسلام ذلك ، فوردت الكلمة في الحديث . ويذكر علماء اللغة ان معنى العقيقة هو شعر كل مولود يخرج على رأسه في بطن أمه ، وانه قيل للشاة المذبوحة لذبحها عند الاحتفال بحلق هذا الشعر . وقد كانوا يعيرون من لم تحلق عقيقته ، إذْ يرون في ذلك منقصة لا تليق بالرجل الكامل[7] .

ويستقبل المولود بذلك حنكه بالتمر الممضوغ ، أو الحلو مثل عسل النحل ،

١ المسطرف (٧٧/٢) .
٢ الآسراء الآية ٣١ .
٣ الانعام ، الآية ١٥١ .
٤ الإصابه (٢٦٦/٣ وما بعدها) ، (رقم ٧٣٥٢) .
٥ ناج العروس (١٥/٧) ، اللسان (١٢/١٢٩) .
٦ فهارس البخاري (ص ٣٣٣) .
٧ في شعر منسوب الى امرىء القيس :

يا هند لا تنكحي بوهة عليه عقيقته احسبا

ناج العروس (١٥/٧) ، البخاري « كتاب العقيقة » حديث (١) ، عمدة القارىء (٨٢/٢١) .

وكل ما لم تمسه نار من الحلو [1] . وكان العبرانيون يفركون المولود بالملح . واستقبال المواليد بمثل هذه الأمور من العادات الشائعة عند كثير من الأمم القديمة ، وهي عادات وشعائر دينية أيضاً . فإن الشعوب القديمة لم تكن تفرق كثيراً بين العادات والشعائر بخلاف الحال في الزمن الحاضر [2] . ولاستقبال المولود بدلك جسمه بالحلو أو بالملح أو بما شابه ذلك ، معنى التفاؤل . فالحلو رمز السعادة والفرح . واما الملح ، فانه عنصر مهم من عناصر الحياة عند الأمم القديمة . والخبز والملح هما رمز الصداقة والمودة حتى اليوم .

ويسلي الأطفال باعطائهم العرائس والتماثيل الصغيرة يلعبون بها ويقضون وقتهم بالتسلي بها وبمكالمتها على نحو ما يفعل أطفال اليوم . كما يتسلون باللعب معاً بألعاب خاصة بالصبيان .

الختان :

ويعدّ الختان من العادات الجاهلية القديمة ، والعرب في ذلك كالعبرانيين . وهو أمر لم يرد ذكره في القرآن الكريم ، انما ورد ذكره في الحديث . وترجع الكلمة الى أصل سامي شمالي قديم [3] . والختان في الأصل نوع من أنواع العبادة الدموية التي كان يقدمها الانسان الى أربابه ، وتعدّ أهم جزء من العبادات في الديانات القديمة [4] . فقطع جزء من البدن وإسالة الدم منه ، تضحية ذات شأن خطير في عرف أناس ذلك العهد ، كما كان حلق الشعر كله أو جزء منه نوعاً من أنواع التقرب الى الآلهة [5] . والختان في الاسلام معدود من سنن الفطرة التي ابتلى الله ابراهيم بها ؛ وهي الكلمات العشر . وفي جملتها الختان [6] .

وقد كان الجاهليون يسمون من لم يختتن : أقلف وأغلف وأغرل ، ويعيبونه ،

---

١ عمدة القاري (٨٣/٢١) ، اللسان (٢٩٨/١٢) ، « حنك » .

٢ Reste, S., 173.

٣ Shorter Ency., p., 254, Ancient Israel pp. 46

٤ Reste, S., 174.

٥ Smith, p., 328.

٦ بلوغ الأرب (٢٨٧/٢) ، الحيوان (٢٧/٧) ، (هارون) .

ويعدّونه ناقصاً[١] . وذكر انتشار هذه العادة عند العرب بعض الكتبة « الكلاسيكيين » مثل : « يوسفوس » المؤرخ اليهودي و « أويسبيوس » و « سوزومينوس » (Sozomenius)[٢] ويظهر انه كان معروفاً عند العرب الجنوبيين وعنـــد الحبشة كذلك[٣] . وقد طبق على النوعين الذكور والإناث . وكانت العرب تزعـــم ان الغلام اذا ولد في القمراء فسحت قلفته فصار كالمختون ؛ قال امرؤ القيس وقـد كان دخل مع قيصر الحمام فرآه أقلف ، على ما يزعمه أهل الأخبار :

إني حلفت يميناً غـــير كاذبة   لأنت أقلف إلا ما جنى القمر[٤]

وذكر « يوسفوس » ان العرب يختنون أولادهم عند بلوغهم عشرة من سنهم[٥] . ومن الضعف قبول خبره ، ويظهر من موارد أخرى ان الجاهليين لم يعينوا عمراً معيناً للاختتان[٦] وأحسب ان هــذا الكاتب اعتمد على مــا جاء في التوراة عن اختتان اسماعيل وهو في الثالثة عشرة من عمره ، أو انه اعتمد على ما سمعه من بعض القبائل الاسماعيلية الساكنة في المناطق الشماليـــة الغربية من جزيرة العرب ، فظن ان الاختتان عند جميع العرب هو في هذه السن .

وقد ورد في بعض الأخبار ان الروم حاولوا منع العرب من الاختتان[٧] .

والاختتان من المناسبات المفرحة المبهجة في حياة الأسرة ، لهذا كان من عـــادة العرب يدعون ذوي القرابة والأصدقاء الى الولائم ويلبسون الأطفال أحسن ما عندهم من لباس ابتهاجاً وفرحاً بذلك .

الرجولـــة :

واذا بلغ الطفل ، صار رجلاً ، وجاز له حينئذ ان يفعل فعل الرجـــال .

١ Resle, S., 174.

٢ Josephus, Antl., I, XII, 2, Eusep., VI, II, Sozomen, Hist. Eccl, VI, 38.

٣ Ency. Religl., 3, p 679.

٤ تاج العروس (٦/٢٢٦) ، (فلف) .

٥ Josephus, Antiq., XX, II, 4.

٦ Ency Religl., 3, P. 679.

٧ Ancient Israel, p 47.

واحتفل أهله بذلك عند الصنم (Oratal) ، الذي يقابل الإلـه (باخوس) (Bacchus) عند اليونان ، ويبلغ الاحتفال غايته عند قص الضفائر ورميها أمامه ، لأن ذلك معناه عندهم دخول الشاب في مرحلة الرجولة ، ودخوله في عبادة هذا الإلـه [1] .

والبلوغ ادراك الغلام والجارية . وقد كان أهل مكة اذا بلغت عندهم الجارية أخذوها الى (دار الندوة) فدرعوها بها ، علامة على بلوغها .

ومن امثال العرب : (ولدك من دمّى عقبيك) [2] ، أي من نفست به ، وصير عقبيك ملطخين بالدم ، فهو ابنك حقيقة ، لا من اخذته وتبنيته وهو من غيرك [3] . والابن الشرعي ، من ينسب الى ابيه بنسب صحيح ، وعزي الى والده . ويقال : انه لحسن العزوة ، اي صحيح النسب حسنه [4] .

والعادة عند اكثر الساميين نسبة الاولاد الى الآباء . ونجد اكثر اسماء الجاهليين على هذا النحو . وهناك اشخاص عرفوا بأسماء امهاتهم ، وللاخباريين في تفسيرها آراء ، الغالب انهم اشتهروا بأمهاتهم لما كان لأمهاتهم من كفايات وصفات خاصة جعلت لهن صيتاً بعيداً طغى على اسم الرجال ، فنسب أبناؤهم اليهن لهذا السبب تمييزاً عن بقية الابناء الذين قد يكونون للرجل من زوجة اخرى . ومن هذا القبيل اشتهار (عمرو) ملك الحيرة بـ (عمرو بن هند) . واشتهار (المنذر) ، وهو احد الملوك بـ (المنذر بن ماء السماء) على رأي من جعل (ماء السماء) اسم والدة الملك .

ولم يكن للجاهليين قواعد ثابتة معينة في تسمية المواليد ، ففي بعض الروايات ان الاجداد او الآباء هم الذين كانوا يقومون بتسمية المولود ، وفي روايات اخرى ما يفيد قيام المرأة بهذه المهمة . والذي يتبين من غربلة الروايات ان الرجال هم يسمّون الاولاد ، فيضعون لهم الاسماء . اما تسمية البنات فكانت في الغالب من اختصاص النساء . وقد يثبت اسم المولود ويحدد في اليوم السابع من مولده ، اي

---

١ Hastings, I, p. 283, Herodotus, III, 8.

٢ محركة وكسر الكاف فيهما بناء على انه خطاب للانثى .

٣ تاج العروس (٢/٥٤٠) ، (ولد) .

٤ تاج العروس (١٠/٢٤١) ، (عزا) .

في يوم (العقيقة) . وتذكر كتب السير ان (عبد المطلب) هو الذي سمى الرسول محمداً ، في يوم سابعه ، اخذه فدخل به الكعبة ، ثم خرج به الى أمه فدفعه اليها ، وفي هذا اليوم عقّ له على عادة العرب في ذلك العهد . وتذكر ايضاً ان قريشاً « قالوا لعبد المطلب ما سميت ابنك هذا ؟ قال سمّيته محمداً » [1]

وتختلف التسميات في جزيرة العرب ، كما تختلف معانيها ، فالأسماء المشهورة عند العرب الجنوبيين والواردة في نصوص المسند لا ترد في قوائم اسماء الجاهليين الذين كانوا يعيشون قبيل الاسلام في نجد والحجاز . وأسماء اكثر ملوك العرب الجنوبيين ولا سيما الذين عاشوا منهم قبل الاسلام هي اسماء مركبة ، ولها صلة بالآلهة . اما اسماء الملوك الشماليين فأكثرها مفردة مثل المنذر والنعمان والحارث وعمرو وأمثال ذلك . والأسماء الشمالية المركبة لها صلة بالأصنام ، ولكن بأصنام العرب الشماليين ، مثل عبد مناة ، وعبد العزى ، وامرىء القيس ، وعبد ودّ . وأما اسماء سواد الناس ، فتختلف كذلك في العربية الجنوبية عنها في الشمال ، وفي المواضع الاخرى من جزيرة العرب . وقد احدث الاسلام تغيراً كبيراً في الاسماء ، فاجتث منها كلّ ما له صلة بالوثنية وبالأوثان ، وجاء بتسميات لم تكن شائعة بين الجاهليين ، مثل : محمد وعلي وأمثال ذلك من اسماء لها صلة بالرسول وبالصحابة وبتاريخ الاسلام .

ما كان العرب يسمّون به اولادهم :

وقد بحث (الجاحظ) في علل التسميات عند العرب وفي اسبابها ، فقال : (والعرب انما كانت تسمّي بكلب ، وحمار ، وحجر ، وجعل ، وحنظلة ، وقرد ، على التفاؤل بذلك . وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فان سمع انساناً يقول حجراً ، او رأى حجراً ، سمّى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر ، وأنه يحطم ما بقي . وكذلك ان سمع انساناً يقول ذئباً او رأى ذئباً ، تأول فيه الفطنة والخِبّ والمكر والكسب . وان

١ الاشتقاق (٦) ، المواهب (٢٤١) ، الحلبية (١/٩٤ وما بعدها) ، الروض الانف (١/١٠٦ وما بعدها) ، ابن هشام ، سيره (١/١٦٦ وما بعدها) ، تاريخ الاسلام ، للذهبي (٧/٢٣ وما بعدها) ، تفسير روح المعاني (٤/٧٣) .

كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد. وان كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبُعد الصوت والكسب وغير ذلك) . وجاء بآراء آخرين على هذه التسميات وعلى آرائهم فيها [1] .

وتعرض (الجاحظ) الى اسماء الحيوان التي تَسمَّى بها الناس . فذكر منها : غراب ، وصُرد ، وفاختة ، وحمامة ، ويمام ، ويمامة ، وعقاب ، وقطامي ، وحجل ، وصقر ، وصفير ، وطاووس ، وطويس ، وحيقطان ، والغرانيق ، والغرنوق [2] .

المعمرون :

وقد عمر بعض اهل الجاهلية عمراً طويلاً ، فعُدّوا من المعمَّرين في الجاهلية . وروى اهل الاخبار اخبارهم وألف بعضهم كتباً فيهم . فلأبي حاتم السجستاني مؤلف في المعمرين [3] . والعادة عند العرب ان المرء اذا شاخ وكبر بالغوا في تقدير عمره ، وزادوا في سني حياته . حتى جعلوا المعمر من عاش فوق المئة عام . ولا يعد المعمر معمراً عندهم الا اذا عاش مائة وعشرين سنة وصاعداً [4] . ولهذا ، فلا نستغرب ما يرويه اهل الاخبار عن بعضهم من انهم عاشوا فوق المئة بكثير .

ومن المعمرين : الحارث بن كعب بن عمرو بن وعلة بن خالد المذحجي . يزعمون انه عاش مائة وستين سنة . ورووا له وصية في الاخلاق والآداب والمواعظ والحكم . بيَّن فيها انه على دين شعيب النبي ، وما عليه احد من العرب غيره ، وغير أسد بن خزيمة ، وتميم بن مُرّة . وأنه لم يصافح غادراً ، ولم يتخلق بأخلاق فاجر ، ولا صبى بابنة عم له ولا كنة . ولا جاءته مومسة . وأوصى اولاده بالتجمع ، وبالموت في سبيل العز ، وبالحذر من الناس ، وبتزوج الاكفاء وبتجنب الزواج من المرأة الحمقاء ، لانتقال الحمق منهن الى من يلدن . وأوصى بوصل

---

١ الحيوان (٣٢٥/١ وما بعدها) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٥٣/٧ وما بعدها) ، (هارون) .
٣ أخبار المعمرين .
٤ أمالي المرتضى (٣٣٦/١) .

الرحم ، وبلزوم اطاعة الوالدين ، ونبذ الحقد والضغينة [1] .

ومنهم : المستوغر : وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة . ذكروا انه عاش ثلاثمائة وعشرين ، وأدرك الاسلام او كاد يدرك اوله . ونسبوا له شعراً وحِكَماً [2] .

وحشروا في المعمَّرين : (دويد بن زيد) من قضاعة . ذكروا انه عاش اربعمائة سنة وستاً وخمسين سنة ونسبوا له وصية فيها : (اوصيكم بالناس شراً ، لا ترحموا لهم عبرة ، ولا تقيلوا لهم عثرة) الى آخر ذلك من وصية فيها شدة على الناس وحث لأهله على عدم الرحمة بهم ، وألا يرحموا احداً ، والا يهنوا [3] . وهي تمثل وضعاً خاصاً ورأياً لواضع هذه الوصية ولراويها من اناس زمانه ، فيها سوء ظن ، ووجوب الحذر والاعتماد على النفس ، حيث لا ينفع الانسان في حياته الا نفسه .

ومن المعمرين زهير بن جناب . عاش مائتي سنة وعشرين سنة . وأوقع مائتي وقعة ، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه . فيه عشر خصال لم يجتمعن في غيره من اهل زمانه ، كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم الى الملوك ، وطبيبهم ، وحازي قومه ، وكان فارس قومه وله البيت فيهم . وقد نسبوا له وصية ، على عادتهم في نسبتهم الوصايا الى المعمرين . ذكروا انه اوصى بنيه فيها بوجوب التجمع ومقاومة النوائب وترك التخاذل والاتكال ، وبعدم الغرور في هذه الدنيا ، فانما الانسان في هذه الدنيا عَرَضٌ تعاوره الرماة فمقصِّر دونه ، ومجاوز موضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لا بد انه مصيبه . ورووا له شعراً وحكماً .

وذُكر انه كان على عهد (كليب وائل) ، ولم يكن في العرب انطق من زهير ولا أوجه منه عند الملوك ، وكان لسداد رأيه يسمى كاهناً ، ولم تجمع قضاعة الا عليه وعلى رزاح بن ربيعة [4] .

واختلف في عمر (ذو الأصبع العدواني) يوم مات . فذكر بعضهم انه

١ امالي المرتضى (١/٢٣٢ وما بعدها) .
٢ أمالي المرتضى (١/٢٣٤ وما بعدها) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٣٦ وما بعدها) .
٤ امالي المرتضى (١/٢٤٠ وما بعدها) .

عاش مائة وسبعين سنة . واستقل (أبو حاتم السجستاني) هذا المقدار ، فجعله ثلاثمائة سنة . وهو من (عدوان) . وأحد حكّام العرب في الجاهلية . ونسبوا له على عادتهم بالنسبة للمعمرين حكماً وشعراً[1] .

ومن المعمرين الذين دكرهم أهل الأخبار (معد يكرب الحميري) ، من آل ذي رعين ، و (الربيع بن ضبع الفزاري) . ذكر انه عاش أكثر من مائتي سنة . وانه لما بلغ مائتين وأربعين سنة قال شعراً في ذلك . وقد عاش في الاسلام أيضاً وأدرك أيام معاوية[2] .

وجعلوا عمر (أبو الطحان القيني) مائتي سنة ونسبوا له حكماً وشعراً[3] . وأبى (الكلبي[4]) ان يجعل عمر (عبد المسيح بن بقيلة الغساني) ، وهو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن بقيلة ، أقل من ثلاثمائة وخمسين سنة . وجاراه في ذلك (أبو مخنف) وآخرون . وذكروا انه عاش في الجاهلية وأدرك الاسلام فلم يسلم ، ومات نصرانياً . وذكروا ان (خالد بن الوليد) لما نزل على الحيرة ، وتحصن منه أهلها أرسلوا اليه (عبد المسيح بن بقيلة) ليكلمه فسأله خالد أسئلة عديدة . منها : أعرب أنتم أم نبط ؟ قال عبد المسيح : عرب استنبطنا ونبيط استعربنا . ثم سأله : كم أتى لك ؟ قال : ستون وثلاثمائة سنة . ثم عاد الى قومه فنصحهم بمصالحة خالد . ورووا له شعراً في دخول المسلمين الحيرة ، وكيف صار أمر (آل المنذر) ، وقد تحسر فيه على الأيام الماضية ، التي ولت حتى آل الأمر بهم ان يؤدوا الخراج الى (معدّ) التي اقتسمتهم علانية كأقسام الجزور ، يؤدون لهم الخراج ، بعد خراج كسرى وخراج من قريظة والنضير . ثم خلص الى ان الدهر هو كذلك لا يدوم على حال . فيوم من مساءة ويوم من سرور[4] .

وذكر ان بعض سادات أهل الحيرة خرج الى ظاهرها يختط[4] داراً ، فلما احتفر

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٤٤ وما بعدها) ، الأغاني (٣/٩٤ وما بعدها) ، الكامل ، للمبرد (٥/٩٤ وما بعدها) .

٢ أمالي المرتضى (١/٢٥٣ وما بعدها) .

٣ أمالي المرتضى (١/٢٥٧ وما بعدها) .

٤ أمالي المرتضى (١/٢٦١ وما بعدها) .

موضع الأساس ، وأمعن في الاحتفار أصاب كهيئة البيت ، فدخله فإذا رجل على سرير من رخام ، وعند رأسه كتابة : أنا عبد المسيح بن بقيلة .

حلبت الدهر أشطره حياتي ونلت من المنى بُلَغَ المزيد
وكافحت الأمور وكافحتني فلم أحفل بمعضلة كئود
وكدت أنال في الشرف الثريا ولكن لا سبيل الى الخلود [1]

وأدخلوا (النابغة الجعدي) ، واسمه (قيس بن عبد الله بن عدس) في المعمّرين . ولكنه لم ينل من أهل الأخبار عمراً يستحق الذكر . إذْ منحوه أقصر ما يمكن من العمر بالنسبة للمعمرين . وهو عشرون ومائة سنة . وتفضل (أبو حاتم السجستاني) عليه فنحه مائتي سنة [2] . وأبو حاتم من الكرماء جداً بالنسبة لمنح الأعمار الى المعمرين . وقد أدرك الاسلام فأسلم . ومدح الاسلام بشعر . ويذكر انه جاء الرسول وأنشده من شعره [3] .

وذكر (الجاحظ) نقلاً عن المتقدمين عليه ، انهم (ذكروا انهم وجدوا أطول أعمار الناس في ثلاثة مواضع : أولها سرو حمير ، ثم فرغانة ، ثم اليمامة ، وان في الأعراب لأعماراً أطول ، على ان لهم في ذلك كذباً كثيراً) [4] .

أصحاب العاهات :

والعمى من العاهات المعروفة بين الجاهليين . منهم من ولد أعمى ، أو أصيب بالعمى في طفولته ، ومنهم من أصابه وهو على كبر . وذكروا ان من أشراف العميان (زهرة بن كلاب) و (عبد المطلب بن هاشم) و (العبّاس بن عبد المطلب) ، وغيرهم .

و (العَوَرُ) من العاهات التي كان الجاهليون يعيبون من أصيب به . وكانوا

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٦٣) .
٢ امالي المرتضى (١/٢٦٣ وما بعدها) ، جمهرة اشعار العرب (٣٠١ وما بعدها) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٦٥ وما بعدها) ، أخبار المعمرين (٦٤ وما بعدها) ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (٢٤٧ وما بعدها) ، الاصابة (٦/٢١٨ وما بعدها) ، الاغاني (٤/١٢٧ وما بعدها) .
٤ الحيوان (١/١٥٧) ، (أطول الناس أعمارا) ، (عبد السلام محمد هارون) .

يرمون العوران باللؤم والخبث . وقد أصيب بـه بعضهم في الحروب . (كأبو سفيان) فقد أصيب يومَ الطائف بالعَوَر ، وأصيب غيره في معارك أخرى[1] .

وأصيب بعض الناس بالبرص . وقـد ذكر (السكري) أسماء جماعـة من (البرص الأشراف)[2] ، ومن هؤلاء : (جذيمة الأبرش) ، الملقب بـ (الوضّاح) ، وذكر ان (الوضح) كناية عن (البرص)[3] ، وكانت قريش تخاف البرص خشية العدوى . فأخرجت (أبا عزة عمرو بن عبـد الله بن عمير بن وهب) عنها ، مخافة العدوى . فكان يكون بالليل في شُعَف الجبال ، وبالنهار يستظل في الشجر ، وسُقيَ بطنه ، فأخذ مدية فوجأ بها في معدته . فسال ذلك الماء ، فبرأ برصه ، ورجع الى مكة[4] .

ومن العاهات (الفقم) ، وهو تقدم الثنايا العليا ، فلا تقع على السفلى ، اذا ضم الرجل فاه . ثم كثر حتى صار كل معوج أفقـم[5] و (العرج) ، ومن أشهر (العرجان الأشراف) (الحارث بن أبي شمر الغساني) ، و (عبد الله ابن جُدعان) ، و (الحوفزان بن شريك الشيباني) ، و (النابغة الذبياني) ، وغيرهم[6] .

ومن المعيبات في الانسان ، ألا يكون للرجل شعر في وجهه . ويقال لمن عرى وجهه من الشعر (الكوسج) . وذكر انه الذي عرى وجهه من الشعر إلا طاقات في أسـفل حنكه ، كالأثط والثط . والثط هو القليل شعر اللحية والحاجبين . ويقال : رجـل ثَطّ ، وامرأة ثطة الحاجبين[7] . ومن الثُّط (الحارث بن أبي شمر الغساني) ، و (المنذر بن النعمان بن ماء السماء اللخمي) ، و (عبد الله ابن جُدعان) و (قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري)[8] .

---

١ المحبر (٣٠٢) ، (العوران الأشراف) .
٢ المحبر (٢٩٩) .
٣ تاج العروس (٢٤٧/٢) ، (وضح) .
٤ المحبر (٣٠١) .
٥ المحبر (٣٠٤) تاج العروس (١٤/٩) .
٦ المحبر (٣٠٤) .
٧ تاج العروس (٩١/٢) .
٨ المحبر (٣٠٥)

حياة الشبان :

ومن الشبان من كان يقضي وقته بالشراب ، وبمصاحبه القيان ، وهم أولاد اليسار والمجّان . وكان منهم من يأوي الى منزل أحدهــم فيعكفون على اللهو والشُّرب ، لا يعبأون ولا يكترثون [1] ومنهم شباب مكة قبل الاسلام . وكان منهم قوم مستهترون لم يبالوا بحرمة ولا بأحد ، حتى ان شباباً من شباب مكة سرق من خزانة الكعبة لينفق مما سرقه على شربه وقيانه . وقد عرف هؤلاء بـ (الفتيان) . وكانوا يقضون أوقاتهم بالشرب وبلبس الملابس النظيفة ، وبالسماع الى القيان كما عرفوا بالسخاء على من حولهم وعلى من يجتمع معهم من الفتيان . وكانوا شجعاناً ، يخرجون الى القنص والصيد . وقد أشار أهــل الأخبار الى أسمــاء بعض هؤلاء الفتيان [2] .

وشباب الجاهلية مثل شباب أهل كل زمان ، لا يختلفون عنهم بشيء ، في تأنق بعض منهم وفي محاولته اظهار شبابه تجاه البنات . فكان شباب القرى والمدن ولا سيما الوضيئون منهم وأهل الجمال يتسكعون في الأسواق وفي مواضع التجمع ، بل وحتى في المعابد ليعبثوا في كلامهم مع البنات وليتحدثوا اليهن ، شأن أي شاب في هذه الدنيا بالنسبة الى الشابات . وقد اضطر آباء وأقرباء بعض هؤلاء الشباب على تقريع أبنائهــم لتجاسرهم على بنات الحيّ . حتى منــع البعض من الشباب الجميل من التأنق في الملبس حتى لا يلفتوا اليهم أنظار البنات ، فيثرن فيهم عاطفة الجموح نحو التشبب والحب .

وذكر (محمد بن حبيب) أسماء رجال من مكة كانوا يتعممون مخافة النساء على أنفسهم من جمالهم [3] . ويظهر انهم كانوا يرخون العمائم حتى تنزل على الوجه فتخفي معالمه ، ولا يبدو عندئذ شيء من معالم جمال ذلك الشخص . ولم يذكر فيما اذا كانوا قــد فعلوا ذلك من أنفسهــم ضبطاً للنفس من الوقوع في غوى الشيطان ، وتحت تأثير سحر العيون ، أم انهم أجبروا على ذلك إجباراً ، على

---

١ المحبر (١٧٣ وما بعدها) ، تاج العروس(٢٧٥/١٠ وما بعدها) ، (فتى) تاج العروس (٣٤١/٩) ، (مجن) .

٢ المحبر (١٧٣ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ٢٣٢)

نحو ما كان يفعله أهل مكة بالنسبة الى المستهترين من شبابهم ، ليكون التعمم أحد الحواجز التي تحول دون سقوط عين المرأة على الشاب الجميل أو الرجل الجميل . أو انهم فعلوه هم ، على انه (موضة) وزي من أزياء الشباب . ومن الرجال الذين ذكر (ابن حبيب) انهم تعمموا مخافة النساء ولم يكونوا من أهل مكة ، (امرؤ القيس بن حجر الكندي) ، و (قيس بن الخطيم) الأوسي ، و (ذو الكلاع الحميري) ، و (زيد الخيل بن مهلهل الطائي) . ولم يذكر السبب في اقحام مثل هذه الأسماء في موضوع التعمم بمكة . هل ذكرهم بمعنى انهم كانوا اذا قدموا مكة تعمموا ، خشية الوقوع في هوى النساء ، فيجلب عليهم صداعاً وصداماً مع أهل أولئك النسوة ، أو انه ذكرهم بمعنى انهم كانوا يتعممون مثل أهل مكة حذر الوقوع في الحب ، فدرج أسماءهم في هذا الموضع لهذه المناسبة .

وقد ذكر (ابن حبيب) ان (الحضر) ، وهو أحد من كان يتعمم مخافة الوقوع في حب النساء ، لم يكتف بالتعمم ، بل تبرقع أيضاً [1] . ولعله فعل ذلك بتأثير ديني . أخذ ذلك عن الرهبان والمتزمتين بدينهم من أهل الجاهلية الذين حجبوا أنفسهم عن الناس وآووا الى الغار أو قمم الجبال للتبصر والتأمل والابتعاد عن الملأ ، ولا سيما عن النساء .

الفتيان :

وعُرف شباب أبناء الأغنياء والجاه بـ (الفتيان) . وأحدهم (فتى) . ويراد به الشاب . وقد تطلق على السخيّ الكريم ، وهو من (الفتوة) [2] . وكثيراً ما نقرأ في كتب أهل الأخبار جملاً تشير الى (الفتوة) في الجاهلية ، مثل (وهو من فتيان قريش أيضاً) [3] . يريدون بذلك جماعة من أبناء الأسر عاشت عيشة شباب وعبث ، تلهو وتشرب ، وتنفق وتعطي ، وتغيث ،

١ المحبر (٢٣٢) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٧٥) ، (فتى) .
٣ المحبر (ص ١٧٦) .

وتتسابق ، وتقتل وقتها في اللذة والاستمتاع وفي الانفاق على الجسد ، على نحو ما يفعله أبناء الطبقة المترفة في كل وقت . وقد كانت لها نجدة وشهامة ، اذا استُنجد بأحدها هبّ لنجدة المستنجد ودافع عنه .

الأحامرة :

والحياة عند بعض الناس : خمر ولحم وخُلوق . فهي متع الحياة عندهم . قال الأعشى :

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت   مالي وكنت بها قديماً مولعاً
الخمر واللحم السمين وأطّلي   بالزعفران فلن أزالَ مبقعا [1]

والحياة عند البعض خمرٌ ونساء . واتهمت المرأة بحبها الحليّ والطيب . ورد : (أهلك النساء الأحمران . يعنون الذهب والزعفران ، أي أهلكهن حب الحليّ والطيب) . وورد (الأحمران : اللحم والخمر) . ويقال للذهب والزعفران : الأصفران ، وللماء واللبن الأبيضان ، وللتمر والماء الأسودان . وفي الحديث : أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض . والأحمر الذهب والأبيض الفضة . والذهب كنوز الروم ، لأنها الغالب على نقودهم . وقيل أراد العرب والعجم . وقيل : الأحامرة : اللحم والخمر والخلوق . وورد الأحمران : الخمور والبرود [2] .

الخمور :

وفي مجتمع الحياة فيه على وتيرة واحدة ، والفراغ فيه أكثر من العمل ، ومرافق اللهو والتسلية فيه قليلة أو معدومة ، والفقر فيه أكثر من الغنى ، وتشغيل الفكر فيه محدود ضيق — في مجتمع كهذا المجتمع لا بد وان يقبل الناس فيه على قتل فراغهم بالبحث عن شيء ينسيهم فراغهم وفقرهم وشدة حاجتهم ، ويلهيهم عن قساوة الطبيعة عليهم ، ويبعث فيهم الأمل والطرب والنشوة ، والشعور بأنهم

---

١ تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٤) . (حمر) ، الحيوان (٣/٢٤٩) ، (هارون) .

سادة ملكوا الدنيا ، وان كل واحـد منهم هو (رب الخورنق والسدير)[1] ، فكان اقبالهم على الخمر شديداً ، حتى أفرطوا في شربه وآذى بعضهم نفسه من شدة إقباله عليه ، فصار آفة من الآفات ، حتى ضحى شاربه بمركزه وماله في سبيله ، فكان ذلك من عوامل تحريمه في الاسلام .

وقد كان الخمر من متع الحياة الثلاث بالنسبة للشباب . والمتع الثلاث : الخمر والقمار والنساء[2] . فاذا أضيفت الشجاعة اليها صار الفتى من خيرة الفتيان ، لذلك كان الشباب يفتخرون اذا جمعوا بين هذه المتع ويتباهون على غيرهم بها . وربما ارتكبوا المعاصي والمخالفات في سبيل الحصول على المال للانفاق على متعهم هـذه وعلى ملذاتهم وملاهيهم في هذه الحياة .

ومن أسماء الخمر : العقار ، سميت لمعاقرتها أي لملازمتهـا الدنّ . والمعاقرة الإدمان ومعاقرة الخمر إدمان شربها . وقيل سميت عقاراً لأن أصحابها يعاقرونها أي يلازمونها أو لعقرها شاربها عن المشي ، وقيل هي التي لا تلبث ان تُسكر[3] .

والسكران نقيض الصاحي . والسكر حالة تعترض بـين المرء وعقله . وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب المسكر . و (السكّير) الكثير السكر[4] . و (المدمن) هو الملازم للشراب وغيره ، لم يقلع عنه ، فهو يلازمه ولا يقلع عن شربه أو شرب الخمر[5] .

وقد أدمن كثير من أهـل الجاهلية على شرب الخمر ، وهلك قسم منهـم بسببها . وقد حذر من ذلك الاسلام فورد : « مدمن الخمر كعابد الوثن »[6] ، و « لا يدخل الجنة مدمن خمر »[7] .

١ واذا سكرت فانني رب الخورنق والسدير   واذا صحوت فانني رب الشويهة والبعير
وقال حسان بن ثابت :
ونشربها فتتركنـا ملوكـا   وأسدا ما ينهنهنـا اللقـاء
٢ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٤٣) .
٣ تاج العروس (٤١٧/٣) ، (عقر) .
٤ تاج العروس (٢٧٣/٣ وما بعدها) ، (سكر) .
٥ اللسان (١٥٩/١٣) ، (دمن) .
٦ اللسان (١٥٩/١٣) ، (دمن) .
٧ المستطرف (٢٢٩/٢) .

وعرف علماء اللغة (الخمر) بما أسكر من عصير العنب ومن عصير كل شيء يُسكر . ولما نزل الأمر بتحريم الخمر ، كان شرابهم بالمدينة يومئذ الفضيخ ، البُسْر والتمر في الغالب[١] . غير ان الجاهليين كانوا يصنعون الخمر من أي شيء يقع في أيديهم مما يمكن تخميره للحصول على مادة مسكرة منه مثل الحبوب الأعشاب وغير ذلك ، بل كان منهم من يخمر اللبن ، ولا سيما البان الإبل ، للانتشاء بها . و (النشوة) السكر[٢] .

وكان أهل المدينة يسقون ضيوفهم شراباً من الفضيخ . فاذا جاءهم ضيف سقوه منه . كانوا يضعونه في قِلال وجرار وهو خليط من بسر وتمر ، ومن تمر وزَهْو . والزهو[٣] هو البسر الملون الذي ظهرت فيه الحمرة والصفرة[٤] ، كما كانوا يصنعونها من خلط الزبيب والتمر[٥] أيضاً . وكانوا يجلسون مجلسهم ، ويسقيهم أحد أبناء صاحب الدار أو خادم من خدمه ؛ من قلال أو كؤوس يدور بها عليهم قليلاً قليلاً[٦] .

واستخرج أهل اليمن من الشعير شراباً عرف عندهم باسم (المزر)[٧] . وذكر ان (المزر) نبيذ الذرة والشعير والحنطة والحبوب ، وقيل : نبيذ الذرة خاصة . وذكر أبو عبيد ان ابن عمر فسّر الأنبذة ، فقال : البِتع نبيذ العسل ، والجعة نبيذ الشعير ، والمزر من الذرة ، والسكر من التمر ، والخمر من العنب[٨] .

وورد ان أهل اليمن كانوا يتخذون شراباً مسكراً من القمح يستعينون به على برد بلادهم ويتقوّون به على عملهم . وقد منعوا عن ذلك في الاسلام حين نزل الأمر بتحريم الخمور[٩] .

١ تاج العروس ٣/١٨٦ وما بعدها) ، (خمر) ، صحيح مسلم (٦/٨٥) ، (باب تحريم الخمر) .
٢ تاج العروس (١٠/٣٦٨) ، (نشي) .
٣ بفتح الزاي وسكون الهاء وبالواو ، وقد نضم الزاي .
٤ صحيح مسلم (٦/٨٧ وما بعدها) .
٥ صحيح مسلم (٦/٨٩) .
٦ تاج العروس (٣/٥٤١) .
٧ صحيح مسلم (٦/٦٩) .
٨ تاج العروس (٣/٥٤١) ، (مزر) ، الاصابة (١/٤٦٦) .
٩ الاصابة (١/٤٦٦) ، (رقم ٢٤٠٩) .

ومن الخمور نوع اشتهر في العراق باسم (الخمور الصريفية) نُسبت الى قرية (صريفون) عند (عكبراء) في العراق ، وإياها عنى الأعشى بقوله :

وتجبى اليه السيلحون ودونها صريفون في أنهارها والخَوَرْنَقُ

ووصف الأعشى في شعر آخر الخمر الصريفية فقال :

تعاطي الضجيع اذا أقبلت بُعَيْدَ الرقاد وعند الوَسَنْ
صريفيةً طيّبٌ طعمهـا لها زبد بين كوبٍ ودن

وذكر بعض العلماء انها إنما عرفت بصريفية ، لأنها أخذت من الدن ساعتئذ كاللبن الصريف [1] .

وكانوا يضعون خمرهم في زِقٍّ يحملونه معهم ، فأينما يكون الانسان يكون خمره معه . وقد كانوا يكثرون من استعماله كما يظهر ذلك من روايات أهـل الأخبار مع فقر شاربها وعدم وجود طعام عنده . أما في المدن والقرى والحواضر ، فهناك خمارات ، جمعت الى الخمر وسائل المتع الأخرى ، يقصدها أهل المكان والغرباء للاستمتاع بها ، والترفيه عن خاطرهم . وقد هيأت بعض الخمارات المغنين فيها وجلبوا الى حاناتهم أنواع الخمور .

وكانت الخمارات منتشرة في كل مكان ، ولا سيما على الطرق . حيث ينزل بها المسافرون للاستراحة واستعادة النشاط بعد تعب ونصب . وكان بمكة وبسائر القرى خمارات كذلك . أصحابها نصارى ويهود في الغالب . ومعظمهم من غير العرب ، وفدوا من الخارج للتكسب والعيش فامتهنوا مهنة بيع الخمر وإسقائهـا للناس . وقـد عرفت (الخمارة) بالحانوت . يذكر علماء اللغة ان (الحانوت دكان الخمر) . وقـد أشير الى بالحانوت في الشعر الجاهـلي . وكانت العرب تسمي بيوت الخمارين الحوانيت . وأهل العراق يسمونها المواخير . وورد ان الخليفة (عمـر) أحرق بيت (رويشد الثقفي) ، وكان حانوتـاً يعاقر فيـه الخمر ويباع [2] . وعرفت (الخمارة) بالدكة أيضاً [3] .

---

١ تاج العروس (١٦٤/٦) ، (صرف) .
٢ تاج العروس (٥٣٩/١) ، (حانوت) .
٣ تاج العروس (٢٠١/٩) ، (دكن) .

وقد يجتمع فتيان من مواضع شتّى للشرب ، فيقال لهم (الأندرون) . يتنادرون فيما بينهم بما شذّ وخرج من الجمهور . وذكر ان قول عمرو بن كلثوم :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

هو في هذا المعنى [1] .

وقد تاجر اليهود بالخمر ، وفتحوا لهم الخمارات في الأماكن التي أقاموا بها من جزيرة العرب ، فقصدها الناس للشرب . ومن جملتهم الشاعر الأعشى الذي كان كلِفاً بشرب الخمر حريصاً على تعاطيها ، قيل انه عزم على الدخول في الاسلام وأراد الذهاب الى الرسول لينشده ويعلن أمامه دخوله في الاسلام ، ونظم شعراً في مدحه ، فأدرك (أبو سفيان) ما في شعر (الأعشى) في مدح الرسول والاسلام من أثر في تصرفه وفي إضعاف قريش ، فلقيه وحادثه وكلّمه وجاءه من ناحية نقطة الضعف التي كانت فيه . وهي حبّه للخمرة . فهيّج أشجانه فيها ، وأظهر له كيف ان الاسلام حرّمها على المسلمين ، وجعل في شربها الحدّ ، فهو سيُحرم من متعته الوحيدة التي بقيت له في حياته ان دخل في الاسلام . وأثار فيه الحنين اليها ، ورغّبه في الذهاب الى قومه والمكوث هناك سنة يشربها ، ثم يرى رأيه بعد ذلك ، فإما ان يستمر على شربها ، واما ان يعافها ويدخل في الاسلام ، على ان يأخذ مقابل ذلك مائة من الإبل . فأثر كلام (أبو سفيان) فيه ، وأخذ الإبل وذهب بها الى قومه وأقام بـ (منفوحة) حتى مات بها قبل الحول [2] .

وذكر (بلينيوس) ان العرب كانوا يصنعون الخمر من النخيل ، وذلك كما يفعل سكان الهند [3] . ويقصد بذلك التمور بالطبع . وقد ذكر ذلك من باب التنويه بالأمور الغريبة . فليس استخراج الخمر من التمور مألوفاً عند اليونان والرومان .

---

١ تاج العروس (٥٦٠/٣) ، (ندر) .

٢ جمهرة أشعار العرب (٥٦) ، الشعر والشعراء (١٣٥) ، الأغاني (٧٧/٨) ، (١٤٣/١٠) ، (٥٢/١٥) ، (١٦٠/١٦) ، المحبر (٣٢١) .

٣ مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث ، الجزء الاول ، (ص ١٣٩) ، (١٩٥٤م)، (بلاد العرب : من تاريخ بلينيوس) .

ولهذا السبب أشار اليه ، ليقف عليه قومه . غير ان العرب كانوا يستخرجون النبيذ من الكروم أيضاً ، وذلك في الأماكن التي توفرت فيهـا الكروم ، مثل الطائف واليمن . وقد أشار (سترابون) الى صنع الخمر من التمر [1] .

أما خمور العرب فمن البِتع ، وهو نبيذ العسل ، وهو خمر أهـل اليمن . ومن التمر ومن البُرّ والشعير والزبيب . ولأهل اليمن شراب من الشعير ، يقال له المزر ، أشرت قبل قليل اليه [2] .

وشرب الجاهليون أشربة استخرجوها من الذرة ومن مواد أخرى . فقد صنع أهل اليمن (المزر) من الذرة أيضاً . فلما أسلم قوم منهم سألوا الرسول عنه . فقال لهم : أله نشوة ؟ فلما قالوا له : نعم ، قال : فلا تشربوه [3] .

وانتبذوا في (النقير) : أصل النخلة ينقر فينبذ فيه ، فيشتدّ نبيذه . وذُكر ان أهل اليمامـة كانوا ينقرون أصل النخلة ثم يشدخون فيهـا الرطب والبسر ثم يدعونه حتى يهـدر ثم يموت [4] وانتبذوا في (الحنتم) : الجرار الخضر ، وفي (الدبّاء) ، اليقطين ، وفي (المزفت) أي ما طلي بالزفت [5] .

ومن الخمور (المقدى) . يتخذ من العسل على بعض الروايات . يقال انـه من قرية تسمى (المقدة) بالأردن ، وقيل هي في طرف حوران قرب أذرعات [6] .

وللخمر أسماء عديدة ، ذكرها علماء اللغة . منها ما هي معربة . عربت عن اليونانيـة ، أو الفارسية ، أو السريانية ، لأنهـا استوردت من بلاد الشام ، أو العراق [7] .

ومن الخمور خمر يقال له : (الاسفنط) . وهو المطيَّب من عصير العنب .

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثاني ، (١٩٥٢ م) ، (ص ٢٦٧) .
٢ العقد الفريد (٦/٣٥٦) .
٣ الاصابة (١/١٣٣) .
٤ تاج العروس (٣/٥٨١) ، (نقر) .
٥ القسطلاني ، ارشاد الساري (٦/١١) .
٦ تاج العروس (٢/٤٦٠ وما بعدها) ، (قد) .
٧ راجع كتب اللغة والأدب .

وقيــل هي خمر فيهــا أفاويه ، أو أعلى الخمر وصفوتهـــا . وذكر ان اللفظة (رومية) . قال الأعشى :

وكان الخمر العتيق من الا سفنط ممزوجـة بماء زلال
باكرتها الأغراب في سنة النو م فتجرى خلال شوك السيال [1]

واستعمل الجاهليون أواني الشرب المصنوعــة من الزجاج والباور ومن الذهب والفضة ، واستعملوا أواني أخرى تتناسب مع منزلة الشارب ومكانته . وقـد كان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة يشربون بالآنية الغالية ، وبعضها منقوش . وكذلك تفنن أغنياء مكة في الشرب ، فاستعمل عبد الله بن جُدعان الأواني المصنوعة من الذهب في شربه ، حتى ضرب به المثل ، فقيل : (أقرى من حاسي الذهب) ، وعرف بـ (حاسي الذهب) . وشرب غيره من أصحاب الثراء بأواني غاليــة استوردوها من الخارج ، على حين كان أكثر سكان مكة فقراء لا يملكون شيئاً . ولهذا ورد في الحديث النهي عن الشرب بآنية الذهب والفضة [2] . وقـد ذكر ان النابغة الذبياني ، وهو من شعراء الجاهليــة الكبار ، كان لا يأكل ويشرب إلا في آنيــة الذهب والفضة ، من عطايا النعمان وأبيـــه وجدّه ، ولا يستعمـــل غير ذلك [3] .

وحرم قوم من الجاهليين الخمر على انفسهم ، وأكثرهم ممن يسمّون الأحناف ، ومنهم من كان يشربها ويقبل عليها ، ولكنه وجد نفسه وقد قام بأعمال لم يرتضيها ، جعلته يشعر بالخجل منها ، فتركها وحرمها على نفسه . ويذكر اهل الاخبار ان اول من حرمها على نفسه وامتنع منها في الجاهلية ، هو (الوليد بن المغيرة) . وهو رجل ينسب اليه اهـــل الاخبار جملة امور ، منها انه اول من خلع نعليه لدخول الكعبة في الجاهلية ، فخلع الناس نعالهم في الاسلام ، وأول من قضى بالقسامة في الجاهلية فأقرها الاسلام ، وأول من قطع في السرقة في الجاهلية ، فأقرّها

---

١ تاج العروس (٥/١٥٤) ، (الاسفنط) .
٢ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٩٣) ، بلوغ الأرب (١/٨٧) .
٣ بلوغ الأرب (٣/٢٢) .

الاسلام . ويذكرون ان الجاهليين كانوا يقولون : « لاو ثوبيّ الوليد ، الخلق منها والجديد » [1] .

وممن ترك الخمر في الجاهلية (عبد الله بن جدعان) ، وسبب تركه لها انه شرب مع امية بن ابي الصلت الثقفي ، فلطم وجه (امية) بعد ان ثمل ، فأصبحت عينه مخضرّة فخاف عليها الذهاب ، فسأله عبد الله : ما بال عينك ؟ فقال : انت اصبتها البارحة . قال : وبلغ مني الشراب ما ابلغ معه من جليسي هذا المبلغ ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر عليّ حرام ، لا أذوقها ابداً [2] . وذكر ايضاً انه سكر فجعل يساور القمر . فلما اصبح أُخبر بذلك ، فحرمها [3] . الى غير ذلك من قصص .

وممن حرمها في الجاهلية ، قيس بن عاصم المنقري ، وعامر بن الظرب العدواني ، وصفوان بن أُمية بن محرث الكناني ، وعفيف بن معديكرب الكندي ، والاسلوم ابن اليامي من همْدان ، ومقيس بن عديّ السهمي ، والعباس بن مرداس السلمي ، وسعيد بن ربيعة بن عبد شمس ، وورقة بن نوفل ، والوليد بن المغيرة ، وأبوه اميه بن المغيرة ، والحارث بن عبيد المخزومي ، وزيد بن عمر بن نفيل ، وعامر ابن جذيم الجمحي ، وأبو ذر الغفاري ، ويزيد بن جعونة الليثي ، وأبو واقد الحارث بن عوف الكناني ، وعمرو بن عبَسَة ، وقسّ بن ساعدة الإيادي ، وعبيد ابن الابرص ، وزهير بن ابي سُلْمى المزني ، والنابغتان الذبياني والجعدي ، وحنظلة الراهب بن ابي عامر ، وقبيصة بن اياس الطائي ، واياس بن قبيصة بن ابي غفر ، وحاتم الطائي ، و (سويد بن عدي بن عمرو بن سلسلة الطائي) [4] .

وذكر ان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية : (بشير الثقفي) . وكان نذر في الجاهلية الا يأكل الجزور ولا يشرب الخمر [5] .

---

١ المعارف (ص ٢٤٠) .
٢ نهاية الأرب (٨٨/٤) .
٣ المحبر (٢٣٧) .
٤ المحبر (ص ٢٣٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٨٨/٤ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢٩٤/٢ وما بعدها) ، الأمالي للقالي (٢٠٤/١ وما بعدها) ، الأغاني (٩/٥) ، (بيروت) .
٥ الاصابة (١٦٠/١) .

وروي ان (عفيف بن معديكرب الكندي) ، عم الأشعث بن قيس ، كان قد طلق الخمر وحرّمها على نفسه وحرّم معها القمار والزنى ، والثلاثة من اهم وسائل التلهي والتمتع بالحياة عند الجاهليين [1] . وكان قيس بن عاصم يأتيه في الجاهلية تاجر خمر فيبتاع منه ولا يزال الخمار في جواره حتى ينفد ما عنده . فشرب قيس ذات يوم فسكر سكراً قبيحاً ، فجذب ابنته وتناول ثوبها ، ورأى القمر فتكلم بشيء ثم نهب ماله ومال الخمار . فلما صحا اخبرته ابنته بما صنع وما قال فآلى لا يذوق الخمر [2] .

وبعض هؤلاء هم من الحنفاء ، وبعضهم من السادة الأشراف الذين لم يتذوقوها ، او انهم تعاطوها ثم رأوا ضررها فتركوها وحرموها على انفسهم . ويظهر ان بعضهم قد حرمها على نفسه وعلى آله ايضاً ، فذكر مثلاً ان الوليد بن المغيرة ضرب فيها ابنه هشاماً على شربها ، ولعلّ منهم من كان يستعمل الحدّ ، وهو الجزاء الذي قرره الاسلام على شاربي الخمر .

وقد اشار اهل الاخبار الى وقوع حوادث لأكثر من ذكرتهم دفعت بهم الى تحريم الخمر على انفسهم ، كالذي ذكرته من امر عبد الله بن جدعان ، وكالذي اشار اليه اهل الاخبار من تحرش بعضهم بمحارمهم تحرشاً لا يفعله انسان سويّ ، او تخليطهم اثناء سكرهم وقيامهم بأعمال مضحكة صيّرتهم سخرية للحاضرين ، فلما صحوا وسمعوا بما فعلوا ندموا على ما بدا منهم ، وقرروا اجتنابها وتحريمها على انفسهم منذ ذلك اليوم [3] .

وكان الجاهليون يشتدون على النساء في شرب الخمر حتى لم يُحفظ انّ امرأة سكرت [4] .

المخدرات :

لم اعثر على نص جاهلي جاء فيه ذكر لاستعمال اهل الجاهلية للمخدرات ، ولم

---

١ بلوغ الأرب (٢٩٤/٢) .
٢ بلوغ الأرب (٢٩٧/٢) .
٣ المحبر (ص ٢٣٧ وما بعدها) .
٤ بلوغ الأرب (٢٩٧/٢ وما بعدها) .

اعثر في اخبار اهل الاخبار على خبر يفيد تعاطي الجاهليين لها. ولكن هذا لا يعني نفي معرفة عرب الجاهليـــة بالمخدرات ، ويظهر ان إفراطهم في تناول الخمور ووجود الخمور الرخيصة لديهم ، وتحضيرهم لها بطرق بدائية رخيصة ، وتخدرهم بها ، كانت من الأمور التي صرفتهم عن استعمال المخدرات الاخرى التي ربما زاد ثمنها على ثمن الخمر.

الانتحار بشرب الخمر :

وقد قتل بعض الجاهليين انفسهم بشرب الخمر صرفاً ، ذكر (السكّري) منهم (عمرو بن كلثوم التغلبي). وكانت الملوك تبعث اليه بحبائه وهو في منزله من غير ان يفد اليها . فلما ساد ابنه الأسود بن عمرو ، بعث اليه بعض الملوك بحبائه كما بعث الى ابيه ، فغضب (عمرو) وقال : (ساواني بولدي) ، وحلف لا يذوق دسماً حتى يموت ، وجعل يشرب الخمر صرفاً على غير طعام ، فلم يزل يشرب حتى مات [1].

وأهلك (البرجُ بن مسهر الطائي) نفسه بشرب الخمر الصرف كذلك ، في قصة ذكرها (السكري) [2].

و (زهير بن جناب بن هبل) ، هو ممن أتلف نفسه بشرب الخمر ايضاً ، لما خالفه ابن اخيه عبد الله بن عليم بن جناب ، فانزعج من ذلك وغضب ، وأمات نفسه بشرب الخمر . ذكر انه قال في ابن اخيه : (علوّ الرجل ابن اخيه ، غير انه لا يَدَعُ قاتل عمه) [3].

وذكر ان (ابا براء بن مالك بن جعفر) ، قتل نفسه بشرب الخمر ايضاً ، انتحر لمخالفة قومه امره. فدعا قَيْنَتَيْنِ له ، فشرب ، وغنتاه ، ثم دعا بالشاعر (لبيد) ، وطلب منه ان يقول ما يقول فيه من المراثي ، فلما اثقله الشراب ، اتكأ على سيفه حتى مات [4].

---

١ المحبر (٤٧١) .
٢ المحبر (٤٧١) .
٣ المحبر (٤٧١) ، الاصابة (٢٤٩/٢) ، (رقم ٤٤٢٣) .
٤ المحبر (٤٧٢ وما بعدها) ، الاصابة (٢٤٩/٢) ، (٤٤٢٣) .

الاغتيال :

الغيلة : هي الخديعة وايصال الشر او القتل الى انسان من حيث لا يعلم ولا يشعر [1] . وقد كان معروفاً بين الجاهليين ، شجع على ظهوره وانتشاره بينهم عُرْف الأخذ بالثأر ، والتنافس الذي كان بينهم على الرئاسة والوجاهة ، وقواعد مجتمع ذلك الوقت التي كانت تقيم وزناً كبيراً للكلمة ، وللمدح والهجاء ، ولتقديم شخص على شخص في الجلوس في مجلس من المجالس ، فكانت هـــذه الامور وأمثالها تدفع من يتعرض لها على الانتقام ممن اهانه والتربص به وتتبع آثاره حتى يتمكن من قتله او اغتياله .

وقد اتبع المغتالون اساليب شتى في الاغتيال . منها الطعن بالرمح او بالخنجر او بالسكين ، ومنها الذبح ، والخنق ، ومنها اللجوء الى الحيلة بدس السم في الشراب او الطعام ، الى غير ذلك من اسباب الغيلة .

والغيلة غير الفتك . ذُكر ان الفتك ان يقتل الرجل الرجلَ مجاهرة . وهو ان يأتي الرجل صاحبه وهو غارٌ غافل حتى يشد عليه فيقتله ، وان لم يكن اعطاه اماناً قبل ذلك ، ولكن ينبغي له ان يعلمه ذلك .

قال المخبل السعدي :

وإذْ فتك النعمان بالنـــاس محرما فمن ليَ من عوف بن كعبٍ سلاسله

وكان النعمان بعث الى (بني عوف بن كعب) جيشاً في الشهر الحرام ، وهم آمنون غارون فقتل فيهم وسبا [2] .

ولمحمد بن حبيب السكري ، كتاب ذكر فيه اسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام ، وأسماء من قُتل من الشعراء [3] . بدأ فيه بـ (جذيمة الأبرش)

١ تاج العروس (٥٣/٨) ، (غيل) .
٢ تاج العروس (١٦٦/٧) ، (فتك) .
٣ نوادر المخطوطات ، (القاهرة ١٩٥٤ م) ، المجموعة السادسة (تحقيق عبد السلام هارون) .

الذي غدرت به (الزباء) ملكة (تدمر) ، فأجلسته على نطع ، وسقته الخمر ، ثم أمرت بقطع رواهشه ، حتى مات . ثم ثنى بـ (حسان بن تبع) ، فزعم ان اخاه قتله غيلة وهو نائم على فراشه ، طمعاً في ملكه ، ثم تكلم عن (عمليق) ملك طسم ، وكانت منازلهم (عذرة) في موضع اليمامة [1]. وذكر في جملة من ذكرهم اسم (عمرو بن مسعود) و (خالد بن نضلة) من بني (أسد) . وكانت أسد وغطفـــان حلفاء لا يدينون ويغيرون عليهم ، فوفدا سنة من السنين ومعهما (سبرة بن عمير الفقعسي) الشاعر ، على (المنذر) الأكبر اللخمي ، فكلّمهما في أمر دخولهما في طاعته والذب عنه كما ذبت (تميم) و (ربيعة) ، فعلم انهم لا يدينون له . فقرر الكيد بهما ، فأومأ الى الساقي فسقاهما سماً ، فماتا ، ثم ندم على ما فعل ، فأمر فحُفر لهما قبران ودفنا فيهما ، وبنى عليهما منارتين ، وهما (الغريان) وعقر على كل قبر خمسين فرساً وخمسين بعيراً ، وغرّاهما بدمائها ، وجعل يومَ نادمهما يوم نعيم ، ويوم دفنهما يوم بؤس [2] .

وقد كان خنق الأشخاص في جملة وسائل الاغتيال والتخلص من الأعداء ، وقد ذُكر ان الملك (النعمان بن المنذر) ، أمر بخنق (عدي بن زيد العبادي) ، فمات منه . ويكون الخنق بالضغط الشديد على الرقبة باليد ، وباستعمال الحبل او قطع القماش . ويقال للحبل الذي يخنق به (الخناق) [3] .

وذكر ان (الحكم بن الطفيل) ، لما انهزم في نفر من أصحابه يوم (الرقم) (حتى انتهوا الى ماء يقال له المرورات ، فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخنق ابن الطفيل نفسه مخافة المثلة ، فقال في ذلك عروة بن الورد :

عجبت لهم اذ يخنقـــون نفوسهم ومقتلهم تحت الوغى كان أعذرا [4]

الصيد :

والصيد في جزيرة العرب رغبة وحاجة . رغبة للملوك والرؤساء والاثرياء للأنس

---

١ (ص ١١٧) .
٢ (ص ١٣٣ وما بعدها)
٣ تاج العروس (٣٣٩/٦) ، (خنق) .
٤ ديوان عروة (١٣٥) ، نهاية الارب (٣٦٤/١٥) .

والترويح عن النفس ، وحاجة عند السواد وهم فقراء في الغالب لا يملكون شيئاً ، فلحم الصيد نعمة كبرى لهم وغذاء طيب لا يصل اليهم دائماً .

اما اصطياد الرؤساء والاثرياء فبالاستعانة بالصقور في الغالب ، حتى اذا قيل كُنّا نتصقر ، انصرف الذهن في الحال الى الصيد ، لاستعمال الطيور في الصيد ، حيث تُدرَّب تدريباً خاصاً وتعلم تعليماً متقناً ، فاذا رأت الحيوان انقضت عليه ، فلا تتركه يستطيع الحركة والهرب الى ان يصل الصياد الى الفريسة المسكينة . ويدعى قيّم الصقور ومعلمها « الصقّار » . وتستعمل كلاب الصيد كذلك ، وهي كلاب سريعة مدربة تدريباً خاصاً ، فاذا رأت الصقر فوق الفريسة عَدَت خلفها لتساعد الصقر في القبض على الحيوان فلا يهرب ويولي . ومنها ما تفتش عن مواضع اختفاء الحيوانات ، فاذا شعرت بوجود حيوان في كهف او مغارة تدخل اليها او تقوم بحركات تضطره الى الخروج فيصطاده الصياد . وقد تستعمل الخيل كذلك . وهي لم تكن كثيرة في الجاهلية ، ولا يملكها الا المتمكنون .

وقد ذكر الصيد في آيات من القرآن الكريم ، مما يدل على اهميته ومكانته في حياة العرب يومئذ . ويقال للصيّاد القانص كذلك . وأما استثارة الصيد واخراجه ، فيعبّر عن ذلك بلفظة « النّجش » ، والمنجاش والنجاش هو المثير للصيد . ويقال : هَبِص الكلب اذا حرص على الصيد وقلق نحوه ، ويقال ايضاً : غَرَّبت الكلاب ، اذا امعنت في طلب الصيد .

وكانت العرب تعيش في الغالب بلحوم الصيد ، وكانت خيلهم تسهل عليهم نيل صيدهم ، وتعينهم على الوصول الى غايتهم . فكانت عندهم من اعز الأموال وأثمن الأشياء يُعتنى بها اعتناء الرجل بنفسه ، ولولاها حُرم من لذة أكل اللحوم . وكانت اذا اغارتها على صيد ، خضبوا نحر السابق بدم ما يمسكونه من الصيد ، علامة على كونه السبّاق الذي لا يدرك في الغارات [1] .

ولأهل الجاهلية عناية خاصة بـ (الصقور) . يربّونها تربية خاصة . وذكر علماء اللغة ان كل شيء يصيد من البزاة والشواهين ، صقر . وقد اشير الى صيد (الصقور) في الحديث [2] .

١ بلوغ الأرب (٣/١٨) .
٢ تاج العروس (٣/٣٣٩) ، (صقر) .

وقد استعانوا بالكلاب السريعة الجري في الصيد كذلك. وقد عُنوا بتربية أنواع ذكيّة سريعة الجري منها لمطاردة الفريسة ، اذا ادركتها نهشتها او قبضت عليها ، فيأتي الصياد ، فيأخذها منها .

ويتحايل الصيادون في الاصطياد ، فيحفرون حفيرة تلجّف من جوانبها ، اي يجعل لها نواحي ، وتعرف عندهم بالقُرْموص ، وذلك للتمويه على الحيوان. وقد يتخذ الصياد او اي شخص آخر موضعاً فوق اطراف الشجر والنخل خوفاً من الأسد ، فيقال لذلك « العرزال » . وأما « الزُّبية » فحفرة تحتفر للأسد ، وكذلك « الزونة » ، و « القُتْرة » حفرة يحتفرها الصائد يكمن فيها حتى لا يشعر به الصيد. وقد يدخّن الصائد في قترته لكيلا تجد الوحش ريحه ، ويقال لذلك « المُدمّر » . و « الروق » موضع الصائد ، و « الدُّجية » قترة الصائد . وهناك ألفاظ اخرى من هذا القبيل يراد بها الحفَر التي يستتر بها الصيادون في الصيد .

ويستخدم الصيادون جملة ادوات في الاصطياد ، منها آلة تسمى « الجَرّة » ، وهي خشبة نحو الذراع يجعل في رأسها كِفة وفي وسطها حبل ، فاذا نشب فيها الظبي ناوصها واضطرب ، فاذا غلبته استقر فيها . و « الحِبالة » الحبل الذي يصاد به . و « الأحبول » حبالة الصائد . وأما « الشرك » فحبائل الصائد والواحدة « شركة » ، و « المصلاة » شرك ينصب للصيد ، و « الكَصيصة » حبالة الظبي التي يصاد بها . وهناك آلة تشبه المنجل تشدّ بحبالة الصائد ليختطف به الظبي يقال لها « الخاطوف » . وأما « الرداعة » فمثل البيت تجعل فيه لَحْمة يصيد الصياد به الضبع والذئب . ويتخذ الصيادون بيتاً يبنونه من حجارة ، ثم يجعلون على بابه حجراً يقال له السهم . والمِلْسن يكون على الباب ، ويجعلون لحمة السبع في مؤخر البيت فاذا دخل السبع لتناول اللحمة ، سقط الحجر على الباب فسدّها ، وبذلك يحبس ، فلا يستطيع الخروج . ويقال لذلك البيت « الرواحة » . وأما « الجَرِيئة » ، فانها بمعنى « الرداعة » . ولعرقبة الحمير الوحشية تستعمل آلة خاصة تشبه الهلال يقال لها « هلال الصيد » .

وتستعمل الشباك في الصيد كذلك . تستعمل في صيد البحر والبر . ويغذف الصياد بالشبكة على الصيد ليأخذه . وأما القصبة التي تصاد بها العصافير ، فيقال لها الغاية . والغاية الراية كذلك . وأما « الرامق » و « الرامج » فبمعنى المِلواح الذي يصاد به البُزاة والصقور ، وهو أن يؤتى ببومة فيُشدّ في رجلها شيء أسود ،

ويخاط عيناها . ويشدّ في ساقيها خيط طويل ، فاذا وقع عليهـا البازي صاده الصياد من قترته . ويقال انها لفظة عجمية . وقد تُعْشى الطيور بالليل بالنار ليصيدوها ، ويعبرون عن ذلك بجملة : قر القومُ الطيرَ .

و « المِفقاس » عودان يشدّ طرفاهما بخيط ، كالذي في وسط الفخ ، ثم يُلْوى أحدهما ، ثم يجعل بينهما شيء يشدهما ، ثم يوضع فوقها الشركة ، فاذا اصابها شيء ، وثبت ، ثم اغلقت الشركة في الصيد . والعطوف والعاطوف مصيدة فيها خشبة منعطفة الرأس ، والمِقْلة والقُلة عود يجعل في وسطه حبل ، ثم يدفن ، ويجعل للحبل كِفة فيها عيدان ، فاذا وطىء الظبي عليها عضت على اطراف اكارعه . وأما الدّواحيل فخشبات على رؤوسها خِرق ، كأنها طرّادات قصار ، تركز في الارض لصيد حمر الوحش . وأما البُجّة ، فانها « الرداحة » . وأما « اللُبجة » ، فانها حديدة ذات شُعب كأنها كفٌ بأصابعه تَنْفرِج ، فيوضع في وسطها لحم ثم يُشدّ الى وتد ، فاذا قبض عليها الذئب ، التبجت في خطمه ، فقبضت عليه ، وصرعته . و « النّامِرة » مصيدة تربط فيها شاة للذئب .

وقد يستتر الصياد بحيوان او غـيره ليخفي نفسه عن الصيد ، ويقال لذلك « الدريئة » ، وبهذا المعنى « الذريعة » و « الرقيبة » و « السيفة » ، واذا استتر الانسان بالبعير من الصيد فيقال لذلك « المسوق » .

وفي جزيرة العرب حيوانات وحشية ، وقد قلّ فيهـا الأسد الآن . اما في الجاهلية ، فقد كان معروفاً في مواضع عديدة عُرفت عندهم بالمآسد،جمع مأسدة [1] ، وقد كانوا يصطادونه بطريقة اسقاطه في حفر تغطى ، فاذا سار عليها الأسد سقط فيها ، وبطرق اخرى . وهناك الفهود والنسور والضباع والذئاب ، وتكثر القردة في المناطق الجبلية وفي النجود ، وهي لا تزال موجودة في نجود الحجـاز واليمن والعربية الجنوبية .

ويقال لمأوى الأسد في خِيسه : (العريس) (والعريسة) . ويصعب صيده وهو في مكمنه ، وضرب المثل بذلك فقيل :

« كمبتغي الصيد في عِرّيسة الأسد »

---

١ (وأرض مأسدة : كثيرة الأسود) ، اللسان (٢/٧٢) ، (أسد) .

وقال طرفة :

كليوث وسط عريسِ الأجم [1]

ومن الحيوانات الوحشية المعروفة في جزيرة العرب الحمار الوحشي . ويظهر ان بعض الناس كانوا يأكلونه ، بدليل ما ورد في كتب الفقه من النهي عن أكل لحوم الحمر الوحشية . ويذكر علماء اللغة ان الحميريين كانوا يطلقون على الحمار لفظة « العُكسوم » و « الكسعوم » [2] .

ويكثر الظبي في جزيرة العرب ، ويطمع فيه الصيادون . وقد كان الجاهليون يلجأون الى حجوره فيسدّون ابوابها ويحفرون من موضع آخر للوصول اليه ، كما كانوا يضربون بحجر على الحجر ليفزع الظبي ، فاذا فزع تهيأ للقتال ، وتهيأ الصياد للقبض عليه ، ويتحايل عليه فيقبض عليه من ذيله . وهو ما زال كثيراً في مواضع عديدة من جزيرة العرب ، وقد استعملت السيارة في الزمن الحاضر في صيده وذلك في باب التجديد في الصيد [3] .

والنعام من الحيوانات المعروفة في جزيرة العرب . وقد ذكر علماء اللغة ألفاظاً كثيرة قالوا إن العرب اطلقوها على النعام ، على ذكر النعامة وعلى انثاها وعلى صغار النعام . ومنها « الجعول » ويراد بها ولد النعام ، وهي يمانية . وكذلك لأصوات النعام وجماعاتها [4] . وورود هذه الألفاظ دليل على كثرة النعام في جزيرة العرب ووقوف العرب عليها .

وأما اهل السواحل ، فقد اضطرتهم طبيعة بلادهم على الاصطياد في البحر ، على اصطياد سمكه ، للاعتياش عليه ولبيع الفائض منه . او لتجفيف الزائد منه لأكله وقت الحاجة او لتقديمه علفاً لحيواناتهم . وقد اشتهر سكان الخليج في الجاهلية ايضاً بالغوص لاستخراج اللؤلؤ من الصدف الكامن على قاع البحر . وقد كان يؤتيهم ذلك ارباحاً طائلة . اما اهل باطن جزيرة العرب والأماكن البعيدة عن السواحل فقد قلّ علمهم بالسمك ، لعدم وجود انواع منه في البوادي . وعدم امكان ايصاله طرياً اليهم . فقلّت اسماء انواعه في لهجاتهم . بينما نجد له اسماءً عديدة في لغات اهل السواحل لوجود انواع عديدة منه في البحار كانوا يصطادونها . فتكون القسمَ الغالب من اللحم عندهم .

١ اللسان (١٣٦/٦) ، (عرس) .
٢ المخصص (٤٧/٨) .
٣ فؤاد حمزة : في بلاد عسير (ص ٢٣) .
٤ المخصص (٥١/٨ وما بعدها) .

وذكر علماء اللغة ان (السمك) الحوت من خلق الماء[1] . وذكر ان الحوت ما عظم من السمك[2] . ومن أنواع سمك البحر : (القرش)[3] . وهو من الأسماك العظام .

ومن وسائل صيد السمك (العروك) ، خشب يلقى في البحر ، يركبون عليه ، ويلقون شباكهم ، يصيدون السمك[4] . و (العركيّ) صياد السمك . ولهذا قيل للملاحين عرك ، لأنهم يصيدون السمك . (وفي الحديث في كتابه الى قوم من اليهود : ان عليكم ربع ما أخرجت نخلكم ، وربع ما صادت عروككم ، وربع المغزل) . والعروك هم الذين يصيدون السمك[5] .

ومن عادة ملوك الحيرة والغساسنة انهم كانوا يتبدون في المواسم الطيبة من السنة ، بعد هطول الأمطار واكتساء البادية بُسطَ الربيع ، وتعييد الطيور والماشية بالمناسبة السعيدة . كانوا يخرجون الى البوادي للاستمتاع بالمناظر الجميلة وللصيد والقنص ، ومن الأماكن التي كان ملوك الحيرة يقصدونها منزل (ماوية) ، وهو منزل بين مكة والبصرة[6] . ذكر ان الملك (النعمان) كان اذا أراد الاستئناس برؤية حلل الربيع والماء ، خرج الى (النجف) والى البادية ، فتنصب له ولأصحابه القباب ويمضي أياماً هناك يتصيد ويستمتع بمنظر الشقائق ذوات الألوان الأخاذة الجاذبة للقلوب ، حتى زعم ان (شقائق النعمان) انما سميت بذلك نسبة اليه . جاء الى موضع وقد اعتمّ نبته من أصفر وأحمر واذا فيه من هذه الشقائق ما راقه ولم يرَ مثله ، فقال : ما أحسن هذه الشقائق ! إحموها ! وكان أول من حماها ، فسميت شقائق النعمان بذلك[7] .

ويظهر من حديث جرى بين يدي (النعمان) ان من العرب من كان يذمّ الصيّاد ، ويفضل صاحب الإبل عليه . فقد روي ان (معاوية بن شكل) ذمّ

١ تاج العروس (١٤٤/٧) ، (سمك) .
٢ تاج العروس (٥٣٩/١) .
٣ تاج العروس (٣٣٧/٤) ، (قرش) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٧/١) .
٥ تاج العروس (١٦١/٧) ، (عرك) .
٦ الاشتقاق (١٩١) .
٧ تاج العروس (٣٩٨/٦) ، (شق) .

(حجل بن نضلة) بين يدي النعمان ، إذْ قال فيه : « انه مقبل النعلين ، منتفخ الساقين ، قعو الأَلْيَتَيْن مشّاء بأقراء ، قتال نلباء ، بياع إماء » . فقال له النعمان : « أردت ان تذمه ، فمدحته » ، وصفه بأنه صاحب صيد ، لا صاحب إبل[1] . ولعله قصد بذلك انه كان صياداً محترفاً ، اتخذ الصيدَ حرفة له . فقد كان بين الصيادين قوم اتخذوا الصيد لهم حرفة . فاذا اصطادوا باعوا صيدهم ، ولم يستفد منه ، فهو مثل الجزّار ، الذي يبيع اللحم ولا يطعم أهله منه ، ولذلك نظروا اليه نظرة استصغار .

سباق الخيل :

والتسابق على ظهور الخيل رياضة الأثرياء والفرسان القديمة . وهي لا تزال معروفة ، وان كانت قد أخذت تلفظ أنفاسها بسبب اقبال الأثرياء على ركوب السيارات الفخمة التي لفتت أنظارهم وجرّتهم اليها ، فلم يبق من يمارس تلك الرياضة القديمة إلا أولئك الذين لم تصل السيارت اليهم بكثرة ، لوعورة الطرق وامعانهم في البوادي وابتعادهم عن المواطن التي أخذت تعروها منتجات العرب .

ويذكر أهل الأخبار ان أول من ركب الخيل (اسماعيل) ، ولذلك سميت بـ (العراب) ، وكانت قبل ذلك وحشية كسائر الوحوش . خرج الى موضع (أجياد) ، فنادى بالخيل ، فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا أجابته فأمكنته من نواصيها وتذللت له . ولذلك قال النبي : (اركبوا الخيل فانها ميراث أبيكم اسماعيل)[2] .

وراهن أهل الجاهلية على الخيل . فكانوا يخرجون الى السباق ويقال : يجتمع الناس للرهان ، ثم يتراهنون هنالك على الخيل المتجمعة و (السابق) من الخيل ، وهو الأول ، هو الذي يأخذ الجائزة الأولى ، ويتلوه « المصلّي » وهو الفائز الثاني[3] . و « الحلبة » الدفعة من الخيل في الرهان خاصة ، وقيل : خيل تتجمع

---

١ اللسان (١٧٩/١٥) ، (قرا) ، تاج العروس (٢٩٠/١٠) ، (قرى) ، (وقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ويحقرون الصياد) ، الحيوان (٣٠٩/٢) ، (هارون) .
٢ الدميري ، حياة الحيوان (٣١١/١) .
٣ العقد الفريد (٢٠٦/١ وما بعدها) .

للسباق من كل أوب [1] . ومجمع الخيل .

ويقال للحبل الذي يمدّ في صدر الخيل عند الإرسال الحلب . والمنصبة الخيل حين تنصب للإرسال . ويقال للسابق من الخيل : الأول ، والمصليّ الثاني الذي يتلوه . وما سوى ذينك يقال له الثالث والرابع وكذلك الى التاسع ثم السُكَيْت . فما جاء بعد ذلك لا يعتدّ به . والغسكل الذي يجيء آخر الخيل . وذكر : ان : أسماء خيل الحلبة عشرة لأنهم كانوا يرسلونها عشرة عشرة ، وسمي كل واحد منها باسم . فالأول منها السابق . وهو المُجَلّي لأنه كان يجلي عن صاحبه ، والثاني المُصلي لأنه يضع جحفلته على صلا السابق ، والثالث المسلي ، والرابع والخامس المرتاح ، والسادس العاطف ، والسابع المؤمل ، والثامن الحظيّ ، والتاسع اللّطيم ، والعاشر السُّكيْت ، والغسكل الذي يجيء آخر الخيل في الحلبة . ويقال للحبل الذي يجعل في صدور الخيل يوم الرهان المقبض والمقوس . وقيل في أسماء خيل الحلبة ان أولها المجلّي ثم المصلي ثم المسلي ثم العاطف ثم المرتاح ثم الحظيّ ثم المؤمل . هذه السبعة لها حظوظ ، ثم التي لا حظوظ لها . اللطيم ، ثم الوغد ، ثم السكيت [2] .

وكانوا يضعون عند نهاية الحدّ الذي يقررونه للسباق قصبة فمن يصل اليها قبل غيره من المتسابقين ، يعد السابق لقصبة السبق ، ويكون قد أحرز القصب لأن الغاية التي يسبق اليها تُذرّع بالقصب . وتركز تلك القصبة عند منتهى الغاية ، فمن سبق اليها حازها واستحق الخطر [3] .

و (الخطر) الذي يوضع بين أهل السباق ، وقيل الذي يوضع في النضال والرهان في الخيل فمن سبق أخذه . والسابق اذا تناول القصبة ، علم انه قد أحرز الخطر [4] . وكانوا يقلدون السابق من الخيل ؛ ولا يقلّد من الخيل إلا سابق كريم . ويقولون للسابق من الخيل : المقلّد [5] .

١ تاج العروس (٢/ ٣١١) ، (الكويت) .
٢ نهاية الأرب (٢/ ١٠٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/ ١٥١) ، (روح) .
٣ اللسان (١/ ٦٧٧) ، (قصب) .
٤ اللسان (٤/ ٢٥١) ، (خطر) ، (١٠/ ١٥١) .
٥ تاج العروس (٢/ ٤٧٥) ، (قلد) .

وقد سابق الرسول بين الخيل التي قد ضُمِّرت من موضع « الحفياء » الى « ثنية الوداع » والمسافة بين الموضعين خمسة أميال أو ستة ، وقيل ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التي لم تضمر من « الثنية » الى مسجد « بني زريق » والمسافة ميل أو نحوه . وسابق بين الخيل على حللٍ أتته من اليمن ، فأعطى السابق ثلاث حلل والمصلي حلتين ، والثالث حلة ، والرابع ديناراً ، والخامس درهماً ، والسادس قصبة . وقد ساهمت خيله في السباق .

وراهن رسول الله على الخيل ، وذكر ان أول مسابقة كانت في الاسلام سنة ست من الهجرة . سابق رسول الله بين الخيل ، فسبق فرس لأبي بكر فأخذ السبق . والمسابقة مما كان في الجاهلية ، فأقرها الاسلام[1] .

وفي الحديث : أحاديث عن الرسول في السبق ، منها : لا سبق إلا في خف أو نصل أو حافر ، فالخف للإبل ، والحافر للخيل ، والنصال للرمي[2] وبقية الأحاديث في كتب الحديث والفقه .

ولم يقتصر السباق عند الجاهليين على السباق بين الخيل ، بل سابقوا بين الإبل ، وجعلوا للسابق خطراً ، كما سابقوا بين الكلاب والحمير والحيوانات الأخرى .

ومن سباق أهل الجاهلية والاسلام ، السبق بالنصل ، أي المراماة بالسهم . وذلك بأن يوضع خطر ، ويذكر عدد الرمي والهدف ، فمن أصاب الهدف أكثر من غيره نال السبق . وقد عرف نفر من الجاهليين بإصابتهم الهدف ، وبقوة رميهم ، وجعلوا لقوة الرمي وشدته أو لرخاوته وللمكان من إصابته الهدف درجات هي : الخاصل ، والخازق ، والخاسق ، والحابي ، والمارق ، والخارم ، والمزدلف . والخاصل الذي يقرع الشن ولا يخدشه ، والخازق الذي يخدشه ولا يثقبه ، والخاسق الذي يثقبه ويثبت فيه ، والحابي ان يدني الرامي يده من الأرض فيرميه فيمر على وجه الأرض فيصيب الهدف ، والمارق الذي يمرق الشن

١ نهاية الأرب (٣٦٨/٩ وما بعدها) ، القسطلاني ، ارشاد (٧٨/٥ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٥١/١٠) ، (سبق) .

أي يثقبه وينفذ فيــه ، والخارم الذي يخرم طرف الشن أي يقطعه ، والمزدلف الذي يسقط بقرب الغرض ثم يشتن فيصيب الهدف [1] .

ومن السباق : المناضلة ، وهي المباراة في الرمي . والنضيل هو الذي يرامي ويسابق . والمناضلة المفاخرة والتسابق بالأشعار [2] . وتكون المباراة في الرمي بثلاثة أنواع : مبادرة ، ومحاطة ، ومناضلة . فالمبادرة ان يشترطا إصابة عشرة من عشرين ، فيبتدر أحدهما الى العشرة فينضل صاحبه ، والمحاطة ان يقولا نرمي عشرين رشقاً على ان من فضل صاحبه بخمس إصابات فقد نضله ، فإذا اشترطا ذلك ، ورمى كل واحد منهما عشرين رشقاً وأصابا إصابات نظر ان استويا في الإصابة لم يحصل النضل ، وان تفاوتا في الاصابة حط الأقل أو الأكثر ، فإن بقي لصاحب الأكثر الخمس المشروطة فقد نضل صاحبه ، وان بقي له أقل من الخمس المشروطة لم يحصل النضل . والمناضلة ان يشترطا عشرة من عشرين على ان يستوفيا جميعاً ، فيرميان معاً جميع ذلك ، فإنْ أصاب كل واحد منهما عشرة أو فوقها أو دونها لم يحصل النضل ، وان أصاب واحد منهما دون العشرة والآخر عشرة فما فوقها ، فقد نضل صاحبه [3] .

وللعرب عناية خاصة بالخيل ، وما زالوا يعتنون بهـــا الى اليوم ، حتى لقد حفظوا أنسابهـــا حفظهم لأنساب الناس ، وألفوا الكتب فيها . ونجـــد في كتب الأدب واللغة أسماء خيل اشتهرت في الجاهلية . وذكر (ابن النديم) في كتابـه (الفهرست) أسماء كتب ألفت في الخيل ، ذهب أكثرها ، وبقي بعض منها . ونجد في (تاج العروس) أسماء خيل اشتهر أمرها في الجاهلية ذكرت في مواضع متناثرة من أجزاء الكتاب [4] . وذكر معها أسماء أصحابها ، كما أشار الى مؤلفات رجع اليها في هـــذا الموضوع مثل كتاب الخيل لابن الكلبي [5] ، وقـــد طبع ،

١ بلوغ الأرب (٣/٣٥٤) .
٢ تاج العروس (٨/١٣٨) ، (نضل) .
٣ بلوغ الأرب (٣/٣٥٥) .
٤ تاج العروس (٩/٦٠) ، (لطم) .
٥ وقد طبع ببولاق بمصر ، (أنساب الخيل) ، (لندن) .

وكتاب الخيل لأبي عبيدة وقد طبع كذلك ، ومؤلفات أخرى لم تطبع حتى الآن[1] .

ولائم العرب :

الوليمة كل طعام يصنع لعرس وغيره ويدعى اليه . وأما الدعوة : فهي أعم من الوليمة ، وأما المأدبة ، فكل طعام صنع لدعوة أو عرس . والآدب الداعي الى الطعام[2] . وولائم العرب ست عشرة وليمة . هي : وليمة العرس ، وهي ما يصنع للدخول بالزوجية ، و (الملاك) (الأملاك) وهي ما يصنع للخطبة ، و (الخُرس) وهي طعام يصنع للنفساء لسلامة المرأة من الطلق ، وقيل : هي طعام الولادة . و (العقيقة) وهي ما يصنع للطفل بعد ولادته وتختص باليوم السابع ، و (الأعذار) وهي مـا بصنع للختان ، و (الشندخ) وهي أيضاً طعام الأملاك ، و (الوكيرة) وهي ما يصنع للبناء يعني للسكن المتجدد ، و (التحفة) وهي ما يصنع للزائر ، و (الشندخ) وهي طعام الأملاك كما ذكرت ، وما يصنع عند وجود الضالة ، و (النقيعة) وهي ما يصنع للقدوم من السفر ، وقيل : النقيعة التي يصنعها القادم والتي تصنع له تسمى (التحفة) ، و (القرى) وهي ما يصنع للضيف ، و (الوضيمة) وهي ما يصنع للميت ، أي لأهل المصيبة .

ويقال للدعوة التي تعم دعوتهـا (الجَفَلى) ، وأما (النقرى) فهي التي تخص دعوتها . قال طرفة :

نحن في المشتاةِ ندعو الجَفَلى　　لا ترى الآدِبَ فينا ينتقر

١ اسماء الخيل ، لابن الأعرابي ، وقد طبع بـ (ليدن) ، ولأبي اسحاق ابراهيم بن اسماعيل المعروف بابن الأجدابي ، كتاب كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ على الوان الخيل ، مطبوع ، نهاية الأرب (١٠/١٤) .

٢ اللسان (١/٢٠٦) ، (ادب) ، المخصص ، لابن سيده (٤/١٨٨ وما بعدها) ، البخلاء ، للجاحظ (٢٤٦) ، (دار بيروت ، بيروت ١٩٦٠) ، النهاية ، لابن الأثير (٢/٣٤) .

يفتخر بقومه وانهم اذا صنعوا مأدبة دعوا اليها عموماً لا خصوصاً ، وخصّ أيام الشتاء لأنها أيام الشدّة والضيق [1] .

ويقال للطعام المستعجل ، وهو الذي يقدم للراكب : (العُجل) و (العجيل) ، وهو من السويق والتمر في الغالب . واذا أكرم رجل رجلاً آخر بتقديم (اللبن) اليه ، قيل لذلك الكرم (القفي) . ويقال لما يرفع للانسان من المرق (العفارة) . وهنالك أسماء تجدها في كتب اللغة لأنواع المأكول والأطعمة [2] .

---

١ بلوغ الأرب (١/٣٨٥) ، البخلاء ، للجاحظ (٢٤٦) ، المخصص (٤/١٢٠) .
٢ المخصص (٤/١٢٠ وما بعدها) .

الفهرس

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

المجلد الخامس

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الخامس

○ الطبعة الثانية ○

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الخمسون

البيوت

ومساكن العرب متباينة مختلفة . منها : البيوت المتنقلة ، ومنها المباني المبنية بالمدر أو الحجر ، وهي أبنية أهل الحضر . وهي مختلفة أيضاً في طرازها المعماري وفي سعتها ومادتها ويكون اختلافها باختلاف مكانها وباختلاف مكانة صاحبها ، ومنزلته من حيث الغنى والفقر .

والبيت لفظة تطلق على الصغير من البيوت وعلى الكبير منها . وقد جعل (ابن الكلبي) بيوت العرب ستة : قبة من أدم ، ومظلة من شعر ، وخباء من صوف ، وبجاد من وبر ، وخيمة من شجر ، وقنة من حجر ، وسوط من شعر ، وهو أصغرها . وذكر بعض علماء اللغة أن الخباء بيت صغير من صوف أو شعر ، فإذا كان أكبر من الخباء فهو بيت ، ثم مظلة اذا كبرت عن البيت . وهي تسمى بيتاً أيضاً اذا كان ضخماً مزوقاً . وذكر بعض آخر ان الخباء بيت يعمل من وبر أو صوف أو شعر . ويكون على عمودين أو ثلاثة . والبيت يكون على ستة أعمدة الى تسعة . وذكر ان الخباء هو البيت كيفما كان[1] .

وذكر علماء اللغة ان البناء المبني ، ويراد به أيضاً البيت الذي يسكنه الأعراب في الصحراء . ومنه الطراف والخباء والبناء والقبة والمضرب[2] . والطراف بيت من

---

١ تاج العروس (٥٢٩/١) ، (بات) .

٢ تاج العروس (٤٦/١٠) ، (بني) .

أدم ليس له كفاء ، وهو من بيوت الأعراب ذكر في شعر طرفة بن العبد :

رأيت بني غبراء لا ينكرونني   ولا أهل هذاك الطراف الممدد[1]

وقد اشتهر (بنو قيدار) بخيمهم المصنوعة من شعر الماعز . وقد أشير اليها في التوراة . وهم رعاة في الغالب يعيشون على الرعي ، ولـذا اتخذوا بيوتهم من شعر الماعز ، فصارت ذات لون أسود . وقد اشتهروا ببراعتهم في الرمي بالقوس[2]. وأصحاب الخيام المصنوعة من شعر الماعز أو من الصوف،هم من الأعراب أصحاب الماشية ، الذين يعيشون في مواضع تكثر فيها الأمطار وتكون غير بعيدة عن المدن والقرى ومواضع الماء ، ولذلك يعيشون في الغالب على الرعي .

وفي سعة الخيمة دلالة على منزلة صاحبها ومكانته وثرائه . ولذلك يفتخر العزيز منهم بسعة بيته ، أي خيمته . وقد تقطع الخيمة بقاطع ، يقسمها الى قسمين : قسم للحرم،أي للنساء والسكن،لا يدخله غريب . وقسم يكون للرجال وللضيوف، يجلسون ويأكلون فيه . ويكون نادياً ومضيفاً يخصص للقادمين ولضيوف صاحب ذلك البيت .

ولسيد القبيلة خيمة كبيرة تكون (مضرب القبيلة) ، ومقر السيد الرئيس ونادي القوم . يسمر فيها (رب القبيلة) ، ويأوي اليها الضيوف[3] . واليها يلتجىء المحتاج ومن به حاجة الى الاقراء أو أية حاجة أخرى . ويفتخر سيد القبيلة بمضربه هذا ، ويتباهى به على أقرانه ، وتفتخر قبيلته به أيضاً ، لأنه يرفع رأسها بين القبائل . وورد المضرب : الفسطاط العظيم ، وهو فسطاط الملك[4] .

وتضرب للسادات الأشراف والأغنياء قبب خاصة تكون من الأدم . فكان لرؤساء القبائل أصحاب العز قباب من أدم ، كما كان من عادة ملوك الحيرة ضرب قباب من الأدم لأصحاب الجاه وسادات القبائل الكبار الذين يفدون عليهم . وتعتبر هذه القباب من امارات التعظيم والتفخيم والامتياز والجاه عند الملوك . ولذلك

---

١ اللسان (٢١٩/٩) ، (طرف) ، تاج العروس (١٧٩/٦) ، (طرف) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢٣٠/٢) .
٣ تاج العروس (٢٤٧/٣) ، (الكويت) (ضرب) .
٤ تاج العروس (٣٤٨/١) ، (ضرب) .

يعامل من تضرب له القبة معاملة خاصة . وتعرف قبة الأدم بـ (قبة المبناة) أيضاً[1]. وذكر بعض علماء اللغة أن القبّة هي البناء من الأدم خـاصة . وذكر بعض آخر أن القبّة من الخباء بيت صغير مستدير ، وهو من بيوت العرب[2] .

وذكر (الطبري) في كلامه عن غزوة الخندق ، أن الرسول أدار المعركـة (وهو ضارب عليه قبّة تُرْكِيّة)[3] . ولم يشر إلى شكل هـذه القبّة ولا إلى سبب تسميتها بذلك .

وقد اشتهرت (القباب الحُمْر) المصنوعة من أدم ، يأوي اليهـا أصحاب الجاه واليسار والمشهورون . وقد ذكر أن النابغة الذبيانـي كان يضرب له بسوق عكاظ قبة حمراء من أدم ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها . وكان ممن أنشده (حسان بن ثابت) . وقد انتقده النابغة بأدب ولطف[4] . وقيل إن بيت الأدم ، قبة الملك ، يجتمع فيها كل ضرب ، يأكلون الطعام[5] .

ويذكر أهل الأخبار ان العرب تضرب الأخبية لأنفسها ، والمضارب لملوكها، والمضارب انما ترتبط بالأوتاد[6] . وذكر ان الخباء هو ما كان من وبر أو صوف ولا يكون من شعر ، وهو على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت . وقيل : الخباء من شعر أو صوف ، وهو دون المظلة. وهو من بيوت الأعراب[7] . وذكر ان (المظلة) الكبير من الأخبيـة ذات رواق ، وربما كانت شقة وشقتين وثلاثاً ، وربما كان لها كفاء وهو مؤخرها . قال بعض علماء اللغة انها تكون من الشعر ، وقال بعض آخر لا تكون إلا من الثياب[8] .

و (المضرب) الفسطاط العظيم ، وهو فسطاط الملك . وقـد استعمل للملوك خاصة ، ولأصحاب الجاه والعز والمكانة . ولهذا كانوا إذا مدحوا إنساناً وأرادوا

---

١ البرقوقي (ص ١٥٦) ، اللسان (١٤/٩٥) ، (بني) .
٢ تاج العروس (١/٤١٩) ، (قبب) .
٣ تأريخ الطبري (٢/٥٦٨) .
٤ البرقوقي (ص ٣٧١ وما بعدها) .
٥ المعاني الكبير (٣/١٢٥٤) .
٦ مجمع الامثال (١/٣٦٤) .
٧ اللسان (١٤/٢٢٣) ، (خبي) ، (١٤/٩٥) ، (بني) ، تاج العروس (١/٥٩ وما بعدها) ، (خبا) .
٨ تاج العروس (٧/٤٢٧) ، (ظلل) .

الإشادة بمكانته وبمنصبه قالوا : (إنه لكريم المضرب شريف المنصب) ، وإذا أرادوا ذمّ إنسان ، قالوا : (ما يعرف له مضرب عسلة)[1] ، و (لا منبض عسلة) ، أي من النسب والمال ، يقال ذلك إذا لم يكن له نسب معروف ولا يعرف اعراقه في نسبه[2] . ولما كانت المضارب من بيوت الملوك ، وأهل الجاه وهم خيار الناس ونخبتهم ، صارت المضارب كناية عن الجاه والشرف والمال .

و (السرادق) ، كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب أو خباء . وقيل: كل بيت من (كُرْسُفْ) فهو سرادق[3] . وترد اللفظة في الفارسية بمعنى حائط أو حاجز من نسج غليظ حول خيمة[4] .

وذكر أن (الفسطاط) ضرب من بيوت الشعر . والظاهر أنه البيت الكبير . وورد (الفسطاط العظيم) ، وهو (فسطاط الملك)[5] . وذكر أن الفسطاط هو مجتمع الناس . وذكر أن الفسطاط ضرب من الأبنية في السفر دون السرادق وبه سميت المدينة : مدينة الفسطاط[6] . ويظهر أن الكلمة من الألفاظ المعربة عن الفارسية، وهي في هذه اللغة بمعنى (خيمة)[7] .

و (الطراف) خباء من أدم يتخذه الأغنياء[8] . و (الطوارف) من الخباء ما رفعت من جوانبه ونواحيه للنظر الى خارج[9] . قال عروة بن الورد :

رأيت بني غبراء لا ينكرونني   ولا أهل هذاك الطراف الممدد[10]

يعني ان الفقراء يعرفونني بإعطائي ، والأغنياء يعرفونني بفضلي وجلالة قدري.

وتكوّن بيوت الأعراب المتناثرة ، وهي خيامها ، منازل القبيلة ومضاربها . وتحيط خيامها بخيم الرئيس . فتكون من ذلك مستوطنة بدوية . ومنها يتألف مجتمع

---

١ بفتح الميم وكسر الراء .
٢ تاج العروس (٣٤٩/١) ، (ضرب) .
٣ اللسان (١٥٧/١٠ وما بعدها) .
٤ غرائب اللغة (٢٣٣) .
٥ تاج العروس (٢٤٧/٣) ، (الكويت) (ضرب) .
٦ اللسان (٣٧١/٧) ، (فسط) ، تاج العروس (١٩٨/٥ وما بعدها) ، (فسط) .
٧ غرائب اللغة (٢٤٠) .
٨ تاج العروس (٤٣٧/٣) ، (غبر) .
٩ تاج العروس (١٧٨/٦) ، (طرف) .
١٠ تاج العروس (٤٣٧/٣) ، (غبر) .

البوادي . ويرتبط حجم هذه المستوطنات ، بسعة ماء المكان وبعدد بيوت القبيلة النازلة به ، فإن كان الماء قليلاً ، قلّ عدد خيامها ، وإن كان غزيراً ، كثر عددها. واتسعت رقعة المضارب اتساعاً يتناسب مع كفاءة ذلك الماء وما على الأرض من رزق تعيش إبلهم عليه .

بيوت أهل المدر :

أما أهل القرى والمدن ، أي أهل المدر ، وهم المستقرون وشبه المستقرين ، فإنهم يقيمون في بيوت ثابتة أو شبه ثابتة . وهي تتفاوت بالطبع بتفاوت منازل ودرجات أصحابها . فربّ بيت يكون من خيمة أو من أغصان شجر وعيدان وجريد ، ويقال له (العنة) . وقد قيل إن العنة الخيمة تتخذ من أغصان الشجر[1] . وقيل البيت يعمل من الخشب[2] . وربّ بيت يكون من طين ، ويسقف بجريد أو بأغصان أو بحصير بطين أيضاً . ويختلف حجم مثل هذا البيت باختلاف حجم العائلة . وقد يبنى البيت باللبن وهو الغالب ، وتكون حالة أصحابها أحسن من حالة أصحاب بيوت الطين .

وكنتيجة لتيسر مواد البناء في العربية الجنوبية ، ظهرت مدن لا نجد لها مثيلاً في أنحاء أخرى من جزيرة العرب . مدن كبيرة بيوتها ثابتة وبعضها ذو جملة طوابق ، تحاط بأسوار عالية وأبراج وحصون يأوي فيها المدافعون . وقد تمكن المنقبون من التنقيب في بعض خرائبها ومن وضع مخططات لبعض شعابها أو مخططات عامة مبدئية للمدينة كلها وللسور الذي كان يحتضنها .

والقرية في نظر علماء العربية لفظة يمانية الأصل . يقولون إنها المصر الجامع ، وكل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً . وتقع على المدن وغيرها[3] . ولكن الأغلب أنها أصغر حجماً من المدن . وأنها تكون غير مسورة . فإذا أحاط بها (سور) صارت مدينة . وذلك على نحو ما نفهم من نصوص الجاهليين ومن

---

١ الاشتقاق (ص ٣١٢) .

٢ المعاني الكبير (٢/١١٢١) .

٣ تاج العروس (١٠/٢٩٠) ، (قرى) .

المتعارف عليه بين الساميين من أن القرية أصغر حجماً من المدينة . وأن المدن هي القرى الكبيرة المسورة[١] . وقد فهم علماء العربية هذا المعنى بالنسبة للمدينة أيضاً . إذ قالوا مدينة : الحصن يبنى في اصطمة الأرض[٢] . وتقابل (مدنتو) Medinto في لغة بني إرم[٣] . وتقابل لفظة (هكر) (هجر) (هجرن) (هكرن) في لغة أهل اليمن . وهي لا تزال مستعملة في العربية الجنوبية لهـذا اليوم . وذكر علماء اللغة أن (هجر) هي القرية بلغة حمير[٤] .

وورد أن العرب تسمي (القرى) مصانع ، واحدتها مصنعة . يقال هو من أهل المصانع ، أي القرى . و (المصانع) أيضاً المباني من القصور والحصون[٥] .

ويطلق العرب على الرجل من أهل القرى مصطلح : (أخضر النّواجذ) ، يريدون أنه ممن يأكل الكُرّات والبصل والبقول والخضر[٦] . ولا يتناول الأعراب هذه الخضر .

وفي العربية لفظة (الحير) بمعنى شبه الحظيرة والحمى ، و (الحيرة) بمعنى المعسكر والمقام ، و (الحائر)[٧] . وهي من مواطن الحضر ، أي من المستوطنات . وقد كانت مستعملة بين الجاهليين . ومثلها (الحاضرة) و (الحضرة) و (الحضر) ، وهي المدن والقرى والريف . وهي من مساكن الحضر وأهل القرار[٨] .

وتسمى المدن بأسماء . أما القرى والمستوطنات الصغيرة ، فقد تسمى بأسماء ، وقد تنسب الى أصحابها المالكـين لها أو الى العشائر أو الأفخاذ أو الأسر النازلة بها . ولا تزال هذه العادة متبعة في مواضع من جزيرة العرب . أما بيوت كبار الناس وأغنيائهم ، فتستعمل فيها الحجارة والخشب وغير ذلك من مواد تجعل البناء يدوم أمداً ويعيش مدة طويلة ، وبفضل ذلك بقيت آثار بعض منها حتى الآن .

ولا يزال النـاس في مواضع من جزيرة العرب ، ولا سيما الأماكن المعزولة

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٢١) ، Hastings, p. 143

٢ تاج العروس (٩/٣٤٣) .

٣ غرائب اللغة (٢٠٥) .

٤ تاج العروس (٣/٦١٤) ، (هجر) .

٥ تاج العروس (٥/٤٢٢) ، (صنع) .

٦ الحيوان (٣/٢٤٨) ، (هارون) .

٧ تاج العروس (٣/١٦٤ وما بعدها) ، (حار) .

٨ تاج العروس (٣/١٤٦) ، (حضر) .

القصية ، يتخذون بيوتاً تشبه بيوت العرب قبل الاسلام ، وخاصة بيوت سادات القبائل والرؤساء . وبعض ذلك قصور وحصون ذوات جدر وأسوار مرتفعة وتقوم في طرف من الأرض أبراج لها مزارق ومرابيع للدفاع ، وأبراج مربعة . وقد تقع البيوت في عدة طبقات تحمى بمختلف وسائل الدفاع . وتستعمل الزينة من أصباغ محلية ومن حجارة طبيعية ذوات ألوان مختلفة . وأعتقد ان هذه الأبنية يجب أن يعنى بدراستها المهندسون المعماريون والآثاريون ، فإن دراستها تحلّ لنا مشكلات كثيرة للفن العربي الجاهلي ، وتوصلنا الى وضع مخططات عن بقايا الأبنية الجاهلية القديمة التي تهدمت غالبيتها،أو اعتدى عليها الانسان ويا للأسف فاستخدم حجارتها في أبنيته الحديثة ، وقضى بذلك على معالمها في الغالب ، وتجاوز على حجارتها المكتوبة فحطمها وأبادها ، وبذلك ألحق بتاريخ العرب قبل الاسلام ضرراً بليغاً .

وأعظم شيء في المدن هو هياكلها ، أي معابدها المسماة بأسماء الآلهة التي بنيت لها ، وقصور الملوك وسادات القوم وأشرافهم. فلهؤلاء مال مكّنهم من بناء قصور ضخمة ذات جملة طوابق ، بنوها بحجارة طبيعية اقتلعت من الصخور، وزخرفوا الوجوه البارزة منها،وأفنّ فيها الفنانون على وفق أذواقهم وذوق طبيعة بلادهم ، ونشروا الرخام الأبيض والملون وشرّحوه ألواناً رقيقة جعلوها في النوافذ بدلاً عن الزجاج . فهذه الأماكن اذن هي التي تتحدث لنا عن العمارة عند الجاهليين .

وقد استعين في بناء بعض المدن بحجارة اقتلعت من مواضع بعيدة بعض البعد عنها في بعض الأحيان . فقد بنيت (قرنو) (معين) ، بحجارة جلبت من موضع يبعد عشرين كيلومتراً تقريباً من شمال (معين) ، من (جبل اللوذ) أو من جنوب (جبل يام) . ويرى بعض الباحثين احتمال جلب بعض الصخور اليها من مواضع تبعد ثمانين كيلومتراً من المدينة . وبعض هذه الأحجار ثقيل يبلغ طول الواحدة منها خمسة أمتار[1] . وجاءوا بـ (المرمر) الى (شبوة) من موضع (مداث) و (كلوة) على مسافة خمسين كيلومتراً من المدينة[2] .

وقد تبين من الدراسات العامة الأولية التي قام بها الباحثون لخرائب المدن الجاهلية أن بعضها قد بني على شكل مستطيل ، ويحيط به سور مستطيل الشكل أيضاً

---

١ محمد توفيق ، اثار معين (٧) ، Arabian. S. 140

٢ H. V. Wissmann. Geogr. Grundlagen, S. 78, Arabien, S. 140.

ذو أبراج ، وبعضها بني على شكل إهليلجي أو قريب منه ، وبعضها على شكل دائري . وقد أحيطت بأسوار لحمايتها من غزو الغزاة وللدفاع عن نفسها والثبات بوجه الأعداء . ولها أبواب تغلق ليلاً وتحرس حراسة شديدة حتى لا تفاجأ المدينة بعدوٍّ يأخذ على حين غرة ، كما تغلق وتسد سداً محكماً أيام الحروب .

ويظن أن تخطيط المدن على شكل مستطيل كان هو الشكل الغالب ، إذ وجد المنقبون أكثر خرائب المدن قد بني في الأصل على هذا النحو . فـ (مـأرب) بنيت على شكل مستطيل على رأي بعض من درس آثارها.وكذلك خربة (غربون) في جنوب (المشهد) بوادي (حجرين) بحضرموت . وذهب بعض من زارها إلى أنها كانت مربعة الشكل[١] . وعلى هذا النحو كانت (شبوة) و (حريب)[٢] و (يلط) (يليط)[٣] ، و (قرنو) التي هي معين في الجوف[٤] .

ومن المدن التي بنيت على شكل إهليلجي تقريباً مدينة (حاز) (حيزم) . وهي محاطـة بسور يتراوح ارتفاعه من ستة أمتار إلى ثمانية أمتار ، تخترقه خمسة أبواب . وبنيت مدينـة (بيحان النقب) التي تقع على مسافة عشرة أميال الى الشمال من (بيحان) على شكل إهليلجي كذلك[٥] .

وقد تبين أن أكثر المدن اليمانية القديمة قد بُني في بطون الأودية على مرتفعات طبيعية ، أو صناعية،أي من عمل الإنسان . وقد يكون ذلك بسبب خصب الأودية وتوافر الماء فيها بسهولة ، بحفر الآبار أو من العيون أو بواسطة بنـاء السدود . غير أن هناك مدناً أقيمت على الهضاب والنجاد وعلى سفوح الجبال ، وذلك لتتمتع بحماية طبيعية وليكون من الصعب على الأعداء التغلب عليها . ومن المدن القديمـة التي أقيمت في بطون الأودية مدينة (قرنو) (القرن) (معين) ، فقد بنيت على تل أقامه المعينيون أنفسهم ارتفاعه خمسة عشر متراً ، عن سطح أرض الوادي، وذلك لحماية المدينة من طغيان ماء السيول في الوادي في موسم الأمطار[٦] .

---

١ Arabien, S. 140, Von Wissmann-M. Höfner, Beiträge, S. 27, (245), Le Muséon, 61, 1948, p. 221.

٢ وتسمى بـ « الساحل » في هذا اليوم .

٣ وتسمى بخربة سعود في هذا اليوم .

٤ محمد توفيق ، اثار معين ، ٤ ، Arabien, S. 141.

٥ Rathjens — H. V. Wissmann, Vorislamische Altertümer, S. 101, 102, Arabien, S. 141.

٦ Arabien, S. 141.

وتحمي المدن حصون وقلاع ، وقد تقام الأسوار وعلى مسافة من المدينة لتشغل العدو وتمنعه من الدنو منها ، ثم لتحمي مزارع المدينة وأموالها ، وتكون أبنيتها حصينة ذات جدر سميكة فيها منافذ ترمى منها السهام ، وفي أعلاها أبراج يرمي منها الرماة الحجارة والسهام على المهاجمين. كما تبنى في المدن نفسها خلف الأسوار، لحماية داخل المدينة من العدوّ عند تغلّبه على الحصون والقلاع الخارجية ، وأسوار المدن . وبيوت الملوك والأشراف وسادات المدينة ، قلاع وحصون في حدّ ذاتها، فيها كل وسائل المقاومة والدفاع ومخازن لحفظ مواد الإعاشة ، وآبار .

ويكاد يكون لكل مدينة من المدن حصن يقيها ويحميها،وقد اشتهرت وعرفت به . فاحتمت (ظفار) مثلاً بحصنها (ذو ريدان) ، وأقيمت (شبام سخيم) عند حصن (عرّ ذو مرمر) ، و (شبام اقيان) عند (الوة) (كوكبان) ، و (يحان) عند (ذي ريدان) ، و (برج اتوت) على (ميفع ظبيان)، وأنشئت (غيمان) على تلّ مرتفع يحمي المدينة من المهاجمين . وأقيم (ذو معاهر) ليحمي مدينة (وعلان) بـ (ردمان)[1] .

ويظهر من كتابات المسند ومن الآثار ان بعض مدن اليمن كانت مسورة ، يحيط بها سور للدفاع عنها . ويقال لمثل هذه المدن (هجرن) في العربيات الجنوبية ، أي (المدن) . مثل (هجرن قرنو)[2] ، بمعنى المدينة (قرنو) وهي عاصمة معين . و (هجرن مرب) ، أي المدينة مأرب ، و (هجرن نجرن) أي المدينة نجران ، المدينة الشهيرة عاصمة مخلاف نجران والتي لا يزال اسمها حياً معروفاً في العربية السعودية في هذا اليوم .

وتختلف أطوال أسوار المدن وارتفاعاتها بحسب حجم المدن وبحسب مواقعها . فالمدن الكبيرة تكون أسوارها طويلة يتناسب طولها مع سعتها . والمدن التي تبنى فوق الجبال والهضاب والمحلات الحصينة تكون أسوارها أقل ارتفاعاً من أسوار المدن المبنية في السهول . وقد وجد سور مدينة (قرنو) مستطيلاً ، وطوله زهاء أربع مئة متر ، وعرضه زهاء خمسين ومئتي متر ، وعلى كل زاوية من زوايا هذا المستطيل الأربع برج لمراقبة الأعداء ولرميهم بالحجارة والسهام وبوسائل الدفاع

---

١ Arabien, S. 275.

٢ REP. EPIGR. Tome V, p. 124, NR. 2774.

الأخرى التي كانت ميسورة لهم[١] .

وقد وجدت أسس سور مدينة (حيزم) (حزم) ، وهي (حاز) ، مبنية بحجر بركاني ، أخذ من لابة قريبة من المكان[٢] . على حين بنيت أسس أسوار المدن الأخرى وجدرها من أحجار تقع مقالعها على مقربة من المدن المسوّرة ، ليكون في الإمكان نقلها بسهولة الى مواضع البناء .

وغالب مدن العربية الجنوبية ، لها بابان متقابلان ، فإذا كان أحدهما في الجدار الشرقي للمدينة كان الثاني في الجدار الغربي . وقد وجد في بعض المدن أربعة أبواب أو خمسة . ف (شبوة) عاصمة حضرموت كان لها خمسة أبواب ، يقع الباب الرئيسي في الجهة الشمالية من المدينة . وتؤدي الأبواب الى أفنية تكون متجمع الناس[٣] ، تعلن على جدرانها الأوامر الحكومية ليقف عليها الغادي والرائح ، ويعلن المعلنون فيها أوامر الحكومة ، كما ينادي الدلالون بما عندهم من خبر أو بضاعة . وتكون هذه الساحات أسواقاً كذلك ، ومواضع لتنفيذ أحكام القتل أو العقوبات الأخرى ليعتبر بها الناس . وهكذا نجد أن أبواب المدن كانت من أهم الأماكن العامة للمدينة في تلك الأيام .

وقد وجد بعض الأبواب ، وهي الأبواب الرئيسية ، محصناً من الجهتين ببناءين قويين ، للدفاع عن الباب ، فيهما منافذ ومواضع يرمي منها المدافعون من يريد اقتحام المدينة . وبين البناءين أو الحصنين باب قوي يغلق في الليل وعند وقوع خطر ما . ويؤدي هذا الباب الى ساحة تحيط بها غرف ومواضع لإيواء الجنود ، ثم تنتهي هذه الساحة بحائط قوي أو سور يخترقه باب آخر يغلق ويفتح ليؤدي الى المدينة . والغاية من وجود هذا الباب الثاني سدّ الطريق على الأعداء عند اقتحامهم الباب الاول وتغلبهم على الجواسيس ووصولهم الى الساحة التي يقيم فيها الجنود ، فيقابلهم عندئذ باب ثان يسدّ عليهم الطريق ولا يمكنهم من دخول المدينة إلاّ إذا تغلبوا على هذا الباب .

وقد عُني العرب الجنوبيون بزخرفة الأبواب وبزخرفة الإطار الذي ترتكز عليه ،

---

١ Arabien, S. 143.

٢ Arabien, S. 140.

٣ R. A. B. Hamilton, Six Weeks in Shabwa, in Geogr. Jour., (1942), 100, 112, Arabien, S. 145, Philby, The Land of Sheba, Geogr. Jour., (1938), 92, 110.

والجدار الذي يضم الإطار ، والأعمدة التي تبنى على جانبي الباب أحياناً والبناءين المحكمين اللذين يبنيان عند طرفي أبواب المدن والقصور والمعابد لحراستها .

وتتصل شوارع المدن والقرى بهذه الساحات. والشوارع الرئيسية مبلطة في الغالب، ولا سيما الشوارع المؤدية الى قصور الملوك ودور الكبار والحكومة والمعابد، وتؤدي الى ساحات أمام هذه المواضع المهمة . ويكون تبليط الشوارع عندهم بتغطيتها بصخور عريضة مستطيلة أو مربعة نحتت بأطرافهـا بحيث يوضع طرف حجر فوق طرف الحجر الذي يليه ، فيظهران كأنهما حجر واحد ، أو بصقل أطراف الحجر صقلاً جيداً ووضعه بجانب حجر مصقول آخر ولصقهما لصقاً تاماً ، حتى يبدوا كأنهما قطعة واحدة . ويظهر أنهم كانوا يعتنون عناية شديدة تامة بالتبليط . وقـد تبين من دراسة بعض قطع شوارع مدينة (غيمان) الباقية من أيام الجاهلية حتى اليوم أن أهل هذه المدينة لم يعتنوا بتبليط شوارعهم عناية أهل المدن الأخرى ، كما يتبين من طريقة رصف الحجر ومن وضعه بعضه الى بعض ومن دراسة المواد التي توضع تحت الأحجار وبينها[1] .

وللمدن حدود ، ما كان بعدها عُدّ تابعاً للمدينة ، وما كان خارجها عُـدّ منقطع الصلة بتلك المدينة . وقد ذهب (رودوكناكس) الى أن لفظة (اود) التي ترد في بعض الكتابات تعني (الحد) كما في هذه الجملة (اود هجرن) ، أي (حد المدينة)[2] . وعندي أن المراد بها (السدود) وكل شيء يقي شيئاً . فإن الأياد في العربية ما أيد به من شيء ، واياد كل شيء ما يقوى به من جانبيه ، والتراب يجعل حول الحوض والخباء يقوى به أو يمنع ماء المطر[3] . وعلى هذا فإن تفسير (اود) بسداد تحيط بمدينة أوفق في نظري من تفسيرها بـ (حد) وحدود .

والواقع أن من الصعب علينا في الزمن الحاضر أن نتحدث عن هنـدسة المدن وتخطيطها وعن طراز أبنيتها وارتفاعها ، وعن ساحاتها وأسواقها ، لقلة التنقيبات الأثرية العلمية واقتصارها على وجه الأرض وفي بقاع قليلة جداً من جزيرة العرب، وانعدامها من أكثر الأنحاء مع وجود آثار كثيرة فيها لا تزال مطمورة تحت الرمال.

---

١ Arabien, S. 147.

٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 151.

٣ تاج العروس (٢٩٣/٢) ، (آد) .

ولو تهيأت للجزيرة بعثات أثرية على شاكلة البعثات التي تقصد العراق أو بلاد الشأم أو فلسطين أو مصر أو غيرها من أماكن ، لكان علمنا بأحوال المدن العربية الجاهلية وبأحوال الجاهليين غزيراً جديداً يختلف عن هذا النزر اليسير الذي نتحدث به عن أحوال العرب قبل الإسلام .

أما الحجاز ، فالظاهر أن الطائف منه ، كانت القرية أو المدينة الوحيدة المحاطة بجدار أو حائط ، يمكن أن نسميه سوراً . وكان يحيط بالمدينة وبه مواضع يتحصن فيها ، وفيها تحصنت ثقيف يوم قاومت الرسول في أثناء حصاره لها . وكانت له أبواب أغلقوها عليهم ، وامتنع على المسلمين عندئذ الدخول منها ، والاقتراب من الجدار . ولما اختفى المسلمون تحت دبابة ، ثم زحفوا بها الى جدار الطائف ، أرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، وقتلوا رجالاً من المسلمين[1] . وأما مكة ، فيظهر من وصف أهل الأخبار لها أنها لم تكن مسوّرة . وإنما كانت ذات منافذ وطرق تؤدي الى داخل المدينة وتمر بالشعاب . وعلى كل شعب حماية حدّ شعبه من الأطراف عند دنو عدوّ من مكة . وأما المدينة ، فلم يكن لها سور كذلك . ويمكن أن يقال مثل ذلك عن بقية قرى الحجاز .

ولا نجد في وصف أهل الأخبار لقرى أهل الحجاز وبيوتها ، ما يفيد بوجود أبنية ضخمة فيها على طراز أبنية اليمن . فلم يتحدث أهل الأخبار عن وجود قصور فيها تشبه (قصر غمدان) أو (قصر ذو ريدان) أو غير ذلك من القصور. حتى مكة وهي أم القرى لا يشير أهل الأخبار الى وجود بناء ضخم فيها على طراز أبنية اليمن ، ولا وجود بيت كبير فيها على طراز بيوت سراة اليمن . و (دار الندوة) ، وهي دار قصي ،مؤسس ملك قريش ، لم تكن داراً ضخمة ولا كبيرة على ما يظهر من روايات أهل الأخبار ويظهر أن أهل الأخبار لم يحفلوا كثيراً بالنواحي العمرانية من الجاهلية ، لذلك صارت معلوماتنا بسيطة جداً عنها من هذه الناحية . فلا نكاد نعرف شيئاً عن بيوت مكة أو غيرها قبل الإسلام .

وقد كانت بيوت المتمكنين من الناس وأصحاب اليسر والمال، مشيدة بالحجارة وباللبن . ويذكر علماء اللغة أن كل بيت مربع مسطح ، فهو (أجم) . ويظهر

---

١ الطبري (٣/٨٣ وما بعدها) .

من شعر ينسب الى امرىء القيس :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أجماً إلا مشيداً بجندل[1]

أن آجام (تيماء) ، كانت مشيدة بالجندل . والجندل الحجر ، وقيل الصخور ، وذكر أنها الصخرة كرأس الإنسان[2] . وقد استعين بتشييد السقوف بجذوع النخل .

ويقال للآجام : القصور بلغة أهل الحجاز ، وعرفت بالآكام كذلك[3] ، وهي بمثابة الحصون ، يتحصن بها أوقات الخطر . والقصر عند العرب كل بناء من حجر ، وذكر أن اللفظة (قرشية)[4] . ووردت لفظة (قصر) و (قصور) في القرآن الكريم[5] . وقد ذهب المفسرون الى أن معنى (مشيد) في الآية : (فكأيّنْ من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصرٍ مشيد)[6] ، المجصص . والجص بالمدينة يسمى : المشيد[7]. فالقصر ، البناء الضخم المبني بالجص والحجارة ، وقد يكون منفرداً محصناً ، وقد يكون في قرية ، مع قصور أخرى ، ولكل قصر بئر ، يؤخذ منها الماء . وهي ضرورية جداً بالنسبة لبيوت ذلك الوقت .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن البيوت أن في بيوت يثرب بيوت تكوّنت من طابقين . طابق أرضي وطابق علوي . وكانوا يسكنون الطابقين . ولعلّهم كانوا يودعون ماشيتهم ودوابهم الطابق الأرضي ، أو مواضع خاصة بها ملحقة بهذا الطابق . وكانت دار (أبو أيوب الأنصاري) التي نزل بها الرسول ذات طابقين نزل الرسول بطابق ، وسكن (أبو أيوب) بالطابق الثاني[8] .

وكان سادات القرى قد حلّوا مشكلة الدفاع عن أنفسهم وعن مواليهم ببناء

---

١ تاج العروس (٨/١٨٠) ، (أجم) ، اللسان (١٢/٨) .
٢ تاج العروس (٧/٢٦٦) ، (الجندل) .
٣ النهاية ، لابن الاثير (١/٧٨) .
٤ تاج العروس (٣/٤٩٤) ، (قصر) .
٥ الحج ، الاية ٤٥ ، الاعراف ، الاية ٧٤ ، الفرقان ، الاية ١٠ .
٦ الحج ، الآية ٤٥ .
٧ تفسير الطبري (١٧/١٢٧ وما بعدها) .
٨ الطبري (٢/٣٩٦) .

أبنية حصينة ذات جدران سميكة قالوا لها الحصون والآطام والواحد هو الأطم . فكان أهل المدينة من الأوس والخزرج يلجأون الى آطامهم وقت الخطر فيتحصنون بها ويمتنعون ، وكذلك كانت ليهود وادي القرى حصون وآطام . بها آبار ومواضع لخزن ذخيرتهم وما عندهم من غال وثمين ودخلوا حصونهم وآطامهم وأغلقوا عليهم الأبواب . وبذلك صارت القرية مجموعة حصون وآطام .

والأطم القصر وكل حصن بني بالحجارة . وقيل هو كل بيت مربع مسطح . وقد ورد أن (بلالاً الحبشي) كان يؤذن على أطم المدينة . وقد اشتهرت بها المدينة . وذكر أن الأطمة الحصن . وأن (الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم) ، بنى أطماً باليمن ، عرف باسمه : (أطم الأضبط) . وكان قد أغار على أهل صنعاء . وأشير في شعر (أوس) الى (آطام نجران) . حيث ذكر أن أحد الملوك بث الجنود في الأرض ، فأخذوا بقتل أعدائه ما بين بصرى وآطام نجران[1] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن قرى الحجاز ومدنها كانت شعاباً ، أي أحياءً . تكوّنت على الطريقة البدوية . وذلك بإقامة كل عشيرة في حيّ معين من أحياء القرية أو المدينة . وتكون بين الحي عصبية مثل عصبية أفراد القبيلة للقبيلة . وينتمي الحي الى القبيلة أو العشيرة التي يرجع اليها ، ويتعصب لها . ويشعر أن بين أفراد الحيّ قرابة ورابطة دم . ويعبر عن سكان الحي بـ (آل .....) . ويكون وجيه الشعب ، هو نقيبه وممثله وسيده .

وقد يقال للمنزل أو المحلة (الربع) والجمع (الرباع) . وذكر أن (الرباع) المنازل وجماعة الناس[2] . فتتألف كل قرية أو مدينة من رباع .

وقد كانت (الحيرة) على هذه الشاكلة أيضاً . فقد كانت مؤلفة من مواضع حصينة بناها سادات المدينة وأشراف الأحياء ، عرفت عندهم بـ (القصور) والمفرد (قصر) . فإذا داهم المدينة خطر دخل أهل الحيّ قصر سيدهم وشريفهم وتحصنوا به .

---

١ تاج العروس (١٨٧/٨ وما بعدها) ، (اطم) .
٢ اللسان (١٠٢/٨) ، (صادر) (ربع) .

الأبراج :

وتؤلف الأبراج والحصون صفحة من صفحات كتاب الفن المعماري والحربي في التأريخ الجاهلي . فقد بنيت لتؤدي واجب الدفاع والحماية والوقوف بجبروت وتعنت في وجه من يريد الكيد بمن يحتمي وراء تلك الحصون . وطبيعي أن تراعي في تصميمها وبنائها الأغراض التي من أجلها شيدت وبنيت والمكان الذي تقام عليه .

ويراعى في جدران الحصون أن تكون سميكة وأن تبنى بمواد متماسكة تماسكاً شديداً حتى لا تنهار عند ضرب المهاجمين لها ومحاولتهم تهديمها لايجاد ثغر فيها يهجمون منها ، وتنشأ فيها مخازن لخزن الأسلحة ، ويُيَسَّر فيها الماء ومواد المعيشة التي يحتاج اليها المدافعون ، وتحدث منافذ في أعالي الأبراج لرمي المهاجمين منها . ويكون سمك الحائط عند القاعدة أكثر من سمكه في أعلاه . وأما الأبواب المؤدية الى الحصن ، فإن الطريق اليها لا يكون مستقيماً ممتداً ، بل يأخذ اتجاهات مختلفة ، ويمر بممرات وقاعات ، ليكون في امكان المدافعين الاحتماء بها حين يتمكن المهاجمون من اقتحام الباب الخارجي .

وتقام الأبراج فوق الأسوار والأبواب لحمايتها من المهاجمين . وتكون هندسة بنائها عندئذ متناسبة مع هندسة بناء السور أو أعلى الباب . وقد تنتهي بما يشبه الأسنان والأفاريز ، ليتمكن المدافع من إصابة المهاجمين بما عنده من مواد مؤذية فيمنعهم بذلك من اقتحام السور ومن إلحاق أي أذى به . وذكر علماء العربية أن (البرج) بيت يبنى على السور والحصن . وقد يسمى بيتاً . وذكروا أن برج الحصن ركنه[1] . ولم يذكر أولئك العلماء أصل الكلمة . وهو من الألفاظ المعربة عن اليونانية ، إذ هو Pirghos فيها . بمعنى (بناء) وبرج فوق بناء يدافع به المدافعون ولصد المهاجمين من التقدم نحوه[2] .

الطرق :

وتوجد آثار طرق جاهلية في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية مبلطة تبليطاً حسناً ،

---

١ تاج العروس (٢/٧ ح ، (برج) ، الكشاف (١٩٩/٤) ، تفسير الطبري (١٢٧/٣٠ وما بعدها) .
٢ غرائب اللغة (٢٥٤) .

وأخرى ممهدة تمهيداً فنياً . وقد انشىء بعضها في أرض جبلية وفي أرضين وعرة، وذلك باستعمال آلات بمهارة في قطع الصخور لانشاء هذه الممرات . وأنشيء بعض آخر في الأودية وفي السهول برفق وعناية وقد كسيت ورصفت بالأحجار رصفاً متيناً قوياً كالذي يظهر من بقايا هذه الطرق التي لا تزال متماسكة شديدة ، تقاوم الأيام بالرغم من طول عمرها ومن عدم اهتمام الناس بها .

ومن الطرق الجاهلية التي وجدها السياح والباحثون ، طريق (مبلقة) (مبلقت)[١] في وادي بيحان . الذي يتراوح طوله من ثلاثة أميال إلى أربعة أميال ، ويرجع عهده الى حوالي السنة (٣٢٥) قبل الميلاد في تقدير بعض الباحثين[٢] . وهو يؤدي الى (حريب) . وقد رصف وجهه وكسي بصفاح ضخم عريض . ونحت قسم منه طوله زهاء مئة قدم في الصخر نحتاً الى عمق ثلاثين قدماً ، وذلك اختصاراً للمسافة . وهو عمل يقدر بالنسبة الى ذلك الزمن[٣] .

ومن هذه الطرق طريق مدرج عمله الجاهليون في المرتفعات المؤدية الى (وادي ذنه) على مقربة من مأرب . (مدرج نقبل) (نقيل مدرج) . وقد نحت في الصخر[٤] وطريق آخر عرضه زهاء أربعة أمتار يقع شمال (معبر) ، وطريق آخر يؤدي من هضبة (عقبة) الى وادى عرمة ثم الى (شبوة)[٥] . وطريق في جنوب حافة جبل اللوذ ، نحت نحتاً في الصخر حتى يؤدي بسالكيه من (خربة السود) الى (كعاب اللوذ)[٦] . ونجد طرقاً نحتت في صخور المرتفعات والهضاب والجبال لتؤدي الى الحصون (العر) والمحافد والقصور والمدن مثل (عر ذو مرمر) و (عراتوت) (حصن أنوت) في أرحب ، و (قصر ريدان) (ذو ريدان) (جبل ريدان في بيحان)[٧] . وأشير في النص : Glaser 824 الى طريق جبلي ،

---

١ (مبلقت) في الكتابات .

٢ **Arabien, S. 146.**

٣ **G. Ryckmans, In Le Muséon, 62, (1949), Num : 399, p. 74, 77, Arabien, S. 146.**

٤ **Arabien, S. 146.**

٥ المصدر نفسه .

٦ كذلك .

٧ كذلك .

عمل على جبل (جحاف) في هضبة (الضالع)[1] .

ومن الطرق الجبلية المسماة (منقل) في المسند[2] ، طريق في جبـــل (علمان) يؤدي الى (مأرب)[3] . وقد ذكر علماء اللغة أن (المنقل : الطريق في الجبل)[4]. وقد وصفـــه (هاملتون) ، الطريق القديم الذي ربط عدن بالداخل[5] . وهناك طريق معروف مشهور اشتهر باسم (درب الفيل) ، ينسب الى (التبع أسعـــد كامل) في حوالي السنة (٤٠٠) للميلاد ، ومنه بقايا بين (تربـة) ومواضع أخرى من أعالي اليمن[6] .

وقد وجدت شوارع المدن وطرقها مبلطة مرصوفة رصفاً حسناً في بعض الأحيان بحجارة وضع بعضها فوق بعض ، وربطت بينها مادة بناء مثـــل الجبس ، ذات قوة وتماسك كقوة (السمنت) وتماسكه حـــين يجف . وقد رصف بعض آخر بحجارة مربعة أو مستطيلة قدت من صخر ، وضع بعضها الى جانب بعض وضعاً محكماً بحيث بدت وكأنها حجر واحد،ورصف بعض آخر بحجارة هذبت أوجهها وصقلت وجعلت لها حواشي منخفضة ، وحواشي بارزة يكون سمكها سمك القسم المنخفض من الحواشي المنخفضة حـــتى توضع فوقها فتغطيها ، فتكون الأحجار متماسكة بذلك كقطعة واحدة[7] . وقد وجد بعض الطرق مكسواً بـ (الاسفلت) .

وقد ذكر علماء اللغة أن (البلق) الرخام ، وحجارة باليمن تضيء ما وراءها كالزجاج[8] . ولم يذكروا أن (مبلقة) بمعنى الطريق الممهد .

وقد تبين من فحص البقية الباقية من الطريق القريب من (غيمان) ، وعهده أيام ما قبل الإسلام ، أن تبليطه ورصفه لم يكونا على جانب كبير من الدقـــة

---

١ Arabien, S. 147, G. U. R. Yule, A Rock-Cut Himyarite Inscription on Jabal Jehaf in the Aden Hinterland, in PSBA, 27, (1905), 153-155, D. H. Müller, The Himyaritic Inscription from Jabal Jehaf, PSBA, 28, (1906), 143.

٢ (نقيل) في اللغة اليمانية .

٣ CIH 418, Arabien, S. 147.

٤ اللسان ، (نقل) ، تاج العروس (٨/١٤٣) ، (نقل) .

٥ R. A. B. Hamilton, Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, GJ, 101, (1943), 113, Rathjens, Sabaeica, I, 94, 139.

٦ Arabien, S. 147, Philby, Arabian Highlands, 183, 259, 365.

٧ Arabien, S. 147, Rathjens, Sabaeica, I, 94, 139.

٨ تاج العروس (٦/٢٩٨) ، (بلق) .

والعناية . وهو بعرض أربعة أمتار تقريباً . ويؤدي الى (قصر غيمان) . وقد أقيم في موضع منه على سدّ ارتفاعه خمسة أمتار،وقد حفظ من الجانبين بجدارين[1] .

ويقال للطرق الضيقة التي يسلكها الإنسان للوصول الى أعلى البرج أو القلعة (محول) في اللهجة المعينية . وقد تكون مسقوفة ، وقد تكون بغير سقف ، كما تكون مدرجة أي ذات سلالم،وربما لا تكون كذلك ، وقد تؤدي الى ارتفاع، وقد تكون ممراً مستوياً يخترقه الإنسان كالدهليز[2] .

واتخذ الجاهليون القناطر ، والقنطرة لغة في الجسر[3] . ويراد بها القنطرة المعقودة المعروفة عند الناس . والعرب تسمي كل أزج قنطرة . وقد ورد ذكرها في شعر لطرفة بن العبد . وهي تعقد بالحجارة وتشاد بالجص أو بجياد وهو الكلس[4] . ويعبر عليها الناس ووسائط النقل وقد عثر على آثار قناطر في مواضع متعددة من جزيرة العرب،ولا سيما في اليمن وبقية العربية الجنوبية حيث تكثر الأودية والسيول .

وجاء في شعر لـ (طرفة بن العبد) ، هذا البيت :

كقنطرة الرومي اقسم ربّها لتكتفنْن حتى تشاد بقرمد

وقد ذكر (الزوزني) ، أن صاحب القنطرة وهو رومي ، حلف ليحاطن بها حتى ترفع أو تجصص بالصاروج أو بالآجر . وأن القرمد : الآجر ، وقيل هو الصاروج ، والشيد الرفع والطلي بالشيد وهو الجص . ولم يذكر الشارح موضع القنطرة المذكورة التي بناها صاحبها وهو رومي فنسبت اليه[5] .

أثاث البيوت :

وليست لدينا صور واضحة دقيقة عن بيوت أغنياء المدن ، وعن محتوياتها وعمّا فيها من أثاث وأدوات . غير أن بعضاً منها يجب أن يكون واسعاً كبيراً حوى

---

١ Rathjans, Sabaelca, I, 77, 141, Arablen, S. 147.

٢ Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S. 31.

٣ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٣٣٣) .

٤ الكامل ، (٥٩/١) .

٥ شرح المعلقات (للزوزني) (دار صادر) (ص ٥٢) .

كل وسائل الراحة المتوفرة بالقياس الى ذلك العهد . فرجل مثل (عبد الله بن جُدْعان) كان ثرياً ثقيل الثراء ، يملك آنية من الذهب والفضة ، ويشرب بكؤوس غالية ، ويأكل أكلات غريبة ، ويتفنن في مأكله ، وقد استحضر لذلك طبّاخين من الخارج من العراق مثلاً ، ليطبخوا له طعاماً غريباً عجمياً ، أقول إن رجلاً مثل هذا لا بُدّ أن يكون بيته بيتاً كبيراً يتناسب مع ثراء صاحبه وماله وقد بني بناءً محكماً ، وأحصنت جدرانه وارتفعت حتى يكون في مستطاعه التحصن فيه وقت الخطر والمحافظة على نفسه من السراق والطامعين في ماله في الليل والنهار .

ولا بد أن يكون بيت عبدالله بن جُدْعان هذا قد بني من أجنحة متعددة ، جناح لسكناه مع نسائه ، وجناح لقيانه وخادماته وجناح لخدامه وعبيده ، وجناح لاستقبال أصحابه وندمائه وأصحاب الحاجات والأشغال ، فقد كان يجلس للأصدقاء يتسامر معهم ويسمع معهم غناء قيانه ، وعلى رأسهن (الجرادتان) ، وهما قينتاه المختارتان ، وكان لهما صوتان شجيان ، وقد اشتهرتا بمكة ، وخلد ذكرهما حتى الآن ، فلا يعقل أن يكون بيته صغيراً أو حقيراً أو بدائياً ، إذْ لا يتناسب ذلك مع ما يذكره أهل الأخبار ويروونه عن ثرائه وبذخه وعن شربه بآنية من ذهب وفضة ، الى غير ذلك مما يحملنا — لو صدقنا روايات الأخباريين — على أن بيته يجب أن يتناسب مع ثرائه .

وعاصر ابنَ جُدْعان نفر آخر كانوا من أغنياء مكة ومن أصحاب المال والثراء ، لهم ذوق في الجمال وحب للشراب . وكان لهم خدم وحشم ، ورجال من هذا الطراز لا بد أن تكون بيوتهم حسنة ومن حجارة ، وفيها وسائل الراحة ، ولها مواضع خاصة بإقامة النساء ، وأماكن خاصة باستقبال الضيوف ، ومواضع لإقامة الخدم والعبيد . والحيوانات التي يرتبطها للركوب ، وحجر لحفظ الأطعمة والأشربة بمقادير كافية احتمالاً لحالات الطوارىء .

وعرفت الزرابي ، وهي (الطنافس) ، في بيوت أثرياء الجاهليين وقصور الأمراء . وقد ذكرت (الزرابي) و (النمارق) في القرآن الكريم[1] . وورد أن الزرابي ضرب من الثياب محبر ، منسوب الى موضع[2] ، وذكرت (الزرابي) في شعر (حسان)[3] .

١ الغاشية ، الاية ١٦ .
٢ المفردات ، للاصفهاني (ص ٢١١) .
٣ ترى فوق أثناء الزرابي ساقطا نعالا وقسوبا وريطا معضدا
البرقوقي (ص ١٤٦) .

وعرف عند الجاهليين نوع خاص من الطنافس قيل له (الرحــال) ، ذكر أنه من طنافس الحيرة . واليه أشار الأعشى بقوله :

ومصاب غــادية كأن تجارها نشرت عليه برودها ورحالها[1]

وقد استعملت الكراسي والأسرة في بيوت الأغنياء . والكرسي السرير . وأما السرير ، فهو ما يجلس عليه وينام فوقه أيضاً . وقد عبر به عن الملك والنعمة[2]. والظاهر أن ذلك بسبب كونــه من مظاهر الغنى والجاه . و (الخلب) الكرسي قوائمه من حديد[3] .

ويقال للمجلس (الموثب) في لغة (حمير) . ويراد بها أسفل الشيء وما يستقر على الأرض . وهي قريبة في المعنى من لفظة (شت) و (اشدو)[4] .

وقد استورد أهل مكة الأواني الغالية والأثاث الراقي من بلاد الشأم ، لما عرفت به هذه البلاد من التقدم في الصنعة وحسن الذوق ، ولقربها من الحجــاز ، كما استوردوها من العراق . ويمكن معرفة أصولها والأماكن التي وردت منها بدراسة أسماءها . فأكثر أسماء الأشياء المستوردة ، هي أسماء معربة . عربت مــن أصول أعجمية ، ويمكن الوقوف على أصلها بدراسة أصولها اللغوية التي جاءت منها .

وقد تبنى (دكك) عند باب البيت ، يجلس عليها الدرابنة ، أي (البوابون) ، لمنع الغرباء من الدخول داخل البيت ، ولحراسة الدار . وقد أشير اليهما في شعر ينسب للمثقب العبدي :

فابقي باطلي والجد منهــا كدكان الدرابنــة المطين[5]

أما بيوت الفقراء ، فهي كما يظهر من روايات أهل الأخبار ، بيوت حقيرة إن جاز اطلاق لفظة (بيت) و (بيوت) عليها . وهي من طين ومن بيوت شعر ، لا تقي مــن برد ولا من حر ، لذلك فإن الطبقة الفقيرة عاشت عيشة

---

١ تاج العروس (٣٤٢/٧) ، (رحل) .
٢ تاج العروس (٢٦٤/٣ وما بعدها) ، (سرر) .
٣ اللسان (٣٦٥/١) ، (خلب) .
٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 37.
٥ تاج العروس (١٣٠/٧) ، (دك) .

بؤس وشقاء . وليس في مثل هذه البيوت مرافق صحية ولا مغاسل ولا حمامات، فكان أصحابها يقضون حاجاتهم في خـــارج البيوت . وإذا كان من السهل على الذكور أداء هذا الواجب ، فإن ذلك كان من أصعب الأشياء بالنسبة للأناث .

وسائل الركوب :

وكان السير على الأقدام للوصول الى المواضع المقصودة هو المألوف عند أكثر الناس ، بسبب فقرهم وعدم تمكنهم من امتلاك دابة ركوب . لقد كان أكثرهم يقطع مسافات طويلة مشياً على قدميه في ذهابه الى قبيلته أو للتنقل من مكان الى مكان . أما المتمكنون منهم ، فقد ركبوا الجمال في قطع المسافات البعيدة والأرضين الصحراوية ، وركبوا الخيل والبغال والحمير في القرى وفي الأرضين التي لا تغلب عليها الطبيعة الصحراوية .

ولحماية النفس أثناء النوم من (البعوض) والحشرات الأخرى استعملوا (الكلل). و (الكلة) ستر رقيق مخاط كالبيت يتوقى به من الحشرات[1] . ومن هذه الحشرات والهوام : البعوض ، وأكثر ما يكون في بيوت الحضر ، حيث تتوفر له وسائل النمو والمعيشة ، من أوساخ ورطوبة وماء . وفي المواضع التي يكثر وجود المـــاء بها ، مثل خيـــبر ، حيث عرفت بكثرة بعوضها الحامل للبرداء (الملاريا) . و (الناموس) ، و (البرغوث) الذي يزعج الإنسان ويقلقه ، فلا يجعله يستريح في نومه ، ثم الذباب .

آداب المجالس :

وللقوم آداب في مجالسهم على الإنسان اتباعها ومراعاتها ، من ذلك أن لكـــل بيت مهما كان حجمه أو مكانته حرمة . وأن على كل إنسان صيانة حرمة بيتـــه وبيت غيره سواء بسواء . لأن بيوت الناس هي في الحرمة سواء . ومـــن ينتهك حرمة بيت غيره يكون قد قام بإثم كبير وعرض نفسه لانتقام أهل البيت المنتهك

---

١ تاج العروس (١٠٢/٨) ، (كلل) .

منه . وقد يؤدي ذلك الى وقوع قتال بنداء العصبية وبتجمع أهل البيت للأخذ بثأرهم ممن ثلب حرمة بيتهم وتطاول عليه ، ودنس شرفه ، بالاساءة اليه . ولن تغفر الاساءة ولا يغسل عارها إلاّ بالانتقام وبالانتقاص من شأن ذلك الإنسان الذي انتهك حرمة بيت غيره .

ومن حرمة البيت عدم جواز دخوله إلاّ بإذن من صاحبه . فإن دخل اليه دون إذن ، عنف الداخل وأنب ، وان ثبت أنه دخله عن غاية وتصميم عُدّ معتدياً عليه منتهكاً لحرمته . ويكون جزاءه الانتقام منه . وعلى من يريد دخول بيت الاستئذان من أصحابه حتى وإن كان البيت خيمة مهلهلة تذروها الرياح . لأن تلك الخيمة هي بيت ومأوى . ولا ينظر الناس الى نوع البيت والى جنسه بل الى أهله ، فالبيت بأهله لا بكيفيته،وحرمته من حرمة أصحابه .

وقد كان بعض الجاهليين يدخلون البيوت من غير استئذان ، ولا سيما الأعراب. ومنهم من كان يقف عند الباب فينادي : يا فلان اخرج ، أو يا فلان أأدخل. ونجد في كتب السير والأخبار أن من الأعراب من كان يقف أمام حجر النبي وينادي : أخرج يا محمد؟ ولهذا شدد على (الاستئذان) وعلى السلام في الإسلام[1] .

ولا يخاطب الرجل الرجل الأكبر منه سناً أو منزلة باسمه ، وإنما يخاطبه بكنيته . كأن يقول يا أبا فلان ، وتكون الكنية باسم الابن الأكبر ، إلاّ إذا حدث ما يستوجب عدم ذكر اسمه . فيكنى بغيره ممن يختارهم ذلك الرجل . وقد لا يكون ولداً ، ولكنه يكنى مع ذلك بكنية يختارها هو ، أو تكون متعارفة عن الاسم بين الناس . ولا تزال عادة التكنية مستعملة عند الحضر وعند الأعراب . وقد عرف بعضهم الكنية بـ (اسم يطلق على الشخص للتعظيم نحو أبي حفص وأبي حسن ، أو علامة عليه) . وتقوم الكنية مقام الاسم فيعرف صاحبها بها كما يعرف باسمه كأبي لهب عرف بكنيته . وأبو فلان كنيته[2] .

التحية :

والعادة عند الجاهليين أن يحيي الصديق صديقه إذا رآه . والتحية : السلام .

---

١ ارشاد الساري (٩/ ١٣٠ ، ١٤٠) (باب الاستئذان) .
٢ تاج العروس (١٠/ ٣١٩) ، (كنى) .

ومن تحياتهم : حيّاك الله أو حياك .... ثم يذكر الصنم[1] . وإذا كان اللقاء صباحاً قالوا : أنعم صباحاً وعم صباحاً ، أما إذا كانوا جماعة فيقول عندئذ : أنعموا صباحاً ، وعموا صباحاً ، وإذا كان الوقت مساءً ، قال أنعم مساءً وعم مساءً وأنعموا مساءً إذا كانوا جماعة .

والمصافحة معروفة عند الجاهليين . وتكون باليد اليمنى . وقد يتصافحون باليدين[2] . وقد يتعانقون ، إذا كانوا قد جاؤوا من سفر أو من فراق[3] . وقد أشير في الحديث الى المصافحة باليدين عند اللقاء[4] .

وتكون إجابة الصغير للكبير بتلبية مؤدبة . فإذا سأل إنسان ذو منزلة إنساناً آخر أقل منزلة منه أجابه بجمل فيها أدب وتقدير مثل لبيك وسعديك[5] . أي لزوماً لطاعتك ، وأنا مقيم على طاعتك ، واجابة لك ، وأنا مقيم عندك، واتجاهي اليك وقصدي لك وما شاكل ذلك من معان ذكرها علماء اللغة . ومن هنا قيل لقول الحجاج في الحج : لبيك اللهم لبيك،التلبية[6] . ويجاب بـ (نعم) وبـ (نعم وكرامة) . وقد يكون الجواب لطلب عمل عملٍ . كأن يطلب رجل من رجل آخر عمل عملٍ ، فيقول له : (نعم) ، و (نعم وكرامة) ، و (نعم عين ونعمة عين) ، و (نعام عين) ، و (نعيم عين) ، و (نعام عين)[7] . وتعدّ لفظة (بلى) من ألفاظ الإجابة كذلك .

ومن آداب البيت الامتناع عن قول الفحش بحضور النساء . وعدم النظر بسوء الى البنات والنساء ، وعدم تركيز النظر عليهن . لأن معنى ذلك توجيه إهانة الى رب البيت ، واظهار أنه إنما قصد من دخول البيت التمتع برؤية النساء . وعليه السيطرة على نفسه وضبطها فلا يسمح لنفسه بإخراج الريح من جوفه ، لأن ذلك عند العرب عيب كبير . فالضراط والفساء إذا وقعا من إنسان بحضرة غرباء عدّا

---

١ تاج العروس (١٠/١٠٦ وما بعدها) ، (حيى) .
٢ ارشاد الساري (٩/١٥٤) ، اللسان (٢/٥١٤) .
٣ ارشاد الساري (٩/١٥٥) .
٤ تاج العروس (٢/١٨١) ، (صفح) .
٥ ارشاد الساري (٨/٢١٠) .
٦ تاج العروس (١/٤٦٥) ، (لبب) .
٧ تاج العروس (٩/٧٨) ، (نعم) .

من المغامز التي قد يؤاخذونها على الرجل. لا سيا إذا كان الرجل معروفاً مشهوراً وله حسّاد .

ومن عاداتهم : تشميت العاطس ، لا سيا إذا كان كبيراً ذا جـاه . كأن يدعى له بطول العمر . وقد أكده الإسلام . فإذا عطس إنسان قال : الحمد لله فيجيبه الحضار بـ (يرحمك الله) . ويحمد العطاس عند العرب ، ما لم يكن من زكام ويذم التثاؤب[1] . وذكر أن كل دعاء بخير فهو تشميت[2] .

ويقال للشاب إذا سعل : عمراً وشباباً . أما إذا كان الساعل شيخاً أو رجلاً بغيضاً ، فيقال لها : ورياً وقحاباً . وللحبيب إذا سعل : عمراً وشباباً[3] .

وكانت تحيتهم للملك أن يقولوا : أبيت اللعن . وإذا قال أحدهم للآخر : أنعم صباحاً ، أو أنعم مساءً ، أو أنعم ظلاماً ، أجابه صاحبه : نعمتَ[4] .

ثقال الناس :

ومن الناس مَنْ يُستثقل ظلهم ويرجى انصرافهم بسرعة. لثقل طبعهم ووجود جفاوة فيهم ، أو تلبد في طبعهم يجعلهم لا يدركون طباع الناس . ويقال لأمثال هؤلاء : الثقلاء . وثقال الناس وثقلاؤهم من تكره صحبته ويستثقله الناس. يقال: مجالسة الثقيل تضني الروح . ويقال : هو ثقيل على جلسائه ، وما أنت إلاّ ثقيل الظل بارد النسيم[5] .

ومن الثقلاء من يطيل الجلوس في المجالس : أو يدخلها دون دعوة،أو يتدخل فيا لا يعنيه أو فيا يجهله ليظهر علمه وفهمه. أو يزور صديقاً في وقت لا تستحب زيارة أحد فيه ، أو يعود مريضاً ثم يطيل الجلوس عنده . وكانوا إذا وجدوا من الثقيل بلادة ، فلربما أسمعوه كلاماً يشعر بتثاقلهم منه ، فإذا لم ينتبه أشعروه بصور أخرى تفهمه أنه ثقيل الظل حتى يرحل عن المجلس .

---

١ ارشاد الساري (١٢٥/٩) ، (باب مشروعية تشميت العاطس) ، تاج العروس (١٩٢/٥) (عطس) .
٢ تاج العروس (٥٥٩/١) ، (شمت)
٣ تاج العروس (٤٢١/١ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٣٢٨/١) ، (هارون) .
٥ تاج العروس (٢٤٥/٧) ، (ثقل) .

و (الظريف) على عكس (الثقيل) ، يستظرفه الناس ويستملحون كلامه ويحبّون مجالسته . وهو البليغ الجيد الكلام ، أو هو حسن الوجه والهيئة ، كما يكون في اللسان . وقيل الظرف : البزاعة وذكاء القلب . والبزاعة هي الظرافة والملاحة والكياسة [1] .

وقد يدعون بالشر على الأعداء والحساد والثقلاء ، فيقولون : رماه الله في الدوقعة ، أي في الفقر والذل [2] ، و (أخسّ الله حظه) [3] ، و (أبعد الله دار فلان ، وأوقد ناراً إثره). والمعنى لا رجعه الله ولا ردّه . و (أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً إثره) [4] .

الصلف :

وأما (الصلف) ، فالتمدح بما ليس عندك . وقيل مجاوزة قدر الظرف والبراعة فوق ذلك تكبراً . وفي الحديث:آفة الظرف الصلف . وهو الغلو في الظرف والزيادة على المقدار مع تكبر [5] . وهو مكروه ويستثقل صاحبه ويقل أصحابه .

المجالس :

والعادة عندهم أنهم إذا زاروا ملكاً أو سيد قبيلة أو عظيماً ، لبسوا أحسن ما عندهم من لباس ، وتزينوا بأجمل زينة يعرفونها ومنها التكحل والترجيل ولبس جبب الحبرة المكففة بالحرير،كالذي فعله سادات نجران [6] يوم وفدوا على الرسول . والتكحل عادة منتشرة عند جميع الجاهليين رجالاً ونساءً وفي كل جزيرة العرب . كما كانوا يتطيبون بالطيب والعطر [7] .

---

١ تاج العروس (١٨٧/٦) ، (ظرف) .
٢ تاج العروس (١٣١/٥) ، (دقع) .
٣ تاج العروس (١٣٨/٤) ، (خس) .
٤ اللسان (٤٦٦/٣) ، (وقد) .
٥ تاج العروس (١٦٧/٦) ، (صلف) .
٦ نهاية الارب (٨٧/١٨ وما بعدها) .
٧ نهاية الارب (٧٥/١٧) .

ومن آدابهم في مجالسهم قيام القاعد للقادم عند قدومه وتوجيهه التحية لهم . ولا سيا إذا كان القادم شريفاً وله منزلة عند قومه ومكانة . فيقف القوم على أرجلهم ويجيبون المحيي على تحيته بتحية هي خير منها ، هذه سنة كانت معروفة عندهم ، ولا تزال . وقد تطرق (الجاحظ) الى هذه القاعدة ، ثم قال : (قالوا : ومن الأعاجيب أن الحارث بن كعب لا يقوم لحزم ، وحزم لا تقوم لكندة ، وكندة لا تقوم للحارث بن كعب) . ثم قال : (قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب في الحارث : أن العرب لا تقوم للترك ، والترك لا تقوم للروم ، والروم لا تقوم للعرب)[1] .

وتفرش أرض سيد القبيلة وذوي اليسار من الناس ، وكذلك غرف بيوتهم بالفرش ، كالبسط ، وتوضع الوسد في صدر المجلس ليتكىء عليها الجالسون . وليتوسدوها عند النوم[2] . ويعد تقديم الوسادة الى الضيوف من امارات التكريم والتقديس بالنسبة لمن قدمت له . ولا تزال هذه العادة متبعة عند الأعراب .

ويجلس العرب على الأرض وعلى الحصير والبساط . وقد يجلسون على وسادة وقد يستلقون ويضعون إحدى رجليهم على الأخرى ، وقد يتكئون على الوسادة ، وربما اتكأوا على اليمين وربما اتكأوا على اليسار[3] . والحصير سقيفة تصنع من بردى وأسل ثم يفترش . سمي بذلك لأنه يلي وجه الأرض . وتصنع الحصر من خوص السعف أيضاً ، وتفرش على الأرض . يستعملها أهل القرى والمدن والأرياف ، وفي بيوت الفقراء . وذلك لعدم تمكن الفقير من شراء بساط منسوج ، ولا سرير يجلس عليه . قال شاعر :

فأضحى كالأمير على سرير   وأمسى كالأسير على حصير[4]

وقد عد (السرير من امارات الغنى والرفاه والنعمة ، حتى عبروا عنه بالملك. فقالوا : (سرير الملك)[5] .

---

١ مناقب الترك ، من رسائل الجاحظ (١/٨١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٢/٥٣٤) ، (وسد) .
٣ زاد المعاد (١/٤٣) .
٤ تاج العروس (٣/١٤٣ وما بعدها) ، (حصر) .
٥ ارشاد الساري (٩/١٦١) ، (باب حكم اتخاذ السرير) .

ويقال للحصير المنسوج من القصب (البارية) و (البوري) . وقد عرف أهل الحجاز (البارية) . وأشير اليها في الحديث[1] .

ويتناول الإنسان عند نهوضه من نومه (الصبوح) . ويحيي أهلـه ومن هو حوله بتحية الصباح : عم صباحاً وعموا صباحاً إذا كانوا جماعة . وهي تحيـة الجاهلية . و (الصبوح) كل ما أكل أو شرب من أكل أو لبن[2] . وهم يستحبون الجلوس من النوم صباحاً ، لأن ذلك عندهم أنشط للجسم وأدعى للصحة ، ثم إنّ الغارات تقع في الصباح ، وإذا أغاروا صاحوا : يا صباحاه! ينذرون الحي أجمع بالنداء العالي ، ويسمّون الغارة يوم الصباح . ولكن أكثرهم كانوا ينامون الصباح أي نوم الغداة ، ويسمون ذلك النوم (الصبحة) ولا ينهضون إلاّ متأخرين أو بعد حيل وازعاج لهم ، لاكراههم على النهوض . وقد كره الإسلام هذه النومة، فجاء النهي عنها في حديث الرسول[3] .

تنظيف الأجسام :

ولتنظيف الجسم من الأوساخ والأدران استعملت الحمامات . وذلك عند الحضر بالطبع . أما حمامات البدو ، فهي بيوتهم والعراء ، يسكبون الماء على أجسامهم ويغتسلون . وقد عرف أهل القرى والمدن الحمامات ولها مساخن تسخن لهم المـاء ليغتسلوا بها . وكانوا يستعملون النورة في الحمامات لإزالة الشعر . وإذا خرج أحدهم من الحمام قيـل له : طابت حمتك[4] . وذكر أن من أسماء الحمام (الديماس) . وزعم بعضهم أن الديماس من الألفاظ المعربة . عربت من لغة الحبشة[5] .

وكانت الحمامات العامة قليلة العدد وربما لم تكن معروفة ، إذْ لم تكن شائعة بين النـاس في الشرق الأدنى ، لأنهم كانوا يستحمون في بيوتهم في الغالب ، فجزيرة العرب حارة ومن الممكن الاغتسال في البيوت بكل سهولـة . ولم يعرف

---

١ تاج العروس (٣/٦٠ وما بعدها) ، (بور) .
٢ تاج العروس (٢/١٧٥) ، (صبح) .
٣ تاج العروس (٢/١٧٥) ، (صبح) ، (٥/١٧٦) ، (ضرط) .
٤ تاج العروس (٨/٢٦٠) ، (حم) ، المعرب ، للجواليقي (٣٤١) .
٥ تاج العروس (٤/١٥٤) ، (دمس) .

اليهود الحمامات العامة ، وإنما تعلّموها من الروم والرومان . وكانوا يستحمون في المياه الجارية وفي البيوت[1] . وقد ورد أن الرسول لم يدخل حماماً قط ، ولم يصح في الحمام حــديث[2] . مما يدل على أن الحمام العام لم يكن شائعاً في أيامه . فكان الرسول يغسل جسمه في بيته . وإذا وجد الحمام العام فلم يكن الأغنياء وذوو اليسار وأهل البيوت يقصدونه ، إذْ كانوا يرون أن في تعري الرجل من ملابسه أمــام الغرباء زراية ومنقصة ، وأن في مخالطة الناس والاغتسال معهم في حمام ، مثلبــة ودلالة على نقص في البيت . فاستحموا في بيوتهم .

وقــد قام السدر في الحجاز مقام الصابون في الاغتــسال ، فكانوا إذا أرادوا تنظيف أجسامهم استعملوا ورق السدر مع الماء ، فيخرج له رغاء ابيض ، وذلك بعد طحن الورق او دقه . وقد جرت العادة بغسل الميت به . وذكر ان الرسول امر قيس بن عاصم بأن يغتسل بالماء والسدر[3] .

وعندما تغتسل المرأة ، تغسل رأسها بالخطمي والطين الحرّ والأشنـان ونحوه . ثم تمشط شعرها . وقد تستعمل المرأة المتمكنة ورق الآس يطرى بأفاويه من الطيب لتمشيط شعرها به[4] .

ونظراً لقلة وجود الماء في البادية ، اقتصدوا في استعماله كثــيراً ، حتى أنهم لم يكونوا يشربون منه إلاّ قليلاً وعند الضرورة ، وذلك خوفاً من الإسراف فيه، فينفد ويهلكون عطشاً ، لذلك كان من الطبيعي بالنسبة لهم عـدم غسل اجسامهم حتى صار عدم الاستحمام بالماء شبه عادة لهم . وقد ادى ذلك الى توسخ اجسامهم وظهور رائحة الوسخ منهم . ورد في حديث (عائشة) : (كان الناس يسكنون العالية فيحضرون الجمعــة وبهم وسخ ، فإذا اصابهم الروح سطعت أرواحهم ، فيتأذى به الناس . فأمروا بالغسل)[5] . وكان منهم الفقراء من اهل الحضر كذلك، ممن لا يملكون بيتاً ولا يجدون لهم مكاناً يغسلون اجسادهم فيه . وكان من بينهم عدد من الصحابة الفقراء .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/٣٨٨) ، Hastings, p. 86.
٢ زاد المعاد (/٤٤) .
٣ الطبقات (٧/٣٦) .
٤ تاج العروس (٨/٤٥) ، (غسل) .
٥ تاج العروس (٢/١٤٨) ، (روح) .

وكانوا إذا ارادوا قضاء الحاجة دخلوا (الخلاء) . وهو موضع قضاء الحاجة[1] . وتكون في بيوت الحضر . وقد تكون غرفة وقد تكون ستراً . ويستنجى بالماء إنْ وجد وبالحجارة . والنجو ما يخرج من البطن من ريح او غائط . وقيل العذرة نفسها . واستنجى مسح النجو او غسله[2] . وكانوا إذا ذهبوا في سفرهم للحاجة انطلقوا الى موضع يتوارون فيه عن أصحابهم ، ليقضوا حاجتهم به . وربما تستّروا بالهدف وبحشائش النخل وبشجر الوادي . ويقال للكنيف المشرف في أعلى السطح المتصل بقناة الى الأرض (الكرياس) . أما إذا كان أسفل فليس بكرياس . وقد تكون للغرف (مراحيض)[3] . والكنيف المرحاض كأنه كنف في أستر النواحي[4].

وكانوا إذا أرادوا أن يبولوا ابتعدوا عن أصحابهم بعض الشيء ثم بالوا . وأكثر ما يبولون قعوداً . ولكنهم كانوا يبولون وقوفاً أيضاً ، وهو في الأقل . وإذا أرادوا قضاء حاجتهم أو التبول لم يرفعوا ثوبهم بل جعلوه يتدلى حتى يدنو من الأرض ، إلاّ من الأمام حيث يرتفع بعض الشيء ، ويبعد من الخلف أو يرفع قليلاً حتى لا يتأذى بالعذرة[5] .

ويرى العرب أن ما بين السُرّة والركبة من الرجل عورة ، لذلك يجب ستره . والعورة السوأة من الرجل والمرأة[6] . وكانوا يرون ظهورها عاراً أي مذمة . لذا حرصوا على انزال ثيابهم الى الأرض لسترها قدر الامكان ، وذلك عند قضاء الحاجة .

الخدم والخصيان :

وتحتاج البيوت الكبيرة الى خدم ، لتحضير ما يحتاج البيت اليه من طعام وماء ولتنظيفه وللعناية بدوابه وبما يربط في مرابطه من حيوان . كما يوكل اليهم خدمة الضيوف وتقديم الشراب الى المتنادمين . وكانوا يستخدمون (الخصي) لخدمة أهل

---

١ تاج العروس (١٢٠/١٠) ، (خلا) .
٢ تاج العروس (٣٥٨/١٠) ، (نجو) .
٣ تاج العروس (٢٣٢/٤) ، (كرس) .
٤ تاج العروس (٢٣٩/٦) ، (كنف) .
٥ زاد المعاد (٤٣/١ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٤٢٩/٣ وما بعدها) .

البيت من النساء ، لأنهن محرم ، ولا تصح خدمة الرجال لمحارم البيت ، ونظراً الى ضرورة استخدام الرجال في بعض أمور البيت ، استعاضوا عنهم باستخدام (الخصي) في هذه الأمور . وقد كان (مأبور) القبطيّ الخصي ، الذي قدم مع (مارية القبطية) أم ولد الرسول من مصر يدخل عليها ويجلس في بيتها ، وكان خصياً [1] .

الحياة الليلية :

والحياة الليلية حياة هادئة على وتيرة واحدة ، يأوي الناس الى بيوتهم مع غروب الشمس في الغالب ، أما وجهاء القوم ، فقد كانوا يتسامرون في بيوتهم وفي مضاربهم ، وذلك بأن يأتي أصدقاؤهم اليهم فيتحدثون معهم ويتذاكرون الأيام الماضية وما يقع من أحداث الى ساعات من الليل ثم يعودون الى بيوتهم . ويكون السمر في الليل خاصة ، والسمر الظلمة . ولهذا كانوا يقسمون بالسمر والقمر . أي بالظلمة والقمر . ثم أطلق السمر على السمر عامة في الليل او في النهار[2] .

وقد صار هذا (السمر) أساساً للقصص العربي وللأدب العربي والتأريخ الجاهلي . وعلى الرغم من أن طابع السمر ، أي القص والتحدث والانصات الى المسامر ، لا يتفق مع الطابع التأريخي ، إلا أنه موّن المؤرخين مع ذلك بشيء من أخبار أيامها ورجالها في صورة من الصور المعروفة عن القص . والعادة أن الذين يبرزون ويظهرون في رواية القصص هم أصحاب الألسنة ، اللبقون الذين أوتوا مواهب خاصة ، والذين يجيدون معرفة نفسيات من يحيط بهم للاستماع الى قصصهم . فيحدثون السامعين اليهم بما سمعوه ممن تقدم عليهم أو من يعاصرهم من أخبار وحوادث مسلّية طريفة كان الجاهليون إذْ ذاك يتشوقون الى الاستماع اليها . ومن ذلك قصص الأيام والأبطال الشجعان الذين ساهموا فيها ، وقد يكون المتكلم نفسه ممن شهد الأيام وقاتل فيها . وهذا النوع من السمر ، لا يتقيد بالصدق وبالتعقل ، كما أن المستمعين لا يهمهم فيه إذا كان معقولاً أو غير معقول .

---

١ الاصابة (٣/٣١٥) ، (رقم ٧٥٨٣) .

٢ تاج العروس (٣/٢٧٧) ، (سمر) .

وكل ما يهمه منه هو التلذذ بسماع القصص أو الأشعار أو الأخبار وأمور الشجعان أو غير ذلك.ولما كان السمر يكون في كل بيت وفي كل مكان . وهو يتناسب مع عقلية القاص أو المتكلم وعقلية السامع وحالاته النفسية التي يكون عليها عند الإسماع الى السمر ، لهذا كان السمر ألواناً وأشكالاً ، منه ما يتناول أخبار العالم ، كما وصلت الى البادية ، ومنه ما يتناول أخبار الملوك وأخبار سادات القبائل،ومنه ما يتناول الشعر والمناسبات التي قيل الشعر فيها ، ومنها ما يتناول الجن والأساطير والخرافات وأمثال ذلك من غريب ، قد يبهر لب أذكى الناس ، ويلهب في السامعين نيران العواطف ، فيجعلهم يقبلون على الاسماع اليه بكل قلوبهم . على الاسماع الى هذا العنصر : عنصر التصنع في القص والإغراب ، لأن من طبع الإنسان البحث والتفتيش عن كل شيء غريب عجيب .

ويتخذ الملوك والأشراف وذوو اليسر لهم ندماء ، يشربون معهم ويقضون وقتهم بالمنادمة . وهم من المقربين الى الملوك ومن ضيوفهم الذين تكون لهم عندهم مكانة خاصة ، وكان من عادة أهل القرى ، اتخاذ الندماء ، والغالب أن المنادمة تكون على الشراب[1] . ونجد في أخبار (مكة) التي يذكرها أهل الأخبار ، أسماء جماعة من أشرافها ، اختصوا بمنادمة بعضهم بعضاً . يبقون في منادمتهم مدة طويلة وقد يقع سوء فهم بينهما ، فيترك أحدهما منادمة صاحبه ، لينادم غيره .

ويجلس الملك أو سيد القبيلة في صدر المجلس ، ودونه بقية الجالسين على حسب المنازل والدرجات ، وقد عَطَّر نفسه ، وتطيب ، وتضمخ بالعنبر وبالمسك . والظاهر أنهم كانوا يكثرون من وضع المسك على رؤوسهم حتى كان يبدو واضحاً جلياً من مفارقهم . وقد أشير الى هذه العادة في الشعر والأخبار[2] .

وكان من عادة سادة العرب استعمال الخلوق والطيب في الدعة وفي جلوسهم مجالس أنسهم ، مثل مجالس السماع والغناء[3] . وكان المتمكنون منهم وعلى رأسهم الملوك يضمخون أجسادهم ورؤوسهم بالطيب حتى كأنه يقطر منهم[4] . فكانت

---

١ تاج العروس (٧٤/٩) (ندم) ، اللسان (ندم) .

٢ الكامل (٣٦/١) ، العقد الفريد (٢٣/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٦٧/٢) ، (ضمخ) .

٣ الروض الانف (٦٧/٢) .

٤ تاج العروس (٢٦٧/٢) ، (ضمخ) .

تفوح منها رائحة الطيب . فضلاً عن البخور الذي يتبخر به .

وقد كان الأغنياء والمتمكنون من الناس يشترون العطور ويكثرون من التطيب بها . وقد تباهى (كعب بن الأشرف) بأنه كان يملك أطيب العطور المعروفة عند العرب[1] .

وتكون ملابسهم بالطبع من أحسن الملابس ، من الديباج أو من الخز أو من الكتان ، وتوشى بالذهب ، وتقصب به . وقد تكون للملك دور خاصة بنسيجه ، تنسج فيها حلله وما يجود به على ضيوفه وزائريه . ولديه ملابس كثيرة حاضرة ، إذ طالما كان يخلع ملابسه التي يرتديها في المجلس ليعطيها الى حاضر مدحه فأجاد في مدحه ، أو لشخص قال كلاماً ظريفاً استحسنه ، ومن يناله هذا التكريم يفتخر به بين أقرانه ويتباهى ، فهي من المفاخر التي كان يتباهى بها في ذلك الزمان .

وعادة الخلع ، خلع الحلل والملابس التي يلبسها الملوك على السادة رؤساء القبائل والأشراف ، أمارة على التكريم والتقدير ، هي عادة معروفة في الجاهلية ، وطالما أثارت حسد الرؤساء وتباغضهم ، إذ عدّ خلع الملوك لملابسهم على السيد، تفضلاً له وتقديماً على غيره من السادة رؤساء القبائل . وكان لهذه الرسوم والعادات التي لا نعيرها اهتماماً في زماننا ولا نقيم لها وزناً،أهمية كبيرة في عرف ذلك العهد، وقد عرفت هذه العادة في الإسلام أيضاً . وقد كان المسلمون يتباهون بالحصول على خلع من الرسول ، يخلعها عليهم من ملابسه التي يلبسها ، فإن فيها تكريماً، وفيها بركة لمن خلعت عليه ، لأنها من ملابس الرسول .

وقد عرفت هذه الحلل والخلع بـ (أثواب الرضى) ، لأنها لا تعطي إلاّ تعبيراً عن رضى الملك عن الشخص الذي أعطيت له . وكان جباب أطواقها الذهب بقصب الزمرد . وقد أغدق (النعمان) بها على مادحيه . وكان يقول : « هكذا فليمدح الملوك»[2] .

وقد ذكر أهل الأخبار أن أولئك الملوك اتخذوا ندماء من الفرس والروم أيضاً، فذكروا مثلاً أن الملك النعمان كان له نديمان ، يعرف أحدهما بـ (النطاسي) واسمه (سرجون) ، ويعرف الآخر بـ (توفيل) ، وكلاهما من الروم[3] . وورد

---

١ تاج العروس (٤٠٩/٣) ، (عطر) .
٢ نهاية الارب (٣/ ١٧٧) .
٣ مجمع الامثال (٤٩/٢ وما بعدها) .

في رواية أخرى : أن أحد النديمين هو (سرجون بن توفل) ، (توفيل) ، وكان رجلاً من أهل الشأم تاجراً حريفاً للنعمان يبايعه ، وكان أديباً حسن الحديث والمنادمة : فاستخفه النعمان . وكان إذا أراد أن يخلو عن شرابه بعث اليه والى (النطاسي) ، وهو رومي كذلك متطبب ، وهو النديم الآخر له[1] ، وكان طبيباً بارعاً ، ضرب به المثل عند العرب لبراعته بالطب .

وفي منادمة النعمان للنطاسي ولابن توفيل ، أشير في بيت شعر للشاعر الربيع ابن زياد المعروف بالكامل ، وهو :

أبرقْ بأرضك يا نعمان متكئاً مع النطاسي يوماً وابن توفيلا[2]

وممن ذكرهم أهل الأخبار من ندماء قريش عبد المطلب بن هاشم . كان نديماً لحرب بن أمية حتى تنافرا الى (نفيل بن عبد العزى) . فلما نفر عبد المطلب افترقا . ونادم حرب عبد اللهَ بن جُدْعان . ونادم حمزة عبد الله بن السائب المخزومي ، وكان أبو أحيحة سعيد بن العاص نديماً للوليد بن المغيرة المخزومي ، وكان معمر بن حبيب الجمحي نديماً لأمية بن خلف بن وهب بن حذافة . وكان عقبة بن أبي معيط نديماً لأبيّ بن خلف . وكان الأسود بن المطلب بن أسد نديماً للأسود بن عبد يغوث الزهري . وكانا من أعز قريش في الجاهلية وكانا يطوفان بالبيت متقلدين بسيفين سيفين . وكان أبو طالب نديماً لمسافر بن أبي عمرو ابن أمية . فمات مسافر . فنادم أبو طالب بعده عمرو بن عبد ودّ بن نضر . وكان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس نديماً لمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف . وكان أبو سفيان نديماً للعباس بن عبد المطلب . وكان الفاكه بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم نديماً لعوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة . وكان زيد بن عمرو بن نفيل نديماً لورقة بن نوفل بن أسد . وكان شيبة بن ربيعة ابن عبد شمس نديماً لعثمان بن الحويرث . وكان العاص بن سعيد بن العاص نديماً للعاص بن هشام بن المغيرة . وكان يدعيان أحمقيْ قريش . وكان أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب نديماً للحارث بن عامر بن نوفل . وكان الوليد بن عتبة

---

١ الاغاني (١٦/٢٢) .

٢ الاغاني (١٦/٢٣) .

ابن ربيعة نديماً للعاص بن منبّه السهمي . وكان ضرار بن الخطّاب بن مرداس الفهري الشاعر نديماً لهبيرة بن أبي وهب المخزومي.وكان أبو جهل بن هشام،وهو عمرو بن هشام نديماً للحكم بن أبي العاص بن أمية . وكان الحارث بن هشام بن المغيرة نديماً لحكيم بن حزام بن خويلد بن أسد. وكان العاص بن وائل بن هشام ابن سعيد بن سهم ، نديماً لهشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، أبي جهل . وكان نبيه بن الحجاج بن عامر السهمي نديماً للنضر بن الحارث . وكان عمارة بن الوليد بن المغيرة نديماً لحنظلة بن أبي سفيان بن حرب . وكان الزبير بن عبد المطلب ، وهو من فتيان قريش ، نديماً لمالك بن عميلة بن السباق ابن عبد الدار. وكان الأرقم بن نضلة بن هاشم بن عبد مناف ، وهو من فتيان قريش أيضاً نديماً لسويد بن هرمي بن عامر الجمحي. وكان سويد أول من وضع الأرائك وسقى اللبن والعسل بمكة . وكان الحارث بن حرب بن أمية نديماً للحارث ابن عبد المطلب . فلما مات نادم العوّام بن خويلد بن أسد . وكان الحارث بن أسد بن عبد العُزّى نديماً لعبد العُزّى بن عثمان بن عبد الدار . وكان أبو البختري العاص بن هاشم بن الحارث بن أسد نديماً لطلحة بن أبي طلحة بن عبد الدار . وكان منبّه بن الحجاج السهمي نديماً لطعيمة بن عدي بن نوفل بن عبد مناف . وكان ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب نديماً لعمرو بن العاص بن وائل السهمي . وكان ابو امية بن المغيرة المخزومي نديماً لأبي وداعة بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم ، وكانا يسقيان العسل بمكة بعد سويد بن هرمي . وكان أبو قيس بن عبد مناف نديماً لسفيان بن أمية بن عبد شمس . وكان ابو العاص ابن امية نديماً لقيس بن عدي بن سهم . وكان يأتي الخمّار وبيده مقرعة . فيعرض عليه خمره ، فإن كانت جيدة ، وإلاّ قال له : أجد خمرك ، ثم يقرع رأسه وينصرف[1] .

وقد يستدعي الملوك في مجالس أنسهم الخاصة من يضحكهم ويسلّيهم ويجلب لهم البهجة والسرور . من امثال القصاصين الذين يقصون لهم القصص،والمسامرون الذين يسامرون الملوك بأنواع قصص السمر والحكايات المضحكة الغريبة والأمور المثيرة ، والمضحكون الذين يأتون بالنكت وبالأفعال المضحكة لإضحاك الملك .

---

١ المحبر (ص ١٧٣ وما بعدها) .

وقد كان للملك (النعمان بن المنذر) مضحك اسمه (القرقرة) ، كان يضحك منه (النعمان) ، واسمه (سعد)[1] . والقرقرة : نوع من الضحك ، اختص بالضحك العالي منه . وقد أدخلوه في المستأكلين والمتطفلين . قالوا سأله أحد الأشخاص يوماً : ما رأيناك إلاّ وأنت تزيد شحماً وتقطر دماً . فقال : لأني لا آخذ ولا أعطي ، وأخطىء ولا ألام ، فأنا طول الدهر مسرور ضاحك[2] .

وقد جاء في شعر للشاعر (لبيد) وصف مجلس للنعمان ، وقد وقف فيه (الهبانيق) أي الوصفاء بأيديهم الأباريق ينتظرون إشارة من أحد جلساء النعمان ليصبوا له خمراً طيبة من خمور تلك الأباريق . فإذا طلب منهم ملء كأس ساروا الى الطالب سيراً فاتراً وبتؤدة ليملأوا له الكأس[3] .

وكانت لهم عادات وتقاليد في مجالس الشرب وفي مجالس الطعام على نحو ما تفعل اليوم في المآدب الرسمية ، فكان من عادة ملوك الغساسنة والمناذرة إجلاس السادة الرؤساء والمقربين اليهم على يمينهم وعلى مقربة منهم ، تعظيماً لشأنهم ، ودلالة على مكانة الشخص عندهم . فإذا قدم الشراب أو الطعام ، قدم الى الملك أولاً ، فإذا شرب منه ، أو ذاقه ، أمر فقدم الشراب أو الطعام الى من هو في يمينه . وقد اتبعت هذه العادة عند سائر الناس في الولائم والدعوات . فكان (النعمان بن المنذر) مثلاً إذا همت الوفود التي تفد اليه بالانصراف ، أمر باتخاذ مجلس لهم ، يطعمون فيه معه ، ويشربون . وكان إذا وضع الشراب سقي النعمان، فن بدأ به على أثره فهو أفضل الوفد . ويذكر أنه أقام مجلساً ذات يوم ضم فيه من وفود (ربيعة) (بسطام بن قيس) و (الحوفزان بن شريك) البكريان. وفيمن قدم عليه من وفد (مضر) من قيس عيلان : (عامر بن مالك) و (عامر بن الطفيل) ، ومن تميم (قيس بن عاصم) و (الأقرع بن حابس)، فلما انتهوا الى النعمان أكرمهم وحباهم ، وأمر (القينة) أن تسقي (بسطام بن قيس) ، المعروف بـ (ذي الجدين) أولاً ، ثم تسقي الآخرين . فانزعج بقية

---

١ اللسان (٥/٨٩) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١٠٩) .
٣ المعاني الكبير (١/٤٦٦ وما بعدها) . قال لبيد :

والهبانيق قيام معهم كل محجوب اذا صب همل

ويروي كل ملثوم ، تاج العروس (٧/٩٣) ، (الهبنق) .

سادات الوفود من هذه المعاملة الّتي اعتبروها إهانة متعمدة ألحقت بهم[1] .

وإلى هذه العادة ، عــادة تقديم الأيمن ، أشير في شعر عمرو بن كلثوم في هذا البيت :

صَبَنْتِ الكأس عنّا أم عمرو   وكان الكأس مجراهـا اليمينا[2]

و (الردف) ، هو الذي يجلس على يمين الملك في قصور الحيرة . فإذا شرب الملك ، شرب الردف قبل الناس . وإذا غزا الملك ، جلس الردف في مجلسه ، وخلفه على الناس حتّى يرجع من غزاته . وله المرباع ، فهي منزلة كبيرة، ولهذا شرف بالجلوس على يمين الملك ، والشرب من بعده . وقد اتخذت هذه المنزلـة لإرضاء سادات القبائل واسكاتهم ، ومنعهم بذلك من التحرش بعرب الحيرة . وقد خصصت في (بني يربوع) ، وكانوا من القبائل القوية الّتي تكثر الغارات[3] .

وقــد تأثر رؤساء الحيرة وأصحاب الحل والعقد والجاه منهم ، والمتصلون بالحكومة الساسانية ، بالعادات والرسوم المتبعة عند الفرس : فـإذا هم يحاكونهم في مآكلهم وفي مجالس شربهم وأنسهم ، وفي طريقة معيشتهم . جـاء ذلك اليهم عن طريق اختلاطهم بهم بالطبع وشدة امتزاجهم بهم ، فنرى عديّ بن زيـد العبادي يذكر (النستق) في شعره .

وقد دخلت على الحسناء كلّتها   بعد الهدوء تضيء البيت كالصّنَم
ينصفها نستق تكـاد تكرمهم   عن النصافـة كالغزلان في السلم

و (النستق) الخدم ، وهي من الألفاظ المعربة[4] . و (الكلّة) ، هي السّتر الرقيق ، ولا تزال تعرف بهذه التسمية في العراق ، توضع فـوق الفراش وينـام تحتها ، فتكون كالقبة فوقها ، لتمنع البعوض والـذباب والحشرات الأخرى من الدخول الى داخلها ومن ازعاج النائم . وهي (كلتو) Kelto في لغة بني إرم[5] .

---

١ العمدة (٢/٢٢٠ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (١/٣٩٤) ، تاج العروس (٩/٢٥٨) ، (صبن) .
٣ اللسان (٩/١١٦) .
٤ الجواليقي (ص ٣٤٣) ، تاج العروس (٧/٧٦) ، (النستق) .
٥ غرائب اللغة (ص ٢٠٤) .

وكان المتمكنون من أهل الجاهلية يستعملون (الكلل) للتخلص من البعوض . ينصبونها على سرير المنام وينامون تحتها[1] .

ولا بد في المجالس والأندية التي يقصدها الضيوف أو في البيـوت من تكريم الرجل بتقديم طيب اليه أو تجميره . ويكون التجمير بمبخرة فيها نار ، يرمى عليها شيء من بخور أو مواد أخرى عطرة لتنبعث منها رائحة طيبة تتجه نحو الشخص المراد تكريمه ، فيتبخر بها . والتجمير علامة بالطبع من علامات التقدير والتكريم. وهي ما زالت معروفة ، وإن أخذت شأن كثير من العادات والتقاليد القديمـة بالانقراض . وقد كانوا يجمرون الميت كذلك ، إكراماً له ، وهو تبخيره بالطيب. لتكون رائحته طيبة . ورد في الحديث : إذا أجمرتم الميت ، فجمروه ثلاثاً[2] .

ونظراً الى شح البادية وفقر الحياة وصعوبتها في تلك الأيام ، صار الملوك ملاذاً لذوي العسر والحاجات ، ولا سيما لأصحاب الألسنة من الشعراء الذين كان للسانهم خطر وأثر في نفوس المجتمع إذْ ذاك ، فللمديح قيمة وللهجاء أثر في الناس ينتقل بينهم من مكان الى مكان . فكان هؤلاء يتحايلون ويبحثون عن مختلف المناسبات للوصول الى الملوك لنيل عطائهم وألطافهم . وكانت مناسبات الشرب والأنس من خيرة المناسبات بالنسبة اليهم ، لجوّ السرور والمرح الذي كان يخيم فيه على الملوك، فيعطون ويجودون ولا يبالون بما يعطون إذا كان صاحب الحاجة لبقاً لطيفاً حلـو المعشر ، يسيطر بلسانه على الملك ، وقد يجعله في عداد المقربين اليه .

ولما كانت الدنانير والدراهم ، قليلة إذْ ذاك ، صارت أعطية الملوك لسادات القبائل مـالاً في الغالب ، والمال عندهم : الإبل . ويعطون الأكسية والألبسة والطعام لهم ولسواد النـاس من الفقراء المحتاجين الذين يقفون عند أبواب الملك يلتمسون منهم الرحمة والشفقة والانقاذ من الجوع .

والجائزة العطيّة . فكـان الملوك يجيزون من يطلب منهم الجوائز[3] ومنها : (القطوط) ، جمع (قط) ، وهي الصك بالجائزة والصحيفة للإنسان بصلـة يوصل بها . قال الأعشى :

---

١ تاج العروس (١٠٢/٨) ، (كلل) .
٢ تاج العروس (١٠٩/٣) ، (جمر) .
٣ اللسان (٣٢٧/٥ وما بعدها) ، (صادر) ، (جوز) .

ولا الملك النعمان ، يوم لقيتــه   بغبطته ، يعطي القطوطَ ويأفق[1]

ولسادات القبائل أنديتهم أيضاً ، يقصدها أشراف القبيلة والناس . وكانوا إذا اجتمعوا تداولوا أمور قبيلتهم وما وقع بين القبائل ونظروا في أيامهم الماضية وقد يتناشدون الأشعار ويتفاخرون[2] . ويذكر علماء اللغة أن « النادي المجلس ينلدون اليه من حواليه ولا يسمى نادياً حتى يكون فيه أهله . وإذا تفرقوا لم يكن نادياً . وفي التنزيل العزيز :وتأتون في ناديكم المنكر . قيل كانوا يحذفون الناس في المجالس، فأعلم الله تعالى أن هذا من المنكر وأنه لا ينبغي أن يتعاشروا عليه ولا يجتمعوا على الهزء والتلهي وأن لا يجتمعوا إلاّ فيما قرب من الله وباعد من سخطه »[3] . وقد كان ملأ مكة إذا اجتمعوا في نواديهم تذاكروا أمور ساداتها فغض قوم من قوم، وسخر بعض من بعض وروى بعض عن بعض قصصاً للغض من شأنهم ، شأن المجتمعات الفارغة التي لا لهوَ فيها يلهي ولا عمل فيها يشغل . فكان هذا شأنهم حتى نزل التنديد بفعلهم في القرآن . كما نزل يندد في أمور أخرى كانت من هذا القبيل ، مثل (المشمعة) ، العبث والاستهزاء والضحك بالناس والتفكــه بهم . (وفي الحــديث : من تتبع المشمعة يشمع الله به ، أراد من كان شأنه العبث والاستهزاء والضحك بالناس والتفكه بهم جازاه الله جزاء ذلك . وقال الجوهري: أي من عبث بالناس أصاره الله الى حالة يعبث به فيها)[4] .

وقد لجأ العرب الى اتخاذ وسائل للتخفيف من شدة وطأة الحــرّ عليهم . إذْ أن الجوّ حار في بلاد العرب بالصيف . وفي جملة ما استخدموه : (المراوح). ورد أن الناس كانوا يستعملونها للترويح عن أنفسهم[5] . وللريح أهميــة كبيرة في جزيرة العرب وفي البلاد الحارة . إذ أن وقوفه يزعج الناس ويؤذيهم ، فلا غرابة إذا ما اعتبروا الرياح رحمة تغيث الناس وتفرج عن كربهم . وتغنّوا بها وسرّوا بهبوبها سروراً كبيراً . بهبوب الرياح المنعشة المرطبة التي تحمل المزن لهم. فتصيب الأرض وترويها بما تحمله معها من مزن . ولريح الصبا،ذكريات طيبة عند العرب .

---

١ اللسان (٣٨٢/٧) ، (صادر) ، (قطط) .
٢ الاغاني (٥٢/٢) .
٣ تاج العروس (٣٦٣/١٠) ، (ندا) .
٤ تاج العروس (٤٠٣/٥) ، (شمع) .
٥ تاج العروس (١٥٢/٢) ، (روح) .

ولها أثر خالد في الشعر ، حتى أنهم كانوا يطعمون عند هبوبها . وهي ريح معروفة تقابل الدبور. سميت بذلك لأنها تستقبل البيت وكأنها تحن اليه . قال ابن الأعرابي مهبها من مطلع الثريا الى بنات نعش .. وتزعم العرب أن الدبور تزعج السحاب وتشخصه في الهواء ثم تسوقه ، فإذا علا كشفت عنه واستقبلته الصبا ، فوزعته بعضه على بعض حتى يصير كسفاً واحداً ، والجنوب تلحق روادفه به وتمده من المدد ، والشمال تمزق السحاب[١] .

ومن وسائل التلطيف من حدة الحر ، رش الأرض بالماء . أي نضح المكان بالماء[٢] . ورش الحصر المنسوجة من جريد النخل أو من الحلفاء أو من غيرها بالماء ، حتى تبرد فينام الإنسان عليها ، أو تعليقها ونضحها بالماء . فيبرد الهواء الذي يمر من مساماتها بعض الشيء[٣] . ورش ستر الكرباس والخيش بالماء ، ليبرد الهواء الذي يخترق مساماتها ، فينعش الجالس أمامها .

وكان الوجوه وأشراف البلد إذا أرادوا الإنشراح شربوا وسمعوا القيان ، وكان لأكثرهم قيان امتلكوها للترفيه عنهم بالغناء . و (القينة) الأمة المغنية أو أعم . يذكر علماء اللغة ، أن اللفظة من (التقين) التزين ، لأنها كانت تزين . وذكر أن القينة الأمة والجارية تخدم حسب[٤] . و (المغنية) هي التي تغني للناس ، والتي اتخذت الغناء حرفة لها ، تعيش عليها .

ومنهم من يستدعي اليه أصحاب المجون والنوادر والفكاهات والملح للترفيه عنهم . وقد اشتهر بالمزاح رجل اسمه (نعيمان) وكان من أصحاب رسول الله البدريين[٥] . والمجون ألا يبالي الإنسان بما صنع . والماجن عند العرب : الذي يرتكب المقابح المردية والفضائح المخزية ، ولا يمضه عذل عاذله ولا تقريع من يقرعه[٦] ، ولا يبالي قولاً وفعلاً لقلة استحيائه[٧] .

---

١ تاج العروس (٢٠٦/١٠) ، (صبا) .
٢ تاج العروس (٣١٢/٤) ، (رش) .
٣ تاج العروس (١٤٤/٣) ، (حصر) .
٤ تاج العروس (٣١٦/٩) ، (قان) .
٥ نهاية الارب (٣/٤) .
٦ اللسان (٤٠٠/١٣) ، (صادر) (مجن) .
٧ تاج العروس (٣٤١/٩) ، (مجن) .

والمزاح : الدعابة ، والمزح نقيض الجد[1] . وليس في طبع العربي ميل الى المزاح ، إذ يراه منقصة بحق الرجل واسفافاً يعرضه الى التهكم والازدراء به .
وذكر بعض علماء اللغة أن الدعابة المزاح مع لعب[2] . وقيل يتكلم بما يستملح[3].

الخصومات :

ويقع النزاع بين الناس ، يقع بين الأهل كما يقع بين الجيران أو بين الأباعد. وقد يتحول الى (عراك) والى وقوع معارك[4] . والمشاجرة الخلاف والاشتباك . وقد تكون المشاجرة بسيطة بأن يشاتم ويسابب طرف طرفاً آخر . ويعبر عن ذلك باللحاء . ونظراً لجهل الناس في ذلك الوقت ، فشا السباب والتشاتم بينهم . بين الرجال والرجال وبين النساء والنساء وبين الجنسين. وإذا طال واشتد تدخل الناس في الأمر لاصلاح ذات البين . وقد تتطور الخصومة البسيطة فتتحول الى خصومة كبيرة يساهم فيها آل المتخاصمين وأحياؤهم ، وقد يقع بسبب ذلك عدد من القتلى. وقد حفظت كتب الأخبار والأدب أسماء معارك وأيام ، سقط فيها عدد من القتلى بسبب خصومات تافهة ، كان بالامكان غض النظر عنها ، لو استعمل أحد الجانبين الحكمة والعقل في معالجة الحادث .

قتل الوقت :

وقد أشرت الى أن (النعمان بن المنذر) كان يستخدم المضحكين، وعلى رأسهم (سعد القرقرة) لإضحاكه . وقد عدّ في المستأكلين والمتطفلين . وقد استعان السادة والأشراف بالمضحكين أيضاً ليقصوا لهم القصص المضحك . والقرقرة الضحك إذا استغرب فيه . وقد لقب بها سعد هازل النعمان بن المنذر ملك الحيرة . كان يضحك منه[5] . وكان من أهل هجر[6] .

---

١ اللسان (٥٩٣/٢) ، (صادر) (مزح) ، تاج العروس (٢٢٢/٢) ، (مزح) .
٢ تاج العروس (٤٠٧/٢) ، (الكويت) ، (دعب) .
٣ تاج العروس (٢٤٧/١) ، (دعب) .
٤ الحيوان (٩٦/٧) ، (عداوات الناس) ، (هارون) .
٥ تاج العروس (٤٨٨/٣ وما بعدها) ، (قرر) .
٦ تاج العروس (١٣٦/٦) ، (سدف) .

والمخنثون مادة من مواد التسلية والفكاهة والطرب. وقد خصي بعضهم، وعادة الخصاء عادة قديمة معروفة عند مختلف الشعوب، ذلك لأنهم كانوا يدخلون على النساء في البيوت، فخصوا اتقاء حدوث اتصال بين هؤلاء والنساء. وكان في المدينة على عهد الرسول ثلاثة من المخنثين : هيت، وهرم، وماتع، فسار المثل من بينهم بهيت، فقيل : أخنث من هيت[1]. ومن المخنثين في الإسلام طويس، ويقال له : إنه أول من غنى بالمدينة في الإسلام، ونقر الدف المربع. وكان أخذ طرائف الغناء عن سبي فارس. وقد خصي مع غيره من المخنثين. وكان مألوفاً خليعاً يضحك كل ثكلى[2].

وقد عير العرب بالخنث، والخنث من فيه انخناث وتثن. وهو المسترخي. وهو جبان لا يطيق القتال. وتكون المرأة أشجع منه مع أنه رجل. ويقال للجمع (الخناث). قال الشاعر :

لعمرك ما الخناث بنو قشير بنسوان يلدن ولا رجال[3]

والمحمقون مادة من مواد التسلية والترويح عن النفس. ومنهم من اتخذ التحمق وسيلة للوصول الى الملوك والسادات. ومنهم من كان محمقاً بطبعه. مثل هؤلاء يكونون وسيلة من وسائل السمر، بما يظهر منهم طبعاً أو تصنعاً من حمق. وقد عرف (نعامة)، واسمه (بيهس)، بالتحمق، فقيل (أحمق من بيهس). وهو من (بني ظالم بن فزارة)[4]. وذكر أنه أحد الأخوة السبعة الذين قتلوا وترك هو لحمقه. وهو القائل :

ألبس لكل حالة لبوسها إما نعيمها واما بوسها[5]

واشتهرت بمكة امرأة عرفت بالحمق. قيل لها (خرقاء مكة). ذكر أنها كانت إذا أبرمت غزلها نقضته. فاشتهر أمرها حتى ضرب بها المثل. واليها أشير

---

١ مجمع الامثال (١/٢٦٠)، ارشاد الساري (١٠/٢٦ وما بعدها).
٢ مجمع الامثال (١/٢٦٨ وما بعدها).
٣ تاج العروس (١/٦١٩ وما بعدها)، خنث).
٤ المعارف (ص ٣٧)، (٨٣)، (طبعة ثروت عكاشة).
٥ تاج العروس (٩/٧٩)، (نعم).

في القرآن في قوله : (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة)[1] . (وقيل المراد امرأة معينة من قريش : ريطة بنت سعد بن تيم . وكانت خرقاء . اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل اصبع . وهي الحديدة في رأس المغزل وفلكة عظيمة على قدرها . وكانت تغزل هي وجواريها من الغداة الى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن)[2] . وذكر أن تلك المرأة هي : (ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة) ، وكانت امرأة حمقاء بمكة ، وكانت تفعل ذلك[3] . والظاهر أن أهل مكة كانوا يتندرون بذكر حمقها ، فضرب القرآن بها المثل لتذكير قريش قومها بها ، لئلا يكونوا مثلها في الحمق .

وعرف الجاهليون لوناً آخر من ألوان الترويح عن النفس والترفيه عنها ، هو التنزه في البساتين وفي مواطن الكلأ والأماكن الجميلة من البادية في أيام الربيع حيث تكتسي بيسط من الخضرة ، وحيث تظهر الأزهار البرية ، ذات الروائح الزكية . فكان ملوك وأهل الحيرة يقضون أياماً في المتنزهات القريبة منهم وفي مواطن في البادية يروحون عن أنفسهم ويتلهون بالصيد . وكان أهل يثرب يخرجون الى (العقيق) متنزههم للتسلية[4] . وهكذا فعل غيرهم من سكان بلاد الشأم وجزيرة العرب .

ومن ملوك الحيرة الذين ارتبط اسمهم باسم الأزهار التي تجود بها البوادي أيام الربيع الملك (النعمان بن المنذر) . فقد قيل للشقائق التي تنبتها البادية، مثل أرض النجف ، (شقائق النعمان) . قيل انها دعيت باسمه لأنه جاء الى موضع وقد اعتم نبته من أصفر وأحمر ، واذا فيه من هذه الشقائق ما راقه ولم ير مثله ، فحماها فسميت (شقائق النعمان) بذلك[5] .

وكان من عادة أهل مكة الذهاب الى الطائف في أيام القيظ ، للتخلص من حر مكة الشديد ، لطيب هواء الطائف واعتداله ، ولوجود الماء البارد بها الخارج من العيون والآبار . ولوجود مختلف الأثمار والخضرة بها . وقد كان لأغنياء مكة

---

١ سورة النحل ، ١٦ ، الاية ٩٢ ، تفسير الطبري (١٤/١١١) .
٢ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبري (١٤/١١٣) .
٣ الجامع لاحكام القرآن (١٠/١٧١) .
٤ الاغاني (٢/١٦٧) (طبعة الساسي) .
٥ تاج العروس (٦/٣٩٨) .

أملاك بها وبساتين استغلوها. ومنهم من كان يذهب الى بلاد الشأم للاتجار ولتمضية الصيف هناك .

وكان في جملة ما ابتكره الجاهليون لقطع الوقت (الاغلوطات) ، وهي صعاب المسائل ، فيطرح سائل ما سؤالاً عويصاً على المستمعين ، ويطلب منهم أن يعملوا فكرهم لحله ، وقد ورد في الأخبار أن الرسول نهى عن (الأغلوطات)[1] . وقيل (الغلوطات) . وهي الكلام الذي يغلط فيه ويغالط به[2] .

وكان تناشد الشعر والتساجل فيه من جملة الأمور التي أمضوا أوقاتهم بها . فكان أحدهم يطارح صاحباً له أو جملة أصحاب له الشعر،وقد يجتمع الأصدقاء حولهم ليروا الفائز من المتبارين . والفائز هو من يبز غيره في الحفظ ، إذ يبقى يطارح أصحابه ما يحفظ حتى يعجزهم ، فيغلبهم ويكسب الفوز . وقد يكون ذلك برهن يعطى للغالب ، وقد يكون بغير رهن . والمساجلة المباراة والمفاخرة في الأصل ، بأن يصنع كل من المتبارين صنعه في شيء فمن بقي وبَزّ صاحبه غلبه. وهكذا تكون في الشعر ، فمن يثبت يكسب المساجلة[3] .

اللباس :

جاء في بعض الأخبار : « كل ما شئت والبس ما شئت »[4] . ولكن الشائع بين الناس « كل ما شئت والبس ما يشتهي الناس » ، ذلك لأن اللباس مظهر ، وعلى الانسان أن يظهر في خير مظهر أمام الناس . وقد ورد أن العرب تلبس لكل حالة لبوسها[5] . وينطبق ذلك على السراة وذوي اليسار والثراء بالطبع ، أما سواد الناس ، فلم يكن من السهل عليهم الحصول على اللباس . إذ كان غالياً مرتفع الثمن بالنسبة لأوضاعهم الاقتصادية . فكانوا يسترون أجسامهم بأسمال بالية وبكل ما يمكن أن يستر الجسم به .

وكسوة العرب ، تختلف وتتباين ، باختلاف الشخص وباختلاف الجماعة التي

---

١ العقد الفريد (٢/٢٢٥) ، تاج العروس (٥/١٩٣) ، (غلط) .
٢ اللسان (٧/٣٦٣) .
٣ تاج العروس (٧/٣٧٠) ، (سجل) .
٤ ارشاد الساري (٨/٤١٧) ، عيون الاخبار (١/٢٩٦) ، (باب اللباس) .
٥ اللسان (٦/٢٠٢ وما بعدها) .

ينتسب اليها والمكان الذي يعيش فيه . فللأعراب ألبسة وذوق ، ولأهل المدر أذواق وأمزجة في اللباس ، تتباين فيما بينها ، بتباين المنزلة والمكانة والحرفة . ولذوي اليسار والثراء ألبسة فاخرة ، يستوردونها من الخارج في بعض الأحيان ، فيها أناقة وفيها تصنع ، وهي من المواد الغالية الثمينة في الغالب ، لا يتاح لغير الموسرين الحصول عليها . ثم ان بعض الناس يفضلون لوناً يعافه بعض آخر ويتجنبه .

فكان الكاهن لا يلبس المصبغ ، والعراف لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه ، والحكم لا يفارق الوبر ، ولحرائر النساء زيّ ، ولكل مملوك زيّ ، يتساوى في في ذلك لباس الرأس ولباس البدن[1] .

وقد كان أثرياء مكة ويثرب والقرى والقبائل يلبسون الملابس الفاخرة المصنوعة من الحرير ودقيق الكتان والخز ، وغير ذلك من الثياب الغالية الرقيقة ، المستوردة من دور النسيج المعروفة في جزيرة العرب ومن خارجها ، ويلبسون النعال الجيدة ، مثل النعل الحضرمية المشهورة بمكة ، ويتعطرون بعطور غالية ثمينة[2] ، ويركبون الدواب الحسنة المطهمة مبالغة في التباهي والتظاهر .

وتختلف كسوة الرأس عند العرب باختلاف منزلة الرجل ومكانته ووضعه وحاله. و (العمامة) هي فخرهم وعزهم وأفخر ملبس يضعونه على رؤوسهم . حتى قيل : (عمم الرجل : سوّد لأن تيجان العرب العمائم ، فكما قيل في العجم توج من التاج ، قيل في العرب عمم) ، (والعرب تقول للرجل إذا سود : قد عمم ، وكانوا اذا سوّدوا رجلاً عمموه عمامة حمراء)[3] . وورد عن عمر قوله : « العمائم تيجان العرب[4] » . وهي تعدّ عادة من عادات العرب[5] . خاصة العرب أصحاب الجاه والمكانة والنفوذ من حضر وبادية ، فانها تميزهم عن بقية الناس .

وقد جاء في الخبر : (ان العمائم تيجان العرب) . (وكان يقال : اختصت

---

١ بلوغ الارب (٣/٤٠٦ وما بعدها) .
٢ طبقات ابن سعد (٣/١١٦) (طبعة صادر) .
٣ اللسان (١٢/٤٢٥) (صادر) .
٤ البيان والتبيين (٢/٨٨) .
٥ بلوغ الارب (٣/٤١٠) ، اللسان (١٢/٤٢٤ وما بعدها) .

العرب من بين الأمم بأربع : العمائم تيجانها ، والدروع حيطانها ، والسيوف سيجانها ، والشعر ديوانها)[1] .

وتعدّ العمامة من لبس الطبقة العالية والمترفة ، وذلك لأن الطبقة الفقيرة والعامة لم تكن تتمكن من اقتنائها ، وانما تضع على رأسها أغطية أخرى ، أخف وزناً وثمناً من العمامة ، ولذلك كانوا اذا أرادوا التعبير عن رخاء شخص ، قالوا : (أرخى عمامته : أمن وترفه ، لأن الرجل انما يرخي عمامته عند الرخاء)[2] . وجاء في الحديث : انه كان يتعوذ من الحور بعد الكور ، أي من النقصان بعد الزيادة . وهو من تكوير العمامة ، لأن الكور تكوير العمامة ، والحور نقضها ، وتكوير العمامة دلالة على الرخاء وحسن الحال ،والحور يعني تغير الحال كما ينتقض كور العمامة بعد الشد[3] . ففي تكوير العمائم ، دلالة على النعمة والرخاء . إذ لم يكن في وسع الفقير شراء قماش يعمم به رأسه على سنّة الأغنياء . فكيف به يعمم رأسه بعمامة كبيرة .

ولم يكن تكوير العمامة العلامة الوحيدة الدالة على الغنى والجاه ،بل كان الإسراف في اطالة الردن والذيل في الثوب من علائم الغنى والجاه أيضاً . فقد كان السادات والأغنياء يطيلون الأردان وأذيال الثياب ، حتى تصير تلامس الأرض، للتعبير عن غناهم وكثرة مالهم وانهم لا يبالون بالمال ولا بالثياب فيتركونها تجر الأرض وراءهم من سعة عيشهم . بينما لم يكن في وسع الفقير اكساء جسمه حتى بالأسملة .

وللعمامة منزلة كبيرة عند العرب . فهي تعبر عن شرف الرجل وعن مكانته ، فإذا اعتدي عليها أو أهينت ، لحق الذل بصاحبها ، وطالب بإنصافه وبأخذ حقه. وإذا أهين شخص أو شعر بإهانة لحقت به ، ألقى بعمامته على الأرض ، ونادى بوجوب انصافه. ويعدّ اللوذ بعمامة رجل ، وذكرها من موجبات الوفاء والانصاف لمن لاذ بها . (واذا قالوا سيد معمم ، فإنما يريدون أن كل جناية يجتنيها الجاني في تلك العشيرة ، فهي معصوبة برأسه)[4] . كما يريدون بذلك السيادة لأن تيجان العرب العمائم ، فكما قيل في العجم توج من التاج قيل في العرب عمم . وكانوا

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٥٩) .
٢ اللسان (١٢/٤٢٥) .
٣ اللسان (٥/١٥٥ وما بعدها) ، (صادر) ، (كور) .
٤ بلوغ الارب (٣/٤٠٩) ، البيان والتبيين (٣/٥٢) .

إذا سودوا رجـلاً عمموه عمامة حمراء . وكانت الفرس تتوج ملوكها فيقال له المتوج[١] .

ويدل سيماء العمامة على مكانة حاملها ، فلقماش العمامة وللونها ولشكلها العام ، أي كيفية تكويرها ، دلالة على مكانة صاحبها ومنزلته في المجتمع . فعمامة المترفين المتمكنين هـي من أقمشة فاخرة ، نسجت بعناية ، منها عمائم الديباج والخز ، وذكر أن العمائم المهراة ، وهي الصفرة ، هي لباس سادة العـرب[٢] . وأن بعض السادة مثل (الزبرقان بن بدر) كانوا يصبغون عمائمهم بصفرة ، ويعصفرونها بالعصفر والى ذلك أشار الشاعر بقوله :

وأشهد من عوف حلولاً كثيرة   يحجّون سِبَّ الزبرقان المعصفرا

والسب : العمامة[٣] .

وورد في الحديث (كانت عمائم العرب محنكة) أي طرف منها تحت الحنك[٤] . وقد جرت عادة العرب بإرخاء العذبات ، وقد يزيدون في ذلك دلالة على الوجاهة والغنى[٥] .

ويذكر علماء اللغة أن (من أسماء العمامة : العصابة ، والمقطعـة ، والمعجر ، والمشوذ ، والكوارة)[٦] . وقيل إن العصابة والعمامة سواء[٧] .

وقد كان السادات يتفننون في لبس العمامة وفي اختيار ألوانها ، فكانوا يختارون لكل مناسبة لوناً ، فكان بعضهم إذا قاتل لبس عمامة حمراء ، ولبس بعضهم عمامة صفراء أو سوداء . يتبع ذلك مزاج لابسها وعمـره ، ونُظر اليها على انها جمال الرجل ، ومظهره الذي يظهر به . ورد ان عـلي بن أبي طالب كان يقول :

---

١ تاج العروس (٨/٤١٠) ، (عم) .
٢ بلوغ الارب (٣/٤٠٨) ، فقه اللغة ، للثعالبي ، (٢٤٢) ، (مطرف خز وعمامة خز وجبة خز) ، الطبقات ، لابن سعد (٧/٣٧) .
٣ بلوغ الارب (٢/٤٠٨) ، شرح ديوان حسان (ص ٢٤٥) (للبرقوقي) ، تاج العروس (١/٢٩٢) ، (سب) .
٤ بلوغ الارب (٣/٤٠٨) .
٥ ارشاد الساري (٨/٤٢٠) .
٦ بلوغ الارب (٣/٤٠٨) .
٧ البيان والتبيين (٣/٩٥) .

جمال الرجل في عمته ، وجمال المرأة في خفها[١] .

وفي الأمثال : (أجمل من ذي عمامة) ، وهو مثل من أمثال مكة ، قيل: انهم قالوه لسعيد بن العاص بن أمية ، المعروف عندهم بـ (ذي العمامة) . وكان في الجاهلية إذا لبس عمامة ، لا تلبس قريش عمامة على لونها . وقيل : انه كناية عن السيادة . وذلك لأن العرب تقول : فلان معمم ، يريدون ان كل جناية يجنيها الجاني من تلك القبيلة والعشيرة ، فهي معصوبة برأسه . والى مثل هذا ذهبوا في تسميتهم سعيد بن العاص ، ذا العمامة ، وذا العصابة[٢] .

وربما جعلوا العمامة لواءً ، فينزع سيد القوم عمامته ، ويعقدها لواءً ، وفي ذلك معنى التقدير والاحترام ، لأنها عمامة سيد القوم ، وربما شدوا بها أوساطهم عند التعب والمجهدة[٣] .

وما يكون تحت الحنك من العمامة هو (الحنكة) . أما ما أرسل منها على الظهر فهو الذؤابة . وأما (القفدة) فأعلى العمامة . والعمة العجراء ، هي العمة الضخمة . وفي العمامة الكور ، وهي الطرائق التي يعصب بها الرأس[٤] .

ولطريقة شد العمامة ووضعها على الرأس أسماء ، وضعت لكل شدة أو طريقة من طرق وضعها فوق الرأس . ويختلف حجم العمامة وألوانها باختلاف العمر أيضاً . فللشباب عمائم تميزهم عن الكهول والشيوخ . كما يختلفون عنهم في اختيار ألوان الألبسة . وذكر ان الرسول كانت له عمامة تسمى السحاب ، وكان يلبسها ويلبس تحتها (قلنسوة) . وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة ويلبس العمامة بغير قلنسوة . وكان اذا اعتم أرخى عمامته بين كتفيه . ولما دخل مكة ، دخلها وعليه عمامة سوداء[٥] .

ووضعت القلنسوة على الرأس كذلك ، فورد أن خالد بن الوليد كان يضع قلنسوة على رأسه[٦] . وقد لبسها الرسول . وكانت معروفة عند الجاهليين وأشير اليها في الشعر . ولفظة (قلنسوة) من الألفاظ المعربة عن (اللاتينية) . عربت من Calantica . ويراد بها ضرب من ملابس الرأس[٧] .

---

١ البيان والتبيين (٢/٨٨) .
٢ مجمع الامثال (١/١٩٧) .
٣ البيان (٣/١٠٥) ، بلوغ الارب (٣/٤١٢) .
٤ بلوغ الارب (٣/٤١٢) .
٥ زاد المعاد (١/٣٤ وما بعدها) ، (فصل في ملابسه) .
٦ الاغاني (١٥/١٢) .
٧ غرائب اللغة (٢٧٩) .

وقد كان الجاهليون يوفقون أيضاً بين نوع ملابسهم ، فكانوا يلبسون مثلاً عمامة خز مع جبة خز ومطرف خز[1] . وذلك للتناسق في اللباس .

وجعلوا العمامة شعاراً للعرب ورمزاً لهم ، إذا زالت زالت عروبتهم . (قال غيلان بن خرشة للأحنف : يا أبا بحر . ما بقاء ما فيه العرب ؟ قال : إذا تقلدوا السيوف ، وشدّوا العمائم ، واستجادوا النعال ، ولم تأخذهم حمية الأوغاد)[2]. وورد (في الخبر ، إن العمائم تيجان العرب ، فإذا وضعوها وضع الله عزهم). وقيل اختصت العرب : بالعمائم تيجانها ، وبالدروع وبالسيوف وبالشعر[3] .

وعرفت (المساتق) في الحجاز . وهي فِراء طوال الأكمام ، واحدتها (مستقة). وذكر الجواليقي أنها من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، وأنها (مشته) في لغة الفرس . وروي أن الرسول كان يصلّي وعليه مستقة ، وأن مستقته من سندس مبطنة بالحرير ، أهديت اليه[4] . ذكر أن ملك الروم أهداها اليه[5] .

وأما الجبّة ، فهي من البسة الموسرين كذلك ، لأنها غالية ، تكون من خز ، وتكون من ديباج ومن أقمشة أخرى . وقد ذكر أن الأكيدر أهدى الى الرسول جبّة من ديباج منسوج فيها الذهب[6] . وقد تكون واسعة الكمين ، كما تكون ضيقتها . وقد لبس الرسول في السفر جبة ضيقة الكمين[7] . وذكر أنه قد كانت عند (أسماء بنت أبي بكر) جبّة لرسول الله ، (طيالسية خسروانية لها لبنة ديباج وفرجاها مكفوفان بالديباج . فقالت هذه كانت عند عائشة حتّى قبضت ، فلما قبضت قبضتها ، وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يلبسها ، فنحن نغسلها للمريض نستشفي بها)[8] .

وتعدّ الجيب من مقطعات الثياب . فقد اصطلح علماء اللغة على تقسيم الثياب الى مقطعات وغير مقطعات . والمقطع من الثياب كل ما يفصّل ويخاط من قميص

---

١ الطبقات (٢٣/٧) .
٢ بلوغ الارب (٤٠٩/٣) .
٣ الثعالبي ، ثمار (١٥٩) .
٤ الجواليقي (ص ٣٠٨) .
٥ زاد المعاد (٣٥/١) .
٦ الطبقات (٢٣/٧) ، الاصابة (١٢٦/١) .
٧ زاد المعاد (٣٥/١) .
٨ زاد المعاد (٣٥/١) ، مسند ابن حنبل (٣٠٧/٤) .

وجباب وسراويلات وغيرها ، وما لا يقطع منها كالأردية والأزر والمطارف ، والريّاط التي لم تقطع ، وإنما يتعطف بها مرة ويتلفّع بها أخرى[1] .

والجبب مثل سائر الثياب ، لا تكون بلون واحد . فقد تكون بيضاء ، وقد تكون سوداء ، وقد تكون حمراء ، وقد تكون خضراء ، ويختار لابسها اللون الذي يلفت نظره . وقد تكون له جملة جبب بألوان مختلفة ، يلبس صاحبها الجبة التي يلائم لونها المناسبة والمكان الذي يذهب اليه .

و (البرنس)[2] : قلنسوة طويلة ، أو كل ثوب رأسه منه ، ملتصق به ، درّاعة كان أو جبة ، أو ممطراً . وكان النساك يلبسونها في صدر الاسلام[3] . واللفظة من الألفاظ المعربة عن اليونانية ، عربت من أصل (فيروس) Virros ، بمعنى ثوب عريض الكمين ، غطاء الرأس ملتصق به ، أي هو جزء منه. ويلبس عندهم فوق الثياب[4] .

و (القميص) من الثياب المقطعة . ذكر بعض علماء اللغة انه لا يكون إلا من قطن أو كتان ، وأما من الصوف فلا . والظاهر انهم خصصوه بالقطن أو الكتان للغالب[5] . وذكر ان الرسول لبس قميصاً من قطن ، وكان قصير الطول، قصير الكمّين . والظاهر ان هذه الصفة كانت هي الصفة الغالبة على القمصان ، ثم طولت فيما بعد ووسعت أكمامها[6] .

و (الخميصة) من الألبسة القديمة . وهي ثياب من خزّ ثخان سود وحمر ولها أعلام ثخان أيضاً . وذكر أن الخميصة كساء أسود مربع له علمان ، فإن لم يكن معلماً ، فليس بخميصة . وذكر أنها قد تكون من خزّ أو صوف . والظاهر أنهم كانوا لا يسمون الخميصة خميصة ، إلاّ إذا كانت ذات أعلام . وهي من ألبسة الموسرين[7] .

و (الرداء) ، الوشاح ، ويقع على المنكبين ومجتمع العنق[8] . وهو ما يشمر

---

١ اللسان (٢٨٣/٨) ، (قطع) ، تاج العروس (١٧٢/١) ، (جيب) .
٢ بالضم .
٣ اللسان (٢٦/٦) ، (برنس) ، تاج العروس (١٠٨/٤) ، (البرنس) .
٤ غرائب اللغة (٢٥٥) .
٥ تاج العروس (٤٢٨/٤) ، (قمص) .
٦ زاد المعاد (٣٤/١) ، ابن سعد ، الطبقات (٣/قسم ١ ص ١٧) .
٧ تاج العروس (٣٩٠/٤) ، (خمص) .
٨ تاج العروس (١٤٨/١٠) ، (ردى) .

على النصف الأعلى من الجسم لتغطيته ، ويكون من قطعة واحـدة من القماش ، يلف على هذا النصف . قد يكون طويلاً واسعاً ، وقد يكون قصيراً . وقـد يلف على الجسم رأساً ، وهو الغالب ، وقد يلف فوق ألبسة أخرى .

و (الازار) الملحفة ، وما يستر أسفل البدن ، والرداء ما يستر به أعلاه ، وكلاهما غير مخيط . وقيل الازار ما تحت العاتق والظهر . ولا يكون مخيطـاً . فهو قطعة قماش ، يلف به القسم الأسفل من البدن لستره[1] . يختلف طوله وعرضه حسب رغبة لابسه . ويلبس الإزار مع الرداء في الغالب ، وقد تلبس معه ألبسة أخرى .

و (النمرة) شملة فيها خطوط بيض وسود ، وبردة مخططة من صوف تلبسها الأعراب . وذكر أن كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ، فهي نمرة . وجمعها أنمار ونمار . كأنها أخذت من لون النمر ، لما فيها من السواد والبياض . وقد لبس النبي النمار . وورد : نبطي في حبوته ، أعرابي في نمرته أسد في تامورته[2] .

والمطرف : رداء من خز مربع ، له أعلام . وهو من الأرديـة التي يلبسها الأغنياء وذوو اليسار . وذكر ان المطرف رداء في طرفيه علمان[3] .

ولبس الجاهليون القباء . وقد كان كسرى قـد أهدى (الأكيدر) قباءً من ديباج منسوج بالذهب[4] . وكان من عادة الأكاسرة أن يكسوا الرؤساء وسادات القبائل أقبية من الديباج ، للتلطف والاسترضاء .

واكتسبت البرد اليمانية شهرة كبيرة بين الجاهليين ، وبقيت شهرتها في الاسلام ، وهي ذات ألوان . وفي كتب الأخبار : ان وفد رؤساء مكـة حينما ذهبوا الى سيف بن ذي يزن ، لتهنئته ، ودخلوا عليه في قصر غمدان ، وجدوه متضمخاً بالعنبر ، يلمع وبيصُ المسك في مفرق رأسه ، وعليه بردان أخضران قد اتزر بأحدهما[5] .

واشتهرت برود (تزيد) عند العرب كذلك وضرب بها المثل ، كما يضرب

---

١ تاج العروس (٣/١١) ، (أزر) .
٢ تاج العروس (٣/٥٨٥) ، (نمر) .
٣ فقه اللغة (٢٤٦) . الطبقات (٧/٢٣) ، البيان (١/٢٠٦) .
٤ الاصابة (١/١٢٦) .
٥ العقد الفريد (٢/٢٣ وما بعدها) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (٥٩٨) .

ببرود اليمن . وذكر ان العرب تنسب البرود الفاخـــرة الى تزيد ، وتزعم انها قبيلة للجن[1] .

ولبس الجاهليون الألبسة الحمراء مثل : المياثر الحمر والألبسة الحمراء البحتة القانية . وذكر ان الرسول نهى عن لبس الألبسة الحمراء الخالصة التي لا يخالط لونها هذا لون آخر . ولم ينه عن لبس الألبسة المخططة بحمرة مع لون آخـــر ، مثل الحلل اليمانية ، وهي إزار ورداء ، منسوجان بخطوط حمر مع الأسود . كما نهى الرجال من لبس الربط المضرجة بالعصفر ، لأنها من لبس الكفار[2] .

ولبس العرب الثياب المصبغة ، وذكر أن ساداتهم كانوا يصبغون ثيابهم بالزعفران. وان من صبغ ثيابه به (ذو المجاسد)[3]. وهو من حكّام الجاهليـة وفقهائهـــا . وذكر أن العرب كانت مصفقة على توريث البنين دون الأناث ، فورّث مالـه لولده في الجاهليـــة للذكر مثل حظ الانثيين . فوافق حكم الإسلام[4] . وورد أن ملحفة رسول الله التي يلبس في أهله مورسة حتى انها لتردع[5] على جلده[6] .

وقد كان الأغنياء والشباب يبالغون في ألبستهم ، فكان منهم من يشمر ثوبه، ومنهم من يسبله ويتركه يجر الأرض ، ومنهم من يبالغ في ردائه خيلاء وتيهـــاً وتكبراً . ونظراً الى ما يتركه من أثر في نفوس الفقراء ، والى ما فيه من اسراف وتبذير في استعمال الأقمشة ، نُهي عن فعل ذلك في الاسلام . وورد النهي عن ذلك في كتب الحديث[7] . وورد النهي عن لبس القمصان ذات الأكمام الواسعـــة الطوال التي هي كالأخراج ، لأنها من جنس الخيلاء[8] .

ويلبس العرب النعال في أرجلهم ، ويفضلونها على غيرها من ألبسة الرجل مثل الخف . وقد ورد ذكرها في شعر النابغة[9] . وتصنع من الجلود المدبوغة، ولا سيما

---

١ الثعالبي ، ثمار (٥٩٨) .
٢ زاد المعاد (١/٣٥) .
٣ تاج العروس (٢/٣٢٠) ، (جسد) .
٤ المحبر (٢٣٦ ، ٣٢٤) .
٥ تردع تنفض صبغها .
٦ عيون الاخبار (١/٢٩٦) ، (باب اللباس) .
٧ ارشاد الساري (٨/٤١٦) ، (كتاب اللباس) .
٨ زاد المعاد (١/٣٥) .
٩ رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب
البيان (٣/١٠٧) .

جلود البقر[1] . ويذكر بعض أهل الأخبار أن أول من حذا النعال هو جذيمة الأبرش بن مالك[2] .

وقد ضرب العرب المثل بموضع تجميع الأنعلة في الذلة والهوان . فقيل : هو في صف النعال ، لا في صف الرجال[3] . دلالة على أن الرجل من الطبقة الذليلة .

والخفاف ، جمع الخف،هي في منزلة النعل عند العرب . لبسوها في أرجلهم، وشاع استعمالها بين أهل المدر في الحجاز وفي الأمكنة الأخرى . وذكرت في كتب الفقه ، في باب الوضوء والصلاة ، حيث جوّز الفقهاء المسح على الخفين .

وورد النهي باستعمال الخفين للمحرم إلاّ عند عدم النعلين[4] ، وذلك يدل على استعمال أهل الحجاز للخفاف قبيل الإسلام .

ومن الخفاف ، نوع يقال له (الموزج) ، ويذكر بعض علماء اللغة ان اللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، وان أصلها (موزه)[5] . وهناك نوع آخر يسمى (الموق) ويجمع على (أمواق) ، وقد عرف بأنه خف غليظ يلبس فوق الخف . ويظهر من بيت للشاعر المخضرم النمر بن تولب ، ان العباديين كانوا يلبسون الأمواق ، إذ وصف مشية النعاج بمشي العباديين في الأمواق[6] .

وورد في الأخبار : ان العرب تلهج بذكر النعال ، والفرس تلهج بذكر الخفاف[7] .

وورد ان النساء كن يلبسن الخفاف ، وقد ورد أن أصحاب رسول الله كانوا ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر والصفر . ويقولون : هو من زينة آل فرعون[8] . ويعني هذا ان نساء الجاهلية كن يلبسن الخفاف الملونة ، فوجد المسلمون ان في ذلك تقليداً للأعاجم فأمرهن بنبذ الملون منها .

---

١ بلوغ الارب (٣/٤١٥) .
٢ المعارف (ص ٢٤١) .
٣ الثعالبي ، ثمار (٦٠٧) .
٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٤٩) .
٥ الجواليقي (ص ٣١١) .
٦ فترى النعاج به تمشي خلفة مشي العباديين في الامواق
الجواليقي (ص ٣١١) ، جمهرة ابن دريد (٣/١٦٦) .
٧ البيان (٣/١٠٦) .
٨ بلوغ الارب (٣/٤١٣) .

وقد ضرب العرب المثل بخفي حنين عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة . فيقال : رجع بخفي حنين . وكان حنين إسكافاً من أهل الحيرة ، فساومه أعرابي بخفين ، فاختلفا حتى أغضبه الأعرابي ، وأراد حنين غيظ الأعرابي ، فلما ارتحل أخذ أحد خفيه ، فطرحه ، ثم ألقى الآخر في مكان آخر ، فلما مر الأعرابي بأحدهما قال : ما أشبه هذا الخف بخفي حنين ولو معه الآخر لأخذته ، ومضى فلما انتهى الى الآخر ندم على تركه الأول ، فأناخ راحلته ورجع في طلب الأول، وقد كان حنين كمن له ، فعمد الى راحلته وما عليها فذهب بها، وأقبل الأعرابي وليس معه إلا خفان . فقال له قومه : ماذا جئت به من سفرك ؟ قال جئتكم بخفي حنين . فذهبت كلمته مثلاً [١] .

وحيث أنني سأتكلم عن ملابس الجاهليين بشيء من الأطناب في أثناء حديثي عن الحرف ، لذلك أكتفي بما ذكرته في هذا الموضع عن الملابس ، على أمل التحدث عنها في ذلك المكان .

ومن عادة أهل (نجد) الاستصباح بـ (الداذين) . مناور من خشب الأرز ليستصبح بها . وهي بنجد من شجر المظ [٢] .

ومصابيح القوم من الفخار ، أي الطين المشوي بالنار ، يوضع في بطنه زيت الوقود تتصل به فتيلة تولع بالنار ، ليستضاء بها ، وذلك في الأماكن التي يندر فيها استعمال الحجر . أما في الأماكن الجبلية ذات الحجر، فتستعمل كذلك المصابيح المستعملة من الحجر ، وخاصة في بيوت الكبار والموسرين . ويستعملون فيها زيت الزيتون . ولا يزال بعض الناس يستعملون هذه (الضواية) في الإنارة [٣]، وتعرف بـ (المسرجة) كذلك . و (السراج) هو المصباح والنبراس . و (القراط) شعلة السراج ، و (الذبال) ما يحمل (السراج) . ويقال سغّم المصباح ، أي مدّه بالزيت. والنسيلة الفتيلة في بعض اللغات. والمشاعل القناديل والزهليق السراج في القنديل [٤] .

---

١ الثعالبي ، ثمار (٦٠٦) .
٢ تاج العروس (٩/١٩٨) ، (ددن) ، اللسان (١٣/١٥٣) ، (دذن) .
٣ نزية مؤيد العظم (ص ٧٨) .
٤ المخصص (١١/٣٨ وما بعدها) .

أما الأعراب ، فلم يكونوا يعرفون المصابيح ، ومصابيحهم نجوم السماء وضوء القمر يهتدون بها ويستلهمون منها معنى الحياة .

المأكل والمشرب :

يختلف أكل العرب عن أكل الأعراب . كما يختلف أكل أهل كل مكان عن أكل أهل مكان آخر من جزيرة العرب . وأكل الحضر ، متنوع نوعاً ما بالنسبة الى مأكول أهل الوبر . لفقرهم ولشح باديتهم . ولذلك صار طعام الأعراب على العموم بسيطاً . وقد أثر اختلاف نوع الطعام على هيئة الإنسان ووزن جسمه . فصار جسم الأعرابي نحيفاً في الغالب ، لبساطة أكله ، وقلة المواد النشوية والدهنية فيه .

ومن عادات العرب أنهم يقلون من الأكل . ويقولون : البطنة تذهب الفطنة ، و (البطنة تأفن الفطنة) . وكانوا يعيبون الرجل الأكول الجشع . ويرون أن (الأزم) ، أي قلة الأكل أفضل دواء لصحة الأبدان . قيل للحارث بن كلدة ، طبيب العرب في الجاهلية : ما أفضل الدواء ؟ قال : الأزم . ولهم في ذلك أمثلة كثيرة في الأزم ، وضرر البطنة . رووا بعضاً منها على لسان لقمان ، ورووا بعضاً آخر على ألسنة الحكماء العرب . وهم يعالجون البطنة بالحمية . لأن المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء[1] . وهم يرون أن الشبع والامتلاء يضعف الفطنة . أي الشبعان لا يكون فطناً[2] لبيباً . فللأكل علاقة كبيرة بالفطنة والعقل والذكاء .

وللعرب مصطلحات عديدة في درجات الأكل . أي من حيث كيفية تناول الطعام ، ومن حيث الاقبال عليه الى حد التخمة . ولما كان الاكثار من الأكل معيباً عندهم وضعوا ألفاظاً في هؤلاء الذين كانوا يسرفون في الأكل ، فإذا دعوا الى وليمة أسرفوا في الأكل ، وأقدموا عليه ، وكأنهم جاؤوا من سني قحط . وعابوهم ، ومدحوا من اعتدل في أكله وتوسط فيه ، وأظهر نظافة وأدباً في تعاطيه[3] .

---

١ بلوغ الارب (١/ ٣٧٠ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٣/ ١٩) ، (أفن) .
٣ بلوغ الارب (١/ ٣٧٩) .

ومن عادات العرب ، انهم كانوا يبكرون في الغداء ، ويرون أن ذلك أقرب الى راحة البدن وصحته ، ويؤخرون العشاء[1] .

ومآكل الأعراب قليلة شحيحة مثل شح البادية ، خاصة إذا انحبس المطر وهلك الزرع . فإن رزقه يقل وقد يذهب ما معه من زاد فيهلك خلق من الأعراب من شدة الجوع . قيل لأعرابي ما طعامكم ؟ قال: (الهبيد ، والضباب واليرابيع ، والقنافذ والحيات ، وربما والله أكلنا القد ، واشترينا الجلد ، فلا نعلم والله أحداً أخصب منا عيشاً)[2] . و (الهبيد) : حب الحنظل ، تنقعه الأعراب في الماء أياماً ، ثم يطبخ ويؤكل[3] . وأما القد ، فجلد السخلة . (وفي حديث عمر ، رضي الله عنه ، كانوا يأكلون القد . يريد جلد السخلة)[4] .

وكانوا يفصدون عرق الناقة ليخرج الدم منه فيشرب ، يفعلونه أيام الجوع . كما كانوا يأخذون ذلك الدم ويسخنونه الى أن يجمد ويقوى فيطعم به الضيف في شدة الزمان ، اذا نزل بهم ضيف فلا يكون عندهم ما يقويه ، ويشح أن ينحر المضيف راحلته فيفصدها . و (الفصيد) دم كان يوضع في الجاهلية في معى من فصد عرق البعير ويشوى وكان أهل الجاهاية يأكلونه وتطعمه الضيف في الأزمة . وأما (الفصيدة) ، فتمر يعجن ويشاب بدم . وهو دواء يداوى به الصبيان[5] .

ويقال للفصيد (البجة) كذلك . و (البجة) دم الفصيد ، يأكلونها في الأزمة . والبج الطعن غير النافذ ، فقد كانوا يفصدون عرق البعير ويأخذون الدم يتبلغون به في السنة المجدبة . جاء في الحديث : (إن الله قد أراحكم من الشجة والبجة) ، وورد (أراحكم الله من الجبة والسجة)[6].أي قد أنعم عليكم بالتخلص من مذلة الجاهلية وضيقتها ووسع لكم الرزق وأفاء عليكم الأموال .

وكان أحدهم إذا نال شربة من اللبن المذوق بالماء ، وخمس تميرات صغار ، ظن نفسه ملكاً ، ودب اليه نشاطه . قال الشاعر :

---

١ بلوغ الارب (١/٣٧١) .
٢ رسالة في الحنين الى الاوطان (٢/٣٩٤) .
٣ المصدر نفسه .
٤ كذلك .
٥ تاج العروس (٢/٤٥٣) ، (فصد) .
٦ تاج العروس (٢/٦) ، (بج) .

إذا ما أصبنا كل يوم مُذيقة وخمس تميرات صغار كنائز
فنحن ملوك الأرض خصباً ونعمة ونحن أسود الغاب عند المزاهز
وكم متمنٍّ عيشنا لا يناله ولو ناله أضحى به حق فائز[1]

وأكل الجراد معروف مشهور عند الأعراب . يأكلونه نيئاً ، وقد يطبخونه أو يحمصونه ويلقون عليه شيئاً من الملح . وقد يأكلونه بالتمر . وبغيره ، وهو عندهم طعام لذيذ . ويذكر بعضهم أن الإنسان قد يصاب بالشري من أكله ، وقد يشكو من بطنة قد تصيبه[2] .

وغالب أكل الأعراب لحوم الصيد والسويق والألبان . وكانوا لا يعافون شيئاً من المآكل لقلتها عندهم . حتى أنهم كانوا يأكلون كل شيء تقع أيديهم عليه . ولا نجد من كتب أهل الأخبار ما يفيد تحريم العرب لأكل بعض الحيوان . بل نجد أن اغلبهم قد استباحوا أكلها جميعاً . مهما كان ذلك الحيوان صغيراً او كبيراً حسن المنظر أو قبيحه ، من ذات الأظلاف او من غيرها . حياً كان أم ميتاً[3] . وذلك لفقرهم ولشدة الجوع عندهم . فلما جاء الاسلام حرم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير والمختنقة وحدد الذبح وما يمكن أكله من الحيوان ، بسبب ما كان يصيب الناس من أكل لحومها من أضرار .

وقد أكلوا لحوم الحمر الوحشية والحمر الأهلية ، فنهى الاسلام عن أكلها لما في ذلك من ضرر . وتمنّى أحد الرجّاز لو اصطاد ضبّاً سحبلاً سميناً ، ليفوز بلحمه من شدة الفاقة والحاجة الى اللحم[4] .

نعم لقد ورد أن بعض القبائل عافت أكل لحوم بعض الحيوانات ، أو عابت أكل بعض أجزائها ، إلا ان هذا لا يعتبر عاماً ، كما انه من قبيل العرف والعادة أو مما له علاقة بالعقائد عندهم . فقد ذكر ان قبيلة (جعفى) كانت تحرّم أكل (القلب)[5] ، إلا ان هذا التحريم هو تحريم خاص بهذه القبيلة . أما القبائل الأخرى فقد كانت تأكله ولا تبالي ، لأنه غير حرام عندها .

---

١ رسالة في الحنين الى الاوطان (٢/٣٩٤) .
٢ تاج العروس (٢/٣١٨ وما بعدها) ، (جرد) ، (٨/٣١١) ، (رزم) .
٣ بلوغ الارب (١/٣٨٠) .
٤ تاج العروس (٧/٣٥٢) ، (رمل) .
٥ نهاية الارب (١٨/٨٣) .

وفي أيام الشدة وفي الأيام الأخرى أيضاً يرسل الأعراب أولادهم لجمع الحنظل، فإذا جمع نُقِف ، لإخراج هبيده ، أي حَبّه ، لطبخه ، أو تحميصه لأكله . وقد تفاخر (حسان بن ثابت) بالغساسنة ، لأنهم كانوا في بحبوحة من العيش ، وليسوا بصعاليك يرسلون ولائدهم لنقف الحنظل[1] . والى ذلك أشار (امرؤ القيس) بقوله :

كأني غداة البين حين تحملوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل[2]

وقد كانوا يقاسون من شدة الجوع والفقر في بعض السنين حتى يموت من يموت منهم من الجوع . قيل : (كانوا اذا اشتد بهم الجوع وخافوا أن يموتوا أغلقوا عليهم باباً وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعاً) ، (ولقي رجل جارية تبكي فقال لها : مالك ؟ فقالت نريد أن نعتفد) ، (والاعتفاد أن يغلق الرجل بابه على نفسه ، فلا يسأل احداً حتى يموت جوعاً)[3] . فالاعتفاد انتحار للتخلص من ألم الجوع .

قال بعض المدنيين لبعض الأعراب : أتأكلون الحيّات والعقارب والجعلان والخنافس ؟ فقال : نأكل كل شيء إلا ام حُبين . فقال المدني : لتَهْنِ أم الحُبَين العافية[4] . فالفقر كافر ، والجوع يدفع الانسان الى اكل كل شيء .

والعرب تكني عن الجوع بـ (أبي مالك) . وتسمي الخبز جابراً وعاصماً وعامراً[5] . وقد كنّت عنه وعن الإفلاس بـ (ابي عمرة)[6] .

وهو على فقر اكله وبساطته وجوعه يهزأ بأكل الحضر ويسخر منه ، ويرى فيه طعاماً صعباً لا يهضم . وأكلاً لا يناسب مزاج العرب . إذا أكله آكل أصيب بمرض . وهو محق في ذلك ، فرجل ذو معدة فارغة ، لا يذوق إلا القليل من الأكل والماء ، لا تتمكن معدته من هضم طعام مهما كان بسيطاً ، فإنه ثقيل بالنسبة

---

١ البرقوقي (ص ٣١٠) ، ديوان حسان (ص ٣٣) (هرشفلد) .
٢ تاج العروس (٢٦٠/٦) ، (نقف) .
٣ تاج العروس (٤٢٦/٢) ، (عفد) .
٤ الحيوان (٥٢٦/٣) ، (هارون) .
٥ الثعالبي ، ثمار (٢٤٩/٦) .
٦ الثعالبي ، ثمار (٢٤٨/١) .

الى معدة الأعرابي . فإذا أقبل على أكل طعام أهل الحضر ، وهو طعام غير مألوف عنده أصيب ببطنة تجعله يكره أكل الحضر ، وطعام أهل القرى والمدن ، ويعجب كيف يأكله أولئك ثم لا يصابون بمكروه . قال أعرابي قدم الحضر فشبع فاتخم :

أقول للقوم لما ساءني شبعي ألا سبيل الى أرض بها الجوع
الا حيل الى أرض يكرن بها جوع يصدع منه الرأس ديقوع[1]

وقد كان الجاهليون يأكلون كل ما وقع تحت أيديهم من حيوان مقتول أو ميت ، فنزلت الحرمة عن ذلك في الآية: « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله . والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . إلاّ ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق »[2] . وذكر أن أهل الجاهلية كانوا يخنقون الشاة وغيرها، فإذا ماتت أكلوها . وأنهم كانوا يضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى يقتلوها فيأكلوها . وذكر أن الموقوذة : هي التي ترمى أو تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية . والوقذة شدة الضرب[3] .

وأما المتردية ، فهي التي تتردى من العلو الى السفل فتموت ، كان ذلك من جبل أو في بئر ونحوه . وسواء ترددت بنفسها أو ردّاها غيرها . وكانت الجاهلية تأكل المتردي ، ولم تكن تعتقد ميتة إلا ما مات بالوجع ونحوه دون سبب يعرف. فأما هذه الأسباب ، فكانت عندها كالذكاة . فحصر الشرع الذكاة في صفة مخصوصة . وبقيت هذه كلها ميتة . وكذا النطيحة وأكيلة السبع التي فات نفسها بالنطح والأكل[4] . وكانت الجاهلية تأكل النطيحة الميتة كما تأكل الشاة التي يأخذها السبع فتتخلص منه ، وكذلك إن أكل بعضها[5] .

وقد كان الجاهليون يستحلون أكل المحرمات المذكورة التي حرمت في الاسلام، ويأكلون ما يذكى من الحيوان على الأنصاب للأصنام ، وما يذكى على غير

---

١ تاج العروس (٥/٣٣١) ، (دقع) .
٢ المائدة ، الاية ٣ .
٣ الجامع لاحكام القرآن ، للقرطبي (٦/٤٧ وما بعدها) .
٤ الجامع لاحكام القرآن ، للقرطبي (٦/٤٩) .
٥ المصدر نفسه (ص ٥٠) .

الأنصاب على نحو ما يفعل القصاب . والذكاة في كلام العرب الذبح . فلما جاء الاسلام حدد الذبح ، على كل ما أدرك ذكاته من المذكورات وفيه حياة ، ولو بعض حياة . فأبطل ذكاة ما خمد نفسه من حيوان[1] . وهو بهذا خالف الجاهليين، إذ لم يشترطوا الشروط التي اشترطها الاسلام في الذبح .

وللأغنياء والحضر آداب في مآكلهم ، تبدأ بغسل الأيدي في الغالب ، لازالة ما قد يكون قد علق بها من أتربة وأوساخ ، فإذا انتهوا من غسل الأيـــدي ، أكلوا بها . إذ قلما كانوا يستعملون السكاكين و (الملاعق) و (الشوكات) في أكلهم على نحو ما كان يفعله أغنياء العجم . واذا انتهوا من طعامهم غسلوا أيديهم كذلك لتنظيفها من الدسم ومن المواد الأخرى التي تكون قد علقت بها من بقايا الطعام . والأكل باليد عادة شائعة بين الشعوب الساميـــة ، يرون لها مزايا على الاستعانة بأدوات الأكل في الأكل ، حتى صارت في حكم العرف والعادات، بل جعل الأكل باليد من السنن المحببة في الدين .

وتستعمل (الربطـــة) وهي المنديل و (الفوطة) لمسح اليـــد وتنشيفها من الماء[2] . وقد استعمل الملوك والأغنياء المناديل المصنوعة من الحرير أو من الكتان ، وهي غالية ثمينة . وذكـــر بعض علماء اللغة ان الربطـــة لا تكون إلا بيضاء[3] . والمنديل الـــذي يتمسح به من أثر الماء وغيره[4] . ويظهـــر أن (الفوطة) و (الفوط) من الألفاظ المعربة ، ذكر انها من لغـة سندية معربة (بوته) . وهي في الأصل ثياب تجلب من السند ، غلاظ قصار تكون مآزر ، أو هي مآزر مخططة يشتريها الجمالون والأعراب والخدم وسفل الناس ، فيأتزرون . ثم استعملت في معنى (منديل) و (مناديل) ، يضعها الإنسان على ركبتيه ليقي بها ملابسه عند الطعام[5] .

وقد استخدم الملوك والأغنياء الخدم في تقديم والأطعمة والأشربـة ، وكما كان يفعل ملوك الفرس والروم وسراتهما ، في كسو خدمهم أكسية خاصة نظيفـــة

---

١ الجامع لاحكام القرآن ، للقرطبي (٦/٥٠ وما بعدها) .
٢ البرقوقي (ص ١٤٦) .
٣ تاج العروس (٥/١٤٥) ، (ربط) .
٤ تاج العروس (٨/١٣٢) ، (ندل) .
٥ تاج العروس (٥/٢٠٠) ، (فوط) .

والباسهم (سرابيل) ، معتملة ، كذلك فعـل ملوك العرب وسراتهم ولا سيما عرب العراق وبلاد الشأم ، بخـدمهم ، وقد قرطوا آذانهم بالنطف أي الأقراط أحياناً مبالغة في تزيينهم ، حتى يعطى جوّ المآدب والضيافة لوناً شعرياً خاصاً . فإذا قدم شيئاً ، وضع المنديل أو الديباجة على كتفه ، ووضع تحت صحن الطعام شيئاً ، ثم يقدمه الى الضيوف[1] .

ويختلف الحضريّ عن الأعرابي في طريقة أكله . فإذا تناول الحضريّ لقمة صغرها وأكلها بأطراف الأسنـان ، وحاول جهده ألاّ يملأ فمه بلقمة كبيرة ، فيبدو الفم منتفخاً منها . وهذا ما يخالف مألوف الأعرابي . (قدم أعرابي على ابن عم له بمكة ، فقال له : إنّ هذه بلاد مقضم وليست ببلاد مخضم). والخضم أكل بجميع الفم . والقضم دون ذلك[2] . وقيل الخضم : ملء بالمأكول[3] .

ويعد أكل (اللحوم) من أطايب الحياة ، ومن المفاخر التي يتباهى بها الناس على غيرهم ، إذ لم يكن في ميسور كل إنسان الحصول عـلى اللحم ، ولا سيما (اللحم السمين) . وإذا أضيفت اليها الخمور والطيـب ، والنساء ، تمت بذلك مباهج الحياة . وقد عبّر عن (الخمور واللحم والطيب) ، بالأحامرة الثلاثة . وكانت هذه تستنزف المال ، لما ينفق الانسان في الحصول عليها من مـاله . قال الأعشى :

إن الأحـامرة الثلاثـة أهلكت مالي ، وكنت بهـا قديماً مولعا

وقال :

الخمر واللحم السمين ، وأطـلي بالزعفران ، فلن أزال مولعا[4]

وكان من تنصر من العرب يأكلون لحـم الخنزير . يأكلونه أشد الأكـل ، ويرغبون في لحمه أشد الرغبة[5] . وذكر أن غيرهم كانوا يأكلونه أيضاً . وزعم

---

١ وذا نطف يسعى ملصق خده بديباجة تكفافها قد تقددا
البرقوقي (ص ١٤٦) .
٢ تاج العروس (٢٩/٩) ، (قضم) .
٣ تاج العروس (٢٧٩/٨) ، (خضم) .
٤ اللسان (٢٠٨/٤ وما بعدها) .
٥ الحيوان (٤١/٤ وما بعدها) ، (هارون) .

(أن العرب لم تكن تأكل القرود) ، وروي انهم كانوا يأكلون كل شيء يقع بين أيديهم لشدة الفاقة والحاجة ، ولا سيا الأعراب[1] . فأكلوا دم (الفصيد) ، وكانوا يحبونه ، ويرون انه يورث القوة[2] .

وورد في ألسنة الناس (أهلك الرجال الأحمران : اللحم والخمر) . وورد أيضاً (أهلك النساء : الأحمران ، الذهب والزعفران) . وذلك لما كان الرجال والنساء ينفقونه من مال للحصول على هذه الأشياء[3] . وورد أيضاً : (الأحمران : الطيب والذهب)[4] .

وتسربت الى أهل الحجاز وسائر جزيرة العرب مأكولات أعجمية أخرى ، حافظت بعضها على أصالتها وعلى عجمتها . فذكر ان أهل المدينة ، لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر، علقوا ببعض مأكولاتهم ، فسموا السميط (الرزدق) والمصوص المزور ، والبطيخ الخريز[5] ، ومأكولات أخرى ، أدخلها هؤلاء الفرس وأمثالهم بحكم نزولهم على العرب قبل الاسلام .

والثريد ، هو طعام محبوب مشهور عند العرب . وهو طعام يتكون من فت الخبز وتهشيمه ثم بله بالمرق . والغالب أن يكون بالمرق واللحم . وقد اشتهر (هاشم بن عبد مناف) ، بتقديمه الثريد لقومه[6] .

ومن أكلات العرب المعروفة (الحريقة) ، وهي أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب فيحتسى ، وهي أغلظ من السخينة يبقى بها صاحب العيال على عياله وقت الشدة[7] . و (الحيسة) وهي تمر وسمن وأقط ، وقد أهدت (أم سليم) حيسة الى الرسول وضعتها في (برمة) في قدر من حجر ، وأرسلتها اليه ، لمناسبة دخوله بـ (زينب)[8] .

---

١ الحيوان (٤/٤٤ وما بعدها) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٤/٩٦) ، (هارون) .
٣ تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) .
٤ اللسان (٤/٤٠٨) ، (حمر) .
٥ البيان (١/١٩) .
٦ وفيه يقول مطرود بن كعب الخزاعي :
عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
معجم الشعراء (ص ٢٠٠) .
٧ بلوغ الارب (١/٣٨٣) .
٨ ارشاد الساري (٨/٦٨) .

وعند العرب أكلات تعير بها من يأكلها ، منها (السخينة) ، وهي تتخذ من الدقيق ، دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء ، وإنما يأكلونها في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال . والظاهر أنها كانت أكلة معروفة عند قريش خاصة، لذلك عُيِّرت بها . وقد عيَّرها (حسان بن ثابت) بها ، فدعاها (سخينة)[1]، كما سمّاها بهذه التسمية كعب[2] .

وقد مازح (معاوية) (الأحنف بن قيس) ، فقال : ما الشيء المُلفَّفُ في البجاد ؟ قال : هو السخينة يا أمير المؤمنين[3] . وإنما أراد معاوية قول الشاعر:

إذا ما مـات ميت من تميم — فسرّك أن يعيش فجيء بزادِ
بخبـزٍ أو بتمر أو بسمنٍ — أو الشيء الملفف في البجـاد
تراه يطوف في الآفاقِ حرْصاً — ليأكل رأس لقمان بن عـاد

وكان الأحنف من تميم ، وإنما أراد الأحنف بالسخينة رمي قوم معاوية بالبخل، لأنهم كانوا يقتصرون عليها عند غلاء السعر حتى صار هذا اللفظ لقباً لقريش[4] .

والشواء هو الطريقة الشائعة بين الأعراب وأهل الريف في طبخ اللحوم . فهو وطريقته سهلة : توقد نار ، ثم يوضع اللحم عليها ، ومتى نضج أكل . فكان أهل الوبر إذا اصطادوا أو ذبحوا لضيف،أوقدوا ناراً ، واشتووا اللحم وأكلوه . ونجد في قصص أجواد العرب، مثل حاتم ، انهم كانوا ينحرون الإبل أو يذبحون فرساً ، ثم يوقدون ناراً فيشوون اللحم عليها . ويدعى الناس الى الأكل ، فإذا فرغوا منه ، مَشّوا أيديهم بكل ما يكون أمامهم ، حتى أعراف الجياد . كما نجد ذلك في شعر لامرىء القيس[5] .

وللعرب أواني استخدموها لتقديم الطعام بها الى الضيوف . منها : الفيخة والصحفة ، وهي تشبع الرجل ، والمكتلة تشبع الرجلين والثلاثة ، والقصعة تشبع

---

١ زعمت سخينة أن ستغلب ربها — وليغلبـن مغالب الغلاب
اللسان (١٣/٢٠٦) ، (سخن) ، تاج العروس (٩/٢٣٢) ، (سخن) ، وتسب
٢ هذا الشعر الى (كعب بن مالك) ، بلوغ الارب (١/٣٨٢) .
٣ اللسان (١٣/٢٠٦) ، (سخن) ، تاج العروس (٩/٢٣٢) ، (سخن) .
٤ بلوغ الارب (١/٣٨٢) .
٥ نمش بأعراف الجياد أكفنا — اذا نحن قمنا عن شواء مضهب
الثعالبي ، ثمار (٢١٩) .

الأربعة والخمسة ، والجفنة تشبع ما زاد على ذلك ، والدسيعة وهي أكبر الأواني عندهم . وقيل أكبرها الجفنة التي ورد ذكرها في شعر الشعراء على سبيل الفخر والمدح[1] .

الذبح :

والغالب على الجاهليين ذبح الحيوان،لأخذ لحمه ، وذلك بقطع الحلقوم بسكين[2]. يفعلون ذلك في الشياه والكباش والتيوس والطيور والدجاج . أما بالنسبة الى السمك وما يستخرج من البحر ، فإنهم يتركونه حتى يموت ، أو يشقون بطونها وقد يذبحونها أيضاً . ويأكلون الميت منه كذلك . وأما الإبل ، فإنهم ينحرونها ، ونحر البعير طعنه في منحره[3] . وكانوا اذا أرادوا نحر البعير عقروه ، أي قطعوا أحد قوائمه ثم ينحر ، يفعل ذلك به كيلا يشرد عند النحر[4] .

هذا هو الأصل في الحصول على اللحم ، ولكنهم كانوا كما جاء في القرآن الكريم لا يعافون أكل الميتة والمختنقة والمتناطحة ، لفقرهم وجوعهم . مع ما كان يلحقهم من ضرر من أكلها بسبب فسادها . ولذلك حرم أكل لحومها في الإسلام.

والعادة عند العرب أن من العيب بيع شيء من طعام لمن هو في حاجة اليه . وهم يشعرون بالخجل وبالإهانة إذا طلب معسر طعاماً أو شراباً كلبن أو ماء ثم لا يجاب طلبه،أو يطلب عن ذلك ثمناً يقبضه مقابل ما قدم من طعام أو شراب . لأن القرى واجب على كل عربي،ولا يكون القرى بثمن . فكيف يقف إنسان موقف بخل وإمساك أمام مرمل محتاج[5] .

ويقال لكل ما يؤكل (الطعام) ، فالطعام اسم جامع ، وجمعه أطعمة . وأشهر وجبات الطعام عند العرب الغداء والعشاء . فالغداء وقت الغدي ، والعشاء وقت العشي . أما الفطور ، وهو ما يتناوله الإنسان صباحاً ، أي عند نهوضه

---

١ تاج العروس (١٦٢/٩) ، (جفن) ، بلوغ الارب (٣٨٧/١) .
٢ اللسان (٤٣٦/٢) وما بعدها ، (ذبح) .
٣ تاج العروس (٥٥٧/٣) ، (نحر) .
٤ تاج العروس (٤١٥/٣) ، (عقر) .
٥ تاج العروس (٣٥١/٧) ، (رمل) .

من نومه ، فليس له عند غالبية العرب مقام كبير ، كمقام الغداء أو العشاء ولا سيما عند أهل الوبر ، وحظه مع ذلك عند أهل المدر أحسن حالاً وأكثر مكانة.
والطعمة : الدعوة إلى الطعام[1] .

ويعبر عن الطعام بـ (الزاد) كذلك. وورد أن الزاد : طعام السفر والحضر. وورد : التزود بمعنى اتخاذ الزاد . وأمـــا (العيش) ، فالزاد والطعام في لغة أهل اليمن[2] .

الضيافة والأضياف :

وعرف الجاهليون بالقرى ، أي اطعام الأضياف . والجود خلة يتفاخر بهـــا العرب ويتسامون ، حتى إن بعضهم أوقد ناراً ليراها الأضياف فيستدلون بها على المنزل ، وتسمى هذه النار : (نار القرى) ، أي نار الضيافة . وأفقر رجـل عندهم يقوم قدر حاجته وامكانه بإكرام من يفد عليه . والبخل سجية مذمومـــة يعاب بها ، وتكون سبة بين الناس . وهو لؤم ، واللؤم قبيح بالعربي .

ولا يقتصر واجب المضيف على تقديم الطعام لضيفه والترحيب بـه ، بل عليه حمايته والدفاع عنه ما دام في بيته . فإذا اعتدى عليه ، كان الاعتداء كأنه وقع على المضيف ، وخزي وكسف اسمه بين الناس . يلحق العار به وبأسرته ، فلا بد له من حماية ضيفه والدفاع عنه مهما كان شأنه وحاله من ضعف وفقر ، فإن كان عاجزاً استدعى قومه للدفاع عن اسمه من المعتدين .

وخفرة الجار ثلاث ، فإذا انتهى الأجل ومضى اليوم الثالث ، انتهت خفرة الجوار ، وعلى الضيف الخروج . وفي أثناء الضيافة ونزول الضيف في خفـــرة مضيفه ، يكون في مأمن وفي حمى جاره ، فإن وقع عليه شيء ، طالب مضيفه بالانتصاف ممن أهان ضيفه ، لأنه في ضيافته،وتكون الإهانة كأنها قد لحقت به[3] .

وورد في الأخبار أن العرب أصحاب حياض . وانهم كانوا يقرون في الحياض

---

١ المخصص ، لابن سيدة (٤/١١٨) .
٢ المخصص (٤/١١٩) ، تاج العروس (٢/٣٦٦) ، (زاد) .
٣ الفاخر (٢٢٠) .

وينفون الأقذاء عن الماء[1] ، وذلك لما للماء من أهمية في جزيرة العرب،فعليه تتوقف حياة الانسان . ولذلك عدت السقاية في مكة مفخرة من مفاخر قريش . وقد فسرت هذه السقاية بأنها وضع الماء في حياض داخل الحرم ليستقي منها الحاج ، والاستقاء مجاناً من ماء زمزم للفقراء والمعوزين . وقد يكون هذا هو الأصل من السقاية . غير ان أهل الأخبار يشيرون أيضاً الى نوع آخر من السقاية كان يليها الهاشميون في مكة وذلك بإسقاء الحاج الزبيب المنبوذ في الماء مجاناً لهم[2] . وهو أغلى وأثمن من الماء .

وذكر ان (بني أفصى بن نُذير بن قسر بن عبقر) ، وهم من بجيلة ، كانوا (لم ينزل بهم نازل قط إلا عمدوا الى ماله فحبسوه ودفعوه الى رجل يرضون أمانته ومانوه بأموالهم ما أقام بين أظهرهم . فإذا ظعن أدوا اليه ماله ورحلوا معه. فإن مات ودوه ، وإن قتل طلبوا بدمه ، وإن سلم ألحقوه بمأمنه . وفي ذلك يقول عمرو بن الخثارم :

ألا من كان مغترباً فإني   لغربته على أفصى دليل
يعينون الغنيّ على غناه   ويثرو في جوارهم القليل[3]

وطبيعي أن يكون بينهم من يشذّ عن العرف ويخالف المألوف ، فيمسك يديه ويبخل . فقد روي أن ناساً سافروا من الأنصار فأرملوا فمروا بحي من العرب فسألوهم القرى فلم يقروهم،وسألوهم الشراء فلم يبيعوهم ،فأصابوا منهم وتضبطوا. أي أخذوه على حبس وقهر[4] .

ولائم العرب :

وللعرب في المناسبات ولائم يقيمونها يدعون اليها الأقرباء والجيران ومن لهم معرفة بهم ، لمشاطرتهم الأنس والفرح في تلك المناسبة . كما كانوا يدعون الناس

---

١ الميداني ، مجمع الامثال (١/٣٦٤) .
٢ تاج العروس (١٠/١٨١) ، (سقى) .
٣ المحبر (ص ٢٤٣) .
٤ تاج العروس (٥/١٧٥) ، (ضبط) .

الى الطعام في أوقات الأتراح أيضاً ، وذلك مثل وفاة عزيز ، أو مرور أمد على ذكراه ، ولهم ولائم أيضاً في المناسبات الدينية . والغاية من كل ذلك هو مشاطرة من يدعون أصحاب الدعوة في مشاعرهم والاجتماع بهم . ويذكر علماء اللغة أن (الوليمة) طعام العرس ، أو كل طعام صنع لدعوة وغيرها . وقد كانت العادة إيلام الولائم في الأعراس ، لذلك غلب اسم الوليمة على وليمة العرس . وذكر أن الرسول قال لعبد الرحمن بن عوف : أولم ولو بشاة . أي اصنع وليمة[1] .

والدعوة اسم لكل طعام دعيت اليه الجماعة . فهي تشمل كل أنواع الطعام والدعوات . وبهذا المعنى ترد لفظة: المأدبة . حيث يدعى الناس الى الطعام لمختلف المناسبات . وهي أعم من الوليمة[2] .

وتذبح الذبائح في الولائم ولمناسبات اكرام الضيوف . والمفرد (ذبيحة) . وان كانت تدل على أنثى ، غير أنها قد تكون حيواناً ذكراً . فلا يشترط فيها أن تكون شاة ، بل يجوز أن تكون خروفاً . وهي لا تختص بحيوان معين ، فقد تكون جملاً وقد تكون ناقة . ويقال لما يهل للآلهة : (ذبائح) كذلك . وتكون الذبائح في مناسبات إكرام الضيف ، تبعاً لمنزلة الضيف . فإذا كان الضيف ملكاً مثلاً أو سيد قبيلته بولغ في عدد الذبائح التي تقدم له ، إكراماً لمنزلته ومكانته .

والوليمة هي طعام الإملاك ، وقد تطلق على الولائم عامة ، ولكن الناس يخصصونها في الغالب بمثل هذه الحالات . فيقولون وليمة العرس ، ووليمة الختان ، ونحو ذلك . والدعوة أعم من الوليمة . وأما (الخُرس) فطعام الولادة ، وقيل : الطعام الذي يصنع للنفساء لسلامة المرأة من الطلق . و (العقيقة) ، وهي طعام سابع الولادة ، و (الاعذار) (العذيرة) الطعام يصنع للختان ، و (النقيعة) طعام الإملاك ، أي التزويج ، وقيل : وما يصنع للقدوم من السفر ، وقيل : النقيعة التي يصنعها القادم ، والتي تصنع له تسمى التحفة ، و (الملاك) ما يصنع للخطبة ، ويقال : (الاملاك) ، ودعي طعام (الاملاك) بـ (الشندخ) كذلك[3] .

---

١ تاج العروس (٩/٩٦) ، (اولم) .
٢ بلوغ الارب (١/٣٨٦) .
٣ العقد الفريد (٦/٢٩٢) ، بلوغ الارب (١/٣٨٦) ، الفاخر (ص ٩٨) .

وقيل إنما قيل لطعام الإملاك (الشندخ) ، لأن الشندخ هو الفرس الذي يتقدم بقية الخيل . وحيث أن طعـام الإملاك هو طعام يتقدم العرس . أي هو طعام الزفاف ، أو ما يصنع للخطبة ، لذلك قيل له : الشندخ . وذكر بعض العلماء الشندخ[1] : الطعام يجعله الرجل إذا ابتنى داراً أو عمل بيتاً[2] ، أو قدم من سفر أو وجد ضالته[3] .

وقد أشير الى (النقيعة) على أنهـا الطعام الذي يصنع للقادم ، والناقة التي ينحرها القادم للطعام الذي يتخذه ، في شعر ينسب الى (مهلهل) هو :

إنّا لنضرب بالسيوف رؤوسَهم   ضرب القدار نقيعـة القُدّام[4]

وذكر أن النقيعة كل جزور جزرت للضيافة . ومنه قولهم : الناس نقائع الموت. وذهب بعضهم الى أن النقيعة طعام الرجل ليلة يملك[5] .

وورد أيضاً أن (المنقع) ، طعام المآتم ، وأن النقيعة الذبيحة التي تذبح عند الوفاة ، والنقع ، رفع الصوت وشق الجيب[6] . وهذا المعنى يخـالف بالطبع المعنى المتقدم لذلك الطعام .

وإذا قام الانسان بعمل مفيد جديد ، فقد يصنع وليمة لهذه المناسبة . فإذا قام انسان ببناء بيت ، أو أي بناء آخر جديد ، أو استفاد الرجل شيئـاً جديداً ، يتخذ طعاماً يدعو اليه اخوانه وأصدقاءه ، ويسمون ذلك : العذار[7] . وذكر أيضاً ان العذار طعام البناء وطعام الختان ، وأن تستفيد شيئاً جديداً فتتخذ طعاماً تدعو اليه اخوانك[8] .

وأما (الوكيرة) ، فهي طعام يصنع عند تمام البيت يبنيه الرجـل لنفسه ، مشتقة من (الوكر) ، وهو المأوى والمستقر . وعادتهم عند الانتهاء من بنـاء

---

١ المخصص (٤/١٢٠) .
٢ اللسان (٣/٣١) ، (شندخ) .
٣ تاج العروس (٢/٢٦٥) ، (شندخ) .
٤ الفاخر (ص ٩٨) ، اللسان (٨/٣٦٢) ، (نقع) .
٥ تاج العروس (٥/٥٣٠) ، (نقع) .
٦ القاموس (٣/٢٨٩) (النقع) ، المخصص (٤/١٢٠) .
٧ اللسان (٤/٥٥١) ، (عذر) .
٨ تاج العروس (٣/٣٨٧) ، (عذر) .

بيت ، دعوة الأقرباء والأصدقاء الى وليمة لمشاركة صاحب البيت في أنسه وفرحه بتمام البيت[1] .

و (العقيقة) من الولائم التي يدعى الناس اليها ، لمناسبة المساهمة بفرح أهل مولود ، حينما يحلقون شعر رأسه لأول مرة ، أي الشعر الذي ولد به[2] . وقد تكون العقيقة في الأسبوع الأول من ولادة المولود . وعندئذ يعلن عن اسم المولود الذي سيعرف به .

والختان من المناسبات المبهجة في حياة الأسر . لذلك يولم الناس ولائم لهذه المناسبة يدعونها (العذيرة) ، والجمع الإعذار . والمعذور هو المختتن . وقد كان الاختتان معروفاً بين الجاهليين . ويقال للعذيرة أيضاً : العذار والإعذار والعذير . وكل ذلك في معنى طعام الختان . وفي الحديث : الوليمة في الاعذار حق . وورد في الحديث أيضاً : كنا اعذار عام واحد ، أي ختنا في عام واحد . وكانوا يختتنون لسن معلومة فيما بين عشر سنين وخمس عشرة[3] .

و (القِرَى) : ما يصنع للضيف ، و (المأدبة) : كل طعام يصنع لدعوة ، و (الآدب) صاحب المأدبة[4] .

واذا كانت الدعوة عامة مفتوحة للجميع ، قيل لها (الجَفَلى) ، أما اذا كانت خاصة فيقال لها : (النقرى) . وفي هذا المعنى ورد في شعر طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلى لا نرى الآدِبَ منها ينتقر[5]

ويقال انتقر الرجل إذا دعا بعضاً دون بعض ، فكأنه اختارهم واختصهم من بينهم[6] .

---

١ العقد الفريد (٢٩٢/٦) ، بلوغ الارب (٣٨٦/١) ، الفاخر (ص ٩٨) ، البخلاء (٢٤٦) ، تاج العروس (٦٠٨/٣) ، (وكر) .
٢ القاموس (٢٦٦/٣) ، شرح ابن عقيل (٢٢٣/١) ، البخلاء (٢٤٦) ، محيط المحيط (١٤٤٢/٢) .
٣ البخلاء (٢٤٦) ، اللسان (٥٥١/٤) ، المخصص (١٢٠/٤) .
٤ العقد الفريد (٢٩٢/٦) ، بلوغ الارب (٣٨٦/١) .
٥ بلوغ الارب (٣٨٦/١) .
نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا نرى الادب فينا ينتقر
تاج العروس (٢٥٨/٧) ، (جفل) .
٦ تاج العروس (٨٥٢/٣) ، (نقر) .

وورد أن الجَفَلى ، ويقال لطعامها الجفالة ، الوليمة ، التي ينـــادي الداعي فيها جميع القوم ، أي كل من حضر الى الطعام . ولا يستثني أحداً ، فكل من حضر يحضر تلك الوليمة عكس النقرى ، حيث يتقـــر الداعي ، أي صاحب الوليمة الأشخاص بأن يذكر أعيانهم ، ولا يدعى غـــير هؤلاء المنتقرين الى تلك الوليمة ، وهي لذلك مذمومة . يقال نقرت باسمه ، أي أسميته بين جماعة [1] .

وقد يقدم طعام يتعلل به قبل الطعام ، يعرف عندهم بـ (السلفة) . واذا أريد أن يكرم الرجل بطعامه عبّر عن ذلك بلفظة (القفيّ) . وأما ما يرفع من المرق للانسان ، فيقال له (القفاوة)[2] ، وذلك دلالة على التكريم والتقدير .

وإذا هلّ هلال شهر رجب،دعي بعض الناس الى وليمة يسمونها (العتيرة)[3] . ولشهر رجب حُرمة ومكانة ومنزلة خاصة في نفوس الجاهليين. وقد كان الجاهليون ينذرون ، انهم اذا كثُر مالهم ، فانهم يذبحون منه ، ما يذكرون عدده في هذا الشهر . وكان منهم من يذبح من الإبل حين يبلغ الحد الذي ذكر في النـذر ، ومنهم من يذبح الشاة . كما كانوا ينذرون بتقديم عتيرة في كل نذر آخر يريدون تحقيقه . فاذا أولموا لذلك وليمة أو وزّعوا لحـم العتيرة أو طعامها على النـــاس فعملهم هذا عتيرة [4] . وهناك عتيرة أخرى،هي الذبيحة التي كانت تذبح للاصنام ويصبّ دمها على رأسها ، فهذه عتيرة أيضاً [5] .

المتطفلون :

وقد عاب أهل الجاهلية أهل التطفل ومن يتحين طعام النـاس ، او يكثر من السؤال . وقالوا للحريص من الرجال (الفلحس) . وقالوا : أسأل من (فلحس) ، و (تفلحس الرجل) ، إذا تطفل . وذكر أهل الأخبار أن (الفلحس) رجل من بني شيبان ، زعموا أنه كان إذا أعطي سهمه من الغنيمة ، سأل سهماً لامرأته

---

١ البخلاء (٥٤٦) ، القاموس (٣٤٩/٣) ، البخلاء (٢٤٧) .
٢ العقد الفريد (٢٩٢/٦) ، اللسان (١٦١/٩) ، (سلف) ، (١٩٢/١٠ ومـــا بعدهـــا) .
٣ بلغ الارب (٣٨٦/١) .
٤ اللسان (٥٣٧/٤) ، المخصص (٩٨/١٣) .
٥ المصدر نفسه .

ثم لناقته ، وكان يسأل سهماً في الجيش ، وهو في بيته ، فيعطى لعزه وسؤدده ، فقالوا : (أسأل من فلحس)[1] . وذكر أنه كان حريصاً رغيباً وملحفاً ملحاً ، وكل طفيلي ، فهو عندهم فلحس[2] .

والطفيلي الذي يدخل الولائم والمآدب بلا دعوة . وقد نسب التطفل الى رجل من أهل الكوفة ، زعموا ان اسمه (الطفيل بن زلال) ، وهو من (بني عبدالله ابن غطفان) ، كان يأتي الولائم بلا دعوة ، وكان يقول : وددت أن الكوفة مصهرجة ، فلا يخفى عليّ منها شيء . فنسب الطفيليون اليه[3] .

المعاقرة :

العقر قطع قوائم الفرس أو الإبل أو الشاة بالسيف ، وهو قائم . يقال جمل عقير . بمعنى مقطوع القوائم وكذلك ناقة عقيرة ، أي قطعت إحدى قوائمها أو قوائمها . وكان الموسرون منهم يتعاقرون ، يفاخر بعضهم بعضاً ويتفاضلون في عقر الإبل ، ويتبارون في ذلك ليرى أيهم أعقر لها ، فيكون له الفضل والفخر على الغير . ومن ذلك معاقرة (غالب بن صعصعة) أبي الفرزدق و (سحيم ابن وثيل الرياحي) ، لما تعاقرا بـ (صوأر) ، موضع من أرض (كلب) من طرف السماوة ، مسافة يوم وليلة من الكوفة مما يلي الشأم[4] . فعقر (سحيم) خمساً ثم بدا له ، وعقر غالب مائة[5] . ذكر أنهم كانوا يفعلونه رياء وسمعة وتفاخراً ، ولا يقصدون به غير ذلك ، ولهذا نهي عنه في الإسلام ، لأنه لم يقصد به وجه الله . جاء في حديث ابن عباس : « لا تأكلوا من تعاقر الإعراب ، فإني لا آمن من أن يكون مما أهل به لغير الله . قال ابن الأثير : هو عقرهم الإبل . كان الرجلان يتباريان في الجود والسخاء ، فيعقر هذا وهذا حتى يعجز أحدهما الآخر ، وكانوا يفعلونه رياءً وسمعة وتفاخراً ولا يقصدون به وجه الله تعالى فشبهه بما ذبح

---

١ تاج العروس (٤/٢١٠) ، (الفلحس) .
٢ الحيوان (١/٢٥٧) ، (هارون) .
٣ تاج العروس (٧/٤١٨) ، (طفل) ، الميداني ، أمثال (١/٣١٧) .
٤ تاج العروس (٣/٣٢٢) ، (صوأر) .
٥ تاج العروس (٣/٤١٥) ، (عقر) .

لغير الله . وفي الحديث لا عقر في الإسلام . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أي ينحرونها ويقولون: إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته . وأصل العقر ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم . وفي الحديث لا تعقرن شاة ولا بعيراً إلاّ لمأكلة ، وإنما نهي عنه ، لأنه مثلة وتعذيب للحيوان »[1] .

مبرات جاهلية :

وكانت للجاهليين مناقب ومبرات ومكرمات، فعلوها في جاهليتهم وقبل إسلامهم. لا ندري إذا كانوا فعلوها عن دين وعقيدة في ثواب تثيبهم الآلهة عليها في هذه الدنيا أو في الدنيا الآخرة ، وذلك بالنسبة لمن آمن بوجود عالم ثان ، أم أنهم فعلوها عن مروءة وكرم نفس . فمنها (السقاية) : سقاية مكة، وهي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء ، وذلك في ايام الجاهلية. وكانت تعدّ مأثرة من مآثرهم ، او اقامة البيوت في المواسم وعلى الطرق وفي المعابد تتخذ سقاية يستقي منها الناس بلا ثمن . وقد ورد في الحديث : انه كان يستعذب الماء من بيوت السقيا[2] .

ومن مبراتهم قبة عوف بن أبي عمرو بن عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان، لا يدخلها جائع إلا أشبع ، ولا خائف إلا أمن[3] .

ومنها نخل ربيعة بن الأسود اليشكريّ ، وكان جعلها لابن السبيل وكل مقطوع وقبره فيها . فلما كانت حجة الوداع ، ووضع رسول الله كل دم ومكرمة في الجاهلية إلا السدانة والسقايا ، قام ابن ربيعة بن الأسود ، فقال : يا رسول الله إن أبي كان وقف نخلاً له على أبناء السبيل أفهي مكرمة له ؟ فأمضها . فأمره النبي بإمضائها . وقد مدح أولاده ونسله فنعتهم أحد الشعراء بـ (بني مورث

---

١ تاج العروس (٤١٥/٣) ، (عقر) .

٢ اللسان (٣٩٠/١٤ وما بعدها) ، (سقى) ، تاج العروس (١٧٩/١٠) .

٣ المحبر (٢٤١ وما بعدها) .

الأضياف من آل اسود) . وتذكرهم معاوية ، فقال : (وددت أن صاحب نخل ربيعة بن أسود مكان الخلافة لي)[1] .

مياه الشرب :

ولما كان الجفاف هو الغالب على طبع جزيرة العرب ، لذلك قلّ الماء فيها ، واضطر الناس الى قطع المئات من الأميال للوصول الى موضع ماء للتزود به . ولهذا صار عزيزاً عندهم ثميناً ، فقد تنقذ كمية قليلة منه حياة شخص . وتكثر الحاجة اليه بصورة خاصة في الصيف ، حيث تكثر الحرارة ، فيشتد العطش ، ويضطر الانسان الى الاكثار من شرب الماء لكسر حدة ذلك العطش . ولذلك يقترب الناس في موسم الصيف من مواضع الماء ، حتى اذا نفـد ما عندهم منه ، ذهبوا الى أقرب ماء اليهم ، للتزود به .

وألذّ المياه عند العرب ماء الغيث . أي ماء المطر ، فإذا جادت السماء به ، سال الى المواضع المنخفضة وتجمع بها ، فيأتي الأعراب اليها للاستقاء منها . ولهم أسماء ومصطلحات عديدة لأنواع المطر ولمواضع تساقطه ، نظراً لما لذلك من علاقة بحياتهم ، ولما لهم من حاجة شديدة الى الغيث .

والعيون والآبار والحسي ، هي من المنابع الأخرى التي أمدت العرب بالماء . والعين ، هي ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض . وقد تطلق على موضع تجمـع مطر خمسة أو ستة ايام او أكثر[2] . والبئر ، هي القليب . قد تكون بئراً عادية، وهي البئر القديمة التي لا يعلم لها حافر ولا مالك ، وقد تكون بئراً يعرف صاحبها وحافرها ومالكهـا . وقد كان الجاهليون يحفرون الآبار لأنفسهم للاستقاء منهـا وللزرع بمائها ، كما كانوا يبيعون ماءها لغيرهم . وقد كانت لليهود آبار بالحجاز حصلوا منها على أموال بسبب بيع مائها للمحتاج اليـه . واما (الحسي) ، فهي المواضع التي يظهر فيهـا الماء من جوف الأرض على وجه التربة . ومنها حسي الأحساء وأحساء خرشاف ، واحساء (بني وهب) على خمسة اميال من المرتمى،

---

١ المحبر (ص ٢٤٢) .
٢ تاج العروس (٢٨٩/٩) .

فيه بركة وتسع آبار كبار وصغار بين القرعاء وواقصة على طريق الحاج، واحساء (غنى) وأحساء اليامة ، أحساء جديلة[1] .

ويشرب الأعراب الماء بأيديهم،بأن يمدّوا أيديهم في عين الماء أو في مستجمعه ثم يغرفوا منه ، فيشربوه وهكذا حتى يرتووا . وقد ينبطح أحدهم على الأرض، ثم يمدّ فه الى الماء فيشرب منه . أما بالنسبة الى الآبار والقرب ومخازن الماء ، فإنهم قد يشربون من أفواه الدلاء او القرب ، وقد يستعملون أواني يشربون بها منها : الغمر ، وهو قدح صغير ، والقدح والتبن ، والصحن والقعب ، وغير ذلك من أسماء ذكرها علماء اللغة[2] .

وقد يتجمع الماء في حفر ، فيكوّن بركاً . وذكر ان البركة مثل الحوض يحفر في الأرض لا يجعل له أعضاد فوق صعيد الأرض . وذكر ان العرب يسمّون الصهاريج التي سويت بالآجر وصرجت بالنورة في طريق مكة ومناهلها بركاً . وربّ بركة تكون ألف ذراع وأقل وأكثر . وأما الحياض التي تسوى لماء السماء ولا تطوى بالآجر ، فهي الأصناع[3] .

وذكر علماء اللغة ان (الصنع) ، مصنعة الماء ، وهي خشبة يحبس بها الماء وتمسكه حيناً ، والجمع (أصناع) . وذكر ان (المصنعة) كالحوض أو شبه الصهريج يجمع فيها ماء المطر ، يحتفرها الناس فيملأونها ماء السماء يشربونها . وورد ان (الحبس) مثل المصنعة[4] .

وهم في سقي إبلهم عادات . وكانوا يسمّون كل سقية حسب يومها . فإذا سقوا الإبل كل يوم ، قالوا سقيناها رفهاً ، وإذا اوردوها يوماً وتركوها في المرعى يوماً ، قالوا : سقيناها غبّاً . واذا اقاموها في المرعى بعد يوم الشرب يومين ثم أوردوها في اليوم الثالث يقولون : سقيناها ربعاً ، وهكذا . وتمام ظمأ الإبل في الغالب ثمانية ايام فإذا أوردوها في اليوم التاسع منه،وهو العاشر من الشرب الأول ، قالوا : سقيناها عِشراً بالكسر . الى غير ذلك مما تجده في كتب اللغة عن هذا الموضوع[5] .

ومن أوعية الماء (المهراس) . حجر منقور ضخم لا يقله الرجال ولا يحركونه

١ تاج العروس (٩/١٠) ، (حسى) .
٢ بلوغ الارب (٣٩٣/١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١٠٦/٧) ، (برك) .
٤ تاج العروس (٤٢٢/٥) ، (صنع) .
٥ بلوغ الارب (٣٩٤/١ وما بعدها) .

لثقله ، يسع ماءً كثيراً . يؤخذ منه الماء للشرب وللاستعمال ، وقد استعمل في الإسلام للوضوء منه[1] .

والحب ، معروف عند الجاهليين ، يختزن فيه الماء للشرب ، يعمله الكواز والفخار . والكوز إناء يشرب به ، ذكر أنه يكون بعروة ، أما إذا لم تكن به عروة فهو (كوب)[2] . وهناك الأباريق وأوان أخرى استعملت في الشرب .

طرق معالجة الماء :

وللعرب طرق في معالجة المياه المالحة ، مثل ماء البحر ، وفي معالجة المياه الكدرة . من ذلك أنهم كانوا إذا اضطروا الى شرب ماء البحر ، وضعوه في قدر ، وجعلوا فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ، ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها الى الصوف ، فإذ كثر عصروه ، ولا يزالون على هذا الفعل حتى يجتمع لهم ما يريدون . فيكون ما استخرج من الماء من عصر الصوف ماء عذب ، ويبقى في القدر الزعاق[3] .

وربما حفروا على ساحل البحر أو شاطىء مجتمع الماء المالح حفرة ، يرشح الماء من الماء المالح اليها ، ويحفرون حفرة أخرى على مسافة منها ، يرشح اليها الماء من الحفرة الأولى ، ثم يحفرون ثالثة ، وبذلك يتحايلون على ملوحة الماء ، حتى يعذب ، فيكون صالحاً للشرب[4] .

ولهم في دفع كدرة الماء حيل . من ذلك أنهم كانوا إذا اضطروا الى شرب الماء الكدر ، ألقوا فيه قطعة من خشب الساج أو جمراً ملتهباً يطفأ فيه ، أو طيناً أو سويق حنطة ، فإن كدورته ترسب الى أسفل[5] . وقد يضعون إناءً تحت حبِّ الماء ، لتتجمع قطرات الماء الصافية فيه ، فيشربون منه ماءً صافياً لا كدرة فيه . وربما عرفوا استعمال (الشب) في إزالة كدرة الماء . وهو أنواع ، منه شب يماني[6] .

---

١ اللسان (٢٤٨/٦) ، (هرس) .
٢ تاج العروس (٧٦/٤) ، (كاز) .
٣ بلوغ الارب (٣٩٦/١) .
٤ بلوغ الارب (٣٩٦/١) .
٥ بلوغ الارب (٣٩٦/١) .
٦ تاج العروس (٣٠٨/١) ، (شبب) .

الفصل الحادي والخمسون

فقر وغنى وأفراح وأتراح

وبين الجاهليين أناس عرفوا بالغنى وبالثراء وبكثرة المال ، كالذي ذكرته عن بعض رجال مكة . فقد كان بينهم رجال متخمون شبعون ، سكنوا بيوتاً حسنة ، زينوها بأثاث جيد وثير ، ولبسوا ملابس الحرير والألبسة الجيـدة المستوردة من بلاد الشأم واليمن ، وأكلوا أكلات الأعاجم وتفننوا في الطبخ ، وشربوا بآنيـة من ذهب وفضة وبلور . وساهموا في قوافل تجارة مكة الجماعية . كما كانت لهم قوافل خاصة بهم ،تأتي اليهم بأرباح طيبة . ومنهم من استغل ماله بالربا وبامتلاك الأرض لاستغلالها ، كما فعلوا بالطائف ، الى غـير ذلك من وسائل اتبعوها في جمع المال .

وكان منهم أناس ذوو حس وعاطفة ، فعطفوا على المحتاج وأطعموا الناس ، رقة بحالهم أو طلباً للشهرة والاسم . فهم جماعة محسنة على كل حال وكان بينهم من لم يكن له قلب ولا حس ، فلم يعرف محتاجاً أو فقيراً ولم يفهم معنى للاحسان على الفقير . فاشتط وابى وقسى في رباه ، ولم يتساهل فيه . ومنهم من أكـل أموال اليتامى ومنع الماعون . واذا باع أنقص في المكيال ، ليزيد في ماله . وفي القرآن الكريم آيات في وصف حال هؤلاء الأغنياء ، وتقريع لهم وتوبيخ على ما فعلوه : (فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين)[1] . أي يدفع

---

١ سورة الماعون ، الآية ٢ وما بعدها .

اليتيم عن حقه ، ويقهره ويظلمه . وانهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار ، ويقولون : (انما يحوز المال من يطعن بالسنان ، ويضرب بالحسام)[1] .

وكان منهم من يبخل بماله فلا ينفق منه على المحتاجين والمساكين . وكان منهم من يعتذر عن بخله وحرصه ، فيقول : (أنطعم من لو شاء الله أطعمه !) فنزلت هذه الآية : (ولا يحض على طعام المسكين) فيهم ، (وتوجه الذم اليهم . فيكون معنى الكلام : لا يفعلونه إن قدروا ، ولا يحثون عليه إن عسروا)[2] .

وكان بين الجاهليين فقراء معدمون مدقعون لم يملكوا من حطام هذه الدنيا شيئاً . وكانت حالتهم مزرية مؤلمة . منهم من سأل الموسرين نوال إحسانهم ، ومنهم من تحامل على نفسه تكرماً وتعففاً ، فلم يسأل غبّاً ولم يطلب من الموسرين حاجة ، محافظة على كرامته وعلى ماء وجهه، مفضلاً الجوع على الشبع بالاستجداء . حتّى ذكر ان منهم من كان يختار الموت على الدنيّة . والدنيّة ، أن يذهب الى رجل فيتوسل اليه بأن يجود عليه بمعروف . ومنهم من اعتفد . والاعتفاد أن يغلق الرجل بابه على نفسه ، فلا يسأل أحداً حتّى يموت جوعاً . وكانوا يفعلون ذلك في الجدب . قيل : كانوا اذا اشتد بهم الجوع وخافوا أن يموتوا أغلقوا عليهم باباً وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعاً[3] .

وكان بعض تجار مكة إذا أفلسوا أو ساءت حالتهم ، خرجوا الى البادية سراً، وأقاموا هناك حتّى يهلكوا جوعاً . خشية معرة وقوف رجال مكة على حالهم ، واشفاقاً على أنفسهم من التوسل بالأغنياء لمساعدتهم[4] . فالموت على هذه الصورة أسهل عندهم من الإستجداء . روي (عن ابن عباس) في تفسير (لإيلاف قريش) ، قوله : (وذلك أن قريشاً كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصة ، جرى هو وعياله الى موضع معروف ، فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا)[5] .

وكان منهم من رضي وقنع بالدون من المعيشة ، فعاش في فقر مدقع. والدقع

---

١ القرطبي ، لجامع لاحكام القرآن (٢٠/٢١١) .
٢ القرطبي ، لجامع لاحكام القرآن (٢٠/٢١١) .
٣ تاج لعروس (٢/٢٤٦) ، (عفد) .
٤ السيوطي ، الدر المنثور (٤/٣٩٧) .
٥ القرطبي ، لجامع لاحكام القرآن (٢٠/٢٠٤) ، تفسير سورة قريش .

الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر واللصوق بالأرض من الفقر والجوع. فهم ينامون على التراب ويلتحفون السماء. والدوقعة الفقر والذل، وجوع أدقع وديقوع شديد[1]. وهم مثل (بنو غَبْراء) في الفقر والحاجة، أولئك الذين توسدوا الغبراء واتخذوا التربة فراشاً لهم، لعدم وجود ملجأ لهم يأوون اليه، ولا مكان يحتمون به.

ولم يكن في وسع كثير من الجاهليين الحصول على اللحم لفقرهم فكانوا يأتدمون (الصليب) وهو الودك. ودك العظام. يجمعون العظام ويكسرونها ويطبخونها، ثم يجمعون الودك الذي يخرج منها ليأتدموا به. وقد عرفوا بـ (أصحاب الصلب). ولما قدم الرسول مكة (أتاه أصحاب الصلب الذين يجمعون العظام إذا لحب عنها لحمانها فيطبخونها بالماء ويستخرجون ودكها ويأتدمون به)[2].

ولم يكن في استطاعة الفقراء أكل الخبز لغلائه بالنسبة لهم. لذلك عدّ أكله من علائم الغنى والمال[3]. وكان الذي يطعم الخبز والتمر يعد من السادة الكرام. وكان أحدهم يفتخر بقوله (خبزتُ القومَ وتمرتهم)، بمعنى أطعمتهم الخبز والتمر[4]. وقد افتخر (بنو العنبر) بسيدهم (عبدالله بن حبيب العنبري)، لأنه كان لا يأكل التمر ولا يرغب في اللبن، بل كان يأكل الخبز. فكانوا إذا افتخروا قالوا: منّا آكل الخبز. وكانوا يقولون (أقرى من آكل الخبز)[5] لأنه كان جواداً. وذكر أن (كسرى) حين سأل (هوذة بن علي الحنفي) عن غذائه ببلده، قال له هوذة: الخبز. (فقال كسرى: هذا عقل الخبز لا عقل اللبن والتمر)[6].

وكان منهم من لا يستطيع شراء الملابس ليلبسها، فيستر جسمه بالأسمال البالية وبالجلود، ويعيش متضوراً جوعاً. وقد ذكر أن الفقراء من الصحابة كانوا لا يملكون شيئاً، ويتضورون جوعاً، وينامون في صفة المسجد، يرزقهم الرسول

---

١ تاج العروس (٥/٣٣٠)، (دقع).
٢ تاج العروس (١/٣٣٧)، (صلب).
٣ بلوغ الارب (١/٨٧).
٤ تاج العروس (٤/٣٢)، (خبز).
٥ بلوغ الارب (١/٨٧).
٦ بلوغ الارب (١/٨٧).

من رزقه ، تنبعث منهم روائح كريهة ، من عدم الغسيل . ويلعب القمل شعرهم ، وينتقل على أجسامهم حيث يشاء .

ويظهر أن بعض زعماء مكة قد شعر بخطر ظاهرة انتشار الفقر بمكة ، و سيتركه الاعتقاد من أثر في مجتمعها ، فعمل على معالجة مشكلة الفقر والجوع والتسول ، حفظاً لمصالح الأغنياء على الأقل. فهم إن تركوا الفقر ينتشر ويتفشى ولم يعملوا على معالجته ، تطاول الفقراء منهم على أموال الأغنياء ، وقاموا عليها وأرغموهم على أخذ أموالهم أو على أن يساهموهم فيه . أضف الى ذلك ما سيحدث اعتداء الفقراء على أموال الأغنياء من خوف ، ومن فزع في نفوس أهل هذه المدينة المتاجرة ، لذلك سعوا لاقناع تجار المدينة على إنصاف الفقراء والمحتاج ومساعدتهم للتخفيف من شدة الجوع والفقر .

ويظهر ان المخمصة ، كانت شديدة ، شدة حملت البعض على السطو على أموال الناس وعلى سرقة ما يجدونه أمامهم . ففزع من ذلك أهل مكة ، و زعماؤها على التفكير في اتخاذ أقسى العقوبات في حق السارق ، فكان أن حكم (الوليد بن المغيرة) بقطع يد السارق ، ذكر انه كان أول من حكم بقطع السارق في الجاهلية [1] فصار القطع سنّة عندهم .

وكان أن نادى (هاشم) ، وهو (عمرو بن عبد مناف) إنصاف الفقراء والمحتاجين وتقديم المعونة لهم ، حتى يصير فقيرهم كالكافي،فا ربح الغني آخر منه نصيباً ليكون للفقراء [2] . وبذلك يخفف من حدة وطأة الفقر في هذه المدينة المتاجرة .

وذكر في تعليل دعوة (هاشم) الى إنصاف الفقراء ومساعدتهم ، انه (كان سيداً في زمانه ، وله ابن يقال له : أسد ، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه . فقال له : نحن غداً نعتفد . فدخل أسد على أمه يبكي وذكر ما قاله تربه .. فأرسلت أم أسد الى أولئك بشحم ودقيق ، فعاشوا أياماً . ثم إن تربه أتاه أيضاً ، فقال : نحن غداً نعتفد ، فدخل أسد على

---

١ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٦/١٦٠) .
٢ والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي
القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢٠/٢٠٥) .

يبكي ، وخبره خبر تربه ، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف ، فقام خطيباً في قريش وكانوا يطيعون أمره ، فقال : انكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتكثر العرب ، وتذلون وتعزّ العرب ، وأنتم أهل حرم الله جل وعز ، وأشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع ، ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم . فقالوا : نحن لك تبع . قال : ابتدئوا بهذا الرجل ـ يعني أبا ترب أسد ـ فأغنوه عن الاعتفاد ، ففعلوا. ثم انه نحر البدن ، وذبح الكباش والمعز ، ثم هشم الثريد ، وأطعم الناس ، فسمّي هاشماً . وفيه قال الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف

ثم جمع كل بني أب على رحلتين : في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشأم للتجارات ، فما ربح الغني قسّمه بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فجاء الاسلام وهم على هذا ، فلم يكن في العرب بنو اب أكثر مالاً ولا أعز من قريش ، وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيّهم   حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع) بصنيع هاشم (وآمنهم من خوف) أن تكثر العرب ويقلوا [1] .

وورد أنّ (حكيم بن حزام) كان يقاسم ربحه من تجارته الفقراء وأهل الحاجة والمحاويج[2] . وذكر أن قريشاً كانت تتراحم فيما بينها وتتواصل . وأن تفسير (لإيلاف قريش)،هو (لتراحم قريش وتواصلهم). فالإيلاف التراحم والتواصل.

---

١ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢٠/٢٠٥) ، وينسب البيت :
والخالطون فقيرهم بغنيهم   حتى يصير فقيرهم كالكافي
الى مطرود بن كعب ، راجع البكري ، سمط (٥٤٧ وما بعدها) ، القالي ، امالي (١/٢٤١) ، الطبرسي ، مجمع البيان (١٠/٥٤٦ ، طبعة طهران) ، اليعقوبي ، (١/٢٠٢) ، البلاذري ، انساب (١/٥٨) ، ابن العربي ، محاضرات الابرار (٢/١١٩٠) ، تاريخ الخميس ، للدياربكري (١/١٥٦) ، المرتضى ، أمالي (١/١٧٨ وما بعدها) .
٢ الزبير بن بكار ، نسب قريش (١/٣٦٧) ، رقم (٦٤٤) .

وذكر أن قريشاً كانوا (يتفحصون عن حال الفقراء ويسدّون خلة المحاويج)[1]. ويظهر أن هذا إنما حدث بفعل (هاشم) وبتنظيمه وجمعه وبدعوته تلك . فصار أصحاب القلوب الرقيقة يخرجون منذ يومئذ من دخلهم نصيباً يجمعونه ويوحدونه ، لينفقوا منه على من به حاجة من أهل مكة ومن الغرباء .

والإيلاف هو التطبيق العملي لدعوة (هاشم) إلى إنصاف الفقراء والمساكين والمحاويج . فبعقد (الإيلاف) وإجماع قريش على تلبية دعوة هاشم بإخراج نصيب من أموالهم يخصص لمساعدة المحتاج ، تمكن (هاشم) من تطبيق دعوته تطبيقاً عملياً ، ومن مساعدة المحتاجين . حتى صار عمله سنة لمن جاء بعده . فحسن حال المحتاجين ، ونعش فقراء مكة . يؤيد ذلك ما نجده من قول (ابن حبيب) : (أصحاب الإيلاف من قريش الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها)[2].

والرفادة والسقاية ، هما من ثمرات دعوة (هاشم) ، فالرفادة ، هي إقراء ضيوف مكة وإطعام المحتاجين من أهلها . والسقاية إسقاءهم الماء ، والنبيذ واللبن . فلم تقتصر السقاية على تقديم الماء بلا ثمن الى العطشان والمحتاج الى الماء . بل اشتملت على تقديم اللبن والنبيذ بل والعسل كذلك الى المحتاج بلا ثمن . وقد ذكر أن (سويد بن هرمي بن عامر الجمحي) ، كان (أول من وضع الأرائك وسقى اللبن والعسل بمكة)[3] . وأن (أبا أمية بن المغيرة المخزومي) : المعروف بـ (زاد الركب) ، و (أبا وادعة بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم)، (كانا يسقيان العسل بمكة بعد سويد بن هرمي)[4] . وكل هذه الأعمال ، هي من الأعمال الخيرية النافعة ، التي تدل على نفس طيبة، تسعى للتخفيف عن مصاعب الناس ، وعن رغبة في مساعدة الفقراء والمحتاجين . فصار في وسع من يقصد البيت الجلوس على أرائك ليرتاح عليها ، كما صار في وسعه الحصول على ماء أو سقاء لبن أو ماء معسل ، أي محلى ، مجاناً إن لم يتمكن من دفع الثمن .

وفي حلف (الفضول) دعوة لـ (مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم)[5] ، وذلك لمنع الظالمين من أهل مكة من اغتصاب أموال أهل الفاقة

---

١ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبري (١٦٩/٣٠) ، (طبعة بولاق) .
٢ المحبر (١٦٢) .
٣ المحبر (١٧٦ وما بعدها) .
٤ المحبر (١٧٧) .
٥ ابن هشام (١٤١/١) .

والغرباء ممن يرد الى المدينة وليس لهم من جار ومعين ، ومن أهل مكة كذلك . فهو توثيق وتتمة لعمل (هاشم) .

ونجد هذه الدعوة الانسانية في مساعدة الجار والفقير في الشعر : في مثل قول الشاعر :

يبيتون في المشتى ملاء بطونهم   وجاراتهم غرثى يبتن خمائصا[1]

وهو بيت يمثل المثل الجاهلية العليا التي تجسمت في الجوار وفي المروءة والاحسان والحميّة وأمثال ذلك .

ونجد مثل هذه النزعة في قول الشاعر :

هنالك إن يُستحبلوا المال يُخبِلوا   وإن يسألوا يُعطوا وإن ييسروا يُغْلوا
على مُكثريهم رزق من يعتريهم   وعند المُقِلّين السماحةُ والبذل

وفي قول (الخِرْنق بنت هفّان) ترثي زوجها (عمرو بن مرثد) وابنها (علقمة بن عمرو) وأخويه حسان وشرحبيل ، حيث قالت في جملة ما قالته :

والخالطين نَحيتهم بنضارهم   وذوي الغنى منهم بذي الفقرِ[2]

والنحيت الدخيل في القوم ، والنضار الخالص النسب[3] . فهم قوم كرام ، لم يفرقوا بين الدخيل والأصيل ، ولا بين الغني والفقير ، فنال الدخيل ما عند الأصيل ، وشارك ذو الفقر والمدقعة الغني في ماله ، وهو أعز شيء عند الانسان ، لأنه أبى أن يستأثر به ، وجاره فقير ليس عنده ما يسد حاجته. فجتمعهم مجتمع (خليط) ، و (الخليط : القوم الذين أمرهم واحد) ، والمشارك الحقوق . وفي الحديث : الشريك أولى من الخليط . والخليط أولى من الجار . وأراد بالشريك : المشارك في الشيوع[4] .

ونجد فكرة مساعدة الفقير ، والاستهانة بالمال بانفاقه على المعوزين ، والإنعام به على الفقراء ، في أبيات أخرى في مثل :

---

١ الامالي للقالي (١٥٨/٢) .
٢ الامالي للقالي (١٥٨/٢) .
٣ ويروي لحاتم الطائي . تاج العروس (٥٩١/١) (نحت) .
٤ تاج العروس (١٣٢/٥) ، (خلط) .

والخالطين غنيّهم بفقيرهم والمنعمين على الفقير المرمل[1]

وفي مثل قول الأعشى :

وأهان صالح ماله لفقيرها وآسى وأصلح بينها وسعى لها[2]

وقول الشاعر عمرو بن الاطنابة :

والخالطين حليفهم بصريحهم والباذلين عطاءهم للسائل[3]

وأرى أنّ في ورود لفظة (الخالطين) في هذه الأبيات ، بمعنى خلط المال، وتخصيص الأغنياء نصيباً من أموالهم للفقراء ، دلالة على أنّ من الجاهليين الأغنياء من كان قد وضع في ماله حقوقاً للمحتاجين ، بحيث صاروا كالمخالطين لهم في مالهم ، وفي منزلة الشركاء لهم في المال . من دون إرغام لهم ولا إكراه ، أو طمع في ثواب دنيوي أو في عالم ما بعد الموت . وذلك غاية الجود والكرم .

وفي شعر للنعمان بن عجلان الأنصاري ، إشادة بعمل قومه الأنصار ، إذ قَسَّموا أموالهم وديارهم بينهم وبين المهاجرين . فيقول :

وقلنا لقوم هاجروا : مرحباً لكم وأهلاً وسهلاً ، قد أمنتم من الفقر
نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمة أيسار الجزور على الشطر[4]

ويذكرنا شعره هذا الذي افتخر فيه بقومه الأنصار بالمؤاخاة ، إذ آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار . بعد مقدمه بخمسة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر . فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء في ابتداء الأسلام إرثاً مقدماً على القرابة . ثم نسخ التوارث بالمؤاخاة بعد بدر[5] . والمؤاخاة هي (المخالطة) الجاهلية في صورة أخرى .

وقد كان بين الجاهليين من حبس الحبوس،لتكون وقفاً على الفقراء والمحتاجين

---

١ الخالديان ، الاشباه والنظائر (١/٢٠) ، ديوان حسان (٣٠٨) .
٢ ديوان الاعشى (٣/٣٥) .
٣ الحماسة ، لابن الشجري (٥٦) .
٤ الاصابة (٨٧٤٨) ، (٣/٥٣٢) . (القاهرة ١٩٣٩ م) ، الاستيعاب (٢٩٨) ، Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. VIII, Part II, 1965 p. 125.
٥ امتاع الاسماع (١/٤٩ وما بعدها) .

وأبناء السبيل . ومنهم من ساعد الفقراء والصعاليك بتقديم الخيل لهم للإغارة بها واكتساب الرزق عن طريق الغارات.كالذي روي عن (الريّان بن حويص العبدي) من أنه كان قد جعل فرسه (هراوة) موقوفة على الأعزاب من قومه . فكانوا يغزون عليها ويستفيدون المال ليتزوّجوا ، فإذا استفاد واحد منهم مالاً وأهلاً دفعها الى آخر منهم ، فكانوا يتداولونها كذلك ، فضربت مثلاً ، فقيل : أعزّ من هراوة الأعزاب[1] . وذكر أنها جاءت سابقة طول أربع عشرة سنة ، فتصدق بها على العزّاب ، يتكسبون عليها في السباق الغارات[2] .

ومن تقاليد العرب مساعدة الضال والمنقطع والمعزب ، وهو الذي عزب عن أهله في إبله وانقطع عنهم . ومن ذلك ما ورد في الحديث : أنهم كانوا في سفر مع النبيّ ، فسمع منادياً ، فقال : انظروا ستجدوه معزباً أو مكلئاً . والتعزب: الابتعاد عن الجماعات بسكنى البادية ، وقد نهي عن ذلك في الأسلام . كما أشير الى ذلك في حديث (ابن الأكوع) لما أقام بالربذة (أبو ذر الغفاري) ، قال له الحجاج ارتددت على عقبيك تعزبت[3] .

ومنهم من جعل في ماله صدقة يؤديها الى الفقراء على وجه القربة الى الآلهة أو عن دافع انساني أو عن حب للظهور والفخر . ويقال لمن يتصدق على غيره (المتصدق) . وهو عمل تطوعي ، يقوم به الإنسان اختياراً وتطوعاً ، لمساعدة المعوز والمحتاج .

و (ابن السبيل) هو (ابن الطريق) ، الذي قطع عليه الطريق ، ولا يجد ما يتبلغ به . والضيف المنقطع به ، فيجب أن يعطى ما يتبلغ به الى وطنه[4] . وقد تتعرض السابلة الى لصوص الطرق ، يسلبونهم ما معهم ، وقد يأخذون حتى ملابسهم ، فيتعرض مثل هؤلاء للهلاك والأخطار ، حتى يتهيأ لهم من له شفقة ورحمة فيغيثهم بما يتمكن منه ، وقد يحملهم معه .

وكان لفقر الكثير منهم ، يصعب عليهم دفع ديونهم ، ويماطلون في الأداء

---

١ تاج العروس (١/٣٨٠) ، (عزب) ، نهاية الارب (١٠/٤٤ وما بعدها ، ٤٦) ، العمدة (٢/٢٣٥) .

٢ العمدة (٢/٢٣٥ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (١/٣٨٠) ، (عزب) .

٤ تاج العروس (٧/٣٦٦) ، (سبل) .

حتّى انهم كانوا اذا رأوا الهلال ، قالوا : لا مرحباً بمحل الدين ومقرب الآجال[1]. وذلك لأنهم كانوا يتواعدون في دفع الديون على مطالع القمر[2] .

ومما زاد في فقر بعضهم ، شرب الخمر والمقامرة . فكان بعضهم يفني ماله في شرب الخمر ، (وكان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزيناً سليباً ، ينظر الى ماله في يدي غيره ، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً)[3] . فعلوا ذلك أملاً في التخلص من ألم الفقر والحرمان باللجوء الى الخمور لطمس ألم الفقر والذل ، والى القمار ، أملاً في الكسب والربح ، فزادوا بملك فقرهم ، وعرّضوا أنفسهم الى الخسارة .

الوأد :

والوأد من ذيول الفقر . وقد جاء ذكره في الآية : « وإذا الموؤودة سُئلت : بأي ذنب قُتِلَت »[4] . والوأد على ما يذكر علماء التفسير وأهل الأخبار هو دفن البنات وهنّ أحياء ، وذلك خوفاً من العار أو لوجود نقص فيهـا أو مرض أو قبح كأن تكون زرقـاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء وأمثال ذلك ، وهي من الصفات التي كان يتشاءم منها العرب[5] ، أو خوفاً من الفقر والجوع ، أو مخافة العار والحاجة[6] .

ورجع (القرطبي) أسباب الوأد لخصلتين : (إحداهما ، كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به . الثانية ، إمّا مخافة الحاجة والإمـلاق وإما خوفاً من السبي والإسترقاق)[7] . وذكر غيره أن سنين شديدة كانت تنزل بالناس تكون قاسية على أكثرهم ، ولا سيما على الفقراء ، فيأكلون (العِلْهِز)

---

١ تاج العروس (٧/٢٨٦) ، (حلل) .
٢ تاج العروس (٩/٧٢) ، (نجم) .
٣ تفسير الطبري (٧/٢١ وما بعدها) .
٤ سورة التكوير ، الاية ٧ .
٥ بلوغ الارب (٣/٤٣) ، اللسان (٣/٤٤٢) ، (وأد) .
٦ تاج العروس (٢/٥٢٠) ، (وأد) . اللسان (٣/٤٤٢) .
٧ القرطبي ، الجامع (١٩/٢٣٢) .

وهو الوبر بالدم،وذلك من شدة الجوع[1] . فهذا الفقر وهذه الفاقة وذلك الإملاق، كل ذلك حملهم على وأد البنات حذر الوقوع في الغواية ، فتلحق السُّبَّة بأهل البنت وبعشيرتها وقبيلتها . وذكر أيضاً أن من جملة أسباب الوأد وجود نقص في الموؤودة أو مرض أو قبح ، كأن تكون زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء وأمثال ذلك ، وهي من الصفات التي كان يتشاءم منها العرب[2] .

وذكر بعض أهل الأخبار ، ان بعض العرب كانوا يتشاءمون من البنت الزرقاء أو الشيماء ، أو الكسحاء ، فكانوا يئدون من البنات من كانت على هذه الصفة ، ويمسكون من لم يكنّ على هذه الصفة . وذكروا ان والد (سودة بنت زهرة) الكاهنة ، وهي عمة (وهب) ، والد (آمنة) أم الرسول ، أرسل بها الى (الحجون) لو أدها ، للصفة المذكورة ، ثم تركها في قصة يروونها ، وصارت كاهنة شهيرة[3] . فسبب الوأد عند هؤلاء ، هو هذه العقيدة القائمة على التشاؤم من البنت الزرقاء والشيماء .

ويذكرون انهم كانوا يحفرون حفرة ، فإذا ولدت الحامل بنتاً ولم يشأ أهلها الاحتفاظ بها رموا بها في الحفرة ، أو انهم كانوا يقولون للأم بأن تهيء ابنتها للوأد وذلك بتطييبها وتزيينها . فإذا زينت وطيبت،أخذها أبوها الى حفرة يكون قد احتفرها ، فيدفعها فيها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوي الحفرة بالأرض . وذكر أيضاً ، ان بعضهم كان يغرقها ، أو يقوم بذبحها ، ليتخلص بهذه الطرق منها[4] .

وذكر ان الرجل منهم كان اذا ولدت له بنت ، فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية ، وإن اراد قتلها تركها حتى اذا كانت سداسية فيقول لأمها : طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها احمائها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البئر ، فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب ، حتى تستوي البئر بالأرض . وروي عن

---

١ الكامل (١/٢٨٨) .
٢ نهاية الارب (٣/١٢٦ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٤٣) .
٣ السيرة الحلبية (١/٥٠) ، (مطبعة الاستقامة) ، (القاهرة ١٩٦٢) ، (١/٥٣) ، (المكتبة التجارية) ، (القاهرة) ، (باب تزويج عبد الله) .
٤ الكشاف (٤/١٨٨) ، سورة التكوير ، تاج العروس (٢/٥٢٠) ، (وأد) ، بلوغ الارب (٣/٤٢ وما بعدها ، ٥٢) .

ابن عباس انه قال : كانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فخضت على رأس تلك الحفرة ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وردّت التراب عليها ، واذا ولدت ولداً حبسته[1] . ومنه قول الراجز :

سمّيتها إذ ولدت : تموت والقبر صهرٌ ضامن زميّتُ

الزميّت الوقور[2] .

وفاعل العمل هو (الوائد) والبنت المدفونة وهي حية (الموؤودة) ، والعادة (الوأد) .

ويرجع بعض أهل الأخبار تأريخ الوأد الى ايام (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، فيقولون إن (بني تميم) منعوا الملك ضريبة الاتاوة التي كانت عليهم ، فجرّد الملك حملة عليهم كان اكثر رجالها من بني بكر بن وائل ، أوقعت بهم وسبت ذراريهم . فلما ارضوا الملك وكلّموه في الذراري ، (حكم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء ، فأية امرأة اختارت زوجها،ردّت عليه ، فاختلفن في الخيار. وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم المنقري،فاختارت سابيها على زوجها، فنذر قيس بن عاصم أن يدسّ كل بنت تولد في التراب ، فوأد بضع عشرة بنتاً. وبصنيع قيس بن عاصم وابجاده هذه السنة نزل القرآن في ذم وأد البنات[3]. ورجع بعض الأخباريين الوأد الى قبيلة ربيعة. زعموا أن بنتاً لرئيسها وسيدها وقعت أسيرة في أيدي قبيلة أغارت عليها : فلما عقد الصلح ، لم تشأ البنت العودة الى بيتها ، فاختارت بيت آسرها ، فغضب رئيس ربيعة لذلك ، واستنّ هذه السنة ، وقلدته بقية العرب حتى فشت بين القبائل[4] . وهي رواية قريبة في مضمونها وفي فكرتها

---

١ بلوغ الارب (٤٣/٢) ، تفسير البيضاوي (٦٧٠/١) ، تفسير القاسمي (٦٠٦٩/١٧ وما بعدها) ، تفسير الشربيني (٤٧١/٤ وما بعدها) ، روح المعاني (٣٠/٢٨ وما بعدها) .

٢ القرطبي ، الجامع (٢٣٣/١٩) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٤٤٤/١٠) ، (طبعة طهران) ، (٤٥/١٣ وما بعدها) ، (بيروت) . الكشاف (٣١٥/٣) ، تفسير الخازن (١١٩/٣) ، (٣٥٦/٤) .

٣ بلوغ الارب (٤٢/٣ وما بعدها) ، الاغاني (١٥٠/١٢) ، تفسير الطبري (٤٥/٣٠ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٤٠٤/١) ، (اختارت صاحبها وعمرو بن المشمرج) ، نهاية الارب (٩٢٧/٣) .

٤ بلوغ الارب (٤٣/٣) ، تفسير الخازن (١١٩/٣) .

من الرواية الأولى . والفرق بين الروايتين هو في تسمية القبيلة والأشخاص .

وورد أن (قيس بن عاصم) التميمي ، جاء الى النبي ، فقال : إني وأدت ثماني بنات في الجاهلية . قال فأعتق عن كل واحدة منهن بدنة [1] . أو : فأعتق عن كل واحدة منهن رقبة [2] .

ويذكر الأخباريون أن (الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة فجاء الإسلام ، وقد قل ذلك فيها إلا من بني تميم، فإنهم تزايد فيهم ذلك قبيل الإسلام) [3] . وقبيلة كندة وقيس وهذيل وأسد وبكر ابن وائل من القبائل التي عرف فيها الوأد ، وخزاعة ، وكنانة ، ومضر، وأشدهم في هذا تميم زعموا خوف القهر عليهم ، وطمع غير الاكفاء فيهن [4] . وذكر بعض أهل الأخبار ان الوأد كان في تميم ، منهم انتقل الى غيرهم . وقيل : إنه كان في تميم ، وقيس ، وأسد ، وهُذَيْل ، وبكر بن وائل ، وهم من مضر [5] . فهي عادة تفشت في قبائل مضر خاصة . وقيل إنها كانت في غير مضر كذلك . وذكر انها كانت في ربيعة ومضر [6] ، اي في العرب الذين تغلّبت الأعرابية على حياتهم .

وذكر (عكرمة) في تفسير الآية : (قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفهاً بغير علم) ، انها نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر . كان الرجل يشترط على امرأته ، ان تستحيي جارية وتئد اخرى . فإذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل او راح من عند امرأته ، وقال لها : انتِ عليَّ كظهر امي إن رجعت اليكِ ولم تئديها ، فتخدّ لها في الأرض خدّاً وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها، ثم يتداولنها حتى إذا ابصرته راجعاً دستها في حفرتها ثم سوّت عليها التراب) [7] .

اما ان اول من سنّ الوأد في العرب ، هو (قيس بن عاصم المنقري) ،

---

١ تفسير الطبري (٤٦/٣٠) ، (بولاق) .
٢ القرطبي ، الجامع (٢٣٣/١٩) ، ابن كثير ، تفسير (٤٧٨/٤) .
٣ بلوغ الارب (٤٢/٣) .
٤ القرطبي ، الجامع (١١٦/١٠ وما بعدها) ، نهاية الارب (٨٣/١٨) ، الكامل (٢٨٨/١) .
٥ الكامل (٢٨٨/١) .
٦ تفسير الطبري (٣٨/٧) .
٧ تفسير الطبري (٣٨/٨) .

للسبب المذكور ، فدعوى من الدعاوى المألوفة عن اهل الأخبار ، وقصة من القصص التي كانوا يضعونه احياناً حين يقفون عند امر غريب عليهم ، ليس لهم علم به ، فكانوا يوجدون قصصاً في تفسيره وتعليله ، وقفنا على كثير منه . والظاهر ان وأد (قيس) لبنات من بناته ، ووجوده في تميم خاصة بعد ان خفّ عند بقية العرب ، حمل اصحاب الأخبار على ارجاع اصله واساسه الى (قيس) ، مع انهم يذكرون حوادث عن الوأد ، مثل ما ذكروه عن (سودة بنت زهرة) الكاهنة ، تتقدم في الزمن على (قيس) . والوأد عند العرب اقدم منه ، وربما يعود الى ما قبل الميلاد . وفي القرآن الكريم : (وإذا بُشّر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به . أيمسكه على هونٍ ام يدُسُّه في التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون) . وفي هذه الآية وصف للحالة النفسية التي كانت تعتور الأب عند إخباره بميلاد بنت له ، وشرح لبعض الأسباب التي كانت تحمل الآباء على وأد البنات . ويروى ان بعض الجاهلية يتوارى في حالة الطلق ، فإن أخبر بذكر ابتهج او بأنثى حزن ، وبقي متوارياً اياماً يدبر ما يصنع أيتركه ويربيه على ذلّ ، ام يدسه في التراب ، بأن يئده ويدفنه حياً حتى يموت ، ام يهلكه بأمر آخر ، بأن يلقيه من شاهق . روي ان رجلاً قال : يا رسولَ اللهِ والذي بعثك بالحق ما اجد حلاوة الاسلام منذ اسلمت . وقد كانت لي في الجاهلية بنت وأمرت امرأتي ان تزينها وأخرجتَها فلما انتهيت الى وادٍ بعيد القعر ألقيتها ، فقالت : يا ابتِ قتلتني ! فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء . فقال الرسول : ما في الجاهلية فقد هدمه الاسلام ، وما في الاسلام يهدمه الاستغفار . وكان بعضهم يغرقها وبعضهم يذبحها [1] .

وقد ذكر العلماء في تفسيرهم : « وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا . وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم، إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرّموا ما رزقهم الله إفتراءً على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين »[2] . أن الله (أخبر بخسرانهم لوأدهم البنات وتحريمهم البحيرة وغيرها بعقولهم ، فقتلوا أولادهم سفهاً

١ النحل ، الاية ، ٥٨ ، تفسير الطبري (١٤/٨٣ وما بعدها) .

٢ بلوغ الارب (٢/٥١ وما بعدها) .

خوف الإملاق ، وحجروا على أنفسهم في أمــوالهم ولم يخشوا الإملاق ، فأبان ذلك عن تناقض رأيهم)[٣] .

قال (القرطبي) : « إنه كان من العرب من يقتل ولده خشية الإملاق ، كما ذكر اللهُ عزَّ وجل في غير هذا الموضع . وكان منهم من يقتله سفهاً بغير حجة منهم في قتلهم ، وهم ربيعة ومضر ، كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحميّة . ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات بالبنات . وروي أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم،وكان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالكَ تكون محزوناً ؟ فقال : يا رسول الله ، إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخــاف ألاَّ يغفره الله لي وإن أسلمت . فقال له : أخبرني عن ذنبك : فقال : يا رسول الله ، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لي بنت فتشفعت إليَّ امرأتي ان اتركها فتركتها حتى كبرت وادركت ، وصارت من اجمل النساء فخطبوها ، فدخلتني الحميـة ولم يحتمل قلبي ان ازوجهــا او اتركها في البيت بغير زواج ، فقلت للمرأة : إني اريد ان اذهب الى قبيلة كذا وكذا في زيارة اقربائي فابعثيها معي، فسُرَّت بذلك وزينتها بالثياب والحلي ، واخذت علي المواثيق بألاَّ اخونها ، فذهبت الى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية إني اريد ان ألقيها في البئر فالتزمتني ، وجعلت تبكي،وتقول : يا ابتِ ايش تريد ان تفعل بي ؟ فرحمتها ، ثم نظرت في البئر فدخلت علي الحميّة ، ثم التزمتني وجعلت تقول : يا ابتِ لا تضيـع امانة أمي ! فجعلت مرة انظر في البئر ومرة انظر اليها فأرحمها حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة ، وهي تنادي في البئر : يا ابتِ ، قتلتني . فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ، وقال : لو امرت ان اعاقب احداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك »[٣] .

فالفاقة والحمية واعتقاد بعض منهم ان الملائكة بنات الله ، فيجب إلحاق البنات بالبنات ، هي عوامل دفعت بالعرب الى الوأد . فهي بين عامل اقتصادي نص عليه في القرآن الكريم ، وعامل اجتماعي ، هو الحمية ، وخشية لحوق العار بالانسان

---

١ الانعام ، الاية ١٣٩ وما بعدها .
٢ القرطبي ، الجامع (٩٦/٧) ، تفسير الخازن (١٦٣/٣ ، ٣٥٦) .
٣ القرطبي ، الجامع (٩٧/٧) .

من السبي والغارات وعامل ديني ، يرجع الى رأي في دين . لقد تعرض (قتادة) الى قوله تعالى : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم » ، فقال : « هذا صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافةالسباء والفاقة ويغذو كلبه . وقوله : وحرموا ما رزقهم الله ... الآية وهم أهل الجاهلية جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحامياً تحكماً من الشياطين في أموالهم »[1] . ولكن أغلب الوأد هو عن العامل الأول ، وهو الخشية من العيلة والفقر والإملاق . وهو ما نُصَّ عليه في الآيات المتعلقة بالوأد وبقتل الأولاد[2] . وورد أن الجاهلية كانوا يدفنون البنات وهن أحياء . خصوصاً كندة ، خوف العار ، أو خوف الفقر والإملاق)[3] .

ومن النساء من تكون خصبة في ولادة البنات ، فيجلب لها هذا الخصب هجر زوجها لها وفراره منها ومن رؤية بناته . يحدثنا الأصمعي أن امرأة ولدت لرجل بنتاً سمتها الذلفاء ، فكانت هذه البنت سبباً في هرب الرجل من البيت ، فقالت:

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا   يظلّ في البيت الذي يلينا ؟
يحرد أن لا نَلِدَ البنينا   وإنما نأخذ ما يعطينا[4]

ومثل تلك المرأة المسكينة كثير من النساء هجرهن أزواجهن لكثرة ما كن يلدن لهم من البنات ، ولسان حالهن يكرر كلمات أم الذلفاء .

وبمكة جبل يقال له (أبو دلامة) كانت قريش تئد فيه البنات[6] . وذكر أن هذا الجبل يطل على (الحجون) . وقيل كان الحجون هو الذي يقال له :

---

١ تفسير الطبري (٣٨/٨) .

٢ تفسير الطبري (٥٧/١٥) ، القرطبي ، الجامع (٢٥٢/١٠) .

٣ السيرة الحلبية (٥٣/١) ، (باب تزويج عبد الله) .

٤ ونسبت هذه الابيات الى امرأة أبي حمزة الضبي ، الذي هجر زوجته ولجأ الى خيمة جيرانه يبيت فيها فرارا من زوجته التي ولدت له بنتا ، وقد وردت على هذه الصورة:

ما لابي حمزة لا يأتينا   يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا   تالله ما ذلك في أيدينا
وانما نأخذ ما يعطينا   ونحن كالارض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

بلوغ الارب (٥١/٣) ، البيان والتبيين (١٠٤/١) ، (١٨٦/١) ، (عبد السلام محمد هارون) ، روح المعاني ، للالوسي (١٥٣/١٤) ، تفسير الطبري (٨٣/١٤) .

٥ المستطرف (٧٧/٢) .

أبو دلامة[1] .

وورد في القرآن الكريم ما يشير الى قتل بعض الجاهليين أولادهم خشية الإملاق وخوف الفقر . وهم الفقراء من بعض قبائل العرب وفيهم نزلت الآيات : (ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم ، إنّ قتلهم كان خطئاً كبيراً)[2] . و (كذلك زُيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليُردوهم وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ، ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون)[3] . و (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ، قد ضلوا ، وما كانوا مهتدين)[4] . و (قل : تعالوا اتل ما حرّم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا اولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم)[5] . وظاهر لفظ الآيات النهي عن جميع أنواع قتل الأولاد ذكوراً كانوا او اناثاً مخافة الفقر والفاقة[6] .

وذكر ان المراد من كلمة (اولادكم) البنات ، وان المقصود بذلك الوأد[7] . أي وأد البنات ، لا قتل الأبناء . وذهب بعض العلماء الى ان المراد بها الأولاد ذكوراً كانوا او اناثاً . (فقد كان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرن احدهم ، كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبدالله)[8] . فنحن أمام هذه الآيات تجاه موضوعين : وأد البنات وقتل الأولاد الذكور عند الجاهليين . وأد البنات للاسباب المذكورة الواردة في كتب التفسير والحديث ، وقتل الأولاد للاسباب المذكورة في تلك الكتب أيضاً ، وفي كلتا الحالتين نتيجة واحدة ، هي القضاء على حياة انسان .

وقتل الأولاد الذكور عند الجاهليين هو أقل استعمالاً من وأد البنات بكثير . ويظهر انه كان عن عامل ديني في الأغلب ، كما يتبين ذلك من قصة إقدام

---

١ اللسان (١٢/٢٠٥) ، (صادر) ، (دلم) .
٢ الاسراء ، الاية ٣١ ، تفسير الطبري (١٥/٥٧) .
٣ الانعام ، الاية ١٣٧ .
٤ الانعام ، الاية ١٤٠ .
٥ الانعام ، الاية ١٥١ .
٦ بلوغ الارب (٣/٤٤) .
٧ تفسير الطبري (٨/٣٢ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٤٤) .
٨ القرطبي ، الجامع (٧/٩١) .

عبد المطلب على قتل ابنه عبدالله بسبب النذر الذي أخذه على نفسه على ما جاء في روايات اهل الأخبار[1] .

وهذا العامل هو الذي يفسر ما جاء في التوراة عن اقدام ابراهيم على ذبح ابنه، ويشير الى وجود هذه العادة عند الإسرائيليين . وسبب قلة قتل الأولاد بالقياس إلى وأد البنات أن الولد عنصر مهم في الحياة الاقتصادية وفي الحياة الاجتماعية حيث يكون عُدة لوالده ولأهله وعشيرته في الحروب ، ثم أن أسره في الحروب لا يعد شائناً مثل أسر البنات. والمرأة بالأسر تكون فريسة للآسرين . والمرأة ليست قادرة كالرجل على اعاشة نفسها وغيرها ولا على الغزو ، ولذلك صارت البنت هدفاً للوأد أكثر من الذكر[2] .

وقد تأثر بعض ذوي القلوب الرقيقة من عادة (وأد البنات) ، وسعوا لإبطالها. وكان بعض الموسرين منهم يفتدي البنات من القتل بدفع تعويض إلى أهلهن ، وأخذهن لتربيتهن . فكان (صعصعة بن ناجية) جدّ الفرزدق الشاعر المعروف، ومن أشراف تميم ، يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل[3] . فجاء الإسلام وعنده ثلاثون موؤودة[4] . وذكر أنه فدى أربعمائة جارية، وقيل ثلاثمائة جارية من الجاهلية حتى مجيء الإسلام . وذكر على لسان الفرزدق أنه قال : (أحيا جدّي اثنتين وتسعين موؤودة)[5] . وأنه منع الوئيد في الجاهلية فلم يدع تميماً تئد وهو يقدر على ذلك[6] . وذكر أنه قال للرسول إنه اشترى (٢٨٠) موؤودة ، دفع عن كل واحدة منهن ناقتين عشراوين وجملاً[7] . وأنه كان لا يسمع بموؤودة يراد وأدها ، وهو يتمكن من احيائها ، الا جاء والده

---

١ القرطبي ، الجامع (٧/٩١) ، الماوردي ، اعلام النبوة (١٢٦) ، بلوغ الارب (٣/٤٦ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١/٣٩) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢/٢٤٨ وما بعدها) .

٢ الامومة عند العرب (ص ٥٠) .

٣ المستطرف (٢/٧٧) ، القرطبي ، الجامع (١٠/١١٧) وضع لفظة (عمي) في موضع (جدي) في شعر (الفرزدق) ، و (صعصعة) جد الفرزق ، لا عمه ، الاصابة (٢/١٧٩) ، (رقم ٤٠٦٨) .

٤ الاشتقاق (١/١٤٧) ، المرزباني ، معجم الشعراء (٢/٤٨٦) .

٥ أمالي المرتضى (٢/٢٨٤ وما بعدها) ، الاغاني (١٩/٢ وما بعدها) .

٦ أمالي المرتضى (٢/٢٨٤) ، الاغاني (١٩/٣) ، تيسير الوصول (٣/١١٣) .

٧ نهاية الارب (٣/١٢٦ وما بعدها) .

فقداها ، وأنه سأل قومه في ترك الوأد ، فخفف بذلك منه . وعدّ ذلك مكرمة ما سبقه اليها أحد من العرب[1] .

والى (صعصعة بن ناجية) ، أشار الشاعر (الفرزدق) ، مفتخراً به في شعره ، إذ قال :

وجدّي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد[2]

وله أشعار اخرى في هذا المعنى .

وكان (عمرو بن نفيل) يحيي الموؤودة لأجل الإملاق . يقول للرجل إذا أراد ان يفعل ذلك : لا تفعل ! أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها اليك ، وإن شئت كفيتك مؤونتها[3] .

وذكر (القرطبي) في تفسير الآية : (ويجعلون لله البنات ، سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشّر احدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم)[4] . انها (نزلت في خزاعة وكنانة ، فإنّهم زعموا أنّ الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات)[5] . فنسب فعلهم الوأد الى هذه العقيدة .

ولست استبعد ما ذكره اهل الأخبار من وجود دافع ديني حمل الجاهليين على قتل الأولاد وعلى الوأد ، بأن يكون ذلك من بقايا الشعائر الدينية التي كانت في القدم ، وتقديم الضحايا البشرية الى الآلهة لخير المجتمع وسلامته ، وإرضاء الآلهة هي شعيرة من الشعائر الدينية المعروفة . فليس بمستبعد ان الوأد والقتل من بقايا تلك الشعائر ، والغريب في الوأد انه يكون بالدفن ، بينما العادة في الضحايا التي تقدم الى الآلهة ان تكون بالذبح او بالطعن وبأمثال ذلك ، كي يسيل الدم من

---

١ الاغاني (١٩ ، القسم الاول ، ص ٣ وما بعدها) .

٢ اللسان (٣/٤٤٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/٥٢٠ وما بعدها) ، (وأد) . وقال :

ومنا من أحيا الوئيد وغالب وعمرو ومنا حاملون ودافع

تفسير الطبري (٣٠/٤٦) .

ومنا الذي أحيا الوئيد وغالب وعمرو ومنا حاجب والاقارع

٣ السيرة الحلبية (١/٥٣) .

٤ النحل ، الاية ٥٧ وما بعدها .

٥ القرطبي ، الجامع (١٠/١١٦) ، تفسير الخازن (٣/١١٩) ، في تفسير سورة النحل .

الضحية ، والدم هو الغاية من كل ضحية،لأنه الجزء المهم من الضحايا المخصص بالآلهة . وعلى الجملة إن الوأد هو نوع ايضاً من القتل ، وذبح الأولاد وتقديمهم قرابين الى الآلهة Infantcide ، عبادة معروفة عند امم اخرى كانت تمارسها لترضي بذلك الآلهة وتجيب مطالبها [1] .

وعدّ من الوأد (العزل) ، وهو ان يعتزل الرجـل امرأته لئلا تنجب له اولاداً . وقـد عرف في الاسلام بـ (الوأد الخفي) وبـ (الوأد الأصغر) . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل فقال : ذلك (الوأد الخفي) ، وفي حديث آخر (تلك الموؤودة الصغرى)[2] . وقد بحث عنه في كتب الفقـه والتفسير . وروي ان رسول الله قال في ناس : (لقد هممت ان أنهى عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون اولادهم ، ولا يضر اولادهم ذلك شيئاً. ثم سألوه عن العزل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك الوأد الخفي وهو الموؤودة سئلت[3] . والغيلة إذا اتيت المرأة وهي ترضع ولدها ، وكذلك إذا حملت امه وهي ترضعه[4] . وقد جعل الحديث (العـزل) عن المرأة بمنزلة الوأد إلا انه خفي ، لأن من يَعْزِل عن امرأته انما يعزل هرباً من الولد . ولذلك سمّاها الموؤودة الصغرى ، لأن وأد البنات الأحياء الموؤودة الكبرى[5] .

ولم ينفرد العرب بقتل الأولاد وبوأد البنات ، بل نجد ذلك عند غيرهم من الشعوب كذلك ، مثل المصريين واليونان والرومان وشعوب استرالية . أما العوامل التي حملت تلك الشعوب عليها فهي عديدة ، منها عوامل دينية مثل الإعتقاد بحلول الأرواح ، ومنها اقتصادية كالخشية من الفقر ، ومنها ما يتعلق بالصحة كأن يكون المولود ضعيفاً فيقضي عليه الوالدان[6] .

ومن ذيول الفقر وسوء الأوضاع الاقتصادية ، انتشار اللصوصية والاعتداء على أموال النـاس ، وابتزازها وقطع الطرق وسلب الناس . وما الذي يفعله الفقير

---

١ Ency. Relig I, p. 669, Smith, Kinship, p. 370.

٢ بلوغ الارب (٣/٥٣) ، النهاية في غريب الحديث (٤/١٨٩) ، اللسان (٣/٤٤٢ وما بعدها) ، (وأد) .

٣ تفسير ابن كثير (٤/٤٧٧) .

٤ تاج العروس (٨/٥٣) ، (غيل) .

٥ اللسان (٣/٤٤٣) ، (وأد) .

٦ Ency. Brita., 12, p. 322.

والمحتاج ومن له منعة في الجسم وضعف شديد في الجيب لاعاشة نفسه وأهله غير اللجوء الى هذه الطرق في الحصول على لقمة العيش ، إن لم يجد له وسيلة كسب أخرى ؟

واللص ، هو السارق . وذكر أن اللفظة من لغة طيء وبعض الأنصار[1] . وتقابل Listis في اليونانية ، بمعنى السارق . لذلك ذهب البعض الى أنها من هذا الأصل[2] .

ونظراً لتستّر اللص في حرفته ، وممارسته لها بتكتم وحذر خوفاً من الفضيحة والقبض عليه . مارس عمله بالليل في الغالب ، حيث يرقد الناس . مارسه بخفة ومهارة ، فكني عنه بكنى . منها : (ابن الليل) ، و (ابن الطريق) ، لأنه يمارس اللصوصية بالليل وعلى الطرق[3] .

ويقال لمن يسرق الدراهم بين أصابعه (القفاف) . يقال : (قف الصيرفي قفوفاً) ، بمعنى سرق الدراهم بين أصابعه[4] . وأظن أن هذا الاستعمال استعمال مولد ، ولد في الإسلام .

ويعبر عن السطو والاستيلاء عنوة وعن سرقة أموال الناس ، بتعابير أخرى في اللغات العربية الجنوبية ، منها (خرط)[5] ، بمعنى سرق ، و (حلص)[6] ، بمعنى سرق ونهب وسلب ، وكل ما يؤخذ حيلة وسرقة .

وتعدّ السرقة عيباً عند العرب،لأنها تكون دون علم صاحب المسروق وبغافلته . والمغافلة والاستيلاء على شيء من دون علم صاحبه عيب عندهم ، — وفيه جبن ونذالة . أما الاستيلاء على شيء عنوة وباستخدام القوة ، فلا يعدّ نقصاً عندهم ولا شيناً ولا يعدّ سرقة ، لأن السالب قد استعمل حق القوة ، فأخذه بيده من صاحب المال المسلوب . فليس في عمله جبن ولا غدر ولا خيانة . ولذلك فرقوا بين لفظة (سرق) وبين الألفاظ الأخرى التي تعني أخذ مال الغير ، ولكن من

---

١ تاج العروس (٤/٤٣٢) ، (لص) .
٢ غرائب اللغة (٢٦٨) .
٣ اللسان (بنى) ، (١٤/٩٢) .
٤ تاج العروس (٦/٢٢٤) ، (قف) .
٥ South Arabian Inscriptions, p. 436.
٦ المصدر نفسه .

غير تستر ولا تحايل . فقالوا : « السارق عند العرب من جاء مستتراً الى حرز، فأخذ مالاً لغيره . فإن أخذه من ظاهر ، فهو مختلس ومستلب ومنتهب ومحترس، فإن منع ما في يده ، فهو غاصب »[1] .

ولم تعد (الغارة) سرقة ولا عملاً مشيناً يلحق الشين والسبة بمن يقوم به . بل افتخر بالغارات وعدّ المكثر منها (مغواراً) . لما فيها من جرأة وشجاعة وإقدام وتكون الغارة بالخيل في الغالب ، ولذلك قال علماء اللغة : « أغار على القوم غارة وإغارة دفع عليهم الخيل »[2] . وقد عاش قوم على الغارات ، كانوا يغيرون على أحياء العرب ، ويأخذون ما تقع أيديهم عليه ، ومن هؤلاء (عروة بن الورد)، إذ كان يغير بمن معه على أحياء العرب ، فيأخذ ما يجده أمامه ، ليرزق به نفسه وأصحابه . بعد أن انقطعت بهم سبل المعيشة ، وضاقت بهم الدنيا . فاختاروا الغارات والتعرض للقوافل سبباً من أسباب المعيشة والرزق . وذكر أهل الأخبار أسماء رجال عاشوا على الغارات وعلى التربص للمسافرين لسلب ما يحملونه معهم من مال ومتاع .

الأفراح :

الأفراح ، عامة او خاصة . فمن الأفراح العامة ، الأعياد والمناسبات المماثلة ، مثل انتصار في حرب وغزو او تولي ملكٍ عرشاً او سيد رئاسةَ قبيلة . ومن الخاصة ، الزواج والبرء من مرض ، والعود من سفر ، وأمثال ذلك .

ولمّا كان العرب في جاهليتهم قبائل وشيعاً وكان الاتصال بينهم صعباً، صارت أعيادهم كثيرة غير متفقة في زمان او مكان ، ذات صفة محلية ، لا يشترك فيها كل عرب جزيرة العرب . وهي مرتبطة بالأصنام في الغالب وبالمواسم التجارية التي تتجلى في انعقاد الأسواق .

ولذلك ، فأنا حين أتحدث عن اعياد اهل الجاهلية فلن أستطيع أن آتي باسم عيد واحد ، أقول إن جميع العرب كانوا يعيّدون ويفرحون جميعهم به ، لما ذكرته من انقسام الجاهليين الى قبائل وشيع وعدم وجود دين واحد لهم ، يجمع

١ تاج العروس (٣٧٩/٦) ، (سرق) .
٢ تاج العروس (٤٥٨/٣) ، (غور) .

شملهم . والدين من اهم العوامل المساعدة لظهور الأعياد وجمع شمل المؤمنين به للاحتفال بها . ولذلك فأعياد الجاهليين هي اعياد موضعية تعيّد قبيلة او مدينة او مملكة بعيد ، ولا يعرف عنه بقية العرب اي شيء . أما اعياد اليهود والنصارى والعرب فأمرها أمر آخر ، لأن اليهودية والنصرانية قد حددتا تأريخاً ثابتاً للاعياد فيها ، فصارت معروفة عند أتباع الديانتين يحتفلون بها في الأجل الموقوت .

وكان الحج الى مكة من أهم مواسم العرب في الحجاز ، وهو عيد ، يجتمع فيه الناس من مختلف القبائل ومختلف الأماكن للتقرب الى الأصنام وللتلاقي في ظروف أمن وسلام لا يحلّ فيها قتال ولا اعتداء ولا لغو ولا فحش . ويقوم اهل مكة بخدمة الوافدين الضيوف ، ضيوف (البيت) ، وتمر ايام خالية من غدر واعتداء وقتل وأخذ بثأر يلبس فيها الناس خير ما عندهم من لباس ويتجلون بأحسن صورة . فإذا انتهت الأيام عادوا الى ديارهم .

وذكر انه كان لأهل (يثرب) يومان يعيّدون فيهما ، يلعبون فيهما ويستأنسون ، هما : النيروز ، والمهرجان . فلما قدم الرسول المدينة أبدلهما بيوم الفطر والأضحى[1] . والظاهر ان اليثربيين أخذوا عيديهما المذكورين من الفرس[2] ، (النيروز) عيد شهير من اعياد الفرس من اصل (نو) بمعنى جديد و (روز) بمعنى يوم ، أي أول يوم من السنة الإيرانية الشمسية . وأما (المهرجان) ، فإنه عيد من أعياد الفرس كذلك ، يعيّد به في الشهر السابع من شهورهم الشمسية ، وهو شهر (مهر) (مهرماه) ، ويدعى العيد (مهركان) . وقد بقي الفرس يحتفلون به في الإسلام ، حتى زماننا هذا ، وورد ذكره في الأشعار[3] .

ولم يذكر أهل الأخبار كيف عيّد أهل (يثرب) بهذين العيدين اللذين هما من أعياد الفرس . ولا ما هي صلتهم بهما .

وذكر أهل الأخبار عيداً سموه (يوم السبع) ، قالوا إنه عيد كان لهم في

---

١ جامع الاصول (١٠/١٦٦) ، عن العيد ، راجع المخصص (١٣/١٠٢) ، اللسان (٣/٣١٨ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/٤٣٨) ، المحكم والمحيط الاعظم (٢/٢٣٢) ، معجم مقاييس اللغة (٤/١٨١ ، ١٨٢) ، القاموس (١/٣١٩) ، مقدمة الصحاح (١/٥١٢) .

٢ بلوغ الارب (١/٣٤٧) ، اللسان (٥/٤١٦) .

٣ بلوغ الارب (١/٣٥٢ وما بعدها) . غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

الجاهلية ، يشتغلون فيه بلهوهم وعيدهم من كل شيء[1] . ولم يتحدثوا بشيء مفصل عنه ، ولم يذكروا أنه عيد مَن .

وورد في بيت شعر للنابغة اسم عيد دعاه (السباسب) ، وقد ذكر أهل الأخبار أنه كان عيداً لقوم من العرب في الجاهلية وكانوا يحيّون فيه بالريحان .

رقاق النعال ، طيّبٌ حُجُزاتهم   يحيّون بالريحان يوم السّباسبِ[2]

وهو في الواقع عيد من أعياد النصارى ، كما أشار الى ذلك أهل الأخبار . إذ ذكروا أنه (عيد للنصارى ويسمونه يوم الشعانين)[3] .

وقد كان هـذا العيد معروفاً في الحجار أيضاً ، ورد في الحديث « إنّ الله تعالى أبدلكم بيـوم السباسب يوم العيد »[4] . وإذا صح ورود هذا الحديث عن الرسول ، كان ذلك دليلاً على أن أهل مكة كانوا قد عرفوا هذا العيد وعيّدوه وربما كانوا أخذوه عن النصرانية .

ولم ترد في نصوص المسند إشارات الى أعياد العرب الجنوبيين ولم ترد اشارات الى الأعياد في النصوص الثمودية أو اللحيانية أو الصفوية . لـذلك لا أستطيع أن أتحدث عن العيد عند العرب الجنوبيين أو اللحيانيين أو الصفويين أو قـوم ثمود . وقد اشار بعض الكتبـة (الكلاسيكيين) الى تعييد النبط وعـرب اعالي الحجاز واحتفائهم فيها بأصنامهم وحجّهم الى معابدهم ، إلا انهم لم يُسمّوا تلك الأعياد بأسمائها .

وقد عيّد يهود جزيرة العرب بأعيادهم ايضاً . وكانوا يحافظون عليها ، لأنها في عقيدتهم عمل من الأعمال الدينية . ولم يكونوا يشتغلون فيهـا[5] ، إذ يرون في

---

١ تاج العروس (٣٧٢/٥) ، (سبـع) ، بلـوغ الارب (٣٤٧/١) ، اللسان (١٤٨/٨) .
٢ بلوغ الارب (٣٤٧/١) ، تاج العروس (٤١/٣) ، (الكويت) (سبب) اللسان (سبب) ، ديوان النابغة (٤٥) .
٣ تاج العروس (٢٩٤/١) ، (سبب) .
٤ تاج العروس (٤١/٣) ، (طبعة الكويت) ، (سبب) ، (٢٩٤/١) ، (المطبعة الخيريـة) .
٥ صبح الاعشى (٤٢٦/٢ وما بعدها) .

الخروج عليها خروجاً على الدين الذي منعهم من الاشتغال في ايام السبت والأعياد وحتم عليهم وجوب مراعاة حرمة تلك الأيام مراعاة تامة .

ومن اعياد اليهود التي عرفها الجاهليون عيد رأس السنة ، وعيد الصوم الكبير (الكبور) ، و (عيد المظال) واعياد اخرى .

أما العرب النصارى ، فقد عيّدوا بأعيادهم الدينيــة ، واحتفلوا بها ، وفي المواضع التي كانت فيها جماعة كبيرة منهم كانت احتفالاتهم بها اوضح وأفرح . وفي الحيرة ، حيث تفشت النصرانية وانتشرت ، كان الناس يتزينون ويتجملون ويلبسون أحسن ما عندهم من حلل في ايام أعيادهم ، مثــل (عيد السعانين) (عيد الشعانين) ، ويحتفلون في البيع والكنائس والأديرة فرحاً بذكرى العيد ، ويخرجون بصلبانهم[1] .

وذكر ان (يوم السعانين) (يوم الشعانين) ، هو (يوم السباسب) ، العيد الذي مــرّ ذكره ، وقد كان من أعياد النصارى[2] . وقد اشتقت كلمــة (السعانين) (الشعانين) من العبرانية ، أخذت من لفظة (هوشعنا) ، التي كان يتهلل بها اليهود أمام المسيح . و (السباسب) : الأغصان ، يريدون منها سعف النخيل الذي قطعه اليهود يوم استقبلوا المسيح في دخوله أورشليم[3] .

وذكر أن (الهنزمر) ، و (الهنزمن) ، و (الهيزمن) ، كلها : عيد من أعياد النصارى أو سائر العجم ، وهي أعجمية . قال الأعشى :

إذا كان هنزمن ورُحْتُ مخشما[4]

واشتهر (عيد الفصح) ، وهو عيد فِطر النصارى ، إذا أفطروا وأكلــوا اللحم . وقد أشار اليه الأعشى بقوله :

---

١ الاغاني (٢/٣٠) ، (طبعة ساسي) ، صبح الاعشى (٢/٤١٥ وما بعدها) ، اللسان (١٣/٢٠٩) .

٢ اللسان (١/٤٦٠) ، (صادر) ، (سبسب) ، المخصص (١٣/١٠٢) تاج لعروس (٤/٢٩٤) ، نهاية الارب (١/١٩١ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/٢٣٥) .

٣ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثانــي ، القســم الاول (ص ٢١٥) ، المخصص (١٣/١٠٢) ، ديوان النابغة (ص ١٥) .

٤ المخصص (١٣/١٠٢) ، الاثار الباقية (٢٩٢) ، اللسان (٥/٢٦٧) ، (هنزمر) ، تاج العروس (٣/٦٢٣) ، (هنزمر) .

بهم تقرّب يوم الفصح ضاحية يرجو الإله بما سدّى وما صنعا [1]

وذكر العلماء اسم عيد آخر من أعياد النصارى دعوه (السلاّق) ، ذكروا أنه مشتق من تسلق المسيح الى السماء [2] . والكلمة من أصل إرمي ؛ هو Souloqo بمعنى صعود . وقصد به عيد صعود المسيح الى السماء [3] .

وللنصارى عيد آخر اسمه (خميس الفصح) ، وعرف أيضاً بـ (خميس العهد). وقد احتفل به نصارى الحيرة [4] . وذكر علماء اللغة أن للنصارى عيداً من أعيادهم اسمه (دنح) ، وتكلمت به العرب [5] . وهو من أصل إرمي هو (دنحو) ، بمعنى اشراق وظهور . ويراد به (عيد الغطاس) [6] .

وتضاف اليها الأعياد المحلية ، التي كان يحتفل فيها بأيام القديسين . فقد كان الغساسنة يحتفلون مثلاً في الرصافة بعيد (القديس سرجيوس) . وكان لنصارى العراق أعيادهم الخاصة بهم حسب مذاهبهم . يكرسونها تخليداً لذكرى قديسيهم .

وقد اشتهر النصارى بين الجاهليين وفي الإسلام بمحافظتهم على أعيادهم حتى ضربوا المثل بأعياد النصارى . فقال العجاج :

واعتاد أرباضاً لها آريّ كما يعود العيد نصرانيّ [7]

والعادة — كما هو شأن كل الأمم — أن يتزين في أيام الأعياد بأحسن الثياب والملابس المفتخرة والحلل المثمنة والبرود المعجبة ، وأن يظهر الشبان مقدرتهم وبراعتهم في التسابق على الخيل وفي الألعاب وفي الظهور أمام النساء ، ويلعب الصبيان أنواعاً من الملاعب ، وان يتغنى ويزمر بالدفوف والمزاهر وأمثال ذلك ،

---

١ ديوان الاعشى (القصيدة ١٣ ، سطر ٦٩) ، اللسان (٢/٥٤٥) ، القاموس (١/٢٤٠) ، مقاييس اللغة (٤/٥٠٧) ، مقدمة الصحاح (١/٣٩١) .

٢ اللسان (١٠/١٦٣) ، (صادر) ، (سلق) .

٣ غرائب اللغة (ص ١٨٨) .

٤ الاغاني (٣/٣٢) ، النصرانية ، القسم الثاني الجزء الثاني القسم الاول (ص ٢١٦)، نهاية الارب (١/١٩١ وما بعدها) .

٥ اللسان (٢/٤٣٦) ، (دنح) ، تاج العروس (٢/١٣٦) ، (دنح) ، المخصص (١٣/١٠٢) .

٦ غرائب اللغة (١٨١) ، نهاية الارب (١/١٩١ وما بعدها) ، الاثار الباقية (٢٩٢ وما بعدها) .

٧ تاج العروس (٢/٤٣٨) ، (عود) .

لتكسب الأيام بهجتها وروعتها . وكان من عادة أشراف الحيرة اللعب على الخيل بالصوالجة ، وذلك على طريقة العجم[1] .

وقد يخضب الرجال والنساء أيديهم بالخضاب ، ولا سيما (الحناء) . ولكن هذا النوع من إظهار الفرح والسرور ، غالب في الأعراس وفي الختان ، حيث تولم الولائم وتقام الأفراح ، ويخضب بالحناء .

اللعب في العيد :

ومما كان يتلهى به المعيّدون ويتسلّون به ، الغناء ، واللعب بمختلف أنواعه . وفي جملته استخدام السودان للعب بلعبتهم الشهيرة لعبة الدرق والحراب[2] . وقد برع في الغناء نساء ورجال . وذكر ان أهل (يثرب) كانوا اهل طرب وكانوا يحبون الغناء[3] ، وانهم استخدموا (الحبش) للضرب على الدف والغناء في ايام الأعياد . وقد كانوا يلعبون في المسجد بالدرق والحراب ولم ينههم الرسول عن ذلك ، لأن اللعب كان في ايام العيد[4] . وقد غنت جاريتان لـ (عائشة) بإنشاد العرب بغناء بعاث ، كما أذن الرسول للسودان باللعب في مسجده في الحراب والدرق ، ونشطهم بقوله : (يا بني أرفدة)[5] .

الغناء :

وطرب الأعراب ، طرب ساذج يتناسب مع طبيعة بيئاتهم ، وكذلك كان غناؤهم غير معقد ولا متنوع . أما طرب أهل الحضر ، فكان أكثر تعقيداً وتفنناً ولا سيما طرب أهل الحضر الساكنين في ريف العراق وفي بلاد الشأم ، وعند أهل

---

١ الاغاني (٢/١٩) ، (طبعة ساسي) .
٢ نهاية الارب (٤/١٣٨) .
٣ نهاية الارب (٤/١٣٩ وما بعدها) ، (أما كان معكن لهو ، فان الانصار يعجبهم اللهو) ، نهاية الارب (٤/١٤٨) .
٤ القسطلاني ، ارشاد الساري (٦/٢٠) .
٥ القسطلاني ، ارشاد (٢/٢٠٤ وما بعدها) ، (باب اباحة الحراب والدرق يوم العيد) .

اليمن ، فاستعملوا آلات طرب متعددة ، أخذوا بعضها من الأعاجم الذين اتصلوا بهم ، كما أخذوا من أولئك الأقوام ألواناً من ألوان الغناء وفنونه . هذا الاختلاف لا بد أن يقع،لاختلاف أهل الوبر وأهل المدر في البيئات ، وفي الطباع والعادات .

وللشعر علاقة كبيرة بالغناء . فالغناء هو التغني بالشعر . ولذلك قالوا : تغنى بالشعر ، وفلان يتغنى بفلانـة إذا صنع فيها شعراً . وله علاقة بالحداء أيضاً . قالوا : حدا به ، إذا عمل فيه شعراً [1] . فالغناء نغم ووزن ويكون لذلك بكلام موزون . وهو الشعر الذي يناسب نغم الغناء . أما النثر ، فلا يناسب طبعه طبع الغناء . ويكون بينهما جفاء . إذ لا يستقيم النثر العربي مع الوزن دائماً . لذلك فلا يمكن للمغني أن يغني به . قال (الجاحظ) : العرب تقطع الألحان الموزونة والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في الوزن اللحن ، فتضع موزوناً على غير موزون[2] . وذكر أن الغناء من الصوت ما طرب به [3] .

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يستمعون الى القيان . وأن فارس كانت تعدّ الغنـاء أدباً والروم فلسفة . وأن الملوك العرب كانوا يملكون القيان أيضاً . ومنهم أشراف مكة وعلى رأسهم (عبدالله بن جدعان) [4] .

وقد عرف غناء أهل البادية بـ (غناء الأعراب) ، وذلك لاختلافه عن غناء الحضر [5] .

فكان لأهل الحيرة مزاج في الغناء يختلف عن مزاج أهل البادية ، بـل حتى عن مزاج غيرهم من الحضر . وذلك للظروف الخاصة التي تحيط بهم ، مثـل اختلاطهم بالفرس ، ووجود النصرانية والمؤثرات اليونانية فيما بينهم . وقد كان في كنائس العباديـين نصارى الحيرة ، تراتيل وترانيم ، وهي بالطبـع نوع من الغذاء الروحي ، وقد كان عندهم خمر تبعث على الانشراح والانبساط، وأديرة مزدانة بالخضرة والرياحين والأزهار ، وفيها ماء طيب وغناء رهبان وراهبات ،

---

١ بلوغ الارب (٣٦٩/١) ، تـاج العروس (٢٧٢/١٠) ، (غنى) ، اللسـان (١٣٥/١٥) ، (غنى) .
٢ بلوغ الارب (٣٦٩/١) .
٣ تاج العروس (٢٧٢/١٠) ، (غنى) .
٤ رسائل الجاحظ (١٥٨/٢) .
٥ نهاية الارب (١٩٣/٤) .

فلا عجب إن طرب سكانها وتفننوا في غنائهم،وتميزوا به عن بقية الغناء العربي ، حتى قيل له : غناء أهل الحيرة ، وقد ذكر : انه بين المزج والنصب ، وهو الى التصب أقرب ، كما كانت لهم لغة امتازت عن لغات العرب الآخرين غنوا بها ، فأكسب غناؤهم طابعاً حيرياً خاصاً [1] .

ومن مرادفات الغناء (السمود) بلغة حمير . وقيل السمود اللهو وبصورة خاصة الغناء[2] .

وللفقهاء في الاسلام آراء في قراءة القرآن . منهم مَنْ جوّز قراءته بالألحان ، ومنهم من جوّز قراءته بالترجيع ، وغير ذلك[3] . والترجيع ترديد الصوت في الحلق في قراءة أو غناء أو زمر أو غير ذلك مما يترنم به . وقيل الترجيع هو تقارب ضروب الحركات في الصوت[4] .

وأما (العزف) ، فالملاهي ، واللعب بالمعازف ، وهي الدفوف وغيرها مما يضرب . والعازف اللاعب بها والمغني . وعزف الدف صوته . والمعزف ، ضرب من الطنابير يتخذه أهل اليمن وغيرهم ، ويجعل العود معزفاً[5] .

ويعبر عن الاسماع الى الغناء والإنصات لصوت المغني بـ (السماع) . ويحدث السماع طرباً في النفس . وقد صار للكلمة معنى خاص في الاسلام ، إذ حولت إلى سماع الترانيم الدينية في الغالب ، لذلك لم ينظر اليه نظرة الناس إلى الغناء[6] .

وتغنى أهل الجاهلية في كل المناسبات المبهجة ، وضربوا على آلات الطرب . ومن هذه المناسبات الزواج والعودة من الأسفار ، كما كانوا ينذرون أنه إن تحقق مطلب لهم فإنهم يقيمون مجلس طرب يتغنى فيه : كمناسبة شفاء من مرض أو عودة من حرب[7].وكان شبان مكة يذهبون الى السمر ويلهون بسماع الغناء وبالضرب على الدفوف والاسماع الى تزمير المزمار[8] . كما استعمل الغناء في الغزو ، وذلك

---

١ الاغاني (٢/١٢١) (طبعة ساسي) .
٢ اللسان (٣/٢١٩) ، نهاية الارب (٤/١٣٤) .
٣ ابن قيم الجوزية (١/١٣٤) ، (في هدية صلى الله عليه وسلم ، في قراءة القرآن)
٤ تاج العروس (٥/٣٥١) ، (رجع) .
٥ اللسان (٩/٢٤٤) ، المخصص (١٣/١٢) ، تاج العروس (٦/١٩٧) ، (عزف) .
٦ نهاية الارب (٤/١٦١ وما بعدها) .
٧ نهاية الارب (٤/١٤٠ وما بعدها) .
٨ نهاية الارب (٤/١٤٥ وما بعدها) .

لتنشيط الغازين وتحريضهم على القتال . ومن هذا القبيل ما يرتجز به الشجعان عند اللقاء في الحرب . واستعمل في الختان وفي العقيقة والولائم[1] .

آلات الطرب :

وآلات الطرب عند العرب ثلاثة : آلات ذات أوتار كالعود وآلات نفخ ، وآلات ضرب كالصنوج والطبل والدف .

والطرب : الفرح والحزن وهو ضد ، أو هو خفة تلحقك سواء تسرك أو تحزنك . فهي تعتري عند شدة الفرح أو الحزن أو الغم. والتطريب التغني . ويقال طرب فلان في غنائه تطريباً إذا رجع صوته وزينه[2] .

والدف من آلات الطرب القديمة المشهورة ويستعمل . للتعبير عن العواطف في الفرح والسرور . وهو معروف عند الساميين ويسمى (توف) (تف) Toph عند العبرانيين . وقد ورد ذكره في التوراة . وتنقر به النساء أيضاً[3] . وقد كان شائعاً عند العرب ، ينقرون به في أفراحهم . ولما وصل الرسول الى يثرب ، استقبل بفرح عظيم وبالغناء وبنقر الدفوف . وأكثر ما استعمله العرب في المناسبات المفرحة ، كالنكاح . ورافقوا الضرب به أصوات الغناء[4] .

وقد وردت في الشعر الجاهلي أسماء آلات طرب عرفت في ذلك العهد ، فورد في شعر للأعشى : الناي ، والبربط ، والصنج ، وهي آلات عرفت عند الفرس . وقد دعي (الناي) بـ (ناي نرم) .

والناي نرم وبربط ذي بُحة والصنج يبكي شجوَهُ أن يوضعا[5]

وقد ذكر الجواليقي ان البربط معرّب ، وهو من ملاهي العجم ، شبّه بصدر

---

١ نهاية الارب (١٦٨/٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣٥٤/١) ، (طرب) .
٣ Smith, Diction., Vol. III, p. 1502, Hastings, p. 638, A Relig. Ency. Vol. III, p. 1599.
٤ تاج العروس (١٠٨/٦) ، (دف) .
٥ المعرب (ص ٧٢ ، ٢١٤ ، ٣٤٠) ، العقد الفريد (٢٣/٦) .

البط . والصدر بالفارسية (بر) ، فقيل بربط[1] . وقد ورد في العقد الفريد : (العود الكران . والمِزْهر أيضاً هو العود ، وهو البربط)[2] . والبربط من آلات الملاهي المشهورة عند الروم .

وعرف الجواليقي (الصنج) فقال : « والصنج الذي تعرفه العرب هو الذي يتخذ من صفر ، يضرب أحدهما بالآخر ... فأما الصنج ذو الأوتار ، فتختص به العجم ، وهما معربان . وسمّوا الأعشى (صناجة العرب) لجودة شعره[3] . وذكر أن اللاعب بالصنج هو (الصنّاج) و (الصنّاجة)[4] .

وجاء الأعشى باسم آلة طرب أخرى من آلات الملاهي عند العجم ، دعاها (الونّ) :

بالجُلُّسان وطيب أردانــه بالونّ يضرب لي يكرُ الإصبعا[5]

ويظهر من هذا البيت أن الونّ آلة طرب ذات أوتار ، يضرب عليها بالأصابع. وقد ذكر بعض العلماء أن الونّ : (الصنج الذي يضرب بالأصابع وهو الونج ، كلاهما دخيل مشتق من كلام العجم)[6] . وعرف بعضهم (الونج) بأنه « المعزف أو العود ، فارسي معرب . وأصله بالفارسية ونَه . وقد تكلمت به العرب»[7] . ومنهم من جعل (الونّ) و (الونج) شيئاً واحداً .

ويذكر علماء اللغة أن (العَرْطَبَة) هي اسم للعود ، وقيل : الطبل ، وقيل : الطنبور : وقد ورد ذكرها في الحديث مع اسم آلة أخرى من آلات الملاهي ، هي (كوبة)[8] . ويرى العلماء أن (الكوبة) ، الطبل الصغير ، وهي (النرد) ، بلغة اليمن[9] . وذكر أن (المرطية) طبل الحبشة خاصة[10] ، وان (الكوبــة)

---

١ المعرب (ص ٧١) ، ابن خلكان ، الوفيات (٢/٤٠٠) ، تاج لعروس (٥/١٠٥).
٢ (٢/٢٧) ، تاج العروس (٥/١٠٤ وما بعدها) ، (البربط) .
٣ المعرب (ص ٢١٤) ، الاغاني (٨/٧٥) . قال الاعشى
ومستجيبا تخال الصنج يسمعه اذا ترجع فيه القينة الفضل
اللسان (٢/٣١١) ، (صنج) ، تاج العروس (٢/٦٧) .
٤ تاج العروس (٢/٦٧) ، (صنج) .
٥ المعرب (ص ٣٤٤) ، تاج العروس (٩/٣٦٣) ، (الون) .
٦ المعرب ، الحاشية ، تاج العروس (٩/٣٦٣) ، (الون) .
٧ المعرب (ص ٣٤٤) ، تاج العروس (٩/٣٦٣) ، (الون) .
٨ المعرب (ص ٢٣٤) ، تاج العروس (١/٣٧٧) ، القاموس (١/١٠٣) .
٩ المعرب (ص ٢٩٥) ، تاج العروس (١/٤٦٤) .
١٠ تاج العروس (١/٣٧٧) ، (عرطبة) .

البربط والشطرنج والطبل الصغير[1] .

وذكر أهل الأخبار أن (النضر بن الحارث بن كلدة) كان يغني بالعود[2] . والعود من جملة آلات الطرب القديمة . وهو (عوديت) عند العبرانيين . وقد أشير اليه في جملة آلات الموسيقى المستعملة في أيام داوود ، وذلك في المزامير[3] . وذكر أن من أسماء العود (الكران) ، وأن (الكرينة) المغنية الضاربة بالعود أو الصنج[4] .

ويعرف الوتر بـ (البم) ، ويقال هو الوتر الغليظ من أوتار المزهر[5] .

و (الناي) من آلات الطرب ، ينفخ فيه،يصنع من الخشب ومن القصب[6] . وذكر ان الناي من أسماء (المزمار) ، وهو من آلات النفخ كذلك. و (القصاب)، وهو الذي ينفخ في القصب الزمّار[7] .

وأما (الهيرعة) ، فالقصبة ، التي يزمر فيها الراعي[8] .

وذكر أن (القنين) طنبور الحبشة . (وفي الحديث : إنّ الله حرّم الخمر والكوبة والقنين) . والتقنين الضرب بالقِنّين . وذكر أن الكوبة : الطبل[9] . وأما (الكبر) ، فهو الطبل ، وقيل طبلٌ له وجه واحد . وقيل هو الطبل ذو الرأسين[10] . ويقال للطنبور (طبن) كذلك[11] .

و (المزمار) و (الزّمّارة) : ما يزمر فيه . ويقال للقصبة التي يزمر

---

١ تاج العروس (١/٤٦٤) ، (كوب) .
٢ المعارف (ص ٢٥٠) .
٣ Smith, A Diction III, p. 1304.
٤ قال لبيد :
صعل كسافلة القناة وظرفه وكأن جؤجؤه صفيح كران
تاج العروس (٩/٣٢٠) ، (كرن) ، اللسان (١٣/٣٥٧) ، (كرن) .
٥ شمس العلوم (جـ ١ق ١ ص ١١٨) ، الاغاني (٢/١٢٠) (ساسي) اللسان (٣/٣٦) .
٦ العقد الفريد (٦/٢٣) .
٧ المخصص (١٣/١٥) .
٨ المخصص (١٣/١٤) ، تاج العروس (٥/٥٥٦) ، (هرع) .
٩ اللسان (١٣/٣٤٩) ، تاج العروس (٩/٣١٥) .
١٠ اللسان (٥/١٣٠) ، تفسير الطبري (٢٨/٦٦) .
١١ اللسان (١٣/٢٦٤) .

بها زمّارة[1] . وأما (الرباب) ، فمن آلات اللهو كذلك[2] . وقد اشتهر الغناء بالمزمار عند العرب ، وأجادوا فيه .

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الساميين يستخدمون الغناء في عباداتهم ، وربما استخدموا معه بعض آلات الطرب . وذلك تعبيراً عن بهجتهم وسرورهم بتعبدهم للآلهة وتقرباً اليها بهذا الغناء الذي يدخل السرور الى نفوسها . وقد ذكر المفسرون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت يصفرون ويصفقون[3] . وإذا صحّ قولهم هذا ، فإنه يعني استعمال نوع من الطرب في حجّهم وطوافهم بالبيت .

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع الغناء العربي وما يختلف به ويمتاز عن غناء الأعاجم ، فقال : « العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون »[4] .

واللحن : الغناء . (وفي الحديث : اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل العشق)[5] . ويراد به التطريب وترجيع الصوت وتحسين القراءة والشعر والغناء . وقد كان اليهود والنصارى يقرأون كتبهم نحواً من ذلك[6] .

أصول الغناء الجاهلي :

ويرجع أهل الأخبار غناء الجاهليين إلى ثلاثة أوجه : النصب،والسناد،والهزج . فأما النصب ، فغناء الركبان وغناء الفتيان والقينات ، ويغني به في المراثي كذلك. وقد دعاه إسحاق بن ابراهيم الموصلي ، الغناء الجنابي نسبة إلى رجل من كلب يقال له : جناب بن عبدالله بن هبل . وهو الذي يقال له (المراثي) ، ومنه كان أصل الحداء ، وكله يخرج من الطويل في العروض . وأما السناد ، فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وأما الهزج ، فالخفيف الذي يرقص عليه

---

١ اللسان (٣٢٧/٤) .
٢ تاج العروس (٤٧٢/٢) .
٣ تفسير الطبري (١٥٧/٩ وما بعدها) .
٤ العمدة (٣١٤) .
٥ اللسان (٣٨٣/١٣) ، (صادر) ، (لحن) .
٦ المصدر نفسه .

ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم[1] .

ويذكر أهل الأخبار ان الأنواع المذكورة كانت غنـاء العرب ، حتى جاء الاسلام وفتحت العراق ، وجلب الغناء والرقيق من فارس والروم ، فغنّوا الغناء المجـزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنّوا جميعـاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير[2] . وذكر أيضاً ان الغناء قديم في الفرس والروم ، ولم يكن للعرب قبل ذلك إلا الحداء والنشيد ، وكانوا يسمّونه (الركباني) (الركبانية)[3] . والنشيد رفع الصوت ، ومن المجاز الشعر المتناشد بين القوم ينشده بعضهم بعضاً[4] .

وذكـر (المسعودي) أن غناء العرب النصب ، ثلاثة أجناس : الركباني ، والسناد الثقيل ، والهزج الخفيف[5] .

ويرى بعض أهل الأخبار أن أصل الغناء ومعدنه إنما كان في أمهـات القرى من بلاد العرب ، حيث فشا بها ، وانتشر . ومن هذه مكة والمدينـة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه القرى مجامع أسواق العرب . ورووا أن أول من غنى في العرب قينتان لعاد ، يقال لهما الجرادتان[6] . وهما قينتا (معاوية بن بكر الجرهمي) (معاوية بن بكر العملقي) غنّتا لوفد (عاد) بمكة، فشغلوا عن الطواف بالبيت وسؤال الله فيما قصدوا ، فهلكت عاد وهم سامدون. فلما رأى الجرهمي ، وهو معاويـة بن بكر ، أحد العماليق ، ذلك قال : هلك أخوالي (عاد) ، ولو قلت لضيوفي شيئاً ، ظنوا بي البخل ، فألقى الى الجرادتين شعراً يذكر بمحنة (عاد) ، فأنشدتاه الضيوف . وكان الجرهمي سيد مكة حين وفدت عاد تستقي في قحطها . وكان (قيل ابن عتر) أحد الرؤوس الثلاثة لوفد عاد ، حين ذهبوا في القحط الى مكة يستسقون لقومهم[7] .

---

١ العقد الفريد (٦/٢٧) ، بلوغ الارب (١/٣٦٩ وما بعدها) ، اللسان (٢/٣٩٠ وما بعدها) ، العمدة (٣١٣) ، اللهو والملاهي ، لابن خرداذبه (ص ١٨) .

٢ العمدة (٣١٤) .

٣ نهاية الارب (٤/٢٣٩) .

٤ تاج العروس (٢/٥١٤) ، (نشد) .

٥ مروج (٤/١٣٣) ، (دار الاندلس) .

٦ العقد لفريد (٦/٢٧) .

٧ الامثال للميداني (١/٨٧) ، رسالة الغفران (٢٤٣) ، مروج (٤/١٣٣) ، (دار الاندلس) .

وورد أيضاً أن الجرادتين كانتا مغنيتين للنعمان. كما ورد ذكر الجرادتين وغناءهما لأبي رغال. وورد أنه كان بمكة في الجاهلية قينتان يقال لها الجرادتان مشهورتان بحسن الصوت[1]. وقيل إنّ الجرادتين كانتا أمتين تتغنيان في الجاهلية وكانتا لعبدالله ابن جُدْعان[2].

وقد ذكر (أبو العلاء المعري)، أن العرب تُسمي كل قينة جرادة، حملاً على أن قينة في الدهر الأول كانت تدعى الجرادة. واستشهد بهذا البيت:

تغنينا الجراد ونحن نشرب   نعلّ الراح خالطها المشور[3]

وذكر بعض العلماء أن (جذيمة الخزاعي بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن عامر)، المعروف بـ (المصطلق)، كان من أحسن الناس صوتاً، وقد غنى بعد (الجرادتين)، غنّى غناء النصب[4]. وذكر انه أول من غنى في خزاعة[5]. ثم غنى بعده (ربيعة)، وهو (ضبيس بن حزام بن حيشة بن سلول ابن كعب بن عمرو بن عامر) الخزاعي، ثم غنى بعده (زمام بن خطام الكلبي)، وقد ذكره (الصمة القشيري)، بقوله:

دعوت زماماً للهوى فأجابني   وأي فتى للّهو بعد زمام[6]

وذكر (المسعودي)، أن غناء أهل اليمن بالمعازف وإيقاعها جنس واحد، وغناؤهم جنسان: حنفي، وحميري. والحنفي أحسنها[7]، فهذا هو غناء أهل اليمن. ورجع بعض أهل الأخبار غناء أهل اليمن إلى (علس بن زيد ذي جدن)، زعموا انه أول من تغنى باليمن[8]. وزعموا أنه كان من ملوك اليمن، لقب بذي جدن، لجمال صوته. فالجدن الصوت عند أهل اليمن[9].

---

١ اللسان (٣/١١٨)، (صادر)، (جرد)، تاج العروس (٢/٣١٨) (جرد).
٢ الاغاني (٨/٢) (طبعة ساسي).
٣ رسالة الغفران (٢٤٤).
٤ كتاب اللهو والملاهي (١٨).
٥ تاج العروس (٦/٤١٢).
٦ كتاب اللهو والملاهي (١٨).
٧ مروج (٤/١٣٤).
٨ الاغاني (٤/٣٧).
٩ اللهو والملاهي (٢٠).

وذكر ان قريشاً لم تكن تعرف من الغناء ، إلا النصب ، حتى قدم (النضر ابن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي) العراق، فتعلم ضرب العود وغناء العباديين ، فقدم مكة ، فعلّم أهلها ، فاتخذوا القيان[1] .

ويظهر من غربلة ما ورد في الأخبار عن الغناء ، أن المراد به ، تلحين ما يراد التغني به وتطريبه ، حتى يثير الطرب في نفوس السامعين ، لا سيما إذا اقترن بآلة من آلات الطرب . ونادراً ما يكون غناء دون (موسيقى) . فالموسيقى تصاحب الغناء . والغناء : تلحين ما يراد التغني به بتقطيعه قطعاً موزونة تكون نغمة،يوقع على كل صوت منها بإيقاع يناسبه ، فيزيده لذة في السماع[2] .

وذهب (المسعودي) الى أن أول من اتخذ القيان من العرب ، أهل يثرب . أخذوا ذلك من بقايا عاد[3] . بينما يذكر الأخباريون ، أن أول من غنى من العرب العاربة الجرادتان ، وكانتا قينتين على عهد عاد ، لمعاوية بن بكـــر العمليقي[4] . وفي جملة من قال ذلك (ابن خرداذبه) ، الذي اعتمد (المسعودي) عليه في موضوع الغناء ، ونقل من كتابه (اللهو والملاهي) بالنص[5] .

والقينة عند علماء اللغة : الأمة المغنية ، وذكروا أنها كلمة هذلية . وقال بعض آخر : مغنية كانت أو غير مغنية . وإنما قيل للمغنية قينة ، إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر[6] . والظاهر أنها من الألفـــاظ المعربة ، فالغناء في لغـــة (بني إرم) هو (قنتـــو) Qinto والمغنية (قينة) من الغناء (قنتو)[7] .

وذكر أن من أسماء (القينة) (الزمّارة) و (الزامرة) ، وقيـــل للمغني (الزمّار) ، وذلك من الترمير بالمزمار[8] .

---

١ كتاب اللهو والملاهي (١٩) ، مروج الذهب (١٣٤/٤) ، المخصص (١٤٢/٢ ومـا بعدها) ، (٥٤/٤) .
٢ مقدمة ابن خلدون (٧٥٨) ، (دار الكتاب ، بيروت ١٩٦١ م) ، اللسان (١٣٥/١٥)
٣ مروج الذهب (١٣٤/٤) ، كتاب اللهو والملاهي (١٩) .
٤ كتاب اللهو والملاهي (١٨) .
٥ راجع كتاب اللهو والملاهي وقارنه بكتاب مروج الذهب ، للمسعودي (١٣١/٤ وما بعدها) .
٦ اللسان (٣٥١/١٣ وما بعدها) .
٧ غرائب اللغة (٢٠٢) .
٨ اللسان (٣٢٧/٤) ، (ذمر) .

ويقال للمغنية (الكرينة) أيضاً[1] . وقد وردت اللفظة في شعر لبيد :

بصبوح صافية وجَذْب كرينة بمـوترٍ تـأتاله ابهامهـا[2]

وذكر أن (الكرينة) المغنّية الضاربة بالعود أو الصنج ، والضاربة بـ (الكران). و (الكران) هو العود[3] .

وذهب أهل الأخبار الى أن الغناء محدث في العرب ، أخذ من (الحداء) . وكان الحداء في العرب قبل الغناء . وكان أول السماع والترجيع في العرب ، ثم اشتق الغناء من الحداء . اشتقه (حباب بن عبدالله الكلبي) ، فغنى النصب[4] .

وقد أشير الى غناء النصب في كلام ينسب الى عبدالله بن عمر بن الخطّاب ، فذكر أنه قال : مَرّ بنا ابن الخطاب ، وأنا وعاصم بن عمر نغني غناء النصب، فقال : أعيدا عليّ[5] . وورد أن أنس بن مالك سمع أخاه البرّاء بن مالك يغني، فقال : ما هذا ؟ قال : أبيات عربية أنصبها نصباً[6] . مما يدلّ على أن غناء النصب إنما ورد من هذا المعنى. كذلك أشير الى الحداء في خبر ينسب الى ابن جريج، قال : سألت عطاء عن قراءة القرآن على ألحان الغناء والحداء[7] . وقد أخرج هذا الخبر الحداء من الغناء .

وعرف بعض العلماء النصب : أنه غناء الرُكبان . وعرف أنه (العقيرة) ، يقال : رفع عقيرته إذا غنى النصب . وعرف أنه ضرب من أغاني العرب. (وفي حديث نائل، مولى عثمان : فقلنا لرباح بن المغترف : لو نصبت لنا نصب العرب أي لو تغنيت ، وفي الصحاح : لو غنيت لنا غناء العرب . (وكان رباح بن المغترف يحسن غناء النصب ، وهو ضرب من أغاني العرب ، شبيه الحداء،وقيل:

---

١ العقد الفريد (٢٧/٦) ، كتاب اللهو والملاهي (ص ١٦) .
٢ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٤ وما بعدها) ، (٢٩٥) (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٣ العقد الفريد (٢٧/٦) .
٤ اللهو والملاهي (١٨) .
٥ العقد الفريد (٨/٦) .
٦ المصدر نفسه .
٧ العقد الفريد (٩/٦) ، تاج العروس (٤٨٥/١) .

هو الذي أحكم من النشيد ، وأقيم لحنه ووزنه)[1] . وعرف النصب : انه ضرب من مغاني العرب أرق من الحداء[2] .

وقد أشار أهل الأخبار إلى أن العرب كانت (تتغنى بالركباني ، إذا ركبت الإبل ، وإذا جلست في الأفنية وعلى أكثر أحوالها ، فلما نزل القرآن أحب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن يكون هجّيراهم بالقرآن مكان التغني بالركباني، وأول من قرأ بالألحان عبيد الله بن أبي بكرة ، فورثه عند عبيد الله بن عمر، ولذلك يقال قرأت العمري ، وأخذ ذلك عنه سعيد العلاّف الإباضي)[3] . وذكر أن (عمر) سمع (عبد الرحمن بن عوف) وهو يتغنى وينشد بالركبانية ، وهو غناء يحدى به الركاب[4] .

والحداء ، هو من أقدم أنواع الغناء عند العرب،يغنى به في الأسفار خاصة ، ولا زال على مكانته ومقامه في البادية حتى اليوم . ويتغنى به في المناسبات المحزنة أيضاً لملاءمة نغمته مع الحزن . وقد كان للرسول حادي هو (البرّاء بن مالك بن النضر الأنصاري) وكان حداءً للرجال[5] . وكان له حدّاء آخر ، يقال له (أنجشة الحادي) وكان جميل الصوت أسود ، وكان يحدو للنساء[6] ، نساء النبي ، وكان غلاماً للرسول[7] . وذكر أن النبي (قال لقوم من بني غفار) سمع حاديهم بطريق مكة ليلاً ، فقال لهم : إن أباكم مضر خرج إلى بعض رعاته فوجدها قد تفرقت ، فأخذ عصا فضرب بها كفّ غلامه، فعدا الغلام في الوادي وهو يصيح : وايداه ، وايداه ، فسمعت الإبل ذلك فعطفت ، فقال مضر : لو اشتق مثل هذا لانتفعت به الإبل واجتمعت ، فاشتق الحداء)[8] .

وذكر بعض أهل الأخبار « أن أول من أخذ في ترجيعه الحداء (مضر بن نزار)[9]

---

١ اللسان (١/٧٦٢) ، (نصب) .
٢ تاج العروس (١/٤٨٦) ، (نصب) .
٣ اللسان (١٥/١٣٧) .
٤ الروض (٢/٢١٩) .
٥ الاصابة (١/١٤٣) ، اللسان (١٤/١٦٨) .
٦ الاصابة (١/٦٧) ، الاستيعاب (١/١١٧) (حاشية على الاصابة) .
٧ ارشاد الساري (٩/٩٢) .
٨ العمدة (٣١٤ وما بعدها) ، المعارف (٢٤١) ، الروض الانف (١/٦٠) ، العقد الفريد (٦/٢٧) ، ارشاد الساري (٩/٨٨) .
٩ مروج الذهب (٤/١٥٩) .

فإنه سقط عن جمل فانكسرت يده ، فحملوه وهو يقول : وايداه وايداه،وكان أحسن الله جرماً وصوتاً ، فأصغت الإبل اليه وجدّت في السير ، فجعلت العرب مثالاً لقوله هايدا هايدا يحدون به الإبل »[1] . وللأخباريين كلام آخر من هذا النوع عن الحداء[2] . يتفق كله في أن هذا النوع من الغناء كان من خصائص غناء مضر[3] .

وكان (عامر بن سنان الأكوع بن عبدالله بن قشير الأسلمي) المعروف بـ (ابن الأكوع) رجلاً شاعراً وراجزاً ، وكان يحسن الحداء ، فطلب منه أصحاب الرسول أثناء سيرهم الى خيبر أن يحدو بهم . فسمع الرسول حداءه[4] .

وهناك أخبار أخرى يفهم منها أن العرب لم تدخل الحداء في الغناء ، وإنما ذكرته معه ، على أنه باب خاص[5] . والعادة أن يجعل المسافرون معهم حادياً أو جماة حداة يحدون بهم في السفر . وكان أبو هريرة أحد الصحابة المحدثين عن رسول الله ، يحدو لركب بسرة بنت غزوان[6] .

والحداء إذن ضرب مخصوص من الغناء ، ويكون بالرجز غالباً لأن طبيعة الرجز تلائم هذا النوع من الغناء[7] . ويذكر (المسعودي) أن الحداء كان في العرب قبل الغناء . وكان أولّ السماع والترجيع في العرب ، ثم اشتق الغناء من الحداء [8] . فالحداء متقدم على الغناء إذن،وهو الباب الذي ولج العرب منه الى الغناء.

والحداء ، هو في الواقع غناء أهل البادية ، وفي ارجاع أهل الأخبار أصله الى (مضر) أو غيره من الرجال صحة ، إذا اعتبرنا ان (مضر) أو غيره كناية عن الأعراب. لأن هذا النوع من الغناء مما يتناسب مع لحن البوادي ونغمها الحزينة البسيطة التي تطرب بها طبيعة البداوة نفس الأعراب . ولا زال غناء أهل البادية متأثراً بهذه الضربات من العزف ، التي تعزفها البادية للتخفيف عن كآبة

---

١ العمدة (٣١٤) .
٢ المعارف (٢٤١) ، العمدة (٣١٤) .
٣ العقد الفريد (٢٧/٦) ، الروض (٦٠/١) ، بلوغ الارب (٣٦٩/١ وما بعدها) .
٤ ارشاد الساري (٩٠/٩ وما بعدها) .
٥ المعارف (ص ٢٣٢) ، اللسان (١٦٨/١٤) .
٦ المعارف (ص ١٢٠) ، نهاية الارب (١٦٤/٤) .
٧ ارشاد الساري (٨٨/٩) .
٨ مروج (١٣٣/٢) ، (دار الاندلس) .

الطبيعة وللتعبير عن الروح الحزينة التي تحملها هذه الطبيعة من نشوئها ونموها في هذه الفيافي الساحقة الشاسعة التي لا ترى حدودها العين ، والتي ترشق الأوجه برشقات من الرمال ، تسدّ العين ، حتى لا تتجاسر فتمدّ بصرها لتسترق سرّ هذه المحيطات ذات الأمواج المتفاوتة في الإرتفاع من تموّجات الرمال .

وقد تخصص أناس من رجال ونساء بالغناء ، واتخذوه حرفة لهم يتكسبون بها . والمغنون المحترفون هم من سواد الناس ، ومن الرقيق . لأن من طبع الشريف والحرّ الابتعاد عنه . وقد احترف هؤلاء الغناء وتعيشوا عليه . فكانوا يدعون الى إحياء الحفلات في مقابل أجر يدفع لهم . وقد كان من بينهم من يغني بلغته كالرومية والحبشية ، ولهذا فلم يكن من المستبعد سماع غناء أجنبي في موضع مثل مكة أو يثرب لوجود رقيق فيه .

وقد تغنى بشعر بعض الشعراء الجاهليين ، ومن هؤلاء شعر الشاعر (مُرّة ابن الرواغ) . ويذكر أهل الأخبار ان (امرىء القيس بن حجر) ، كان يأمر قيانه أن يغنين بشعره . وان قيان الملوك كن يغنين به أيضاً[1] ، وقد كان النخاسون في الجاهلية يعلمون المغنيات الشعر ، للتغني به .

وقد كان أغنياء مكة والقرى الأخرى يملكون القيان ، ومنهم من كان يملك عدداً منهن . مثل (عبدالله بن جُدْعان) . وكان (لمقيس بن عبد قيس بن قيس بن عدي) ، قينتان تغنيان ، وكان بيته مألفاً لشباب قريش ينفقون عنده ويشربون ويتهاتكون يبقون على ذلك ليالي وأياماً[2] .

ومن القيان : (هريرة) التي شبب بها (الأعشى) . وهي أمة سوداء،لحسان ابن عمرو بن مرثد . ولها أخت اسمها (خليدة) : كانت قينة كذلك . وقد ورد في رواية أخرى ، أنهما كانتا قينتين لـ (بشر بن عمرو بن مرثد) ، وكانتا تغنيانه النصب . وقدم بهما اليمامة ، لما هرب من (النعمان)[3] .

وذكر انه كان لـ (عائشة) جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، أي تنشدان الأشعار التي قيلت يوم بعاث[4] .

---

١ الامدي ، المؤتلف (ص ١٢٧) ، معجم الشعراء (ص ٣٨٢) .
٢ شرح ديوان حسان (٤٧) (البرقوقي) .
٣ الاغاني (١١٣/٩) .
٤ اللسان (١٣٧/١٥) .

ومن أهل الحداء حاد يقال له (أنجشة) أشرت اليه قبل قليل ، وكان حسن الصوت . وهو من الصحابة . (وفي الحديث : أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال لأنجشة وهو يحدو بالنساء ، رفقاً بالقوارير ... وكان أنجشة يحدو بهن ركابهن ويرتجز بنسيب الشعر والرجز وراءهن)[1] . وهو من أصل حبشي ، يكنى (أبا مارية)[2] . وكان يحدو بالنساء ، وكان البرّاء بن مالك يحدو بالرجال[3] . وربما كان على النصرانية قبل دخوله في الاسلام .

وكان (البرّاء بن مالك بن النضر الأنصاري) ، حسن الصوت كذلك . وكان يرجز لرسول الله في بعض أسفاره ، كما أشرت إلى ذلك قبل قليل. وذكر انه كان حادي الرجال . وكان يتغنى بالشعر . وقد شهد المشاهد مع رسول الله إلا بدراً ، وله يوم اليمامة أخبار . واستشهد في أيام عمر[4] . وكان من الشجعان[5] .

ومما يلفت النظر ان الأخباريين حين يتحدثون عن مجلس طرب وشرب وغناء ، يذكرون أن صاحب المجلس أمر قينتين له بأن تغنيا له أولهم ، وذلك في الغالب ، ولم يذكروا قينة أو أكثر إلا في الأقل ، حتى ليشعر القارىء أن العرف في ذلك الوقت أن تكون للسادة وللاشراف قينتين تغنيان تكونان في البيت بصورة دائمة . فلما اغتاظ (أبو براء عامر بن مالك بن جعفر) مما قيل عنه ، وأراد الترفيه عن نفسه قبل أن يقتل نفسه (دعا قينيتين له فشرب وغنتاه)[6] . وكان (عبد الله ابن جُدْعان) إذا أراد سماع الغناء أمر قينتين له تسميان (الجرادتين) بالغناء[7] .

ولا يستبعد استخدام الجاهليين آلات الطرب والغناء في معابدهم وفي أعيادهم . فقد كان الساميون كالعبرانيين يستعملون أنواع آلات الموسيقى في معابدهم وفي أعيادهم تقرباً إلى آلهتهم[8] . وقد وصلت الينا أسماء بعض آلات الطرب التي استعملها الجاهليون ولكن معارفنا لا تزال مع ذلك قليلة ضعيفة . وستزيد ولا شك

---

١ اللسان (٥/٨٧ وما بعدها) .
٢ الاصابة (١/٨٠) ، (رقم ٢٦١) .
٣ الاستيعاب (١/١٢١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ الاصابة (١/١٤٧) ، (رقم ٦٢٠) .
٥ الاستيعاب (١/١٤١ وما بعدها) .
٦ شرح ديوان لبيد (ص ٦١) .
٧ الاغاني (٨/٢) ، البيان والتبيين (١/١٧) (لجنة) .
٨ A Relig. Ency., Vol. III, p. 1598.

متى قام الآثاريون بالتنقيب تنقيباً علمياً عميقاً في مواضع الآثار في مختلف الأنحاء.

أما العرب في العراق وفي بلاد الشأم ، فقد تأثروا بالغناء الأعجمي، واستعملوا آلات الطرب المعروفة عند الفرس واليونان ، وسمعوا الغناء بالفارسية والرومية واستحسنوه ، بل استحسنه أناس من عرب الحجاز أيضاً . سمع حسان بن ثابت غناء (رائقة) ، فلما عاد الى بيته ، تذكر ليلة قضاها في الجاهلية مع (جبلة ابن الأيهم) ، لم ينسها قط ، قال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمسٌ يغنين غناء أهل الحيرة وأهداهن اليه اياس بن قبيصة . وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشرب ، فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندّى إن كان شاتياً،وإن كان صائفاً بطّن بالثلج ، واتى هو واصحابه بكساء صيفية ينفصل هو واصحابه بها في الصيف ، وفي الشتاء بفراء الفَنَك وما اشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلاّ وخلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم وعلى غيري من جلسائه ، هذا مع حلم عمن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة »[1] .

وإذا كان الغناء للطرب بوجه عام ، فإن هنالك نوعاً آخر من الغناء هو (الترنيم) ، وهو تطريب الصوت ، ويستخدم في الغالب في التلاوة ، أي تلاوة الأدعية والتراتيل الدينية. فقد كان الجاهليون يرتلون أغانيهم الدينية أمام أصنامهم، كما فعل ذلك اليهود والنصارى ويترنمون بها . وتصحب هذه الترانيم آلات موسيقية لتعزف الألحان المناسبة الموافقة لها .

وذكر علماء العربية أن (الرنم) المغنّيات المجيدات ، والرنم الصوت . والرنيم والترنيم ترجيع الصوت وتطريبه[2] . وعرف (الترجيع) بـ (ترديد الصوت في الحلق في قراءة أو غناء أو زمر أو غير ذلك مما يترنم به) . وقيل : (الترجيع هو تقارب ضروب الحركات في الصوت)[3] . وقد كان الجاهليون يرجعون الشعر ، بأن يقرأونه على الألحان والتطريب والايقاع ليؤثر في السامعين .

---

١ الاغاني (١٦/ ١٤) .

٢ تاج العروس (٨/ ٣٢٠) ، (رنم) ، ارشاد الساري ، للقسطلاني (٧/ ٤٨٠ وما بعدها) اللسان (١٢/ ٢٥٦) .

٣ تاج العروس (٥/ ٣٥١) ، (رجع) .

أما المناسبات المحزنة كالموت والكآبة ، فقد كانوا يستعملون فيها نغمات حزينة وهادئة للتخفيف من شدة الحزن والكآبة والألم . وقد كانت لهم في ذلك ألحان وأوزان ونغم .

وأما (الهزج) ، فالخفيف الذي يرقص عليه ، ويمشي بالدفّ والمزمار ، فيطرب ويستخف الحليم[1] . وذكر أن الهزج من الأغاني ما فيه ترنم ، وصوت مطرب ، وقيل : هو صوت فيه بحح ، وصوت دقيق مع ارتفاع . وكل كلام متدارك متقارب في خفة هزج[2] . فهو الخفيف المطرب من الغناء .

وكانت المناسبات المفرحة مثل الزواج تقترن بالعزف والغناء. روي أن رسول الله لما كان غلاماً يرعى غنماً ومعه غلام من قريش يرعى معه كذلك قال له : « لو أنك أبصرت غنمي حتى أدخل مكة ، فأسمر بها كما يسمر الشباب ، قال : أفعل . فخرجت أريد ذلك حتى جئت أول دار من ديار مكة ، سمعت عزّفاً بالدفوف والمزامير . فقلت ما هذا ؟ فقالوا : فلان تزوّج فلانة بنت فلان . فجلست أنظر اليهم »[3] . وذكر أن من عادة أهل مكة أن يفعلوا ذلك عند الزواج. وفعل أهل يثرب ذلك أيضاً في مثل هذه المناسبات وفي مناسبات الفرح الأخرى[4] .

الرقص :

والرقص وجه آخر من وجوه التسلية والتفريج عن النفس . يرقصون في المناسبات ، مثل الأعراس والأفراح الأخرى . وهو في الغالب ارتفاع وانخفاض ، وقد يكون ذلك هو الذي حمل علماء اللغة على تفسير الرقص أنه ارتفاع وانخفاض[5] . والراقصون هم من الشباب في الغالب ، أما الشيوخ ، فكانوا لا يرقصون ، لعدم ملاءمة الرقص مع جلال السن .

---

١ العمدة (٣١٤/٢) ، كتاب اللهو والملاهي ، لابن خرداذبه (ص ١٦ وما بعدها) ، (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت) .
٢ تاج العروس (١١٦/٢) ، (هزج) .
٣ نهاية الارب (١٤٥/٤) .
٤ رغبة الآمل من كتاب الكامل (٩٠٨/٦) ، (للمرصفي) .
٥ اللسان (٤٢/٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٩٩/٤) ، (رقص) .

وذكر علماء اللغة أن من الرقص نوع يقال له (الدرقلة) . وذكر بعض آخر أن (الدرقلة) الرقص . « قال محمد بن إسحاق : قدم فتية من الحبشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدرقلون ، أي يرقصون » . وقيل : الدرقلة : لعبة للعجم معربة[1] . وهي من الحبشة على بعض آراء علماء اللغة . ونطقت بـ (الدركلة) كذلك . وذكروا أن الرسول (مرّ على أصحاب الدركلة فقال: جِدّوا يا بني أرفدة حتى يعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة)[2] . قيل إنّ الدركلة ضرب من الرقص ولعبة للعجم معربة .

وقد عرف الحبش بحبّهم للرقص . وكان أهل مكة وغيرهم من أهل الحجاز إذا أرادوا الاحتفال بعرس أو ختان أو أية مناسبة مفرحة أخرى أحضروا الحبش للرقص والغناء على طريقتهم الخاصة . وورد في الحديث أنه قال للحبشة دونكم يا بني أرفدة . وقيل هم جنس من الحبشة يرقصون . وقيل (أرفده) لقب لهم. هو اسم أبيهم الأقدم يعرفون به[3] .

وقد كان الرقص عند الشعوب الساميّة نوعاً من أنواع التعبير عن الفرح والشكر تجاه آلهتهم[4] . ويدخل في جملة الشعائر الدينية . ولا يستبعد أن يكون الجاهليون مثل غيرهم قد رقصوا لآلهتهم في المناسبات الدينية ، تعبيراً عن شكرهم للآلهة . ولكن معارفنا عن ذلك قليلة جداً ، فلا نجد في الكتابات الجاهلية أية إشارة اليه، أما أخبار أهل الأخبار عن الرقص عند الجاهليين ، فهي قليلة . ولا أستبعد أن يكون السعي بين الصفا والمروة كان رقصاً في الأصل فكان الساعون يرقصون ويغنون أغاني دينية ، في تمجيد رب البيت والتقرب اليه . كما كانوا يرقصون في المعابد الأخرى .

ويعدّ يوم وصول الملوك والأمراء والسادات الى مكان ما ، يوماً مشهوداً يجلب الفرح والسرور الى قلوب الناس ، ويعطي ذلك اليوم بهجة وسروراً . وكانوا يستقبلون كبار الوافدين عند قدومهم بأصناف اللهو . ويخرج (المقلسون) بالسيوف والريحان وبالدفوف والغناء . ولذلك قيل (القلس) و (التقليس) : الضرب

---

١ اللسان (٢٤٤/١١) .
٢ اللسان (٢٤٤/١١) .
٣ اللسان (١٨٣/٣) ، (رفد) ، تاج العروس (٣٥٦/٢) ، (رفد) .
٤ قاموس الكتاب المقدس (٤٨٩/١) ، (رقص) .

بالدفّ والغناء . و (المقلس) : الذي يلعب بين يدي الأمير . ولما قدم (عمر) الشأم لقيه المقلسون بالسيوف والريحان . والقلس : الرقص في غناء ، وقيل هو الغناء الجيد[1] .

ألعاب مسلية :

وقطع الجاهليون وقتهم ببعض الألعاب المسلّية ، مثل (النرد) وقد أشير اليه في الحديث بـ (النردشير) وبـ (النرد) . وذكر بعض العلماء أن (النرد) هو (الكوبة) ، بلغة أهل اليمن[2] . وأشير اليه في حديث أهل الأخبار عن (امرىء القيس الكندي) وعن الناعي الذي أوصل الخبر اليه ، فقالوا : « فوجده مع نديم له يشرب الخمر ، ويلاعبه بالنرد ، فقال له : قتل حجر ، فلم يلتفت الى قوله ، وأمسك نديمه ، فقال له امرؤ القيس : اضرب ، فضرب ، حتّى إذا فرغ ، قال : ما كنت لأفسد عليك دستك »[3] والدست مصطلح فارسي ، أي ما كنت لأفسد عليك لعبك .

وكان في الجاهلية إذا خاب قدح أحدهم ولم ينل مرامه قيل تمّ عليه الدست. وقيل الدست : هو دست القمار ، كان في اصطلاح الجاهلية . وفلان حسن الدست : شطرنجي حاذق[4] .

واللعب اللهو والتسلية ، وهو أنواع . كما ان لكل عمر نوع من اللعب يليق به . و (التلعابة) و (التلعاب) الكثير اللعب ، والكثير المزح والمداعبة . و (الشطرنج) لعبة ، والنرد لعبة كذلك ، وكل ملعوب به فهو لعبة . و (اللعبة) الأحمق الذي يسخر به ويلعب ويطرد عليه[5] .

ويعبر عن اللهو واللعب بلفظة (الديدن) ، و (الددن) ، و (الدد) ،

---

١ اللسان (٦/١٨٠) ، (صادر) ، (قلس) ، تاج العروس (٤/٢٢١ وما بعدها) . (قلس) .

٢ صحيح مسلم (٢/١٩٩) ، الجواليقي (ص ٣٣١) ، تنوير الحوالك ، (٢/٢٣٧)، اللسان (٣/٤٢١) .

٣ الاغاني (٨/٦٥) (طبعة ساسي) غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .

٤ تاج العروس (١/٥٤٣) ، (دست) .

٥ تاج العروس (١/٤٧١) ، (لعب) .

و (اللدا) ، و (ديد) ، و (ديدان) ، و (الديدبون) . وفي الحديث : (ما أنا من دد ولا الددُ مني) . أي ما أنا في شيء من اللهو واللعب. وورد لعديّ بن زيد العباديّ :

أيها القلب تعلل بددن   إن همّي في سماع وأذن

وذكر أن الدد : هو الضرب بالأصابع في اللعب ، وأن الديدبون : اللهو[1] .

وللأطفال ألعاب تتناسب مع سنهم ، منها : (الجماح) ، وهي سهيم يلعب به ، يجعلون مكان زجّه طيناً[2] ، و (البقيري)[3] ، ولعبة (الغراب) ، وقد ذكر أن صبياناً كانوا يلعبونها ليلاً[4] . و (الكعاب) و (القيال) ، وهي لعبة كانوا يلعبون بها ، يجمعون تراباً ويخبئون فيها خبيئاً ، ويقولون لصاحبه في أي الجانبين هو[5] ؟

ومن ألعاب الصبيان لعبة يقال لها (الدخرجاء) و (الدحيريجاء) ، وفيها قال الشاعر :

عليك الدحيريجاء فاتبع صحابها   سيكفيك زين الحرب أروع ماجد[6]

ومن ألعاب الصبيان ، لعبة (عظم وضاح) (عظيم وضاح) ، أن يأخذ بالليل عظماً أبيض ، فيرمونه في ظلمة الليل ، ثم يتفرقون في طلبه ، فمن وجده فله القمر . وذكر أن من وجده يركب الفريق الآخر من الموضع الذي وجدوه فيه الى الموضع الذي رموا به منه . وورد في الحديث أن النبي لعب وهو صغير بعظم وضاح[7] .

و (البُقَيْري) : أن يجمع يديه على التراب في الأرض إلى أسفله ، ثم

---

١ اللسان (١٣/١٥١ وما بعدها) ، (ددن) ، تاج العروس (٩/١٩٨) ، (الددن) .
٢ الاغاني (٨/٧٥) (طبعة ساسي) .
٣ شمس العلوم الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٨٠) .
٤ المعارف (ص ١٢١) .
٥ شرح ديوان لبيد (ص ٨٠) .
٦ الاشتقاق (٢/٣٠٦) .
٧ الحيوان (٦/١٤٥) ، (هارون) .

يقول لصاحبه : اشته في نفسك ، فيصيب ويخطىء . وذكر أنهم يأتون الى موضع قد خبىء لهم فيه شيء ، فيضربون بأيديهم بلا حفر يطلبونه[1] .

والخطرة ، أن يعملوا مخراقاً ، ثم يرمى به واحد منهم من خلفه الى الفريق الآخر ، فإن عجزوا عن أخذه رموا به اليهم ، فإن أخذوه ركبوهم[2] . وأما (الدارة) ، ويقال لها (الخراج) ، أن يمسك أحدهم شيئاً بيده ويقول لسائرهم أخرجوا ما في يدي . و (الشحمة) ، أنه يمضي واحد من أحد الفريقين بغلام فيتنحّون ناحية ثم يقبلون ، ويستقبلهم الآخرون ، فإن منعوا الغلام حتى يصيروا الى الموضع الآخر فقد غلبوهم عليه،ويدفع الغلام اليهم ، وإن لم يمنعوه ركبوهم، وهذا كلّه يكون في ليالي الصيف ، عن غب ربيع مخصب[3] .

وسابق الأطفال والشبان بعضهم بعضاً . سابقوا على الخيل وسابقوا على الأقدام فكان السابق يفخر على المسبوقين ، وربما خاطروا في السباق ، فيأخذ السابق (الخطر)،وهو ما جعلوه رهناً للسابق . وصارعوا . واعتبروا المصارعة رياضة وفخراً . فالقوي يصرع الضعيف . ولهذا كان المصارع الذي لا يصرع يتباهى ويفخر بنفسه على غيره.وقد سابق رسول الله بنفسه على الأقدام[4] . ويقال للمصارعة (المراوغة) ، لما فيها من مراوغة الواحد منها للآخر ، للتغلب عليه[5] . وقد صارع النبي (ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب) ، فصرعه مرتين. (وكان شديداً . يحكى أنه كان يقف على جلد بعير لين جديد حين سلخه ، فيجذبه من تحته عشرة فيتمزق الجلد ولا يتزحزح هو عن مكانه)[6] .

ومن ألعاب الصبيان (الطبن) ، وهو خط مستدير يلعب به الصبيان[7] . و (الشعارير) وهي من لعب الصبيان[8] . وأما البنات فالتماثيل الصغار التي يلعب

---

١ الحيوان (١٤٥/٦) ، (هارون) .
٢ الحيوان (١٤٥/٦ وما بعدها) ، (هارون) .
٣ الحيوان (١٤٦/٦) ، (هارون) .
٤ زاد المعاد (٤١/١) .
٥ تاج العروس (١٤/٦) ، (روغ) .
٦ تاج العروس (٢١٩/٩) ، (ركن) .
٧ اللسان (٢٦٣/١٣) ، تاج العروس (٢٦٧/٩) ، (طبن) .
٨ اللسان (٤١٦/٤) ، تاج العروس (٣٠٥/٣) ، (شعر) .

بها . وفي حديث عائشة : كنت ألعب مع الجواري بالبنات[١] . و (الدحندح) لعبة للصبية يجتمعون لها فيقولونها ، فمن أخطأها قام على رجل وحجل سبع مرات[٢]. ومن ألعاب الغلمان (الحكة) ، وهي لعبة لهم يأخذون عظماً فيحكّونه حتى يبيض ثم يرمونه بعيداً فمن أخذه فهو الغالب[٣] . واللعبة التمثال يلعب به الصبيان . و (الملعبة) ثوب بلا كم يلعب فيه الصبي[٤] .

وعرفت ألعاب الشدة والقوة عند الجاهليين . ومن هذه لعبة (الربع) ، وهي رفع الحجر باليد وشيله امتحاناً للقوة . وفي الحديث انه مرّ بقوم يربعون حجراً، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا الاشداء[٥] .

القمار :

و (القمار) من الألعاب المتفشية كثيراً بين الجاهليين ، ولم يكن الباعث عليه التسلية واللهو في الغالب ، وإنما كان طمعاً في الربح . ويسمى (الميسر) في العربية التي نزل بها القرآن الكريم . وقد أشير اليه في الشعر الجاهلي . وقد حرمه الاسلام ، ونزل الأمر بالنهي عنه في القرآن الكريم . ويذكر أهل الأخبار أن أول من حرّم القمار في الجاهلية (الأقرع بن حابس التميمي) ، ثم جاء الاسلام بتقريره[٦] .

وذكر أن كل شيء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز. وعرف الميسر : انه القمار بالقداح في كل شيء[٧] . وقامر الرجل راهنه[٨] . وذكر أن الياسرين : اللذين يلون قسمة الجزور، والميسر الجزور نفسه، سمّي ميسراً لأنه يجزأ أجزاء فكأنه موضع التجزئة ، وهذا الأصل في الياسر ، ثم يقال للضاربين بالقداح

---

١ تاج العروس (١٠/٤٨) ، (بنى) .
٢ تاج العروس (٢/١٣٥) ، (دح) .
٣ تاج العروس (٧/١٢٢) ، (حك) .
٤ تاج العروس (١/٤٧١) ، (لعب) .
٥ تاج العروس (٥/٣٣٨) ، (ربع) .
٦ صبح الاعشى (١/٤٣٥) .
٧ اللسان (٥/٢٩٨) .
٨ اللسان (٥/١١٥) .

والمتقامرين على الجزور : الأيسار[1] . وذكر أن اشتقاق (الميسر) إما من اليسر لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كدٍ ولا تعب ، أو من اليسار لأنه سلب يساره[2] .

وقد ألّف بعض العلماء كتباً في الميسر،منها كتاب ألّفه (ابن قتيبة الدينوري) وكتاب ألّفه (الزبيدي) دعاه (نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقداح)[3] .

وآراء العلماء متباينة في الميسر وفي المراد منه ، وفي طريقته . ويظهر أن قسماً ممن كان يلعب الميسر لم يكن يلعبه ابتغاء الكسب ، وانما كان يلعبه للتسلية والترفيه عن الآخرين ، وذلك باعطائه ما يكسبه للمحتاجين والفقراء ، ولذلك افتخروا بعملهم هذا وعدّوه مفخرة من مفاخر العرب ، لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة وعدم اللبن وأيام الشتاء[4] . فيعطون اللحم للمحتاج اليه ، إذ عيب من كان يأخذه لنفسه ، وعدّوه عاراً[5] . وقد افتخروا به في شعرهم[6]، ومدحوا من يأخذ القداح وعابت من لا ييسر ودعته (البرم)[7] ، وذلك لبخله وظنه بماله من أن يذهب إلى غيره ، مع أن الناس في حاجة شديدة اليه .

وإلى لعب الموسرين الأيسار في الشتاء لمساعدة ذوي الحاجة ، أشار طرفة في شعره إذ قال :

وهم أيسار لقمان إذا أغلت الشتوة أبداء الجزور[8]

وأما القسم الآخر ممن كان ييسر ، فكان يبغي الكسب والمال ، لذلك كان يقامر بكل ما يملك في سبيل الحصول على المال للمياسرة . روي عن (ابن عباس) أنه (كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله) في سبيل

---

١ اللسان (٥/٢٩٨) وما بعدها ·
٢ بلوغ الارب (٣/٥٣) ·
٣ بلوغ الارب (٣/٦٤) ، تاج العروس (١/جى) (الكويت) ·
٤ بلوغ الارب (٣/٥٤ وما بعدها) ·
٥ بلوغ الارب (٣/٦٠) ·
٦ بلوغ الارب (٣/٥٧) ·
٧ بلوغ الارب (٣/٦٥) ·
٨ اللسان (٥/٢٩٨) ، بلوغ الارب (٣/٦٠) ·

المياسرة[1] . وكان يلجأ إلى الغش والخداع والسرقة واضاعة العيال ، ولأضراره هذه حرمه الاسلام[2] .

وقد ييسرون على الأسرى ، فقد وقع (سحيم بن وثيل اليربوعي) في سباء، فضرب عليه بالسهام ، فقال في ذلك :

أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني ألم تعلموا أني ابن فارس زهدم[3]

وصفة الميسر : أن القوم كانوا يجتمعون فيشترون الجزور بينهم ، فيفصلونها على عشرة أجزاء يؤتى بالحُرضَة وهو رجل يتأله عندهم لم يأكل لحماً عندهم قط بثمن ، ويؤتى بالقداح وهو أحد عشر قِدْحاً ، سبعة منها لها حظ إن فازت ، وعلى أهلها غرم إن خابت ، بقدر ما لها من الحظ إن فازت ، وأربعة يثقل بها القداح ، لا حظ لها إن فازت ولا غرم عليها ان خابت .

فأما التي لها الحظ : فأولها الفذ في صدره حز واحد ، فإن خرج أخذ نصيباً ، وإن خاب غرم صاحبه ثمن نصيب ، ثم التوأم ، له نصيبان ان فاز ، وعليه ثمن نصيبين إن خاب ، ثم الضريب ، وله ثلاثة أنصباء ، ثم الحلس وله أربعة ، ثم النافِس وله خمسة ، ثم المسبل ، وله ستة ، ثم المُعلّى وله سبعة . والمسبل يسمى : المصفح ، والضريب يقال له : الرقيب .

وأما الأربعة التي ينفصل بها القداح ، فهي : السفيح ، والمنيح ، والمضعف، والوغد .

وقيل : إن للمنيح موضعين : أحدهما لا حظ له ، والثاني له حظ ؛ فكأنه الذي يمنح الحظ ، واستدلوا على ذلك بقول عمرو بن قبيصة :

بأيديهم مقرومة ومغالق يعود بأرزاق العيال منيحها[4]

فيؤتى بالقداح كلها وقد عرف كل ما اختار من السبعة ولا يكون الأيسار إلا

---

١ بلوغ الارب (٥٣/٣ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٦٥/٣) ، اللسان (٣٠٠/٥) ، اليعقوبي (٣٠٠/١) (طبعة هوتسما) .
٣ اللسان (٢٩٨/٥) ، بلوغ الارب (٥٤/٣) .
٤ نهاية الارب (١١٧/٣ وما بعدها) .

سبعة ، لا يكونون أكثر من ذلك ، فإن نقصوا رجلاً أو رجلين ، فأحب الباقون ان يأخذوا ما فضل من القداح ، فيأخذ الرجل القدح والقدحين فيأخذ فوزهما إن فازا ، ويغرم عنها إن خابا ويدعى ذلك ، التتميم . قال النابغة :

اني أتمـــم أيساري وأمنحهم من الأيادي واكسوا الجفنة الأدما

فيعمدون إلى القداح ، فتشدّ مجموعة في قطعة جلد ، ثم يعمـــد الى الحرضة فيلف على يده اليمنى ثوباً لئلا يجد مس قدحٍ له في صاحبه هوى ، فيحابيه في اخراجه ، ثم يؤتى بثوب أبيض يدعى المجول ، فيبسط بين يدي الحرضة ، ثم يقوم على رأسه رجل يدعى الرقيب ، ويدفع ربابة[1] القـــداح الى الحرضة وهو محوّل الوجه عنها ، فيأخذها ويدخل شماله من تحت الثوب ، فينكسر القـــداح بشماله ، فإذا نهد منها قدح تناوله فدفعه إلى الرقيب فإن كان مما لا حظ له ردّ إلى الربابة ، فإن خرج بعده المسبل ، أخذ الثلاثة الباقيـــة ، وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور أخرى ، وعلى هذه الحال يفعل بمن فاز ومن خـاب ، فربما نحروا عدة جزور ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئاً ، وانما الغـــرم على الذين خابوا ولا يحل للخائبين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئاً،فإن فاز قدح الرجل فأرادوا أن يعيدوا قدحه ثانية على خطار فعلوا ذلك به[2] .

و (الحرضة) ، الذي يضرب للأيسار بالقداح لا يكون إلا ساقطاً ، يدعونه بذلك لرذالته ، وعرف انه من المقامرين ، ومن شأنه المعروف له انه الرجل الذي لا يشتري اللحم ولا يأكله بثمن إلا أن يجده عند غيره أو يهدى له الأيسار[3] . ويظهر من هذا الوصف ومن أوصاف أهل الأخبـار له ، ومن قول للطرماح في وصف حمار ، فتعرض بهذه المناسبة لذكر الحرضة :

ويظلُّ المليء يوفي على القرّ ن عذوباً كالحرضة المستفاض[4]

---

١ الربابة : ما يجمع فيها القداح .

٢ نهاية الارب (١١٨/٣ وما بعدها) .

٣ اللسان (١٣٦/٧) ، بلوغ الارب (٦١/٣) ، صبح الاعشى (٤٠٠/١ ومـــا بعدها) .

٤ اللسان (١٣٥/٧) .

ان الناس كانوا ينظرون إلى (الحرضة) نظرة استصغار وازدراء ويعرف أيضاً بـ (الضريب) .

ويسمى (الرقيب) (رابىء الضرباء) يقعد خلف ضارب قداح الميسر يرتبي لهم فيما يخرج من القداح فيخبرهم به ويعتمدون على قوله فيه ، ثم يجلس الأيسار حوله دائرين به . ثم يفيض الضريب بالقداح ، فإذا نشز منها قدح استسله الحرضة من غير أن ينظر اليه ، ثم ناوله الرقيب فينظر الرقيب لمن هو فيدفعه الى صاحبه ، فيأخذ من أجزاء الجزور على قدر نصيب القدح منها وذلك هو الفوز . فإن شاء بعد ذلك أمسك ، وإن شاء أعاد السهم على (خطار) آخر ، وهو السبق يراهن عليه ، وهو ما يوضع بين أهل السباق . واعادة السهم تسمى التثنية[1].

وقد وصفت (القداح) بأنها عيدان من نبع ، قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول . وهي عشرة من رواية أخرى غير الرواية التقدمة . هي : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد . وللأول سهم إن فاز ، وفوزه خروجه وعليه عزم سهم إن خاب ، وكذلك باقيها على الترتيب فيما له وعليه الى المعلى ، وهو السابع ، وله سبعة وعليه سبعة يفرض في كل سهم منها بحسب ماله ، وعليه حز وتكثر هذه السهام بثلاثة أخر أغفال ليس فيها حزوز ولا لها علامات ليكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من المحاباة . وهي : المنيح والسفيح والوغد،وتسمى القداح مغالق ، لأنها تغلق الرهن إذا ضربوا بها[2].

وإذا حضرت القداح وحضر الأيسار أخذ كل منهم من القداح على قدره وطاقته ورياسته ، فنهم من لا يبلغ حاله أكثر من الفذ فأخذه له ، فإن خاب غرم سهماً ، وإن فاز أخذ سهماً ، ومنهم من يأخذ المعلى ولا يبالي بالغرم إن خاب وينال النصيب الأوفر ان فاز . ومنهم من يأخذ المعلى وسهماً إن لم يحضر من يتمم السهام ، فيأخذ ما فضل من القداح ، ويقول للأيسار قد تممتكم[3] .

ويقع الغرم أي ثمن الجزور على من لم يخرج سهمه وهم أربعة : أصحاب الرقيب والحلس والنافس والمسبل . ولجملة هذه القداح ثمانية عشر سهماً ، فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءاً. ويلزم كل صاحب قدح من هذه القداح مثل ما كان

---

١ بلوغ الارب (٣/٦١ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٣/٥٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/٥٩) .

نصيبه من اللحم لو فاز قدحه ، فإن لم يخرج الفذ ولا التوأم وخرج الرقيب أخذ صاحبه ثلاثة أجزاء ، ثم ضربوا ثانية فخرج المعلى ، أخذ صاحبه السبعة الأجزاء الباقية ، وهي تتمة الجزور ، وكانت الغرامة على من لم يخرج قدحه ، وهم أصحاب القداح الخمسة التي خابت . وقد ينحرون جزوراً آخر لأن في القداح التي خابت نصيباً يزيد على نصيب ما بقي من اللحم . وإن فضل من أجزاء اللحم شيء وقد خرجت القداح كلها كانت تلك الفاضلة لأهل الوبد من العشيرة، وهم أهل الضعف وسوء الحال[1] .

الأسفار :

ومن أيام الفرح والسرور عندهم يوم العودة من السفر ومن حقهم أن يفرحوا به . فقد كان السفر شاقاً خطراً في تلك الأيام ، ولا سيما إذا طال . فقد يتعرض المسافر فيه للهلاك والموت جوعاً أو عطشاً ، عدا ما يتعرض له من السلب والنهب. لذلك كانوا يحاولون جهدهم أن يسافروا جماعة وقوافل يتعاونون ويشد بعضهم أزر بعض . وكانوا إذا عادوا فرح أهلهم بعودتهم سالمين ، وتلقوهم بالبشر والتهنئة، وذبحوا الذبائح ووزعوا لحومها بين الأصدقاء والفقراء ، وأولموا الولائم للمهنئين والجيران . وكان أول ما يفعله المسافر الى مكة عند عودته الى مدينته الذهاب الى (البيت) للطواف به ولشكر رب البيت على حمايته له واغداقه نعمته عليه بالعودة سالماً .

وقد عثر السياح والمنقبون عن الآثار في جزيرة العرب على كتابات جاهلية توسل فيها أصحابها إلى آلهتهم لترعاهم في سفرهم ، وتحفظهم من لصوص الطرق ومن كل شر وسوء . وقد تعهدوا فيها بتقديم نذور لمعابدها بعد عودتهم سالمين غانمين. كما عثر على كتابات فيها حمد وشكر لتلك الآلهة لأنها أجابت دعوة أصحاب الكتابات ، فحمتهم ورحمتهم في سفرهم ويسرت لهم العودة سالمين .

وكانوا إذا أرادوا السفر عمدوا الى فعل الجاهلية في زجر الطير والاستقسام بالأزلام لاختيار الطالع ، فإذا خرج سهم (الأمر) فسروه بالأمر بالسفر ، وإذا

---

١ بلوغ الارب (٣/٦٢ وما بعدها) .

خرج (النهي) (الناهي) ، انتهوا عنه[1] .

وكانوا إذا خرجوا الى الأسفار أوقدوا ناراً بينهم وبين المنزل الذي يريدونه، ولم يوقدوا بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع اليه[2] .

وللمهنئين بسلامة العودة ، تعابير خاصة يقولونها للمسافرين حين السفر وحين العودة . وفي جملة ما كانوا يقولونه للإياب من السفر : (سفر رجيع). وسفر رجيع : مرجوع فيه مراراً[3] .

ومن مناسبات الفرح والسرور ، الإبلال من مرض والشفاء منه . فالشفاء من المرض عودة الى الحياة وولادة من جديد ، وعمر يضاف الى عمر المريض . لذلك كان المرضى يتوسلون الى آلهتهم أن تمنّ عليهم بالصحة والشفاء والعافية مما ابتلوا به ، ويعدونها بتقديم نذر إن أعادت اليهم صحتهم وعافيتهم . وقد حصل المنقبون على ألواح كثيرة كتب فيها شكر وحمد وثناء على الآلهة لأنها أجابت دعوة صاحب الكتابة ، فعافته من مرضه ، ومنت عليه بالصحة والعافية ، وأبرأته مما أصيب به من أمراض أو جروح في معارك ، فهو يوفي بوعده لها ويقدم لها نذره ويحمدها على نعمها عليه . وقد يولمون وليمة يقولون لها (البلّة) ، و(البلّة) العافية من المرض[4] .

ويعود أهل الجاهلية مرضاهم ، للإعراب لهم عن تمنياتهم لهم بالشفاء العاجل والابلال من المرض ، كما يعودونهم بعد الشفاء لتهنئتهم على عودة الصحة اليهم، وشفائهم مما ابتلوا به من مرض . ويقع (العود) من الرجال والنساء[5] . ويقال لمن حسنت حاله بعد الهزال ، ولمن شفي من مرض (بلّ الرجل)، من مرضه و (بلّ من مرضه) ، و (أبلّ)[6] .

---

١ ابن قيم الجوزية ، كتاب الهدى النبوي (٢/٣١) ، (في هديه صلى الله عليه وسلم في اذكار السفر وآدابه) .

٢ بلوغ الارب (٢/٣٢٤) .

٣ تاج العروس (٥/٣٥١) ، (رجع) .

٤ تاج العروس (٧/٢٣٣) ، (بلل) .

٥ تاج العروس (٢/٤٣٦) ، (عود) .

٦ تاج العروس (٧/٢٣٣) ، (بلل) .

مواسم الربيع :

وللربيع مكانة خاصة في نفوس العرب ، حتى صار في منزلة العيد عندهم . ففيه يطيب الجو ، ويرق الهواء ، وتكسى الأرض بأكسية خضراء وببسط منمقة مزركشة ، تسحر مناظرها الألباب ، تسير عليها الإبل بفخر وإعجاب ، تقضم ما تجده فوقها من طعام . فتشبع وتسمن بعد فقـر وجوع وضنك . وفيه يكثر مال العرب ، ومال العرب إبلهم ، وتكثر مواشي الحضر ، من غنم وبقـر . وتكون سنة الربيع للعربي سنة يمن وبركة . وسنة انحباس الغيث وانقطاع المطر، سنة بؤس وشقاء .

ولا يفرح العربي بشيء فرحه بالغيث وبظهور الربيـع ، أي موسم اخضرار الأرض واكتسائهـا ببساط سندسي يبهر العين ويؤثر في النفس فيجعلها فرحـة مستبشرة ، فيخرج السادات إلى المرابـع ، يتلذذون هناك بمنظر الربيع وبرؤيـة أموالهم وهي فرحة مستبشرة ترعى فيه ، فيزيد بذلك مالهـم ويكثر لبن نوقهم وتنشط إبلهم في انجاب الولد . ويتوجه سادات القبائل إلى المرابع الجيدة ، التي يجود فيها الربيع ، وليس في بلاد العرب مربع كالدهناء[1] . ويترك الملوك قصورهم على ما فيها من وسائل الراحة ، للذهاب إلى البادية ، للاستمتاع بما خلقته الطبيعة هناك ، وبما أوجدته من صنعة متقنة وفن عجيب لا يضاهى . يبقون هناك أياماً وأسابيع ، يجددون فيها عهدهم بالبوادي وبما فيها من هواء صحيح سليم ، يعطي الجسم نشاطاً ، ويبعث فيه (اكسير) الحياة .

البغاء :

البغاء الفجور . و (البغيُّ) الأمَةَ فاجرة كانت أو غير فاجرة ، والجمـع البغايا . والزنا هو الفجور ، وهو عيب كبير عند العرب ، فلا تقربه الحـرة . أما الرجال ، فلا يرونه عيباً ، بل قد يتبجـح بعضهم به ، لأنه من أمارات الرجولة . وقد كانوا يذهبون اليهن ويتصلون بهن في مقابل أجر ،وكن من الإماء،

---

[1] تاج العروس (٢٠٥/٩) ، (دهن) .

لأن المرء في الحياة لبطنه وفرجه. ومنه المثل: «المرء يسعى لِغارَيْه» أي يكسب لبطنه وفرجه[1].

وعرفت (البغي) بـ (القحبة). قيل لها قحبة لأنها كانت في الجاهلية تؤذن طلابها بقحابها، وهو سعالها[2]. فقد كان من عادة (قحبة) الجاهلية أن تسعل أو تتنحنح، تراود بذلك عن نفسها، وتشعر الرجل انها حاضرة للفجور إن أراد ذلك، فيتفق معها.

و (المسافحة)، المزاناة لأن الماء يصب ضائعاً. و (السفاح) أن تقيم امرأة مع رجل على الفجور من غير تزويج صحيح، وفي الحديث: «أوله سفاح وآخره نكاح». وهي المرأة تسافح رجلاً مدة فيكون بينهما اجتماع على فجور، ثم يتزوجها بعد ذلك. وكان أهل الجاهلية إذا خطب الرجل المرأة قال: أنكحيني، فإذا أراد الزنا، قال: سافحيني[3].

ويقال للزنا: الفاحشة، والفاحشة الزانية وكل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي وكل ما نهي عنه، وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال[4]. فاللفظة عامة تتناول الفحش الذي هو الزنا كما تتناول غيره من الأعمال والخصال القبيحة. ويقال للبغي وللأمة (تُرنى). ويقال لابنها (ابن ترنى) و (ابن درزة)[5].

ولما نزلت الآية: «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف، فبايعهن واستغفر لهن الله، إن الله غفور رحيم»[6]، وفرغ رسول الله من بيعة الرجال بمكة واجتمع اليه نساء من قريش فيهن: (هند بنت عتبة) وأخذن يبايعن الرسول، فلما وصل الى قوله تعالى: (ولا يزنين)، فقالت: يا رسول الله وهل تزني الحرة[7]؟

---

١ تاج العروس (١٠/١٧٧)، (سعى).
٢ تاج العروس (١/٤٢١)، (قحب).
٣ تاج العروس (٢/١٦٤)، (سفح)، تفسير الطبري (٥/١٤).
٤ تاج العروس (٤/٣٣١)، (فحش).
٥ تاج العروس (٩/١٥٣)، (ترن).
٦ سورة الممتحنة، الاية ١٢.
٧ تاريخ الطبري (٣/٦٢)، (فتح مكة)، تفسير الطبري (٢٨/٥٠).

وفي القرآن الكريم آيات ذكرت الزنا في الجاهلية ، من ذلك آية سورة النور : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة،والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ ، وحرّم ذلك على المؤمنين »[1] . قال المفسرون : قدم المهاجرون إلى المدينة وفيهم فقراء ليست لهم أموال ، وبالمدينة نساء بغايا مسافحات يكرين أنفسهن ، وهنّ يومئذ أخصب أهل المدينة ، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين،فقالوا : لو إنا تزوجنا منهن فعشنا معهن إلى أن يغنينـا الله تعالى عنهن . فاستأذنوا النبي صلي الله عليه وسلم ، في ذلك ، فنزلت هذه الآية وحرم فيها نكاح الزانية صيانة للمؤمنين عن ذلك . وقال عكرمـة : نزلت الآية في نساء بغايا متعالمات بمكـة والمدينة ، وكن كثيرات ، ومنهن تسع صواحب رايات ، لهن رايات كرايات البيطار يعرفونها : أم مهدون (أم مهزول) جاريـة السائب بن أبي السائب المخزومي ، و (أم غليظ) (أم غليط) جارية صفوان بن أمية ، و (حبة القبطية) (حنة القبطية) جارية العاص بن وائل ، و (مرية) جارية مالك بن عميلة (عثلة) بن السباق بن عبد الدار ، و (حلالة) (جلالة) جاريـة سهيل بن عمرو ، و (أم سويد) جارية عمرو بن عثمان المخزومي ، و (شريفة) (سريفة) جارية زمعة بن الأسود ، و (قرينة) (فرسة) جارية هشام بن ربيعة بن حبيب بن حذيفة بن جبل بن مالك بن عامر بن لؤي ، و (فرتنا) (قريبا) جارية هلال بن أنس بن جابر بن نمر بن غالب بن فهـر . وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية (المواخير) لا يدخل عليهن ولا يأتيهن إلا زانٍ من أهل القبلة أو مشرك من أهل الأوثان،فأراد ناس من المسلمين نكاحهن ليتخذوهن مأكلة ، فأنزل الله تعالى ، هذه الآية ، ونهى المؤمنين عن ذلك ، وحرمه عليهم)[2] .

وورد أن امرأة يقـال لها أم مهدون (أم مهزول) كانت تسافح وكانت تشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة . وأن رجلاً من المسلمين أراد أن يتزوجها، فذكر ذلك للنبي ، صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية : « الزانية لا ينكحها إلاّ زانٍ »[3] . وكان لمرثد صديقة في الجاهلية ، يقال لها عناق ، وكان مرثـد

---

١ سورة النور ، الاية ٣ .
٢ أسباب النزول (٢٣٦ وما بعدها) ، تفسير الطبري (١٨/٥٥ وما بعدها) .
٣ أسباب النزول (٢٣٦) .

رجلاً شديداً ، وكان يقال له : دلدل ، وكان يأتي مكة فيحمل ضعفة المسلمين الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلقي صديقته ، فدعته إلى نفسها، فقال: إن الله قد حرم الزنا ، فقالت : اني تبرز . فخشي أن تشيع عليه ، فرجع الى المدينة فأتى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله كانت لي صديقة في الجاهليـة ، فهل ترى لي نكاحها ؟ قال : فأنزل الله : « الزانيـة لا ينكحها إلا زان ...»[1] . وذكر أنهن كنَّ بغايا متعالمات كـنَّ في الجاهلية ، بغي آل فلان وبغي آل فلان ، فأنزل الله : « الزاني لا ينكح إلاَّ زانيـة أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلاَّ زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » فحكم الله بذلك من أمر الجاهلية على الإسلام[2] . وورد : كان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية التي قد علم ذلك منهـا ، يتخذها مأكلة ، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة ، فنهوا عن ذلك»[3] .

وفي القرآن الكريم : « ولا تُكرهوا فتَيَاتـكم على البغاء ، إن أردْنَ تحصناً، لتبتغـوا عَرَضَ الحياة الدنيا . ومن يكرههن فإن الله من بعد اكراههن غفور رحيم »[4] . قال المفسرون : نزلت في معاذة ومسيكة جاريتي عبـدالله بن أبـيّ المنافق ، كان يكرهها على الزنا لضريبة يأخذها منها . وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤاجرون إماءهم . فلما جاء الإسلام ، قالت معاذة لمسيكة إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين ، فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه ، وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال مقاتل : نزلت في ست جوارٍ لعبدالله بن أبيّ كان يكرههن على الزنا ويأخذ أجورهن ، وهن : معاذة ، ومسيكة ، وأميمة ، وعمرة ، وأروى ، وقتيلة ، فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار ، وجاءت أخرى بدونه ، فقال لها : إرجعا فازنيا . فقالتـا : والله لا نفعل ، قد جاءنا الله بالإسلام وحرم الزنا . فأتيا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وشكتا اليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية »[5] . وذكر أن رجلاً من قريش

---

١ تفسير الطبري (١٨/٥٦) .
٢ تفسير الطبري (١٨/٥٧) ، ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد (٤/٧) .
٣ تفسير الطبري (١٨/٥٨) .
سورة النور ، الاية ٢٣ .
٤ أسباب النزول (٢٤٥ وما بعدها) ، (مصر ١٣١ هـ) ، تفسير الطبري (١٨/١٠٣ وما بعدها) .

أو بين البنت الحرة والرجل العزب أو الذي لم يتزوج ، أي الزنا مع غير الإماء. أما الزنا مع الإمـــاء ، فلم يكن الجاهليون يعيبون الإنسان عليه كما بينت ذلك . ويظهر من بعض الأخبار الواردة عن الزنا أنّ من الجاهليين من كان يأخذ الفدية عنه . فقد روي أن رجلاً من الأعراب قام فقال : يا رسول الله أنشدك الله إلا ما قضيت بيننا بكتاب الله وائذن لي . فقال رسول الله : قل : قال : إن ابني كان عَسيفاً على هذا (وأشار الى أعرابي كان جالساً الى جانبه) فزنى بامرأته فافتديت منه بمئة شاة وخادم ثم سألت رجالاً من أهل العلم ، فأخبروني أنّ على ابني جلد مئة وتغريب عام ، وعلى امرأته الرجم لإحصانها . فقال النبيّ: والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله جلّ ذكره : المئة شاة والخادم ردّ عليك، وعلى ابنك جلد مئة وتغريب عام . وأغدُ يا أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها . فغدا عليها فاعترفت فرجمها[1] . وقد كان هذا الحادث بعد نزول الأمر بالرجم . فيظهر منه أن من جملة عقوبات الزنا عند الجاهليين كان أخذ فدية ، أو أخذ فدية وتغريب .

واختلاف وجهة نظر الجاهليين الى الزنا ، هو بسبب اختلاف عاداتهم وعرفهم وتعدد قبائلهم ، وعدم وجود دين واحد لهم يخضعون جميعاً لحكمه . فلما جـاء الاسلام وجعل الزنا من المحرمات ، تغير حكمهم عليه ، وصار شرعهم في ذلك هو شرع الإسلام .

و (المواخير) ، بيوت أهل الفسق ومجالس الخمّارين ، ومواضع الريبـة . والماخور : بيت الريبة ومن يـلي ذلك البيت ويقود اليه[2] . واللفظة من الألفاظ المعربة . يرى بعض علماء اللغة أنها معربة عن أصل فارسي (ميخور) (مي خور)، أي شارب الخمر،وذهب بعض آخر الى أنها من أصل عربي[3] . ولكن الصحيح أنها فـارسية معربة . وقد كانت المواخير في الجاهلية موجـودة في القرى والمدن وعلى طرق التجـارة . حيث يأوي التجار وأصحاب الأسفار للراحة ، فيجدون أمامهم تلك المواخير . ذكر عن (ابن عبّاس) في تفسير قوله تعالى : « الزاني

---

١ ارشاد الساري (١٠/١٧) .

٢ اللسان (٥/١٦١)، تاج العروس (٣/٥٣٤) ، (مخر) .

٣ اللسان (٥/١٦١) ، تاج العروس (٣/٥٣٤) ، غرائب اللغة (٢٤٥) .

لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانيـة لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين »[1] أنه قـال : « كانت بيوت تسمى المواخـير في الجاهلية ، وكانوا يؤاجرون فيها فتياتهن ، وكانت بيوتاً معلومة للزنا لا يدخل عليهـن ولا يأتيهن إلا زان »[2] .

وكان من الرجال من يتهم أزواجه بالزنا ويرميهن بالفاحشة ، لأسباب عديدة ، منها الرغبة في التخلص منهن أو انتقاماً من أهلهن أو عضلاً لهن ، فلا يتزوجن ويحبسن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، وقـد حدثت مثـل هذه الحوادث في الاسلام ، فنزل الحكم فيها في القرآن الكريم[3] .

صواحب الرايات :

وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، وتفاوض معهن على أجورهن في مقابل دخوله بهن[4] . وذكـر أن تلك الرايات كانت رايات حمراً[5] . وروي انه (كان لبعضهن راية منصوبة في أسواق العرب فيأتيها الناس فيفجرون بها . فأذهب الاسلام ذلك ، وأسقطه فيما أسقط)[6] .

وقد وجد بعض الناس صعوبة في تقبل حكم الاسلام في تحريم الزنا والخمر . (وفي حديث عليّ كرم الله وجهه ، لما طلب اليه أهـل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تحليل الزنا والخمر ، فامتنع ، قاموا ولهم تَغَذْمُرٌ وبَرْبَرة)[7] ، من شدة غضبهم ونفورهم من هذا التحريم .

وأما اليهود ، فقد ساروا على وفق ما جاء في التوراة في أمر الزنا . وهو من الخطـايا المنهي عنها في الوصية السابعة من الوصايا العشر . ويقاص الرجل الذي يضاجع امرأة غيره بالموت ، وتعاقب المرأة بالعقوبة نفسها[8] . وإذا ضاجع رجل

---

١ النور ، الاية ٤ .
٢ تفسير الطبري (١٨/٥٧) .
٣ النساء ، الاية ١٥ ، تفسير الطبري (٤/١٩٧) .
٤ تفسير الطبري (١٨ ، ٥٧ وما بعدها ، ١٠٣ وما بعدها) .
٥ تفسير المنار (٥/٢٢) .
٦ المحبر (٣٤٠) .
٧ تاج العروس (٣/٣٨) ، (بر) ، اللسان (٤/٥٦) ، (برد) .
٨ اللاويون ، الاصحاح ٢٠ الاية ١٠ ، تثنية ، الاصحاح ١١ ، الاية ٢٢ .

لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين »[1] أنه قال : « كانت بيوت تسمى المواخير في الجاهلية ، وكانوا يؤاجرون فيها فتياتهن ، وكانت بيوتاً معلومة للزنا لا يدخل عليهن ولا يأتيهن إلا زان »[2] .

وكان من الرجال من يتهم أزواجه بالزنا ويرميهن بالفاحشة ، لأسباب عديدة ، منها الرغبة في التخلص منهن أو انتقاماً من أهلهن أو عضلاً لهن ، فلا يتزوجن ويحبسن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، وقد حدثت مثل هذه الحوادث في الاسلام ، فنزل الحكم فيها في القرآن الكريم[3] .

صواحب الرايات :

ومن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، وتفاوض معهن على أجورهن في مقابل دخوله بهن[4] . وذكر أن تلك الرايات كانت رايات حمراً[5] . وروي انه (كان لبعضهن راية منصوبة في أسواق العرب فيأتيها الناس فيفجرون بها . فأذهب الاسلام ذلك ، وأسقطه فيما أسقط)[6] .

وقد وجد بعض الناس صعوبة في تقبل حكم الاسلام في تحريم الزنا والخمر . (وفي حديث عليّ كرم الله وجهه ، لما طلب اليه أهل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تحليل الزنا والخمر ، فامتنع ، قاموا ولهم تَغَذْمُرٌ وبَرْبَرة)[7] ، من شدة غضبهم ونفورهم من هذا التحريم .

وأما اليهود ، فقد ساروا على وفق ما جاء في التوراة في أمر الزنا . وهو من الخطايا المنهي عنها في الوصية السابعة من الوصايا العشر . ويقاص الرجل الذي يضاجع امرأة غيره بالموت ، وتعاقب المرأة بالعقوبة نفسها[8] . وإذا ضاجع رجل

---

١ النور ، الاية ٤ .
٢ تفسير الطبري (١٨/٥٧) .
٣ النساء ، الاية ١٥ ، تفسير الطبري (٤/١٩٧) .
٤ تفسير الطبري (١٨ ، ٥٧ وما بعدها ، ١٠٣ وما بعدها) .
٥ تفسير المنار (٥/٢٢) .
٦ المحبر (٣٤٠) .
٧ تاج العروس (٣/٣٨) ، (بر) ، اللسان (٤/٥٦) ، (برر) .
٨ اللاويون ، الاصحاح ٢٠ الاية ١٠ ، تثنية ، الاصحاح ١١ ، الاية ٢٢ .

ابنة مخطوبة ولم تصرخ الابنة رجم الاثنان ، وإذا صرخت رجم هو فقط[1] . وإذا ضاجع رجل ابنة حرة غير مخطوبة ، فوُجدا ، لزم عليه اعطـاء والدها خمسين شاقلاً من الفضة ، ويلتزم أن يأخذها له امرأة[2] . وإذا كانت الابنة غير حرة ، كان يقدم الرجل تقدمة خطيئته[3] . وقد نُصَّ في سفر (العدد) على طريقة إظهار زنا المرأة المتهمة ومعاقبتها[4] .

ويظهر من كتب السير والحديث أن يهود المدينة في أيام الرسول ، كانوا قد تساهلوا في تطبيق أحكام التوراة بشأن الزنا،وابتدعوا طرقاً أخرى غير طرق العرف والعادة . فقد رُوي انه أتي رسول الله بيهودي ويهودية ، وقد أحدثا جميعاً ، أي زنيا . فقال رسول الله لليهود : ما تجدون في كتابكم ؟ قالوا : إن أحبارنا أحدثوا تحميم الوجه والتجبية . أي الإركاب معكوساً ، وقيل أن يحمل الزانيان على حمار مخالفاً بين وجهيهما. قال عبدالله بن سلام: ادعهم يا رسول الله بالتوراة، فأتى بها ، وقرأ موضع الرجم ، فرجما[5] .

وعرفت (القيادة) عند الجاهليين . قالت « عائشة رضي الله عنها : ليست الواصلة بالتي تعنون ، وما بأسٌ إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها، ولكن الواصلة أن تكون بغياً في شبيبتها ، فإذا أسنت وصلته بالقيادة »[6] . والقوادة هي التي تجلب البغايا للرجال ، وأما القواد ، فالذي يقوم بالقيادة . و (التـديث) القيادة . و (الديوث) القوّاد على أهله والذي لا يغار على أهله . وقيل الديوث والديبوب الذي يدخل الرجال على حرمته بحيث يراهم ، كأنه لين نفسه على ذلك. وقيل هو الذى تؤتى أهله وهو يعلم[7] .

---

١ التثنية ، ٢٢ الاية ٢٣ وما بعدها .
٢ التثنية ، ٢٢ ، الاية ٢٨ وما بعدها .
٣ اللاويون ، ١٩ ، الاية ٢٠ وما بعدها .
٤ العدد ، الاصحاح ٥ ، الاية ١١ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١/ ٥٢٠) .
٥ ارشاد الساري (١٠/ ١١ وما بعدها ، ٣٠) زاد المعاد ،لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٠٧ وما بعدها) .
٦ عيون الاخبار ، للدينوري (٤/ ١٠٢) ، (باب القيادة) ، اللسان (١١/ ٧٢٧) ، (وصل) .
٧ اللسان (٢/ ١٥٠) ، (ديث) ، تاج العروس (١/ ٦٢٢) ، (ديث) ، (٢/ ٤٧٨) (قود) .

وضرب المثل بـ (ظلمة) في القيادة . وكانت (صبيّة في الكتاب ، فكانت تضرب دويّ الصبيان وأقلامهم ، فلما شبت زنت ، فلما أسنّت قادت ، فلما قعدت اشترت تيساً تنزيه على العنز)[1] . وذكر أنها كانت فاجرة هذلية . فضرب بها المثل فقيل (أقود من ظلمة) و (أفجر من ظلمة)[2] .

المخادنة :

وهناك نوع آخر من العلاقات يكون بين الرجل والمرأة بغير عقد ولا نكاح يكون الرجل خدناً للمرأة أي صديقاً لها ، وتكون هي خدنة له ، أي صديقة له[3]، ولذلك عبر عن هؤلاء النسوة المتخادنات بـ (ذوات الأخـدان) و (متخذات أخدان) . جاء ذكر هذه المخادنة في الآية الكريمة : « فانكحوهن بإذن أهلهن، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان »[4] . أي أصدقاء على السفاح . وقـد ذكر أن ذلك قيل كذلك ، لأن الزواني كُنّ في الجاهلية المعلنات بالزنا والمتخذات الأخدان اللواتي قد حبسن أنفسهن عـلى الخليل والصديق للفجور بها سراً دون إعلان بذلك . وقد ذكر أن متخذات الأخدان ذوات الخليل الواحد . قالوا : كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفي ، يقولون : أما ما ظهر منه فهو لؤم ، وأما ما خفي فلا بأس بذلك . فأنزل الله تبارك وتعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها ومـا بطن)[5] . فذات الخدن ، المرأة ذات الخليل الواحد المستسرة به . وقد يقيم معها وتقيم معه[6] وقد عد صداقة ومودة ، لذلك اختلفت وجهة نظر أهل الجاهلية اليه عن وجهة نظرهم الى الزنا ، فلم يعدّوه من الزنا الشائن .

المضامدة :

والمضامدة قريبة من المخادنة . والضّمْد أن تخالّ المرأة ذات الزوج رجـلاً

---

١ عيون الاخبار ، للدينوري (١٠٣/٤) .
٢ الميداني ، الامثال (٦٠/٢) ، (بولاق) ، تاج العروس (٣٨٦/٨) ، (ظلم) .
٣ تاج العروس (١٩٠/٩) (خدن) .
٤ النساء ، الاية ٢٥ .
٥ تفسير الطبري (١٣/٥ وما بعدها) .
٦ المصدر نفسه .

غير زوجها أو رجلين . والضماد أن تصادق المرأة اثنين أو ثلاثة في القحط لتأكل عند هذا وهذا لتشبع . و (الضمد) الخل[1] .

الشذوذ الجنسي :

والشذوذ الجنسي معروف عند الجاهليين أيضاً كما هو عند جميع الأمم منذ القدم ، وليس من المعقول استثناء الجاهليين من ذلك ، بدليل ورود النهي عنه والتحذير منه في القرآن الكريم وفي الحديث . ومن الشذوذ الجنسي ، الشذوذ المعروف ، وهو ذهاب الرجل مع الرجل ومزاولته عمل الجنس معه ، أو اتصال المرأة بالمرأة اتصالاً جنسياً ، أو اتيان الرجل المرأة من دبر ، كما كان الحال عند أهل مكة فقد ذكر أن منهم من كان يأتي النساء من أدبارهن ، وقد منع ذلك في الاسلام[2] . وقد عرف إتيان المرأة في دبرها بـ (التحميض) . ويقال للتفخيذ في الجماع (التحميض) أيضاً[3] . وذكروا في تفسير الآية : (نساؤكم حرث لكم)[4] : (انما كان هذا الحي من الأنصار ، وهم أهل وثن ، مع هذا الحي من يهود ، وهم أهل كتاب وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم ، وكان من أمر أهل الكتاب ألا يأتوا النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً ، ويتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات . فلما قدم المهاجرون المدينة ، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار ، فذهب يصنع بها ذلك ، فأنكرته عليه ، وقالت: انما كنا نؤتى على حرف ! فاصنع ذلك ، وإلا فاجتنبني ، حتى شرى أمرهما فبلغ ذلك النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل : فأتوا حرثكم أنى شئتم ، أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع الولد[5] . وذكر أن

---

١ اللسان (٢/٢٦٦) ، (ضمد) ، تاج العروس (٢/٤٠٦) ، (ضمد) .

٢ تفسير الطبري (٢/٢٣٠ وما بعدها) ، القرطبي الجامع لاحكام القرآن (٣/٩١) ، في تفسير الاية ، (نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم) ، الاية ٢٢٣ من سورة البقرة .

٣ تاج العروس (٥/٢٣) ، (حمض) .

٤ سورة البقرة ، الاية ٢٢٣ .

٥ تفسير الطبري (٢/٢٣٤) ، القرطبي ، الجامع (٣/٩٢ وما بعدها) ، تاج العروس (١٠/٦٦) .

أهل مكة كانوا يجبون النساء ، وكانت الأنصار لا تجبي وتنكر فعل ذلك ، وإنما يؤتين على جنوبهن . فوقع خلاف بين أهل مكة ممن تزوج من أهل المدينة وبين من تزوجوا في كيفية إتيانهن ، فنزلت الآية في شرح ذلك ، وانه يكون على أي شكل كان ، ما دام في موضع الحرث . والإجباء : أن تكون المرأة منكبة على وجهها كهيئة السجود ، فيأتيها الرجل على هذه الهيئة . وذكر ان يهود يثرب ، كانت تقول : إذا نكح الرجل امرأته مجبية جاء الولد أحول[1] .

وتستعمل لفظة (اللواطة) للتعبير عن إتيان الذكران في أدبارهم[2] وأرى أن هذا المعنى إنما وقع في الإسلام . أخذ مما جاء في القرآن الكريم عن عمل قوم لوط : (إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر)[3] ، (ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم تجهلون)[4] . و (لوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون)[5] ، فنسب فعل إتيان الرجال بعضهم بعضاً إلى قوم (لوط) ، واشتق الفعل من اسمه . ونرى ان الآيات قد استعملت : (لتأتون الرجال) ، للتعبير عن هذا الفعل . واستعمل المفسرون هذا التعبير وتعبير (المجامعة) للتعبير عنه . وقد استعمل الجاهليون (لاط) في معانٍ أخرى لا صلة لها بالمعنى المذكور . وفي ذلك دلالة واضحة على أن استعمال (اللوّاط) إنما وقع في الإسلام .

والمأبون الذي تفعل به الفاحشة ، وهي الأبنة[6] . ومن المجاز برقع لحيته ، أي صار مأبوناً ، تزيا بزي من لبس البرقع ، ومنه قول الشاعر :

ألم تر قيساً قيس عيلان برقعت لحاها وباعت نيلها بالمغازل[7]

---

١ تاج العروس (٦٦/١٠) ، (جبى) .
٢ تفسير الطبري (١/٢٠) .
٣ العنكبوت ، الاية ٢٨ وما بعدها .
٤ النمل ، الاية ٥٤ .
٥ الاعراف الاية ٨٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٦٤/٨ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (١١٦/٩) ، (ابن) .
٧ تاج العروس (٢٧٤/٥) ، (برقع) .

وذكر (ابن قيم الجوزية) أن هذا الفعل لم يكن معروفاً بين العرب ولم يرفع إلى الرسول في أيامه حادث به[1] .

وتعبير (السحاق) و (المساحقة) و (امرأة سحاقة) من التعابير التي انتشرت في الإسلام وقال الأزهري : ومساحقة النساء لفظة مولدة[2] . ومن علماء اللغة من يرجع عهدها الى الجاهلية ، ويجعلها من الألفاظ العربية الأصيلة . واللفظة عربية ولا شك ، ولكن استعمالها في المعنى المذكور مجازي ، وقول الأزهري إنها مولدة غير صحيح .

وكان منهم من يضرب جاريته على ظهرها ثم يجامعها[3] . كأنهم كانوا لا يشعرون بشهوة الجنس على ما يظهر إلا بعد ضرب الجارية ، ويعبرون عن ذلك بقولهم (صلق جاريته)، ويعرف هذا بين الغربيين في العصر الحاضر بالسادية Sadism نسبة الى (الكونت دي ساد) . كناية عن الابتهاج بالقسوة . وعن انحراف جنسي يتلذذ فيه المرء بإنزال أصناف العذاب بمحبوبه .

ومن الشذوذ أيضاً إتيان الحيوان . فقد ذكر أن (بني كليب) كانوا يرمون بإتيان الضأن ، وكذلك بنو الأعرج وسُلَيم . وأشجع تُرمى بإتيان المعز . ونجد ذلك واضحاً مذكوراً في شعر الشعراء كالنجاشي والفرزدق[4] . ورميت (بنو دارم) بإتيان الأتن[5] . وتعرض (الجاحظ) في أثناء حديثه عن زواج الانس بالجن لهذا الموضوع فقال : ونحن نجد الأعرابي والشاب الشبق ، ينيكان الناقة والبقرة والعنز والنعجة ، وأجناساً كثيرة ، فيفرغون نطفهم في أفواه أرحامها ، ولم نرَ ولا سمعنا على طول الدهر ، وكثرة هذا العمل الذي يكون من السفهاء ، القح منها

---

١ زاد المعاد (٣/٢٠٩) .

٢ تاج العروس (٦/٣٧٨) ، (سحق) .

٣ تاج العروس (٦/٤١١) ، (صلق) .

٤ السمت كليبا وأمك نعجة لكم في سمان الضأن عار ومفخر
وقال النجاشي :
ولو شتمتني من قريش قبيلة سوى ناكة المعزى سليم وأشجع
فخر السودان على البيضان ، من رسائل الجاحظ (١/١٨٩) .

٥ اذا احببت ان تغلى آتانا فدل الدارمي على شراها
يقبل ظهرها ويكاد لولا قحول الظهر يدنو من قفاها
وود الدارمي لو أن فاه اذا نال الحمارة نال فاها
فخر السودان ، من رسائل الجاحظ (١/١٨٩) .

شيء من هذه الأجناس،والأجناس على حالهم من لحم ودم ، ومن النطف خلقوا [1].

ورميت (بنو فزارة) بإتيان الإبل . رماها بذلك (بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن) في ملاحاة كانت بين الحيين . والعادة أن القبائل إذا تخاصمت رمت بعضها بعضاً بالتهم ، وذلك في الجاهلية وفي الإسلام . فلما رمى (بنو هلال) (بني فزارة) بأكل أير الحمار ، وبإتيان الإبل ، قالت بنو فزارة : أليس منكم يا بني هلال من قرا في حوضه فسقى إبله ، فلما رويت سلح فيه ومدره بخلاً أن يشرب من فضله [2] .

الأتراح والأحزان :

وإذ كنت قد تحدثت عن الأفراح في حياة الانسان ، وما كان يفعله أهـل الجاهلية فيها ، فلا بد لي من التحدث هنا عن الأتراح والأحزان عندهم ، وما كانوا يفعلونه عند نزول مصيبة بهم أو وقوع حادث محزن مفجع لهم ، فأقول :

يلعب الحزن دوراً كبيراً في حياة الشرقيين ، بل نستطيع أن نقول إن الحزن أظهر في حياتهم من الفرح ،وأن المبالغة في إظهاره عندهم هي من المظاهر البارزة في مجتمعاتهم . وطالما يلجأ الحزين إلى المبالغة في حزنه ، ليظهر نفسه وكأنه كان أكثر الناس تحملاً للمصائب والأهوال والنكبات ، وما قصة (أيوب) الواردة في التوراة إلا نوعاً من هذا القصص : قصص الحزن وتحمل الصبر من شدة البلاء.

---

١ كتاب البغال ، من رسائل الجاحظ (٢/٣٧١) .

٢ قال الكميت بن ثعلبة :

نشدتك يا فزار وأنت شيخ | اذا خيرت تخطيء في الخيار
أصيحانية أدمت بسمن | أحب اليك أم أير الحمار ؟
بلى أيـر الحمار وخصيتاه | أحب الى فزارة من فـزار

وقال سالم بن دارة :

لا تأمن فزاريا خلوت به | على قلوصك واكتبها بأسيار
لا تأمننه ولا تأمن بوائقه | بعد الذي أمتك أير العير في النار

فقال الشاعر :

لقد جللت خزيا هلال بن عامر | بني عامر طرا بسلحة مادر
فأف لكم لا تذكروا الفخر بعدها | بني عامر أنتم شرار المعاشر

تاج العروس (٣/٥٣٦) ، (مدر) .

وفقدان المال بعد ثراء وغنى وجاه والعلل والأسقام التي تنزل بالانسان ، والكوارث والموت وأمثال ذلك ، هي مما يثير الحزن والأشجان في النفس، فتجعل الانسان يحزن على ما أصابه ويظهر جزعه أو تحمّله للآلام أمام الناس ، وذلك بمختلف أساليب التعبير عن الحزن الذي نزل بالحزين .

والحزن : الهمّ . وقيل : خلاف السرور . وقد فرّق بعضهم بين الهمّ والحزن . وقال بعض علماء اللغة : الحزن : الغمّ الحاصل لوقوع مكروه أو فوات محبوب في الماضي ويضاده الفرح . وقد سمّى رسول الله العام الذي ماتت فيه (خديجة) وعمّه (أبو طالب) (عام الحزن) ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، لما أصابه فيه من همّ وغمّ[1] .

وللعرب كما لغيرهم من الشعوب مصطلحات وتعابير خاصة ، يعبرون بها عن آلامهم وأحزانهم وما يجيش في صدورهم من أحزان . منها تعابير يستخدمها المحزون نفسه تعبيراً عن حزنه وآلامه الشديدة ، ومنها تعابير يستعملها المحزون في الرد على من يتفضل عليه بمواساته للتخفيف عن آلامه، بأن يدعو لهم ويشكرهم على تكليف أنفسهم مشقة المجيء اليه لمؤاساته أو مشاركتهم له في حزنه . ومنها تعابير يقولها المؤاسون للشخص المحزون للتخفيف عن مصابه والترويح عنه ولإظهار حزنهم له ومشاركتهم له في أحزانه .

كما أن لهم كما لغيرهم علامات وشعارات يظهرونها للناس لإشعارهم بأنهم مصابون بآلام وأحزان ، وبحلول نكبات وكوارث بهم . وذلك مثل لبس ألبسة خاصة تكون شعاراً خاصاً بالحزن ، وذرّ الرماد أو التراب على الرأس أو تلطيخ الرأس والوجه بالطين ، وترك الشعر ينمو دون حلق ولا إجراء تعديل فيه أو ترك دهنه مدة معينة إظهاراً للحزن على ميت ، وما الى ذلك من علامات ، هي ضرورية ولازمة جداً ، بالنسبة للمحزون أو للمحزونين والمفجوعين ولأصدقائهم ، إذ أن اهمالها وتركها هو في نظرهم عيب ومنقصة على المفجوع وعلى أصدقائه وعلى آله على حدّ سواء . ثم هي تقاليد لا بد من مراعاتها والمحافظة عليها .

ومن ذلك أيضاً : النداء . وذلك بإعلان شخص عن المصيبة بصوت عال يسمع حتى يشاركه الناس مصيبته أو ليحصل منهم على ما يرجوه من مساعدة .

---

١ تاج العروس (٩/٧٤) ، (حزن) .

مثل واسوء صباحاه : في المصيبة التي تقع في آخر الليل وأول النهار . أو أن يعلن عن وفاة كبير وذلك بأن ينادي بصوت عال في الأحياء وفي الأماكن العامة عن موت ذلك الكبير بعبارات مؤثرة وبصوت رخيم . ليكون ذلك معلوماً لأهل المكان ، فيتجمعون حول المفجوع ويشاطرونه حزنه ويشتركون في تشييع الجنازة .

ويعبر عن الكوارث والآفات والمصائب بلفظة (لمت) ، في بعض اللهجات العربية الجنوبية ، كما في هذه الجملة : (كل لمت لمت) ، ومعناها من كل ملمة ألمت ، او من كل نازلة نزلت[1] . وفي هذا المعنى أيضاً جملة : (بعد حدثت حدثت)[2] أي بعد حادثة حدثت ، أو بعد الحادثة التي حدثت ، أو بعد الفاجعة التي حدثت .

ويقال لما يصيب الناس من عظيم نوب الدهر : (دواهي الدهر) . وإذا نزلت بشخص مصيبة قالوا : (دهته داهية) ، وقد يقولون (داهية دهياء) على سبيل التوكيد والمبالغة . ويقول الشخص : دهيت . وتقول ما دهاك ؟ أي ما أصابك.وكل ما أصابك من منكر من وجه المأمن فقد دهاك دهياً . والدهياء : الداهية من شدائد الأمر .

أخو محافظة ، إذا نزلت به دهياء داهية من الأزم[3]

والاصطلاح الشائع عن هلاك الإنسان وفقده الحياة هو (الموت)[4] . وقد وردت هذه اللفظة في لهجات عربية أخرى ، مثل اللهجة الصفوية واللحيانية[5] وهناك ألفاظ أخرى تؤدي معنى الموت والهلاك . مثل الهلاك والمنايا والأحداث والحِمام والأجل والحتف والقدر والمنون والزمان والسأم والنحب وغير ذلك[6] . وهي مصطلحات جاهلية ، بعضها من المصطلحات القديمة ، لها معان أوسع من مصطلحات الموت. ولكن ربط بينها وبين هذا المصطلح لما لها من صلة بهلاك الإنسان ومصيره ، فجعلت تؤدي معنى الموت .

---

١ راجع السطر السادس من النص : Glaser 131, CIH 99.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 160.

٣ اللسان (١٤/٢٧٥) ، (دها) .

٤ المخصص (٦/١١٩) (اسماء الموت) .

٥ W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, S. 149.

٦ اللسان (٢٠/١٦١) ، تاج العروس (١٠/٣٤٧) .

وهلك بمعنى مات ، معروف عند أهل اللغة [1] . وقد وردت اللفظة بهذا المعنى في نص النمارة الذي يعود تأريخه الى سنة ٣٢٨ م. وأما المنية ، فالموت كذلك في نظر علماء اللغة ، لأن المنى القدر والموت قدر علينا [2] . وأما الحتف ، فهو الموت أيضاً ، وجمعه حتوف . وهو معنى مجازي جاهلي متأخر . ورد في المثل: (مات حتف أنفه) . أي على فراشه من غير ضرب ولا قتل ولا غرق ولا حرق ، وخص الأنف لأنهم كانوا يتخيلون أن روح الرجل تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته . وهناك مثل آخر يشبهه وهو (مات حتم فيه) لأن الفم مجرى النفس كذلك[3] .

وترادف لفظة (الميت) و (ميت) لفظة (جنز) في العربيات الجنوبية[4]. وذكر علماء العربية ان الجنازة الميت[5] ، فهي في معنى لفظة (جنز) الواردة في المسند .

وقريب من معنى (مات حتف نفسه) ، ما ورد في بعض النصوص الصفوية من تعبير (رغم مني)[6] ، فإنــه يريد ان الشخص لم يمت قتلاً ، وانما مات رغماً منه ، مات بمنيته وبأجله .

ويعبّر مصطلح (مات بحــد السيف) أو (مات صبراً) ، عن معنى ان الوفاة لم تكن طبيعية ، وانما كانت قتلاً ،إما بضرب عنقه ، وإما بوسائل أخرى من وسائل التعذيب ، صبر عليها ذلك الشخص ، حتى مات .

وورد : (الموت الأبيض) و (الموت الأحمر) . الأبيض الفجــأة ، أي ما يأتي فجأة ، ولم يكن قبله مرض يغير لونه. والأحمر الموت بالقتل لأجل الدم[7].

والانتحار ، أي قتل الانسان نفسه ، معروف عند الشعوب القديمة ، ويكون إما بإزهاق الانسان روحه باستعمال آلة حادة ، مثل سكين أو خنجر وما شابــه ذلك ، وإما برمي الشخص نفسه من محل مرتفع ، أو بإغراق نفسه ، أو بإحراق

---

١ اللسان (٣٩٤/١٢) ، تاج العروس (١٩٤/٧) .
٢ اللسان (١٦١/٢٠) ، تاج العروس (٣٤٧/١٠) .
٣ اللسان (٣٨٢/١٠) ، تاج العروس (٦٤/٦) ، القاموس (حتف) .
٤ South Arabian Inscriptions, P. 430.
٥ تاج العروس (١٨/٤) ، (جنز) .
٦ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, II, 1953, p. 20.
٧ تاج العروس (١٠/٥) ، (بيض) .

نفسه بنار ، وما إلى ذلك . ويعد من الأعمال الشريرة في الأديان . ويعبّر في العربية بـ (قتل نفسه) عن (الانتحار) .

ومن الألفاظ التي تعني الموت : القشم . يقال : قشم الرجل قشماً ، أي مات[1] . وأم قشعم ، فإنها تعني المنية ، كما تعني الحرب والداهية[2] . والحِمام ، لأنه قضاء الموت وقدره[3] . و (أم اللهيم) : ويراد بها (الحمى) ، ويكنى بها عن الموت ، لأنها تلتهم كل أحد . وقيل : هي (المنية) ، وكنية الموت ، لأنها تلتهم كل أحد[4] .

ويعبّر عن الحالات التي يكون فيها المرض قد اشتد بالمريض حتى صار يشرف على الموت بتعابير خاصة مثل : (سكرات الموت) و (الحشرجة) ، ويراد بها تردد النفس[5] .

ويعبّر عن القتل المعجل بالقعص ، فيقال مات فلان قعصاً ، إذ أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه . ويقال ضربه فأقعصه ، أي قتله في مكانه[6] .

وللدهر والحدثان والزمان والقدر ، صلات قوية بالموت ، إذ تنسب اليها إماتة الانسان . والدهر على الأخص مسؤول في نظر أهل الجاهلية عن قوارع الزمان وحوادثه التي تنزل بالانسان . انه هو المبيد ، وهو المهلك ، وهو المفقر ، فهو اذن بالنسبة إلى الجاهليين رأس كل بلاء . ولكنهم بدلاً من التقرب اليه والتودد له ليبتعد عنهم ، وليرأف بحالهم كانوا لا يستطيعون ضبط أعصابهم عند نزول الشدائد بهم ، فيسبّونه ، لذلك ورد ان الرسول نهى عن سبّ الدهر فقال : « لا تسبّوا الدهرَ ، فإن الله هو الدهر » . وجعل الدهر في الاسلام من أسماء الله الحسنى ، وذكر انه ورد في الحديث القدسي : « يؤذيني ابن آدم ، يسبّ الدهر ، وانما أنا الدهر »[7] .

والموت في نظر الجاهليين مفارقة الروح للجسد لسبب من الأسباب التي تؤول

---

١ اللسان (١٢/٤٨٤) ، (صادر) .
٢ اللسان (١٢/٤٨٥) ، (صادر) ، قاموس المحيط (٤/١٦٥) ، (١٩٣٥ م) .
٣ تاج العروس (٨ /٢٥٨) .
٤ اللسان (١٢/٥٥٤) .
٥ تاج العروس (٢/٢٢) .
٦ اللسان (٧/٧٨) ، (صادر) ، تاج العروس (٤/٤٢٤) .
٧ تاج العروس (٣/٢١٨) ، اللسان (٢/٤٣٧) ، (٦/٣٨٢) .

إلى هلاكه . تخرج الروح من الأنف أو من الفم وذلك في الموت الطبيعي وفي موت الفجأة . أما إذا كان الموت بسبب جرح ، فإن الروح تخرج على ما ذكره الأخباريون من الجرح[1] . والروح قد تتحول وتصير طائراً يرفرف فوق قبر الميت يسمى (الهامة) في حالة كون الميت قتيلاً .

واعتقد بعض الجاهليين ان الموت أجل مثبت وأمر معين محتم ، وهو لا يأتي إلا في حينه . فإذا جاء الأجل كان حذر الانسان وجبنه غير دافع عنه المنية إذا حلت به . وذكر ان أول من قال ذلك (عمرو بن مامة) في شعره . وفي حديث عامر بن فهيرة :

والمرء يأتي حتفه من فوقه

ولحنش بن مالك بيت في الحتوف ، إذ يقول :

فنفسك احرز فإن الحتو ف ينبان بالمرء في كل واد[2]

وكلمة (الروح) من الكلمات المعروفة عند الجاهليين . وقد صورتها بعض الأخبار الإسلامية حفظة على الملائكة ، وجعلت لها وجهاً كوجه الإنسان وجسداً كجسد الملائكة،ولا يمكن رؤيتها كما لا يمكن رؤية الملائكة[3] . بها يعيش الإنسان وبها حياة الأنفس . وقد سأل الجاهليون الرسول على ماهية الروح،فنزلت الآية : « يسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلاً »[4] . ويذكر المفسرون أن سائليه هم اليهود[5] او ان اليهود علموا المشركين أن يسألوه عن الروح محاولين بذلك إثارة مشكلة للرسول كانت مهمة في أعين الناس يومئذ ، مما يدل على أهمية هذه القضية في ذلك العهد .

ويظهر من تمحيص الأخبار الواردة عن الموت والقبر وأشباه ذلك أن عقيدة الجاهليين ان الروح متصلة بالجسد ملازمة له في أثناء الحياة ، فإذا وقع الموت انفصلت عن الجسد وفارقته . ثم اختلفوا فيما بينهم في مصير الروح ، فمنهم من

---

١ اللسان (١٠/٣٨٢) ، تاج العروس (٦/٦٤) .
٢ اللسان (٩/٣٨) ، (حتف) ، تاج العروس (٦/٦٤) ، (حتف) .
٣ تاج العروس (٢/١٤٧) ، اللسان (٣/٢٨١ وما بعدها) .
٤ الاسراء ، الاية ٨٥ .
٥ الجلالين (١/٢٢٠) ، الروض الانف (١/١٩٦ وما بعدها) .

تصورها وهي ملازمة (قبر صاحبها لا تفارقه ، وكأنها لا تريد أن تفارق الجسد الذي كانت مستقرة فيه) . فصارت المقابر موضع تجمع الأرواح ، ومنهم من ذهب الى هلاكها بهلاك الجسد أو تحولها أرواحاً تسبح في عالم الأرواح . ونجد في حديث (مجاهد) أن (الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك)[1] . تفسيراً لرأي بعض الجاهليين في مدة بقاء الروح حول القبر. وهناك أحاديث أخرى يظهر منها ان الروح تلازم القبور فلا تفارقهم .

وهناك كلمة أخرى لها صلة وعلاقة متينة بهذه الكلمة . هي لفظة (النفس). وهي من الكلمات الجاهلية القديمة التي وردت في النصوص ، معناها الروح والشخص والذات والجسد . وقد ذكر لها علماء اللغة جملة معانٍ استعملت في الأكثر على سبيل المجاز . ولم يفرق بعض هؤلاء بين الروح والنفس[2] . ويظهر من بعض التعابير والجمل التي كان يستعملها الجاهليون مثل (خرجت نفس فلان)و(فاظت نفسه) (فاضت نفسه) أن المراد بالنفس الروح[3] . وقد تصور بعضهم أن النفس الدم ، وإنما سمي الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه . وفي الحديث : « ما ليس له نفس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه[4] » ولبعضهم آراء في التفريق بين الاثنين نشأت في العهد الإسلامي. ولا سيما من ورود استعمال الكلمتين في معانٍ متعددة في القرآن الكريم وفي الحديث .

ويُعَدّ (المرض) من جملة الآثام التي تنزلها الآلهة بالإنسان ، لخروجه على أوامرها ولعدم أداء ما عليه من واجبات وفروض تجاهها ، ومنهـا الحقوق التي فرضتها عليه ، وفي رأسها النذور والصدقات والزكاة التي امرت الآلهة بتقديمهـا

---

١ كتاب الروح : لابن قيم الجوزيه (ص ١١٥) .

٢ المخصص (٢/٦٢) ، الروض الأنف (١/١٩٦ وما بعدها) .

٣ (وكذلك فاضت نفسه ، أي خرجت روحه . نقله الجوهري . عن ابي عبيدة والفراء ، قالا : وهي لغة في تميم . وابو زيد مثله . قال : وقال الاصمعي : لا يقال فاض الرجل ولا فاضت نفسه ، وانما يفيض الدمع والماء . زاد في العباب : ولكن يقال فاظ بالظاء اذا مات . ولا يقال بالضاد البتة) . تاج العروس (٥/٧١) ، (فاض) ، (قال الجوهري : وكذلك فاظت نفسه ، اى خرجت روحه . عن ابي عبيدة والكسائي وعن أبي زيد مثله ـ وقال الاصمعي : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : لا يقال فاظت نفسه . ولكن يقال فاظ اذا مات) . تاج العروس (٥/٢٥٨)، (فيظ) .

٤ اللسان (٦/٢٣٣ وما بعدها) .

الى معابدها . ولهذا نجد المريض يتوسل بآلهته لكي تصفح عنه وتعفو عن تقصيره تجاهها ، وأن تعيد اليه ما اخذته منه من صحة وعافية في مقابل تقديم نذر لها ووفائه بقيامه بكل ما أمرت به من واجبات تجاهها . وفي المتاحف الخاصة والعامة مئات من الكتابات الجاهلية في هذا المعنى ، ومئات أخرى ، كتبت شكراً وحمداً للآلهة ، إذ سمعت توسلات عبيدها بأن تمن عليهم بالصحة والعافية ، فمنت عليهم ولهذا فإنهم كتبوا كتاباتهم تلك للتعبير عن شكرهم لها ، ولمناسبة تقديمهم النذر الذي نذروه لمعابد الآلهة .

نعي الميت :

ويكون الاعلان عن موت شخص بالبكاء وبالنعي ، ويتوقف نعي الميت والبكاء عليه على قدر منزلة الميت ودرجة أهله ومكانتهم الاجتماعية . ويعد نعي الميت وشق الجيوب عليه من وسائل التقدير والإكرام وتبجيل الميت ، ولذلك كانوا يوصون قبل موتهم بنعيهم للناس نعياً يليق بهم ، ويقوم بذلك ناع أو جملة نعاة. يركب الناعي فرساً ويسير ينعى الميت بذكر اسمه وتمجيده ليسمع بذلك القوم ، قائلاً : (نعاء فلان ...) وترد كلمة (الناعي) و (النعاة) كثيراً في الشعر وفي النثر[1] . وقد كان الجاهليون يستغلون نعي القتلى للتحريض على القتال والأخذ بالثأر ، ويقال لذلك : (التناعي)[2] .

وقد نُهي في الاسلام عن (نعي الجاهلية) ، وذلك لما كانوا يبالغون من النداء بموت الشخص وذكر مآثره ومفاخره ورثاءه رثاء يتجاوز الحد[3] .

والولولة والنياحة على الميت من التقاليد التي تشدد فيها أهل الجاهلية ، وكانت عندهم سمة من سمات التقديس . ولهذا كان أهل الجاه والغنى والأشراف يستأجرون النائحات للنياحة على الميت في بيته وخلف نعشه إلى القبر وفي مأتمه ، ويبالغون في ذلك تبعاً لمنزلة المتوفي . وتلك عادة متبعة عند غيرهم أيضاً، فقد كان العبرانيون

---

١ أقول لما أتاني الناعيان به : لا يبعد الرمح ذو النصلين والرجل
بلوغ الارب (٣/١٣) ، تاج العروس (١٠/٣٧٣) ، (نعى) .
٢ تاج العروس (١٠/٣٧٣) ، (نعى) .
٣ القسطلاني ، ارشاد (٢/٣٧٨) ، (باب الرجل ينعى الى أهل الميت نفسه) .

يستأجرون النادبات ليندبن الموتى[1] . كما كان الرومان يتبعون هذه السنة .

وكلمة (الرثاء) من الكلمات الجاهلية وهي تعني بكاء الميت وتعديد محاسنه ونظم الشعر فيه ، ويقال للمرأة النوّاحة ، والتي ترثي بعلها أو غيره من الأقارب والأعزاء ممن يكرم عندها (الرثاءة) و (الرثاية)[2] . وأما (المناحة) ، فهي اجتماع النساء في مناحة لاظهار حزنهن على الميت . ويقال للإجتماع (نياحة) أيضاً . والكلمة من الكلمات الجاهلية كذلك[3] . ويفهم كثير من الناس من كلمة (مأتم) المصيبة واظهار الحزن والنوح والبكاء،وليس هو كذلك ، وإنما (المأتم) في عرف أهل اللغة المجتمع يجتمع فيه النساء في حزن أو فرح في خير أو شرّ ، ويطلق على اجتماعات الرجال والنساء[4] .

وفي الشعر الجاهلي أبيات يحث فيها الشعراء أهلهم ويوصونهم بالبكاء وبالنوح عليهم إذا ماتوا . فقد ذكروا أن طرفة بن العبد خاطب ابنة أخيه معبد بهذا البيت :

فإن متُّ فانعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد[5]

وذكروا أن الشاعر حازم بن أبي طرفة الحارث بن قيس الشدّاخ الكناني ، وهو شاعر جاهلي أوصى ابنته لما شعر بدنو أجله بأن تبكي والدها وأن تندبه وتذكر محامده وفعاله ، وذلك في هذين البيتين :

بنية إنّ الموت لا بد لاحق بشيخك ماضي الأنام المودّع
فإن قمت تبكيني فقولي أبو الندى ومأوى رجال بائسين وجوّع[6]

أما الشاعر لبيد ، فقد أوصى ابنته بهذه الوصية لما حضرته الوفاة :

تمنى ابنتايَ أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر ؟

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٠٠) .
٢ تاج العروس (١٠/١٤٤) .
٣ تاج العروس (٢/٢٤٣) ، (نوح) .
٤ تاج العروس (٨/١٧٩) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٠١) .
٦ الامدي المؤتلف (ص ١٠٠) .

فقوما وقولا بالـــذي تعلمانه ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا : هو المرء الذي لا صديقَه أضاعَ ولا خانَ الأمين ولا غدر[1]

وهي وصية فيها تعقل واقتصاد بالنسبة الى طلبات غيره ممن كان يرى البكاء والنياحة وخمش الوجوه وحلق الشعور وإظهار أكثر ما يمكن من مظاهر الحــزن والتوجع والتألم وأمثال ذلك ، هي سيماء من سيماء التقدير والتعظيم والاحترام للميت بل للاحياء من آله وأقربائه أيضاً ، لأنها دلالة على شدة تألمهم لذهاب فقيدهم، وعلى انهم لا يبالون في الإنفاق في شيء حتى في إيلام أنفسهم وتوجيع أجسامهم وهلاكهم في سبيله ، وانهم كرماء لا يبالون في البذل في سبيل من يفتقدونه .

وما كان لبيد ، ليقنع بهذا المأتم لو كان على رأي أهل الجاهلية . فمأتمه هذا مأتم بارد لا يليق بمقام رجل جاهلي ، ولكنه كان مسلمــاً ، دفعه إسلامه على القناعة في مأتمه وعلى الاكتفاء بهذا القليل . فقد ورد في الحديث : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله » ، وأن الرسول قال : « ليس منّـا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » ، وانه « بريء من الصالقة والحالقة والشاقة » ، وانه قال : « اثنتان في الناس هما بهما كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت» إلى غير ذلك من أحاديث تنهى عن هذه المظاهر ، التي هي في نظر الاسلام من سيماء أهل الجاهلية[2] .

ويصحب البكاء شق الجيب وتعفير الرأس بالتراب واجتماع النسوة اياماً لندب الميت وذكر مناقبه . تقوم بذلك ناديات ممتهنات أو غيرهن ممن رزقن موهبة القول في مثل هذه الأحوال من أفراد الأسرة أو القبيلة أو الحي أو القرية . وفي بيت لـ (طرفة بن العبد) نجده يوصي بنعيه بما يستحقه وبشق الجيب عليه[3] . وقد عتد نعي الميت ورثاؤه حولاً كاملاً ، وهي مدة عزاء أهل الجاهلية[4] . فإذا انتهى

١ بلوغ الارب (٣/١١) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٢ وما بعدها) ، (من الجاهلية النياحة على الميت) البخاري : التاريخ الكبير (١/٢٣٢) ، (ثلاث من فعل الجاهلية لا يدعهن أهـل الاســلام : استسقاء بالكواكب وطعن في النسب ، والنياحة على الميت) ، الاصابة (١/٢٤٧) القسطلاني ارشاد الساري (٢/٤٠٤) ، (باب ما يكره من النياحة على الميت) .
٣ فان مت فانعيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد
بلوغ الارب (٣/١١) .
٤ تاج العروس (٦/٣٢٠) ، بلوغ الارب (٣/١٢) .

الحول وقد بكوه البكاء الذي استحقه الميت علر أقرباؤه عن الإستمرار في بكائه إلاّ في المناسبات . قال لبيد لابنتيه لما حضرته الوفاة :

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر[1]

وتعرف التي ترفع صوتها بالنياحة بـ (الصالقة) . وأما التي تحلق شعرها عند نزول المصيبة فيقال لها (الحالقة) . وأما التي تشق جيبها ، فيقال لها (الشاقة). ويقال لتعديد النادبة بأعلى صوتها محاسن الميت النادبة ولعملها الندب[2] . والظاهر أن الندب كان خاصاً بالنساء ، وإن وردت كلمة (نادب) عند اللغويين[3] .

وقد نهى الإسلام عن (الصلق) ، ورد في الحديث : « ليس منا من صلق أو حلق أو خرق » . أي ليس منا من رفع صوته عند المصيبة وعند الموت. ويدخل فيه النوح أيضاً[4] . و (السالقة) ، هي بمعنى (الصالقة) ، وهي لهجة ولا شك من لهجات القبائل ، وقد وردت في رواية أخرى للحديث المذكور أيضاً[5] .. ولطم الخدود وخمشها وشق الجيوب وذر التراب أو الرماد أو وضع الطين على الرأس والخدود عادة لا ينفرد بها العرب وحدهم ، بل هي موجودة عند غيرهم من الأمم أيضاً . وفي التوراة آيات تشير اليها كلها وتعدّها من دلائل الحزن والأسى الشديد والتوجع على الميت . وهي كلها مذكورة فيها من البكاء والنحيب على الميت الى ذرّ الرماد والتراب أو وضع الطين على الرأس الى شق الجيوب ولطم الصدر والخدود .

وليست عادة استئجار النادبات بعادة خاصة بالعرب الجاهليين،فقد كان العبرانيون يستأجرون النادبات كذلك ليندبن الميت ، وقد أشير الى ذلك في التوراة[6] ،ولعلها من العادات السامية القديمة المعروفة عند بقية الساميين .

---

١ بلوغ الارب (٣/ ١٢) .
٢ بلوغ الارب (٣/ ١٣) .
٣ تاج العروس (١/ ٤٨١) . « ندب » .
٤ « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، برىء من الصالقة والحالقة والشاقة » ، صحيح مسلم (١/ ٧٠ وما بعدها) ، « باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية » تاج العروس (٦/ ٤١١) .
٥ تاج العروس (٦/ ٣٢٠ وما بعدها ، ٣٨٢) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٠٠) .

ويقال لمدّ الصوت بالنحيب (النقع) ، وأما مـدّ اللسان بالولولة ونحوها ، فيقال له (القلقة)[1] .

ويحترم الجاهليون الموت والميت فكانوا يقومون إذا مرت بهم جنازة، ويقولون إذا رأوها : (كنت في أهلك ماثناً مرتين) . أما أهل الميت وأقرباؤه وأصدقاؤه فكانوا يسيرون أمام الجنازة وخلفها الى المقبرة[2] .

وتعفر النساء رؤوسهن بالتراب وبالرماد وبالطين ويلطمن خدودهن بأيديهن ، كما كنّ يلطخن رؤوسهن بالطين ويسرن مع الجنازة إظهاراً للحزن والجزع على الفقيد . وترافقهن النادبات والمولولات ، يندبن الميت ويولولن عليه ، يسرن حافيات مبالغة في إظهار الحزن .

وكانت العرب لا تندب قتلاها ولا تبكي عليها حتى يثأر بها ، فإذا قتل قاتل القتيل ، بكت عليه وناحت[3] .

ويتبين من حديث (عمرو بن العاص) ان من عادات الجاهليين حمل النار مع الجنازة تصطحبها اصطحاب النائحة لها . وقد أباح (عمرو) لأهله نحـر جزور عند قبره لتوزيع لحمها على المحتاجين ، وأن يقيموا حول قبره حتى يستأنس بهم، وينظر ماذا يراجع به رسل ربه[4] . ونجد مثل ذلك في خبر يذكر ان (أبا موسى الأشعري) لما حضره الموت دعا ابنه ، فقال : « أنظروا اذا أنا مت فلا تؤذنن بي أحداً ولا يتبعني صوتٌ ولا نار »[5] . ويدل ذلك على ان عادة حمل النار مع الجنازة بقيت زمناً في الاسلام .

ويؤخذ من شعر للأفوه الأودي ان الجاهليين كانوا يغسلون موتاهم قبل دفنهم[6]. وذكر (اليعقوبي) ، انه لما مات عبد المطلب (أعظمت قريش موتـه وغسل بالماء والسدر . وكانت قريش أول من غسل الموتى بالسدر ، ولف في حلتين من حلل اليمن قيمتها ألف مثقال ذهب وطرح عليه المسك حتى ستره ، وحمل على

---

١ الاغاني (١٥/١٢) .
٢ عمدة القاري (٢٩٣/١٦) .
٣ نهاية الارب (١٣٢/٣) .
٤ صحيح مسلم (٧٨/١) ، « كتاب الايمان » كتاب الروح ، لابن القيم الجوزيـه (ص ١٠) « الطبعة الثالثة » حيدر اباد ١٣٥٧ هـ .
٥ طبقات ابن سعد (١١٥/٤) ، « صادر » .
٦ الطبري (٢٨٨/٢) ، بلوغ الارب (٢٨٨/٢) .

أيدي الرجال عدة ايام إعظاماً وإكراماً وإكباراً لتغيبه في التراب)[1] .

وغسل الجاهليون موتاهم بالخطمي والأشنان[2] ، وما شابه ذلك من مواد لإزالة الأوساخ عن جسم الميت وتطهيره . كما وضعوا الطيب مع الكفن ليطيب الميت فيذهب مطيباً الى قبره .

ويحمل سرير الميت الذي وضع عليه على الأكتاف لايصاله الى قبره ، ويقال له (النعش) كذلك . وقد يحمل في محفة ، وقد يحمل على الإبل لايصاله الى قبره اذا كان القبر بعيداً . ويتبارى الأقرباء والأصدقاء في حمل نعش الميت احترّاماً له وتقديراً لشأنه . وورد أن (السرير النعش قبل أن يحمل عليه الميت،فإذا حمل عليه فهو جنازة)[3] .

وذكر بعض أهل الأخبار أن النعش لم يكن معروفاً عند العرب ، وأن أول من عمل له النعش (زينب بنت جحش) زوج النبي ، أو فاطمة الزهراء ، أي في الإسلام.وقد قلد في ذلك أهل الحبشة الذين كانوا يصنعون نعوشاً لموتاهم[4]. وذكر أن (النعش) في الأصل الذكر الحسن . (إذا مات الرجل ، فهم ينعشونه، أي يذكرونه ويرفعون ذكره) . و (النعش شبه محفة كان يحمل عليها الملك إذا مرض وليس ينعش الميت . وأنشد للنابغة الذبياني :

ألم تر خير الناس أصبح نعشه   على فتية قد جاوزوا الحيّ سائرا
ونحن لديه نسأل الله خلده   يرد لنا ملكاً وللأرض عامرا

قال : فهذا يدل على أنه ليس بميت . وقيل هذا هو الأصل ثم كثر في كلامهم حتى سمّي سرير الميت نعشاً . وإنما سمي لارتفاعه ، فإذا لم يكن عليه ميت محمول فهو سرير)[5] .

وقد كنى (الأسود بن يعفر النهشلي) عن النعش ، أي سرير الميت بـ (ذي

---

١ اليعقوبي (١٠/٢) « النجف » .
٢ تاج العروس (٤٤/٨) ، (غسل) .
٣ تاج العروس (٢٦٥/٣) ، (سرر) .
٤ المعارف (ص ٢٤١) .
٥ تاج العروس (٣٥٧/٣) ، (نعش) ، المخصص ، لابن سيده ، (١٣٠/٦ وما بعدها) .

الأعواد) . وسبب ذلك على ما يقوله علماء اللغة أن البوادي لا جنائز لهم ، فهم يضمون عوداً الى عود ويحملون الميت عليها الى القبر وذكر انه أراد بقوله :

ولقد علمت سوى الذي نبأتني   أن السبيل سبيل ذي الأعـواد

لو أغفل الموت احداً لأغفل ذا الأعواد ، وأنا ميت مثله . وذو الأعواد الذي قرعت له العصا ، (غويّ بن سلامة الأسيدي) ، أو هو (ربيعة بن مخاشن الأسيدي) ، أو هو (سلامة بن غوي) على اختلاف في ذلك . قيل كان له خرج على مضر يؤدونه اليه كل عام فشاخ حتى كان يحمل على سرير يطاف به في مياه العرب فيجبيها . وفي اللسان : قيل هو رجل أسن ، فكان يحمل عـلى محفّة من عود ، أو هو جدّ لأكثم بن صيفي المختلف في صحبته . وهـو من بني أسيد بن عمرو بن تميم . وكان أعز أهل زمانه ، فاتخذت له قبة على سرير ، ولم يكن يأتي سريره خائف إلاّ أمن ، ولا ذليل إلا عزّ ولا جائع إلا شبع وهو قول أبي عبيدة . وبه فسر قول الأسود بن يعفر النهشلي[1] .

ويحمل الموتى على (الحرج) أيضاً . والحرج خشب يشدّ بعضه الى بعض ثم يحمل فيه الموتى[2] .

وللعلماء آراء في الجنازة . ذكر بعض منهم ان الجنازة من الجنز بمعنى السّتر ، وذكر بعض آخر ان اللفظة من ألفاظ النبط ، وتعني جنز في لغتهم الإخفـاء ، ويقصدون بالنبطية لغة بني إرم[3] . معنى جملة (جنــز الميت) عندهم ، وضع الميت على السرير وصلاة الكاهن عليه[4] . وذكر بعض العلماء ان الجنازة بالكسر، الميت وبالفتح السرير ، وذكر بعض آخر العكس . وذهب فريق آخــر الى ان الجنازة الميت نفسه ، لذلك لا تكون جنازة حتى يكون ميت ، وإلا ، فهو سرير أو نعش . فالجنازة على هذا الرأي ، الميت محمولاً عـلى سرير أو نعش ، أو تابوت في الاصطلاح الحديث[5] . وبهذا المعنى يعبّر عن الجنازة في الوقت الحاضر .

---

١ تاج العروس (٢/٤٤٠) ، (عود) .
٢ المخصص (٦/١٣٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤/١٨) .
٤ غرائب اللغة (١٧٧) .
٥ تاج العروس (٤/١٨) ، (جنز) .

وصلاة الجنائز ، هي الصلاة التي تقام على جنازة الميت ، أي الميت وهو في تابوته ، ليرسل الى القبر ، وهي صلاة أقرها الاسلام ، وقد أفرد لها باب في كتب الحديث والفقه يعرف بـ (كتاب الجنائز)[1] .

والعادة عند أكثر الساميين السير بسرعة في الجنازة . فيسرع المشيّعون الذين يسيرون مع الجنازة الى موضع القبر في مشيهم للوصول بالجنازة بسرعة اليه . وقد أشير الى هذه العادة في كتب الحديث[2] . والظاهر ان لطبيعة الجو دخل في ظهور هذه العادة .

ويقال لتهيئة الميت ودفنه في القبر (تجهيز الميت) . ويقوم الأبناء والأقرباء بوضعه في لحده . واذا كان الميت عزيزاً كريماً في قومه سيداً رئيساً اشترك الرؤساء في إدخاله القبر ، وقد يتنافسون في نيل هذا الشرف ، وقد يؤدي هذا التنافس الى وقوع الشر بين المتنافسين ، لأن تجهيز الميت ووضعه في لحده من علامات تقدير الميت وتعظيمه ، ومن دلائل قرب من دخل القبر من الميت واتصالهم الوثيق به[3] .

ويقال للميت عند وضعه في قبره : (لا تبعد)[4] ، أي انه وان ذهب عنهم سيكون دائماً معهم وفي قلوبهم . ولعل هذا التفكير هو الذي حملهم على إخراج حصته مما كانوا يأكلونه ويشربونه يسمّونها باسم الميت ، وعلى زيارة قبور الموتى والجلوس عندهم وضرب الخيام حولها ، وعلى مناجاة صاحب القبر بذكر اسمه وتحيته ، لأن روح الميت في رأيهم حية لا تموت . ولهذا السبب أيضاً كانوا يسقونها بصب شيء من الماء على القبر ، كما كانوا ينضحونه بالدم . وبهذا المعنى يفسر ما ورد في الشعر وفي النثر من سقي الغمام للقبر ، ونزوله عليه ، وما ورد من شرب الخمر على القبر وسكب بعضه عليه . وقد كان العبرانيون يخرجون

---

١ صحيح مسلم (٦/٢١٩) .

٢ ارشاد الساري (٢/٤٢٠ وما بعدها) .

٣ Hasting, Vol. II, P. 731.

٤ وفي هذا المعنى ورد في شعر مالك بن الريب المزني :

يقولون : لا تبعد وهم يدفنونني وأين مكان البعد الا مكانيا

بلوغ الارب (٣/١٤ وما بعدها) الامالي ، للقالي (٣/١٣٧) .

حصة مما يأكلونه لتكون من نصيب الموتى[١]. ويذكر أهل الأخبار ان الناس كانوا يسكبون الخمر على قبر (الأعشى) بـ (منفوحة) اليامة ، وذلك لولعه بها وتقديراً لذكراه .

ويدفن بعض العرب الميت بملابسه ، ويغطى رأسه . ويكفن بعضهم موتاهم ويدفنونهم مكفنين . ويذكر علماء اللغة ان من أسماء الكفن الجنن ، واستشهدوا على ذلك ببيت للأعشى[٢] . وفي الحديث : (ان ثمود لما استيقنوا بالعذاب تكفنوا بالأنطاع وتحنطوا بالصبر ، لئلا يجيفوا وينتنوا . يضعون الحنوط في أكفان الميت).[٣] كما وردت كلمة (أكفاني) في بيت لامرىء القيس[٤] ، مما يدل على معرفة الجاهليين للكفن . وقد كان قدماء العبرانيين يدفنون موتاهم بملابسهم التي كانوا يستعملونها ، أي كما كان يفعل قدماء الجاهليين ، ثم كفّن المتأخرون منهم موتاهم بكفن مكوّن من قماش أبيض مصنوع على الأكثر من الكتان على هيأة البرد اليماني يلفّ على جسم الميت ، وربطوا الرأس بمناديل ، كما ربطوا يدي الميت وقدميه برباط خاص ، على النسق الذي أقر في الاسلام[٥] .

ويظهر من الأخبار الواردة عن تكفين رسول الله ، ان أهل مكة أو الحجاز عامة كانوا يفضلون الأكفان السحولية ، وهي أثواب بيض سحولية من كرسف ، اي من قطن . وقد نسجت في (سحول) ، وهي قرية باليمن منها هذه الثياب . وقد كره الإسلام تكفين الموتى بالمصبّغات ونحوها من ثياب الزينة ، كما كره التكفين بالحرير ، بل حرم بعض العلماء التكفين فيه[٦] . وقد كان أغنياء الجاهلية يكفنون موتاهم بالألبسة الغالية ، مبالغة منهم في تقديرهم لمنزلة ميتهم عندهم .

---

١ Reste, S. 183.

٢ وهالك أهل يجنونه كاخر في أهله لم يجن
اللسان (٢٤٥/١٦) ، تاج العروس (٣٢١/٩) ، المطبعة الخيرية ، .
المحبر (ص ٣١٩ وما بعدها) .

٣ اللسان (١٤٨/٩) ، صحاح الجوهري ، (٢١٨٨/٦) المخصص لابن سيده (١٣٠/٦ وما بعدها) .

٤ اللسان (٢٣٩/١٧) .

٥ قاموس الكتاب المقدس (١٩٩/٢ وما بعدها) .
Ency. Relig., 4, p. 498, Hastings, A Dictionary of Chrit. and Gospels, Vol. I, p. 241.

٦ صحيح مسلم (٢/٧) .

وقد ذكر (اليعقوبي) ، أن (عبد المطلب) لفّ في حلتين يمانيتين ثميتين[1] وكانت البرود اليمانية مفضلة على غيرها في التكفين . وذكر أنه كان من المستحسن عندهم الإحسان في الكفن . ورويت أحاديث في تحسين الكفن . منهـا : « إذا كفّن أحدكم أخاه ، فليحسن كفنه »[2].

وذكر أن (التحسيب) ، بمعنى التكفين وان لفظة (محسب) بمعنى مكفن. وذكر ايضاً ان التحسيب دفن الميت بالحجارة[3] .

عند وضع الميت في قبره يقوم من يذكر محاسنه وأعماله ، ثم يظهر حزنه وحزن الناس لفراقه ، ويقال لذلك (الصلاة) . وقد أطلق الإسلام على هـذه وعلى الندب والأعمال الأخرى (دعوى الجاهلية) ، ونهى عنها[4] .

ويوارى الميت في حفرته ثم يهال التراب عليه . وإذا كان الميت من أصحاب الاسم والجاه فقد يجصص قبره ويبنى عليه ، ويكتب على قبره اسم صاحبه ومـا يناسب المقام[5] . وكثيراً ما تسمع بنحر الإبل أو عقرها على القبور لتبتل بدمـاء الإبل[6] . ولا سيا إذا كان الهالك من سادات القبائل والأجواد . وإذا حلقت النساء شعورهن حزناً على الميت ، وضعن شعورهن على القبر[7] .

وقد اختلف العلماء في سبب عقرهم للإبل على القبور ، فقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره من الإبل في حياته وينحره للأضياف[8]. وقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك اعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام . وزعم بعض آخر أنهم انما كانوا يفعلون ذلك ، لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى اذا بليت فكأنهم يثأرون لهم فيها . وقيل ان الإبل أنفس اموالهم ، فكانوا يريدون بذلك أنها قد هانت عليه لعظم المصيبة ، وقد نهى الإسلام ذلك بحديث : « لا عقر في الإسلام »[9] .

---

١ اليعقوبي (٢/ ١٠) ، « النجف » .
٢ اللسان (٣٥٨/١٣) ، « صادر » تاج العروس (٣٢١/٩) ، اللسان (٢٤٦/١).
٣ تاج العروس (٢١٣/١) ، (حسب) .
٤ ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، للقسطلاني (٤٠٦/٢) .
٥ شمس العلوم الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٩١) .
٦ الاغاني (٨٨/١٩) .
٧ الاغاني (١٢/١٥) .
٨ وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخادم وذبائح
بلوغ الارب (٣١٠/٢) .
٩ بلوغ الارب (٣١١/٢) .

واذا وضع الميت في لحده ، أهالوا التراب عليه . وقد ينظم الشعراء شعراً لهذه المناسبة ينشدونه على القبر اظهاراً لحزنهم ولحزن الناس على فراقه .

وطريقة دفن الميت هي العادة الشائعة المعروفة بين الجاهليين ، غير أن هنـاك من كان يوصي بحرق جثته وذرّ رماده في الهواء ، أو بدفن الرماد في الأرض[1]. وطريقة حرق الموتى ليست من العادات السامية أي من العادات المنتشرة بين الساميين اذ يرون أنهـا تنافي حرمة الميت وأحكام الآلهة . وكانوا اذا سبّوا شخصاً أو أرادوا به سوءاً دعوا له بالحرق ، أو قالوا له يا ابن المحروق .

وقد وجد من فحص القبور التي عثر عيهـا خارج سور (مأرب) أن من الموتى من دفن على هيأة انسان نائم أي وضع متمدداً في لحده ، كما نفعـل في موتانا وأن بعضهم لم يدفن على وفق هذه الطريقة ، ولكن دفن قائماً . وقد عثر في بعض هذه القبور على كتابات قصيرة ، كما عثر فيها على رؤوس منحوتـه دفنت مع الميت ، لعلّها ترمز الى رمز ديني ، او عقيدة من عقائدهم في الموت ، او تمثل الميت نفسه لتكون شاهداً عليه[2] .

ولم نعثر على جثث في جزيرة العرب محنّطة على طريقة المصريين ،والذي نعرفه الآن ان الجاهليين كانوا يضعون الحنوط في أكفان الميت وملابسه ليطيب به جسمه وليحفظه مدة طويلة[3] . ويظهر من التفسير الذي يرويه علماء اللغـة لجملة (عطر منشم) الواردة في شعر (زهير بن أبي سلمى) ، ان (خزاعة) وربما غيرها كانت تشترى (الكافور) لموتاها[4] . وقد كانت قريش تضع الكافور مع الميت، وهي عادة استمرت في الاسلام أيضاً .

ويقال : إن منشماً امرأة كانت تبيع الحنوط في الجاهلية ، فقيـل للقوم اذا تحاربوا : دقوا بينهم عطر منشم ، يراد طيب الموتى[5] ، مما يدل على ان تطييب الميت عادة جاهلية قديمة ، ويقال لطيب الموتى الحنوط . وقد طرح المسك على

---

١ النهاية (٢/١١٥) .
٢ BEITRAGE, S. 28.
٣ اللسان (٩/١٤٨) الصحاح ، للجوهري (٣/١١٢٠) .
٤ شرح ديوان زهير لثعلب (١٥) ، (دار الكتب المصرية) .
(١٩٤٤ م) ، ديوان زهير (١١٠) ، (طبعة كرم البستاني) .
٥ المعارف (ص ٢٦٥) .

عبد المطلب لتطييبه[1] ، (وكل ما يطيب به الميت من ذريرة أو مسك أو عنبر أو كافور من قصب هندي أو صندل مدقوق ، فهو كله حنوط)[2] .

وقيل ان منشماً ، هي ابنة (الوجيه) العطارة بمكة من حمير ، وقيل من همدان ، وقيل من خزاعة وقيل من جرهم . وكانت خزاعة وجرهم اذا أرادوا القتال وتطيبوا بطيبها كثرت القتلى فيما بينهم . وذكر انهم كانوا اذا قصدوا الحرب غمسوا أيديهم في طيبها وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب ولا يولوا أو يقتلوا . وقال (الكلبي) : « جرهمية . وكانت جرهم اذا خرجت لقتال خزاعة خرجت معهم فطيبتهم فلا يتطيب بطيبها أحد إلا قاتل حتى يقتل أو يجرح . وقيل امرأة كانت صنعت طيباً تطيب به زوجها ، ثم انها صادقت رجلاً وطيبته بطيبها ، فلقيه زوجها فشم ريح طيبها عليه فقتله . فاقتتل الحيّان من أجله . قال الكلبي : ومن قال منشم بفتح الشين فهي امرأة كانت تنتجع العرب تبيعهم عطرها فأغار عليها قوم من العرب فأخذوا عطرها ، فبلغ ذلك قومها فاستأصلوا كل من شمّوا عليه ريح عطرها . وقد ضرب بها المثل في الشر ، فقالوا : أشأم من عطر منشم »[3] .

وورد أن (المنشم) عطر شاق الدق او شيء يكون في قرون السنبل ، يسميه العطّارون (روقا) . وهو سم سوعة . وقيل : ثمرة سوداء منتنة الريح ، أو حب البلسان[4] .

ويجعل الحنوط في مرافق الميت وفي بطنه وفي مربع رجليه ومآبضه ورُفْغَيْه وعينيه وأنفه وأذنيه . يجعل يابساً .

ونظراً لوجود لفظة (حنط) في العربية في المعنى الذي نفهمه من التحنيط ، أي حفظ الجسد ، ولاستعمال الجاهليين (الحنوط) في تجهيز موتاهم ، وهي مواد عطرة[5] ذات رائحة طيبة ولورود اللفظة في العبرانية وفي السريانية (حونطو) ، نرى أن نوعاً من التحنيط كان معروفاً عند الساميين[5] . وان لم يكن بالشكل الذي

---

١ اليعقوبي (٢/١٠) ، « النجف » .
٢ اللسان (٧/٢٧٩) ، « صادر » .
٣ تاج العروس (٩/٧٦) ، (نشم) .
٤ تاج العروس (٩/٧٦) ، (نشم) .
٥ غرائب اللغة (ص ١٧٩) ،
J. W. Gibbs, A Hebrew and English Lexicon, London, 1827, p. 201, Smith, A Dictionary of Bible, Vol., I, p. 545.

كان عند المصريين . ولا يستبعد أن يكون اهل الجاهلية قد مارسوا التحنيط ايضاً، وذلك بالنسبة الى أغنيائهم واصحاب الثراء منهم . ويؤيد هذا الاحتمال ما رواه اهل الأخبار من عثور الجاهليين وبعض الإسلاميين على جثث عادية كانت محافظة على هيأتها حتى انها تبدو وكأنها دفنت بالأمس ، وما رووه من عثورهم على نفائس وأواني وكتابات ، الى جانب تلك الجثث . مما يبعث على الظن بأن تلك الجثث كانت محنطة بطريقة ما .

ولم تستعمل التوابيت المصنوعة من الحجارة في نجد والحجاز . أما في بطرا وتدمر فقد اتخذت التوابيت المصنوعة من الحجر والنواويس[١] .

والتابوت ، هو الصندوق الذي يوضع فيه الميت . ويصنع من الخشب والحجر . أو من مواد أخرى . وهو (تبا) في العبرانية . وقد ذكر بعض علماء اللغة ، ان (التابوه) لغة في التابوت[٢] . والتابوت في الأصل (صندوق من الخشب وقد أشير اليه في القرآن الكريم[٣]) .

وقد عرف العرب لفظة أخرى استعملوها في معنى(التابوت) هي لفظة (إران)، ويراد بها صندوق من خشب يوضع الميت فيه[٤] . وقد ذكر بعض علماء اللغة ان ان الإران تابوت يضع النصارى فيه أمواتهم ويدفنونه مع الميت . واللفظة عبرانية، وقد وردت جملة (حمل على الإران) ، أي حمل في التابوت[٥] . وذكر علماء اللغة ان (الإران) الجنازة ، وخشب يشدّ بعضه الى بعض تحمل فيه الموتى ، وسرير الموتى ، وتابوت الموتى[٦] .

والعادة ان تذكر مناقب الميت عند قبره في أثناء الاحتفال بدفنه اذا كان عظيماً سيداً ، وأن يعجل بدفنه في مقبرة القبيلة أو القرية أو في بيته . وقد كان من

---

١ Reste, S. 178.

٢ تاج العروس (٣٨١/٩) .

٣ البقره الاية ٢٤٨ ، طه الاية ٣٩ ، اللسان (١٧/٢) « طبعة صادر » .

٤ غرائب اللغة (ص ٢١١) .

٥ المخصص ، (١٣٠/٦ وما بعدها) .

٦ قال الاعشى :
انرت في جناجن كاران الـ   ميت عولين فوق عوج رسال
وقال طرفة :
أمون كالواح الاران نسأتها   على لاحب ، كأنه ظهر برجد
اللسان (١٤/١٣ وما بعدها) ، (أرن) .

عادتهم دفن الميت في البيوت أو على مقربة منها . أما الأعراب،فقد كانوا يدفنون موتاهم في المنازل التي يكونون فيها ، واذا كانوا في أثناء رحيلهم دفنوهم على قارعة الطرق ولا سيما على المرتفعات المشرفة عليها .

ويعجل العرب بدفن موتاهم . والتعجيل بدفن الميت من الضرورات التي اقتضتها طبيعة الجو . فجو جزيرة العرب لا يساعد على بقاء جسد الميت مدة طويلة : وإلا تعرّض للفساد ، ولحق الأذى به ولهذا صار من الاستحباب التعجيل بدفن الميت ليس في العرف حسب ، بل من الناحية الدينية كذلك .

ويحلق بعض الجاهليين شعر الرأس كله أو بعضه ويرمونه على القبر . وحلق شعر الرأس أو جزء الناصية أو حلقها أو حلق الضفيرتين من التقاليد القديمة . وكانوا يقومون بذلك إكراماً وتعظيماً لشأن الأرباب ، وعند الحج الى بيوت الآلهة، فيرمون بالشعر أمام الأصنام تعظيماً لها وبياناً عن مقدار احترامهم لها حتى ضحّوا بأعز رمز لديهم في سبيلها ، ولهذا كان لرمي ضفائر شعر الرأس عند القبر أهمية خاصة في نظر الجاهليين[1] .

وكان في روع الأمم القديمة ان الشعر للفرد قوة وحياة ، فحلقه أو جزء جزء منه . معناه تضحية كبيرة وصلة تربط الميت بالحي[2] .

القبر :

ويدفن الموتى عادة في حفر تحفر يقال لها : قبر ، وجدث ، ومقبر،ووجر ، ورمس ، وجنن[3] . أما في (بطرا) ، وفي بعض المناطق الجبلية والصخرية ، فقد نقرت المقابر في الصخور ، فصنعت على هيأة حجر وضعت جثث الأموات فيها . كما استعملت المقابر المرتفعة في مدينة (تدمر) ، وذلك بتشييد مبان وضعت فيها جثث الموتى في حجر صغيرة تعمل في تلك الأبنية .

واستعملت الكهوف مقابر كذلك . ففي المناطق الصخرية توجد كهوف طبيعية

---

١ Muh. Stud. I, S. 247.

٢ Ency. Relig., VI, p. 476.

٣ جنن ، ويجمع على اجنان ، اللسان (١٦/٢٤٥) ، Littmann, Safa. p. 69.

سكنها الإنسان ، واتخذها مقبرة له . وذلك بدفن الأموات فيها وسدّ بابها . وقد عثر الباحثون والسياح على عدد منها .

والقبر هو التسمية المعروفة الشائعة في أغلب أنحاء جزيرة العرب ، وقد وردت في نص النمارة ، وجمعها القبور . ذكر علماء اللغة ان (القبر) مدفن الإنسان وان (المقبر) موضع القبر . وأما (المقبرة) ، فهي موضع القبور[1] . وقد وردت لفظة (مقبر) و (مقبرت) أي مقبرة ، و (مقبرتم) أي (مقبرة) في حالة التنكير في نصوص المسند[2] .

وأما (الجدث) فالقبر ، والمجمع أجداث وأجدث، وهو قلة . وورد (الجدف) في بعض الروايات[3] .

وأما الوجر ، فهو كالكهف عند علماء اللغة[4] . فهو يؤدي معنى قبر على سبيل المجاز . وقد ورد في نص مدوّن بالمسند يعود الى القرن السادس للميلاد ، عثر عليه في العربية الشرقية . وهو شاهد قبر رجل اسمه (ايليا) .

ويذكر علماء اللغة ، ان الجنن : القبر ، سُمّي بذلك لستره الميت ، وأيضاً الميت لكونه مستوراً فيه ، وأيضاً (الكفن) لأنه يجن الميت ، أي يستره ، فالأصل في الكلمة الستر[5] ، ويجمع على أجنان[6] .

وقد وردت لفظة (ضرح) ، أي (ضريح) بمعنى قبر في اللغة الصفوية[7] . ولكن من الجائز أن تكون قد وردت فيها بالمعنى المفهوم من الكلمة في عربيتنا . كما وردت فيها ألفاظ أخرى بمعنى قبر ، مثل : (نفست) أي ، (نفس) ، و (مقل) ، بمعنى (مقيل) ، أي موطن الراحة ومحلها : و (نيت) . ويظهر ان لفظة (نفست) قد أخذت من أصل إرمي هو (نفسا) (نفشا) ،

---

١ اللسان (٢٧٦/٦) ، المخصص (١٣٠/٦ وما بعدها) .

MM8, REP. EPIGR. 3974, CIH 20, 21, F.V. Winnett, « A Monotheistic Himjarite Inscription », in BASOOR, NUM: 83, 1961, p. 24.

٢ تاج العروس (٥٩٩/٣) .

٣ اللسان (٤٣٣/٣) ، تاج العروس (٦٠٩/١) « المطبعة الخيرية » .

٤ تاج العروس (٥٩٩/٣ ، (وجر) .

٥ تاج العروس (١٦٣/٩) ، المخصص (١٣٠/٦) وما بعدها) .

٦ اللسان (٢٤٥/١٦) .

٧ E. Littmann, in Safaitic Inscriptions, Leydon, 1943, p. X.

وقد وردت لفظة (نفش) و (نفس) في النصوص النبطية واللحيانية والسبئية وفي نصوص دوّنت بلهجات عربيـــة أخرى[1] . ولعل للفظة (نيت) ، علاقة بـ (منوت) و (منايـا) و (منون) ، وهي تعني في الصفويـــة : المسافر والسفر أي في معنى أدبـي لطيف ، له صلة بالموت ، باعتبار ان الميت مسافـر من هذا العالم الى عالم آخر ، وان القبر هو مستقر ذلك السفر .

ويلحد أهل الحجاز لحداً في القبر لوضع الميت فيه . ويقال للـذي يلحد القبر ويضع الميت فيه (اللاحد) . ويقال للذي يعمل الضريح (الضارح)[2] .

وكان من عادة الجاهليين رجم القبور أي وضع أحجـار فوقها ، وذلك على سبيل التقدير والتعظيم للميت . فإذا زار قريب أو صديق قبر قريب أو صديق له رجمه ، أي وضع أحجاراً فوقه . والرجام الحجـارة . والرجمة أحجار القبر ثم يعبر بها عن القبر وجمعها رجام ورجم . وقد ورد في كتب الحديث ان الرسول قال : لا ترجموا قبري[3] ، وان (عبدالله بن مغفل المزني) قال : (لا ترجموا قبري ، أي لا تجعلوا عليه الرجم . وأراد بذلك تسوية القبر بالأرض)[4] ، وعدم نصب أحجار فوقه ليظهر واضحاً شاخصاً .

وتؤدي لفظـــة (رجم) و (رجمت) و (هرجم) أي (الرجم) ، معنى قبر أيضاً . وترد بكثرة في الكتابات الصفوية . ويراد بها الأحجار التي تكوم فوق قبر[5] . والعادة عندهم أن الشخص الذي يمر على قبر ما ، أو يزور قـــبر قريب له ، يضع حجراً او أحجاراً فوق القبر ، تكريماً لصاحبه وتخليداً لذكره، حتّى وان لم يعرفه ، لأن ذلك من باب احترام الموت والميت . فالرجام اذن ، هي قبور غطيت بأحجار .

وقد عثر على عدد من الرجام المكتوب الذي اتخذ شواخص للقبـــور فيه اسم الميت ودعاء على من يحاول نقل الرجمة من محلها أو على من يحـــاول تغيير معالم

---

١ المصدر نفسه .
٢ تاج العروس (٤٩٢/٢) . (لحد) .
٣ المفردات ، للاصفهاني (ص ١٨٩) .
٤ اللسان (٢٢٦/١٢) ، (صادر) ، (رجم) تاج العروس (٣٠٤/٨) ، (رجم) ، قاموس المحيط (١١٧/٤) .
٥ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol. II, 1953, p. 15, 20, 23.

القبر وازالته أو على من يريد اتخاذه قبراً له أو لأحد أفراد أسرته او يدفن أي أحد فيه . وقد أفادتنا هذه الشواهد في معرفة لهجة القوم وفي بعض الأمور التي لها صلة بالأصنام وبالدين .

وقد استعملت اللحيانية لفظة (قبر) ومنها (هتقبر) ، أي (القبر) ، للتعبير عن القبر ، كما استعملت لفظة أخرى هي (مثبر) (م ث ب ر) ومنها (همثبر) ، أي (المثبر) في معنى قبر[1] . وللثبور بالطبع صلة بالموت . وتعبر لفظة (كهف) في هذه اللهجة عن هذا المعنى أيضاً[2] .

ويقال للقبر المُسوّى مع الأرض (رمس) فإذا كان مرفوعاً عن الأرض فهو قبر مسنم[3] . ويظهر أن الجاهليين كانوا يسنمون قبورهم . وقد ورد في حديث (ابن مغفل) : (ارمسوا قبري رمساً)[4] . أي سووه بالأرض ولا تجعلوه مسنماً . والرمس تراب القبر والمَرْمَس موضع القبر[5] .

ووردت لفظة (مقبر) في الكتابات الصفوية ، بمعنى (القبر) ، أي الموضع الذي يقبر به . وهم يرصفون القبر ، ويعبّرون عن ذلك بكلمة (ارصف) . كما يرجمونها بالرجم ويعتبرون ذلك من امارات التقدير والاحترام[6] .

وعرفت مقابر النصارى بـ (الناووس) . وقد شك بعض علماء اللغة في أصلها ، فذهب الى احتمال كونها من أصل أعجمي[7] ، وهي من أصل يوناني ، ومعناها فيها : حجر منقور لدفن ميت ، كما أطلقت على مقبرة النصارى وعلى المعبد والكنيسة،لأن كثيراً ما كان النصارى القدامى يقبرون موتاهم في الكنائس[8] .

وقد حارب الاسلام عادة أهل الجاهلية في تسنيم القبور ورفعها عن سطح الأرض ، وشدّد على ذلك في الحديث ، وجعلت القبور المسنمة في حكم

---

١ W. Caskel, Lihyan und Lihjanisch, S. 84.

٢ راجع النصوص : ١ ، ٢ ، ٣٦ ، ٩٣ في المصدر المذكور .

٣ اللسان (٧/٤٠٥) ، (١٥/١٩٩) .

٤ اللسان (٧/٤٠٥) ، تاج العروس (٤/١٦٣) ، النهاية (٢/١٠٩) .

٥ بوزن المذهب ، مختار الصحاح (١٩٨) ، الصحاح ، للجوهري (٢/٩٣٣) .

٦ Littmann, Saf. p. 55, 69.

٧ تاج العروس (٤/٢٦٥) ، (نوس) .

٨ غرائب اللغة (٢٧٠) .

الأوثان[1] . ولا بد أن يكون لهذا التشديد سبب ، إذ لا يعقل ورود تلك الأحاديث في موضوع طمسها بغير داع ولا أساس . وسبب ذلك هو تقديس أهل الجاهلية لتلك القبور تقديسهم الأوثان وتقربهم اليها ، وهو ما لا يتفق ومبادىء التوحيد في الإسلام .

ونهى الإسلام عن تكليل القبور . (أي رفعها تبنى مثل الكلل . وهي الصوامع والقباب التي تبنى على القبور . وقيل : هو ضرب الكلة عليها . وهي ستر مربع يضرب على القبور)[2] . وقد كانوا يبنون البيوت والأبنية فوق القبور . وقد نادى الشاعر (لبيد) باني قبر عزيز له بأن يضعف من سمك القبر وأن يرفع الحائط أو السقف، حتى يكون هناك متسع من فضاء فوق القبر[3] . وذكر أنه كانت على قبر (أبي أحيحة) قبة مشرفة[4] .

وقد ورد في شعر (بشر بن أبي خازم الأسدي) ما يفيد بناء أضرحة فوق القبور ، ورفع القبر عن الأرض حتى يكون كسنام الجمل بارزاً ظاهراً . وقد عبر عن بناء القبر ورفعه عن الأرض وبناء ضريح عليه بـ (ارتفد الضريح)[5] والضريح في تعريف علماء اللغة ، الشق في وسط القبر ، وقيل القبر كله أو قبر بلا لحد . وذلك لأنهم يجعلون اللحد في جانب القبر[6] .

ويظهر أن يهود الحجاز ونصاراه كانوا قد بالغوا في ضرب القباب والأضرحة على قبور موتاهم وفي تعظيم قبور أحبارهم وقسسهم ، حتى تحولت قبورهم إلى أضرحة ومزارات . تزار في المناسبات وقد دفنوهم في المعابد . لذلك نهي عن التشبه بفعلهم في الإسلام . وأشير الى عملهم هذا في القرآن الكريم وفي كتب

---

١ « عن أبي الهياج الاسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب : الا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى اللهعليه وسلم أن لا تدع تمثالا الا طمسته ولا قبرا مشرفا الا سويته » ، صحيح مسلم (٦١/٣) « باب الامر بتسوية القبر » .

٢ تاج العروس (١٠٣/٨) ، (كلل) .

٣ شرح ديوان لبيد (ص ٢٩٢) .

٤ أنساب الاشراف (١٤٢/١) .

٥ سناما يرفع الاحلاس عنه   الى سند كما ارتفد الضريح
ديوان بشر (ص ٥٠) .

٦ اللسان (٥٢٦/٢) . مختار الصحاح (٧٣) ، تاج العروس (١٨٧/٣) ، اللسان (٥٢٦/٢) ، المخصص . (١٣٠/٦ وما بعدها) .

الحديث . وقد وضع اليهود والنصارى شعار اليهود والنصارى على قبورهم لتمييزها عن مقابر الوثنيين[1] .

ويقال للحائر الذي يحيط بالقبر (الودع) . وقيل : الودع القبر ، أو الحظيرة حوله ، أو المدفن يحير به حائر[2] .

وتعرف علامات القبر ومعالم حدوده بـ (الآيات) ، والآية هي العلامة[3] . وقيل للرجمات التي وضعت على القبر الأحجار والأطباق والصفيح والصفائح والصفاح[4]. ويراد بالصفائح الحجارة العريضة التي توضع على القبر لتغطيته[5] .

وكان منهم من يضع الجريد على القبر ، ومنهم من يضعه داخل القبر[6] . وقد تغرز الجريدة في القبر فيكون رأسها بارزاً فتكون علامة تشير الى القبر. وذكر أن رسول الله أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة[7] . ولا زال الناس يتبعون هذه العادة . وقد استعملوا الأذخر والحشيش في قبورهم كذلك . كانوا يضعون الأذخر في الفرج التي تكون بين اللبنات،ويضعون الحشيش تحت الميت وفوقه[8] .

وعثر في مواضع من جزيرة العرب على مقابر دعاهاالباحثون : (تمولي) **Tamuli** لأنها على شكل تلال أو هضاب . وقد اتخذت مدافن . منها (تمولي) البحرين . وسأتحدث عنها في أثناء حديثي عن الفن والعمارة عند الجاهليين .

وقد عثر المنقبون على مقابر جاهلية عامة ، على نحو ما تجده من المقابر العامة في هذا الوقت . وقد نبش عدد منها في الاسلام ، لاتخاذها أملاكاً أو مساجد ، كما حوّل بعضاً منها الى مقابر اسلامية،دفن فيها المسلمون بعد أن أزيلت ونبشت قبور الجاهليين. وأشير اليها في كتب الحديث. ويظهر ان بعضاً منها كان ذا أضرحة وقبور مرتفعة عن الأرض[9] .

---

١ ارشاد الساري (١/٤٢٩) .

٢ تاج العروس (٥/٥٣٧) ، (ودع) .

٣ تاج العروس (١٠/٢٦) ، Muh. Stud. I, S. 233, Noldeke, Beiträge, S. 99.

٤ Muh. Stud., I, S. 233.

٥ تاج العروس (٢/١٨١) .

٦ ارشاد الساري ، للقسطلاني (٢/٤٥٢ وما بعدها) .

٧ المصدر نفسه .

٨ ارشاد الساري (٢/٤٤٢ وما بعدها) .

٩ ارشاد الساري (١/٤٢٩) ، (٢/٤٣٧) .

ولا يدفن في المقابر إلا أفراد العائلة التي تمتلكها ، أو من يؤذن بدفنه فيها . ويعد الإذن بدفن غريب في مقبرة خاصة من علامات التقدير والاحترام بالنسبة للمتوفى الغريب . وقد تحجز مناطق من مقبرة عامة لتكون مقبرة خاصة،فلا يسمح لأحد بالدفن فيها إلا لمالكها . وقد تسور ويعمل لها باب ، وقد يقام ضريح أو بناء ضخم ، مع ان المقبرة هي جزء من مقبرة عامة . ولا تزال هذه العادة متبعة وقد تشترى الأرض ممن يتولى أمر المقبرة العامة . ويحافظ أهل المقابر الخاصة على مقابر أسرهم فيتعهدونها بالرعاية والعناية وبإدامتها على خير وجه . وهي تزار في المناسبات تقرباً الى أصحاب القبور ، لئلا تنقطع صلتهم بموتاهم . وورد ان بعضاً من الجاهليين كان يضرب قبة على قبر عزيز له مدة سنة (للاستمتاع بقربه وتعليلاً للنفس وتخييلاً باستصحاب المألوف من الأنس ومكابرة للحس. كما يتعلل بالوقوف على الأطلال البالية ويخاطب المنازل الخالية)[1] .

وتراعى القرابة والمنزلة في دفن الموتى في المقابر فتدفن الزوجة على مقربة من زوجها في الغالب والابن على مقربة من أبيه ، وهكذا فكأنهم يريدون بذلك جمع شمل العائلة ، وإعادتها الى ما كانت عليه يوم كانوا أحيـاءً . واذا كان المتوفى عظيماً وذا مكانة ومنزلة حرص أقرب الناس اليه من أصحابه على نيل شرف الدفن على مقربة منه عند دنو أجلهم . وقد تتحول أمثال هـذه المقابر الى مزارات ، خاصة اذا كانت مقابر كهنة وسدنة ورجال دين .

أما قبور الأعراب والفقراء والسواد ، فهي بسيطة ، حفرة تحفر في الأرض يوارى فيها الميت،ثم يهال عليه التراب أو الرمال أو الحجارة حسب طبيعة الأرض فتكون قبر ذلك الميت . وقد يسوّى القبر بالأرض فلا تظهر آثاره ولا تبرز معالمه عن معالم القشرة ، وقد يرفع التراب بعض الشيء ليكون علامة عليه . وقد توضع عصي أو أحجار فوقه لتكون إشارة تشير الى مكانه . وليس في إمكان الأعراب النازلين في البوادي البعيدة عن الحضر ، فعل غير ذلك ، ولا سيما اذا كان الموت قد وقع في حين نزول القبيلة في أرض جاءت اليها في الموسم لترعى العشب أو في أثناء تنقل فإنها لا تستطيع أن تصنع قبراً لميتها غير هذا القبر .

ومدة العزاء عند الجاهليين حولٌ ، أي سنة لا يترك أهل الميت فيها ذكرى

[1] ارشاد الساري (٤٢٩/٢ وما بعدها) .

فقيدهم ، فيندبونه في أوقات معينة ويبكون عليه عند قدوم قادم اليهم ، وينحرون لذكراه ويكرمون من يأتي اليهم لتعزيتهم[1] . وقد كانت مدة العزاء حولاً عند العبرانيين أيضاً وعند غيرهم من الساميين والشعوب الأخرى ، يقوم فيها أبناء الميت أو بناته بتلاوة صلوات خاصة في خلالها على الميت ليرحمه الله وليغفر له وليسعد روحه[2] . وتكاد هذه المدة تكون أمداً للعزاء ولذكرى الميت عند كل الشعوب الى هذا اليوم .

وأما مدة المناحة فهي في العادة سبعة أيام . فلما مات (زيد الخيل) ، الشاعر الفارس ، وهو في طريقه الى دياره ، أقام (قبيصة بن الأسود) المناحة سبعة أيام[3] . ولا تزال هذه المدة مرعية في العراق ، حيث تنوح وتبكي النسوة فيها موتاها ، ويكون اليوم السابع هو ختام العزاء . أما الرجال ، فيقيمون العزاء ثلاثة أيام ، ويسمونه (الفاتحة) في الإسلام بالعراق في هذه الأيام . ويجلس أقرباء الميت وأهله عند العبرانيين سبعة أيام في البيت حزناً عليه وتقبلاً لتعازي الناس . وقد ورد أن مدة النياحة قد تستمر عند الجاهليين فتكون حولاً[4] .

ملابس الحزن :

ويلبس أهل الميت وأقرباؤه ملابس الحزن مدة العزاء أو حولاً كاملاً . واللونان الأبيض والأسود هما اللونان اللذان تتخذ منها الملابس في الحزن ، فقد لبسوا الملابس البيض ، ولبسوا الملابس السود ، وما زال اللونان شعاريّ الحزن حتى الآن . فاللون الأبيض هو شعار الحزن في الحجاز والشأم ، أما الأسود ، فهو شعار الحزن في العراق .

وحداد المرأة على زوجها حداد صعب عسير ، عليها في هذه المدة الإمتناع عن الزينة والطيب امتناعاً تاماً ، ويقال لها في هذه الأثناء (الحادة) لأنها حدت على زوجها ، وفي خلال الحداد يمتنع الخطاب من خطبتها والطمع فيها حتى تنتهي منه[5] .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٢) .
٢ Isidore Epstein, Judaism, p. 178.
٣ الاغاني (١٦/٤٨) .
٤ اللسان (٣/٢١٦) .
٥ أعمدة القاري (٢١/٢ وما بعدها) .

ويفهم من بعض روايات الأخباريين أن من عادة الجاهليين حجز المرأة عند وفاة زوجها في بيت صغير ، قد يكون خيمة أو بناء يسمونه (الحفش) ، لتقضي فيه مدة العدّة . فإذا كانت في هذا البيت ، لبست شرّ ثيابها ، وامتنعت عن الطيب وعن تزيين نفسها مدة عام[1] . فإذا انتهت المدة افتضت عدّتها (بمس الطيب أو بغيره كقلم الظفر أو نتف الشعر من الوجه أو دلكت جسدها بدابّة أو طير ، ليكون ذلك خروجاً عن العدّة . أو كان من عادتهم أن تمسح قُبُلَها بطائر ، وتنبذه فلا يكاد يعيش)[2] .

وتصف رواية أخرى دخول المرأة الحفش وخروجها منه على هذه الصورة : « كانت إذا توفي زوجها دخلت حفشاً ولبست شرّ ثيابها حتى تمرّ بها سنة ثم تؤتى بدابة ، شاة أو طير فتفتض بها ، فقلّما تفتض بشيء إلاّ مات . ثم تخرج فتعطي بعرة ترمي بها ... » . وجاء : « كانت لا تغتسل ولا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تنتف من وجهها شعراً ، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ، ثم تفتض بطائر تمسح به قبلها وتنبذه فلا يكاد يعيش »[3] .

ومن عادات بعض الجاهليين ضرب القباب على قبور موتاهم أياماً او أشهراً قد تبلغ عاماً ، يقيم فيها نساء الميت أو ذوو قرابته ، ليجاوروا الميت، وليستقبلوا فيه من يفد لزيارة القبر[4] . واعتقادهم بإحساس روح الميت بوجودهم هناك وبمجيئهم الى القبر لمؤانستهم له هو الذي حملهم ، ولا شك ، على ضرب هذه القباب وعلى مجاورتهم لتلك الأجداث . ومن هذه القباب المؤقتة ظهرت الأضرحة الثابتة ذات القباب السامقة الشامخة ، كما أن من المعابد المتنقلة ، أي الخيام المقدسة ، نشأت المعابد الثابتة عند العبرانيين وعند الجاهليين وعند غيرهم من الشعوب .

ومن عادة الجاهليين إسالة دم الذبائح على القبر أو تضريجه بتلك الدماء . فيعقر على قبور الموتى ، وعند إهالة التراب على الميت ، وقد يعقر على القبر كل عام وفي أثناء المناسبات اذا كان الميت من السادة المشهورين المعروفين بالخصال الحميدة كالشجاعة والكرم . وفي الشعر الجاهلي والأخبار أسماء أناس كانوا من المشاهير في

---

١ تاج العروس (٤/٣٠٠) ، اللسان (٨/١٧٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٧٠) ، صبح الاعشى (١/٤٠٣) .
٣ تاج العروس (٥/٧٠) ، نهاية الارب (٣/١٢٠) .
٤ Muh. Stud., I, S. 257.

ايامهم ، جرت العادة بأن تذبح الذبائح عند قبورهم إكراماً لهم . وقد بقيت هذه العادة الجاهلية خالدة حتى اليوم مع إبطال الاسلام لها بحديث : « لا عقر في الاسلام »[1] . وليس من الضروري أن يكون أصحاب العقائر من ذوي قرابة صاحب القبر أو من قبيلته . ومن هذه القبور قبر (ربيعة بن مكدم) من (بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة)[2] . وكان الناس يعقرون على قبره . ويظهر من شعر لحسان بن ثابت قاله لما مرّ بقبره ، أن قبره كان قبراً مبنياً بني من حجارة حرة[3] .

والعادة في العقر ، عقر قوائم الدابة ، وقد تعقر الدابة ثم تذبح، والغالب ان تكون الدابة جملاً أو ناقة ، ولكن بعضهم كان يعقر شاة كذلك ، وذلك اذا كان أهل الميت من طبقة ضعيفة ، يصعب عليها عقر جمل أو ناقة . وقد ورد النهي عن ذلك في حديث آخر هو : « لا تعقرن شاة أو بعيراً إلا لمأكله »[4] .

وقوم كان يحبسون ناقة الرجل وذلك بأن يشدّوا الناقة الى قبر الرجل ، ويعكسو رأسها الى ذنبها ، ويغطو رأسها بوليّة ، وهي البردعة،وتربط برباط وثيق حتى لا تهرب ، فإن أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى ، واذا بقيت على القبر ، فإنها تبقى في حفرة لا تعلف ولا تسقى حتى تموت عطشاً وجوعاً،ويقال لهذه الناقة السيئة الحظ البليّة . ويزعمون انهم انما يفعلون ذلك ، ليركبها صاحبها في المعاد ، ليحشر عليها فلا يحتاج أن يمشي . قال أبو زبيد :

كالبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السموم حُرّ الخدود[5]

ووجدت في قبور الجاهليين أشياء مما يستعمله الإنسان في حياته مما يدل على أنهم كانوا كغيرهم يدفنون مع الموتى ما يشعرون ان الميت قد يحتاج في حياته الأخرى اليه[6] . أما الأعراب فلا تتصور أنهم كانوا يدفنون مع الموتى أشياء ثمينة

---

١ « لا فرع ولا عتيرة » الحديث رقم ٦ ، ٧ ، من أحاديث كتاب العقيقة ، صحيح البخاري .

٢ بلوغ الارب (١٢٥/٢ وما بعدها) . Muh. Stud. I, S. 241.

٣ نفرت قلوصي من حجارة حرة بنيت على طلق اليدين وهوب
بلوغ الارب (١٢٥/٢) .

٤ اللسان (٥٩٢/٤) .

٥ النهاية ، لابن الاثير (٩٥/١) ، نهاية الارب (١٢١/٣) .

٦ Reste, S. 180.

لفقرهم وبساطة معيشتهم . وقد عثر في مقابر أهل العربية الجنوبية مثل اليمن وحضرموت على حلي وأحجار نفيسة وأمثال ذلك مما دفنه أهل تلك البلاد مع موتاهم ، ليتزينوا بها في العالم الثاني .

وتؤيد روايات أهل الأخبار عن فتح القبور في الاسلام بحثاً عن الغنى والمال، ما ذكرته من احتمال وجود رأي عند عرب ما قبل الإسلام ، بأن الميت سيحتاج الى هذه الأشياء التي دفنت معه ، وأنه سيستفيد منها في عالمه الثاني الذي رحل اليه . ولكني لا أستبعد احتمالاً آخر ، قد يكون أهل الجاهلية قصدوه من دفن الذهب والفضة من حلي أو سبائك أو صفائح مكتوبة مع الميت ، هو رغبة أهل الميت في اظهار شعور الود والمحبة نحو ذلك الميت ، بدفن تلك النفائس العزيزة معه ، لاظهار أنهم لا يبالون بها بعد فقدهم عزيزهم الميت ، وأنهم يريدون دفن كنوزه معه ، تعففاً عنها وإزدراء بها . وقد ورد في بعض الأخبار أن امرأة ماتت ، فدفنوها مع متاعها[1] .

ولصيانة القبر وبقائه على حاله أهمية كبيرة عند الجاهليين ، تتجلى في الجمل التي دوّنوها على شواخص قبورهم ، هذه الشواخص التي عثر عليها السياح والباحثون في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، وهي تطلب إلى الآلهة بأن تنزل الآلام والأمراض والعاهات بمن يتجاسر فينقل شاخص القبر من مكانه ، أو يكسره ويأخذه ليستعمله ، أو ما شاكل ذلك[2] . وجملة (عور لذ عور سفر) أي (عور الذي يعور الشاخص) ، أو جملة (وعور دشر وخبل) ، أي عمى وجنون (خبل) من الإله (ذو الشرى) ، على من يحوّر هذا الشاخص ويغيره أو يأخذه ويغيره لغرض ما[3] ، وأمثالها ، هي من العبارات المألوفة التي نقرأها بكثرة على شواخص القبور .

ومن الطبيعي أن نجد هذه العبارات وعبارات أخرى أشد منها مدونة على تلك الشواخص ، راجية من الآلهة أن تنزل عقابها على من يحاول التطاول على حرمة

---

١ اللسان (١٢/٤٨٤) ، « صادر » ، (قنسم) .

٢ South Arabian Inscriptions, p. 53, Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol. II, 1953, p. 33.

٣ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol. I, 1951, p. 27.

القبر بدفن غريب فيه. ويظهر من هذه العبارات ان من الجاهليين من كان يتطاول على القبور ، ولا سيا القبور المنحوتة والقبور الجيدة المبنية على شكل غرف ، وأضرحة ، فيدفنون موتاهم فيها ، وبذلك تدخل جثث غريبة في تلك القبور ، أو يحولوا تلك المقبرة القديمة الى مقبرة جديدة . وقد يزيلون معالمها تماماً ، أو يدفنون أمواتاً فوق أموات على نحو ما نفعل اليوم في المقابر القديمة المشهورة المقامة حول الأولياء ، حيث تتحول المقابر القريبة من الولي الى مقبرة قد ترتفع من كثرة ما يدفن عليها ، حتى تكون مرتفعاً عن ظاهر الأرض .

وتزار قبور السادات والأشراف ، وخاصة قبور كبار سادات القبائل ، ويذبح عندها ، ويحلف بها ، ويلجـأ اليها طلباً للأمان والسلامة ، فلا يستطيع أحد التحرش بمن التجأ الى صاحب القبر ولا ذويه . وقد هجا (بشر بن أبي خازم الأسدي) (أوس بن حارثة) من (آل لأم) ، فكان في جملة ما قاله في هجائه :

جعلتم قبر حارثة بن لأم   إلهاً تحلفون به فجوراً

وحارثة بن لأم صاحب القبر ، هو أبو أوس المهجو[1] .

وقد أشار أهل الأخبار الى قبور سادات جاهليين كان الناس يفدون اليها ، ويعظمونها ، ويلوذون بها ، ويطوفون حولها ، منها قبر (تميم) بموضع (مرّ الظهران) ، وقبر (عامر بن الطفيل) ، وقد وضعوا الأنصاب حول القبر لتكون علامة له ، فلا يدخل الساحة التي يكون فيها القبر الى موضع الأنصاب حيوان أو راكب ولا يهتك حرمتها انسان . كذلك كان الناس يحلقون شعورهم عند مثل هذه القبور ، كالذي كانوا يفعلونه عند الأصنام[2] .

وقد حجت قبائل قضاعة الى قبر كان على مرتفع من الشحر ، زعم أنه قبر جدّ قبائل قضاعة[3] . وكانت أمثال هذه القبور ملاذاً يلوذ بها أصحاب الحاجات، كما قصدها الشعراء لانشاد قصائدهم في مدح صاحب القبر والتغني بمجده وبمجد

---

١ ديوان بشر (ص ٩١) .
٢ Reste, S. 184, Muh. Stud. I, S. 231, Smith, Dictionary p. 19.
٣ Muh. Stud., I, S. 231, 235.

قبيلته . ولها حمى حكمه حكم الحمى الذي يحيط ببيوت الأصنام . ويقسم بهذه القبور وبحق أصحابها ، كما يقسم بالأجداد ، ويعد هذا النوع من القسم يميناً لا يجوز الكذب فيه ، وهو كالايمان المغلظة التي يحلف بها الناس ويذكرون فيها الآلهة وأسماء الأصنام .

وفي كتب الحديث أن النبي نهى عن الحلف بالآباء والأجداد وبتربهم ، لأن ذلك من عمل أهل الجاهلية . وقد كانت قريش تحلف بآبائها وبأجدادها فتقول : «أبي أفعل هذا ، أو وأبي لا أفعل وحق أبي أو تربة أبي أو وتربة جدك ، ونحو ذلك . وهي ايمان من ايمان الجاهلية نهى النبي عنها [1] .

---

(1) عمدة القارىء (٢٩٢/١٦) ، .Muh. Stud. I, S. 229

الفصل الثاني والخمسون

الدولة

أقصد بالدولة الشعب والحزب أو الجماعة الحاكمة له في أرضه وتحت سلطانه وفي حيازته وملكه. لذلك لا أشترط في هذه الدولة أن تكون دولة كبيرة كالدولة الرومانية أو اليونانية أو الساسانية، فقد تكون الدولة حكومة قَرْيَة مثل يثرب أو مكة، وقد تكون حكومة قبيلة، وقد تكون أكبر من ذلك وأوسع مثل دولة الحيرة ودولة الغساسنة ودول اليمن. فلا علاقة اذن لكبر أو لصغر الحكومة بمفهوم الدولة في نظري، فكل حكومة جاهلية مستقلة، هي عندي مع شعبها أي التابعين لها دولة صغرت أم كبرت.

والشعب في الجاهلية وعند الجاهليين، هو القبيلة. فالقبيلة هي أصل الدولة ونواتها، وتقوم على رابطة الدم، أي على فكرة ان القبيلة هي من صلب رجل عاش حقاً ومات، وان أفرادها من هنا يرتبطون بينهم برابط الدم، أي ان بينهم قرابة وصلة رحم. أما وطن القبيلة، فالأرض التي نشأت فيها، ثم الأرض التي هي عليها. فن القبيلة ومن أرضها، تكونت دولتها، وعلى رأسها سيد القبيلة.

هذا بالنسبة الى الأعراب، أما بالنسبة الى الحضر، فإن فكرة الدولة عندهم تختلف باختلاف درجة أولئك الحضر. فالدولة في العربية الجنوبية، تجمع شمل قبائل عديدة كما تضم طوائف وفئات رُسمت لها حدود معينة وحددت بحدود وقيود، فلا تتجاوزها. وقد حدد المجتمع مكانتها ومنزلتها بحيث جعل من المجتمع العربي الجنوبي مجتمعاً طبقياً. يتمتع فيه الملوك ومن يأتي بعدهم من حكام

وأصحاب معبد وأرض بأعلى المنازل ، ثم تليهم بقية الطبقات حسب قوتها ومكانتها الى أن تصل الى سواد الناس ، وأقلهم منزلة الرقيق واصحاب الحرف المبتذلة . وهو نظام بقيت روحه وجذوره قائمة في اليمن الى الوقت الحاضر ، ولكنه بدأ يجابه بمقاومة روح العصر وتقدم البشرية ، فأخذ يتهدم بعض التهدم حسب مواطن الضعف في البناء . وأما في الأماكن الحضرية الأخرى ، مثل العربية الشرقية وفي الحجاز ، أو نجد ، فإن درجة فهم الناس فيها للدولة ، اختلف فيها ، باختلاف تقدم ذلك المكان في الحضارة وباتصاله بالعالم الخارجي .

وبفضل عثور الباحثين على كتابات تعود الى عهود مختلفة من تأريخ العربية الجنوبية ، استطعنا الالمام بعض الالمام بشيء من نظم الدولة في تلك الأرضين . وفي جملتها طرق الحكم فيها ونفوذ رجال الدين وأصحاب الأرض والحياة الاقتصادية التي جعلت العربية الجنوبية مجتمعاً مكوناً من طبقات ، يسيره الحكام ورجال الدين وأصحاب المال والأرض . أما بالنسبة الى المواضع الأخرى ، فإن علمنا عن هذه الأمور هو دون علمنا عن العربية الجنوبية بكثير ، بسبب عدم عثور الباحثين على كتابات جاهلية فيها ، نستطيع أن نستلهم منها وحينا عن الماضي البعيد . ولذلك فعلمنا عنها ضحل، استمد أكثره من أخبار اهل الأخبار ، وهي فجة أو مصنوعة، أو محرفة حرفها مرور الزمن،أو مدسوسة عمداً من اخباري أراد اظهار علمه للناس ، أو من متعصب لقبيلة أراد بدسه الأخبار التفريج عن عاطفة التعصب الكامنة في نفسه .

ويعبر عن سكان القرى والمدن بـ (أهل) وبـ (آل) . فيقال (أهل مكة) و (أهل يثرب) ، ويراد بهم قطان مكة وسكان يثرب ، و (شعب) في التعبير الحديث ، على اعتبار أن كل مدينة مستقلة بشؤونها قائمة بإدارة أمورها وهي حكومة ذاتية يدير حكمها سادات المدينة . على نحو ما كان عليه الوضع في القرى الأخرى من الحجاز وفي نواحٍ عديدة من جزيرة العرب . وإذا أصيب احدهم بضيم ، او أراد شيئاً يتطلب العون والمساعدة نادى : (يا اهل مكة) أو (يا آل مكة) ، فيلبي ساداتها نداءه ويمضون في معالجة أمره ، والغريب عند (اهل مكة) ، له حق النخوة والإستجارة ، فإذا نادى بشعارهما حصل على من يدافع عنه ويأخذ حقه ممن ظلمه .

ويشعر سكان المدن والقرى انهم كالقبيلة من اصل واحد ، وأن لهم جداً

أعلى ، يرجع نسبهم اليه ، او جدة إن انتمى اهل المدينة الى امرأة . وذلك ، لاعتقادهم أنهم من قبيلـة واحدة في الأصل ، هاجرت الى هذا المكان فسكنت فيه . فرجع نسب مكة الى (قريش) ، ونهاية نسب اهل يثرب من الأوس والخزرج الى (قيلـة) جدتهم ، ونسب أهل الطائف الى ثقيف . فنحن إذن وإن كنا امام مدن وقرى ، اي أمام عرب حضر ، لكننا نجد انفسنا امـام نظم تقوم على أسس قبلية وعقلية قبلية . فالقرية في الواقع قبيلة مستقرة تمركزت في مكان واحد . وقـد تمسكت بنظم تفرع القبيلة وبالعصبية ، وبما الى ذلك من عرف مجتمع أهل البادية . وقد بقيت رابطة النسب وصلة الدم بهـا قوية . ذلك لأن تلك القرى ، وإن جلبت اليها الأجانب والغرباء ، غير انها بقيت مجتمعات منعزلة ، لأن وسائل الاختلاط لم تكن متهيئة لها في ذلك الوقت ، حـتى تجبرها على الخروج عن العزلة ، والاختلاط بالغير ، اختلاطاً شديداً على نحو ما يحدث للحضر في الأمكنة المتحضرة الممتزجة بالسكان .

وجدّ القبيلة ، هو مصدر إلهامها ، ورابطها الروحي الذي يربط بينها . باسمه تتنادى في الغزوات والحروب ، لتبعث حرارة الاندفاع والحماسة في القتال ، وبه يدعو للنخوة أبناؤها ومن يلتجىء الى القبيلة من مولى أو جار ، وبقبره يلاذ إن كان له قبر ، وباسمه يحلف كما يحلف بأسماء الآلهة .

وللقبائل مصدر إلهام روحي آخر ، هو أصنامها . فكان (المقه) صنم سبأ ، وكان (ودّ) صنم (معين) ، وكان للقبائل العربية الشمالية التي حاربت الآشوريين أصنام يحملونها معهم في سلم وفي حرب . ويستمدون منها المدد والعون في الغزوات والحروب . ويعد سقوط الصنم في أيدي الأعداء نكسة للقبيلة وعاراً على أبنائها ، لذلك كانوا لا يهدأ لهم بال حتى تعاد اليهم أصنامهم . وكان من أهم ما يدعو القبائل العربية الى التهادن مع الآشوريين رغبتهم في استعادة أصنامهم وضمان عودتها من المنفى والأسر الى الحرية .

ولما ظهر الاسلام كانت القبائل ما تزال تحتمي بأصنامها وتدعوها لتنصرها في الحرب ، حتى من تحضّر منها واستقر ، مثل أهل مكة الذين كانوا ينادون : (أعْلُ هُبَلْ . أعْلُ هُبَلْ) في حربهم مع المسلمين . أمـا الذين غيّروا دينهم وتنكروا لعبادة الأصنام فقد احتموا بشفعاء جدد ، أخذوهم من النصرانية التي دخلوا فيها ، فكان لهم قديسون يلوذون بهم في أثناء القتال .

ويعبّر عن القبيلة بلفظة (شعب) في العربيات الجنوبية [1] . فالقبيلة والشعب إذن لفظان مترادفان على معنى واحد . الشعب بمعنى قبيلة في عربية القرآن الكريم ، والقبيلة بمعنى شعب في العربيات الجنوبية . ولكن علماء العربية يفرقون بين اللفظتين، فيجعلون الشعب أكبر من القبيلة . والظاهر ان هذا التفريق قد وقع في الجاهلية القريبة من الاسلام ، ونجده في القرآن الكريم في آيـة الحُجرات : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [2] . فذكر المفسرون ان الشعب أكبر من القبيلة . غير ان كثيراً من علماء العربية يرون أن الشعب والقبيلة في معنى واحد [3] .

وقد وردت كلمة (شعب) في الكتابات السبئية بمعنى قبيلة كما ذكرت ، فورد : (شعب سبا) ، بمعنى قبيلة سبأ . وورد (سبـا واشعبهمو) بمعنى (سبـأ وأشعبهم) ، أي السبئيون وقبائلهم ، ويراد بقبائلهم القبائل الأخرى الخاضعة لهم [4] .

ويرى بعض الباحثين في العربيات الجنوبية ، ان لفظة (شعب) لا تعني عند العرب الجنوبيين معنى (قبيلة) بالمعنى المفهوم من اللفظة عندنا ، بل تعني جماعة ترتبط بالدولة وبالآلهة : آلهة الدولة ارتباطاً ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً . فإذا قلنا شعب سبأ (شعبن سبا) ، فإننا لا نقصد قبيلة سبأ ، بل أمة سبأ ، أو شعب سبأ بالاصطلاح الحديث . أي رابطة مواطنة تجمع شمـل جميع المواطنين بالدولة جمعاً روحياً ومادياً ، أي ان أمة سبأ تجمع السبئيين وغيرهم من الغرباء من أتباع حكومة سبأ ، الخاضعين لحكم هذه الحكومـة ، ويدينون بالولاء لهـا ولأنظمتها ولقوانينها الروحية والمادية [5] .

ونجد في النصوص العربية الجنوبية إشارات الى وجود ثلث أو ربع أو نصف قبيلة . فورد : (ثلثن سمعى) ، أي (ثلث سمعي) . ومعنى هذا ان جـزءاً

---

١ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 448.

٢ الحجرات ، الاية ١٣ .

٣ تاج العروس (١٣٤/٣) ، (شعب) .

٤ يراجع السطر التاسع من النص في : REP. EPIG. V, 2726

٥ Grohmann, S. 122, Rhodokanakis, Der Grundsatz der Offentlichkeit in Südarabischen Urkunden, S. 42, (1945), Bodenwirtschaft, 181, 183, Handbuch I, S. 119.

من قبيلة ما تعاون مع سكان منطقة ما لاستغلال أرض وللاستفادة من غلاتها . فيذكر عندئذ رقم الجزء الذي نزل في هذا المكان . ولا يعني هـذا بالضرورة ثلث أبناء القبيلة أو ربعها أو نصفها أو خمسها على الوجه المفهوم من القبيلة عندنا . بل يعني ذلك توزيع الأعمال والشغل على المجتمعين الذين تجاوزوا ورضوا بالعمل معاً حسب الأجزاء المذكورة ، التي تمثل نسب اشتراك المشتركين في العمل .

وفي العربيات الجنوبية مصطلح ، له صلة بمعنى (المواطنة) والمواطنين بالمعنى الحديث . وهو مصطلح : (خمس) ويجمع على (اخمس) (أخمس) ، ويراد به مواطنو مملكة او إمارة . فهو بمعنى المواطنة او الرعاية في الاصطلاح الحديث . فكل من يعيش في حكومة ما في اي مكان كان ، من قرية او مدينة ، فهو (خمس) ، أي مواطن ومن رعايا تلك الحكومة ، كما نرى في هذه الفقرة في نص (معيني) : (وكل الا لت معن ويثل وكل الا لت ذا خمسم واشعبم) ، ومعناها: (وكل آلهة معين ويثل وكل آلهة المواطنين والقبائل) . ويراد بـ (اشعبم) هنـا القبائل ، أي الأعراب . واما (أخمس) ، فيظهر أن المراد بها الرعايا الحَضَر المستقرون . وورد في نص سبئي : (خمسيهو وحميرم) ، أي (مواطنو سبأ وحمير) .

وترد لفظة (جوم) (كوم) في النصوص السبئية القديمة بوجـه خاص ، مثل هذه الجملة (هوصت كل جوم)[1] . ويرى بعض الباحثين أن (هوصت) بمعنى (ملة) . و(الملة) ، في الإسلام، يراد بها نظام ديني واقتصادي واجتماعي، ارتبط أفراده بمجتمع واحـد ، برابط الأمور المذكورة[2] . اما لفظة (جوم) (كوم) ، فترادف لفظة (قوم) في عربيتنا . وقد يكون القوم عدداً صغيراً، وقد يكون كبيراً. ويرتبط القوم برباط متين يربط افراده ، هو الإلـه الذي ينتمي القوم اليه . فورد (جوم عثتر) و (كوم ود) ، اي (قوم عثتر) (وقوم ودّ) . فالقوم إذن جماعة وإخوان في دين ، تؤمن بإلـه يجمع شمل المؤمنين به ، ويربط بينهم برباط العقيدة والإيمان به ، لا برباط النسب وصلة الرحم والدم .

هذا ، ويذكر علماء اللغة ان (الملة) ، الشريعة والدين ، كملـة الإسلام

---

١ يراجع النص : Glaser 484.

٢ Rhodokanakis, Stud. II, S. 8, WZKM. 28, 110, Note : 2.

والنصرانية واليهودية . وهي في اللغة السنة والطريقة[1] . وقد وردت في خمسة عشر موضعاً من القرآن الكريم[2] . استعملت في ثمانية مواضع منها للتعبير بها عن دين إبراهيم : (ملّة ابراهيم) . وللمستشرقين آراء متضاربة في أصل الكلمة[3] .

والمواطنون هم أبناء (القبيلة) ، التي هي نواة الحكومة وجرثومتها ، والتي بقوّتها تكونت تلك الحكومة ، والقبائل المتحالفة معها ، أو التي خضعت لحكمها فتبعتها . ولهذا تذكر القبيلة ويشار اليها ، باعتبار ان الحكومة هي حكومتها في الأصل ثم يشار الى القبائل الخاضعة لها للدلالة على انها في حكم تلك الحكومة . فقد ورد في الكتابات السبئية (سبا واشعبهمو) ، بمعنى سبأ والقبائل التابعة لها[4]. وورد : (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في المرتفعات وفي التهائم) ، وهو لقب ملوك سبأ بعد توسع رقعة سبأ واستيلاء السبئيين على غيرهم وضمهم ارضهم الى ارض دولتهم . فدوّن اسم سبأ أولاً ، باعتبار ان السبئيين هم العنصر الحاكم المكون الأول للدولة ، ثم اشار الى من تبعهم وانضم اليهم سلماً او حرباً .

وبين (الشعب) وإلهه رابطة مقدسة وصلة متينة لا انفصام لها. وفي استطاعتنا ان نقول إن مجتمعات العرب الجنوبيين كانت مجتمعات دينية. فالشعب عبيد الإلَه، والإلَه بالنسبة لأتباعه أب غفور رحيم ، شفيق قدير . (الجوم) (الكوم) أي ألقوم ابناؤه واولاده . فالسبئيون هم ولد (المقه) ، اي اولاد المقه ، إلَه سبأ، والمعينيون هم (ولد ود) ، وقد خاطبوا إلههم (ودّاً) بعبارة : (و دم ابم) اي (ودّ أب) و (ودّ الأب) . وقال القتبانيون عن انفسهم (ولد عم) و (اولد عم) ، اي ولد الإلَه (عم) واولاد الإلَه (عم) . وفي هذه الجمل أجمل تعبير عن وجهة نظر المجتمع الى ربه . إن رب القبيلة ، هو الرابط المقدس الذي يربط شملها ويجمع بين أبنائه ، وبه يعتصم الناس ، واليه يلاذ في الخير وفي الشر . وقد عبّر عن هذه الرابطة بلفظة جميلة هي (حبلم) في بعض

---

١ اللسان (١٣/٦٣١) ، المفردات (٤٨٨) .

٢ Dictionary of Islam, p. 348.

٣ Shorter Ency. of Islam, p. 380.

٤ يراجع السطر التاسع من النص المنشور في : REP. EPIG. V, 2726.

الكتابات[1] . والحبل يربط ويجمع ويجعل من المتفرق وحدة . وهو مصطلح يذكرنا بالآية الكريمة : « واعتصموا بحبل الله »[2] ، وبالآية : « أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس »[3] . فلفظة (ولد) اذن بمعنى قوم وأبناء صنم أو موضع. فهي في معنى أبناء في اصطلاحنا الحديث ، تستعمل قبل اسم الصنم او الموضع او القبيلة ، لتدل على معنى المواطنة . ولا يشترط فيها أن تكون مواطنة نسب أي صلة رحم وقرابة دم ، بل مواطنة دينية ورابطة سياسية واجتماعية واقتصادية .

والإله حامي شعبه والذابّ عنه ، والمؤيد له في السلم وفي الحرب . لذلك نعت بـ (شيمم) (ش ي م م) أي (شيم) ، وتعني اللفظة معنى حام وحافظ ومدافع . ونجد الناس وهم ينعتون آلهتهم بهذا النعت في كتاباتهم طالبين منهم العون لشفائهم من أمراضهم ولحمايتهم من الأسوأ .

وفي جملة (اهل عثتر) وامثالها التي ترد في مختلف كتابات المسند ، تعبير عن هذه الرابطة المتينة التي تربط القوم بإلههم . تعبير عن صلة ملّة عثتر بربها. الجماعة المؤمنة بالإله عثتر . وتعبير عن جماعات انتمت الى آلهة اخرى ، وقالت عن نفسها : (اهل) . ويشبه هذا التعبير تعبير (اهل الله) الوارد في الإسلام ويراد بهم المؤمنون بالله المنقطعون له وحده العابدون القانتون الزاهدون .

وهكذا نجد شعوب حكومات العربية الجنوبية ، مؤلفة من وحدات سياسية دينية . لكل وحدة رابطة روحية تربط أفرادها ، جعلت (المؤمنين إخوة) ، في عقيدتهم وفي تمسكهم واعتقادهم بإله قبيلتهم الخاص ، هو إله القبيلة .

ونحن إذ نقرأ لفظة (شعب) في الكتابات العربية الجنوبية ، يجب ان لا نفهم منها ما نفهمه من لفظة (قبيلة) في نظر الأعراب ، وعند العرب الشماليين ، اي رابطة دموية تجمع ابناء القبيلة ، ترجع بهم الى جدّ واحد أعلى . بل يجب علينا ان نفهمها على وجه آخر . يجب ان نفهمها بمفهوم (الملّة) او (الأمة) في المصطلح الاسلامي ، وعلى النحو الذي فهمه المسلمون الأول من مصطلح (امة) و (ملّة) ، اي رابطة تجمع بين شمل جماعات شعرت بوجود روابط دينية

---

١ Glaser 484, Skyye I. S. 68.

٢ ال عمران ، الاية ١٠٣

٣ السورة نفسها ، الاية ١١٢ .

وفكرية واقتصادية واجتماعية بينها ، وبوجود إخوة في العقيدة والرأي . على نحو ما نفهمه من آيـة الحجرات : « إنما المؤمنون إخوة »[1] . وذلك كما سبق أن تحدثت عن ذلك قبل قليل .

وترد لفظة (عم) بمعنى شعب في الكتابات النبطية ، وترد بهـذا المعنى في لهجات عربية أخرى[2] . وقد نعت ملوك النبط أنفسهم بـ (رحم عمه) (راحم عمه) ، أي (رحيم شعبه) أو (راحم شعبه) ، بمعنى أنه محب لشعبه رحيم به[3] . وان ملوك النبط رحماء بشعبهم محبّون له .

والذي يجمع شمل الدولة ويقوّيها ويأخذ بها الى الحكم ثلاثة أركان: إله أو آلهة، يدافع أو تدافع عن الحاكم وعن رعيته ، وحاكم قد يكون (كاهناً) وقد يكون ملكاً ، وقد يكون أميراً ، وقد يكون سيد قبيلة ، واجبه حكم رعيته وارشادهم وقيادتهم في السلم والحرب ، ثم رعية طيعة طائعة تدين بالولاء للآلهة وللحكام ، ليس لها الاعتراض على (حق الحكم) ، لأنه حق إلهي مقرر ، ولا اعـتراض على قدر الآلهة ومقدراتها : ومن يخالف أوامر السلطان ، كان كمن يخالف أمر ربه ، عاصياً خارجاً عن سواء السبيل ، فيجب تأديبه ، ولو بالقتل ، لأن جزاء من يخرج على أمر الآلهة القتل .

ومن سيماء الاخلاص للدولة ذكر أسماء الآلهة التي يتعبد لها الحكام ، أي آلهـة الشعب الحاكم ، تيمناً بها ، وتقرّباً اليها ، وذكر أسماء الحكام في الكتـابات في المناسبات تعبيراً عن ولاء صاحب الكتابة واخلاصه للحاكم . وذكر اسم القبيلة الحاكمة مع اسم القبيلة التي ينتمي اليها صاحب الكتابة ، ليكون ذكرها تعبيراً عن الاعتراف بسيادتها عليه وعلى قبيلته .

أصول الحكم :

المجتمع العربي الجاهلي : بدوٌ وحضر ، أهل وبر وأهل مدر ، يتساوى ذلك عرب العراق وعرب بلاد الشأم وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب .

---

١ الحجرات ، الاية ١٠ .

٢ GIS, II, 197, 5, Huber 29, Euting 2.

٣ GIS, II, 197, 5, Huber 29, Euting 2.

وفي كل مجتمع من هذين المجتمعين تكوّن نظام من أنظمة الحكم يتناسب مع المحيط ، لأنه نبات ذلك المحيط ، وحاصله ، وما ينبت في مكـــان ينبت وقد اكتسب خصائص التربة وخصائص الجو ، وما يحيط بالنبات من مؤثرات طبيعية أو بشرية .

ومن هنا صارت (الرئاسة) قاعدة الحكم عند أهل الوبر ، و (الملكية) و (رئاسة القرى والمدن) ، أداة الحكم عند أهل المدر .

ولا ينال الحكم في المجتمعات البدوية وفي المجتمعات الصغيرة التي لم تبلغ مرحلة متقدمة من الحضارة ، والتي لم تنل حظاً من الغنى والمهارة في العمـل وفي كثرة الانتاج وتنويعه ، إلا من كان ذا قابلية عالية وذو شخصية قويـة ، وذو أسرة متجانسة متآلفة متماسكة كثيرة العدد ، وذا عشيرة أو قبيلة تندفع في تأييده لمزاياه المذكورة أو لخوفها منه ، أضف الى ذلك : العصبية والرغبة في كسب المال عن طريق الاندفاع معه في غزو القبائل الأخرى . فمجتمع من هذا النوع تكون قيادته بيد (سادته) ، وقد يفرض أحدهم نفسه على الآخرين ، طوعاً أو كرهاً فيكوّن حكومة تنسب في الغالب اليه ، قد يطول أجلها اذا جاء من بعده حكـام أكفاء لهم قابلية وشخصية ، وقد تموت بموته ، لعـــدم كفاءة من يخلفه ، ولأنه كون دولته بشخصيته ، وليس عن دوافع أخرى مثل ايمان بعقيدة واخلاص لها ، أو وجود وعي مشترك وحس بوجوب التكاتف والتآزر ، لتأليف مجتمع متكاتف يعيش فيه المواطنون عيشة مؤاخاة ومواطنية بالعدل والانصاف ، حتى يطول عمـــر تلك الحكومة ، ولما كانت تلك الدولة قد تكونت إما عن مصلحة أو عن خوف وقهر أو عن طمع ، وقد زالت هذه بموت صاحبها ، لذلك يصيبها التفكك وانهيـــار البناء . ومما يؤيد ذلك ردة من ارتد بعد وفاة الرسول عن الاسلام ، فقد كانت حجتهم في ردتهم انهم انما بايعوا الرسول وآمنوا به ، ولم يبايعوا غيره . وبوفاته انتهى حكم البيعة ، فلن يخضعوا لغيره ولن يدفعوا صدقة ولا زكاة ولن يطيعوا أحداً . ولو لم يؤدبهم (أبو بكر) ، بأدب القوة ، لما عادوا ثانية الى الاسلام .

وللحكم الملكي صلة كبيرة بحياة الاستقرار والاستيطان ، فهو لا ينمو ولا يظهر إلا في المجتمعات المستقرة وفي المواضع الغنية بالماء وفي القرى والمدن . فنرى ان حكام قرى فلسطين ومدنها كانوا قد لقبوا أنفسهم بلقب (ملك) في ايام (ابراهيم) مع انهم لم يكونوا إلا رؤساء قرى أو مدن . وقد كان أكثرهم كهنة في الأصل،

أي حكاماً حكموا رعيتهم باسم الآلهة ، فكان لهم الحكم في الدين وفي تدبير أمور الرعية من الناحية الدنيوية ، ثم عافوا هذا المركز وتركوا المعبد،وخصصوا أنفسهم بالنظر في الأمور الدنيوية .

ولما تقدمت وسائل الحروب وتفنن الإنسان في صنع الأسلحة ، وفي استذلال الحيوان وتسخيره لنقل محاربيه وأسلحتهم ومواد اعاشتهم ، توسعت سلطة كبار الملوك ، وتضخمت حدود ممالكهم ، فظهرت الملكيات الكبيرة : ظهرت على أنقاض (ممالك القرى) و (ممالك المدن) . حيث حكم التأريخ بتسلط الممالك القوية على الممالك الصغيرة،وبأكل القوي منها الضعيف ، لأن الحق للأقوى والبقاء للقوي المكافح المناضل المكالب في هذه الحياة تكالب الكلاب فيما بينها ، لمجرد شعور كلب قوي بتفوقه على كلب آخر غريب أو كلاب غريبة عنه .

ولعب (المال) دوراً خطيراً في ظهور (الملوك الكبار) وفي تكوين (الحكومات الملكية الكبيرة) ، ونضيف اليه شخصية صاحب المال والطبيعة التي عاش بها ، من برودة وحرارة وتبدل في الضغط الجوي ، ومن تربة ومعدن ونبات وماء . فالمال وحده لا يكفي لخلق دول كبرى ، وهو لا يدوم إذا لم يقرن بعقل فطن خلاّق يعمل على الإيجاد والتكوين وتسخير الطبيعة في خدمته وخلق قوة تكون سنداً له وسداً منيعاً يقف حائلاً منيعاً أمام المعتدين . والاستفادة من المال بتشغيله بحكمة وبعلم ، وبإيجاد موارد جديدة تحل محل الموارد القديمة إن نفقت .

وقد كان ظهور الحكومات الملكية الكبيرة في الأرضين الغنية بخيراتها ذات الماء الغزير والجوّ المساعد على العمل . فوسعت رقعتها وطمعت في غيرها فابتلعتها وقوّت نفسها بخيراتها وعبأت كل قواها لخدمتها ، وأخذت تكتسح غيرها وتتوسع وكونت الممالك الكبير المشهورة في التأريخ.وقد سمح بعض ملوك الحكومات الكبيرة لملوك الممالك الصغيرة بالاحتفاظ بحمل لقب (ملك) ، على أن يكون ذلك مقروناً باعتراف أولئك الملوك بحماية الملوك الكبار لهم،وبوجوب عدم الخروج على طاعتهم وبلزوم الاشتراك معهم في الحروب إن طلب منهم الاشتراك فيها ، وبدفع جزية مرضية لهم . فلم تتمكن الحكومات الصغيرة التي عاشت على التجارة والاتجار من العيش بأمن وسلام ، إذ طمعت فيها الدول القوية ، فأرسلت اليها من يخيرها بين الاستسلام والطاعة أو الهلاك واحراق الدور وإنزال الدمار . وقد رأينا أمثلة عديدة على ذلك فيما سلف من هذا الكتاب . من ذلك تهديد حكومات العراق

لحكومات مدن الخليج،وتهديد الرومان واليونان للنبط . وحملة (أوليوس غالوس) عـلى اليمن ، لضم أصدقاء أغنياء الى انبراطورية الرومان ، يؤدون لها الخراج ويقدمون لها ما عندهم من ذهب ابريز ، وإلا فالنار والخراب والدمار والقتل . فلا مجال للحكومات الغنية الصغيرة من العيش بأمن وسلام . وليس عنـدها سوى الإختيار بين أمر من أمرين . فإما دفع جزية ثقيلة ترضي القوي ، واما الاستسلام وإنزال النار بها والدمار .

أما البوادي والأرضين القفرة الفقيرة القليلة الماء ، فلا يمكن أن تنبت بهـا (ممالك) كبيرة،لعدم توفر مستلزمات المعيشة والتجمع الكبير فيها ، لهذا صارت حكوماتها حكومات (رئاسات) رئاسة قبيلة أو أحلاف . وقد يحلو للرئيس أن يختار له (ملك) ، لقب لا يعني في الواقع العملي أكثر من سيد قبيلة . وحكومات باطن جزيرة العرب هي من هذا النوع في الأكثر . أما الملكيات فقامت في مواضع الحضارة ، حيث التربة الصالحة الخصبة المساعدة على حيـاة التجمع والاستقرار . ووجود حضر ، يقبلون بالطاعـة والخضوع لحكم حاكم ، ومال يجبى من الناس ليستعين به الحاكم على الانفاق عـلى نفسه وعلى جيشه وعلى من ينصبهم لادارة الأمور ، قامت تلك الملكيات في العراق وفي بلاد الشأم وفي أطراف جزيرة العرب وفي مواضع الماء من نجد كاليمامة . وقد تكلمت عنها في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب .

أما الرئاسة ، فهي درجات تبدأ برئاسة بيت ، وتنتهي برئاسة قبيلة . ولكل رئيس سلطان على أتباعه وحقوق وواجبات . وعليه أيضاً حقوق وواجبـات يجب أن يوفي بها لأتباعه ومن هم في عنقه ويمينه . والرئيس هو (بعل) و (رب) و (سيد) جماعته والمسؤول الشرعي عن أتباعه ، وهو ممثلهـم ولسانهم الناطق باسمهم وحاميهم في الملمات .

وقـد عرف (هشام بن المغيرة) بـ (رب قريش) ونسبت قريش اليه في الجاهلية ، فقال الشاعر :

أحاديث شاعت من معدٍ وحمير   وخبّرها الركبان حيّ هشام

وذلك تعظيماً له واحتراماً لشأنه[1] .

---

١ الاشتقاق (ص ٩٤) .

ويعرف رئيس القبيلة بـ (سيد القبيلة) ، وسادات القبائل هم رؤساء القبائل. وقد ينعت رجل بـ (سيد العرب) وبـ (سيد مضر) وبـ (سيد أهل الوبر)، وذلك للتعبير عن سلطانه وعن مكانته وعن حكمه لقبائل كثيرة عديدة . فقد نعت (الأفكل) ، وهو (عمرو بن جعيد) بـ (سيد ربيعة) لرئاسته على ربيعة[1] . وعرف (حذيفة بن بدر) بـ (سيد غطفان) ، وكان يقال له : (رب معد)[2] .

وعرف (قيس بن عاصم بن سنان المنقري) بـ (سيد أهل الوبر) ، فلما وقد على رسول الله في وفد (تميم) ، قال رسول الله : « هذا سيد أهل الوبر » . وكان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، لأنه سكر فعبث بذي محرم له[3] .

وعرف حاكم (تدمر) بـ (رش تدمور) ، أي (رأس تدمر) و(رئيس تدمر) ، في الكتابات التدمرية القديمة . ثم عرف بـ (ملك) ، في الكتابات المتأخرة المدونة وصار اللقب الرسمي لحكام (تدمر) في ايام (الزباء) فما بعد، الى احتلال الرومان لتدمر وإلغائهم الحكم التدمري[4] .

ولقب (أذينة) ملك (تدمر) نفسه بـ (ملك ملكا) أي (ملك الملوك)[5] أيضاً ، تشبهاً بملوك الفرس وبملوك حكموا قبلهم مثل الملوك الأشوريين ، واتخذ لنفسه ألقاباً يونانية لاتينية تقليداً للرومان . ولم نعثر في النصوص العربية الجنوبية على لقب (ملك الملوك) . ويظهر ان الملوك العرب لم يتلقبوا بهذا اللقب الأعجمي .

المكربون :

وترينا أقدم الكتابات العربية ان العربية الجنوبية حكمها قبل الملوك أناس حكموا حكماً مزدوجاً ، أي حكماً دينياً ودنيوياً ، على نحو ما حدث في العراق وفي

---

١ الاشتقاق (ص ١٩٧) .
٢ المعارف (ص ٣٨) .
٣ معجم الشعراء (ص ٣٢٤) .
٤ المشرق ، السنة الاولى ، تموز ١٨٩٨ م . (ص ٥٩٠) .
٥ Die Araber II, 3 294

مصر وفي أماكن أخرى من الشرق ، قبل أن ينتقل الحكم الى الملوك ، ويتحول الى حكم زمني ، ينصرف فيه الملك الى الأمور الزمنيـــة لرعيته ، تاركاً الشؤون الدينية لرجال الدين ، حكموا الأرض باسم السماء،وحكموا حكم الساسة والحكام ، ونطقوا باسم الآلهة ، فحكمهم حكم إلهي مقدس ، عـــلى أتباعهم ومن يؤمن بهم إطاعتهم ، لأنهم ألسنة الآلهة الناطقة على هذه الأرض[1] .

ويعرف هذا الكاهن الملك بـ (مكرب) ، أي (مقرب) . وقد حصلنا من كتابات المسند على أسماء عدد من (المكربين) ، غير ان تلك الكتابات خرساء، لم تبح لنا بشيء ما عن أصول حكمهم للمعابد ولإدارة الدولة ولا عن كيفيـــة تلقيهم الأوامر الإلهيـــة التي يطلبون من أتباعهم تنفيذها ، هل كانت وحياً من الآلهـة ، يحملها اليهم ملائكة مقربون ، أو إلهاماً يتجلى في نفوسهم فينطق بـه المكربون ويبلغونه للناس،أو صوتاً يخرج من "رئـي" أو صنم أو ما شاكل ذلك يسمعه (المكرب) فيفسره للناس على طريقة الكهان ؟

وليس في نصوص المسند تعليل ما للدوافع والأسباب التي حملت آخر (مكرب) في كل دولة من الدول العربية الجنوبية على تغيير لقبه القديم ، الموروث عن آبائه، واتخاذ لقب له جديد ، لقب (ملك) ، وهو لقب يشير الى الحـكم الدنيوي فقط ، والى ابتعاد الملك عن الحكم الديني وتركه لغيره . غير اننا نستطيع أن نقول باحتمال تأثر هؤلاء (المكربين) بالمظاهر الخارجية التي كانت عند الدول المعاصرة التي لقبت حكامها بلقب ملك ، وهي دول كبيرة ذات جاه واسم وسلطان فأراد أولئك الحكام ، حكام حكومات اليمن ، التشبه بهم ، ومحاكاتهم في المظهـر ، فغيروا لقبهم ، ليظهروا أنفسهم انهم مثلهم ، وانهم ليسوا أقل شأناً من أقرانهم الملوك .

ولا يظن أن التغيير الذي حدث فأدى إلى إبدال حكم (المكربين) بحكم الملوك كان تغيراً قسرياً ، أي نتيجـــة انقلاب عسكري أو ثورة ، ذلك لأننا نعلم أن آخر مكرب من مكربي سبأ كان هو المكرب (كرب ال وتر) (كرب ايل وتر) . وقد كان هذا المكرب أول من افتتح العهد الملكي في سبأ ، وأول من حمل لقب (ملك) وذلك يدل على أنه هو الذي اختار اللقب الجديد ، واستبدله باللقب القديم .

---

[1] A. Grohmann, S. 122.

ولم يكن (المكرب) رجل دين بالمعنى المفهوم من الجملة ، أي عالماً بأمور الدين فقيهاً بها كرس وقته لها ، ومتولياً إمامة الناس في صلواتهم وفي أداء الشعائر الدينية للأرباب في معابدها ، مقدماً القرابين بنفسه اليها ، بل يرى بعض الباحثين أنه مجرد منصب له صبغته الدينية ، وأنه يشبه منصب (الخليفة) في الإسلام ، حيث كان الخليفة يعد (أمير المؤمنين) ورئيس المسلمين . ولم يكن مع ذلك أعلم المسلمين بأمور الدين ولا أفقههم بالأحكام ، وإنما هو (خليفة الله) في أرضه . وكذلك كان المكربون خلفاء الآلهة على الأرض[1] .

وقد استتبع انتقال الحكم من (المكربين) الى الملوك ، حدوث تغيير في أصول الحكم . فانقطعت صلة الملك بالمعبد ، ولم يعد الرئيس المباشر له ولرجال الدين ، وإن بقي الملك حامي الدين والمعبد . لما للمعبد من ارتباط بالدولة ولما للاثنين من مصالح مشتركة مترابطة ، إذا اختلت أصاب الأذى الجهتين . وانصرف رئيس المعبد الى ادارة المعبد وأملاكه الكثيرة الواسعة ، والى جباية الضرائب الدينية ، أي حقوق الآلهة على الناس . وهي حقوق واجبة مفروضة . وانصرف الملك الى ادارة الدولة ، وجباية حقوقه على شعبه . وادارة أملاكه الخاصة وأملاك الدولة، التي هي أملاك الملك أيضاً . حيث لم يفرق الملوك بين جيبهم الخاص وبين جيب الدولة . لأن الدولة الملك ، والملك الدولة . وبيت المال هو بيت مال واحد ، للملك أن يتصرف به كيف شاء .

الملك :

وأما (الملك) ، فهو الرئيس الأكبر والإنسان الأعلى في مجتمعه . ولفظة (ملك) من الألفاظ العربية القديمة التي ترد في جميع اللهجات العربية[2] ، وهي أيضاً من الألفاظ التي ترد في أغلب اللغات السامية . وقد تلقب بها ملوك العربية الجنوبية، وتلقب بها ملوك الحيرة وملوك آل غسان وملوك كندة ، بل طمع في هذا اللقب أمراء وسادات قبائل ، أعجبهم فلقبوا أنفسهم به .

---

١ A. Grohmann, S. 122.

٢ اللسان (٣٨١/١٢) ، (ملك) ، تاج العروس (١٨٠/٧ وما بعدها) ، (ملك)، مقدمة ابن خلدون (١٤٣) ، تفسير الطبري (٥٩٥/٢) ، روح المعاني (٢٢٣/١٣) (٩/١٦) .

ولا يعني هذا أن حكم الملك كان دائماً حكماً شاملاً واسعاً بالمعنى المفهوم من هذا اللقب،فقد كان سلطان الملك في بعض الأحيان لا يتجاوز سلطان سيد قبيلة ، أو سلطان صاحب قرية أو أرض . وعلى ذلك نجد في العربية الجنوبيـــة وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب عشرات من أمثال هـــؤلاء الملوك يحكمون قبائلهم او أرضهم بهذه النعوت والصفات المغرية المحببة الى النفوس والقلوب ، ذلك لأنهم أحبوا هذا اللقب ، فلقبوا أنفسهم به ، وصاروا ملوكاً ، وهم في الواقع سادة قبائل أو أرض صغيرة . ونجد في كتب السير والتواريخ اسمـــاء جملة (ملوك) عاشوا قبيل الإسلام وعند ظهوره ، لم يكونوا في الواقع سوى سادات (شيوخ) قبائل أو قرى ، ولم يكن لهم على من حولهم نفوذ أو سلطان .

ومعنى (ملك) ، الرأي والمشورة والنصيحة . و (مَلَكَ) ، بمعنى قدّم رأياً أو نصيحةً أو مشورة ، وذلك في بعض اللغات السامية . وتعني كلمة (شارو) (شرو) ، (الملك) في الأشورية ، وهي في معنى (الحكم) في الأصل ، أي في المعنى المتقدم . وتعني كلمة (مليخ) (ملخ) ، أي (ملك) في العبرانية ، الحكيم الذي يقدم رأياً وحكمة ومشورة ، فهي في معنى Adviser و Counseller في الانكليزية[1] . إذ كان الملوك بمنزلة الحكمـاء القضاة في شعوبهم ، ثم تخصصت بالحاكم الذي يحكم شعبه على النحو المفهوم من اللفظة عندنا .

وقـــد وردت لفظـــة (ملك) في نصوص المسنـــد . وردت على هـــذه الصورة : (ملكن) ، أي (الملك) ، و (ملكم) ، أي (ملكٌ) . ووردت على هذه الصورة : (ملك) في النصوص الثمودية واللحيانية والصفوية . و(ملكو) في النصوص النبطية . أما في النصوص العربية الشمالية ، فإن أقدم نص وردت فيه هذه اللفظة ، هو نص (أم الجمال) ،الذي يعود عهده الى سنة (٢٥٠) أو (٢٧٠) بعد الميلاد[2] . وهو شاهد قبر رجل اسمه (فهر بن سلى مربّـي جذيمة ملك تنوخ) ونص (النمارة)الذي هو شاهد قبر الملك (امرؤ القيس)،وقد دوّن سنة(٣٢٨)للميلاد[3].

---

١ Hastings, p. 515.

٢ السامية (١٣٩) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتطوره الى ما قبـــل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، مايو ١٩٣٥ م ، (سنة ٢٧٠ م) ، De Vogue, Syrie Centrale, p. 1, 15, II.

٣ Littmann, Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, p. 37, Cantineaue, Nabatéen et Arabe, p. 27.

ولا نعرف في الزمن الحاضر مكانة درجة من يحمل لقب (اخ ملكا) أي (أخي الملك) الوارد في النصوص النبطية . فلسنا ندري أكانت تعني (وصاية) او (وزارة) او مقرباً من الملك ، ام تعني ان حامله من الأسرة المالكة [1] .

ونطلق لفظة (تبع) ، والجمع (التبابعة) ، على ملوك حمير ، بل تطلقها الموارد الإسلامية في بعض الأحيان على كل ملوك اليمن . فهي في معنى (ملك) . ولا يطلقونها على غيرهم ، أي على الملوك الآخرين من ملوك العرب . فهي إذن اصطلاح خاص بأولئك الملوك . كما اصطلحوا على تسمية كـل من ملك الحبشة (النجاشي) ، وكل من ملك الروم (قيصر)، وكل من ملك الفرس (كسرى) . وقد ذكر علماء اللغة في تفسيرها : (وتبع كانوا رؤساء ، سمّوا بذلك لاتباع بعضهم بعضاً في الرئاسة والسياسة . وقيل تبع ملك يتبعه قومه والجمع التبابعة)[2] . وورد في القرآن الكريم : (وقوم تبع) في جملة الأقوام التي كذبت فحق عليها وعيد[3].

وذكر بعض أهل الأخبـار (أن العرب لم تكن تسمي أحداً تبعاً حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت ، وقيل : حتى يتبعه بنو جُشَمْ بن عبـد شمس) . فإن لم يكن كذلك سمي ملكاً . وأول من لقب منهم بذلك (الحارث بن ذي شمر) وهو الرائش . ولم يزل هـذا اللقب ملازماً لملوكهم الى أن زالت مملكتهم بملك الحبش اليمن[4] .

وذكر أن العرب كانت تسمي الملك (الحصير) كذلك . لأنه محجوب عن الناس ، أو لكونه حاصراً ، أي مانعاً لمن أراد الوصول اليه . قال لبيد .

وقماقم غلب الرقـاب كأنهم   جنّ على باب الحصير قيام

والمراد به النعمان بن المنذر . وروي لدى طرف الحصير قيام . أي عند طرف بساط النعمان[5] .

---

١ Die Araber I, S. 288.

٢ المفردات (ص ٧١) ، اللسان (٨/٣١) ، تاج العروس (٥/٢٨٧) ، المحكـم (٢/٤٤) ، صبح الاعشى (٥/٢٣) ، مجمع البيان ، للطبرسي (٩/٦٦ ، العبر (٢/١١٢) .

٣ الدخان ، ٤٤ ، الاية ٣٧ ، سورة ق ، رقم ٥٠ ، الاية ١٤ ، روح المعاني (١٥/١١٦ وما بعدها) ، الطبري (١/٤٠٤) ، ابن الاثير ، الكامل (١/١٥٦ وما بعدها) .

٤ صبح الاعشى (٥/٤٨٠) ، ابن خلدون ، العبر (القسم الاول من المجلد الثاني) ، (ص ٩٢ وما بعدها) مروج الذهب (٢/٨٨) .

٥ تاج العروس (٣/١٤٤) ، (حصر) .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (حمير) تسمي الحاكم (الفتاح) بلغتها [1] .

والعادة ان الملكية وراثية ، تنتقل من الآباء الى الأبناء ، ويتولاها الابن الأكبر في الغالب . فإذا حكم هذا وتوفي ، انتقلت الى ابنه الأكبر ، وهكذا . وبذلك يحرم إخوته الآخرون ، إلا إذا نص الأب الملك على خلاف ذلك ، كأن يذكر اسم الذي سيخلفه،أو يعين جملة أبناء او أشخاص يحكمون من بعده على التوالي، فإذا توفي الابن الأكبر مثلاً ، انتقل الحكم الى اخيه الذي يليه ، وهكذا الى نهاية الوصية . وقد يوصي المتوفى لأخيه من بعده ، أو لإخوته ، بدلاً من ابنه او اولاده ، فنظام الحكم اذن نظام وراثي في العادة ، ينتقل طبيعة الى الابن الأكبر للحاكم المتوفى ، إلا إذا حدث خلاف ذلك ، لوصية يوصيها المتوفى ولرأي يراه، او لأحوال قاهرة كأن يكون الشخص المتوفى عقيماً لا عقب له ، ففي مثل هذه الحالة ينتقل الحكم الى أقرب الناس اليه ، بحسب وراثة الدم ، او بحسب رأي الأسرة التي ينتمي اليها المتوفى.فيكون عندئذ لها وللمسنين والوجهاء الرأي والاختيار [2] .

والعادة ان الحكم يكون في الأسر الكبيرة الرفيعة ، ينتقل إما من أب الى ابن على حسب العمر ، وإما الى أخ او غيره من افراد الأسرة . وقد ينشب خصام بين افراد هذه الأسرة في موضوع تولي العرش ، ولا سيما في العهود القديمة ، حيث لم يكن العرف قد استقر على ضرورة انتقال الحكم من الأب الى ابنه الأكبر. فتنقسم الأسرة ، وقد يطول انقسامها ، عند تكافؤ المتخاصمين واستعانة كل فريق على الآخر بمؤيدين اقوياء ، فيدعي حق الحكم له ، ويلقب زعيمه بلقب (ملك) . وتفتح هذه الخصومات الأبواب لزعماء الأسر الكبيرة الأخرى،لمنافسة الأسر الحاكمة على الحكم ، فتدعيه ايضاً لنفسها وقد تنجح مدة وقد تنجح في انتزاعه من الأسر الحاكمة وابتزازه لنفسها .

وقد يقارع تلك الأسر شخص من سواد الناس من المغمورين ، وينتزع الحكم من أصحابه ، وذلك بفضل كفاية فيه ، وقوة شخصية دفعته للتزعم وللطموح . وفي تأريخ الحكم في العربية الجنوبية أمثلة عديدة على ذلك. وقد يصير هذا الشخص مؤسس أسرة حاكمة جديدة ، إذ ينتقل الحكم منه الى أبنائه او أعضاء أسرته

---

١ تاج العروس (٢/١٩٥) ، (فتح) .

٢ Grohmann, S. 128, Ryckmans, L'institution, p. 39, 41.

بعد وفاته ، وقد يقتصر الحكم عليه ، فإذا توزع وقتل او مات ، قتل حكمه بقتله ، ومات اغتصابه له بموته .

وقد أرتنا بعض كتابات المسند أن العرب الجنوبيين ، لم يجدوا غضاضة في تلقب أب وابنه او اب وأبنائه او أخ وإخوته بلقب (ملك) في وقت واحد ، فقد انتهت الينا كتابات عديدة ، وفيها أب يحمل لقب ملك ، ومعه أبناؤه يحملون هذا اللقب كذلك ، كما انتهت الينا كتابات يحمل فيها أخ وإخوته لقب (ملك) . وقد يدلّ ذلك على اشتراك المذكورين في الكتابة إشتراكاً فعلياً في الحكم ، غير ان ذلك لا يعني الحتمية ، فقد يجوز أن يكون (الملك) مجرد لقب يمنح لذلك الشخص او لأولئك الأشخاص ليشير الى صلة الشخص أو الأشخاص به ، او الى منزلته ومنزلتهم بين الناس .

وقد يكون ذلك للتخفيف عن أعمال الملك بسبب من كثرة عمله او من عدم تمكنه من القيام بأعمال الملك كلها لضعف شخصيته وقابلياته ، او لمرض ألمّ به، او لأن الملك أراد بذكرهم معه تدريبهم على أعمال الحكم ، حتى يكونوا قد خبروا أمور الملك إذا انتقل الحكم اليهم ، مع بقاء الملك الأصل في عرشه ومكانه، يمارس أعماله على نحو ما يريد .

ولم يصل الينا نص ما من العربية الجنوبية يشير الى وجود اسم ملكة على عرش إحدى الحكومات التي تكوّنت هناك . اما خارج العربية الجنوبية ، وخارج جزيرة العرب ، فقد وردت في الكتابات الآشورية وفي كتابات غيرها أسماء ملكات عربيات ، وكل ذلك دليل على ان العرب الشماليين لم يجدوا ما يمنعهم من تعيين ملكات عليهم ، وان ملكات ولّينَ حكومات .

وقد كان ذلك قبل الإسلام بزمن طويل . أما في الأيام القريبة من الإسلام ، فلم نعثر على اسم ملكه حكمت فيها ، لا في الكتابات ولا في القصص الذي يرويه الاخباريون عن تلك الأيام .

ولا نعرف في جزيرة العرب نظاماً انتخابياً عاماً ينتخب الشعب فيه ملكه على النحو الذي نفهمه في الزمن الحاضر ، او على النحو الذي كان معروفاً عند الرومان او اليونان في زمن من الأزمان ، انتخاباً لأمد محدود معين بسنين او لأمد طويل يحد بحياة الانسان ، فلم يرد نصٌّ ما فيه شيء من ذلك ، ولم يرد في قصص الأخباريين ما يشير الى وجود مثل هذا الانتخاب .

ولا نعرف أيضاً ان المزاود وهي المجالس او طبقة قادة الجيش او سادة المدن والقبائل كان لها رأي في تعيين الملوك ، او إقرارهم على نحو ما كان يجري في الدولة البيزنطية . ولا نعرف كذلك أكان لأحد حق اقالة الملوك وتنحيتهم عن عرشهم اذا تبين انه غير صالح لتولي الحكم لسبب من الأسباب ، فإننا لم نعثر حتى الآن على نصوص تتحدث عن مثل هذه الأمور . وأما قيام شخص من الأسرة المالكة او من غيرها بمنافسة الملك او بالثورة عليه وانتزاع الملك منه ، فإن ذلك شيء آخر ، يعود الى استعمال القوة والخروج عن الطاعة ، وهما بالطبع من الأمور المخالفة في كل عهد وزمان .

لقد تحدث (الهمداني) عن طريقة من طرق تعيين الملك عند (حمير)،فقال : « وبأسفل المعافر قصرُ ذي شمر ، ويدخلون في قيالة حمير ، وكانت أقوالها تكون في كل عصر ثمانين قيلاً من وجوه حمير وكهلان ، فإذا حدث بالملك حدث ، كانوا الذين يقيمون القائم من بعده ويعقدون له العهد . وكان قيام الملك من قدماء حمير عن إجماع رأي كهلان ، وفي الحديث عن رأي اقوال حمير فقط ، وكانوا اذا لم يرتضوا بخلف الملك ، تراضوا لخيّرهم ، وأدخلوا مكانه رجلاً ممن يلحق بدرجة الأقوال ، فيتم الثمانين قيلاً ، ولم يكن هذا في حمير إلا مرات يسيرة لأن الملك لم يكن يعدو آل الرائش ، إلا ان يُتوفى الملك واولاده صغار ، او يكل[1] ، فيفعل ذلك حتى يتدبر في سواه من آل الرائش »[2] .

وما ذكرته عن حكاية (الهَمْداني) عن كيفية تعيين الملوك في حمير ، يؤيد كون الملكية في اليمن ملكية وراثية تنتقل في الأصل بالإرث من الأب الى الابن، إلا في الحالات الطارئة ، مثل موت ملك فجأة وأولاده صغار ، او موته وهو عقيم لا خلف له ، ولم يوصِ لأحد بالحكم من بعده ، فيكون الرأي لسادات المملكة الذين جعل (الهمداني) عدة مجلسهم ثمانين قيلاً ، فيختارون للملك من يرون أنه أكفأ الناس للملك ، وينصبونه ملكاً . وقد رأينا انه نص في حديثه هذا على أن ما ذكره يتناول حالات خاصة ، وقد وقع في مرات يسيرة ، لأن الملك لم يكن يعدو الإرث المعهود عنهم الذي ينتقل في الأسرة المالكة .

---

١ أي يموت عقيما لا أولاد له .

٢ الاكليل (٢/١١٤) .

ولعلّ هذه الظروف الطارئة هي التي حملت الملك على تنصيب ابن له او ابنين أو أخ له ملكاً معه يلقب بلقب الحكم في أثناء حياته ، ويذكر ويذكرون بعده في الكتابات . وغايته من هذا النص هو أن الشخص المذكور اسمه بعد اسم الملك، هو الذي يرث الملك بعد وفاة الملك لسبب من الأسباب ، فلا يقع حينئذ خلاف ما في تعيين الشخص الذي سيلي الملك . ولعل ذلك كان يحدث عند مرض الملك أو عند تقدمه في السنّ وشعوره بالعجز والكلال ، او لكونه محارباً فهو يخشى أن يقتل في المعارك ، وما أشبه هذا ، فكان يحتاط لذلك بالنص على اسم من يليه وتعيينه معه ليعينه في تحمل أعباء الحكم ، حتى إذا حدث له حادث يكون قد تدرب على ادارة الملك .

وذكر بعض اهل الأخبار انه لم يكن لملوك اليمن نظام ، وانما كان الرئيس منهم يكون ملكاً على مخلافه لا يتجاوزه . وإن تجاوز بعضهم عن مخلافه بمسافة يسيرة من غير ان يرث ذلك الملك عن آبائه فلا يرثه أبناؤه عنه ، وانما هو شأن شذاذ المتلصصة ، يغيرون على النواحي باستغفال اهلها ، فإذا قصدهم الطلب لم يكن لهم ثبات . وكذلك كان امر ملوك اليمن ، يخرج احدهم من مخلافه بعض الأحيان ، ويبدو في الغزو والإغارة ، فيصيب ما يمرّ به ، ثم يرجع عنه ، عند خوف الطلب ، زاحفاً الى مكانه من غير ان يدين له احد من غير مخلافه بالطاعة او يؤدي اليه خراجاً[1] .

وقد اخذوا وصفهم هذا للملوك من الحالة السياسية التي كانت في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية ، ايام تدهور الأوضاع بعد الميلاد ، ولا سيما في أوائل القرن السادس للميلاد الى دخول العربية الجنوبية في الاسلام . فقد استبد الحكام وأصحاب الاقطاع بالمخاليف ، ولقبوا أنفسهم بألقاب الملك ، وأخذ بعضهم يغير على بعض، ويغزو ارض جاره على طريقة الأعراب .

والسيادة على القبيلة ، هي كالملكية تنتقل الى مستحقها بالوراثة في الغالب . فإذا توفي سيد قبيلة ، انتقلت سيادتها الى ابنه الأكبر . هذا عامر بن الطفيل ، وهو ابن سيد قبيلة ، وقد صار سيدها بعد وفاة والده ، يفتخر بنفسه ، ويذكر

---

١ ابن خلدون ، العبر — القسم الاول من المجلد الثاني (ص ١١١ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٥٦ م) .

انه ورث السيادة من وراثة ، إذ أتته من والده ، هذا صحيح ، وليس في ذلك من شك ، لكن قومه لم يسوّدوه ولم يعيّنوه مكان ابيه ، لهـذا السبب ، وانما سوّدوه لأنه كان يحمي حمى قبيلته ويذب عنها،ولأن فيه شروط السيادة وحقوقها ، فهو سيد قومه ، قبل ان تأتي السيادة اليه من والده :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب
فما سوّدتني عامـر من وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمـي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب[1]

وهذا (بشامة بن الغدير) ، خال (أبي سلمى) والد زهير ، يقول في شعر له :

وجدت أبي فيهم وجدّي كليهما يطاع ويؤتى أمره وهو مُحتبي
فـلم أتعمّل للسيـادة فيهم ولكن أتتني طائعاً غير متعب[2]

فهو رئيس ابن رئيس قبيلة،أتته السيادة من أبيه طائعة ، لفضل فيه واستحقاق لها ، دون ان يعمل وان يركض للحصول عليها . فالسيادة اذن عند العرب ، تتبع نظام الارث في الغالب ، إلا اذا حدث حادث يجعل أهـل بيت السيادة ، يعرضون عن الإبن الأكبر الى غيره ، كأن يكون الابن الأكبر معتوهاً او سفيهاً او ضعيفاً ، واخوته او أقرباؤه أقوى منه .

الأمراء :

والأمير ذو الأمر ، اي الآمر . وأولو الأمر : الرؤساء واهل العلم . وذكر ان الأمير الملك لنفـاذ أمره ، والجمع امراء ، وهو يأمر إمارة[3] . ولما كان

١ الحيوان (٩٥/٢) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٩٦/٢) ، (هارون) .
٣ اللسان (٢٧/٤ وما بعدها) ، (أمر) ، تاج العروس (١٨/٣ وما بعدها) ، (أمر) ، القاموس (١٣٦/١) ، تفسير الطبري (١٤٨/٥) ، ابن الاثير ، النهاية (٤١/١) ، (١٨٩/٢ وما بعدها) .

الخليفة في الإسلام اميراً على المسلمين ، نعت بـ (أمير المؤمنين) . ولم ترد اللفظة في النصوص الجاهلية بمعنى (ملك) . ويظهر انها كانت تعني عند اهل الحجاز الرئيس الآمر . وقد ورد في كتب التأريخ ان الأنصار لما اختلفوا مع المهاجرين بعد وفاة الرسول على (الإمارة) واجتمعوا في (سقيفة بني ساعدة) قالوا : « منا أمير ومنكم أمير »[1] . وفي استعمال الأنصار لهذه اللفظة ، دلالة على وجودها عند الجاهليين واستعمال اهل الحجاز لها بهذا المعنى في ايام الجاهلية .

ويظهر من الموارد (البيزنطية) ومن روايات اهل الأخبار ، أن الملوك الغساسنة والملوك من (آل نصر) ، اي ملوك الحيرة ، لم يكونوا ملوكاً بالمعنى العلمي الصحيح المفهوم من الكلمة ، وإنما كانوا (عمّالاً) ، إذا كاتبهم الروم أو الفرس ، لقبوهم بـ (عامل) . إذ عينوهم عمالاً على الأعراب ولم يعينوهم (ملوكاً) . فلقب (ملك) من الألقاب الخاصة بملوك الروم لم يمنحوه لغيرهم[2]. وكذلك كان الشأن عند الفرس . نعم لقد ذكر المؤرخ (بروكوبيوس)Procopius ان القيصر (يسطنيانوس) Justinianus منح (الحارث بن جبلة) لقب (ملك) ولقب بعض الكتبة اليونان سادات غسان باللقب المذكور . غير ان هذا التلقيب لا يمكن ان يكون دليلاً على أن الدولة البيزنطية كانت تطلقه عليهم بصفة رسمية وانه كان لقبهم الرسمي المعترف به عند الدول الأجنبية . ومن هنا شك المستشرق (نولدكه) في صحة رواية (بروكوبيوس) بشأن منح الحارث لقب (ملك)، ذلك لأن لقب (ملك) كان خاصاً كما ذكرت بقياصرة البيزنطيين ، فلا يمنح لغيرهم ، ولأن الوثائق الرسمية لم تطلق هذا اللقب عليهم[3] . ثم إن نص أبرهة الشهير الذي تحدثت عنه أثناء حديثي عن (ابرهة) ، لم يلقب (المنذر) ولا (الحارث بن جبلة) بلقب (ملك) ، بل لم يلقبهما بأي لقب ، بما في ذلك لقب (عامل) . وهذا مما يدل على أن (آل نصر) و (آل غسان) وإن لقبوا أنفسهم بلقب (ملك) أو لقبهم العرب به ، إلا ان ذلك التلقيب لم يكن

---

١ الطبري (٢١٨/٣) ، (ذكر الخبر عما جرى بين المهاجرين والانصار في أمر الامارة في سقيفة بني ساعدة) .

٢ غسان (ص ١٢) ، المشرق : السنة الاولى ، الجزء ١١ ، حزيران ١٨٩٨ م ، (ص ٤٨٥) ، جواد علي تأريخ العرب قبل الاسلام (١٢٩/٤) .

٣ غسان (ص ١٢) ، جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١٢٩/٤) .

بصفة دولية رسمية ، وانما كان بصورة غير رسمية وعلى سبيل التجمل بهذا اللقب والتشبه بالملوك الأجانب ، استعمله النـاس من باب التزلف والتقرب الى اولئك الحكام ، او انهم نظروا اليهم من وجهة نظرهم الخاصة ، فدعوهم ملوكاً لأنهم كانوا رعيتهم وكانوا هم مالكي رقبتهم . ومن هنا اعترفوا بهم ملوكاً ، أمـا الدول الأجنبية فقد اعتبرتهم مجرد عمال وسادات قبائل .

والذي صح اطلاقه على أمراء الغساسنة ، وثبت وجوده في الوثائق الرسمية ، هـو لقب (بطريق) Patricius ، ولقب (عامـل) أو رئيس قبيلـة Phylarchus = Phylarkos = Phylarcos مقروناً بنعت من النعوت التابعـة له ، أو مجرداً منه ، كالذي جاء عن المنذر الذي حـكم بعد الحارث بن جبلة (فلابيوس المنذر البطريق الفائق المديح ، ورئيس القبيلة) ، و (المنذر البطريق الفائق المديح ، ، وما ورد عن الحارث (الحارث البطريق ورئيس القبيلة)[1] .

ولقب (البطريق) من ألقاب الشرف الفخمة عند الروم ، ولذلك فلم يكن يمنح إلا لعدد قليل من الخاصة ، ولصاحبـه امتيازات ومنزلة في الدولة حتى ان بعض الملوك كانوا يحبذون الحصول على هذا اللقب من القيصر ، ويفضلونه على غيره من الألقاب[2] .

ويلاحظ أن بعض كتبة اليونان أطلقوا لقب (ملك) عـلى الأمراء العرب ، مثل (ماوية) فقد لقبوها بـ (ملكة) . ولم يستعملوا كلمة (فيلارك) (فيلارخ) (فيلاركس) (فيلاركوس) التي تعني (العامل) أو (سيد قبيلة). والظاهر انهم نهجوا في ذلك نهج الكتبة (السريان) ، فقد لقبوا سادات القبائـل العربية بلقب (ملك) على نحو ما نجده في الشعر العربي[3] . ويظهر ان عرب العـراق كانوا قد لقبوا حكام (الحيرة) بلقب (ملك) و (ملوك) ، وأن عـرب بلاد الشأم لقبوا حكامهم الغساسنة بلقب (ملك) كذلك ، وذلك على سبيـل التفخيم والتعظيم كما ذكرت ، وباعتبـار انهم حكامهم ومالكو أمرهم . كما لقب من خضع لـ (آل آكل المرار) حكامهم من هذه العائلة بلقب (ملك) . وكما

---

١ غسان (ص ١٢) .
٢ المشرق : السنة الاولى : الجزء ١١ ، حزيران ١٨٩٨ م (ص ٤٨٥) .
٣ غسان (ص ١٢) ، المشرق : السنة الاولى : الجزء ١١ ، حزيران ١٨٩٨ م (ص ٤٨٥) .

لقب بعض سادات القبائل أنفسهم بلقب (ملك) ، ولم يكونوا ملوكاً ، بل كانوا سادات قبائل و (أمراء) .

ومما يؤيد أن حكـام الحيرة وغسان ، لم يكونوا (ملوكاً) في نظر الدول الأجنبية بل عمالاً ، ما نجده من اطلاق أهل الأخبار عليهم لقب (عامل) ولقب (ملك) أيضاً . فكانوا إذا تحدثوا عن صلاتهم بالفرس ، أو نقلـوا من موارد فارسية قالوا لهم (عمـالاً) ، وقالوا عنهم جملاً مثل : « كان يلي ذلك من قبل ملوك الفرس من آل نصر ... وقـدر ولاية كل من ولي منهم[1] . وأمثال ذلك من جمل تشعر أنهم كانوا عمالاً وولاة . أما إذا تحدثوا عنهم من ناحيـة حكمهم للحيرة وللعرب وعن صلاتهم بالشعراء وبمدد حكمهم لقبوهم بـ (ملك) وقالوا : (وقد ملك ....) ، وسبب ذلك أنهم أخذوا أخبارهم من منبعين : منبع أجنبي يوناني وفارسي ، وهو منبع وثائقه مدوّنة ومورده من الموارد الرسمية التي تنعتهم بـ (عمال) . ومنبع عربـي يلقبهم بـ (ملوك) ، استند على العرف العربي أي على ما كان يخاطب به العرب أولئك الملوك ، فوقع من ثم هـذا الالتباس .

السادات :

وسادة القوم أشرافهم ورؤساؤهم ، وذكر ان السيد الذي فاق غيره بالعقـل والمال والدفع والنفع ، المعطى ماله في حقوقه المعين بنفسه . وذكر ان السيد الحليم الذي لا يغلبه غضبه[2] .

والسيادة منزلة ودرجة ، ولا تأتي أحداً إلا باعتراف قومه له بسيادته عليهم وبتنصيبهم له سيداً عليهم . إذا سوّدوا شخصاً ، عصبوه . والتعصيب التسويد . ولهذا كانوا يسمّون السيد المطاع معصباً . وذكر ان العصابة العمامة . وكانت عمائم

---

١ الطبري (٢/٨٩،٢١٣ ومواضع أخرى) ، (في سياقة تواريخ اللخميين من ملوك عرب العراق) ، (في سياقة تواريخ غسان ملوك عرب الشأم) ، (كان ال جفنة عمال القياصرة على عرب الشام ، كما كان ال نصر عمال الاكاسرة على عرب العراق) حمزة (٦٣ وما بعدها ، ٧٦) .

٢ تاج العروس (٢/٣٨٤) ، (سود) .

سادة العرب هي العمائم الحمر[1] .

وتعد الأسر الحاكمة التي ينشأ فيها عدد كبير من الملوك والحكام أسراً عريقة في الشرف . وينظر اليها نظرة تقدير واحترام ، لأنهم ورثوا المجد عن آبائهم أباً بعد أب.وينطبق ذلك على سادات القبائل الذين يرثون سيادتهم على قبائلهم أباً عن جد ، فإنهم يفتخرون بذلك على غيرهم ، لأنهم ليسوا من أولئك الذين انتزعوا السيادة فصاروا سادة ، على حين كان آباؤهم أو أجدادهم من الخاملين .

ويعبر عن السادة والأشراف بتعابير التعظيم والتفخيم ، ومنها لفظة (ابعل) (أبعل) ، أي سيد ورئيس . وهي لفظة استعملت للآلهة كذلك . استعملت بمعنى رب وإله . فورد (ود بعل ...) ، و (عثر بعل ...) ، وهكذا . وقد استعملت في النصوص القديمة خاصة .

ويقال للسادة (اسود) (اسواد) في العربية الجنوبية ، وهم السادة الأشراف[2] . وتقابل اللفظة لفظة سادات في عربيتنا . وهم سادة القوم وأشرافهم وأصحاب المنزلة والمكانة في المجتمع .

ويعد أعضاء الأسر المالكة في طليعة السادات ، وهم في السيادة على حسب قربهم أو بعدهم من الملك ، ويقدمون على هذا الأساس عند حضورهم الى الملك وفي المواسم الرسمية . ولهم أرضون يستغلونها ، ورقيق يخدمهم .

وكانوا يقولون : (هذا سيدنا) ، و (انظروا الى سيدكم) ، و (جاء

---

١ ومنه قول المخبل الزبرقان :

رأيتك هريت العمامة بعدما أراك زمانا حاسرا لم تعصب

وهو مأخوذ من العصابة ، وهي العمامة . وكانت التيجان للملوك والعمائم الحمر للعرب . ورجل معصب ومعمم ، أي مسود . قال عمرو بن كلثوم :

وسيد معشر قد عصبوه بتاج الملك يحمي المحجرينا

فجعل الملك معصبا أيضا ، لان التاج أحاط برأسه كالعصابة التي عصبت برأس لابسها . ويقال : اعتصب التاج على رأسه ، اذا استكف به . ومنه قول ابن قيس الرقيات :

يعتصب التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وكانوا يسمون السيد المطاع معصبا ، لانه يعصب بالتاج ، أو يعصب به أمور الناس ، أي ترد اليه وتدار به . والعمائم تيجان العرب ، تاج العروس (١/٣٨٥) (عصب) ، اللسان (٣/٢٢٨ وما بعدها) ، (سود) ، تاج العروس (٢/٣٨٤) ، روح المعاني (٣/١٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣/٧٢ ، ٢٥٤ وما بعدها) .

٢ راجع النصوص .

سيدنا) ، تعبيراً عن السيادة والرئاسة . وقد كره الرسول أن يقال له : (أنت سيد قريش) ، و (أنت سيدنا) ، كما كانوا يدعون رؤساءهم[1] .

علائم الملك :

وللملك علامات ومميزات تميزه عن غيره من الناس . منها (التاج) والعرش والرمح أو الحربة وعربة الملك والحرس الخاص ووجود محل خاص مخصص له في المعبد ونقد يضرب عليه اسمه وشعاره وصورته . و (قصر) له محكم منه ، أو قبة كبيرة يتخذها قراراً له ومجلساً حين يتبدى أو يخرج للصيد الى غير ذلك من علامات ، تكون سياء للملك ، وعلامة فارقة تميزه عن رعيته وعن سواد مملكته.

وقد وصلت الينا بعض الآثار التي تشير الى شعار الملوك وعلائمهم ومنها النقود. فلدى العلماء وفي المتاحف العامة والخاصة اليوم ، نقود ضربت في العربية الجنوبية ، منها نقود معينية وقتبانية وحميرية . وقد ضرب عليها أسماء الملوك أصحابها . ومن ذلك نقد ظهر الملك (اب يثع) (ا ب ي ث ع) (ابيشع) فيه وهو جالس على كرسي ، لعله يرمز الى كرسي العرش . أما رأسه ، فهو مكشوف بغير غطاء . مما يدل على أنه لم يستعمل (التاج) . ولا نجد التاج على رؤوس بقية الملوك ممن ضربت صورهم على النقود . ولا على التماثيل التي عثر عليها لبعض ملوك أوسان .

ولما كنا لا نملك في الوقت الحاضر ، صور ملوك جاهليين ، ولا تماثيل كافية او كتابات تشير الى شعار الملوك وعلاماتهم ونوع ملابسهم وأمثال ذلك مما يميز الملوك عن الرعية ، لذلك صار الحديث في هذا الموضوع من اختصاص الأجيال القادمة ، فلعلها تعثر على آثار هي الآن في باطن الأرض ، فيها حديث شيق عنه، فتقدمه لهم لنشره للناس .

ومن علامات الملك (العمارة) : رقعة مزينة تخاط في المظلة علامة للرياسة . و (العمار) : ما يضعه الرئيس على رأسه عمارة لرياسته وحفظاً لها، ريحاناً كان أو عمامة . وكانوا اذا استقبلوا ملكاً أو رئيساً ، استقبلوه بالريحان ، يرفعونه له،

---

١ ابن الاثير ، النهاية (١٨٩/٢ وما بعدها) .

وكانوا اذا جلسوا مجالس شربهم ، زينوها بالريحان ، فإذا دخل عليهم داخل ، رفعوا شيئاً منه بأيديهم وحيوه به . كما كانوا يضعون أكاليل الريحان على رؤوسهم كما تفعل العجم[1] . واذا سار الملك بين الناس ، استقبلوه برمي الريحان عليه ، وينثر الورود عليهم ، تحية للملوك .

وذكر ان من علائم الملك ، أن يقال للملك أو السيد المطاع : (أبيت اللعن). وقد زعموا أن (حذيفة بن بدر) كان يحيّى بتحية الملوك ويقال له : أبيت اللعن. وقد ترك ذلك في الاسلام[2] .

مظاهر التتويج :

وكان من عادة الملوك الاعلان عن تتويجهم للناس ، والاحتفال بيوم التتويج والإفصاح عنه ، وعندئذ يتلقب الملك بلقب يختاره لنفسه ، فيعرف به (هملقب) . وكان من عادة ملوك حضرموت مثلاً الاحتفال بحمل اللقب في (محفد أنود) (محفد انودم) . وقد انتهت الينا جملة كتابات تشير الى هذا المحفد . وقد اختتمت بكلمة (هملقب) أي (ليتلقب) ، واستعملت فيها بعض التعابير والكلمات التي لها صلة بهذه المناسبة ، مثل (متلل) ، ومعناها (بيّن) و (شهر) وأظهر ، و (علن) ، ومعناها أعلن ، ليكون ذلك معروفاً بين الناس[3] .

وقد يدعى الى هذه الاحتفالات رجال من حكومات أخرى ، لمشاركة الملك وحكومته في الأفراح والمسرّات ، فيأتي رجال من قتبان أو من حضرموت او من حكومات أخرى الى سبأ مثلاً ، لتهنئة ملكها وحكومتها ، يحملون اليه الهدايا والألطاف التي تقدم في أمثال هذه المناسبات . ولا يستبعد استدعاء مندوبين من خارج العربية الجنوبية لحضور هذه المناسبات ، غير أننا لم نظفر ، ويا للأسف، بنص يفيد ورود رسل أجانب أو زيارات ملوك الى اليمن وبقية العربية الجنوبية لهذه المناسبات ، ان لمناسبات أخرى مثل الدعوة الى زيارة العربية الجنوبية ومشاهدتها في الأعياد أو في سائر الأيام ، إلا ما رأيناه في عهد (أبرهة) الحبشي .

---

١ تاج العروس (٣/٤٢٢) ، (عمر) .
٢ الحيوان (١/٣٢٨) ، (هارون) .
٣ REP. EPIG., VII, p. 418, NUM. 4914, 4915, 4916.

وقد حافظ ملوك العربية الجنوبية ، على اختلاف حكوماتهم ، على عادة اتخاذ الألقاب الملكية حين تولي العرش . فالرجل الذي يُملك لا بد له من اتخاذ لقب له ، يعرف به . وقد بقوا يحافظون على هذه العادة الى ما بعد الميلاد . ثم أخذوا يتساهلون في حمل هذه الألقاب ولا سيا بعد تدخل الحبش في شؤون العربية الجنوبية ودخول اليهودية والنصرانية اليها . وقد كان فراعنة مصر يتخذون لهم لقباً ملكياً عند توليهم العرش . ونجد هذه العادة ، عادة اتخاذ ألقاب ملكية خاصة ، عند ملوك آشور وعند غيرهم من الملوك ، ليتميزوا بذلك عن أسماء الناس[1] . ولهذه الألقاب صلة بالآلهة التي كانوا يعبدون .

ومعارفنا في (مراسيم التتويج) مع ذلك ضئيلة جداً ، ولا سيا ما يخص العرب الشماليين ، فلا نعرف اليوم شيئاً يستحق الذكر عن كيفيـــة التتويج وعن المراسيم والحفلات التي كانت تقام عندهم في هذه المناسبات . ولم نعثر حتى اليوم على نص جاهلي يصف أسلوب التتويج وكيفية اجراء المراسيم الخاصة بالتتويج عند الجاهليين عامة . فلا ندري أكانت تلك المراسيم تتم في المعابد وبرئاسة رجال الدين كما كانت الحال عند الآشوريين وعند غيرهم مثلاً ، حيث يقوم رجل الدين الأكبر بإجراء الطقوس الدينية وبتلاوة الصلوات والأدعية ، ثم يقوم بعد ذلك بوضع التاج على رأس الملك ، وأمام تمثال الإلـه : (آشور) . أم كـــانت تلك المراسيم تتم في القصور الملكية ، ام كانت تجري بسذاجة وبغير تكلف ، بأن يأتي سادات القوم لتهنئة الملك ، ثم تقام المآدب .

ويظهر من أخبار أهل الأخبار ان عادة اتخاذ الألقاب الملكية لم تكن معروفة عند ملوك الحيرة والغساسنة وملوك كندة وأمثالهم ممن وعت أسماءهم ذاكرتهم ، بدليل ورود أسمائهم ساذجة لا تختلف عن تسميات الناس بشيء ليس فيها نعوت ولا صلة بالآلهة على نحو ما نجده في العربية الجنوبية عند المعينين والسبئيين والقتبانيين، وغيرهم من حكومات ظهرت هناك .

ولم تصل الينا أخبار في وصف كيفية احتفال ملوك الحيرة أو الغساسنة عنـــد تتويجهم ، أو عند وفاة ملوكهم وكيفية دفنهم ، ثم كيفية تنصيب خلفائهم من بعدهم. ولا بد بالطبع من أن تكون تلك الحكومات قد احتفلت في هذه المناسبات،

---

[1] Roland de Vaux, Ancient Israel, p. 107.

وأن يكون ملوكها قد جلسوا لتقبل التهاني من المهنئين ، وأن يكونوا قد أولموا الولائم لكبار الوافدين عليهم . ونجد في أخبار (مكة) أن سادتها مثل (عبد المطلب) ، كانوا يقصدون ملوك اليمن عند انتقال العرش اليهم لتهنئتهم ولتقديم التبريكات لهم . ثم يمضون أياماً هناك حتى تنتهي ايام التهنئة ، فيغدق الملك عليهم بالألطاف والطرف ، لمناسبة عودتهم الى ديارهم . وتكون هذه الألطاف من دواعي الفخر عندهم .

ولا نعرف شيئاً عن رسوم (البيعة) عند الجاهليين . وأعني بالبيعة كيفية مبايعة الملوك عند انتقال الملك اليهم . ولكن المألوف بين العرب ان كبار الناس يبايعون الملوك ، بوضع أيديهم اليمنى على يد الملك اليمنى ، ثم يبايعونه على الاخلاص له والسمع والطاعة وما شاكل ذلك من جمل وعبارات . وقد يقسمون له يمين الطاعة والولاء . وقد ورد في بيعة الناس لرسول الله يوم فتح مكة ، ما قد يشرح لنا أصول البيعة في الحجاز . فقد ذكر ان الناس اجتمعوا ، فجلس لهم رسول الله على الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله ، أسفل من مجلسه يأخذ على الناس . فبايعوا رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعتهم لمن بايع رسول الله من الناس على الاسلام . فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع اليه نساء من نساء قريش ، وكانوا قد وضعوا إناءً فيه ماء بين يدي رسول الله ، فإذا أخذ عليهن العهد وأعطينه غمس يده في الإناء ، ثم أخرجها ، فغمس النساء أيديهن فيه . وكان بعد ذلك يأخذ عليهن ، فإذا أعطينه ما شرط عليهن ، قال : اذهبن فقد بايعتكن ، لا يزيد على ذلك . وتكون هذه البيعة بغير ماء[1] .

وتكون المبايعة بمبايعة السادات والأشراف للملك أو لسيد القبيلة . والمبايعة هي المعاقدة والمعاهدة على الطاعة . وبايعه عليه مبايعة عاهده . كأن كل واحد منهما باع ما عنده لصاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره[2] . ويبدأ أقرب الناس من الملك بمبايعته ثم الأبعد فالأبعد حسب الوجاهة والمكانة . ولا بد وأن يكون للشعراء والخطباء المكان الأول في (البيعة) ، فالبيعة هي من المناسبات التي

١ الطبري (٦١/٣ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٢٨٥/٥) ، (باع) .

يبحث عنها لسن الناس ، لإظهار أنفسهم وللحصول على نوال وعطايا المُبايَعين ، ولا تحدث هذه المناسبات إلا في الفترات ، لهذا كانوا يتلهفون لسماع أخبارها ، لعرض ما عندهم من فنون القول ، ولنيل ما عند الملوك من الكرم والبذل .

وكان ملوك الجاهلية يأخذون الوضائع والودائع من السادات والوجوه ، لتكون رهائن عندهم بالوفاء بعهود البيعة ، لخشيتهم من خيسهم بعهدهم وتنصلهم منه . وقد فعل (الأكاسرة) مثل ذلك بسادات القبائل ، فأخذوا (الوضائع) منهم، وجعلوها رهناً عندهم . وقد عرفت بـ (وضائع كسرى)[1] . ووضائع كسرى: هم الرهائن كان يرتهنهم وينزلهم بعض بلاده ، حتى يصيروا بها وضيعة . وهم الشحن والمسالح[2] . وقد بعث رسول الله ، الى وضائع كسرى بهجر ، فلم يسلموا، فوضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل منهم[3] . وكانت (وضائع كسرى) من أبناء أشراف العجم ، ومن خضع لحكمه من عجم وعرب .

التيجان :

ويضع الملوك شيئــاً فوق رؤوسهم ، يتوجون به أنفسهم ليميزهم بذلك عن الرعية ، يسمى (التاج) في عربيتنا .

ولا نعرف في الزمن الحاضر اسم (التاج) في العربيات الجنوبية . لعدم وروده في نصوص المسند . اما أهل الحيرة والغساسنة وعرب نجد والعربية الشرقية ، فقد عرفوه واستعملوه ، فورد في نص النمارة من سنة (٣٢٨ م.) حيث ورد (ذو اسر التج) أي (الذي حاز التاج)[4] . وهذا النص هو أقدم نص تأريخي مدوّن وردت فيه هذه الكلمة . وقد وردت الكلمة في الشعر ، إذ جاء (تاج آل محرق)[5] وفي أخبار (النعمان) حيث عرف (بذي التاج)[6] . وذكر علماء اللغة أن التيجان للملوك[7] .

---

١ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، (وضع) ، فتوح ، البلاذري (٩٢) .
٢ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، (وضع) .
٣ البلاذري ، فتوح (٩٢) ، (البحرين) .
٤ Lidzbarski, Ephemeris II, S. 34, Peiser, Die Arabische Inschrift von En — Nemara, in Orient Literatur Zeitung, VI, 15, 1905, 277-281.
٥ شعراء النصرانية (ص ٣٢٩) .
٦ Rothstein, S. 128.
٧ تاج العروس (٣/٣٨٦) (طبعة الكويت) .

وقد رصع ملوك الحيرة تيجانهم بالأحجار الكريمة على طريقة الفرس . وقد ورد في بيت شعر لمالك بن نويرة اليربوعي ان تاج النعمان بن المنذر كان من الزبرجد والياقوت والذهب[١] .

ونحن اذا جهلنا اليوم التاج أو أي شعار آخر يشير الى الملك والحكم كان يصنعه ملوك العربية الجنوبية على رؤوسهم ليكون سمة لهم تميزهم عن الرعية وعمن هم دونهم ، فإن ذلك لا يعني اننا ننكر وجوداً لشعار الملك عندهم ، بل انني أرى انه لا بد أن يكون لأولئك الملوك من تاج ومن شعارات أخرى ، كانوا يتخذونها لتميزهم عن غيرهم ولتشعرهم بأنهم أصحاب السلطان . واذا كان لملوك الرومان والروم والحبشة والفرس تيجان ، فلِمَ لا يكون لملوك العربية الجنوبية تيجان ، وقد كانوا يحاكون ملوك زمانهم في رسوم الملك وأسلوب الحكم ؟

وفي عربيتنا لفظة أخرى استعملت لتمييز شخص عن بقية الناس في المنزلة والدرجات ، هي لفظة (الإكليل) . فلمن يضع الإكليل على رأسه منزلة رفيعة ، إلا انها لا تبلغ درجة (ملك) ولا تؤدي معنى (تاج) . فالتاج لا يكون إلا للملوك . وأما (الإكليل) فلمن دونهم . وقد كان شيئاً يضعه الشخص فوق مفرق رأسه ، قد يعلق به خرز وأحجار وقد لا يعلق . وقد ورد في بعض الأخبار أن (هوذة بن علي الحَنَفي) ، صاحب اليمامة ، كان يضع إكليلاً على رأسه ، واليه أشار الأعشى في شعره :

له أكاليل بالياقوت ، فصّلها صواغها لا ترى عيباً ولا طبعا

وقد عرف (الإكليل) انه شبه عصابة مزينة بالجواهر،ويسمى التاج إكليلاً . وقيل : إن الإكليل يجعل كالحلقة ، ويوضع على أعلى الرأس[٢] .

وقد ورد في روايات أخرى ان كسرى أعطى (هوذة) قلنسوة فيها جوهر، فكان يلبسها ، فسمّي ذا التاج[٣] . غير ان أكثر الروايات تعارض في حصول

---

١ لن يذهب اللؤم تاج قد حبيت به من الزبرجد والياقوت والذهب
وقد قاله لما عرض عليه الردافة ، فأبى ، فطلبه ، فهرب منه . ومالك بن نويرة شاعر شريف ، وأحد فرسان بني يربوع ، قتله ضرار بن الازور الاسدي بأمر خالد ابن الوليد ، ابن قتيبة ، الشعر (ص ١٩٢ وما بعدها) ، الاغاني (١٤/٦٣ وما بعدها) ، الجواليقي (ص ٣٥٦) ، المرزباني (ص ٣٦٠) .

٢ اللسان (١١/٥٩٥ وما بعدها) .

٣ الاشتقاق (ص ٢٠٩ ح ، اللسان (٦/١٨١) ، (قلنسوة) .

(هوذة) على التاج ، وفي بلوغه منزلة ملك . وترى ان تلقيبه بـ (ذي التاج) هو على سبيل المجاز ، وان الذي كان يضعه على رأسه هو إكليل ، لا تاج من التيجان .

وذكر بعض الأخباريين أن التيجان كانت لليمن ، وذكر أن غيرهم كانوا يتوجون أنفسهم بخرزات تنظم لهم . ويقال إن الملك كان إذا ملك سنةً زيد في تاجه وقلادته خرزة ، ليعلم عدد السنين التي ملك فيها . وذلك كالذي ورد في بيت شعر من قصيدة قالها لَبيد في رثاء النعمان بن المنذر ، وهو قوله :

رعى خرزاتِ الملكِ عشرين حجةً وعشرين،حتى فادَ والشيبُ شامل[1]

وقد ورد في شعر أعشى بكر في هوذة بن علي الحنفي الذي كان يجيز لطيمة كسرى في كل عام :

من يَرَ هوذة يسجدْ غير مُتَّئِبِ إذا تعصَّب فوق التاج أو وضعا
له أكاليل بالياقوت فَصَّلَهـا صوّاغها لا ترى عيباً ولا طَبَعا

ويتبين من ذلك أن هوذة كان من أصحاب التيجان . غير أن بعض العلماء ينكرون وجود التيجان عند غير أهل اليمن ، ويقولون كما ورد عن أبي عبيدة عن أبي عمرو : « لم يتتوج معدّي قط ، وإنما كانت التيجان لليمن . ولما سئل عن هوذة بن علي الحَنَفي ، قال : إنما كانت خرزات تنظم له»[2] .

وذكر ان عادة نظم الخرز في عِقْد يوضع على الرأس ، ليكون شعاراً للملك والحكم ، عادة كانت معروفة في الحجاز . وقد ورد ان (عبدالله بن أبي بن سلول) كان رجلاً شريفاً في يثرب لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان ، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره،وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملكوه عليهم . فما راعه إلا مجيء الإسلام الى يثرب وقدوم الرسول اليها ، فانصرف قومه عنه ، فضغن على الإسلام ،

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ٢٦٦) ، اللسان (٣٤٥/٥) ، (حرز) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨٣) .
٢ العقد الفريد (٢٤٤/٢) .

ورأى أن الرسول قد استلبه ملكه[1] .

وورد في الحديث أن الرسول : (شكا الى سعد بن عبادة ، عبدالله بن أبيّ ، فقال اعف عنـه ، يا رسول الله ، فقد كان اصطلح أهل البُحيرة ، على أن يعصبوه العصابة . فلما جاء الله بالاسلام ، شَرِق لذلك) . ويعصبونه : معناه يسوّدونه ويملكونه ، وكانوا يسمّون السيد المطاع معصباً ، لأنه يعصب بالتاج . وفي ذلك قال عمرو بن كلثوم :

وسيّد معشرٍ قد عصّبوه بتاج الملكِ ،يحمي المُحْجَرِينا

فجعل الملك معصباً أيضاً ، لأن التاج أحاط برأسه كالعصابة التي عصبت برأس لابسها . ويقال : اعتصب التاج على رأسه ، اذا استكفّ به ، ومنه قول قيس الرُّقيّات :

يعتصب التاجُ فوق مفرقه على جبينٍ كأنه الذهب[2]

ولا تؤدي لفظة (سموط) معنى (تاج) ، بـل ولا تبلغ في المنزلة منزلة (إكليل) . و (السمط) : الخيط ما دام الخرز أو اللؤلؤ منتظماً فيه . وقد استعملت كلمة سموط في مقام التاج ، للتعبير عن تاج ملوك الحيرة [3] ، غير انني أرى ان ذلك على سبيل التجوز ، لا التخصيص . وقد ذكر علماء اللغة ان السمط يشدّ في العنق والجمع سموط[4] .

ومن مظاهر الملك (السرير) ، ويقال له (العرش) كذلك . ويعبر بالسرير عن الملك والنعمة [5] . ويذكر أهل الأخبـار ان أول من جلس على السرير من ملوك العرب (جذيمة الأبرش) ، وهو أول من وقعت له السمعـة من ملوك العرب ، وأول من لبس الطوق[6] . وقد أشير في القرآن الى عرش ملكـة سبأ ،

---

١ نهاية الأرب (٣٥٦/١٦ وما بعدها) .
٢ اللسان (٦٠٦/١) ، (عصب) .
٣ Rothstein, S. 129.
٤ الاشتقاق (٣٠٤/٢) ، اللسان (٣٢٢/٧) ، (سمط) .
٥ الاشتقاق (٣٠٤/٢) ، اللسان (٣٢٢/٧) ، (سمط) .
٦ صبح الأعشى (٤١٦/١) .

ويكنى به عن العزّ والسلطان والمملكة. وللملك يقال: (عرش فلان) و (عرش المملكة) و (ثل عرشه) ، و (أصحاب العروش) أي الملوك[1] .

وذكر أهل الأخبار أن (السرير) : الوِثاب . وقيل : السرير الذي لا يبرح الملك عليه ، واسم الملك (مُوثبان) . والموثبان بلغة حمير : الملك الذي يقعد ، ويلزم السرير . والوِثاب المقاعد . قال أمية بن أبي الصلت:

بإذن الله ، فاشتدت قــواهم على مَلَكين ، وهي لهم وثاب[2]

وقد كان الملوك يلبسون قلائد عرفت بـ (قلائد الملك) . تكون من الذهب والأحجار الكريمة. وربما كان (السمط) قلادة تنظم من اللؤلؤ والأحجار الكريمة، يتقلدها الملك للزينة ولتكون شعاراً للملك .

وذكر علماء اللغة أن كل ما يضعه الملوك والرؤساء على رؤوسهم من تاج أو عمامة أو قلنسوة أو غيره ، فهو (عمارة) . و (العمارة) ، رقعة مزينة تخاط في المظلة علامة الرياسة ، وهي (التحية) أيضاً[3] .

ومن عادة الملوك استخدامهم الحراس يمشون معهـم اذا ركبوا ، دلالة على الملك ، ولحراستهم . يمشون معهم ، وقد تقلدوا سلاحهـم ولبسوا ألبسة خاصة تشعر انهم من حرس السلطان . ويذكر أهل الأخبـار ان أول من مشت الرجال معه ، وهو راكب ، (الأشعث بن قيس الكندي) . كانت (بنو عمـرو بن معاوية) ملّكوه عليهم وتوّجوه[4] . وكان من عادة الأشراف والسادات حتى في الاسلام ، أن تسير مع ركابهم حاشية يتناسب عدد أفرادها مـع منزلة الشريف ومكانته وغناه . فكان (كريب بن أبرهة) سيد حمير في زمانه ، اذا سار بالشأم خرج وتحت ركابه خمسمائة نفر من حمير يسعون[5] .

---

١ المفردات (٣٣٢) .
٢ اللسان (٧٩٢/١) ، (وثب) .
٣ تاج العروس (٤٢٢/٣) ، (عمر) .
٤ صبح الأعشى (٤١٦/١) .
٥ الإصابة (٢٩٦/٣) ، رقم (٧٤٩٠) ، (كريب بن أبرهة بن الصباح) .

القصور :

وقـــد عرفت البيوت التي كان يقطن فيها المكربون وملوك العربيـــة الجنوبية بالقصور ، مثل (قصر غندن) أي (قصر غمدان) و (قصر سلحن) ، أي (قصر سلحين) . ولفظة (قصر) من الألفاظ الواردة في العربيات الجنوبية . وقد أشار علماء اللغة والأخبار الى (قصور اليمن) ، وذلك يدل على اختصاص اليمن بها . وذكر علماء اللغة أن القصر : المنزل ، وقيل : كل بيت من حجر[1]. وترد في لغة بني إرم على هذه الصورة : (قصرو)[2] .

ويقطن القصور حرم الملوك ، أي أزواجه . وقد يكون للملك زوج واحدة، وقد تكون له جملـة أزواج ، إذ كانت العادة أن يتزوج الملوك بجملة نساء ، ليتمتع بهن ، وقد يتزوج لعوامل سياسية ، فيأخذ الملك ابنة سيد قبيلـة كبير ، أو ابنة رجل من أصحاب الجاه والسلطان ليقوي مركزه وليحصل عـــلى مؤازرة أصحاب البنت له .

وربما لا يكتفي الملك أو سيد القبيلة بالزوجة أو الزوجات ، فيضيف اليها أو اليهن عدداً من (الجواري) والسراري ، ممـــن وقعن في الأسر وعرفن بالجمال وبحسن الذوق ، ممن يشتريه من سوق النخاسة ، وإذا ولد لهن مولود عدّ المولود من أبناء الملك أو سيد القبيلة إن قرر الملك أو سيد القبيلة ذلك ، ويعامل معاملة أبناء الأسرة المالكة ، غير أن الناس لم يكونوا ينكرون عليه نظرتهم الى ابن ملك ولد من أم من بنات الأسر المالكة أو من أسرة شريفة معروفة .

وللملوك الحيرة قصور ذكر أهل الأخبار أسماء بعض منها . مثـــل : الخورنق والسدير ، كما كان لملوك الغساسنة قصور في مواضع مختلفة من مملكتهم وقصور في دمشق ، يمضون فيها اياماً عند زيارتهم لها ، وعند وجود مراجعات لهم مع حكامها من الروم . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء بعض القصور التي بناها الغساسنة في مواضع متفرقة من الأرضين التي خضعت لحكمهم ، تحدثت عنهـا في أثنـــاء كلامي على الغساسنة في الجزء الثالث من هذا الكتاب : كـما تحدثت عن قصور ملوك الحيرة في الجزء نفسه .

---

١ اللسان (٥/١٠٠) ، (قصر) .
٢ غرائب اللغة (٢٠١) .

وكان للملك (النعمان) قصر بالحيرة عرف بـ (القصر الأبيض) ، لبياضه، يظهر ان جدرانه كانت مجصصة ، فظهرت بيضاء . ويذكر أهـــل الأخبار ان النعمان ، كان عنده دواوين شعر فيها ما مدح به ، أو ما مدح به آله . ثم أمر فدفنها في قصره هذا ، فلما كان (المختار) قيل له : إن تحت القصر كنزاً فأمـر به فحفر ، فاستخرج الكنز ثم صار الى آل مروان أو ما صار منه . وكان هذا القصر دار ملكه ومقره في الحيرة ، اذ لم يذكروا له قصراً آخر له فيها .

وكان للأكاسرة القصر الأبيض بالمدائن ، ذكر انه كان من العجائب، ولم يزل قائماً الى ان نقضه (المكتفي بالله) العباسي في حدود سنة ٢٩٠ هـ . وبنى بشرفاته أساس التاج الذي بدار الخلافة وبأساسه شرفاته . وقد ذكره البحتري[١] .

وذكر (الزبيدي) ، اسم قصر دعاه (لحيان)[٢] ، زعم أنه (قصر النعمان بن المنذر بن ساوى) بالحيرة[٣] . فهل قصد بذلك شخصاً آخر من أهـل الحيرة ؟ أم إنه وهم من أوهام عديدة نجدهم في (تاج العروس) في أمور تاريخية ، قد يكون المسؤول عنها نسّاخ الكتاب في بعض الأحيان .

ونسب بعض أهل الأخبار الى (النعمان بن المنذر) ، داراً ، قالوا لهـا : (الزوراء) ، ذكروا أن (أبا جعفر المنصور) هدمها[٤] .

الحكم وأخذ الرأي :

ولم يكن الملوك في العربية الجنوبية أو في العربية الغربية ملوكاً مطلقين لهم سلطان مطلق وحـق إلهي في ادارة الدولة على نحو ما يريدون ، ولكن كانوا ملوكـاً يستشيرون الأقيال والأذواء وسادات القبائل والناس وكبار رجال الدين فيما يريدون عمله ، واتخاذ قرار بشأنه . وهو نظام تقدمي فيه شيء من الرأي والمشورة وحكم الشعب (الدمقراطية) بالقياس الى حكم الملوك المطلقين الذين حكموا آشور وبابل ومصر وايران[٥] .

---

١ تاج العروس (٥/١٠) ، (بيض) .
٢ بالفتح .
٣ تاج العروس (٣٢٤/١٠) ، (لحى) .
٤ تاج العروس (٢٤٦/٣) ، (زور) .
٥ A. Grohmann, S. 128.

أما الطبقات الضعيفة وبقية السواد من السوقة والفلاحين وما شاكلهم ، فليس لهم رأي في تسيير الأمور ، ولا يستشارون في البت في أي شيء حتى في المسائل الصميمة المتعلقة بمصيرهم ، ولم يكن عالم ذلك اليوم يحفل بسواد الناس، أي بالغالبية، لأن الرأي لأصحاب الوجاهة والسيادة والسلطان إذ ذاك ، وفي كل مكان من أمكنة العالم .

وترينا الكتابات المعينية ان ملوك معين كانوا مقيدين في حالات معينة بأخذ رأي (المزود) عند اتخاذ قرار خطير ، ولذلك يذكر (المزود) عند صدور التشريعات والقرارات الخطيرة في نص القوانين والقرارات ، للتعبير عن موافقته عليها وعلى انها صدرت بعد وقوفه عليها وأخذ الملك رأيه فيها [1] . ويؤخذ رأي المعبد أيضاً، فقد ذكر في قرار بشأن الضرائب ، وذلك يدل على ان المعبد كان يستشار في المسائل الخطيرة أيضاً [2] .

وقد تبين من بعض الكتابات ان ملوك العربية الجنوبية ، قد أخذوا برأي الجمعيات وأصحاب الحرف والعمل ، حتى لا يبرموا أمراً يظهر بعد تنفيذه انه غير واقعي ولا عملي ، وانه سيلقى معارضة من بعض الفئات والطبقات . كما أخذوا برأي المستشارين وأصحاب الرأي من جماعة الـ (ققضت) والـ (بتل) و (طبن) (الطبن) ، وهم الملاكون ، عند وضع القوانين [3] .

وقد تبين من النص : Rep. Epigr. 2771 ان ملك معين استشار (المزود) في فرض ضريبة . وتبين من النص : Rep. Epigr. 2774 انه استشاره في فرض ضرائب خصصت بالمعبد . ولكننا نجد في نصوص أخرى ، مثل النص : Rep. Epigr. 3699 أن الملك لم يستشر (المزود) حين أصدر أمره في موضوع زواج المعينين بأهل (ددن) (ددان) (ديدان) . ولعله فعل ذلك لأن موضوع الزواج موضوع اداري ولا علاقة له بالسياسة العامة أو بفرض الضرائب أو بالمسائل الداخلية الخطيرة، وهي الأمور التي يأخذ فيها الملك رأي المجلس . كما نجد الملك يصدر قانوناً باسم (معن) (معين) أي شعب (معين) دون أن يذكر اسم (المزود) [4] .

---

١ A. Grohmann, S. 128, REP. EPIG. 2771.

٢ REP. EPIG. 2774, 2458, A. Grohmann, S. 128.

٣ Glaser 1606, Grohmann, S. 126. ff.

٤ REP. EPIGR. 2952, Grohmann, S. 128.

وقد تبين من بعض الكتابات أن ملوك معين أصدروا تشريعات في أمور لم يأخذوا فيها رأي المزود ، لعدم ورود إشارة فيها اليه . فلدينا قرار في تنظيم أمور الزواج بين المعينيين وأهل (ددن) (ديدان) ، لم يرد فيه ذكر للمزود[1] . ولدينا قرار آخر لم يذكر فيه اسم المزود أيضاً ، غير أنه يشير الى أنه صدر باسم شعب معين[2] ، مما قد يبعث على الظن بأن الملوك لم يكونوا ملزمين دائماً بالرجوع الى رأي المزود ووجوب أخذ موافقته في كل قضية، بل في القضايا العامة الخطيرة التي تخص مصير الشعب .

ويتبين من الكتابات السبئية أن ملوك سبأ ولا سيما قدماؤهم كانوا يتبعون سُنَّة (معين) في الرجوع الى رأي المزود في القضايا الخطيرة للدولة واصدار القوانين. فكان الملك إذا أراد اصدار تشريع ، أحاله على المزود ليبدي رأيه فيه ، وفي طليعة هذه المسائل القوانين الخاصة بالأرضين وبالزرع وبحصص الحكومة من الضرائب لما لها من صلة بمصالح رجال المزود . ومتى وافق المزود على القانون أحيل على الملك لتصديقه ولإعلانه .

وهنالك شبه كبير في موضوع التشريع بين القوانين القتبانية والقوانين السبئية العامة ، الصادرة في سبأ ، ولا سيما في ايام حكم قدماء الملوك ، حتى ذهب بعض الباحثين الى وجود ما يشبه حد الاتفاق بين قوانين المملكتين ، إلا في القوانين الخاصة التي تتعلق بالتشريعات المحلية للمخاليف والمدن ، فإنها شرعت على وفق الأحوال الملائمة لتلك الأمكنة[3] .

وقد يشار في التشريعات الى قصور الملوك ، مثل (قصر سلحن) (قصر سلحين) ، كما أشير اليها في كتابات مختلفة ، تتعلق بأخبار الحروب والجباية ، وذلك كناية عن مقر الحكم ، على نحو ما يستعمل في الزمن الحاضر من قولهم : (صدر من قصرنا العامر) أو (صدر من قصر ....) . وذلك رمز الى مقر الحكم وكناية عن الملك الذي يقيم في ذلك القصر . ومن تلك القصور : (قصر غمدن) أي (قصر غمدان) و (قصر وعلن) (قصر وعلان) و (قصر ريدن)

---

١ REP. EPIG. 3699, A. Grohmann, S. 128.

٢ REP. EPIGG. 2952, A. Grohmann, S. 128.

٣ Handbuch I, S. 128, Bodenwirtschaft, S. 180, A. Grohmann, S. 129.

أي (قصر ريدان) . ومن هذه القصور تصدر الأوامر بالموافقــة على القوانين والمراسيم ، وفيها يوقع على ما يراد نشره ليكتسب صيغة رسمية مقررة .

في أخلاق الحكام :

ليس لدينا وثائق جاهلية في أخلاق الحكام والصفات التي يجب أن يتصف بها الحاكم ، ليتمكن بها من حكم الناس ومن الحكم بينهم . وكــل ما لدينا ، نتف ومقتبسات في أصول الحكم تنسب الى الجاهليين ، مدونة في المؤلفات الاسلامية ، يظهر ان بعضها أخذ من حكم الفرس ومن آداب اليونان في السياسة ، فنسب الى الجاهليين ، وبعضه اسلامي خالص وضع ليكون وعظاً وإرشاداً وإشارة هادية الى الخلفاء والحكام في كيفية حكم الرعية وفي تنبيههم الى واجباتهم وابعادهم عن الظلم والاتعاظ بمصير الحكام الطغاة الماضين حتى لا يكون مصيرهم مصير أولئك الملوك .

وفي كتاب (تأريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم)،لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ، وصايا وعظات في أصول الملك والحكم ، نسبها الى ملوك العرب الماضين قبل الاسلام ، دونها للخليفة (المأمون) لتكون له هادياً ومرشداً في كيفية الحكم. وقد استهله بوصية نسبها الى (قحطان بن هود) أوصى بها بنيه أن يتعظوا بما نزل بقوم عاد حين عتوا على ربهم ، وعصوا أمر نبيهم ، فحثهم على التآلف والتعاضد والتناصر وعلى الطاعة للحكام، ثم حث ابنه (يعرب) كبير أولاده على العمل بسيرته ومنهجه ، وان يصل ذوي القربى ، وان يحفظ لسانه ويصونه ، وان يكون كاظماً للغيظ ، يقظاً من الأعداء ، حليمــاً ، لأن الذين سادوا لم يسودوا إلا بالعلم ، وان يكون كريماً ، لأن البخل يبعد الأتباع من الحاكم[1] .

وذكر (الأصمعي) ان يعرب أوصى أبناءه بخصال وبما وصاه به أبوه . أوصى بأن يتعلم العلم ويعمل به ، وان يترك الحسد ، وان يتجنب الشر وأهله ، وان ينصف الناس ، وان يبتعد عن الكبرياء ، لأن الكبرياء تبعد قلوب الرجال عن

---

١ تاريخ ملوك العرب ، (ط٠ الشيخ محمد حسن آل يسين) ، سنة ١٩٥٩ م ببغداد (ص ٣ وما بعدها) ٠

المتكبر ، وأوصى بالتواضع ، فإنه يقرب المتواضع من الناس ويحببه اليهم ، وان يصفح عن المسيء ، وان يحسن الى الجار ، ولأن يسوء حال أحدهم ، خير له من أن يسوء حال جاره ، وان يوصي بالمولى ، لأن المولى منكم واليكم ، وان يخلص بالاستشارة والنصيحة ، وان يتمسك الانسان باصطناع الرجال[1] .

ونجد في الوصايا التي ذكرها (الأصمعي) وصايا بوجوب التعاضد والتآزر ، والابتعاد عن الفرقة ، والطاعة من غير خوف[2] ، والعدل في الرعيـة ، والتجاوز عن المسيء ، والكف عن أذى العشيرة[3] ، والأخذ بالرأي .لأنه لا بد للملك ممن يعينه في الرأي والأمر والنهي ، ولا بد له من مشير يحمل عنه بعض ما يثقله من ذلك[4] . والملك صانع ، فإن قام الصانع حق قيامه على صنعته ، استجاد الناس له ، فكسب المال والجاه ؛ وان استهان بها ، ذهبت الصنعة من يده ، وكسب الندم والحرمان[5] .

واستمر (الأصمعي) يذكر الوصايا التي ذكر أن ملوك العرب الماضين وضعوها في كيفية الحكم حذر الزلل ، ولتجنب الوقوع في الخطأ ، وهي نثر وشعر ، قد تكون من وضعه وصنعته ، صنعها للخليفة ليتعظ بها في الحكم عـلى نسق ما كان يفعله أدباء الفرس والهنــد في وضع الوصايا والمواعظ والقصص على ألسنة الملوك الماضين والحكماء ليتعظ بها الحكام في أثناء حكمهم للناس . ونجد أمثلة كثيرة من هذا النوع دبجت في كتب السياسة والأدب ، على ألسنة أرسطو أو الاسكندر أو أكاسرة الفرس[6] .

ونجد في شعر ينسب الى (لقيط الإيادي) ، أن الحاكم الذي يقلد الأمر يجب أن يكون رحب الذراع ، مضطلعاً بأمر الحرب،لا مترفاً ولا إذا عض به مكروه خشع وخضع ، يحلب درَّ الدَّهْر ، يكون مُتَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعاً ، مستحصــد الرأي لا قحماً ولا ضرعاً[7] .

---

١ (ص ٩ وما بعدها) .
٢ (ص ١٧ وما بعدها) .
٣ (ص ٢٠ وما بعدها) .
٤ (ص ٢٥) .
٥ (ص ٣٣ وما بعدها) .
٦ نهاية الأرب (٦/١٦) (في وصايا الملوك) .
٧ نهاية الأرب (٦/١٧) .

وكان الملوك على استبدادهم أحياناً بآرائهم يستشيرون من يرون فيه الأصالة في الرأي ، ولا سيا المتقدمون في السن ، فقد « كانت العرب تحمد آراء الشيوخ لتقدمها في السن ، ولأنها لا تُتبع حسناتها بالأذى والمنّ ، ولما مرّ عليها من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور ، حتى كأنها تنظرها عياناً ، وطرأ عليها من الحوادث التي أوضحت لها طريق الصواب وبينته تبياناً ، ولما منحته من أصالة رأيها ، واستفادته بجميل سعيها »[1] .

ويظهر أن الملوك الغساسنة والمناذرة كانوا قد تطبعوا بطباع الروم والفرس ، وأخذوا عنهم أبهة الحكم ، فحجبوا أنفسهم عن رعيتهم ، مخالفين بذلك العرف العربي ، وحصروا أنفسهم في قصورهم وفي قبابهم ، حتى أن من كان يريد الوصول اليهم من ذوي الحاجات كان عليه أن يقف أياماً أمام باب الملك ، حتى يأتيه الأذن بالدخول عليه ، وهذا ما أزعج الوافدين عليهم كثيراً ، وسبب الى تجاسر الشعراء وذوي الألسنة الحادة عليهم . وكان على أكثر الوافدين التقرب الى (الحاجب) والتذلل اليه ورشوته ليعجّل لهم بالدخول على الملوك ، ومنهم من كان يتعهد له بأن يجعل له نصيباً فيما قد يناله من جوائز الملك وهداياه ، فيسرع الحاجب عندئذ الى الملك ، لطلب أخذ الأذن منه بدخول ذلك الوافد عليه .

وتوصف أخلاق الملوك بالتلون والتغير ، لأن الملوك لهم بَدَوات . حتى ضرب بتلون أخلاقهم المثل . فقيل :

ويومٍ كأخلاق الملــوك ملوّنٍ فشمسٌ ودجنٌ ثم طلٌّ ووابلُ[2]

ولهذا حذر أصحاب المكانة والجاه من الوصول اليهم في أيام غضبهم وبؤسهم. خشية صدور شيء منهم قد يزعجهم فيغضبوا عليهم ، أو يتفوهوا بعبارات قد تخدش من كرامتهم ، وتسبب لهــم الألم والأذى . وقد ورد في الحكم : اتقوا غضب الملوك ومدّ البحر[3] . وقد ضرب المثل بيومي البؤس والنعيم .

وقد وردت في الكتابات الجاهلية مصطلحات تعبّر عن تقدير الناس لملوكهم ،

---

١ نهاية الارب (٦/٧٤) .

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨٤) ، (أخلاق الملوك . رقم ٢٦٣) .

٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨٦) .

مثل مصطلح (أمرهم) ، أي (آمرهم) و (أميرهم) أو سيدهم ، ونجد الكتابات العربية الجنوبية تطلق لفظة (مراهمو) و (مراسهمو) بمعنى (آمرهم) او (أميرهم) و (سيّدهم) على من هو فوقهم ، كالملوك أو الأقيال أو السادات ، احتراماً لهم واعترافاً بسيادتهم عليهم .

أما في كتابات (تدمر) ، فقد وردت لفظة (مرن) ، أي (سيدنا). وقد أطلقت على الملوك ، كما استعملت للأشخاص الكبار من أصحاب السلطان. وتقابل هذه اللفظة كلمة Exarkos في اليونانية [١] .

وفي الشعر ذمّ للحكام وشعر في هجاء السادة ، لظلمهم وتنمرهم في حق رعيتهم ، حتى ذهب الظن بهم أن كل مطاعٍ يظلم ، وان المسوّد ظالم غشوم[٢] .

الراعي والرعية :

الراعي هو الوالي ، أي الذي يلي أمور قوم ويرعى شؤونهم ، فهو بمنزلة الراعي للماشية المرعية . أما القوم فهم الرعية ، أي العامة [٣] . والملك هو راعي مملكته ، وراعي رعيته ، وهم من هم دونه ، يتبعونه ويخضعون لرأيه وحكمه .

ويعبر عن الرعية بالسُّوقة كذلك . سمّوا سوقة لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم ، والسوقة من الناس مَنْ لم يكن ذا سلطان . والسوقة خلاف الملك . قال نهشل بن حَرّيّ :

ولم تَرَ عيني سوقةً مثل مالك ولا ملكاً تجبي اليه مرازبه

وفي البيت المنسوب الى (بنت النعمان بن المنذر) ، وهو :

فبينا نسوس الناسَ والأمر أمرُنا إذا نحن فيهم سُوقة نتنصّفُ[٤]

تعبير عن فكرة التعالي والترفع التي كانت عند أهل الحكم والملك بالنسبة الى

١ Die Araber II, S. 255.
٢ الحيوان (٣/٨٠) ، هارون) .
٣ اللسان (١٤/٣٢٧) ، (رعى) .
٤ اللسان (س / و / ق) ، (١٠/١٧٠) .

المحكومين . وفي حديث المرأة الجَوْنية التي أراد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن يدخل بها ، فقال لها : هبي لي نفسك ، فقالت : هل تَهَبُ الملكة نفسها للسوقة[1] ؟ ما ينم عن هذه الروح .

ويعبر عن السواد الأعظم بـ (سواد الناس) وبـ (سواد القوم) أي عوامهم وكل عدد كثير . وهو مصطلح يقرب معنـــاه من معنى (السوقة) . والسواد الأعظم من الناس ، هم الجمهور الأعظم والعدد الكثير[2] وهم (الغوغاء) الذين لا يفقهون شيئاً من أمور دنياهم وانما هم تبع وغنم يتبعون أي راع . وقد برزت أهميتهم في صدر الاسلام ، إذ عرفت الفائدة منهم فيما لو وجهوا توجيهاً حسناً . قال الخليفة (عمـــر) : « استوصوا بالغوغاء خيراً ، فإنهم يطفئون الحريق ، ويسدّون البثوق »[3] .

وقد عرف الجاهليون قيمة وأهمية السواد ، لأنه الكثرة والرماح التي يعتمـــد عليها ذوو السؤدد في سؤددهم ، والجماعة التي تدافع عن سيدها وتحمي حماه . وقد استطاع (أبو سلمى) ان يعبر عن أهمية العوام وأصحاب الحناجر القوية من غوغاء الناس في جلب السؤدد الى الأشخاص في هذا الرجز :

لا بد للسؤدد من رماحِ ومن عديد يتقي بالراح
ومن كلاب جمة النباح[4]

وعلى الرعية حق الطاعة ، طاعة من بيده الحكم والسلطان . وليس عليها الخروج على أوامره وأحكامه ،لأن من حق الراعي تأديب رعيته اذا خرجت عن طاعته . فإذا خرجت الرعية على حكم الملك ، حق عليه تأديب رعيته بالصورة التي يراها . ولا يتمكن من الخروج على طاعة السلطان إلا الأشراف وسادات القبائل ، ففي استطاعة هؤلاء بما لهم من أتباع ورعية ، تهديد الملوك ، أو من ينوب عنهم في الحكم . ولهذا كانت لهذه الطبقة مكانة وكلمة عند الملوك .

---

١ اللسان (س / و / ق) ، (١٠/ ١٧٠) .
٢ اللسان (٣/ ٢٢٤) ، (سود) .
٣ رسائل الجاحظ (١/ ٣٦٦) ، (كتاب فصل ما بين العداوة والحسد) .
٤ رسائل الجاحظ (١/ ٣٦٦) ، كتاب فصل ما بين العداوة والحسد) ، (ارماح) ، الحيوان (١/ ٣٥١) ، (٣/ ٧٩) ، (هارون) .

ولم يكن من السهل على أبناء القبائل تقديم واجب الطاعة للملوك إذا كانوا من غير قبيلتهم ، فالملوك الغرباء وإن كانوا عرباً مثلهم ، لكنهم في نظرهم غرباء عنهم ، ومن قبيلة بعيدة عنهم . والعربي بحكم طبيعة ظروفه ومحيطه القبليّ ، لا يرى الخضوع إلا لمن تربطه به رابطة العصبية . ومعنى هذا أنه لا يخضع إلاّ لسيد قبيلته ، أو لمن يخضع سيد قبيلته لحكمه أو للملك إذا كان من قبيلته . وسيد القبيلة لا يخضع هو نفسه لأحد إلا إذا أكره على ذلك ، إكراهاً ، أو وجد في خضوعه لحكم حاكم آخر منفعة ما تأتيه من هذا الحكم . فإن زالت القوة التي أكرهته على الخضوع لغيره ، أو ذهبت المنفعة التي كان يحصل عليها ، أعلن انفصاله واستقلاله بشؤون قبيلته أو انضمامه الى حاكم قوي آخر ليصير حليفاً له . لذا صار تأريخ القبائل صراعاً ونزاعاً بين قبائل طامعة في حكم قبائل أصغر منها، وقبائل أخرى تريد أن تعيش لوحدها مستقلة بإدارة أمورها ، او منافسة غيرها في حكم قبائل أخرى ، لتكوين حكومة كبيرة منها ومن القبائل التي استسلمت لها . فالممالك التي تكونت والتي تحدثت عنها ، لم تكن إذن ممالك مكونة من مواطنين آمنوا بمبدأ المواطنة واعتقدوا بعقيدة طاعة سلطان الدولة . بل كانت مملكة قبائل اتحدت طوعاً أو كرهاً ، وكونت حلفاً كبيراً ترأسه ملك . يظل قائماً ما دامت هنالك قوة قائمة ومصلحة وفائدة ، فإن انتفت المصلحة ، عادت طبيعة الأنانية القبلية الى لعب دورها في الانفصال . وهي عقلية تعرقل وتقاوم تكوّن الدول الكبرى . ولهذا قاومها الإسلام ، لأنه جاء بمبدأ (الجماعة) ، وعقيدة (الأمة) و (الملة) ، فورد في الحديث : « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات، مات ميتة جاهلية »[1] .

وللشعراء وأهل البيان كلام في أصول سياسة الحكم وادارة أمور الرعية . قال (الجاحظ) : « ومتى أحب السيد الجامعُ ، والرئيس الكامل قومه أشد الحب وحاطهم على حسب حبه لهم ، كان بغض أعدائهم له على حسب حب قومه له. هذا اذا لم يتوثب اليه ولم يعترض عليه من بني عمه واخوته من قد أطمعته الحال باللحاق به . وحسد الأقارب أشد ، وعداوتهم على حسب حسدهم .

وقد قال الأولون : رضا الناس شيء لا ينال .

---

١ نهاية الأرب (١٢/٦ وما بعدها) .

وقد قيل لبعض العرب : من السيد فيكم ؟ قال الذي اذا أقبل هبناه ، واذا أدبر اغتبناه .

وقد قال الأُول : بغضاء السُّوق موصولة بالملوك والسادة وتجري في الحاشية مجرى الملوك .

وليس في الأرض عمل أكدّ لأهله من سياسة العوام[١] .

وقد دفعت الروح الفردية والنزعة القبلية سادات القبائل وقادة الجيش على الثورة بملوكهم وبحكامهم ، فامتلأ تأريخ الجاهلية بها وبالمكايد والانتفاضات . وقد أثرت أثراً خطيراً في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وصارت في جملة عوامل تدهور الحضارة في اليمن . ونقرأ في كتابات المسند بعض الألفاظ المعبرة عن الفوضى وعدم الاستقرار بسبب حركات العصيان . منها لفظة (كيد) ، وتؤدي معنى ثورة وعصيان[٢] . و (ثبر) و (مثبر) بمعنى (ثبور) ، ويراد بها ثورة ايضاً[٣] . و (نزع) وتؤدي معنى ثورة كذلك[٤] . و (نقم) وتؤدي معنى (نقمة) وعدم رضى عن الأوضاع . و (قسدت) و (قسد) بمعنى ثورة وثار . فالثورة هي (قسدت) في العربية الجنوبية . و (قرن) وهي في المعنى نفسه[٥] . و (تحسبن) بمعنى عنف واستخدام العنف[٦] . ولفظة (هرج) بمعنى الفوضى والقتل والمرج[٧] . و (مخر) بمعنى مخالفة وقتال[٨] .

ونجد في كتابات المسند ألفاظاً اخرى ، لها صلة وعلاقة بالأوضاع المذكورة . مثل لفظة (هبعل) في معنى الاعتراف بسيادة قوم على قوم . وبالتسليم بسيادة الرؤساء بعد ان ثاروا عليهم وحاولوا التخلص منهم . ولفظة (هوبل) في معنى النجاح في المطاردة والتوفيق في القضاء على العصيان ، وعودة الأمر الى ما كان عليه . ولفظة (همسر) بمعنى احبط وكسر . و (هسحت) ، بمعنى تحطيم والقضاء على شيء ، كحركة عصيان . و (هضرع) بمعنى أخضع و (حلفى)

---

١ الحيوان (٢/٩٤ وما بعدها) ، (هارون) .

٢ South Arabian Inscriptions, p. 437.

٣ المصدر نفسه (ص ٤٤١) .

٤ (ص ٤٤٢) من المصدر المذكور .

٥ (ص ٤٤٧) من المصدر المذكور .

٦ (ص ٤٥٠) من المصدر نفسه .

٧ (ص ٤٣٣) من المصدر نفسه .

٨ (ص ٤٣٩) من المصدر المذكور .

بمعنى ضغط واستعمل العنف . و (حف) بمعنى أحاط . و (خرط) بمعنى الاستيلاء على شيء . و (نحت) بمعنى ضرب . و (نكى) في معنى قاسى وكابد من الألم والعذاب . و (نقيذ) بمعنى استولى على مكان وفتحه . و(سبط) بمعنى أحبط وقضى على ثورة . و (سحت) في معنى هزيمة . و (قمع) في المعنى المعروف منها في لهجتنا . و (رتضح) بمعنى ذبح . و (توشع) في معنى هزيمة . و (تشكر) في معنى هزيمة ايضاً . فلكل هذه الكلمات ولغيرها مما في معناها صلة بالأوضاع السياسية والعسكرية التي كانت سائدة في ذلك العهد . وهي دليل علي سوء الحال .

تحية الملك :

وكانت للملوك الحيرة وملوك الغساسنة وغيرهم من ملوك الجاهلية تحيات تختلف عن تحيّات سائر الناس . لأن الملك يحيا بتحية الملك المعروفة للملوك الّتي يباينون فيها غيرهم . ومن تحياتهم : أبيت اللعن ، وأسلم وانعم ، وانعم صباحاً ، وعش ألف سنة . (وكانت تحية ملوك العجم نحواً من تحية ملوك العرب ، كان يقال لملكهم : زه هزار سال ؛ المعنى : عش سالماً ألف عام)[1] .

وذكر بعض علماء اللغة أن (أبيتَ اللعن: كلمة كانت العرب تحيي بها ملوكها في الجاهلية ، تقول للملك : أبيت اللعن ، معناه أبيت ايها الملك ان تأتي ما تلعن عليه . واللعن : الإبعاد والطرد من الخير)[2] . وذكروا ان أول من حيي بتحية الملوك : (أبيت اللعن) و (أنعم صباحاً) يعرب بن قحطان[3] . وقد وردت تحية (أبيت اللعن) في شعر للنابغة الذبياني ، يعتذر فيه للنعمان بن المنذر :

أتاني – أبيت اللعن – انك لمتني وتلك الّتي تستك منها المسامع[4]

وذكر أيضاً ان اول من قيل له ذلك قحطان . وقيل : اول من حيي بها يعرب بن قحطان[5] .

١ اللسان (٢١٧/١٤) ، (حيا) .
٢ اللسان (٣٨٧/١٣) ، (لعن) .
٣ العمدة (٢٢٥/٢) .
٤ الصاحبي (ص ٩١) .
٥ تاج العروس (٣٣٥/٩) ، (لعن) .

وذكر ان تحية الناس فيما بينهم : (أنعم صباحاً) او (انعم مساء) او (انعم ظلاماً)،و (عموا صباحاً) و (عموا مساء) ، وذلك حسب المناسبات . أما إذا حيوا الملك ، قالوا له : (انعم صباحاً ايها الملك) ، لهيبة الملك ولتعظيمه[1] .

وقد ابطل الإسلام تلك التحية : بأن أحل السلام محلها . فلما دنا (عمير بن وهب) من رسول الله قال : (انعموا صباحاً) ، فقال رسول الله : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ؛ بالسلام تحية اهل الجنة »[2] . وقد صار السلام من العلامات الفارقة بين الشرك والإسلام .

وذكر ان التحيّة الملك . وفي هذا المعنى قولهم : حيّاك الله وبيّاك ، اي اعتمدك بالملك . وفي هذا المعنى قول زهير بن جناب الكلبي :

ولكل ما نال الفتى قد نلته إلا التحيّة

أي إلا الملك ، وذكر ان المراد بها هنا البقاء ، لأنه كان ملكاً في قومه[3] .
والتحية في قول (عمرو بن معديكرب) :

أسير به الى النعمان ، حتى أنيخ على تحيته بجندي

تعني ملكه . فالتحية الملك[4] .

ويظهر ان بعض الجاهليين كانوا يحيون بتحية (حيّاك وبيّاك) ، او (حياك الله) ، او (حيّاك الله وبيّاك)[5] . ولا استبعد استعمالهم اسم صنم من الأصنام في موضع (الله) عند عبّاد ذلك الصنم ، كأن يقولون : (حيّاك هبل) ، وقد بقيت هذه التحية الى الاسلام ، ثم صارت : (حيّاك الله) . وقد يخاطبون بها الملوك فيقولون : (حيا الله الملك) . وذكر ان تحيات اهل الشأم لملوكهم:

---

١ الصاحبي (٩١) .
٢ الطبري (٤٧٣/٢) ، (دار المعارف) .
٣ اللسان (٢١٦/١٤) ، (صادر) ، (حيا) ، تاج العروس (١٠٦/١٠ وما بعدها)، (حيى) .
٤ المصدر نفسه ، بلوغ الأرب (٢٠٣/٣) .
٥ تاج العروس (١٠٧/١٠) ، (حيى) .

(يا خير الفتيان)[1] .

والمعروف عن العرب أنهم لم يكونوا يسجدون للملوك ولساداتهم كما كان يفعل العجم . غير ان روايـة وردت في (كتاب فتوح الشام) للواقدي تذكر ان (الياس) ، وهو عم ملك الحيرة وصاحب حرسه ، لما أدخل (سعد بن أبي عبيد القاري) ، على الملك (النعمان بن المنذر) ، (صاح به الحجاب والغلمان قبّل الأرض للملك ، فلم يلتفت اليهم)[2]. وفي هذا الخبر دلالة على ان أهل الحـيرة كانوا إذا دخلوا على الملوك سجدوا لهم : كما كان يفعل ذلك غيرهم من الغرباء ممن يدخل على الملوك ولا سيما الفرس . وتتحدث هذه الرواية المنسوبة الى الواقدي ، بأن الملك النعمان ، كان له كلام وجدل في موضوع الدين ورسالـة الإسلام مع (سعد بن أبي عبيد القاري) رسول (سعد بن أبي وقّاص) اليه . وأنه لما طرد الرسول ، قال (سعد بن أبي وقّاص) :

سأحمل فيهم حملـة عربيـة ولا أنثني والله عنهم بعسكري
فإما أرى النعمان في القيد موثقاً وإما طريحـاً في الدماء المعفر

ثم أمر سعد بن أبي وقاص جمعه بالمسير نحو النعمان ، فالتقى القعقاع بن عمرو التميمي أو بشر بن ربيعة التميمي بالنعمان في كبكبة من الخيل ، فحمل القعقـاع أو بشر على الكبكبة أو الكتيبة فرقها ، ورمى النعمان بطعنة في صدره ، فلما رأت جيوش الحيرة الملك مجندلاً ، ولت الأبار تريد القادسية نحو جيش الفرس[3] .

والذي أجمع عليه المؤرخون واهل الأخبار ، ان المنذر كان قد ذهب الى العالم الثاني قبل الفتح ،بزمن على نحو ما تحدثت عنه في الجزء الثالث من هذا الكتاب . وقد ذكرت ما قيل في موته من شعر نظمه شعراء معاصرون له ، وما وقع من اصطدام بين العرب والفرس بسبب مطالبة (كسرى) بتركته على ما يذكره أهل الأخبار . لذلك لا يمكن التصديق بهذه الرواية مع وجود ذلك الاجماع، ثم ان فيها معالم الصنعة والتزويق،ولا سيما في موضوع الحوار بين النعمان وبين رسول (سعد) اليه في موضوع الاسلام ، مما يحملنا على القول بأن هذا الخبر قد أدخل فيما بعد

---

١ أيام العرب (ص ٤٢) .
٢ الواقدي ، فتوح الشام (١٨٥/٢ وما بعدها) .
٣ فتوح الشام (١٨٧/٢ وما بعدها) .

في هذا الكتاب المنسوب الى الواقدي ، وهو لمؤلف متأخر عنه ، جمع مؤلفه من روايات أخذها من (فتوح الواقدي) ومن كتب أخرى ومن روايات متأخرة ، فألّف منها هذا الكتاب .

ومن قواعد ملوك الحيرة في مخاطبة من هم دونهم من أصحاب المنازل قولهم لهم : (يا عام) ، وقولهم (انك هابل)[1] .

وللملوك عادات في مكالمة الناس ومحادثتهم . وهم يراعون بصورة عامة منزلة ودرجة من يتحدثون معه . فإذا كان المخاطب من ذوي المكانة كأن يكون سيد قبيلة ووجيه قوم ، كلّموه بما يليق به ، وإن كان من سواد الناس القادمين للحصول على صدقة وحسنة ، أو على انصافه ومساعدته كلّموه بأسلوب آخر . ثم انهم كانوا يستعملون الكلام الغليظ الشديد مع مخاطبهم ، اذا أزعجهم أو اذا كانوا غاضبين عليه . وهكذا يكون لكل موقف كلام .

ويظهر من شعر للأعشى ، هو :

فلما أتانا بعيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا

ان العرب ، أو بعضاً منهم ، كانوا يسجدون لملوكهم . و (العمار) ريحانة كان الرجل يحيي بها الملك مع قوله : عمرك الله . وقيل : هي رفع الصوت بالتعمير ، أي بالدعاء . وقولهم : عمرك الله . وروي : ووضعنا العمارا ، والعمار العمامة ، أي وضعناها من رؤوسنا إعظاماً له . ومن العمار قولهم : عش ألف سنة لعمرك[2] . والذين فعلوا ذلك هم عرب الحاضرة ، تأثروا بما فعله الأعاجم بالنسبة لملوكهم ، فعملوا بهذه المراسيم .

دور الندوة :

وللدول العربية الجنوبية مجالس استشارية تسمى (مزوداً)[3] ، من واجبها النظر

---

١ النوادر (ص ١٧٧ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/٤٢٢) ، (عمر) .
٣ الحرف الثاني لا وجود له في أبجديتنا ، وهو بين الزاي والسين ، وقد عبرت عنه بحرف الزاي لأنه أقرب الحروف نطقا اليه .

في المشكلات التي تتعرض لها الدولة ، والبت في القضايا المهمة وفي موضوع فرض الضرائب . وقد عرف هذا المجلس في دولة معين بـ (مزودن معن) (مزود معن)[1] . وكان للسبئيين مجالسهم الخاصة بهم ، تنظر في المسائل التي يحتاج ملوك سبأ الى اخذ الرأي فيها والوقوف على رأي عقلاء الأمة للاستنارة برأيهم عند اتخاذ رأي وإقرار قرار .

ولا يعني وجود هذه المجالس ان النظام هناك كان نظاماً نيابياً انتخابياً، يجتمع الأحرار والوجهاء فينتخبون من يريدون ان يمثلهم او يتكلم باسمهم انتخاباً على النحو المفهوم من الانتخاب في الزمن الحاضر . وإنما كانت عضوية المجالس بالوجاهة والمنزلة والمكانــة ، وتلك قضايا اعتبارية للعرف فيها الرأي والقرار ، وأعضاء المجلس هم اعضاء فيه ، لأنهم من رجال الدين او سادات قبائل او من كبــار الموظفين ، او من اصحاب الأرض والمــال ، فهم في عرف ذلك اليوم الصفوة والخيرة ، وعندهم العقــل والرأي والسداد . وعل هذا النحو من التمثيل تكون المزاود ، اي مجالس الأمة .

وقد عرف أعضاء المزود بـ (اسود) ، اي (أسواد) (اسياد) ، بمعنى سادة ، وهم بالطبع من علية القوم وسادتهم . وفي ضمن هؤلاء الـ (منوت) (منوات)[2] .

وكما تطلق الشعوب في الزمن الحــاضر نعوت التفخيم والاحترام على مجالسهم التمثيلية ، كذلك اطلقت الشعوب الماضية مثل هذه النعوت على مجالسهم . فأطلق العرب الجنوبيون لفظة (منعن) مثلاً عــلى المزود ، فورد : (مزود منعن) في بعض الكتابات ، بمعنى (المزود المنيع)[3] . وربما أطلقت اللفظـة على العضو في هذا المجلس كذلك[4] . ولكننا لا نعرف ذلك في هذا اليوم معرفة أكيدة ، وربما كانوا يطلقون نعوت تفخيم وتعظيم أخرى على أعضاء هذا المجلس .

وحصلنا من الكتابات على اسم مجلس يسمى بـ (طبنن) ، وذلك في الكتابات

---

١ REP. EPIG. 2771, 3458, Grohmann, S. 128.

٢ REP. EPIG. 3562, A. Grohmann, S. 128.

٣ Glaser 1150, Halevy, 192, 199.

٤ RHODOKANAKIS, Stud., II, S. 66. ff.

القتبانية . وقد رأى بعض الباحثين انه مجلس كبار الملاكين[١] . ورأى آخرون انه عتزلة (المزود) بالنسبة الى القبيلة ، وانه مجلس أصحاب الأملاك،ورؤساء أفخاذ القبيلة المالكين ، وانه يأتي بعد (المزود) في الأهمية عند القتبانيين[٢] ، وانه كان ينظر في المسائل الخاصة بالملك والأرض وفي الضرائب التي تجبى عن الزراعة وفي تأجير الأرض ، وما شاكل ذلك من موضوعات تخص الأرض والزرع . ويقول علماء اللغة إن (الطبن) ، هو الرجل الفطن الحاذق العالم بكل شيء[٣] ، ولعلهم أخذوا هذا التفسير من العرب الجنوبيين . فـ (طبنن) ، هو مجلس عقلاء القوم وحذاقهم والمتكلمين باسم القوم .

ولم يكن لسواد الناس ولا للطبقات الوسطى منهم،رأي ولا تمثيل في (الطبنن) ذلك لأن هذا المجلس هو مجلس كبار الملاكين للأرض فقط . وكانوا يشتركون في الـ (المزود) . ونجد ذكر هذا المجلس في كتابات يرى بعض الباحثين انها من أواسط القرن الخامس قبل الميلاد[٤] .

ويقابل مجلس الملاكين (طبنن) القتباني مجلس عرف بـ (مسخنن) (المسخن) في اللهجة السبئية . وقد أشير اليه في الكتابات السبئية القديمة وفي كتابات عهد (ملوك سبأ وذي ريدان)[٥] . وأعضاؤه من الوجهاء وكبار الملاكين الذين ورثوا ملكهم من عقار وأرض[٦] .

وترد في الكتابات السبئية لفظة لها علاقة بمجلس يمثل طبقة خاصة في سبأ . عرف بـ (عهرو) (عهر) . ونجد هذا الاسم في الكتابات التي هي من القرن الثاني قبل الميلاد فما بعده . ويظهر أنه كان مجلس الأشراف من اهل الحسب والنسب من امثال الأشراف والنبلاء الذين عاشوا في اوروبة في القرون الوسطى . ولا يشترط في الطبقة المسماة بهذه التسمية ان تكون من كبار الملاكين وأصحاب العقار . والى

---

١ A. Grohmann, S. 128.

٢ راجع السطر الرابع من النص : Glaser 1606.

٣ اللسان (١٧/١٣٢) ، القاموس (٤/٢٤٤) .

٤ A. Grohmann, S. 127, Rhodokanakis, Grundsatz, 33, Handbuch, I, S. 125, Glaser 1606.

٥ CIS, 60, Grohmann, Südarabien als Wirtcshaftgebiet, I, 95, Handbuch, I, S. 122.

٦ Handbuch, I, S. 122.

هؤلاء يضاف من يقال لهم (ذاعلر) (ذو أعلر) . وهم طبقة من اشراف لا يربط بينهم دم ، ولا تجمع بينهم وبين القبيلة التي يتزلون بينها او بين الناس الذين يعيشون بينهم ، صلة رحم . ولا يملكون أرضاً ، وإنما هم حلفاء وجيران، نزلوا بين قوم فصاروا مثلهم ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، يؤدّون ما يؤدّيه حليفهم من القبيلة من واجب وعمل ، وعلى حليفهم مراعاتهم ، لأنهم في جواره وفي حلفه[1] .

هؤلاء هم أصحاب الرأي والاستشارة في الحكومات العربية الجنوبية ، والمجالس المذكورة تنظر في مصالح المنتمين اليها وكلهم كما رأينا من أصحاب الجاه والسيادة والسلطان .

وإذا أقر (المزود) موضوعاً ووافق عليه ، رفع القرار الى الملك لإصدار أمره بتنفيذ ما توصل اليه ، وتصدر القرارات بصورة مراسيم تشريعية ملكية تعلن للناس وتبلغ للقبائل لإقرارها وتنفيذها ، وقد حفظت الكتابات جملة قرارات من هـــذا النوع[2] . وتوقع المحاضر في الغالب بلفظة (مثبت) من أصل (ثبت) ، وذلك دلالة على الموافقة والتأييد بصحة صدور القرار[3] . وأن القرار قد ثبت وصار أمراً إلزامياً واجب التنفيذ .

واصطفى الملوك لهم حاشية من ذوي الرأي والعقل والتجربة ، جعلوها هيـأة استشارية ، تقدم الرأي لهم ، وقد عرفت بـ (فقضت) ، وبـ (بتل)[4] .

فنحن في اليمن إذن بإزاء نظام يمكن أن نسميه نظاماً تمثيليــاً ، وإن لم يكن يمثل رأي الشعب تمثيلاً تاماً ، فلم تكن للأغلبية المكوّنة للأمة إرادة في اختيــار ممثليهم للمجالس ، كما هو المفروض والمطلوب من المجالس،فمن هنا لم يكن نظام الحكم في هذه البلاد نظاماً تمثيلياً صحيحاً،ولكنه كان تمثيلياً من ناحية ضمه أصحاب الرأي والجاه والسلطان في الدولة ، لمجالس (المزود) وإبدائها رأيها لحاكم البلاد ، ولا سيما في المسائل الكبرى التي يتوقف عليها المصير،مثل إعلان حرب،أو عقد صلح، أو إقرار ضرائب . نظام نستطيع أن نسميه نظام الأخذ بمبدأ استشارة ذوي الرأي

---

١ A. Grohmann, S. 125, Handbuch, I, S. 124, 133.

٢ Handbuch, I, S. 122.

٣ Rhodokanakis, Stud., II, S. 85.

٤ Glaser 1606, Grohmann, S. 128.

والوجاهة والسلطان في المسائل الخطيرة التي تخص الدولة أو المجتمع وحدهم ، فهو نظام شوروي بالنسبة لأهل الرأي والمشورة ، وهؤلاء وحدهم هم الذين يشاورون في الأمور . أما السواد ، فلا رأي له . ومع ذلك ، فهو أفضل من الحكم المطلق الذي يكون الملك فيه هو الكل في الكل ، يفعل ما يشاء من غير حساب . وهو بالقياس إلى نظم الحكم عند الأشوريين أو البابليين أو الفراعنة ، نظام فيه (ديمقراطية) لا نجدها في قواعد حكم الشعوب المذكورة .

ولكن الدنيا لا تدوم على حال واحد ، فأخذ حكم المزاود يتقلص،وصار عدد من يأخذ بالرأي والمشورة من الملوك يقل حتى إذا جاءت الأيام المتأخرة من حكومة سبأ ، صار الأمر للأقيال والأذواء وسادات القبائل ، واضطر الملوك إلى النزول عن حقهم في الأرضين إلى أصحاب السلطان في مقابل اتفاقيات تحدد الواجبات والحقوق التي يترتب على هؤلاء الأقوياء الذين اغتصبوا الأرض اغتصاباً أداؤها للدولة . ويقوم صاحب السلطان الملاك بإيجار الأرض لأتباعه من آله أو من أهل قبيلته ، مقابل أجر يدفعونه له ، وهؤلاء يؤجرونها أيضاً لمن هم دونهم في المنزلة والدرجة . فتحولت الملكية بلملك إلى دولة اقطاع، أرباحها وحاصلها وناتجها وقف على طبقة ذوي الجاه والسلطان .

وفقد (المزود) مكانته ، إذ انتزع الأقيال (اقول) منه السلطان ، حتى قدموا أسماءهم في النصوص على اسم المزاود . فنجد أقيال (سمعي) (اقول سمعي) يقدمون اسمهم على اسم المزود ، دلالة على خطر شأنهم وقوتهم ، وعلى أن حكم (المزود) صار في الدرجة الثانية من خطر الشأن في هذه الأيام[1] .

وقد تضاءل حكم (المزود) ، بل زال من الوجود منذ القرن الثالث للميلاد فما بعده ، فلا نكاد نجد له حكماً أو ذكراً في الكتابات ، إذ انفرد الملوك والاقطاعيون الكبار بالحكم ، وصار رأيهم هو الرأي الحق المقبول ، وبيئة ينفرد فيها الأفراد بالحكم ، وينتزع فيها من الأشخاص حق التعبير عن الرأي ، هي بيئة لا يمكن أن يعمر فيها (المزود) أو أي مجلس كان من قبيله يقوم بالتعبير عن رأي الناس ، وإن كان بصورة رمزية شكلية . لذلك نستطيع أن نقول إن العربية الجنوبية فقدت أهم نعمة كانت عندها، نعمة التعبير عن الرأي،والنظم اللامركزية

---

١ Glaser 1210.

بعد الميلاد . وزاد في تقليص حكم تلك المجالس تدخل الحبش بصورة مستمرة في شؤون العربية الجنوبية ، وانتزاعهم الحكم بالقوة من أصحابه الشرعيين وانفراد حكامهم وحدهم بالحكم ، ثم اضطرار الملوك والأقيال والأذواء إلى مقاومة الحبش الغزاة وحشد كل الطاقات البشرية لطرد الحبش من بلادهم ، وأحوال مثل هذه لا تسمح بابداء رأي ، فكان فيها موت تلك المجالس التي لم تكن كما قلت تمثل الشعب ، لأنها لا تمثل السواد الأكبر،وإنما كانت تمثل أصحاب الوجاهة والسلطان ولكن وجود شيء فيه وقوف إزاء الملوك وتحد لسلطانهم إن أرادوا توسيعه ، هو مهما كان نوعه خير من لا شيء ومن انفراد الملوك بالأمر دون خوف ولا رهبة من اعتراض أحد ومن نقد ناقد .

هذا ، ولم نعثر على نص بالمسند ، ورد فيه ذكر لعدد أعضاء المزاود أو المجالس التمثيلية الأخرى . أما ما ذكره (الهمداني) من انه كان لحمير مجلس ينظر في أمور الملك واختيار الملك إذا مات الملك ولم يترك من يرثه ، وان عدد أعضاء ذلك المجلس ثمانون قيلاً ، لا ينقص ولا يزيد ، وانهم إذا انتخبوا قيلاً منهم ليكون ملكاً عند عدم وجود من يخلف الملك ، أو عدم رضائهم عن الملك لسبب من الأسباب ، فإنهم كانوا ينتخبون قيلاً جديداً ليكمل العدد المقرر[1] ، فإننا لا ندري أكان ذلك حكاية عن وضع الحكم في اليمن في قبيل الاسلام ، أم كان مجرد رواية من هذه الروايات الواردة عن الجاهلية ، مما يرويه أهل الأخبار. وقد نحمل روايته محمل الصدق بالنسبة إلى مجمل الخبر. أما بالنسبة إلى ثبات العدد فأمر لا نستطيع أن نأخذ به ونقطع بصحة ما ورد فيه .

وظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد فما بعده ظاهرة جديدة أخرى ، قد تدل على ضعف شخصية الملوك ، وتقلص سلطانهم ، هي ظاهرة ذكر اسم ولي العهد مع اسم الملك ، وتلقيبه بلقب ملك تماماً كما يلقب الملوك . فجاء اسم نهفان مع ابنه (شعرم اوتر) (شعر أوتر) ، دلالة على أنهما حكما حكماً مشتركاً ، وجاء اسم ملك ، وجاء اسم ملك وجاء مع اسمه اسم أخيه يحكم معه ويحمل لقب الملك ، وجاء اسم ملك ومعه اسم ابنين أو ثلاثة أبناء ، يشاركونه في اللقب

---

١ الإكليل (١١٤/٢) .

وفي الحكم ، بل ورد اسم ملك ومعه حفدته يحملون لقب الملك[١] .

وظاهرة أخرى نراها تظهر ، فيها دلالة أيضاً على تناحر الأمر وتقاتلها على الجاه والحكم والسلطان ، تتجلى في حكم أسرتين مختلفتين ، إحداهما من (حاشد) وأخرى من (بكيل) ، وكلتاهما من همْدان ، وقد حمل كل واحد من رجلي الأسرتين اللقب الرسمي لملوك سبأ . فقد حكم (علهان نهفان) وابنه (شعر أوتر) وهما من (حاشد) ، وحكم في الوقت نفسه (فرع ينهب) ، وابنه ، وهما من (بكيل) ، وكان كل واحد منهما يلقب نفسه بألقاب ملوك سبأ . ثم نجد من ذيول هذه الظاهرة منافسة (ظفار) لمأرب ، ومبارزة قصر ملوك (ظفار) وهو (ذو ريدان) لقصر ملوك سبأ القديم وهو (سلحن) (سلحين) . وفي هذه المنافسة دلالة على تنافس أسرتين على الحكم ، كل أسرة تدعي أنها حاكمة سبأ ومالكة مملكة سبأ[٢] .

وكان من نتائج هذا التطور ظهور حكم لا أودّ تسميته بـ (حكم لامركزي) ، ولكن أرى تسميته : حكماً إقطاعياً ، أو حكم (أمراء الطوائف) ، أو حكم رؤوس الطوائف . فقد صار الأمر والنهي للأقيال وللأذواء ، وللسادات وقادة الجيش ، حتى تكاثر عددهم ، وحتى صارت لهم كلمة في اختيار الملوك وفي إسقاطهم . ونجد في الكتابات المتأخرة أسماء عدد كبير من هؤلاء الإقطاعيين ، دلالة على مكانتها ، وخطر شأنها في السياسة العامة ، ولم تختف هذه الظاهرة حتى بعد احتلال الحبش لليمن ، وحتى بعد طرد الحبش عنها ودخولها في حكم الفرس إلى أيام الإسلام[٣] .

وكان مما قوى سلطان الإقطاعيين الحروب التي أعلنها الملك (شمر يهرعش) على جيرانه . لقد تمكن من توسيع رقعة سبأ ومن إضافة أرضين جديدة واسعة لها ، ومن إحاطتها بهالة من العظمة ، ولكنه اضطر من ناحية أخرى إلى إرضاء الإقطاعيين الذين ساعدوه وخدموه في حروبه وأدوا له خدمات كبيرة ، فوسع سلطانهم ، وقوّى مركزهم ، وصيّرهم قوة ذات شأن لها سلطان في الدولة ،

---

١ Ryckmans, L'Institution, 207, Grohmann, S. 130, CIH 314, 398, 934, Ryckmans, 203.

٢ Ryckmans, L'Institution, p. 207, Grohmann, S. 129.

٣ Grohmann, S. 130.

فأضعف بعمله مركز الحكومة ، ووضع من جاء بعده من الملوك في مركز حرج أمام كبار الإقطاعيين الذين أخذوا يتدخلون في أمور الدولة، وينافسونها في سلطانها. وهكذا زالت معالم الحكم (الاستشاري) للأقيال ، وحل محلّه حكم الملوك المستند الى تأييد عدد من كبار رجال الإقطاع وسادات القبائل ، وهو حكم راعى بالطبع مصالح هؤلاء ، ولم يهتم بمصالح سواد الناس ، بل حتى مصالح الإقطاعيين الذين لم يكن لهم سلطان كبير ، فأصيبوا بضرر بالغ من هذا التغيير الدستوري في أصول الحكم .

وقد كان ملوك العربية الغربية ، مثل ملوك العربية الجنوبية ، يأخذون بالرأي ويعملون بمشورة المجالس . ويعرف مجلس الشورى في الكتابات اللحيانية بـ (هجبل) (الجبل) و (جبـــل)[1] . وقد نعت المجلس بجملة (العالي الشأن) في إحدى الكتـــابات[2] ، تعظيماً له ، وتقديراً لشأنه . ومما يؤيد أخذ الملوك برأي المجلس (جبل) هو ورود لفظة (براى) ، أي (برأي) في الكتابات ، دلالة على أخذ الملوك برأي المجلس[3] .

بل ذهب بعض الباحثين الى احتمال وجود أحزاب سياسية في مملكـة لحيان[4] . غير أننا لم نتمكن من الحصول على كتابات لحيانية فيها شيء عن الحزبية والأحزاب في ذلك العهد .

أما أصول الحكم عند (آل لخم) ، فإننا لا نملك نصوصاً لها مدونة ، كذلك لا نملك نصوصاً فيها شيء عن أصول الحكم عند الغساسنة . ولم يشر أهل الأخبار الى وجود مجالس على نمط (المزود) أو (دار الندوة) عند المناذرة أو الغساسنة، لذلك لا نستطيع أن نتحدث بأي حديث عن الشورى وأخذ الرأي عند اللخميين، أو عند آل غسان .

بـــل يستنبط من بعض روايات أهـــل الأخبـــار ، ان ملوك (آل نصر) و (آل غسان) و (آل آكل المرار) ، كانوا ملوكاً غلب على حكمهـــم

---

١ Caskel, Lihyanisch, No. 71, 77, 87, 91.

٢ JS41, Caskel, Lihyanisch, S. 109.

٣ Arabien, S. 50.

٤ Euting 51, Grohmann, S. 50, Caskel, Lihyanisch, 40, 42, Jaussen-Savignag, Mission, II, 371.

الاستبداد بالرأي ، إذ لم يعملوا برأي أحد ، ولم يأخذوا بمشورة مستشار إلا إذا كانت المشورة موافقة لهواهم ومن شخص قريب منهم ، وله أثر فعلي عليهم . كما يستنبط منها ايضاً ان المقربين من الملوك ، لم يكونوا مخلصين لهم في تقديم النصيحة ، بل كانوا يبتغون من ورائها الحصول على منفعة وفائدة ، أو ضرراً يلحق بأعدائهم ، وبالقبائل المعادية لقبائلهم في كثير من الأحايين . وان بعض الملوك ، ولا سيما المتأخرون منهم ، كانوا قد تأثروا بآرائهم فعملوا بها، فأوجدت لهم مشكلات خطيرة، كان الملوك في غنى عنها، لو انهم كوّنوا مجالس استشارية ، وأخذوا برأيها في تسيير النابه من أمور المملكة .

أما القرى والمدن إن جازت هذه التسمية ، فقد حكمها وجهاؤها وساداتها رؤساء الشعاب والبيوتات الكبيرة . فإذا حدث حادث في شعب حلّه رؤساء ذلك الشعب ، وإن عرض للقرية أو للمدينة عارض اجتمع ساداتها للنظر فيه وحلّه ، واليهم يكون تسيير أمور القرية او المدينة . يجتمعون في (نادي) القرية او المدينة، وهو مجتمعها للنظر في الأمر والبت فيما يرون اتخاذه من قرارات . وقد ورد في القرآن الكريم : « وتأتون في ناديكم المنكر »[1] . والنادي هنا المجلس ، ومجتمع القوم ، وموضع اتخاذ القرارات والبت في الأمور .

وكان لأهل (تدمر) (مجلس) على غرار مجلس (الشيوخ) في (رومة) مؤلف من سادات المدينة من أصحاب الجاه والسلطان له سلطة من القوانين والتشريع، وله رئيس وكاتب .

دار الندوة :

وقد تحدث اهل الأخبار عن دار قالوا انها كانت بمكة سمّوها (دار الندوة) ونسبوها إلى جد قريش ومجمعها (قصيّ) ، قالوا : إن قريشاً كانت إذا همت بأمر أو أرادت رأياً ، أو قررت اتخاذ قرار ، اجتمعت فيها ، ونظرت في أمرها واتخذت فيها قرارها . فهي إذن مجلس يشبه (المجالس) التي كانت في مدن اليونان ، وقد كوّنوها لتكون حكومة المدينة المشرفة على شؤونها المدبرة لأمورها الناظرة فيما يقع فيها من خصومات وخلاف .

---

١ العنكبوت ، السورة رقم ٢٩ ، الآية ٢٩ .

وذكر بعض اهل الأخبار، انه لم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة ، وكان يدخلها ولد قصي كلهم أجمعون وحلفاؤهم[1] والظاهر ان هذا كان خاصاً بالمشورة وأخذ الرأي . لما كان قد قرّ في نفوس أكثر الناس من أهمية السن في تقديم الرأي ، ومن أن النضوج العقلي يبدأ في الأربعين من العمر . وإذا صحت الرواية ، نكون أمام شرط مهم فيمن يحق له حضور دار الندوة لابداء المشورة والرأي . لكننا نسمع من رواة الأخبار أيضاً ، أنهم يذكرون أن قريشاً كانت تتساهل في موضوع السن أحياناً ، فكانت تتساهل في قبول دخول من هو دون الأربعين من العمر إذا كان الشخص سديد الرأي . فقد « تحاكم العرب في الجاهلية في النفورة،وفي غير ذلك من المخايرة والمشاورة، الى أبي جهل ابن هشام في أيام حداثته وفتائه ، ولذلك أدخلوه دار الندوة ، ودفع مع ذوي الأسنان والحنكة من بين جميع الشبان ، ومن بين جميع الفتيان .

ولذلك قال قطبة بن سيّار حكيم فزارة حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة ابن علاثة : عليكم بالحديث الذهن ، الحديث السن يعني أبا جهل »[2] .

الملأ :

وفي القرآن الكريم لفظة (ملأ) بمعنى جماعة يجتمعون على رأي[3] . وتعبر هذه اللفظة عن الغالبية ، أي عن الرأي العام الغالب لمكان ما ، أو لجماعة من الجماعات. ومعنى ذلك اتخاذ (أهل الحل والعقد) من الملأ رأياً يكون ملزماً للآخرين.وأهل الرأي والحل والعقد ، هم السادة أصحاب الجاه والعقل والسن ، ولذلك كانوا يفضلون في أخذ الرأي ، أخذ رأي أصحاب العقل والخبرة ، وهم المتقدمون في السن في الغالب،ففي صغر السن طيش وتسرع ، والبت في الأمور يحتاج الى نضج وصبر وأناة وحلم . لهذا كان أكثر رجال (دار الندوة) من البالغين المتقدمين في السن[4] .

---

١ الأزرقي (١/٦٥) .
٢ رسائل الجاحظ (١/٣٠٠) ، (رسائل في نفي التشبيه) .
٣ المفردات ، للاصفهاني (ص ٤٩٠) .
٤ الأزرقي (١/٦١) .

وعرف علماء العربية (الملأ) أنه الرؤساء والجماعة وأشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع الى قولهم ، « يروى أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، سمع رجلاً من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر ، يقول : ما قتلنا إلا عجائز صلعاً ، فقال عليه السلام : أولئك الملأ من قريش ، لو حضرت فعالهم ، لاحتقرت فعلك » أي : اشراف قريش . فالملأ إنما هم القوم ذوو الشارة والتجمع للادارة [1] .

وورد ان (الملأ) التشاور والعِلية . ويظهر من المواضع العديدة التي وردت فيها هذه الكلمة في القرآن الكريم ، ان المراد بها في اكثر تلك المواضع ، عِلية القوم من ذوي الرأي والمكانة ، والأشراف من القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يُرجع إلى قولهم . وذكر ان (الملأ) : التشاور . تشاور الأشراف والجماعة في أمر ما [2] .

فرؤساء مكة إذن ، هم حكومتها وحكامها ، وليس هناك ملك أو حاكم انفرد بالحكم والسلطان . فالحكم فيها إذن ، حكم مدينة ، لا حكم ملك او فرد ، وقد كان الحكم في الطائف وفي يثرب وفي نجران ، وفي وادي القرى على مثل هذه الطريقة ، غير ان الأخباريين لم يتحدثوا عن مجلس يشبه دار الندوة في هذه المدن.

وفي القرآن الكريم : « فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر »[3] ، و « أمرهم شورى بينهم »[4] . وفي هاتين الآيتين دلالة على الأخذ بمبدأ المشورة ، وان الحكم شورى . وحكم قريش في مكة ، هو حكم المشاورة وأخذ الرأي ، لهذا كانوا يتشاورون فيما بينهم حينما كانوا يعتزمون اتخاذ قرار تجاه الرسول . وقد بينت ان أصحاب الرأي والمشورة هم (الملأ) وعِلية القوم ومن عرف بجودة الحكم والفطنة والذكاء .

وكانت القرى الأخرى تستشير ذوي الحل والعقد . وكذلك فعلت القبائل . فقد كان سيد القبيلة يطلب من وجوه قبيلته ابداء رأيهم في القضايا المهمة من أمور الحرب والسلم . وكان سادات القبيلة ، يجتمعون للنظر في امر اختيار رئيس ،

---

١ اللسان (م/ل/أ) ، (١٥٩/١) .
٢ تاج العروس (١١٩/١) ، (ملا) ، تفسير الطبري (٣٧٣/٢) .
٣ آل عمران ، الرقم ٢٣ ، الآية ١٥٩ .
٤ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٣٨ .

إذا مات رئيس وليس له وريث ، أو وقع خلاف فيما بين أعضاء بيت الرئيس على الرئاسة . وقد حث العرب على الأخذ بالرأي والمشورة ، حتى لا يقع المرء في الخطأ والتهلكة . والرأي : النظر والتدبير والتفكير[1] . وقد قدمه العرب على الشجاعة ، فجعلوه قبلها ، لأن الشجاعة لا تنجح ما لم يكن للشجاع رأي ونظر في كيفية التغلب على خصمه .

المشاورة :

وقد كرهت العرب والحكماء مشاورة من اعترته الشواغل ، وألمت به النوازل، مع وفور عقله وحزمه ، فقال (قس بن ساعدة الإيادي لابنه : لا تشاور مشغولاً وإن كان حازماً ، ولا جائعاً وإن كان فهماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً ، ولا مهموماً وإن كان عاقلاً ، فالهمّ يُعقِل العقلَ فلا يتولد منه رأي ولا تصدق به روية) . و (قال الأحنف بن قيس : لا تشاور الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يروى ، ولا الأسير حتى يطلق ، ولا المقلّ حتى يجد،ولا الراغب حتى ينجح)[2] .

وكانت العرب تحمد الأناة في الرأي ، واجالة الفكرة فيه وعدم التسرع . (وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول : دعوا الرأي يغب حتى يختمر ، وإياكم والرأي الفطير)[3] .

واجتمع رؤساء بني سعد إلى أكثم بن صيفي يستشيرونه فيما دهمهم يوم الكلاب ، فقال : إن وهن الكبر قد فشا في بدني ، وليس معي من حدة الذهن ما أبتدىء به الرأي ، ولكن اجتمعوا وقولوا ، فإني إذا مرّ بي الصواب عرفته)[4] .

حكم سادات القبائل :

وحكم سيد القبيلة حكماً يتوقف على شخصيته ومكانته ، فإذا كان السيد قوياً

---

١ تاج العروس (١٠/١٤٠) ، (رأي) .
٢ نهاية الأرب (٦/٧٦) .
٣ نهاية الأرب (٦/٧٧) .
٤ نهاية الأرب (٦/٨٠) .

حازماً مهيباً رفع مكانة القبيلة ، وصيّر لها منزلة بين القبائل ، وقد يفرض ارادتها على القبائـــل الأخرى . أما إذا كان ضعيفاً فاتر الهمة بارداً بليداً ، طمـــع فيه الطامعون ، وقد يكون سبباً في تشتت كلمة القبيلة وفي تجزئتها وهبوط مكانتها بين القبائل . فالرئيس هو الذي يخلق القبيلة ويعز مكانتها ، وهذا هو سر ظهور قبائل كبيرة بصورة مفاجئة ، ثم اختفاء أمرها وهبوط منزلتها بعد أمد . وسر ذلك ان الذي يرفع من شأن القبائل أو يخفض من منزلتها هو (سيد القبيلة) ، فهو روحها ، وهو الذي يمنحها إكسير الحياة .

وليس حكم سيد القبيلة ، حكماً مطلقاً ، لا مشورة فيه ولا أخذ رأي ، بل الحكم في القبائل حكماً مستمداً من رأي وجهاء القبائل وعقلائها وفرسانها وألسنتها المتبينة ، فهو حكم (ملأ القبيلة) . وقد يكون بيت رئيس القبيلة ، هو مجلسها وموضع حكمها . وإذا حدث حادث اجتمع عقلاء القوم في مجلس الرئيس وتباحثوا في الأمر . ويقال لمجلس القبيلة (عهرو) (ع هـ ر و) في اللهجة القتبانية [1] ، يعقد النظر فيما يقع للقبيلة من أمر جليل ، مثل فرض ضرائب أو زيادتها ، أو إعلان حرب ، أو ما شاكل ذلك من أمور .

ونجد مثل هذه المجالس عند جميع القبائل . فإذا حدث للقبيلة حادث ، تجمع سادتها للتباحث في الأمر ، ولاتخاذ ما يرون اتخاذه من رأي . ولما كانت القبيلة منتشرة لا تستقر في واحد ، صارت مضارب سادات الأحياء اندية تلك الأحياء ، يجتمع فيها وجوه المضرب للسمر وللبت فيما قد يقع بين الحيّ من خلاف . وبهذه الطريقة يفصل في الخصومات وفي كل ما يحدث للحي من أمر .

ويروي أهل الأخبار شعراً زعموا أن (لقيطاً الإيادي) ، قاله في كيفية الحكم وسياسة الرعية ، فيه هذه الأبيات :

فقلّـــدوا أمـــركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعـا
ما زال يحلب درّ الدهر أشطره ... يكون مُتّبعاً طوراً ومُتّبِعـــا
حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحصد الرأي لا قحماً ولا ضرعا [2]

---

1 Katab. Texte. I, S. 78, Anm. 3, S. 79, Handb., I, S. 122

٢ نهاية الأرب (١٧/٦) .

حكم الملوك :

وتتلخص نظرة الجاهلية بالنسبة الى حكم الملوك فيما يأتي : الملك مالك والتابع مملوك ، واجبه تقديم حقوق الملك للملوك وحق الملك الطاعة وفي ضمن الطاعة : الإخلاص له ، والعمل بما يفرضه على التابع من حقوق وواجبات . وليس للرعية الإمتناع عن دفع ما في عنقها من حقوق لملوكها او ساداتها : سادات القبائل . وليس لأحد حق مطالبة ملكه بدفع مال له ، لا بصورة ثابتة معينة مقررة ، ولا بصور أخرى . إنما الملوك والسادات احرار ، لهم ان يعطوا ولهم ان يمسكوا ، وما يدخل خزانتهم وما يأتيهم من ربح من تجارة او مغنم من حروب او من عشور ومكوس وضرائب اخرى ، هو من حقهم وهو من ملكهم الخاص بهم . وكل ما يعود للحكومة ، هو لهم . لأنهم هم الحكومة ، والحكومة الرؤساء . وفي الحديث : « ومأكول حمير من آكلها ؛ المأكول : الرعية ، الآكلون الملوك جعلوا أموال الرعية لهم مأكلة ، اراد ان عوام اهل اليمن خير من ملوكهم »[1]. و (الآكال : مآكل الملوك . وآكال الملوك : مأكلهم وطعمهم : والأكل : ما يجعله الملوك مأكلة)[2] . والمأكولون إذن هم الرعية ، يأكلهم ملوكهم ، بما يأخذونه منهم من حقوق وبما يفرضونه عليهم من واجبات، والآكلون هم الملوك، لأنهم يأكلون ولا يعطون .

والحاكم ملك كان او سيد قبيلة ، هو حاصل المحيط الذي نشأ فيه والبيئة التي عاش بين اهلها ، لذلك نراه مستبداً الى آخر حدّ من جهة ، ونراه عطوفاً غافراً للذنوب من جهة اخرى . وهو القانون والسلطة التنفيذية والتشريعية ولا رادّ لحكمه وقضائه ، إلا التوسلات والوساطات وشفاعة الشفاع ، فإن تأثر بالشفاعة غير رأيه وإن اصر على رأيه فلا راد لحكمه . وحكم هذا شأنه يكون خاضعاً لمزاج الحاكم وللدرجة هدوء أعصابه واتزانه ، فإن كان الملك عاطفياً منفعلاً سريع التأثر، صار عهده عهد مشاكل ومؤامرات يكون قتل الأشخاص فيه من الأمور البسيطة . وما يومي البؤس والنعيم ، إلا مثل على عقلية الحكم في ذلك الوقت . وفي حكم كهذا تكثر فيه بالطبع الوشايات والمؤامرات ، اذ يستغله الحساد وأصحاب الذكاء في

---

١ اللسان (١١/٢١) ، (أكل) .
٢ اللسان (١١/٢١) ، (أكل) .

الايقاع بخصومهم ، كالذي فعلوه من الايقاع بين النعمان والشاعر النابغة صديقه والمقرب اليه ، وكالذي فعلوه من الإيقاع بين (عمرو بن هند) وهو ملك متهور قلق ، وبين سادات القبائل مما سبب الى غزوهم والى استهتار بعض القبائل بحكمه وخروجه على طاعته .

وقتل الأشخاص من أبسط الأمور بالنسبة الى أولئك الحكام ، فإذا أزعجهم شخص او هجاهم شاعر او انتقصهم احد ، فقد يكون القتل جزاءً له في الغالب. وإذا امر الملك بقتل إنسان ، قتل ، ما لم يشفع له شفيع قويّ مؤثر . وإذا كان امر الملك بقتل الشخص في الحال ، قتل دون تأخير . ولا رادّ لحكمه . فهو الحاكم وهو المنفذ للأحكام . ولا اعتبار لمنزلة الشخص الذي سيقتل ، والشيء الذي يؤجل الموت او يبعده عن شخص ما ، هو هروبه الى رجل منافس لهذا الحاكم كاره له ، او له دالة عليه ، فينقذ لجوؤه الى ذلك الشخص رقبته من سيف الجلاّد .

وللملك إحراق من يشاء إذا أراد ، والتمثيل بجسم عدوّه . وقد رأينا جملة ملوك من ملوك (آل لخم) و (آل غسان) وقد عرفوا (بمحرق) لأنهم حرقوا أعداءهم بالنار . لم يحرقوا بيوتاً ، بل بشراً ، وقد رأينا بعض الروايات، وهي تنسب الى (المنذر بن ماء السماء) قتل راهبات وقعن في الأسر من غسان ليكنّ قرابين قربهن الى العزّى . ورأينا امر (عمرو بن هند) بذبح تسعة وتسعين رجلاً من تميم على قة (أوارة) ، لأنه حلف يميناً لينتقمن منهم بقتل مائة رجل منهم ، واحراقهم بالنار . فقيل له المحرق . وضرب بفعله المثل في قصة يروونها عن هذا المثل : إن الشقي وافد البراجم[1] .

وقد اشتهر (الجلندي) ملك (عمان) بظلمه ، حتى ضرب به المثل . فقيل (أظلم من الجلنديّ) و (ظلم الجلنديّ) . وقيل انه هو الذي ذكره الله في كتابه ، فقال : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً »[2] .

---

١ ثمار القلوب ، للثعالبي (١٠٧ وما بعدها) ، (وهو أول من عاقب بالنار) ، حمزة (٦٧) .

٢ سورة الكهف ، الآية ٧٩ ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨٣) ، الكشاف (٢/٥٧٨).

ويذكر أهل الأخبار ان الملوك إذا ارادت قتل شخص ، لبست جلود النمر وجلست تتفرج على من يراد قتله . ويعبر عن ذلك بالتنمر[١] .

اصول التشريع وسن القوانين :

لا نملك اليوم نصوصاً في أصول التشريع وقواعده عند الجاهليين . إذ لم يعثر على نص خاص بهذا الموضوع . غير ان في بعض النصوص اشارات عابرة، يمكن ان نستنبط منها شيئاً عن قواعد التشريع عند العرب قبل الاسلام . وفي جملة هذه النصوص بعض النصوص القتبانية ، ومنها النص الموسوم بـ Glaser 1606 .

والعرب من الشعوب التي تميل إلى الأخذ بالرأي ، واستشارة ذوي الرأي والخبرة والسن . فنجد سيد القبيلة يستشير سادات القبيلة ووجوهها في الأمور الخطيرة التي تقع لقبيلته. كما نجد المدن والقرى تستنير برأي أولي الأمر في المشكلات التي تقع لها ، حلها وفقاً لما يستقر عليه رأي ساداتها . وفي العربية الجنوبية نجد للقبائل مجالسها كذلك ، حيث يجتمع اصحاب الرأي في القبيلة ، للنظر فيما يقع لقبيلتهم من امر نابه وقضايا خطيرة يجب أخذ الرأي فيها . وكان للملوك مستشارون يستشارون في القضايا التي يعرضها الملك عليهم ، بالاضافة الى (المزاود) والمجالس الأخرى .

وقد استشار الملوك اصحاب الأرض من طبقة (طبنن) (الطبن) . والمستشارين الذين عرفوا بـ (فقضت) و (يتل)[٢] ، كانوا يجمعونهم لأخذ رأيهم في امور الأرض وفي مسائل اخرى . كما استشاروا كبار رجال المعابد من درجة (رشو) و (شوع)[٣] . وكان لرأي هؤلاء أهمية كبيرة بالنسبة للملوك ، لما كان لهم من نفوذ وكلمة في المجتمع .

ولم يكتف الملوك بأخذ رأي الطبقات المذكورة عند إقرار قانون ، بل كانوا يرسلون آرائها ووجهة نظرها إلى مجالس القبائل وإلى سادات ووجوه المدن والقرى والمستوطنات للوقوف عليها ولبيان رأيهم فيها ، وذلك في القضايا العامة التي تشمل

---

١ تاج العروس (٣/٥٨٧) ، (نمر) .
٢ Glaser 1606, Arabien, S. 128.
٣ Arabien, S. 127.

كل الدولة ، مثل تنظيم امور استثمار الأرض وفرض الضرائب والقوانين التجارية ، لتدرس وتعالج على ضوء مصالح كل المتنفذين من ذوي الرأي والجاه في المملكة ، على قدر الامكان ، وليكون في الامكان تطبيقها وتنفيذها دون كبير اعتراض . ومتى جاء رأيهم ووقف الملك على كل الآراء وأحاط علماً بها ، عمل برأيه فيها واتخذ قراراً باتاً بموجبها . ويعبر عن اتخاذ قراره هذا بلفظة (جزمن)أي(الجزم) . جزم الملك برأيه وامضائه لاصدار ذلك القانون . ويأمر عندئذ بتدوينه ، ويعبر عن ذلك بجملة (سطرن ذت يدن) ، أي (وقد كتب القرار بيده) ، كناية عن انه أمر بنفسه بتدوينه ونشره ، فكأن يده ذاتها قد سطرته . وقد تدوّن جمل اخرى في هذا المعنى ، مثل (تعلمه ذت يدن) و (تعلمه يدن) أي ووقعه بيده ، بمعنى أمضاه وختمه بختمه ، وذلك على ما يفعل رؤساء الدول من التوقيع تحت نص القوانين والأوامر ، لاكسابها صبغة رسمية . وتذكر بعد اسم الملك أسماء بعض رجال الحاشية وكبار السادات وأعضاء المزاود ، ممن يكونون قد ساهموا في إصدار القانون ،ولهم قوة تنفيذية في المملكة. على نحو ما نفعل من ذكر اسم رئيس الوزراء والوزراء المختصين ممن لهم علاقة بتنفيذ القانون بعد اسم رئيس الدولة ، دلالة على موافقتهم عليها ، واقرارهم لها .

وبعد الانتهاء من موافقة الملك عليه بتثبيت اسمه عليه يدون وتحفظ نسخاً منه في خزائن الحكومة للرجوع اليها ، ويقرأ القانون على الناس للاطلاع عليه . ثم يكتب على أحجار تثبت في جدر الساحات الكبيرة التي يتجمع فيها ، لا سيما ساحات أبواب المدن والقرى التي تكون عند المداخل ، وهي ساحات الاعلان[1] ويكون القانون بذلك ملزماً واجب التنفيذ ، وعلى موظفي الحكومة والرعية العمل بما جاء فيه .

وفي حالات سن القوانين التي تخص قبيلة واحدة أو مكاناً معيناً ، يجتمع المجلس الاستشاري (المزود) لتلك القبيلة او المكان ، ثم يتداول في الأمر . وقد يحضره الملك بنفسه . وقد يحضره ممثل او ممثلون عنه . وإذا اتخذ المجلس قراراً في أمر ما ، فله الحق باصداره باسم الملك ، كما ان له الحق بإصداره باسمه ، أي باسم المجلس الاستشاري الذي اتخذ القرار . واذا صدر باسم الملك

1 Arabien, S. 128.

دلّ ذلك على أنه قانون رسمي وافقت الدولة عليه ، أما في حالة اغفال الاشارة الى اسم الملك في القرار ، فـإن ذلك يدلّ على انه قانون خاص خصص بالموضع الذي أصدر المجلس قراره فيه . وتطبق احكامه عليه وحده .

ومن حق المجالس اقرار القوانين القديمة وتثبيتها ، كما ان لها حق الغائها او تعديلها ، ويصدر قرارها بقانون . ومن حقها ايضاً العفو عن المحكوم عليهم ، عفواً كلياً او جزئياً . وتنظيم حقوق الأرض بقوانين يصدرها عند الحاجة وحسب مقتضيات الأحوال[1] .

ومن الصعب علينا في الوقت الحاضر تثبيت اسماء الهيئات المشرعة في العربيـة الجنوبية ، اي الهيئات التي كان من حقها سن القوانين ووضع الأنظمة . لأننا نجد في نصوص المسند اسماء مؤسسات سنّت قوانين ووضعت أنظمة في جباية الضرائب وفي تنظيم معاملات البيع والشراء والأرض . مثل (ذو عهرو) (عهرو) في قبيلة (فيشن) (فيشان) من قبائل سبأ و (مسخن) (مسخنان) في سبأ كذلك . ومؤسسات اخرى لا نعرف الآن من أمرها شيئاً يذكر . يظهر أنهـا كانت مجالس ومؤسسات ذات طابع محلي تشمل صلاحيتها الموضع الذي تكون فيه وكان من حقها تشريع ما ترى ضرورياً بالنسبة الى تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لذلك المكان[2] .

ويستنبط من تعدد المجالس والجمعيات ومن الأعمال التي قامت بها ، أن الحكم في العربية الجنوبيـة قبل الميلاد كان حكماً قريباً من الحـكم (الدمقراطي) الشعبي . وان سلطات الملوك كانت مقيدة ببعض القيود ، فلم يكن الملك يصدر أمراً إلا بعد أخذ رأي المجالس المختصة واستشارتها وأخذ موافقتها . والمجالس المذكورة وإن كانت في الواقـع مجالس كبار اصحاب الأرض واصحاب الجاه والنفوذ ، ولا رأي لسواد الناس فيهـا ، وكان للملوك نفوذ عليها ودخـل في قراراتها ، ولا سيما الملوك الكبار اصحاب الشخصية ، إلا ان وجودها على تلك الصورة وعلى هذا النحو من الحكم ، هو خير بكثير من عدم وجودها ومن حكم لا يستند على أي مجلس ولا على أية استشارة أو رأي ، كما كان الوضع عنـد

١ Handbuch I, S. 125.

٢ Handbuch, I, S. 126.

بعض الشعوب التي حكمها حكام مستبدون ، حكموا شعوبهم حكماً فردياً تعسفياً، لم يستند على رأي ، لا رأي النخبة من الأمة ، ولا رأي الشعب .

ودام الحال على هذا المنوال إلى القرن الثاني للميلاد تقريباً ، ثم تبدل وتغير. فلما جاء القرن الثالث تقلص ظل حكم الأخذ بالشورى والرأي ، حتى زال هذا الحكم ، واختفى ذكر (المزاود) ، ولم نسمع بعد ذلك لها خبراً . ويظهر ان العربية الجنوبية قد سارت على الطريق التي سلكها ملوك اليونان وقياصرة (رومة) من التنكر للحكم (الديمقراطي) والابتعاد عنه ، للاخذ بمبدأ حكم (الفرد) ، وهيمنة الحاكم الأعلى على كل شيء . فلما بسط ملوك سبأ وذو ريدان وحضرموت سلطانهم على أرضين واسعة ، وكوّنوا لهم جيشاً كثير العدد غزوا بــه امارات والمخاليف ، ازداد بذلك ملكهم ، واتسع مالهم ، وقضوا على من كان له رأي ونفوذ في المجالس حتى زالت المعارضة وصار الأمر بأيديهم ، وبأيدي من يرضون عنهم ممن يأتمر بأمرهم . وبزوال قوة أصحــاب المجالس ، زال حــكم الرأي والشورى الذي كان يحدّ بعض التحديد من سلطــان الملوك ، ويمنعهم من وضع القوانين من دون أخذ رأيهم ، وصار الحكم إلى رأي الملوك وإلى رأي الأقوياء من كبار أصحاب (المخاليف) .

ومما ساعد على زوال حكم الأخذ بالمشورة والرأي واستبداد الملوك وكبار رجال الاقطاع بالحكم ، هو تدفق الأعراب من الحجاز ونجد وسواحل الخليج إلى العربية الجنوبية وازدياد عددهم فيها ، ولا سيما بعد انهيار حكم مملكة كندة وارتحالهم من منازلهم إلى العربية الجنوبية ، فازداد بذلك نفوذ الأعراب واستغلهم الملوك للقضاء على نفوذ الأقيال والأذواء وذوي الاقطاع والنفوذ والجاه ، حتى صار لهم نفوذ واسع في المملكة ، وغدوا قوة اعترف الملوك بها ، فأشاروا اليها في لقبهم الرسمي الذي صار على هذا النحو : ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في الأطواد والتهائم .

وقد استغل سادة الأعراب حاجة أهل الحكم والمتنافسون عليه اليهم ، ببراعــة ودهاء . فصاروا يؤيدون من يغدق عليهم بالمال ، ومن يفسح لهم المجال للغزو والسلب والنهب ، ومن يزيد على غيره في اعطاء المال لهم . وأخذوا يتنقلون من جهة الى أخرى . يعيشون بالأمن في وقت كان الأمن فيه مضطرباً قلقاً . يهاجمون المدن والقرى والحكومات . وهذا ما أقلق بال الحكومات والرعية ، وجعل الناس

يخشون على حياتهم ومالهم ، ويعيشون بقلق ، في ظل حكومات صغيرة عديدة، لا همّ لها سوى مخاصمة بعضها بعضاً والتناحر ، على عادة الحكومات المتنافسة الصغيرة في التكالب فيما بينها تكالب الكلاب .

وقد امتاز هذا العهد بكثرة حروبه وبكثرة ظهور الثورات فيه . وباضطرار الملوك الى قضاء معظم أوقات حكمهم في مكافحة تلك الثورات وفي محاربة الاقطاعيين الذين أراد الملوك تقليص نفوذهم . وهذا مما جسر الحبش على العربية الجنوبية ، فدخلوا قوة فاتحة فيها . ووضع مثل هذا لا يساعد على قيام حكم (ديمقراطي) ولو بشكل هزيل . وقد أثرت هذه الحروب والاضطرابات على وضع العربية الجنوبية ، فأخرتها كثيراً ، وقضت على ما كان فيها من حضارة ، وجعلت البلاد بلاد حكومات : حكومات قبائل قرى ومخاليف وعشائر . ولو ان الحكم هو للملوك أو للاحباش أو للفرس . وبقي الحال على هذا المنوال حتى ظهر الاسلام ، فقضى على الحكم الأجنبي في العربية الجنوبية .

ولم يتمكن الحبش من حكم العربية الجنوبية كلها . ولم يكن من السهل عليهم حكمها لطبيعة أرضها ولتركز الاقطاع فيها ، وهو نظام لازم تأريخها من قبل ظهور الحكم المركزي المنتظم فيها ، حتى صار من تراث تلك البلاد المميز لها في التأريخ . لقد اقتصر حكم الحبش في اليمن على مدن رئيسية معينة ، كونت منطقة متصلة ، أما خارجها فكان الحكم فيها بيد (الأقيال) الذين ركزوا حكمهم وقووه بتآزرهم وتعاونهم . وبقي الحال على هذا المنوال ايام الفرس أيضاً . بل أستطيع ان أقول إن حكم الفرس كان حكماً شكلياً ، مقتصراً على بعض المواضع ، أما الحكم الواقعي فكان للأقيال . ولا عبرة لما نقرأه في الموارد الاسلامية من استيلاء الفرس على اليمن ، لأن هذه الموارد تناقض نفسها حين تذكر أسماء الأقيال الذين كانوا يحكمون مقاطعات واسعة في ايام حكم الفرس لليمن ، وكان منهم من لقب نفسه بلقب ملك ، وكان له القول والفعل في أرضه ، ولا سلطان للعامل الفارسي عليه .

حكومات مدن :

استعملت لفظة (حكومة) بالمعنى المجازي ، فلم يكن للمدن حكومات بالمعنى

المفهوم من الحكومة في الزمن الحاضر ، أي رئيس مفروض على المدينة بحكم الوراثة أو بحكم القوة ، أو رئيس منتخب ينتخبه أبناء المدينة أو ساداتها وأشرافها لأجل معلوم أو لأجل غير معلوم .

ولم يكن لهذه المدن موظفون نيطت بهم أعمال معينة وواجبات محددة عليهم القيام بها ، في مقابل أجور تدفع لهم . ولم يكن فيها مؤسسات ثابتة مثل المحاكم والشرطة لضبط الأمن والضرب على أيدي من يخلّون بالأمن ويخرجون على أوامر المجتمع وقوانينه ، ولم يكن فيها ما يشبه أعمال الحكومة المعروفة عندنا ؛ لأن مجتمع ذلك العهد يختلف عن مجتمعنا الحديث .

فمكة مثلاً ، وقد كانت من أبرز مدن الحجاز في القرن السادس للميلاد ، لم تكن ذات حكومة . لم يكن يحكمها ملك ، ولم يحكمها رئيس ، وكذلك كان أمر (يثرب) و (الطائف) وسائر قرى العربية الغربية . لم يكن فيها أي شيء من هذه المؤسسات الثابتة التي تكون الحكومة ، والتي تتعاون لتدبير أمور الناس .

وكل ما كان في مكة ، أسر ، يعبر عنها بـ (آل) و (بني) ، فيقال: (آل عبد المطلب) و (آل عبد شمس) و (آل هاشم) ، و (بنو عبد المطلب) و (بنو عبد شمس) و (بنو هاشم) ، وهكذا ، تستوطن شعاباً خصصت بها. وكل (شعب) مجتمع قائم بنفسه ، له سادته وأشرافه ، وهم وجوه الشعب ، وأصحاب الحل والعقد في هذا المجتمع .

ويقوم وجوه الشعْب بفض ما يحدث بين أبناء الشعْب من خلاف ، وبالنظر في أمر المخالفين لأعراف الشعْب وعاداته ، وأحكامهم غير إلزامية ولا تسندها قوة تنفيذية ، بل تنفذ بحكم الأعراف والأصول المرعية،وبحكم وجاهة هؤلاء الرؤساء ومكانتهم عند الشعب .

أما إذا حدث حادث تجاوز مداه حدود (الشعب) ، فشمل شعباً آخر أو عدة (شعاب) ، فيكون أمر النظر فيه لسادات (الشعاب) التي يعنيها الأمر، فيجتمعون عندئذ للنظر في الأمر وليبت فيه بحكمة وبأناة قدر الإمكان ، مراعاة للجوار ، واقراراً للسلم . وإذا أخفق المجتمعون في اتخاذ قرار ، توسط بينهم وسطاء محايدون لفض ذلك النزاع بالتي هي أحسن .

وقد ينشب خلاف بين الأحياء على أمور تمس المصالح الكبيرة الخاصة بالأسر،

فتفعل هذه الأحياء عندئذ ما تفعله القبائل ، تلجأ الى حلفائها ، أو تجدد أحلافها، أو تعقد حلفاً جديداً لتدافع به عن مصالحها، كالذي كان من أمر (حلف المطيبين) وما كان من أمر (الاحلاف) ، أو من (حلف الفضول) .

أما ما يتعلق بأمر المدينة كلها ، كأمر مكة مثلاً، من أمور تتعلق بأحوال السلم أو الحرب ، فيترك النظر في ذلك الى (الملأ) (ملأ مكة) مثلاً . وهم وجوه مكة وسادتها من كل الأسر ، فيجتمعون في (دار الندوة) أو في دور الرؤساء للنظر في القضايا والبت فيها . فيبين الرؤساء آراءهم ويتناقشون فيها، فإذا اتفقوا على شيء ألزموا أنفسهم تنفيذه، وإن لم يتفقوا على شيء ، وكان النزاع بين المجتمعين حاداً، حاول كل فريق تأليف جبهة قوية لمقابلة الجبهة المعارضة ، ولمنعها من الاعتداء عليها ، وقد يعمد المتخاصمون إلى مقاطعة بعضهم بعضاً، مقاطعة اقتصادية واجتماعية، كالذي حدث من مقاطعة أغلب قريش لآل هاشم وآل المطلب ، بسبب تمسك أبي طالب بابن أخيه الرسول ودفاعه عنه . فما كان من بقية قريش إلا أن قررت مقاطعة (أبي طالب) ومن آزروه وانضم اليه .

ونجد في مكة نوعاً من التخصص في الأمور . والظاهر ان ذلك انما كان عن استئثار بعض الرجال البارزين بعمل من الأعمال ، ثم انتقل ذلك منه إلى ورثتهم بالإرث أو بالاتفاق أو بالنص ، ثم صار سنّة اتفق عليها ، كالذي ورد من أمر (الرفادة) وهي ما كانت تخرجه قريش من أموالها وترفد به منقطع الحاج[1] . وقد عرفت (الرفادة) انها شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية ، فيخرج كل انسان مالاً بقدر طاقته ، فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً ايام الموسم ، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب للنبيذ ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي ايام موسم الحج . وكانت الرفادة لبني هاشم . وذكر ان أول من قام بالرفادة (هاشم بن عبد مناف) وسمّي هاشماً لهشمه الثريد[2] .

وكالذي ورد من أمر (السقاية) ، سقاية الحاج . وقد عرفت انها مأثرة من مآثر قريش في الجاهلية . وهي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء ، وكان يليها (العباس بن عبد المطلب) في الجاهلية والاسلام[3] .

---

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٢ اللسان (ث/ر/د) ، (٣/١٨١) ، تاج العروس (٢/٣٥٥) ، (رفد) .
٣ اللسان (س/ق/ي) ، (١٤/٣٩٢) ، تاج العروس (١٠/١٨١) ، (سقى) .

وكالذي جاء من أمر (السدانة) مع (الحجابة) . والسادن : خادم الكعبة وبيت الأصنام . وكانت السدانة في الجاهلية لبني عبد الدار ، فأقرها النبيّ لهم في الاسلام . والسدنة هم الذين يتولون فتح باب الكعبة واغلاقها وخدمتها[1] .

وأما (الحُجّاب) فهم سدنة البيت أيضاً . وذكر ان الفرق بين السادن والحاجب ان الحاجب يحجب واذنه لغيره ، والسادن يحجب واذنه لنفسه[2] والحجبة هم حجبة البيت . ورد في الحديث : « قالت بنو قصيّ فينا الحجابة ، يعنون حجابة الكعبة ، وهي سداتها ، وتولي حفظها ، وهم الذين بأيديهم مفاتيحها »[3] .

وكالذي ذكر من أمر (الندوة) ، والندوة التجمع والجماعة . و (دار الندوة) : دار الجماعة ، سميت من النادي . وكانوا إذا حزبهم أمر ، ندوا اليها ، فاجتمعوا للتشاور[4] .

وكالذي روي من أمر (المشورة) . وذلك أن رؤساء قريش كانوا إذا أرادوا أمراً استشاروا ذوي الرأي والعقل والحنكة ، ومن هؤلاء (يزيد بن زمعة بن الأسود) ، وهو من (بني أسد) . فكانوا إذا أرادوا أمراً ذهبوا اليه ، وعرضوه عليه . فإن وافقه والاهم عليه وإلا تخير . وكانوا له أعواناً . وقد أسلم ، واستشهد بالطائف[5] .

ومن الأعمال التي كانت في مكة (الأشناق) . وهي الديات والمغرم . وكانت لأبي بكر ، وهو من (بني تيم) فكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه . وإن احتملها غيره خذلوه[6] . ويدل هذا على أن تقدير الأشناق لم يكن ثابتاً ، بل كان يعود الى تقدير صاحب الاشناق . كما يدل أن غيره قد قام به .

ومن أعمال مكة (السفارة) ، وذلك أن أهل مكة كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوا سفيراً ، وإن نافرهم حيّ لمفاخرة جعلوا لهم منافراً لينافرهم.

---

١ اللسان (س/د/ن) ، (٢٠٧/١٣) .
٢ اللسان (س/د/ن) ، (٢٠٧/١٣) .
٣ اللسان (ح/ج/ب) ، (٢٩٨/١) ، تاج العروس (٢٣٩/٢) ، (طبعة الكويت) .
٤ اللسان (ن/د/ا) ، (٣١٧/١٥) .
٥ العقد الفريد (٣١٣/٣ وما بعدها) ، المحبر (ص ١٠٢) .
٦ العقد الفريد (٣١٣/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٤٠٠/٦) ، (شنق) ، الاستيعاب (٢٣٧/٢) .

وكانت السفارة والمنافرة في (بني عدي) عند ظهور الإسلام . وكان الذي يتولاها إذ ذاك (عمر بن الخطاب)[1] .

وذكر أهل الأخبار أن (بني سهم) (الحارث بن قيس) ، وكانت اليه الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لآلهتهم[2]،والتي كانوا يخصصونها من مغانمهم في السلم وفي الحرب .

ومن أعمالهم (الأيسار) ، وهي (الأزلام) ، وقد ذكر أهل الأخبار أنها كانت في (بني جمح) ، ويتولاها منهم (صفوان بن أمية) . فكان لا يُسبق بأمر عام حتى يكون هو الذي تسيره على يديه[3] .

ومن الأعمال الأخرى التي ذكرها أهل الأخبار (العمارة) . وكان الذي يتولاها عند ظهور الإسلام (العباس) . وكان ينهى الناس من أن يتكلم احدهم في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا أن يرفع صوته[4] .

وأشار أهل الأخبار الى ما يسمى بـ (حُلْوان النفر) وقالوا إن العرب لم تكن تملك عليها في الجاهلية أحداً ، فإن كانت حرب اقرعوا بين أهل الرياسة ، فمن خرجت عليه القرعــة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً . فلما كان يوم الفجار ، أقرعوا بين بني هاشم ، فخرج منهم العباس ، وهو صغير ، فأجلسوه على المجن[5] .

وقد كانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر في بني هاشم[6] .

واهتم أهل مكــة بأمر الحروب والدفاع عن مدينتهم . ويقتضي ذلك وجود أناس لهم خبرة وتجربة في الحرب ، ولهم رأي في أحوالها وأصولها وحيلها وخدعها. فالحرب خدعة ، ولا بد للقائد من اللجوء الى الخدع والحيل الحربية للتغلب على خصمه . ونظراً لضرورة التهيــؤ للحرب في أيام السلم ، أوجد أهل مكة بعض الأعمال وعهدوا الى أصحابها القيام بها . منها القبة والأعنة وخزن الأسلحة وحمـل اللواء والقيادة .

---

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٢ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٣ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٤ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٥ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٦ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .

أما (القبة) فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون بـه قريشاً . وأما (الأعنة) ، فيكون صاحبها على خيل قريش في الحـرب[1] . وكانتا إلى (خالد بن الوليد) وهو من (بني مخزوم) عند ظهور الاسلام .

وذكر ان قريشاً كانوا يحفظون الأسلحة عند (عبدالله بن جدعان) ، فإذا احتاجوا إلى السلاح وزعه فيهم[2] . فبيته مخزن قريش للاسلحة . ويذكر ان القبائل كانت إذا حضرت المواسم أودعت سلاحها (عبدالله بن جدعان) ، فإذا انتهى الموسم وقررت العودة استعادته منه ، وذلك لأمانته ولشرفه ولوثوق الناس به .

ومن الأعمال التي لها علاقة بالحرب : (اللواء) . وذكر ان (عثمان بن طلحة) وهو من (بني عبد الدار) كان اليه اللواء والسدانة مع الحجابـة ، ويقال : والندوة أيضاً . وكانت هذه في (بني عبد الدار) . وورد في خبر آخر ان راية (العقاب) وهي راية قريش ، كانت عند (أبـي سفيان) وهو من (بني أمية)[3] . و (العقاب) راية للنبي ، كما ورد في الحديث . وذكر ان العقاب علم ضخم ، يعقد للولاة شبّه بالعقاب الطائر[4] .

والقيادة : قيادة جيش مكة . وقـد كانت إلى بني أمية في الغالب[5] . ولكن العادة ان يتولى سادات مكة قيادة أحيائهم في القتال . فيقود سيد كل شعب أبناء شعبه ويوجههم حيث يرى في المعركة . أما التنسيق بين خطط المقاتلـين لانجاح المعركة فيكون أمره إلى من تسلمه قريش قيادتها العامة في الحرب من الرجال المحاربين أصحاب الرأي في الحروب . وكان(حرب بن أمية)قائد قريش في الفجار وفي ذات نكيف.

ويجب ان نضيف الى ما تقدم قيادة قوافل قريش ، وقد كان أمر(عير قريش) إلى (أبـي سفيان) عند ظهور الاسلام[6] . و (عير قريش) قافلتها . وقـد كانت رئاسة القوافل من الأعمال الهامة في ايام الجاهلية . وعندما تعود القافلة سالمة غانمة يستقبل قائدها استقبال الأبطال . وقد أشير في الكتابات اللحيانية والتدمريـة إلى (رئيس القافلة)،على انه من الشخصيات المهمة البارزة في تدمر وعند اللحيانيين.

---

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) ، ابن الأثير ، أسد الغابة (٢/١٠١) .

٢ أيام العرب (ص ٣٢٩) .

٣ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (١/٣٩٣) ، (عقب) .

٥ الازرقي (١/٦٣ وما بعدها ، ٦٦) .

٦ الطبري (٢/١٣٢) .

وكذلك كان أمر قائد قافلة قريش ولا شك . وورد في الكتابات النبطية لقب آخر غير لقب : (زعيم القافلة) هو (زعيم السوق) ، سأتحدث عنه فيما بعد[1] .

وذكر ان من أعمال قريش في الجاهلية ، عمل يقال له (العمارة) . وكان إلى (العباس بن عبد المطلب) ، بالاضافة الى السقاية[2] . وقد خرجت عليه القرعة يوم الفجار ، فنصب رئيساً على (بني هاشم) . وكان من عادة قريش والعرب – كما يزعم أهل الأخبار – انهم لم يكونوا يملكون أحداً عليهم . فإن كان حرب أقرعوا بين أهل الرئاسة ، فمن خرجت عليه القرعة أحضروه ، صغيراً كان أو كبيراً . فلما خرجت القرعة على العباس،وهو صغير،جاءوا به،فأجلسوه على المجن.

و (العمارة) عمارة البيت . وقد عدّت من مفاخر قريش . وقد أشير اليها في القرآن : « أجعلتم سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر »[3] . وقد ورد ان ممن تولاها (العباس بن عبد المطلب)[4] و (شيبة بن عثمان)[5] . وذكر ان (المشركين قالوا : عمارة البيت وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد . وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل إنهم أهله وعمّاره . فذكر الله استكبارهم واعراضهم)[6] .

أما بخصوص نظام الحكم في يثرب ، فإنه لا يختلف عن طريقة نظام الحكم في مكة ، فلم يكن لأهل يثرب عند ظهور الإسلام رئيس وقد حاول بعض سادتها من الأوس والخزرج تنصيب أنفسهم ملوكاً على المدينة ، غير أنهم لم يفلحوا في مسعاهم فلم ينصبوا ملوكاً عليها . والظاهر أن للمنافسة الشديدة العنيفة التي كانت بين الأوس والخزرج على الزعامة والرئاسة يداً في عدم تمكين أي أحد من سادة يثرب من الانفراد بزعامة المدينة وبالسيادة عليها . وقد يكون لوجود اليهود بيثرب يد في تعميق الخلاف بين (أولاد قيلة) ، إذ لم يكن من مصلحتهم اتفاقهم واجماعهم على اختيار رئيس واحد قوي . فالرئيس القوي سيبسط نفوذه من غير شك على يهود يثرب أيضاً ، ويستلطم ويجعلهم أتباعاً له . أما في حالة تشتت

---

١ Cooke, North-Semitic, p. 274, 279.

٢ الإصابة (٢٦٣/٢) ، (رقم ٤٥٠٧) .

٣ التوبة ، الآية ١٩ .

٤ تفسير الطبري (٦٧/١٠) ، الإصابة (٢٦٣/٢) .

٥ تفسير الطبري (٦٨/١٠) .

٦ تفسير الطبري (٦٧/١٠) .

كلمتهم وتشاحنهم فستكون لليهود إمكانية إثارة فريق على فريق ، والاستفادة من سياسة فرق تسدّ . وبذلك يكون أمرهم ونهيهم في أيديهم بدلاً من أن يكون في أيدي (صاحب يثرب) .

وقد حاول أهل يثرب من الأوس والخزرج حلّ مشكلة الحكم في مدينتهم حلاً وسطاً ، على قاعدة: أن من الأوس أمير ومن الخزرج أمير . يحكمان حكماً مشتركاً ، او على التوالي ، كأن يحكم سيد الأوس سنة ، ثم يترك الحكم لسيد الخزرج ليحكم السنة التالية ، ثم يعود فينسحب ليتولى الحكم سيد الأوس وهكذا ، غير أن الحل لم ينجح ايضاً ، وبقيت المشكلة : (مشكلة الحكم) مستعصية غير محلولة حتى دخل الرسول يثرب ، فحلّها حلاً أزعج بعض من كان طامعاً في الحكم وكان يرغب ان يكون سيد يثرب .

هذا ولم نعثر في الأخبار الواردة الينا عن يثرب ، على خبر يفيد وجود (ناد) في هذه المدينة على شاكلة (دار الندوة) أو نوادي الملأ . والظاهر أنه قد كان للنفرة الشديدة التي كانت بين الحيين : الأوس والخزرج يد في عدم ظهور مجلس حكم موحد في هذه المدينة . فبغض كل حيّ للحيّ جعل الاتفاق فيما بينهما على تكوين مجلس واحد من (ملأ) المدينة أمراً صعباً ، على حين كان ذلك ممكناً بالنسبة لأهل مكة ، لأنهم كانوا كتلة واحدة ، ومصلحتهم في حكم مشترك هي مصلحة عامة . ولم تكن المنافسات عندهم بين الأسر شديدة حادة ، لذلك كان من الممكن اجتماع سادات الأسر في مجلس واحد ، لا سيما وهم تجار ، ومن مصلحة التاجر تمشية الأمور وتصريفها بالطرق السلمية ، وحلها بغير تعنت ولا تشدد وغطرسة .

وكان أمر (الطائف) في أيدي (ملأ المدينة) . يديرون شؤونها في أيام السلم والحرب ، ولم يرد في الأخبار أن أهل الطائف توجوا رجلاً عليهم، فجعلوه ملكاً ، ولم يرد فيها أيضاً انهم رأسوا رئيساً عليهم ، بل كانت الرئاسة في عدد من الرؤساء ، هم سادات البطون والأحياء . ولكل رئيس كلمته في حيّه الذي يقيم فيه .

الفصل الثالث والخمسون

حقوق الملوك وحقوق سادات القبائل

وبعد أن تكلمت على أصول الحكم عند الجاهليين وعلى الأشخاص الذين كانوا يتولون إدارة الحكم وتصريفها ، وجب أن أتكلم على حقوق الملوك وحقوق سادات القبائل على أتباعهم،أي الواجبات التي يجب أن يؤديها الأتباع إلى سادتهم وحكامهم من طاعة ومن مال ، فأقول :

حقوق الملوك :

والملك هو السلطة العليا في المملكة وهو الموجه والمدير المدبر لأمورها . وله على أتباعه حقوق ، منها : حق التسليم والخضوع والطاعة . فطاعة الملك طاعة واجبة. وله حق جباية الشعب ، أي أخذ الضرائب منه : ضرائب على الزراعة،وضرائب على التجارة ، وحق إعلان النفير والحرب ، والامتناع عن دفـع حقوق الملوك المتفق عليها ، والخروج على أمره هو خروج على الحق والقانون .

هذا واننا نأسف إذ نقول اننا لا نملك كتابات جاهليـة تتحدث عن حقوق الملوك وعن الواجبات التي على الشعب القيام بها تجاههم ، فما نتحدث به عن هذا الموضوع مستمد من بعض الأوامـر والإرادات التي أصدرها ملوك من العربيـة الجنوبية ، في تنظيم الأعمال وفي كيفية التجارة والاتجار أو في الضرائب التي على

التاجر أو المزارع أداؤها للملوك ، وبعض آخر أخـذ من كتب أهل الأخبـار والتواريخ وكتب الشعر والنثر ، وفيها نتف وردت عرضاً عن بعض حقوق الملوك وسادات القبائل في الجاهلية الملاصقة للاسلام .

والملك هو قائد شعبه ايام السلم وايام الحرب ، يرأس جيشه في القتال ويختار من يشاء لقيادة الجيش . وهو القاضي الأعلى والحاكم فيما يقع بينهم من خلاف . وهو الرئيس الروحي لأمته وكاهنها في الأصل . غير ان الملوك تركوا هذه القيادة الروحية ، أي الزعامة الدينية لغيرهم ، وهم رؤساء الدين ، واحتفظوا بالسلطة الزمنية التي تشمل سلطة القيادة والحكم .

بيت المال :

والملك هو صاحب أرض الدولة والقيّم عليها. وله حق منح الأرض لمن يشاء وانتزاعها عمن يشاء ، أو تأجيرها لمن يرى . والأرض عند العرب الجنوبيين هي ملك الآلهة ، وليس على وجـه الأرض ملك لإنسان . غير أن هذا لا يعني ان الأرض ومن عليها ملك لرجال الدين باعتبار انهم ألسنة الآلهة الناطقة عـلى هذه الأرض والممثلون لهم في هذا العالم ، فهم وحدهم إذن لهم حـق ادارة الأرض واستغلالها ، وذلك لأن الملوك سلبوهم هـذا الحق واستبدوا به ومارسوه ونصبوا أنفسهم خلفاء على الأرض ، وصاروا أوصياء الآلهة على أموالها . وهكذا فسرت قاعدة (المال مال الآلهة) تفسيراً يجـعل حق الأشراف على (مال الآلهة) في هذه الأرض للملوك ولأصحاب السلطان الفعلي الحاكمين حكماً بقانون القوة ، أما رجال الدين الذين يجب أن يكونوا هم خلفاء الآلهة على الأرض والمنفذين لأوامرها، فقد خضعوا لحكم الواقع ، ورضوا بما حصلوا عليه من حقوق وامتيازات، وصاروا الى جانب الملوك في الغالب ، لتشابه المصلحتين ، وحصل التراضي على اعطائهم حقوقاً وامتيازات واسعة ، واستقلالاً في إدارة اموال المعـابد ، بحيث لا يكون للحكومة اي سلطان عليها ، وهي مستثناة من دفع الضرائب التي يجب على سائر الناس دفعها الى الحكومة ، فصار المعبد من ثم سلطة ذات ثراء وسلطان تلي سلطة الحكومة ولها ضرائب يدفعها المؤمنون المتقون [١] .

---

١ Grohmann, Arabien, S. 125.

والملوك هم من كبار أصحاب الملك في الدولة ، فإلى جانب حقهم المتقدم في اعتبارهم خلفاء الآلهة على الأرض في ادارة ملكها ، نجدهم يمتلكون أرضين واسعة وأملاكاً شاسعة ويتاجرون باسمهم،فيرسلون القوافل للتجارة . والأرض التي يمتلكها الملوك ، هي أرضون خاضعة لهم مباشرة ، لأنها ملكهم الخاص . ومعنى ذلك ان منفعتها تكون خاصة بهم . فلا يصرف منها على المصلحة العامة ، إلا إذا أراد الملك ان يتبرع بذلك رضاءً ، وله بالطبع أن يهدي منها ما يشاء الى من يشاء ، كما يفعل أي مالك ، وهو يؤجر ارضه لمن يريد . ويقال لما يدفع له في مقابل ذلك (نحلث)[1] .

والأرضون المفتوحة عنوة هي من حق الدولة ، تضاف إلى أملاكها وتسجل باسمها ، وتعدّ من (بيت المال) ، ويكون حق النظر في أمرها والإشراف عليها واستغلالها للملك ، لأنه رئيس الدولة وحاكمها ، وله الخيار في كيفية التصرف بها . له أن يعطيها للأقيال في مقابل ضريبة حربية يقدّمونها له تسمى (ساولت) أو في مقابل ايجار يتفق عليه يقال له (ثوبت) ، وله أيضاً أن يبيعها متى شاء، ويعبّر عن ذلك بـ (شامت) أي بيع[2] .

ويراد بضريبة (ساولت) أي الضريبة الحربية ، تعهد أصحاب الأرض بتقديم المحاربين إلى الدولة ، ويتفق على العدد وعلى وقت التقديم ، ويسجل ذلك في عقد الاتفاق . ويقوم أصحاب العقد بالانفاق عليهم وبتقديم كل ما يحتاج المحارب اليه من عدة وسلاح . والغالب ان يقوم بذلك المحارب نفسه ، لأنه رجل مسخر مأمور ، فهو من أتباع صاحب الأرض ، ينتزعه سيده من أرضه ، ويرسله إلى الخدمة وقت الحاجة اليه .

ولما فتح (كرب ايل وتر) ملك سبأ أرض أوسان ودهس،وفتح عنوة كل أرض (عبدان) ومدنها وقراها وأوديتها وحصونها ومراعيها ، صارت كل هذه الأرضين وما عليها من محاربين ومن مدنيين أحرار وعبيد ملكاً لدولة سبأ وسجلت في جملة مقتنياتها . ويلاحظ ان سلطنة العوالق العليا عدت (وادي عبدان) الذي هو في جنوب (نصاب) من (أرض الدولة) أي من أملاك السلطان ومن

---

[1] Osiander 35, Arabien, S. 126.

[2] Arabien, S. 126.

أرض (ربيت المال) ورقبتها بيد (سلطان العوالق)[1] .

وبالاضافة إلى الأرضين المفتوحة عنوة،ضم ملوك سبأ إلى أملاك الدولة أرضين اشتروها شراءً ، واشتروا كل ما كان عليها من ناس وحيوان وزرع. فقد كان المشتغلون بالأرض يعدون تابعين لها فيباعون معها وهم ملك لها . وهم طبقة خاصة من طبقات عبيد الأرض .

ولم تتحدث الكتابات عن حقوق الملك وعن مدى صلاحياته في الحكم ، ولكننا نستطيع ان نقول قولاً عاماً إن سلطات الملك كانت كسلطات الملوك الآخرين في الأقطار الأخرى ، تتوقف على شخصية الملك وسلطانه وقدرته ، فهو ملك ذو سلطان واسع مطلق ، أوامره قوانين ، وارادته مطاعة ، يحد سلطان المتنفذين ويخضعهم لحكمه إن كان الملك صاحب شخصية قوية وعزم ، وهو مغلوب على أمره يحكم اسماً إن كان ضعيفاً خائر العزم ، وتحكم المملكة العناصر القوية صاحبة السلطان من ابناء الأسرة المالكة ، او من سادات القبائل او رجال الدين ، فعلى هذه الأحوال إذن كانت تتوقف سلطات الملك وأعماله في المملكة .

وللملوك حق يسمى (حق الإحماء) . فإذا اعجب الملك بأرض أو بعشب ، أعلن حمايته لتلك الأرض ، او لذلك العشب ، فلا يسمح عندئذ لأحـــد بدخول (الحمى) اي المكان المحمي دون اذن الملك أو الشخص المخول من الملك بهـذا الحق . ويدخل في هذا الحق حق حماية الحيوان او النبات . وكان ملوك الحـيرة يحمون الأرضين والحيوانات،كالإبل والخيل والكباش ، فتكون لهم ، لا يسمحون لغيرهم بالانتفاع منها . ولما وثب (علباء بن أرقم اليشكري) على كبش للنعمان ابن المنذر ، كان من أحماه ، أي جعله حمى ، فذبحه ، حمل الى النعمان ، فاعتذر اليه وعفا عنه[2] .

وكان (النعمان بن المنذر) يحمي مواضع عـــديدة قرب الحيرة وعلى مبعدة منها . ترعى فيهـــا إبله وبهائمه ، منها أرض (سحبل) . أرض بـــين الكوفة والشأم[3] .

---

١ Beiträge, S. 56.

٢ معجم الشعراء (٣٠٤) .

٣ تاج العروس (٧/٣٧٣) ، (سحل) .

أموال الدولة :

ذكرت ان الأرض هي ملك الآلهة في نظر العرب الجنوبيين ، وان (المكربين) والملوك هم خلفاء الآلهة على الأرض ، وهم المسؤولون عن الأرض وعن الملك وعن تطبيق أوامر الآلهة ونواهيها بين الناس . وهم حماة الملكية . وكل أرض الدولة هي ملك الحاكم من حيث المبدأ،والحاكم هو الذي يقر الملكية ويثبتها لأتباعه ويحافظ عليها [1] .

والملكية بصورة عامة ، إما أن تكون ملكية الدولة ، وإما أن تكون ملكية الملك أو الحكام ، أي أملاكهم الخاصة بهم المسجلة باسمهم ، وإما ان تكون من أملاك المعابد ، من أوقاف وغيرها وإما أن تكون من ملكية أشخاص وهي : أملاك ثابتة ، أي غير منقولة ، مثل أرض وبئر وحدائق وبساتين، وأموال منقولة مثل : بهائم وأثاث وغير ذلك مما يمكن نقله من مكان إلى مكان .

وأعني بأرض الدولة ، أرض الفتوح . وهي كل أرض تفتتح عنوة ، فتعد مالاً من أموال الدولة ، وتسجل باسم الدولة ، كأن تسجل باسم شعب معين أو شعب سبأ ، وتقيد عند تسجيلها باسم آلهة ذلك الشعب ، باعتبار انها هي المالك الحقيقي الشرعي . وتقوم الحكومة بإدارتها وبالاشراف عليها وباستغلالها واستثمارها إما مباشرة ، أي بتعيين موظفين لإدارتها ، وإما بإعطائها اقطاعاً أو كراءً إلى غير ذلك من طرق الاستثمار . ويسجل وارد هذه الأملاك باسم الدولة ويدخل في خزانتها ، وينفق منه على المشاريع العامة ، وفي ضمنها رواتب الموظفين وأجور المشتغلين في إدارة هذه الأملاك .

ويمكن تسمية أرض الدولة بأرض السلطان أو أرض (ميرى) او (أرض سنية) في المصطلح الحديث .

ومن أملاك الدولة : الصوافي . وهي الأرضين التي استولي عليها وكانت تابعة لحكومة سابقة . فتكون حقاً من حقوق الدولة المنتصرة وغنيمة لها . وتدخل فيها الأملاك والأرض التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها . فقد كان الملوك يستصفون الأرضين التي يستولون عليها بالقوة ويجعلونها ملكاً لهم . وهي غير

---

١ معجم الشعراء (ص ٣٠٤) .

(الصفايا) ، أي ما يختـاره الرئيس من المغنم ويصطفيه لنفسه قبل القسمة من فرس او سيف او غيره[1] .

والصوافي في الاسلام: الأملاك والأرض التي جلا عنها أهلها او ماتوا ولا وارث لها . والضياع التي يستخلصها السلطان لخاصته . وكانت (صفية) بنت (حيي) من الصفايا ، اصطفاها الرسول لنفسه من غنيمة (خيبر)[2] .

أموال الملوك :

وإلى جانب أموال الدولة ، توجد اموال الملوك . وهي اموالهم الخـاصة بهم والمسجلة بأسمائهم لأنها ملك لهم . يتصرفون بها تصرفاً مباشراً ، او يؤجرونهـا لأتباعهم في مقابل أجر يقال له (نحلت) . والعادة ان الذي يستأجرها هم كبار الناس وسادات المجتمع يأخذونها منهم بشروط سهلة ، ثم يؤجرونها لمن هم دونهم بشروط صعبة ، للاستفادة من الفرق بين سعري الإيجارين . وقد يؤجرها الملوك الى قبيلة ، وتكون القبيلة مسؤولة كلها امامه عن الأرض . فيذكر في العقد اسم القبيلة المستأجرة باعتبار أنها هي التي أجرت ذلك الملك . إلا أن الغـالب هو أن سادات القبائل ، هم الذين يتصرفون بالأرض المستأجرة ، فيؤجرونها الى اتباعهم بشروط ثقيلة . ليربحوا من الفرق . ويكونون هم المسؤولين عن تقديم الـ (نحلت) أي بدل الإيجار الى الملوك[3] .

ويحدث في كثـير من الأوقات ان كبار الاقطاعيين وكبار سادات القبائل ، يستأثرون بأملاك الدولة وبأملاك الملوك ، ويتصرفون بها تصرفاً اعتباطياً ،ولا تتمكن الحكومة من عمل شيء تجاههم لأنهم أقوياء ، لذلك تضطر الدولة الى مـداراتهم ومسايستهم ، بأن تأخذ منهم (نحلت) (نحلة) ، أي أجراً رمزياً ، يكـون بمثابة اعتراف منهم بأن الأرض التي استأثروا بها هي ملك للدولة وللملوك.ويقومون هم باستغلالها وبالتصرف بها كيف يشاؤون . ولا يزال هـذا الوضع معروفاً حتى

---

١ اللسان (٤٦٢/١٤) ، (صفا) .
٢ اللسان (٤٦٣/١٤) ، (صفا) .
٣ Oslander 35, SD 15, Arabien, S. 126.

اليوم ، فقد كان سادات القبائل قد وضعوا أيديهم على أرضين (حكومية) اي (ميري) ، وتصرفوا بها وكأنها ارض تملك (طابو) في مقابل اجر رمزي زهيد ، ومنهم من استولى عليها وسجلها باسمه ، فصارت ملكاً صرفاً له . بعد بذله مبلغاً زهيداً اعتبر ثمناً لتلك الأرض .

الأوقاف :

وقد كانت للمعابد اوقاف حبست عليها ، ولها موظفون لجباية غلتها ، وهي أوقاف قديمة سجلت باسم المعابد منذ كان الكهان (المكربون) يتولون أمور الحكم. وأوقاف كان يحبسها الأغنياء الأتقياء في حياتهم او بعد وفاتهم على المعابد ، قربة الى الآلهة . وهي معفوة من الضرائب ، فلا تدفع للحكومة اي ضريبة . لأنها أملاك المعبد . ويدفع المستغلون للأوقاف حق التصرف بالاوقاف الى المعبد ، لأنه هو المالك الشرعي للوقف . كما سأتحدث عن ذلك بالقسم الخاص بالمعبد .

وكان أهل الجاهلية يحبسون السوائب والبحائر والحوامي وما أشبهها ، فلا يعتدي عليها ولا يستغلها احد . فلما جاء الإسلام ، نزل القرآن بإحلال ما كانوا يحرمون منها وإطلاق ما حبسوا . وعرف ذلك بـ (الحبس)[1] . وكانوا في الجاهلية يحبسون مال الميت ونسائه . كانوا إذا كرهوا النساء لقبح أو قلة مال حبسوهن عن الأزواج لأن أولياء الميت كانوا اولى بهن عندهم . « وفي حديث ابن عباس: لما نزلت آية الفرائض قال النبي ، صلى الله عليه وسلم : لا حبس بعد سورة النساء ، أي لا يوقف مال ولا يزوى عن وارثه » ، إشارة إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من حبس مال الميت ونسائه[2] .

وكانوا يحبسون الأرض والنخل والكروم وغير ذلك على أصنامهم ، ويجعل بعضهم غلتها على ابناء السبيل . وذكر ان (الحبس) يقع على كل شيء وقفه صاحبه وقفاً محرماً لا يورث ولا يباع من ارض ونخل وكرم ومستغل .

---

١ جمع حبيس

٢ اللسان (٤٥/٦) ، (حبس) .

سمات الملك :

وكانوا يَسِمون إبل الملوك وماشيتهم بسمة خاصة ، لتكون علامة على انها من ملك الملوك والدولة . كما كان الأشخاص يَسِمون إبلهم وماشيتهم بسمات خاصة بهم ، لتكون دلالة على تبعيتها لصاحب (الميسم) . والوسم أثر الكي . والميسم : هو الحديدة التي يكوى بها ، واسم للآلة التي يوسم بها . والأصل في الوسم أن يكون بكي ، ثم أطلقوه على كل علامة ، مثل قطع في أذن أو قرمة تكون علامة ، أو ضروب الصور . وكان الرسول يسم إبل الصدقة بميسم ، أي يعلم عليها بالكي[1] .

ووضعوا الريش علامة وسمة لجمالهم ، ليعرف من يراها انها من إبل الملوك ، فلا يقترب منها[2] . وكانوا إذا أرادوا تشريف أحد ، حملوه على هذه الإبل أو أهدوه منها . (ومن المجاز : أعطاه،اي النعمان النابغة مائة من عصافيره بريشها، اي بلباسها وأحلاسها . وذلك لأن الرحال لها كالريش ، او لأن الملوك كانت إذا حبت حباءً جعلوا من أسنمة الإبل ريشاً ، وقيل ريش النعامة ، ليعرف انه من حباء الملك)[3] . وذكر ان الملوك كانوا يضعون الريش في أسنمة الإبل وتغرز فيها ، وكانت تجعل الريش علامة لحباء الملك ؛ تحميها بذلك وتشرف صاحبها[4] .

وقد عرفت إبل الملك (النعمان بن المنذر) بأصالتها وبجودة جنسها وبنجابتها . وذكر ان أكرم فحل كان للعرب من الإبل كان يسمى عصفوراً، وتسمى أولاده عصافير النعمان . وكان إذا وهب منها لأحد عدّ ذلك تقديراً وتعظيماً له . حتى كانوا يقولون : (حباه بكذا وكذا من عصافيره) ، و (وهب له مائة من عصافيره) . وذكر ان من فحول إبل (النعمان) الأخرى (داعر) و (شاغر) و (ذو الكِيلين)[5] .

ولأهمية السمات في ذلك الوقت ، وضعوا لها أسماء ، ذكرت في كتب اللغة

---

١ تاج العروس (٩٢/٩ وما بعدها) ، (وسم) .
٢ حياة الحيوان ، للدميري (١٧٣/٢) ، الحيوان ، للجاحظ (٤١٧/٣) .
٣ تاج العروس (٣١٦/٤) ، (الريش) .
٤ الحيوان (٤١٧/٣ وما بعدها) .
٥ الحيوان (٢٣٣/٥) ، (ولذلك قالوا في الحديث : فرجع النابغة من عند النعمان ، وقد وهب له مائة من عصافيره بريشها) ، الحيوان (٤١٨/٣) .

والأخبار . منها : السطاع ، والرقمة ، والخباط ، والكشاح ، والعلاط ، وقيد الفرس ، والشعب ، والمشيطفة ، والمعفاة ، والقرمة ، والجرفة ، والخطاف ، والدلو ، والمشط ، والفرتاج ، والثؤثور ، والدماغ ، والصداع ، واللجام ، والهلال ، والخراش ، والعراض ، واللحاظ ، والتلحيظ ، والتحيين ، والصقاع، والدمع[1] .

اتجار الملوك وسادات القبائل:

ولم تكن الموارد المذكورة لتسدّ حاجة الملوك ، وسادات القبائل ، لذلك عمدوا الى موارد أخرى لاستنباط المال منها ، فعمدوا الى التجارة وتربية الأنعام وإلى إقامة بعض المصانع وتنمية أرض التاج وزراعتها لبيع حاصلها وساهموا في البيع والشراء في الأسواق ، فكان لهم وكلاء ينقلون أموال الملوك إلى الأسواق لبيعها فيها ، ولشراء ما يحتاج اليه الملك من تجارة أخرى يستطيع تصريفها في أسواق أخرى ، تكون هذه البضائع عزيزة ثمينة فيها ، ولم يكن الاتجار بالأسواق أمراً خاصاً بالملوك العرب ، وإنما كان ذلك عرفاً متبعاً عند غيرهم من الملوك ، مثل الأكاسرة والقياصرة وملوك العبرانيين .

فمن ذلك ما روي من أنه كان للنعمان بن المنذر وغيره لطائم ، عير تحمل الطيب والمسك وبز التجارة ، تذهب الى الأسواق لبيعها فيها ، ولتأتي بتجارة جديدة . وقد ذكر أن (اللطيمة) وعاء الطيب أو سوقه ، وقيل كل سوق يجلب اليها غير ما يؤكل من حر الطيب والمتاع غير الميرة : لطيمة . والميرة لما يؤكل. واللطائم هي الأسواق التي تباع فيها العطريات . وفي جملة ما يباع فيها (بالات) المسك ، أي أوعية المسك[2] .

ويظهر من نصوص المسند أن الملوك كانوا قد أسسوا دوراً للنسيج ، يباع ما تنتجه في الأسواق . وقد اشتهرت اليمن بأنسجتها المختلفة المتعددة . فكانت دور النسيج من جملة الموارد التي تأتي بالمال الى أولئك الملوك .

---

١ تاج العروس (٩/٩٢ وما بعدها) ، (وسم) .
٢ تاج العروس (٩/٦٠ وما بعدها) ، (لطم) .

غنائم الحروب :

وللملوك مورد آخر من موارد دخلهم ، هو غنائم الحروب . فإن ما يغنمه جيشهم من مال وأشياء ثمينة وأسرى يكون ملكاً للملوك، وإذا فاض عدد الأسرى عن حاجة الملوك باعوهم في أسواق النخاسة ، للاستفادة من ثمن بيعهم . أما إذا قرر الملك الاحتفاظ بالأسرى ، فإنهم يستخدمون في أعمال كثيرة ، مثل الخدمة في الجيش ، أو الاشتغال بشق الطرق وانشاء الأبنية والعمل في الأرض ، إلى غير ذلك من أعمال يشغلون بها باعتبار انهم رقيق . وقد يهدي منهم الملوك الى المقربين اليهم ، ولا سيما بعد انتهاء الحرب أو الغزو واحصاء الأسرى ، فقد يختار الملك لنفسه أجمل الأسيرات . وقد يعطيهن هدايا إلى من يشاء من قواد جيشه ومن كبار موظفيه والمقربين اليه .

وتشمل غنائم الحرب كل ما يقع في أيدي المنتصر من غنيمة ، لا فرق عنده إن كانت من أموال الحكومة الخاسرة أو من أموال سيد القبيلة المغلوب ، أو من أموال الأتباع والرعية . فقانونهم في الحرب ان كل ما يقع في أيدي الغالب هو ملك له ، ان كانت الغنيمة من أموال الحكومة أو من أموال الرعية فالرعية ملك الملك ، وملكها ملك للغالب بحق القوة ، وهي نفسها ملك له يتصرف بها كيف يشاء . لذلك تكون غنائم الحروب مورداً حسناً بالنسبة للغالب ، لا سيما إذا كان المغلوب من أصحاب الثراء والمال ومن الحضر .

وكان الأمير في الجاهلية يأخذ الربع من الغنيمة ، وجاء الاسلام فجعله الخمس وجعل له مصارف . ومنه قول : عدي بن حاتم الطائي : ربعت في الجاهلية وخمست في الاسلام . أي قدمت الجيش في الحالين[1] .

الاقطاع والاقطاعيون :

والاقطاع معروف بين الجاهليين ، وخاصة بين أهل العربية الجنوبية . وقد كان اقطاعاً للارض لتستغل زراعة ، واقطاعاً لاستغلال ما فيها من ماء أو معدن

---

١ تاج العروس (٤/١٣٩) ، (خمس) .

مثل الملح . وكان الملوك يقطعون أملاك الدولة لمن شاءوا ، كما فعل المعبد ذلك، إذ كان يقطع الأرض المحبوسة باسمه لمن يشاء من الناس .

وقد كانت العادة في اليمن جارية بإقطاع المعادن والمياه لأصحاب السلطان ، كأن يقطع (الملح) لشخص ليستغله ، فيشغل من يريد في استخراجه وبيعه . وقد وردت في الكتابات الجاهلية إشارات الى استغلال معادن الملح ، والى إقطاعها الأشخاص يستخرجون الملح منها في مقابل أجر يدفع عن ذلك الإقطاع . وقد بقيت هذه العادة إلى الإسلام ، فقد ورد في كتب الحديث : أن (الأبيض بن حمال) استقطع رسول الله ملح مأرب،فأقطعه[1] . ولما ذكر (الأقرع بن حابس) للرسول أنه قد ورد ذلك الملح ورآه ، وانه مثل الماء العِدّ بالأرض ، من ورده أخذه ، وان إقطاعه له يمنع الناس من وروده ، فاعتده الرسول صدقة ، وجعله مثل الماء العِدّ[2] .

والإقطاع يكون تمليكاً وغير تمليك . فإذا كان تمليكاً ، صار له ليس لأحد حق مزاحمته عليه ولا استثماره ، ويكون عندئذ ملكه . وله حق تأجيره لغيره أو اعطائه في مقابل حقٍ يعينه في الحاصل والناتج . وقد كان الملوك في العربية الجنوبية يقطعون أصحاب الجاه والسلطان وسادات القبائل الإقطاعات،فتولد من هذا الإقطاع كبار أصحاب الأرض ، وصار لهم سلطان واسع بحكم ما حصلوا عليه من مال وقوة وجاه . حتى صاروا يتدخلون في شؤون الدولة الداخلية .

وأما الإقطاع الثاني ، وهو إقطاع من غير تمليك فإنه إقطاع لأمد قد يحدد بزمن ، وقد لا يحدد بزمن ، وذلك بشروط تثبت وتحدد في عقد الاتفاق ، كأن يتفق على أن يقدم من يقطع له الإقطاع ثلث الحاصل أو الغلة أو الربع أو ما شابه ذلك ، أو أن يقدم مبلغاً مقطوعاً أو عيناً يذكر ويثبت مقداره ، أو خدمة معينة للدولة أو للمعبد الإقطاعي صاحب الملك،مثل تقديم عدد معين من المحاربين وقت الطلب ومقدار معين من مال أو عين .

وقد لا يستغل الإقطاعي اقطاعياته ، وإنما يقوم بإقطاعها للإقطاعيين الصغار ، أو يؤجرها لمن هم دونهم في المكانة ليقوموا هم باستغلال ما استأجروه ، وقد

---

١ الأحكام السلطانية (١٩٧) ، اللسان (٢٨١/٨) .
٢ الأحكام السلطانية (ص ١٩٧) .

يعطيها للفلاحين للاشتغال بها بشروط يتفق عليها معهم . ويكون الإقطاعي قد استفاد من إقطاعه من غير تعب أو جهد .

وفي الكتابات الجاهلية ان سادات القبائل كانوا يملكون اقطاعيات واسعة يديرونها باسم قبائلهم ، وقد تزيد اقطاعياتهم عن حاجات القبيلة ، لذلك يؤجرونها لقبائل أخرى تكون في حاجة إلى الأرض في مقابل خدمات تؤديها للقبيلة المؤجرة صاحبة الأرض وفي مقابل حقوق عينية تثبت وتعين وتدفع عند حلول الآجال المعينة في العقد . وتعتبر القبيلة التي تستغل الأرض نفسها تابعة للقبيلة التي تملك الأرض .

وللفقهاء آراء في الاقطاع في الاسلام ، بأنواعه : اقطاع التمليك ، واقطاع الإرفاق ، واقطاع المَوَات[1] .

وقد عاش الاقطاعيون على استغلالهم لخيرات الأرضين الواسعة التي امتلكوها ، والتي درّت عليهم أموالاً طائلة ، خلقت لهم قوة مهابة في البلاد ، صيّرت بعضهم حكومة في داخل حكومة . عاشوا في قلاع وقصور حصينة حمتها حصون متينة ، لهم أتباعهم وحرسهم ، وصارت لهم سطوة لا تقل عن سطوة كبار رجال الدين ، بل زادت على سطوتهم فيما بعد الميلاد ، حيث صاروا ينافسون الملوك ويتحدّون إرادتهم في كثير من الأحايين ، مما أقلق الوضع السياسي ، وهزّ صرح الحكومات . وأوجد مجالاً لتدخل الأحباش في شؤون اليمن .

حقوق سادات القبائل وامتيازاتها :

ولسادات القبائل بحكم منازلهم ومكانتهم في قومهم امتيازات وحقوق ، ولهم في مقابلها واجبات عليهم أدبياً تبعة القيام بها لرعيتهم ، وهم أفراد القبيلة .

وفي جملة حقوق سيد القبيلة حق (المرباع) وهو حقه في أخذ ربع الغنائم إذا وقع الغزو[2] . وأخذ (المرباع) هو من أمارات الفخر والجاه والرئاسة عند العرب ولذلك كان يتباهى به من له هذا الحق ، ويفتخر أهله بهذا الحق، لأنه من سيماء

---

١ اللسان (٨/٢٨١) .

٢ اللسان (٩/٤٥٧) ، تاج العروس (٥/٣٣٢) وما بعدها ، المعاني الكبير (٢/٩٤٨) ، النهاية (٢/٦٢) ، الصاحبي (ص ٩٠) .

الرئاسة والشرف . وقد افتخر (الزبرقان بن بدر التميمي) أمام الرسول بأنه من حي كرام ، فلا حي يعادلهم منهم الملوك وفيهم يقسم الربع ، أي انهم كانوا يأخذون ربع الغنيمة خالصاً ، وهو المرباع[1] . وكان (عدي بن حاتم) ممن يأكل (المرباع)[2] . ويروى ان الرسول قال له : « انك لتأكل المرباع وهو لا يحل لك في دينك »[3] .

وقد عرف سادات القبائل الذين يأخذون المرباع بـ (ذوي الآكال)[4] ، ولهم مقام عندهم بالطبع ، ولهذا منحوا امتيازات في الغنائم ، فوقتهم على سائر الناس . وقد ذكرهم (ابن حبيب السكري) ، فقال عنهم : « ذوو الآكال من وائل . وهم أشراف كانت الملوك تقطعهم القطائع . فأما مضر، فكانوا لقاحاً لا يدينون للملوك إلا بعض تميم ممن كان باليمامة وما صاقبها . فذوو الآكال : قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن عبدالله ذي الجدين بن عمرو بن الحارث ابن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان . وكان كسرى أطعمه الأبلة وثمانين قرية من قراها ، ويزيد بن مسهر بن أصرم بن ثعلبة بن أسعد بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ، والحارث بن وعلة بن المجالد بن يثربي بن الزبان بن الحارث ابن مالك بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة »[5] .

وذوو الآكال ، سادة الأحياء الآخذين للمرباع وغيره . قال الأعشى :

حولي ذوو الآكال من وائل كالليل من بادٍ ومن حاضر[6]

والمرباع حق قديم نجده عند أكثر القبائل ، وظلّ إلى مجيء الاسلام ، لا ينازعها عليه منازع من القبيلة ، فكان آل الحارث بن عبدالله بن بكر بن يشكر المعروفون بالغطاريف يأخذون ربع ما يغنم الأزد جميعاً ، لأن الرئاسة في

---

١ نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا يقسم الربع
شرح ديوان حسان (ص ٢٤٥) (للبرقوقي) ، اللسان (١٠١/٨) ، النهاية (٦٢/٢) .
٢ معجم الشعراء (٢٥٠) .
٣ النهاية (٦٢/٢) ، اللسان (١٠١/٨) (صادر) .
٤ شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ٨٩) .
٥ المحبر (٢٥٣) .
٦ تاج العروس (٢١٠/٧) ، (أكل) .

الأزد كانت لهم[١] .

ومن أكل (المرباع) (عامر الضحيان) ، وكان سيّد (النمر بن قاسط) في الجاهلية وصاحب مرباعهم[٢] .

ومن (المرباع) جاءت (الرباعة) ، بمعنى الرئاسة . يقال هو على رباعة قومه ، أي سيّدهم . ويقال : ما في بني فلان من يضبط رباعته غير فلان ، أي أمره وشأنه الذي عليه . ويقال : لا يقيم رباعة القوم غير فلان . و(الرباعة)[٣]، الحال والطريقة والإستقامة . وفي كتاب الرسول للمهاجرين والأنصار : انهم أمة واحدة على رباعتهم . أي على استقامتهم . وأمرهم الذي كانوا عليه[٤] .

ولسيد القبيلة حق آخر مفروض على قبيلته ، هو حق (الصفايا) ، وهو ما يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة من فرس وسلاح أو جارية وغير ذلك من الأموال قبل القسمة . وكانت (صفيّة بنت حيي) في جملة الصفايا التي اصطفاها الرسول لنفسه يوم خيبر ، ومنه قيل للضياع التي يستخلصها السلطان لخاصته (الصوافي)[٥] . وقيل : الصفايا ما يصطفيه الرئيس لنفسه دون أصحابه مثل الفرس ، وما لا يستقيم أن يقسم على الجيش لقلته وكثرة الجيش . وقيل أيضاً الصفى أن يصطفى الرئيس لنفسه بعد الربع شيئاً كالناقة والفرس والجارية.والصفى في الإسلام على تلك الحالة[٦].

ثم له حق (النشيطة) ، وهو ما أصاب من الغنيمة قبل أن يصير الى مجتمع الحي . وقيل : النشيطة من الغنيمة ، ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير الى بيضة القوم . وقيل : ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل بلوغهم المواضع التي قصدوها ، أو ما أنشط من الغنائم ولم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب[٧] .

وأما الفضول ، وهو حق آخر من حقوق الرئيس ، فهو ما عجز أن يقسم

---

١ الأغاني (١٢/٤٨ وما بعدها) .
٢ الاشتاق (٢٠٢) .
٣ بالفتح وتكسر .
٤ تاج العروس (٥/٣٤٢ وما بعدها) ، (بعد) .
٥ اللسان (٩/٤٥٧) ، تاج العروس (٥/٢٣٢) ، المعاني الكبير (٢/٩٤٨) ، النهاية (٢/٢٩٢) ، الخراج (٢٢ وما بعدها) ، الصاحبي (ص ٩٠) ، النهاية (٢/٢٦٨) .
٦ تاج العروس (١٠/٢١١) ، (صفا) . (٧) المعاني الكبير (٢/٩٤٩) ، اللسان (٧/٤١٤) ، تاج العروس (٥/٢٣١) ، الصاحبي (٩٠) .

لقلته وما فضل عن القسم فيخصص به ، كالبعير والفرس ونحوهما [1] .

وقد أشير الى حقوق سيد القبيلة المذكورة في هذا البيت من الشعر المنسوب الى عبدالله بن عنمة الضبيّ ، أو الى الأفوه الأودي :

لك المرباع منّـا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول [2]

الحمى :

ولسيد القبيلة حق (الحمى) ، وهو من أمارات عزه وشرفه وسيادته . فكان إذا مرّ سيد قبيلة برمضة أعجبته ، أو بغدير أعجبه ، أعلن حمايته عليها أو عليه الى حد يعينه ويثبته ، فلا يقترب أحد من ذلك الحد ، وهو في ذلك مثل الملوك في هذا الحق . ولهذا لم يتمتع بهذا الحق إلا سادات القبائل الكبار أصحاب العز والجاه وكثرة العدد ، مثل (كليب وائل) سيد ربيعة ، وكانت رئاسة مضر وربيعة له في أيامه ، وكان من عزه انه اذا مر بمكان أعجبه كتع كلباً له ثم رمى به هناك ، فلا يسمع عواء ذلك الكليب أحد ، فيقرب ذلك الموضع . فكان يقال : (أعز من كليب وائل) [3] .

وقد تفرد العزيز من سادات القبائل بالحمى،وعدّوه من أمارات العز والمنعة ، فلا يناله إلا كبار سادات القبائل . وذكر ان (كليب وائل) كان متغطرساً ، حتى كانت غطرسته هذه سبب قتله . والى ظلمه وتعسفه ، وأخذه الحمى ، أشار (العباس بن مرداس) بقوله :

كما كان يبغيها كليب بظلمه من العز حتى طاح وهو قتيلها
على وائلٍ إذ يترك الكلب نابحاً وإذ يمنع الأقناء منها حلولها [4]

---

1 اللسان (٤١٤/٧) ، (٥٢٥/١١ وما بعدها) ، تاج العروس (٦٣/٨) ، الصاحبي (ص ٩٠) .

2 المعاني الكبير (٩٤٨/٢) ، الأصمعيات (ص ٢٨) ، الصاحبي (ص ٩٠) ، تاج العروس (٢١٠/١٠) ، (صفا) .
قال عبدالله بن غنمة يخاطب بسطام بن قيس :
لك المرباع فيها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضـول
اللسان (٤٦٢/١٤) ، (صفا) .

3 الفاخر (ص ٧٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٠٤) .

4 الأحكام السلطانية (ص ١٨٦) .

والحمى الأرض التي تحمى من الناس فلا يرعى فيها إلا بموافقة من حماها . وقد جعله بعضهم : (موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يُرعى) . وذكروا أنه « كان الشريف من العرب في الجاهلية إذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد . وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله »[1] .

ويظهر من غربلة ما ورد في الأخبار عن (الحمى) ، أنه كان على نوعين: حمى دائم أو طويل الأجل ، وهو الأرض المخصبة الجيدة المنبتة التي تتوفر فيها المياه ، أو تكون المياه فيها قريبة من سطح الأرض ، فينتقيها كبار سادات القبائل ويجعلونها حمى دائماً لهم ولأسرتهم ، وقد يحولونه الى ملك لهم ، يتوارث توارث الإرث ، ويكون لمن هو من الأسرة التي حمته ، أو لمن خصص الحمى باسمه . ومن هذا القبيل (حمى ضرية) ، مرعى لإبل الملوك[2] ، ومراعي الملوك الأخرى .

وحمى آخر ، يكون قصير الأجل بالنسبة للحمى الأول . فقد يحمى لموسم وقد يحمى لمواسم ؛ فأجله مرتبط بأجـل الغيث الذي ينزل عليه . فإذا جاد ووصل الأرض وأنبتها نباتاً حسناً وكساها بساطاً أخضر ، بقي حامي الحمى بـه ، وإن انحبس المطر عنه ، وجف كل شيء به ، ورفع ذلك البساط عنـه ، وظهرت عبوسة الرمال والتربة المتهشمة من تحته ، فقد يهرب حاميه منه ليفتش عن أرض أخرى يعيش عليها ، فيصير الحمى عندئذ بلا حام ، إلا اذا عاد الغيث إليه ، وعاد صاحبه ليجدد عهده به ، وليثبت حق حمايته عليه ، وإلا ، فقد يصير في حماية شخص آخر قد ينزل به قبله ، ويكون لديه من القوة والمنعة ما لا يستطيع أحد من زعزعته عنه .

ولا بد وان تحدد حدود الحمى وان تثبت له أنصاب وعلامات ، حتى يكون الناس على بينة من حدوده فلا يدخلونه . ونجـد في الكتب التي دونها الرسول للوفود التي زارته ، والتي حمى لها أحمية ، حدوداً ومعالم دونت أسماؤها فيها ، وقد تثبتت مساحتها في بعض الكتب ، مما يدل على ان ما يرويه أهل الأخبار من

---

١ اللسان (١٤/١٩٩) ، (حما) ، تاج العروس (١٠/٩٩ وما بعدها) (حما) ، الأم ، للشافعي (٣/٢٧٠) ، السمهودي ، وفاء (٢/٢٢٤) .
٢ اللسان (١٤/١٩٩) ، (حما) ، تاج العروس (١٠/١٠٠) ، (حما) .

قصة تعيين حدود الحمى بعواء كلب أو بركضة فرس أسطورة من أساطير أهل الأخبار .

ومن أشهر مواضع الحمى في جزيرة العرب : حمـى ضرية . وقد عرف في ايام ملوك كندة بـ (الشرف) وهو (كبد نجد) ، وكانت بـه منازل الملوك من بني آكل المرار . ثم عرف بـ (ضرية) في وقت لا نستطيع تحديده تماماً ، ويذكر علماء اللغة ان (ضرية) امرأة سمي الموضع بها ، وهو بأرض نجد ، وبه بئر . ويظهر ان اسم (ضرية) كان معروفاً في ايام ملوك كندة من بني آكل المرار ، ولكنه كان اسم موضع من مواضع الشرف ، ثم اشتهر ، فسمي به هذا الحمى : حمى ضرية[1] . وذكر بعض أهل الأخبار ان (ضرية) أكبر الأحماء ، وقد سمّي بـ (ضرية بنت ربيعة بن نزار)[2] . قال (ابن السكيت) : « الشرف كبد نجد وكان من منازل الملوك من بني آكل المـــرار من كندة . وفي الشرف حمى ضرية وضرية بئر . وفي الشرف الربذة وهي الحمى الأيمن . وفي الحديث ان عمر حمى الشرف والربذة »[3] . ويظهر من هذا الوصف ان (الشرف) أرض واسعة بنجد . منها الربذة وهو الحمى الأيمن لمن يتجـه الى الجنوب فيوجه وجهه نحو البحر العربي ويجعل قفاه الى العراق وبادية الشام وبلاد الشأم ، ومنها حمى (ضرية) الشهير .

وذكر ان أول من حمى (ضرية) في الاسلام (عمر) حماها ، لإبل الصدقة وظهر الغزاة ، وكان ستة أميال من كل ناحية من نواحي ضرية وضرية في وسطها[4] . و (ضرية) من مياه (الضباب) في الجاهلية ، وكانت لذي الجوشن الضبابي، والد شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين[5] . وورد أنها كانت حمى (كليب بن وائل)، وأن في ناحية منه قبره ، وكان الناس يقصدونه[6] .

ومن الحمى ، حمى فيد . قرب أجأ وسلمى جبلي طيء ، على طريق حاج العراق الى مكة . وذكر أن فيداً فلاة في الأرض بين أسد وطيء في الجاهلية ،

---

١ اللسان (١٤/٤٨٤) ، (ضرا) .
٢ تاج العروس (١٠/٢١٩) ، (ضرى) .
٣ تاج العروس (٦/١٥٢) ، (شرف) .
٤ تاج العروس (١٠/٢١٩) ، (ضرى) .
٥ وفاء الوفاء (٢/٢٢١) ، الاشتقاق (١٨٠) .
٦ وفاء الوفاء (٢/٢٢٩) .

فلما قدم (زيد الخيل) على رسول الله أقطعه (فيد) . وبهـا قرية (فيد) ، سميت بـ (فيد بن حام) أول من نزلها . وهي من القرى الجاهلية [1] .

وقد أشار (ياقوت) الى أحماء أخرى . منها حمى الربذة وحمى النـير وحمى ذو الشرى وحمى النقيع [2] . وذكر أن بـ (النير) قبر كليب وائل [3] . وأن الخليفة (عمر) حمى (النقيع) لخيل المجاهدين ولنعم الفيء ، فلا يرعاها غيرها [4] .

ولا يعقل أن يكون (كليب وائل) أول من حمى الحمى في الجاهلية. والظاهر ان شطط (كليب) وتعسفه) في الإكثار من الحمى ، وشدة منعه الناس الغرباء من الرعي في احمائه ، جعل أهل الأخبار ينسبون مبدأ الإحماء اليه . وقـد تكون لفظة (كليب) الـتي صارت وكأنها اسم كليب مع أنها لقب في الأصل ، هي التي أوحت الى ذهب أهل الأخبار ، بابتكار قصـة استنباح (كليب) جرواً ، ليكون مدى انقطاع سماع نباحه وعوائه نهاية الحمى ، أي حدوده . ونجد بعض أهل الأخبار يجعلون حدود الحمى المواضع التي تصل اليها الخيل وهي جـارية ، فتقف عندهـا من التعب . فيكون الحمى بهذه الطريقة أكبر وأوسع من الحمى المحدد بنباح كلب .

وفي أرض (بني أسد) (حزن) ، كانت ترعى فيه إبل الملوك . وهـو قف غليظ بعيد من المياه ، فليس ترعاه الشياه ولا الحمر ، وليس فيه دمن ولا روث . اليه أشير في قول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة   خضراء جاد عليـه مسبل هطل [5]

ويتبين من دراسة ما أورده أهل الأخبار عن الحمى ، أن الأحماء لم تكن أرضين صغيرة حدودها ضيقة بحدود مدى سماع عواء الكلب ، بل انها كانت أكثر من ذلك بكثير . كانت مقاطعة كبيرة تضم آباراً وعيوناً وقرى في بعض الأحيـان . وقد حصل عليها أصحابها من الحروب والغزو في الأصل . فعندما يغزو سيد قبيلة

---

١ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .
٢ ياقوت ، البلدان (٢/٣٤٢) .
٣ تاج العروس (٣/٥٩٣) ، (نير) .
٤ تاج العروس (٥/٥٣٠) ، (نقع) .
٥ تاج العروس (٩/١٧٤) ، (حزن) .

قبيلة أخرى ، كان يختار لنفسه خيرة الأرضين فيجعلها في حماه . فنشأ الحمى في الأصل هو من الحروب والغزو ، أي من الغنائم التي تقع في أيدي المنتصر، ومن الهبات التي يعطيها ملك لأشراف شعبه ولقادته في السلم أو في الحروب . فتحمى لهم ولا يدخلها أحد غيرهم ، إذ صار حكمها حكم الملك .

وذكر أن الملوك إذا جاءتها الخرائط بالظفر ، غرزت فيها قوادم ريش أسود [1] .

دواوين الدولة :

ولا بد وأن يكون لكل حكومة مهما كان حجمها وشأنها دواوين ودوائر لتنفيذ ما تقرره من أوامر وأحكام ، ولجباية ما تفرضه من حقوق على رعيتها،ولاحقاق الحق بين الرعية وللدفاع عن حدودها ولضبط الأمن في أرضها ، ولا يمكن تصور وجود حكومة ، بدون وجود ما ذكرته .

وقد سبق لي أن ذكرت ان قصور الملوك في العربية الجنوبية كانت موضع حكمهم ومقر عملهم ، ولهذا السبب ذُكرت أسماؤها في القوانين،لتكنى بذلك عن صدورها بأمر من الملك وبموافقته عليها . والمفروض ان أولئك الملوك كانوا قد خصصوا جناحاً أو أجنحة فيها لجلوسهم مع مستشاريهم وكبار موظفيهم للنظر في شؤون الحكم ، أو لاستقبال الرسل والوفود الذين يقصدونهم من الخارج أو من داخل المملكة لمقابلتهم ولعرض ما جاؤوا به من رسائل أو طلبات عليهم ، وأن هنالك مواضع يجلس فيها الملوك للاستماع الى شكاوي الناس وظلاماتهم ، ومواضع لجلوس الكتّاب وموظفي القصر ، ومواضع لخزن السجلات والوثائق . فقصور الملوك ، اذن هي بهذا المعنى ، دار الحكم الأولى في تلك الحكومات ، والمرجع الأول للرعية في علاقتها وصلتها بصاحب المملكة .

ذلك ما كان بالنسبة الى عواصم الملوك ، أما بالنسبة الى بقية أجزاء المملكة ، فإن الحكم فيها هو الى ولاة وعمال ثم الى من هم دونهم في المنزلة والدرجة . وبيوتهم هي دور حكمهم يجلس العامل أو الوالي أو (الكبير) في جناح من

---

[1] الحيوان (٤١٨/٣) ، (هارون) .

بيته ، ليأتيه من يريد مقابلته من موظفين وكتبة ليقصوا عليه ما عندهم من أخبار وطلبات ، وليملي عليهم ما يراه من أحكام وأوامر . وفي هذا البيت أيضاً يستقبل الضيوف وأعيان البلد وأصحاب الشكاوي والمراجعات . وفيهـا يقيم مع عائلته . فبيوت الحكام اذن ، هي دور اقامة ودور حكم وقضاء بين الناس في آن واحد .

وأما ما ورد في روايات أهل الأخبار من أن ملوك الحيرة كانوا قد اتخذوا قصورهم مكاناً للنظر في أمور رعيتهم ، ولاستقبـال الرسل والوفود ، وللاستماع الى ظلامات الناس وشكاويهم ، وانهم كانوا قد أوكلوا أمر ادخال الرعية عليهم إلى حجاب معينين ، لا يسمحون لأحد بالدخول على الملك إلا بعد أخذ اذن منه بللك، فإنه يدل على أن ملوك الحيرة كانوا مثل ملوك العربية الجنوبية ومثل ملوك ذلك الوقت قد اتخذوا بيوتهم داراً للحكم وداراً للإقامة . وان قصر الملك هو أيضاً دار الحكم بين الناس ، والمشروع للأحكام .

وإذا أخذنا بما ورد في كتب أهل الأخبار من أن (دار الندوة) كانت مرجع أهل مكة في كل أمر من أمورهم صغر أم كبر ، حتى أن (الجارية إذا حاضت أدخلت دار الندوة ، ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف بن عبد الدار درعها ثم درّعها إياه وانقلب بها الى أهلها فحجبها . وكان عامر بن هاشم بن عبد مناف عبد الدار يسمى محيضاً)[1] ، جاز لنا القول إن تلك الدار كانت دار حكومة . اليها يرجع أهل مكة في منازعاتهم وفي خصوماتهم وفي أمـور سلمهم وحربهم . وأن أبناء قصيّ كانوا قد وزعوا أعمالها بينهم على نحو ما سطره أهل الأخبار .

ولفظة (ديوان) من الألفاظ المستعملة في الجاهلية عند عرب العراق ، ويذكر علماء اللغة أنها من الألفاظ المعربة عن الفـارسية[2] . وقد كان للفرس دواوين في جملتها ديوان خاص للنظر في أمور العرب ، واجبه النظر في صلات (كسرى) مع ملوك الحيرة وسادات القبائل . وليه (زيد) والد (عدي بن زيد العبادي) ، فلما توفي (زيد) وليه ابنه من بعده ، ثم وليه (زيد بن عدي بن زيـد) ، بعد مقتل والده على يد (النعمان بن المنذر) . ولا أستبعد وجـود الدواوين في حكومة الحيرة . فقد كان لها كتّاب تولوا أمور ديوان المراسلة بين ملوك الحيرة

---

١ الأزرقي (١/٦٦) ، (ما جاء في ولاية قصي بن كلاب البيت الحرام) .

٢ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دون) ، تاج العروس (٩/٢٠٤) ، (دون) ، غرائب اللغة (٢٢٩) .

والفرس ، وأمور المراسلة فيما بين ملوك الحيرة وبين عمالهم على الأرضين التابعة لهم وبينهم وبين سادات القبائل . أما ما ورد في أخبار أهل الأخبار من أن الخليفة (عمر بن الخطاب) ، هو أول من أمر بتدوين الدواوين ، فإنهم قصدوا بذلك موضوع تأسيس ديوان العطاء وموضوع تدوين الدواوين في الإسلام . مما لا مجال للبحث عنه في هذا المكان . وورد اسم (الديوان) في الحديث . ذكر أن الرسول قال : « إنّ لله حراساً ، فحرّاسه في السماء الملائكة ، وحراسه في الأرض الذين يأخذون الديوان »[1] .

صاحب السر :

وذكر علماء اللغة ان الملوك كانوا يسرّون أمورهم الى من يثقون به من رجالهم المقربين اليهم . وقد عرف صاحب سر الملك بـ (الناموس) ، وذكر بعضهم ان (الناموس) هو صاحب سر الخير ، وان (الجاسوس) هو صاحب سر الشر[2] .

الموظفون :

ودون الملك أناس يختلفون في المنزلة والمكانة،عهدت اليهم أمور ادارة الحكومة والشعب . وهم نوعان : موظفون مدنيون ، واجبهم النظر في الأمور المدنية . وموظفون عسكريون ، واجبهم إعداد الجيش والدفاع عن حدود الدولة والقضاء على الفتن والاضطرابات ، وتوسيع رقعة أرض الدولة عند الطلب .

وإني آسف إذ أقول إن من غير الممكن في الزمن الحاضر تثبيت درجات الوظائف ، وتعيين سلالمها من أدنى درجة الى أعلى درجة ، لعدم وصول كتابات جاهلية الينا فيها حصر تلك الدرجات وعدّها وترتيبها ، لهذا سأحاول ترتيبها على حسب ما وصل الينا من شأنها من مختلف الكتابات ، وعلى وفق ما ورد من أسماء

---

١ الدينوري ، عيون الاخبار (١/٢) ، (كتاب السلطان) ، (١/٥٠) ، (انما قيل ديوان لموضع الكتبة والحساب ، لأنه يقال : للكتاب بالفارسية ديوان أي شياطين لحذقهم بالأمور ولطفهم فسمي موضعهم باسمهم) .
٢ تاج العروس (٤/٢٦٤) .

بعضها في المسند أو في روايات أهل الأخبار ، وعلى حسب اجتهاد الباحثين الذي توصلوا اليه باستنادهم الى المرجعين المذكورين .

واذا سألتني عن المصدر الذي استقيت منه أسماء الوظائف والدرجات التي أذكرها هنا ، فإني أقول : لقد حصلت عليها من ورودها في الكتابات التي عثر عليها المنقبون في مواضع من العربية الجنوبية وفي أعالي الحجاز وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب أخذتها من هذه الكتابات ، وعينت درجتها ومكانتها بالاستناد الى المعنى المستنبط من النصوص . وبالقياس أحياناً الى المفردات الواردة في معاجم اللغة أو في اللغات السامية الأخرى حيث يرد ما يماثلها في تلك اللغات علماً لوظائف معروفة ، بقيت أسماء بعض منها معروفة أو متداولة الى يومنا هذا .

ونستطيع أن نقول بالقياس الى ما هو مألوف في قصور الملوك المعاصرين لملوك الجاهلية أن كبار متولي أمور قصور الملوك وكبار قادة الجيش ، كانوا من أقرب الناس الى الملوك،ومن أكثر الناس تأثيراً فيهم ، وذلك بحكم اتصالهم بهم والتصاقهم بالعرش . فكانت لهم كلمة مسموعة عندهم . فهم من الصنف الممتاز من أصناف الموظفين ، ولهم أثر خطير في تأريخ تلك الحكومات .

وتختلف درجات المشرفين على أمور القصور الملكية ، فنهم الحرس الخاص الذي يتولى حراسة القصر ، ومنهم الخدم والطباخون ، ومنهم من اختص بخدمة الملك وحده ، كأن يقوم بتقديم الطعام اليه ، ومنهم من اختص بتقديم الشراب اليه ، أو يتولى أمر الحجابة له ، ومنهم من كان يكتب له ، أو يخدم زوجاته وذريته ، الى غير ذلك من أعمال اقتضتها طبيعة تلك القصور ودرجة الملك ومنزلته وقد عرف كل هؤلاء بـ (عبيد الملك) عند بعض الشعوب[1] .

والطبقة المذكورة ، وإن كانت من الطبقات الدنيا بالنسبة لطبقات المجتمع ، وظيفتها الطبخ وتقديم الأشربة والأطعمة والسهر على راحة الملك وضيوفه ، إلا أن رهطاً منها تمكن مع ذلك من لعب دور خطير في أمور المملكة ، وفي مقدرات الناس، بفضل استخدام ذكائهم وقربهم من الملك ووجودهم بحضرته بصورة دائمة، من التأثير على سيدهم وتوجيهه الوجهة التي يريدونها . كما تمكنوا من الحصول على مكانة كبيرة عند قومهم ، باتصالهم بحكم مراكزهم بأعيان الناس . وبنوال

1 Ancient Israel, p. 120.

جوائزهم وهباتهم ، ليفتحوا بذلك لهم الباب للوصول الى الملك في كل وقت . ثم بإيصالهم أخبار المجتمع ولا سيا سادته الى الملك وبأخبارهم هذه صار في امكانهم ابعاد شخص أو تقريبه من الملك ، واهلاك شخص أو اسعاده برضاء ملكه عنه .

الكبراء :

وأعلى مناصب الدولة ودرجاتها الإدارية هي درجة (كبر) أي كبير . ويجب أن أكون حذراً جـداً في التعبير . فكلمة (كبر) (كبير) ، ليست منصباً أو وظيفة أو درجة بالمعنى المفهوم من هذه الألفاظ الاصطلاحية في الزمن الحاضر، ولكنها لفظة عامة قد تعني ممثل ملك على مقاطعة ، مثل (كبرددن) أي (كبير) أرض (ديدان) في حكومة (معين) وتقع في أعالي الحجاز ، وهي (العلا)[١] وقـد تعني موظفاً كبيراً من رجال الملك المقربين اليه ، عيّنـه الملك واختاره لتنفيذ أوامره وأحكامه ، أو للاشراف على إدارة أملاكـه وأمواله وتدبير شؤون قصره[٢] ، أو لاعداد ما يلزم من اعاشة جيش وتقديم ما يحتاجه اليه[٣] . وقد تعني درجة عليا من درجات رجال الدين، أو كبيراً من كبارهم تناط به شؤون إدارة أملاك المعابد وأموالها . وقد تعني سيد قبيلة ، أو رجلاً كبيراً عيّنه الملك مندوباً عنه ليشرف على تصريف أمور الحكم على قبيلة . وقد تعني (الكبير) المسؤول عن تصريف أمور المدن . فقد كان الذي يسيّر أمور مدينة (تمنع) مثلاً مسؤولاً درجته درجة (كبر) (كبير) واتضح من بعض الكتابات ان مدينـة (ميفعة) (ميفعت) الحضرمية كانت تحت حكم (كبير)[٤] .

وقد أشير الى وجود (كبر) (كبير) في سبأ ، كان يتولى درجة دينية . إذ كان من كبار رجال الدين . وورد اسم (كبير) آخر كان عمله ادارة بساتين الملك ومزارعه والإشراف عليها[٥] . وورد اسم (كبير) كان عمله الإشراف على أعمال الصرف والانفاق على الجيوش[٦] . وورد اسم (كبير) آخر كان يتولى رئاسة

١ Rhodokanakis, Kat. Texte, I, S. 75, Glaser 1155, Halévy 535, 578.
٢ Rep. EPIGR. 4054.
٣ Rep. EPIGR. 3951, Arabien, S. 130.
٤ Arabien, S. 130.
٥ Rep. EPIGR. 4054, Grohmann, S. 130, Glaser 1571.
٦ Rep. EPIGR. 3951, Grohmann, S. 130.

قبيلة[1]، فيستنتج من هذه الأمثلة ان لفظة (كبر) لا يقصد بها درجة معينة من كبار الموظفين ، بل أريد بها علية قوم وأعيانهم وكبارهم ، ولهذا أطلقت على من ذكرت أعيان سبأ وعلى المنازل الكبيرة التي كان على رأسها كبير من كبراء الناس من رجال دين ومن عسكريين ومن موظفين أو مدنيين غير موظفين .

والكبراء بالطبع هم من أصحاب الجاه العريض والوجاهة والمنزلة والثراء ، وهم كبار الأحرار في الأرض ، ولأهميتهم ومكانتهم أرخ الناس حوادثهم وما وقع لهم بأيامهم ، وقد حملت الكتابات أسماء طائفة منهم ، دلالة على ما كان لهم من اسم وسلطان في ذلك العهد[2] .

ومن أشهر الكبراء (كبر خلل) ، أي كبير خليل . وخليل عشيرة قديمة . وقد ذكر كبيرها في الكتابات السبئية القديمة، كما ذكر في الكتابات المتأخرة كذلك. وقد أرخ بهؤلاء الكبراء عدد من الكتابات السبئيـــة . ويظهر أن (كبر خلل) (كبير خليل) كان كاهناً ، أي رجل دين في الأصل ، يشرف عـــلى معبد (عثتر ذ ذبن) (عثتر ذو ذبن) . ويقدم الذبائح الى هـــذا المعبد ، ويدعو الآلهة لإنزال الغيث[3] ، ودعوته آلهته لإنزال المطر ، هي بمثابة صلاة الاستسقاء .

وقد كان يحكم حضرموت في النصف الأول من القرن السادس للميلاد (كبير)، (كبر حضرموت) ، وقد ذكر في نص (أبرهة) في جملة من وفد على أبرهة بعد اتمامه سد (مأرب)[4] .

الأقيان :

جمع (قين) ، وتتألف طبقتهم من الأمراء ومن ممثلي الملك في المدن ، ومن

---

١ Grohmann, S. 130.

٢ Grohmann, S. 130, J. Ryckmans, L'Ist., 25, 34, 122.

٣ Handbuch I, S. 130, Katab. Texte, S. 53, 67.

٤ راجع السطرين ٨٦ ، ٨٧ ، من نص أبرهة : Glaser 618 و CIH 241. ، المنشور في الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة ١٩٥٦ (ص ١٨٦ وما بعدها) ، و
Glaser, Zwei Inschriften Uber dem Dammbruch von Marib, S. 68,
CIH., IV, II, III, p. 278.

الموظفين ومن رجال الدين من درجة (رشو)[١] . وقد ذهب (ويبر) Weber الى أن (القين) والـ (رشو) هما شيء واحد[٢] . أما (هارتمن) Hartmann فيرى أن القين غير الرشو،فهو وظيفة دنيوية ومركز حكومي . أما (الرشو) فإنه منزلة دينية ، فهو (كاهن) إلّه ما وتعني رئاسة دينية . وقد يستعمل (قين) لأداء المعنيين. أما (رشو) ، فإنه لا يستعمل إلا في الأمور الدينية وفي التعبير عن منزلة كهنوتية[٣]. وذهب بعض الباحثين الى ان (القين) (رشو) أيضاً، أي رجل دين،ولكنه تخصص بالأمور الادارية والمالية للمعابد . وقد يتولى قيادة الناس في الحروب أيضاً[٤] .

وقد ورد في نص عثر عليه في (حرم بلقيس) اسم كاهن عرف بـ (نبعكرب) (نبع كرب) ، كان رجل دين أي (رشو) و (قينا) في الوقت نفسه على (سحر) . ويدل ذلك على ان رجل الدين هذا كان يجمع بين سلطتين : سلطة دينية هي درجة (رشو) ، وسلطة زمنية هي درجة (قين)[٥] .

وفهم من بعض نصوص المسند ان (القين) كان يساعد الملك في ادارة بعض الأعمال ، كما كان ينوب عنه في ادارة المدينة أو المعبد. وفهم من نصوص أخرى انه كان يدير أملاك المعابد،وانه كان يتولى قيادة الجيش أو تهيئة ما يحتاج اليه[٦] . واستدل من تعداد هذه الأعمال المدونة في النصوص ، ان عمل (القين) لم يكن عملاً معيناً محدوداً بحدود وقيود ، وانما كان يشمل كل عمل وشغل كان الملك يعهد به الى أحد الأقيان . أي ان القين لم يكن موظفاً يشغل وظيفة معينة محددة، بل كان من كبار رجال الدولة ومن السادات ، له مواهب وكفاءات وله قرب وحظوة عند الملك ، فإذا احتاج الملك الى انجاز عمل ما ، كلف أحد أقيانه القيام به .

والقين دون الكبير في الدرجة ، فقد جاء في بعض الكتابات ان الأقيان كانوا يخضعون للكبراء[٧] ، كما يتبين ذلك من كتابات عثر عليها في (شبام اقيان)

---

١ Handbuch I, S. 131.

٢ Weber, Studien, III, S. 43.

٣ Hartmann, Arab. Frage, S. 181.

٤ Grohmann, S. 130.

٥ راجع الفقرة الأولى من النص الموسوم بـ : Glaser 481

٦ Grohmann, S. 130. Rhodokanakis, Stud., II, S. 15.

٧ Halevy 150, Handbuch, I, S. 131, Grohmann, S. 130.

(شبم اقبن) ، ومن كتابات أخرى عثر عليها في (عمران) من (مرثد) من قبيلة (بكيل)[1].

وقد كان الأقيان طبقة خاصة من طبقات أهل الحظوة والنفوذ (الارستقراطية) في الدولة وفي المجتمع ، لها رأي مسموع بين الناس وكلمة نافـذة عند الملك . وهم من جماعة أصحاب الأملاك والاقطاع ، قد يعطون أرضهم لغيرهم لاستغلالها مقابل أجر (اثوبت) ، أي كراء . وقد يستغلون أرضهم بأنفسهم ، بتشغيل فلاحيهم وخدمهم ورقيقهم بها ، فيكون حاصلها لهم ، لا ينازعهم فيه منازع .

الأقيال :

والأقيال هم طبقة من كبار الإقطاعيين من أصحاب الأرضين الواسعة ، ومن رؤساء القبائل كذلك والسادات الكبار . وكانوا يتمتعون بسلطان واسع ، ويقال للواحد منهم : (قول) في المسند ، و (قيل) في عربيتنا . والجمع (اقول)، أي أقيال .

وقـد جاء في كتابات المسند ذكر أقيال عديدين ، مثل أقيال (سمعي) ، وأقيال (بكيل) من (آل مرثد) . وقد كان على مدينة (صرواح) حاكم درجته درجة قَيْل . وورد ذكر (أقيال حمير) في (حصن غراب) ، وذكر الأقيال في نص (أبرهة) ، كما ورد في نصوص عديدة أخرى .

و (القول) في الأصل المتحدث باسم قوم أو جماعة من فروع قبيلة . كأن يكون رئيس حيّ أو عشيرة أو ما شاكل ذلك من القبيلة،ثم توسع نفوذه وازداد شأنه حتى صار في منزلة (كبر) كبير ، بل حل محله . وعند ظهور الإسلام ، كان للأقيال النفوذ الأوسع في العربية الجنوبية ، حتى حكموا المخاليف ، كالذي يظهر لنا بجلاء من وصف أهل الأخبار لنظام الحكم في اليمن عند ظهور الإسلام[2]. وقد لقب أكثرهم نفسه بلقب (ملك) ، مع أنه دون الملك في الحكم وفي امتلاك

---

١ Handbuch, I, S. 132, Hartmann, Arab. Frage, S. 231, Rhodokanakis, Stud., II, S. 149, Halévy 147, Hommel, Grundriss, S. 687.

٢ Grohmann, S. 130.

الأرض بكثير . بل كان حكم بعضهم أقل من حكم سيد قبيلة .

وذكر علماء اللغة أن (المقول) : المقيل بلغة أهل اليمن ، وهو دون الملك الأعلى ، والجمع (أقوال) و (اقيال) . وذكر بعضهم : أن القيل هو الملك النافذ القول والأمر ، وقيل : الأقيال ، ملوك اليمن دون الملك الأعظم، واحدهم قَيْل ، يكون ملكاً على قومه ومخلافه ومحجره . وقد سمي قيلاً لأنه إذا قال قولاً نفذ قوله . وعرف أنه الملك من ملوك حِمْير يقول ما شاء . وقد كتب الرسول الى (وائل بن حجر) ولقومه : « من محمد رسول الله الى الأقوال العَباهلة ، وفي رواية الى الأقيال العَباهلة »[1] .

وذكر علماء اللغة أن العَباهلة ، هم الذين أقروا على ملكهم لا يزالون عنه ، وعباهلة اليمن ملوكهم الذين أقروا على ملكهم[2] .

ووردت في النصوص السبئية لفظة (قبت) ، يظن أنها بمعنى (نائب الملك) (نائب ملك)[3] .

وجاء في بعض النصوص المعينية ذكر منصب ، عنوانه (حفيه نفس) (ح ف ي ه ن ف س) (حفي نفس)[4] (حافي نفس)،يظهر ان صاحبه كان مكلفاً أن يعمل أعمالاً خاصة ، مثل النظر في شؤون الماء ، أي في توزيعه، وفي الخصومات التي قد تقوض أجله ، ومثل القيام بالاشراف على الأبنية والأعمال العامة وافتتاحها باسم الملك[5] .

ويظهر من بعض النصوص المعينية أيضاً انه كان يعاون هذا الموظف القضائي موظفان ، وضعا تحت إمرته ، يقال لمنصبها (ربقهى معن)[6] ، ربما كانا بمثابة كاتبين عنده .

ويظهر ان حكومة (معين) كانت قد كلفت جماعة أخرى النظر في شؤون الري عرفت بـ (اهل طبنّم) وبـ (اطبنو)[7] . واذا علمنا ما للمياه من شأن

---

١ اللسان (١١/٥٧٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٨٢) .
٢ اللسان (١١/٤٢٢) ، تاج العروس (٨/٤) (عبهل) .
٣ Mahram, p. 120.
٤ Rep. EPIGR. 2813, 2829, 3562.
٥ Grohmann, S. 131.
٦ Rep. EPIGR. 3310, Grohmann, S. 131.
٧ Halevy 174, 520, 521, Grohmann, S. 131, J. Ryckmans, L'Inst. 23.

في بلاد العرب ، عرفنا السبب الذي جعل ملوك (معين) يعتنون عناية خاصة بشؤون الري حتى جعلوا لها موظفين خاصين واجبهم رعاية هذه الشؤون[1] .

ويرد في الكتابات ذكر منصب ، يقال له : (مقتوي) ، والجمع (مقتت)[2] . ويعبر عنه بـ (مقتوى ملكن) ، أي (مقتوي الملك) . ويظن بعض الباحثين ان المقتوي ، أو (مقتوي الملك) ، هو ضابط كبير ، أو هو تعبير عن قائد أو مشاور عسكري ، اختصاصه تقديم الرأي الى الملك في الأمور الحربية وقيادته للجيش[3] ، فهو معتمد الملك في هذه الأمور . وقد تؤدي اللفظة معنى(أمير) في العرف الاسلامي في صدر الاسلام . وهو من تسند اليه قيادة الجيش وإدارة الادارة التي توكل اليه وتحدد له حدود (جنده) .

وقد أظهرت نصوص المسند وجود (مقتوت) أيضاً ، أي نساء مقتويات . وقد فسرها الباحثون بـ (كاهنة)[4] .

وعرف من يقوم بإدارة وحدة من الوحدات الإدارية بـ (سمخض) ومعناها (مدير) ، فيكون المعنى : مدير أرض ، ويكون واجبه الإشراف على الأرض التي وُكِلَ أمر إدارتها اليه ، فواجبه إذن هو واجب سياسي وإداري ، وأما وظيفته ، فيقال لها (سمخضت ارض) ، أو (سمخضت) (سمخضة)، ومعناها إدارة أرض ، أو (إدارة) .

ويعني مصطلح (امنهت) (امنهات) (اهل امنهتن) المعيني ، منصباً دينياً مختصاً بالإشراف على معامل المعابد،تتولاه امرأة ، ويقابل (امنت ذ عثتر) (امنت ذي عثتر) في القتبانية . وقد ورد معه مصطلح (منوت) (منوات) في بعض الكتابات[5] .

ومن الوظائف وظيفة (ملوطن ملك) (ملوطن) ، وقد تعني وظيفة إدارية تنظر في شؤون أملاك الملك . وقد ورد ذكرها في النصوص السبئية المتأخرة[6] .

---

١ Handbuch I, S. 87, 92, 133.

٢ Grohmann, S. 131.

٣ Grohmann, S. 131, CIH 405, Rep. EPIGR. 4861, 4876, 4892.

٤ Nami 4, Glaser A. 778, Grohmann, S. 131.

٥ Arabien, S. 131, Rhodokanakis, Stud. I, S. 62, Rep. EPIGR. 2912.

٦ Philby 124, Grohmann, S. 131, Rep. EPIGR 3951.

وأما مصطلح (اذن قنى) الذي ورد في أحد النصوص : (اذن قنى ملك حضرمت) ، (اذن قنى ملك حضرموت)[1] فقد يعني المأذون بإدارة مقتنيات ملك حضرموت ، أي وظيفة الإشراف على أملاك الملك وأمواله .

وأما (حشرو) ، فقد تعني جماعة واجبهم جمع الحشر للدولة[2] . وقد يكون لهذه اللفظة علاقة مع ما ورد في الموارد الإسلامية عن (الحشر) و (الحشور) . فقد جاء في الحديث : « إن وفد ثقيف اشترطوا أن لا يعشروا ولا يحشروا » ، « أي لا يندبون الى المغازي ولا تضرب عليهم البعوث ، وقيل : لا يحشرون الى عامل الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم ، بل يأخذها في أماكنهم ، ومنه حديث صلح أهل نجران: على أن لا يحشروا ، وحديث النساء : لا يعشرون ولا يحشرون يعني للغزاة ، فإن الغزو لا يجب عليهن »[3] . فالحشر إذن قد يكون موظفاً خصص بجباية الضرائب ، أو بجمع الحشور أي الناس الذين يحشرون ويجمعون للحروب أو للقيام بأعمال اجبارية ، فهم مثل (السخرة) الذين يجمعون جمعاً لأداء أعمال من غير أجر . وهو (الحاشر) في لغتنا .

وأما الذي يتولى جباية الضرائب والإشراف على الموظفين الذين توكل أعمال الجباية اليهم ، فيقال له : (نحل) ويقال لوظيفته (نحلت)[4] . ويذكر علماء اللغة ان (النحلة) بمعنى العطية،وان النحل اعطاؤك الانسان شيئاً بلا استعاضة ، وعمّ به بعضهم جميع أنواع العطاء[5] . ويظهر من هذا التفسير ان له بعضَ الصلة بمعنى اللفظة في المسند ، وان المراد منها في اللغات العربية الجنوبية أخذ المال من الناس . فقد كان الملوك يعطون الأرض لأتباعهم والمقربين لديهم ممن يخدمونهم لاستغلالها ، وذلك في مقابل دفع تعويض عام ، فيقوم هؤلاء باستغلال ما أعطي لهم بأنفسهم ، أو بتأجير الأرض قطعاً الى من هم في خدمتهم ، فيأخذون الربح لهم ، ويقدمون ما اتفق عليه مع الملك الى خزانته .

ويعرف الموظفون الذين يجمعون حصة الحكومة المخصصة باسم الجيش من الحبوب بـ(ساولت) (س ا و ل ت) . وهي ضريبة عسكرية يؤديها المزارعون

---

١ Rep. EPIGR. 2693, Grohmann, S. 131.

٢ Rep. EPIGR. 3951, Grohmann, S. 131.

٣ اللسان (١٩٢/٤) .

٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 67, Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 442.

٥ اللسان (٦٥٠/١١) .

من الحضر والأعراب الى الحكومة ، لتموين الجيش ببعض ما يحتاج اليه من طعام. وتعرف هذه الضريبة العسكرية بتلك التسمية كذلك. فهي ضريبة من ضرائب غلات الأرض[1] .

ويظهر من بعض الكتابات ان بعض الاقطاعات كانت في ادارة مجلس يتألف من ثمانية أشخاص عرفوا بـ (ثمنيتن) أي (الثمانية)[2] ، فهم بمثابة مجلس مديري شركة يدير أمور تلك المقاطعة ، أو بمثابة مشروع زراعي تعاوني ، يتعاون فيه الأشخاص بإدارة ذلك المشروع ، وقد تكون هنالك اقطاعات بإدارة أناس يزيد عددهم على هذا العدد أو ينقص عنه .

وقد ذهب (رودوكناكس) Rhodokanakis الى احتمال وجود طبقة خاصة من الموظفين عرفت بـ (ابعل سبر) ، كانت تحكم الى جانب الطبقة المثمنة المؤلفة من الأشخاص الثمانية [3] .

وظهر من النصوص القتبانية وجود جماعة من الموظفين نيطت بهم مهمة الإشراف على إدارة المعابد وتمشية شؤون الأوقاف المحبوسة على المعبد . يقال لها (اربى) ، والواحد هو (ربي) . ومهمته أيضاً جمع الأعشار والنذور التي تقدم الى المعابد[4] . فهم كهيئات (الأوقاف) في البلاد العربية والإسلامية في الوقت الحاضر .

وذكر علماء اللغة (المحاجر) ، وقالوا عنهم : إنهم أقيال اليمن ، وهم الاحماء، كان لكل واحد منهم حمى لا يرعاه غيره . وأن المحجر ما حول القرية[5]. ويظهر أنهم قصدوا بهم أصحاب الإحماء، أي الإقطاع ، الذين استقطعوا الأرضين واستخلصوها لأنفسهم ، ولم يسمحوا لأحد بالدخول اليها للرعي أو للاستفادة منها بغير اذن منهم.فهم أصحاب الإقطاع والإحماء . فحجروا بذلك على خيرة الأرضين المحيطة بالقرى ، وجعلوها خاصة بهم لا يرعاها غيرهم ، لما كان لهم من نفوذ وسلطان .

---

١ Handbuch I, S. 128.

٢ راجع النص الموسوم بـ : Halevy 147.
Rhodokanakis, Stud.. I, S. 56, Hartmann, Arab. Frage, S. 208, 401.

٣ Rhodokanakis, Stud., I, S. 57, Glaser 147.

٤ Grohmann, S. 214.

٥ اللسان (١٧١/٤) ، (حجر) ، تاج العروس (١٢٦/٣) ، (حجر) .

هذا ما عرفناه من أصول الحكم عند العرب الجنوبيين . أما بالنسبة الى العرب الشماليين ، فإن معارفنا بنظام الحكم عندهم نزر يسير ، لعدم ورود شيء ما عن نظام الحكم في (الحيرة) أو في مملكة الغساسنة في كتابة جاهلية . أما أخبار أهل الأخبار ، فإنها قليلة في هذا الموضوع،وهي لا تنص على نظم الحكم عندها نصاً ، وإنما تشير اليها إشارة ، وتوميء إيماءً ، ولذلك لا تقدم إلينا رأياً واضحاً صحيحاً في أصول الحكم عند العرب الشماليين .

ويظهر من أخبار الأخباريين عن ملوك الحيرة ان أولئك الملوك لم يكونوا مثل ملوك اليمن من حيث استشارة المجالس وتوزيع أعمال الحكومة . وطبيعي أن يكون هنالك فرق بين أصول الحكم في العربية الجنوبية ، وأصول الحكم في الحيرة ، لما بين طبيعتي الحكومتين من اختلاف في نواح عديدة ، تجعل وجود الإختلاف في نظم الحكم أمراً لا بد منه . فإدارة الحـــكم في (الحيرة) متأثرة بالنظم السياسية الساسانية ، وظروف البادية والبداوة وهي الغالبة على سواد التابعين لملوك الحيرة ، ولا يمكن تطبيق ما يطبق في المجتمع الحضري على المجتمع البدوي .

وإذا أخذنا (الردافة) على أنها منصب أو منزلة ودرجة خاصة في حكومـة (الحيرة) ، فإننا نستطيع أن نقول إنها أسمى وظائف تلك الحكومة أو أسمى درجاتها، وأنها من المنازل العليا عند ملوكهم.فقد ذكر أهل الأخبار أن الردف هو الذي يجلس على يمين الملك . فإذا شرب الملك ، شرب الردف قبل الناس ، واذا غزا الملك ، قعد الردف في موضعه ، وكان خليفته على النـاس حتى ينصرف ، واذا عادت كتيبة الملك ، أخذ الردف ربع الغنيمة [1] . وكان للردف أن يخلف الملك اذا قام عن مجلس الحكم ، فينظر بين الناس بعده . وذكر : ان هناك ردافـة أخرى ، ولكنها دون الردافة المتقدمة ، وهي أن يردف الملك الردف على دابته في صيـد أو غيره من مواضع الأنس ، ولكن الأولى أنبل [2] .

وقد عرف (عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب) بـ (رديف الملوك) ، ومعنى هذا انه عاش وخالط عدداً من ملوك أيامه،وذكر انه كان رحّالاً اليهم .

---

١ بلوغ الأرب (١٨٤/٢ وما بعدها) ، اللسان (١٠٣/٥) ، (صادر) ، (ر/د/ف) .

٢ الأغاني (٦٣/١٤) .

وللملك عرف بـ (عروة الرحّال)[1] . وذكر ان (ردافة الملوك : كانت من العرب في بني عتاب بن هرمي بن رياح بن يربوع ، فورثها بنوهم كابراً عن كابر حتى قام الاسلام ، وهي أن يثنى بصاحبها في الشراب ، وإن غاب الملك خلفه في المجلس ، ويقال : إن أرداف الملوك في الجاهلية بمنزلة الوزراء في الاسلام ، والردافة كالوزارة . قال لبيد من قصيدة :

وشهدت أنجية الأفاقة عالياً كَعْبي وأرداف الملوك شهود)[2]

وكان (سدوس بن شيبان) رديفاً ، (فكانت له ردافة آكل المرار)[3] . وقد كانت الردافة معروفة عند (ملوك كندة) أيضاً . وقد رووا أن (أبا حنش عصم بن النعمان التغلبي) ، كان رديفاً للملك (شرحبيل بن الحارث بن عمرو الملك المقصور بن آكل المرار الكندي)[4] . وقد احتفظ (بنو سدوس) بهذا الحق : حق ردافة ملوك كندة[5] .

ولا يوجد نظام خاص في (الردافة) ، ولكن نظراً لما للردافة من مكانة ومنزلة ، جرت العادة ألا تعطى إلا للرجال الذين لهم مكانة عند الناس ولهم عقل وشخصية ، وقد تنتقل من الأب الى الابن ، وقد تنحصر في قبيلة واحدة ، فإذا أراد الملك نقلها الى قبيلة أخرى ، ولم يأخذ رأي تلك القبيلة في نقلها منها ، زعلت القبيلة وثارت إن كانت قوية ووقع الشر بينها وبين الملك ، أو بينها وبين القبيلة الأخرى التي نازعتها على الردافة .

وللرديف ، بحكم اتصاله بالملك وبقربه منه وبتقديمه الرأي له ، أثر في توجيه الملك وفي اتخاذه القرارات ، لا سيما إذا كان الملك ضعيفاً فاتر الهمة ، ليس له رأي . والرديف بهذا المعنى المستشار والوزير . وقد ذكر أن الردافة بهذا المعنى عرفت في الإسلام أيضاً . روي أن (عثمان) كان يُدعى (رديفاً) في إمارة عمر[6] .

وذكر علماء اللغة أن (الأرداف : الملوك في الجاهلية ، والاسم منه الردافة) .

---

١ البيان والتبيين (١/١٣٢) ، المحبر (٢٥٤) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨٤) .
٣ المعارف (ص ٤٥) .
٤ المحبر (ص ٢٠٤) .
٥ الاشتقاق (٢٦١) .
٦ الطبري (٣/٤٨٠) ، (ذكر ابتداء أمر القادسية) .

وكانت الردافة في الجاهلية لبني يربوع[1] . خصصها ملوك الحيرة بهم ولم يعطوها لأحد غيرهم ، حتى ان كانوا مثل بني يربوع من تميم . ولا بد وأن يكون لهذا التخصيص سبب إذ لا يعقل أن يكون جاء (بني يربوع) عفواً . فهو فضل وتفضيل ، وقضية التفضيل والتقديم ، قضية حساسة جداً ويحسب لها ألف حساب عند العرب . لما لها من مسّ بالمنازل وبكرامة القبائل والسادات ، وقد ذهبت أرواح بسبب تقديم ملك سيد قبيلة على سيد آخر في موضع جلوسه منه أن جعله أقرب اليه منه وفي جهته اليمنى لأن في هذا التقديم على عرفهم إيثار لمن قدم وتفضيل له على بقية الحضور . فهل يعقل إذن أن يكون ملوك الحيرة قد أعطوا (الردافة) لبني يربوع عفواً ومن غير أسباب حملتهم على تخصيصها فيهم . لقد حاول بعض ملوكهم تحويلها من أصحابها الى قوم آخرين ، ومنهم قوم مثل (بني يربوع) من تميم . لكنهم هاجوا وماجوا وهددوا ، فاضطر أولئك على إبقاء الحال على ما كان عليه .

ويمكن اعتبار (الحجابة) وصاحبها (الحاجب) من الدرجات المهمة في (الحيرة) . فقد كان (الحاجب) هو الذي يتولى إدخال الناس والاذن لهم بالدخول على الملوك . وكان في إمكانه التعجيل بإدخال من يريد على الملك ، وتأخير من ينفر منه من الدخول عليه ، وربما منعوه من الوصول اليه . لذلك كان الذين يقصدون الملوك يتقربون إليه ويتوددون له ليكون شفيعاً لهم عندهم وواسطة في التقرب اليهم . وطالما تعرض الحاجب لذم شاعر وهجائه ، إذا أخره عن الدخول على الملوك ، أو حال بينه وبين الوصول اليه ، أو كان سبباً في إثارة غضب الملك على الشاعر[2] .

وقد ذكر علماء اللغة انه لما كان الملك محجوباً عن الناس ، فلا يصلون اليه إلا بإذن من الحاجب ، لذلك حصر ، أي حبس عن رعيته ، فقيل له الحصير[3] .

وقد كان للنعمان بن المنذر (ملك العرب) حاجب ورد اسمه في شعر النابغة، هو (عصام بن شهر) من رجال (جرم) ، ذكر انه قد كانت له منزلة عند

---

١ اللسان (١٠٣/٥) ، (صادر) ، (ردف) .
٢ تاج العروس (٣٠٣/١) ، (حجب) .
٣ تاج العروس (١٤٤/٣) ، (حصر) .

النعمان . حتى انه اذا أراد أن يبعث بألف فارس بعث بعصام[1] ، مما يدل على انه كان يوكل اليه أمر قيادة جيشه أيضاً. وقد ضرب به المثل ، ورد : (ما وراءك يا عصام) ، يعنون به إياه . وورد : (كن عصامياً ولا تكن عظامياً يريدون به قوله :

نفس عصام سودت عصاما وصيّرته ملكاً هماما
وعلمته الكرّ والإقداما

وقوله ولا تكن عظامياً ، أي ممن يفتخر بالعظام النخرة)[2] .

وقد ورد في أخبار الرسل الذين أوفدهم رسول الله الى الملوك ، ان (شجاع ابن وهب) رسول رسول الله الى (الحارث بن أبي شمر الغساني) ليدعوه الى الاسلام ، اتصل بحاجبه ، وانتظر حتى جاء له الاذن بمقابلته فدخل عليه[3] .

وبقيت (الحجابة) من المنازل الرفيعة في مكة وفي الأماكن المقدسة الأخرى. فبيد (الحاجب) تكون مفاتيح الكعبة ومفاتيح الخزانة الخاصة بالمعبد وهي درجة ترزق صاحبها رزقاً حسناً وربحاً مادياً ، فضلاً عن الربح المعنوي باعتبار انه صاحب الصنم أو الأصنام وبيده أمر المعبد. لذلك قالت بنو قصيّ : فينا الحجابة[4] . تفتخر على غيرها . ويظهر من الحديث : « ثلاثٌ من كنّ فيه من الولاة اضطلع بأمانته وأمره : اذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، وأقام كتاب الله في القريب والبعيد »[5] ، ومن اشتراط (عمر) على كل من كان يعينه عاملاً ، ألا يتخذ حاجباً ، ومن تحذيره لمعاوية وغيره من اتخاذ الحجاب[6] . ان الحجاب، أي احتجاب الحكام في الجاهلية عن الناس وعدم دخول أحد عليهم بغير اذن منه ، كان معروفاً فاشياً ، وان أصحاب الحاجات والمراجعين من الناس كانوا يلاقون صعوبات جمة في الوصول الى حكامهم ، وقد يقفون اياماً ثم يسمح لهم بالدخول عليهم ، وقد لا يسمح لهم بذلك . ونظراً لما في ذلك من تعسف بحق

---

١ اشتقاق (٣١٨) .
٢ تاج العروس (٨/٣٩٩) ، (عصم)
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦١) .
٤ تاج العروس (١/٣٠٣) ، (حجب) .
٥ كتاب الحجاب من رسائل الجاحظ (٢/٣٠) .
٦ كتاب الحجاب من رسائل الجاحظ (٢/٣١) .

الرعية نهى الاسلام عنه ، وأمر الحكام بوجوب فتح أبواب بيوتهم للناس ليستمعوا الى ظلاماتهم والى ما هم عليه من حال .

وفي كتب أهل الأخبار تأييد لهذا الرأي،إذ نجدها تذكر ان الشعراء وغيرهم كانوا يقفون اياماً بأبواب ملوك الحيرة أو الغساسنة يلتمسون الاذن بالدخول على الملوك ، ولا يأذن الحاجب لهم بالدخول عليهم ، حتى اضطر البعض منهم على التعهد للحاجب بإعطائه نصيباً مما سيعطيه الملك له إن يسّر له أمر الدخول عليه[1]. ومنهم من كان يقدم للحاجب هدية ترضيه حتى يسمح له بالدخول دون إبطاء ، مما اضطر بعض الشعراء على نظم الأشعار في هجاء الحاجب والملك الذي يراد الوصول اليه . ونجد مثل هذه الشكاوي عن حجاب ملوك اليمن .

ويظهر ان ملوك الحيرة كانوا يستوزرون الوزراء ليستشيروهم في الأمور ، فقد ورد ان (زرارة بن عدس) كان من عمرو بن هند كالوزير له[2] . وقدوردت كلمة (وزير) في القرآن الكريم[3] بمعنى المؤازر الذي يشد أزر صاحبه فيحمل عنه ما حمله من الأثقال ، والذي يلتجىء الأمير الى رأيه وتدبيره ، فهو ملجأ له ومفزع . وجاء في حديث (السَّقيفة) : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء »[4] ، مما يدل على ان الوزارة كانت معروفة عند الجاهليين .

وورد أن (التأمور) وزير الملك لنفوذ أمره[5] . ولم يذكر علماء اللغة الموضع الذي استعملت فيه هذه اللفظة .

وقد كان لملوك الحيرة "عمّالاً" يديرون بالنيابة عنهم أمور الأرضين التابعة لهم . فـ (العامل) هو نائب الملك على تلك الأرض. وقد ذكر أنه كان لملوك الحيرة (عمال) على البحرين كالذي رووه في قصة مقتل الشاعر (عبيد بن الأبرص) . وقد عرف علماء اللغة العامل بأنه هو الذي يتولى أمور الرجل في ماله وملكه وعمله ومنه قيل للذي يستخرج الزكاة (عامل) ، وللساعي الذي يستخرج الصدقات من أربابها (العامل) والعامل هو الخليفة عن الشخص[6] .

---

١ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٥٩ وما بعدها) .
٢ العمدة (٢/٢١٦) ، (محمد محيي الدين) .
٣ سورة طه ، الآية ٢٩ ، الفرقان ، الآية ٣٥ .
٤ اللسان (٥/٢٨٣) ، (صادر) ، (وزر) .
٥ تاج العروس (٣/٢٠) ، (أمر) .
٦ اللسان (١١/٤٧٤) ، (عمل) .

وقد استعمل المسلمون لفظة (العامل) وبقوا يستعملونها أمداً . وعين الرسول عمالاً على الصدقات[1] . واستعملت بمعنى أوسع أيضاً ، شمل الضرائب والإدارة . وأطلق (الطبري) لفظة (العامل) على ملوك الحيرة ، فنجد في كتابه جملة : (من عمال ..) ، وورد أن (امرأ القيس) كان عاملاً للفرس ، وكان يحكم الحجاز[2] .

ويذكر علماء اللغة أن (العُمالة) : رزق العامل الذي جعل له على ما قلد من العمل .

والولاية بمنزلة الإمارة ، والولي هو الذي يتولى إدارة شؤون الولاية[3] . وقد استعملت في الإدارة الإسلامية . واستعملت لفظة (الأمير) في معنى من يتولى إمارة الجيش ، فقيل (امراء الجيش) وهم كبار القادة الذين توكل اليهم مهمة تسيير الجيش وإدارته في السلم وفي الحرب .

وتؤدي لفظه (الوكيل) معنى العامل أيضاً . جاء في نص (النمارة) (ووكلهن فرسولروم) ، أي (ووكل لفارس وللروم)[4] . ولكنني لا أستطيع أن أجزم بأن لفظة (الوكيل) كانت مستعملة اصطلاحاً مقرراً مثل لفظة (عامل) في ذلك العهد ، أي سنة (٣٢٨) للميلاد ، وهي سنة تدوين النص .

ومن الدرجات المهمة من الوجهة العسكرية والإدارية (الخفارة) ، بمعنى الحراسة والمراقبة . والخفير هو المجير والحارس والحامي والأمان[5] . وكان ملوك الحيرة قد عينوا (الخفراء) على المواضع الحساسة لحمايتها والدفاع عنها . وقد كان الساسانيون قد عينوا خفراء منهم ومن العرب لحماية الحدود ، ولما حاصر (خالد بن الوليد) (عين التمر) وتغلب عليها قتل (هلال بن عقبة) ، وكان خفيراً بها[6] .

---

١ تاج العروس ، (٣٧/٨) ، (ومنه قيل للذي يستخرج الزكاة عامل) .
Die Araber, II, S. 318, 321, /56, Annali, I, 833.

٢ اللسان (٤٧٦/١١) (عمل) ، (صادر) .

٣ اللسان (٤٠٧/١٥) ، (ولي) .

٤ J. Cantineau, Le Nabatéen, 2, (1932), 49, Dussaud, Mission, 314, REP. EPIGR., 1, 361, NR. 483, Die Araber, II, S. 313.

أشكر المكتبة القادرية ومتولي الوقف القادري السيد يوسف الكيلاني ، على تفضلهما باعارتي الجزء الثاني من كتاب : Die Araber

٥ تاج العروس (١٨٦/٣) ، (خفر) .

٦ الأخبار الطوال (١١٢) .

وقد أشير اليها في كتب الرسول ، إذ ذكر أنه أخفر (سعير بن العداء القريعي) أحد المواضع[1] .

ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن ملوك الحيرة ، كانوا قد اتخذوا لهم أمناء ، فقد لقب (هانىء بن قبيصة) بـ (أمين النعمان بن المنذر)[2] . و (الأمين) المؤتمن الحافظ ، فلعلّهم قصدوا أنه كان المؤتمن على أسراره والمستشار له ، يستشيره في مسائله والحافظ لها،أو أنه كان الأمين على أمواله وما يأتيه من جباية وخراج ، أو الكاتم لأسراره والمدوّن لرسائله،فهو كاتب الدولة في ذلك العهد .

وعرف (قبيصة بن مسعود) بـ (وافد المنذر)[3] . ويظهر أن المنذر كان يكلفه بالوفادات ، أي بالذهاب موفداً عنه في مهمات وأعمال يحتاج قضاؤها الى ذهاب موفد ليتكلم عن الملك وباسمه . و (الوافد) هو السابق والارسال،ويقال: هم على أوفاد أي على سفر . وقد يقال إن (قبيصة) إنما عرف بـ (وافد المنذر) ، لأنه كان ممن يكثر الوفادة عليه ، فيجد له ترحيباً وأبواباً مفتوحة ، فعرف بذلك . فيكون بهذا المعنى من الرجال المقربين الى الملك . ولا علاقة له بمهمة الايفاد الى الملوك وسادات القبائل بمهات سياسية،أي بمهمة رسول وسفير .

وقد استعمل عرب العراق الألفاظ الفارسية المستعملة في ادارة الحكومة الساسانية لأنها هي المصطلحات الرسمية والألقاب التي يحملها الموظفون وتشير الى منازلهم ودرجاتهم ، ومنها درجة (قهرمان) (القهرمان) . والكلمة فارسية،وقد دخلت العربية وعُرِّبت . ذكر علماء اللغة انها تعني المسيطر الحفيظ على من تحت يديه والقائم بأمور الرجل ومن أمناء الملك وخاصته . وفي الحديث: كتب الى قهرمانه[4] . وقد ورد ان (علي بن أبي طالب) قال لدهقان من أهل (عين التمر) ، وكان قد أسلم : « أما جزية رأسك فسنرفعها ، وأما أرضك فللمسلمين . فإن شئت فرضنا لك ، وإن شئت جعلناك قهرماناً لنا »[5] .

و (دهقان) من الألفاظ التي عرفها عرب العراق كذلك. وذكر بعض علماء

---

١ الاصابة (٢/٥١) ، (رقم ٣٢٠٠) .

٢ العمدة ، لابن رشيق (٢/٢٢١) . (مفاخرة عند معاوية بين عامري وشيباني) .

٣ العمدة ، لابن رشيق (٢/٢٢٢) .

٤ اللسان (١٢/٤٩٦) ، (صادر) ، (قهرم) .

٥ الجزية والاسلام ، تأليف دانيل دينيت تعريب الدكتور فوزي فهيم جاد الله (ص ٦٦) .

اللغة ان الدهقان التاجر[1] . ويراد بدهقان حاكم ضيعة أو بلدة . وهي من (ده) بمعنى (ضيعة) و (قان) (خان) بمعنى رئيس قبيلة في الفارسية القديمة[2] . فالدهقان هو رئيس موضع . وقد كان الساسانيون قد نصبوا الدهاقين على العراق وعلى قرى غالب أهلها من العرب ، فكانوا يخاطبونهم باسم منصبهم : دهقان .

وأشير الى وجود وظيفة (كاتب) عند الفرس ، واجبه تولي أمور المراسلة بالعربية والفارسية فيما بين العرب والفرس . وقد ذكر (الطبري) ان (كسرى) جعل ابن (عدي بن زيد العبادي) في مكان أبيه،(فكان هو الذي يلي ما كتب به الى أرض العرب ، وخاصة الملك ، وكانت له من العرب وظيفة موظفة في كل سنة : مهران أشقران والكمأة الرطبة في حينها واليابسة ، والأقسط والأدم وسائر تجارات العرب ، فكان زيد بن عدي بن زيد يلي ذلك ، وكان هذا عمل عدي)[3] . وقد أشير الى وجود كتاب عند ملوك الحيرة تولوا لهم أمر تدوين المراسلات وما يأمر به الملوك . ولا يعقل ألا يكون لهم ديوان خاص بالمراسلة على نمط ما كان عند الساسانيين ، وظيفته تولي ما يكتب به ملوك الحيرة الى الملوك الساسانيين ، وترجمة ما يرد من الساسانيين اليهم من كتب . وتولي أمور المراسلة بين ملوك الحيرة وبين سادات القبائل . فقد كانت الرسائل تترى بين أولئك الملوك وسادات القبائل ، كما يظهر ذلك من كتب أهل الأخبار .

وكان للملوك خاتم عرف بـ (خاتم الملك) يكون في أيديهم . يظهر أنهم استخدموه للتوقيع على الكتب . وقد عرف بـ (الحلق) كذلك . وعرف (الحلق) بـ (خاتم الملك الذي يكون في يده)[4] . وكان من شأنهم ، أنهم إذا أمروا بكتابة كتاب ، ختموا عليه بـ (الختام) ، وهو الطين أو الشمع ، حتى لا يفتح ولا يمكن لأحد فتحه ، وإلا كسر الخاتم ، وعرف أن الكتاب قد فتح ، وأن سره عرف[5] .

والمعروف أن (الشرطة) ، لم تكن معروفة عند الجاهليين،وأنها من المستحدثات

---

١ اللسان (د/ هـ/ ق) ، (١٣/١٦٤) ، (١٠/١٠٧) ، (صادر) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
٣ الطبري (٢/٢٠١) ، (ذكر خبر يوم ذي قار) .
٤ وأعطى منا الحلق أبيض ماجد ردیف ملوك ما تغب نوافله
تاج العروس (٦/٣٢١) ، (حلق) .
٥ تاج العروس (٨/٣٦٦) ، (ختم) .

الإدارية التي ظهرت في الإسلام . ولكن أهل الأخبار يروون حديثاً نسبوه الى الرسول هو : (الشرط كلاب النار)[1] . وهو حديث لو صح أنه من قول الرسول ، فإنه يدل على وقوف أهل الحجاز على (الشرطة) ، ويذكر علماء اللغة أن الشرطة سمّوا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها . وذكروا أن واحد الشرط هو الشرطي ، واستدلوا على ذلك بقول الدهناء امرأة العجاج :

والله لولا خشية الأمير وخشية الشرطي والترتور
أعوذ بالله وبالأمير من عامل الشرطة والأترور[2]

وقد ذهب (ابن قتيبة) الى وجود (الشرطة) في أيام الجاهلية ، إذ قال في أثناء حديثه عن المثل (على يدي عدل) : (هو : عدل بن فلان . من سعد العشيرة ، وكان على شرطة تبع ، فإذا غضب على رجل دفعه اليه . فقال الناس لكل شيء يخاف هلاكه . هو على يدي عدل)[3].واختلف في اسم والده ، فقيل هو جزء (جر) . وقيل لكل ما يئس منه : وضع على يدي عدل[4] .

وقد عرف الحراس في اليمن . منهم من كان يتولى أمر حراسة الملوك ، إذا ذهبوا الى مكان ، أو خرجوا لصيد،ومنهم من كان يتولى أمر حراسة قصورهم، ومنهم من تولى أمر حراسة أبواب المدن والأسوار حتى لا يدخل المدينة عدوٌ ولا يهرب منها سارق أو مجرم ، وكان للملوك الحيرة والغساسنة وسادات القبائل حراس يسيرون معهم لمنع من يريد إلحاق الأذى بهم . واذا تجولوا استتبعهم الحراس والخدم . وذكر ان (خشرم بن الحبّاب) كان من حراس الرسول[5] .

ويقال لمن يطوف بالليل لحراسة الناس (العس) و (العسس) . فهم نوع من أنواع الحرس ، تخصص بالحراسة ليلاً .

وأما (الدرابنة) ، فهم البوّابون ، أي الذين يقفون على الباب، لمنع الغرباء ومن فيه ريبة من الدخول الى البيوت . واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية،

---

١ تاج العروس (٥/١٦٧) ، (شرط) .
٢ تاج العروس (٥/١٦٧) ، (شرط) .
٣ ابن قتيبة ، المعارف (٦١٩) .
٤ تاج العروس (٨/١٠) ، (عدل) .
٥ القسطلاني ، ارشاد (٢/٣٩٩) ، الاشتقاق (٢٧٣) .

وقد ذكرت في شعر نسب الى المثقب العبدي :

فأبقى باطلي والجدّ منها كدكان الدرابنة المطين[1]

ويقال لمن يطوف بالليل لحراسة الناس (العس) و (العسس) ، فهم نوع من أنواع الشرطة ، أو من المحافظين على الأمن ، تخصصوا بالحراسة ليلاً .

وذكر علماء اللغة ان من مرادفات (الشرطي) (الجلواز) . و (الجلواز): التؤرور (التؤرور) ، وقيل هو الشرطي . وجلوزته : خفته بين يدي العامل في ذهابه وإيابه[2] . وذكروا ان (التؤرور : العَوْن يكون مع السلطان بلا رزق ، وقيل : هو الجلواز)[3] . وذكر (عكرمة) في تفسير (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) . (الجلاوزة يحفظون الأمراء)[4] .

وقد اتخذ حكام العربية الجنوبية السجون لتأديب خصومهم بسجنهم بها. واستعملت لسجن الخصوم السياسيين والأعداء في الغالب . لذلك كانوا يتشددون في حراستها وفي عزلها عن الناس حتى لا يتمكن أحد من الهروب منها . وقد يجعلونها في قلاعهم وحصونهم ، زيادة في الحذر وفي مراقبة المساجين . وقد يتوفى السجين في سجنه من سوء حالة السجن ومن الجوع والعطش. ويقال لحارس السجن (حصق) في اللغة العربية الجنوبية [5] .

وذكر بعض علماء اللغة ان النبط تسمي (المحبوس) : (المهزرق) ، و (الحبس) (المزروقي)[6] . ولا يستبعد أن يكون عرب العراق قد عرفوا هذا المصطلح . إذ ذكروا ان (المهزرق : المحبوس ،نبطية تكلمت بها العرب،وكذلك المحرزق) . وان (الهزرق) (الحبس) . وقال بعض العلماء : «المهزرق والمهزرق يقالان معاً . كما وردا في بيت الأعشى :

هنالك ما أنجاه عزة ملكه بساباط حتى مات وهو مهرزق»[7]

---

1 تاج العروس (٢٤٩/١) ، (١٩٩/٩) ، (الدرابنة) .
٢ اللسان (٣٢٢/٥) ، (جلز) ، تاج العروس (١٦/٤) ، (جلز) .
٣ تالله لولا خشية الأمير وخشية الشرطي والتؤرور
(التؤرور) و (التؤرور) ، اللسان (٨٨/٤) .
٤ الدينوري ، عيون الأخبار (٣/١) .
٥ راجع الصفحة (٤٣٦) من كتاب : South Arabian Inscriptions
٦ تاج العروس (٣١٣/٦) ، (حزرق) ، (٩٦/٧) ، (هزروقي) ، (هزرق) .
٧ تاج العروس (٩٦/٧) ، (هرزوقي) ، (هزرق) .

وترد لفظة (عوق) بمعنى المحبوس في النصوص الصفوية [1] . وقد كان الروم يقبضون على من يغير على أرضهم من الصفويين وغيرهم ويودعونهم السجون . ومنهم من كان يفر منها ، ويكتب ذكرى هروبه من سجن الروم على الحجارة.

وقد كان لملوك الحيرة (سجون) ، منها سجن (الصنّين) وقد أشير اليه في الشعر الجاهلي [2] . ولا بد أن يكون لهم موظفون أودعوا اليهم مهمة المحافظة على السجون ومراقبة المساجين حتى لا يهربوا ، ووكلوا اليهم أمر تعذيبهم وقتلهم أو سمهم عند صدور أمر الملك بذلك . كما فعلوا بعديّ بن زيد العبادي . ويقال للسجن : الحصير ، لأنه يحصر الناس ويمنعهم من الخروج [3] ، و (الحبس) [4] .

ويقال للذي يتولى أمر القبيلة أو الجماعة من الناس يلي أمورهم ، وينقل الى الملك أحوال الناس (العريف) . وكان للملوك (عرفاء) ، هم بمثابة عيونهم على القبائل . ويظهر من بعض الأخبار أن العرافة كانت نوعاً من الرئاسة والزعامة والدرجة . فقد ورد في كتب الحديث : أن شيخاً كان صاحب ماء جعل لقومه مئة من الإبل على أن يسلموا،فأسلموا ، وقسم الإبل بينهم . وبدا له أن يرتجعها منهم ، فأرسل ابنه الى النبي ، وأوصاه بأن يقول له : « أبي شيخ كبير ، وهو عريف الماء ، وإنه يسألك أن تجعل لي العرافة بعده » . فلما قص الخبر على الرسول ، قال الرسول له : « إن بدا له أن يسلمها اليهم ، فليسلمها ، وإن بدا له أن يرتجعها منهم ، فهو أحق بها منهم . فإن أسلموا ، فلهم إسلامهم ، وإن لم يسلمو ، قوتلوا على الإسلام » . فقال : « إن أبي شيخ كبير ، وهو عريف الماء ، وإنه يسألك أن تجعل لي العرافة بعده » . فقال الرسول : « إن العرافة حق ، ولا بد للناس من عرفاء . ولكن العرفاء في النار » [5] .

وورد أن العريف:النقيب ، وهو دون الرئيس ، وان عريف القوم سيّدهم، والعريف : القيم والسيد لمعرفته بسياسة القوم ، ولتدبيره أمر تابعيه . وعرفوا (النقيب) بهذا التعريف أيضاً [6] ، فقالوا إنه العريف ، وهو شاهد القوم وضمينهم

---

١ Littmann, Safa. p. 42.
٢ تاج العروس (٩/٢٦١) ، (صن) .
٣ تاج العروس (٣/١٤٤) ، (حصر) .
٤ اللسان (٦/٤٤) ، (حبس) .
٥ اللسان (٩/٢٣٨) ، بلوغ الارب (٢/١٨٦) .
٦ اللسان (ع/ر/ف) ، (٩/٢٣٨) .

والمقدم عليهم الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم[١] .

و (العريف) من المصطلحات العسكرية أيضاً ، المستعملة في تنظيمات الجيش . وقد أقر الرسول ما كان متبعاً من أمر تقسيم الجيش الى وحدات . فعرّف على كل عشرة رجلاً وأمّر على الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الإسلام . هم العرفاء[٢] .

و (النقيب) ، شاهد القوم ، وهو ضمينهم وعريفهم ورأسهم ، لأنه يفتش أحوالهم ويعرفها . وفي التنزيل : « وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً »[٣] . ولما بايع الأنصار رسول الله ، جعل عليهم اثني عشر نقيباً ، ليتولوا أمر المسلمين بيثرب وليكونوا شهوده عليهم ، وليقوموا بالدعوة فيها الى الاسلام . ويظهر ان لهذه اللفظة صلة بلفظة Nacebus التي وردت في بعض المؤلفات اليونانية في حديثها عن العرب . ونجد في العهد المنسوب الى (خالد بن الوليد) المعطى الى أهل الحيرة والمدون في تأريخ الطبري ، جملة : (وهم نقباء أهل الحيرة)، وقصد الشارح بها رؤساء الحيرة الذين صالحوا (خالد) على أداء الجزية ، وهم : عديّ وعمرو أبناء عدي بن زيد العبادي ، وعمرو بن عبد المسيح ، واياس بن قبيصة وحيري (جبريّ) بن آكال[٤] .

وفي ورود اللفظة في القرآن الكريم ، واختيار الرسول لنقباء أمرهم على مسلمي يثرب قبل هجرته اليها ، وفي ورودها في عهد (خالد) مع أهل الحيرة ، دلالة على انها كانت شائعة معروفة في الحجاز ، بمعنى رئيس وسيد قوم والمسؤول عن جماعة .

أما (الرائد) ، فهو الذي يتقدم الناس لطلب الماء والكلأ للنزول عليه[٥] . وقد نصب (عمر) (سلمان الفارسي) رائداً وداعية على الجيش الذي أرسله الى العراق[٦] .

---

١ اللسان (ن/ق/ب) ، (١/٧٦٩) .
٢ الطبري (٣/٤٨٨) .
٣ المائدة ، سورة رقم ٥ ، الآية ١٢ ، تاج العروس (١ : ٤٩٢) ، (نقب) .
٤ تاريخ الطبري (٣/٣٦٣ وما بعدها) ، (حديث يوم المقر وفم فرات بادقلى) .
٥ بلوغ الأرب (٢/١٨٥) ، تاج العروس (٢/٣٥٩) ، (راد) .
٦ الطبري (٣/٤٨٩) .

ولا بد وان يكون للملوك خزان يتولون خزن أموال الملك والاشراف على مدخولاته ومصروفاته . وكلمة (خزانة) من الألفاظ المعروفة في العربية [1] . وقد كان الناس يخزنون أموالهم في خزائن . ومنها أوعية يجمعون فيها المال المخزون .

وقد كان لهؤلاء الملوك جباة يجبون لهم حقوق الملك على الرعية ، من أعشار التجارة ، ومن غلات الأرض .

وهناك طبقة من السادة كانت لهم منزلة ومكانة في أهلهم ودرجة محترمة عند الملوك ، فقربوهم اليهم وأدنوهم منهم . وقد عرفوا بـ (قرابين الملك) واحدهم قربان . يجلسون مع الملك على سريره لنفاستهم وجلالتهم [2] . وذكر ان (القربان): جليس الملك الخاص ، أي المختص به . و (قرابين الملك) وزراؤه وجلساؤه وخاصته [3] .

وقد عرفنا من كتابات (تدمر) أسماء بعض الوظائف التي كان يتولاها الموظفون في القيام بإدارة الأعمال العامة للمدينة . وقد أشرت اليها في حديثي عن تلك المدينة، وكانت (تدمر) قد سارت على خطة المدن اليونانية في ادارة شؤونها ، وهي خطة عمل بها الرومان أيضاً مع بعض التغيير الذي يناسب جو (الانبراطورية) الرومانية . ويلاحظ ان أهل (تدمر) استعملوا المصطلحات اليونانية أيضاً في تسمية الوظائف .

ويمكن أن نقول إن عرب بلاد الشأم كانوا قد ساروا على وفق النظم اليونانية ــ الرومانية في إدارة الحكم ، لوجود جاليات يونانية كبيرة العدد من مدن الشأم وقراها ، ولاتصال عرب هذه الديار باليونان والرومان ، مما جعلهم يختارون نظم اليونان والرومان في إدارة الحكم وفي إدارة الجيش ، ونجد أثر هذا التأثر حتى في لغة أهل الحجاز ، فنجد فيها ألفاظاً عديدة دخلت العربية قبل الإسلام بزمن طويل ، فعربت . وذلك في الأمور التي اختص بها اليونان والرومان ولم تكن معروفة عند العرب .

بطانة الملك :

والبطانة السريرة يسرها الرجل ، والصاحب للسرّ الذي يشاور في الأحوال .

---

١ تاج العروس (٩/١٩١) ، (خزن) .
٢ اللسان (٥/١٠٣) ، (صادر) ، (ردف) .
٣ تاج العروس ، (قرب) .

وقد أشير اليها في الحديث. ويقال لها الوليجة، وهو الذي يختص بالولوج والاطلاع على باطن الأمر. وذكرت (البطانة) في القرآن. بمعنى مختصين بقوم، ويستبطن بهم الأمور[1]. فهم النخبة الخاصة التي يركن اليها في السرّاء والضرّاء وفي أخذ الرأي.

ولـ «سقاة» الملوك حظوة عند الملوك بحكم قربهم منهم واتصالهم بهم، ولا سيما وقت شرابهم، ويسمعون من أفواههم وبخاصة في أوقات الشراب أموراً لا يبيحون بها في وقت صحوهم وشعورهم. وقد كانت (السقاية) منزلة رسمية كبيرة عند الفرس والآشوريين والعبرانيين[2]. وقد استعمل اللخميون والغساسنة السقاة، لإسقائهم الشراب ولإسقاء ضيوفهم أيضاً.

ولا يستبعد وجود (الخصيان) في قصور الملوك والأشراف. فقد كان من عادة الناس في ذلك الوقت استخدامهم في البيوت. فكانوا يدخلون على مخدرات الملوك والسادات، ويتصلون بهن، لخدمة البيت. ولهذا لجأ الملوك الى شراء الخصيان، أو اخصاء مماليكهم حتى يكونوا بمأمن من اتصالهم بالقصر ودخولهم على نسائهم.

ادارة المملكة:

لا نستطيع أن نتكلم بوجه صحيح مضبوط عن كيفية إدارة المملكة عند الجاهليين وعن طرق توزيع الأعمال وتقسيم المملكة الى وحدات إدارية يديرها الموظفون، وعن أسماء تلك الوحدات. إذ لم يصل أي شيء عن ذلك الينا في كتابات المسند او الكتابات الجاهلية الأخرى. كما لم يصل الينا أي شيء عن النظم الإدارية الجاهلية في كتب أهل الأخبار والتواريخ.

وفي كتب اللغة والأدب مصطلحات ذات معان إدارية مثل (الطسوج) و (الكور) وردت فيها عرضاً، غير أن ما أورده علماء اللغة عنها لا يبين لنا بوضوح استعمالها ولا الأزمنة التي استعملت فيها، ولا المراد منها. فهم يقولون

---

١ تاج العروس (٩/١٤١)، (بطن).

٢ Hastings, p. 271, Hastings, A Dictionary of the Bible, I, p. 533.

عن (الطسوج) ، الطسوج : الناحية وربع الدانق . وقيل مقدار من الوزن ، وقيل معرب واحد من طساسيج السواد . فنحن إذن أمام معان ثلاثة : هي جزء من دانق أو درهم ، ومقدار من الوزن وجزء من أرض[1] . والمعنى الثالث هو المعنى الملائم لبحثنا ، لأنه يدل على وحدة إدارية ، كانت مستعملة في العراق بتأثير الحكم الفارسي .

وأما (الكور) فجمع (كورة) . قال علماء اللغة انها المدينة والصقع ، والمخلاف . وهي القرية من قرى اليمن[2] والكلمة من أصل يوناني،هو (خورة) Khora . بمعنى ناحية من بلد ، أي مصر . ولم يشر علماء اللغة الى انها كانت مستعملة في جزيرة العرب . ولعل العربية أخذتها من التقسيمات الإدارية لبلاد الشأم .

وجاء في أثناء حديث (الطبري) عن فتح (أمغيشيا) وعن سير خالد بن الوليد اليها ، أنها كانت مصراً كالحيرة[3] . وورد في كتب اللغة والأخبار أن (عمر) كان قد مصر الأمصار منها البصرة والكوفة . وذكر علماء اللغة أن المصر الحد[4] . ويظهر من ذلك أن (أمغيشيا) كانت مصراً ، أي من إمارات الحدود، التي أقيمت على الحدود المغربية للدولة الساسانية لحمايتها من الروم ومن غارات الأعراب وغزوهم . وكان أهلها على النصرانية . وان لفظة (مصر) كانت تؤدي هذا المعنى عند ظهور الإسلام .

ولا تظهر التقسيمات الإدارية إلاّ في حكومة كبيرة تحكم مساحة واسعة نوعاً ما . لذا نستطيع أن نتحدث باطمئنان عن وجود تقسيمات ادارية في العربية الجنوبية، لأن حكوماتها كانت قد حكمت أرضين متسعة نوعاً ما ، وجعلت البلاد في حكم موظفين تولوا ادارتها . وقسموها الى وحدات ادارية . أما في الحجاز ، فلما كان الغالب عليها عند ظهور الإسلام نظام حكم القرى والمدن ، لذلك ، فلا يمكن أن نجد فيه شيئاً من هذا التقسيم . وأما ملوك الحيرة ، فقد عينوا عمالاً على الأقاليم التي حكموها.ولكن أهل الأخبار لم يذكروا شيئاً عن أنواع العمالات وعن درجات حكامها . لذلك لا نستطيع التحدث عنها بشيء .

---

١ تاج العروس (٢/٧٠) ، (الطسوج) .

٢ اللسان (٥/١٥٦) ، (كور) .

٣ تاريخ الطبري (٣/٣٥٨) ، (حديث أمغيشيا) ، (مغش) (أمغيشيا) ، تاج العروس ٤/٣٥١) ، (مغش) .

٤ تاج العروس (٣/٥٤٤) ، (مصر) .

ولقد سبق لي أن ذكرت أسماء بعض الوظائف والمناصب في الممالك العربية الجنوبية. فقلت مثلاً إن درجة (كبر) أي (كبير) هي من المناصب العالية عند العرب الجنوبيين ، و (الكبر) هو في مقام (محافظ) و (متصرف) و (عامل) في مصطلحات الدول العربية في يومنا هذا . ولا أستبعد أن تكون تلك الدول قد أطلقت لفظة (كبر) على الوحدة الادارية التي كانت تحت حكم الكبير .

و (المخلاف) ، هي الكلمة التي ترد في كتب علماء اللغة والأخبار عن التقسيمات الادارية الجغرافية لليمن ، إذ يذكرون ان (المخلاف) مثل (الكورة) بالنسبة لأهل اليمن ، وان اليمن كانت مقسمة الى مخاليف[1] .

ويعبر عن القرى بالأعراض ، والواحد عرض . جاء في بعض كتب عبد الملك بن مروان لعماله : « وليتك المدينة وأعراضها » ، أي قراها ونواحيها[2] . وللقرى والمدن حدود ومعالم . خارجها ضاحيتها . وأما داخلها فجوفها ، وهو من شعاب ، ومن (ربعات) . والربع و (الربعة) المحلة والشعب وجماعة الناس[3] . وقد أشير الى (الرباع) في الكتاب الذي أمر الرسول بتدوينه بين (قريش) وأهل يثرب .

ويظهر ان الجاهليين قد عرفوا لفظة (الدسكرة) ، بدليل ورودها في الحديث . وقد ذكر بعض علماء اللغة انها بناء كالقصر حوله بيوت ومنازل للخدم والحشم . وخصصه بعضهم بالملوك . وقال قوم : القرية[4] . ويظهر انهم أخذوها من الفارسية، فهي فيها مدينة وضيعة كبيرة .

و (الضواحي) النواحي ، وضواحي الروم ما ظهر من بلادهم . وضواحي مدينة أو قرية،ما كان خارج السور أو خارج حدود المدينة أو القرية . وضواحي قريش ، النازلون بظواهر مكة ، ولذلك قيل لقريش النازلة بظواهر مكة، قريش الظواهر . وأهل الضاحية ، أو أهل الضواحي ، هم أهل البادية ، والساكنون على سيف الحضارة وحدودها[5] . وكانت الحكومات تحسب لهم حساباً ، وتراقب أحوالهم ، خشية مهاجمتهم الحضر .

---

١ اللسان (١٥٦/٥) ، (خلف) .
٢ شرح ديوان لبيد (ص ٩٢) .
٣ تاج العروس (٣٣٨/٥) ، (ربع) .
٤ تاج العروس (٢٠٧/٣) ، (دسكرة) .
٥ تاج العروس (٢١٧/١٠ وما بعدها) ، (ضحى) ، اللسان (٤٨١/١٤) ، (ضحى) .

موارد الدولة :

ولا بد لكل دولة من موارد تستعين بها في ادارة امورها وفي الانفاق على التابعين لها المكلفين القيام بأعمالها من موظفين ومستخدمين مدنيين وعسكريين ويدخل في هذه الموارد كل ما يحصل عليه الملك أو سيد القبيلة من أرباح ودخل يرد من استغلال الأرض والأملاك الخاصة ، ومن الاتجار ، ومن الضرائب التي تفرض على التجار والمواطنين والزرّاع ، ومن الغنائم ، الى غير ذلك من واردات تجمع وتقدم الى الحكام ملوكاً كانوا أو سادات قبائل أو رؤساء مدن . أضف الى ذلك (الجزية) التي كانت الحكومات تفرضها على من تحاربه أو تغزوه فتنتصر عليه، ثم تنسحب من أرضه على ان يدفع (جزية) يقررها المنتصر تتناسب مع حال المغلوب .

ولم يكن من المعتاد في تلك الأيام التفريق بين (الخزينة الخاصة) و (الخزينة العامة) ، او بين الوارد الخاص بالملك ، مما يجبى عن أملاكه وعن اتجاره وبين الوارد الذي يجب ان يصرف وينفق على الأعمال العامة التي تمس الشعب كله ، مثل انشاء الطرق والحصون وادامة الجيش واغاثة المحتاج وما شابه ذلك ، فإن الحاكم في ذلك الزمن كان يرى ان كل ما يجبى يعود اليه ، لا فرق عنده بين الخزينة الخاصة والخزينة العامة ، وان الانفاق يتوقف على رأيه ، إن شاء وهب هذا مالاً وأقطع هذا ارضاً ، وان شاء صادر مال شخص وضمه اليه ، ولا حق لأحد ان يعترض عليه . فأموال الدولة هي امواله والخزينة هي خزينته، وهو الذي يأمر بالإنفاق . وما يعطيه للشعراء ثواباً على مدحهم له ، او ما يقدمه من أموال للمنافع العامة والنفقات الخاصة بالجيش وبمرافق الدولة، يكون كله بأمره وبموافقته ، يتصرف كما يتصرف اي مالك كان بملكه .

وقد اختار الملوك لهم رجالاً وكلوا لهم امر ادارة أملاكهم واستثمارها ، كما وكلوا لآخرين أمر الاتجار بأموالهم ، إذ كان الملوك يتاجرون ايضاً في الداخل وفي الخارج ، كما وكلوا للموظفين امر جباية الضرائب واستحصالها من الزرّاع ومن التجار، فكانوا يذهبون الى المزارع لتقدير حصص الحكومة كما كانوا يقفون في الأسواق لأخذ العشر من المبيعات . وهناك موظفون يقيمون عند الحدود وعند ملتقى الطرق لأخذ حق المرور من القوافل .

وقد وجدت بعض الحكومات مثل حكومة (رومة) ان طريقة تعيين الجباة لجباية الضرائب ، هي طريقة تكلف الدولة اموالاً تزيد على الأموال التي تردها من الجباية ، لأن الجباة كانوا يسرقون اموال الجباية ، ويسيئون الاستعمال ، وان الشدة معهم لم تنفع شيئاً ، لذلك عمدت الى وضع الجباية في (المزايدة العلنية) بأن يعلن عنها ، فيتقدم من يرغب في أخذها ، فيزيد على غيره ممن ينافسه ، وهكذا حتى ترسو على آخر المتزايدين ، فيتولى هو جمع الجباية عن طريق تعيينه موظفين يقومون بجباية الضرائب المقررة ، فيقدم هو للحكومة المبلغ الذي رسا عليه ، ويأخذ الفضل لنفسه . وقد تألفت في (رومة) شركات كبيرة خصصت نفسها بأمور جباية الضرائب من المقاطعات الواسعة التابعة لانبراطورية (رومة) وكانت تتزايد فيما بينها حينما تعرض الحكومة جباية الضرائب في (المزاد) .

وقد فعلت هذه الشركات كل ما أمكنها فعله لجمع أكثر ما يمكن جمعه من أموال من المكلفين لتغطية مبلغ التعهد الذي أعطته للحكومة وللحصول على أرباح مفرطة لها ، بأن أرهقت كاهل المكلف بأخذ أضعاف ما حدد من مقدار الضريبة ، ولم تنفع الرقابة الحكومية التي وضعتها الحكومة على هذه الشركات وعلى الجباة ، ذلك لأن (الحكام) حكام الولايات ومن بيدهم أمر الرقابة المالية ومن كان بيده أمر النظر في عرض الجباية على المتزايدين كانوا مرتشين ، فكانوا يغضون الطرف عن تعسف الجباة ولا ينصفون المشتكين من الناس منهم . وقد ضج الناس من أصحاب المكس ، وأشير الى ظلمهم في الإنجيل ، وعدّوا من أصحاب الإثم أهل الخطيئة Sinners فكانوا من المُبغَضين[1] . وقد ندد بهم وبظلمهم في كتب الحديث.

وقد عين (الأباطرة) أحياناً عمالاً procurator على المقاطعات للاشراف على جمع الجباية ، وعينوا موظفين في الموانيء والثغور لجباية الضرائب عن الأموال المصدرة التي تصدر الى الخارج ، وعن الأموال التي تستورد الى الانبراطورية ، ومن التجار الرومان ، أو التجار الأجانب .

وقد وردت في النصوص العربية الجنوبية مصطلحات لها علاقة بالضرائب وبالأرباح ، منها مصطلح (نعمت) ، أي (نعمة) ، وتعني هنا ما أنعم به على الانسان ، أي ما يحصل عليه من السوق ، وما يربحه من تجارته . فهي

[1] Hastings p. 776.

بمعنى الربح . وللحكومة او القبيلة او لأصحاب السوق حق أخذ نصيب مقرر من هذه (النعم) ، اي الأرباح . ويعبر عـن النصيب الذي تأخذه الحكومة من الأرباح بـ (زعرتم) (زعرت) (زعرة) ، من أصل (زعر) . وتعني (زعر) قلّ وتفرّق[1] ، فكأن العرب الجنوبيين عبّروا عن نصيب الحكومـة بهذه اللفظة ، لأن ما يدفع للحكومة هـو مما يقلل من المبلغ ويصغره ، فالربح اذن هو (نعمتم) ، (نعمة) ، (نعمت) ، وهو كل ربح يصيب أحداً . وأما ما يؤخذ عن الأرباح ويدفع للحكومة : فهو (زعرتم) (زعرت) (زعرة)[2]، أي ضريبة .

وترد لفظة (همد) بمعنى الضريبة في العربيات الجنوبية ، أي ما يفرز ويعطى للحكومـة أو للمعبد او للسادات سادات القبائل والأرضين التي يهيمنون عليها . و (الهميد) في عربية القرآن الكريم (المال المكتوب عليك في الديوان) و (المال المكتوب على الرجـل في الديوان) فيقال : هاتوا صدقته ، وقـد ذهب المال و (الصدقة)[3] . وهذا التفسير قريب من المعنى المقصود من اللفظة في العربيات الجنوبية .

وقد أخذت حكومات العربيـة الجنوبية بطريقة تعيين موظفين خاصين بجمع الضرائب وبالاشراف على الجباة وعلى كيفية الجباية ، كما أخذت بطريقـة ايداع الجباية الى الإقطاعيين وسادات القبائل ، فهم الذين يجمعون الحقوق من أتباعهم، ويقدمونها الى الحكومة . وذلك بالالتزام . وللحكومة موظفون واجبهم التحقق من أن هؤلاء الملتزمين لا يأكلون حق الحكومة ، ويأخذون من أموال الجباية النصيب الأكبر ، ولا يقدمون للدولة الا شيئاً قليلاً من استحقاقها .

وفي كل الحالات المذكورة كان المكلف يرهق بدفع الضرائب ارهاقاً ، ويجبر على دفع ضرائب تزيد على طاقته خاصة ، وقد كانت الضرائب متنوعة عديدة . ضرائب للحكومة ، وضرائب للمعبد ، وضرائب للسيد صاحب الأرض أو سيد القبيلة ، ثم عليه السخرة أي العمل الإجباري دون مقابل وعليه الانخراط في سلك

---

١ تاج العروس (٢٣٧/٣) ، (ز/ع/ر) .

٢ REP. EPIGR. 4337, Jastrow, A Dictionary of the Targum, p. 407, (1886).

٣ تاج العروس (٥٤٧/٢) ، اللسان (٤٣٧/٣) ، (همد) ،
REP. EPIGR. 4337, p. 203.

المحاربين حين الطلب ، فأثر كل ذلك في الوضع الاقتصادي ، وفي المجتمع العام تأثيراً كبيراً ، ونهك السواد الأعظم من الناس ، مما جعلهم يتذمرون من الحكام والحكومة والسادات،ولا يؤدون ما عليهم من واجبات وخدمات عامة الا مكرهين.

ولعل هذا الارهاق الذي نزل بالرعية في دفع الضرائب ، هو الذي حملها على اطلاق (الآكل) و (الآكال) و (آكال الملوك) و (مآكل الملوك) على ما يجعله الملوك مأكلة لهم ، لأنهم جعلوا أموال الرعية لهم مأكلة ، واما (المأكول)، فهو الرعية ، لأن الملوك تأكل أموالهم[1] . فالملوك تأخذ ولا تعطي ، والرعية تعطي ولا تأخذ ولا تستفيد مما تدفعه لملوكها من ضرائب أية فائدة .

والضريبة في تعريف علماء اللغة : ما تؤخذ في الأرصاد والجزية ونحوها ، مثل ما يؤديه العبد الى سيده من الخراج المقرر عليه،ومن الضرائب : ضرائب الأرضين وهي ضرائب الخراج عليها ، وضرائب الإتاوة التي تؤخذ من الناس[2] .

وعرف علماء اللغة الإتاوة : أنها الرشوة والخراج ، وقال بعضهم : كل ما أخذ بكره ، أو قسم على موضع الجباية وغيرها ، فهو اتاوة . وفي ذلك قال (حُنَيّ بن جابر التغلبي) :

فغي كل أسواق العراق إتـاوةٌ وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[3]

وذكر (ابن فارس) أن (الإتاوة) من الألفاظ التي زالت بزوال معانيها ، فهجرت لذلك[4] .

ويقال للإتاوة : الأريان . والاريان بمعنى الخراج أيضاً[5] . وقد ذكرت اللفظة في شعر (الحيقطان) ، شاعر اليمانية،وكان قد قال قصيدة يرد فيها على الشاعر (جرير) ، فهجا بها قريشاً ، وكان مما قال فيها :

وقلتم لقـاح لا نؤدى إتاوة فاعطاء اريان من الفرّ أيسر[6]

---

١ اللسان (١١/ ٢١) ، (صادر) ، (اكل) .
٢ اللسان (١/ ٥٥٠) ، (ضرب) ، تاج العروس (١/ ٣٤٩) ، (ضرب) .
٣ اللسان (١٤/ ١٧) ، (اتى) .
٤ الصاحبي (ص ٩٠) .
٥ اللسان (١٤/ ٣١) ، (أري)
٦ فخر السودان من رسائل الجاحظ (١/ ١٨٤ وما بعدها) .

فقال : قلّم إنا لقاح ولسنا نؤدي الخراج والاريان،فإعطاء الخراج ، أهون من الفرار واسلام الـدار للأحابيش ، وأنتم مثل عدد من جاءكم المرار الكثيرة[1] . ويقصدون باللقاح الحي لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم في الجاهلية سبأ[2] .

والإتاوة في الأصل الجباية عامة ، أي جباية كل شيء . وهي كلمة عامة تشمل أخذ كل عطاء ، اي كل ما يؤخذ طوعاً او كرهاً عن شيء ، فتشمل الخراج والجزية والجباية والرشوة ، وما يفرض تعتاً وزوراً ، والمكوس. والخراج اتاوة . يقال أدى اتاوة أرضه ، اي خراجها ، والجبايـة اتاوة . يقال ضربت عليهم الاتاوة ، اي الجباية ، وهي بمعنى الرشوة . يقال شكم فاه بالاتاوة ، أي الرشوة . وتدخل فيها الرشوة على الماء . وجاء في قول الجعدي :

موالي حلفٍ لا موالي قرابة ولكن قطيناً يسألون الاتاويا

أي هم خدم يسألون الخراج[3] .

وقد ذكر (الجاحظ) الإتاوة في جملة ما ترك الناس في الاسلام من ألفاظ الجاهلية ، إذ تركوها ، وأحلوا لفظة (الخراج) محلها[4] .

وكانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية شيئاً . كانت تأخذ بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر ، إتاوة . ولما خرج (ظويلم) الملقب بـ (مانع الحرم) في الجاهلية يريد الحجّ ، فنزل على المغيرة بن عبدالله المخزومي ، فأراد المغيرة أن يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية ، امتنع عليه (ظويلم) وقال :

يا رب هل عندك من غفيره إنّ مني مانعـه المغيره
ومانـع بعد مني ثبيره ومانعي ربّي أن أزوره

وذلك سُمّي (الحرم) . وظويلم الذي منع (عمرو بن صرمة) الإتاوة التي كان يأخذها من غطفان[5] .

---

١ المصدر نفسه (١٨٧) .

٢ أنشد ابن الاعرابي :

أبوادين الملوك ، فهم لقاح اذا هيجوا الى حرب ، أشاحوا

اللسان (٢/٥٨٣) ، (لقح) .

٣ تاج العروس (١٠/٧) ، (أتو) .

٤ الحيوان (١/٣٢٧) ، (هارون) .

٥ الاشتقاق (١٧١ وما بعدها) .

ويعبر في عربية القرآن الكريم عن الشيء الذي يخرجه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم بـ (الخرج) وبـ (الخراج) ، فهو إتاوة تؤخذ من أموال الناس[١] . و (الخرج) كما يقول علماء اللغة أعم من الخراج ، وجعل الخرج بإزاء الدخل . والخراج مختص في الغالب بالضريبة على الأرض . وقيل : العبد يؤدي خرجه ، أي غلّته ، والرعية تؤدي الى الأمير الخراج[٢] . وقد خصصت لفظة (الخراج) في الاسلام بما وضع على رقاب الأرض ، وخصصت الجزية بما يدفع عن الرأس. و (الخرج) بما يدفعه الرقيق الى سيده وماله عن خراجه[٣] . وقيل : هو الأجرة، وان الخرج من الرقاب ، والخراج من الأرض. وأرض الخراج تتميز عن أرض العشر في الملك والحكم[٤] .

ويقابل (الخراج) بالمصطلح الاسلامي لفظة Phoros في اليونانيـــة ، فهي ضريبة الأرض عند اليونان[٥] . وقد كان البيزنطيون قد فرضوا (الخراج) على غلة الأرض يدفعها كل من خضع لهم . وكان يدفعها عرب الشأم لهم أيضاً ، لأنهم كانوا في حكمهم . وأما عرب العراق ، فقد دفعوا (الخراج) الى الفرس[٦] .

ويقال للخراج (خرجا) في لغة بني إرم ، ووردت في (التلمود) بلفظ: (خرجه) و (خرجا) . وهي عند الساسانين خراج الأرض ، أي الضريبة الخاصة بحاصل الأرض . ولكن الفرس القدماء لم يكونوا في القـــديم يفرقون بين الخراج والجزية ، أي ضريبة الرأس ، بل كانوا يطلقونها على الضريبتين . وقد وردت لفظة (خرجا) في التلمود بمعنى ضريبة الرأس[٧] .

وأطلق (التلمود) على ضريبة الارض اسم (طسقه) (طسقـــا) Taska

---

١ اللسان (٢/٢٥١) ، القاموس للفيروزابادى (١/١٨٤) ، تابع العروس (٢/٢٨)، (خرج) .
٢ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ١٤٥) .
٣ اللسان (٢/٢٥١) ، القاموس (١/١٨٤) ، الطبرسي ، مجمـــع (٦/٤٩٢ ومـــا بعدها) ، تفسير الطبري (١٦/١٧) ، البيضاوي (٢٩٧) ، الكشاف (٢/٢٧١/ ٣٦٦ ، روح المعاني (١٦/٣٧) ، (١٨/٤٨) ، الاحكام السلطانية (ص ١٤٢ ، ١٤٦ وما بعدها) ، كتاب الخــراج ، لابي يوسف (ص ٣٩) ، النهايــة ، لابن الاثـــير (١/١٩٠) .
٤ الاحكام السلطانية (١٤٦ وما بعدها) .
٥ Hastings, p. 948.
٦ دائرة المعارف الاسلامية (٨/٢٨٠) ، (الخراج) .
٧ J. Obermyer, Die Landschaft Babylonien, S. 221.

(ط س ق) . وهي بهذا المعنى عند الفرس[1] . وقد أخذ العبرانيون اللفظة من الفرس . وقد كتب (عمر) الى (عثمان بن حنيف) في رجلين من أهل الذمة أسلما : (إرفع الجزية عن رؤوسهما ، وخذ الطسق من أرضيهما) . وعرف علماء العربية (الطسق) بأنه شبه الخراج ، له مقدار معلوم ، وما يوضع من الوظيفة على الجريان من الخراج المقرر على الارض . وقد ذكروا أن اللفظة فارسية معربة[2] .

وقد وردت لفظة (الخرج) و (الخراج) في القرآن الكريم[3] ، مما يدل على ان اللفظتين كانتا معروفتين عند أهل الحجاز قبل نزول الوحي على الرسول ، وانهما كانتا من الألفاظ المستعملة عندهم في الأمور المالية المتعلقة بدفع الضرائب الى الحكومات والى ذوي السلطان . ويرى بعض المستشرقين ان الجاهليين أخذوا اللفظة من (بني إرم) ، وانهم وقفوا على (خرجه) ، (خرج) و (خرجا) ، وحولوهما الى (خرج) و (خراج) .

ولما فتح المسلمون العراق والشأم ، أبقوا النظم المالية والادارية على ما كانت عليه في أول الأمر ، لأنها نظم قديمة ، لم يكن من السهل تغييرها وتبديلها ، فكان (الخراج) في جملة ما أبقي من النظم المالية . وقد دفع عيناً أي غلة ، فكان محتسب الخراج ، يذهب الى القرى عند دنو أجل دفع الخراج ، فيأخذه من المزارعين عيناً ، كأن يدفع بُرّاً أو شعيراً ، أو مالاً ، أي نقداً بالدنانير أو الدراهم . ثم غلب الدفع نقداً على الدفع عيناً ، وصار هذا النقد مورداً مهماً من موارد بيت المال[4] .

والجزية من الألفاظ المستعملة عند الجاهليين كذلك ، بدليل ورودها في القرآن الكريم[5] . وقد خصصت في الاسلام بما يؤخذ من أهل الذمة على رقابهم[6] .

---

١ J. Obermyer, Die Landschaft, S. 221-222, Baba M. 73b.

٢ اللسان (ط/س/ق) ، (١٠/٢٢٥) ، غرائب اللغة (٢٣٨) .

٣ سورة المؤمنون ، الاية ٧٢ ، سورة الكهف ، آية ٩٣ ، كتاب الخراج ، لابي يوسف (٣٩)

٤ دائرة المعارف الاسلامية (٨/ ٢٨٠) .

٥ التوبة ، الاية ٢٨ وما بعدها .

٦ المفردات للاصفهاني (ص ٩١) ، اللسان (١٤/١٤٦ وما بعدها) ، القاموس (٤/٣١٢) (دار المأمون) ، تاج العروس (١٠/٧٣) ، دائرة المعارف الاسلامية (٦/٤٥٤) ، الكشاف (٢/٣٥) ، الطبري (١٠/٢١) ، روح المعاني (١٠/٧٠) ، تفسير البيضاوي (١٩٣ ، ٢٩٧ ، ٣٣٧) .

وقد كان الجاهليون يأخذون الجزية من المغلوبين ، وكانت عندهم الضريبة التي تؤخذ عن رؤوس المغلوبين ، يدفعونها الى الغالب . فدفعتها القبائل المغلوبة للقبائل الغالبة ، على أساس الرؤوس .

والظاهر أن المسلمين في صدر الاسلام لم يكونوا يفرقون بين الخراج والجزية، فقد استعملوا الخراج عن الرؤوس وعن الأرض ، كما استعملوا لفظة (الجزية) بمعنى خراج الأرض[1] ، ورد في الحديث : « من أخذ أرضاً بجزيتها »[2] .

وأشار الطبري الى أن (المثنى)،وضع على أهل الحيرة بعد كفرهم وارتدادهم (أربعمائة ألف سوى الحـَرَزة)[3] . ويذكر علماء اللغة أن (الحرزة) خيار المال لأن صاحبها يحرزها ويصونها . والحرائز من الإبل التي لا تباع نفاسة بها[4] . وجعلها بعضهم (الحرزة) . وقالوا انها نوع من جزية الرؤوس ، كانت معروفة في زمن الأكاسرة ، يؤديها كل من لم يدخل في جند الحكومة[5] .

و (المكس) ، دراهم تؤخذ من بائع السلع في أسواق الجاهلية . ويقال لجابي المكس : صاحب المكس ، والماكس والمكّاس[6] . والمكس الجباية . و(الماكس) الذي يتولى المكس . قال العبدي في الجارود :

أيا ابن المعلّى خلتنا أم حسبتنا صراريَّ نعطي الماكسين مكوسا[7]

وكان (الماكس) ، ويقال له العشّار ، يشتط في كثير من الأحيان ، ويظلم الناس في الجباية ، إذ يزيد عليهم في المقدار ، فكانوا لذلك مكروهين ، حتى لقد ورد في الحديث : « لا يدخل صاحب مكس الجنة »[8] .

وقد أشير الى المكس والى الإتاوة التي تؤخذ من أسواق العراق في شعر (جابر ابن حُنيّ) :

---

١ (والجزية : خراج الاض) اللسان (١٤٦/١٤ وما بعدها) (جزى) ، دائرة المعارف الاسلامية (٢٨٠/٨) ، تاج العروس (٧٣/١٠) ، (جزىء) ، النهاية (١٩٠/١) .
٢ اللسان (١٤٦/١٤) ، النهاية (١٩٠/١) تاج العروس (٧٣/١٠) ، (جزى) .
٣ الطبري (٣٦٤/٣) .
٤ تاج العروس (٢٤/٤) ، (حرز) .
٥ الطبري (٣٦٤/٣) ، ملحوظة (٦) ، الوثائق السياسية (٤٢٢) .
٦ تاج العروس (٢٤٩/٤) ، (مكس) ، الصاحبي (ص ٩٠) ، المخصص (٢٥٣/١٢) .
٧ الحيوان (٣٢٧/١) ، (هارون) .
٨ اللسان (٢٢٠/٦) ، (مكس) ، الصحاح (٤٧٧/١) .

أفي كلّ أسواق العِراق إتـاوة   وفي كلّ ما باع امرؤٌ مكسُ درهم[1]

فإن ملوك العرب كانت تأخذ من التجار في البرّ والبحر ، وفي أسواقهم ، المكس ، وكانوا يظلمونهم في ذلك . ولذلك قال جابر بن حنيّ ، وهو يشكو ذاك في الجاهلية ويتوعد ، وهو قوله :

ألا تستحي منّـا ملـوك وتتقي محارمنا   لا يبـوو الدم بالـدم
وفي كـل أسواق العِراق إتاوة   وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[2]

ولهذا زعم الأعراب أن الله لم يدع ماكساً إلاّ أنزل به بليّة ، وأنـه مسخ منهم اثنين ضبعاً وذئباً . فلهذه القرابة تسافدا وتناجلا ، وإن اختلفا في سوى ذلك. فمن ولدهما السمع والعِسبار . وفي هذا المعنى قول الشاعر :

مَسَخَ الماكسين ضبعاً وذئباً   فلهذا تناجـلا أم عمرو

وضريبة (العشر) هي ضريبة معروفة بين الجاهليين ، فقد كانت الحكومات تتقاضى عشر ما يحصل عليه التاجر من ربح في البيـع والشراء ، وكان المتولون أمور الأسواق يتقاضون العُشر كذلك . وقد أشير اليها في كتابة قتبانيـة ، حيث كانت حكومة قتبان تتقاضى هذه الضريبة من المتعاملين في البيع والشراء،اذ كانت تأخذ عشر الأموال[3] ، وتوسعت في ذلك حتى عمت هذه الضريبة على كل ربح أو وارد يصيبه الرجل سواء أكان ذلك من البيع والشراء أم من الإجازة والإرث[4].

وقد كانت هذه الضريبة مقررة في كل جزيرة العرب وفي خارجها، ففي كل سوق من الأسواق عشارون يجبون العشر ممن يبيع ويشتري،بأمر المشرف على السوق ومن في أرضه تقام ، ويقدم ما يجمع اليه . ومن أخذ العشر من التاجـر ، قيل

---

١ الحيوان (٣٢٧/١) ، (هارون) .
وفي كل أسواق العـراق اتامة   وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
الحيوان (١٤٨/٦) ، (هارون) .
٢ الحيوان (١٤٨/٦ وما بعدها) ، (هارون) .
٣ Glaser 1601, Rhodokanakis, Kat. Texte, I, S. 7.
٤ Glaser 1601, Rhodokanakis, Kat. Texte, I, S. 7.

لجابيه : العشار والمعاشر ، وهو الذي يعشر الناس[١] .

وقد كان التجار العرب الذين يقصدون بلاد الشأم للاتجار في أسواقها يدفعون العشر الى العشارين ، ففي (بُصْرى) وغزّة ، وهما أشهر الأسواق في تلك البلاد بالنسبة الى العرب ، كان تجار العرب يؤدون ضريبة العشر الى الجباة الذين عيّنهم الروم ، كذلك كان يعشر أصحاب الأسواق من يفد عليها من التجار .

ويؤخذ العشر عيناً أو نقداً بحسب الثمن . ولما كان النقد قليلاً إذ ذاك كان الدفع عيناً هو الغالب في أداء هذه الضريبة . وقد أبطل الاسلام هذه الضريبة ، وعدّها من سيماء أهل الجاهلية ، وجعل رفعها من التخفيف الذي جاء به دين الله . وقد ذكر المحدثون أحاديث في إبطالها وفي ذم من يعشر الناس . بل ورد في بعضها جواز قتل العشّار[٢] . ويظهر ان أهل الجاهلية كانوا يشتطون في أخذها ويسرفون في ظلم التجار وأصحاب السوق في أخذها ، فذمّوا العشار وهجوه . ودعوا عليه . وقد ذكر بعض أهل الأخبار ان (سهيلاً) كان عشاراً على طريق اليمن ظلوماً ، فسخه الله كوكباً[٣] .

وكان مما يفعله العشّارون وضع (المآصر) على مفترقات وملتقيات الطرق وعلى المواضع المهمة من الأنهار ليؤصروا السابلة وأصحاب السفن ، ولتؤخذ منهم العشور[٤] .

وقد عرف من كان يقوم بالتقدير والخرص بـ (الحازر) و (الخارص). لأنه كان يحزر المال ويقدر ما يجب أخذه منه ومن غلة الزرع بالحدس والتقدير . وكان الحاذر يشتد في أخذ الحزرة ويتعسف على الناس . وقد نهى النبي عن ذلك والحاذر مثل العشار والخارص من المكروهين عند الجاهليين[٥] . و (الخارص) المقدر والمخمّن ، ومنه خرص النخل والتمر ، لأن الخرص ، إنما هو تقدير بظن لا احاطة . وما يدفع عن الأرض والنخل الخرص . يقال: كم خرص أرضك ،

---

١ تاج العروس (٣/ ٤٠٠) ، اللسان (٥٦٧/٤) ، النهاية (٣/ ١١٠) ، القاموس (٨٩/٢) .

٢ تاج العروس (٣/ ٤٠٠) ، (عشر) ، اللسان (٥٦٧/٤) ، (عشر) ، النهاية (٣/ ١١٠) ، القاموس (٨٩/٢) .

٣ تاج العروس (٣٨٤/٧) ، (سهل) .

٤ اللسان (٤/ ٢٤) ، (أصر) .

٥ تاج العروس (١٣٨/٣) ، (حزر) .

وكم خرص نخلك ، وفاعل ذلك الخارص . وكان النبي يبعث الخرّاص لخرص نخيل خيبر عند ادراك ثمرها ، فيحزرونه رطباً كذا وتمراً كذا[1] .

وكان أهل الحجاز وبقية جزيرة العرب ، يدفعون العشر عن غلات أرضهم . فلما جاء الاسلام ، أقر ذلك ، وجعل أرض العرب أرض عشر . ولم يدخلها الخلفاء في أرض الخراج[2] .

ويعبر عن الضريبة التي تقابل ضريبة (الكمارك) في مصطلحنا، بلفظة Telos، وبـ Telonion عن (الكمرك) ، أي الموضع الذي تؤخذ به الضرائب(الكمركية) من التجار[3] . وكان الرومان واليونان قد أقاموا (كمارك) على حدودهم مع البلاد العربية وضعوا فيها جباة لجباية العرب القادمين من جزيرة العرب للاتجار .

ولما كان من الصعب على الروم جباية العشور والحقوق الأخرى من العرب ، وكلوا أمر الجباية الى سادات القبائل والأمراء في الغالب ، ممن يعتمدون عليهم وممن لهم قبيلة قوية تخشاها القبائل الأخرى ، وقد كان أمد هذا الايكال يتوقف على أهمية الشخص ومكانته ومنزلة قبيلته ، فإذا مات وترك خلفاً ضعيفاً، أو فقدت قبيلته سلطانها ، حتى طمعت فيها قبائل أخرى أقوى منها ، ووجدوا ألا أمل لهم في هذا الشخص ، فإنهم ينبذونه ويعطون الجباية الى شخص آخر . وقد كان (سلامة بن روح بن زنباع الجذامي) ، أحد من أولى اليهم الروم العشور ، وقد هجاه (حسان بن ثابت) فوصفه بأنه (دمية) في لوح باب ، وانه بئس الخفير ، وانه غادر خدّاع ، ولا ينفك أي جذامي يغدر ويخدع ما دام (ابن روح) حياً[4].

وقد أقر العشر في الاسلام ، ولكن بأسلوب آخر ، فأخذ من (خثعم) ، كما أخذ من أهل (دومة الجندل) . وأخذ أيضاً من حمير ، فقد جاء في كتاب الرسول الى رؤسائهم الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان : (وأعطيتم من المغانم خمس الله ، وسهم الرسول وصفيه ، وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار ، عشر ما سقت العين

---

١ تاج العروس (٤/ ٣٨٥) ، (خرص) .
٢ الخراج (٥٨) ، النهاية (١/ ١٩٠) .
٣ Hastings, p. 948.
٤ البرقوقي (ص ٢١٩) .

وسقت السماء ، وعلى ما سقى الغرب[1] نصف العشر . وإن في الإبل الأربعين ابنة لبون ، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر ، وفي كل خمس من الإبل شاة ، وفي كل عشر من الإبل شاتان ...)[2] . وعقد مثل ذلك مع بني الحارث بن كعب[3].

والكلام على العشر في الاسلام ، وعلى الأرضين التي كانت تدفع العشر ، يخرجنا من بحثنا هذا ، وللفقهاء كلام طويل مسهب في هذا الموضوع ، فعلى كتب الخراج مثل كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف وكتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي ، وكتب الفقه والأحكام أحيل القارىء الراغب في الوقوف على العشر في الاسلام .

والعشر من الضرائب القديمة المعروفة عند الشعوب القديمة من ساميين وغيرهم، وتكاد تكون من أقدم الضرائب المعروفة في التأريخ،وهي (اشرو) Ish-ru-u في النصوص الآشورية[4] و (معشر) Ma'asher في العبرانيـة[5] . وقد كان الآشوريون يتقاضون العشر من التمر والحبوب عيناً ، كما كانوا يتقاضونه ذهباً[6].

وقد كانت معظم الشعوب الهندوجرمانية والسامية وغيرها تعشر أموالها : تعشر الماشية ، والأثمار ، وكل ما تملكه وما تغنمه في الحرب ، وتخصصه باسم آلهتها. فالعشر زكاة قديمة أدتها الشعوب الى آلهتها تقرباً اليها وتطهيراً لأموالها ، فهي من أقدم الضرائب عند الانسان[7] .

وقد خصص العشر بـ (يهوه) إله اسرائيل وحده ، يجمعها اللاويون باسمه ، ولكننا نجد أن العبرانيين دفعوا العشر في بعض الأحيان الى الملوك كذلك[8] .

ويمكن رد الأسباب التي دعت العبرانيين الى تخصيص العشر بالله (يهوه) الى اعتقاد العبرانيين أن الله هو مالك كل شيء ، وأن الأرض والعالم كله له ، وأنه

---

١ الغرب : الدلو .
٢ ابن هشام (٢٣٦/٤) : (قدوم رسول ملوك حمير بكتابهم) .
٣ ابن هشام (٢٤٠/٤) : (اسلام بني الحارث بن كعب على يدي خالد بن الوليد لما سار اليهم) .
٤ Shrader, Keilinschrift Bibliotheck, IV, 192, 205.
٥ Shrader, Keilinschrift Bibliotheck, IV, 102, 205.
٦ التكوين : الاصحاح الرابع عشر ، الاية ٢٠ ، الاصحاح ٢٨ اذية ٢٢ .
٧ Hastings, p. 940.
٨ قاموس الكتاب المقدس (١٠٣/٢) ، Hastings, p. 940.

مانح الخصب والحياة ، وأنه الكائن الأعلى ، ولهذا خصصوا عشر ما ينتجه العبراني لله ، ثم لسبب آخر نشأ فيا بعد ، هو تقرب العبرانيين إلى إلههم بهذا العشر ، عبادة له وتقرباً اليه . وذلك كما يفهم من الآيات الواردة عن العشر في التوراة [1].

وتدفع القبائل الضعيفة إتاوة الى القبائل الكبيرة أو الى الملوك ، تكون بمثابة حق الحماية والاعتراف بالسيادة . ولهذا كانت القبائل التي لا تدفع إتاوة تتباهى وتفتخر لأن ذلك يدل على عزتها ومنعتها ويقال : إن الأوس والخزرج ابني قيلة ، لم يؤديا إتاوة قسط في الجاهلية الى أحد من الملوك . فلما كتب اليهم تبع يدعوهم الى طاعته ويتوعدهم ،لم يجيبوه ، وتحارب معهم ، ثم ارتحل عنهم [2] . وكانت للغطاريف على دوس إتاوة يأخذونها كل سنة ، حتى إن الرجل منهم كان يأتي بيت الدوسي ، فيضع سهمه أو نعله على الباب ثم يدخل [3] .

ويقال للقوم الذين قهروا على أمرهم ، واضطروا إلى أداء ضريبة لمن قهرهم ، (النخة) ، وصاروا (نخة) له [4] .

ولا بد لي من الإشارة هنا الى جباية كانت الحكومات تأخذها عيناً عن الحبوب والزراعة ، للإنفاق منها على إعاشة الجيش . وقد عرفت بـ (س ا و ل ت) ، (ساولت) . ذكرت في النصوص السبئية والقتبانية . فهي ضريبة عينية تؤخذ من الزراعة ، يجبيها موظفون يعرفون بـ (ساولت) [5] ، فهم جبّاع هذه الضريبة.

وكان ملوك الجاهلية قد وضعوا (الوضائع) على رعيتهم ، من الزكوات والمغنم في الحروب ، يستأثرون به . وقد أشير اليها في الحديث . ورد في حديث (طهفة بن زهير النهدي) ، أن الرسول قال : « لكم يا بني نهد ودائع الشرك ووضائع الملك . أي ما وضع عليهم في ملكهم من الزكوات . أي لكم الوظائف التي نوظفها على المسلمين لا نزيد عليكم فيهـا شيئاً . وقيل معناه : ما كان من ملوك الجاهلية يوظفون على رعيتهم ويستأثرون به في الحروب وغيرهـا من المغنم . أي

---

١ Hastings, p. 940.

٢ العقد الفريد (٢/١٩٢ وما بعدها) .

٣ الاغاني (١٢/٥٣) .

٤ اللسان (ن/خ/خ) ، (٣/٦٠) .

٥ Handbuch, I. S. 128.

لا نأخذ منكم ما كان ملوككم وظفوه[؟] عليكم ، بل هو لكم)[1] .

والوضائع : أثقال القوم . وأما الوضائع الذين وضعهم كسرى ، فهم شبه الرهائن ، كان يرتهنهم وينزلهم بعض بلاده . وقيل : الوضائع قوم كان كسرى ينقلهم من أرضهم فيسكنهم أرضاً أخرى ، حتى يصيروا بها وضيعة أبداً . وهم الشحن والمسالح[2] .

والودائع : العهود والمواثيق . ويحتمل أن تكون كل ما يستودع من رهائن ، من مال وبنين ، ليكون رهينة على الوفاء بالعهد والموعد[3] .

وذكر (الجاحظ) ان في جملة ما ترك من ألفاظ الجاهلية التي لها صلة بالجباية والمال (الحُملان) ، ويراد بها الرشوة وما يؤخذ للسلطان[4] . والحُملان ما يحمل على الشيء من أجر ، و (الحمالة) الدية أو الغرامة التي يحملها قوم عن قوم[5] .

ويظهر من شعر العبدي :

أيا ابن المعلّى خلتنا أم حسبتنا صراريّ نعطي الماكسين مُكوسا

ان أصحاب السفن وهم (الصراريون) ، كانوا يعطون المكس عن البضائع التي تحملها سفنهم ، حين وصولها الى الموانئ[6] .

الأشناق والأوقاص :

ودفع الجاهليون ضرائب أخرى ، منها : (الأشناق) و (الأوقاص) . وقد خص بعض العلماء (الأشناق) بالإبل : فإذا كانت من البقر ، فهي (الأوقاص)[7]. وقد تحدث العلماء عن حدود الأشناق والأوقاص في الاسلام . وفي كتب الفقه أبواب خاصة بهما .

---

١ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، (وضع) ، (ومنه كتاب النبي ، صلى الله عليه وسلم : لكم يابني نهد ودائع الشرك ووضائع المال) ، تاج العروس (٥/٥٣٥) ، (ودع) .

٢ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، (وضع) .

٣ تاج العروس (٥/٥٣٥) ، (ودع) .

٤ الحيوان (١/٣٢٧) ، (هارون) .

٥ تاج العروس (٧/٢٨٩ وما بعدها) ، (حمل) .

٦ الحيوان (١/٣٢٧) ، (هارون) ، تاج العروس (٣/٣٣٠ وما بعدها) ، (صرر) .

٧ تاج العروس (٤/٤٤٦) ، (وقص) ، (٦/٤٠٠ وما بعدها) ، (شنق) .

وكان منهم من تحايل في سبيل التخلص من أداء ما عليه من الأشناق والأوقاص. وقد كتب الرسول الى (وائل بن حجر) : لا خلاط ، ولا وراط ،ولا شناق ولا شغار . وعيّن الرسول الحدود فيها . والوراط : الخديعة والغش[1] .

وليس في استطاعتنا تعيين الضرائب المجباة ، وتحديدها تحديداً مضبوطاً ، فقد كانت تختلف باختلاف الأمكنـة والأزمنة . ثم إن العادة أن تؤخذ الضريبة من القبيلة او العشيرة مجتمعة ، أي ان رئيس القبيلة او العشيرة هو الذي يتولى تقديم ما على القبيلة من ضرائب الى الحكومة ، ويختلف ذلك أيضاً بحسب صلة الرئيس بالحكومة ، وبحسب قوته ومركزه السياسي لدى المسؤولين . والرئيس هو الـذي يعين نصيب أفراد القبيلة من الضرائب ، وذلك بعد اتفاقه مع الحكومة عـلى ما هو مفروض على القبيلة دفعه لها ، وبعد موافقة مجلس القبيلة على ما فرض على القبيلة دفعه الى الحكومة .

هـذه هي الضرائب التي كانت تدفع عن التعامل والإتجار . وهناك ضرائب أخرى أوجب دفعها الى سادات القبائل في مقابل حماية القوافل وضمان مرور التجارة في أرضهم بأمان وسلام ، وهي ضرائب حق المرور . وإلا تعرضت التجارة للنهب والسلب ، وتعرض أصحاب القافلة للخطر والهلاك . ولحماية التجارة يتفق التجار عادة مع سادات القبائل التي تمر القوافل في أرضهم على دفع جعالة في مقابل تقديم الحماية لها والمحافظة على سلامتها ، وبذلك تمر بأمن وسلام .

وفي (قتبان) نجد نفوذ المعبد على الأهلين كبيراً . وللمعبد أرضون واسعـة تدرّ عليه دخلاً كبيراً ، وله ضرائب تبلغ عشر الدخل والمـيراث والمشتريات . بالإضافـة الى النذور والعطايا التي يتبرع بها الأغنياء له . وقد حفظت النصوص القتبانية وثائق عـديدة تتعلق بما كان يتقاضاه المعبد من الناس من زكاة وأموال تزكيةً لأعمالهم ولأنفسهم ، باسم الآلهة التي لها سلطان كبير على الناس .

ولما كانت النقود قليلة إذ ذاك ، كان دفع الضرائب عيناً في الغالب . ويعبر عن ذلك بـ (دعتم) . أما إذا كان الدفع نقداً ، فيعبر عن ذلك بـ (ورقم) . أي (ورق) .

---

[1] تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) ، (٥/٢٣٧) ، (ورط) .

وقد كانت الحكومة تضع يدها على المحصول أحياناً او على البضاعة المهربة أو البضاعة التي يمتنع أصحابها عن دفع الضريبة عنها ويعبر عن ذلك بـ (رزم) .

تقدير الغلات الزراعية :

وكان تقدير حصة الحكومة من الغلّات الزراعية ، بواسطة خبراء الحكومة وموظفيها المسؤولين عن جمع الضرائب ، وذلك لأنهم كانوا يذهبون الى المزارع والبساتين إبان إدراك النبات وقبل حصاده أو جنْيه ، ثم يخمّنونه ويقدرون مقدار ما يجب دفعه للحكومة . وطالما أدت هذه الطريقة الى الاضرار بالفلاح ، إذ يجوز أن يتعرض الزرع لآفات زراعية وللتلف والضرر ، فيقل الحاصل كثيراً ، ولا يستطيع تحمل دفع ما قدر عليه ، ولكن جباة الضرائب يأخذون حصة الحكومة منه كما قدروها دون نقص ، فإذا امتنع المكلّف ، أخذ حاصله حتى يستوفى منه ما قدروه عليه .

ولم يكن من حق الفلاح حصاد زرعه وحمله الى مخزنه أو جني ثمر زرعه ونقله الى الأسواق والتصرف به ما لم يره جباة الضرائب لأخذ حصة الحكومة العينية . وقد استتبع هذا النظام تعيين عدد كبير من جباة الضرائب ، وانشاء مخازن لنقل حصص الحكومة اليها . وتستهلك الحكومة جزءاً من هذا الحاصل ، وتدفع قسماً منه الى موظفيها فالمدفوع لهم ، هو مرتباتهم وأجر عملهم . أما الباقي فيباع في الأسواق ، أو يُصدَّر لبيعه في البلدان الخارجية ، ولا سيما الحاصل المهم الثمين.

ويتقاضى المعبد في (معين) جملة ضرائب من الرؤساء وسائر الناس . لكل ضريبة اسم ، مثل (كبودث) و (اكرب) و (عشر) و (فرع) . وبعض هذه الضرائب تجبى عن حاصل الأرض وغلتها ، وبعضها عن التجارة والأعمال الأخرى مثل الصناعات . ولم يشترط دفعها كلها عيناً أو نقداً ، بل كانت تدفع عملاً أحياناً ، أي أن المكلفين بدفع الضرائب وجمعها من أتباعهم يقدمون الفعلة والصناع وعمال البناء أحياناً الى الحكومة ، او الى المعبد ، للقيام بالأشغال العامة بالمجان بدلاً من تقديم الضرائب نقداً أو عيناً . وذلك متى وافق المعبد على ذلك واعتبر الآلهة راضية عن انشاء ذلك العمل[1] .

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, 58, f.

وكانت الحكومات العربية الجنوبية تتقاضى ضرائب عن المغازل ودور النسيج. ويظهر ان أهل الحجاز كانوا يعرفون هذه الضريبة أيضاً. وقد ورد ان الرسول فرض في كتاب لقوم من اليهود ربع المغزل، أي ربع ما غزل[1].

الركاز:

أغلب العلماء في الاسلام ان الركاز دفين اهل الجاهلية، أي الكنز الجاهلي. وقال بعض الفقهاء الركاز المعادن كلها. فمن استخرج منها شيئاً فلمستخرجها أربعة أخماسه ولبيت المال الخمس. وكذلك المال العادي يوجد مدفوناً، هو مثل المعدن سواء، فحكم الركاز تأدية خمسه لبيت المال[2]. أما بالنسبة الى الجاهليين، فلا توجد عندنا نصوص جاهلية في بيان نصيب الحكومات منه. ويظهر من مطالبة سادات أهل مكة (عبد المطلب) بنصيبهم من الكنز الذي عثر عليه عند حفره بئر زمزم، ان حجتهم في المطالبة لم تكن تستند على قانون سابق، بل ارتكزت على ان الكنز لم يعثر عليه في أرض ملك، رقبتها لعبد المطلب، حتى يستأثر به، وانما عثر عليه في أرض مقدسة مشاعة، تخص البيت الحرام واهل مكة كلهم، لذلك وجب إشراك غيره به ومعنى هذا ان من يعثر على كنز في ملك له، يكون من حقه ونصيبه، لا تشاركه قريش فيه. وقد وجد (عبدالله بن جدعان) كنزاً، سبق ان أشرت اليه، فلم يعط سادة قريش منه شيئاً، وكان من عادة اهل مكة نبش المواضع العادية بحثاً عن الكنوز، ولم نجد في الأخبار المروية عن ذلك ما يفيد بمشاطرة قريش لمن يعثر على كنز، بمعنى ان من يستخرج شيئاً من الدفائن يكون ما يستخرجه من نصيبه، لا تأخذ مكة منه نصيباً. وكيف تتمكن من ذلك، لأن من يعثر على كنز لا يظهره للناس، خشية اغتصابهم له. وان من شاهد أحداً يستخرج كنزاً استعمل حق القوة في الاستحواذ عليه أو على نصيب منه.

---

١ تاج العروس (٤٢/٨)، (غزل).
٢ تاج العروس (٣٩/٤)، (ركز)، صحيح البخاري (١٥٩/٢ وما بعدها)، (باب الركاز)، شرح اللمعة الدمشقية، للشهيد العاملي (١٥/١ وما بعدها).
اللسان (صرق)، (١٩٦/١٠ وما بعدها).

النذور والصدقات :

وما تحدثت عنه هو الضرائب المفروضة التي يجب على من تشمله دفعها . أما النذور والصدقات ، فهي هبة يقدمها المتمكن طوعاً للتقرب الى آلهته أو شعوراً بمسؤولية أدبية يقتضيه واجب المروءة تجاه الضعفاء . والصدقة : ما تصدقت به على الفقراء وقد أشير اليها في القرآن الكريم . وقد تؤدي معنى (الزكاة).ووردت في معنى (المهر) أيضاً اي الصداق الذي يقدم الى المرأة[1] . ويظهر أن الجاهليين كانوا يستعملونها في معنى التصدق على المحتاج والسائل .

وأما الزكاة ، فهي ما يخرج من المال لتطهيره ، فهي تزكية اختيارية للمال وطهارة له . وقد جعلها الاسلام فريضة على المسلم المتمكن بحسب الأنصبة المقررة في الشرع . وهي (زكوتو) Zakutu عند البابليين . وقد نص عليها في العهد القديم[2] . وهي أن يقدم أصحاب الزرع من أول ثمرهم الى الكاهن ليقدمه الى الرب ، وأن يسمح للفقراء بالتقاط ما يجدونه على الأرض مهملاً من بقايا الزرع، وأن يعطى الكهنة واليتامى والفقراء والغرباء والأرامل والمحتاجين عشر محاصيل الأرض . وقد كثرت الاشارة اليها في العهد الجديد[3] .

وإذا اعتددنا العشر الذي كان يقدمه العرب الجنوبيون الى المعبد من حاصل غلهم ، لصرفه على المعبد وفي الأعمال الخيرية زكاة ، ففي استطاعتنا أن نقول إنها كانت مفروضة على المتمكن فرضاً ، أي على نحو ما نجده في الاسلام . غير ان من الجاهليين من كان يقدم زكاة المال من ماشية وإبل وزرع طوعاً واختياراً تقرباً الى الآلهة، يقدمها الى المعابد تخصيصاً باسم الأصنام . ومن هذا القبيل السائبة والحامي الوصيلة ونحو ذلك ، مما خصصه الجاهليون لآلهتهم تطوعاً ، وذلك تزكية لأموالهم وأملاً في نماء أموالهم الجديدة وحدوث البركة فيها .

السخرة :

وكان من حق الدولة وسادات الأرض والقبائل تسخير الناس في الأعمال التي

---

١ اللسان (صدق) ، (١٩٦/١٠ وما بعدها) .
٢ Reallexikon der Assyriologie, I, Band, I. Lieferung, S. 7.
٣ قاموس الكتاب المقدس (٣/٢) .

يريدون القيام بها بلا عوض ولا أجر ولا دفع مقابل عن العمل الـذي يؤمرون القيام به . ونظام السخرة شائع معروف عند جميع الأمم . وقد كان معمولاً به عند بعض الشعوب الى عهد قريب. فكان من حق الحكومة إكراه أتباعها وأخذهم بالقوة وسوقهم للقيام بأداء اي عمل تريده . وفي ضمن ذلك المباني العامة والقصور. وبها تم انشاء معظم المباني الضخمة مثل الأهرام والمعابد ، حيث لا يكلف العمل بهذه الطريقة الحكومة كثيراً ، فالعمال مسخرون لا يدفع لهم شيء ، وعليهم أداء عملهم بسرعة وحمل أكثر ما يمكن حمله ، وإلا انهالت عليهم سياط المراقبين .

ويدخل في هذه السخرة ، السخرة العسكرية ، أي القبض عـلى أي شخص عند الحاجة وسوقه الى القتال ، وذلك من غير مقابل أيضاً . وقـد كابد سواد الناس منها عنتاً شديداً لفقرهم ولعدم وجود شيء عندهم تعتمد أسرهم عليه في معيشتها اذا غاب المعيل أو مات ، ولهـذا لم يحارب المحاربون إلا قسراً وخشية ورهبة ، وكانوا يهربون من هذه (السخرة) بالرغم مما قد يتعرض له الهارب من عقوبة شديدة قد تصل الى القتل .

واجبات الدولة :

واجبات الدولة كثيرة ، فإن عليها ان تحفظ الأمن في الداخل، وتحمي الحدود من مهاجمة الأعداء لها ، وتصد كل غزو يقع عليها ، وعليها ان تحقق العدالة، وتقتص من الجناة وتعاقب المجرمين ، وعليها أن تقيم الأبنية العامة وتفتح الطرق، الى غير ذلك من الواجبات التي نعرفها عن الغاية من نشوء الحكومات .

ونحن لا نستطيع ان نتحدث في الزمن الحاضر عن جهاز حفظ الأمن الداخلي، اي جهاز (الشرطة) الذي تناط به مهمة القبض على المجرمين وتعقب اللصوص والقتلة وما الى ذلك من شؤون لعدم ورود شيء عن هذا الموضوع في الكتابات .

ولكننا لا نستطيع نفي وجود علم للجاهليين الحضر بالشرطـة . فلا بد وان يكون لهم علم بأجهزة الأمن المخصصة بالقبض عـلى المجرمين وتعقب آثارهم ، أي الشرطة . وقد كان لهـم اتصال بالعراق وببـلاد الشأم . ويظهر من كتب اللغة ان لفظة (الشرطي) و (شرطة) كانت معروفة بين الناس عند ظهور الاسلام . (وفي حديث ابن مسعـود : وتشرط شرطـة للموت لا يرجعون إلا

غالبين . وهم أول طائفة من الجيش تشهد الوقعة ، وقيل : بل صاحب الشرطة في حرب بعينها)[1] .

وقد كان للملوك الحيرة سجون يسجنون بها من يتجاسر عليهم ومن يخالف أمرهم ويعارضهم ويخرج على العرف . ومن سجونهم (الصنّين) . وفيه سجن (عدي بن زيد العبادي) . وقد ذكر انه كان موضعاً بظاهر الكوفة[2] . وذكر بعضهم انه بلد ، ذكره الشاعر بقوله :

ليتَ شعري ! متى تَخبّ بي النا قة بين العُذَيْب فالصِنّين

ولم يعين موضعه[3] . ويظهر انه لم يكن بعيداً عن الحيرة . ولعله كان حصناً حصيناً منعزلاً عن الناس ، به حرس كثيرون يحرسونه ، لهذا اتخذ سجناً ومحبساً .

ويظهر من شعر لعدي بن زيد العبادي ، ان ملوك الحيرة ، كانوا قد نظموا لهم حرساً يحرسونهم ويحرسون مؤسسات الحكومة المهمة مثل (السجون)، والأشخاص المسؤولون عن الأمن والأخبار ، ليرسلوا ما قد يحدث من أمور الى الملوك والحكام .

وقد عرف (العسس) عند الجاهليين أيضاً ، وهم المسؤولون عن حفظ الناس من أهل الريبة والكشف عنهم . والعَس : نفض الليل عن أهل الريبة . وكان الخليفة (عمر) يعس بالمدينة ، أي يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة[4] .

البريد :

وقد عرف (البريد) بين الجاهليين . ويذكر علماء اللغة أن اللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، وأن أصلها (بريده دم) ، اي محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها ، ثم سُمي الرسول الذي يركبه

١ اللسان ٤/ ٣٣٠) ، (صادر) ، شرط) .
٢ الاغاني (٢/ ١١٥) .
٣ اللسان (صنن) ، (١٣/ ٢٥٠) .
٤ اللسان (٦/ ١٣٩) ، (عسس) ، تاج العروس (٤/ ١٩٠) ، (عس) .

بريداً ، والمسافة التي بين السكتين بريداً . والسكة موضع كان يسكنه (الفُيُوج) المرتبون من بيت أو قبة او رباط ، وكان يرتب في كل سكة بغال ، وبعد ما بين السكتين فرسخان ، وقيل أربعة [1] . فالبريد إذن بمعنى رسول،وموضع البريد، والشيء الـذي يرسل مع البريد ، أي الرسول حامل البريد ، ودابة البريـد . قال الشاعر :

إني أنصُّ العيس حتى كأنني   عليها بأجواز الفلاة ، بريـدا [2]

ومن أعمال صاحب البريد إرسال الأخبار الى من عينهم في هذا المنصب، فهم موظفون مخبرون ، من أعمالهم اطلاع كبار الموظفين والأمراء والملوك على الأحوال العامة للمكان الذي يقع في ضمن عملهم واختصاصهم ، وأخبار الجهات المسؤولة عن الأعمال المشبوهة التي قد تدبر ضد الدولة ، وعن تصرفات كبار الموظفين ، خشية انفرادهم في الحكم واعلانهم العصيان على الدولة .

ونسب (الجاحظ) الى (امرىء القيس) قوله :

ونادمت قيصر في ملكـه   فأوجهني وركبت البريـدا
إذا ما ازدحمنا عـلى سكة   سبقت الفرانق سبقاً بعيدا [3]

وقد نسب غيره الى (امرىء القيس) أيضاً قوله :

على كل مقصوص الذنابي معاودٍ   بريد السُّرى بالليل ، من خيل بربرا [4]

ومعنى هذا ، إن صح بالطبع أن الشعر المذكور هو لامرىء القيس حقـاً ، أنه عرف البريد واستعمله ، وقد رأى خيل البريـد . وهي تقص ذنابها ليكون ذلك علامة على أنها من خيل البريد .

وقد أشير الى البريد في الحديث : جاء « لا تقصر الصلاة في أقل من أربعة

١ اللسان (٨٦/٣ وما بعدها) ، (صادر) ، (برد)
٢ اللسان (٨٦/٣) ، (صادر) ، (برد)
٣ الشعر والشعراء (٦٧) ، ديوان امرىء القيس (٢٦٢) ، كتاب البغـال ، من رسائل الجاحظ (٢٧٥/٢ ، ٢٩١) .
٤ الكامل ، للمبرد (٢٨٦/١) ، اللسان (٨٦/٣) ، (صادر) (برد)

برد » ، وهي ستة عشر فرسخاً ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف ذراع . وورد في الحديث أيضاً « لا أخيس بالعهد ولا أحبس البُرد » ، اي لا احبس الرسل الواردين عليّ[1] . وورد إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم . وعرفت الطرق التي يسير بها رسل البريد بـ (سكك البريد). كل سكة منها اثني عشر ميلاً[2] .

وقد أشير الى البريد في شعر ينسب الى (ورقة بن نوفل) ، يقال انه قاله حينما مات (عثمان بن الحويرث) عند (ابن جفنة الغساني) ، فاتهمت بنو أسد (ابن جفنة) بقتله[3] . وعرف (أبو قيس) بـ (راكب البريد)[4] .

وتحدث (الجاحظ) عن (البريد) في أيام الساسانيين ، فقال : « وكانت البُرد منظومة الى كسرى،من أقصى بلاد اليمن الى بابه،أيام وهرز ،وأيام قتل مسروق عظيم الحبشة »[5] . (وكذلك كانت برد كسرى الى الحيرة : الى النعمان والى آبائه . وكذلك كانت برده الى البحرين : الى المكعبر مرزبان الزارة ، والى مشكاب ، والى المنذر بن ساوى ، وكذلك كانت برده الى عمان ، والى الجلندي بن المستكبر. فكانت بادية العرب وحاضرتها مغمورتين ببرده ، إلا ما كان من ناحية الشأم ؛ فإن تلك الناحية من مملكة خثعم وغسان الروم ، إلا أيام غلبت فارس على الروم، ولذلك صرنا نرى النواويس بالشامات الى القسطنطينية .

وهل كانت برد كسرى الى وهرز ، وباذام،وفيروز بن الديلمي والي اليمن، والى المكعبر مرزبان الزارة ، والى النعمان بالحيرة ، إلا البغال ؟ وهل وجدوا شيئاً لذلك أصلح منها)[6] .

فالبغال هي وسيلة نقل البريد في ذلك الوقت . تتوقف في محطات البريد لتبدل البغال التعبة ببغال أخرى ، وليبدل حملة البريد كذلك . وهكذا الى آخر محطة . فهي سكك تمتد مسافات طويلة.ولما كان من الصعب على البغل اختراق الصحارى

---

١ اللسان (٣/٨٦) ، (صادر) ، (برد) .
٢ اللسان (٣/٨٦) .
٣ ركب البريد مخاطرا عن نفسه ميت المظنة للبريد المقصد
نسب قريش (٢١٠) .
٤ نسب قريش (٢٦١)
٥ من رسائل الجاحظ ، كتاب البغال (٢/٢٩٠) .
٦ من رسائل الجاحظ ، كتاب البغال (٢/٢٩١ وما بعدها) .

ذات الرمال البعيدة الغور والتي تقل فيها المياه ، لزم أن تكون طريق البريد ممتدة في الأرضين التي يكثر وجود الماء فيها ، وتتوفر فيها الآبار ، وفي مواضع مأمونة قليلة الرمال .

ويظهر أن الجاهليين قد أخذوا نظم بريدهم من الفرس ، وأن ملوك الحيرة وغيرهم استخدموها في ادارتهم لدولتهم ، بدليل ما يذكره علماء اللغة من أن لفظة (البريد) كلمة فارسية عربت فصارت على هذا النحو . وأصلها (بريده دم)، أي محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها، فأعربت وخففت ، ثم سمّي الرسول الذي يركبه بريداً . والمسافة التي بين السكتين بريداً، والسكة موضع كان يسكنه الفيوج المرتبون من بيت أو قبة أو رباط ، وكان يرتب في كل سكة بغال ، وبعد ما بين السكتين فرسخان ، وقيل أربعة [1] ولعل ما ورد في شعر امرىء القيس من (على كل مقصوص الذنابيّ) ، إشارة الى تفسير كلمة (بريده دم) .

وقد ذكر علماء اللغة أن (الفيج) رسول السلطان على رجله ، فارسي معرب. وقيل هو الذي يسعى بالكتب . والجمع (فيوج) . وأشاروا الى ورودها في شعر لعدي بن زيد ، زعموا أنه قاله هو :

أم كيف جزتَ فيوجاً،حولهم حرسٌ ومريضاً ، بابــه بالشك صُرّار ؟

قيل : الفيوج الذين يدخلون السجن ويخرجون يحرسون [2] .

ويظهر أنهم فرّقوا هنا بين (البريد) ، أي الرسول الراكب ، الذي ينقل البريد الى مسافات ، وبين (الفيج) الرسول الذي يسير على رجليه ، وهو لا يمكن بالطبع أن يقطع أميالاً كثيرة . فهو بريد محلي ، ينقل الأخبار الى مسافات غير بعيدة . وقد يكون مخبراً ، ينقل ما يحدث ويقع بسرعة الى المراجع العالية . فالفيوج ، لصوص الأخبار وبريد ماشٍ ينقل الكتب الى الجهات المختصة في الوقت نفسه . ويظهر من شعر (عدي) المذكور ، أن (الفيوج) كانوا يقفون للناس بالمرصاد ، يراقبون الحركات ويدرسون السكنات حولهم حرس منتبه ،

١ اللسان (٣/٨٦) ، (برد) ، تاج العروس (٢/٢٩٨) .
٢ اللسان (٢/٣٥٠) ، (فيج) .

يحرسونهم من احتمال محاولة أعداء الحكومة ايقاع أي أذى بهم ، أو الدخول أو الخروج الى الأماكن الحساسة التي كانوا يلازمونها ، ويسترقون أخبارها وأخبار من يدخل ويخرج منها .

وأما الأبنية العامة،مثل المباني الحكومية ، فقد كانت الحكومات العربية الجنوبية تقوم مستقلة بانشائها ، وتنفق عليها أموالها ومن مواردها الخاصة . وتقوم بإنشائها بالاتفاق مع السلطات الدينية في أحيان أخرى . بأن تسهم تلك السلطات في تحمل نفقات البناء كلها أو جزء منها وقد يكون ذلك في مقابل تزول الحكومة عن بعض الحقوق الى المعبد . وقد تقوم الحكومة بإنشائها بالاتفاق مع كبار المتمولين،أصحاب الأرض والثراء .

وتقوم المدن والقبائل والحكومات بالاستدانة من أموال المعبد ومن الضرائب التي تدفع اليها ، للانفاق منها على إقامة الأبنية العامة والمشروعات الأخرى ، على أن تعاد تلك الديون الى المعبد . ولم ترد في الكتابات اشارات الى موقف المعابد من هذه الديون : أكانت تتقاضى أرباحاً عليها أي ربا ، أم كانت تعطيها قرضاً حسناً من غير فائض . ويعبر عن ضرائب المعبد التي تجبى من الناس بلفظة (كبودت) . وأما الدين ، فيعبر عنه بـ (ديتم) (دين) كذلك ، كما جاء في هذه الجملة : (بكبودت دين عثتر)[1] ، أي (بالضرائب التي داينها وأقرضها الإله عثتر) .

حماية الحدود :

ومن واجبات الدولة تثبيت حدودها والمحافظة عليها من كل اعتداء ، وذلك بمراقبة الحدود ووضع حاميات عسكرية عليها ، من (مسالح) و (مناظر) وبناء قلاع في الثغور لحمايتها من المغيرين وصدهم . وتبنى هذه التحصينات في الخطوط الأمامية وعلى مبعدة من الأماكن الكبيرة المأهولة حتى يكون في وسعها صد المغيرين ، أو وقفهم حتى تأتي نجدات كبيرة من الجيوش لمحاربة الغزاة ، ويكون في وسع أهل القرى والمدن الهرب بأنفسهم وأموالهم الى مواضع آمنة .

---

١ Glaser 1150, Halevy 192, Rhodokanakis. Stud. Lex., II. S. 54.

و (المسالح) مواضع المخافة . والمسلحة كالثغر والمرْقب يكون فيها أقوام يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غرة ، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له . ومسلحة الجند خطاطيف لهم بين أيديهم ينفضون لهم الطريق ، ويتجسسون خبر العدو ويعلمون علمهم ، لئلا يهجم عليهم ، ولا يدعون واحداً من العدو يدخل بلادهم . وذكر انه كان أدنى مسالح فارس الى العرب (العُذيب)[1] . فالمسالح اذن ، هي الخطوط الأمامية من خطوط الدفاع عن بلد ما ، ونقاط الأمان فيها، ومحل جمع المعلومات عن تحركات ونيّات العدو . بها حاميات مقيمة وظيفتها الأولى الاستطلاع واخبار الجيش بقدوم عدو ما ، ومشاغلته الى وصول القوات المدافعة الكبيرة .

و (المنظرة) (موضع الربيئة) وهي المرقبة ، وتكون في مواضع مشرفة مثل رأس تل أو جبل يبنى عليه بناء يجعل فيه رقباء ينظرون العدو ويحرسونه ، ليتوقوا غدره وشره . فإذا أراد الغارة ، أرسلت (النظيرة) (النظورة) رسالة تحذير للتهيؤ لصد العدو . والظاهر ان اتخاذ المناظر في المواضع العالية المشرفة، هو الذي جعل علماء اللغة يفسرون المناظر بأنها أشراف الأرض لأنه ينظر منها[2] .

و (المراقب) و (المرقبة) الموضع المشرف ، يرتفع عليه الرقيب ، و(الرقيب) الحارس الحافظ ، و (رقيب القوم) : حارسهم ، وهو الذي يشرف على مرقبة ليحرسهم . وذكر علماء اللغة ان المرقبة هي المنظرة في رأس جبل أو حصن[3] ، فهي في المعاني المتقدمة .

و (الثغر) الموضع الذي يكون حداً فاصلاً بين الحكومتين . وهو موضع المخافة من أطراف البلاد . و (الثغرة) : الثلمة ، وكل فرجة في جبل أو بطن أو طريق مسلوك[4] . ويظهر من هذا التعريف ان الثغور هي المواضع الخطرة من الحدود ، لأنها تكون بمثابة الفرجة أو الثلمة فيها يتسنى للعدو منها التسلل بسهولة الى أرض عدوه ، ولهذا تجب حراستها والعناية بها ، بوضع حاميات بها لتشغل العدو ولتصده من الولوج اليها .

---

١ اللسان (٤٨٧/٢) ، (سلح) ، تاج العروس (١٦٥/٢) ، (سلح) ، مقدمة الصحاح (٣٧٥/١) ، محيط المحيط (٩٧٧/١ وما بعدها) .

٢ اللسان (ن/ظ/ر) ، (٢١٨/٥) .

٣ اللسان (ر/ق/ب) ، (٤٢٥/١) .

٤ اللسان (ث/غ/ر) ، (١٠٣/٤) .

وقد أقام الفرس والروم (مناظر) على حدودهم ، على أبعاد لا يكون ما بينها بعيداً حتى يكون في وسع حماة (المناظر) أن يتعاونوا ، ويقدموا العون للمنظرة التي تهدد بالخطر . وأقام الروم (طرقاً) ممهدة بين هذه المناظر ، ليسهل على القوات السير عليها بسرعة لنجدة المناظر وحماية الحدود .

وتلجأ الحكومات الى اقامة استحكامات أخرى لوقاية الحدود من مهاجمة عدو لها ، مثل اقامة الخنادق في بعض المواضع الخطيرة المهددة من الحدود لمنع المغيرين من عبورها ، كالذي يذكره أهل الأخبار عن (خندق سابور) الذي أقامه لمنع الأعراب من العبور بقصد الغزو ، ومثل اقامة بعض الحواجز والأسوار في الممرات والأودية ، وربايا في المواضع المشرفة ، لمراقبة حركات الأعداء وصدهم من المرور من هذه الأماكن .

ضرب النقود :

ذكرت فيما سلف أن ملوك العرب الجنوبيين ، ضربوا النقود ، وأن في المتاحف وفي الخزائن الخاصة ببعض الناس نقوداً تعود الى أولئك الملوك . أما بالنسبة الى الأماكن الأخرى مثل مكة أو يثرب ، فإننا لا نستطيع ان نتحدث بأي شيء عن ضرب النقود عندهم ، لعدم عثور العلماء على نقد ضرب في هذه الأماكن، ولعدم ورود إشارة الى وجود ذلك في موارد أهل الأخبار . والذي يستخلص من هذه الموارد ان أهل تلك المواضع ، كانوا يتعاملون بعملة الروم والفرس . وهي الدنانير والدراهم . كما سأتحدث عن ذلك في الموضع المناسب عندما سأتحدث عن الأحوال الاقتصادية . ولم أجد في روايات أهل الأخبار ما يشير الى تعامل أهل مكة أو يثرب بنقود حبشية او بنقود ضربت في العربية الجنوبية ، ولم أجد فيها ولا في كتب السير والتواريخ أن المسلمين ضربوا النقد في ايام الرسول .

ولم أسمع بضرب ملوك الحيرة او الغساسنة للنقود ، ولم يعثر الباحثون – كما أعلم – على نقد ضرب في عهود هؤلاء الملوك . والظاهر أنهم كانوا يتعاملون بالعملات الفارسية والرومية . وربما كان الفرس والروم قد منعوا أولئك الملوك من ضرب النقود ، لبواعث سياسية واقتصادية . ولكني لا أريد ان أجزم بأن (آل لخم) و (آل غسان) لم يضربوا النقد بتاتاً ، استناداً الى علم وصول

نقد ضرب في أيامهم الينا حتى هذه الأيام ، أو الى عدم اشارة أهل الأخبار الى وجوده عندهم ، فقد يعثر في المستقبل على نقود تعود الى أيامهم ، هي الآن في مخابئها ، مدفونة تحت الأتربة . ثم إن أهل الأخبار لم يتحدثوا عن كل شيء ، حتى تتخذ سكوتهم عن ضرب ملوك الحيرة والغساسنة للنقود حجة على عدم وجود ضرب السكة عندهم .

والسكة : حديدة منقوشة كتب عليها يضرب عليها الدراهم[1] . والضرب الطبع، يقال : ضرب الدرهم ، أي طبعه ، على سبيل المجاز . و « اضطرب » ، بمعنى سأل ان يضرب له . وفي الحديث انه صلى الله عليه وسلم ، اضطرب خاتماً من حديد . أي سأل ان يضرب له ويصاغ »[2] . والنقد تمييز الدراهم واخراج الزيف منها[3] وأما الطبع فالسك . يقال طبع السكّاك الدرهم أي سكه[4] . وهناك مصطلحات أخرى لها صلة بالنقد ، ترد في كتب الحديث واللغة يظهر منها ، أنه قد كان للجاهليين ولأهل مكة بصورة خاصة وقوف على النقد ، وانهم كانوا يتعاملون بها، ولهم علم بكيفية صنعها .

قواعد السلوك :

وللجاهليين آداب إصطلحوا عليها بالنسبة لتعاملهم مع الملوك وسادات القبائل ، فمن قواعدهم المقررة : ان الملوك لا تجز نواصيها[5] . وذلك لأن جـز النواصي بالنسبة للعرب تعبير عن الازدراء بالشخص الذي جزّت ناصيته ، ولما كان للملوك حرمة ، فلا تجزّ نواصيهم ، ولا تجزّ نواصي سادات القبائل كذلك . وقد حدث ان جزّت نواصي بعض الملوك ، أو اخوتهم ، أو أبنائهم ، أو سادات القبائل، إلا ان هذا العمل هو عمل شاذ ، لا يقدم عليه ، إلا لأن العداوة بين الملك وبين من قبضوا عليه او على أقربائه او سادات القبائل ، كانت عداوة شديدة عميقة ، بحيث تجاوزت حد العرف فخضعت لأحكام العواطف والأهواء .

---

١ تاج العروس (١٤٣/٧) ، (سكك) .
٢ تاج العروس (١ : ٣٤) ، (ضرب) .
٣ تاج العروس (٥١٦/٢) ، (نقد) .
٤ تاج العروس (٤٣٨/٥) ، (طبع) .
٥ نهاية الأرب (٤١٣/١٥) .

ومن قواعد آداب السلوك التي يجب على الملوك وسادات القبائل بل على كل انسان التأدب بها والتمسك بقواعدها ، تجنب الغدر[1] واذا كان الغدر عيباً بالنسبة للسوقة والسواد ، فكم يكون الغدر معيباً بالنسبة للملوك ولسادات القبائل ولكرام الناس !

العلاقات الخارجية :

لم تصل الينا حتى الآن نصوص في أصول آداب السلوك بالنسبة للعلاقات الخارجية بين الدول،أي علاقات ما بين حكومات الدول العربية والدول الأجنبية . ولا نعرف لذلك طرق العرف السياسي الذي كان متبعاً عندهم في استقبال(الرسل) و (الوفود) الذين كانوا يفدون على قصور الملوك بأمر من ساداتهم ملوك الحكومات الأجنبية من أعاجم وعرب . ولكننا نستطيع ان نقول قياساً على المألوف عند العرب ، انهم كانوا يبالغون في إكرامهم وفي ضيافتهم ، وفقاً للتقاليد العربية ولظروفهم وامكانياتهم المحلية . وكانوا يستمعون بإنصات الى كلامهم ، ثم يردون عليهم رداً جميلاً ، إن حاز كلامهم موقعاً حسناً في نفوس الملوك، ورداً يناسب ما جاء في خطاب الرسل من تهديد أو وعد ووعيد ، إن استعملوا التهديد والوعيد في خطبهم . ومتى عادوا اكرموا إكراماً خاصاً ، ومنحوا ألطافاً وهدايا على الطريقة المتبعة في ذلك العهد ، وقد يحمّلون أولئك الرسل هدايا خاصة لمن أوفدهم اليهم ، يرفقونها بكتب جوابية في بعض الأحيان ، أو برسائل شفوية تبلغ للرسل ليبلغوها هم لساناً أو كتابة الى موفديهم .

و (الوفد) ، القوم القادمون للقاء العظماء ، وجماعة مختارة للتقدم في لقاء العظماء . ويقال وفده الأمير الى الأمير الذي فوقه ، أي ورد رسولاً[2] . وقد كان سادات القبائل يرسلون وفوداً عنهم الى الملوك أو الى سادات قبائل أخرى في مهام مختلفة ، مثل عقد حلف أو تفاوض أو تهديد بإعلان حرب أو لتهنئة أو لتعزية أو لبيعة وما شاكل ذلك من أمور . وقد أخذت الوفود تترى على الرسول بيثرب لما استحكم واشتد أمر الاسلام .

---

١ ابن الأثير (١/٣٢٠ وما بعدها) ، العقد الفريد (٣/٣٧٤) .
٢ اللسان (٣/٤٦٤ وما بعدها) ، (وفد) ، تاج العروس (٢/٥٣٨ وما بعدها) ، (وفد) .

وقد يكون الرسول المرسل الى بلاد العرب لا يعرف العربيـــة ، فيكون من الضروري إرسال مترجم معه يتقن العربية ، ليقوم بأعمال الترجمة . وقد دوّنت الموارد اليونانية أسمـــاء بعض الرسل الذيـن أرسلهم ملوك البيزنطين الى اليمن أو الى الغساسنة أو المناذرة ، للقيام بمهات خاصة ، ولاجراء مفاوضات في أمور تتعلق بالمصالح اليونانية العربية،وقد نصوا أيضاً على أسماء بعض المترجمين الذين رافقوهم الى ملوك العرب او الى سادات القبائل . ويظهر أنهم كانوا يختارونهم من رجال الدين النصارى الذين كانت لهم صلات وعلاقات وثيقة بالعرب ، ومنهم من كان من أصل عربي .

وكان من عادة سادات القبائل والملوك العرب ، انهم اذا أرادوا ارسال ممثل عنهم الى الحكام الأجانب ، لمفاوضاتهم في أمور تخصهـم ، اختـاروا من عرف بالذكاء والشيطنة من أتباعهم للقيام بهذه المهات التي تحتاج الى ذكاء ولباقة وحسن تصرف . وهم في هذا الباب مثل غيرهم يراعون أن يكون رسولهم ممن يتقنون لغة من سيرسل اليه ، وان يكون من خواصهم ومن أتباعهـــم ، حتى لا يبوح بأسرار مهمته لأعدائهم . وأما اذا تعذر هذا الشرط ، فكانوا يختارون مترجمين ثقات عرباً أو عجماً لمرافقة الرسول ، والتكلم بلسانه ، ولنقل ما يقوله الأعاجم للرسول . ونجد في الموارد اليونانية ان عرب بـــلاد الشأم ، أرسلوا رجال دين عنهم الى حكـــام بلاد الشأم او الى القسطنطينيـــة لمفاوضة الروم في المهات التي كانوا يكلفون بها . ويظهر أنهم إنما لجأوا الى هؤلاء ، لأنهم كانوا يتقنون اليونانية ولأنهم نصارى ، والروم نصارى كذلك ، ولبعضهم صلات برجـــال الكنيسة في القسطنطينية ، فيساعد الدين في تسهيل حل المشكلات .

وقد يذهب ملك عربي أو سيد قبيلة لزيارة الحكّام الأعاجم في مواضع حكمهم، أو في أماكن أخرى يتفقون عليها . فإذا لم يكن متقناً ذلك الملك أو سيد القبيلـة للغة الحاكم الذي سيزوره أخذ مترجماً معه ، ليكون لسانه الناطق باسمه واذنه التي تفسر له أقوال الحكّام والأجانب.ويظهر من الموارد اليونانية أن من الملوك الغساسنة من كان يتقن اليونانية ، فلما زار بعض منهم القسطنطينية ، تكلم بها وتباحث مع رجال الدين البيزنطيين في أمور اللاهوت بهذه اللغة .

والقاعدة العامة في العرف السياسي عند الجاهليين ، أن الموفد لا يهان ولا يعتدى عليه ولا يقتل . وكذلك كان هذا العرف سارياً على رسل الملوك الى سادات القبائل،

وعلى الوفود التي ترسلها القبائل الى الملوك او الرسل الذين يرسلهم سادات القبائل بعضهم الى بعض . وطالما نقرأ في كتب اهل الأخبار جملاً مثل : « لولا أنك رسول لقتلناك » ، تشير الى احترام العرب لرسالة الرسل والموفدين . وقد كان بعض الرسل يسيئون الأدب او لا يحسنون التصرف مع من أرسلوا اليه،فيثيرونهم، ومع ذلك ، فإن من يهـاج منهم يحاول جهد إمكانه ضبط نفسه ، والتحكم في أعصابه ، حتى لا يتهور على الرسول ، فيتهم بسوء الأدب بإهانته ضيفاً،او يتهم بالغدر . وإذا كان بعضهم قد غدر بالرسل،فإن هذا الغدر لا يمثل العرف العام، وإنما هو غدر ، والغدر لؤم ، وقد يقع اللؤم من لئيم .

ولفظة (رسول) والجمع (رسل) هي من الألفاظ العربية القديمة المستعملة في عالم السياسة عند العرب . وردت في نص (أبرهة) ، الذي أشار فيه الى وفود أتت اليه من مأرب لتهنئته بمناسبة اتمامه سد (مأرب) ، فكان من بينهم رسل النجاشي وملك الروم وملك الفرس وملك الحـيرة (المنذر) وملك الغساسنة (الحارث بن جبلة) و (أبو كرب بن جبلة)[1] . وفي هذا النص ملاحظة مهمة جداً جديرة بالعناية إذ أطلق هذا النص على مندوب النجاشي وملك الروم لفظـة (محشكت) أما رسل الملوك العرب المذكورين فقد أطلق عليهم اللفظة العربية (رسل) . أي أنه استعمل ثـلاثة مصطلحات سياسية في هذا النص لمفهوم واحـد ، هو رسل أرسلوا من ساداتهم لحضور ذلك الاحتفال .

وقد يذهب الظن إلى ان النص إنما استعمل تلك المصطلحات الثلاثة ، لأنهـا مصطلحات للغات أولئك الموفدين ، فاستعمل لفظة (محشكت) لأن الحبش كانوا يطلقونها على معنى (رسول) في لغتهم وهذا كلام معقول ، ولكن ما باله أطلق تلك اللفظة على رسول ملك الروم ايضاً مع انها كلمة غريبة عن اليونانية لم يستعملها اليونان ، ولم يستعمل النص المصطلح الرسمي اليوناني المستعمل في اليونانية للسفير ؟ ثم ما بال النص يطلق لفظة (تنبلت) على رسول ملك الفرس ، واللفظـة أيضاً غير فارسية وغير مستعملة عند الساسانيين ؟ أفلا يدل ذلك على أن النص لم يأخذ بالمصطلحات السياسية المقررة عند الحبش والروم والفرس للسفير ، وإنما اخذ بشيء

---

[1] Glaser 618, CIH 541, Glaser, Zwei Inschriften, S. 390.
كتابي : تاريخ العرب قبل الاسلام (١٩٧/٣) .

آخر ، هو اهم من ذلك بكثير ، لا صلة له بما ذهب هذا الظن اليه ، بل لسبب سياسي مهم ، هو ان مندوب ملك النجاشي في نظر ابرهة ، اهم وأقدم في المنزلة من اي مندوب آخر من المندوبين الذين وصلوا اليه ، لذلك قدّمه في الذكر على بقية المندوبين ، وأطلق عليه لفظه (محشكت) ، لأنها في معنى رسول ذي أهمية كبيرة ، وله ميزات على الرسل الآخرين ، فهو رسول ملك له صلة خاصة قوية به ، ثم ثنى بذكر رسول ملك الروم ، لأن الروم أصدقاء وحلفاء الحبش وأبرهة ولهم صلات قوية به ، ثم ان ملك الروم مثل ملك الحبشة وأبرهة على النصرانية، فبينه وبين الروم رابطة الاخوة بالدين ، فذكر لذلك مندوبهم بعد مندوب النجاشي واستعمل لفظة (محشكت) ، لما لهذه الكلمة من معنى خاص في معجم ألفـاظ السياسة . وذكر مندوب ملك الفرس بعد مندوب ملك الروم ، لأن صلة الفرس بالحبش ، لم تكن على درجة صلة الروم بهم ، ثم انهم يختلفون عنهم في الدين ويعارضونهم في السياسة ، لذلك أخره عن مندوب الروم ، وأطلق عليه لفظة تشير الى أنها دون لفظة (محشكت) في الدرجة والتقدير . ولكنها فوق لفظة (رسل) (رسول) (رسل) في الأهمية والدرجة والمكانة على كل حال . لأن ملوك الفرس أكبر شأناً في عالم السياسة من المنذر ومن الحارث ومن أبي كرب لذلك استعمل هذه اللفظة لرسول ملك فارس واستعمل كلمة (رسل) لمندوبي الملوك العرب .

وفي العربية لفظة أخرى تؤدي معنى (رسول) ، هي لفظة (سفير) . ويذكر علماء العربية أن السفير : الرسول والمصلح بين القوم[1] . وكان أهل مكة إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب أو خصومة ، بعثوا سفيراً . وكانت السفارة في (بني عديّ)[2] .

ويقال للرسول (اسى) في العربيات الجنوبية ، تعبيراً عن رسول يرسل بمهمة خاصة[3] .

وبجلوس رجال الوفود عند الملوك وسادات القبائل اهمية كبيرة عند العرب ، فالمقدم على الناس يكون أيمن الملك او ايمن سيد القبيلة ، وهكذا . وجلوسه هذا

---

١ اللسان (٤/٣٧٠) ، (سفر) .
٢ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٣ South Arabian Inscriptions, p. 427.

على هذا النحو وعلى هذا العرف،هو علامة تفضيل له على غيره . ويقوم الحجاب او من اليه امر استقبال الوفود بتطبيق هـــذه القاعدة مراعاة شديدة ، وقد يتولى الملك ذلك بنفسه ، فيطلب من كبير القوم او ممن يريد تشريفه وتفضيله على غيره الجلوس إلى جانبه الأيمن ، ويفتخر عندئذ من ناداه الملك بالجلوس الى أيمنه فخراً شديداً ، ويتباهى بهذا التقديم على غيره ، وتعتز قبيلته به ، فتقدم الرجال عنـد الملوك والسادات من امارات الشرف والعز . وقد يخلق مثل هـــذا التقديم للملك مشكلات خطيرة ، إذ يزعل الباقون من هذا التفضيل ، خاصة إذا كانت بينهم وبين من قدم عليهم عداوة أو منافسة ، فيرون في هذا التقديم ازدراء بهم وإهانة متعمدة قد وجهت اليهم . وقد يتركون مجلس الملك ، ويقع مـــا يقع بين الملك وبين المتزعجين ، أو بين من قدم ومن قدم عليهم .

ومن آيات تكريم رئيس الوفد ، ان الملك كان إذا وضع الشراب،بدأ بالشرب أولاً ، فإذا انتهى اسقى من كأسه من يراه أفضل القوم، وهو رئيسهم ، او انه يأمر السقاة او يشير اليهم اشارة واضحة او خفية بتقديم من يراه أهلاً للتقديم ، ومعنى هذا انه أفضل الوفد. وقد أثار هذا التقديم مشكلات خطيرة للوفود المتنافسة التي كانت تفد على الملوك ، وإلى الملوك أنفسهم ، ولا سيما الملوك الذين تحكمت اعصابهم بهم ، مثل (عمرو بن هند) و (النعمان بن المنذر) . وقد قتـــل (عمرو بن هند) ، كما سبق ان تحدثت عن ذلك بسبب تهوره وانسياقه لعواطفه إذ دعا الشاعر (عمرو بن هند) وامه لزيارته ، وكان ينوي الاساءة اليه ، لأنه كان فخوراً متعززاً بنفسه ، فأمر الملك أمه بأن تكلف أم الشاعر بخدمتها ، وهي من أعز النساء في قومها ولأنها من بيت رئاسة ، فلما صرخت (واذلاه) ، وسمع ابنها الصرخة ، ثار على الملك فقتله .

وكان من عادة ملوك الحيرة ، انهم يتخذون للوفود عنـد انصرافهم مجلساً : يطعمون فيه ضيوفهم ، ويسقونهم الخمور ، وقد تغنى فيه القيـــان[1] ، ثم يعطي الملوك الخلع والهدايا لأعضاء الوفود ، وقد يخلعون عليهم الخلع الملكية ، يحطونها لخاصة من حضر دلالة على زيادة تقديرهم لهم . ويتباهى من يناله هـــذا الحظ السعيد بتلك الملابس ويحتفظ بها للاعتزاز .

---

١ العمدة (٢/٢٢٠)

وقد جرت العادة بإنزال الوفود في دار الضيافة ، ليعتنى بالضيوف الوافدين ولينالوا حريتهم وراحتهم بها . ويظهر ان من عادة العرب إذ ذاك ان الوفد منهم إذا انتهت مهمته وقرر الرجوع إلى اهله ، عملت له وليمة في آخر يومه، وقدمت له هدية ، وتسلم له رسالة ان احتيج إلى ذلك . وقد اتبعت هذه العادة في يثرب حينما أخذت الوفود تترى على الرسول لمبايعته بالاسلام . فقد اتخذ الرسول داراً خاصة بيثرب لتكون داراً تنزل بها الوفود ، عرفت بـ (دار رملة بنت الحارث) امرأة من بني النجّار . ويظهر انها كانت داراً واسعة ، بدليل ما ورد من ان الرسول حبس بها (بنو قريظة) لما نزلوا إلى حكمه[1] . ولا يمكن إنزال عشرات من الناس بها لو لم تكن داراً واسعة كبيرة . كما كان الرسول يأمر المكلف بأمر الوفود بإعطائهم جوائز يعينها له، فيعطى مقدار ما يأمره به الرسول ، وما يكتبه لهم من اقطاع[2] .

صكوك المسافرين :

هي جواز السفر في اصطلاح هذا اليوم . كان على المسافر حمله معه لئلا يتعرض به أحد[3] . يمنحها الملوك وسادات القبائل، وتختم بختمها ، فلا يتحرش أحد بحاملها. ويؤمن على سلامته . وإذا اعتدى عليه معتد طالب صاحب الجواز بحقه من المعتدي عليه. وتعطى مثل هذه الصكوك للوفود وللنابهين من الناس من أصحاب المكانة والجاه.

وقد يكون الجواز شيئاً غير مكتوب . فقد كان (جواز) أهل مكة ومن كان في حلفهم لحاء شجر الحرم ، يعقدونه في أعناقهم او في أعناق ابلهم ، ليكون علامة على أنهم من (قريش) او من قوم لهم عهد وعقد معهم فلا يتجاسر أحد على التحرش بهم . للعهود المعقودة بين قريش وبين سادات القبائل ، بعدم تحرش احد برجل من اهل مكة او بمن يكون في جوارهم ومن له عقد معهم .

وقد يكون الجواز شيئاً بسيطاً : عصا أو سهم أو اي شيء آخر . يعطيه شخص شخصاً آخر ليكون له جواز أمن وسلام ، إذا ابرزه لم يتحرش أحد به. ويكون محرماً ، اي مسالماً لا يجوز لأحد الاعتداء عليه ، لأنه في حرمة صاحب

١ نهاية الارب (١٧/ ١٩٠ وما بعدها) ، (١٨/ ٩١ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (١٨/ ٩١) .
٣ تاج العروس (٤/ ١٩ ، (جاز) .

الجواز ، ولا تهتك لصاحبه حرمة . ولما جاء الاسلام ، جعل المسلمين محرماً . جاء في الحديث : « كل مسلم عن مسلم محرم » ، و « كل مسلم عن مسلم محرم ، اخوان نصيران » . معناه ان المسلم ممسك عن مال المسلم وعرضه ودمه . وانه معتصم بالاسلام ممتنع بحرمته ممن أراده وأراد ماله[1] . فكل واحد هو في الاسلام آمن .

ومن عادة ملوك الحيرة إعطاء (القطوط) للناس ، وهي صكوك الجوائز ، اي كتب تخرج للناس فيها جوائز الملك ، فيقبضون مقدار ما كتب فيها . وقد ذكرها الأعشى في قوله :

ولا الملك النعمان يوم لقيته　　بغبطته يعطي (القطوط) ويأفق

وذكر ان القط : الصك بالجائزة والكتاب ، وقيل : هو كتاب المحاسبة، وفي ذلك يقول أمية بن ابي الصلت :

قوم لهم ساحة العرا　　ق جميعاً ، والقط والقلم[2]

---

١ اللسان (١٢/١٢٤ وما بعدها) ، (حرم) .
٢ اللسان (٧/٣٨٢) ، (قطط) ، (أراد بالقطوط : كتب الجوائز) ، اللسان (١٠/٦) ، (أفق) .

الفصل الرابع والخمسون

الغزو وأيام العرب

الغزو :

والغزو في تعريف علماء اللغة : الطلب . وهو مورد من أهم موارد الرزق عند الأعراب ، لا سيا في سني انحباس السماء وانقطاع الغيث وغضب السماء على الأرض ونفورها منها ، حيث تقطع غرامها بها ، فتحبس عنها دموعها المعبرة عن شوق السماء الى الأرض وعن مكانهم المنكوب الى مكان آخر فيه ماء : بئر أو ماء جار ، أو عين دائمة والاستيلاء عليه عنوةً وقهراً ، أو صلحاً بغير قتال، وذلك إذا وجد أصحاب الماء أن من غير الممكن لهم ، مقاومة الغزاة ، وأن خير ما يفعلونه للحفاظ على حياتهم ، هو ترضية الغازين والتودد اليهم ، وارضائهم من غير حرب ولا قتال ، وفي ذلك توفيق بين مصلحة الغازين والقارين .

وقد يقع الغزو لأسباب أخرى لا علاقة لها بانحباس المطر ، بل بسبب طمع القبائل بعضها في بعض ، ولا سيا القبائل التي ترتبط بروابط حلف مع قبائل أخرى . والعادة أن القبائل القوية تطمع في القبائل الضعيفة لتأخذ منها ما عندها من مال ورزق . فتغزوها لتستولي على ما طمعت به ، وقد تنجح وقد تفشل وتخسر . والقبائل الضاربة على أطراف الحضارة ، تطمع في الحضر لما عندهم من رزق حرمت منه ، من رزق وافر ومن ماء ومن وسائل عيش رغيدة ، فتغزوهم ولهذا صار من اللازم على الحضر تعزيز أنفسهم ، بناء حصون وآطام ومناظر لمراقبة

الغزاة ، وبشراء سلاح لا يتوفر عند الأعراب من سيوف ماضية صلبة حادة ، ومن اتخاذ حرس من الرقيق والمرتزقة ليساعدهم في الدفاع عن حاضرهم ، أضف الى ذلك شراء سادات القبائل الضاربين حولهم بالمال وبالهدايا وبالألطاف ، لمنع أعرابهم من التحرش بهم ، ولمنع الأعراب الغرباء الذين قد يطمعون فيهم من الدنو منهم .

أضف الى ما تقدم من أسباب وقوع الغزو : أثر العلاقات الشخصية بين سادات القبائل ، من زواج وطلاق ، ومن حسد وتنافس ، ومن كلمة نابية قد تثير حرباً بين قلبي شخصين متنافرين ، ومن عمل سفيه جاهل يثير غزواً وحرباً بسبب عصبية قومه له ، ودفاع الجانب الآخر عن صاحبهم حمية وغيرة . الى غير ذلك من عوامل معقولة مفهومة وعوامل تافهة سخيفة تجد لها مع ذلك مكانة في القلوب فتثير غزواً وتسبب نكبة لأناس مساكين فقراء ، لا دخل لهم في كل خصومة ، وكل ما لهم أنهم من قوم غضب عليهم قوم آخرون ، فزادوا في تعاسة إخوانهم المغزوين. والغازي والمغزو مع ذلك معدم محروم من النعم التي وهبتها الطبيعة لغيرهم من البشر ، بأن جعلتهم في أرضين خصبة ذات ماء وخيرات وجو حسن ، أما هؤلاء التعساء أبناء البادية ، فلم يجدوا أمامهم من رزق متيسر سهل سوى الترزق عن طريق هذا الغزو .

فالغزو إذن هو حاصل ظروف طبيعية واقتصادية واجتماعية ، ألمت بالأعراب وأجبرتهم على ركوب هذا المركب الخشن . كارهين أم مختارين فليس للأعرابي للمحافظة على حياته ولتأمين رزقه غير هذا الغزو . وقد بقي يغزو حتى في الاسلام، مع منع الاسلام له لا يجد فيه مع ذلك غضاضة ولا بأساً . وهو إن امتنع اليوم منه وطلقه ، فإنه لم يتركه عن إرادة واختيار وطيب خاطر ، وانما امتنع منه لأنه يعلم انه إن قام به ، فإن هنالك حكومات أقوى منه ، لها أسلحة لا يملكها ولا يستطيع التغلب عليها ، وعلى رأسها الطائرات ، ستفتك به فتكاً ذريعاً ، وتكرهه على الخضوع لأحكامها ، وعلى الاستسلام لها ، وعلى تجريده مما يملكه ومما يستولي عليه لذلك خنس وسكت عن الغزو .

ومن هذا الغزو ، غزو وقع في الجاهلية بين قبائل صغيرة ، لذلك لم ينل من أهل الأخبار حظاً من الذكر والرعاية والعناية ، ولم يجد له مكاناً بارزاً في صفحات كتب الأخبار ، وغزو كبير خلد الشعر الجاهلي ذكره ، فأخذ رواة الشعر يتسقطون

أخباره ، ويجمعون ما وعته ذاكرة رواة الأخبار من أمره ، فوجد له مكاناً فسيحاً رحباً في شروح الشعر الجاهلي وفي كتب الأخبار والأدب وقد عرف مثل هذا الغزو الخالد بـ (أيام العرب) وبـ (ايام القبائل) . وقد ذكر صاحب كتاب (الفهرست) أسماء جماعة من علماء الأخبار ألّفوا فيها ، وشغلوا أنفسهم بجمع أخبارها ، دوّنوها في كتب وفي جملتها مدونات عن أخبار ايام وقعت بين بطون قبيلة واحدة .

وقد تداول الجاهليون أخبار الغزو ، وصيرت القبائل المنتصرة الأيام التي انتصرت فيها ملاحم ، تعيد قصها في مجالسها وأنديتها ، وقد زخرفت قصصها بأخبار الشجعان الذين برزوا فيها ، وبالغت في أخبار شجاعتهم حتّى طغت على أخبار الغزو نفسه ، وصار البطل رمزاً للقبيلة ، تستمد منه الشجاعة والإقدام في النصر وفي الهزائم والخسائر . فالنصر كما تعلم لا يدوم لأحد . وربّ قبيلة وكر عليها طير السعد فسعدها الحظ بالنصر ، ثم طار عنها ، لأن الأيام الحلوة لا تدوم أبداً . وقد تصاب القبيلة المنتصرة بنكسة ،فتعوض عن ذكرى خسارتها ، بذكرها انتصارها في الماضي ، فيكون الماضي خير مسل لها عن مرارة الهزيمة ،وأحسن مشجع وباعث على النصر في غزو المستقبل .

وقد أمدتنا أخبار الغزو بأسماء عدد من أبطال الجاهلية عرفوا بالشجاعة ،لا تزال أخبار بعضهم تروى وتقص على الناس . وتقرأ قصتهم في المجالس مثل قصة (عنترة) التي حصلت على النصيب الأوفر من الشهرة والذكر من بين القصص المروي عن أبطال الجاهلية ، وهو قصص ، مهما قيل عنه ، وعما ورد فيه من مبالغات ، فإنه لا يصل إلى درجة القصص المروي عن أبطال الفرس القدماء أو اليونان أو الرومان أو العبرانيين في المبالغة بشجاعتهم وبقوة أجسامهم الخارقة .

لقد فرضت الطبيعة على العربي أن يكون محارباً غازياً ،فقد حرمته من خيرات هذه الدنيا ومن طيبات ما تنبت الأرض . حرمته من وجود حكومة تحميه وتدافع عنه وحرمته حتى من وسائل الدفاع عن النفس . فجعلته لا يملك شيئاً يكنّ اليه في البوادي ليحمي به نفسه من الرياح السموم ومن أشعة الشمس القاسية ومن الحيوانات الوحشية ، وجعلته يقابل المرض بمفرده ، إذ ليس في البادية طبيب حاذق دارس . فلم يكن أمامه والحالة هذه إلا أن يعلّم نفسه الصبر ، وان يصير محارباً غازياً لا يبالي بالنصر أو بالخسارة ، بالحياة أو بالموت . إن خسر هذه

المسرة ، حاول تعويض الخسارة بجولة جديدة وهكذا . لأنه إن يئس وجلس واستسلم للزمان ، أكله جار له يطمع في ماله مهما كان،فهو لا بد له من استعداد لغزو جديد .

وفقر البادية قد حدد في الوقت نفسه من غرام الأعراب في الغزو . إذ جعل أسلحتهم محدودة وامكانياتهم في القتال دون امكانيات الحضر بكثير . لذا صار غزوهم للحضر كرّ سريع وفرّ بأقصى ما يكون من السرعة ، للنجاة بما حصلوا عليه من سلب ، أو للنجاة بأنفسهم من القتل في حالة الخسارة والهزيمة . ولهذا كانوا يحسبون ألف حساب حين يريدون غزو حدود الحكومات الكبيرة ، ولا يقدمون عليه إلا بعد درس وتأمل ووقوف على مواطن الضعف والثغرات في خطوط الدفاع لتلك الحكومات . أما غزوهم بعضهم بعضاً ، فإن أسلحتهم فيه متساوية متكافئة . سيوف ورماح ورمي بالسهام . والذي يكسب النصر فيه ، من له عدد وافر كثير وخيل وفرسان شجعان ، يأخذون الخصم بمباغتة ومفاجأة .

الخيل :

وللخيل نصيب كبير ولا شك في الغزو وفي اكثاره في جزيرة العرب إذ صارت سبباً من أسباب توسيع رقعة الغزو والحروب . فالقبيلة التي تمتلك عدداً كبيراً من الخيل يكون لها النصر في الغالب ، لأن الخيل سريعة الحركة وهي تمكن الفارس من مقارعة خصمه بسرعة،ومن ملاحقة الراجل والوصول اليه بسهولة ، فلا يكون أمامه عندئذ سوى المقاومة أو القتل أو الوقوع في الأسر . وبفضل الخيل ظهر الأبطال الفرسان ، الذين نقرأ أسماءهم في أخبار الأيام . والحصان مثل البطل ، يجب عده من أبطال معارك تلك الأيام . فقد مكّن القبائل الغنية من بسط نفوذها على القبائل الضعيفة . فالجمل ثقيل الحركة بطيء السير بالنسبة الى الفرس ، وفي امكان من لديه عدد كبير من الخيل غزو القبائل التي لا تمتلك مثل هذا العدد من الخيل ، حتى وإن امتلكت عدداً كبيراً من الإبل والرجال . لما ذكرته من سرعة حركة الخيل ومن مرونتها في القتال وفي الكر وفي الفر ، ثم لصبرها ولتحمل أعصابها على ضبط نفسها في القتال بالنسبة الى الجمل الذي يهيج بسرعة فتثور أعصابه، فيولي لا يبالي الى حيث يوجهه هياجه، ملقياً براكبه عن ظهره في بعض الأحيان،

أو يذهب طائشاً مسرعاً ، لا يخضع لتوجيه راكبه له . والجمل إذا هاج صار من الصعب على صاحبه الامساك بزمامه وتوجيهه حيث يريد .

وقد اشتهر بعض الناس بالعدو ، من هؤلاء : (سليك بن السلكة) المعروف بـ (سليك المقانب) . وكانت أمه سوداء . وهو أحد أغربة العرب ، وأعدى الناس ، لا يشق غباره ، وقد أشير اليه في الشعر[1] . وقد استفيد منهم في الغزو، فكان منهم المخبرون المتلصصون لأخبار الغزاة أو المغزوين . وكان منهم من يباغت ويفر ، فلا يلحق به ماش . فإذا لحقه أحد أتعبه في عدوه ، حتى إذا تعب انقض عليه .

الجمل :

وقد أكون مقصراً هنا إذا أهملت الحديث عن صديق جزيرة العرب وأليفها الحبيب : الجمل . لقد تحدثت عنه في الجزء الأول من هذا الكتاب في أثناء تحدثي عن جزيرة العرب وعن ثرواتها بما فيه الكفاية ، ولكنني لا زلت بحاجة إلى التحدث عنه بشيء لم أذكره في ذلك المكان[2] ، وسأذكره هنا لما له من صلة بهذا الموضع .

والإبل هي المال عند العرب . وبها كانوا يقدرون أثمان الأشياء ويتعاملون في تجارتهم وفي أسواقهم . فالجمل عندهم هو وحدة قياسية في البيع وفي الشراء وفي تقدير الحقوق كالديات والفدية والمهور والاراشة وما شاكل ذلك . وبمقدار ما يملك الانسان من جمال تقدر ثروته وينظر إلى غناه،لأنه الحيوان الوحيد الذي في إمكانه قطع البوادي بخيلاء ، رافع الرأس ، غير عابىء بما يكون تحت أخفاف أرجله من رمال ، هازىء بالعطش إذ هو صبور عليه ، لمدة لا يمكن أن يباريه في طولها حيوان آخر . ثم هو يحمل الانسان ويحمل متاعه . وهو طعام الانسان إن مضه الجوع ، أو جاءه ضيف كبير . وهو يشرب حليب النوق ويجد فيه شفاء وعافية وتعويضاً عن الماء والطعام . فلا عجب إذن إن اتخذ الأعرابي الجمل مقياساً للثروة والمال .

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٠٥) .
٢ (ص ١٩٧) .

والإبل على منازل ودرجات فيها الجمل الأصيل المقدر وفيها الجمل الحرود المبتذل . وخير الإبل عندهم : الإبل الحمراء ، لأنها أصبر من غيرها على الهواجر ، والعرب تفتخر بعدد ما عندها من الجمال الحمر ، لغلاء ثمنها بالنسبة إلى الجمال الأخرى ومن هنا ضرب العرب بها المثل حين قالوا : « ما أحب ان لي بمعاريض الكلم حمر النعم »[1] . فالمراد بحمر النعم : الإبل الحمراء .

والإبل الصهباء من الإبل الجيدة الشريفة في نظر العرب . (قال ابن الأعرابي : تقول قريش : الإبل صهبها وأدمها ، يذهبون في ذلك إلى تشريفها على سائر الإبل . وقد أوضحوا ذلك بقولهم : خير الإبل : صهبها وحمرها . فجعلوها خير الإبل)[2] . وقيل الأصهب من الإبل الذي يخالط بياضه حمرة . وهو ان يحمر أعلى الوبر ويبيض أجوافه . وقد عرفت هذه الإبل بسرعتها . والصهباء الناقة الصهابية . وفي الحديث : كان يرمي الجمار على ناقة صهباء . وإبل صهابية منسوبة إلى فحل اسمه (صهاب) ، أولد الإبل الصهابية[3] .

وعدت الإبل الرمكاء ، من أبهى إبل العرب . وأما النوق الخور ، فهي النوق التي تمتاز عن غيرها بكثرة ألبانها ، وتكون ألوانها بين الغبرة والحمرة وفي جلودها رقة . وقد عدت من الجمال الرقيقة الحسنة . قالت العرب : الحمر من الإبل أطهرها جلداً والورق أطيبها لحماً والخور أغزرها لبناً . وقد قال بعض العرب : « الرمكاء بهياء والحمراء صبراء والخوّارة غزراء »[4] .

ويقسم أهل الأخبار الإبل ثلاثة أصناف : يماني ، وعرابي ، وبختي . فاليماني هو النجيب وينزل بمنزلة العتيق من الخيل . والعرابي كالبرذون . والبختي كالبغل . وذكر أن في الإبل ما هو وحشي وأنها تسكن أرض وبار ، وهي غير مسكونة بالناس . وتسمى الإبل الوحشية (الحوشي) . ويذكرون أنها من بقايا إبل (عاد) وثمود . والمهرية منسوبة الى (مهرة) ، وهي سريعة العدو ، ويعلفونها من قديد

---

١ تاج العروس (١٥٨/٣) .
٢ تاج العروس (٣٤١/١) ، (صهب) .
٣ قال طرفة :
صهابية العثنون موضة القرا   بعيدة وخد الرجل موارة اليد
تاج العروس (٣٤٢/١) ، (صهب) .
٤ تاج العروس (١٩٢/٣ وما بعدها) ، (خور) ، (١٣٧/٧) ، (رمك) .

سمك يصطاد من بحر عُمان[1]. وذكروا أن (الحوشي) الوحشيّ من الإبل وغيرها. منسوب الى بلاد الجن من وراء رمل (يبرين)، لا يمرّ بها أحد من الناس. وقيل هم من بني الجن. وقيل هي فحول جن، تزعم العرب أنها ضربت في نعم بني مهرة بن حيدان فنتجت النجائب المهرية من تلك الفحول الوحشية، فنسبت اليها، فهي لا يكاد يدركها التعب[2].

ولتحمل الإبل الجوع والعطش ولصلاحها على المشي في البوادي صارت خير أليف للعرب. وقد اشتهر بعض منها، لاشتراكه في الغزو والحروب. وكانوا يسابقون بين الإبل. وسابق الرسول بين الإبل، وكانت ناقته القصواء سريعة الجري فسبقت مراراً. وتعدّ لحوم الإبل من اللحوم الطيبة عند الجاهليين. أما اليهود، فكانوا يحرمون عليهم أكل لحومها. وذكر (النويري) أن من الناس من قال: «إن العرب إنما اكتسبت الأحقاد لأكلها لحوم الجمال ومداومتها»[3]، لاتهامهم الجمل بالحقد واللؤم، وبعدم نسيانه الإساءة.

والجمل من الحيوانات القانعة الصابرة. وهو الحيوان الوحيد الذي رضي بمرافقته الأعراب ومصادقتهم منذ آلاف السنين. ولولا هذا الجمل لما كان في استطاعة العرب اختراق جزيرتهم، والتنقل فيها من مكان الى مكان. وبفضله اتصل عرب جزيرة العرب بعضهم ببعض وقامت المستوطنات في مواضع نائية منعزلة من بلاد العرب وقهر العربي ظهر باديته. وتكونت فيها تجارة بريّة. وطرق برية طويلة يخترقها الجمل بغير كلل ولا ملل، صابراً على العطش حتّى يصل الى مرحلة بعيدة فيها يكون فيها ماء وفي استطاعة الجمل تحمل العطش مدة أربعة أو خمسة أيام في الصيف، ومدة خمسة وعشرين يوماً في الشتاء. لأنه يختزن الماء في جوفه ويعيش عليه. حتّى صار هذا الماء المخزون في جوف البعير سنداً للأعراب وأملهم الوحيد في انقاذ حياتهم عند اشتداد العطش بهم، وانقطاع الماء عنهم. ولما عبر خالد بن الوليد البادية لفتح بلاد الشأم اختزن الماء في أجواف الابل، لقلة الماء في البادية، فلما اشتد العطش بجيشه، ذبح بعض الإبل وأسقى من الماء المخزون في أجوافها، وبفضله تمكن الجيش من الصمود أمام أهوال العطش ومن الوصول

١ نهاية الارب (١٠/١٠٩ وما بعدها).
٢ تاج العروس (٤/٣٠٢)، (حاش).
٣ نهاية الأرب (١٠/١١٠).

الى بلاد الشأم بسلام . وهكذا ساهم هذا الحيوان في انتصار خالد على جيش الروم.

ولا زال الجمل عماد الأعراب في حياتهم . ولا يمكن أن نتصور وجود أعرابية بغير جمل وقد أناط إنسان القرن العشرين به أعمالاً جديدة لم يكن يعرفها، فعهد إليه نقل الآلات الحديثة ومنتوجات حضارة هذا القرن في البوادي فنجح في أدائها أحسن نجاح . ومع ذلك ، فان الزمن ضده، فالجمل بطيء لا تتناسب سرعته وسرعة عصور السرعة وطفرات التطور الحديث ، ولا بد وأن يأتي عليه يوم سيحال فيه على التقاعد عن العمل ، فيقل بذلك وجوده ، ويصير مكانه في حدائق الحيوان .

ولتمييز الإبل وتعيين أصحابها ، وُسمت بسمات وعلمت بعلامات عرفت عندهم بـ (سمة) و (سمات) ، توسم في الخد والعنق والفخذ ، على صور شتى ، مثل المشط والدلو والخطاف ، أي على صورة هذه الأشياء[1] . ويكون وسم الإبل بالميسم : حديدة تحمى فيكوى بها ، فتترك أثراً على الموضع الذي كوي . وذكر ان الوسم أثر ، أثر كيّة ، يقال : موسوم ، أي قد وسم بسمة يعرف بها ، إما كيّة ، وإما قطع اذن ، أو قرمة تكون علامة له . والوسام والسمة ما وسم به الحيوان من ضروب الصور . وفي الحديث انه كان يسم إبل الصدقة ، أي يعلم عليها بالكي"[2] .

وسمات الإبل : السطاع ، والرقمة ، والخباط ، والكشاح ، والعلاط ، وقيد الفرس ، والشعب ، والمشيطفة ، والمعفاة ، والقرمة ، والجرفة ، والخطاف ، والدلو ، والمشط ، والفرتاج ، والثؤثور ، والدماغ ، والصداع ، واللجام ، والهلال ، والحراش ، والعراض ، واللحاظ ، والتلحيظ ، والتحجين ، والصقاع ، والدمع[3] .

ويقع الغزو في وجه الصباح في الغالب ، ولذلك يقال : (صبحوا بـ ...) أي أتوا صباحاً . وقد يقال : (صبحه بكذا) ، أي بعدد يذكر من رجال الغزو . ومن ذلك قول بجير بن زهير المزني :

صبحناهم بألف من سليم وسبع من بني عثمان وافى

أي أتيناهم صباحاً بألف رجل من (بني سليم)[3] .

---

١ تاج العروس (٥/٢٢٤) ، (مشط) .
٢ تاج العروس (٩/٩٢) ، (وسم) .
٣ تاج العروس (٢/١٧٤ وما بعدها) ، (صبح) .

أيام العرب :

عرفت الحروب والمناوشات التي وقعت بين القبائل بعضها مع بعض ، أو بين ملوك اليمن والقبائل أو بين الفرس والعرب أو بين الملوك العرب والقبائل بـ (الأيام) وبـ (ايام العرب)[1] . وهذه الأيام تؤلف – في الواقع – القسط الأكبر من علم الأخباريين بتأريخ الجاهلية ، ومادتها القصص الذي تناقله الناس عمن شهدوها ، وحفظوه في صدورهم ، إلى أن كان التدوين فدون . وهو مادة محبوبة تناولها الناس في الجاهلية والاسلام بلذة وشوق ، فكانت هي والشعر الجاهلي من أهم المجالس . (قيل لبعض أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ، ونتحدث بأخبار جاهليتنا)[2] ، وأهم أخبار الجاهلية هي هذه الأيام .

ومادة هذه الأيام عربية خالصة ، يتخللها شعر قيل بالمناسبة في تلك الأيام في الفخر والحماسة وفي هجاء الخصم والانتقاص منه . والفضل هو لهذا الشعر في حفظ أخبار تلك الأيام ، وصيانتها من النسيان ، لاضطرار الراوي والسامع إلى الاطلاع على المناسبة التي قيلت فيها تلك الأشعار . وعلى هذه المادة العربية اعتماد المؤرخ في تدوين تأريخ العرب في الجاهلية ، وتتبع التطورات السياسية التي حدثت قبيل الاسلام .

وفي شعر المخضرمين وشعر الشعراء الاسلاميين الذين نبغوا في العهد الأموي مادة تفيدنا في الوقوف على خبر تلك الأيام . فقد حفظ تفاخر الشعراء بقبائلهم ومهاجاة بعضهم لبعض آثار تلك الأيام ، فدونت في شعر الهجاء والتباهي والتفاخر ، وزاد بذلك علمنا الذي أخذناه من أخبار الأيام ومن الشعر الجاهلي الذي أشير فيه اليها .

وموضوع كموضوع الأيام ، لا بد أن يقبل العلماء عليه اقبالاً كبيراً ، وهذا ما وقع ، فألف فيه جماعة ، منهم (أبو عبيدة) المتوفى سنة (٢١٠) أو (٢١١) للهجرة ، وأدخله قوم في مؤلفاتهم ، فأفردوا له باباً أو أبواباً ، ولكنا لا نملك حتى اليوم كتاباً قديماً قائماً بذاته في الأيام . وكل ما نملكه هو هذه الأبواب الداخلة

---

١ اللسان (١٣٩/١٦) .

٢ العقد الفريد (٣/٦ وما بعدها) ، نهاية الارب (٣٣٨/١٥) ،
ENCY. I, p. 218.

في بطون كتب الأدب في الغالب، وفي بعض كتب التأريخ والجغرافيا ، سأشير اليها في أثناء حديثي عن الشهير من هذه الأيام[1] .

وقد أشار (ابن النديم) وغيره الى أسماء مؤلفين ألّفوا كتباً في أيام العرب[2]. منهم من ألف عنها كلها ، ومنهم من ألف عن بعضها . ومنهم من ألف في أيام قبائل معينة . لكنها لم تطبع ، ولعل من بينها من قد يطبع في المستقبل . وقد ورد أن (أبا الفرج الأصبهاني) قد استقصى أيام العرب في كتاب أفرده لذلك ، فكانت أيامه ألفاً وسبعمائة يوم[3] .

ولكن هذه الأيام غير منسقة ويا للأسف ، ولا مبوّبة على حسب ترتيب الوقوع ، وتسلسل الزمن . ثم إن من الصعب استخراج مستند منها يمكن الاعتماد عليه في تصنيف هذه الأيام ، وتنظيمها على أساس تأريخي ، مع انها مادة المؤرخ الذي يريد كتابة تأريخ جزيرة العرب قبل الاسلام ودراسة التطور السياسي فيها . وقد حاول المستشرقون تنسيقها وترتيبها على أساس تواريخ الوقوع ، فلم يفلحوا إلى الآن في الوصول إلى نتيجة مرضية . ولو كانت لدينا معارف عن أحوال من أسهم فيها وأجّج نارها ومن قال شعراً فيها[4] ، تنير لنا السبيل لتثبيت التأريخ وضبط السنين ، لصار في امكاننا ضبطها وتعيين تواريخها استناداً إلى هذا المروي عن أولئك . ولكن ما نعرفه عن هؤلاء الرجال ، وهم أبطالها وأصحابها ، لا يقل غموضاً وابهاماً من حيث التواريخ والسنين عن غموض تواريخ تلك الأيام وإبهامها، ولذلك فكل ما يقال عن تواريخ الأيام وترتيبها والسنين التي وقعت فيها ، هو حدس وتخمين . وسيبقى الحال على ذلك ، حتى تتهيأ مادة جديدة كنصوص جاهلية مدونة أو موارد أخرى قد تتعرض لتلك الأيام بتأريخها أو بتأريخ من اشترك فيها على وجه مضبوط صحيح . وعندئذ يكون في الامكان تدوينها على نحو علمي يشرح لنا تطور الحوادث عند العرب قبيل الاسلام .

ولوجود مجال واسع للعب العاطفة في أخبار الأيام ، تجب دراسة الروايات على حذر ، والتفتيش — على قدر الامكان — عن روايات متعددة عن اليوم الواحد،

---

١ الفهرست (٨٥) ، العمدة (٢/٢٠٠ وما بعدها) ، صبح الأعشى (١/٣٩٣) .
٢ الفهرست (١٤٨) ، (أخبار هشام الكلبي) .
٣ بلوغ الأرب (٢/٦٨) .
٤ العمدة (٢/٢٠٠ وما بعدها) ، صبح الأعشى (١/٣٩٣) ، الفهرست (٨٥) .

للمقارنة والمقابلة والغربلة. وليس هذا بأمر ميسور،لأن الروايات والأخبار محدودة، وهي ترجع بآخرة إلى نفر تستطيع حصرهم . فهذه الأبواب، وإن كانت متعددة منثورة بين مؤلفات ، دونّها مؤلفون مختلفون ، إلا انها أخذت من ذلك النفر ، فهي لم تأت لهذا السبب في ثناياها بشيء جديد .

وفي هذا النفر المذكور ، نفر منحاز متحزب ، يشايع قومه ، ويريد نسبة الغلب والتفوق لهم ، والغض جهد إمكانه من خصوم قومه ومن الأطراف التي خاصمت قومه واشتبكت معها في قتال ، وهو مكثر بالنسبة لجماعته ، مبالغ يسند مبالغاته بكلام منثور ومنظوم ، ليثبت صحة قوله . ولهذا وجب الانتباه لهذه الناحية والحذر من تصديق كل رواية وإن نسبت الى خيرة من نثق بعلمهم من الرواة .

وهذه الأيام ليست حروباً بالمعنى المفهوم من الحرب ، فإن منها ما هو مجرد مناوشات أو مهاترات وغزوات لم يسقط فيها إلا بضعة أشخاص ، ومنها أيام وقعت في عدة سنين كانت تثار فيها الحرب حيناً تتجدد المناسبات ، وتنتهي بتسوية يتفق فيها على دفع ديات القتلى وإنهاء المشكلات التي كانت السبب في إثارة تلك الحرب ، فإذا ما انتهت ، بقيت القبيلة المنتصرة تفتخر بيومها وبأيامها ، وبأسماء أبطالها الذين رفعوا اسمها فيها . وطالما جرّ التباهي والتفاخر القبائل الى حروب جديدة ، بسبب جواب قد يصدر من سفيه عابث لا يرضيه سماع ذلك الفخر ، أو من قبيلة مغلوبة لم يكن من السهل عليها أو على أفرادها سماع هذا الكلام .

والنابه من هذه الأيام،معدود عند بعض العلماء محدود . وقد حصرها (أبو عبيدة) في الأيام الكبيرة العظيمة ، التي ساهم فيها عدد كبير من الفرسان . وجعلها : يوم الكلاب ، ويوم ربيعة ، ويوم جبلة ، ويوم ذي قار[1] .

وأكثر أسباب هذه الأيام ، هو عسف حكام القبائل القوية في القبائل الضعيفة الخاضعة لهم ، بسبب الإتاوة التي كانوا يلحون في جبايتها غير مفكرين في الظروف والأوقات ، أو بسبب نزاع على ماء ومرعى ، أو أخذ بثأر ، أو محاولة التخلص من حكم القبائل على القبيلة بظهور شخصية قوية فيها ، وأمثال هذه من أسباب ، قد يكون بينها سبب تافه سخيف ، يؤدي إلى إزعاج المتخاصمين بسبب النزعات العاطفية التي تتغلب عند القبائل في غالب الأحوال على العقول .

١ الأغاني (١٣١/١١) .

والعادة أن يُعَنْوِن اليوم باسم الموضع الذي حدثت فيه المعركة ، أو بالشيء البارز في تلك الحرب ، أو باسم القبائل التي اشتركت فيه . ومن هذه الأيام ما وقع بين قبائل قحطانية ، ومنها ما وقع بين قبائل عدنانية ، ومنها ما وقع بين قبائل قحطانية وقبائل يرجع النسّابون نسبها الى مضر وربيعة ، وإلى معدّ ، والى عدنان ، فهي أيام وقعت إذن بين جماعتين هما في عرف النسابين من جدّين ، هما : قحطان وعدنان . وهما جدّا كل العرب الأحياء .

ومن الأيام التي وقعت بين القبائل القحطانية : يوم البردان ، ويوم الكُلاب الأول وعين أباغ ويوم حليمة ويوم اليحاميم ، وأيام الأوس والخزرج . وأما أيام القحطانيين والعدنانيين ، فنها : يوم البيضاء ، ويوم طخفة ، ويوم أوارة الأول، ويوم أوارة الثاني ، ويوم السلاّن ، ويوم خزار ويوم حجر،ويوم الكلاب الثاني، ويوم فيف الريح ، ويوم ظهر الدهناء[1] .

وأما الأيام التي وقعت بين القبائل العدنانية ، فنها ما وقع بين قبائل ربيعة فيا بينها ، ومنها ما وقع بين ربيعة وتميم ، ومنها ما وقع بين قبائل قيس فيا بينها ، ومنها ما وقع بين قيس وكنانة ، ومنها ما وقع بين قيس وتميم ، ومنها أيام ضبة وغيرهم[2] .

وهناك أيام وقعت بين العرب والفرس مثل يوم الصفقة ويوم ذي قار .

وقد تحدثت عن الأيام التي وقعت بين القبائل القحطانية ، وعن الأيام التي وقعت بين العرب والفرس في الأماكن المناسبة الخاصة بها . فلست أجد حاجة ها هنا إلى الكلام عليها مرة ثانية ، وسأقتصر هنا على الأيام الأخرى[3] .

والأيام بين ما يسمى بالقبائل العدنانية أكثر بكثير من الأيام التي وقعت بين القبائل القحطانية ، وسبب ذلك هو انها أكثر بداوة وأعرابية من القبائل الثانية ، وأن من طبع البداوة : الفردية والخصومة والتنازع والتحاسد ، بسبب ضيق العيش وقلة المال وتحوّل القبائل من مكان إلى مكان وراء الماء والكلأ . لذلك قلّ اجتماع العدنانيين تحت رئاسة رئيس واحد ، وتقاتلوا وتخاصموا ، وفضلوا الخضوع لحكم

---

١ أيام العرب (ج وما بعدها) .
٢ أيام العرب (د وما بعدها) .
٣ المحبر (٢٤٦) .

رئيس بعيد عنهم على الخضوع لرئيس منهم ، لأن النفسية الأعرابيـة ترى في خضوع أعرابي لأعرابي من جنسه استكانة ومذلة.أما خضوعها لحكم غريب عنها ، فليس فيه شيء من ذلك ، ولهذا خضعت للملوك المناذرة أو الغساسنة أو لكندة أو للتبابعة ، ونفرت من الخضوع لرئيس عدناني لعقـدة التنافس والتناحر بين ذوي القربى .

والقبائل العدنانية ، قبائل خشنة شديدة المراس ، القتال عندها طبيعة ، ولو اتحدت وجمعت كلمتها ووحدت أمرها ، لكانت قوة لا تغلب ، ولكنها، وهي على هذه الصفة من التخاذل والتنافر ، صارت خاضعة لحكم القحطانيين، وأخصّهم التبابعة على ما يذكره الرواة . فكانوا يعينون عليهم حكاماً وينصبون عايهم أمراء منهم ، بل يذكر أهل الأخبار أن العدنانيين كانوا يذهبون هم أنفسهم إلى أولئك التبابعة أحياناً يطلبون منهم تنصيب شخص منهم،أو تعيين أمير عليهم من أصحاب المنزلة والمكانة ، لأنهم سئموا من التقاتل والتشاحن ، بقوا على ذلك دهراً حتى سئموا حكم التبابعة والقحطانيين لهم ، فثاروا عليهم كما يذكر أهل الأخبار .

وسأقتصر في هذا الفصل على الأيام المهمة التي كان لها في شؤون السياسة القبلية شأن وخطر . أما الأيام الصغيرة التي لم يكن لها شأن يذكر ، فأدع الحديث عنها إلا بقدره . وأما الخامل منها ، فسأترك أمره إلى كتب الأخبار والأدب ، لعدم وجود مكان لها في حديثنا العام عن تأريخ العرب قبل الاسلام .

ومن أمهات الأيام التي وقعت بين القحطانيين والعدنانيين : يوم طخفة ، ويوم أوارة الأول ، ويوم أوارة الثاني ، ويوم السلاّن ، ويوم خزاز ، ويوم حجر ، ويوم الكلاب الثاني ، ويوم فيف الريح ، ويوم ظهر الدهناء . وقد تحدثت عن بعضها في أثناء كلامي على ملوك الحيرة أو الغساسنة ، وسأتحدث عما لم أتناولـه من قبل .

ومن الأيام التي وقعت بين قبائل قحطانية وقبائل عدنانية ، يوم يسمى بـ (يوم البيضاء) (البيداء)[1] وكان سببه مجيء مذحج ، وهي قبيلة قحطانية من اليمن، قاصدة متسعـاً من الأرض وموطناً جديداً صالحاً ، فاصطدمت بقبائل معد النازلة بتهامة ، وتهامة هي ،وطن معد القديم في عرف أهل الأخبار ، فبرزت لها قبيلة

---

١ المحبر (٢٤٦) .

عدوان ورئيسها يومئذ عامر بن الظرب العدواني . جمع عامر هـذا من كان في تهامة من قبائل معد،وهاجم مذحجاً فغلبها في موضع (البيضاء) . ويقول الأخباريون إن هذا اليوم هو أول يوم اجتمعت فيه معد تحت راية واحدة ، هي راية عامر ابن الظرب . وقد اجتمعت بعدها مرتين تحت راية واحدة : مرة تحت راية ربيعة ابن الحارث في قضاعة، ومرة أخرى تحت راية كليب بن ربيعة [1] . فهذه المعركة هي من المعارك القديمة التي وقعت بين العدنانيين والقحطانيين على رأي الأخباريين .

وعامر بن الظرب هـذا ، رجل يعدّه الأخباريون من قدماء حكماء العرب وأئمتهم الذين تحاكم اليهم الناس ، وصارت أحكامهم سنة يتبعونها . وقـد ذكر أهل الأخبار أنه أول من قرعت له العصا . ويرون في تفسير ذلك أنه كان قد كبر وهرم ، وكان الناس يأتون مع ذلك اليه ليحكموه فيما يقع بينهم من خلاف. فقال له أحـد أولاده : « إنك ربما أخطأت في الحكم فيحمل عنك » ، فقال عامر : « فاجعلوا لي أمارة أعرفها ، فإذا زغت فسمعتها رجعت الى الصواب»: فجعلوا قرع العصا أمارة ينبهونه بها . فكان يجلس قدام بيته ويقعد ابنه في البيت ومعه العصا ، فإذا زاغ أو هفا قرع له الجفنة فيرجع الى الصواب[2] .

ولأهل الأخبار قصص عن عامر ، فقد ذكروا أنه كان أول من جلس على منبر أو سرير وتكلم ، ولجلوسه على منبر،سمّوه ذا الأعواد ، ونسبوا اليه أحكاماً وحكماً وأقوالاً وعمراً طويلاً ، وعدّوه من الفصحاء البلغاء ، وجعلوا أقواله مضرباً للأمثال[3] .

وأخذ رؤساء معدّ على عاتقهم الخروج على طاعة حكام اليمن ، أو من عينه هؤلاء الحكام عليهم،وذلك بعد ما تبين لهم من ضعف الحكم في اليمن ومن تقاتل المتنفذين فيها بعضهم مع بعض ، ومن تدهور الأحوال هناك . وكانت اليمن قد ولت (زهير بن جناب) زعيم كلب على قبائل معد . وكلب من قبائل قضاعة، فوافقت معـد على تعيينه وخضعت لحكمه ، وأخذت تؤدي الإتاوة له . وكان يخرج في حاشية لجمع الإتاوة ، فأصاب معداً ضيق شديد ، وأجدبت أرضهم ، فتأخروا عن الدفع ، فجاءهم زهير وألحّ في مطالبتهم ، فشكوا عجزهم،وطلبوا

---

١ ابن الأثير (١/٢٩٥) ، جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام (ص ٢٢٤) .
٢ ابن الأثير (١/٢٢٧) ، الأغاني (٣/٣ وما بعدها) .
٣ المحبر (٢٣٧ وما بعدها) .

إمهالهم والتخفيف عنهم . فما كان منه إلاّ أن منعهم النُّجْعَة والمرعى ، فنقموا منه ، وأصابهم من ذلك بلاء ، فغضب عليه رجل منهم من بني (تيم الله) ، اسمه زيابة ، واندس اليه وهو نائم فطعنه ، وظن أنه قتله ، ورجع الى قومه فأخبرهم بخبره ، ولكن (زهيراً) لم يصب بسوء ، ونجا من الطعنة ، وكان قد أخمد أنفاسه ولم يتحرك حتى يوهم (زيابة) أنه قتله ومات ، ثم أوعز الى حاشيته أن يعلنوا أنه مات ، وشاع خبر موته بين الناس ولكنه كان قد فرَّ مع حاشيته الى قومه ، حيث جمع جمعهم ، ثم هجم بهم على بكر وتغلب،وقاتلهم قتالاً شديداً أدى الى هزيمة بكر ، ثم الى هزيمة تغلب من بعدها،وأسر (كليباً) و (مهلهلا) ابنيْ ربيعة ، وجماعة من أشراف تغلب . فتأثرت قبائل ربيعة من هذه الهزيمة ، وعينت (ربيعة بن مُرّة بن الحارث بن زهير التغلبي) ، والد (كليب) و (مهلهل) رئيساً عليها ، فحمل ربيعة ومن انقاد اليه على زهير ، واسترجع الأسرى،ولكن زهيراً لم يلبث أن عاد إلى ما كان عليه من جمع الإتاوة من معد[1] .

وإذا أخذنا برأي الأخباريين القائلين إن تعيين زهير بن جناب على بكر وتغلب ابني وائل كان بأمر أبرهة الذي غزا نجداً ، وتوسع فيها ، فجاءه زهير ليتقرب اليه ، وليعينه على بعض القبائل ، يكون حكم زهير على هذا القول في القرن السادس للميلاد[2] .

وفي عهد رئاسة (كليب بن ربيعة) ، جددت قبائل ربيعة محاولاتها للتخلص من حكم اليمن ، وكان (كليب) شخصية قوية ، فاختارته قبائل معد رئيساً عليها، واجتمعت تحت لوائه ، والتقت باليمن في (يوم خزاز) ، فانتصرت معد فيه، وعدّ من أيامها الكبرى قبل الاسلام[3] . ونظرت معد إلى كليب نظرة تجلة واحترام ، وجعلت له قسم الملك وتاجه وطاعته ، لأنه وحّدهم وأنقذهم من

---

١ المحبر (٢٤٩) ، ابن الأثير (٢٣٨/١) .

٢ ابن الأثير ، الكامل (٢٠٥/١) .

٣ (خزاز) ورد أيضا (خزازي) ، العقد الفريد (٩٧/٦) (تحقيق العريان) ابن رشيق ، العمدة (٢١٢/٢) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ، تحت (باب ذكر الوقائع والايام) .

تعسف اليمن بهم[1] .

وقد داخل (كليب بن ربيعة) زهو شديد بعد هذا النصر ، وبعد سيادته بني معد ، فبغى على قومه ، وصار يتعسف في احماء الحمى ، فلا يرعى حماه أحد ، ولا يصاد فيه ولا تَرِدُ إبل مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، وبقي كذلك حتى قتله (جسّاس بن مرّة الوائلي) ، فتوالت الحروب بين تغلب وبكر وائل بسبب ذلك[2] .

وقد اختلف الأخباريون في هذا اليوم ، واختلفوا في اسم قائد قبائل معد فيه، واختلفوا في اسم ملك اليمن الذي في عهده وقع ، واختلفوا في زمن وقوعه ، وفي سببه ، فقالوا : إن رئيس معد فيه هو (كليب بن ربيعة) ، وقالوا : بل هو زُرارة بن عدس ، وقالوا : لا ، وإنما هو ربيعة بن الأحوص بن جعفر . ويذكر بعضهم أنه وقع بعقب يوم السّلاّن،وأنه كان لجموع ربيعة ومضر وقضاعة على مذحج وغيرهم من اليمن[3] .

وذكر جماعة من أهل الأخبار ، أن (الأحوص بن جعفر بن كلاب) ، كان على نِزار كلها يوم خزاز ، ثم ذكرت ربيعة أخيراً من الدهر أن كليباً كان على نزار . وتوسطت جماعة بين الرأيين ، فقالت : كان كليب على ربيعة ، وكان الأحوص على مضر[4] .

وسبب اختلافهم في ذلك هو دور العصبيات القبلية ، والنزعات العاطفية عند الرواة . ذكر أهل الأخبار ان جماعة من وجوه أهل البصرة ، كانوا يتجالسون يوم الجمعة ويتفاخرون ويتنازعون في الرياسة يوم خزاز ، فتعصب كل قوم لرئيس من الرؤساء الذين ذكرت . وقد تحاكموا إلى (عمر بن العلاء) وكانوا في مجلسه ، فقال : ما شهدها عامر بن صعصعة ولا دارم بن مالك ، ولا جُشَم بن بكر ، اليوم أقدم من ذلك . ولقد سألت عنه ، فما وجدت أحداً من القوم يعلم من رئيسهم ومَنْ الملك[5] . وقد أنكر بعضهم أن يكون لكليب بن ربيعة دور

---

١ ابن الأثير (٢٣٨/١) ، صبح الأعشى (٣٩/١) .
٢ صبح الأعشى (٣٩١/١) .
٣ العمدة (٢١٢/٢) ، المحبر (ص ٢٤٩) ، العقد الفريد (٩٨/٦) (طبعة العريان).
٤ البلدان (٤٣٨/٣ وما بعدها) ، العمدة (٢١٢/٢) (محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٥ العقد الفريد (٩٧/٦ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٤٢٠/١٥) .

بارز فيه. والظاهر أن روايات الرواة عن هذا اليوم ، وهي شفوية بالطبع، كانت متضاربة تضارباً كبيراً بسبب بعد عهد ذاكرتهم عنه ، كما كانت متنافرة بسبب العواطف والنزعات القبلية ، وتعصب كل راوٍ لقبيلته . فلما جاء مدوّنو الأخبار لجمع ما في حافظة رواة القبائل عن هذا اليوم ، وجدوا اختلافاً كبيراً ، حاولوا جهد امكانهم التوفيق بينه ، واستخراج قصة موحدة عنه ، فجاؤوا بهذا الذي جاؤوا به .

وترجع رواية من روايات أخبار هذا اليوم، سبب وقوعه الى جباية أهل اليمن لقبائل معدّ . (كان الرجل منهم يأتي، ومعه كاتب وطنفسة يقعد عليها، فيأخذ من أموال نزار ما شاء ، كعمال صدقاتهم اليوم، وكان أول يوم امتنعت معد عن الملوك: ملوك حمير)[1] . فلما ضجرت نزار وبقية قبائل معد من هذه الجباية القاسية ، ومن هذا التعسف ، هاجت على اليمن ، وأعلنت عصيانها على القحطانيين ، فوقع هذا اليوم . أوقدت ناراً على خزاز ثلاث ليال ، ودخّنت ثلاثة أيام . فلما أحست مَذْحج باجتماع (معد) ، سارت على نزار ومن انضم اليها من معد ، فوقع يوم خزاز .

وجاء في رواية أخرى ، ان سبب هذا اليوم هو احتباس ملك من ملوك اليمن أسرى من مضر وربيعة وقُضاعة ، وامتناعه عن فك أسرهم ، وذلك في عهد (كليب) . فجاءه وفد من بني معد فيهم : سَدُوس بن شيبان بن ذُهْل ، وعوف بن محلّم بن ذهل بن شيبان ، وعوف بن عمرو بن جُشم بن ربيعة بن زيد مناة ، وجشم بن ذهل بن هلال . فلقيهم رجل من بهراء يسمى عبيد بن قُراد ، وكان في الأسر وكان شاعراً ، فسألهم أن يدخلوه في عدّة من يسألون. فكلموا الملك فيه وفي الأسرى ، فوهبهم لهم ، وأبقى الملك بعض أفراد الوفد رهائن حتى يأتي الباقون برؤساء قومهم ليأخذ عليهم مواثيق الطاعة . فرجع الباقي إلى قومهم وأخبروهم الخبر ، فاجتمعت ربيعة ومعد تحت راية (كليب بن ربيعة) (كليب وائل) ، فسار ومعه (السفاح التغلبي) وهو سلمة بن خالد بن كعب ابن زهير بن تيم بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن تغلب ، وقد جعله (كليب) على مقدمة معد ، وأمر (كليب) أن توقد النار على خزاز، ليهتدوا

---

1 العقد الفريد (٦/ ٩٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٥/ ٤٢٠ وما بعدها) .

بها . فلما سمعت مذحج باجتماع ربيعة ، استعدت هي ومن يليها من قبائل اليمن للقتال ، وساروا اليهم . فلما سمع أهل تهامة بذلك انضموا الى ربيعة ، وساروا كلهم الى خزاز . فلما التقى الطرفان ، اقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت مذحج شر هزيمة فيه[1] .

ولياقوت الحموي رواية أخرى في سبب وقوع هذا اليوم ، فهو يقول إن مضر وربيعة اجتمعت على أن يجعلوا منهم ملكاً يقضي بينهم، فكلٌ أراد أن يكون منهم، ثم تراضوا أن يكون من ربيعة ملك ومن مضر ملك، ثم أراد كل بطن من ربيعة ومن مضر أن يكون الملك منهم ، ثم اتفقوا أن يتخذوا ملكاً من اليمن ، فطلبوا ذلك الى بني آكل المرار من كندة ، فملكوا أولاد الحارث بن حجر الكندي عليهم ، ثم ما لبثوا أن ثاروا عليهم وقتلوهم ، فكان حديث يوم الكلاب . ولم يبق من ولد الحارث غير سلمة ، فجمع جموع اليمن وسار ليقتل نزاراً ، وبلغ ذلك نزاراً فاجتمع بنو عامر وبنو وائل ، وتغلب وبكر ، وبلغ الخبر كليب وائل ، فجمع ربيعة ، وقدم على مقدمته السفاح التغلبي ، فكان يوم خزاز، وقد انتصر بنو نزار فيه على القبائل اليمانية[2] . وهذه الرواية قريبة جداً من رواية (اليعقوبي) عن هذا اليوم[3] .

وقد أشار (عمرو بن كلثوم التغلبي) الى هذا اليوم ، وافتخر به ، كما افتخر بـ (كليب وائل) ، وذكر أن قومه أعانوا نزاراً في محاربتهم اليمن في ذلك اليوم[4] . وذكر بعض أهل الأخبار أنه (لولا عمرو بن كلثوم ما عُرف يوم خزاز)[5] . وذلك لذكره له في شعره .

وقد ذكر هذا اليوم عدد آخر من الشعراء منهم (زهير)[6] .

---

١ ابن الأثير الكامل (١/٢٤٣) (١/٣١٢) ، النقائض (١٠٩٣) (بيفان) ، العقد الفريد (٥/٢٤٥) ، ابن الأثير (١/٣١٠) (المنيرية) ، نقائض جرير والفرزدق (٤٥٢) ، الجمحي ، الطبقات (٣١) ، العقد الفريد (٣/٣٦٤) ، أيام العرب (١٠٩) .

٢ البلدان (٣/٤٢٨ وما بعدها) ، أيام العرب (١٠٩ وما بعدها) .

٣ اليعقوبي (١/١٨٤) .

٤ شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٣٠) ابن الأثير الكامل (١/٣١٢) .

٥ البكري ، معجم ما استعجم (٢/٤٩٦) (باب حرف الخاء) العقد الفريد (٦/٩٧ وما بعدها) .

٦ شهدت الوافدين على خزاز وبالسلان جمع ذا ثواء
البكري ومعجم (٢/٤٩٦) .

والسفّاح التغلبي ، وهو سلمة بن خالد من الجرارين للجيوش ، وقد قاد قومه يوم كاظمة ، وقيل له السفّاح لأنه سفح المزاد أي صبّها في ذلك اليـوم حتى يقاتل قومه قتال المستميت ، وكان من خطباء حرب بكر وتغلب[1] .

وذهب بعض أهل الأخبار الى أن يوم خزاز هو (أعظم يوم التقت فيه العرب في الجاهلية)[2] . وهو رأي يعبر عن وجهة نظر العدنانيين بالطبع . ففي هذا اليوم انتصرت نزار ومن انضم اليها من قبائل مذحج ومن انضاف اليها من قبائل اليمن ولم يسبق لقبائل نزار،وهي مضر وربيعة وبقية معدّ أن تغلبت على القبائل الكبرى المنظمة المنتمية الى اليمن . فكان يوم نصرها هذا من أعظم الأيام عندها ، بعث فيها روح المقاومة والاعتماد على النفس في مقاومة القبائل القوية التي تنسب نفسها الى اليمن .

واذا أخذنا برأي القائلين إن يوم خزار كان عقب يوم السلاّن ، يكون هذا اليوم قد وقع أيام النعمان بن المنذر ، أي في أواخر أيام المناذرة وفي النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، إذ يذكر الأخباريون أن سبب وقوع يوم السلاّن هو ان بني عامر بن صعصعة كانوا قومـاً حمساً ، أي متشددين في دينهم ، لقاحاً لا يدينون للملوك . وكان من عادة النعمان بن المنذر أن يجهز كل عام لطيمـة لتباع بعكاظ ، فتعرّض لها بنو عامر ، فغضب النعمان ، وبعث عليهم وَبْرةَ الكلبي أخاه لأمه ومعه الصنائع والوضائـع وجماعة من بني ضبة بن أد والرباب وتميم ، وانضم اليهم ضرار بن عمرو وأولاده ، وهـم فرسان شجعان ، وحبيش ابن دلف ، وطلب منهم أن يذهبوا الى عكاظ فإذا فرغوا من البيع ، وانسلخت الأشهر الحرم ، قصدوا بني عامر بنواحي السلاّن .

فلما فرغوا من عكاظ ، علمت بخطتهم قريش ، وأرسل عبـدالله بن جُدعان قاصداً أخبر بني عامر بغرض القوم ، فحذروا وتهيأوا للحرب ، وتحرزوا ووضعوا العيون ، وسلموا قيادتهم لفارس شهير معروف هو عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة . فلما التقوا تغلبوا على قوة النعمان وهزموها ، وأخـذوا وبرة أسيراً . ولم يفكوه من أسره إلا بألف بعير وفرس[3] .

---

١ الاشتقاق (ص ٢٠٣) ، المحبر (ص ٣٠٠) .
٢ البلدان (٣/٤٢٨ وما بعدها) .
٣ البلدان (٥/١٠٤) ، (يوم السلان) ، ابن الاثير ، الكامل (١/٢٦٨) .

ويدخل يوم الكلاب الثاني في عداد هذه الأيام . وقد وقع عقب يوم الصفقة، وقع بين تميم وبني سعد والرباب وبين مذحج ومن التف حولها من قبائل اليمن . فلما بلغ مذحج ما حل بتميم بالمشقر وبهجر بعد الصفقة ، وما سمعته من تخوفهم من انتقام كسرى مرة ثانية منهم ومن دوران العرب عليهم ، مشى رجال مذحج بعضهم الى بعض ، وقالوا : اغتنموا بني تميم ، ثم بعثوا الرسل في قبائل اليمن وأحلافها من قضاعة ، ثم سألت مذحج كاهنتها المأمور (الحارثي) في أمر هذا الهجوم فنهاها ، ولكنها لم تأخذ برأيه ، بل سارت طامعة في تميم ، وقد جمعت اثني عشر ألف مقاتل ، من مذحج وهمدان وكندة : وهو أعظم جيش أخرجه العرب كما يقول علماء الأخبار[1] . وكان من رجالهم يزيد بن عبد المدّان ، ويزيد ابن المخرّم ، ويزيد بن الكيشم (الكيسم) (اليكسم) بن المأمور (المأموم)، ويزيد بن هوبر . وهم كلهم حارثيون ، ومعهم عبد يغوث الحارثي ، وأقبلت بنو سعد والرباب . ورئيس الرباب النعمان بن جسّاس ورئيس سعد بن قيس بن عاصم،والتقت في أوائل الناس بجموع مذحج وهمدان وكندة ، واختلطوا واقتتلوا قتالاً شديداً انتهى في آخر النهار بمقتل (النعمان بن جساس) . وقد دفع مقتله بني تميم على الثبات والوقوف للأخذ بالثأر ، حتى تمكنت من الانتقام لنفسها ، بأن انتصرت على اليمن. فأسر (عبد يغوث بن وقاص الحارثي) ، (عبد يغوث ابن صلاءة الحارثي) سيد (بني الحارث) ، وقتل خمسة من أشراف اليمن ، وأخذت الرباب (عبد يغوث) وقتلته بقتل (النعمان بن جساس) . وهكذا انتهى هذا اليوم بفوز بني تميم . وكان رئيسها في هذا القتال : قيس بن عاصم. ويسمى الكلاب الثاني : يوم جز الدوابر[2] . ودعاه (ابن رشيق القيرواني) بـ (يوم الشعيبة)[3] .

ونعت بعض أهل الأخبار اليزيديين الأربعة المذكورين وهم قادة القوم : يزيد ابن هوبر ، ويزيد بن عبد المدّان ، ويزيد بن المأموم ، ويزيد بن المخرم ،

١ (فلا يعلم جيش في الجاهلية كان أكبر منه) ، العقد الفريد (٧٨/٦ وما بعدها) .
٢ النقائض (٤٥٢/١ وما بعدها) (بيفان) العقد الفريد (٧٨/٦ وما بعدها) ، البكري ، معجم ما استعجم (١١٣٢/٤) ، النقائض (١٠٧٥/٢) ، ابن الاثير الكامل (٣٧٩/١) ، العقد الفريد (٢٢٥/٥) ، نهاية الأرب (٤٠٦/١٥ وما بعدها) .
٣ العمدة (٢٠٦/٢) .

بـ (أربعة أملاك)[1] . ويدل ذلك على انهم كانوا يلقبون بلقب ملك ، وأن (بني الحارث) كانوا قد نصبوهم عليهم ، وإن كان لقب (ملك) لا يتجاوز في الواقع لقب (شيخ) في عرف هذا اليوم .

وكان من أبرز رجال تميم في هذا اليوم سبعة من رؤسائهم ، هم : أكثم بن صيفي ، والأحيمر (الأعيمر) بن يزيد بن مُـرّة المازني ، وقيس بن عاصم المنقري ، وأبير بن عصمة التيمي ، والنعمان بن جساس (الحسحاس) التيمي ، وأَبين بن عمرو السعدي ، والزبرقان بن بدر السعدي[2] . وبرز فيه اسم (مصاد بن ربيعة بن الحارث) و (عصمة بن أبير التيمي) وهو الذي أسر (عبد يغوث) و (قبيصة بن ضرار الضبيّ) ، وهو الذي شدّ على (ضمرة بن لبيد الحماسي الكاهن) فطعنه وخرّ صريعاً،فقال له قبيصة : ألا أنبأك تابعك بمصرعك اليوم[3] .

وأما (الكلاب الأول) ، فكان لسلمة بن الحارث بن عمرو المقصور،ومعه : بنو تغلب والنمر بن قاسط ، وسعد بن زيد مناة والصنائع ، على أخيه (شرحبيل ابن الحارث بن عمرو) ، ومعه بكر بن وائل بن حنظلة بن مالك ، وبنو أسد، وطوائف من بني عمرو بن تميم ، والربّاب . فقتل (شرحبيل) ، قتله (أبو حنش عاصم بن النعمان الجشمي) ، ويقال : بل قتله (ذو الثنيّة حبيب ابن عُتبة الجشمي)[4] .

ومن هذه الأيام يوم (فيف الريح) ، وهو موضع بأعلى نجد ، وقع بين مذحج وعامر . وسببه أن (بني عامر) كانوا يطلبون (بني الحارث بن كعب) بأوتار كثيرة ، فجمع لهم الحصين بن يزيد الحارثي ، وكان يغزو بمن تبعه من قبائل مذحج وأقبل في بني الحارث وجُعْفي ، وزبيد ، ومراد ، وقبائل سعد العشيرة ، ومراد ، وصداء ، ونهد ، واستعانوا بقبائل خثعم وعليهم أنس بن مدرك ، فخرج شهران وناهس وأكلب عليهم أنس بن مدرك ، وأقبلوا يريدون بني عامر ، وهم متتجعون (فيف الريح) ، ومع مذحج النساء والذراري ، حتى لا يفرّوا ، إمّا ظفروا وإمّا ماتوا جميعاً . فاجتمعت بنو عامر كلها الى

---

١ نهاية الأرب (١٥/٤٠٨) .
٢ نهاية الأرب (١٥/٤٠٧) ، أيام العرب (١٢٤) .
٣ نهاية الأرب (١٥/٤١٠) .
٤ العمدة (٢/٢٠٦) (ط. محمد محيي الدين عبد الحميد) .

عامر بن الطفيل (عـــامر بن مالك ملاعب الأسنة) ، والتقى الجمعان في قتال لم يعط نصراً بيناً لأحد الطرفين ، إذ وقع القتل في الفريقين ، ولم يستقلّ بعضهم عن بعض غنيمة ، وكان الصبر والشرف لبني عامر . وممن قتل أو جرح فيه : الصُميل بن الأعور الكلابي ، وحسيل بن عمرو الكلابي ، وخليف بن عبـــد العزى النهدي ، وكعب الفوارس بن معاويـــة بن عبادة بن البكاء ، وعامر بن الطفيل[1] .

ومن أيام القحطانيين مع العـــدنانيين (يوم ظهر الدهناء) . كان أوس بن حارثة بن لأم سيداً في قومه طيء ، مطاعاً فيهم ، جواداً معروفاً . حباه النعمان ابن المنذر حلة على العادة المتبعة عند ملوك الحيرة في تكريم الرؤساء الذين يفدون عليهم ، وفضله على غيره ، بأن طلبه وكان غائباً دون قوم من السادة الأشراف، فاغتاظ حساده من ذلك وأوعزوا الى بعض الشعراء بهجائه،فهجاه بشر بن أبي خازم وهو من بني أسد ، وأسرف في هجائه ، فاغتاظ أوس من ذلك ، وجمع قومه من طيء ، وأوقع ببني أسد بظهر الدهناء ، وقتل منهم قتلاً ذريعاً ، فانهزمت منه ، وهرب بشر ، فجعل لا يأتي حياً يطلب جوارهم إلا امتنع من إجارتـــه على أوس الى ان التجأ الى أم أوس ، فأجارته ، وأجاره أوس عندئذ ، وعفا عنه ، ومنّ عليه وأعطاه وحباه ، فانقلب مادحاً له[2] .

والأيام التي ذكرها الأخباريون عن حروب العدنانيين مع ملوك اليمن للحصول على استقلالهم ، قليلة . ولا يعني حـــكم اليمن للعدنانيين أن تبابعة اليمن كانوا يحكمون تلك القبائل حكماً مباشراً ، وانما هو في الواقع وكما يظهـــر من غربلة هذه الروايات حكم كان يتسع ويتقلص تبعاً لقدرة الحكام وشخصياتهم، ولاتفاقاتهم مع سادات تلك القبائل،ولأن القبائل العدنانية هي قبائل بدوية في الغالب لا تستقر على حال ، ومن طبع البداوة التنازع والتخاصم . ثم إن سادات القبائل كانوا كما هو شأنهم في كل وقت متنافسين متخاصمين ، لذلك وجد ملوك اليمن، وهم ملوك

---

١ الميداني (٢/٣٠٨) ، الاغاني (٥/٢١) ، البلدان (٦/٤١٣) ، النقائض (٤٦٩)، العقد الفريد (٣/٣٥٩) ، ذيل الأمالي (١٤٦) ، أيام العـــرب (١٣٢) ، نهايـــة الأرب (١٥/٤١٤ العمدة (٢/٤١٣) .

٢ راجع ديوان بشر بن ابي خازم الاسدي ، تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق ١٩٦٠ ابن الأثير الكامل (١/٢٦٢) ، بلوغ الأرب (١/٨٤) ، ابن الاثير (١/٣٨٢) ، الشعر والشعراء (٨٦) ، ايام العرب (١٣٧ وما بعدها) .

شعب أكثريته مستقرة ، من السهل عليهم التدخل في شؤون تلك القبائل بتأييد هذا الرئيس على منافسه ، وبتعيين رئيس من رؤساء القبائل الكبيرة على قبيلة أو جملة قبائل أخرى ضعيفة أو متخاصمة ، لتهيئة الحال واقرار الأمن . فصار من العادة بين القبائل العدنانية ، بل بين القبائل القحطانية كذلك ، أو بين كبار سادات القبائل ، أن يلجأوا الى التابعة للتدخل في الخصومات واقرار الأمن بالحكم بين المتخاصمين ، أو بتعيين رجل محترم كبير من اليمن أو من غير اليمن عليهم. ونجد بين روايات الأخباريين روايات تؤيد هذا الرأي .

ويدخل الأخباريون في أيام العدنانيين مع القحطانيين الأيام التي وقعت بين القبائل العدنانية وبين ملوك الحيرة لاعتدادهم من قحطان . وكذلك يدخل أهل الأخبار في أيام القحطانية مع العدنانية الأيام التي وقعت بين ملوك بني سليح والغساسنة من بعدهم وبين القبائل العدنانية ، والأيام التي وقعت بين كندة وبين القبائل العدنانية .

واذ أسلفت الكلام على ايام تلك الحكومات مع القبائل العدنانية في المواضع المناسبة ، فإني أكتفي بالاشارة اليها ، على أمل الرجوع الى تلك الأماكن لمن يريد الوقوف عليها .

أما أشهر أيام القحطانيين ، فالأيام التي وقعت بين المناذرة والغساسنة ، والأيام التي وقعت بين هؤلاء الملوك وملوك كندة وأمرائها ، ثم الأيام التي وقعت بين القبائل المنتسبة الى اليمن ، مثل الأيام التي وقعت بين الأوس والخزرج ، والأيام التي وقعت بين قبائل طيء ، وأمثال ذلك . ولمّا كنت قد تحدثت عن معظم هذه الأيام ، فسأكتفي بما تحدثت عنها ، وأتحدث عن التابه من بقية الأيام فقط مما لم أتحدث عنه سابقاً .

وتؤلف الأيام التي وقعت بين القبائل العدنانية الجزء الأكبر من أيام العرب ، وهي أهمها وأغناها بالشعر والأمثال والقصص. وكان لتميم وبكر وتغلب أثر خطير فيها . وأشهر هذه الحروب ، الحرب المسماة بحرب البسوس ، وقعت بين بكر وتغلب ودامت أربعين عاماً على ما يذكره الأخباريون .

وتغلب وبكر هما من قبائل ربيعة ، لذلك تكون حرب البسوس من الحروب التي وقعت بين قبائل ربيعة ، لأن أيام العدنانيين هي أيام وقعت بين قبائل ربيعة وحدها ، وأيام وقعت بين قبائل من ربيعة وقبائل من مضر ، وأيام وقعت بين

قبائل مضر[1] .

وذكر بعض أهل الأخبار أن أشهر أيام بكر وتغلب ، خمسة أيام مشاهير . أولها يوم عنيزة وتكافأوا فيه ، والثاني يوم واردات ، وكان لتغلب على بكر . والثالث يوم الحنو ، وكان لبكر على تغلب . والرابع يوم القصيبات ، وكان لتغلب على بكر . والخامس يوم قِضة ، وهو آخر أيامهم ، وكان لبكر . وفيه أسر مهلهل بن ربيعة[2] .

وتولد من هذه الحرب قصص وشعر ، نسب الى أبطال الأيام التي وقعت فيها ، وأمثلة ذُكر انها قيلت في المناسبات ، صارت على العادة أمثلة شائعة بين الناس[3] .

وليست حرب البسوس في الواقع حرباً واحدة ، انما هي حروب عدة وقعت في تلك المدة المذكورة وفي أوقات متقطعة الى أن انقطعت بوساطة المنذر بن ماء السماء وتدخله بين الفريقين .

والذي أثار نيران هذه الحرب هو جسّاس بن مرة بن ذهل بن شيبان أخو (جليلة) امرأة كليب بن ربيعة سيد قبيلة تغلب ، وذلك بقتله كليباً،لأنه أدمى ضرع ناقة للبسوس خالة جساس ، إذ كانت ترعى في أرض حماها كليب ومنع الرعي فيها إلا لإبله . وقد أثار عمل كليب هذا غضب جساس ، فقتله ، وثارت بذلك الحرب بين تغلب وبكر قوم جساس .

وكليب بن ربيعة ، أو (كليب وائل) كما يعرف عند بعض أهل الأخبار، هو وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو

---

١ المعارف (٦٠٥ وما بعدها) ، المختصر في اخبار البشر ، لابي الفداء (١/٩٥ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٩٩ وما بعدها) ، العقد الفريد (٥/٢١٣ وما بعدها) ، سبائك الذهب (١٠٥) ، مقامات الحريري (٢٦٠) ، الاغاني (٤/١٣٩ وما بعدها) ، فرائد اللال في مجمع الامثال ، لابراهيم بن السيد علي الإحدب الطرابلسي ، (١/٣١٩ وما بعدها) ، (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت) ، صبح الاعشى (١/٣٩١ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٣١٢) ، نهاية الارب (١٥/٣٩٦) .

٢ الشعر والشعراء (١٦٦) .

٣ الاغاني (٤/١٤٠ وما بعدها) ، أبو تمام ، الحماسة (٤٢٠ وما بعدها) ، مجمع الامثال (١/٣٤٢) ، النقائض (٧٧٣) ، شيخو : شعراء النصرانية (١٥١ ، ١٦٠ ، ٢٤٦ ، ٢٧٠) ، نهاية الارب (١٥/٣٩٦ وما بعدها) ، ابن الاثير (١/٢٤١ وما بعدها) . ENCY. I, p. 674.

ابن غنم بن تغلب[1] . رجل صلب قويّ ، تمكن بمواهبه وبقدرته من السيطرة على قبائل ليست السيطرة عليها بأمر سهل يسير ، ومن إقامة نفسه ملكاً عليها ، ومن أخذ الإتاوة من القبائل ، ومن الانتصار على قبائل اليمن في يوم خزاز . وبقي على ذلك دهراً ، حتى داخله زهو شديد ، فأخذ يبغي على القبائل ويشتط في أخذ الإتاوة منها وفي اتخاذ خيرة الأرضين المخصبة أحماء لا يجوز لإبل غيره الرعي فيها ، ولا الاستيلاء على مواضع الماء ، حتى ضجرت الناس منه ، فكانت نتيجته ما تقدم[2] .

وأخذ المهلهل (واسمه عدي بن ربيعة) ، وهو أخو كليب على نفسه عهداً بأن يترك النساء ، والغزل ، والقمار ، والشراب ، حتى يثأر بقتل أخيه ، وجمع قومه ، ووقعت حروب . ومهلهل هذا هو أول من هلهل الشعر ، أي أرقه على حد رواية أهل الأخبار[3] .

وقد أقام أصحاب (كليب) قبة رفيعة على قبره ، تكريماً له[4] . شأن الجاهليين في ذلك الزمن من إقامة القباب على قبور الكبار .

وفي جملة الأيام التي يدخلها أهل الأخبار في حرب البسوس : يوم النهي ، ويوم الذنائب ، ويوم واردات ، ويوم عنيزة ، ويوم القصيبات ، ويوم تحلاق اللمم[5] .

وكما كان كليب سيد تغلب ، كذلك كان زهير بن جذيمة العبسي سيد قيس عيْلان . وقيس عيلان قبائل كبرى عديدة ، كان لها شأن بين القبائل وخطر ، ترأس غطفان ، وقادها كلها وساد على عبس وذبيان ، ولمكانته هذه ولسؤدده تزوج اليه النعمان بن امرىء القيس ملك الحيرة ، فتوسع بذلك نفوذه وعظمت منزلته عند القبائل ، ولا سيا القبائل المتصلة به والقبائل الخاضعة لملوك الحيرة .

---

١ للاخباريين أقوال في سبب تسميته بكليب ، راجع عن ذلك : الكامل ، لابن الاثير (٢١٤/١) ، الاشتقاق (ص ٢٠٤) ٠

٢ ابن الاثير (٢١٤/١ وما بعدها) ، العقد الفريد (راجع فصل أيام العرب) ، النقائض (٩٠٥ وما بعدها) ، الميداني (٢٥٤/١) ، خزانة الادب (٣٠١/١ وما بعدها) ٠

٣ نهاية الارب (٣٩٨/١٥ وما بعدها) ٠

٤ أيام العرب (١٦٥) ٠

٥ ابن الاثير (١٨٣/١) ، العقد الفريد (٣٤٨/٣) ، البلدان (١٣٩/١) ، الاغاني (٣٢/٥) ، مجمع الامثال (٣٤٢/١) ، خزانة الادب (٤٢٥/١) ، أيام العرب (١٤٢) ٠

واتفق ان أحد أولاد زهير – واسمه شأس – كان عائـداً من زيارته للنعمان ومعه هدايا ثمينة وألطاف فاخرة حباه بها النعمان ، فطمع به رجل من غنيّ اسمه (رياح بن الأسلك الغنوي) وقتله بموضع منعج . فلما علم بذلك أبوه ، أخذ يقتل كل من وقعت عليه يده من غنيّ . وغزت بنو عبس غنيّاً ومعها الحصين بن زهير أخو شأس ، فطلبت غنيّ من رياح ترك أرضها والارتحال عنها ، وصار هذا القتل سبباً لإثارة البغضاء بين عبس وغنيّ لما أوقعه زهير بغنيّ من القتل[1] .

ويوم منعج ويسمى أيضاً بـ (يوم الردهة)[2] ، من الأيام التي وقعت بين قبائل قيس . ومن هذه الأيام : يوم النفراوات (النفرات) ، ويوم بطن عاقل وداحس والغبراء ، والرقم ، والنتاءة ، وحوزة الأول ، وحوزة الثاني ، واللوى[3] .

وكان زهير يأخذ الإتاوة من هوازن كرهاً، تدفعها اليه كل عام بسوق عُكاظ وهي مكرهة . وكانت هوازن تعترف بسيادته عليها وتعتبره رباً ، وهي يومئـذ لا خير فيهـا ، وإنما هي رعاة الشاء في الجبال . فإذا كانت أيام عكاظ أتاها زهير ، ويأتيها الناس من كل وجه ، فتأتيه هوازن بالإتاوة التي عليهم ، فيأتونه بالسمن والأقط والغنم ، ثم اذا تفرق الناس نزل بالنفراوات . فلما كان الدفع ، ذهب زهير على عادته لأخذ الإتاوة ، انتهز (خالد بن جعفر بن كلاب) هذه الفرصة ، فذهب الى هوازن ، وحرضها على زهير . فلما بلغ زهير أطراف بلاد هوازن ، باغته خالد بن جعفر ومعه جمع من هوازن ، فقتل زهير ، ورجع به أبناؤه الى بلادهم ليدفنوه . وقـد عرف اليوم الذي قتل فيه زهير بيـوم النفراوات[4] .

وعزمت غطفان على الأخذ بثأر زهير من خالد ، فخاف خالد على نفسه منها، وفرّ الى الحيرة ليستجير بالنعمان في رواية، أو بالأسود بن المنذر في رواية أخرى . عندئذ تعهد الحارث بن ظالم المريّ . وهو فاتك معروف ، لبني زهير بقتل خالد اذا كفت غطفان عن هوازن . وقد برّ بوعده ، إذ اغتاله وهو في قبـة كان

---

١ الاغاني (١٠/٨) ، مجمع الامثال (٢/٢٦٨) ، ابن الاثير ، الكامل (١/٣٣٧) ، نهاية الارب (١٥/٣٤٤ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (١٥/٣٤٤ وما بعدها) .
٣ أيام العرب (٢٢٩) .
٤ « النفرات » « النفراوات » ، نهاية الارب (١٥/٣٤٦) ، الاغاني (١١/٨٤ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) ، العقد الفريد (٦/٥ وما بعدها) .

النعمان قد أمر بنصبها له . وذلك يبطن عاقل ، فعرف اليوم به[1] . فلما علم بذلك النعمان ، أمر بطلبه ليقتله بجاره ، وأخذت هوازن تطالب به لتقتله بسيدها خالد . ففرّ الحارث الى بني دارم من تميم ، واستجار بضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن ، فأجاره ضمرة على النعمان وهوازن ، فكان ذلك سبباً لتجهيز النعمان جيشاً على بني دارم انتقاماً منها لتجاسرها على ايواء من يطلب قتله .

وورد في رواية أخرى أن لجوء (الحارث بن ظالم) كان الى (معبد بن زرارة) ، وأن بني تميم استاءت من لجوئه إليه ، لأنه أوى هذا المشؤوم الأنكد ، وأغرى بهم الأسود ملك الحيرة ، وخذلوه غير بني ماوية وبني عبدالله بن دارم[2].

وجاء في خبر أن (الحارث بن ظالم) كان عند (حاجب بن زرارة بن عدس بن عبدالله بن دارم) . وقد وعده النصرة والمنعة . وبلغ الأحوص بن جعفر الكلابي أخو خالد بن جعفر ، مكان الحارث بن ظالم ، فسار على تميم ، حتى أدركها بـ (حرحان) ، فاقتتلوا اقتتالاً شديداً ، وانهزمت بنو تميم ، وأسر معبد بن زرارة ، أسره عامر والطفيل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب . فوفد لقيط بن زرارة في فدائه ، وعرض عليها مئتي بعير في فدائه ، فامتنعا قائلين : أنت سيّد الناس ، وأخوك معبد سيد مضر ، فلا تقبل فيه إلا دية ملك . فأبى أن يزيدهم ، ورحل لقيط عن القوم ومنع بنو عامر معبداً عن الماء وضاروه حتى مات هزالاً .وورد في رواية انه أبى أن يطعم شيئاً أو يشرب حتى مات هزالاً[3].

وأمر النعمان جيشه بالتوجه الى بني دارم ، وانضم اليه الأحوص بن جعفر أخو خالد ، ومعه جمع بني عامر ، للإنتقام من الحارث قاتل خالد . فعلمت بنو دارم بمجيء الجيش ، واستعدوا للقتال ، فلما التقى الجمعان ، قتلت بنو مالك ابن حنظلة (ابن الخمس التغلبي) رئيس جيش النعمان ، وصبرت بنو دارم ، وأقبل قيس بن زهير فيمن معه ، فانهزمت بنو عامر ، وانهزم جيش النعمان ، وعادوا الى ديارهم ، وكان رئيس بني دارم زرارة بن عدس سيّد بني تميم .

---

١ نهاية الارب (١٥/٣٤٨) .
٢ نهاية الارب (١٥/٣٤٩) .
٣ العقد الفريد (٣/٣٦٠) ، الاغاني (١٠/٣٠) ، ابن الاثير (١/٣٤١) ، النقائض (١/٢١٤) ، نهاية الارب (١٥/٣٤٩) وما بعدها .

وهناك روايات أخرى عن هذا الحادث وعن الحارث ذكرتها في الفصول السابقة[1].

وصارت الرئاسة الى قيس بعد مقتل والده (زهير بن جذيمة العبسي) ، ويصفه الأخباريون بجودة الرأي وبحسن التجارب، ويقولون إنه لذلك عرف بـ (قيس الرأي) ، ويذكرون له في ذلك أقوالاً وحكماً ونصائح ، ويروون طائفة من ذلك ، ولا سيا مما قاله في مناسبات حرب داحس والغبراء .

ويذكر أهل الأخبار أن قيس بن زهير بن جذيمة العبسي ، كان قد سار الى المدينة ليتجهز لقتال عامر ، والأخذ بثأر أبيه ، فأتى (أحيحة بن الجُلاح) ليشتري منه درعاً موضونة ، فقال له : لا أبيعها ، ولولا أن تذمني بنو عامر لوهبتها منك ، ولكن خذها بابن لبون . ففعل ذلك ، وأخذ الدرع ، ووهبه أحيحة أدراعاً ، وعاد قيس الى قومه ، فاجتاز بالربيع بن زياد العبسي ، فدعاه الى مساعدته على الأخذ بثأره ، فأجابه الى ذلك . فلما أراد فراقه، نظر الى عيبته فقال : ما في حقيبتك ؟ قال : متاع عجيب، لو أبصرته لراعك، وأناخ راحلته ، وأخرج الدرع ، فأخذها ومنعها من قيس ، ولم يعطه اياها ، وترددت الرسل بينهما . فلما طالت الأيام على ذلك ، سيّر قيس أهله الى مكة ، فأغار قيس على نعم الربيع ، واستاق منها أربع مئة بعير ، وسار بها الى مكة وباعها من عبدالله ابن جدعان واشترى بها خيلاً ، وتبعه الربيع فلم يلحقه ، فكان فيما اشترى من الخيل داحس والغبراء[2] .

وقد اقترن اسم قيس بهذه الحرب الشهيرة التي يتناقل الناس قصصها الطريفة حتى اليوم ، وهي حرب ثارت بين عبس وذبيان بسبب اختلاف على سباق خيل كان قد تراهن عليه حذيفة بن بدر بن فزارة سيد ذبيان وقيس بن زهير ، اشتركت فيه خيار خيل قيس وحذيفة وفي مقدمتها داحس والغبراء والخطار والحنفاء . وقد ادعى كل واحد من المتنافسين أن فرسه كان السابق ، وانه هو الكاسب للرهان في قصص طويل يتخلله شعر وكلام وجواب . وانتهى النزاع الى ما ينتهي اليه

---

١ ابن الاثير (١/٢٢٩ وما بعدها) ، الاغاني (٨/ ١٠) ، مجمع الامثال (٢/٢٦٨) ، العقد الفريد (٦/٧ وما بعدها) .

٢ ابن الاثير ، الكامل (١/٣٤٣ وما بعدها) .

كل نزاع من هذا القبيل ، وهي الحرب[1] .

وهي حرب استمرت سنين ، قتل فيها حذيفة بن بدر وعدة رؤساء،واشتركت فيها شيبان وضبّة وأسد وغطفان وقبائل أخرى ، كما ساهم فيها ملك هجر ، وامتدت الى أن اتصلت بالاسلام . وللشاعر زهير بن أبي سلمى ذكر فيها . ولم تنته إلا بتوسط الرؤساء حيث سوّيت بدفع الديات ، وبإنهاء تلك الحرب التي شغلت تلك القبائل وأقلقت الأمن لذلك السبب التافه على زعم قول الرواة[2] .

وفي جملة حروب داحس والغبراء ، يوم العنق ، وهو ماء ، انهزمت فيه فزارة ، وقُتلوا قتلاً ذريعاً ، وأسر حذيفة ، فاجتمعت غطفان وسعت للصلح . فاصطلحوا على أن يهدر دم بدر بن حذيفة بدم مالك أخي قيس ، وتساووا فيما بقي ، فأطلق حذيفة من أسره .

ثم وقعت حرب أخرى ، مثل يوم (البوار) ، وكان الفوز فيه لعبس على فزارة وأسد وغطفان ، ويوم الهباءة ، ويوم الجراجر ، الى غير ذلك من أيام[3] .

ولامتداد هذه الحرب سنين عديدة ، وانتشارها خارج نطاق حدود قبيلتي عبس وذبيان ، شملت أرضين واسعة ، وتخللتها جملة أيام لها أسماؤها . وهي بالطبع كلها من أيام هذه الحرب : حرب داحس والغبراء.

وإذا قرأت قصة داحس والغبراء ، قرأت قصص شجاعة بطل مغوار أظهر

---

١ الاغاني (١١/٨٦ وما بعدها) (دار الكتب) (١٦/٢٤ وما بعدها) (١٧/١٢٣) (دار الثقافة ، بيروت) ، العقد الفريد (٥/١٥١) ، البلدان (١/٢٠٥) (بيروت)، البكري معجم (٣/١٣٩٦) ، المعارف (٦٠٦) ، ابن الاثير ، الكامل (١/٣٤٣) (الطباعة المنيرية) ، الاغاني (١٧/١٢٣) (دار الثقافة بيروت) ، المختصر في أخبار البشر ، لابي الفداء (١/٩٧) (دار الكتاب اللبناني) ، البداية والنهاية ، لابن كثير ، (٣/١٥٥) ابن خلدون المجلد الثاني (٦٣٢) ، العقد الفريد (٥/١٥٠) (لجنة التأليف) ، اللسان (٦/٧٧) (بيروت ١٩٥٦ م) ، نهاية الارب (١٥/٣٥٦ وما بعدها) .

٢ ديوان عنترة بن شداد (ص ١٥١) ، التبريزي ، شرح ديوان الحماسة (١/٢٩٧) ، المعلقات السبع ، للزوزني (٨٩) ، الامثال (٢/٥١) ، العقد الفريد (٣/٣١٣) ، ابن هشام (١/١٨٢) ، ابن الاثير (١/٣٤٣ وما بعدها) (الطباعة المنيرية) ، نهاية الارب (١٥/٣٥٦) ، شرح ديوان عنترة (٨٣ وما بعدها) (عبد المنعم) شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٣) (مطبعة السعادة ١٩٦٤) ، ديوان زهير ابن أبي سلمى ، نهاية الارب (١٥/٣٥٦ وما بعدها ، الاغاني (١١/٨٦ وما بعدها) النقائض (١/٢٩٩) .

٣ ابن الاثير (١/٢٥٨ وما بعدها) .

شجاعة فائقة في هذه الحرب، وكان له فيها شعر، هو عنترة بن شدّاد العبسي. وقصص شجاعة عنترة معروفة حتى اليوم، مشهورة، يسمعها الناس بشوق ورغبة، وهي عندهم أشهر من قصص داحس والغبراء: هذه الحرب التي خلد اسمها هذا الشعر وأمثاله.

وفي يوم الرقم، غزت بنو عامر غطفان وعليهم عامر بن الطفيل شاباً لم يرأس بعد، فخرجت اليهم بنو مُرّة بن عوف، وأشجع، وناس من فزارة، وكلهم من غطفان، فقاتلوا بني عامر، وتغلبوا عليهم. وفرّ عامر بن الطفيل، وشنق الحكم بن الطفيل نفسه، ليتخلص بذلك من الأسر. ويروي الأخباريون لعروة ابن الورد وللنابغة الذبياني ولعامر بن الطفيل شعراً ذكروا أنهم قالوه في هذا اليوم[1].

وقد منيت بنو عامر بهزيمة أخرى يوم النتاءة، وكانت قد خرجت الى غطفان تريد الأخذ بثأرها من هزيمة يوم الرقم، فأغارت على نعم بني عبس وذبيان وأشجع فأخذوها، فتعقبتها عبس وأشجع وفزارة حينما عادوا بالغنائم، والتحموا بها، وأوقعوا بها هزيمة كبيرة، وقتلت كثيراً منهم، ونجا عامر بن الطفيل بفرسه المشهور المسمى الورد[2].

وقد منيت بنو عامر بهزيمة أخرى يوم شواحط الذي وقع بين بني عامر وبني محارب بن خصفة، وذلك حينما أغارت جماعة من بني عامر على بلاد غسان[3].

ويعدّ عامر بن الطفيل من فرسان العرب المشاهير. وهو من المعاصرين للرسول، وقد تعرّض لنفر من أصحاب رسول الله كان الرسول قد أرسلهم بناءً على رغبة (أبي براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب) ملاعب الأسنة. وكان سيد بني عامر بن صعصعة، وذلك ليعلّموا أهل نجد الاسلام ويفقهوهم في الدين. وقد تعهد للرسول بأن يحميهم، وأن يكونوا في جواره. فلما بلغ النفر (بئر معونة)

---

١ خزانة الادب (٣/ ٧٠)، المفضليات (ص ٣٠)، العقد الفريد (٦/ ٢٥)، (يوم الرقم)، سبائك الذهب (١١٧)، نهاية الارب (١٥/ ٣٦٤).

٢ ابن الاثير (١/ ٣٩٥)، الاغاني (١٠/ ٣١٣)، العقد الفريد (٦/ ٢٦)، نهاية الارب (١٥/ ٣٦٤).

٣ العقد الفريد (٦/ ٢٧)، نهاية الارب (١٥/ ٣٦٥).

عدا عليهم (عامر بن الطفيل) فقتلهم ، واستاء من ذلك أبو براء[1] .

ووقعت بين سُلَيم وغطفان حـــرب بسبب مقتل معاوية بن عمرو بن الشريد السُلمي ، يوم حَوْزة الأول . وكان سبب هذا اليوم تأثر معاوية من كلام امرأة من بني مُرّة كانت جميلة وسيمة دعاها لنفسه ، وقد رآها بعكاظ ، فامتنعت ، فغزا لذلك بني مُرة . فلما علمت بنو مرة بقدومه عليهم ، تجهزوا له وقتلوه[2] . فقرر صخر بن عمرو الشريد السُلمي الانتقام من قتلة أخيه ، فأغار على بني مرة في يوم حوزة الثاني ، وقتل دريد بن حرملة أخا هاشم بن حرملة رئيس بني مرة. ثم قتل رجل من بني جشم هو عمرو بن قيس الجشمي هاشم بن حرملة،فاستراحت بذلك بنو سُليم ، وسرّت الخنساء بمقتل هاشم ، ولها شعر كثير في رثاء أخويها معاوية وصخر[3] .

وقد توفي صخر على أثر إصابته بجرح ظل يفتك به مدة طويلة ، أصيب به في غزوة غزا بها بني أسد بن خزيمة . فتعقبته بنو أسد لتخلص إبلها منه ، وكان قد اكتسحها منهم في هذا الغزو ، فلما كان في موضع ذات الأثـــل ، لحقت به وجرحته فقضى هذا الجرح عليه[4] .

ومن أيام هوازن وغطفان يوم اللّوى ، وقد قتل فيه عبدالله بن الصمـة أخو دريد بن الصمة . وكان عبدالله قد غزا مع بني جشم وبني نصر أبناء معاوية بن بكر بن هوازن غطفان ، فظفر بهم وساق أموالهم . وبينما كان عائداً بغنائمه ، فاجأته عبس وفزارة وأشجع في موضع اللّوى ، فقتلوه واستعادوا ما كان قد غنمه منهم ، وجرح دريد أخوه . فلما شفي دريد من جرحه ، أغار على غطفان لينتقم منها لمقتل أخيه ، وقتل رجالاً منهم ، واستاق جملـة أسرى . وقد عرف هذا اليوم بيوم الغدير[5] .

---

١ الطبري (٢/٢٤٥ وما بعدها) ، (خبر بئر معونة) ، المحبر (٢٣٤ ، ٤٧٢) ، الاشتقاق (١٨٠ ، ٢١٥) .

٢ العقد الفريد (٦/٢٨) ، الاغاني (٢/٣٢٩) ، (١٠/٢٨) ، (١٣/١٣٤) ، شرح الحماسة للتبريزي (٣/١١٠) ، نهاية الارب (١٥/٣٦٥) .

٣ العقد الفريد (٦/٢٩ وما بعدها) ، الاغاني (١٣/١٤٠) ، المبرد (٢/٢٨١) ، نهاية الارب (١٥/٣٦٧) .

٤ العقد الفريد (٦/٣١) ، نهاية الارب (١٥/٣٦٨) .

٥ الاغاني (١٠/٦) ، شرح التبريزي على الحماسه (ص ٣٠٥) ، جمهرة أشعـــار العرب (ص ٢٢٦) . العقد الفريد (٦/٣٢ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٥/٣٦٩) .

ويذكر أهل الأخبار أنه قد كان بين (دريد بن الصمة) و (ربيعة بن مكدم) يوم ، عرف بـ (يوم الظّعينة) . وكان دريد قد خرج في فوارس من (بني جُشَم) حتى إذا كان في وادٍ يقال له : (الأخزم) وهم يريدون الغارة على بني كنانة،رفع له رجل في ناحية الوادي ومعه ظعينة ، فأرسل فرساناً من فرسانه ليأتوا اليه بخبره ، فلم يعودوا ، فذهب (دريد) بنفسه اليه ليراه ، فأخذ الرجل منه رمحه وخلّى ، ثم انصرف دريد الى أصحابه ، ثم لم تلبث (بنو كنانة) أن أغارت على بني جُشَم ، فقتلوا وأسروا (دريد بن الصمة)، وكان الرجل الذي أخذ رمح دريد يوم الظعينة ، هو (ربيعة بن مكدم) ، فلما سأل (دريد) وهو في الأسر عنه ، قيل له : (قتلته بنو سليم) ، ثم أطلق ، وجهز ، ولحق بقومه . فلم يزل كافاً عن غزو بني فراس حتى هلك[1] .

ولدريد يوم مع غطفان عرف بـ (يوم الصلعاء) . وقد انتصرت فيه هوازن على غطفان ، وقتل فيه دريدٌ ذؤاب بن زيد بن قارب[2] .

ودريد بن الصِّمة من الفرسان المعروفين كذلك ، وقد ترأس قومه في عدة غزوات . ويعده الأخباريون في جملة البرص الأشراف،وهو ممن أدرك الإسلام[3] .

و (ربيعة بن مكدّم) فارس مشهور ، وهو فارس بني كنانة ، وبنو كنانة من أنجد العرب ، عرفوا بالشجاعة حتى قيل إن الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم . وصادف أن قتلت (بنو فراس) رجلين من بني سُلَيْم،فحقدت بنو سليم عليهم . فلما كان ظعن من بني كنانة بـ (الكديد) ، وفيهم ربيعة بن مكدّم، تلقاهم قوم من (بني سُليم) ، فاقتتلوا معهم ، وقتل ربيعة في ذلك اليوم . ولما دفن عقر على قبره . وكان (يعقر على قبره في الجاهلية ، ولم يعقر على قبر أحد غيره)[4] .

ولما قتلت بنو سليم (ربيعة بن مكدّم) ، غزا (مالك بن خالد بن صخر ابن الشريد) سيد (بني سُليم) (بني كنانة) . وكان بنو سُليم قد توّجوا

---

١ نهاية الارب (١٥/ ٣٧٠ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (٣٧٣/١٥) .
٣ المحبر (٢٩٨ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٧٧ وما بعدها) .
٤ الكديد ، بفتح أوله وكسر ثانيه بعده دال مهملة ، موضع بين مكه والمدينة ، وهو ماء عين جارية عليها نخل كثير ، نهاية الارب (٣٧٣/١٥) ، الاغاني (١٢٩/١٤) ، الامالي (٢٧١/٢) ، العقد الفريد (٣٢٤/٣) .

مالكاً وأمروه عليهم ، حتى عرف بـ (ذي التاج) . فأغار (ذو التاج) على (بني فراس) وهم من (بني كنانة) بـ (بزرة) . وكان رئيس بني فراس (عبدالله بن جدل) ، فدعا (عبدالله) (ذا التاج) إلى البراز ، فشدّ عليه وقتله[1] . وعرف هذا اليوم بـ (يوم فزارة) وبـ (يوم بزرة)[2] .

ثم إن بني الشريد حرّموا على أنفسهم النساء والدهن أو يدركوا ثأرهم من كنانة فأغار (عمرو بن خالد بن صخر بن الشريد) بقومه على بني فراس ، فقتل منهم نفراً ، وسبى سبياً فيهم ابنة مكدّم أخت ربيعة بن مكدّم[3] .

وتميم من القبائل التي يرد اسمها في الأيام . ومن هذه الأيام عدة أيام وقعت بينها وبين قبائل ربيعة وأيام أخرى وقعت بينها وبين قيس . ومن أيامها مع قبائل ربيعة : يوم الوقيط ويوم ثَيتل (قَبتل) ، ويوم جدود ، ويوم زرود ، ويوم ذي طلوح ، ويوم الغبيط ، ويوم قشاوة ، ويوم زبالة ، ويوم مبايض ، ويوم الزورين ، ويوم عاقل .

أما يوم الوقيط ،فكان بين اللهازم من ربيعة وبين تميم[4] . وأما (ثيتل)[5] (نبتل)[6] فيذكر مع يوم النباج أيضاً ، وهما يومان متقاربان وقعا في موضعين متقاربين . وقد وقعا بسبب خروج قيس بن عاصم المنقري رئيس مقاعس بجماعته ومعه سلامة ابن ظرب رئيس الأجارب لغزو بكر بن وائل . فلما وصلا الى النباج وثيتل ، وجدا اللهازم وبني ذهل بن ثعلبة وعجل بن لجيم وعنزة بن أسد بهذين الموضعين، فأغار قيس على أهل النباج واقتتل معهم ، فانهزمت بكر. فعاد قيس بغنائم عديدة فوجد سلامة ، وهو في موضعه لم يغر بعد على من بثيتل من ناس ، فأغار قيس

---

١ نهاية الارب (١٥/ ٣٧٤) .
٢ « بزرة » ، نهاية الارب (١٥/ ٣٧٤) ، « بزرة » « بزر » ، العقد الفريد (٣/ ٣٢٦)، أيام العرب (٣١٩) .
٣ نهاية الارب (١٥/ ٣٧٥) .
٤ العقد الفريد (٦/ ٤٤) (٥/ ١٨٢ وما بعدها) (لجنة) ، (٣/ ٣٣٠) ، النقائض (ص ٣٠٥) ، نهاية الارب (١٥/ ٣٧٩ وما بعدها) ، (دار الكتب) ، أيام العرب (١٧٢) ، ابن الاثير ، الكامل (١/ ٣٨٥) ، الامالي (١/ ٦) ، العمدة (٢/ ٢٥١)، مراصد (١/ ٢٩٥) .
٥ البلدان (٣/ ٣٠) (مادة ثيتل) ، ابن الاثير (١/ ٣٩٧) .
٦ (نبتل) هكذا في طبعة (العريان) للعقد الفريد (٦/ ٤٧) ، وصوابه (ثيتل) . وأما (نبتل) ، فموضع اخر لا علاقة له بهذا المكان .

عليهم ، وسلّم ما غنمه الى سلامة [1] .

ووقع يوم جدود بسبب عزم الحارث بن شريك على غزو بني سليط بن يربوع. جمع الحارث بني شيبان وذهلاً واللهازم ثم سار بهم الى أرض بني يربوع راجياً مباغتتهم . ولكنه ما كاد يصل الى بلادهم حتى شعروا به ، وهاجوا عليه . فلم يتمكن من غزوهم ، فتركهم وذهب نحو بني رُبَيْع بن الحارث بجدود ، فأغار عليهم ، وأصاب سبياً ونعماً . فبعث بنو ربيع صريخاً الى بني كليب بن يربوع يطلب العون ، فلم يجيبوهم ، فذهب الصريخ الى بني منقر بن عبيد ، فركبوا في الطلب ، ولحقوا بكر بن وائل واصطدموا بهم وانتصروا عليهم فرجعوا بأموال وغنائم وبما كانت بكر بن وائل سلبته من بني ربيع بن الحارث . وكان رئيس بني يربوع في هذا اليوم : قيس بن عاصم المنقري [2] .

ويعدّ الحارث بن شريك من الجرارين في ربيعة ، ويعرف بالحوفزان [3] . وفي يوم ذي طلوح وقع أسيراً في أيدي بني يربوع . فلما غزا مع قومه بني يربوع في هذا اليوم ، كانت يربوع يقظة عارفة بعزم بكر . فأخذوا بكراً على غرة،وسقط الحوفزان أسيراً فجزت ناصيته،ودفع مئتين من الإبل حتى فدى نفسه من الأسر [4] .

وأما قيس بن عاصم المنقري ، فهو من سادات (منقر) من تميم ، ويعد من سادات أهـــل الوبر ، ومن حلماء بني تميم ، وممن حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية [5] .

ولما أغار حزيمة (خزيمة) بن طارق التغلبي على بني يربوع ، وهم بزرود، واستاق إبلهم ، كانت نتيجة غزوته هـــذه أن تعقب بنو يربوع أثره وأسروه ،

---

١ النقائض (١٠٢٣) ، العقد الفريد (٦/٤٧) ، ابن الاثير (١/٣٩٧) ، البـلدان (٣/٣٠) ، (٨/٢٤٣) ، البكري (٤/١٢٩١) ، (طبعة السقا) ، مادة (النباج) و (ثيتل) ، نهاية الارب (١٥/٣٨١ وما بعدها) ، أيام العرب (١٧٥ ومـــا بعدها) .

٢ النقائض (١٢٤ ، ٣٣٦) ، ابن الاثير (١/٣٧٢) ، العقد (٦/٥٨) ، البلـــدان (٣/٦٧) ، سبائك الذهب (١١٥) ، نهاية الارب (١٥/٣٨٩) ، شرح المفضليات ، لابن الانباري (٧٤٠) .

٣ المحبر (٢٥٠ ، ٣٠٤) .

٤ النقائض (٤٧ ، ٧٣ ، ٤٨١) ، العقد الفريد (٦/٥٠) ، ابن الاثير (١/٣٨٩) ، البكري (٣/٨٩٣) ، (مادة ذي طلوح) ، نهاية الارب (١٥/٣٨٣) .

٥ الاشتقاق (١٥٤) .

واستنقلوا ما كان قد أخـذ ، ثم أسروه ولم ينج إلا بعد جز ناصيته ودفع مئة من الإبل[1] .

وكان يوم (ذي طُلوح) وهو موضع في حَزْن بني يربوع بين الكوفـة وفَيْد ، لبني يربوع من تميم على بكر من ربيعة . وقد أخذ (الحارث بن شريك) أسيراً ، أخذه حنظلة بن بشر ، وكان ثقيلاً في بني بشر ، فاختصم عبدالله بن الحارث ، وعبد عمرو بن سنان في الحارث ، فحكم الحارث في أمر نفسه،فأعطى كل واحد منهما مئة من الإبل ، وجعل ناصيته لحنظلة بن بشر[2] .

وانتصرت بنو يربوع على بكر في يوم الإياد كذلك ، وكانت بكر قد أقبلت من عند عامل عين التمر قاصدة بني يربوع ، ومعها من الرؤساء بسطام بن قيس فارس بكر وهانىء بن قبيصة ومفروق بن عمرو ، فأحست بنو يربوع بمجيء بكر ، وقاتلهم في موضع الإياد ، وقتلت جماعة من فرسان بكر ، وأسرت قوماً منهم : هانىء بن قبيصة الذي فدى نفسه ، فنجا[3] .

وقد كان بسطام بن قيس مع الحارث بن شريك – الحوفزان – ومفروق بن عمرو في يوم الغبيط ، وفيه غزت بنو شيبان بلاد تميم ، غزوا بني ثعلبة بن يربوع وثعلبة بن سعد بن ضبّة ، وثعلبة بن عدي بن فزارة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان، وكانوا متجاورين بصحراء فَلْج ، فهزمت الثعالب ، وأصابوا فيهم ، واستاقوا إبلاً من نعمهم . ثم ساروا في أرض بني مالك بن زيد مناة من تميم، فاكتسحوا إبلهم ، فركبت عليهم بنو مالك ، وعليهم عتيبة بن الحارث اليربوعي،والأحيمر ابن عبدالله ، وأسيد بن حباءة ، وأبو مرحب ، وجزء بن سعد الرياحي؛وربيع والحُليس وعمارة بنو عتيبة بن الحارث ، ومالك بن نويرة وغيرهم ، فأدركوهم بغبيط المَدَرة ، فقاتلوهم حتى هزموهم ، وأخذا ما كانوا استاقوا من آبالهم ، وقتلت بنو شيبان أبا مرحب ثعلبة بن الحارث وألح عتيبـة بن الحارث ، وأسيد ابن حباءة ، والأحيمر بن عبدالله على بسطام بن قيس حتى وقع بسطام في أسر

---

١ المفضليات (٣) ، العقد الفريد (٦/٤٩) ، خزانة الادب (١/٣٥٤) ، (خزيمة) ، نهاية الارب (١٥/٣٨٣) ، (فحكم بناصية خزيمة للانيف ، على ان لاسيد مائة من الابل . قال : ففدى خزيمة نفسه بمائتي بعير وفرس) ، نهاية الارب (١٥/٣٨٣) .

٢ ابن الاثير ، الكامل (١/٣٨٩) ، النقائض (٤٧ ، ٧٣ ، ٤٨١) ، العقـد الفريد (٣/٤٣٣) .

٣ النقائض (٨٥٠) ، شعراء النصرانية (٢٥٩ وما بعدها) ، ابن الاثير (١/٣٧٣) .

عتيبة . وقد وافق بسطام على دفع دية هي ثلاث مئة بعير وأن تجز ناصيته وعلى أن يعاهد بعدم غزو بني شيبان ، فأفرج عنه[1] .

وغزا بسطام بن قيس رئيس بني شيبان بني يربوع في يوم قُشاوة ، (يوم نعف قشاوة) وقد انتصر فيه على جماعة من بني يربوع ، وعاد مع بعض الغنائم[2]. ويعدّ هذا اليوم من وقعات بسطام المعدودة . قال ابن الأنباري : « كان لبسطام أربع وقعات : أسر يوم الصحراء ، وظفر يوم قشاوة ، وانهزم يوم العظالى ، وقتل يوم النقاء »[3] .

وقد استحر القتل في تغلب ومن كان معهم من تميم ، وذلك في يوم بارق . وكان سببه أن بني تغلب والنمر بن قاسط وأناساً من تميم اقتتلوا حتى نزلوا ناحية بارق من أرض السواد ، وأرسلوا وفداً منهم الى بكر بن وائل يطلبون اليهم الصلح ، فاجتمعت شيبان ومن معهم ، وقرروا الاستفادة من هذه الفرصة ، وعزموا على مباغتة القوم ، فقال : زيد بن شريك الشيباني إني أجرت أخوالي وهم النمر بن قاسط ، فأمضوا جواره ، وساروا وأوقعوا ببني تغلب وتميم ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، لم تصب تغلب بمثلها ، واقتسموا الأسرى والأموال ، وكان من أعظم الأيام عليهم[4] .

وقد اصطدمت بنو شيبان ببعض بطون تميم في يوم زبالة كذلك . وقد حضر هذا اليوم الأقرع بن حابس ، وأخوه فراس ، وهما من تميم ، وكانت تميم هي البادئة بغزو بكر بن وائل . اصطدمت بهم في موضع زبالة ، فنزلت الهزيمة بتميم ، وأسر الأقرع وفراس أخو الأقرع ، أسرهما بنو تيم الله وهم من بكر . ثم لقى بنو تيم الله بني شيبان وهم من بكر أيضاً ومعهم بنو رباب ، فانتزع بسطام بن قيس رئيس بني شيبان الأقرع وأخاه منهم ، وصاروا أسيرين لبسطام. ثم افتدى الأقرع وأخوه أنفسهما من بسطام ، وعاهداه على إرسال الفداء، فأطلقهما

---

١ النقائض (٧٥ ، ١١٣٢) ، ويقال لهذا اليوم : يوم الغبيط ويوم الثعالب ،والثعالب أسماء قبائل اجتمعت فيه . ويقال له : يوم صحراء فلج ، العقد الفريد (٦/٥٥) ، ابن الاثير (١/٣٦٥) ، سبائك الذهب (١١٤) ، نهاية الارب (١٥/٣٨٨) .

٢ النقائض (ص ١٩) ، ابن الاثير (١/٣٦٤) ، البكري (٣/١٠٧٥) «طبعة السقا» ، مادة « قشاوة » ، البلدان (٧/٩٢) « مادة قشاوة » العمدة (٢/١٩١) .

٣ البكري (٣/١٠٧٥) .

٤ الكامل (١/٢٩٩) « المطبعة الازهرية » .

ولكنها لم يرسلا له الفداء[1] .

والأقرع بن حابس،فارس مشهور من فرسان تميم . ويعد من حكام العرب . وقد اتصل حكمه في عكاظ إلى الاسلام . ويعد أيضاً من السادة الجرارين ، ومن المؤلفة قلوبهم من تميم[2] .

وكان يوم مبايض من الأيام المهمة التي وقعت بين بني شيبان من بكر، وبين بني تميم . وقد دارت الدائرة فيه على تميم . وألحقت بها خسائر فادحة . وسبب هذا اليوم أن فارساً من فرسان تميم يدعى طريف بن تميم العنبري كان قد وافى عكاظ في الشهر الحرام ، وكان قد قتل رجلاً من بني شيبان ، فتعقبه ابن ذلك الرجل ، ليأخذ بثأر أبيه منه . وصادف أن وقع نزاع بين بني مرة بن ذهل بن شيبان وبين بني ربيعة بن ذهل بن شيبان كاد يؤدي بينهما الى حرب ، فقرر هانىء ابن مسعود رئيس بني ربيعة – حقناً للدماء – الارتحال بقومه ، والنزول على ماء مبايض . فلما سمع طريف العنبري بنزول ربيعة على هذا الماء ، نادى قومه للإغارة على ربيعة ، ما دامت منفردة ، وليس لها في هذا الموضع نصير ، لإضعاف بكر ابن وائل وللإنتقام منها . فعلمت ربيعة بذلك ، فاستعدت للقتال . فلما هاجمت تميم ربيعة ، كان بنو شيبان على استعداد ، فألحقوا بتميم خسارة لم تصب بمثلها، فلم يفلت منهم إلا القليل . وانهزم طريف فتعقبه ابن الشيباني الذي قتله طريف، فقتله . فكان هذا اليوم من أهم الأيام التي وقعت بين بني شيبان وتميم[3] . واسم قاتل (طريف) ، هو (حصيصة الشيباني) ، (حصيصة بن شراحيل)[4] .

وكان سادة تميم الذين قادوهم في هذا اليوم ثلاثة رؤساء ، هم : أبو الجدعاء الطُّهَوي علي بني حنظلة ، وابن فدكي المِنقري على بني سعد ، وطريف بن عمرو على بني عمرو بن تميم[5] .

وكان يوم الزورين من ايام بكر على تميم كذلك . وكانت بكر تنتجع أرض

---

١ النقائض (٦٨٠) ، ابن الاثير (١/٣٦٦) ، شعراء النصرانية (٢٩٨) ، أيام العرب (٢٠٦) .
٢ الاشتقاق (١٤٦) ، المحبر (١٣٤ ، ١٨٢ وما بعدها ، ٢٤٧ ، ٣٤٧) .
٣ ابن الاثير (١/٣٦٨) ، العقد الفريد (٦/٦٥) ، معاهد التنصيص (١/٧١) ، نهاية الارب (١٥/٣٩٤) ، أيام العرب (٢٠٨ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (١٣١) ، أيام العرب (٢٠٨) .
٥ ايام العرب (٢٠٩) .

تميم ، ترعى بها اذا أجدبوا. فإذا أرادوا الرجوع ، أخذوا كل ما وجدوه أمامهم واستاقوه معهم . فلما كثر اعتداء بكر على تميم ، تفاقم الشر بينهما وعظم حتى صار لا يلقى بكريٌ تميمياً إلا قتله ، ولا يلقى تميمي بكرياً إلا قتله .

ثم عزمت تميم على التخلص من أذى بكر ومنعها من الرعي في أرضها ، فحشدت واستعدت لقتال بكر ، واستعدت بكر لقتال تميم . فلما اصطدم الجمعان تغلبت بكر على تميم ، وقتلت منهم مقتلة عظيمة[1] .

ويذكر أهل الأخبار ان سبب تسمية يوم الزورين بهذه التسمية ، هو ان بني تميم كانوا قد وضعوا بكرَيْن مجللين مقيدين ، بين الصفين ، وقالوا : هذان زَوْرانا ، أي إلهانا ، فلا نفرّ حتى يفرّا ، وجعلوا عندهما من يحفظها . فلما أبصر البكريون الزورين هجموا على حراسها وأخذوا البعيرين وذبحوهما ، أو ذبحوا أحدهما وتركوا الآخر يضرب في شولهم . فارتبكت تميم وانهزمت شر هزيمة[2] .

وكان المقدم على بكر (عمرو بن قيس بن مسعود الشيباني) ، المشهور بـ (أبي مفروق) ، قدمته (بكر) عليهم ، فحسده سائر ربيعة ، وأرادوا ازاحته عن الرئاسة ، إذ كانوا يريدون أن يجعلوا على كل حي رجلاً منهم ، وأن يكون كل حي على حياله ، فأصر ابنه (مفروق) عليه بمخالفتهم ، وبقي رئيساً عليهم كلهم : فلما كان القتال ، برك بين الصفين ، وقال أنا زَوْرُكم ، فقاتلوا عني ، ولا تفرّوا حتى أفرّ . ولم يكن الحوفزان بن شريك يومئذ في القتال ، فقد كان في أناس من بني ذهل بن شيبان غازياً في بني دارهم . وممن اشترك فيه : حنظلة بن سيّار العجلي ، وحمدان بن عبد عمرو العبسي ، وأبو عمرو ابن ربيعة بن ذهل بن شيبان . وقتل فيه من بني تميم أبو الرئيس النهشلي ، وهو من ساداتهم[3] .

وقد أكثر الشعراء في ذكر هذا اليوم لا سيا الأغلب العجلي ، وذكره الأعشى أيضاً[4] .

---

١ نهاية الارب (١٥/٣٩١ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٣٦٨ وما بعدها) ، اللسان (٤/٣٣٧) ، العقد الفريد (٦/٦٥ وما بعدها) .

٢ اللسان (٤/٣٣٧ وما بعدها) « صادر » ، العقد الفريد (٥/٢٠٥ وما بعدها) ، أيام العرب (٢١٢) .

٣ العقد الفريد (٥/٢٠٥ وما بعدها) ، الكامل (١/٣٦٨ وما بعدها) .

٤ الكامل (١/٣٦٨ وما بعدها) .

وكان سبب يوم عاقل ان (الصِّمّة بن الحارث الجُشَمي) أغار على بني حنظلة بعاقل ، فأسره الجعدين الشمّاخ أحد بني عدي بن مالك بن حنظلة ، وهزم جيشه ، وأبطأ الصمة في فدائه فجزّ الجعد ناصيته وأغلظ في الكلام عليه ، فضرب الصمة عنقه . فكث الصمة زماناً ، ثم غزا بني حنظلة ، فأسره الحارث ابن بيبة المجاشعي (الحارث بن نبيه المجاشعي) وهزم جيشه ثم أجاره الحارث من إساره ذلك ، وخرج الحارث بالصمة الى بني يربوع من بني حنظلة ليشتري الصمة أسراء قومه . فلما رأى (أبو مرحب) ، وهو ثعلبة بن الحارث، الصمة، وكان يعرف انه غدر بالجعد ، خنس عنه ، وأخذ سيفه ثم جاء فضرب به بطن الصمة فأثقله[1] .

وأما أشهر الأيام التي وقعت بين قيس وتميم ، فيوم الرحرحان ، ويوم شعب جبلة ، ويوم ذي نجب ، ويوم الصرائم ، ويوم الرغام ، ويوم جزع ظلال ، ويوم المروت .

أما يوم رحرحان ، فقد أشرت اليه سابقاً ، وهو يوم وقع في أعقاب قتل الحارث بن ظالم المُري خالد بن جعفر الكلابي ، وكان سببه أن قوم الحارث ابن ظالم أنكروا عليه فعله . ولاموه على عمله فتجنبهم وهرب منهم ، ولحق بتميم فأجاروه ، فاستاءت بنو عامر من ذلك ، وطلبت من بني تميم تسليم الحارث اليهم. فلما أبوا ، جاءت بنو عامر تريد مباغتة تميم ، وكانت تميم قد علمت بمسيرها اليهم ، فأرسلوا بما عندهم من أثقال وأهل الى بلاد بني بغيض . ولما كانوا في موضع رحرحان ، التقوا ببني عامر ورئيسهم الأحوص ، فدارت الدائرة على بني تميم ، وأسر منهم معبد بن زرارة : أسره عامر والطفيل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب[2] . وشاركهما في أسره رجل من غنيّ يقال له:أبو عمرة عصمة بن وهب، وكان أخا طُفيل من الرضاعة،وفي أسرهم مات معبد . شدّوا عليه القِدّ وبعثوا به الى الطائف خوفاً من بني تميم أن يستنقذوه[3] .

---

١ النقائض (١٠١٩) ، أيام العرب (٢١٧ وما بعدها) ، العمدة (٢/٢٠٧) .
٢ العقد الفريد (٦/٨ وما بعدها) ، النقائض (١/٢١٤) ، الاغاني (١٠/٣٠) ، ابن الاثير (١/٣٤١) ، الميداني (٢/٣٩٨) ، (الباب التاسع والعشرون : في أسماء أيام العرب) العمدة (٢/١٩٨ وما بعدها) .
٣ العمدة (٢/٢٠٩) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

وأخذ لقيط بن زرارة يستعد ويجمع العدة ، لينتقم من بني عامر ، وليأخذ منهم بثأر أخيه معبد الذي أسر في يوم رحرحان ، ثم هلك لمنع بني عامر الماء عنه[1] . فذهب الى النعمان بن المنذر وأطعمه في الغنائم ، فأجابه . ثم ذهب الى الجون الكلبي ملك هجر[2] ، فأجابه أيضاً . ثم توجه الى كل من عرف بعدائه لبني عامر وعبس ، فأوغر صدره عليهم ، ومنّاه بالغنيمة والنصر ، فانضمت اليه بنو ذبيان لعدائها لعبس بسبب حرب داحس والغبراء ، وبنو أسد للحلف الذي كان بينهم وبين بني ذبيان . فلما مضى الحول على يوم رحرحان ، انهالت الجيوش على لقيط ، فوصل جيش الجون الكلبي وعليه عمرو ومعاوية ابناه ، ووصل جيش النعمان وعليه أخوه لأمه حسّان بن وبرة الكلبي ،وأقبل الحليفان أسد وذبيان وعليهم حصن بن حذيفة ، وأقبل شرحبيل بن أخضر بن الجون بن آكل المرار في جمع من بني كندة .

وسار سادات تميم : حاجب بن زرارة ، ولقيط بن زرارة ، وعمرو بن عمرو ، والحارث بن شهاب ، ومعهم أحلافهم ومن انضم اليهم ، يقصدون بني عامر ، فنتج عن ذلك جمع لم يكن في الجاهلية أكثر منه .

وعرفت بنو عامر بمجيء الجمع ، فاستعدت له وتحصنت في شعب جبلة . أخبرها بذلك كرب بن صفوان السعدي ، وكان شريفاً من أشراف قومه لم يخرج مع الجمع ، فخافوا من تخلفه عنهم ، وعرفوا انه دبّر في ذلك أمراً،وانه يقصد إخبار بني عامر . فأخذا عليه العهد بألا يفشي سر مسيرهم هذا لبني عامر . وقد سار كرب بن صفوان الى بني عامر ، وأظهر لهم علائم هجوم بني تميم عليهم، دون أن يقول لهم شيئاً عنه لئلا يخلف وعده . فعرفوا به ، واستعدوا له . وبينما كان القوم على وشك الوصول الى ديار بني عامر ، عادت بنو أسد فغيرت رأيها من الاشتراك في هذا الهجوم ، ورجعت عنهم ، ولم يسر مع لقيط منهم إلا نفر يسير .

ولما وصل بنو تميم وأحلافهم الى شعب جبلة ، كان بنو عامر على أتم استعداد للقاء . وقد احتموا في مواضع منيعة حصينة من الشعب . ولما دخلوه يريدون

---

١ الاشتقاق (ص ١٤٥) .
٢ (الكندي) ، نهاية الارب (٣٥١/١٥) .

الفتك ببني عامر وعبس ، باغتهم هؤلاء بهجوم مفاجىء أفسد عليهم خطط قتالهم فارتدوا مذعورين تتعقبهم سيوف بني عامر . فكانت هزيمـة فادحة نزلت بتميم وبمن كان معهم من الأحلاف كلفت لقيطاً حياته ، وأوقعت حاجباً في الأسر ، وأوقعت غيره في الأسر كذلك[1] .

وقد وقع هذا اليوم في عام مولد النبي على بعض الروايات ، أي سنة ٥٧٠ للميلاد ، وبعد عـام من يوم الرحرحان[2] . وقد أشار بعض الرواة الى اشتراك عمرو بن الجون ومعاوية بن الجون في هـذا اليوم ، والى عقد معاوية بن الجون الألوية ، فكان بنو أسد وبنو فزارة بلواء مع معاوية بن الجون . وكان بنو عمرو ابن تميم مع لواء حاجب بن زرارة ، وكان لواء الرباب مع حسان بن همام،وعقد لجماعة من بطون تميم مع لقيط بن زرارة ، وكان عمرو بن الجون أول من قتل في هذا اليوم . وأسر أخوه معاوية بن الجون ، كما أسر عمرو بن عمرو بن عـدس وحاجب بن زرارة . وقد حمل عنترة على لقيط ، فضربه بسيفه . ثم فدى حاجب بن زرارة بخمس مئة من الإبل ، وفدى عمرو بن عمر بمئتين[3] .

وقد كان يوم جبلة في عام واحد مع يوم رحرحان على رواية ، ويقصدون بهذا اليوم يوم رحرحان الثاني تمييزاً له عن يوم رحرحان الأول الذي غزا فيه يثربي ابن عدس بن زيد بن عبدالله بن دارم بن عامر بن صعصعة . وفي يوم رحرحان الثاني على هذه الرواية ، كان أسر معبد بن زرارة : وقد نقل الى الطائف خوفاً من بني تميم أن يستنقذوه[4] .

وبعد مرور عام على يوم جَبَلَة طمعت بنو عامر في غزو بني تميم والإيقاع بها ، فذهبت الى حسان بن كبشة الكندي ، وعلى رأسها ملاعب الأسنـة عامر ابن مـالك بن جعفر وطفيل بن مالك بن جعفر وعمرو بن الأحوص بن جعفر

---

١ الاغاني (١٠/٣٣) ، العقد الفريد (٦/٩ وما بعدها) ، ابن الاثير (١/٣٥٥) ، النقائض (٢/١١٥) ، الميداني (٢/٣٩٨) ، (الباب التاسع والعشرون : في اسماء ايام العرب) ، البكري (٢/٣٦٥) (جبلة) ، سبائك الذهب (١١٠ وما بعدها) ، ايام العرب (١٤٩ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٥/٣٥٠) ، الاغاني (١١/١٣١ ، ١٦١) ، البلدان (٣/٤) .

٢ البكري (٢/٣٦٥ وما بعدها) ، (جبلة) ، العقد الفريد (٦/٩ وما بعدها) .

٣ ابن الاثير (١/٢٤٣) ، ولابن اسحاق رواية أخرى عن هذا اليوم .

٤ العمدة (٢/١٩٨ وما بعدها) .

ويزيد بن الصعق وقدامة بن سلمة بن قشير وعـامر بن كعب بن أبي بكر بن كلاب ، تطمعه في الغنيمة وفي الأموال الوافرة والسبي إن انضم اليها وساعدها في الغزو ، فغلبه طمعه ووافق على السير معهم الى بني حنظلة بن مالك بن تميم .

وبلغ الخبر بني حنظلة ، فتركوا ديـارهم برأي عمرو بن عمرو بن عدس ، وكانت في أعلى ذو نجب . وأما في أسفله،فكان بنو يربوع،وهم من تميم كذلك. فلما بلغ حسان ومن معـه من الجيش الموضع ، اقتتلوا مع بني يربوع ، فشدّ (حشيش بن نمران الرياحي) على حسان وضرب بالسيف على رأسه فقتل،وانهزم أصحابه ، وأسر يزيد بن الصعق ، وانهزمت بنو عامر وصنائع ابن كبشة، فكان النصر فيه لبني تميم[١] .

وفي رواية أن بني عامر استنجدت بمعاوية بن الجون الكندي ، فأنجدهم بابنيه عمرو وحسان وبجيشه ، فقتل في ذلك اليوم عمرو بن معاوية الكندي ، وأسر حسان ابن معاوية الكندي ، وقتل عامة الكنديين[٢] .

وفي رواية أخرى ان حسان بن معاوية آكل المرار ، هو الذي اشترك في هذا اليوم ، وقد قتل فيه : قتله حشيش بن نمـران من بني رياح بن يربوع . وفي رواية أخرى انه كان في جملة من وقع في الأسر ، وان المقتول رجل آخر هو عمرو بن معاوية . وقد قتل في هذا اليوم عمرو بن الأحوص رئيس بني عامر يومئذ. قتله خالد بن مالك النهشلي[٣] .

وفي يوم الصرائم ، وهو يوم يسمى أيضاً بيوم بني جذيمة وبيوم ذات الجرف، أغارت فيه بنو عبس على ربيعة بن مالك بن حنظلة ، فأتى (الصريخ) بني يربوع، فركبوا في طلب بني عبس ، فأدركوهم بذات الجرف،فقتلوا منهم جملة قتلى ، وأسروا بعض الرؤساء[٤] .

وكان لبني تميم يوم آخر على بني عبس وعامر ، وهو يوم مأزق (ملزق) ويسمى أيضاً بيوم السوبان . وذلك بعد أن قاتلت تميم جميع من أتى بلادها من القبائل ، وهم إياد وبلحارث بن كعب ، وكلب ، وطيء ، وبكر ، وتغلب

---

١ ابن الاثير (١/٣٦٣) ، النقائـض (٣٠٢ ، ٥٨٧ ، ٩٣٢ ، ١٠٧٩) ، البكـري (٤/١٢٩٧) ، (ذو نجب) ، العمدة (٢/٢٠١) .
٢ البكري (٤/١٢٩٧) (ذو نجب) ، الاغاني (١١/١٣٦) .
٣ العمدة (٢/٢٠١) ، أيام العرب (٣٦٦) .
٤ النقائض (٢٤٨ ، ٣٣٦) ، العمدة (٢/٢٠٠) .

وأسد ، وآخر من أتاهم بنو عبس وبنو عامر[1] . ويظهر ان تميماً حاربت هذه القبائل للتخلص منها ، وكانت تنزل في ديارها للانتجاع في أرضها،وهي أرضون خصبة واسعة ، فكلفها ذلك عدة حروب .

وقد انتصرت تميم على عامر في يوم المروت . وكان سببه نزاع بسيط وقع بين (قعنب بن الحارث بن عمرو بن همام اليربوعي) وبين (بجير بن عبدالله العامري) بسبب نسب فرس ، أدى الى غزو بجير لبني العنبر من تميم ، ثم الى ملاحقة بني يربوع لبجير وجماعته من بني عامر ، والى سقوط عدد من القتلى من بني عامر واسترداد ما كان بنو عامر قد غنموه . وقد ضرب (قعنب بن عتاب) رأس (بجير) فأطاره[2] .

وانتصرت بنو يربوع على بني كلاب من قيس في يوم الرُغام[3] . وذلك أن (عتيبة بن الحارث بن شهاب) أغار في بني ثعلبة بن يربوع على طوائف من بني كلاب . وكان أنس بن عبّاس الأصم أخو بني رِعْل مجاوراً في بني كلاب وكان بين بني ثعلبة بن يربوع ، وبين بني رعل عهدٌ ألّا يسفك دم ، ولا يؤكل مال . فجاء الكلابيون الى أنس بن عباس الأصم راجين منه أن يذهب الى بني (ثعلبة) ليحبسهم عنهم حتّى يتدبروا أمرهم ويستعدوا للقتال . فذهب أنس اليهم وقابل حنظلة بن الحارث شقيق عتيبة بن الحارث ، وكلّمه في أمر ما بينه وبين بني ثعلبة من عهد ، فأجيب الى طلبه ، وتباطأ في أخذ ما سلبه منه بنو ثعلبة من إبل حتّى جاءت فوارس بني كلاب ، فحمل (الحوثرة بن قيس) وهو من فرسان بني كلاب على (حنظلة بن الحارث) فقتله ، فحمل فرسان من بني ثعلبة بن يربوع على الحوثرة،فأسروه ، ودفعوه الى عتيبة فقتله ، وهُزِم الكلابيون. ومضى بنو ثعلبة بالإبل والغنائم ، واتبعهم (أنس بن عباس) رجاء أن يصيب منهم غرةً ، فيأخذ منهم ما يريد . ولما مرّ بالطريق ، تغفله (عتيبة) وأسره، وأتى به أصحابه ، وأراد أصحاب عتيبة قتله ، ولكنه أبى أن يفعل بل قبل من

---

١ العمدة (٢٠٢/٢) ، (ملزق) ،العمدة (٢١٢/٢) (محمد محيى الدين عبد الحميد) .

٢ النقائض (٧٠) ، ابن الاثير (٣٨٦/١) ، العمدة (١٩٢/٢) ، سبائك الذهب (١١٢) . أيام العرب (٣٧٥) .

٣ النقائض (٤١٠) ، العمدة (٢٠٤/٢) .

أنس الفداء ففدى نفسه بمئتي بعير[1] .

وأما يوم جزع ظلال (طلال) ، فكان النصر فيه لفزارة ، وهم من قيس كذلك على بني تيم . وكان عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري قد أغار بقومه فزارة ، ومعه مالك بن حمار الشمخي من بني شمخ بن فزارة ، على التيم وعدي وثور أطحل من بني عبد مناة ، فأصاب غنائم كثيرة ، ورجع بأسرى عديدين أطلقهم فيما بعد . فلما مضت مدة ، بلغه أن النعمان بن جساس التيمي وعوف بن عطية وسبيع بن الحطيم ، وهم سادة تيم ، وابن المخيط وهو سيد بني عدي تيم ، انطلقوا الى بني سعد بن زيد مناة وضبة يستمدونهم ويسألونهم النصر ، فركب عيينة بن حصن مع قومه ، وأغار على التيم ، فقتلوا منهم قتلاً شديداً وأخذوا سبياً كثيراً . واحتفلوا بانتصارهم هذا بشرب الخمر . وكان نساء تيم ومن كان معهن من رجالهن ينقلون زقاق الخمر اليهم . ولم يسقوا تيماً محقرة لهم . ثم مضى زمن فرد بنو فزارة السبي الى تيم ، وأطلقوا الرجال بغير فداء[2].

ومن أيام ضبة وغيرهم : يوم النسار ، ويوم الشقيقة ، ويوم بزاخة ، ودارة مأسل ، والنقيعة .

وكان سبب يوم النسار جدب حل بأرض مضر ، وخصب أصاب بلاد بني سعد والرباب ، مع غيث غامر . فلما وقع ذلك الغيث ، أقبلت عامر بن صعصعة ومن معهم من هوازن الى بني سعد ، وكانوا يواصلونهم بالنسب ، فسألوهم أن يرعوهم ومن معهم من هوازن ففعلوا .

فلما اجتمعت بنو سعد والرباب وهوازن ومن معها ، قال بعضهم لبعض : انه ما اجتمع مثل عدتنا قط إلا كانت بينهم أحداث ، فليضمن كل حي ضامن ، فكان الضامن لما كان في سعد والرباب الأهتم ، وهو سنان بن سمي بن خالد ، وكان الضامن على هوازن قرة بن هبيرة بن عامر بن صعصعة . فرعوا ذلك الغيث حيناً ، حتى وقع شر ، سببه أن (الحتف) وهو رجل من بني ضبة قتل رجلاً من بني قشير ، فوقع الشر ووقعت الحرب ، واجتمع بنو سعد مع بني عامر ، واستمدوا بني أسد فأمدوهم ، والتقوا مع (بني ضبة) بالنسار فاقتتلوا، فصبرت

---

١ أيام العرب (٣٧٠ وما بعدها) .
٢ النقائض (٣٠٢ ، ١٠٦٠) ، « جزع طلال » ، العمدة (٢/٢٠٤) ، أيام العرب (٣٧٣ وما بعدها) .

عامر ، واستحر بهم القتل ، وانفضت بنو سعد وهربت ، ثم هرب بنو عامر . وقتل في هذا اليوم : شريح بن مالك القشيري ، رأس بني عامر ، ووقع سبي منهم في أيدي خصومهم[1] .

وقد وقع يوم النسار بعد يوم جبلة ، وذلك لأن الأحاليف ، وهم غطفان وبنو أسد وطيء شهدوا يوم النسار بعدما تحالفت الأحاليف ، وحضره حصن بن حذيفة ، وكان حصن رئيس الأحاليف ، كما جاء ذلك في شعر لزهير بن أبي سلمى[2] . هذا ما يراه الرواة وأهل الأخبار من علماء قيس وبني أسد ، ويؤيده أبو عبيدة[3] . أما الرباب ورواة ضبة ، فترى ان يوم النسار كان قبل يوم جبلة ويفند أبو عبيدة رأي الرباب[4] . ويقول أبو عبيدة : كان حاجب بن زرارة على بني تميم يوم النسار ويوم الجفار ، وأن « لقيطاً قتل يوم جبلة ، ولو كان حياً ما تقدمه فيه حاجب بن زرارة . وإنما نبّه أبو عكرمة بعد أبي نهشل ، وكانا قبل مبعث النبي بسبع وعشرين سنة . وكان عام جبلة مولد النبي »[5] .

وذكر (المسعودي) أن (بني عـامر بن صعصعة) كانوا يؤرخون بيوم شعب جبلة . وكان قبل الإسلام بنيف وأربعين سنة[6] .

وقد كان يوم شعب جبلة بين بني عامر وأحلافها من عبس وبين من سار اليهم من تميم ، وعليهم حاجب ولَقيط ابنا زرارة بن عدس بن زيد بن عبدالله ابن دارم ، ومن عاضدهما من اليمن مع ابنَي الجون الكنديين[7] .

وما في رواية أبي عبيدة أو غيره من أن مولد النبي كان في عام جبلة ، وهم . فالرجال الذين أسهموا في ذلك اليوم ، كانوا قد هلكوا قبل ذلك بأمد ، ولم يدركوا أيام الرسول. وقد ذكر أن يوم جبلة كان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة[8].

---

١ النقائض (٢٣٨ ، ٧٩٠ ، ١٠٦٤) ، العقد الفريد (٦/٩٩) ، ابن الاثير (٣٧٦/١)، الميداني (٣٩٦/٢) ، العمدة (١٩٩/٥) ، شرح المفضليات (٣٦٣) ، أيام العرب (٣٧٨ وما بعدها) ، نهاية الارب (٤٢١/١٥) .

٢ نقائض جرير والفرزدق (٢٣٨/١ وما بعدها) ، المفضليات (٣٦٣ وما بعدها) .

٣ المفضليات (٣٦٣ وما بعدها) .

٤ المفضليات (٣٦٣ وما بعدها) .

٥ ديوان جرير والفرزدق (٧٩٠/٢) ، العمدة (٢٠٠/٢) .

٦ التنبيه (١٧٥) .

٧ التنبيه (١٧٥) .

٨ بلوغ الارب (٧١/٢) .

وقد غضبت بنو تميم وخجلت مما نزل ببني عامر من عار بسبب هذا اليوم ، وحلف (ضمرة بن ضمرة النهشلي) ، وهو من سادات بني تميم على أن يترك الخمر ويحرمه عليه حتى يأخذ بثأره من بني أسد ، فهيأ نفسه وعبأ قومه لقتالهم، والتقى بهم في يوم ذات الشقوق ، وانتصر فيه عليهم ، وفرح بهذه النتيجة ، وأباح لنفسه عندئذ شرب الخمر[1] .

ولما كان على رأس الحول من يوم النسار اجتمع من العرب من كان شهد النسار . وكان رؤساؤهم بالجفار ، الرؤساء الذين كانوا يوم النسار ، إلا أن بني عامر تقول كان رئيسهم بالجفار (عبدالله بن جعدة بن كعب بن ربيعة) ، فالتقوا بالجفار ، واقتتلوا ، وصبرت تميم ، فعظم فيها القتل وخاصة في بني عمرو ابن تميم . وكان يوم الجفار يسمى (الصيلم) لكثرة من قتل به[2] .

وفي يوم الجفار التقت بكر بتميم على رواية[3] ، والتقى الأحاليف في ضبة وإخوتها الرباب وأسد وطيء على بني عمرو بن تميم في رواية أخرى ، واستحر القتل يومئذ في بني عمرو بن تميم على هذه الرواية ، فكان النصر فيها للأحاليف[4] .

وفي يوم الستار ، وهو يوم كان بين بكر بن وائل وبني تميم، قتل قيس بن عاصم وقتادة بن سلمة (مسلمة) الحنفي فارس بكر[5] ، وكان قتادة من الجرارين في ربيعة[6] .

ولضبة نصر آخر ، كان في يوم الشقيقة على بني شيبان . وقد قتل فيه بسطام بن قيس سيد بني شيبان . وكان ذلك بسبب قيام بسطام بغارة على بني ضبة وطمعه في إبل مالك بن المنتفق الضبي . فلما رأت ضبة بسطاماً ، وهو يغير على

---

١ البكري ، معجم (٤/١٣٠٦) ، ابن الاثير ، الكامل (١/٣٧٦) . ابن سلام ، طبقات (١٧٩) ، مراصد الاطلاع (٣/٢٠٩ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٥٦٤) ، العقد الفريد (٣/٣٧٥) ، المفضليات (٣٦٣ وما بعدها) ، البلدان (٤/٧٧٨) ، العمدة ، لابن رشيق (٢/٩٩ وما بعدها) . النقائض (٢٣٨ وما بعدها) (٢/١٠٦٤) ، نهاية الارب للنويري (١٥/٤٢١) ، اللسان (٥/٢٠٥) « صادر » تاج العروس (٣/٥٦٩) .

٢ ابن الاثير ، الكامل (١/٣٧٦) . العقد الفريد (٣/٢٧٥) .

٣ الميداني (٣٩٦) .

٤ العمدة (٢/٢٠٨) .

٥ الميداني (٢/٣٩٦) .

٦ المحبر (٢٥٠) .

الإبل ، هاجمته فوقع قتيلاً ، فولت بنو شيبان مهزومة تاركة ما استولت عليه وعدداً من رجالها بين قتيل وأسير[1] . ويعرف هذا اليوم باسم آخر هو : (نقا الحسن)[2] .

وانتصرت ضبة على إياد في يوم يسمى بيوم بُزاخة . وقد كان بسبب إغارة مُحرق الغساني وأخوه في إياد وطوائف من العرب من تغلب وغيرهم على بني ضبة بـ (بزاخة) فاقتتلوا قتالاً شديداً حمل فيه (زيد الفوارس) على محرق فأسره، وأسرت بنو ضبة أخا حُبيش بن دلف السيدي ، فقتلتها وهزم من كان معها ، وأصيب ناس منهم فيه[3] .

وفي بعض الروايات أن يوم بزاخة هو يوم إصنم . وهو يوم كان لبني عائذة ابن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة على الحارث بن مزيقيا الملك الغساني ، وهو عمرو بن عامر ، وفيه قتل ابن مزيقيا ، فانهزم أصحابه هزيمة منكرة . وفي رواية أخرى ان هذا اليوم كان مع عبد الحارث من ولد مزيقيا[4] .

وأما يوم (دارة مأسل) ، فكان لضبّة على بني عـامر ، غزا (عتبة بن شُتير بن خالد الكلابي) بني ضبّة ، فاستاق نعمهم . وقتل (زيد الفوارس) (حصن بن ضرار الضبي) ، وكان يومئذ حدثاً لم يذكر . فجمع أبوه ضرار قومه ، وخرج ثائراً على بني عمرو بن كلاب ، فأفلت منه (عتبة بن شُتير) وأسر أباه (شُتير بن خالد) فأمر ضرار ابنه (أدهم) أن يقتله[5] .

وانتصرت ضبّة عـلى بني عبس في يوم النقيعة ، ويسمى أيضاً يوم أعيار . وقد كان بنو عبس قد أغاروا فيه برئاسة عمارة بن العبسي على إبل لبني ضبّة ، ومعه جيش من بني عبس ، فأطردوا إبلهم ، وركبت عليهم بنو ضبة،فأدركوهم في المرعى ، فحمل (شرحاف بن المثلم بن المشخرة العائذي الضبي) على عمارة فقتله ، واستنقذت بنو ضبة فيه إبلها من (بني عبس) . ويعرف عمارة بـ (عمارة

---

١ النقائض (١٩٠ ، ٢٣٣) ، ابن الاثير (١/٣٧٦) ، التبريزي ، شرح ديوان الحماسة (٣/٥٢) ، سبائك الذهب (١١٢) ، أيام العرب (٣٨٢ وما بعدها) .
٢ العمدة (٢/١٩٨) .
٣ العمدة (٢/١٩٧) ، النقائض (١٩٥) ، أيام العرب (٣٨٨) .
٤ العمدة (٢/١٩٨) .
٥ العقد الفريد (٦/٤٣) ، أيام العرب (٣٩٠) ، نهاية الارب (١٥/٣٧٨) .

الوهاب)[1] .

ومن الأيام التي وقعت بين (قيس) و (كنانة) : يوم الكديد ، ويوم برزة وحروب الفجار . أما يوم الكديد ويوم برزة ، فقد تحدثت عنهما قبل قليل. وأما حروب الفجار فإليك ما جاء عنها .

العادة في الجاهلية ألا قتال في الأشهر الحرم لقدسيتها ومكانتها ، فهي أشهر حرم يستريح فيها الأفراد والقبائل من القتال، ويكون الانسان فيها آمناً على نفسه وماله، فيظهر فيها الفرسان المعروفون بسفكهم الدماء دون خوف وإن كانوا يتقنعون بقناع حين حضورهم الأسواق مثل عكاظ خوفاً من وقوف طلاب الثأر على حقيقتهم ، فيتعقبون خطاهم ، فيفتكون بهم بعد انتهاء الأشهر الحرم. ويذهب في هذه الأشهر الناس الى الأسواق للامتيار ، والى الكعبات للحج الى الأصنام ، ثم يعودون الى منازلهم مع انتهاء الأيام الحرم خشية حلول الأشهر الأخرى فيتعرضون لطمع الطامعين وغزو الغازين .

ومع ما لهذه الأشهر من الحرمة ، فقد وقعت فيهـــا حروب عرفت بحروب الفجار وبأيام الفجار ، لأن من اشترك فيها كان قد فجر فيها بانتهاكه قدسية هذه الأشهر الحرم[2] . ولكنها على ما يظهر من وصف الأخباريين لها لم تكن حروباً كبيرة واسعة ، انما كانت مناوشات ومهاترات وقعت لأسباب تافهة بسيطة . ففي الفجار الأول لم يرق فيه دم ، وانما محاورات وخصومة كلامية بين كنانة وهوازن بسبب حادث بسيط لا يستوجب في الواقع خصومة ولا اشتباكات . فقد تطاول (بدر بن معشر الغفاري) (بدر بن معسر الغفاري) على الناس ، بأن جلس بعكاظ في الموسم والعرب مجتمعة فيه ، ثم مدّ رجله وقال : أنا أعز العرب ، فمن زعم انه أعز مني فليضربها بالسيف . فوثب رجل من (بني نصر بن معاوية) اسمه (الأحمر بن هوازن) فضربه بالسيف على ركبته فقطعها ، فتحاور الحيّان: أهل المضروب مع أهل الضارب عند ذلك . حتى كاد أن يكون بينهما الدماء، ثم

---

١ النقائض (١٩٣) ، ابن الاثير (٣٩٤/١) ، العمدة (١٩٨/٢) ، أيام العرب (٣٩١ وما بعدها) .

٢ العقد الفريد (١٠١/٦ وما بعدها) ، مروج الذهب (٢٧٥/٢) ، اللسان (٤٨/٥)، (فجر) ، تاج العروس (٤٦٥/٣) ، (فجر) .

تراجعوا ورأوا ان الخطب يسير[1] .

وفي الفجار الثانية وقعت بينهم دماء يسيرة . وكان سببه عبث شباب من قريش وكنانة بامرأة من بني عامر بن صعصعة وكانت وضيئة حسانة رأوها بسوق عكاظ، فأرادوا منها أن تكشف لهم عن برقعها ، فثارت ونادت : (يا آل عامر) ، ونادى الشباب قومهم ، فالتحموا في قتال لم يكن هذا الحادث ليوجبه ، ثم انتهى بتوسط (حرب بن أمية) (الحارث بن أمية) باحتمال دماء القوم[2] .

أما الفجار الثالث ، فكان بسبب دين كان لرجل من بني جشم بن بكر بن هوازن على رجل من كنانة ، فلواه به ، ولم يعطه شيئاً منه . فلما أعياه ، وافاه في سوق عكاظ بقرد ، وجعل ينادي : « من يبيعني مثل هذا الرباح بمالي على فلان بن فلان الكناني . من يعطيني مثل هذا بمالي على فلان بن فلان الكناني رافعاً صوته بذلك ، فلما أكثر من ندائه ، مر به رجل من بني كنانة ، فقتل القرد ، فهتف الجُشمي : (يا آل هوازن) ، وهتف الكناني : (يا آل كنانة) وتجمع الحيان حتى تحاجزوا ، ولم يكن بينهم قتلى ، ثم كفوا وقالوا : « أفي رباح تريقون دماءكم ، وتقتلون أنفسكم ؟ » وأصلح عبدالله بن جُدعان بينهما[3] .

ووقع الفجار الآخر بسبب رجل خليع سكير فاسق، أتعب قومه فخلعوه وتبرأوا منه فخرج منهم ، وصار يتنقل من قبيلة الى قبيلة ومن سيد الى سيد يطلب الحماية والجوار . فلما لفظه الجميع ، وتعبوا منـه ، ذهب الى مكة مستجيراً بحرب بن أمية ، فحالفه ، وأحسن جواره . ثم شرب بمكة ، وعـاد إلى سيرته الأولى ، فهم حرب بخلعه ، فخرج من مكة ، وذهب عنه الى الحيرة . فلما كان هناك،

---

١ العقد الفريد (١٠١/٦) ، الاغاني (٣٦٨/٣) ، ابن الاثير (٣٥٩/١) ، العمدة (٢٠٧/٢) ، سرح العيون (٥٨) ، أيام العرب (٣٢٢) ، العمدة (٢١٨/٢) (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، الاغاني (٧٣/١٩) ، (مطبعة التقدم ١٩٣٢ م) ، تاريخ الخميس ، للديار بكري (٢٥٥/١) .

٢ العمدة (٢١٩/٢) ، (محمد محيى الدين عبد الحميد) ، الاغاني (٧٤/١٩) ، الكامل ، لابن الاثير (٣٥٩/١) ، تاريخ الخميس (٢٥٥/١) ، السيرة الحلبية (١٤١/١) .

٣ العمدة (٢٠٧/٢) ، أيام العرب (٣٢٥) ، (كان بسبب دين بني نصر على أحد بني كنانة) العمدة (٢١٩/٢) ، (محمد محيى الدين عبد الحميد) ، الاغاني (١٩/ ٧٤) ، السيرة الحلبية (١٤١/١) ، الكامل في التأريخ (٣٥٨/١ وما بعدهـا) ، تاريخ الخميس (٢٥٥/١) .

عرض على النعمان بن المنذر أن يتولى له حماية لطيمته،ويجيزها له على أهل الحجاز. وسمع بذلك عروة الرحال ، وهو يومئذ رجل هوازن ، فاحتقر أمر هذا الخليع : (البراض بن قيس الكناني) ، فقال للملك : أكلب خليع يجيزها لك ؟ أبيت اللعن ، أنا أجيزها لك على أهل الشيح والقيصوم في أهل نجد وتهامة . فدفعها النعمان اليه ، وخرج عروة بهـا ، والبراض بن قيس يتعقبه . فلما كان بأوارة غافلـه البراض ، فقتلـه ، واستاق اللطيمة الى خيبر . ولما بلغ خبر مقتل عروة كنانة وهوازن ، هـاج الطرفان ، واشتبكا في قتال وقع بموضع نخلة ، فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم ، وجنّ عليهم الليل فكفّوا .

وجرّ عمل هذا الخليع الى وقوع جملة أيام أخرى ، أدت الى اضطراب الأمن في مواسم أمن ما كان يحدث فيها قتال . فبعد عام من يوم نخلة ، تجمعت قريش وكنانة بأسرها والأحابيش ومن لحق بهم من بني أسد بن خزيمة ، لملاقـاة سليم وهوازن،ووزع عبدالله بن جُدعان السلاح على الشجعان الفرسان المعروفين بالشجاعة والصبر ، وسلّح يومئذ مئة كميّ بأداة كاملة،سوى من سلّح من قومه واجتمعوا بموضع شمطة من عكاظ في الأيام التي تواعدوا فيها على قرن الحول[1] .

وترأس المتقاتلين المتواعدين سادات ذلك الوقت المعروفون . وعلى كنانة كلها حرب بن أمية ، ومعه عبدالله بن جُدعان وهشام بن المغيرة وهما عـلى الميمنة والميسرة ، وعلى هوازن وسُليم كلها مسعود بن معتب الثقفي . وفي بني عـامر ملاعب الأسنة أبو براء ، وفي بني نصر وسعد وثقيف سُبيع بن ربيع ، وفي بني جشم الصمة والد دريد وفي غطفان عوف بن أبي حارثة ؛ وفي بني سُلَيم عباس ابن زغل ، وفي فهم وعدوان كدام بن عمرو .

وكانت الدائرة في أول النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهـار تداعت هوازن وصابرت ، وانكشفت كنانـة فاستحر القتل فيهم ، فقتل منهم تحت رايتهم مئة رجل ، ولم يقتل من قريش أحد يذكر ، فكان هذا اليوم لهوازن على كنانة وقريش[2] .

---

١ (شمطة) ، نهاية الارب (١٥/٤٢٧) ، الاغاني (١٩/٧٥) ، سيرة ابن هشـام (١/١٩٦) ، السيرة الحلبية (١/١٤٢) ، العقد الفريد (٥/٢٥٢) .

٢ نهاية الارب (١٥/٤٢٧ وما بعدها) ، العقد الفريد (٦/١٠٦ وما بعدها) ، ابن الاثير (١/٢٤٦ وما بعدها) .

وقد وقع الفجار الثاني بعد الفيل بعشرين سنة ، وبعد موت عبد المطلب باثني عشرة سنة على رواية . ويعد من أيام العرب المشهورة ، وهو أشهر من يوم جبلة الذي وقع قبله في بعض الروايات [1] .

وعادت هوازن وكنانة الى الحرب ، والتقوا على قرن الحول في اليوم الثالث من أيام عكاظ ، واقتتلوا وكانت الهزيمة على كنانة . وقد عرف هذا اليوم بيوم العبلاء [2] .

وقد تأثرت كنانة من الهزيمة التي لحقتها في يومي شمطة والعبلاء ، وأخذت تستعد للانتقام من هوازن ، فتكتل رؤساؤها واشتروا الأسلحة ، وحمل عبدالله بن جدعان مثري قريش وغنيها يومئذ ألف رجل من بني كنانة على ألف بعير . وتولى قيادة كل بطن رئيسه ثم سارت على رأس الحول من اليوم الرابع من ايام عكاظ قاصدة هوازن ، فالتقت بها واشتبكت معها في قتال كاد يهرب فيه بنو كنانة ، لولا صبر بني مخزوم وبلاؤها بلاءً حسناً . وخشيت قريش أن يجري عليها ما جرى يوم العبلاء ، فقيّد حرب وسفيان وأبو سفيان بنو أمية بن عبد شمس أنفسهم وقالوا : لا نبرح حتى نموت مكاننا أو نظفر واقتتل الناس قتالاً شديداً ، وحملت قريش وكنانة على قيس من كل وجه حتى انهزمت ، وانتصرت بذلك كنانة وقريش على بني هوازن . وعرف هذا اليوم بيوم عكاظ [3] .

ولمّا انهزمت قيس ، دخلوا خباء (سبيعة بنت عبد شمس) امرأة (مسعود ابن مُعتب الثقفي) مستجيرين بها ، فأجار (حرب بن أمية) جيرانها، واستدارت قيس بخبائها حتى كثروا ، فلم يبق أحد لا نجاة عنده إلا دار بخبائها ، فقيل لذلك الموضع : مدار قيس ، وكان يضرب به المثل ، فتغضب قيس [4] .

وقد التقت كنانة وقريش بقيس في يوم آخر يسمى يوم الحُريرة ، وكان على بني بكر بن عبد مناة ، رئيسهم جثامة بن قيس أخو بلعاء بن قيس وذلك لوفاة بلعاء . أما الرؤساء الآخرون ، فبقوا كما كانوا في اليوم الماضي . وبعد قتال اتفقوا

---

١ ابن الاثير (١/٢٤٦) .
٢ العبلاء : علم على صخرة بيضاء الى جنب عكاظ ، العقد الفريد (٦/١٠٧) .
٣ أيام العرب (٣٣٤ وما بعدها) .
٤ أيام العرب (٣٣٥) .

على الصلح وتسوية الديات ، وانصرف الناس من الحرب[1] .

هذه أيام من أيام عديدة أخرى ترد أسماؤها في كتب الأخبار والتواريخ[2] ، نرى أن أسبابها طبيعة البداوة ، وفقر البادية ، وحاجة الناس الى المـاء والمرعى والاعتبارات الاجتماعية وما شاكل ذلك من أسباب أدت الى وقوع تلك الأيام . وقد علقت ذكراها بأذهان الرواة ، لأنها وقعت في عهد لم يكن بعيداً جداً عن الاسلام ، وقد وقعت بالطبع مئات من هـذه الأيام ، محيت أخبارها من ذاكرة حفظة الأخبار ورواتها ، لأنها وقعت في عهد بعيد عن الاسلام أو في أمكنة بعيدة لم يصل مداها الى جمّاع الأخبار في الاسلام ، فلم يضبطوها في جملة هذا الذي ضبطوه .

والذي نجده من قراءة أسماء الأيام المذكورة ومن أخبارها ، ان معظمها ممـا كان قد وقع في الحجاز أو في نجد أو العراق والبادية وبلاد الشأم والبحرين . أما الأيام التي وقعت في العربية الجنوبية فقلما نجد لها ذكراً عند الأخباريين ، خاصة أيام حضرموت وعمان ، مما يدل على عدم وصول أخبار هذه الأرضين الى علم الأخباريين . والواقع ان علم أهل الأخبار والتأريخ بهذه البلاد ضعيف جداً ، حتى في باب علمهم عنها في الاسلام ، وهو أمر يؤسف عليه .

وتتخلل هذه الأيام أسماء الرجال المشهورين ممن كان لهم أثر خطير فيها ، وهم قادتها ومساعير نيرانها ومكوّنو تأريخ الجزيرة قبل الإسلام . وشأن هؤلاء الرجال من حيث بعدهم وقربهم عن الإسلام ، شأن أيامهم ، فأكثرهم مـن أهل القرن السادس للميلاد ، وممن ماتوا في عهد لم يكن بعيداً عن الإسلام ، أي في النصف الثاني من هذا القرن . لقد صنع القصاصون ومحبو المبالغات من رواة القبائل ، على عادتهـم ، هالة من الأقاصيص والأساطير لأولئك الرجال ، حملت بعض المستشرقين على الشك في حقيقة بعضهم . ولكن وجود القصص الخرافي لا يمنع من الاعتراف بوجود شخص كان قد عاش ومات ، وكان له أثر ظاهر في قومه وأعمال أثرت

---

١ أيام العرب (٣٣٧) ، الاغاني (٧٩/١٩ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (/٣٦٣)، السيرة الحلبية (١٤٣/١) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢٨٩/٢) ، (١٩٣٢ م)، (مطبعة السعادة) .

٢ هناك أسماء أيام أخرى ذكرها أهل الاخبار ، لا يمكننا التوسع فيها اذ يقتضي ذلك جملة مجلدات ، راجع العمدة (٢٠٠/٢ وما بعدها) .

في مواطنيه ، وجعلتهم يوسعونها ويكبرونها الى أن صنعوها بقصصهم بهذا الشكل الذي وصل الى الأخباريين،بنقلهم الرجال من عالم الحقيقة الى عالم الخرافة والخيال.

لقد خلدت تلك الأيام أسماء رجال أثروا تأثيراً مهماً في الحياة السياسية البدوية. لقد أنجز بعضهم أعمالاً لم تنجزها قبائلهم ، فتمكنوا من بسط نفوذهم على كثير من القبائل ومن جمعهـا تحت رئاسته بفضل زعامته وشخصيته . فهذا زهير بن جناب الكلبي تجتمع عليه قضاعة وتنضوي تحت لوائه ، ويفرض الإتاوة على قبائل أخرى من غير قضاعة ، ويحارب غطفان وبكراً وتغلب وبني القين بن جسر ، وهي من القبائل الكبيرة المعدودة ، ثم ينتصر عليها [1] . وهذا كليب بن وائل وهو من معاصري زهير بن جناب ومن المنافسين له ، ومن رجال النصف الأول من القرن السادس للميلاد ، يجمع شمل قبائل ربيعة – وهي قبائل متنافرة متخاصمة – تحت رايته ، ثم يجمع شمل معد ويضمها كلها اليه ، فتكون له الرئاسة على كل قبائلها ، وهو بذلك أحد النفر الذين اجتمعت عليهم معد [2] .

ومن النفر الذين اجتمعت معدّ عليهم : عامر بن الظرب بن عمرو بن بكر ابن يشكر بن الحارث – وهو عدوان بن قيس عيلان – وربيعة بن مرة بن زهير ابن جشم بن بكر بن حبيب بن كلب ، وكان قائد معد يوم السلان بين أهل اليمامة واليمن [3] .

ولمع في هذه الأيام اسم حذيفة بن بدر ، واسم حمل أخيه ، وكان سيّدي بني فزارة . وقد عرف حذيفة بـ (رب) معد [4] ، وقاد قومه بني فزارة في عدة أيام ، هي : يوم النسار ، ويوم الجفار ، وحرب داحس والغبراء حيث قتل فيها في يوم الهباءة [5] .

وقد رأينا عدة رجال آخرين يتزعمون قومهم في هذه الأيام ، مثل بسطام بن قيس رئيس بني شيبان،وهو من مشاهير الفرسان،وأحد الفرسان الثلاثة المعدودين ، وهم : عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث وبسطام ، وربيعة بن مُرة بن

---

١ ابن الاثير (١/٢٠٥ وما بعدها) ، الاغاني (٩٣/٢١ وما بعدها) ، المفضليات (١١٧) ، Ency., IV, p. 1237.

٢ ابن الاثير (٢١٣/١) .

٣ ابن الاثير (٢١٤/١) .

٤ العمدة (١٩٣/٢) « باب ذكر الوقائع والايام » ، المحبر (٤٦١) .

٥ المحبر (٢٤٩) .

الحارث التغلبي ، والهذيل بن هبيرة الثعلبي من ثعلبة بن بكر ، والحوفزان، وهو الحارث بن شريك بن عمرو بن الشيباني ، والحارث بن وعلة الذهلي ، وأبجر بن جابر العجلي ، وقيس بن حسان بن عمرو بن مرثد أخو بني قيس بن ثعلبة ، وقتادة بن مسلمة الحنفي ، وأثال بن حجرين النعمان بن مسلمة الحنفي ، والهذيل ابن عمران التغلبي .

وقد دوّنت الأيام أسماء جماعة من سادات تميم ممن ترأسوا قومهم . ولقبائل تميم مكان في هذه الأيام . ويظهر انها كانت من القبائل البارزة في القرن السادس للميلاد . ومن هؤلاء : زرارة بن عدس من بني دارم . وقد قاد تميماً وغيرها في يوم شويحط الى عنزة بن سعد هديم ، ولقيط بن زرارة ، وقد قاد تميماً كلها إلا بني سعد بن زيد مناة الى بني عامر بن صعصعة يوم جبلة ، والأقرع ابن حابس ، وقد قاد حنظلة كلها يوم الكلاب الأول ، عدا أسماء آخرين تجدهم مذكورين في أخبار الأيام .

وطبيعي أن يكون للفرسان وللفتّاك وللشعراء المقام الأول بين أسماء الرجال الذين ترد أسماؤهم في هذه الأيام . وإن لم يكونوا من بيوتات شهيرة معروفة ، لها في الرئاسة ذكر ومقام ، فأعمال المرء كافية لتخليد اسمه بين المشاهير . وإذا كان للشاعر عمل التشجيع والحث على الاقدام ، وإلهاب نار الحماسة في النفوس ، فإن للفارس والفاتك واجباً مهماً في هذه الأيام،فإنهم يقررون في الغالب مصير الحروب ولا سيما الفرسان الفتاك الذين يختارون كباش القوم ، فينقضون عليهم ويفتكون بهم ، وبعملهم هذا تنتهي الحرب في الغالب بهزيمة تحل في الجبهة التي تتضعضع بسقوط الرئيس . فإن لسقوط الرئيس صريعاً شأناً كبيراً عند القبائل . فالرئيس هو الرمز المعنوي للقبيلة ، فمتى سقط الرئيس انهارت معنوياتها وخارت قواها ، ولا تستطيع عندئذ الثبات في الميدان ، فيهرب أفرادها في غالب الأحوال، ويكون النصر للجانب الذي أسعده الحظ بوجود فارس عنده قتل رئيس خصمه .

وإذ كان للخيل أثر في حروب تلك الأيام ، في الهجوم والدفاع وفي الكر والفر ، فإن القبيلة التي كانت تملك فرساناً وعدداً وافراً من الخيل ، هي القبيلة المنتصرة الرابحة التي يخشى بأسها ، فلا يطمع فيها الطامعون ، ولا يهاجمها مهاجم بسهولة ، ولها يكون الفخر على القبائل بكثرة ما لديها من خيل ومن فرسان ،

لأن للفرس والفارس شأناً كبيراً في سرعة كسب الحرب ، وتفتيت جبهة العدو ، واحداث ثُغَر في صفوفه ، تؤدي الى تشتيت شمله وبعثرته ثم هزيمته هزيمة منكرة. وهي لقوتها هذه لم تكن تعتمد على غيرها في الحروب والغزو ، إلا إذا قابلت بالطبع قوة كبيرة من القبائل لا يمكن التغلب عليها إلا بالتعاون مع القبائل الأخرى فعندئذ تضطر الى البحث عن حليف .

الفروسية :

والفارس فخر القبيلة ، لأنه المدافع عنها في الحروب والمهاجم الكاسر للأعداء . وهو أهم من الراجل في القتال ، لما له من أثر في كسب النصر وفي ايقاع الرعب والفوضى في صفوف العدو . ولهذا فخرت القبائل بفرسانها ، وفي كثرة الفرسان في القبيلة دلالة على عظمتها وقوتها . نظراً لغلاء ثمن الفرس ، ولأهميته في تطوير الحرب وفي توجيهها . وانهائها في صالح من له أكبر عدد من الفرسان .

ومن حسن حظ القبيلة أن يكون بها عدد وافر من الفرسان ، وعدد من الشعراء. فالفارس فنان القبيلة في الحرب وفارسها في الطعان وحامي الذمار والعرض، والشاعر فارس الكلام ، يؤجج نيران العواطف ويلهب جذوة الحماس في النفوس، ويدفع الفارس إلى الإقدام ، وبذلك يساعد في كسب النصر لقبيلته ، وفي الدفاع عن عرض القبيلة بسلاحه الموزون المقفى .

وقد حفظت ذاكرة أهل الأخبار أسماء جماعة من فرسان الجاهلية ، دوّنت في كتبهم ، فوصلت بفضل تدوينهم لها الينا . وعلى رأس من دوّنوا أسماءهم في الشهرة وبعد الصيت : (عنترة بن شداد العبسي) الذي لا يزال الناس يضربون به المثل في الشجاعة . وهو أحد (أغربة العرب) وهم ثلاثة : أولهم هو ، وثانيهم (خفاف) واسم أمه (ندبة) ، وثالثهم (السليك) واسم أمه (السلكة)، وأم الثلاثة إماء سود . كانت أم (عنترة) أمة سوداء ، اسمها (زبيبة) ، فلما كبر أغار بعض أحياء العرب على قوم من (عبس) ، فأصابوا منهم . فتبعهم العبسيون ، فلحقوهم فقاتلوهم وفيهم عنترة . فقال له أبوه (كر يا عنترة) ، فقال : « العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلاب والصر » ، وذلك ان العرب في الجاهلية كانت اذا كان لأحدهم ولد من أمة استعبده ، فعدّ (عنترة) من العبيد .

فقال له : كر وأنت حر . فقاتلهم واستنقذ ما في أيدي القوم من الغنيمة،فادعاه أبوه بعد ذلك ، واسمه (عمرو بن شداد) . فنسب اليه .

وقد برز اسمه في حرب (داحس والغبراء). وقد قتل فيها ضمضماً المريّ، أبا الحصين بن ضمضم . وقد كان مصيره القتـل كذلك . وتزعم (طيء) ان قاتله منها . ويزعمون ان الذي قتله (الأسد الرهيف)[1] .

ومن مشاهير الفرسان (ربيعة بن مكـدم) وهو من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة . وقد عرف (بنو فراس) بالشجاعة والنجدة . وقد كان يعقر على قبره تعظيماً له وتقديراً . مر على قبره (حسان بن ثابت) ، فقال فيه شعراً[2] .

و (ملاعب الأسنة) ، وهو (عامـر بن مالك بن جعفر بن كلاب) ، (أبو براء) . وهو ممن اشتهر بالفروسية كذلك . وكان سيداً في قومه . ذكر انه أخذ أربعين مرباعاً في الجاهلية . وفي ذلك دلالة على ما كان له من مقام في قومه . قيل انه سمي (ملاعب الأسنة) بقول أوس بن حجر :

ولاعب أطراف الأسنة عامر فراح له حظ الكتيبة أجمع[3]

وقد عرف بـ (ملاعب الرماح) كذلك[4] . وقد لقب بهذا اللقب في شعر الشاعر (لبيد)[5] .

وذكر (السكـري) . (عامرَ بن مالك) في جملـة من اجتمعت عليه هوازن . ولم تجتمع هوازن كلها في الجاهلية إلا على أربعة نفر من (بني جعفر ابن كلاب) وهم : (خالد بن جعفر بن كلاب) بعد قتله (زهير بن جذيمة ابن رواحة) و (عروة الرحـّال بن عتيبة بن جعفر) و (الأحوص بن جعفر)

---

١ بلوغ الارب (١٢٦/٢ وما بعدها) ، الدينوري ، عيون الاخبار (١٢٥/١) .

٢ بلوغ الارب (١٢٥/٢) .

٣ بلوغ الارب (١٢٧/٢) ، تاج العروس (٤٢٣/٣) ، (عمر) ، (ومن رجال بني جعفر بن كلاب : عامر بن مالك ملاعب الاسنة ، وابن أخيه عامر بن الطفيل) ، الإشتقاق (١٨٠/٢) ، الاصابة (٢٤٩/٢) ، (رقم ٤٤٢٤) .

٤ الثعالبي ، ثمار (١٠١ ، ١٠٢) .

٥ الثعالبي ، ثمار (١٠١) .

و (عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب)[١] .

و (عامر بن الطفيل بن مالك بن كلاب العامري) ، من فرسان الجاهلية المعروفين أيضاً ، وهو ابن أخي (عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وقد أدرك الاسلام فكان في جملة من وفد مع قومه في سنة تسع من الهجرة على الرسول . وكان قد أضمر الغدر برسول الله . ولكنه لم يتمكن منه . ثم قال لرسول الله : أتجعل لي نصف ثمار المدينة وتجعلني ولي الأرض بعدك فأسلم ؟ فأبى عليه رسول الله . فانصرف عامر وقال : والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً . وكان متعجرفاً متغطرساً ، لما ناله من مكانة عند قومه . حتى زعم أهل الأخبار ان اسمه كان قد طار الى خارج جزيرة العرب ، حتى بلغ (قيصر) ، فكان (قيصر) إذا قدم عليه قادم من العرب قال ما بينك وبين عامر بن الطفيل ؟ حتى وفد عليه (علقمة ابن علاثة) فانتسب له ، فقال : ابن عم عامر بن الطفيل ، فغضب علقمة[٢] . ورجع ونافر (عامر بن الطفيل) في قصص من هذا القصص المألوف وروده عن أهل الأخبار .

وروى بعض أهل الأخبار ، أن (عامر بن الطفيل) لما مات نصبت بنو عامر نصاباً ميلاً في حمي على قبره ، لا تنشر فيه راعية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش . تعظيماً لقبره واحتراماً لذكراه[٣] .

وذكر (أبو عبيدة) ، أن (عامر بن الطفيل) ، أحد فرسان العرب المعروفين و (فرسان العرب ثلاثة : فارس تميم : عتيبة بن الحارث بن شهاب، وكان يقال له صياد الفوارس وسم الفوارس ، وفارس ربيعة : بسطام بن قيس ابن مسعود ، وفارس قيس: عامر بن الطفيل ملاعب الأسنة . فأما ملاعب الرماح فأبو براء عامر بن مالك بن جعفر)[٤] . وذكر أن (عامر بن مالك بن جعفر)، (أبو براء) ، بعث الى رسول الله يسأله أن يوجه اليه قوماً يفقهونهم في الدين،

---

١ المحبر (٢٥٣ وما بعدها) ، أسد الغابة (٣/ ٨٤) .
٢ بلوغ الأرب (٢/ ١٢٩) ، الاشتقاق (١٨٠ ، ٢١٥) ، الاغاني (١٥/ ٥٠ ، ١٣١).
٣ بلوغ الارب (٢/ ١٣١) ، العقد الفريد (١/ ١٧٢) .
٤ الثعالبي ، ثمار (١٠١) ، (وبسطام اسم فارسي . وبسطام أحد الفرسان الثلاثة المذكورين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبسطام هذا) ،الاشتقاق (٢/ ٢٢٥) .

فبعث اليهم قوماً من أصحابه ، فعرض لهم (عامر بن الطفيل) ، فقتلهم يوم (بئر معونة) فاغتم أبو براء لذلك ، وقلق لاغفار عامر بن الطفيل بقتلهم ذمته . ومات (عامر بن الطفيل)، وهو منصرف من عند رسول الله ، ودعا (أبو براء) قينتين له ، واستدعى (لبيداً) ، وأخذ يشرب حتى أثقله الشراب ، فاتكأ على سيفه حتى فاضت نفسه ، فرثاه (لبيد) ، ودعاه بـ (ملاعب الرماح)[1] .

وقد عدّه أهل الأخبار في جملة (من كان يركب الفرس الجسام فتخط إبهاماه في الأرض)[2] ، وفي جملة (العوارن الأشراف)[3] . وقد نافر (عامر ابن الطفيل) (علقمة بن علاثة) عند (هرم بن قطبة بن سنان)[4] .

وزُعم انه كان في جملة من أوفدهم (النعمان بن المنذر) الى (كسرى) ليبينوا له مكارم العرب . وفي الوفد : أكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة ، والحارث بن عبّاد البكري ، وعمرو بن الشريد السلمي ، وخالد بن جعفر الكلابي،وعلقمة بن علاثة . فتكلم في جملة من تكلم منهم . ودوّن أهل الأخبار كلامهم وأجوبة كسرى عليه ، وكأنهم كانوا كتّاب محضر ، دوّنوه بالنص[5] ! وله منافرة مع (علقمة بن علاثة) ، كان حكمها (هرم بن قطبة بن سنان) الفزاري . وقد سجل أهل الأخبار حديثها بالنص كذلك[6] .

ويعدّ (زيد الخيل) من مشاهير فرسان العرب كذلك ، واسمه (زيد بن مهلهل بن زيد بن منهب الطائي) . وهو من سادات (طيء) ومن الشعراء . وكان بينه وبين (كعب بن زهير) هجاء ، لأن كعباً اتهمه بأخذ فرس له . قدم في وفد طيء ، وهو سيدهم على الرسول . فلما انتهوا اليه كلموه . وعرض عليهم الاسلام فأسلموا . ثم بدل الرسول اسمه فسماه زيد الخير . وكلمه فأعجبه فلما ولى عائداً من عنده الى وطنه قال الرسول : « ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا ما كان من زيد الخيل ، فإنه لم

---

١ الثعالبي ، ثمتر (١٠١ وما بعدها) ، المحبر (١١٨) .
٢ المحبر (٢٣٤) .
٣ المحبر (٣٠٣) .
٤ المحبر (١٣٥) .
٥ البيان والتبيين (١/٤٥) .
٦ بلوغ الارب (١/٢٨٨ وما بعدها) .

يبلغ فيه كل ما فيه » ، وقطع له (فيدأ) وأرضين معه . وكتب له بذلك . فلما عاد من المدينة وانتهى الى ماء من مياه نجد يقال له : (قردة) أصابته الحمى، حمى يثرب الشهيرة المكناة عندهم بـ (أم ملدم) ، فمات بها [1] .

وكان كما يصفه أهل الأخبار طويلاً جسيماً وسيماً يركب الفرس العظيم الطويل فتخط رجلاه في الأرض كأنه راكب حماراً . أسر عامر بن الطفيل وجز ناصيته[2]. (قيل له زيد الخيل لطول طراده بها وقيادته لها)[3] . وقد عدّه (ابن حبيب) في جملة المتعممين مخافة النساء على أنفسهم لجمالهم[4] .

ومن الفرسان (عمرو بن معديكرب) ، وهو ممن وفد على رسول الله في قومه من (زبيد) . فأسلم ثم ارتد بعد وفاة الرسول[5]. فلما سيّر الخليفة (أبو بكر) جيشاً على المرتدين انهزم (عمرو بن ودّ) ، ثم أخذ أسيراً الى الخليفة ، فأنبه فعاد الى الاسلام واشترك في معركة (اليرموك) ثم في معركة (القادسية) وتوفى سنة (٢١) من الهجرة[6] . ويعد (فارس اليمن)[7] . ونعته (ابن حبيب) بـ (فارس العرب)[8].

ومنهم : (دريد بن الصمة) ، وهو من (بني جشم) . وله أخبار مع (بني كنانة) ، وقد أسرته بنو فراس من (بني كنانة) ، فلما عرفته امرأة منهم وهي امرأة (ربيعة بن مكدم) ، توسلت الى قومها بفك أسره ، لمساعدته لها في وقت شدة وهو لا يعرفها وهي لا تعرفه ، ثم جهزته ولحق بقومه[9] . وقد عدّه (ابن حبيب) من (أشراف العميان) و (البرص الأشراف)[10] .

---

١ الطبري (٣/١٤٥ ومابعدها) ، (وكان شاعرا ، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، فسماه زيد الخير ، وقال له : يا زيد ما وصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الاسلام الا كان دون الصفة ليسك • يريد غيرك) ، الثعالبي ، ثمار (١٠١) •

٢ بلوغ الارب (٢/١٣٨) •

٣ الثعالبي ، ثمار (١٠١) •

٤ المحبر (٢٣٢ وما بعدها) •

٥ الطبري (٣/١٣٢ وما بعدها) •

٦ بلوغ الارب (٢/١٣١ وما بعدها) ، الثعالبي ، ثمار (٤٣٩ ، ٥٣٥ ، ٦٢١) ، وفقئت عينه يوم اليرموك ، المحبر (٢٦١ ، ٣٠٣) •

٧ الثعالبي ، ثمار ٦٢١ وما بعدها) •

٨ المحبر (٢/٢٤٥) •

٩ بلوغ الارب (٢/١٣٤ وما بعدها) ، الثعالبي ، ثمار (٣٩٧) ، (فمن بني غزية دريد بن الصمة) ،الاشتقاق (١٧٧) •

١٠ المحبر (٢٩٨ ، ٢٩٩) •

وزيد الفوارس من هذا الرعيل الشهير من فرسان الجاهلية . وكان الرؤساء في قومه . وشهد يوم (القرنتين) ومعه ثمانية عشر من ولده يقاتلون معـــه . وهو من سادات (بكر بن سعد بن ضبة) . وهو (زيـد الفوارس بن حصين بن ضرار الضبي) . وقد طالت رياسته[1] .

ومنهم (عمرو بن كلثوم) الشاعر الشهير قاتل (عمرو بن هند) ملك الحيرة وصاحب المعلقـــة . وينتهي نسبه الى (تغلب) ، وهو أحد فتاك العرب وأخوه (مرة) هو الذي قتل (المنذر بن النعمان)،وأمه (أسماء بنت مهلهل بن ربيعة). وقد ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ، ومات وهو ابن مائة وخمسين سنة[2] .

ومن الفرسان الشجعان (أمية بن حرثان الكناني) ، وكان من سادات قومه، وقد أدرك النبي وأسلم ، وله ولـــد اسمه (كلاب بن أمية) دخل في الإسلام كذلك[3] .

ومن الفرسان (الشنفرى الحارثي) وهو من الشعراء وأحد العدّائين. والعداؤون من العرب : السليك ، والشنفرى ، والمنتشر بن وهب ، وأوفى بن مطـــر . ولكن المثـــل سار من بينهم بالسليك . والعرب تضرب به المثل ، وتزعم انـــه والشنفرى أعدى من رئي . ويزعمون انهما كانا يسبقان الأفراس ، ويصيدان الظباء عدواً[4] . وقد عرف السليك بـ (سليك المقانب) ومقانب أمـــه ، وكانت أمه سوداء ، وسليك أيضاً أسود ، وهو أحد أغربة العرب[5] .

ولمع في هذه الأيام اسم حذيفة بن بدر ، واسم حمل أخيـــه ، وكانا سيدي بني فزارة . وقد عرف حذيفة بـ (رب) معد[6] ، وقاد قومه بني فزارة في عدة أيام هي : يوم النسار ، ويوم الجفار ، وحرب داحس والغبراء حيث قتل فيها

---

١ بلوغ الارب (٢/١٣٧ وما بعدها) ، (قال الفرزدق :
زيد الفوارس وابن زيد منهم وأبو قبيصة والرئيس الاول
وزيد الفوارس بن حسين بن ضرار . واشتقاق قبيصة من قولهم قبصت قبصة ، أي أخذت بثلاث أصابعي شيئا) ، الاشتقاق (١٢٠) .
٢ بلوغ الارب (٢/١٤١ وما بعدها) .
٣ الاشتقاق (١٠٧) ، بلوغ الارب (٢/١٣٨) .
٤ الثعالبي ، ثمار (١٣٥) .
٥ الاغاني (١٨/١٣٣ وما بعدها) ، الثعالبي ، ثمار (١٠٥) .
٦ العمدة (٢/١٩٣) (باب ذكر الوقائع والايام) المحبر (٤٦١) .

يوم الهباءة [1] .

وقد دونت الأيام أسماء جماعة من سادات تميم ممن ترأسوا قومهم . ولقبائل تميم مكان خطير في هذه الأيام . ويظهر انها كانت من القبائل البارزة في القرن السادس للميلاد . ومن هؤلاء : زرارة بن عدس من بني دارم . وقد قاد تميماً وغيرها في يوم شويحط الى علبرة بن سعد هذيم ، ولقيط بن زرارة ، وقد قاد تميماً كلها إلا بني سعد بن زيد مناة الى بني عامر بن صعصعة يوم جبلة،والأقرع ابن حابس ، وقد قاد حنظلة كلها يوم الكلاب الأول، عدا أسماء آخرين تجدهم مذكورين في أخبار الأيام .

الخيل :

وللخيل أهمية كبيرة في جزيرة العرب ، إنها سيارة ذلك اليوم ، بل ربما كانت أهم منها عند العربي : يركبها ويحارب عليها بسهولة وبسرعة لا تتوفر في الجمل ويستطيع أن يسابق بها الإبل ، ويفر ممن يريد اللحاق به لشر ّ ينويه تجاهه.ولذلك كانت للخيل مكانة كبيرة عند الجاهليين في السلم وفي الحروب ، حتى كان الرجل منهم يبيت طاوياً ويشبع فرسه ويؤثره على نفسه وأهله وولده. فالخيل وقاية للنفس، والمعاقل التي يأوي اليها ، والخير عندهم معلق بنواصي الخيل [2] .

ويرجع أهل الأخبار تأريخ ركوب الخيل الى (اسماعيل بن ابراهيم)،يزعمون أنه أول من ركبها،وكانت الخيل وحوشاً لا تركب . فذهب الى موضع (أجياد)، وهو موضع بمكة يلي الصفا ، وكان موطناً له ، فركب ظهور الجياد . وركب الناس منذ ذلك العهد الخيل . فاسماعيل على زعمهم هو أول راكب للخيل [3] . ويلاحظ أن راوي هذا الخبر أراد اقناع السائل بصحة جوابه ، فربط بين ركوب ظهور الجياد وبين موضع أجياد ، ليبدو الجواب منطقياً مقبولاً .

وقد مدحت العرب الخيل العراب . أي الخيول العربية الأصيلة،التي لم تهجن،

---

١ المحبر (٢٤٩) .

٢ بلوغ الارب (٧٧/٢ وما بعدها) .

٣ نهاية الإرب (٣٤٥/٩ وما بعدها) .

ولم يختلط في دمها دم غريب[1] . وقد مدحت الخيل الشقر ، وذلك لسرعتها ، ومدحت بعدها الحصان الأدهم الأرثم المحجل الطلق اليد اليمنى[2] . وقيل للخيل الكريمة الأصيلة (العتاق من الخيل) و (الخيل العتاق)[3] .

وقد كانت الخيل من جملة وسائل كسب الحروب . والفريق الذي يملك أكبر عدد من الخيل في المعركة يكسب الحرب . وذلك لسرعتها ولما تحدثه تحركات المحارب على ظهرها من أثر في صفوف جيش العدو . ولهذا عدّ بعض الباحثين دخول الخيل الى جزيرة العرب تطوراً خطيراً في أسلوب القتال عند العرب ، أحدث تغييراً خطيراً في طرق القتال وصار عاملاً مهماً من العوامل التي أدت الى انتشار القتال والغزو في بلاد العرب . وصار في امكان القبيلة التي تملك خيلاً جيدة كثيرة أن تتفوق على غيرها في الغزو ، حتى إذا كانت القبيلة كبيرة ، لأن العدد الكثير وان كان ذا أهمية في النصر ، ولكنه لا يستطيع أن يقف أمام الفرسان ، ان كان المحاربون من المشاة أو كان أكثرهم منهم . إذ لا يستطيع الثبات أمام صولات وجولات الفرسان الذين يشتتون شمل الصفوف ويمزقون الجمع ، ويمهدون لمن وراءهم من المشاة فرصة الانقضاض على الفارين المنهزمين .

ولأهمية الخيل عند العرب ألّف كثير من العلماء كتباً فيها ، تجد ذكرهم في (الفهرست) لابن النديم . ومن هؤلاء (ابن الكلبي) صاحب كتاب (أنساب الخيل)[4] و (ابن الأعرابي) صاحب كتاب (أسماء الخيل)[5] .

ووضعوا جرائد ومشجرات في أنساب الخيل . حرصاً منهم على المحافظة على أصالتها وبقاء جنس ما عندهم نقياً نظيفاً . ومنعوا الفحول الجيدة منها من الاتصال بالأفراس الرديئة أو الأفراس المجهولة التي ليس لها نسب معروف . حتى لا يتولد من هذا الاتصال نسل رديء هجين . بل حرص صاحب الحصان الجيد على ألاّ يعطيه لأحد ليتصل بفرسه حتى وإن كانت غاية في النجابة ، وذلك خشية أن ينسل نسلاً فاخراً لغيره ولا يكون له منه شيء . ولا تزال هذه العادة معروفة

١ تاج العروس (٣/٣٣٥ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (٩/٣٦٢ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٠/٢٣٦) .
٤ طبع بمدينة « لايدن » وبالقاهرة بمطبعة بولاق .
٥ طبع بمدينة « لايدن » .

عند العرب حتى الآن ، فهم يحفظون أنساب خيولهم حفظاً عجيباً ، من غير رجوع الى جريدة نسب أو شجرة من شجرات النسب . كما يحافظون على النسل الجيد من الخيول العربية ، ويعتنون به عناية فائقة ، إذ يرون أنه زينة وبهجة للمرء ، ومن ملذات الحياة في هذه الدنيا .

ومن دلائل عناية الجاهليين بالخيل ما نجده في اللغة من ألفاظ وكلمات كثيرة تخص الخيل . تخص أسماءها وأسماء أعضاء جسمها وحركاتها وسكناتها وأوصافها وألوانها ، حتى انهم لم يتركوا شيئاً له علاقة بها إلا ذكروه . فلا عجب إذن إذا ما ألفوا فيها الرسائل والكتب وتحدثوا عنها حديثاً طويلاً في الجاهلية وفي الاسلام .

وقد اشتهرت بعض الجياد في الجاهلية بشدة عَدوِها فلا تدانيها في العدو خيول أخرى ، وفي مقدمتها فرس عرف بـ (زاد الركب) (زاد الراكب) ، قالوا إن أصل فحول العرب من نتاجه . وقد زعم ابن الكلبي أنه من بقية جياد سليمان ابن داود ، وأن وفداً من (الأزد) ، وكانوا أصهاره ، وفدوا عليه ، فلما فرغوا من حوائجهم سألوه أن يعطيهم فرساً من تلك الخيل، فأعطاهم فرساً كانوا لا ينزلون منزلاً إلا ركبه أحدهم للقنص ، فلا يفلته شيء وقعت عينه عليه من ظبي أو بقر أو حمار ، إلى أن قدموا بلادهم فقالوا : ما لفرسنا هذا اسم إلا زاد الراكب ، فسموه زاد الراكب ، فأصل فحول العرب من نتاجه[1] .

واشتهر فرس آخر بسرعته وبشدة عدوه اسمه (أعوج) ، زعم انه من نسل (زاد الراكب) . قيل : انه كان سريعاً جداً لا يداني في العَدْو . وكان فحلاً لغني بن أعصر . وقد عرف بـ (أعوج الأكبر)[2] .

وكان (أعوج) الأصغر أولاً لكندة ، ثم أخذته (سُليم) وصار لبني عامر ثم لبني هلال . وأمه (سبل) لغني ، وأم (سبل) (سوادة) (البشامة) ، وأم (سوادة) (القسامة) ، وكانت لجعدة . وكان أعوج طويل القوائم سريع العدو . ولهم أيضاً (الفياض)[3] . وقد اشتهر نسله، واكتسب شهرة في العتاق من

---

١ العقد الفريد (١٨٤/١) ، نهاية الارب (٣٩/١٠) ، أسماء الخيل ، لابن الاعرابي (ص ٥٠) ، « زاد الركب » .

٢ العقد الفريد (١٨٥/١) ، نهاية الارب (٣٩/١٠) ، بلوغ الارب (١٠٤/٢) .

٣ نهاية الارب (٤٠/١٠) ، العمدة (٢٣٤/٢) ، « وأمه سبل كانت لغني ، وأم سبل البشامة ، كانت لجعدة » ، العمدة (٢٣٤/٢) ، « القاهرة ١٩٦٤ » « المكتبة التجارية » .

الخيل[1] .

ومن خيل العرب المشهورة : (الغراب) و (الوجيه) و (لاحق) و (المذهب) و (مكتوم) ، كانت كلها لغني[2] . وذكر ان (الوجيه) و (لاحق) لبني أسد[3] ، وقيل لبني سعد[4] . و (الأعنق) فحل من خيل العرب ، أنجب سلالة نسبت اليه عرفت بـ (بنات أعنق)[5] .

ومن خيل العرب الشهيرة الأخرى : (قيد) و (حلاب) لبني تغلب . و(الصريح) لبني نهشل ، وزعم انه كان لآل المنذر ، و (جلوى) لبني ثعلبة بن يربوع ، وذو العقال لبني رياح بن يربوع ، وهو أبو (داحس) . وكان (داحس) و (الغبراء) لبني زهير . والغبراء خالة داحس وأخته من أبيه . و (ذو العقال) و (قرزل) و (الخطّار) و (الحنفاء) لحذيفة بن بدر . والحنفاء هي أخت داحس من أبيه وأمه . و (قرزل) آخر للطفيل بن مالك[6] .

و (حذفة) لخالد بن جعفر بن كلاب ، وحذفة أيضاً لصخر بن عمرو بن الشريد . و (الشقراء) لزهير بن جذيمة العبسي و (الزعفران) لبسطام بن قيس، و (الوريعة) (الوديقة) و (نصاب) و (ذو الخمار) لمالك بن نويرة ، و (الشقراء) أخرى لأسيد بن حناءة السليطي ، و (الشيط) لأنيف بن جبلة الضبي، و (الوحيف) (الوجيف) لعامر بن الطفيل ، و (الكلب) و (المزنوق) والورد له أيضاً ، و (الخنثى) (خنثى) لعمرو بن عمرو بن عدس ، و (المداج) فرس الريب بن شريق السعدي ، و (جزة) فرس يزيد بن سنان المرّي فارس غطفان ، و (النعامة) للحارث بن عباد[7] .

و (ابن النعامة) لعنترة ، و (النحام) فرس (السليكة بن السليك السعدي) و (العصا) فرس جذيمة بن مالك الأزدي ، و (المراوة) لعبد القيس بن أفصى

---

١ نجى حكيما يوم بدر ركضه كنجاء مهر من بنات الاعوج بلوغ الارب (١٠٥/٢) ، شرح ديوان حسان (٦٩) ، (للبرقوقي) .
٢ نهاية الارب (٤٠/١٠) .
٣ نهاية الارب (٤٠/١٠) .
٤ العمدة (٢٣٤/٢) .
٥ تاج العروس (٢٦/٧) ، (عنق) .
٦ نهاية الارب (٤١/١٠) ، العمدة (٢٣٥/٢) .
٧ نهاية الارب (٤١/١٠ وما بعدها) . العمدة (٢٣٥/٢) ، انساب الخيل ، (ص ٦٦ وما بعدها) ، أسماء الخيل (ص ٦٤ وما بعدها) .

و (اليحموم) فرس النعمان بن المنذر ، و (كامل) فرس زيد الخيل ، و (الزبد) (الربد) (الريد) فرس الحوفزان ، وهو أبو (الزعفران) فرس بسطام ، و (العرادة) (الحمالة) فرس الكلحبة اليربوعي[1] .

و (القطيب) و (البطين) فرسان كانا للعرب ، و (اللعاب) (العباية) فرسا حري بن ضمرة ، و (المدعاس) فرس النواس بن عامر المجاشعي ، و (صهبي) فرس النمر بن تولب ، و (حافل) فرس مشهور ، ذكره (حرب بن ضرار) و (العسجدي) لبني أسد ، و (الشموس) فرس زيد ابن خذاق (حذاق) العبدي ، و (الضيف) لبني تغلب ، و (هرارة العزاب) فرس الريان بن حويص العبدي ، جاءت سابقة طول أربع عشرة سنة ، فتصدق بها على العزّاب يتكسبون عليها في السباق والغارات ، و (الحرون) فرس تنسب اليه الخيل ، وكان لمسلم بن عمرو بن أسد (أسيد الباهلي) ، و (الزليف) فرس مشهور ، وهو من نسل (الحرون) و (مناهب) فرس تنسب اليه الخيل أيضاً ، و (العلهان) فرس أبي مليل (مليك) عبدالله بن الحارث اليربوعي[2] .

وذكر أن أفراس العرب الشهيرة أفراس عرفت بـ (الكامل) منها : فرس لميمون بن موسى المري ، وقال بعضهم بل كان لامرىء القيس . وفرس لرفاد ابن المنذر الضبي ، وفرس الهلقام الكلبي ، وفرس الحوفزان بن شريك الشيباني، وفرس سنان بن أبي حارثة المري،وفرس زيد الفوارس الضبي ، وفرس شيبان النهدي ، وفرس زيد الخيل الطائي[3] .

ومن أفراس العرب : فرس عرفت بـ (الكاملة) ، وهي بنت البعيث ، فرس عمرو بن معديكرب . وفرس ليزيد بن قنان الحارثي[4] .

وكان للرسول تسع عشرة فرساً ، اشترى بعضاً منها ، وتقبل بعضاً منها هدية. وقد اشترى (الضرس) من أعرابي بعشر أوراق ، وسماه النبي (السكب) وهو فرسه يوم أحد ، ليس مع المسلمين فرس غيره[5] . واشترى (المرتجز)

---

١ العمدة (٢/٢٣٥) ، نهاية الارب (١٠/٤٣ وما بعدها) .
٢ العمدة (٢/٢٣٥ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٠/٤٦ وما بعدها) ، وكذلك أنساب الخيل ، وأسماء الخيل .
٣ تاج العروس (٨/١٠٤) ، (كمل) .
٤ تاج العروس (٨/١٠٤) ، (كمل) .
٥ نهاية الارب (١٠/٣٣ وما بعدها) ، العمدة (٢/٢٣٤) ، المعارف (٦٥) .

و (البحر) ، وقد اشتراه من تجار قدموا من اليمن ، فسبق عليه مرات[1] . واشترى (سبحة) من أعرابي من (جهينة) بعشرة من الإبل .

ومن الخيل التي أهديت للرسول : (اللحيف) (اللخيف) (النحيف) ، أهداه له : (فروة بن عمرو) من أرض البلقاء ، وقيل أهداه له : (ربيعة بن أبي البراء) و (الظرب) ، أهداه له (فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي)، و (الورد) ، أهداه له (تميم الداري) ، و (المراوح) أهداه له وفد من الرهاويين ، و (اللزاز) أهداه له (المقوقس)[2] .

ويدفعنا الكلام في تعداد أسماء خيول العرب الشهيرة في الجاهلية الى ذكر جريدة طويلة بأسمائها . ترد في كتب الخيل وفي كتب المعجمات والأدب[3] ، ولما كان هذا الموضوع معروفاً ومدوناً ولا صلة له بالعقلية وبالحياة الجاهلية لذلك اكتفيت بما أوردته عنها في هذا المكان ، ولمن أراد المزيد الرجوع الى الموارد المذكورة .

---

١ نهاية الارب (١٠/٣٥) ، المعارف (٦٥) .

٢ « ذكر أسماء خيل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » ، نهاية الارب (١٠/٣٣ وما بعدها) ، العمدة (٢/٢٣٤) « باب العتاق من الخيل ومذكوراتها » ، المعارف (ص ٦٥) .

٣ بلوغ الارب (٢/١٠٤ وما بعدها) . (خيل العرب المشهورة) .

الفصل الخامس والخمسون

الحروب

ترك المصريون والآشوريون والبابليون واليونان والرومان وغيرهم آثاراً كثيرة ، فيها صور معارك وأسلحة ومعدات وجنود مقاتلين أو مستأسرين أو منتصرين ، أفادت الآثاريين والعلماء في تكوين رأي في حروب تلك الأمم والآلات التي استعانت بها في قتالها . أما الجاهليون فلم يتركوا ، ويا للاسف ، إلا نزراً يسيراً من الآثار فيه صور حروب أو جنود أو معدات قتال ، لهذا صار علمنا بالحروب عندهم مستمداً من تلك النصوص القليلة ومن نصوص معدودة وردت في الآثار الآشورية أو البابلية وفيها إشارات الى العرب ، ومن موارد أعجميـــة مكتوبة تحدثت عن حروب وقعت مع العرب ، ومن الموارد الاسلامية .

ولفظة (الحرب) ، وتجمع على حروب ، هي اللفظة الشائعة المعروفة عند الجاهليين للخروج لمحاربة العدو والاصطدام به . وترادفها لفظة (ضر) وتجمع على (اضرو) في اللهجات اليمانية [1] . وهناك لفظة أخرى هي (غزو) وتعني الخروج لمحاربة العدو[2] . فهي في معنى الحرب والغزو . وترد في اللهجات العربية الجنوبيـــة أيضاً [3] . ويراد بـ (غزت) ، غزوات في عربيتنا ، أي في حالة

---

١ تاج العروس (١/٢٠٥) ، اللسان (١/٣٠٢) ، راجع السطر الخامس من النص الموسوم

Halevy 149, REP. EPIGR. 4624, II, p. 276, Jamme 576, 577, Mahram, p. 447.

٢ الاصفهاني : المفردات (ص ٣٦٦) .

٣ Jamme 566, Mahram, p. 445.

الجمع[1] . وب (غزوي) غزوتين اثنتين[2] . وأما لفظة (هغرو) فتعني أغاروا على قوم ، والغارة هي (هغر) في العربية الجنوبية[3] .

وترد لفظة (حربت) (ح ر ب ت) بمعنى معركة ، وحرباً واحدة في اللغة السبئية . وأما (حريب) فتعني الحروب والمعارك ، أي جمع (حرب)[4] . وأما (حرب) فتعني المحاربة وحارب والحرب[5] .

وتطلق لفظة (ضبا) في السبئية بمعنى الحرب ، وبمعنى إعلان الحرب أيضاً . ووردت لفظة (ضبات) ، بمعنى مقاتلين ومحاربين[6] . وترد لفظة (تادم) ، بمعنى الشروع في قتال والاستعداد لحرب[7] .

ويقال للحرب (ضرر) في اللحيانية . أما لفظة (الحرب) ، فتعني السطو والسرقة ، بالإضافة الى معنى الحرب التي تعني الخصام والقتال[8] .

ويعبر عن لفظة قاتل بلفظتي (سبا) و (جنب) في السبئية[9] . وتؤدي لفظة (حرب) هذا المعنى أيضاً ، إذ أنها تعني حارب[10] . و (جنب) ، بمعنى قتال وتعارك وتحارب .

ويقال للحرب (حرب) في اللهجة الصفوية ، أي على نحو ما نجده في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم .

ويعبر عن الحملة أو الغزوة بلفظة (برث) في السبئية[11] . ويقال لها (خرجت) أيضاً . ويراد بـ (خرجت) ثورة كذلك[12] . ويعبر عن الحملة والغزوة بلفظة

---

١ Jamme 586, Mahram, p. 445.

٢ Jamme 577, Mahram, p. 445.

٣ Mahram, p. 433.

٤ Jamme 575, 577, 650, 658, 665, Mahram, p. 436.

٥ Mahram, p. 436.

٦ Jamme 556, 577, 579, 581, 635, 636, 658, Mahram, p. 446.

٧ Jamme 644, Mahram, p. 447.

٨ راجع النص ٤١ و ٨٤ من كتاب : W. Caskel, 97, 118.

٩ Jamme 597, Mahram, p. 430.

١٠ Mahram, p. 436.

١١ Jamme 561 bis, 578, 635, Mahram, p. 430.

١٢ Jamme 665, 712, Mahram, p. 437.

(منشا) في بعض الأحيان[١] . ويعبر عنها بلفظة (مسبا) (مسبأ) كذلك[٢] . كما يقال (مقرن) أيضاً[٣] .

والعرب تقــول : الحرب غشوم ، لأنها تنال غير الجاني[٤] . وتصيب أناساً لا علاقة لهم بها ولا صلة ، فهي لا تعرف التفريق بين الجاني ومن لا ذنب له[٥] .

وقد عرف علماء اللغة الجيش بأنه الجند ، أو جماعة الناس في الحرب، والجمع جيوش[٦] . وقالوا الجيش : العسكر[٧] . فالمراد بالجيش اذن الجماعــة المقاتلة التي تخرج للقتال . وترد لفظـة (جيش) في العربيات الجنوبية كذلك . وتجمع على (اجيش) (أجيش) فيها ، أي في مقابــل (جيوش) و (الجيوش) في عربيتنا [٨] .

ويذكر علماء اللغة ان الجيش واحد الجيوش ، ويراد به جماعــة الناس في الحرب[٩] .

وترد لفظة (خمس) (خميس) في العربيات الجنوبية بمعنى الجيش[١٠] . وترد في عربية القرآن الكريم كذلك . فقد ورد أن الخميس الجيش،أو الجيش الجرار، أو الجيش الخشن . وذكر بعض علماء اللغة ان العرب سمت الجيش خميساً لأنــه مكون من خمس فرق : المقدم والقلب والميمنة والميسرة والساقة [١١] . وقالوا : بل سمي الجيش خميساً لأنه يخمس فيه الغنائم[١٢] . والظاهر ان الأصل في (الخميس) الجيش المنظم الكبير الذي يحارب بإمرة وبنظام . وتجمع لفظة (خمس) أي (جيش)

---

١ Jamme 643, 644, Mahram, p. 440.

٢ Jamme 665, 750, Mahram, p. 440.

٣ Jamme 578, 586, Mahram, p. 441.

٤ العقد الفريد (١/١١٠) (لجنة) .

٥ الدينوري ، عيون الاخبار (١/١٢٧) .

٦ لسان العرب (٦/٢٧٧) ، تاج العروس (٤/٢٩١) .

٧ لسان العرب (٤/٥٦٨) .

٨ Jamme 616, 635, 649, 665, 577, Mahram, p. 430.

٩ اللسان (٦/٢٧٧) ، تاج العروس (٤/٢٩١) .

١٠ Naml 71, 72, 73, Le Muséon, 1967, 3-4, p. 470, Mahram., p. 437.

١١ اللسان (٦/٧٠) ، تاج العروس (٤/١٤٠) .

١٢ اللسان (٦/٧٠) ، تاج العروس (٤/١٤٠) .

في العربية الجنوبية على (اخمس) أي جيوش[١] .

ويعبر عن الجيش بلفظة أخرى هي : عسكر و (العسكر) . وأما الموضع الذي يعسكر فيه فهو (المعسكر)[٢] .

ويطلق الجاهليون على الجيش الكثير الذي لا يسير إلا زحفاً من كثرته(الجرار) ويطلقون على الجيش العظيم (الجحفل)[٣] . ويقولون (جيَّش الجيش) و(جيَّش فلان الجيوش) للتعبير عن التعبئة وتحضير المحاربين لقتال العدو[٤] .

وللعرب آداب وقواعد في الحرب،يطلبون من المحاربين اتباعها لكسب الحرب . قيل لأكثم بن صيفي : صف لنا العمل في الحرب ، قال : أقلوا الخلاف على أمرائكم ، فلا جماعة لمن اختلف عليه . واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ، فتثبتوا ، فإن أحزم الفريقين الركين ، ورب عجلة تعقب ريثاً ، وادرعوا الليل، فإنه أخفى للويل ، وتحفظوا من البيات[٥] . وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أما ترونهم خرساً لا يتكلمون،يتلمظون تلمظ الحيات[٦] .

و (المعسكر) هو موضع تجمع العسكر وموضع نزولهم فيه . ويقال له (حيرت) (حيرة) في السبئية[٧] .

وتقول العرب : إن الشجاعة وقاية والجبن مقتلة . واعتبر من ذلك أن من يقتل مُدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً[٨] . وتقول أيضاً : الشجاع موقّى ، والجبان مُلَقّى[٩] . فاستقبال الموت عندهم،خير من استدباره . ولم يكونوا يهتمون بالكثرة قد اهتمامهم بالألفة بين المحاربين ، وبالعمل يداً واحدة وكأنهم بنيّة مرصوصة . قيل لعنترة : كم كنتم يوم الفروق ؟ قال : كنّا مئة ، لم نكثر فنتكل ، ولم

---

١ Mahram, p. 437, Jamme 576, 635.

٢ اللسان (٤/٥٦٨) .

٣ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٨١ ، ٣٠١ ، ٣٠٣) .

٤ شمس العلوم ، الجزءالاول، القسم الثاني (ص ٣٧٦ وما بعدها) .

٥ العقد الفريد (١/١١٣) ، الدينوري ، عيون الاخبار (١/١٠٨) .

٦ المصدر نفسه

٧ Jamme 576, 631, Mahram, p. 436.

٨ العقد الفريد (١/١١٦) .

٩ المصدر نفسه

نقل فنذل [1] .

وللحرب عنـــد الجاهليين أسباب عديدة ، يدخل في ضمنها ضنك العيش في البادية مما يحمل القبائل على التناحر والتقاتل فيما بينها للحصول على الماء والكلأ ، وهما عماد الحياة في البادية ، أو الحصول على غنيمة [2] . ويعبر عن هذه الحروب بـ (الغزو) . والواحدة (غزو) . وهي تعتمد عـــلى مبدأ المباغتة في الغالب . أما الحروب ،فإنها الحروب الكبيرة التي تقع بين دول وحكومات . كما أن الغارة ، هي غزو مفاجيء يفاجيء به العدو عدوّه ، ليأخذه على غرة ، ولينتزع منه ما يجده عنده من مال .

وقد كانت القبائل تغير بعضها على بعض ، ثم تتراجع حاملة ما حصلت عليه من غنائم وأسلاب ، وقد ترجع ، وهي مسلوبة مهزومة ، في حالـــة تمكن من أريد إيقاع الغارة به من الدفاع عن نفسه ، ومن تغلبه على المغير ورده خائبـــاً على الأعقاب .

وتكون الغارات في وجه الصبح في الغالب ، حتى يؤخذ من يراد الإغارة عليه بغرة ويفاجأ بالغارة مفاجأة . وقد يقصد في الليل من غير أن يعلم ، فيؤخذ بغتة ، والاسم (البَيات) . و (بيت القومَ والعدوَّ : أوقع بهم ليلاً)[3] . وقد أشير إلى (البيات) في الحديث . فقد كان المسلمون يصيبون في البيات من ذراري المشركين ، فسألوا الرسول حكمه فيهم . فكان حكمه : (هم منهم) و (هم من آبائهم)[4] .

والغارة دفع الخيل على من يراد الإغارة عليهم . يقـال أغار على القوم غارة واغارة ، دفع عليهم الخيل . فتكون الغارة بالخيل في الأخص . ويقال أغار إغارة الثعلب ، إذا أسرع ودفع في عدوّه[5] . فالغارة غير الغزو والحرب، تكون سريعة في الغالب ، يعقبها رجوع سريع .

---

١ المصدر نفسه (١/١٢١) .
٢ كتاب الفاخر (ص ٤٩) ، (ليدن ١٩١٥ م) .
٣ اللسان (٢/١٦) ، (بيت) ، تاج العروس (١/٥٣١) ، (بيت) .
٤ صحيح مسلم (٥/١٤٤ وما بعدها) ، (باب جواز قتل النساء والصبيان في البيات من غير تعمد) .
٥ تاج العروس (٣/٤٥٨) ، (غور) .

ويعبر عن الغارة بلفظة (تادم) في العربيات الجنوبية . وتطلق على كل حملة عسكرية أيضاً[1] .

ولا تقتصر الغارات على غارات قطعات الجيش على العصاة والثوار ، بل قد تقوم بها قبيلة على قبيلة ، وقد يقوم بها أفراد ، لأسباب مختلفة . وقد يقوم بها اللصوص والصعاليك ، يغيرون على أحياء العرب وعلى السابلة للحصول على مغنم . وكان بعض أصحاب الغارات يمعنون في الغارة فيبتعدون عن منازلهم . ويعدّون (بُعد الغارة) نوعاً من أنواع الشجاعة والفروسية ، لما تكتنف المغير من أخطار ومهالك . وكان (مروان بن زنباع) ، ويقال له : (مروان القرظ) من (مشهوري أهل الجاهلية في بُعد الغارة)[2] .

وكانت الغارات والغزوات من أهم وسائل الإعاشة والحصول على مغانم بالنسبة للقبائل النازلة على حدود الحضارة أو على مقربة منها . مثل حدود العراق أو حدود بلاد الشأم . وتكثر الغارات في سني الجدب والقحط وانحباس المطر . فلا يبق أمام تلك القبائل للبقاء على حياتها سوى النزوح الى أماكن أخرى مخصبة معشبة ، ويؤدي ذلك إلى التقاتل مع القبائل الأخرى النازلة في تلك الأرضين ، أو مع قوات الحدود التي تحاول رد تلك القبائل خشية غزوها للحضر أو لمن يقيم وراء الحدود من أعراب . لذلك استعملت حكومات العراق وبلاد الشأم جملة وسائل لكبح جماح الأعراب الغزاة في جملتها حماية الحدود بـ (مسالح) بنيت في أطراف البوادي وفي نهايات الطرق التي توصل إلى الحضر ، تضع بها قوات مقاتلة نظامية وغير نظامية من الأعراب أصحاب الإبل لمقاتلة الأعراب ، وتقديم الأطعمة والميرة من المستودعات المقامة في (المسالح) و (القصور) إلى سادات القبائل لسد ما عندها من نقص في الطعام ، وبإقامة إمارات عربية ، تودع اليها أمور تأمين الأمن في البادية وحماية الحدود من غارات الأعراب .

المحاربون :

والمحاربون على نوعين : أحرار وعبيد . ولذلك نجد بعض الكتابات العربية

---

1 South Arabian Inscriptions, p. 449.

2 الاشتقاق (٢/١٦٩) .

الجنوبية تشير إلى هذين النوعين من المقاتلين ، مما يدل على كثرة عدد العبيد الذين يؤمرون بالقتال في ذلك الزمن . جاء في نص (كرب ايل وتر) الموسوم بـ Glaser IOOOA (وجيش عبدان من أحرار ورقيق) . وورد هذا التعبير في نصوص أخرى تعبيراً عن وجود عدد كبير وربما أفواج من المقاتلين العبيد في جيوش ذلك الزمن .

والسخرة هي الطريقة الغالبة في التجنيد ، فإذا وقع خطر ، طلب الملك من الأقيال والرؤساء تسخير من يتمكنون تسخيره للقتال . ويبقى المسخر في الخدمة حتى تنتهي الحرب . ولما كان المسخرون قد أجبروا على القتال إجباراً، وهم من الطبقات الدنيا في الغالب ، وليس لهم ما يقتاتون به ، لذلك ، كثرت حوادث التهرب من الجيش،والفرار منه في أثناء القتال . ووضع مثل هذا يؤثر على مصير الحرب بالطبع .

ويتولى الحرب والجيش أناس مدربون على أسلوب القتال لهم خبرة بالحروب ، أو سادات قوم عليهم واجب قيادة قومهم عند ظهور غزو أو خطر أو حرب ، ويعرف مثل هؤلاء بقادة ، والواحد (قائد)[1] .

وكان بعض قادة الجيش عند العرب الجنوبيين يحملون درجة (مقتوي) ، وهي منزلة خاصة في درجات القيادة العسكرية وورد (مقتوي ملكن) ، أي (مقتوى الملك) ، بمعنى (قائد الملك)[2] . والظاهر أن هذه الدرجة كانت خاصة بمن يختارهم الملوك لقيادة الجيوش . فإذا اختار الملك شخصاً من الجيش أو من سادات القبائل أو من أصحاب الأرض لأمر يراه فيه ، وعينه لقيادة الجيش ، عبر عن مكانته هذه بـ (مقتوي) وبـ (مقتوى الملك) . وقد عرف علماء اللغة هذه اللفظة ، غير أنهم عبروا عنها بلفظة (مغالب) . ولم يبينوا ما المراد من (مغالب)[3] .

ويقال للضابط الذي يقود الجيش ، أو قطعة منه (اسود) ، وذلك في اللغة السبئية [4] .

وقد كان لطبقة قواد الجيش شأن كبير ، وسلطان واسع ، ويعرف القائد

---

١ اللسان (٣٧٠/٣) ، تاج العروس (٤٧٧/٢) .
٢ REP. EPIGR. 4861, 4876, 4892, CIH 405, Grohmann, 131.
٣ اللسان (مادة قوي) تاج العروس (٣٠٧/١٠) .
٤ Jamme 665.

بـ (ق س د ن) (قسدن) ، أي (القاسد) أيضاً [1] . وقد ظل هذا الاستعمال معروفاً في العهد الحبشي كذلك ، لوروده في نصّ (أبرهة) . ولكن هذا لا يعني أن (القاسد) كان عسكرياً محترفاً ، مختصاً بقيادة الجيش ، فقد كان القواد من رؤساء العشائر ومن الوجهاء والكبراء يقودون أتباعهم في أثناء الحروب . أما في أثناء السلم ، فيعودون الى أعمالهم الاعتيادية ، كإدارة الأرض أو القبيلة. ولهذا ففي استطاعتنا أن نقول إن من بين قواد الجيش أناساً لم يكونوا من المتخصصين بالقيادة وبشؤون الحرب ، وإنما هم قواد متطوعون وسادات قبائل تضطرهم مراكزهم الى قيادة أتباعهم في أمثال هذه المناسبات .

وقد فهم بعض الباحثين أنها تعني المحاربين من النوعين : الأشراف والقادة من أصحاب الدرجات الرفيعة العالية ، والمحاربين المحترفين للحرب ، حتى صارت الجندية حرفة لهم ، يعيشون منها . فهم طبقة عسكرية خاصة محترفة على نحو ما كان عند (البطالمة) بمصر وعند غير البطالمة من جيوش ودول [2] . ولكن أكثر الباحثين يرون أن الـ (قسد) هم الطبقة الرفيعة من الأشراف وقادة الجيوش .

وعرف المكلف بإدارة موقع من المواقع العسكرية ، والذي يتولى أمر ادارة حاميته بـ (امر) [3] . أي (آمر) (الآمر) ، وربما الأمير . وعرف الضابط الذي يتولى قيادة جماعة من الجيش بـ (اسود) [4] . وأما (قدم) ، فإنه المقدم، الذي يقود قطعة من الجيش [5] . وربما قصد به من يتولى أمر قيادة مقدمة الجيش . ويعبر بلفظة (قتدم) عن تأمير الـ (قدم) وتنصيبه في وظيفته [6] . أي آمراً على قطعة الجيش . ويعبر عن التقدم للهجوم على العدو ، أي على الهدف المقصود من الحملة ، بلفظة (تقدم) [7] .

---

١ (القسود : كقتول : الغليظ الرقبة القوي) اللسان (٣٥٢/٤) ، القاموس (٣٢٧/١) .

٢ Grohmann, S. 122.

٣ South Arabian Inscriptions, p. 427. النص ٥٧٦ .

٤ South Arabian Inscriptions, p. 427.

٥ South Arabian Inscriptions, p. 446.

٦ المصدر نفسه (ص ٤٤٧) .

٧ المصدر نفسه (ص ٤٥٠) .

وقد عرف القادة الذين قادوا ألف رجل فما فوق بـ (الجرّارين) . ذكر (محمد بن حبيب السكري) ، ان العرب لم تكن تسمي الرجل جراراً ، حتى يرأس ألفاً . ومن هؤلاء (المطلب بن عبد مناف بن قصي) قاد (بني عبد مناف) وأحلافهـا من الأحابيش يوم (ذات نكيف) . و (بلعاء بن قيس الكناني) قاد (بني عبد مناة) يوم (ذات نكيف) ويوم المشلل ويوم الفجار. و (أبو سفيان : صخر بن حرب) قاد قريشاً وكنانة يوم أحد ويوم الخندق. و (عامر بن الظرب العدواني) قاد ربيعة ومضر وقضاعة كلها يوم البيداء . و (مالك بن عوف النصري) ، و (عوف بن عبدالله بن عامر بن جذيمة) و (ربيعة بن حذار الأسدي) و (زرارة بن عدس) التميمي ، و (لقيط ابن زرارة) و (الأقرع بن حابس) ، و (النعمان بن مجاشع) الدارمي ، و (النمر بن حمّان) السعدي ، و (الأضبط بن قريع بن عوف) السعدي ، و (محلم بن سويط الضبي) ، وذكر انه الرئيس الأول : أول من سار في أرض مضر برئاسته ، وغزا العراق وبه كسرى ، حتى بلغ العذيب[1] .

ومن بقية الجرارين في مضر : (قيس بن عاصم السعدي) و (وزهير بن جذيمة العبسي) و (عمرو بن جؤية بن لوذان الفزاري) و (بدر بن عمرو) و (حذيفة بن بدر) و (عيينة بن حصن) و (خالد بن جعفر بن كلاب) و (الأحوص بن جعفر) العامري[2] .

والجرارون من ربيعة : (ربيعة بن مرة بن الحارث بن زهير التغلبي) ، وابنه (كليب وائل) و (الهذيل بن هبيرة) و (الحوفزان) وهو (الحارث ابن شريك) و (بسطام بن قيس) و (الحارث بن وعلة الذهلي) و (أبجر ابن جابر العجلي) و (قيس بن حسان بن عمرو بن مرثد) و (قتادة بن مسلمة الحنفي) و (أثال بن حجر بن النعمان بن مسلمة الحنفي) و (الهذيل ابن عمران التغلبي)[3] .

والجرّارون من قضاعة : (ذياد بن هبولة) ، (زياد بن هبولة) ، و (داوود اللثق بن هبالة) ، و (زهير بن جناب) ، و (رزاح بن ربيعة

---

١ المحبر (٢٤٦ ـ ٢٤٨) .
٢ المحبر (٢٤٨ ـ ٢٤٩) .
٣ المحبر (٢٤٩ ـ ٢٥٠) .

ابن حرام) ، وهو أخو (قصيّ بن كلاب) لأمه ، و (عميرة بن أوس ابن ثعلبة بن عوف بن كعب بن ذهل) ، وكان يدعي الملك ، و (الأشل بن عمرو) ، و (الثعيل)[1] .

والجرّارون من اليمن : (كرز بن عبدالله بن عامر) من بجيلة ، و (عبد يغوث بن وقّاص بن صلاءة الحارثي) من مذحج ، و (الأشعث بن قيس الكندي) ، و (شراحيل بن أصهب الجعفي) ، و (يزيد بن أنس بن الديان الحارثي) ، و (ذو الغصة الحارثي)، و (مخرم بن حزن بن يزيد الحارثي)، و (العباب الحارثي) ، و (حجر بن يزيد بن سلمة الكندي) و (قيس ابن سلمة الكندي) و (الزوير : علقمة بن سلمة بن مالك الكندي)، و (حسان ابن عمرو بن الجون الكندي) ، و (معاوية بن شرحبيل بن أخضر الكندي)، و (حُديج بن جفنة بن قتيرة السكوني) ، و (هبيرة بن المكشوح بن عبد يغوث المرادي) و (فروة بن مسيك المرادي)[2] .

وسار قادة الجيوش ومتولو ادارة المعارك على قاعدة (الحرب خدعة)[3] . ومعناها خدع العدو وايهامه للتغلب عليه ، كأن يشيع قائد الجيش أنه سيسلك الطريق الفلاني ، فيرسل بالفعل قوة صغيرة ، وهو يضمر خطة أخرى ، بأن يأمر القوة الكبرى بسلوك طريق آخر ، فيفاجيء العدو وهو غير متأهب ، أو يؤخذ على غرة وهو لا يدري باحتمال قدوم الجيش من هذا المكان .

ولما كانت (المباغتة) من أهم وسائل كسب الحرب والحصول على الربح ، كان من أهم أسباب نجاحها التكتم والتستر ومعرفة قوة العدو ومواضع ضعفه ، عمد الجاهليون إلى استخدام العيون للتجسس على العدو، يرسلونهم في صور شتى : في صورة تجار أو مسافرين أو على هيأة سرايا صغيرة تقتص آثار العدو وتسأل من يرون من المسافرين عن علمهم بأحوال العدو : أو تقبض ربايا العدو ليحققوا معهم وليحصلوا منهم عن معلومات تفيدهم في إعداد خطة الحرب أو الغزو . وفي ضوء هذه المعلومات يرتب القادة طريقة مباغتة العدو ومحاربته لانزال الضربة القاصمة به .

---

١ المحبر (٢٥٠ ــ ٢٥١) .
٢ المحبر (٢٥١ ــ ٢٥٢) .
٣ الدينوري ، عيون (١٩٤/١) ، (باب الحيل في الحروب وغيرها) .

وإذا أحس انسان بوجود غارة ، أو رأى قوماً يتقدمون لمفاجأة قومه بغارة ، فعليه الاسراع لابلاغ قومه بها قبل أن يفاجئهم العدو بغارته وهم على غير استعداد لها ، وكان من عادتهم أن الرجل إذا رأى الغارة قد فاجأتهم وأراد إنذار قومه تجرد من ثيابه وأشار بها ليعلم ان قد فاجأهم أمر . ويقال لذلك الرجل (النذير العريان) ، ثم صار مثلاً لكل أمر يخاف من مفاجأته[1] .

ويقال للشخص الذي ينذر قومه بدنو عدو منهم ، ويزحف مغير عليهم ، (الصريخ)[2] . يسرع (الصريخ) إلى قومه قدر إمكانه ليبلغهم بخبر ذلك العدو قبل مباغتته لهم . ونظراً إلى ما للصريخ من أهمية بالنسبة إلى نتائج الغزو ، يتخذ المغيرون كل وسائل الحذر والتكتم والبحث عن النذر والصريخين لكيلا يفلتوا منهم فيذهبوا إلى قومهم وهم هدف الغزو أو إلى غيرهم ممن قصدوا بالغزو فيحذرونهم منهم ،ويكونوا عندئذ في حالة تأهب واستعداد لمقابلة المغيرين ، أو لمباغتتهم بهجوم معاكس عليهم ، أو بنصب كمائن لهم قد تلحق أذى بهم ، وقد تؤدي إلى عكس ما قصد من ذلك الغزو .

ويعبر عن المباغتة والمفاجأة وأخذ العدو على حين غرة بحيث لا يشعر إلا والعدو يهاجمه بلفظة (بحض) في السبئية[3] .

ويُقال لمن ينذر قومه بقرب وقوع غزو وبدنو عدوّ منهم : (القاصد) . و (القاصد) ، هو من يقصد أحداً طلباً لحاجة أو تسهيلاً لأمر ، أو لإجراء وساطة .

وكانوا إذا أرادوا حرباً ، وتوقعوا جيشاً عظيماً ، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبل أو أي مرتفع من الأرض ناراً ، ليبلغ الخبر أصحابهم . واذا جدوا في جمع عشائرهم اليهم أوقدوا نارين . وقد عرفت هذه النار بنار الحرب[4] .

وقد استعانت الحكومات بحماية حدودها بوضع قوات عسكرية في المواضع العسكرية الخطيرة التي تكون لها أهمية كبيرة من الوجهة (السوقية) في تعبئة الجيش للحرب. وعرفت مثل هذه المواضع بـ (المناظر) . وهي مواضع تقيم بها حاميات تراقب

---

١ الفاخر (ص ٧٠) ، تاج العروس (١٠/٣٤١) ، (عرى) .
٢ اللسان (٣/٣٣ وما بعدها) ، (صرخ) ، نهاية الارب (١٧/١٢٦) .
٣ Jamme 576, Mahram, p. 428.
٤ الحيوان (٤/٤٧٤) ، (هارون) .

منها حركات الأعداء وتحركات الأعراب . وتكون الحاجز الأول الذي يمنع العدو من التقدم .

ونحن لا نكاد نعلم شيئاً عن أسس تنظيم الجيش في الحكومات الجاهلية ، لعدم ورود نصوص واضحة في ذلك . ولصلة ملوك الحيرة بالفرس ولصلة ملوك الغساسنة بالروم ، لا استبعد تدريب الفرس لجيش الحيرة وتقسيمه واعداده وَفْقَ نظم الجيوش الفارسية وأساليبها على القتال ، وتدريب الروم لجيش الغساسنة وَفْق أنظمتهم وقوانينهم العسكرية . وقد ذكر أهل الأخبار أن النعمان بن المنذر ، ملك خمس كتائب ، يحارب بها ، هي : (الوضائع) وقوامها قوم من الفرس كان كسرى يضعهم عنده عُدة ومدداً ، فيقيمون سنة عند الملك من ملوك لخم . فإذا كان في رأس الحول ردهم الى أهلهم ، وبعث بمثلهم . وكتيبة يقال لها (الشهباء) وهي أهل بيت الملك ، وكانوا بيض الوجوه ، يسمون الأشاهب . وكتيبة ثالثة ، يقال لها (الصنائع) ، وهم صنائع الملك ، أكثرهم من بكر بن وائل . وكتيبة رابعة ، يقال لها (الرهائن) ، وهم قوم كان يأخذها من كل قبيلة ، فيكونون رهناً عنده ، ثم يوضع مكانهم مثلهم . والخامسة (دوسر) ، وهي كتيبة ثقيلة تجمع فرساناً وشجعاناً من كل قبيلة[1] .

ويظهر من بعض تفاسير علماء اللغة للفظة (الوضائع) ، أن (الوضيعة) جماعة من الجند تجعل في كورة لا يغزون منها[2] ، أي حامية . وأما الصنائع ، فطوائف من الناس يصطنعهم الملك ، ويكونون عوناً له وجنداً يحارب بهم . فهم من المرتزقة . وقد تستعين القبائل بطوائف من قبائل أخرى للقتال معها[3] . وقد استعان (سلمة بن الحارث بن عمرو المقصور) بـ (بني تغلب) و (النمر بن قاسط) و (سعد بن زيد مناة) وبـ (الصنائع) على أخيه (شرحبيل) ، وذلك يوم (الكلاب) الأول[4] .

وقد أشار (الزبيدي) الى كتيبة دعاها (الملحاء) ، قال عنها : (والملحاء) : كتيبة كانت لآل المنذر من ملوك الشأم . وهما كتيبتان ، إحداهما هذه والثانية

---

١ الكامل ، للمبرد (٢٨٨/١) .
٢ تاج العروس (٥٤٥/٥) ، (وضع) .
٣ العمدة (٢٠٦/٢) .
٤ العمدة (٢٠٥/٢) .

الشهباء . قال عمرو بن شأس الأسدي :

يفلقن رأس الكوكب الضخم بعدما تدور رحى الملحاء في الأمر ذي البزل[1]

وقد أخطأ (الزبيدي) في جعل (آل المنذر) من ملوك الشأم . وقصد بـ (الملحاء) (الدوسر) . بدليل قوله في موضع آخر : (والدوسر : اسم كتيبة للنعمان بن المنذر ملك العرب)[2] . وقد تعرض في مكان آخر من كتابه الى كتيبة الشهباء فقال : (والأشاهب بنو المنذر لجمالهم . قال الأعشى :

وبنو المنذر الأشاهب بالحيـ ـرة يمشون غدوة بالسيوف

قلت : وهم إحدى كتائب النعمان بن المنذر . وهم بنو عمه واخوانه واخوانهم . سمّوا بذلك لبياض وجوههم)[3] .

ويظهر من شعر للمثقب العبدي ، قاله يمدح عمر بن هند :

ضربت دوسر فيه ضربة أثبتت أولاد ملك فاستقر[4]

ان هذه الكتيبة كانت موجودة في أيام الملك (عمرو بن هند) . وذكر بعض علماء اللغة ان (دوسر : اسم كتيبة كانت للنعمان بن المنذر ، وأنشد المثقب العبدي يمدح عمرو بن هند . وكان نصرهم على كتيبة النعمان)[5] . ولا بد وأن يكون في هذه الكلمات خطأ أو نقص : إذ لا يعقل أن يكون (عمرو بن هند) قد حكم أيام (النعمان بن المنذر) . وقد يكون قصد أحد ملوك الغساسنة ، أو ان الأخباريين أقحموا اسم أحد الملكين خطأ في هذا الشرح .

والكتيبة عشر (اللجيون) عند الرومان . ولذلك كان عددها يختلف حسب اختلاف عدد اللجيون . وعلى الأغلب كانت ما بين (٤٠٠) الى (٦٠٠)

---

١ تاج العروس (٢/٢٣٠) ، (ملح) .
٢ المصدر نفسه (٣/٢٠٦) ، (دسر) .
٣ تاج العروس (١/٣٢٧) ، (شهب) .
٤ تاج العروس (٣/٢٠٦) ، (دسر) .
٥ اللسان (٤/٢٨٥) ، (دسر) .

جندي[1] . وقد كان عدد اللجيون (٦) آلاف جندي في أيام الانبراطورية ، من الفرسان وبقية الأصناف المساندة . ويقسم (اللجيون) المكوّن من الفرسان الى عشر كتائب ، عدد كل كتيبة من (٦٠٠) فارس . تعرف بـ Coforts . وتقسم كل كتيبة Cohort الى عشرة أقسام[2] . ويسير النظام العسكري عند الرومان وفقاً للطريقة العشرية في تكون الجيش . وقد يتألف (اللجيون) من (٧٠٠٠) جندي ، (٦٢٠٠) منهم من المشاة و (٧٣٠) من الفرسان ومن بقية التبع[3] .

وحكومات اليمن والحيرة والغساسنة،تكاد تكون الحكومات الوحيدة التي ملكت جيوشاً مدربة نظامية ، أي جيوشاً مستعدة في كل وقت للدخول في الحروب . فلكل حكومة من هذه الحكومات كتائب مدربة في استطاعتها القتال . وهي كتائب من الفرسان وكتائب من المشاة ، ولها رؤساء يشرفون على تدريبها وتسييرها وقت القتال . وهي بإشراف ضباط يتولون قيادتها بأمر من الملوك .

أما أهل القرى والمدن ، فكان لهم قوادهم وحملة رايتهم في الحرب ، غير أننا لم نسمع بوجود جيش نظامي مدرب عندهم ، ولم نسمع بوجود كتائب مقاتلة مستعدة للقتال أو للدفاع حين صدور الأمر اليها . بل كل ما وجدناه في كتب أهل الأخبار أن أسراً معروفة عهد اليها بحماية الراية والمحافظة عليها ، فإذا وقع خطر ، أخرج حفظتها تلك الراية ليرفعوها في القتال فتكون عندئذ شعاراً لهم وروحاً معنوية ذات أهمية ، فإذا سقط حاملها أخذها غيره وهكذا كانوا يتناوبون في حملها . وسقوط الراية له أثر كبير في معنوية المحاربين .

ويظهر من دراسة ما أورده علماء اللغة والأخبار عن تشكيلات الجيش عند بقية الجاهليين ، أن الجاهليين لم يكونوا يسيرون على نظام معين في تكوين الجيش وفي عدد وحداته ، بل كانوا يتركون أمر ذلك الى الظروف والى رأي القادة الذين توكل اليهم أمور ادارة المعارك . وذلك لأنهم لم يكونوا يملكون جيوشاً نظامية ثابتة ، فقد كانت القبائل تقاتل حين تدعى الى القتال أو حين يقع غزو عليها ، فيهب كل فرد منها للدفاع عن قبيلته ، أو في المساهمة في الغزو ، يشترك في ذلك النساء والصغار أيضاً ، ولا سيما في حالات الدفاع عن النفس . حتى المدن

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢٥٣/٢) .

٢ Hastings, p. 540.

٣ قاموس الكتاب المقدس (٣٤٦/١) .

والقرى لم يكن لها جيش ثابت ، ولا قادة يدربون المقاتلين على أساليب القتال ، ولا وحدات ثابتة تقيم في ثكنات ومعسكرات . بل كان شأنها شأن القبائل ، إذا هوجمت ، هبّ أفرادها رجالاً ونساءً كهولاً وصغاراً في الدفاع عن مدينتهم ، يقوم كل واحد منهم بدوره حسب طاقته وقدرته . وكذلك كان الحال في حالات الهجوم ، أي حين تهاجم المدينة عدواً لها ، يشترك في هجومها كل متمكن من القتال ، قياماً بواجبه الأدبي المفروض عليه . وليس لهذا الجيش المحارب تدريب عسكري سابق ، ولا وحدات معينة ، إنما تكون امرة سوقه وتسييره ، بأيدي الشجعان الأذكياء : ومن سبق له أن برز في قتال سابق ، وأبرز مكانه فيه .

وحتى في أيام الرسول لم يكن للمسلمين جيش ثابت منظم ، له وحدات على شكل فرق وكتائب وأفواج وسرايا ، وثكنات ومعسكرات ، وضباط . يعرف كل ضابط منهم وحدته وعدد جنوده . إنما كان المسلمون كلهم جنوداً ، إذا دعاهم الرسول الى القتال لبّوا نداءه . وقد يكون فيهم الكهل والشاب والتاجر والمزارع ومن لا عمل له . الفارس بفرسه ، والراكب على جمله ، والراجل ماشياً ، كل محارب في سبيل الله . والرسول هو القائد الأعلى ، وهو الذي يعين الأهداف والخطط ، وهو الذي يختار القادة ومسيري المعركة إذ لا قادة ثابتون . وكان يستشير ذوي الرأي والخبره في المواضع التي يقصدها وفي إدارة الحرب مع العدو . وإذا كانت المعركة معركة مبارزة ، نظر الرسول الى من معه ، واختار منهم من يصلح للمبارزة . وكان إذا أراد ارسال سراياه ، اختار للسرية رجلاً من أصحابه فأمره عليها . وأرسل معه من يختارهم ليكونوا له جنوداً . ولم يكن عدد أفراد السرية ثابتاً ، بل كان مختلفاً . ويتوقف العدد على حسب تقدير الرسول للموقف .

ويظهر من الشعر الجاهلي ان الأعراب كانوا يهابون من الالتحام بالجيوش النظامية ، لعدم قدرتهم وكفاءتهم في مقابلتها ، لما لها من تنظيم وتدريب وسلاح. وقد تركت (الدوسر) و (الشهباء) أثراً في ذاكرتهم ، نجده في شعرهم ، مع ان الكتيبتين لم تكونا على مستوى عالٍ من التدريب والتسليح . وقد كانوا يخشون من الالتحام بالجيوش الآشورية والبابلية والرومية ، لتفوق تلك الجيوش عليهم ، فإذا تعقبتهم هربوا إلى البادية ، حيث يجدون لهم عندئذ المأوى الصالح الأمين المناسب لهم ، للوقوف أمام الجيش النظامي . ويكون وقوفهم أمامه على هيئة كرّ

وفرّ ، وهجوم من جوانب مختلفة . فإن وجـــدوا جلداً من ذلك الجيش وقوة ضاربة ، هربوا إلى قلب البادية .

ويظهر مما ذكره (سترابو) عن الجيوش العربية الجنوبية ، انها لم تكن مدربة على القتال ، ولم تكن مجهزة بأسلحة حسنة حديثة بالنسبة الى أسلحـة الرومان في ذلك الوقت . ولم تكن منظمة ومقسمة إلى وحدات محاربة يسيّر أمورها ويوجهها في القتال ضباط لهم خبرة وعلم بأساليب القتال . ولهذا تقدم الجيش الروماني بكل سهولة نحو اليمن ، دون أن يجد أمامه مقاومة تذكر ، مع ان جيشهم لم يكن من الجيوش الحسنة التنظيم ، المدربة تدريباً حسناً ، لمقاومة الجيوش النظاميـة [1] . ونجد في تغلّب (الحبش) ودخولهم العربية الجنوبية وتحكّمهم بها مراراً ، ما يؤيد أن العربية الجنوبية لم تكن تملك جيشاً منظماً مدرباً على مقاتلة الجيوش النظامية ، وانما كانت تملك (عساكر) تعرف قتال الأعراب وأهل القوى ، بأسلحة لم تحاول الحكومات تحسينها وتجديدها وفقاً لتطور السلاح في العالم . مع العـــلم ان الحبش أنفسهم لم يكونوا أصحاب جيوش منظمة ولا مدربة تدريباً حسناً ، ولا مـــزودة بأسلحة جيدة حديثة على طراز أسلحة اليونان والرومان والفرس . وقد تحكموا مع ذلك في اليمن حتى جاءهم الفرس ، فأخرجوهم منها قبيل الاسلام، مع ان الذين أخرجوهم كانوا من قطّاع الطرق ومن المتصعلكة ، وقد جاؤوهم بسفن قديمة ، ولم يكونوا من المحاربين النظاميين المدربين على القتال .

ويظهر أن حكّام العربية الجنوبية، كانوا يعتنون بجمع العساكر وتكوين الجيوش للقضاء على خصومهم،ولكنهم لم يحفلوا بأمر تنظيم الجيش وتدريبه وتجديده وتحسين سلاحه . مع أن أمر التنظيم والتدريب والتسليح وكيفية استخدام الجندي لسلاحه ، من أهم أمور التغلب في الحروب والإنتصار على الأعداء . ولهـــذا كانوا يتغلبون على خصومهم في العربية الجنوبية وعلى القبائل ، لأنهم دونهم بكثـــير في المستوى وفي الإمكانيات . ولما كانت حروبهم حروباً داخلية ، لم تتجاوز حـــدود جزيرة العرب ، وإذا تجاوزتها ، كان اتجاهها سواحل إفريقية ، وهي بـلاد غير متقدمة ولا تملك جيوشاً نظامية مدرّبة ، لذلك لم يحفل أولئك الحكام بأمر الانفـاق على الجيش لتنظيمه وتدريبه وتحسين سلاحه ومستواه ووضعه في ثكنات صحية وتجهيزه

---

[1] راجع الصفحة (٤٢ وما بعدها) من الجزء الثاني من هذا الكتاب .

بالعربات وبالخيل ، لتعطي السرعة للجيش في القتال والحماية اللازمة للمشاة . وبقوا يسيرون على الطريقة التقليدية التي أملتها طبيعة أرضهم عليهم من الاعتماد على عساكر (اسد) الملك وعلى عساكر الاقطاعيين وعلى المرتزقة وعلى الحشور الذين يجمعون جمعاً عند وقوع حرب .

ولم يعنِ العرب الجنوبيون بتحسين السفن وتجديدها وتحصينها للمحافظة بها على سواحلهم الطويلة . فلما ظهر الرومان والبيزنطيون في البحر الأحمر ، لم يتمكنوا من الوقوف أمامهم . فانتزعوا منهم السيادة على هذا البحر بسهولة ، واتصلوا بالسواحل الإفريقية وبلغوا (سيلان) وسواحل الهند . وفقد العرب ما كان لهم من ممتلكات في السواحل الإفريقية المقابلة . بل صارت سواحلهم عرضة لهجات سكان تلك السواحل ، ولتدخل الحبش مراراً في بلادهم . مع أن الحبش أنفسهم لم يكونوا أصحاب سفن جيدة كبيرة ، ولا اسطول قوي،حتى أن الروم ساعدوهم بأسطولهم في نقل قواتهم لاحتلال اليمن . ولم يرد في روايات أهل الأخبار ولا في أخبار الموارد اليونانية ما يفيد بتصدي السفن العربية الجنوبية للمغيرين الأحباش ، ولا بوقوع أية معركة بحرية بين العرب والحبش أو غيرهم في البحر . ويدل نزول الحبش على السواحل العربية بيسر وسهولة على عدم وجود تحصينات بحرية على السواحل ، وعلى ضعف الجيش في ذلك العهد .

ولطبيعة بلاد العرب أثر كبير بالطبع في ظهور هذا التخلف الملحوظ في بناء القوة العسكرية . فمعظم أرض جزيرة العرب أرضون سهلة منبسطة لا يجد فيها أصحابها مواضع طبيعية يتحصنون بها في حالتي الدفاع والهجوم . لذلك صار القتال فيها وجهاً لوجه ، والتغلب فيه للمحارب الذي يملك وسائل الحرب السريعة من إبل وخيل وعدة . ثم إن الفقر العام الذي ساد جزيرة العرب آنذاك وفقرها من ناحية الموارد الطبيعية وتغلّب الجفاف والحرارة عليها ، جعلت العرب كتلاً ، أي شعوباً وقبائل ، مشتتة مبعثرة ، تعيش حول ما تجده من ماء ومن مورد رزق ، وكأنها أمم متباينة ، لضيق أفق المعيشة فيها ، ولتقاتلها فيما بينها على الماء وموارد الرزق الشحيحة . وأوضاع مثل هذه لا تساعد على التجمع وعلى تكوين دولة قوية كبيرة ، تجمع جيشاً قوياً مدرباً ذا عدة وعدد ، يستطيع الصمود أمام الجيوش النظامية المدربة التي تملكها الحكومات الغنية مثل حكومات البيزنطيين والفرس،التي غذت جيوشها بالمال وبالجنود المحترفين المدربين على القتال وبالضبط

المتخصصين بشؤون الحرب وبالعدد والعدة المتطورة وبالمال. ولهذا لم تتمكن (عساكر) الجاهليين من الوقوف أمام الجيوش النظامية ، لتفوّق هذه الجيوش عليها في التنظيم وفي التدريب وفي السلاح وفي كيفية استعمال الأسلحة : واستغلال المواقف وتطبيق العلم على الأرض التي يقع فيها القتال ، وفي التغذية والعناية بأحوال الجندي . ولهذا تحاشت الاشتباك مع الجيوش النظامية في خارج حدود بلادها ، وجمّدت قتالها وحصرته في الغزو وفي القتال الداخلي ، أي في قتال العرب بعضهم بعضاً ، وهو قتال لم يستوجب تطوير الأسلحة وتحسينها ، كما يستوجبه قتال الجيوش النظامية الكبيرة ، وقد اعتمد على شجاعة الفرد ، وعلى الحماس وعلى ذكاء السادة في الاستفادة من المواقف ومن توجيه فرسان الحرب .

أما المقاتلون فهم متطوعون ، تطوّعوا للقتال للدفاع عن مواطنهم ، ومجبرون، عليهم الخروج للقتال لأنهم تبع ، وقد أمروا به أمراً ، ومن هؤلاء الرقيق . ولما كان القتال بسيطاً لذلك كان واجب المقاتل متوقفاً على قابليته العقلية والجسمية . ولا نجد في كتب أهل الأخبار ما يفيد بوجود تدريب للفريقين أثناء السلم ولا في أثناء الحرب ، بل يدخل المحارب الحرب كما يدخل المتشاجرون أي شجار ، وهناك يستعمل ذكاءه في اختيار الدور الذي يناسبه ، فقد يظهر مهارة وحنكة وشجاعة فيرتفع اسمه بين قومه ، وقد يقوم بدور المشجع بالكلام ، وقد يقوم بأدوار بسيطة ساذجة . فإذا انتهى القتال عاد الناس الى حياتهم الأولى ، عادوا الى بيوتهم وهي ثكناتهم الوحيدة التي جاؤوا منها .

وترد لفظة (كتيبة) والجمع (كتائب) في الشعر الجاهلي ، تعبيراً عن تنظيم وتكتل في صفوف الجيش . فقد ورد أن (حجر بن أم قطام) قاد كتيبة (فارسية) على رواية ، أو أنه كان نظم كتيبة مسلحة بأسلحة من دروع وبيض من صنع الفرس[1] . ووردت أخبار أخرى تتحدث عن وجود كتائب عند سادات قبائل قوية ، دلالة على أخذ القبائل القوية بنظام تكتيل الجيش وتصنيفه وتقسيمه الى كتائب في القتال لتلقي الرعب في نفوس الأعداء ، ولا سيا في نفوس الأعراب الذين لم تساعدهم ظروفهم على انشاء مثل هذه التنظيمات العسكرية .

ويعبر عن (الكتائب) بلفظ (المقانب) أيضاً[2] . واذا كان الجيش ما بين

---

١ شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٦٥) .
٢ واحدها (مقنب) .

الثلاثين إلى الأربعين أو قدر أربعين رجلاً أو خمسين ، قيل له (المنسر)[1] .

ويذكر علماء اللغة ان الكتيبة انما سميت كتيبة ، لاجتماعها وانضمام بعضها الى بعض[2] ، فهي اذن كتلة كبيرة من الجيش . وعرفوها بأنها القطعة العظيمة من الجيش ، والجمع : كتائب . وعرف بعض علماء اللغة الكتيبة بأنها جماعة الخيل إذا أغارت مكونة من المئة الى الألف[3] .

وعرفت الكتيبة بـ (جأواء) كذلك . وقيل : الجأواء كتيبة كثيرة الدروع.

وذكر بعض علماء اللغة أن المنسر ما بين ثلاثين فارساً الى أربعين[4] . بينما جعله بعض آخر ، ما زاد على خمسمائة حتى يبلغ الثمانمائة ، فيكون حبشياً[5] .

ويظهر من تفاسير علماء اللغة للفظة (المقنب) ، أن المقنب تكون في الخيل خاصة . قالوا : « والمقنب من الخيل جماعة منه ومن الفرسان . وقيل ما بين الثلاثين الى الأربعين أو زهاء ثلثمائة ... وقيل دون المائة » . وورد : المقنب جماعة من الخيل تجتمع للغارة . قال لبيد :

وإذا تواكلت المقانب لم يزل بالثغر منا منسر معلوم[6]

والسرية في تعريف علماء اللغة قطعة من الجيش ، تسري في خفية ليلاً ، لئلا ينذر بهم العدو فيحذروا . وهي من خمس أنفس إلى ثلثمائة ، أو يبلغ أقصاها أربعمائة . وقيل هي من مائة الى خمسمائة ، فما زاد فنسر ، فإن زاد على ثمانمائة فجيش ، فإن زاد على أربعة آلاف فجيش جرّار ، وإن كانت من الخيل ، فتكون نحواً من أربعمائة . وقيل سمّوا سرّية لأنهم يكوّنون خلاصة العسكر وخيارهم من الشيء السري ، وهو النفيس[7] .

وقد اختلف في عدد رجال (الحضيرة) . فقيل : الحضيرة الأربعة والخمسة

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ١٣٧) ، تاج العروس (٥٦٤/٣) ، (نسر) .
٢ الكامل (٥٧/١) ، شرح ديوان لبيد (ص ١٣٤) .
٣ اللسان (٧١٠/١) ، تاج العروس (٤٤٥/١) ، (كتب) .
٤ تاج العروس (٤٤٠/١) ، (قنب) .
٥ تاج العروس (١٧٤/١٠) ، (سرى) .
٦ تاج العروس (٤٤٠/١) ، (قنب) .
٧ تاج العروس (١٧٤/١٠) ، (سرى) .

يغزون . وقيل : السبعة والثمانية . وقيل : العشرة فن دونهم[1] . وذكر ان (الحضيرة) مقدمة الجيش[2] .

وأما (النفيضة) ، فالجماعة يبعثون ليكشفوا هل ثمّ عدو أو خوف . وذكر ان (النفيضة) الذين يتقدمون الخيل ، وهم الطلائع[3] .

وتؤدى لفظة (مصر) معنى القطعة من الجيش ، والحملة وذلك في السبئية[4] .

ويقال لقائد الكتيبة (كبش الكتيبة) . وكبش القوم رئيسهم وسيدهم . فهو سيد الكتيبة وقائدها[5] .

ويعبر عن المحارب والمقاتل بلفظة (جندي) وبـ (اسد) (أسد) في العربيات الجنوبية والجمع (اسدم) أي جنود[6] . وقد يكون الجندي حراً وقد يكون عبداً أي رقيقاً ومولى ، وقد وردت جملة (اسد املكن) أي (أسود الملوك) بمعنى (جنود الملك) و (عسكر الملوك)[7] ، وذلك تمييزاً لهم عن الجنود الآخرين الذين كان يجندهم الأقيال والأذواء وسادات القبائل .

ويقصد بـ (اسد) أي جندي ، الجندي النظامي أي المحارب الذي اتخذ الجندية عملاً له . ولهذا نجد النصوص لا تستعملها إلا في هذا المعنى ،وذلك للتمييز بينه وبين المحاربين الآخرين المتطوعين أو المكرهين على الدخول في القتال أو المؤجرين أو المحاربين من أهل القبائل أو من أهل المدن الذين يهبّون للقتال عند دنو خطر على أهلهم أو قراهم . وتكون اعاشة هؤلاء الجنود على من يأمرهم بالخدمة في جيشه بالطبع ، من ملك أو مكرب أو مدينة أو قرية أو سيد أرض.

وأما إذا كان المحارب رقيقاً كائناً ما كان جنسه أو لونه ، وأشرك في القتال ، فيعبر عنه بـ (ادومت) (ادمت) ، أي (ادم) و (أوادم) ، بمعنى الخدم

---

١ اللسان (٤/١٩٩) ، (حضر) .
٢ تاج العروس (٣/١٤٧) ، (حضر) .
٣ اللسان (٤/١٩٩) ، (حضر) ، تاج العروس (٣/١٤٧) ، (حضر) ، (٥/٩٢ وما بعدها) ، (نفض) .
٤ Mahram, p. 440.
٥ اللسان (٦/٣٣٨) .
٦ راجع النص المرسوم بـ : Glaser 1571
٧ Kat. Texte, I, 73, anm. 3, REP. EPIGR. 4624, J. Ryckmans, L'Institution Monarchique, 147, Grohmann, S. 123.

المملوكين . فلسيد القبيلة ولكبار أصحاب الأرض والملاكين والأغنياء (أدم) أي خدم ، يخدمونهم ويقاتلون عنهم في الغزو وفي الحرب وفي الدفاع عن النفس[1] . ولم يكن هؤلاء (الأدم) من العسكريين المحترفين[2] .

وأما إذا كان المحارب أجيراً يؤجر نفسه لمن هو فوقه لخدمته أو للقتال عنه، فإذا وقع قتال طلب منه الدخول فيه ، للقتال في سبيل صاحبه قيل له : (اجر) أي (أجير) والجمع (اجر) و (اجرم) ، أي أجراء[3] .

وليس لدينا أخبار عن معامل تعمل فيها (الشكة) ، أي السلاح كله للحكومات أو للقبائل في الجاهليـــة[4] . غير أني لا استبعد وجودها في اليمن . فقد كانت حكومات اليمن ، حكومات منظمة تُعْنَى بمثل هذه الأمور التي هي من ضرورات الدولة . أما القبائل ، فقد كان المحاربون فيها هم الذين يجهزون أنفسهم بالسلاح: وقد يكون ذلك السلاح عصياً يقاتلون بها،وقد لا يكون لدى المحارب أي شيء منه سوى الحجارة التي يجدها أمامه ، فيتراشق بها مع الأعداء . أما سادات القبائل والأغنياء ، فقد كانوا يشترون أسلحتهم ويخزنونها الى وقت الحاجة . فإذا ظهرت وزعوها في أولادهم وخدامهم ومواليهم للقتال .

وإذا عزمت قبيلة على غزو قبيلة أخرى وجب على كل بالغ سليم الغزو معها، كما أن على كل فرد من القبيلة المهاجمة أن يقوم بواجبه في الدفاع عنها ، وهذا واجب كل رجل في القرى والمدن أيضاً . فقد كان على رجال كل قرية أو مدينة الدفـــاع عن أنفسهم ، ورد غزوات الغازين . لاستقلال كل قرية أو مدينة في أمورها وشؤونها ، ووقوع كاهل الدفاع عن نفسها على عاتقها . وعلى كل مواطن لذلك ، بدوي أو حضري أن يهيء نفسه في أيام الحروب والغزوات للدفاع عن نفسه وعن مواطنيه ، وأن يقوم بعمل الجندي في هذه الأيام .

وقد يقعد بعض الرجال من الأغنياء ، أو من المسنين عن المساهمة في الحرب أو الغزو ، فيدفعون جعلاً في مقابل ذلك لرجال يحاربون عنهم ، فيكون الجعل لهم ، ويكون ما قــد يقع في أيديهم من غنائم لهم أيضاً . وقد يتفق على ذلك

---

١ Grohmann, S. 122, Rhodokanakis, Bodenwirtschaft, S. 183.

٢ Grohmann, S. 124.

٣ Jamme 577.

٤ الاغاني (٢٠/١٣٢) ، (الشكة : السلاح) ، كتاب المعاني (١/١٠٧) .

بأن يجعل المقيم للغازي شيئاً . وقد كرهت الجعائل في الإسلام[1] . وفي الحديث أنها سحت . وهي ما تجعل للغازي إذا غزا عنك بجعائل . قال سليك بن شقيق الأسدي :

فأعطيتُ الجعالة مستميتاً خفيفَ الحاذِ من فِتْيانِ جِرْمِ[2]

واذا قامت قبيلة بغزو قبيلة ما ، قام رجالها من ذوي الرأي والمعرفة بالمعارك بإعداد خطط غزو العدو ومهاجمته ومباغتته وترؤسه وعلى شجعانها قيادة الغازين المحاربين . أما القبيلة التي تتعرض للغزو ، فيقوم ذوو الرأي والخبرة العسكرية فيها بإعداد الخطط للدفاع عن نفسها ، وردّ الاعتداء عنها . وفي حالة الأحلاف يعد ذوو الرأي والخبرة العسكرية في الحلف خطط الهجوم أو الدفاع ، ويشترك الحلف في إعداد المحاربين وقيادتهم .

والغالب ان الذي يقوم بقيادة المحاربين وتوجيههم في المعارك هم من أسر توارثت ذلك ، وصارت القيادة وكأنها حق لها . فإذا وقع غزو ، أو أرادت قبيلة ما غزو قبيلة أخرى ، نهض رجال الرأي في الحرب بإعداد الخطة والتشاور في الرأي لكسب المعركة . وقد كانت قريش قد وكلت أمر حربها وقيادة محاربيها الى (آل حرب) . ولكن ذلك لا يعني عدم تغيير القادة وإبدالهم ، وتعيين قادة جدد من أسر أخرى ، فقد كانوا يفعلون ذلك أيضاً عند الضرورات .

ولم تكن قوات القبائل في مستوى القوات النظامية من حيث التسليح والقابلية في القتال . فأسلحة رجال القبائل بسيطة وبدائية في الغالب لفقرها وعوزها وهي غير منتظمة ولا مدربة على القتال تدريباً فنياً ، وانما يقوم فنها على الإغارة والمباغتة ، فإذا وجدت مقاومة ما فرّت وولت،لأنها لا تتحمل المقاومة والوقوف في وجه العدو مدة طويلة ، ولا تستطيع الصبر على ذلك . وهي من هذه الناحية قادرة على إلحاق الأذى بالقوات النظامية في حروب الصحارى،فتقوم بمباغتة العدو وأخذه بالمفاجأة ، فإذا وجدت مقاومة منه أو أخذت ما كانت تصبو اليه من غنيمة ، عادت مسرعة إلى معقلها ، لتحتمي به ، ولتوزع ما غنمته وفق العادة والعرف .

---

١ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٣٣٨) .
٢ اللسان (١١١/١١) ، (جعل) ، تاج العروس (٢٥٧/٧) ، (جعل) .

والغزو مصدر مهم من مصادر الإعاشة بالنسبة إلى الأعراب ، يلجأون اليه في أيام الشدة والمحنة لغناء أهل القرى والمدن بالنسبة إلى أهل البادية ، صارت هذه المواضع هدفاً مقصوداً للأعراب ، ومصدراً من مصادر الرزق عندهم ، ولا سيما المواضع الواقعة على حدود الأرضين الغنية الخصبة ، كالعراق وبلاد الشأم . وقد أدركت الدول الحاكمة في العراق وفي بلاد الشأم هذه الحاجة ، فاستغلتها ، فأخذ الروم يشترون رؤساء القبائل ، يدفعون لهم رشاوى وهدايا ومنحاً ومرتبات لحماية حدودهم من تحرش رجالهم بها ، ولمهاجمة حدود أعدائهم الفرس ، ولمقاومة القبائل التي يرسلها الساسانيون لمهاجمة بلاد الشأم . وفعل الفرس مثل ذلك ، فدفعوا المنح والمرتبات والهدايا لرؤساء قبائلهم،ودفعوهم على مهاجمة حدود بلاد الشأم . وقد اضطرت القرى والمدن في جزيرة العرب الى مهادنة القبائل القوية النازلة بقربها ، والى محالفتها بدفع إتاوات لها في مقابل عدم التحرش بها وحمايتها من تحرش القبائل الأخرى الطامعة بها ، وفي مقابل مرور قوافلها في أرضها . وبذلك أمنت على سلامتها وعلى أموالها بعقد هذه العهود والمواثيق .

ولضرورة الدفاع عن النفس ، وللوقوف أمام طمع القبائل القوية في القبائل الضعيفة ، اضطرت أكثر القبائل الى التحالف والتكتل لمنع الغزو فيما بينها ، والى مقاومة أي غزو يقع عليها . وقد أطلق العرب على كل قبيلة تحارب وحدها دون محالفة قبيلة أخرى (الجمرة) . وذكر أن (الجمرة) ، هي القبيلة التي لا يقل عدد فرسانها عن ثلاثمئة فارس ، وهو عدد يدل على قوة القبيلة وشدة البأس . وذكر الأخباريون أن (جمرات العرب) ثلاث : بنو ضبة بن أد ، وبنو نمير ابن عامر ، وبنو الحارث بن كعب . فطفئت جمرتان ، وبقيت جمرة واحدة : طفئت بنو ضبة لأنها حالفت الرباب ، وطفئت بنو الحارث لأنها حالفت مذحج، وبقيت نمير لأنها لم تحالف[1] .

والغالب على أسلوب القتال عند الجاهليين : الكرّ والفرّ ، وذلك بأن يهاجم المحاربون عدوّهم ثم يتراجعون بسرعة وكأنهم قد فروا خوفاً منه ، ثم يعودون

---

١ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٣٥٣) ، الحصري ، زهر الاداب ، (٢٠/١) .

فيكرون عليه . يضعون مكاناً يكون مركز ثقلهم والملجأ لهم ، يلتجئون اليه ، ثم ينطلقون منه للكر على العدو . وقد اتبعوا أيضاً أسلوب القتال صفوفاً ، بأن يقف المحاربون صفوفاً ، يحاربون دون كر ولا فر[1] .

ولا بد للمحارب من أسلحة يحارب بها ويدافع بها عن نفسه . ويستعمل العرب لفظة سلاح وعدة المحارب في مقابل Arms = Armour في الانكليزية و(ملديم) Malddim و (كليم) Kelim و (حليضه) Hallizah في العبرانية[2] . ويراد بها كل ما يستعمله ويحمله الجندي من وسائل الحرب من هجوم ودفاع .

والسيف هو السلاح الرئيسي في القتال . استعمل في الهجوم وفي الدفاع عن النفس . ويطلق العبرانيون عليه وعلى الخنجر لفظة (خ ر ب) (خريب)[3] . وقد يكون السيف قصيراً أيضاً . وهو ذو حد واحد وذو حدين . وقد يكون رأسه مدبباً حاداً يستعمل للطعن . أما الضرب فيكون بحد السيف. والسيوف الجيدة هي السيوف المصنوعة من الفولاذ ومن الحديد النقي الجيد . وقد اشتهرت سيوف اليمن ، وبعض السيوف المستوردة من الخارج . ويقال لحديدة السيف (النصل) ، وتقابل هذه اللفظة لفظة (لهب) (لهيب) في العبرانية ، من أصل (لهب) ، وذلك للمعان السيف الذي يشبه اللهب عند عرضه في الشمس[4] .

وللسيف أسماء كثيرة ترد في كتب اللغة ، بعضها أسماء وبعضها نعوت وصفات صارت في منزلة الأسماء للسيف . ومن أسماء السيف : (الجنثي) والجمع : (الجنثية) ، يقال انها انما سميت جنثية نسبة إلى الجنثي ، وهو الحداد[5] . ويعرف الحداد بالقين عند الجاهليين . أما الذي يقوم بصقل السيف ، فهو (الصيقل)[6] .

وقد اشتهرت أنواع من السيوف عند العرب ، تفاخروا بها ، لجودتها

---

١ بلوغ الارب (٥٦/٢ وما بعدها) ، اللسان (١٣٥/٥) ، تاج العروس (٤٦٧/٣ ، ٥١٩) .

٢ Hastings, Dictionary, I, p. 154.

٣ لسان العرب (١٦٦/٩) ، تاج العروس (١٤٩/٦) ، المفضليات (ص ٩٨) (أحمد محمد شاكر ،وعبدالسلام محمد هارون) ، شرح المعلقات السبع ، للزوزني (٧٠ وما بعدها) (الطبعة الثالثة) .

٤ Smith, Dictionary, Vol. I, p. 110, The Bible Dictionary Vol. I, p. III.

٥ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٣٦٢) ، المعاني (١٠٣٠/٢) .

٦ شمس العلوم ، الجزءالاول، القسم الثاني (ص ٣٦٢) .

وشدة وقعها في العدو . ومن هذه السيوف المشهورة : (السيوف المشرفية) . قيل : انها سميت بذلك نسبة إلى (المشارف) جمع مشرف ، ويراد بها قرى للعرب تدنو من الريف . وقيل : لأنها من مشارف الشأم . وقيل : نسبة الى موضع من اليمن . وقيل بل نسبة إلى (مشرف) رجل من ثقيف[1] .

وردّ (ابن رشيق القيرواني) قول من نسب السيوف المشرفية إلى مشارف الشأم أو مشارف الريف ، وذهب إلى انها نسبة إلى (مشرف) ، من قرى اليمن[2] .

وعرفت سيوف (بصرى) بالجودة كذلك ، ويقال للسيف المنسوب اليها (بُصري)[3] . وقد مدحها (الحصين بن الحُمام المُرّي) ، وأثنى على القيون الذين أخرجوا (صفائح بُصرى) ، أي السيوف[4] .

واشتهرت السيوف المسماة بـ (السريجية) بجودتها كذلك ، ويقال : إنها نسبة الى (سُرَيج) رجل من بني أسد . وهو أحد بني معرّض بن عمرو بن أسد ابن خزيمة وكانوا قيوناً[5] .

واشتهرت سيوف اليمن كذلك ، فقيل للسيف (يمان) و (يماني) ، إذا صنع باليمن . والظاهر أنها لمّاعة بيض ، ولذلك قيل (بيض يمانية) يمدحون تلك السيوف .

واشتهرت بعض السيوف في الجاهلية ، بقيت شهرتها خالدة في الإسلام . ومن هذه السيوف : سيف عرف بـ (الصمصامة) ، وهو سيف عمرو بن معديكرب[6] . وسيف عرف بـ (ذي الفقار) ارتبط اسمه باسم علي بن أبي طالب ، وكان قد استولى عليه في معركة (بدر) ، أخذه من العاصي بن منبه[7] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٦٢ وما بعدها) ، ديوان ابن مقبل (ص ٧) ، اللسان (١٧٤/٩) .
٢ العمدة (٢/٢٣٢) .
٣ المعاني الكبير (٢/٩٩٣) .
٤ المفضليات (ص ١٩ وما بعدها) ، (السندوبي) .
٥ بلوغ الارب (٢/٦٣ وما بعدها) ، العمدة (٢/٢٣٢) .
٦ العقد الفريد (١/٢٠٩) ، (٣/٣٧٠) ، تاج العروس (٨/٣٧٠) ، (صمم) .
٧ العقد الفريد (٣/٣١٨) ، (وذو الفقار بالفتح وبالكسر أيضا سيف سليمان) ، اهدته بلقيس مع ستة أسياف ، ثم وصل الى العاص بن منبه ، تاج العروس (٣/٤٧٤) ، (فقر) .

وكان في أصحاب رسول الله صحابيّ اشتغل بعمل السيوف في الجاهلية هو (خباب بن الأرت) . وكن من المسلمين الأولين الذين أعلنوا إسلامهم ، وعذبوا فيه[1] .

ويتبين من دراسة وتقصي مصادر السيوف عند العرب الجاهليين ، أن العرب كانوا آنذاك يستوردونها من أماكن مختلفة ، وأن استيرادها كان تجارة مربحة . وأن تجارها كانوا يفتشون في كل مكان من أسواق العالم المعروفة بصنع وبيع الأسلحة لشراء الأسلحة منها . فاستورد بعضهم أنواعاً من السيوف المصنوعة من الهند . وقد عرف السيف الجيد المصنوع بالهند بـ (المهند)[2] . واشتهر الروم بصنع السيوف الجيدة ، وكذلك الفرس .

وقد تفنن في تزويق السيوف وفي اكسائها بماء الذهب أو الفضة ، وقد اشتهرت الروم بإكساء السيوف ماء الذهب ، ويقال لذلك (الدجال)[3] .

والخنجر أقصر من السيف ، ويستعمل في المباغتة في الغالب وفي الهجوم وفي الدفاع عن النفس . وهو مثل السيف أيضاً ذو حد وذو حدين ، ويوضع في قراب يحمل في وسط الجسم . وهو لا يزال كثير الاستعمال لسهولة استعماله وإخفائه على حين قلّ استعمال السيوف ، أو مات ، لعدم ملاءمتها للقتال الحديث . ولرخص الخناجر ، بالنسبة الى السيوف ، كانت كثيرة الاستعمال حملها معظم الناس حتى الفقراء لحماية أنفسهم من أذى الانسان والحيوان . وقد استعملت في أثناء الالتحام بالحروب ، حيث يشتبك المحاربون بعضهم ببعض ، فيكون الخنجر من الأسلحة الملائمة للفتك بالعدو .

والرمح : سلاح يستعمل لطعن العدو ، يستعمله الفارس في الغالب . له رأس منبل حاد ، يطعن به . وقد يكون له رأس آخر : يثبت به في الأرض . وهو يختلف طولاً ووزناً . وهو من الأسلحة القديمة ، ولا يزال معروفاً ، تستعمله بعض القبائل والشعوب البدائية . يصنع من حديد أو من معدن آخر ، كما يكون من أعواد الأشجار القوية أو القصب القوي . وأجود الرماح عند العرب ، (الرماح الآزنية) ، أو (الرماح اليزنية) . يقال انها نسبت إلى

---

١ الإصابة (٤١٦/١) .
٢ المعاني الكبير (١١٠٣/٢) .
٣ المعاني الكبير (١٠٧١/٢) .

(ذي يزن)[1] الملك . وهو على رأي بعض الأخباريين أول من اتخذ أسنة الحديد، فنسبت اليه وانما كانت أسنة العرب قرون البقر[2] .

وعرفت الرماح ذوات السنان بالأسنة . وهي ايضاً أنواع ، منها نوع يسمى (الأسنة القعضبية) نسبة إلى رجل اسمه (قعضب) من (قُشير) . ونوع يسمى (الأسنة الشرعبية) ، ينسب إلى (شرعب) . وإلى هذه الأسنة أشار (الأعشى) في هذا البيت :

ولدن من الخطّيّ فيهــا أسنةُ   ذخائر مما سَنّ أبزى وشرعب[3]

ويذكر أهل الأخبار ان الرماح الشرعبية ، منسوبــة إلى بطن من بطون حمير يقال لهم (شرعب بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد قيس)[4] .

والرماح (الخطية) ، من الرماح الجيدة المعروفة وتنسب الى (الخــط)[5] . والخط هو خط هجر ، تحمل اليه الرماح من بلاد الهند ، فتقوم به . فنسبت اليه[6]. و (الرماح الردينية) وهي من الرماح الجيدة المشهورة أيضاً ، يقال إنها نسبــة الى (ردينة) امرأة كانت تعمل الرماح[7] .

ويقال للرمح (المنجل) أيضاً[8] . واشتهر نوع آخر من الرماح عرف بـ (الرمح السمهري) والجمع : (الرماح السمهرية) . ذكروا أنها منسوبة الى (سمهر) ، وكان صنعاً يصنع الرماح ، وكانت امرأته (ردينة) تبيعها[9] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٦٤) ، العقد الفريد (٣/٣٧٠) ، اللسان (٢/٤٥٢) ، تاج العروس (٢/١٤٥) ، الروض الانف (١/٩) .

٢ قال الشاعر :

يهزهز صعدة جرداء فيها   نقيع السم او قرن محيق

الاشتقاق (٢/٣١٠) .

٣ بلوغ الارب (٢/٦٤) ، الاشتقاق (ص ٣٠٧) ، العمدة (٢/٢٣١) .

٤ العقد الفريد (٣/٣٦٩) .

٥ بلوغ الارب (٢/٦٤) .

٦ (الخط : جزيرة بالبحرين تنسب اليها الرماح . قال الاصمعي : ليست تنبــت الرماح لكن سفن الرماح ترفأ الى هذا الموضع ، فقيل للرماح : خطية) ، العمــدة (٢/٢٣٣) .

٧ بلوغ الارب (٢/٦٤) .

٨ الاشتقاق (٢/٣١٢) .

٩ الروض الانف (٢/٢١٢) ، العمدة (٢/٢٣١) .

ويستعمل القنا في القتال أيضاً. ويظهر أنها نوع من أنواع القصب القوي الذي لا ينثني ولا ينكسر ، يكسى رأس القناة برأس من معدن مدبب حاد ليطعن به. ويستعمل القناة الفارس والراجل .

ويقال للقنا ، (قانه) Kanah في العبرانية و Canna = Kanna في اليونانية ويراد بها القصب ، وهو ينبت في مواضع كثيرة من مصر ، وفي الأرضين التي تكثر فيها الرطوبة والمياه[1] ، وقد اشتهرت بعض أنواع القصب بالمتانة والقــوة . ولهذا استخدمت سلاحاً من أسلحة الطعان .

واستعملت الحراب في الطعن وفي زرق العدو بها . وقد ذكر أهل الأخبار أن الحبشة كانت تحسن الطعن بها ، وأن العبيد المجلوبين منها والذين كانوا بمكة ، كانوا قد اشتهروا بالطعن في الحراب ، ومنهم (وحشي) قاتل حمزة . وهــو عبد حبشي زرق حربته ورمى بها حمزة فأصابه .

وكما تعتمد الجيوش الحديثة على اسلحة الرمي ، اعتمد الجاهليون على اسلحة هي بمنزلة البنادق والرشاشات في اسلحة هذه الأيام ، هي القسي والسهام. والقوس هي الآلة التي تمسك باليد ، ويشد وترها شداً قوياً ، ليرمي السهم الى العــدو المراد رميه . وكلما كان الشدّ قوياً ، صارت الرمية بعيدة مؤثرة . وقــد يكون السهم من غصن أو من خشب ، وقد يكون من معـدن مثل حديد أو نحاس[2] . ويتخذ الوتر من مادة قابلة للتوتر وللشدّ ، حتى يكون في قدرتـه رمي السهم . الى مسافة بعيــدة وبقوة . أما السهم ، فقد يكون من شجر ، وقـد يكون من معدن . ويكون له رأس مــدبب ليصيب به الهدف . وقد يسم رأس السهم ، فينفذ السم منه إلى الجرح ، فيصيب به الجريح إصابة قاتلة .

وقد عدّت الرماية من جملة الخصال العاليــة في الشخص المكملة للانسان . وقد اشتهر في الجاهلية قوم بدقة رمايتهم ، وبصحة اصابتهم الأهداف، إذا أرادوا رمي أحد اخرجوا النبل ، فرموه بها ، وقلما يخطئون . واذا ارادوا وصف رجل بدقة الرمي . قالوا فيه : (كان من أرمى الناس)[3] . وكانت الرمايــة دراسة

---

1. The Bible Dictionary, II, p 355
2. Hastings, I. p 113
3. الاغاني ، ٢/ ١٨) .

يتعلمها الرامي من رماة ماهرين . فكان أهـــل الحيرة والفرس يعلّمون أولادهم الرمي بالنشاب ، ليكونوا من الرماة المهرة . يستعملون فنهم هذا في قهر أعدائهم وفي الصيد وفي الحروب[1] . وقد كانت الجيوش تضم فرقاً من الرماة ، تكون لهم أهمية كبيرة جداً في تقرير نهاية الحرب ، لأنهم عنصر فعال قوي في التأثير في المحاربين .

وقد استعان الفرس والروم والرومان بالرماة الماهرين من العرب،فكوّنوا منهم فرقاً خاصة في جيوشهم ، وظيفتها الهجوم على العدو ورميه بالسهام للفتك بـه . فكانت السهام تقوم مقام نار البنادق والرشاشات في أسلحة هذا اليوم . وقد أشار الكتبة (الكلاسيكيون) إلى كتائب الرماة العرب التي كوّنها الروم والرومان .

وقد عرف بعض الرماة بدقة إصابتهم الهدف، فكانوا يصيبون بسهامهم ونبلهم أدق الأهداف . وقد اشتهر هؤلاء بـ (رماة الحدق) ، أي المهرة في الرمي ، فلا يخطئون الحدق . وفي كتب الأخبار قصص عن دقـة إصابة هؤلاء الرماة[2] . ولخطورة الرمي في القتال ، ولأهمية هذا السلاح في مصير الحـروب ونتائجها ، أعطاه الاسلام أهمية كبيرة . وقد ورد في الحديث : « وأعـدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي »[3] . وورد أيضاً : أن الرسول كان يحث أصحابه على تعلم الرماية وإتقانها[4] . وقـد كان في صفوف قريش والوثنيين جماعة من الرماة المهرة الذين يصيبون الأهداف .

واشتهرت أنواع من القسي ، منها : (القسي الماسخية) ، نسبة الى رجل من بني نصر بن الأزد اسمه (ماسخة)[5] ، وقيل : (نبيشة بن الحـارث) . ذكر أنه أول من عملها . وتنسب القسي أيضاً الى (زارة) وهي امرأة (ماسخة)[6] . وفي هذه القسي قال الشاعر :

شرعت قسي الماسخي رجالنا بسهام يثرب أو سهام الوادي[7]

---

١ الاغاني (٢/١٩) .
٢ العقد الفريد (١/٢١٨ وما بعدها) .
٣ العقد الفريد (١/٢٢٢) .
٤ المصدر نفسه .
٥ بلوغ الارب (٢/٦٥) ، العمدة (٢/٢٣٣) .
٦ الروض الانف (٢/٢١٢) .
٧ الاشتقاق (ص ٢٨٨) .

وذكر أهل الأخبار نوعاً من الخشب سموه (الشِريان)، ذكروا أنه خشب تتخذ منه القسي العربية[1].

وأجود السهام التي وصفتها العرب، (سهام بلاد)، (سهام بلام)، و (سهام يثرب)، وهما قريتان من حجر اليمامة. وقد ذكرها الأعشى في شعره[2].

ومن (النبل) الجيد نبل يقال له (رقيات)، وقد نسبت الى (الرقم)، وهو موضع دون المدينة، ويقال سهام مرقومة[3].

وتريش النبال بريش الطيور، وتوضع عليها ريش نسر أحياناً[4].

وتحفظ السهام والنبال في محفظة، يقال لها: (الكنانة). وأشهرها الكنائن المعروفة بـ (الكنائن الزغرية)، وهي منسوبة الى (زغر)، موضع بالشأم، تعمل كنائن حمر مذهبة. وقد ذكرها أبو دؤاد الإيادي في شعره:

ككنانة الزُغرى زينها من الذهب الدلامص[5]

ومن مشاهير الرماة عمرو بن عبد المسيح الطائي، وكان أرمى العرب. وفد إلى النبي، وفيه يقول امرؤ القيس:

ربَّ رامٍ من بني ثعل مخرج كفيه من ستَره[6]

واشتهر (القارة) بالرمي، فقيل: إنهم أرمى حي في العرب، ولهم يقال: «قد أنصف القارة من راماها»[7].

والقسي هي سلاح الصياد في الجاهلية، فهي بمثابة (البندقية) في هذا اليوم، يأخذها الصياد معه وفي كنائنه، ثم ينتظر، فإذا شاهد صيداً رماه[8]. ولهذا نجد المولعين بالصيد يذكرونها في شعرهم وفي وصفهم لمطاردة الحيوانات.

---

١ الاشتقاق (٢/٢٩٥).
٢ بلوغ الارب (٢/٦٥)، (بلام) العمدة (٢/٢٣٢).
٣ شرح ديوان لبيد (ص ١٩٥).
٤ شرح ديوان لبيد (ص ١٩٥).
٥ بلوغ الارب (٢/٦٥).
٦ المعارف (ص ١٣٦)، وفي بعض الاصول (قتره)، العقد الفريد (٣/٤٠٠).
٧ العقد الفريد (٣/٣٤١).
٨ بلوغ الارب (٢/٦٥).

ومن القسي الجيدة التي تركت أثراً في ذاكرة الشعراء (العتل) واحدها (عتلة) وقد عرفت بأنها القسي الفارسية[١] .

واستعمل الصعاليك واللصوص السهام سلاحاً فتاكاً في ابتزاز المال وسلب المسافرين. والرامي الجيد الرماية ، متغلب على خصومه ، لأنه يرمي وهو على بعد ممن يرميه، فلا يصيبه سيف أو رمح . وبذلك صعب على من لا يحسن الرماية التغلب على الرماة .

والرمي بالحجارة والحصى ، سلاح مهم مؤثر في العدو في ذلك الزمان . فقد كان المحاربون يرمون عدوهم بآلة ما زال الأطفال والفلاحون يستعملونها،يطلقون عليها لفظة (معجان) في العراق . وهي عبارة عن قطعة من جلد أو قماش تشد من طرفيها بحبلين أو خيطين . فإذا أراد الرامي الرمي ، وضع حجراً صغيراً أو حصاة في الجلد أو القماش ، وأمسك بطرفي الحبلين غير المشدودين بالقاعدة،وأخذ يحركها تحريكاً دائرياً بشدة ، ثم يطلق أحد الحبلين بسرعة لينطلق الحجر الى الهدف المراد ، فيصيبه . ويطلق على هذه لفظة (قلع) في العبرانية ، وهي أبسط أنواع آلات الرمي بالحجارة . ويستعملها الفلاحون والرعاة أيضاً لطرد الطيور والحيوانات[٢] . ويسمونها في بلاد الشأم (المقلاع) .

وقد كان على المحارب التدرب على الرمي وعلى الطعن،ليكون محارباً ناجحاً ، ذا خبرة في القتال ، فلا يتمكن منه عدو بسهولة . وفي جملة الوسائل التي كان يتدرب عليها : (الدريئة) ، وهي حلقة يتعلم عليها الطعن والرمي . قال عمرو ابن معديكرب :

ظللت كأني للرماح دريئة   أقاتل عن أبناء جرم وفرت[٣]

ولا بد للمحاربين من أسلحة واقية ، يتقون بها ضربات أعدائهم . وما يرمونهم به من حجارة وسهام . والترس من أقدم الأسلحة الواقية ، يعلقه المحارب على ظهره أو على كتفه ، فإذا احتاج اليه ، أمسكه بإحدى يديه ، ليتقي به ضربات

---

١ المعاني الكبير (٢/١٠٥٣) .
٢ Encyclopaedia Biblica I, p. 249.
٣ تاج العروس (١/٢٢٣) (الكويت) .

خصمه . ويصنع من الحديد في الغالب ، ولارتفاع ثمنه ، لم يستعمله إلا المحاربون الشجعان المعروفون والمحاربون الموسرون . واستعمل الترس المصنوع من الخشب ومن الجلود الثخينة ، مثل جلود الجمال والبقر وبعض أنواع الأسماك والحيوانات الوحشية ذوات الجلود الغليظة .

وبعض الأتراس، دائرية على هيأة قرص ، ومعظم أنواع الأتراس عند الجاهليين وعند العرب الإسلاميين هي من هذا النوع،وبعضها على هيأة مستطيل أو مستطيل ذي رأس مدور أو ثابت أو غير ذلك ، وفي ظهر الترس حلقة أو موضع يدخل المحارب يده فيه ليمسك به الترس ، ويتصل به حبل أو سلسلة ليعلق المحارب به أو بها الترس على جسمه . ويعرف الترس بالدرقة وبالمجن كذلك[١] . وقد ذكر امرؤ القيس المجن فقال :

لها جبهة كسراة المِجَنّ حذقه الصانع المقتدر[٢]

ويقال له : (العنبر) كذلك[٣] .

ويقال للمجن (ماكين) (ماجن) Magen في العبرانية . وهو قرص دائري الشكل خفيف يحمله المحارب بيده ليدافع به عن نفسه وللاتقاء به من ضربات العدو . ويقال له (كليبوس) Clypeus عند الرمان[٤] .

والدروع هي من أسلحة الوقاية ، يتدرع بها المحارب ، ليقي بها نفسه من ضربات خصمه . وقد تكون للظهر وللصدر ، فتحمي ظهر المحارب وصدره ، وقد تكون للصدر فقط،فيقي المحارب بالدرع ضربات المحارب من رمح أوسيف ، فلا ينال به صدره[٥] ويعرف أهل الأخبار الدرع بأنها القميص المتخذ من الزرد .

وتعرف الدروع عند العبرانيين بـ (شريون) Shiryon . ويلبس الدرع كالثوب فيقي الجسم من الضربات[٦] .

---

١ اللسان (٦/٣٢) ، تاج العروس (٤/١٢٩) .
٢ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٥٨) .
٣ الاشتقاق (ص١٢٩) .
٤ Hasting, p. 51, The Bible Dictionary, I, p. III.
٥ العقد الفريد (١/٢٠٩) (لجنة) ، لسان العرب (٨/٨١) ، تاج العروس (مادة درع) .
٦ The Bible Dictionary, I, p. III.

وقيل للدروع (الخرصان) كذلك ، والواحد خرص ، وقد سموا الدرع خرصاً لأنه حلق ، كما سموا الحلقة التي في الأذن خرصاً . وقيل للدرع سابغة أيضاً[1] . وقيل للرماح الخرصان كذلك[2] .

ومن الدروع المعروفة : (الدروع الحطمية) نسبة الى حطمة بن محارب بن عمرو بن وديعة . وقيل : نسبة الى (حطم) أحد بني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة . و (الدروع السلوقية) ، هي نوع آخر من الدروع المشهورة، يقال : انها نسبة إلى (سلوق) وهي قرية باليمن عرفت بدروعها[3] . وقد ذكر النابغة الدروع السلوقية في شعره[4] . وأشار (ابن مقبل) إلى نوع من أنواع الدروع دعاها (المشرفية) من صنعة مشرف ، ومشرف جاهلي ، وهم يدعون الى ثقيف[5] . كما عرف نوع آخر من الدروع اشتهر باسم (القردماني) ، وذكر بأنه فارسي، وان أصله بالفارسية (كرد ماند)[6] .

وقد نسبت الدروع الجيدة الممتازة الى (داوود) و (سليمان) فورد في شعر للحطيأة :

فيه الرماح وفيه كل سابغة جدلاء مبهمة من نسج سلام[7]

وورد في شعر للنابغة :

وكل صموت نثلة تبعية ونسج سُليم كل قضّاء ذائل[8]

ويلاحظ ان البيت المنسوب الى (الحطيأة) ينتهي بلفظة (داوود) بدلاً من (سلام) وهو (سليمان) في بعض الروايات . والمعروف ان (داوود) هو الذي

---

١ المعاني الكبير (٢/١٠٣٥ وما بعدها) .
٢ المعاني الكبير (٢/١٠٣٦) .
٣ بلوغ الارب (٢/٦٦) .
٤ يقد السلوقي المضاعف نسجه ويوقد في الصفاح نار الحباحب
العقد الفريد (١/٢١٥) ، بلوغ الارب (٢/٦٦) .
٥ المعاني الكبير (٢/١٠٣٥ وما بعدها) .
٦ المعاني الكبير (٢/١٠٣٠) .
٧ المعاني الكبير (٢/١٠٣٥) .
٨ المعاني الكبير (٢/١٠٣٦) .

اشتهر بعمل (الدروع) لا (سليمان) على حد قول أهل الأخبار[1] . وقد أشير إلى صنع (داوود) للدروع في بيت شعر (لبشامة بن عمرو) ، وقد وصف دروعه بأنها (موضونة) ، أي مضاعفة مُحْكمة ، تسمع للقواضب فيها صليلاً[2] ، كما أشير الى ذلك في بيت شعر ينسب الى (الحصين بن الحُمام المري) ، حيث نسب نسج الدروع إلى (داوود) . والغالب عند الجاهليين نسبة إلى الدروع الى (داوود)[3] .

وأما لفظة (سليم) الواردة في بيت (النابغة) ، فتعني (سليمان) أيضاً[4] .

ونحن لا يهمنا في هذا المكان أمر صانع هذه الدروع ، إنما الذي يهمنا هنا هو أثر القصص اليهودي والدعاية الإسرائيلية في نفوس الجاهليين ، مما يدل على أن اليهود المهاجرين الى جزيرة العرب كانوا قد غرسوا بذور الدعاية اليهودية بين الجاهليين حتى تؤثر فيهم ، فكان من أثره مثل هذا القصص الذي نجده في شعر الجاهليين وفي قصصهم المدون في الإسلام .

ولا يستبعد أن يكون في اتجار يهود الحجاز بالأسلحة واستيرادهم إياها من بلاد الشأم لبيعها للعرب أو للاحتفاظ بها لتهديد من يطمع فيهم ولمقاومته ، أثر في ظهور مثل هذا القصص ، وفي نسبة الأسلحة الجيدة الى (داوود) أو (سليمان).

وعرفت الدروع المصنوعة باليمن بالجودة كذلك.وقد نسبت بعضها الى التبابعة ، فقيل (نثلة تبعية) يريدون بلفظة (نثلة) درع . وقيل (مسفوحة تبعية) أي (درع تبعية) منسوبة الى (تبع)[5] .

و (التسبغة) هي : زرد مشبك الحلق متصل بالبيضة يطرح على الظهر ليستر العنق ، فلا تؤثر فيه الضربات والطعن[6] .

ومن الأدوات التي استخدمها المحاربون (البيضة) ، وهي غطاء يوضع على

---

١ المعاني الكبير (٢/١٠٣٥) .
٢ المفضليات ، (اخراج حسن السندوبي) ، القاهرة (١٩٢٦) ، (ص ١٦) .
٣ المفضليات ، (اخراج السندوبي) (ص ٢٠) .
٤ المعاني الكبير (٢/١٠٣٢) .
٥ المعاني الكبير (٢/١٠٣٦) ، المفضليات (ص ٣٥) (حسن السندوبي) ، العمدة (٢/ ٢٣ وما بعدها) .
٦ المفضليات (ص ٣٦) (السندوبي) .

الرأس لحمايتـه من السيوف والحجارة والعصي وما شابه ذلك[1] . وهي لا بد أن تكون مصنوعة من مواد واقية تحفظ الرأس من الأخطار ، كأن تكون مصنوعة من الحديد أو المواد المعدنية الأخرى أو من الجلود الثخينة .

وقد عرفت (البيضة) المستديرة بـ (تركة) . وورد في شعر (مزرد بن ضرار الذبياني) (تركة حميرية) ، أي منسوبة الى حمير ، مما يشير الى اشتهار هـذا النوع من آلة وقاية الرأس[2] .

والعمائم خوذ المحاربين عند الجاهليين . فإذا خاض المحارب معركة ما إعتم بعمامة ، وقد يضع عليها ريشة ، وقد يتحنك بذؤابتها ، ولم تكن عمائم الحرب ذوات لون واحد ، بل كانت ذوات ألوان ، قد يدخل المحارب الحرب وعلى رأسه عمامة يختلف لونها عن لون العمامة التي لبسها قبلاً . وقد تحدث أهل الأخبار عن أنواع العمائم التي لبسها المحاربون في القتال .

ولكن هذا لا يعني ان الجاهليين كانوا لا يستعملون الخوذ في حروبهم . لقد كان عرب العراق وعرب بلاد الشأم واليمن يستعملونها أيضاً ، واذا كانت الخوذ قليلة الاستعمال في معظم أنحاء جزيرة العرب ، فإنما يعود سبب ذلك الى غـلاء ثمنها ، لأنها من المعدن في الغالب ، ولعدم وجود حاجات ملحة اليها هناك . وقد لبس الرومان واليونان خوذاً مصنوعة من النحاس ومن البرنز . واستعملت الخوذ المعمولة من الخشب ومن الجلود والكتان واللباد وبعض المواد الأخرى . وقد تفنن صانعوها في زخرفتها وفي أشكالها،وعلى هذه الزخرفة والمواد المصنوعة منها يتوقف سعر الخوذ بالطبع .

وأما (المجن) و (الترس) و (الدرقة) ، فبمعنى واحد ، وهي لوقاية الجسم من ضربات السيوف . ويصنعها العرب من الجلود في الغالب[3] .

ويقال للزرد الذي ينسج على قدر الرأس ويلبس تحت القلنسوة (المغفر)[4] .

---

١ الطبري (٢/٣٧٩) ، بلوغ الارب (٢/٦٧) ، (البيضة والبيض ما يحمى الرأس من سلاح) ، المعاني (٢/١٠٣٢) .

٢ وتسبغة في تركة حميرية دلامصة ترفض منها الجنادل
المفضليات (السندوبي) (ص ٣٦) .

٣ بلوغ الارب (٢/٢٧) .

٤ اللسان (٥/٣٦) ، تاج العروس (٣/٤٥٠) .

وقد لبس محاربو اليونان والساسانيون ألبسة واقية خاصة لتقي جسمهم من ضربات السيوف وطعن الرماح ومن تساقط السهام عليهم ، كما حموا أرجلهم وأفراسهم أيضاً بأوقية خاصة . بعضها من جلد وبعضها من أقمشة أو من معدن . وقد استخدموا ملابس خاصة صنعت من الزرد أي من حلقات معدنية ، وتدرعوا بألواح من معدن حموا بها أجسامهم ، وبألواح من الجلود الثخينة المدبوغة دبغاً خاصاً لتقاوم الضربات ، وغطوا بها أجسام خيولهم في بعض الأحيان لئلا تصاب ، فيسقط بسقوطها الفارس ، ويعجز عن القتال .

وقد اشتهرت (ترسة الروم) بكبرها وبشدّتها ، وقد أشير اليها في شعر (ابن مقبل)[1] .

ومن عادات العرب في الحروب انذار من يريدون محاربتهم . كأن يقولون لمن يريدون محاربته : إنا ننذرك بحرب . وهم يفتخرون بذلك ، إذ يرون أن الإنذار بالحرب من سياء القوة والشجاعة ،ومن علامات عدم المبالاة بالعدو . وأن المباغتة من علامات الجبن والضعف . وقد ينذرون عدوهم ويتواعدون معه على الالتقاء في زمن معين وفي مكان معين للحرب . فإذا جاء الأجل التقوا في المكان المعين وتحاربوا فيه .

وتبدأ الحرب عادة بإعلان حالة النفير : أي حالة التجمع والتهيؤ للقتال أو الذهاب الى الحرب . ويكون ذلك بالتبويق ، أي بالنفخ ببوق من معدن أو قرن حيوان أو آلة من خشب ، أو بدق الطبول والدفوف أو بضرب أعواد من خشب ، أو بالصياح لإعلام الناس بدنو عدو أو ظهور خطر أو استعداد للقيام بغزو ما ، فيتجمع عندئذ كل قادر على القتال متمكن منه ، حاملاً معه كل ما يحتاج اليه من معدات للقتال ، راكباً أو راجلاً ، لأخذ دوره فيه . والقيام بالعمل الذي يوكل به اليه . وقد يلحق النساء بالمقاتلين ، فيقمن بإعداد الطعام لهم وما يحتاجونه اليه من خدمات وليس لهؤلاء المقاتلين من أجور ومرتبات غير الغنائم التي تصيبهم والأسلاب التي تقع في أيديهم ،فتكون ملكاً لهم ،لأن القتال واجب على كل مواطن متمكن محتم عليه ، والامتناع منه جبن ومخالفة لقوانين المجتمع وأعرافه .

وللجيوش ألوية ورايات يحملها أشجع المقاتلين والمعروفون بصبرهم على القتال .

---

١ ديوان ابن مقبل (ص ٢٧٧) (تحقيق الدكتور عزة حسن) .

وإذا قتل حامل الرايــة ، قام آخر من الشجعان بحملها . ويستميت المقاتلون في الدفاع عن رايتهم ، فسقوط الراية على الأرض أو في يد العدو ، معناه هزيمــة أصحابها ، وعجزهم عن القتال ، وخور عزيمة المقاتلين عن القتال في النهايـة ، وتلك أمارات الهزيمة والفرار .

ولا يشترط في الأعلام والبيارق والرايات أن تكون قديمة متوارثة . فقد تعقد عند بدء الحرب ، يعقدها الرؤساء ، ويسلمونها الى أشجع الناس لتكون سنــداً للمحاربين ورمزاً يستمدون منه العون والقوة . وتسمى بأسماء قد يتصايحون بها عند احتدام القتال . وذلك لإثارة النفوس ، وبعث الحمية فيها على القتال . أما أمر لون الراية وطولها وعرضها ، فذلك من شأن الرؤساء والمشايخ وزعماء القوم .

ومما يدل على أهمية الراية عند العرب وعلى مكانتها عندهم ، أنهم كانوا يسمون (لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش أماً)[1] . وكانوا يجتمعون لها في النزول والرحيل وعند لقاء العدو .

ولما تحدث (الحرث بن حلزة اليشكري) عن (يوم الشقيقة) وعن مجيء (معد) مع (قيس بن معديكرب) ، ذكر ان أحياء (معد) التي اشتركت معه ، كانت تحمل معها ألويتها ، ولكل (حي) لواء[2] .

وكانت لقريش راية يحتفظون بها ويحاربون تحتها تسمى (العقاب) وهي راية قريش ، واذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب ، فإذا اجتمعت قريش على أحد ، أعطوه العقاب ، وإن لم يجتمعوا على أحد أخذها صاحبها فقدموه[3] . ولم تكن قريش بدعاً في ذلك ، فقد كانت للقبائل وللحكومات رايات أخرى ، يتوارثونها ويحافظون على تسميتها ، وتحتفظ بها أسر خاصة أو سادات قبائل، تعتز بذلك ، وتعدّها من أعظم درجات الفخر والتكريم .

ولأهمية القائد في المعــارك ، كانوا يحيطونه بحرس ، ويجعلون أكثر ثقلهــم حوله . ويكون موضعه في القلب في الغالب ، ليشرف على القتال ، تحميه المؤخرة من الخلف والمقدمة من الأمام ، ويوضع اللواء عنده ، ويحمل بين يديه . وكان

---

١ تفسير الطبري (١/٣٦ وما بعدها) .
٢ شرح المعلقات المسبع ، للزوزني (ص ١٦٤) .
٣ العقد الفريد (٣/٣١٤) .

المسلمون يحملون (العَنَزَة) بين يدي الرسول ، وربما جعلوها قبلة [1] .

وقد كان القادة يستعينون قبل الدخول في القتال بمخبرين يرسلونهم إلى العدو للحصول على معلومات عن قواتهم وعن مواقعهم وعن مدى استعدادهم للحرب . وكذلك كان للقبائل ولأهل المدن مخبرون يرسلونهم لاستطلاع الأحوال ولتحذيرهم من احتمال وقوع غزو مفاجىء عليهم ، أو لتقدير مقدار الغازين أو المحاربين للاستعداد والتهيؤ . فهم (جواسيس) إذن ، يذهبون للتجسس ولاستراق الأخبار حتى يكون من أرسله على حذر وبينة من أمره ، ويقال للواحد منهم (منذر) في السبئية ، لأنه ينذر قومه وينبههم بقرب وقوع حادث عليهم [2] .

ويقال للشخص الذي يتسقط أخبار العدو ويبحث عن مواضع ضعفه وعن حركاته وسكناته : (العين) و (الربيء) و (الجاسوس) . وقد كانوا يتنكرون ويتستّرون كي يخفوا هويتهم ويحصلوا على ما يحتاجون الحصول اليه من معلومات ليرتبوا بموجبها خططهم الحربية . روي أن (عمرو بن سفيان الكلابي) ، جاء بني خزاعة في زي رجل من بني هلال ، وأظهر أنه جاء يريد جيرتهم ، وكانوا قد غزوا قومه وساقوا إبلهم ، فقبلوا ايواءه ، وبقي عندهم أمداً ، حتى جمع كل ما احتاج اليه من معلومات عنهم ، ثم خرج منهم وعاد الى قومه فاستفادوا بما كان قد جمعه عن بني خزاعة ، وغزوهم وانتصروا عليهم [3] .

وذكر أنه كان لكليب وائل عيناً في تغلب ، كان يتجسس له ويرسل له الأخبار عن هذه القبيلة [4] . وأن (عمرو بن ربيعة) ارسل سدوس بن شيبان وصليع بن عبد غنم الى معسكر (زياد) ملك الشام ، ليتجسسا عليه ويأتيا له بالأخبار [5] . وهناك امثلة كثيرة من هذا النوع تتحدث عن عيون كانت القبائل ترسلهم الى القبائل المعادية لها لتأتي لها بالأخبار عنها وبنواياها العدوانية وعن خططها في الغزو .

وقد يكون الرجل بين قوم ، فيسمع بخبر عزمهم على غزو قومه ، فيرسل

---

١ البيان والتبيين (٣/ ٩٥) .
٢ Jamme 643, Mahram, p. 440.
٣ الاغاني (٩/ ٧) .
٤ ابن الاثير ، الكامل (١/ ٣٠٢) ، (٣/ ٣١٣ وما بعدها) .
٥ الاغاني (١٠/ ٣٦ وما بعدها) ، الدينوري ، عيون (١/ ١٩٥) .

رسالة رمزية في الغالب أو شفوية ليحذر قومه منه . وقد يكون المنذر أسيراً في أيدي القوم ، فلا يستطيع الهروب من مؤسريه ليخبر أهله بعزم آسريه على غزوهم فيعمد إلى (الشيفرة) وإلى الرموز والكنايات والتعابير التي تفهم القوم بمراده من الرسالة ، فيحتاطوا للأمر ويستعدوا للقتال .

وفي يوم (شعب جبلة) كان (كرب بن كعب بن زيد مناة) ، وهو من بني تميم ، قد علم بخطط أعداء قومه ، وكانوا قد أخذوا عليه عهداً وميثاقاً بألا يتكلم ولا يخبر قومه عن عزمهم فعمد إلى الرمز والاشارة ، بأن وضع تراباً في صرة ، وشوكاً قد كسرت رؤوسه ، وحنظلة موضوعة ووطب معلق فيه لبن ، فلما رأى القوم ذلك ، علموا انه يقول لهم : إن القوم كالتراب عدداً لكن شوكتهم قليلة ، وانهم قريبون منهم ، فعليهم أن يحتاطوا للأمر ، فاحتاطوا منه، واستعدوا للأمر .

وكان الأعور ، وهو ناشب بن بشامة العنبري أسيراً في قيس بن ثعلبة ، فلما سمع بأن اللهازم تجمعت وهم : قيس وتيم اللات ومعها عجل بن لجيم وعنزة بن أسد ، تريد غزو بني تميم ، قال لآسريه اعطوني رجلاً أرسله الى أهلي أوصيهم ببعض حاجتي . فقالوا له : ترسله ونحن حضور . قال نعم . فأتوه بغلام مولد . فقال اتيتموني بأحمق . فقال الغلام : والله ما أنا بأحمق . فقال : إني أراك مجنوناً . قال : والله ما أنا بمجنون . ثم صار يكلمه ويسأله ، ثم أوصاه بأمور لا يفهم منها أن فيها إشارات ورموز ، ووافق القوم على ذهاب الغلام الى قوم ناشب ، فلما كلمهم بما قاله ناشب للغلام لم يدروا ما أراد : فأحضروا (الحارث)، فقص عليه الغلام قصة ما جرى له مع ناشب ، ففهم المراد . ثم قال للغلام : أبلغه التحية ، وابلغه انا سنوصي بما أوصى به . ثم قال لبني العنبر إنه يحذركم من غزو قريب فاستعدوا وارتحلوا عن ديارهم وبذلك نجوا من خطر الغزو[1] .

وهناك أمثلة عديدة من هذا القبيل ، حذر بها أناس من رجال ونساء قومهم من غزو سمعوا به ، فخلصوا قومهم منه . أو جعلهم يستعدون له . وقد استعمل المحذرون التراب أو الرمل . للدلالة على كثرة العدو . واستعملوا الشوك للدلالة على القوة وعلى شوكة العدو ، وعبروا بالشوك الذي تكسر رؤوسه ، بشوكة

---

١ ابن الاثير ، الكامل (٢٨٣/١ وما بعدها) .

العدو ، إلا أنه عدو لا يخشى جانبه ، لأنه غير متحد ولا متفق . وقد استمدت القبائل هذه الرموز من محيطها الذي عاشت فيه، فاتخذتها أدوات للتحذير والإنذار .

ويستعين القادة بأدلاء ليقدموا لهم المعلومات عن الطرق الموصلة الى المواضع التي يريدون مقاتلة أصحابها بها ، أو للسير في مقدمة قافلة الجيش للوصول الى المكان المطلوب . وللدليل أهمية كبيرة في القتال ولذلك استعان بهم المحاربون . ويقال للدليل (دلل) في العربية الجنوبية ، والأغلب أنهم كانوا ينطقونها على نحو ما ننطقها بها في عربيتنا . وأما الجمع فـ (دلول) ، أي أدلاء[1] .

وكان لا بد لكل قائد من الاستعانة بدليل إذا ما أراد التفويز ، فقد يهلك الجيش من العطش والجوع ويخطىء هدفه أو يصير فريسة في مخالب من يقصده ، إن لم يستعن بدليل خرّيت مجرب ، له علم بالبادية علمه ببيته . وكان للقبائل أدلاء عركوا المفاوز وخبروها وعرفوا معالمها ومواضع الماء فيها ، وكان لهؤلاء فضل على قبائلهم ، لا يقل عن فضل الفرسان عليها ، لأنهم من أسباب النصر. ولما كتب (أبو بكر) إلى (خالد بن الوليد) يأمره بالمسير إلى بلاد الشأم ، دلّ على (رافع بن عميرة الطائي) وكان دليلاً خرّيتاً ، وبفضل علمه بالطريق وبنصحه القيم لخالد في كيفية عبور المفازة ، وصل الجيش سالماً إلى بلاد الشأم[2] .

وقد فعل الجاهليون ما تفعله القوى المتحاربة في كل وقت من اللجوء إلى التأثير في خصومهم باستخدام (الحرب النفسية) . أي التأثير في نفوس الخصوم حتى يشعر انه دون خصمه ، كأن يتظاهر بأن عدده أقوى وأكثر عدداً من عدد خصمه ، بتوسيع رقعة معسكره وايقاد النيران الكثيرة وإحداث أصوات مرتفعة ، تشعر المتلصص للأخبار ان الجيش جرار ، وان عدده كبير . وبذلك يخافه خصمه وترتعب نفسه . ولما نزل المسلمون (حمراء الأسد) ، (كانوا يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار ، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه ، فكبت الله تعالى عدوهم)[3] .

ويعمد الجيش أو القسم منه إلى التستر والتخفي لمباغتة العدو ومفاجأته ، كأن

---

١ Jamme 575, Mahram, p. 430.

٢ الدينوري ، عيون الاخبار (١/١٤٢) ، (التفويز) .

٣ نهاية الارب (١٧/١٢٧) ، (ذكر حمراء الاسد) .

يختفي في موضع حصين لا يرى على طرف أو طرقٍ وادٍ أو ممر جبل ، فإذا مرَّ الجيش من ذلك الوادي انقض المختفون عليه ويعبر عن المخبأ بـ (مغون) في السبئية[1] .

ويقال للعين الذي يذهب يربأ أهله (الربيئة) و (الطليعة) . وهو الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم العدو ، وذكر علماء اللغة ان الربيئة لا تكون إلا على مربأ من الأرض ، أي على جبل أو شرف ينظر منه[2] .

ويبذل القائد كل ذكائه وفنه في خداع خصمه في الحرب ، للتغلب به عليه . وفي الحديث : (الحرب خدعة)[3] . وذلك بأن يتظاهر القائد بعمل شيء ، بينما هو ينوي شيئاً آخر . وقد كان الجاهليون يتفننون في خداع أعدائهم للتغلب عليهم. كما كانوا يستشيرون الناس في ادارة الحرب،يستشيرون الشجعان المتمرسون بالحرب ، كما كانوا يستشيرون من عرف بالجبن ، ثم يخلصون بين الرأيين ، وذلك لما للرأيين من أهمية في ادارة الحرب[4] .

ولقريش عادات في الحرب . فلها (القُبّة) ، وكانت تضربها ، وتجمع اليها ما يجهزون به الجيش . ولها (الأعنة) ، ويكون صاحبها على خيل قريش في الحرب . ولها (السفارة) ، وذلك انهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوا سفيراً عنهم ليتفاوض[5] . وكان (خالد بن الوليد) متولي (القبة) و (الأعنة) و (السفارة) عند ظهور الاسلام . وكان لها ما يسمى بـ (حلوان النفر) ، فإن العرب لم تكن تملك عليها في الجاهلية أحداً . فإن كانت حـــرب ، أقرعوا بين أهل الرياسة ، فمن خرجت عليه القرعة ، أحضروه صغيراً كان أو كبيراً . فلما كان يوم الفجار ، أقرعوا بين بني هاشم ، فخرج سهم العباس ، وهو صغير ، فأجلسوه على المجن[6] .

ويتصايح المحاربون بشعاراتهم ، إذ كان لكل قبيلة شعار ينادون به،ويحافظون

---

١ Jamme 577, Mahram, p. 440.

٢ اللسان (٨٢/١) ، تاج العروس (٢٣٦/١ وما بعدها) ، (طبعة الكويت) .

٣ العقد الفريد (١٢٢/١) ، صحيح مسلم (١٤٣/٥) ، (باب جواز الخداع في الحرب) .

٤ العقد الفريد (٩٥/١) .

٥ العقد الفريد (٣١٤/٣) .

٦ العقد الفريد (٣١٥/٣) .

عليه . فإذا وقعت حرب ، أو حدث غزو ، نادوا بذلك الشعار لايقاظ الهمم ، وإذكاء النيران في القلوب . وقد كان شعار (بني عامر) في الحرب شعاراً واحداً ، هو : (يا جعد الوبر)[1] . ويعد هز الراية إشارة للهجوم[2] ، فيهجم المحاربون ، ويقع الاشتباك .

وأكثر ما يغزو العرب عند الصباح ، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح . وسبب ذلك أن الناس يكونون مستغرقين في هذا الوقت في نوم لذيذ ، لذلك تكون الغارة فيه مفاجأة مفزعة لهم . والعرب تقول إذا نذرت بغارة من الخيل تفجؤ صباحاً: يا صباحاه ! ينذرون الحي أجمع بالنداء العالي . ويقولون : صبحتهم الخيل : يعني جاءتهم صبحاً . وفتى الصباح،أي فتى الغارة ، تعبيراً عن شجاعته وبطولته[3].

ويثير سادات القبائل وقادتها في الحرب همم المحاربين بخطب حماسية يلقونها عليهم ، يحرضونهم فيها على القتال وعلى التعاون فيما بينهم وعلى إطاعة أوامر قادتهم وعدم مخالفتها بتاتاً وعلى اظهار الشجاعة لأنها من سجايا الرجال وعلى عدم المبالاة بالموت والصبر ، لأن من صبر ظفر . الى غير ذلك من خطب في الحث على الإستماتة نجد بعضها مدوناً في كتب أهل الأخبار[4] .

وكانت العرب إذا تواقفت للحرب تفاخرت قبل الوقعة فترفع أيديها وتشير بها فتقول : فعل أبي كذا وكذا ، وقام بأمر كذا وكذا ، ويفعل الطرف الثاني مثل ذلك ويبدأ القتال[5] .

وتبدأ المعركة في الغالب بالمبارزة ، بأن يخرج من كل جانب محارب أو أكثر ، يتبخترون تباهياً بأنفسهم ، وقد يتحلقون ويتعطرون ، وينشدون شعراً يفاخرون فيه بأنفسهم وبأهليهم ، وبقبائلهم وبأحسابهم وأنسابهم ، وقد يسأل المبارز مبارزه فإذا وجد أنه غير كفء له انتقصه ورفض مبارزته . أما إذا وجد أنه كفؤ له،بارزه وضاربه ، فيكر أحدهما على الآخر ، وهكذا تستمر المعركة مبارزة بين محاربين أو أكثر ، حتى تنتهي بالتحام قد يؤدي الى هزيمة أحد الطرفين ، أو لا يؤدي

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ٧) .
٢ العقد الفريد (١١٤/١) (لجنة) .
٣ اللسان (٧/٢ وما بعدها) .
٤ الاغاني (٧١/١٦) ، الامالي (١٦٧/١) ، ابن الاثير ، الكامل (٣٨٠/١) .
٥ اللسان (٦٢٥/١١) .

الى أية هزيمة بالمعنى المفهوم ، إنما ينسحب أحد الطرفين ويتراجع الى مكانه فتنتهي بذلك تلك الحرب .

وإذا برز المبارز ، فيعلم على رأسه في الغالب ، بأن يلبس سامة خاصة أو عصابة أو يضع ريشة يتباهى بها ، وقد يستعملون الخوذ ، إلا أنها كانت قليلة الاستعمال لدى الأعراب ، لغلاء ثمنها عندهم . وقد كان (أبو دجانة) يختال عند الحرب إذا كانت ، وكان اذا أعلم رأسه بعصابة له حمراء ، علم الناس أنه سيقاتل[1] .

ويقسم المحاربون قواتهم الى مجنبة وقلب : مجنبة يمنى تهاجم أو تحمي الجانب الأيمن ، ومجنبة يسرى تحارب وتدافع عن الجانب الأيسر من المحاربين . أما القلب ، فيكون واجبه الهجوم أو الدفاع من الوسط ، أي وسط الجيش . وقد تقوم المجنبتان بالهجوم لتطويق العدو وحصره في دائرة ، تضيق عليه . وفي معركة (يوم نخلة) من أيام الفجار ، كان حرب بن أمية في القلب ، وعبدالله بن جدعان وهشام بن المغيرة في المجنبتين[2] .

وتوضع أمام الجيش أو المحاربين مقدمة ، تتقدم المقاتلين ، يكون واجبها حماية القسم الأكبر من الجيش الذي يكون وراءها ، وارسال المعلومات عن العدو واشغاله بالقتال إن وقع حتى يأتي المحاربون . ويقال للمقدمة (مقدمت) ، أي (مقدمة) في السبئية[3] . وللذي يتولى أمرها ويقودها : (قدم)[4] .

ويقال لطليعة الجيش ، وهي التي تتقدم الجيش ، للقاء العدو وللوقوف على أمره وخبره (نذيرة الجيش)[5] .

ولما ندب رسول الله المسلمين لفتح مكة ، قسّم الجيش إلى مجنبتين ، وهما : الميمنة والميسرة ، والقلب بينهما . وكان ترتيب الجيش إذ ذاك على خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة . ولهذا كان يسمى خميساً . وجعل رسول

---

١ الاغاني (١٤/١٦) .

٢ الاغاني (١٩/٧٤ وما بعدها) ، قال عمرو بن كلثوم :

وكنا الايمنين اذا التقينا وكان الايسرون بنو أبينا

المعلقة

٣ Jamme 576, 665, Mahram, p. 440.

٤ Jamme 681, 816, Mahram, p. 447.

٥ اللسان (٥/٢٠١) .

الله على (الحسر) ، وهم الذين لا دروع عليهم (أبا عبيدة) . ويقال لهم (البياذقة) ، وهم الرجالة ، واللفظة فارسية معربة ، سمّوا بذلك لخفة حركتهم وانهم ليس معهم ما يثقلهم . وقد كانت اللفظة معروفة في أيام الرسول . وهم رجالة لا دروع عليهم ، أي حسراً [1] .

وقد استخدمت هذه التعبئة الحماسية في اللقاءات الكبيرة ، أي في الاشتباكات الضخمة ، التي يمكن أن نسميها (حروباً) . أما في الغارات وفي الغزو فكانوا يتبعون طريقة المباغتة والهجوم من كل جانب يمكن الهجوم منه .

ويقال للقطعة من الجيش تمرّ قدّام الجيش الكبير (منسرت) (منسرة) في السبئية ، ويراد بها (المنسر) في عربيتنا . ورد في النص : Jamme 631 (ومنسرت خمسن) ، أي (ومنسرة الجيش) ، أو (ومنسر الجيش) بتعبير أفصح [2] .

ويذكر علماء اللغة ان (الكردوس) القطة من الخيل العظمية . والكراديس الفرق منها [3] . فالكردوس إذن حسب هذا التعريف القطعة من القوات الراكبة المحاربة .

وقد كان النظام العشري في تنظيم الجيش ، هو النظام المتبع في الأرضين التابعة للانبراطورية اليونانية وفي الأرضين المتأثرة بثقافتها ، فلا يستبعد أن يكون تأليف الجيش في اليمن في أيام احتلال الحبش لها على هذا الأساس أيضاً . وأصغر وحدة عسكرية وفق هذا التقسيم ، هي الوحدة المكونة من خمسة جنود ، تليها وحدة مؤلفة من عشرة ثم من مضاعفات العشرة . ويحكم كل وحدة ضابط يدير شؤونها ويقوم بتدريبها وبالاشراف على سيرها وادارتها في أثناء السلم وفي أثناء القتال .

وقد يكون القتال صفوفاً ، بأن يتقدم المحاربون فيحاربون صفاً صفاً ، وذلك إذا كان المحاربون كثيرين . والى هذا النظام أشير في القرآن الكريم : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . وقد اتبع علي بن أبي طالب هذه الطريقة في يوم صفّين . وأشار اليها في خطبته في أصحابه

---

١ صحيح مسلم (٥/ ١٧٠ وما بعدها) ، (باب فتح مكة) ، تاج العروس (٦/ ٢٨٤) (الباذق) .

٢ Jamme 631, Mahram, p. 132.

٣ اللسان (٦/ ١٩٥) ، الروض الانف (١/ ٦٩) .

يعلمهم كيفية القتال[١] .

أما في حروب القبائل وغزو بعضها بعضاً ، فتكون المباغتة هي الأساس في الحرب ، وتقوم على مهاجمة العدو بغتة ومفاجأة وهو في عقر داره أو في الموضع المتجمع فيه . وتتوقف المباغتة على حساب القائد وعلى حنكته في تقديره موقف عدوه . ويكون للماء الفضل الأكبر في النصر وكسب الحرب ، لما له من شأن خاص في البوادي . لذلك كان يحسب له سادات القبائل الذين يقودون قبائلهم في القتال والغزو حساباً كبيراً ، فيحملون معهم مقادير كبيرة منه تكفيهم المدة التي يقدرونها للقتال ، أو يحاولون استباق عدوهم الى مواضع الماء للسيطرة عليها ، فإذا جاء العدو حرم الماء واضطر إلى استهلاك ما يحمله منه . وقد يؤدي نفاده إلى هزيمته وفراره . ويقال للمباغتة ولأخذ العدو بصورة مفاجئة (بحض) في لغة المسند[٢] .

ويعبر عن الحملة ، أي عن الجماعة من الجيش ترحف على عدو بـ (برث) في المسند[٣] .

وقد عرف قادة الجيوش أهمية طبيعة الأرض في كسب النصر وفي الدفاع . لذلك كانوا إذا تحاربوا تسابقوا الى مواضع الماء لتكون في مؤخرتهم حتى يستقوا منها ويمنعوا العدو من الشرب منها ، كما كانوا يضعون الشمس عند ظهورهم حتى لا تؤثر على أعينهم ، ويرتقون المرتفعات حتى يصعب على العدو الارتقاء اليهم بفعل الحجارة أو النبال التي ترمى عليه . فلما كان يوم شعب جبلة صعدت بنو عامر الى الشعب ، ووضعت نساءها وما معها من الإبل والمؤن عليه . وكانت قد أعطشت إبلها وعقلتها ، وصارت هي دونه . فلما وقع القتال واشتد عمدت بنو عامر الى الحيلة والى تنفيذ خطة كانت قد وضعتها فأخذت تتراجع وترحف نحو أعلى الشعب ، وصار العدو يتعقبها حتى بلغوا وسط الجبل . فقال الأحوص قائد بني عامر ، حلوا عقل الإبل ثم احدروها ، واتبعوا آثارها ، وليتبع كل رجل منكم بعيره حجرين أو ثلاثة ففعلوا ، ثم صاحوا بها فلم يفجأ الناس إلا الإبل تريد الماء والرعي وجعلوا يرمونهم بالحجارة والنبل واقبلت الإبل تحطم كل

---

١ بلوغ الارب (٢/٦١) .
٢ South Arabian Inscriptions, p .428.
٣ South Arabian Inscriptions, p. 430.

شيء مرت به . فانحط العدو منهزماً ، فلما بلغ السهل لم يكن لأحد منه همة إلاّ أن يذهب على وجهه ، فجعلت بنو عامر تقتلهم وتصرعهم بالسيف فانهزم عدوهم شر هزيمة [١] .

ولتقوية معنويات المحاربين في أوقات العسر والخطر،ولبعث الحمية في نفوسهم يقيـد الرؤساء أنفسهم بقيود ، مجتمعين أو فرادى ، ثم يعلنون أنهم لا يبرحون مكانهم هذا حتى يهلكوا أو يربحوا [٢] . وقد كان العجم ، يضعـون السلاسل في أرجل المحاربين لمنعهم من الفرار ، ولإجبارهم على الاستماتة في القتال .

وقد كان كثير من المحاربين يأخذون زوجاتهم وذراريهم معهم في المعارك ، ينقلونهم معهم وكأنهم ذاهبون الى سفر أو رحيل الى بلاد جديـدة . وحكمتهم من ذلك أن الرجل منهم إذا رأى خلفه أهله وماله ، قاتل عنهم [٣] . ولعلهم كانوا يستعينون بهم في جمع الغنائم والأسلاب وحراسة ما يقع في يد المحارب من أسرى.

وكانوا يضعـون أُسَرَهم وإبلهم ومؤنهم وظعائنهم في مؤخرة الجيش ، وذلك حتى تكون في مأمن من العدو بعيدة عنه ، وتكون بذلك مدعاة للنصر [٤] .

وقد استعانوا بالنساء في حروبهم،وأوكلوا اليهن أعمال الاسعاف وضرب العدو ومقاتلته في أوقات الشدّة . فلما قاتلت (بكر بن وائل) (بني تغلب) ، قال (الحارث بن عباد) للحارث بن همام بن مرة ، وكان على (بكر بن وائل): « إن القوم مستقلون قومك ، وذلك زادهم جراءة عليكم فقاتلهم بالنساء ! قال له الحارث بن همام : وكيف قتال النساء ؟ قال : قلد كل امرأة إداوةً من ماء وأعطها هراوة واجعل جمعهن من ورائكم فإن ذلكم يزيدكم اجتهـاداً وعلموا بعلامات يعرفنها ، فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته وإذا مرّت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه فأطاعوه . وحلقت بنو بكر يومئذ رؤوسها استبسالاً للموت وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم ، واقتتل الفرسان قتالاً شديداً ، وانهزمت بنو تغلب ولحقت بالظعن بقية

---

١ الاغاني (١٠/٣٧) .
٢ الاغاني (١٩/٧٨ وما بعدها) .
٣ العقد الفريد (١/١٥٧) .
٤ مقدمة ابن خلدون (ص ٢٧١ وما بعدها) .

يومها وليلتها واتبعهم سرعان بكر بن وائل »[1] .

وقد أشركوا أصنامهم معهم في الحروب ، أشركوها معهم لتمنّ عليهم بالنصر والتأييد . وقد سقطت أصنام القبائل العربية أسيرة بأيدي الآشوريين ، وكانوا قد حملوها معهم للتبرك بها ولاكتساب النصر ، فأسرها الآشوريون . واضطر الأعراب على مراجعتهم لاعادتها اليهم . وفي يوم (الزورين) ، وهو لبكر على تميم ، أخذت تميم بعيرين مجللين ، فعقلوهما ، وقالوا : هذان زورانا ، أي إلهانا لن نفر حتى يفرا ، وهزمت تميم ذلك اليوم . وأخذ البكران ، فنحر أحدهما وترك الآخر يضرب في شولهم[2] . وذكر ان (الزور) كل ما يعبد من دون الله ، كالزون . والزون الصنم[3] .

والفرسان هم آلة الحرب الحاسمة للحروب ، وعليهم يقع معظم ثقل المعارك . وقد كانت معظم معارك الجاهلية معاركَ فرسان ، يكون المحاربون الآخرون فيها وكأنهم متفرجون ، يساهمون في المعركة بأصوات التشجيع والحث على الاستماتة في القتال . وقد يدخل القائد نفسه المعركة ليقاتل خصمه . وللفارس بالطبع منزلة كبيرة في نفوس قومه ، لأنه هو المدافع والمهاجم والآخذ بالثأر .

وقد حفظت كتب الأخبار أسماء جماعة من فرسان الجاهلية وشجعانها ممن كان لهم شأن يذكر في الشجاعة في تلك الأيام ، من هؤلاء : ربيعة بن مكدّم من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة ، وكان كما يقول أهل الأخبار يعقر على قبره في الجاهلية ، ولم يعقر على قبر أحد غيره[4] . فعلوا ذلك تكريماً لشأنه وتعظيماً له . وقد ذكر قبره وعقر الناس عليه في شعر بعض الشعراء[5] .

ومن بقية فرسان العرب في الجاهلية : عنترة الفوارس ، وعتيبة بن الحارث ابن شهاب ، وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وزيد الخيل ، وبسطام ابن قيس ، واحيمر السعدي ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن عبد ود ، وعمرو

---

١ بلوغ الارب (١٤٨/٢) .
٢ تاج العروس (٢٤٥/٣) ، (زاد) ، (بكرين مجللين) .
٣ المصدر نفسه ، (٢٢٩/٩) ، (زون) .
٤ العقد الفريد (١٣٦/١) .
٥ المصدر نفسه ، بلوغ الارب (١٢٥/٢) .

ابن معديكرب[1] ، وبسطام بن مسعود الشيباني سيد شيبان ، قتله عاصم بن خليفة الضبي يوم الشقيقة[2] .

ويقال للفارس ، أي لراكب الفرس (فرس) في العربية الجنوبية ، ولمّا كانت الكتابة العربية الجنوبية لا تشكل الحروف ولا تضبط كيفية النطق بها ، لذلك فمن الجائز أن العرب الجنوبيين كانوا ينطقون بها على نحو ما تنطق بها في عربيتنا أي (فارس) . وأما الجمع في تلك اللهجة ، فهو (افرس) (أفرس) ، أي (فرسان)[3] .

وقد كانت لسرعة الفرسان أهمية كبيرة في نتائج القتال . إذ كانوا ينقضون على المحاربين المشاة وعلى المدن أو القبائل انقضاض الصواعق ، ويربكوا الخصم فيمهدوا بذلك لمشاتهم من التغلب على العدو . ويظهر من الكتابات التي يعود عهدها الى ما قبل الميلاد أن عدد الفرسان في الجيوش العربية الجنوبية المحاربة لم يكن كبيراً ، وأن أكبر عدد منها لم يتجاوز عن بضع مئات . وسبب ذلك على ما يظهر قلة وجود الخيل إذ ذاك . ولا يستبعد أن يكون استيراد الخيل الى هناك من عهد غير بعيد بعداً كبيراً عن الميلاد .

أما الذين يقاتلون وهم على ظهور حيوانات أخرى ، كالجمل وهو في الغالب ، فيقال لهم (ركبم) (ركب) ، أي (راكب)[4] . وقد عرف العرب بقتالهم وهم على ظهور الجمال . وفي الكتابات الآشورية وكتابات المسند صور عرب وهم يحاربون من على ظهور جمالهم ، وذلك لقلة وجود الخيل عندهم في ذلك الوقت.

وللجاهليين آراء في كيفية الاستفادة من الخيل في القتال ، فكان خالد بن الوليد لا يقاتل إلا على أنثى ، لأنها أقل صهيلاً من الفحل ، وكانوا يستحبون أناث الخيل في الغارات وفي (البيات) أي الإغارة على العدو ليلاً ولما خفي من أمور الحرب . وكانوا يستحبون فحول الخيل في الصفوف والحصون والسير والعسكر ولما ظهر من أمور الحرب ، وكانوا يستحبون خصيان الخيل في الكمين والطلائع ،

---

١ العقد الفريد (١٣٧/١)

٢ البيان (٢١/١) (لجنة) .

٣ (وافرسهمو) الفقرة (١٥) من النص :
Jamme 576, Mamb 212, Mahram, p. 67, 446, Jamme 577, 584, 635, 644.

٤ Jamme 560, 576, 644, 649, 665, Mahram, p. 448.

لأنها أصبر وأبقى في الجهد[1] .

ويعبر عن الجرح بـ (زسخنت) (زخنة) ، وبـ (زسخن) عن فعل يجرح ، وذلك في العربية الجنوبية[2] .

التحصينات :

وتدافع بعض المستوطنات،مثل قرى الريف والمدن ، عن نفسها بإنشاء تحصينات تقيها من هجمات عدوّ ما . وتشمل هذه التحصينات حفر خندق، واقامة أسوار ، وانشاء أبراج وحصون وآطام وأمثال ذلك . وقد كانت مدينة الطائف ذات سور حصين ، تغلق أبوابه آناء الليل وأيام الخطر،وقد تحصنت به ثقيف يوم حاصرهم الرسول . وقد عثر على آثار أسوار في خرائب مدن اليمن ، تدل على ان تلك المدن كانت مسورة محصنة ، وقد عثر على آثار قلاع وحصون وأبراج في تلك الأسوار على مسافات وأبعاد معينة تشير إلى انها كانت لتحصين السور وللدفاع عنه ولضرب الأعداء عند محاولتهم الدنو منه .

وتعرف أبراج السور المقامة لحمايته ولتقويته ولضرب العدو منه بـ (فنوت) في العربيات الجنوبية ، ويطلق العبرانيون هذه اللفظة على مثل هذا البرج أيضاً[3] .

ويقال للحصن والبرج (مكدل) (مجدل) في العبرانية[4] . وبهذا المعنى ترد اللفظة في عربيتنا كذلك . وقد ذكر علماء اللغة ان الاجتدال : البنيان ، وجاء في شعر للأعشى :

في مجدل سدّ بنيانه يزل عنه ظفر الطائر[5]

وتستعين القرى بالمجادل في الدفاع عن نفسها ، وتكوّن أبراج مراقبة أيضاً ، يراقب منها العدو ، وتكون مواضع دفاع لأهل القرى ، أو العاشر،حيث لا أسوار

---

١ نهاية الارب (٩/٣٦٥ وما بعدها) .

٢ Jamme 649, 687, Mahram, p. 435.

٣ Smith, Dictionary of the Bible. I, p. 334, 615.

٤ Ency. Bibli., I, p. 034, Hastings, I, p. 358.

٥ في الصحاح (شيد) ، اللسان (١١/١٠٥) (صادر) ، (حصون المدينة) ، الطبري (٢/٥٧٣) .

تحمي ولا خنادق تعيق العدو من التقدم[1] .

ويعبر عن تحصين المواضع وتقويتها لتتمكن من الدفاع عن نفسها بلفظة (تمنع) في السبئية ، أي اكساب الموضع مناعة[2] .

ولم يكن في وسع الحكومات أو الإمارات والمشيخات تحصين كل المستوطنات والقرى لما يتطلب ذلك من جهد ومال . ولقلة عدد سكان هذه الأماكن قلة تجعل من الصعب عليهم أن يقوموا وحدهم بانشاء حصون وإقامة تحصينات وبناء أسوار وحفر خنادق . ولذلك احتمى سكان أمثال هذه المستوطنات بحصون الإقطاعيين الذين أقاموها لحماية ممتلكاتهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم ، وبوسائل دفاع أخرى لا تكلفهم كثيراً لضمان سلامتهم وسلامة أموالهم ومقتنياتهم في السلم والحرب .

أما المستوطنات الكبيرة ، من درجة مدينة ، فإنها تحاط في الغالب بأسوار لها أبواب تغلق في الليل ، فلا يسمح بالدخول أو الخروج منها ، ويحافظ عليها ، ولا سيما في أثناء الخطر ، حرّاس يسهرون عليها لمنع أي عدوّ طامع في المدينة من الوصول اليها . ويقال لهذه المدن (هكر) (هجر) في العربيات الجنوبية . فحيث ترد لفظة (هكر) في المسند فإنما تعني مدينة ذات أحياء وسكان كثيرين، ولها أسوار في الغالب تحميها من هجمات الأعداء .

وتعبر العبرانية عن المدينة المحصنة المحاطة بسور ، بلفظة (عر) ، وذلك لتمييزها عن المدن المحصنة بحصون ، والتي يقال لها (عر مبصر) Ir Mibsar ، وعن القرية التي يقال لها (حصر) (حصور) و (قره) (قريت)، وتكون غير مسورة[3] . أما (العر) في العربية الجنوبية فبمعنى (حصن) ، وموضع محصن . وتطلق اللفظة على المواضع المحصنة بعـرْ ، أي حصن ، أي في معنى قريب من المعنى الوارد في العبرانية[4] . وتذكر كتب اللغة أن العرار : القتال ، وأن العرة الشدة في الحرب[5] . فللفظة صلة بالقتال إذن . ويوجد موضع يقع في

---

١ Smith, Dictionary. I, p. 615.

٢ Jamme 643, Mahram, p. 450.

٣ Roland de Vaux, Ancient Israel, London, 1961, p. 229, Smith, Dictionary, I, 333.

٤ South Arabian Inscription, p. 445.

٥ اللسان (٤/٥٥٦) ، (صادر) .

ملتقى طرق يقع في (وادي مسيلة) يسمى (حصن العرّ بني على مرتفع صخري بارز كان حصناً مهماً لحماية الأرضين المحيطة به ولحماية القوافل التي تمر بهذا الوادي المهم[1]. ولا تزال بقايا هذا الحصن باقية،وقد أقيمت جدره من حجارة صلدة نضدت بعضها فوق بعض تنضيداً جيداً ، وقد صقلت الأحجار صقلاً يدل على مهارة ، وقد تألف الحصن من غرف كثيرة ، ويبلغ طوله (٩٠) متراً . وبه آثار معبد ، وآبار لاستخراج الماء منها للشرب وللاستعمال[2] .

ويعبر عن المانع الذي يحول بين العدو وبين الدنو من المكان الذي يريده بـ (حيل) في العبرانية[3] . أي (الحائل) ويراد به الخندق[4] . وقد ورد في كتب اللغة ان (الحيل) الماء المستنقع في بطن واد[5] . و (الحائل) هو المانع ، أي الحاجز الذي يحجز أهل الموضع الذي تحصن الناس به عن عدوهم ، وهو سور أو خندق أو أي شيء آخر يتخذ للدفاع عن النفس .

ومن بين الحوائل والموانع التي استعملها الجاهليون لصد العدو من الزحف على بلادهم أو التسلل إلى أرضهم سد الممرات الجبلية والأودية ومفارق الطرق المهمة، ببناء جدر وأسوار لتحول بين المرور والتسلل إلا بأمر وتخويل ، ويكون المرور عندئذ من الأبواب المخصصة للعبور فقط . ومن أمثلة ذلك سد (أبنة) (لبنة) الذي أقيم في وادي (أبنة) ليسد الطريق على القادمين أو الذاهبين من (شبوة) إلى ميناء (قنا) (قنى) (قانة) Cane المهم[6] . وقد بني عند مضيق يبلغ عرضة (١٨٠) متراً ، أما ارتفاعه فجعل حوالي خمسة أمتار ، فأما ثخنه فحوالي المترين . وقد بني بحجارة مصقولة صقلاً جيداً ورصفت رصفاً حسناً وربط بينها ملاط قوي شد الأحجار شداً . وقد جعل له باب عرضه خمسة أمتار يمكن غلقها بإحكام ، ولزيادة مقاومتها توضع صفوف من الأحجار الثقيلة خلفها أيام الخطر ، فتسد بها وتكون وكأنها قد سدت بجدار قوي سميك . وهناك آثار جدر أخرى

١ Grohmann, S. 154.

٢ V. Wissmann, Hadramout, p. 152, Grohmann, S. 154.

٣ Ency. Bibli., I, p. 615.

٤ Smith, Dictionary, I, p. 615.

٥ اللسان (١١/١٩٦) .

٦ (على ساحل بحر الهند مما يلي بلاد العرب قرب ميفع) ، تاج العروس (١٠/٣٠٥) (قنى) .

أقيمت لغايات مماثلة تقع في (وادي العروس) (وادي عروس) وفي (عنصاص) ويرجع تأريخها إلى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد[1] .

وتختلف الأسوار من حيث المتانة والتحصينات والمواد التي تبنى بها باختلاف قدرة المدن المالية ، فبعضها ذات أسوار ثخينة متينة ، لها تحصينات قوية ، يحتمي بها المدافعون لمقاومة المهاجمين ولرميهم بمعدات المقاومة ، لها مزاغل وفتحات ينظر منها المدافعون إلى أعدائهم ، فإذا اقتربوا من السور ، رموهم بالسهام وبالحجارة وبالمواد المشتعلة ، وسكبوا عليهم الماء الحار أو الزيت المغلي إذا أرادوا إحداث ثغرة فيه أو قلع الأبواب وكسرها .

وعند أبواب المدن أو أبواب المعابد أو المباني العامة أو الشعاب ، تكون رحاب ، يتخذها سكان المدن مواضع يبيعون فيها ويشترون وأماكن للتجمع . وتعرف الواحدة بـ (رحبة) وتسمى (رحبوت) و (رحب) في العبرانية[2] . وفيها تعقد الاجتماعات العامة ، ويتجمع الناس لسماع الأخبار ، وفيها تنفذ الأحكام العامة ، مثل تنفيذ أحكام الاعدام والاعلان بالمجرمين . وتكون مرابد تنعقد فيها الأسواق أيام الأسبوع ، أو في أيام خاصة منه ، أو في السنة .

وأبواب المدة المسورة ، هي المنافذ الوحيدة التي يدخل منها الناس ويخرجون . وتختلف في السعة ، فلبعضها أبواب واسعة في كل منها مصراعان ، ولبعضها مصراع واحد . وتكون ثخينة متينة ، وقد تقوى بكسوتها بطبقة من حديد أو من معدن آخر، ليكون في امكانها مقاومة المهاجمين ، فلا تتحطم وتنهار بسرعة، ولا تأكلها النار . وتغلق بمغاليق متينة . تقوى بحجارة وبأخشاب متينة عند حدوث خطر ما . وأما المجازات التي تلي الأبواب وتؤدي الى الرحاب ، فهي مختلفة الأشكال . ويحتمي بها المدافعون أيام الخطر ، لسدها ، ولشد أزر الأبواب على الوقوف صامدة أمام المهاجمين . وقد يواجه الباب ، جدار متين ، يجل المجاز على هيأة غرفة ، يخرج الناس ويدخلون في ركن من أركانها يربط بين المجاز والرحبة المؤدية الى الشعاب . وذلك ليكون من العسير على المهاجمين الولوج في المدينة عند تمكنهم من تحطيم الأبواب . وقد يقوى الباب ببرج يبنى فوقه، يكمن فيه المقاومون ، لرمي العدو ولإلحاق الأذى به إذا ما حاول مهاجمة الباب .

---

١ Grohmann, S. 155.

٢ Smith, Ency. Bibli., I, p. 335.

وتسدّ منافذ شعاب المدن بأبواب كذلك ، لتقي من في الشعـاب من أخطار الأشرار والمعتدين . وتغلق هذه الأبواب في الليالي. وقد تحاط الشعاب بسور يمنع الناس من الدخول الى الشعب إلا من الباب المؤدي اليه . وفي المـدن الملكية ، تحاط قصور الملوك ومخازنهم ومداخرهم بأسوار قوية تحميهم من المعتدين . وقـد تبنى قلاع في مواضع مرتفعة من المدن ، أو على تلال صناعية ليقاوم منها الناس عند انهيار المقاومة الخارجية ، فتكون بذلك آخر وسائل المقاومة قبل الاستسلام .

أما القرى ، فيدافع عنها بحصون وآطام وبمجادل وذلك لفقـر أهلها وعـدم تمكنهم من إقامة سور قوي يحمي القرية . وقد كان يهود الحجـاز الساكنون في شمال المدينة ، قد حصنوا قراهم بآطام يلجأون اليها ويحتمون بها أيام الخطر . وقد عرفت هذه الحصون عندهم بـ (آطام) وواحدها (أطم) . وأما القرية ، فهي (قرية) في العبرانية ، وتسمى بـ (قريتا Keritha) في لغة بني إرم[1] .

ويقال للحصن (الأجم) والجمع (آجام) ، وقد ورد ذكر الأجم في شعر لامرىء القيس :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أجماً إلا مشيداً بجندلِ[2]

ويقال للحصن (الأطم) كذلك ، والجمع آطام . ولا تزال آثار آطام جاهلية باقية في الحجاز وفي نجد وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب وفي (وادي الحفر) بنجد ، ويعرف بـ (حضر بني حسين)،آثار قصور وآطام جاهلية وآبار كثيرة[3].

وذكر بعض علماء اللغة ان الآطـام : القصور والحصون ، وخصصها بعض آخر بالدور المسطحة السقوف . وقد اشتهر (الأبلق) ، وهو حصن (السموأل ابن عادياء) في التأريخ ، وهو في تيماء . وورد اسمه في شعر للأعشى مدح به السموأل[4] . وكانت الأوس والخزرج تتمنع بالآطام ، وتحارب عليها ، وقد أرخت بحرب وقعت فيما بينهم بها ، فقالوا : (عام الآطـام) ، وقد أخربت في أيام

---

١ Smith, Dictionary, I, p. 333, Ency. Bibl., I, p. 833.
٢ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٥٨) .
٣ صحيح الاخبار (١/١٣٢) .
٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٨٦) .

عمان[1] . ويقال للأطم : الأجم أيضاً[2] .

فكانت الآطام هي وسائل الدفاع عند أهل يثرب ، إذ لم يكن حولها سور يحميها من غزو الأعداء . فكانوا إذا حوصروا أو وقع غزو عليهم ، لجأوا إلى آطامهم يتحصنون بها ويقذفون من أعاليها بما عندهم من وسائل دفاع لمنع العدو من الدنو منهم ولإلحاق الأذى به . وهي جملة آطام تملكها البيوتات العريقة وسادات الشعاب المكونة ليثرب والقائمة على أساس التقسيم العشائري[3] .

والآطام بيوت السادات ورؤساء القوم ، يلجأ اليها الناس للدفاع عن أنفسهم وعنها وقت الخطر . ويظهر من شعر أوس بن مغراء السعدي :

بثّ الجنود لهم في الأرض يقتلهم ما بين بصرى الى آطام نجران[4]

أن نجران كانت ذات آطام كذلك .

وذكر أن باليمن حصن يعرف بأطم الأضبط ، وهو الأضبط بن قريع بن عوف بن سعد بن زيد مناة . كان أغار على أهل صنعاء وبنى بها أطماً . ونسبوا له شعراً ، من هذا الشعر الذي يحمل طابع العصبية القبلية ، والحقد على اليمن . يذكر فيه أنه شفى نفسه من (ذوي يمن) ، بالطعن في اللبات والضرب ، وأباح بلدتهم ، وأقام حولاً كاملاً يسبي ، وبنى أطماً في بلادهم ليثبت تغلبه عليهم ، وليكون أمارة على قهره لهم[5] .

وقد اشتهر أطم (الضاحي) بالمدينة . وهو أطم بناه (أحيحة بن الجلاّح) من سادات يثرب بـ (العصبة) في أرضه التي يقال لها (القنانة)[6] .

وكان دفاع أهل الحيرة عن مدينتهم وفق هذه الخطة أيضاً . فقد كانت المدينة (قصوراً) كل قصر لعائلة كبيرة ، هو مسكن لها ، وهو مخزن ومستودع

---

١ التنبيه والاشراف (١٧٦) .
٢ الطبري (٥٦٨/٢) .
٣ الطبري (٥٧٥/٢) ، تاج العروس (١٨٧/٨) ، (أطم) .
٤ اللسان (١٩/١٢) ، (أطم) .
٥ اللسان (١٩/١٢) ، (أطم) ، وفي الشعر ضعف وتكلف ، وهو من الموضوعات . وضعه المتعصبون على اليمن ، وفي أغلب هذا النوع من الشعر ، ضعف وتكلف ، وطابع الصنعة ظاهر عليه .
٦ تاج العروس (٢١٧/١٠) ، (ضحى) .

وحصن تتحصن به عند وقوع خطر على المدينة . وبه مواضع في أعلى القصر لرمي الأعداء ، ويلجأ أتباع أصحاب القصور الى هذه القصور أيضاً للمساهمة في الدفاع عنها وفي حماية أنفسهم من الأذى . ولما حاصر المسلمون الحيرة ، كان حصارهم لها هو حصار قصورها،فكانوا يحاربون القصور حتى غلب المسلمون أهلها فاستسلمت عندئذ لهم .

ولحماية السور ولمنع العدو من الوصول اليه والدنو منه ، يحفر خندق حوله ، ليمنع الغزاة والمحاربين من الوصول اليه . يحفر عميقاً وعريضاً جهد الامكان ، فعلى عرضه ومقاومته تتوقف مقاومته للعدو . ولما حاصر المشركون المدينة ، أمر الرسول بحفر خندق حولها ، ليمنع المشركين من الوصول اليها . وقد ذكر : أن سلمان الفارسي ، هو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق ، بعد أن تباحث مع أصحابه في الوسائل التي يجب اتخاذها لحماية المدينة . وزعم أهل الأخبار : أن أهل الحجاز لم يكن لهم علم بالخنادق ، وأن المسلمين كانوا في قلق شديد وخوف من تغلب قريش عليهم ، فذكر سلمان لهم طريقة أهل بلاده في الدفاع عن مدنهم ، فأخذوا برأيه . فلما رأت قريش الخندق ، عجزت عن اقتحامه ، ونجت يثرب منهم به . وزعموا أيضاً : أن لفظة الخندق ، هي لفظة معربة عن الفارسية. وإذا أخذنا برأي هؤلاء أصحاب الأخبار ، وجب اعتبار تأريخ دخولها الى العربية منذ هذا الحادث إذن . ويطلق العبرانيون لفظة (حيل) ، أي حائل، على الخندق[1] .

وأنا أشك كثيراً في موضوع جهل أهل مكة والمدينة بأمور الخنادق ، وفي قصة أن (سلمان الفارسي) كان أول من علم المسلمين حفر الخنادق ، وذلك لأن أهل اليمن كانوا قد أحاطوا مدنهم بالخنادق لتعوق المهاجمين عن بلوغ الأسوار ، كما أن أهل فلسطين كانوا يحيطون مدنهم بالخنادق أيضاً ، وقد كان لأهل الحجاز اتصال وعلاقات بالمكانين وبالعراق أيضاً ، وقد زاروا مدناً أحيطت بالخنادق ، فلا يعقل أن يكونوا على غفلة من أمرها . والظاهر أن الرسول كان قد جمع أصحابه حين داهمه المشركون ليستشيرهم بصورة عاجلة في كيفية الدفاع عن (يثرب) بعد أن هددها الكفار ، فبين كل صحابي رأيه ، وكان من رأي (سلمان)

١ Smith, Dictionary, I, p. 615.

حفر خندق ليحول بينهم وبين دخول المدينة ، فأخذ الرسول برأيه ، وحفر الخندق ، وبه سميت المعركة (معركة الخندق) . فصوّر (سلمان الفارسي) ، وكأنه أول من علم أهل الحجاز حفر الخنادق .

ويظن أن لفظة (خبزت) التي ترد في النصوص المعينية وغيرهـا إنما تعني (خنادق) ومنخفضات صنعت لحماية الأسوار والمتاريس والقلاع حتى تمنع العدو والمهاجمين من الدنوّ منها[1] .

وتؤدي لفظة (صحفت) معنى خندق أيضاً[2] . وربما تؤدي معنى حاجز مائي يملأ بالماء حتى يمنع المهاجمين من الدنو الى الموضع المحصن .

وقد كان الأغنياء وأهل القرى والمدن يستخدمون رقيقهم في الدفاع عنهم . وقد كان أهل مكة مثلاً قد جعلوا من أحابيشهم قوة عسكرية تحارب معهم وتقاتل عنهم بأسلحتهم وبطريقة قتالهم التي ألفوها في بلادهم، مثل القتال بالحراب، أو الرمي بالنشاب . وقد عرف هؤلاء بالأحابيش . ولعلّهم استخدموا الرقيق الأبيض المجلوب من بلاد الروم ومن أماكن أخرى في تنظيم أمور الدفاع وإدارة القتال لخبرتهم ودرايتهم في أساليب القتال المدنية ، كالذي فعله الرسول من استشارته سلمان الفارسي في أمر الدفاع عن المدينة يوم حاصرتها قريش ، فكان أن أشار عليه بحفر خندق حولها يعوق تقدم قريش من المدينة ، ففعل كما يشير الى ذلك أهل السير والأخبار .

والمصانع الأبنية وقد وردت (مصانع) في الآية الكريمة : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون »[3] . بمعنى الحصون المنيعة . و (مصنعت) (مصنعة) في الحميرية بمعنى حصن . وذلك كما في هذه الجملة المقتبسة من نص (أبرهة) المدوّن على سد مأرب : (مصنعت كدر) ، أي (حصن كدر)[4] . ولا تزال لفظة (مصنعة) مستعملة حتى اليوم في العربية الجنوبية في معنى قلعة وحصن[5] . وقد اشتهرت حمير بمصانعها .

---

١ نقوش خربة معين (ص ٢) .

٢ نقوش خربة معين (ص ٥) .

٣ الشعراء ، الاية ١٢٩ .

٤ راجع السطر (٢١) من النص ، والجمع (مصنع) ، أي (مصانع) في السبئية : Jamme 576, 629, Mahram, p. 440.

٥ Hadramaut, p. 63.

والمصانع: القرى[1]. ويظهر أنها إنما دعيت بذلك لوجود المصانع بها. واحدتها: مصنعة. أي حصن. يدافع به عن المتجمعين حوله.

و (القلعة) على ما يظهر من أقوال علماء اللغة، الحصن على الجبل، والحصن الممتنع في جبل، والحصن المشرف[2]. تبنى في المواضع المرتفعة لتشرف على ما تحتها، ولتراقب العدوّ، وتكون بها حامية، وقد يتحصن بها أهل الموضع عند دنو خطر عليهم، فيصعب على العدو الوصول اليهم، لوعورة الأرض وامتناع القلعة، وتسلط من فيها على من يريد بلوغهم، بما يمطرونه به من أسلحة الدفاع.

و (الحصن) ما يتحصن به. يتخذ في مواضع حصينة، مثل المرتفعات وعلى الأنهار وعند الآجام، لزيادة حصانته، وقد يتخذ في مواضع خطرة مكشوفة ليدافع عنها. فيحصن بتحصينات قوية من سور متين وجدر سميكة ومتاريس وأبراج، لتصد من يريد مهاجمته. وتكون الحصون برية وبحرية[3]. ولا تزال آثار حصون جاهلية قائمة في مواضع من جزيرة العرب، صنع بعض منها من (اللبن) والطين، وذلك في البوادي وفي المواضع التي لا تتوفر بها الحجارة، والمواضع الفقيرة التي صعب على أهلها بناء حصونهم من الآجر.

و (البرج) الحصن، وقيل: بروج سور المدينة والحصن: بيوت تبنى على السور، وقد تسمى بيوت تبنى على نواحي أركان القصر بروجاً[4]. وتكون البروج مرتفعة. وقد تبنى منفردة، ولكن الأغلب بناؤها على الأسوار. والكلمة من الألفاظ المعربة عن اليونانية[5].

---

١ اللسان (٢١١/٨)، (صنع). قال ابن مقبل:

أصوات نسوان انباط بمصنعة بجدن للنوح واجتبن التبابينا

تاج العروس (٤٢٢/٥ وما بعدها)، الصحاح (١٢٤/٣)، القاموس (٥٣/٣).

٢ اللسان (٢٨٠/٨ وما بعدها)، (قلع)، تاج العروس (٤٨٠/٥)، (قلع)، الصحاح (١٢٧١/٣).

٣ تاج العروس (١٧٩/٩)، (حصن)، اللسان (١١٩/١٣)، (حصن)، القاموس (٢١٤/٤)، جمهرة اللغة، للأزدي (١٦٥/٢).

٤ اللسان (٢١٢/٢ وما بعدها)، تاج العروس (٧/٢)، (برج)، القاموس (١٨٥/١)، الصحاح (٢٩٩/١).

٥ غرائب اللغة (٢٥٤).

وكان يهود الحجاز قد ابتنوا الحصون والآطام ، للدفاع عن أنفسهم وأموالهم في السلم والحرب . فكانوا يخزنون فيها أموالهم وحصادهم وتمرهم وكل غال ثمين عندهم ، وكانوا يدخلون اليها عند الظلام ، فينامون فيها ، خشية غزو أحد لهم، واعتداء غريب عليهم . فإذا طلع الصبح ، خرجوا الى مزارعهم ومواضع عملهم للاشتغال فيها الى وقت المغيب . وكانوا يدخلون اليها حيواناتهم كذلك خشية سلبها ونهبها . أما في الغزو وفي القتال، فكانوا يعتصمون بها ويقذفون مهاجمهم بالصخور والحجارة وبوسائل الدفاع الأخرى من أعالي الحصون ومن الأبراج المشيدة فوقها. وقد وردت في كتب السير والتأريخ أسماء عدد من حصون اليهود في خيبر وفي أماكن أخرى وذلك في غزوات الرسول ليهود[1] .

ويعبر عن الحراس الذين يحرسون شيئاً ويدافعون عنه ، مثل حراس الحصون والقلاع وأبواب المدن أو حرس الضباط والكبار بلفظة (مسجت) (مسكت) (مسكة) في السبئية . أي في معنى (الماسكة) ، وأما المفرد فـ (مسج) (مسك) ، أي الماسك[2] .

وقد استعمل الجاهليون آلات القذف والرمي وآلات الهدم الثقيلة في حروبهم كما يفعل الناس لهذا العهد . وهي آلات تبدو بسيطة مضحكة بالنسبة إلى آلات الخراب والتدمير المستعملة في الزمن الحاضر . قد يخجل الانسان من التحدث عنها لأبناء هذا الزمان ، ولكننا حين نتحدث عن الماضي وعن الأناس الماضين ، فإننا لا نتحدث عنهم كما نتحدث عن أناس زماننا ولا نقيس انتاجهم على انتاجنا ، وذلك لوجود فارق دقيق هو فارق الزمن . وهذا الفارق هو التطور الكبير الذي يقع للانسان كلما تقدم به الزمان ومرت عليه التجارب والاختبارات التي يطور الإنسان بها نفسه دوماً ويزيد في علمه علماً جديداً لم يكن معروفاً عند القدماء . وسيأتي زمان تكون فيه اختراعات القرن العشرين ، الاختراعات التي نفخر بها اليوم ، ألاعيب أطفال بالنسبة الى اختراعات ذلك الوقت ، واختراعات ذلك الزمان ألاعيب أطفال بالنسبة الى من يأتي بعدهم ، وهكذا إلى آخر الزمان . ولهذا لا نستطيع قياس الماضي على الحاضر بما أوجده من اكتشافات واختراعات على هذا

---

١ السيرة الحلبية (٢/ ٤١) .

٢ Jamme 649, Mahram, p. 440.

النحو . وإنما نتحدث عن الماضي على أنه مرحلة من مراحل التطور البشري،ودور مستمر لهذا التأريخ الذي لا نعرف مبدأه ولا منتهاه .

وفي جملة هذه الآلات ، الدبابة . وهي عبارة عن خشبة ثقيلة تعلق من وسطها ببرج من خشب مقام على عجلات ليمكن تحريكه نحو الهدف المراد هدمه أو سحبه منه أو نقله الى أي مكان آخر . وقد غطى رأس الخشبة المتجه نحو الخارج ، أي الرأس المتخذ للهدم ، بغطاء من الحديد ، ليكون سريعاً فعالاً في هدم المكان الذي يوجه اليه . ويقوم أشخاص يكمنون في الدبابة بتحريك الخشبة نحو الهدف ، وذلك بتحريكها نحو الأمام والخلف بقوة ، لتحدث ثغرة فيه ويختفي هؤلاء تحت ستار مثل سقف من خشب أو من جلود ، ليحميهم من الحجارة أو السهام أو النيران أو المواد الساخنة التي يرميها المدافعون عليهم ، لمنعهم من الاقتراب من السور ، ومن هدمه . وقد أشير الى هذه الدبابات في فتح المسلمين لخيبر وفي حصار الطائف ، فذكر أن اليهود كانوا قد اختزنوا في حصن الصعب من حصون النطاة في بيت فيه تحت الأرض منجنيق ودبابات[1] . وذكر أن المسلمين لما كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، دخل نفر منهم تحت دبابة ، ثم زحفوا بها الى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً[2] .

وقد يكتفي المحاربون بسحب خشبة ضخمة نحو السور تحمل بعد ذلك على الاكتاف ، فيضرب بها السور ، ثم يتراجع حاملوها قليلاً ثم يتقدمون ليضربوا بها السور ، وهكذا الى أن يتمكنوا من أحداث ثغرة فيه . و (القفع) ، ضبر تتخذ من خشب يمشي بها الرجال الى الحصون في الحرب . وقيل هي الدبابات التي يقاتل تحتها[3] .

واستخدم (الكبش) في القتال،استخدم في اليمن بصورة خاصة ، استخدم سلاحاً من الأسلحة الثقيلة في قتال المدن والجيوش النظامية، وهو من خشب مكسو

---

١ السيرة الحلبية (٣/٤١) ، نهاية الارب (١٨/٥٩) ، تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (الكويت) ، اللسان (١/٣٧١) .

٢ ابن هشام (٤/١٢٧ وما بعدها) .

٣ اللسان (٨/٢٨٩) ، (قفع) .

بجلود البقر مدبوغة بالقرظ ، أو من جلود الإبل . يحتمي به المحاربون المشاة في هجومهم على الأعداء المتحصنين .

وقد وردت لفظة (كبش) في قول الشاعر (الحارث بن حلزة اليشكري):

حول قيس مستلئمين بكبش قـــرظي كأنـــه عبـــلاء

وفسرت لفظة (الكبش) المذكورة بـ (السيد)[1] وهو تفسير أرى أن فيه تكلفاً واضحاً وبعداً من المعنى ، وأن الصواب هو أنها الآلة الحربية المذكورة ، وأن الشاعر أراد ببيته المذكور وصف جماعة (قيس بن معديكرب) الذين كانوا ملتفين حوله ، مستلئمين بكبش من جلود سميكة غليظة مدبوغة بالقرظ ، مرتفع عال حتى علباء ، أي هضبة من ارتفاعه . والكبش بالنسبة للأعراب من الأسلحة التي يقل استعمالها عندهم ، وهي من الأسلحة المانعة المؤثرة ، ولذلك ذكرها الشاعر في شعره . وقد جاء بها (قيس) من اليمن ولا شك[2] .

ومن آلات القذف والرمي الى مسافـــات ، المنجنيق . ويوضع فوق الأسوار لاستخدامه في رمي العدو المتقدم نحو الحصن ، أو في السفن لرمي سفن الأعداء ، أو في الأبراج أو في الخطوط الأماميـــة لرمي الأعداء المهاجمين . فهو في مقام المدفعية لعهدنا . وقد ورد في أخبار حصار المسلمين للطائف أن الرسول رمى أهل الطائف بالمنجنيق ، وكان أول من رمي في الإسلام بالمنجنيق على إحدى روايات أهل الأخبار[3].وورد أن اليهود كانوا يستعملون المنجنيق في الدفاع عن حصونهم[4] .

ويرجع بعض أهل الأخبار تأريخ استعمال المنجنيق في الجاهليـــة الى (جذيمة الأبرش) ، فهم يذكرون أنه أول من رمى بالمنجنيق[5] .

والعرّادة من آلات الحرب كذلك ، وهي صغيرة شبه المنجنيق[6] .

---

١ شرح المعلقات السبع ، للـــزوزني (ص ١٦٤) (دار صـــادر) ، تاج العروس (٣٤١/٤) ، (كبش) ، اللسان (٣٣٨/٦) ، (كبش) ، الصحاح (١٠١٧/٣) .

٢ المعاني الكبير (٧٩/٤) .

٣ ابن هشام (١٢٨/٤) ، نهاية الأرب (٥٩/١٨) .

٤ السيرة الحلبية (٤١/٣) .

٥ الروض الأنف (٣٠٣/٢) .

٦ اللسان (٢٨٨/٣) ، نهاية الأرب (٥٩/١٨) .

وقد عرف السور بالحائط كذلك . والحائط هو ما يحيط بالشيء . وقد دعي سور الطائف بحائط الطائف في بعض كتب السير ، وذلك لأنه يحيط بالمدينة . وقد كانت به أبواب تغلق في الليل . ولما اقترب منه المسلمون رماهم المدافعون عنه بالسهام ، وكانوا يكمنون فوقه فقتل أناس من المسلمين[1] . ويكون أعلى الجدار الخارجي عالياً وبه فجوات صغيرة ليكمن وراءه المدافعون ولينظروا من خلال هذه الفجوات الأعداء ، وليرموهم منها . ويبنى السور سميكاً في أسفله ، ثم يقل سمكه في أعلاه وذلك ليكون من الصعب على المهاجمين احداث فتحة فيه أو هدمه . ويكون عرضه في أعلاه كافياً لاختباء المدافعين ولمرورهم بسهولة . وتبنى أبراج في العادة فوقه للمراقبة ولرمي الأعداء ، يختلف عددها باختلاف المدن، وباختلاف استطاعة البلدة وما تتخذه من وسائل لحماية نفسها من الأعداء .

ولحمل أهل المدن والقرى المحصنة على الاستسلام يتخذ المهاجمون أساليب الحيل ووسائل مختلفة للتضييق عليهم ، وفي جملة ذلك قطع المياه عن المكان المحاصر إن كان الماء في خارجه . وذلك بسدّ المجرى وتخريب الآبار والإحاطة بالماء لمنع الناس من الدنوّ منه ، وبحرق المزارع والبساتين الواقعة في خارج المكان المحاصر، أو بقطع أشجارها ، وبأخذ الغلاّت،وبقطع كل اتصال للمكان بالخارج، وبالتشدد في ذلك حتى يضطر المحاصرون الى الاستسلام أو عقد صلح مع المهاجمين . وقد كانت خطة حرق المزارع والبساتين من أهم العوامل المؤثرة على المحاصرين . وذلك نظراً للخسائر المادية التي تلحقهم والتي لا يمكن تعويضها إلا بجهود وبأتعاب السنين[2] .

ولجأ المحاربون الجاهليون الى سياسة حبس الميرة عن القبائل أو القرى والمدن لاخضاعهم واجبارهم على ترك المقاومة والاستسلام[3] . يفعلون ذلك كما تفعل الدول الحديثة في مقاطعة بعض الحكومات في الحرب وفي السلم لاجبارها على ترك سياستها أو على الاستسلام . وقد قاطعت قريش بني هاشم حينما دخلوا في الشعب لاجبارهم على ترك الرسول وخذلانه على نحو ما هو معروف .

---

١ ابن هشام (١٢٧/٤) ، اللسان (٢٧٩/٧) ، القاموس (١٨٥/٢) .

٢ Smith, Dictionary, I, p. 1724.

٣ الاغاني (٧٦/١٦) .

كما وجهوا خططهم السوقية نحو النقاط الضعيفة من مواضع الدفاع للمكان الذي يراد الاستيلاء عليه ، مثل الأبواب والثلم التي قد تكون في الأسوار أو الحصون للاستفادة منها في مهاجمته . والأبواب ، هي من أهم الأهداف بالنسبة للمهاجم، لذلك ، تتخذ مختلف الوسائل للتغلب عليها ، برميها بالنار ، أو بالحجارة ، أو بضربها بالدبابات والأقفاع.أو باستخدام السلالم أو الحبال لارتقاء المواضع المنخفضة من السور ، كما يركن الى حفر الأنفاق تحت السور ، للدخول منها الى الموضع المحاصر ، وقد يعمد الى صنع تل من تراب ، أو الى تكويم أحجار بعضها فوق بعض ، أو بناء مرتفع يصل الى علوّ السور أو أعلى منه ، ليرمي منه الأحجار والقذائف على المحاصرين،فيكون في امكان المهاجمين ، مهاجمة السور من الأرض بارتقائه من الموضع المقابل للمرتفع ، او بعمل ثقب فيه ، يدخل المهاجمون منه الى الداخل ، وبذلك ينقل المهاجم الحرب الى داخل الموضع المحاصر ويتمكن من التغلب عليه .

أما النظم العسكرية عند أهل اليمن ، فكانت على هذا النحو : الملك ، هو القائد الأعلى للجيش ، والرئيس الأعلى له ، يعلن الحرب ، ويأمر بعقد الصلح، ويعين القادة الذين يتولون إدارة القتال ، لضمان النصر ، وهو الذي يأمر القبائل بتقديم الجنود ، على مقدار ما اتفق عليه .

وقد يقوم الملك نفسه بقيادة الجيوش واجراء العمليات الحربية ، وقد يترك ذلك الى قوّاده ، يقومون بها ويديرونها بحسب علمهم وخبرتهم بالحروب . والقائد هو (قسد) أي (قاسد) في لغتهم . وقد يعبر عنه بـ (اسـد) في بعض الأحيان ، إلاّ أن هذه اللفظة تعني (الجندي) و (الجنود) في الغالب .

وكان على المحارب أن يهيء له سلاحه ، فإذا لم يكن لديه هذا السلاح منح مالاً لشرائه به ، يتعهد بإعادته فيما بعد[1] . وكان على القبيلة أن تهيء المقاتلين اللازمين للقتال ، وترسلهم الى جبهات القتال للقتال مع الجنود الآخرين .

ولسنا نعلم كيف كان يقاتل العرب الجنوبيون ، وكيف كانوا يضعون خططهم الحربية في التغلب على العدو ، لعدم تعرض كتابات المسند لذلك ، فلم يرد الينا نص ما في هذا الموضوع .

---

١ Handbuch I, S. 137.

ويعبر عن الصلح بلفظة (سلم) ، وهي في معنى (سلم) في عربيتنا . فالسلم هو الصلح الذي يلي الحرب بعد الانتهاء منها ، كما انه السلم في الأوقات الأخرى أي الأوقات الاعتيادية [1] .

ويعبر عن الحذر من العدو بلفظة (حذر) ، وهي تؤدي معنى الدفاع كذلك، فـ (حذر) تعني دافع ضد عدو[2] . واذا سار شخص ما خلف زعيم أو قائد، يقال لذلك (تبع) و (تبعو)[3] بمعنى سار مع القائد وساروا في حرب مثلاً ، وتقدم أو تقدموا نحو العدو .

ويعبر عن التراجع والانسحاب بلفظة (ضويم) (ضوى) ، وتعني الهزيمة كذلك[4] . وهي نقيض معنى (متسك) التي تعني التمسك بالشيء والاستيلاء عليه . و (امتسك بـ)[5] . ويعبر عن الهزيمة بلفظة (سحت) كذلك[6] . كما يعبر عنها بلفظة (تشوع)[7] .

وقد يتبع المحاربون طريقة حرب العصابات ، وذلك بـأن ينقسم الجيش الى أحزاب وفلول مستقلة تنتشر في أماكن متباعدة ، وتقاتل بمفردها أو تتعاون فيما بينها عند الحاجة ، وهي تحمي نفسها بالالتجاء الى المواضع الطبيعية الحصينة مثل المستنقعات والأدغال والجبال وأطراف الممرات الوعرة ، وذلك لكي تخفي نفسها عن العدو فلا يراها إلا وهي مباغتة له . ويقال للعصابة هذه : (حزب) في السبئية ، وأما الجمع فـ (احزب)[8] .

وتتبع الطريقة المذكورة عندما يواجه علو عدواً يرى انه لا يستطيع الوقوف أمامه ومحاربته ، أو في حالة التريث والانتظار إلى ساعة مجيء مدد وعون ، أو في

---

١ راجع النص الموسوم بـ
Glaser 481, Rhodokanakis, Stud. II, S. 15, 55, Jamme 556, 557, 576, 577, 643, 652, Mahram, p. 443.

٢ راجع الجملة الثالثة من نص أبنة .
Mahram, p. 436, Jamme 649, 720.

٣ Mahram, p. 436, Jamme 649, 720.

٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 53.

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 52.

٦ Jamme 578, 643, Mahram, p. 443.

٧ Jamme 649, Mahram, p. 450.

٨ Jamme 574, 576, 577, 585, Mahram, p. 436.

حالات الهزيمة . فتشتت القوات المغلوبة قواتها إلى (أحزاب) وتشغل جيش العدو المتفوق عليها بجبهات عديدة لغاية إرباكه واضعاف قوته ، وتبقى تحارب حرب عصابات حتى ترى رأيها الأخير ، فتقرر الصلح أو الاستسلام وقد تجمع فلولها ثانية وتظهر مرة أخرى في ميدان قتال جديد ، ففي كتابات المسند أمثلة كثيرة من هذا القبيل .

وقد وردت في النصوص المعينية لفظة (غزتس) بمعنى غزوة ، كما في هذه الجملة : (غزتس عم مسبا)[1] ، بمعنى (في غزوته مع المسبين) . ويظهر ان هذا النص قد دوّن في غزاة قام بها صاحب النص ، وقد أخذوا معهم جماعة من السبي . وهذا النص هو من النصوص المعينية التي عثر عليها في مدائن صالح .

ويقال للحواجز التي يضعها المحاربون في شوارع المدينة أو في الطرق أو التي يقيمونها في ساحات المعارك لإعاقة حركات العدو (حجزت) ، أي (حاجزة)[2] . ولا تقتصر عمل هذه الحواجز على الأغراض العسكرية وحدها بالطبع ، بل تقام لأغراض عديدة أخرى ، مثل الحواجز التي تقام لحجز المواشي والحيوانات وما شابه ذلك .

ولا يشترط بالطبع في الحواجز أن تكون عالية مرتفعة أو قائمة عريضة ، فقد تكون منخفضة وعندئذ تكون على هيأة موانع لإعاقة الانسان أو الحيوان من المرور. وقد تكون خندقاً يحفر حول المدينة أو حول مكان يراد حمايته ومحافظته من التطاول عليه . فيقف هذا الخندق حاجزاً مانعاً يمنع الجنود والجيوش من التقدم نحو الهدف أو المدينة أو الموضع الذي يراد الاستيلاء عليه . ويقال له عندئذ (خبزت) وبهذا المعنى عرف في كتب اللغة ، فقد ورد في القاموس المحيط (خ ب ز) : (خبز) الرهل والمكان المنخفض المطمئن من الأرض[3] .

وقد بنى اليمانيون حصونهم في الهضاب والمرتفعات والجبال ، ليكون من السهل الدفاع عنها . وحول هذه الحصون وبحمايتها بنى الناس بيوتهم ، فتحولت هذه الأماكن المحاة بالقلاع والحصون إلى مواضع حصينة تدافع عن نفسها وترمي من

---

١ REP. EPIGR. 3604.

٢ راجع الفقرة الثانية من النص : Glaser 1150, Halevy 192, 199

٣ تاج العروس (٣٢/٤) ، (خبز) ، اللسان (خ/ب/ز) ، خليل يحيى نامي : نقوش خربة معين (الصفحة ٢) .

يحاول الوصول اليها بالسهام وبوسائل الدفاع الأخرى ، فيتكبد المهاجم خسائر ، ويلاقي صعوبات كبيرة في الوصول اليها. ويقال لمثل هذه الحصون والقلاع (محفدن) و (محفدم) والأولى معرفة والثانية منكرة[1] .

وتزود الحصون بكل وسائل الدفاع وما يحتاج اليه أصحابها والمدافعون عنها من ماء وزاد ووسائل دفاع . ولهذا نجد في الحصون آباراً ومخازن للمياه، ليستفيد منها المدافعون[2] ، ولا يتمكن المهاجمون من منع الماء عنهم . أما الزاد ، فيخزن في العادة في مخازن خاصة لهذه الغاية أيضاً . وأما وسائل الدفاع فتكون بانشاء أبراج فوق أسوار الحصن ، يكمن فيها المدافعون لرمي العدو منها ، وببناء فتحات صغيرة رفيعة لمراقبة العدو منها ، ولرميه بالسهام .

ومن وسائل الدفاع التي لجأ اليها أهل العربية الجنوبية لإعاقة المحاربين من التقدم نحو هدفهم ، انشاء حواجز على هيأة جدر تبنى في المضيقات والممرات ، بحيث اذا وصل اليها العدو لم يتمكن من الاستمرار في سيره نحو عدوه ، فينهال عليه حماة تلك الحواجز بالحجارة والسهام وما شاكل ذلك من أسلحة .

وترى بقايا مثل هذه الجدار في مواضع عديدة من اليمن وحضرموت حتى اليوم . ومن جملة ما عثر عليه بقايا جدار أقيم في وادي (لبنا) شمال ميناء حضرموت القديم (قنا) (قانه) (قني) . أقامه حكّام حضرموت المكربون قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، وذلك لحماية حضرموت من غزوات الحميريين وغيرهم . وعثر على بقايا جدار في القسم الجنوبي من (وادي بيحان) ، وعلى بقايا جدار آخر يقع في (وادي أنصاص) جنوب (شبوة) ، وذلك لحمايتها من الغارات[3] .

والنصر ضد الهزيمة . وترادفها لفظة (شرح) في اللهجات العربية الجنوبية ، كما في هذه الجملة (يوم شرح سبا) ، أي (يوم نصر سبأ)[4] .

وبعد انتهاء الحرب توزع الغنائم بين المحاربين المنتصرين ، ويعطى الرئيس إذا

---

١ (تعلي محفدن يهر) ، أي (تعلية حصن يهر) ، خربة معين ، النقش ٤ .
٢ ابن المجدرر : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (٢/١٧٣) .
٣ Beiträge, S. 44, 46.
٤ REP. EPIGR., VII, II, p. 276, NU: 4624.

غنم الجيش معه (المرباع) أي ربع الغنيمة [1] . وقد رده الإسلام خمساً ، بنزول الأمر بالخمس في القرآن الكريم [2] .

واذا وقع أحد في أيدي عدو وأسر فيقال له عندئذ (أسير) . ويعبر عنه بـ (اخذ) في السبئية في حالة المفرد ، وبـ (اخذتم) (أخذت) (اخذيت) في حالة الجمع [2] . وتطلق هذه اللفظة على الأسرى الذين يقعون في الأسر من دون قتال ، وذلك عند اكتساح جيش أو غزاة جيش العدو أو مكان ما ، فيؤخذ من فيه من ناس من غير قتال ولا مقاومة . فهم مثل الغنائم التي تقع في أيدي الغزاة والمحاربين يؤخذون دون قتال . أما الذين يؤخذون بعد مقاومة وبقتال ، فيقال لهم : (سبيم) أي (سبي) ، بمعنى (مسبي) . وأما الجمع فـ (اسبي) أي سبايا . وأما الإسباء فيعبر عنه بـ (يسبيو) ، وتعني (يسبي) و (يسبون) [3] .

وكانوا يكبّلون أيدي الأسرى والسبي بـ (الكبل) . القيد من أي شيء كان ، وذلك لاحتباسهم حتى لا يهربوا . وقد ذكر بعض علماء العربية (أن الكبل غير عربي .. وقد صرح به أقوام) [4] . ولفظة (كبل) هي (كبلو) Keblo و (كيبل) Kébél في لغة بني إرم وفي العبرانية ، أي (القيد) [5] . وقد كانوا يكتّفونهم بالحبال وبكل شيء يكون عندهم يشد به وثاق الأسير ، فلا يفلت من آسره . و (الكتاف) الحبل [6] . و (الوثاق) ما يشد به كالحبل وغيره [7] . كما كانوا يكتّفون الأسرى بالقدّ . والقد السير الذي يقدّ من جلد،فتشد به أطراف الأسير شداً شديداً حتى لا يتمكن من الهروب .

ولما بعث رسول الله خيلاً قبل نجد ، فجاءت بـ (ثمامة بن أثال الحنفي) سيد أهل اليمامة مأسوراً ، أمر به رسول الله ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ثم منّ عليه فأطلقوه وأسلم ، لأنه لم يكن في زمن الرسول سجن . فكانوا يحبسون

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ٣٠) ، العقد الفريد (٣٤٢/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٣٩/٥) ، (ربع) .

٢ Jamme 576, 578, 635, Mahram, p. 427, South Arabian Inscriptions, 649, 665, 649.

٣ Mahram, p. 443.

٤ تاج العروس (٩٣/٨) ، (كبل) .

٥ غرائب اللغة (٢٠٣) ، Hastings, A Dictionary of the Bible, II, p. 5.

٦ تاج العروس (٢٢٩/٦) ، (كتف) .

٧ تاج العروس (٧٣/٧) ، (وثق) .

الأسير في المسجد أو في الدهليز حيث أمكن . فلما كان زمن (علي بن أبي طالب) أحدث السجن بالكوفة ، وكان أول من أحدثه في الاسلام[1] . وذكر ان (ثمامة) كان عرض لرسول الله ، فأراد قتله ، فلما قبض عليه أسلم ، فلما أسلم قدم مكة معتمراً ، فقال : « والذي نفسي بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة ، وكانت ريف أهل مكة ، حتى يأذن رسول الله » . ورجع إلى اليمامة ومنع الميرة عن قريش . وقد ثبت على إسلامه ، لما ارتد أهل اليمامة ، وارتحل هو ومن أطاعه من قومه ، فلحقوا بالعلاء بن الحضرمي ، فقاتل معه المرتدين من أهل البحرين ، فلما ظفروا اشترى ثمامة حلة كانت لكبيرهم فرآها عليه ناس من (بني قيس بن ثعلبة) ، فظنوا انه هو الذي قتله وسلبه فقتلوه[2] . وكان له عم اسمه (عامر بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي) . وقد دخل في الاسلام[3] .

ويسبق المبشرون الجيش المنتصر بزف خبر النصر للحكام وللناس . يسرعون بأقصى ما يمكنهم من السرعة لنقل النبأ ، ولنيل جوائز البشرى . وهي (البشارة) ما يعطاه المبشر[4] . ويعبر عن البشرى بـ (تبشرت) في العربية الجنوبية ، أي (التبشرة) . ويقوم الـ (هيشر) ، أي المبشر بإبلاغ البشرى لمن يراد ايصالها اليه .

ويعبر عما يقع في أيدي المغيرين أو المحاربين أو الغزاة أو المنتصرين من أموال بـ (مهرج) ، أي غنيمة حرب ، وذلك للمفرد وبـ (مهرجت) (مهرجة) في حالة الجمع ، أي غنائم[5] .

وتطلق هذه اللفظة على الغنائم التي تؤخذ بقتال وبعد مقاومة ، أما الغنائم التي يحصل عليها المحاربون بعد القتال وبعد الهزيمة التي تنزل بالمغلوب ، فيقال لها (غنم) و (غنم) وذلك في المفرد، أي للغنيمة الواحدة ، وأما في حالة التعبير عن الجمع فيقال (غنمت) ، أي غنائم[6] .

ونظراً الى ما للمنزلة الاجتماعية من أهمية كبيرة في المجتمع العربي ، لذلك كان

---

١ صحيح مسلم (٥/١٥٨) .
٢ الإصابة (١/٢٠٤) ، (رقم ٩٦١) .
٣ الإصابة (٢/٢٤١) ، (رقم ٤٣٩٠) .
٤ تاج العروس (٣/٤٤) ، (بشر) .
٥ Mahram, p. 439.
٦ Mahram, p. 445

الشريف يسأل من يريد أسره عن اسمه ونسبه ، حتى إذا وجد أنه من العبيد والموالي أبى الاستسلام له،لأن في استسلام الرجل لمن هو دونه في المنزلة والمكانة مذلة كبرى وإهانة ، ولهذا كان الرجل الذي يشعر أنه في وضع حرج وأنه مأسور لا محالة يبقى يراوغ خصمه ويحاول الافلات منه ومن أسره جهد امكانه حتى آخر نفس له ، وقد يسأل شخصاً آخر يرى عليه امارة الوجاهة والشرف بأن يأسره خشية الفضيحة والعار من وقوعه أسيراً في يد عبد جلف ، أو صعلوك لا مكانة له في المجتمع . ومن ذلك ما وقع لحاجب بن زرارة ، إذ أدركه الزهدمان ، فقالا له : استأسر وقد قدروا عليه ، فقال : ومن أنتما ؟ قالا ، الزهدمان . فقال : لا أستأسر اليوم لموليين . وبينما هم كذلك ، إذ أدركهم مالك ذو الرقيبة ابن سلمة من قشير ، فقال لحاجب : استأسر ، فقال : ومن أنت ؟ قال أنا مالك ذو الرقيبة فقال : أفعل فلعمري ما أدركتني حتى كدت أكون عبداً . فألقى اليه رمحه واعتنقه زهدم عن فرسه فصاح حاجب واغوثاه ، ثم تخاصم مالك والزهدمان في شأن أسر حاجب ، واجتمع القوم وحكموا حاجباً في أمر من أسره، فاختار مالك ، وحكم له ، وذلك لأنه كان حراً شريفاً . ثم فك أسره ، بأن أعطى فدية عن نفسه لمالك وفديتين أصغر منها الى الزهدمين[١] .

ولم تكن (المثلة) بقتيل الحرب أو بالأسير محرمة في قوانين ذلك اليوم . فقد كانوا يمثلون بقتلى الحرب وبالأسرى بتقطيع أجزاء جسمهم ، وتشويه الجسم . يفعلون ذلك بالأسير حتى يموت ، وهو يشاهد أعضاءه تقطع قطعاً من جسمه . وفي (يوم الرقم) انهزم الحكم بن الطفيل في نفر من أصحابه ، فيهم (خوات ابن كعب) حتى انتهوا الى ماء يقال له : المرورات : فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخنق الحكم بن الطفيل نفسه مخافة المثلة ، فقال في ذلك عُروة بن الورد :

عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم ومقتلهم تحت الوغى كان أعذرا[٢]

والقاعدة في الغزو والحروب والغارات ، أن القاتل يأخذ سلب المقتول . يأخذ ما يجده عنده ، وقد أقر ذلك في الإسلام ، فجعل السلب للقاتل لا ينازعه في

---

١ الأغاني (٣٧/١٠) .
٢ نهاية الأرب (٣٦٤/١٥) ، (يوم الرقم) .

ذلك منازع ، إن ثبت أنه هو القاتل[1] .

والحروب من أهم الموارد الممونة الرقيق عند الشعوب القديمة ، وفي جملتهم الجاهليين . فقد كان المنتصر يتخذ من يقع في يده رقيقاً له ، واذا لم يمنّ عليه بالعفو ، أو لم يتمكن المأسور من دفع فدية عن نفسه ، صار عبداً مملوكاً لمن وقع في يده ، إن شاء باعه ، وإن شاء احتفظ به رقيقاً ، يخدمه ما دام عبداً .

وقد عمد المحاربون إلى إحراق المغلوبين في بعض الأحيان . فقد جمع المنذر ابن امرىء القيس أسرى في الحظائر ليحرقهم ، فسمي أبا حوط الحظائر[2] .

وقد عرف بعض ملوك الحيرة بحرق من وقع في أيديهم من المغلوبين ، أو بحرق مواضعهم وهم فيها لذلك عرفوا بـ (محرق) . وعقوبة الحرق من العقوبات المعروفة عند الأمم القديمة مثل الرومان والعبرانيين ، ينزلونها في المحاربين جزاءً لهم ، وإخافة لغيرهم ودعاية لهم،حتى لا يتجاسر أحد فيعلن الثورة على المحرقين، فيحل عندئذ بهم عذاب التحريق[3] .

وكان بعض الأشخاص يقومون بالغارات بمفردهم أو بجمع من الناس،فيفاجئون الناس الآمنين أو رجال القوافل ، ومن هؤلاء : شراحيل بن الأصهب ، وكان كما يقول أهل الأخبار أبعدَ العرب غارةً ، كان يغزو من حضرموت إلى البلقاء في مئة فارس من بني أبيه ، فقتله بنو جعدة . وكان قد أزعج قبائل معد وغيرها كما يظهر ذلك من شعر نابغة بني جعدة :

أرحنا معداً من شراحيل بعدما   أراها مع السبح الكواكب مظهرا
وعلقمة الحراب أدرك ركضنا   بذي الرمث إذا صام النهار وهجرا[4]

وقد يعمد المنتصر الى أخذ رهائن من المغلوب لتكون رهناً لديه بالطاعة والخضوع . فإذا خاس بعهده ، تعرضت الرهينة للتهلكة . وتؤخذ الرهائن في أيام السلم أيضاً . يأخذها الملوك ممن يخشونهم ومن السادات لتكون ضماناً لديهم بالطاعة وبعدم مسهم بمصالحهم . وقد عرف (الحارث بن علقمة بن كلدة بن

---

١ صحيح مسلم (١٤٩/٥ وما بعدها) .
٢ المعارف (ص ٤٢) .
٣ Beeton, Dictionary of Religion, Philosophy and Law, p. 108.
٤ العقد الفريد (٣٩٤/٣)

عبد مناف بن عبد الدار بن قصي) بـ (الرهين) ، (وإنما لقب بـه لأنه كان رهينة قريش عند أبي يكسوم الحبشي . وولده النضر بن الحارث من مسلمة الفتح . وأخوه النضر بن الحارث قتله عليّ ، رضي الله تعـالى عنه ، بالصفراء بعد رجوعهم من بدر بأمر من النبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبنته قتيلـة رثت أباها بالأبيات القافية ، وليس فيها ما يدل على إسلامها)[1] .

وللطيرة أثر كبير في نظر الجاهليين في كسب الحرب وخسرانها ، فقد رسخ في عقولهم أن لها تأثيراً مباشراً في الغزو والحروب . وان كلمة طيبة تسمع ساعة الاستعداد للغزو ، أو عطسة يعطسها إنسان ، أو نعيب غراب ينعب ساعة الهجوم أو ما شاكـل ذلك من علامات يتفاءل أو يتشاءم منها ، تؤثر في مصير الغزو وتتحدث للغازين عن مصير ما سيقومون به . لذلك فقد كانوا ربما نبذوا الغزو إذا ظهر أمامهم ما يتطير منه ، وكانوا ربما أسرعوا بالهجوم إن ظهر أمامهم ما يفسرونه بأنه يمن وتفاؤل وحث على الإقدام في العمل . ولم يكن هـذا الاعتقاد من عقائد العرب وحدهم ، فقد كانت الشعوب الأخرى تتطير كذلك . وتحسب للطيرة حساباً عند شروعها بحرب.ونجد في الكتب القديمة قصصاً عن الطيرة وأثرها في الحروب عند اليونان والرومان والفراعنة والفرس .

ورسخ في عقول أهل الجاهلية ان في وسع الكهنة التنبؤ عن نتائج الغـزو أو الحروب ، لما للكهنة من اتصال بالأرباب وبالأرواح المخبرة عن المغيبات وعما سيقع في المستقبل . فكانوا لذلك يسألونهم في كثير من الأحايين عن رأيهم في غـزو يريدون القيام به قبل الشروع به ، حتى اذا باركه الكاهن قاموا به،وإلا تركوه[2] . ونجد في كتب الأدب وأهل الأخبار أخباراً ترجع سبب هزيمة قوم أو سبب انتصارهم إلى مخالفة أولئك القوم لرأي كاهنهم ، فكانت الهزيمة : والى العمل برأيه، فوقع من ثم لهم النصر ، لأن للكهنة علم بالمغيبات .

---

١ تاج العروس (٢٢٢/٩) ، (رهن) .

٢ الدينوري ، عيون الاخبار (١٤٤/١) ، (كتاب الحرب) ، (في الطيرة والفال) .

الفصل السادس والخمسون

في الفقه الجاهلي

عرفت (مدّونة جستنيان) **Institutes de justinien** (الفقه) بأنه (معرفة الأمور الإلهية والأمور البشرية ، والعلم بما هو حق شرعاً وبما هو غير حق)[1] . و (الفقه) في اصطلاح المسلمين هو : استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ، أو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، أو العلم بأحكام الشريعة[2] ، وهو اصطلاح ظهر بالطبع في الاسلام . أما بالنسبة الى الجاهليين فإننا لا نستطيع أن نأتي بتحديد علمي ثابت له ، لعدم وصول شيء منهم في هذا المعنى الينا . وقد وردت اللفظة لغة بمعنى العلم والتبحر في الشيء والإحاطة به . ووردت في سورة التوبة كلمة : ليتفقهوا « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين »[3] . ومن هذا المعنى جاءت لفظة (الفقه) في الاسلام .

وأنا أقصد بمصطلح (الفقه) هنا الأحكام التي نظمت العلاقات بين الجاهليين ، وبيّنت الحلال في عرفهم من الحرام . وأقصد بالحلال كل مباح أباحه أهل الجاهلية لأنفسهم ، وبالحرام كل ما حرموه عليها . فللجاهليين شرائعهم الخاصة بهم . وأنا هنا أريد أن أبحث عن شرائعهم التي ثبتت الأحكام بحسب اجتهادهم

---

١ مدونة جوستنيان في الفقه الروماني ، تعريب عبد العزيز فهمي ، دار الكاتب المصري القاهرة ١٩٤٦ (ص ٥) .

٢ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٣٩١) .

٣ التوبة ، الآية ١٢٢ .

وعرفهم وسنتهم ، وأريد بالأحكام (قوانينهم) التي وضعوها وساروا عليها في تثبيت المحظور أو المباح ، أي الحرام والحلال .

وكلامنا في الفقه الجاهلي هو كلام لم نستنبطه من (قوانين) أو من مدونات قانونية Codex Juris أو من كتب في فقه الجاهليين ، أو من تعليمات جاهلية مدونة،وانما أخذناه في الغالب من الألفاظ الفقهية التي تعبر عن آراء قانونية وردت في كتب الفقه والحديث والتفسير،وما شاكل ذلك من موارد إسلامية ، ومن أقوال وأحكام نسبها أهل الاسلام إلى رجال من أهل الجاهلية،فيها قواعد فقهية. ومن بعض أوامر وأحكام أصدرها ملوك العرب الجنوبيون قبل الاسلام في تنظيم التجارة وفي كيفية جباية الأموال . وسبب عدم أخذنا من موارد فقهية جاهلية هوعدم وصول مدوّنات قانونية الينا حتى الآن ، فليست لدينا ويا للأسف — مدوّنات مثل (قوانين حورابي) أو (مدونة جستنيان) ، أو مثل ما كتبه (ديودورس) في الشريعة المصرية[1] . فما نكتبه في التشريع الجاهلي ، مستمد مما ذكرته ومن أوامر وإرادات ملكية وأحكام وردت في المسند في نواحٍ خاصة من نواحي التشريع مثل كيفية جباية الضرائب عن الأرض أو التجارة ، أو نواح معينة من البيوع والقتل وغير ذلك . فهي خاصة بحالة معينة من حالات التشريع ، لا قوانين عامة على نحو ما نفهمه من القوانين .

ولما كانت القوانين وليدة الظروف والحاجات اختلف التشريع في أيام الجاهلية باختلاف القبائل والأماكن ، وطبيعة البيئة . فأهل اليمن بنظام حكمهم المستقر ، وبحكوماتهم التي كانت تهيمن على مناطق واسعة كانوا يختلفون في أصول تشريعهم عن أهل مكة أو أهل يثرب . وكل من هؤلاء هم قُطّان مدن ، وحكمهم هو حكم مدن قائم على أساس آراء رؤساء الأحياء والشعاب . ثم إن حكم هؤلاء، يختلف أيضاً عن حكم القبيلة والعشيرة ؛ أعني حكم الأعراب .

ولعدم وجود حكومات منظمة قوية في معظم أنحاء جزيرة العرب ، لا يمكن تصور وجود هيئات قضائية ومؤسسات حكومية ذوات قوانين مدوّنة ، للفصل في الخصومات ، ولإنزال العقوبات الجزائية الرادعة في المخالفين ، على نحو ما نراه في حكومات هذا اليوم . كما أننا في شك من وجود نصوص قانونية مدونة في

---

[1] Grohmann, Arabien, S. 132.

مثل هذه الأماكن على مثال قوانين (جستنيان) مثلاً ، أو القوانين التي سنّها الأكاسرة . فمثل هذه القوانين والأنظمة الدقيقة المنظمة المبوبة لا يمكن أن تظهر إلا في المجتمعات السياسية المنظمة المعقدة التي تهيمن عليها حكومة ذات مجتمع منظم يشعر بحاجته الى حكم منظم يعين حقوق الحكام وحقوق المواطنين .

غير أنّ هذا لا يعني عدم وجود أحكام لردع المخالفين والزائغين ، وعدم وجود أحكام لتنظيم العلاقات في المجتمع ، وتعيين حقوق الحكام والمحكومين ، وعدم وجود أناس لهم علم بعرف البلاد. فلكل مجتمع مهما كانت حالته من السذاجة قوانين وأناس لهم علم بتطبيق تلك القوانين على المخالفين . والقوانين في المجتمعات الصغيرة البسيطة ، هي العرف والعادة المتوارثة عن الآباء والأجداد . وإذا كانت مثل هذه المجتمعات لا تملك محاكم دائمة ذات موظفين وسجلات وقوانين ثابتة مكتوبة على نمط المحاكم لهذا العهد ، فإنها تملك في الواقع محاكم ، وتملك حكاماً. ففي المدن مثل مكة ويثرب ، وهي مدن تحكم نفسها بنفسها ، ونستطيع أن نسمي حكوماتها بحكومات مدن ، يحكم الرؤساء والأشراف المدينة ، ويفضون المنازعات وفق العرف والعادة . يجتمعون في مكان معين ، مثل (دار الندوة) ، أو في المعبد ، أو في بيوت الوجهاء ، للنظر في الخصومات وفي المشكلات التي تقع في البلد . ويتولى رؤساء الشعب ، أي الحارة والمحلة فَضّ المنازعات التي تنشأ بين أفراد الشعب في الغالب . أما إذا وقعت الخصومات بين أبناء شعاب مختلفة ، فقد يتفق رؤساء المحلات على فض الخصومة بينهم باللجوء الى محكمين يختارونهم من غيرهم ممن يرضى عنهم المتخاصمون ويكونون في نظرهم محايدين لا علاقة لهم بهذا النزاع . وقد يحال النزاع على رؤساء البلد أو الحي للنظر فيه . ويشترط بالطبع على المتخاصمين كلهم الإذعان لقضاء الحكام ، والتسليم بما يحكمونه من حكم .

ولسذاجة الحياة وعدم تعقدها في معظم أنحاء جزيرة العرب ، كانت طبيعة التشريع عند الجاهليين ساذجة غير معقدة والقوانين قليلة تتناسب مع طبيعة حياة ذلك العهد ، تقتصر على المشكلات التي تحدث في مثل تلك البيئة وفي ظروف تشبه تلك الظروف . فلا نرى لذلك قوانين معقدة عديدة في معالجة مشكلات الأرض ومشكلات الصناعة والاقتصاد وتنظيمات المدن الكبيرة : وما يتكون ويتولد فيها من اجرام ومخالفات .

ولما كانت الطبيعة الأعرابية ، هي الطبيعة التي تغلبت على حياة اكثر سكان

جزيرة العرب ، نبع مفهوم الحق عند الأعراب ومفهوم كيفية استحصاله وأخذه من المحيط الذي عاش الأعرابي فيه . فصار الحق في نظـــره القدرة او القوة . فالقوي القادر على حمل السلاح هو صاحب الحق ، لأن في استطاعته انتزاع حقه والدفاع عن نفسه متى تعرّض للظلم . وهو بقوته لا يخشى ظلم ظالم . وعلى هذا المبدأ بنيت اكثر أحكام الجاهلية في تقويم الحق وتقديره في مثل دفع الديات، وفي حقوق الإرث وفي مفهوم السرقة ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد . فالقدرة هي سبب من اهم اسباب تحقيق الحق ، وأخذ الحق وانتزاعه من المغتصبين، ثم عامل آخر ، هو العصبية بأنواعها من ابسط درجة فيها الى اعلاها ، فإنها عامل آخر من عوامل الدفاع عن الحق وعن استحصاله ، لعدم وجود حكومة نظامية تقوم بتحقيق الحق ، فقامت العصبية مقامها في استحصال الحق وفي تأديب الخارج على العرف ، الذي هو القانون .

واما النواحي القانونية والتشريع في العربية الجنوبية وسائر الأنحاء الأخرى من جزيرة العرب، فلم ترد الينا كتابات وبحوث فيها . فلتكوين رأي فيها اذن ، لا بد لنا من اللجوء الى الكتابات التي لها علاقة بهذه النواحي ، مثل الكتابات التي تحمل طابع الأوامر والنواهي وعقود التملك من بيع وشراء، والقبوريات اي الكتابات التي تخص تملك القبور ، فتمنع الغرباء من الدفن فيها والتجاوز عليها والتطاول عليها بإحداث تغيير وتبديل في شكل القبر وفي هيأته ، ومن كتابات مماثلة اخرى . فقـــد وردت في هذه مصطلحات وتعابير قانونية ، يمكن ان نستنتج شيئاً منها ، وان نكوّن رأياً قانونياً بدراستها ومقارنتها بالتشريعات الواردة عند الشعوب الأخرى او عند القبائل الساكنة في مختلف انحاء بلاد العرب ، وبالتشريع الاسلامي .

ومن هذه المصطلحات الحقوقية لفظة (احلى) و (احل) بمعنى (أحلّ) في عربيتنا ، وهي تشير الى لفظـــة (الحلال) التي هي ضد الحرام المعروفة في القوانين وفي الفقه . وقـد وردت في النص الموسوم بـ Me 36 هذه العبـــارة : « هن خطات نكرح وود احلى ذ ينقل قبرن عمر خرقن وارخن »[1] ، ومعناها : هذا خطيئة نكرح وود لمن يحل وينقل اي يغير القبر . عمر السنين والأزمـان ، وتعني لفظة (عمر) الدوام والتأبيد . وأما (خطأت) (الخطيئة) فإنها بالمعنى

---

[1] Me 36, Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 66.

المفهوم منها عند النصارى تقريباً ، فهي بمعنى التعدي على الشريعة ، وعدم الامتثال لها ، والإثم[1] ، وبمعنى (اللعنة) في الإسلام . فيكون المعنى للجملة المتقدمة على هذه الصورة : « هذا بلعنة الإلهين نكرح وودّ لمن يحلّ ، أي يجوّز تغيير القبر ، أبد السنين والأيام » . وتعني لفظة (تقل) التغيير والتبديل .

وهناك لفظتان تردان في الكتابات القبورية والإعلانيـة في بعض الأحيان ، هما (مصرس)[2] و (ستكرس)[3] . وتعني اللفظة الأولى : يبعد وينقل . أما الثانية فتعني يغيّر ويزيل معالم الشيء ، وقد ترد بعد الكلمة هذه العبارة (يومي أرضم)[4] أي أيام الارض ، بمعنى ما دامت الأرض .

ووردت لفظة (خطات) في نص قتباني ، هو أمر ملكي أصدره الملك : (شهر هلل بن ذرأ كرب) . وقد جاء في هذا الأمر أن الملك سينزل عقوبات بالمخالفين لهذا الأمر . واستخدمت هذه اللفظة في أداء هذا المعنى[5] .

وفي السبئية لفظة (حجك) (حكك) ، وتعني القـــانون[6] . وربما تؤدي معنى (حكّ) أي (حق) . أي ما كان ضد الباطل .

وقد فسّر (رودوكناكس) لفظة (حلكم) ، (حلك) الواردة في نص قتبانيّ عرف بكتابة (كحلان) بـ (قانون) وبـ (نظام) . وفسّر لفظـة أخرى وردت معها هي (سحر) بمعنى أمر به . وأما لفظة (حرج) ، فقد فسرها بمعنى أصدره وأخرجه[7] . وقـــد وردت الألفاظ الثلاثة في ابتـــداء قانون أصدره (شهر هلال) ملك قتبان لتنظيم أمور الزراعة والملك في بلاده[8] .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/١٣ ٤) .

٢ الحرف الثاني من الكلمة هو حرف لا مقابل له في أبجديتنا وهو بين حرفي الزاي والسين .

٣ راجع النص :
Glaser 1089, 1660, Halevy 208, Rhodohanakis, Stud. Lexi., II, S. 26 Glasser 1150, Halevy 192, 199.

٤ السطر الأخير من النص : Glaser 1150.

٥ راجع الفقرة التاسعة من النص :
Glaser 1396, 1610, Se 83, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 4.

٦ Mahram, p. 436.

٧ راجع النص الموسوم بـ Glaser 1396, 1610, Se 83.

٨ Rhodokanakis, Kataba. Texte, II. S. 5.

ووردت لفظة (نتذر) بعد لفظة (تنخيو) في بعض الكتابات[1] . وقد ذهب بعض العلماء الى ان لفظة (تنخيو) التي تعني الإعلان والإشهار ، ليكون ذلك معلوماً لدى الناس ، انما يراد بها التنبيه على شيء قد تتولد منه نتائج غير طيبة، فهي بمثابة انذار وتخويف وتحذير . وبهذا المعنى ايضاً لفظة (تنذر) بمعنى انذار ونذر[2] .

وقد اختتمت بعض الأوامر والإرادات الملكية القتبانية بهذه الجملة : (قدمن وتعلماي يد ....)[3] ، ومعناها : (أمام . وعلمته يد) ، اي ووقعته يد . ويراد بها ان الارادة الملكية قد كتبت أمامه ، وان يد الملك قد وقعته ، فهو أمر صدر بإرادته وأمره .

فنحن هنا أمام نص قانوني ، صدر باسم ملك من الملوك،امر هو بإصداره ، ودوّن أمامه ، وشهد هو بنفسه عليه ، ووقعته يده ، دلالة على شهادته بصحته وبأنه نص شرعي ملكي معترف به . فعلى أتباعه السير وفقاً لأحكامه ولما جاء فيه . وفي كتابة مثل هذه العبارات القانونية دلالة على وجود فهم للقانون وإدراك له عند العرب الجنوبيين .

وتطلق لفظة (بـــل) على المباح بلغة حمير[4] . وأمـا (البسل) ، فهي من الألفاظ التي تدخل في باب الأضداد ، فهي تعني الحرام كما تعني الحلال[5] .

وفي شريعة أهل الجاهلية حلال وحرام ، مباح ومحظور ، ويراد بالحلال كل ما أباحه العرف ، مما لم يتعارض مع تقاليدهم ومألوفهم . أما ما تعارض منه معه، فهو حرام محظور ، ويعاقب المخالف المرتكب للمحرمات ولما حرمتـه شريعتهم . ومعنى الحلال والحرام الاصطلاحي هو المعنى الوارد في القرآن الكريم نفسه . غير أن الاسلام حدد الحرام والحلال وفق قواعد الشرع،أي أن الاسلام ندب المصطلحين وحددهما وفق قواعده . أما الجاهلية ، فحددتّهما وفق عرفها .

---

١ راجع السطر الأول من النص : Halevy 149.

٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 59.

٣ الفقرة الاخيرة من النص : Glaser 1396, 1610, Se 83.

٤ شمس العلوم ، الجزء الأول ، القسم الأول (ص ١٢٠) .

٥ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٥٨) .

ومن المصطلحات التي لها علاقة بالحياة الاجتماعية لفظة (ثوب) أي (ثواب)، و (أجر) . ترد بهذا المعنى في الكتابات ذات الصبغة الدينية . ولفظة (تعمن) وتعني (النعم) و (نعمة)[1] .

وعثر في الكتابات الثمودية وفي اللحيانية على نصوص تتعلق بحق الملكية . فعثر على نص ثمودي يشير الى ملكية بئر[2] . وعثر في اللحيانية على وثائق تتعلق بملكية أرض وعقار كما عثر على وثيقة ، وجد أنها وصل أي اعتراف بتسلم مال . كما عثر على وثائق تتعلق بالقانون الجنـــائي . منها وثائق تتعلق بقتل ، ووثائق تتعلق بعقوبات القتل وبالدية ، ووثائق تتحدث عن ازدياد الجرائم والخروج على القوانين في (ديدان)[3] .

وتدل هذه الوثائق على وجود أصول القانون والمحافظة على الحقوق عند عرب أعالي الحجاز . وإن كنّا لا نستطيع في الوقت الحاضر تقديم أي رأي عن أصول التشريع عندهم أو التحدث عن وجود قوانين مثبتة مدوّنة في معالجة الحـــق العام والحق الخاص أو الجرائم أو أصول المرافعات على نحو ما نجده عند الأمم المعاصرة لهم ، أو الشعوب التي عاشت قبلهم ، فوضعت شرائع وصلت نصوص بعضهـــا الينا مثل شريعة حمورابي المعروفة .

وقد عثر الباحثون على نصوص تشريعية،أصدرها ملوك العربية الجنوبية وأمروا بإعلانها على الملأ ، للعمل بموجبها وهي حتى الآن قليلة العدد . ومع ذلك ، فقد أعطتنا فكرة مجملة عن أصول التشريع عند العرب الجنوبيين . وقد صدرت هذه التشريعات باسم الملوك . فهم الذين أمروا بسنها وبتشريعها وبتنفيذ ما جاء فيها . ويعبر عن القانون ، أو سن القوانين بلفظة (سن) وتقابل كلمة Law أي قانون في الانكليزية[4] . و (السنة) في عربيتنا : الطريقة . وهي من القواعد الأساسية الأربع في الفقه الاسلامي[5] . فللفظة صلة اذن بلفظة (سن) في العربية الجنوبية .

---

١ راجع النص الموسوم بـ :
Halevy 147, Rhodokanakis, Stud. Lexl., I, S. 57.

٢ Jaussen-Savignac, Mission, II, 427, 587, W. Caskel, 61, Arabien, S. 50.

٣ Arabien, S. 50.

٤ Jamme, Southern Arab. Inscriptions, p. 449.

٥ اللسان (٢٢٥/١٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٤٤/٩) ، (سنن) .

ويظهر من الأوامر والأحكام الملكية المدونة بالمسند ، ان الحكومات العربية الجنوبية كانت حكومات مشرّعة ، نظمت أعمالها وأعمال مواطنيها بتشريعات عيّنت بموجبها حقوق الحكومة على الناس وحقوق الناس مع بعضهم وواجباتهم تجاه حكومتهم ، وذلك بحسب امكانية المجتمع لذلك العهد[1] ، وقد أدركت شأن نشر القوانين والأحكام ووجوب إبلاغها للناس ، فأمرت بتدوينها على الحجر ، أي بحفرها فيها ، ووضع الأحجار المدونة في مواضع بارزة ليقف عليها الناس ويفقهوا ما ورد فيها من أحكام وأوامر ، فلا يقبل عندئذ عذر لمعتذر اذا خالفها، كذلك تجد الناس يعبرون عن حقهم في الشيء بتدوين ذلك الحق وإعلانه ، فعند شراء رجل بيتاً أو أرضاً ، أو عند بنائه بيتاً ، كان يكتب ذلك على الحجر ويضع الحجر في محل بارز من جدار البيت الخارجي ليطلع الناس على تملك صاحب الملك له . ويدل هذا الاعلان على وجود فكرة التقنين والتشريع وادراك الحق عند العرب الجنوبيين .

وإذا أبرمت الحكومات العربية الجنوبية قانوناً ، واذا أصدرت أمراً أو نظاماً ، أمرت بتدوين نسخ من القانون أو الأمر أو النظام ، لحفظها في ديوان الوثائق ، لتكون مرجعاً يرجع اليه . وتعلن نسخاً منها على الناس . ليقف الجمهور على ما جاء فيها[2] .

وتعدّ الساحات المنشأة أمام أبواب المدن المكان المختار لنشر الأوامر والقوانين على الناس ، نظراً الى كونها محلات عامة يتجمع فيها أهل المدينة في الغالب، وقد تعقد فيها المحاكمات والاجتماعات العامة . فإذا صدر أمر حكومي أو قانون كتب على الحجر ، ثم يبنى على جدار المدينة عند الباب ليقف عليه الناس . وقد عثر المنقبون على قانونين قتبانيين في تحديد عقوبة القتل ، وقد بنيا في الجهة اليسرى من باب مدينة (تمنع) العاصمة ليقف عليها من يحضر هذا المكان من سكان العاصمة أو القادمين اليها[3] ، كما عثر المنقبون على أسماء جماعة من رجال مدينة (مريمت) (مريمة) وقد دوّنت على حجر بني على جدار باب المدينة ليقف عليها الناس[4] ،

---

١ Grohmann, Arabien, S. 132, Rhodokanakis, Etud. Lexi., I, S. 67.

٢ Grohmann, Arabien, S. 137.

٣ Grohmann, Arabien, S. 132.

٤ المصدر نفسه .

لأنهم قاموا بغزو رجعوا منه بغنائم كثيرة ، أعطوا منها نصيباً كبيراً ، فلكي يقف أهل المدينة على كيفية توزيع الغنائم وكمياتها دوّنت تلك الكتابة .

وتلعب أبواب المدن دوراً خطيراً في أصول التشريع عند الساميين . فقد كانت موضع اعلان القوانين ، ومحل ابلاغها للناس . فهي بمثابة (الجرائد الرسمية) المخصصة بنشر القوانين في عرف هذا اليوم . وهي مواضع المحاكمة أيضاً، حيث يجلس الحكام للنظر في خصومات المتخاصمين . وهي مواضع عقد العقود أيضاً ، من بيع وشراء . ويصف الاصحاح الرابع من سفر (راعوت) لنا ، كيف ان (بوعز) جلس عند باب المدينة وأمر عشرة من شيوخ المدينة ليكونوا شهوداً لاجراء عملية بيع وشراء[1] .

ومما يلاحظ على القانون القتباني انه أخذ بمبدأ ان تنفيذ القوانين هو حق من حقوق (الملك) ، أو من يخوله حق التنفيذ . ويراد بـ (الملك) الدولة ، أو ما يسمى بـ (السلطان) في الفقه الاسلامي . فلا يجوز لأي أحد غير مخول تخويلاً قانونياً من الملك أي الدولة تنفيذ قانون أو أخذ أي حق مدعي بدون اذن رسمي من مرجع قضائي وسلطة مخولة . فالدولة وحدها هي التي تنظر في أمر الخصومات وفيما يقع بين الناس من خلاف . وهي وجهة نظر كل حكومة متحضرة ، تريد إشاعة العدل والأمن في حدودها والقضاء على الفوضى والفتن التي قد تقع فيما لو قام كل انسان بأخذ ما يدعيه من حق لنفسه بنفسه ، وبدون مراجعة حكومة وسلطان .

وأنا إذ أستعمل لفظة الفقه الجاهلي ، فلا أعني ان الجاهليين عامةّ ، كانوا كلهم يسيرون وفق فقه واحد وأحكام واحدة تطبق على جميعهم، تطبيق الأحكام العامة في الدولة الواحدة . فكلام مثل هذا لا يمكن أن يقال بالنسبة الى الجاهلية . فقد كان الجاهليون قبائل في الغالب ، وهم أهل الوبر . وللقبائل أعراف وأحكام تتباين بتباين الأمكنة ، من انعزال في البادية أو قرب من الحضر أو اتصال بالأعاجم . وأما أهل المدر ، فنهم من كان يعيش في قرية والحكم فيها لا يتجاوز حدود القرية . ومنهم من عاش في ممالك أو إمارات ، والحكم فيها لم يبلغ كل جزيرة العرب بأي حال من الأحوال . وقد انحصرت أحكامها لذلك في الحدود

---

١ راعوت ، الاصحاح الرابع ، الآية الاولى وما بعدها .

التي بلغتها قوتهم ووصل اليها سلطانهم الفعلي لا غير .

وإذا أردنا أن نتحدث بلغة هذا العصر عن أصول التشريع الجاهلي ، أي عن المنابع التي أمدّت فقه الجاهلية بالأحكام ، فإننا نرى أنها استمدت من العرف ، ومن الدين ، ومن أوامر أولي الأمر ومن أحكام ذوي الرأي .

أما (العرف) ، فهو ما استقر في النفوس وتلقاه المحيط بالرضى والقبول ، وسلم به وسار عليه في بعض الأحيان[1] . وذلك لأخذه طابع القانون من حيث لزوم التنفيذ والإطاعة . وهو معروف عند أكثر الشعوب ، وقد اكتسبت بعض الأعراف درجة القوانين عند كثير من الأمم لمرور زمن طويل على استعمالها ، ولتعارف الناس عليها ، ولكونها معقولة منطقية لا تتعارض مع روح الزمن وعدالة التشريع .

وقد أشير الى العرف في القرآن الكريم : « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين »[2] . وقد ذهب بعض العلماء الى أن المراد من (العرف) هنا : الإحسان[3] . وقد ألغى الإسلام بعض العرف الجاهلي ، وأقرّ بعضاً منه ، لعدم تعارضه مع قواعد الدين .

ولا تزال القبائل تطبق (العرف العشائري) حتى اليوم في فضّ ما يقع بين أفرادها وبينها من خلاف وخصومات. وهي تتجنب جهد إمكانها مراجعة الحكومات لأنها تنفر من تطبيق القوانين عليها ، بالرغم من إلغاء (العرف العشائري) أو (القضاء العشائري) كما يعرف في بعض البلاد العربية ، وعدم اعتراف تلك الحكومات به . وذلك لرسوخ هذا العرف في نفوسها ، وظهوره من تربتها ، ولكونه موروثاً من الآباء والأجداد ، فهو أقرب اليهم والى نفوسهم من القوانين الحديثة ، وإن كانت أقرب الى الحق والعقل من العرف .

ولا تزال بعض مصطلحات العرف الجاهلي باقية حيّة تستعملها القبائل حتى اليوم في الأغراض والمعاني التي كانت عند الجاهليين . وحبذا لو عني علماء القانون عندنا بضبط العرف المستعمل في بلاد العرب في الزمن الحاضر ودراسته دراسة

---

١ التعريفات ، للجرجاني (ص ١٥٤) (طبعة فلوكل) .
٢ سورة الاعراف ، الآية ١٩٩ .
٣ المفردات ، الراغب الاصفهاني (ص ٤٢٥) (طبعة البابي) .

علمية تحليلية ، فإن لهذه الدراسة شأناً كبيراً في دراسة التشريع العربي في الجاهلية.

وللسنة أهمية كبيرة في الفقه الجاهلي . والمراد بها الطريقة ، وترد في القرآن (سنة الأولين)[1] و (سنة الله)[2] .

وترد لفظة (السنن) في الموارد الاسلامية ، وكذلك (السنة) التي هي المورد الثاني في الفقه الاسلامي تستنبط منه الأحكام بعد القرآن . ولا بد أن تكون لها نفس المكانة عند الجاهليين[3] . وقد ورد في القرآن الكريم : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين »[4] ، دلالة على مكانة سنّة الآباء في عقلية الجاهليين . فا ورد في سنتهم هو قانون يعمل به. وورودها بهذا المعنى يدل على انها كانت تؤدي معناً خاصاً عند الجاهليين . ولعلها كانت مصطلحاً من مصطلحات الفقه عندهم .

وسنّة الجاهليين هي طريقتهم في الحياة وما ورثوه عن آبائهم من عرف وأحكام،وما قرروا السير عليه من قوانين القبيلة في تنظيم حقوق القبيلة والأفراد ، وما يقرره عقلاؤهم من قرارات لا تغير ولا تبدل إلا للضرورة وبقرار يصدره أصحاب العقل والبصيرة والرأي والسن فيها . ولا يزال العمل بها حتى اليوم . ويقال لها (السانية) في اصطلاح قبائل العراق .

وأقصد بـ (الدين) ما كان يدين به أكثر الجاهليين من شريعة التعبد للأوثان والتقرب للأصنام،فقد وضع سدنة المعابد والكهان أحكاماً لأتباعهم على انها أحكام ملزمة يكون مخالفها في حكم المخالف للعرف . وهي بالطبع أقوى وأظهر عند أهل الحضر ، لمساعدة محيطهم على ظهور الشعور الديني الجماعي فيه ، عكس محيط البداوة الذي تباعد فيه أهله ، وتبعثرت بيوته ، فلم يساعد على ظهور هذا الشعور الديني الجماعي فيه .

وبين الجاهليين يهود ونصارى ، مهما قيل في يهوديتهم أو نصرانيتهم من العمق أو الضحالة ، فإنه لا بد أن يكون لدياناتهم دخل في تنظيم حياتهم وفي أحكام مجتمعاتهم ولا سيما فيما يخص قوانين الأحوال الشخصية المقررة في الديانتين .

---

١ الأنفال ، ٣٨ ، الحجر ١٢ ، فاطر ، ٤٣ ، الكهف ٥٥ .

٢ الأحزاب ، ٣٨ ، ٦٢ ، فاطر ٤٣ .

٣ Law in the Middle East, p. 35.

٤ الكهف ٥٥ .

وأقصد بأوامر أولي الأمر ، أوامر أصحاب الحلّ والعقد من ملوك وسادات قبائل ورؤساء (الملأ) و (الندوة) . فقد كانت أوامرهم أحكاماً تتبع في زمني السلم والحرب . وهم مشرعون ومنفذون ، وقد صارت قوانين متبعة ، وأشير الى بعض منها في الموارد الإسلامية .

وقد وصلت الينا أوامر ملكية قتبانية في تنظيم الجباية والتجارة ، كما وصلت كتابات فيها تشريعات تخص النواحي القانونية سأتحدث عنها في المواضع المناسبة .

أما أحكام ذوي الرأي فأريد بها أحكام فقهاء الجاهلية الذين عرفوا بالأصالة في الرأي وبالمقدرة في استنباط الأحكام المناسبة في فض المنازعات والخصومات . ولا أريد بتعبير (فقهاء الجاهلية) ، طبقة خاصة من علماء الفقه أي القانون ، على نمط علماء الفقه عند الرومان أو اليونان أو فقهاء الإسلام، تخصصت بالفقه وبشرائع الجاهليين ، وإنما أقصد بهم أولئك الذين طلب اليهم أن يكونوا حكماً بين الناس، لوجود صفات خاصة بهم جعلتهم أهلاً للقضاء والحكم فيما يشجر بينهم من خلاف وهم سادات القبائل وأشرافها والكهّان .

وفي فقه الجاهلية أحكام كثيرة ، وضعها مشرعون محترمون عند قومهم ، وجرت عندهم مجرى القوانين . وقد نص أهل الأخبار عليها كما نصوا على أسماء قائليها . وقد ذكروا بين تلك الأحكام أحكاماً أقرها وثبتها الإسلام . من ذلك حكمهم في (الخنثى) ، وهو حكم حكم به (عامر بن الظرب العدواني) ، و (ذرب بن حوط بن عبدالله بن أبي حارثة بن حي الطائي) ، وقد أقر الإسلام حكمها[1] ، ومثل حكم (ذي المجاسد) وهو (عامر بن جشم بن غنم ابن حبيب) في توريث البنات . فقد كانت العرب مصفقة على توريث البنين دون البنات ، فورث ذو المجاسد ، وهو الذي قرر أن للذكر مثل حظ الأنثيين. وقد وافق حكمه حكم الإسلام[2] .

إننا لم نسمع حتى الآن بوجود مفتين ، أي فقهاء كلفوا إبداء آراء في معضلات تقع فتعرض عليهم لايجاد حلول ومخارج قانونية لها . ولم نسمع أيضاً بوجود حكام كلفوا رسمياً من الدولة القضاء بين الناس ، ولا أستبعد العثور في المستقبل على

---

١ المحبر (ص ٢٣٦) .
٢ المحبر (ص ٢٣٦) .

كتابات في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية قد تكشف النقاب عن وجود مثل هذه الوظائف هناك ، وذلك لأن الحكومات التي ظهرت فيها كانت حكومات منظمة ، لها شرائع ، ولها صلات مع العالم الخارجي ، فلا يستبعد تعيينها أناساً عرفوا بالكياسة وبالرأي السديد وبالعلم في الفقه للحكم بين الناس ولوضع القوانين التي تحتاج اليها الحكومة .

إن عدم تدوين الجاهليين لفقههم ، أو عدم وصول شيء مدون منه الينا ، لا يكون دليلاً على عدم وجود فقه لديهم أو على عدم وجود منطق فقهي لديهم أو يكون دليلاً على سذاجة فقههم وبداءته ، فإن انعدام التدوين لا يكون دليلاً على عدم وجود رأي فقهي عند قوم ، فقد كان أهل (لقدمونيا) مثلاً وهم من اليونان (يميلون الى الاعتماد على ذاكرتهم يستحفظونها من الأنظمة ما يعتدونه قوانين واجبة المراعاة)[1] ، عكس أهل (أثينة) الذين كانوا ضدهم ، فإنهم كانوا يدوّنون القوانين ويكتبونها للرجوع اليها[2] . وقد أخذت أحكام (لقدمونيا) الشفوية في التشريع بنظر الاعتبار واعتبرت في المدونات القانونية .

ولا بد أن يكون بين الجاهليين (تعامل) و (عرف) متبع في أمور عديدة من أمور الحياة التي عاشوا فيها في مثل حقوق مرور القوافل من مناطق نفوذ القبائل ، وحقوق الجباية عن الأموال المستوردة أو المصدرة وفي موضوع العقوبات وما شاكل ذلك .

وقد ذكرت بأن العلماء قد عثروا على بعض كتابات هي أوامر ملكية في الجباية ، فلا يستبعد عثورهم في المستقبل على ألواح ومدونات في الفقه .

ومكان مثل مكة اشتهر أهله بالحذق في التجارة وبثراء بعضهم ثراءً كبيراً ، وبتعاملهم مع الشرق والغرب، مع الساسانيين ومع البيزنطيين ومع اليمن ، وباكتنازهم الذهب والفضة ، وبعقدهم العقود وبوجود الكتّاب بينهم ، وبوجود الرقيق الأبيض عندهم ، من ذلك النوع الذي يقرأ ويكتب والذي له وقوف على كتب الأولين، إن مكاناً مثل هذا لا يمكن أن يكون بلا فقه وبلا قوانين ومحاكم يتحاكمون بها . وكيف يكون ذلك وقد خاطب اللهُ رسوله بقوله : « يستفتونك في النساء ، قل:

---

١ مدونة جوستنيان (ص ١٠) .
٢ المصدر نفسه .

الله يفتيكم فيهن »[1] ، و « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة »[2] و « لا تستفت فيهم منهم أحداً »[3] ، وغير ذلك من مواضع فيها معنى الإفتاء . وقد ذكر العلماء أن (الكلالة) اسم لما عدا الولد والوالد من الورثة ، وأن رسول الله سئل عن الكلالة فقال : من مات وليس له ولد ولا والد . وأن بعض العلماء فسّر الكلالة بأنها مصدر يجمع الوارث والموروث جميعاً[4] . وقوم يستفتون في المواريث ويستفتون في النساء هل يعقل ألا يكون لهم فقه وقوانين ؟

وفي القرآن آيات مثل: « وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون »[5] ، و « فاقض ما أنت قاض »[6] ، و « لولا كلمة الفصل لقضي بينهم »[7] ، و « فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون »[8] ، وآيات أخرى تشير الى وجود فكرة القضاء بين الناس ، والى الحكم بينهم بالقسط . فهل كان الله يخاطب قوماً بهذه الآيات لو كان المخاطبون قوماً يجهلون العدل ، ولا يفقهون شيئاً عن القضاء؟ اللهم لا .

وفي القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه . وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملِل الذي عليه الحق وليتقِ الله ربه ولا يبخس منه شيئاً . فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليُملل وليّه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا ولا تسئموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألاّ ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان

---

١ النساء ، الآية ١٢٧ .
٢ النساء ، الآية ١٧٦ .
٣ الكهف ، الآية ٢٢ .
٤ المفردات (ص ٤٥٢) .
٥ الزمر ، الآية ٦٩ .
٦ طه ، الآية ٧٢ .
٧ الشورى ، الآية ٢١ .
٨ يونس ، الآية ٤٧ .

تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلّمكم الله والله بكـل شيء عليم . وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن آمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أوتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم »[1] . وهي في تنظيم الدين والتداين وفي الشهادة على الدين وفي شادات الشهود. في الرهان وهي كلها من صميم عمل قريش . ولا بد وأن يكـون لقريش أحكام في تنظيم الأعمال التجاريـة من بيوع وشراء وعقود مشاركات وأمثال ذلك ولو بمقياس يناسب تجارة مكة في ذلك العهد .

ولا أستبعد أن تكون لأهل يثرب أحكام وقوانين في تنظيم الزراعة وفي كيفية التعامل فيما بينهم وفي الربا وبينهم قوم من يهود . وقد كانوا يتاجرون ويشتغلون بالحرف وبالربا ، لأن مجتمعها مجتمع منظم لا بد أن تكون له قوانين وفقه ضابط للمعاملات .

وقد ذهب المستشرق (كولدتزيهر) الى أن الإسلام قد أقرّ بعض فقه الجاهليين وأحكامهم ، مما لم يتعارض مع مبادىء الإسلام . فأخذ — على رأيه — من قوانين أهل مكة أحكامها وأخذ من فقه أهل المدينة ، وهو في نظره أقل تطوراً من فقه أهل مكة ، ولذلك فإن فقه أهل الحجاز كان من جملة المنابع التي عرف منهـا الفقه الاسلامي .

وأنا لا أتوقع احتمال عثور العلماء على شريعة أو شرائع في القـانون عمّ تطبيقها بلاد العرب كلها ، ولا أؤمل عثورهم على مدوّنة تشبه (مدونة جوستنيان) في القوانين ، وضعت لتطبق على كل الجاهليين ، ذلك لأن ظهور قوانين عامة منظمة ومركزة ومبوبـة ، يستدعي وجود حكومة منظمة ذات سلطان مطاع ، يشمل سلطانها كل بلاد العرب ، ووجود شعب واحد يشعر بتبعيته تجـاه حكومته ، أو وجود شعور بخوف تجاه تلك السلطة يضطر الناس الى العمل وفق أحكامها وما تصدره من أوامر،وذلك على نحو ما نراه في الانبراطورية الرومانية والانبراطورية البيزنطية ونحوهما. وإذ كان ما تحدثنا عنه غير موجود ولا معروف في بلاد العرب ،لم تظهر قوانين عامة تشمل أحكامها كل العرب . وكل ما ظهرّ انما هو قوانين خاصة طبقت في حدود مناطق الدولة أو القبيلة أو القرية أو الحلف .

---

١ البقرة ، الآية ٢٨٢ وما بعدها .

ولما كانت القوانين والشرائع من نبات المحيط ، ومحيط جزيرة العرب محيط قبائلي مجتمعاته صغيرة متناثرة متباعدة ومشكلاته محصورة في ضمن إطار حياتهم ، فإن المعضلات القانونية عندهم تكاد تكون محدودة نابعة من ظروف جزيرة العرب في الغالب ، ومعالجاتها وأحكامها نابعة أيضاً من هذه الظروف نفسها ، فهي وفق معيشة الجاهليين وأحوالهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والزراعية ، ولا يمكن أن نجد فيها ما نراه في قوانين اليونان والرومان من تصنيف وتبويب وتعقيد لاختلاف الحياة وتباين المحيط ونوع الحكم .

العدل :

الغاية من وضع الأحكام وأمر المجتمع بتطبيق ما جاء فيها ، هي ضبط ذلك المجتمع ومنع أفراده من تجاوز بعضهم على حقوق بعض آخر وسلبهم ما يملكون، وذلك لاشاعة (العدل) ورفع الاعتداء الذي هو (الظلم) وهو نقيض العدل . فن أجل تحقيق (العدالة) سنّت الشرائع والأحكام . والعدالة هي المساواة وعدم الانحياز .

وقد نصت شرائع الجاهليين على وجوب تحقيق العدالة بإعطاء كل ذي حق حقه وانصافه . غير ان فكرة (العدالة) تختلف بين البشر باختلاف الأوضاع والأزمنة . فقد يكون حكمٌ عدلاً عند قوم ، ويكون باطلاً أي ظالماً عند قوم آخرين . وقد يكون عدلاً في زمان ويكون باطلاً في زمان آخر ، لأن الظروف التي استوجبت اعتبار الحق حقاً والعدل عدلاً ، تغيرت فتبدلت . فأبطلته أو صار ظلماً في نظر الناس . ومن هنا أبطل الاسلام بعض أحكام الجاهلية ، وهذّب بعضاً منها، وأقر بعضاً آخر ، وذلك لتغير الظروف بمجيء الاسلام وتغير النظر الى اصول العدالة .

لقد صيرت المعيشة القبلية التي عاش فيها اكثر العرب في الجاهلية مفهوم (العدل) او (الحق) عندهم بصورة تختلف عن مفهومنا نحن للحق والعدل ، فالعدالة عندهم لم تكن تتحقق وتؤخذ إلا بالقوة ، لذلك أثرت (القوة) تأثيراً كبيراً في تحديد مفهوم (العدل) و (الحق) ، فلكي ينال الانسان حقه كان عليه ان يجاهد بنفسه وبذوي قرابته وعشيرته للحصول على ما يدعيه من حق

ويثبته . وهو لا يحصل عليه في الغالب إلا بتهديد ووعيد وبوساطة او باستعمال القوة . وضخامة البيت او العشيرة او القبيلة ، هي من جملة مسببات الحصول على الحق بفرضه فرضاً ، لذلك صارت القوة هي معيار الحق والعدل ، وصار القوي المنيع هو صاحب الحق في الغالب .

ولما كان الرجل أقوى من المرأة ، وقد منح نفسه حقّ سن الأحكام ، صار الحق في الجاهلية في جانبه ، فرفع نفسه عنها في أكثر الأحكام ، وحرمها الميراث حتى لا يذهب الإرث الى غريب ، وقايضها بديونه او بجناية تقع منه كما في (فصل الدم) وفي زواج البدل وفي منع المرأة من الزواج إلا من قريبها لوجود حق الدم عليها ، وفي منع زواج زوجات الآباء إلا برضى أبناء الأب وذوي قرابته ، لأنهم أحق بالزواج منها ، وغير ذلك من أمور ، جعل المرأة عرضاً وملكاً ، حتى حرم الإسلام كثيراً من هذه السنن الجاهلية التي لم يكن الجاهليون يرون أنها تنافي مبدأ العدالة ، لأن ظروفهم الاجتماعية لم تكن توحي اليهم أن اعتبار المرأة دون الرجل في الحقوق شيئاً منافياً للحق والعدل ، فقد وجدوا أن الطبيعة خلقتها دونهم في القوة ، فجعلوها من ثم دونهم في الحقوق ، ولم يكن امامها بالطبع غير الاستسلام .

فالحق هو القوة ، والعدل هو القوة ، ولن ينال امرؤ حقه إلا إذا كان مالكاً لذلك الحق ، وهو القوة على تحصيل الحق . وبهذا الحكم للحق ، حرم المرأة من ميراثها كما ذكرت ، كما حرم من هو دون سن البلوغ ، ومن لا يستطيع القتال من هذا الحق أيضاً . فلم يحرم القانون الجاهلي المرأة وحدها ودون غيرها من الإرث ، لمجرد انها امرأة ، بل حرم الأولاد منه ايضاً ما داموا دون سن القتال . فقد وجد المشرع الجاهلي ان من الحيف اعطاء الطفل إرثاً ، وهو طفل لا يستطيع الطعن بالرمح ولا الضرب بالسيف ، لذلك حرمه منه ما دام طفلاً ، وحرم الكبار منه ما داموا لا يستطيعون الطعن ولا الضرب بالسيف والذب عن الحق . ولا سيما عن حق الأهل والقبيلة،الذي هو الحق العام . لذلك حرم المعتوه ايضاً من حق الإرث ، لأنه معتوه لا يستطيع حمل السيف والدفاع عن الحق .

ومن هذه النظرة اخذوا بمبدأ تفاوت الحقوق ، بأن جعلوا تقدير الحق على اساس درجات الإنسان ومكانته ، ومنزلة القبيلة ومكانتها ، فدية الملك مثلاً أعلى من دية سيد القبيلة ، ودية سيد القبيلة فوق ديات الآخرين ، وهكذا على حسب

الدرجات . ودية سيد قبيلة قوية هي أكثر من دية سيد قبيلة ضعيفة ، ودية رجل من سواد قبيلة قوية هي ضعف دية رجل من درجته ومنزلته في قبيلة ضعيفة . وسبب هذا التباين في الحق هو أن مفهوم الحق عند الجاهليين كان يقوم على أساس الاعتبارين المذكورين : مكانة المرء ودرجة القبيلة .

ولا يقتصر اصل تفاوت الحق هذا على (الديات) اي على التعويض عن الضرر فقط ، بل اقر التشريع الجاهلي رأي (التفاوت في الحق) في كل الحقوق الأخرى ، مثل حقوق الغنائم التي يحصل عليها المنتصرون من الغزو او الحرب . فأعطت الملك حقوقاً خاصة في الغنائم ، ووضعت لسادات القبائل أنصبة معينة فيما يقع في ايدي افراد القبيلة من غنائم ، بأن جعلت لهم : النشيطة وهي ما اصيب من الغنيمة قبل ان يصير الى مجتمع الحي ، والصفايا وهي ما يصطفيه الرئيس ، والفضول وهو ما عجز ان يقسم لقلته فيخصص بسيد القبيلة ، والمرباع وهو حق سيد القبيلة في أخذ ربع الغنائم . وقد جمعت هذه الحقوق في هذا البيت :

لك المرباع منا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[1]

وأعطى التشريع الجاهلي الملوك وسادات القبائل والأشراف حق (الحمى) ، لا يشاركهم فيه مشارك ولا يرعاه احد غيرهم . بل يكون صاحب الحمى شريك القوم في سائر المراتع حوله[2] .

واتخذت شرائع الجاهليين بمبدأ ان الانسان : إما حر وإما عبد اي رقيق مملوك، والرقيق هو ملك سيده ، ولذلك ، فإن ما يكون له او ما يكون عليه يختلف في القوانين عما يكون للاحرار من حقوق وأحكام .

وهو مبدأ لم يكن خاصاً بالجاهليين وحدهم ، ولكن كان عاماً في ذلك الزمن اخذت به جميع الأمم . وقد نُصَّ عليه في القوانين الرومانية واليونانية وفي الشريعة اليهودية . والعبد ، هو كما قلت ملك صاحبه ، وهو (ملك يمين) ، إلا ان يمنّ عليه بالحرية ، فيكون حراً . أما اذا بقي عبداً في ملك صاحبه ، فإن نسله يكونون عبيداً بالولادة ايضاً . والعبدة ، اي المملوكة تكون ملكاً لسيدها، يتصرف

---

١ لسان العرب (٩/٤٥٧) ، تاج العروس (٥/٢٣٢) .
٢ تاج العروس (١٠/٩٩) .

بها كما يشاء . ومن حقه الاتصال بها دون حاجة إلى عقد زواج ، لأنها ملك ، والمالك يتصرف بملكه على نحو ما يحب .

ويعبر عن (الحر) بـ (حرم) اي (حرّ) في اللهجات العربية الجنوبية، أما الرقيق ، فقد عبر عنهم بـ (ادم) ، او (اوادم) بالمصطلح العراقي ، وبـ (عبدم) ، اي (عبد) . ويقال للعبدة (امت) ، اي (أمة) . فالأمة هي الأنثى المملوكة في تلك اللهجات[1] .

وقد اشير الى هذا التقسيم الطبقي في النصوص التشريعية التي اصدرها حكام العربية الجنوبية ، وذلك بأن نص فيها على ان تلك الأحكام تطبق على الأحرار وعلى العبيد ، او على الأحرار دون العبيد ، او على العبيد دون الأحرار ، والنص على ذلك فيها امر ضروري لتوضيح الحقوق والالتزامات بالنسبة الى مجتمع ذلك الوقت ، ولتعرف بذلك الواجبات المفروضة على كل فرد من أفراده .

والعبودية حسب القوانين وراثية ، فابن العبد عبد ، وابنة العبدة عبدة،وهكذا تنتقل العبودية بالوراثة في الأجيال دون انقطاع ، ولن يقطعها ويقضي عليها إلا تنازل مالك العبد عن عبده وعمن يتبعه من نسله تنازلاً شرعياً بإعلان يعلن عن ذلك وبكتاب يكتب في بعض الأحيان . وسبب ذلك ان العبد ملك يمين ، وملك اليمين مثل كل ملك . والملك حق مقدس للفرد لا يجوز الاعتداء عليه .

والحر قد يصير عبداً ، ولو ولد حر الرقبة . فإذا أفلس رجل ، ولم يتمكن من الوفاء بما عليه من دين عليه تأديته لداائنيه ، واذا وقع في سباء او أسر ، صار عبداً . إلا إذا قبل الدائن اعفاءه من ديونه ، او منّ آسره عليه ، فردّه الى اهله او دفع فدية عن نفسه ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد .

وأخذ التشريع الجاهلي بمبدأ ان ما يطبق على افراد القبيلة من قوانين واحكام يكون خاصاً بالقبيلة.اما ما يطبق على الأشخاص الذين يكونون من قبيلتين مختلفتين او من قبائل عديدة فإنه يكون خاضعاً للعرف المقرر بين القبائل ، فهو قريب مما يسمى بالقوانين الدولية في الزمن الحاضر . اما القوانين التي تطبق في القبيلة، فإنها تشبه قوانين الدولة الواحدة . فالشخص إذا ما ارتكب عملاً مخالفاً داخل حدود قبيلته اي مع افراد القبيلة ، عومل وفق أحكام القبيلة . أما إذا ارتكبها مع شخص من قبيلة أخرى ، عومل وفق العرف القبلي ، لا وفق عرف القبيلة .

---

١ Jamme, Southern, p. 427.

المسؤولية (التبعة) : الأصل في المسؤولية وفي الحق هو : كل امرىء وما عمله ، اي إن الفاعل الذي يقع منه فعل يكون هو المسؤول عن فعله . هذا هو الأصل في المسؤولية إلا أن التشريع الجاهلي أخذ أيضاً بمبدأ انتقال المسؤولية من الفاعل الى ذوي قرابته الأدنين ، ثم الأبعدين ، فالعشيرة أو القبيلة في حالة عدم التمكن من القصاص ، أي من اخذ الحق من الفاعل . وذلك بقانون العصبية . فالجماعة التي هي (القبيلة) تكون مسؤولة بعرف العصبية في النهاية عن كل عمل يقوم به احد أفرادها لارتباطها بـ (العصبية) وعلى كل افرادها تحمل مسؤولية أي فرد من افرادها وضمان أداء ما يقع عليه من حق في حالة امتناعه ، او عدم تمكنه هو او ذوي قرابته من تنفيذ أداء الحق .

فالقاتل مثلاً إذا لم يسلم للاقتصاص منه بقتله ، أو لم يتمكن اهل القتيل من قتله ، انتقل حق اهل القتيل الى قتل اقرب الناس اليه ثم الأبعد وهكذا ، أخذاً بثأر القتيل . ويؤدي ذلك الى التوسع في القتل في الغالب ، مع عدم سقوط حق ذوي القتيل في البحث عن القاتل لقتله ، لأن الأصل في كل جريمة هو الفاعل الأصل . وفي الديات ، تؤخذ من اهل القاتل في الأصل ، فإن لم يتمكنوا فمن ذوي قرابتهم الأدنين ثم الأقرباء الأبعدين على العصبات حتى تصل الى حدود العشيرة او القبيلة بقانون العصبية ، فيوزع مقدار الدية على أفراد القبيلة كلٌ على حسب مركزه ، وهي تعقل بذلك عن أبنائها ، ويحمل أفرادها بقدر ما يطيقون . ويقال لذلك (المعاقلة)[1] .

وقد ذكر ان العقل : الدية ، سميت عقلاً لأن الدية كانت عند العرب في الجاهلية إبلاً لأنها كانت أموالهم ، فسميت الدية عقلاً ، لأن القاتل كان يكلف ان يسوق الدية الى فناء ورثة المقتول ، فيعقلها بالعقل ، ويسلمها الى أوليائه .

وقد جرت عادة الجاهليين ان اهل القرية لا يعقلون عن اهل البادية ولا اهل البادية عن اهل القرية ، فكل طبقة ملزمة بالعقل عن طبقتها[2] .

وقد ورد في نص قانوني مدون بالمسند ان الجماعة تكون مسؤولة عن أية جريمة تقع في حماها اذا لم يعرف الجاني ، او اذا لم يسلم الى الحاكم . ومعنى هذا لزوم

---

١ لسان العرب (١١/ ٤٦٠) ، (عقل) .
٢ لسان العرب (١١/٤٦١ وما بعدها) .

إسهام (الجماعة) في البحث عن المجرمين للاقتصاص منهم،وإلا اعتبرت مسؤولة عن الضرر الذي وقع بفعل الجاني . فإذا وقع قتل في مكان ما ولم يعرف القاتل أو لم يسلم الى الحاكم ، أمهله اهله أربعة ايام للبحث عنه ولتسليمه ، فإن لم يسلم يصادر حصاد الجماعة أو يصادر ما عندهم من مال ، ويودع في خزانة الحكومة او المعبد رهناً ، الى صدور حكم الملك او الحاكم بالقضية[١] .

وغاية المشرع من وضع هذا القانون هو إشراك الجماعة مع الحكومة في تعقب المجرمين والقبض عليهم ، ثم التعويض على أهل القتيل بدفع الدية ، اي ثمن الضرر الذي لحق بهم في حالة عدم التمكن من الوصول الى القاتل لأخذ حق الدم منه .

وتكون الطوائف مسؤولة كذلك عما يلحق أفرادها من أضرار ، فإذا مات شخص في اثناء قيامه بعمل كلف إياه او اصيب بضرر في اثناء أدائه ذلك العمل، وكان ذلك الرجل معلماً ، فعلى طائفته دفع تعويض عما أصابه يوضع في خزانة المعبد[٢] .

سقوط المسؤولية :

ولا تسقط مسؤولية الأهل عن جرائم ابنائهم ، ولا مسؤولية القبيلة عن افعال افرادها إلا إذا اسقطت (العصبية) عنهم . على ان يعلن عن إسقاطها في الأماكن العامة وبصورة صحيحة شرعية. ليكون ذلك معروفاً بين الناس. وإلا بقيت المسؤولية قائمة في رقبة من تقع عليهم . ومتى (خلع) الخليع واشهد الشهود على خلعه صار أقرباؤه واهل قبيلته في حل منه ، ليس لهم تلبية ندائه واستغاثته وإلا تحملوا وزره من جديد .

ومتى خلع الإنسان سقطت عندئذ مسؤوليات عمله عن اهله واقربائه، وحصرت به وحده . وعليه ان يحمي نفسه بنفسه ، وان يدافع عن جرائره بيده . ويقال لهذا الإنسان (الخليع) . فإذا قَتَلَ لا يسأل اي احد من قومه عن عمله . وإذا

---

١ Grohmann, Arabien, S. 134.

٢ Glaser 1210, Rhodokanakis, Alt Sab. Texte, II, WZKM, 1932, S. 186, Grohmann, Arabien, S. 134.

قُتِلَ ذهب دمه هدراً . ولهذا قاسى الخليع حياة قاسية شديدة تنتهي بهلاكه في الغالب نتيجة خروجه على أنظمة قومه وقوانينهم . اللهم إلاّ إذا تاب ورجع عن غيّه ووجد من يؤويه ويحميه . من اهله او غيرهم،يحتمل ما قد يقع في المستقبل منه ، ويدفع فداء ما وقع منه واصلاح ما احدثه من أضرار .

وإذا وجد (الخليع) من يكفله وينعم عليه بحق الجوار انتقلت مسؤولية عمله الى مَنْ مَنَّ عليه بجواره ، وعلى المجير عندئذ تحمل كل تبعة تصدر من ذلك الخليع ، ما دام يتحمل حق الدفاع عنه وحمايته .

إزالة الضرر :

إزالة الضرر ، حقل عام من حقول الحقوق في القانون يشمل إزالة كل ضرر يلحق بشخص من تعدٍّ يقع على ملكه او ظلم يلحق به ، او من اعتداء حيوان يصير عليه او على ملكه . الى غير ذلك من أضرار متعمدة او غير متعمدة تلحق بمضرور . وقد قررت سنة الجاهليين إزالة الضرر وتعويض المتضرر . كما قررت ذلك كل القـوانين والأديان للشعوب الأخرى . لأن الضرر ظلم ، والظلم يجب أن يزال .

والضرر المتعمد ، هو الضرر الذي يقع من شخص مسؤول عن تصرفاته ، اي من انسان عاقل مالك لزمام نفسه ، تعمّد إلحاق ضرر بشخص آخـر ، أما الضرر الغير المتعمد ، فهو الضرر الذي يقع من مثل هذا الشخص من دون تعمد ولا قصد او غاية . فضرره أخف من الضرر الأول ، لأن عنصر الجريمة غير موجودة فيه . ويدخل في الضرر العمد ، كل ضرر يأمر به انسان حر أتباعه من امثال النساء والأطفال والرقيق والحيوان إلحاقه عمداً بشخص آخر ، فعنصر الجريمة متوفر في أفعال هؤلاء . ولما كان هؤلاء تبع ، فتقع مسؤولية فعلهم على سيدهم بالدرجة الأولى ، لأنه هو المسؤول شرعاً عنهم ، بحكم ولايته لهم ، وتبعيتهم له. كما يكون مسؤولاً أيضاً عن كل ضرر يقع عنهم من غير عمد للسبب المذكور .

ولا تسقط العقوبة عن التبع ايضاً . فقد فرضت شرائع الجاهليين عقوبات على التبع لما يقع منه من ضرر متعمد او عن خطأ .

ومن قبيل الضرر الخطأ ، إهمال السيطرة على الماء كاغفال أمر السدود ، فإذا سال الماء الى أرض أخرى فألحق ضرراً بها وجب على صاحبه دفع تعويض عن الضرر الذي ألحقه الماء بالمالك صاحب الأرض المتضررة . ومن هذا القبيل أيضاً سقوط بناء أو حائط على شخص ، وسقوط عامل يشتغل أجيراً لصاحب بناء ، فيجب في مثل هذه الأحوال إزالة الأضرار التي تقع بدفع تعويض لمن وقع الضرر عليه أو لمن يعيله أو يرثه في حالة الوفاة .

ويزال الضرر الذي قد يقع في البيوع وفي الشراء بسبب غش وخداع أو مخالفة لوصف . فإذا باع بائع شيئاً ثم تبين أن في المباع عيباً لم ينبه البائع المشتري عليه ولم يخبره به مع علمه به ، فمن حق المشتري ارجاع المباع إن أراد ، لوجود ذلك العيب فيه ، وللمشتري حق المطالبة بإزالة الضرر عنه بتعويضه عن ضرره إن شاء ذلك . ومن هذا القبيل إزالة الضرر عن الجار إذا وقع تعدّ عليه بالتجاوز على أرضه أو بإيذائه أو بالانتفاع بملكه بصورة تؤذي ملك جاره أو تقلق راحته : فيجب في مثل هذه الأحوال إزالة الضرر وتعويضه عن الخسائر التي نجمت عنه .

الولاية :

والولي هو من يتولى أمر غيره ، ويكون ولياً شرعياً عليه . فالأب هو ولي أمر أبنائه ، لأنه هو المسؤول الطبيعي عنهم . والجدّ هو ولي أمر أحفاده في حالة وفاة ابنه أو غيابه . والأعمام أولياء أمور أولاد الاخوة في حالة غيابهم أو وفاتهم ، والأخ الأكبر البالغ هو ولي أمر أخوته القصر . وهكذا حسب العصبات.

وتعطى الولاية للولي حق الاشراف على شؤون المولى عليهم . وللأب حق مطلق في الولاية على أبنائه . له أن يتصرف بهم كيف يشاء . حتى في حق الحياة ، فيقدم ابنه قرباناً للآلهة إن نذر ذلك . والوأد مثل على ذلك . وكان من حق الأب رهن أولاده في مقابل دين له أو تنفيذ عهد عليه . ومن حقه تأديب أولاده على النحو الذي يريده . ويدخل في ضمن ذلك الضرب والطرد والخلع والحرمان من الإرث ، وحق اختيار الزوج للبنت وأخذ مهر ابنته . وتلك حقوق أقرتها شرائع أكثر الأمم في ذلك العهد .

الملك : والملك حق مقدس معترف به في الجاهلية . فمن يملك شيئاً ، امتنع

على غيره التصرف به ، إلا باذن من مالكه وبتخويل منه ، وإلا عدّ المتجاوز مغتصباً أو سارقاً . ويعبر عن الملك والتملك بلفظة (قن) و (قنى) في العربية الجنوبية . وتؤدي لفظة (هقنى) و (سقنى) معنى (قنى) في عربيتنا ، أي فعل ماض يؤدي معنى (امتلك) . وأما (اقنى) ، فتعني الأملاك[1] . وتعني لفظة (قنيت) ، المقتنيات والأملاك في كتابات الصفويين . وقد عُبّر بها عن معنى (رقيق) أي عبد ، وذلك لأن العبد هو في حكم ملك يمين[2] . وهناك لفظة أخرى في هـذا المعنى أيضاً ، وهي لفظة (عسى) ، فهي تعني امتلك وملك واقتنى[3] .

واذا اشترى أحدهم ملكاً : أرضاً أو عقاراً أشار اليه وأعلن عنه وعن حدوده وعن أوصافه . وقد وصلت الينا كتابات عربية جنوبية عديدة هي عبارة عن وثائق تملك ، أي (سندات تملك) (سندات طابو) في اصطلاح أهل العراق في الزمن الحاضر ، حددت وأشارت الى معالمه ومحتوياته بدقة . وقد استعملت بعض الألفاظ الدالة على الإعلان والإخبار للناس ليقفوا على ذلك ، مثل لفظة (علم) ومعناها (أعلم) و (أعلن) ، ليكون ذلك مفهوماً ، فلا يعتذر من يريد التطاول على الملك ، ولا يحتج بأنه لا يعلم عن مخالفته ، لما جاء في الوثيقة المكتوبة التي توضع في محل بارز وفي واجهة الملك ليقرأها المارة[4] .

ويعبر في بعض اللهجات العربية الجنوبيـة عن الأرض المستغلة للزراعة بلفظـة (أرضت) ، أي (أرض)[5] ، وبلفظـة أخرى هي : (صربت) وذلك في اللهجة القتبانية ، والجمع (صروب)[6] ، وتؤدي معنى أرض زراعية مملوكة[7] .

والأموال هي ملك لصاحبها ، وتقسم الى أموال منقولة . وهي التي يمكـن نقلها بتنقل الملك من صاحب المال ، وأموال غير منقولة . وهي الأموال الثابتة .

---

١ Rhodokanakis Stud. Lexi., II, S. 27, Winckler, Alt. Forsch., I, S. 185.

٢ Littmann, Saf., p. 139.

٣ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 27, Winckler, I, S. 185.

٤ راجع النص : Glaser 509, Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 69.

٥ راجع الجملة الخامسة من النص : Glaser 1396.

٦ راجع الفقرة الثانية والثالثة من النص : Glaser 1396, 1610, Se 83.

٧ Rhodokanakis, Katab Texte ,II, S. 4.

وهي مثل الأرض والدور وغير ذلك . وأما الأموال المنقولة ، فمثل الإبل والخيل والمواشي والثياب وأدوات البيت . والغالب في المال عند الأعراب هو الإبـــل ، ولذلك نجد أن تعاملهم كان بها . واذا ذكر المال ، انصرف الذهن الى الإبل ، لأنها أعز ما يملكون . ولهذا قيم بها القيم ، وعليها وضعت مقادير الديات والأفدية والمهور .

ولدينا اليوم نصوص تتعلق بتملك الأرض وبكيفية توزيعها وايجارها واستثمارها، وأوامر ملكية في تأييد وتثبيت قوانين سابقة بخصوص حقوق التملك ، ومعنى ذلك اقرارها على ما كانت عليه . وهي تفيدنا — على قلتها — فائدة كبيرة في تكوين رأي عن حقوق الملك والتملك عند العرب الجنوبيين[1] .

وكل إنسان حرّ عاقل ، هو إنسان مالك لنفسه حرّ في تصرفه وفي التصرف في ماله ، ولكنه معرض الى فقدان حريته في الوقت نفسه، بموجب سلطان القانون . فالقانون الذي قدس الحرية الشخصية وحق الملكية وفي مقدمتها حق أن كل انسان حرّ ، هو إنسان حرّ ، أجاز في الوقت نفسه حق سلب هــذا الحق وإبطاله ، وتحويل الإنسان من إنسان حرّ الى إنسان مملوك ، أي رقيق . فإذا وقـــع إنسان حرّ في سبي إنسان آخر ، صار ملكاً لمن سباه ، وعلى المسبي ارضاء سابيه للمنّ عليه بفك أسره ومنحه الحرية . وذلك إما بالمنّ عليه منّـاً دون مقـــابل وثمن ، واما بشراء نفسه بفداء يقدمه الى سابيه يرضيه ويطمعه حـــتى يفك أسره ، وإلا صار في ملكه وفي عداد مواليه ، إلا إذا هرب ، وفلت مـــن تعقب آسره له ، وتمكن من الوصول الى وطنه . فيكون حراً اذ ذاك . ولآسر الأسير بالطبع حق بيعه وحق استخدامه ، لأنه انسان رقيق . وقد أجاز ذلك القانون بيع المدين أيضاً إذا لم يتمكن المدين من الوفاء بدينه ، كما أجاز له حق بيع نفسه أو بيع من هم في رعايته وتربيته متى شاء . ومتى بيع الشخص فقد حريته،وصار في عداد الرقيق.

الملك ملك الآلهة :

والملك ملك الآلهة وكل شيء على هذه الأرض من مال وعقار هو ملك للآلهة.

---

١ Arablen, S. 132, REP. EPIGR., 3951. CIH 599.

للانسان حق الانتفاع به وانمائه لخيره في مقابل شكــره لها وتأدية الفرائض التي فرضتها الآلهة عليه . ومنها دفع ضريبة حق الانتفاع عن هذا التملك الى الجهات المسؤولة عن رعاية حقوق الآلهة ، وهي المعابد ومن يتكلم باسمها وهم رجال الدين. وهذه النظرة الى الملك التي نجدها عند العرب الجنوبيين ، قريبة جداً من النظـرة الاسلامية التي تتلخص في ان المال مال الله ، وان الملك ملك الله ، وان الأرض ومن عليها أرض الله وان الناس عبيده[1] .

أما ملك الانسان فهو بتفويض من الآلهة وبتخويل شرعي منها . وذلك بالحق الشرعي الذي أمرت به . وبحق الانتقال الشرعي الذي أمرت الآلهة به ، بالإرث أو بالشراء أو بتنازل جهة مخولة شرعية عن حقها في ملكيـة ذلك الشيء اليه ، وبما أشبه ذلك . فالملك عندئذ يكون ملكه ، وهو حق مقدس له ، لا يجوز لأحد منازعته عليه ومطالبته به بغير حق ولا وجه شرعي. هو في ملكه وفي حيازته وله حق الانتفاع به . وتؤدي لفظة (جول) معنى ملك وتملك وحيازة وحق الانتفاع المطلق بالملك[2] . فالملك هو ملك الانسان من حيث الحيازة والتصرف والحق ، أي من الناحية العملية ، ولكنه ملك الآلهة ، مالكة كل شيء من حيث الوجهة النظرية والأصل[3] .

والملك حق مقدس أبدي ، لا ينتقل من مالكه الى غيره إلا بطرق شرعيـة وبموافقة واختيار مثل بيعه أو اهدائه أو التنازل عنه وعما شابه ذلك ، وهو ينتقل بطريق الإرث الشرعي الى الورثة . لأن الآلهة أمرت بالإرث ، وجعلت حماية حق الملك في رعايتها وحماها . ومن هذا القبيل ملكية المقابر . حيث يعدّ القـبـر ملكاً خاصاً بصاحبه وبمن أمر ونص على دفنه معه وهو في حياته فلا يجوز تغيير ملكيته ولا دفن أي غريب فيه ما لم يأذن أحد من المالكين بدفنه فيـه . ولهذا وضعت تحت حماية الآلهة ، وطلب منها أن تنزل العمى والعور والمرض وكل أنواع الأذى بمن يتطاول على حرمة المقابر،فيقبر غريباً فيها أو يغير من معالمها أو يزيل شاخص القبر المثبت فوق القبور . فالقبر أرض وقف حبست على أصحابه الشرعيين. وكما

---

١ Arablen, S. 125, Handbuch, I, S. 124.

٢ Arablen, S. 137 ,Rhodokanakis, Dingliche Rachtc, in WZKM, 37, (1930), 160
Glaser 1064, Hofm. NUM: 17.

٣ Arablen S. 138.

أن للوقف حرمة في الإسلام ، فلا يجوز التطاول عليه ، كذلك هو شأن القبر عند العرب الجاهليين من جنوبيين ومن نبط وصفويين ومن قوم ثمود ولحيانيين وغيرهم ، لا يجوز مسّه بأي سوء ولا احداث أي تغيير في معالمه ولا ازالته لأنه ملك حبس على من أقامه وبناه واشترى أرضه أو اقامه في ملكه [1] .

الحكّام : ويعرف من يحكم بين الناس فيما يشجر بينهم من خلاف وخصومة بـ (الحكَم) وبـ (الحاكم) ، لأنه يحكم بالشيء ، أي يقضي بأنه كذا ، سواء ألزم أحداً به ، أو لم يلزمه . والجمع (حكّام) [2] . وما يصدره الحاكم من رأي وقرار هو (حُكْم) ، لأنه يقضي بشيء على شيء [3] . والمتنازعون (مُحَكِّمون) الحاكم ، ليحكم بينهم . فهو (محكم) والجمع (محكمون) وإذا عرضت قضية على حاكم ، فإنه (يحكم) فيها بما يراه . وإذا فرغ من النظر فيها وعمل رأيه ، أصدر (حكمه) فيها .

وقد جاء في القرآن الكريم في موضوع التحكيم وحدوث الشقاق : « وان خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما » [4] . والعادة عند الجاهلية وفي العرف القبلي حتى اليوم ، انتخاب كل طرف من الطرفين المتخاصمين (حكماً) أو (جملة محكمين) يرضى الطرفان عنهم ويثقان بنزاهتهم وبعدلهم وبعدم انحيازهم الى أحد الطرفين ، فتعرض عليهم القضية للفصل فيها . ويقال لذلك (التحكيم) ، ولمن ينظرون فيه (المحكمون) ، وتقابل كلمة (حكم) لفظة Arbitrator في الانكليزية .

وقد نعت الله بـ (خير الحاكمين) [5] وبـ (أحكم الحاكمين) [6] في القرآن . ورأى بعض العلماء وجود فرق بين (حكم) و (حاكم) . فقال : « ويقال حاكم وحكّام لمن يحكم بين الناس » . قال الله تعالى : « وتدلوا بها الى الحكام » والحكم المتخصص بذلك ، فهو أبلغ . قال الله تعالى : « أفغير الله ابتغى حكماً » ،

---

١ Arabien, S. 138, Rhodokanakis, Dingliche Rechte, 138, 167, Glaser 1379.

٢ المفردات (ص ١٢٦) ، اللسان (١٢/١٤٠) وما بعدها) ، (حكم) .

٣ المفردات (ص ١٢٦) .

٤ سورة النساء ، الآية ٣٥ .

٥ الأعراف ، الآية ٨٧ ، يونس ، الآية ١٠٩ .

٦ هود ، الآية ٤٥ ، التين ، الآية ٨ .

وقال عزّ وجلّ : « فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها » . وإنما قال حكماً ولم يقل حاكماً تنبيهاً أن من شرط الحكمين أن يتوليا الحكم عليهم ولهم بحسب ما يستصوبانه من غير مراجعة لهم في تفصيل ذلك »[1] .

ومنهم من جعل (الحكم) الشخص الذي ينظر في العرف،و (الحاكم) الشخص الذي ينظر في القوانين ، أي في مقابل(A just Ruler) في الانكليزية ، ولكن هذا المفهوم متأخر[2] ، وليس من المؤكد إذا كان الجاهليون قد فرّقوا بين الشخصين.

ويذكر علماء اللغة ان الحاكم انما سُمي حاكماً ، لأنه يحكم بين الناس ويمنع الظالم من الظلم . وأصل الحكومة رد الرجل عن الظلم . والحكم القضاء بالعدل . وفي هذا المعنى قال النابغة :

واحكم كحكم فتاةِ الحيّ إذ نظرت   الى حمام سراع وارد الثمدِ

والمحاكمة المخاصمة الى الحاكم[3] . والحكمة : القضاة ، لأنهم يقضون بين الناس ويفصلون في الأمر ، ولذلك يقال : قضى الحاكم بكذا ، أو قضى القاضي بكذا . وقد ورد : (القضاء عسر) في معنى الحكم[4] . وقد استعملت لفظة (القضاء) في الاسلام في معنى (الحكم) بين الناس ، واستعملت كلمة (القاضي) في مكان (الحاكم) ، اذا أخذت (الحاكم) معنى خاصاً في الاسلام . وليست لدينا فكرة واضحة عن مدى استعمال لفظي (القضاء) و (القاضي) في الناحية الفقهية عند الجاهليين . غير اننا نجد في القرآن للكريم : (فاقض ما أنت قاضٍ)[5]، كما نجد أهل الأخبار يذكرون ان (عامر بن الظَّرِب العَدواني) اشتهر بين الجاهليين بـ (حاكم العرب)[6] وبـ (قاضي العرب)[7] . واذا صح ان الجاهليين أطلقوا حقاً عليه اللقب الثاني ، فتكون كلمة (قاضي) في معنى (حاكم) عندهم، وانها كانت مستعملة عندهم بهذا المعنى .

---

١ المفردات (ص ١٢٦) .
٢ Al Dictionary of Islam, p. 160.
٣ اللسان (١٤٢/١٢) ، (حكم) .
٤ المفردات (ص ٤١٦) .
٥ طه ، الآية ٧٢ .
٦ المعارف (ص ٣٦) .
٧ الأغاني (٧٠/١٥) .

ورب العائلة وسيدها هو القاضي بينها والحاكم الذي له حق الحكم فيا يقع بين أفراد العائلة التابعين له من خلاف. فإذا وقع خلاف بين عائلة ما، هرع المتخاصمون الى وجيههم وسيدهم المطاع فيهم ، يعرضون عليه ما وقع بينهم ، ويرجون منه ان يكون حكماً بينهم ، يحسم ما حدث . وبعد أن يستمع الى حجج الطرفين ويسمع بنفسه ما قد يقوله الناس في الموضوع ، يكوّن رأيه ، ويصدر حكمه في الموضوع . وعلى المتخاصمين إطاعة قراره ، لأن الخروج عليه وعدم الامتثال له ، معناه إهانته والغض من شأنه ، ولهذا فهو لن يسكت عن ذلك ، ولن يرضى أتباعه ومن أقر له بالرئاسة والزعامة بوقوع مثل هذه الإهانة .

واذا وقع خلاف بين عوائل من عشيرة واحدة أو من قبيلة واحدة ، اجتمع وجوه هذه العوائل لحله ولإصدار حكمهم بشأنه . وقد يتفقون على تعيين حكم غريب محايد لا صلة له بالطرفين المتخاصمين ، وذلك فيما اذا كان الخلاف حاداً أو كان مما يتناول أموراً تلعب العواطف والعوامل النفسية دوراً فيها . وينطبق ذلك على الخصومات التي تقع بين القبائل القريبة أو البعيدة ، حيث يترك أمر النظر في الخصومات الى المحكمين المختارين من الأطراف المتنازعة نفسها ، أو من فريق محايد آخر لا علاقة له ولا صلة بذلك الخلاف . ويكون اختيار المحكمين بموافقة الفريقين المتنازعين عليهم وبرضاء تام منهم به وبحكمه. فإذا وافق الطرفان المتخاصمان على اختيار الحاكم أو المحكم ووافق الحاكم أو المحكمون على النظر في الدعوى ، عينوا موضعاً ووقتاً للنظر في القضية ولسماع البينات ، ثم لإصدار الحكم بعد الوقوف على حجج الخصماء .

وقد أسهم (الكهان) وهم رجال الدين عند الجاهليين في تطوير التشريع الجاهلي وفي القضاء بين الناس ، فقد كانوا حكاماً يحكمون ويقضون فيا يقع بين الناس من خصومات . وقد ساعدت منازلهم ولا شك في القضاء ، نظراً لسمو منزلتهم ، ولكونهم ألسنة الآلهة على الأرض . وقد كان سلطانهم بين أهل القرى أوسع وأقوى منه بين أهل الوبر . ولا يستبعد لذلك أن يكون حكمهم بين أهل الحضر أكثر وأقوى من حكمهم بين أهل البادية ، ففي البادية كان الحكم في أيدي سادات القبائل وأشرافها في الغالب . ولما كانت المعابد هي مواضع تجمع الكهان وممارستهم أعمالهم . فإن من الجائز لنا ان نعدّ تلك المعابد محاكم من محاكم الجاهليين إذ ذاك .

وتذكر كتب أهل الأخبار أن أحكام بعض هؤلاء الحكام خلّدت بين الناس وصارت متبعة عندهم، كالقوانين ، وأن قومهم ساروا عليها الى أن جاء الاسلام. وذلك يدل على مكانة الحَكَم في نفوس الجاهليين ومدى احترامهم لـه ، وأنّ الحكام كانوا عند الجاهليين بمثابة سلطة تشريعية تضع للناس الأحكام والقوانين . وقد ذكرت أمثلة من بعض تلك الأحكام التي صارت قانوناً للناس ساروا عليه . ونحن نأسف على أنها لم تأت بأمثلة كثيرة منها تقفنا على نواحي التشريع ومنطقه وفلسفته عند الجاهليين .

ولم يقتصر حكم هؤلاء وغيرهم على الفصل في الخصومات والمنازعات بسبب حوادث قتل أو سلب ونهب واعتداء على عرض أو سرقة أو ما شابه ذلك ، بل شمل حكم التحكيم في أمور أخرى مهمة كان خطرها في ذلك العهد أعظم وأشدّ من خطر هذه الأمور المذكورة ، مثل الحكم في التفاخر بالأنساب والآباء والأجداد والحكم في شعر الشعراء ، وفي الاعتداء على الجوار والمنافرات ، وأمثال ذلك من قضايا كان لها وزن كبير في المجتمع .

ومن أشهر المنافرات التي ذكرها أهل الأخبار ، المنافرة المعروفة بـ (منافرة عامر بن الطفيل مع علقمة بن علاثة) عند هرم بن قطبة بن سنان الفزاري ، ومنافرة بني هلال وبني فزارة ، ومنافرة الفقعسي وضمرة ، ومنافرة جرير البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي ، وغيرها[1] . وقد أثارت بعض المنافرات حروباً بين المتنافرين كما كان بين الحكام أناس عقلاء تمكنوا بحكمتهم وبعقولهم من تهدئة الحال واحلال السلم بين المتخاصمين .

ولم يفرق الجاهليون بين الرجل والمرأة في الاحتكام ، بل كانوا يحتكمون الى المرأة أيضاً . يقبلون حكمها قبولهم لحكم الرجل . وقد ذكرت كتب الأخبار أسماء بعض حكيمات العرب مثل : ابنة الخس ، وجمعة بنت حابس الإيادي ، وصحر بنت لقمان، وخصيلة بنت عامر بن الظرب العدواني ، وحذام بنت الريان[2] .

وفي كتب أهل الأخبار أقوال منسوبة الى هؤلاء ، مسجعة على طريقة سجع الكهان ، ذكر ان أكثرها صارت مثلاً ، ولا يزال بعضها حياً ، وبعضه من

---

١ بلوغ الأرب (١/٢٧٨ وما بعدها) .
٢ بلوغ الأرب (١/٣٣٨ وما بعدها) .

نوع الكلام المروي عن الحكماء . وهو يمثل الحكمــة وتجارب الحيــاة في بساطة وبأسلوب يلائم الطبيعة السهلة التي عاش فيها الناس في ذلك العهد وفي ظروف في مثل ظروف جزيرة العرب .

قرع العصا :

ونجد في كتب أهل الأخبار خبراً طريفاً رووه بمناسبة كلامهم عن (عامر بن الظرب العدواني) وعن (عمرو بن حممة الدوسي) ، فقالوا عن كــل واحد منها : (وضربت به العرب المثل في قرع العصا) ، وقالوا أيضاً : وهو (أول من قرعت له العصا)[1]. وحاولوا ايجاد تفسير لذلك ، فقالوا : وانما قالت العرب ذلك ، لأن كل واحد منهما كبر في السن وصار يذهل ، فاتخــذ له من يوقظه فيقرع العصا ، فيرجع اليه فهمه[2] . وهو تفسير مقبول عند أهـل الأخبار معقول في نظرهم ، لكنه في الواقع من هذه التفسيرات المألوفــة التي يكثر ورودها عن أهل الأخبار ، حين يسألهم سائل عن اسم قديم أو خبر قديم ، فيصنعون له هذه المصنوعات .

والذي أراه ان هذه الأشعار التي أشارت الى (قرع العصا) إن صح انها من نظم اولئك الجاهليين ، انما تشير الى عادة كانت عنـد سادات القبائــل والملوك والحكام من حمل (الصولجان) ، والعصي دلالة على الحكم والسيادة . فالعصي تشير الى الحكم والتأديب وكان الحكام يحملونها أو يحملها مساعدوهم عند قيامهم بالحكم بين الناس إشارة الى سلطة الحاكم . فكان الحاكم اذا أراد اصدار حكمه أو ردع من يتطاول بالكلام في حضرة الحاكم أو يحدث ضوضاء وجلبة أثناء المحاكمة يقرع بعصاه الأرض أو أي شيء آخر ، أو يأمر تابعه بقرع العصا ، كما يفعل حكام هذا اليوم إذ يقرعون كرسي القضاء بمقرعة حين يريدون تنبيه الحضار الى أمــر مهم ، أو إسكات المتكلمين المتطاولين أو من يعبث بنظــام المحكمة ، فينبه الى مخالفته هذه بقرع المقرعة كما كان يفعل حكام الجاهلية من قرعهم الأرض أو أي شيء آخر بالعصا .

---

١ بلوغ الارب (٣١٧/١) .
٢ بلوغ الارب (٣٣٢/١) .

ملابس الحكام :

ونحن لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نتحدث عن لباس حكام العرب أثناء حكمهم بين المتخاصمين ، لأن مواردنا ضنينة جداً بأخبارها في هذا الباب . ولأننا لا نملك نصوصاً جاهلية فيها أخبار عن آداب وطريقة لبس الحكام ، أو رسوم وصور الحكّام ، حتى نستنبط منها صورة عن ملابسهم وعن كيفية جلوسهم عند الحكم بين الناس . غير أن في بطون كتب أهل الأخبار بعض إشارات تفيد أن الحكام كانوا لا يفارقون الوبر ، وذلك جرياً على عادة العرب في أن يتخذوا لكل حالة لبوسها ، وفي أن يتخذ السادات والبارزون في المجتمع لهم ألبسة تميزهم عن سواد الناس[1] .

و (العدل) من أول الصفات التي يجب أن تتوفر في (الحاكم) . وقد ورد في القرآن الكريم : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[2] . وأشير الى لزومه ولزوم العدالة في مواضع عديدة أخرى . وكذلك كان شأن الجاهليين في لزوم توفر العدل عند الحكّام حتى يصلح للحكم وفي مراعاة العدالة عند اصدار الأحكام . ووردت في القرآن الكريم لفظة (اقسطوا) بمعنى اعدلوا ، وقيل : (القسط) هو النصيب بالعدل كالنصف والنصفة ، و (القسطاس) الميزان ، ويعبر به عن العدالة كما يعبر عنها بالميزان[3] . « وزنوا بالقسطاس المستقيم »[4] .

إنصاف المظلوم :

وقد كان في جملة العوامل التي حملت أهل مكة أو (قصي) كما يقول أهل الأخبار على تأسيس (دار الندوة) ، النظر في الخصومات والبت فيها ، وإنصاف المظلومين الذين لا نصير لهم ولا شفيع من ظلم المتنفذين الظالمين ، أي أنها كانت بمثابة محكمة تقضي بين الناس ، وتلزم الظالمين والمعتدين والمخالفين والخارجين على النظام العام بإطاعة المجتمع وعدم الخروج عليه ، كما كانت دار تشريع وسنّ

١ بلوغ الأرب (٣/٤٠٧) .
٢ النساء ، ٥٨ .
٣ المفردات (ص ٤١٢) .
٤ الإسراء ، الآية ٣٥ ، الشعراء ، الآية ١٨٢ .

قوانين . ومعنى هـــذا أن أهل مكة ، وهم حضر مستقرون شعروا بالحاجة الى وجود قوانين وأنظمة ومحكمة دائمة لتفصل في الخصومات ، وتنصف النـــاس ، وتنشر العدل والأمن والطمأنينـــة بينهم ، وقد وجدوا أن هذه الحاجة لا تتم ولا تنهض إلا بتثبيت العرف والعادة واختيار محل يجتمع فيه فقهاء هذا العرف وعرافه، للفصل فيما بين الناس على وفقه،والاجتهاد في سن قوانين تحفظ العدل بين الناس، وتأخذ بحقوق الضعفاء من الأقوياء .

وما حلف الفضول الذي عقد في دار ثري مكة ووجيهها (عبدالله بن جُدعان) لنصرة المظلوم ومساعدته على الأخذ بحقه ، واتخذ قرار فيه بإجماع الرؤساء « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه ما بلّ بحرٌ صوفةً ، وفي التآسي في المعاش » ، إلا تعبير واضح ، وحركـــة اصلاحية ، وتعبير عملي عن شعور المدينة بوجوب تحقيق العدل وانصاف الضعفاء المظلومين والأخذ بمبدأ العدالة في المجتمع . وهـــو من أخطر المبادىء ولا شك ومن أهم الأعمال التي كانت في مكة في هذا العهد. وقد أثر هذا الحلف في الرسول أثراً كثيراً،على حداثة سنه ، وكان كلما تذكره يعدّه من أهم الأحداث والأعمال في تلك الأيام،وقد عاشت روح الحلف وظهرت في مبدأ تحقيق العدالة في الإسلام[1] .

إن هذا الشعور بوجوب تحقيق العدالة ونشرها ، هو دليل عن دافع نشأ عند أهل مكة بوجوب تأسيس ادارة مدنية ، وحكومة تنظم شؤون المدينة وتديرهـــا بأسلوب مدني استشاري يشترك فيه رؤساء مكة وملؤها ، يحل في محـــل الفوضى التي عمت المدينة من استغلال كل قوي لنفوذه للحكم والتحكم في الناس كيف يشاء.

وقد ذكر بعض أهل الأخبار ان الذي حمل أهل مكة عـــلى التحالف في دار (عبدالله بن ُجدعان)، أن قريشاً (في الجاهلية حين كثر فيهم الزعماء وانتشرت فيهم الرياسة وشاهدوا من التغالب والتجاذب ما لم يكفهم عنـــه سلطان ، عقدوا حلفاً على رد المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم) . وكان سببه (ان رجلاً من اليمن من بني زبيد قدم مكة معتمراً ببضاعة ، فاشتراها منه رجل من بني سهم،

---

١ (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذاكرا للحال : لقد شهدت في دار عبدالله ابن جدعان حلف الفضول ، ما لو دعيت اليه لاجبت ، وما أحب ان لي به حمر النعم) ، الاحكام السلطانية (٧٩) ، ابن سعد ، الطبقات (١٢٨/١ وما بعدها) .

وقيل انه العاص بن وائل فلوى الرجل بحقه ، فسأله ماله أو متاعه ، فامتنع عليه فقام على الحِجْر وأنشد بأعلى صوته :

يـــالَ قصيٍّ لمظلومٍ بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
واشعث محرمٍ لم تقض حرمته بين المقام وبين الحِجر والحَجر
أقائم من بني سهم بذمتهم أو ذاهب في ضلالٍ مال معتمر

ثم قيس بن شيبة السلمي باع متاعاً على أبيّ بن خلف فلواه وذهب بحقه ، فاستجار برجل من بني جمح فلم يجره ، فقال قيس :

يالَ قصي كيف هذا في الحرم وحرمة البيت وأحلاف الكرم
أظلم لا يمنع عني من ظلم

فقام أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب فردّا عليـــه ماله ، واجتمعت بطون قريش ، فتحالفوا في دار عبدالله بن جدعان على رد المظالم بمكة وان لا يظلم أحد إلا منعوه وأخذوا للمظلوم حقه[1] .

وهكذا نجد ان الاستغاثة بالأسر وبذوي الجاه والنفوذ ، من جملة العوامل التي تعيد الحق الى من أخذ منه وتنصف المظلوم . وقد كان من العـــار على شخص يستنجد بهم أو بسيد من ساداتهم ، ثم لا يغاث ، لأن (المروءة) وهي من دين الجاهلية تقضي على الرجل الحر ، إجابة اغاثة المظلوم ونصرته بالأخذ بحقه . حتى اذا لم يكن من قبيلة ذلك الرجل . ومن صرخ باسمـــه في ناد أو في محل عام : استغاثة واستنجاداً ، ثم لا يجيب نداء الصارخ ، يكون قد قام في نظر قومه بعمل قبيح يجعله سبة للناس ومعيرة ، لذلك كان لا بد لمن يستغاث به من إجابة طلب المستغيث .

حكام العرب :

ولكل قبيلة حكّام يتحاكمون اليهم . ولأهل القرى والريف حكامهم أيضاً ،

---

١ الاحكام السلطانية (٧٨ وما بعدها) .

وهم من شعاب القرية ، أي أحيائها . فإذا تخاصم أهل الشعب ، تدخل حكامهم، أو حكام شعاب القرية الأخرى للفصل في الخصومة ولفض النزاع . ووجهاء الشعاب هم نواب الشعاب وألسنتها الناطقة والمحامون عن الناس . وهم الذين ينظرون في الخصومات بناءً على طلب المتخاصمين ، وبفضل تدخلهم هذا تفض المنازعات وتؤخذ الحقوق ويصان العدل والأمن . وقد تعرض (اليعقوبي) لموضوع (حكام العرب) ، فقال : « وكان للعرب حكام ترجع اليها في أمورها وتتحاكم في منافراتها ومواريثها ومياهها ودمائها . لأنه لم يكن دين يرجع الى شرائعه،فيحكمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والمجد والتجربة »[1] .

ومن أهم الشروط التي يجب أن تتوفر في الحاكم : العدل ، لأن الحاكم اذا لم يحكم بالعدل صار جائراً وصار حكمه حكماً ظالماً،فيخرج بذلك عن جادة العدالة . ولهذا عرف بعض العلماء (الحكم) بـ (القضاء بالعدل) ، فأخرجوا الحكم الجائر من مفهوم الحكم[2] .

وربط أهل الأخبار (الحكم) بـ (الحكمة) ، وجعلوا بينهما سبباً ونسباً . وقالوا : (الحكمة : العدل في القضاء كالحكم . والحكمة : العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها)[3] . وجعلوا (الحكام) (حكماء) ، لهم أقوال وأمثلة في الحكم وفي تهذيب النفس والعقل ، حتى انهم اذا ذكروا الحكام، قصدوا بهم حكماء العرب في الجاهلية ، واذا تحدثوا عن الحكماء ، عنوا من اشتهر وعرف وورد اسمه الينا من حكام الجاهلية . وذلك لأنهم ربطوا بين الحكم والحكمة. ورأوا في الحاكم الرجل العادل البصير الحكيم الذي ينفذ الى أسرار الأمور ويعمل بحقائق الأشياء ، فحكمه حكمة ، وقوله مثلٌ يعمل به ، لما فيه من عمق وتبصر ونفاذ الى داخل الأشياء ، لأنه صادر عن حكيم حليم راجح العقل ، عقله فوق مستوى العقول . فهو حاكم وحكيم و (فيلسوف) (يفلسف) المعضل المشكل، والأمر المتنازع عليه المشتبه فيه ، ويستنبط من كل ذلك نتائج منطقية تكوّن رأيه في الأمور وحكمه وحكمته ، حفظ بعضها أهلها الأخبار فدوّنوها في كتبهم ، وبفضل تدوينهم هذا وقفنا على هذه الأحكام .

---

١ اليعقوبي (١/٢٢٧) ، (حكام العرب) .
٢ تاج العروس (٨/٢٥٢) ، (حكم) .
٣ تاج العروس (٨/٢٥٣) ، (حكم) .

ونجد في العربية جملة تؤدي معنى الحكم بين الناس ، هي جملة : (القضاء بين الناس) . فالقضاء بين الناس ، هو الحكم بينهم ، ويقال لمن يقضي بينهم : (القاضي) . والقاضي هو القاطع للأمور المحكم لها ، وهو الحاكم . و (القضاء) (الحكم)[1] . و (قضاة العرب) هم (حكام العرب) على هذا التفسير .

وقد أقرّ الاسلام بعض الأحكام الجاهلية ، وهذّب بعضاً آخر ، ونسخ بعضاً وحرمه ويفيدنا هذا الإقرار أو التهذيب أو التحريم والمنع في الوقوف على النواحي القانونية عند الجاهليين ، ومعرفة معاملاتهم . ومن هذه الأمور المذكورة ما يدخل في باب العقوبات والجزاء ، ومنها ما يقع في المعاملات المدنية بين الناس ، كما تفيدنا المصطلحات الفقهية القديمة كثيراً في تكوين رأي في أصول التشريع عند الجاهليين .

أقدم حكام العرب :

وقد جعل (اليعقوبي) (الأفعى الجرهمي) ، أقدم حاكم حكم بين العرب وقضى بينهم . فقال : « وكان أول من استقضي اليه فحكم ، الأفعى بن الأفعى الجرهمي . وهو الذي حكم بين بني نزار في ميراثهم »[2] . وهو كذلك من أقدم حكام العرب في أغلب روايات أهل الأخبار . وذكر (اليعقوبي) بعده : (سليمان بن نوفل ، ثم معاوية بن عروة ، ثم صخر بن يعمر بن نفاثة بن عدي ابن الدئل ، ثم الشدّاخ وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وسويد بن ربيعة بن حذار بن مرّة بن الحارث ابن سعد ، ومخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، وكان يجلس على سرير من خشب ، فسمي ذا الأعواد ، وأكثم بن صيفي بن رباح بن الحارث بن مخاشن ، وعامر بن الظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر ابن عدوان بن عمرو بن قيس ، وهرم بن قطبة بن سيّار الفزاري ، وغيلان بن سلمة بن معتب الثقفي ، وسنان بن أبي حارثة المري ، والحارث بن عبّاد بن

---

١ تاج العروس (٢٩٦/١٠) ، (قضى) .

٢ اليعقوبي (٢٢٧/١ وما بعدها) ، (حكام العرب) .

ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، وعامر بن الضحيان بن الضحاك بن النمر بن قاسط ، والجعد بن صبرة الشيباني ، ووكيع بن سلمة بن زهير الإيادي ، وهو صاحب الصرح بالحزورة ، وقس بن ساعدة الإيادي، وحنظلة بن نهد القضاعي، وعمرو بن حممة الدوسي . وكان في قريش حكام منهم : عبد المطلب ، وحرب بن أمية ، والزبير بن عبد المطلب ، وعبدالله بن جدعان والوليد بن المغيرة المخزومي)[1] .

والذين ذكرهم (اليعقوبي) وغيره من أهل الأخبار من الحكام ، هم من اشتهر وعرف بالقضاء وبالإفتاء في الجاهلية القريبة من الاسلام . وممن تمكنت ذاكرة أهل الأخبار من اصطيادهم . وهناك ولا شك حكام آخرون عاشوا في العربية الجنوبية وفي العربية الشرقية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب ، لم يصل خبرهم الى علم أهل الأخبار ، فصرنا نحن من ثم في جهل من أمرهم .

وبين الحكام الذين ذكرت أسماؤهم ، حكام اشتهر ذكرهم، وذاع اسمهم بين قبائل عديدة ، لما عرف عنهم من شدة ذكاء وعلم ونباهة في الحكم ، وفي كيفية الفصل في الخصومات ، ولما اشتهروا به وعرفوا من النزاهة في القضاء ومن عدم التحيز في اعطاء الأحكام . ولهذا حكمتهم قبائل بعيدة عنهم . من هؤلاء : (عامر بن الظرب العدواني) الذي قيل عنه انه (كان من حكماء العرب، لا تعدل بفهمه فهماً ، ولا بحكمه حكماً) . ومثل (أكثم بن صيفي) ، الذي قيل عنه (انه كان قاضي العرب يومئذ) . ومثل (الأفعى الجرهمي) الذي تخاصم اليه المتخاصمون من قبائل مختلفة ومن مواضع بعيدة عن نجران .

هؤلاء الحكام لم يكونوا يحكمون بقانون مدوّن ، ولا بشريعة مكتوبة ، ولا بموجب كتب سماوية ، انما يرجعون الى عرفهم وتجاربهم وفراستهم في الأمور ، وما يستنبطه اجتهادهم من القياس على الأشياء برد الأمور الى مشابهاتها . فكانت أحكامهم أحكام طبع وسليقة ، أتت من غير تكلف ولا تعنت . ولهذا قبلت لموافقتها للطبع ، وصارت سنّة متبعة وعرفاً من الأعراف . وبينها أحكام ثبّتها الاسلام .

---

١ اليعقوبي (٢٢٧/١ وما بعدها) ، (حكام العرب) .

المحاكم :

وفي الأمثال العربية : (في بيته يؤتى الحكم)[1] . فبيت الحاكم هو محكمته ، إذ ليست في مواطن القبيلة محكمة ثابتة يجلس فيها الحكام للنظر في الخصومات . ولا يمكن أن تنشأ في منازل الأعراب محاكم من هذا النوع . وكل منازلها بيوت من وبر ، متناثرة هنا وهناك . وما يحدث بينها يحلّ في الغالب بتوسط الجيران وأهل البيوت ، إلا في الخصومات الكبيرة وهي قليلة في الغالب ، وتعرض على عقلاء القوم ، وسادات القبيلة للنظر فيها . فإذا حدثَ حدثٌ ما يأتي الخصوم أو (أهل الخير) و (الوساطة) الى بيت (حكم) يطلبون منه التوسط لإصدار حكم في ذلك الخلاف . فبيته هو المحكمة ، به يتحاكمون وبه يستمعون الى الحكم.

وتكون (نوادي) القبيلة أو القرى أو المدن ، محاكم أيضاً ، يفد عليها من له خصومة ، ليعرضها على ذوي الأمر والنهي والسادة ، للبت في خصومتهم ولانصافهم . وقد يجلس السادة في بيوتهم أو في قباب لهم يضربونها تكون لهم مجالس يمضون فيها أمورهم الخاصة وأعمالهم ، ويحكمون فيها أيضاً بين الناس . روي أن (أبا أزيهر بن أنيس الدّوسي) كان يقعد هو وأبو سفيان في أيامها في قبة لها ، فيصلحان بين من حضر ذلك المكان الذي هما به[2] .

تنفيذ الأحكام :

وليس للحاكم قوة تنفيذية تنفذ ما يصدره من أحكام . إنه لا يملك شرطة تنفذ حكمه ، ولا قوات أخرى تنفذ ما يصدره من أحكام بحق المحكوم عليهم : وتأخذ الحق من المعتدي والظالم . والقوة التنفيذية الوحيدة التي يستند اليها الحكم في تنفيذ حكمه ، هي العهود والمواثيق التي يأخذها من المتخاصمين بوجوب طاعة حكمه مهما كان ، وتطبيقه ، وعدم الخروج عليه . ولهذا لا يقبل الحكم النظر في قضية ومنازعة وخصومة ، إلا بعد اتفاق المتخاصمين أولاً على قبوله حكَماً ، وتعهدهم أمامه وأمام شهود بقبولهم لكل حكم يصدره مهما كان . فقوة الحكم إذن

---

١ اللسان (١٢/١٤٢) ، (حكم) .
٢ شرح ديوان حسان (٧٤) ، (للبرقوقي) .

قوة معنوية ، وكلمة شرف تصدر من المتخاصمين بإطاعة الأمر ، وكسر الكلمة معناه ، خروج على المألوف ، وتعريض بسمعة الناكث بالعهد ، تلحق به الأذى وتعريض بالحكم ، الذي لا يسكت بالطبع على إلحاق الإهانة به[1] .

فالضامن في تطبيق العدل والعدالة بين الناس هو تعهد المتخاصمين بإطاعة أحكام الحكام،ثم شخصية الحاكم ومنزلته ومصلحة الطرفين في فض النزاع حتى لا يستفحل ويطول ، إذ كان على المتخاصمين أنفسهم وجوب البحث عن حاكم عاقل كيّس ليفض الخصام ، فكان عليهم أنفسهم البحث عنه ، ولهذا كان من اللازم تعهدهم بتنفيذ ما يصدره من حكم وما يبت فيه من رأي .

وما ذكرته خاص بحكام الأعراب وبمواضع البداوة ، أما بالنسبة الى العرب الجنوبيين ، فلا أستطيع تعميم ما قلته عليهم ، لاختلاف نظم الحكم عندهم عن نظم الحكم عند الأعراب . ففي العربية الجنوبية حكومات وقوانين وتشريع . وفي محيط فيه تشريع ، لا بد وأن يكون فيه حكم حكومي ، وحكم حكام حكوميين، وتنفيذ أحكام . أي ان تنفيذ الأحكام يكون إلزامياً وقسرياً بقوة الحكومة وبقوة ما عندها من سلطة . فالحاكم في العربية الجنوبية حاكم معين ، يستمد حكمه من حكم القانون . ويستند تنفيذ حكمه على هيبة الحكومة وعلى قوة القانون .

ويظهر من نص معيني ناقص ويا للأسف،أن المعينيين كانوا يحاكمون الأشخاص في محاكم تسمى (معـذر) (معذرن) (م ع ذ ر ن) . وهي مجالس المدن أو القرى ، فيحاكم من يراد محاكمته فيها وفقاً للقوانين (سذمرت) (س ذ م ر ت) فإذا أصدر (المعذر) قراراً بحق شخص فيه حكم أو فيه تبرئة ، أعلن القرار على الناس . وتصدر القرارات وتعلـن الأحكام باسم الآلهة . وقد جرت العادة بأن يقدم الشخص ذبيحة يتقرب بها الى الإلـه (ود) في مقابل النظر في أمره[2] .

وفي محيط حضري ، فيه شرائع وتقنين وأحكام ، لا بد وأن تؤلف فيه محاكم للحكم بين الناس وللنظر في مخالفات المخالفين لأحكامها ولما تصدره من قوانين ، وللبت في تهرب التجـار أو الزراع من دفع ما عليهم من ضرائب وحقوق الى

---

١ (ثم رجعنا الى هرم بن سنان الفزاري · فقال : نعم ، لأحكمن بينكما ، فأعطياني موثقا اطمئن به أن ترضيا بحكمي ، وتسلما لما قضيت بينكما ، ففعلا ٠٠٠) ، بلوغ الأرب (١/٢٨٨) ·

٢ REP. EPIGR. 2948, Halevy 446, 447, Le Muséon, 1-2, 1953 ,pp. 116.

الحكومة . ولا يستبعد أن يعثر في المستقبل على نصوص قد تتحدث عن وجود محاكم ، وحكام وكتبة كانوا يدوّنون أحكام ما يصدره أولئك الحكام في أمور المتحاكمين .

ونظراً الى ما نجده في أخبار أهل الأخبار من تحكيم المتحاكمين لسدنة المعابد وللكهان في خصوماتهم ، ومن لجوئهم الى الأصنام للاستفسار منها عن السرقات وعن القتول ، وعن الأشخاص الذين ارتكبوا الجنايات ، فإن باستطاعتنا اعتبار المعابد محاكم مثل أي محاكم أخرى يكون من حقها الفصل في نزاع المتنازعين .

أصول المحاكمات وكيفية النظر في الدعاوي :

ولمّا كان المتخاصمون هم الذين يقررون الرجوع الى التحاكم لفض الخصومات، بدلاً من حلها عن طريق القوة ، لعدم وجود شرطة معينة ودوائر تكره المتخاصمين على مراجعة القضاء الحكومي الالزامي، فإن شكليات التحكيم كانت بسيطة تتناسب مع بساطة الحياة. فللمتخاصمين أن يختاروا حَكَماً يرضونه أو جملة محكمين مقبولين من الطرفين ، بأن يختار كل طرف محكماً أو محكمين ، على أن يوافق على اختيارهم الطرف الثاني أيضاً . واذا ما تم الاختيار برضاء الطرفين أخذ الحاكم أو المحكمون عهداً من المتخاصمين جميعاً بوجوب السمع والطاعة وعدم الاعتراض على قرارات الحكم ، فإن وافقوا وأعطوا كلمتهم بالموافقة ، عيّن الحاكم أو المحكمون وقت المحاكمة للاستماع الى بينات كل طرف وما عنده من أدلة وشهود . وقد تأخذ المحاكمات زماناً طويلاً ، واذا ما انتهى الطرفان من عرض حججهما ، أعمل الحاكم رأيه أو المحكمون آراءهم للنطق بقرار الحكم الذي يكون تنفيذه إلزامياً لا بقوة القانون ، ولكن بقوة المسؤولية الأدبية والكلمة التي أعطاها الطرفان بوجوب السمع والطاعة لما يصدر من حكم .

وقد عرفت قاعدة (البينة على من ادعى واليمين على من أنكر) عند الحكام الجاهليين أو عند بعضهم،وهي قاعدة تفيد ان الأصل في الانسان براءة الذمة. ويتفق مع قاعدة (البينة على من ادعى لا على من أنكر) الواردة في القوانين الرومانية واليونانية [١] .

---

١ مدونة جوستنيان (ص ٣٦٧) .

ويذكر أهل الأخبار ان (قس بن ساعـدة الإيادي) أحد الخطبـاء المشهورين والحكام المعروفين ، هو الذي وضع قاعدة (البينة على من ادعى واليمين على من أنكر)[1] ، فصارت سنّة منذ ذلك اليوم .

هذا ، ولا بد لي من التنبيه الى العهود والوصايا التي وضعت في صدر الاسلام في كيفية الحكم بين الناس . مثل وصايا الرسول الى الصحابة في كيفية الحكم بين الناس ، ومثل عهد (عمر) الى (أبي موسى الأشعري) وعهد (علي) الى قاضيه (شريح) وأمثال ذلك من أوامر[2] ، لما فيها من أصول في المحاكمات كانت سنّة متبعة عند حكام الجاهلية ، وقد أقرها الاسلام ، لأنهـا أصول من أصول المنطق والطبع في الحكم وفي النظر في أمور الناس .

القسم :

فإذا ادعى مدعٍ دعوى على شخص ، ولم تكن لديه بينة ، فليس له إلا أن يطلب من الناكر القسم ، فإن أبـى حكم عليه بالأداء . هـذه سنة الجاهليين في الحكم . وقـد حكم الرسول على المدعين بإظهار بينتهم ، فإن عجزوا طلب من المدعى عليهم القسم بأن خصمهم مبطل وأن الحق في جانبهم . وقد اشتكى بعض المدعين للرسول من أن خصومهم فجرة لا يبالون بمـا يحلفون ولا يتورعون من قسم كاذب ، ولكن الرسول حكم بأنهم ما داموا قد عجزوا عن الاثبات ببينة ، فليس لهم سوى تحليف خصومهم مهما كانوا[3] .

فعلى من يدعي وجود حق له على شخص اثبات ما يدعيه بالأدلة والبراهين ، أما الطرف الثاني الذي ينكر ذلك الحق ، فعليه أداء اليمين . فـإذا عجز المدعي عن اثبات حقه ، وطلب من المدعى عليه أداء اليمين ، وجب عليه أداء اليمين، أي القسم . ويكون ذلك القسم بالآلهة أو بالآباء ، والغالب أن يكـون في موضع ذي حرمة وقدسية ، كان يكون في معبد ، وأمام صنم ، أو عنـد قبر مثل قبر

---

١ الأمثال ، للميداني (٩٩/١) .
٢ الأحكام السلطانية (ص ٧١) .
٣ التاج الجامع للاصول في أحـاديث الرسول ، للشيـخ منصور علي ناصـف ، (٧٤/٣) ، (دار احياء الكتب العربية ، بمصر) .

سيد قبيلة أو قبر والد من يقسم ، وأمثال ذلك . وصورة هذا القسم مثل: وحق هذا البيت ، أو وحق هُبَل ، أو وحق أبي أو وتربة أبي[1] .

ويعرف القسم باليمين أيضـاً ، وذكر علماء اللغة أن العرب إنما سمت القسم يميناً ، لأن من عادتها في القسم أنها كانت إذا تحالفت ضرب كل امرىء منهم يمينه على يمين صاحبـه ، أو أنهم كانوا يتماسحون بأيمانهم ، فيتحالفون . ومن هنا أطلقوا على القسم اليمين[2] . ولذلك قيل: «أعطاه صفقة يمينه على هذا الأمر». ثم سمّوا الحلف يميناً على هذا المعنى . وانثوا اليمين على تأنيث اليد ، فقالوا : «حلف يميناً برّة ، ويميناً فاجرة»[3] .

وقد ورد ذكر (اليمين) في بيت لزهير بن أبي سلمى ، هو :

وإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء[4]

وقد جمع هذا البيت طرق أخذ الحق واثباته عند الجاهليين . فإما يمين ، وإما منافرة ، وهي المحاكمة ، وإما الجلاء .

ومن اليمين : اليمين الغموس[5] .

فاليمين المعروفة ، والنفار المنافرة الى الحكام ، وهي المحاكمة اليهم ليفصلوا بالحق ، والجلاء : البينة التي تجلو الشك والشبهة فتغني عن اليمين وعن التحاكم. وقد قالوا : (يمين جلواء) و (حلفة جلواء) و (بينة جلواء) أي يتجلى بها الحق وينكشف . وذكر ان (عمر) كان يعجب من حسن هذا التقسيم ويردد بيت (زهير) من التعجب . ورووا انه قال : (لو أدركته لولّيته القضاء لمعرفته بما تثبت به الحقوق)[6] .

ونوع من اليمين عرف بـ (اليمين الأصر) . وهـو أن يحلف بطلاق أو

---

١ القسطلاني : ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٧٦/٦) ، (٣٧٧/٩) ، صحيح مسلم (٨٠/٥) .
٢ تاج العروس (٣٧٢/٩) .
٣ ايمان (ص ٣٤) .
٤ البيان والتبيين (٣٠٤/١) ، (فإن الحق) ، ايمان (ص ٣٢) .
٥ العقد الفريد (٩٠/٣) .
٦ البيان والتبيين (١٣٥/١) ، الصناعتين (٢٦٨) ، ايمـان (٣٣) ، العمـدة (٣٠/١) .

عتاق أو نذر . وهو من أثقل الايمان وأضيقها مخرجاً في الإسلام . يجب الوفاء به ، ولا يعوض عنه بكفّارة . وعن (ابن عمر) : من حلف على يمين فيها أصر فلا كفّارة بها[1] .

وذكر (النابغة الذبياني) اليمين في شعر له . قال فيه :

حلفتُ يميناً غير ذي مَثْنوية   ولا عِلمَ إلا حسن ظن بصاحب

والمثنوية : الاستثناء في اليمين[2] .

واليمين الغموس اليمين الكاذبة الفاجرة . وهي اليمين الكاذبة التي تقطع بها الحقوق . وعدّت اليمين الغموس من أعظم الكبائر في الاسلام . وهو ان يحلف الرجل ، وهو يعلم انه كاذب ليقتطع بها مال غيره[3] . وقيل اليمين الغموس، هي ان يحلف على أمر ماض انه كان ولم يكن . وذكر ان الرسول ذكر (الغموس) فقال : « الغموس تدع الديار بلاقع »[4] .

هذا وقد جمع (أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله النجيرمي) الكاتب ، أيمان أهل الجاهلية في كراسة دعاها (أيمان العرب في الجاهلية) . وقد ذكر في مقدمته لها ، ان العرب كانت في الجاهلية على مذاهب في أيمانها ، وذلك على حسب عقيدتها ودينها . فكان معظمها ممن يدين الله لذلك كان قسمها بالله تعالى، والقسم به عندهم أعظم الأيمان ، ولذلك قال (النابغة الذبياني) :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب[5]

وكان من قسمهم به قولهم : (واللهِ ، فإنها تملأ الفم ، وترقىء الدم) ، اي تبرىء الظنين بالدم من الدم فيرقأ دمه ، اي يسكن محقوناً في مسكه فلا

---

١ تاج العروس (٣/١٥) ، (أصر) .
٢ الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي (٢/٥) .
٣ ارشاد الساري (٩/٣٩١) ، اللسان (٦/١٥٦ وما بعدها) .
٤ ايمان (ص ٣١) .
٥ أيمان العرب في الجاهلية (ص ١٣) ، (تحقيق محب الدين الخطيب) ، الطبعة الثانية القاهرة ١٣٨٢ ، المطبعة السلفية ، وسيكون رمزه : أيمان .

يراق[1] ، وقولهم « لا والذي يراني من فوق سبعة أرقعة » ، اي من فوق سبع سماوات . ويؤيد هذا القسم ما جاء في حديث الرسول انه قال لسعد بن معاذ لما حكم في بني قريظة : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة »[2] . وقولهم « لا والذي شق الرجالَ للخيل ، والجبال للسيل » . وقولهم « لا والذي شقهن خمساً من واحدة » ، يعني أصابع يده اذا حلف فرفع يده وفرق أصابعه[3].

ومن ايمانهم ايضاً قولهم « لا والذي وجهي زَمَمَ بيته »[4] ، وقولهم « لا والذي لا يواريني منه خَمَر » والخمر ما واراك من شجر ، والمعنى : لا يواريني منه شيء[5] . وقولهم : « لا والذي لا يواريني منه غيب » ، وقولهم « لا والذي لا يتقي بوجاح » ، أي لا يستر منه وجاح فيتقي به . والوجاح كل ما حال بينك وبين شيء من ستر او ثوب او حائط او غير ذلك . وقولهم : « لا والذي لا اتقيه إلا بمقتله » ، أي كيف رمت أن اتقيه فهناك المقتل . وقولهم : « والذي أخرج العذق من الجريمة ، والنار من الوثيمة »[6] .

ومن ايمان هذه الطبقة المؤلهة : « لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة »[7] ، وقولها « لا والذي سمك السماء » ، و « لا الذي يراني من حيث ما نظر »[8] : و « لا وفالق الإصباح وباعث الأرواح »[9] ، وقولها « لا ومجري الرياح » ، و « لا ومجرى الإلهة » ، أي الشمس وقولها « لا يأتمر له جُدولي » ،والجُدول الأعضاء ، أي ان أعضائي كلها جند لله تعالى عليّ[10] .

ومن ايمانهم : « لا ومقطع القطر » و « لا ومميت الرياح » ،و « لا ومجري

---

١ أيمان (ص ١٤) .
٢ أيمان (ص ١٥) .
٣ أيمان (ص ١٦) .
٤ أيمان (ص ١٧) ، المخصص (١١٨/١٣) ، ذيل الامالي (ص ٥١) ، المزهر (١٦٨/٢) .
٥ أيمان (ص ١٦) .
٦ أيمان (ص ١٧) ، المزهر (١٦٨/٢) ، المخصص (١١٨/١٣) ، الامالي ، للقالي (١٠٢/١)، (٥١/٣) .
٧ أيمان (ص ١٩) ، محاضرات الأدباء (٣٠٠/١) .
٨ الأمالي ، للقالي (٥٢/٣) ، المزهر (١٦٨/٢) ، المخصص (١١٨/١٣) ، أيمان (١٩) .
٩ أيمان (١٩) .
١٠ أيمان (٢٠) .

البحر » ، و « لا ومنشىء السحاب » ، و « لا والذي دحا الأرض » و «لا والذي سجد له النجم والشجر » ، و « لا والذي حجت له العمائر » ، والعمارة الحي الكبير ، و « لا والذي ذابت له الشعور » ، و « لا وفاطر الأشباح » و « لا والذي يرصدني أنى سلكت » ، و « لا ورب الشمس والقمر » ، و « لا ورب البيت والحجر » ، و « لا والذي أخرج الماء من الحجر، والنار من الشجر » و « لا ورازق الأنام » ، و « لا ورب النور والظلام » ، و «لا ورب الحل والحرام » و « لا ورب الحل والاحرام » . قال مهلهل :

قتلوا كليباً ثم قالوا ألا اربعوا كذبوا ورب الحلّ والإحرام[1]

ومن أيمانهم « لا والذي أمته من كل أوب » ، و « لا والراقصات ببطن مرّ » ، و « لا والذي رقصن ببطحائه » ، و « لا والراقصات ببطن جَمع»، و « لا والذي نادى الحجيج له » ، و « لا وقاتي نفسي » ، اي الذي جعل نفسي قوتاً لمدة حياتي . و « لا وقائت نفسي القصير » ، يريد قصر العمر ، و « يمين الله لقد كان كذا » و « ايمن الله » ، و « ايم الله » و « م الله لقد كان ذاك » و « أم الله » ، و « ايمن الله ، وايمن الكعبة » ، و « رب الراقصات »[2] .

ومن ذلك قولهم : « عمـرك الله هل ذاك ؟ » ، و « قَعيدك الله » ، و « قعيدك الله » ، و « لا ورافعها بغير عمد ، لا وسامكها ، لا وباسطها ، لا وماهدها وداحيها » ، و « لا والذي أمد اليه بيد قصيرة » ، و « لا والذي كل الشعوب تدين له » و « لا والذي يراني ولا أراه » ، و « حرام الله » و « يمين الله »[3] . و « أقسم بالله » و « أقسم بالله قسماً صادقاً،وقسماً باراً»[4].

ومما يؤيد قسم هذه الطائفة بالله ما جاء في القرآن: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم»[5].

١ أيمان (ص ٢١ وما بعدها) .
٢ أيمان (ص ٢٢ وما بعدها) ، الأمالي (٥٢/٣) ، المزهر (١٦٨/٢) ، المخصص (١١٨/١٣) ، الحيوان (٣٧٥/٥) .
٣ أيمان (ص ٢٥ وما بعدها) ، المزهر (١٦٨/٢) ، الأمالي (٥٢/٣) ، المخصص (١١٨/١٣) .
٤ أيمان (ص ٣٤) .
٥ سورة النور ، الآية ٥٣ ، فاطر ، الآية ٤٢ .

ومن قسم عبدة الأوثان والأصنام قولهم «لا واللات والعُزّى»، و «لا ومناة» وكذلك قسمهم ببقية الأصنام. وربما أقسموا بما يعتر لها[1].

وأقسموا بالماء والسماء والنجوم، وبظواهر طبيعية اخرى، كقولهم «لا والسماء، لا والماء، لا والآيبات، لا والطارقات، لا والراكعـات، لا والسابحات». والسابحات النجوم، و «لا ونفنف اللوح، والماء المسفوح، والفضاء المندوح، والنور الموجوح، اي المحجوب. والنفنف ما بين السماء والأرض، وكل هواء بين رأس جبل وأسفله، واللوح الهواء بين السماء والأرض، المسفوح المصبوب، وعنى به البحر، والفضاء يعني الأرض، والمندوح الموسع. وكأنهم عظموا هذه الأشياء لأن بها قوام العالم[2].

ومن ايمانهم: «لا والذي اكتع له»، أي احلف به. و (لا وجدك)، والجد الحظ، و (لعمرك)، أي القسم بالعمر، كما أقسموا بقولهم: (وعيشك). والعرب تقول في القسم: لعمري ولعمرك. وورد في القرآن الكريم (لعمرك)، أي لحياتك. وجاء لعمر الله وعمر الله[3].

وقد أقسموا بالرأس، أي برأس الإنسان، وبالعيش وبالخبز والملح الى غير ذلك من ايمـان. يغلب على بعضها طابع السذاجة والبساطة، وبعضها مضحكة لا تصلح أن تكون مادة لقسم، لكنهم كانوا يقسمون بها كما يقسمون بالأمـور المهمة في نظرنا.

وذكر (النجيرمي) أن قسم (كهـان العرب) كان بالسماء والماء والأرض والهواء، والنور والضياء، والظلمة، وبغير ذلك. وقد أقسم (سواد بن قارب الدوسي) بقوله: «أقسم بالضياء والحلك، والشروق والدلك»[4].

ومن ايمانهم: «يإصر وأصر ليكونن ذلك»، والاصر العهد، ومعنى اصر: حتم لازم. والالّ: العهد[5].

و (جير) في الإيجاب بمعنى نعم وأجل ويمين. وقالوا: (لا جـير)،

---

١ أيمان (ص ٢٦).
٢ أيمان (ص ٢٧ وما بعدها).
٣ اللسان (٤/٦٠١)، (عمر).
٤ أيمان (ص ٣٧ وما بعدها).
٥ أيمان (ص ٢٨ وما بعدها).

بمعنى (جير) ، أي قسم . كما قالوا : « لا أقسم . بمعنى : أقسم »[1] .

وعوض من أسماء الدهر ، وقد حلفوا به[2] . و (الدم) ، يمين كانوا يحلفون بها في الجاهلية . يعني دم ما يذبح على النصب . وفي حديث الوليد بن المغيرة : والدم ما هو بشاعر ، يعني النبي[3] . ولتوكيد اليمين وتلبيته ، وايجاب الحالف على نفسه أمام الناس بالوفاء بما أقسم به وفاءً تاماً ، لا مهاودة فيه ، استعملوا بعض الصيغ مثل : « قسماً لأفعلن ذاك ، ويميناً وأليّة ، ونحباً ، وعهداً ، ونذراً ، وموثقاً ، وميثاقاً ، وحقاً ، ولحقاً ، وليميناً ، ولقسماً وقال آخرون : لحق لأفعل »[4] .

ومن العبارات التي استعملها الجاهليون في توكيد ايمانهم قولهم: « عهد لا يزيده طلوع الشمس إلا شداً ، وطول الليالي إلا مداً » . و « ما بلّ بحرٌ صوفة » ، و « ما أقام رضوى »[5] .

واذا أوجب شخص على نفسه يميناً ، قالوا : « أوذم فلان يميناً » و «أبدع يميناً »[6] .

وإذا ترك الشخص (اللام) التي هي آلة القسم ، صار يمينه بمنزلة النفي للفعل كقوله : « آلى فلان يفعل » ، و « آلى يفعل » و «آليت أفعل » . فهو قسم على ترك الفعل : لأن اليمين بمنزلة النفي للفعل حتى يأتي باللام التي هي أداة القسم . كقولك « آليت لأفعلن » وكذلك قولك: والله أفعل ، وأقسمت افعل، وهذا مما يغالط به ويجوز على كثير من الناس[7] .

وقالوا : « لا خير في يمين لا مخارم لها » ، أي لا مخارج لها .

وإذا حلف الرجل قالوا : جلا ابو فلان ، وتحلّل أبا فلان ، اي استثنى .

---

١ ايمان (ص ٣٠) .
٢ أيمان (ص ٣٠) .
٣ اللسان (١٤/ ٢٧١) ، (دمي) .
٤ ايمان (ص ٢٨) .
٥ ايمان (ص ٣٥) ، الحيوان (٤/ ١٥٠) .
٦ ايمان (ص ٣٠) .
٧ ايمان (ص ٢٨) .

وكانت العرب تسمي الإستثناء في اليمين : (التحليل)[1] . وسمته (المثنوية) كذلك[2] .

وتؤدي جملة : (لا جرم) معنى قسم ويمين . وهي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة ، فجرت على ذلك وكثر استعمالهم إياها ، حتى صارت بمنزلة حقاً لأفعلن . ومن العرب من يصلها من أولها بـ (ذا) ،فيقول:لا ذا جرم[3].

وكان اكثر حلف عرب الحجاز باللآت والعزّى ، وربما جنحوا عن صورة القسم الى ضرب من التعليق . مثل أن يقول : إن فعلت كذا فعلي كذا ، أو فأنا كذا ، او فأكون مخالفاً لكذا او خارجاً على كذا او داخلاً في كذا ، وما اشبه ذلك .

وقد كانت العرب تأتي في نظمها ونثرها عند حلفها بالتعليق بإضافة المكروه إلى مواقعة ما يحذرونه ، من هلاك الأنفس والأموال وفساد الأحوال ، وما يجري مجرى ذلك .

وقد ذكر ان الأعراب لا يحلفون أبداً يميناً إلا على هذا النحو : لا أورد الله لك صافياً ، ولا أصدر لك وارداً ، ولا حططت رحلك ، ولا خلعت نعلك ، يعني إن فعلت كذا[4] .

ومن بعض أيمان شعراء الجاهلية ، قول النابغة الذبياني :

ما إن أتيتُ بشيء أنت تكرهه إذاً فلا رفعتْ سوطي إلي يدي

وقول عدي بن زيد :

فإن لم تهلكوا فثكلت عمراً وجانبتُ المُروّق والسماعا
ولا ملكت يداي عنان طرف ولا أبصرت من شمس شعاعا
ولا وضعت إليّ على خلاءٍ حصان يوم خلوتها قناعا[5]

---

١ (قال الشاعر : تحلل أبيت اللعن في قول آثم) ، ايمان (ص ٣٣) ، الراغب الاصبهاني ، المحاضرات (١/ ٣٠٠) .

٢ قال النابغة : (حلفت يميناً غير ذي مثنوية) ، أيمان (ص ٣٣) ، المخصص (١٣/ ١١٥) محاضرات الراغب (١/ ٣٠٠) .

٣ الفاخر (ص ٢٠٠) .

٤ صبح الأعشى (١٣/ ٢٠٣ وما بعدها) .

٥ صبح الأعشى (١٣/ ٢٠٤ وما بعدها) .

ومن أسماء (الأيمان) النوافل . ونقل : حلف ، والتنقيل التحليف . يحكى أن (منقذ بن الطماح الأسدي) المعروف بـ (الجميح) لقيه (يزيد بن الصعق) فقال له يزيد : هجوتني . فقال : لا والله . قال : فانفل . قال : لا انفل . فضربه يزيد . وأصل النفل النفي ، وسميت اليمين في (القسامـة) نفلاً ، لأن القصاص ينفى بها . وفي حديث القسامة : (قال لأولياء المقتول : أترضون بنفل خمسين من اليهود ما قتلوه ؟) . ويقال نفلته فنفل ، أي حلفته فحلف[1] .

وقد ألف العلماء في (نوافل) العرب . وقد أورد (ابن النديم) أسماء جملة مؤلفات نسبها لابن الكلبي في نوافل القبائل . منها : (كتاب نوافل قريش) و (نوافل إياد) و (نوافل كنانة) و (نوافل أسد) و (نوافل تميم) و (نوافل قيس) و (نوافل ربيعة) و (نوافل قضاعة) و (نوافل اليمن) و (نوافل من نفل من عاد وثمود والعماليق وجرهم)[2] .

وكانت الجاهلية إذا تحالفت ، تحالفت عند (الحطيم) ، فكانت قريش ومن إليها تأتي اليه وتحلف عنده ، وتعتقد أن الكاذب هالك[3] . ويذكر أهل الأخبار انهم كانوا بعد طوافهم بالبيت يأتون للحلف ، وبعد أن تحلف به عند الركن ، يأتون الى الحطيم ، فيلقي الحالف فيه سوطه او نعله او قوسه ، بعد أن يحلف ، علامة لعقد حلفه ، ويعتقدون أن الحالف الآثم سيهلك ، وتتعجل له العقوبة بعد قسمه هذا . وقد ذكر أن الحطيم هو ما بين الحجر الأسود والمقام وزمزم[4] .

وقد ذكر أهل الأخبار بيتاً لزهير بن أبي سلمى ، ذكروا أنه أقسم فيه بمكة ، وهذا البيت هو :

فتجمع أيمن منـّا ومنكم بمقسمة تمور بها الدماء[5]

وقد ذكر علماء اللغة أن (أيمن) و (أيمان) جمع يمين . وأن (ايمن الله) و (ايم الله) ، و (هيم الله) ، و (أم الله) ، و (من الله) ،

---

١ أيمان (ص ٣٩ وما بعدها) .
٢ أيمان (ص ٤٠) ، الفهرست (١٤٧) ، (أخبار هشام الكلبي) .
٣ تاج العروس (٣٥١/٨) ، (حطم) .
٤ ارشاد الساري (١٨٢/٦) .
٥ تاج العروس (٢٦/٩ وما بعدها) ، (قسم) ، (٣٧٢/٩) ، (يمن) .

و (م الله) ، و (ليم الله) ، و (ليمن الله) ، مـــن أدوات القسم التي أقسم بها الجاهليون[1] .

وذكروا أن (زهيراً) قصد بلفظة (مقسمة) مكة ، حيث ينحر بها الجزور فتمور بها الدماء . وذكر أن (مقسمة) اليمين التي تؤخذ عند الدم للقسامــة ، فإذا كان القوم عشرة ردّت اليمين عليهم حتى تكون خمسين قسامة[2] .

وبعض هذه الأيمان ايمان غريبة غير مستعملة ولا مستساغة في عرف هذا اليوم، مثل : (ورب المُخيسات) و (ربّ البدن) . وهي ايمان أقسم بها (حسان ابن ثابت) في شعر قاله في (آل جفنة)[3] .

والخوف من العاقبة السيئة التي تحل بحالف اليمين الكاذبة ، هي التي ردعت الجاهليين من الحلف كذباً . ولذلك امتنعوا من الحلف وتجنّبوه جهد امكـانهم . ويظهر أن الجاهليين كانوا يخافون جداً من القسم ، أي اليمين ، لاعتقـادهم أن الحــانث بالقسم هالك لا محالة ، إن لم يكن عاجلاً فآجلاً . ولا زال الأعراب يخشون أداء اليمين ، وهم يفضلون خسران قضيتهم على أداء اليمين .

عقد الأيمان :

ونظراً الى ما للأيمان من أهمية ومكانة ، وقدسية في نظر الحالف والشاهد ، صاروا إذا أرادوا القسم وأداء اليمين ، أدوها في مراسم مؤثرة وفي ظروف خاصة وفي مكان ذي قدسية في النفوس ، وبحضور كهان أو أناس لهم منزلة ومكانة ، حتى يكون للقسم روعة وهيبة ، تتناسبان مع مكانته وقدسيته عندهم .

والغالب عند عقد الأيمان عقدها على النار ، وذلك انهم يحضرون من يريد أداء القسم ومن سيكون شاهداً على صحة القسم ، ومن يقوم بأخذ القسم وبإجراء طقوسه على يديه . ثم يوقدون ناراً ، يدنون منها حتى تمحشهم أو تكاد تحرقهم، وعدّدوا منافع النار ، ودعوا على ناقض تلك اليمين والناكث لذلك العهد بحرمان تلك المنافع ، ويهولون بها على من يستخف بحقوقها ، ويتوعدونه بحرمان مرافقها،

---

١ تاج العروس (٣٧٢/٩) ، (يمن) .
٢ المعاني الكبير (١١١٩/٢) .
٣ ديوان حسان (١١١) ، (للبرقوقي) .

وفي ذلك نكد العيش وحرمان الحياة . وكان الرجل القيم بأمر تلك النار ويسمى (المهول) ، يطرح في النار ملحاً ، وأحياناً ملحاً وكبريتاً ، يهول بها على الحالف وقد يطرح في النار البخور ، أو يلقي فيها الأخشاب النفيسة ذوات الروائح الطيبة الزكية . فإذا استشاطت قال للحالف : (هذه النار تهددنك) ، وأمثال هذه الكلمات ، ليلقي الروع في نفس الحالف ، فلا يحلف كذباً ، ولا يتجرأ على الإثم بأداء اليمين باطلاً .

فإن كان اليمين لتحليف شخص عن شيء ينكره مثل سرقة أو قتل أو ما شابه ذلك ، هدد سادن النار بتلك النار ، فإن كان الشخص مبطلاً ، كأن يكون قد قام بالسرقة ، نكل وامتنع عن أداء القسم بنفي وقوع الفعل منه ، وإن كان بريئاً حلف ، ولهذا سمّوها (نار المهول) أو (نار الهولة) أو (المهولة)[1] . وفي هذا المعنى جاء في قول الشاعر (أوس بن حجر) :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه   كما صدّ عن نار المهولِ حالف[2]

وقد أشار (الكميت) الى هذه النار أيضاً بقوله :

كهولة ما أوقد الحالفون لدى الحالفين وما هوّلوا[3]

عقد الأحلاف :

وكانوا في الجاهلية اذا تحالفوا وتعاهدوا أوقدوا ناراً ، على نحو ما ذكرت ، وتحالفوا عندها ، ويتصافحون ويقولون : (الدم الدم ، والهدم الهدم) ، والمعنى دماؤنا دماؤكم وهدمنا هدمكم ، أي فما هدم لكم من بناء أو شأن فقد هدم لنا وما أريق لكم من دم فقد أريق لنا ، يلزمنا من نصرتكم ما يلزمنا من نصرة

---

١ أيمان (ص ٣٦) ، اللسان (١٤/٢٣٨) ، بلوغ الأرب (٢/١٦٢ ، ١٦٦) .
Muh. Stud., BD., I, S. 66, Goldziher, in Literaturblatt für Orient. Philologie, 1886, S. 24, Kinship, p. 58.

٢ اللسان (١٤/٢٣٨) ، أيمان (ص ٣٦) ، البيان والتبيين (٣/١) .

٣ أيمان (ص ٣٦) ، البيان والتبيين (٣/١) ، الحيوان (٤/١٥٠) ، محاضرات الراغب (١/٣٠٢) .

أنفسنا . ولما كان الحلف بين الرسول والأنصار ، قال لهم الرسول : (الدم الدم والهدم الهدم)[1] .

وكان من شأنهم إذا تحالفوا أن يغمسوا أيديهم في الدم . كالذي كان من أمر حلف (لعقة الدم) ، حيث غز المتحالفون أصابعهم في جفنة مملوءة دماً ، ثم لعقوها ، فسمّوا لعقة الدم[2] . وكالذي ذكر من أمر (خثعم) ، من أنهم إنما سموا خثعماً لأنهم غمسوا أيديهم في دم جزور[3] . أو الذي ذكروه من قصة قتل (الهجرس) لـ (جسّاس بن مرّة بن ذهل بن شيبان)[4] . وقد عرف قوم من (بني عامر بن عبد مناة بن كنانة) بـ (لعقة الدم)[5] .

وكانوا ربما تعاقدوا وتحالفوا وتعاهدوا على الملح . والملح عندهم شيئان : ملح الأدام الذي يتملح به ، واللبن . وذلك أنه سواء عندهم أن يجتمعوا على طعام وملح أو على شرب لبن . هذا عندهم مما لحة . ولذلك سمّوا اللبن ملحاً ، فقالوا من البابين جميعاً : (بيننا ملح)[6] .

وربما تعاقدوا وتعاهدوا وتحالفوا بغمز أصابعهم في جفنة مملوءة طيباً ، ثم يمسحون أصابعهم عند الكعبة أو عند صنم من الأصنام،أو في موضع آخر مقدس ، كالذي فعله قوم من (بني عبد مناف) تحالفوا وتعاهدوا بغمز أيديهم في جفنة مملوءة طيباً ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ، فسمّوا (المطيبين) وعرف الحلف بـ (حلف المطيبين)[7] . وكالذي ذكر من أمر (الرباب) ،

---

١ أيمان (ص ٣٤ وما بعدها) .

٢ ابن هشام ، سيرة (٢١٣/١) .

٣ المفضليات (ص ٧٠٥) .

٤ (لاعق الدم) الأغاني (١٥٠/٤) ، (١٥٦/١٨) .

٥ الأغاني (٢٦/٧) .

٦ قال أبو الطمحان القيني :

وإني لأرجو ملحها في بطونكم ... وما بسطت من جلد أشعث أغبرا

وقال شتيم بن خويلد :

لا يبعد الله رب العباد ... والملح ما ولدت خالده

أيمان (ص ٣٧) ، الحيوان (١٥١/٤) .

٧ ابن هشام ، سيرة (١٤٣/١ فما بعدها) ، الطبري (١١٣٨/١) ، (طبعة ليدن) ، ابن الأثير (١٨٣/١) ، اللسان (٤٠٠/١٠) ، المعارف (٢٠٤) ، التنبيه (١٨٠)، (طبعة الصاوي) ، اليعقوبي (٢٨٧/١) (طبعة هوتسما) .

لأنهم أدخلوا أيديهم في ربّ وتعاقدوا وتحالفوا عليه[1] .

وقد بايعت نساء قريش الرسول بعد فتح مكة ، على جفنة ماء ، فذكر أهل الأخبار أن إناءً فيه ماء وضع بين يدي الرسول ، (فإذا أخذ عليهن وأعطينه غمس يده في الإناء ثم أخرجها ، فغمس النساء أيديهن فيه . ثم كان بعد ذلك يأخذ عليهن ، فإذا أعطينه ما شرط عليهن ، قال: اذهبن فقد بايعتكن ، لا يزيد على ذلك)[2] .

وقد يعقد الحلف في بيت أو في معبد ، وقد يعقدونه على طعام يجتمعون عليه ثم يعمدون الى عقد الحلف بمراسيم خاصة، كالذي كان من أمر (حلف الفضول) ، فبعد ان أكل الحاضرون من اهل مكة في دار (عبدالله بن جُدعان) الطعام ، عمدوا الى ماء من ماء زمزم ، فجعلوه في جفنة ، ثم غسلوا به أركان البيت ، وجمعوا ماء الغسيل في تلك الجفنة ثم أتوا به فشربوه . وبذلك تم عقد الحلف ، وصار واجباً على المتحالفين[3] .

الاشتراط :

والاشتراط بين شخصين أو بين أكثر من ذلك عقد صحيح لذلك يجب تنفيذه. وذلك كأن تشترط المرأة على من يتقدم اليها ليكون بعلاً : بأن يكون أمر الطلاق بيدها تطلقه متى شاءت ، ومتى وافق الرجل على هذا الشرط ، صار حق الطلاق من حقوق المرأة بموجب هذا الزواج[4] . كذلك يقع الاشتراط في البيوع وفي العقود وعلى المتبايعين والمتعاقدين تنفيذ ما اتفق عليه من شروط . وقد نهى الإسلام عن بيع شيء واحد بشرطين . إذ اشترط أن يكون البيع بشرط واحد . مثال ذلك قولك : بعتك هذا الثوب نقداً بدينار ونسيئة بدينارين . وهو كالبيعتين في بيعة[5]. وهو بيع من بيوع أهل الجاهلية .

---

١ اللسان (٣٨٨/١) ، الاغاني (١٤/٩) ، العقد (٥٩/٢) ، تاج العروس (٢٦٤/١) .
٢ الطبري (٦٢/٣) .
٣ الأغاني (٦٤/١٦) .
٤ المحبر (ص ٣٩٨ ، ٤٣٥) ، النهاية (٤٧/٣ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (١٦٦/٥) ، (شرط) .

ولم يكن أهل الجاهلية يرون في الشروط التي يشترطها أحد المتعاقدين على الآخر ، ما يعارض الحق والعدل ، إذا كان فيها جوراً أو غموضاً او لبساً او عموماً . لأنهم يرون ان الموافقة هي تسليم بالحق وبالصحة ، وما دام الطرفان قد وافقا على الشروط واتفقا عليها ، فلا ظلم في العقد ولا جور فيه . وان كل ما يتفق عليه ويسلم به ، هو حق . إذ لا إكراه في ذلك ولا غبن . لأن الموافقة هي إيجاب وقبول،ومتى تمت صارت عقداً شرعياً ملزماً لا نكول فيه ولا رجعة .

الشهود :

والشهود هم الأشخاص الذين يشهدون أمام الحاكم بما عندهم من شهادة . والشهود والأشهاد هم الذين يؤدون الشهادة ، أي يبينون علمهم عن الشيء الذي سيدلون رأيهم عنه . والشهادة خبر قاطع ، يستعين به الحاكم في تكوين رأيه وابداء حكمه عند النظر في قضية يستدعي ابداء رأي فيها [1] . وفي القرآن الكريم إشارات الى الشهود والشهادة والى استعانة الجاهليين بالشهود عند التحاكم أمام الحكام .

والشهادة المتقدمة هي الشهادة الشفوية التي تكون أمام الحاكم . غير ان هناك شهادات مكتوبة . كأن يكتب الانسان شهادته كتابة ، أو أن يشهد على صحة عقد وقوانين وأوامر وغير ذلك . فيكتب اسم الشاهد دلالة على انه يشهد على صحة ما هو مدوّن في الصحيفة ، وانه حضر بنفسه ما كتب وشهد لذلك على صحة ما جاء في المكتوب . ونجد في الأوامر الملكية عند العرب الجنوبيين شهادات كبار الموظفين وأعضاء المجالس وسادات القبائل على ما صدر من قانون وأمر ، أي على صحة توقيع وأمر الملك ، ومن انه أمر به بحضورهم . كما نجد في كتب الرسول الى القبائل والوفود ، جملة (وشهد فلان) أو (وشهد فلان بن فلان) ، مما يظهر ان هذه الطريقة من الشهادة كانت طريقة من طرق التأييد على صحة الشيء والتوثيق لما هو مكتوب عند الجاهليين .

ولا بد لقبول شهادة شاهد من شروط يجب أن تتوفر فيه . حذر الكذب في الشهادة فهناك أشخاص لا يمكن الأخذ بشهادتهم . ومن هؤلاء شهود الزور . أي

---

١ تاج العروس (٢/٣٩١) ، (شهد) .

الشهود البطل ، الذين يشهدون شهادات باطلة لا أصل لها . فمثل هؤلاء موجودون عند كل الأمم وفي كل الأديان وفي كل الأزمان . ولكل شريعة شروط تضعها فيمن يمكن الاستماع الى شهادته وفيمن يجب رفض شهادته . فقد اشترطت الشريعة اليهودية في قبول شهادة الشهود ، ألا يكون الشاهد مقامراً ولا من الآكلين للربا ولا من الذين يقامرون في سباق الخيل ولا من الذين يخالفون حرمة السبت وأحكام الشريعة ، وأضاف اليهم بعض العلماء الرعاة لأنهم يسمحون لقطعان ماشيتهم بالرعي في أرض حرام لا تخصهم ، ولا لجباة الضرائب والعشارون ، لكثبهم وتعسفهم في جمع الضرائب ، ولا الفلاحين الذين يزرعون أرض غيرهم . ولا المرأة الى غير ذلك من شروط اختلفت باختلاف أوجه نظر الفقهاء[١] .

وعلى الشاهد ألاّ يغير في شهادته ولا يبدل فيها ، وإلا طعن بشهادته . وعليه ألا يتراجع عنها بعد ان يؤديها والا يكذب فيها . ولهذا كان المتخاصمون يناقشون الشهود ، ويطعنون في شهاداتهم إن وجدوا فيهم مغمزاً ومطعناً . وعليهم أن يؤدوا يميناً بأنهم صادقون في شهاداتهم وسيقولون الحق والصدق .

وإذا نكص شخص عن شهادة أراد أداءها او يمين وجبت عليه ، فيقال عنه إنه (نكل)[٢] . وإذا نقض أحدهم عهده فهو ناكث له . والنكث نقض لما اتفق طرفان عليه[٣] . وهو خيانة يزدرى صاحبها عليها ويعاب .

تسجيل العقود :

وكانوا يسجلون العقود والعهود والمواثيق والأحلاف والأمور المهمة التي يتفقون عليها ويلزمون أنفسهم بتنفيذها بصحائف خاصة يحفظونها عندهم للرجوع اليها عند الاختلاف وقد عرفت هذه الصحف بأسماء منها (المهارق) ، و (الصحف) ، و (الكتب) . أما صحفهم التي كانوا يسجلون عليها حساباتهم وتجاراتهم وما كان لهم من ديون ورهون وأمثـال ذلك من معاملات ، فقد عرفت بـ (صكوك) وكتب . وإذا اختلفوا على شيء رجعوا الى ما هو مكتوب فحكموا به .

---

١ Sanh. 25b, Tosifa Sanh., V, 5, Everyman's Talmud, pp. 325.

٢ تاج العروس (٨/١٤٥) ، (نكل) .

٣ تاج العروس (١/٦٥١) ، (نكث) .

وتدوّن العقود التي قد تعقد بين السيد ومملوكه في كتب ، ويعبر عن ذلك بـ (مكاتبة الرقيق) . واليها أشير في القرآن الكريم : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم »[1] .

القسامة :

ومن لفظة (القسم) ، وردت (القسامة) ، ويراد بها حلف معين عند التهمة بالقتل على الاثبات أو النفي ، وقد كانت مستعملة عند الجاهليين . فإذا قُتل شخص ولم يعرف قاتله،ولم تظهر على معرفة القاتل بينة ظاهرة ثابتة عادلة كاملة، واعتقد اهل القتيل والمطالبون بحق دمه أن فلاناً قتله ، لعلامة دلتهم على ذلك ، أو لخبر سمعوه او للطخ دم وجد في شخص كان قد مرّ بالقاتل او اشتبه به ، او لعداوة سابقة ، أو لوجود رجل مشكوك في أمره في دار القتيل وقت وقوع القتل ، او الرسالة حملها رجل تخبر باسم القاتل ، وأمثال ذلك ، فإن اهل القتيل والمطالبين بثأره ودمه ، يستعملون عندئذ (القسامة) . وذلك بأن يحلف خمسون من اولياء القتيل خمسين يميناً أن فلاناً قتله ، انفرد بقتله ما شركه في دمه احد . فإذا حلفوا خمسين يميناً ، استحقوا دية قتيلهم ، وان ابوا ان يحلفوا مع اللوث الذي أدلوا به ، حلف المدعى عليه انه بريء ، وإن نكل المدعى عليه عن اليمين خير ورثة القتيل بين تسليمه اليهم لقتله ، او اخذ الدية من مال المدعى عليه[2] .

ومن أمثلة ما ذكره أهل الأخبار عن القسامة والعقوبة المعجلة التي تلحق بصاحب اليمين الكاذبة ، ما ذكروه عن استئجار رجل من قريش ، اسمه خداش بن عبدالله ابن أبي قيس العامري في رواية ، رجلاً من بني هاشم ، فانطلق الأجير معه في إبله الى الشأم . فمر به رجل من بني هاشم قد انقطعت عروة جوالقه ، فقال للأجير : أغثني بعقال أشد به عروة جوالقي ، فأعطاه عقالاً ، فشد به جوالقه . فلما نزلوا ، عقلت الإبل ، إلا بعيراً واحداً . فقال الذي استأجره : ما شأن هذا البعير لم يعقل من بين الإبل . قال الأجير : ليس له عقال . قال المستأجر له: فأين عقاله ؟ فحذفه بعصا ، كان فيها أجله . فمر رجل من أهل اليمن ، فقال:

---

١ النور ، الآية ٣٣ .

٢ تاج العروس (٢٦/٩ وما بعدها) (قسم) ، المفردات (ص ٤١٣) .

أتشهد الموسم ؟ قال : ما أشهد ، وربما شهدته . قال : هل أنت مبلـغ عني رسالة مرة من الدهر ؟ قال : نعم . قال : فكنت اذا شهدت الموسم فناد : يا آل قريش . فإذا أجابوك ، فناد يا آل بني هاشم . فإن أجابوك ، فاسأل عن أبي طالب ، فأخبره ان فلاناً قتلني في عقال . ومات المستأجر . فلما قدم الذي استأجره ، أتى أبو طالب ، فقال له : ما فعل صاحبنا ؟ قال : مرض، فأحسنت القيام عليه ، وتوفي فوليت دفنه . قال أبو طالب : قد كان أهل ذاك منك ، فكث حيناً . ثم ان الرجل اليماني الذي أوصى اليه أن يبلغ عنه ، وافى الموسم ، فقال : يا آل قريش . قالوا له هذه قريش . قال : يا آل بني هاشم. قالوا : هذه بنو هاشم . قال : أين ابو طالب ؟ قالوا : هـذا ابو طالب . قال له : أمرني فلان ان ابلغك رسالة: إن فلاناً قتله في عقال . فأخبره بالقصة، وخداش يطوف بالبيت ، لا يعلم بما كان . فقام رجال من بني هاشم الى خداش فضربوه ، وقالوا : قتلت صاحبنا ، فجحد . وأتاه ابو طالب ، فقـال له : اختر منا إحدى ثلاث : ان شئت ان تؤدي مئة من الإبل ، فإنك قتلت صاحبنا، وإن شئت حلف خمسون من قومك انك لم تقتله ، فإن أبيت ، قتلناك به . فأتى قومه ، فقالوا نحلف ، فأتته امرأة من بني هاشم كانت تحت رجل منهم ، قد ولدت له ، فقالت : يا أبا طالب ، أحب ان تجيز ابني هذا من اليمين، وتعفو عنه برجل من الخمسين ، ولا تصبر يمينه حيث تصبر الأيمان . ففعل . فأتاه رجل منهم ، فقال : يا أبا طالب ، أردت خمسين رجلاً أن يحلفوا مكان مئـة من الإبل ، يصيب كل رجل بعيران . هذان بعيران ، فاقبلهما عني، ولا تصبر يميني حيث تصبر الأيمان ، فقبلها . وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا . ويذكر رواة هـذا الخبر انهم كذبوا في يمينهم ، فما حال الحول ومن الثمانية والأربعين عين تطرف .

الفصل السابع والخمسون

الاحوال الشخصية

وأقصد بها الحقوق التي تتعلق بالشخص وبعلاقته بأسرته . مثل الزواج والطلاق والوفاة والميراث وحقوق الزوجة أو الزوج وحقوق الوالد على ولده وحقوق الولد، وأمثال ذلك مما يدخل في الفقه الاسلامي في (باب المناكحات) ، وهو باب من أبواب قسم (المعاملات) .

وبفضل إقرار الاسلام بعض أحكام الجاهليين في الزواج وفي الطلاق وفي الوفاة وفي الميراث وتحريم أحكام أخرى مع الاشارة اليها ، جمع أهل التفسير والحديث والأخبار طائفة من أحكام الجاهليين القريبين للاسلام والمعاصرين له ، خاصة أحكام أهل المدينتين : مكة ويثرب ، ومن سكن في جوارهما من أهل المدر والوبر . وعلى كل ما ذكرنا اعتمادنا . غير ان تلك المادة لا تزال خاماً بكراً ، وبها حاجة شديدة إلى الغربلة والنقد والتنسيق .

وما سنذكره في هذه الصفحات ، لا يعني شمول هذا الوصف عموم الجاهليين في كل الأوقات وفي كل أنحاء الجزيرة ، انما هو قول خاص بالجاهليين القريبين من الاسلام والمعاصرين له والساكنين في الحجاز،ولا سيما في المدينتين المذكورتين . أما قدماء الجاهليين ممن عاشوا قبل الميلاد والجاهليين الذين عاشوا في جنوب جزيرة العرب أو في شرقيها ، فلا نستطيع أن نقول إن ما نذكره هنا منتزع من صميم حياتهم ، فهو يمثل ما كان عندهم كل التمثيل ، لأن المواد التي أشرت اليهـــا

لا تصل الى حدودهم ، وليس لها قدرة الوصول اليهم ، فليس من حقنا إذن تعميم ما سنقوله على جميع الجاهليين .

النكاح :

ويعبر عن الزواج بـ (النكاح) في الفقه الاسلامي . والنكاح هو العقد في الأصل ، ثم استعير للجماع[1] . وقد عبر في القرآن الكريم عن الزواج في المعنى الشائع عندنا من (الزوج) والزوجية . أما في حالة التزوج وعقد العقد لغرض الدخول على المرأة ، فقد عبر عن ذلك بـ (النكاح) وبـ (نكح) وبأمثال ذلك ، ومن هنا أطلق الفقهاء في الفقه على الزواج (النكاح) وعلى الباب المختص بذلك (المناكحات) ، وعبر عنه بـ (العقد) وبـ (الوطء) كذلك[2] .

أما اذا كان الاتصال بين الرجل والمرأة اتصالاً جنسياً بغير عقد ولا خطبة ، فهو زنا ، ويقال للمرأة عندئذ (زانية) و (بغي) و (فاجرة) و (عاهرة) و (معاهرة) و (مسافحة)[3] .

ولا بد للزواج من أن يكون برضى الطرفين وبموافقتهما ، وبموافقة الوالدين أو المتولي للامر . واذا كان أحد الطرفين أو كلاهما قاصراً فلا بد من أخذ موافقة القيّم على أمره ، وإلا ، تعرّض الرجل والمرأة أو أحدهما للمسؤولية . هذا هو الأصل في الزواج عند الجاهليين أيضاً ، غير ان الرجل قد يتهب المرأة باتفاق مع البنت أو غصباً فيأخذها ، وهذا ما يسيء الى أهل البنت ويلحق بهم الأذى ، إلا ان الطرفين قد يتفقان فيما بعد على الزواج .

ولولي الأمر إجبار البنت على الزواج ممن يريده أو يوافق عليه لأن يكون بعلاً لها ، وليس لها مخالفته . وقد يسمح لها بإبداء رأيها في الزوج وفي الزواج ، ويكون ذلك في الأسر المحترمة في الأكثر ، وعند أولياء الأمور الذين ليس لهم من البنات غير واحدة أو اثنتين ، وعند وجود دالة للبنت على ولي أمرها .

---

١ المفردات (ص ٥٣٥) .

٢ عمدة القاري (٦٤/٣٠) ، المبسوط للسرخسي (١٩٢/٤) .

٣ النهاية (١٥٠/١) ، اللسان (٢٩٠/٦) (٨٣/١٨) .

٤ بلوغ الارب (٣/٢ ، ٣٣) ، الميداني (١٠/١) ١٢٤ ، ٤٤٠٢ .

والرجال قوامون على النساء . أما المرأة ، فهي للبيت ، والرجل هو (رب البيت) وسيده والمسؤول عنه،وله الكلمة على شؤونه . وهو القيم الطبيعي المسؤول عن تربية أولاده . وهو المسؤول عن إعالة زوجه وأولاده . والزوج تبع لبعلها ، وعليها إطاعة أوامره ، مـــا دامت أوامره لا تنافي الخلق والمألوف . وبيتها هو (بيت الزوجية) . ولسيادة الرجل على بيته وزوجه،قيل له في كثير من اللغات السامية ، وفي جملتها اللغة العربية (بعل) . فالرجل هو بعل المرأة .

ومن تلده الزوج يكون للبعل ، فهو في ولايته ، وله رعايتـه ، وعليه تربيته حتى يبلغ أشده . وهو مسؤول أيضاً عن رعاية أحفاده بعد ابنه . أما أولاد ابنته فإنهم في رعاية أبيهم الذي يكون وحده المسؤول عنهم ، لأنه بعل زوجه ، وهو رب بيته .

وللحق المتقدم لم تمانع شرائع الجاهليين في وأد البنات أو قتل الأولاد،ولم تَعُدّ من يئد البنت أو يقتل ابنه قاتلاً ، ولم تؤاخذه على فعله ، حتى الأمهات لم يكن من حقهن منع الآباء من وأد بناتهن ، أو قتل أولادهن ، لأن الزوج هو وحده صاحب الحق والقول الفصل فيمن يولد له ، وليس لامرأته حق الإعتراض عليه ومنعه .

ولهذا الحق لم يكن للولد الاعتراض على ما يفرضه أبوهم عليهم من حقوق ، ولا مخالفة أوامره ونواهيه . فبوسع والدهم فرض ما يراه عليهم من عقـوبات ، فلا يمنعه منها إلا قوة الولد وتوسط الناس . فإذا اشتد عود الولد، وقوي ساعده صار الحق الى جانبه ، وصار في وسعه معارضة والده ، ولن يكـــون في إمكان الوالد فعل شيء بعد بلوغ ابنه سوى خلعه والتنصل منه على رؤوس الأشهاد .

القاعدة العامة في الازدواج :

والقاعدة العامة في الازدواج مراعاة علاقة الأصل بالفرع ، فـلا يجوز نكاح الأب لابنته ، ولا الجدّ لحفيدته ، ولا يجوز للأم أن تتزوج ابنها ، ولا للجدة أن تتزوج حفيدها ، ولا للأخ أن يتزوج أخته ، مراعاة لعلاقة الأصل بالفرع ، أي لعلاقة الدم . ومن يفعل ذلك يكون آثماً مؤاخذاً على فعله .

ويراعى هذا التحريم حتى في حالات التبني ، لاكتساب التبني الصفة المقررة للابن الطبيعي ، فلا يجوز للمتبني أن يتزوج ابنة المُتَبَنى لأنه اتخذه ابناً له .

ويحرم على الرجل أن يتزوج ابنة أخيه ، أو ابنة أخته . أما ولد الأخوين أو ولد الأختين أو ولد الأخ والأخت ، فالزواج بينهم مباح . ويحرم نكاح العمة كما يحرم نكاح الخالة ، وذلك لأنهما في درجة الأصول . ويحرم بصورة عامة كل نكاح يقع بين المحارم .

ومن القبيح عندهم الجميع بين الأختين ، وأن يخلف الرجل على امرأة أبيه ، ويسمّون هذا الفعل من فعول (الضيزن) . وقد عرف هذا الزواج بنكاح المقت[1]. وقد حرم هذا النكاح في الإسلام[2] . فقد ورد أن (كبشة بنت معن بن عاصم) امرأة (أبي قيس بن الأسلت) انطلقت الى الرسول فقالت : « إن أبا قيس قد هلك ، وإن ابنه من خيار الحي قد خطبني » . فسكت الرسول ، ثم نزلت الآية : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء » ، فهي أول امرأة حرمت على ابن زوجها[3] .

وذكر (السهيلي) أن ذلك الزواج كان مباحاً في الجاهلية بشرع متقدم ، ولم يكن من الحرمات التي انتهكوها ولا من العظائم التي ابتدعوها ، لأنه أمر كان في عمود نسب رسول الله ، فكنانة تزوّج امرأة أبيه خزيمة ، وهي برة بنت مرّ . فولدت له النضر بن كنانة . وهاشم أيضاً قد تزوج امرأة أبيه واقدة. « وقد قال عليه السلام : أنا من نكاح لا من سفاح . ولذلك قال سبحانه : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف . أي إلاّ ما سلف من تحليل ذلك قبل الإسلام . وفائدة هذا الاستثناء ألاّ يعاب نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم،وليعلم أنه لم يكن في أجداده من كان لغية ولا من سفاح »[4].

وذكر علماء التفسير ، ان أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين[5] . وأسلم (فيروز الديلمي) ، وتحته اختان، فقال له النبي :

---

١ بلوغ الارب (٥٢/٢ وما بعدها) ، الجصاص (١٠٦/١ ، ٢١٢) .
٢ الاغاني (٩/١) (١٥/٣) ، (طبعة ساسي) .
٣ الاصابة (١٦٢/٤) ، (رقم ٩٤٥) ، تفسير الطبري (٢١٧/٤ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١٤٥/١ وما بعدها) .
٥ تفسير الطبري (٢١٧/٤) .

اختر أيهما شئت[1] ، وجمع (أبو أحيحة) سعيد بن العاص بن أمية ، بين صفية وهند بنتي المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، وجمع (قسي) ، وهو ثقيف ابن منبه ، آمنة وزينب بنتي عامر بن الظرب في نكاح واحد . وجمع (هنام بن سلمة) العائشي ، أخو بني تيم اللات بن ثعلبة بن عكابة بين اختين[2] .

ويقدم (ابن العم) على غيره في زواج ابنة عمه ، ولا يزال مقدماً على غيره[3] . وقد تجبر البنت على الزواج به في حالة عدم رغبتها من الزواج ، وقد لا يتركها تتزوج من غيره إلا بإرضائه ، وقد يكون هذا الإرضاء بدفع ترضية له .

الصداق :

والزواج المألوف المتعارف عليه عند غالبية الجاهليين ، هو نكاح الناس اليوم . وهو أن يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ، أي يعين صداقها ويسمي مقداره ثم يعقد عليها . وكانت قريش وكثير من قبائل العرب على هذا المذهب في النكاح[4] . وما يدفع يسمى (الصداق) أو (المهر) .

ويعد الصداق أي المهر فريضة لازمة عند الجاهليين لصحة عقد الزواج ، إذ هو علامة من علاماته ، ودلالة على شرعيته . وكانوا لا يقرون زواجاً ولا يعترفون بشرعيته إلا اذا كان بمهر . فإذا لم يكن هناك مهر ، عدّ بغياً وسفاحاً وزنا ، فالمهر هو أيضاً علامة شرف، وكون المرأة حرة محصنة لها كامل الحقوق[5] .

ولا يشترط دفع المهر اذا كانت المرأة قد وقعت في أسر آسر فتزوجها لأنها أسيرته ، فهي ملكه ، وله حق الدخول بها بغير مهر ، ولو كانت في عصمة رجل آخر ، لأن الأسر يبطل عصمة الزواج .

---

١ زاد المعاد (٤/٧) .
٢ . المحبر (٣٢٧) .
٣ عمدة القارىء (٤/١٩٩) .
٤ بلوغ الارب (٢/٣ وما بعدها) ، شرح العيني (٢٠/١٢١) .
٥ « أما النكاح فانما يكون بمهر ، وأما السفاح فانما يكون بلا مهر » ، نوادر المخطوطات ، أسماء المغتالين (١١٨) ،
Ency. III, p. 137.

«وكانوا يخطبون المرأة الى أبيها أو أخيها أو عمها ، أو بعض بني عمها. وكان يخطب الكفي الى الكفي . فإن كان أحدهما أشف من الآخر في الحسب ، أرغب له في المهر . وإن كان هجيناً خطب الى هجين . فزوجه هجينة مثله . فيقول الخاطب اذا أتاهم : أنعموا صباحاً . ثم يقول : نحن أكفاؤكم ونظراؤكم . فإن زوجتمونا فقد أصبنا رغبة وأصبتموها . وكنا لصهركم حامدين . وإن رددتمونا لعلة نعرفها ، رجعنا عاذرين . وإن كان قريب القرابة منه أو من قومه، قال لها أبوها أو أخوها ، اذا حملت اليه : أيسرت وأذكرت ولا آنثت ! جعل الله منك عدداً وعزاً وجلداً . أحسني خلقك وأكرمي زوجك . وليكن طيبك الماء . واذا تزوجت في غربة قال لها : لا أيسرت ولا أذكرت ، فإنك تدنين البعداء ، وتلدين الأعداء . أحسني خلقك وتحببي الى أحمائك . فإن لهم عليك عيناً ناظرة ، واذناً سامعة . وليكن طيبك الماء »[1] .

والأصل في المهر عند الجاهليين دفعه للمرأة ، غير أن ولي أمرها هو الذي يأخذه لينفق منه على ما يشتري لتأخذه المرأة معها الى بيت الزوجية . وقد يأخذ ولي أمرها (المهر) لنفسه ، ولا يعطي المرأة منه شيئاً ، لاعتقاده أن ذلك حق يعود اليه . ولذلك نهي عنه في الإسلام[2] . وللمرأة حق استرداد مهرها إذا فسخ الزوج عقد الزواج ، أو إذا طلقها ، إلا اذا كان ذلك بسبب الزنا فيسقط .

وإذا كان المهر مؤجلاً كلاً أو بعضاً ، فيكون ديناً في عنق الزوج ، وإذا توفي وجب دفعه لامرأته من تركته .

وليس للمهر حد معلوم ، لا حد أعلى ولا حد أدنى ، بل يتوقف ذلك على الاتفاق . وتراعى في ذلك الحالة المالية للرجل في الغالب . ولما كانت النقود قليلة في ذلك العهد ، كان المهر عيناً في الأكثر ، وتدخل فيه الأرض . وقد بلغ المهر مئة من الإبل أو خمسين ومئة بعض الأحيان[3] . وقد كان بوزن من ذهب أو فضة في بعض الأحيان .

ويجوز للرجل استرداد مهره من تركة زوجه إن ماتت في حياته . وله حق مطالبة أهلها برد مهرها اليه في حالة عدم وجود تركة لها .

---

١ المحبر (٣١٠ وما بعدها) .

٢ (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ، سورة النساء ، الآية ٤ ، الجصاص (٥٧/٢) .

٣ الاغاني (٧٨/٨ ، ١٨٥) ، الامثال ، للميداني (١١٠/١ ، ١٢٤) .

وليس في زواج الشغار ، مهر حقيقي . لأنه زواج مقايضة . وهو أن يزوّج الرجلُ وليّته في مقابل تزويجه وليّة من سيتزوج وليّته . فليس في هـذا الزواج مهر بالمعنى المعروف .

وذكر ان أهل الجاهلية كانوا لا يعطون النساء من مهورهن شيئاً، وان الرجل اذا زوّج ابنته استجعل لنفسه جعلاً يسمى (الحلوان) ، وكانوا يسمون ذلك الشيء الذي يأخذه (النافجة) ويقولون للرجل : (بارك الله لك في النافجة)[1] . وروي ان العرب كانت تقول في الجاهليـــة (للرجل اذا ولدت له بنت : هنيئاً لك النافجة ، أي المعظمة لمالك،وذلك انه يزوجها فيأخذ مهرها من الإبل، فيضمها الى إبله ، فينفجها أي يرفعها ويكثرها)[2] .

والحلوان أن يزوج الرجل ابنته أو أخته أو امرأة ما بمهر مسمى ، على أن يُجعل له من المهر شيء مسمى، وكانت العرب تعير به . وقيل إن حلوان المرأة: مهرها [3] .

والصداق المهر ، و (الصدقة) مهر المرأة ، وقد ورد النهي في الحديث عن الغلو في صُدق النساء[4] ،مما يدل على ان من الجاهليين من كان يبالغ في الصداق .

ويستخلص مما جاء في أخبار أهل الأخبار عن المهـــر ، ان أهل الجاهلية لم يكونوا على عرف واحد بالنسبة الى حق الانتفاع من المهر ، فنهم من كان يعطيه كله للمرأة ، ومنهم من كان يعطيه كله ويزيد عليه إكرامـــاً لابنته أو من ولي أمرها ، ومنهم من كان يأكله كله أو بعضاً منه .

ويظهر من وثيقة معينية أن ملوك معين كانوا يصدرون أوامرهم بالموافقـة على عقود الزواج على نحو ما تفعل الحكومات من اصدار وثائق عقود الزواج . ولكننا لا نملك وثيقة تثبت أن المرأة كانت تُكره على الزواج من شخص لا تريد التزوج منه . بل ليظهر أن المرأة كانت مثل الرجل عند المعينيين لها حق النظر في أمر اختيار الزوج[5] .

---

١ اللسان (١١/٦٥٠) ، (نحل) .
٢ اللسان (٢/٣٨٢) ، (نفج) .
٣ اللسان (١٤/١٩٣) .
٤ اللسان (١٠/١٩٧) .
٥ Arabien, S. 132.

أنواع الزواج :

والزواج المألوف بين الجاهليين ، هو زواج هذا اليوم . أي الزواج القائم على الخطبة والمهر ، وعلى الايجاب والقبول . وهو ما يسمى بزواج البعولة، وهو زواج منظم ، رتّب الحياة العائلية وعيّن واجبات الوالدين والبنوة . وهو الذي أقره الإسلام . يكون الرجل بموجبه بعلاً للمرأة فهي في حمايته وفي رعايته.وللزوج في هذا الزواج أن يتزوج من النساء ما أحب من غير حصر ، وله أن يكتفي بزوج واحدة . وأمر عدد الأزواج راجع اليه والى هواه بالنساء .

وزواج البعولة هو الزواج الذي كان شائعاً بين الجاهليين في كل أنحاء جزيرة العرب ، خاصة عند ظهور الإسلام ، وبين أهل الحضر وأهل الوبر . ويرجع (روبرتسن سمث) W. R. Smith أسباب شيوع هذا الزواج وظهوره الى الحروب والى وقوع النساء في الأسر،ويكون الأولاد بحسب هذا النوع من الزواج تابعين للأب ، يلتحقون به ، ويأخذون نسبه . وهو على نوعين : نوع يكتفي فيه الرجل بالتزوج بامرأة واحدة وهو ما يسمى بـ Mouogamy ، ونوع آخر يتزوج بموجبه الرجل عدداً غير محدود من النساء ، أي أكثر من زوجه واحدة في آن واحد، وهو ما يسمى بـ Polygamy ، أي زواج تعدد الزوجات[1] .

ويحصل الرجل في هذا الزواج على زوجة بالتراضي مع أهلها ، حيث يتم ذلك بخطبة ومهر ، أو بالحرب حيث يحصل المنتصرون على أسرى فيختار الرجل له واحدة من بينهن متى ولدت له أولاداً صارت زوجاً له . وصار هو بعلاً لها . ويلاحظ ان النصوص العربية الجنوبية دعت الزوج بعلاً ، أما الزوجة فدعتها (بعلت) (بعلة) ، ومعناها ان المرأة في حيازة الزوج وملكه .

ولذلك عوملت الزوجة بعد وفاة زوجها معاملة (التركة) أي ما يتركه الانسان بعد وفاته ، لأنها كانت في ملك زوجها وفي يمينه . ومن هنا كان للاخ أن يأخذ زوجة أخيه اذا مات ولم يكن له ولد ، لأن الأخ هو الوارث الشرعي لأخيه ، فهو يرث لذلك زوجة أخيه التي هي في بعولته ، ويرث ابن الأخ هذا الحق عن أبيه[2] .

---

١ Ency., Relig., 8, p. 408.

٢ تفسير الطبري (٤/٢٠٨) .

نكاح الضيزن :

وهذه النظرة المتقدمة بالنسبة الى الزوجة ، دفعت الى نكاح أطلق عليه المسلمون (نكاح المقت) ، وعرف بـ (نكاح الضيزن) كذلك . وهو نكاح معروف من أنكحة الجاهليين . (ذلك انهن في الجاهلية كانت إحداهن اذا مات زوجها كان ابنه أو قريبه أولى بها من غيره ومنها بنفسها ، إن شاء نكحها ، وإن شاء عضلها فمنعها من غيره ولم يزوجها حتّى تموت)[1] . وظل هذا شأنهم الى أن نزل الوحي بتحريم ذلك[2] . وقد تناوب ثلاثة من (بني قيس بن ثعلبة) امرأة أبيهم ، فعيّرهم ذلك (أوس بن حجر التميمي) ، إذ قال :

والفارسية فيهم غير منكرة فكلهم لأبيه ضيزن سلف[3]

وهذا الزواج على أنه كان معروفاً وقد مارسه أناس معروفون كان ممقوتاً من الأكثرية ، ولذلك عرف بـ (زواج المقت) ، وأطلقوا على الرجل الذي يخلف امرأة أبيه إذا طلّقها أو مات عنها وقيل من يزاحم أباه في امرأته (الضيزن) . وقالوا للولد الذي يولد من هذا الزواج مقّى ومقيت[4] .

وطريقة أهل (يثرب) في إعلان دخـــول زوجات المتوفى في ملك الإبن أو الأخ أو بقية الأقرباء من ذي الرحم إذا لم يكن للمتوفى أبناء أو اخــوة : هو بإلقاء الوارث ثوبه على المرأة ، فتكون عندئذ في ملكه ، إن شاء تزوّجها ، وإن شاء عضلها ، أي منعها من الزواج من غيره حتّى تموت . فيرث ميراثها ، إلا

---

١ تفسير الطبري (٢٠٧/٤) ، روح المعاني (٢٤٥/٤ وما بعدها) ، سنن أبي داوود (٢٣٠/٢) ، تفسير المنار (٤٥٢/٤ وما بعدها) ، السنن الكبرى (١٦١/٧ وما بعدها) ، الطبرسي (٢٠٧/٤ وما بعدها) ، النهاية في غريب الحديث ، لابن الاثير (١٠٤/١) .

٢ سورة النساء ، الآية ٢٢ ، (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما سلف ، انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) ، الزبيري ، نسب قريش (٩٩ وما بعدها)

٣ تاج العروس (٢٦٤/٩) ، (ضزن) ، بلوغ الارب (٥٢/٢) ، المحبر (٣٢٥) .

٤ (ولد المقت) ، المبسوط للسرخسي (١٩٨/٤) ، تاج العروس (٥٨٥/١) ، (مقت)، النهاية (١٠٨/٤) ، تفسير المنار (٤٦٤/٤ وما بعدها) ، اللسان (٩٠/٢) ، (مقت) .

أن تفتدي نفسها منه بفدية ترضيه[1] .

وقال (الطبري) في تفسير : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » : (كانت الوراثة في أهل يثرب بالمدينة ههنا ، فكان الرجل يموت فيرث ابنه امرأة أبيه كما يرث أمه لا يستطيع أن يمنع . فإن أحب أن يتخذها اتخذها كما كان أبوه يتخذها ، وإن كره فارقها ، وإن كان صغيراً حبست عليه حتى يكبر فإن شاء أصابها وإن شاء فارقها ، فذلك قول الله تبارك وتعالى : لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كرهاً)[2].وذكر « أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو تردّ اليه صداقها » ، وورد عن (السدّي) قوله : « إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه او ابنه ، فإذا مات وترك امرأته ، فإن سبق وارث الميت ، فألقى عليها ثوبه ، فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها ، وإن سبقت فذهبت الى أهلها فهم أحق بنفسها »[3] .

وقال (الضحّاك) : « كانوا بالمدينة إذا مات حميم الرجل وترك امرأة ألقى الرجل عليها ثوبه فورث نكاحها وكان أحق بها ، وكان ذلك عندهم نكاحاً ، فإن شاء أمسكها حتى تفتدى منه . وكان هذا في الشرك »[4] . وروي عن (ابن عبّاس) أنه قال : « كان الرجل إذا مات وترك جارية ، ألقى عليها حميمه ثوبه فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوّجها ، وإن كانت قبيحة حبسها حتى تموت فيرثها »[5] . فلهذا الظلم الفادح الذي كان ينزل بالمرأة بسبب ضعفها وبسبب عرف الجاهلية في الحق ، منع ذلك في الإسلام .

قال (محمد بن حبيب) : « وكان الرجل اذا مات ، قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة ابيه . فورث نكاحها . فإن لم يكن له حاجة فيها ، تزوجها بعض إخوته بمهر جديد »[6] . ولكن أهل الأخبار لا يذكرون ان الإخوة يدفعون لها مهراً جديداً ، فقد يكون هذا المهر الجديد الذي أشار (محمد بن حبيب) اليه، هو ترضية للابن الأكبر بسبب تنازله عن حقه الشرعي في امرأة أبيه الى من له

---

١ تفسير الطبري (٢٠٨/٤ وما بعدها) ، (٢١٧/٤) .
٢ تفسير الطبري (٢٠٨/٤ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (٢٠٨/٤) .
٤ تفسير الطبري (٢٠٨/٤) .
٥ تفسير الطبري (٢٠٩/٤) .
٦ المحبر (٣٢٥ وما بعدها) .

رغبة فيها من اخوته الباقين ، على ألا يكون من أبنائها بالطبع ، وانما هم من زوجات اخرى . وقد فرّق الاسلام بين رجال ونساء آبائهم ، وهم كثير »[1] .

وذكر ان آية : « يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرهاً » ، نزلت في (كبيشة بنت معن بن عاصم) من الأوس ، توفي عنها (ابو قيس بن الأسلت) ، فجنح عليها ابنه ، فجاءت النبي ، فقالت : يا نبي الله لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح فنزلت هذه الآية في منع ذلك[2] . وحرّم هذا الزواج في الاسلام ، ومن تزوج امرأة ابيه وهو مسلم قتل وأدخل ماله في بيت المال[3] .

وقد كان العبرانيون يتزوجون زوجات آبائهم كذلك ، استمروا على ذلك حتى بعد السبي . كذلك عرفت هذه العادة بين الرومان والسريان[4] .

نكاح المتعة :

وأشار أهل الأخبار الى وجود انواع اخرى من الزواج ، الغالب عليها سقوط الصداق والخطبة منها ، وهي : نكاح المتعة ، وهو نكاح الى أجل، فإذا انقضى وقعت الفرقة . وقد كان هذا النوع من الزواج معروفاً عند ظهور الاسلام . وقد أشير اليه في القرآن الكريم : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليماً حكيماً »[5].

---

١ المحبر (٣٢٦) .

٢ تفسير الطبري (٢٠٨/٤) ، الاصابة (٣٨٣/٤) ، (رقم ٩٢٠) ، اسباب النزول (١٠٨ وما بعدها) .

٣ زاد المعاد ، لابن قيم الجوزية (٢٠٢/٣) ، (فصل في حكمه صلى عليه وسلم ، فيمن تزوج امرأةأبيه) .

٤ Kinship, p. 90.

٥ النساء ، الآية ٢٤ .

وللفقهاء آراء في المتعة ، ولا تزال معروفة في بعض المذاهب[1] .

ومن دوافع حدوث هذا الزواج التنقل والأسفار والحروب ، حيث يضطر المرء الى الاقتران بامرأة لأجل معين على صداق : فإذا انتهى الأجل ، انفسخ العقد . وعلى المرأة أن تعتد كما في أنواع الزواج الأخرى قبل أن يسمح لها بالاقتران بزوج آخر . فهو كزواج البعولة ، فيما سوى الاتفاق على أجل معين يحدد مدة الزواج .

وينسب أولاد المتعة إلى أمهاتهم في الغالب ، وذلك بسبب اتصالهم المباشر بالأم ولارتحال الأب عن الأم في الغالب الى أماكن أخرى قد تكون نائية ، فتنقطع الصلات بين الأب والأم ولهذا يأخذ الأولاد نسب الأم ونسب عشيرتها .

نكاح البدل :

ونكاح البدل : وهو أن يقول الرجل للرجل : « إنزل لي عن امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتي »[2] . فهو زواج بطريق المبادلة بغير مهر .

نكاح الشغار :

ونكاد الشغار : وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ، ليس بينهما صداق . وذلك كأن يقول الرجل للرجل : زوجني ابنتك ، وأزوجك ابنتي ، أو زوجني أختك وأزوجك أختي . وعرفه بعض العلماء على هذا النحو :

---

١ صحيح مسلم (١٣٠/٤) ، المبسوط ، للسرخسي ، (١٥٢/٥) ، (٦١/٦) ، السنن الكبرى (٢٠٠/٧) ، تفسير الطبري (٨/٤ وما بعدها) ، الطبرسي (٣٢/٣) ، روح المعاني (٥/٥ وما بعدها) ، النهاية (٨١/٤) ، المحبر (ص ٢٨٩) ، تفسير المنار (١٣/٥ وما بعدها) ، سنن أبي داوود (٢٢٦/٢ وما بعدها) ، عمدة القاري (٢٠٨/١٨) (١١١/٢٠) ، الامومة عند العرب تاليف (ولكن) (G.A. Wilken) ، تعريب بندلي صليبا الجوزي (فازان ١٩٠٢ (ص ١٥ وما بعدها) ، اللسان (٣٢٩/٨) ، (متـــع) ، الكشاف للزمخشري (٣٦٠/١) .

٢ بلوغ الارب (٥/٢) ، عمدة القارىء (١٢٢/٢٠) ، (كتاب النكاح) ، الحديث رقم (٦٠) .

(الشغار ، بكسر الشين : نكاح كان في الجاهلية ، وهو أن تزوج الرجل امرأة ما كانت على أن يزوجك أخرى بغير مهر[1] . وخص بعضهم به القرائب، فقال : لا يكون الشغار إلاّ أن تنكحه وليتك على أن ينكحك وليته)[2] . فكان الرجل يقول للرجل:شاغرني،أي : زوجني أختك أو بنتك أو من تلي أمرها حتى أزوجك اختي او بنتي أو من إليّ أمرها.ولا يكون بينهما مهر[3] . وقد نهى عنه الإسلام[4]. وورد (ان اناساً كانوا يعطى هذا الرجل اخته ، ويأخذ اخت الرجل ، ولا يأخذون كثير مهر)[5] . (وكان ذلك من أولياء النساء ، بأن يعطي الرجل اخته الرجلَ على ان يعطيه الآخر اخته،على ان لا كثير مهر بينهما،فنهوا عن ذلك)[6]. والغالب انه مثل (البدل) بدون مهر . وهو معروف حتى اليوم مع ورود النهي عنه ، ولا سيما بين الطبقات الفقيرة والأعراب ، وللوضع الاقتصادي والاجتماعي دخل كبير في هذا الزواج ، لعدم وجود المهر فيه ، إذ حل التقايض فيه محل المهر . ولهذا لم ينظر اليه نظرة استهجان لوجود هذا التقايض فيه الذي يقوم مقام المهر .

نكاح الاستبضاع :

وأشار أهل الأخبار الى نوع غريب من الزواج ، سمّوه (نكاح الاستبضاع) . وهو – على ما يزعمون – ان يقول رجل لامرأته اذا طهرت من طمثها : ارسلي

---

١ بلوغ الارب (٢/٥) ، (باب تحريم نكاح الشغار وبطلانه) ، شرح الامام النووي على صحيح مسلم ، حاشية على القسطلاني (٦/١٤١) ، سنن أبي داوود (٢/٢٢٧) ، عمدة القاريء (٢٠/١٠٨ وما بعدها) ، (كتاب النكاح : باب الشغار حديث رقم ٤٨ ، السنن الكبرى (٧/١٩٩ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٦/١٤١ وما بعدها) .

٢ اللسان (٦/٨٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٣٠٦ وما بعدها) ، (شغر) .

٣ النهاية (٢/٢٤٥) .

٤ (لا شغار في الاسلام) ، صحيح مسلم (٤/١٣٩) ، المبسوط ، للسرخسي (٥/١٠٥) ، ارشاد الساري (٦/١٤١) ، الكافي ، للرازي (٥/٣٦١) ، (طهران ١٣٧٨ هـ) ، مجمع البيان (٤/١٦٢) .

٥ تفسير الطبري (٤/١٦٢) .

٦ تفسير الطبري (٤/١٦٢) .

الى فلان فاستبضعي منه ، لتحملي منه . ويعتزلها زوجها ، ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا حملهـا أصابها زوجها اذا أحب ، وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، لأنهـم كانوا يطلبون ذلك من اكابرهم ورؤسائهم في الشجاعـة او الكرم او غير ذلك فكـان هذا النكاح الاستبضاع[1] .

كذلك كان بعض اصحاب الجواري على ما يرويه اصحاب الأخبار ايضاً ، يكلفون جواريهم الاتصال برجل معين من اهـل الشدة والقوة والنجابة ، ليلدن ولداً منه يكون في يمينه وملكه[2] . والغاية من هـذا النوع من التكليف الحصول على اولاد اقوياء يقومون بخدمة الرجـل المالك ، إن شاء استخدمهم في بيته وفي ملكه ، وإن شاء باعهم وربح منهم ، فهي تجارة كان يمارسها المتاجرون بالرقيق للربح والكسب .

واما ما اشار اليه اهل الأخبار من وجود زواج دعوه زواج الرهط ، وزواج آخر قالوا له (زواج صواحبات الرايات)[3] ، فلا يمكن عدّهما زواجاً بالمعنى المفهوم من الزواج لأنهما في الواقع نوع من انواع البغـاء ، وخاصة (زواج صواحبات الرايات) . وقد عرفوا الزواج الأول بأنه زواج يجتمع فيه الرهط ما دون العشرة ، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، وذلك برضاء منها وتواطؤ بينهم وبينها ، فإذا حملت ووضعت ، ارسلت اليهم فلم يستطع رجـل منهم ان يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم : قد عرفتم الذي من أمركم،وقد ولدت ، ثم تسمي احدهم وتقول له : فهو ابنك يا فلان ، فيلحق به ولدها، ولا يستطيع ان يمتنع به الرجل . وقد قيل إن هذا يكون إن كان المولود ذكراً ، وإلا فلا تفعل لما عرف من كراهتهم للبنت وخوفاً من قتلهم للمولودة[4] .

ويقال لهذا النوع من الزواج زواج (تعدد الأزواج) Polyandry ، في

---

١ النهاية في غريب الحديث (١/٩٨) ، شرح العيني (١٧/٢٤٦) ، (٢٠/١٢١)، صحيح البخاري (٣/١٦٢) ، بلوغ الارب (٢/٤) .
٢ تاج العروس (٥/٢٧٩) ، اللسان (٩/٣٦١) .
٣ بلوغ الارب (٢/٤ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٢/٤) ، عمدة القاريء (٢٠/١٢١ وما بعدها) ، القسطلاني ، ارشاد الساري (٨/٤٥) ، الامومة عند العرب (٢٤ وما بعدها) ، الملل والنحل (٢/٤٤٢) ، (لندن) .

الانكليزية ، وذلك لوجود امرأة واحدة فيه وعدد من الرجال تختارهم المرأة ، التي تكون زوجـــة مشتركة بينهم ، وهـو عكس زواج الـ Polygamy. ، أي زواج تعدد النساء للرجل الواحد ، حيث يتزوج الرجل الواحد بموجبه عدداً من النساء ، بعلاً لهن[1] .

وعرّفوا (زواج صواحبات الرايات) بأنه نكاح يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها ، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن ارادهن دخل عليهن . فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ، ودعوا لهم (القافة) ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فاستلحقه بـه ، ودعي ابنــه لا يمتنع من ذلك[2] . وذكر ان تلك الرايات كانت حمراً . فالنكاحين المتقدمين ليسا في الواقع زواجاً بالعرف الشائع عند غالبية الجاهليين وإنما هو سفاح ، وقد عُدّ في القرآن الكريم (زنا) ، ولو كان فيه استحقاق الولد بوالد . فليس في هذا الزواج صداق ولا خطبة على عادة العرب ، ومن يفعلــه من الرجال ، لم يكن يقصد به زواجاً بمعنى الأزواج وبالدرجة الأولى ، وإنمـا التسلية وتحقيق شهوة بثمن ، ولهذا فهما من أبواب الزنا والسفاح .

وقد تعرض « السكّري » لموضوع « صاحبات الرايات » ، فقال : « ومـن ستتهم أنهم كانوا يكسبون بفروج إمائهم . وكان لبعضهم راية منصوبة في اسواق العرب ، فيأتيها الناس فيفجرون بها . فأذهب الإسلام ذلك وأسقطه فيما اسقط ، ولهنّ اولاد ونسل كثير معروف »[4] .

وممن أشار الى وجود إباحة تعدد الأزواج للزوج الواحدة في شرائع الجاهليين ، « سترابــو » . ذكر ان الاخوة كانوا يشتركون في كل شيء ، في المال وفي الزوج . فللإخوة جميعهم زوج واحدة تكون مشتركة بينهم . ولكن الرئاسة تكون للأخ الأكبر . وإذا اراد احد الاخوة الاتصال بالزوجة ، وضع عصاه على باب الخيمة ، لتكون علامة تفهم الآخرين ان احدهم في داخلها ، فلا يدخلها ، وهم

١ Ency., Relig., Vol., 8, p. 468.

٢ بلوغ الارب (٢/٤ وما بعدها) .

٣ تفسير المنار (٥/٢٢) .

٤ المحبر (٣٤٠) .

جميعاً يحملون العصي معهم . أما في الليل فتكون الزوجة من نصيب الولد الأكبر. وهم يعاشرون أمهاتهم معاشرة جنسية . وذكر انهم يعاقبون الزاني عقاباً شديداً . يعاقبونه بالموت . والزاني في عرفهم هو الشخص الغريب ، يعاشر امرأة من اصل غريب عنه[1] .

وذهب بعض العلماء الى ان اشتراك الأخوة في زوج واحدة ، وهو مـا يعبر عنه بـ Fraternal polyandry عند علماء الاجتماع ، على نحو ما أشار (سترابون) اليه ، هو زواج يعدّ مرحلة وسطى بين تعدد الأزواج Polyandry البدائي الذي لم يكن مقيداً بقيود وبين الزواج المقيد المعروف ، زواج البعولة ، وهو اختصاص المرأة بزوج واحد ، اي الزواج الذي اباحته الأديان السماوية . وكان شائعاً بين غالبية الجاهليين القريبـين من الإسلام وعند ظهور الإسلام . وليس بمستبعد ان يكون (سترابون) قـد قصد بـ (زواج الأخوة) الزواج المعـروف بـ Le virate Marriage عند علماء الاجتماع . وهو زواج الأخ زوجة أخيه بعد وفاته ، وهو زواج نشأ على رأي علـماء الاجتماع من زواج الـ Polyandry . وهو معروف عند العرب وعند العبرانيين والحبش وغيرهم[2] .

وحينما يتوفى الزوج عند العبرانيين ، تاركاً له زوجاً دون ولد ، يأخذ الأخ ارملة اخيه ، فإذا ولدت له ولـداً عدّ المولود للأخ المتوفى[3] . وللباحثين آراء من اصل هذا الزواج وفي الأسباب التي أدت الى وقوعه[4] . وهو في رأي (جيمس فريزر) صفحة من صفحات اشتراك الأخوة في زوج واحدة ، واشتراك الأخوة في تزوج الأخوات ، وهو متمم لما سمّاه بـ Sororate[5] .

والجمع بين الأختين زوجين لرجل واحد ، زواج معروف عند الجاهليين[6] . وهذا الزواج هو صورة معكوسة لزواج الأخوة مشتركاً في زوج واحدة ، فلم

---

١ Strabo, XVI, 4, Ency. Relig.. Vol. 8, p. 467.

٢ Ency. Relig., Vol, 8, p. 467, Die Socalen Verhaltnisse der Israeliten, S. 28.

٣ Ency. Breta., Vol. 13, p. 979.

٤ Westermark, History of Human Marriage, Vol. III, (1921).

٥ Ency. Brita. Vol. 21, p. 2, « Sororate », Sir James Frazer, Folklore of the Old Testement, Vol. II, p. 317.

٦ تفسير الطبري (٤/٢١٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٤/ ٢٦٠) .

يكن هناك رادع قانوني يمنع الرجل من التزوج من الأخوات في زمن واحد ومن الجمع بينهن في صعيد الزوجية ، وفي بعولة رجل واحد . وهو في جملة أنواع الزواج الذي نهى عنه الاسلام[1] .

وتعدد الأزواج للزوج الواحدة يسبب مشكلة خطيرة في قضية تعين أبوة الأولاد إذ يكون من الصعب في اكثر الحالات إثبات ذلك ، ولهذا نسبوا الى الأمهات في الغالب . وهذا ما يعرف بالأمومة . وزواج مثل هذا يكون داخلياً ، اي في أفراد العشيرة الواحدة ، ويعاقب مرتكبه عقاباً صارماً اذا كان من عشيرة غريبة ، إذ يعد ذلك نوعاً من الزنا . ويكون هذا الزواج مؤقتاً في الغالب ، ينتهي أجله بارتحال اهل المرأة وانتقالهم من مكان الى آخر .

وقد أشار (أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus) الى زواج قال انه موجود عند العرب ، تزف العروس الى زوجها ومعها حربة وخيمة ، وقال انها تستطيع ان تعود الى بيتها بعد مدة اذا رغبت في ذلك . وقد ذهب (جورج برتن George Barton) الى ان هذا الزواج الذي يذكره هذا المؤرخ القديم هو من نوع الزواج المتقدم[2] .

إن هذا الزواج يجعل المرأة تعيش مع أهلها وبين أبويها وإخوتها ومعها اولادها، ولهذا يكون نسب الأطفال هو نسب الأم،ولهذا صار الخال اقرب اليهم من العم . ومن هنا نرى ان للخال شأناً كبيراً بالقياس الى الأطفال عند الساميين[3] .

ويظن بعض علماء الاجتماع المحدثين ان من الأسباب التي دعت الى شيوع تعدد الأزواج للزوج الواحدة ، هو قلة عدد النساء بالقياس الى الرجال ، وذلك بسبب الوأد[4] . ولكن كيف نتمكن من إثبات انتشار عادة الوأد بين جميع العرب وفي كل العهود ؟ ثم من الذي يثبت لنا انه كان من سعة الانتشار بحيث احدث مشكلة خطيرة في عدد النساء بالقياس الى الرجال ؟ ثم إن هذا النوع من الزواج كان معروفاً عند غير العرب من الأمم ، ولا زال معروفاً عند بعض القبائل الإفريقية، وهو في نظرهم نوع من انواع الزواج ، وهم لا يمارسون مع ذلك الوأد !

---

١ سورة النساء ، الآية ٢٣ .
٢ Ency., Relig., Vol., 8, p. 467.
٣ Ency., Relig., Vol., 8, p. 467.
٤ Ency., Relig., Vol., 8, p. 467.

وقد نص في الآية « حُرِّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعمّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وان تجمعوا بين الأختين ، إلاّ ما قد سلف ، إن الله كان غفوراً رحيماً »[1] . ونص في الآية « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاّ ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً »[2] ، وذلك بسبب النسب والصهر والرضاع[3] . ونزول الوحي بتحريم الزواج بالمذكورات ، يبعث على الظن أن من الجاهليين من كان يتصل اتصالاً جنسياً بهن . غير أن من العلماء من يقول إن الجملة « انشائية ، وليس المقصود منها الأخبار عن التحريم في الزمان الماضي »[4] ، بمعنى أنها ليست حكاية عن تجويز الجاهليين الاقتران بالنساء المذكورات ، وتحريم الإسلام له ، وإنما الآية تقرير وتوضيح للتحريم والمحرمات على سبيل العدّ والحصر ، لا الحكاية والإبطال لأحكام سابقة لظهور الإسلام[5] .

وللآيتين شأن خاص بالقياس الى بحثنا في زواج الجاهليين ، ولهذا كان لشرح أسباب نزولها والعوامل التي دعت الى نزول الوحي بهما ، والغاية من نزول الحكم بالتحريم ، شأن كبير عند الباحث في هذا الموضوع ، غير أن غالبية المفسرين لم تتعرض للبحث في هذه المسألة ، ويا للأسف ، وإنما تبسطت في أمور لغوية وفقهية لا تزيل الغموض عن الأسباب التي دعت الى النص على التحريم ، وعن آراء الجاهليين في الزواج بالمذكورات في الآية ، إذ أن التحريم يعني وقوع الإباحة عند من حرّم ذلك عليهم الى حين نزول الوحي : ولا سيما أن المفسرين قد ذكروا أمثلة تشير الى ان بعضهم قد تزوج ممن ورد ذكره في تلك الآية . ثم إن بعضه من النوع المعروف المألوف عند بعض الأمم ، وما زال معروفاً حتى

---

١ النساء ، الآية ٢٢ وما بعدها ، تفسير الطبري (٢١٩/٤) ، تفسير الالوسي (٢٢٣/٤) .
٢ النساء ، الآية ٢٢ .
٣ تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (١٠٥/٥ وما بعدها) .
٤ روح المعاني (٢٤٩/٤ وما بعدها) .
٥ عمدة القاري (١٠٠/٢٠) .

الآن ، وأن بعض ما حرم في الإسلام جائز في ديانات أخرى ، ومنها اليهودية والنصرانية ، فليس بغريب ولا بمعيب إذا كان موجوداً بعضه عند الجاهليين .

والاتصال الجنسي بين الأولاد والأمهات شيء قليل الوقوع عند البشر[1] . ولم تبحه ديانة من الديانات ، وهو غير معروف في العرب ، ولم يشر اليه أهل الأخبار . أما ما ذكره (سترابون) ، فلعلّ المراد منه الزواج بزوجات الآباء بعد موتهم ، أي أنه ذكر الأمهات على سبيل التجوز ، وهو زواج المقت الذي كان معروفاً في الجاهلية وعند غير الجاهليين ، الى ان نهى عنه الإسلام[2] .

وأما زواج الأخوة بالأخوات ، فهو معروف وثابت وما زال معروفاً حتى الآن في (سيام) وفي بورما وسيلان وأوغندا وأماكن اخرى . وقد كان عند الفرس والمصريين[3] ، وخاصة بين أفراد الأسر المالكة والاشراف . والظاهر ان ذلك لاعتقادهم ضرورة المحافظة على نقاوة الدم وخصائص الاسرة . خاصة وقد كانت عقيدة القدماء أن تلك الطبقات مقدسة مؤلهة ، فلا يجوز إهراق دمها في دم أوطأ منه .

وقد ذهب (موركن) (Morgan) وآخرون الى ان زواج الأخ بأخته، هو الزواج المألوف العام الذي كان شائعاً بين البشر،وانه المرحلة السابقة للزواج المألوف[4]. أما زواج الآباء ببناتهم ، فهو معروف ومذكور ولكنه قليل ، وقد أشير الى وجوده عند بعض الشعوب ومنهم المجوس والمصريين،ذكر ذلك اليونان والرومان. وأشار الأخباريون الى تزوج (حاجب بن زُرارة) ابنته (دختنوس) لمجوسيته، وذكروا انه أولدها ، وأوردوا في ذلك شعراً وقصصاً ، ثم ذكروا انه ندم بعد ذلك على عمله ، وانه فعل ذلك بتأثير المجوسية التي دان بها ، وحاجب بن زرارة هو من تميم . فالمجوسية على زعم اهل الأخبار هي التي أباحت لحاجب الاقتران بابنته [5] .

---

١ Ency., Relig., Vol., 8, p. 425, 467.

٢ المصدر نفسه .

٣ كذلك .

٤ Ency. Relig., Vol., 8, p. 425, 467.

٥ الجامع لاحكام القرآن ، للقرطبي (٥/١٠٤) ، الاغاني (١٠/٣٨) ، بلوغ الارب (٢/٥٢ ، ٢٣٥) .

ودعوى الأخباريين هذه فيها نظر ، والشعر المذكور والقصص الذي يورده أهل الأخبار يحتاج الى اثبات . وقد رأينا كثيراً منه تعمله معامل الوضع ، وقد ثبت وضعه ، وليس بمستبعد أن يكون ما ذكره هؤلاء هو من هذا القبيل. وضعه خصوم تميم للطعن فيها ، وإلحاق مثلبة بها ، ثم روّجه وأشاعه الطالبون لمثالب القبائل من العرب ، وقد كانوا يبحثون عن أمثال هذه السقطات ، وهم جماعة لهم رأي في الدين وفي السياسة معروف مشهور .

وفي بعض الأخبار أن (دختنوس) كانت ابنة (لقيط بن زرارة التميمي)، وأنها كانت تحت (عمرو بن عدس) سمّاها أبوها (دختنوس) باسم ابنة كسرى وأن البيتين اللذين ينسبها أهل الأخبار الى (حاجب) ، ويزعمون أنه قالها حين نكح ابنته وهما :

يا ليت شعري عنك دختنوس إذا أتاها الخبر المرموس
أتسحب الذيلين ، أم تميس ؟ لا بل تميس ، إنها عروس[1]

لم يكونا لحاجب ، بل كانا من رجز (لقيط) وقد قالها يوم شعب جبلة عند موته ، وجعلت بنو عامر يضربونه ، وهو ميت ، وقد رووهما على هذه الصورة:

يا ليت شعري اليوم دختنوس إذا أتاها الخبر المرموس
أتحلق القرون ، أم تميس ؟ لا بل تميس إنها عروس[2]

وذكروا أن (دختنوس) أخذت ترثي أباها بأبيات ذكروها . وليس في كل هذه القصة أية اشارة الى تزوج لقيط بابنته ، بل هي تنص على ان زوجها كان (عمرو بن عدس)[3] . وأن قصة زواج (حاجب) بابنته قصة مصنوعة .

وقد أشار أهل الأخبار الى نوع آخر من الزواج قالوا له (نكاح الخِدْن) . وقد أشير اليه في القرآن الكريم (وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان)[4]) ، ومعناها اتخاذ أخلاء في السر ، وذلك باتخاذ الرجل

---

١ بلوغ الارب (٢/٢٣٥) .
٢ الاغاني (١٠/٣٨) ، تاج العروس (٤/١٤٧) ، (دختنوس) .
٣ الاغاني (١٠/٣٨) ، بلوغ الارب (٢/٢٣٥ وما بعدها) .
٤ النساء ، الآية ٢٥ ، المائدة ، الآية ٥ ، الانعام ، الآية ١٥١ .

صديقة له ، أو اتخاذ المرأة صديقاً لها [1] . ويكون ذلك بالطبع بتراضٍ واتفاق . و (ذات الخدن) هي من اتخذت لها صديقاً واحداً ، وقد نهي عن اتخاذ الأخدان في جملة ما نهي عنه في الاسلام [2] . وكان الرجل في الجاهلية يتخذ خدناً لجواريه ، ليحدث الجارية ويصاحبها ويؤانسها لكي لا تستوحش،وقد يتصل بها ، وقد نهي عن هذا النوع من المخادنة أيضاً في الاسلام [3] .

و (نكاح الخدن) لا يمكن عدّه نكاحاً وإن أطلق أهل الأخبار عليه صفة النكاح ، لأنه لم يكن بعقد وخطبة ، وانما كان صداقة ، وآية ذلك ورود (ولا متخذات أخدان) بعد جملة (غير مسافحات) في القرآن الكريم ، والنهي عن الاقتران بصاحبات الأخدان والمسافحات ، لأنهن غير محصنات ، فحكم صاحبة الخدن هو حكم المسافحة في الجاهلية على السواء .

وقد ذكر علماء التفسير ان (أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفي . يقولون أما ما ظهر منه ، فهو لؤم،وأما ما خفي،فلا بأس بذلك) [4] . فالزنا عند أهل الجاهلية ، الزنا العلني ، فهو عيب عندهم ، أما اتخاذ الخدن ، فلا يعد عيباً ، لأن المرأة تصادق الرجل ، والرجل يصادق المرأة ، وقد وقع عن قبول ورضى ، فهو عمل حلال ، ولا بأس به [5] .

نكاح الظعينة :

واذا سبي رجل امرأة ، فله أن يتزوجها إن شاء ، وليس لها أن تأبى عليه ذلك ، لأنها في سبائه ، وهي في ملك سابيها . ويكون هذا الزواج بغير خطبة ولا مهر ، لأنها مملوكة وليس لها خيار .

---

١ مجمع البيان ، للطبرسي (٣/٣٤) .
٢ تفسير الطبري (٥/١٤) ، تفسير المنار (٥/٢٢ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٦/٢٩٦) ، تاج العروس (٥/٢٢ وما بعدها) .
٤ تفسير الطبري (٥/١٣ وما بعدها) .
٥ نفسير الطبري (٥/١٣ وما بعدها) ، روح المعاني (٢/١٠) .

أمر الجاهلية في نكاح النساء :

وقد لخص (السكري) أمر النكاح في الجاهلية بقوله : « وكان أمر الجاهلية في نكاح النساء على أربع : امرأة تخطب فتزوج . وامرأة يكون لها خليل يختلف اليها ، فإن ولدت قالت : هو لفلان ، فيتزوجها بعد هذا . وامرأة ذات راية يختلف اليها ، فإن جاء اثنان فواقياها في طهر واحد ألزمت الولد واحداً منهما ، فهذه تدعي المقسمة . والرجل يقع على أمة قوم ، فيبتاع ولدها فيرغب فيدعيه ويشتريها فيتخذها امرأة »[1] .

تعدد الزوجات :

وقد أباح الجاهليون للرجل تعدد الزوجات ، والجمع بين أي عدد شاء من الأزواج دون تحديد . أما الاكتفاء بامرأة واحدة أو باثنتين أو أكثر ، فذلك أمر خاص يعود اليه. كما أباح التشريع الجاهلي للرجل امتلاك أي عدد يشاء من الإماء . وتكون الأمة ملكاً للرجل ، لأنه اشتراها بذات يمينه ، وهي ملكه ما دامت أمة في ملك سيدها ، فليس لها حقوق الزوجة ، ولا تعدّ الأمة زوجة ، إلا اذا اعتقها مالك رقبتها وتزوّجها ، فعندئذ تكون له زوجة له بمحض قرار الرجل وإرادته .

وقد روى علماء التفسير « أن قريشاً كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل »[2] . ورووا أن « الرجل في الجاهلية يتزوج العشرة فما دون ذلك »[3] ، وأنهم « كانوا في الجاهلية ينكحون عشراً من النساء الأيامى »[4] ، وأنهم « كانوا في جاهليتهم لا يرزأون من مال اليتيم شيئاً . وهم ينكحون عشراً من النساء ، وينكحون نساء آبائهم »[5] ، ولم يكونوا يعدلون بين نسائهم ، بل يفضلون بعضاً على بعض . فجاء النهي عن ذلك في القرآن[6] .

---

١ المحبر (٣٤٠) .
٢ تفسير الطبري (٤/١٥٦) .
٣ تفسير الطبري (٤/١٥٧) .
٤ تفسير الطبري (٤/١٥٧) .
٥ تفسير الطبري (٤/١٥٧) .
٦ سورة النساء ، الآية ٣ .

وكان مما حدده الإسلام من مبدأ تعدد الزوجات ، أن قيد العدد بأربع ، وهو تبديل لسنة الجاهليين . فلما نزل الأمر بالتحديد ، اضطر من كان قد تزوج بأكثر منه على تطليق الزائد والاكتفاء بالحد القانوني الذي أقره الإسلام وهو أربعة. روي أن (غيلان بن سلمة الثقفي) ، كان قد تزوج في الجاهلية بعشر نساء ، فلما أسلم ، أمره رسول الله بتطليق الزائد وبالتقيد بما جاء في حكم القرآن[1] . وقد أمر الرسول (الحارث بن قيس) ، أن يختار من نسائه أربعاً ، ويطلق بقيتهن، وكانت عنده ثماني نسوة[2] . وكان (مسعود بن معتب) و (معتب بن عمرو ابن عمير) ، و (عروة بن مسعود) ، و (سفيان بن عبدالله) ، و (أبو عقيل مسعود بن عامر بن معتب) ، وكلهم من ثقيف ، وقد تزوجوا عشر نسوة ، فنزل غيلان وسفيان وأبو عقيل للاسلام عن ست ست ، وأمسكوا أربعاً أربعاً . ومات عروة مسلماً ، ولم يكن أمر بالنزول عن نسائه[3] .

الطلاق :

وكما كان الزواج . كذلك كان الطلاق عند الجاهليين . ولا بد أن تكون له قواعد وعرف وأسباب .. وقد ذكر ان عادة أهل الجاهلية أن يقول الرجل لزوجته إذا طلقها : (حبلك على غاربك) ، أي خليت سبيلك ، فاذهبي حيث شئت[4]، ويقول : (أنتِ مُخلّى كهذا البعير)[5] ، و (الحقي بأهلك) ، و (اذهبي فلا أنده سربك) ، و (اخترت الظباء على البقر)[6] ، و (فارقتك) ، أو (سرحتك) ، أو الخلية ، أو البرية ، وما شاكل ذلك من عبارات[7] .

ومصطلحات الطلاق هذه مصطلحات نابعة من صميم محيط جزيرة العرب ، آثار

---

١ النساء ، الآية ٣ ، الشوكاني ، نيل الاوطار (١٦٠/٥) ، زاد المعاد (٧/٤) .
٢ تفسير القرطبي (١٧/٥) .
٣ المحبر (٣٥٧) .
٤ تاج العروس (٤١١/١) ، (غرب) .
٥ اللسان (٦٤٤/١) ، (غرب) ، (صادر) ، (١٣٦/٢) ، تاج العروس (٤١١/١) ، (غرب) .
٦ اللسان (٦٤٤/١) ، (غرب) ، الميداني ، الامثال (١٧٩/١ ، ٢٥٣ ، ٤٠٨) .
٧ عمدة القاريء (٢٣٨/٢٠) .

البداوة عليها واضحة جلية ، والروح الأعرابية ظاهرة فيها بارزة . ومـا الأمثلة المتقدمة إلا نماذج من تلك المصطلحات .

وورد ان الجاهليين كانوا يقولون للمرأة : أنت خلية ، كناية عن الطلاق ، فكانت تطلق منه . وكانوا يقولون : أنتِ برية أنت خلية ، فتطلق بها المرأة [1] .

والطلاق من المصطلحات الجاهلية القديمة ، وهو يعني عندهم تنازل الرجل من كل حقوقه التي كانت على زوجه ومفارقته لها [2] .

والطلاق الشائع بين أهل مكة عند ظهور الإسلام ، هو طلاق المرأة ثلاثاً على التفرقة : وينسب أهـل الأخبار سَنَّهُ الى اسماعيل بن ابراهيم ، فكان أحدهم يطلق زوجته واحدة ، وهو أحق الناس بها ، ثم يعود اليها إن شاء ، ثم يطلقها ثانية ، وله أن يعود اليهـا إن رغب ، حتى إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها ، فتصبح طالقة طلاقاً بائناً [3] ومعنى هذا عدم إمكان الرجوع الى الزوجـة بعد وقوع الطلاق الثالث مهما أوجد المطلق له من أعذار [4] . ويذكر أهـل الأخبار قصة وقعت للأعشى حينما أتاه قوم زوجه وطلبوا منه تطليقها ، ولم يقبلوا منـه طلاقها إلا بعـد ثلاث تطليقات ، أعادها ثلاث مرات . فعد طلاقه لهـا طلاقاً بائناً [5] .

ويظهر ان الجاهليين كانوا قد أوجدوا حلاً لهذا الطلاق الشاذ ، فأباحوا للزوج

---

١ تاج العروس (١٠/١١٩) ، (خلو) .

٢ Ency., IV, p. 636, Kinship, p. 112, Wellhausen, (I) Die Ehe bei den Araber, in Nachrichten d. König. Gess. der Wiss., Gottingen, 1893, S. 452.

٣ الاغاني (٨/٨٠ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٤٩) .

٤ المحبر (٣٠٩ وما بعدها) .

٥ بلوغ الارب (٢/٤٩) ، قال الاعشى :

أيا جارتي بيني فانك طالقة كذاك أمور الناس غاد وطارقه

قالوا : ثانية ، فقال :

وبيني فان البين خير من العصا والا ترى لي فوق رأسك بارقه

قالوا : ثالثة ، فقال :

وبيني حصان الفرج غير ذميمة وموموقة قد كنت فينا ووامقة

« أيا جارتا » ، وهناك بعض الاختلاف في الالفاظ ، المحبر (٣٠٩ وما بعدها) .

أن يرجع زوجه اليه بعد الطلاق الثالث،ولكن بشرط أن تتزوج بعد وقوع الطلاق الثالث من رجل غريب ، على أن يطلقها بعد اقترانها به ، وعندئذ يجوز للزوج الأول أن يعود اليهـا بزواج جديد . ولذلك عرف الطلاق البائن : أنـه الذي لا يملك الزوج فيه استرجاع المرأة إلا بعقد جديد . وقد ذكر في كتب الحديث ويقال في الإسلام للرجل الذي يتزوج المطلقة بهذا الطلاق ليحلّها لزوجهـا القديم (المحلل) ويقال لفاعله (التيس المستعار) و (المجحش) . وهو حلّ مذموم عند الجاهليين وحرم في الإسلام[1] . لم يعمل به إلا بعض الجهلاء من الناس،ممن ليست لهم سيطرة على أنفسهم ، بل يعملون أعمالاً ثم يندمون على ما فعلوه .

وهناك نوع آخر من الطلاق يسميه أهل الأخبار بـ (الظهار) . ذكروا أنه إنما دعي ظِهاراً من تشبيه الرجل زوجته أو ما يعبر به عنها أو جزء شائع بمحرم عليه تأبيداً ، كأن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي أو كبطنها ، أو كفخذها أو كفرجها ، أو كظهر أختي او عمتي ، وما شابه ذلك[2] ، فيقع بذلك الظِهار . وقد أشير اليه في القرآن الكريم : « والذين يظاهرون منكم من نسائهم، ما هنّ أمهاتهم إن امهاتهم إلاّ اللآئي ولدنهم ، وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً »[3] . وهو طلاق يظهر أنه كان شائعاً فاشياً بين الجاهليين ، سبب انتشاره التسرع ، والتهور ، وعدم ضبط النفس ، والانفعالات العاطفية .

---

١ (لعن الله المحلل والمحلل له) ، النهاية (٢٨٨/١) ، عمدة القاري، (٢٣٦/٢٠)، المبسوط ، للسرخسي (٢/٥ وما بعدها) ، السنن الكبرى (٢٠٧/٧ وما بعدها)، (انه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : الا أخبركم بالتيس المستعار ؟ هو المحلل . ثم قال : لعن الله المحلل والمحلل لـه . والحديث المذكـور رواه الدارقطني .. قيل انما لعنه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، مع حصول التحليل ، لان التماس ذلك هتك للمروءة والملتمس ذلك ، هو المحلل له . واعادة التيس للوطء لغرض الغير أيضا رذيلة . ولذلك شبه بالتيس المستعار) ، الدميري ، حياة الحيوان (١٦٦/١) ، (التيس) ، عمدة القاري، (٢٣٦/٢) ، « وفي حديث ابن مسعود فيمن طلق امراته ثماني تطليقات » اللسان (٦٤/١٣) ، (بين) .

٢ المفردات (٢٢٠) ، الاصابة (٨٥/١) ، الجصاص (٤١٧/٣) ، عمدة القـاري، (٢٨٠/٢) ، المبسوط ، للسرخسي (٢٢٣/٦) ، تفسير الطبري (١٢١/٢١) ، (الطبعة الثانية ١٩٥١) ، تفسير الطبرسي (٩٦/٢١) ، (بيروت) .

٣ المجادلة ، الآية ٢ وما بعدها ، الكشاف ، للزمخشري (٤٢٣/٤) .

وكان الظهار من أشد طلاق أهل الجاهلية ، وكان في غاية التحريم عندهم[1] . فكان الرجل اذا ظاهر امرأته ، بأن قال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، حرمت عليه ، وصارت طالقاً ، فلما كان الاسلام ، ظاهر (أوس بن الصامت) أخو عبادة بن الصامت امرأته (خولة بنت ثعلبة بن مالك) ، فنزل الأمر بجعل كفّارة فيه ، ولم يجعله طلاقاً ، كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم[2] .

فإذا تخاصموا مع نسائهم أو مع أقربائها ، أقسموا يمين الظهار[3] . وقد كان هذا اليمين من أيمان أهل الجاهلية خاصة[4] . ولهذا الطلاق باب في كتب الحديث والفقه في أحكام الطلاق ، وقد نهى عنه الاسلام وأوجب الكفّارة على من ظاهر من امرأته[5] .

وأشار أهل الأخبار الى نوع آخر من أنواع الطلاق ذكروا انه كان من طلاق أهل الجاهلية سمّوه (الإيلاء) ، وهو القسم على ترك المرأة مدة ، مثل شهور أو سنة أو سنتين ، أو أكثر ، لا يقترب في خلالها منها ، وقد أشير اليه في رواية تنسب الى ابن عباس[6] .

وفي كتب الحديث وكتب الفقه باب خاص في هذا الطلاق[7] . وقد منع

---

١ تفسير النيسابوري (٢٨/٧) ، (حاشية على تفسير الطبري) .

٢ المجادلة ، رقم ٥٨ ، الآية ٢ ، تفسير الطبري (٢٨/٧) ، تفسير ابن كثير (٤/٣٢٠ وما بعدها) .

٣ تنوير الحوالك ، شرح موطأ الامام مالك (٢/٢٠ وما بعدها) ، زاد المعاد (٤/٨١) .

٤ عمدة القاريء (٢٠/٢٨١) .

٥ تاج العروس (٣/٣٧٣) ، (ظهر) ، اللسان (٦/٢٠١) ، (ظهر) سنن أبي داوود (٢/٢٦٥ وما بعدها) ، عمدة القاريء (٢٠/٢٨١) ، البخاري ، كتاب الطلاق ، الباب ٢٣ ، ابن حنبل (٤/٣٧) ، (٦/٤١٠) .

٦ تفسير الطبري (٢/٢٥٦ وما بعدها) ، البخاري ، كتاب الطلاق ، الباب ٢٣ ، بلوغ الارب (٢/٥٠) ، اللسان (١٨/٤٣) ، (بولاق) ، الفروع في الكافي ، لابي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق (٦/١٣٠) ، (طهران ١٣٧٩ هـ) ، تفسير ابن كثير (١/٢٦٨) .

٧ تنوير الحوالك ، (٢/١٨ وما بعدها) ، عمدة القاريء (٢٠/٢٨١) ، المبسوط ، للسرخسي (٧/١٩ وما بعدها) ، البخاري ، كتاب الطلاق ، الباب ٢٣ ، السنن الكبرى ، للبيهقي (٧/٣٨١) ، عمدة القاريء (٢/٤٧٤) .

الاسلام التّرابص مدة تزيد على أربعة أشهر[١] . وقد جعله طلاقاً مؤجلاً[٢] .

والطلاق حق من حقوق الرجل ، يستعمله متى شاء . أما الزوجة ، فليس لها حق الطلاق ، ولكنها تستطيع خلع نفسها من زوجها بالاتفاق معه على ترضية تقدمها اليه ، كأن يتفاوض أهلها أو ولي أمرها أو من توسطه للتفاوض مع الزوج في تطليقها منه في مقابل مال أو جُعْل يقدم اليه . فإذا وافق عليه وطلقها، يقال عندئذ لهذا النوع من الطلاق (الخلع) . وقد ذكر أهل الأخبار ان أول خلع كان ، هو خلع عامر بن الظرب ، وذلك انه زوّج ابنته من ابن أخيه عامر بن الحارث بن الظرب ، فلما دخلت عليه ، نفرت منه[٣] .

فالخلع اذن ، هو طلاق يقع بدفع مال ، تدفعه المرأة أو أقرباؤها للرجل في مقابل تخلية سبيلها وافتداء نفسها به[٤] . ويدخل في هذا الباب ما تدفعه زوج الأب المتوفى الى ابنه الذي يتزوجها بعد وفاة أبيه من مال مقابل فراقه لها ، وتطليقه إياها[٥] .

وكان من الجاهليين من يطلق زوجته ، ويفارقها ، غير انه لم يكن يسمح لها بالتزوج من غيره حميّة وغيرة ، ويهددها ويهدد أهلها إن حاولت الزواج ، أو يرضي أهلها وأولياءها بالمال، فلا يجيزوا لها الزواج وقد نهى عن ذلك الاسلام[٦] .

وقد يهمل الرجل زوجته ، فلا يراجعها ولا يطلقها ، ويظل مفارقاً لها ، الى أن ترضيه بدفع شيء له ، فيسمح لها عندئذ بالطلاق وبالزواج من غيره ويقال لذلك (العَضْل) . و (كان العضل في قريش بمكة . ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلّها لا توافقه فيفارقها ، على أن لا تتزوج إلاّ بإذنه فيأتي بالشهود ، فيكتب ذلك عليها ، ويشهد ، فإذا خطَبها خاطب فإن أعطته وأرضته أذن لها . وإلاّ

---

١ البقرة ، الآية ٢٢٦ ، ابن قدامة ، المغني (٥٠٢/٨) ، الجصاص (٣٥٧/١) ، الشوكاني ، نيل الاوطار (٢٥٧/٦ وما بعدها) .

٢ المبسوط ، للسرخسي (١٩/٧ وما بعدها) .

٣ عمدة القاري (٢٦٠/٢٠) ، المبسوط (١٧٦/٦ وما بعدها) ، السنن الكبرى (٣١٦/٧) ، اللسان (٤٢٩/٩) ، تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلع) ، تفسير المنار (٤٦١/٤) ، تفسير الطبري (٤٦١/٢) ، فتح الباري (٣١٨/٩) .

٤ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٢٧١/٥) .

٥ Kinship. p. 92.

٦ عمدة القاري (١٢١/٢٠ ، ١٢٤) ، روح المعاني (١٤٤/٢) .

عضلها)[1] . وقد حرم العضل في جملة ما حرم من أحكام الجاهليين في الإسلام[2].

ومن العضل الـذي هو منع المرأة من الزواج ، أنهم كانوا في الجاهلية إذا مات زوج احداهن ، كان ابنه أو قريبه أولى بها من غيره ، ومنها بنفسه . إن شاء نكحها وإن شاء عضلها . فمنعها من غيره ولم يزوجها حتى تموت[3] .

و « الحميم » الـذي كان يرث الرجل إذا كان في الجاهليـة ، هو الصديق والقريب[4] ، والقريب المشفق الذي يهتم لأمر حميمه[5] . ولم يذكر العلماء كيف كان يرث الحميم حميمه ، هل كان ذلك عن وصية ، أو عن عدم وجود قريب نسب، أو انه حق من حقوق اهل الجاهلية فرضوها بالنسبة الى الحميم ؟

وكان الرجل من أهل الجاهلية يطلق الثلاث والعشر وأكثر من ذلك،ثم يراجع ما كانت في العـدة ، لا حدّ في ذلك ، فتكون امرأته . ذكر أن رجلاً من الأنصار غضب « على امرأته ، فقال لها لا أقربك ولا تحلّين مني . قـالت : كيف ؟ قـال : أطلقك حتى إذا دنا أجلك راجعتك ، ثم أطلقك ، فإذا دنا راجعتك » . « وطلق رجل امرأته حتى إذا كادت أن تحلّ ارتجعها ، ثم استأنف بها طلاقاً بعد ذلك ليضارها بتركها حتى إذا كان قبـل انقضاء عدتها راجعها ، وصنع ذلك مراراً . فلما علم الله ذلك منه ، جعل الطلاق ثلاثاً . مرتين ، ثم بعد المرتين إمساك بمعروف ، او تسريح بإحسان » . وذكر « كان الطلاق قبل أن يجعل الله الطلاق ثلاثاً ، ليس له أمد . يطلق الرجل امرأته مائـة ، ثم إن أراد ان يراجعها قبل ان تحل كان ذلك له »[6] . وقد حرم الإسلام هذا الضرر ، في الآية : « الطلاق مرتين ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »[7] .

والطلاق هو بأيدي الرجال ، كما سبق أن ذكرت ، بيدهم حلّه وعقده ،

---

١ سنن أبي داوود (٢/٢٣٠) ، تفسير الطبري (٢٠٨/٤ وما بعدها) ، المفردات (٣٤٢) ، تفسير المنار (٤٥٤/٤) ، تاج العروس (٢١/٨) ، (عضل) .
٢ البقرة ، الآية ٢٣٠ وما بعدها ، النساء ، الآية ١٩ .
٣ تفسير الطبري (٢٠٨/٤ وما بعدها) .
٤ تفسير ابن كثير (١٠١/٤) ، تفسير الطبري (٧٦/٢٤) ، روح المعاني (١٠٩/٢٤) .
٥ تاج العروس (٢٥٩/٨) ، (حمم) .
٦ تفسير الطبري (٢٧٦/٢ وما بعدها) .
٧ البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٢٩ ، الكشاف (٢٦٨/١) .

أما النساء فلهن العدة ، ولذلك كان بعض النسوة يشترطن على أزواجهن أن يكون أمرهن بأيديهن ، إن شئن أقمن ، وإن شئن تركن معاشرتهم وأوقعن الطلاق ، وذلك لشرفهن وقدرهن . ومن هؤلاء النسوة : سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش الخزرجية ، وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية ، وأم خارجة صاحبة المثل : أسرع من نكاح أم خارجة ، ومارية بنت الجعيد . وعاتكة بنت مرّة ، والسوا بنت الأعبس . وقد عرفن بكثرة ما أنجبن من ذرية في العرب،وقد تزوجن جملة رجال[1] .

وطريقة طلاق المرأة للرجل في الجاهلية ، طريقة طريفة لا كلام فيها ولا خطاب . (كان طلاقهن انهن إن كن في بيت من شعر حوّلن الخباء ، إن كان بابه قبل المشرق حولنه قبل المغرب . وإن كان قبل اليمن حولنه قبل الشأم ، فإذا رأى ذلك الرجل علم انها قد طلقته ، فلم يأتها)[2] . وهذه الطريقة هي طريقة أهل الوبر في الطلاق . ومتى طلقت المرأة زوجها ، تركت داره والحي الذي يسكنه ، لتعود الى بيتها والحي الذي تنتمي اليه .

ولما كان الطلاق بيد الرجل في الغالب ، لذلك كان أهل الزوجة يكرهون زوجها أحياناً على تطليقها ، اذا أرادوا تطليقها منه ، بتخويفه أو بضربه أو بما شاكل ذلك من طرق حتى يرضخ لأمرهم ، ويعدّ ذلك طلاقاً مشروعاً عندهم ، وإن كان قد وقع كرهاً ومن غير رضى الزوج . وعدّ طلاق الغاضب والسكران والهازل طلاقاً عند بعض الجاهليين لصدور صيغة الطلاق من الرجل وتفوهه به .

هذا وللظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في ذلك الوقت دخل كبير في الطلاق . فالطلاق كان سهلاً على ما يظهر ، وكان عقوبة أحياناً يوقعها الرجل بامرأته لمسائل بسيطة تافهة ، انتقاماً منها أو من ذوي قرابتها لأسباب لا علاقة لها بالزوجية وبالحياة العائلية في أكثر الأحيان ، كما ان الفقر والجهل كانا عاملين مهمين في وقوع الطلاق . وإلا فما ذنب امرأة تطلق مثلاً ، لأنها منجبة للبنات ، لا تلد إلا البنات ، أو لأنها تلد البنات أكثر من الأولاد . وطالما يكون الطلاق من عصبية وهياج ومن سلطان غضب ، وحين يهدأ روع المرء

---

١ المحبر (ص ٣٩٨ ، ٤٣٥) ، النهاية (٤٧/٣ وما بعدها) .
٢ الاغاني (١٠٢/١٦) ، (أخبار حاتم ونسبه) ، (٢٩١/١٧ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٥٧) .

يندم على ما فرط منه ، ولذلك شدد الاسلام فيه مع اباحته له لضرورته بأن جعله أبغض الحلال الى الله .

الرجعة :

وإذا طلق فلان فلانة طلاقاً يملك فيه الرجعة ، يقال : ارتجع المرأة وراجعها مراجعة ورجاعاً : رجعها الى نفسه بعد الطلاق . والإسم الرجعة [1] .

الحيض :

وقد كان « أهل الجاهلية لا تساكنهم حائض في بيت ولا تؤاكلهم في إناء » ، « وكانوا في أيام حيضهن يجتنبون اتيانهن في مخرج الدم ، ويأتونهن في أدبارهن » . وكانوا يتجنبون أن تصبغ المرأة رأس زوجها ، أو ان تؤاكله طعامه ، او ان تضاجعه في فراشه . ولا يسمح للحائضة بدخول الكعبة او بالطواف بها او بمس الأصنام ، لأنها غير طاهرة [2] . بل كان منهم من يعتزل زوجه في بيته ، فلا يقترب أو يدنو منها [3] . فهم في ذلك على أمر شديد . وذكر بعض علماء التفسير « أن العرب في المدينة وما والاها كانوا قد استنّوا بسنة بني اسرائيل في تجنب الحائض ومساكنتها » [4] . فلما سألوا الرسول عن الحيض أنزل الله : « ويسألونك عن المحيض ، قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن. فأتوهن من حيث أمركم الله » [5] . « فبلغ ذلك اليهود ، فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه » [6] .

ونلاحظ وجود بعض التناقض في روايات أهل الأخبار في موضوع الحيض ،

---

١ **اللسان** (٨/١١٥) ، (رجع) .
٢ تفسير الطبري (٢/٢٢٤ وما بعدها) ، روح المعاني (٢/١٠٤) ، تفسير القرطبي (٣/٨٠) .
٣ تفسير ابن كثير (١/٢٥٨ وما بعدها) .
٤ تفسير القرطبي (٣/٨١) .
٥ سورة البقرة ، رقم ٢ ، الآية ٢٢٢ .
٦ تفسير القرطبي (٣/٨١) .

واقتراب الرجل من المحيضة. فبينما هم يذكرون أن الرجل كان لا يؤاكل زوجته ولا يقترب منها، ولا يسمح لها أن تصبغ رأسه او ان تضاجعه، تراهم يذكرون أنهم كانوا يجتنبون اتيانهن في مخرج الدم، ويأتونهن في أدبارهن. وهذا ما يتفق مع ذلك التشدد المنسوب اليهم، إلا أن يكونوا قد قصدوا به قوماً آخرين غير أهل يثرب، كأهل مكة، فنقول عندئذ إنهم لم يكونوا على تشدد أهل المدينة في موضوع الحيض، وإنما امتنعوا فيه من اتيان أزواجهم من حيث أمر الله: الى اتيانهن في أدبارهن لعلة الدم. أما بالنسبة الى بقية العرب، ولا سيما الأعراب، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن ذلك بشيء لعدم وجود موارد لدينا فيها أي شيء عنه.

العدة:

وعلى المرأة في الاسلام اتخاذ (العدة) عند طلاقها وعند موت زوجها، والغاية من ذلك المحافظة على النسب، وعلى الدماء كراهة أن تختلط بالزواج العاجل بعد الطلاق أو الموت، فوضعوا لذلك مدة لا يسمح فيها للمرأة خلالها بالزواج تسمى (العدة)[1]. (وعدة المرأة ايام قروئها، وعدتها أيضاً ايام احدادها على بعلها وإمساكها عن الزينة شهوراً كان أو اقراءً أو وضع حمل حملته من زوجها)[2]. وقد ذكر في الحديث ان المطلقة لم تكن لها عدة، فأنزل الله تعالى العدة، للطلاق والمتوفى زوجها، اي ان عدة المطلقة لم تكن معروفة في الجاهلية، وانما فرضت في الاسلام[3]. فكانت المرأة المطلقة تتزوج في الجاهلية دون مراعاة للعدة. واذا كانت حاملاً، عد حملها مولوداً من زوجها الجديد. ويكون الزوج عندئذ والداً شرعياً لذلك المولود، وان كانت الأم تعرف ان حملها هو من بعلها الأول[4]. (وقد ولد منهن عدة على فرش أزواجهن من أزواجهن الأولين. فمن اولئك، ان سعد بن زيد مناة بن تميم، تزوج الناقية وهي حامل من معاوية بن بكر

---

١ بلوغ الارب (٢/٥٠).
٢ اللسان (٤/٢٧٥).
٣ اللسان (٤/٢٧٥)، تاج العروس (٢/٤١٧)، المحبر (٣٣٨).
٤ Ency., p. 157.

ابن هوازن ، فولدت على فراش سعد ، صعصعة . فلما مات سعد ، منعه بنوه ميراثه ، فلحق بأصله) . (ومنهم ربيعة بن عاصم بن جزء بن عبدالله بن عامر ابن عوف ابن عقيل . كانت أمه من جعفى ، فكانت تحت (الفُغار) الجعفى ، وهو هُبيرة بن النعمان . فطلقها وهي حامل بربيعـة . فتزوجها عاصم . فولدت بعد ثلاثة أشهر على فراشه . فخاصمه فيه الفغار الى عمر بن الخطاب ، رحمه الله . فقضى بربيعة للفغار ، بقول امه انه من جعفي . وقضى فيه على انه للعقيـلي ، لأنه ولد على فراشه) . (ومنهم محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة ، وكان عمير سبى أم محمد هذا في أول الاسلام ، وهي حامل من مالك بن عوف النصري ، فولدت محمداً على فراش عمير ، فلحق به) . وقد تعرّض (السكري) لهذا الموضوع ، فقال : « وهذا في قريش والعرب كثير . ولو أردنا استقصاءه لكثر »[1] .

وأما (عدة) المتوفى عنها زوجها عند الجاهليين ، فهي ملة حـدادها حولاً كاملاً . وقد أبطلها الإسلام . إذ جعل العدة للطلاق والوفاة ، كما نص عليها في كتب الفقة . وقد ذكر ان المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً ولبست شرّ ثيابها ولم تمس طيباً حتى تمرّ بها سنة ، ثم تؤتى بدابة حمار أو طائر فتفتض به ، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غـيره . وذكر أن المعتدة كانت لا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً ، ولا تستعمل طيباً ، ولا كحلاً ، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر[2] . وكانت إذا رمدت ، أو اشتكت عينها ، فلا يجوز لها أن تكتحل او ان تعالجها[3] . وفي ذلك يقـول لَبيد :

وهُمُ ربيـع للمجاور فيهمُ والمرملات إذا تطاول عامها[4]

وإذا طلقت المرأة وهي عالقة من زوجها ، وتزوجها زوج آخر ، فولدت له

---

١ المحبر (٣٢٨ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٥٠ وما بعدها) ، صحيح مسلم (٤/٢٠٢ وما بعدها) .
٣ صحيح مسلم (٤/٢٠٢ وما بعدها) .
٤ الفاخر (١٥٣ وما بعدها) .

مولوداً في وقت لا يمكن أن يعدّ المولود فيه من زوجها الثاني ، عـد المولود ولداً للزوج الجديد . أما الإسلام ، فقد اعتبره ولداً للزوج المطلق[1] .

النفقة :

ويظهر من كتب الحديث أن الجـاهليين لم يكونوا يؤدون نفقـة للمطلقة ، ولم يكونوا يجعلون شيئاً لها للسكن ولا للنفقة في الطلاق البائن[2] .

النسب :

وينسب الولد في العرف الجاهلي الى الأب . وعرفهم في ذلك (الولد للفراش). وهو يرث والده . ولهذا ألحق أولاد الزنا بآبائهم ، فنسبوا اليهـم . أما إذا كثر أزواج المرأة ، فيلحق المولود بالوالد حسب قول المرأة أو حسب الشبه إن وقع خلاف في ذلك[3] .

والاستلحاق معروف في الجاهلية . وهو ان يعترف رجل بأبوته الحقيقية لولد، ويدعيه ابناً له ، فيلحق هذا الابن به . ورد في الحديث : (ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قضى ان كل مستلحق استلحق بعد أبيه الذي يدعى له ، فقد لحق بمن استلحقه) ، (وذلك انه كان لأهل الجاهلية إما بغايا ، وكان سادتهن يلمّون بهن ، فإذا جاءت احداهن بولد ربما ادعاه السيد والزاني ، فألحقه النبي، صلى الله عليه وسلم بالسيد ، لأن الأمة فراش كالحرة،فإن مات السيد ولم يستلحقه ثم استلحقه ورثته بعده ، لحق بأبيه . وفي ميراثه خلاف)[4] .

---

١ Shorter Ency., p. 137, (Idda), J. Wellhausen, Die Ehe bei den Araber, in Nachrichten der König. Gesellscha· der Wissench. Zu Göttingen, 1893, S. 454.

٢ صحيح مسلم (٤/١٩٥) ، (باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها) .

٣ زاد المسلم (٤/١٣٢) (الولد للفـراش وللعاهر الحجر) ، ارشـاد الساري (١٠/١١) .

٤ اللسان (١٠/٣٢٨) ، (٦/٢٩٠) .

واذا استلحق الرجل ولد أمته به ، صار ولده . لأن سادات الإمــاء كانوا يتصلون بإمائهم في الجاهلية من غير عقد زواج ، باعتبار ان الأمـة ملك مالكها وسيدها ، فله حق إلحاق أبنائها به إن شاء .

التبنّي :

وقد اعترفت شريعــة الجاهليين بـ (التبنّي) ، فيجوز لأي شخص كان أن يتبنى ، ويكون للمُتبنّي الحقوق الطبيعية الموروثة المعترف بهـا للأبناء . ويكون بهذا التبنّي فرداً في العائلة التي تبنته ، له حق الانتماء والانتساب اليهـا . وهو يتم بالاتفاق والتراضي مع والد الطفل او ولي أمره او صاحبه ومالكه ، وذلك بالتزول عن كل حق له فيه ، ومتى تمّ ذلك وحصل التراضي ؛ يعلن المتبنّي عن تبنيـه للطفل وإلحاقه به ، فيكون عندئذ في منزلة ولده الصحيح في كل الحقوق .

والعادة إشهاد جماعة من الناس على التبنّي حتى لا يحدث نزاع على المتبنى فيما بعد . ولم يرد في روايات أهل الأخبار ذكر عدد الشهود الواجب إشهادهم على صحة التبنّي . فقد كانوا يعلنون عنه في الأماكن العامة وفي المناسبات وفي بيوتهم الخاصة كما ذكرت . والتبنّي معروف عند جميع الأمم . وقد وضعت شرائعهم له قواعد وقوانين كي تحفظ حقوق اصحاب المولود وحقوق المتبني وحقوق المُتبنى، فلا يضيع حق من حقوق هؤلاء .

ويقع التبنّي مع وجود أولاد للمتبنّي ، وليست له حدود من جهة العمر .

الزنا :

والخيانة الزوجية تستوجب عقوبة صارمة ، لأنها زنا ، وعقوبتهـا الموت عند العرب ، كما اشار الى ذلك (سترابون) في اثناء كلامه على العرب . والزاني هو من يتصل بإمرأة محصنة غريبة عنه . وقد كان العبرانيون يعاقبون الزاني والزانيـة بالرجم بالحجارة حتى الموت[1] . وهما يعاقبان هذه العقوبة في الإسلام، ولا أستبعد

---

1 التثنية ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الآية ٢٢ وما بعدها ، البخاري : (كتـاب الجنائز) الحديث ٨٣ ، (رجم المحصن) في باب المحاربـين (١٧) و (٣٣) ، المفردات (٢١٤) .

أن تكون هذه العقوبة عقوبة جاهلية ، أقرها الاسلام في جملة ما أقر من أحكام كان يسير عليها الجاهليون .

وقد كان الزنا معروفاً في الجاهلية يفعله الرجال علناً ، إذ لم يكن هذا النوع من الزنا محرماً عندهم . واذا ولد مولود من الزنا وألحقه الزاني بنفسه ، عد ابناً شرعياً له ، له الحقوق التي تكون للأبناء من الزواج المعقود بعقد . ولا يعد الزنا نقصاً بالنسبة للرجل ولا يعاب عليه ، لأن الرجل رجل ، ومن حق الرجال الاتصال بالنساء . وقد كانوا يفتخرون به .

وذكر ان أول من حكم ان الولد للفراش في الجاهلية أكثم بن صيفي حكيم العرب ، ثم جاء الاسلام بتقريره . فقد ورد في الحديث : « الولد للفراش وللعاهر الحجر »[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن الرجم لم يكن معروفاً بين الجاهليين ، وان أول من رجم (ربيع بن حدان) ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن[2] .

ولا يوجد لدينا رأي واضح عن قذف الرجل زوجته واتهامه إياها بالزنا . أما في الإسلام فقد شرع (الملاعنة) . والإمام يلاعن بينهما . ويبدأ بالرجل ، ثم يثني بالمرأة . فإذا تم التلاعن بانت منه ولم تحل له أبداً ، وإن كانت حاملاً فجاءت بولد . فهو ولدها ولا يلحق بالزوج[3] .

والزنا الذي يعاقب عليه الجاهليون . هو زنا المرأة المحصنة من رجل غريب بغير علم زوجها . وهو خيانة وغدر . أما زنا الإماء . فلا يعد عيباً اذا كان بعلم مالكهن وبأمره . وقد مر الكلام عليه في مواضع من هذا الفصل ، كما مر الكلام على بنوة المولود من الزنا . لذلك عيرت المرأة الحرة المحصنة ، ان زنت ومست به .

وورد في كتب الحديث والسير ، أن « طفيل بن عمرو بن طريف » الدوسي : لما جاء الى رسول الله وأسلم ، قال : « ان دوساً غلب عليها الزنا والربا ،

---

١ صبح الاعشى (٤٣٥/١) ، المفردات ، للراغب الاصبهاني (٢١٤) ، البخاري ، (الحديث رقم ٨٣) ، كتاب الجنائز ، رجم المحصن . ارشاد الساري ، للقسطلاني (١١/١٠) ، اللسان (٢٩٠/٦) ، صحيح مسلم (١٧١/٤ وما بعدها) .
٢ صبح الاعشى (٤٣٥/١) .
٣ تاج العروس (٣٣٥/٩) ، (لعن) .

فادع الله عليهم . فقال اللهم إهد دوساً »[1] .

أما الرجل ، فلا يلحقه أذى إن زنى بامرأة . بل كان كما قلت يفتخر باتصاله بالنساء ، ويعدّ ذلك من الرجولة . وليس لامرأته ملاحقته شرعاً على زناه . وقد يلحقه أذى من ذوي امرأة محصنة إن زنى بها ، انتقاماً منه ، لهدره شرفهم وإلحاقه الضرر بهم .

كسب الزانية :

يعود كسب الزانية الى مولاها ومن يملك رقبتها ، لأنها مملوكة ، والمملوك وما يملك ملك سيّده . وكانوا يكرهون إمائهم — كما ذكرت — على البغاء ، فأنزل الله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا »[2] ، والعرض هو كسب البغي . فحرم ذلك في الإسلام[3] . وكان المالك يفرض على الأمة ضريبة تؤديها بالزنا . وقيل لا تكون المساعاة إلاّ في الإماء . وقد أبطل الإسلام ذلك ، ولم يلحق النسب بها ، وعفا عمّا كان منها في الجاهلية ممن ألحق بها . ومن ساعى في الجاهلية ، فقد لحق بعصبته . وأتى في نساء أو إماء ساعين في الجاهلية فأمر بأولادهنّ أن يقوّموا على آبائهم ولا يسترقوا ، أي أن تكون قيمتهم على الزانين لموالي الإماء ، ويكونوا أحراراً لاحقي الأنساب بآبائهم الزناة[4] .

الوصية :

والوصية : ما أوصيت به ، وسميت وصية لاتصالها بأمر الميت ، وذلك بأن يكتب الرجل ما يراه بشأن ما يتركه بعد وفاته . ويكون من يعهد اليه أمر تنفيذ

---

١ الروض الانف (١/٢٣٥ وما بعدها) ، الاستيعاب (٢/٢٢٢) ، (حاشية على الاصابة) ، « يا رسول الله ! ان دوسا قد غلب عليهم الزنا ، فادع الله عليهم » ، ابن هشام (١/٢٣٥) ، حاشية على الروض الأنف .
٢ النور ، الآية ٣٣ .
٣ آمالي المرتضى (١/٤٥٤) .
٤ اللسان (١٤/٣٨٧) ، (سعا) .

ما جاء في الوصية وصياً . ولم يكن صاحب الوصية مقيداً بقيود بالنسبة لكيفية توزيع ثروته ، لأن المال ملك صاحبه وله أن يتصرف بـه كيف يشاء . ويجوز للموصي إن شاء حرمان من يشاء من الورثة الشرعيين من إرثهم ، وإشراك من يشاء في الإرث . وله أن يوصي بإعطاء كل إرثه الى شخص واحد ، وأن يحرم من الإرث كل المستحقين الشرعيين .

ويكون الابن الأكبر هو المقدم على سائر أولاد المتوفى ، والمشرف على تقسيم الميراث وادارة التركة وحمل اسم الميت وتمثيله ؛ ولذلك تنتقل الإمارة أو الرئاسة أو الزعامة الى الابن الأكبر في العادة إن كان المتوفى أميراً أو رئيساً . وتقديم الابن الأكبر على سائر الأبناء ، عادة سامية قديمة حتى انها تمنحه زيادة في الميراث عن بقية اخوته[1] .

الإرث :

وأسباب الميراث : النسب والتبني والموالاة .

ويراعى في الوراثة من النسب ، درجة القرابة. أي صلة الرحم حسب درجاتها ومقدار التحامها بالشخص المتوفى . فتأتي البنوة أولاً . فالأبوة ، فالأخوة ، ثم العمومة . وقد قدمت البنوة أولاً ، لأنها ألصق القرابات بالمتوفى ، لذلك تقدم على كل قرابة أخرى .

والقاعدة العامة في الميراث عند الجاهليين هو أن يكون الإرث خاصاً بالذكور الكبار دون الاناث ، على أن يكونوا ممن يركب الفرس ويحمل السيف ، أي المحارب . (كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري ولا الصغار من الغلمان . لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال) . (لأن أهل الجاهلية ، كانوا لا يقسمون من ميراث الميت لأحد من ورثته بعده ، ممن كان لا يلاقي العدو ولا يقاتل في الحروب من صغار ولده ولا النساء منهم ، وكانوا يخصون بذلك المقاتلة دون الذرية)[2] .

---

١ التثنية : الاصحاح ٣١ ، الآية ١٧ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٢٤٣) .

٢ تفسير الطبري (٤/١٨٥) ، « وكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان شيئاً من الميراث . ولا يورثون الا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل » ، المحبر (٣٢٤) .

وقد جاء في الأخبار ما يجعل المرأة في ضمن تركة المتوفى ، وذلك إذا لم تكن أم ولد . ويكون من حق الابن البكر التزوج بها ، وإذا لم تكن له نفس بها ، انتقل حقه فيها الى الولد الثاني . وإذا لم يرغب فيها انتقل حقه الى بقية الورثة بحسب قربهم من الميت وحقهم في الميراث . ومن حق الولد البكر أيضاً منع المرأة من التزوج إلاّ بعد ارضائه ، وكذلك من حق بقية الورثة المطالبة بهذا الحق إذا صارت زوج المتوفى المذكور من حقهم ، لأنها من تركة ميتهم ، والتركة هي تركتهم وملكهم ، ولا يجوز لأحد مجادلتهم في هذا الحق .

والأخبار متضاربة في موضوع إرث المرأة والزوجة في الجاهلية ، وأكثرها أنها لا ترث أصلاً. غير أن هناك روايات يفهم منها أن من الجاهليات من ورثن أزواجهن وذوي قرباهن ، وأن عادة حرمان النساء الإرث لم تكن سنة عامة عند جميع القبائل[1] . ولكن كانت عند قبائل دون قبائل . وما ورد في الأخبار يخص على الأكثر أهل الحجاز .

العصبة :

ويرث العصبة ، وهم أقرباء الميت من الرجال ، وهم مقدمون على الأخوات في الإرث . فإذا توفي الرجل ، ولم يكن له من الذكور من يرثه ولا أب ، يصرف إرثه الى إخوته أو عصبته،ان لم يكن له إخوة ، ولا يدفع الى الأخوات. فلما جاء الإسلام ، جعل للبنات والنساء حقاً في الميراث ، ويسمى هذا الإرث (إرث الكلالة)[2] .

وقيل : العصبة : هم الذين يرثون الرجل عن كلالة من غير والد ولا ولد. وهم الأقارب من جهة الأب ؛ وعصبة الرجل : أولياؤه الذكور من ورثته . فالأب طرف والابن طرف ، والعم جانب والأخ جانب . والجمع العصبات[3] .

وقد قال (ابن الأثير) في تعريف (الكلالة) : الأب والابن طرفان للرجل

---

١ الامومة عند العرب (ص ٦٥ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (١٩١/٤ وما بعدها) ، عمدة القاري (٢٤٥/٢٣) .
٣ تاج العروس (٣٨٢/٣) (الكويت) .

فإذا مات ولم يخلفها ، فقد مات عن ذهاب طرفيه ؛ فسمي ذهاب الطرفين : كلالة . وقيل ما لم يكن من النسب لحاً فهو (كلالة) . والعرب تقول : لم يرثه كلالة ، أي لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحقاق . وهم يفتخرون بوراثة قرب ، لأنها انما جاءت عن نسب قريب وعن أب . وفي ذلك يقول عامر بن الطفيل :

وما سودتني عامر عن كلالةٍ أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

وكانوا اذا قالوا : (هو ابن عم كلالة) ، قصدوا بعيد النسب،وان أرادوا القرب قالوا : هو ابن عم دنية [1] . فالكلالة معروفة في الجاهلية فهذّبها الاسلام ونزل النص عليها وفي تعيينها في القرآن [2] .

وقد ذهب بعض العلماء الى ان (الكلالة) من لا ولد له ولا والد . وقيل مالم يكن من النسب لحاً فهو كلالة . وقالوا : هو ابن عم الكلالة وابن عم كلالة . وقال بعضهم : اذا لم يكن ابن العم لحاً ، وكان رجلاً من العشيرة قالوا هو ابن عمي الكلالة ، وابن عم كلالة . وهذا يدل على ان العصبة وان بعدوا كلالة. أو الكلالة من تكلل نسبه بنسبك كابن العم وشبهه . يقال هو مصدر من تكلله النسب ، أي تطرفه كأنه أخذ أحد طرفيه من جهة الولد والوالد ، وليس له منها أحد ، فسمي بالمصدر . أو هي الأخوة للأم . تقول لم يرثه كلالة أي لم يرثه عن عرض بل عن قرب .

وقد ذكرت الكلالة في موضعين من القرآن الكريم : « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس » [3] . و « يستفتونك قل : الله يفتيكم في الكلالة . إن امرؤ هلك ، ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك » [4] . فجعل الكلالة هنا الأخت للأب والأم والاخوة للأب والأم . فجعل للأخت الواحدة نصف ما ترك الميت وللأختين الثلثين وللإخوة والأخوات جميع المال بينهم للذكر مثل حظ الانثيين . وجعل للأخ والأخت من الأم في الآية الأولى

---

١ اللسان (٥٩٢/١١ وما بعدها) .
٢ النساء ، الآية ١٢ ، ١٧٦ .
٣ النساء ، الآية ١٢ ، الطبري ، تفسير (١٩١/٤) ، روح المعاني (٢٠٦/٤) .
٤ النساء ، الآية ١٧٦ ، تفسير الطبري (٢٨/٦) ، روح المعاني (٣٩/٦) .

الثلث لكل واحد منهما السدس. فبين بسياق الآيتين أن الكلالة تشتمل على الإخوة للأم مرة، ومرة على الإخوة والأخوات للأم والأب. ودلّ قول الشاعر أن الأب ليس بكلالة، وأن سائر الأولياء من العصبة بعد الولد كلالة: وهو قوله:

فإن أبا المرء أحمى له ومولى الكلالة لا يغضب

أراد أن أبا المرء أغضب له إذا ظلم. وموالي الكلالة وهم الاخوة والأعمام وبنو الأعمام وسائر القرابات لا يغضبون للمرء غضب الأب. أو الكلالة بنو العم الأباعد، أو الكلالة من القرابة ما خلا الوالد والولد. أو هي من العصبة من ورث منه الإخوة للأم. وقد لخص بعضهم آراء العلماء في الكلالة في أقوال سبعة[1].

إرث النساء:

وهناك رواية تذكر أن أول من جعل للبنات نصيباً في الإرث من الجاهليين هو (ذو المجاسد) عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر، ورّث ماله لولده في الجاهلية، فجعل للذكر مثل حظ الانثيين، فوافق حكمه حكم الإسلام[2].

ويذكر علماء الأخبار أن رجلاً من الأنصار مات قبل نزول آية المواريث، وترك أربع بنات، فأخذ بنو عمه ماله كله. فجاءت امرأته الى النبي تشتكي مما فعله بنو عم المتوفى ومن سوء حالها وعدم تمكنها من إعالة بناتها، فنزل الوحي «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان

---

١ تاج العروس (٨/١٠١ وما بعدها)، (كلل)، (قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي، ما قاله هؤلاء. وهو أن الكلالة الذين يرثون الميت من عدا ولده ووالده)، تفسير الطبري (٤/١٩١)، (عن جابر بن عبد الله. قال: مرضت فاتاني النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم صب علي من وضوئه، فأفقت. فقلت: يا رسول الله؟ كيف أقضي في مالي أو كيف أصنع في مالي؟ وكان له تسع أخوات ولم يكن له والد ولا ولد. قال: فلم يجبني شيئا، حتى نزلت آية الميراث)، تفسير الطبري (٦/٢٨)

٢ المحبر (ص ٢٣٦، ٣٢٤).

والأقربون »[1] . ثم نزلت آية الميراث : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين »[2] . وبذلك انتفت سنة الجاهليين في عدم توريث البنات .

وقد نزلت الآيتان من أجل ان أهل الجاهلية كانوا يورثون الذكور دون الاناث. فكان (النساء لا يرثن في الجاهلية من الآباء ، وكان الكبير يرث ولا يرث الصغير ، وإن كان ذكراً) . وقد ذكر بعض العلماء ان آية : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) ، (نزلت في أم كحة وابنة كحة وثعلبة وأوس ابن سويد ، وهم من الأنصار . كان أحدهم زوجها والآخر عم ولدها . فقالت : يا رسول الله توفي زوجي وتركني وابنته ، فلم نورث ! فقال عم ولدها : يا رسول الله لا تركب فرساً ، ولا تحمل كلاً ولا تنكأ عدواً يكسب عليها ، ولا تكتسب . فنزلت للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون . وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قلّ منه أو كثر ، نصيباً مفروضاً)[3] . وذكروا ان نزول الآية (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) ، انما كان (لأن أهل الجاهلية كانوا لا يقسمون من ميراث الميت لأحد من ورثته بعده ممن كان لا يلاقي العدو ولا يقاتل في الحروب من صغار ولده ولا للنساء منهم . وكانوا يخصون بذلك المقاتلة دون الذرية . فأخبر الله جل ثناؤه ان ما خلفه الميت بين من سمي وفرض له ميراثاً في هذه الآية. وفي آخر هذه السورة فقال : في صغار ولد الميت وكبارهم واناثهم لهم ميراث أبيهم ، اذا لم يكن له وارث غيرهم للذكر مثل حظ الانثيين)[4] . وذكر انه (لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم ، وقالوا : تعطى المرأة الربع والثمن ، وتعطى الابنة النصف ، ويعطى الغلام الصغير وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة ، اسكتوا عن هذا الحديث، لعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ينساه أو نقول له فيغيره،فقال بعضهم: يا رسول الله أنعطي الجارية نصف ما ترك أبوها ، وليست تركب الفرس ولا

١ النساء ، السورة رقم ٤ الآية ٦ وما بعدها ، تفسير الطبري (٤/١٧٦) ، روح المعاني (٤/١٨٧) ، المحبر (٣٢٤) .
٢ النساء ، الآية ١١ ، تفسير الطبري (٤/١٨٥) ، روح المعاني (٤/١٩٣) .
٣ تفسير الطبري (٤/١٧٦) .
٤ تفسير الطبري (٤/١٨٥) .

نقاتل القوم ؟ ونعطي الصبي الميراث . وليس يغني شيئاً . وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية لا يعطون الميراث إلا من قاتل . ويعطونه الأكبر فالأكبر)[1]

وعجز اليتامى عن الدفاع . وعن تحصيل حقهم في الميراث . جعل الورثة الكبار يأكلون أموالهم وحقوقهم . ولا يؤدون لهم نصيباً في الإرث . ولهذا وبخ القرآن الكريم أهل الجاهلية على أكلهم أموال اليتامى ، وحرم ذلك عليهم ، وحافظ على نصيبهم فيه . وحمى اليتيم ودافع عنه كثيراً . وقد كان الرسول نفسه يتيماً . لاقى من قومه ما يلاقيه كلّ يتيم .

ويرث في شريعة أهل الجاهلية المُتَبنّون . فإذا مات المُتبنَى وترك إرثاً ورثه من تبنّاه ، وان مات المتبنِي . أي الشخص الذي تبنى المتبنى . ورثه أيضاً تماماً كما لو كانت البنوة بنوة طبيعية.حتى إنهم كانوا يراعون ذلك في أحكام الزواج[2] .

والحلف كالموالاة من أسباب الإرث في نظر الجاهليين[3] لأن القاعدة أن حليف القوم منهم . وابن اخت القوم منهم[4] .

ولا بد لعقد الحلف من اشهاد شهود عليه . ليقف الناس عليه . وفي مكة كان الناس يعقدونه في الكعبة ، ومن أنواع الحلف ، أو الموالاة كما يعبر عن ذلك أيضاً . مولى العقد أو مولى الموالاة . وذلك تمييزاً له عن مولى الولادة أو مولى الرحم . وعن مولى العتق أو مولى العتاقة .

واذا مات الرقيق وترك إرثاً ، صار إرثه لمالكه . وإذا مات المعتق ورثه معتقه أو ورثة معتقه[5] .

ميراث السائبة :

والسائبة العبد الذي يقول له سيّده : لا ولاء لأحد عليك . أو أنت سائبة .

---

١ تفسير الطبري (٤/١٨٥ وما بعدها) .
٢ سنن أبي داوود (٢/٢٢٣) ، عمدة القاري (٢/٨٣) . الجامع الصحيح (الربع الثالث) . (كتاب النكاح) . (لودف فرهل) .
٣ الجصاص (٢/٧٣ وما بعدها) . تفسير الطبري (٨/٣٢) . القرطبي (٥/٧٩) .
٤ مناقب الترك من رسائل الجاحظ (١/١٣) .
٥ المبسوط (١٥/٤١٠) .

يريد بذلك عتقه وأن لا ولاء لأحد عليه . وقد يقول له : أعتقتك سائبة ، أو أنت حرّ سائبة ، فإذا مات فترك مالاً ، ولم يدع وارثاً ، فإن أهل الجاهليـة كانوا يسيبون ، وان أهل الإسلام لا يسيبون[1].

وحرم الهجين من حق الإرث في الغالب[2] . كذلك « السائبة » ، وهم الرقيق الذي اعتق بغير ولاء[3] .

---

١ ارشاد الساري (٤٤٠/٩) .
٢ تفسير الزمخشري (٢٤٩/١) ، المحلى ، لابن حزم (٩ رقم ١٧٢٤) ، العقد الفريد (١٩٢/٤) .
٣ عمدة القاري (٣-٢/٢٥٣) .

الفصل الثامن والخمسون

الملك والاعتداء عليه

الملكية :

والملكية حق محترم عند الجاهليين ، ولصاحب الملكية حق المحافظة على ما تملك والدفاع عنه. وتدخل في ملكية الإنسان كل ما ملكه أو استولى عليه ولم ينتزعه منه أحد ، مثل الغنائم والسلب والأسر وما شابه ذلك . وعلى المالك الدفاع عن حقه في ملكه واثباته . ومن أنواع الملكية : تملك العقار ، وبقية الأشياء الثابتة ، والأموال المنقولة .

ويعبر عن تملك الإنسان لشيء ما ، وعن اقتنائه للملك بلفظة (اقنى) (أقنى) ، أي أملاك وممتلكات . وعن لفظة (اقنيس) ، بمعنى ممتلكاته وأملاكه وذلك في اللهجة المعينية . ويعبر عنها بلفظة (اقنيم) في اللهجة السبئية . وأما لفظة (ذ قنى)[1] فتعني ما امتلكه وما يمتلكه . فذي بمعنى الذي ، وما هي ما الموصولة في عربيتنا. و (قني) بمعنى مقتنيات[2] .

والملكية نوعان : ملكية ثابتة وملكية متنقلة . ومن النوع الأول العقار ، مثل الدور والأرض . ومن النوع الثاني المال ، وهو الإبل عند الجاهليين بصورة خاصة والمواشي بالنسبة للمزارعين . والرعاة وأهل المدن ، وأثاث البيت ، سواء كان البيت مستقراً مثل بيوت أهل المدر أو متنقلاً مثل بيوت أهل الوبر. وأغلب ملك الأعراب هو ملك متنقل ، وذلك لأن الحياة التي يحيونها هي حياة تنقل ، أما الملك الثابت ، أي الأرض ، فإنه ملك لهم ما داموا فيه ، فإذا ارتحلوا عنه،

---

١ راجع النص المرقم بـ (٥) المنشور في كتاب : نقوش خربة معين (ص ٥) .

٢ « وكل قنيهن » ، أي « وكل المقتنيات » ،
Rep. Epigr., VII, II, p. 276, 4624.

انتقلت ملكيتهم الى الأرض الجديدة التي ينزلون بها فيمتلكونها طوعاً . أي من غير مقاومة ، أو بحق السيف .

ويدخل في باب الملك كل شيء وضع ليستفاد منه أو ليدل على حماية ملك . أو يفهم من وضعه انه ذو فائدة وان له صاحباً . كجدران الأملاك وحيطان البساتين أو سور القرى أو الرجمات ، وهي أحجار القبور . وقد عثر المنقبون على رجام في مواضع مختلفة من جزيرة العرب ، كتب عليها : ان لعنة الآلهة على من يرفع هذا الحجر عن موضعه وعلى من يغيره أو يأخذه أو يتصرف به . كما سألوا الآلهة بأن تنزل الأمراض ومنها العمى والبرص وأنواع الأذى ، والشر بكل من يتطاول على هذه الرجام ، أو على معالم القبور أو القبور وذلك لأنها ملك . ولا يجوز لأحد التصرف بملك غيره بأي وجه من الوجوه .

الشفعة :

وقد أخذ الجاهليون بحق الشفعة في شراء الملك ، كالدور والأرض. وقد أقرها الاسلام أيضاً[1] .

الرق :

الأصل في الانسان[2] أن يولد حراً ، إلا أن يكون من رقيق ، فيولد عندئذ رقيقاً ، ويكون ملكاً لمالك والديه . والانسان الحر . هو حر في تصرفاته وفي أمواله ، وفي كل شيء . أما الرقيق ، أي العبد . فإنه يكون ملكاً لمالكه. ليس له حق التصرف بنفسه إلا بإذن مالكه ، لأنه ملك سيده ، فإذا تصرف بنفسه ، أضر بحق سيده في تملكه له . وفي ذلك تجاوز على حقوق الملكية ، وإن كان الرقيق انساناً مثل سيده له حس وشعور . إلا انه فقد حريته بسقوطه في الرق ، وصار ملكاً لمالكه ، وحكمه حكم الأشياء المملكة . وليس له أن يتصرف بأي شيء يعود اليه ولا أن يتصرف بنفسه ، أي بجسمه إلا بموافقة سيده وإقراره لأنه سيده ومالك رقبته .

---

١ صحيح مسلم (٥/٥٧) .
٢ صحيح مسلم (٥/٥٧) .

ولما كان الرقيق ملكاً ومن حق المالك أن يتصرف بملكه كيف يشاء ، صار من حق المالك بيع رقيقه أو اهدائه ، أي اعطاءه هبة الى من يشاء دون حاجة الى أخذ ذلك الرقيق . كما كان من حقه عتق رقبته . كما كان له حق الاستمتاع بالإماء واكراههن على البغاء للاتيان بالمال أو لإنجاب الأولاد . ولم يكن للرقيق أن يملك شيئاً ، لأن الرقيق وما يملكه ملك للمالك . ولم يكن للرقيق حق التوريث إذ لا مال له ، لأنه وما يملكه ملك مالكه . فإرثه لسيده وحده .

وقد حرم الإسلام على مالك الرقيق دفع إماثه على البغاء . وقد نزلت الحرمة في القرآن : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً »[1] . وكان سبب نزول هذه الآية أنهم « كانوا في الجاهلية يكرهون اماءهم على الزنا ، يأخذون أجورهن . فقال الله لا تكرهوهن على الزنا من أجل المنالة في الدنيا » . «وذكر أن هذه الآية أنزلت في عبدالله بن أبي بن سلول حين أكره أمته مسيكة على الزنا » ، وكانت تكره ذلك وحلفت أن لا تفعله فأكرهها لتأتيه بمزيد من المال. فنزلت الآية في تحريم ذلك[2] .

ومن معاني (الرق) - (العبودية) Slavery ، وتقابلها لفظة (عبوداه) 'Abodah' في العبرانية . والمفرد (عبد) 'Abed' في العبرانية أيضاً . والذكر (مملوك) . أما الأنثى ، فإنها (أمة)[3] . والرق ملك العبيد والرقيق المملوك منهم وجمعه أرقاء[4] . والمملوك : هو الرقيق ، فيقال عبد مملوك ، و (الملِكة) تختص بملك العبيد[5] . ويعبر عن العبد بلفظة (المَدين) أيضاً . أما (الأمة) فيقال لها: (المدينة)[6] .

ويعبر عن المملوك بلفظة (ادم) في العربيات الجنوبية ، اذا كان المملوك ذكراً وبـ (أمت) اذا كان أنثى . وتقابل لفظة (ادم) لفظة (أو ادم) و (أوادمنا)، في لهجة أهل العراق ، التي تعني (الخدم) و (خدمنا) . وأما لفظة (أمت) ،

---

١ النور ، الآية ٢٣ .
٢ تفسير الطبري (١٨/١٠٣ وما بعدها) ، روح المعاني (١٨/١٤١ وما بعدها) .
٣ Dictionary of Islam, p. 596.
٤ المفردات في غريب القرآن ، للراغب الاصفهاني (ص ٢٠٠) .
٥ المصدر نفسه .
٦ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ١٧٥) .

فإنها (أمة) في عربيتنا أيضاً ، وهي المملوكة [1] .

ويعبر عن الرقيق بلفظة (عبد) في اللحيانية ، أي بالتعبير المستعمل في عربيتنا[2] وترد اللفظة في لغة بني إرم وفي لغة النبط كذلك [3] .

واستعملت اللحيانية لفظة (هغلم) (ها ــ غلام) (ها ــ غلم) ، أي (الغلام) تعبيراً عن (مملوك) ، أي انسان غير حرّ . وقد قدم أحد اللحيانيين ثلاثة غلمان ليكونوا في خدمــة الإلـه (ذو غابت)[4] (ذو غابة) . وليس لصاحب هؤلاء الغلمان أية حاجة لأن يأخذ رأيهم في تقرير مصيرهم ، وفي تحويل رقبتهم من ملكه الى ملك معبد ذلك الإلـه ، لأنه مالكهم . وللمالك أن يفعل بملكه ما يشاء .

ولمالك الأسير ، حق التصرف بأسيره ، كما يشاء ، يجوز له بيعه لقبض ثمنه في أي مكان وفي أي زمان يشاء ويختار ، ليس لرقيقه حق الاعتراض على مالكه ، لأنه (ملك يمين) ، ويجوز له ابقاؤه عنده وفي ملكه ليعهد اليه القيام بأي عمل يكلفه إياه ، مهما كان شأنه ، سواء أكان عملاً محترماً أم عملاً وضيعاً ، لأنــه مملوك ، وليس لمملوك حق الاعتراض على مالكه . ويجوز أن يتفضل عليه بمنحه الحرية ، فيكون انساناً حراً . ويجوز له أن يقاضي أهــل الأسير ثمن أسيرهم ، ومتى قبض ثمنه أعاده الى أهله ، وصار حراً . ويقال لأخذ عوض عن الأسير لفك أسره (الفداء)[5] .

ولا يشترط في الأسر أن يكون في حالة الحرب فقط،فقد يقع في سلم أيضاً . فإذا أدرك انسان انساناً آخر من قبيلة معادية وتمكن منــه صار أسيره ، كما ان ما يقع في أيدي المغيرين في الغارات والغزوات من أشخاص يكونون في حــكم المأسورين . أما (السبي) ، فإنه ما يسبى بعد الحرب ، وحكمه حكم الأسر .

والغالب عند الجاهليين هو فــداء أسراهم ، أي دفــع فدية عن الأسرى أو مقايضتهم أسيراً بأسير ، أو بحسب الاتفاق إن كان هناك أسرى عنـد الطرفين . ولا يقع الرق في الغالب إلا في حالات الأشخاص الضعاف الذين لا أهـل لهم ،

---

١ راجع النص الموسوم بـ : Glaser 509.

٢ W. Caskel, S. 136.

٣ W. Caskel, S. 82.

٤ النص ٩ من كتاب : W. Caskel

٥ المعاني الكبير (١٠٢٥/٢) .

أو الذين هم من عشائر مستضعفة أو بعيدة ، أو في حالات الذين وقعوا أسرى في غارات مفاجئة من أناس يقيمون في أماكن بعيدة أو نهبوا وهم صغار ، فلم يكن بالمستطاع ملاحقتهم ، فيكونون بذلك رقيقاً ، وهو في القليل،كالذي حدث لـ (زيد بن حارثة الكلبي) ، الذي تبناه الرسول . وقد كان مولى لخديجة زوج الرسول .

وليست في الأفدية قواعد معينة في فداء النفس ، وانما سارت على التعامل وعلى التشدد والتساهل وفق منزلة الشخص الأسير . ويكون ما للأسير مما عنده ملكاً لآسره ، وقد وقع (قيس بن عيزارة) أسيراً في أيدي (فهم) فأخذ سلاحه (تأبط شرا)[1] .

ووقع (ثابت بن المنذر) والد (حسان بن ثابت) شاعر الرسول في أسر (مُزَيْنة) ، فعرض عليهم الفداء ، (فقالوا : لا نفاديك إلا بتيس ، ومزينة تسب بالتيوس ، فأبى وأبوا . فلما طال مكثه ، أرسل الى قومه أن اعطوهم أخاهم ، وخذوا أخاكم)[2] . وقصده بذلك التعريض بمزينة .

وقد بقي السباء معروفاً حتى أيام (عمر) فمنعه بقوله: (لا سباء على عربي). ويذكر أن (أبا وجزة يزيد بن عبيد) من (سُلَيم) ، وقع أبوه في سباء في الجاهلية،في سوق ذي المجاز . فلما كبر ، استعدى عمر ، فأصدر أمره المذكور[3].

والمنبع الأول للرقيق الحروب والغزوات . فبعد الحرب والغزوات يؤخذ من يقع في أيدي المحاربين من الرجال والنساء والأطفال (أسرى) ، ويكونون غنائم لآسريهم . أما العدد الضخم منهم الذي يقع في أيدي الجيش ولا يكون في استطاعة المحارب أن يفرض ملكيته عليه ، وذلك بوضعه تحت حيازته ، فيكون ملكاً للحكومة أو للقبيلة ، تتصرف به على وفق قوانينها وقواعد أحكامها ورأيها .

والمنبع الثاني من منابع الرقيق ، أسواق النخاسة ، ومنها أسواق تقع في بلاد العرب نفسها ، يؤتى بالرقيق اليها لبيعه فيها، وأسواق تقع في خارج بلاد العرب، يذهب اليها النخاسون لشراء ما فيها من هذه البضاعة البشرية . ولما كان الرقيق

---

١ المعاني الكبير (١٠٣٧/٢) .
٢ طبقات الشعراء ، لابن سلام (ص ٥٣) (طبعة ليدن) .
٣ (أصابني سباء في الجاهلية كما يصيب العرب بعضها مع بعض) ، الاغاني (٧٥/١١ وما بعدها) .

المشترى هو من أماكن بعيدة ومن غير العرب ، كان مضطراً الى استرضاء سيده وخدمته على النحو الذي يرضيه ابقاء على حياته . وحكم هذا الرقيق هو حكم أي شيء يشتريه إنسان بماله أي انه ملك صاحبه ، ولصاحبه حق التصرف به كيف يشاء ، إن شاء باعه وإن شاء جعله في خدمته. وليس للرقيق أي حق في الاعتراض وإن كان بشراً ذلك لأنه رقيق . وقوانين الرق في ذلك الزمن وفي سائر أنحاء العالم تعد الرقيق ملكاً لا يختلف في طبيعته عن أي نوع من أنواع الملكية .

ونوع آخر من أنواع الرقيق ، تكوّن من بيع الآباء لأبنائهم عن حاجة ، كأن تكون الأسرة في عسر وضيق، فلا يكون أمامها غير بيع أبنائها لسدّ حاجتهم ولضمان معيشة الأبناء ، ولا يكون ذلك بالطبع إلاّ عند الطبقات الضعيفة .

ومنبع آخر من منابع تكوّن الرقيق في الجاهلية هو الديْن . فقد كان من حق الدائن بيع مدينه إن لم يتمكن من الايفاء بدينه ، فيكون رقيقاً .

والولادة من المنابع التي مونت الجاهليين بالرقيق كذلك . فما ينسله الرقيق يصير رقيقاً أيضاً ، وملكاً لمالك الرقيق . إذ لا يقتصر الرق على رقبة الرقيق الأصل ، بل يشمل كل ما ينجبه وما ينجبه أحفاده وأحفاد أحفادهم وهكذا فالرق عبودية أبدية ، ما لم يمنّ مالك الرقيق على رقيقه بالعتق ، فتنقطع العبودية عندئذ عنه وعن نسله . واذا استولد المالك أمته فولدت له مولوداً ، أعجبه واعترف به ولداً عدّ ابناً شرعياً له ، فيكون هذا الاعتراف عتقاً لرقبة ابنه، واستلحاقاً للولد بنسب المالك[1] .

زوال الرق :

تفك رقبة الرقيق عند فك أسره عنوة ، كأن تغزو قبيلة المأسور قبيلة الآسر فتأخذ أسراها عنوة ، فيتخلص الأسير بذلك من الأسر ، أي من الرق ويصير حراً ، وتسقط عنه كل ما كان لسيده من حقوق عليه . وكان أهل الأسير يتحايلون بمختلف الطرق لتخليص أسيرهم من أسره ، فإن نجحوا في تخليصه ، صار أسيرهم حراً ، وإن فر الأسير من آسره ، ولم يتمكن آسره من القبض

---

١ عمدة القاريء (١٢/ ١٠٠) .

عليه ، صار فراره حرية له . وتفك الرقبة بدفع فدية ترضي الآسر،اذا قبضها ، صار الأسير حراً .

الاباق :

الاباق : هرب العبد من سيده[1] . ويراد بالعبد المملوك من غير أسر ولا سبي . ويعد اباقه هذا خروجاً على القانون والحق ، ولصاحبه حق القبض عليه وإنزال ما يراه به من عقوبة . وفي جملتها حق قتله . واذا اشتراه شخص آخر ، أو وقع في أسره ، فلمالكه الأول حق استرداده ، لأنه عبد ابق ، وهو في ملكه ، وحيازته من غير اذن منه سرقة .

الكتابة :

والكتابة والمكاتبة أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه عليه،ويكتب عليه أنه إذا أدى نجومه ، في كل نجم كذا وكذا ، فهو حرّ ، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه ، فقد عتق . وولاؤه لمولاه الذي كاتبه[2] .

العتق :

العتق خلاف الرق ، وهو الحريـة . وهو أن يمنّ السيد المالك على مملوكه بفك رقبته . فإذا عتق ارتبط بسيده برابط الولاء ، ويقال عندئذ (مولى عتاقة) و (مولى عتيق) و (مولاة عتيقة) ، و (موال عتقاء) و (نساء عتائق)[3]. ويبقى العتيق منسوباً الى معتقه ، الذي يعقل عنه ويرثه . أما إذا أعتقه من دون وضع حدّ للولاء عليه ، فيسقط عنه شرط الولاء ، فلا يعقل مولاه عنه، وتسقط كل حقوق الولاء عن العتيق وعن معتقه[4] .

---

١ اللسان (٣/١٠) ، (ابق) .
٢ اللسان (٧٠٠/١) ، (صادر) ، شرح العيني (١١٦/١٣) ، نيل الاوطار (٧٩/٦) .
٣ اللسان (٢٣٤/١٠) ، (صادر) .
٤ عمدة القاريء (٢٥٣/٢٣) .

الأموال الثابتة :

وفي ضمنها البيوت،وهي تباع وتشترى وتؤجر أو ترهن بحسب رغبة صاحبها . ولأجل إثبات حق تملك الأفراد للبيوت ، كانوا يثبتون أحجاراً مكتوبة على واجهة البيت في بعض الأحيان ، يدون عليها اسم مالك البيت ، والمعمار الذي بنى البيت والزمان الذي بني فيه ، أو الزمان الذي أجريت فيه ترميمات عليه والحجر عندهم في مقام سند التملك في أيامنا هذه .

وتوضع على حدود الملك ، ولا سيما حدود الحقول والبساتين علامات ، يقال لها (أرف) في اللحيانية [1] ، وذلك منعاً لكل تجاوز قد يقع على الملك أو فضول قد يقع من الغرباء .

والأُرفة في لغتنا الحد بين الأرضين وفصل ما بين الدور والضياع . وكان أهل الحجاز لا يرون الشفعة للجار . و (الأرفي) ، الماسح الذي يمسح الأرض ويعلمها بحدود [2] .

وتعد المقابر ملكاً خاصاً بصاحب القبر ، وبأهله . لذلك لا يجوز دفن غريب فيها ، إلا بإذن من أهل الميت وذوي قرابته ومن أصحاب المقبرة . وكثيراً ما تقرأ في الكتابات جملاً ، مثل : (بني هكفر ، له ول ورثه) [3] ، ومعناها (بني هذا القبر ، أو هذه المقبرة له ، ولورثته) . ومثل (اخذو هقبر ذه هم وأخوهم) [4] ، ومعناها (أخذوا هذا القبر لهم ولأخيهم) . وكثيراً ما نجد الكتابات تلعن من يتجاوز على ملكية القبر وعلى حق المقبور فيه،وتتوعده بالويلات والثبور ، وترجو من الآلهة أن تنزل بمن (يعور) يزيل أحجار القبور عن أماكنها عذابها وغضبها عليهم . وتعدّ شواخص القبور شهادة لقبر المتوفى وسند تملك للقبر أو للمقبرة ، فلا يجوز الاعتداء على القبر : لأنه ملك خاص .

العقوبات : والأصل في العقوبات ، هو (القصاص) Retaliation أي العقوبة بالمثل ، وهو أصل نجده عند سائر الشعوب السامية ، ونجده مدوّناً في (شريعة

---

١ النص رقم ٤٦ من كتاب W. Caskel, S. 99.

٢ تاج العروس (٦/٣٩) ، (ارف) .

٣ W. Caskel, S. III.

٤ المصدر نفسه (ص ١١٣) ، النص رقم ٧٦

حورابي) ، بل نجده في قوانين الرومان كذلك[1] . وفي أشير اليه في القرآن الكريم : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ، لعلكم تتقون »[2] «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن ، والجروح قصاص »[3] وفي الآية : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به »[4] . فالجزاء يجب أن يكون من جنس العمل .

ويعمل بالقصاص في الجروح كذلك ، وقد أشير الى ذلك في الآية المتقدمة كما ترى .

وتكون العقوبات في يد الملك أو المعبد أو الكبراء ورؤساء العشائر ، فهؤلاء هم الذين يفرضون العقوبات على المخالفين ويصدرون أوامرهم بعقاب المستحقين، فلم تكن هناك اذن سلطة مركزية واحدة تقوم بتنفيذ الأحكام والحكم بين الناس . ويمكن أن نقول إن كل سلطة من السلطات كانت تقوم بتطبيق ما تراه بحق المخالفين لقوانينها وأنظمتها وأوامرها ، فللمعبد ويمثله رجال الدين بالطبع حق الحكم بين الناس في المخالفات التي لها صلة بأمور الدين وبالمعبد وبالعقود التي تعقد مع المستأجرين والمتعاقدين ، ويتوقف تنفيذ ذلك بالطبع على مركز رجال الدين ومدى نفوذهم في ذلك العهد،ويقوم رئيس القبيلة بالحكم بين أفراد قبيلته بموجب الأنظمة والقوانين العرفية والعشائرية ، ويجمع الضرائب من قبيلته ، ويتوقف سلطانه على شخصيته ومركزه وعلى مراكز الحكومة وما لها من هيبة في نفوس الناس والقبائل.

ولضمان تنفيذ القوانين والأوامر والعقود ، حتمت السلطات الدينية والسلطات الحكومية على المؤمنين والمواطنين الالتزام والوفاء بالعهود وإطاعة قوانين الدولة . وهددت السلطات الدينية بإنزال العقوبات الإلهية على المخالفين.وتكون هذه العقوبات عقوبات دنيوية تنزلها السلطات الدينية الممثلة والمتكلمة باسم الآلهة على سطح الأرض . وهي متنوعة متعددة قد تكون جسمية ، وقد تكون مادية ، وقد تكون معنوية ، وذلك بحرمان المخالف من زيارة المعابد ، وبامتناع رجال الدين من إقامة الشعائر الدينية له ومقاطعته وإيصاء المجتمع المؤمن بمقاطعته كذلك ، وبذلك تهبط منزلته

---

١ Hastings, p. 167.

٢ البقرة ، ١٧٩ .

٣ المائدة ، ٤٥ .

٤ النحل ، ١٢٦ .

الاجتماعية، ويصبح مزدرى في نظر المجموع. وفي هذا الازدراء عقوبة كافية بالطبع.

يضاف إلى ذلك العقوبات التي تنزلها الآلهة عليه. وقد تكون أهم في نظره وأخطر من تلك العقوبات المذكورة، مثل إنزال أمراض أو مهالك به وبأمواله وما يملكه، وهو ما يخشاه الانسان ويبتعد عنه طبعاً، ولهذا نجده يحاول جهد إمكانه ترضية آلهته والتقرب اليها بمختلف الوسائل لإرضائها ولكسب عطفها ورضائها عنه.

وأما العقوبات الحكومية، فهي متنوعة كذلك تتنوع بحسب درجة المخالفة ومقدار الضرر الذي يتولد منها.

وتقابل لفظة (عقوبة) لفظة (تنكرم) (تنكر) في بعض لهجات العرب الجنوبية، ويراد بها إنزال ما يستحق من عقوبة بشخص ارتكب عملاً مخالفاً. أما الغرامات، أي العقوبات المالية التي تفرض على شخص من الأشخاص، فيقال لها (ظلعم) (ظلع)، في بعض تلك اللهجات[1]. ووردت لفظة أخرى، هي (من)، ولفظة ثانية هي (ذمنت) (ذ م ن ت)، يرى علماء العربيات الجنوبية انهما في معنى (عقوبة) و (جزاء)[2].

ويعبر عن الجزاء الذي يحكم الحاكم بأدائه إلى من حكم له بلفظة (خطا) و (خطات) (خطئة) (خطيئة). ويراد بها ما يجب على المحكوم عليه دفعه من غرامات وتعويض. وقد وردت هذه اللفظة في نصوص المسند[3].

والقصاص عند الجاهليين عقوبة قلما طبقت، للأعراف القبلية التي كانت تعتبر تسليم القاتل الحر إلى أهل القتيل لقتله مثلبة، وتسليم مرتكب عمل ما إلى من وقع الفعل عليه، نقيصة وضعفاً وسبّة، تلحق آل مرتكب الفعل. لذلك، كان الثأر : هو الرادع لارتكاب الجرائم عند الجاهليين.

وإذا قتل حر عبداً، أو جرحه أو آذاه، فليس لأهل العبد طلب القصاص، وليس لمالكه أن يطلب قتل القاتل به، لأنه عبد والقاتل حر. وقد كان من الصعب عليهم، تصور مقاضاة عبد لحر على أساس القصاص، وإنما ينصف على

---

١ راجع النص الموسوم بـ : Halevy 147
Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 58.

٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 58.

٣ Mahram, p. 437.

أساس الدية والتعويض عن الخسارة بدفع مال ، لقد استصعبوا ذلك حتى في الاسلام . فلما لطمت ابنة النضر أخت الربيع جارية ، فكسرت سنّها ، فأمر الرسول بالقصاص . قالت أم الربيع : يا رسول الله أيقتص من فلانة ! لا والله لا يقتص منها . فقال النبي سبحان الله يا أم الربيع ، كتاب الله القصاص . فقالت لا والله ، لا يقتص منها أبداً . فعفا القوم وقبلوا الدية [1] .

الجرائم :

وقد وضعت كل المجتمعات على اختلاف درجاتها ، بدائية كانت أو متقدمة عقوبات لردع المجرمين وزجرهم وتأديبهم لكيلا يجرموا بحق أنفسهم وبحق مجتمعهم. وهي تتلاءم بالطبع مع واقع المجتمع والظروف الملمة به . كما ان الجرائم تكون منبثقة من واقع المحيط الذي يعيش المجرم فيه .

ويمكن حصر هذه الجرائم في الجرائم التي ترتكب ضد الدين، أي دين القوم وعقيدتهم ، وفي الجرائم التي ترتكب ضد المجتمع ، أي ضد العرف والعادات ، في مثل الزواج والطلاق والأحوال الشخصية وفي القضايا التي تخص الآداب وفي الجرائم التي تخص الاعتداء على الجسد كالقتل والجروح والضرب . وفي الجرائم المتعلقة بالاعتداء على حقوق الغير مثل الخيانة والغدر وعدم الوفاء بالأمانات والسلب والنهب والسرقات ونشل الناس ، وفي الجرائم المتعلقة بالملك .

وتعاقب شريعة الجاهليين كما تعاقب أية شريعة مدنية ودينية المخالف بعقوبات رادعة تكون متناسبة مع جرمه وعمله ، وتكون العقوبات بالطبع متناسبة مع مستوى المجتمع وتفكير رجاله . والظاهر ان المعاقبين كانوا أحياناً يقسون على المخالفين في فرض عقوباتهم ، فيظلمونهم ، ويعذبونهم عذاباً لا يتناسب مع ما قاموا به من جرم ، بدليل ورود آيات في القرآن الكريم تحث من بيدهم الأمر على ألا يعاقبوا عقاباً يتجاوز حدود المخالفة : (وان عاقبتم ، فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)[2] ، (ومن عاقب بمثل ما عوقب به)[3] . وقد ذكر علماء التفسير ان الآية الأولى تأمر

---

١ زاد المعاد (٣/٢٠٤) .
٢ النحل ، رقم ١٦ ، الآية ١٢٦ .
٣ الحج ، رقم ٢٢ ، الآية ٦٠ .

(ان من ظلم بظلامة،فلا يحلّ له أن ينال ممن ظلمه أكثر مما نال الظالم منه)[1] . وان الله يقول للمؤمنين (وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم ، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة) . وقد نزلت بعد أحد حيث قتل حمزة ومثّل به ، فلما (رأى المسلمون ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون وقطع المذاكير والمثلة السيئة ، قالوا : لئن أظفرنا الله بهم لنفعلن ولنفعلن . فأنزل الله فيهم ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله)[2] . ونزلت الآية الأخرى في (قوم من المشركين لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم ، وكان المسلمون يكرهون القتال يومئذ في الأشهر الحرم ، فسأل المسلمون المشركين أن يكفوا عن قتالهم من أجل حرمة الشهر،فأبى المشركون ذلك وقاتلوهم ، فبغوا عليهم وثبت المسلمون لهم ، فنصروا عليهم ، فأنزل الله هذه الآية)[3] .

ومن العقوبات التي جاءت بها الشريعة الجاهلية عقوبة:إقامة الحدود على الجناة، وذلك بالتعزير ، وهو الجلد ، جلد المخالف الذي لا تكون مخالفته جناية ، بل مخالفة بسيطة في مثل مخالفة أوامر الوالدين أو الولي الشرعي وفي الاعتداء على الغير بالشتم والسباب والتحرش بالناس وما شاكل ذلك من أمور . وعقوبة دفع الغرامات وتعويض الضرر ، وعقوبة السجن على الجنايات المهمة ، وعقوبة الطرد من البيت أو من المدينة أو من أرض القبيلة والخلع والتبري من الشخص ، والحبس في البيت ، وعقوبات القصاص .

والقصاص هو القود . والقَوَد قتل النفس بالنفس[4] . وقد عبر الفقهاء عن القصاص في القتل بـ « قصاص في النفس » ، وعبّروا عن القصاص فيما هو دون القتل بـ « قصاص فيما دون النفس » .

القتل :

القتل نوعان : القتل العمد ، والقتل الخطأ . وقد فرق الجاهليون بين النوعين.

---

١ تفسير الطبري (١٤/١٣١) ، روح المعاني (١٤/١٣٤) .
٢ تفسير الطبري (١٤/١٣١ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (١٧/١٣٦) ، روح المعاني (١٧/١٧٢) .
٤ تاج العروس (٢/٤٧٨) ، (قود) .

فالقتل الخطأ لا يمكن أن يكون في درجة القتل العمد. وقد قسم الفقهاء في الإسلام القتل الى خمسة أقسام : قتل العمد ، وقتل شبيه العمد ، وقتل الخطأ ، وقتل قائم مقام الخطأ ، وقتل بسبب[1] .

وقد نص على القصاص ، أي على وجوب قتل القاتل ومعاقبة الجاني بنوع جنايته ، بمعاقبته بنفس الفعل الذي فعله بالمجني عليه في بعض الكتابات الجاهلية ، ومن هذا القبيل وجوب قتل القاتل ، لأنه أزهق نفساً بشرية ، وعقوبة من يزهق الناس ويقضي على حياة إنسان إزهاق روحه ، أي قتله قصاصاً لما جنته يده بحق إنسان مثله .

والقتل العمد ، يقاص بالقتل ، وهو أن يطلب أهل القتيل من أهل القاتل تسليمه اليهم لقتله : ويقال لذلك (القَوَد) . وبذلك يغسل دم القتيل. والقاعدة القانونية عند الجاهليين أن (الدم لا يغسل إلا بالدم) . فهو تطبيق قاعدة القصاص.

وإذا كان القاتل من بيت دون بيت القتيل ، فإن أهل القتيل لا يكتفون في كثير من الأحايين بالقَوَد ، أي بقتل القاتل ، ولكن يطلبون قتل شخص آخر مع القاتل ، أي قتل شخصين في مكان القتيل وقد لا يقبلون بهذا الحل أيضاً لاعتقادهم بأن الرجلين مع ذلك دون القتيل في المنزلة وفي الكفاءة ، فيعمدون هم أنفسهم الى الأخذ بثأر القتيل ، وذلك باستعراضهم فيما بينهم رجال قبيلة القاتل ، لاختيار رجل يقتلونه يرون أنه في منزلة القتيل ، فإن اختاروه ووجدوه، والغالب أنهم يختارون جملة رجال ، أرسلوا من يغتال ذلك الشخص المسكين الذي وقع اختيارهم عليه لقتله فيغتالونه ليكون كبش الفداء عن القتيل .

ويقال للقتيل (هرج) (هرك) في اللهجة القتبانية ، وقد وردت في القوانين القتبانية بصورة تعبر عن (القتل) عامة دون تعيين نوعه ، كما في اللغة العبرانية، حيث تؤدي لفظة (هرك) (هرج) فيها هذا المعنى[2] . والظاهر أن المشرع وضع تقدير (القتل) إذا كان قتلاً عمداً أو قتلاً خطأ الى اجتهاد (الملك) الذي هو (الحاكم) الأعلى والى من وكل اليهم أمر القضاء بين الناس .

---

١ راجع كتب الحديث والفقه في باب القتل .

٢ A. Grohmann, Arabien, S. 132.

ولكن هذا لا يعني أن القتبانيين أو غيرهم من العرب الجنوبيين ، لم يكونوا يفرقون بين القتل العمد والقتل الخطأ ، أي القتل الذي يقع دون عمد ولا تحضير سابق ولا تفكير فيه . فقد كانوا يفرقون بين أنواع القتل ويحاسبون القاتل على هذا الأساس . وقد كانت كل القوانين في ذلك العهد تفرق أيضاً في أنواع القتل، فتجعل القتل الخطأ دون القتل العمد في الدرجة وفي الحكم المترتب عليه .

ويعبر عن القتل في اللحيانية بلفظة (خلس) (خليس) أيضاً . وقد ورد في بعض الكتابات اللحيانية ان فلاناً قتل فلان،وقد حددت بعض الكتابات الوقت الذي تم فيه القتل[١] . ويعبر عن القتل بلفظة (قتل) كذلك ، وعن المقتول بلفظة (همقتل) ، أي القتيل[٢] .

وعثر على نص قتباني هو قانون في تحديد عقوبة القتل والقاتل جاء فيه : أي شخص يقتل شخصاً وكان من شعب قتبان أو من قبائل تابعة أو محالفة لها يعاقب بعقوبة القتل ، إلا إذا قرر الملك عقوبة أخرى مستمدة من شريعة (تمنع،وعلان، وصبرم)[٣] . ويقصد بشريعة (تمنع ، وعلان ، وصبرم) ، العرف المتبع عند أهل (تمنع) أي العاصمة وعند جماعة (وعلان) وعند أهل (صبرم) . فللملك أن يعاقب بالعقوبات المقررة عند هؤلاء ، إذا لم يقرر الأخذ بمبدأ القصاص .

وقد استثنى القانون المذكور قتلة القتلة الفارين من تطبيق عقوبة القتل أو العقوبات التبعية الأخرى عليهم ، إذا كان قتلهم في أثناء فرارهم وعصيانهم حكم الملك ، أو حكم من خوله (الملك) تطبيق (العدالة) بين الناس . فإذا فر قاتل ، وأبى تطبيق ما صدر من حكم عليه ، وقتل وهو في هذه الحالة،لم يحاسب القاتل على قتله له ، ولا يعاقب بأية عقوبة من أجل ما قام به من قتله انساناً آخر . والظاهر ان المشرع القتباني قد أخذ بالظروف المحلية التي كانت سائدة إذ ذاك ، من سهولة هرب القتلة وتهديدهم الأمن والنظام ، فلم يعاقب قتلتهم بأية عقوبة،وذلك ليقضي على القتلة العصاة وليخيفهم وليخيف الطائشين من الإقدام

---

١ راجع النصوص رقم : ٧٩ ، و ٨٠ ، و ٨٦ في كتاب : W. Caskel

٢ راجع النص رقم ٣١ في كتاب : W. Caskel, S. 92.

٣ Glaser 1397, SE 80, Arabien, S. 132, REP. EPIGR. 3878, VI, II, P. 330, Rhodokanakis, Die Inschriften Kohlan, S. 14, Glaser 1394, 1401, 1416, 1400, 1606, 1607, 1608, WZKM, 31, 1924, 22, Glaser 1397.

على جرائم القتل . ولعله نظر إلى القاتل نظرته إلى انسان مجرم لا قيمـــة له في الحياة ، لأنه شرير مؤذٍ ، لذلك لم يفكر في مؤاخذة قاتل شخص على هذا النحو على عقوبته هذه .

وجاء في القانون المذكور أن من يرتكب جرماً أو يعمل عملاً مخلاً بالأمن ، أو يعرقل تنفيذ أوامر الملك لتعطيلها وإيقافها ، سواء كانت معلنة أو غير معلنة، ثم فرّ وقتل فلا يؤاخذ قاتله على قتله ، ولا تؤخذ دية دمه منه[1] .

وقـــد افتتح النص ونشر باسم الملك الذي أصدره ، وهو الملك (يدع أب ذبيان بن شهر) ملك قتبان . وباسم (مزود) قتبان ، أي ملأ قتبان، أصحاب الرأي والمشورة ، وبـــاسم (فقضت) و (بتل) قتبان وباسم (ردمـــان) و (املك) (أملوك) (الأملوك) ، و (مضحيم) (مضحي) و(يحر) و (بكلم) (بكيل) ، وباسم القبائل الأخرى الخاضعة لحكم الملك[2] . واختتم بجملة : (وتعلماي وشهد وتعلماي أيدي ...) . وهي جملة تعني : ووقع الملك على الوثيقة بيده وأمر بإعلانها ، وشهد على ذلك ووقع عليها المذكورون من الملأ أعضاء المزود ، ومن السادات أصحاب المشورة والرأي وقد ذكرت أسماؤهم بعد اسم الملك ، لأنهم وافقوا عليها وصادقوا على تشريعها ، وبتصديق الملك وأشراف مملكتـــه وأعضاء (المزود) على القوانين تكتسب صفة قانونية ، ويجب تطبيقها عندئذ[3] .

وتدخل جريمة الانتفاضة على السلطان ، أي الثورة في جملة الجرائم التي يعاقب القائم بها بعقوبة القتل . إلاّ إذا عفا السلطان عن فاعلها . وقد جـــاء في نص سبئي أن احد سادات القبائل ثار على الملك ، ثم عفا الملك عنـــه . فذهـب الى المعبد وتوسل الى إلّه (سبأ) أن يغفر له ذنبه . فأمر عنـدئذ بتقديم جارية الى معبد (المقه) إلّه سبأ ، تكفيراً عما قام به من ذنب تجاه سيده ، وأن يتوب عما فعل من إثم[4] . وهناك أمثلة أخرى من هذا القبيل[5] .

---

١ الفقرة السادسة وما بعدها من النص .
٢ راجع الفقرة الاولى وما بعدها من النص :
٣ راجع الفقرة (١٣ وما بعدها) من النص .
٤ G. Ryckmans, Inscriptions Sud-Arabes, III, Le Muséon, 48, 1935, 164, ff.
٥ Glaser 891, CIH 398, Arabien, S. 134.

وقد أخذت أعراف وعادات الأعراب بمبدأ حق (ولي الدم) في أخذ حق (الدم) ، وذلك بالقود أو بأخذ الثأر أو بأخذ الدية . وبهذا المبدأ عمل أهل المدر أيضاً ، ولكن نظراً لوجود اختلاف في طبيعة الحياة الاجتماعية عند العرب المستقرين ، فقد تساهل هؤلاء بعض التساهل في موضوع حق (الأخذ بالثأر) ، بينما تشدد الأعراب فيه ، واعتبروا القعود عنه ضعة وخسة ، وقبول الدية سبّة تنتقل من جيل إلى الجيل الذي يليه ، وهي لا تمحى إلا بغسلها بالأخذ بالثأر ، فإن الدم لا يغسل إلا بالدم . وبذلك نجد مبدأ حق معاقبة القاتل في أيدي أصحاب القتيل في قانون الأعراب ، أي أهل الوبر .

أما بالنسبة إلى العرب الجنوبيين ، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن آرائهم القانونية عن (حق ولي الدم) ، وعن الأخذ بـ (حق الدم) بصورة عامة شاملة ، وذلك لعدم ورود نصوص فقهية عديدة في هذا الموضوع . ولكننا إذا أخذنا بنظرية القياس ، وقسنا حكم المعينين والسبئيين والحضارمة على حكم القتبانيين بالنسبة إلى (حق ولي الدم) ، فإننا لا نستطيع أن نقول إن وجهة نظر العرب الجنوبيين بالنسبة إلى هذا الحق تختلف عن وجهة نظر العرب الشماليين بالنسبة اليه. فقد أخذ القانون القتباني بمبدأ حصر هذا الحق بالملك إذ جعله هو وحده الذي يقرر نوع العقوبة التي يمكن إنزالها في القاتل . فهو الذي يأمر بالقصاص ، أي يقتل القاتل ، أو بفرض الدية . ويقابل (الملك) ما يقال له (السلطان) في الفقه الاسلامي . أي الرئيس الأعلى للدولة أو من يقوم مقامه من المخولين بالنظر في تنفيذ القوانين والأحكام . فالدولة إذن هي المسؤولة وحدها عن أخذ حق القتيل من القاتل ، لا (ولي الدم) . وليس لولي أمر القتيل ان يتصرف من عنده لأخذ حق الدم من سافكه . وتتفق وجهة نظر الحكومة القتبانية هذه مع وجهة نظر (القوانين الرومانية) التي دونت في أوائل القرن السادس للميلاد ، ومع التشريع المدني الحديث الذي يجعل أمر تنفيذ القوانين وتطبيقها وتشريعها حق من حقوق الدولة ومن الأمور التي تخص سيادتها وكيانها[١] .

١ A. Grohmann, Arabien, S. 133.

قتل القاتل :

ويكون قتل القاتل عند الجاهليين بحدّ السيف . أما طرق القتـل الأخرى في مثل الشنق أو الصلب على خشبة ، فإنها من العقوبات التي لم تكن مألوفة بين العرب . والصلب على الخشبة ، أي الصليب من طرق القتل المألوفة عند الرومان. وأما (الرجم) ، أي إماتة الشخص برجمه بالحجارة ، فإنه من العقوبات المعروفة عند العبرانيين ، وقد نص على العقوبات التي يعاقب الإنسان عليها في الرجم في التوراة[1] .

وقد ورد أن من الجاهليين من عاقب بالصلب . فقد قتل المشركون (خبيب ابن عدي) الأنصاري بصلبه على خشبة ، وبطعنه بالرماح حتى مات[2] . وصلب (هلال بن عقة)[3] ، وصلب غيرهما ، ويكون الصلب بتعليق الشخص وربطه على خشبة ، وطعنه بالحربة حتى يموت مصلوباً[4] .

وورد أن رسول الله قتل (عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أميّة بن عبد شمس) ، بعرق الظبية منصرفة من بدر . فأمر بصلبه . فهو أول مصلوب في الإسلام[5] . وقد عرف الصلب في الإسلام . وهو كناية عن تعليق الانسان بعد قتله على خشبه،أو شجرة أو محل مرتفع ليراه الناس . وقد صلب خالد بن الوليد (عقّة بن جشم بن هلال النمري) بعين التمر[6] .

وورد أن الصلب كان في الجاهلية عقوبة قاطع الطريق[7] .

وقد ورد في القرآن الكريم ما يفيد وجود (الصلب) وتقطيع الأيدي والأرجل عند الجاهليين . فقد ورد في سورة المائدة : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم

---

1 Hastings, Dictionary of the Bible, Vol. I, p. 521, The Bible Dictionary, Vol. II, p. 233, W. Croswant, A Dictionary of Life in Bible Times, p. 222.

٢ امتاع الاسماع (١٧٧/١) (غزوة الرجيع) ، الاصابة (٤١٨/١) ، (رقم ٢٢٢٢) ، نهاية الارب (١٣٣/١٧ وما بعدها) ، المحبر (٤٧٩) .

٣ الاخبار الطوال (١١٢) .

٤ تفسير القرطبي (١٥١/٦) .

٥ المحبر (٤٧٩) .

٦ المحبر (٤٧٩) .

٧ المحبر (٣٢٧) .

وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض »[1] . وقد ذكر علماء التفسير أن هذه الآية نزلت في (العرنيين) ، أو قوم من (عكل) قدموا على رسول الله ، فاجتووا المدينة،فأمر لهم رسول الله بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا ، فلما صحوا ، قتلوا راعي رسول الله واستاقوا النعم ، وكفروا بعد اسلامهم فبلغ النبي خبرهم ، فأرسل في آثارهم ، فأتي بهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون . وكانوا قطعوا يدي الراعي ورجليه ، وغرزوا الشوك في عينيه حتى مات ، وأدخل المدينة ميتاً . وكان هذا الفعل سنة ست من الهجرة[2] .

كذلك كان القتل بإزهاق الروح بالرجم من العقوبات المعروفة عند الجاهليين، فقد قتل المشركون (عبدالله بن طارق) ، رجماً بالحجارة ، أوثقوا أطرافه ، فلما نزع يده من رباطه ، قتلوه رجماً بالحجارة[3] . ولكن هذه العقوبة من العقوبات القليلة التي لجأ اليها أهل الجاهلية ، فلا نستطيع اعتبارها من نوع القتل المألوف عند العرب .

والخنق معروف عند الجاهليين ، لكنه قليل الاستعمال في العقوبات . وقد ذكر ان (النعمان بن المنذر) ، أمر بخنق عدي بن زيد العبادي حتى مات[4] . ويكون بخنق الشخص بحبل يضيق على رقبته ويشد حتى يموت أو بقماش أو بجلد أو باليد وبأمور أخرى عديدة . وقد خنقت بعض النساء رجالاً ، انتقاماً منهم . ويستعمل عند وجود فرصة سانحة كأن يكون الشخص نائماً أو عند عثور شخص لا سلاح عنده على عدو له ؛ فوجد ان الفرصة الوحيدة المؤاتية له للقضاء عليه هي بإختناقه، وقد يستعمل في حالة الدفاع عن النفس .

وقد عرفت (المثلة) عند الجاهليين . يقال مثل بفلان ، نكل به تنكيلاً ، بقطع أطرافه والتشويه به . ومثّل بالقتيل جدع أنفه وأذنه أو مذاكيره أو شيئاً من

---

١ الآية رقم ٣٣ .

٢ تفسير الطبري (٦/١٣٢ وما بعدها) ، روح المعاني (٦/١٠٦ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٦/١٤٨ وما بعدها) .

٣ امتاع الاسماع (١/١٧٥) ، الاستيعاب (٢/٣٠٦) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ تاج العروس (٦/٣٣٩) ، (خنق) .

أطرافه . وقد مثل بـ (حمزة) عم النبي ، لما قتله (وحشي) . وقد نهى الاسلام عن المثلة بالانسان وبالحيوان[1] .

القتل الخطأ :

ومن أنواع القتل الخطأ : القتل الذي يقع نتيجة وقوع اضطراب وثورات أو هجوم بحيث يصعب تشخيص القاتل ، وكذلك القتل بسبب هجوم حيوان على شخص ، فيكون صاحبه مسؤولاً عن القتل ، لأنه مالكه . أو بسبب ضرب شخص شخصاً بحجر أو بشيء آخر ، ولم يكن متعمداً قتله أو رميه به أو بذلك الشيء ، وإنما أصابه خطأ فقتله . وقد عينت القوانين حدود هذه الأنواع من القتل ، وتركت تقدير مقدار العقوبة والتعويض إلى (الملك) وذلك في العربية الجنوبية ، ويقوم الحكام مقام الملك في النظر في هذه الأمور . أما أمره عند العرب الشماليين فإلى العرف والعادة والحكام .

السجن :

ولما كان من الصعب بل من غير الممكن للقبائل الحكم بالسجن على المجرمين . لعدم توفر السجون عندها لجأت الى عقوبة الطرد ، أي طرد المجرم الى مكان ما يقرر لمدة معينة بحيث لا يسمح للمجرم بالمجيء الى منازل القبيلة خلال مدة الطرد . وهي عقوبة معروفة عند العبرانيين وعند غيرهم من الساميين وغير الساميين مثل الرومان ، ولا تزال عقوبة الإبعاد والإجلاء معروفة ومستعملة عند القبائل . وتسمى اليوم بـ (الجلوة) (الجلو) (الجلي) عند بعض عشائر العراق .

وأما في المدن ، فإن الأخبار تتحدث عن وجود السجون فيها . فإذا حكم على أحد بالسجن أودع فيه . وقد عرف السجانون بالحدادين كذلك ، وذلك لأنهم كانوا يمنعون الناس من حرياتهم ، وكانوا يضعون القيود في أيديهم وأرجلهم ، والقيود هي من صنع الحدادين[2] .

---

١ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) ، تفسير الطبري (٦/١٣٣) .
٢ الفاخر (ص ٩١) .

وقد أشير الى السجن ، أي (المحبس) و (الحبس) في القرآن الكريم[1] ، مما يدل على وجود السجن في مكة وعلى وجود السجون في الحجاز .

وتوضع السلاسل في أيدي اللصوص والأشرار والمساجين وفي أرجلهم لمنعهم من الهرب . وقد تربط السلسلة برجل السجين من جهة وبجدار السجن أو الباب من جهة أخرى كي لا يتمكن من الهروب . وتتصل نهاية السلسلة بطوق ، تطوق به يدا السجين أو رجلاه . واستعملت أطواق النحاس كذلك[2] . ويعبر عن وضع السلسلة في يدي السجين أو رجله بكلمة (كبل) . وهو تعبير مستعمل في الإرمية وفي العبرانية كذلك[3] .

وقد عاقب سادات الأسر المخالفين والخارجين على الطاعة بحبسهم في بيوتهم ، وذلك بربط المحبوس بالسلاسل فلا يخرج ولا يغادر مكانه . وقد كان أهل مكة يحبسون من يستحق الحبس في بيوتهم ، بربطه بسلسلة ، حتى لا يتمكن من مغادرة محبسه . وقد حبسوا بعض من أسلم من الشبان ، عقوبة لهم . ونظراً إلى صعوبة تطبيق الحبس في البادية لا أستطيع أن أتحدث عن عقوبة الحبس عند الأعراب .

وفي السبئية لفظة (خصق) ، وتعني السجان ومحافظ السجن[4] . ومعنى هذا وجود السجون عند العرب الجنوبيين .

وقد كانت للملوك الحيرة سجون يسجنون بها من يغضبون عليهم من الناس . وقد تحدثت عن ذلك في أثناء كلامي عن (الدولة) وفي مناسبة الكلام على سجن (عدي بن زيد العبادي) بـ (الصنين)[5] ، ولا أستبعد أن يكون للغساسنة سجون أيضاً ، يرمون بها المخالفين لهم .

وقد كانت سجون العربية الجنوبية في قلاع الملوك والأقيال والأذواء وفي المباني العامة المحصنة ، حيث يودع السجين في أماكن منيعة حتى لا يتمكن من الهروب

---

١ سورة يوسف (الآية ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ وما بعدها ، ١٠٠) ، المفردات ، للراغب (ص ٢٢٣) .

٢ Hastings, Vol. I, p. 268, (1910).

٣ Hastings, Vol. II, p. 5.

٤ MAHRAM, p. 436.

٥ « فمضوا به الى الصنين فحبسه هناك ، فقال عدي بن فريد شعره كله أو أكثره في الحبس .... فوجه كسرى رجلا يخرجه من السجن . فلما أتاه الرجل بـــدأ بالسجن فدخله » ، نوادر المخطوطات ، أسماء المغتالين (ص ١٤١) .

منها ، يحرسها سجانون . وبين من يسجن عدد من المعارضين للحكـام والثوار والمشاغبين على السلطة القائمة ، أي مجرمين سياسيين ، يبقون في سجونهم ما دام الحكام غير راضين عنهم . وقد يموت بعض منهم وهم في سجونهم .

وورد في الأخبار أن السجن لم يكن في زمن الرسول بيثرب ، ولا في أزمان أبي بكر وعمر وعثمان ، وكان يحبس في المسجد أو في الدهليز ، حيث أمكن . فلما كان زمن (علي بن أبي طالب) ، أحدث السجن بالكوفة . وكان أول من أحدثه في الإسلام ، وسمّاه (نافعاً) ، ولم يكن حصيناً ، فنقبه اللصوص وانفلتوا ، فبنى آخر وسمّاه (مخيساً) من التخييس وهو التذليل . وقد ورد في أخبار أخرى ، أن (نافع بن عبد الحارث الخزاعي) من عمّـال (عمر) ، اشترى داراً من (صفوان بن أميّـة) للسجن بمكة [1] . ومعنى هذا أن السجن كان معروفاً قبل أيام (عثمان) و (علي) .

وقد ورد في بعض الأخبار أن (عمر) أول من حبس في السجون . « وقال أحبسه حتى أعلم منه التوبة ، ولا أنفيه من بلد الى بلد فيؤذيهم » [2] . وذلك لأن العرب كانت تستعمل « التغريب » ، أي النفي في موضع السجن ، لسهولة النفي ، وصعوبة الحبس .

الجلد :

وعرفت عقوبة الجلد عند الجاهليين ، ولا سيما عند الحضر ، فقد عاقبوا بالجلد . وقد أشير اليها في الكتابات العربية الجنوبية ، إذ ورد في اتفاقية من الاتفاقيات المتعلقة بـ (الوقف) أن الطرف الثاني ، وهو الشخص المتعاقد مع الحكومة أو المعبد ، إذا تماهل أو امتنع عن دفع ما عليه من حقوق نص عليها ، عوقب بغرامة مقدارها (خمسة رضى) ، أو بجلده خمسين جلدة بالعصا [3] .

---

١ صحيح مسلم (١٥٨/٥) ، (باب ربط الاسير وحبسه وجواز المن عليه) ، (وأمره عمر على مكة . قال البخاري في صحيحه : اشترى نافع بن عبد الحارث لعمر من صفوان بن أمية دار السجن بمكة) ، الاصابة (٥١٦/٣) ، (رقم ٨٦٥٩) ، صحيح البخاري ، (٢٣٨/٤) ، (في الخصومات : باب الربط والحبس) .

٢ تفسير القرطبي (١٥٣/٦) .

٣ CIH, 380, Sab. Denkm., S. 21.

(وذ يخدلن فلن غل ينكرون خمس رضيم فاو خمس سبطم لا حد انسم)[1]،ومعناها (والذي يتخاذل أو يقصر في العمل يعاقب بخمس رضى ، أو بخمسين جلدة عصا لكل انسان) .

وقد كان من حق الوالد جلد ولده عقاباً لهم لما يفعلونه من مخالفات. ويستعمل السوط في الجلد في الغالب ، كما عاقب سادات القبائل أتباعهم بجلدهم . والسوط هو المقرعة أيضاً[2] .

الخلع والطرد :

وإذا أسرف الانسان في ارتكاب الجرائم وبقي مستهتراً بارتكاب الموبقات لا يبالي ولا يحاسب نفسه على أفعاله وأعماله ، ولا يتبع نصائح أهله وعشيرته وأوامرهم ، فقد يؤدي ذلك به إلى خلعه وطرده من أهله ، معاقبة له وتخلصاً من جرائره ومن المسؤولية التي قد تتولد لأهله من أعماله هذه . ويكون ذلك بإعلانه للناس في المحلات العامة وفي المواسم وبإشهاد شهود على ذلك حتى يعرف الناس ، فتسقط المسؤولية عن أهل الطريد .

ويعبر أهل العربية الجنوبية عن ذلك بلفظة (طردن) أي الطريد ، كما يعبرون عنه أحياناً بلفظة (ثبرن) ، أي (المثبر) ، وهو الذي يثبر الناس ويقوم بأعمال مثبرة فيزعجهم ويتعدى عليهم بذلك[3] . وهم يطردون مثل هؤلاء الأشخاص ويثبرون منهم . ويعلنون عن الطرد ، ليقف الناس على اسم الطريد ، فيتجنبونه أو ينزلون به ما يستحق من عقاب ، إذا ارتكب عملاً مؤذياً لهم .

وقد نفى أهل الحجاز خلعاءهم إلى (حضوضى) ، وهو جبل عرف بنفي الخلعاء اليه[4] . وربما كانت هنالك أمكنة أخرى في جزيرة العرب اتخذت منفى ينفى اليه الخلعاء عقاباً لهم .

والطرد أو الخلع أو اللعن ، معناه رفع كل أنواع المسؤولية القانونية المترتبة

---

١ Rhodokanakis, Stud. II, S. 141. f.

٢ تاج العروس (٥/١٦٣) ، (سوط) .

٣ Rhodokanaki, Stud. II, S. 32.

٤ البلدان (٣/٢٩٦) .

على آل الخليع والطريد والملعون وكذلك عن قبيلته إن خلعته أيضاً . فإذا ارتكب جناية صار وحده المسؤول عنها ، فلا يحميه أو يدافع عنه أحد . إذ أسقط أهله عنهم كل ما كان عليهم من حقوق (العصبية) تجاهه . فإذا قتل أو اعتدى عليه فلا أحد يسأل عن أهله ، أو يأخذ عندئذ بحقه ، لسقوط العصبية عنه . ويكون عندئذ معرضاً للقتل في أية لحظة،مطارداً من الناس لفرط جرائره ، فهو كالمجرم الفار من العدالة ، الذي أسقطت عنه الجنسية ، لا يجد أحداً يؤويه ، ولا مكاناً يقبله ، خشية إلحاق الأذى به .

ويكون الخلع والطرد علناً وبإشهاد شهود . والأغلب أن يعلن عنه في المواسم بأن يقف الأب الذي يريد خلع ابنه وسط الناس ، ثم يقول : « خلعت ابني.. فإن جر لم أضمن ، وان جر عليه لم أطليه »[1] .

ويعرف الخلعاء بأسماء أخرى تدل على الصعلكة والازدراء . مثل الصعاليك . وذكر أن (صعاليك العرب) ذؤبانها ويقال الذؤبان والضليلين[2] .

التغريب :

والتغريب : النفي عن البلد أو الأرض[3] . وكانوا يستعملون هذه العقوبة في حق من يستهتر بعرف القبيلة ويقوم بأعمال منكرة ولا يصلح نفسه ، فكانوا يحكمون عليه بالجلاء عن أرض القبيلة والابتعاد عنها مدة تحدد وتعين ، وقد لا تحدد . فهو نفي وإجلاء . وقد بقيت هذه العقوبة في الإسلام فأمر الرسول بالتغريب وأمر الخلفاء به كذلك[4] .

وقد عرف التغريب الجماعي عند الجاهليين وفي الاسلام . وهو إجلاء جماعة من موضع سكنهم . فقد كان الفرس يجلون القبائل المعادية لهم عن مواضعها ويرسلونهم إلى أماكن أخرى . وفعل الروم ذلك بالعرب أيضاً . كما فعلت حكومات

---

١ المحلى (٥٢٢/١٠) ، (٦٥/١١) ، الاغاني (٥٠/٨) ، تاج العروس (٣٢١/٥)، (خلع) .

٢ اللسان (٤٥٥/١٠ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٤٧٦/٣) « الكويت » ، اللسان (٦٣٩/١) « صادر » ، (غرب) .

٤ القسطلاني (٢٥/١٠ وما بعدها) .

اليمن ذلك بالقبائل الثائرة . وقد أجلى (عمر) أهل الذمــة عن جزيرة العرب ، فسمّوا (جالية) . وعرفوا بـ (الجالية) ، ولزمهم هـذا الاسم أينما حلّوا ، ثم لزم كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب بكل بلد وان لم يجلوا عن أوطانهم [1] .

الدية :

وأخذ الفقه الجاهلي بأصل تعويض الضرر وازالته عمّن وقع الضرر عليه، وذلك بدفع تعويض عادل يرضى عنه ، أو ترضى عنه ورثته في حالة وفاة من وقــع الاعتداء عليه ، ويقال لذلك (الدية) .

أما في اللحيانية ، فيقال لها (ودي) ، وعن أداء الدية لأهل القتيل (ودي) ، و (وديو) بصيغة الفعل الماضي [2] . وتعني لفظة (ودي) ، دفع الدية وأعطاها في عربيتنا [3] .

والأصل في الدية أخذها من القاتــل إن كان قادراً ، فإن لم يكن قادراً على حملها ، وقع حملها على ذوي (العصبة) ، أي على أقربائه وذوي رحمـه حسب رابطة الدم . لذلك تكون (العصبة) في الديات ، كما تكون في الإرث [4] .

وتختلف الدية باختلاف درجات القبائل ومنازل الناس ، فقد تكون عشرة من الإبل ، وقد تبلغ ألفاً . فإذا كان القتيل من سواد الناس ومن القبائــل الصغيرة الضعيفة . كانت ديته قليلة . أما إذا كان من أشراف القبيلــة زادت ديته عن ذلك تبعاً لمنزلة القتيل ولمكانته . وإذا كان القتيل ملكاً ، كانت ديتـه ألفــاً من الإبل ، وتسمى هذه الدية (دية الملوك) [5] .

وتكون دية (الصريح) دية كاملة ، وهي عشرة من الإبــل كما ذكرت إذا كان القتيل من سواد الناس . أما إذا كان القتيل (حليفاً) ، فتكون ديته عندئذ نصف دية الصريح أي خمساً من الإبل [6] . وأما إذا كان القتيل (هجيناً) ، فتكون

---

١ تاج العروس (١٠/٧٦) ، (جلو) .
٢ راجع النص (٣١ ، والنص ٨٢ في كتاب : W. Caskel, S. 117.
٣ تاج العروس (١١/٣٨٦) .
٤ من الطبعة الجديدة Ency., Vol. I, p. 337.
٥ بلوغ الارب (٢/٢٢) ، « فان تدوه دية الملوك نقبل ، وان تأبوا نقتل ! فودوه دية الملوك : ألف بعير » ، نوادر المخطوطات (١٢٤) .
٦ الاغاني (٢/١٧٠) ، (ساسي) .

ديته نصف دية الصريح . وتكون دية المرأة نصف دية الرجل .

وكانت بعض القبائل قد حددت هي دية قتلاها ، وفرضتها فرضاً ، فكانت تأخذ عن دية قتيلها ديتين أو أكثر أحياناً ، وتدفع دية واحدة لغيرهـا ، وذلك بسبب قوتها وبطشها . روي أن (الغطاريف) ، وهم قوم (الحارث بن عبدالله ابن بكر بن يشكر) كانوا يأخذون للمقتول منهم ديتين ، ويعطون غيرهم دية واحدة إذا وجبت عليهم[1] . وكان لبني (عامر بن بكر بن يشكر) وهم من (الغطاريف) أيضاً ، وقد عرف (عامر) المذكور بـ (الغطريف) ديتان ، ولسائر قومه دية[2] .

وورد أن (بني الأسود بن رزن) كانوا يؤدون في الجاهلية ديتين ديتين ، ويؤدي غيرهم من (بني الديل) دية دية ، وذلك لفضلهم[3] . فـ (بنو الأسود) هم الذين حددوا ذلك المقدار وثبتوه ، ولم يكن هذا التحديد عن ضعف ، وإنما هو رغبة منهم في الافضال على ذوي القتيل الذين يكونون من غيرهم تلطفاً لهم ، وترفعاً منهم عن المساومة في دماء القتلى .

وذكر أن بعض حكّام العرب كـانوا يحكمون في الديات بمئة من الإبل . وقد نسب بعضهم هذا الحكم الى (أبي سيّارة العدواني) ، الذي كان يفيض بالناس من المزدلفة ، قيل إنه أول من جعل الدية مائة من الإبل[4] . ونسب بعض آخر هـذا الحكم الى (عبد المطلب) ، فقالوا إنه أول من سن الدية مئة من الإبل ، فأخذت به قريش والعرب ، وأقره رسول الله في الإسلام[5] .

وكانت (قريظة) و (النضير) في الجاهلية إذا قتل الرجل من بني النضير قتلته بنو قريظة ، قتلوا به منهم ، فإذا قتل الرجل من بني قريظة قتلته النضير أعطوا ديته ستين وسقاً من تمر[6] . وذلك بسبب الفرق في المنزلة والمكانة .

---

١ الاغاني (٤٨/١٢) .
٢ الاغاني (٥٣/١٢) .
٣ ابن هشام (٣ / ٢٢) بلوغ الارب (٢٢/٣) .
٤ الروض الانف (٨٦/١) .
٥ المعارف (ص ٢٤٠) ، صبح الاعشى (٤٣٥/١) ، ابن سعد ، طبقات (٨٩/١)، (ذكر نذر عبد المطلب أن ينحر ابنه) ، ابن رسته ، الاعلاق (١٩١) .
٦ تفسير الطبري (٩٧/٥) .

وقد ورد في بعض الكتابات اللحيانية ان القتلة دفعوا دية القتلى لأهلهم الشرعيين الذين لهم حق المطالبة بالدم ، وقدموا قرابين و (خرجا) خراجاً أي مبلغاً إجبارياً من مواد عينية الى الآلهة عن ذلك الدم ، وقدموا قرابين وضعوها على قبر القتيل. وبهذه الطريقة حسموا دم القتيل[1] .

ويلاحظ ان اللحيانيين استعملوا مصطلح (خرج) أي (الخراج) للتعبير عن الجزاء الذي يجب أن يفرض على القاتل ليقدمه جزاء قتله انساناً[2] .

وقد عرفت (الدية) عند العرب الجنوبيين كذلك ، ولم تحدد في القوانين، وإنما ترك أمر مقدارها الى (الملك) أو الى الحكـــام المفوضين ، وبضمنهم سادات القبائل والأقيال والأذواء ، يأخذونها بحسب العرف المقرر عنـد القبائل التي يعنيها الأمر وتعطى لأصحاب القتيل الشرعيين .

وورد في نص سبئي قديم يعود عهده الى أيام (المكربين) ، حكم بدفع دية مقدارها (٢٠٠) الى المعبد ، تعويضاً عن دم شخص فقـــير ، لم يعرف قاتله ، يدفعها آل القتيل في عشر سنوات . ولم يحدد النص نوع الدية ، مع انه عيّن مقدارها[3] .

ويعبر عن الدية بلفظة أخرى هي (الملة)[4] وبـ (العقل) ، يقال :(عقل القتيلَ يعقله عقلاً : وداه ، وعقل عنه : أدى جنايته ، وذلك اذا لزمته ديـة فأعطاها عنه)[5] . سميت الدية عقلاً (لأن الدية كانت عند العرب في الجاهليـــة إبلاً لأنها كانت أموالهم ، فسميت الدية عقلاً لأن القاتل كان يكلف أن يسوق الدية الى فناء ورثة المقتول فيعقلها بالعقل ويسلمها الى أوليائه)[6] ، ويقال للذين يتعاقلون على دفع الدية : (العاقلة) . وكان مما جاء في كتب الرسول الى القبائل : هم على معاقلهم الأولى ، أي الديات التي كانت في الجاهليـــة يؤدونها كما كانوا

---

١ W. Caskel, S. 51, 117, 119, Jaussen-Savignag, Mission, II, 389, 409, 411, 419, 441, Arabien, S. 50.

٢ راجع السطر ٣ من النص (٨٢) في كتاب : W. Caskel, S. 117.

٣ Glaser 1210, Rhodokanakis, Alt. Sabaische Texte, II, WZKM, 39, 1932, 186. Arabien, S. 134.

٤ اللسان (١١/٦٣٢) .

٥ اللسان (١١/٤٦٠) .

٦ اللسان (١١/٤٦١) .

يؤدونها في الجاهلية على مراتب آبائهم . وفي الحديث : كتب بين قريش والأنصار كتاباً فيه المهاجرون من قريش على رباعيتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى . أي يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها [1] .

العاقلة :

والعاقلة ، هم العصبة ، وهم القرابة من قبل الأب الذين يتحملون الديات . وقيل : القبيلة ، إلا انهم يحملون بقدر ما يطيقون .

ولا يعقل حاضر على باد . وورد أن (عمر) قال : « إنا لا نتعاقل المضغ بيننا ، معناه ، ان أهل القرى لا يعقلون عن أهل البادية ، ولا أهل البادية عن أهل القرى »[2] . ويظهر أن هذا كان حكم الجاهليين أيضاً ، أو حكم بعض منهم في أصول دفع الديات .

وليس في اسقاط الجنين دية عند بعض الجاهليين . وورد ان امرأتين من هذيل اقتتلتا فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها ، وهي حامل ، فقتلت ولدها الذي في بطنها ، فاختصموا الى الرسول ، فقضى أن دية ما في بطنها غرة عبد أو أمة . فقال ولي المرأة التي غرمت : « كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل فمثل ذلك يطل »[3] .

وورد في الحديث : « من لا أكل ولا شرب ولا استهل ، ومثل ذلك يطل[4] والطل : هدر الدم ، وقيل هو أن لا يثأر به أو تقبل ديته . وفي الحديث أيضاً ، أن رجلاً عض يد رجل فانتزع يده من فيه فسقطت ثناياه فطلّها رسول الله » ، أي أهدرها وأبطلها[5] .

وإذا تنوزل عن الجراحة والدم بدفع الدية ، قيل لذلك أرش الجراحة ، أي

---

١ تاج العروس (٨/٢٧) ، (عقل) ، مناقب الترك ، من رسائل الجاحظ (١/١٢) ، اللسان (١١/٤٦٠) ، (عقل) ، القسطلاني (١٠/٦٨) .
٢ اللسان (١١/٤٦١ وما بعدها) .
٣ صحيح مسلم (٥/١١٠ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٨/٣٩٩) ، اللسان (٥/١٩) .
٤ اللسان (١١/٤٠٦) .
٥ اللسان (١١/٤٠٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/٢٧) ، (عقل) .

ديتها[1] . ومتى تم الاتفاق وحصل التراضي بدفع الدية ، انتهى الدم ، ويعبر عن ذلك بـ (الفصل) وما زال هذا التعبير مستعملاً بين عشائر العراق[2] .

فالأرش اذن دية ما دون النفس ، أي القتل ، كدية الجروح . فهو تعويض عن الضرر الذي يلحق بالعضو المصاب . ويختلف الأرش عند الجاهليين باختلاف التلف الذي أصاب عضو الانسان ، وباختلاف منازل الناس والقبائل . وهو على العموم دون الدية ، لأن الدية تعويض عن قتل ، أي هلاك أصاب جسم الانسان كله ، بينما الأرش تعويض عن جزء من جسم .

وفي الحديث : في أرش الجراحات الحكومة . ومعنى الحكومة في أرش الجراحات التي ليس فيها دية معلومة : أن يجرح الانسان في موضع في بدنه مما يبقى شيْنه ولا يبطل العضو ، فيقتاس الحاكم أرشه بأن يقول :(هذا المجروح لو كان عبداً غير مشين هذا الشين بهذه الجراحة كانت قيمته ألف درهم ، وهو مع هذا الشين قيمته تسعمائة درهم ، فقد نقصه الشين عُشر قيمته،فيجب على الجارح عشر ديته في الحر ، لأن المجروح حر ، وهذا وما أشبهه بمعنى الحكومة) ، التي تستعمل في أرش الجراحات[3] .

وتؤدي لفظة (ارش) في اللحيانية معنى (عوض) ، ودَفَع بدلاً . وهي من المصطلحات القانونية الواردة في الكتابات . فإذا بدل انسان شيئاً بشيء عبر عن ذلك بلفظة (أرش)[4] . ولا أستبعد أن يكون اللحيانيون قد استعملوها في التعبير عن التنازل عن الجراحة والدم بعد دفع الدية .

ويعوض عن الضرر الذي يلحقه إنسان بإنسان آخر مثل قطع عضو من أعضاء جسمه أو إلحاق عجز به أو جراحة مؤذية بدفع (دية) عن الضرر . أما الجراحة التي لا تكون مؤذية ، ولا تلحق ضرراً ، فلا يدفع عنها دية ، ويعبر عن ذلك

---

١ تاج العروس (٢٧٩/٤) ، (ارش) ، شمس العلوم ، (الجزء الاول ، القسم الاول ، ص ٦٩) .

٢ (وفي حديث عمر ، رضي الله عنه ، أنه قال : ليس على عربي ملك .. ولكنا نقومهم كما تقوم أرش الديات ونذر الجراح) ، اللسان (٦٣٢/١١) ، (ملل) .

٣ اللسان (١٤٥/١٢) ، (حكم) .

٤ راجع النص ٤ في كتاب : W. Caskel, S. 79.

بـ (الحماشة)[1] . و (الحُماشة) ما ليس له ارش معلوم من الجراحات ، أو هو دون الديـــة ، كقطع يد أو أذن أو نحوه . أي جرح أو ضرب أو نهب ، أو نحو ذلك من أنواع الأذى . والحماشات : الجراحات والجنايات . وهي كل مـــا كان دون القتل والدية [2] .

ويقال لمـــا يدفع عن الجراحات (نذراً) . وذكر أن النذر لا يكون إلاّ في الجراح صغارها وكبارها وهي معاقل تلك الجراح[3] .

وقد نص في القوانين العربية الجنوبية على تعويض الجروح والأضرار التي تلحق بالجسم كذلك ، فورد فيها : (ثوب يقبّن) ، أي (ثياب بمقتينات)، ويراد بذلك أن يعوض بمال[4] . ويقدر ما يدفع من المال الى من نزل به الضرر بحسب شأن الجرح ومقدار الضرر : يقدره الحكام وعرّاف القبيلة .

وقد سادت شريعة الجاهليين في معاقبة المجرمين في الجرائم الأخرى التي ليست قتلاً على أساس التعويض وإصلاح الضرر والسجن والخلع والنفي ومعاقبة الفاعـــل عقاباً يناسب عمله وما صدر منه .

واذا عجزت عصبة القاتل عن دفع دية القتيل ، وقد حملها على أقرباء العصبة، فإن نأوا بها وجب على القبيلة تحملها . ويدخل فيها سيد القبيلة . فالقبيلة وحدة اجتماعية قائمة بذاتها وعليها لذلك تحمل مسؤوليات أفرادها . ولهذا توزع الديات على أفرادها إن ثبت عدم تمكن أقرباء القاتل من دفعها .

وتدفع الدية الى (ولي القتيل) أو الى أوليائه الشرعيين ، أي الذين لهم حق المطالبة بدم القتيل . وهم وحدهم لهم حق الفصل في موضوع الدم .

ولا تقع جناية العبد على مولاه ، وانما تقع جنايته في رقبته . فلا يعقل سيده عنه ، ولا تتحمل عصبة سيده عنه أي شيء في حالة عدم تمكن سيده من أداء (العقل) ، أي الدية ، إنْ قتل العبد شخصاً . وللفقهاء في الاسلام في استيفائها منه خلاف[5] .

---

١ المعاني الكبير (١٠١٦/٢) .
٢ تاج العروس (٣٠٨/٤ وما بعدها) ، (خمش) .
٣ اللسان (٢٠٠/٥) ، « صادر » .
٤ M. Höfner, Zur interpretation altsüdarabischer inschriften, II, WZKM, 43, 1936, S. 107. f., Arabien, S. 134.
٥ اللسان (٤٦١/١١) ، (١٣٧/١٥) .

وعند اعتصام القاتل وامتناع أهله أو عشيرته عن تسليمه الى أهل القتيل للاقتصاص منه بقتله ، وعلم رضاء أهل القتيل بأخذ (الدية) منه أو من أهله غسلاً للدم، يلجأ أهل القتيل الى (الأخذ بالثأر) ، وهو مبدأ معروف عند الشعوب السامية، وذلك بأن يتربص أهل القتيل بالقاتل ، حتى يجدوه فيقتلوه ، أو يتربصوا بأقرب الناس اليه إن لم يجدوا القاتل فيقتلونه ويؤدي هذا الثأر الى وقوع عدد من القتلى في الغالب من الجانبين ، وقد يؤدي الى وقوع قتال بين العشائر والقبائل . ويدفع أهل القتيل على اصرارهم على الأخذ بالثأر عقيدة قديمة متوارثة ، هي أن الروح منفصلة عن الجسم ، فإذا قتل القتيل ، خرجت روحه وصارت هامةً ، تحوم حول قبره ، تقول : أسقوني ، ولن تستقر حتى يؤخذ بثأره ، وإلا بقيت تحوم حوله ، ويلحق الأذى عندئذ بأهل القتيل . فخوف أهل القتيل من هذه العاقبة السيئة ، يدفعهم على الإصرار على الأخذ بالثأر .

وقد روى أهل الأخبار قصصاً عن الأخذ بالثأر . وكيف كان الجاهليون لا يرتاحون ولا يهجعون إلا بعد أخذهم بحق (الثأر المنيم) . وقد ذكروا أن العرب ضربت المثل برجل اسمه (بيهس) في الأخذ بالثأر[1] .

الذحل :

والذحل الثأر أو طلب مكافأة بجناية جُنيت عليك أو عداوة أتيت اليك ، أو العداوة والحقد[2] .

الشدخ :

وقد يبطل الحاكم الدماء ويقال لذلك : (الشدخ) . وأصل الشدخ الكسر والفضح . وقد عرف (يعمر بن عوف) بـ (الشداخ) ، سمّي بذلك لما شدخ من دماء خزاعة حين حكّموه[3] .

---

١ تاج العروس (١١٣/٤) ، (بهس) .
٢ تاج العروس (٣٢٩/٧) ، (ذحل) .
٣ الروض الآنف (٨٧/١) .

ومن الأحكام الطريفة المتعلقة بجرائم القتل ، حكم المسؤولية التي تقع على الجماعة أي جماعة أرض يقع فيها قتل ، يختفي فيها أثر القاتل ، وينكل أهلها عن تسليمه في خلال مدة حددها القانون بأربعة أيام . فإذا مضت المدة ولم يعثر فيها على القاتل أو لم يسلم الى الحكومة ، صودرت غلات الجماعة وأخذ حصادهم ، حتى يبت الملك ، أو الجهات المسؤولة ، أي الحكام في الأمر ، وفي تعيين نوع العقوبة والدية التي ستفرض على الجماعة . وتودع الأموال المصادرة في مخازن الدولة أو مخازن المعبد ، أو تباع إن لم يكن في الامكان حفظها ، ويحفظ ثمنها ، الى أن يبت الملك أو الحكام في الأمر .

ويظهر ان الغاية التي توخاها المشرع من إصداره هذا القانون ، هو قطع دابر احتماء القتلة ، بعشائرهم أو بمن يلجأون اليهم ، وفرارهم من تنفيذ عقوبة القانون عليهم . ثم لاكراه الجماعات على مساعدة السلطة في البحث عن المجرمين[١] .

التعقية :

الأصل في القتل القصاص ، وذلك كما ذكرت . أما الدية ، فلا يقبلها إلا الضعفاء ، وكانوا يعيرون من يأخذها بأنهم باعوا دم قتيلهم بمال . ولهذا كان يأبى أولياء المقتول من قبول الدية إذا كانوا أقوياء . أما الضعفاء ، فقد وجدوا لهم حيلة شرعية ومخرجاً من المخارج في دفع ذم الناس لهم بقبولهم الديات، وذلك بلجوئهم الى ما يقال له : التعقية في تبرير أخذهم دية قتيلهم . (والتعقية هي أن يقول آل القتيل لآل القاتل : بيننا وبينكم علامة، فيقول الآخرون : ما علامتكم؟ فيقولون أن نأخذ سهماً فنرمي به نحو السماء ، فإن رجع الينا مضرجاً بالدم ، فقد نهينا عن أخذ الدية ، وإن رجع كما صعد ، فقد أمرنا بأخذها . وحينئذ يقبلون الدية . وهم يعلمون أن السهم سيرجع كما صعد من غير دم . ولكنهم يريدون عذراً في قبول الدية : يعتذرون به أمام الناس من تعييرهم لهم ، وكانت علامة قبولهم بأخذ الدية ، مسح اللحية ، فإن مسح اللحية علامة الصلح . قال ابن الأعرابي : ما رجع ذلك السهم قط إلاّ نقياً ، ولكنهم يعتذرون به عند

١ Arabien, S. 134.

الجهال »[1] .

قال المتنخل الهذلي :

عقوا بسهمٍ فلم يشعر به أحد ثم استفاؤوا وقالوا : حبذا الوضحُ

يقول : (رموا بسهمٍ نحو الهواء إشعاراً أنهم قد قبلوا الدية ورضوا بها عوضاً عن الدم ، والوضح اللبن ، أي قالوا حبذا الإبل التي نأخذها بدلاً من دم قتيلنا فنشرب ألبانها)[2] .

الأشناق :

وقد يحمل أحد الأجواد دفع الدية عن أهل القاتل ، وقد يطلب المساعدة من قبيلته كي يكملوا عدة الدية أو الغرم . ويقال لهذا الفعل : الأشناق . ويعد دفع الأشناق من مكرمات الرجال ، وكانوا يفتخرون بذلك على سائر الناس[3] . وقد كانت قريش قد اختارت قوماً عهدت اليهم (الأشناق) . يجمعون من أهل مكة المال ، ليدفع في مساعدة من لا يتمكن من دفع الدية .

الحمالة :

ويقال لمن يحمل الدية أو الغرامة عن قوم ليصلح بينهم (الحمالة) . (ومنه الحديث : لا تحل المسألة إلا لثلاثة . ورجل تحمل حمالة بين قوم . وهو أن تقع حرب بين قوم وتسفك دماء فيتحمل رجل الديات ليصلح بينهم)[4] . والحميل الكفيل الضامن دفع الديات . وعليه دفعها ، لأن الحمالة التزام ، ولا يمكن التخلص من عقد بغير وفاء .

---

١ قال الاسعر (الاشعر) الجعفي :
عقوا بمسهم ثم قالوا : سالموا يا ليتني في القوم اذ مسحوا اللحى
بلوغ الارب (١٨/٣ وما بعدها) ، اللسان (٧٩/١٥ وما بعدها) ، (عقا) .

٢ اللسان (٨٠/١٥) ، (عقا) .

٣ اللسان (١٨٨/١٠ وما بعدها) ، (شنق) .

٤ تاج العروس (٢٨٩/٧ وما بعدها) ، (حمل) ، اللسان (١٨٠/١١) ، (حمل) ، بلوغ الارب (٣٣٧/١) .

السعاة :

وكانت العرب تسمي أصحاب الحمالات لحقن الدماء وإطفاء النائرة سعاة ، لسعيهم في صلاح ذات البين ، ومنه قول زهير :

سعى ساعياً غيظ بن مرة ، بعدما تَبَزَّلَ ما بين العشيرة بالدم

والعرب تسمي مآثر أهل الشرف والفضل مساعي[1] .

القسامة :

لا حكم بغير بينة تثبت بالدليل القاطع أن القاتل قتل القتيل . ولا يطالب بالقود ان لم يثبت أن القاتل قد قتل القتيل وأنه مسؤول عن دمه .

أما إذا قُتل رجل في موضع أو بين قوم ولم يعرف قاتله، ويرى أولياء المقتول أن دم صاحبهم في أصحاب هذا الموضع أو القوم وأن القاتل بينهم ، ولا تشهد على قتل القاتل إيّاه بينة عادلة كاملة ، فيجيء أولياء المقتول فيدعون قِبَلَ رجل أنه قتله ويدلون بلوث من البينة غير كاملة ، وذلك أن يوجد المدعى عليه متلطخاً بدم القتيل في الحال التي وجد فيها ولم يشهد رجل عدل أو امرأة ثقة أن فلاناً قتله ، أو يوجد القتيل في دار القاتل وقد كان بينهما عداوة ظاهرة قبل ذلك ، فإذا قامت دلالة من هذه الدلالات سبق الى قلب من سمعه أن دعوى الأولياء صحيحة ، فيستحلف أولياء القتيل خمسين يميناً ، أن فلاناً الذي ادعوا قتله انفرد بقتل صاحبهم ما شركه في دمه أحد، فإذا حلفوا خمسين يميناً استحقوا دية قتيلهم، فإن أبوا ان يحلفوا مع اللوث الذي أدلوا به حلف المدعى عليه وبريء . وإن نكل المدعى عليه عن اليمين خير ورثة القتيل بين قتله أو أخذ الدية من مال المدعى عليه .

وورد أن القسامة : « أن يقسم من أولياء الدم خمسون نفراً على استحقاقهم دم صاحبهم إذا وجدوه قتيلاً بين قوم ولم يعرف قاتله ، فإن لم يكونوا خمسين

---

[1] اللسان (١٤/٣٨٥ وما بعدها) ، (سعا) .

أقسم الموجودون خمسين يميناً ، ولا يكون فيهم صبي ولا امرأة ولا مجنون ولا عبد ، أو يقسم بها المتهمون على نفي القتل عنهم ، فإن حلف المدعون استحقوا الدية ، وان حلف المتهمون لم تلزمهم الدية »[1] .

وورد : في « حديث عمر ، رضي الله عنه : القسامة توجب العقل ، أي توجب الدية لا القود . وفي حديث الحسن : القسامة جاهلية ، أي كان أهل الجاهلية يدينون بها . وقد قررها الإسلام . وفي رواية : القتل بالقسامة جاهلية ، أي أن أهل الجاهلية كانوا يقتلون بها أو أن القتل بها من أعمال الجاهلية »[2] . وورد أن رسول الله « أقر القسامة على ما كانت عليه في الجاهلية »[3] .

وقد يحلف بعض الناس يميناً ، أي يمين القسامة ، ويدفع البعض الآخر ما يصيبه من الدية ، بدلاً من القسم ، بأن يؤدي الدية عوضاً عن اليمين.لاعتقادهم أن من يحلف كاذباً أصابه مكروه وشر[4] .

ومن أمثلة ما ذكره أهل الأخبار عن القسامة والعقوبة المعجلة التي تلحق بصاحب اليمين الكاذبة ، ما ذكروه عن استئجار رجل من قريش ، اسمه خداش بن عبدالله ابن أبي قيس العامري في رواية ، رجلاً من بني هاشم ، فانطلق الأجير معه في إبله الى الشام ، فمر رجل به من بني هاشم قد انقطعت عروة جوالقه ، فقال للأجير : أغثني بعقال أشدّ به عروة جوالقي ، فأعطاه عقالاً ، فشد به جوالقه . فلما نزلوا ، عقلت الإبل ، إلا بعيراً واحداً . فقال الذي استأجره : ما شأن هذا البعير لم يعقل من بين الإبل ؟ قال الأجير:ليس له عقال.قال المستأجر له: فأين عقاله ؟ فحذفه بعصا ، كان فيها أجله . فمرّ به رجل من أهل اليمن فقال : أتشهد الموسم ؟ قال : ما أشهد ، وربما شهدته . قال : هل أنت مبلغ عني رسالة مرة من الدهر ؟ قال : نعم . قال : فكنت اذا شهدت الموسم فناد : يا آل قريش ؟ فإذا أجابوك ، فنادِ : يا آل بني هاشم ؟ فإن أجابوك، فاسأل

---

١ اللسان (٤٨١/١٢) (قسم) نيل الاوطار (٣٦/٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٦/٩ فما بعدها) (قسم) المفردات (٤١٣) ، القسطلاني (٦١/١٠) .
٢ اللسان (٤٨١/١٢) .
٣ صحيح مسلم (١٠١/٥) .
٤ صحيح مسلم (٦٨/٥ وما بعدها) ، عمدة القاري، (٢٦٦/١٦) ، ابن حزم ، المحلى (٦٦/١١ وما بعدها) .

عن أبي طالب ، فأخبره ان فلاناً قتلني في عقال . ومات المستأجر . فلما قدم الذي استأجره ، أتاه أبو طالب ، فقال له : ما فعل صاحبنا ؟ قال : مرض، فأحسنت القيام عليه ، وتوفي ، فوليت دفنه . قال أبو طالب : قد كان أهل ذاك منك ، فكث حيناً . ثم ان الرجل اليماني الذي أوصى اليه أن يبلغ عنه ، وافى الموسم ، فقال : يا آل قريش ؟ قالوا له : هذه قريش . قال : يا آل بني هاشم ؟ قالوا : هذه بنو هاشم . قال : أين أبو طالب ؟ قالوا : هذا أبو طالب . قال له : أمرني فلان أن أبلغك رسالة : ان فلاناً قتله في عقال. فأخبره بالقصة ، وخداش يطوف بالبيت ، لا يعلم بما كان . فقام رجال من بني هاشم الى خداش ، فضربوه ، وقالوا : قتلت صاحبنا ، فجحد . وأتاه أبو طالب ، فقال له : اختر منا إحدى ثلاث : إن شئت أن تؤدي مئة من الإبل ، فإنك قتلت صاحبنا ، وان شئت حلف خمسون من قومك أنك لم تقتله ، فإن أبيت ، قتلناك به . فأتى قومه ، فقالوا : نحلف ، فأتته امرأة من بني هاشم كانت تحت رجل منهم ، قد ولدت له ، فقالت : يا أبا طالب ، أحب أن تجيز ابني هذا من اليمين وتعفو عنه برجل من الخمسين ، ولا تصبر يمينه حيث تصبر الايمان . ففعل . فأتاه رجل منهم ، فقال : يا أبا طالب ، أردت خمسين رجلاً أن يحلفوا مكان مئة من الإبل يصيب كل رجل بعيران . هذان بعيران ، فاقبلهما عني ولا تصبر يميني حيث تصبر الايمان ، فقبلهما . وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا . ويذكر رواة هذا الخبر انهم كذبوا في يمينهم ، فما حال الحول ومن الثمانية والأربعين عين تطرف[1] .

وقد ذكر (السكّري) القصة المذكورة ، لكنه نسب القسامة فيها الى (الوليد ابن المغيرة) . فذكر أنه لما أقبل أولئك الحي الذين كان (عامر) عهد اليهم بما عهد ، وأخبروا (بني عبد مناف) خبر عامر . عمدوا الى (خداش) فضربوه ، وصاح الناس : الله الله يا بني عبد مناف . ثم تناهوا وتناصفوا ، وصاروا في أمره الى (الوليد بن المغيرة) ، وهو يومئذ أسن قريش . فحكم بالقسامة . وذكر في ذلك أبيات شعر نسبها الى (أبي طالب) . وذكر أن

١ القسطلاني (٦/ ١٨١) .

بعض أهل الأخبار قال إنهم رضوا بحكم (أبي سفيان) ، وروى في ذلك بيت أبي طالب :

هلم الى حكم ابن حرب فإنه سيحكم فيما بيننا ثم يفعل[1]

الحيوان المؤذي :

لا يقتل صاحب حيوان اذا قتل حيوانه انساناً آخر ، إذ لا دخل لصاحبه في فعله ، فتسقط عنه مسؤولية العقوبة المثلية ، وعليه دفع تعويض عن فعل حيوانه ، وترضية أصحاب القتيل إذا كان صاحبه معه ، كأن يكون راكباً له أو مصطحباً له ، إذ كان من الواجب عليه الانتباه الى حيوانه ووجوب سيطرته عليه حتى لا يحدث أذى بالناس .

وقد أقر الاسلام هذا المبدأ . فجاء في الحديث : (العجماء جرحها جبار ، والبئر جبار ، والمعدن جبار ، وفي الركاز الخمس)[2] . أي جرح البهيمة واتلافها شيئاً هدر ، لا ضمان على صاحبها اذا لم يوجد منه تفريط ، أما اذا وجد كما في صورة كونه راكباً عليها أو قائداً لها أو سائقاً ففيه ضمان .

السرقة :

عرف علماء اللغة السرقة larceny بأنها أخذ انسان ما ليس له أخذه في خفاء[3] . وعرفت (مدونة جوستنيان) السارق بأنه (من انتزع بالقوة مالاً مملوكاً للغير)[4]. وقد عاقبت شرائع الشرق الأدنى السارق بعقوبات صارمة في الغالب . وقد فرضت الشريعة الموسوية على السارق ان يرد خمسة أضعاف من البقر وأربعة من الغنم عوضاً عن كل رأس مسروق . واذا لم يكن لدى السارق ما يكفيه لاعطاء هذا الجزاء،

---

١ المحبر (٣٢٨) .

٢ صحيح مسلم (١٢٨/٥) .

٣ المفردات (ص ٢٣٠) ، اللسان (١٥٥/١٠) .

٤ مدونة جوستنيان ، (ص ٢٥٣) .

يباع فترد القيمة من ثمنه . وكان على السارق أن يدفع أحياناً سبعة أضعاف ما سرق . وقد أمرت برد الأشياء المأخوذة عن طريق الخيانة والغش أو اللقطة أو المغتصبة مع زيادة الخمس على قيمتها[1] .

ويدخل في باب السرقة في الشريعة الموسوية السطو ليلاً على البيوت ، وإزالة علامات الحدود لاغتصاب ملك مجاور لزيادة ملك المغتصب ، والتلاعب في الكيل وفي الميزان والأبعاد أي القياسات والدخول عنوة في ملك شخص لا يملك حق دخول ملكه وإحراق ملك الغير ، وقد قررت الشريعة المذكورة معاقبة المعتدي في هذه الحالات بإصلاح الضرر وبدفع تعويض مناسب[2] .

والسارق عند العرب من جاء مستتراً الى حرز فأخذ منه ما ليس له ، فإن أخذ من ظاهر فهو مختلس ومستلب ومنتهب ومحترس ، فإن منّع مما في يديه فهو غاصب[3] . والسرقة عيب عند الجاهليين ، أما الاستيلاء على مال الغير عنوة ، أي باستعمال القوة ، فلا يعد سرقة ، بل هو اغتصاب وانتهاب إذا كان في داخل القبيلة ، أما إذا كان اغتصاب مال شخص من قبيلة أخرى ليس لها حلف ولا جوار ولا عقد مع قبيلة المغتصب ، فيعد مغنماً ومالاً حلالاً . ولا يرى المغتصب فيه أي دناءة ، بل قد يعدّ ذلك شجاعة وفخراً ، لأنه أخذه عن قوة وجدارة ، وعلى صاحب الحق أخذ حقه بنفسه ، أو بمساعدة أهله أو أبناء عشيرته .

أما بالنسبة الى شريعة الجاهليين في معاقبة السارق ، فليست لدينا فكرة واضحة عنها وبالنسبة الى عقوبته عند جميع الجاهليين . أما أهل مكة ، وهم من قريش ، فقد كانوا يعاقبون السارق بقطع يده . ويظهر من روايات الأخباريين أن هذه العقوبة سنت في وقت لم يكن بعيد عهد عن الإسلام ، إذ يذكرون أن أول من سنّها هو (عبد المطلب)[4] . ومنهم من يرجع سنها الى (الوليد بن المغيرة) ، فيقولون إنه أول من قطع يد السارق ، فصار عمله هذا سنة في معاقبة السرقة ، وقطع رسول الله في الإسلام[5] . وروي أن اول سارق قطعه رسول الله في الإسلام

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/٥٥٦) .
٢ Hastings, p. 167.
٣ اللسان (١٠/١٥٦) « صادر » .
٤ ابن رسته ، الاعلاق (١٩١) .
٥ تفسير الطبري (٦/١٤٨ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٦/١٦٠) ، المعارف (٢٤٠) ، صبح الاعشى (١/٤٣٥) .

من الرجال : (الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف) ، ومن النساء (مرة بنت سفيان بن عبد الأسد) من (بني مخزوم)[1] .

وذكر (محمد بن حبيب) ، أن العرب (كانوا يقطعون يد السارق اليمنى)، (وقطعت قريش رجالاً في الجاهلية في السرق) . منهم (وابصة بن خالد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم) ، و (عوف بن عبيد بن عمر بن مخزوم) ، و (موار) ، ثم سرق فرجم حتى مات ، و (الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف) ، وعبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب ، قطع في سرقة إبل ، ومدرك بن عوف بن عبيد بن عمر بن مخزوم ، ومليح بن شريح بن الحارث ابن أسد ، ومقيس بن قيس بن عدي السهمي ، وكانا سرقا حلي الكعبة في الجاهلية ، فقطعا[2] .

ويلاحظ أن ثلاثة من السرّاق المذكورين كانوا من عائلة واحدة هي عائلة (عمر بن مخزوم) . وأن سارقين من هؤلاء السراق الثلاثة كانا أباً وابناً . فالأب هو (عوف بن عبيد بن عمر بن مخزوم) ، والابن هو (مدرك بن عوف بن عبيد بن عمر بن مخزوم) .

وذكر أهل الأخبار أن أشهر سارق عرف عند الجاهليين ، هو سارق اسمه (شظاظ) . فقالوا : شظاظ أسرق رجل عند العرب[3] .

ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن موقف بقية العرب من عقوبة قطع يد السارق، لأننا لا نملك موارد تتحدث عن ذلك .

ويعاقب العبرانيون السارق بدفع خمسة أمثال المسروق اذا كان ثوراً،ويدفع أربعة أمثاله إذا كان المسروق خروفاً أو نعجة ، وذلك اذا كان السارق قد باع الحيوان أو قتله . أما إذا كان ذلك الحيوان لا يزال في أيدي السارق ، فيعاقب عندئذ بدفع مثلي المسروق[4] .

وفكرة معاقبة السارق بدفع مثلي المسروق أو جملة أمثاله فكرة موجودة عند

---

١ تفسير القرطبي (١٦٠/٦) .
٢ المحبر (٣٢٧ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٢٥٣/٥) ، (شظظ) .
٤ Hastings, p. 165.

الجاهليين أيضاً ، ولا تزال معروفة في العرف القبلي . فيدفع السارق أربعة أمثال المسروق عند أكثر العشائر العراقية في الزمن الحاضر ، ويسمون ذلك (المربعة) . وهي في الواقع من بقايا العرف الجاهلي في السرقة . وقد جعل القانون الروماني عقوبة السرقة المكشوفة ، أي السرقة التي يمسك فيها صاحبها وهو في حال السرقة أربعة أمثال المسروق ، رقيقاً كان السارق أو حراً ، أما السرقة المستورة ، وهي السرقة التي يعثر عليها عند السارق ، فجزاؤها المثلان[1] .

وإذا أنكر السارق السرقة وأصر على إنكاره ، ولم يتمكن المسروق من إثبات وقوع السرقة منه ، ولكنه يرى مع ذلك انه هو السارق ، فعلى المسروق أن يطالب السارق بأداء يمين يقسم فيه انه لم يسرقه وانه لا يعرف بها ، فإذا أنكر ولم يرض بالقسم ، فعليه دفع المسروق أو قيمته على وفق العرف . والعرب يخشون من اليمين كثيراً ، حتى انهم إذا جوبهوا به ، فإنهم يفضلون الاعتراف بالسرقة والاقرار بها على أداء اليمين .

ويعبر عن السارق بلفظة أخرى ، هي (اللص) والمصدر اللصوصية . وزعم بعض علماء اللغة ان كلمة (لص) هي بلغة طيء وبعض الأنصار[2] . ويرى بعض المستشرقين انها من الألفاظ المعربة عن اليونانية،من أصل Liatis ، أي (لص) في لغة الإغريق . وقد أخذها الجاهليون عن طريق اتصالهم بالروم في بلاد الشأم، حيث كانوا يقبضون على من كان يغير على الحدود وعلى القوافل بقصد السرقة والسلب ، فيسمونهم Liatis ويعاقبونهم عقوبة صارمة ، فأخذ الجاهليون هذا المصطلح منهم[3] .

ويعبر عن أخذ المال المسروق والحصول عليه وديعة أو شراءً مع علم المستلم له أنه مسروق بـ (دشش) في لغة المسند[4] .

وأما النهب ، فأخذ مال الغير ، وذلك بالغارات ، أو باعتراض الناس في السبل والطرق[5] . وأما السلب ، فهو ما يستلبه الإنسان من إنسان آخر ، في مثل

---

١ مدونة جوستنيان (ص ٢٤٦ وما بعدها) .
٢ اللسان (٨٧/٧) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٨) .
٤ Mahram, p. 431.
٥ اللسان (٧٧٣/١) .

الحرب أو القتل[1] . ولهما أحكام تختلف باختلاف الظروف التي يقع فيها السلب والنهب . ففي أثناء الحروب ، يكون النهب والسلب من الأعمال المألوفة التي تبيحها القوانين ، وقد يبيح القادة ذلك لجنودهم ، وقد يعينون مدة يبيحون فيها سلب العدو ونهب ما في مكانه . ومن حق القاتل في الحرب سلب ما على القتيل من سلاح ولباس ، وما يحمله من كل شيء .

قاطع الطريق :

ذكر (محمد بن حبيب) ان العرب يصلبون قاطع الطريق ، وقد صلب (النعمان بن المنذر) رجلاً من (بني عبد مناف بن دارم) ، من تميم كان يقطع الطريق[2] .

الصلح :

ويحاول الحكام جهدهم تسوية الخلافات بالتي هي أحسن ، وذلك بفطنتهم وبذكائهم بالتوفيق بين المتخاصمين وبعقد الصلح بينهم ، لدفن ما وقع بين الطرفين من خلاف . وقد ورد : « الصلح سيد الأحكام » . وبهذه الطريقة المسالمة ينهى الخلاف وتدفن الأحقاد .

ومن طرقهم في ذلك : الدفن . « وطريقتهم فيه أن تجتمع أكابر قبيلة الذي يدفن بحضور رجال يثق بهم المدفون له ، ويقوم منهم رجل ، فيقول للمجنى عليه : نريد منك الدفن لفلان ، وهو مقر بما أهاجك عليه ، ويعدد ذنوبه التي أخذ بها ولا يبقى منها بقية ، ويقر الذي يدفن ذلك القائل على أن هذا جملة ما نقمه على المدفون له ، ثم يحفر بيده حفيرة في الأرض ، ويقول : قد ألقيت في هذه الحفرة ذنوب فلان التي نقمتها عليه ، ودفنتها له دفني لهذه الحفيرة ، ثم يردّ تراب الحفيرة اليها حتى يدفنها بيده . وهو كثيراً متداول بين العرب ، ولا يطمئن خاطر المذنب منهم إلاّ به ، إلا أنه لم تجرِ للعرب فيه عادة بكتابة

---

1 اللسان (١/ ٤٧١) .
2 المحبر (١٢٧ وما بعدها) .

بل يكتفي بذلك الفعل بمحضر كبار الفريقين ، ثم لو كانت دماء أو قتلى عفيت وعفت بها آثار الطلائب »[1] .

المال :

مال أهل البادية : النعم . والمال في الأصل مـا يملك من الذهب والفضة ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم[2] . وبها قدرت الديات والفديات والمهر ، وبعددها قدرت ثروة الأغنياء . أما النقود،من ذهب وفضة : فقد كانت معروفة عند الجاهليين ، ولا سيا فيا بعد الميلاد ، إلا انهـا لم تكن كثيرة في الأسواق، ولهذا كانت طريقة المقايضة هي الطريقة الغالبة في معاملات البيع والشراء .

التمليك :

التمليك بعوض ، والتمليك بغير عوض . وكلا النوعين معروفان عند أهـل الجاهلية . فالتمليك بعوض ، كأن يعوض عن حق الملك بثمن نقداً ، أو عوضاً، أي بمال آخر مقايضة عن الملك وهو في الغالب . فيتنازل صاحب الملك عن ملكه الى من عوضه . وأما التمليك بغير عوض ، فيكون بتنازل الملك عن ملكه لغيره أي لمن يشاء طوعاً واختياراً بغير ثمن ولا عوض ، ويسلم الى من تنوزل له عن حق التملك فيكون ملكاً صحيحاً له .

العمري :

العمريّ ما يجعل لك طول عمرك أو عمره ، كأن يدفع الرجل الى أخيه داراً فيقول له هذه لك عمرك أو عمري أيّنا مات دفعت الدار الى أهله . وكان ذلك فعلهم في الجاهلية . فأبطل ذلك النبي ، وأعلمهم ان من أعمر شيئاً أو رقبـة في حياته ، فهو لورثته من بعده . وللفقهاء كلام في هذا الموضوع[3] .

١ صبح الاعشى (١٣/٣٥٢) .
٢ اللسان (١١/٦٣٦) .
٣ تاج العروس (٣/٤٢١) ، (عمر) .

حرمة الأماكن المقدسة :

وللأماكن المقدسة كبيوت العبادة والقبور حرمة عند أهل الجاهلية ، ويعتبر المستهتر بها مخالفاً للعرف والسنّة ، فيؤدب . ومن سنتهم ان الرجل في الجاهلية إذا أحدث حدثاً فلجأ الى الحرم لم يهج . وكان اذا لقيه ولي الدم في الحرم قيل: هو صرورة فلا تهجه . واذا اعتدى عليه ، يكون المعتدي قد ارتكب جرماً [1] .

الحبوس :

والحبس كل شيء وقفه صاحبه وقفاً محرماً لا يباع ولا يورث من نخل أو كرم او أرض او مستغل او حيوان ، يحبس أصله وتصرف غلته وما يأتيه من نماء ومال على ما حبس عليه . وقد كان أهل الجاهلية يحبسون السوائم والبحائر والحوامي وغيرها على الأصنام وعلى بيوت عبادتهم . فلما جاء الإسلام ، قيد الحبس بما يكون في سبيل الله وانتفاع المسلمين ، وحرم عبوس الجاهلية [2] .

وقد حبس الجاهليون أرضين لمعابدهم وأصنامهم جعلوها (حمى) لآلهتهم ، لا يجوز لأحد ارتيادها للرعي فيها ولاستثمارها لأنها حبس على الصنم أو على المعبد. ترعى فيها السائمة التي حبست على الصنم أو المعبد . فلما جاء الإسلام حرم هذا الحبس ، لأنه لغير الله . وأحل محله (الوقف) الذي هو لله .

وحبسوا النخل للمحتاج ولأبناء السبيل ، يلتقط تمره بغير اذن ، ولا يجوز منع أحد منه . كذلك حبسوا الماء لمن يحتاج اليه ، يأخذ منه دون بدل ، لشدة حاجة الناس اليه ، فالحبوس بمنزلة الأوقاف في الإسلام .

اللقطة :

اللقطة الذي تجده ملقى فتأخذه . وتكون اللقطة لواجدها ما لم يأت شخص ببينة واضحة على انها له . فعلى لاقطها إعادتها الى صاحبها أي مالكها . وقد يقع

---

١ الصاحبي (ص ٩١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١٢٥/٤) ، (حبس) .

نزاع على لقطة كأن يدعي شخص بأن اللقطة هـــي حلاله وملكه ، وقد التقطها شخص وادعى انها له . او انه وجدها لقطة فهي له . او ان يتنازع متنازعون على اللقطة بأن يدعي كل واحد انها له ، لأنه هو الذي وجدها . فتكون البينـة حجة في هذه الخصومات ، حتى يفض محكم ذلك النزاع .

الركاز :

وللجاهليين رأي في الركاز ، وهو دفين أهل الجاهلية ، فمن وجده صار من حقه . ولهم رأي في المعادن . وسأتحدث عنها في اثناء حديثي عن الحياة الاقتصادية قبل الاسلام .

الفصل التاسع والخمسون

العقود والالتزامات

يجب على الإنسان الوفاء بالعقود وبالالتزامات ، مهما كانت ، مـــا دامت قد تمت برضاء الطرفين وباختيارهما . ومن هذه العقود عقود الزواج والديون والشركات والمزارعة وغير ذلك . وقد تعقد العقود بغير كتاب ، أي باتفـاق لساني ، وقد تم بكتاب يدون عليه ما اتفق عليه ، وقد يشهد على العقد شهود .

ويكتب العقد ، أي الاتفاق إذا أريد أن يكون كتابة ، على كتاب قد يكون صحيفة . يدوّن فيه كل ما اتفق عليه.ويعبر عن صحيفة العقود بلفظة (ص ل ت) (صلت) و (ص ل و ت) في بعض اللهجات العربية الجنوبية . ومن معانيهـــا (سمع) ، وتؤدي معنى أن موقعي العقد قد سمعوا شروط العقد وعرفوها ، فهم على علم بها وشهادة[1] .

وإذا تم التكاتب ودوّنت كل الشروط التي اتفق عليها ، ختم عليها المتعاقدون . وقد فعلوا ذلك في المعاهدات وفي الإتفاقيات وفي عقود التجارة والمعاملات الأخرى. وقد يكتب العقد كاتب قد يذكر اسمه دلالة على أنه شاهد عدل على صحة العقد . ويقوم الخاتم مقام الإمضاء المستعمل في هذا اليوم . وقد يكتب اسم الرجل ، ثم توضع صورة الخاتم تحته .

---

١ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 44.

وربما لا يكون الخاتم مكتوباً ، بل يكون محفوراً ، حفرت عليه صور . فقد ورد أن في خاتم أنس بن مالك نقش ذئب أو (ثعلب) ، وكان خاتم عمران ابن الحصين نقشه تمثال رجل متقلد سيفاً . ويختم به على الطين . وقد ورد : أن عمر بن الخطاب نهى أن يكتب في الخواتيم شيء من العربية [1] .

وفي العربيات الجنوبية لفظة (جزم) ، وترد في كتب العقود والالتزامات ، وتعني القطع ، وقطع انسان عهداً على نفسه وامضاءً له ، كما تقول (جزم اليمين: أمضاه) [2] وأما لفظة (تجزم) فمعناها عقد عقداً ، أو أمضى يميناً واتفاقاً [3] .

وتختم نصوص الاتفاقيات والعهود في بعض كتابات العربية الجنوبية بلفظة (صدق) أحياناً [4] ، دلالة على اكتسابها الصفة الشرعية وموافقة المتعاقدين التامة . وهي في معنى (صودق) التي تدون في نهاية المعاهدات والاتفاقيات في بعض الأحيان .

وتحفظ صكوك العقود عند الطرفين ، وقد تودع في الأماكن المقدسة ودور العبادة ، وذلك في الأمور المهمة ، مثل الأحلاف وما يتعلق بالمجموع . وقد أودعت قريش الوثيقة التي كتبتها بمقاطعة (بني هاشم) في جوف الكعبة كما ورد ذلك في كتب السير . وقد عبر (الحارث بن حلزة اليشكري) ، قوماً غدروا ونقضوا العهد بقوله :

حذر الجور والتعدي وهل ينقـ ـض ما في المهارق الأهواء

أي : إن كانت أهواؤكم زينت لكم الغدر بعد ما تحالفنا وتوافقنا ، فكيف تصنعون بما في الصحف مكتوباً عليكم [5] .

وأشار شاعر آخر ، هو (قيس بن الخطيم) الى كتب دوّن فيها حلف [6] .

---

١ الطبقات الكبرى ، لابن سعد (٧/ ١٠ وما بعدها) .

٢ راجع الفقرة الاولى من النص : Glaser 1064, CIH 435, Hofmus., 17.

٣ Rhodohanakis, Stud. Lexi, II, S. 154.

٤ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 92, J. Pedersen, Der Eid bei den Semiten, S. 131.

٥ المعاني الكبير (٢/ ١١١٧) .

٦ المعاني الكبير (٢/ ١١١٧) .

البيوع :

ولدينا نص مهم من ايام الملك (شمر يهرعش) موجه الى أهل سبأ والى أهل مأرب وما والاها في تنظيم البيوع . وهو قانون مهم جداً ، حددت فيه واجبات البائع والمشتري وحكم البضاعة في اثناء التعامل ، أي قبل اتمام صفقة البيع . وقد حدد القانون المدة التي يعد فيها البيع تاماً ناجزاً ، بمدة شهـــر واحد ، لا يجوز بعدها التراجع عن البيع أبداً ، وبين القانون حكم الحيوان الهالك في اثناء المدة التي يحق للمشتري فيها ارجاع ما اشتراه الى البائع فحددها بمدة سبعة ايام، فإن مضت هذه الأيام وهلك الحيوان في حوزة المشتري فعليه دفع الثمن كاملاً الى البائع ، ولا يحق له الاعتراض عليه والاحتجاج بأن الحيوان قد هلك في أثناء مدة أجاز له القانون فسخ عقد الشراء فيها . ويطبق حكم هذا القانون على الانسان أيضاً ، فإذا اشترى شخص عبداً أو عبدة ، روعي في بيعهما وفي شرائهما أحكام هذه المواد[1] .

وتعرّض القانون لحالة إرجاع المشتري ما اشتراه الى بائعه ، ورده عليـــه في خلال المدة التي سمح بها القانون وهي الشهر فما دون ، مثل عشرين يوماً أو عشرة أيام ، فجوّز ذلك ، بشرط أن يقوم المشتري بدفع تعويض للبائع يعادل قيمـــة اجازة الحيوان أو الرقيق في خلال تلك المدة التي بقي فيها في حوزة المشتري .

فالقانون السبئي اذن قد أخذ بقاعدة (الخيار) في البيع،في بيع الأجسام الحية: الانسان ، والإبل ، والغنم ، والبقر . وحدد مدة (الخيار) هذه بشهر واحد ، اذا تم الشهر ، ولم يُرجع المشتري ما اشتراه الى البائع ، عدّ البيع تاماً ناجزاً ، وفي مدة الخيار هذه يكون المبيع ملكاً للبائع ، وعلى المشتري دفع تعويض مناسب للبائع في حالة إرجاع المبيع الى صاحبه تعويضاً يقدر بقدر العرف المتبـع في حالة ايجار ذلك الرقيق أو الحيوان ، كما ان على المشتري ان يدفع بدل العبد أو الحيوان المتوفى اذا كانت الوفاة قد وقعت في أثناء وجود العبـــد أو الحيوان في حيازة المشتري .

وغاية المشرع من هذا الخيار هو التأكد من أن المبيع خال من العيب سالم من

---

١ Glaser 542, REP. EPIGR., 3910, British Mus., 104396, G. Ryckmans, Le Muséon, 40, 1927, p. 165, Rhodokanakis, In WZKM, 38, 1932, 172, Arabien, S. 135.

كل مرض أو نقص ، ونجد هذا الخيار في نصوص أخرى[1] .

وباب (بيع الخيار) من الأبواب المهمة في كتب الفقه وفي القوانين لما يترتب عليه من مسؤوليات ونتائج بالنسبة للبائعين وللمشترين .

ونجد في القوانين التي أصدرها الملك (شمر يهرعش) في حوالي السنة ٣٠٠ للميلاد ، مواد وضعت لتشجيع التجارة وتنشيط البيع . وقد منعت بعضها التعامل في الأسواق آناء الليل ، وذلك حتى يتسنى لموظفي الحكومة المسؤولين عن البيوع استيفاء حق الحكومة في العشر ، عن كل بيع . وقد تعرضت بعض مواد القوانين لأجور النقل التي ينفقها التاجر على تجارته لايصالها الى السوق ، والمصاريف التي تنفق على الحيوان وعلى المرافق له من مكان البيع حتى موضع الإيصال ، أو من موضع التاجر الى السوق ، حيث تضاف على سعر كلفة البيع . وتعرضت أيضاً الى تعيين الطرق التي تنال بها الحكومة حقوقها من أرباح التجار[2] .

وقد وصلت الينا عقود بيوع حددت فيها محتويات المبيع وحدوده ، وأكثر ما تستعمل هذه العقود في بيوع العقارات . ويقال لعقد الشراء (شامتن علم) ، أي (اعلام الشراء)[3] . وتحدد الأرض المبيعة بحدود ، تعلم بـ (أوثان) ، والمفرد (وثن) أي (الوثن) ، وهي أنصاب قد تكتب لتدل على حد الأرض[4].

وتحدد شروط الشراء وأوصافها بعقود ، وخاصة في أمور شراء البيوع المهمة الثمينة مثل شراء بيوت أو أرض أو مزارع أو آبار ، وتدون الشروط في (عقود الشراء) ، وتسمى (شمتن علم) (شامتن علم) ، أي (إعلام الشراء) في العربيات الجنوبية[5]. وتدون في هذه العقود أوصاف الشيء المشترى وحدوده ومقداره وما يتعلق به من فروع لها علاقة بتعيين صفة الشيء المشترى . فإذا كان ذلك الشيء مزرعة مثلاً ، تذكر حدودها وأوصافها ومساحتها والماء الذي تروى به :

---

١ Glaser 454, REP. EPIGR. 4768, Arabien, S. 136.

٢ Grohmann, Sudarabien als Wittschaftsgebiet, II, 124, Arabien, S. 139.

٣ راجع كتاب « رودوكناكس » والكتب الاخرى المتعلقة بالارض وبالحالة الاقتصادية في العربية الجنوبية .

٤ انصاب .

٥ Glaser 531, REP. EPIGR. 4771, Arabien, S. 138, REP. EPIGR. 3283, 3342, 4815, 4923, Glaser 739.

سيحاً او بواسطة مثل بئر أو مسايل ماء ونحو ذلك . ليكون ذلك معلوماً عنـد المشتري والبائع ، فإذا وقع خلاف يرجع الى نص إعلام الشراء (شامتن علم)، ويحكم الحاكم بين المتخاصمين بموجب ما دوّن فيه .

ولدينا نص من نصوص إعلام الشراء ، حدد فيه (بنو رشين) (بنو رشيان) الشروط التي وضعوها عند شرائهم أرضاً مغروسة بالنخيل (نخلن) . حددوا فيه كل شيء بدقة وعناية . حددوا موضع الأرضين التي اشتروها . وهي بستان (نخلن) (نخل) اسمها (مبحرن) (المبحر) وتقع على (معبر) قناة (ظـلم) ، وبستان أخرى اسمها (سطرن) ، تتصل بالبستان الأولى . وحددوا السواقي التي تسقي البُستانين المشتراتين ، من المنابع التي تأخذ منها الماء الى مجراها في الملكـين المشترين . وحددوا حقوقهم في الأشجار المغروزة على جانبي مسايل الماء ، وحق الانتفاع بالماء ، وحق عائدية الأثمار من الأشجار المغروزة على جانبي المسايل الى غير ذلك من أمور تتعلق بحقهم في الماء وفي المساقي المؤدية الى البساتين وفي تملكهم للبساتين[1] .

وفي جملة تحديد الحدود ورسمها على الأرض ، وضع أعلام عـلى الحدود ، تقدّ من حجر في الغالب ، يقال لها (وثن) في العربيات الجنوبية . تذكر وتحدد مواقعها في عقود الشراء . وقد يكتب عليها تأريخ الشراء ، لتكون بمثابة(صكوك تملك) . ولا يجوز التطاول عليها بنزعها من مكانها أو بتغيير مواضعها أو التلاعب في أماكنها ، لأنها حق . وقد أمرت الآلهة بقدسية الحق وبقدسية التملك ، لذلك فهي تغضب وتلعن وتصيب بالأذى أي شخص يحرّف الأعلام ويغيرها من أماكنها الشرعية التي نصبت بها وثبتت عليها . ومن هنا نجد انها وضعت في حماية الآلهة وفي رعايتها ، وفي مقابل ذلك يتقرب المالك الى الآلهة بقربان يضحيه اليها . وقد ورد أن رجلاً قدم قرباناً ضحاه الى الإلـه (المقه) ، لأنه حفظ له (وثن) ملكه[2].

ويقال للأعلام التي توضع بين الشيئين من الحدود (المنار) . وتوضع لتحديد معالم الطرق أيضاً ، حتى يتعرف عليهـا المسافرون ورجال القوافل . وقد كان بعض النـاس يتجاوزون على ملك غيرهم ، بالتجاوز على أرض جارهم بتحويل

١ REP. EPIGR. 4759, Beeston, JRS., 1948, 177, Arabien, S. 138.

٢ REP. EPIGR. 4088, CIH 392, Arabien, S. 138.

الأعلام (وثن) من أماكنها ، وتثبيتها في مواضع أخرى ، لذلك جاء في الحديث: لعن الله من غير منار الأرض ، أي أعلامها . والمنار الـ (وثن) في العربية الجنوبية [1] .

الهبة :

والقاعدة العامة في الهبة ، أنها عطية خالية من الأعواض والأغراض ، ولهذا فإنها لا تسترجع ولا يؤمل الحصول على مقابل لها . ويقال للمكثر منها وهّاباً . وقد كان الجاهليون مثل أي أمة أخرى يتواهبون فيا بينهم . ولا تكون الهبة عن إكراه وقد كان البعض يهبون هبات على أمل الحصول على تعويض أو زيادة ، وأكثر هؤلاء من الأعراب . ولذلك جاء في الحديث : « لقد هممت أن لا أتّهب إلاّ من قرشي او أنصاري أو ثقفي ، أي لا أقبل هبة إلا من هؤلاء ، لأنهم أصحاب مدن وقرى ، وهم أعرف بمكارم الأخلاق » . فقد « رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، جفاء في أخلاق البادية ، وذهاباً عن المروءة ، وطلباً للزيادة على ما وهبوا فخصّ أهل القرى العربية خاصة بقبول الهدية منهم ، دون أهل البادية لغلبة الجفاء على أخلاقهم ، وبعدهم من ذوي النهي والعقول » [2] .

والقاعدة العامة في الهبات ، أنها عطاء إذا تصرف به ، فلا يصح لمن وهبه أن يطلب ارجاعه . لأنه وهبه عن طيب خاطر وليس عن جبر وإكراه . أما اذا أجبر شخص على اعطاء شخص آخر شيئاً على أنه هدية ، فلا يعد ما أعطى هدية ، وإنما يكون غصباً . ومن حق صاحب ذلك الشيء المطالبة بإعادته اليه ، إن أثبت بالبينة أن ما يطالب به قد اغتصب منه . لأن الغصب ظلم والظلم يجب أن يزال .

الدين :

والدين ، وهو كل شيء غير حاضر ويجمع على ديون . ودنت الرجل بمعنى

---

١ تاج العروس (٥٨٨/٣) ، (نور) .
٢ اللسان (٨٠٣/١) ، (وهب) .

أقرضته . وذكر ان الدين ما له أجل ، وما لا أجل له فقرض[1] . والمُعرض من يستدين من أمكنه . ولم يبال أن لا يؤديه ولا ما يكون من التبعة[2] . والقرض ما يتجازى به الناس بينهم ويجمع على قروض . والقراض المضاربة حجازية[3] . والغرم الدين . والغريم الغارم والجمع غرماء[4] . وعسرتُ الغريمَ أعسر. وأعسرته واستعسرته طلبت معسوره ولم أرفق به الى ميسوره[5] . والتبعة والتباعة والمتابعة ، الشيء لك فيه بغية شبه ظلامة ونحوها . وتابعته بمالٍ طالبته[6] . والتليّة بقية الدين[7]. وتسلم الدين من قبضه وكذلك أسلفت الدين وسلفته . وقضيت الغريم دينه ، أديته اليه . وتقاضيته الدين قبضته . والضمار من الدين ما كان بلا أجل معلوم . وتمككت على الغريم ألححت . وبرئت من الدين براءة[8] .

وقد يقع الدين ويتم بالاتفاق الشفوي ، فلا يدون في كتاب،وذلك لثقة الدائن بالمدين ، وقد يدون على صحيفة ، ويشهد على صحته شهود . وعلى المدين وفاء الدين بأجله ، ويجوز تأخيره بالطبع باتفاق الطرفين .

وقد حكمت بعض الشعوب ببيع المدين اذا لم يتمكن من تسديد ديونه،فيصير بذلك رقيقاً . أما الجاهليون ، فقد كان منهم من يبيع المدين استيفاءً لدينه الذي في ذمته . وقد منع ذلك في الاسلام[9] .

وقد أعطت شرائع الجاهليين شأناً كبيراً لوفاء الدين ، فحتمت الآلهة بلزوم وفائه وعُدّ عدم الوفاء مخالفة لأوامر من الآلهة . ولذلك نجد المدين يذكر في كتابات تسديد الديون أنه وفى بدينه كما أمرته الآلهة بذلك . وتقوم المعابد نفسها بتقديم الديون لمن يحتاجها ، وتعين مدة للسداد ، وقد كانت المعابد بمثابة (البنوك) في ذلك العهد ، تقرض الناس الأموال في مقابل ربح ، وتسجل الدين باسم إلـه

---

١ المخصص (٢٦٦/١٢) ، القاموس (٢٢٥/٤) ، تاج العروس (٢٠٧/٩) ، تاج العروس (دين) .
٢ تاج العروس (٤٩/٥) .
٣ تاج العروس (٧٧/٥) .
٤ تاج العروس (٣/٩)، القاموس (١٥٦/٤) .
٥ القاموس (٨٩/٢) .
٦ المخصص (٢١٦/١٢) .
٧ القاموس (٣٠٧/٤) ، تاج العروس (٥٣/١٠) .
٨ المخصص (٢٦٦/١٢) .
٩ نيل الاوطار (١٦٦/٥) .

المعبد الذي تم فيه عقـد الدين . وقد كانت ذات أموال طائلة تنميها بالإقراض وبالمعاملات المالية الأخرى التي تقوم بها بنوك هذا اليوم[١] .

وإذا لم يتمكن المدين من تسديد ما عليه من دين ، صودر كل ما يملكـه المدين في وقت الدين من مال وملك وكل ما سيملكه في المستقبل حـتى يستوفي دينه . وتكون زوجه مسؤولة أيضاً عن هذا الدين ، فإذا كان لديها مال أو ملك يستولى عليه ليدفع تعويضاً عن ديون زوجها ، ويكون الأولاد مسؤولين أيضاً عن ديون والدهم ، فيصادر كل ما يملكون من مال وملك وفاء لديون والدهم[٢] .

ويحدث في الغالب أن يأخذ الدائن ما عند المدين من رقيق لتشغيله والاستفادة منه ما دام المدين مديناً له ، بل قد يأخذ زوج المدين لتشغيلها عنده حتى يوفي زوجها دينه للدائن . وتبلغ أسرة المدين وعشيرته بعلم تمكن المدين الذي هو منهم من تسديد ديونه ، لتقوم هي بمعاونته في دفع ديونه ، أو تتحمل هي مسؤوليـة دفع تلك الديون[٣] .

ويقال للدين (لوت) (لوأت) في المعينية . و (لواه دينه) مطله ، في عربيتنا ، أي في معنى قريب من هذا المعنى .

وعلى من يستعير شيئاً اعادة ما استعاره الى صاحبـه . ويعبر عن الاستعارة بـ (المعاورة) وبـ (العارية)[٤] . وبـ (عر) في بعض اللهجات العربية الجنوبية[٥] . واذا نكل شخص عن اعادة ما استعاره ، فيكون حكمه حكم المستدين،أي يكون ناكثاً بما اتفق عليه جاحداً فضل انسان قدمه اليه .

وتأتـي لفظة (قرض) في اللحيانية كذلك ، بالمعنى المفهوم من الكلمة في عربيتنا[٦] .

ويعبر عمّا يقدمه المدين الى الدائن من أموال أو من رقيق أو ما شابه ذلك ، ليكون وديعة وضماناً لدى الدائن في مقابل سداد الدين ووفائه بـ (لون) و(لوتن)

---

١ Arabien, S. 137.

٢ Arabien, S. 136.

٣ Euting 24, REP. EPIGR. 3357, Arabien, S. 136.

٤ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٢٥٩) ، تاج العروس (١٠/٣٣٣) ، (لوى) .

٥ Rhodokanakis, Stud. Lexd., I, S. 60.

٦ W. Caskel, S. 138.

و (لوه) في المعينيـــة ، أي (رهنـــاً)[1] . ويقابل هذه اللفظة لفظة (لوه) في العبرانية . أما في العربية ، فإن للفظة (لوى) معان أخرى ، إلا انها تخص (الدين) أيضاً . ورد (لواه غريمه بدينه يلويه ليّاً) و (وألوى بحقي ولواني: جحدني إياه ، ولويت الدين . وفي الحديث : ليّ الواجد يُحلّ عرضه وعقوبته . قال ابو عبيد : اللّي هو المطل)[2] .

وينتقل حق وفاء الدين من المتوفى الى ورثته . فعلى الورثة قانوناً أداء ما على المتوفى من ديون[3] . والظاهر ان المشرع قد أخذ بمبدأ ان الوريث مـــا دام يرث ما يترك المتوفى من تركة ، أي من مال وعقار ، فعليه دفع ما على المدين من تركة الديون أيضاً . ولو مات المدين معدماً ولم يترك شيئاً .

وقد أشير في القرآن الكريم الى كيفية تنظيم الدين والتداين والرهان ، وأوجب على المؤمنين تدوين أجل الدين وتثبيته وكتابته ، يكتبه لهم كاتب بالعدل،ويشهد عليه شاهدان أو رجل وامرأتان إن لم يكن رجلان ، وقبض رهـــان عنـد تعذر الكاتب لسفر او ما شابه ذلك[4] . وفي ورود هـذا في القـــرآن الكريم إشارة الى صفحة من الصفحات المتعلقة بالتجارة وبالمال وبالاقتصاد عند الجاهليين، والى طرق من طرق تعاملهم في عقود الدين والاستدانة ووضع الرهان والائتمان، وذلك بتسجيل الدين وكتابته بين الدائن والمدين ، وشهادة شهود على ذلك ، وبوضع رهان في مقابل الدين ، يستولي عليه الدائن عند عجز المدين عن الوفاء بأداء الدين ، أو امتناعه عنه ، وأمثال ذلك من التعامل بالمال واقتراض الناس له .

مواعيد دفع الديون :

وكان الجاهليون جعلوا مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها ، فتقول اذا طلع النجم حلّ عليك مالي ، أي الثريا ، وكذلك باقي المنازل . ومن ذلك تنجيم الدين ، هو ان يقدر الدين ويقسطه في أوقات معلومة متتابعة، مشاهرة

---

١ Arabien, S. 136.

٢ اللسان (١٥/٢٦٢ وما بعدها) ، (صادر) .

٣ Arabien, S. 136.

٤ البقرة ، رقم ٢ ، الاية ٢٨١ وما بعدها ، المفردات ، للاصفهاني (٢٠٤) .

أو مسافاة ، ومنه تنجيم المكاتب[١] . (وكانت العرب اذا رأت الهلال ، قالت : لا مرحباً بمحل الدين ومقرب الآجال)[٢] ، لاضطرارهم الى دفع ديونهم عند رؤية الأهلة .

الكفيل والكفالة :

والكافل والكفيل الضامن والجمع كفل وكفلاء[٣] . وأكفلت فلاناً المال ضمنته إياه . والضمين الكفيل والجمع ضمناء[٤] ، والأذين الكفيل[٥] . وفلان قنعان لي أي رضى يقنع به ان اخذ بكفالة او دم او شهادة او حكم[٦] . والغرير الكفيل[٧] . وأنا لك رهن بكذا ، أي كفيل[٨] . ويقال للكفيل (القبيل) كذلك ، وهو الضامن . و (القبيل) العريف أيضاً[٩] .

وعلى الكفيل دفع ما بذمة المدين من دين كفله وتعهد للدائن بأدائه اليه في حالة عجز المدين أو نكوله او امتناعه عن دفعه . فإن الكفالة عقد وعلى المتعاقدين الوفاء بالعقود . ولهذا كان الكفيل في الجاهلية كالمدين الأصيل في وجوب وفائه بدين المدين . وقد يكون الكفيل جملة اشخاص ، اي جملة كفلاء تعهدوا جميعاً بالوفاء عن المدين او عن المدينين في حالة كون المدين شركاء أو عائلة واحدة أو ما شابه ذلك ، فتكون المسؤولية عامة، ويجوز قيام واحد منهم بالوفاء عن الجميع في حالة موافقة جميع المتعاقدين .

---

١ تاج العروس (٧٢/٩) ، (نجم) .
٢ تاج العروس (٢٨٦/٧) ، (حلل) .
٣ القاموس (٢٤٥/٤ وما بعدها) .
٤ المخصص (٢٦٨/١٢) ، القاموس (٢٤٣/٤) ، تاج العروس (٢٦٥/٩) .
٥ تاج العروس (١٢٠/٩ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٧٦/٣) .
٧ القاموس (١٠١/٢) ، تاج العروس (٤٤٥/٣) .
٨ المخصص (٢٦٨/١٢) .
٩ تاج العروس (٧١/٨) ، (قبل) .

القبالة :

وكل من تقبل بشيء مقاطعة وكتب عليه بذلك الكتاب ، فعمله (القبالة) ، والكتاب المكتوب عليه هو القبالة . وقد كانوا يتقبلون القبالات رجـاء الحصول على ربح ومغنم . وقد نهي عن ذلك في الإسلام . ورد في حديث (ابن عبّاس) : إياكم والقبالات فإنها صغار وفضلها ربا . وهو أن يتقبل بخراج أو جباية أكثر مما أعطى ، فذلك الفضل ربا . فإن تقبل وزرع فلا بأس[١] .

والرهان أو الرهن معروف وشائع بين الجاهليين ، وهو ما يوضع وثيقة للدين . وقد أشير اليه في القرآن الكريم ، وأقر في الاسلام[٢] . ويعبر عنه بـ (فقدون) (فقدى) عند العبرانيين[٣] . ولا يتم الرهن إلا بالقبض ، أي بتسليم المرهون الى الدائن[٤] . وفي جملة ما يرهن السلاح والذهب والفضة والأرض والزرع والأشخاص مثل النساء والأولاد والرقيق[٥] .

ويقال عند تخليص الرهن فككت الرهن وفديت الرهن ، بمعنى فصلته وتخلصت منه ، بدفع فديته وبدله وعوضه[٦] .

وقد كان الرهن معروفاً شائعاً بين أهل يثرب ومكة ، فكانوا يبيعون الطعام في مقابل رهن يوضع عند البائع حتى يؤدي المشتري الثمن ، أي حتى الوفاء[٧] . وللوضع الاقتصادي إذ ذاك دخل كبير ولا شك في شيوع الرهن عند الجاهليين ، وفي استعماله في معاملات البيع والشراء .

وقد كان من حق المرتهن الاستيـلاء على الرهن ، إذا مضى أجل الرهن ولم يدفع الراهن ما عليه . كما يجوز له بيع الرهن ومطالبة الراهن بالفرق إن لم يستكمل الرهن المبلغ الذي رهن الرهن عليه .

وقد استعمل رهن الأشخاص في الأمور السياسية في الغالب ، إذ كان المقهورون

---

١ تاج العروس (٨/٧١) ، (قبل) .
٢ البقرة ، سورة رقم ٢ ، الاية ٢٨٣ ، المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٢٠٤) .
٣ W. Smith, A Dictionary of The Bible, Vol., I, p. 427.
٤ صحيح مسلم (٥/١٨٥) .
٥ ارشاد الساري (٤/٢٩٥) .
٦ المخصص (١٢/٢٦٧) .
٧ صحيح مسلم (٥/٥٥ وما بعدها) .

من الملوك والأشراف وسادات القبائل يضعون أبنائهم أو أقرب الناس اليهم رهائن لدى الغالبين تكون وديعة عندهم وضماناً بحسن سلوكهم وبعدم خروجهم على طاعة الغالبين . كما استعمل في مقابل الضمان والكفالة بدفع ثمن الدم ، أي الدية ، وثمن فك الرقبة،أي الفدية الى ان يؤدى المال المتفق عليه . فقد رهن (أبو أحيحة ابن العاصي) (أبانا) ابنه بني عامر بن لؤي في دم أبي ذئب[1] . وقد رهنت قريش كما يقول أهل الأخبار (الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) عند (أبي يكسوم) الحبش ، وعرف لذلك بـ (الرهينة)[2] .

وأما (المراهنة) والرهان فالمخاطرة ، والرهان في الخيل أكثر . وقد نهي عنها في الإسلام . لما كانا يؤديان اليه من وقوع خصومات بين المراهنين ، ولما كان يقع من تحايل وتلاعب في الرهان وفي الخيل المتسابقة . حيث يتواطأ مع راكبي الخيل على تقديم الخيول المتسابقة أو تأخيرها الى غير ذلك من حيل أضرت بحقوق المتراهنين . وقد كانوا يتخاطرون على المال بجعله خطراً بين المتراهنين . فيقع تلاعب فيه[3] .

ويقال لها (المناحبة) كذلك ، وكانت شائعة فاشية بين الجاهليين . وقد ناحب (أبو بكر) (أبي بن خلف) على عشر قلائص ثم زاد العدد حتى جعله مئة إن انتصر الروم على الفرس ، وكان (أبي) قد راهنه بانتصار الفرس على الروم وبدوام نصرهم هذا ، فتراهنا على أن يدفع الخاسر العدد الذي اتفق عليه . ويقال لذلك المقامرة . يقال : (قمرت الرجل) إذا لاعبته فغلبته[4] . وقد كانت المراهنة من الأمور المباحة في الجاهلية ، وعلى المقامر الوفاء بما ألزم نفسه به من شروط المقامرة ، لأنه ألزم نفسه بعهد ، ويجب على الإنسان الوفاء بما عاهد غيره به . فلما جاء الإسلام ، حرمت المقامرة ، لما فيها من ضرر[5] .

---

١ الزبيري ، نسب قريش (٩٩) .
٢ تاج العروس (٢٣٢/٩) ، (رهن) ، (الحارث) .
٣ تاج العروس (١٨٤/٣ وما بعدها) ، (خطر) .
٤ تاج العروس (٥٠٥/٣) ، (قمر) .
٥ تفسير الطبري (١٣/٢١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١/١٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٤٧٩/١) ، (نحب) .

الودائع :

والوديعة ما يستودع من مال وغيره ، والوديع العهد،والودائع العهود والمواثيق[1] . وقد أشير اليها في نصوص المسند . ويظهر منها أنهم كانوا يشهدون الآلهة على حسن الأداء وعلى الوفاء بشروط الوديعة ، واعادتها تامة كاملة عند الوفاء ، إن اتفق على ذلك في شروط الايداع . ويعبرون عن اشهاد الآلهة على الوديعة وعلى شروط الوفاء بلفظة (ستوثق) ، أي الوثوق والاستيثاق[2] .

ويقال للوديعة (دعت) و (ديعت) في العربيات الجنوبية ، ويجب على من أودعت الوديعة اليه المحافظة عليها وتسليمها الى صاحبها على هيأتها يوم أخذها . وقد أشير الى حكم (الوديعة) في نص دونه (شمر يهرعش) ، إلا أن تلفاً أصاب أكثر ما يتعلق بالموضوع ، بحيث لم يبق منه غير كلمات ، حرمنا الوقوف على حكمها في أيام ذلك الملك[3] .

القوانين التجارية :

وتعد التجارة من أشرف الأعمال عند العرب ، نجد سادتهم يحترفونها ويساهمون في تكوين الشركات للاتجار،ويسافرون بين جزيرة العرب وخارجها للبيع والشراء . ومع ذلك فإننا لا نملك ويا للأسف قوانين مدونة في تنظيم التجارة وفي أصول وقواعد الاتجار ، وفي كيفية تنظيم التجارة وفي تعاملهم بعضهم مع بعض وفي العقود التي كانوا يعقدونها في تنظيمها الى غير ذلك من أمور تتعلق بالتجارة والاتجار .

وكل ما لدينا في الوقت الحاضر ، قانون أصدره الملك (شهر هلل) (شهر هلال) في تنظيم التجارة وفي واجبات التاجر والضرائب التي يجب أن يدفعها الى الحكومة . أمر بإعلانه وتدوينه ليقف عليه تجار عاصمته مدينة (تمنع) ، وهي (كحلان) في الوقت الحاضر ، وليقف عليه التجار الذين يقصدون عاصمته أيضاً

---

١ تاج العروس (٥/٥٣٥) ، (ودع) .
٢ REP. EPIGR., 3602, Arabien, S. 136.
٣ Arabien S. 135.

بقصد الاتجار . وقد دوّنه على حجر يبلغ طوله مترين ، ونصبه في الحي التجاري من العاصمة ، وهو الحي المعروف بـ (شمر)[1] .

وقد جاء فيه ان على من يريد الاشتغال بالتجارة في منطقة (شمر) أن يقدم (عرباً) (عرب) ، أي (عربوناً) وضماناً ، وان يقيم في هذه المنطقة ويتعامل بالتجارة بها وحدها ، وبالأسعار السائدة فيها . وللقتبانيين العاملين في التجارة في هذه المنطقة حق الشراء من الخارج أيضاً .

وتطرق النص الى الفروق التي قد تحدث في الأسعار ، والى الخسائر التي قد تلحق بالخزينة من جراء انخفاض الضرائب التي ستنشأ من الفروق بين الأسعار ومن المضاربات ، فأوجب على سيد (شمر) ، أي على القائم بأمر هذه المنطقة التجارية بأن يدفع تعويضاً عن ذلك . كما تحدث عن (العربون) أي الضمان الذي يقدمه التاجر في مقابل حق اشتغاله بالتجارة ولضمان عدم تلاعبه أو تحايله في البيع والشراء. وتحدث عن العقوبات وفي جملتها حق مصادرة الأموال وبيوت التجار ، وفي حالة ما اذا كان ضمانهم غير كاف أو أقل من المطلوب، وعن الظروف التي قد تتجاوز فيها العقوبات التي قد تفرض على التاجر مقدار الضمان المقدم .

كما تحدث عن التاجر الذي يضع (عربوناً) في تمنع ، ثم يقوم بالاتجار مع تجار غرباء غير قتبانيين أو مع الناس الساكنين في المناطق الأخرى ، فإن للقتبانيين المتضررين بهذا الاتجار ولسلطات (شمر) أي المنطقة المخصصة بالتجارة من مدينة (تمنع) حق مقاضاة هؤلاء التجار وفقاً للقانون .

ثم تطرق القانون الى وجوب العناية بهذه المنطقة التجارية من (تمنع) ووجوب مراقبة تجارتها ، والى منع الاتجار بها في أثناء الليل ، وإيقاف كل بيع وشراء آناء الليل . ووجوب مغادرتها ليلاً . لأن حق الاتجار محصور بالملك ، وهو الذي يحدد التجارة وأوقاتها[2] .

وغاية المشرع من تشريع القانون المتقدم ، ضبط الأسعار وحماية السوق من التلاعب ، وتنظيم الجباية وحماية مصالح الحكومة فيها . ونجد في بعض الكتابات

---

١ Arabien, S. 139.

٢ Glaser 1407, 1615, SE 87, Gläser 1393, 1616, 1617, 1411, 1603, SE 88, 89, Hofner, WZKM, 42, 1935, 47, Arabien, S. 139.

السبئية قوانين وضعت في تنظيم نقل الماشية من المناطق المعينة الى (مأرب) عاصمة سبأ . فتطرقت الى كيفية نقل الماشية والى حقوق أصحاب الأرض التي تمر الماشية بها ، والى وجوب تأمين الماء والأكل لها ولمن يحرسها لايصالها الى عاصمة سبأ . ثم الى الضرائب التي تؤخذ عنها ، لدفعها الى الحكومة والى المعبد[1] .

الربا :

والربا شائع معروف عند الجاهليين،وذلك لفقر معظم الناس مما آل الى استدانتهم من ذوي المال بفائض مرتفع جداً . ولما كان أكثر المدينين ضعفاء الحال ، ولا يكون في إمكانهم دفع المال في أجله المحدد ، اشتط الدائنون المرابون في ابتزاز الأرباح ، فصاروا يتقاضون رباً فاحشاً عن المبلغ وأرباحه ، دون شفقة ولا رحمة لعدم وجود أحكام وقوانين تحدد مبالغ الأرباح . فليست للفائدة التي تؤخذ عن الربا حدود ، فالحد الأعلى غير معروف ، بل هو يتوقف على حاجة المدين وعلى استغلال الدائن لتلك الحاجة ، فيزيد المرابي في الربا قدر إمكانه وبحسب رأيه في حالة المدين وفي حاجته الى الدين . أما الحكومات والهيئات التشريعية فليس لها رأي في هذا الحد ، ولم نعثر على قانون أو خبر في تحديد الربح المستحصل من الربا .

ويعدّ الربح المفروض على الدين ، الذي هو رباه ، جزء من الدين ، إذا امتنع المدين من أدائه للمرابي ، يكون ناكثاً بموجبه للعهد ، وعليه دفعه ، دفعه للدين ، وإذا كان المرابي قاسياً قوياً استحصله من المدين اليه بالقوة ، وقد يؤجله عليه على أن يدفع ربا عن هذا التأجيل .

وعرف (الربا) ب (اللياط) ، لأنه ملصق بالبيع وليس ببيع، ولأنه لاصق بصاحبه لا يقضيه ولا يوضع عنه . وكان (أبو لهب) قد لاط للعاصي بن هشام ابن المغيرة بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلس بها فاستأجره بها على أن يجزي عنه بعثه فخرج عنه وتخلف أبو لهب من الذهاب الى بدر[2] .

---

١ CIH 563, 956, Grohmann, Sudarabien als Wirtschatsgeblet, II, S. 124, Arabien, S. 139.

٢ الروض (٦٢/١) .

ومن أمثلة الربا في الجاهلية ، ما ذكر في بعض كتب الحديث : كان الربا في الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل الحق الى أجل ، فإذا حل الأجل،قال : أتقضي أم تربي ؟ فإن قضى أخذ ، وإلا زاده في حقه،وأخر عنه في الأجل[1] .

وقد حرم الاسلام (الربا) وأبطل اباحة الجاهليين له . فنزل الأمر بتحريمه في القرآن[2] ، وأبطل رسول الله كل ربا كان في الجاهلية في خطبة الوداع[3] .

وقد قسّم العلماء الربا الى ثلاثة أنواع : ربا الفضل ، وهو البيع مع زيادة أحد العوضين على الآخر ، وربا اليد ، وهو البيع مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما ، وربا النسأ ، وهو البيع لأجل . وقد حرم الاسلام كل هذه الأنواع[4] .

وللربا حديث آخر ، سيكون في اثناء كلامي على الحياة الاقتصادية عند الجاهليين .

الإجارة :

والإجارة ما أعطيت من أجر في عمل . والأجرة : الكراء[5] . وهو اتفاق يتم مقابل مبادلة منفعة ، أو عمل عال . كأن يشغل رجل رجلاً لأداء عمل ما في مقابل أجر يتفق عليه . يدفع للأجير اما عيناً ، أي من العمل الذي قام به ، كأن يعطي كيلاً يتفق عليه من قمح يقوم بطحنه ، أو أرغفة خبز مما يخبزه أو شيئاً من ذبيحة يكلف بذبحها ، أو ان يدفع له نقداً ، أي بالنقود أو بعين ، كأن يدفع له تمراً أو قماشاً أو ما شابه ذلك في مقابل أجر العمل الذي كلف به، لقلة النقود في ذلك الوقت . كأن يدفع لعامل البناء أو النجار تمراً أو شعيراً أو لبناً أو ما شابه ذلك في مقابل أجر عمله .

السعاة :

والسعاة ولاة الصدقة ؛ ويقال لعامل الصدقات ساعٍ ، وسعى المصدق يسعى

---

١ تنوير الحوالك (٢/٨٠ وما بعدها) .
٢ البقرة ، الاية ٢٧٥ وما بعدها ، ال عمران ، الاية ١٣٠ .
٣ تاريخ الطبري (٣/١٥٠) (دار المعارف) (حجة الوداع) .
٤ القسطلاني (٤/٢٦ وما بعدها) .
٥ اللسان (٤/١٠) ، (صادر) ، (أجر) .

سعاية ، إذا عمل على الصدقات وأخذهـا من أغنيائها وردّها في فقرائها . قال عمرو بن العدّاء الكلبي :

سعى عقالاً فلم يترك لنا سبداً فكيف لو قد سعى عمرو عقالين؟

وفي حديث وائل بن حجر : إنّ وائلا يُستسعى ويترفل على الأقوال ، أي يستعمل عـلى الصدقات ويتولى استخراجها من أربابها ، وبه سمّي عامل الزكاة الساعي[1] .

أحكام البيع والشركة :

وللجاهليين أحكام في البيوع والشراء والشركات ، وفي العمل ، وفسخ البيع ، وفي الافلاس ، وفي الخسارة ، وغير ذلك مما يتعلق بالتجارة . سأتحدث عنها عند بحثي عن الحالة الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام .

أما بالنسبة الى المكاييل والأوزان والأبعاد ، فقد كانت مختلفة . لكل مدينـة أو قرية موازينها ومكاييلها ومقاييس أبعادهـا . كما سأتحدث عن ذلك في القسم الخاص بالناحية الاقتصادية .

قوانين القبائل والعلاقات الخارجية :

والقبائل كالدول لها قوانين وضعتها للتعامل فيما بينها . وتشبه قوانينها هـذه القوانين الدولية والعرف الذي تسير عليه الدول في كيفية التعامل فيما بينهـا ، في مثل عقد محالفات أو اتفاقيات حق المرور : مرور الأشخاص ومرور السابلة وقوافل التجار . فلا تسمح القبيلة بمرور شخص غريب في أرضها ، أو بمرور قافلة في الأرض الخاضعة لها ، إلا إذا كان المار من قبيلة لها حلف مع هذه القبيلة أو لها عقود واتفاقيات معها ، أو كان للمار جوار مع أحد أبناء القبيلة ، ثم ان عـلى

---

١ اللسان (١٤/٣٨٦) . (سعا) .

القوافل أن تؤدي للقبيلة حق المرور في مقابل السماح لهـا بالمرور في أرضها بأمن وسلام .

وتعتمد القوافل في اجتيازها أرض القبائل على العهود التي تأخذها من سادات القبائل بأن يسمح لها بالمرور في أرض سيد القبيلة بسلام وأمان . فتكون القـافلة آمنة في تلك الأرض الى المدى الذي يصل اليه نفوذ سيد القبيلة ، فإذا اجتازتهـا دخلت في عهد سيد قبيلة آخر ، وهكذا حتى تصل مكانها المقصود . وهي عهود تعقد يتفق فيها على مقدار ما يدفع لكل قبيلة في مقابل حق تأمين الأمن للقافلة . فقد كان تجار مكه يعقدون عقوداً ويعهدون عهوداً مع سادات القبائل في مقـابل حق مرور قوافلهم بحرية وأمان في أرض القبيلة . فإذا وقع اعتداء على القافلة قام سيد القبيلة برد الاعتداء ورفع الظلم عنها وإعادة ما أخذ منها اليها . ويعـبر عن ذلك بـ (الحبال) وبـ (حبل الجوار) . والحبال : العهود والمواثيق[1] .

وكان للأكاسرة وللملوك الحـيرة تجارات مع اليمن ومـع أماكن أخرى ذات أسواق ، فكانوا يرسلون تجاراتهم بقوافل يتولى حراستها رجال عرفوا بالشجاعـة وبالبطش والشدة ليحذرهم من يريد التحرش بالقافلة ، وكان لهؤلاء حبال جوار مع سادات القبائل ، كما كان للأكاسرة وللملوك الحيرة عهود مع القبائل التي تمر قوافلهم بها ، لحماية قوافلهم من التعرض لها بسوء . فهذه الحبال : حبال الجوار ، هي عهود ومواثيق يجب على الطرفين المتعاقدين احترامها وتقديسها ، وهي في حكم الاتفاقيات والمعاهدات التي تعقد فيما بين الدول في تنظيم العلاقات الودية ، وتنظيم التجارات ودفع حق المرور (الترانزيت) .

وهناك اتفاقيات تجارية عقدت بين أهل مكة وبين حكام اليمن في تنظيم التجارة وتسهيل الاتجار لتجار الطرفين المتعاقدين وتنظيم ما يجبى من التجار في مقابل حق الاتجار وعن أرباح البيع والشراء ، باتباع قاعدة الأفضلية في المعاملة والتعامل على أساس المقابلة بالمثل وحماية التجار من كل اعتداء قد يقع عليهم . ويظهر انه قد كان لأهل مكة عقود وعهود تجارية مع ملوك الحيرة أيضاً . أما مع أسواق بلاد الروم ، فقد حدد الروم لهم أسواقاً معينة سمحوا لهم بالمجيء اليها والاتجار بها في مقابل دفع ضريبة العُشر .

---

١ اللسان (١١/١٣٥) ، المفردات (١٠٥) .

معاملة الرسل :

ويقوم الرسل والسفراء بالاتصالات بين القبائل وبين القبائل والحكومات ، وعلى من يرسل اليهم الرسل والسفراء حق حمايتهم وحق عدم التعرض لهم بأي سوء ، حتى في حالة الغضب وفشل الرسالة . ويعبر عن المبعوث السياسي بـ (تنبلت) وبـ (محشكت) وبـ (رسل) في العربية الجنوبية . ولهم حصانة (دبلوماسية) حسب العرف السياسي بالنسبة لذلك الوقت كذلك . والاعتداء على رسول أو سفير يعد غدراً وعملاً قبيحاً .

الأمان :

ومن طرق تأمين الخائف والمحافظة على النفس والأموال عقود الأمان التي يعطيها الملوك أو سادات القبائل أو الأفراد ، لتكون أماناً لمن يحملها وصكوكاً بالمحافظة على أموالهم وأنفسهم ، بجاه وباسم صاحب صك الأمان . ولهذا كان لا يسافر من لا وجه له إلا بكتاب أمان يحمله معه ليراه من سيمر بأرضه . وقد لا يكون كتاب الأمان كتاباً مدوناً بل علامة أو شعاراً معروفاً من الشخص الذي أعطى ذلك الأمان ، أو كلمة سر أو اعلاناً شفوياً يسمعه الناس . فيلزم هذا الأمان معطيه المحافظة على عهد الأمان والدفاع عن حقوقه إذا ما تعرّض الى مكروه. وعليه مقاضاة من تجاسر على الأمن أو ألحق به ضرراً أو إهانة لأنه رجل آمن، ما يصيبه يكون كأنه قد أصاب صاحب الأمان .

قوانين الغزو والحروب :

لم تصل الينا كتابات جاهلية عن سنن العرب في الغزو والحروب ، وعن كيفية وجوب تعامل المتحاربين في أثناء القتال وبعده . وما تدونه هو حاصل دراستنا لبعض ما ورد في النصوص عن الحروب التي وقعت في العربية الجنوبية ، ولما جاء في روايات أهل الأخبار عن أيام العرب في الجاهلية .

لم تمنع قوانين الغزو في أيام الجاهلية المحارب من حرق المستوطنات : مستوطنات

خيام أو قرى أو مدن ، ولا من حرق المزارع والحيوانات ، لإلقاء الرعب في النفوس ولإكراه الخصم على ترك القتال والاستسلام . ولا من نقل الناس نقلاً جماعياً وإجلائهم عن أماكنهم الى أماكن أخرى بعيدة . ونجد في الآثار الآشورية صور آشوريين وقد أشعلوا النيران في خيام الأعراب . ونقرأ في كتابات ملوك العرب الجنوبيين انهم كانوا يأمرون بإحراق القرى والمدن ودكّها دكاً ، لأنهم قاوموهم ودافعوا عن أنفسهم دفاعاً شديداً ، وقد أحرق ودمّر (عمر يهرعش) (شمر يرعش) ، قرى ومدناً كثيرة ، فزالت بذلك من عالم الوجود ، ولم تدب اليها الحياة مرة أخرى ، وقد أدت حروب الملوك الكثيرة ، وثورات القبائل وأهل المدر على الحكومات الى تدهور الاستقرار في اليمن ، والى إضعاف حكوماتها ، مما ساعد على تدخل الأجانب في شؤونها ، والى توسع رقعة البداوة ، وتراجع الحضارة منها ، والى خراب القرى والمدن .

ومن حق المنتصر في عرف تلك الأيام ان يفعل في المغلوب ما يشاء . لا يمنعه عن ذلك مانع ، لأنه غالب وخصمه مغلوب ، والحق في يد الغالب . فكان في جملة ما يفعله المنتصر ، إباحة القرى والمدن ، مدة يعينها : يوماً أو يومين أو ثلاثة ، أو مدة لا تحدد . يكون كل ما يقع في خلالها في أيدي الجنود المنتصرين ملكاً لهم من مال وانسان وحيوان ، لهم أن يأخذوا ولهم أن يقتلوا ، ولهم ان يؤسروا . كما كان من حق القائد ان يأمر جيشه بقتل أولئك المغلوبين ، لا يرى في ذلك بأساً ولا عملاً ينافي الانسانية ، لأن الحرب حرب ماحقة ، لا تفرق بين بشر وحيوان أو جماد . والغالب يفعل بالمغلوب ما يشاء ، ولو كان المغلوب هو المنتصر فعل بخصمه أيضاً ما يفعله المنتصر به .

الأسر والسبي :

إذا وقع شخص في أسر أو في سباء ، صار المأسور أو المسبي في ملك آسره أو سابيه . إلا إذا وافق الآسر أو السابي على أن يمنّ على المسبي أو الأسير بفك رقبته ، أو بقبول مال يدفع عنه لفك رقبته يقال له : فدية . أو بمفاداته بشخص آخر وقع في أسر أو في سباء أهل الأسير أو من وقع السباء عليه ، فيفادى

المأسور أو المسبي عندئذ بالمأسور أو المسبي الآخر[1] . ويوثق الأسرى وثاقاً شديداً حتى لا يهربوا ، ثم ينقلون الى بيوت آسريهم لينظروا في أمرهم ، أما إذا كان الأسرى جماعة فيؤخذوا بعد انتهاء الحرب الى مقرات الجيوش والعواصم للنظر في أمرهم . ومنهم من قد يمنّ عليهم بفك أسرهم ومنهم من يعطون هبة للقادة وللمحاربين ، أو يبادلون بأسرى حرب كانوا في أيدي المغلوبين ، أو يُفدون بمال أو بوسائل أخرى[2] .

وليست للفدية حدود معلومة ، ولا قواعد ثابتة بل تتوقف على مبدأ المساومة. وتتوقف هذه المساومة على منزلة الأسير أو المسبي وعلى مكانته الاجتماعية ، وعلى مقدار استعداد أهله لدفع مال الفدية عنه . وقد تصل الى جملة مئات من الإبل، وقد تزيد على الألف . وتتوقف كذلك على مقدار صلابة الآسر أو الجيش المنتصر. وقد يفادى رجل بمال كثير إذا كان ملكاً أو سيد قبيلة ، وقد يفادى بعدد من الأسرى هم في أيدي جماعة الملك الأسير ، فيكون أسره إذ ذاك سبباً في فك رقبة عدد من الأسرى .

وروي أن بعض السادات كانوا يفكون أسر الأسرى بفداء يقدمونه عنهم . ومن هؤلاء (حاجب بن زرارة) ، وهو من تميم . فقد ذكر أنه كان أكثر العرب فداء[3] . ويقال (فلان قيد مائة) و (عقال مائة) إذا كان فداؤه إذا أسر مائة من الإبل . قال يزيد بن الصعق :

أساور بيض الدارعين وابتغى عقال المئين في الصباع وفي الدهر

وإذا قيل : (عقال المئين)[4] ، قصدوا الشريف الذي إذا أسر فدي بمئين من الابل[5] .

---

١ المفردات (ص ٣٨٠ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (٢٦/٢٦ وما بعدها) .
٣ ابن رسته ، الاعلاق (١٩٣) .
٤ عقال ككتاب .
٥ تاج العروس (٢٧/٨) ، (عقل) .

وقد نهى عمر عن سباء العرب، وذلك حينما استعداه أبو وجزة يزيد بن عبيد، ليأخذ بحقه ممن استرقه ، فأنجده ، وأصدر حكمه : (لا سباء على عربي)[1]. وطالما نقرأ في الكتب مثل هذه العبارة : « أصابني سباء في الجاهلية كما يصيب العرب بعضها من بعض »[2] .

الرهائن :

وقد يحتفظ الآسر بأسيره ، فلا يوافق على أخذ فدية عنه ، بل يحتفظ به عنده ليكون له (رهينة) . وقد تجبره قبيلته على ابقائه لديه ليكون رهينه ، حتى تستفيد منه في الظروف المناسبة . بأن تهدد أهل الرهينة أو قبيلته بقتله إن لم تستجب لمطالبها ولا توفي عما تريده القبيلة منها .

وهناك نوع آخر من الرهائن ، فرضته الظروف السياسية والاجتماعية والعسكرية على أهل جزيرة العرب،ويكون ذلك بتقديم سادات الناس من حضر ومن أعراب أبنائهم الى الملوك والحكام ليكونوا رهائن لديهم على الخضوع والطاعة لهم . وهو عرف قانوني بقي معروفاً في الإسلام . وقد احتفظ ملوك الحيرة والغساسنة برهائن عندهم ، ليكونوا ضماناً لديهم بإطاعة آبائهم وأقربائهم سادات القبائل لهم ، فلا يثوروا عليهم ولا يعتدوا على عربهم أو على حدود مملكتهم . وقد يكون الرهائن أطفالاً ، وذكر أن (الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار ابن قصي) ، كان رهينة قريش عند (أبي يكسوم الحبشي) ، وقد عرف لذلك بـ (الرهين)[3] .

الودائع :

الوديعة : العهد . والودائع : العهود . ومنه كتاب النبي : لكم يا بني نهد

---

١ الاغاني (١١/٧٥) .
٢ الاغاني (١١/٧٦) .
٣ تاج العروس (٩/٢٢٢) ، (رهن) .

ودائع الشرك ووضائع المـال . أي العهود والمواثيق ويقال توادع الفريقان : إذا تعاهدوا على ترك القتال[1] . ويجب عدم الاخلال بالودائع ، لأنها عقود وعهود . والنكث بالعهود من سجايا الأنذال .

وللجاهليين أحكام في البيوع وفي الاتجار وفي حق الأرض وغير ذلك ، سيأتي الكلام عليها في مواضعه من الحياة الاقتصادية ، لذلك فلا داعي للتحدث عنهـا هنا ، ما دمت سأتكلم عنها في ذلك المكان ، لصلتها الوثيقة به .

---

١ تاج العروس (٥/٥٣٥) ، (ودع) .

الفصل الستون

حكام العرب

الحاكم منفذ الحكم بين الناس ، والذي يمنع الظالم من الظلم[1] . وهو في معنى (القاضي) ، الذي هو القاطع للأمور المحكم لها[2] . وحكام العرب ، هم الذين حكموا بينهم فيما حدث من خلاف ، وما وقع لهم من خصومات . وقد كان لكل قبيلة حكام ، عرفوا برجاحة عقولهم وبسعة مداركهم وبوقوفهم على أعراف قومهم ، وبعدلهم وانصافهم ، وبترفعهم عن الظلم والدنايا ، فتحاكموا اليهم . ومنهم من طار اسمه الى خارج مواطن قبيلته ، فتحاكم اليه أبناء القبائل الأخرى ، لما وجدوا فيه من صفات الحكم العادل والنزاهة والسلامة والصدق في اعطاء الحكم .

ولم يكن الحكم بين الناس والقضاء بينهم ، عملاً رسمياً من أعمال الحكومة ، بمعنى ان الحاكم موظف من موظفي الدولة ، كما هو في الوقت الحاضر ، وكما وقع في الاسلام ، وانما كان القضاء أمراً يعود الى الناس ، إن شاءوا رجعوا الى عقلاء الحي لفض ما قد يقع بين أهل الحي من خلاف ، وإن شاءوا اختاروا حكماً يرتضونه لكي يقضي بينهم في الخصومة ، فيقضي فيما بينهم برأيه وبرجاحة عقله ، ثم ينتهي واجبه . وهم لا يختارون حكماً ، إلا لوجود خلال حميدة فيه تؤهله للحكم ، مثل العدل والفهم والحنكة ، والفطنة ، وسرعة إدراك أسباب الحق .

---

١ تاج العروس (٢٥٢/٨) ، (حكم) .

٢ تاج العروس (٢٩٧/١٠) ، (قضم) .

ولهذا صار الرجل الذي تتوفر فيه الصفات التي يجب أن تكون في الحاكم ، مرجعاً لأصحاب الخصومات ، يرجعون اليه لعمق تفكيره ولرجاحة عقله في استنباط الحكم الذي يرضي ويقنع الطرفين ، ولم يكن هذا الحاكم من رؤساء القبيلة بالضرورة ، وانما قد يكون من الذين برزوا في مجتمعهم وأظهروا مقدرة في فهم طبائع قومهم وأعرافهم وأنسابهم وامتازوا عن غيرهم بسعة الفهم والادراك .

وحكام العرب إما حكام منحوا مواهب ومزايا ، جعلت الناس يركنون اليهم في حل المشكلات ، وإما كهان ، لجأ الناس اليهم يستفتونهم في الحكم فيما يقع بينهم من شجار ، لاعتقادهم بصحة أحكامهم ، وأما (عراف) ، وإما فقهاء ومفتون ، أي رجال دين ، كالقلامسة ، يفتون في أمور الدين .

ويلاحظ أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون على الذي ينظر في الخصومات (الحكم) و (الحاكم) . أما في الإسلام فقد تغلبت لفظة (القاضي) عليه . وصار القاضي هو الذي يقضي بين الناس في جميع الأمور القضائية من مدنية وجزائية ، ثم عاد الناس في هذه الأيام فخصصوا (الحاكم) بمن يحكم في القوانين الجزائية والمدنية ، و (القاضي) بمن يقضي في الأمور المتعلقة بالأحوال الشخصية التي لها علاقة بأمور الدفن كالزواج والطلاق والإرث .

وذكر علما اللغة أن (الفِتاحة)[1] ، الحكومة والقضاء . قال الأشعر الجعفيّ :

ألا من مبلغٍ عمراً رسولاً فإنّي عن فتاحتكم غني[2]

وأن الفتح ، الحكم بين الخصمين في لغة حمير . يقال فتح الحاكم بينهم ، إذا حكم[3] .

وإذا تجاوز الحاكم العدل وتباعد عن الحق ، يقال : شط عليه في حكمه . و (الشطط) مجاوزة القدر في بيع أو طلب أو احتكام[4] .

و (الجور) الظلم والتعدي على الغير ، وإذا شط الحاكم على شخص ، يكون قد جار عليه وظلمه ، وما أنصفه في حكمه .

---

١ بالكسر والضم .
٢ تاج العروس (٢/١٩٤) .
٣ تاج العروس (٢/١٩٤) .
٤ تاج العروس (٥/١٦٧) .

ويجب على الحاكم أن يحكم بين الناس بالقسط ، حكم (الميزان) ، فلا يجوز في العدالة ، أن يرجح كفة على أخرى . ولهذا قيل : الميزان العدل ، وجعل رمزاً للعدالة . قال تعالى « وزنوا بالقسطاس المستقيم »[1] . والقسطاس الميزان ، وقيل هو أقوم الموازين وأعدلها[2] .

وكانت العادة ان يلجأ اليتيم والضعيف الى ذوي رحمه ، أو إلى أبناء حيّه ، للحصول على ظلامته . فيتدخل أهل المروءة والانصاف في الأمر ، لإكراه الظالم على إنصاف المظلوم . ورد أنه « كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ، ويجعل مكانها الشاة المهزولة . ويقول شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف ، ويقول درهم بدرهم »[3] . ومنهم من كان يأكل مال اليتيم والضعيف ، ويجبر اليتيمة على الزواج به ، للحصول على مالها ، وقد منع ذلك في الاسلام[4] .

وحكام العرب في الجاهلية : أكثم بن صيفي بن رياح ، وحاجب بن زرارة ابن عدس ، والأقرع بن حابس ، أبي عيينة ، وربيعة بن مخاشن ، وضمرة ابن ضمرة (ضمرة بن أبي ضمرة) التميمي ، هؤلاء كانوا حكام تميم[5] . و (الأفعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن الحارث الجرهمي) ، و (عيينة بن حصن بن حذيفة) ، و (حرملة بن الأشعر المريّ) ، وهَرِم بن قطبة بن سنان بن عمرو الفزاري ، وبشر بن عبدالله بن حبّان ، وأبي سفيان بن حرب ابن أمية ، وأبي جهل بن هشام ، وأنس بن مدرك ، و (عامر بن الظرب) العَدواني ، و غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي وهما حكمان لقيس ، وهاشم ابن عبد مناف ، وعبد المطلب ، وأبو طالب ، والعاص بن وائل القرشي ، (العاصي) ، والعلاء بن حارثة بن نضلة بن عبد العزى القرشي ، هؤلاء كانوا حكاماً لقريش . وربيعة بن حذار الأسدي ، ويعمر بن الشدّاخ (يعمر الشداخ) الكناني ، هؤلاء كانوا حكاماً لكنانة[6] . وكان من حكامهم أيضاً :

---

١ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الاية ١٨٢ .
٢ تاج العروس (٢١٨/٤) ، (القسطاس) ، (٣٦٠/٩ وما بعدها) ، (وزن) .
٣ تفسير الطبري (١٥٣/٤) .
٤ سورة النساء ، الاية ٢ وما بعدها .
٥ تاج العروس (٢٥٢/٨) ، (حكم) ، (٤٦١/٥) ، (قرع) .
٦ تاج العروس (٢٥٢/٨) ، (حكم) ، (٤٦١/٥) ، (قرع) .

صفوان بن أمية ، وسلمة بن نوفل الكناني ، ومالك بن جبير العامري ، وعمرو ابن حُممة الدوسي ، والحارث بن عبّاد الربيعي ، والقلمس الكناني،وذي الاصبع العدواني[1] .

وقد تعرض (اليعقوبي) لموضوع حكام العرب ، فقال : « وكان للعرب حكّام ترجع اليها في أمورها وتتحاكم في منافراتها ومواريثها ومياهها ودمائها ، لأنه لم يكن دين يرجع الى شرائعه ، فكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسن والمجد والتجربة . وكان أول من استقضى فحكم : الأفعى بن الأفعى الجرهمي ، وهو الذي حكم بين بني نزار في ميراثهم . ثم سليمان بن نوفل ثم معاوية بن عروة ، ثم صخر بن يعمر بن نفاثة بن عدي بن الدئل ، ثم الشدّاخ،وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة ، وسويد بن ربيعة بن حذار بن مرة بن الحارث بن سعد ، ومخاشن ابن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، وكان يجلس على سرير من خشب فسمّي ذا الأعواد ، وأكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن ، وعامر بن الظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر بن عدوان بن عمرو بن قيس ، وهرم بن قطبة بن سيّار الفزاري ، وغيلان بن سلمة بن معتب الثقفي، وسنان بن أبي حارثة المري ، والحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، وعامر بن الضحيان بن الضحاك بن النمر بن قاسط ، والجعد بن صبرة الشيباني، ووكيع بن سلمة بن زهير الايادي ، وهو صاحب الصرح بالحزورة ، وقس بن ساعدة الايادي ، وحنظلة بن نهد القضاعي ، وعمرو بن حممة الدوسي . وكان في قريش حكام ، منهم : عبد المطلب ، وحرب بن أمية ، والزبير بن عبد المطلب ، وعبدالله بن جدعان ، والوليد بن المغيرة المخزومي »[2] .

وكان في نساء العرب أيام الجاهلية حاكمات اشتهرن بإصابة الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأي في الحكومة . منهن : صحر بنت لقمان ، وابنة الخس ، وجمعة بنت حابس الايادي ، وخصيلة بنت عامر بن الظرب العدواني ، وحذام بنت

---

١ بلوغ الارب (١/ ٣٣٠ وما بعدها) ، المحبر (١٣٢) ، البيان (١/ ١٠٩) ، الاشتقاق (١٧٢) ، الاغاني (٣/ ٢ وما بعدها) .

٢ اليعقوبي (١/ ٢٢٧ وما بعدها) .

الريّان[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن (ابنة الخس) ، هي (هند بنت الخس الإيادية)، وهي جاهلية قديمة ، وقد أدركت (القلمس) الكناني . ونسبوا لها أسجاعاً كثيرة، وقالوا إنها كانت تحاجي الرجال . ورووا لها شعراً قليلاً[2] . و (الخس) ، والد هذه الحكيمة ، هو الخس بن حابس بن قريط الإيادي . وذكر بعضهم أنه من العماليق . وقد اختلف في اسمها فقيل : هند وقيل جمعة . وقد جاء عنها الأمثال. وكانت معروفة بالفصاحة[3] .

وقد نسبوا لها حديثاً في وصف المرأة وفي وصف الرجل ، كما ذكروا لها كلاماً مع والدها ، حين سألها عن أسئلة[4] .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (جمعة بنت حابس الإيادي) ، هي أخت (ابنة الخس)[5] . والدها (حابس) رجل من إياد ، أو هو (الخس بن حابس). وذكر بعض آخر ، أن (جمعة) ليست أخت (هند) وانما هناك حاكمة أخرى[6] وزعموا أن (صحر بنت لقمان)، كانت عاقلة اشتهرت بالعقل والكمال والفصاحة، وكانت العرب تتحاكم عندها فيما يقع بينهم من خلاف في الأنساب وغيرها . وكان والدها (لقمان) . وبعضهم يقول غير ذلك . وأخوها (القيم) . ويذكر بعضهم أن لقمان قتلها[7] .

أما (الأفعى الجرهمي) ، فقد جعله بعض أهل الأخبار من أول الحكام ، وهو الذي حكم بين (بني نزار بن معد) في ميراثهم على حد زعم أهل الأخبار، وهم مضر وربيعة وإياد وأنمار . وكان منزله نجران من اليمن . ومن ولده السيد والعاقب أسقفا نجران في ايام الرسول[8] . وجعله (اليعقوبي) من أقدم من حكم عند العرب في خلاف ، إذ قال عنه : (وكان أول من استقضي اليه فحكم :

---

١ تاج العروس (٢٥٢/٨ وما بعدها) ، (حكم) ، بلوغ الارب (٣٣٨/١ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٣٣٩/١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١٣٧/٤) ، (خس) ، (٢٥٣/٨) ، (حكم) .
٤ الامالي ، للقالي (٢٥٦/٢ وما بعدها) ، ذيل الامالي (١٠٧ ، ١١٩) .
٥ بلوغ الارب (٣٤٢/١) .
٦ تاج العروس (١٣٧/٤) ، (خس) .
٧ تاج العروس (٣٢٧/٤) ، (صحر) ، (٢٥٣/٨) ، (حكم) .
٨ المحبر (ص ١٣٢) ، الاشتقاق (ص ٢١٨) .

الأفعى بن الأفعى الجرهمي . وهو الذي حكم بين بني نزار في ميراثهم)[1] . وجعله (المسعودي) ملكاً من ملوك نجران[2] .

وكان أكثم بن صيفي من حكام تميم ، ذكر انه أدرك الاسلام، ولما سمع بأمر النبي ، وكان إذ ذاك شيخاً ، بعث ابنه (حُبيشاً) الى النبي ليأتي بخبره ، فلما جاء به ، جمع قومه وخطب فيهم ، ودعاهم الى الاسلام . ونسبوا له أمثلة ، منها : مقتل الرجل بين فكّيه ، وجمعوا له تسعة وعشرين مثلاً أو أكثر من ذلك . ونسبوا له كلاماً مع (كسرى)[3] . ونسب له (الجاحظ) بيتاً في الزهد ، هو :

نُربّي ويهلك آباؤنا   وبينا نربّي بنينا فنينا [4]

وزعم أهل الأخبار انه عاش تسعين ومئة سنة ، ومنهم من استقل هذا العمر واستصغره ، فجعله ثلثمائة وثلاثين سنة [5] .

ولأكثم صلات وعلاقات بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة. وكان الملك قد اختاره في جملة من اختارهم لمحادثة (كسرى) في أمر العرب على ما يذكره أهل الأخبار. ونسب أهل الأخبار اليه حكماً زعموا أنه قالها للملك (النعمان) في أصول الحكم وفي كيفية إدارة شؤون الرعية في حقوق الراعي . وزعم أن (الحارث بن أبي شمر الغساني) ، طلبه ليكون في الألسنة الموهوبة التي تكلم (هرقل) عظيم الروم عند زيارته له[6] . وذكر أنه كان يحث على التآلف والوحدة وجمع الشمل، ونبذ التخالف والتنافر . ونسبوا له أقوالاً في ذلك . وفي أصول الحروب والقيادة وأمثال

---

١ اليعقوبي (٢٢٧/١) .

٢ مروج (٨٩/٢ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (٣٠٨/١ وما بعدها) ، البخلاء (١٤٦ ، ٢٠٨) ، رسائل الجاحظ (٦٦/١) .

٤ الحيوان (٥١/٣) .

٥ المحبر (١٣٤) ، الاشتقاق (١٢٧) ، المعمرون ، للسجستاني (١٠) ، الاصابة (١١٨/١ وما بعدها) ، (رقم ٤٨٥) ، اليعقوبي (٢٢٧/١) ، اسد الغابة (١١٣/١) ، المعارف (٢٩٩) ، مروج الذهب (١١٦/٢) ، عيون الاثر (٧٠/١)، الامالي ، للقالي (٣٠٩/١) .

٦ المعمرون (١٩) .

ذلك ، مما يحتاج اليه المجتمع في ذلك العهد[1] .

وذكر أن سادة نجران كـانوا يتصلون به ، وكذلك ملك (هجر)[2] . وأن سادات جهينة ومزينة وأسلم وخزاعة ، كانوا يسألونه الرأي والاستشارة[3] .

وحاجب بن زرارة بن عدس من حكّام تميم ، ومن البلغاء الفصحاء في زمانه وممن وفد على (كسرى) من سادات تميم ، وكان له كلام معـه . وكان في جملة من توسط عنده ليسمح لقومه أن يدخلوا الريف . فسمح لهم بذلك . وقد هلك قبل الإسلام . فصار ابنه (عطارد) سيد تميم . وقد أدرك عطارد الإسلام، وذهب الى الرسول ، فأسلم[4] . وكان حاجب بن زرارة يقال له ذو القـوس ، وذلك أن تميماً أقحطوا ، فارتحل حاجب الى كسرى ، فسأله أن يأذن له ، أن ينزل حول بلاده . فقال : إنكم أهل غدر ! فقال : أنا ضامن . فقال : ومن لي بأن تفي ؟ قال أرهنك قوسي ، فأذن لهم دخول الريف . فلما مات حاجب، رحل عطارد بن حاجب الى كسرى ، يطلب قوس أبيه ، فردها عليه وكساه حلّة . فلما وفد الى النبي عطارد ، وأسلم على يديه أهداها للنبي ، فلم يقبلها ، فباعها . وقال عمر : يا رسول الله لو اشتريتها فلبستها لوفـود العرب وللعيد ، فقال : إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة . وقد ارتد عطارد مع من ارتد من بني تميم بعد النبي وتبع سجاح ، ثم عاد إلى الإسلام[5] .

وكان (الأقرع بن حابس بن عقال بن محرر بن سفيان) التميمي المجاشعي الدارمي من حكام تميم ، اسمه (فراس) ، وانما قيـل له الأقرع لقرع كان برأسه . وكان شريفاً في الجاهلية والاسلام . وفد على النبي ، وهو من المؤلفـة قلوبهم وقد حسن إسلامه . وقد نادى النبي ، من وراء الحجرات يا محمد ، فلم

---

١ عيون الاخبار (١/١٠٨) ، (كتاب السلطان) ، (١/٢٤٦) ، (باب ذم الغنى ومدح الفقر) ، البخلاء للجاحظ (٢٠٨) ، (الحاجري) ، المزهر ، للسيوطـي (١/٥٠١) ، البلدان (٤/٣٧٤) ، العقد الفريد (١/١٧٠) ، البخلاء (٢٠٨) .

٢ المعمرون ، للسجستاني (١٨) .

٣ المعمرون (١٥) .

٤ بلوغ الارب (١/٣١١ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١/١٠) ، الاشتقـاق (١/١٤٤) ، الامالي ، للقالي (٢/٢٩٩ وما بعدها) .

٥ الاصابة (٢/٤٧٦) ، (رقم ٥٥٦٨) ، بلـوغ الارب (١/٣١١ وما بعدهـا) ، الاشتقاق (١٤٥) ، الطبري (٣/١١٥ وما بعدها) ، (قدوم وفد بني تميم ونزول سورة الحجرات) .

يجيبه . فقال : والله يا محمد إن حمدي لزين ، وإن ذمـي لشين . فقال رسول الله : ذلكم الله . وفي هذا الحادث نزلت الآية : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون »[1] . وذكر انه كان مجوسياً قبل ان يسلم . وان (عيينة) والأقرع استقطعا أبا بكر أرضاً ، فقال لهما عمر : انما كان النبي ، صلى الله عليه وسلم . يتألفكما على الاسلام . فأما الآن فاجهدا جهدكما ، وقطع الكتاب . وقد عاش الى زمن عثمان[2] .

واليه تحاكم (الفرافصة) الكلبي ، وجرير بن عبدالله ، وقد نفر (الأقرع) جريرَ على الفرافصة بن الأحوص الكلبي[3] .

وكان ربيعة بن مخاشن من حكام تميم البارزين في أنساب قومه ، كما كان من خطبائهم وفصحائهم . وهو من (بني أسيد بن عمرو بن تميم)[4] ، وكان يجلس على سرير من خشب في قبة من خشب ، فسمّي ذا الأعواد . واليه أشار الأسود ابن يعفر بقوله :

ولقد علمتُ سوى الذين نبأتني   ان السبيل سبيل ذا الأعواد[5]

وذكر انه كان مرجع قومه ، وعالمهم بالأنساب ، وزعم قومه انه أول من قرعت له العصا[6] . وكان أبوه (مخاشن) حكماً أيضاً[7] .

وكان ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم التميمي من حكام تميم المعروفين . وكان قومه يلجأون اليه فيمن كانوا يلجأون اليهم عند أخذ الرأي. ذكر أنه حكم فأخذ رشوة فغدر[8] . وأنه كان من رجال بني تميم لساناً

---

١ الحجرات ، رقم ٤٩ ، الآية ٤ ، تفسير الطبري (٢٦/٧٦ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٦/١٢٦) ، الاشتقاق (١٤٦) ، المحبر (١٣٤) .
٢ الاصابة (١/٧٢ وما بعدها) ، (رقم ٢٣١) ، بلوغ الارب (١/٣١٥ وما بعدها) .
٣ كتاب نسب قريش (٧) ، الروض الانف (١/٦٠) .
٤ بلوغ الأرب (١/٣١٦) .
٥ المحبر (١٣٤) .
٦ بلوغ الارب (١/٣١٦) .
٧ المحبر (١٣٤) .
٨ بلوغ الارب (١/٣١٦) ، وكان اسمه : « شق بن ضمرة » ، المحبر (١٣٤) ، الامالي ، للقالي (٢/٢٧٩) .

وبياناً . وكان اسمه شق بن ضمرة ، فسمّاه بعض ملوك الحيرة ضمرة[1] . والرشوة ما يعطيه الشخص الحاكم أو غيره ليحكم له ، أو يحمله على ما يريد[2] . وقد عرف بـ (شقة)[3] .

ومن حكّام (تميم) (الأحنف بن قيس السعدي التميمي) . واسمه (الضحاك ابن قيس) وقيل (صخر بن قيس) ، ويكنى (أبا بحر) وهو ممن أدرك النبي . وكان من الحلماء الدهاة الحكماء العقلاء . وقد ضرب بحلمه المثل . « قال رجل للأحنف بن قيس : بِمَ سدت قومك وأنت أحنف أعور ؟ قال : بتَركي ما لا يعنيني ، كما عناك من أمري ما لا يعنيك »[4] . وذكر أنه هو القائل : « لا تزال العرب بخير ما لبست العمائم ، وتقلّدت السيوف وركبت الخيل ، ولم تأخذها حميّة الأوغاد . قيل : وما حميّة الأوغاد ؟ قال : أن يروا الحلم ذلاً ، والتواهب ضيماً »[5].

وكان عامر بن الظرب العدواني من حكام قيس . وذكر انه كان أول من قرعت له العصا . ونسبوا له حكماً وأمثالاً منها : ربّ أكلة تمنع أكلات . ورب زارع لنفسه حاصد سواه ، ومن طلب شيئاً وجده... الى أمثلة أخرى من أمثلة في الحكم والمواعظ وفي كيفية السير في هذه الحياة[6] . وذكر انه هو الذي جعل الدية مائة من الإبل ، وجعله (محمد بن حبيب) في طليعة (أئمة العرب)[7] .

وذكر انه التقى بـ (حممة بن رافع الدومي) عند ملك من ملوك حمير ،

---

١ الاشتقاق (١٤٩) ، نوادر المخطوطات (٣٠٥) ، « كتاب القاب الشعراء ومن يعرف منهم بأمه » ·
٢ تاج العروس (١٠/١٥٠) ، (رشا) ·
٣ نوادر المخطوطات ، القاب الشعراء ، (ص ٣٠٥) ·
٤ الاصابة (١/١١٠) ، (رقم ٤٢٩) ، الاستيعاب (١/١٣٥) ، (حاشية على الاصابة) ، الامالي ، للقالي (١/٥٩ وما بعدها ، ٢٣١ وما بعدها ، ٢٤١ ، ٢٦٩) ، (٢/٢٠ ، ٤١ ، ١٦٧ ، ٢٢٧ وما بعدها ، ٣٠٦) ، ذيل الامالي (١٤ ، ٢٧ ، ١١٨ ، ١٨٦ ، ٢١٢ ، ٢١٥) ، نوادر المخطوطات (أسماء المقتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام) ، (ص ١٥٨) ، رسائل الجاحظ (١/٣٤٤) ·
٥ رسائل الجاحظ (١/٣٦٢) ، البيان والتبيين (٢/٨٨) ، (/٩٨) ·
٦ بلوغ الارب (١/٣١٦) ، الاشتقاق (١/١٦٤) ، تاج العروس (٥/٤٦١) ، (قرع) ·
٧ المحبر (١٨١) ·

(فقال : تساءلا حتى أسمع ما تقولان) ، فجرى بينهما كلام في الحكم وفي أمور الحياة [1] .

وقد اختلف أهل الأخبار في أول من قرعت له العصا . فقال بعض منهم هو (عامر بن الظرب العدواني) ، وقال بعض آخر ، هو (قيس بن خالد بن ذي الجدين) . وهو قول ربيعة ، أو (عمرو بن حممة) الدوسي ، وهو قول تميم ، أو (عمرو بن مالك) . وذكر ان قيساً كانوا لا يعدلون بفهم عامر بن الظرب فهماً ولا بحكمه حكماً . فلما طعن في السن ، أو بلغ ثلثمائة سنة ، أنكر من عقله شيئاً ، فقال لبنيه : انه كبرت سني وعرض لي سهو ، فإذا رأيتموني خرجت من كلامي وأخذت في غيره ، فأقرعوا لي المجن بالعصا . وقيل كانت له ابنة يقال لها خصيلة ، فقال لها اذا أنا خولطت ، فاقرعي لي العصا . فأتى عامر بخنثى ليحكم فيه ، فلم يدر ما الحكم ، فجعل ينحر لهم ويطعمهم ويدافعهم بالقضاء ، فقالت خصيلة ما شأنك قد أتلفت مالك ؟ فخبرها انه لا يدري ما حكم الأنثى ، فقالت اتبعه مباله [2] . وذكر (محمد بن حبيب) ، انه حكم في الخنثى حكماً جرى الاسلام به [3] . وذكر بعض آخر ان (العرب لا يكون بينها نائرة ولا عضلة في قضاء ، إلا أسندوا ذلك اليه ، ثم رضوا بما قضى فيه . فاختصم اليه في بعض ما كانوا يختلفون فيه في رجل خنثى له ما للرجل ، وله ما للمرأة . فقالوا : أنجعله رجلاً أو امرأة ، ولم يأتوه بأمر كان أعضل منه . فقال : حتى انظر في أمركم ، فوالله ما نزل بي مثل هذه منكم يا معشر العرب ، فاستأخروا عنه ، فبات ليلته ساهراً يقلب أمره وينظر في شأنه ، لا يتوجه له منه وجه . وكانت له جارية يقال لها سخيلة ترعى عليه غنمه) ، فلما رأت سهره وقلقه وقلة قراره على فراشه ، سألته عن حاله ، فقال : ويحك اختصم إلي في ميراث خنثى أأجعله رجلاً او امرأة . فقالت : سبحان الله ! لا أبالك اتبع القضاء المبال . اقعده ، فإن بال من حيث يبول الرجل ، فهو رجل ، وإن بال من حيث تبول المرأة ، فهي امرأة . فسر بهذا الجواب [4] .

---

١ الامالي (٢/٢٧٦ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٤٦١) ، (قرع) .
٣ المحبر (٢٣٦) .
٤ الروض الانف (١/٨٦ وما بعدها) ، ابن هشام (١/٨٦) .

ومن حكّام قيس : (هَرِم بن قطبة بن سيّار بن عمرو) . وهو العشراء ابن جابر بن عقيل . واليه تنافر (عامر بن الطفيل) ، وعلقمة بن علاثة . وسنان بن أبي حارثة بن مرة[1] .

ويذكر أهل الأخبار أيضاً أن (ذرب بن حوط بن عبدالله بن أبي حارثة الطائي) ، كان حاكماً شهيراً في الجاهلية ، وقد حكم (عامر بن الظرب) في الخنثى.وذكروا أن الشاعر (أدهم بن أبي الزهراء) الطائي ، وهو من الشعراء في الإسلام ، ذكره في شعر له ، حيث قال :

منّا الذي حكم الحكوم فوافقت   في الجاهلية سنة الإسلام[2]

وقد أدخل (ذرب) واسمه (سويد بن مسعود بن جعفر بن عبدالله بن طريف ابن حي) الشاعر ، في جملة من حكم في الجاهلية بحكم ، فوافق حكمه السنة[3] .

ومن حكّام العرب المعروفين وأحد المعمرين (عمرو بن حممة بن رافع الدوسي) من الأزد . ذكروا أنه عمّر طويلاً ، وانه ذو الحلم الذي ضرب به العرب المثل، وانه هو الذي قرعت له العصا[4] . وذكر (ابن دريد) أنه وفد الى النبي[5] . ولم يذكر أحد غيره أنه وفد عليه . بل الذي عليه الآخرون أنه مات في الجاهلية بعد عمر طويل ، إذ ذكروا أنه كان احد المعمّرين ، حتى أوصل بعضهم عمره الى حوالى الأربعمائة سنة ، فذكر أنه عاش ثلاثمائة وتسعين سنة[6] . وذكروا انه عرف بـ (ذي الحلم) وأنه هو الذي ضربت به العرب المثل في قرع العصا،لأنه بعد أن كبر صار يذهل فاتخذوا له من يوقظة فيقرع العصا ، فيرجع اليه فهمه . وأنه هو الذي أشار اليه (الحارث بن وعلة) بقوله:

وزعمتم أن لا حُلوم لنا   إن العصا قرعت لذي الحلم[7]

---

١ المحبر (١٣٥) .
٢ المحبر (٢٣٦) .
٣ الاشتقاق (٢/٣٣٢) .
٤ معجم الشعراء (ص ٢٠٩) .
٥ الاشتقاق (٢٩٦) .
٦ بلوغ الارب (١/٣٣١) .
٧ بلوغ الارب (١/٣٣١ وما بعدها) .

ويذكر اهل الأخبار ان الذين يزعمون ان (عمرو بن حممة) هو الذي كان يقال له : (ذو الحلم) ، وانه هو اول من قرعت له العصا ، انما هم أهل اليمن ، وذلك تعصباً منهم اليه[1] . ويظهر من ذلك ان العصبية القبلية قد لعبت دوراً في هذه القصة : قصة اول من قرعت له العصا ، فزعم القيسيون ان اول من قرعت له العصا ، هو (عامر بن الظرب العدواني) ؛ وزعم اهل اليمن ، انه (عمرو بن حممة).

وقد كان له قبر معروف ، تزوره المارة ، ذكر ان (الهدم بن امرىء القيس ابن الحارث بن زيد ، أبو كلثوم بن الهدم) الذي نزل عليه النبي ، و (عتيك ابن قيس بن هيشة بن أمية بن معاوية) ، و (حاطب بن قيس بن هيشة) الذي كانت بسببه حرب حاطب ، مرّوا بقبره قادمين من الشأم،فعقروا رواحلهم على قبره ، وقال كل واحد منهم شعراً في رثائه[2] .

ونعرف حكماً آخر من حكّام (عدوان) ، عرف بـ (ذي الاصبع العدواني) وهو (حرثان بن محرث) ، أو (حرثان بن عمرو)،أو (حرثان بن الحارث)، أو (حرثان بن السموأل بن محرث بن شبابة) ، الى غير ذلك من أقوال[3] . وقد عدّه أهل الأخبار من الشعراء المعمرين ،وأعطاه (ابو حاتم السجستاني) عمراً ، جعله ثلثمائة سنة بالتمام والكمال[4] .

وغيلان بن سلمة الثقفي ، أحد حكام قيس في الجاهلية ، وهو شريف شاعر. قالوا إنه كانت له ثلاثة ايام : يوم يحكم بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر فيه الى جماله ، وجاء الاسلام وعنده عشر نسوة فخيره النبي فاختار أربعاً ، وكان ممن أسلم . وذكر انه وفد على كسرى ، فكان بينه وبين غيلان كلام أعجبه ، فأكرمه وقدمه وسهل تجارته وتجارة من كان معه . وكان فيهم

---

١ بلوغ الارب (١/٣٣٢) .
٢ الامالي ، للقالي (٢/١٤٣) .
٣ بلوغ الأرب (١/٣٣٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢/١٦٣) ، « حرثان بن محرث بن الحارث بن شباة » ، نوادر المخطوطات ، ألقاب الشعراء (٣٠٧) ، « شباب » ، شرح المفضليات (٣١٢) ، الخزانة (١/٤٠٨) .
٤ بلوغ الارب (١/٣٣٥) ، الامالي ، للقالي (١/١٢٩ ، ٢٥٥) ، (٢/٢٢٠) ، الاغاني (٣/٩) .

أبو سفيان في بعض الروايات ، وأرسل معه من بنى له أطماً بالطائف[1] . وكان غنياً صاحب تجارة . وقيل انه أحد من نزل فيه : « على رجل من القريتين عظيم » .

وذكر عنه أن (بني عامر) أغاروا على ثقيف بالطائف ، فاستنجدت ثقيف ببني نصر بن معاوية ، وكانوا حلفاءهم ، فلم ينجدوهم ، فخرجت ثقيف الى بني عامر وعليها (غيلان) ، فقاتلت (بني عامر) ، وانتصرت عليهم وخلد (غيلان) هذا القتال في شعر رووه له[2] .

واشير الى اسم قاض آخر عرف واشتهر في الجاهلية ، اسمه (حذار) ، وهو (ربيعة بن حذار) الأسدي من (بني أسد بن خزيمة) . وقد نعت بـ (قاضي العرب)[3] . وكان حكماً من حكام (بني أسد) ، واليه مرجعهم في امورهم ومشورتهم . واليه نافر (خالد بن مالك بن تميم النهشلي) (القعقاع بن معبد التميمي) ، فنفر القعقاع[4] . وله ولد اسمه : (سويد بن ربيعة بن حذار) كان حاكماً كذلك[5] .

ومن حكام (طيء) (ابن صعترة الطائي) . وكان من الحكام الكهان[6] .

وممن اشتهر بالقضاء بين الناس من (إياد) : (وكيع بن سلمة بن زهر بن إياد) ، وهو صاحب الصرح بحزورة مكة وقد أكثروا فيه فقالوا كان كاهناً ، وقالوا كان صديقاً من الصديقين . وذكروا له أقوالاً ووصية لقومه من إياد ، جاء فيها : (اسمعوا وصيتي : الكلام كلمتان . والأمر بعد البيان . من رشد فاتبعوه ومن غوى فارفضوه ، وكل شاة معلقة برجلها) ، فكان اول من قال هذه الكلمة فذهبت مثلاً[7] .

وقد ذكر عنه ، أنه كان ولي أمر البيت بعد جرهم ، فبنى صرحاً بأسفل

---

١ الاصابة (٣/١٨٦ وما بعدها) ، (رقم ٦٩٢٦) ، الاستيعاب (٣/١٨٦) ، (حاشية على الاصابة) ، بلوغ الارب (١/٣١٩) ، المحبر (١٣٥) ، البخلاء (١٨٦، ٣٩٣) ، ابن سعد (٥/٣٧١) ، الاغاني (١٢/٤٨ وما بعدها) ، اللالي (٤٧٨) .

٢ بلوغ الارب (١/٣٢١) .

٣ اللسان (٤/١٧٧) .

٤ بلوغ الارب (١/٣٢٩) ، الاشتقاق (١٤٥) .

٥ المحبر (١٣٤) .

٦ تاج العروس (٦/٢٢٦) ، (ملطف) .

٧ المحبر (١٣٦) ، بلوغ الارب (٢/٢٦٠ وما بعدها) .

مكة وجعل فيه أمة يقال لها (حزورة) وبها سمّيت حزورة مكة وجعل في الصرح سلماً ، فكان يرقاه ، ويزعم أنه يناجي ربه ، ونسبوا له أموراً كثـيرة . ومن كلامه على ما يزعمه أهل الأخبار (مرضعة وفاطمة ، ووادعة وقاصمة ، والقطيعة والفجيعة ، وصلة الرحم وحسن الكلم) ، وقوله : « زعم ربكم ليجزين بالخير ثواباً ، وبالشر عقاباً ، إن من في الأرض عبيد لمن في السماء . هلكت جـرهم وربلت إياد،وكذلك الصلاح والفساد » . وذكر انه لما مات ، نعي على الجبال[1] .

ومن حكّـام اياد : قس بن ساعدة الايادي الشهير[2] . وذكر أنه أول من قال : (أما بعد)[3] ، وسأتكلم عنه في أثناء كلامي على الخطباء البلغاء .

ومن حكام (كنانة) (صفوان بن أمية) ، و (سلمى بن نوفل الكناني)، وكان من المعاصرين لـ (عامر بن الظرب العدواني)[4] . وجعـل (صفوان بن امية بن محرث الكنـاني) في عداد من حرّم الخمر في الجاهلية تكرماً وصيانـة لأنفسهم . ونسبوا له شعراً في سبب تركه لها[5] .

ومن حكام (كنانة) : (يعمر بن عوف الشدّاخ الكناني) ، وكان خبيراً بالأنساب وبالأحساب والأخبار وحكماً من حكام كنانة . وهو الذي شدخ دماء خزاعة[6] . وكانت قريش قاتلت خزاعة وأرادت اخراج خزاعة من مكة،فتراضى الفريقان بيعمر . فحكم بينهم بشدخ الدماء بين قريش وخزاعة ، وعلى ألا يخرج خزاعة من مكة[7] . وورد في رواية اخرى ، انه حكم ان كل دم اصاب قريش من خزاعة موضوع ، وكل ما اصاب خزاعة من قريش ففيه الدية ، وان قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة[8] .

ومن حكام (كنانة) (القلمس الكناني) . وكان من نسأة الشهور ، كان يقف عند (جمرة العقبة) ، ثم يعلن حكمه بنسيء الشهور ، كأن يحلّ أحد الصفرين ويحرم صفر المؤخرة ، وكذلك في الرجبين ، يعني رجباً وشعبان . فهو

---

١ بلوغ الارب (٢/٢٦٠ وما بعدها) .
٢ المحبر (١٣٦) .
٣ صبح الاعشى (١/٤٣٣) .
٤ بلوغ الارب (١/٣٣٠) ، (سلمى بن نوفل بن معاوية) ، المحبر (١٣٣) .
٥ الامالي للقالي (١/٢٠٤) ، المحبر (١٣٣ ، ٢٣٧) .
٦ بلوغ الارب (١/٣٣٠) .
٧ المحبر (١٣٣ وما بعدها) .
٨ ابن هشام (٧٩ وما بعدها) ، المحبر (١٣٤ حاشية) .

من الحكام ومن النسأة[1] . قال (محمد بن حبيب) : « نسأة الشهور من كنانة وهم القلامسة ، واحدهم قلمس ، وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم »[2] .

وكان عبد المطلب من حكام قريش ، وكان يقال له (الفيّاض) لجوده ، و (مطعم طير السماء) ، لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال ، وكان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية . وكان يأمر بترك الظلم والبغي ، ويحث قومه على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيئات الأمور . وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها ، منها الوفاء بالنذر ، والمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهي عن قتل الموؤودة ، وتحريم الخمر والزنا وأن لا يطوف بالبيت عريان[3] .

وقد روت كتب الأدب والأخبار بعض الأحكام التي حكم بها حكام العرب ، فصارت سنة للناس نهجوا عليها ، منها : قطع يد السارق ، وقد زعموا ان أول من سنّ ذلك هو (الوليد بن المغيرة) أو (عبد المطلب) ، فقطع رسول الله في الاسلام[4] . والقسامة وقد حكم بها (الوليد بن المغيرة) كذلك و (تحريم الخمر) وقد حكم بهذا التحريم جملة حكام ، منهم (الوليد بن المغيرة) وعبد المطلب[5] ، و (المنع من نكاح المحارم) ، و (النهي عن قتل الموؤودة) وتحريم الزنا ، وأن لا يطوف إنسان بالبيت عريان ، وتنسب هذه الأحكام الى عبد المطلب[6] .

ولا بد ان يكون الوليد بن المغيرة من الرجال المبجلين المشهورين في ايامه بسداد الرأي ، ولهذا اكتسب إجلال الجميع له ونال تقدير الناس ، حتى قيل : ان الناس كانوا يقولون في الجاهلية : لا وثوبي الوليد الخلق منها والجديد[7] . واليه تحاكم (بنو عبد مناف) في مقتل (عمرو بن علقمة بن عبد المطلب) ، حيث اتهموا (خداش بن عبدالله بن أبي قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسل)

---

١ بلوغ الارب (١/٣٣٥) ، تاج العروس (٤/٢٢٢) ، (القلمس) .
٢ المحبر (١٥٦ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١/٣٢٣ وما بعدها) .
٤ المعارف (ص ٢٤٠) . Ency. IV, p. 173.
٥ المعارف (ص ٢٤٠) ، بلوغ الارب (١/٣٢٣ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (١/٣٢٣ وما بعدها) .
٧ المعارف (ص ٢٤٠) .

بقتله . وكان (عمرو بن علقمة) أجيراً لخداش بن عبدالله ، خرج معه الى الشأم ، ففقد خداش حبلاً ، فضرب عمراً بعصا ، فقضى عليه . فتحاكم (بنو عبد مناف) فيه الى الوليد بن المغيرة ، فقضى ان يحلف خمسون رجلاً من بني عامر بن لؤي عند البيت : ما قتله خداش ، فحلفوا، إلا حويطب بن عبد العزى . فإن أمه افتدت يمينه ، فيقال إن من حلف هلك ، قبل ان يحول عليه الحول[1] . وقد تحدثت عن هذه القصة في أثناء كلامي على «القسامة» . وذكر انه عرف بين قومه بـ (العدل)[2] .

وذكر ان (عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن النمر بن قاسط)، كان يجلس للناس في الضحى ، فيقضي بين المتخاصمين ، فسمي الضحيان[3] . وكان سيد قومه في الجاهلية وصاحب مرباعهم[4] . وكانت ربيعة تغزو المغازي وهو في منزله، فتبعث له نصيبه مما تصيبه ولنسائه حصة ، إعظاماً له[5] .

ومن حكم (مالك بن جبير العامري) قوله : « على الخبير سقطت »[6] . وهو مثل اشتهر وعرف بين العرب ، ولا زال الناس يتمثلون به .

وكان (نفيل بن عبد العزيز) من حكام قريش[7] . واليه تنافر (عبد المطلب) و (حرب بن أمية) ، فنفر عبد المطلب على حرب[8] . وأمه حبشية[9] .

وقد ذكر (أبو حنيفة الدينوري) اسم رجل من أهل الجاهلية ، قال عنه إنه كان فقيه العرب في الجاهلية ، وإنه كان من عدوان أو من إياد . قدم في قوم معتمراً او حاجاً ، فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم في نحر الظهيرة من أتى الى مكة غداً في مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين فصكّوا الإبل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغد في ذلك الوقت[10] .

١ الزبيري ، نسب قريش (٤٢٤ وما بعدها) .
٢ المحبر (١٣٢) .
٣ المحبر (١٣٥) ، الاشتقاق (٢/٢٠٢) .
٤ الاشتقاق (٢/٢٠٢) .
٥ نوادر المخطوطات ، أسماء المغتالين (١٢٢) .
٦ اللسان (٧/٣١٦) ، (سقط) ، بلوغ الارب (١/٢٣١) .
٧ الزبيري ، كتاب نسب قريش (٣٤٧) .
٨ المحبر (١٧٣ وما بعدها) .
٩ المحبر (٣٠٦) .
١٠ الروض الانف (١/٩٢) .

فالرجل المذكور ان صحت رواية (الدينوري) عنه ، فقيه من الفقهاء وحاكم كان بين الناس . ومعنى هذا وجود الفقه عند الجاهليين بالمعنى المفهوم من الكلمة في الإسلام .

وأكثر من ذكرت ، هم ممن أدركوا الاسلام ، وسمعوا بخبر الرسول . وقد زعم أن بعضهم عُمّر عدة مئات من السنين . ويظهر ان ذاكرة اهل الأخبار لم تع من اخبار الحكام الذين عاشوا قبل الاسلام بزمن طويل ، فاقتصر علمها على هؤلاء وأمثالهم ممن عاش في الفترة الملاصقة للإسلام .

وقد نسب أهل الأخبار الى الحكام المذكورين علم بأنساب الناس وأحسابهم ، كما نسبوا لهم الفصاحة والبلاغة والبيان . وكلها من مستلزمات ومن ضروريات الحاكم في ذلك الوقت . كان من واجبه العلم بأنساب الناس وأحسابهم ، لأن المنافرات والمفاخرات ، هي من اهم المحاكمات في ذلك الوقت . ولكي يكون حكم الحاكم فيها صحيحاً دقيقاً كان لا بد له من الوقوف على أحوال الناس وعلى مآثرهم ومفاخرهم في ذلك الوقت . وكان عليه أن يكون فصيحاً بليغاً ، لأن الناس كانوا يقيمون وزناً للكلام آنذاك ، ومن يحسن الاختيار في الكلام، ويحسن صياغة الكلم ، يكون ذا أثر فعال في نفوس المستمعين وفي اصدار الأحكام .

ويتبين من دراسة ما ينسب الى اولئك الحكام من أحكام (قريش) أي (مكة)، وكذلك حكام أهل المدن . كانوا حكاماً بالمعنى المفهوم من (الحاكم) ، فأحكامهم هي أحكام قانونية ، مقتبسة من منطق العدالة والحق . وهي تشريع مدني ينسجم مع التشريع المدني للأمم المتحضرة . وسبب ذلك على ما يظهر هو ان البيئة التي عاش فيها هؤلاء الحكام ، هي بيئة حضرية ، وقد كانوا أنفسهم من الحضر ، ولكثير منهم وقوف على أحوال الأمم الأخرى ، ولهم علم بالكتب وببعض اللغات الأعجمية وبالديانات وبالآراء ، وفي جملتها القوانين، فتأثروا أو تأثر بعضهم بتلك المؤثرات .

وقد روت كتب الأدب والأخبار بعض الأحكام التي حكم بها حكام العرب ، فصارت سنّة للناس نهجوا عليها ، منها . قطع يد السارق ، وقد زعموا ان اول من سن ذلك هو (الوليد بن المغيرة) او (عبد المطلب) ، فقطع رسول الله

في الاسلام[1] . والقسامة وقد حكم بها (الوليد بن المغيرة) كذلك[2] ، و (تحريم الخمر) وقد حكم بهذا التحريم جملة حكام، منهم (الوليد بن المغيرة) و(عبد المطلب)، و (المنع من نكاح المحارم) ، و(النهي عن قتل الموؤودة) ،وتحريم الزنا، وان لا يطوف انسان بالبيت عريان،وتنسب هذه الأحكام الى عبد المطلب[3] .

وذكر اهل الأخبار ان أول من ورّث البنات في الجاهلية، فأعطى البنت سهماً والابن سهمين (ذو المجاسد اليشكري)[4] .

وأنا إذ أذكر الأحكام التي حكمها حكام الجاهلية ، فاتبعت عندهم،لا أقصد انها صارت احكاماً عامة ، مشت بين جميع العرب ، فكلام مثل هذا،هو كلام مغلوط ، لا يمكن ان يقال ، على الرغم من التعميم الذي يذكره اهل الأخبار ، مثل قولهم (وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى ويصلبون قاطع الطريق)[5] . وقولهم (وكانوا يغتسلون من الجنابة)[6] ، وأمثال ذلك . فقد عودنا اهل الأخبار على هذا التعميم ، الذي أخذوه من أفواه الرواة دون نقد ولا تمحيص . وآية ذلك انهم يعودون فيناقضون أنفسهم وما قالوه في مواضع اخرى ، مما يدل على انهم نسوا ما قالوه سابقاً ، ولم يفطنوا الى هذا التناقض ، ولم يحاولوا نقد الروايات . ولهذا فحكمنا في هذه الأمور ، هو ان الأحكام المذكورة هي رأي واجتهاد، قد يتبعه بعض وقد يخالفه بعض آخر ، يكون اتباعه في الموضع الذي عاش فيه الحاكم. فأحكامهم لهذا أحكام محلية ، قد تصير عرفاً ، اذا انتزعت من صميم الواقع ومن عقلية المحيط .

القضاء بعكاظ :

وكانت سوق عكاظ مجتمعاً للتقاضي في الأمور المهمة عند الجاهليين . حتّى الشعر كانوا يتقاضون فيه ، يعرض شاعر شعره على الحكم ، ويعرض شاعر آخر

---

١ المعارف (ص ٢٤٠) .
٢ المعارف (ص ٢٤٠) ، بلوغ الارب (٣٢٣/١ وما بعدها) ، المحبر (٣٢٧) .
٣ بلوغ الارب (٣٢٣/١ وما بعدها) .
٤ المحبر (٣٢٤) .
٥ المحبر (٣٢٧) .
٦ المحبر (٣١٩) .

منافس له شعره عليه ، ثم يسمعان رأي الحكم في ايهما أشعر . وذكر ان القضاء بعكاظ كان لبني تميم . وقد جمعت تميم الموسم الى ذلك . وكان ذلك يكون في أفخاذها كلها . ويكون الرجلان يليان هذا من الأمرين جميعاً ، عكاظ على حدة والموسم على حدة . فكان من اجتمع له الموسم والقضاء (سعد بن زيد مناة بن تميم) ، ثم تولى ذلك (حنظلة بن زيد بن مناة) ، ثم تولاه (ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم) ، ثم (مازن بن مالك بن عمرو بن تميم) ، ثم (ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة) ، ثم (معاوية بن شريف ابن جُروة بن أسيد بن عمرو بن تميم) ، ثم (الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة) ، ثم (صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن اسيد) ، ثم(سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة). فكان سفيان آخر تميمي اجتمع له الموسم والقضاء بعكاظ . فمات سفيان ، فافترق الأمر ، فلم يجتمع الموسم والقضاء لأحد منهم حتى جاء الاسلام . فكان (محمد ابن سفيان بن مجاشع) يقضي بعكاظ . فصار ميراثاً لهم . فكان آخر من قضى بينهم الذي وصل الى الاسلام (الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان).

وأجاز بالموسم بعد (صلصل بن أوس) ، (العلاقُ بن شهاب بن لأي) من بني (عُوافة بن سعد بن زيد مناة) . فكان آخر من أفاض بهم (كرب ابن صفوان بن جناب بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة)[1] . وله يقول أوس بن مغراء القريعي :

ولا يريمون في التعريف موقفهم حتى يقال : أجيزوا آل صفوانا[2]

ويتبين مما تقدم ، ان القضاء بعكاظ كان حقاً من حقوق (تميم) لا ينازعهم في ذلك منازع . اذا هلك قاض اخذ مكانه ابنه او رجل آخر من الأسرة التي اختصت بالقضاء بين الناس ، والتي كان لها امر (الحكومة) ، فنحن هنا إذن امام اناس تخصصوا بأمور القضاء بين الوافدين الى عكاظ ، ممن كان عندهم امر معضل ، ثم يريدون حله وفضه . ولا بد لمثل هذا الحاكم من ان يكون محترم الجانب ، مهاب المكانة ، واقفاً على الأحساب والأنساب واحوال الناس وعلى الأعراف حتى يحترم قراره ويطاع .

١ وقيل « صفوان بن الحارث » ، ابن هشام (٧٧) .
٢ المحبر (١٨١ وما بعدها) .

ولا بد وان يكون لتميم نفوذ في هذه الأرضين،اكسبها حق الحكومة بعكاظ ، ولا بد ان يكون نفوذ بمكة وعند قريش ، جعل لها الموسم . فرئاسة الموسم،من الرئاسات الكبيرة ذات الشأن عند قريش ومن هم في جوارهم، ولا يعقل تسليمها لتميم لو لم يكن لها نفوذ سابق بمكة وصلات شديدة بقريش . صلات تتجلى بالتصاهر الموجود بين قريش وتميم . ومن يدري فلعل تميماً كانوا بمكة،ثم ارتحلوا عنها الى مواضع اخرى ؟

ولا استبعد احتمال جلوس الحكام في الأسواق الأخرى للحكم بين الناس فيما يقع بينهم من خلاف ، في امور السوق من بيع وشراء واختلاف على سلع ، او من تنافر او من تخاصم وتنازع . فهذه الأسواق هي مواسم يلتقي فيها من يتعامل بها من الناس ، فيجدون فيها فرصة لحل ما بينهم من خلاف ، فيلجأون الى من يكون في السوق من الحكام ، للحكم بينهم . وقد يتولى الفصل في الخصومات الناشئة عن التعامل والتبايع حكّام السوق،وهم الذين يتحكمون في السوق،ويشرفون عليها ويتقولون جبايتها والمحافظة على أرواح من يحضرها من الناس .

وقد تقع مظالم في هذه الأسواق وفي غيرها ، فعلى الحكام اخذها من الظالم وإرجاع الظلامة الى من وقعت عليه . والظلامة ما تطلبه عند الظالم[1] . ويطالب المظلوم بظلامته مطالبة اهل الثأر بثأرهم ، ويعدون الظلم نقصاً يلحق بمن وقع الظلم عليه . وإذا لم ينصف لجأ الى اهله وابناء عشيرته لنصرته ومعاونته على اخذ حقه من المظالم . فكانت الأسواق من المجتمعات المناسبة للنظر في المظالم .

---

١ تاج العروس (٨/٣٨٤) .

الفهرست

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

الجزء السادس

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

المفصَّل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء السادس

○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الحادي والستون

أديان العرب

والعرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب الأخرى تعبدوا لآلهة ، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان ، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق ، ووضعوا لها أسماء وصفات ، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم ، سلكوا في ذلك جملة مسالك ، هي ما نسميها في لغاتنا بالأديان .

وتقابل كلمة (دين) العربية لفظة Religion في الانكليزية من أصل (لاتيني) هو Religere أو Religare . وآراء العلماء المعنيين بتأريخ الأديان وفلسفتها على اختلاف كبير جداً في وضع حد علمي مقبول بين الجميع لموضوع الدين ، وربما لا يوجد موضوع في العالم اختلفت في تحديده الآراء كهذا الموضوع : موضوع ماهية الدين وتعريفه ، حتى صار من المستحيل وضع إطار يتفق عليه لصورة يجمع على أنها تمثل الدين . والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله كاتب ، هو أن يكتب رأيه بوضوح فيما يعنيه من (الدين) ، فإذا فعل ذلك ، صار من المعروف ما قصد صاحبه منه [1] .

وقد عرّف بعض العلماء الدين أنه إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر، يكون لها أثر في حياة هذا الكون [2] . وعرفه آخرون أنه استمالة واسترضاء

---

١ Sir James G. Frazer, The Golden Bough, A Study in Magig and Religion, Vol.. I, p. 50, Abridged Edition, London, 1947.

٢ E.B. Tylor, Primitive Culture, I, p. 424, Ency. Brita. Vol. 19, p. 103.

لقوى هي فوق البشر ، يؤمن أنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الانسان [1].
وهو عند بعض آخر شعور وتفكير عند فرد أو جماعة بوجود كائن أو كائنات إلهية ، والصلة التي تكون بين هذا الفرد أو تلك الجماعة وبين الكائن أو الكائنات الإلهية [2] . وهو يطلق بهذا الاعتبار على الإسلام كما يطلق على اليهودية والنصرانية وعلى المجوسية وعلى غيرها من أديان سواء أكانت سماوية أم غير سماوية كما يصطلح على ذلك بعض العلماء .

وهناك تعريفات وحدود كثيرة أخرى للدين،نشأت من اختلاف أنظار الباحثين بالقياس الى مفهوم الدين . فهناك مسائل كثيرة مختلف فيها : هل تدخل في نطاق حدود الدين أو لا كما ان مفهومه قد تغير عند الغربيين باختلاف العصور [3] .

وليس من السهل وضع حدود معينة لمعنى الدين ، فإن وجهات نظر الأديان نفسها تختلف في هذا الباب . وللدين في نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف كل الاختلاف عن مفهوم الدين عند غيرهم ، ومفهومه في نظر الأقوام المتقدمة يختلف باختلاف دينها وباختلاف وجهة نظرها الى الحياة . وهناك أمور تدخل في حدود الدين عند بعض أهل الأديان ، على حين انها من الأمور الأخلاقية أو من أمور الدولة في نظر بعض آخر ، ومن هنا تظهر الصعوبات في تعيين المسائل التي تعدّ من صلب الدين في نظر الجميع [4] .

وللدين مهما قيل في تعريفه ، شعائر تظهر على أهله ، فتميزهم عن أتباع الديانات الأخرى، كما في العبادات والمأكولات والمعابد واللغات وما شاكل ذلك [5] ، ولهذه الأمور أثر بالطبع في النواحي الاجتماعية والثقافية ، إذ تطبع أتباع الدين بطابع مميز خاص .

وقد زعم بعض المستشرقين ان لفظة (الدين) من أصل أعجمي ، وانها من

---

١ The Golden Bough, Vol. I, p. 222, Abridged Edition, p. 50.

٢ H. Schmidt, Philosophische Wörterbuch, S. 551.

٣ Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol. 10, p. 662, Art. Religion, Encyclopaedia of Social Sciences, Vol. 13-14, p. 228, Ency. Brita., Vol., 19, p. 103, Friess and Schneider, Religion in Various Cultures, New York, 1932.

٤ Ency. Relig., Vol. 10, p. 263, Ency. of Social., Vol. 13-14, p. 228.

٥ Ency. Relig., Vol. 10, p. 663.

الألفاظ المعربة ، أصلها فارسي هو (دَيْنا) Daena[1] . وقد دخلت في العربية قبل الاسلام بمدة طويلة . وترد لفظة (دين) بمعنى الحشر في الإرمية والعبرانية كذلك . وهي (دينو) في الإرمية . وتقابل لفظة Daino الإرمية لفظة الديان في العربية . وهي بمعنى القاضي في هذه اللغة . وتعني لفظة (دين) القضاء في اللغة البابلية . و (ديان) (ديونو) Dayono ، الحاكم والمجازي والقاضي في لغة بني إرم[2] . وهي بهذا المعنى في العربية أيضاً[3] .

والدين في تعريف علماء اللغة : العادة والشأن . تقول العرب : ما زال ذلك ديني وديدني ، أي عادتي . والدين بمعنى الطاعة والتعبد . وقد ورد في الحديث: (كان على دين قومه) ، أي كان على ما بقي فيهم من إرث ابراهيم ، من الحج والنكاح والميراث ، وغير ذلك من أحكام الايمان . وجاء : (كانت قريش ومن دان بدينهم ،أي اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه،واتخذ دينهم له ديناً وعبادة)[4] .

ومن (دين) الديّان ، بمعنى الحكم القاضي والقهار . ومن ذلك مخاطبة (الأعشى الحرمازي) الرسول بقوله :

يا سيد الناس وديّان العرب .

والديان : الله ، ومن أسماء الله[5] .

وقد وردت هذه اللفظة في المعنى المفهوم منها في الاسلام في بيت شعر ينسب الى أميّة بن أبي الصلت ، هو :

كلّ دين يوم القيامة عند الله إلاّ دين الحنيفة زور[6]

---

١ Handwörterbuch des Islams, S. 98, Grundriss, der Iran. Philoso. I, I, S. 107, 270, I, 2, S. 26, 170, II, S. 644, Juynboll, Handbuch des Islamischen Gesetzes, S. 40, 56, Schorter Ency. of Islam, p. 78, Ency. I, p. 975, Zeitscher. fur Assyr., Bd., XIV, S. 351.

٢ برصوم (ص ٦٠) ، غرائب اللغة (١٨٢) .

٣ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) .

٤ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) ، تاج العروس (٩/٢٠٨ وما بعدها) ، (ديـن) .

٥ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) ، تاج العروس (٩/٢٠٨ وما بعدها) ، (ديـن) .

٦ الاغاني (٤/١٢٢) ، (دار الكتب المصرية) .

غير أننا لا نستطيع أن نحكم بورودها في شعر أمية ما لم نثبت أن ذلك الشعر هو من شعره حقاً ، وأنه ليس بشعر إسلامي صنع ووضع على لسانه ، فقد وضعت أشعار وقصائد على لسانه وعلى لسان غيره من الشعراء .

ووردت بهذا المعنى أيضاً في النصوص الثمودية . وردت في نص سجله رجل من قوم ثمود ، توسل فيه إلى الإله (ودّ) ، أن يحفظ له دينه ، (ا ل هـ د ي ن ي ق . ي د)[1] ، ووردت في نص آخر جاء فيه : (بدين ود امت)[2] ، أي (بدين ودّ أموت) ، أو (على دين ودّ أموت) . فاللفظة إذن من الألفاظ العربية الواردة في النصوص الثمودية ، وقد يعثر عليها في نصوص جاهلية مدوّنة بلهجات عربية أخرى .

ويصنف بعض العلماء ، الأديان ، الى صنفين : أديان بدائية Primitive Religions ، وأديان عليا The Higher Religions ، غير أن هذا التقسيم لا يستند الى التسلسل الزماني ، وإنما يقوم على أساس دراسة أحكام الدين وعقائده وعمق أفكاره . فالأديان التي تقوم على أفكار بدائية وعلى السحر Magic وعلى المبالغة في التقديس وتقديم القرابين Sacred ، والتي تنحصر عبادتها بأفراد قرية أو قبيلة واحدة ، وأمثال ذلك مما يشرحه علماء تأريخ الأديان وعلماء فلسفة الأديان ، هي من أديان الصنف الأول . فإذا توسع مجال الدين وشمل قبائل عديدة ، وتعمق في أحكامه وفي تشريعه وفلسفته ، وصار الإله أو الآلهة إلهاً ذا سلطان واسع أو آلهة ذات سلطان واسع عدّ الدين من الأديان العليا[3] .

وأما تقسيم الأديان الى أديان قبيلية Tribal Religions ، و (أديان قومية) National Religions ، وأديان مطلقة عامة (Universal Religions (Absolute Religions) ، فإنه ، وإن كان تقسيماً واضحاً ظاهراً بالقياس الى الطرق الأخرى لتقسيم الأديان ، يرد عليه أنه تقسيم بني على أسس وحدود ليست لها أرض صلبة في جوهر الدين وأركانه ، فهو بعيد عن المبادىء الأساسية التي تجب مراعاتها في تقسيم كل علم أو موضوع[4] . كذلك تجابه التقسيم الثلاثي للأديان الى (أديان

---

١ Grimme, S. 34, 40.

٢ Mu 646/17, Grimme, 40.

٣ ENCY. BRITA., Vol. 19, p. 107.

٤ Ency. Brita. Vol. 19, p. 111.

الطبيعة) Nature Religion . و(ديانة الشريعة) Geztzes Religion ، و(ديانة الخلاص) Erlosungs Religion عند بعض العلماء الألمان صعوبات كبيرة تجعل السير على أساسه في دراسة تطور الدين أمراً عسيراً شاقاً[1] .

وتستند دراسات علماء تأريخ الأديان لتطور الأديان والأدوار التي مرت بها الى دراسة أمور كثيرة تأريخية ونفسية واجتماعية واقتصادية،ولهم في ذلك جملة طرق ، منها طريقة الدراسات المقارنة The Comparative Method ، وهي تعتمد كما يتبين من اسمها على المقارنات بين الأديان ، فتتناول جميع النواحي بالبحث ، لتجد ما بينهـا من مطابقات ومفارقات . ومنهـا طرق البحث التأريخـي والاجتماعي Historical and Sociological Methods وتستند الى الدراسات التأريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والعوامل الأخرى ، للنـاس وللمنطقة التي عاشوا فيها ، وأثر كل هذه العوامل في نمو الأفكار الدينية وظهورها . وطـرق عديدة أخرى تذكر في كتب تواريخ الأديان[2] .

وقد تقدمت دراسة تأريخ الأديان تقدماً كبيراً ، ولا سيما بعد اتبـاع أساليب الطرق التجريبية والبحوث المقارنة والتحليل النفسي في هذه الدراسة . وظهر بحث جديد شائق طريف ، هو (فلسفة الدين) The Philosophy of Religion ،أفاد كثيراً في معرفة دراسة تطور الأديان ومبادئها الأساسية ، كما ظهرت فروع أخرى كهذا الفرع لها صلة بدراسة الدين وتقدمه ، كالفرع النفسي الذي يعتمد عـلى الدراسات النفسية للدين ، وهو فرع نستطيع أن نسميه بـ (علم النفس الديني) The Psychology of Religion في الانكليزية و Religionspsychologic في الألمانية[3] . وكالفرع الذي يعتمد على أساليب بحث الاجتماع وطرقه لدراسة الدين باعتبار أن الدين نفسه ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية[4] .

وهناك عوامل عديدة لها أثرها في تطور الأديـان ، وفي (تكييفها) ، منها أثر (العوامل الطبغرافية)Topographic Factors . وأثر (المحيط) Climatic Factors

---

١ Philosophische Wörterbuch, S. 552.

٢ Ency. Relig., 10, p. 964.

٣ Strattons, Psychology of he Religious Life, 1911, Ency. Brita., 19, p. 111, Schmidt, S. 554.

٤ Schmidt, S. 554, J. Wach, Einfuhrung in die Religion, 1941.

وأثر الحالات النفسية في تكييف الدين ، وفي تصور الناس لآلهتهم . ولهذا تصور اليونان مثلاً آلهتهم على شاكلتهم ، تصوروها ذات أخلاق وصفات تشبه أخلاق البشر وصفاتهم ، تتخاصم وتتصادق وتتباغض وتحسد بعضها بعضاً ، تشرب الخمر وتحزن وتفرح ، وتسرق أيضاً . ونجد في الـ (ايدا) Edda نفسية الشعوب الشمالية الأوروبية ممثلة في الأساطير التي تتحدث عن الآلهة والأبطال[1] .

ويظهر أثر العوامل المذكورة في الديانة الهندية القديمة ، وهي من الديانات الآرية ، وفي الديانة المجوسية ، وهي من أهل السهول وديانات أهل الجبال ، وبين ديانات الساميين الشماليين وديانات الساميين الجنوبيين ، يظهر في الأساطير (Mythlogy) وفي تصور الآلهة وتقديمها وتأخيرها وما شابه ذلك من أمور[2] .

ولشكل المجتمع أثره كذلك في تطوير الدين وفي أحكامه . فمجتمع يقوم على الزراعة يختلف في تفكيره عن مجتمع يعيش على الصناعة أو على الرعي في بواد واسعة ، كذلك للسياسة ولأشكال المجتمعات السياسية دخل في تطور الأديان . وقد كان التعاون وثيقاً جداً في الأيام الماضية خاصة بين السلطات الزمنية وبين السلطات الدينية حتى كان الحكام الزمنيون كهاناً في كثير من الأوقات ، كما حدث أن وقع الاختلاف بين السلطتين أدى الى حدوث تغيير في عقيدة الحكومة أو أكثرية الشعب .

وطالما أدى قهر مدينة أو قبيلة أو شعب الى قهر آلهتها معها وموتها ، والى عبادة آلهة القاهرين المتغلبين باعتبار أنها أقوى وأعظم شأناً من آلهة المغلوبين التي لم تتمكن من حمايتهم من تعديات الغالبين . وقد تبقى تلك الآلهة فتندمج في آلهة المغيرين ، فيزداد بذلك العدد ، وتتعدد الآلهة ، وتختلط الأساطير بعضها ببعض وتتداخل . ولهذه الناحية أهمية كبيرة في تحليل عناصر هذه الأساطير ، ورجْعها الى منابعها الأولى . كذلك يكون للجوار وللصلات التأريخية والروابط الثقافية أثر في ديانات الشعوب وفي (تكييفها) ويكون للثقافة خاصة أثر بارز في هذا التوجيه.

غير أن للأديان كذلك أثرها في توجيه الأفراد والقبائل والشعوب ، وفيما ينتج عن عمل الإنسان من مجتمعات وسياسة وثقافة واقتصاد[3] . فهذه نواح يجب أن

---

١ Ency. Social.. 13-14, p. 232.

٢ Ency. Social. 13-14, p. 232.

٣ Ency. Social. 13-15, pp. 234.

تلاحظ كلّها في دراستنا لتأريخ الأديان . هذا ويجب ألاّ نتصور أن أديان العرب قبل الإسلام لم تتأثر بمؤثرات خارجية ، فلم تأخذ من الأمم والشعوب التي اتصلت بها شيئاً ، جرياً على نظرية القائلين بعزلة العرب وبعدم اتصالهم بالخارج ، وبأنهم بدو ، لا علم لهم ولا رأي ولا دين . وهي نظرية نشأت عن عدم وقوف القائلين بها بأحوال العرب قبل الإسلام . وإذا وافق أولئك على أن اليهودية والنصرانية كانتا في جزيرة العرب قبل الإسلام كما نص على ذلك القرآن الكريم ، وأن من العرب من كان على دين يهود ، وأن منهم من كان على دين النصارى ، فلن يستطيعوا إنكار ورود اليهودية والنصرانية الى العرب من الخارج بعمل الهجرة والتبشير والاتصال بفلسطين والعراق . وسيوافقون أيضاً على أن الوثنيين قد تأثروا كذلك بوثنية غيرهم، كما نص على ذلك الاخباريون وانهم أثروا في غيرهم أيضاً .

إن معارفنا عن أديان العرب قبل الاسلام مستمدة في الدرجة الأولى من النصوص الجاهلية بلهجاتها المتعددة من معينية وسبئية وحضرمية وأوسانية وقتبانية وثمودية ولحيانية وصفوية ، وهي نصوص ليس من بينها نص واحد وياللأسف في أمور دينية مباشرة ، مثل نصوص صلوات أو أدعية دينية أو بحوث في العقائد وما شابه ذلك . غير أن هذه النصوص المذكورة، ومعظمها كما قلت سابقاً في أمور شخصية، حوت مع ذلك أسماء آلهة ذكرت بالمناسبة ، وبفضلها عرفنا أسماء آلهة لم يصل خبرها الى علم الأخباريين ؛ لأن ذكرها كان قد انطمس وزال قبل الإسلام . ومن هذه النصوص استطعنا أن نستخرج آلهة القبائل العربية القديمة ، وأن نرجعها الى المواضع التي كانت تتعبد بها لها ، وأن نعين العصور التي كان الناس فيها يتعبدون لها على وجه التقريب .

كذلك تعدّ الكتابات والنقوش المدوّنة ببعض اللغات الأعجمية كالآشورية والعبرانية واليونانية واللاتينية ولغة بني إرم ، مورداً مفيداً لمعرفة أديان العرب قبل الإسلام بعد النصوص العربية . فقد وعت أسماء أصنام قديمة نصت عليها ، وبذلك ساعدتنا في الوقوف على عبادتها وعلى من تعبّد لها من قبائل .

وأما أديان العرب قبيل الاسلام وعند ظهوره ، فالقرآن الكريم هو مرجعنا في هذا الباب . ففيه ذكر لما كان عليه الناس ولا سيما أهل مكة ويثرب والحجاز من عبادات وآراء ، وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل .

وفي تفسير القرآن الكريم تفصيل وشرح لما جاء موجزاً في الآيات البينات، ويضاف الى ذلك ما ورد عن هذا الباب في الحديث .

وفي الشعر المنسوب الى الشعراء الجاهليين إشارات الى بعض عقائد الجاهليين ، والى بعض الأصنام ، تعرّض لها شرّاح الدواوين بالمناسبات،وترد هذه الاشارات في القصص المروى عن أخبار الجاهلية وعن أنساب قبائلها وأيامها وأمثال ذلك وفي كتب الأدب واللغة والمعجمات ، وهي تعيننا بالطبع على زيادة مادتنا في هذا الموضوع .

ويضاف الى ذلك ما ورد في كتب السير والمغازي وفي كتب التواريخ من كتب خاصة مثل تأريخ مكة ، ومن كتب عامة عن عبادات القوم قبل الوحي وفي أثناء الوحي وعن أمر الرسول بتحطيم الأصنام والأوثان . وقد ورد بهذه المناسبة أوصاف بعضها ، وذكرت بعض المواضع التي كانت قائمة فيها ، والقبائل التي كانت تتعبد لها ، وما أدير حول بعضها من قصص ، أو ما قيل عنها في الجاهلية وفي تحطيمها من أقوال .

ومما يجب علينا ملاحظته ، ان الشعر الجاهلي الذي أمدّنا بفيض من معارف قيّمة عن الجاهلية القريبة من الاسلام ، لم يمدنا بشيء مهم عن الحياة الدينية عند الجاهليين ، فكأنه أراد مجاراة من دخل في الاسلام في التنصل من أيام الجاهلية ومن التبرؤ منها ، ومن غض النظر عن ذكر أصنام حرمها الاسلام . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان رواة الشعر في الاسلام ، قد أغفلوا أمر الشعر الجاهلي الذي مجّد الأصنام والوثنية ، وأهملوه ، فلم يرووه ، فمات ، وان بعضاً منهم قد هذب ذلك الشعر وشذبه ، فحذف منه كل ما له علاقة بالأصنام والوثنية ، ورفع منه أسماء الأصنام ، وأحلّ محلها اسم الله ، حيث يرد اسم الصنم . فما فيه اسم الله في الشعر الجاهلي ، كان اسم صنم في الأصل .

وقد ألّف بعض العلماء مؤلفات خاصة في الأصنام ، وصل الينا منها كتاب (الأصنام) لابن الكلبي[1] . أما المؤلفات الأخرى ، فلم يصل الينا منها إلا الاسم.

---

١ « كتاب الاصنام » بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٥ م الطبعة الثانية ، « مطبعة دار الكتب المصرية » ، وسيكون رمزه : الاصنام . وقد طبع الكتاب مرارا ، وترجم الى الانكليزية والالمانية والى لغات أخرى .

وممن ألّف في هذا الموضوع أبو الحسن علي بن الحسين بن فضيل بن مروان[1] ، والجاحظ[2] . وقد استفاد ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) من كتاب (الأصنام) لابن الكلبي ، وأورد ما أخذه منه في الكتاب . أمـا النسخة التي اعتمد الحموي عليها ، فكانت بخط عالم مشهور وبروايته هو الجوالقي[3] .

وقد تعرض ابن الكلبي لذكر الوثنية والأصنـام في مؤلفاته الأخرى عرضاً ، وأشار (ياقوت الحموي) في بعض المواضع الى روايات أخرى لابن الكلبي عن الأصنام ، ذاكراً انها ليست من كتاب (الأصنام) . كما استقى من منبع آخر ، هو محمد بن حبيب[4] .

وقد ألّف أبو عبدالله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع كتاباً في أديان العرب وآرائهم ، اسمه (آراء العرب وأديانها) ، وقف عليه ابن أبي الحديد ، وأشار الى بعض هفوات رآها فيه[5] . وللجاحظ مؤلف اسمه (أديان العرب) استفاد منه أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني[6] .

وبالرغم من فضل من تقدم ممن ذكرت وممن لم أذكر ، على دارس التأريخ الديني للجاهليين فإنهم عفا الله عنهم ، لم يتعمقوا تعمقـاً كافياً في بحوثهم عن الوثنية ، ولم يتحرشوا بها في الغالب ، إلا بسبب اتصالهـا بالاسلام ، ثم إن في كثير مما ذكروه عن الوثنية طابع السذاجة وأسلوب الصنعة . وهو في أحوال الوثنية في الحجاز وعند القبائل التي ورد لها ذكر في حوادث الاسلام في أيام الرسول ، في مثل قدوم وفود سادات القبائل على النبي ، وأمر الرسول بتحطيم الأصنـام . ولهذا لا تجد للوثنية في بقية مواضع جزيرة العرب ، مكاناً فيما كتبه أولئك العلماء

---

١ « كتاب الاصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبـارك اسمـه » ، الفهرست (ص ١٢٥) ، الاصنام (٢٣) ، « الرد على عبدة الاوثان » ، معجـم الادباء (١/١٣٢) .

٢ الاصنام (٢٣) ، وقد نقل منه (النويري) في كتابه نهاية الارب (١٦/١٥) ، (فهو ما نقله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – رحمه الله – في كتاب له سماه : كتاب الاصنام ، قال فيه ...) .

٣ الاصنام (٢٤) .

٤ J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, S. 12.
وسيكون رمزه : Reste

٥ بلوغ الارب (٢/٣٠٨) .

٦ Brockelmann, Suppl.. I, S. 916.

عن الأصنام والأوثان أو الزندقة . ثم ان في الذي ذكروه وكتبوه تناقض محير ، وتنافر عجيب ، يجعلك تشعر ، ان رواة تلك الأخبار ، لم يكونوا يملكون يومئذ أدوات النقد لصقل ما سمعوه من أفواه الرواة ، وما نقلوه عمن أدرك الجاهلية من أقوال ، أو انهم كانوا يعمدون الى الوضع أحياناً : لصنع أجوبة عن أسئلة وجهت اليهم في أمور لم يأتهم علم بها من قبل .

خذ ما ذكره (الطبري) في تفسيره عن اللات والعزى ومناة ، تجده يروي أقوالاً ذكر سندها تتناقض فيما بينها بشأن هذه الأصنام ، وبشأن بيوتها ومواضعها ، مما يدل على أن رواة تلك الأخبار لم يكونوا على علم بأخبارها ولا وقوف على حقيقتها ، بدليل أن كل واحد منهم ناقض غيره فيما قاله ، وأن أحدهم يذكر خبراً ثم يعود فيذكر ما يناقضه[1] . حدث كل ذلك في أمور كانت باقية الى ما بعد فتح مكة ، فكيف حالهم اذن في الأمور البعيدة نوعاً ما عن الاسلام .

ولا تتناول الموارد الإسلامية بعد ، إلا الوثنية القريبة من الإسلام والوثنية التي كانت متفشية بين قبائل الحجاز في الغالب ، وبين القبائل التي اعتمد عليها رواة الأخبار في جمع اللغة والأخبار. لذلك لا نجد فيها ذكراً للوثنية البعيدة عن الاسلام ، فلم يرد فيها مثلاً أي شيء عن (المقه) إله سبأ الأكبر ولا عن بقية الآلهة العربية الجنوبية الكبيرة مثل (عثتر) ، وعن دين العرب الجنوبيين وشعائرهم ، ولا عن معبودات قبائل العربية الشرقية : أو قبائل العراق أو بلاد الشأم في الأزمنة البعيدة أو القريبة من الإسلام .

وأما أخبارها عن اليهودية والنصرانية ، فقليلة جداً ، قصتها وروتها لما لها من تماس وصلة بما جاء في القرآن الكريم ، أو لما لها من علاقة بأيام الرسول . ولهذا صارت خرساء صامتة بالنسبة الى أحوال أهل الكتاب في بقية أنحاء جزيرة العرب أو في العراق وفي بلاد الشأم . فلم تتحرش بهم إلا بقدر . وبسبب ذلك صارت معارفنا عنهم قليلة جداً . وقد كان في إمكان أهل الأخبار جمع معلومات واسعة عن النصرانية في العراق قبل الإسلام ، برجوعهم الى رجال الدين النصارى الذين كانوا في الحيرة وفي مواضع أخرى من العراق ، وهم رجال لهم علم واسع بهذه الأمور ، لكن اختلافهم عنهم في الدين على ما يظهر ، وانصرافهم إذ ذاك

---

١ تفسير الطبري (٣٥/٢٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٥٥/٤) ، (عزز) .

عن رواية كلّ ما يتعلق بالأمور الجاهلية خلا ما يتعلق بالنواحي القبلية وبالنواحي الأدبية واللغوية ، كانا من العوامل الـتي أدت الى غض نظرهم عن البحث في هذه الأمور .

وبفضل إقرار الاسلام لبعض أحكام وشعائر الجاهليين ، استطعنا الوقوف على جانب من أحكامهم وشرائعهم . فعرفنا بذلك بعض شعائر الحج من حجّ مكة ، وبعض أحكامهم وآرائهم في الدين ووجهة نظرهم الى الحلال والحرام ، والتقرب الى بيوت الأرباب وغير ذلك . وما كان في وسعنا الوقوف عليهـا لولا تعرض الإسلام لها بالإقرار والتثبيت ، أو بالتحريم والنهي،فأشير الى كلّ ذلك في القرآن الكريم وفي كتب التفسير وأسباب النزول والحديث .

وقد عُني المستشرقون بهذا الموضوع ، فكتبوا بحوثاً فيه. ومن هؤلاء (ولهوزن) J. Wellhausen صاحب كتاب(بقايا الوثنية العربية) Arabischen Heidentums [1] و (دتلف نيلسن) Ditlef Nielsen [2] و (لودولف كريـل) Ludolf Krehl وغيرهم[3] .

وقد اعتمد (ولهوزن) على ما نقله (ياقوت الحموي) من كتاب الأصنام ومن غيره،ذلك لأن كتاب الأصنام لم يكن مطبوعاً ولا معروفاً ايام ألف (ولهوزن) كتابه عن الوثنية العربية .

ويعدّ كتاب (ولهوزن) أوسع مؤلف في موضوعه كتبه المستشرقون عن الوثنية العربية . وقد كتب المستشرقون حديثاً جملة بحوث عن الأصنام العربية الّتي عثر عليها في الكتابات فاتّ ذكرها في كتـاب (ولهوزن) ، لأن أكثر النصوص الجاهلية لم تكن قد نشرت يومئذ ، ولأن كثيراً منها قد نشر حديثاً ، فلم يكن في استطاعة (ولهوزن) بالطبع أن يبحث في شيء من التفصيل في الوثنيـة ببلاد العرب الجنوبية . لذلك كان أكثر ما جاء في كتاب (ولهوزن) مستمداً من روايات

---

١ استعملت الطبعة الثانية ، وقد طبعت ببرلين سنة ١٩٢٧ م .

٢ Ditlef Nielsen, Die Altorabische Mondreligeon und die Mosaische Meberlieferung, Strassburg, 1904.

٣ Ludolf Krehl, über die Religion der Varislamishen Araber, Leipzig, 1863.
اذا أردت أسماء بعض المراجع عن هذا الموضوع ، فارجع الى :
D. G. Pfannmüller, Handbuch der Islam — Literatur, 1923.

الأخباريين . فمن الضروري اضافة هذه البحوث الجديدة الى ما كتبه هو وأمثاله، لنحصل على صورة شاملة عن أديان العرب قبل الاسلام .

وتفيد الأعلام الجاهليـــة المركبة Theophorus Names المدوّنـــة في النصوص الجاهلية وفي الموارد الاسلامية فائدة كبيرة في معرفة الأصنام ، وفي تكوين فكرة عنها . ففيها أسماء آلهة ، وفيها بعض الصفات الإلهية التي كان يطلقها الناس على آلهتهم . ونجد هذه الأسماء المركبة عند بقية الشعوب السامية كذلك . ومن مقارنة هذه الأسماء بعضها ببعض ، استخرج العلماء آلهة اشترك في عبادتها جمع الساميين[1].

ونعني بـ Theophorus Names الاعلامَ المركبة من أسماء آلهـــة ومن كلمات أخرى مثل (عبد) و (عطيـــة) و (امرىء) و (أوس) و (عائذ) و (جار) و (عوذ) و (وهب) . ترد قبل اسم الإلـه أو بعده ، فيتألف منها ومن أسماء الآلهة أسماء أعلام ، مثل عبد الأسد، وعبد الله ، وعبد سعد، وعبد العزّى ، وعبد محرق ، وعبد ذي الشرى ، وعبد يغوث ، وعبد ودّ ، وعبد قيس ، وعبد شمس ، وامرىء القيس ، وأمثال ذلك من أعلام .

ومعظم هذه الأعلام المدونة في مؤلفات الاسلاميين ، أسماء أشخاص عاشوا في الجاهلية القريبة من الاسلام ، حفظتها ووعتها ذاكرة الرواة ، ومنهم تناقلها أهل الأخبار . والغالب عليها الابتداء بكلمـــة (عبد) للرجال و (أمت) أي أمة للنساء ، ترد قبل اسم الصنم . أما الأسماء المبتدأة بكلمات أخرى غير (عبد) ، فمثل (أحمس الله) و (امرىء مناة) ، و (امرىء القيس) ، و (أنس الله) و (أوس الله) ، و (تيم اللات) ، و (خيليل) ، و (زيد اللات) ؛ و (زيد مناة) ، و (سعد اللات) ، و (سعد مناة) ، و (سعد ودّ) و (سعد العشيرة) ، و (سكن اللات) ، و (سلم اللات) ، و (شراحيل) و (شرحيل) ، و (شرحبيل) ، و (شكم اللات) ، و (شهميـــل) ، و (شيع القوم) ، و (عائذ الله) ، و (عمرو اللات) ، و (عوذ مناة) و (عينيل) ، و (قسميل) ، و (مطرويـــل) ، و (وهب اللات) . وهي قليلة من حيث الاستعمال بالقياس الى الأعلام المبتدأة بـ (عبد)[2] .

---

١ Dr. H. Brau, Die Altnordarabischen Kultischen Personennamen, in WZKM, Bd. 32, 1925, S. 31. ff. 85. ff. Reste, I. ff, Ency., Religi.. I p: 659

٢ Reste, S. I.

ويلاحظ على بعض الأعلام المركبة ، مثل عمرو اللات ، وعوف إيل ، وجد اللات ، وسعد مناة ، وودّ ايل ، ان الكلمات الأولى من هذه الأسماء تتأخر في أعلام أخرى ، فتسبق بكلمة توضع قبلها فيتكون منها علم مركب جديد كما في الأسماء الآتية : عبد عمرو ، وعبد عوف ، وعبد جدّ ، وعبد سعد ، وعبد ودّ ، وقد كانت متقدمة في الأعلام الأولى . أما في هذه الأعلام فصارت في المنزلة الثانية .

وهذه الأسماء التي حفظتها ذاكرة أهل الأخبار ، تخالف أكثر الأعلام العربية والسامية القديمة المدوّنة في النصوص وفي مؤلفات اليونان والرومان والسريان وغيرهم من حيث الصيغ والتراكيب . فقد ابتدأت هذه الأعلام كما رأينا بكلمات تلتها أسماء الآلهة . أما الأعلام القديمة ، فقد كانت على العكس تبدأ باسم الصنم، وبعده الألفاظ الأخرى ، مثل : (الشرح) (ايل شرح) و (اليفع) (ايل يفع) و (الذرح) (ايل ذرح) و (الكرب) (ايل كرب) و (السمع) (ايل سمع) و (اليثع) (ايل يثع) وأمثال ذلك . أو تبدأ بكلمات ثم تليها أسماء الأصنام ، إلا أنها ليست في حالة الإضافة، بل على صورة الإخبار والفاعلية، مثل (يذكر ايل) و (يثع ايل) و (يدع ايل) و (يشرح ايل) و (يسمع ايل) . و (ايل) (ال) هنا هو اسم الإلـه (ال) (ايلو) المعروف عند جميع الساميين[1] .

وقد يوضع حرف الجر ، وهو (اللام) (لامد) في الاسم ، ليدل على تعلق الاسم بالإلـه ، مثل (لحي عثت) في النصوص العربية الجنوبية ، وقد عثر على طائفة من هذه الأعلام في الكتابات الفينيقية والعبرانية[2] .

وقد تهمل الكلمة الثانية من الاسم المركب ، ويقتصر على اللفظة الأولى ، كما في : أوس ، وزيد ، ووهب ، وتيم ، وسعد ، ونصر ، وعائذ ، وعبد ، وأمثال ذلك من أعلام . فإنها اختصار لـ (أوس الله) ، و (زيد اللات) ، و (زيد مناة) ، و (وهب اللات) ، و (تيم اللات) ، و (سعد مناة)

---

١ Reste, S. I, Nöldeke, über den Gottesnamen El, in Monatsberichte der Köni. Akademie der Wissenschaft zu Berlin, 1880, S. 761, 1887, S. 1175.

٢ Reste, S. 7, Nöldeke, in Wiener Zeitshrift für die Kunde des Morgenlandes, Bd., VI, S. 313.

و (سعد ودّ) ، و (سعد اللات) ، و (نصر اللات) ، و (عائذ الله) و (عبد ود) ، وغير ذلك . وقد يحدث العكس ، فتسقط الكلمة الأولى ، وتبقى الكلمة الثانية التي هي اسم الإله ، ويصير هذا الاسم اسماً لشخص أو لأسرة أو لقبيلة ، مثل : مناف ، وغنم ، وشمس ، وإساف ، ونائلة ، وزهرة ، وقيس ، وعُطارد ، وهبل ، وجدّ ، وأمثال ذلك . فإن هذه هي أسماء آلهة في الأصل ، سبقت بكلمات مثل (عبد) ، ثم أهملت هذه الكلمات الأولى ، وبقيت أسماء الآلهة حية ، ولكنها صارت أسماء لأشخاص وأسر وقبائل ، تسبقها لفظة (بنو) في بعض الأحيان ، لتدل على الانتماء الى ذلك الاسم[1] . ولهذا الانتماء أهمية كبيرة في نظر الباحثين في فلسفة الأديان وتأريخها .

ويلاحظ أن بعض الأعلام المركبة المبتدأة بـ (عبد) مثلاً ، لا تتكون كلمتها الثانية من اسم إله ، إنما تكون اسم موضع أو اسم شخص أو اسم جماد ، مثل: عبد حارثة ، وعبد المطلب ، وعبد أمية ، وعبد الدار ، وعبد الحارث ، وعبد الحجر ، وما شاكل ذلك . ولبعض العلماء تفاسير وتعليلات في العوامل التي أدّت الى هذه التسميات : منها أن بعض هذه الأسماء هو لآلهة قديمة ، نسيت فظن أنها أسماء أشخاص : وأن بعضاً آخر منها هو أسماء أشخاص كانت لهم قدسية أو منزلة خاصة ، فتبرك الناس بتسمية أولادهم عبيداً لهم ، وهو شيء يحدث حتى الآن ، إذ نقول عبد المسيح ، وعبد الرسول ، وعبد علي ، وعبد الأمير ، وعبد الزهرة ، وعبد محمد ، وان بعضاً آخر هو مسمّيات لمجتمعات ، مثل : عبد أهله ، وعبد العشيرة ، وسعد العشيرة ، أو انه نسبة الى طوطم أو جماد مقدس في نظر الناس[2] .

وقد قضى الاسلام على الأسماء الوثنية ، كما قضى على كثير من معالم الجاهلية ، فاستبدل من أسلم اسمه الجاهلي الذي له صلة بصنم أو بشرك باسم إسلامي ، وبذلك زالت تلك التسميات . كما زالت أكثر التسميات اليهودية والنصرانية بدخول أصحابها في الإسلام . وهذا شيء مألوف في تأريخ الانسان . فقد قضت اليهودية على الأسماء الوثنية القديمة ، وعوضت عنها بأسماء يهودية ذات صلة بالتوراة ، وقضت النصرانية على الأعلام الوثنية ، أو طورتها لتكون ملائمة مع النصرانية ، وهكذا

---

١ Reste, S. 7. ff.

٢ Robertson, p. 42, Reste, S. 4.

حدث في الأديان الأخرى ، بل وهـذا ما يحدث اليوم في كثير من أنحاء العالم القلقة عند وقوع انقلابات سياسية ، حيث تتناول الأسماء أيضاً بالتغيير والتبديل ، لتناسب الوضع الجديد .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الصحابة ، كانت أسماؤهم ذات صلة بالأصنام ، فلما أسلموا أبدلها الرسول بأسماء اسلامية . فقـد كان اسم كاتب النبي (عبدالله بن الأرقم بن أبي الأرقم) (عبد يغوث) فلما أسلم ، دعي (عبدالله)[1] . وكان اسم (عبدالله بن أصرم بن عمرو بن شعيثة) الهلالي ، (عبد عوف بن أصرم) ، فلما قدم على النبي ، فقال من أنت ؟ قال عبد عوف ، قال النبي : أنت عبدالله ، فأسلم[2] . ونجد غيرهما وقد أبدل الرسول أسماءهم ، حتى صار من يسلم يبدل اسمه إن كان له صلة بصنم ، حتى ماتت الأسماء الجاهلية التي هي من هذا القبيل .

والأساطير Myth = Mythos ، ونعني بها هنا الخرافات والأقاصيص المتعلقة بالآلهة Legend ، هي مصدر مهم لمعرفة تطور الأديان وتطور فكرة الألوهية عند الشعوب . وهي قد تكون شعراً ، وقد تكون نثراً،وفي كلتا الحالتين تكون مادة خصبة للباحثين .

ومعارفنا عن الأساطير العربية الدينية قليلة جداً . وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن العرب لم تكن لهم أساطير دينية عن آلهتهم ، كما كان عند غيرهم من الأمم كاليونان والرومان والفرس وعند بقية الآريين ، بـل حتى عند بعض الشعوب السامية الأخرى مثل البابليين[3] . وفي رأيي اننا لا نستطيـع أن نجزم في مثل هذه الأمور ، لأن أحكامنا عن اليونان والرومان والبابليين انما استنبطناها من نصوص ومؤلفات وصلت الينا . أما العرب الجاهليون ، فلم يصل الينا منهم حتى الآن نصٌ ما في هذا الموضوع، يمكننا من الحكم بعدم وجود الأساطير الدينية عند العرب الوثنيين .

ومشكلتنا أننا لا نملك كما قلت نصوصاً دينية جاهلية ، ولا كتباً كتبها يونان أو لاتين أو سريان أو غيرهم عن أساطير العرب في الجاهليـــة نستطيع استخراج

---

١ الاصابة (٢/٢٦٥) ، (رقم ٤٥٢٥) .
٢ الاصابة (٢/٢٦٧) ، (رقم ٤٥٣٤) .
٣ Ency. Religi. I, p. 660.

حكم منها عن أساطير العرب . ولكن هذا الوضع لا يخولنا نفي وجود الأساطير عند العرب ، بحجة بداوتهم وضيق أفقهم وبساطة تفكيرهم ، كما أنه لا يخولنا أيضاً الحكم بوجود أساطير عندهم من طراز عالٍ كما نجده عند اليونان مثلاً .
ويتبين من بعض روايات الأخباريين ، وهي قليلة ، أن العرب كانت لهم أساطير كالذي رووه من أن (العَيوق) عاق (الدبران) لما ساق الى الثريا مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطباً لهـا ، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص[١] وكالذي رووه عن (العَبُور) و (الغُمَيصاء) و(سُهَيْل). وقد كانت هذه النجوم مجتمعة ، فانحدر سُهَيْل فصار يمانياً ، وتبعته العَبُور فعبرت المجرَّة ، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت[٢]. وكالذي رووه من أن (الزُهرة) كانت امرأة حسناء ، فصعدت الى السماء ومسخت نجماً ، وأمثال ذلك من قصص يظهر أنه من بقايا قصص أطول قديم[٣] .

وإذْ لم تصل الينا نصوص دينية جاهلية ، صعب علينا تكوين فكرة صحيحة عن مفهوم الدين عند العرب ، وعن كيفية عبادتهم لآلهتهم ، وعن كيفية تصورهم للآلهة ، خاصةً عند العرب الذين عاشوا قبل الميلاد .

وقد تعيننا أسماء الآلهة والأعلام المركبة في تكوين وجهة نظر عن صفات آلهة الجاهليين . فكلمات مثل (ودّ) و (شرح) و (سعد) و (سمع) ، أو تعابير مثل (ذت حمم) (ذات حميم) و (ذت صنتم) (ذات صنتم) و (ذت رحبن) (ذات رحبن) و (ذت بعدن) (ذات بعدن) (وذ قبضم) (ذو قبضم) وما شابه ذلك ، لا بد أن تكون لها معانٍ خاصة تشير الى صفات الآلهة التي قيلت لها ، فتفيدنا في فهم عبادة الجاهليين وتفكيرهم في تلك الآلهة .

وإذا كانت بعض أسماء الآلهة أو صفاتها واضحة مفهومة تمكن الاستفادة منها في تكوين فكرة عن الآلهة ، فإن هنالك بعضاً آخر يحيط بمعناه الغموض ، فلا نستطيع شرح معناه أو ترجمته الى اللغات الأخرى . وليس من المعقول بالطبع عدم وجود مدلول أو مراد لأسماء هذه الآلهة عند من وضعها لها ، ونسبها اليها، وانما المعقول هو ان هذه المسميات نسيت بتقادم الزمن وبزوال دولتها وعظمتها

---

١ بلوغ الارب (٢/٢٣٩) .
٢ بلوغ الارب (٢/٢٣٩) .
٣ البلخي : البدء والتاريخ (٣/١٤) .

من الوجود ، وضاعت معالمها ، فلم يبق منها إلا الأسماء المجردة [1] . ولعل معانيها كانت غامضة حتى على من كان يتعبد لها ، لاختفائها منذ زمن طويل ، وعدم ورود نصوص مدونة الى المتعبدين لها في هذه المعاني، وهذا شيء مألوف معروف .

وتختلف نظرة الانسان الى الخالق والخلق باختلاف تطوره ونمو عقله ، ولهذا نجد فكرة (الله) (الإلـه) التي تقابل كلمة Deus في اللاتينية وكلمة Theos في اليونانية وكلمة God في الانكليزية ، تختلف باختلاف مفاهيم الشعوب ودرجات تقدمها . فهي عند الشعوب البدائية القديمة والحديثة في شكل يختلف عن مفهومها عند الشعوب المتحضرة . كذلك اختلفت عند سكنة البوادي عن سكنة الجبال والهضاب، ويختلف مفهوم فكرة الله عند الشعوب السامية عنها عند الشعوب الآرية، لأسباب عديدة يذكرها علماء تأريخ الأديان[2] . بل يختلف هذا المفهوم في داخل الشعب الواحد ، يختلف فيه باختلاف ثقافة الانسان وتقدم مداركه العقلية، فتصور كل انسان خالقه على قدر عقله ودرجة ثقافته ، صوّره وكأنه مرآة صافية لنفسه ولدرجة نمو عقله . ومن هنا قيل : ان الانسان يصنع إلهه بنفسه ، أي يصوره على نحو صورته ومبلغ تفكيره .

يقول (أكسينوفان) Xenophanes : « تصور الأحباش آلهتهم فطس الأنوف، سوداً . وتصور أهل (تراقية) Thracians آلهتهم ذوي عيون زرق وشعر أحمر . وزعم اليونان أن تصورهم للآلهة هو التصور الصحيح . أما تصور الزنوج وأهل تراقية عن آلهتهم ، فهو تصور فاسد باطل ! ولو كان للماشية والخيل والسباع أيد تتمكن من الرسم والنحت ، لرسمت الخيل آلهتها على صورة خيل، ولنحتت تماثيلها على صورتها ، ولرسمت الماشية ونحتت آلهتها على صورتها وهيئتها، تماماً كما يصور الانسان وينحت آلهته على صورته وقدر إدراكه . كل صنف يتصور ويرى آلهته على صورته »[3] . وقد نسب اليونان الى آلهتهم كل الصفات والأعمال الانسانية المعروفة بين اليونانيين ، فتصوروهم على هيئة بشر ، لهم الفضائل، ولهم الرذائل، يتزوجون وينسلون ويحبّون ويعشقون ويسرقون ويكرهون ويتخاصمون بينهم ويتحاسدون

١ Handbuch, S. 189.

٢ Ency. Religl., Vol. 6, p. 243, W. Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semites, London, 1894, p. 5, Ency. Britd., 10, p. 480, «Lyod».

٣ Ency. Religl., 10, p. 113.

ويقومون بأقبح الأعمال كما يفعل الانسان[1] .

وهناك أشكال عديدة للعبادة ، تمثل تعدد وجهة نظر الانسان بالقياس الى مفهوم الألوهية لديه . فهناك عبادة تسمى عبادة آباء القبائل ، حيث أسبغ على أجداد القبائل ما يسبغ عادةً على الآلهة من نعوت وصفات . وتجد هذه العبادة عند القبائل البدائية . وقد يكون هؤلاء الأجداد أجداداً حقيقيين ، وقد يكونون أشخاصاً خلقتهم الأساطير . ومهما يكن من شيء ، فقد أعطي هؤلاء صفات الربوبية ونعوتها ، ونظر اليهم نظرة من فيه قوى خارقة ذات هيمنة على العالم والخلق . وقد اصطلح على تسمية هذه العبادة بـ All Fathers في الانكليزية وبـ Verehrung des Stammesvaters و بـ Urvaters في الألمانية ، لأنها تقوم على أساس عبادة الأجداد[2] .

وألّه بعض الناس الظواهر الطبيعية ، لتوهمهم أن فيها قوى Spirit روحية كامنة مؤثرة في العالم وفي حياة الإنسان،مثل الشمس والقمر وبعض النجوم الظاهرة. وقد كانت الشمس والقمر أول الأجرام السماوية التي لفتت أنظار البشر اليها ، لما في الشمس من أثر بارز في الزرع والأرض وفي حياة الانسان بصورة مطلقة . كذلك للقمر أثره في نفس الإنسان بما يبعثه من نور يهدي الناس في الليل ، ومن أثر كبير يؤثر في حس البشر . فكانا في مقدمة الأجرام السماوية التي ألّهها الانسان. عبدهما مجردين في باديء الأمر ، أي دون أن يتصور فيهما ما يتصور من صفات ومن أمور غير محسوسة هي من وراء الطبيعة . فلما تقدم وزادت مداركه في أمور ما وراء الطبيعة ، تصور لهما قوى غير مُدْرَكة ، وروحاً ، وقدرة ، وصفات من الصفات التي تطلق على الآلهة . فخرجتا من صفتهما المادية البحتة ومن طبيعتهما المفهومة ، وصارتا مظهراً لقوى روحية لا يمكن ادراكها ، إنما تدرك من أفعالها ومن أثرهما في هذا الكون .

وإذا كانت هذه العبادة قد اقتصرت على الظواهر الطبيعية البارزة المؤثرة ،

---

١ Ency. Religl., 10, p. 113.

٢ في الاصل « Father ours » ، وقد أطلق « هويت » « Howitt » الاصطلاح « All Father » عليه ،

Howitt, Native Tribes of S.E. Australia, London, 1904, Making of Religion, London, 1898, Ency. Religl., Vol. 6, p. 243.

فإن هناك توسعاً في هذه العبادة تراه عند بعض الأقوام البدائية ، يصل الى حد تقديس الأحجار والأشجار والآبار والمياه وأمثال ذلك ، إذ تصوروا وجود قوى روحية كامنة فيها ، فعبدوها على أن لها أثراً خطيراً في حياتهم . ونجد في أساطير الشعوب البدائية أن الإنسان من نسل الحيوان ومن الأشجار أيضاً ، كذلك تجد أمثلة عديدة من هذا القبيل في أساطير اليونان والرومان والساميين .

وهناك الشرك ، وهو عبادة آلهة عديدة ، كما ان هناك عقيدة التوحيد التي تدين بوجود إلـه واحد خالق لهذا الكون . وليس للشرك بالطبع عدد معين من الآلهة ، فقد يكون بضعة آلهة ، وقد يكون عشرات . والشرك هو الدين المعاكس لدين التوحيد ، ويعرف بإسم : Polytheism في الانكليزية من كلمة Polys اليونانية ومعناها (كثير) و (تعدد) ، ومن كلمة يونانية ثانية هي Theos وتعني (الإلـه) (الآلهة) . ويختلف الشرك عن عقيدة الـ Polydaemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature ، كما يختلف عن أديان التوحيد Monotheism من حيث القول بتعدد الآلهة ، وعن القائلين بمبدأ (الحلول) (Pantheism) من حيث حلول الإلـه في الخلق والخلق في الإلـه[1] .

وتطلق في العربية كلمة (إلـه) على الإلـه الواحد ، وكلمة (آلهة) في حالة الجمع ، أي في حالة القول بوجود آلهة عديدة . وتقابل كلمة (إلـه) كلمة (ايلوه) Eloah = Eloh في العبرانية الواردة في سفر (أيوب) . ومنها كلمة (إيلوهيم) Elohim في حالة الجمع ، أي آلهة المستعملة في العهد القديم بالقياس الى آلهة الوثنيين[2] . وكلمة (إلـه) لا تعني على كل حال إلهاً معيناً على نحو ما تعنيه لفظة (الله) في العربية التي يراد بها الله الواحد الأحد ليس غير .

أما (الله) ، وهي كلمة الجلالة ، فهي (اسم علم) خاص به على رأي، وهي (علم مرتجل) في رأي آخر . وقد ذهب الرازي الى انه من أصل سرياني أو عبراني . أما أهل الكوفة فرأوا انه من (ال إلـه) ، أي من أداة التعريف

---

١ Ency. Religl., Vol. 10, p. 112.

٢ Hastings, p. 299, Ency. Religl., Vol. 6, p. 248, Ency. Bibli., III, Col. 33239
Hebrew Lexicon, 42, Ency., II, p. 464.

(ال) ومن كلمة (إله) . وهناك آراء لغوية أخرى في أصل هذه اللفظة [1] .

ولم يعثر على لفظة (الله) في نصوص المسند ، وإنما عثر في النصوص الصفوية على هذه الجملة : (ف ه ل ه) ، وتعني (فالله) أو (فيا الله) و (الهاء) الأولى هي أداة التعريف في اللهجة الصفوية . وقد وردت الجملة على صورة أخرى في بعض الكتابات الصفوية . وردت على هذا الشكل : (ف ه ل ت) ، أي (فالات) (فيا الآت) أي في حالة التأنيث . وتقابل (اللات) ، وهي صنم مؤنث معروف ذكر كذلك في القرآن الكريم[2] .

ويظن بعض المستشرقين أن (الله) هو اسم صنم كان بمكة ، أو أنه (إلـه) أهل مكة ، بدليل ما يفهم من القرآن الكريم في مخاطبته ومجادلته أهل مكة من اقرارهم بأن الله هو خالق هذا الكون [3] .

وترد في العربية كلمة أخرى من الكلمات المختصة بالخالق ، هي (ربّ) وجمعها (أرباب) . وهي من الكلمات العربية الجاهلية المذكورة بكثرة في القرآن الكريم ، ولها معنى خاص في اللاهوت وفي الأدب العربي النصراني . وتقابل كلمة Lord في الانكليزية . وكلمة (بعل) ، و (ادون) في اللغات السامية الأخرى[4] . ويذكر علماء اللغة أن (الربّ) هو الله ، هو ربّ كلّ شيء ، أي مالكه . وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو ربّ الأرباب، ومالك الملوك والأملاك ، ولا يقال الربّ في غير الله ، إلا بالإضافة .

وقد قال الجاهليون : (الربّ) للملك . قال الحارث بن حلزة :

وهو الربّ ، والشهيد على يو م الحيارين ، والبلاء بلاء[5]

ويظهر أن لفظة (الرب) و (رب) كانت بمعنى (سيد) ومالك عند

---

١ الطبري : تفسير (١/ ٤٠) ، اللسان (٣٥٨/١٧) ، الكشاف (ص ٨) ، تفسير الرازي (١/ ٨٤ وما بعدها) ، البيضاوي (١/ ٤) طبعة (Flelsher) المفردات ، للاصفهاني (ص ١٩ وما بعدها) . Ency., II, p. 464.

٢ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248.

٣ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248.

٤ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248, Ency., III, p. 1088.

٥ اللسان (١/ ٣٩٩) ، (ربب) .

الجاهليين ، ولم تكن تعني العلمية عندهم . أي ألوهية خاصة بالله ، وهي تؤدي معنى (بعل) عندهم أيضاً . فكانوا يطلقونها على الإلـه والآلهة وعلى الإنسان باعتباره سيّداً ومالكاً . أما هذا التخصص الذي يذكره علماء اللغة ، فقد حدث في الإسلام من الاستعمال الوارد في القرآن الكريم .

و (ربّ البيت) ، الله ، وكذلك : (رب هـذا البيت)[1] . و (رب الدار) ، أي مالكها ، وكل من ملك شيئاً ، فهو ربّه . وبهذا المعنى (هو رب الأرباب) . أما (الربة) ، فعنوا بها الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف بالطائف . وكان لهم بيت يسمّونه (الربة) و (بيت الربة) ، يضاهي (بيت الله) بمكة . فلما أسلموا هدمه (المغيرة) . و (الربة) : كعبة كانت بنجران ، لمذحج وبني الحارث بن كعب يعظمها الناس[2] .

وأما (بعل) ، فعناها مالك وصاحب ورب في اللهجات السامية . فترد بعل الموضع الفلاني ، أي صاحب ذلك الموضع وربه . ومؤنث الكلمة هو (بعلت) . وترد كلمة (بعل) بمعنى زوج في العربية ، وقد وردت بهذا المعنى في مواضع من القرآن الكريم[3] ، وأما الزوجة ، فهي (بعلت) (بعلة) أي في حالة التأنيث[4] .

ولما كانت لفظة بعـل تعني الرب والصاحب ، صار اسم الموضع يرد بعـد (بعل) ، فيقال : (بعل صور) ، و (بعل لبنان) ، و (بعل غمدان)، أي رب المواضع المذكورة وصاحبها وسيدها . أما اذا وردت اللفظة مستقلة دون ذكر اسم الموضع المنسوب اليها بعدها ، فتعني عندئذ رب وإلـه، أي رب الجماعة المتعبدة المؤمنة به[5] .

وقد ورد في القرآن الكريم في صدد الكلام عن الياس Elijah « وانّ إلياسَ لَمِنَ المرسلين . إذ قـال لقومه : ألا تتقون ؟ أتدعون بعـلاً وتذرون أحسن الخالقين »[6] . وقد ذهب الطبري في تفسير (بعل) في هذه الآية الى أن بعـلاً

---

١ (فليعبدوا رب هذا البيت) ، قريش ، الآية ٣ .
٢ اللسان (٣٩٩/١ وما بعدها) ، (ربب) .
٣ البقرة : الآية ٢٢٨ ، هود : الآية ٧٥ ، النور ، الآية ٣١ .
٤ Ency., I, p. 610, Robertson, p. 94.
٥ Robertson, p. 94.
٦ الصافات ، الآية ١٢٢ وما بعدها .

تعني رباً في لغة أهل اليمن ، او ان المراد ببعل صنم[1] .

ومن رأي (روبرتسن سمث Robertson Smith) أن العرب اقتبسوا المعنى الديني لبعل من الأقوام السامية المجاورة لهم مثل سكّان (طور سيناء) أو موضع آخر ، أخذوه من تلك الأقوام التي عرفت باشتغالها بالزراعة ، ولا سيما زراعة النخيل ، وان هذا المعنى دخل اليهم بدخول زراعة النخيل الى بلاد العرب ، وأنه استعمل عند العرب المزارعين . أما البدو والرعاة ، فإنهم لم يستخدموا تلك اللفظة بالمعنى المذكور[2] . وهو رأي يخالف رأي بعض المستشرقين من أمثال (نولدكه Nöldeke) و (ولهوزن Wellhousen) الذين يرون أن عبادة (بعل) هي عبادة سامية قديمة كانت معروفة عند قدماء العرب منذ أقدم العهود[3] .

ويرى بعض المستشرقين ان لفظة (بعل) أطلقت خاصة على الأرض التي لا تعتمد في زراعتها على الأمطار أو على وسائل الري الفنية، بل على المياه الجوفية وعلى الرطوبة في التربة ، فينبت فيها خير أنواع النخيل والأثمار ، فهي تمثل الخصب والنماء . والظاهر ان الساميين كانوا يخصصون أرضهم بالآلهة، لتمنّ عليهم بالبركة واليمن ، فتكون في حمى ذلك الإلـه (بعل الموضع الفلاني) . ومن هنا صارت جملة (بعل سميم) (بعل سمن) (بعل سمين) تعني (رب السماء) ، ويعنى بذلك المطر الذي هو أهم واسطة من وسائط الإسقاء والخصب والنماء في جزيرة العرب وفي البلاد التي يسكنها الساميون[4] . ورأى مستشرقون آخرون ان جملة (أرض بعل) تعني الأرض التي تسقى بالأمطار[5] .

وذكر العلماء أن لفظة (الال) بمعنى الربوبية ، واسم الله تعالى . وأن كل اسم آخره (ال) أو (ايل) فمضاف الى الله تعالى ، ومنه (جبرائيل) و (ميكائيل) . وذكر أن (أبا بكر) لما سمع سجع (مسيلمة) ، قال : هـذا كلام لم يخرج من ال ولا بر ، أي لم يصدر عن ربوبية[6] . وقد ذهب

---

١ تفسير الطبري (٥٣/٢٣) ، Ency., I, p. 610.

٢ Robertson, p. 97.

٣ Nöldeke, in ZDMG., Bd. 40, 1886, S. 174, Reste, S. 146, Handbuch, I, S. 240.

٤ Robertson, p. 97, Ency. Religi., I, p. 664.

٥ Reste, S. 146.

٦ تاج العروس (٢١١/٧ وما بعدها) ، (أل) .

بعض علماء اللغة الى أن اللفظة (ايل) من المعربات . عربت عن العبرانية، وهي فيها اسم الله[1] . وهي من الألفاظ العامة التي ترد في اللغات السامية ، ولا يعرف معناها على وجه مضبوط ، ويظن أنهـا بمعنى (القادر) و (العزيز) والقهار ، والقوي ، والحاكم . وترد في الشعر وفي أسماء الأعلام في الغالب . وقلما نجدها ترد في النثر[2] .

وقد وردت في نصوص المسند وفي نصوص أخرى ألفاظ كثيرة مثل (ود) و (سمع) أي (سميع) و (حكم) أي (حكيم) ، و (حلم) أي حليم) و (علم) أي (عالم) و (عليم) ، و (رحم) أي (رحيم) ، و (رحمن) أي (الرحمن) ، وأمثال ذلك . ذكرت على صورة أسماء آلهة . لكنها في الواقع صفاتها لا أسماؤها . ذكرت في مقام ذكر أسماء الآلهة ، كما يقول المسلم في دعائه ربه يا سميع ويا حكيم ويا رحيم . وهي صفات وردت في القرآن الكريم .

وعلى من يريد الوقوف على رأي الجاهليين في طبائع آلهتهم وفي تعيين صفاتها، حصر هذه الصفات وضبطها ، وتعيين مدلولها ، وهي صفات تدل على معان خلقية مجردة . وسنتمكن بذلك من الوقوف على نظرة الجاهليين الى آلهتهم ، ومن تعيين وتثبيت عددها إذ سيظهر لنا من هذه الدراسة ان أكثر تلك الأسماء ليست أسماء آلهة ، وانما هي صفات لها ، وان الكلمات التي لا يشك في كونها أسماء صحيحة قليلة جداً ، ربما لا يتجاوز عددها الثلاثة ، هي الثالوث . ومن يدري ؟ فقد تكون في النتيجه اسماً لإله واحد ، وعندئذ يمكن أن نتوصل الى نتيجة علمية بالقياس الى عقيدة الشرك أو التوحيد عند العرب الجاهليين .

ويجد الانسان اليوم سذاجة مضحكة في بعض العقائد الدينية التي كانت عند الشعوب القديمة ، ويستصعب تصور اعتقاد الناس بها ، وهو ينسى أن هذه العقائد أو بعضها على الأقل ، لا تزال معروفة بين بعض قبائل افريقية وأستراليا،وأماكن أخرى من العالم ، وان العقل الانساني في تطور مستمر ، وان هناك بشراً يؤمنون بعقائد ورثوها عن آبائهم لا تقل غرابة عن غرابة بعض المعتقدات التي نؤاخذ

---

١ تاج العروس (٧/٢١٨) ، (ايل) .
٢ Hastings p. 299 «God».

بها قدماء البشر ، مع أنهم من الشعوب المتقدمة في الحضارة وفي المدنيــة ، ومن القرن الــذي نفتخر بتسميته بقرن العقوق على الأم ، والهروب منهــا الى بيوت أخرى ، تكون بعيدة عنها ، سابحة في هذا الفضاء .

وقد يصعب على الانسان اليوم تصورّ وجود فائدة أو ضرر من أشياء جامدة لا يمكن قطعاً أن تضرّ أو تنفع ، ولكن القدماء تصوروه مع ذلك واعتقــدوه . فقدسوا الأحجار والأشجار والحيوانات ، وقدّسوا الأرواح والأمـوات من الآباء والأجداد والقديسين ، وتعبّدوا لها . ولهذه العبادات أسماء علميـة خاصة اصطلح على تسميتها العلماء .

والدين هو إيمان وعمل : إيمان بوجود قوى هي فوق طاقة البشر ، لها تأثير في حياته وفي مقدراته ؛ وعمل في أداء طقوس معينة تعين شكلها الأديان للتقرب إلى الآلهة ولاسترضائها . والإيمان هو قبل العمل بالطبع ، فلا بد للقيام بالشعائر، أو بأداء العمل ، من وجود إيمان عنــد الشخص أو الأشخاص بوجود إلـه أو آلهة . حتى يقوم بعمل ديني[1] . فالعمل تابع للايمان ، ونتيجة من نتائجه ، وهو شعاره ومظهره . وهو أبرز عند الأقوام البدائية من الايمان لدرجة عقليتها ومجال تفكيرها الضيق . ومن العمل : الرقص ، والأفراح الدينية ، والسحر ،والقرابين، والحج ، والصلوات[2] .

وقد أقر الاسلام أشياء من أمور الدين كان يمارسها الجاهليون في جاهليتهم ، لأنها لا تتعارض مع مبــادىء الإسلام . ودراسة أمثال هذه الأشياء توضح لنــا نواحي خافيةً علينا في الزمن الحاضر من الحياة الدينية عند الجاهليين ، لذلك أرى من الضروري تتبع هذه الأشياء لتدوين تأريخ صحيح للدين عند الجاهليين . وأرى من الضروري كذلك تتبع الأساطير والعادات الموروثة التي لها صلة وعلاقة بالدين الجاهلي بين الأعراب والحضر في كل أصقــاع جزيرة العرب ، ولا سيا القرى العربية النائية عن العمران المنعزلة عن الأعاجم ، فإن معظم هذه الأساطير والتقاليد هي من بقايا الوثنية العربية القديمة ، بقيت جذورها ثابتة راسخة في الأفئدة حتى اليوم .

---

١ The Golden Bough, p. 50, Abridged Edition.

٢ Ency. Brita., Vol. 19, p. 108.

ولا بد أيضاً لدراسة الدين عند الجاهليين دراسة صحيحة من الرجوع الى أصول الأشياء ، وأعني بأصول الأشياء هنا ديانة الساميين الأولى بشكلها البدائي القديم . فمن تلك الشجرة تفرعت أديان الشعوب السامية ، وفي ذلك الدين نجد الأصول والأسس التي بنيت عليها الديانات الفروع .

أما كيف نتمكن من الرجوع الى الأصل ومن معرفة ديانة الساميين القديمة ، فموضوع ليس بالسهل اليسير ، ونحن ، وان كنا نملك بعض المؤلفات والبحوث عن أديان الساميين ، لا نستطيع أن نجرؤ فنقول ان البحث قد نضج فيه ، وان القوم قد استوفوه من أطرافه وأكملوه ، بل ان كثيراً مما تطرق اليه العلماء هو موضع جدل واختلاف ، ولن يمكن التوصل الى نتائج مقبولة معقولة إلا اذا تمكن الباحثون من الحصول على وثائق جديدة تكشف النقاب عن أديان قدماء الساميين.

وللتوصل الى تكوين رأي عن أديان الساميين القديمة لا بد من دراسة النصوص الدينية الساميّة كلها ، ودراسة كل ما له صلة بالدين عند الساميين ، ومقارنة الأديان السامية بعضها ببعض ومراجعة الأصول اللغوية للمصطلحات الدينية عند جميع الشعوب السامية للتوصل منها الى الأسس العميقة المدفونة التي أقيم عليها بنيان ديانة الساميين . ثم لا بد أيضاً من دراسة المؤثرات الخارجية التي أثرت في الساميين من عوامل طبيعية ومن عوامل أخرى غير طبيعية ومن الأثر الثقافي الذي كان لغير الساميين في الساميين .

ويتبين من دراسة الأساطير السامية وجود شكل من أشكال التوحيد Henoteism عند القبائل السامية البدائية ؛ يتمثل في اعتقاد القبيلة بوجود إلـه لها واحد أعلى ، غير ان هذا لا يعني نفي اعتقادها بتعدد الآلهة . فإننا نرى ان تلك القبائل كانت تعتقد ، في الوقت نفسه، بالأرواح كأنها كائنات حية ذات أثر وسلطان في مصير هذا الكون ، وفي ضمنه الانسان ، وبآلهة مساعدة للإلـه الكبير[1] .

والديانات السامية ، وإن كانت في الأصل من ديانة قديمة،قد تطورت وتغيرت بعوامل عديدة من العوامل التي تؤثر في كل المجتمعات البشرية فتحدث فيها انقلاباً في التفكير وفي طراز الحياة . ومن هذه العوامل المؤثرات الخارجية والمحيط الجديد. وسنجد ان ديانة العرب الجنوبيين ، وإن كانت في الأصل من تلك الديانة السامية

---

١ Ency. Religl., II, p. 283.

الأصلية فيها مثل (ال) (ايل) وأمثال ذلك ، قد غيرت في ديانتها، وبدّلت في تصوراتها للآلهة ، حتى صارت في بعض معتقداتها على نقيض مع معتقدات الساميين الشماليين .

وفي الدين معبود يعبد هو الله ، أو جملة آلهة ، أو قوى خارقة تلعب في مقدرات الانسان. وعبدة يتعبدون له أو لها . فهم عبّاده أو عبّادها . و (العبادة) الطاعة ، وأداء الواجبات المفروضة على الانسان تجاه الله[1] ، أو الآلهة .

والرأي المعروف بين الناس حتى الطبقة المتعلمة منهم ، أن العرب الجاهليين كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الديني قبل الاسلام ، وأن تفكيرهم في ذلك تفكير منحطّ لا يتجاوز تفكير القبائل البدائية . وهو رأي خاطىء ، يفنده القرآن الكريم . وإذا كان ما يقوله صحيحاً بالقياس الى السواد والأعراب ، فإنه لا يصح أن يكون حكماً عاماً على الكلّ ، ولا سيما على المتحضرين وعلى من كان لهم اتصال بالعالم الخارجي .

وتأريخ أديان العرب قبل الإسلام ، فصل مهم جداً من فصول تأريخ العرب عامة قبل الاسلام وبعدها ، بدونه لا يمكن فهم عقلية القوم الذين نزل الوحي بينهم وطريقة معرفة تفكيرهم ووجهة نظرهم الى الخالق والكون ثم الأسباب التي دعت الى نزول الوحي وظهور الإسلام . وبدون دراسة أديان الجاهليين ومقالاتهم في الخالق والخلق ، لا نتمكن أبداً من فهم رسالة الإسلام فهماً صحيحاً . بل ان هذه الدراسة أيضاً فصل مهم جداً لفهم كثير من الأمور الواردة في التوراة والانجيل إذ كان العرب قوماً من هذه الأقوام التي كانت لها صلات قديمة بأرض الوحي التي نزل بها الكتاب المقدس بعهديه ، وعضو فعال في هذه المجموعة المسماة بالشعوب الساميّة . ما نعثر عليه من جديد في الناحية الدينية، يكشف عن غوامض عديدة من غوامض العهدين ، فجدير بالعلماء وبنا إذن الانصراف الى البحث والاستقصاء للعثور على المصطلحات المفقودة من هذا الفعل .

وسنرى في الفصول القادمة أسماء رجال كان لهم شأن وخطر في الحياة الدينية للجاهليين ، وقد زعم أهل الأخبار ان بعضاً منهم كان من الأنبياء الذين جاءوا الى قومهم برسالة . وان بعضاً آخر ، كان من المصلحين الهادين ، من أصحاب

---

١ تاج العروس (٢/ ٤١٠ وما بعدها) .

العقول النيرة التي هزأت بالأوثان وبديانات قومهم . وان رجالاً منهم كانوا على الحنيفية ، يريدون بها ديانة التوحيد ، وان آخرين بشّروا بالوثنية، وأشاعوها بين العرب ، لما كان لهم من مكانة ونفوذ . وان رجالاً من الجاهليين كانوا على ملة اليهودية ودين المسيح . وان قوماً من أهل الجاهلية كانوا على عبادة (الله) و (الرحمان) ، وكل المذكورين كانوا ممن مهد الجادة اذن لظهور الاسلام .

وقد أدى ظهور الاسلام الى ظهور مصطلحات جديدة وموت مصطلحات قديمة، وصارت هذه المصطلحات من علائم الوثنية . ولا بد لنا للوقوف على صورة أوضح للحياة الدينية عند الجاهليين من وجوب دراسة الألفاظ الجاهلية ذات المعاني الدينية بجمعها وتبويبها وتثبيت معانيها ، فبهذه الدراسة نستطيع الوقوف على مبلغ تغلغل الحياة الدينية في نفوس الجاهليين ، ومعرفة مدى تعمقهم في الدين وفهمهم له .

ومن الدراسات التي يجب أن تنال منا الرعاية والعناية لمعرفة الحياة الدينية وتطورها عند الجاهليين معرفة صحيحة ، دراسة المصطلحات الدينية بحسب اللهجات العربية، وأماكن تلك اللهجات ، وأسماء الأصنام أو الأوثان ، ومعتقدات سكان تلك الأرضين في هذه الأيام ، فإن دراسة مثل هذه تفيدنا فائدة كبيرة في معرفة أسس الحياة الدينية عند الجاهليين ، وفي معرفة اختلاف العرب أو اتفاقهم في العقائد وفي الأمور الدينية ، ومعرفة العوامل والأسباب التي أدت الى ذلك ، ثم معرفة المؤثرات الخارجية في الحياة الدينية للجاهليين . وبتثبيت هذه وأمثالها ومقارنتها بأسماء أصنام الأقوام المجاورة وآلهتهم ومصطلحاتهم ، نستطيع فهم كثير من الأمور الغامضة من الحياة الدينية عند العرب وعند تلك الأقوام ، وفهم الاحتكاك العقلي والصلات الروحية التي كانت بين تلك الشعوب قبل الاسلام .

إن الأخباريين عفا الله عنهم ، لم يعنوا بتنسيق هذا الذي توصلوا اليه ورووه لنا من آراء الجاهليين في الدين . فرووا روايات مختلفة متناقضة أو مقتضبة اقتضاباً مخلاً وجاءوا بأمور تثبت ان أولئك الأخباريين لم يكونوا على مستوى عالٍ من النقد والتعمق في دراسة الأخبار ، وانهم كانوا يروون أخبارهم بالمعنى المفهوم من الأخبار ، يأخذون ما يقال لهم فيروونه على نحو ما سمعوه وإن كان فيما يروونه ما يخالف المنطق والفهم السليم . والاستسلام للروايات داء يذهب بالفائدة منها ، ويعود على المؤرخ بأفدح الأضرار . ولهذا نجد أنفسنا في موضوع أديان العرب

قبـل الاسلام في زوبعة عاتية وعاصفة مليئة بالرمال نتخبط فيهـا للحصول على مخرج نخرج منه ، وليس لنا إلا الأمل بالخروج من هذه العاصفة العاتية المتعبة في وقت ما .

وهذا الذي أورده أهل الأخبار عن أهل الجاهلية على ما فيه من تناقض وتضارب واقتضاب ، هو كما رأينا مادتنا الوحيدة عن الحياة الدينية عند عرب الجاهلية قبيل الاسلام وعند ظهوره ، ولا سيما بالنسبة الى عرب الحجاز وعرب الشأم والعراق . وهناك روايات لم نستفد منها حتى الآن ، لصعوبة التوصل اليها ، لا لكونها في بطون المخطوطات ، ولهذا يصعب الحصول عليها . فإن الكثير منهـا قد طبع ، وهو في متناول الأيدي ، إنما صعوبتها في كونها في كتب مطبوعة طبعاً على الطريقة القديمة بلا نظام ولا ترتيب ولا تبويب فني ولا فهرست لما في الكتـاب المطبوع من مواد ومن أسماء أشخاص أو أصنام أو أوثان أو ما شابه ذلك . وليس أمام المؤرخ في هذه الحالة إلا أن يقرأ تلك الكتب من بسملتها حتى منتهاها ، ليحصل منها في النهاية على كلمة أو كلمتين أو خبر أو أخبـار ، ولكن كيف يتمكن المؤرخ من قراءة كتب ضخمة كتفسير الطبري وكتب التفـاسير الأخرى وشروح الحديث وكتب التواريخ والطبقات وبقية الكتب إذا كان الكتـاب يتألف من أكثر من عشرة أجزاء ، وهي كلها بلا فهرست للأعلام ولا لما في الكتاب من فوائد ومواد . لا يتمكن المؤرخ بالطبع من قراءة كل هذه الموارد المذكورة مع تساوي عمره بسائر أعمار الناس ، ولو مد الله في عمره وصيره إنساناً آخر ذا عمر طويل من أعمار الأناس الذين أرخهم (السجستاني) في كتاب المعمرين ، لتمكن من الإحاطة ببعض تلك الموارد على الأقل . غير أن عمر المؤرخ ويا للأسف مثل أعمار سائر النـاس ، قصير محدود ، فليس في إمكانه الإحاطة بما ورد في هذه الكتب الواسعة المجهولة ، على ظهورها في عالم الوجود ووجودهـا في خزانة كتب المؤرخ وفي يد أي شخص يريد الحصول عليها ، لأن الموضوع ليس موضوع وجود كتاب مطبوع أو مخطوط ، إنما هو اكتشاف ما في المطبوع أو المخطـوط من آراء وأخبار وأعلام .

ما دام الوضع على هذا الحال وما دامت أكثر كتبنا غير مفهرسة ولا منسقة ، فليس في استطاعة المؤرخ أن يأتي بشيء كثير يشفي غليـل من يريد المزيد من

المعرفة عن الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام . وهذا أمر يؤسف له بالطبع كثيراً . وسيأتي بعدنا من يضيفون الى هذا العلم البسيط الذي توصلنا اليه علماً كثيراً ، ثم يتوصل من بعدهم الى أكثر من ذلك ولا شك . ومن يدري ؟ فلعلّهم يتوصلون الى كتابات جاهلية تغنيهم عن كل هذا الذي أخذناه من موارد إسلامية كتبت بعد الجاهلية بعشرات السنين . وليس لنا ، وسنكون بالطبع من الماضين ، إلاّ أن ندعو لمن يأتي بعدنا بالتوفيق والنجاح التام .

الفصل الثاني والستون

التوحيد والشرك

كانت العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب : كـــان منهم من آمن بالله ، وآمن بالتوحيد ، وكان منهم من آمن بالله ، وتعبد للأصنام ، اذ زعموا أنهـــا تقربهم اليه . وكان منهم من تعبد للأصنام ، زاعمين أنها تنفع وتضر ، وأنهـــا هي الضارة النافعة [١] . وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية ، ومنهم من دان بالمجوسية ، ومنهم من توقف ، فلم يعتقد بشيء ، ومنهم من تزندق ، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في الانسان في هذه الحياة ، وببطلان كل شيء بعد الموت، فلا حساب ولا نشر ولا كتاب ، ولا كل شيء ممـــا جاء في الإسلام عن يوم الدين .

ومذهب أهل الأخبار ، أن العرب كانوا على دين واحد ، هو دين ابراهيم، دين الحنيفية ودين التوحيد . الدين الذي بعث بأمر الله من جديد ، فتجسد وتمثل في الاسلام . وكان العرب مثل غيرهم ، قد ضلوا الطريق ، وعموا عن الحق ، وغووا بعبادتهم الأصنام . حببها لهم الشيطان ، ومن اتبع هواه من العرب، وعلى رأسهم ناشر عبادة الأصنام في جزيرة العرب : (عمرو بن لحي) .

وذهب (رينان) Renan الى ان العرب هم مثـــل سائر الساميين الآخرين

---

١ أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله النجيرمي الكاتب ، أيمان العرب في الجاهلية ، (تحقيق محب الدين الخطيب) ، (القاهرة ١٣٨٢) « ص ١٢ وما بعدها » .

موحدون بطبعهم ، وان دياناتهم هي من ديانات التوحيد . وهو رأي يخالفه فيه نفر من المستشرقين[١] .

وقد أقام (رينان) نظريته هذه في ظهور عقيدة التوحيـــد عند الساميين من دراسته للآلهة التي تعبّد لها الساميون ، ومن وجود أصل كلمة (ال) (ايل) في لهجاتهم ، فادعى ان الشعوب السامية كانت تتعبد لإلـه واحد هو (ال) (ايل) الذي تحرف اسمه بين هذه اللهجات ، فدعي بأسماء أبعدته عن الأصل ، غير ان أصلها كلها هو إلـه واحد ، هو الإلـه (ال) (ايل)[٢] .

و (التوحيد) الايمان بإلـه واحد أحد لا شريك له ، منفرد بذاته في عدم المثل والنظير . لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام[٣]. ويقال للديانة التي تدين بالتوحيد : Monotheism في اللغات الأوروبية،من أصل يوناني هو Mōnos ، بمعنى (واحد) ، و Theos بمعنى (إلـه) ، لأنها تقول بوجود إلـه واحد[٤] . ويتمثل القول في التوحيد في اليهودية وفي الاسلام .

والشرك في تفسير العلماء الاسلاميين ، ان يجعل لله شريكاً في ربوبيته، غير الله مع عبادته ، والايمان بالله وبغيره ، فصاروا بذلك مشركين[٥] . ومن الشرك ان تعدل بالله غيره ، فتجعله شريكاً له . ومن عدل به شيئاً من خلقه فهو مشرك ، لأن الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا نديد[٦] . ويقال له Polytheismus = Polytheism في اللغات الأوروبية . من أصل يوناني هو Polys ، ومعناها كثرة وتعداد ، و Theos بمعنى (إلـه) . فيكون المعنى : القول بتعدد الآلهة ، أي الشرك . نقيض القول بالتوحيد Monotheismus . فالشرك هـو الدين المعاكس لدين التوحيد . ويختلف عن عقيدة الـ Polydoemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature ، وبوجود أثر لها في حياة الانسان، كما يختلف

---

١ Ency. Religl., Vol. II, p. 383

٢ E. Renan, Histoire Générale et Système comparé des Langues Sémitiques, Paris, 1855, Vol. I, Chapt I, p. 1, ff.

٣ تاج العروس (٥٢٦/٢) ، (وحد) .

٤ Ency. Religl., 10, p. 112.

٥ تاج العروس (١٤٨/٧) ، (شرك) .

٦ اللسان (٤٤٩/١٠ وما بعدها) ، (شرك) .

عن القائلين بمبدأ (الحلول) Pantheism من حيث حلول الإلـٰه في الخلق والخلق في الإلـٰه[1] .

وقد ذهب أهل الأخبار الى أن العرب الأولى كانت عـلى ملة ابراهيم ، من الايمان بإلـٰه واحد أحد ، اعتقدت به ، وحجّت الى بيته ، وعظمت حرمه ، وحرمة الأشهر الحرم ، بقيت على ذلك ، ثم سلخ بهم الى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان، وابتعدوا عن دين آبائهم وأجدادهم ، حتى أعادهم الإسلام اليه[2] .

ونظرية أن العرب جميعاً كانوا في الأصل موحدين ، ثم حادوا بعد ذلك عن التوحيد فعبدوا الأوثان وأشركوا ، نظرية يقول بها اليوم بعض العلماء مثل (ويليم شميد) Wilhelm Schmidt الذي درس أحوال القبائل البدائية وأنواع معتقداتها ، فرأى ان عقائد هذه القبائل البدائية الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها ودرسها الى عقيدة أساسية قائمة على الاعتقاد بوجود (القـديم الكل) أو (الأب الأكبر) الذي هو في نظرها العلة والأساس . فهو إلـٰه واحد . وتوصل الى أن هذه العقيدة هي عقيدة سبقت التوحيـــد ، ثم ظهر من بعدها الشرك . وقد أطلق عليهـــا في الألمانية مصطلح Urmonotheismus أي التوحيد القديم[3] .

ويأخذ بهذه النظرية علماء اللاهوت وبعض الفلاسفة ، وفي الكتب السماوية تأييد لها أيضاً . فالشرك وعبادة الأصنام بحسب هذه النظرية ، نكوص عن التوحيد ، ساق اليه الانحطاط الذي طرأ على عقائد الانسان فأبعده عن عبادة الله[4] .

اننا لا نستطيع ان نتحدث عن عقيدة التوحيد عند العرب قبل الاسلام استناداً الى ما لدينا من كتابات جاهلية ، لعدم ورود شيء عن ذلك . فالنصوص التي وصلت الينا ، هي نصوص فيها أسماء أصنام ، وليس فيها ما يفهم منه شيء عن التوحيد عند العرب قبل الميلاد وبعده ، إلا ما ورد في النصوص العربيـة الجنوبية المتأخرة من عبـــادة الإلـٰه (ذ سموى) (ذو سموى) ، أي صاحب السماء ، بمعنى إلـٰه السماء . وهي عبادة ظهرت متأخرة في اليمن بتأثير اليهودية والنصرانية

---

١ Ency. Religl., Vol. 10, p. 112.

٢ التجيرمي ، إيمان العرب (١٢ وما بعدها) ، الاصنام (ص ٦) .

٣ Schmidt, S. 637, W. Schmidt, Der Ursprung der Gottesidee, 4 ed., 1912.

٤ Ency. Religl., Vol. 7, p. 113.

اللتين دخلتا اليمن ووجدتا لها أتباعاً هناك ، بل حتّى هذه العبادة لا نستطيع أن نتحدث عنها حديثاً يقينياً ، فنقول انها عبادة توحيد خالص تعتقد بوجود إلـه واحد على نحو ما يفهمه أهل القول بالتوحيد .

وقد ذكرت جملة (ذ سموى) في نص مع الإلـه (تالب ريمم) (تالب ريام) ، رب قبيلة (همدان) . ويدل ذكر اسم هذا الإلـه مع اسم إلـه آخر على ان عقيدة التوحيد لم تكن قد تركزت بعد ، وانها كانت في بدء تكوينها ، فلما اختمرت في رؤوس القوم ، ذكرت وحدها في النصوص المتأخرة ، دون ذكر أسماء الأصنام الأخرى ، مما يشير الى حدوث هذا التطور في العقائد ، والى ظهور عقيدة التوحيد والايمان بإلـه السماء عند جماعة من العرب الجنوبيين . وقد أكملت هذه العقيدة بأن صار إلـه السماء رب السماء والأرض[1] .

ولم يكن (ذ سموى) ، (ذ سمى اله) ، (ذو السماء إلـه) أي (صاحب السماء) ، أو (إلـه السماء) ، أو (رب السماء) ، إلـه جماعه معينة أو إلـه قبيلة مخصوصة ، بل هو إلـه ولدته عقيدة جديدة ظهرت في اليمن بعد الميلاد على ما يظن تدعو الى عبادة إلـه واحد هو (ربّ السماء) ، فهو إلـه واحد مقره السماء . ويرى بعض المستشرقين أن هذه العقيدة هي نتيجة اتصال أهل اليمن باليهودية والنصرانية على أثر دخولها العربية الجنوبية، فظهرت جماعة تأثرت بالديانتين تدعو الى عبادة إلـه واحد هو (رب السماء)[2] .

وأما عبادة (الرحمن) (رحمنن) ، فهي عبادة توحيد ، ظهرت من جزيرة العرب فيما بعد الميلاد . وقد وردت كلمة (رحمنن) ، أي (الرحمن) ، في نص يهودي كذلك وفي كتابات (ابرهة) ، ووردت في نصوص عربية جنوبية أخرى وفي نصوص عثر عليها في أعالي الحجاز[3] . وقد كان أهل مكة على علم بالرحمن ، ولا شك ، باتصالهم باليمن وباليهود . ولعلهم استخدموا الكلمة في

---

١ Handbuch, I, S. 102.

٢ Handbuch, I, S. 104, Rivista, 1955, Fax. I, II, p. 109, Le Muséon, 1954, tome LXVII, p. 118.

٣ Glaser 554, 406 = 410, Halevy 63, CIH, Pars 4, Tomus, I, Capt. I, No. 6, p. 15 - 9, II, 537 - 543, p. 257 - 300, CIH, 6, 45, 537, 538, 539, 541, 542, 543, MM, Altsüd., 19, Rep. Epig., 3904, 4069, 4109, Stambul, 7608, Asmara, I, Le Muséon, LII, p. 51.

معنى الله . وإن ذكر علماء اللغة أو علماء التفسير أن اللفظة لم تكن معروفة عند أهل مكة في الجاهلية [1] .

وقد جاء في النص اليهودي المذكور : (الرحمن الذي في السماء واسرائيل وإلـه اسرائيل رب يهود) . وقد حمل هذا النص بعض الباحثين على القول بأن العرب الجنوبيين قد أخذوا هذه الكلمة وفكرتهم عن الله من اليهودية، وان فكرة التوحيد هذه انما ظهرت بتأثير اليهودية التي دخلت الى اليمن . غير ان من الباحثين من رأى خلاف هذا الرأي . رأى ان افتتاح النص بذكر الرحمن ، ثم اشارته بعد ذلك الى إلـه يهود ، وورود كلمة (الرحمن) في نص آخر يعود الى سنة (٤٦٨) للميلاد[2] . كتبه صاحبه شكراً للرحمن الذي ساعده في بناء بيته : كل هذه وأسباب أخرى ، تناقض رأي القائلين بأن عقيدة الرحمن عقيدة اقتبست من اليهود[3] .

وقد ذكر بعض علماء اللغة ان (الرحمن) اسم من أسماء الله مذكور في الكتب الأول ، وان اللفظة عبرانية الأصل ، وأما (الرحيم) فعربية . وذكروا ان (الرحمن) اسم مخصص بالله ، لا يجوز أن يسمى به غيره[4] . وقد أنشدوا للشنفرى أو لبعض الجاهلية الجهلاء :

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها [5]

فيظهر من هذا البيت أن الشاعر كان يدين بعبادة الرحمن . ونجد مثل هذه العقيدة في قول سلامة بن جندل الطهوي :

---

١ Handbuch, I, S. 248, Halevy, Revue des Etudes Juives, 1891, Vol. 22, pp. 125 - 129, 281, 23, p. 304, Margoliouth, The Relations, p. 67.

٢ CIS, 7.

٣ Margoliouth, The Relation between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam, p. 67.

٤ تاج العروس (٨/٣٠٧) ، (رحم) ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٦)، تفسير الطبري (١/٤٤) ، تفسير ابن كثير (١/٢١) .

٥ تفسير الطبري (١/٤٤) ، وورد :
لقد لطمت تلك الفتاة هجينها ألا بتر الرحمن ربي يمينها
الاشتقاق (ص ٣٧) .

عجلتم علينا عجلتينا عليكم   وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق[1]

فإن ذلك يعني أن قوماً من الجاهليين كانوا يدينون بعبادة (الرحمن) . ومما يؤيد هذا الرأي ما ورد من أن بعض أهل الجاهلية سموا أبناءهم عبد الرحمن ، وذكروا أن (عامر بن عتوارة) سمى ابنه (عبد الرحمن)[2] .

وقد وردت لفظة (الرحمن) في شعر ينسب الى (حاتم الطائي) هو :

كلوا اليوم من رزق الإله وأيسروا   وإن على الرحمان رزقكم غداً

وحاتم من المتألهة ، ويعده البعض من النصارى و (الرحمن) نعت من نعوت الله في النصرانية ، من أصل (رحمونو) ، Rahmono[3] ، فهل عبر شاعرنا بهذه اللفظة عن هذا المعنى النصراني ؟

« وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى ردّ الله عليهم ذلك بقوله : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. ولهذا قال كفّار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لعلي: اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم . رواه البخاري . وفي بعض الروايات : لا نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة »[4] .

وذكر أن المشركين سمعوا النبيّ يدعو ربه ، يا ربنا الله ويا ربنا الرحمن ، فظنوا أنه يدعو إلهين ، فقالوا : هذا يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو مثنى مثنى . وأن أحدهم سمع الرسول يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال لأصحابه : انظروا ما قال ابن أبي كبشة دعا الرحمن الذي باليمامة. وكان باليمامة رجل يقال له الرحمان[5] .

---

١ تفسير الطبري (١/٤٤) ، (سلامة بن جندب الطهوي) ،
عجلتم علينا اذ عجلنا عليكم   وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق
تفسير ابن كثير (١/٢١) ،
٢ الاشتقاق (ص ٣٧) .
٣ غرائب اللغة (١٨٢) .
٤ تفسير ابن كثير (١/٢١) .
٥ تفسير الطبري (١٥/١٢١) ، سورة الاسراء ، الآية ١١٠ ، روح المعاني (١٥/١٧٦) .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن ذلك الشخص الـذي زعموا انه كان يُعرف بـ (رحمان اليمامة) . لكنهم ذكروا ان (مسيلمة الكذاب) ، كـان يقال له رحمان اليمامة [1] . فهل عنوا بـ (رحمان اليمامة) مسيلمة نفسه ، أم شخصاً آخـر كان يدعو لعبادة (الرحمان) قبله ؟

وورد ان قريشاً قالوا للرسول : « انا قد بلغنا انك انما يعلمك رجل باليمامة ، يقال له الرحمن ولن نؤمن به أبداً » . فنزل فيهم قوله : « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا إلَه إلا هو عليه توكلت واليه متاب » [2] . وذكر بعض أهـل الأخبار : كان مسيلمة بن حبيب الحنفي ، قد تسمى بالرحمن في الجاهلية ، وكان من المعمرين ، وذلك قبل أن يولد عبدالله أبو رسول الله [3] .

وورد في بعض أقوال علماء التفسير ان اليهود قالوا : (ما لنا لا نسمع في القرآن اسماً هو في التوراة كثير . يعنون الرحمان ، فنزلت الآية) [4] .

ويرى المستشرقون ان عبادة (الرحمن) (رحمنن) ، انما ظهرت بين الجاهليين بتأثير دخول اليهودية والنصرانية بينهم [5] .

وقد ذكر (اليعقوبي) أن تلبية (قيس عيلان) ، كانت على هذا النحو : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك أنت الرحمان ، أتتك قيس عيلان ، راجلها والركبان» [6] وأن تلبية علك والأشعرين ، كانت :

نحج للرحمان بيتاً عجباً مستتراً مغيباً محجباً [7]

وفي التلبيتين المذكورتين دلالة على اعتقاد القوم بإلّه واحد ، هو الرحمان .

---

١ اللسان (١٢/٢٣١) ، (رحم) ، تاج العروس (٨/٣٠٧) ، (رحم) .

٢ سورة الرعد ، الآية ٣٠ ، الروض الأنف (١/٢٠٠) ، سيرة ابن هشام (١/٢٠٠) (حاشية على الروض) ، تفسير الطبري (١٣/١٠١) .

٣ الروض الأنف (١/٢٠٠) .

٤ القرطبي ، الجامع (١٠/٣٤٣) .

٥ G. Ryckmans, Inscriptions Sudarabes, X, No. 515, Le Muséon, 66, 1953, p. 314, Ryckmans 330. b., CIH 541, G. Ryckmans, in Le Muséon, 59, 1946, p. 165, A. Jamme, La Religion Sud-Arabe, Preislamique, 275.

٦ اليعقوبي (١/٢٢٥) .

٧ اليعقوبي (١/٢٢٦) .

ولم ترد لفظــة (الرحمان) إلاّ مفردة ، فليس لها جمع ؛ لأنها تعبير عن توحيد ، وليس في التوحيد تعدد ، فالتعدد شرك . على عكس لفظة (رب) ، التي تؤدي معنى (إلـه) ، وهي تعبير عن اعتقاد ، لا اسم علم لإلـه ، ولذلك وردت لفظة (أرباب) بمعنى آلهة تعبيراً عن تعدد الآلهة ، وهـو الشرك . وقد كان الجاهليون يقولون : ربّي وربك وربنا وأربابنا ، كما يقولون إلهي وإلاهك وآلهتنا [١] .

وقــد تكون كلمة (ه رحم) (هارحيم) ، أي (الرحيم) الواردة في النصوص الصفوية[٢] وفي النصوص السبئية اسم إلـه[٣] ، وقد تكون صفة من صفات الآلهة على نحو ما تؤديه كلمة (الرحيم) من معنى في الاسلام .

وللعلماء آراء في ظهور عبادة الشرك . ورأي رجال الدين منهم ، ان النــاس كانوا أمة واحدة في الدين ، كانوا على التوحيد جميعاً ، ثم ضلّوا فعبدوا جملة آلهة وصاروا مشركين[٤] . أما غيرهم من العلماء الذين يستندون الى الملاحظات ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة مثل علم النفس وعــلم الاجتماع،فيرون ان عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بالنسبة الى ظهور الوثنية والشرك. ظهرت بعد أن توسعت مدارك الانسان ، فشعر أن مــا كان يتصوره من وجود قوى روحانية عليا في الأشياء التي عبدها لم يكن سوى وهم وخداع،وصار يقتصد في الشرك ، الى أن اهتدى الى عبادة إلـه واحد .

ظهور الشرك :

هناك عدة عوامل دعت الى ظهور الشرك ، أي تعدد الآلهــة ، وأثرت في تعدد الآلهة . هناك عوامل طبيعية وعوامل رسّية Characteristics ، وعوامــل

١ هناك ربك ما أعطاك من حسن   وحيثمايك أمر صالح فكن
شرح ديوان زهير (١٢٣) .

٢ Handbuch, I, S. 248, Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémitiques, Paris, 1868 - 1877, p. 142, No. 402, Dussuad, voyage Archéologique au Safa, Paris, 1901, No. 258, Mission, p. 88, Les Arabes en Syrie, p. 152.

٣ CIS, 4, 2, No. 40, p. 63, Grahmann, S. 246.

٤ Ency. Religl., 10, p. 112.

سياسية وعوامل تأريخية واجتماعية واقتصادية وعوامل أخرى ، كل هذه أثرت في شكل الشرك وفي تعدد الآلهة وفي كيفية تصور الناس لآلهتهم . ولا يعني هذا انها أثرت كلها مجتمعة وفي آن واحد ، انما يعني ان ظهور الشرك وشكله هو نتيجة عوامل متعددة وأسباب مختلفة أثرت في ظهوره وفي تكوين صورة الآلهة في نظر المؤمنين بها المتعبدين لها .

وإنّا لنجد وجهة نظر الشعوب عن الآلهة أو الإلـه تختلف باختلاف ثقافتها ومستواها الاجتماعي ، وللوضع السياسي دخل كبير في الشرك وفي عدد الآلهة وفي شكل الدين . لقد كان لكل قبيلة إلـه خاص بتلك القبيلة يحميها من الأعداء ومن المكاره ، ويدافع عنها في الحروب والملمات ، ويعطيها النصر . كما كان للقرى والمدن آلهتها الخاصة بها . فإذا تحالفت القبائل أو القرى أو المدن تحالفت آلهتها معها ، وكوّنت حلفاً وصداقة متينة بينها . أما إذا تحاربت هذه القبائل او القرى او المدن ، فيكون لهذه الحرب أثر كبير في مستقبل الآلهة وفي عددها . فقد ينصرف المغلوبون عن آلهتهم الى عبادة آلهة أخرى ، لأنها أصبحت ضعيفة لا قدرة لها على الدفاع عن عَبَدَتها . وقد يتأثر الغالبون بعبادة المغلوبين الذين خضعوا لهم ، فيضيفون آلهة المغلوبين الى آلهتهم ، فيزيد بذلك عدد الآلهة ، ولا سيما إذا كان المغلوبون أصحاب ثقافة عالية ، وكان لهم ادب وفن .

والعادة أن آلهة القبائل أو المدن الرئيسية تكون هي الآلهة الرئيسية للحلف أو في المملكة . ويكون إلـه القبيلة ذات النفوذ أو العاصمة عندئذ ، هو إلـه الحكومة الكبير . أما الآلهة الأخرى ، فتكون دونه في المنزلة ، ولهذا يرد اسمها في الغالب بعد اسم الإلـه الكبير .

كذلك يجب ألا ننسى عامل الجوار والاتصال الثقافي في ظهور الشرك ، فكثيراً ما يؤدي هذا الاتصال الى اقتباس آلهة المجاورين واضافتها الى مجموعة الآلهة عند ذلك الشعب ، فيزيد بذلك عدد الآلهة أو ينقص . فقد تطغى الآلهة الجديدة المقتبسة على الآلهة القديمة ، ويقل شأن بعضها فيهمل ، ثم يموت اسمها . وقد يحدث ذلك بطريق الحرب أيضاً ، كما ذكرت ، فيتغير العدد بذلك .

ولرجال الدين ولسادات القبائل وللأمراء وللملوك أثر في ظهور الشرك . كان في إمكانهم اقرار مستقبل الآلهة بإضافة آلهة جديدة على الآلهة القديمة ، أو بإبعاد

إلـه أو آلهة عن عبادة قومهم ، فيزيد أو ينقص بذلك عـــدد الآلهة . وقد كان سادات القبائل والوجوه يغيّرون عبادة أتباعهم بإدخال عبادة إلـه جديد ، يأخذونه من زيارتهم لبلـــد غريب ، كأن يكون أحدهم قد أصيب بمرض وهو في ذلك البلد ، فيشار عليـــه بالتعبد وبالتقرب لإلـه ذلك البلد أو لأحد آلهته ، فيصادف أن يشفى ، فيظن أنه شفي ببركة ذلك الإلـه وبقدرته وقوته ، فيتقرب له ويتعبد له ، فإذا أعاد حمل عبادته الى أتباعه ، فيعبد عندهم . ويضاف عـــلى آلهتهم ، ويصير أحدهم وقد يطغى اسمه عليها ، وذلك حسب درجة تعلق سيد القبيلة به، وحسب درجة ومكانة سيد القبيلة بين الناس. وتأريخ الجاهلية مليء بحوادث تبديـل آلهة بسبب تبديل سادات القبائل ووجوه الناس لعقائدهم ولآلهتهم ، فتدخل القبيلة كلها في العبادة الجديدة . وقد كان اسلام قبائل برمتها ، بسبب دخول سيدها في الاسلام ، فالناس تبع لساداتهم ولقادتهم ، و « الناس عـلى دين ملوكهم » كما هو معروف ومشهور في أقوال العرب .

ومعظم أسماء الآلهة صفات للآلهة لا اسم علم لها ، فودّ ورضى والمقـه وذات حميم وأمثالها ، هي صفات في الأصل ، مضى عليها الزمـن ، فاستعملت استعمال الأسماء الأعلام . وظن أنها آلهة قائمة بذاتها . فلما جاء الباحثون وجمعوها حسبوها أسماء آلهة ، فزاد بذلك عدد الآلهة ، واعتبرت الأسماء الكثيرة مـن سيماء الإفراط في الشرك . بينما هي صفـــات لإلـه ، أو آلهة لا يزيد عددها على ثلاثة ، هي الثالوث الكواكبي المقدس الذي تعبدوا له .

ولا بد لنا من الإشارة الى اصطلاح أطلقـــه (ماكس مولر) Max Müler على مرحلة من العبـــادة هي بين بين ، لا هي توحيد Monotheism ولا هي شرك Polytheism ، بل هي مرحلة تعبد فيها الانسان على رأى هذا الباحث الى إلـه واحد هو إلـه القبيلة ، مع الاعتقاد بوجود آلهة أخرى[1] . وهـذا الاصطلاح هو Henotheismus . وقد رأى (فلايدلر) Pfleidler أن الساميـين لم يكونوا موحدين بطبعهم كما ذهب (رينان) الى ذلك ، بل كانوا يدينون بإلـه قومي ، ومن هذه العقيدة ظهر التوحيد الخالص كما حدث عند الاسرائيليين[2] .

---

١ Max Müller, Varlesungen über den Ursprung und die entwicklung der Religion, 1880, Schmidt, S. 261.

٢ Ency. Religl., 10, p. 811, Pfleidler, Philosophy of Religion, London, 1885 - 1888, III, p. 19.

وفي القرآن الكريم إشارات الى أنواع من الشرك كان عليه الجاهليون ، وفيه تعريف لمعنى الشرك ، فالشرك في قوله تعالى : (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون)[1] عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب أو المعادن ، أي مما لا روح له وقابل للكسر[2] . وفي بعض الآيات أن من أنواع الشرك القول بأن الجن هم شركاء لله[3] . ومن أنواعه أيضاً القول بأن الملائكة هم شركاء لله وبناته[4] . وفي آيات أخرى ان من الشرك اتخاذ آلهة أخرى مع الله[5] . والآلهة هنا شيء عام . فيه تأليه الكواكب وعبادة الأشياء غير المنظورة ، أي غير المادية وعبادة الأصنام .

وفي القرآن الكريم جواب عن فلسفة القوم وتعليلهم لعبادة الأصنام واتخاذهم (أولياء) من دون الله ، إذ يقولون جواباً عن الاعتراض الموجه اليهم في عبادة غير الله : (والذين اتخذوا من دونه أولياء . ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى . ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون)[6] . ويتبين من هذه الآية ومن آيات أخرى ان فريقاً من العرب كانوا يعتقدون بوجود الله ، وانه هو الذي خلق الخلق ، وأن له السيطرة على تصرفات عباده وحركاتهم ، ولكنهم عبدوا الأصنام وغيرها ، واتخذوا الأولياء والشفعاء لتقربهم الى الله زلفى[7] .

وفي كتاب الله مصطلحات لها علاقة بعبادة الشرك ، منها (شركاء) جمع (شريك) ، وهو من اتخذه المشركون شريكاً مع الله[8] . و (أنداد) (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله)[9] (وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله . قل : تمتعوا ، فإن مصيركم الى النار)[10] . و (أولياء)

---

١ الاعراف ، الآية ١٩١ وما بعدها ، يونس ، الآية ١٨ .
٢ تفسير الجلالين (١٣٩/١) ، « طبعة المطبعة المليجية » .
٣ الانعام ، الآية ١٠٠ ، الجلالين (١١٦/١) .
٤ سبأ ، الآية ٤٠ وما بعدها .
٥ الانبياء ، الآية ٢٤ .
٦ الزمر ، الآية ٣ ، الجلالين (١٣٣/٢) .
٧ الزمر ، الآية ٣ ، الانعام ، الآية ١٤٨ ، النحل ، الآية ٣٥ .
٨ الانعام ، الآية ١٠٠ ، راجع « فتح الرحمن لطالب آيات القرآن » (ص ٢٣٨) ، حيث تجد المواضع الواردة في القرآن الكريم .
٩ البقرة ، الآية ١٦٥ .
١٠ ابراهيم ، الآية ٣٠ .

و (وليّ) و (ولياً)[1] و (شفعاء) و (شهداء)[2] . فهذه الكلمات وأمثالها تعبر عن عقائد الجاهليين قبيل الاسلام . وعن اعتقادهم في عبادة أشياء أخرى مع الله كانوا يرون انها تستحق العبادة ، وانها في مقابل الله في العرف الاسلامي ، أو انها شركاء في ادارة الكون أو انها مساعدة لله .

والشرك في تفسير العلماء المسلمين ، أن تعدل بالله غيره ، فتجعله شريكاً له . فهو يشمل أشياء عديدة . منها عبادة الكواكب ، أي عبادة القوى الطبيعية ، وعبادة الجن والملائكة والأمور الخفية ، وبمعنى آخر عبادة القوى الخفية ، أو القوى الروحية ، وعبادة الأمور المادية كالأصنام والأحجار ، باعتبار انها تشفع للانسان عند الآلهة ، وعبادة الانسان والحيوان ، الى غير ذلك من عبادات .

ومن العبادات التي يجب أن يشار اليها عبادات اصطلح علماء الأديان على تسميتها بمسميات حديثة ، تمثل عقائد قديمة ، ولبعضها أتباع أحياء يرزقون . ولبعض منها آثار ومظاهر ، دخلت في الأديان الباقية ، وصبغت بصبغتها ، وهي من بقايا العقائد الدينية البدائية التي رسخت في النفوس وفي القلوب حتى صار من الصعب على الانسان أن يتخلص منها ، فبقيت راسخة تحت مسميات جديدة. ومن تلك العقائد : الـ Shamanism ، و Tatemism ، و Fetishism ، و Ancestor - worship ، و Animism ، وغيرها من مسميات سيرد الحديث عنها في هذا الكتاب[3] .

أما الـ (شمانية) ، فقد أخذت من كلمة (شمن) Shaman ومعناها كاهن أو طبيب (شمان) ، أو من كلمة Shemen التي معناها صنم أو معبد، أو من أصل آخر . ويراد بها اليوم ديانة تعتقد بالشرك ، أي تعدد الآلهة Polytheism ، أو بعبادة الأرواح Polydomonism مع عبادة الطبيعة Nature - worship لاعتقادها بوجود أرواح كامنة فيها . ويعتقد في هذا الدين أيضاً بوجود إلـه أعلى هو فوق جميع هذه الأرواح والقوى المؤلهة ، وبتأثير السحر[4] .

---

١ راجع فهارس القرآن الكريم ، مثل فتح الرحمن (ص ٤٨٠) .
٢ فتح الرحمن (ص ٢٤٠) .
٣. A.A. Bowman, Studies in the Philosophy of Religion, London, 1938, p. 67.
٤ Ency. Religi., II, p. 441.

ويستعين الـ (شمن) ، وهو الكاهن أي رجل الدين ، بالقوى الخارقة التي لديه والتي لا يملكها الرجل الاعتيادي في اعتقاد أبناء هذه العقيـدة في الاتصال بالأرواح وبما وراء الطبيعة للتأثير فيها . ولدى هذا الكاهن أرواح مأمورة بين يديه للقيام بما يطلب منها القيام به . وهو يمارس أعمالاً سحرية للتأثير في الأرواح. فللسحر في هذا الدين أهمية ومقام . ويقوم الـ (شمن) عند أكثر المتدينين بهذا الدين بأعمال الطبيب[1] .

وأما (الطوطمية) ، فقد تحدثت عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب[2]. وقد بينت عقيدتها في (الطوطم) ، ورأي العلماء في كيفية ظهور المجتمع (الطوطمي) ، وهو مجتمع يقوم على أساس الجماعة أو القبيلة ، يرتبط أفراده برباط ديني مقدس، هو رباط (الطوطم) ، رمز الجماعة .

وأما الـ Fetishism ، من أصل Factitus اللاتيني ، بمعنى السحر ، أي القوة المؤثرة الخفية Magic ، فللباحثين في تأريخ الأديان آراء متعددة في تعريفها وفي تثبيت حدودها[3] . والرأي الغالب الشائع بينهم انها عبادة أو تقديس للأشياء المادية الجامدة التي لا حياة فيها لاعتقاد أصحابها بوجود قوة سحرية فيها ؛ وقوى غير منظورة في تلك الأشياء تلازمها ملازمة مؤقتة أو دائمة . ويحمل الـ Fetish (اليد) لجلب السعد إلى صاحبه . وهو في نظر (تيلور) Dr. Tylor بمثابة (إلـه البيت) وقوة فاعلة خفية تطرد الخبائث عن صاحبه ، وتجلب الخير له . ولحدوث الأحلام ونشوئها في نظر الأقوام البدائية دخل كبير في رأي العلـماء في ظهور هذه العقيدة[4] .

وأصحاب هذه العقيدة لا ينظرون الى تلك الأشياء المادية على انها نفسها ذات قوة فعالة خفية ، وانها الرمز أو الصورة للإلـه المنسوب ذلك الشيء اليـه ، بل هم يرون ان تلك الأشياء ليست سوى منازل أو مواضع لاستقـرار تلك القوى المؤثرة التي يكون لها دخل في إسعاد الانسان . وهو يقدس الأشياء المادية كالحجارة

---

١ Ency. Religl., Vol. 11, p. 441.

٢ (ص ٥١٨ وما بعدها) .

٣ Ency. Religl., Vol. V, p. 894.

٤ Ency. Brita., Vol. 9, p. 202, Taylor, Primitive Culture, II, p. 143, Waitny, Anthropologie der Naturvölker, II, S. 174.

مهما كانت صغيرة أو كبيرة ، مهندمة ومصقولة صقلتها يد الانسان ، ومستها أو لم تمسها يد ، بل كانت على نحو ما وجدها في شكلها الطبيعي، لأنه حينما يتقرب إلى تلك الحجارة ، لا يتقرب اليها نفسها ، بل يتقرب الى الروح التي تحل فيها. فالروح هي المعبودة ، لا الحجر الذي تحل الروح فيه ، وليس الحجر أو المواد الأخرى إلا بيتاً أو فندقاً تنزل الروح فيه .

أما عبادة الأسلاف Ancestor worship ، فهي فرع من أهم فروع الدين في نظر بعض العلماء ، بل هي الأساس الذي قام عليه الدين في نظر آخرين ، ولا سيما عند (سبنسر) H. Spencer [1] . وأما الأسباب التي دعت البشر الى هذه العبادة ، فهي الحب والتقدير للأبطال والرؤساء والأمل في استمرار دفاعهم عنهم وحمايتهم للجماعة التي تنتمي اليها كما كانت تفعل في حياتها ورد أذى الأعداء الأموات منهم والأحياء . فتمجيد الأبطال والخوف منهم ، هو الذي حمل البشر على عبادة الأسلاف على رأي . وهناك من رأى ان تمجيد الأبطال والاشادة بذكرهم ، هو الذي أوجد هذه العبادة ، ومنهم من نسبها الى الخوف منهم حسب[2] .

وسواء أكان منشأ هذه العبادة الحب والتقدير أو الخوف أو كلاهما، فإن أساس هذه العقيدة هو الايمان ببقاء الروح ، روح الميت ، وان بإمكان هذه الروح نفع الأحياء أو إلحاق الأذى بهم . ورؤية الأحياء وسماع توسلاتهم ودعواتهم لها . فالميت وإن كان قد دفن في قبره وغيب بين التراب ، إلا انه يسمع ويعي ، فروحه حية وبإمكانه النفع والضر . وهذه العقيدة هي التي حملت بعض الشعوب على مخاطبة الأرواح من فجوات مخصوصة في الأرض ومن مواضع أخرى لاستشارتها في بعض الأمور التي تهمها ، وللتحدث معها في مسائل خطيرة كتقديم مشورة أو أخذ رأي أو استفسار عن اسم قاتل أو سارق . ولهذه الغاية اتخذت مواضع مقدسة Oracle يتقرب فيها الى الأرواح وللاستفسار منها . فكان في اليونان مثلاً موضع شهير عرف بإسم Thesprotia ، وموضع آخر عرف بإسم **Phigalia** في (أركاديا) Arcadia [3] . وكان في ايطاليا موضع للتنبؤ يقع على بحيرة

---

١ Ency. Relig., I, pp. 425, 427.

٢ Jevons, Introduction to History of Religion, p. 54.

٣ Herodothus, V, 92, Pausanus, III, 17, 8, 9.

(أفيرنوس) Avernus [1] . وكانت العادة في هذا الموضع أن يتقرب الراغبون في استشارة الأرواح الى الموضع المقدس بتقديم ضحية ، وعندئذ ينام السائل في الموضع المقدس ، فتظهر له الروح في المنام ، فتحدثه بما يحتاج اليه[2] .

ولعبادة السلف علاقة بعبادة الأصنام Idolatry . ويلاحظ ان عبادة السلف تقود أتباعها في بعض الأحيان الى الاعتقاد بأن قبيلتهم تنتمي الى صلب جد واحد، أصله حيوان في رأي الأكثرين ، أو من النجوم في بعض الأحيان . وهذا ما يجعل هذه العقيدة قريبة من (الطوطمية)[3] .

ولهذه العبادة أثر كبير في نظام أصحابها الاجتماعي ، إذ هي تربط الأجيال الحاضرة بالأجيال الماضية بروابط متينة ، وتؤلف من أصحاب هذا المذهب وحدة قوية ، كما ان لها أثراً مهماً في الأسرة ، فهي في الواقع عبادة تخص الأسرة قبل كل شيء[4] .

ومعارفنا عن عبادة السلف عند الجاهليين قليلة ، ويمكن أن نستنتج من أمر النبي بتسوية القبور ونهيه عن اتخاذها مساجد ومواضع للصلاة ان الجاهليين كانوا يعبدون أرواح أصحاب هذه القبور ويتقربون اليها . ولعل في عبارة (قبر ونفس) أو (نفس وقبر) الواردة في بعض النصوص الجاهلية ما يؤيد هذا الرأي ، فإن النفس هي الروح .

ومن آثار عبادة السلف عند العلماء حلق الرأس وإحداث جروح في الجسد واحتفالات دفن الموتى ولبس المسوح والعناية بالقبور والصلاة عليها أو إقامة شعائر دينية فوقها أو علامات خاصة بالميت أو الموتى للتقديس[5] . ونحن اذا استعرضنا روايات الأخباريين نجد آثار هذه العبادة معروفة بين الجاهليين .

وقد أشار أهل الأخبار الى قبور اتخذت مزارات،كانت لرجال دين ولسادات قبائل يقسم الناس بها ، ويلوذون بصاحب القبر ويحتمون به ، كالذي كان من

---

١ Ency. Religi., I, p. 428.

٢ Ency. Religi., Vol. I, p. 430, Crooke, Popular Religion, I, 179, Wilken, Het Animisme bij de Volken Indischen Archipel, 1884 - 1885, I, 74 ff.

٣ Ency. Religi., I, p. 536. Taylor, Primitive Cultures, II, p. 193,

٤ Ency. Religi., I, p. 432.

٥ Hastings, p. 300, Ency. Religi., 7, p. 325, «Ancestor - Worship ».

أمر ضريح (تميم بن مرّ) ، جدّ (تميم) ، وكالذي ذكروه من أمر (اللات) من أنه كان رجلاً في الأصل ، اتخذ قبره معبداً ثم تحول الرجل الى صنم . ونجد في كتب الحديث نهياً عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها . وقد أشارت الى اتخاذ اليهود والنصارى قبور سادتهم وأوليائهم مساجد ، تقربوا اليها ، لذلك نهي أهل الاسلام من التشبه بهم في تعظيم القبور[1] ، كما نهى عن تكليل القبور وتجصيصها ، والتكليل رفع القبر وجعله كالكلّة ، وهي الصوامع والقباب التي تبنى على القبور[2] .

وأما الـ Animism ، فهو اعتقاد بوجود أرواح مؤثرة في الطبيعة كلّها Nature ، ولذلك يؤلـه كثيراً من المظاهر الطبيعية المرئية وغير المرئية منها ، لاعتقاده بوجود قوى هي فوق الطبيعة ، منها ما يكون في جسم ، وهو (النفس) Saul ، ومنها ما لا يكون في الأجسام وهو (الروح) Spirit[3] .

ويمكن تقسيم هذه العبادة الى ثلاثة أصناف : عبادة النفس ، نفس الإنسان أو الحيوان وخاصة منها عبادة الأموات Necrolatry ، وعبادة الأرواح Spiritism ، وعبادة الأرواح التي تحلّ في المظاهر الطبيعية ، إما بصورة مؤقتة وإما بصورة دائمة Naturism[4] .

والآراء في هذه المعتقدات لا تزال في مراحلها الأولى ، وهي موضع جدل بين العلماء ، لأنها قائمة على أساس الملاحظات والتجارب التي حصلوا عليها من دراساتهم لأحوال المجتمعات البدائية لهنود أمريكا ولقبائل افريقية واسترالية ، ولا يمكن بالطبع حدوث اتفاق في الدراسات الاستقصائية المبنية على المشاهدات والملاحظات. وإذ كانت هذه الدراسات غير مستقرة وغير نهائية حتى الآن ، فقد صعب بالطبع تطبيقها على معتقدات العرب قبل الاسلام ، وزاد في هذه الصعوبة قلة معلوماتنا في هذه الأمور . وليس من الممكن في نظري أن نتوصل إلى نتائج علمية غير قابلة للأخذ والرد في هذه الموضوعات في الزمن الحاضر ، بل ولا في المستقبل

---

١ صحيح مسلم (٢/٦٦) ، (باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد) .

٢ اللسان (١١/٥٩٥) ، (كلل) .

٣ Schmidt, S. 24.

٤ Ency. Religi., I, p. 535.

القريب ، ما لم يحدث ما ليس في الحسبان ، من العثور على نصوص دينية تكشف لنا عن عقائد الجاهليين .

ونستطيع ان نقول إجمالاً ان من الجاهليين من كان يدين بعبادة الأرواح على اختلاف طرقها ، ويؤمن بأثرها . وللعلماء من مفسرين ولغويين وغيرهم تفاسير عديدة للروح ، تفيدنا كثيراً في معرفة آراء الجاهليين عنها ، كما ان للاخباريين قصصاً عنها وعن استقلالها وانفصالها عن الجسد بعد الموت واتصالها بالقبر وغير ذلك ، يمكن أن تكون موضوع دراسة قيّمة لمن يريد التبسط في دراسة هذه الأمور .

عبادة الكواكب :

وقد رأى بعض العلماء ان عبادة أهل الجاهلية هي عبادة كواكب في الأصل . وان أسماء الأصنام والآلهة ، وإن تعددت وكثرت ، إلا انها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي ، هو : الشمس والقمر والزهرة . وهو رمز لعائلة صغيرة ، تتألف من أب هو القمر ، ومن أم هي الشمس ، ومن ابن هو الزهرة . وذهبوا إلى أن أكثر أسماء الآلهة ، هي في الواقع نعوت لها ، وهي من قبيل ما يقال له الأسماء الحسنى لله في الاسلام .

وقد لفت الجرمان السماويان : الشمس والقمر ، نظر الانسان اليهما بصورة خاصة ، لما أدرك فيهما من أثر في الانسان وفي طباعه وسحنه وعمله ، وفي الجو الذي يعيش فيه ، وفي حياة زرعه وحيوانه ، وفي تكوين ليله ونهاره والفصول التي تمر عليه . فتوصل بعقله يوم ذاك إلى انه نفسه ، وكل ما يحيط به ، من فعل هذين الجرمين ومن أثر أجرام أخرى أقل شأناً منهما عليه . فنسب اليهما نموه وتكوينه وبرءه وسقمه ، وحياة زرعه وماشيته ، ورسخ في عقله انه إن تقرب وتعبد لهما ، ولبقية الأجرام ، فإنه سيرضيها ، وستغدق عليه بالنعم والسعادة والمال والبركة في البنين ، فصار من ثم عابد كوكب .

ونجد في حكاية كيفية اهتداء (ابراهيم) إلى عبادة إلّه واحد ، الواردة في سورة الأنعام ، تفسيراً لسبب تعبد الانسان للأجرام السماوية . (وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نُري

ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنّ عليه الليل ، رأى كوكباً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)[1] . فقد لفت ذلك الكوكب نظر ابراهيم ، وبهره بحسن منظره وبلونه الزاهي الخالب ، فتعبد له ، واتخذه رباً ، فلما أفل ، ورأى كوكباً آخر أكبر حجماً وأجمل منظراً منه ، تركه ، وتعبد للكوكب الآخر ، وهو القمر . فلما أفل ، ورأى الشمس بازغة ، وهي أكبر حجماً وأظهر أثراً وأبين عملاً في حياة الانسان وفي حياة زرعه وحيوانه وجوّه ومحيطه ، ترك القمر وتعبّد للشمس ، فيكون قد تعبّد لثلاثة كواكب ، قبل أن يهتدي إلى التوحيد ، هي القمر والشمس ، والمشتري أو الزهرة على ما جاء في أقوال المفسرين[2] .

ويشير القرآن الكريم في موضع آخر الى عبادة الجاهليين للأجرام السماوية ، ولا سيما الشمس والقمر ، ففيه : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون »[3].

وهذه الأجرام السماوية الثلاثة هي الأجرام البارزة الظاهرة التي بهرت نظر الإنسان ، ولا سيما الشمس والقمر . والزهرة ، وإن كانت غير بارزة بروز الشمس والقمر ، غير أنها ظاهرة واضحة مؤثرة بالقياس الى بقية الأجرام ذات مظهر جذاب ، ولون باهر خلاب ، وقد يكون هذا المظهر الجميل الأخاذ هو الذي جعلها ابناً للشمس والقمر في أساطير العرب الجنوبيين .

واعتبر الجاهليون القمر أباً في هذا الثالوث ، وصار هو الإلـه المقدم فيه ، وكبير الآلهة . وصارت له منزلة خاصة في ديانة العرب الجنوبيين . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل

---

١ الانعام ، الآية ٧٥ وما بعدها .
٢ تفسير الطبري (١٥٨/٧ وما بعدها) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢٥/٧) .
٣ فصلت ، الآية ٣٧ .

التغليب[١] ، وعلى الذهاب الى أن هذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العربية الجنوبية لا نجده في أديان الساميين الشماليين ، مما يصح أن نجعله من الفروق المهمة التي تميز الساميين الجنوبيين عن الساميين الشماليين[٢] .

ويرجع أولئك المستشرقون هذا التباين الظاهر بين عبادة الساميين الجنوبيين وعبادة الساميين الشماليين وتقديم القمر على الشمس عند العرب الجنوبيين الى الاختلاف في طبيعة الأقاليم والى التباين في الثقافة ، ففي العربية الجنوبية يكون القمر هادياً للناس ومهدئاً للأعصاب ، وسميراً لرجال القوافل من التجّار وأصحاب الأعمال في الليالي اللطيفة المقمرة ، بعد حرّ شديد تبعثه أشعة الشمس المحرقة ، فتشل الحركة في النهار ، وتجعل من الصعب على الناس الاشتغال فيه ، وتميت من يتعرض لأشعتها الوهاجة في عز الصيف القايظ . إنها ذات حميم حقاً ، فلا عجب إذا ما دعيت بـ (ذت حمم) ، (ذات حميم) ، (ذات الحميم) عند العرب الجنوبيين . ولذلك ، لا يستغرب إذا قدمه العرب الجنوبيون في عبادتهم على الشمس، وفضلوه عليها . واذا كانت الشمس مصدراً لنموّ النباتات نموّاً سريعاً في شمال جزيرة العرب ، فإن أشعة الشمس الوهّاجة المحرقة تَقِفُ نموّ أكثر المزروعات في صيف العربية الجنوبية ، وتسبب جفافها واختفاء الورد والزهر في هذا الموسم ، فلا بد أن يكون لهذه الظاهرة أثر في العقلية التي كوّنت تلك الأساطير[٣] .

ويرى (هومل) أن ديانات جميع الساميين الغربيين والعرب الجنوبيين هي ديانة عبادة القمر أي أن القمر فيها مقدم على الشمس ، وهو عكس ما نجده في ديانة البابليين . ويعلل ذلك ببقاء الساميين الغربيين بدواً مدة طويلة بالقياس الى البابليين . ويلاحظ أيضاً أن الشمس هي أنثى ، وأما القمر فهو ذكر عند الساميين الغربيين ، وهو بعكس ما نجده عند البابليين[٤] .

والاسم الشائع للقمر بين الساميين ، هو : ورخ ، و (سن) (سين) ، وشهر . وشهر خاصة هو الاسم الشائع المستعمل للقمر في الكتابات الجاهلية التي

---

١ D. Nielsen, Die Altarabische Mondreligion.

٢ Handbuch I, S. 213.

٣ Handbuch, I, S. 213, Die Altarbische Mondreligion, S. 49, Die Sabaische Gott Ilmukah, S. I.

٤ Hommel, Grundriss, I, S. 85.

عثر عليها في العربية الجنوبية وفي النصوص التي عثر عليها في الحبشة، وفي الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب . ويلاحظ ان الصور التي ترمز إلى القمر مما عثر عليه في تلك النصوص هي متشابهة تقريباً ، ومتقاربة في الشكل ، مما يدل على ان الأسطورة الدينية التي كانت في مخيلة عبدة القمر عنه كانت متشابهة ومتقاربة ومن أصل واحد . أما كلمة (قمر) ، فلم ترد حتى الآن في النصوص الجاهلية التي وصلت الينا ، وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن هذه التسمية متأخرة[1] .

ويلاحظ ان النصوص العربية الجنوبية لا تسمي القمر بإسمه دائماً في النصوص، وإنما تشير اليه بكناه وصفاته في الغالب . ويظهر ان ذلك من باب التأدب والتجمل أمام رب الأرباب . ونجد هذا التأدب في مقام الأرباب عند جميع البشر ، فلا يخاطب الانسان ربه كما يخاطب غيره من الإنس ، أي بإسمه المعتاد ، لأنه الرب والإله ، وهو فوق الانسان . وهو إذا خاطبه بإسمه ، فإنما يفعل ذلك على سبيل التودد والتقرب والتحبب إلى الرب ، فهو نوع من أدب التقرب إلى الآلهة .

ولما كان القمر هو الأب ، خاطبه المؤمنون به بـ (ودم ابم) ، وبـ (ابم ودم) ، أي (وَدٌّ أبٌ) ، و (أبٌ وَدٌّ) ، ولا غرابة في ذلك . فإذا كان القمر أباً للآلهة ، فلِمَ لا يكون إذن أباً للانسان عبده ، وهو في حاجة شديدة اليه ، حاجة العبد إلى سيده والولد إلى والده ؟

ودعوه أيضاً بـ (عم) ، ولِمَ لا ؟ أليس العم في مقام الأب ؟ ثم إنّ العرب لا تزال تخاطب الكبير بـ (عم) دلالة على تقديره واحترامه ، فليس بغريب إن نادى المؤمنون إلههم القمر : يا عم ! ليرحمهم وليبارك فيهم ، إن في هذا النداء تقرباً وتواضعاً واشعاراً بضعف السائل تجاه المخاطب[2] .

والأب عند العرب كلّ من كان سبباً في إيجاد شيء أو اصلاحه أو ظهوره . ويقوم العم عندهم مقام الأب . ولذلك سمّي مع الأب الأبوين[3] .

وقد عثر على أخشاب وأحجار حفرت عليها أسماء ودّ ، أو جمل (ودم

---

١ Handbuch, I, S. 214.

٢ Handbuch, I, S. 214.

٣ المفردات في غريب القرآن ، للراغب الاصفهاني (ص ٤ وما بعدها) ، مادة أبا في كتاب الالف .

ايم) ، أو (ايم ودم) ، وذلك فوق أبواب المباني ، لتكون في حمايته وللتبرك باسمه وللتيمن به ، كما وجدت كلمة (ودّ) محفورة على أشياء ذات ثقوب ، تعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة يتبرك بها . فعلوا ذلك كما يفعل الناس في الزمن الحاضر في التبرك بأسماء الآلهة والتيمن بها لمنحها الحبّ والبركة والخيرات .

ونعت القمر بـ (كهلن) ، أي (الكهل) في نصوص المسند ، وفي نصوص عثر عليها في الأقسام الشمالية من العربية الغربية . وتعني لفظة (كهلن) ، القدير والمقتدر والعزيز[1] . وهي من نعوت هذا الإلـه .

ونعت بنعوت أخرى ، مثل (حكم) ، أي (حكيم) و (حاكم) و (صدق) أي (صديق) و (صادق) ، و (علم) ، أي (عليم) .و (عالم) و (علام) ، وبنعوت أخرى عديدة من هذا القبيل ، وهي من نوع (الأسماء الحسنى) لله عند المسلمين . ترينا الإلـه إلهاً قديراً قوياً عالماً حامياً مساعداً لأبنائه المؤمنين به . يحبّهم حبّ الأب الشفيق لأبنائه الأعزاء .

والإلـه (القمر) ، هو الإلـه (المقه) عند السبئيين . وهو إلـه سبأ الكبير. وهو (عم) عند القتبانيين . كما سأتحدث عن ذلك في أصنام الكتابات ، وهو ودّ عند المعينين و (سن) (سين) ، عند الحضارمة .

واتخذ الثور من الحيوانات رمزاً للقمر،ولذلك عُدّ الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز الى الآلهة . ونجد هذه الصورة مرسومة في النصوص اللحيانية والثمودية وعند غير العرب من الشعوب الساميّة . وقد نص على اسمه في الكتابات ، إذ قيل له (ثور)[2] .

وقد ذكر (الألوسي) ، ان عبدة (القمر) « اتخذوا له صنماً على شكل عجل ، وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياماً معلومة في كل شهر ، ثم يأتون اليه بالطعام والشراب والفرح والسرور . فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه »[3] . ولم يشر الى اسم الجاهليين الذين فعلوا ذلك . فلعله قصد عبدة القمر بصورة عامة من العرب وغيرهم .

١ Halevy 237, Chrestoma. 91, 97, Grundriss, I, S. 136, Glaser, 284.

٢ Glaser 1546, Wiener Museum 5, Handbuch, I, S. 214.

٣ بلوغ الارب (٢/٢١٦) .

وذهب بعض الباحثين إلى احتمال كون (الحية) تمثل الإلـه القمر ، وهي تمثل الروح أيضاً عند بعض آخر[1] .

والشمس ، هي من أول الأجرام السماوية التي لفتت اليها أنظار البشر بتأثيرها في الانسان وفي الزرع والنماء . وهذا التأثير البارز جعل البشر يتصور في الشمس قدرة خارقة وقوة غير منظورة كامنة فيها ، فعبدها وألـهها ، وشاد لها المعابد ، وقدّم لها القرابين . وهـي عبادة فيها تطور كبير ورقي في التفكير إذا قيست بالعبادات البدائية التي كان يؤديها الانسان للأحجار والنباتات والأرواح .

وقد تعبّد العرب للشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب . وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد ، في زمن لا نستطيع تحديده ، لعدم وجود نصوص لدينا يمكن أن تكشف لنا عن وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب . وعبدها أقوام آخرون من غير العرب من الساميين ، مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين . وقد أشير في مواضع عديدة من العهد القديم إلى عبادة الشمس بين العبرانيين ، وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الشمس . ومع ذلك ، عبدت في مدن يهوذا . وقد اتخذت جملة مواضع لعبادة الشمس فيها عرفت بـ (بيت شمس) Beth Shemesh[2] .

والشمس أنثى في العربية ، فهي إلهة ، أمـا في كتابات تدمر فهي مذكر ، ولذلك فهي إلـه ذكر عند التدمريين . ويرى (ولهوزن) Wellhousen أن ذلك حدث بمؤثرات خارجية[3] . وكانت عبادة الشمس شائعة بـين التدمريين . وورد في الكتابات التي عثر عليها في (حوران) أسماء أشخاص مركبة من شمس وكلمة أخرى ، ويدلّ على ذلك شيوع عبادتها عند أهل تلك المنطقة . وذكر (سترابو) أن Helios أي الشمس ، هي الإلـه الأكبر عند النبط . ولكن الكتابات النبطية لا تؤيد هذا الرأي . والإلـه الأكبر فيها هو (اللات) . فلعل (سترابو) قصد بـ Helios اللات . وإذا كان هذا صحيحاً ، فتكون اللات هي الشمس .

والشمس من الأصنام التي تسمى بها عدد من الأشخاص،فعرفوا بـ (عبد شمس). وقد ذكر الأخبـاريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر ، لأنه أول من عبد

---

١ Arabien, S. 269.

٢ Hastings, p. 880, Die Araber, III, S. 125. ff.

٣ Reste, S. 60 Waddington 2569, 2587, Vogue, Palmy., 2, 8, 19, 75, 116, 125, Reste, S. 60.

الشمس ، فدعي بـ (عبد شمس)[1] . وقد ذكر ان بني تميم تعبدت له . وكان له بيت ، وكانت تعبده بنو أدّ كلها : ضَبّة ، وتميم ، وعديّ ، وعُطْل : وثور ، وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شُريف بن جروة ابن أسيد بن عمرو بن تميم ، فكسره هند بن أبي أهالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[2] .

وذكر أن (عبد شمس) ، اسم أضيف الى شمس السماء ، لأنهم كانوا يعبدونها. والنسبة (عبشمي)[3] .

وكانت العرب تسمّي الشمس (الإلهة) تعظيماً لها ، كما يظهر ذلك من هذا الشعر :

تروّحنا من اللعباء قسراً فأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا
على مثل ابن ميّة فانعياه تشق نواعم البشر الجيوبا[4]

ويقال لها (لاهة) بغير ألف ولام .

وعرفت الشمس بـ (ذُكاء)[5] عند الجاهليين. وقد تصور أهل الجاهلية الصبح ابناً للشمس تارة ، وتصوروه تارة حاجباً لها . فقيل حاجب الشمس . وقيل يقال للصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها[6] .

وكانوا يستقبلون الشمس ضحى. ذكر (الأسقع) الليثي ، انه خرج إلى والده، فوجده جالساً مستقبل الشمس ضحى[7] . وإذا تذكرنا ما أورده أهل الأخبار عن

---

١ منتخبات (ص ٥٧) .
٢ المحبر (٣١٦) .
٣ تاج العروس (١٧٢/٤) ، (شمس) .
٤ ينسب هذا الشعر لمية بنت أم عتبة بن الحارث ، وقيل لبنت عبد الحارث اليربوعي وقيل : لنائحة عتيبة بن الحارث ، وقيل لام البنين بنت عتيبة بن الحارث ، تاج العروس (٣٧٤/٩) ، اللسان (٦٣٠/١٧) ، تاج العروس (٥١٠/٩) ، (لاه)، (تروحنا من اللعباء فصرا) ، ابن الاجدابي الازمنة والانواء (٧٩) .
٥ بالضـم
٦ تاج العروس (١٣٧/١٠) ، (ذكو) .
٧ الاصابة (٥١/١) ، رقم (١٢١) .

صلاة الضحى ، وهي صلاة كانت تعرفها قريش ، ولم تنكرها ، أمكننا الربط بين استقبال الشمس ضحى وبين هذه الصلاة .

وقد لاحظ بعض السياح ان آثار عبادة الشمس والقمر لا تزال كامنة في نفوس بعض الناس والقبائل،حيث تتجلى في تقدير هذين الكوكبين وفي تأنيب من يتطاول عليها بالشتم أو بكلام مسيء وفي تعظيمها من بين سائر الكواكب تعظيماً يشير إلى انه من بقايا الوثنية القديمة على الرغم من إسلام أولئك المعظمين[١] .

ويلي الشمس والقمر (الزهرة) ، وهي ذكر في النصوص العربية الجنوبية ، ويسمى (عثتر) . وهو بمثابة (الابن) للشمس والقمر . وهذا الثالوث الكوكبي يدل ، في رأي الباحثين في أديان العرب الجنوبيين ، على أن عبادة العربية الجنوبية هي عبادة نجوم . وهو يمثل في نظرهم عائلة إلهية مكوّنة من ثلاثة أرباب، هي : الأب وهو القمر ، والابن وهو الزُهرة ، والأم وهي الشمس .

وإذ كان القمر هو الأب وكبير الآلهة الثلاثة ، صار اسمه في طليعة من يذكر اسمه من الآلهة في النصوص ، وصارت له كنى ونعوت كثيرة لا تجاريها في الكثرة نعوت الآلهة الأخرى،وبه تسمى أشخاص كثيرون . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين على إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل التغليب . وهذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العرب الجنوبية ، لا نجده في أديان الساميين الشماليين عن الساميين الجنوبيين[٢] . كما يصح اعتبار تذكير (الزهرة) (عثتر) عند العرب الجنوبيين ، من جملة الفروق التي نراها بين ديانة سكان العربية الجنوبية وديانات الساكنين في شمال العربية الجنوبية ، فإن (الزهرة) هي أنثى عندهم .

وعبد بعض أهل الجاهلية أجراماً سماوية أخرى،وتقربوا اليها بالنذور والصلوات . ففي كتب الأخباريين ان طائفة من تميم عبدت (الدّبران) ، وان (العيوق) في زعمهم (عانق الدبران لمّا ساق إلى الثريا مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ، ولذلك سمّوا هذه النجوم القلاص)[٣] .

---

١ Handbuch, I, S. 199, 201, 205, W. Gifford Palgrave, Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia, London, 1866, 250, A. Grahmann, Arabien, S. 81.

٢ Handbuch, I, S. 213.

٣ بلوغ الارب (٢٣٩/٢) ، ابن الاجدابي ، الازمنة والانواء (٧١) .

وفي كتبهم أيضاً ان بعض قبائل لخم وخزاعة وحمير وقريش عبدوا (الشعرى العبور) ، وان أول من سنّ ذلك لهم ، وأدخل تلك العبادة اليهم(أبو كبشة) . وهو (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث بن غبشان الخزاعي) ، أو (وجز ابن غالب) ، وهو من خزاعة ثم من بني غبشان ، أحد أجداد النبي من قبل أمهاته . خالف قريشاً في عبادة الأصنام وعبد الشعرى العبور . وكان (وجز) يقول : إن الشعرى تقطع السماء عرضاً ، فلا أرى في السماء شيئاً ، شمساً ولا قمراً ولا نجماً ، يقطع السماء عرضاً . والعرب تسمي الشعرى العبور ، لأنها تعبر السماء عرضاً ، ووجز هو أبو كبشة الذي كانت قريش تنسب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم،اليه ، والعرب تظن ان أحداً لا يعمل شيئاً إلا بعرق ينزعه شبهه ، فلما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دينَ قريش ، قالت قريش : نزعه أبو كبشة ، لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعرى . وكانوا ينسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه . وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة ، لم يعيروا رسول الله صلى الله عليه وسلم به من تقصير كان فيه ، ولكنهم أرادوا أن يشبهوه بخلاف أبي كبشة ، فيقولون : «خالف كما خالف أبو كبشة »[1] . وذكر (القرطبي) ان أول من عبد الشعرى (أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمّون النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ابن أبي كبشة ، حين دعا إلى الله وخالف أديانهم ، وقالوا : ما لقينا من ابن أبي كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح ، وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تمرّ عليه : لقد أمِرَ أمر ابن أبي كبشة)[2]. وكان (الحارث) ، وهو (غبشان بن عمرو بن بؤي بن ملكان) ، ويكنى أبا كبشة ، ممن يعبد الشعرى[3] .

و (الشعرى) Sirius هي المقصودة في الآية : « وإنه هو ربّ الشعرى»[4] . وكان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يقال له الشعرى . وهو النجم

---

١ الزبيري ، كتاب نسب قريش (٢٦١ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٤٢/٤) ، (كبش) .

٢ تفسير القرطبي (١١٩/١٧) ، تفسير الطبرسي (١٨٣/٢٧) ، (١٨٣/٩) ، (طبعة طهران) ، المحبر (١٢٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/١ ص ٣١) .

٣ المحبر (١٢٩) .

٤ النجم ، الآية ٤٩ .

الوقاد الذي يتبع الجوزاء ، ويقال له المرزم[1] . وقد كان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم[2] .

وذكر بعض العلماء أن (الشعرى) كوكب نير يقال له المرزم ، وطلوعه في شدة الحر . وتقول العرب إذا طلعت الشعرى ، جعل صاحب النحل يرى . وهما: (الشعريان) : العبور ، والشعرى الغميصاء . تزعم العرب أنهما أختا سهيل . وعبدت طائفة من العرب الشعرى العبور . ويقال : إنها عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها عرضاً غيرها . وسميت الأخرى الغميصاء ، لأن العرب قالت في حديثها: إنها بكت على أثر العبور حتى غمصت[3] .

والعرب تقول في خرافاتها : إن سهيلاً والشعرى كانا زوجين ، فانحدر سهيل فصار يمانياً ، فاتبعتــه الشعرى العبور فعبرت المجرة فسمّيت العبور ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت عيناه ، فسميت غمصاء لأنها أخفى من الأخرى[4] .

ويذكرون أن بعض طيء عبدوا (الثريا)،وبعض قبائل ربيعة عبدوا (المرزم)، وأن (كنانة) عبدت القمر[5] . ويتبين من بعض الأعلام المركبة ، مثل : عبــد الثريا ، وعبد نجم ، أن الثريا ونجماً ، كانا صنمين معبودين في الجاهلية[6] . وقد ذهب بعض المفسرين الى أن (النجم) المذكور في سورة (النجم) : (والنجم اذا هوى)[7] : الثريا[8] (والعرب تسمي الثريا نجماً)[9] . وقال بعض آخر : « إن النجم ههنا الزهرة ، لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها »[10] .

---

١ تفسير الطبري (٤٥/٢٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٤١/٤) ، (جوز) ، القرطبي ، الجامع (١١٩/١٧ وما بعدها) .

٢ تفسير القرطبي (١١٩/١٧) .

٣ تاج العروس (٣٠٥/٣) ، (شعر) .

٤ تفسير القرطبي (١١٩/١٧ وما بعدها) .

٥ بلوغ الارب (٢٤٠/٢) ، تاج العروس (٣١١/٨) ، (رزم) .

٦ Ency. Religi., I, p. 66.

٧ سورة النجم ، الآية ١ .

٨ تفسير الطبري (٢٤/٢٧) .

٩ تفسير القرطبي (٨٢/١٧ وما بعدها) .

١٠ المصدر نفسه .

وعبدَ بعض الجاهليين (المريخ) ، واتخذوه إلهاً ، كما عبد غيرهم (سهيلا) Canapus و (عطارد) Merkur و (الأسد) Lion و (زحل) .

وقد ذكر أهل الأخبار ، ان أهل الجاهلية يجعلون فعلاً للكواكب حادثاً عنه. فكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وكانوا يجعلون لها أثراً في الزرع وفي الانسان ، فأبطل ذلك الاسلام ، وجعله من أمور الجاهلية . جاء في الحديث : « ثلاث من أمور الجاهلية : الطعن في الأنساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالأنواء»[1].

ومن مظاهر الشرك المتجلي في التعبد للأمور الطبيعية الملموسة ، عبادة الشجر، وهي عبادة شائعة معروفة عند الساميين . وقد أشار (ابن الكلبي) الى نخلة (نجران) ، وهي نخلة عظيمة كان أهل البلد يتعبدون لها ، (لها عيد في كل سنة . فإذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحليّ للنساء ، فخرجوا اليها يوماً وعكفوا عليها يوماً)[2] . ومنها العزى وذات أنواط . يحدثنا أهل الأخبار عن ذات أنواط ، فيقولون : (ذات أنواط : شجرة خضراء عظيمة ، كانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيماً لها ، فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها ، وكانت قريبة من مكة . وذكر انهم كانوا إذا حجّوا، يعبقون أرديتهم عليها ، ويدخلون الحرم بغير أردية ، تعظيماً للبيت،ولذلك سميت (ذات أنواط)[3] . (وقد روي ان بعض الناس قال : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)[4] .

ونستطيع أن نقول إن آثار عبادة الشجر لا تزال باقية عند الناس . تظهر في امتناع بعضهم وفي تهيبهم من قطع بعض الشجر ، لاعتقادهم أنهم إن فعلوا ذلك أصيبوا بنازلة تنزل بهم وبمكروه سيحيق بهم . ولذلك تركوا بعض الشجر كالسدر فلم يتعرضوا له بسوء[5] .

وتعبد بعض أهل الجاهلية لبعض الحيوانات . فقد ورد أن جماعة الشاعر (زيد الخيل) ، وهم من طيء ، كانوا يتعبدون لجمل أسود . فلما وفد وفدهم على

---

١ ابن الاجدابي ، الازمنة والانواء (١٣٦) .
٢ البلدان (٨/٢٦٠) ، (نجران) .
٣ البلدان (١/٣٦٣) ، (أنواط) ، تاج العروس (٥/٢٣٦) ، (نوط) ، الازرقي (٧٤ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (١٤٠ وما بعدها) .
٥ Grahmann, S. 82.

الرسول ، قال لهم : « ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله عزّ وجلّ »[1] . وورد أن قوماً كانوا بالبحرين عرفوا بـ(الأسبذيين) ، كانوا يعبدون الخيل[2] . ذكر أنهم قوم من المجوس ، كانوا مسلحة لحصن المشقر من أرض البحرين[3] . فهم فرس . وأن بعض القبائل مثل (إياد) ، كانت تتبرك بالناقة[4].

الشفاعة :

والشفاعة من أهم مظاهر الشرك عند الجاهليين . وأقصد بالشفاعة هنا ، ما ورد في القرآن الكريم من تبرير أهل الجاهلية لتقربهم الى الأصنام بأنهم ما يتعبدون لها إلا لتقربهم الى الله : « ويعبدون من دون الله مالا يضرّهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »[5] . « والذين اتخذوا من دونه أولياء . ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى . إنّ اللهَ يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون»[6]. فهم يحاجّون الرسول ، ويدافعون عن التقرب الى الأصنام ، بقولهم : إنها تشفع عند الله ، فهي شفيعة ، فهم لا يعبدون الأصنام إذن ، ولا يشركون بالخالق ، وإنما هم يتقربون اليه بها . فهي الواسطة بينهم وبين الله[7] .

الأصنام :

ومن جملة ما كان يتوسط به الجاهليون لآلهتهم ليكونوا شفعاء لهم عندها ، التماثيل المصنوعة من الفضة أو الذهب أو الحجارة الثميلة والخشب . ومن عادتهم انهم كانوا يدونون ذلك على الحجارة ، فيكتبون عدد التماثيل وأنواعها وأسماء الآلهة أو اسم الإلـه الذي قدمت له تلك الأشياء واسم الناذر ، ويشار إلى السبب الداعي

---

١ الاغاني (٤٧/١٦) ، الاصابة (٥٥٥/١) ، (رقم ٢٩٤١) .
٢ البلاذري ، فتوح (٨٩) ، (البحرين) .
٣ اللسان (٤٩٣/٣) ، (سبذ) .
٤ الاغاني (٩٣/١٥) ، « في أخبار أبي دواد الايادي » .
٥ سورة يونس ، الرقم ١٠ ، الآية ١٨ .
٦ الزمر ، الآية ٣ .
٧ المفردات ، للاصفهاني (٢٦٤) .

إلى ذلك ، كأن يذكر بأن أصحابها توسلوا إلى الإله أو الآلهة المذكورة برجائهم الذي طلبوه ، فأجيبت مطالبهم ، ولذلك قدموا هذه النذور ، فهي وفاء الدين استحق عليهم بسبب ذلك النذر وتلك الشفاعة .

ولا بد لنا من الاشارة هنا إلى ان الأصنام كانت تدافع عن قبائلها وتذب عنها وتحامي عنها في الحرب ، كما يدافع سيد القبيلة عن قبيلته ، وان أبناء القبيلة أبناؤها وأولادها ، ولذلك كانوا يقولون عنها (اب) (أب) في كتاباتهم ، ويكنبون عن أنفسهم (أبناء الصنم ...) . وفي الشعر الجاهلي أمثلة عديدة تشير إلى اعتقاد القوم باشتراك آلهتهم معهم في الحرب وفي انتصارهم لهم . ففي الحرب التي وقعت بين (بني أنعم) و (بني غطيف) بشأن الصنم (يغوث) ، يقول الشاعر :

وسارَ بنا يغوثُ إلى مرادٍ فناجزناهمُ قبل الصباح[1]

وطبيعي أن يعد أعداء القبيلة أعداء لصنم القبيلة ، وأعداء الصنم أعداء للقبيلة ، فأعداء الآلهة وأعداء القبيلة هم خصوم لا يمكن التفريق بينهم .

وفي معركة أُحد ، وهي من المعارك الحربية المهمة التي جرت بين الإسلام والوثنية على مستقبل العرب الديني ، نادى أبو سفيان بأعلى صوته : « اعلُ هُبْل ! اعلُ هبل ! » ، ليبعث الحماسة في نفوس الوثنيين ، وليستغيث بصنمه في الدفاع عن أتباعه المؤمنين به . أما المسلمون ، فاستنجدوا بالله ، إذ ردّوا عليه ردّة قوية عالية : « الله أعلى وأجل » . فقال أبو سفيان : « ألا لنا العزى ولا عُزى لكم » . فأجابه المسلمون : « الله مولانا ولا مولى لكم »[2] .

وفي الحروب يحارب كل إله عن قبيلته ، ويجهد نفسه في الدفاع عنها في سبيل حصولها على النصر . ولهذا السبب كانت القبائل والجيوش تحمل أوثانها أو صور آلهتها أو رموزها الدينية المقدسة معها في الحروب . تتبرك بها وتستمد منها العون والنصر . ولما حارب الأعراب الملك (سنحاريب) ملك آشور ، حملوا أصنامهم : (دبلت) (دبلات) Diblat ، و (دية) Daja = Daia

---

١ البلدان (٨/٥١١) .
٢ الطبري (٢/٥٢٦) . « معركة أحد » .

و (نوخيا) Nuhaia و (ابريلو) Ebirillu و (عثر قرمية) Atar Kurumaia ، معهم لتدافع عنهم،ولتحارب معهم الآشوريين. ولكن الآشوريين غلبوهم وانتصروا عليهم وأخذوا غنائم وأسرى منهم ، كان في جملتها هـذه الأصنام المسكينة ، التي وقعت في الأسر وبقيت في أسرها الى أن توفي (سنحاريب) وتولى ابنـه (أسرحدون) الحكم ، فاسترضى الأعراب هذا الملك وجاءوا بهدايا كثيرة، رجاء استرضائه لإعادة أصنامهم اليهم ، فرقّ على حالهم وأعاد اليهم تلك الأصنام السيئة الحظ ، التي كتب عليها أن تسجن،وتمكنت من استنشاق ريح الحرية من جديد[1] .

وسقطت أصنام الأعراب مرة أخرى في أسر الآشوريـين ، وذلك في أيام (أسرحدون) ، فلما انضم (لبلي) (ليل) Laili ملك (يادي) (يادع) (يدي) (يدع) Jadi' = Jadi' إلى الثائرين على حكم هذا الملك ، لحقت بهم الهزيمة ، وسقطت أصنامه أسيرة في أيدي الآشوريين ، وأخذت إلى (نينوى) ، فلم يجد الملك (ليل) (ليلي) أمامه من سبيل سوى الذهاب إلى عاصمـة الملك لاسترضائه ، حيث طلب العفو والصفح عما بدر منه ، فقبل (أسرحدون) منه ذلك ، وتآخى معه ، وأعاد اليه أصنامه[2] .

وكان في جملة الأصنام التي شاء سوء طالعها الوقوع في أسر الآشوريين الصنم (اترسمين) (اترسمائين) (Atarsamin) (A-tar-sa-ma-a-a-in) . و (اتر) هو (عثتر) ، فيكون المراد به (عثتر السماء) عثتر السماوات ، ويدل ذلك على أنه إلـه السماء . وكان قد وقـع أسيراً في أيديهم ايام الملك (أسرحدون) ، فلما توفي الملك وانتقل عرشه إلى ابنه (أشور بانبال)، جاء Uaite العربي اليه ، وهو أحد سادات القبائل إلى الملك،وصالحه وأرضاه، فأعاد اليه أصنامه ومنها الصنم المذكور[3] .

وطالما كان يعرض حمل المحاربين أصنامهم معهم في الحروب الى وقـوع تلك الأصنام في الأسر ، تقع كما يقع الإنسان في الأسر . بل يكون أسر الأصنـام في نظرهم أشدّ وقعاً في نفوسهم من أسر الإنسان . إنها آلهة تدافع وتحامي ، إنهـا

١ Musil, Deserta, p. 481, Reall., II, S. 265, Thompson, Prisms of Esarhaddon and of Ashurbanipal, p. 20.

٢ Musil, Deserta, p. 483, Realb., I, S. 440, Rawlinson, The Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World, Vol. II, p. 470 - 471.

٣ Reall., I, 310, Schrader, KAT., S. 434, Streck, Vorderasiatische Bibliotheck, VIII S. 72.

آلهة القبيلة كلّها ، فأسرها معناه في عرفهم أسر القبيلة كلها ، فأسر الآلهة شيء كبير بالنسبة الى القبيلـــة . وقد أشرت الى استيلاء الآشوريين على أصنام قبائل (عربي) التي حاربتهم ، والى أخذها أسيرة الى أرض آشور ، والى مفاوضة الأعراب معهم على الصلح في مقابل إعادة تلك الأصنام اليهم . فلما أعيدت الأصنام الى أصحابها ، كتب الآشوريون عليها كتابة تخبر بوقوعها في الأسر ، وبانتصار آلهة آشور عليها ، لتكون نذيراً للمؤمنين بها ، يحذرهم من حرب ثانية توقع هذه الأصنام في أسر جديد .

وقد أشير الى (خيل اللات) في مقابل (خيل محمد) ، في شعر لأبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، إذ قال :

لعمرك إني يوم أحمل راية   لتغلب خيل الله خيل محمد[1]

ومن أمثلة العرب : (لا تفر حتى تفر القبة) ، أو (لا نفر حتى تفـــر القبة)[2] . ويراد بالقبة : قبة الصنم ، أي خيمة الصنم التي تحمل مع المحاربين وتضرب في ساحة القتال ، ليطوف حولها المحاربون، يستمدون منها العون والنصر . كما كانوا يستشيرون الأصنام عند القتال ، ويأخذون برأيها فيما تأمر به .

وحمل الأصنام مع القبيلة في ترحالها وفي حروبها وغزواتها يستلزم بذل عنايـــة خاصة بها للمحافظة عليها من الكسر ومن تعرضها لأي سوء كان . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في سمتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة ، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه،وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هـذا المعبد ، واتخاذ معبد ثابت ، لخروج ذلك على سنن الآبـــاء والأجداد . ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان إلى مكان .

واعتقاد القبائل أن أصنامها هي التي تجلب لهـا النصر والخسارة ، كان يؤدي في بعض الأحيان الى الإعراض عن الصنم المحبوب ونبذه ، نتيجة لانهزام القبيلة،

---

١ الاصابة (٤/ ٩٠) ، (رقم ٥٣٨) .
٢ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ١١) .

إذ يتبادر الى ذهن تلك القبيلة أن تلك الهزيمة التي نزلت بها إنما كانت بسبب ضعف ربها واستكانته وعدم اقتداره في الدفاع عنها ، ولذلك تقرر الاستغناء عنه والتوجه الى ربّ قويّ جديد . وقد يكون ذلك الرب هو ربّ القوية المنتصرة ، أو رب قبيلة من القبائل التي عرفت بتفوّقها في الحروب ، فيكون التوفيق حليف ذلك الرب . وهكذا الأرباب في نظر قبائل تلك الأيام كالناس لها حظوظ ، والحظ هو دائماً في جانب القوي .

وكان على كهّان صنم القبيلة المغلوبة ايجاد تفسير لعلة الهزيمة التي لحقت بعبدة ذلك الصنم ، والبحث عن عذر يدافعون به عن الصنم ، ويلقون اللوم فيه على أتباعه ، لتبرئة ذمته وابعاد المؤمنين به عن الشك في قدرته وعظمته . فكان من أعذارهم ، أن الهزيمة عقاب من الإله أرسله الى أتباعه لابتعادهم عن أوامره ونواهيه ، ولعدم إطاعتهم أحكام دينه ، ولمخالفتهم آراء رجال دينهم وكهّانه . ولن تنقشع عنهم النكبة ، ويكتب لهم النصر ، إلا إذا تابوا وعملوا بأوامر الكهّان وأرضوا الآلهة ، وعملوا بما أوجبته شريعتهم عليهم . وهكذا يلوم الكهان الناس ، دفاعاً عن آلهتهم التي خلقوها بأنفسهم ، وحماية لمصالحهم القائمة على استغلال تلك المخترعات ، التي نعتوها آلهة وأصناماً .

ولما كانت الآلهة آلهة قبائل ، كان نبذ الفرد لإلهه معناه نبذه لقبيلته وخروجه على إجماعها ، فلا يسع شخصاً أن يغير عبادة إله القبيلة إلا اذا خرج على قبيلته وتعبّد لإله آخر . فإن تغيير عبادة الأفراد لأصنامهم في نظر قدماء الساميين أمر إدّ ، هو بمثابة تبديل الجنسية في العصر الحاضر . إن عبادة الأصنام عبادة موروثة يرثها الأبناء عن الآباء ، وليست بشيء اختياري ، فليس للرجل أن يختار الصنم الذي يريده بمحض مشيئته . إن الصنم دين وهو رمز للقبيلة ، والمحامي المدافع عن شعبه ، والرابطة التي تربط بين الأفراد ، فالخروج عليه معناه خروج على ارادة الشعب ، وتفكيك لوحدته ، وهو مما لا يسمح به وإلا تعرّض الثائر للعقاب[1] .

نعم ، كان في إمكان أصحاب الكلمة والسيادة والرئاسة تغيير أصنام القبيلة ، أو تبديل دينها ، كما سنرى فيما بعد . فهؤلاء هم سادة ، والناس تبع لسادتهم ،

---

١ Robertson, p. 37. f.

وفي المثل : « الناس على دين ملوكهم » . لقد أضاف سادة أصناماً الى قبائلهم، فعبدت وتمسك أتباعهم بعبادتها ، وكأنهم قد تلقوا أوامرهم من السماء ، ونبذت قبائل بعض أصنامها ، بأمر من سادتها . ودخلت قبائل في الاسلام،لدخول سيدها فيه ، ودخلت أخرى قبل ذلك في النصرانية،بتنصر سادتها،بكلمة أقنعت الرئيس ، أو بعد محاورة ، أو بإبلال من مرض قيل له انه كان ببركة ذلك الدين، فدخل أتباعه في ذلك الدين من غير سؤال ولا جواب .

عبادة الأصنام :

ويتبين من غربلة روايات الأخباريين ان عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً قبيل الاسلام،حتى كان أهل كل دار قد اتخذوا صنماً في دارهم يعبدونه . « فإذا أراد الرجل منهم سفراً ، تمسح به حين يركب،فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه الى سفره ، واذا قدم من سفره تمسح به ، فكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله »[1]. وقد كان أشق شيء في نظر قريش نبذ تلك الأصنام وتركها وعبادة إله واحد « وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، ان هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق »[2] .

يقول ابن الكلبي : « واشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً . ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت ، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ... فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً ، أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها فاتخذه رباً،وجعل ثلاث أثافي لقدره . فإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر ، فعل مثل ذلك . فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون اليها »[3] . وروي أنه لم يكن حي

---

١ ابن هشام (١/٦٤) « هامش الروض » ، ابن هشام (١/٨٤) ، الاصنام (٣٢) . خزانة الادب (٣/٢٤٥) .
٢ سورة ص ، الآية ٤ وما بعدها .
٣ الاصنام (٣٣) .

من أحياء العرب إلا وله صنم يعبده يسمونه : « أنثى بني فلان . ومنه قوله تعالى : إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً[1] . والإناث كل شيء ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة »[2] . وقد كان المشركون يعبدون الأصنام « ويسمونها بالإناث من الأسماء كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك »[3] .

ولم يذكر (ابن الكلبي) العوامل التي دفعت بعبدة الأحجار الى اختيار أربعة أحجار من بين عدد عديد من الأحجار ، ثم اختيار حجر واحد من بين هذه الأحجار الأربعة المختارة . فهل أخذ هذا العدد من نظرية العناصر الأربعة التي وضعها الفيلسوف (امبدوكلس) (Empedokles) (٤٩٠ — ٤٣٠ قبل الميلاد). نظرية أن الكون قد تكوّن من عناصر أربعة هي : النار ، والماء ، والهواء ، والتراب ، فكانوا يختارون لذلك أربعة أحجار ، تمثل هذه القوى الأربع المكونة على رأي الناس في ذلك الوقت لأساس الكون ، ثم يختارون حجراً واحداً من بينها يكون أحسنها وأجملها ، ليكون رمزاً لها ، وممثلاً للإله .

وقد كان من الجاهليين من يختار الأحجار الغريبة فيتعبد لها . فإذا رأوا حجراً أحسن وأعجب تركوا الحجارة القديمة وأخذوا الحجارة الجديدة . قال (ابن دريد) : « الحارث بن قيس : وهو الذي كان اذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه فعبده . وفيه نزلت : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه »[4] . فهذه هي عبادة الأحجار عند الجاهليين .

ولدينا أمثلة عديدة تفيد ان كثيراً من الجاهليين كانوا يحتفظون في بيوتهم بأصنام يتقربون اليها كل يوم . ولا يعني ذلك بالطبع ان تلك الأصنام كانت أصناماً كبيرة منحوتة نحتاً فنياً ، بل كان أكثرها تماثيل صغيرة ، وبعضها أحجاراً غير منسقة ولا منحوتة نحتاً جيداً ، وانما هي أحجار تمثل الصنم الذي يتقرب اليه المرء . روي ان (أحمر بن سواء بن عدي السَّدُوسي) ، كان له صنم يعبده ، فعمد اليه فألقاه في بئر ، ثم جاء الى الرسول فأسلم[5] .

---

١ النساء ، الآية ١١٧ .
٢ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) .
٣ تفسير الطبري (٥/١٧٩ وما بعدها) ، روح المعاني (٥/١٣٤) .
٤ الاشتقاق (٧٦) .
٥ الاصابة (١/٢٢) .

وكان بين الجاهليين قوم كرهوا الأصنام وتأففوا منها ، رأوا انها لا تنفع ولا تضر ولا تشفع ، فلم يتقربوا اليها ، وقالوا بالتوحيد ، ومن هؤلاء (مالك بن التيهان) ، وهو من الأنصار ومن المسلمين الأولين الذين دخلوا في الاسلام من أهل (يثرب) ، و (أسعد بن زرارة)[1] .

وقد شك بعض المستشرقين في وجود أصنام عند العرب الجنوبيين[2] ، ويظهر أن الذي حملهم على قول هذا القول ، هو ما رأوه من تعبد العرب الجنوبيين لإلهة منظورة في السماء هي الكواكب الثلاثة المعروفة ، فذهبوا الى انتفاء الحاجة لذلك الى عبادة أصنام ترمز الى تلك الآلهة . وعندي أن في اصدار رأي في هذا الموضوع نوع من التسرع ، لأننا لم نقم حتى اليوم بحفريات علمية عميقة في مواضع الآثار في العربية الجنوبية حتى نحكم حكماً مثل هذا لا يمكن إصداره إلا بعد دراسات علمية عميقة لمواضع الآثار ، فلربما تكشف دراسات المستقبل عن حلّ مثل هذه المشكلات . إن الإسلام قد هدّم الأصنام وأمر بتحطيمها ، فذهبت معالمها ، إلا أنه من الممكن احتمال العثور على عدد منها ، لا زال راقداً تحت التربة ، لأنه من الأصنام القديمة التي دفنت في التربة قبل الاسلام بسبب دمار حلّ بالموضع الذي عبد فيه ، أو من الأصنام التي وصلت اليها أيدي الهدم ، فطمرت في الأتربة ، وعلى كلّ فالحكم في هذا الرأي هو كما ذكرت للمستقبل وحده ، وعليه الاعتماد .

والرأي الذائع بين الأخباريين عن كيفية نشوء عبادة الأصنام قريب من رأي بعض العلماء المحدثين في هذا الموضوع . عندهم أن الناس لم يتعبدوا في القديم وفي باديء بدء للأصنام ، ولم يكونوا ينظرون اليها على أنها أصنام تعبد ، إنما صوّروها أو نحتوها لتكون صورة أو رمزاً تذكرهم أو يذكرهم بالإله أو الآلهة أو الأشخاص الصالحين . فلما مضى عهد طويل عليها ، نسي الناس أصلها ، ولم يعرفوا أمرها ، فاتخذوها أصناماً وعبدوها من دون الله . وتحملنا رواياتهم في بعض الأحيان على الاعتقاد أنهم كانوا يعتقدون بعقيدة المسخ ، كالذي رووه عن الصنمين إساف ونائلة من أنهما « رجل وامرأة من جرهم ، وأن إسافاً وقع عليها في الكعبة فمسخا »[3] ، وبعقيدة التقمص كالذي رووه عن الصنم اللات من أنه كان إنساناً

١ طبقات ابن سعد (٤٤٨/٣) « صادر » .
٢ Arabien, S. 247.
٣ الروض الأنف (٦٤/١) .

من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو بن لحيّ : لم يمت ، ولكن دخل في الصخرة. ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات »[1] . أو كالذي رووه عن الأصنام ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، من أن هؤلاء كانوا نفراً من بني آدم صالحين ، « وكان لهم أتباع يقتدون بهم . فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم فلما ماتوا ودبّ اليهم ابليس ، فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[2] .

وهذه العقيدة هي التي خلقت للأخباريين جملة قصص عن وجود أرواح كامنة في تلك الأصنام ، كانت تتحدث الى الناس ، وهي التي أوحت اليهم بذلك القصص الذي رووه بمناسبة أمر النبي بهدم الأصنام ، من خروج جنّ من أجوافها حينما قام بهدمها المسلمون . وقد كان أولئك الجنة على وصفهم إناثاً ، والغالب انهن على هيأة زنجيات شمطاوات عجائز ، وقد نثرن شعورهن[3] . وهي صور مرعبة ولا شك في نظر الناس ، ومن عادة الناس منذ القديم أن يمثلوا الجنة على هيأة نساء طاعنات في السن مرعبات .

والخوف من هذه الأرواح أو الجنة التي كانت تقيم في أجواف الأصنام على رأي الجاهليين ، حمل بعض من عهد اليهم تحطيم تلك الأصنام على التهيب من الإقدام على مثل ذلك العمل خشية ظهورها وفتكها بمن تجاسر عليها. وهذا الخوف هو الذي أوحى اليهم ولا شك برواية القصص المذكور .

ويمثل الصنم قوة عليا هي فوق الطبيعة ، وقد يظن انها كامنة فيه[4] . وتكون الأصنام على أشكال مختلفة ، قد تكون على هيأة بشر ، وقد تكون على هيأة حيوان أو أحجار أو أشكال أخرى. ولهذه الأصنام عند عابديها مدلولات وأساطير. وهي تصنع من مواد مختلفة ، من الحجارة ومن الخشب ومن المعادن ومن أشياء أخرى بحسب درجة تفكير عبدتها وتأثرهم بالظواهر الطبيعية والمؤثرات التي تحيط

---

١ البلدان (٧/ ٣١٠) « اللات » .
٢ تفسير الطبري (٢٩/ ٦٢) .
٣ البلدان (٧/ ٣١٠) « اللات » .
٤ Ency. Religi.. 7, p. 112.

بهم . وقد تستخدم خُشُبٌ خاصة تؤخذ من أشجار ينظر اليها نظرة تقديس واحترام في عمل الأصنام منها . ويتوقف صنعها على المهارة التي يبديها الفنان في الصنع . ويحاول الفنان في العادة ان يعطيها شكلاً مؤثراً له علاقة بالأساطير القديمة وبالكائن الذي سيمثله الصنم . وقد يكون الصنم من حجارة طبيعية عبدها عن أجداده كأن يكون من حجارة البراكين ، وقد يكون من النيازك عبدها لظنه بوجود قوة خارقة فيها .

ولعبادة الأصنام صلة وثيقة بتقديس الصور Images . وكذلك بصور السحر Magical Images . فكل هذه الأشكال الثلاثة هي في الواقع عبادة . ونعني هنا بتقديس الصور ، الصور المقدسة التي تمثل أسطورة دينية أو رجالاً مقدسين كان لهم شأن في تطور العبادة ، أو جاءوا بديانة ، وأمثال ذلك ، فأحب المؤمنون بهم حفظ ذكراهم وعدم نسيانهم أو الابتعاد عنهم ، وذلك بحفظ شيء يشير اليهم ويذكرهم بهم ، وهذا الشيء قد يكون صورة مرسومة ، وقد يكون صورة محفورة أو منحوتة أو مصنوعة على هيأة تمثال أو رمز يشير الى ذلك المقدس[1] . فالصور المرسومة إذن ، هي نوع من العبادة أيضاً ، ينظر اليها نظرة تقديس وإجلال .

ونجد في روايات أهل الأخبار عن منشأ عبادة الأصنام عند العرب ما يؤيد هذا الرأي ، فهناك رواية طريفة عن الصنم (سواع) تزعم أن سواعاً كان ابناً لشيث ، وأن يغوث كان ابناً لسواع ، وكذلك كان يعوق ونسر ، كلما هلك الأول صورت صورته وعظمت لموضعه من الدين.ولما عهدوا في دعائه من الإجابة . فلم يزالوا هكذا حتى خلف الخلوف ، وقالوا : ما عظّم هؤلاء آباءنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر ، واتخذوها آلهة . وهناك رواية أخرى تزعم أن الأوثان التي كانت في قوم نوح ، كانت في الأصل أشخاصاً صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا ، أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً ، وسموها بأسمائها ، ففعلوا : فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك وتنوسخ العلم بها عبدت[2] .

---

١ Ency. Religl. Vol. 7, p. 110.

٢ الروض الأنف (١ / ٦٢) ، تفسير الطبرسي (٥ / ٣٦٤) .

وهناك روايات عن أصنام جعلتها أشخاصاً مسخوا حجراً ، فعبدوا أصناماً ، وصاروا شركاء لله ، تعبد لها ، لأنها في نظرهم تنفع وتضر .

ونجد في أخبار فتح مكة ان الرسول حينما دخل الكعبة رأى فيها صور الأنبياء والملائكة ، فأمر بها فمحيت. ورأى فيها ستين وثلاث مئة صنم مرصعة بالرصاص، وهبل أعظمها ، وهو وجاه الكعبة على بابها ، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون ، فأمر بها فكسرت[1] .

أما هذه الصور ، فقيل انها صور الرسل والأنبياء ، وبينها صورة (ابراهيم) وفي يده الأزلام يستقسم بها[2] .

الأصنام :

والصنم في تعريف علماء اللغة هو ما اتخذ إلهاً من دون الله،وما كان له صورة كالتمثال (مثال) ، وعمل من خشب ، أو ذهب ، أو فضة ، أو نحاس ، أو حديد ، أو غيرها من جواهر الأرض . وقال بعضهم : الصنم جثة متخذة من فضة ، أو نحاس ، أو ذهب ، أو خشب ، أو حجارة ، متقربين به الى الله ، فالشرط فيه أن يكون جثة : جثة انسان أو حيوان . وقيل : الصنم الصورة بلا جثة[3] . وذكر ان الصنم ما كان من حجر أو غيره[4] . وعرف بعضهم الصنم بأنه ما كان له جسم أو صورة فإن لم يكن له جسم أو صورة ، فهو وثن[5] . و (الصنمة) ، الصورة التي تعبد[6] . وقد كان (المنطبق) صنماً من نحاس أجوف يكلمون من جوفه[7] .

---

١ ابن الاثير (٢/١٠٥) ، (فتح مكة) ، امتاع الاسماع (١/٣٨٣ وما بعدها) .
٢ (فترك عمر صورة ابراهيم عليه السلام ، حتى محاها عليه السلام) ، امتاع الاسماع (١/٣٨٣) ، الروض الانف (٢/٢٧٥ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٥/٢٤١) (١٧/٣٣٣) ، تاج العروس (٨/٣٧١) ، (٩/٣٥٨) ، (صنم) ، القاموس (٤/١٤١ ، ٢٧٤) ، الاشتقاق (٣٠٢) ، الاصنام (٥٣) ، المفردات (٢٨٩) .
٤ الروض الانف (١/٦٢) .
٥ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) ، (صادر) .
٦ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) .
٧ المحبر (٣١٨) .

ووردت لفظة (صلم) في كتابات عثر عليها في أعالي الحجاز ، اسم علم لإلـه ازدهرت عبادته بصورة خاصة بمدينة (تيماء) . ويرجع بعض المستشرقين تأريخ ازدهار عبادة هذا الصنم الى حوالي سنة (٦٠٠) قبل الميلاد . وقد ورد اسمه علماً لأشخاص في الكتابات اللحيانية . ورمز عنه برأس ثور في كتابات قوم ثمود[١] .

وقد وردت كلمة (أصنام)[٢] و (أصناماً)[٣] و (الأصنــام)[٤] و (أصنامكم)[٥] في القرآن الكريم ، بحسب مواقع الكلمة في الجملة .

وذكر علماء اللغة أن كلمة (صنم) ليست عربية أصيلة ، وإنما هي معربــة وأصلها (شمن) (شنم) ، ولكنهم لم يذكروا اسم اللغة التي عربت منها[٦] . وترد اللفظة في اللهجات العربية الجنوبية . وردت (صلمن) في نصوص المسنــد بمعنى (صنم) و (تمثال) ، و (مثال)[٧] . ووردت في لهجات عربيــة أخرى . وهي (صلمو) Salmo في لغة بني ارم ، ومعناها (صورة) . من أصل (صلم) بمعنى (صوّر) . وتقابل (صلم) في العبرانية[٨] .

وقد ورد في قصص أهل الأخبار أن (بني حنيفة) تعبدوا لصنم من حيس، فعبدوه دهراً طويلاً ، ثم جاعوا فأكلوه ، فقال الشعراء في ذلك شعراً يعيرون به (بني حنيفة) لأكلهم ربهم زمن المجاعة[٩] . وهو في رأيي من القصص الذي يضعه الخصوم في خصومهم للاستهزاء بهم .

---

١ Grimme, 23.

٢ الاعراف ، الآية ١٣٧ .

٣ الانعام ، الآية ٧٤ ، الشعراء ، الآية ٧٢ .

٤ ابراهيم الآية ٣٥ .

٥ الانبياء ، الآية ٥٧ .

٦ القاموس (٤/١٤١) ، اللسان (١٥/٢٤١) ، تاج العروس ، (٨/٣٧١) ، روح المعاني (١٣/٢١٠) ، خزانة الادب (٣/٢٤٤ وما بعدها) .

٧ (صلمن ذ صرفن وصلمنن ذ ذهبن) ، أي (تمثال من فضة ، وتمثالان من ذهب) ، راجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ، لغويدي (١٩) .

٨ غرائب اللغة (١٩٣) .

٩ الاعلاق النفيسة (٢١٧) .

الوثن :

وأما كلمة (وثن) ، فهي من الكلمات العربية القديمة الواردة في نصوص المسند. ويظهر من استعمال هذه الكلمة في النصوص مثل : (وليذبحن وثنن درا بخرفهم ذبصم صححم انثيم وذكرم) ، أي (وليذبح للوثن مرة في السنة ذبحاً صحيحاً، أنثى أو ذكراً)[1] . ان الوثن هو الذي يرمز الى الإلــــه ، أي بمعنى الصنم في القرآن الكريم .

الصلم :

ويظهـر من استعـــمال كلمتي (صلمن) (الصلم) (صلم) و (وثنن) (الوثن) ان هناك فرقاً بين الكلمتين في نصوص المسند ، فإن كلمة (صلمن) تعني في الغالب تمثالاً يصنع من فضة ، أو من ذهب ، أو من نحاس ، أو من حجر ، أو من خشب ، أو من أية مادة أخرى ويقدم الى الآلهــة لتوضع في معابدها تقرباً اليها ، لاجابتها دعاء الداعين بشفائهم من مرض أو قضاء حاجة ، أي انها تقدم نذوراً . أما الوثن ، فإنه الصنم في لهجتنا ، أي الرمز الذي يرمز به الى الإلـه ، والذي يتقرب له الناس .

والوثن في رأي بعض العلماء، لفظة مرادفة لصنم . وقال بعض آخر : (المعمول من الخشب أو الذهب والفضة أو غيرها من جواهر الأرض صنم ، وإذا كان من حجارة ، فهو وثن)[2] . وذكر بعض آخر ان الصنم ما كان لـه صورة جعلت تمثالاً ، والوثن ما لا صورة له . « وقيل ان الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ينحت ويعبد ، والصنم صورة بلا جثة . وقيل : الصنم مـــا كان على صورة خلقة البشر ، والوثن ما كان على غيرها » . « وقال آخرون: ما كان له جسم أو صورة ، فصنم ، فإن لم يكن له جسم أو صورة ، فهـــو وثن . وقيل : الصنم من حجارة أو غيرها ، والوثن ما كان صورة مجسمـــة .

---

١ المختصر ، لغويدي (١٨) .

٢ الاصنام (٣٣) ، (روزا) ، تاج العروس (٣٧١/٨) ، (صنم) ، (٣٥٨/٩) ، (وثن) ، القاموس (١٤١/٤ ، ٢٧٤) ، اللســان (٣٣٣/١٧) ، خزانـة الأدب (٢٤٤/٣ وما بعدها) ، سبائك الذهب (١٠١) .

وقد يطلق الوثن على الصليب وعلى كل ما يشغل عن الله » . وقال بعض آخر: « يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم ، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه »[1] . وذكر بعض آخر : « أصل الأوثان عند العرب، كل تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها »[2] .

وذكر علماء اللغة أن (الودع) وثن[3] . ولم يذكروا شيئاً عنه غير ذلك .
وقد أطلق (الأعشى) على الصليب (الوثن) ، إذ قال :

تطوف العفـــاة بأبوابـه كطوف النصارى ببيت الوثن

(أراد بالوثن الصليب) . « قال عديّ بن حاتم : قدمت على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال لي : الق هذا الوثن عنك، أراد به الصليب ، كما سمّاه الأعشى وثناً »[4] .

فنحن اذن أمام آراء متباينة في معنى (الصنم) و (الوثن) . منهم من جعل الصنم مرادفاً للوثن ، أي في معنى واحد ، ومنهم من فرّق بينهما ، ومنهم من جعل الصنم وثناً والوثن صنماً . والظاهر ان مردّ هذا الاختلاف ، هو اختلاف استعمال القبائل للكلمتين ، فلما جمـع علماء اللغة معانيهما ، وقع لهم هـــذا التباين وحدث عندهم هذا الاختلاف في الرأي .

وترد في كتب الأدب واللغة لفظــة (البعيم)[5] . اسم صنم ، والتمثال من الخشب ، وقيل الدمية من الصمغ[6] . والمِثال الشبه ، وما جعـــل مثالاً لغيره ، والتمثال . وهو الشيء المصنوع مشبهاً بخلق واذا قدرته على قدره . وذكر انهـــا الأصنام . وفي هذا المعنى وردت في القرآن الكريم : (ما هذه التماثيـــل ؟ أي

---

١ الروض الانف (١/٦٢) .
٢ اللسان (١٣/٤٤٣) ، (وثن) ، (صادر) .
٣ اللسان (٨/٣٨٧) ، (ودع) .
٤ اللسان (١٣/٤٤٣) ، (وثن) .
٥ البعيم ، كأمير .
٦ تاج العروس (٨/٢٠٣) ، (البعيم) ، الاصنام (١٠٨) ، (تكملة) « روزا » .

الأصنام . وقوله تعالى : من محاريب وتماثيل ، هي صور للأنبياء)[1] . وذكر : التماثيل للأصنام ، والصورة ، والشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله . أي انسان أو حيوان أو نبات[2] . ويعبر عن التمثال والمثال بلفظة (امثلن) في العربيات الجنوبية . وردت في النصوص لمناسبة تقديم أصحابها تماثيل الى الآلهة لتوضع في معابدها وفاء لنذور نذروها لها[3] .

و (الدمية) الصورة المنقشة من الرخام ، أو عام من كل شيء ، أو الصورة عامة . والصنم ، والأصنام دمى . ومن أيمان الجاهلية : لا والدمى ، يريدون الأصنام[4] . وذكر ان (الدمية) ما كان من الصمغ[5] .

و (البدّ) الصنم الذي يعبد ، فارسي معرب . عرب من (بت) بمعنى (صنم)[6] . وذكر ان (البد) ، بيت الصنم والتصاوير أيضاً[7] .

وقد اشتغل بعض أهالي مكة بصنع الأصنام . فكان (عكرمة بن أبي جهل) ممن يعملها بمكة[8] . وكان الأعراب اذا جاءوا مكة أو المواضع الحضرية الأخرى اشتروا الأصنام منها للتعبد لها[9] .

هيأة الأصنام :

وقد وصف (ابن الكلبي) ، وهو الراوية الرئيس والعالم الكبير بالأصنام هيأة بعض الأصنام ، فذكر مثلاً أن الصنم (هبل) ، كان على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب[10] . فهو تمثال إنسان اذن نحت من حجر أحمر أو وردي ، لا يستبعد أن يكون من عمل بلاد

---

١ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) .
٢ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) .
٣ Jamme 558, MaMb 201, Mahram, p. 24.
٤ تاج العروس (١٠/١٣١) ، (دمى) .
٥ الاصنام (١٠٨) ، (تكملة) .
٦ تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (بدد) ، غرائب اللغة (٢١٨) .
٧ تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (بدد) .
٨ الازرقي (١/٧٧ وما بعدها) .
٩ الازرقي (١/٧٨) .
١٠ الاصنام (٢٧ وما بعدها) ، الازرقي (١/٦٨) .

الشأم أو من عمل الفنانين اليونان ، واستورد من هناك ، فنصب في جوف الكعبة . استورده أحد سادة (مكة) وهو (عمرو بن لحي) على رواية أهل الأخبار ، أو غيره ، لما رأى فيه من حسن الصنعة ودقة النحت . فوضعه في موضعه . ولم يذكر أهل الأخبار سبب كسر اليد اليمنى للصنم ، هل كان ذلك بسبب حادث ، او بسبب أسطوري . وأما (اللات) فصخرة بيضاء منقوشة [1] ، في رواية أكثر الأخبار . وتمثال من حجر على رواية [2] . وأما العزى ، فهناك رواية تذكر أنها كانت صنماً ، أي تمثالاً ، ولكنها لم تعين صورته على نحو ما تحدثت عنها في الفصل الخاص بالأصنام . واما (ود) فقد كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل [3] . وأما (سواع) ، فكان صنماً على صورة امرأة . ولا يستبعد أن يكون من بين الأصنام الباقية ما كان على صورة حيوان . فقد كان الصنم (نسر) يمثل النسر .

وأقصد بالأصنام في هذا المكان أصنام المعابد ، أي الأصنام التي كان الناس يتقربون اليها بالتعبد والنذور . وأما الأصنام الصغيرة ، وهي التماثيل التي كان يتعبد لها الناس في بيوتهم أو يحملونها معهم في أسفارهم أو يحملونها معهم حيث ذهبوا تبركاً بها . فقد كانت كثيرة ، لا يخلو منها انسان ، وكانوا يتقربون بها الى الأصنام الكبيرة . وقد عثر المنقبون على عدد كبير منها ، وهي متفاوتة في الحجم وفي الروعة ودقة الصنع والاتقان .

عبادة الاصنام :

ونظرية (ابن الكلبي) ومن لف لفه من الأخباريين ان نسل اسماعيل بن ابراهيم لما تكاثر بمكة حتى ضاقت بهم ، وقعت بينهم الحروب والعداوات ، فأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في البلاد التماساً للمعاش . وكان كلما ظعن من مكة ظاعن حمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة .

---

١ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) .
٢ تفسير أبي السعود (٥/١١٢) .
٣ الاصنام (٥٦) ، (٣٥) « روزا » .

فحيثما حلّوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بهـا وصبابة بالحرم وحبّاً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكـة ، ويحجون ويعتمرون ، على إرث ابراهيم واسماعيل .

(ثم سلخ بهم الى ان عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجثوا ما كان يعبد قوم نوح منها ، عـلى إرث ما بقي فيهم من ذكرها ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عرفة ومزدلفة ، واهداء البدن ، والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه)[1] .

فكان أول من غير دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية ، عمرو بن ربيعة ، وهو لحي بن حارثة ابن عمرو بن عامر الأزدي ، وهو أبو خزاعة .

وكانت أم عمرو بن لحيّ ، فهـيرة بنت عامر عمرو بن الحـارث بن عمرو الجرهمي ، ويقال : قمعة بنت مضاض الجرهمي[2] .

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة . فلما بلغ عمرو بن لحيّ ، نازعه في الولاية ، وقاتل جرهماً ببني اسماعيل ، فظفر بهم ، وأجلاهم عن الكعبة،ونفاهم عن بلاد مكة ، وتولى حجابة البيت بعدهم .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء من الشأم حمّة إن أتيتها، برأت . فأتاها ، فاستحم بها ، فبرأ . ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها عـلى العدوّ . فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا . فقـدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة . ثم أخذ عمرو ابن لحيّ في توزيع الأصنام على القبائل . وبذلك شاعت عبادة الأصنام بين الناس[3].

---

١ الاصنام (ص ٦ وما بعدها) ، ابن هشام (١ /٨٣) ، الروض الأنف (١/ ٦١) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة (١/ ٤٦) .
٣ الاصنام (ص ٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٧٦) ، البلدان (٨/ ٤٠٨ وما بعدها) ، (ود) ، مروج الذهب (٢/ ٢٢٧) ، (ذكر البيوت المعظمة ، والهياكل المشرفة) ، سبائك الذهب (١٠١) ، الروض الانف (١/ ٦٤) ، البلدان (٤/ ٦٥٢ وما بعدها) (طهران ١٩٣٥) .

هذه رواية شهيرة معروفة بين الأخباريين عن منشأ عبادة الأصنام وانتشارها عند العرب . وفي رواية أخرى : « كان أول من اتخذ تلك الأصنام ، من ولد اسماعيل وغيرهم من الناس ، وسمّوها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين اسماعيل ، هُذيل بن مدركة »[1] . فنسبت هذه الرواية اتخاذ الأصنام الى هذيل .

وهناك روايات أخرى في هذا المعنى تتفق مع الرواية الأولى من حيث الجوهر ولا تختلف معها إلا في بعض التفاصيل ؛ ففي رواية ان (عمرو بن لحيّ) حينما قدم (مآباً) من أعمال البلقاء ، وهي يومئذ بأيدي العماليق ، ووجدهم يتعبدون للأصنام ، سألهم أن يعطوه صنماً منها ليسير به الى أرض العرب ليعبدوه، فأعطوه الصنم هبل ، فأخذه ، وقدم به الى مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته[2] . فعينت هذه الرواية القوم الذين ذهب اليهم (عمرو بن لحيّ) ، والموضع الذي نزل به ، وثبتت اسم الصنم الذي أخذه منهم . وهي زيادات لم نجدها في كتاب الأصنام . غير ان تشابه عبارات هذه الرواية التي ذكرها (ابن هشام) مع رواية (ابن الكلبي) ، يدل على ان المنبع واحد ، وانما الخلاف هو في ذكر بعض الفروع ، وفي الاختصار بعض المواضع ، والإطناب في مواضع أخرى .

وفي رواية أخرى عن (ابن الكلبي) كذلك ، وهي في كتابه الأصنام ، ترجع أيضاً عبادة الأصنام الى عمرو بن لحيّ ، غير انها تروي الخبر في صيغة أخرى ، فتقول :

« وكان عمرو بن لحيّ ، وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد ، وهو أبو خزاعة ، وأمه فُهيرة بنت الحارث ، ويقال إنها كانت بنت الحارث بن مضاض الجرهمي ، وكان كاهناً . وكان قد غلب على مكة وأخرج منها جرهماً ، وتولى سدانتها .

---

١ الاصنام (ص ٩) ، نسب عدنان وقحطان ، للمبرد (٢٢ وما بعدها) ، المختصر في أخبار البشر ، لابي الفداء (١/ ٩٤) ، ابن هشام (١/ ٧٨) ، (البابي) ، البلدان (٤/ ٦٥٢) ، (طهران) ، ابن خلدون (٢/ ٦٨٦) ، مروج الذهب (٢/ ٥٦ وما بعدها) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، أبو الفداء (١/ ٧٦) .

٢ ابن هشام (ص ٦٢) ، حاشية على الروض الانف ، ابن هشام (١/ ٨٢) ، ديوان حسان (p. 11) ، (هرشفلد) ، ابن هشام (١/ ٧٨ وما بعدها ، ١٢٠) .

وكان له رئي من الجن،وكان يكنى أبا ثمامة ، فقال له : عجل بالمسير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة ! قال : جيْر ، ولا إقامة .

قال : ايت ضفّ جُدّة ، تجد فيها أصناماً معدة ، فأوردها تهامة ولا تهاب ، ثم ادع عبادتها قاطبة .

فأتى شطّ دجلة ، فاستشارها ، ثم حملها حتى ورد تهامة ، وحضر الحجّ ، فدعا العرب الى عبادتها قاطبة .

فأجابه عوف بن عُذْرة بن زيد اللآت بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة ابن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فدفع اليه ودّاً . فحمله الى وادي القُرى ، فأقره بدومة الجندل . وسمّى ابنه عبد ودّ . فهو أول من سُمّي به ، وهو أول من سمّي عبد ودّ ، ثم سمعة العرب به بعد[1] .

فهذه الرواية هي على شاكلة الرواية الأولى في منشأ عبادة الأصنام بين العرب قبل الاسلام بحسب رأي الأخباريين بالطبع ، سوى اختلافها عنها في المكان الذي أخذت الأصنام منه . فهنا (جُدّة) على ساحل البحر الأحمر ، وهناك البلقاء من أعمال الشأم . والموضعان ، وإن كانا يختلفان موقعاً ، يتفقان في شيء واحد هو وقوعها على حدّ مقصود ، يرده الأجانب منذ القديم للاتجار . فهل يعني هذا استيراد تلك الأصنام من الخارج ، من بلاد الشأم أو من مصر ، وانها كانت من عمل اهل الشأم او اهل مصر او من عمل الروم او الرومان ؟ وتذكر رواية أخرى ان (عمرو بن لحيّ) ، إنما جاء بالصنم (هبل) ، من (هيت) بالعراق حتى وضعه في الكعبة[2] .

وعمرو بن لحيّ هو على اختلاف الروايات أول من غيّر دين اسماعيل،فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي . ففقأ عين عشرين بعيراً ، فصارت العادة أن يفقأ عين الفحل من الإبل إذا بلغت الإبل ألفاً . فإذا بلغت ألفين ، فقئت العين الأخرى . وقد نسب اليه كلام طويل . وزُعم له عمر مديد ، وقصص أخرجه من عالم الواقع الى عالم القصص والأساطير ، ورجع عصره الى ايام (العماليق) والى ايام (سابور ذي الأكتاف). وذكر ان العرب

---

١ الاصنام (ص ٥٤ وما بعدها) .

٢ الازرقي (١/٧٣ وما بعدها) ، الروض الانف (١/٦٥) .

جعلته (رباً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم ، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة)[1]، وذكروا انه كان ملكاً على الحجاز ، وكان كبير الذكر في ايامه ، الى غير ذلك من قصص يروونه عنه[2] .

وذكر (المسعودي) ، ان (عمرو بن لحيّ) حين خرج الى الشأم ورأى قوماً يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة،وأكثر من الأصنام ، وغلب على العرب عبادتها،انمحت الحنيفية منهم إلا لماماً ، ضج العقلاء في ذلك ، فقال (شحنة بن خالف) (سحنة بن خلف الجرهمي) :

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة   شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربّ واحد أبداً   فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مَهَــلٍ   سيصطفي دونكم للبيت حجابا[3]

وكان (عمرو بن لحيّ) كاهناً على ما يذكره أهل الأخبار[4] ، وهــو من (خزاعة) ، التي انخزعت من اليمن . ثبت حكمه على مكة ، بعــد أن انتزع الحكم من جرهم ، وغلب قومه عليها ، فصاروا يطيعونه ويتبعون ما يضعه لهم . وقد نسبوا اليه وضع بقية الأصنام ، مثل اللات واساف ونائلة ، فهو عـلى رأي أهل الأخبار مؤسس هذه الأصنام التي بقيت الى أيام النبي ، والتي حطمت بأمره عام الفتح ، وباستيلاء المسلمين على المواضع الأخرى .

وذكر أهل الأخبار أن (عمرو بن لحيّ) كان أول من غيّر تلبية (ابراهيم). وكانت : (لبيك لا شريك لك . لبيك) ، فجعلها : (لبيك اللهـم لبيك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما لك) ، وقـــد كان (ابليس) قد ظهر له في صورة شيخ نجديّ عــلى بعير أصهب ، فسايره ساعة ، ثم لبى ابليس ، فلبى (عمرو) تلبيته حتى خدعه . فلبّاها الناس على ذلك[5] .

---

١ الروض الأنف (٦٢/١) ، البداية والنهاية (١٨٨/٢) .
٢ المختصر في أخبار البشر ، لابي الفداء (٩٤/١) .
٣ مروج الذهب (٢٩/٢ وما بعدها) .
٤ مروج الذهب (٣٠٣/٢) .
٥ الازرقي (١٢٦/١ وما بعدها) ، (٢٦/١ وما بعدها) ، ابن هشام (٧٩/١ وما بعدهـــا) .

وقد قيل إنه بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية مبلغه[1] . ويظهر أنه كان من أصحاب الحول والسلطان والجاه،ولذلك ترك هذا الأثر في روايات أهل الأخبار . واني أرى أنه لم يكن بعيد عهد عن الإسلام، وإلاّ لمَ حفظت ذاكرة أهل الأخبار أخبارها عنه . والظاهر أنه كان كاهناً من الكهّان ، ورجلاً كبيراً من رجال الدين .

وروي أن الرسول ذكر أن (عمر بن لحي بن قمعة) كان أول من غيّر دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة[2] .

ولست أظن أن الرواة قد أقحموا اسم (عمرو بن لحيّ) في قصة انتشار الأصنام في جزيرة العرب اقحاماً من غير أصل ولا أساس ، فلا بد من أن تكون للرجل صلة ما بعبادة الأصنام عند الجاهليين ، ولا بد أن يكون من الرجال الذين عاشوا في عهد غير بعيد عن الاسلام ، لا قبل ذلك بكثير كما يدعي الأخباريون ، فما كان خبره ليصل اليهم على هذا النحو لو كان زمانه بعيداً عنهم البعد الذي تصوروه . وأنا لا أستبعد احتمال شراء (عمرو بن لحيّ) للأصنام من بلاد الشأم ومجيئه بها الى الحجاز ، ونصبه لها في الكعبة وفي مواضع أخرى ، لما وجده من حسن صنعة التماثيل في تلك البلاد ومن جودة حجارتها ، فاشترى عدداً منها ، لتنصب في المحجات ، فنسبت عبادة الأصنام اليه .

وزعموا أن (ابن أبي كبشة) : (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث ابن غبشان الخزاعي)،كان ممن أدخل الشرك الى العرب ، وخالف دين التوحيد . لقد ذكروا أنه دعا الى عبادة (الشعرى العبور)[3] .

وليست عبادة الأصنام والأوثان عبادة خاصة بالعرب ، بل هي عبادة كانت معروفة عند غيرهم من الشعوب السامية ، وعند غير الساميين ، كما أنها لا تزال موجودة قائمة حتى الآن .

وكانت قريش تتعبد وتتقرب الى أصنام قبائل أخرى ، على شرط المثل ، أي أن تتقرب تلك القبائل وتتعبد لأصنام قريش . فقد ذكر (السكرى) أن قريشاً

---

١ اخبار مكة (٥٤) .
٢ الاستيعاب (١٢٠/١) .
٣ تاج العروس (٣٤١/٤) .

كانت تعبد صاحب كنانة ، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش[1] . وقد تمكنت قريش بفضل هذه السياسة الحكيمة من جمع أصنام العرب وضمها في الكعبة ، وهذا ما جعل القبائل تعظم هذا المجمع ، وتحج اليه كل سنة مرة ، في موسم الحج ، بالإضافة الى الأيام الأخرى من أيام السنة ، حيث تقع فيها العمرة . فربحت من ذلك ربحاً معنوياً ومادياً ، وصارت مكة سوقاً مستقرة ثابتة ، يقصدها الناس في كل وقت .

الحلف بالأصنام والطواغيت :

ولعقيدتهم المذكورة في الأصنام ، كانوا يحلفون بها وبالطواغيت . والظاهر أن هذه العادة بقيت في نفوسهم حتى في الإسلام . فقد ورد في الحديث : « أنه قال من حلف بغير الله ، فقال في حلفه باللات والعزى ، فليقل : لا إلّه إلاّ الله »[2] ، و « من حلف ، فقال في حلفه واللات والعزى ، فليقل : لا إلّه إلاّ الله » ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك فليتصدق »[3] . وكانت ألسنتهم تسبقهم ، لما اعتادته من زمن الجاهلية من الحلف بالأصنام[4] .

١ المحبر (٣١٨) .
٢ ارشاد الساري (٣٧٧/٩) .
٣ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) .
٤ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) .

الفصل الثالث والستون

أنبياء جاهليون

ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن الجاهليين لم يعدموا من الأنبياء ، فقد ذكروا لهم أنبياء قالوا إنهم بشروا بالله وبدينه بين العرب الأولى ، ومنهم (هود) نبيّ (عاد) ، و (صالح) نبي قوم ثمود . وقد أشير اليهما في القرآن الكريم [1] .

وزعموا أن رجلاً من بني (قطيعة بن عبس) كان نبيّاً كذلك ، ولم يكن في بني اسماعيل نبيّ قبله . وهو الذي أطفأ الله به (نار الحرتين) .وكانت ببلاد عبس . فإذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء ، وكانت طيء تُنفش بها إبلها ، وربما ندرت منها (العنق) ، أي قطعة فتأتي على كل شيء فتحرقه . وإذا كان النهار فإنما هي دخان يفور . فاحتفر (خالد) لها بئراً ، ثم أدخلها فيها ، والناس ينظرون ، ثم اقتحم فيها حتى غيبها . وذكروا أنه نجح في إخمادها ، وكان الناس يقولون : هلك الرجل ، فكذبهم ، وخرج سالماً . فلما حضرته الوفاة قال لقومه : إذ أنا مت ثم دفنتموني ، فاحضروني بعد ثلاث ، فإنكم ترون عيراً أبتر يطوف بقبري ، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني ، فإني أخبركم بما هو كائن الى يوم القيامة . فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث، فلما رأوا العير وذهبوا ينبشونه، اختلفوا ، فصاروا فرقتين ، وابنه عبدالله في الفرقة التي أبت أن تنبشه ، وهو يقول : لا أفعل ! إني إذاً ادعى ابنَ المنبوش ! فتركوه .

---

١ سورة هود ، الآية ٥٣ ، ٦٠ ، ٨٩ ، الشعراء ، الآية ١٢٤ ، صالح ، سورة الاعراف الآية ٧٧ ، هود ، الآية ٦٢ ، ٨٩ ، الشعراء ، الآية ١٤٢ .

قال (الجاحظ) : والمتكلمون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون أن خالداً هذا كان أعرابياً وَبَرِياً ، من أهل (شرج) و (ناظرة) . ولم يبعث الله نبياً من الأعراب ولا من الفَدّادين أهل الوبر ، وهم أهل البادية . إنما يبعثهم من أهل القرى ، وسكان المدن[1] .

ويظهر أنه عاش قبيل الإسلام . فقد ذكر أهل الأخبار أن ابنة له قدمت على النبي ، فبسط لها رداءه وقال : هذه ابنة نبي ضيعه قومه . وذكروا أنها لما سمعت سورة : « قل هو الله أحـــد » ، قالت : قد كان أبي يتلو هذه السورة[2] . وزعموا أنه هو الذي دعا على العنقاء ، فذهبت وانقطع نسلها[3] .

ثم نبيٌ آخر اسمـــه (حنظلة بن صفوان) ، كان نبياً بعثه الله الى (أهل الرسّ) ، فكذبوه وقتلوه ، عاش في أيام (بختنصر) ، وقد نسب الى حمير ، وقيل إنه كان من أنبياء الفترة كذلك ، وإنه هو الذي دعا على العنقاء ، فانقطع نسلها[4] . وذكر بعض أهل الأخبار أن الله أرسل (حنظلة) الى أهـــل عدن ، فقتلوه[5] .

وذكر أهل الأخبار اسم نبي أرسل الى أهل (حضور) ، اسمه (شعيب بن ذي مهدم) . فقتلوه ، فاستأصلهم (بخت نصر) ، وقبره بـ (صنين) جبل باليمن[6] .

وذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة بن حبيب الحنفي) ، كان ممن ادعى النبوة بمكة قبل الهجرة ، وصنع أسجاعاً[7] . وكان قد طاف قبل التنبي ، في الأسواق التي كانت بـــين دور العجم والعرب ، يلتقون فيها للتسوق والبياعات ، كنحو سوق الابلة ، وسوق لقه ، وسوق الأنبار ، وسوق الحيرة . وكان يلتمس تعلم الحيل والنيرّجات ، واختيارات النجوم والمتنبئين . وقد كان أحكم حيـــل السدنة

---

١ الحيوان (٤/٤٧٦ وما بعدها) .
٢ الحيوان (٤/٤٧٧) .
٣ (ذاك نبي أضاعه قومه) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٨ وما بعدها) .
٤ اللسان (١٢/١٤٩) ، (عنق) ، تاج العروس (١/٤١٠) ، (عنق) .
٥ الروض الانف (١/٩) .
٦ الروض الانف (١/٩) .
٧ الحيوان (٤/٨٩) ، « مسيلمة بن عثامة بن كبير بن حبيب بن الحرث ، من بني حنيفة » ، ارشاد الساري (٦/٤٣٤) .

والحُواء وأصحاب الزجر والخط ، ومذهب الكاهن والعيّاف والساحر ، وصاحب الجن الذي يزعم أن معه تابعه[1] .

وقد أحكم من ذلك أموراً . فمن ذلك ، أنه صبّ على بيضة من خلّ قاطع، حتى لان قشرها ، فأدخلها في قارورة ضيقة الرأس،وتركها حتى جفت ويبست، وعادت الى هيئتها الأولى ، فأخرجها الى (مجاعة بن مرارة بن سلمى الحنفي) اليمامي ، وأهل بيته ، وهم أعراب ، وادعى بها أعجوبة ، وأنها جعلت له آية، فآمن به من في ذلك المجلس : مجاعة وغيره . ومن ذلك أنه كان قد حمل معه ريشاً في لون ريش أزواج حمام ، وقد كان يراهن في منزل مجاعة مقاصيص . فالتفت ، بعد أن أراهم الآية في البيض ، الى الحمام فقال لمجاعة : الى كم تعذب خلق الله بالقص ؟! ولو أراد الله للطير خلاف الطيران لما خلق لها أجنحة ، وقد حرمت عليكم قص أجنحة الحمام ! فقال له مجاعة كالمتعنت : فسل الذي أعطاك في البيض هذه الآية أن ينبت لك جناح هذا الطير الذكر الساعة ؟

قال مسيلمة : فإن أنا سألت الله ذلك ، فانتبه له حتى يطير وأنتم ترونه ، أتعلمون اني رسول الله اليكم ؟ قالوا : نعم . قال فإني أريد أن أناجي ربي ، وللمناجاة خلوة ، فانهضوا عني ، وان شئتم فادخلوني هذا البيت وادخلوه معي ، حتى أخرجه اليكم الساعة وافي الجناحين يطير . وأنتم ترونه ولم يكن القوم سمعوا بتغريز الحمام ، وكانوا بسطاء لا يعرفون حيل المحتالين . فلما خلا بالطائر أخرج الريش الذي قد هيأه ، فأدخل طرف كل ريشة مما كان معه في جوف ريش الحمام المقصوص ، من عند المقطع والقصّ . فلما غرز ريشه أخرجه ، وأرسله أمامهم من يده فطار ، واعتبروا عمله آية .

ثم انه قال لهم : ان الملك ينزل إليّ ، والملائكة تطير وهي ذوات أجنحة ، ولمجيء الملك زجل وخشخشة وقعقعة ، فمن كان منكم ظاهراً فليدخل منزله ، فإنّ من تأمل اختطف بصره ! ثم صنع راية من رايات الصبيان التي تعمل من الورق الصيني ، ومن الكاغد ، وتجعل لها الأذناب والأجنحة ، وتعلق في صدورها الجلاجل ، وترسل يوم الريح بالخيوط الطوال الصلاب . ثم أرسلها مع الريح ، وهم لا يرون الخيوط ، والليل لا يبين عن صورة الرق ، وعن دقة الكاغد ،

---

[1] الحيوان (٤/٣٦٩ وما بعدها) ، المعارف (٤٠٥) .

فتوهموا أن ذلك الملائكة : وتصارخوا ، وصاح : من صرف بصره ودخل بيته فهو آمن ! فأصبح القوم وقد أطبقوا على نصرته والدفع عنه . فهو قوله :

ببيضـــة قارورٍ ورايـــةِ شادن وتوصيل مقصوص من الطير جادف[1]

ونسب بعض أهل الأخبار (مسيلمة) على هذا النحو : (مسيلمة بن ثُمامة ابن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هفان بن ذهل بن الدول بن حنيفة)[2] و (مسيلمـــة الكذاب بن حبيب) ثمامة بن كبير ، وجعله بعضهم (مسيلمة بن حبيب) . وجعلوا كنيته (أبا ثمامة) وقيل (أبا هارون) و (أبو ثمالة)[3] . وذكروا أنه كان يسمى بـ (الرحمان) قبل مولد (عبد الله) والـد رسول الله ، « وكانت قريش حين سمعت : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال قائلهم : دق فوك ، إنما تذكر مسيلمة رحمان اليمامة »[4] . وذكروا أنه دعا الى الرحمـان ، أي الى عبادة الرحمان . بينما عرف نفسه بـ (الرحمن) ، فقيل له : (رحمـــان اليمامة)[5] . وأنه دعا الى عبادته هذه قبل النبوة ، وقد عرف أمره بمكـــة ، فلما نزل الوحي على الرسول ، قال أهل مكة إنما أخذ علمه من (رحمان) اليمامة[6] . وقالوا له : « إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن ، ولن نؤمن به أبداً » . « فأنزل الله سبحانه : وهم يكفرون بالرحمن . قـــل : هو ربي . كان مسيلمة بن حبيب الحنفي ، ثم أحد بني الدول قـــد تسمى بالرحمن في الجاهلية ،وكان من المعمرين . ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تسمى بالرحمن قبل أن يولد عبدالله ابو رسول الله صلى الله عليه وسلم »[7] .

قال (الواحدي) في أسباب نزول الآية : « وهم يكفرون بالرحمن . قل :

---

١ الحيوان (٣٧١/٤ وما بعدها) ، المعارف (٤٠٥) .
٢ الروض الانف (٣٤٠/٢) ، (وفد بني حنيفة) ، امتاع الاسماع (٥٠٦/١) ، البلاذري ، فتوح (٩٧) ، (اليمامة) .
٣ الاشتقاق (٢٠٩) ، البلاذري ، فتوح (١٠٠) .
٤ الروض الانف (٣٤٠/٢) ، اليعقوبي (١٢٠/١) .
٥ Shorter Ency., p. 416.
٦ Shorter Ency., p. 416.
٧ الروض الانف (٢٠٠/١) .

هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت واليه متاب »[1] : « قال أهل التفسير : نزلت في صلح الحديبية ، حين أرادوا كتاب الصلح . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن ، إلا صاحب اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذّاب . اكتب باسمك اللهم . وهكذا كانت الجاهلية يكتبون ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية »[2] . وذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن . قالوا : وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا بـه وزادهم نفوراً »[3] ، « أن مسيلمة كان يدعى الرحمن . فلما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، اسجدوا للرحمن قالوا : أنسجد لما يأمرنا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة بالسجود له »[4] . أو أنهم قالوا : « ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة . يعنون مسيلمة الكذاب »[5] .

ولا يعقل قول من قال ان مسيلمة كان يعرف بـ (الرحمن) قبل ولادة (عبدالله) والد الرسول . أما انه كان أسنّ من الرسول فلا غرابة في ذلك ، ولكني لا أرى انه كان أكبر من الرسول بعشرات السنين . ومن الجائز ان يكون قد دعا الى عبادة (الرحمن) ، وهي عبادة كانت شائعة معروفة إذ ذاك ، في اليمامة وفي غير اليمامة ، فعرف بين قومه بـ (رحمن اليمامة) ، وذلك قبل نزول الوحي على الرسول ، فسمع أهل مكة بدعوته .

وورد في رواية ان (أبا جهل) سمع (رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحجر ويقول : يا الله يا رحمن . فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة، وهو يدعو إلهين . فنزلت هذه الآية ، : قل ادعوا لله أو ادعوا الرحمن)[6] . وفي هذا الخبر إن صح ، دلالة على ان أهل مكة كانوا قد سمعوا بعبادة (الرحمن) وانهم سمعوا ان قوماً من الجاهليين دعوا الى عبادته ، وان (أبا جهل) كان قد سمع قولهم ، ولهذا أخذ على النبي قوله : يا الله يا رحمن . ولا يعقل ألا يكون لأهل مكة علم بعبادة (الرحمن) ، التي تحدثت عنها في موضع آخر ، وقد كان

---

١ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٠ .
٢ أسباب النزول (٢٠٥ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٣١٧/٩ وما بعدها) .
٣ الفرقان ، الآية ٦٠ .
٤ تفسير الطبري (١٩/١٩) ، روح المعاني (٣٦/١٩) ،
٥ تفسير القرطبي (٦٤/١٣) .
٦ تفسير القرطبي (٣١٨/٩) .

لهم اتصال باليمن وباليمامة وبمعظم أنحاء جزيرة العرب . وأرى ان (مسيلمة) كان قد دعا الى عبادة الرحمن متأثراً بدعوة المتعبدين له ممن كان قبله على ما يظهر ، وهي عبادة إلّه اسمه (الرحمن) فعرف مسيلمة بـ (الرحمن) وبـ (رحمن اليمامة). وعبادة الرحمن ديانة متأثرة بفكرة التوحيد ، وبوجود إلّه واحد هو (الرحمن) رب العالمين .

وقد أشير الى موضع اسمه (وادي الرحمن) في الكتاب الذي أعطاه رسول الله الى (يزيد بن المحجل) الحارثي ، ورد فيه : (ان لهم غرة ومساقيها ووادي الرحمن من بين غابتها)[1] . ولا أستبعد احتمال وجود صلة بين هذه التسمية وبين الرحمن الإلّه .

وقد وصف الرواة (مسيلمة) بأنه (كان قصيراً شديد الصفرة أخنس الأنف أفطس)[2] .

ويظهر من غربلة ما ذكره أهل الأخبار عن (مسيلمة) أنه كان أكبر عمراً من الرسول . وأنه كان قد تكهن وتنبأ باليمامة ووجد له أتباعاً قبل نزول الوحي على النبي . وأن أهل مكة كانوا على علم برسالته . ويذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة) كان ابن مائة وخمسين سنة حين قتل[3] . وهو عمر قد بولغ فيه ولا شك ، إذ لا يعقل أن يكون في هذه السن يوم قتل ، فقد كان فعالاً نشيطاً ، نشاطاً لا يمكن أن يظهر إلا من رجل قوي فعال ، هو دون المائة .

وكان (مُسيلمة) يدعي أن معه رئيّاً في أول زمانه ، ولذلك قال الشاعر حين وصفه :

ببيضة قارور وراية شادن وخلة جنّي وتوصيل طائر[4]

وكان (مسيلمة) في جملة رجال (وفد حنيفة) الذي قصد الرسول ، وفيهم (رحال بن عنفوة) . لكنه – كما يقول الرواة – لم يذهب مع الوفد

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٨) ، (ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) .
٢ البلاذري ، فتوح (١٠٠) .
٣ الروض الانف (٢/٣٤٠) ، اليعقوبي (١/١٢٠) .
٤ الحيوان (٦/٢٠٥ وما بعدها) .

الى الرسول ، بل بقي مع رحال الوفد يبصرها لهم . فلما قرروا العودة ، بعد أن أسلموا وأعطاهم جوائزهم ، قالوا : « يا رسول الله إنّا خلفنا صاحباً لنا في رحالنا يبصرها لنا ، وفي ركابنا يحفظها علينا، فأمر له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمثل ما أمر به لأصحابه وقال : ليس بشرّكم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم ، فقيل ذلك لمسيلمة ، فقال : عرف أن الأمر إليّ من بعده . فلما عادوا الى ديارهم ، ادعى مسيلمة النبوة،وشهد (رحال بن عنفوة) (الرحال بن عنفوة) ، أن رسول الله ، أشركه في الأمر ، فتبعه الناس[1] . وكان (الرحال) قد تعلم سوراً من القرآن ، فنسب الى (مسيلمة) بعض ما تعلم من القرآن، فكان من أقوى أسباب الفتنة على (بني حنيفة) . قتله (زيد بن الخطّاب) ، يوم اليمامة [2] .

وذكر (الطبري) ، أن (مسيلمة) كان يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح . (وكان معه نهار الرجّال بن عنفوة) وكان قد هاجر الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقرأ القرآن ، وفقه في الدين ، فبعثه معلماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة ، وليشدد من أمر المسلمين ، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة ، شهد له أنه سمع محمداً ، صلى الله عليه وسلم، يقول : إنه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له ، وأمروه بمكاتبة النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، ووعدوه إن هو لم يقبل أن يعينوه عليه ، فكان نهار الرجّال ابن عنفوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه ، وكان ينتهي الى أمره[3] . وكان الذي يؤذن له : عبدالله بن النوّاحة ، وكان الذي يُقيم له (حجير بن عمير) ، ويشهد له ، وكان مسيلمة إذا دنا حجير من الشهادة ، قال : صَرّح حجير ، فيزيد في صوته ، ويبالغ لتصديق نفسه ، وتصديق نهار وتضليل مَنْ كان قد أسلم ، فعظم وقاره في أنفسهم[4] . فجعل (الطبري) اسم مساعد (مسيلمة) (نهار الرجال بن عنفوة) ، لا (الرحال بن عنفوة) (رحال بن عنفوة)

---

١ ابن سعد ، طبقات (٣١٦/١ وما بعدها) ، (وفد حنيفة) ، الطبري (١٣٧/٣ وما بعدها) ، (قدوم وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة) .
٢ الروض الآنف (٣٤٠/٢) .
٣ الطبري (٢٨٢/٣ وما بعدها) .
٤ الطبري (٢٨٣/٣) .

كما في الموارد الأخرى . لكنه عاد فدعاه (الرجال)[1] تارة و (رحال بن عنفوة) تارة أخرى ، حينما تكلم عنه وعن نهايتـه . وذلك في أيام (أبـي بكر) ، أي في حوادث السنة الحادية عشرة[2] . وأظن أن مردّ هذا الاختلاف لا يعـود الى (الطبري) نفسه ، بل الى النسّاخ والى الطبع .

وقد أورد (الطبري) رواية أخرى في كيفية قدوم (مسيلمـة بن حبيب) على رسول الله . فذكر (ان بني حنيفة أتت بمسيلمة الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تستره بالثياب ، ورسول الله جالس في أصحابه ، ومعه عسيب من سعف النخل ، في رأسه خوصات ، فلما انتهى الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،فقال له رسول الله : لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك !). ولم يشر (الطبري) الى أسماء من جاء معه من وفد (بني حنيفة) ؛ وقد ذكر بعد هذه الرواية الرواية السابقة التي ذكرتها،دون أن يشير الى أسماء رجال الوفد[3] . ثم قال بعد ذلك : (ثم انصرفوا عن رسول الله وجاءوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله ، فلما انتهى الى اليمامة ارتدّ عدو الله وتنبـأ وتكذّب لهم ، وقال : إني قد أشركت في الأمر معه ، وقال لوفده : ألم يقل لـكم رسول الله حيث ذكرتموني: أما انه ليس بشرّكم مكاناً ! ما ذلك إلا لما كان يعلم اني قد أشركت معه ، ثم جعل يسجع السجعات ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاةً للقرآن : لقد أنعم الله على الحُبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى. ووضع عنهم الصلاة ، وأحلّ لهم الخمر والزنا ، ونحو ذلك)[4] .

ولا يتفق ما ذكره (الطبري) من وضع (مسيلمة) الصلاة عن أتباعه ، مع ما أورده هو من اتخاذه مؤذنـاً يؤذن بين الناس ، ومن اتخاذه (مقيماً) يقيم له الصلاة ، ثم مع ما ذكره غيره من انـه قلّص الصلوات الخمسة ، فجعلها ثلاثة صلوات في اليوم[5] . ولا يوجد دليل على تحليله الزنا والخمر .

وذكر ان (مسيلمة) ، بعد ان عاد الى قومه كتب كتابـاً الى الرسول فيه :

---

١ الطبري (٣/٢٨٧) .
٢ الطبري (٣/٢٨١ – ٣٠١) ، (ذكر بقية خبر مسيلمة الكذاب وقومه مـن اهل اليمامـة) .
٣ الطبري (٣/١٣٧) ، زاد المعاد (٣/٣١ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/١٣٨) ، زاد المعاد (٣/٣١) .
٥ Shorter Ency., p. 416.

(من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، أما بعد ، فإني قد أشركت معك في الأمر ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوماً يعتدون) . فكتب اليه رسول الله : . (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، أما بعد ، فالسلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين) . وقدم بكتاب مسيلمة رجلان ، فسألهما رسول الله عنه فصدّقاه ، فقال : أما والله لولا ان الرسل لا تقتل لقتلتكما[1] .

وتذكر رواية أخرى ان مسيلمة قال للرسول يوم وفد عليه مع من وفد من رجال (حنيفة) : (إن شئت خلينا لك الأمر وبايعناك على انه لنا بعدك . فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لا ولا نعمة عين ولكن الله قاتلك) . وتذكر رواية أخرى ان (هوذة بن علي الحنفي) صاحب اليمامة ، قد كتب الى النبي ، أن يجعل له الأمر من بعده على ان يسلم ويصير اليه فينصره، فقال رسول الله : لا ولا كرامة اللهم اكفنيه ، فمات بعد قليل[2] .

وروي ان رسول الله ، بعث (حبيب بن زيد بن عاصم) أحد (بني النجار) و (عبدالله بن وهب الأسلمي) الى مسيلمة ، فلم يعرض لعبدالله ، وقطع يدي حبيب ورجليه[3] .

وذكر ان رسولي مسيلمة اللذين حملا كتابه الى الرسول ، كانا (ابن الفوّاحة) و (ابن أثال) ، وانهما قالا لرسول الله : نشهد ان مسيلمة رسول الله . فقال الرسول : لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما . فعادا الى صاحبهما[4] .

وذكر (الطبري) أن (مسيلمة) « ضرب حرماً باليمامة ، فنهى عنه ، وأخذ الناس به ، فكان محرّماً ، فوقع في ذلك الحرم قُرى الأحاليف ، أفخاذ من بني أسيد ، كانت دارهم باليمامة فصار مكان دارهم في الحرم) ، فصاروا يغيرون على ثمار أهل اليمامة . ويتخذون الحرم دغلاً ، فإن نذروا بهم فدخلوه أحجموا عنهم ، وإن لم ينذروا بهم فذلك ما يريدون . » فكثر ذلك منهم حتى استعدوا عليهم ، فقال : انتظر الذي يأتي من السماء فيكم وفيهم ، ثم قال لهم :

---

١ امتاع الاسماع (١/٥٠٨ وما بعدها) ، اليعقوبي (١/١٢٠) .
٢ البلاذري ، فتوح (٩٧) ، (اليمامة) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٠٢) .
٤ زاد المعاد (٣/٣٢) .

والليل الأطحم ، والذئب الأدلم ، والجذع الأزلم ، ما انتهكت أسيد من محرم . فقالوا : أما محرم استحلال الحرم وفساد الأموال ! ثم عادوا للغـارة ، وعادوا للعدوى . فقال : انتظر الذي يأتيني ، فقال : والليل الدامس ، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس . فقالوا : أما النخل مرطبة فقد جدّوها ، وأما الجدران يابسة فقد هدموها ، فقال اذهبوا وارجعوا فلا حقّ لكم »[1] .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً زعموا أن (مسيلمة) نظمه مضاهـاة للقرآن . مـن ذلك قوله : « يا ضفدع نقيّ كم تنقـين ! نصفك في المـاء ونصفك في الطين ! لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين »[2] . « وكان فـيما يقرأ لهم فيهم : إن بني تميم قوم طهر لقاح ، لا مكروه عليهم ولا إتاوة ، نجاورهم ما حيينا بإحسان ، نمنعهم من كل إنسان ، فإذا متنا فأمرهم الى الرحمان »[3] . «وكان يقول: والشاة وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق ، فالكم لا تمجعون » . « وكان يقول : يا ضفدع ابنة ضفدع ، نقّي مـا تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين » . « وكان يقول : والمبذّرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ، لقد فضلتم على أهـل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعترّ فآووه ، والباغي فناوئوه »[4] . وذكر بعض أهل الأخبار أن (أبا بكر) لما سأل وفداً من (بني حنيفة) أرسله (خالد) اليه عمّا كان يقوله لهم : « قالوا : كان يقول يا ضفدع نقي نقي ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنـا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكنّ قريشاً قوم يعتدون »[5] .

ويظهر من أسلوب هذه الآيات المنسوبة الى (مسيلمة) : انها محاكاة ومضاهاة للآيات الأولى من القرآن الكريم ، الآيات التي نزلت بمكة في عهد الرسالة الأولى.

---

١ الطبري (٣/٢٨٣) .
٢ الحيوان (٥/٥٣٠) .
٣ الطبري (٣/٢٨٣ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/٢٨٣ وما بعدها) .
٥ الطبري (٣/٣٠٠) .

وهي بذلك تختلف عن أسلوب الوحي المنزل بعد الهجرة بالمدينـــة[1] . ولم نجد فيما بقي من كتب أهل الأخبار ما يشير بشيء الى (قرآن مسيلمة) ، أو الى بقية أخرى منه .

هذا ولا بد لي من التنبيه الى اننا لا نستطيع التأكيد بأن ما نسب الى مسيلمة من كلام ، هو حق وصحيح . فمن الجائز أن يكون قد وضع عليه وضعاً . وقد رأينا كيف انهم اختلفوا في رواية (يا ضفدع) اختلافاً بينا في ضبط العبارات.

وكان الناس يقصدون (مسيلمة) ليسمعوا منه ، بعد ان اشتهر أمره . وقد تمكن من التأثير في بعضهم . وكان ممن قصده (المتشمس بن معاوية) ، عم (الأحنف بن قيس) الشهير . فلما خرج من عنده قال عنه انه كذاب[2] . وقال عنه (الأحنف) ، وقد رآه أيضاً ، وقد سئل كيف هو ؟ ما هو بنبي صادق ، ولا بمتنبيء حاذق[3] .

وذكر أهل الأخبار ان مسيلمة كان صاحب (نيرجـات) وتمويه واحتيال . يدّعي المعجزات والآيات ، وانه أول من أدخل البيضة في القارورة ، وأول من وصل جناح الطائر المقصوص ، وكان يدّعي ان ظبيـــة تأتيه من الجبـل فيحلب لبنها . وقد جربه قوم ، فوجدوا آياته (منكوسة . تفل في بئر قوم سألوه ذلك تبركاً ، فملح ماؤها . ومسح رأس صبي فقرع قرعاً فاحشاً ، ودعا لرجـــل في ابنين له بالبركة ، فرجع الى منزله ، فوجد أحدهما قد سقط في البئر والآخر قد أكله الذئب . ومسح على عيني رجل استشفى بمسحه فابيضت عيناه)[4] ، ومسح وجه (أبا بصير) ، وهو صبي من (بني يشكر بن وائل) ، وكانوا أتوا به (مسيلمة) ، فعمي ، فكني (أبا بصير) ، وكان يروى عنه[5] . وأتته امرأة من بني حنيفة ، تكنى بأم الهيثم ، (فقالت : إن نخلنا لسحق وإن آبارنا لجرز ، فادع الله لمائنا ولنخلنا ، كما دعـا محمد لأهل هزمان) ، فدعـا بسجل ، ودعا لهم فيه ، ثم تمضمض بفمه منه ، ثم مجه فيه ، فانطلقوا به حتى فرغوه في تلك

---

١ Shorter Ency., p. 416.

٢ المعارف (٤٢٤) .

٣ امالي المرتضى (١/٢٩٢) .

٤ الروض الآنف (٢/٣٤٠) .

٥ المعارف (٤٥٤) .

الآبار ، ثم سقوه نخلهم ، فغارت مياه تلك الآبار ، وخوى نخلهم . وقد ذكر (الطبري) هذه الملاحظة : (وانما استبان ذلك بعد مهلكه)[1] .

وروى (الطبري) ، أخباراً أخرى من هذا النوع ، ذكر ان (نهاراً) قال له : برك على مولودي بني حنيفـة ، فقال له : وما التبريك ؟ قال : كان أهل الحجاز اذا ولد فيهم المولود أتوا به محمداً فحنكه ومسح رأسه ، فلم يؤت مسيلمة بصبي فحنّكه ومسح رأسه إلا قرع ولثغ . وذكر ان (نهاراً) قال له : توضأ واعطِ وضوءك الى أصحاب الحيطان ، أي البساتين كما يفعل محمد ، فأعطى أحدهم وضوءه ، فسقى به حائطه ، فيبست أشجـاره ، وصارت الأرض يباباً لا ينبت مرعاها . وأعطى (مسيلمة) رجلاً سجلاً من ماء،وكانت أرضه سبخة ، فأفرغه في بئره ، فغرقت أرضه ، فما جف ثراها ، ولا أدرك ثمرها . وأتته امرأة فاستجلبته الى نخل لها يدعو لها فيها ، فجزت كبائسها يوم عقرباء كلها[2] .

وقد عرف (مسيلمة) بين أتباعه بـ (رسول الله) ، وكانوا يتعصبون له، ويؤمنون به إيماناً شديداً . وذكر أن (طلحة النميري) جاء الى اليمامة ، فقال: « أين مسيلمة ؟ قالوا : انه رسول الله ! فقال : لا ، حتى أراه ، فلما جاءه. قال : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم . قال : من يأتيك ؟ قال : رحمن . قال : أفي نور أو في ظلمة ؟ فقـال : في ظلمة ، فقال : أشهد أنك لكذاب وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر » ، أو (أنـه قال : كذاب ربيعة أحب إليّ من كذاب مضر) ، فقتل معه (يوم عقرباء)[3].

ويظهر من بعض ملاحظات (الطبري) عن هذه الأخبار ، أنها إنما ظهرت وقيلت بعد هلاك (مسيلمة) . فقد قال في موضع : « وكانوا قد علموا واستبان لهم ، ولكن الشقاء غلب عليهم »[4] ، وقال في موضع آخر : « وانمـا استبان ذلك بعد مهلكه » ، و « استبان ذلك بعد مهلكه »[5] . ولهذه الملاحظات أهمية كبيرة بالطبع في تقييم صدق هذه الروايات وصحتها ، فالعادة أن من يفشل ويهلك

---

١ الطبري (٣/٢٨٤ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٢٨٥ وما بعدها) .
٣ الطبري (٣/٢٨٦) .
٤ الطبري (٣/٢٨٦) .
٥ الطبري (٣/٢٨٥) .

لا سيما اذا كان قد نال حظاً من المكانة والجاه والاسم ، يحمل عليه كثيراً ، ولا يتورع حتى أصحابه ومن كان يؤمن به من الدس عليه .

واتخذ (مسيلمة) مؤذناً يؤذن له في أتباعه اسمه (حجير) . (وكان أول ما أمر أن يذكر مسيلمة في الآذان ، توقف . فقال له محكم بن الطفيل : صرح حجير ، فذهبت مثلاً) . وكان (محكم بن طفيل الحنفي) صاحب حربه ومدبر أمره ، وكان أشرف منه في حنيفة [1] . وذكر (الطبري) ، أن الذي كان يؤذن له (عبدالله بن النواحة) ، وكان الذي يقيم له حُجير بن عمير ، ويشهد له . وكان مسيلمة إذا دنا حجير من الشهادة ، قال صرح حجير ، فيزيد في صوته ويبالغ لتصديق نفسه [2] . وذكر أن مؤذنه (حجير) ، كان إذا أذن يقول أشهد أن مسيلمة يزعم أنه رسول الله ، فيقول مسيلمة له : أفصح حجير ، فذهبت مثلاً [3] .

ورووا أنه تزوج (سجاح) التي تنبأت ، وهي تميمة من (بني يربوع) ، وكان يقال لها (صادر) وكان لها مؤذن ، يقال له (زهير بن عمرو) ، من (بني سليط بن يربوع) ، ويقال إن (شبث بن ربعي) أذّن لها [4] .

وذكروا أنها كانت كاهنة زمانها ، تزعم أن رئيها ورئي سطيح واحد ، ثم جعلت ذلك الرئي ملكاً حتى ادعت النبوة ، فاختلفت مع (مسيلمة) وكذبته وجحدت نبوته ، فلما اتصلت به وتزوجته ، وهبت نفسها له . فقال لها فيما زعموا :

ألا قومي الى المخدع فقد هيّى لك المضجع
فإن شئت سلقناك وان شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع

فقالت بل به أجمع . فجرى المثل بغلمتها حتى قيل أغلم من سجاح [5] .

---

١ الروض الآنف (٢/٣٤٠ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٢٨٣) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٠٠) .
٤ المعارف (٤٠٥) .
٥ ثمار القلوب (٣١٥ وما بعدها) .

وفيها قال قيس بن عاصم ، وقيل عطارد بن حاجب بن زرارة :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبيــاء الله ذكرانا
يا لعنــة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن بالإفك أغرانا
أعني مسيلمة الكذاب لاسقيت أصداؤه ماء مزن حيثما كانا [1]

ولما قتل (مسيلمة) رثاه بعض شعراء بني حنيفة بقوله :

لهفى عليك أبا ثمامــة لهفى عــلى ركني تهامة
كم آيــة لك فيهــم كالشمس تطلع من غمامة [2]

قتله (وحشي) قاتل حمزة [3] .

وذكر أهل الأخبار ان (مسيلمة) كان قد تزوج (كبشة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس)[4] (كيسة بنت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس)[5] ، ثم تركها فخلف عليها (عبدالله بن عامر بن كريز) ، فولدت له . ويظهر انها لم تلد من (مسيلمة) .

والذي يقرأ ما ذكره (الطبري) عن (مسيلمة) وعن صلة (نهار) به ، يخرج بصورة تظهره شخصاً جاهلاً بليداً ، يحركه ويوجهه (نهار) حيث يريد ، لا يفهم ولا يعقل ، ولا يعرف كيف يتصرف ، ولا يتخذ رأياً حتى يشير عليه (نهار) به . (فكان نهار الرجّال بن عنفوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه)[6] . وهي صورة تخالف ما نقرأه عنه في الموارد الأخرى . ولو كان (مسيلمة) على نحو ما صوّره الطبري ، لما التفت حوله (بنو حنيفة) ، ولما استماتوا في الدفاع عنه . ولما ضحّى (الرحال بن عنفوة) و (محكم بن الطفيل) وغيرهما بأنفسهم

---

١ ثمار القلوب (٣١٥) ، المعارف (٤٠٥) .
٢ المعارف (٤٠٥) ، « كم آية لابيهم » ، الحيوان (٤/٣٧٨) .
٣ رسائل الجاحظ (١/١٨٠) ، الطبري (٣/٢٩٤ وما بعدها) .
٤ كتاب نسب قريش (٢٠) .
٥ الروض الآنف (٢/١٩٨ ، ٣٤١) ، (كيسة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس) ، المحبر (٤٤٠) ، ، امتاع الاسماع (٢٤٧) ، كتاب نسب قريش (١٤٧) .
٦ الطبري (٣/٢٨٣) .

في الدفاع عنه . حتّى ان منهم من بقي مؤمناً به حتّى بعد مقتله ، وتغلب المسلمين على اليمامة .

وقد كتب الجاحظ قصة مسيلمة وقصة (ابن النواحة) ، ولعلّه قصد بـه (عبدالله بن النواحة) مؤذنه ، في كتابه المفقود حتّى اليوم (فصل ما بين النبيّ والمتنبيّ) ، حيث ذكر جميع المتنبين[1] . وذكر (البلاذري) أن (مسيلمة) ، كان قد أرسل كتابه الذي كان وجهه الى الرسول والذي فيه (من مسليمة رسول الله ، الى محمد رسول الله ، أما بعد : فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً لا ينصفون ، والسلام عليك . وكتب (عمرو بن الجارود الحنفي)، مع (عبادة بن الحارث) أحـد بني عامر بن حنيفة ، وهو (ابن النواحة) الذي قتله عبدالله بن مسعود بالكوفة [2] .

وكان (مسيلمة) قد أمر (عمرو بن الجارود الحنفي) ، بتدوين كتابه الذي وجهه الى الرسول ، فأمر الرسول كاتبه (أبي بن كعب) بالردّ عليه . ومعنى هذا أن مسيلمة كان قـد اتخذ له كتبة يكتبون له رسائله ، على نحو ما كان لرسول الله .

وأنا لا استبعد احتمال علم (مسيلمة) بالكتابة والقراءة . وإن لم ينص أهل الأخبار على ذلك . كما لا استبعد احتمال التقائه باليهود وبالنصارى وأخذه منهم ، فقد كان في اليمامة قوم من أهل الكتاب ، ودعوته الى عبادة إلّه هو (الرحمن)، تدل على تأثره بأتباع هذه الديانة وبأهل الكتاب .

هذا ولم أجد في الأخبار المتعلقة بمسيلمة خبراً يفيد صراحة أن مسيلمة كان قد اعتنق الاسلام ودخل فيه . فالأخبار التي تتحدث عن مجيئه الى يثرب لا تشير الى ذلك ، والأخبـار الأخرى التي تتحدث عنـه وهو في اليمامة لا تشير الى قبوله الإسلام كذلك ، بل نجد فيها كلها أنه ظل يرى نفسه نبياً مرسلاً من (الرحمن) وصاحب رسالة ، لذلك فليس من الصواب أن نقول : (ردة مسيلمة) ، أو (ارتداد مسيلمة) ، أو نحو ذلك ، لأنه لم يعتنق الإسلام ثم ارتد عنه ، حتّى ننعته بالمرتد .

---

١ الحيوان (٣٧٨/٤) .

٢ البلاذري ، فتوح (٩٧) .

وكان (مجاعة بن مرارة) الذي نزل عليه (مسيلمة) ، من رؤساء (بني حنيفة). وممن وفد على الرسول ، فأعطاه النبي أرضاً باليمامة يقال لها (الغورة) ، وكتب له بذلك كتاباً . وذكر بعض أهل الأخبار انه كان بليغاً حكيماً وقد أسر (يوم اليمامة) ، فتوسط له بعض وجوه (بني حنيفة)،لدى خالد أن يبقيه ، فأرسله الى (أبي بكر) ، فصفح عنه . وقد كان قد انجرف مع من انجرف فمال الى (مسيلمة) وأيده ، وحارب معه . وله شعر أشار فيه الى مسيلمة [1] ، ونعته فيه ب (الكذاب) . ولما وفد على (أبي بكر) اقطعه (الخضرمة) ، ثم قدم على عمر ، فأقطعه الرياء ، ثم قدم على عثمان ، فأقطعه قطيعة أخرى [2] .

وأما (الرحال بن عنفوة) (رحّال بن عنفوة) ، فهو (نهار الرجال بن عنفوة)،(الرجّال بن عنفوة) في تأريخ الطبري [3] . وهو من وجوه(بني حنيفة) واسمه (نهار) ، وكان في الوفد الذي جاء الى الرسول ، وقد اختلف الى (أبيّ بن كعب) ليتعلم منه القرآن . وكان رئيس وفد (حنيفة) (سلمى بن حنظلة) [4] . وقد تعلّم سورة البقرة وسوراً من القرآن [5] . وذكر انه كان على غاية من الخشوع واللزوم لقراءة القرآن والخير ، ثم انقلب على عقبيه وصار من أشد أعوان مسيلمة المقربين له ، فشهد له ان الرسول أشركه معه في الأمر. وكان احد وفد (بني حنيفة) الى رسول الله ، وفيهم (فرات بن حيان) [6] .

وأما (محكم بن طفيل بن سبيع) الحنفي ، فقد كان من أشراف وسادات

---

١ قال مجاعة :

أترى خالدا يقتلنا اليو م بذنب الاصيفر الكذاب
لم ندع ملة النبي ولا نحـ ن رجعنا فيها على الاعقاب

(الاصفر) الاصابة (٣٤٢/٣) ، (رقم ٧٧٢٤) ، الحيوان (٣٧١/٤) ، (حاشية) المرزباني ، معجم (٤٧٢) ، الجاحظ ، البيان (٢٦٣/٣) ، « مجاعة بن مرارة بن سلمى بن زيد بن عبد بن ثعلبة بن يربوع بن الدول بن حنيفة » ، كتاب الطبقات ، لخليفة بن خياط (٦٦ ، ٢٨٩) .

٢ البلاذري ، فتوح (١٠٣) .

٣ طبعة (دار المعارف) بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

٤ ابن سعد ، طبقات (٣١٦/١) ، (وفد حنيفة) ، الروض الأنف (٣٤٠/٢) .

٥ البلاذري ، فتوح (٩٧) .

٦ الاصابة (٥٢١/١) ، (رقم ٢٧٦١) .

(بني حنيفة) . وهو أشرف من مسيلمة في حنيفة [١] . وكان من المقدمين عند مسيلمة . وقد عهد (مسيلمة) اليه قيادة احدى المجنبتين في قتـاله مع (خالد ابن الوليد) . وقد عرف بـ (محكم اليمامة) . وقد قتل وهو يحارب المسلمين[٢]. « قتله خالد بن الوليد يوم مسيلمة »[٣] .

وأما (فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبد العزى بن حبيب) العجلي ، فكان عيناً لأبي سفيان في حروبه ، وكان ممن هجا الرسول ، ثم أسلم ومدحه،وأقطعه الرسول أرضاً باليمامة ، ثم سكن الكوفة وأقام بها . وكان في حرب الخندق عيناً للمشركين[٤] .

وأما أثال بن النعمان الحنفي ، فكان مع (فرات بن حيان) حين قدم المدينة وقد كلّم الرسول . وذكر في رواية أنه كان مع ثمامة بن أثال في قتال مسيلمة في الردة [٥] .

وكان (ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة الحنفي) ، من قدماء من أسلم من أهل اليمامة . فقد أرسل رسول الله خيلاً قبل نجد ، فجاءت به ، فربطوه بسارية من سواري المسجد بيثرب ، فكلمه الرسول ، ثم امر فأطلق من رباطه ، فدخل في الإسلام ، وأمره ان يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ! قال : لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبّـة حنطة ، حتى يأذن فيها النبيّ . ثم خرج الى اليمامة ، فنعهم أن يحملوا الى مكة شيئاً . فكتبوا الى النبيّ : إنك تأمر بصلة الرحم ، فكتب الى ثمامة أن يخلـي بينهم وبين الحمل اليهم[٦] . وكانت ميرة قريش من اليمامة ومنافعهم منها، وكانت ريف مكة . ولما ارتد أهل اليمامة، وصاروا مع مسيلمة ، ثبت أثال على الاسلام فكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة وتصديقه ، فلما عصوه وأصفقوا على اتباع مسيلمة ، عزم على مفارقتهم ، ففارقهم ولحق بالعلاء بن الحضرمي في مقاتلة

---

١ الروض الأنف (٣٤١/٢) .
٢ الطبري (٢٩٠/٣) ، الاشتقاق (٢١٠) ، تاج العروس (٢٥٤/٨) ، (حكم) .
٣ اللسان (١٤٢/١٢) ، (حكم) ، تاج العروس (٢٥٤/٨) ، (حكم) .
٤ الاصابة (١٩٥/٣) ، (رقم ٦٩٦٦) .
٥ الاصابة (٣٣/١) ، (رقم ٣٥) .
٦ رشاد الساري (٤٣٢/٦ وما بعدها) .

المرتدين من أهل البحرين ، فلما ظفروا اشترى ثمامة حلة كانت لكبيرهم : (الحطم) فرآها عليه ناس من (بني قيس بن ثعلبة) ، فظنوا أنه هو الذي قتله وسلبه فقتلوه . وقد رووا له شعراً في الرسول وفي الردة[1] . وكان له عم اسمه (عامر ابن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي) . وقد كان مسلماً[2] .

وجاء في رواية ان رسول الله لما بعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى في رجب سنة تسع ، فأسلم المنذر ورجع العلاء ، فمرّ باليمامة ، قال له ثمامة بن أثال : انت رسول محمد ؟ قال نعم . قال : لا تصل اليه ابداً ، فقال له عمه: عامر بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي : مالك وللرجل ، فأسلم عامر ، ووقع ثمامة بعد ذلك في الأسر[3] .

وكان (معمر بن كلاب الرماني) ، جاراً لثمامة بن أثال ، وهو ممن وعظ مسيلمة وبني حنيفة ونهاهم عن الردة ، فلما عصوه تحول الى المدينة ، فمنعه ثمامة حتى ردّه وشهد قتال اليمامة مع خالد[4] .

و (الحطم) المذكور ، هو (الحطم بن هند) البكري ، أحد (بني قيس ابن ثعلبة) ، قدم المدينة في رواية في عير له يحمل طعاماً فباعه ، ثم دخل على النبي ، فبايعه وأسلم ، فلما قدم اليمامة ، ارتد عن الاسلام ، وخرج في عير له تحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة ، وكان عظيم التجارة ، وأراد المسلمون أن يتلقوه ويأخذوا ما معه ، فمنعهم الرسول من ذلك لحرمة الشهر . وذكر انه بعد ان قابل الرسول ، وسمع منه مبادىء الاسلام . قال الحطم : في أمرك هذا غلظة، أرجع الى قومي ، فأذكر لهم ما ذكرت ، فإن قبلوه أقبلت معهم ، وان أدبروا أدبرت معهم . قال له ارجع . فلما رجع مرّ بسرح من سرح المدينة، فساقه فانطلق به[5].

وذكر أن (الحطم) قتل في الجبار ، من نواحي البحرين ، لما ارتدت بكر ابن وائل[6] .

---

١ الاصابة (١/٢٠٤) ، (رقم ٩٦١) ، الاستيعاب (١/٢٠٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، تاج العروس (٧/٢٠٣) ، (أثل) .
٢ الاصابة (٢/٢٤١) ، (رقم ٤٣٩٠) .
٣ الاصابة (٢/٢٤١) ، (رقم ٤٣٩٠) .
٤ الاصابة (٣/٤٧٥) ، (٨٤٥٢) .
٥ تفسير الطبري (٦/٣٨) .
٦ تاج العروس (٣/١١٦) ، (جبر) .

هذا هو كل ما ورد الى علمنا عن الأنبياء العرب في الجاهلية . وقد حصلنا عليه من المؤلفات الاسلامية . أما نصوص جاهلية ، فيها شيء عن النبوة والأنبياء، فلم يصل الينا منها أي شيء .

يقول (أبو العلاء المعري) عن ادعاء بعض الناس بالأمامة والنبوة في الإسلام: « ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه العظائم ، والأمور غير النظائم ، بل كانت عقولهم تجنح الى رأي الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء . إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي ، وينظرون الى من زعم ذلك بعين الغيّ »[1] . فهو ينكر وجود نبوة وأنبياء عند الجاهليين للسبب المذكور . وهو يقصد ولا شك بها، النبوة على وفق المعنى المفهوم منها في الاسلام . أي أن تكون بوحيّ ينزل على النبيّ من الاسلام ، وبكلام منزل يتلوه على الناس ، يكون كلام الله لا كلام النبيّ .

---

١ رسالة الغفران (٤٤٠) ، (بنت الشاطىء) .

الفصل الرابع والستون

الله ومصير الانسان

لا نعرف رأي الجاهليين في الخلق ، وفي كيفية نشوء هذا الكون، إذ لم تصل الينا نصوص جاهلية في هذا المعنى . ولا بد أن يكون لهم كما كان لغيرهم رأي في الخلق وفي نشوء الكون . فموضوع نشوء الكون وظهوره ، من الموضوعات التي تثير رأي كل انسان مهما كانت ثقافته وكان تفكيره .

وفي القرآن الكريم كلمات مثـل (البارىء) و (المصور) و (الخلاّق) و (خلقنا) و (خلقت) و (خلقناكم) و (خالق) وغيرها مما له علاقة بخلق الكون والانسان وبقية المخلوقات ، وفيه كيفية خلق الله للكون ومن فيـه وكيفية خلق الانسان ومن أي شيء خلق . ولكن هل كان يعرف جميع الجاهليين هذا المعنى المنزل في كلام الله ، وهل نزلت هذه الآيات لإرشاد الناس الى ذلك، أو انها نزلت لتذكير القوم ولفت نظرهم الى شيء يعلمونه ولكنهم كانوا ينسبونه لغير الله أو يتجاهلونه ، إن كان ذلك على سبيل التذكير ، فمعنى هذا ان لأهل الجاهلية رأياً في كيفية الخلق ، وإن كان ذلك على سبيل التعليم والإرشاد ، فإنه يدل على أن من خوطب بتلك الآيات لم يكن له فقه وعلم بما خوطب به .

وفي القرآن الكريم آيات فيها خطاب للمشركين في بيان فساد رأيهم واعتقاداتهم ، وفيها ردّ عليهم ، منها نستطيع أن نحيط بعض الإحاطة بآرائهم في الوجود وفي البعث والحشر والحساب وغير ذلك من أمور تتعلق بديانانهم . وهذه الآيات هي

الشواهد الوحيدة التي نملكها من آراء القوم في ذلك العهد. أما ما جاء في روايات الأخباريين وفي كتب التفسير والحديث والملل والنحل ، ففيه بعض الشيء عن آراء الجاهليين القريبين من الاسلام ، ولا سيما عرب مكة ويثرب عن تلك الأمور .

ويفهم من القرآن الكريم ان من الجاهليين من كان يعتقد ان للعالم خالقاً خلق الكون وسوّاه ، وان منهم من كان يعتقد بوجود إلّه واحد فهم موحدون ، وان منهم من أقر بوجود إلّه واحد غير انه رأى تعذر الوصول اليه بغير وسطاء وشفعاء فاعتقد بالأرواح وبالجن وعبد الأصنام لتكون واسطة تقربه الى الله[1] .

أما كيف خلق الله الأرض والسماوات وكيف نشأ الكون، فذلك ما لم يتعرض له القرآن الكريم حكاية على لسان الجاهليين . ولذلك لا نعرف رأي أولئك القوم الذين عاصروا الرسول وعاشوا قبيل الاسلام في كيفية ظهور الوجود وخلق الكون .

ويفهم من بعض الأخباريين أن من الجاهليين من كان يرى أن خالقاً خلق الأفلاك ، غير أنها تحركت أعظم حركة فدارت عليه وأحرقته ، لأنه لم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها ، وأن منهم من كان يقول : « إن الأشياء ليس لها أول البتة ، وإنما تخرج من القوة الى الفعل . فإذا خرج ما كان بالقوة الى الفعل ، تكونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر . وقالوا إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله . وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي فيه »[2] . وهذا كلام إن صح أنه من كلام الجاهليين ومن مقالاتهم ، فإنه يدل على تعمق القوم في المقالات ، وعلى أن لهم رأياً وفلسفة في الدين ، وأنهم لم يكونوا على الصورة التي يتخيلها معظمنا عنهم ، وهي الصورة التي رسمها لهم أهل الأخبار في أثناء كلامهم العام عن الجاهليين .

الله الخالق :

ويظهر من القرآن الكريم ، أن قريشاً كانوا يؤمنون بإلّه واحد خلق الكون ، وهو رب السماوات والأرض . ففي سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من خلق

---

١ بلوغ الارب (٢/١٩٤ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٢٢٠ وما بعدها) .

السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ : الله ، فأنى يؤفكــون »[1] . وفي هذه السورة نفسها سؤال آخر موجه الى المشركين « ولئـن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله ، قـل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون »[2] . وفي سورة لقمان سؤال آخر موجـه الى أولئك المشركين ، وجواب صادر منهم ، هو هذا الجواب نفسه : إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : الله . قل الحمد لله،بل أكثرهم لا يعلمون »[3] . وفي سورة الزخرف: « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : خلقهن العزيز العليم »[4]. وفي سورة الزمر : « ولئن سألهتم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن الله»[5]، وفي سورة الزخرف أيضاً : « ولئن سألتهم من خلقهم ، ليقولن : الله . فأنى يؤفكون »[6] ، وفي سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من نـزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله »[7] . وهناك آيات أخرى عــلى هذا النحو ، فيها أسئلة موجهة الى المشركين عن خلق السماوات والأرض،وأجوبة على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله .

وفي القرآن الكريم أيضاً ان قريشاً كانت تعتقد ان الله هو الذي ينزل المطــر ويحيي الأرض بعد موتها[8] ، وفيه انهــم كانوا يقسمون به[9] ، وانهم كانوا قد جعلوا له نصيباً مما ذرأ من الحرث والأنعام[10] ، وانهم كانوا يقولون إن الله هو الذي شاء فجعلهم وآباءهم مشركين ، وانه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحداً[11]، وانهم كانوا يتضرعون اليه ويستغيثون به في الكوارث والملمات ، وانهم جعلوا له

١ سورة العنكبوت ، الرقم ٢٩ ، الآية ٦١ .
٢ العنكبوت ، الآية ٦٣ .
٣ سورة لقمان ، الرقم ٣١ ، الآية ٢٥ .
٤ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٩ .
٥ الزمر ، الرقم ٣٩ ، الآية ٣٨ .
٦ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٨٧ .
٧ العنكبوت ، الرقم ٢٩ ، الآية ٦٣ .
٨ العنكبوت ، الآية ٦٣ .
٩ الانعام ، الآية ١٠٩ ، النحل ، الآية ٣٨ .
١٠ الانعام ، الآية ١٣٦ .
١١ الانعام ، الآية ١٤٨ .

بناتاً وبنين وشركاء الجن[1] . فقريش اذن وفق هذه الآيات قوم ، كانوا يؤمنون بإله عزيز عليهم ، ومن آيات ذلك انهم جعلوا له نصيباً في أموالهم ،مع ان المال من أعز الأشياء على الانسان ، لا سيما بالنسبة لتلك الأيام .

وفي تلبية الجاهليين المنصوص عليها في كتب أهل الأخبار اعتراف صريح واضح بوجود إله . كانوا يلبون بقولهم : (لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريك هو لك . تملكه وما ملك ، يعنون بالشريك الصنم ، يريدون ان الصنم وما يملكه ويختص به من الآلات التي تكون عنده وحوله والنذور التي كانوا يتقربون بها اليه كلها ملك لله عز وجل)[2] فذلك معنى قولهم : تملكه وما ملك . فهم يعترفون ويقرون بوجود الله ، لكنهم يتقربون اليه بالأصنام . وهذا هو الشرك .

وفي دعاء العرب اعتراف بوجود (الله) ، فقولهم : (رماه الله بما يقبض عصبه) ، و (قمقم الله عصبه) ، و (لا ترك الله له هارباً ولا قارباً) ، و (شتت الله شعبه) ، و (مسح الله فاه) ، و (رماه الله بالذبحة) ، و (رماه الله بالطلأة) ، و (سقاه الله الذيفان) ، و (جعل الله رزقه فوت فمه) ، و (رماه في نيطه) ، و (قطع الله به السبب) ، و (قطع الله لهجته) ، و (مدّ الله أثره) ، و (جعل الله عليها راكباً قليل الحداجة) ، و (لا أهدى الله له عافية) ، و (أثل الله ثلله) ، و (حتّه الله حت البرمة) ، و (رماه الله بالطُلاطلة) ، و (رماه الله بالقصمل) ، و (ألزق الله به الحوّبة) ، و (لحاه الله كما يُلحى العود) ، و (اقتثمه الله اليه) ، و (ابتاضه الله) ، الى آخر ذلك من دعاء يدل على وجود ايمان بخالق هو الله[3] .

وفي الشعر المنسوب الى الجاهليين اعتقاد بوجود الله ، واتقاء منه ، وتقرب اليه باحترام الجوار وقرى الضيف . هذا عمرو بن شأس يقول في شعره :

---

١ الانعام ، الآية ١٠٠ .

٢ اللسان (١٠/٤٥٠) ، (شرك) .

٣ راجع بقيته في ذيل الامالي والنوادر (ص ٥٧ وما بعدها) ، (عود الى بحث دعاء العرب) .

ولولا اتقاء الله والعهد قد رأى منيتــه منى أبوك اللياليسا [1]

فلولا اتقـــاء شأس الله ، لفتك بخصمه ، وجعله من الهالكين . وفي بعضه اعتراف بأن هذه الأرض الواسعة هي (بلاد الله) ، أينما حللت فيها فهي أرضه وبلاده [2] . وهذه نظرة مهمة جداً عن رأي الجاهليين في الله وفي الأرض ، إن صح أن هذا الشعر الوارد فيه حقاً من شعر أهل الجاهلية .

و (اللهُ) كما جاء في شعر زهير بن أبي سُلمى ، عالم بكل شيء ، عارف بالخفايا وبالأسرار ، وبما ظهر من الأعمال وما بطن[1] .

فلا تكتمنّ الله مـا في نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتّم الله يعلـم[3]

وهو عدوّ للأشقياء شديد عليهم ، لا يرحم ظالماً ، وأمرهُ بُلْغٌ به تشقى به الأشقياء [4] وهو يثيب على الإحسان ، ويجزي المحسن على جميل إحسانه[5]. وهو الذي يعصم من السيئات والعثرات[6]. وهو مقر بوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا مخلص له [7] .

---

١ الاغاني (١٠/٦٢) ، نسب عمرو بن شأس وأخباره في هذا الشعر وغيره .
بدا لي أن الله حقٌ فزادني الى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا
شرح ديوان زهير (٢٨٧) .

٢ فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
ديوان عروة (٥١) .

٣ شرح ديوان زهير (١٨) .

٤ فهداهم بالاسودين وأمر الله بلغ يشقى به الاشقياء
اللسان (١٠/٣٠٢) ، (بلغ) ،
فهداهم بالاسودين وأمر الله بلغ تشقى به الاشقياء
تاج العروس (٦/٤) ، (بلغ) .

٥ رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو
شرح ديوان زهير (١٠٩) .

٦ ومن ضريبته التقوى ويعصمه من سيئ العثرات الله والمرحم
شرح ديوان زهير (ص ١٦٢) .

٧ فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير ، لثعلب (ص ١٢) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٧ ومابعدها) ، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٥١٨) ، جمهرة أشعار العرب (٧١) .

والله (كريم) لا يكدر نعمة ، اذا دُعي أجاب . وهذا هو رأي الأعشى في الرب ، اذ يقول :

ربّــي كريم لا يكدر نعمة   واذا يناشد بالمهارق أنشدا [1]

وقد ورد اسم الجلالة في أشعار كثير من الشعراء الجاهليين : ورد في شعــر امرىء القيس وغيره ، فامرؤ القيس يقول : (من الله) و (لله)[2] ، و (تالله)[3]، و (قبح الله)[4] ، و (والله)[5] ، و (يمين الله) ، و (يمين الإلـه)[6] ، و (الإلـه) هي (الله) ، و (الحمد لله)[7] . ونرى العرب عامة تستعمل في كلامها : (لله دره)[8] ، و (لا يبعــد الله)[9] ، و (لحى الله)[10] ،

---

١ ديوان الاعشى ، قصيدة ٣٤ (ص ١٥١) ، « تحقيق كاير » ·

٢ فاليوم أشرب غـيـر مستحقب   اثمـا من الله ولا واغـل
لله زبدان أمسى قرقرا جلـدا   وكان من جندك أصم منضودا
شرح ديوان امرىء القيس ، للسندوبي (ص ٦٣ ، ١٥٢) ، وسيكــون رمزه : سندوبي ·

٣ تالله قد علمت قيس اذا قذفت   ريـح الشتاء بيوت الحي بالعنـن
شرح ديوان زهير (١٢١) ·
يا لهـف هند اذ خطئن كاهـلا   تالله لا يذهـب شيخي باطـلا
سندوبي (١٥٤) ·

٤ ألا قبـح الله البراجم كلهـا   وجدع يربوعـا وعفـر دارهـا
سندوبي (١٨٠) ·

٥ فقد أصبحـوا والله أصفاهم به   أبـر بميثاق وأوفى بجـيـران
والله لا يذهـب شيخي باطلا   حتى أبـير مالكـا وكاهنـا
سندوبي (١٥ ، ١٨٩) ، شرح ديوان زهير (٢٤) ·

٦ كـلا يمـين الالـه يجمعنـا   شئى وأخوالنـا بنـو جشمـا
سندوبي (١٨١) ·

٧ أرى ابلي والحمد لله أصبحـت   ثقالا اذا ما استقبلتها صعودهـا
سندوبي (٦٤) ·

٨ كـم شامـت بـي ان هلكـ   ـت وقائـل : للـه دره !
ديوان لبيد (ص ٢) ، « تحقيق كارل بروكلمن » ·

٩ وقولي ألا لا يبعـد الله أربـدا   وهدى به صدع الفؤاد المفجعـا
ديوان لبيد (ص ٦) ·

١٠ لحى الله صعلوكا اذا جـن ليله   مصافي المشاش آلفا كل مجزر
ولله صعلـوك صفيحـة وجهه   كضوء شهـاب القابس المتنـور
ديوان عروة بن الورد (٢٦ ، ٥٣) ·

و (جزى الله)[1] ، و (عمر الله)[2] ، وأمثال ذلك مما يرد في أشعار الشعراء الجاهليين ، يخرجنا تدوينه وحصره في هذا المكان عن حدود الموضوع .

وقد جاءت لفظة الجلالة في ايمان أخرى ، في مثل : (لعمر الله) ، و (ها لعمر الله) كالذي ورد في شعر زهير :

تعلمن هـا لعمر الله ذا قسماً فاقصد بذرعك وانظر أين تنسلك[3]

وورد (هـا الله) و (والله) و (الله) و (نعم الله) و (أي والله لأفعلن) ، و (ايم الله) و (ايمـن الله) و (يعلم الله) و (علم الله) وأمثال ذلك[4] .

ومن ايمانهم الدالة على الاعتقاد بوجود خالق ، قولهم : (لا وبارىء الخلق) ، و (لا والذي يراني من حيث ما نظر) و (لا والذي نادى الحجيج له) ، و (لا والـذي يراني ولا أراه) ، و (لا والذي كل الشعوب تدينـه) ، و (حرام الله لا آتيك) ، و (يمين الله لا آتيك) ، و (لا والذي جـلد الإبل جلودها) ، و (والذي وجهي زمم بيته) ، و (لا والـذي هو أقرب إليّ من حبل الوريد) ، و (لا ومقطع القطر) ، و (لا وفالق الإصباح) ، و (لا ومهب الرياح) و (لا ومنشر الأرواح)[5] ، الى غير ذلك من ايمان حلفوا بها ، تدل على إيمان وعقيدة بوجود خالق ، فحلفوا به .

ونجد في معلقة امرىء القيس قسماً بالله حكي على لسان صاحبة صاحب المعلقة :

فقالت : يمين الله ما لك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي[6]

ونرى في بيت لامرىء القيس وهو يذكر اقدامه على الشرب :

فاليوم أسقى غير مستحقب إثمـاً من الله ولا واغل[7]

---

١ جزى الله خيرا كلما ذكر اسمه أبا مالك ان ذلـك الحي اصعدوا
ديوان عروة (ص ٥٠) .

٢ قعيدك عمر الله ، هل تعلميننى كريما اذا اسود الانامل أزهـرا
ديوان عروة بن الورد (٢٢) ، Reste, S. 224.

٣ السنن الكبرى (١٠/٢٦ وما بعدها) ، المخصص (١٣/١١٣) .

٤ المخصص (١٣/١١٤ وما بعدها) .

٥ ذيل الامالي (ص ٥٠ وما بعدها) .

٦ المعلقات العشر وأخبار شعرائها (٦٢) .

٧ شعراء النصرانية (١٩) .

فالرجل مؤمن بالله ، وقد وفى بما عاهد الله عليه ، وهو لا يخشى بعد ذلك إثماً اذا شرب ، لأنه وفى بنذره .

ونراه يذكر الله أيضاً في هذا البيت :

لله زبدان أمسى قرقراً جلداً   وكان من جندل أصم منضودا [١]

ثم نراه يشكر الله بجملة : (والحمد لله) في هذا البيت :

أرى إبلي والحمد لله أصبحت   ثقالاً إذا ما استقبلتها صعودها

ونراه يحث الناس على التمسك بحبل الله ، فبالله يكون النجاح ، ويحث الناس على عمل البر ، والبر خير حقيبة الرجل :

والله أنجح ما طلبت به   والبر خير حقيبة الرجل

ونفهم من هذه الأبيات ومن أبيات أخرى ، إن امرأ القيس رجل مؤمن يعتقد بالله الواحد ، مؤمن بالله الواحد ، مؤمن بالثواب وبالعقاب ، وأنه كان يخاف الله ويخشى الإثم والفسوق ، ولا أدري أينطبق هذا الذي نقوله على امرىء القيس الذي يتحدث عنه أهل الأخبار ويصفونه بأنه رجل عابس ميال الى اللهو والشهوات رمى صنمه بسهم وأنبه لما جاء الجواب بخلاف ما كان يرغب فيه ويشتهيه . ثم لا أدري اذا كان اسلوب هذا الشعر من أسلوب الشعر الجاهلي وطرازه ؟ وإذا كان هذا الشعر صحيحاً ، فلم أدخل رواته شاعره في الجاهليين الوثنيين ولم يدخلوه في عداد المؤمنين بالله من الأحناف ؟

وإذا اعتقدنا بصحة الأبيات المنسوبة الى عبيد بن الأبرص :

من يسأل الناس يحرموه   وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير   والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك   علام ما أخفت القلوب

وقلنا مع القائلين إنها من شعر ذلك الشاعر حقاً ، وجب عده إذن في جملة

---

١ شعراء النصرانية (٤٠) .

الموحدين المؤمنين المسلمين ، وإن عاش قبل الإسلام . فرجل يقول هذا القول ، لا يمكن إلاّ أن يكون مسلماً مؤمناً بالله الواحد الأحد علاّم الغيوب والعارف بما في القلوب ، ومن الممهدين للتوحيد بين العرب قبل الإسلام .

وقد أهمل بعض رواة هذه المعلقة البيت الآتي :

والله ليس لــــه شريك   علام ما أخفت القلوب

وكأنهم فطنوا الى ان من غير المعقول نسبته الى رجل وثني ، مهما كان رأيه في الأوثان والتوحيد ، لا يمكن أن يستعمل هـذه الألفاظ التي لم يستعملها العرب بهذا الشكل إلا في الاسلام .

والى عبيد نفسه ينسب الأخباريون قول هذا البيت :

حلفت بالله إنّ الله ذو نعم   لمن يشاء وذو عفو وتصفاح

ورجل يقول هذه الأبيات وأبياتاً أخرى من لونها ، لا يمكــن إلا ان يكون موحداً مؤمناً ، من فصيلة المؤمنين بالله من الأحناف . وقد أراح (شيخو) نفسه وأراح الناس حين ذهب الى ان عبيداً وأمثاله من الشعراء الجاهليين كانوا نصارى وان هذا التوحيد هو توحيد نصراني محض ، وقف عليه عبيد في زيارته للحيرة مهد النصرانية في ذلك العهد ، فاعتنقه ، فهو على رأيه اذن شاعــر نصراني ، وشعره شعر نصراني لا يرد ولا يرفض .

ونجد (طفيل بن عوف) الغَنَوي يقسم بـ (الإلـه) في شعره . غـير أن هناك رواية تضع (رضى) موضعَ (الإلـه) فيكون القسم بــه ، ورضى اسم صنم كان لطيء[1] . وقد ذكر (الله) في مواضع أخرى من شعره ، وقال إنه هو الذي يصلح الأمور ، ويسد العجز والثُغر التي ليس في وسع الإنسان سدّها[2]،

---

١ « فقال بصـــير يستبين رعالهـــا   هم والالــه من تخافـين ، فاذهبي
ويروي ، ولعلها رواية أبي عبيدة :
وقال بصـــير قـد أبان رعالهـــا   فهي ورضى من تخافين ، فاذهبـــي
ورضى اسم صنم كان لطيء ، ديوان طفيل بن عوف الغنوي « تحقيق ف· كرنكو » (لندن ١٩٢٧) ، (ص ١٢) ·

٢ لعمري لقد خلى ابن جيدع ثلمـــة   فمن أين ان لم يراب الله تـــراب
ديوانه (ص ١٩) ·

وإنه يجزي الناس على أعمالهم[1] .

وفي معلقـة (الحارث بن حِلّزة) اليشكريّ : « أمر الله بلغ تشقى بـه الأشقياء »[2] ، وأن الله عالم بالأمور[3] .

ونجـد (المتلمس) ، يُقسم باللهِ في شعره ، ويـذكر الله في مثل جملة (أبى الله)[4] للتعبير عن مشيئة الله وإرادته ، وجملة (للهِ دري) في التعجب[5] وجملة (تقوى الله)[6] ، و (عاداك الله)[7] وغيرها مما يدل على أنه كان يعتقد أن الله يعادي الأعداء ويحبّ المحبين .

ولكننا نجده في مواضع أخرى يقسم باللات وبالأنصاب ، والمقصود بالأنصاب الأوثان مما يشعر أنه كان يؤمن بها ، فكيف نوفق بين اعتقاده بالله واعتقاده باللات

---

١ جزى الله عوفا من موالي جنابـة ونكـراء خـيرا كـل جـاد مودع
ديوانه (ص ٥٠) .
جزى الله عنا جعفرا حين ازلقـت بنا نعلنـا في الواطئـين فزلـت
ديوانه (ص ٥٧) .

٢ فهداهم بالاسودين ، وامـر الله بلـغ تشقـى بـه الاشقيـاء
شرح القصائد العشر (٤٦٨) ، (البيت رقم ٦٢) من المعلقة .

٣ وفعلنـا بهـم كمـا علـم الله ومـا ان للحائنـين دمـاء
البيت (رقم ٧٥) من المعلقة ، (ص ٤٧٥) من شرح القصائد العشر للتبريزي (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٤ يـا آل بـكر ألا لله احكمـوا طال الله الثواء وثوب العجز ملبوس
ديوان المتلمس (ص ١٦٩) ، (طبعة فولرس) ، جمهرة أشعار العرب (ص ٤٤ ، ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (٣٣٢) .
وقـال :
وهل لي أم غيرها ان تركتهـا أبى الله الا أن أكون لهـا ابنا
شعراء النصرانية (٣٣٨) .
وقـال :
اطردتني حـذر الهجـاء ولا والـلـه والانصـاب لا تئـل
وذلك في رواية . وفي الروايات الشائعة « واللات » بدلا من والله ، ديـوان المتلمس (١٧١) .

٥ تفرق أهلي مـن مقيـم وظاعـن فللـه دري أي أهلـي اتبـع
ديوان المتلمس (ص ١٨٧) .

٦ وأعلـم علـم حـق غـير ظـن وتقوى الله مـن خـير العقاد
ديوان المتلمس (ص ١٩٥) ، شعراء النصرانية (٣٤٣) .

٧ لا خـاب من تفعـك من رجالهـا بـلا وعـادى اللـه مـن عاداكا
ديوان المتلمس (ص ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (٣٤٨) .

والأنصاب ؟ وهل نعدّ هذا الشعر صادراً من شاعر واحد ؟ نعم ، يجوز أن يكون قاله هو . قاله لأنه كان يعتقد بوجود إلـه ، فهو يؤمن به ويقر بوجوده، غير أن قسمه باللات والأنصاب ، هو من باب عقيدة الجاهليين المؤمنين بوجود إلـه ، ولكنهم كانوا يتقربون اليه بالأصنام والأوثان والأنصاب . ويتوقف هذا التفسير بالطبع على اثبات أن هذا الشعر له حقاً ، وليس مفتعلاً ، ولا مما أدخل الرواة عليه تغيراً أو تبديلاً .

ونجد في شعر النابغة الجعدي ، أبو ليلى عبدالله بن قيس ، الشاعر المخضرم المتوفى سنة (٦٥) للهجرة ، قصيدة مطلعها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

يلي هذا المطلع قصة نوح والسفينة ، وهي سفينة مصنوعة من خشب الجوز والقار . وفي هذه القصيدة اعتراف بالتوحيد ، وبوجود إلـه واحد لا شريك له ، لا يحمد إلا هو ، وهو شعر لا يمكن أن يكون إلا من شعر شاعر مسلم، إن صح انه من شعره ، فيجب أن يكون مما نظمه في الاسلام .

وينسب الى (لبيد) اعتقاده ان الله يبسط الخير والشر على عباده ، وانه منتقم ممن يخالفه ، معاقب له ، كما عاقب (إرما) و (تبعا) ، وقوم (لقمان بن عاد) ، و (أبرهة) وذلك في أبيات أولها :

من يبسط الله عليه إصبعاً بالخير والشر بأي أولعا

وهي رجز ، يرى بعض العلماء انها ليست من رجزه[1] .

ونجد معود الحكماء ، وهو معاوية بن مالك بن جعفر ، يذكر الله ويحمده ، فيقول : « بحمد الله » ، ويقول (عامر) : « أردت لكيما يعلم الله انني » ، ويقول (خداش بن زهير) : « وذكرته بالله بيني وبينه »[2] .

---

١ ديوان لبيد (٣٣٧ وما بعدها) .
٢ شرح ديوان لبيد ، (ص ٢١) ، (المقدمة) ، (تحقيق الدكتور احسان عباس) ، قيل له معود الحكماء لقوله :
اعود مثلها الحكماء بعدي اذا ما الحق في الاشياع نابا
تاج العروس (٢/٤٤٠) ، (عود) .

وذكر أهل الأخبار ان الجاهليين الوثنيين كانوا يفتتحون كتبهم بجملة (باسمك اللهم) . ساروا في ذلك على هدى (أمية بن أبي الصلت) مبتدعها وموجدها ، كما في رواية تنسب الى ابن الكلبي . وذكر بعض آخر ان قريشاً كانت تستعمل هذه الجملة منذ عهد قبل الاسلام ، وانها بقيت تستعملهـا الى ظهور الاسلام . وقد استعملها الرسول ، ثم تركها ، وذلك بنزول الوحـي باستعمال (بسم الله الرحمن الرحيم)[1] . ونحن لا يهمنا هنا اسم مبتدع هذه الجملة ، وانما الذي يهمنا منها هو ما فيها من عبارة تدل أيضاً على التوحيد . فإذا صح ان الجاهليين كانوا يستعملون هذه الجملة ، فإن استعمالها هذا يدل على اعتقاد القوم بإله واحد ، أي بعقيدة التوحيد ، ولا يعقل بالطبع استعمال شخص لهذه الجملة في رسائله ، يفتتح بها كتبه ، لو لم يكن من أصحاب عقيدة التوحيد ، وقد جاء في بعض الأخبار ان هذا الاستعمال متأخر ،وانه حدث بعد ان تغيرت عوائد القوم في افتتاح كتبهم ، فقد كانت عوائدهم القديمة افتتاح رسائلهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزى ، فرفعوا تلك الافتتاحيات القديمة واستبدلوا بها هذه الجملة الجديدة، جملة (باسمك اللهم) . وعلى كل ، فإن جملة (باسمك اللهم) وأمثالها إن صح انها من ذلك العهد حقاً فإنها تدل على حدوث تطور في الحياة الدينية عند الجاهليين . وإلا،فكيف يتصور استعمال هذه الجملة الموحدة مع وجود الشرك لو لم يكن قد حدث تطور فكري كبير في هذا العهد حملهم على استعمال هذه الجملة وأمثالها من الجمل والألفاظ الدالة على التوحيد[2] ؟

وقد درس بعض المستشرقين هـذا الموضوع ، ولا سيما موضوع ورود اسم الجلالة في الشعر الجاهلي ، فذهبوا في ذلك مذاهب . منهم من أيد صحة وروده في ذلك الشعر ، وآمن أن الشعر الذي ورد فيه هو شعر جاهلي حقـاً ، ومنهم من أنكر ذلك ، وأظهر أنه شعر منحول مصنوع ، صنع على الجاهليين فيما بعد، ومنهم من ذهب الى أنه شعر صحيح ، غير أن رواة الشعر أدخلوا اسم الجلالة فيه ، ولم يكن هو فيه في الجاهلية ، بأن رفعوا أسماء الأصنام وأحلوا اسم الله محلها .

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٧٥) ، تاج العروس (٩/٤١١) ، (لاه) .

٢ «دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم» ، الطبري (٢/٦٣٤) ، (صلح الحديبية) .

وبينما نجد أهل الأخبار ينسبون الى هؤلاء الشعراء وأمثالهم الاعتقاد بالله، نجدهم ينسبون اليهم ، الحلف بالأصنام ، والاعتقاد بها . فقد نسبوا الى (خداش بن زهير) شعراً آمن به بالله ، ثم نسبوا له قوله :

وبالمروة البيضاء يوم تبـالة ومحبسة النعمان حيث تنصرا

والمروة البيضاء، هي ذو الخلصة ، ثم هو يقسم بمحبسة النعمان ، وهو نصراني[1]. أفلا يدل هذا على وجود تنافر أو تناقض في عقيدة أمثال هؤلاء الشعراء ؟ والذي لا وقوف له عـلى طبائع أهل الجاهلية ، يرى هذا الرأي ، أو يذهب الى أن هذا الشعر مصنوع مفتعل . أما الذي يعرف عادة العرب في القسم ، فلا يستغرب منه ولا يرى فيـه تنافراً ، فقد كان الجاهليون يقسمون بكل شيء ، يقسمون بالشجر وبالحجر وبالكواكب ، وبالليل وبالنهار ، وبالأصنـام ، وبعمر الإنسان وبحياتهم وبلحى الرجال ، وبالأصنام وبالمعابد ، وبالله ، وبالخبز والملح ، لا يرون في ذلك بأساً ولا تناقضاً مع عقيدتهم . هذا (عديّ بن زيد) العبادي ، يقسم بمكة ، وهو نصراني ، لا يري للكعبة في دينه حرمة ولا مكانة . أقسم بها على قاعدة العرب في القسم ، وقد أقسم بأمور أخرى من أمور أهل الجاهلية الوثنيين، ولم يذكر أحد أنه بدل دينه ، وصار وثنياً . وكذلك الأمر مع غيره من شعراء نصارى ويهود وعبّاد أصنـام ، أقسموا برهبان النصارى وبأمور نصرانية ، مع أنهم كانوا عبّاد أوثان .

ومن القائلين بالرأي الأخير ، (نولدكـه) . فقد ذهب الى ان رواة الشعر وحملته في الاسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر ، وذلك بأن حذفوا منه أسماء الأصنام ، وأحلّوا محلها اسم الله . فما جاء فيه اسم (اللات) حل محله اسم (الله)[2] . وقد ذهب أيضاً الى ان رواة الشعر في الاسلام حذفوا من شعر الجاهليين ما لم يتفق مع عقيدتهم ، وما وردت فيه أسمـاء الأصنام . ومن جملة ما استدل به على أثر التغيير والتحريف في الشعر الجاهلي ورود كلمة (الرحمان) في شعر شاعر جاهلي من هذيل ، زعم ان ورود هذه الكلمة في هذا الشعر دليل

---

١ شرح ديوان لبيد (٢١) .

٢ Nöldeke, Beiträge, S. IX, ff.

كاف لاثبات أثر التلاعب فيه ، لأن هذه اللفظة اسلامية استحدثت في الاسلام ، ولا يمكن أن ترد في شعر شاعر جاهلي[1] . وقد فات (نولدكه) صاحب هذا الرأي ان الكلمة بهذا المعنى كلمة جاهلية ، وردت في نصوص المسند وفي نصوص جاهلية أخرى ، وان من جملة من استعملها (أبرهة) الحبشي في نصه الشهير المعروف بنص سد مأرب ، وان قوماً من الجاهليين تعبدوا للرحمان ، على نحو ما تحدثت عن هذه العبادة في موضع آخر من هذا الكتاب .

وادعاء أن لفظة (الله) لم تكن موجودة في الأصل ، وإنما أقحمت فيه من بعد ، وذلك بإزالة رواة الشعر لأسماء الأصنام التي ذكرها أولئك الشعراء ، واحلالهم اسم الله في محلها ، حتى ظهر ذلك الشعر وكأنه شعر شعراء موحدين يعتقدون بوجود إلـه واحد[2] . هو تعليل فيه شيء من التكلف ، فليس كل شعر فيه اسم الأصنام بصالح لقبول الجلالة ، فقد لا يستقيم من حيث الوزن أو المعنى بإدخال تلك اللفظة في موضع اسم الصنم . ثم إن من الشعر الجاهلي المروي في الإسلام ما بقي محافظاً على اسم الصنم دون أن يمس ذلك الاسم بسوء . ولو كان من عادة الرواة حذف اسم الأصنام عامة لما تركوا لها بقية في الشعر . ثم ما هي الفائدة التي يجنيها الرواة من طمس أسماء الأصنام ، وهم يعلمون أن أهل الجاهلية كانوا وثنيين ، يدينون بالأصنام ، وكانوا يقسمون بها ، وقد رووا أمثلة من ذلك القسم !

أما (ولهوزن) ، فيرى أن عدم ورود أسماء الأصنام في الشعر الجاهلي إلاّ في النادر وإلا في حالة القسم أو في أثناء الإشارة الى صنم ، أو موضع عبادة ، ليس بسبب تغيير الرواة الاسلاميين وتبديلهم لأسماء الأصنام . وإنما سببه هو أدب الجاهليين وعادتهم في عدم الإسراف والإسفاف في ذكر أسماء الآلهة الخاصة ، وذلك على سبيل التأدب تجاه الأرباب ، فاستعاضوا عن الصنم بلفظة (الله) التي لم تكن تعني إلهاً معيناً ، وإنما تعني ما تعنيه كلمة ربّ وإلـه . ومن هنا كثر استعمالها في القسم وفي التمني أو التشفي وأمثال ذلك من حالات[3] .

Nöldeke, Beiträge, S. X.

Werner Caskel, Das Schiksal im der Altarabische Poesie, Leipzig, 1926, S. 8, Goldziher, Abhandlungen, II, S IX-LXXVI, Ahlwardt, Bemerkungen über die Achtheit der Aletn Arabischen Gedischte.

Reste, S. 217. ff.

ويرى (ولهوزن) أن لفظة (الله) كانت بهذا المعنى في الأصل . كانت تعني إلهاً على وجه التعميم ، دون التخصيص ، أي أنها لا تشير إلى إلـه معين . استعملتها كل القبائل بهذا المعنى ، فهي صفة تشير الى الألوهية المجردة ، وإن كان أفراد كل قبيلة يقصدون بها صنمهم الخاص بهم . استعاضوا بها عن ذكر اسم الصنم . وان استعمالها جملاً مثل : (حاشا لله) و (لله درك) و (لاها الله) ، و (تالله) ، و (ايم الله) ، و (لحا الله) ، و (جزى الله) ، و (جعلني الله فداك) ، و (لك الله) ، و (أرض الله) ، وأمثالها ، هو من هذا القبيل ، الله فيها بمعنى الرب والإلـه . ولما كانت أداة التعريف تفيد التخصيص ، فدخولها في اسم الجلالة أفاد التخصيص والعلمية . وهذا ما حدث ، إذ فقدت الكلمة معناها العام ، واتجهت نحو التخصص حتى صارت بهذا المعنى الذي صارت عليه في الاسلام[1] .

وقد ذهب مستشرقون آخرون الى صحة ورود لفظة الجلالة في الشعر الجاهلي . كما ذهبوا الى ان ورودها في القرآن الكريم أو في الحديث ، لا يمنع من ورودها في الشعر الجاهلي ، ولا يكون سبباً للطعن في ذلك الشعر ، لأن من الجاهليين من كان يؤمن بوجود إلـه هو فوق الآلهة عندهم ، فورود اسمه في شعرهم ، ليس بأمر غريب .

وورود اسم الجلالة في أشعار الجاهليين يحملنا على البحث في أصله : هل هو اسلامي محدث ، أو هو اسم جاهلي قديم ؟ وبحث مثل هذا يجب ان يستند الى النصوص . غير اننا ويا للأسف لا نملك نصاً جاهلياً يمكن أن يفيدنا في هذا الباب ، فكل النصوص الجاهلية التي وصلت الينا خرس لم تنطق بشيء عن اسم الجلالة ، فليس أمامنا إلا اللجوء الى الطريقة المألوفة في مثل هذه الأحوال ، وهي الرجوع الى آراء علماء اللغة ، والى المقابلة بين العربية واللهجات السامية الأخرى . أما آراء علماء اللغة ، فإنها مثل آرائهم الأخرى في أصول الكلمات الصعبة التي على شاكلتها ، كلها حدس وتخمين . ولا يمكن أن يستنبط منها شيء تأريخي ، يرجعك الى أول عهد ظهرت فيه هذه اللفظة ، والى المراد منها . وأما المستشرقون ، فنهم من يرى ان اللفظة عربية أصيلة ، ومنهم من يرى انها من (ألاها) Alaha

1 Reste, S. 218.

ومعناها (الإلـه) بلغة (بني إرم) . أما الذين قالوا بعربيتها ، فيرون انها من (اللات) ، اسم الصنم المعروف ، تحرف وتولد منه هذا الاسم[1] .

واللفظة (الله) من أصل (إلاه) ، أي (رب) ، و (بعل) ، وهي من الألفاظ السامية القديمة . ويقال (إلهة) (إلاهة) للأنثى . لأن من الجاهليين من تعبد للآلهة الأناث . وتقابل (هـ ـ اله) (ها الاه) (هـ الاه) في النصوص الثمودية ، أي (الله)[2] . كما ترد هذه اللفظة في نصوص عربية أخرى مثـــل النصوص اللحيانية .

ويلاحظ ان لفظة (الله) هي من التسميات التي وردت في النصوص الشمالية ، ويدل ورودها في هذه النصوص على تأثر العرب الشماليين بمـــن اختلطوا بهم من الشعوب التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب ، وأخذهم عبادة هذا الإلـه منهم. ولم تكن هذه اللفظة اسم علم في الأصل ، ثم تخصصت على ما يظهر من النصوص المتأخرة ، فصارت تدل على إلـه معين ثم على إلـه واحد أحد هو إلـه الكون في الاسلام .

ويذكر علماء اللغة ان (لاه) الله الخلق يلوههم خلقهم ، واللاهة الحية ، منها سمّي الصنم اللات بها ، وجوز (سيبويه) اشتقاق اسم الجلالة منها . قال الأعشى :

كدعوة من أبي كبار   يسمعها لاهه الكبـــار

ولاه : علا وارتفع . وسميت الشمس إلاهة لارتفاعها في السماء[3] . وذكـروا ان (ال) اسم الله ، وكل اسم آخره ال أو ايل ، فمضاف الى الله ، ومنـــه جبرائيل وميكائيل[4] ، فهو (ايل) اذن ، إلـه جميع الساميين القديم .

وتعداد المواضع التي وردت فيها لفظة الجلالة أو لفظـــة إلـه والإلـه في الشعر الجاهلي ، يخرجنا عن صلب الموضوع ، ويجعل البحث جافاً مملاً . غير أن في استطاعتنـــا أن نقول إنها وردت في أكثر ذلك الشعر إن لم نقل فيه كله . وأن ورودها فيه يشير الى اعتقاد أصحاب ذلك الشعر بإلـه واحد قهّار هو إلـه العالمين.

---

١ Ency. Religi., I, p. 661, Ency., I, p. 302.

٢ Reste, S. 209, Mission, II, p. 557, 559, 564, Grohmann, S. 87. ff.

٣ تاج العروس (٩/٤١٠) ، (لاه) ، (٩/٣٧٤) ، (اله) .

٤ تاج العروس (٧/٢١١ وما بعدها) ، (أل) .

غير أن هذا القول يتوقف بالطبع على إثبات أن ذلك الشعر هو شعر جاهلي حقاً ، وأن من نسب اليهم قالوه من غير شك، وأنه لم يوضع على ألسنة أولئك الجاهليين .

الاعتقاد بإله واحد :

والـــذي يفهم – وذلك كما سبق أن قلت – من القرآن الكريم ومن الحديث أن قريشاً ومن كان على اتصال بهم ، أو غيرهم من قبائل أخرى ، لم يكـونوا ينكرون عبــاده الله ، ولم يكونوا يجحدون الله ، بل كانوا يقرون بوجوده ، ويدينون له ، وإنما الذي أنكره الإسلام عليهم وحاربهم من أجله وسفه أحلامهم عليه ، هو تقربهم الى الأصنام والأوثان ، وتقديسهم لها تقديساً جعلهـــا في حكم الشركاء والشفعاء ومرتبـــة الألوهية . والاسلام لا يعترف بهـــذه الأشياء ، وهو ينكرها ، ومن هنا حاربته قريش ومن كان على هذه العقيدة من حلفائهـــا ومن القبائل التي كانت ترى رأيها . فهنا كان موطن الخلاف ، لا عقيدة الإيمان بالله[1].

وإذا أخذنا بهذا الرأي ، رأي اعتقاد الجاهليين أو بعضهم بإلـه واحد ، نكون بذلك قد حللنا عقدة الازدواجية ، أي العقيدة الثنائية عند الجاهليين ووجودها في شعرهم ، فلا نجد عندئذ غرابة إذا وجدنا شاعراً يذكر الله في شعره ويحلف به، ثم نجده يذكر الأصنام في الشعر نفسه ، ويقسم بها قسمه بالله .

ويكاد يكون الاجماع على ما تقدم . قال ابن قيم الجوزية في معرض مقارنته بين آراء المجوس وعبدة الأوثان من العرب : « بل كفر المجوس أغلظ . وعبّاد الأوثان كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ، وأنه لا خالق إلا الله ، وأنهم إنما يعبدون آلهتهم لتقربهم الى الله سبحانه وتعالى ، ولم يكونوا يقرون بصانعين للعالم أحدهما خالق الخير والآخر للشر كما تقوله المجوس »[2] . فالوثنية على هذا الرأي، ليست نكراناً لوجود إلـه ، وإنما هي اعتقاد بوجوده ، واعتقاد بفائدة التقرب اليــه ، بتقربهم الى الأصنام والأوثان ، أي الشفعـــاء ، بما في ذلك المبالغة في تقـــديس الأشخاص والقبور .

---

١ Reste, S. 217, Lyall, Ancient Arabian Poetry, p. XXIX.

٢ زاد المعاد (٣/٢٢٤) ، (فصل في حكمه في الجزية ومقدارها وممن تقبل) .

ولا نجد للعرب إلهاً قومياً خاصاً بهم كالذي نجده عند العبرانيين من تعلقهم بـ (يهوه) ، وعدهم اياه إلهاً خاصاً باسرائيل . فقد صار هذا الإلـه إلـه جميع قبائل اسرائيل ويهوذا . أما العرب ، فقد كانوا يعبدون جملة آلهة : كل قبيلة لها إلـه خاص بها وآلهة أخرى ، ولم يكن لها إلـه واحد له اسم واحد يعبده جميع العرب . والظاهر ان القبائل الساكنة في الحجاز ونجد والعراق والشأم، صارت قبيل الاسلام تتنكر لأصنامها العديدة ، وتأخذ بالتوحيد وبالاعتقاد بإلـه واحد هو الله، وهو الذي نجده في هذا الشعر الجاهلي الذي هو حاصل تغريد شعراء قبائل عديدة مما يدل على ان قبائل اولئك الشعراء دانوا بالاعتقاد بوجود ذلك الإلـه فوق الأصنام والأوثان ، وقد توّجت هذه العقيدة بتاج النصر في الاسلام . غير ان (الله) في الاسلام يختلف عن الله الجاهليين . فالله هو إلـه العالمين ، إلـه جميع البشر على اختلافهم . ليس له شريك من أصنام وأوثان .

أما الله الجاهليين ، فهو رب الأرباب ، وإلـه الآلهة ، يسمو فوق آلهة القبائل أي آلهة القبيلة الواحدة . ولهذا ذكر في شعر شعراء مختلف القبائل ، لأنه لا يختص بقبيلة واحدة .

ويقال لما يعبد من دون الله : الأنداد . وفي كتاب النبي لأكيدر : وخلع الأنداد والأصنام . والند : مثل الشيء والنظير . وفي التنزيل : واتخذوا من دون الله أنداداً ، أي ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله[1] .

والله إلـه ذكر . وكيف لا يتصور الإنسان إلهه ذكراً ، والذكر هو قوي مقتدر بخلاف الأنثى ! وحيث أن الله هو قوي ومصدر القوة والخلق ، فلا بد وأن يكون ذكراً في عقلية تلك الأيام ، ولا بد من التعبير عنه بصيغ التذكير . كما يلاحظ أن الجاهليين قد تصوروه واحداً ، فلم يخاطبوه بصيغة الجمع ، مما يفهم منه التعدد .

ولم يتطرق الشعر الجاهلي الى موضوع وجود إلهة أي أنثى تكون زوجاً له . ولم يشر القرآن الكريم الى اعتقاد الجاهليين بوجود زوجة له . فهو في نظرهم إذن إلـه واحد متفرد لا يشاركه مشارك في حياته . وإذ كان الله واحداً أحداً أعزب، فلا يمكن أن يكون له ولد . ولكن القرآن الكريم يشير الى اعتقاد الجاهليين بوجود

---

١ اللسان (٤٢٠/٣) ، (ندد) .

بنين وبنات لله . ففي سورة الانعام : « وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون »[1] . وقد ذهب المفسرون الى أن العرب قالت الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود والنصارى عزير والمسيح ابنا الله ، وأن النصارى قالت المسيح ابن الله ، وقال المشركون الملائكة بنات الله[2] . وفي سورة النحل « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون »[3] ، وفي سورة الصافات « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون »[4] ، « ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون . اصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون »[5] . وفي سورة الزخرف «أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين»[6] وفي سورة الطور « أم له البنات ولكم البنون »[7] . وأجمعوا على أن قريشاً وأضرابهم كانوا يزعمون أن الله اصطفى الملائكة بناتاً له . ولم يذكروا كيف صاروا له بناتاً . وقد ورد في بعض الروايات أن كفار قريش قالوا : « الملائكة بنات الله . فسأل أبو بكر من أمهاتهن ؟ فقالوا : بنات سروات الجن »[8] .

وورد في بعض أقوال علماء التفسير ، ان (أعداء الله) زعموا : ان الله وابليس اخوان[9] . ولم يذكروا من هم (أعداء الله) أهم من العرب أم من غيرهم !

ويظهر ان الذين آمنوا بوجود إلـه ، تصوروا مكانه فوق الانسان ، أي فوق الأرض ، في السماء . لذلك كانوا اذا توجهوا اليه بالدعاء رفعوا أيديهم الى السماء . والسماء ، المكان المرتفع اللائق بأن يكون مقر الرب أو الأرباب . وهو اعتقاد نجده عند غير الجاهليين أيضاً . ومن هذه النظرة ظهر (بعل سمين) (بعل سمن) ، أي (رب السماء) و (إلـه السماء) المذكور في بعض نصوص المسند . وهو إلـه قبيلة (امر) (أمر) من القبائل العربية الجنوبية . الإلـه المرسل للسحاب

---

١ الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ١٠٠ .
٢ تفسير الطبري (٧/١٩٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٧/٢٠٩) .
٣ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ٥٧ .
٤ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٤٩ .
٥ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٥١ وما بعدها .
٦ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ١٦ .
٧ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٩ .
٨ تفسير الطبري (٢٣/٦٩) .
٩ تفسير الطبري (٢٣/٦٩) .

ومنزل الغيث وباعث الحركة والخصب والخير للناس[1] . وقــد تعبد له الصفويون كذلك ، وذكر في نصوصهم . وعرف عندهم بـ (هـ — بعل سمن)[2] .

ولهذه النظرة اتخذ زهادهم لهم معابد خلوية على قــم الجبال وعلى الهضاب والمرتفعات وابتنوا الصروح للتعبـد فيها ومناجاة الرب ، واتخــذوا من الكهوف المنقورة في الجبال مآوي يتعبدون فيها ويعتكفون الأيام والشهور والسنين . وكانوا اذا أمسكت السماء قطرها ، وأرادوا الاستمطار ، أصعدوا البقر في جبل وعر ، وقد أضرموا النار في السلع والعشر المعقودين في أذنابهـا ، وهم يتبعون آثارها ، يدعون الله ويستسقونه[3] . ولولا اعتقادهم ان الجبل أقرب الى الله من الأرض ، لما أتعبوا أنفسهم ، فصعدوا الجبل المرتفع مع بقرهم، فكان استسقاءهم من الأرض.

الجبر والاختيار :

هذا وأود ان ابين ان اكثر الذين كانوا يدينون بالتوحيد ، ويعتقدون بوجود إلـه واحد خلاّق لهذا الكون ، كانوا يؤمنون بمـا نسميه : « القضاء والقـدر » او (الجبر) بتعبير أصح . فالخير والشر من الله ، وكـل شيء في هذا الكون محتوم مكتوب . وما يصيب الانسان ، لا بد ان يكون قد كتب عليه ، ولا راد لما هو مكتوب ، بل نجد هذه النظرة حتى عند من لم يأت اسم الله في شعره ، فلا ندري أكان من المؤمنين بالله ام لا . وفكرة ان كــل شيء في هذا الكون مقدر محتوم ، فكرة قديمة غلبت على عقلية الشرقيين ، بسبب الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية التي كانت سائدة اذ ذاك ، أوضاع جعلت الغالبية من الناس تشعر انها مسخرة ، وانها تدفع في حياتها دفعاً وفي سبيل خدمة النخبة المتحكمة ، المسيرة للأمور ، أضف الى ذلك تأثير عامل الجو في الانسان .

وقضية الجبر والاختيار ، قضية لا نجدها عند المؤمنين بوجود إلـه هو (الله)، أو آلهة أخرى من الجاهليين فقط ، بل نجدها عند غيرهم أيضاً ممن لم يكن يقر بعبادة (الله) ، وينكر وجود خالق ، نجدها عنــد ممن كان يتعبد للأصنام ،

---

١ Rep. Epigr. 4142, Grohmann, S. 245.

٢ F. V. Winnett, Safaitic Inscriptions from Jordan, p. 18, 23.

٣ ابن فارس ، رسالة النيروز (ص ١٨ وما بعدها) .

أو للقوى الخفيّة ، أو لا يدري أي شيء عن الآلهة والخلق ، أو من الدهرية ، القائلين بالدهر . فهؤلاء أيضاً كانوا يعتقدون أن الإنسان ، مسير ولا اختيار له في هذه الدنيا ، فكل شيء مكتوب عليه . كتب عليه منذ ولد . والسبب ، هو ما قلته: وجود عوامل عديدة سيرت الانسان واستعبدته من أوضاع سياسية واجتماعية وعسكرية واقتصادية ومناخية تحكمت فيه ، حتى رسخ في عقل الجاهلي ، أن كل شيء في هذه الدنيا مقدر مكتوب ، وأن ما كتب على الجبين ، لا يمكن تغييره ولا تبديل له،ولا اعتراض على ما هو مكتوب ، ولا راد لأمر كتب في السماء .

الموت :

وفي مطلع قائمة الموضوعات التي أثارت البشرية ولا تزال تثيرها قضية الموت الذي هو ضد الحياة والعالم الثاني الذي يصير اليه الانسان بعد الموت[1] . إن الموت أمر مخيف راعب يثير مشاعر كل انسان . فما الذي سيكون مصيره بعد الحياة ، وإلى أي مكان سيتجه بعد هذه الحياة ، وهل الموت انطفاء لشعلة الحياة وانحلال للجسد الى الأبد ؟ أو هو مرحلة من حياة الى حياة أخرى يحيا فيها الانسان حياة جديدة ، ويبعث بعثاً جديداً يبعثه من خلقه ؟ ثم ما الذي سيكون عليه في العالم الثاني ؟ هل يعيش عيشة راضية مطمئنة ، عيشة تفوق معيشته في عالمه الأول ؟ أم سيعيش عيشة أخرى ؟ إما راضية ناعمة ، وإما شقيّة تعسة بحسب عمل الإنسان وما قدمه لنفسه من عمل في العالم الأول ؟ هذه الأسئلة وعشرات من أمثالها شغلت بال الانسان البدائي والراقي ولا تزال تشغله . كل وجد لها أجوبة ، وكل قنع بما أجاب به عنها ، ورضي بها . وكانت للجاهليين على اختلافهم آراء في هذه المشكلات لا شك في ذلك .

والموت في كلام العرب : السكون . يقال مات بمعنى سكن[2] . وهذا هو المعنى المفهوم للموت عند الجاهليين . فالمراد من الموت هو سكون الجسد بعد مفارقة الروح له . وقد حار الجاهليون ، كما حار غيرهم في تفسير ظاهرة الموت،

---

١ المخصص (٢/٦٤) .
٢ تاج العروس (١/٥٨٦) ، (موت) .

وكيفية وقوع الموت وحدوثه . وقد اعتبره بعضهم حدثاً طبيعياً ، يحدث للانسان كما يحدث لأي شيء آخر في هذا الكون من التعرض للهلاك والدمار . واعتبره بعض آخر ، مفارقة الروح للجسد . وهم الذين اعتقدوا بالثنائية وبالازدواجية في حياة الانسان ، أي بوجود جسد وروح . واعتبره آخرون موت للنفس ، وبوفاة النفس يتوفى الجسد ويصيبه السكون . فالموت عندهم مفارقة الروح للجسد ، فإذا مات الانسان خرجت روحه من أنفه ، او من فمه ، فينفض الانسان نَفَسَه . واذا مات ميتة طبيعية ، يقال عن الميت : مات حتف أنفه ، ومات حتف فيه ، أي ان روحه خرجت من أنفه او من فمه ، وهو قليل ، لأن النفس في نظر اهل الجاهلية تخرج بتنفسه ، كما يتنفس من أنفه . ويقال أيضاً حتف أنفيه . وكانوا يعتقدون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، وأما القتيل ، والجريح ، فتخرج روحه من موضع جرحه[1] .

ويقال : (زهقت نفس فلان) ، اي خرجت روحه . فهم يتصورون اذن ان روح الانسان كائن مستقل اذا فارق الجسد مات . (وفي الحديث : إن النحر في الحلق واللبّة ، وأقروا الأنفس حتى تزهق ، اي حتى تخرج الروح من الذبيحة ولا يبقى فيها حركة)[2] .

و (الرمق) بقية الحياة ، او بقية الروح ، وآخر النفس[3] . فكأنهم تصوروا ان الشخص المريض او الجريح ، قد ودع معظم نفسه ، ولم تبق من روحه إلا بقية لا تزال في جسده ، هي الرمق .

البعث :

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث كما يتبين ذلك من القرآن الكريم . لقد كانوا يرون أن الموت نهاية ، وانهم غير مبعوثين ، وأن البعث بعد الموت شيء غير معقول ، لذا تعجبوا من قول النبي بوجود البعث والحساب . « وقالوا

---

١ تاج العروس (٦/٦٤ وما بعدها) ، (حتف) .
٢ اللسان (١٠/١٤٧) ، (زهق) .
٣ اللسان (١٠/١٢٥) ، (رمق) .

إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »[1] ، « وأقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[2] ، « وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً إنّا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل :الذي فطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رؤوسهم ، ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً »[3] . و « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير »[4] ، و « إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب »[5] ، و « لئن قلت إنكم مبعوثون بعد الموت ، ليقولن الذين كفروا إن هذا الا سحر مبين »[6] ، و « بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون »[7] ، و « ان تعجب فعجب قولهم : أإذا كنّا تراباً أإنا لفي خلق جديد »[8] ، و (أيعدكم أنكم اذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . ان هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »[9] . و « قال الذين كفروا أإذا كنّا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا ، نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون »[10] ، و « وقالوا : أإذا ضللنا في الأرض أإنّا لفي خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم

---

١ الانعام ، الآية ٢٩ .
٢ النحل ، الآية ٣٨ ، تفسير الطبري (١٠٤/٨ وما بعدها) .
٣ الاسراء ، الآية ٤٩ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٠٤/١٤ وما بعدها) ، روح المعاني (١٢٨/١٤) .
٤ التغابن ، رقم ٦٤ ، الآية ٧ .
٥ الحج ، رقم ٢٢ ، الآية ٥ .
٦ هود ، رقم ١١ ، الآية ٧ .
٧ المؤمنون ، الآية ٨٢ ، الصافات ، الآية ١٦ .
٨ الرعد ، الآية ٥ .
٩ المؤمنون ، الآية ٣٥ وما بعدها .
١٠ سورة النمل ، رقم السورة ٢٧ ، الآية ٦٧ وما بعدها .

ملك الموت الذي وكل بكم ، ثمّ الى ربكم ترجعون »[1] . و« إن هؤلاء ليقولون: إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين »[2] .

والآيات المتقدمة وأمثالها[3] كلها حكاية عن رأي كثير من الجاهليين في نفي البعث وفي عدم امكان العودة الى حياة أخرى بعد موت يهلك الجسم ويفني العظام فيجعلها رميماً ويمحو كل أثر للجسم ، لذا كان البعث من أهم ما عارض فيه الجاهليون معارضة قاسية شديدة ، وكان من الموضوعات التي تندروا بها وسخروا وآخذوا عليها الرسول[4] . وكانوا يقولون : « إن هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها. وهي الموتة الأولى ، وما نحن بمنشرين بعد مماتنا ولا بمبعوثين تكذيباً منهم بالبعث والثواب والعقاب » . وقالوا للرسول : « فأتوا بآبائنا الذين قد ماتوا ان كنتم صادقين ان الله باعثنا من بعد بلانا في قبورنا،ومحيينا من بعد مماتنا »[5] . وقالوا : « أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون؟ يقولون منكرين بعث الله اياهم بعد بلائهم . أئنا لمبعوثون أحياء من قبورنا بعد مماتنا ومصيرنا تراباً وعظاماً قد ذهب عنها اللحوم . أو آباؤنا الأولون الذين مضوا من قبلنا فبادوا وهلكوا ؟ »[6] .

وكان من محاججة قريش للرسول ومحاولتهم إفحامه وتعجيزه قولهم له يوم اجتمعوا به : « يا محمد ؟ فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت انه ليس من الناس احد أضيق بلداً ولا اقل ماءً ولا أشد عيشاً منا . فسلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشأم والعراق . وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول ، أحق هو ام باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وانه بعثك رسولاً كما

---

١ السجدة ، رقم السورة ٣٢ ، الآية ١٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٩٦/٢١) ، روح المعاني (١١٢/٢١ وما بعدها) .
٢ الدخان ، رقم السورة ٤٤ ، الآية ٣٤ وما بعدها ، تفسير الطبري (٧٦/٢٥ وما بعدها) .
٣ هود ، ٧ ، المؤمنون ٨٢ وما بعدها ،سبأ ، ٣ وما بعدها ، الجاثية ، ٢٤ وما بعدها .
٤ الكشاف (٤٤٨/١) ، (٧٤/٢ ، ١٨٩ ، ١٩٥ وما بعدها) ، الطبرسي (٣٩/٧) ، (٧٥/١٤) ، (٥٨/١٥) ،
٥ تفسير الطبري (٧٦/٢٥) ، (٧٨/١ وما بعدها) .
٦ تفسير الطبري (٣٠/٢٣) .

تقول ! »[1] . وسألوه أسئلة اخرى من هذا القبيل ، لتعجيزه في اثبات البعث . « جاء عبدالله بن أبيّ الى النبي صلى الله عليه وسلم ، بعظم حائل فكسره بيده، ثم قال : يا محمد ، كيف يبعث الله هذا وهو رميم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبعث الله هذا ويميتك ثم يدخلك جهنم »[2] . وأتى (أبيّ بن خلف) رسول الله (بعظم حائل ففته ثم ذراه في الريـح . ثم قال : يا محمد من يحيي هذا وهو رميم ؟ قال الله يحييه ثم يميته ، ثم يدخلك النار »[3] . و « جاء العاص ابن وائل السهمي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعظم حائل ففته بين يديه . فقال يا محمد أيبعث الله هذا حياً بعدما أرم ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم »[4] .

وممن أنكر البعث على ما ذكره الأخباريون قوم من قريش كانوا زنادقة أنكروا الآخرة والربوبية ، أخذوا زندقتهم هذه من الحيرة[5] . وإذا كان من هؤلاء من كان يقدم القرابين والهدايا لأصنامه ، فإن ذلك لا يعني أنه كان يفعل ذلك لترضى عنه في العالم التالي ، بل كان يفعل ذلك لترضى عنه في هذه الحياة الدنيا ، لتمن عليه بالنعم والخيرات . أمـا العالم الثاني ، فهو عالم لا يهتم به ، لأنه لم يكن يتصور وجوده ولا حدوثه بعد الموت[6] .

ويتجلى هذا الانكار للحشر والبعث في أبيات تنسب الى (شدّاد بـن الأسود ابن عبد شمس بن مالك) يرثي بها قتلى قريش يوم بدر ، وهم الذين قتلوا في تلك المعركة وألقوا في القليب :

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا   وكيف حياة أصداء وهام ؟
أيعجز أن يرد الموت عـني   وينشرني إذا بليت عظـامي

أراد الشاعر إنكار البعث،وأن يصير الإنسان مرة أخرى انساناً بعد أن تتحول

---

١ ابن هشام (١/١٨٦) ، (حاشية على الروض) .
٢ تفسير الطبري (٢٣/٢١) ، روح المعاني (٢٣/٥٠) .
٣ تفسير الطبري (٢٣/٢١) ، الاشتقاق (٨٠) .
٤ تفسير الطبري (٢٣/٢١) .
٥ المحبر (ص ١٦١) ، بلوغ الارب (١/٣٤٥) ، المعارف (٦٢١) .
٦ Reste, S. 185.

روح الانسان الى طير[1] .

وذكر ان (الحارث بن عبد العزى) ابو رسول الله من الرضاعة ، لما قدم مكة ، قالت له قريش : « ألا تسمع يا حار ما يقول ابنك هذا ؟ فقال : وما يقول : قالوا : يزعم ان الله يبعث بعد الموت ، وان لله دارين يعذب فيها من عصاه ، ويكرم فيها من أطاعه . فقد شتت أمرنا وفرّق جماعتنا »[2] . فهم ينكرون البعث والحساب ، ولا يريدون سماع شيء عنها ، ولا يصدقون عودة الروح الى الجسد بعد أن فارقته ، فذلك عندهم من المستحيلات ، ولذلك سخروا من البعث لما سمعوا به . وكيف يكون بعثاً وقد فنيت الأجساد ، فلم تبق منها بقية !

فرأي من أنكر الحشر والبعث من أهل الجاهلية ، ان الحياة حياة واحدة ، هي حياتنا التي نحن فيها في دار الدنيا ، ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب ، نحيا ونموت ، يموت بعضنا ويحيا بعضنا ، وما يميتنا إلا الأيام والليالي ، اي مرور الزمان وطول العمر[3] . فالحياة اذن حياة وموت في هذه الدنيا ، وهي استمرار للاثنين على مدى الدهر ، يولد انسان ثم يموت ليحل محله انسان آخر ، وهكذا بلا انتهاء .

ونجد رأي الناكرين للبعث في قوله تعالى : « وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر »[4] . فهم يقولون : ما هي الا حياتنا الدنيا ، نموت نحن ويحيا أبناؤنا بعدنا ، فجعلوا حياة ابنائهم بعدهم حياة لهم ، لأنهم منهم وبعضهم ، فكأنهم بحياتهم أحياء . والدهر الزمان ، وهو الذي يهلك ويفني[5] . فالحياة بهذا المعنى ، فعل مستمر ، وتطور لا ينتهي ، يهلك جيل ،

---

١ وهي من ابيات رويت بصور مختلفة ، وفي بعضها زيادات ، راجع ابن هشام (١/١١٣) ، هامش على الروض الانف ، كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير (ص ٣٠٨) ، « طبعة أوروبة ١٩٢٧ » ، بلوغ الارب (٢/١٩٨) ،

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟

بلوغ الارب (٢/١٩٢) .

٢ الروض الآنف (١/١٠٧) .

٣ تفسير الطبرسي (٢٥/١٣٦) ، (بيروت) ، (٢٥/٧٨) ، (طهران) .

٤ الجاثية ، الآية ٢٤ ، تفسير الطبري (٢٥/٩١) ، روح المعاني (٢٥/١٣٩) .

٥ تفسير الطبري (٢٥/٩١ وما بعدها) ، (بولاق) ، (٢٥/١٥١ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٤) .

ليأخذ محله الجيل الذي نبت منه . وكلّ يأخذ دوره في هذه الحياة ، فإذا انتهى دور انسان ، قام بدوره نسله ، وهكذا ، وبهذا المعنى تفسر الحياة ، ويفسر الموت .

وقد يسأل سائل اذا كان أغلب أهل الجاهلية لا يؤمنون بثواب ولا بحساب وبعث ونشر ، فلمَ تعبّدوا اذن لإلّه ، وتقرّبوا الى الأصنام ، وقدّموا القرابين والنذور ؟ وجوابي على هذا السؤال ، هو ما ذكره المتقدمون عنه . قالوا : « كانت العرب في الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدوّ ، ولا يطلبون الآخرة ، اذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها »[1] . فعبادتهم الله وتقربهم الى الآلهة ، هي لمصلحة دنيوية ، لنفع ولزيادة في مال ، ولدفع شر الأذى والأمراض وعيون الحساد ، ومن كل ما هو شر ، أما الآخرة ، فلا علم لهم بها .

وما خوفهم من الآلهة إلا لاعتقادهم أنها تضرهم وتهلكهم وتنزل بهم الشرّ في هذه الدنيا . فإذا أقسم أحدهم كذباً ، انتقمت الآلهة منه وأنزلت به نازلة ، لذلك تجنبوا الايمان الكاذبة ، وامتنعوا من الحلف جهد إمكانهم ، لخوفهم من عاقبة الحلف الكذب . والعاقبة السيئة تكون في هذه الدنيا . وهي عواقب مادية ، لأن عقلية اكثر اهل الجاهلية لا تدرك إلا القيم المادية للأشياء . فتصوروا العاقبة السيئة تصوراً مادياً ، كنزول مرض بإنسان أو نزول كارثة بماله او بإبله أو بزرعه او بأهله ، وهي أمور يخشاها الجاهلي ، تكون معجلة في نظره ، اي في هذه الدنيا . لأنهم لا يعرفون أن في الحياة داراً غير هذه الدار ، ولا يؤمنون بحشر وبعث .

جاء في الأخبار ان (ضمام بن ثعلبة) السعدي ، ويقال التميمي ، لما قدم على الرسول ، اقبل حتّى وقف على رسول الله ، وهو في اصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله : انا ابن عبد المطلب . قال : أمحمد؟ قال : نعم . قال : يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسئلة فلا تجدنّ في نفسك . قال : لا اجد في نفسي . سل عمّا بدا لك . قال انشدك بالله إلهك وإلّه من كان قبلك وإلّه من هو كائن بعدك الله امرك ان نعبده وحده

---

١ تفسير القرطبي (٢/٤٣٢) .

لا نشرك به شيئاً ، وان نخلع هذه الأوثان التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : اللهم نعم . ثم سأله عن الفرائض ، فأسلم . فلما قدم على قومه ، فاجتمعوا اليه ، (فكان أول ما تكلم به ، ان قال : بئست اللات والعزى . قالوا : مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجـذام ، اتق الجنون . قال : ويلكم انهما والله ما يضران وما ينفعان)[1] . فالعقاب عقاب مادي في هذه الدنيا ، ترسله الآلهة على الانسان .

غير ان فريقاً من الجاهليين كما يقول أهل الأخبار كان يؤمن بالبعث وبالحشر بالأجساد بعد الموت ، ويستشهدون عـلى ذلك بـ (العقيرة) وتسمى (البلية) أيضاً . والبلية الناقة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها اذا مات حتى تموت جوعاً وعطشاً . ويقولون انه يحشر راكباً عليها ، ومن لم يفعل معه هذا حشر راجلاً . وهذا مذهب من كان يقول منهم بالبعث ، وهم الأقل . ومنهم زهير فإنه قال :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم حساب أو يعجل فينقم[2]

ويذكر أيضاً انهم كانوا يعكسون رأس الناقة أو الجمل أي يشدونه الى خلف بعد عقر احدى القوائم او كلها لكيـلا تهرب ، ثم يترك الحيوان لا يعلف ولا يسقى حتى يموت عطشاً وجوعاً، ذلك لأنهم كانوا يرون ان الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاة اذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم[3]، وفي هذا المعنى قال الشاعر في البلية :

والبلايا رؤوسها في الولايا   مانحات السموم حر الخدود

والولايا هي البراذع ، وكانوا يثقبون البرذعة فيجعلونها في عنق البليـة وهي معقولة . وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذه الوصية :

يا سعدُ امـا أهلكنّ فإنني   أوصيك إنّ أخا الوصاة الأقرب

---

١ الاستيعاب (٢/٢٠٧ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الروض الانف (١/٩٦) ، الشعر والشعراء (١/٧٦) ، (بيروت ١٩٦٤ م) .
٣ تاج العروس (١٠/٤٣) ، اللسان (١٨/٩٢) ، النهاية (١/١١٥) ، رسالة الغفران (٣٣٣ وما بعدها) ، (بنت الشاطئ) .

لا تتركــن أباك يمشي خلفهم تعباً يخرّ عــلى اليدين وينكب
احمل أباك عــلى بعــير صالح وابق الخطيئة إنــه هو أصوب
ولعلّ مالي ما تركت مطيّــة في اليم أركبها إذا قيل اركبوا[1]

وذكر أنهم كانوا يحفرون للبايــة حفرة وتشد رأسها الى خلفها وتبلى ، أي تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً . وكانت النساء ، يقمن حول راحلة الميت فينحن إذا مات أو قتل ، وقد عرفن بـ (مُبَكّيات)[2] .

وفي رواية أن بعض المشركين كان يضرب راحلة الميت بالنار وهي حيّة حتى تموت[3] ، يعتقدون أنهم إنما يفعلون ذلك ، ليستفيد منها الميت بعد الحشر[4] .

وإذا كانت عقيدة الجاهليين في عقر الحيوانات المسكينة وإهلاكها قــد ماتت وزالت ، بسبب تحريم الإسلام لها ، فإن فكرة حشر الناس ركباناً لا تزال باقية حية عند بعض الناس . فالذين يقدمون (العقيقة) في الحياة أو يقدمونها حــين الوفاة ومع نقل الجنازة أو على القبر ، يختارون أحسن الحيوانات وأقواها لتتمكن من حملهم يوم المحشر ، وتنهض بهم ، فيسير راكباً ، ولا يحشر وهــو مترجل يسير في تلك الساعات الرهيبة ماشياً على قدميه .

ويقال للموت والحساب (اللِزام)[5] .

ولا أعتقد أن نحر الإبل على القبر وتبايله بدم الإبل المذبوحة[6] ، مجرد عــادة يراد بها إظهار تقدير أهل الميت له ، او تمثيل كرم الراحل حتى بعــد وفاته ، بل لا بد أن يكون هذا النحر من الشعائر الدينية والعقائد الجاهلية التي لهـا علاقة بالموت وباعتقادهم أن موت الانسان لا يمثل فناءً تاماً وإنما هو انتقــال من حال الى حال .

---

١ الشعر لـ (جريبة بن الاشم الفقعسي) ، يوصي ابنه به وقد ورد بصور أخرى ، راجع الروض الآنف (١/٩٦) ، النهاية ، لابن الاثير (١/١١٥) ، اللســان (١٤/٨٥ وما بعدها) ، تاج العروس (١٠/٤٣) ، طبقات الامم (٤٩) .
٢ اللسان (١٤/٨٥ وما بعدها) .
٣ المخصص (٦/١٢٢) ، اللسان (١٦/١٥) ، الاغاني (٦/١٢٢) .
٤ الاغاني (١٦/٤٨) ، « أخبار زيد الخيل » ، (١٧/١٧٦) ، (بيروت ١٩٥٥) ، Reste, S. 180.
٥ تاج العروس (٩/٥٩) ، (لزم) ، المخصص (٦/١٢٢) .
٦ الاغاني (١٩/٨٨) .

وذكر (السكّري) ، أن أكثر العرب كانوا يؤمنون بالبعث . واستشهد على ذلك بشعر للأعشى ، ذكر فيه الحساب . كما ذكر أنهم كانوا يؤمنون بالحساب، واستشهد على رأيه هذا بشعر للأخنس بن شهاب التميمي[١] . وقول (السكري) هذا مردود، بما ورد في القرآن الكريم من إنكار أغلبهم للحساب والبعث والكتاب، وأما الذين قالوا بالبعث ، فهم طائفة لا تصل الى مستوى الكثرة أو الكلّ حتى نستعمل صيغة التعميم .

وإذا كان ما تصوره أهل الجاهلية عن البعث والحشر صحيحاً على نحو ما ذكره أهل الأخبار ، فلا يستبعد أن يكون القائلون به أو بعضهم قد تصوروا الحساب على نحو ما يحاسب الانسان على عمله في دنياه . ويلاحظ أن القيامة والبعث والحشر والجنة والنار هي من الكلمات العربية التي لا يستبعد أن يكون لها مفهوم قريب من مفهومها الإسلامي عند الجاهليين .

أما كيف تصور أولئك الجاهليون حدوث البعث والحشر ، هل هو قصاص وثواب وعقاب وحساب وجنّة ونار ،أو هو بعث وحشر لا غير ، فأهل الأخبار لم يأتوا عنه بجواب ، ولم يذكروا رأي تلك الفئة المقرة بالبعث والحشر في ذلك. ولهذا فليس في استطاعتنا إعطاء صورة واضحة عن الحشر وعمّا يحدث بعده من تطورات وأمور .

ولم تتحدث الكتابات الجاهلية عما سيحدث للانسان بعد موته . وكل ما ورد فيها هو توسل الى الآلهة بأن تنزل غضبها على كل من يحاول تغيير قبر ، أو ازالة معالمه ، أو دفن ميت غريب فيه ، وان تنزل به الأمراض والآفات والهلاك. ولم تذكر تلك النصوص السبب الذي حمل أهل القبور على التشدد في المحافظة على القبر وعلى ضرورة بقائه ودوامه . فلا ندري اذا كان ذلك عن تفكير بوجود بعث ، وبتصور قيام الميت من قبره مرة أخرى ، ورجوعه ثانية الى الحياة ، او الى عالم ثان ، هو عالم ما بعد الموت ، ولهذا حرصوا حرصاً شديداً على عدم السماح بدفن أحد في قبر ، إلا اذا كان من أهل صاحب القبر ومن ذوي رحمه، حتى لا يتأذى الميت من وجود الغرباء ، وليستأنس بأهله وبذوي قرابته مرة أخرى بعد عودة الحياة اليه ، فيرى نفسه محشوراً معهم ، ومع من أحبه في حياته،عائشاً

---

١ المحبر (٣٢٢) .

معهم ، كما كان قد عاش معهم ، أو ان حرصهم على حرمة القبر ، انما كان عن مراعاتهم لحرمة القبر ، وعلى منزلة الموتى ، فالمسّ بحرمة القبر ، مسّ بحرمة الميت ، وانتهاك لمقامه ولمكانته ، ولما كان عليه في هذه الحياة !

وهناك من كان يعتقد ان الميت وان غيب في قبره وانقطعت علاقته بآله وذويه ، الا ان روحه لن تموت ، وانه يظل وهو في قبره يقظاً ، متتبعاً لأخبار أهله . تخبره بها هامته التي تكون عند ولد الميت في محلته بفنائهم ، لتعلم ما يكون بعده فتخبره به ، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه :

هامي تخبّرني بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها [1]

وأما ما ورد في الشعر الجاهلي من أمر الحشر والنشر والحساب والكتاب والعالم الثاني ، فهو مما ورد ودوّن في الاسلام ، ولم أجد في رواية من روايات أهل الأخبار ان أحداً من رواة الشعر الجاهلي ، ذكر انه نقل ما نقل من هذا الشعر من ديوان جاهلي ، أو من كتاب كتب قبل الاسلام . ومع ذلك ، فإن هذا المروي عن العالم الثاني قليل ، لذلك لا نتمكن لقلته من تكوين صورة واضحة عن ذلك العالم ومن التحدث بطلاقة عن رأي أصحاب هذا الشعر في الحشر والنشر والبعث .

وأما ما ورد في شعر (أميّة بن أبي الصلت) عن الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار ، فهو أوسع ما ورد في الشعر الجاهلي في هذا الموضوع . وأمية ، هو الشاعر الجاهلي الوحيد الذي جاء أكثر شعره في نزعات دينية وفكرية ، ذلك لأنه كان في شك من عبادة قومه ، وكان على شاكلة غيره ممن سئم تلك العبادة ، ينهى قومه عنها ، ويسفه أحلامها ، وقد تأثر باليهودية وبالنصرانية . وفي شعره اعتقاد بالجنة والنار والبعث . وبصحة المعاد الجسماني ، وبوجود الجنة والنار بالمعنى الحقيقي ، لا المجازي ، وهو يتفق في ذلك مع الإسلام . كما تحدثت عن ذلك في الفصل الخاص بالأحناف .

وكان (الأعشى) ممن يؤمن بالله وبالحساب ، وقد استشهد من قال ذلك عنه

---

١ مروج (١٣٣/٢) .

بأبيات شعر تشعر أنه كان يؤمن بالحساب وبقيام الانسان بعد الموت لمحاسبته على عمله . من ذلك قوله :

يراوح مـــن صلوات المليك   طوراً سُجوداً وطوراً جُوّارا
بأعظم منك تُقى في الحساب   إذا النسمات نفضن الغبــارا [1]

وكان (زهير بن أبـي سلمى) على مذهب من كان منهم يقول بالبعث ، وهم الأقل[2] قال :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليـوم الحساب أن يعجل فينقم[3]

وكان (حاتم) طيء من المتألهين ، ومن المعتقدين بالحساب . وقد أورد أهل الأخبار له شعراً في ذلك[4] .

البلية والحشر :

ولم يذكر أهل الأخبار كيف تصور القائلون بالقيامة وبالحشر من أهل الجاهلية قيام الموتى ومشيهم الى المحشر . فقد ذكروا ان قومـاً من الجاهليين كانوا اذا مات أحدهم عقلوا ناقة على قبره وتركوها حتى تبلى ، وتسمى لذلك (البلية) . وقالوا : « البلية كغنيّة الناقة التي يموت ربها ، فتشد عند قبره ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً أو يحفر لها وتترك فيهـا الى ان تموت ، لأنهم كانوا يقولون صاحبها يحشر عليها ، و (كانوا يزعمون ان الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاة اذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم) . وذكر أنهم (كانوا في الجاهلية يعقرون عند القبر بقرة أو ناقة أو شاة ، ويسمون العقيرة البلية) ، (وفي فعلهم هذا دليل على أنهم كانوا يرون في الجاهلية البعث والحشر بالأجساد. وهم الأقل . ومنهم زهير)[5] . وفي هذا المعنى يقول جريبة بن أشيم[6] :

---

١ رسالة الغفران (١٨٠) .
٢ الروض الانف (١/٩٦) .
٣ الروض الانف (١/٩٦) .
٤ رسالة الغفران (٤٨٨) .
٥ تاج العروس (١٠/٤٣ وما بعدها) ، (بلى) ، القاموس (٤/٣٥٠ وما بعدها) .
٦ اللسان (١٢/٦٢٥) ، (هوم) ، تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) ، (جريبة بن الاشيم الفقعسي) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٧) .

يا سعدُ إمـا اهلكنّ فإنني أوصيك أن أخا الوصاة الأقربُ
لا أعرفن أباك يحشر خلفـكم تعباً يخرّ على اليدين وينكب
واحمـل أباك على بعير صالح وتقى الخطيئة انه هو أصوب
ولعَلّ لي مما جمعت مطيّة في الحشر أركبها اذا قيل: اركبوا[1]

ومن ذلك قول عمرو بن زيد المتمني يوصي ابنه عند موته في البلية :

أبنيَّ زوّدني اذا فارقتـني في القبر راحلةً برحـل فاتر
للبعث أركبها اذا قيل : اظعنوا مستوثقين معـاً لحشر الحاشر
من لا يوافيه عـلى عثراته فالخلق بين مدفع أو عاثر[2]

وقال عويمر النبهاني :

أبنيَّ لا تنسَ البليّة إنهـا لأبيك يوم نشوره مركوب[3]

وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذا :

لا تتركنّ أباك يحشر مرة عدواً يخر على اليدين وينكب[4]

وطريقتهم في ذلك أن أحدهم اذا مات ، بلوا ناقته ، فعكسوا عنقها الى مؤخرّها مما يلي ظهرها ، أو مما يلي كلكلها أو بطنها ، ويأخذون وليّة فيشدون وسطها ، ويقلدونها عنق الناقة ، ويتركون الناقة في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها ، وربما سلخت وملىء جلدها ثماماً[5] .

قال شاعر في البليّة :

والبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السموم حر الخدود

---

١ اللسان (١٢/٦٢٤) ، (هوم) ، تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٧ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٠٩) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٠٩) .
٤ الروض الآنف (١/٩٦) .
٥ بلوغ الارب (٢/٣٠٧) ، اللسان (١٤/٨٥ وما بعدها) ، (بلا) .

والولايا هي البراذع . وكانوا يثقبون البرذعة ، فيجعلونها في عنق البليّة وهي معقولة حتى تموت[1] .

أما كلمة (جهنم) ، فيرى العلماء أنها من الكلمات المعربة . ويظن المستشرقون أنهـا من أصل عبراني[2] . ومن أسماء جهنم على رأي علماء اللغة (الهاوية)[3] . و (أم الهاوية)[4] .

---

١ الروض الأنف (١/٩٦) .
٢ المعرب ، للجواليقي (ص ١٠٧) « طبعة دار الكتب المصرية » ، Ency., I, p. 998.
٣ اللسان (٢٠/٢٥٠) .
٤ المخصص (١١/٣٨) .

الفصل الخامس والستون

الروح والنفس والقول بالدهر

وبحملنا قول بعض الجاهليين بوجود البعث ، وبالصدى والهامة ، على التحرش بموضوع الروح وماهيتها عند أهل الجاهلية ، وعن كيفية تصورهم لها . وقد سأل أهل مكة الرسول عن ماهية الروح،فنزلت الآية : « ويسألونك عن الروح ، قل : الروحُ من أمر ربي،وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً »[1]. ويذكر المفسرون أن اليهود حرضوهم على توجيه هذا السؤال الى الرسول ، امتحاناً واحراجاً له[2]. وفي سؤالهم له عن الروح معنى اهتمام القوم بالموضوع ، ومحاولة إثارة مشكلة للرسول كانت مهمة في أعين الناس يومئذ ، مما يدل على أهمية هذه القضية في ذلك العهد . وورد أن يهود يثرب هم الذين سألوه عن أمر الروح ما هي؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ فنزل الوحي عليه بالآية المذكورة[3] .

و (الروح) في تعريف علماء اللغة ما به حياة الأنفس ، والذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة . وذهب بعضهم الى ان الروح والنفس واحد ، غير ان

---

١ الاسراء ، الآية ٨٥ .

٢ القرطبي ، الجامع (١٠/٣٢٥) .

٣ تفسير الطبري (١٥/١٠٤ وما بعدها) ، القرطبي ، الجامع (١٠/٣٢٣ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (١٥/٩٣) ، (بيروت ١٩٥٦) ، تفسير ابن كثير (٣/٦١) ، تفسير البيضاوي (١٥/٣٨٢) ، تفسير أبو السعود (٢/٢٣٠) ، تفسير السيوطي (٤/١٩٩ وما بعدها) ، تفسير الكشاف (٢/١٩٧) ، ارشاد الساري (٧/٢١٢) .

الروح مذكر والنفس مؤنثة[1] . وقال بعض آخر الروح هو الذي بـه الحياة ، والنفس هي التي بها العقل ، فإذا نام النائم قبضت نفسه ، ولم يقبض روحه ، ولا يقبض الروح إلا عند الموت . وذكـر بعض العلماء : لكل انسان نفسان : احداهما نفس التمييز ، وهي التي تفارقه اذا نام ، فلا يعقل بها ، والأخرى نفس الحياة ، واذا زالت زال معها النفَس ، والنائم يتنفس . وقد يراد بالنفس الدم ، وفي الحديث : ما ليس لـه نفس سائلة ، فإنه لا ينجس المـاء اذا مات فيه . فعبر عن الدم بالنفس السائلة ، وكما ورد في قول السموأل :

تسيل على حد الظبات نفوسنا   وليست على غير الظبات تسيل

وانما سمّي الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه[2] .

وقد يعبر بها عن الانسان جميعه ، وعن الجسد[3] . وهناك كلمة أخرى ترد في معنى (الروح) ، هي (النسيم) . و (النسم) نفس الـروح كالنسمة ، يقال ما بها نسمة ، أي نفس ، وما بها ذو نسم ، اي ذو روح . والنسم نفس الريح اذا كان ضعيفاً كالنسيم[4] . وقد ربطوا بين النسيم والروح ، لمـا كان قد علق في أذهانهم اذ ذاك من ان الروح نوع من انواع النسيم ، وهو النفس الذي يتنفسه الانسان ، ومن ان النفس من النسيم كذلك ، وان بـين التنفس والنفس صلة ، والتنفس يكون بالنسيم . ولهذا قالوا لمن يموت موتاً طبيعياً : (مات حتف أنفه) ، و (مات حتف فيه) ، والحتف الموت ، لأن نفسه يخرج بتنفسه من أنفه او فيه . ولأنهما نهاية الرمق ، ومنهما يكون التنفس[5] .

ويظهر من دراسة معاني الكلمات المذكورة ، أن لفظـة (نفس) هي بمعنى الإنسان والجسد في الشعر الجاهـلي القديم ، أما (الروح) ، فبمعنى النفس ،

---

١ تاج العروس (١٤٧/٢) ، (روح) .
٢ اللسان (٢٣٣/٦ وما بعدها) ، (نفس) .
٣ اللسان (٢٣٤/٦ وما بعدها) ، (نفس) .
٤ تاج العروس (٧٤/٩ وما بعدها) ، (نسم) ، اللسان (٤٦٢/٢) ، تـاج العروس (١٤٧/٢) .
٥ تاج العروس (٦/حتف) .

أي التنفس واستنشاق الهواء والريح[1] . وتقابل لفظة (نفس) لفظة (نيفش) Nephesh في العبرانية ، وتطلق علـى نفس كل كائن حي ، من إنسان أو حيوان ، وبهذا المعنى وردت في العهد القديم[2] . وتقابل لفظة Soul في الانكليزية و Seele في الألمانيـة . وقد استعملت لفظة Psyche اليونانية بمعنى نفس في العهد الجديـد[3] . ومن هذه اللفظة اليونانية أخذ العلماء مصطلحهم Psychology Psychologie ، أي علم النفس ، ثم مصطلحات العلوم الأخرى المتعلقة بموضوع النفس . وهي في الوقت الحاضر علوم عديدة .

أما لفظة (الروح) ، فتقابل كلمة (روح) Ruach في العبرانية ، ولفظة Spirit في الانكليزية ، و Geist في الألمانية . وتكون في مقابل النفس في علم النفس، وتقابل لفظة Pneuma في اليونانية ، ومعناها الهواء والريح والنفس .

ونجد بين المعاني التي ذكرها علماء العربية للألفاظ المذكورة ، وهي : النفس، والريح ، والهواء ، والنسيم ، وبين المعاني الواردة في اللغات الأعجمية عنها شبهاً كبيراً ، يرجع الى وجهة نظر الإنسان في تفسير مظاهر الحياة ، وشعوره بوجود شيء في نفسه خارج عن حدود المادة ، أي عن الجسم او الجسد ، لا يمكن أن يمسكـه ولا أن يلمسه ، فسمّاه (نفساً) تارة وسماه (روحاً) تارة أخرى ، وفرق بين الاثنين تارة ثالثة . وقد تصور أن النفس والروح ، شيئان لهما علاقـة بالحياة . فنسب الحياة اليهما او الى أحدهما . ونظراً الى أنهما غير محسوسين ، ولا يمكن الامساك بهما أو لمسهما ، تصورهما الانسان تصوراً يختلف باختلاف درجـة مداركه ومقدار ثقافته ودرجة ما توصل اليه من علم في ذلك الوقت .

وقد تصور اليونان النفس ، على انها هواء ونسيم ، وتصوروها على هيأة طائر صغير في شكل الانسان ، او على شكل طير ، او فراشة[4] . وهو تصور عرف عند غيرهم ايضاً ، بل يكاد يكون الغالب على الناس . ولا زال الناس يصورون الروح على هيأة طائر ، يسبح في الفضاء ، فإذا مات الانسان صعدت روحه الى خالقهـا ، او الى السماء . فالأرواح طيور تكون في الانسان ، اذا انفصلت عن

---

١ Shorter Ency., p. 433.

٢ التكوين ، الاصحاح الاول ، الآية ٢٠ .

٣ انجيل متى ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٢٦ . Hastings, p. 872.

٤ H. Schmidt, Philosophisches Wörterbuch, S. 518.

الجسد مات ، وأخذت هي تطير مرفرفة في الأعالي . وبهذا الرأي أخذ بعض الجاهليين تفسير النفس . تصوروا (النفس طائراً ينبسط في الجسم ، فإذا مات الانسان او قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً بصدح على قبره) . (وكانوا يزعمون ان هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبداً مستوحش،ويوجد في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور ، وانها - أي النفس - لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون من بعده فتخبره)[١] . وزعموا انه اذا قتل قتيل ، فلم يدرك به الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة ، وهي الهامة ، والذكر الصدى ، فيصيح على قبره اسقوني اسقوني ، فإن قتل قاتله كفّ عن صياحه . وكان بعضهم يقول ان عظام الموتى تصير هامة وتطير. وذكر ان الصدى حشو الرأس ، ويقال لها الهامة أيضاً ، او الدماغ نفسه[٢] .

وكان من زعم بعض الجاهليين ، ان الانسان اذا مات او قتل اجتمع دم الدماغ او أجزاء منه ، فانتصب طيراً هامة،ترجع الى رأس القبر كل مئة سنة[٣] . ويرجع هذا الرأي الى عقيدة قديمة تعتبر الدم مقراً للنفس ، بل تجعل الدم في معنى النفس ، والنفس في معنى الدم ، وذلك للصلة الوثيقة الكائنة بين الدم والنفس ، ولأن الانسان اذا قتل سال دمه ، فتخرج روحه بخروج الدم من الجسم ، اي خروج النفس من الدم ، بعد ان كانت كامنة فيه . ويمثل هذا الرأي رأي العبرانيين ايضاً في النفس وفي صلتها بالدم ، ورأي غيرهم من الشعوب[٤] .

وكان اعتقادهم أن مقر الدم ومركز تجمعه في الدماغ ، ومن هنا قيل : بنات الهام : مخ الدماغ[٥] ، فلا غرابة إذا تصوروا ان الروح تنتصب فيه ، فتكون هامة تخرج من الرأس ، وتطير . ويكون خروجها من الأنف او الفم ، لأن النفَس يكون منها . فتتجمع الأرواح حول القبور ، ويكون في وسعها مراقبة أهل الميت وأصدقائه ونقل أخبارهم اليه . ولهذا السبب ، تصوروا المقابر مجتمع

---

١ بلوغ الارب (٢/٣١١) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٠٧) ، (صدى) ، (٩/١١٢) ، اللسان (١٦/١٠٨) ، المعاني الكبير (٢/٩٥١ ، ١٠٠٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٢/١٩٩ ، ٣١١) ، الروض الأنف (٢/١٠٩) .
٤ Hastings, p. 101.
٥ اللسان (١٢/٦٢٥) ، (هوم) .

الأرواح ، تطير فيهـا مرفرفة حول القبور . والى هـذه العقيدة أشير في شعر أبي دُواد :

سلّط المـوت والمنون عليهم فلهم في صدى المقـابر هام

وكذلك في شعر للشاعر لبيد :

فليس الناس بعـدك في نقير وليسوا غير أصداء وهـام[1]

ولهذا سمّوا الدماغ (الطائر) لأنهم تصوروه على صورة طير . قال الشاعر :

همُ أنشبوا صم القنا في نحورهم وبيضاً تقيض البيض من حيث طائر

عنى بالطائر الدماغ . وعبر عنه للسبب المذكور بـ (الفرخ)[2]

وورد أن (الصدى) ما يبقى من الميت في قبره ، وهو جثته[3] ، وقيل : حشوة الرأس ، أي دماغ الانسان الهامـة والصَّدَى . وكانت العرب تقول إن عظام الموتى تصير هامة فتطير . وقال بعض الأخباريين : إن العرب تسمي ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت اذا بلي ، الصدى[4] .

وقد نهى الإسلام عن الاعتقاد بالصدى والهامة . ورد في الحديث : « لا عدوى ، ولا هامة ، ولا صفر »[5] .

وذكر بعض العلماء أن المراد من (صفر) في الحديث النبوي المذكور دابة يقال إنها أعدى من الجرب عند العرب ، فأبطل النبي أنها تعدي . وقال بعض آخر أراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو تأخيرهم المحرم الى صفر في تحريمه وجعل صفر هو الشهر الحرام ، فأبطله الرسول[6] .

---

١ اللسان (٦٢٤/١٢ وما بعدها) ، (هوم) ،تاج العروس (١١٢/٩) ، (هيم) .
٢ تاج العروس (٢٧٢/٢) ، (فرخ) ، (٣٦٤/٣) ، (طير) .
٣ قال النمر بن تولب ، وهو من المخضرمين :
أعاذل أن يصبـح صداي بقفـرة بعيـدا نآنـي ناصري وقريبـي
البرقوقي (ص ٧٥) .
٤ أضربك حيث تقول الهامة اسقوني
البرقوقي (ص ٧٦) .
٥ اللسان (٦٢٤/١٢) ، (هوم) ،تاج العروس (١١٢/٩) ، (هيم) .
٦ اللسان (١٣٣/٦) ، (٤٦٣/٤) ، (صفر) ، (صادر) .

وقد لخص (المسعودي) آراء أهل الجاهليـــة في النفس والروح ، فقال : « كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس ، وآراء ينازعون في كيفياتها ، فنهم من زعم ان النفس هي الدم لا غير ، وان الروح الهـواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه ، ولذلك سمّوا المرأة منه نفساء ، لما يخرج منها من الدم ، ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفسٌ سائلة اذا سقط في الماء : هل ينجسه ام لا ؟ قال تأبط شراً لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله ، كيف كانت قصته ؟ فقال : ألجمته عضباً ، فسالت نفسه سكبـــاً . وقالوا ان الميت لا ينبعث منه الدم ، ولا يوجد فيه ، بدأ في حال الحياة ، وطبيعته طبيعة الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات بقي اليبس والبرد ، ونفيت الحرارة »[1] .

ثم تطـــرق (المسعودي) الى رأي من قال ان النفس طائر ينبسط في جسم الانسان ، فإذا مات او قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً اليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً ، يسمونه الهام ، والواحدة هامة[2] .

ونظراً الى قلة ما لدينا من موارد عن الروح والنفس وعلاقتها بالجسد ، عند الجاهليين ، فإننا لسنا في وضع نستطيع فيه ان نتحدث عن رأي عموم الجاهليين في تركيب الانسان . هل هو من (جسد) و (روح) ، أو (جسد) و (نفس) أي ثنائـــي التركيب ، او انه من (جسد) و (روح) و (نفس) ، اي ثلاثي التركيب . فقد رأينا انهم يجعلون الـــروح والجسد شيئاً واحداً أحيانـــاً ، ويفرقون بينهما أحياناً اخرى . ولكننا نستطيع ان نقول ان غالبيتهم كانت ترى ان الانسان من جسد ، هو الجسم ، أي مادة ، ومن شيء لطيف ليس بمـــادة هو الروح او النفس ، وهما مصدرا القوى المدركة في الانسان ومصدرا الحياة . وان بانفصالها عن الجسد ، او بانفصال الجسد عنها يقع الموت .

ويظهر من مخاطبات الوثنيين للأصنام ، كأنهم كانوا يتصورون أن لها روحـاً وأنها تسمع وتجيب . ومن الجائز حلول الروح في الجماد . وقد ورد عن (ابن الكلبي) عن (مالك بن حارثة) أن والد مالك هذا كان يعطيه اللبن ، ويكلّفه

---

١ مروج (٢/١٣٢) .
٢ مروج (٢/١٣٣) .

بأن يذهب به الى الصنم ود ليسقيه،فكان مالك يشربه سراً ويبخل به على صنمه[1] . واذا صح خبر ابن الكلبي هذا ، فإنه يدل على (حارثة) ، وربما غيره أيضاً من عبدة الأصنام ، كان يرى ان الصنم يعقل ويدرك ، يسمع ويرى ، وانه وان كان من حجر ، إلا أنه ذو روح . كما ورد أن من المشركين من كان يرى أن الشمس ملك من الملائكة ذات نفس وعقل[2] .

ويتبين من تشديد النبي في تسوية القبور مع الأرض ، ومن لعن المتخذين على القبور المساجد والسُرُج ، ومن النهي عن الصلاة الى القبور ، ومن حديث : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[3] ، ان المشركين كانوا يقدسون قبور اسلافهم ، ويتقربون اليها ، لزعمهم انهم أحياء ، لهم أرواح ، تعي وتسمع وتدرك ، وتفرح وتغضب وتجيب ، وتنفع وتضر ، ولهذا حاربها الرسول ، وأمر بتسوية القبور ، ابعاداً عن أمر الجاهلية في ذلك ، وخشية العودة الى ما كانت عليه : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى »[4] ، تعبير عن معنى هذه المشاركة وعن رأيهم في عبادة الأصنام .

الرجعة :

واعتقد قوم من العرب في الجاهلية بالرجعة: اي الرجوع الى الدنيا بعد الموت. فيقولون ان الميت يرجع الى الدنيا كرة أخرى ويكون فيها حياً ، كما كان[5] . ولعل هذه العقيدة هي التي حملت بعض الجاهليين على دفن الطعام وما يحتاج الانسان في حياته اليه مع الميت في قبره ، ظناً منهم ، انه سيرجع ثانية الى هذه الدنيا ، فيستفيد منها ، فلا يكون معدماً فقيراً . ويفهم من كتب الحديث ان من الناس

---

١ بلوغ الارب (٢/٢١٤) .

٢ بلوغ الارب (٢/٢١٥) .

٣ بلوغ الارب (٢/٢١٤) .

٤ الزمر ، الرقم ٢٩ ، الآية ٣ .

٥ تاج العروس (٥/٣٤٨ وما بعدها) ، (رجع) ، (والرجعة : مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم . ومذهب طائفة من فرق المسلمين من أولي البدع والاهواء ، يقولون ان الميت يرجع الى الدنيا ويكون فيها حيا كما كان) ، اللسان (٨/١١٤) ، (رجع) .

من سأل الرسول عن الرجوع الى هذه الدنيا [1] ، مما يشير الى معرفة القوم عند ظهور الاسلام بهذا الرأي .

و « لمّا توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عمر بن الخطاب ، فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله توفي،وان رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع بعد ان قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن ايدي رجال وأرجلهم يزعمون ان رسول الله مات » . ثم جاء (أبو بكر) « وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ؟ فأنصت ، فأبى إلا ان يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ايها الناس ، انه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل [2] .. الى آخر الآية » . « وقال عمر : والله ما هو إلا ان سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت على الأرض ، ما تحملني رجلاي ، وعرفت ان رسول الله قد مات » .

وقد اعتقد بعض الجاهليين بـ (المسخ) . وهو تحول صورة الى صورة أخرى أقبح ، وتحول انسان الى صورة أخرى أقبح ، او الى حيوان . كأن يصير إنسان قرداً ، او حيواناً آخر [3] ، او الى شيء جماد . من ذلك ما يراه بعض أهل الأخبار عن (اللات) ، من انه كان رجلاً يلت السويق عند صخرة بالطائف، فلما مات قال لهم (عمرو بن لحيّ) ، إنه لم يمت ، ولكنه دخل الصخرة ،ثم أمرهم بعبادتها وبنى بيتاً عليها يسمى اللات [4] . وما رووه ايضاً عن (أساف) و (نائلة) ، من أنهما كانا رجلاً وامرأة ، عملا عملاً قبيحاً في الكعبة،فمسخا حجرين [5] . وما رووه من أن (سهيلاً) كان عشاراً على طريق اليمن ظلوماً ،

---

١ النهاية (٢/ ٧٢) ، (رجع) .
٢ سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ (٢٢ الطبري (٣/ ٢٠٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٢/ ٢٧٩) ، (مسخ) .
٤ تاج العروس (١/ ٥٨٠) ، (لت) .
٥ تاج العروس (٦/ ٤٠ وما بعدها) . (اسف) ، اللسان (١٠/ ٣٤٨) ، الاصنام (٩ ، ٢٩) ، الروض الآنف (١/ ٦٤) ، المحبر (٣١٨) .

فسخه الله كوكباً [1] .

وورد أن بعض الملائكة عصى الله فأهبط الى الأرض في صورة رجل تزوّج أم جرهم فولدت له جرهماً . وأن ما تولد بين الملك والآدمي يقال له (العلبان)[2]. وان (النسناس) جنس من الخلق يثب أحدهم على رجل واحدة ، أصلهم حيّ من عاد عصوا رسولهم فسخوا نسناساً ، لكل إنسان منهم يد ورجل من شق واحد ، ينقزون كما ينقز الطائر ويرعون كما ترعى البهائم[3] .

وقد ذكر (الجاحظ) أمثلة من امثلة المسخ التي وقعت للحيوان على اعتقاد الناس ، من ذلك : اعتقادهم ان السمك (الجريّ) والضباب كانتا أمتين من الأمم مسختا . واعتقادهم ان (الإربيانة) كانت خيّاطة تسرق السلوك ، وانها مسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها ودليلاً على جنس سرقتها ، ومن ان (الفأرة) كانت طحّانة ، والحية كانت في صورة جَمَل ، وان الله عاقبها حتى لاطها بالأرض ، وقسم عقابها على عشرة اقسام ، حين احتملت دخول ابليس في جوفها حتى وسوس الى آدم من فيها . ومن ان الإبل خلقت من أعناق الشياطين ، وان الكلاب امة من الجن مسخت ، وان الوزغة والحكأة من ممسوخ الحيوان[4] .

ومن أمثلة المسخ : جرهم ،فقد زعم ان جرهماً كان من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم . وكان بعض الملائكة قد عصى الله ، فأهبط الى الأرض في صورة رجل ، تزوج أم جرهم فولدت له جرهماً [5] . وزعموا ان سهيلاً كان عشاراً باليمن ، فلما ظلم مسخه الله نجماً [6] . و (الزهرة) ، وقد زعموا انها كانت بغياً عرجت الى السماء فسخها الله شهاباً [7] . و (البسوس) ، وقد زعموا انها كانت امرأة مشؤومة اسمها : البسوس ، أعطي زوجها ثلاث دعوات مستجابات ، وكان له منها ولد ، فكانت محبّة له . فقالت اجعل لي منها دعوة واحدة . قال : فلكِ واحدة . فماذا تريدين ؟ قالت : ادع الله ان يجعلني أجمل امرأة

---

١ تاج العروس (٧/ ٣٨٤) ، (سهل) ، الحيوان (١/ ٢٩٧) .
٢ الحيوان (١/ ١٨٧) ، (٤/ ٧٠) ، حاشية (٦) .
٣ تاج العروس (٤/ ٢٥٧) ، (نس) .
٤ الحيوان (١/ ١٥٢ ، ٢٩٧) ، (٦/ ٦٨ ، ١٥٥) ، (٤/ ٦٨) .
٥ الحيوان (١/ ١٨٧) ، (٤/ ٦٩) ، الروض الآنف (١/ ٩٧) .
٦ الحيوان (١/ ٢٩٧) ، (٤/ ٦٩) .
٧ الحيوان (٤/ ٦٩) .

في بني اسرائيل . ففعل فرغبت عنه ، لما علمت أن ليس فيهم مثلها ، فأرادت سيئاً . فدعا الله تعالى عليها أن يجعلها كلبة نبّاحة ، فذهبت فيها دعوتان . فجاء بنوها ، فقالوا : ليس لنا على هذا قرار ،قد صارت أمنا كلبة يعيرنا بها الناس : فادع الله تعالى ، أن يردهـا الى حالها التي كانت عليها ، ففعل . فعادت كما كانت : فذهبت الدعوات الثلاث بشؤمها ، وبها يضرب المثل[1] .

ونجد عقيدة (المسخ) عند غير العرب أيضاً . ففي التوراة أن الله مسخ امرأة لوط ، فصارت عمود ملح[2] . ونجدها عند الهنود وعند غيرهم من الأمم القديمة . وقد تسرب من اليهودية الى العرب المسلمين كثير من القصص الوارد في المسخ .

وقد أنكر بعض المتكلمين (المسخ) ، وأنكره قوم آخرون ، لكنه جوّزوا (القلب) . وهو أن يُقلب ابن آدم قرداً من غير أن ينقص من جسمه طولاً أو عرضاً[3] .

الزندقة :

وقد أشار بعض الأخباريين الى اعتقاد بعض قريش بالنور والظلمة ، زاعمين انهم أخذوه من الحيرة . ويسمي الأخباريون أصحاب هذا الرأي (الثنوية) ، وأطلقوا على تلك الفئة المذكورة من قريش : (الزنادقة)[4] . ولم يذكروا شيئاً عن زندقة تلك الجماعة من قريش ولا عن رجالها . وأشار بعض أهل الأخبار الى وجود الزندقة والتعطيل في قريش : « وكانت الزندقة والتعطيل في قريش »[5] . وقد وصفوا الزنديق بأنه القائل بدوام بقاء الدهر[6] ، ولا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الخالق . فهو دهري ملحد لا يؤمن بوجود إلـه واحد ، وهو من (الثنوية) على

١ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .
٢ التكوين ، الاصحاح ١٩ ، الآية ٢٤ وما بعدها .
٣ الحيوان (٤/٧٣) .
٤ اللسان (١٢/١٢) « زندق » ، (١٠/١٤٧) ، « بيروت ١٩٥٦ » ، تاج العروس (٦/٢٧٣) ، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة) ، المعارف (٦٢١) ، المعرب ، للجواليقي (١٦٦) .
٥ البدء والتأريخ ، (٤/٣١) ، بلوغ الارب (٢/٢٢٨) .
٦ اللسان (١٠/١٤٧) « بيروت ١٩٥٦ » ، اللسان (١٢/١٢) ، « زندق » « بولاق » .

رأي بعض العلماء[1] . والى هذا المعنى في تفسير زندقة قريش ، ذهب أكثر أهل الأخبار . وقد عدّ (أبو العلاء) المعري (شداد بن الأسود الليثي) المعروف أيضاً بـ (ابن شعوب) ، وهـي أمه ، شاعر زنادقة قريش . وذلك لشعره الذي فيه :

ألا من مبلغ الرحمن عني بأني تارك شهر الصيام
اذا ما الرأس زايل منكبيه فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا ابن كبشة أن سنحيا ؟ وكيف حياة أصداء وهام
أتترك ان ترد الموت عني وتحييني اذا بليت عظامي[2]

والزندقة كلمة معربة ، ذكر علماء اللغة انها أخذت من الفارسية ، أريد بها في الأصل الخارجون والمنشقون على تعاليم دينهم ، فهي في معنى (هرطقة) . وقد صار لها في العهدين : الأموي والعباسي مدلول خاص ، حيث قصد بها (الموالي الحمر) ، الذين تجمعوا في الكوفة ، وكانوا يظهرون الاسلام ويبطنون تعاليم المجوسية والإلحاد[3] .

وفي كلام أهل الأخبار عن الزندقة ووصفهم لزندقة قريش إبهام وغموض وخلط. وإذا كان الزنديق هو القائل ببقاء الدهر ، وبعدم وجود عالم ثان بعد الموت ، فتكون الزندقة (الدهرية) ويكون الزنديق هو الدهريّ لقوله بالدهر وبأبدية الكون والمادة[4] . أما القول بالثنوية : بالنور والظلمة ، وبالكفر والالحاد، فشيء آخر ، يختلف عن القول بالدهر . والظاهر أن الجمع بين القول بالدهر وبالقول بالنور والظلمة وبالكفر والالحاد ، إنما وقع في الإسلام ، بسبب الخلط الذي وقع بين المعنى المفهوم للفظة في الفارسية القديمة وفي الفارسية الحديثة ، وبالمعنى الذي ظهر للكلمة في الإسلام . والذي تحول الى زندقة بغيضة تحوي العناصر المذكورة، والتي كانت تؤدي بمن يتهم بها الى القتل .

---

١ اللسان (١٤٧/١٠) ، (زندق) ، الغزالي ، فيصل المتفرقة بين الاسلام والزندقة (١٧٣) ، (١٩٦١) .
٢ رسالة الغفران (٤٢١ وما بعدها) .
٣ « والحمراء العجم ، لبياضهم ، ولان الشقرة أغلب الالـوان عليهم » ، اللسان (٢٨٨/٥) « حمر » ، Shorter Ency. of Islam, p. 659, Muh. Stud., I, S. 150.
٤ المعرب (ص ١٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١٢/١٢) ، (١٤٧/١٠) ، طبعة دار بيروت «١٩٥٦ م » .

وقد أشير في القرآن الكريم الى وجود القائلين بالدهر : « وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا ، نموت ونحيــا ، وما يهلكنا إلا الدهر »[1] . وهم على حــد قول المفسرين والأخباريين ، من لا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الله . وهو مذهب ودين كان عليه كثير من أهل الجاهلية ، يسخر من البعث بعد الموت ، ويرى استحالة ذلك . ولم يذكر المفسرون أن من عقيدة هؤلاء القول بالثنوية،أي بالنور والظلمة، وبوجود إلهين : إلـه الخير وإلـه الشر .

وقد ذكر (محمد بن حبيب) أسماء (زنادقة قريش) ، فجعلهم : (أبو سفيان ابن حرب) ، و (عقبة بن أبي معيط) ، و (أبي بن خلف الجمحي) ، و (النضر بن الحارث بن كلدة) ، و (منبه) و (نبيه) ابنا (الحجاج) السهميان ، و (العاص بن وائل) السهمي ، و (الوليد بن المغيرة) المخزومي . وذكر انهم (تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة)[2] . فربط هنا بين الزندقة وبين (نصارى الحيرة) . وقد ذهب (ابن قتيبة) أيضاً ، الى أخذ قريش الزندقة من الحيرة[3] .

والذي نعرفه عن المذكورين،انهم كانوا من المتمسكين الأشداء بعبادة الأصنام . وقد كان (أبو سفيان) يستصرخ (هبل) على المسلمين يوم أُحد ، ويناديه : (أُعلُ هُبَلُ ، أُعلُ هُبَلُ) ، وقد نص على انه كان من أشد المتحمسين لعبادة الأصنام[4] . ولم يذكر أحد من أهل الأخبار ، انهم كانوا ثنويين على رأي المجوس ، يقولون بإلهين ، بالنور والظلمة ، وانهم تعبّدوا للنــار ، أو تأثروا برأي مزدك أو ماني الذي أضيف اليه الزنادقة ، ولا نجد في آرائهم المنسوبة اليهم وفي حججهم في معارضة الرسول ما يشير الى (زندقة) بمعنى (ثنوية) ، لذلك فزندقة من ذكرت لا يمكن أن تكون بهذا المعنى ولا على هذه العقيدة[5] .

وللوقوف على زندقة من ذكرت من رجال قريش ، ولتحديد معنى زندقتهم ، يجب الرجوع الى ما نسب اليهم من آراء والى مــا عارضوا به الرسول وحاربوه

---

١ الجاثية ، الآية ٢٣ .

٢ المحبر (١٦١) ، (زنادقة قريش) .

٣ المعارف (٦٢١) ، الاعلاق النفسية (٢١٧) .

٤ اللسان (٢١٢/١٤) ، تاج العروس (١٦٢/٨) ، (هبل) ، الاصنام (٢٨) .

٥ راجع معنى الزندقة في مروج الذهب (٢٧٥/١) ، (أثناء حديثه على بهرام) .

من أجله . ويمكن حصر ذلك في أمرين : التقرب الى الأصنام والتعبد لها،والدفاع عنها بقولهم : « ما نعبدهم إلاّ ليقربونا الى الله زلفى »[1] ، ولا علاقة لهذه العقيدة بالزندقة . والأمر الثاني ، هو القول بالدهر وبالتعطيل ، أي بنكران البعث والحشر والنشر . ويتجلى ذلك في قولهم لرسول الله : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فابعث لنا جدّك : (قصي بن كلاب) ، حتى نسأله عمّا كان ويحدث بعد الموت ، وأمثال ذلك مما له علاقة بنفي وقوع البعث . وهو الذي له صلة بالزندقة . فالزندقة بهذا المعنى قول بالدهر وبدوامه ونكران للبعث ، لا الثنوية بمعنى القول : بالنور والظلمة .

وأما ما يرويه أهل الأخبار من أخذ زنادقة قريش زندقتهم من الحيرة[2] ، أو من نصارى الحيرة[3] ، فإن فيه تأييداً لما قلتـه من أن الزندقة لا تعني المجوسية والثنوية ، وإنما القول بالدهر ، وانكار المعاد الجسماني[4] . وهو قول قريب من قول من أنكر بعث الأجسام ، وآمن ببعث الروح فقط من النصارى ومن غيرهم من أهل الأديان .

والزندقة بهذا المعنى قريبة من رأي القائلين بالدهر ، وهم (الدهرية) الذين أشير اليهم في القرآن الكريم ، في الآية : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر)[5] . وهم من يقول ببقاء الدهر ، وبنكران البعث والآخرة ، والخالق والرسل والخلق على بعض الآراء ، وينسبون كل شيء الى فعل الدهر ، أي الأبدية مع التأثير في حياة الانسان وفي العالم . ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ والنعوت التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة فقالوا : يد الدهر ، وريب الدهر ، وعُدواء الدهر ، و (الدهر لا يبقي على حدثانه) ، و (الدهر يحصد ريبه ما يزرع) ، وأمثال ذلك من تعابير ، فنسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما فيه[6] .

---

١ الزمر ، سورة رقم ٣٩ ، الآية ٣ .
٢ المعارف (٦٢١) .
٣ المحبر (١٦١) .
٤ مروج (١٠٢/٢) ، (ذكر ديانات العرب وآرائها في الجاهلية) .
٥ الجاثية ، سورة رقم ٤٥ ، الآية ٢٤ ، تفسير الطبرى (١٥١/٢٥) ، (القاهرة ١٩٥٤) .
٦ ألم أخبرك أن الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجالا
ألا انما الدهر ليال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر
السندوبي (٨٣ ، ١٧١) .

ونسبوا الإماتة الى الدهر ، فقالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » أي وما يميتنا إلا الأيام والليالي ، اي مرور الزمان وطول العمر ، انكاراً منهم للصانع . قال أحدهم :

فاستأثر الدهــر الغداة بهم　　والدهــر يرميني وما أرمــي
يا دهر قد أكثرت فجعتنا　　بسراتنا ووقرت في العظم[1]

فكانوا في الجاهلية يضيفون النوازل الى الدهر ، والنوازل تنزل بهم من موت أو هرم ، فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر ، فيجعلون الدهر الذي يفعله ، فيذمونه ويسبونه . وقد ذكروا ذلك في أشعارهم[2] .

ومن الجمل التي تنسب الفعل الى الدهر ، قولهم : « أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر » ، والدهر يجلب الحوادث ، ففي هذه الجمل وأمثالها معنى أن ما ينزل بالإنسان من قوارع ، وما يحلّ به من إبادة هو بفعل الدهر ، فهو إذن المهيمن على العالم والمسخر له[3] .

وقد كان هــذا الاعتقاد راسخاً في نفوس كثير من الجاهليين ، وفي نفوس كثير ممن أدرك الإسلام فأسلم ، فكانوا إذا أصيبوا بمكروه وبحادث مزعج نسبوا حدوثه الى الدهر : فسبّوه كما يتضح من حديث : « لا تسبّوا الدهر ، فــإن

١　تفسير الطبرسي (٢٥/١٣٦) ، (بيروت ١٩٥٥) ، (٢٥/٧٨ وما بعدها) ، (طبعة طهران) .
٢　تاج العروس (٣/٢١٨) ، (دهر) .
٣　ديار بني سعد بن ثعلبــة الالي　　أذاع بهم دهر على النــاس دائب
فأذهبهم ما أذهب النــاس قبلهم　　ضراس الحـروب والمنايا العواقب
Caskel, S. 45.
ولست اذا ما الدهر أحدث نكبة　　ورزءا بزوار القرائــب أخضعــا
Caskel, S. 50.
والا تعاديني المنيــة أغشكــم　　على عـدواء الدهر جيشـا لهامــا
Caskel, S. 51.
ابن قتيبة : الشعراء (٢٢٩) ،
غنينـــا زمانـا بالتصعلك والغنى　　كما الدهر في أيامه العسر واليسر
Caskel, S. 51.
قال زهير بن أبي سلمى :
واستأثر الدهـر الغــداة بهـــم　　والدهــر يرمينــي ولا أرمــى
ديوان زهير (٣٨٥) .

اللهَ الدهر » ، أو (فإن الدهر هو الله) . ومن حديث : « يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهرَ ، وإنما أنا الدهر : أقلب الليل والنهار »[1] . وأحاديث أخرى من هذا القبيل . وقد ذكر (الجاحظ) ، أن من الصحابة والتابعين والفقهاء من نهى الناس من قول : طلع سهيل وبرد سهيل ، وقوس قزح ، كأنهم كرهوا ما كانوا عليه من عادات الجاهلية ، ومن العود في شيء من أمر تلك الجاهلية ، فاحتالوا في أمورهم ، ومنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق[2] .

وفي هذين الحديثين توفيق لفكرة الجاهليين في الدهر ، وللعقيدة الإسلامية في التوحيد بأن صيّر الدهرُ اللهَ ، وصيره بعض العلماء من أسماء الله الحسنى . والذي حملهم على ذلك،على ما أرى ، صعوبة إزالة تلك الفكرة التي رسخت في النفوس منذ القدم عن فعل الدهر ، وعن أثره في الكون ، فرأى القائلون بذلك إزالتها بجعل الدهر اسماً من أسماء اللهِ ، أو هو الله تعالى ، وهو واحد أحد ، والدهر واحد أبدي أزلي كذلك ، فلا تصادم في هذا التوفيق بين الرأيين .

وقد وقع هذا التوفيق على ما أعتقد بعد وفاة الرسول في أمور عديدة نسبت الى الرسول،وقد ثبت عدم إمكان صدورها منه . وللحكم على صحة نسبة الحديثين الى الرسول أحيل القارىء على الطرق التي وردا بها ، والى آراء العلماء فيهما ، وأعتقد أنه إن فعل ذلك فسيجد في نسبتهما الى الرسول بعض الشك ، إن لم أقل كل الشكّ .

وتعبر لفظة (الزمان) عن معنى (الدهر) كذلك . وقد ذهب علماء اللغة الى ان الزمان ، أقصر من الدهر ، اذ يقع على الزمان القصير ، أما الدهر ، فالزمان الدائم ، أي الزمان الذي لا ينتهي بنهاية . وأنا لا يهمني في هذا المكان تفريق العلماء بينهما في الطول والقصر ، انما المهم عندي هو ان الجاهليين استعملوا الزمان استعمالهم للدهر ، ونسبوا اليه ما نسبوه للدهر من فعل في الانسان وفي الحياة والعالم . هذا (زهير بن أبي سُلمى) يتشكى منه في قصيدته التي يمدح بها (هرم بن سنان) . فيقول في مطلعها :

---

١ اللسان (٥/٣٧٨) ، (دهر) ، تاج العروس (٣/٢١٨) ، (دهر) ، المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي ، تفسير الطبرسي (٢٥/١٣٦) ، (بيروت ١٩٥٥) ، صحيح مسلم (١٥/٢ وما بعدها) .

٢ الحيوان (١/٣٤٠ وما بعدها) .

لمن الديارُ بِقُنّة الحجر أقوين من حجج ومن دهر
لعبَ الزمان بها وغيّرها بعدي سوافي المُورِ والقَطر[1]

وتجد اللفظة في أشعار غيره من الشعراء الجاهليين والاسلاميين تعبّر عن (غدر الزمان) وعن (كذبه)[2] وتلوّنه وتلاعبه بمقدرات الانسان[3]. وفي كل هذه المواضع التي استعملت فيها تعبير عن تلك العقيدة التي لا تزال راسخة في نفوس كثير من الناس، وهي ان الحياة قسمة ونصيب وحظ وبخت، وانه ليس لمخلوق على ما يقدره له القدر من سلطان. وان الزمان يلعب بالانسان وبالكون كيف يشاء، مع ان الانسان لو فكر في نفسه وتأمّل في عقله، لوجد انه هو الذي خلق الزمان اي الدهر فأوجده على صورته هذه، بأن حدده وعيّنه بسنين وبقرون، وليس الزمان إلا دوام وبقاء لهذا الكون، وليس له اي فعل حقيقي في هذا الكون، والانسان هو الذي أوجد السنين ليقيس بها طول الزمان، لحاجته الى معرفته، وان حسابه بالسنين مهما سيطول ؛ فإنه لن يبلغ ولن يكون في مقدوره بلوغ نهاية الكون.

والمعنى الذي نفهمه من (الدهر) في الشعر الجاهلي، هو الأبدية مع التأثير في حياة الانسان وفي العالم. ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة، فقالوا: يد الدهر، وريب الدهر، وعدواء الدهر، وأمثال ذلك من تعابير. فنسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما هو فيه[4].

---

١ وفي بعض الروايات «لعب الرياح»، شرح ديوان زهير (ص ٨٧)،
Caskel, S. 44.

٢ أفرحت أن غدر الزمان بفارس قلح الكلاب وكنت غير مغلب
يا مر قد كذب الزمان عليكم ونكأت قرحتكم ولما انكب
Caskel, S. 51.

٣ ولو سألت سراة الحي عني على أني تلون بي زماني
Caskel, S. 52.

٤ (والدهر لا يبقى على حدثانه)، «والدهر يحصد ريبه ما يزرع».
ألم أخبرك أن الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجالا
ألا انما الدهر ليال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر
Caskel, Die Schiksal in der Altarabischen Poesie, Leipzig, 1926, S. 48, W. L. Schramaier, über den Fatalismus der Varislamischen Araber, S. 12, Bonn, 1881.

ومن نسب اليه القول بالدهر ، الحارث بن قيس ، المعروف بابن الغيطلة[1] .

وتؤدي لفظة (الأيام) هذا المعنى كذلك ، بل استعملت أجزاء اليوم مثل (الليالي) للتعبير عن تلك الفكرة أيضاً . فالليالي هي كالأيام ، لا يمكن أن يطمأن اليها ، ولا ان يوثق بهـا ، إنها تتلون وتتبدّل ولا تخلص لأحد . وحيث أن الليالي هي أوقات الراحة والاستقرار والهدوء ، وأوقات الانس والطرب والإنفراد بالأحبة ، وهي أوقات الغدر والاغتيال والغارات والغزو في الوقت نفسه ، فيكون ذكرها في الشعر وتفضيلها على النهار وتقديمها عليه ، ونسبة الخير أو الشر اليها أكثر من نسبتها الى النهـار شيئاً طبيعياً . لذلك يجب ألا يستغرب ما نقرأه في الشعر وما نسمعه من أفواه الناس من نسبة تبدل الحال والتلون الى الليالي أكثر من النهار[2] .

وقد استعملت لفظة (عَوْض) في معنى الدهـر والزمان ، وردت في شعر شاعر من شعراء بكر بن وائل ، فعبر بهذه اللفظة عن زمانه . واستخدام بكري لهذه الكلمة ، يشير الى الصنم (عوض) الذي كانت بكر قبيلة هذا الشاعر تتعبد له[3] . وقد أقسموا بها ، فقالوا : (عوض لا يكون ذلك أبداً)[4] ، ولا أستبعد وجود صلة بينها وبين الصنم (عوض) .

وأما (الحِمام) ، فإنه قضاء الموت وقدره ، يقال : (حُمّ أجله) اي قضى وقدر[5] . وقد وردت لفظة (حم) ومتعلقاتها في أشعار عديدة بهذا المعنى . اي القضاء والتقدير . فورد (ما حُمّ واقع) . وورد (أحم الله ...) و (حمّه الله) ، و (حمت لميقاتي) ، و (حمّي) ، و (حمام الموت) ، و (حمام

---

١ انساب (١٣٢/١) .

٢ فان تـك غبراء الخبيبـة أصبحت — خلت منهم واستبدلت غير ابـدال
بما قد رأى الحي الجميع بغبطـة — بهـا والليالـي لا تدوم على حـال
Caskel, S. 45.

٣ « وعوض معناه أبدا أو الدهر . سمي به لانه كلما مضى جزء عوضه جزء أو قسم . أو اسم صنم لبكر بن وائل » ، القاموس (٣٣٧/٢) ، قال الاعشى :
حلفت بمائـرات حـول عـوض — وانصاب تركـن لـدى السعـير
وقيل ان هذا الشعر لرشيد بن رميض العنزي . والسعير اسم صنم كذلك ، تاج العروس (٥٨/٥ وما بعدها) ، (عوض) .

٤ تاج العروس (٥٨/٥) ، (عوض) .

٥ تاج العروس (٢٥٨/٨) .

النفس) ، و (حمام المنون) ، و (حمام)[1] . وهي من حيث هـذا المعنى كالحتف والأجل والآجال والحتوف والمنون .

القضاء والقدر :

ويسوقنا هذا الموضوع الى البحث عن فكرة القضاء والقدر عنـد الجاهليين . فقد كان بين أهل الجاهلية من كان يقول بالجبر ، وبأن الإنسان مسيّر لا مخيّر . وان كل ما يقع له مكتوب عليه،ليس له دخل في حدوثه . ومن هؤلاء القائلون بالدهر والمنون والحمام وما شاكل ذلك من مصطلحات تشير الى وجود هذا الرأي عندهم .

ولا يعني القول بالجبر ، ان قائله من المتألهين القائلين بوجود خالق أوجـد الكون ، فقد كان من المجبرة من كان ملحداً ، لا يقول بخالق ، وكان منهم من كان مشركاً . كما أن بينهم من كان يؤمن بوجود خالق أو جملة آلهـة . فليس لمذهب الجبر علاقة بالخالق ، وإنمـا هو مذهب يرى ان الإنسان مسيّر ، وأنه يسير وفق ما كتب له ، ومنهم من ينسبه الى علة : هي الله أو الدهر ، ومنهم من لا ينسبه الى أحد وهو مذهب موجود في اليهودية وفي النصرانيـة وفي الإسلام .

ونجد هذه العقيدة في شعر الشاعر النصراني (عديّ بن زيد العبادي)، وربما نجدها أيضاً عند سائر إخوانه النصارى ومن كان على هذا الدين مـن غيرهم من العرب . والـواقع ان الاعتقاد بوجود إلـه خلق الكون منفرداً ، أو آلهة خلقوا الكون مشتركين ، يحمل الانسان على أن يتصور نفسه أنه لا شيء تجاه خالقه أو آلهته وانه من صنعهم ، فمـا يقوم به ، هو من صنع الله أو من صنع الآلهة .

---

[1] قال البعيث :

الا يا لقـوم كل ما حـم واقــع　　وللطـير مجرى والجنوب مصارع

وقال الاعشى :

تــؤم سلامـــة ذا فـــائش　　هـو اليـوم حـم لميعادهـا

وقال خباب بن غزي :

وارمي بنفسي في فـروج كثـيرة　　وليس لامـر حمه الله صــارف

تاج العروس (٢٥٨/٨) .

وهي عقيدة لا بد أن يكون للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إذ ذاك دخل في شيوعها بينهم . ونكاد نجد أكثر الشعوب الشرقية على هذا الرأي . وأما مــا ظهر من نظرية حرية الارادة وقدرة الإنسان على خلق أفعاله واختياره ، فإنه من تأثير الفلسفة الاغريقية التي دخلت النصرانية .

ونرى (حاتم الطائي) وهو من النصارى على رأي ، مؤمناً بالقضاء وبالقدر وبما يأمر به الله ، اذ يقول :

اتيــح له من ارضه وسمائه حمامٌ ، وما يأمر به الله يفعل

فأسند الأمر والنهي في هذا البيت الى الله ، وأما الانسان فإنه مأمور مسيّر .

ونجده يكل أمره الى الله ، ويدعو قومه الى تسليم أمرهم للإلـه الذي يرزقهم اليوم ويرزقهم غداً :

كلوا اليوم من رزق الإلـه وأيسروا وإن على الرحمان رزقكم غـدا

ونجد (المثقب العبدي) مؤمناً بالله ، وبالقدر . فما يقع للانسان يكون بمشيئة الإلـه وقدره :

وأيقنت إن شاء الإلـه بأنه سيبلغني أجلادها وقصيدها [1]

و (القدر) و (المقدر) و (المقدور) و (الأقدار) و (القضاء) ، من الألفاظ القديمة التي كانت تؤدي هذا المعنى الذي نبحث فيه قبل الاسلام . واستعمال المتكلمين للقضاء والقدر وللقدرية ، لا يعني ان تلك الكلمات من الألفاظ التي نبعت في الاسلام . بل ان ظهورها في هذا العهــد واشتهارها فيــه ، هو لاستخدام العلماء لها في مدلولات معينة وفي مصطلحات وأفكار توسعت واستقرت في هذا العهد .

ونجد الاشارة الى القدر في شعر الجاهليين والمخضرمين بالمعنى الذي نقصده هنا ، اي شيء مقدر مفروض على كل انسان . هذا لبيد الشاعر المخضرم يذكــر ان ما يرزقــه هو من فضل الله عليــه ، ومــا يحرمــه فإنه مما يجري بــه

---

١ تاج العروس (٢/٤٦٨) ، (قصد) .

القدر[1] . ونجد فكرة القدر مركزة قوية صريحة في شعره ، فهو يعتقد ان القدر خيره وشرّه من الله ، وان ما يصيب الانسان مكتوب عليه ، ولا راد لما هو مكتوب . ولا دخل لامرىء في عمله ، فليحمد الله على خيره ، وليشكره على شرّه ايضاً ، فهو العالم وحده بما هو صالح وضار[2] . وشعره هذا لا بد ان يكون مما نظمه في الاسلام ، اذ لا يعقل ان يكون من نظم عصر وثني ، لما يتجلى عليه من الطابع الاسلامي في الفكر وفي الأسلوب والعرض .

كذلك نجد هذه العقيدة عقيدة القدر في شعر (زهير بن أبي سُلْمى) وفي شعر غيره من الشعراء . هذا زهير يقول : إن المنايا أمر لا مفرّ منه ، وإن من جاءت منيّته لا بد أن يموت ، ولو حاول الارتقاء الى السماوات فراراً منه[3] . ثم نجده يقول :

وجدت المنايا خبط عشواء من تصب　　تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم[4]

فليس للإنسان دخل في عمله ، وإنما كل شيء يقع له في حياته هو مكتوب عليه . مكتوب عليه أن يموت في أجله ، وأن يعيش الى أجله ، وان يكون غنياً وأن يكون فقيراً ، وليس للإنسان عمل على سلطان الحظ .

ومن القائلين بالقدر ، (عَبيد بن الأبرص) ، الشاعر الجاهلي الشهير ، المقتول في قصة معروفة مشهورة . نجد في الشعر المنسوب اليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع ، ونراه من المتشائمين المؤمنين بالمنايا وبالمحتّم المكتوب ، ونراه يتوكل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه ، فيقول :

---

١ فما رزقت فان الله جالبه　　وما حرمت فما يجري به القدر
ديوان لبيد (ص ٥٤) ، (طبعة ليدن ١٨٩١) .
ولا أقول اذا ما أزمة أزمت　　يا ويح نفسي مما أحدث القدر
Caskel, S. 20.

٢ من يبسط الله عليه اصبعا　　بالخير والشر بأي أولعا
ديوان لبيد (٨ ، ١١ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) ، (طبعة بروكلمن)
Ency., III, p. I.

٣ ومن هاب اسباب المنايا ينلنه　　ولو نال أسباب السماء بسلم
شرح ديوان زهير لثعلب (ص ٣٠) ، « وطر بالذي قد حم » ، Caskel, S. 54.

٤ الحيوان (٢/١٠٣) .

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كلّ خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علاّم ما أخفت القلوب[1]

ونراه يقول في المنايا :

فأبلغ بنيّ وأعمامهم بأن المنايا هي الوارده
لها مدة فنفوس العباد اليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا فللموت ما تلد الوالده[2]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال ، وينصح الناس بالسير على هذا المنوال . والذي يقرأ شعره ، يشعر انه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميّالة الى التقشف والتصوف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ او هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟.

ونجد (عمرو بن كلثوم) في جملة من آمن بالقضاء والقدر ، وبأن الموت مقدر لنا ، ونحن مقدرون له ، وذلك في قوله :

وأنّا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا[3]

وهو من المؤمنين بالله ، الحالفين به . وذلك كما جاء في بيت شعر نسبوه اليه :

معاذ الله يدعوني لحنث ولو أقفرت أياماً قتار[4]

وكما ورد في أشعار أخرى تنسب اليه .

والشاعر (لبيد) من هذه الطبقة التي اعتقدت ان الله خالق كل شيء ،

---

١ البيان والتبيين (١/٢٢٦) ، شعراء النصرانية ، القسم الرابع (ص ٦٠٧) .
٢ شعراء النصرانية ، القسم الرابع (٦٠٤ وما بعدها) .
٣ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٣٨٤) ، (البيت رقم ٧ من المعلقة) ، شرح القصائد السبع للزوزني (١٤٦ وما بعدها) ، جمهرة أشعار العرب (١٢٠) .
٤ المحبر (٤٧١) .

يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فلا دخل للانسان في عمله . تراه يقول :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل[1]

وتؤدي لفظة (منا) معنى القدر ، ومنها (الماني) بمعنى القادر ، و(المنيّة) بمعنى الموت ؛ لأن الموت مقدر بوقت مخصوص[2] . وهي من الكلمات السامية المشتركة الواردة في مختلف لهجات هذه المجموعة . ولهذه الكلمة صلة باسم الإلـه الكنعاني (منى) ، وهو إلـه القدر . ولها أيضاً صلة بالصنم (منوات) (منوت) من أصنام ثمود ، وبـ (مناة) من أصنام الجاهليين[3] .

ومن أصل (منا) (المنايا) الواردة في أشعار الجاهليين[4] . و (الماني) الواردة في شعر منسوب الى سويد بن عامر المصطلقي ، هو :

لا تأمن الموت في حلّ ولا حرم إن المنايا توافي كل إنسان
واسلك طريقك فيها غير محتشم حتى تلاقي ما يمنى لك الماني

في رواية . و :

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم حتى تلاقي ما يُمني لك الماني
فالخيرُ والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان

---

١ الاغاني (٩/١١٢) ، (٢١/١٢٦) .
٢ تاج العروس (١٠/٣٤٧ وما بعدها) .
ان المنية منهل لا بد أن أسقى بكاس المنهل
الاغاني (١٥/٧٩) ،
واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ولو كنت في بيت تسد خصاصه حوالي من أبناء نكرة مجلس
ولو كان عندي حازيان وكاهن وعلق أنجاسا على المنجس
اذا لاتتنى حيث كنت منيتي يخب بها هاد الى معرس
Caskel, S. 29.
٣ Caskel, S. 22, Ency. Religi. I, p. 661.
٤ وأن المنايا ثغر كل ثنية فهل ذاك عما يبتغى القوم محضر

وغبراء مخشي رداها مخوفة أخوها بأسباب المنايا مغرر
ديوان عروة بن الورد (ص ٣٨) ، (تحقيق نولدكه) ، كوتنكن ١٨٦٣) .

على رواية أخرى .

وفي هذا البيت الذي ينسبه بعض الرواة الى أبي قلابة الهُذلي :

فلا تقولن لشيء سوف أفعله   حتى تلاقي ما يمني لك الماني[1]

وتؤدي كلمة (المنون) معنى الدهر والموت[2] ، وقد تسبق بكلمة (ريب) في بعض الأحيان ، فيقال : (ريب المنون) كما يقال (ريب الدهر)[3] .

ويرى (نولدكه) ان هذه الكلمات هي أسماء آلهة ، وليست أسماء أعلام ، هي أسماء تعبر عن معان مجردة للألوهية ، وهي مما استخدم في لغة الشعر للتعبير عن هذه العقائد الدينية . فالزمان مثلاً أو الدهر ، لا يعنيان على رأيه هذا إلهاً معيناً ، ولا صنماً خاصاً ، انما هي تعبير عن فعل الآلهة في الانسان[4] .

وبعض هذه الكلمات — في رأي (ولهوزن) — مثل قضاء ومنيّة ، هي بقايا جمل اختصرت ، ولم يبق منها غير بقايا ، هي هذه الكلمات . فكلمة قضاء هي بقية جملة أصلها (قضاء الله) ، سقطت منها الكلمة الأخيرة ، وبقيت الأولى . وكذلك الحال في منية ، فإنها بقية جملة هي : منية الله ، سقط عجزها ، وبقي صدرها . وهي تعني ان المنية هي منية الله تصيب الانسان[5] .

يبدو ان من الغريب ذكر الدهر والزمان والحمام والمنايا وأمثالها في الشعر ونسبة الفعل اليها ، بينما يهمل ذكر الأصنام فيه أو نسبة الفعل الى الله . فهل يعني هذا ان الجاهليين لم يكونوا يعلمون ان لله سلطاناً وحولاً ، وان المنايا والحتوف وكل خير أو مكروه هو من فعل الله ؟ الواقع ان هذا الذي نذكره يذهب اليه أهل

---

١ تاج العروس (١٠/٣٤٧) ، اللسان (١٥/٢٩٢) ، (منى) .

٢ تاج العروس (٩/٣٥٠ وما بعدها) .

٣ « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » ، الطور ، الآية ٣٠ .

أإن رأت رجلاً أعشى أضر به   ريب المنون ودهر مفند خبل

تخوفني ريب المنون وقد مضى   لنا سلف قيس معاً وربيع

ديوان عروة بن الورد (ص ٤٣) ، نولدكه) ،

أمن المنون وريبها تتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

Caskel, S. 41.

٤ Ency. Religi., I, p. 661.

٥ Reste, S. 222.

الجاهلية ولم يقصدوه . وما ذكر الدهر في الشعر ، إلا كتشكّي الناس من الزمان او من الحظ او النصيب في هذه الأيام . وشكواهم من ذلك لا يعني تحديد سلطان الله ، أو نكرانه ، وانما هو بقية من تصور انساني قديم بنسبة كل فعل وعمل الى قوة خفية هي القوة العاملة ، وهي ما عبرت عنها بالدهر وبالزمان . وذلك لما يتصورونه من مرور الأيام والسنين وبلاء الانسان فيه ، وبقاء الأرض والكون، ومثل هذه النسبة والشكوى عامة عند جميع الشعوب البدائية والمتطورة المتقدمة ، فنراها عند القبائل البدائية ونراها عند الغربيين .

ولا يقتصر هذا الاستعمال على الشعر وحده ، بل نجد ذلك في النثر وفي كلام الناس الاعتيادي . لذلك لا أرى صحيحاً ما ذهب اليه بعض المستشرقين من ان نسبة الفعل الى الدهر هو من الاستعمالات الخاصة بالشعر[1] .

وهناك كلمات أخرى تشير معانيها الى هذه الفكـرة فكرة القدر ، وان الخير والشر وكل ما يصيب الانسان هو مقدر مكتوب . وهي نظـرة لا بد أن تكون قد انبعثت من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ومـن أثر المحيط في الانسان . ومن شعور الانسان بأن قوى خفية تلعب بـه وتوجهه حيث يشاء[2] . فنسب كل ذلك الى غيره ، وصير نفسه مسخراً موجهاً كالريشة في مهب الرياح.

وتؤدي عقيدة القدر بصاحبها الى التشاؤم ، والى القنوط والاستسلام . والتوجع والتألم ، والتشكي من عبث الدهر بالإنسان ، وهو ليس له دخل في رده وصده. وقد تؤدي بمعتنقها الى الخمول والكسل ، والى العجز في هذه الحياة ، والى ردّ كل مـا يصيبه بسبب كسله وعدم استخدام قابلياته ومواهبه الى غدر الدهر به وحنق الزمان عليه ، وتلاعب الحدثان بأموره . ونجد أكثر شعراء أهل الجاهلية ، هم على هذه الشاكلة ، يبكون أيامهم ، ويتذكرون الماضي ، ويتوجعون، لأنهم سائرون نحو مستقبل مؤلم موجع،لا حول فيه لإنسان ولا قوة . انه عالم الشيخوخة أو عالم الموت أو عالم الفقر . وأمثال ذلك من العوالم المفزعـة . يستوي في ذلك امرؤ القيس والشعراء المخضرمون . فأنت اذا تصفحت دواوينهم قلـما تجد فيهم شاعراً متفائلاً ، أو شاعراً غير مبال بالأيام ، لا يهمه ما يأتي به الدهر ، حتى

---

١ Caskel, S. 54.

٢ والمال ما خول الاله فلا بد له أن يحوزه قدر
شرح ديوان زهير (ص ٣١٤) .

ليخيل الينا أن هذا طبع . والواقع أننا نجد الشعراء في الجاهلية والإسلام وأكثر الكتّاب والخطباء على هذا المنوال ، مما يحمل المرء على القول بوجود التشاؤم في طبع العرب .

وموضوع (القدر) من المواضيع التي حيّرت المسلمين أيضاً . فانقسموا في ذلك الى مذاهب . وقد مرّ الرسول بناس كانوا يتذاكرون في القدر ، فقال : انكم قد أخذتم في شعبين بعيدي الغور . أي يبعد أن تدركوا حقيقة علمه، كالماء الغائر الذي لا يقدر عليه[1] .

وقد ذكر علماء التفسير أن قريشاً خاصموا الرسول في القدر ، وأن رجلاً جاء الى الرسول فقال : يا رسول الله ففيم العمل ؟ أفي شيء نستأنفه ، أو في شيء قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله: اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، سنيسره لليسرى، وسنيسره للعسرى[2] . ويظهر من ذلك أن قريشاً أو جمعاً منهم ، لم يكونوا يؤمنون بالقدر ، بل كانوا يؤمنون بأن فعل الانسان منه ، وان لا لأحد من سلطان في تصرفه وفعله .

القدرية :

وذكر ان الشاعر (الأعشى) كان قدرياً ، يرى ان للانسان دخلاً في فعله، وأن له سلطاناً على نفسه ، حيث يقول :

استأثر الله بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا[3]

فالانسان مسؤول عن فعله ، ملام على ما يرتكبه من قبيح . فالله عادل ، لا يجازي الانسان إلا على فعله ، ولو كان قد قدر كل شيء له ، وحتمه عليه كان ظالماً . وقد أخذ الأعشى رأيه هذا « من قبل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك » .

---

١ تاج العروس (٣/٤٥٧) ، (غور) .
٢ تفسير الطبري (٢٧/٦٤ وما بعدها) .
٣ الاغاني (٩/١١٢) ، (٢١/١٢٦) .

فنحن أمام عقيدتين . عقيدة تقول : إن الله خالق كل شيء ، وان فعل الانسان من تقدير الله وأمره، فهو يفعل بفعله وبحسب ما قدره له ، ورأي يقول ان الانسان خالق فعله ، فهو حرّ مختار ، ولهذا فهو وحده مسؤول عن عمله ، من خير أو شرّ . والرأي الأول أظهر عندهم وأقوى من الرأي الثاني .

الحظ :

وحظ الإنسان ، أي ما يصيبه في حياته ، هو جزء من هذا الموضوع أيضاً . مشتبك به ، متصل بأجزائه . والحظ في اللغة النصيب والجد . أو خاص بالنصيب من الخير والفضل[١] . والنصيب ، هو ما قدر وما قسم لك ، أي حظك. والحظ[٢] وهو (البخت) . وقيل : البخت من المعربات ، وقيل من الألفاظ التي تكلمت العرب بها قديماً[٣] . وذكر علماء اللغة أن الجد البخت والحظ في الدنيا . ويفهم من الأمثلة الواردة في شرح معنى اللفظة ، أنها في معنى الحظوة والرزق[٤] . أي في معنى الشيء الحسن المفرح مما يصيب الإنسان .

قالوا : والحظ موجود في المرزوق والمحروم ، وفي المحارف ، وفي القبائل ، فربما سعدت بالحظ ، وربما حظيت بالجد . وهو كذلك في الشعر وفي النباهة ، ورب عاقل فاهم أديب ، لا يكون إلا دائم الصبر على الشدة ، لسلطان الحظ على الإنسان[٥] .

ونظرية (القسمة والنصيب) ، معروفة في الاسلام ، وقد بحث فيها علماء الكلام . فهي من الموضوعات التي بحثت في الجاهلية والاسلام . ونجد أحد الشعراء يقول :

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاظ قسمت وجدود

وهو بيت ينسب لسويد بن حذاق العبدي ، ويروى للمعلوط بن بدل القريعي ، وصدره :

---

١ تاج العروس (٥/٢٤٩) ، (حظ) .
٢ تاج العروس (١/٤٨٦) ، (نصب) .
٣ تاج العروس (١/٥٢٥) ، (بخت) .
٤ تاج العروس (٢/٣١٣) ، (جدد) .
٥ الحيوان (٢/١٠٢ وما بعدها) .

متى ما يرى الناس الغني وجاره فقير يقولوا عاجز وجليد

أي « انما أتاه الغني لجلادته ، وحرم الفقير لعجزه وقلة معرفته ، وليس كما ظنوا ، بل ذلك من فعل القسام وهو الله سبحانه وتعالى ، لقوله : نحن قسمنا بينهم معيشتهم »[1] . وفي هذا المعنى قول الشهاب المقري:

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولا ملامه[2]

وأهل الجاهلية يرجعون القسمة الى الدهر والزمان والحظ . فأبطل الاسلام ذلك، اذ جعلها بأمر الله وقدره . فالله هو مقدر الأقدار ، ومقسم القِسَم ، وموزع الحظوظ والأرزاق .

الطبع والطبيعة :

ومن الموضوعات التي لها صلة بالقضاء والقدر ، موضوع الطبع ، أي الخليقة والسجية التي جبل عليها الانسان . فرأي كثير من الجاهليين ، ان الانسان مجبول على طبيعته التي ولد فيها ، وكل انسان على طبيعته ، ولن يستطيع تبديل طبعه ، ولا تغيير السجايا ، لأنها مكتوبة على الانسان مسنونة ، ولا تبديل لما طبع المرء عليه[3] . وطبائع الانسان لا يغيرها إلا الموت . جاء في شعر لبيد :

فاقنع بما قسم المليك ، فإنما قسم الخلائق بيننا علامها[4]

وهو شعر قد يكون مما قاله في الاسلام .

و (زهير بن أبي سلمى) ، ممن يعتقدون بهذه العقيدة ، ويأخذون بهذا الرأي . فهو القائل :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ولو خالها تخفى على الناس تعلم[5]

١ تاج العروس (٢٤٩/٥) ، (حظ) .
٢ المصدر نفسه .
٣ اللسان (٢٣٢/٨) ، (طبع) .
٤ اللسان (٨٦/١٠) ، (خلق) .
٥ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٢٤٠) ، (البيت ٥٨ من المعلقة) ، (القاهرة ١٩٦٤) .

الفصل السادس والستون

الالهة والتقرب اليها

لا نملك – ويا للأسف – نصوصاً جاهلية فيهـا وصف لطبائع الآلهة ، ولا أساطير فيها شيء على رأي أهل الجاهلية في أخلاق أربابهم . ولهذا صار مرجعنا وسندنا في تكوين صورة عن طبائع الآلهة وأخلاقها ، دراسة وتفسير أسماء الآلهـة ونعوتها التي نعتت بها ، لاستخراج شيء منها يعيننا على تكوين هذه الصورة .

وتفسير أسماء الآلهة ومعرفة أصولها وجذورها ، عملية ليست سهلة يسيرة، بسبب جهلنا بمعاني بعض تلك الأسماء ، وعدم وقوفنا على أصولها التي اشتقت منها، لأن اللهجات التي دوّنت بها ، لا تزال بعيدة عن مداركنا ، ولأن قواعد نحوهـا وصرفها تختلف بعض الاختلاف عن قواعد وصرف عربيتنا ، ونحن لا نملك اليوم المؤهلات الكافية ، للحكم في تلك اللهجات حكمنا في عربيتنا .

واسم الإلـه هو صفة في الغالب ، ألبسها الزمن بمضي الوقت لباس العلمية ، فعدت اسماً علماً ، فإذا استطعنا الرجوع الى أصول وجذور هذه الأسماء الصفات، نكون قد استنبطنا شيئاً عن طبائع تلك الآلهة من صفاتها المذكورة ، ونجحنا بعض النجاح من تكوين رأي عن تلك الديانات الجاهلية .

هنالك أسماء مثل (ال) (ايل) ، يجد الباحثون صعوبة في الاتفاق على تعيين أصولها ، وضبط معانيها ، وهناك أسماء واضحة جليّة ظاهرة ، تدل على أشياء معروفـة محسوسة ، مثل (شمس) و (ورخ) بمعنى قمر ، و (عثتر) ، و (الشعرى العبور) و (نجم) ، و (ثريا) وأمثال ذلك من أسماء تشير الى

أشياء مادية ، هي كواكب ونجوم ، يستدل منها على وجود عبادة الأجرام السماوية عند الجاهليين . وهناك أسماء ، هي نعوت في الواقع ، لا تدل على ظواهر حسية وإنما تعبر عن أمور معنوية ، مثل (ودّ) بمعنى (حبّ) و (رضى) ، و(سعد) ، و (حكم) ، و (نهي) ، و (صدق) ، و (رحمن) ، و (رحم) (ها - رحم) (الرحيم) ، و (سمع) ، (سميع) ، و (محرم) (محرم) ، وأمثال ذلك من ألفاظ ، هي نعوت ، جرت بين الناس مجرى الأسماء . وعلى هذه الصفات الأسماء سيكون جلّ اعتمادنا في استنباط الصورة التي نريد تكوينها عن طبيعة آلهة العرب الجنوبيين .

وعلينا ان نضيف على ما تقدم الأعلام المركبة المضافة للأشخاص ، مثل (عبد ود) ، و (عبد مناف) ، و (عبد شمس) ، و (عبد يغوث) ، و (امت العزى) (أمة العزى) ، فالكلمات الثانية من الاسم ، أسماء أصنام . وفي تركيب الاسم على هذا النحو ، دلالة على تذلل الانسان تجاه ربه ، واعتبار نفسه عبداً له ، وفيه تعبير عن صلة الأشخاص بربهم ، أضف اليها الأعلام المركبة تركيباً إخبارياً ، مثل (ودم ابم) ، أي (ود أبٌ) أو (أبٌ ود) ، ففي هذا التركيب دلالة على حنو الإلـه على المؤمنين به ، واشفاقه عليهم، إشفاق الأب على أولاده .

ودراسة الأمور المذكورة ، هي مصدر مهم ، بل هي تكاد في هذا اليوم ان تكون المصدر الوحيد لفهم ذات الآلهة وادراك شخصيتها ، ولفهم تطور الدين على مر العصور والأجيال ، وكيف تطور الدين عند الجاهليين الى يوم ظهور الاسلام .

هذا ، ونجد في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة ، أسماء آلهة لا نجد لها موضعاً في النصوص العربية الجنوبية المتقدمة ، واختفاءً لأسماء الآلهة القديمة التي كانت لامعة ساطعة في سماء الألوهية عند العرب الجنوبيين قبل الميلاد . ونجد أسماء آلهة قبائل تعبد عند قبائل أخرى مع معبوداتها القديمة، وأسماء آلهة كانت لامعة شهيرة ، تحولت الى آلهة صغيرة . وفي كل هذه الملاحظات دلالة على حدوث تطور في الحياة الدينية عند الجاهليين ، وعلى تأثر العقائد بمؤثرات داخلية وخارجية، فأحدثت هذا التطور الذي نبحث عنه .

ومن بين أسماء الآلهة ، أسماء مركبة ، استهلت بـ (ذ) ، أو بـ (ذت) . و (ذ) ، بمعنى (ذو) في عربيتنا ، و (ذت) بمعنى (ذات) . و (ذ) للمذكر ، و (ذت) للمؤنث ، أما الكلمات التالية ، فهي صفات . فجملة (عثتر ذ قبضم) ، تدل على إلـه ذكر ، اسمه (عثتر ذو القبض) (عثتر ذو قبض) ، أو (عثتر القابض) بتعبير أصح . وجملة (ذ شقرن) ، و (ذ صهرم)[1] ، و (ذ علبتم) ، و (ذ يسرم)[2] ، و (ذ امر وشمر)، أي الآمر الناهي[3] ، و (ذ انبى) ، هي جمل تشير الى إلـه ذكر ، لوجود (ذ) علامة التذكير فيه . وجملة (ذت حمم) ، و (ذت بعدن) ، و (ذت برن) ، و (ذت غضرن) ، و (ذت رحبن) ، و (ذت صهرن) ، و (ذت صنتم) ، و (ذت ظهرن) ، تشير الى آلهة إناث ، لوجود (ذت) (ذات) في الاسم . ومعنى هذا ان العرب الجنوبيين كانوا قد جعلوا الآلهة كالانسان اناثاً وذكوراً . وهو ما ورد في القرآن الكريم عن أهل مكة وبعض قبائل الحجاز ، من قوله تعالى : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون »[4]، ومن قوله : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون »[5] . وقوله تعالى: « واصطفى البنات على البنين »[6] ، و « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين »[7] ، و « أم له البنات ولكم البنون »[8] . وقد ذكر علماء التفسير انه « لا ينبغي ان يكون لله ولد ذكر ولا أنثى . سبحانه نزه جل جلاله بذلك نفسه عما أضافوا اليه ونسبوه من البنات ، فلم يرضوا بجهلهم اذ أضافوا اليه ما لا ينبغي اضافته اليه ، ولا ينبغي أن يكون له من الولد ان يضيفوا اليه ما يشتهونه لأنفسهم ويحبونه لها ولكنهم أضافوا اليه ما يكرهونه لأنفسهم ولا يرضونه لها من البنات ما يقتلونها اذا كانت لهم »[9] . وذكروا « ان مشركي قريش كانوا يقولون : الملائكة بنات الله ،

---

١ Rep. Epigr. 504.

٢ REP. EPIGR. 2831, 4688.

٣ Handbuch, I, S. 244.

٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ٥٧ .

٥ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٤٩ .

٦ الصافات ، الرقم ٣٧ . الآية ١٥٣ .

٧ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ١٦ .

٨ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٩ .

٩ تفسير الطبري (٨٣/١٤) ، روح المعاني (١٥٦/١٤) .

وكانوا يعبدونها »[1]. وقد وبخهم القرآن الكريم على قولهم هذا،واستخف بأحلامهم وبما قالوه جهلاً وحماقة .

وذكر علماء التفسير أن كفّار قريش قـالوا : « الملائكة بنات الله . فسأل أبو بكر من أمهاتهن ؟ فقالوا سروات الجن . يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه إبليس »[2].. وإنهم قالوا : « ان الله وابليس اخوان » ، وان بين الله وبين الجنة نسباً[3] . ولم يذكر علماء التفسير من قال هذا القول من كفّار قريش . ولا كيف صارت الملائكة بناتاً لله ، او كيف اصطفى الله له البنات ، ولِمَ فضلهن على البنين ، إذ لم يذكروا ان أهل الجاهلية نسبوا له ولداً ذكراً ، ولم يذكروا هل اختار الله البنات اختياراً من خلقه ، أو من زواج ؟ وقد رأيت ان رواية نسبت الى قريش قولهم إن امهـات الملائكة سروات الجن ، وذلك حين سألهم أبو بكر من أمهاتن[4] .

ولا نجد في نصوص المسند إشارة الى زواج الآلهة ، والى وجود بنات لها . وما قلناه من وجود آلهة ذكور ، وآلهة أناث ، هو استنباط من وجود علامـة التذكير (ذ) وعلامة التأنيث (ذت) في أسماء الآلهـة . أما موضوع زواج القمر بالشمس ، وظهور ولد ذكر منه هو (عثتر) . فهو من استنباط علماء العربيات الجنوبية ومن آرائهم الـتي استخلصوها من دراستهم للنصوص . فليس في المسند أي شيء عنه . وليس في المسند ، أي شيء عن دين العرب الجنوبيين ، وعن أساطيرهم في الآلهة وفي الخلق ، ولا عن صلواتهم وأدعيتهم وكل ما يتعلق بالدين من أمور .

وكل اسم ورد في المسند استهل بلفظة (ذت)،(ذات) ، فيراد به الشمس، وهي إلهة ، وكل لفظة بدأت بـ (ذ) ، (ذي) ، فإنها تعني إلهاً ، هو القمر أو عثتر . فنحن أمام ثالوث سماوي ، يمثل عقيدة الجاهليين في الألوهيـة ، كما يمثل عقيدة السـاميين عموماً . والثالوث السماوي هو نواة الألوهية عند جميع الساميين، ومنه انبثقت عقيدة التوحيد فيما بعد .

---

١ تفسير الطبري (٢٣/٦٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٣/١٣٥) .
٢ تفسير الطبري (٢٣/٦٩) .
٣ المصدر نفسه .
٤ تفسير الطبري (٢٣/٦٩) .

وعثّر ، هو (النجم الثاقب) المذكور في القرآن الكريم[1] . وقد ذهب المفسرون الى ان العرب كانت تسمي الثريا النجم . وذكر بعض منهم ان النجم الثاقب هو زحل . والثاقب الذي قد ارتفع على النجوم[2] . وذكر بعض آخر ان النجم الثاقب هو الجدي[3] . وأقسم في موضع آخر من القرآن الكريم بـ (النجم)[4]. وقد ذهب المفسرون الى ان النجم الثريا[5] ، ونحن لا يهمنا هنا اختلاف علماء التفسير في تثبيت المراد من النجم ، انما يهمنا ان المراد به نجم من النجوم . فنكون أمام ثالوث معبود : هو الشمس والقمر والنجم الثاقب ، الذي هو (عثّر) في نصوص العرب الجنوبيين .

وقد ذكر ان العرب تعبدت للشمس وللقمر ، وان طائفة منها، تعبدت لكواكب أخرى مثل الشعرى ، حيث تعبدت لها خزاعة وقيس ، ومثل (سهيل) ، حيث تعبدت لها (طيء) . و (عطارد) ، وقد تعبّد له (بنو أسد) . و (الأسد)، وقد تعبد له بعض قريش . و (الدبران) ، وقد تعبدت له (طسم) . و (الزهرة)، وقد تعبد لها أكثر العرب . و (زحل) ، وقد تعبد له بعض أهل مكة . حتى ان من الباحثين من زعم ، ان (الكعبة) كانت معبداً لزحل في بادىء الأمر . وتعبد للمشتري قوم من لخم وجذام[6] .

ونجد في الكتابات العربية الجنوبية جملة : (ودم ابم) ، أي (ودّ أب) و (ابم ودم) ، أي (أبٌ ود) . كما نجد جملة : (ولد ود) و (اولد ود) (اولد هو ود) ، أي (اولاد ود) بمعنى (شعب معين) . وتعبر الجمل الأولى عن معنى ان الإلـه (ود) ، هو إلـه شفيق رحيم عطوف على الإنسان ، هو بالنسبة له بمنزلة الأب من الابن . فهو (أب) للإنسان لا بالمعنى الحقيقي بالطبع ، أي بمعنى ان الانسان انحدر من صلبه ، بل بالمعنى المجازي الذي أشرت اليه . وبهذا المعنى نفسر جملة : (أولاد ودّ) تعبيراً عن معنى (شعب

---

١ سورة الطارق ، رقم ٨٦ ، الآية ٣ .
٢ تفسير الطبري (٣٠/٩١) .
٣ تفسير القرطبي ، الجامع (٢٠/١) .
٤ سورة النجم ، الرقم ٥٣ ، الآية ١ .
٥ تفسير الطبري (٢٧/٢٤) .
٦ Johann Ernest Oslander, Studien über die Varislamische Religion der Araber, in ZDMG., 1853, S. 463 - 505, Grohmann, S. 81.

معين) ، فالإله (ود) هو أب هذا الشعب يحميه ويدافع عنه ويعطف عليه . وبهذا المعنى وردت أيضاً جملة (ولد عم) عند القتبانيين و (ولد المقه) عند السبئيين . فـ (عم) الذي هو (القمر) في لغة القتبانيين ، هو بمنزلة الأب لشعبه ، وكذلك (المقه) ، الذي هو (القمر) في لهجة سبأ [1] .

وقد عبّر عن الشمس بلفظة (هـ الت) ، أي (الإلهة) في النصوص العربية الشمالية [2] . وقيل لها (نكرح) في النصوص المعينية ، و (ذت حمم) (ذات حمم) (ذات حميم) في النصوص السبئية ، كما قيل لها (ذت بعدن) و (ذت غضرن) ، و (ذت برن) ، و (ذت ظهرن) ، في هذه النصوص كذلك . وقيل لها (ذت صنتم) و (ذت صهرن) و (ذت رحبن) في النصوص القتبانية [3] . ومن الممكن التعرف على بعض هذه الأسماء التي أريد بها الشمس . فـ (ذت حمم) ، بمعنى (ذات حمم) ، و (ذات حميم) . وقد وردت لفظة (حميم) و(يحموم) في القرآن الكريم [4] . والحميم الحار الشديد الحرارة ، المتقد من شدة الحرّ الساخن الشديد السخونة [5] . وقد ذكر علماء التفسير أن (اليحموم) ، دخان حميم ، ودخان شديد السواد يخرج من نار جهنم [6] . فمعنى (ذت حمم) ، إذن ، الإلهة ذات الحرارة الشديدة المتقدة المهلكة ، التي تلفح وتحرق . والشمس ، نفسها حارة ، ملتهبة متقدة . لذلك يكون الناس قد أخذوا صفتها هذه منها ، فأطلقوها عليها ، وصاروا ينعتونها بها ، ويخيفون الناس منها ، بانتقامها منهم إن خالفوا أمرها وعملوا عملاً يثير غضبها عليهم .

ويقابل هذه الإلهة ذات الحميم ، الإله (الـ حمون) (حمون) و (بعل حمون) عند الساميين الشماليين . فهذا الإله الذكر عند الساميين الشماليين ، بسبب ان لفظة (الشمس) ، نفسها مذكرة عندهم ، هو ذو حميم وحما ، أي ذو سخونة وحماوة وشدة حرارة [7] . وقد نعت عندهم بالنعت الذي نعت به عند العرب

---

١ Handbuch, I, S. 217, D. Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, S. 61.

٢ Handbuch, I, S. 224.

٣ Handbuch, I, S. 224, 260.

٤ الواقعة ، الرقم ٥٦ ، الآية ٤٣ .

٥ تاج العروس (٧/٢٥٩ وما بعدها) ، (حمم) .

٦ تفسير الطبري (٢٧/١١٠ وما بعدها) .

٧ Handbuch, I, S. 225.

الجنوبيين . فهو إلّه ذو حرارة مفزعة ، وحميم لا يوصف . وقد استمد هـذا الوصف من الطبيعة بالطبع . فالشمس مبعث الحرارة على هذه الأرض ، يدرك الانسان حرارتها في كل مكان . فهي اذن (ذت حمم) حقاً .

وعرفت الشمس بـ (اثرت) في كتابات قتبانية ، ومعناها : (اللامعة) ، أو الشديدة اللمعان بعبارة أصح والمتوهجة . فهي في معنى (ذت حمم) . وعرفت أيضاً بـ (ذت اثر) ، (ذات أثر) ، وب (ربت اثر) ، (ربة أثر)[1] . ونجد في النصوص النبطية الإلهة الشمس وقد عرفت بـ (ربت الاثر) بمعنى ربة التوهج ، مما يدل على ان (اثرت) ، و (ذت اثر) ، و (ربت أثر) ، في القتبانية هذه الإلهة الشمس[2] .

وقد يعبر عن (الشمس) بـ (الفرس) . والفرس من الحيوانات التي قدسها قدماء الساميين . وقد كان العرب الجنوبيون يتقدمون بتماثيل الخيل،تقرباً الى الآلهة. ومنها الإلهة (ذت بعدن) (ذات البعد) ، أي البعيدة ، وهي الشمس[3] .

وأما (عثتر) ، الذي هو (الزهرة) ، فيرد اسمه في نصوص عربية جنوبية كثيرة . ولاسمه هذا صلة بأسماء بعض الجاهليين الواردة الينا ، مثل : (أوس عثت) بمعنى (عطية عثتر) و (لحيعثت) (لحى عثت)[4] .

وفي الكتابات العربية الجنوبية أسماء يظن انها تخص الإلّه (عثتر) . منها : (ذ قبضم) ، و (ذ يهرق) ، و (ذ جفت) ، و (ذ جرب)، و(جرب)، و (متب نطين) ، و (متب قبت) ، و (متب مضجب) ، و (يهر) و (بر) وغيرها[5] .

وقد عرف (عثتر) بـ (الشارق) في الكتابات ، فورد (عثتر شرقن) أي (عثتر الشارق) . وعرف بـ (شرقن) فقط . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن المراد من (شرقن) بمعنى الطالع من الشرق ، أو (عثتر المشرق) . وهو تفسير رده بعض آخر من الباحثين ، إذ رأوا أن (شرقن) ، بمعنى

١ Handbuch, I, S. 226.

٢ Handbuch, I, S. 226.

٣ Handbuch, I, S. 227.

٤ Handbuch, I, S. 228.

٥ Handbuch, I, S. 228.

(الشارق) . وهي لفظة ترد في اللهجات العربية الشمالية [1] . وقد سبق لي أن بينت رأي المفسرين في (النجم الثاقب) المذكور في القرآن الكريم ، وقلت باحتمال المراد به هذا الكوكب،وان ذهبوا الى انه الثريا أو زحل أو الجدي . و(الشارق) صنم من أصنام الجاهليين تسمى به عدد من أهل الجاهلية،سموا بـ (عبد الشارق)[2] قد يكون رمزاً لهذا الإلـه .

وورد في بعض كتابات المسند : (ذ غربم) ، و (عثتر ذ غربم) أي (الغارب) و (عثتر الغارب) . ومعنى ذلك (نجمة الغروب) ، أو (نجمة المساء) ، و (كوكب المساء) ، في مقابل (نجمة الصباح) و (كوكب الصباح)[3] .

وورد (عثتر نورو) ، و (نورو) ، أي (عثتر نور) ، (نور)[4] . ونور صفة من صفات الله في الاسلام . (الله نور السماوات والأرض . مثل نوره). ولفظة (نورو) ، هي نعت من نعوت (عثتر) . وورد (سحرن) ، بمعنى السحر . والسحر ، قبيل الصبح وآخر الليل ، فيراد بذلك (كوكب السحر)، أي الكوكب الذي يطلع عند طلوع السحر . كما ورد (متب نطين) ، أي (الحامل للرطوبة) ، وورد (عثتر قهحم) ، أي (عثتر القدير) و (عثتر القادر) و (القاهر) ، و (سمعم) ، أي (السميع) ، و (نوىم) و (نبعن)[5] و (يغل) (يغلن) بمعنى المدمر ، والمنتقم . وقد ورد هذا النعت في أحجار القبور بصورة خاصة . وذلك لتذكير من يحاول تغيير الحجر أو أخذه من موضعه أو تدميره أو إلحاق أذى به ، أو الاستفادة منه في أغراض أخرى ، بأنه في حماية إلـه قدير منتقم[6] .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن الإلـه (رضى) (رضو) الذي يرد في النصوص الثمودية والصفوية ، هو الإلـه (عثتر) . وهو صنم ذكره أهل الأخبار، لكنهم لم يذكروا شيئاً عن صلته بالكواكب ولا عن المعبود الذي يمثله[7] .

---

١ Handbuch, I, S. 228, Fell, in ZDMG., 54, (1900), S. 231 - 259.

٢ تاج العروس (٦/٣٩٣) ، (شرق) .

٣ Arabien, S. 245.

٤ سورة النور ، الآية ٣٥ ، تفسير الطبري (١٨/١٠٤) ، (١٨/١٤٤).

٥ Rep. Epigr. 4194.

٦ Arabien, S. 245.

٧ Handbuch, I, S. 229.

وقد ورد في الأخبار المتعلقة بـ (الرها) ان أهل هذه المدينة ، كانوا يعبدون الشمس ويعتقدون بوجود إلـه يطلع قبلها اسمه (أزيزوس) Azizos ، وإلـه يظهر بعدها ، يسمى (مونيموس) Monimos . وذهب الباحثون الى ان (أزيزوس) ، هو (عزيز) . وهو نجم الصباح ، ويطلع قبل طلوع الشمس. ويمثل (رضى) (رضو) ، و (عثتر) . ويرد اسم (رضى) في الكتابات التدمرية كذلك[1] . و (عزيز) (العزيز) من صفات الله في الاسلام .

وقد ذهب بعض الباحثين الى ان الصنم المنحوت على شكل طفل هو رمز لـ (عثتر) ، أي (رضى) (رضو) ، و (عزيز) . وقد حفر على شكل طفل عاري الجسم في الكتابات التدمرية . أما الشمس والقمر ، فقد مثلا انسانين كاملين . ونجد هذا التصور للآلهة في الديانات الفطرية ، التي استمدت ادراكها لِكُنْه الآلهة عن مظاهر الطبيعة[2] .

ولعلّ تصور الجاهليين الإلـه (رضو) على هيأة طفل ، هو الذي يحلّ لنا المشكلة الواردة في أخبار (نيلوس) Nilus عن تقديم العرب Saracens قرابين أطفالاً لكوكب الصباح . ذكر (نيلوس) أن العرب سرقوا ابنه الجميل الصغير (ثيودولس) Théodulus ، وقرروا تقديمه قرباناً لكوكب الصباح . وقد قضى الطفل ليلة تعسة صعبة ، فلما طلع الكوكب ، وحان وقت تقريب الطفل قرباناً له ، نام مختطفوه ، ولم يستيقظوا إلا وقد طلعت الشمس ، وفات وقت القربان، وبذلك نجا الطفل من الهلاك[3] . وقد تفسر جملة « إننا نقدم لك قرباً يشبهك » الواردة في دعاء عثر على نصه في (حرّان) قصة تقديم الأطفال الجميلة قرابين الى هذا الإلـه[4] .

وقد أشار كتاب يونان الى تعبد العرب الى الشمس والقمر وكوكب الصباح، وهي أجرام سماوية تراها العين . ذاكرين أن العرب لا يتعبدون لآلهة روحية لا يبصرونها بأعينهم . ولهذا تعبدوا لهذه الأجرام المادية وللأحجار[5] .

---

١ Handbuch, I, S. 229.

٢ Handbuch, I, S. 231.

٣ Handbuch, I, S. 203, Nili Opera, Tomus, 79, 1865, in Migne, Patrologia, Series Graecaca.

٤ Handbuch, I, S. 231.

٥ المصدر نفسه .

وأما (مونيموس) Monimos ، فإنه (منعم) . و (منعم) من صفات الله في الإسلام . فالله هو (المنعم) المتفضل على عباده العزيز المقتدر .

وذهب بعض الباحثين الى أن الصنم (ذو الخلصة) المذكور في كتب أهل الأخبار ، والذي كان له بيت يدعى : (الكعبة اليانية) ، ويقال له (الكعبة الشامية) أيضاً ، والذي هدم في الاسلام ، هو تعبير آخر عن الصنم (عثتر) ، أي الإلـه المكون مع القمر والشمس للثالوث[1] .

ويظن ان (ملك) اسم آخر من أسماء (عثتر) . وقد تسمى به رجل عرف بـ (عبد ملك) . كما ورد اسم (عبد ملكا) في النصوص النبطية والإرمية ، بمعنى (عبد الملك)[2] . ويرد اسم (ملك ال) (ملك ايل) كثيراً في الكتابات الثمودية . كما ورد في كتابة من الكتابات القتبانية (مختن ملكن)[3] . وقد ظن ان لفظة (ملك) تعني ملكاً ، أي رئيس حكومة ملكية ، فترجمت جملة (مختن ملكن) بـ (مختن الملك) ، أي ملك قتبان . غير ان هذه الترجمة وإن كانت ترجمة مقبولة ، إلا انها غير دقيقة . ولو ترجمت لفظة (ملكن) بمعنى (الملك) ، على انه اسم إلـه لكانت الترجمة أدق وأصح . فنحن نجد النص القتباني الذي وردت فيه جملة (مختن ملكن) يقول : « بنى الملك ورمّ معبد ودّ واثرت ومختن ملكن) ، أي « بنى الملك ورمّ معبد ود وأثرت ومختن الملك» ، ولو ترجمناها على هذه الصورة : « بنى الملك ورم معبد ود وأثرت ومعبد الإلـه الملك » ، كانت الترجمة أنسب وأقبل . ويجب ان نتذكر ان الله هو : الملك ، في الاسلام ، وان (عبد الملك) ، وهو من أسماء المسلمين كذلك يعني : عبد الله . وان (الملكوت) من الملك مختصة بملك الله . ورد في القرآن : « وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض »[4] .

ومن الممكن فهم الصلة بين لفظة (ملك) التي تعني إلـه ، وبين لفظة (ملك) المالك على الأرض ، أي الملك الدنيوي . فالإلـه مالك ، والملك مالك أيضاً ، مالك شعبه . ومن هنا فلا غرابة اذا ما رأينا عقيدة تقديس الملوك عند الشعوب

---

١ Handbuch, I, S. 232.

٢ Handbuch, I, S. 232

٣ Hommel, Aufs., S. 206.

٤ تاج العروس (١٨١/٧) ، (ملك) .

القديمة ، واعتبار بعضها ملوكها من نسل الآلهة . فالآلهة قوة خارقة، والملوك قوة مسيطرة مهيمنة ، تفعل في القديم ما تشاء بغير حساب ، وهي ألسنة الآلهة الناطقة على الأرض ، فلا بد وان تكون للآلهــة اذن صلة بالملوك ، ولا بد وان يكون لملوك الأرض نسب وان تكون لهم قرابة بالآلهة . وقد فسر بعض الباحثين جملة: (ولد ود) ، التي نعت بها أحد ملوك قتبان ، تفسيراً بهذا المعنى ، تفسيراً يعبر عن اعتقاد القوم ، بأن ملوكهم هم من نسل الإلـه (ود)[1] . ولكني أرى اننا لو فسرنا لفظة (ولد) بالمعنى المجازي ، أي ولد الإلـه ود على سبيل المجاز ، بمعنى ان الإلـه منه بمنزلة الوالد من الولد ، في العطف والود ، فإن هذا التفسير يكون مقبولاً أكثر من تفسير الولد المتسلسل من صلب الإلـه ود .

الآلهة :

توصلنا من دراساتنا المتقدمة ، الى أن الآلهة كالبشر ذكوراً وأناثاً . وتوصلنا منها الى أن القمر ، هو مذكر عند جميع العرب على اختلاف لهجاتهم ، وأما (الشمس) ، فهي أنثى عندهم . وأما (النجم) ، الذي هو (عثتر) ، فهو ولد ، عند العرب الجنوبيين . وعلى ذلك فنحن أمام ثالوث سمــاوي يتألف من الآهين ذكرين ومن إلاهة أنثى .

وقد عجزنا عن الإهتداء الى كيفية ظهور هذا الثالوث . أو العائلة الصغيــرة المختارة المكونة من ذكرين وأنثى . لأننا لم نعثر على نص جاهلي أو غير جاهلي يتحدث عن كيفية ظهوره . وعجزنا عن التوصل الى علاقة أعضاء هذا الثالوث بعضهم ببعض ، وذلك لسبب مماثل ، هو عدم وجود نص لدينا يشرح لنا هذه العلاقة ! ولم نتمكن من العثور على أي مورد يشرح لنا كيفية ظهور هذه الآلهة، ولا سيما الإلـه (عثتر) الذي يعدّ ابناً للقمر وللشمس .

ولم نعثر ويا للأسف على نصوص جاهلية فيها بعض الشيء عن كيفية التقــاء القمر بالشمس ، وفي كيفية طلوع (النجم) (عثتر) . فبينما نجـد في اللغات اليونانية والهندية واللاتينية تعابير عن التقاء الشمس بالقمر ، فيهـا معنى النكاح ،

١ Handbuch, I, S. 233.

نجد أنفسنا قد عجزنا عن الحصول على مثل هذه المصطلحات في النصوص الجاهلية، ولهذا لم نتمكن من تكوين رأي عن تصور الصلة التي كان يراها الجاهليون بين الشمس والقمر . وفي اليونانية والهندية وأساطير الشعوب الأخرى ، أن القمر اقترن بالشمس ، وتزوج بها ، وتغنت بذلك الزواج[1] .

وبالنظر لوجود الإله الذكر والإلهة الأنثى في نصوص المسند ، وفي مؤلفات أهل الأخبار ، فلا يستبعد احتمال مجيء يوم قد نعثر فيه على نصوص قد تتعرض الى اسطورة زواج القمر بالشمس . وفي عربيتنا لفظة (اقتران) نطلقها على اقتران الشمس بالقمر وعلى اقتران الكواكب بعضها ببعض ، وترد في كتب النجوم والأنواء . وفي هذه اللفظة معنى الازدواج .

إن هذه الأسطورة التي جعلت من الأجرام السماوية آلهة ، وحصرت الألوهية في ثلاثة أجرام منها في الغالب ثم زوجتها وأولدتها ، حولت هذا الزواج الى زواج حقيقي سماوي يشبه زواج الإنسان على سطح الأرض . زواج تكوّن من ذكر وأنثى ، من أب وأم ، انتج ولداً عند العرب الجنوبيين ، وولدين عند شعوب أخرى غير عربية هما كوكبا الصباح والمساء ، أو بناتاً هي الملائكة أو الجن عند فريق من الجاهليين .

ونجد الإله (القمر) يلعب دوراً كبيراً في الأساطير الدينية عند الجاهليين . دوراً يتناسب مع مقامه باعتباره رجلاً بعلاً أي زوجاً ، والزوج هو (البعل)، والرب والسيد وصاحب الكلمة على زوجه وأهله عند العرب . وهو القوي ذو الحق ، وعلى الزوجة حق الطاعة والخضوع له . وبناءً عل هذه النظرية جعل الإله القمر صاحب الحول والصول والقوة في عقيدة أهل الجاهلية في الأرباب . ومن هذا الإله القوي الجبار ، جاء (الله) بعد أن تحول الثالوث عند بعض الجاهليين الى (واحد) ، واستخلصوا منه عبادة (الله) .

وقد عرف القمر بـ (ثور) . ولعل ذلك بسبب قرنيه اللذين يذكران بالهلال . دُعي بهذه التسمية ، أي (ثور) في الكتابات[2] . وقد رمز الى الإله القمر بـ (ثور) عند شعوب سامية قديمة أخرى[3] .

---

١ Handbuch, I, S. 206. ff.

٢ Glaser 1546, Wiever Museum 5.

٣ Handbuch, I, S. 214, D. Nielsen, Altarabische Mondreligion, S. 110.

ونظراً لأن القمر هو الإلـه الذكر ، صار بمنزلة الأب . فدعي بـ (ابم) ، أي (أب) . ونعت بمحب ، فقيل له (ودم) (ود) ، لأنه يحب عبيده ويشفق عليهم . وهو (كهلن) ، أي القادر والقدير ، وهو (حكم) ، اي الحاكم والحكيم ، وهو (سمعم) ، اي السامع والسميع ، وهو (علم) ، اي العالم والعليم ، والبصير المبصر ، وهو (نهى) ، اي الناهي[1] ، وهو (صدق) الصادق الصديق المتعالي المنعم الكريم الى غير ذلك من نعوت عرف بها ورمز بها اليه في النصوص .

ويجب ان نتنبه الى ان الكتابات الجاهلية وكذلك أخبار أهل الأخبار ، قد نصتّا على اسم الإلهة الشمس ، فدعوها باسمها ، اي الشمس . أما القمر ، فلا نجد لاسمه الخاص ذكراً يتناسب مع مقامه . نعم ذكر بـ (شهر) و (سين) في النصوص العربية الجنوبية . و (شهر) القمر في العربيات الجنوبية ، ولا زال الناس يسمونه بهذه التسمية في جنوبي جزيرة العرب . لكننا نجد أسماءه المأخوذة من النعوت ، اي من صفاته تطغى عليه . فهو (ود) في الغالب في النصوص المعينية . ويظن من لا علم عميق له بالعربيات الجنوبية ، انه اسم إلـه خاص ، بينما هو اسم من أسماء عديدة للإلـه القمر عند شعب معين ، وهو (المقه) ، اي المنير والنور عند السبئيين ، اي صفة للقمر . وهكذا قل عن باقي أسمائه ، فهي صفات له في الغالب ، لا اسم علم خاص به ، كما في حالة الشمس .

ونحن نجد هذه الظاهرة في روايات أهل الأخبار أيضاً . فبينما تنص أخبار أهل الأخبار على تعبد بعض العرب للشمس ، وعلى مخاطبتهم لها بـ (الإلاهة) وبـ (لاهة)[2] . وعلى تعبد بعضهم لزحل أو للمشتري أو لغيرهما من الأجرام السماوية كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، لا نجد للقمر ذكراً في أخبار أهل الأخبار . فلم يشيروا الى اسمه ولا الى تعبد الجاهليين له ، حتى ليذهب الظن بعد تتبع جميع ما ورد في تلك الأخبار واستقصاءها استقصاءً تاماً ان الجاهليين لم يعرفوا عبادة القمر . والظاهر أن أهل الأخبار كانوا في جهل من عبادة الجاهليين للقمر ، بسبب ما شاهدوه من تعبد أهل مكة وغيرهم وكذلك القبائل الى الأصنام وتقربهم

---

١ Handbuch, I. S. 215, D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriften, S. 15.

٢ ابن الاجدابي (٧٩) .

اليها ، وقولهم أنها تقربهم الى الله،وبسبب نص القرآن الكريم على تعبد الجاهليين وتقربهم للأصنام والأوثان . فذهبوا الى أنهم كانوا مجرد عبـدة أوثان ولم يفطنوا الى أنهم اتخذوا الأصنام واسطة وشفيعة للآلهة التي هي أجرام سماوية في الأصل . أو لأن أهل الجاهلية القريبين من الإسلام ، كانوا قد ابتعدوا عن عبادة الكواكب ولم يعودوا يذكرونهـا ذكر أجدادهم لها ، واختصروا عبادتها ، بأن جعلوا من الثالوث إلهاً واحداً ، هو (الله) . فتقربوا اليه ، وعكفوا يتقربون اليه بالتقرب الى الأصنـام والأوثان . وذلك باتخاذهم إياها رموزاً مشخصة وممثلة للإلـه على الأرض . فكان لكلّ قبيلة صنم يقربهم في زعمهم الى الله .

واذا أردنا تلخيص ما توصلنا اليه عن آلهة العرب الجنوبيين ، قلنا انهم تعبدوا كما ذكرنا لثالوث سماوي تألّف من القمر والشمس ومن عثتر ، وهو الزهرة في رأي معظم الباحثين . وقد عرف القمر بـ (ود) عند المعينيين ، وبـ (المقه) عند السبئيين ، وبـ (عم) عند قتبان ، وبـ (سن) (سين) عند حضرموت، وبـ (ود) عند أوسان . وعرفت الشمس بـ (نكرح) عند المعينيين،وبـ (شمس) عند السبئيين ، وبـ (اثرت) (اثيرت) عند القتبانيين ، وبـ (شمس) عند أهل حضرموت وأوسان . وعرف (عثتر) بـ (عثتر) عند المعينيين والسبئيين وعند قتبان وأهل حضرموت والأوسانيين[١] .

وقد رمز الفن العربي الجنوبي الى هذا الثالوث السماوي المقدس برموز. فرمز الى القمر بهلال نحت او نقش على الأحجار والأخشاب والمعادن . والهلال ، يشير بالطبع الى مطلع القمر في أول الشهر القمري . كما اشير اليه برأس ثور ذي قرنين . أما الشمس ، فقد صورت قرصاً او دائرة ، او كتلـة او هالة ، والقرص ، صورة طبيعية لقرص الشمس ، التي تظهر في السماء قرصاً وهاجاً يبعث الحرارة والنور . وأما الزهرة ، فرمز اليها بصورة نجمة في النقوش العربية الجنوبية وبثمانية خيوط اشعاعية في النصوص البابلية[٢] . وهي ذكر وولد عند العرب الجنوبيين .

---

١ A. Jamme, La Religion Sudarabe Preislamique, in M. Brillant et R. Aigrain, Histoire des Religions, IV, Paris, 1956, 239-307, G. Ryckmans, Les Religions Arabes Preislamiques, Bibliothèque de Muséon, 26, Louvian 1951, 25-64, G. Ryckmans, De Maangod in de Voorislami.

٢ Handbuch, I. S. 201, Grohmann, Göttersymbole, S. 37-44, H. Primy, Altorientalische Symbolik, Berlin, 1915, S. 75, 76, 142.

وقد هدم الإسلام عبادة الكواكب ، وحرم السجود للشمس وللقمر ، والصلاة لها ، وحاول اجتثاث كل ما له صلة بتلك العبادة ، فلم يبق اليوم من العرب من يتعبد للثالوث السماوي المقدس . ولكننا لا نزال نرى بعض العوام يغضبون إذا سب أحدهم الشمس أو القمر ، ويتقرب الأطفال الى الشمس بأسنانهم التي يخلعونها ، لتعطيهم أسنان غزال ، أي اسناناً جميلة بيضاء ، الى غير ذلك من أوابد يعرفها الأعراب .

وفي القرآن الكريم : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون »[1] . « فله فاسجدوا وإياه فاعبدوا دونهما ، فإنه إن شاء طمس ضوءهما فتركــكم حيارى في ظلمة لا تهتدون سبيلاً ولا تبصرون شيئاً »[2] . وقد خاطب الله قريشاً وغيرهم بذلك ، مما يدل على أنهم كانوا يسجدون للشمس والقمر . ولعلهم كانوا يفعلون ذلك عند الشروق وعند الغروب . وقد ذكر (ابن كثير) في تفسيره الآية المذكورة ، ما يأتي : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به »[3] .

والسجود الخضوع ، ومنه سجود الصلاة ، وهو وضع الجبهة على الأرض ، والانحناء ، وسجد طأطأ رأسه . وكان النصارى يسجدون لأحبارهم ، أي سادتهم من رجال دينهم . و (المسجد) من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين . وهو البيت الذي يسجد فيه ، وكل موضع يتعبد فيه ، فهو مسجد[4] .

صفات الآلهة :

ومعظم أسماء الآلهة هو كما سبق ان ذكرت صفات في الأصل ، استعملت

---

١ فصلت ، رقم ٤١ ، الآية ٣٧ .
٢ تفسير الطبري (٢٤/٧٧) .
٣ تفسير ابن كثير (٤/١٠٢) .
٤ قال حميد بن ثور :
فضول أزمتها أسجدت سجود النصارى لاحبارها
تاج العروس (٢/٣٧١) ،(سجد) .

استعمال الأسماء الأعلام . وهي كثيرة يتبين من دراستها ان الآلهة كالانسان ، تغضب وترضى ، تحب وتبغض ، قوية شديدة ، رؤوفة رحيمة شفيقة ، اذا رضيت عن انسان أسعدته في هذه الدنيا ، وإن غضبت عليه أهلكته، سميعة بصيرة حكيمة حليمة . باقية خالدة خلود الدهر ، بينما الانسان هالك .

ومن النعوت الواردة في نصوص المسند : (رحم) ، أي (رحيم) ، فالآلهة رحيمة بعبادها ، تغفر ذنوبهم وتصفح عن سيئاتهم ، وهي (حليمة) (حلم) ، سميعة (سمع) ، قديمة (كهلن) ، تحمي عبادها حماية الأب لأبنائه (الحمى) ، ترضى عنهم رضاء الأب عن أولاده (اب رضو) . شفيقة بهم شفقة الأب بأبنائه (اب شفق) ، وتهتم بهم (اب شعر) ، وهي فخورة (ايل فخر) (الفخر) ، عالية سيدة العالم (ال تعلى) (ايل تعلى) ، (ايل تعالى) ، و (بعل) (بعلت)[1] .

ومن الصفات والنعوت التي أطلقتها النصوص الثمودية على الآلهة : (عم) ، بمعنى رحيم ورؤوف . و (سمع) ، بمعنى (سميع) ، و (رم بمعنى العظيم، و (الرامي) ، والكبير . و (ابتر) (أبتر) بالمعنى المفهوم من اللفظة في عربيتنا ، اي ، ليس له ولد[2] . ولهذه الصفة أهمية كبيرة بالنسبة لدارس الحياة الدينية وتطور فكرة الألوهية عند الجاهليين ، لأنها تشير الى ان صاحب النص الذي خاطب إلهه بقوله : (ه اله ابتر) ، (ها إلـه ابتر) ، بمعنى (فيا الله الأبتر) ، اي الإلـه الذي لم يلد ولا ولد له ، كان يعتقد ان إلهه لم يلد أحداً ، فهو فرد واحد أحد . وقد وردت لفظة (ابتر) في نص ختم بهذه الجملة : (ه اله ابتر بلك سر لن)[3] ، اي : (فيا إلاه أبتر بلك سرور لنا) . او بتعبير أوضح : (فيا إلهي أو إلاهنا الذي ليس له ولد . بلك نسر) ، أو (فيا إلهنا أبتر بك سرور لنا) ، أو (أنت سرور لنا) .

والآلهة تساعد الناس وتعاونهم وتغيثهم . هذا نص ثمودي كتبه رجل من قوم ثمود ، توسل فيه الى إلهه أن يرسل المسرات (ميسر) ، الى من نزلت بهم

---

١ Arabien, 246.

٢ Hu 475, JSA 302, 305, 306, H. Grimme, S. 66.

٣ السطر الرابع من النص المذكور .

الدواهي من الناس . وان يعاون العاملين . (ذ اتا يعمل)[1] . وهذا نص آخر، كتبه شخص آخر ، وجهه الى الإلـه (رضو) ، يقول فيـه : (ه رضو ات عون عمل)[2] ، أي (يا رضو امنح العون لمـن يعمل) ، أو (يا إلهي رضو العون للعامل) .

والآلهة ضياء للناس ، تضيء لهم سواء السبيل ، تمنحهم نعمة الرؤية وترشدهم الى النور . هذا نص يقول : (الى ن ا م ت ض ي ل ن)[3] . فهـو يطلب من الإلـه أو من المعبد ، أن يضيء لكاتبي النص السبيل ، وأن ينقـذهم من الغفوة التي أصيبوا بها ، ليتجلى لهم الحق . وفي نص آخر : « بلك ري نور تمت حيت »[4] ، ومعناه « بلك رأينا النور . وتمت الحياة » ، أو « بلك نور . ضياء .. حياة» ، أو ما شابه ذلك . فالإلـه هو نور لهذه الحياة ، وضياء للناس .

والله عالم بكل شيء ، ذو المعرفة والعلم . وقـد وردت صفة (ه ع ر ف) (ها عارف) (ها عرف) أي العارف في نص وسم بـ JSA 568 [5] . وفي نص آخر ، وسم بـ Hu 626 [6] . وهو العالم المحيط بكل شيء ، وقـد عبر عن هذه الصفة بلفظة (حصي) ، و (أحصى) بمعنى أحاط وأحصى كـل شيء عدداً[7] ، فالله محيط بكل شيء عالم لا يخفى على علمه شيء .

ووصفت الآلهة في النصوص الثمودية بأوصاف أخرى ، مثـل (عبر) بمعنى (القدير) والقوي والمعتبر ، و (ذ عبر) ، (ذو عـبر) بمعنى ذو الحول والطول ، وذو القوة والقدرة . و (ذبر) ، وهي بهذا المعنى أيضاً[8] . وهـو (العوذ) ، (عوذ) ، والملجأ لكل إنسان[9] . وهو (العلي) ، وقد وردت جملة (عل رضو) ، بمعنى (أعل رضو) ، وهي جملة تذكرنا بقول (أبو سفيان)

---

١ Hu 643/6, JSA 409, 504, Grimme, S. 33-34.
٢ Hu 643/6, Grimme 33.
٣ Grimme, S. 35, 41.
٤ Grimme, S. 41.
٥ Grimme, S. 37.
٦ Grimme, S. 42.
٧ تاج العروس (١٠/٩١) .
٨ Grimme, S. 44.
٩ Grimme, S. 44.

يوم معركة (أحد): « اعلُ هبل ، اعلُ هبل » [1] . واني أرجح أن لفظة (عل) في هذا النص ، تعني (على) ، أي حرف جر ، فيكون المعنى (على رضو الملجأ) ، و (على رضو المعوّل) .

ولم أعثر في النصوص الجاهلية على نعت يشير الى استخفاف أو حطة بالآلهة . فلم أجد إلهاً نعت فيها باللؤم أو بالسرقة ، أو بالاعتداء على الأعراض ، أو رمي بالحسد ، حسد النـاس أو حسد أمثاله من الأرباب ، كما لم أجد ما نجـده في الأساطير اليونانية من وجود فروق بين الآلهة ، وتباين بينها في المنزلة والمكانة ، بحيث نجد آلهة كبيرة غنية ، وآلهة ضعيفة فقيرة تحسد الأولى وتنقم عليها ، وآلهة تسرق وتنهب لحاجتها الى المال ولفقرها ، ولم أجد فيها التخصص الذي نجده في الآلهة اليونانية ، من وجود آلهة للبحار ، وآلهة للهواء ، وآلهة للحب ، وآلهة للخمر ، ونحو ذلك . وكل ما نجده عندهم ، هو وجود آلهة شعوب وقبائل، مثل ود إلـه شعب معين ، والمقه إلـه شعب سبأ ، وهبـل إلـه قريش ، وهكـذا نشأت من الظروف المحلية التي عاش فيها الجاهليون .

ولا أستبعد وجود (ميثولوجيا) أي أساطير عند الجاهليين ، تدور حول آلهتهم، فقد تحدثت عن رأي بعضهم في (الشعرى) ، ولكني أستبعد وجود أساطير دينية معقدة عندهم على شاكلة الأساطير اليونانية ، أو الأساطير المصرية أو الهندية ، لما بين الظروف المحيطة بالجاهليين وبين الشعوب المذكورة من فروق . والأساطير هي من حاصل المجتمع والظروف المتحكمة في الانسان .

وإذا وجدنا آلهة أهل الجاهلية على هذا النحو من الصفات المذكورة ، حساسة ذات حسّ مرهف ، تنفعل بسرعـة ، تغضب وترضى ، فيجب أن نعرف أن هذه الصفات ، تمثل خلق من أطلقها على أربابه ، فأرباب الناس من صنعهم ، هو الذي أوجد تلك الأصنام وسوّاها ، فما دام هو موجدها ، فلن تكون آلهتـه إلا على شاكلته ، إنها صورة صادقة له .

الثواب والعقاب :

وما يفعله الانسان من خير أو شر ، سيكون ثوابه وجزاؤه في هذه الدنيا .

---

[1] Grimme, S. 44.

والآلهة ، هي التي تثيب وتعاقب . تثيب المتقي المتعبد لهـا المتقرب اليها بالنذور وبالبر بمعابدها ، فتعطيه مالاً وتبارك له في نفسه وفي أهله ، وتعطيه ذرية صالحة ذكوراً . وتنجيه من البلايا والآفات ومن الأوبئة والأمراض ، وترجعه سالماً معافى من الحروب ، تشفي جروحه اذا جرح ، وتغدق عليه بالنعم من غنائم الحرب . فهذا هو الثواب . ثواب في الدنيا وكفى .

أما العقوبة ، ففي الدنيا وحدها أيضاً ، وتكون بإنزال البلاء بمن يستحقه من الخارجين على أوامر الآلهة ، المتجاسرين على حرمة المعابد ، المارقين على النظام ، المخالفين لسلوك المجتمع ، المتجاوزين على حقوق غيرهم . ومن البلاء الأمراض ، من عمى وعور ، واصابة عضو من أعضاء الجسم بعطب ، والأوبئة . ونجد في النصوص توسلات الى الآلهة بأن تصيب من يغير النصوص المدونة الموضوعة شواخص على القبور ، ومن يتطاول على حرمة المقابر ، أو يدفن غريباً فيها بغير اذن ، بالعمى والعور ، لتجاوزه على حرمة القبور . وكان في روع أهل مكة وما حولها ان من يعرض للسائبة ، أو لحرمات الله ، أصابته عقوبة في الدنيا[1] . وعقوبات الدنيا أشد تخويفاً للأعرابي ، وأكثر وقعاً في نفسه من العقوبات المؤجلة في العالم الثاني ، ثم إن معظم أهل الجاهلية لا يؤمنون باليوم الثاني ، ولا بحشر وبعث ونشر .

ولولا الثواب والخوف من العقاب في هذه الدنيا ، لما تقدم انسان وهو فقير بائس ، بأعز ما عنده الى آلهته ، على فقره وجوعه ، ليقدمه قربة اليه ، وهو في أشد الحاجة له ، ولما بنى الناس المعابد ، وتقدموا اليها بالهدايا والنذور ، ولما ذكر رجل آلهته وتبرك باسمها ، ووضع ملكه في حمايتها ورعايتهـا ، ولعمّت الفوضى المجتمع ، وأكل بعضهم بعضاً ، ونهبوا المال . والخوف من العقوبة في هـذه الدنيا ، ساعد بالطبع كثيراً في ردع الأشرار عن غيهم ، وفي منعهم من الاعتداء على الحرمات ، كما ان الإثابة في هذه الدنيا حملتهم على عمل الخير ، وعلى التقرب الى المعابد والعمل بأوامر رجال الدين ، لتحقيق رضى الآلهة ، وفي نيل رضاها كسب مادي وربح ملموس أكيد في هذه الحياة .

ولولا الأمل في الرضى والثواب ، والخوف من الآلهة ، لما جعل الناس أنفسهم عبيداً الى الآلهة . فسمّوا أنفسهم (عبد ود) و (امت العزى) (أمة العزى) ،

---

١ تفسير الطبري (٧/٥٩) ، تفسير القرطبي (٦/٣٣٦) .

و (عبد يغوث) ، و (عبد مناة) ، وما شابه ذلك من أسماء ُدعي أصحابها بها ، أملاً في العمر الطويل ، وفي التهرب من الموت . فقد كان الآباء والأمهات ينذرون نذراً ، انه ان ولد لهم مولود ، أخدموه إلهاً من الآلهة ، ودعوه عبداً له حتى يعيش . يفعل هذا الفعل من لا يعيش له مولود ، ومن يولد له مولود لكنه لا يعمر طويلاً ، بل يموت طفلاً أو في مقتبل العمر . فأمل الانسان في ان يضع الإله حمايته ورعايته للمولود ، دفعه على ركوب هذا المركب، لاقناع الآلهة بدفع الموت عن أبنائهم وحمايتهم منه .

ولدينا نصوص جاهلية عديدة ، تخبر عن تلبية الآلهة توسلات المتعبدين لها ، ووفائها لهم بما طلبوه منها . ففي نص ثمودي يخاطب انسان ربه (منف) (مناف) بقوله : (سمعت منف)[١] ، أي (سمعت ندائي يا منـــاف) ، أي استجبت لندائي ، فوفيت لي يا إلهي مناف . وقد دوّنه حمداً له وشكـراً واعترافاً بفضله عليه . وفي نص آخر،يخبر صاحبه انه بريء. وان ر ه شفاه مما ألم به من مرض . فيقول (برات) ، أي (برأت)[٢] ، و (برتن)[٣] ، و (برتتن)[٤] . وفي نص آخر يشكر انسان ربه (صلم)[٥] . ولم يرد في النص السبب الذي حمل صاحب النص على شكر إلهه (صلما) ، لكننا نستطيع ان نحزر ، فنقول انـه طلب منه شيئاً ، فصار على نحو ما أراد فشكر إلهه لذلك . وفي نص آخـــر ، توسل من شخص الى إلهه (صلم) لكي يعينه في الفاجعة التي فجع بها[٦] . وفي نص آخر، توسل الى إلهه لأن يمنحه : (خلود) ، أي الخلود ، بمعنى طول العمر[٧] .

ومن التوسلات الجميلة التي وجههـــا الثموديون الى آلهتهم ، قول أحدهم : (بالهي امت) ، (بـ الهي اموت)[٨] ، (بإلهي أموت) ، أو (في حب إلهي أموت) ، أو (في إلهي أفنى) . فهو يخاطب ربـــه . وقد ملأ قلبـــه العشق نحوه . العشق الإلهي الذي نقرأه في كتب المتصوفة، ونسمعه في تغاريدهم يخاطبون

---

١ Hu. 421, Eu. 775, Hu 505/37, H. Grimme, S. 58.

٢ Hu. 504/34.

٣ Hu. 497.

٤ JSA 503.

٥ « صلم شكر » ، JSA 17.

٦ Grimme, S. 34, 40.

٧ Grimme, S. 35, 41.

٨ Hu 255/20, Eu 250, Grimme, S. 66.

بها الله . ونجد هذا الحب الإلهي والهروب الى الله في نص ثمودي آخر، هذا نصه: (م مرر . ب ل ه ى جرت . ب ل ه ى ا م ت ابب ذ ه غ ث ت)[1] . أي (من مرّ . بإلهي استجرتُ . بإلهي أموت . اعطني لبك . يا مغيث) ، وبعبارة أوضح : (من مرّ) و (مر) اسم صاحب النص ، فهو يوجه نداءه الى ربه (استجرتُ بإلهي . وبإلهي أموت . اسمع ندائي يا من يغيث) ، أو (يا مغيث) . ففي هذه التوسلات وأمثالها رقة الشعور الديني ، والحس المرهف الذي يكون عند كبار المتصوفة في مناجاتهم الله .

التطاول على الأرباب :

وفي روع أهل الجاهلية ان من سب الأرباب أو تطاول في كلامه عليها، نزلت به قارعة . فلما أسلم (ضمام بن ثعلبة) السعدي أو التميمي ، وقدم على قومه ، (فكان أول ما تكلم به ، ان قال : بئست اللات والعزى . قالوا : مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون . قال : انهما والله ما يضران ولا ينفعان)[2] . ولمّا تحرش الرسول بالأصنام خوّفه المشركون من ان يصاب بسوء ، والى تخويفهم هذا أشير في القرآن الكريم : « ويخوّفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله ، فما له من هاد »[3] . يعني « ويخوّفونك (هؤلاء المشركون) يا محمد بالذين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء ، ببراءتك منها وعيبك لها ، والله كافيك ذلك »[4] . و « كانت زنيرة روميّة، فأسلمت فذهب بصرها ، فقال المشركون : أعمتها اللات والعزى » ، « وقالت قريش ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى »[5] .

---

١ Hu 518/27, Grimme, S. 67.

٢ الاستيعاب (٢/٢٠٨) ، (حاشية على الاصابة) ،

٣ الزمر ، ٢٩ ، الآية ٣٦ .

٤ تفسير الطبري (٢٤/٥) ، تفسير القرطبي (١٥/٢٥٨) .

٥ الاصابة (٤/٣٠٥) ، (رقم ٤٦٥) .

الفصل السابع والستون

التقرب الى الالهة

وكما تقوم الصداقة بين النـــاس على أساس الود والتقرب والاتصال والتذكر بتقديم الهدايا والألطاف ونفائس الأشياء ، كذلك تقوم الصلة بين الانسان وآلهتـــه على أساس من الود والصداقة أيضاً . وإذ كانت الآلهة أقدر من الانسان ، كان من اللازم على البشر التودد اليها بشتى الطرق المعبرة عن معاني التقرب والتحبب والتعظيم ، لتتذكره ، فتمنّ عليه بالبركة والسعد وبخير ما يشتهيه ويرغب فيه .

والبشر عبيد لآلهتهم ، فعليهم ان يؤدوا لها ما يجب أن يؤديه العبـد لسيده . إن على العبد واجبات وفروضاً يجب ان يؤديهـا لصاحبه ومالكه ، وعلى الانسان كائناً ما كان ان يقوم بأداء ما فرض عليه لآلهته وأربابه في اوقات مكتوبـة وفي المناسبات .

ولما كانت عقلية الانسان القديم وعقلية كل بدائي تقوم على فهم الإدراك الحسي في الدرجة الأولى ، كان للهدايا وللنذور والقرابين والشعائر العملية المقام الأول في دياناته ، لأنها ناحية ملموسة تراها الأعين وتدركها الأبصار ، وفيها تضحية تقنع المتدين التقي المتقرب بها الى آلهته بأنه قد قدّم شيئاً ثميناً لها ، وانها لذلك سترضى عنه حتماً ، لأنه قد آثرها على نفسه فقدم اليها أعز الأشياء وأغلاها . انها سترضى عنه ، لأنه لم ينسها ، ولم يغفل عنها ، ولم يفتر حبه لها . وسترضى عنـــه كلما تذكرها وقام بأداء هذه الواجبات المفروضة أو المستحبة لها ، كما يرضى الصديق عن صديقه أو السيد عن عبده ، بإظهار الاخلاص وبالحرص على أداء الأعمال المرضية.

والدين عقيدة ، أي (ايمان) Belief وعمل . والعمل أبين وأظهر وأقوى في الديانات القديمة من الايمان ، بسبب ان الايمان بالقلب ، وهو لا يكون إلا بين المرء وربه ، ولا يمكن لأحد الاطلاع على كنهه . أما العمل فهو تجسيد للايمان وتعبير عنه بصورة عملية واقعية . وهو الناحية المحسوسة الظاهرة للتدين . ولا يفهم البدائي من الدين إلا مظاهره ، التي ترتكز على تضحية وبذل مادي لارضاء الآلهة ، فعنده انه متى بذل أعز ما يملكه في سبيل آلهته عدّ مؤمناً تقياً ، ترضى عنه الآلهة ، وألسنتها الناطقة بلسانها على الأرض : طبقة رجال الدين . ولهذا رأى بعض العلماء ، انه لدراسة دين من الأديان القديمة يجب الاهتمام بشعائره وبالأحكام التي فرضها على أتباعه ، لأنها هي أساس ذلك الدين وجوهره[1] .

لقد كانت ديانات الجاهليين ذات حدود ضيقة ، آلهتها آلهة محلية ، فالإلـه إما إلـه قبيلة وإما إلـه موضع . وطبيعي ان تكون صلة الانسان بإلهه متأثرة بدرجة تفكير ذلك الانسان وبالشكل العام للمجتمع . والإلـه في نظرهم هو حامي القبيلة وحامي الموضع ، وهو المدافع عنها وعنه في ايام السلم وفي ايام الحرب ، ما دام الشعب مطيعاً له منفذاً لأوامره وأحكامه وللشعائر المرسومة التي يعرفها ويقررها ويقوم بتنفيذها رجال الدين .

ويكون ارضاء الآلهة بالتقرب اليها وبتنفيذ أوامرها التي تعينها وتثبتها خاصتها المختصة بين القبيلة او الشعب ، أعني كهانها ورجال الدين الذين يعرفون اوامرها وأحكامها خير معرفة ، وهم الذين يفسرونها ويأمرون بتنفيذها بين الناس . وقد يكون هذا التنفيذ في ايام او أشهر ثابتة معينة تكون لها قدسية وحرمة خاصة ، وقد يكون في مواسم . يرى الناس ان آلهتهم تكون في تلك الأوقات حاضرة متهيئة قريبة منهم تسمع شكاواهم وما عندهم من مطالب . ويكون هذا التنفيذ بصور مختلفة أهمها زيارة المعابد والتبرك بأصنامها ، وتقديم النذور لها ، وايقاف الحبوس عليها ، والحج اليها في الأوقات المفروضة وفي كل وقت آخر ممكن ، وأداء الصدقات والزكاة ، تزكية للمال ، وتطهيراً للنفس من الذنوب .

ومن اهم ما تقرب به الانسان الى آلهته (النذور) و (القرابين) و (المنح) ، اي الصدقات والعطايا . وتدخل (الذبائح) في باب النذور والقرابين كذلك .

---

[1] Robertson, p. 16.

ويجب ان اضيف (القرى) اي الضيافة عليها أيضاً ، لما لها من صبغة أخلاقية دينيـــة ، حتّى صارت الضيافة من الواجبات المثبتـــة في نظام (مكة) . وهي (الرفادة) أي تقديم الطعام لمن يحتاج اليه .

والمنحة عند العرب ان يعطي الرجل صاحبه المال هبة أو صلة فيكون له ، او ان يمنح الرجل أخاه ناقة او شاة يحلبها زماناً واياماً ثم يردّها . وقد تقـــع على الأرض،وهي ان يعطي الرجل غيره أرضاً ليزرعها ويستفيد منها،هبة او عارية[1] . ويظهر من الاشارة اليها في الحديث ، انها كانت من أعمال البر المعروفة عند أهل الجاهلية ، وكانوا يتقربون بها الى آلهتهم .

ولم تحدد الوثنية الأشياء التي كان على الانسان ان يتقدم بها الى آلهته قربة اليها او وفاءً لنذر ، بل تركت له الأبواب مفتوحة ، فله ان يتقرب الى أربابه بكل ما يختار ويشاء ، من امور بسيطة رخيصة الى أشياء ثمينة غالية ، كـــل حسب مقدوره وقابلياته . فنجد بين النذور مباخر وتماثيل ومصابيح ، واشياء نفيسة من ذهب او من جواهر . كـــما كانوا يتبركون بوضع حصونهم وبيوتهم وبساتينهم ومزارعهم في حراسة الآلهة ورعايتها ، لتحفظها ولتحفظ أصحابها .

ويمكن تقسيم ما تقدم به الجاهليون الى أربابهم الى قسمين : قسم اجباري ، يجب الوفاء به بسبب (نذر) مثلاً ؛ وقسم تطوعي ، اي اختياري مثل (المنح) والذبائح التي تقدم في المواسم وفي سائر الأيام ، ويقال لها (ندب) و (ندبت) (ندبة) . و (المندوب) في عربيتنا المستحب[2] . وأدخل في القسم الأول ما يقال له (خطت) (خطات) (خطأة) ، اي (الخطيئة)[3] . ويراد بهـا تقديم (فدية) عن عمل مخالف قام به انسان ، مثل تقديم ذبيحة بسبب دخول انسان نجس في المعبد .

واذا كنا في شيء من الجهل بالنسبة الى الزكاة التي كان الناس يدفعونها في نجد او العربية الشرقية او في الحجاز الى المعابد والى رجال الدين ، لعدم وجود نصوص جاهلية تكشف النقاب عنها ، فإن لنا بعض المعرفة عن الزكاة التي كان

---

١ تاج العروس (٢/٢٣٢) ، (منح) .
٢ تاج العروس (١/٤٨١) ، (ندب) .
٣ Ancient Israel, 418-421, 425, 429.

يقدمها اهل العربية الجنوبية الى معابدهم ، ظفرنا بها في الكتابات التي عثر عليها هناك ، وقد وردت فيها اشارات اليها في نصوص تعرضت لها بالمناسبات .

وهذه الزكاة حصص عينية مقررة تدفع الى المعبـــد على شاكلة الحصص التي تدفع الى أصحـــاب الأرض والحكومة ، تخزن في مخازن المعابـــد ، لتصدّر الى الخارج ، او لتباع في الأسواق ، او ليصرف منها عـــلى المعابد ورجال الدين والمحتاجين . فكان القتبانيون مثلاً يدفعون عُشر حاصلهم الى المعبد ، ويعرف ذلك عندهم بـ (عصم)[1] ، تدفع هذه الضريبة عن حاصلات الأرض ، وذلك في كل سنة . وقد عرفت هذه الضريبة بـ (عشر) عند المعينيين . وهي ضريبة تدفع ايضاً عن الحيوان الى المعبد . وهذه الضريبة هي في الواقع من الضرائب العامة التي كانت تدفعها أمم اخرى عديدة الى المعابد ، وتستند الى تقاليد تأريخية قديمة ، والى نظرية ان الأرض هي ملك للآلهة ، فهي التي تنعم على الانسان بالحاصل وبالخير وبالبركات ، فعلى الانسان تخصيص جزء من حاصله لتلك الآلهـــة . فإذا قصّر انسان في أداء ما عليه الى الآلهة ، تعرّض للعقاب ولحرمان الآلهة اياه من البركة والخصب[2] .

ويتبين من نصوص المسند انه كانت في العربية الجنوبية أرضون واسعة مسماة بأسماء الآلهة ، أجّرتها المعابد للرؤساء او سلّمتها الى ايدي (الكبراء) لاستغلالها في مقابل أجر يدفعونه الى المعبد يتفق عليه . وهذه الأرضون هي أوقاف حبست على الآلهة تعرف بـ (وتفم) (وتف)[3] . ومن غـــلات هذه الأوقاف ومن (العصم) والنذور والهبات الأخرى ينفق على المعابد وعلى رجال الدين .

وقد ظهر في العربية الجنوبية نظام اقطاعي (كهنوتي) ، أسياده رجال الدين ، تولوا الإشراف على ادارة أملاك المعبد الواسعة وعـــلى استغلالها وادارة شؤونها ، وجباية الأرضين التي يوقفها المؤمنون أصحابها على الآلهة ، وعلى استحصال حقوق المعبد من المتمكنين . وقد أشير في كتابات المسند الى ارضين واسعة كانت اوقافاً للمعابد ، أجّرت الى سادات القبائل لاستغلالها في مقابل أجر اتفق عليه . ويظهر ان بعض اولئك السادات كانوا أقوياء وأصحاب نفوذ فاستولوا على (الحبوس)

---

١ السطر الثالث من النص الموسوم بـ : Kataba. Texte, I, Glaser 1601

٢ Hastings, p. 940.

٣ Katab. Texte, II, S. 30.

استيلاءً في مقابل اجور زهيدة كانوا يدفعونها للمعبد ، ولما لم يكن في وسع المعبد فعل شيء تجاههم ، اضطر الى قبول الأجر الزهيد الرمزي الدال على تملك المعبد للارض . أما السادات فكانوا يؤجرون الأرض لأتباعهم بأجور عالية ، ويربحون من ذلك أرباحاً كبيرة .

وعثر المنقبون على وثائق في خرائب بعض المعابد ، تبين منها انها كانت نصوص عقود ايجار واستئجار لأملاك المعبد ، اي للأوقاف المحبوسة على أرباب المعبد . وقد ذكر المستأجرون فيها الشروط التي اتفقوا عليها مع المعبد في مقابل استغلال الوقف . واذا كان المستأجر غير متمكن من أداء ما عليه للمعبد في مقابل استغلال الأرض ، فإن من حقه الاستدانة من غيره او الاتفاق معه على المساهمة معه في الاستغلال والاستثمار على شرط أخذ موافقة رجال المعبد على ذلك، وإدخال اسم الشخص الثاني في العقد ، كي يكون مسؤولاً شرعاً عن تنفيذ شروط العقد في حالة عدم تمكن زميله من ذلك[1] .

وقد اقتضى تضخم املاك المعابد خلق جهاز خاص لادارة الأملاك والأوقاف والاشراف على استحصال (الأعشار) عن الدخل وتركات الارث والمشتريات الى جانب النذور والقرابين وتوقيع العقد . جهاز رأسه كبار رجال الدين ، الذين يمثلون الآلهة على الأرض، وقاعدته صغار رجال الدين ومن عهد اليهم أمر الادارة من غير رجال الدين . فصار للمعبد بذلك نفوذ كبير في اقتصاد العربية الجنوبية في ذلك الوقت .

وفي المعابد مواضع يرمي الزوار فيها ما يجودون به على المعبد ، تكون أمام الأصنام في الغالب . وهي خزائن تتجمع فيها النذور والهبات ، فيأخذها السدنة . وأغلب ما يرمى فيها الحلي والمصوغات المصاغة من الذهب والفضة ، والأشياء النفيسة الأخرى . كما كانوا يعلقون السيوف والألبسة الثمينة على الأصنام وعلى الأشجار المقدسة تقرباً اليها ، ووفاء بنذور نذروها لها .

ولم يبخل الجاهليون على أصنامهم، فقدموا لها حتى المأكل والمشرب، لاعتقادهم انها تسرّ بذلك وتفرح . فقد علقوا على (ذي الخلصة) ، وهو صنم نصبه

---

١ Die Bodenwirtschaft, S. 22, A. Steinwenter, Beiträge Zum Offentlichen, 1915.

(عمرو بن لحيّ) ، القلائد وبيض النعام ، والبرد النفيسة ، وقدموا له الحنطة والشعير ، بل واللبن أيضاً ، ليشرب منه ، وذبحوا له[1] . فهم يعتقدون أن في الصنم روحاً ، وان في مقدوره التلذذ بهذه النذور . وكان في روعهم أنه يشرب من ذلك اللبن .

وقد أشير الى الهبات التي تقدم الى المعابد والآلهة بكلمة (وهبم) في النصوص القتبانية . بمعنى (وهبٌ) و (هبات) . ووردت كلمات أخرى تؤدي هذا المعنى أيضاً . منها : (ودم) ، و (شفتم) ، و (بتم)[2] . وتقابل هذه ما يقال له : (منحة) و (المنحة) عند العرب الشماليين .

وفي جملة ما يدخل في هذا الباب (بكرت) ، أو (الباكورة) أول كل شيء . مثل الثمر وأول مولود بالنسبة للحيوان ، حيث يهدى للآلهة . وقد كان معروفاً عند العبرانيين وعند غيرهم من الساميين . وذلك أن يجعل صاحب المال ثمرة أول زرعه أو حيوانه نذراً لآلهته[3] . وقد أشير الى هذا النذر أو الهبة في نصوص المسند . ومن (الباكورة) العقيقة التي تحدثت عنها في موضع آخر من هذا الكتاب .

وتلعب النذور دوراً خطيراً في الحياة الدينية عند الجاهليين ، حتى صارت عندهم بمثابة المظهر الأول والوحيد للدين . فالعامة لا تكاد تفهم من الدين إلا تقديم النذور للآلهة ، لتجيب لها طلباتها وتنعم عليها بنعمائها . والنذور هي وعد على شرط . يتوسل الناذر الى آلهته بأنها ان أجابت طلباً عينه ، وحققت مطلباً نواه ، فعليه كذا نذر ، يعينه ويذكره . فهنا عقد ووعد بين طرفين في مقابل تنفيذ شرط أو شروط ، أحد طرفيه السائل صاحب النذر ، أما الطرف الثاني فهو الإله او الآلهة . وأما الشرط ، فهو تنفيذ المطالب التي يريدها الناذر . وأما النذر ، فهو أشياء مختلفة ، قد تكون ذبيحة ، وقد تكون جملة ذبائح ، وقد تكون نقوداً ، وقد تكون فاكهة أو زرعاً ، وقد تكون أرضاً ، وقد تكون تمثالاً ، وقد تكون حبساً لانسان يهب نفسه او مملوكه او ابنه لإلهه او لآلهته ، وقد يوهب

---

١ الازرقي ، اخبار مكة (٧٨) ، (لايبزك) .

٢ N. Rhodokanakis, Katab Texte, I, S. 18, 26.

٣ في العبرانية « بكوريم » ، Ancient Israel, 380, 404, 493.

ما في بطن المرأة او ما في بطن الحيوان ، وقد يكون النذر حيوانات حية . وهكذا نجد مادة النذر كثيرة مختلفة متباينة بتباين النذر والأشخاص[1] .

ولا يشترط في وفاء النذر ان يكون عيناً اي مادة ، إذ يجوز ان يكون امراً معنوياً ، كأن يذكر الناذر في نذره انه إن اجاب الإلـه الفلاني طلبه وبارك له ومنحه طفلاً ، يخدمه له او يسميه عبده ، اي عبد ذلك الإلـه الذي نذر له . وكثير من الأسماء المبتدأة بـ (عبد) يليها اسم (صنم) ، هي من هذا القبيل، دُعي اصحابها بها ليحمي من سمّي به صاحب ذلك الاسم في مقابل تلك التسمية. ومن هذا القبيل عبد مناف وعبد مناة[2] .

ومن هذا القبيل ايضاً نذر المواهب ، كأن ينذر شخص مواهبه لصنم او لمعبد، بأن يتعهد ان يقوم بترنيم التراتيل الدينية في الأعياد او في اوقات الصلوات والمناسبات في ذلك المعبد ، او يقوم فيه بأعمال فنية مثل رسم منظر ديني او تزيين معبد الإلـه ، والنذر بالصيام وبغير ذلك[3] .

ويعبر عن الابن الذي ينذره أبوه أو أمه بأن يجعله خادماً للمعبد أو للصنم أو للكنيسة ذكراً كان أم أنثى (النذيرة) . وذلك لأنه حبس على خدمة الإلـه أو الصنم أو المعبد وتفرغ ، فلا يخدم أحداً سواها[4] . وفي التنزيل : « إني نذرت لك ما في بطني محرراً »[5] .

ويقال للنذر (النَّحْب) ، وهو ما ينذره الإنسان على نفسه فيجعله نحباً واجباً. وقيل : إنما قيل للنذر نذراً ، لأنه ينذر فيه ، أي أوجب على النفس[6] . ووردت لفظة (نذر) (نذرم) (نذرن) في نصوص المسند ، بمعنى (نذر) و(نذور).

---

١ تفسير الطبري (٣/ ٩١ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٤) **القاموس** (٢/ ١٢٠) ، Ency. Brita., Vol., 25, p. 200, Reste, S. 112, Ency. Religi., 12, p. 644.

٢ الروض الانف (١/ ٦) .

٣ تفسير الطبري (٥/ ٥٨٠ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، تفسير البيضاوي (٦/ ١٥٤) ، القرطبي ، الجامع (١١/ ٩٧ وما بعدها) ، الطبرسي (٢/ ٣٤٥) .

٤ اللسان (٥/ ٢٠٠) ، (نذر) ، تاج العروس (٣/ ٥٦١) ، (نذر) .

٥ آل عمران ، الآية ٣٥ ، تفسير الطبري (٣/ ١٥٧ وما بعدها) ، القرطبي ، (٤/ ٦٥ وما بعدها) ، تفسير البيضاوي (٣/ ٢٠ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٨ وما بعدها) روح المعاني (١/ ٥٦١) .

٦ اللسان (٥/ ٢٠٠) ، تاج العروس (٣/ ٥٦١) .

ومن هذه النذور (الربيط) . فقد كان الجاهليون ينذرون أنهم إذا عاش لهم مولود جعلوه خادماً للبيت ، أي لبيت الصنم . ومن هنا لقب (الغوث بن مرّ) بالربيط « لأن أمه كانت لا يعيش لها ولد ، فنذرت لئن عاش هـذا لتربطن برأسه صوفة ، ولتجعلنه ربيط الكعبة ، فعاش ففعلت وجعلته خادماً للبيت حتّى بلغ الحلم ، فنزعته فلقب الربيط »[1] .

ويظهر من بعض الروايات أنهم كانوا يربطون الربيط بالبيت . فقـد ذكروا أن أم (الغوث) لما « ربطته عند البيت أصابه الحرّ ، فمرت به ، وقد سقط وذوى واسترخى »[2] ، فيظهر أنهم كانوا يربطونه برباط بالموضع المقدس، ليكون على اتصال تام به ، كما يفعل الناس اليوم من ربط مرضاهم ومن لا يعيش طويلاً من الأولاد بقبور الأولياء بخيط أو حبـل ، رجاء الشفاء وطول العمر . وقـد يعقدون خيطاً أو شريطاً بالقبر ، لهذا الغرض .

وقد كان اصحاب النذور يتنسكون ويكثرون من تعبدهـم ومن تقربهم للصنم الذي نذروا له ، ليمنّ عليهم ويحقق لهم مـا طلبوه . وقد اشار (لبيد) الى الناسكات ينتظرن النذر بقوله :

توجس الذُبُوحَ شُعْثا غُبراً   كالناسكات ينتظرن النذرا[3]

ومن نذورهم في الجاهلية ، انهم كانوا ينذرون بألا تهب الصبا حتى يذبحوا او ينحروا[4] . ويظهر ان هذه عادة كانت لها صلة بطقوس دينية جاهلية قديمة، نجدها عند اهل مكة وعند الأعراب .

وتكون النذور في حالات الشدة والضيق في الغالب . فإذا أصيب انسان بمكروه او أصيب عزيز له بذلك ، نذر الى آلهته نذراً ، يقدمه لها حالة تحقق الشرط ، فإن صادف ان تحقق ما طلبه ، وجب على الناذر الوفاء بنذوره . ونظراً لظروف ذلك الوقت ، فقد كانت النذور كثيرة ومتنوعة . منها نذور مادية ، ومنها نذور

---

١ تاج العروس (٥/١٤٢) ، (ربط) .
٢ الروض الأنف (١/٨٥) .
٣ ديوان لبيد (٣٣٦) .
٤ الكامل (٢/٥٢ وما بعدها) .

معنوية ، مثل التعبد والتبتل وخدمة بيوت الأصنام وما شاكل ذلك من نذور[1] .

وقد كانوا لا يحلّون لأنفسهم التملص والتخلص من الوفاء بالنذور، لاعتقادهم انهم إن أكلوها ولم يوفوا بها ، غضبت عليهم الآلهة ، ولا سيما الإله الذي جعلوا نذرهم له ، فيصابون بغضب منها ، وينالهم مكروه ، فهم لذلك يوفون نذورهم ولا يقصرون في الأداء ، إلا لحاجة او لاستهتار او لتغلب الشح على النفس، ومع ذلك ، فقد كانوا يلجأون الى الحيل الشرعية في هذا التهرب ، بإيجاد الحلول والأعذار .

ونجد في نصوص المسند عدداً كبيراً من الكتابات تفيد ان صاحب الكتابة قد قدّم الى الإله الفلاني كذا وكذا ، لأنه أجاب طلبه وأعطاه ما أراد ووفاه بحسب طلبه ، فقدم اليه كذا وكذا وفاء لنذره . وتذكر في النص أحياناً جملة لتنزل اللعنة او لينزل الهلاك والدمار او ما شابه ذلك على من يحاول ازالة النذر والأثر عن موضعه او إلحاق الأذى به او ما شابه ذلك من عبارات . وقد ورد مثل ذلك في النصوص الثمودية واللليانية والنصوص الأخرى . وتفهم فكرة النذر والغاية منه صراحة من هذه الكتابات ، فالناذر قدّم نذره ، لأن الإله المذكور او الآلهة المذكورة أجابت طلبه ووفت له ما أراد ، فوفى هو له أو لها ما اشترط على نفسه تقديمه عند عقده صيغة النذر . فالإله او الآلهة طرف يسمع ويتعاقد ويجيب ويفعل او تفعل تماماً كما يفعل الانسان ، وهي تشترط على الطرف الثاني اي على السائل الوفاء بالنذر ، لأنه دين يجب عليه دفعه في مقابل تنفيذ الآلهة الشروط المذكورة، وإلا فإن الآلهة تغضب عليه وتوقع القصاص عليه ، وقد تسحب ما قدمت له حينما عقدت النذر معه .

وكانت القرابين البشرية في جملة الأشياء التي قدمها الإنسان نذراً الى آلهته . وكان (عبد المطلب) ، كما يذكر أهل الأخبار قد نذر إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحدهم . فلما اكتمل العدد ، قرر الوفاء بنذره ، وذلك بذبح أحدهم . وإذ لم يكن قد عين الولد الذي سيذبحه ، ذهب كعادة أهل مكة الى هُبل يستقسم عنده . فلما أصاب النصيب (عبدالله) ، ذهب الى (إساف) ونائلة

---

١ طبري (١٤٤/٣ وما بعدها) ، روح المعاني (٥٦١/١ وما بعدها) ، تاج العروس (٥٦١/٣) ، (نذر) ، تفسير البيضاوي (٢٠/٣ وما بعدها) .

وثني قريش اللذين تنحر عندهما ، ليذبحه ، « فقامت اليه قريش من أنديتها : فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه . فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » . ثم سألوه أن يذهب الى عرّافة كانت بالمدينة لها (تابع) ، لترى رأيها في الموضوع وتفتي فيه ، فلما ذهب اليها،وجدها بخيبر ، فأشارت عليه أن يعود الى مكة ، ثم يضرب بالقداح على ابنه وعلى عشر من الإبل وهو مقدار الدية عندهم ، فإن خرجت القدّاح على عبدالله ضربوا القداح مرة أخرى ، فإن خرجت القداح على عبدالله مرة أخرى ، أعادوا الضرب حتى يقع على الإبل ، فيكون الرب قد رضي عنه ، فتنحر الإبل عندئذ . فسمع نصيحتها وفعل ، ونحرت الإبل فدية عن ابنه (عبدالله)[١] . والظاهر أن عادة نحر الأبناء عند الكعبة قد بقيت حتى بعد دخول العرب في الإسلام ، بدليل ما ورد عن نذر امرأة أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فعلته ، ففعلت ذلك الأمر ، فجاءت الى المدينة تستفتي علماءها في الأمر . فأشار عليها من استفتتهم بوجوب الوفاء بالنذر ، ولكنهم ذكروا لها أن الله قد نهى عن قتل أنفسكم ، وذكروا لها قصة عبد المطلب المذكورة ، ومعنى ذلك تقديم الفداء[٢] .

كذلك كان من عادة الجاهليين النذر في ساعات الشدة والخطر ، فكان بعض النساء ينذرن أن يجعلن ولدهن (حمساً) إن شفي الرب ابنها من مرض ألمّ به ، كما كانوا ينذرون بحلق شعر الرأس أو جزّ شعر الناصية أو الاعتكاف والانزواء بعيداً عن الناس[٣] . وهي عادات نجدها عند غير العرب أيضاً[٤] .

وقد أشار المفسرون وأصحاب الحديث والأخبار الى نذور كانت معروفة في الجاهلية ، فمنعها الاسلام . وفي بعضها نوع من التحايل والتلاعب ، حيث كانوا يتصرفون بحسب أهوائهم وشهواتهم ومنافعهم وقت استحقاق النذر . ومن ذلك ما أشير اليه في القرآن الكريم : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى

---

١ الطبري (٢/١٧٢ وما بعدها) ، ابن الاثير الكامل (٢/٢) .
٢ الطبري (٢/١٧٢) .
٣ الازرقي (١/١٢٣) .
٤ Shorter Ency. p. 429.

الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون »[1] . وقد ذكر المفسرون ان من الجاهليين من كان يزرع لله زرعاً وللأصنام زرعاً ، فكان اذا زكا الزرع الذي زرعوه لله ولم يزك الزرع الذي زرعوه للأصنام ، جعلوا بعضه للأصنام وصرفوه عليها ، ويقولون ان الله غني والأصنام أحوج ، وان زكا الزرع الذي زرعوه للأصنام ، ولم يزك الزرع الذي زرعوه لله لم يجعلوا منه شيئاً لله . وقالوا هو غني .

وكانوا يقسمون الغنم ، فيجعلون بعضه لله ، وبعضه للأصنام ، فما كان لله أطعموه الضيفان ، وما كان للصنم أنفقوه على الصنم . وكانوا اذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله تعالى ردوه ، واذا اختلط ما جعل لله بما جعل للأصنام تركوه . وقالوا الله أغنى . واذا هلك ما جعل للأصنام ، بدّلوه مما جعل لله ، واذا هلك ما جعل لله لم يبدلوه بما جعل للأصنام[2] .

فهم يتطاولون على ما خصصوه لله من نصيب ، ويتصرفون به كما يشاؤون ، ويحافظون على ما خصصوه للأصنام ، بزعمهم أنها شركاء لله ، ويقدمونه لها . ولعل ذلك بسبب أن ما كان يخصصونه للأصنام كان يجد له معقباً وسائلاً ، يراجع أصحاب الحرث أي الزرع وأصحاب الأنعام لاستحصال حق الأصنام منهم . وهو حق مفروض ، وهم السدنة ورجال الأصنام ، فكانوا يستحصلون حقوق الأصنام منهم ، على حين كان ما يخصصونه لله نذراً لا يعرف به غير الناذر ، فكان يتلاعب به ، ويعطيه أو يعطي جزءاً منه الى جامعي حق الأصنام ، على اعتبار أنها شريكة لله ، وبذلك يتهرب من أداء النذر كاملاً بهذه الحيلة الشرعية ، فلا يستخرج من ماله الذي خصصه لنفسه شيئاً عن الوفاء بالنذر وفاءً تاماً ، أو لاعتقادهم أن الله بعيد عنهم ، وهو غفور رحيم ، أما الأصنام ، فقريبة منهم ، وهي منتقمة أشد الانتقام .

ويتبين من دراسات النذور عند الشعوب القديمة أنها كانت نتيجة حاجة ، وتصور الانسان أن بإمكانه التأثير على آلهته بهذه النذور ، فيجعلها تميل الى اجابة طلبه

---

١ الانعام ، الآية ١٣٦ .

٢ تفسير الطبرسي (٣٦٩/٨ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣٠/٨ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٨/٨) ، تفسير التبيان ، للطوسي (النجف ١٩٦٠) ، (٣٠٧/٤ وما بعدها) ، القرطبي ، الجامع (٨٩/٧) ، الكشاف (٤٧١/١) .

وحل مشكلاته ، وذلك بتقديم مطالب مغرية تطمعها ، وهدايا سارة تفرح بها ، كما يفرح الانسان عند تقديم أمثالها اليه،فيهش لصاحب الهدية ويرتاح له ويتقرب اليه ، ويعد الهدية نوعاً من التقرب والتودد والتحبب ، فمن واجب من أهديت اليه الهدية مقابلة المتودد بالمثل . وأما الحاجات التي كان يرجو الناذرون تحقيقها ، فهي في الغالب الحصول على ثروة ، أو صحة وعافية أو ذرية أو نصر وتوفيق . والناذر على يقين بالطبع من أن الإلـه الذي نذر له النذر قادر على تحقيق ذلك ، وإلا لم يتقدم اليه بهذا النذر[1] .

ويدخل في باب النذور ما يأخذه المرء عهداً على نفسه بتجنب الطيبات واللذيذ من العيش ، أو بالابتعاد عن الناس واعتزالهم على نحو ما يفعله الرهبان والناسكون لأمد معين أو لأجل غير معلوم . ونجد أمثلة عديدة من هذا العهد في أخبار الجاهليين ، كالذي ذكروه عن (امرىء القيس) من أنه قال حينما بلغه مصرع والده : « الخمر عليّ والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مئة وأجز نواصي مئة »[2] ، وكالذي رووه عن غيره من الجاهليين . وهي كلها من هذا الطراز . أخذ الشخص عهداً على نفسه بألا يقرب امرأة أو يشرب خمراً أو يضع طيباً أو يقرب اللذائذ حتى يأخذ بثأره أو يتحقق ما نوى عليه ، وقد يحدد ذلك بوقت بأن يعين أجل العهد[3] .

وإذ كان النذر عهداً، كان من اللازم تنفيذ العهد ؟ فإذا مات من أخذ عهداً على نفسه بأن يفعل شيئاً لم يفعله ، فعلى ورثته وقبيلته الوفاء بعهده . فإذا مات شخص كان قد نذر على نفسه الأخذ بثأر قتيل ولم يوفِ بعهده ، بسبب موته، فعلى اهله وذوي قرابته وأفراد قبيلته الأخذ بالثأر . ولذلك كانت أحقاد الثأر تنتقل من الآباء الى الأبناء فالأحفاد ، وتستغرق أحياناً زمناً طويلاً حتى يؤخذ بالثأر . وقد نشأت عن هذه العهود مشكلات خطيرة في المجتمع الاسلامي في موضوع العهود التي يمكن تنفيذها والعهود التي لا يجوز تنفيذها ، او التي يسمح بعدم تنفيذها وفي مبلغ التبعة التي تترتب على الورثة في تنفيذ العهود[4] .

---

١ Ency. Religi. 12, p. 656.

٢ الاغاني (٨/٦٥) ، (ذكر امرىء القيس ونسبه وأخباره) .

٣ ابن هشام (٥٤٣) ، Shorter Ency.. p. 428.

٤ Shorter Ency. p. 429.

القرابين :

وتؤلف القرابين جزءاً مهماً من عبادة الأمم القديمة ، بل تكاد تكون العلامة الفارقة عندهم للدين . والرجل المتدين في عرفهم هو الرجل الذي يتذكر آلهته ويضعها دائماً نصب عينيه ، وذلك بتقديم القرابين لها ، ولست أخطيء اذا قلت انها كانت عندهم أبرز من العبادات العملية كالصلوات ، لأن الانسان القديم لم يكن يفهم آنئذ من الحياة إلا مفهومها المادي . وهو يرى بعينيه ويدرك ان ما يقدم اليه من هدايا يؤثر في نفسه كثيراً ، ولذلك كان من الطبيعي ان يتصور بعقله ان القرابين هي أوقع في نفوس آلهته من اي شيء كان ، فقدمها على كل شيء ، وجعلها عبادة يتقرب بها الى الآلهة كما يتقرب اهل الأديان السماوية الى الإله بالدعاء والصلوات ، فهي في نظره عبادة تقربه الى الأرباب .

وقد كان الجاهليون ، يعظمون البيت بالدم ، ويتقربون الى أصنامهم بالذبائح، يرون ان تعظيم البيت او الصنم لا يكون إلا بالذبح ، وان الذبائح من تقوى القلوب . والذبح هو الشعار الدال على الاخلاص في الدين عندهم، وعلامة التعظيم . « قال المسلمون : يا رسول الله ، كان اهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحق ان نعظمه »[1] .

ويظهر من قول أحد الشعراء الجاهليين :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما هُريق على الأنصاب من جسدِ

أن الجاهليين كانوا يريقون دم الضحية على الأنصاب، وهي موضوعة في الكعبة، ويمسحون الكعبة[2] .

وكلمة (قربان) وجمعها (قرابين) ، هي من أصل (ق ر ب) ، وقد استعملت وخصصت بهذا المعنى لأنها تقرب الى الآلهة . والقربان هو كل ما يتقرب به الى الله . فليس القربان خاصاً بالذبائح ، وان صار ذلك مدلوله في الغالب[3] .

---

١ تفسير الطبري (٦/٤٨) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٠٦) .
٣ تاج العروس (١/٤٢٢) ، (قرب) ، اللسان (٢/١٥٨) ، (قرب) .

ومن القرابين ما يقدّم في أوقات معينة موقوتة، ومنها ما ليس له وقت محدد ثابت بل يقدم في كل وقت . ومن أمثلة النوع الأول ما يقدم في الأعياد أو في المواسم أو في الأشهر أو في أوقات معينة من اليوم وفي ساعات العبادات ، ومن أمثلة النوع الثاني ما يقدم عند ميلاد مولود ، أو انشاء بناء أو القيام بحملة عسكرية أو لنصر وما شابـــه ذلك من أحوال . ويدخل في النوع الأول الاحتفاء بأعياد الآلهة ، حيث تكسى أصنامها أحسن الحلل ، وتزين بأجمل زينة ، ثم يوضـــع أمامها ما لذّ من الطعام وما حسن من الهدايا ، وتذبح لها الذبائح ، تذبح على الأنصاب ، ويأتي الكهّان ليقوموا بتأدية الشعائر الدينية المقررة في هذه الأحوال .

ومعظم نصوص المسند كتابات دونت عند تقديم قربان او نذر الى الآلهـة في ميلاد مولود ، او شفاء مريض ، او بناء معبد او بيت ، او حفر خنـــدق او تشييد برج او سور ، او حفر بئر او زواج وما شاكل ذلك . ويظهر منها ان الناس في ذلك العهد كانوا يقدمون القرابين الى آلهتهم في مناسبات كثيرة ، تقرباً اليها وارضاء لها ، ولكي تمنّ على أصحابها بالخير والبركة .

وقد استعملت نصوص المسند لفظة (ذبح) و (ذبحم) بمعنى (ذبحوا) و (ذبح) و (ذبيحة) و (ذبائح) . وقد تسبق بكلمة (يوم) ، فتكون (يوم ذبح) ، اي (يوم ذبحوا) ، ثم يذكر بعدها عدد ما ذبح ونوعه ، ثم كلمة (اذبح) بمعنى (ذبائح) في بعض الأحيان . والذبائح التي تقدم الى الآلهة هي الإبل والبقر والثيران والغنم والمعز ، وهي اكثر الحيوانات شيوعاً في الذبـــح عند الشعوب السامية الأخرى . ولم نجد في نصوص المسند ذكراً لحيوانات اخرى كالأسماك او الدجاج مثلاً ، ولعل ذلك بسبب ضآلة قيمتها وتفاهتها بالقياس الى أثمان الحيوانات الأخرى ، مما جعل الناس يأنفون من الاشارة اليها في النصوص .

وفي بعض الأديان حرق الذبائح وسكب دمائها على النار كما يفعل العبرانيون، إذ اتخذوا مذبحاً للمحروقات . ويسمى أيضاً بمذبح النحاس . وكانت ناره لا تطفأ، وتقدم اليه الذبائح عـــلى الدوام ، ويعرف ذلك عندهم بـ (عولاه) Olah ، وتفسير الكلمة الشيء الذي يعلو[1] .

وينفي (ولهوزن) وجود المحارق عند الجاهليين ، وعنده أن العرب لم يكونوا

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٤٥٨/١) ، Hastings, p. 111.

يحرقون الذبائح للأرباب ، بل كانوا يكتفون بالذبح وبسكب دم الذبيحة على النصب كله أو بعضه ، أو انهم يتركونه يسيل الى (الغبغب) . وليس في الذي بين أيدينا من نصوص ما يدل على ان الجاهليين كانوا يحرقون ذبائحهم لأربابهم على نحو ما كان يفعله العبرانيون،غير أن ذلك لا يمكن أن يكون مع ذلك دليلاً قاطعاً وحجة كافية في اثبات أن هذه العادة لم تكن عند جميع الجاهليين .

وهناك ذبائح من نوع آخر قدمها الانسان الى آلهته ، من نوع لا تشمله كلمة خروف او شاة او بقرة او ثور او جمل ، من نوع آخر لا تشمله اية تسمية من هذه التسميات التي تطلق على هذه الحيوانات التي يأكلها الانسان في العادة ، هي ذبائح يعاقب القانون كل من يمارسها في الوقت الحاضر بأشد العقوبات ، هي ذبائح بشرية قدمها الانسان الى آلهته لاعتقاده انها زلفى محببة الى نفوسها ، وانها ستفيد المجموع وتنقذه من كثير من الأوبئة والأمراض وأنواع الشر والضر ، إن كان الانسان الحديث يتبرأ منها في الزمن الحاضر ويتنكر لها ويحاول تبرئة أجداد أجداده من ممارستها قبل مئات من السنين ، فالتأريخ لا يستطيع ان يجد دليلاً يثبت تبرئة أكثر أديان شعوب العالم القديمة من تقديم هذا النوع من القرابين ، وفي التوراة أمثلة عديدة تتحدث عن تقديم العبرانيين لهذا النوع من القرابين الى (يهوه) ، ليرضى عن شعبه ، ويعفو عنه ، ويتقرب منه[1] . كذلك نجد هذه العادة عند اليونان والرومان والهنود والفراعنة والصينيين واليابانيين وغيرهم .

أما عند الجاهليين ، فذكر (فورفيريوس) Forphyrius أن أهل (دومة) Duma كانوا يذبحون في كل سنة إنساناً عند قدم الصنم تقرباً اليه[2] . وذكر (نيلوس) Nilus أن من عادة بعض القبائل تقديم أجمل من يقع أسيراً في أيديهم الى (الزُهرة)،ضحية لها تذبح وقت طلوعها ، وقد وقع ابنه (تيودولس) Theodolus أسيراً حوالى سنة ٤٠٠ م في أيدي الأعراب Saracens ، وهيء ليذبح قرباناً الى الزُهرة غير ان أحوالاً وقعت أفاتت عليهم الوقت المخصص لتقديم

١ الملوك الاول ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٣٤ ، الملوك الثاني ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٣ ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ١٧ ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٦ ، صموئيل الاول ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٣٢ ، الملوك الثاني ، الاصحاح الثالث ، الآية ٢٧ ، القضاة ، الاصحاح الحادي عشر ، الآية ٣٠ وما بعدها ، ومواضع أخرى ، Hastings, p. 813, Ency. Religl., p. 864.

٢ Reste, S. 115.

الذبائح ، أنقذته من الذبح ، فاكتفى آسروه ببيعه في أسواق الرقيق بـ (ألوسة) Elusa ، فاستقر هناك الى أن صار أسقفاً على المدينة [1] . وذكر أيضاً أن الملك (المنذر) ملك الحيرة قدم أحد ابناء الحارث الذي وقع أسيراً في يديه ونحو من أربع مئة راهبة قرابين الى العُزّى [2] . غير أننا يجب أن نكون في حذر شديد من قراءة أمثال هذه الروايات ، لأن مصدرها في الغالب هو الخيال . كذلك يجب ان نمرّ برواية الأخباريين عن قصة عبد المطلب وعبدالله بشيء من الاحتراس والحذر ، بل والشك والريبة ، ويخيل إليّ ان الأخباريين استفادوا في هذه القصة من حكاية ابراهيم واسحاق .

وليس في الذي بين أيدينا من نصوص المسند نصٌ ما فيه خبر يشير الى تقديم شخصٍ ما ملكٍ او كاهن او اي انسان آخر ذبيحة بشرية الى الآلهة ، كذلك لا نجد في النصوص الأخرى مثل النصوص الثمودية او اللحيانية او الصفوية مثل هذه الاشارات .

وتلعب (المذابح) التي سبق ان تحدثت عنها ، دوراً خطيراً في العبادة عند الساميين ، بل تكاد تكون المظهر الأساسي للدين والتعبد عندهم في ذلك العهد . ولهذا كان المتدين يكثر من ذبح الذبائح لأنها تقربه الى الآلهة في نظره .

الترجيب :

وقد عرف شهر (رجب) بكثرة ما كان ينحر فيه من عتائر للأصنام ، فلا بد ان يكون لذلك أصل وسبب ، كأن يكون هذا الشهر من الأشهر التي كان لها حرمة خاصة في الجاهلية القديمة . وشهر رجب هو من الأشهر الحرم المعظمة التي لم يكن يحلّ فيها القتال [3] . وقد سمّي الذبح في هذا الشهر بـ (الترجيب) ، وقيل للذبائح التي تقدم فيه (العتائر) جمع (عتيرة) . وقد عدّت العتائر من شعائر الجاهلية . وأطلق بعض علماء اللغة كلمة (العتائر) على ذبح الحيوانات

---

١ Ency. Religi., 6, p. 853.

٢ Hastings, A Dictionary, Vol. I, p. 75.

٣ تاج العروس (١/٢٦٦) ، (رجب) .

الأليفة ، وأطلق لفظة (النافرة) على ذبح الحيوانات الوحشية [١] . « وفي الحديث: هل تدرون ما العتيرة ، وهي التي يسمونها الرجبية ؟ كانوا يذبحون في شهر رجب ذبيحة ، وينسبونها اليه . يقال هذه ايام ترجيب وتعتار . وكانت العرب ترجب، وكان ذلك لهم نسكاً »[٢] .

وذكر بعض أهل الأخبار ان أول من عتّر العتائر وسن العتيرة للعرب ، هو (بورا) ، وهو (بوز) ، وهو ابن شوحا ، وهو سعد رجب ، وهو أول من سن الرجبية للعرب . وهو ابن يعمانا ، وهو قوال ، وكان في عصر سليمان ابن داوود[٣] . والظاهر ان أحد أهل الكتاب قصّ على الأخباريين هذه القصة ، فنسبوا هذه السنّة الجاهلية الى هؤلاء الأشخاص .

وكان بعض السادة ينحرون إذا أهلّ (الشهر الأصم) ، اي (شهر رجب). روي : ان (حاتماً الطائي) كان ينحر اذا أهلّ الشهر ، ينحر عشراً من الإبل ويطعم الناس لحومها ، وذلك لحرمته ومنزلته عنده ، ولتعظيم (مضر). فهو من شهود مضر الخاصة [٤] .

وعرفت (العتيرة) بـ (الرجبية) عند الجاهليين كذلك ، لأنها كانت تذبح في شهر رجب ، فنسبوها اليه . وعرفت ايام رجب بـ (ايام الترجيب) . وورد (ايام ترجيب وتعتار) . وقيل للذبائح التي تقدم فيه (النسائك) كذلك[٥] .

وأصل (النُسك) : الدم ، وبهذا المعنى ورد من فعل كذا وكذا فعليه نسك ، اي دم يهريقه . و (النسيكة) : الذبيحة . و (مَنْسك) : الموضع الذي تذبح فيه النسيكة ، وهذا هو المعنى القديم الأصلي للكلمة . وقد صار من معانيها في العربية الشمالية ، العبادة والطاعة ، وكل ما يتقرب به الى الله تعالى ، لما كان للذبح من شأن في الديانات القديمة بحيث كان يعدّ عبادة أساسية عندها ،

---

١ Reste, S. 118.

٢ تاج العروس (١/٢٦٦ وما بعدها) ، (رجب) ، مسند احمد بن حنبل (٢/١٧٣) .

٣ الطبري (٢/٢٧٤) .

٤ الاغاني (١٦/٩٤) .

٥ تاج العروس (١/٢٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١/٣٩٦) ، المعاني الكبير (٣/١١٧١) ، المخصص (١٣/٩٨) ، مجمع البيان للطبرسي (٢/١٥٠) .

ولذلك قيل لمن انصرف الى التعبد : الناسك[1] .

وقد فسر علماء التفسير لفظة (نسك) الواردة في الآية : « ففدية من صيام أو صدقة أو نسك »[2] ، بذبح ذبيحة شاة أو ما فوق ذلك[3] .

والعرف في الذبح عندهم ، انهم كانوا يسوقون ما يريدون تعتاره اي ذبحه الى النصب الخاص بالصنم او الى الصنم نفسه ، ثم يذبحونه بعد التسمية باسم ذلك الصنم ، وبيان السبب في ذبح هذه العتيرة ، ثم يلطخ رأس الصنم بشيء من دم تلك العتيرة[4] . وقد منع المسلمون من أكل ذبائح المشركين ، لأنها مما أهل لغير الله ، ولأن المشركين لم يكونوا يذكرون اسم الله عليها، بل كانوا يذكرون اسم الصنم الذي يذبحون له عليها . فحرم ذبائح المشركين لذلك على المسلمين[5] .

وقد أبطل الاسلام (الرجبية) وهي العتيرة ، كما أبطل (الفرع) ، وهو ذبح أول نتاج الإبل والغنم لأصنامهم ، فكانوا يأكلونه ويلقون جلده على الشجر. ويذكر انهم كانوا اذا أرادوا ذبح الفرع زيّنوه وألبسوه[6] ، ليكون ذلك أوكد في نفوس الآلهة ، وتعريفاً للناس . وكانوا يفعلون ذلك تبركاً . وفي الحديث : لا فرع ولا عتيرة[7] .

وذكر انهم كانوا اذا بلغت الإبل ما يتمناه صاحبها ذبحوا ، او اذا تمت إبل احدهم مائة عتّر عنها بعيراً كل عام فأطعمه الناس ولا يذوقه هو ولا أهله ، قيل بل قدم بكره فنحره لصنمه. وقد كان المسلمون يفعلونه في صدر الاسلام ثم نسخ[8]. وذكروا ان العتيرة الذبيحة التي كانت تذبح للأصنام ويصب دمها على رأسها[9] . و (العِتر) الصنم الذي يصاب رأسه من دم العتر . قال زهير :

فزلّ عنها وأوفى رأس مرقبة   كناصب العتر دمى رأسه النسك[10]

---

1 تاج العروس (٧/١٨٦ وما بعدها) ، (نسك) ، اللسان (١٢/٣٨٩) ، (نسك)
2 البقرة ، الآية ١٩٦ .
3 تفسير الطبري (٢/١٣٤ وما بعدها) .
4 ديوان زهير ، للاعلم الشمنتري (٤٦) .
5 تفسير الطبري (٨/١٢ وما بعدها) ، سورة الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ١١٨ وما بعدها .
6 بلوغ الارب (٣/٤٠ وما بعدها) .
7 تاج العروس (٥/٤٤٩) .
8 تاج العروس (٥/٤٤٩) .
9 اللسان (٤/٥٣٧) ، (عتر) ، المرزوقي ، الازمنة والامكنة (١/٢٧٨) .
10 اللسان (٤/٥٣٧) ، (عتر) .

وكانوا يؤكدون على تلطيخ الصنم الذي يعتّر له ، أو (النصب) بشيء من دم العتيرة . يفعلون ذلك على ما يظهر، ليحس الصنم بالدم فوقه . فيتقبله ويرضى به عنهم ، ويتقبل عتيرتهم .

ويظهر من غربلة ما جاء في روايات علماء اللغة والأخبار عن العتيرة والرجبية، أن العتيرة بمعنى الذبيحة ، وأن (العتر) الذبح عامة ، في رجب وفي غير رجب. و (العتائر) الذبائح التي كانوا يذبحونها عند أصنامهم وأنصابهم في رجب وفي غير رجب ، والتي كانوا يلطخون بدمائها الصنم الذي كانوا يعترون له . وأما (الرجبية) فهي العتائر التي تعتر في رجب خاصة ، وقد كانت كثيرة . ولذلك نسبت الى هذا الشهر . ونظراً الى كون الرجبية عتيرة ، ذهب البعض الى أن العتيرة الرجبية[1] . فظن أنهم قصدوا بذلك أن العتيرة هي الرجبية ، مع أن الرجبية من العتائر ، أي بعض من كل ، وليست مساوية لها .

وقد كان بعض أهل الجاهلية إذا طلب أحدهم أمراً نذر لئن ظفر به ليذبحن من غنمه في رجب كذا وكذا ، أو أن يقول : إن بلغت إبلي مائة عترت عنها عتيرة ، فإذا ظفر به ، أو بلغت مائة ، فربما ضاقت نفسه عن ذلك ، وضن بغنمه ، فصاد ظبياً فذبحه ، أو يأخذ عددها ظباءً ، فيذبحها مكان تلك الغنم ، وهي (الربيض) . وإلى ذلك أشير في شعر للحارث بن حلزة اليشكري :

عنتاً باطلاً وظلماً ، كما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباء[2]

فذلك نوع من أنواع التحايل للتخلص من الوفاء بالنذور .

وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم[3] ، وانما يأكل لحومها غيرهم . كما كانوا يضرجون البيت بدماء البدن[4] ، ويضرجون أصنامهم بها . وورد في رواية

---

١ اللسان (٥٣٧/٤) ، (عتر) ، الاصنام (٣٢) ، (مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤ م) ، تاج العروس (٣٨٠/٣) ، (عتر) ، المخصص (٩٨ وما بعدها) .

٢ « عننا » اللسان (٥٣٧/٤) ، (عتر) ، « عنتا » ، تاج العروس (٣٨٠/٣) ، (عتر) ، البيت رقم (٥١) من المعلقة ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٤٦٣ وما بعدها) .

٣ تفسير القرطبي (٦٤/١٢) .

٤ تفسير القرطبي (٦٥/١٢) .

أخرى ، انهم ينحرون هديهم عنـد الأصنام ، فإذا نحروا هدياً قسموه فيمن حضرهم[1] .

ومن ذبائح أهل الجاهلية (الشريطة) . كانوا يقطعون يسيراً من حلق الشاة ويتركونها حتى تموت ويجعلونه ذكاة لها . وقد نهي عن ذلك في الاسلام . وقيل ذبيحة الشريطة ، هي انهم كانوا يشرطونها من العلة ، فإذا ماتت قالوا قد ذبحناها[2] .

ومما يلاحظ في تقديم الذبائح ، ان الناذر يراعي الجنس في اختيار الذبيحة ، فإذا كان مقرب القربان ذكراً ، اختار قربانه حيواناً ذكراً ، وان كان المقرب أنثى ، اختيرت الذبيحة أنثى . ولا زال الناس يراعون ذلك حتى اليوم . ونجد هذه العادة عند غير العرب أيضاً ، فقد كان أهل العراق يقدمون كتف حيوان، في مقابل شفاء كتف انسان ، ورأس ذبيحة في مقابل رأس ناذر ، وهكذا . وكانوا يجعلون الرأس رمزاً أحياناً ، فينذرون تقديم رأس المريض أو الصبي الى الإله ، إن منّ عليه بالعافية وبالصحة . ويقصدون بذلك بدلاً ، رأس حيوان أو رمزاً يرمز اليه من ذهب أو فضة[3] .

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام :

ومن النذور والقرابين ما يكون حيوانات حية ، تسمى كلها او بعضها باسم الأرباب ، فتحبس عليها ، وتكون حرة طليقة لا يجوز مسها بسوء . وقد أشير في القرآن الكريم الى (البحيرة) ، و (السائبة) ، و (الوصيلة) ، و (الحام)[4] ، وللعلماء في هذه المصطلحات كلام ، مهما تضارب واختلف ، فإنه يوصلنا الى نتيجة هي ان الجاهليين كانوا يراعون هذه الأمور مراعاة شديدة، ولهم فيها قواعد وأحكام ترجع الى تقاليد موروثة قديمة ، حافظوا عليها ، وظلوا يحافظون عليها الى ان منعها الاسلام .

---

١ ابن هشام (١/٦٥) ، هامش على الروض الانف .
٢ تاج العروس (٥/١٦٧) ، (شرط) .
٣ Ancien Israel, p. 434.
٤ المائدة ، الآية ١٠٣ .

فأما البحيرة ، فالناقة أو الشاة تترك فلا ينتفع من لبنها ولا تحمل ولا تركب، وترعى وترد الماء فلا ترد ، فإذا ماتت حرموا لحمها على النساء وأباحوه على الرجال ، ذلك بعد ان تنتج خمسة أبطن أو عشرة أو ما بين ذلك[1] . وقيل أيضاً الناقة اذا نتجت خمسة أبطن نظروا في البطن الخامس فإن كان ذكراً نحروه،فأكله الرجال والنساء جميعاً ، وان كانت أنثى شقوا أذنها ، فتلك البحيرة ، فلا يجز وبرها ولا يحمل عليها ، وحرم على النساء ان يذقن من لبنها شيئاً وان ينتفعن بها ، وكان منافعها للرجال دون النساء[2] . وقيل الشاة التي تشق أذنها،وذلك شيء كان لأهل الجاهلية . تشق أذنها أو أذن الناقة بنصفين ، وقيل بنصفين طولاً ، ليكون التبحير علامة لها[3] .

وقيل : البحيرة هي التي يمنع درّها للطواغيت ، فلا يحتلبها أحد من الناس[4]. قيل لها البحيرة ، لأنهم بحروا اذنها ، أي شقوها ، وكان البحر علامة التخلية . وقال بعض العلماء : البحيرة هي ابنة السائبة[5] . وقال بعض آخر : البحيرة من الإبل يحرم أهل الجاهلية وبرها وظهرها ولحمها ولبنها إلاّ على الرجال ، فما ولدت من ذكر وأنثى ، فهو على هيئتها ، وان ماتت اشترك الرجال والنساء في أكل لحمها[6] . وورد أن البحيرة من الإبل ، كانت الناقة اذا نتجت خمسة أبطن نحروا الخامس ان كان سقباً ، وان كان ربعة شقوا أذنها واستحيوها وهي بحيرة . وأما السقب فلا يأكل نساؤهم منه ، وهو خالص لرجالهم ، فإن ماتت الناقة أو نتجوها ميتاً فرجالهم ونساؤهم فيه سواء يأكلون منه[7] . والمرار من (السقب) الذكر من ولد الناقة[8] .

وورد في الأخبار أن أول من بحر البحائر رجل من (بني مدلج) ، كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرم ألبانهما وظهورهما ، وقال هاتان لله ، ثم احتاج

---

١ تاج العروس (٣/٢٨) ، (بحر) ، اللسان (٥/١٠٦) .
٢ مجمع البيان ، للطبرسي (٢/٢٥١) ، شمس العلوم (حـ١ ، ق١ ، ص ١٣٣) ، المفردات (٣٦) .
٣ الاشتقاق (١١٨) ، اللسان (٤/١٦ وما بعدها) .
٤ الطبري (٧/٥٩) ، القرطبي ، الجامع (٦/٣٣٥) .
٥ القرطبي (٦/٣٦٣) .
٦ تفسير الطبري (٧/٥٨) .
٧ تفسير الطبري (٧/٥٩ وما بعدها) .
٨ اللسان (١/٤٦٨) ، (شعب) .

اليها ، فشرب ألبانها وركب ظهورها[1] . كما نسب التبحير الى (عمرو بن لحيّ)، إذ قيل إنه كان أول من بحر البحيرة وسيب السائبة[2] .

وأما السائبة ، فهي الناقة أو البعير أو الدابة تترك لنذر ، أو بعد بلوغ نتاجها حداً معلوماً ، فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تمنع من ماء وكلأ ، وتترك سائبة لا يحل لأحد كائناً من كان مخالفة ذلك[3] . « وكان الرجل في الجاهلية اذا قدم من سفر بعيد ، أو بريء من علة ، أو نجّته دابة من مشقة أو حرب ، قال ناقتي سائبة ، أي تسيب ، فلا ينتفع بظهرها ، ولا تحلأ عن ماء ، ولا تمنع من كلأ ، ولا تركب ، وقيل : بل كان ينزع من ظهرها فقارة ، أو عظماً، فتعرف بذلك . فأغير على رجل من العرب ، فلم يجد دابة يركبها ، فركب سائبة، فقيل : أتركب حراماً ؟ فقال: يركب الحرام من لا حلال له ، فذهبت مثلاً »[4]. و « قيل : هي أم البحيرة ، كانت الناقة اذا ولدت عشرة أبطن ، كلهن أناث: سيبت فلم تركب ، ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو الضيف حتى تموت . فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء جميعاً ، وبحرت اذن بنتها الأخيرة ، فتسمى البحيرة، وهي بمنزلة أمها في أنها سائبة »[5] . وقيل السائبة : كان الرجل من أهل الجاهلية يسيب من ماله من الأنعام ، فلا يمنع حوضاً أن يشرع فيه ، ولا مرعى أن يرتع فيه ، فيهمل في الحمى ، فلا ينتفع بظهره ، ولا بولده ولا بلبنه ولا بشعره ولا بصوفه ، فهو مخلاة لا قيد عليه ، ولا راعي له . وكان في روعهم أن من تعرض للسوائب أصابته عقوبة في الدنيا[6] .

ويذكر أهل الأخبار ان أول من سيب السوائب (عمرو بن عامر الخزاعي)، أي (عمرو بن لحيّ بن قمعة بن خندف) ، أخا بني كعب ، وهو أول من غيّر دين ابراهيم . وقد رجعوا خبرهم هذا الى رسول الله[7] . وقيل ان أول من

---

١ تفسير الطبري (٥٦/٧) .
٢ اللسان (١٦/٤ وما بعدها) ، ابن هشام (٧٨/١) ، (البابي) .
٣ الكشاف (٣٦٨/١) ، الطبرسي (٢٥١/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٠٥/١) .
٤ الاشتقاق (٧٦ وما بعدها) .
٥ اللسان (٤٧٨/١) .
٦ تفسير الطبري (٥٩/٧ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٣٣٦/٦) .
٧ تفسير الطبري (٥٦/٧ وما بعدها) ، القرطبي ، الجامع (٣٣٧/٦ وما بعدها) .

ابتدع ذلك (جنادة بن عوف)[1] ، وهو من النسأة ، كما سيأتي الكلام عنه فيما بعد .

وأما الوصيلة . فالناقة التي وصلت بين عشرة أبطن ، أو الشاة التي وصلت سبعة أبطن . وفي رواية : ان الشاة اذا ولدت ستة أبطن نظروا ، فإن كان السابع ذكراً ذبح وأكل منه الرجال والنساء ، وان كان أنثى تركت في الغنم ، وان كان ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، ولم يذبح ، وكان لحمه حراماً على النساء . وفي رواية : ان لبن أم الوصيلة حلال على الرجال دون النساء[2] . وقالوا : الوصيلة الشاة اذا أتامت عشر اناث متتابعات في خمسة أبطن ، ليس بينهن ذكر . فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الاناث ، إلا ان يموت شيء منها فيشترك في أكله ذكورهم واناثهم[3] .

وأما الحام ، فالبعير اذا نتج عشرة أبطن من صلبه ، قالوا : قد حمى ظهره ، فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى[4] . وقالوا : الحام من الإبل ، كان الفحل اذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه[5] . وقالوا بل الحام ان الفحل اذا نتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره ولم يركب ولم يجز وبره ويخلى في إبله يضرب فيها لا ينتفع به بغير ذلك . وذكر ان الحام ، الفحل يضرب في الإبل عشر سنين ، ويقال : اذا ضرب ولد ولده قيل قد حمى ظهره ، فيتركونه لا يمس ولا ينحر أبداً ولا يمنع من كلأ يريده ، وهو من الأنعام التي حرمت ظهورها[6] .

وذكروا ان أول من حمى الحامي هو (عمرو بن لحيّ) ، وذلك في سنن أخرى سنها لأهل الجاهلية[7] .

وقد أشير في سورة (الأنعام) الى أشياء كان يفعلها أهل الجاهلية ، يتقربون بها الى آلهتهم ، كانوا يحرمون من أنعامهم أشياء لا يأكلونها ويعزلون من حرثهم

---

١ القرطبي ، الجامع (٦/٣٣٧) .
٢ تاج العروس (٨/١٥٥) ، الكشاف (١/٣٦٨) .
٣ القرطبي ، الجامع (٦/٣٣٧) .
٤ الكشاف (١/٣٦٨) ، تاج العروس (١٠/١٠٠) ، اللسان (١٨/٢٢٠) .
٥ القرطبي ، الجامع (٦/٣٣٦) .
٦ تفسير الطبري (٧/٥٧ وما بعدها) .
٧ تفسير الطبري (٧/٥٦ وما بعدها) .

شيئاً معلوماً لآلهتهم ويقولون لا يحلّ لنا ما سمينا لآلهتنا[1] . فورد : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم . ساء ما يحكمون » وورد : « وقالوا هذه أنعام وحرث ، حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم »[2] .

وذكر المفسرون أن من المشركين من حرم ظهور بعض أنعامهم، فلا يركبون ظهورها ، وهم ينتفعون برسلها ونتاجها وسائر الأشياء منها غير ظهورها للركوب. وحرموا من أنعامهم أنعاماً أخر فلا يحجون عليها . وقد ذكروا أن المراد بذلك: البحيرة والسائبة والحام . وأنهم كانوا قد جعلوا ألبان البحائر للذكور دون الإناث. وان كانت ميتة اشترك فيها ذكورهم وإناثهم . وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وان كانت أنثى تترك فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء[3] . فالمراد بهذه الآيات ما ذكرته عن الأمور المتقدمة .

وقد كان بعض أصحاب النذور ينذر ، فإذا تم النذر وصار وبلغت ابلهم أو غنمهم ذلك العدد ، بخل بإبله أو شائه وضاقت نفسه عن الوفاء وضن بإبله وبغنمه فاستعمل التأويل ، وقال : إنما قلت إني أذبح كذا وكذا شاة ، والظباء شاء ، كما ان الغنم شاء ، فيجعل ذلك القربان شاءً كله مما يصيده من الظباء فلذلك يقول الحارث بن حلزة اليشكري :

عنناً باطلاً وظلماً كما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباءُ[4]

وكان الرجل من العرب في الجاهلية اذا بلغ إبله ألفاً عار عين بعير منها ،

---

١ تفسير الطبري (٨/ ٣٥) .
٢ الانعام ، الآية ١٣٦ وما بعدها .
٣ تفسير الطبري (٨/ ٣٧ وما بعد) .
٤ الاصنام (١٣) ، شرح المعلقات للزوزني (ص ١٦٧) ، المعاني الكبير (٢/ ١٠١٢) .

وسرحه لا ينتفع به[1] . وكان من عادتهم اذا بلغ إبلهم المئة ، ترك ركوب ظهر بعير منها ، فلا يركب ولا ينتفع به ، ويقولون لذلك : الأخلاق[2] .

وكانوا يتصدقون بمائة من الإبل على الفقراء والمحتاجين والمعابد ، وما شاكل ذلك . روي ان (حنيفة) النعم ، وهو من أثرياء الجاهلية ، لما شعر بدنو أجله، جمع بنيه ، ثم أوصى بمائة من إبله على يتيمه صدقة . وكانوا يسمونها (المطيبة)[3].

وقد عرف ما كان يحبسه أهل الجاهلية على أصنامهم من السوائب والبحائر والحوامي وغيرها بـ (الحبس) . وقد أطلق الاسلام ما حبسوا وحلل ما حرموا ، وهو جمع حبيس[4] .

وكانت لهم مكرمات ، فعلوها في الجاهلية عن خلق ودين ورغبة في شهرة وسمعة. منها انهم كانوا يتصدقون بأموالهم على أبناء السبيل وعلى الفقراء والمحتاجين. ذكر ان (الأسود بن ربيعة بن أبي الأسود) اليشكري ، قال لرسول الله : « يا رسول الله إن أبي كان تصدق بمال من ماله على ابن السبيل في الجاهلية ، فإن تكن لي مكرمة تركتها ، وإن لا تكنّ لي مكرمة ، فأنا أحق بها . فقال : بل هي لك مكرمة فتقبلها » . وذكر ان رسول الله قال : « ألا ان كل مكرمة كانت في الجاهلية ، فقد جعلتها تحت قدمي ، إلا السقاية والسدانة »[5] . وهذه المكرمات هي من مآثر العرب في الجاهلية ، مكارمها وتفاخرها التي تؤثر عنها[6] .

وتحريم أكل لحوم الحيوانات في مثل هذه الحالات على النساء وتخصيصه بالرجال، وجوازه في حالات أخرى، ثم تحريم الانتفاع من لبنها على النساء في بعض الحالات وعلى الرجال والنساء في حالات أخرى إلا الضيوف وعلى جواز ركوبها : كل هذه تشير الى أنها من شريعة قديمة . وقد رجع بعض العلماء ذلك الى الطوطمية ، غير أن من العسير قبول هذا التفسير .

وقد كان الجزارون المجازون شرعاً يقومون بذبح الذبائح عند العبرانيين، وهم

---

١ تاج العروس (٩٧/١) ، (فقأ) ، (٤٢٨/٣) ، (عور) .
٢ Reste, S. 114.
٣ الاستيعاب (٣٩٥/١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ تاج العروس (١٢٥/٤) ، (حبس) .
٥ الاصابة (٥٩/١) ، (رقم ١٥٨) .
٦ تاج العروس (٥/٣) ، (أثر) .

الذين يقررون صلاح الذبيحة أو عدم موافقتها لأحكام الشرع . أما عند الجاهليين فلا نعرف شيئاً عمن كان يقوم بذبح الضحايا التي تقدم الى الأصنام ، كما أننا لا نستطيع أن نتحدث عن الشروط التي كانوا يشترطونها في الذبيحة ليكون لحمها صالحاً للأكل .

والطيب والبخور من أهم المواد التي كان يتقرب الجاهليون الى آلهتهم بإهدائها الى المعابد . ولم تكن هذه عادة خاصة بالجاهليين وحدهم ، بل هي عادة معروفة في جميع الأديان ، ولا تزال باقية مستعملة . يحرق البخور في المباخر والمجامر ، لتنبعث روائحه الزكية في أبهاء المعبد . أما الخلوق وأنواع الطيب ، فتلطخ بها الأصنام وجدران المعبد ، وطالما تقدم المؤمنون الى آلهتهم بمبخره ليحرق البخور فيها . ومن بين نصوص المسند ، نص كتبه مؤمن اسمه (عبد أصدق) وأبناؤه إلى الإله (ود) ، ذكروا فيه أنهم قدموا اليه مبخرة تعويضاً عن المبخرة التي سرقها اللصوص من معبده[1]. وقد عثر في اليمن على مباخر كبيرة نحتت من الصخر، أهديت الى المعابد ، ليحرق فيها البخور[2] .

وبين ما قدم الى الآلهة ، الملابس والأقمشة وأنواع الأطعمة ، حتى اللبن قدم الى الصنم (ود) على رواية الأخباريين .

ووردت لفظة (الهدْي) في القرآن الكريم[3] . ويراد بها ما أهدي الى مكة من النعم وغيره من مال أو متاع . والعرب تسمي الإبل هَدْياً ، لأنها تهدى الى البيت لتنحر ، فأطلقت على جميع الإبل،وإن لم تكن هدياً تسمية للشيء ببعضه[4] . وذكر ان الهَدْي ما أهدي الى بيت الله من ناقة او بقرة او شاة او ثياب وكل ما يهدى . فهو عام في جميع ما يتقرب به من الذبائح والصدقات . إلا ان الاطلاق انما ينصرف الى أحد الأصناف الثلاثة من الإبل والبقر والغنم ، وسوقها الى الحرم وذبحها فيه[5] . وقد ذكر (الهدي) في شعر لزهير بن أبي سلمى :

فلم أر معشراً أسروا هدياً ولم أر جار بيت يستباء

---

١ Glaser 324, Handbuch, I, S. 216.

٢ Ency. Religi., I, p. 352.

٣ البقرة ، الآية ١٩٦ ، المائدة ، الآية ٢ ، ٩٧ ، الفتح ، الآية ٢٥ ، تفسير الطبري (٣٧/٦) .

٤ اللسان (١٥/٣٥٨ وما بعدها) .

٥ القرطبي ، الجامع (٣٩/٦) .

يذكر رجلاً أسر يشبهه في حرمته بالبدنة التي تهدى[1] .

وعرف الهدي المقلد بقلائد ، تشعر انه مما أهدى الى بيت الله بـ (القلائد) . فلا يجوز لأحد ان يتحرش به ، أو ان يفك قلائده ، لأن ذلك تجاوز على مال الله ، وهو مال معلم عليه معروف بقلادته انه من الهدي المخصص بالبيت . فإذا فكت قلادته سرق وحسب من أموال الناس الخاصة[2] . والظاهر ان من الجاهليين من كان يتطاول على أموال البيت ، فيستولي على الهدي ، ويفك القلائد ، ويسطو بذلك على الإبل المقلدة والبقر المقلد ، وذلك كما يظهر من الآية : « لا تحلّوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد »[3] . ومنهم من كان يسطو على الهدي قبل وصوله موضعه من البيت .

وكانوا يهدون الإبل والبقر الى بيوت أصنامهم . وقيل للناقة أو البقرة أو البعير تهدى الى مكة (البدنة) . وقد أشير الى البدن في القرآن ، فورد : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله »[4] . تهدى الى بيت الله فلا تركب[5] . وذكر ان البدن السمان من الإبل والبقر[6] . ويظهر من غربلة ما ورد في روايات علماء التفسير عن البدن ، انها الهدايا التي تقدم الى الكعبة ، تحبس فتبقى حية ، لا يجوز لأحد التطاول عليها ، وكانوا ينحرونها أيضاً . والإبل تنحر قياماً معقولة . فكانوا اذا أرادوا نحر البعير ، عقلوا احدى يديه ، فيقوم على ثلاث قوائم[7] . ولم يكونوا يركبون البدن إلا عن ضرورة[8] . فالبدن إذن ما يهدى الى مكة ، ليحبس على اسمها ، أو ليذبح تقرباً الى رب البيت .

حمى الآلهة :

ولحماية الحبوس من أرض ومن حيوان ، شددت شرائع الجاهليين في وجوب

---

١ تفسير الطبري (١٢٨/٢) .
٢ تفسير الطبري (٣٧/٦) .
٣ المائدة ، الرقم ٥ ، الآية ٢ .
٤ الحج ، الآية ٣٦ ، تفسير الطبري (١١٧/١٧) .
٥ اللسان (٤٨/١٣ وما بعدها) ، (بدن) .
٦ تفسير الطبري (١١٧/١٧) ، القرطبي ، الجامع (٦٠/١٢) .
٧ القرطبي ، الجامع (٦٠/١٢) ، تفسير الطبري (١١٧/١٧ وما بعدها) .
٨ اللسان (٤٨/١٣ وما بعدها) ، (بدن) .

المحافظة على حرمتها وعدم الاعتداء عليها. وهددت من يتجاسر على مال الأرباب بعقوبة تنزل عليه منها وبغضب الآلهة عليه ، وبمصير سيء يلحق به ، فضلاً عن العقوبة التي تنزلها المعابد به ، قد تصل حد القتل . فصار من المحظور اعتضاد نبات الحرم وصيد الحيوان فيه ، ومن يفعل ذلك يكون آثماً ، وقد يعرض نفسه لغضب الناس عليه . فصار الحرم مرتعاً آمناً للطيور ، ولا زال الناس لا يتحرشون بطيور المعابد ولا يمسونها بأي سوء ، بل يقدمون لها ما تحبه من المأكول ، لتعيش عليه .

وجعلت المعابد لحيواناتها وللهدي وللقلائد مواضع خاصة ، اختارتها لترعى فيها جعلت (حمى) للأرباب . لا يجوز لأحد رعي سوائمه بها ولا التطاول على دواب تلك الأحمية ، لأنها مما حبس للأصنام . وتكون هذه المواضع مخصبة معشبة ذات حياة ، وقد تزرع . وتكون غلتها للمعبد .

الفصل الثامن والستون

رجال الدين

أقصد برجال الدين ، أولئك الذين خدموا الأصنام ، أو زعموا أنهم ألسنة الأرباب الناطقة على سطح الأرض ، والذين كانوا يوجهون الناس توجيها روحياً دينياً ، ويرعون حرمة المعابد والأماكن المقدسة وشعائر الدين ويحافظون عليها ، ويضعون قواعدها للناس .

ومعارفنا عن هذا الموضوع قليلة ضئيلة ، لعدم وجود نصوص جاهلية تتحدث عن ذلك ، ولعدم ورود شيء مهم عنه في روايات أهل الأخبار . وليس لنا من أمل في زيادة علمنا بهذه الناحية ، إلا في المستقبل ، فلعله يكشف عن نصوص جاهلية جديدة ، قد يرد فيها شيء جديد عن رجال الدين عند الجاهليين ، أو في موارد أخرى عربية أو غير عربية قديمة ، قد تكون مختبئة مطمورة ، يأمر الزمن باخراجها ، ليقف عليها الباحث عن هذا الموضوع .

ومن الألفاظ الخاصة برجال الدين ، لفظة (رشو) ، الواردة في النصوص المعينية والقتبانية ، أطلقت على من كان يقوم بخدمة الإلـه (ود) إلـه معين الرئيس و (عم) إلـه شعب قتبان الرئيس[1] . فهي في معنى سادن في لغة أهل الحجاز . ووردت لفظة (شوع) في المعينية أيضاً في المعنى نفسه . و (رشوت) (رشوة)

---

١ Handbuch, I, S. 131, 218, Katab. Texte, II, S. 80.

بمعنى سادنة وكاهنة ، مما يدل على وجود سادنات وكاهنات بين رجال الدين الجاهليين[1] .

ووردت في المعينية وفي اللحيانية لفظة (افكل) (أفكل) بمعنى (رشو) وسادن ، أي القائم بأمر الصنم ، والسادن له . فورد : (افكل ود) ، أي سادن ود[2] . وتقابل هذه اللفظة لفظة (ابكلو) Apkalu في الأكادية[3] . وعرفت السادنة والكاهنة بـ (افكلت) (أفكلة)[4] .

والسدنة ، قومة الأصنام ومتولو أمرها . وكان أمر فتح البيت بمكة وغلقه وتولي أمره الى السادن . وهو من (بني عبد الدار) ، وقد أقر الرسول السدانة فيهم عام الفتح[5] . ويعرف السادن بـ (الحاجب) كذلك . فالسدانة والحجابة هما بمعنى واحد[6] . غير ان الحجابة تخصصت بحجابة الملوك والحكام ، فصارت وظيفة ادارية ذات مدلول خاص . فالحاجب هو الذي يتولى تقديم الناس الى الملوك أو منعهم من الوصول اليهم ، وذلك في الجاهلية وفي الاسلام. أما السدانة ، فإنها ظلت محافظة على معناها هذا الخاص بالمعابد والمواضع المقدسة. ولهذه المنزلة ولصلتها بالآلهة وبالأصنام عدت السدانة من درجات الشرف والجاه ، وكانت لأصحابها حرمة ومكانة في النفوس .

والسدانة ، تنتقل بالارث من الآباء الى أكابر الأبناء وتنحصر في الأسرة فتكون من حقها ومن نصيبها ، لا يمكن انتزاعها منها إلا بقوة لا يمكن التغلب عليها . ومن واجب العشيرة التي تنتمي هذه الأسرة اليها الدفاع عنها إن حاول غريب انتزاع هذا الشرف منها . لقد كانت سدانة الكعبة في (بني عبد الدار) ، وكانت حجابة (ود) في (دومة) الجندل الى (بني عامر الأجدار) ، (بنو الفرافصة بن الأحوص) من كلب[7] . وكانت سدنة العُزى (من بني

---

١ Arabien, S. 249.

٢ Grahmann, S. 87, Jaussen — Savignac, II, 380.

٣ Grohmann, S. 249.

٤ راجع النصوص رقم ٩ ، ١٢ ، ٢١ ، ١٠٤ ، وكتاب W. Caskel, S. 132.

٥ تاج العروس (٩/٢٣٣) ، (سدن) .

٦ Reste, S. 130.

٧ المحبر (٣١٦) . Reste, S. 130.

صرمة بن مرة) ، وكان سدنة (جهار) من (آل عوف) من (بني نصر)[1]، وكان سدنة (سواع) (بنو صاهلة)،من هذيل[2] . وكان سدنة بيت (الربة) أي الشمس ، من (بني أوس بن مخاشن بن معاويـــة بن شريف بن جروة بن أسيّد بن عمرو بن تميم) ، وكان سدنة (الفلس) ، (بنو بولان) ، وكان سدنة (مناة) (الغطاريف) من الأزد . وسدنة (السعيدة) (بنو العجلان)، وسدنة (ذو الخلصة) ، (بنو هلال بن عامر) ، وكان سدنة (ذو اللبا)، (بنو عـــامر) ، وسدنة (المحرق) ، (آل الأسود) العجليّون . وسدنة (مرحب) (ذو مرحب) ، أي من يتولى أمر الصنم[3] .

وكان (مسعود) الثقفي ، زوج (سبيعة) ، وقائد ثقيف في الفجار ، من من سدنة اللات[4] . وهو من سادات ثقيف . ومن أبنائه (عروة بن مسعود)، وأمه (سبيعة) بنت (عبد شمس) . وذكر انه الذي ذكر الله عزّ وجل في التنزيل من القريتين عظيم . وأحد أربعة اتصل سؤددهم في الجاهلية والإسلام[5] .

وكان لهذه الأسر التي تولت السدانة ، مكانة كبيرة في قومها ، فعدّت من الأسر الشريفة ذات النفوذ عند الجاهليين . وقد استفادت من النذور والقرابين التي تقـــدم الى بيوت الأصنام ، إذ تكون من حقهـــا ونصيبها . وقد ظهر من (بني مخاشن بن معاوية بن شُريف بن جروة بن أسيـــد بن عمرو بن تميم) ، حكام حكموا بعكاظ[6] . والحكومة من امارات الشرف والجاه والتقدير ، كما ظهر منها أئمة تولوا الإجازة بالمواسم ، وهي من علائم التعظيم والتفخيم عندهم .

غير ان هذا الحق لا يستوجب ولا يشترط أن تكون السدانـــة في أسرة من القبيلة أو الموضع الذي فيه بيت الصنم أو الأصنام ، فقـد كان كثير من سدنـــة الأصنام من قبيلة لا تنتمي اليها من يقع بيت الصنم في أرضها . فكانت السدانة مثلاً لبني أنعم في جرش ، ولبني الغطريف في قديـد ، ولبني شيبان في نخلة ،

---

١ المحبـــر (٣١٥) .
٢ المحبر (٣١٦) .
٣ المحبر (٣١٦ وما بعدها) .
٤ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ٧ وما بعدها) .
٥ الاشتقاق (٢/١٨٦) .
٦ المحبـــر (١٣٤) .

ولآل أمامة في تبالة وهكذا [1] . ويظهر ان هؤلاء توارثوا هذا الحق من عهد سابق، إما لأنهم استوردوا الصنم أو تلك الأصنام الى هـذه المواضع فأقاموا فيها ، وإما لأنهم كانوا يسكنون مع قبيلتهم في تلك الأماكن ، ثم حدث لسبب من الأسباب أن جلت قبيلتهم عن الموضع . أما السدنة ، ففضلوا البقاء في الموضع الذي كانوا فيه حيث أصنامهم والبيت . ونجد مثل ذلك أيضاً عند العبرانيين [2] .

ويظهر من تفسير لفظة (صوفة) و (صوفان) ، على رأي بعض العلماء ، أن هذه الكلمة كانت تقال لكل من ولي البيت شيئاً من غير أهله ، أو قام بشيء من خدمة البيت أو بشيء من أمر المناسك [3] . ومعنى هذا أن خدمة البيت : بيت مكة أو غيره ، لم تكن خاصة بأهل الموضع الذي يكون فيه هـذا البيت ، بل كان من الجائز أن يتولاها أناس من أهل ذلك الموضع ، وأناس من غيرهم أيضاً كأن يقيم أشخاص في ذلك المكان ، فتطول إقامتهم به ، وتظهر منهم زعامة أو من أولادهم ، تؤدي بهم الى الاستحواذ على رئاسة البيت ورئاسة ذلك المكان ، كالذي كان من أمر (قصي) مثلاً .

ولا بد من ادخال (النسأة) ، في رجال الدين . فقد كان الناسىء ، هو الذي ينسىء النسيء،يعين موسم الحج ويثبته للناس . فهو اذن فقيه القوم وعالمهم ومفتيهم في أمر الحج [4] .

وقد كان من أهم واجبات (النسأة) ، تثبيت وتعيين الأشهر . فقد كانت لدى الجاهليين أشهر حرم ، لها حرمة ومنزلة خاصة في نفوسهم ، لما كان لها من علاقــة بآلهتهم وبتعبدهم لها ، وبالحج فيهـا الى معابد الآلهة . مثل شهر (ذ الالت) (ورخن ذ الالت) ، وهو شهر خصص بالآلهة ، كما يظهر من تسميته بها . يظهر أنه كان شهر تقرب وعبادة للأرباب ، ومثل شهر (ذعم) ، (ذو عم) ، و (عم) هو إلـه قتبان الرئيس،فيظهر أنه شهر مقدس خصص بعبادة هذا الإلـه ، أو أن يوماً أو عيداً خاصاً به ، كان يقع فيه ، فدعي لذلك باسمه . ومثل شهر (ذ حجتن) ، أي شهر (ذو الحجة) ، وهو شهر خصص

---

١ Reste, S. 130.

٢ RESTE, S. 31.

٣ الروض الانف (١/٨٥) .

٤ المحبر (١٥٦ وما بعدها) ، المعاني الكبير (٣/١١٧١) .

بالحج . ومثل الأشهر الأربعة الحرم التي تتحدث عنها الموارد الاسلامية .

والإجازة بعرفة من الأعمال التي لها تماس بالدين، فهي من شعائر الحج ومناسكه. ولا بد وان نعدّ (المجيز) ، وهو الذي يجيز الناس من المزدلفة الى منى من رجال الدين . وممن كانت له منزلة وحرمة في قومه ، لما لمركزه من أهمية في الحج .

وقد أشار (السكري) الى (أئمة العرب) ، فذكر انهم الذين تولوا أمر المواسم ، وأمر القضاء بعكاظ ، والذين كانوا سدنتهم على دينهم وأمناؤهم على قبلتهم ، وكانوا من قريش ، والذين تولوا الإفتاء في دينهم . وهم من (بني مالك بن كنانة)[1] . ولما تحدث عن (النسأة) ، قال : « نسأة الشهور من كنانة وهم القلامسة ، واحدهم قلمّس ؛ وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم »[2] . والفقيه العالم (وفقيه العرب عالمهم)[3] . والفقه العلم ، (وقد جعلته العرب خاصاً بعلم الشريعة) . وفقهه تفقيهاً علمه . (ومنه الحديث: اللهم علمه الدين وفقهه في التأويل ، أي علمه تأويله)[4] .

وفي القرآن الكريم: « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين »[5]. والفقه العلم بالشيء والفهم له والفطنة[6]. وقد خصصت اللفظه بعلم الفقه في الاسلام. مما يدل على أن لها صلة منذ أيام الجاهلية بالعلم وبالدين . وأن (الفقهاء) ، العلماء بأمور الدين عند الجاهليين كذلك . وفيه ألفاظ يستدل منها على وجود مفهوم العلم والعلماء والتعلم والدين وفهمه والشريعة والأحكام عند الجاهليين ، ولا تكون هذه عند قوم ليس لهم علماء ورجال دين يعلمون من هم دونهم أحكام الدين، ليتفقهوا فيه ، وليتعلموا ما هو واجب عليهم وما هو غير واجب ومفروض عليهم .

والإفتاء الإجابة عن مسألة . « ومنه قوله تعالى : قل : الله يفتيكم في الكلالة» و (الفتيا) و (الفتوى) ما أفتى به الفقيه في مسألة[7] . وقد استفتى أصحاب

---

١ المحبر (١٨١ وما بعدها) .
٢ المحبر (١٥٦) .
٣ تاج العروس (٤٠٢/٩) ، (فقه) .
٤ تاج العروس (٤٠٢/٩) ، (فقه) .
٥ التوبة ، الرقم ٩ ، الآية ١٢٢ ، تفسير الطبري (٤٨/١١) ، روح المعاني (٤٣/١١) .
٦ تاج العروس (٤٠٢/٩) ، (فقه) .
٧ تاج العروس (٢٧٥/١٠) ، (فتى) .

رسول الله الرسول في أمر النساء وإرثهن فنزل الوحي : « ويستفتونك في النساء . قل : الله يفتيكم فيهن »[1] . فقد كان أهل الجاهلية يستفتون فقهاءهم وأهل الفتيا منهم فيما يشكل عليهم من أمور الدين ، فيفتون لهم ما يرونه من رأي واجتهاد . فنحن ، اذن أمام فقه في الدين واجتهاد فيه عند أهل الجاهلية .

والإمام ما ائتم به قوم من رئيس أو غيره، كانوا على دين أو كانوا مشركين. فهو الذي يقتدى به[2] . وقد وردت الكلمة في سبعة مواضع من القرآن الكريم في حالة الإفراد ، ووردت خمس مرات في حالة الجمع ، أي (أئمة) ، أطلقت على أئمة الكفر وعلى الغواة كما أطلقت فيه على المؤمنين الهادين الى الحق . وأئمة الكفر في قوله تعالى : « فقاتلوا أئمة الكفر » ، أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان ، وهم الذين كانوا يؤذون الرسول ، وهمّوا بإخراجه وعادوه[3] . فالإمام إمام دين وإمام دنيا : رجل دين يقتدى به ، ورئيس قبيلة وشريف قوم وسيدهم . ونظراً لقلة استعمال اللفظة في الرئاسة الدينية ولاستعمالها في معنى الرئاسة الدينية في الغالب ، ولا سيما في الاسلام حيث خصصت برئاسة دينية ، من إمامة للمسلمين ، وإمامة في الفقه ، وإمامة في الصلاة، ولعدم اطلاق الجاهليين لها على سادات القبيلة أو سادة القوم ، إلا في القليل . فإن في استطاعتنا القول انها كانت عندهم في معنى الرئاسة الدينية كما هو الحال في الاسلام .

ونجد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد بوجود رجال دين كان لهم رأي في الخلق وفي الخالق وفي الحياة ، منهم من بشر برأيه وحاول نشره : ومنهم من تبتل واعتكف وقنع بإيمانه برأيه وبصحة عقيدته . حتى ان منهم من كان قد تبتل وتنسك وسلك طريق الزهاد في اجتناب الطيبات ولذات الحياة ، ومن ذلك أكل اللحم . فقد عرف (عبدالله بن عبد الملك بن عبدالله)[4] الغفاري ، بـ (أبي اللحم) (آبي اللحم) ، لأنه كان يأبى أن يأكل اللحم . وكان شريفاً شاعراً ، ينزل (الصفراء) ، وشهد (حنيناً) وقتل بها[5] .

---

١ النساء ، الآية ١٢٧ ، تفسير الطبري (١٩١/٥) ، روح المعاني (١٤٣/٥) .
٢ تاج العروس (١٩٣/٨) ، (أمم) .
٣ التوبة ، الرقم ٩ ، الآية ١٢ ، تفسير الطبري (٦٢/١٠) .
٤ ذكر « ابن الكلبي » أن اسمه « خلف بن عبد الملك » ، وقيل اسمه الحويرث .
٥ الاصابة (٢٣/١) ، (رقم ١) .

وعرف (عثمان بن مظعون) بتبتله ، حتى انه ابتعد عن زوجه ، فلم يقربها، وكاد ان يختصي ، حتى نهاه عن ذلك رسول الله . وكان على هـذا الرأي في جاهليته من شدة التمسك بالزهد عن الدنيا والابتعاد عن ملذاتها،وقد كان نصرانياً متأثراً بالرهبانية ، أخذ آراءه هـذه من زهاد النصارى ، الذين غلب التصوف عليهم ، وابتعدوا عن الدنيا ، ورأوا ان الخلاص من الخطيئة والإثم،هو بالتقشف وبالابتعاد عن كل حلو محبوب في هذه الدنيا[1] .

وقد عرفت الجاهلية رجالاً آخرين كانوا مثل عثمان بن مظعون والرهبان في التأمل والتفكر والابتعاد عن الناس . وهي رهبانية حاربها الاسلام ، إذ نهى عن الرهبنة . رأى (عمر) رجلاً مطأطئاً رأسه ، فقال : ارفع رأسك ، فإن الاسلام ليس بمريض . ورأى رجلاً متماوتاً ، فقال : لا تمت علينا ديننا ، أماتك الله . ونظرت عائشة الى رجل كاد يموت تخافتاً ، فقالت : ما لهذا ؟ قيل : انه من القراء ، فقالت : كان عمر سيد القراء ، وكان اذا مشى أسرع،واذا قال أسمع، واذا ضرب أوجع[2] . وذكر ان عشرة من الصحابة اجتمعوا في بيت (عثمان بن مظعون) ، واتفقوا على ان يصوموا النهار،ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلون اللحم والودك ، ويلبسوا المسوح ، فسمع رسول الله بهم ، فنهاهم عن ذلك[3] .

و (الصارورة) والصرار الذين تبتلوا وتركوا النكاح . وهذا من فعل الرهبان . وهو معروف عند العرب . والصرورة الرجل في الجاهلية يحدث حدثاً فيلجأ الى الكعبة ، فلا يهج ، فكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم ، قيل له هو صرورة ولا تهجه ، تعظيماً للبيت واحتراماً له[4] .

ومثل (صرمة) المعروف بـ (أبي قيس) ، وكان ترهب في الجاهليـة واغتسل من الجنابة ، وهمّ بالنصرانية ثم أمسك . وكان قوّالاً بالحق لا يدخل بيتاً فيه جنب ولا حائض الى أن أدرك الإسلام ، فأسلم[5] . ويظهر مـن ذلك ،

---

١ ارشاد الساري (٨/١٠ وما بعدها) .
٢ اللسان (٩٤/٢) ، (موت) .
٣ الطبرسي ، مجمع البيان (٢٣٦/٣) .
٤ اللسان (٤٥٣/٤) ، (صرر) ، تاج العروس (٣٣١/٣) ، (صرر) .
٥ الاصابة (١٧٦/٢) ، (رقم ٤٠٦١) .

أن الاغتسال من الجنابة والابتعاد عن الحائض من الشعائر التي راعاها المتدينون من أهل الجاهلية ، من الموحدين الذين تأثروا باليهودية ، لكنهم لم يدخلوا فيها ولا في النصرانية ، بل أمسكوا عن الديانتين ، ودعوا الى عبادة واحد أحد ، وماتوا على هذا الدين .

ومثل (وكيع بن سلمة) الإيادي ، صاحب الصرح بحزورة مكة ، فقد كان كاهناً ورجل دين ، وقالوا كان صديقاً من الصديقين . اتخذ صرحاً يصعد اليه بسلالم ، فكان يدعي أنه يناجي ربّه من ذلك الموضع[1] . وكان يعظ الناس وينصحهم بالتدين بدينه وبالابتعاد عن عبادة الأوثان ، على شاكلة الأحناف . وهو في الواقع واحد منهم ، ويجب اعتباره أحدهم ، لأن ما ينسب اليه ينسب أيضاً الى الحنفاء .

والصدّيق الكثير الصدق ، ومن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله . « قال الله تعالى واذكر في الكتاب ابراهيم . انه كان صديقاً نبياً . وقال تعالى : وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، أي مبالغة في الصدق والتصديق »[2] . وهم من آمن بالله وصدق به وبشّر بعبادته بين الناس ، وكان باراً بنفسه وبغيره . وهي بمعنى (بار) في لغة بني إرم[3] .

وقد نسب أهل الأخبار الى رجال من الجاهليين فتاوى وأحكام صارت سنناً في قومهم . من ذلك ما نسبوه الى (قصي) من أمور ، زعموا انها صارت سنّة احتذت بها قريش ، وان بعضاً من أحكامه بقيت الى الاسلام،فأقرها[4]، وما نسبوه الى (عامر بن الظرب) العدواني من حكم في (الخنثى) جرى حكم الاسلام به[5] . وما ذكروه من افتاء (عامر بن جشم بن غنم) ، المعروف بـ (ذي المجاسد) في التوريث على قاعدة : ان للذكر مثل حظ الانثيين ، وهو حكم حكم به الاسلام . ومن أمور أخرى ، يرد ذكرها في المواضع المناسبة من هذا الكتاب[6]، مما يدل على ان الحياة الدينية عند الجاهليين ، هي آراء وفتاوى ، أفتى بها رجال من أهل الدين والمروؤة والعقل والعلم من أهل الجاهلية ، فأخذ بها قوم من

---

١ المحبر (١٣٦) .
٢ تاج العروس (٦/٤٠٥ وما بعدها) ، (صدق) ، تفسير الطبري (١٦/٦٧) .
٣ غرائب اللغة (١٩٢) .
٤ المحبر (٢٣٦) .
٥ المحبر (٢٣٦) .
٦ المحبر (٢٣٦ وما بعدها) .

أتباعهم ، وساروا بموجبها . وبقي بعض منها الى الاسلام . غير ان تلك الفتاوى لم تكن عامة ، شملت كل العرب ، بل حتى كمل قوم ذلك المفتي أو الإمام ، إذ لم تكن عند العرب سنّة واحدة ملزمة ، لسبب انهم كانوا شيعاً وقبائل ، ولكراهتهم الخضوع للقيود العامة ، إلا كرهاً ، وذلك في الأمور التي لا بد لهم من الخضوع لحكمها لأنها من أصول الأعراف التي يقوم عليها وجودهم مثل عرف الأخذ بالثأر .

ومن الصعب تصور وجود طبقة خاصة كبيرة لرجال الدين على نحو ما كان عند المصريين مثلاً أو الآشوريين أو البابليين أو اليونان أو الرومان، أو في الكنيسة، بسبب النظام القبلي الذي كان غالباً على جزيرة العرب . وصغر المجتمعات الحضرية. فالأصنام هي أصنام محلية ، أصنام قبيلة ، لذلك كان عبدتها هم عبدة القبيلة أو القبائل المتعبدة لها . وفي محيط اجتماعي ضيق مثل هذا المحيط ، لا يمكن ظهور طبقة خاصة برجال الدين ذات نفوذ واسع ، إنما تكون قدرتها بقدرة المحيط الذي تعيش فيه . ولما كانت حياة البداوة حياة بسيطة غير معقدة ، تعذر علينا أن نتصور حياة دينية معقدة عند أبناء البادية . وكل ما يمكن وجوده عندهم ، هو ما كان له علاقة بمحيطهم وبمعيشتهم البسيطة ، مثل السدانة والكهانة وأمثال ذلك مما يحتاج اليه البدوي لحل مشكلات حياته ولجلب السعادة له .

ولم أجد في نصوص الجاهليين ولا في أخبار أهل الأخبار ، ما يفيد قيام رجال الدين من أهل الجاهلية ، بتلقين الناس أصول الدين وتعاليمه ، أو شرح نصوص دينية لهم . أو تعليمهم الناس مبادىء القراءة والكتابة في المعابد على نحو ما كان يفعله اليهود والنصارى في ذلك الوقت . ولكن هذا لا يكون دليلاً على نفي وجود شيء من ذلك عندهم . فقد يجوز أن يعثر في المستقبل على نصوص تفيد بوجود ذلك عندهم . ذكر أن رجلاً من (خثعم) قال : « كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحلل حراماً . وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون اليها »[1] .

وفي القرآن الكريم آيات مثل : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله بزعمهم . وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم ، فلا يصل الى الله ، وما كان لله ، فهو يصل الى شركائهم . ساء ما يحكمون .

---

١ ابن عساكر ، التاريخ الكبير (١/٣١٧) .

وكذلك زين لكثير من الناس قتل أولادهم،شركاؤهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه،فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم،وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، افتراءً عليهم ، سيجزيهم بما كانوا يفترون »[1] ، وآيات أخرى وكلمات تفيد وجود تشريع ومشرعين لدى الجاهليين ، أي رجال دين يبينون لهم الحلال والحرام وأوامر الأصنام ، ويشرعون لهم من تشريع كالذي نراه في هذه الآيات وغيرها من أحكام وضعوها للناس باسم آلهتهم ، فوبخهم الله في القرآن على افترائهم هذا على الله وعلى الأصنام التي لا تنطق ولا تعقل .

وكان من أهم واجبات رجال الدين والزهاد والمتنسكين ، الاشراف على المعابد وصيانة أموالها ، وخدمة الأصنام وتنفيذ الأحكام ، وتلبية طلبات الناس في التوسط لدى الآلهة برفع الضر والكرب عنهم ، أيام الشدة وساعات العسر . من ذلك التوسل الى الآلهة . بحفظ القوافل ، وانزال الرحمة بالناس سني القحط . ومن ذلك ما يسمونه بالاستسقاء . فقد كانوا يستسقون إذا أجدبوا ، فإذا أرادوا ذلك أخذوا من ثلاثة أشجار وهي : سلع وعشر وشبرق ، من كل شجرة شيئاً من عيدانها وجعلوا ذلك حزمة ، وربطوا بها ظهر ثور وأضرموا فيها النار، ويرسلون ذلك الثور ، فإذا أحس بالنار عدا حتى يحترق ما على ظهره ويتساقط . وقد يهلك ذلك الثور فيسقون[2] .

وذكر انهم كانوا اذا أرادوا الاستمطار في الجاهلية اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر ، ثم صعدوا بها في جبل وعر ، وأشعلوا فيها النيران ، وضجوا بالدعاء والتضرع ، فكانوا يرون ان ذلك من أسباب السقيا . ولأمية بن أبي الصلت شعر في ذلك[3] .

وكان من عادة أهل مكة في الاستسقاء ، انهم كانوا اذا أجدبوا وقحطوا ، واشتدت بهم الحاجة ، خرج من كل بطن منهم رجل ، ثم يغتسلون بالماء ، ويتطيبون ، ثم يلتمسون الركن ويطوفون بالبيت العتق سبعاً،ثم يرقون أبا قبيس ،

---

١ الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ١٣٧ وما بعدها .

٢ السيرة الحلبية (١٣٢/١) .

٣ الحيوان (٤٦٦/٤ وما بعدها) .

فيتقدم رجل منهم ، يكون من خيارهم ، ومن رجال الدين فيهم ، ممن يتبركون به ، فيدعو الله ويستغيث ، طالباً الرحمة والغوث بالمتوسلين اليه . ويذكرون ان (عبد المطلب) ، كان ممن استسقى لأهل مكة ولغيرهم مراراً [1] .

التبرك برجال الدين :

ويظهر من أخبار أهل الأخبار ، ان رجال الدين من أهل الجاهلية كانوا يباركون أتباعهم ويقدسونهم ويلمسون رؤوسهم لمنحهم البركة والشفاء من الأمراض. فكان أحدهم يضع يده على رأس مريض ، أو يلمس جبهته ، ليمنحه بركة تشفيه ، أو عافية تصيبه ، أو تبركاً وتقرباً بذلك الى الآلهة . وكانوا يتفلون في فم الصبيان ، لتكون التفلة بركة لهم ، وعافية ، وشفاء من مرض ، أو علماً يصيب الصبي ، حينما يكون رجلاً .

ويظهر من القرآن ومن الحديث النبوي ، ان أهل الكتاب من الجاهليين كانوا يبالغون في التقرب من رجال دينهم وفي التبرك بهم ، حتى انهم كانوا يتسابقون في الحصول على قطعة من ملابس أوليائهم ورجال دينهم ورهبانهم ونساكهم للتبرك بها ، وفي شعر امرىء القيس،وشعر غيره إشارة الى هذا التبجيل والتعظيم .

تنفيذ الأحكام :

ولم يكن تنفيذ الأحكام الدينية إلزامياً ، انما كان عن طاعة وموافقة . ثم إن العرب لم يكونوا على دين واحد يرجع الى شرائعه ، حتى يلزم المرء بتنفيذ ما جاء في حكمه [2] . فكان أمر إطاعة أحكام رجال الدين رهناً بمكانة رجل الدين وبما له من هيبة ونفوذ بين قومه .

وقد رأينا أن من الناس من كان يثور حتى على آلهته ، إذا وجد أنها لم تلبّ طلباته . وأنه كان يتوسل اليها ويلوذ بها لمساعدته عند الشدة ، ثم يهددها ويتوعدها

---

١ السيرة الحلبية (١/١٣٢ وما بعدها) .
٢ اليعقوبي (١/٢٢٧) ، (حكام العرب) .

بالابتعاد عنها وبترك زيارتها وبنبذها ، إن هي صمت آذانها عنه ، ولم تجب ما طلبه منها . وقد قصصنا حكاية امرىء القيس مع صنمه ، اذ رمى السهام في وجهه وعنفه وشتمه ، لأن جواب الاستقسام لم يكن على نحو ما كان يريد . ولم يكن ذلك من عمل أهل الجاهلية وحدهم ، بل نجد وقوع مثل هذه الحوادث في الاسلام أيضاً .

وقد رأينا أن في الجاهليين – كما في كل قوم – أناس كانوا لا يقيمون وزناً لحلال أو حرام ، فكانوا يستحلون المظالم ، ولا يجعلون للحرمات حرمة، ويعتدون في الأشهر الحرم . كانوا إذا حضروا الأسواق ، أباحوا لأنفسهم الاعتداء فيها على أموال الناس فسمّوا : « المحلون » . ومنهم قبائل من أسد وطيء وبني بكر ابن عبد مناة بن كنانة ، وقوم من بني عامر بن صعصعة [1] . فهؤلاء لا يعرفون الحلال ولا الحرام ، والشهور والأيام عندهم سواء بسواء ، يغزون فيها متى شاؤوا ، حتى في الأشهر الحرم . اذا لا حرمة عندهم لشهر .

وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، فيسمون الذادة المحرمون [2] . وهم من بني عمرو بن تميم ، وبني حنظلة بن زيد مناة ، وقوم من هذيل ، وقوم من بني شيبان ، وقوم من بني كلب بن وبرة . فكانوا يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس . وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم .

ولم تكن للجاهليين أحكام في الحلال والحرام بالنسبة الى المأكول على ما يظهر ، بل كان مرجع الحرمة والإباحة عندهم الى عرف القبائل . فلما نزل الأمر في الاسلام بتحريم أكل الميتة ، أي الحيوان الميت ، عجبت قريش من ذلك ، واحتجوا قائلين : كيف تعبدون شيئاً لا تأكلون مما قتل ، وتأكلون أنتم مما قتلتم؟ وكانوا يقولون ما الذي يموت ، وما الذي تذبحون إلا سواء . وذكر « ان ناساً من المشركين دخلوا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أخبرنا عن الشاة اذا ماتت من قتلها ؟ فقال الله قتلها . قالوا : فتزعم ان ما قتلت أنت

---

١ اليعقوبي (١/ ٢٤٠) ، (أسواق العرب) .

٢ اليعقوبي (١/ ٢٤٠) ، (أسواق العرب) .

وأصحابك حلال ، وما قتله الله حرام ! »[1]. وذكر ان فارس أوحت الى أوليائها من مشركي قريش ان خاصموا محمداً وقولوا له : ان ما ذبحت فهو حلال وما ذبح الله بشمشار من ذهب ، فهو حرام . فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء »[2]. فقد كانت قريش تأكل كل شيء ، من ميتة ومختنقة ومن نطيحة وما أكل السبع وما أهل للصنم ، فنزل تحريم ذلك في الاسلام .

وذكر انهم كانوا يقطعون يسيراً من حلق الشاة ويتركونها حتى تموت، يجعلون عملهم هذا ذكاة لها . وقيل : ذبيحة الشريطة ، هي انهم كانوا يشرطونها من العلة ، فإذا ماتت ، قالوا : قد ذبحناها . وذكر ان الشريطة الشاة أثر في حلقها أثر يسير كشرط المحاجم ، لا يستقصى في ذبحها ، والشريطة أيضاً المشقوقة الأذن من الإبل ، لأنها شرطت آذانها ، واذا كان التعريف الأول صحيحاً ، فإن معنى هذا انهم كانوا يراعون بعض الأحكام في الذبح ، أي ان لهم أحكاماً دينية في كيفية الذبح . وقد نهى الاسلام عن أكل الشريطة[3] .

واستباح الجاهليون أكل (النطيحة) ، وهي المنطوحة التي ماتت من النطح . واستباحوا أيضاً أكل الفريسة والأكيلة والرمية[4] .

وقد كان رجال الدين وسادات القبائل ، يحرمون بعض الأشياء على أنفسهم، إذا شعروا بوجود ضرر بها ، وبأن في فعلها إلحاق أذى في الإنسان وخدشاً في الإسم . فحرم بعض رجال الجاهلية الخمر على أنفسهم تكرماً وصيانة لأنفسهم . منهم عامر بن الظرب العدواني ، وقيس بن عاصم ، وصفوان بن أمية بن محرث الكناني ، وعفيف بن معديكرب ، وسويد بن عدي بن عمرو بن سلسلة الطائي، وغيرهم . لما وجدوا فيها من ضرر على الأبدان ، وأثر في العقل ، واضاعة للمال[5] . وورد في بعض الموارد أن أول من حرم الخمر في الجاهلية (الوليد بن المغيرة) ، وقيل : (قيس بن عاصم) ، ثم جاء الإسلام بتقريره[6] .

---

١ تفسير الطبري (١٢/٨ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (١٣/٨) .
٣ تاج العروس (١٦٧/٥) ، (شرط) .
٤ تاج العروس (٢٤٠/٢) ، (نطح) .
٥ الأمالي ، للقالي (٢٠٤/١ وما بعدها) .
٦ صبح الاعشى (٤٣٥/١) .

وذكروا أن أول من حرم القمار في الجاهلية (الأقرع بن حابس) التميمي ، ثم جاء الإسلام بتقريره . وأن أول من رجم في الزنا في الجاهليـة (ربيعة بن حدّان) ، ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن . وأول من حكم أن الولد للفراش اكثم بن صيفي ، حكيم العرب ، ثم جاء الإسلام بتقريره . وأن أول من قطع في السرقة في الجاهلية : (الوليد بن المغيرة) ، ثم جاء الإسلام بتقريره . وان أول من سنّ الدية مائة من الإبل (عبد المطلب) جد النبيّ ، ثم جاء الإسلام بتقريرها . وأن أول من أوقد النار بالمزدلفة ، قصي بن كلاب ، وان أول من أظهر التوحيد بمكة (قس بن ساعدة الإيادي)[1] .

ولكننا نجدهم يتقيدون بعرفهم وعاداتهم تقيداً شديداً ، والعرف عنـدهم هو ما استقر في نفوسهم وثبت في ذهنهم ، حتى صار في حكم الدين عندهم ، فلا يجوز لأحد الخروج عليه وكسر حكمه . وعرف القبيلة ، الذي هو دينها ، هو الذي يعين لها الحرام والحلال ، والمباح والمحرم . وأحكام رجال القبيلة من رؤساء وسادة وحكّام ، هي منبع التشريع والإفتاء في أمور الدين والحق في القبيلة . وما يلائم طبيعة القبائل ، ويناسب عقليتها وينبع من محيطها ، يكون ديناً على القبائل إطاعته ، لأنه في صالحها جميعاً ، ولأن في مخالفته ضرراً بالغاً ، فصار من ثم في درجة أحكام الشرع عندها .

ومن قبيل الأعراف التي صارت ملزمة عندهم لكل أحد ، وفي حكم الأحكام اللزومية ، وجوب احترام العقود والعهود وما اتفق عليه من عهود . مثل مراعاة الأشهر الحرم بالنسبة للمحرمين . فـلا يجوز لأحد القتال فيها ولا الاعتداء على أحـد ، ولو كان قاتلاً مطلوباً بدم . ومثل مراعاة حرمـة الأماكن المقدسة ، كالمسجد الحرام ، فلا يجوز لأحد التعرض لحيوان لجأ اليه ، أو لانسان لاذ به ، ولو كان قاتلاً . وهذا ما حمل البعض على ملازمة (البيت الحرام) وعدم الخروج منه ، لأنه غير آمن على نفسه ، ولأنه مطلوب بدم .

ومثل ما كان يفعله الناس من التمسك بالعهود والمواثيق والأحلاف. وقد عيب رجلان قتلا رجلين كانا تقلدا لحاء شجر الحرم الذي كان أهل الجاهلية يتقلدونه ،

---

١ صبح الاعشى (١/٤٣٥ وما بعدها) .

ليأمنوا به على أنفسهم ، لأنهما قد خالفا بذلك العهود وما اتفق عليه من وجوب مراعاة الحرمات[1] .

وقد كان من عرفهم : انهم كانوا يتقلدون من لحاء شجر مكة، فيقيم الرجل بمكانه ، حتى اذا انقضت الأشهر الحرم فأراد ان يرجع الى أهله قلّد نفسه وناقته من لحاء الشجر فيأمن حتى يأتي أهله . وكان من عرفهم في رواية من روايات أهل الأخبار ، انهم اذا خرجوا من بيوتهم يريدون الحج ، تقلدوا من لحاء السمر ، واذا أرادوا العودة الى ديارهم تقلدوا قلادة شعر ، فلم يعرض لهم أحد بسوء[2] . وذكر أيضاً ، ان الرجل منهم ، كان يتقلد قلادة من لحاء شجرة من شجر الحرم ، ثم يذهب حيث يشاء ، فيأمن بذلك[3] . وان اهل مكة كانوا يفعلون ذلك في تجارتهم ، فيضعون القلائد في أعناقهم وفي أعناق بهائمهم ، فلا يعرض لهم أحد بسوء . إذ كانوا يرون الوفاء بالميثاق عهداً في أعناقهم وديناً يلزمهم بالوفاء في أحكامه .

كسوة رجال الدين :

يقول أهل الأخبار في معرض كلامهم على كسوة العرب : « وأما أهل الحضر وسكنة المدر منهم ، فكانوا يتفننون في لبوسهم ، ويختلفون في كسوتهم ، فكان الكاهن لا يلبس المصبغ والعرّاف لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه ، والحكم لا يفارق الوبر ؛ والشاعر منهم كان اذا أراد الهجاء دهن أحد شقي رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلاً واحدة ، وكان لحرائر النساء زي ، ولكل مملوك زي ، ولذوات الرايات زي .. »[4] . فيظهر من قولهم هذا انه قد كان لرجال الدين أو لبعض منهم زي ، يميزون أنفسهم به عن بقية الناس ، وهو شيء معروف عند البشر من قديم الأيام الى اليوم.فلا نستبعد وجود زي خاص لرجال الدين عند الوثنيين الجاهليين . أما رجال الدين من أهل الكتاب ، فقد كانوا يتزيون بزي خاص يميزهم عن بقية أتباعهم . وقد نص على ذلك أهل الأخبار .

١ ألم تقتلا الحرجين اذ أعورا كما يمران بالايدي اللحاء المضفرا
تفسير الطبري (٦/٣٨) .
٢ تفسير الطبري (٦/٣٧ وما بعدها) .
٣ المصدر نفسه .
٤ بلوغ الارب (٣/٤٠٧) .

الفصل التاسع والستون

الاصنام

نجد في كتاب الأصنام لابن الكلبي وفي المؤلفات الإسلامية الأخرى ، أسماء عدد من الأصنام كان الجاهليون يعبدونها ، وهي على الأكثر أصنام كان يتعبد لها أهل الحجاز ونجد والعربية الشمالية،وذلك قبيل الإسلام . ومن هذه الموارد الإسلامية استقينا علمنا عن هذه الأصنام[1] .

وقد ذكر أهل الأخبار ان بعض هذه الأصنام اناث . وهن اللات ، والعزى ، ومناة . وهي أصنام ذكرت في القرآن الكريم : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى »[2] . ويجب ان نضيف اليها الشمس .

اللات :

واللات من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب . ذكر ابن الكلبي أنه كان صخرة مربعة بيضاء ، بنت ثقيف عليها بيتاً صاروا يسيرون اليه ، يضاهون به

---

١ كتاب الاصنام ، لابن الكلبي ، بتحقيق المرحوم ، أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٥ م (مطبعة دار الكتب المصرية) ، (كتاب الاصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبارك اسمه) ، الفهرست (١٢٥) ، (الرد على عبدة الاوثان) ، معجم الادباء (١/١٣٢) ، (كتاب الاصنام) ، للجاحظ ، وقد نقل منه النويري ، نهاية الارب (١٦/١٥) .

٢ سورة النجم ، الآية ٢٠ .

الكعبة ، وله حجبة وكسوة ، ويحرمون واديه . وكانت سدانته لآل أبي العاص ابن أبي يسار بن مالك من ثقيف ، أو لبني عتاب بن مالك . وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضاً ، ويتقربون اليه ، حتى أن ثقيفاً كانوا إذا ما قدموا من سفر ، توجهوا الى بيت اللات أولاً للتقرب اليه ، وشكره على السلامة ، ثم يذهبون بعد ذلك الى بيوتهم[1] . فيتبين من ذلك أن معبد اللات الشهير كان في مدينة الطائف ، مركز قبيلة ثقيف ، يقصده الناس للتبرك به . وقد كانت له معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من الحجاز .

وذكر ابن كثير ان اللات (صخرة بيضاء منقوشة ، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش)[2] ، فلم تكن صخرة اللات صخرة ملساء حسب ، بل كانت الى ذلك منقوشة ، وكانت في داخل بيت له أستار على شاكلة الكعبة . والفناء هو حرم معظم عند أهل الطائف ، تعظيم قريش لحرم البيت . حرم على الناس قطع شجره ، وصيد حيوانه ، ومن دخله صار آمناً[3] .

وكانت تحت صخرة اللات حفرة يقال لها (غبغب) ، حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم الى الصنم . فلما هدم المغيرة الصنم أخذ تلك الأموال وسلمها الى أبي سفيان امتثالاً لأمر الرسول[4] .

ويظهر من وصف أهل الأخبار لبيت اللات انه كان على طراز البيت بمكة من حيث المنزلة والاحترام والكسوة . فقد كان يكسى في كل عام كسوة . ويظهر ان ثقيفاً اتخذت له سدنة وخدماً يقومون بحراسة البيت وخدمته وتنظيفه على نحو

---

١ البلدان (٧/٣١٠) (اللات) ، الاصنام (١٦) ، اللسان (٢/٣٨٨) ، تاج العروس (١/٥٨٠) المحبر (٣١٥) ، الواقدي (٣٨٤ وما بعدها) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، بلوغ الارب (٢/٢٠٣) ، قاموس المحيط (١/١٥٦) ، تفسير البحر المحيط ، لابي حيان الاندلسي (٨/١٦٠ وما بعدها) ، (الطبعة الاولى ١٣٢٨ هـ) ، تفسير الطبري (٢٧/٥٨ وما بعدها) ، فتح الباري (١٠/٢٣٥ ، ٢٥٣) ، (تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣) .

٢ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) .

٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١١ وما بعدها) .

٤ الطبري (٣/٩٩ وما بعدها) (دار المعارف) ، Reste, S. 31.

ما كان في مكة وفي بيوت الآلهة الأخرى[1] .

ويرى ابن الكلبي ان الصنم (اللات) ، هو أحدث عهداً من مناة[2] . أما نحن، فلا نستطيع ان نجرؤ فنقول بهذا القول ، لأن الصنمين هما من الأصنام القديمة التي ورد ذكرها في كتابات النبط والصفويين ، ثم ان (هيرودوتس) أشار الى (اللات) ، كما سأذكر ذلك . وليس من السهل حتى بالنسبة الى ابن الكلبي أو غيره ، ممن تقدم عليه بالزمن الحكم على زمن دخول عبادة الصنمين الى جزيرة العرب ، لأن ذلك يعود الى زمن سابق لا تصل ذاكرة الرواة اليه .

ومكان بيت اللات في موضع مسجد الطائف،أو تحت منارة مسجد الطائف. وقد عرف البيت الذي بني على اللات بيت الربة ، ويقصدون بالربة اللات ، لأنه أنثى في نظر عابديه[3] . ولا ندري أكان انشاء مسجد الطائف على موضع معبد اللات رمزاً لحلول بيت الله محل بيت الربة،وبيت الأصنام ، وتعبيراً عن حلول الإسلام محل عبادة اللات والأصنام ، أم كان ذلك لسبب آخر ، هو وجود أسس سابقة وحجارة قديمة موجودة ، فاستسهل لذلك إقامة بناء المسجد في هذا المكان ؟ وقد فسر بعض المستشرقين إقامة المسجد في هذا المكان ، بأنه تخليد لذكرى الوثنية في نفوس بعض من أسلم لسانه وكفر قلبه ، فسرهم قيام المسجد في هذا المكان ليبقى أثراً يذكرهم بذكرى صنمهم القديم اللات[4] .

وللأخباريين روايات عن صخرة اللات ، منهـا أنها في الأصل صخرة كان يجلس عليها رجل ، يبيع السمن واللبن للحجاج في الزمن الأول ، وقالوا : إنها سميت باللات لأن عمرو بن لحي كان يلت عندها السويق للحجاج على تلك الصخرة، وقالوا : بل كانت اللات في الأصل « رجلاً من ثقيف . فلما مات ، قال لهم عمرو بن لحي : لم يمت ، ولكن دخل في الصخرة ، ثم أمر بعبادتهـا ، وأن يبنوا بنياناً يسمى اللات » . وقالوا : « قام عمرو بن لحي ، فقـال لهم : إن ربكم كان قد دخل في هذا الحجر ، يعني تلك الصخرة،نصبها لهم صنماً يعبدونها. وكان فيه وفي العزى شيطانان يكلمان الناس ، فاتخذتها ثقيف طاغوتاً ، وبنت لها

---

١ Das Gotzenbuch, S. 93.

٢ الاصنام (١٦) .

٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٢) .

٤ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٢) .

بيتاً : وجعلت لها سدنة ، وعظمته ، وطافت به » . وقيل : « كانت صخرة مربعة ، وكان يهودي يلت عندها السويق »[1].

وذكر المفسر (أبو السعود) أن هناك رواية تزعم أن حجر اللات كان على صورة ذلك الرجل الذي قبر تحته ، وهو الذي كان يلت السويق ، فلما مات ، عكفوا على قبره فعبدوه[2] . وقيل إن اللات : الذي كان يقوم على آلهتهم ، ويلت لهم السويق[3] .

فنحن أمام رأي يزعم ان (اللات) انسان في الأصل مات ، وكان يخدم الأصنام ، فيتقدم اليها يلت السويق ويعطيه للناس ، فلما توفي ، دفن في موضعه الذي كان يلت السويق عنده ثم اتخذ قبره مزاراً، كما اتخذت قبور أخرى مزارات ينحر عندها ويتبرك بها الناس ، ولهذا نهى الاسلام ، عن اتخاذ القبور مزارات، حتى لا تعظم من دون الله ، كالذي حدث عند الجاهليين[4] .

وذكر بعض أهل الأخبار ان صنم اللات انما سمي لاتاً ، من (لوى ، لأنهم كانوا يلون عليها ، اي يطوفون)[5] ، ويعتكفون للعبادة عنده[6] . ومعنى هذا ان عبّاد هذا الصنم لم يكونوا يكتفون بالذبح عنده ، بل كانوا يطوفون حوله ، طوافهم حول أصنام أخرى . وذكر انه سمي لاتاً ، من اللتات، وكل شيء يلت به سويق أو غيره نحو السمن[7] .

ولدينا رأي آخر في سبب تسمية اللات لاتاً ، خلاصته : « ان الناس اشتقوا اللات من اسم (الله) ، فقالوا (اللات) ، يعنون مؤنثه منه »[8] . وذكر

١ الاصنام (١٦ وما بعدها) ، البلدان (٧/٣١٠) (اللات) ، النقائض (١٤١) ، تاج العروس (١/٥٨٠ وما بعدها) ، اللسان (٢/٣٨٨) ، روح المعاني (٢٧/٤٧ وما بعدها) ، الازرقي ، أخبار مكة (٧٩ وما بعدها) (طبعة لايبزك) ، تفسير الخازن (٤/١٩٤ وما بعدها) .

٢ تفسير أبي السعود (٥/١١٢) .

٣ تفسير الطبري (٢٧/٣٥) .

٤ كان النهي عن ذلك في أول ظهور الاسلام ، ثم أذن به ، بدلالة الحديث : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور . ألا فزوروها ، فانها تذكركم بالآخرة) .

٥ تفسير البيضاوي (١/١٩٩) (سورة النجم) .

٦ روح المعاني (٢٧/٣٧ وما بعدها) .

٧ اللسان (٢/٨٣) (بيروت ١٩٥٥) .

٨ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) .

الطبري ان « اللات هي من الله ، ألحقت فيه التاء ، فأنثت ، كما قيـل عمرو للذكر وللأنثى عمرة ، وكما قيل للذكر عباس ثم قيل للأنثى عباسة »[1] .

وورد في بعض روايات أهل الأخبار ان الثقفي الذي كان يلت السويق بالزيت ويقدمه للناس ، لما توفي قبر في موضع اللات ، فعكفوا على قبره ،فعبدوه وجعلوه وثناً ، وزعم بعض آخر انه قبر عامر بن الظرب العدواني[2] . فترى هذه الروايات ان (بيت الربة) ، هو قبر رجل ، دفن فيه ، فعبد وصير إلهاً . وزعم قوم انه كان رجلاً من ثقيف ، يقال له (صرمة بن غنم) ، وكان يسلأ السمن ، فيضعه على صخرة ، فتأتيه العرب ، فلما مات ، عبدته ثقيف[3] .

وتفسير أهل الأخبار لاسم (اللات) ، هو بالطبع من تفسيراتهم المألوفة الكثيرة التي لا يمكن أن نثق بها ، ولا يمكن أن نحملها على محمل الصدق والعلم . فالاسم هو من الأسماء القديمة التي عرفت قبل الميلاد . ويرى بعض المستشرقين أنه ادغام وسط بين (الالاهت) (ال سال هت) Al Alahat والإدغام التام (اللات) (ال لت) Allat ، على نحو مـا حدث للفظ الجلالة : (الا لاه) (ال – ال ه) الذي صار (الله)[4] .

وفي قول أهل الأخبار أن صخرة اللات كانت ليهودي ، يلت عندها السويق ، أو لرجل من ثقيف ، غمز وطعن في ثقيف ، وقد غمز بها في أمور أخرى أشرت اليها في مواضع أخرى . ويعود سبب هذا الغمز الى المنافسة التي كانت بين أهل الطائف وأهل مكة ، ثم الى الكراهية الشديدة التي حملها أهل العراق وأهل الحجاز وغيرهم للحجاج لأعماله القاسية ، وعدم مبالاته ومراعاته للحرمات حتى بالنسبة الى الكعبة ، مما حمل الناس على كرهه وكره قومه ثقيف ، وعلى وضع قصص عن ثقيف .

ولا يستبعد أن تكون صخرة اللات صخرة من هذه الصخور المقدسة التي كان يقدسها الجاهليون ومن بينها (الحجر الأسود) الذي كان يقدسه أهل مكة ومن

---

١ تفسير الطبري (٢٧/٣٤) ، تفسير الطبرسي (٢٧/٤٨ وما بعدها) .
٢ روح المعاني (٢٧/٤٧ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (٥/١١٢) (سورة النجم) .
٣ الخازن (٤/١٩٤ وما بعدها) .
٤ رينه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٤) .

كان يأتي الى مكة للحج وفي غير موسم الحج ، لذلك كانوا يلمسونه ويتبركون به . وإذا أخذنا برأي ابن الكلبي من أن عمرو بن لحي قال للناس : « إن ربكم كان قد دخل في هذا الحجر » ، أو أن الرجل الذي كان عند الصخرة لم يمت، ولكن دخل فيها أو أن روح ميت حلت فيهـــا ونظرنا الى رأيه هذا بشيء من الجد ، فلا يستبعد أن يشير هذا الرأي الى ما يسمى بـ (الفتيشزم) fetichism أي عبادة الأحجـــار في اصطلاح علماء الأديان . ويعنون بها عبادة الأرواح التي يزعم المتعبدون لها أنهـــا حالة في تلك الأحجار ، وخاصة الأحجار الغريبة التي لم تصقلها الأيدي ، بل عبدت على هيأتها وخلقتها في الطبيعة ، وهي من العبادات المنحطة بالنسبة الى عبادة الصور والتماثيل والأصنام [1] .

وذكر ان قريشاً تعبدت للصنم اللات بموضع نخلة عند سوق عكاظ ، وقيـــل انه كان بالكعبة [2] . وذكر ان (اللات بيت كان بنخلة تعبده قريش)[3]. ويلاحظ ان من أهل الأخبار من جعل العزى بيتاً كان بنخلة [4] أي هذا البيت المذكور .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان منهم من رأى ان اللات بيت للصنم ، الذي كان بالطائف ، وان منهم من رأى انه كان بنخلة تعبده قريش . وأما عباد البيت الأول ، فهم ثقيف . ولا أستبعد وجود بيوت عبادة أخرى في غير هذين المكانين في الحجاز وفي غير الحجاز .

واللات من الآلهة المعبودة عند النبط أيضاً ، وقد ورد اسمها في نصوص (الحجر) و (صلخد) و (تدمر) ، وهي من مواضع النبط [5] . وهو (ه ل ت) (هـ ـ لت) (ها ـ لت) في النصوص الصفوية [6] ، ومعناها (اللات) ، لأن (الهاء) حرف تعريف في اللهجة الصفوية . وقد ذكر أكثر من ستين مرة في الكتابات الصفوية . وهو أكثر آلهة الصفويين وروداً في نصوصهم ، ويدل ذلك على شيوع عبادته بينهم [7] .

---

١ Robertson, p. 209.

٢ الخازن (٤/١٩٤ وما بعدها) ، البيضاوي ، سورة النجم (١/١٩٩) ، روح المعاني (٢٧/٤٧ وما بعدها) .

٣ تفسير الطبري (٢٧/٣٥) .

٤ تفسير الطبري (٢٧/٣٥) .

٥ Reste, S. 32, Vogue 6, 8, Euting 3, Waddington 2203, Dussaud - Macler, Mission, p. 55.

٦ Ency. Religi., I, P. 661.

٧ العرب في سوريا قبل الاسلام ، (١١١) .

ويذكر الباحثون ان النبط عدّوا اللات أماً للآلهة ، وهي في نظر (روبرتسن سمث) الإلهة الأم لمدينة (بطر) ، وتقابل الإلهة Artemis عند أهل قرطاجة [١] . وقد عبدت اللات في تدمر ، وفي أرض (مدين) عند اللحيانيين[٢] . وقد وصف (أفيفانيوس) Epiphanius معبد الإلهة اللات في مدينة (بطرا) ، فذكر انه معبد (الأم العذراء Virgin mother . كما انها كانت معبودة عند أهل (الوسة) (الوس) Elusa كذلك . ويظهر ان عبادتها كانت قد انتقلت من النبط ومن القبائل العربية الشمالية الى أهل الحجاز[٣] .

وصنم اللات ، هو (أليلات) (أللات) Alelat = Alilat المذكور في تأريخ (هيرودوتس) . ذكر أنه من آلهة العرب الشهيرة[٤] . والتسمية عربية النجار ، وقد غيرت تغيراً طفيفاً ، اقتضته طبيعة اللغة اليونانية ، فذكره (هيرودوتس) على النحو المذكور . فهـذا الصنم إذن هو أول صنم عربي يرد اسمـه في نص مؤرخ يوناني . وهو يقابل الإلـه Minerva أي (أثينة) Athene عند اليونان[٥].

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن (اللات) تمثل (الشمس) ، وهي أنثى أي إلهة[٦] أما (رينه ديسو) ، فيرى أنها لا تمثل الشمس ، وانما تمثل كوكب الزهرة ، وخطأ رأي من يقول إن اللات الشمس[٧] .

وقد انتهت الينـا أسماء رجال أضيفت إلى اللات ، مثل : (تيم اللات) ، و (زيد اللات) ، و (عائذ اللات) ، و (شيع اللات) ، و (شكم اللات)، و (وهب اللات) وما شاكل ذلك من أسماء . ومما يلفت النظر أننـا لم نلاحظ ورود اسم (عبد اللات) بين أسماء الجاهليين[٨] .

وقد أقسموا باللات ، كما أقسموا بالأصنـام الأخرى ، ونسب الى أوس بن حجر قوله[٩] :

---

١ Smith, p. 56, Reste, S. 33.

٢ Arabien, S. 82.

٣ Smith, p. 56, Das Gotzenbuch, S. 91.

٤ Herodotes, I, 131, III, 8, Arabien, S. 82.

٥ Arabien, S. 82.

٦ Ency. Religi., I, p. 661.

٧ العرب في سوريا قبل الاسلام (١١٥) .

٨ الاصنام (١٨) ، المحبر (٢١٣ ، ٣٢٧ ، ٣٥٠ ، ٤٥٣) .

٩ الاصنام (١١) ، (روزا) .

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله ، ان الله منهن أكـبر

وهدم اللات في جملة ما هدم من الأصنام،وأحرق البيت وقوضت حجارته ، هدمه بأمر الرسول المغيرة بن شعبة في أغلب الروايات . وكان الناس ينظرون الى هدمه في خوف وفزع وهلع خشية أن ينالهم شيء من أذى انتقاماً منهم ، لأنهم لم يدافعوا عن بيت ربتهم ، وكانت نساء ثقيف حسراً يبكين عليه . فلما انتهى الهدم ، ولم يحدث لهن شيء، أخذ المغيرة مالها وحليها من الذهب والجزع وأعطاه أبا سفيان ، وكان الرسول قد أرسله مع المغيرة في وفد ثقيف الذي جاء اليـه عارضاً عليه الاسلام ، فأخذه منه أبو سفيان ، ليقضي من مال اللات دين عروة والأسود ابني مسعود[1] .

ولما أصيبت ثقيف بهزيمة ، واحتمت بالطائف قال الشاعر :

وفرّت ثقيف الى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر[2]

ويظهر من هذا الشعر الذي ينسب الى (شداد بن عارض الجشمي) ، وقد قاله حين هدمت وحرقت اللات :

لا تنصروا اللات ان الله مهلكها وكيف نصركم من ليس ينتصر ؟
ان التي حرقت بالنار فاشتعلت ، ولم تقاتل لدى أحجارها ، هدر
ان الرسول متى ينزل بساحتكم يظعن ، وليس بها من أهلها بشر

ان ثقيفاً بقيت مخلصة لصنمها مؤمنة به ، حتى بعد هدمه وتحريقه ، فقـال الشاعر شعره ، ينهى ثقيفاً عن العود اليها والغضب لها[3] .

ويظهر من بيت ينسب الى كعب بن مالك الأنصاري ، هو قوله :

وننسى اللات والعزى ووداً ونسلبها القلائـد والسيوفا[4]

---

١ الطبري (٣/٩٩ وما بعدها) ، البلدان (٧/٣١٠) ، البداية والنهاية (١/١٤٩) ، نهاية الارب (١٨/٥٩ وما بعدها) ، ابن سيد الناس ، عيون الاثر (٢/٢٢٩ وما بعدها) ، ابن هشام (٢/٣٢٦) ، الروض الانف (٢/٣٢٦) .
٢ الاغاني (١٩/٨٠) ، المشرق ، السنة ١٩٣٨ م (حـ١) (ص ٤) .
٣ الاصنام (١١) (روزا) ، الاصابة (٢/١٣٩) ، (رقم ٣٨٥٢) .
٤ ابن هشام (١/٦٣) (هامش روض الانف) .

ان الناس كانوا يعلقون القلائد والسيوف على تلك الأصنام . وروايات الأخباريين تؤيد هذه الدعوى ، إذ تذكر ان الجاهليين كانوا يقدمون الحلي والثياب والنفائس وما حسن وطاب في أعين الناس هدية ونذوراً الى الأصنـــام ، فكانوا يعلقون ما يمكن تعليقه عليها ، ويسلمون الأشياء الأخرى الى سدنة الأصنام .

وقد ذكر الرحالة الانكليزي (جيمس هاملتون) ان صخـــرة اللات كانت لا تزال في ايامه بالطائف . وقد شاهدها فوصفها بأنها صخرة من الغرانيت ذات شكل خماسي ، وان طولها زهاء اثني عشرة قدماً [1] .

ويظهر انه كان للات بيت وقبة يحملها الناس معهم حين يخرجون الى قتال ، فينصبان في ساحة الجيش ، ليشجع المحاربون فيستميتوا في القتال ، وينادي المنادون بنداء تلك الأصنام مثل : يا للات ، وقد كانت لبقيـــة الأصنام بيوت وقباب أيضاً [2] . وعادة حمل الأصنام الى المعارك والحروب واشراكها مع الناس في القتال بإحضارها ساحة المعارك عادة قديمة،معروفة عند العرب وعند غيرهم . وقد سبق أن قلت إن الآشوريين ذكروا أنهم أسروا أصنام (أربي) العرب في أثنـــاء قتالهم معهم ، أسروها مراراً ، وكانوا يثبتون عليها خبر الأسر ، كما أن الفلسطينيين والعبرانيين وغيرهم كانوا يحملون معهم أصنامهم في القتال [3] .

العزى :

والعُزى صنم أنثى كذلك ، وهي أحدث عهداً في نظر ابن الكلبي من اللات ومناة . وأما الذي اتخذ العُزى على روايـة ابن الكلبي ، فهو ظـالم بن أسعد . وضعت (بواد من نخلة الشامية ، يقال له حراض ، بأزاء الغمير ، عـن يمين المصعد الى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق الى البستان بتسعـة أميال ، فبنى عليها بساً (يريد بيتاً) . وكانوا يسمعون فيه الصوت) [4] وينسب اليه بيت العزى كذلك .

---

١ James Hamilton, Sinai, The Hegaz and Soudan, London, p. 150, (1857).

٢ Das Götzenbuch, S. 83.

٣ صموئيل الاول ، الاصحاح الرابع ، الآية ٥ وما بعدها ، صموئيل الثاني ، الاصحاح الخامس ، الآية ٢١ ، الاصحاح ١١ ، الآية ١١ .

٤ الاصنام (١٧ وما بعدها) ، البلدان (٦/١٦٥) (العزى) ، سبائك الذهـــب (١٠٤) ، بلوغ الارب (٢/٢٠٣ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٢٧/٣٥) ، المحبر (١٢٤ ، ٣١١ ، ٣١٥) ، تفسير الطبرسي (٢٧/١٧٥) (طهران) .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ان (العزى) كان بيتاً بالطائف تعبده ثقيف . ويظهر ان هذا اشتباه قد وقع لهم ، وأنهم خلطوا بين اللات والعزى ، فتوهموا أن بيت اللات هـو العزى فقالوا ما قالوه . ونجد في تفسير الطبري تأييداً لهذا الرأي [١] .

وورد في بيت شعر ينسب الى (حسان بن ثـابت) ان بيت العزى كـان (. بالجزع من بطن نخلة) [٢] .

ويظهر أن العزى كانت (سمرات) ، لها حمى ، وكان الناس يتقربون اليها بالنذور . وهي بالطبع عبادة من العبادات المعروفة للشجر [٣] . وقـد ذكر الطبري روايات عديدة تفيد أن (العُزّى) شجيرات ، ولكنه أورد روايات أخرى تفيد انها حجر أبيض [٤] . فنحن إذن أمام رأيين : رأي يقول إن العزى شجيرات ، ورأي يرى أنها حجر . وذكر (ابن حبيب) ان العُزى شجرة بنخلة عنـدها وثن تعبدها غطفان ، سدنتها من بني صرمة بن مرة [٥] . وذكر غيره انها سمرة لغطفان [٦] .

وقد تسمى العرب وقريش بالعزى ، فقالوا : (عبد العزى) [٧] . وقد أقسموا بها ، ولها يقول درهم بن زيد الأوسي :

إني ورب العزى السعيـدة والله الذي دون بيته سرف [٨]

وأقدم من سمي باسم (عبد العزى) في رأي ابن الكلبي هو عبد العزى بن كعب [٩] . وقد ذكر ابن دريد أسماء عدد من أهل مكة عرفوا بـ (عبد العزى) ،

---

١ تفسير الطبري (٣٥/٢٧) ، (العزى بيت بالطائف تعبده ثقيف) .
٢ الازرقي ، (ص ٧٨ وما بعدها) .
٣ أخبار مكة ، للازرقي (٧٤/٢) ، اللسان (٣٧٨/٥) ، (عز) ، تاج العـروس (٥٥/٤) ، تفسير الخازن (٢١٧/٦ وما بعدها) ، الشوكاني ، فتح (١٠٥/٥)، تفسير البحر المحيط ، لأبي حيان الاندلسي (١٦٠/٨ وما بعدها) ، تفسير ابـن كثير (٢٥٣/٤) .
٤ تفسير الطبري (٣٥/٢٧) .
٥ المحبر (٣١٥) ، تفسير الطبرسي (٤٨/٢٧ ومـا بعدهـا) ، تفسير البيضاوي (١٩٩/١) .
٦ مراصد الاطلاع (٩٣٧) .
٧ الاصنام (١٦ وما بعدها) .
٨ الاصنام (١٣) (روزا) ، مراصد الاطلاع (٩٣٧) .
٩ الاصنام (١٨) .

منهم بـ (عبد العزى بن قصي) ، و (عبد العزى بن عبد مناف) ، و (عبد العزى بن عبد المطلب)[1] .

ويظهر من هذا الشعر المنسوب الى (زيد بن عمرو بن نفيل) :

تركت اللات والعزى جميعاً　كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها　ولا صنمي بني غنم أزور[2]

ان عبّاد العزى كانوا يتصورونها أماً ، ولها ابنتان ، ولعله أراد بـ (ابنتيها) اللات ومناة . وقد نسب بعض أهل الأخبار عبادة العزى الى عمرو بن لحي جرياً على عادتهم في نسبة عبادة الأوثان اليه ، فقالوا انه قال لعمرو بن ربيعة والحارث ابن كعب : إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة[3] . وفي رواية لابن اسحاق : ان عمرو بن لحي اتخذ العزى بنخلة ، فكانوا اذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة ، لم يحلوا حتى يأتوا العزى ، فيطوفون بها ، ويحلّون عندها ، ويعكفون عندها يوماً . وكانت لخزاعة . وكانت قريش وبنو كنانة كلها تعظم العزى مع خزاعة وجميع مضر . وكان سدنتها الذين يحجبونها بنو شيبان من بني سليم ، حلفاء بني هاشم[4] .

وتشير روايـــة من زعم أن عمرو بن لحي قال لقومه : « إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعُزى لحر تهامة » ، صحت او لم تصح ، الى وجود صلة بين اللات والعُزى . وقد ذكرت العُزى بعد اللات في القرآن الكريم . وكذلك ترد بعد اللات في جميع روايات الأخباريين . ممـا يشير الى وجود صلة بين الـلات والعزى . ولا يستبعد ان تكون هذه الصلة بين الصنمين قد جاءت الى أهل الحجاز من بلاد الشأم من اهل تدمر وبادية الشأم والصفويين ، إذ وردا وكأنهما إلهـــان متقابلان ، فحمل ذلك بعض المستشرقين على تصور أنهما يمثلان كوكبين : كوكب الصباح وكوكب المساء[5] .

---

١ الاشتقاق (٣٤٨) (الفهرست) .
٢ الاصنام (١٤) (روزا) .
٣ الازرقي ، اخبار مكة (١/٧٤) (باب ما جاء في اللات والعزى) .
٤ الازرقي (١/٧٤ وما بعدها) .
٥ العرب في سوريا قبل الاسلام (١٢٥) .

والعُزى مثل اللات ومناة من الآلهة المعبودة عند عرب العراق وعرب بلاد الشأم ، وعند النبط والصفويين . وقد ذكر اسم العُزى مرتين في المصادر المؤلفة بعد الميلاد ، وأشار اسحاق الأنطاكي Isaac of Antioch من رجال القرن الخامس للميلاد ، الى اسم العُزى في حديثه عن مدينة (بيت حور) Beth-Hur ودعاها بـ Beltis ، وسماها (كوكبتا) . ويظن ان (كوكبتا) Kawkabta ، أي (كوكبة) المذكورة في المصادر السريانية ، هي أنثى كوكب ، تعني الكوكب الذي يظهر عند الصباح ، وهو العُزى عند الجاهليين[1] . ويراد بها (الزهرة) Venus ، عند النبط[2] . حيث اتخذوا لها معبداً في مدينة (بصرى) في منطقة (رم) عرف بـ (بيت ايل) . وقد نص (بروكوبيوس) ، Procopius على انها (أفروديت)[3] . وهي كناية عن القمر على رأي بعض المستشرقين[4] .

ولعل العزى هي (ملكة السماء Melekheth Hash-Shama المذكورة في سفر (ارميا)[5] ، وقد جاء فيه : ان أهل (اورشليم) كانوا يصنعون كمكاً، يتقربون به الى تلك الإلهة : إلهة السماء . وقد كان الجاهليون يتقربون بالخبز والكعك الى (كوكب السماء)[6]

ويظهر من ورود اسم امرأة هو : (امت عزى) ، (أمة العزى) ، في نص عربي جنوبي ، ان عبادة العزى كانت معروفة هناك. وقد قدم أحد العرب تمثالاً من ذهب الى هذه الإلهة[7] .

وقد كان آل لخم ، ملوك الحيرة ، ينحرون الأسرى قرباناً للعزى. وقد زعم بعض المؤرخين السريان ان (المنذر بن ماء السماء) ضحى بأربع مئة راهبة للعزى[8] .

---

١ Reste, S. 40, Ency. Vol. IV, p. 1059, Rothstein, S. 81, 141. Shorter Ency. of Islam, p. 617.

٢ Arabien, S. 82.

٣ Procopius, De Bello Persi., II, 28, Arabien, S. 28, 82.

٤ Arabien, S. 82, Reste, S. 40, Ryckmans, 15.

٥ أرميا ، الاصحاح السابع ، الآية ١٨ وما بعدها) .

٦ Hastings, p. 778, Das Gotzenbuch, S. 95.

٧ Das Gotzenbuch, S. 94.

٨ Malalas, II, 166, Noldeke, Sassaniden, S. 171, Ghass., II, Anm. 3, Theophanes, 273, Land, Anecd. Syr., III, 247, Rothstein, S. 81, Paulys-Wissowa, Erster Halband, 1893, S. 1281.

وذكر (إسحاق الأنطاكي) ان العرب كانوا يقدمون الأولاد والبنات قرابين للكوكبة (كوكبتا) ، فينحرونهم لها ، ويقصد بـ (كوكبتا) العزى[1] .

وكانت قريش تتعبد للعزى ، وتزورها وتهدي اليها ، وتتقرب اليها بالذبائح. وذكر ابن الكلبي انها كانت أعظم الأصنام عند قريش، وان قريشاً كانت تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى. فإنهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى » . وكانوا يقولون : هن بنات الله ، وهن يشفعن اليه . وكانت قريش قد حمت لها شعباً من وادي حراض ، يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة . وكان لها منحر ينحرون فيه هداياهم ، يقال له الغبغب ، فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها[2] .

وكانت قريش تستعين بأصنامها حين تحارب ، تستجير بها وتستمد منها العون في الحرب[3] ، لتبعث الهمة والنشاط في النفوس بذكرها . فلما كان يوم أحد نادى (أبو سفيان : « اعلُ هبل ، اعلُ هبل » فقال المسلمون : « الله أعلى وأجل). فقال (أبو سفيان) : « لنا العزى ولا عزى لكم » . فقال المسلمون : « الله مولانا ولا مولى لكم »[4] .

ويقول ابن الكلبي أيضاً : « ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى ، ثم اللات ، ثم مناة . فأما العزى ، فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية . وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش للعزى. وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين، وكلهم كان معظماً لها) ، أي للعزى[5] .

ولابن الكلبي رأي في اقبال قريش على العُزى ، إذ يقول : « فأما العزى ، فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية . وذلك فيما أظن لقربها منها »[6] . فجعل قرب بيت العزى من قريش، هو السبب في إقبال قريش عليها .

---

١ Isaak von Antiochia, Opera, I, 220, (Ed. Bickell), Reste, S. 40, Das Gotzenbuch, S. 96.

٢ الاصنام (١٨) وما بعدها ، (١٢) (طبعة روزا كلينكه روزنبركر) بمدينة (لايبزك ١٩٤١ م) .

٣ Arabien, S. 83.

٤ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) ، الطبري (٥٢٦/٢) ، « معركة أحد » .

٥ الاصنام (٢٧) .

٦ الاصنام (١٦) (روزا) .

وهو يرى هذا الرأي نفسه حين تكلم على الأصنام : ود ، وسواع ، ويعوق ، ونسر ، وقارن بينها وبين الأصنام اللات والعُزى ومناة . إذ قال: « ولم يكونوا يرون في الخمسة الأصنام التي دفعها عمرو بن لحي .. كرأيهم في هذه ولا قريباً من ذلك . فظننت أن ذلك كان لبعدهم منهم »[1] .

وقال ابن الكلبي في كتابه الأصنام « وقد بلغنا أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ذكرها يوماً ، فقال : لقد أهديت للعزى شاة عفراء ، وأنا على دين قومي »[2] .

وكان فيمن يتقدم الى العُزى بالنذور والهدايا ، والد خالد بن الوليد . ذكر خالد أن والده كان يأتي العُزى بخير ما له من الإبل والغنم ، فيذبحها للعزى ، ويقيم عندها ثلاثة ايام[3] .

وممن تعبد للعُزى بنو سليم وغطفان وجشم ونصر وسعد بن بكر[4] . وغني وباهلة وخزاعة وجميع مضر وبنو كنانة . وقد ارتبطت قبائل غطفان بعبادة العُزى وتقديسها بصورة خاصة، حتى لقد ذكر (ياقوت الحموي) ان (العُزى سمرة كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنو عليها بيتاً ، وأقاموا لها سدنة)[5] . وقد عرف البيت بـ (كعبة غطفان)[6] . وذكر (الطبري) أن العُزى (صنم لبني شيبان)، بطن بن سليم حلفاء بني هاشم ، وبنو أسد بن عبد العزى ، يقولون : هذا صنمنا ، وانها (كانت بيتاً يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر كلها)[7] . وقد تعبدت لها ثقيف كذلك ، بأن اتخذت لها صنماً[8] . والظاهر ان قريشاً كانت تعد العزى حامية وشفيعة لها[9] .

وكان لحرم العزى شعب حمته قريش للصنم ، يقال له سقام في وادي حراض

---

١ الاصنام (١٧) (روزا) .
٢ الاصنام (١٨) وما بعدها ، (١٢) (طبعة روزا روزنبركر) .
٣ الازرقي ، أخبار مكة (٧٨ وما بعدها) .
٤ نفسير الطبرسي ، مجمع البيان (٥/٣٦٤) ، اليعقوبي (١/٢٢٥) .
٥ البلدان (٦/١٦٦) ، (٤/١١٦) (صادر) .
٦ Shorter Ency., p. 617, Arabien, S. 83.
٧ الطبري (٣/٦٥) ، (دار المعارف) .
٨ Arabien, S. 83, Doughty, Documents Epigraphiques, 35, Travels in Arabia Deserta, II, p. 511, 515.
٩ Arabien, S. 83.

على طريقة قريش في اتخاذ حرم للكعبة. وقد صار هذا الحمى موضعاً آمناً لا يجوز التعدي فيه على أحد ، ولا قطع شجره ، ولا القيام بعمل يخل بحرمة المكان[1] . فذاك قول أبي جندب الهذلي ثم القردي في امرأة كان يهواها ، فذكر حلفها له بها :

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة   بفرع التي أحمت فروع سقام[2]

وينسب (ابن الكلبي) بناء (بيت العزى) الى (ظالم بن أسعد) ، إذ يقول : « بس : بيت لغطفان بن سعد بن قيس عيلان كانت تعبده . بناه ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف ، لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت . ونص العباب : وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع الى قومه ، وقال : يا معشر غطفان ، لقريش بيت يطوفون حوله والصفا والمروة ، وليس لكم شيء ، فبنى بيتاً على قدر البيت ، ووضع الحجرين فقال : هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحج . فأغار زهير بن جناب بن هبل بن عبدالله بن كنانة الكلبي، فقتل ظالماً ، وهدم بناءه »[3] .

وجاء في رواية أخرى ان (بني صداء) قالوا : أما والله لنتخذن حرماً مثل حرم مكة ، لا يقتل صيده ، ولا يعضد شجره ، ولا يهاج عائذه، فوليت ذلك بنو مرة بن عوف . ثم كان القائم على أمر الحرم وبناء حائطه رباح بن ظالم ففعلوا ذلك ، وهم على ماء لهم يقال له بس ، فلما بلغ فعلهم هذا وما أجمعوا عليه زهير بن جناب ، قال : والله لا يكون ذلك وأنا حي ، ولا أخلّي غطفان تتخذ حرماً أبداً ، ثم سار في قومه حتى غزا غطفان ، وتمكن منها ، واستولى على الحرم ، وقطع رقبة أسير من غطفان به ، وعطل الحرم وهدمه[4] .

وذكر بعض أهل الأخبار ، ان العزى صنم كان لقريش وبني كنانة، أو سمرة عبدتها غطفان بن سعد بن قيس عيلان . أول من اتخذها منهم : (ظالم بن أسعد)

---

١ البلدان (٥/٩١) ، (٦/١٦٦) .
٢ الاصنام (١٢) (روزا) .
٣ الاغاني (٢١/٦٣) ، تاج العروس (٤/١٠٩) ، البلدان (٢/١٧٩) ، اللسان (٧/٣٢٧) ، (بس) .
٤ الاغاني (٢١/٦٣) .

فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميال ، بالنخلة الشامية بقرب مكـــة ، وقيل بالطائف ، بنى عليها بيتاً وسمّاه بُساً ، وقيـل بساء ، وأقاموا لها سدنة مضاهاة للكعبة ، وكانوا يسمعون فيها الصوت ، فبعث اليها رسول الله خالد بن الوليد ، عام الفتح ، فهدم البيت ، وقتل السادن وأحرق السمرة [1] .

ويظهر مما تقدم أن البيت هدم مرتين : مرة في الجاهلية ، على يد زهير بن جناب،وقتل إذ ذاك بانيه ظالم ، والمرة الثانية عام الفتح على يد خالد بن الوليد [2] .

وأما سدنة العزى ، فكانوا من بني صرمة بن مرّة ، أو من بني شيبان بن جابر بن مرة بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن عتبة بن سليم بن منصور . فهم من بني شيبان ، من بني سليم حلفاء بني هاشم [3] .

وكان آخر سادن للعُزى (دبية بن حرمي السلمي ثم الشيباني) ، قتله خالد ابن الوليد بعـــد هدمه الوثن والبيت وقطعه الشجرة أو الشجرات الثلاث [4] . وفي رواية : أن هـــدم العُزى كان لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان ، وكان سادنها أفلح بن النضر السلمي من بني سليم . فلما حضرته الوفاة دخل عليه أبو لهب يعوده وهو حزين ، فقال له : مالي أراك حزيناً ؟ قـال : اخاف ان تضيع العُزى من بعدي . قال أبو لهب : فلا تحزن ، فأنا اقوم عليهـا بعدك . فجعل ابو لهب يقول لكل من لقي : إن نظهر العزى ، كنت فد اتخذت عندها يداً بقيامي عليها ؛ وإن يظهر محمد على العُزى ، وما أراه يظهر ، فابن أخي . فأنزل الله تبارك وتعالى « تبت يدا أبي لهب وتب » [5] . وتدل هذه الرواية إن صحت على ان أفلح بن النضر لم يكن آخر سادن للعزى ، وان الهدم لم يكن في حياته ، وإنما كان بعد وفاته .

وتشبه هذه القصة قصة أخرى وردت في الموضوع نفسه ، عن أبـي أحيحـة

---

١ تاج العروس (٤/٥٥) ، (عزز) .
٢ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .
٣ الطبري (٣/٦٥) (دار المعارف) ، تاج العروس (٤/٥٦) ، (عزز) .
٤ البلدان (٦/١٦٧ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٢٠٥) ، ابن هشام (١/٦٥) (هامش الروض الانف) ، الطبري (٣/١٢٣) ، (٣/٦٥) (دار المعارف) ، الاصنام (١٥) (روزا) ، (ودبية بن حرمس السلمي سادن العزى) ، تاج العروس (١٠/١٢٤) ، (دبي) .
٥ أخبار مكة ، للازرقي (١/٧٦) ، البلاذري ، أنساب (١/١٢١) .

وأبي لهب . فلما مرض أبو أحيحة ، وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ، مرضه الذي مات فيه ، كان اهم ما شغل باله عبادة العُزى وخشيته ان لا تعبد من بعده ، فلما اجابه ابو لهب مهوناً عليه الأمر : رد والله ما عبدت حياتك (لأجلك)،ولا تترك عبادتها بعدك لموتك ! سره هذا الجواب ، وأفرج عنه . فقال : « الآن علمت ان لي خليفة »[1] .

ويروي ابن الكلبي ان الرسول أمر بالقضاء على العُزى ، وذلك عام الفتح ، فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال له : ايت بطن نخلة ، فإنك تجد ثلاث سمرات ، فاعضد الأولى . فأتاها فعضدها ، فلما جاء اليه عليه السلام : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فاعضد الثانية ؟ فأتاها فعضدها . ثم أتى النبي عليه السلام ، فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فاعضد الثالثة . فأتاها . فإذا هو بحبشية نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها ، وخلفها دبية بن حرمي الشيباني ثم السلمي، وكان سادنها . فلما نظر الى خالد ، قال :

أعزّ شدي شدة لا تكذبي   على خالد ألقي الخمار وشمري
فإنك الا تقتلي اليوم خالداً   تبوئي بذل عاجلاً وتنصري

فقال خالد :

يا عز كفرانك ، لا سبحانك   إني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها ، فإذا هي حممة . ثم عضد الشجرة ، وقتل دبية السادن. ثم أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأخبره فقال : تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب . أما انها لن تعبد بعد اليوم[2] .

---

١ الاصنام (٢٣) .

٢ الاصنام (١٥ وما بعدها) (روزا) ويختلف نص الشعر المذكور المنسوب الى (دبية) في كتاب الاصنام بعض الاختلاف عن نص تأريخ الطبري (٣/٦٥) ، أمتاع الاسماع (١/٣٩٨) ، تفسير الطبرسي (٢٧/٤٨ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٧/٤٧ وما بعدها) ، الازرقي (٧٨ وما بعدها) .

ويظهر من شعر لـ (أبي خراش الهذلي) أن (دبية) كان كريماً ، يطعم الناس ، عظيم القدر، له جفنة حين الشتاء ، وقد مدحه ، إذ حذاه نعلين جيدين ، كما رثاه يوم قتل بأبيات ذكرها (ابن الكلبي) في كتابه الأصنام[1] .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (خالد بن الوليد) هدم بيت العزى عام الفتح ، وقتل إذ ذاك سادنـه (ربيعة بن جرير السلمي)[2] . وروايات الأخباريين عن العُزى يكتنفها شيء من الغموض واللبس ، ويدل ذلك على أنهم لم يكونوا على علم تام بالعُزى . فبينما هم يذكرون أن العزى شجرة أو سمرة[3] . تراهم يذكرون في روايـات أخرى أنها شيطانة تأتي ثـلاث سمرات ، أي ان العزى هي تلك الشيطانـة ، لا السمرة أو السمرات الثلاث[4] . ثم تراهم يذكرون في روايات أخرى أن العزى صنم ، وان الرسول حينما أمر خالد بن الوليد بهدمـه ، قال له لما هدم العزى ، وعاد : « أوأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فارجع فاهدمه ، فرجع خالد الى الصنم ، فهدم بيته ، وكسر الصنم ، فجعل السادن يقول : أعزى اغضبي بعض غضباتك . فخرجت عليه امرأة حبشية عريانة مولولة ، فقتلها وأخذ ما فيها من حلية ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بذلك، فقال : تلك العزى ، ولا تعبد العزى أبداً »[5] . ومعنى هذا أن العـزى صنم ، كان في داخل بيت العُزى ، وأن خالد بن الوليد كسره ، وهدم بيته . ولم يكن شجرة . أما تلك السمرة أو السمرات الثلاث ، فلم تكن إلا أشجاراً نبتت في حرم البيت . لذلك صارت محرمة لا يجوز مسها بأي سوء كان .

وقد سمّى بعض أهل الأخبار اسم آخر سدنة العزى (دُبَيَّة) و (دبية بن

---

١ الاصنام (١٤ وما بعدها) (روزا) .

٢ تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) ، ابن سعد ، حلقات (١٤٦/٢) .

٣ السمر : شجر صغار الورق قصار الشوك وله برمة صفراء يأكلها الناس ، وليس في العضاه شيء أجود خشبا من السمر ، بلوغ الارب (٣٠٤/٢) ، تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) .

٤ البلدان (١٦٧/٦ وما بعدها) ، المحبر (٣١٥) ، بلوغ الارب (٢٠٤/٢) ، الاصنام (١٥ وما بعدها) (روزا) .

٥ الطبري (٦٥/٣) (دار المعارف) ، روح المعاني (٤٧/٢٧ وما بعدها) .

حرمس السلمي)[1] ، وسمّاه بعض آخر (ربية السلمي) ، و (ربية بن جرمي)[2] ، و (ربيعة بن جرير السلمي)[3] .

والرأي المعقول المقبول ، هو ان العزى صنم ، له بيت ، وأمامه غبغب، أي خزانة يضع فيها العباد المؤمنون بالعزى هداياهم ونذورهم لها ، كما كانوا ينحرون لهـا ، إذ لا يعقل ان يقال إن خالداً كسر الصنم وهـدم بيته[4] . ثم لا يكون العزى ، صنماً بل يكون شجرة ، أو شجرات . وأما الشجيرات، فإنها شجيرات مقدسة أيضاً ، لأنها في حرم العزى ، وشجر الحرم هو شجر مقـدس لا يجوز قطعه ، ولذلك كان أهل مكة يتجنبون مس شجر الحرم بسوء ، فلما أراد (قصي) اعتضاده ، هابت قريش عمله وخافت سوء العاقبة ، ونهته عن مسه بسوء، ولكنه أقدم على قطعه ، لم يبال برأيهم ، ولم يحفل بنصائحهم ، فقطعه . وكان بيت العزى يسمع فيه الصوت. وقد ذكر الأخباريون انه كان في كل من اللات والعزى ومناة شيطانة ، تكلمهم ، وتظهر للسدنة وقـد نسبوا ذلك الى صنـع ابليس[5] . والظاهر ان الحبشية المذكورة التي قتلها خالد،وزعم انها شيطانة ان صح ما ذكره الرواة عن وجودها ، كانت امرأة كان السادن يخفيها في موضع سري ، وهي التي تجيب عن أسئلة السائلين فينسب السادن كلامها الى العزى .

ومما يؤيد رأيي في ان (العزى) صنم ، ما ورد في تفسير (الطبري) من قوله : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خالد بن الوليـد الى شعب بسقام ليكسر العزى ، فقال سادنها ، وهو قيمها : يا خالد أنا أحذركها إن لها شدة لا يقوم اليها شيء . فمشى اليها خالد بالفأس فهشم أنفها[6] . مما يدل على انها كانت صنماً أنثى ، أي تمثالاً لامرأة ، لأنها أنثى .

ويظهر من هذا البيت :

أما ودماء مائرات تخالها على قنة العزى وبالنسر ، عندما[7]

---

١ بلوغ الارب (٢/٢٠٤) .
٢ تاج العروس (٤/٥٥ وما بعدها) ، (عزز) .
٣ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .
٤ المحبر (١٢٣) .
٥ الازرقي (١/٧٥) ، (باب ما جاء في اللات والعزى) .
٦ تفسير الطبري (٢٤/٥) ، تفسير القرطبي (١٥/٢٥٨) .
٧ اللسان (١٣/٣٤٩) ، (قنن) .

ان عبّــاد العزى كانوا قد لطخوا قنة الصنم ، أي أعلاه ورأسه بدم الأضاحي. وكذلك فعل عبّاد الصنم نسر بقنة صنمهم .

مناة :

ويعد الصنم مناة أقدم الأصنام عند الأخباريين . وهو من الأصنام المذكورة في القرآن الكريم : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى »[1] . وهذه الأصنام الثلاثة هي إناث في نظر الجاهليين .

وموضع مناة بالمشلــل على سبعة أميال من المدينة[2] ، وبقديد بــين مكــة والمدينة[3] ، وقيل أيضاً انه بموضع (ودان) أو في موضع قريب منه[4] . وذكر اليعقوبي ان مناة كان منصوباً بفدك مما يــلي ساحل البحــر[5] . والرأي الغالب بين أهل الأخبار انه كان على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد[6] . وذكــر (محمد بن حبيب) أنه كان بسيف البحر وكانت الأنصار وأزد شنوءة وغيرهم من الأزد تتعبد له . وأما سدنتــه ، فهم (الغطاريف) من الأزد[7] . وذكر أن تلبيته كانت على هــذه الصورة : « لبيك اللهم لبيك ، لولا ان بكراً دونك ، يبرك النــاس ويهجرونك ، وما زال حج عثج يأتونك . أنا على عدوائهم من دونك »[8] .

ونسكت أكثر روايات أهل الأخبار عن معبد (مناة) فلم تذكر شيئاً عنه ،

---

١ النجم ، الآية ١٩ وما بعدها .
٢ تاج العروس (١٠/٣٥١) ، تفسير الطبري (٢٧/٣٢ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) ، تفسير الخازن (٤/١٩٤ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (٥/١١٢) ، اللسان (٢٠/١٦٧) ، تفسير الطبرسي (٢٧/٤٨) .
٣ مجمع البيان (٩/١٧٦) ، البلدان (٢/٩٤٤) ، عمدة القاري (٩/٢٨٧) .
٤ البلدان (٨/١٦٧ وما بعدها) .
٥ اليعقوبي (١/٣١٢) ، (١/٢٢٥) .
٦ ابن هشام (١/٨٧) ، الاصنام (١٣ وما بعدها) ، الروض الانف (١/٦٥) ، أخبار مكة (١/٧٣وما بعدها) ، البداية والنهاية (٢/١٩٢) ، عمــدة القاري (٩/٢٨٧) .
٧ المحبر (٣١٦) .
٨ المحبر (٣١٣) .

ولكن (الطبري) يشير في تفسيره إلى أنه كان بيتاً بالمشلل[1] ، وهو كلام منطقي معقول ، إذ لا يعقل أن يكون هذا الصنم ، مجرد صخرة أو صنم قائم في العراء تعبث به الرياح والشمس ، ثم ان له سدنة ، ولا يعقل أن تكون لصنم سدنة ، ثم لا يكون له بيت يؤويه . ولست أستبعد أن يكون له، (جب) يلقي المؤمنون فيه هداياهم ونذورهم . وذكر (الطبري) أيضاً أن معبده كان بـ (قديد) . وأما عبدته ، فخراعة ، وبنو كعب[2] .

والأخباريون على خلاف فيما بينهم على هيأة (مناة) وشكله ، منهم من يقول إن مناة صخرة ، سميت بذلك لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها ، أي تراق[3]. ومنهم من يقول إنه صنم كان منصوباً على ساحل البحر ، فهو على هيأة ومثال، وقد نحت من حجارة[4] ، وجعله بعض الرواة في الكعبة مع بقية الأصنام[5] .

والذين يذكرون أن مناة صخرة ، يرون أن الناس كانوا يذبحون عندها فتمنى دماء النسائك عندها ، أي تراق ، فهي إذن ، وبهذا الوصف مذبح تراق عنده الذبائح الذي تقدم نسيكة للإلهة . ويذكرون أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك « كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها »[6] . ويتبين من ذلك ان هـذا الموضع كان مكاناً مقدساً ، وقد خصص بإلـه ينشر السحب ويرسل الرياح فتأتي بالأمطار لتغيث الناس ، وان لهذا الإلـه صلة بالبحر وبالماء ، ولذلك أقيم معبده على ساحل البحر[7] . وقد تكون هذه الصخرة مذبحاً أقيم عند الصنم ، أو عنـد معبده لتذبح عليه ما يهل للصنم ، فسمي باسمه ، ولذلك يمكن التوفيق بـين الرأيين : كونه صخرة ، وكونه صنماً .

ويظهر من أقوال ابن الكلبي ان هذا الصنم كان معظماً ، خاصة عند الأوس

---

٢ تفسير الطبري (٣٥/٢٧) .
١ تفسير الطبري (٣٥/٢٧) .
٣ تفسير الطبري (٣٢/٢٧ وما بعدها) .
٤ تفسير الطبرسي ، مجمع البيان (١٧٦/٩) ، البلدان (١٦٧/٨ وما بعدها) .
٥ مجمع البيان (١٦٧/٨ وما بعدها) .
٦ تفسير الطبري (٣٢/٢٧ وما بعدها) ، الكشاف (١٤٤/٣ وما بعدها) ، تفسير البيضاوي (١٩٩/١) .
٧ وكان منصوبا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين المدينة ومكـة وما قارب ذلك من المواضيع ، البلدان (١٦٧/٨ وما بعدها) .

والخزرج ، أي أهل يثرب ومن كان يأخذ مأخذهم من عرب المدينة والأزد وغسان (فكانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك[1] . ولكن القبائل العربية الأخرى كانت تعظمه كذلك ، وفي جملتها قريش[2] وهذيل وخزاعة[3] . وأزد شنؤة ، وغيرهم من الأزد . وقيل ثقيف أيضاً ، وذكرت رواية أخرى ان العرب جميعاً كانت تعظمه وتذبح حوله[4] . أما سدنته، فالغطاريف من الأزد[5] .

وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمون مناة ، ويهلون منها للحج الى الكعبة[6] .

فمناة اذن من الأصنام المعظمة المقدسة عند (الخزرج) . وكانوا يحلفون بها ويقفون عندها . وفي ذلك ورد شعر ينسب الى عبد العزى بن وديعة المُزني أو غيره من العرب :

إني حلفت يمين صدق برة   بمناة عند محل آل الخزرج

فالمحل الذي يقف فيه (آل الخزرج) ، هو المحل الذي يحلف به أمام مناة . وكان العرب في الجاهلية يسمّون الأوس والخزرج جميعاً : الخزرج ، ولذلك يقول الشاعر في بيته : (عند محل آل الخزرج)[7] .

وترجع بعض الروايات تأريخ مناة الى (عمرو بن لحي) فتزعم أنه هو الذي نصبه على ساحل البحر مما يلي قديداً[8] . وقد أخذت من الرواية التي ترجع أساس عبادة الأصنام وانتشارها بين العرب الى ذلك الرجل .

---

١ الاصنام (١٤) ، البلدان (١٦٩/٨) (مناة) الازرقي (٧٣/١ وما بعدها) .
٢ الاصنام (١٣ ، ١٥) ، البلدان (١٦٩/٨) .
٣ البلدان (١٦٩/٨) ، اللسان (١٦٧/٢٠) .
٤ الكشاف (١٤٤/٣ وما بعدها) .
٥ المحبر (٣١٦) ، البلدان (١٦٧/٨ وما بعدها) .
٦ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) ، اللسان (١٦٧/٢٠) .
٧ الاصنام (١٣ وما بعدها) .
٨ اخبار مكة (٧٣/١ وما بعدها) ، البلدان (٦٥٣/٤) .

وكان المتعبدون لهذا الصنم يقصدونه ، فيذبحون حوله ، ويهدون له . ويظهر من روايات ابن الكلبي عن هذا الصنم ، أنه كان من الأصنام المعظمة المحترمة عند جميع العرب . وقد قصد ابن الكلبي بعبارة : « وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله »[1] عرب الحجاز على ما أعتقد . وكان سدنته يجنون من سدانتهم له أرباحاً حسنة من هذه الهدايا التي تقدم الى معبده باسمه .

وقد بقي سدنة هذا الصنم يرتزقون باسمه ، الى أن كان عام الفتح ، فانقطع رزقهم بهدمه وبانقطاع سدانته . فلما سار الرسول في سنة ثمان للهجرة ، وهي عام الفتح أربع او خمس ليال من المدينة ، بعث علياً اليه ، فهدمه وأخذ ما كان له ، فأقبل به الى النبي ، « فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان أهداهما له ، أحدهما : يسمى مخذماً ، والآخر رسوباً . وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في بيته :

مظاهر سربالي حديد عليهما　　عقيلاً سيوف : مخذم ورسوب

فوهبهما النبي لعليّ ، فيقال : إن ذا الفقار ، سيف علي أحدهما . ويقال : إن علياً وجد هذين السيفين في الفلس ، وهو صنم طيء ، حيث بعثه النبي فهدمه[2] .

وفي رواية للواقدي أن الذي هدم الصنم هو سعد بن زيد الأشهلي ، هدمه سنة ثمان للهجرة[3] . وفي رواية أخرى ان الذي هدم الصنم هو أبو سفيان[4] .

وقد كانت القبائل تتجنب ان تجعل ظهورها على (مناة) إعظاماً للصنم ، ولذلك كانت تنحرف في سيرها ، حيث لا يكون الصنم الى ظهرها[5] . وفي ذلك قال الكميت بن زيد الشاعر ، أحد بني أسد بن خزيمة بن مدركة :

وقد آلت قبائل لا تولي　　مناة ظهورها متحرّفينا

---

١ الاصنام (١٥) ، الاصنام (٤٩) ، (القاهرة ١٩١٤) .
٢ الاصنام (١٥) ، البلدان (١٦٨/٨) .
٣ الطبري (١٢٣/٣) ، روح البيان ، لاسماعيل حقي أفندي ، (٥٥١/٤) ، تأريخ الخميس ، للديار بكري (١٠٧/٢ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (٣٩٨/١) ، البخاري (١٨/٥) .
٤ البداية والنهاية (١٩٢/٢) ، الروض الانف (٦٥/١) ، ابن هشام (٨٧/١) .
٥ ابن هشام (٩٠/١) .

ويظهر من ورود اسم هذا الصنم في القرآن الكريم ، ومن انتشار التسمية به في مثل (عبد مناة) و (عبدة مناة) و (زيد مناة) و (عوذ مناة) و (سعد مناة) و (أوس مناة) بين عدد من القبائل المختلفة ، مثل تميم وطيء وكنانة ، ان عبادة (مناة) كانت منتشرة انتشاراً واسعاً بين القبائل[1] . ولهذه الكلمات المتقدمة على كلمة (مناة) شأن كبير في وصف الصورة التي كانت في مخيلة عبدة مناة عنه ، إذ تمثله إلهاً كريماً يسعد عباده ويساعدهم في المكاره والملمات ويعطيهم ما يحتاجون اليه .

والصنم مناة هو (منوتن) (منوت) Manavat عند النبط ، ويظن ان لاسمه صلة بـ (مناتا) Menata في لهجة بني إرم ، و (منا) Mana في العبرانية ، وجميعها (مانوت) (منوت) Manot ، وباسم الإلـه (منى) Meni ، وبكلمة (منية) ، وجمعها (منايا) في عربية القرآن الكريم . وهي لذلك تمثل الحظوظ والأماني ، وخاصة الموت[2] . ولهذا ذهب بعض الباحثين الى ان هذه الإلهة هي إلهة المنية والمنايا عند الجاهليين[3] .

وقد ذكر (منى) Meni مع (جد) Gad في العهد القديم . والظاهر ان كلمة (جد) كانت مصدراً ، ثم صارت اسم علم لصنم . وذكر (منى) مع (جد) له شأن كبير من حيث معرفة الصنمين . فالأول هو لمعرفة المستقبل وما يكتبه القدر للانسان من منايا ومخبآت لا تكون في مصلحة الانسان . والثاني ، وهو (جد)، لمعرفة المستقبل الطيب والحظ السعيد (fortune) (tyche) في اليونانية، فهما يمثلان إذن جهتين متضادتين[4] .

هبل :

يقول ابن الكلبي : « وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها هبل . وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة إنسان ، مكسور اليد

---

١ تاج العروس (١٠/٣٥١) . Reste, S. 29.

٢ Reste, S. 28, Ency. Religi., I, pp. 231, 661.

٣ Das Gotzenbuch, S. 87.

٤ Hastings, pp. 275, 604.

اليمنى . أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب . وكان أول من نصبه خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر . وكان يقال له هبل خزيمة .

وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح ، مكتوب في أولها : صريح والآخر ملصق . فإذا شكوا في مولود أهدوا اليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فإن خرج صريح ألحقوه ، وإن خرج ملصق دفعوه . وقدح على الميت،وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر لي على ما كانت . فإذا اختصموا في أمر ، أو أرادوا سفراً او عملاً ، أتوه فاستسقوا بالأزلام عنده . فما خرج ، عملوا به وانتهوا اليه . وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبدالله[1] .

وتذكر رواية أخرى أن خزيمة بن مدركة كان أول من نزل مكة من مضر، فوضع هبل في موضعه ، فكان يقــال له صنم خزيمة ، وهبل خزيمة . وورث أولاده سدانته من بعده[2] . وقد ذهب (ابن الكلبي) هذا المذهب أيضاً ، إذ قال : « وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة »[3] .

ولا خلاف بين أهل الأخبار في أن (هبل)، كان على هيأة انسان رجل[4] .

وهناك روايات تنسب هبل الى عمرو بن لحي ، تقول إنه جاء به الى مكة من العراق من موضع هيت ، فنصبه عــلى البئر وهي الأخسف والجب الذي حفره إبراهيم في بطن الكعبة ، ليكون خزانة للبيت ، يلقى فيه ما يهدى الى الكعبة ، وأنه هو الذي أمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به عــلى أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده ، وكان على هذه الروايات من خرز العقيق على صورة إنسان ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، فأدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب . وكانت له خزانة للقربان وكان قربانه مائة بعير . وله حاجب يقوم بخدمته[5] .

---

١ الاصنام (٢٧ وما بعدها) (تحقيق احمد زكي باشا) ، سبائك الذهب (١٠٤) الازرقي (٦٨/١ وما بعدها) ، ابن هشام (٦٤/١) ، الطبري (٢٠٢/٢) ، (الاستقامة) ، (٢٤٠/٢) « المعارف » ، خــزانة لادب (٢٤٤/٣) ، سبائك الذهب (١٠١) ، ابن الاثير ، الكامل (١٨/٢) ، مروج الذهب (٢٣٨/١) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، البداية والنهاية (١٨٧/٢) .

٢ طبقات ابن سعد (٣٩/١) .

٣ الاصنام (روزا) ، نهاية الارب (١٢/١٦) .

٤ الطبرسي ، مجمع البيان (٦٨/٢٩ وما بعدها) (بيوت ١٩٥٤ م) .

٥ اخبار مكة ، للازرقي (٢٧/١ ، ٦٨ وما بعدها) ، الروض الانف (٦٥/١) .

وجاء في رواية ان عمرو بن لحي خرج من مكة الى الشأم في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد عملاق ، ويقال عمليق ، وجدهم يتعبدون للأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه الأصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا . فقال لهم : أفلا تعطوني منها صنماً ، فأسير به الى أرض العرب ، فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هبل ، وأخذه ، فتقدم به الى مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته[1] .

ولسنا نجد في كتب أهل اللغة أو الأخبار تفسيراً مقبولاً لمعنى (هبل) . وقد ذهب بعضهم الى انه من (الهبلة) ، ومعناها القبلة . وذكر بعض آخر انه من (الهبيلي) ، بمعنى الراهب ، وذكر ان (بني هبل) كانت تتعبد له[2] . وذكر انه من (هُبل) بوزن (زُفَر)، ومعناها كثرة اللحم والشحم، أو من (هبل) بمعنى غنم ، وما شاكل ذلك من آراء[3] . ويكمن سبب اضطراب العلماء في تسميته في انه من الأصنام المستوردة من الخارج التي حافظت على تسميتها الأصلية، فوقع لديهم من ثم هذا الاضطراب .

وكانت تلبية من نسك هبل : « لبيك اللهم لبيك . اننا لقاح ، حرمتنا على أسنة الرماح ، يحسدنا الناس على النجاح »[4] .

ويذكر أهل الأخبار ان (هبل) كان أعظم أصنام قريش ، وكانت تلوذ به وتتوسل اليه ، ليمنّ عليها بالخير والبركة ، وليدفع عنها الأذى وكل شر . وكانت لقريش أصنام أخرى في جوف الكعبة وحولها ؛ ولكن هبل هو المقدم والمعظم عندها على الجميع . وقد نصب على الجب الذي يقال له (الأخسف) ، وهو بئر ، وكانت العرب تسميها (الأخشف)[5] .

وذهب بعض المستشرقين الى ان (هبل) ، هو رمز الى الإلـه القمر ، وهو

---

١ سيرة ابن هشام (١/٦٢) ، (وقد طبعت في هامش كتاب الروض الانف للسهيلي) ، ديوان حسان (تحقيق هرشفلد) ، سيرة ابن هشام (١/٨٢) ، البداية والنهاية (١/١٨٧ وما بعدها) ، اليعقوبي (١/٢١١) ، مروج (٢/٢٣٨).

٢ اللسان (١١/٦٨٦) ، تاج العروس (٨/١٦٨) ، (هبل) .

٣ البلدان (٨/٤١٦) .

٤ المحبر (ص ٣١٥) .

٥ أخبار مكة (١/٦٦ وما بعدها) .

إلـه الكعبة ، وهو الله عند الجاهليين[1] . وكـان من شدة تعظيم قريش له انهم وضعوه في جوف الكعبة . وانه كان الصنم الأكبر في البيت .

ويرى بعض الباحثين ان صورة الحية أو تمثالها يشيران الى هبل ، أو إلى هبل وود . وقد عثر على صورة لحيّـة في (رم) ، يظهر انها رمز الى (هبل) أو ود[2] .

وذكر (ياقوت الحموي) أن هبل (صنم) لبني كنانة : بكر ومالك وملكان، وكانت كنانة تعبد ما تعبد قريش ، وهو اللات والعزى . وكانت العرب تعظم هذا المجمع عليه . فتجتمع عليه كل عام مرة[3] . وقال غيره : « وكان هبـل لبني بكر ومـالك وملكان وسائر بني كنانة . وكانت قريش تعبد صاحب بني كنانة ، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش »[4] .

وقد ورد اسم هبل في الكتابات النبطية التي عثر عليها في الحجر ، ورد مع اسم الصنمين : دوشرا (ذي الشرى) ، و (منوتو) (مناة)[5] . وقد تسمى به أشخاص وبطون من قبيلة كلب ، مما يدل على أن هذه القبيلة كانت تتعبـد له ، وأنه كان من معبودات العرب الشماليين[6] . وباسم هذا الصنم سمي (هبل بن عبدالله بن كنانة الكلبي جدّ زهير بن جناب)[7] .

ولما أراد النبي الإنصراف عن أحد ، علا صوت أبي سفيان : أعل هُبَل، أعل هُبَل . فقال النبي لعمر : أجبه ، قال : ما أقول له ؟ قال : الله أعلى وأجل . فقال : لنا العُزى ولا عزى لـكم . فقال النبي لعمر قـل : الله مولانا ولا مولى لـكم[8] .

---

١ Reste, S. 73, 221, Grohmann, S. 87.

٢ Grohmann, S. 87, Jaussen — Savignac, Mission, I, 169.

٣ البلدان (٤٤٢/٧ وما بعدها) .

٤ المحبر (٣١٨) .

٥ Ency., II, 327, CIS, II, NR : 189, Jaussen et Savignac, Mission, I, p. 169, Reste, S. 75, 221, L. Krehl, Uber die Religion der Vorislamischen Araber, S. 90, Osiander, in ZDMG., VII, S. 493.

٦ Ency. Religl., I, p. 664.

٧ كتاب المعمرين (ص ٢٩) (هبل) .

٨ الاصنام (ص ٢٨) ، اللسـان (٦٨٦/١١) ، (٢١٢/١٤) ، تـاج العروس (١٦٢/٨) ، الاشتقاق (٣١٦/٢) .

أصنام قوم نوح :

وزعم ابن الكلبي أن خمسة أصنام من أصنام العرب ، من زمن نوح ، وهي: ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر[1] . وقد ذكرت في القرآن الكريم : « قال نوح : ربّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا : لا تذرون آلهتكم ، ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ولا يعوق ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً »[2] . ويظهر ان ورود اسمها على هذا النحو في القرآن ، هو الذي حمله على رجع هذه الأصنام الى أيام نوح .

وزعم (ابن الكلبي) ان الأصنام المذكورة كانت في الأصل قوماً صالحين ، ماتوا ، في شهر ، وذلك في أيام (قابيل) ، فجزع عليهم بنو قابيل ، وذوو أقاربهم ، وقام رجل من قومهم ، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فصار الناس يعظمونها ويسعون حولها ، ثم جاء من بعدهم من عبدها ، وعظم أمرها ، ولم يزل أمرها يشتد ، حتى أدرك (نوح) فدعاهم الى الله ، والى نبذ هذه الأصنام ، فكذبوه ، فكان الطوفان ، فأهبط ماء الطوفان هذه الأصنام من جبل (نوذ) الى الأرض ، وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض الى أرض حتى قذفها الى أرض جدة ، ثم نضب الماء وبقيت على الشط ، فسفت الريح عليها حتى وارتها . وبقيت مطمورة هناك أمداً ، حتى جاء (رئي) (عمرو ابن لحي)وكان يكنى أبا ثمامة ، فقال له : عجّل بالمسير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة . قال عمر : جير ولا إقامة . فقال الرئي ايت ضف جدة تجد فيها أصناماً معدة ، فأوردها ولا تهاب ، ثم ادع العرب الى عبادتها تجاب . فأتى شط جدة فاستثارها ، ثم حملها حتى ورد تهامة . وحضر الحج ، فدعا العرب الى عبادتها قاطبة . فأجابه سادات القبائل ، ووزع تلك الأصنام عليهم ، وأشاعوا عبادتها بين الناس[3] ، ومن ثم عبد العرب هذه الأصنام .

وذكر أيضاً ان الأصنام المذكورة هي أصنام نحتها الشيطان على صورة خمسة بنين من أبناء (آدم) ، ماتوا فجزع الناس عليهم ، لأنهم كانوا عبّاداً صالحين .

---

١ الاصنام (٨) (روزا) .
٢ سورة نوح ، الآية ٢١ وما بعدها .
٣ الاصنام (٣٣ وما بعدها) (روزا) .

فسوّل لهم الشيطان ان يصنع لهم تماثيل على هيأتهم وصورهم ، لتذكرهم بهم فسرّوا برأيه ، وصنعها لهم ، فما لبث الناس ان عبدوها ، حتى تركوا عبادة الله ، وكان (ود) أكبرهم وأبرهم ، فصار أول معبود عبد من دون الله[1] .

رد :

وكان الصنم ود من نصيب (عوف بن عُذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحلف بن قضاعة)، أعطاه اياه (عمرو بن لحي) فحمله الى وادي القرى ، فأقره بدومة الجندل . وسمّى ابنه عبد ود ، فهو أول من سمي به ، وهو أول من سمّى عبد ود ، ثم سمّت العرب به بعد[2] . وقد تعبّد له بنو كلب[3] .

ومنهم من يهمز فيقول أدّ . ومنه سمي (عبد ودّ) و (أد بن طابخة)، و (أدد) جد معد بن عدنان[4] .

وجعل عوف ابنه عامراً الذي يقال له عامر الأجدار سادناً له ، فلم يزل بنوه يسندونه حتى جاء الله بالإسلام .

وقد استنتج (ياقوت الحموي) من هذه الرواية التي يرويها (ابن الكلبي) أن الصنم اللات أقدم عهداً من ودّ ؟ لأن وداً على هذه الرواية قد سلم الى عوف وعوف هو حفيد زيد اللات الذي سمي بـ (زيد اللات)،نسبة الى الصنم اللات، فودّ على هذا أحدث عهداً من اللات[5] .

وفي رواية لمحمد بن حبيب أن ودّاً كان لبني وبرة ، وكانت سدنته من بني الفرافصة بن الأحوص من كلب[6] . ويشك (ولهوزن) Wellhausen في

١ روح المعاني (٢٩/٧٧ وما بعدها) .
٢ الاصنام (٣٤) (روزا) اللسان (٤/٤٦٨) (بولاق) روح المعاني (٢٩/٧٧ وما بعدها) .
٣ اللسان (٤/٤٦٨) تفسير ابي السعود (٥/١٩٨) ، تفسير الخازن (٤/٣١٤) ، تفسير ابن كثير (٤/٤٢٦ وما بعدها) ، الروض الانف (١/٦٣) ، ابن هشام (١/٦٣) ، (هامش على الروض) .
٤ اللسان (٤/٤٥٥) ، (ودد) .
٥ البلدان (٨/٤١٠) (نهاية مادة ود) .
٦ المحبر (٣١٦) ، البلدان (٨/٤٠٧) (ود) .

صحة هذه الرواية ، فقد كان الفرافصة بن الأحوص على رأيه نصرانياً ، وهو والد نائلة زوج الخليفة عثمان. ثم ان (الفرافصة) لم يكن من بني عمرو بن ودّ ، ولا من بني عوف بن عذرة ، فلا يعقل أن تكون السدانة اليه وفي نسله [1] .

وود على وصف (ابن الكلبي) له في كتابه الأصنام « تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل »[2] . وقد أخذ ابن الكلبي وصفه هذا لود من أبيه عن مالك بن حارثة الأجداري .

ومالك بن حارثة الأجداري ، هو من بني عامر الأجدار ، وهم سدنة ود . وزعم ابن الكلبي ان أباه محمد بن السائب الكلبي حدثه عن مالك بن حارثه أنه قال له : إنه رأى وداً ، وأن اباه كان يبعثه ، وهو صغير ، باللبن اليه ، فيقول : اسقه إلهك ، فيشربه مالك ، فيعود وقد شرب اللبن . أما أبوه فيظن انه قد أعطى وداً إياه[3] .

وذكر (جارية بن أصرم الأجداري) ، من بني عامر بن عوف ، المعروف بعامر الأجدار ، انه رأى وداً بدومة الجندل في صورة رجل[4] . وورد أن من عبدة (ودّ) بعض تميم ، وطيء ، والخزرج ، وهذيل ، ولخم[5] .

ويظهر انه (أدد) عند ثمود . وأدد من الأسماء المعروفة . وقبيلة (مرة) ، نسبة الى (مرة بن أدد) . وقد عرف بـ (كهلن) ، أي (الكاهل) . (هكهل) (ها – كهل) . ويظن أن الإلـه (قوس) (قيسو) (قوسو) ، هو (ود) ، أي اسم نعت له . وذهب بعض الباحثين الى أن (نسراً) و (ذا غابة) (ذ غبت) يرمزان اليه[6] .

---

١ Reste, S. 17, Ency. Religi., I, p. 662.

٢ الاصنام (٥٦) ، (٣٥) (روزا) سبائك الذهب (١٠٤) ، البلدان (٨/٩٠٤) (ود) .

٣ الاصنام (٥٥) .

٤ الاصابة (٢١٩/١) ، (رقم ١٠٤٤) .

٥ Reste, 14 - 18, Ryckmans 16, Grohmann, S. 87.

٦ Jaussen — Savignac, Mission, II, 395, 581, Grohmann, S. 87.

وقد بقي ود قائماً في موضعه الى ان بعث رسول الله خالدَ بن الوليد من غزوة تبوك لهدمه . فلما أراد خالد هدمه ، اعترضه بنو عبد ود وبنو عامر الأجدار ، وأرادوا الحيلولة بينه وبين هدمه ، فقاتلهم وأوجعهم ، وقتل منهم ، فهدمه وكسره . وذكر ابن الكلبي انه كان فيمن قتل رجل من بني عبد ود يقال له قطن بن شريح ، ورجل آخر هو حسان بن مصاد ابن عم الأكيدر صاحب دومة الجندل[1] .

ويرى بعض المستشرقين استناداً الى معنى كلمة (ود) بأن هذا الصنم يرمز الى الود ، اي الحب ، وانه صنو للإلهين (جيل) Gil و (بحد) Pahad عند الساميين . ويستندون في رأيهم هذا إلى بيت للنابغة مطلعه : (حيّاك ود)[2] ، غير ان من العسير علينا تكوين رأي صحيح عن هذا الصنم. ولا أستبعد أن تكون كلمة (ود) صفة من صفات الله لا اسم علم له .

وهناك من يرى وجود صلة بين (ود) و (ايروس) Eros الصنم اليوناني، ويرى انه صنم يوناني في الأصل استورد من هناك ، وعبدته العرب . وهو رأي يعارضه (نولدكه) ، لانتفاء التشابه في الهيأة بين الصنمين[3] .

و (ود) هو الإلـه الأكبر لأهل معين . وسوف أتحدث عنه فيما بعد .

سواع :

أما سواع ، فكان موضعه برهاط ، من أرض ينبع . وذكر انه كان صنماً على صورة امرأة ، وهو صنم هذيل . وينسب ابن الكلبي انتشار عبادته ـ كعادته ـ الى عمرو بن لحي ، فذكر ان مضر بن نزار أجابت عمرو بن لحي، فدفع الى رجل من هذيل (يقال له الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر) سواعاً،فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة ، يعبده من يليه من مضر[4] . وذكر (ابن حبيب) انه كان بـ (نعمان) ، وأن

---

١ الاصنام (٥٥) .
٢ Reste, S. 17, Ency. Religi., VIII, p. 180.
٣ Ency. Religi., I, p. 662.
٤ الاصنام (٥٧) ، البكري (٦٩٧/٢) (رهاط) ، اللسان (٣٤/١٠) (بولاق) .

عبدته : بنو كنانة ، وهذيل ، ومزينة ، وعمرو بن قيس بن عيـلان . وكان سدنته بنو صاهلة من هذيل . وفي رواية أن عبدة سواع هم آل ذي الكلاع[1] . وذكر (اليعقوبي) أنه كان لكنانة[2] .

وفي رواية أخرى يرجع سندها الى (ابن الكلبي) كذلك ، تزعم أن سواعاً صنم كان برهـاط من أرض ينبع ، وينبع عرض من أعراض المدينة . وكانت سدنته بنو لحيان . ثم تقول إنه لم يسمع بورود اسم هذا الصنم في شعر هذيل ، إنما بورود اسمه في شعر رجل من اليمن[3] .

وورد في رواية أخرى ان (سواعاً) صنم من أصنام همدان[4] .

ويرى (نولدكه) أن سواعاً لم يكن من الأصنام الكبرى عند ظهور الإسلام، وهو في نظره من الأصنام التي لم ترد أسماؤها في الأعلام المركبة ، ويـدل عدم ورود اسمه في هذا الأعلام على خمول عبادته بين الجاهليين[5] .

وفي السنة الثامنة من الهجرة هدم سواع ، وكان الذي هدمه عمرو بن العاص، فلما انتهى الى الصنم ، قال له السادن : ما تريد : قال : هدم سواع ، قال : لا تطيق تهدمه ، قال له عمرو بن العاص : أنت على الباطل بعد . فهدمه عمرو، ولم يجد في خزانته شيئاً ، ثم قال للسادن : كيف رأيت ، قال : أسلمت والله[6].

و (سواع) من الأصنام التي ورد اسمها في القـرآن الكريم : « وقالوا : لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعـاً ولا يغوث ويعوق ونسراً »[7] . وقد ذكر بعض العلماء ، انه صنم عبد في زمن نوح ، فدفنه الطوفان، فأشار (ابليس)

---

١ المحبر (٣١٦) ، البكري (٢/ ٦٧٩) .
٢ اليعقوبي (١/ ٢٢٥) .
٣ الاصنام (٦) (روزا) ، البلدان (٣/ ٣٤١) ، (رهاط) ، تاج العروس (٥/ ٢٩٠) اللسان (١٠/ ٢٤) ، القاموس (٣/ ٤٢) (سوع) .
٤ الاصنام (٥٧) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٥/ ٣٦٤) ، الكشاف (٤/ ١٤٣) ، تفسير البيضاوي (١/ ٢٣٩) ، روح المعاني (٢٩/ ٧٧ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٦ وما بعدها) تفسير ابي السعود (٥/ ١٩٨) .
٥ Ency. Relig. I, p. 663.
٦ الطبري (٣/ ٦٦) (دار المعارف) ، (حوادث السنة الثامنة) ، امتاع الاسماع (١/ ٣٩٨) .
٧ نوح ، ٧١ ، (الآية ٢٢ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٢٩/ ٦٢) ، روح المعـاني (٢٩/ ٧٧) .

على الجاهليين بالتعبد له ، فعبدته همدان ، ثم صار لهذيل ، وكان برهاط وحجّ اليه . وقال (ابن الكلبي) انه لم يسمع بذكره في أشعار هذيل . وقد قال رجل من العرب :

تراهم حول قيلهم عكوفاً كما عكفت هذيل على سواع
يظل جنابه برهاط صرعى عتائر من ذخائر كل راع[1]

وذكر بعض أهل الأخبار ان سواعاً وبقية الأصنام التي ذكرت معه في سورة نوح ، « كانوا قوماً صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم . فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ اليهم ابليس ، فقال : انما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم »[2] .

ورهاط من بلاد بني هذيل ، ويقال وادي رهاط ببلاد هذيل ، ذكر انه على ثلاثة أميال أو ثلاث ليال من مكة[3] .

ونسب بعض أهل الأخبار هدم الصنم (سواع) الى (غاوي بن ظالم السلمي) (غاوي بن عبد العزى) . ذكروا أن هذا الصنم كان (لبني سليم بن منصور) ، فبينما هو عند الصنم ، اذ أقبل ثعلبان يشتدان حتى تسنّماه ، فبالا عليه فقال :

أربّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم قال : يا معشر سليم ؟ لا والله هذا الصنم لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ! فكسره ولحق بالنبيّ عام الفتح . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، ما اسمك ؟ فقال : غاوي بن عبد العزى . فقال : بل أنت راشد بن عبد ربه . وعقد له على قومه . وقيل إن هذه الحادثة إنما وقعت لعبّاس بن مرادس السلمي، وقيل لأبي ذر الغفاري[4] .

---

١ تاج العروس (٥/٣٩٠) ، (ساع) .
٢ تفسير الطبري (٢٩/٦٢) .
٣ تاج العروس (٥/١٤٥) ، (رهط) ، نوادر المخطوطات ، اسماء جبال تهامة وسكانها (٤٠٩) .
٤ اللسان (١/٢٣٧) ، (ثعلب) ، (صادر) ، (كان الصنم الذي يقال له سواع بالمعلاة ، فذكر قصة اسلامه وكسره اياه) ، الاصابة (١/٤٨٢ وما بعدها) ، (رقم ٢٥١٧) .

يغوث :

وأمــا يغوث ، فكان أيضاً على رواية ابن الكلبي ، في جملة الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على من استجاب الى دعوته من القبائل ، دفعه الى أنعم بن عمرو المرادي ، فوضعه بأكمة مَذْحج باليمن ، فعبدته مذحج ومن والاها وأهل جرش[1] . وقد بقي في أنعم الى ان قاتلتهم عليه بنو غطيف من مراد ، فهربوا به الى نجران ، فأقروه عند بني النار من الضباب ، من بني الحارث بن كعب. واجتمعوا عليه جميعاً[2] . وفي رواية أن عبدة يغوث هم بنو غطيف من مراد[3] .

وفي رواية أن يغوث بقي في أنعم وأعلى من مراد ، الى أن اجتمع أشراف مراد وتشاوروا بينهم في أمر الصنم ، فقر رأيهم أن يكون فيهم ، لما فيهم من العدد والشرف . فبلغ ذلك من أمرهم الى أعلى وأنعم ، فحملوا يغوث وهربوا به حتى وضعوه في بني الحارث بن كعب ، في وقت كان النزاع فيه قائماً بين مراد وبني الحارث بن كعب . فلما أبت بنو الحارث تسليم الصنم الى مراد،وتسوية أمر الديات ، أرسلت عليها مراد جيشاً فاستنجدت بنو الحارث بهمدان ، فنشبت بينها معركة عرفت بيوم الرزم ، انهزمت فيها مراد ومنيت بخسارة كبيرة قبيحة، وبقي الصنم في بني الحارث . وقد وافق يوم الرزم يوم بدر[4] .

وذكر (الطبرسي) أن بطنين من طيء أخذا يغوث ، فذهبا به الى مراد ،

---

١ الاصنام (١٠ ، ٥٧) ، اللسان (٢/٤٨٠) (غوث) تاج العروس (١/٣٣٧) (غوث) ، قال الشاعر :

وسار بنـا يغوث الى مـراد فناجزناهم قبل الصباح

البلدان (٨/٥١١) (يغوث) الروض الانف (١/٦٣) سبائك الذهب (١٠٤) ، بلوغ الارب (٢/٢٠١) القاموس (١/١٧١) ، روح المعاني (٢٩/٧٧ ومـا بعدها) ، تفسير البيضاوي (١/٢٣٩) .

٢ المحبر (٣١٧) .

٣ الطبرسي (٥/٣٦٤) ، الكشاف (٤/١٤٣) ، تفسير أبي السعود (٥/١٩٨) ، تفسير الخازن (٣١٤) ، تفسير ابن كثير (٤/٤٢٦) .

٤ البلدان (٨/٥١١) ، (يغوث) .

Reste, S. 20, Ency. Religl., I, p. 663, A. Fischer, In ZDMG., 58, 869, Nöldeke, In ZDMG., 40, 161, 168, Das Götzenbuch, S. 28.

فعبدوه زماناً ، ثم أن بني ناجية أرادوا أن ينزعوه منهم ، ففروا به الى بني الحارث بن كعب[1] .

ويظهر من غربلة هذه الروايات أن الصنم يغوث كان في جرش أو على مرتفع قريب من هذه المدينة . أما سدنته ، فكانوا من بني أنعم بن أعلى من طيء ، وكانوا في جرش . وفي حوالي سنة ٦٢٣ ، أي السنة التي وقعت فيها معركة بدر ، حدث نزاع على الصنم : أراد بنو مراد ان يكون الصنم فيهم وسدنته لهم ، وأراد بنو أنعم الاحتفاظ بحقهم فيه . فهرب بنو أنعم بصنمهم الى بني الحارث ، واحتفظوا به بعد أن وقعت الهزيمة في مراد[2] .

وفي الحرب التي وقعت بين (بني أنعم) و (غطيف) حمل عبدة (يغوث) صنمهم معهم وحاربوا ، مستمدين منه العون والمدد . وفي ذلك يقول الشاعر :

وسار بنا يغوث إلى مراد فناجوناهم قبل الصباح[3]

ويظهر ان (بني أنعم) ، وسائر عبدة هذا الصنم ، كانوا يحملون صنمهم معهم في غالب الأحوال عند قتالهم القبائل الأخرى[4] .

ولا يستبعد ان تكون لاسم هذا الصنم علاقة بفكرة المتعبدين له عنه ، بمعنى ان المتعبدين له كانوا يرون انه يغيثهم ويساعدهم . وقد ظن بعض الباحثين انه يمثل الإلـه الأسد . وانه كان (طوطم) قبيلة مذحج ، يدافع عنها ويذب عن القبيلة التي تستغيث به ، على نحو ما فعله الاسرائيليون من استغاثتهم بـ (حية النحاس) المسماة (نحشتان) Nehushtan [5] ، التي كانت (طوطماً) في الأصل على رأي (سمث)[6] .

ونجد بين أسماء الجاهليين عدداً من الرجال سمّوا بـ (عبد يغوث) ، منهم

---

١ الطبرسي (٣٦٤/٥) .

٢ Reste, S. 21, A. Fischer, Der Gotze Jaguth, in ZDMG., BD., 58, S. 869, Leipzig, 1904.

٣ البلدان (٥١١/٨) .

٤ Reste, S. 20, Das Botzenbuch, S. 83.

٥ الملوك الثاني ، الاصحاح الثامن عشر الآية ٤ .

٦ Das Gotzenbuch, S. 82, Smith, The Religion of the Seites, London, 1927, p. 227, Journal of philo., IX, 99.

من كان في مذحج ، ومنهم من كان في قريش ، ومنهم من كان في هوازن . وقد كان قائد بني الحارث بن كعب على تميم في معركة (الكلاب) عبد يغوث ، كما كان لدريد بن الصمة أخ اسمه (عبد يغوث) . ومن مذحج : (عبد يغوث) ابن وقاص بن صلاءة الحارثي ، الذي قتلته (التيم) يوم الكلاب الثاني[1] . ومن بني زهرة : عبد يغوث بن وهب ، وعبيد يغوث ، وامها صفية بنت هشام بن عبد مناف[2] . ويدل ذلك على ان عبادته كانت معروفة بين مذحج وأهل جرش وقريش وهوازن ، وقبائل أخرى مثل تغلب[3] .

ولم يرد اسم هذا الصنم في الكتابات[4] . وقد ذهب (روبرتسن سمث) الى انه (يعوش) Ye'ush المذكور في سفر التكوين ، وهو أحد أجداد أدوم[5] . ويمثله الأسد في نظر (روبرتسن سمث)[6] .

يعوق :

ويعوق أيضاً في جملة هذه الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على القبائل . لقد سلمه عمرو الى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيوان بن نوف ابن همدان فوضعه في موضع خيوان ، حيث عبدته همدان وخولان ومن والاها من قبائل . وكان في أرحب[7] .

وذكر (ياقوت الحموي) ان ابن الكلبي قال : « واتخذت خيوان يعوق ، وكان بقرية لهم يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة ، ولم أسمع لها

---

١ المحبر (٢٥١) ، (عبد يغوث بن الحارث بن وقاص ، قتل يوم الكلاب وكان على مذحج يومئذ) ، الاشتقاق (٢٣٩) .
٢ الاشتقاق (٩٥) .
٣ Ency. Religl., I, p. 663.
٤ Ency. Religl., I, p. 663.
٥ التكوين ، الاصحاح ٣٦ ، الآية ٥ ، ١٤ ، ١٨ ، وأخبار اليوم الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ٢٥ .
٦ Robertson, p. 226.
٧ الاصنام (٥٧) القاموس (٣/ ٢٧٠) ، الطبرسي (٥/ ٣٦٤) ، سبائك الذهب (١٠٤) الاكليل (١٠/ ٥٦) ، الكشاف (٤/ ١٣٤) ، الاشتقاق (٢٥٣) ، البلدان (٥/ ٤٣٨) ، روح المعاني (٢٩/ ٢٧ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٦ وما بعدها) ، تفسير الخازن (٤/ ٣١٤) تفسير ابي السعود (٥/ ١٩٨) .

ولا لغيرها شعراً فيه . وأظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء واختلطوا بحمير، فدانوا معهم باليهودية أيام تهود ذي نواس ، فتهودوا معه »[1]. ونسب (الطبرسي) عبادة يعوق إلى كهلان ، وذكر انهم توارثوه كابراً عن كابر،حتى صار الى همدان[2]. وذكر في رواية أخرى ان يعوق اسم صنم كان لكنانة[3] .

وذكر بعض أهل الأخبار : (يعوق) صنم كان لكنانة ، « وقيل كان لقوم نوح عليه السلام ، كما في الصحاح . او كان رجلاً من صالحي أهل زمانه . فلما مات جزعوا عليه فأتاهم الشيطان في صورة إنسان . فقال : أمثله لكم في محرابكم حتى تروه كلما صليتم ، ففعلوا ذلك به وبسبعة من بعده من صالحيهم ، ثم تمادى بهم الأمر الى أن اتخذوا تلك الأمثلة أصناماً يعبدونها »[4] .

ونشير ملاحظة (ابن الكلبي) من أنه لم يسمع بأن همدان أو غير همدان سمت (عبد يعوق)[5] الى أن يعوق لم يكن من الأصنام المهمة بين العرب عند ظهور الإسلام ، وان عبادته كانت قد تضاءلت ، وانحصرت في قبائل معينة .

وهناك بيت ينسب الى مالك بن نبط الهمداني الملقب بذي المعشار ، وهو من بني خارف أو من يام بن أصى ، هذا نصه :

يريش الله في الدنيا ويبري   ولا يبرى يعوق ولا يريش[6]

نسر :

وأما نسر فكان من نصيب حمير، أعطاه عمرو بن لحي قيل ذي رعين المسمى (معديكرب) فوضعه في موضع بلخع من أرض سبأ ، فتعبدت له حمير الى أيام

١ البلدان (٥١٠/٨) (يعوق) ، Reste, S. 22, Ency. Religl., I, p. 663.
٢ الطبرسي (٣٦٥/٥) .
٣ اللسان (٢٨١/١٠) (صادر) تاج العروس (٢٩/٧) ، اللسان (١٥٤/١٢) (بولاق) .
٤ تاج العروس (٢٩/٧) ، (عوق) .
٥ الاصنام (٧) ، (روزا) ، البلدان (١٠٢/٤) .
٦ الروض الانف (٦٣/١) ، ابن هشام (٦٣/١) ، (هامش الروض) .

ذي نواس ، فتهودت معه ، وتركت هذا الصنم[1] . وكان عباد نسر آل ذي الكلاح من حمير على رواية من الروايات[2] . وذكر (محمد بن حبيب) ، أن حمير تنسكت لنسر ، وعظمته ودانت له ، وكان في غمدان قصر ملك اليمن[3] . وذكر اليعقوبي أنه كان لحمير وهمدان منصوباً بصنعاء[4] .

ونسر هو (نشر) Nesher في العبرانية[5] . وهو صنم من أصنام اللحيانيين كذلك ، ويجب ان يكون من أصنام العرب الشماليين لورود اسمه في الموارد العبرانية والسريانية على انه اسم إلّه عربي[6] .

وأشير في التلمود الى صنم ذكر ان العرب كانوا يعبدونه اسمه (نشرا) Neshra و (نشرا) هو (نسر) . وقد ورد اسم الصنم (نسر) عند السبئيين كذلك ، وكان من الآلهة المعبودة عند كثير من الساميين ، وقد عبد خاصة في جزيرة العرب[7] .

ولم يشر ابن الكلبي الى صورة الصنم نسر ، ولكننا نستطيع ان نقول استناداً إلى هذه التسمية انه كان على هيأة الطائر المسمى باسمه ، وقد وجدت أصنام على صورة نسر منحوتة على الصخور خاصة في أعالي الحجاز[8] . ويؤيد هذا الرأي رواية ذكرها الطبرسي في أشكال الأصنام ، أسندها إلى الواقدي ، قال فيها : « كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر من الطير »[9] .

---

١ الاصنام (٥٧ وما بعدها) ، البلدان (٨/٢٨٦) (نسر) ابن هشام (١/٦٣) ، (هامش الروض) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، الكشاف (٤/١٤٣) بلوغ الارب (٢/٢٠١) ، القاموس (٢/١٤١) .

٢ الطبرسي (٥/٣٦٤) ، تاج العروس (٣/٥٦٣) ، اللسان (٧/٦٠ وما بعدها)، (نسر) .

٣ المحبر (٣١٧) .

٤ اليعقوبي (١/٢٢٥) .

٥ Hastings, p. 200.

٦ Handbuch, I, S. 44.

٧ Ency. Religi., I, p. 663.

٨ XXIX, S. 600. Robertson, p. 226, Noldeke, in ZDMG., 1886, S. 186.

٩ الطبرسي (٥/٣٦٤) .

عميأنس :

وعميأنس (عم أنس) ، هـو صنم خولان ، وموضعه في أرض خولان . وكان يقـدم له في كل عام نصيبه المقرر من الأنعام والحروث[1] . وذكر ابن الكلبي ان الذين تعبدوا له من خولان هم بطن منهم يقال لهم (الادوم) وهم الأسوم . وفيهم نزلت الآية : « وجعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا: هذا لله ، بزعمهم،وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون »[2] . وكانوا « يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله بزعمهم . فما دخل في حق الله من حق عميأنس ، ردوه عليه ، وما دخـل في حق الصنم من حق الله الذي سموه له ، تركوه له »[3] .

وقد ورد ذكر هذا الصنم في خبر (وفد خولان) الذي قدم على رسول الله في شعبان سنة عشر ، إذ ذكر أن رسول الله قال لهم : « ما فعل عم أنس » ، فقالوا : بشرّ وعرّ ، أبدلنا الله به ، ولو قد رجعنا اليه هدمناه[4] . « وقـد بقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به »[5] .

وقـد كانوا يقدمون له القرابين حتى في أيام الضيق وأوقات المحنة ، تقرباً اليه . لقد قالوا للرسول حين سألهم : « ما أعظم ما رأيتم من فتنته » « لقـد رأيتنا وأسنتنا حتى أكلنا الرمة ، فجمعنا ما قدرنا عليه ، وابتعنا مئة ثور ، ونحرناها لعم أنس قرباناً في غداة واحدة ، وتركناها تردها السباع ، ونحن أحوج اليهـا من السباع ، فجاءنا الغيث من ساعتنا . لقد رأينا العشب يوارى الرجال ، ويقول قائلنا : أنعم علينا عم أنس »[6] . وذكروا له أنهم كانوا يقتسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم ، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له[7] .

---

١ سبائك الذهب (١٠١) ، خـزانة الادب (٣/٢٤٥) ، سـيرة محمد (١/٥٣) ، (طبعة فرانكفورت) ، ابن خلدون (٢/١٦٩) ، الاغاني (٣٠/١٢٤) .
٢ الانعام ، الآية ١٣٧ .
٣ الاصنام (٤٤) .
٤ نهاية الارب (١٨/٨٢) ، ابن سعد (١/٣٢٤) (صادر) .
٥ عيون الاثر (٢/٢٥٣) .
٦ عيون الاثر (٢/٢٥٣ وما بعدها) .
٧ المصدر نفسه .

اساف ونائلة :

وللأخباريين قصص في اساف ونائلة ، وهما في زعم بعضهم إنسانان عملا عملاً قبيحاً في الكعبة ، فسخا حجرين ، ووضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما . فلما طال مكثهما ، وعبدت الأصنام ، عبدا معها . وكان أحدهما بلصق الكعبة ، والآخر في موضع زمزم . فنقلت قريش الـذي كان بلصق الكعبة الى الآخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما [1] . وفي رواية أن اسافاً كان حيال الحجر الأسود . وأما نائلة ، فكان حيال الركن اليماني [2] . وفي أخرى أنهما « أخرجا الى الصفا والمروة فنصبا عليهما ليكونا عبرة وموعظة ، فلما كان عمرو بن لحي ، نقلهما الى الكعبة ونصبهما عـلى زمزم : فطاف الناس بالكعبة وبهما حتى عبدا من دون الله » [3] . وذكر (اليعقوبي) ، أن (عمرو بن لحي) وضع (هبل) عنـد الكعبة ، فكان أول صنم وضع بمكة . ثم وضعوا به اساف ونائلة كل واحد منهما على ركن من أركان البيت . فكان الطائف إذا طاف بدأ بأساف فقبله وختم بـه . ونصبوا على الصفا صنماً يقال له مجاور الريح وعلى المروة صنماً . يقال له مطعم الطير» [4]. فاليعقوبي ممن يرون إن اسافاً ونائلة كانا عند الكعبة ، لا على الصفا والمروة .

وتذكر رواية أخرى ان أساف صنم وضعه عمرو بن لحي الخزاعي على الصفا، ونائلة على المروة . وكانا لقريش . وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة . أو هما رجلان من جرهم ، أساف بن عمرو ونائلة بنت سهل فجرا في الكعبة ، وقيـل أحدثا فيها ، فسخا حجرين ، فعبدتهما قريش [5] . وورد ان موضع أساف ونائلة عنـد الحطيم [6] . وورد ان اسافاً رجـل من جرهم ، يقال له اساف بن يعلى ، ونائلة

---

١ الاصنام (١٨) (روزا) الروض الانف (١/ ٦٤) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، ابن هشام (١/ ٨٦) ، الطبري (٢/ ٢٨٤) ، المحبر (٣١١ ، ٣١٨) ، اليعقوبي (١/ ٢٢٤) ، الطبري (٢/ ٢٤١) ، (المعارف) .

٢ الطبرسي (٥/ ٣٦٤) ، روح المعاني (٢/ ٤١) .

٣ الروض الانف (١/ ٦٥) ، ابن هشام ، تاج العروس (٦/ ٤٠) ، اللسان (٩/ ٦)، (أسف) ، البلدان (١/ ١٧٠) .

٤ اليعقوبي (١/ ٢٢٤) .

٥ تاج العروس (٦/ ٤٠ وما بعدها) ، اللسان (١٠/ ٣٤٨) ، الروض الانـف (١/ ٦٤) ، بلوغ الارب (٢/ ٢٠٥) ، ابن هشام (١/ ٦٤) ، اللسان (٩/ ٦) ، (أسف) ، (صادر) .

٦ الازرقي ، أخبار مكة (١/ ٧٠) .

امرأة من جرهم يقال لها نائلة بنت زيد ، وكان اساف يتعشقها في أرض اليمن، فأقبلا حجاجاً ، فدخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت ، ففجر بها في الكعبة ، فسخا حجرين ، فأصبحوا فوجدوهما ممسوخين ، فوضعوهما موضعها . فعبدتهما خزاعة وقريش ، ومن حج البيت بعد من العرب[1] .

وذكر (محمد بن حبيب) ان اسافاً كان على الصفا . وأما نائلة، فكان على المروة . (وهما صنمان . وكانا من جرهم . ففجر اساف بنائلة في الكعبة، فمسخا حجرين ، فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما ، ثم عبدا بعد)[2] . وكان نسك قريش لأساف : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك »[3] .

وورد اسم اساف في بيت شعر ينسب إلى بشر بن أبي خازم الأسدي ، هو:

عليه الطير ما يدنون منه   مقامات العوارك من اساف[4]

وورد ان نائلة حين كسرها الرسول عام الفتح ، خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتنادي بالويل والثبور[5] .

ويظهر أن مردّ هذا القصص الذي يقصه علينا أهل الأخبار عن الصنمين، إنما هو الى شكل الصنمين . كان (اساف) تمثال رجل على ما يظهر من روايات الأخباريين ، وكان (نائلة) تمثال إمرأة . يظهر أنهما استوردا من بلاد الشأم، فنصبا في مكة ، فتولد من كونهما صنمين لرجل وامرأة ، هذا القصص المذكور ولعله من صنع القبائل الكارهة لقريش ، التي لم تكن ترى حرمة للصنمين .

وكانت قريش خاصة تعظم ذينك الصنمين وتتقرب اليهما ، وتذبح عندهما وتسعى بينهما . أما القبائل الأخرى ، فلم تكن تقدسهما ، لهذا لم تكن تتقرب اليهما ، ومن هنا لم يكن الطواف بهما من مناسك حج تلك القبائل .

---

١ الاصنام (٦) (روزا) ، (٩) ، (القاهرة ١٩١٤) .
٢ المحبر (٣١١) .
٣ المحبر (٣١١) ، صبح الاعشى (٤٦٢/٤) ، أخبار مكة ، للازرقي (٧٢) ، (طبعة لايبزك) ، (نائلة بنت وهب) ، (أساف بن عمر ، ونائلة بنت سهل) ، تفسير الطبري (٤٣/٢)، (١٩٥٤ م) .
٤ ديوان بشر بن أبي خازم ، ملحق الديوان رقم ١١ ، (صفحة ٢٣٣) .
٥ الروض الانف (٦٥/١) .

وكانت قريش تحلف عند هذين الصنمين . ولها يقول (أبو طالب) ، وهو يحلف بهما حين تحالفت قريش على بني هاشم :

أحضرت عند البيت رهطي ومعشري   وأمسكت من أثوابـه بالوصائل
وحيث ينيخ الأشعرون ركـابهم   بمغضي السيول من أساف ونائـل

فكانا على ذلك الى أن كسرهما الرسول يوم الفتح فيما كسر من الأصنام[1] .

ويظهر من الشعر المتقدم ، أن أسافاً ونائلة كانا في موضعين مكشوفين، وعندهما كان ينيخ الأشعرون . ويؤيد ذلك هـذا الشعر المنسوب الى بشر بن أبي خازم الأسدي :

عليه الطير مـا يدنون منه   مقامات العوارك من أساف[2]

حيث يظهر أن الطير كانت تقف مكتظة عليه ، لا تخاف من أحد ، ولا تفزع من قادم ، لأنها في حرمة صنم .

رضى :

ورضى ، ويكتب رضاء في بعض الأحيان ، هو صنم آخر . وذكر ابن الكلبي انه كان لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، فهدمه المستوغر ، وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . هدمه في الاسلام[3] . وتعبدت لهذا الصنم قبيلة تميم . وقد ورد اسم (عبد رضى) بين أسماء الجاهليين . ويظهر ان قبيلة طيء كانت قد تعبدت له كذلك[4] .

و (رضى) من الأصنام المعروفة عند قوم ثمود . وقد ورد اسمه في كتابات

---

١ تاج العروس (٦/ ٤٠) ، « اسف » .
٢ ابن الكلبي (٢٩ وما بعدها) ، ديوان بشر بن أبي خازم ، ملحق الديوان ، رقم ١١ ، (ص ٢٣٣) .
٣ الاصنام (٣٠) ، (١٩) ، (روزا) ، الروض الانف (١/ ٦٧) ، تـاج العروس (١٠/ ١٥١) ، (رضو) .
٤ الاغاني (٧/ ١٤٧) ، (٩/ ١٦ ، ٤٧) .

ثمودية عديدة[١] . وكانت عبادته منتشرة بين العرب الشماليين . وورد في نصوص تدمر وبين أسماء بني إرم[٢] ، كما ورد في كتابات الصفويين . وورد على هذا الشكل : (رضو) و (رضى)[٣] ، و (هرضو) (ها ـ رضو) . ويظن انه يرمز إلى كوكب .

ويظهر من بيت شعر ينسب إلى المستوغر في كسره رضى في الاسلام ، هو :

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها تلا تنازع أسحما[٤]

ان الصنم (رضى) (رضاء) ، هو أنثى ، بدليل استعمال ضمير التأنيث في لفظة (فتركتها) . فهو إلهة . ويرى بعض الباحثين ، انه إلهة أيضاً عند العرب الصفويين .

مناف :

و (مناف) : صنم من أصنام الجاهلية ، قال عنه ابن الكلبي : « وكان لهم مناف ، فيه كانت تسمى قريش (عبد مناف) . ولا أدري أين كان ، ولا من نصبه ؟ »[٥] . وسمي به أيضاً رجال من هذيل[٦] . و « به سمي عبد مناف . وكانت أمه أخدمته هذا الصنم »[٧] .

وفيه يقول بلعاء بن قيس :

وقرن وقد تركت الطير منه كمعتبر العوارك من مناف[٨]

---

١ Reste, S. 58, Ency. Religi., I, p. 662, Hubert Grimme.
Die Losung des Sinai., S. 43, 44.

٢ Vogue 6, 84, Reste, S. 59.

٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (١٣٥ وما بعدها) .

٤ الاصنام (١٩) ، (روزا) ، (٣٠) ، (أحمد زكي) ، الروض الانف (١/٦٧) ، (فتركتها قفرا بقاع أسحما) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، ابن هشام (١/٦٦) ، (حاشية على الروض) ، تاج العروس (١٠/١٥١) ، ابن كثير ، البداية (١/١٩٢) .

٥ الاصنام (٣٢) ، (٢٠) ، (روزا) ، تاج العروس (٦/٢٦٣) . (ناف) .

٦ Reste, S. 57.

٧ تاج العروس (٦/٢٦٣) ، (ناف) ، الاصنام (٣٢) ، البلدان (٨/١٦٦) ، النقائض (١٤١) ، بيفان) ، بلوغ الارب (٢/٢٠٦) .

٨ تاج العروس (٦/٢٦٣) . (ناف) .

ويتبين من ورود اسم (مناف) بين عرب الشأم أنه كان إلهاً معبوداً عندهم كذلك . وقد عثر على اسمه في كتابة دوّنها شخص اسمه : (أبو معن) على حجر توجه بها الى الإلهة مناف ، ليمن عليه بالسعد والبركة ، وحفرت على الحجر صورة الإلّه (مناف) على هيأة (رجل لا لحية له) يتحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعي المرموز به الى الإلهة الشمس ، وحول جفنيه وحدقتيه خطّان ناعمان ، ويزين جيده قلادة ، كما ترى غالباً في تصاوير الآلهة السوريين ، وعلى صدره طيات ردائه ، ويرى طرف طيلسانه الإلهي الذي ينعطف من كتفه الأيسر فيتصل الى الأيمن ويعقد به [1] . وقد ذهب المتخصصون الذين فحصوا هذه الكتابة الى أنها من حوران .

وقد عثر على كتابة وجدت في حوران ، ورد فيها اسم (منـــاف) مع إلّه آخر ، ورد اسم مناف فيها على هذا الشكل .(MN, PHA) وقد عثر على كتابة أخرى وجد فيها الاسم على هذه الصورة : (منافيوس) Manaphius ، مما يدل على أن المراد بالإسمين شيء واحد ، هو الإلّه مناف[2] .

ذو الخلصة :

أما ذو الخلصة ، فكان صنم خثعم وبجيلة ودوس وأزدالسراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن ، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة [3] ، والحارث بن كعب وجرم وزبيد والغوث بن مر بن أد وبنو هلال بن عامر،وكانوا سدنته[4] . وذكر ابن الكلبي ان سدنته بنو أمامة من باهلة بن أعصر[5] .

---

١ المشرق ، السنة الرابعة والعشرون ، العدد ٣ ، اذار ١٩٣٣ م ، (ص ١٩٨ ومـــا بعدها) .

٢ المشرق ، السنة ٢٤ ، اذار ١٩٣٣ ، العدد ٣ ، (ص ١٩٨ وما بعدها) ، Ency. Religl., I, p. 662, Ephem. Epigr., II, 390 No. 22, Mordtmann, in ZDMG., XXIX, 1875, S. 106.

٣ الاصنام (٣٥ ، ٤٧) ، (٢٢) (روزا) ، ابـن هشـــام (١/ ٣٠) ، الازرقي (١/٢٥٦) ، الروض الانف (١/٦٦) ، بلوغ الارب (٢/٢٠٧) ، اليعقوبـي (١/٢٢٥) .

٤ المحبر (٣١٧) .

٥ الاصنام (٢٢) (روزا) .

وصفته انه (كان مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيأة التاج) . وكان بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة [1] . وله بيت يحج اليه . وجعل (ابن حبيب) موضع البيت في العبلاء على أربع مراحل من مكة [2] .

وفي رواية لابن اسحاق ان عمرو بن لحي نصب ذا الخلصة بأسفل مكة، فكانوا يلبسونه القلائد ، ويهدون اليه الشعير والحنطة ، ويصبون عليه اللبن ، ويذبحون له، ويعلقون عليه بيض النعام [3] .

وهناك روايات جعلت ذا الخلصة (الكعبة اليمانية) لخثعم ، ومنهم من سمّاه كعبة اليامة . وأظن ان هاتين الروايتين هما رواية واحدة في الأصل ، صارت روايتين من تحريف النساخ . ومنهم من جعل ذا الخلصة بيتاً في ديار دوس [4] . ويستنتج من كل هذه الروايات ان ذا الخلصة بيت كان يدعى كعبة أيضاً ، وكان فيه صنم يدعى الخلصة ، لدوس وخثعم وبجيلة وغيرهم [5] .

ويظهر من حديث : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة ، والمعنى انهم يرتدون ويعودون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان ، فتسعى نساء بني دوس طائفات حول ذي الخلصة ، فترتج أعجازهن » [6] . ويستنتج من ذلك ان بني دوس وغيرهم كانوا يطوفون حول كعبة ذي الخلصة التي في جوفها صنم الخلصة .

وكان (بيت ذي الخلصة) من البيوت التي يقصدها الناس للاستقسام عندها

---

١ الاصنام (٢٢) (روزا) (٣٤) (أحمد زكي) ، الازرقي (١/٧٣) .
٢ المحبر (٣١٧) بلوغ الارب (٢/٢٠٧) ، صفة جزيرة العرب (١٢٧) .
٣ الازرقي ، أخبار مكة (١/٧٣) (باب ما جاء في الاصنام التي كانت على الصفا والمروة) ، تاج العروس (٤/٣٨٩) (خلص) ، البلدان (٨/٤٣٤) .
٤ ابن هشام (١/٣٠) ، الاغاني (٩/٧) ، الاكليل (٨/٨٤) ، بلوغ الارب (٢/٣٢٩) ، وقد أجمل السيد رشدي الصالح ملحس الروايات الواردة عن ذي الخلصة في نهاية الاول من تأريخ مكة للازرقي . وهو يرى أن البجلي لم يهدم بنيان بيت ذي الخلصة تهديما تاما ، وانه بقي الى أيام الملك عبد العزيز آل سعود ، فأزاله ، وأحرقت الشجرة التي كانت بجانب البيت وهي شجرة العبلاء . وذهب أيضا أن ذلك البيت لم يكن بتبالة ، انما كان في تروق وقد عرف البيت بالولية كذلك . الازرقي (١/٢٥٦ وما بعدها) ابن هشام (١/٦٤) (حاشية على الروض الانف ، تاج العروس (٢/٣٧٨) ، الروض الانف (١/٦٥ وما بعدها) .
٥ اللسان (٧/٢٩) (خلص) (صادر) .
٦ اللسان (٧/٢٩) (خلص) .

بالأزلام . وكانت له ثلاثة أقدح : الآمر ، والناهي ، والمتربص[1] .

وفي ذي الخلصة قال أحد الرجّاز :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلي ، وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

وكان سبب قوله أنه قُتل أبوه ، فأراد الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنه بالأزلام ، فخرج السهم ينهاه عن ذلك ، فقال تلك الأبيات . ومن الناس من ينحلها امرأ القيس[2] . وذكر (ابن الكلبي) أيضاً أنه لما أقبل امرؤ القيس بن حجر ، يريد الغارة على بني أسد ، مرّ بذي الخلصة ، فاستقسم عنده ثلاث مرات . فخرج الناهي . فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم ، ثم غزا بني أسد ، فظفر بهم[3] .

وقد هدم البيت في الإسلام ، « فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها ، قدم عليه جرير بن عبدالله مسلماً . فقال له : يا جرير : ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ فقال : بلى . فوجهه اليه . فخرج حتى أتي بني أحمس من بجيلة ، فسار بهم اليه . فقاتلته خثعم وباهلة دونه. فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مئة رجل ، وأكثر في خثعم ، وقتل مئتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم . فظفر بهم وهزمهم ، وهدم بنيان ذي الخلصة ، وأضرم فيه النار فاحترق[4] . وورد في رواية أن هدمه كان قبل وفاة الرسول بشهرين أو نحوهما[5] .

ويذكر (ابن الكلبي) أن موضع بيت ذي الخلصة عند عتبة باب مسجد تبالة[6] أما (ابن حبيب) ، فذكر أنه صار بيت قصار في العبلاء[7] . وذكر أن موضعه

---

١ الاصنام (٢٢ ، ٢٩) (روزا) .
٢ الاصنام (٣٥) (٢٢) (روزا) الروض الانف (١/٦٥) ، ابن هشام (١/٦٥) (هامش على الروض الانف) بلوغ الارب (٢/٢٠٧) .
٣ الاصنام (٢٩) (روزا) .
٤ الاصنام (٢٣) (روزا) ، الطبري (٣/١٥٨) (دار المعارف) .
٥ الروض الانف (١/٦٦) .
٦ الاصنام (٢٣) (روزا) .
٧ المحبر (٣١٧) .

مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم[1] .

ويظهر من رثاء امرأة من خثعم للذي الخلصة حين هدمه جرير بن عبدالله ، وأحرق بيته ، وهو قولها :

وبنو أمامة بالوليّة صرعوا   ثملا يعالج كلهم انبوبا[2]

ان (الخلصة) كان صنماً أنثى ، أي إلهة ، ولذلك قيل له (الوليّة) ، كما ترى ذلك في البيت المذكور . ونجد في مواضع أخرى من روايات أهل الأخبار ما يؤيد هذا الرأي ، فقد استعملوا ضمير التأنيث للتعبير عنها[3] ، كما قالوا فيه (المروة البيضاء)[4] . وأما تعبيرهم عنه بضمير التذكير ، مثل قولهم (وكان) ، فإنهم أرادوا بذلك لفظ (صنم) فذكروه .

سعد :

وكان لمالك وملكان ، ابني كنانة ، بساحل جدة وتلك الناحية صنم يقال له سعد . وكان صخرة طويلة[5] . وذكر (اليعقوبي) انه كان لبني بكر بن كنانة[6] . وذهب (ابن اسحاق) إلى انه في موضع قفر ، وقيل انه قرب اليمامة . وقد أورد الأخباريون عنه هذه القصة : « أقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه ، يتبرك بذلك فيها . فلما أدناها منه نفرت منه ، وكان يهراق عليه الدماء ، فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه ، وأسف فتناول حجراً فرماه به ، وقال : لا بارك الله فيك إلهاً . أنفرت عليّ إبلي » . ثم خرج في طلبها حتى جمعها ، وانصرف عنه ، وهو يقول :

---

١ الروض الانف (١/٦٥) .
٢ الاصنام (٢٣) (روزا) .
٣ الازرقي (١/٧٣) ، تاج العروس (٤/٣٨٩) .
٤ قال خداش بن زهير العامري :
وبالمروة البيضاء يوم تبالة   ومحبة النعمان حيث تنصرا
الاصنام (٢٢) (روزا) .
٥ الاصنام (٣٦ وما بعدها) (٢٣) (روزا) ابن هشام (١/٦٤) (حاشية على الروض) تاج العروس (٢/٣٧٨) .
٦ اليعقوبي (١/٢٢٥) .

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعي لغيّ ولا رشد[1]

وذكر (ابن قتيبة) أن سعداً صنم على ساحل البحر بتهامة ، تعبده عك ومن يليها ، ويقال كانت تعبده هذيل[2] .

وقد ورد اسم (سعد) في أسماء الأشخاص المركبة المضافة ، مثل (عبد سعد) ، وهو مما يدل على أن الناس كانوا يتبركون به بتسمية أبنائهم باسمه[3] .

وقد ورد اسم هذا الصنم في كتابات النبط ، فدعي بـ (سعدو)[4] . كما ورد في كتابات الصفويين ، مما يدل على أنه كان بين الأصنام التي تعبد لها أولئك القوم[5] . ويظن انه يرمز الى كوكب .

ذو الكفين :

وهناك صنم عرف عند الأخباريين بـ (ذي الكفين) وكان لدوس ، ثم لبني منهب بن دوس . فلما أسلموا ، بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، الطفيل بن عمرو الدوسي ، فحرقه وهو يقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أكبر من ميلادكا
اني حشوت النار في فؤادكا[6]

ويظهر من هذا الرجز أنه أحرقه بالنار . ومعنى هذا أنه لم يكن صنماً من

---

١ الاصنام (٣٧) ، (٢٣) (روزا) ابن هشام (١/ ٦٤) ، (حاشية على الروض الانف) الروض الانف (١/ ٦٤) ، تاج العروس (٢/ ٣٧٨) ، اللسان (٣/ ٢٠٢) (سعد) بلوغ الارب (٢/ ٢٠٨) ، اللسان (٣/ ٢١٨) (صادر) .

٢ الاشتقاق (٢٥) ، تاج العروس (٣/ ٣٧٨) ، (سعد) .

٣ الاغاني (١١/ ١٧١) ، Reste, S. 60.

٤ O. Eissfeldt, 150, Arabien, S. 85. Handbuch, I, S. 234.

٥ Ency. Religi., I, p. 662.

٦ الاصنام (٣٧) ، (٢٣) (روزا) الازرقي (١/ ٧٨ ، ٢٦٩) ، تأريخ الخميس (٢/ ١٠٩) ، تاج العروس (٦/ ٢٣٥) ، (كف) ، اليعقوبي (١/ ٢٢٥) ، (أقدم)، الروض الانف (١/ ٢٣٥) .

حجر ، وإنما كان من خشب ، أو أنه أراد بيت الصنم . وذكر أن هذا الصنم كان صنم (عمرو بن حممة الدوسي) أحد حكام العرب[1] .

ذو الشرى :

وكان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد ، صنم يقال له ذو الشرى[2]. وورد في رواية للأخباريين أن (ذا الشرى) صنم لدوس كان بالسراة[3] . وقد ورد اسم هذا الصنم في الحديث النبوي ، وورد بين أسماء الجاهليين اسم (عبد ذي الشرى)[4] .

ويرى بعض اللغويين ان الشرى ما كان حول الحرم ، وهو إشراء الحرم[5] ، فإذا كان هذا التعريف صحيحاً،فإنه يكون في معنى (ذات حمى) عند السبئيين[6]. وكان له حمى ، به ماء يهبط من جبل ، حمته دوس له[7] .

و (ذو الشرى) إلـه ورد اسمه في كتابات (بطرا) و (بصرى) ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد .

الأقيصر :

أما الأقيصر ، فكان صنم قضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان ، وكان في مشارف الشأم . وقد ذكر اسمه في شعر لزهير بن أبي سلمى ، ولربيع بن ضبع الفزاري ، وللشنفرى الأزدي[8] . وكانوا يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده ، ويلقون مع الشعر قرة من دقيق[9] . وهي عادة كانت متبعة عند بعض قبائل اليمن كذلك .

---

١ امتاع الاسماع (١/٣٩٨) .
٢ الاصنام (٣٨) ، (٢٤) (روزا) بلوغ الارب (٢/٢٠٩) .
٣ تاج العروس (١٠/١٩٧) .
٤ Ency. Religi. I., p. 663, Reste, S. 48.
٥ (وأشراء الحرم : نواحيه ، والواحد شرى) ، اللسان (١٤/٤٢٨) (صادر) .
٦ Reste, S. 51.
٧ نهاية الارب (١٨/١٤ وما بعدها) .
٨ الاصنام (٣٨ وما بعدها) ، (٢٤) (روزا) ، تاج العروس (٣/٤٩٧) ، اللسان (٦/٤١٦) ، الاغاني (٢١/١٤١) .
٩ البلدان (١/٣٤١ وما بعدها) (الاقيصر) الاصنام (١٨) .

ويذكر (ابن الكلبي) أن هوازن كانت تنتاب حجاج الأقيصر، فإن أدركت الموسم، قبل أن يلقي القرة، أي قبضات من دقيق، قال أحدهم لمن يلقي: «أعطنيه. فإني من هوازن ضارع»، وإن فاته، أخذ ذلك الشعر بما فيه من القمل والدقيق، فخبزه وأكله. وقد عيرت هوازن في ذلك، فقال معاوية بن عبد العزى بن ذراع الجرمي، في (بني جعدة) وكانوا قد اختصموا مع بني جرم في ماء لهم الى النبي يقال له العقيق، فقضى به رسول الله لجرم، شعراً منه:

ألم تر جرماً أنجدت وأبوكم   مع القمل في جفر الأقيصر شارع؟
إذا قرة جاءت بقول: أصب بها   سوى القمل؟ إني من هوازن ضارع[1]

ويظهر من بيت شعر رواه (ابن الأعرابي)، هو:

وأنصاب الأقيصر حين أضحت   تسيل على مناكبها الدماء

ومن بيت لزهير بن أبي سلمى، هو:

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهداً   وما سحقت فيه المقاديم والقمل[2]

انه كان عند الصنم الأقيصر أنصاب ينحر الناس عليها ذبائحهم التي يتقربون بها إلى هذا الإله. وكانت أكثر من نصب واحد، وقد تلطخت بالدماء من كثرة ما ذبح عليها.

وأشير إلى (أثواب الأقيصر) في بيت للشنفرى الأزدي[3]. ويظهر ان عباده كانوا يطوفون حوله، وهم يلبون ويغنون[4].

---

١ الاصنام (٣٠) (روزا).

٢ الاصنام (٣٠) (روزا) تاج العروس (٣/٤٩٧)، اللسان (٦/٤١٦)، الاغاني (٢١/١٤١).

٣ وان امرءا أجار عمرا ورهطه   علي، وأثواب الاقيصر، يمنف
الاصنام (٢٥) (روزا).

٤ البلدان (١/٣٤٠).

نهم :

وكان لمزينة صنم يقال له : نهم ، كسره سادنه خزاعي بن عبد نهم ، وهو من مزينة من بني عداء ، وأعلن إسلامه[1] . ويظهر من أبيات لأمية بن الأسكر ان أتباع الصنم كانوا يقدمون الذبائح له ، ويقسمون به . وقد سمى منهم جملة رجال عرفوا بـ (عبد نهم) من بني هوازن وبجيلة وخزاعة[2] . وهـذا مما يدل على انتشار عبادة هذا الصنم بين هذه القبائل أيضاً .

عائم :

وكان لأزد السراة صنم يقال له عائم . ورد اسمه في شعر لزيد الخير، المعروف أيضاً بزيد الخيل[3] .

سعير :

أما سعير ، فهو صنم عنزة[4] . وكان الناس يحجون اليه ويطوفون حولـه ، ويعترون العتائر له ، وقد ورد في شعر لجعفر بن خلاس الكلبي ، وكان راكباً ناقة له ، فمرت به ، وقد عترت عنزة عنده ، فنفرت ناقته منه ، فأنشأ يقول :

نفرت قلوصي من عتائر صرعت حول السعير تزوره ابنا يقدم
وجموع يذكر مهطعين جنابـه ما ان يحـير اليهم بتكـلم[5]

---

١ (وكان سادن نهم يسمى خزاعي بن عبد نهم ، من مزينة ثم من بني عداء . فلما سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ثار الى الصنم فكسره . وأنشأ يقول :
ذهبت الى نهـم لاذبـح عنـده عتـيرة نسك كالتي كنـت أفعـل
فقلت لنفسي حـين راجعت عقلها أهـذا الـه أبكـم ليس يعقـل ؟
أبيـت فديني اليـوم دين محمد الـه السمـاء الماجـد المتفضـل
الاصنام (٣٩ وما بعدها) (٢٥) (روزا) معجم الشعراء (٣٢٨) ، بلـوغ الارب (٢/٢١٠) .
٢ Reste, S. 58.
٣ الاصنام (٤٠) ، (٢٥) (روزا) الاغاني (١٦/٥٧) ، بلوغ الارب (٢/٢١٠) .
٤ الاصنام (٤١) ، (٢٥) (روزا) بلوغ الارب (٢/٢١٠) .
٥ الاصنام (٢٥) (روزا) (٤١) (أحمد زكي باشا) .

وبين أسماء الرجال أناس عرفوا بـ (سعير)[1] . والسعير النار واللهب ، ولا استبعد وجود صلة بين هذا المعنى وبين هذا الصنم . بأن يكون هـذا الصنم ممثلاً للشمس[2] .

الفلس :

وكان لطيء صنم يقال له الفلس ، وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجأ ، أسود ، كأنه تمثال إنسان . وكانوا يعبدونه ، ويهدون اليه ، ويعترون عنده عتائرهم ، ولا يأتيه خائف إلاّ أمن عنده ، ولا يطرد أحـد طريدة فيلجأ بها اليه إلاّ تركت له ولم تخفر حويته أي حوزته وحرمه[3] . ذكر (ابن حبيب) انه كان بنجد ، وكان قريباً من فيد وسدنته بنو بولان[4] .

وبولان جد بني بولان هو الذي بدأ بعبادته على روايـة ابن الكلبي . وكان آخر من سدنه منهم رجل يقال له صيفي « فأطرد ناقة خلية لامرأة من كلب من بني عُلَيم ، كانت جارة لمالك بن كلثوم الشمجي ، وكان شريفاً ، فانطلق بها حتى وقفها بفناء الفلس . وخرجت جارة مالك ، فأخبرته بذهابه بناقتها ، فركب فرساً عُرياً وأخذ رمحه ، وخرج في أثره ، فأدركه وهو عند الفلس ، والناقـة موقوفة عند الفلس ، فقال له : خل سبيل ناقة جارتي . فقال : انها لربك . قال : خل سبيلها . قال : أتخفر إلهك ؟ فبوأ له الرمح ، فحل عقالها،وانصرف بها مالك ، وأقبل السادن على الفلس ، ونظر إلى مالك ، ورفـع يده وقال ، وهو يشير بيده اليه :

يا ربّ إن مالك بن كلثوم أخفرك اليوم بناب علكوم
وكنت قبل اليوم غير مغشوم

---

1 Reste, S. 61.

٢ تاج العروس (٣/٢٦٨) ، (سعر) .

٣ الاصنام (٥٩ وما بعدها) ، (٣٧) (روزا) الروض الانف (١/٦٥) نهاية الارب (١٨/٧٧) ، البلدان (٣/٩١١) ، جمهرة (٣/٣٨) .

٤ المحبر (٣١٦) ، اليعقوبي (١/٢٢٥) .

يحرضه عليه . وعدي بن حاتم يومئذ قد عمّر عنده وجلس هو ونفر معه يتحدثون بما صنع مالك . وفزع لذلك عدي بن حاتم وقال ، انظروا ما يصيبه في يومه هذا . فمضت له أيام لم يصبه شيء . فرفض عدي عبادته وعبادة الأصنام وتنصر . فلم يزل متنصراً حتى جاء الله بالاسلام ، فأسلم .

فكان مالك أول من أخفره . فكان بعد ذلك السادن إذا أطرد طريدة ، أخذت منه . فلم يزل الفلس يعبد حتى ظهرت دعوة النبي عليه السلام ، فبعث اليه علي بن أبي طالب ، فهدمه ، وأخذ سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغساني ، ملك غسان قلده اياهما ، يقال لهما مخذم ورسوب ، فقدم بهما علي بن أبي طالب على النبي ، فتقلد أحدهما ، ثم دفعه إلى علي بن أبي طالب ، فهو سيفه الذي كان يتقلده »[1] . وجاء في بعض الروايات ذكر ثلاثة سيوف ، هي : مخذم ، ورسوب ، واليماني[2] .

وقد عرف (مالك بن كلثوم بن ربيعة) الشمجي المذكور ، بـ (مخفر الفلس) ، لأنه أخفر ذمته ، وكان لا تخفر ذمته[3] .

و (الفلس) ، هو (هفلس) (ها - فلس) ، عند لحيان . وقد تعبدوا له مع أصنام أخرى ، وردت أسماؤها في نصوصهم[4] .

ويلاحظ أن (ابن الكلبي) الذي يروي هذا الخبر ، كان نفسه قد روى قبل ذلك أن السيفين مخذماً ورسوباً ، كانا على الصنم مناة ، صنم الأوس والخزرج ، وأن الذي أهداهما له هو الحارث بن أبي شمر الغساني ، وأن علي بن أبي طالب لما هدم مناة ، أخذ السيفين معه ، فجاء بهما الى الرسول . فيظهر من ذكره للخبر مع صنمين انه وقع في هفوة أو نسي ، فجعل من القصة الواحدة قصتين .

أصنام أخرى :

وكانت لطيء أصنام أخرى ، منها اليعبوب ، وهو صنم لجديلة طيء ، وكان

---

١ الاصنام (٣٧ وما بعدها) ، (روزا) ، نهاية الارب (١٨/٧٧) ، تاج العروس (٤/٢١٠) ، (الفلس) .

٢ Das Gotzenbuch, S. 140.

٣ الاشتقاق (٢/٢٣٥) .

٤ Jaussen — Savignac, Mission, II, 484, Grohmann, S. 984.

لهم صنم أخذته منه بنو أسد ، فتبدلوا اليعبوب بعده . وقد ورد ذكره في شعر لعبيد :

فتبـــدلوا اليعبوب بعـــد إلههم صنماً ، فقروا ، يا جديل ، وأعذبوا

أي : لا تأكلوا على ذلك ، ولا تشربوا [1] .

وأما باجر ، فكان صنماً للأزد ومن جاورهم من طيء وقضاعة [2] .

ولم يذكر ابن الكلبي في كتابه الأصنام اسم الصنم الجلسد . وهو صنم كانت كندة تتعبد له ، وكذلك تعبد له أهل حضرموت . وكان سدنته بنو شكامة من السكون ، وهم من كنـــدة . وكان للصنم حمى ، ترعاه سوامه وغنمه ، فإذا دخلته هوافي الغنم ، حرمت على أربابها ، وصارت ملكاً للصنم [3] .

وقد وصف بأنه كان كجثة الرجل العظيم ، من صخرة بيضاء ، لها كالرأس أسود ، إذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان . وكانوا يكلمون منه ، وتخرج منه همهمة ، ويقربون القرابين اليه ، ويلطخون بدمه ، ويكثرون ثيـــاب السدنة يلبسونها حينما يقربون قرباناً اليه ويريدون مكالمته [4] . ويلاحظ أن تغيير الملابس وابدالها للتطهر ، له مثيل عند العبرانيين [5] .

المحرق :

وكان المحرق (محرق) صنماً لبكر بن وائل وبقية ربيعة في موضع سلمان . وأما سدنته ، فكانوا أولاد الأسود العجلي . وقد نسب اليـه بعض الرجال فورد

---

١ الاصنام (٣٩) (روزا) ، (٦٣) (أحمد زكي باشا) ، المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، الجزء الاول (ص ٥) .

٢ الاصنام (٦٣) (٣٩) (روزا) .

٣ البلدان (١٢٢/٣) . قال المثقب العبدي ، وقيل عدي بن وداع :
فبـــات يجتـــاب شقارى كما يبقـــر مـــن يمشي الى الجلســـد
تاج العروس (٣٢٤/٢) ، (جلسد) .

٤ البلدان (١٢٢/٣ وما بعدها) .

٥ التكوين ، الاصحاح الخامس والثلاثون ، الآية ٢ .

(عبد محرق)[1] . ويظن بعض المستشرقين انه عرف بـ (محرق) لأن عبدته كانوا يقدمون اليه بعض القرابين البشرية محروقة[2] . وكان بنو بكر بن وائل وسائر ربيعة ، قد جعلوا في كل حي من ربيعة له ولداً . (وكان في عنزة بلج بن المحرق . فكان في عميرة وغفيلة عمرو بن المحرق . وكان سدنته آل الأسود العجليون)[3] .

الشمس :

والشمس صنم كان لبني تميم ، وله بيت . وكانت تعبده بنو أد كلها : ضبة ، وتيم ، وعدي ، وعكل ، وثور . وأما سدنته ، فكانوا من بني أوس بن مخاشن ابن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم . فكسره هند بن أبي هالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[4] . وقد قيل لها : الإلاهة[5] . وذكر (اليعقوبي) ان قوماً من (عذرة) تعبدوا لصنم يقال له : شمس[6] .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار ، ان الشمس صنم قديم . وأول من تسمى به سبأ بن يشجب[7] . وذكر (اليعقوبي) ، انه صنم قوم من عذرة[8] .

وقد وردت جملة أسماء منسوبة إلى الشمس ، عرف أصحابها بعبد شمس ، منهم من قبائل أخرى من غير تميم . ويدل ذلك على ان عبادتها كانت معروفة في مواضع مختلفة من جزيرة العرب . وعرف بعض الأشخاص بـ (عمرو شمس) عند العرب الشماليين[9] .

---

١ الاصنام (١١١) (تكملة الاصنام) البلدان (٣٩٣/٧) (المحرق) ، تاج العروس (٣١٣/٦) ، (حرق) .
٢ Reste, S. 57, Ency. Religl., I, p. 660.
٣ المحبر (٣١٧) .
٤ المحبر (٣١٦) ، البلدان (٢٩٣/٦) (شمس) .
٥ شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ٩٣) .
٦ اليعقوبي (٢٢٥/١) .
٧ تاج العروس (١٧٢/٤) ، (شمس) .
٨ اليعقوبي (٢٢٥/١) .
٩ Ency. Religl., I, 660.

وفي جملة أصنام تميم الأخرى ، الصنم تيم ، وبه سمي رجـال من تميم ومن غيرهم ، مثل (عبد تيم) و (تيم الله)[١] .

وهناك أسماء أصنام أخرى لم ترد في كتاب الأصنام ، إنما وردت في كتب أخرى . وقد ذكرها (ابن الكلبي) نفسه في بعض مؤلفاته . ومن هذه الأصنام: الأسحم ، والأشهل ، وأوال ، والبجة ، وبلج ، والجبهة ، وجريش ، وجهار ، والدار ، وذو الرجل ، والشارق ، وصدا ، وصمودا ، والضمار ، والضيزن ، والعبعب ، وعوض ، وعوف ، وكثرى ، والكسعة ، والمـدان ، ومرحب ، ومنهب ، والهبا ، وذات الودع ، ويااليل[٢] ، وذريح[٣] ، وباجر ، والجـد ، وحلال ، والحمام ، وذو اللبا ، والسعيدة ، وغنم ، وفراض ، وقزح ، وقيس ، والمنطبق ، ونهيك[٤] .

أما أوال ، فإنه ايال ، وهو صنم بكر وتغلب[٥] .

وأما جهار ، فقد كان من أصنام هوازن ، وموضعه بعكـاظ ، وسدنته آل عوف النصريون ، ومعهم محارب فيه . وكان في أسفل أفطح[٦] . وكانت تلبيـة من نسك لجهار : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، اجعل ذنوبنا جبار ، وأهدنا لأوضح المنار . ومتعنا وملنا بجهار »[٧] .

وأما الدار ، فصنم سمي به عبد الدار بن قصي بن كلاب[٨] .

وأما الدوار ، فصنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله،يدورون به، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار ، ومنه قول امرىء القيس :

فعنّ لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاءٍ مذيل[٩]

وقد ذكر (ابن الكلبي) ان العرب تسمي الطواف حول الأصنـام والأوثان

---

١ الاغاني (١٨/١٦٨) ، كتاب المعمرين (٣١) ،
٢ الاصنام (١٠٧ وما بعدها) (تكملة) .
٣ المحبر (٣١٤ ، ٣١٨) .
٤ Reste, S. 64.
٥ الاصنام (١٠٧) .
٦ المحبر (٣١٥) .
٧ المحبر (٣١٢) .
٨ الاصنام (١٠٨) ، تاج العروس (٣/٢١٦) ، الاشتقاق (٥٦ ، ٩٧) .
٩ اللسان (٥/٣٨٤) .

الدوار[1] . وعرف بعض أهل الأخبار الدّوار بأنه (نسك للجاهلية يدورون فيه لصنم أو غيره)[2] .

ويظهر من دراسة ما ورد في كتب أهل الأخبار وفي كتب اللغة عن (الدوار) ان الدوار لم يكن صنماً ، وانما هو طواف حول صنم من الأصنام ، أي عبادة من العبادات لا تختص بصنم معين . وقد كان من عادة الجاهليين الطواف حول الأصنام . فظن بعض أهل الأخبار ان الدوار صنم معين ، أو انه صنم ينصب ، فيدور الناس حوله .

وأما ذو الرجل ، فهو صنم من أصنام أهل الحجاز[3] . ويظهر ان هذا الصنم، وكذلك الصنم (ذو الكفين) ، هما من الأصنام التي تغلبت صفاتها على أسمائها، فنعتت بهذه النعوت ، كأن تكون لرجل أحد الصنمين ، ولكفي الصنم الآخر ميزة خاصة وعلامة فارقة مثل كسر أو دقة صنعة ، جعلت الناس يدعون الصنمين بالنعتين البارزين . ويرى (نولدكه) احتمال كون هذين الصنمين حجرين في الأصل من الأحجار المقدسة Fetish التي كان يعبدها الناس في القديم ، ثم تحولت إلى صنمين بعد ان رسمت عليها بعض التصاوير صيرتهما على شكل انسانين[4] .

وسمي بالصنم (الشارق) جملة رجال عرفوا بعبد الشارق[5] . ولكلمة الشارق علاقة بالشروق . وقد ذهب (ولهوزن) إلى ان المراد به الشمس لشروقها[6] . و (الشريق)اسم صنم أيضاً[7] . وعندي ان الشارق وشريقاً نعتان للآلهة ، وليسا اسمين لصنمين ، وانهما في معنى (شرقن) الواردة في نصوص المسند ، وتعني (الشارق) ، أي اللفظة المذكورة تماماً . وقد وردت نعتاً في نصوص عربية جنوبية كثيرة ، مثل جملة : (عثتر شرقن) ، أي (عثتر الشارق) . فالشارق إذن نعت من نعوت الآلهة ، أو اسم من أسماء الله الحسنى ، بالتعبير

---

١ الاصنام (٢١) (روزا) .
٢ تركت الطير عاكفة عليه كما عكف النساء على دوار
شرح ديوان لبيد (ص ٤٤) ، المعاني الكبير (١٠٥/١) .
٣ الاصنام (١٠٩) .
٤ Ency. Religi., I, 663.
٥ الاصنام (١٠٩) ، تاج العروس (٣٩٢/٦) ، القاموس (٢٤٨/٣) .
٦ Reste, S. 65.
٧ اللسان (٤٦/١١) .

الإسلامي . وقد يقابل لفظة (نور) الذي هو نعت من نعوت الله في الإسلام، كما ورد في القرآن الكريم : « الله نور السماوات والأرض »[١] .

وأما صدا وصمودا والهبا ، فإنها من أصنام قوم عاد على رواية الأخباريين[٢] .

وأما الضمار ، فكان صنماً عبده العباس بن مرداس السلمي[٣] ، وبنو سليم[٤] . ولما حضرت مرداس الوفاة ، أوصى به الى ابنه العباس ، وطلب منه العناية به، لأنه يضر وينفع . فلما ظهر الإسلام ، أحرق العباس ضماراً ، وأتى النبي فأسلم[٥].

والعبعب ، هو صنم كان لقضاعة ومن داناهم . وقد يقال بالغين المعجمة ، فيخلط بينه وبين الغبغب[٦] . ورأيي أن الكلمتين أصلهما كلمة واحدة ، حرفهـا النساخ فصارت كلمتين .

وأما (عوض) فهو صنم كان من أصنام بكر بن وائل . وقد ذكر مع الصنم سعير في بيت شعر نسب الى الأعشى ، أو الى رشيد بن رميض العزى[٧] .

وكان (جد) (الجد) صنماً معروفاً عند عدد من الشعوب السامية ، وليس من المستبعد أن يكون لاسم القبيلة الإسرائيلية (جد) (جاد) علاقـة باسم هذا الصنم[٨] . وقـد ورد في النبطية (جدا) . وورد في الأسماء العربية (عبد جد)

---

١ سورة النور ، السورة رقم ٢٤ ، الاية ٣٥ ·

٢ الاصنام (١١٠) ، (وصمود كزبور : اسم صنم كان لعاد يعبدونه · قال يزيد بن سعد ، وكان آمن بهود عليه السلام :

عصمت عـاد رسولهـم فأمسوا   عطاشـا لا تمسهـم السمـاء
لهـم صنـم يقـال له صمـود   يقابلـه صـداء والهبـاء
وان الـه هـود هـو الهـي   علـى اللـه التوكـل والرجـاء

وهو مذكور في كتب السير ، تاج العروس (٤٠٢/٢) ·

٣ الاصنام (١١٠) ، (وضمار : صنم عبده العباس بن مرداس ورهطه) ، تـاج العروس (٣٥٣/٣) ، (ضمر) ، الروض الانف (٢٨٣/٢) ·

٤ البكري (٨٨١) (ضمار) ·

٥ البلدان (٤٤٠/٥) ، ابن هشام (٨٣٢) ، (ضماد) الاغانى (٦٢/١٣) ، (أخبار العباس بن مرداس) ·

٦ الاصنام (١١٠) ، تاج العروس (٣٦٣/١) ، اللسان (٦٤/٢) ، (عب) ·

٧ الاصنام (١١٠) (وبه فسر ابن الكلبي قول الاعشى :

حلفـت بمائـرات حـول عوض   وأنصاب تركـن لدى السعـير

قال : والسعير : اسم صنم كان لعنزة خاصة ، كما في الصحا) ، قال الصاغاني : ليس البيت للاعشى ، وانما هو لرشيد بن رميض العنزي) ، تاج العروس (٥/٥)، اللسان (٥٦/٩) ، Reste, S. 66.

٨ Robertson Smith, Marr., p. 43, Kinship, p. 261, Nöldeke in ZDMG., XXXI, 86, CIS, IV, p. 20, Ency. Religl., I, p. 661.

و (عبد الجد)[1] .

و (كثرى) من الأصنام المنسوبة الى طسم وجديس ، ظل باقياً معروفاً الى أيام الرسول ، فكسره نهشل بن عرعرة ولحق بالنبي[2] . وقد ورد بين أسماء الجاهليين من دعي بـ (عبد كثرى) . ويرى (نولدكه) في عدم ورود أداة التعريف (ال) مع (كثرى) في (عبد كثرى) ، دلالة على أن هذا الصنم هو من الأصنام القديمة . ويرى أيضاً ان كلمة (كثرى) هي مجرد لقب من ألقاب (العزى) ، نسي فظن أنه اسم صنم مستقل[3] .

وأما المدان ، فصنم يظهر انه كان من أصنام أهل الحجاز . وقد سمي به جملة رجال عرفوا بـ (عبد المدان) ، وكان له بيت[4] .

وأما (مرحب) ، فصنم من أصنام حضرموت ، وبه سمي (ذو مرحب) سادن هذا الصنم[5] . وكانت تلبية من نسك له : « لبيك . لبيك ، اننا لديك . لبيك ، حببنا اليك »[6] .

وللأخباريين جملة آراء في معنى ذات الودع ، وهي أنثى . وقد ورد اسمها في الشعر ، وكانت العرب تقسم بها . قيل انها وثن بعينه ، وقيل هي مكة لأنه كان يعلق الودع في ستورها ، وقيل سفينة نوح ، كانت العرب تقسم بها ، فتقول بذات الودع ، قال عدي بن زيد العبادي :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر الماجد الزارا [7]

---

١ Ency. Religl., I, p. 662.

٢ الاصنام (١١٠) ، (وكثري كسكرى : صنم كان لجديس وطسم ، كسره نهشل بن الربيس بن عرعرة ولحق بالنبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكتب له كتابا . قال عمرو بن صخرة بن أشنع :
حلفت بكثرى حلفة غير برة لتستلبن أثواب فيس بن عازب
تاج العروس (٣/٥١٣) .

٣ الاشتقاق (٢٣٥) ، Reste, S. 67, Ency. Religl., I, p. 660.

٤ الاصنام (١١١) ، تاج العروس (٩/٣٤٢ وما بعدها) ، اللسان (١٧/٢٨٩) ، الاشتقاق (٢/٢٣٧) .

٥ الاصنام (١١١) ، تاج العروس (١/٢٦٩) ، (رحب) ، المحبر (٣١٨) .

٦ المحبر (٣١٤) .

٧ الاصنام (١١١) ، اللسان (١٠/٢٦٧) (ودع) ، تاج العروس (٥/٥٣٥) .

وياليل ، اسم صنم كذلك ، أضيف اليه فقيل (عبد ياليل) ، كما قيل (عبد يغوث) و (عبد مناة) و (عبد ودّ)[1] .

وأما (ذريح) (ذرح) ، فكان لكندة بالنجير من اليمن ناحية حضرموت. يظهر أنها كانت تحج اليه ، وأن له بيتاً يقصد ، بدليل ورود تلبية من نسك اليه ، وهي : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كلنا كنود ، وكلنا لنعمة جحود . فاكفنا كل حية رصود » . ويظن (ولهوزن) أنه يمثل الشمس . (وذرح) اسم من الأسماء ، ويرد في الأعلام العربية الجنوبية المركبة ، مثل (ذرح ايل) .

وذهب (نولدكه) إلى ان (ذرح) هو مثل الشارق و (محرق) صنم يمثل الشمس. والظاهر ان عبادة هذا الصنم لم تكن منتشرة خارج حدود العربية الجنوبية[2] .

وأما باجر ، فإنه من أصنام الأزد ومن داناهم من طيء. وقد سمي به رجال عرفوا بـ (عبد باجر)[3] .

وحلال ، هو صنم فزارة . أما الحمام ، فإنه صنم بنو هند من بني عذرة .

وكان في المشقر صنم لبني عبد القيس يسمى ذا اللبا ، سدنته بنو عمرو[4] . وكانت تلبية من نسك له : « لبيك اللهم لبيك . لبيك،رب فاصرفن عنا مضر. وسلمن لنا هذا السفر . ان عما فيهم لمزدجر . واكفنا اللهم أرباب حجر »[5] .

وكان المنطبق صنماً ، للسلف وعك والأشعريين ، وهو من نحاس ، يكلمون من جوفه كلاماً لم يسمع بمثله . فلما كسرت الأصنام ، وجدوا فيه سيفاً،فاصطفاه الرسول ، وسمّاه (مخدماً)[6] . وذكر (ابن حبيب) ان تلبية من نسك لمنطبق: « لبيك اللهم لبيك ، لبيك » . ويلاحظ ان الأخباريين ذكروا ان السيف (مخذم) (مخذم) كان سيفاً على الصنم مناة أو (الفلس) صنم طيء ، كما ذكروا ان السيف (رسوب) كان على الصنم (مناة) ، أو الفلس كذلك .

وأما الصنم نهيك ، فقد كان من الأصنام الموضوعة في مكة . وذكر (الأزرقي) ان عمرو بن لحي نصب هذا الصنم عند الصفا ، وانه كان يعرف بـ (مجاود

---

١ الاصنام (١١١) .
٢ Reste, S. 65, Ency. Religi., I, p. 660.
٣ Reste, S. 64.
٤ Reste, S. 65.
٥ المحبر (٣١٤) .
٦ البلدان (١٧٩/٨) (المنطبق) المحبر (٣١٨) .

الريح) (مجاور الريح) ، وانه نصب الصنم : مطعم الطير عند المروة [١] ، فكان الناس في موسم الحج يحجون إلى الصنمين .

ولعل هذين الصنمين كانا من الأصنام التي خصصت بالسماء،وان الناس كانوا يضعون الحبوب عندهما لتأكلها الطيور . ولذلك قيل لنهيك (مجاود الريح) ، ولصنم المروة (مطعم الطير) .

وغنم ، ذكر أنه كان في جملة الأصنام الموضوعة بمكة . وقد ورد اسم رجال، واسم أسر [٢] .

وفراض ، صنم كان بأرض سعد العشيرة [٣] . وقد حطمه رجل منهم اسمه (ذُباب) ، وهو من (بني أنس الله بن سعد العشيرة) . حطمه ، ثم وفد الى النبي فأسلم ، وقال شعراً في ذلك ، أشار فيه الى هدمه ذلك الصنم [٤] . وكانوا يذبحون له ويلطخونه بالدم [٥] .

أما قزح (قزاح) ، فالظاهر أنه صنم ، كان الناس يتصورون أنه يبعث الرعد والعواصف . وقد نسي على ما يظن . ولا بد أن يكون لقوس قزح علاقة ما بهذا الصنم القديم . وقد يكون لاسم قزح ، وهو من مواضع الحرم بمكة ، علاقة باسم هذا الوثن العتيق . وقد تعبد بنو أدوم لصنم اسمه (قزح) Koze مما يدل على أنه هو الصنم العربي الذي نتحدث عنه . والظاهر أنه كان من الأصنام القديمة المعروفة : غير أنه فقد منزلته وقلّت أهميته ، فلم يكن من الأصنام الكبرى عند ظهور الإسلام [٦] . ويخالف (نولدكه) رأي بعض المستشرقين الذين ذهبوا الى أن المراد بقزح الشيطان ، لا صنم من الأصنام [٧] .

و (قيس) اسم صنم قديم . نسيت عبادته ، وصار اسم أشخاص . ودليل كونه صنم قديم وروده في الأعلام المركبة ، مثل (عبد القيس) ، فإن في هذه

---

١ المحبر (٣١٣) ، الازرقي (٧٣/١) .
٢ ابن هشام (١٤٥) ، (بنو عنم) ، المحبر (٢٨٨) .
٣ في نهاية الارب (فراص) ، نهاية الارب (١٨/١٨) .
٤ تبعت رسول الله اذ جاء بالهدى … وخلفت فراضا بدار هوان
شددت عليه وشدة فتركته … كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
نهاية الارب (١٨/١٨) .
٥ نهاية الارب (١٥١/١٨) .
٦ Josephus, Antiq., XV, 253.
٧ Ency. Religi., I, p. 661.

التسمية دلالة على أن قيساً اسم إلـه . ولقيس علاقة بـ (قوس) Quas ، وهو إلـه من آلهة أدوم[1] .

وقد ورد اسم (قيس) (قس) و (قوس) في الكتابات . وهما اسم إلـه واحد . عثر على معبد له في مدائن صالح[2] .

وأما (عوف) ، فقد استدل من التسمية بـ (عبد عوف) على انـه اسم صنم ، غير اننا لا نعرف من أمر عبادته شيئاً ، فلعلـه من الأصنام التي ذهب ذكرها قبل الاسلام بزمن طويل . وقد ذكر أهل الأخبار انه (صنم) ، ولم يذكروا اسم عبدته[3] .

وذكر (اليعقوبي) ان للأزد صنم ، يقال له (رئام)[4] .

والسعيدة ، صنم أنثى وعلامة تأنيثه وجود تاء التأنيث بآخـره . وكان لسعد هذيم وسائر قضاعة إلا (بني وبرة) ، وعبدته الأزد أيضاً. وكان سدنته (بنو عجلان) وموضعه بأحد[5] « وورود ان (السعيدة) بيت كان يحجه ربيعة في الجاهلية »[6] .

وورد في جملة أسماء أهل الجاهلية اسم (سعد العشيرة) . وقد ذهب أهـل الأخبار إلى ان (مذحجاً) كان يعرف بذلك الاسم[7] . و (العشيرة) اسم صنم من الأصنام القديمة ، وله علاقة بعبادة الساميين . فقد كان الكنعانيون يضعون وثناً في محلات العبادة يسمونه (العشيرة) ، كما كانوا يتعبدون له لأنه من آلهتهم القديمة. وهو إلهة ، أي أنثى عند الكنعانيين . ويظهر ان (العشيرة) من الآلهة السامية القديمة التي كانت تعبد بصورة خاصة عند الساميين الغربيين، كما عبر بلفظة (العشيرة) عن (المذبح) (المزبح)[8] . واسم (عبد عشيرة) مرتبط بالطبع باسم هذا الإلـه .

---

١ Reste, S. 67.

٢ « بت قسو » ، « بيت قيسو » ،
Reste, 67, Ryckmans 18, Grohmann, S. 85, Jaussen — Savignac, Mission, II, 501, 520, 528, I, 169, 200, CIS, II, 209, Doughty, Documents Epigraphiques, 38, CIS, II, 198, J. Euting, Tagebuch, II, 262.

٣ تاج العروس (٦/٢٠٦) ، (عوف) .

٤ اليعقوبي (١/٢٢٥) .

٥ المحبر (٣١٦ وما بعدها) .

٦ اللسان (٣/٢١٥) (صادرة) ، تاج العروس (٢/٣٧٨) (سعد) .

٧ الاشتقاق (٢/٢٣٧) .

٨ Encyclopaedia Biblica, By Cheyne, Vol. I, 3330.

ومن دلائل عبادة (الأشهل) ، وورود الأشهل في الأعلام المركبة ، مثل (عبد الأشهل) . وقد ذكر (ابن دريد) ان الأشهل صنم[1] .

وأشار (محمد بن حبيب) إلى صنم قال له : (زائدة) ، لم يذكر من كان يتعبد له[2] .

وذكر علماء اللغة اسم صنم قالوا له : (الضيزن) . وقال بعضهم : « والضيزنان صنمان للمنذر الأكبر ، كان اتخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما من دخل الحيرة امتحاناً للطاعة »[3] .

وأدخل بعض علماء اللغة (الغري) في عداد الأصنام . فقال : « والغريّ : صنم كان طلي بدم » . وذكر بعض آخر أن الغري : نصب كان يذبح عليه النسك . وذكروا أن الغريين بناءان طويلان ، يقال هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش ، وسمّيا الغريين لأن النعمان بن المنذر كان يغربهما بدم من يقتله في يوم بؤسه[4] .

ومن الأصنام صنم اسمه (عبر) ، قيل إنه كان لعبد عمرو المعروف بـ (بكر ابن جبلة الكلبي) ، كان قومه يعظمونه[5] . وصنم اسمه (جريش) ، اليه نسب : (عبد جريش)[6] .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (كعباً) و (كعيباً) المذكورين في قصة (القليس) التي أقامها (أبرهة) بصنعاء ، هما صنمان[7] .

---

١ الاشتقاق (٢٦٣) ، تاج العروس (٤٠٢/٧) ، (شهل) .
٢ الاشتقاق (ص ١٣) .
٣ اللسان (٢٥٤/١٣) ، (ضزن) ، تاج العروس (٢٦٤/٩) ، (ضزن) .
٤ اللسان (١٢٢/١٥) ، (غرا) ، تاج العروس (٢٦٤/١٠) ، الجوهري ، تاج اللغة (٥٢٦/٢) .
٥ الاصابة (١٦٦/١) .
٦ تاج العروس (٢٨٨/٤) ، (جرش) .
٧ البداية ، لابن كثير (١٧٠/٢ وما بعدها) .

الفصل السبعون

أصنام الكتابات

أقصد بـ (أصنام الكتابات) الأصنام التي عرفنا خبرها وأمرها من الكتابات الجاهلية ومن الكتابات الآشورية ومن كتب الكتبة (الكلاسيكيين) ، وذلك تمييزاً لها عن الأصنام التي أخذنا علمنا بها من روايات الأخباريين في الغالب .

وقد سبق لنا أن وقفنا على أسماء بعض آلهة الأعراب ، وذلك أثناء حديثنا عن الآشوريين والعرب . وقد ذكرت تلك الأسماء في الكتابات الآشورية لمناسبة سقوط أصنامها أسيرة في أيدي الآشوريين . وكان الأعراب الذين حاربوا الآشوريين قد حملوها معهم ، اما تبركاً وتيمناً بها ، وتفاؤلاً من وجودها معها بالنصر والغنائم ، واما لأنها كانت معهم في خيمتها المتخذة معبداً لها فسقطت في أيدي الآشوريين باكتساح الآشوريين لمنازل أولئك الأعراب . فأخذها الآشوريون معهم، وحملوها الى عاصمتهم أسيرة كما يؤسر البشر ، وسجنوها عندهم ، إذلالاً لعبادها وإهانة لهم ، وازدراءً بشأن تلك الآلهة المغلوبة السيئة الحظ التي لم تتمكن من مساعدة عبادها في القتال والتي لم تتمكن حتى من تخليص نفسها من الأسر ، فوقعت هي نفسها أسيرة ذليلة في أيدي عبدة آلهة أخرى . وبقيت في أسرها هذا، حتى وجد الأعراب الا مناص لهم من استردادها من الآشوريين إلا باسترضائهم وبإعلان خضوعهم لهم . فذهبوا الى نينوى ، وقدموا طاعتهم لملك آشور ، وأمر عندئذ بإعادة أصنامهم اليهم ، وكتب الآشوريون فوقها كتابة تشير الى سقوطها في أسرهم ، والى تغلب آلهة الآشوريين على آلهة الأعراب،وتفوق إله آشور على

تلك الأصنام ، وبعــد أن نقش عليها اسم الملك . ثم أعيدت وهي عــلى هذه الصورة اليهم[١] .

ومن هذه الأصنام دلبت (دلبات) Dilbat[٢] ، و (عتر سماين) (عشتر السماء) Atarsamain (A-tar-sa-ma-a-in) و (عتر قرميــة) (عــتر قرمي) (Atar Kurumiaa) ، و (ديه) (دايا) (Diya) = (Dija) ، و (نوهيا) (نحيا) (نهيا) (نهى) (Nuhaia) ، و (ابيريلو) (Ebirillu) . وهي الأصنام التي كتب عليها أن تسجن فأعيدت الى أصحابها ، ووضعت في أمـاكنها وسرّ أتباعها ولا شك بهذه العودة [٣] .

وقد حرفت أسماء هذه الأصنام،حتى صار من الصعب علينا تشخيصها . ولعل اسم الصنم (دلبت) هو تحريف(ذات بعل) ، أي (الشمس) . والشمس إلهـة عند العرب ، تعبدت لها قبائل عديدة ، كما تكلمت عنها في موضع آخر ، وقد عرفت به الإلهة عندها . وأما (عتر سمين) ، فهو (عشتر السماء) ، و (عشتر) من الآلهة المعبودة عند العرب ، وقد ورد اسمه في نصوص المسند . ويرى بعض الباحثين انه إلهة ، أي أنثى[٤] . ويرمز إلى (الزهرة) في رأي غالب العلماء[٥] . وقد أشير في النصوص القتبانية إلى قبيلة عرفت بـ (عتر سمين) ، أي باسم هذا الصنم[٦] ، لعلها من عبدته ، فنسبوا اليه .

وأما (نوهيا) (نحيا) (نهى) (نهيا) ، فهو الإلـه (نهى) . وقد ورد في الكتابات الثمودية ، اسم صنم بهذا الاسم[٧] . فلعـل له صلة بالصنم المذكور .

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/٣٢٠) ، المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام (١/٥٩١) ، (١/٦٠٠) ، Pritchard, p. 291.

٢ Reallexi., I, S. 125, Winckler, AOF., I, S. 526, Schell, Le Prisme D'Assaraddon, (1914), p .18, British Museum Tablets, K3087, Smith, History of Sennacherib, (1878), p. 138.

٣ Pritchard, p. 291, D.J. Wixman, The Vassal-Treaties of Esarhaddon, p. 4.

٤ Schrader, KAT., S. 434.

٥ Handbuch, I, S. 228.

٦ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٢/٣٣٢) .

٧ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٥/١٥١) .

وحدثنا (هيرودوتس) - في أثناء كلامه على حملة (قمبيز) على مصر - عن إلهين من آلهة العرب ، هما : (باخوس) Bacchus و (اورانيا) (Urania) . وذكر ان العرب تسمي (باغوس) (اوراتل) Oratal ، وتسمي (اورانيا) (أليلات) Alilat [1] . و (اليلات) ، هو الصنم (اللات) ، الذي يرمز إلى (الشمس) ، فهو إلهة ، أي أنثى . ويقابل (اثينة) Athene التي ظهرت عبادتها متأخرة بعض التأخر بالنسبة إلى الآلهة الأخرى[2] . و (اللات) من الأصنام العربية المعروفة التي ذكرت في القرآن ، وفي النصوص النبطية والصفوية ، كما سأتحدث عن ذلك في المواضع المناسبة . وأما Oratal ، فهو تحريف على ما يظهر لاسم صنم من الأصنام العربية ، صار من الصعب ارجاعه إلى صنم من الأصنام التي نعرفها الآن[3] .

وقد حفظت النصوص الجاهلية أسماء عدد لا بأس به من الأصنام، كان الناس يقضون الليالي سهراً في عبادتها والتودد اليها ، لتنفعهم ولتدفع الأذى وكل سوء عنهم ، وكانوا يتقربون اليها بالنذور والقرابين . ثم ذهب الناس وذهبت آلهتهم معهم ، وبقيت أسماء بعض منها مكتوبة في هذه النصوص ، وبفضل هذه الكتابات عرفنا أسماءها ، ولولاها لكانت أسماؤها في عداد المنسيات ، كأسماء الآلهة التي نسيت لعدم ورود أسمائها في النصوص .

وبين هذه الأسماء أسماء يجب اعتبارها من (الأسماء الحسنى) ، أي (أسماء الله الحسنى) في المصطلح الاسلامي لأنها نعوت وصفات للآلهة، التصقت بها حتى صارت في منزلة الأسماء العلمية . وهي تفيد المؤرخ كثيراً ، إذ انها تعينه في فهم طبيعة تلك الآلهة ، وفي فهم رأي المؤمنين بها ، في ذلك الوقت .

وفي طليعة أسماء الآلهة المدونة في نصوص المسند ، اسم الإله (ود) ، إله معين الكبير ، وإله قبائل عربية أخرى ، منها (ثمود) ، حيث ورد اسمه في كتاباتهم ، و (لحيان) ، حيث ذكر في كتاباتهم أيضاً . كما كان من الأصنام الكبرى في الحجاز عند ظهور الاسلام . وقد ذكر في القرآن الكريم مع أسماء

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٢/٣٤٣) و Herodotus, I, p. 213.

٢ Ency. Religl., I, p. 661.

٣ المصدر نفسه .

أصنام أخرى عبدت في عهد نوح[1] . وقد ظن بعض المستشرقين ان هذا الصنم لم يكن معبوداً في الجاهلية القريبة من الاسلام وعند ظهور الاسلام ، وهو رأي غير صحيح ، إذ ورد ذكره في شعر للنابغة ، وكان له معبد في دومة الجندل ، وسدنة وأتباع . ولدينا أسماء جملة رجال جاهليين عرفوا بـ (عبد ود) . وقد ذكر ان قريشاً كانت تتعبد لصنم اسمه ود ، ويقولون له أدّ أيضاً[2] .

ونعت (ود) بالإلـه (الهن) (الهن) في بعض الكتابات، جاء في أحد النصوص (ودم الهن) ، أي (ود الإلـه) . و (كهلن) ، أي (الكاهل) بمعنى القدير والمقتدر[3] . وهما من صفات هذا الإلـه التي كان يراها المعينيون فيه.

ويرمز (ود) إلى القمر ، عند المعينيين ، وهو الإلـه الرئيس عندهم . وقد وردت لفظة (شهرن) ، أي (الشهر) بعد كلمة (ود) في بعض الكتابات . فورد : (ودم شهرن) ، أي (ود الشهر) . وتعني لفظة (شهر) القمر في عربية القرآن الكريم[4] . و (ود) ، هو الإلـه (القمر) عند بقية العرب الجنوبيين . ومتى ورد اسمه في نص ، قصد به القمر .

وقد نعت (ود) بـ (الأب) ، تعبيراً عن عطفه على المتعبدين له وعن رحمته بهم . فورد في النصوص المعينية : (ودم ابم) ، و (ابم ودم) أي(ود أب) ، و (أب ود) ، فهو بمثابة الأب للانسان . والأب من كان سبباً في ايجاد شيء أو اصلاحه أو ظهوره . وقد عثر على أخشاب وأحجار حفرت عليها أسماء ود أو جمل (ودم ابم) أو (ابم ودم) ، وذلك فوق أبواب المباني ، لتكون في حمايته ورعايته ، وللتبرك باسمه وللتيمن به ، كما وجدت كلمة (ود) محفورة على أشياء ذات ثقوب ، تعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة يتبرك بها[5] . فعلوا ذلك كما يفعل الناس في الزمن الحاضر في التبرك بأسماء الآلهة والتيمن بها لمنحها الحب والبركة والخيرات .

ويظن ان لفظة (ود) ، ليست اسم علم للقمر ، بل هي صفة من صفاته، تعبر عن الود والمودة . فهي من الأسماء الحسنى للقمر اذن .

---

١ سورة نوح ، الآية ٢٣ .

٢ البلدان (٤٠٧/٨) ، (ود) .

٣ Hommel, Grundriss, I, S. 136, Glaser 284, Halevy 237, Chrestom., 91, 97.

٤ Glaser 324, 504, Handbuch, I, S. 37.

٥ Halevy 534, 535, 583, 586, 587, 591, 685, Glaser 80, 84.

وقد ورد اسم (ودّ) في كتابة ثمودية دوّنها أحـد المؤمنين الفانين في حب (ودّ) ، جاء فيهـا : « أموت على دين ودّ » ، « بدين ودّ أمت » ، وجاء في كتابة أخرى : « يا إلهي احفظ لي ديني ، يا ودّ أيده »[1] .

وورد اسم (ودّ) في النصوص اللحيانية[2] . فتكون عبادة هذا الإلـه قد انتشرت في العربية الغربية من أعالي الحجاز الى العربية الجنوبية . وذلك منذ ما قبل الميلاد الى ظهور الإسلام .

وقد اقترن اسم (ود) مع (ال) (ايل) في بعض الكتابات العربية الجنوبية . و (ايـل) هو الإلـه السامي القـديم . ولعلّ في (ود ال) (ودّ ايل) معنى (حب ايل) ، فتكون (ودّ) هنا صفة من صفات الإلـه . وامـا (ايل) ، فإنها قد تعني ما تعنيه كلمة (إلـه) في عربيتنا ، وقد تعني إلهاً خاصاً في الأصل هو إلـه الساميين المشترك القديم[3] .

وقد وردت في نص قتباني جملة : (بت ودم) أي (بيت ود)[4] . ومعناها معبد خصص بعبادة الإلـه (ودّ) . ولا بد أن تكون هناك جملة معابد خصصت بعبادة هذا الإلـه .

ويرى بعض المستشرقين استناداً الى معنى كلمة (ودّ) أن هـذا الصنم يرمز الى الودّ ، أي الحبّ وانه صنو للإلهين (جيل) Gil و (بحد) Pahad عند الساميين . ويستندون في رأيهم هذا الى بيت للنابغة هو :

حياك ودّ وأنى لا يحل له   لهو النساء وان الدين قد عزما[5]

---

١ Herbert Grimme, Die Lösung des Sinaischriften, Die Altthamudische Schrift, Münster, 1926, S. 40.

٢ Handbuch, I, S. 616.

٣ Handbuch, I, S. 217, H. Bauer, in ZDMG., Bd., 69, 1915, S. 561.

٤ Hommel, Die Südarabische Alterthumer, S. 2.

٥ البلدان (٤٠٨) ، (ود) .

قالـت أراك أخـا رحـل وراحلة   تغشى متالف لـن ينظرنك الهرمـا
حيـاك ود فانـا لا يحـل لنـا   لهـو النساء وان الدين قـد عزمـا
مشمريـن عـلى خوض مزممة   نرجو الالـه ونرجو البـر والطعما

شعراء النصرانية (ص ٧٠٥) .
Reste, S. 17, 31, 42, 53, Ency. Religi., VIII, p. 180.

وهناك من يرى وجود صلة بين (ود) و Eros الصنم اليوناني ، ويرى أنه صنم يوناني في الأصل استورد من هناك ، وعبد عند العرب. وهو رأي يعارضه (نولدكه) لعدم وجود تشابه في الهيأة بين الصنمين[1] .

ومن آلهة المعينيين الإلـه : (كهلن) ، أي (الكهل) و (الكاهــل) . وقد ورد اسمه في النصوص التي عثر عليها في الأقسام الشمالية من العربية الغربيـة كذلك[2] . وهو يرمز مثل (ودّ) الى (القمر) .

وعرف (ود) بـ (نحس طب) (نحسطب) . (ونحس) بمعنى (نحش)، أي الحيّة ، و (طب) بمعنى طيب ، فيكون المعنى (الحية الطيبة) . والحيّة رمز لود . فيكون المراد من (نحس طب) الإلـه ودّ[3] .

ومن بين أسماء الآلهة التي ورد اسمها في النصوص المعينية،اسم الإلـه (نكرح) . ويرى بعض الباحثين انه إلـه البغض والحرب . وان (نكرح) في معنى (كره) في عربيتنا . وانه (نكرو) أو (مكرو) Makru = Nakru عند البابليين . وهو (العدو) فهو على طرفي نقيض مع الإلـه (ود)[4] . ويرون انه يرمز إلى الشمس ، وانه في منزلة (ذت حمم) (ذات الحميم) عند السبئيين[5] .

وقد وجد من دراسة الكتابات المعينية ان آلهة المعينيين ترد مرتبة عــلى هذه الصورة في بعض الأحيان : (عثتر) يليه (ود) ثم (نكرح) ، وتذكر بعدها جملة (الـلات معن) ، بمعنى (آلهة معين)[6] .

وهناك آلهة أخرى وردت أسماؤها في كتابات المعينيين ، لا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . منها : (بلو) إلـه البلاء والنوازل والموت ، و (حلفن) (حلفان) ، وهو خاص بالقسم ، و (ورفو) ، وهو حارس الحــدود ، و (منضح) (منضحت) (منفحة) ، إلـه الماء والـري والحدود ، و (متبقبط) ، إلـه الحصاد[7] . غير ان من الجائز في رأيـي ألا تكون هذه الأسماء أسماء آلهة ، وانما

---

١ Ency. Religl., I, p. 662.

٢ Handbuch, I, S. 215.

٣ Grohmann, Göttersymbole, S. 71.

٤ Ency. Religl., 10, P. 882, Handbuch, I, S. 20, 40.

٥ Handbuch, I, S. 188, Ilmukah, S. 56.

٦ Ilmukah, S. 55, Glaser 1089, 1660, Halevy 208, N. Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S. 26, Glaser 1144, Halevy 353.

٧ Arablen, S. 246.

هي مجرد مصطلحات يراد بها أمور أخرى .

وتعبد السبئيون للإلـه (المقه) ، إلههم الكبير . ويعد في منزلة (ود) عند المعينين ، ويرمز إلى (القمر) . وهو المقدم عندهم على سائر الآلهة . اليه تقرب (المكربون) والملوك بالأدعية والهدايا ، واليه توسل الشعب في كل ملمة تنزل به . وتجد اسمه مدوناً في كثير من النصوص السبئية . بل تعبّد له أهل الحبشة كذلك، فنجد له معبداً عند (بحا) (يها) . انتقلت عبادته اليهم من السبئيين الذين كان لهم نفوذ سياسي وثقافي على الساحل الافريقي المقابل لليمن ، ويظهر أثر ذلك في الخط الحبشي حتى اليوم .

وليس للعلماء رأي واضح صحيح في معنى (المقه) ، ويرى (ايوالد) Ewald ان الكلمة من أصل (لمق) ، وهي بمعنى (لمع) ، فيكون للاسم — على ذلك — معنى اللمعان[1] ، ويمكن أن تكون كلمة (المقه) اذن ، بمعنى (الثاقب) و (اللامع). وقد كان الجاهليون يقسمون بالنجوم الثاقبة ،أي النجوم التي يتوقد ضياؤها ويتوهج . ورد في القرآن الكـريم : « والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب » . وقال المفسرون : « النجم الثاقب ، يعني يتوقد ضياؤه ويتوهج » . وذكروا ان العرب كانت « تسمي الثريا : النجم . ويقال إن الثاقب : النجم الذي يقال له زحل . والثاقب أيضاً الذي قد ارتفع على النجوم »[2] . وقد ذهب (هومل) إلى ان (المقه) ، انما تعني (سيده)[3] . وذهب بعض الباحثين الى ان اللفظة من (ال) (ايل) ، اسم الإلـه (ايـل) الشهير ، المعروف عند جميع الساميين . ومن (مقهو) بمعنى قوي . فيكون الاسم (ايل قوى) ، (ال مقهو)[4] .

وتدل روايات الأخباريين عن (المقه) على عدم وقوفهم على حقيقة هـذه التسمية ، فقد حاروا فيها ، واضطربوا في أمرها ، ولم يظهر أحـد من بينهم من عرف حقيقتها . فصيرها بعضهم اسماً من أسماء الملكة (بلقيس) ، وصيرها بعض آخر مصنعة من مصانع الجن التي بنتها على عهد (سليمان) ، وجعلهـا

---

١ سورة الطارق ، رقم ٨٦ .
٢ تفسير الطبري (٣٠/٩٠ وما بعدها) .
٣ Handbuch, I, S. 40.
٤ Arabien, S. 244.

(الهمداني) الزهرة ؛ « لأن اسم الزهرة في لغة حمير : يلمقه والمق » . ذكروا أن بناء (يلمقه) ظل قائماً باقياً الى أيام غزو الحبشة لليمن ، فهدموه[1] . وإذا صحت رواية الهدم هذه ، فلا يستبعد حينئذ أن يكون ذلك بسبب كونه معبداً وثنياً خصص بعبادة الأوثان، والأحباش نصارى سعوا لطمس الوثنية ونشر النصرانية في البلاد . ولعلّه أراد به معبد (المقه) بمأرب ، فهدمه الحبش للاستفادة من أحجاره لبناء كنيستهم التي بنوها بهذه المدينة . وقد كان ذلك المعبد قد خصص بعبادة (المقه) إلـه سبأ الكبير ، فعرف بـ (المقه) ، و (يلمقه) عند سواد الناس .

وقد حفظت لنا نصوص المسند أسماء جملة معابد خصصت بعبادة المقه، وللتمييز بينها ذكرت أسماء المواضع التي شيدت عليها تلك المعابد . ومن أشهرها معبد (المقه) الكبير بمدينة (مأرب) ، المعروف بمعبد (المقه بعل اوم) (المقه بعل أوام) ، وهو معبد لا تزال آثاره باقية ، زارته ونقبت فيه بعثة (وندل فيلبس) الامريكية الى اليمن[2] . وتعرف بقايا هذا المعبد عند أهل اليمن باسم (حرم بلقيس) و (محرم بلقيس) . فأحل الدهر اسم امرأة محل اسم إلـة قديم كبير .

ووردت في بعض النصوص هذه الجملة : (المقه ثور بعل ...) ، ومعناها : (المقه ثور ربّ)[3] . أي (المقه الثور هو رب ...) كما وردت جمل مثل : (المقه ثهون) ، بمعنى : (المقه المتكلم) . ومثل (المقه ثهون بعل اوم) ، أي (المقه المتكلم ربّ أوم) ،(أوام) . ويظن أن المراد بذلك الكاهن المتكلم باسم الرب (المقه) . فقد كان لبعض المعابد كهنة ، يزعمون أن الآلهة تتكلم فيها ، ويقومون أنفسهم بدور الوساطة والترجمة . فإذا أراد شخص سؤال إلهه عن مشكلة يريد حلاً لها ، أو عن قضية عويصة ، أو عن سرقة وما شاكل ذلك، يذهب الى المعابد المختصة ، التي يزعم أن الآلهة تجيب فيها ، فيتقدم الى الكاهن بنذر وبهدايا مناسبة ، ثم يلقي سؤاله ، فيظهر عندئذ صوت مسموع ، يزعم أنه

---

١ البكري (١٣٩٨) .
D. H. Müller, Burgen, II, S. 972, Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, S. I.
٢ Wendall Phillips, Qataban and Sheba, 1955.
٣ D. Nielsen, Die Altarabische Mondreligion, S. 107.

صوت الإله الذي لا يرى، يجيب على السؤال أو على الأسئلة ، بما يناسب السؤال .

وقد كُنّي عن (المقه) بـ (ثور) في بعض الكتابات . ومما يؤيد أن المراد (بثور) هذا الإله ، هو صورة رأس الثور في كثير من الكتابات ، وهي ترمز اليه ، كذلك رمز اليه بنسر وبصور الحيات . وهذه الصور من الرموز الدالة على الإله القمر عند قدماء الساميين[١] . وقد صور العبرانيون (يهوه) على هيأة عجل[٢] . ويلاحظ أن أكثر الأوثان والصور (صلمن) التي كان الناس يقدمونها الى معابد (المقه) وفاء لنذور نذروها لها ، اشتملت على صور ثيران ، ويلاحظ كذلك أن الثيران ، كانت من أكثر الحيوانات التي كان المتعبدون يقدمونها ذبائح لهذا الإله . وقد استنتج (دتلف نلسن) من هاتين الملاحظتين ومن تسمي أشخاص وأسر وعشائر وقبائل باسم (ثور) ، أن الثور رمز يراد به هذا الإله (المقه)، أي القمر[٣] .

وورد في النصوص السبئية اسم إله هو (هوبس) (هبس) ، ورد منفرداً ، وورد مع الإله (المقه)[٤] . وقد قصد به الإله القمر . ومعنى (هوبس) على رأي (فرسنل) Fresnel اليابس والجاف ، وهو وصف للقمر[٥] . ويعلل ذلك بفعل القمر البارز في احداث الجزر حيث تنسحب المياه من الساحل مسافة الى البحر . وقد أشار (الهمداني) الى أن اسم القمر (هيبس) ، والظاهر ان هذه التسمية للقمر ظلت معروفة في اليمن بعد الإسلام[٦] .

ووردت جملة (المقه ذ قبلم) في بعض النصوص ووردت (هوبس) ، و (المقه ذ هوبس)[٧] ، بمعنى اليابس . وذكر بعض العلماء ان معنى ذلك (المقه) الذي يؤثر في المد والجزر[٨] ، وذلك لما لاحظه المتعبدون له من وجود أثر له في احداث المد والجزر .

---

١ Ilmukah, S. 51.

٢ الملوك الاول ، الاصحاح الثاني عشر ، الآية ٢٨ ، الخروج ، الاصحاح ٣٢ ، الاية ٤ .

٣ Ilmukah, S. 52.

٤ Hommel, Grundriss, I, S. 86, Altertumer, 1899, S. 28.

٥ Handbuch, I, S. 40.

٦ Bürgen und Schlosser, II, S. 20-22, Hommel, Sudarabische Altertumer, S. 30.

٧ Rep. Epigr. 4921, 4963.

٨ Arabien, S. 244.

وقد أشير اليه بـ (هلل) بمعنى هلال ، وبـ (ربع) ، أي الربع الأول من الشهر ، وبـ (حول) ، بمعنى تمام الشهر ، أي القمر كاملاً . ومن صفاته (سمع) ، أي سميع[1] .

و (عم) هو إلـه شعب قتبان الرئيس . وقد ورد اسمه مقروناً مع الإلـه (أنبي) في نصوص قتبانية عديدة . وهو يقابل الإلـه ود عند المعينيين ، والإلـه (المقه) عند السبئيين ، والإلـه (سن) (سين) عند أهل حضرموت . فهو الإلـه القمر اذن عند القتبانيين .

وكلمة (عم) من الكلمات السامية القديمة الواسعة الانتشار عنـد الساميين . وقد ذكرت في نص يقدر انه كتب حوالي سنة (٤٥٠٠) قبل الميلاد ، وهي من كلمات عهد الأمومة ، ثم صارت من المصطلحات الدينية مثل (ال) (ايل) El ، و (بعل) Baal ، و (ادون) Adon ، و (ملك) Malke وما شابهها من أسماء الألوهية : كانت نعتاً في الأصل من جملة النعوت التي كان يطلقهـا الساميون على آلهتهم ، ثم جعلت علماً لإلـه[2] .

وترد لفظة (أنبي) في الكتابات القتبانية علماً على إلـه ذكر هو القمر . وقد وردت بعد اسمه كلمة (شيمن) ، ومعناها (الحامي) والحافظ ، فورد (انبي شيمن) ، أي (أنبي المحامي) و (أنبي الحافظ) ، والمدافع عن المؤمنين به . فهو اذن في معنى (عم)[3] . ولا بد أن يكون لهذا النعت صفات بصفات هذا الإلـه ، أي انه اسم من أسماء الله الحسنى .

ومن آلهة قتبان التي ذكرت مع (عم) الإلـه (حوكم) و (اثرت) و (نسور) و (ال فخر) . ويرى (هومل) ان الإلـه (اثرت) هو إلهة أنثى . هي في نظره زوج الإلـه (عم)[4] . ويظن ان (اثرت) هي الشمس ، ويظن أيضاً أن هـذه الكلمة قريبة في المعنى من كلمة (عشيرة) (عشيرات) العبرانية ، و (عشرتو) الآشورية البابلية ، وأنها تعني في القتبانية الشروق أو الشارقة والشرقـة الشديدة .

---

١ REP. EPIGR. 3945, 4067, 4228, 4991, 4992, 4993, CIH 282, Arabie S. 244.

٢ Ency. Religl., I, p. 387, Glaser, Mitteilungen, II, S. 21.

٣ Glaser 1602, SE 84, Ilmukah, S. 56, D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriftten, S. 14.

٤ Südar., S. 22, Glaser 160. « شفتم لعم وآثرت » .

من (عثر) بمعنى شرق وإشراق ، أضيف الى نهاية الكلمة حرف التأنيث؛ لأن الشمس مؤنثة ، كما فعل في عثتر إذ عد مؤنثاً عند الساميين الشماليين ، فصار (عثترت) (عشترت) (عشتروت) ، أي أنثى . وكما فعل في (كوكب) و (ملك) ، و (ذي الخلصى) ، و (ذي الشرى) ، حيث أضيفت اليها التاء ، فصارت (كوكبت) (كوكبة) ، و (ملكت) (ملكة) ، و (الخلصت) و (شربت)[١] .

ويحتمل على رأي (هومل) ، أن يكون (حوكم) (حوك) إلـه السماء ، ويظهر أنه من الآلهة الخاصة بشعب قتبان[٢] . أما (دتلف نلسن) ، فيرى احتمال كون الكلمة من (حكم)[٣] .

وقد عبر عن الإلهة (الشمس) بـ (ذت حمم) ، أي (ذات حميم) ، (ذات حمم) ، (ذات الحميم) ، أي ذات الحرارة الشديدة والأشعة المتوهجة التي تشبه الحميم من شدة الحر . وهذا المعنى قريب من (ال حمون El-Hamon و (بعل حمون) Ba'al Hammon في العبرانيـة ، ويراد بها الشمس . و (حمت) (حمه) Hamma في العبرانية هي الشمس . وورد في بعض النصـوص التدمرية اسم الإلـه (حمن) Hamman ، وورد هذا الاسم في بعض النصوص النبطيـة التي عثر عليها في حوران . وهذا الإلـه هو الشمس . وقد كني عنها بالأشعـة الحارة المحرقة التي ترسلها خاصة في أيام الصيف[٤] .

وهناك من فسر (ذت حمم) بـ (ذات حمى) (ذات الحمى) ، والحمى الموضع الذي يحمي ، ويخصص بالإلـه أو المعبد أو الملك أو سيد قبيلة ، والمكان الذي يحيط بالمعبد ، فيكون حرماً آمناً لا يجوز لأحد انتهاك حرمته[٥] . وفي جزيرة العرب جملة مواضع يقال لها (حمى) ذكر أسماءها الأخباريون .

---

١ Handbuch, I, S. 237, Glaser 1395, 1604, SE 84, Rhodokanakis, Katabanische Inschriftten, II, S. 121.

٢ Hommel, Grundriss, I, S. 140.

٣ D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriftten, S. 15.

٤ Handbuch, I, S. 225, Hommel, Aufsatze und Abhandlungen, II, S. 177, Ilmukah, S. 63, Oslander, in ZDMG., Bd., 20, S. 282.

٥ Handbuch, I, S. 225, Oslander, in ZDMG., Bd., 20, 1866, S. 282, Hommel, Aufsatze, II, S. 177, Mordtmann, Himjarische Inschriftten, S. 27, ZDMG., Bd., 31, S. 88, Saba, Denkmaler, S. 258, Fell, in ZDMG., Bd., 54, S. 250.

وعبر عن الشمس بـ (ذت بعــدن) (ذات بعدان) كذلك ، أي ذات البعد . وهي كنية قصد بها الشمس حينما تكون بعيدة عن الأرض أي في أيــام الشتاء . وقد استدل على ذلك بجملة وردت في نصوص المسند ، هي : (بعلمن بعدن وقرين) ، أي (بالعالم البعيد والقريب) ، بمعنى في الماضي والحاضر[١] . وقصد بذلك الشمس في هذا الوقت من السنة حيث تكون أشعتها غير محرقة ولا شديدة مؤذية للناس[٢] . وأنا لا استبعد أن يكون المراد من ذات البعد، الإلهة التي تشمل برحمتها وبركتها الأبعاد ، أي المسافات الواسعة والأماكن البعيدة فضلاً عن القريبة أو الإلهة البعيدة عن الناس التي لا يمكن أن يصل اليها أحد .

وكنّي عن الشمس في النصوص القتبانية بكنى أخرى ، منها : (ذت صنتم)، (ذات صنتم) ، (ذات صنت) ، و (ذت رحــبن) ، (ذات رحبان) (ذات الرحاب) ، و (ذت صهرن) (ذات الصهر)[٣] ، و (ذت غدرن) أي (ذات الغدر) و (ذات الغدران) ، و (ذت برن) ، (ذات بران) ، (ذات البر) ، و (ذت ضهرن) ، (ذات ضهــران) ، و (ذ محرضو ومشرقتن) ، أي ذات اللون الذهبي المشرق . و (مشرقتن) ، بمعنى الغروب والشروق ، و (تدن) (تدان) (تدون) ، و (تنف) ، وذلك في الكتابات الـبثية ، و (ذت حسولم) (ذات حسول) ، أي شمس الشتـاء ، وذلك في النصوص المعينية[٤] .

وقد عرف إلّه حضرموت الرئيس بـ (سن) (سين) ، وهو القمر . وهو إلّه شعب حضرموت الخاص . وقــد نعت بنعوت ، مثل (ذ عــلم) ، أي (ذو العلم) ، بمعنى العالم ، وبنعوت أخرى . وورد اسمه في كتابات عثر عليها في (يحا) بالحبشة[٥] .

و (عثتر) من الآلهة التي ورد اسمها في نصوص كثيرة من نصوص المسند .

---

١ Glaser 618, CIS, 541.

٢ Handbuch, I, S. 226.

٣ W. Fell, Südarabische Studien, in ZDMG., Bd., 54, S. 238, (1900), Neue Katabanische Inschriftten, S. 15.

٤ Arabien, S. 245.

٥ Rep. Epigr., 3616, Grohmann, S. 245.

ورد في نصوص معينية وسبئية وحضرمية وقتبانية . ويقابله Atargatis المدون اسمه في كتب (الكلاسيكيين) ، و (عثر) Atar' عند السريان ، و (عشتر) (عشتار) . وقد ذكر في نصوص الأشوريين والبابليين والكنعانيين والعبرانيين والحبش وغيرهم ، مما يدل على انه كان من الآلهة التي كانت عبادتها شائعة في منطقة واسعة ، وانه كان من الآلهة الكبرى قبل الميلاد[١] .

وقد ورد (ام عثتر) ، و (ابم عثتر) في بعض النصوص . وقصد بالجملة الأولى : (أم عثتر) ، وبالجملة الثانية (أب عثتر) (عثتر أب) . وقد استنتج (دتلف نلسن) من ذلك ان (عثتر) هنا هو بمثابة الإله الرئيس ، فهو أب وأم للآلهة يليه القمر في الترتيب، ثم الشمس[٢] . وذهب في بحث آخر له عن ديانة العرب الى ان المراد بـ (ام عثتر) الشمس ، باعتدادها أنثى إلهة أماً. أما ولدها فهو (عثتر)[٣] . وليس بمستبعد ان يكون المراد من (ام عثتر) ، ان (عثتر) بمنزلة الأم للمتعبدين لها ، تريد لهم الخير والبركة وتعطف عليهم وتحبهم عطف الأم على ولدها . وان المراد من (عثتر ابم) (عثتر أب) ، ان (عثتر) هو بمنزلة الأب للمتعبدين له ، يشفق عليهم ويحبهم،ويمنحهم الخير والصحة والبركة . وذهب بعض الباحثين الى ان المراد من عبارة (ام عثتر) ، الإلهة الشمس ، لأنها أم (عثتر) ، وان المقصود من (ابم عثتر) (أب عثتر) لإله القمر ، الذي هو زوج الشمس ، ومن زواجها ولد الابن (عثتر) .

وقد جاء في نص سبئي وجد في مدينة (صرواح) ان صاحبة النص قدمت الى الإلهة (ام عثتر) (ام عثتر) أربعة تماثيل من ذهب،لأنها وهبت لها أربعة أطفال ، هم ولد واحد وثلاث بنات ، كلهم أحياء يرزقون . ولأنها سرت قلبها بهذه الذرية . وهي لذلك قدمت هذه التماثيل ، ولترجو منها ان تستمر في الإنعام عليها وعلى ابنها وبناتها بالصحة والعافية[٤] . وقد قصد بـ (ام عثتر) هنا

---

١ Winckler, Altorient. Forschungen, I, S. 528, Hilprecht, Baby., Exped., IX, 51, 76, Ency. Religi., Vol., II, p. 165.

٢ D. Nielsen, Mondreligion. S. 42.

٣ Handbuch, I, S. 228.

٤ Handbuch, I, S. 228, Derenbourg, Etudes Sur L'Epigraphic du Jemen, Paris, 1884, NO : II.

الإلهة الشمس . ويتبين من هذا النص أن السبئيين كانوا ينظرون الى (ام عثر)، نظرة البابليين الى (عشتار) على أنها إلهة الخصب[1] .

وقد عثر في النصوص النبطية، على اسم إلهة هي (ربة العثر) (ربت عثر)، أي الشمس[2] .

وورد اسم (عثر) في عـــدد كبير من نصوص المسند على هذا النحو : (عثر شرقن) ، و (عثر ذ قبضم) ، و (عثر ذ يهرق) . و (عثر ذ يهر) ، وهكذا . وتعني جملة (عثر شرقن) ، عثر الشارق . وقد ذكر أهل الأخبار أن (الشارق) صنم كان في الجاهلية وبه سمّوا عبد الشارق . مثل (عبد الشارق بن عبد العزّى) الجهني شاعر من شعراء الحماسة[3].فلفظة (شرقن) إذن ، نعت لـ (عثر) ، معناه (الشارق) .

ويرى بعض الباحثين أن (عثر شرقن) ، هو الإلـه الحارس للمعابد والمقابر اليه يصلى ويدعى أن تصل الهبات الى المعابد[4]. واليه توسل المتوسلون لحفظ قبورهم من عبث العابثين بهـــا المُعَتَرين لأحجارها الطامعين في كنوزها ، ولهـــذا نعت بـ (عثر يغل) ، أي (عثر المنتقم)[5] .

وأما جملة (عثر ذ قبضم) ، فقصد بـ (قبضم) معنى (القابض) أو (الجالس) ، أو اسم موضع يقال له (قبض) . فيكون المعنى : (عثـــر رب موضع قبض)[6] . وأما (يهرق) و (يهرق) (يهريق) ،فهو اسم مدينة من مدن معين . كان بها معبد لعبادة (عثر)[7] .

وورد أيضاً (عثر غربن) ، أي (عثر الغارب) ، كناية عن غروبه ، أو عن طلوعه عند الغروب ، فهو اذن نجم الشروق ونجم الغروب ، أو النجم الشارق والنجم الغارب . كما ورد (عثر نورو) (عثر نورن) ، أي (عثر

---

١ D. Nielsien, Altarabische Mondreligion, S. 41.

٢ Littmann, NO : 24, Lidzbarski, Ephem., Bd., 3, S. 292, Handbuch, I, S. 227.

٣ تاج العروس (٣٩٢/٦) ، (شرق) .

٤ Ency. Religl., 10, p. 883.

٥ Arabien, S. 245.

٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 27, Ency. Religl., 10, p. 882, Glaser 1089, 1060, Halevy 208.

٧ Handbuch, I, S. 228, Hommel, Grundriss, I, S. 85, W. Fell, in ZDMG., Bd., 54, S. 231-259.

نور) و (عشتّر المنير) ، تعبيراً عن لمعانه وعن النور الظاهر عليه . وجاء (عثتر سحرن) ، أي (عثتر السحر) ، بمعنى عثتر الذي يظهر عند السحر، وعبر عنه بـ (متب نطين) ، أي الحامل للرطوبة ، تعبيراً عن الرطوبة التي تكون عند ظهوره ، فنسبوها اليه[1] .

وقد تكرر ذكر اسم (عثتر) في بعض النصوص ، على سبيل التوكيد والتشديد في القسم وفي الدعاء ، كما نفعل نحن أحياناً من اعادة اسم الله في الايمان المغلظة وفي التوسلات عند ساعات المحنة والشدة . ورد : (بعثتر شرقن، وبعثتر ذ قبضن ، وود ونكرحم ، وبعثتر ذ يهرق ، وبكل ال ل ات معن)[2] . أي: (بعثتر الشارق وبعثتر ذو قبضن وبودّ ، ونكرح ، وبعثتر ذو يهرق ، وبكلّ آلهة معين) ، أو (وبحق عثتر الشارق ، وبحق عثتر القابض أو رب موضع قبض ، وبحق ودّ ، ونكرح وعثتر رب يهرق ، وبحق كل آلهة معين) .

ولدينا جملة أسماء مركبة ورد فيها اسم (عثتر) ، مثل (اوس عثتر) (او سعثت) و (هوف عثت) (هو فعثت) ، و (لحي عثت) (لحيعثت). و (عثت) هنا هو اختصار (عثتر)[3] .

ومن آلهة العرب الجنوبيين الإلـّه (قينن) (قينان) ، وهو إلـّه قبيلة (سخيم)، النازلة بـ (شبام) ، (شبام سخيم)[4] .

ومن بين أسماء آلهة العرب الجنوبيين اسم الإلـّه : (ال) (ايل) ، ذكر اسمه مستقلاً كما ورد مقروناً باسم الإلـّه (عثتر) كما في الكتابتين الموسومتين بـ Halevy 144 ، وبـ Halevy 150 ، وقد قدم ذكره فيها على اسم الإلـّه (عثتر)[5]. وقد ورد بكثرة في الأعلام المركبة .

ومن بين أسماء الآلهة التي ورد اسمها في النصوص العربية الجنوبية ، اسم الإلـّه (تلب ريم) (تالب ريام) . وهو إلـّه خاص بقبيلة (همدان) . كما أن (المقه) هو إلـّه (سبأ) و (سين) (سن) إلـّه حضرموت ، و (عم) إلـّه قتبان،

---

١ Arabien, S. 245.

٢ الفقرة الخامسة من النص : Glaser 1150, Halevy 192.

٣ Handbuch, I, S. 228.

٤ Arabien, S. 245.

٥ Handbuch, I, S. 218, Halevy, in Journal Asiatique, 1872, Tome 19, p. 152.

و (ود) إلـه معين . وقد ظهر بظهور نجم (بني بتع) واشتهر بهم . وكان ظهوره حوالى الميلاد بصورة خاصــة . ففي ذلك العهد اشتد أمر أقيال همدان ، فاستأثروا بالحكم ، ودعوا أنفسهم ملوكاً ، ورفعوا إلـه قبيلتهم فوق الآلهة الأخرى، فنحروا له الذبائح ، وقدّموا له النذور ، وتنافسوا في بناء معبـده . ودام عزيزاً مكرماً ما دام نفوذ ملوك همدان[1] .

وقد كانت لهذا الإلـه مثل سائر الآلهة الأخرى جملة معابد ، غير أن معبده الأكبر هو المعبد المعروف بمعبد (تلب ريم بعل ترعت) أي : (تــألب ريام رب ترعت)[2] . ويظهر أن كلمة (ترعت) هي اسم موضع ، أقيم المعبد عليه . وهو معبد كانت تقدم اليه أقيال (سمعى) وقبائل همدان الأخرى النذور والقرابين والهدايا ، وتحبس له الأرضين .

ومن الآلهة التي ورد اسمها في الكتابات العربية الجنوبيــة ، الإلـه (حول) (حويل) ، والإلـه (جلسد) (الجلسد) . وتدل لفظة (حول) على الحول والقوة . فلعلّ معنى اسم هذا الإلـه هو (الحويل) ، أي صاحب الحول والقوة. بمعنى القوي . وهو من آلهة حضرموت[3] .

وورد اسم الإلـه (حلفن) في جملة أسماء الآلهة المذكورة في الكتابات العربية الجنوبية . وقد ورد في جملة نصوص تتعلق بحبس أموال وبعقد عقود . ويلاحظ ان أصحابها استعانوا بهذا الإلـه لانزال النقمة والعذاب وأشد الجزاء بكل من يحاول أن يغير او يبدل تلك العقود والنصوص ، أو يتجرأ فيستولي على الأموال والحبوس المقررة ، كما رجوا منه أن يشملهم هم وجماعتهم برحمته وبلطفه وكرمه لاخلاصهم له ولفنائهم في حبه[4] .

ومن بين الآلهة إلـه عرف بـ (ذ سموي) ، أي (رب السماء) ،وهو إلـه ظهر اسمه قبل الميلاد بقليل[5] . وقد بقي اسمه متألقاً في سماء اليمن ، يقدم اليــه الناس النذور والقرابين الى ما بعد الميلاد . ويرى بعض الباحثين ، ان عبادته تدل

---

١ Ilmukah, S. 68.

٢ Hommel, Grundriss, I, S. 143.

٣ Handbuch, I, S. 188, Ilmukah, S. 55, Hommel, Sudarabische, S. 22.

٤ Halevy, 147, 148, Rhodokanakis, Stud., I, S. 57, 59.

٥ Handbuch, I, S. 88.

على ظهور عقيدة التوحيد عند العرب الجنوبيين ، إذ تدعو الى عبادة إلـه واحد، هو (رب السماء)[1] .

ولدينا كتابة مخرومة أسطراً ، لكنها لا تزال مع ذلك مفهومة ، تفيد ان جماعة من الأشرار المارقين تطاولوا على حرم (اوثن ذ سموي) أي (الوثن رب السماء) ، فسرقوه ، ونهبوا ما كان فيه ، واستولوا على ما كان حبس له . ولكن عبدته عادوا ، فجمعوا ما سرق ، وأصلحوا ما أفسد ، وتقربوا الى الإلـه (رب السماء) بطلب التوبة والغفران ، وختموا نصهم بهذه الجملـة : (و ذ سموى ليزامتعن شعبهو) ، أي (وليمتع رب السماء شعبه)[2] . ويقصد النص بشعبه أتباع هذا الإلـه وعبدته .

والى هذا الإله ، الإلـه : (ذ سمي) (ذ سموي) ، إلـه السماء تعبدت قبيلة (امر) (أمر) . ويعد (بعل سمن) (بعل سمين) (بعل السماوات) إلهاً للبركة والخصب ، إذ يرسل المطر فينشر الخير للناس[3] .

ونقرأ في النصوص العربية الجنوبية اسم إلـه جديد ، هو الإلـه (رحمنن) ، أي (الرحمن) . وهو إلـه يرجع بعض المستشرقين أصله الى دخول اليهودية الى اليمن وانتشارها هناك . وهذا الإلـه هو الإلـه (رحمنه) Rahman-a (رحمنا) في نصوص تدمر[4] .

وورد في نص : (رحمنن بعل سمين) (رحمنن بعل سمن) ، أي (الرحمن رب السماء) ، أي انه إلـه السماء . فصار في منزلة الإلـه (ذ سموى) . ثم لقب بـ (رحمنن بعل سمين وارضن) ، أي (الرحمن رب السماء والأرض) في نصوص أخرى[5] . فصار إلـه السماوات والأرضين .

وقد نشر نص بالمسند ، وردت فيه جملة : (الرحمن الذي في السماء واسرائيل رب يهود)[6] . وهو نص ، إن صح نقله عن الأصل بدقة وعناية ، وإن صح

---

١ Handbuch, I, S. 104, Rivsta, 1955, Fasc., I, II, p. 109, Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, p. 118.

٢ REP. EPIGR. 850, Rhodokanakis, Stud., S. 162, Mordtmann, Beiträge, S. 188.

٣ REP. EPIGR., 4142, Arabien, S. 245.

٤ Handbuch, I, S. 104, 248.

٥ Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, p. 103.

٦ Margoliouth, Relations, p. 68.

انه نص صحيح غير مزيف ، يشير الى تأثر صاحبه باليهودية وبعبارة الرحمن . وقد استشهد به من قرأه على تهود صاحبه .

ويرد اسم الإله (بعل سمن) (بعل السماء) (بعل السماوات) في الكتابات الصفوية ، وفي كتابات تدمر ، حيث ورد (بعل شمن) (بعل شمين) ، وفي كتابات بعلبك ، وفي كتابات اللحيانيين . وقد ظهرت عبادته قبل الميلاد[١] . ويظهر لذلك انه من الآلهة المعروفة عند الساميين وعند العرب الشماليين قبل الميلاد، ومن الجائز ان يكون قد انتقل الى العرب الجنوبيين من العرب الشماليين .

ووردت في الكتابة الموسومة بـ SE 48 أسماء آلهة هي : (م ح ر ض و) (محـرضو) ، و (م ش ر ق ي ت ن) (مشرقيـتن) و (نسور) و (ال فخر)[٢] . وقد ذهب (رودوكناكس) الى ان المراد من محرضو ومشرقيتن الشمس . وذهب آخرون الى ان المراد بهما القمر والزهرة . وذهب فريق آخر الى ان المراد بذلك غروب الشمس وشروقها[٣] . أما (نسور) ، فاسم إله ، لعل له صلة بـ (نسر) . وقد وردت في نص سبئي هـذه الجملة : (بت نسور وبت ال) (بيت نسور وبيت ال) ، ويقصد بـ (بت) (بيت) معبد لعبادة هذين الإلهين : (نسور) و (ال) . و (ال) هو (ايل) (ايلو) إله الساميين القديم[٤] .

وورد في أحد النصوص السبئية هذا التعبير : (اهـل نسور) مؤديـاً معنى (قوم نسور) و (ملة نسور) ، ويراد بهم جماعة هذا الإله التي كانت تتعبد له . وعرف أحد أشهر السنة في النصوص السبئية المتأخرة بـ (ذ نسور) ، ولعله أريد بذلك نسبة الشهر المذكور الى هذا الإله[٥] .

و (نسور) هو (نسر) على رأي بعض الباحثين . ويرمز الى (القمر)[٦] . وقد حصل المنقبون على أحجار حفرت عليها صورة النسر ، فعلوا ذلك على سبيل التيمن والتبرك بهذا الإله .

---

١ Arabien, S. 86, Ryckmans 20.

٢ الجملة الخامسة والسادسة من النص : Rhodokanakis, Katabanische, II, S. 28.

٣ Katabanische. II, S. 38, Hommel, Grundriss, S. 689, 719, Sab. Denkm., S. 80, Sudarabische, S. 22.

٤ Glaser 418, 419.

٥ Glaser 418, 419, 1549, Katabanische, II, S. 36.

٦ D. Nielsen, Neue Katabanische Inschriftten, S. 14.

وورد اسم إلـه دعي بـ (نسر) ، يظن أنه إلـه (ذ قلع) ، (ذو قلاع) ، اسم موضع أو قبيلة . ويرى الباحثون أنه الإلـه (نسور) الذي نتحدث عنه[1] .

و (نسر) هو اسم صنم من الأصنام التي عرفها أهل الأخبار . فقد زعموا أنه أحد أصنام نوح الخمسة ، وأن (عمرو بن لحي) جاء به الى حمير ، فأشاع عبادته بينهم[2] .

وأما اسم الإلـه (ال فخر) ، فيظهر أنه مؤلف من كلمتين ، هما : (ال) اسم الإلـه (ايـل) المعروف عند الساميين ، و (فخر) ، وهي نعت من نعوت الآلهـة . كما في كلمة (ال تعلي) في النصوص القتبانية ، وهـي بمعنى (الله تعالى) في لهجتنا . و (فخر) العربية ، هي مثل (بخرو) في الآشورية، ومنها العلم المركب : (نبخر بلو)[3] .

وورد اسم الإلـه : (يعوق) أي الصنم يعوق المعروف ، في نص متأخر ، يعود عهده الى ما بعد الميلاد ، وورد معه اسم : (رحمنن بعل سمن) ، أي (الرحمن رب السماء) . وقد أرخ النص بشهر (ذ دون) (ذ داون) (ذي دوأن) لسنة (٥٧٤) من التأريخ الحميري . المقابلة لسنة (٤٥٩) للميلاد[4] .

وهناك أسماء آلهة لا نعرف من أمرها في الوقت الحاضر شيئاً كثيراً ، من بينها الإلـه (بلو) ، وقد عبر عنه بأنه إلـه البلاء والموت والمنون . وإلـه يقـال له (حلفن) (حلفان) ، ويقال إنه إلـه القسم والحلف واليمين،والإلـه (ورفو)، وهو إلـه الحـدود ، أي الإلـه المختص بالمحافظة على الحدود ، و (منضح) (منضحت) ، وهو إلـه الماء والري ، و (متبقبط) ، وهو إلـه الحصاد عند المعينيين ثم الإلـه (يهرهم) ، وهو إلـه المطر[5] .

ولا بد من الاشارة الى اسم إلـه ورد في كتابات عثر عليها في (شبام سخيم)

---

١ راجع النص : Rep. Epigr., 4725, Arabien, S. 246.

٢ Reste, S. 23, Ryckmans 16, Winckler, Arabisch-Semitisch Orientalisch, S. 118, Arabien, S. 85.

٣ Katabanische, II, S. 38.

٤ Ryckmans, in Le Muséon, 1954, Tome, LXVII, pp. 100, A. Fakhry, An Archaelogy. Journey to Yemen, III, p. 195, PL : XXLX, XXX.

٥ Arabien, S. 246.

وهو الإلـه (قين) (قينان) . وهو إلـه (بني سخيم)[1] .

لقد تجمع لدى علماء العربية الجنوبية من أسماء آلهة العرب الجنوبيين مـا ينيف على مئة اسم إلـه ، غير أن اكثر هذه الأسماء ليست في الواقع أعلاماً ، وإنمـا هي صفات ونعوت للآلهة ذكرت بدلاً من ذكر اسم الإلـه الخاص . أو كنايـة تشير الى أسماء المواضع التي كانت فيها معابد تلك الآلهة ؛ فقد كان لبعض المدن معابد خصصت بعبادة إلـه ، ربما كان إلـه المدينة أو جملة آلهة لها بالطبع صلـة بالمدينة وبالشعب الذي تنتمي المدينة اليه . غير أن هذه الآلهة جميعها يمكن رجعها الى ثلاثة ، هي القمر والشمس والزهرة . أي الى ثالوث يرمز الى هذه الكواكب الثلاثة[2] .

وهناك أسماء مثل (يثعم) في السبئية ، و(ككون) في المعينيـة ، و (ارن يدع)[3] ، و (سميهت) ، و (ذ اينت) ، و (نقين) ، و (نو شم) و (هروم) ، يظن أن لها صلة بالآلهة .

وكما حفظت نصوص المسند أسماء بعض آلهة العرب الجنوبيين،حفظت النصوص الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية كذلك أسماء بعض آلهة تلك الشعوب . وهي كما يظهر من دراستها وتحليلها خليط من آلهة ترد أسماؤها في روايات الأخباريين ، ومن آلهة ترد أسماؤها في النصوص العربية الجنوبية ، كما ان بينها أسماء آلهة لم ترد لا في أخبار الأخباريين ولا في نصوص المسند . ولاتصال مواطن هـذه الشعوب بمواطن الساميين الغربيين وبمواطن الساميين الشرقيين ومتاخمتها لعرب العراق ونجد والقبائل العربية في الحجاز ولصلاتها التأريخية القديمة بالعرب الجنوبيين،كان لدراسة الناحية الدينية عند هذه الأقوام أهمية كبيرة في معرفة التطورات الدينية قبل الاسلام، وهذا الخليط الذي أشرت اليه هو في حد ذاته دراسة قيمة تشير الى التقاء التيارات الدينية واتصالها بهذه البقاع .

وحفظت النصوص الثمودية أسماء جملة آلهة ، تعبدوا لها وتقربوا اليها بالقرابين والنذور . منها الإلـه : (ود) و (جد هـدد) و (شمس) و (عزيز)

---

١ Arabien, S. 245

٢ Ency. Britani., Vol., 19, p. 486.

٣ Arabien, S. 246.

و (نعرجد) و (عمى شجا) و (رضو) و (منت) و (كهل) و (نهي) و (ايل) (ال) و (لت) (السلات) و (عتر سم) (عتر سمن) و (صلم) و (منف) (مناف) .

و (جد) هو إلـه عرف عند بني إرم وعند العرب الشماليين وفي المقاطعات السورية ، وهو إلـه (السعد) في اليونانية ، يسعد الأشخاص والبيوت . وقد سمي به موضع (بعل جد) وموضع (مجدل جد) ، وأسماء مواضع أخرى فيها كلمة (جد)[1] .

وقد وجدت جملة (الإلـه ازيزوس الفتى الطيب) مدونة على جدران أحد المعابد باللغة اللاتينية ، ووجدت جملة أخرى فيها : (الإلـه الطيب الفتى فوسفورس)[2] ، وفي وصف الإلهين بـ (الفتى) وبـ (الطيب) دلالة على ان المتعبدين لهما كانا يتصوران انهما كانا فتيين طيبين خيرين يمثلان الطيب والمودة . ونجد في نص تدمري وصفاً للإلهين : (ارصو) و (ازيزو) ، أي (رصو) و (عزيز) ، يشبه الوصف المتقدم ، إذ ورد : (لارصو ولازيزو : الإلهان الخيران المجزيان) ، و (ازيزو : الإلـه الطيب والرحيم) . فوصف الإلهان بأنهما خيران ، ويجزيان الناس خيراً . وهي نعوت تمثل وجهة نظر القوم الى هذين الإلهين .

وقد عثر في (تدمر) على نص ورد فيه : « لا رصو ولا زيزو . الإلهان الخيران المجزيان . قد عمله بعكي (بعلي؟) بن ير حيبولا . أفكل ازيزو الإلـه الطيب والرحيم . لسلامته ولسلامة إخوته . في شهر اكتوبر من سنة ٢٥ . فليذكر الناس يرحى النحات »[3] . فنحن أمام إلهين : (ارصو) و (ازيزو) ، من آلهة تدمر .

وورد اسم الإلـه (ازيزوس) والإلـه (مونيموس) في كتابات عثر عليها في (الرها) وفي حوران وتدمر. وقد ظهر الإلهان في نقش ، حفر عليه موكب عربة الشمس . نقش (أزيزوس) ، وهو يتقدم العربة ، و (مونيموس) ، وهو يتبعها[4] .

---

١ Hastings, p. 276.

٢ رينه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام (١٤٠) .

٣ رينه ديسو (١٣٥ وما بعدها) .

٤ رينه ديسو (١٣٤ وما بعدها) .

و (ارصو) (أرصو) ، هو الإلـه (رضو) عـلى ما يظن . وأما (ازيزوس) (أزيزو) ، فهو اسم إلـه لعلـه (عزيز) ، تحرف فصار على النحو المذكور في الكتابات اللاتينية : والإرمية . وأما (مونيموس) ، فهم (منعم). وأرى أن عزيزاً ورضياً ومنعماً هي من الأسماء الحسنى ، أي نعوت من نعوت الآلهة لا أسماء علم . وذلك على نحو ما نسمّي اليوم بـ : (عبـد الرضا) ، وبـ (عبد العزيز) ، وبـ (عبد المنعم) .

و (هدد) هو اسم إلـه تعبدت له شعوب عديدة من شعوب الساميين ، منهم بنو إرم والعرب الجنوبيون والشماليون ، كما تعبد له الآشوريون . وقد اقترن اسمه عند الآشوريين والبابليين بـ (رمان)،ودخلت عبادته اليهم من بني إرم الغربيين. ويمثل (هدد) مثل (رمان) (رمون) Ramman = Rammon = Rimmon إلـه الهواء والرعد والعواصف ، ويظهر أنه من أصل عربي هو (هد) . ومن اسم هذا الصنم الاسم (بنهدد) (بن هدد) (بنحدد) المذكور في التوراة[1] .

ولا بد ان تكون لهذا الإلـه صلة بالإلـه (جد) ، ومن هذا الاقتران ظهر (جد هدد) في كتابات قوم ثمود .

و (رضو) هو الصنم (رضى) عند الأخباريين ، وهو صنم بقي حياً تتعبد له القبائل العربية حتى الاسلام ، فكسر[2] . ويرى (دتلف نيلسن) ، انه يمثل الزهرة عند قوم ثمود والصفويين ، وانه في منزلة (عثر) عند العرب الجنوبيين[3] . وقد تعبدت له (بنو ربيعة بن كعب) ، كما تعبّد له أهل تدمر والنبط وأهل الصفاة ، وعرف بـ (هـ — رضو) (هارضو) ، أي بادخال (هـ) (ها) أداة التعريف على الاسم . وقد انتشرت عبادته بين قبائل نجد والحجاز[4] .

ويرى (رينه ديسو) ان (رضى) إلهة عند الصفويين ، وانها كانت إلهة كذلك عند بقية العرب . أما (ارصو) ، فإنه مذكر عند أهل تدمر[5] .

---

١ Hastings, p. 323.

٢ الاصنام (ص ٣٠) .

٣ Handbuch, I, S. 229.

٤ E. Oslander, 499, Reste, S. 58, Ryckmans 18, Jaussen-Savignac, Mission, II, 565, 583, 598, Arabien, S. 84.

٥ رينه ديسو (١٣٦) .

أما (عزيز) ، فإنه الإلـه (عزيزو) Azizo المعروف عند أهل (الرها) ، الذي تحدثت عنه . وقد ذهب بعض الباحثين الى انه يمثل كوكب الصباح ، أي الزهرة . وقد وصف في كتابة مدونة باليونانية انه : Deus bonus puer phosphorus أي الإلـه الجميل اللمّاع ذو الأشعة البراقة التي تشبه في لمعانها لمعان الفوسفور[١] .

و (كهل) أو (كاهل) ، هو (كهلن) المذكور في كتابة معينية. وقد ورد الاسم مقروناً في نص ثمودي بأداة التعريف (ه) (ها) ، أي (ه ك ه ل) (ها — كهل) (هكهل) . وتعني لفظة (كهـل) المعنى المفهوم منها في عربيتنا ، كما تعني (القدير)[٢] .

وتعني كلمة (نهي) في الثمودية ما تعنيه لفظة (حكم) في العربية الجنوبية، أي (حكم) وحاكم و (حكيم) في بعض الآراء ، ولعلّهـا تعني (الناهي) وتكون بذلك صفة للإلـه.وقد ورد اسم هذا الإلـه في مواضع عديدة من الكتابات الثمودية [٣] .

وأما (منف) ، فإنه الصنم (مناف) المذكور عند أهل الأخبار[٤] . وقد تعبدت له قريش ولحيان ، كما تحدثت عنه في موضعه .

وقد ورد اسم (صلم) في عدد من الكتابات الثمودية . ويظهر أن الثموديين كانوا قد أخذوا عبادة هـذا الإلـه من أهل (تيماء) . فقد كانت تيماء من أهم الأماكن المتعلقة بعبادة هذا الصنم في حوالي السنة (٦٠٠) قبل الميلاد . وقـد جاءت عبادته اليهم من (بني إرم) . ومنهم انتقلت عبادته الى العرب . وتدل بعض الأسماء المركبة الواردة في الكتابات اللحيانية مثل اسم (صلم يهب) (صلميهب) على أنه كان معبوداً عند اللحيانيين كذلك[٥] . ومن لفظة (صلم) جاءت كلمـة (صنم) على رأي بعض المستشرقين .

وقد ورد اسم (عترسم) (هـ — عترسم) في عدد من الكتابات الثمودية .

---

١ Handbuch, I, S. 220.

٢ Handbuch, I, S. 215, Glaser 299, Halevy 237, Hommel, Grundriss, S. 163, E. Littmann, Zur Entzifferung der Thamudischen Inschriftten, 1904, S. 75.

٣ Handbuch, I, S. 215.

٤ اخبار مكة ، للازرقي (٧٨/١) ، Ryckmans 16, Reste, S. 18, Arabien, S. 84.

٥ Hubert Grimme, Die Losung des Sinaischriftproblems, Die Altthamudische Schrift, Munster, 1926, S. 23, Arabien, S. 86.

وقد توسل فيها أصحابها منه أن يمن عليهم بالبركة والخير والصحة والسلامة[١] .
وقد جاء اسم هذا الصنم من (عثتر سمن) (عتر سماء)،أي (عثتر السماء) .

والإلـه (ود) هو إلـه معروف عند الثموديين كما سبق أن ذكرت . وقد تودد اليه عباده والمؤمنون به ، فذكروه في كتاباتهم ، ورمزوا اليه بصورة حية، كما رمز اليـه العرب الجنوبيون بصورة رأس ثور . وقد تعبر صورة الحية عن الروح التي في بدن الإنسان[٢] .

وذهب (دتلف نلسن) الى أن من بين آلهة ثمود إلـه اسمه (ملك) ، وهو يرى أن الإسم المركب (عبد ملكن) ، أي (عبـد الملك) ، لا تعني كلمة (ملك) ، الواردة فيه بالمعنى السياسي الذي نفهمه منها ، وإنما المراد بها اسم إلـه . وذهب أيضاً الى أن لفظـة (ملكن) الواردة في النص القتباني الموسوم بـ Glaser 1600 لم يقصد بها ملكاً من ملوك قتبان ، بل أريد بهـا إلـه اسمه ملكن ، أي (الملك) . وذكر أيضاً ان اسم (عبد الملك) من الأسماء المعروفة في الجاهلية ، ورد في نصوص الثموديين والصفويين[٣] .

وفي الكتابات الثمودية أسماء مركبة مثل (يعذر ال) (يعذر ايل) ، و(صلم ال) (صلم ايل) ، و (عزر ال) (عزر ايل) ، و (سعد ال) (سعد ايل) ، و (ود ال) (ود ايل) ، اختتمت باسم الإلـه (ال) (ايل) ، مما يدل على ان (ال) (ايل) كان من الآلهة التي تعبّد لها قوم ثمود .

ومن الأسماء الثمودية المركبة الأخرى (بعثتر) وفيه اسم الإلـه (عثتر) الذي عرفناه في المسند ، و (يثع امر) (يثع أمر). وفيه اسم الإلـه (يثع) ، وهو من الأسماء المستعملة بكثرة في العربية الجنوبية . و (صلم دع) و (صلمن دعم) ، فـ (صلمن) اسم الإلـه (صلم) من آلهة قوم ثمود المعروفة ، و (تيم يغث) (تيم يغوث) ، وهو اسم مركب من اسمي إلهين هما : (تيم) و (يغوث)[٤] .

---

١ Hubert Grimme, S. 43.
٢ Arabien, S. 269.
٣ Handbuch, I, S. 232, D. Nielsen, Studier over Oldarabiske Indskrifter, Kobenhava, 1906, p. 136, O. Weber, Studien zur Sudarabischen Altertumskunde, in MVAG., 1917, S. 26-31.
٤ Grimme, S. 33.

ووردت في الكتابات اللحيانية ، أسماء جملة آلهة . منها : (ذ غابت) (ذو غابة) و (عوض) ، و (ود) ، و (بعل سمن) ، و (سلمان) (سلمن)، و (العزى) ، و (منف) (مناف) ، و (جدت) ، و (ال) (ايل) ، و (إلـه) ، و (لت) (الت) ، و (سمع) ، و (نصر) ، و (منت) ، و (هفلس) ، و (عجلبون) (عجلبن) ، وأكثر هذه الآلهة كما نرى معروفة ، وردت أسماؤها في الكتابات وفي مؤلفات أهل الأخبار .

والإلـه (ذ غبت) (ذو غابة) ، هو من أشهر آلهـة اللحيانيين . ولعله إلههم الأول والأكبر . ومع ذلك ، فإننا لا نعرف عنه شيئاً كثيراً . وقد كان له معبد في (الديدان)[1] . وخوطب بكلمة (قدست) ، أي القدس أو المقدس في كتابة من كتاباتهم ، وقيل انه في جملة ما قدم اليه من قرابين ، قرابين من البشر[2] .

وليست كلمة (ذ غبت) (ذو غابة) ، اسم علم للإلـه ، بل هي صفة له ، تعني : (صاحب الغابة) ، أو (صاحب غابة) . وقد وردت لفظـة (ذ غبت) في الأعلام المركبة ، مثل : (عبد ذ غبت) (عبد ذو غابة) ، و (فلح ذ غبت) (فالح ذو غابة) ، و (خرح ذغبت) (خرح ذو غابة) ، و (مـر ذ غبت) ، أي (مرأ ذو غابـة) ، و (زيد ذ غبت) ، أي (زيد ذو غابة) . وورد (عرر ذ غبت) ، أي (عرر ذو غابة) . والعرو والعر ، الجرب ، وهو مرض جلدي معروف . فكأن صاحب الكتابة أراد بها ، ان الإلـه (ذو غابة) يرسل هذا المرض الى مخالفيه ومن يعارض أحكامـه أو يعتدي على غيره[3] .

وأما (عوض) ، فقد ورد اسمه في الأعلام المركبة مثل : (عبد عوض)، و (جد عوض) ، وقد تعبّد له الصفويون كذلك[4] .

وأما ودّ ، فهو إلـه عام له شهرة عند العرب ، وقد عمت عبادته كل جزيرة

---

١ Ryckmans 19, Jaussen-Savignac, Mission, II, 368, 371, 375, W. Caskel, Lihyan, S. 45, Arabien, S. 85.

٢ Histoire Generale des Religions, Tome, IV, p. 312, Preislamiq., p. 19.

٣ W. Caskel, Lihyan., S. 44.

٤ Histoire, IV, p. 312, Preislamiq., p. 19, Handbuch, I, S. 193.

العرب . والظاهر أنه كان من الآلهة العربية القديمة،وقد بقي معبوداً حتى الإسلام : وهو من الأصنام المذكورة في القرآن[1] . وقد نعت بـ (افكل) ، وورد اسمه في الأعلام اللحيانية المركبة[2] . وتعبدت له تميم ، وطيء ، والخزرج ، وهذيل ، ولخم ، وقريش . وأقيم له صنم في دومــة الجندل ، صنع على هيأة انسان . ويرى البعض انه الإلـه (أدد) عند ثمود . ويظن أن الصنم (قـوس) يرمز اليه ، ويرى بعض الباحثين أن (نسراً) والصنم (ذو غابت) يرمزان اليــه كذلك[3] .

وقد نعت (ود) في بعض النصوص العربية بـ (نحسطب) (نحس طب) ، ومعناه (الحية الطيب) (الحية الطيبة) ، لأن الحية رمز للإلـه (ود)[4] .

ويظن أن اللحيانيين كانوا يتعبدون لهذا الإلـه منذ كانوا في مواطنهم الأولى ، فلما هاجروا الى (ديدان) لم ينسوه ، ولكنهم بقوا يتعبدون له ويتقربون اليه ، لأنه إلـه الآباء والأجداد وإلـه لحيان الأكبر ، كما تفعل بقية القبائل في اتخاذ إلـه الآباء والأجداد الإلـه الأول للقبيلة ، والصنم الأكبر بين الأصنام[5] .

وأما (بعل سمن) أي (رب السماء)،فقد تحدثت عنه ، ووجدنا أنه كان معبوداً عند العرب الجنوبيين ، والغالب أنهم أخذوا عبادته من العرب الشماليين . وقد كان له معبد في (ديدان) . وقد نعت معبده بـ (احرم) (احرام) ، بمعنى (الحرم) ، أي حرم الإلـه (بعل سمين) (رب السماء)[6] . وتعبــد له (النبــط) وكانوا قد أقاموا له معبداً في (سيع) ، وذلك فيما بين السنة ٣٣ / ٣٢ — ١٢ / ١٢ قبل الميلاد[7] .

والظاهر أن اللحيانيين قد أخذوا هذا الإلـه من النبط . وقـد تشرف أحدهم بتسمية نفسه بـ (عبد سمن) أي (عبد السماء)[8] . وقصد بـ (سمن) الإلـه

---

١ سورة نوح ، رقم ٧١ ، الآية ٢٣ .
٢ Histoire, IV, p. 312.
٣ Arabien, S. 87, Reste, S. 14, Ryckmans, 16, Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 395, 581.
٤ Grohmann, Gottersymbole, S. 71.
٥ Lihyanish, S. 44.
٦ Histoire, IV, p. 312, Preislamiq., p. 20.
٧ W. Caskel, Lihyan, S. 45.
٨ W. Caskel, Lihyan, S. 124

(بعل سمن) ، أي (رب السماء) . وقد اختصر الاسم ، فصار (سمن) (سمين) .

والعزى من الأصنام المعروفة عند أهل الأخبار . وقد بقيت عبادته معروفة الى الاسلام. وقد أشير اليه في القرآن . وقد ذكر اسمه في كتابات عثر عليها في(العلا)[1]. وتعبد له النبط كذلك ، وصنعت له معبداً في (بصرى) دعي (بيت ايل) . وعبر عنه بـ (كوكبتا) ، أي (الكواكب) ، وهو أنثى ، أي إلهة[2] .

وقد ورد اسم (العزى) على هذه الصورة : (هنعزى) في كتابة لحيانية، دوّنها رجل اسمه (أوس بن حجر)[3] . ويظن بعض الباحثين ، أن العزى تمثل كوكب الصباح . ويظهر أن اللحيانيين قد أخذوا عبادتها من نبط بلاد الشأم[4]. وأنها لم تكن من آلهة اللحيانيين في الأصل ، بدليل عدم ورود اسمها كورود (ذو غابة) أو الآلهة اللحيانية الأخرى في النصوص اللحيانية[5] .

وورد اسم العُزى في الأعلام المركبة ، مثل : (بل عزيني) (بال عزيني) و (بـ ايل عزيني) ، أي بـ (العزيني) ، وذلك في الكتابات الثمودية . و (تيم العزى) و (عبد العزى) و (امت العزى) ، وفي كتابات أخرى تعود الى ما بين القرن الخامس قبل الميلاد ، والقرن الرابع بعد الميلاد[6] .

ويظهر من بعض الأعلام اللحيانية المركبة ، مثل (اوس يه) (اوس يهو)، و (عزريه) (عزر يهو) ، أن القسم الثاني من الاسم ، وهو (يه) (يهو)، قريب من (يهوه) ، وهو الإله الكبير المعروف عند العبرانيين . فـ (يه) (يهو) هو اسم إله من آلهة اللحيانيين .

وأما الإله (جدت) ، فالغالب أنه إلهة ، أي إلهاً أنثى بدليل وجود تاء التأنيث في آخر الاسم . والأصل هو (جد) ، وهو اسم إله تكلمت عنه[7] .

---

١ Histoire, IV, p. 312, Preislamiq., p. 20.

٢ Doughty, Travels in Arabia Deserta, II, p. 511, 515.

٣ W. Caskel, Lihyan., S. 82.

٤ Lihyan., S. 262.

٥ Lihyan., S. 45.

٦ Littmann, Thamud und Safa, S. 29.

٧ Ryckmans, Preislamiques, p. 19, Histoire, IV, p. 312.

وأما (هفلس) (ها – فلس) ، فإنه (الفلس) ، عند أهــل الأخبار . وقد ذكروا أنه كان على هيأة حجر أسود تعبدت له (سليم) ، أو على صورة إنسان قدّ من حجر عند (طيء)[١] .

و (قيس) و (قيسو) من أسماء الآلهة المذكورة في الكتابات اللحيانيـة . وقد كان له معبد عرف بـ (بت قس) (بيت قيس) في مدائن صالـح[٢] . ويدل وجود اسمه في الأعلام العربية المركبة ، مثل (عبد قيس) و (عبــد القيس) ، انه كان من الأصنام المعروفة المعبودة عند بقية العرب في مختلف أنحاء جزيرة العرب .

وورد في كتابة لحيانية اسم إلـه هو : (محر) (هـ – محر) (همحــر) وبعده اسم إلـه آخر ، هو (هنا كتب) . ويظهر انه من الآلهــة التي كانت تعبد في العربية الجنوبية وعند المعينين الشماليين ، وتعني لفظة (محر) شريعة ، أو قانون أو أمر ، أو سُنّة . وهو من الآلهــة التي اختفى اسمها في الكتابات اللحيانية المتأخرة[٣] .

وأما (هنا كتب) (هانيء كاتب) (هني) (هاني) ، و (هني كتب) (هاني كتب) المذكور مع (هـ – محــر) (همحر) (هامحــر) ، فيرى (كاسكل) W. Caskel انه الإلـه (توت) Thot[٤] . و (توت) هو إلـه مصري ، ويرمز اليه بصورة قرد . ويمثله الإلــه (نبو) عند البابليين . ويمثل (توت) (هرمس) و (المريخ) Merkur . فهو الإلـه الكاتب . ولعــل اللحيانيين أخذوا إلههم هذا من المصريين[٥] . ولكننا لا نستطيع أن نجزم ان اللحيانيين قد تصوروا إلههم هذا على صورة (قرد) محاكاة للمصريين لأنهم أخذوه منهم ، إذ لا دليل لدينا نستدل به على انهم تصوروا ذلك الإلـه بصورة قرد[٦] .

---

١ E. Osiander, 501, Reste, S. 51, Preislamiques, p. 17 Arabien, S. 84, Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 84.

٢ Reste, S. 67, Preislamiques, p. 48, Arabien, 85, Jaussen-Savignac, Mission, II, 501, 520, 528, I, 169, 200, CIS, II, 209, Daughty, Documents Epigraphiques, p. 38, CIS, II, 198, J. Euting, Tagebuch., II, S. 262.

٣ Lihyan, S. 45.

٤ Preislamiques, p. 20, Arabien, S. 86.

٥ Lihyan, S. 45.

٦ Lihyan, S. 45.

ووردت في بعض الكتابات اللحيانية أعلام مركبة ، جاء فيها اسم هذا الإلـه ، مثل (جرم هنا كتب) ، و (زيد هنا كتب) . ومعنى (جرم) و (زيد) خادم أو عبد ، فيكون الاسم (عبد هنا كتب) ، (عبد هنا كاتب)[1] .

وأما (سلمن) (سلمان) ، فإنه من الآلهة التي ظهرت عبادتها عند اللحيانيين المتأخرين . ويرى بعض الباحثين انـه والإلـه (اب الف) (أبو ايلاف) من الآلهة التي كان واجبها حماية القبور . وقد رمز عن (ابـي ايلاف) بصورة أسد يوضع عند جانب القبر ليحميه[2] .

وقد ورد اسم الإلـه (ابا لف) (ابو ايلاف) اسم علم لشخص كان كبيراً على قومه ، وذلك في ايام الملك (عبدان بن ها نواس)[3] .

وورد اسم إلـه هو (شمس) ، وقد عبد عند أهل تدمر أيضاً ، كما تعبدت له تميم . ونجد بين أسماء رجال قريش وقبائل أخرى أسماء تدل على تعبـد الناس للشمس ، ومن هذه الأسماء : (عبد شمس)[4] .

وأما الإلـه (عجلبن) (عجلبون) (عجل بن) ، فإنه من الآلهة اللحيانية المتأخرة . ويظهر ان اسمه الأصلي هو (عجل بل) (عجل بول) (عجلى بل) أي (عجل) و (بول) . ونجـد اسمه مـع (يرحى بول) (يرح بل) (يرحبل) ، و (بل) في الكتابات التدمرية . ويظهر ان تاجراً جاء بـه الى اللحيانيين ، وأدخل عبادته عندهم . ويظهر انه جاء به من العراق[5] .

ولدينا أسماء ونعوت آلهة تعبد لها اللحيانيون من غير شك ، وإن لم نعثر عليها في كتاباتهم ، توصلنا الى معرفتها والوقوف عليها من دراستنا للأسماء اللحيانيـة المركبة ، مثل (كبر ال) (كبر ايل) ، و (متع ال) (متع ايل) ، و (ذرح ال) (ذرح ايل) (ذرحال) ، و (عذر ال) (عذر ايل) ، وأمثال ذلك ، فإن اللفظة الثانية وهي (ال) (ايل) ، هي الإلـه (ايـل)

---

١ Lihyan, S. 45.
٢ Lihyan, S. 45.
٣ Lihyan., S. 113.
٤ Starcky, Palmyre, 37, 80, O. Eissfeldt, 95, 101, Arabien, S. 87.
٥ Lihyan, S. 45.

(ايلو) ، وهو من الآلهة السامية القديمة [١] .

وبين الأسماء التي وصلت الينا ، اسم رجل عرف بـ (عبد قني) (عبد قاني) [٢] ، مما يدل على ان لفظة (قني) ، هي اسم إلـه أو نعت من نعوت الآلهة .

وورد في الكتابات اللحيانية المتأخرة اسم رجل عرف بـ (عبد غث بن زد له سمم) [٣] ، أي (عبد غوث بن زيد لاه بن سمم) (سموم) ، كما ورد (زد غث) ، أي (زيد غوث) [٤] ، وذلك يدل على ان لفظة (غوث) اسم إلـه . وعندي ان (غوثاً) نعت من نعوت الآلهة ، أي اسم من أسماء الله الحسنى لا اسم علم لإلـه خاص .

و (خرج) من الآلهة التي تعبد لها اللحيانيون ، بدليل ورود اسمه في أسماء الأعلام المركبة مثل : (زيد خرج) و (عبد خرج) [٥] .

ويعد (رعن) من آلهة اللحيانيين كذلك ، إذ ورد في الأعلام المركبة ، مثل : (رعنامر) ، أي (رعن أمر) ، وهو اسم رجل من (ديدان) . فـ (رعن) من آلهة الديدانيين أيضاً ، ومثل : (رعنامد) (رعن امد) ، ومعنى (امد) أغضب ، و (رعنلثع) ، (رعنلثع) ، أي (رعن احاط) و (رعن ادرك) . فـ (رعن) اذن اسم إلـه من آلهة اللحيانيين والديدانيين [٦] .

والإلـه (يثع) و (يثعن) ، من الآلهة التي تعبد لها اللحيانيون ، فقد ورد في النص الذي وسمه الباحثون برقم (٧٣) وبـ J S 73 و M 26 ، اسم امرأة عرفت بـ (امتيثعن بنت دد) ، أي (أمة يثعن بنت داد) ، (أمة اليثع بنت داد) ، وورد في الكتابات اسم رجل عرف بـ (يثع حيو) [٧] ، واسم رجل آخر هو

---

١ (جرم ال) (جرم ايل) (عزال ، (عزايل) (عم ال) ، (عم ايل) ، (ايس ال) (ايس ايل) ، (سعد ال) (سعد ايل) ، (يمسك ال) (يمسك ايل) ، Lihyan, S. 46.

٢ Lihyan, S. 47, 143, JS 214.

٣ JS 41, Lihyan, S. 109.

٤ JS 298, Lihyan, S. 47, 154.

٥ Lihyan, S. 47.

٦ Lihyan, S. 47, JS 106, JS 116, JS 142.

٧ Lihyan, S. 100.

(يثعحن) ، مما يدل على ان (يثع) كان إلهاً معبوداً ومعروفاً عند (بني لحيان).

وقد ورد في كتابة من كتابات (ديدان) اسم رجل عرف بـ (يثع امر) (يثع أمر) ، فقد ورد في النص الموسوم بـ (٢) من الكتابات القبورية : (كهف : يثعامر) ، أي (قبر : يثعامر) (قبر يثع أمر)[١] . واسم (يثع أمر) هو من الأسماء الشائعة المعروفة عند العرب الجنوبيين ، وقد تسمى به ملوك من ملوك (سبأ) . فالظاهر انــه من الأسماء التي أخذها الديدانيون واللحيانيون عن العرب الجنوبيين ، ومن الجاليات العربية الجنوبية التي كانت قد استقرت في أيام عز الحكومات العربية الجنوبية في هذه الأماكن . فـ (يثع) اذن ، هو إلـه من آلهة العرب الجنوبيين في الأصل ، انتقلت عبادته منهم الى أهل ديدان واللحيانين .

ومن الآلهة التي نجد لها أثراً في عبادة اللحيانيين من دراستنا لأسمائهم ، الإلـه: (حمد) (حميد) . فقد ورد في اسم امرأة عرفت بـ (امتحمد بنت عصم)[٢] . وأرى ان (حمد) أو (حميد) ليس اسم إلـه ، أي اسم علم ، وانما هو نعت من نعوت الآلهة ، أي اسم من الأسماء الحسنى ، التي يسم الانسان بهـا آلهته ، على سبيل التأدب والاحترام .

ونرى أثر عبادة الإلـه (مناة) عند اللحيانيين من دراستنا للأعلام المركبــة أيضاً ، مثل : (عبد مناة) (عبد منت)[٣] ، و (اسمنت) (اوس منت) ، أي (أوس مناة)[٤] ، و (عبمنت) اختصار (عبد مناة) و (عبدة مناة) ، و (عذ منت) ، أي (عوذ مناة) ، و (عابذ مناة) ، و (هون منت) (هون مناة) ، و (نعم منت) (نعمت) أي (نعم مناة) ، و (نسمنت) (نسأ مناة) ، و (قن منت) (قنمنت) ، أي (قين مناة) ، و (سنفمنت) (سنف مناة) ، و (تهنمنت) (تهنأ مناة) ، الى غير ذلك من أعلام مركبة، ورد فيها اسم ذلك الإلـه[٥] الذي هو إلهة ، أي أنثى عند العرب . وقد ذكرت

---

١ Lihyan, S. 78.

٢ راجع السطر الاول من النص المرقم بـ : ٧٨ ، المنشور في كتاب : Lihyan, S. 115.

٣ Lihyan, S. 103.

٤ JS 10, Lihyan, S. 143.

٥ Dihyan, S. 46.

في القرآن الكريم . ولا أستبعد ان يكون أنثى عند اللحيانيين أيضاً . ولعل لأصل الكلمة التي أخذ اسم هذه الإلهة منه ، وهو (منوتو) Manotu في النبطية ، وتعني (منية) في عربيتنا صلة ، بجعل الإلـه إلهة ، أي تحويلها الى إلهة أنثى .

والصنم (اللات) من الأصنام النبطية ، المعبودة عند النبط ، والمعبودة عند ثمود كذلك ، والظاهر ان عبادته انتقلت الى عرب الحجاز ونجد من العرب الشماليين ، الذين تأثروا بعبادة النبط[١] .

ووردت لفظة (هتهم) في كتابة لحيانية ، وردت بمعنى (إلاهتهم) ، أي تعبيراً عن إلهة أنثى[٢] . ويظن (كاسكل) ، انها تصغير (لات) (لث) . و (اللات) ، من الآلهة المعروفة المعبودة عند النبط ، وكذلك عند العرب الشماليين ، وعند عرب الحجاز . وقد ذكرت في القرآن الكريم ، وهي إلهة ، أي أنثى . وترد اللفظة عندهم في الأعلام المركبة مثل : (تيم اللات) (تيم لات)[٣] .

وقد وردت لفظة (هله) (هـ – لاه) في كتابة لحيانية ، وردت بصيغة التوسل والنداء والخطاب ، أي بمعنى : (اللهم) و (يا الله)[٤] . ووردت لفظة (للهِ) ، أي (الى الإلـه) أو (للهِ) ، في كتابة أخرى[٥] . وهي لا تعني في كلتا الحالتين إلهاً خاصاً معيناً ، وانما تؤدي المعنى الذي تؤديه لفظة (إلـه) و (الإلـه) في عربيتنا ، و God في الانكليزية ، وربما قصد بها إلـه لحيان الأكبر (ذو غابة) ، كما يقصد المسلمون باطلاقها لفظة (الله) ، وذلك للتعبير عن اسم الله بأسلوب مؤدب مهذب[٦] .

ومثل : (هنا له) (هنا لاه) (هنى لاه) ، و (نساله) (نسألاه) (نسى لاه) ، و (ودع له) (ودع لاه) ، و (مراله) (مرأ لاه) ، و (تيم له) (تيم لاه) ، و (وهب له) (وهب لاه) ، و (زيد له) (زيد لاه) ، و (جرم له) (جرم لاه) ، و (سعد له) (سعد لاه)[٧] ،

---

١ Lihyan, S. 46.
٢ Lihyan, S. 89.
٣ Lihyan, S. 46.
٤ Lihyan, S. 103.
٥ Lihyan, S. 104.
٦ Lihyan, S. 46.
٧ Lihyan, S. 46.

فإن الجزء الأخير من الاسم وهو (له) (لاه) ، هو (إلـه) . وإلـه من الألفاظ الدالة على الله ، وترد في أكثر اللغات السامية .

ويلاحظ ان أكثر استعمال (ال) (ايل) في العبرانية هو في الشعـر وفي أسماء الأعلام المركبة ، ولم يستعمل في النثر إلا قليلاً[1] . أما في اللهجات العربية وفي اللغات السامية الأخرى ، فقد استعملت اللفظة في الأعلام المركبة في الغالب ، وفي معنى (إلـه) مثل (ال تعلى) ، أي (الإلـه تعالى) ، وما شاكل ذلك ، أي بمعنى اسم من أسماء الله الحسنى وإلـه .

وعلى الرغم من ورود (ال) (ايل) El بصورة يستنبط منها انها قصدت إلهاً معيناً خاصاً ، أي اسم علم ، لا نستطيع ان نقول إن (ال) اسم علم لإلـه معين مخصوص ، مثل الآلهـة الأخرى التي ترد أسماؤها في الكتابات ، ذلك لأن الذين ذكروا (ال) (ايل) في الأعلام المركبـة ، أو في مواضع أخرى من كتاباتهم لم يقصدوا كما يتبين من الاستعمال إلهاً معيناً اسمه (ال) (ايل) ، وانما أرادوا ما نعبر عنه بقولنا (إلـه) والجمع آلهة . فلفظة (إلـه) عندنا ليست اسم علم ، وانما تعبر عن اسم الجلالة دون ذكر اسمه . وهي كذلك عندهم وعنـد بقية الساميين بمعنى (رب) ، وإلـه و (بعل) عند الأقدمين .

ولا يعرف العلماء معنى لفظة (ال) (ايل) على وجه علمي دقيق . ولكنهم يفسرونها عادة بمعنى (القدير) و (الحاكم) . ومعنى ذلك ان (ال) نعت من نعوت الآلهة ، أو اسم من أسماء الله الحسنى بحسب التعبير الاسلامي . ويرى بعض العلماء احتمال عدم وجود صلة له بـ (الوهيم) Elohim الكلمة العبرانيـة التي تطلق على الإلـه[2] .

وأما آلهـة الصفويين ، فهي (اللت) (لت) (هلت) ، و (دين) (ديان) ، و (هله) (هـ ل هـ) ، و (جد عوذ) ، و (بعل سمن) ، و (شيع هـ — قوم) (شيـع القوم) ، و (السـع) ، و (صالح) ، و (ذ الشرا) (ذو الشرى) ، و (رضا) (رضى) ، و (جد ضيف) ، و (رحم) (رحيم)[3] .

---

١ Hastings, p. 299, Lihyan, S. 46, Le Muséon. 1954, Tome, LXVII, p. 106.

٢ Hastings, p. 299.

٣ Ryckmans, p. 21.

و (الت) ، أي (اللات) إلهة أي أنثى ، ويراد بها الشمس . وقد مثلت في بعض النصوص الصفوية بقطعة من الشمس رسمت بصورة بدائية ، ورسمت في بعض النصوص السامية الشمالية بشكل امرأة عارية [1] ، رمز اليها بصورة فرس في النصوص العربية الجنوبية، والفرس من الحيوانات المقدسة التي ترمز الى الشمس عند قدماء الساميين وعند غيرهم من الشعوب ، ولذلك كان الناذرون لها يقدمون لها تماثيل مصنوعة على هيأة فرس[2] .

ولفظة (ديان) (ديّان) ، ليست اسم صنم على ما يظهر، وانما هي صفة من صفات الآلهة . وهي معروفة في عربيتنا وعند المسلمين ، تطلق على الله .

وقد استعمل الصفويون (جد عوض) اسماً لإلـه ، كما استعملوا اسماً آخر قريباً منه هو (جد ضيف) .

وقد ورد اسم الإلـه : (جد عوض) (هجد عوض) في نص محفوظ في متحف دمشق ، وسم بـ Damas 1312 ، وورد بعده اسم الإلهين : (شع هقوم) (شيع هقوم) ، و (هلت) (اللات)[3] .

وتقابل لفظة (جد) معنى الحظ في اللغـة اليونانية ، وقد صار في الأقاليم السورية المتحضرة الإلـه الحارس للمدينة . و (جدعوذ) هو إلـه معروف مشهور عند الصفويين ، وورد اسمه في كتاباتهم . وقد ذهب (رينـه ديسو) الى ان لفظة (عوذ) (عويذ) هي اسم عشيرة أو قبيلة كانت تتعبد للإلـه (جد) ، وكانت سدنته منهم ، فنسب اليهم وعرف بـ (جد عوذ) (جدعويذ) على طريقة العرب في ذلك العهد من نسبة الأرباب الى القبائـل أو العشائر أو السدنة التي يخدمونها أو الى الأشخاص الكبار[4] .

وقد ورد اسم الإلـه (جد ضيف) (جـد ضف) في عدد من الكتابات الصفوية التي عثر عليها في المملكة الأردنية الهاشمية . كما ورد فيها اسم إلـه آخر هو الإلـه : (هجد عوذ) (ها — جد عوذ)[5] .

---

١ Handbuch, I, S. 214.

٢ Handbuch, I, S. 227, Grohmann, Gottersymbole und Symboltiere auf Sudarabischen Denkmaler, Wien, S. 70.

٣ Ryckmans, Inscriptions Safaitiques, Louvain, 1951, p. 87.

٤ رينه ديسو (١٣٧)

٥ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, 1951, Vol., I, p. 27.

أما الإلـه (شيع القوم) ، فقد ورد اسمه في النصوص النبطية في (بطرا) وفي (تدمر) ، وهو إلـه القوافل في نظر بعض المستشرقين[1] .

وهو إلـه يحمي قومه. وقد احتمى به أهل القوافل خاصة من الأعراب وقطّاع الطرق . ولذلك كان التجار وأصحاب القوافل يذكرون اسمه وربما يحملون وثنه معهم لحمايته لهم في أثناء السفر حتى بلوغهم ديارهم سالمين .

وقد نعت في كتابة نبطية دوّنها أحد نبط (تدمر) ، بأنه (الذي لا يشرب خمراً)[2] . وهذا يعني ان هذا الإلـه كان يكره الخمور ، ويكره شاربيها ، ولعل في ذلك فكرة تحريم الخمر عند جماعته . وقد كان في الجاهليين من حرموا الخمر على أنفسهم . كما نعت بـ (الإلـه الطيب المجازي)[3] ، وهو نَعْت نُعِت به وبمثله آلهة أخرى . وقد ذهب بعض الباحثين الى احتمال وجود جماعة من النبط ومن غير النبط كانت تحرم شرب الخمر ، بدليل ما جاء في النص النبطي من نعته بأنه (الإلـه الطيب المجازي الذي لا يشرب الخمر)[4] . و (يثع) هو في جملة الآلهة التي تعبد لها الصفويون ، كما تعبد له غيرهم أيضاً . وقد قلت سابقاً باحتمال انتقال عبادته الى هذه الأرضين من العرب الجنوبيين الذين كانوا قد نزحوا اليها واستولوا عليها وذلك قبل الميلاد. وتعني لفظة (يثع) الحامي والناصر والمساعد، وقد حرّف في اليونانية الى (ايثاؤس) و (يشع) . وقد ورد (يثع) في نص توسل فيه صاحبه الى هذا الإلـه ان يعينه على المكاره ، وتوسل آخر اليه ان يثأر ممن يتبعه ، وطلب اليه آخر ان يشفيه من المرض[5] .

و (رحم) (رحيم) مثل (رحمن) ، أي (الرحمن) ، لعلهما اسمان من أسماء الله الحسنى في الأصل ، ثم صارا اسمين علمين . وينطبق هـذا القول على لفظة (صالح) الواردة في نصوص الصفويين[6] .

---

١ Histoire., IV, p. 14.

٢ Littmann, Semitic Inscriptions, 1904, p. 70, Montgomery, p. II, Cooke, North Semetic Inscriptions, p. 304.

٣ رينه ديسو (١٤٥) .

٤ رينه ديسو (١٤٥) .

٥ رينه ديسو (١٤٣ وما بعدها) .

٦ Preislamiques, p. 23.

وقد قرأ بعض الباحثين لفظة (رحم) : (رحام) . أما (نولدكه) ، فقد قرأها بتشديد حرف الحاء[1] . ولعدم وجود علامات لحركات الحروف ، يجوز ان تقرأ الكلمة (رحيم) ، كما ذكرت آنفاً . وقد ورد اسم هذا الإلـه في نص تدمري أيضاً ، لأنه كان معبوداً عندهم أيضاً[2] .

وقد ذكرت (الشمس) في نص أو نصين أو أكثر من ذلك بقليل من النصوص الصفوية . وعبادة الشمس ، هي عبادة قليلة الانتشار بين الأعراب ، على عكس الحضر الذين كانوا يتعبدون لها . ولهذا كان أكثر الذين عبدوها من الحضر ، أو من الأعراب الذين تطوروا بأن ركنوا الى حياة الحضر ، أو توسطوا بين الحياتين[3] .

وفي جملة النصوص الصفوية التي ورد فيها اسم (الشمس) ، نص سجله رجل اسمه (خالص بن شهم[4] بن عمرة بن عم)[5] . وقد توسل الى (شمس وجد عوذ واللات) ان تنزل العمى بمن يتطاول على الكتابة فيمحوها ويطمس معالمها[6] .

و (شمس) من هذه الآلهة التي ذكرت في الأعلام المركبة ، إذ ورد (عمشمس) (عم شمس)[7] . وهي إلهة معروفة ، تعبد لها العرب الجنوبيون وغيرهم من العرب ، كما انها من الآلهة المعبودة عند بقية الساميين . ويرى (كاسكل) ان الشمس كانت تعد إلهاً ذكراً عند أكثر العرب الشماليين في هذا العهد ، أي في القرن الأول قبل الميلاد ، والقرن الأول للميلاد[8] .

ونجد اسم الإلـه (بعل سمن) في الكتابات الصفوية كذلك[9] . والصفريون ،

---

١ رينه ديسو (١٤٤) .
٢ رينه ديسو (١٤٤) .
٣ رينه ديسو (١٤٤ وما بعدها) .
٤ « شهم » « شهيم » على هذه الصورة : « شوهيم » دونها مترجم : رينه ديسو ، أما الأصل الصفوي ، فهو « شهم » ، راجع رينه ديسو (١٤٢) .
٥ في الأصل « عمرت » ، « عمرة » ، في الترجمة « عمبرت » ، رينه ديسو (١٤٢) ، و « عم » في الأصل ، في الترجمة « عوم » ، رينه ديسو (١٤٢) ، ربما « عوام » .
٦ رينه ديسو (١٤٢) .
٧ Lihyan, S. 47, 144.
٨ Lihyan, S. 48.
٩ Littmann, Safa., S. 58.

هم كما ذكرت قبائل عديدة طافت في هذه الأرضين التي عثر على الكتابات الصفوية بها ، وهم من مواضع متعـــددة ، ولم يكونوا من موطن ثابت ، لذلك كانوا يعبدون آلهة مختلفة ، آلهة قبائلهم ، وآلهة قبائل سبقتهم ، وآلهـــة قبائل اختلطوا بها فأخذوا عنها معبوداتهم ، مثل هذا الإلـه (بعل سمين) ، أي بعل السماء ، أو رب السماء .

وتعدّ اللات من أهم الآلهـــة عند الصفويين ، بدليـــل كثرة ورود اسمها في كتاباتهم . فقد ورد اسمها في أكثر من ستين مرة في الكتابات[1] .

و (هـ ل هـ) ، (هله) هي بمعنى : (اللهم) . فلفظـــة (له) هي بمعنى (إلـه) و (لاه) . وقد ذهب بعض المستشرقين الى انها تعني (الله) . واذا صح هذا الرأي ، دلّ على ان لفظة الجلالة (الله) كانت معروفة عنـــد العرب الجاهليين قبل الاسلام بقرون . وقد وردت في عدد من النصوص الصفوية مسبوقة بحرف (الهاء) في الغالب ، وهو حرف النداء ، كالذي ورد في نص صفوي سجّله شخص اسمه (سني بن سني بن محنن) ، ذكر فيه انه عثر على أثر عمه ، ثم توسل الى (له) إذ خاطبه بقوله : « فهله سلم لذ ساد وغيرت » ، أي : « فيا الله امنح السلامة لمن سار بمعنى سافر وساعده »[2] .

و (رضى) (رضا) هو من الآلهة التي تعبد لها الصفويون كذلك ، وقد تحدثت عنه في مواضع عدة ، اذ كان معبوداً عند غيرهم أيضاً . وهو (ارصو) (ارضو) في الغالب ، الذي يرد في نصوص تدمر . وقد ورد اسم (رضى) في عدد من الكتابات الصفوية ، يتوسل فيها أصحابه اليه أن يمنّ عليهم بالسلامة والنعم ، وأن يبعد عنهم شر الأعداء وكيدهم ، وأن ينزل النقمة وغضبه على أعدائهم ،الى أمثال ذلك من توسلات وأدعية [3] .

وورود (عبد حت) ، أي (عبد حوت) ، في الكتابات المتأخـــرة [4] ، يدل على ان (حوتاً) من أسماء الآلهة التي تعبد لها اللحيانيون .

---

١ العرب في سورية قبل الاسلام (١١١) .
٢ رينه ديسو (١٣٤) .
٣ رينه ديسو (١٣٤) .
٤ Lihyan, S. 47, 143, JS 89.

و (حمل) اسم إلَه أيضاً ، لورود اسمه في الأعلام المركبة مثل : (عبد حمل)[1]، وهو من الأسماء التي وردت في الكتابات اللحيانية المتقدمة[2] .

وكثيراً ما نجد أناساً يتوسلون الى هذه الآلهة بأن تمنحهم السلام والرحمة ، وان تنكل بأعدائهم ، بل نجد شواخص القبور ، ترجوها ان تصيب بالعمى من يطمس كتابة الشاخص ، الذي يحمل اسم صاحب القبر المدفون فيه وان تنزل به الأمراض والآفات[3] . ومعنى هذا ان المؤمنين بها كانوا يعتقدون انها تثيب وتعاقب ، تمنح السلام والخير ، وتنفع وتضر،وتنزل الأذى بمن تريد وتشاء ، ولهذا توسل الناس اليها وخاطبوها ، إما لرجاء وإما لايذاء .

أما آلهة النبط ، نبط (بطرا) ، فهي : (ذو الشرى) Dushara ، و (اللات) ، وهو إلهة ، (ام الآلهة)[4] ، و (منوتو) ، أي (مناة)[5] ، و (قشح) ، و (هبلو) ، أي (هبل) ، و (شيع القوم) حامي القوم ، وإلـه القوافل[6] .

وأما (ذو شرا) (دوسرا) Dausarys = Dousares ، فإنه (ذو الشرى) الذي يرد اسمه عند أهل الأخبار . وهو من آلهة (بطرا) ، وقد زعم انه في منزلة (ديونيسوس) Dionysos . وعرف بـ Deos Arabikos = Dieu Arabiques في بعض الكتابات اليونانية التي عثر عليها في الأردن ، والتي يعود عهدها الى سنة (١١٦ — ١١٧) أو (١٢٦ — ١٢٧) للميلاد ، مما يدل على انه كان من الآلهة المعروفة بين العرب ، وانه إلههم الخاص بهم[7] .

وذكر ان Dusares هو في منزلة Dionysus ، وقد عرف عند اليونان بأنه إلَه العرب ، كما ذكرت . وانه الإلَه Pakades عند النبط ، وله معبد في (جرش) Gerash [8] .

---

١ Lihyan, S. 47.

٢ Lihyan, S. 143.

٣ راجع النصوص في رينه ديسو (ص ١٢٦ فما بعدها) .

٤ CIS, II, 85, 98, NSI, 80, Ency. Religl., 9, p. 112.

٥ CIS, II, 97, 98, NSI, 79. Ency. Religl., 9, p. 22.

٦ Ency. Religl., 9, p. 22.

٧ R. De Vaux, Une Nouvelle Inscription au dien Arabikue, ADAJ, I, 1951, p. 23, Arabien, S. 86.

٨ BASOR, NUM : 83, 1941, p. 8.

وورد اسم (دشر) (دوشرا) Dushares في عدد من النصوص الصفوية. ورد في هذه الجملة مثلاً : (فهلت وهدشر ثار لمن حولت)[1] ، أي (فيا اللات ويا ذو الشرى ، إثأرا ممن يحوّل) . ويقصد بـ (يحوّل) ، يحوّل شاهد القبر الذي كتبت عليه هذه الكتابة . كما ورد في عدد من الكتابات،يرجو فيها أصحابها من هذا الإلـه ان ينعم عليهم بالسلامة وان يتقبل منهم أعمالهم .

وقد ورد مع اسم (ذي الشرى) في بعض الكتابات النبطيـة ، اسم الإلـه (هبل) واسم (مناة) . و (هبل) هو صنم قريش الرئيس . وهو إلـه الكعبة ويرمز الى القمر . وقد وضع في الكعبة على هيأة انسان ، وأمامه حفرة عبر عنها بلفظة (بغبغ) ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، فعوضته قريش بيد من ذهب ، والظاهر ان الحية ترمز اليه ، أو الى ود ، وان الحية التي قيـل انها كانت في بئر زمزم ، هي رمز هبل[2] .

وورد اسم (اللات) مدوناً في نصوص نبطية عديدة ، فقد عثر بـ (صلخد) على كتابات من سنة (٤٠) قبل الميلاد ، وسنة (٥١) بعد الميلاد ، وسنة (٩٥) للميلاد ، وعلى نصوص أخرى ، وقد ذكر فيها اسم هذه الإلهة، وأشير فيها الى تشييد معبد خصص بعبادتها ، والى سدنة كانوا يقومون بخدمتها . ووجدت كتابات في مواضع نبطية أخرى ، ورد فيها اسم (اللات) ، ويدل كل ذلك على ان اللات كانت من المعبودات المقدره عند نبط هذه الديار[3] .

أما الكتابات النبطية المدونة في أماكن أخرى من بلاد الشأم وفي أعالي الحجاز، فقد ورد فيها اسم (اللات) . ورد فيها على انه من الآلهة الكبيرة ، التي يخدمها سدنة ، ولها معابد خصصت بعبادتها . فقد جاء في نص مؤرخ بسنة (٤٧) للميلاد ان شخصاً اسمه (ملكو بن قصيو) (مالك بن قصي) ؛ أو (مليك بن قصي)، كان كاهناً (للات) في موضع (حبرن) (حبران) ، وهو من جبل حوران[4] .

---

١ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol., II, p. 28, 1953.

٢ الازرقي ، أخبار مكة (٦٨/١ وما بعدها .

٣ رينه ديسو (ص ١١٦ وما بعدها) .

٤ رينه ديسو (١١٥) ، Jaussen-Savignac, Mission, II, p. 506.

وأما آلهة (تدمر) ، فهي (بل) ، أي (بعل) و (عزيزو) ، و (ارصو) (ارضو) ، و (شيع القوم) ، و (شمش) (شمس) و (اللات) ، و (ايل) ، و (بعل شمين) ، و (سعدو) . ويلاحظ ان الكتابات التدمرية تستعمل في الغالب الكنايات والنعوت الإلهية بدلاً من أسماء الآلهة ، فاستعملت (تبارك اسمه) ، و (رب العالم) ، و (الله المحسن) ، و (رب العالمين)، وأمثال ذلك كناية عن آلهة تدمر . وهي تشير الى وجود فكرة التوحيد عند التدمريين . والى اغراب أهل تدمر عن التصريح بأسماء الآلهة ، والاكتفاء بذكر نعوتها وأسمائها الحسنى ، على طريقة العبرانيين في تجنب ذكر اسم الإله ، والتكنية عنه بنعوته . وقد يكون لآراء الفلاسفة اليونان أثر في معتقدات أهل تدمر في آلهتهم[١] .

ويرى (ليدزبارسكي) Lidzbarski ان (بل) ، هو إله تدمر الأكبر . وهو (بعل) . ولمركزه الخطير عند أهل تدمر ، دعاه اليونان (زيوس) Zeus أما (ملك بل) ، فإنه الشمس ، وأما (عجلى بل) ، فهو القمر . ويقدم عادة على (ملك بل) في الكتابات . وتقدم القمر على الشمس عادة قديمة عند أهل تدمر لا بد أن يكون لها سبب بالطبع[٢] .

أما الإله (عزيزو) ، فهو العزى . ويؤيد ذلك ما ذكره أحد الكتبة اليونان من انه كان كوكب الصباح عند العرب، وانه الإله الرؤوف الرحيم الذي عبدته العرب قبل الاسلام . ويلاحظ ان هذا النعت وارد في نص تدمري ، مما يثبت كون (عزيزو) هو (العزى) الإله الشهير[٣] .

وأما (ارصو) (ارضو) ، فيظن (ليدزبارسكي) انه Oratal الذي ذكر المؤرخ (هيرودوتس) ، انه أحد آلهة العرب الكبرى مع الإله (اللات) . ويظن ان (ارصو) ، هو (رضا) (رضى) الإله الذي أشار اليه الأخباريون .

وأما (اللات) ، فقليل الورود في النصوص التدمرية مع شيوع الأسماء المركبة

---

١ Ency. Religl., 9, p. 592.

٢ Ency. Religl., 9, p. 593.

٣ Ency. Religl., 9, p. 594.

المؤلفة منها ومن كلمات أخرى عندهم[١] .

وأما (منوتو) ، فإنه (مناة) المذكور في القـرآن[٢] . وكان له معبد في (قديد) ، بين مكة والمدينة ، وقد صنـع من حجـر ، وتعبدت له الأوس والخزرج ، وهذيل ، وخزاعة . وتعبد له النبط كذلك ، وأقاموا له معبداً أشير اليه في كتابات (مدائن صالح) ، كما تعبدت لــه ثمود ولحيان ونبط تدمر[٣] . وهو أنثى في نظر أهل الأخبار ، والظاهر ان بينه وبين المنيّة صلة ، كما بينت ذلك قبلاً .

وقد عبد الإلـه (بعل شمن) (بعل شمين) في تدمر . وقد رأينا انه عبد عند اللحيانيين والصفويين ، وعند غيرهم أيضاً . وقد وجد اسمه في كتابة تعود الى القرن الثاني قبل الميلاد ، تبين منها انه كان معبوداً في (بعلبك) . وهو كما قلت الإلـه (بعل سمن)[٤] .

وأما (سعدو) ، فقد رأى بعض المستشرقين انه الإلـه (القمر) ، وانه الصنم (سعد) ، وهو من الأصنام التي ذكرها أهـل الأخبار . وقد تعبّد له بعض كنانة ، ويقال هذيل ، كما تحدثت عنه[٥] .

وورد في بعض كتابات (حوران) اسم إلـه دعي بـ (قصي) . واليـه تنسب بعض الأعلام المركبة التي ورد فيها اسمه ، مثل (عبد قصي) . ويظن انه الإلـه المسمى بـ (زيوس كاسيوس) Zeus Kasios وبـ Jupiter Casius = Jupiter Casiu في الكتابات اليونانية[٦] . وفي جملة هذه الأسماء المركبـة المعروفة التي وردت الينا ، اسم (وهب لث) ، أي (وهب اللات) ، وهو اسم ابن الملك (أذينة) من زوجه (زنوبيا) ، أي (الزبّاء)[٧] .

---

١ Ency. Religi., 9, p. 594.

٢ سورة ٥٣ ، الآية ٢٠ .

٣ Jaussen-Savignac, Mission, I, p. 169, 192, CIS, II, No. : 224, J. Starcky, Palmyre, 85, Arabien, S. 84.

٤ Arabien, S. 86. Ryckmans, 20.

٥ O. Eissfeldt, 150, Arabien, S. 85, Handbuch, I, S. 234.

٦ Arabien, S. 86.

٧ رينه ديسو (١٢٢) .

وقد ذهب (رينه ديسو) ، الى ان العنصر العربـي كان مهمـاً في تدمر ، وله أثر في حياة المدينة ، وانه هو الذي أدخل عبادة اللات الى تدمر . وقد عبر عنها بـ (اثينا) ، ولهــذا ترجموا اسم ابن الزبّاء ، أي (وهب اللات) ، بـ (اثينودور) Athenodore [1] .

وجاء في كتابات نبط (مدائن صالح) اسم إلّه عرف بـ (شيـع هقوم) (شع هقم) (هشع هقم) (شيع هاقوم) (شيع القوم) ، وهو إلّه القوافل والمحاربين . يدافع عن القوافل وعن رجالها ويصد عنها لصوص الطرق وقطّاعها ، ولهذا كان يتقرب اليه التجــار بالنذور وبالدعوات لينزل بمن يتحرش بتجارتهم العذاب الأليم [2] . وهو أيضاً من آلهة قوم ثمود والصفويين [3] ، كما تحدثت عن ذلك .

وقــد بني للعزى معبــد في (بصرى) ، عرف بـ (بت ال) ، أي (بيت ايل) [4] .

وأما آلهـة (ديدان) ، فلا نستطيـع التحدث بإفاضة عنها ، لعــدم وصول كتابات ديدانية الينا ، فيها ذكر لتلك الآلهة . وفي الأسماء الديدانية المركبة أسماء آلهة ، على رأسها (ال) (ايل) الذي ورد في (كبر – ال) (كبر ايل) ، و (متع ال) (متعال) (متع ايــل) ، و (ذرحال) (ذرح ايل) ، و (وسقال) (وسق ايل) ، و (ال – بر) (ايل – بر) ، و (العم) (ايل – عم) ، و (شيال) (شيم – ايل) ، و (الاب) (ال اب) ، (ايل اب) ، فإن (ايل) (ال) في هذه الأسماء هو الإلّه (ايل) [5] .

ثم : (إلّه) ، و (يثع) ، و (خرج) ، و (رعن) ، و (دد) (داد) ، و (نعر) ، و (قس) (قوس) (قيس) . وبعض هــذه الألفاظ نعوت للآلهة ، لا أسماء أعلام ، وبعضها من أصل عربي جنوبي ، مثل (يثع) ، فإنها نعت من نعوت الآلهة ، معناه : (المساعد) (الناصر) (المؤيد) ،

---

١ رينه ديسو (١٢٢) .
٢ Arabien, S. 86.
٣ F. V. Wineth, Safaitic Inscriptions from Jordan. University of Toronto Press, 1957, p. 20.
٤ Arabien, S. 82.
٥ Lihyan, S. 37.

وقد عرف عند السبئيين . وبعض آخر من أصل شمالي مثل (دد) (داد) ، فإنه من معبودات الكنعانيين والنبط[1] .

ويرى (كاسكل) ان (خرجا) هو إلـه ، والخرج في العربية أول ما ينشأ من السحاب ، وبه سمي (الخرج) . وقد ورد في الأعلام المعينيـة المركبة : (عبد خرج) ، و (زيد خرج)[2] . ويحتمل أن يكون قد جاء الى الديدانيين من المعينيين الذين كانوا أصحاب ديدان قبل الديدانيين .

ويرد (دد) (داود) في الأسماء المركبة كذلك ، وكذلك بصيغة التأنيث ، أي (ددت) (دادت) ، أي إلهة . ويعني (دد) عـم[3] . فقـد ورد (حي — دد) (حي داد) ، وورد (عبد ددت) ، أي (عبد دادت) ، يدل على ان (داد) إلـه من الآلهة المعبودة ، وان (ددت) إلهة .

و (قس) أي (قوس) هو أيضاً من أسماء الآلهة ، اذ ورد مكوناً لاسم رجل ، عرف بـ (جلتقس) ، أي (جلت قوس)[4] . وورد اسم آخـر في الأعلام المركبة كذلك ، هو (قس) ، في اسم (عبد قس) ، ويمكـن ان يقرأ (قوساً) كما يمكن ان يقرأ (قيساً) ، أي (عبد قيس) ، و (عبد قيس) و (عبد القيس) من الأسماء المعروفة عند العرب . فـ (قوس) و (قيس) من الآلهة المعروفة عند العرب .

و (قوس) هو من آلهة (بني أدوم) ، أي الأدوميين،اذ كان يعبد عندهم . وقد ذهب (بروى) Braeu الى ان الإلـه (قيس) هو إلـه واجبه حماية الحدود[5] .

ووردت لفظـة (صلم) في الأعلام المركبة كذلك ، مثل (صلمجد) أي (صلم جد) ، ومثل (صلميحب) (صلم يحب)[6] ، ومعنى ذلك ان (صلما) هو اسم إلـه .

يلاحظ ان بين الآلهة المذكورة أسماء ، هي في الواقع ليست أسماء ، وانما هي

---

١ Lihyan, S. 38.
٢ Lihyan, S. 38.
٣ Lihyan, S. 38. Lihyan, S. 47, 145.
٤ Lihyan, S. 47, 146.
٥ Lihyan, S. 47, Brau, in WZKM., XXXII, 56.
٦ Lihyan, S. 47, 152, JS 314, 382.

صفات ، أو ما يقال له (أسماء الله الحسنى) في الاسلام ، استعملت وأطلقت على الآلهة حتى صارت في منزلة الأسماء . كما نجد صفات وضعت قبلها لفظة (ذ) أي (ذو) أو (ذت) ، أي (ذات) ، وأطلقت على الآلهة اطلاق الأسماء على المسميات. ومن هذا القبيل (ذعقل) ، أي (ذو عقل) ، و (ذ شرى)، أي (ذو الشرى) ، و (ذ قبض) ، أي (ذو قبض) ، و (ذت انوط) ، أي (ذات أنواط) ، و (ذت حمم) ، أي (ذات حميم) ، و (ذت بعدن)، أي (ذات البعد) ، فليست هذه أسماء في الأصل ، وانما هي على ما ذكرت، وقد عبر بها عن آلهة معينة ، حتى صارت عندهم في منزلة الأسماء .

الآلهة التي ورد ذكرها في النصوص :

وأود ان أدوّن هنا أسماء ونعوت الآلهة التي أشير اليها في نصوص المسند، وفي النصوص الأخرى باختصار ، ليحيط بها القارىء ، وهي : (ود) إلـه معين الكبير . وقد ورد في نصوص أخرى عثر عليها في أعالي الحجاز . و (المقه) إلـه سبأ الكبير ، و (سن) (سين) إلـه حضرموت الكبير ، و (ورخ) و (شهر) ، و (عم) إلـه شعب قتبان . وهي كلها في معنى واحد ، اذ قصد بهـا الإلـه القمر .

ومن الأسماء الأخرى : (انبي) (أنبي) ، و (شرقن) (الشارق) ، و (رحم) (الرحيم) (رحيم) ، و (رحمن) (الرحمن) ، و (عثتر) ، و (اثرت) (اثيرت) ، و (بعل) ، و (بعلت) ، و (ذات انوت) (ذات أنوات) ، و (ربت اثر) ، و (بعدن) ، و (ذت بعدن) ، و (بـرن) ، و (ذت برن) ، و (غضرن) ، و (ذت غضرن) ، و (حمم) (حميم) ، و (ذت حمم) (ذات حميم) (ذات حمم) ، و (نشقم) (نشق) ، و (رحبن) (رحاب) (الرحاب) ، و (ذت رحبن) (ذات الرحاب) ، و (صهرن) (الصهر) ، و (ذت صهرن) (ذات الصهر)، و (صنتم) ، و (ذت صنتم) ، و (ضهرن) ، و (عم ذ دون) ، أي (عم رب دأون) (عم صاحب داوان) ، و (ال) (ايل) ، و (كهلن) (الكاهل) . و (حرمن) (الحرم) ، بمعنى الإلـه ، و (حرمت) (حرمة) ،

بمعنى الإلهة . و (هوبس) ، و (حلم) (حليم) ، و (حكم) (حوكم) ، و (متب قبط) ، و (متب نطين) ، و (نهى) ، و (نكرح) ، و (نسر)، و (نسور) ، و (رب شهر) ، و (رب ثون) ، و (صدق) (صديق) (صادق) ، و (شمس) ، و (سموى) ، و (شرقن) ، و (سمع) (سميع) (سامع) ، و (تالب) (تلب) ، و (تلب ريمم) (تالب ريام) ، أي الإله (تالب) رب موضع (ريام) لوجود معبد كبير له به . و (عثرت) ، و (عـزيّ) ، و (تلب سمعى) (تالب سمعى)[1] ، و (حول) (حويل) ، و (ذ جربم) (ذو جرب) ، و (ذ قبضم) (ذو قبض) (ذو القبض) (القابض) ، و (سمعى) ، و (شريت) (شرى) ، و (عثتر شرقن) ، و (عزين) ، و (قزح) ، و (متب مذجب) ، و (نرو)[2] .

ومن أسماء آلهـة ثمود : (ود) ، و (جـد هدد) ، و (شمس) ، و (عزيز) ، و (نعرجد) ، و (عمى شجا) ، و (رضو) و (منت) ، و (كهل) ، و (نهي) ، و (ايل) (ال) ، و (لت) (لات) ، و (عثرسم) (عثر سمن) ، و (صلم) ، و (منف) ، و (عثتر) ، و (يثع) ، و (يغث) (يغوث) ، و (بعلت) ، و (يهو) ، و (فلس)، و (عوذ) .

وتمكن الباحثون من الحصول على أسماء عدد من آلهة لحيان ، منها : (ابلف) (اب الف) (ابالف) ، بمعنى (أبو ايلاف) ، و (عجلبن) ، و (بدع سمع) (بدعسمع) ، و (بعلسمن) ، (بعـل السماء) ، و (ذ غبت) (ذو غابـة) ، و (هنا كتب) (هانيء كتب) ، و (اله) (لاه) ، و (لهت) (الهات) ، و (لت) (لات) ، و (همحر) (هامحر) ، و (سلمن) (سلمان) ، و (هنعزي) (هانعزي) ، و (ود)[3] .

---

١ Handbuch, I, S. 260-261.

٢ Handbuch, I, S. 260.

٣ W. Caskel, Lihjan, S. 141.

وحصلنا من الكتابات الصفوية على أسماء بعض الآلهة ، مثـل : (اللات) (لت) ، و (العزى) ، و (مناة) (منات) ، و (رضا) (رضو) ، و (هـ له) (ها لاه) (الله) ، و (جد عوذ) ، و (شمس) ، و (رحم)، و (شيع هقوم) (شيع القوم) ، و (اثع) (اثاع) ، و (بعل سمين) (بعل سمن) ، و (دو شر) (ذو الشرى) (د شر) ، و (جد ضف) (جد ضيف)[1] .

---

1 Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol., I, 1951, p. 27. والعدد الثاني الصادر سنة ١٩٥٣ (ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .

الفصل الحادي والسبعون

شعائر الدين

ولكل دين شعائر تكون له سمة وعلامة تميزه عن غيره من الأديان . ولمّا كنا قد ذكرنا ان الجاهليين كانوا شعوباً وقبائل ، لم تجمع بينهم وحدة فكر ولم تضمهم دولة واحدة ، أو عقيدة مشتركة ، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن شعائر واحدة لجميع عرب الجاهلية .

وما سأذكره عن ديانات أهل الجاهلية ، مستمد إما من نصوص جاهلية ، وذلك فيما يخص العربية الغربية والعربية الجنوبية في الغالب، وإما من موارد اسلامية، وهو ما يتناول أهل الحجاز ، قبيل ظهور الاسلام ، وبعض أنحاء نجد . وهو مما جاء عنهم في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي وفي كتب التفسير والسير والأخبار مما له صلة بأيام الجاهلية المتصلة بالاسلام ، وبظهور الاسلام .

وفي مقدمة شعائر الدين عند أهل الجاهلية : الأصنام وبيوتها والتقرب اليها بالصلاة وبالسجود وبالطواف حولها ، وبالنذور ، وبالحبوس وبالقسم بها ، وذلك لتمنّ على عبدها الانسان فتمنحه ما يرجوه في هذه الحياة من صحة وعافية ومال ونسل وذكور . وتكاد تنحصر الكتابات الجاهلية [1] التي عثر عليها حتى الآن بهذه الأمور ، اذ لا نكاد نجد فيها شيئاً له علاقة بالآلهة يخرج عن حدود ما ذكرت . ويكاد يقتصر ما جاء في روايات أهل الأخبار عن ديانة أهل الجاهلية بهذه الأمور

١ Grohmann, S. 89, Jaussen - Savignac, Mission, II, 397, 401, 452.

أيضاً ، فلا تتجاوز ما ذكرته من تقرب الى صنم أو توسل اليه وطواف بــه ، لنيل شيء منه يتمناه ويرجوه في هذه الحياة الدنيا .

أما الصلاة الى الآلهة على نحو ما يفهم من الصلاة في الإسلام فلا نجد لهـا ذكراً في النصوص الجاهلية ، ولا نكاد نجد لها صورة واضحة صحيحة في روايات أهل الأخبار ، اللهم إلا فيما يخص صلوات اليهود والنصارى والعرب فقــد كان هؤلاء يصلون في كنائسهم في أوقات معينة ، وقف بعض أهل الجاهلية عليهـا ، فأشاروا اليها في أشعارهم وفي حديثهم عن أهل الكتاب .

وقد ذُكر ان عبدة (الشمس) كانوا قد (اتخذوا لها صنماً بيده جوهر على لون النار ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلّون فيـه لها ثلاث كرات في اليوم، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون به . وهم اذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها،واذا غربت واذا توسطت الفلك. ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة ، لتقع عبادتهم وسجودهم له. ولهذا نهى النبي ، صلى الله عليه وسلم، عن تحري الصلاة في هذه الأوقات قطعاً لمشابهة الكفار ظاهراً ، وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام)[1] . وذكر (اليعقوبي) ان العرب كانت « اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنــده ثم تلبوا »[2] . وفي هذين الخبرين دلالة عــلى وجود الصلاة عند الجاهليين ، ولا سيما في خبر عبـدة الشمس ، حيث كانوا يصلّون ثلاث كرات لها في اليوم .

وذكر ان (التسبيح) بمعنى الصلاة والذكر ، روي ان (عمر) جلد رجلين سبّحا بعد العصر ، أي صلّيا . وان قول الأعشى :

وسبّح على حين العشيّات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

يعني الصلاة بالصباح والمساء وعليه فسر قوله : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، يأمرهم بالصلاة في هذين الوقتين[3] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٢١٥ وما بعدها) .
٢ اليعقوبي (١/٢٢٥) .
٣ اللسان (٢/٤٧٣) ، (سبح) .

وذكر انهم كانوا يصلّون على موتاهم ، وكانت صلاتهم ان يحمل الميت على سرير ، ثم يقوم وليّه ، فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه . ثم يقول : عليك رحمة الله . ثم يدفن[1] .

وقد أشير الى سجود الناس للشمس والقمر في القرآن الكريم : « ومن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا ، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون »[2] . « يقول تعالى ذكره : فإن استكبر يا محمد هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم من مشركي قريش وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر ، فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك ولا يتعظمون عنه »[3] . كما أشير الى سجود أهل (سبأ) الى (الشمس) في الآية : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون »[4] . وفي هذه الآية وصف لتعبد أهل سبأ للشمس وسجودهم لها . وقد ذكر المفسرون أن ملكة سبأ « كانت لها كوة مستقبلة الشمس ، ساعة تطلع الشمس تطلع فيها ، فتسجد لها »[5] . فسجودهم للشمس ، هو عبادة لها وتعظيماً لشأنها .

الصوم :

وأما (الصوم) ، فنحن لا نجد له ذكراً في الكتابات الجاهلية بالمعنى المفهوم منه عند أهل الكتاب أو المسلمين . وهو في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له . وقيل للصائم صائم لامساكه عن المطعم والمشرب والمنكح ، وقيل للصامت صائم لامساكه عن الكلام . « وقوله عزّ وجل : إني نذرت للرحمان صوماً . قيل :

---

١ المحبر (٣٢٠ وما بعدها) .
٢ سورة فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣٧ وما بعدها .
٣ تفسير الطبري (٢٤/ ٧٧) .
٤ النمل ، الرقم ٢٧ ، الآية ٢٤ .
٥ تفسير الطبري (١٩/ ٩٤ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٣/ ١٩٠ وما بعدها) .

معناه صمتاً ، ويقويه قوله تعالى : فلن أكلّم اليوم إنسياً »[1] . والصوم : الصبر كذلك .

وقد ذكر (الصوم) في السور المدنية ، أما في السور المكية ، فقد ذكر مرة واحدة ، في (سورة مريم) : « فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً . فلن أكلم اليوم إنسياً »[2] . وقد حددت السور المدنية أصول الصيام في الإسلام .

والصوم المعروف عند اليهود والنصارى معروف عند أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب . فقد كان أهل يثرب مثلاً على علم بصوم اليهود ، بسبب وجودهم بينهم . وكان عرب العراق وبلاد الشأم على علم بصوم النصارى ، بسبب وجود قبائل عربية متنصرة بينهم . وكان أهل مكة ، ولا سيما الأحناف منهم والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب . وبصيام الرهبان ، المتمثل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة ، للتفكير في ملكوت السماوات والأرض . ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم ، وسلك مسلكهم. فكان يصوم ، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام والانزواء في غار حراء وفي شعاب جبال مكة .

ويذكر أهل الأخبار ان قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء . وفي هذا اليوم كانوا يحتفلون ، ويعيّدون ، ويكسون الكعبة ، وعللوا ذلك بأن قريشاً أذنبت ذنباً في الجاهلية ، فعظم في صدورهم ، وأرادوا التكفير عن ذنبهم ، فقرروا صيام يوم عاشوراء ، فصاموه شكراً لله على رفعه الذنب عنهم[3]. وذكر ان رسول الله كان يصوم عاشوراء في الجاهلية ، ولما قدم المدينة واظب عليه وأمر الناس بصيامه حتّى نزل الأمر بصيام رمضان . وقد ذكر العلماء انه يحتمل ان قريشاً اقتدت بصيامه في الجاهلية ، بشرع سالف ، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه[4] . وذكر بعضهم: كان يوم عاشوراء ، يوماً تصومه قريش في الجاهلية، اقتداءً بشرع سابق ، وكان النبي يصومه في الجاهلية ، فلما قدم المدينة صامه على عادته وأمر أصحابه بصيامه في أول السنة الثانية ، فلما نزل رمضان ، كان من

---

١ اللسان (/ ٣٥٠) ، (صوم) .
٢ سورة مريم ، رقم ١٩ ، الآية ٢٦ .
٣ بلوغ الارب (٢/ ٢٨٨) .
٤ ارشاد الساري (٣/ ٤٢١) ، (باب حكم صيام عاشوراء) .

شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء لا يصومه . وعللوا سبب صيام (قريش) هذا اليوم ، انه كان أصابهم قحط ثم رفع عنهم ، فصاموه شكراً[1] . وورد « ان قريشاً كانت تعظم هذا اليوم ، وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيمه » . وذكر ان رسول الله ، كان يتحرى صوم يوم عاشوراء على سائر الأيام ، وكان يصومه قبل فرض رمضان . فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صامه ، ومن شاء تركه . وبقي هو يصومه تطوعاً ، فقيل له : « يا رسول الله انه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان العام المقبل ان شاء الله صمنا اليوم التاسع، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله »[2] .

وذكر أيضاً ان قريشاً كانوا اذا أصابهم قحط ثم رفع عنهم صاموا شكراً لله وحمداً له على اجابة دعوتهم[3] .

وقد أشار أهل الحديث الى صيام (يوم عاشوراء) ، فجعله بعضهم الصيام الذي كان في الإسلام قبل فرض صيام شهر رمضان ، وذكر بعضهم أنه كان مفروضاً الى السنة الثانية من الهجرة ، ثم نسخ بصوم رمضان[4] .

وقد أشير الى الصيام في السور المكية من القرآن الكريم كما أشير اليه في السور المدنية ، ويدل نزول الوحي به في مكة وفي المدينة أنه كان من الشعائر الدينية القديمة ، وأن قريشاً كان لها علم به . ويظهر من بعض الآيات أن المراد من الصوم لم يكن الامتناع من الأكل والشرب حسْبُ ، بل كان يعني في أول عهد النبوة الامتناع عن الكلام كذلك[5] .

ورواية أن قريشاً كانت تصوم في يوم (عاشوراء) ، لا تتفق مع الروايات الأخرى في كيفية فرض صيام شهر رمضان . ففي هذه الدوايات أن النبي «حين قدم المدينة رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فسألهم : فأخبروه أنه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون ، ونجّى موسى ومن معه منهم . فقال : نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه . فلما فرض صوم شهر رمضان ،

---

١ ارشاد الساري (٦/١٧٤) ، « باب أيام الجاهلية » .
٢ زاد المعاد (١/١٦٤ وما بعدها) .
٣ ارشاد الساري (٦/١٧٤) .
٤ راجع كتب الحديث : باب الصوم .
٥ سورة مريم ، الآية ٢٦ . وهي سورة مكية ، رقمها ٥٨ حسب نزول السور بمكة .

لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه »[1]. وورد أن يهود خيبر والمدينة كانوا يعظمون صيام عاشوراء ويتخذونه عيداً[2] .

ويقصدون بصوم اليهود يوم عاشوراء ، ما يقال له (يوم الكفارة) ، وهو يوم صوم وانقطاع ، ويقع قبل عيد المظال بخمسة أيام ، أي في يوم (١٠ تشرى) وهو يوم (الكبور) Kipur . ويكون الصوم فيه من غروب الشمس الى غروبها في اليوم التالي ، وله حرمة كحرمة السبت ، وفيه يدخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس لأداء الفروض الدينية المفروضة في ذلك اليوم[3] .

ومما يلاحظ ان علماء التفسير والحديث ، قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في موضوع الصيام قبل نزول الأمر به وفرضه . فقال بعضهم كان المسلمون يصنعون كما تصنع من صيامهم خمسين يوماً (حتى كان من أمر أبي قيس بن صرمة وعمر بن الخطاب ما كان ، فأحل لهم الأكل والشرب والجماع الى طلوع الفجر)[4] . وقال بعض آخر ، كان صيام الناس قبل فرض رمضان صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وذكر ان ذلك كان تطوعاً لا فرضاً ، ولم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الاسلام غير صوم شهر رمضان[5] . ولم أتمكن من العثور على خبر قاطع يفيد بأن المسلمين كانوا يصومون بمكة قبل الهجرة الى المدينة .

ولا صلة لقصة (أبي قيس بن صرمة الأنصاري) (أبو صرمة الأنصاري) و (عمر بن الخطاب) بصيام عاشوراء ولا بعدد أيام الصوم . وكل ما ورد فيها ان المسلمين كانوا في أول ما افترض عليهم في رمضان اذ أفطروا وكان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يرقدوا ، فإذا رقدوا حرم عليهم ذلك الى مثلها من القابلة ، فلم يزل المسلمون على ذلك ، حتى نام (أبو قيس بن صرمة) بعد افطاره وكان يعمل في حيطان المدينة بالأجر ، فلما أفاق أبى ان يأكل شيئاً وأصبح صائماً ؛ وكان (عمر) قد وقع على جارية له ، فنزل الوحي

---

١ الطبري (٢/ ٢٦٥) ، « ذكر بقية ما كان في السنة الثانية من الهجرة » ، ارشاد الساري (٣/ ٤٢١) .
٢ ارشاد الساري (٣/ ٤٢٣) .
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٦٠) .
٤ تفسير الطبري (٢/ ٧٥ وما بعدها) .
٥ تفسير الطبري (٣/ ٧٦ وما بعدها) .

بنسخ ذلك عنهم في آية : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن . علم الله انكم كنتم تختانون أنفسكم »[1] . فلا صلة لقصتيها بموضوع الصوم .

ويظهر أنه خبر صيام قريش يوم (عاشوراء) ، هو خبر متأخر ، ولا يوجد له سند يؤيده . ولا يعقل صيام قريش فيه ، وهم قوم مشركون . وصوم (عاشوراء) ، هو من صيام يهود . وهو صيام كفارة واستغفار عندهم ، فلِمَ يستغفر قريش ويصومون هذا اليوم ؟ وماذا فعلوا من ذنب ، ليطلبوا من آلهتهم العفو والغفران ؟ وإذا كان هناك صوم عند الجاهليين ، فقد كان بالأحرى أن يصومه الأحناف ، ولم يرد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد صيامهم في (عاشوراء) ولا في غير عاشوراء . ثم إن علماء التفسير والحديث والأخبار ، يذكرون أن الرسول صام (عاشوراء) مقدمه المدينة على نحو ما ذكرت قبل قليل . وأنه بقي عليه حتى نزل الأمر بفرض رمضان . ويظهر أن الرواة أقحموا اسم قريش في صيام (عاشوراء) ، لإثبات أنه كان من السنن العربية القديمة ، التي ترجع الى ما قبل الأسلام . وأن قريشاً ، كانت تصوم قبل الإسلام[2] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن صوم أهل الجاهلية : صوم امتناع عن الأكل والشرب وإتيان النساء . وهو صوم الاسلام ، وصوم امتناع عن الكلام وحبس للسان ، إما لأمد معين قصير ، مثل يوم أو اسبوع ، وإما لأمد طويل. وقد أشير في القرآن الكريم ان هذا الصوم في قوله تعالى : « فقولي إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم أنسياً »[3] . وروي أن رجالاً من زهاد أهل الجاهلية كانوا يصومون هذا الصوم .

وقد اتخذ الصوم نذراً ، روي أن (أبا بكر) دخل على امرأة من (أحمس) يقال لها (زينب) ، فرآها لا تتكلم ، فقال : ما لها لا تكلم ؟ قالوا : حجت مُصمتة ، قال لها : تكلمي . فإن هذا لا يحل . هذا من عمل الجاهلية،فتكلمت.

---

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، تفسير الطبري (٢/ ٩٤ وما بعدها) .

٢ Sprenger; Leben, III, S. 54.

٣ سورة مريم ، الرقم ١٩ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبري (١٦/٥٦) ، روح المعاني (١٦/٧٩) .

فقالت له : من أنت : قال امرؤ من المهاجرين . قالت : أي المهاجرين ؟ قال لها : من قريش . قالت له : من أي قريش أنت ؟ قال : إنك لسؤول . أنا أبو بكر . قالت : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال : بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم . قالت : وما الأئمة ؟ قال لها : كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم ؟ قالت : بلى . قال : فهم أولئك على الناس[1] .

فالتصميت ، وهو الصوم عن الكلام ، من فعل أهل الجاهلية . وهو معروف عندهم ، ولعله وقع لهم بتأثرهم بأهل الكتاب .

التحنث :

ومن طرق عبادة أهل الجاهلية : التحنث ، أي التعبد والتقرب الى الآلهة ، ومن ذلك حديث (حكيم بن حزام) : « أرأيت أموراً كنت اتحنث بها في الجاهلية من صلة رحم وصدقة ، أي أتقرب الى الله تعالى بأفعال في الجاهلية »[2] . وكان رسول الله « يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان مما تحنّث به قريش في الجاهلية . والتحنث : التبرر » . « فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به – اذا انصرف من جواره – الكعبة قبل ان يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً » ، ثم يرجع الى بيته . وذكر ان ذلك الشهر هو شهر رمضان[3] .

الاختتان :

ومن شعائر الدين عند الجاهليين الاختتان . وهو من الشعائر الفاشية بينهم ،

---

١ ارشاد الساري (١٧٥/٦ وما بعدها) ، (انها مصمتة ، انها نذرت أن لا تتكلم . فقال : تكلمي انما هذا من فعل الجاهلية) ، الاصابة (٣١٥/٤ وما بعدها) ، (رقم ٥١٣ ، ٥١٥) ، اللسان (٥٥/٢) .

٢ تاج العروس (٦١٦/١) ، (حنث) .

٣ الطبري (٣٠٠/٢) .

حتى انهم كانوا يعيرون (الأغرل) ، وهو الشخص الذي لم يختتن . وكان منهم ولا سيما أهل مكة من يختن البنات أيضاً ، بقطـع (بظورهن) . وتقوم بذلك (الختانة) (الخاتنة) . وقد كانوا يعيرون من تكون أمـه (ختانة) نساء ، فإذا أرادوا ذم أحد قالوا له : يا ابن مقطعة البظور ، وإن لم تكن أم من يقال له : خاتنة [1] .

وأما الاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى ، فمن السنن التي أقرت في الاسلام ، وقـد أشير الى غسل الميت في شعر للأفوه الأوديّ . وأشير الى تكفين الموتى والصلاة عليهم في أشعار منسوبة الى الأعشى وإلى بعض الجاهليـين[2] . وورد أن قريشاً كانت تغسل موتاها وتحنطهم ، ولكننا لا نستطيع تعميم هذه الأمور عـلى كل العرب ، ولا الإدعاء بأنها كانت من شعائر الدين عندهم ، لما ذكرته مراراً من اختلاف العرب بأمور دينهم ، وعدم خضوعهم لدين واحد . بـل ورد أن المشركين لم يكونوا يغتسلون من الجنابة ، وقد ذهب المفسرون الى أن لفظة (نجس) الواردة في الآية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وان خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله »[3] . فانما قصد بها أجناب ، « سمّاهم بذلك لأنهم يجنبون فلا يغتسلون . فقال : هم نجس ولا يقربوا المسجد الحرام ، لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد »[4] . ولما نزل الأمر بمنع المشركين من دخول مكة ، « شق ذلك على أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : من يأتينا بطعامنا ومن يأتينا بالمتاع ؟ فنزلت وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » . و « كـان المشركون يجيئون الى البيت ويجيئون معهم بالطعـام ويتجرون فيه . فلما نهوا أن يأتـوا البيت قال المسلمون من أين لنا طعام ؟ فأنزل الله وان خفتم عيلـة ، فسوف يغنيكم الله من فضله »[5] .

والقرابين والنذور وزيارات المعابد والحج ، هي من أبرز الشعائر الدينية عند

---

١ تاج العروس (٣/٥٢) ، (بظر) ، نهاية الارب (١٧/١٠٠) .
٢ المحبر (٣١٩ وما بعدها) .
٣ سورة التوبة ، الآية ٢٨ .
٤ تفسير الطبري (١٠/٧٤) .
٥ تفسير الطبري (١٠/٧٥) .

سواد الناس . وتكاد تكوّن مفهوم الدين عندهم ، وذلك لما فيها من تماس مباشر بأمور حياتهم ومصالحهم . فهم يفعلون ذلك لغايات استرضاء الآلهة والتوسل اليها بأن تعطيها غلة وافرة ومالاً ، فكانوا اذا تقربوا الى صنم أو دعوا ربهم أو أدوا مناسك حجهم (فلا يسألون ربهم) إلا متـاع الدنيا (فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا . هب لنا غنماً ، هب لنا إبلاً) . (وكانوا يعني في الجاهلية يقفون يعني بعد قضاء مناسكهم ، فيقولون : اللهم ارزقنا إبلاً ، اللهم ارزقنا غنماً) ، وفي هؤلاء نزلت الآية : « فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا، وماله في الآخرة من خلاق »[1] .

والفقر هو الذي حمل هؤلاء على ان يتقربوا الى آلهتهم بالنذور والقرابين وبالحج على فقرهم وجوعهم ، على أمل ان تعطف الآلهة عليهم ، فتمن عليهم بالمـال واليسر والبركة والصحة ، تماماً كما يفعل شرّاء أوراق (النصيب) أو أوراق سباق الخيل من الفقراء والمحتاجين على أمل الربح والكسب .

وهذه النظرة المادية الساذجة،هي التي حملت عوامهم على تهديد آلهتهم وإخبارها انهم سيمتنعون عن تقديم أي نذر أو أداء أيـة زيارة لها ، إن لم تمنّ عليهم وتستجيب لأدعيتهم ، فتنفذ طلباتهم وما طلبوه منها . وهي التي تحملهم بعد ذلك على التراجع عن تهديداتهم هذه ، وعلى الاستغفار واظهار الندم لها ، لما بدر منهم من سوء أدب ، على أمل استرضاؤها من جديد ، بعد أن فشلت وسائل التهديد من تخويف تلك الآلهة .

الحلال والحرام :

يقول (ابن عساكر) في رواية تنسب الى رجل من خثعم : « كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً . وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون اليهـا »[2] . ومعنى هذا انهم كانوا يحللون ويحرمون . وأن أمر الحلال والحرام الى رجال الدين منهم ، وهم سدنة الأوثان .

وقـد تعرض (اليعقوبي) لموضوع (أديان العرب) وشعائرها ، فقال :

---

١ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري (٢/١٧٤ وما بعدها) .
٢ التاريخ الكبير ، لابن عساكر (١/٣١٧) .

« وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل ، والانتقال الى البلدان ، والانتجاعات . فكانت قريش وعامة ولد (معد) بن عدنان على بعض دين ابراهيم ، يحجون البيت ويقيمون المناسك ، ويقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم ، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ، ويعاقبون على الجرائم »[1] . فأدخل في الدين أموراً نعدها اليوم من الأعراف وقواعد الأخلاق والسلوك ، وجعلها من سنة ابراهيم ، أي دين العرب القديم قبل افساده بالتعبد للأصنام .

وذكر (السكري) ، أن العرب كانت « دون من سواها من الأمم . تصنع عشرة أشياء منها : في الرأس خمسة . وهي المضمضة والاستنشاق والسواك والفرق وقص الشارب . وفي الجسد خمسة . هي : الختانة وحلق العانة ونتف الأبطين ، وتقليم الأظفار والاستنجاء . خصت بهذا العرب ، دون الأمم »[2] . فهذه الأمور العشرة هي من شعائر العرب في نظر (السكري) . وهي شعائر ، لا يمكن أن نجاريه في رأيه ، فنقول إنها كانت في جميع العرب ، وإنها كانت فيهم خاصة ، دون غيرهم من الأمم وفي كلام (السكري) أمور كثيرة لا يمكن التسليم بصحتها بل نجده هو يناقض نفسه في مواضع أخرى من كتابه . من ذلك قوله : «وكانوا يؤمنون بالحساب »[3] « ولا يأكلون الميتة »[4] ، فعمم رأيه ، وجعله شاملاً كل العرب ، بينما هو رأي طائفة من الجاهليين ، وليس جميع أهل الجاهلية . وللقرآن الكريم دليل ذلك ، فقد حمل عليهم لنكرانهم البعث والحساب، وحرم على المسلمين أكل لحم الميتة . « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »[5] . وكانوا يأكلونها في الجاهلية .

وورد أن ممن حرم أكل الميتة على نفسه (حارثة بن أوس) الكلبي ، وهو جاهلي ، يقول :

لا آكل الميتة ما عمرت نفسي وإن أبرح املاقي
والعقد لا أنقض منه القوى حتى يواري القبر أطباقي[6]

---

١ اليعقوبي (١/٢٢٤) ، (أديان العرب) .
٢ المحبر (٣٢٩) .
٣ المحبر (٣٢٢) .
٤ المحبر (٣٢٩) .
٥ المائدة ، الآية رقم ٣ ، تفسير الطبري (٦/٤٤) ، روح المعاني (٦/٥١) .
٦ المحبر (٣٢٩) .

الفصل الثاني والسبعون

الحج والعمرة

والحج الذهاب الى الأماكن المقدسة في أزمنة موقوتة ، للتقرب الى الآلهة،والى صاحب ذلك الموضع المقدس . وتقابل هذه الكلمة Pilgrinage في الانكليزية [1] . والحج بهذا المعنى معروف في جميع الأديان تقريباً، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين .

وكلمة (حجّ) من الكلمات السامية الأصيلة العتيقة ، وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب المنسوبة الى بني سام[2] . كما وردت في مواضع من أسفار التوراة[3] . وهي تعني قصد مكان مقدس وزيارته .

وفي روع الشعوب السامية القديمة وغيرها أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها ، قيل لها في الأزمنة القديمة (بيوت الآلهة) . ولذلك يرى المتعبدون والمتقون شدّ الرحال اليها ، للتبرك بها وللتقرب اليها ، وذلك في أوقات تحدد وتثبت ، وفي أيام تعين تكون أياماً حرماً لكونها أياماً دينية ينصرف فيها الانسان إلى آلهته ، ولذلك تعدّ أعياداً ، يعمد فيها الناس ، بعد اقامتهم الشعائر الدينية المفروضة

---

١ تفسير الطبري (٢/٤٤) ، (البابي) ، اللسان (٢/٢٢٦) ، الاقناع (١/٣٣٤)، الكشاف ، للزمخشري (١/٣٨٩ وما بعدها) ،
Ency. Brita., Vol., 17, p. 925, Ency. Religi., Vol., 10, p. 10.

٢ تاج العروس (٢/١٦ وما بعدها) ، اللسان (٣/٤٨ وما بعدها) ،
Ency. Religi., 10, p. 23.

٣ Shorter Ency. of Islam, p. 123.

وبعد أدائهم القواعد المرسومة : الى الفرح والسرور والرقص ، ليدخلوا السرور الى قلوب الأرباب . ففي الحج إذن مناسك وشعائر دينية وعبادة تؤدى ، واجتماع وسرور وحبور .

ويكون الحج بأدعية وبمخاطبة الى الآلهة وبتوسلات لتتقبل حج ذلك الشخص الذي قصدها تقرباً اليهما . وهذا هو الشائع والمعروف عن الحج ، غير أن من الجاهليين من كان يحج حجاً مصمتاً ، أي دون كلام ، فلا يتكلم الحاج طيلة أيام حجه . وقد كان ذلك من عمل الجاهلية [1] .

وقد ميّز الشهر الذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته بـ (شهر ذي الحجة) وبـ (شهر الحج) . وذلك لوقوع الحج فيه . وهذه التسمية المعروفة حتى الآن في التقويم الهجري ، هي تسمية قديمة ، كانت معروفة في الجاهلية ، وردت في نصوص الجاهلية . فبين أسماء الأشهر الواردة في نصوص المسند اسم شهر يعرف بـ (ذ حجتن) أي (ذي الحجة) ، ويدل ذلك على أنه الشهر الذي يحج فيه . وقد وردت كلمة (حج) في نصوص المسند كذلك[2] .

وقد ذكر (أفيفانيوس) Epiphanius ان من أسماء الأشهر عند العرب شهراً اسمه Aggathalbaeith (حج البيت)[3] ، أراد به شهر (ذي الحجة) . والعرب الذين قصدهم هذا الكاتب هم عرب (الكورة العربية) ، ومعنى هذا ان العرب الشماليين كان لهم شهر يسمى بـ (ذي الحجة) كذلك[4] .

ولفظة Aggathalbaeith ،هي لفظة عربية النجار حرفت على لسان (أفيفانيوس) وقومه ، لتناسب منطقهم ، فصارت على هذا النحو ، وهي من كلمتين عربيتين في الأصل ، هما (حجة البيت) ، أو (حج البيت) . ويكون نص (أفيفانوس) هذا من النصوص المهمة بالنسبة لنا ، التي تساعدنا في الرجوع بتأريخ استعمال هذا المصطلح الى ايامه ، ولا بد وان يكون ذلك المصطلح قد استعمل قبل أيام ذلك الكاتب ولا شك .

ويقع شهر الحج (ذي الحجة) — على رواية (افيفانيوس) — في (تشرين

---

١ ارشاد الساري (٦/١٧٥) .

٢ D. Nielsen, Mondreligion, S. 86, Glaser 1054, Wiener Mus., No. 7.

٣ Shorter Ency. of Islam, p. 124.

٤ Reste, S. 85, Ency. Religi., 10, p. 10.

الثاني)[1] ، وأشار (بروكوبيوس) الى ان العــرب كانوا قد جعلوا شهرين من السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيها ولا يهاجم بعضهم بعضاً[2] ، كما أشار (فوتيوس) الى الأشهر الحرم عند العرب[3] . والشهران اللذان أشار اليهما (بروكوبيوس) ، هما شهرا ذو القعدة وذو الحجة في نظر (ونكلر) ، وهما يمثلان ــ في رأيه ــ (جولاي) و (أغسطس) أي تموز وآب[4] .

إننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقول إن شهر (ذ حجتن) المذكور في المسند ، أو Aggathalbaeith الذي ذكره (افيفانيوس) ، هو شهر (ذو الحجة) الشهر المعروف الذي كان من شهور أهل مكة . فمن الجائز أن يكون حج العرب الشماليين أو حج العرب الجنوبيين في وقت آخر يختلف عن وقت حج أهل مكة، فيكون شهرهم المذكور شهر آخر يقع في موسم آخر من السنة ، ولا ينطبق مع شهر (ذي الحجة) .

ويرى (ونكلر) أن ما ذكره (فوتيوس) من احتفال العرب مرتــين في السنة بالحج الى معبدهم المقدس : مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف وذلك لمــدة شهرين ، إنما يراد بذلك شهر رمضان لاقتران الشمس فيه ببرج الثور . وأما الشهران الآخران فهما ذو القعدة وذو الحجة[5] .

ويظهر من غربلــة ما أورده أهــل الأخبار من روايات عن موسم الحج في الجاهلية ، أن الحج الى مكة كان في موسم ثابت ، هو الربيع على رأي كثــير من المستشرقين ، أو الخريف على رأي (ولهوزن)[6] . وذلك بسبب مــا ذكر عن النسيء ومن رغبة قريش وغيرها من أن يكون في وقت واحد ، كما تحدثت عن ذلك في باب النسيء . وقــد ذهب (ولهوزن) الى أن (الشهر الحرام) المذكور في القرآن الكريم ، هو (شهر الحج) ، وهو الشهر الأول من السنة،

---

١ Reste, S. 100, Epiphanius, Haer., 51, 24.

٢ Procopius, II, 16.

٣ Reste, 101.

٤ Winekler, ALF. II, Reihe, Ibd., S. 336.

٥ Winckler, ALF., II, Reihe, Ibd., S. 336.

٦ Shorter, p. 124.

أي شهر محرم ، بينما يرى المفسرون أنه رجب ، أو ذو القعدة أو ذو الحجة[1] . والأصح أنه أي شهر من الأشهر الحرم .

وقد ورد في القرآن الكريم : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج »[2] . وقد قال (الطبري) : « اختلف أهل التأويل في قوله : الحج أشهر معلومات . فقال بعضهم : يعني بالأشهر المعلومات : شوالاً وذو القعدة ، وعشراً من ذي الحجة » ، « جعلهن الله سبحانه للحج ، وسائر الشهور للعمرة ، فلا يصلح ان يحرم أحد بالحج إلا في أشهر الحج . والعمرة يحرم بها في كل شهر »[3] ، وذكر ان الله لم يسمّ أشهر الحج في كتابه ، لأنها كانت معلومة عندهم[4] ، وان المراد بذلك انه لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج ، فإن من سنّة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج[5] . وبناءً على ذلك ، فلا يكون المراد من الآية ان الحج يقع في كل وقت من أوقات هذه الأشهر . وانما هو في وقت معين ، ولكن الإحرام للحج ، أي العزم عليه يكون في أي وقت من هذه الأشهر المذكورة ، وليس في الأشهر الأخرى . وذكر (المسعودي) ان أشهر الحج : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة[6] .

ومعنى ما تقدم ان الجاهليين كانوا يتهيأون للحج من دخول شهر شوال ، فيصلحون أمورهم ، ويحضرون ما يحتاجون اليه من لوازم السفر ، فإذا أراد أحدهم تجارة وكسباً ذهب الى الأسواق ، حتى يهل شهر ذو الحجة ، وإن لم يرد تجارة ، ذهب في أي وقت يراه مناسباً له . فبدء موسم الحج اذن والتهيؤ له يكون من شهر شوال .

ويظهر من شعر نسب الى (عوف بن الأحوص) أنه سمى شهر (ذي الحجة) (شهر بني أميّة) . إذ يقول :

وإني والذي حجت قريش محارمه وما جمعت حراء
وشهر بني أميّة والهدايا إذا حبست مضرجها الدماء[7]

---

1 Shorter, p. 409.

٢ البقرة ، الآية ١٩٧ .

٣ تفسير الطبرى (١٠٥/٢) .

٤ القرطبى ، الجامع (٤٠٥/٢) .

٥ تفسير الطبرسى (الجزء الثاني) (ص ٢٩٢ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢٣٥/١) .

٦ مروج (١٨٩/٢) ، الكشاف (٢٥٤/١) .

٧ شرح ديوان لبيد (٢١) .

وقد ذهب (ولهوزن) وجماعة آخرون من المستشرقين الى تعدد بيوت الأرباب التي كان يحج اليها الجاهليون في شهر (ذي الحجة) والى عدم حصر الحج عند الجاهليين بموضع واحد[1] . ومعنى هذا أن حج أهل الجاهلية لم يكن الى (مكة) وحدها ، بل كان الى محجات عديدة أخرى . بحيث حج كل قوم الى (البيت) الذي قدسوه وكانوا يتقربون اليه ووضعوا أصنامهم فيه . ويتفق هذا الرأي مع ما يراه أهل الأخبار من وجود بيوت للأصنام ، وكان الناس يزورونها ويتقربون اليها ويذبحون عند أصنامها ويطوفون حولها ويلبّون تلبية الصنم الذي يطوفون حوله .

والحج الى مكة والى البيوت المقدسة الأخرى ، مثل بيت اللات في الطائف وبيت العزى على مقربة من عرفات وبيت مناة وبيت ذي الخلصة وبيت نجران وبقية البيوت الجاهلية المعظمة ، إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها للاحتفال معاً بتلك الأيام وهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفس آلهتهم بحسب اعتقادهم وتقترن هذه الاحتفالات بذبح الحيوانات ، كل يذبح على قدر طاقته ومكانته ، فيأكل منها في ذلك اليوم من لم يتمكن من الحصول على اللحم في أثناء السنة لفقره ، فهي أيام يجد فيها الفقراء لذة ومتعة وعبادة .

ويذكر أهل الأخبار أن الحج الى مكة كان في الجاهلية كذلك، وأن الجاهليين كانوا يحجون الى البيت منذ يوم تأسيسه ، وأنهم كانوا يقصدون مكة أفواجاً من كل مكان . وأن ملوكهم كانوا يتقربون الى (بيت الله) بالهدايا والنذور، وأن منهم من حج اليه . وأن الناس كانوا يقسمون بالبيت الحرام لما له من مكانة في نفوس جميع الجاهليين .

غير اننا نجد في روايات بعض أهل الأخبار ما ينافي تعظيم كل العرب للبيت وحجهم اليه واحترامهم للحرم وللأشهر الحرم . فقد ورد ان من العرب من (كان لا يرعى للحرم ولا للأشهر الحرام حرمة) ، ومنهم (خثعم) و (طيء)[2] ، وأحياء من قضاعة ويشكر والحارث بن كعب[3]. وورد ان ذؤبان العرب وصعاليكها

---

١ Reste, S. 84.

٢ تاج العروس (٨/٢٤١) ، (حرم) .

٣ الجاحظ ، الحيوان (٧/٢١٦ وما بعدها) ، النجيرمي ، أيمان العرب (١٢) ، المحبر (٣١٩) .

وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، ولا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً . وقد كانوا خطراً يهدد البيت وأهله لذلك، ألف (هاشم) بين قريش وسادات القبائل ألفة ليحمي بهم البيت . قال (الجاحظ) في تفسيره للإيلاف : « وقد فسره قوم بغير ذلك . قالوا : إن هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة . فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب »[1] . ورؤوس القبائل الذين جعل هاشم عليهم ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة ، هم رؤساء مكة ولا شك ، ومن كانت له مصلحة تجارية مباشرة بمكة ، فكان يأخذ من هؤلاء ما يأخذه ثم يجمعه ويعطيه الى (المؤلفة قلوبهم) من سادات القبائل النازلين حول مكة وعلى مقربة منها ، كما ألف بين مكة وبين سادات القبائل الذين تمر قوافل مكة بأرضهم في طريقها الى الشأم أو العراق أو اليمن ، بروابط (الإيلاف) ، أي العقود التي عقدها معهم ، باعطائهم جعلاً معيناً ، أو حقوقاً تبين وتكتب ، أو ربحاً يدفع مع رؤوس المال عن البضائع التي تدفع لقريش ، لتقوم قوافلها ببيعها في الأسواق. وبذلك أمنت مكة وسلمت تجارتها ، ودانت بعض القبائل بدين قريش في الأشهر الحرم ، لما فيها من فائدة ومنفعة مادية بينة ظاهرة ، فاحترمتها، وبهذا أمن الحج واستراح التجار من قريش ومن غيرهم في ذهابهم بحرية وبأمان في هذه الشهور الى الأسواق .

وليست لدينا ويا للأسف أخبار مدونة عن مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين. لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص الواردة الينا . ما خلا الحج الى (بيت الله الحرام) بمكة ، حيث حفظت الموارد الإسلامية لنا شيئاً من ذلك ، بسبب فرض الحج في الاسلام ، واقرار الاسلام لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه ولولا ذلك لما عرفنا شيئاً عن الحج الى مكة عند الجاهليين . ولهذا فسأقتصر في كلامي هنا على الحج الى مكة فقط . إلا إذا وجدت خبراً أو نصاً عن حج غير

---

١ رسائل الجاحظ (٧٠) ، Kister, p .119, 143. ، طبقات الشعراء ، لابن سلام (٦١) ، الثعالبي ، المضاف والمنسوب (٨٩) ، النقائض (٢/٦٧١) ، ابن هشام (١/٦٠٣) ، الأزمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦٦) ، الاغاني (٢١/٤٢) .

أهل مكة من الجاهليين الى مكة أو الى بيوت أخرى فسأتكلم عنه حينئذ .

ويظهر من غربلة ما جاء في روايات أهل الأخبار عن (حج البيت) ، أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج ، بل كانت تختلف باختلاف القبائل. فقد انفردت (قريش) بأمور من أمور الحج ، واعتبرتها من مناسك حجها ، وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها (قريش) موجبة لها ، ولم تعمل بها ووقفت قريش في مواقف ، اعتبرتها مواقف خاصة بها . وأوجبت على من يفد الى مكة للحج ، مناسك معينة سنتحدث عنها . فلما ظهر الاسلام وحدد مناسك الحج وثبتها . وأوجب على كل مسلم اتباعها .

ويبدأ الحج في الاسلام بلبس (الاحرام) حين بلوغه (الميقات) المخصص للجهة التي جاء منها . و (ميقات) الحج موضع احرامهم[١] . وقد عين الرسول أكثر (المواقيت) وثبتها ، فجعل (ذا الحليفة) ميقاتاً لأهل (يثرب) ، و (الجحفة) ميقاتاً لأهل الشأم ، و (يلملم) ميقاتاً لأهل اليمن ، و (قرن المنازل) لأهل نجد ومن يأتي من الشرق نحو الحجاز . وأما (ذات عرق) ، فيقات أهل العراق ، قيل ان الرسول ثبته ، وقيل إنه ثبت بعد فتح العراق . أما أهل مكة ، فكانوا يحرمون من بيوتهم[٢] . ويجوز أن تكون هذه المواقيت من مواقيت أهل الجاهلية كذلك ، وقد ثبتها الاسلام .

ويستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم (سوق عكاظ) . فإذا انتهت ايام السوق ، وأراد منهم من أراد الحج ، ذهب الى (مجنة) ، فأقام بها الى هلال ذي الحجة ، ثم ارتحل عنها الى (ذي المجاز) ، ومنه الى (عرفة) ، فإذا كان يوم التروية ، تزودوا بالماء وارتفعوا الى عرفة. هذا بالنسبة الى التجار، الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة . أما بالنسبة الى غيرهم ، فقد كانوا يقصدون الحج في أي وقت شاءوا ، ثم يذهبون الى (عرفة) للوقوف موقف عرفة ، يقصدها (الحلة) ، أما (الحمس) فيقفون بـ (نمرة) ، ثم يلتقون جميعاً بمزدلفة للإفاضة[٣] .

---

١ تاج العروس (٥٩٤/١) ، (وقت) .

٢ شرح النووي على صحيح مسلم (١٩٠/٥ وما بعدها) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، ارشاد الساري (٩٧/٣ وما بعدها) .

٣ الازرقي ، أخبار مكة (١٢١/١ وما بعدها) .

ويبدأ حج أهل الجاهلية بالإهلال . فكانوا يهلّون عند أصنامهم ، ويلبون اليها ، فإذا انتهوا من ذلك قدموا مكة ، فكان الأنصار مثلاً يهلون لمناة في معبده ، أي انهم كانوا يغادرون (يثرب) الى معبد الصنم ،فيكونون فيه لمراقبة هلال ذي الحجة ، فإذا أهلّوا لبّوا ، ثم يسير من يسير منهم الى مكة ، لحج البيت[1] .

والطواف بالبيوت وبالأصنام ، ركن من أركان الحج ، ومنسك من مناسكه . وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام ، فإذا دخل أحدهم الحرم ، واذا سافر أو عاد من سفر ، فأول ما كان يفعله الطواف بالبيت . وقد فعل غيرهم فعل قريش ببيوت أصنامهم ، إذ كانوا يطوفون حولها، كالذي كان يفعله أهل يثرب من طوافهم بـ (مناة)[2] .

وقد ذكر الأخباريون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون حول الرجمات ، وهي حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة ، ويقال لها الرجمة[3] . وكان الجاهليون يطوفون حول الأصنام والأنصاب كذلك . وذكر (نيلوس) Nilus أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها قرباناً للآلهة[4] . وكانوا يطوفون حول القبور أيضاً : قبور السادات والأشراف من الناس .

وطافوا حول (الأنصاب) ، ويسمون طوافهم بها (الدوار) . فكانوا يطوفون حول حجر ينصبونه طوافهم بالبيت ، وسمّوا تلك الأحجار الأنصاب[5] .

وللطواف كلمة أخرى هي (الدوار) من (دار) حول موضع من المواضع ، وطاف حوله الشيء ، واذا عاد الى الموضع الذي ابتدأ منه . ونجد هذا المعنى في شعر الشاعرين الجاهليين : امرىء القيس ، وعنترة بن شدّاد العبْسي[6] . وقد ذكر علماء اللغة أن (الدوار) صنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله يدورون به ، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار . ومنه قول امرىء القيس :

فعَنّ لنا سِربٌ كأن نِعاجه عذارى دوار ، في مُلاءٍ مذيلِ[7]

---

١ صحيح مسلم (٦٨/٤ وما بعدها) .

٢ شرح صحيح مسلم ، للنووي (٢١/٨ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٤٢٢/٣ وما بعدها) ، « عمر » اللسان (٢٨٢/٦) .

٤ Reste, S. 108.

٥ الاصنام (٣٣ ، ٤٢) .

٦ اللسان (٢٩٦/٤ وما بعدها) . Shorter Ency. of Islam, p. 585.

٧ اللسان (٢٩٧/٤ وما بعدها) .

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة. وقيل حجارة كانوا يطوفون حولها تشبهاً بالكعبة[1] .

وتلعب عبادة الحجر دوراً بارزاً في (الدوار) . فقد كان قوم من أهل الجاهلية يقيمون الأحجار ، ثم يطوفون حولها ، يتخذون الدوار عبادة لهم . وقد تكون الأحجار أصناماً ، وقد تكون حجارة تنتقى فيطاف حولها . و « عن أبي رجاء العطاردي ، قال : لما بعث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب ، فلحقنا بالنار ، وكنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه ، ألقينا ذلك وأخذناه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به . وكنا اذا دخل رجب قلنا جاء منصل الأسنة ، فلا ندع سهماً فيه حديدة ، ولا حديدة في رمح إلا نزعناها وألقيناها »[2] .

ويلاحظ ان الجاهليين كانوا يقيمون وزناً للحليب في أمور العبادة ، فقد كانوا يسكبونه على الأصنام ، كما رأينا في باب الأصنام، وفي القصة المتقدمة . ويلاحظ ان الرواية قد خصصت حليب الغنم ، ولم تشر الى حليب الإبل ، أو حليب أية ماشية أخرى، مما قد يدل على وجود رابطة بين هذا الحليب وبين (الدوار) وان له علاقة بالأساطير ، وذلك في حالة صدق الخبر بالطبع .

والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب الى الآلهة . يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة ، وليس له وقت معلوم . ولا يختص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج ، بل يؤدونه كلما دخلوا معبداً فيه صنم ، أو كعبة أو ضريح ، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضاً : كما يطوفون حول الذبائح المقدمة الى الآلهة . فالطواف ، إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن بارز عند الجاهليين .

وكانوا يطوفون بالبيت في نعالهم ، لا يطأون أرض المسجد تعظيماً له[3] . إلا أن يكون الحاج فقيراً حافياً ، فقد كان منهم من لا يملك نعالاً ولا خفاً ولا

---

١ تاج العروس (٣/٢١٦) ، (دار) .
٢ زاد المعاد (٣/٣٢) ، (فصل في قدوم وفد بني حنيفة) ، ارشاد الساري (٦/٤٣٥) ، (باب وفد بني حنيفة) .
٣ اليعقوبي (١/٢٢٦) ، (أديان العرب) .

سائر ما يلبس بالرجل لفقره . وذكر أن رسول الله قال : « من لم يجد نعلين، فليلبس خفين »[1] . وقد ذكر (السكري) ، أن (الحمس) كانوا « لا يطوفون بالبيت إلا في حــذائهم وثيابهم ، ولا يمسون المسد بأقدامهم تعظيماً لبقعته »[2] . وذكر أن (الحلــة) كانوا على العكس منهم . « فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم »[3] .

وكانوا يدخلون جوف الكعبة بنعالهم،لا يتأثمون من ذلك . وذكر أن (الوليد ابن المغيرة » كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة ، تعظيماً لها ، فخلع الناس نعالهم[4] .

وعدّة الطواف حول الكعبة عند الجاهليين سبعة أشواط ، ولا أستبعد ان يكون هذا العدد ثابتاً بالنسبة الى الطواف حول البيوت الأخرى أوحول الرجمات والأنصاب والقبور أيضاً . فقد كان الطواف سبعة أشواط مقرراً عنــد غير العرب أيضاً ، وقد ذكر في (التوراة) ، اذ كان العبرانيون يمارسونه[5] . والعدد سبعة هو من الأعداد المقدسة المهمة عند الشعوب القديمة . ولهذا أرى ان غير قريش من العرب كانوا يطوفون هذا الطواف أيضاً حول محجّاتهم في ذاك الوقت .

وقد ورد أن من الجاهليين من كان يطوف ويده مربوطة بيد انسان آخر ، بحبل أو بسير ، أو بزمــام أو منديل ، أو خيط أو أي شيء آخر ، يفعلونه نذراً،أو حتى لا يفترقا . وقد نهي عن ذلك في الإسلام . فقد روي أن الرسول رأى أحدهما وقد فعل ذلك ، فقطع بيده ذلك الرباط[6] .

---

١ صحيح مسلم (٤/٢ وما بعدها) ، (كتاب الحج) ، ارشاد الساري (٣١٣/٣ وما بعدها) ، (باب لبس الخفين للمحرم اذا لم يجد النعلين) .

٢ المحبر (١٨٠) .

٣ المحبر (١٨٠ وما بعدها) .

٤ ابن رستة ، الاعلاق (١٩١) .

٥ Shorter Ency. of Islam, p. 585.

٦ صحيح البخاري (١٧٩/٢) ، ارشاد الساري (١٧٣/٣ وما بعدها) ، (باب الكلام في الطواف) .

الحمس والطلس والحلة :

والأخباريون يذكرون ان الطائفين بالبيت كانوا على صنفين : صنف يطوف عرياناً ، وصنف يطوف في ثيابه . ويعرف من يطوف بالبيت عرياناً بـ (الحِلة). أما الذين يطوف بثيابهم ، فيعرفون بـ (الحمس)[1] . وأضاف بعض أهل الأخبار الى هذين الصنفين ، صنفاً ثالثاً قالوا له : (الطلس)[2] .

وقبائل الحلة من العرب : تميم بن مرّ كلّها غير يربوع ، ومازن ، وضبة، وحميس ، وظاعنة ، والغوث بن مر،وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفاً وعدوان ، وعامر بن صعصعة ، وربيعة بن نزار كلها. وقضاعة كلها ما خلا علافاً وجناباً . والأنصار وخثعم ، وبجيلة ، وبكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهذيل بن مدركة ، وأسد وطيء ، وبارق . وقد ذكر هذه الأسماء (محمد بن حبيب)[3] . وذكرها (اليعقوبي) على هذا النحو : تميم وضبة ومزينة والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلها ما خلا عدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها ، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد[4] .

وهم يذكرون ان (الحِلة) هم ما عدا الحمس وانهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحمس،وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها[5] . ويذكرون انهم كانوا يقولون: « لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب » ، « ولا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها » ، « ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها» ، وذكر انهم « كانوا اذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فيلقونها عنهم ، ويسمون ذلك الثوب اللقي »[6] . وفي رواية ان من يطوف

---

١ تفسير الطبري (٢/١٧٠) ، البخاري ، (كتاب الحج ، الباب ٩١) ، (كتاب التفسير، الباب ٣٥) ، البلدان (٤/٦٢٠ وما بعدها) ، الازرقي (١/١١٣) ، اليعقوبي (١/٢٢٦) ، (النجف ١٩٦٤ م) ، المحبر (١٧٨) ، ابن هشام (١/٢١٢) ، الكشاف (١/٢٥٦) ، شرح حماسة أبي تمام ، للتبريزي (١/٧)، شرح المفضليات ، للانباري (٢٥٩) ، ابن رشيق ، العمدة (٢/١٨٨) ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان (١٨) .

٢ المحبر (١٧٨ وما بعدها) .

٣ المحبر (١٧٩) .

٤ اليعقوبي (١/٢٢٦) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

٥ الروض الانف (١/١٣٣) .

٦ الازرقي (١/١١٧) ، اللسان (٢٠/١٢٢) ، الكشاف (٢/٦٠) .

من (الحلة) بثيابه يضرب وتنتزع منه ثيابه[1] . فجعلت هذه الرواية خلع الثياب واجب على الحلة محتّم عليهم ، لا يجوز مخالفته ، وإلا تعرض المخالف للعقاب .

وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضاً اذا كنّ من الحلة ، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة[2] . وقيل تضع احداهن ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه[3] . وقيل كانت تقف على باب المسجد ، فتقول : من يعير مصوناً؟ من يعير ثوباً ؟ من يعيرني تطوافاً ؟ فإن أعارها أحد ثوباً أو كراه لها طافت به ، وإلا طافت عريانة كما يطوف الرجال على حد زعم الروايات . لا يستر عورتها لباس أو قماش ، بل كانت تضع احدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو . وهم يروون في ذلك بيتاً ينسبونه لامرأة جميلة ، قيل هي : ضباعة بنت عامر بن صعصعة ، طافت بالبيت عريانة وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله[4]

وشاءت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هذه الصورة في النفوس ، فذكرت ان بعض النساء كانت تتخذ سيوراً فتعلقها في حقوتها تستتر بها[5] ، وذكرت روايات أخرى انهن كن يطفن ليلاً ، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال ، لأن طواف الرجال في النهار[6] .

وقد وصفت بعض الروايات طواف العريان فقالت : « يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعاً ، استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس ، فيأخذها فيلبسها ولا يعود الى الطواف بعد ذلك

---

١ الكشاف (٢/٦٠) ، الازرقي (١/١١٢ وما بعدها) .
٢ صحيح مسلم (١٨/١٦٢) .
٣ سيرة ابن هشام (١/١٣٣) « حاشية على الروض » .
٤ الازرقي (١/١١٥ ، ١١٧) ، اللسان (١١/١٢٩) ، « طوف » الروض (١/١٣٣)، صحيح مسلم (١٨/١٦٢) ، تفسير الطبري (٨/١١٨) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٧/١٨٩) .
٥ الازرقي (١/١١٧) .
٦ الازرقي (١/١١٧) ، الطبرسي (٣/٤١٤) .

عرياناً »[1] . هذا هو طواف أهل الجاهلية قبل الاسلام على رواية أهل الأخبار .

وجاء في بعض الروايات : « كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عراة، إلا ان تعطيهم الحمس ثياباً ، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء » ، « فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً ولا يسارٌ يستأجر به ، كان بين أحد أمرين : إما ان يطوف بالبيت عرياناً ، وإما ان يطوف في ثيابه ، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه ، فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يسمى اللقى »[2] . وجاء أيضاً ان (الحمس) كانوا « يقولون نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب ان يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل اذا دخل أرضنا إلا من طعامنا »[3] .

وورد انهم « كانوا يطوفون بالبيت عراة،وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون »[4] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان طواف الطائف عرياناً انما يكون للمرة الأولى ، فإذا عاد فطاف بعد ذلك ، لبس ملابسه ، وطاف بملابسه كالحمس لا يلقيها خارج حدود الحرم .

والتفسير الذي ذكره الأخباريون لطواف العري ، هو رغبة الطائف حول البيت ان يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران . واعتقاده ان طوافه بملابسه طواف غير صحيح ، لأن ملابسه شاركته في آثامه ، فهي ملوثة نجسة ، ولذلك هاب من لبسها ، فإذا أتم طوافه تركها في موضعها،ولبس ملابس أخرى جديدة[5] .

ويذكر الأخباريون ان تلك الملابس التي يلقيها المحرم تبقى في مكانها،لا يمسها أحد ، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح . ويقال لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف (اللقي) . وقد أشير اليها في شعر

١ الازرقي (١١٤/١) .
٢ تفسير القرطبي (١٨٩/٧) .
٣ المصدر نفسه .
٤ تفسير النيسابوري (١٥٧/٩) ، « حاشية على تفسير الطبري » ، تفسير الطبري (١٥٧/٩ وما بعدها) .
٥ الازرقي (١١٧/١) ، اللسان (١٢٢/٢٠) ، الكشاف (٦٠/٢) .

لـ (ورقة بن نوفل)[1] . ولعل اعتقاد القوم بأن تلك الملابس ملوثة بالأدران ، هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والاستفادة منها، فتركوها لذلك للأرض وللشمس والرياح تعبث بها الى ان تتمزق وتهرى[2] .

ولكننا نجد الأخباريين يعودون فيروون روايات تناقض ما ذكروه عن (اللقي). إذ يقولون : كان الحلة اذا ختموا طوافهم وأتموه بنائلة ، خرجوا الى ثيابهم التي ألقوها خارج باب المسجد ، فلبسوها ، فإذا أرادوا الطواف مرة أخرى طافوا بملابسهم[3] . فهم يقرون في هذه الرواية طواف العري ، ولكنهم ينكرون ترك (اللقى) على الأرض لتدوس عليها الأقدام ولتلعب بها الرياح وتعبث بها الأهوية والأتربة ، ويجعلون أصحابها يعودون اليها فيلبسونها تارة أخرى .

ونقرأ في كتبهم رواية أخرى تذكر ان أحداً من الحلة اذا لم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها ، غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقى يطرحها بين أساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها منتفع حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والأمطار[4] .

وقد ذكر (محمد بن حبيب) ان (الحلة) كانوا اذا دخلوا مكة « تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم استكروا لهم من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة ان يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم . فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة . وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه . فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً . وانما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم الى البيت لأنهم كانوا اذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم . وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حرمى عياض بن حمار المجاشعي : كان اذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله »[5] .

---

١ كفى حزنا كري عليه ، كأنه لقى بين أيدي الطائفين حريم
الازرقي (١/١١٢ ، ١١٤) ، اللسان (٢٠/١٢٢) ، النهاية في غريب الحديث (٤/٢٩) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٧/١٨٩) .

٢ Robertson Smith, p. 751.

٣ الازرقي (١/١١٤) .

٤ الازرقي (١/١١٤) .

٥ المحبر (ص ١٨٠ وما بعدها) .

فالذي يطوف بالبيت عرياناً ، هو ضعيف (الحلة) ، ممن لا قبل له على استكراء ثياب له من أحمسي ، وممن لا صاحب له من الحمس ، يعطيه ثياباً ليلبسها . أما المتمكن من (الحلة) ، ومن له صديق من الحمس ، فلا يطوف عرياناً ، وانما يطوف بثياب أحمسي .

ويرى (روبرتسن سمث) ان الذي أوحى الى الجاهليين وجوب طرح ملابس الحلة اذا أحرم فيها،اعتقادهم بتقدس تلك الملابس في أثناء الإحرام مما يجعلها في حكم الـ (تابو) Tabu عند الأقوام البدائية ، ولذلك لا يجوز استعمالها مرة أخرى، وهم أنفسهم قوم غير مقدسين[1] .

وقد منع الاسلام طواف (العريّ) في أي وقت كان ، وحتّم على الجميع قريش وغيرهم لبس (الإحرام)[2] . وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى : « واذا فعلوا فاحشة ، قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها . قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون »[3] . ان هذه الآية نزلت في حق المتعرين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة ، « فإذا قيل لهم : لِمَ تفعلون ذلك ؟ قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » ، « فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون ، ونقتدي بهديهم ونستّن بسنّتهم . والله أمرنا به فنحن نتبع أمره فيه »[4] . فنحن اذن أمام سنّة جاهلية قديمة ، ترجع طواف العري الى أمر سابق وشريعة سابقة .

وأما (الحمس) ، فهم الذين كانوا يطوفون بثيابهم ، ثم يحتفظون بها فلا يلقونها ، فلهم من هذه الناحية ميزة امتازوا بها على الحلة . ولهم على الحلة ميزة أخرى ، هي انهم كانوا يقفون الموقف في طرف الحرم من (غرة) : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة[5] . ولا يقفون موقف غيرهم بعرفة ، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل . وحجتهم انهم أهل الحرم فلا يخرجون منه مثل سائر

---

١ R. Smith, p. 751.

٢ الازرقي ، أخبار مكة (١/١١١) .

٣ الاعراف ، الرقم ٢٧ الآية ٢٨ .

٤ تفسير الطبري (٨/١١٤) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٧/١٨٧) .

٥ الازرقي (١/١١٦ وما بعدها) (٣/١٥٨ وما بعدها ، النهاية (١/٢٣٣) ، شرح النووي، (٨/١٨٠) وما بعدها) ، Ency., II, p. 335.

الناس . ويقولون : « نحن أهل الحرمة وولاة البيت وقطّان مكة وساكنها،فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف»[1].

وتفسير كلمة (الحمس) في رأي علماء اللغة التشدد في الدين ، سُمّوا حمساً لأنهم كانوا يتشددون في دينهم ، فكانوا اذا زوّجوا امرأة منهم لغريب عنهم ، أي لمن كان من الحلة اشترطوا عليه ان كل من ولدت له ، فهـو أحمسي على دينهم . وكانوا اذا أحرموا لا يأتقطون الاقط ، ولا يأكلون السمن ولا يسلؤونه ولا يمخضون اللبن ، ولا يأكلون الزبد،ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً ، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه ، وانما يستظلون بالأدم ، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم . وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم . وكانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الاسلام ، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه . وكانوا يقولون : لا تعظموا شيئاً من الحل ، ولا تجاوزوا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم ، ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم ، فقصروا عن مناسك الحـج .والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون بـه يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة . فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا . وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم ، لا نخرج من الحرم،ونحن الحمس . وكانوا اذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم ، تسوّروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ، ثم ينزلون في حجرتهم ، ويحرمون ان يمـروا تحت عتبة الباب[2] . فهم يحرمون اذن أشياء لم تكن العرب تحرمها[3] .

---

١ ابن هشام (١٣٢/١) « هامش على الروض » .

٢ الازرقي (١١٦/١ وما بعدها) ، النهاية (٢٣٣/١ ، ٢٩٣) ، الاشتقاق (١٥٣) ، ابن هشام (٢١١/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٣٩١/١) ، الطبرسي (٤١١/٢) .
Caetani, Annali, I, S. 121, Ency., II, p. 335, Snouck Hurgounje, Het Mekkaanische Feest, p. 21, 77, 111, 130.

٣ المعاني (٩٩٨/٢) .

والحمس : قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس على رواية [1] . تضاف اليهم خزاعة والأوس والخزرج وجشم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة وأزد شنوءة وجذم زبيد وبنو ذكوان من بني سُليم وعمرو اللات وثقيف وغطفان والغوث وعدوان وعلاف وقضاعة على رواية للأزرقي[2] . وهم : (قريش) وكنانة وجديلة قيس ، وفهم ، وعدوان ، وثقيف ، وعامر بن صعصعة على رواية أخرى[3] . وقد ذكر (ابن سعد) ، ان الحمس هم : قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب . أو حليف قريش . وذكر بعض الرواة انهم قريش وعامر بن صعصعة ، والحارث بن كعب[4] . وذكرهم بعض آخر على هذا النحو : قريش ، وكنانة ، وخزاعة ، وثقيف ، وخثعم ، وعامر بن صعصعة ، ونصر بن معاوية . وأضاف (القرطبي) جشماً اليهم[5] . وورد ان « الحمس لقب قريش ومن ولدت قريش ، وكنانة وجديلة قيس . وهم : فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان ، وبنو عامر بن صعصعة ، ومن تابعهم في الجاهلية . هؤلاء الحمس . وانما سمّوا لتحمسهم في دينهم أي تشددهم فيه ، وكذا في الشجاعة فلا يطاقون ، أو لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة »[6] .

وأورد (ابن حبيب) أسماء الحمس من العرب ، فقال : « قبائل الحمس من العرب : قريش كلها . وخزاعة لنزولها مكة ، ومجاورتها قريشاً . وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب .

فمن ولدت قريش : كلاب ، وكعب ، وعامر ، وكلب بنو ربيعة بن عامر ابن صعصعة . وأمهم مجد بنت تيم بن غالب بن فهر . واياها عنى لبيد بن ربيعة بقوله :

سقى قومي بني مجد وأسقى   نميراً والقبائل من هلال

---

١ النهاية في غريب الحديث (١/٢٩٣) ، تاج العروس (٤/١٣٢ وما بعدها) ، (حمس) ، اللسان (٧/٢٥٧ وما بعدها) ، (حمس) ، ، ارشاد الساري (٣/٢٠٠)، البلخي ، البدء والتاريخ (٤/٣٢ وما بعدها) .

٢ البلدان ، (مكة) ، .Kister, p. 138

٣ الطبقات (١/٧٢) ، (صادر) .

٤ ابن هشام (١/٢١٢) ، ابن قتيبة ، المعارف (٢٦٩) ، المعاني (٩٨٩) ، المرزوقي ، شرح الحماسة (٣١) ، .Kister, p. 132

٥ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢/٣٤٥) ، أبو حيان ، البحر المحيط (٢/٦٣) ، .Kister, p. 132

٦ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

والحارث بـن عبد مناة بـن كنانة . ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة ، بنزولهم حول مكة . وعامر بن عبد مناة بن كنانة . ومالك ، وملكان ، ابنـا كنانة ، وثقيف ، وعدوان ، ويربوع بن حنظلة . ومازن بن مالك بن عمرو بن تميم . وأمها جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر . ويقال : ان بني عامر كلهم حمس لتحمس اخوتهم من بني ربيعة بن عامر . وعلاف ، وهو ربّان بن حُلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة . وجناب بن هبل بن عبدالله من كلب . وأمه آمنـة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة . وأمهـا مجد بنت تيم الأدرم بن غالب ابن فهر »[1] .

ويتبين مما تقدم ان (الحمس) ، لم يكونوا قريشاً وحدهم وسكان الحـرم ، وانهم لم يكونوا جماعة قامت وظهرت على رابطة الدم والنسب ، كما هو الحـال بالنسبة الى القبيلة . بل هم قريش وكل من نزل الحرم وسكن مكة ، وطوائف من العرب شاركت قريشاً في مناسك حجها ، وسارت على نهجها في الحـج ، وشاطرتها الرأي في دينها . وقد ذكر (الجاحظ) ان (عامر بن صعصعة) ، و (خزاعة) ، و (ثقيفاً) ، والحارث بن كعب ، كانوا ديّانين ، أي على رأي ودين[2] . وكانوا على دين قريش . وقال غيره : « وصارت بنو عامر من الحمس وليسوا من ساكني الحرم لأن أمهم قرشية . وهي مجد بنت تيم بن مرة . وخزاعة انما سميت خزاعة ، لأنهم كانوا من سكان الحرم فخزعوا عنـه ، أي خرجوا . ويقال انهم من قريش انتقلوا ببنيهم الى اليمن . وهم من الحمس »[3].

وقد ميّز بعض العلماء بين (الحمس) وهم نزلاء الحرم ، وبين المتحمسين الذين دخلوا في الحمس ، لأن أمهاتهم من قريش ، بأن أطلقوا عليهم لفظـة (الأحامس) . فقالوا : « والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش »[4] .

وجاء في بعض الأخبار ان (غطفان) ، لما اتخذت لها بيتاً أرادت به مضاهاة الكعبة ، وجعلت له حرماً كحرم مكة . أغار (زهير بن جناب الكلبي) عليه

---

١ المحبر (١٧٨ وما بعدها) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٥٤٠) ، ابن عبد البر ، انباه (٨٧) ، المفضليات ، شرح الانباري (٢٥٩) .

٢ Kister, p. 136.

٣ تاج العروس (١٣٢/٤) ، (حمس) .

٤ تاج العروس (١٣٣/٤) ، (حمس) .

وهدمه[1] . وكان زهير من الحمس .

وقد وصف (ابن سعد) (التحمس) بقوله : « والتحمس أشياء أحدثوها في دينهم تحمسوا فيها ، أي شددوا على أنفسهم فيها ، فكانوا لا يخرجون من الحرم اذا حجّوا ، فقصروا عن بلوغ الحق ، والذي شرع الله ، تبارك وتعالى، لابراهيم وهو موقف عرفة ، وهو من الحل ، وكانوا لا يسلؤون السمن ولا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم ، وشرعوا لمن قدم من الحاج ان يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا الى عرفة ، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا عراة أو في ثوبي أحمسيّ ، وان طاف في ثوبيه لم يحلّ له ان يلبسها »[2] .

وللجاحظ ملاحظات قيمة عن قريش لها صلة بالتحمس ، وقد تفسر لنا معنى التحمس وسبب شموله أناساً هم من غير قريش .

ذكر ان الاسلام لما ظهر ، لم تكن هنالك أية امرأة قرشية ، كانت مسبية عند غير قريش . ولم تكن هنالك أية امرأة مسبية في أيدي القبائل وأمها من قريش . ويذكر أيضاً ان قريشاً لم تكن تزوج بناتها من أبناء أشراف القبائل حتى تشترط عليهم ان من تلد منهن ، فيكون من يلدن من الحمس . أما هم ، فكانوا اذا تزوجوا من بنات قبائل أخرى ، فإنهم لم يشترطوا على أنفسهم أي شرط، وكان من هذه القبائل عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة والحارث بن كعب ، (وكانوا ديّانين) . وكانوا على دين قريش في أمورها . وكانت قريش كريمة ، ولم ترض بالغارات والغزو ولا بالظلم ولم تقبل بالوأد ولا بالدخول بمن يقع في أيديهم أسرى من النساء . وكان من فضائلهم ان منّ الله عليهم بالإيلاف . فأغناهم وجعلهم (لقاحاً) ، فلم يخضعوا لملك ، ولم يستعبدهم سلطان أجنبي[3] . ولم يدفعوا أي شيء عنهم لملك من الملوك . بل كانت الملوك تأتي الى مكة وتعظم البيت وتحترم سكانه . وهم قريش الحمس[4] .

---

١ الاغاني (١٢/١٢١) ، (٢١/٦٣) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٢) ، (صادر) .
٣ أخذت هذه الملاحظات من (كستر) (Kister) ، لعدم وجود مخطوطة الجاحظ التي نقل منها عندي . وهي : مختارات فصول الجاحظ ، الموجودة في المتحف البريطاني برقم ٣١٨٣ .
٤ ابن الفقيه ، كتاب البلدان (١٨) .

ويظهر من ملاحظات الجاحظ المذكورة ، ان من أهم مبادىء الحمس ، نبذ الغارات ، أي الغزو ، حتى جعلته قريش ركناً من أركان دينها . كما تمسكت بركن آخر ، هو عدم الدخول بمن يقع في أيديهم من النساء السبايا في حالة ما اذا أغارت قبيلة عليهم ، واعتدت عليهم ، فانتصرت قريش عليها ، وأخذت منها سبايا . أما الحمس الآخرون ، مثل عامر بن صعصعة وثقيف والحارث بن كعب ، وأمثالهم ممن تحمسوا ، فلم يتمسكوا بهذه الأصول . وذكر (ابن الفقيه) ان القبائل المذكورة لم تكن في الأصل حمساً ، على دين قريش ، وانما تحمست وصارت من الحمس بتأثير قريش عليها [1] . وقريش تمسكوا وحدهم بالحمس ، (وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)[2] . وقد عرفت مكة بـ (دار الحمس) ، كما جاء ذلك في شعر ينسب الى (الكاهـن اللهبي)[3] . وعرفت قريش بـ (أهل الله)[4] .

ونجد بين (الحمس) والحرم صلة متينة ، تشير الى الأصل الديني للحمس والى ارتباطهم بالكعبة . فذهب (الزمخشري) الى ان (حمس) من (حرم)[5] : ومن دلائل هذه الصلة أيضاً ما ورد في كتب أهل الأخبار من ان الكعبة كانت قد عرفت بـ (الحمساء) . سميت بذلك (لأن حجرها أبيض الى السواد)[6] . ومن ان (الحمس) هم نزلاء الحرم[7] . فبين الحمس والحرم ، صلة متينة اذن . حتى قيل ان المنسوب الى الحرم من الناس (حرمـي)[8] . و (ان عياض بن حمار المجاشعي ، كان حرمي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكان اذا حج طاف في ثيابه . وكان أشراف العرب الذين يتحمسون على دينهم ، أي يتشددون اذا حج أحدهم لم يأكل إلا طعام رجل من الحـرم : ولم يطف إلا في ثيابه .

---

١ Kister, p. 137.

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٨) ، (أهل الله) ، Kister, p. 137.

٣ الروض الانف (١/١١٨) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٤٩١) ، Wellhausen, Reste, S. 134, Kister, 138.

٤ Kister, p. 139.

٥ الزمخشري ، الفائق ، (حمس) ، Kister, p. 138.

٦ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

٧ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

٨ بالكسر .

فكان لكل رجل من أشرافهم رجل من قريش . فيكون كل واحد منهما حرمي صاحبه »[1] . ويفسر لنا هذا المعنى أيضاً قولهم : « رجل حرام : داخل في الحرم » ، و « الحرم بالكسر الرجل المحرم . يقال : أنت حل وانت حرم»[2]. وقد أنجب الزواج المشروط بين قريش وبين من يتزوج منها حمساً جدداً ، انتقل الحمس اليهم عن طريق (شرط عقد الزواج) من جهة الأمهات . أما نسل هؤلاء الحمس الجدد ، الذين هم في الواقع أنصاف أحماس ، فقد صار حمساً مثل قريش ، لأنهم ولدوا من والد حسب من الحمس ومن والدة أحمسية . وبذلك لم يعد الحمس أهل مكة وحدهم ، بل شمل أهل مكة ومن تزوج مكيات فأنجبن ولداً ، عدّوا حمساً بشرط العقد .

وتذكر بعض الروايات ان عقيدة (الحمس) لم تكن قديمة ، بل ظهرت قبيل الاسلام . « قال ابن اسحاق : كانت قريش لا أدري قبل الفيل أو بعده ، ابتدعت أمر الحمس رأياً . فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها ،وهم يعرفون ويقرون انها من المشاعر والحج ، إلا انهم قالوا : نحن أهل الحرم ، ونحن الحمس . والحمس أهل الحرم . قالوا : ولا ينبغي للحمس ان يتأقطوا الأقط ولا يسلؤوا السمن ، وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرماً ، ثم قالوا : لا ينبغي لأهل الحل ان يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عمّاراً ، ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس »[3] . ولم تذكر هذه الرواية سبب ظهورها ، ولا من أوجدها من رجال قريش .

ويتبين من غربلة ما ذكره أهل الأخبار عن الحمس : ان الحمس هم أهل مكة الأحرار في الأصل ، ثم من دان بدينهم . وجدوا أنفسهم في ضنك شديد، في واد غير ذي زرع ، لا شيء عندهم غير (البيت) ، فتحمسوا في دينهم وتشددوا وتعاونوا فيما بينهم على العمل معاً ، وعلى الدعوة الى عبادة رب البيت واقراء الضيف والامتناع عن غزو غيرهم ، وعن التحرش بأحد ، إلا اذا تحرش بهم ، وعلى إغاثة الملهوف ومساعدة من يأت البيت حاجاً أو معتمراً أو قاصداً

---

١ تاج العروس (٨/٢٤٣) ، (حرم) .
٢ تاج العروس (٨/٢٤٣) ، (حرم) .
٣ ارشاد الساري (٣/٢٠٠) .

تجارة ، وتقديم الرفادة له . ونصرة الغريب . وحافظوا على الحرمات : حرمة البيت وحرمة الحج وحرمة الأشهر الحرم ، ووضعوا لأنفسهم قواعد صارمة في آداب السلوك في موسم الحج وفي غيره ، تشعر انهم كانوا ينظرون الى أنفسهم كأنهم (جنس) ، فضله الله على بقية أجناس العرب ، لهم مناسكهم ، ولبقية العرب مناسكهم ، ولهم قباب خاصة يضربونها لأنفسهم في سوق عكاظ وفي المواضع الأخرى تميزهم عن سائر من يفد الى هذه المواضع،وترفّعوا عن مصاهرة سائر الناس إلا اذا وجدوا انهم أكفاء لهم ، والكفاءة : القوة والمال . وأقاموا مجتمعهم الخاص هذا على قواعد دينية تعاونية اقتصادية (صاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)[1] . شعارهم انهم (أهل الله)[2] ، دينهم « التحمس والتشدد في الدين، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال ، فلما زهدوا في الغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة : فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم ، والنجاشي بالحبشة ، والمقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »[3]. وكان ان تفردوا بالإيلاف، وللايلاف ارتباط بالحمس ، وتوجهوا الى التجارة والاتجار ، وجمعوا بين الدين والمال ، وأفسحوا المجال لمن به نشاط وهمة ان يجمع مالاً وأن يكون غنياً على ان يساهم بنصيبه في تحمّل أعباء مجتمعهم ، للدفاع عن (بيت الله) ولكسب المتحالفين معهم وتوزيع العدل فيا بينهم ، توزيعاً يخفف من حدة التفاوت فيا بين الغني والفقير ، حتى لا يقع اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع، يحمل الفقراء على انتزاع المال من الأغنياء كرهاً وقسراً . وجعلوا ذلك واجباً من واجباتهم ، فحثوا على رفع الظلم ، واتخذوا السقاية والرفادة ، وعقدوا (حلف الفضول) للدفاع عن المحتاج ، وجعلوا (الإيلاف) الذي سأتكلم عنه في الجزء الخاص بالحياة الاقتصادية ، سبباً من أسباب اشاعة الرحمة ومساعدة الفقراء وتخفيف وطأة الفقر في هذه القرية : (أم القرى) ، وفي ذلك يقول (مطرود بن كعب الخزاعي) في رثائه عبد المطلب :

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨) ، (أهل الله) ، (ص١١) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) .

٢ ثمار (ص ١٠) .

٣ ثمار (ص ١١ وما بعدها) ، سيرة ابن دحلان (١/١٤٠) ، (حاشية على السيرة الحلبية) .

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت عليهم ضمنوك من جوع ومن إقراف
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف
والمطعمون اذا الرياح تناوحت ورجال مكة مسنتون عجاف
والمفضلون اذا المحول ترادفت والقائلون هلم للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي
كانت قريش بيضة فتفلقت فالمح خالصة لعبد مناف[1]

قام رجال من رجال مكة بالانفاق على المحتاجين، فعدّوا ذلك ديناً ومروءة وشهامة. فكان (نعيم بن عبدالله) العدوي ، ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم[2]. وكان (حكيم بن حزام) ينفق من أرباحه على المحتاجين من آله وذويه[3] . وكان صديق النبي قبل المبعث[4]، وتذكر كتب السير والتراجم أسماء رجال آخرين عرفوا بتصدقهم على الفقراء والمحتاجين ، اعتبروها منقبة وقربة لهم في الجاهلية ، وقد أقرهم الرسول عليها .

فالحمس (أهل الله) ، وأمته ، تجمعهم عبادة الله والأصنام ، والمناسك والشعائر التي وضعوها لهم ، والتجارة التي جعلوها مثل شعائر دينهم ، ينفقون من أرباحهم منها في سبيل (الله) . أي بيت الله وأهله المستضعفون ، حتى جعلوا الصدقة وإطعام المحتاج من أمور الدين. فجتمعهم مجتمع جمع بين الدين والتجارة، وبين الدين والمال . حثهم على التعاون بخلط رؤوس أموالهم والاتجار معاً بقوافل ، وفيه ربح كبير مضمون ، وحثهم على إنصاف من ليس له شيء حتى يصير

---

١ أخذت هذه الابيات من أمالي المرتضى (٢/٢٦٨) ، وتختلف بعض الاختلاف عن أمالي القالي (١/٢٤١ وما بعدها) ، التي فيها :
منهم علي والنبي محمد القائلان هلم للاضياف
وعن سيرة ابن هشام (١/١١٧) ، (حاشية على الروض الانف) ، وعن معجم الشعراء (٣٧٥) ، وشرح ابن أبي الحديد (٣/٤٥٣) ، والعيني (٤/١٤٠) ، والبكري ، سمط (٥٤٧ وما بعدها) ، وعن تفسير الطبرسي (حـ ٣٠ ص ٥٤٥) ، (طبعة طهران) ، تفسير سورة لايلاف قريش ، وعن ابن العربي ، محاضرات الابرار (٢/١١٩) ، والبلاذري ، أنساب (١/٥٨) ، والدياربكري ، تأريخ الخميس (١/١٥٦) .

٢ الاصابة (٣/٥٢٧) ، (رقم ٨٧٧٨) .

٣ نسب قريش (١/٣٦٧) ، (رقم ٦٤٤) ، Kister, p. 125.

٤ الاصابة (١/٣٤٨ وما بعدها) ، (رقم ١٨٠٠) .

مكتفياً غير محتاج ، لا يوجه عينه نحو غيره حسداً وحقداً . شعار هذا المجتمع الله والأصنام والحج والتجارة ، مجتمع لم يكن يخلو بالطبع من أحامس بخلاء ، شذوا عن الطريق ، واغتصبوا أموال الفقراء ، كما هو الحال في كل مجتمع بشري .

وقد اقتصرت (قريش) ، وهم من الحمس ، على استعمال القباب المصنوعة من الأدم لا يضربها غيرها بـ (منى)[1] . لأنهم (كانوا لا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم)[2] . وقد استعمل الرسول في حجه هذا النوع من القباب[3] . ولا بد أن يكون لاقتصار قريش على استعمال هذا النوع من القباب دون غيرها في هذا الموضع ، سبب ما ، الأرجح انه عامل ديني واجتماعي[4] . ويلاحظ انه كان للقباب الحمر ذكر خطير ، وجاه عظيم في نظر الجاهليين، فكان أصحابها يفتخرون على غيرهم بأنهم (أهل القباب الحمر)[5] ، وقد كان الملوك والسادة يضربون لأنفسهم القباب الحمر . فهي من امارات الجاه والمكانة والنفوذ .

ويظهر من بعض الأسماء أو الجمل التي وردت فيها كلمة (أحمس) و (حمس) ان هذه الكلمة هي نعت أو اسم من أسماء الآلهة عند الجاهليين في الأصل ، ثم تغير معناها بعد ذلك فصارت على النحو الذي ذكره علماء اللغة نقلاً عن الروايات التي ترجع ذلك المعنى الى الجاهلية المتصلة بالاسلام . ففي الأسماء الواردة الينا : (أحمس الله) ، و (بنو أحمس) ، و (أبو أحمس) ، و (الأحامس)[6] ؛ ما يفيد ان الأصل بعيد جداً عن المعنى الذي فهمه وذهب اليه أهل الأخبار ، وان للكلمة معنى دينياً خاصاً قديماً ، هو التشدد في الدين والتمسك به ، وبعبادة الصنم ، والمحافظة على سنّة الآباء والأجداد مع تصلب وتقشف .

---

١ (كانت قباب قريش من الأدم ، لا يضربها غيرهم بمنى) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني ـ آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٤١) .

٣ ابن سعد ، الطبقات (٢/٨٨) ، أسد الغابة (١/٢٥١) .

٤ المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني ـ آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .

٥ أهل القباب الحمر والنعم المؤبل والمدامه
ديوان عبيد الابرص (٢٩) ، (طبعة لايل) .

٦ الاغاني (٢/٤٦) ، الاشتقاق (١٥٣) ، تاج العروس (٤/١٣٢ وما بعدها)، (حمس) .

والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش[1] ، صاروا من الحمس بسبب أمهاتهم .

هذا وقد نزل الوحي بتنظيم الحج وفق مبادىء الاسلام ، فأباح للحجاج ما كانت الحمس حرمته على نفسها من طعام الحج إلا طعام أحمسي ، على نحو ما ذكرت قبل قليل . وما ذكر من ان قوماً كانوا قد حرّموا على أنفسهم ما يخرج من الشاة لبنها وسمنها ولحمها ، اذا حجوا أو اعتمروا[2] . كما نزل بوجوب ستر العورة ولبس الإحرام في الحج ، وذلك بالنسبة الى المحلّين ، وأغلبهم من الأعراب ومن الفقراء ، حيث كانوا يطوفون عراة ، وفي ضمنهم النساء[3] . فنزل الوحي بـ : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »[4] . ونهوا عن ذلك[5] . وذكر عن أبي هريرة انه قال : « بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر ، لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »[6] .

كما نزل الوحي بجواز دخول الحجاج بيوتهم وخيامهم وما يأوون اليه من بيوتها ، من أبوابها ، لا كما كان يفعل بعضهم في الجاهلية وفي أول الاسلام ، من انه اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه ، فإن كان من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلماً فيصعد فيه ،وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب حتى يحل من احرامه ويرون ذلك ذماً ، إلا ان يكون من الحمس . وهم : قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة ، وبنو النضر بن معاوية . نزل الوحي بذلك في الآية : «وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون»[7] .

---

١ تاج العروس (١٣٣/٤) ، (حمس) .
٢ تفسير الطبري (١٢١/٨) .
٣ تفسير الطبري (١١٨/٨) .
٤ الاعراف ، الآية ٣١ .
٥ تفسير الطبري (١١٨/٨ وما بعدها) ، أسباب النزول (١٦٨ وما بعدها) .
٦ صحيح مسلم (١٠٧/٤) ، (باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان الحج الاكبر) .
٧ البقرة ، الآية ١٨٩ .

وقد ذهب بعض أهل الأخبار والسير الى ان الآية المذكورة ، نزلت في أمر الحمس ، « لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها ، فان احتاج أحدهم الى حاجة في داره تسنم البيت من ظهره ، ولم يدخل من الباب »[1] . وذهب المفسرون الى انها نزلت في الأنصار، فقد كانوا اذا حجّوا فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل فدخل من قبل بابه ، فكأنه عير بذلك ، فنزلت هذه الآية . وورد: « كانت قريش تدعى الحمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الاحرام،وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام ، فبينما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في بستان ، إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا : يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وانه خرج معك من الباب ! فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : فإنّ ديني دينك ! فأنزل الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها »[2] . وقد أغفلت بعض الروايات اسم من كان لا يدخل البيوت من أبوابها ، بأن قالت : « كان أهل الجاهلية يأتون البيوت من ظهورها ويرونه براً » ، أو « كانوا في الجاهلية اذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها ، ولم يأتوا من أبوابها » ، أو « إن ناساً كانوا اذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها أو بيتاً » ، أو « كان ناس من أهل الحجاز ، اذا أحرموا لم يدخلوا من أبواب بيوتهم ودخلوها من ظهورها »[3] ، وذكر ان من كان يفعل ذلك ، فانما يفعله،لأنهم كانوا يتحرجون من ان يكون بينهم وبين السماء حائل[4] .

وقد جعل (اليعقوبي) العرب في الجاهلية على دينين : دين الحمس ودين الحلة . وذلك بالنسبة للمشركين . وذكر ان منهم من دخل في دين اليهودية وفي النصرانية ، ومنهم من تزندق وقال بالثنوية ، وبهذه الفرق حصر (اليعقوبي) أديان أهل الجاهلية . إذ قال : « فهاتان الشريعتان اللتان كانت العرب عليها . ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود ، وفارقوا هذا الدين . ودخل آخرون

١ الروض الانف (١/١٣٤ وما بعدها) .
٢ أسباب النزول (ص ٣٥ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (٢/١٠٨ وما بعدها) .
٤ المصدر نفسه .

في النصرانية ، وتزندق منهم قوم ، فقالوا بالثنوية »[1] .

والتعميم الذي يطلقه (اليعقوبي) وبقية المؤرخين والأخباريين في قولهم « وكانت العرب في أديانهم » ، لا يمكن التسليم به ، إلا بالنسبة لأهل مكة ولمن كان يقصدهم من العرب . أما بالنسبة لجميع العرب ، فهذا ما لا يمكن التسليم به .

وأما (الطلس) ، فقد وصفهم (محمد بن حبيب) بقوله انهم : « بين الحلة والحمس : يصنعون في احرامهم ما يصنع الحلة ، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس . وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ، ولا يستعيرون ثياباً ، ويدخلون البيوت من أبوابها ، وكانوا لا يئدون بناتهم ، وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون »[2] . وهم سائر أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك وعجيب ، وإياد بن نزار[3] .

وذكر ان من الحجاج من كان يحج بغير زاد ، وان منهم من كان اذا أحرم رمى بما معه من الزاد ، واستأنف غيره من الأزودة ، وان « قبائل من العرب يحرمون الزاد اذا خرجوا حجاجاً وعمّاراً » ، فنزل الوحي : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى »[4] ، فأمر من لم يكن يتزود منهم بالتزود لسفره ، ومن كان منهم ذا زاد ان يتحفظ بزاده فلا يرمي به[5] . وقد عرف هؤلاء بـ (المتوكلة) ، لتوكلهم على (رب البيت) في اطعام أنفسهم ، واعتمادهم في ذلك على السؤال.

وقد ذكر علماء التفسير ان الآية : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » نزلت « في طائفة من العرب كانت تجيء الى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا ، فكانوا يبقون عالة على الناس ، فنهوا عن ذلك ، وأمروا بالزاد . وكان للنبي صلى الله عليه وسلم في مسيره راحلة عليها زاد ، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مزينة ، فلما أرادوا ان ينصرفوا قال : يا عمر زوّد

---

١ اليعقوبي (١/٢٢٦) .
٢ المحبر (ص١٨١) .
٣ المحبر (ص١٧٩) ، الروض (١/١٣٣) .
٤ البقرة ، الآية ١٩٧ .
٥ تفسير الطبري (٢/١٦٢) ، (ان قوما كانوا يرمون بأزوادهم ويتسمون بالمتوكلة ، فقيل لهم تزودوا من الطعام ، ولا تلقوا كلكم على الناس) ، تفسير الطبرسي (١/٢٩٤) .

القوم ..... كما روى البخاري عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس »[1] .

ويظهر مما تقدم ان (المتوكلة) لم يكونوا جميعاً من الفقراء المحتاجين ، بل كان منهم قوم أغنيــاء فضل الله عليهم ، بدليل انهــم كانوا اذا حجّوا رموا زادهم ، أو أعطوه للمحتاج اليه ، يفعلون ذلك ديانة وتقرباً الى الله ، كما فعل (المتوكلــة) من بعدهم في الاسلام . فهم اذن طائفة من الطوائف الجاهليــة المتدينة ، ترى ان التقشف في الحج ، يزيد في ثوابه ، ويقرب أصحابه الى رب البيت .

ويريد أهل الأخبار بالثياب (الإحرام) على ما يظهر . وهو قديم وقد عرف عند غير العرب أيضاً . وهو محاكاة لملابس رجال الدين الذين يخدمون المعابد ، ويتقربون الى الآلهة . وهو يتكون من قطعتين من : إزار ومن وشاح . ويكون أبيض اللون . واللون الأبيض من الألوان الّتي تعبر عن معان دينية . فقــد كان رجال الدين والكهنة يلبسون الثيــاب البيض . كما انه شعار الحــزن عند بعض الشعوب ، وفي جملتهم عرب الحجاز[2] . ويظهر ان أهــل مكة وهم قريش ، كانوا يلبسون الإحرام ، أو يكرهونه لغيرهم من العرب أو يعيرونه لهم إن كانوا من حلفائهم ، فيحرمون كإحرام قريش . أما من لم يتمكن من الحصول عــلى الإحرام ، فقد كان يضطر بحكم الضرورة إلى الطواف عرياناً على نحو ما يقصه علينا أهل الأخبار .

أما بالنسبة الى أهل العربية الجنوبية من معينين وسبئين وقتبانيين وحضرميين ، فإننا لا نستطيع ان نتحدث عن سنة الطواف حول المعابد عندهــم ، لعدم ورود شيء عن ذلك في النصوص الواصلة الينا . ولكني لا أستبعد احتمال طوافهم حول بيوت أصنامهم على نحو ما كان يفعله أهل الحجــاز ، لأن الطواف حول بيوت الأصنام أو حول الصنم من السنن الشائعة بين العرب وعند جماعات من بني إرم والنبط .

---

١ تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢/٤١١) ، تفسير ابن كثير (١/٢٣٩) .
٢ Shorter Ency. of Islam, p. 160.

التلبية :

وذكر (محمد بن حبيب) ان طواف أهل الجاهلية بالبيت اسبوعاً ، وذكر انهم كانوا يمسحون الحجر الأسود ، ويسعون بين الصفا والمروة . وكانوا يلبّون. وذكر ان نسك قريش كان لإساف ، وان تلبيتهم : « لبيك اللهم لبيك،لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »[1] . وان تلبيــة من نسك للعزى : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، ما أحبنا اليك » . وان تلبيــة من نسك للات : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى ببيتنا بنيّة، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية أربابه من صالحي البريــة » . وكانت تلبية من نسك لجهار : « لبيك ، اللهم لبيك . لبيك ، اجعل ذنوبنا جبار،واهدنا لأوضح المنار ، ومتعنا وملنا بجهار » . وكانت تلبية من نسك لشمس : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، ما نهارنا نجره ، ادلاجه وحره وقره ، لا نتقي شيئاً ولا نضره ، حجاً لرب مستقيم بره » ، وكانت تلبية من نسك لمحرّق : « لبيك ، اللهـم لبيك ، لبيك حجاً حقاً ، تعبّداً ورقاً » ، وكانت تلبية من نسك لودّ : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، معذرة اليك » . وكانت تلبيــة من نسك ذا الخلصة : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، بما هو أحب اليك » . وكانت تلبية من نسك لمنطبق : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك » . وتلبية عك ، انهم كانوا اذا بلغوا مكة ، يبعثون غلامين أسودين أمامهم ، يسيران على جمل ، مملوكين،قد جردا، فهما عريانان ، فلا يزيدان على ان يقولا : « نحــن غرابا عك » . واذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفهما من عك : « عك اليك عانية ، عبادك اليمانية ، كيما نحج الثانية ، على الشداد الناجية »[1] .

وكانت تلبية من نسك مناة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لولا ان بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك ، ما زال حج عثــج يأتونك ، إنا على عدوائهم من دونك » . وتلبية من نسك لسعيدة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لبيك ، لم نأتك للمياحة ، ولا طلباً للرقاحة ، ولكن جئناك للنصاحة » . وكانت تلبيـة من نسك ليعوق : « لبيك اللهـم لبيك ، لبيك ، بغض الينا الشر ، وحبب الينــا الخير ، ولا تبطرنا فنأشر ، ولا تفدحنا بعثار » . وكانت تلبية من نسك ليغوث :

---

١ المحبر (٣١٣) .

« لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، أحبنا بما لديك : فنحن عبادك ، قد صرنا اليك » . وكانت تلبية من نسك لنسر : « اللهم لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، اننا عبيد ، وكلنا ميسرة عتيد ، وأنت ربنا الحميد ، اردد الينا مُلكنا والصيد». وكانت تلبية من نسك ذا اللبا : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، رب فاصرفن عنّا مضر ، وسلّمن لنا هذا السفر ، إن عما فيهم لمزدجر ، واكفنا اللهم أرباب هجر » . وكانت تلبية من نسك لمرحب : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، اننا لديك . لبيك ، حببنا اليك » . وكانت تلبية من نسك لذريح : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، كلنا كنود ، وكلنا لنعمة جحود ، فاكفنا كل حية رصود ». وكانت تلبية من نسك ذا الكفين : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، إن جرهماً عبادك ، الناس طُرف وهم تلادك ، ونحن أولى منهم بولائك » . وتلبية من نسك هبل : « لبيك اللهم لبيك ، اننا لقاح ، حرمتنا على أسنة الرماح ، يحسدنا الناس على النجاح »[1] .

وقد تعرّض (اليعقوبي) لموضوع التلبية ، فقال : « فكانت العرب ، اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنده ، ثم تلبوا حتى يقدموا مكة . فكانت تلبياتهم مختلفة . وكانت تلبية قريش : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك ، تملكه وما ملك . وكانت تلبية كنانة : لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف ، يوم الدعاء والوقوف . وكانت تلبية بني أسد : لبيك اللهم لبيك ، يا رب أقبلت بنو أسد ، أهل التواني والوفاء والجلد اليك . وكانت تلبية بني تميم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك عن تميم ، قد تراها قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها ، وأخلصت لربها دعاءها . وكانت تلبية قيس عيلان: لبيك اللهم لبيك ، لبيك أنت الرحمان ، أتتك قيس عيلان ، راجلها والركبان . وكانت تلبية ثقيف : لبيك اللهم إن ثقيفاً قد أتوك ، وأخلفوا المال وقد رجوك . وكانت تلبية هذيل : لبيك عن هذيل قد أدلجوا بليل ، في إبل وخيل . وكانت تلبية ربيعة : لبيك ربنا لبيك ، لبيك إن قصدنا اليك . وبعضهم يقول : لبيك عن ربيعة ، سامعة لربها مطيعة . وكانت حمير وهمدان يقولون : لبيك عن حمير وهمدان والحليفين من حاشد والهان . وكانت تلبية الأزد : لبيك رب الأرباب ،

---

١ المحبر (٣١١ – ٣١٥) .

تعلم فصل الخطاب ، لملك كل مثاب . وكانت تلبية مذحج : لبيك رب الشعرى، ورب اللات والعزى . وكانت تلبية كندة وحضرموت : لبيك لا شريك لك ، تملكه ، أو تهلكه ،أنت حكيم فاتركه . وكانت تلبية غسان : لبيك رب غسان ، راجلها والفرسان . وكانت تلبية بجيلة : لبيك عن بجيلة في بارق ومخيلة، وكانت تلبية قضاعة : لبيك عن قضاعة ، لربها دفاعة ، سمعاً له وطاعة . وكانت تلبية جذام : لبيك عن جذام ، ذوي النهي والأحلام ، وكانت تلبية عك والأشعريين:

نحج للرحمان بيتاً عجبا مستتراً مضبباً محجبا [1]

و (التلبية) اجابة المنادي ، أي اجابة الملبي ربه . وقولهم : لبيك اللهم لبيك ، معناه اجابتي لك يا رب ، واخلاصي لك[2] . وقد كان الجاهليون يلبّون لأصنامهم تلبيات مختلفة . وقد ذكر (أبو العلاء المعري) ، ان تلبيات العرب جاءت على ثلاثة أنواع : مسجوع لا وزن له ، ومنهوك ، ومشطور . فالمسجوع كقولهم :

لبيك ربنا لبيك والخير كله بيديك

والمنهوك على نوعين : أحدهما من الرجز ، والآخر من المنسرح ، فالذي من الرجز كقولهم :

لبيك إنّ الحمد لك والملك لا شريك لك
إلا شريك هو لك تملكه وما ملك
أبو بنات بفدك

وكقولهم :

لبيك يا معطي الأمر لبيك عن بني النمر
جئناك في العام الزمر نأمل غيثاً ينهمر
يطرقُ بالسيل الخَمر

---

١ اليعقوبي (١/٢٢٥ وما بعدها) .
٢ اللسان (١/٧٣٢) ، (لبيب) .

والذي من المنسرح جنسان : أحدهما في آخره ساكنان كقولهم :

لبيك رب همــدان من شاحط ومن دان
جئناك نبغي الإحسان بكل حرف مذعان
نطوي اليك الغيطان نأمل فضل الغفران

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم :

لبيك عن بجيلــه الفخمــة الرجيله
ونعمــت القبيلــه جاءتك بالوسيلــه
تؤمــل الفضيلــه

وربما جاءوا على قوافٍ مختلفة ، من ذلك تلبية بكر بن وائل :

لبيك حقاً حقــا تعبــداً ورقــا
جئنــاك للنصاحــة لم نــأت للرقاحــه

وروي في تلبية (تميم) قولها :

لبيك لولا أن بكراً دونكا يشكرك النــاس ويكفرونكا
ما زال منا عثج يأتونكا

ورووا أن من تلبيات همدان :

لبيك مع كـل قبيل لبيك همدان أبناء الملوك تدعوك
قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسمع دعاءً في جميع الأملوك

ومن تلبياتهم قولهم :

لبيك عن سعد وعن بنيهـا وعن نساء خلفهــا تعنيهــا
سارت الى الرحمة تجتنيها

وختم (أبو العلاء المعري) رأيه عن التلبية بقوله : « والموزون من التلبية ، يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب ، ولم تأت التلبية بالقصيـد . ولعلهم قد لبّوا به ولم تنقله الرواة »[1] .

---

١ رسالة الغفران (ص ٥٣٥ ــ ٥٣٧) . (بنت الشاطىء) .

والتلبية هي من الشعائر الدينية التي أبقاها الإسلام ، غير أنه غير صيغتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد . فصارت على هـذا النحو : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمـد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك »[1] . كما جعلها جزءاً من حج مكـة ، بعد أن كانت تتم خارج مكة ، إذ كانت كل قبيلة تقف عند صنمها ، وتصلي عنده ثم تلبي ، قبل أن تقدم مكة[2] . وذلك بالنسبة لمن كان يحج مكة . فأبطل ذلك الإسلام ، وألغى ما كان من ذلك من حج أهل الجاهلية . وقـد رأينا صيغ التلبيات ، وكيف كانت تلبيات القبائـل خاصة بها ، تلبي كل قبيلة لصنمها ، وتوجه نداءها اليه .

وتردد جمل التلبية بصوت مرتفع ، ولعل ذلك لاعتقاد الجاهليين أن في رفع الصوت إفهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبى داعيه ، وأنـه استجاب أمره وحرص على طاعته . وقد أشار بعض الكتاب (الكلاسيكيين) الى الصخب والضجيج الذي كان يرتفع في مواضع الحج بسبب هذه التلبية .

وهناك مواضع أخرى غير متصلة بالبيت الحرام ، كانت مقدسة وداخلـة في شعائر الحج ، منها عرفة ومنى والمزدلفة والصفا والمروة ، ومـواضع أخرى كان يقصدها الجاهليون لقدسيتها أو لوجود صنم بها ، ثم حرمهـا الاسلام ، فنسيت وأهملت فذهبت معالمها مع ما ذهب من معالم الجاهليين .

وتقف الحمس في حجها على أنصاب الحرم من نمرة على نحو ما ذكرت أما الحلة والطلس ، أي غير الحمس من بقية العرب فيقفون على الموقف من عرفة ، عشية يوم (عرفة) . فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من أنصاب الحرم حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً . وكانوا يدفعون من عرفـة اذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنهـا عمائم الرجال في وجوههم . فيبيتون بمزدلفة حتى اذا كانت في الغلس وقفت الحلة والحمس على (قزح) ، فلا يزالون عليه حتى اذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في

---

١ البخاري ، كتاب الحج ، الحديث ٣١ وما بعده ، عمدة القاريء (٩/١٧٢ وما بعدها)، بلوغ الارب (٢/٢٨٨) ، ارشاد الساري (٣/١٩٧) ، (باب التلبية والتكبير اذا غدا من منى الى عرفة) .
٢ اليعقوبي (١/٢٢٥) ، (أديان العرب) .

وجوههم دفعوا من مزدلفة ، وكانوا يقولون : أشرق ثبير كيما نغير[1] .

ومن مناسك الحج الطواف بالصفا والمروة ، وعليها صنمان : اساف ونائلة . وكان الجاهليون يمسحونهما[2] . وكان طوافهم بهما قدر طوافهم بالبيت، أي سبعة أشواط . تقوم بذلك قريش ، أما غيرهم فلا يطوفون بهما ، وذلك على أغلب الروايات . ويظهر ان الصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير في عبادة أهل مكة . ففي حج أهل مكة طوافان : طواف بالبيت ، وطواف بالصفا والمروة .

وبين الصفا والمروة يكون (السعي) في الاسلام ، ولذلك يقال للمسافة بين المكانين (المسعى) . وكان إساف بالصفا ، وأما نائلة فكان بالمروة[3] . ولا بد ان يكون لاقتران الاسمين دائماً سبب ، و (المسعى) هو الرابط المقدس بين هذين الموضعين المقدسين عند الجاهليين .

وكان أهل مكة يتبركون بلمس الحجر الأسود ، ثم يسعون بين الصفا والمروة. ويطوفون بإساف أولاً ويلمسونه ، كل شوط من الطواف ثم ينتهون بنائلة . ويلبّون لها : وكانت تلبيتهم لها : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »[4] . وذكر أن (الأنصار) ، لما قدموا مع النبي في الحج ، كرهوا الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية ، وأرادوا تركه في الاسلام . وذكر أن قوماً من المسلمين قالوا : يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة ، فإنه شرك كنّا نصنعه في الجاهلية . فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بين الصفا والمروة مسحوا الوثنين، فلما جاء الاسلام وكسرت الاصنام ، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين ، فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »[5] . ويتبين من غربلة الأخبار أن الذين كانوا يطوفون بالصنمين المذكورين ويسعون بينهما ، هم من عبّاد الصنمين وهم قريش

---

١ الازرقي (٢/٢٣٦) ، مسند ابن حنبل (١/٣٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢) ، الأم للشافعي (٢/١٨٠) ،

٢ البلدان (٥/٣٦٥) ، (٨/٣٨) ، ارشاد الساري (٣/١٨٧) .

٣ Reste, S. 77.

٤ المحبر (٣١١) ، الازرقي (١/١١٢) .

٥ البقرة ، الآية ١٥٨ ، أسباب النزول (٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٢/٤٣) ، (طبعة البابي ١٩٥٤م) .

خاصة ، وليس كل من كان يحج الى مكة من العرب ، ولذلك كرهوا الطواف في الإسلام بالصفا والمروة . وقد استبدل الإسلام بالطواف السعي ، لهدم الصنمين اللذين كان الناس يطوفون حولها واكتفى بالسعي بين الموضعين .

وذكر بعض العلماء أن العرب عامة كانوا لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفـون بينهما فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »[1] ، أي لا تستحلون ترك ذلك[2] . وذكر أن الأنصار كانوا يهلّون لمناة في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام قالوا : يا نبي الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما ، فأنزل الله الآية المذكورة . وكان أهـل (تهامة) ممن لا يطوفون أيضاً بين الصفا والمروة ، فلما جاء الاسلام ونزل الأمر بالطواف بالبيت ، ولم ينزل بالطواف بين الصفا والمروة ، قيل للنبي : انا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وان الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة فهل علينا من جناح أن لا نطوف بهما . فنزل الوحي: « ان الصفا والمروة من شعائر الله » ، فصار الطواف بين الصفا والمروة لجميع الحجاج ، لا كما كان في عهد الجاهلية . من اقتصاره على قريش وبعض العرب المتأثرين بهم . فكانوا يطوفون بهما ويمسحون بالوثنين إساف ونائلة ، فلما جـاء الاسلام تحرج بعض النـاس وفيهم قوم من قريش من الطواف بينهما لأنهما من شعائر الجاهلية ، فنزل الأمر به[3] .

وذكر أهل الأخبار ان السعي بين الصفا والمروة ، شعار قديم من عهد هاجر أم اسماعيل . وأما رمل الطواف ، فهو الذي أمر به النبي ، أصحابه في عمـرة القضاء ليُري المشركين قوتهم ، حيث قالوا : وهنتهم حمى يثرب[4] .

١ البقرة ، الآية ١٥٨ .

٢ تاج العروس (٣/٣٠٤) ، (شعر) ، روح المعاني (٢/٤١ ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢/١١٤) ، الازرقي (٧٤) ، تفسير ابن كثـير (١/١٩٨) ، صحيح البخـاري (١/٤١٤) ، الموطأ (١/٣٧٣) ، ارشاد الساري (٣/١٨٧) .

٣ تفسير الطبري (٢/٢٧ وما بعدها) ، الطبرسي (٢/٤٥) ، ابن كثير (١/١٨٨ ، ٢٠٠) ، البخاري (١/٤١٤) ، (باب ٧٩) ، الموطأ (١/٦٥٣) ، (١/٣٧١) ، (باب ٤٠) .

٤ اللسان (١١/٢٩٥ وما بعدها) ، (رمل) .

وورد في خبر عن (عائشة) انها قالت : « إن الأنصار كانوا يهلّون في الجاهلية لصنمين على شط البحر ، يقال لها : إساف ونائلة ، ثم يجيئون، فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون ، فلما جاء الاسلام ، كرهوا ان يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : إن الصفا والمروة من شعائر الله الى آخرها . قالت : فطافوا » . وهو خبر يناقض أخباراً أخرى يتصل سندها بـ (عائشة) ، تجمع على انهـا قالت : إن الأنصار أو الأنصار وغسان كانوا قبل ان يسلموا يصلّون لمناة ، فلا يحل لهم ان يطوّفوا بين الصفا والمروة، وكان ذلك سنّة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة [1] ، ولم أجـد في خبر آخر شيئاً يفيد ان إسافاً ونائلة كانا على ساحل البحر .

و (السعي) في الاسلام سبعة أشواط ، تبدأ بالصفا ، وتختم بالمروة . وعندما يصل الحاج حد (السعي) يسعى ويهرول ، فإذا جاز الحد مشى. وكان الجاهليون يبدأون بـ (الصفا) وينتهون بـ (المروة) كذلك[2] .

ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ (عرفة) ، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجـة ويسمى (يوم عرفة) . ومن (عرفة) تكون (الإجازة) للإفاضة الى (المزدلفة) ، ومن (المزدلفة) الى (منى) . وقد كان الجاهليون من غير قريش يفيضون في عرفة عند غروب الشمس ، وأما في المزدلفة فعنـد شروقهـا . وكان الذي يتولى الإجازة رجلاً من تميم يقال له (صوفـة) ، ثم انتقلت الى (صفوان) من تميم كذلك[3] . ولم يكن (الحمس) يحضرون عرفة ، وإنما يقفون بالمزدلفة ، وكان سائر الناس يقف بعرفة . ولما رأى أحـد الصحابة رسول الله واقفاً بعرفة عجب من شأنه وأنكر منه ما رأى لأنه من الحمس ، وما كان يظن أنه يخالف قومه في ذلك ، فيساوي نفسه بسائر الناس[4] . فأنزل الله : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »[5] ،

---

١ صحيح مسلم (٦٨/٤) ، (باب بيان أن السعي بين الصفـا والمـروة ركن لا يصح الحج الا به) .

٢ راجع باب الحج في كتب الحديث والفقه .

٣ ابن هشام (٧٧ ، ٨٢) ، اللسان (١٩١/٧) ، تاج العروس (١٩٣/٦) ، الروض الانف (٨٦/١) ، الصحاح (١٠٩٩/٣) ، البلدان (١٠٤/٤) .

٤ ارشاد الساري (٢٠٠/٣) ، تفسير الطبرسي (٢٩٦/٢) ، تفسير ابن كثير (٢٤٢/١ وما بعدها) ، أسباب النزول (٤٢) .

٥ البقرة ، الآية ١٩٩ .

فشمل ذلك الحمس وغيرهم . فأخذوا يقفون كلهم موقف عرفة ، ووضع عن قريش ما فعلوه من تمييز أنفسهم عن الناس[1] .

وورد في روايات أخرى ، أن قريشاً وكل حليف لهم وبني أخت لهم ، لا يفيضون من عرفات ، إنما يفيضون من المغمس ، وورد أن قريشاً وكل ابن أخت وحليف لهم ، لا يفيضون مع الناس من عرفات ، يقفون في الحرم ولا يخرجون منه . يقولون : إنما نحن أهل حرم الله ، فلا نخرج من حرمه ، وأنهم قالوا « نحن بنو ابراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت ، وقاطنوا مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل ، كما تعظمون الحرم . فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها »[2] .

وذكر أن قريشاً ومن دان بدينها تفيض من (جمع) من المشعر الحرام[3] . و (جمع) المزدلفة [4] .

و (عرفة) أو (عرفات) موضع على مسافة غير بعيدة عن مكة [5] . لا بد وان يكون من المواضع التي كان يقدسها أهل الجاهلية ، وان يكون له ارتباط بصنم من الأصنام ، وإلا لما صار جزءاً من أجزاء مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين . ويقف الحجاج موقف عرفة من الظهر الى وقت الغروب . وقد يكون لموقف الجاهليين في عرفة وقت الغروب علاقة بعبادة الشمس . فإذا غربت الشمس اتجه الحجاج الى (المزدلفة) .

---

١ تفسير الطبري (٢/١٦٦ وما بعدها) .

٢ تفسير الطبري (٢/١٧٠) .

٣ أسباب النزول (٤٢) .

٤ قال أبو ذؤيب :

فبات بجمع ثم تم الى منى ... فأصبح رادا يبتغي المزج بالسحل

تاج العروس (٥/٣٠٥) ، (جمع) .

٥ (وعرفات ، موقف الحاج ذلك اليوم على اثني عشر ميلا من مكة) ، تاج العروس (٦/١٩٣) ، تفسير الطبري (٤/١١٤ وما بعدها) ، أخبار مكة (١/١١٥ وما بعدها) .

الإفاضة :

ومن (عرفة) تكون الإفاضة الى (المزدلفة) . و (المزدلفة) ، موضع يكاد يكون على منتصف الطريق بين (عرفة) و (منى) . وفيه يمضي الحجاج ليلتهم ، ليلة العاشر من (ذي الحجة) . ومنه تكون الإفاضة عند الشروق الى (منى) . وقد نعت بـ (المشعر الحرام) في القرآن الكريم[1] . ويذكر أهل الأخبار ان (قصي بن كلاب) ، كان قد أوقد ناراً على (المزدلفة) حتى يراها من دفع من عرفة ، وان العرب سارت على سنته هذه ، وبقيت توقدها حتى في الاسلام[2] . ولا بد وان يكون من المواضع الجاهلية المقدسة كذلك ، التي كان لها صلة بالأصنام . وقد ذكر علماء اللغة اسم جبل بالمزدلفة دعوه (قزحاً) ، قالوا انه (هو القرن الذي يقف عنده الإمام)[3] ، وذكروا ان (قزح) اسم شيطان[4] . ونحن نعرف اسم صنم يقال له (قزاح) ، قد تكون له صلة بهذا الموضع .

ويفيض الحجاج في الجاهلية عند طلوع شمس اليوم العاشر من ذي الحجة من (المزدلفة) الى (منى) ، لرمي الجمرات ولنحر الأضحية . و(منى) موضع لا يبعد كثيراً عن مكة . ولعلماء اللغة آراء في سبب التسمية ، من جملتها انها عرفت بذلك لما يمنى بها من الدماء[5] . وذكر بعض أهل الأخبار ان (عمرو بن لحي) نصب بمنى سبعة أصنام ، نصب على (القرين) القرن الذي بين مسجد منى والجمرة الأولى صنماً ، ونصب على الجمرة الأولى صنماً ، وعلى الجمرة الوسطى صنماً ، وعلى شفير الوادي صنماً[6] . ولا بد أن يكون لهذا الموضع صلة بالأصنام ، نظراً لما له من علاقة متينة بمناسك الحج . وقد يكون لرمي الجمرات ولنحر الذبائح صلة بتلك الأصنام .

---

١ سورة البقرة ، الآية ١٩٨ ، تفسير الطبري (٢/١٦٤) ، روح المعاني (٢/٧٤) ، تفسير ابن كثير (١/٢٤٢) .
٢ نهاية الارب (١/١٠٩) ، (ذكر نيران العرب) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، الازرقي (٣٦ ، ١٣٠ ، ٤١١ ، ٤١٥) ، (وستنفلد) ، ابن هشام (٧٧) ، ابن سعد (١/٧٢)، (صادر) ، اللسان (٩/١٣٨) ، البلدان (٤/٥١٩) ، تاج العروس (٦/١٣١) .
٣ تاج العروس (٢/٢٠٧) ، (قزح) .
٤ تاج العروس (٢/٢٠٧) ، (قزح) .
٥ تاج العروس (١٠/٣٤٨) ، (منى) .
٦ الازرقي (٢/١٤٢) .

وقد ذكر العلماء «أن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير»[1]. وأن النبي خالفهم، فأفاض حين أسفر قبل طلوع الشمس»[2]. وفي فعل المشركين ذلك، ووقوفهم انتظاراً للإفاضة عند طلوع الشمس، دلالة على عبادة الشمس عندهم، ولهذا غيَّر الرسول هذا الوقت.

و (رمي الجمرات) بمنى من مناسك الحج وشعائره. وهو من شعائر الحج كذلك المعروفة في المحجات الأخرى من جزيرة العرب. كما كان معروفاً عند غير العرب أيضاً. وقد أشير اليه في التوراة[3]. وهو معروف عند (بني إرم)[4]. وكلمة (رجم) من الكلمات السامية القديمة. وقد وردت في حديث (عبدالله ابن (مغفل) : لا ترجموا قبري، أي لا تجعلوا عليه الرجم، وهي الحجارة، على طريقة أهل الجاهلية، ولا تجعلوه مسنّماً مرتفعاً[5]. وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم. فكان أحدهم إذا مرّ بقبر، وأراد تقدير صاحبه وتعظيمه وضع رجمة أو رجاماً عليه.

(والجمرات)، أي مواضع (رمي الجمرات) عديدة عند الجاهليين، يطاف حولها، ويحج اليها[6] منها مواضع أصنام، وأماكن مقدسة، ومنها قبور أجداد. وقد ورد قسم بها في بيت ينسب الى شاعر جاهلي[7]. وترمى الجمرات على مكان عرف بـ (جمرة العقبة) وبـ (الجمار) وبـ (موضع الجمار) وهو بـ (منى)، وتتجمع وتتكوم عنده الحصى. وهي جمرات ثلاث : الجمرة

---

١ ارشاد الساري (٣/٢١٠).

٢ المصدر نفسه.

٣ التكوين، الاصحاح الحادي والثلاثون، (وقال لابان ليعقوب : هوذا هذه الرجمة، وهو ذا النصب الذي وضعت بيني وبينك)، الآية ٥١.

٤ Shorter Ency., p. 464, Reste, S. 112.

٥ النهاية (٢/٧٤)) اللسان (١٥/١١٧ وما بعدها)، تاج العروس (٨/٣٠٤ ومابعدها)، (رجم).

٦ المشرق : السنة : السنة التاسعة والثلاثون، تموز ــ أيلول ١٩٤١ م، (٢٤٦)، Reste, S. 111.

٧ فاقسم بالذي قد كان ربي وأنصاب لدى الجمرات مغر
ابن هشام (٥٣٤)، المشرق، الجزء المذكور. قال حذيفة بن أنس الهذلي :
لأدركهم شعث النواصي كأنهم سواشق حجاج توافي المجمرا
اللسان (٥/٢١٧).

الأولى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة[1] .

ويرجع أهل الأخبار مبدأ رمي الجمرات الى (عمرو بن لحي) . يذكرون انه جاء بسبعة أصنام فنصبها بـ (منى) ، عند مواضع الحجرات ، وعلى شفير الوادي ، ومواضع أخرى ، وقسم عليها حصى الجمار ، احدى وعشرين حصاة ، يرمي كل منها بثلاث جمرات ، ويقال للوثن حين يرمى : أنت أكبر من فلان الصنم الذي يرمى قبله[2] .

وكانت إفاضة الجاهليين على هذا النحو : كان أمر الإفاضة بيد رجل من أسرة تناوبت هذا العمل أباً عن جد . وقد اشتهر منهم رجل عرف بـ (عميلة ابن خالد العدواني) ، واشتهر بين الناس بـ (أبي سيّارة) . كان يجيز الناس من المزدلفة الى منى أربعين سنة . يركب حماراً أسود ، وينظر الى أعالي جبل (ثبير) ، فإذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى نادى : أشرق ثبير،كيما نغير ! ثم يجيز لهم بالإفاضة وفيه يقول الشاعر :

خلّوا الطريق عن أبي سيّاره وعن مواليه بني فزاره
حتى يجيز سالماً حماره مستقبل القبلة يدعو جاره
فقد أجار الله من أجاره[3]

وضرب به المثل ، فقيل : أصح من عير أبي سيّارة[4] .

وذكر (الجاحظ) أن اسم (أبي سيّارة) (عميلة بن أعزل) ، دفع بأهل الموسم أربعين عاماً ، ولم يكن عيره عيراً وإنما كان أتاناً ، ولا يعرفون حماراً وحشياً عاش وعمّر أطول من عير (أبي سيارة)[5] .

---

١ تاج العروس (١٠٧/٣) ، (حجر) ، (٣٤٨/١٠) ، (منى) .
٢ الازرقي ، اخبار (ص ٤٠٢) ، (لايبزك) .
٣ اللسان (١٩١/٧) ، الروض الانف (٨٦/١) ، الميداني (٤٢١/١ وما بعدها) ، البلدان (٦/٣) ، (ثبير) ، البكري (٣٣٥/١) ، (طبعة السقا) ، (وأبو سيارة: : عميلة بن أعزل) ، الحيوان (٢١٥/٧) ، (عبد السلام محمد هارون) ، ارشاد الساري (٢١٠/٣) .
٤ تاج العروس (٢٨٧/٣) ، (سير) ، نهاية الارب (٣٦/١٦ وما بعدها) .
٥ الحيوان (١٣٩/١) .

وورد أن الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجاج،وهي الإفاضة ، هم (صوفة) . وهم حيّ من مضر من نسل (الغوث بن مرّ بن اد بن طابخة بن اليـاس بن مضر) ، وقد سمّوا (صوفة) و (آل صوفة) ، لأن (الغـوث) أبوهم جعلت أمه في رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها . وكانوا يخدمون الكعبـة ويجيزون الحاج ، أي يفيضون بهم ، فيكونون أول من يدفع . وكان أحـدهم يقوم فيقول : أجيزي صوفة ، فـإذا أجازت ، قال : أجيزي خندف ، فإذا أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة . وكانت الاجازة بالحج اليهم في الجاهلية . وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتّى تدفع بهـا صوفة ، وكذلك لا ينفرون من (منى) حتّى تنفر (صوفة) ، فإذا أبطأت بهم، قالوا: أجيزي صوفة . وورد أن (صوفة) قوم من (بـني سعد بن زيـد منـاة) من تميم[1] .

ويفهم من رواية أن كلمة (صوفة) لم تكن اسم علم ، وإنمـا هي لفظة أطلقت على من كان يتولى البيت أو قام بشيء من خدمته ، أو بشيء مـن أمر المناسك[2] . فهم من رجال الدين ، تخصصوا بالإجازة بالنـاس في مواسم الحج . ولعلهم كانوا يضعون على رأسهم صوفة على هيأة عمامة أو عصابة ، أو عطر ، لتكـون علامة على أنهم من أهـل بيت دين وشرف . فعرفوا بـ (صوفة) وبـ (آل صوفة) وبـ (صوفان) . وفي ذلك قال (مرة بن خليف الفهمي) ، وهو شاعر جاهلي قديم :

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى ... ولاح قتار فوقـه سفع الدم[3]

و (يظهر) من الروايات الواردة عن (ثبير) ، أنه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين،أو أن على قمته صنماً أو بيتاً كانوا يصعدون اليه لزيارته وللتبرك به[4].

ومن الشعائر المتعلقة بمنى نحر الذبائح ، وهي الأضحية في الاسلام و (العتائر)

---

١ تاج العروس (٦/١٦٩) ، (صوف) ، معجم الشعراء (٣٨٢) ، ابن هشـام (١/٧٧ ، ٨٢) .

٢ الروض الانف (١/٨٥) .

٣ معجم الشعراء (٣٨٢) .

٤ المشرق ، السنة التاسعة والثلاثون (١٩٤١ م) ، (ص ٢٥٩) .

في الجاهلية . ولذلك عرف هذا العيد : عيد الحج بـ (عيد الأضحى). وعرف اليوم الذي تضحى به الأضحية بـ (يوم النحر) وبـ (الأضحى) وبـ (يوم الأضحى) . وكانوا ينحرونها على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام ، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للأفراد . وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر فلا (يصد عنها انسان ولا سبع)[1] . وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر ، لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة .

وكان الجاهليون يقلدون هديهم بقلادة ، أو بنعلين ، يعلقان على رقبتي الهدي ، اشعاراً للناس بأن الحيوان هو هدي ، فلا يجوز الاعتداء عليه، كما كانوا يشعرونه . والإشعار الإعلام . وهو ان يشق جلد البدنة أو يطعن في اسنمها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه ، وقيل في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف انهـا هدي . والشعيرة البدنة المهداة[2] .

وكان بعض أهل الجاهلية ، يسلخون جلود الهدي ، ليأخذوها معهم . ويتفق هذا مع لفظة (تشريق) التي تعني تقديد اللحم . ومنه سميت ايام التشريق ، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها ، أي تشرّر في الشمس[3] . وقيل سمي التشريق تشريقاً ، لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس[4]. ويظهر ان الجاهليين كانوا ينحرون قبيل شروق الشمس وعند شروقها ، بدليل ما ورد في الحديث من النهي عن ذلك . ومن حديث : من ذبح قبل التشريق فليعد . أي قبل أن يصلي صلاة العيد ، وهو من شروق الشمس واشراقها ، لأن ذلك من وقتها[5] .

ولا يحل للحجاج في الجاهلية حلق شعورهم أو تقصيرها طيلة حجهم ، وإلاّ بطل حجّهم . ويلاحظ أن غـير العرب من الساميين كانوا لا يسمحون بقص الشعر في مثل هذه المناسبات الدينية أيضاً ، لما للشعر من أهمية خاصة في الطقوس

---

١ ابن هشام (١٠٠) ، المشرق : السنة السابعة والثلاثون ، كانـون الثاني ــ اذار ١٩٣٩ م ، (٩٢) .

٢ نقتلهم جيلا فجيلا تراهم شعائر قربان بها يتقرب
تاج العروس (٣٠٣/٣ وما بعدها) ، (شعر) .

٣ تاج العروس (٣٩٣/٦) ، (شرق) .

٤ المصدر نفسه .

٥ تاج العروس (٣٩٣/٦) ، (شرق) .

الدينية عندهم ، ولا سيا اللحية لما لها من علاقة بالدين . ولهذا نجد رجال الدين والزهاد والأتقياء الورعين يحافظون عليها ويعتبرونها مظهراً من مظاهر التدين[1] .

وقد كانت القبائل لا تحلق شعورها في مواسم حجّها إلا عند أصنامها ، فكان الأوس إذا حجوا وقفوا مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوا صنمهم مناة فحلقوا رؤوسهم عنده ، وأقاموا لا يرون لحجّهم تماماً إلا بذلك[2] . وكانت قضاعة ولخم وجذام تحج للأقيصر وتحلق عنده[3] .

وكان من عادة بعض القبائل ، مثل بعض قبائل اليمن ، القاء قرة من دقيق مع الشعر[4] . وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق ، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق ، ويجعلون ذلك الدقيق صدقة ، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه ، فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق . وفي ذلك يقول معاوية بن أبي معاوية الجرمي :

ألم ترَ جرماً أنجدت وأبوكم مع الشعر في قص الملبد شارع
إذا قرة جاءت تقول أصب بها سوى القمل إني منهوازن ضارع[5]

وكان من يقصد العزى يذبح عند شجرة هناك ثم يدعون ، وكان من يقصد مناة يهدي لها كما كان غيرهم يهدي للكعبة ويطوفون بها ثم ينحرون عندها ، وكان عبدة ذي الخلصة في أسفل مكة يذبحون عنده كذلك[6] . وكذلك كانت بقية القبائل تطوف في أعيادها حول أصنامها ، وتهدى اليها ، ثم تنحر عندها عند اكمالها هذه الشعائر دلالة على اكمالها شعائر الحج الى هذه المواضع وانتهائها منها على أحسن وجه .

وتميز الحيوانات التي يهيئها أصحابها أو مشتروها للذبح في الحج بعلامات ، بأن توضع عليها قلائد تجعلها معروفة ، أو ان يحدث لها جرح ليسيل منه الدم ليكون ذلك علامة انها هدي . ويقال لذلك إشعار ، ومنه إشعار البدن ، وهو ان يشق

---

١ Smith, p. 323.

٢ الاصنام (ص ١٤) ، البلدان (٨/١٦٩) ، الازرقي (١/٧٣) .

٣ الاصنام (ص ٤٨) ، البلدان (١/٣١٤) ، Reste, S. 62.

٤ الاصنام (ص ٤٨) ، البلدان (١/٣١٤ وما بعدها) ، Reste, S. 62. ff.

٥ تاج العروس (٣/٤٨٦) ، (قرر) .

٦ بلوغ الارب (١/٣٤٤ وما بعدها) .

أحد جنبي سنام البدنة حتّى يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة الهدي[١] . وقد كان من أهل مكة من يتخذ من لحاء شجر الحرم قلادة يضعها في عنق البدن ، لتكون دلالة على انها هدي ، فلا يعترضها أحد[٢] .

ويجوز للحجاج مغادرة (منى) في اليوم العاشر من ذي الحجة ، أي في اليوم الأول من العيد ، ففي هذا اليوم يكمل الحجاج حجهم ، ولكن منهم من يمكث في هذا الموضع حتّى اليوم الثالث عشر ، وذلك ابتهاجاً بأيام العيد ، ومشاركة لاخوانه فيه . ويقال لذلك (التشريق) . وايام التشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر[٣] .

وكان أهل الجاهلية اذا قضوا مناسكهم وفرغوا من الحج ، وذبحوا نسائكهم ، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم ،فيقول بعضهم لبعض : كان أبي يطعم الطعام ، ويقول بعضهم : كان أبي يضرب بالسيف ، ويقول بعضهم : كان أبي جزّ نواصي بني فلان . يقولون ذلك عند (الجمرة) ، أو عند البيت ، فيخطب خطيبهم ويحدث محدثهم . أو انهم كانوا اذا قضوا مناسكهم وأقاموا بمنى قعدوا حلقاً ، فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعالهم به ، يقوم الرجل ، فيقول : اللهم ان أبي كان عظيم الجفنة عظيم القبّة كثير المال ، وما شاكل ذلك ، فنزل الوحي : « فإذا قضيتم مناسككم ، فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً»[٤].

وكانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج ، تقلد قلادة من لحاء السمر ، دلالة على ذهابهم الى الحج ، فيأمن حتّى يأتي أهله . وذكر انه كان يقلد نفسه وناقته ، فإذا أراد العودة عادوا مقلدين بلحاء السمر . وروي أنهم إذا أرادوا الحج مقبلين الى مكة يتقلدون من لحاء السمر ، وإذا خرجوا منها الى منازلهم منصرفين منها ، تقلدوا قلادة شعر فلا يعرض لهم أحد بسوء . بقي ذلك شأنهم حتّى نزل الأمر بمنع دخول المشركين مكة وبوجوب قتلهم حيث وجدوا[٥] .

---

١ النهاية (٤٤٢/٢) .
٢ اللسان (٣٦٩/٤) ، (٨١/٦ وما بعدها) ، الموطأ (٢٤٩/١) ، مسند ابن حنبل (٢١٦/١ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٢٤٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩) ، (٣٥/٦ ، ٨٢ ، ٨٧) .
٣ تاج العروس (٣٩٣/٦) . (شرق) .
٤ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري (١٧٢/٢ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٢٩٦/٢ وما بعدها) ،
٥ تفسير الطبري (٣٧/٦ وما بعدها) ، اللسان (٣٦٧/٣) ، (قلد) .

التجارة في الحج :

قال علماء التفسير : كان متجر الناس في الجاهلية : عكاظ وذو المجاز ، فكانوا إذا أحرموا لم يتبايعوا حتى يقضوا حجهم . ويقولون أيام الحج أيام ذكر. وقالوا : « كان هذا الحي من العرب لا يعرجون على كسير ولا ضالة ليلة النفر. وكانوا يسمّونها ليلة الصدر ، ولا يطلبون فيها تجارة ولا بيعاً » . وقالوا : « كان بعض الحاج يسمّون الداج . فكانوا ينزلون في الشق الأيسر من منى . وكان الحاج ينزلون عند مسجد منى ، فكانوا لا يتجرون حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم . هي التجارة . قال : اتجروا في الموسم »[1] . والصدر الإفاضة . ومنه طواف الصدر . وهو طواف الإفاضة[2] .

والداج : الأجراء والمكارون والأعوان ونحوهم الذين مع الحاج[3] . وذكر ان قوماً جاءوا الى (عبدالله بن عمر) ، فقالوا : « انا قوم نكرى ، فيزعمون انه ليس لنا حج . قال : ألستم تحرمون كما يحرمون ، وتطوفون كما يطوفون ، وترمون كما يرمون ؟ » قالوا بلى . قال فأنتم حاج[4] . ومن يكرى لخدمة الحاج ، فهو من الداج .

العمرة :

و (العمرة) هي بمثابة (الحج الأصغر) في الاسلام ، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر (رجب) . وللعمرة في الاسلام شعائر ومناسك ، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة . ولا بد أن يكون لها عند الجاهليين شعائر ومناسك . وهي في الاسلام فردية اختيارية ، وهي تختلف بذلك عن الحج الذي هو فرض عين على كل مسلم مستطيع ، وجماعي ، أي ان المشتركين فيه يؤدونه جماعة[5] . أما بالنسبة الى الجاهليين ، فيظهر من ذكر العمرة في القرآن

---

١ تفسير الطبري (٢/١٦٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/٣٢٨) ، (صدر) .
٣ تاج العروس (٢/٣٩) ، (دج) .
٤ تفسير الطبري (٢/١٦٤ وما بعدها) .
٥ Shorter Ency. of Islam, p. 604. ff.

الكريم انهم كانوا يؤدونها كما كانوا يؤدون الحج ، ولوقوعها في شهر رجب ، وهو شهر كان الجاهليون يذبحون العتائر فيه ، لعلنا لا نخطىء اذا قلنا إنهم كانوا يذبحون ذبائحهم في العمـــرة ، حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولهـــا ، أما في الاسلام ، فالعمرة دون الحج . وإذ كانت في شهر رجب في الجاهلية . كانت حجاً خاصاً مستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة. حرص الجاهليون على ألا يوافق موعدها موعد مواسم الحج ، لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج[1] .

وورد ان أهل الجاهلية كانوا يرون ان العمـــرة من أشهر الحـــج : شوال وذي القعدة وتسع من الحجة وليلة النحر ، أو عشر أو ذي الحجـة من الفجور في الأرض ، أي من الذنوب[2] ، ولكن بعضاً آخر كان يعتمر في كـل شهر ، ولا سيما في رجب ، حيث كانوا يحلقون رؤوسهم ويجيئون الى محجاتهم للعمرة . وورد ان أهل الجاهلية « كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر . ويقولون : اذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر »[3] .

وذكر ان الأشهر الحرم ثلاثة سرداً وواحداً فرداً ، وهو رجب . أما الثلاثة، فليأمن من الحجاج واردين الى مكة وصادرين عنها ، شهراً قبل شهر الحـــج ، وشهراً بعده ، قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب ، ثم يرجع . وأما رجب،فللعمّار يأمنون فيه مقبلين وراجعين نصف الشهر للإقبال ونصفه للاياب ، إذ لا تكون العمـــرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحـــج . وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوماً[4] .

ويلبس المعتمر (الاحرام) أيضاً . وقـد كان الجاهليون يكتفون في عمرتهم بالطواف بالبيت ، أما (السعي) بين الصفا والمروة ، فأغلب الظن ان العرب لم يكونوا يقومون به . بدليل ما ورد في القرآن الكريم من قوله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله،فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوّف بهما .

---

١ المشرق ، الجزء ٣٩ (١٩٤١) ، (ص ٢٥٠) ، Reste, S. 84.
٢ ارشاد الساري (٦/١٧٤) .
٣ الروض الانف (١/٣٥١) .
٤ الروض الانف (٢/٦٠) .

ومن تطوّع خيراً فان الله شاكر عليم »[1] . ففي هذا النص دلالة على ان الجاهليين من غير قريش لم يكونوا يدخلون السعي بينهما في شعائر الحج أو العمرة، وان الله أمر بادخاله فيها . أما موقف الجاهليين بالنسبة لطواف العمرة، فهو نفس موقفهم بالنسبة للطواف بالبيت في أثناء الحج ، والفرق بين الحج والعمرة ، ان الحج هو الاحرام ثم الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة وقضاء مناسك عرفة والمزدلفة والوقوف بالمواضع التي أمر بالوقوف بها ، بينما العمرة الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة[2] ، فلا يكون موقف عرفة من العمرة . وكان الجاهليون يحلقون رؤوسهم للعمرة ، ويكون حلق الرأس علامة لها . فاذا وجدوا رجلاً وقد حلق رأسه علموا انه من (العمار) ، فلا يمسونه بسوء ، إلا اذا مس أحداً بسوء احتراماً للعمرة ولشعائر الدين[3] .

والفرق بين العمرة والحج في الاسلام ، ان العمرة تكون للانسان في السنة كلها ، والحج في وقت واحد في السنة . وتمام العمرة ان يُطاف بالبيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ، والحج لا يكون إلا مع الوقوف بعرفة يوم عرفة واجراء بقية المناسك[4] .

وتقبيل الأحجار والأصنام واستلامها في أثناء الطواف أو في غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين. كان في روعهم ان هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة، ويوصلهم اليها ، فتقربوا اليها ونصبوها في مواضع ظاهرة ، ومسحوا أجسامهم بها تبركاً . وكلمة (تمسّح) من الكلمات التي لها معاني عند الجاهليين ، وكذلك كلمة (استلم) و (استلام) عند أهل مكة خاصة حيث استعملت بالنسبة للحجر الأسود . وطريقتهم ان يمر الانسان يده على الحجر المقدس أو ان يمسه بها إن صعب استلامه كله . وقد يعوض عن ذلك بعصا يمدها الانسان الى الحجر حتى

---

١ البقرة ، الآية ١٥٨ .

٢ تفسير الطبري (٢/١٢٠ وما بعدها) .

٣ « وقد كان حلق راسه ، فلما راوه امنوا ، وقالوا : عمار فلا باس علينا منهم » ، تفسير الطبري (٢/٢٠٢) .

٤ اللسان (٦/٢٨٣) ، تاج العروس (٣/٤٢٢ وما بعدها) ، اللسان (٤/٦٠٤) ، (صادر) ، البلدان (٤/١٥٤) ، الاقناع (١/٣٣٤ ، ٣٩٧ وما بعدها) .

تلمسه ، وإذا تعذر الوصول اليـه بسبب ما ، فيجوز أن يفعل ذلك راكباً على جمل[1] .

ومن هذا القبيل أيضاً طرق مطارق أبواب البيوت المقـدسة طرقات خفيفة ، وامرار بعض الأشياء مثل الملابس على الأصنام والصخور والمواضع المقدسة لاكتساب البركة، والتمسح بجدران البيت أو استلام أركانه أو التعلق بأطراف الكسوة . وتلطيخ الأحجار بدماء الضحية التي تقدم للأوثان وذلك بصب الدماء عليها ، أو بتلطيخها وتلويثها كلها أو جزء منها بدم الضحية ، توكيداً بإراقة دم الضحية في نفس من ضحيت الضحية من أجله[2] .

وقيل إن من شعائر الجاهليين في الحج أن الرجل منهم كان إذا أحرم ، تقلد قلادة من شعر ، فلا يتعرض له أحد . فإذا حجّ وقضى حجّه ، تقلـد قلادة من (إذْخِر) ، والإذخر نبات زكي الرائحة ، وأن الرجل منهم يقلد بعيره أو نفسه قلادة من لحِاء شجر الحرم ، فلا يخاف من أحد ، ولا يتعرض لـه أحد بسوء[3] . وتذكرنا هذه العادة بما يلبسه بعض الحجاج عند اتمامهم حجّهم وعودتهم الى بلادهم من لباس (كوفية) خاصة بأهل مكة ومن عقـال حجازي وذلك بالنسبة للرجال ، وخمار أبيض بالنسبة للنساء ، وذلك طيلة الأيام السبعة الأولى من احتفالهم بالعودة من الحج .

ولم يكن الجاهليون القريبون من مكة أو البعيدون عنها يقصدونها في حج (عرفة) وعمرة (رجب) حسب ، بل كانوا يقصدونها في أوقات مختلفة وفي المناسبات ، للطواف حول الأصنام ، واستلام الحجر الأسود ، والتقرب الى الآلهة المحلية . وقد ساعد ذكاء سادة قريش الـذي تجلى في جمعهم أكثر ما أمكنهم جمعه من أصنام القبائل في (البيت الحرام) ، على اجتذاب القبائل اليها ، وبذلك نشطوا في استغلال مواسم الحج والعمرة بالاستفادة من القادمين بالاتجار معهم ، وببيع ما

---

١ وفي الحديث ان الرسول طاف وسعى بين الصفا والمروة ، وهو على ظهر جمل ، البخاري (١/٦٦ ، ٢١١) ، السنن (٢/٣٧ ، ٣٩) ، مسلم (١/٤٨٦ ، ٤٨٨)، الاغاني (١٣/١٦٦) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني – اذار ١٩٣٩ م (ص ٨٧ وما بعدها) .

٢ Reste, S. 109.

٣ بلوغ الارب (٢/٢٨٩) .

يحتاجون اليه من طعام وزاد ، فحصلوا على مال ، حسدهم عليه الآخرون . فكان الفضل في ذلك للبيت . والى ذلك أشير في القرآن ، في سورة (قريش) : « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »[1] .

هذا ما عرفناه عن شعائر الحج الى مكة وعن مناسكه في الجاهلية المتصلة بالاسلام . أما عن الحج الى البيوت الأخرى وعن شعائره ومناسكه ، فلا نكاد نعرف من أمرها شيئاً يذكر . ولكننا نستطيع ان نقول إن من أهم أركان الحج عند جميع الجاهليين ، وجوب مراعاة النظافة ، نظافة الجسم ونظافة الثياب . ولذلك ، كانوا اذا حجّوا لبسوا ملابس خاصة بالحج هي (الاحرام) أو ملابس جديدة ، أو ملابس مستعملة نظيفة مغسولة،وذلك لحرمة هذه المواضع وقدسيتها ، فلا يجوز دخولها بملابس وسخة دنسة ، واذا كانوا يلبسون أحسن ما عندهم عند ذهابهم الى مقابلة عظيم أو سيد قبيلة أو رجل محترم ، احتراماً له واجلالاً لشأنه، أفلا يجب اذن لبس خير ما عند الانسان من ثياب لدخول بيوت الآلهة ، ولا سيما في مواسم الحج ؟. وكان منهم من يوجب على نفسه الغسل وتنظيف جسده حين دخوله المعبد أو اعتزامه الحج .

وتقبيل الأصنام والأحجار واستلامها في أثناء الطواف ، والتمسح لها،من الشعائر الدينية اللازمة في الحج وفي غير مواسم الحج عند الزيارات . كان في روعهم ان هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة ، ويوصلهم اليها، فتجعلها ترضى عنهم وتشفيهم مما هم فيه من سقم وأمراض ، فتقربوا اليها ومسحوا أجسامهم بها تبركاً وتقرباً. و (التمسح) بالصنم أو الحجر المقدس ، التبرك به لفضله وعبادته ، كأنه يتقرب الى الآلهة بالدنو منه ولمسه[2] . وقد كان رجال الدين يمسحون بأيديهم أجسام المرضى وثيابهم ، لازالة السوء عنهم . وقد ذكر أهل الأخبار ان الجاهليين كانوا يتمسحون بأصنامهم ، ويمسحون ظهورهم بها ، لاعتقادهم انها تشفيهم من كل ألم وسوء .

واستلام الصنم أو الحجر المقدس،هو نوع من أنواع التقدير والتعظيم والتقرب. ويراد بذلك تقبيل الحجر ولمسه وتناوله باليد ومسحه بالكف . واذا صعب الوصول

---

١ سورة قريش ، الرقم ١٠٦ ، رقم الآية ٣ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٩٧/٣٠)، روح المعاني (٢٤١/٣٠) .

٢ تاج العروس (٢٢٦/٢) ، (مسح) .

اليه لشدة الازدحام ، فقد عمد أحدهم قصبة أو عوداً أو عصاً اليه لمسّه، فيكون لمس هذه الأشياء له ، كأنه لمس حقيقي ، يجلب لصاحبه ما تمناه وطلبه ورجاه من ذلك الصنم أو الحجر[1] .

وقد أشار بعض (الكلاسيكيين) الى وجود غابة من النخيل في ركن من البحر الأحمر ، كان يؤمّها النبط للتبرك بها ، إذ كانت في نظرهم أرضاً مقدسة، عليها معبد من الحجر عليه كتابة ، وصفوها بأنها كتابة لا يستطيع اليوناني قراءتها ، وبه كهّان وكاهنات يقضون عمرهم في خدمة ذلك المعبد. قالوا : وفي كل خمس سنين يحج الناس اليه ، ويتجمعون عنده ، ويحضر معهم من في جوار المعبد من ناس ، فيذبحون ، ويتقربون الى آلهتهم . فإذا عادوا أخذوا معهم ماءً من ذلك المكان ، للتبرك به ، لاعتقادهم أنه يمنحهم الصحة والعافية . وذكر بعض آخر أن الحج الى هذا البيت كان مرتين في السنة : الحج الأول في مطلع السنة ، ويستغرق شهراً واحداً . أما الحج الثاني فيكون في نهاية الصيف، ويستغرق شهرين. وتكون هذه الأشهر الثلاثة أشهراً حرماً لا يحل فيها قتال ، يعمّها سلم أوجبته الآلهة على الانسان والحيوان[2] .

ونرى في هذه الشعائر مشابهة كبيرة لشعائر الحج في مكة . ولولا تعيين هؤلاء الكتبة المكان ، ونصهم على أنه على البحر الأحمر ، وانه غابة نخيل ، لانصرف الذهن الى مكة ، إذ نجد أن شعائر الحج فيها تشبه هذه الشعائر ، واستقاؤهم من ماء (زمزم) للتبرك به ، يشبه استقاء هؤلاء من بئر معبدهم هذا ، وقد أهمل أولئك الكتبة أسماء الأشهر الحرم الثلاثة ، فأضاعوا علينا فرصة ثمينة كانت تساعدنا كثيراً في الوقوف على تثبيت الأشهر عند الجاهليين .

ويلاحظ أن النبط كانوا يعقدون في أثناء هذه الأشهر الحرم سوقاً ، تذكرنا بسوق عكاظ التي كان يعقدها أهل الحجاز . ولا شك أن موسم الحج في المعبد المذكور ، الذي يتحول الى سوق للبيع والشراء ، يشبه موسم الحج في مكة حيث ينقلب أيضاً الى سوق .

---

١ اللسان (٢٩٧/١٢) ، (سلم) .

٢ Die Araber in der Alten Welt, I, S. 32. f.

الأعياد :

والأعياد من جملة مظاهر الأديان وشعائرها . والحج في حد ذاته عيد من أعياد الجاهليين . وقد كانت للجاهليين أعياد لها صلة بأديانهم ، غير اننا لا نستطيع ان نتحدث بالطبع عن وجود أعياد عامة يعيّد فيها جميع الجاهليين عبدة الأصنام ، لأن الأعياد العامة تستدعي وجود ديانة واحدة وعبادة إله أو آلهة مشتركة يعبدها جميع القوم ، واذ كانت العرب لا تعبد إلهاً واحداً أو آلهة مشتركة يقدسها أهل الوبر وأهل المدر منهم جميعاً ، فلا يمكن ان نتصور وجود أعياد عامة لجميع العرب ، في عهود ما قبل الاسلام .

ولفظة العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد على رأي علماء اللغة [1] . وهو بالمعنى المعروف الذي يخص الاحتفالات الدينية من الألفاظ المعربة المأخوذة عن لغة بني إرم على رأي المستشرقين . فـ (عيدا) في الإرمية هي (العيد) في العربية [2] .

١ تاج العروس (٤٣٨/٢) ، اللسان (٣١٣/٤) ، بلوغ الارب (٣٤٤/١) .
٢ Ency., II, p. 444.

الفصل الثالث والسبعون

بيوت العبادة

والمعبد هو الموضع المخصص للعبادة . وقد وردت في النصوص الجاهلية وفي عربية القرآن الكريم ألفاظ تؤدي هذا المعنى ، فقد كان الجاهليون قد اتخذوا معابد ثابتة ومعابد متنقلة مثل بيوت الوبر ، تعبدوا بها الى معبوداتهم قبل الاسلام وقبل الميلاد .

فقد كانت القبائل في حركة دائمة ، بحثاً عن الغزو والكلأ والماء . وكانت آلهتها في حركة دائمة أيضاً ، ترحل مع المتعبدين لها ، وتستقر عند استقرارهم بمكان ما . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في قبتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه . وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز[1] . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هذا المعبد،واتخاذ معبد ثابت . لخروج ذلك على سنن الآباء والأجداد . ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان الى مكان. ثم ان أهل الوبر قوم رحل ، ولا يمكن لمن هذا حاله اتخاذ معبد ثابت له ، لما كان عليه من وجوب نقل أصنامه معه حيث يذهب .

١ Die Araber, III, S. 132.

ولبيوت الأصنام سدنة ، يحفظون الأصنام بها ويرعونها ، وينقلونها معهم حيث ترحل القبيلة ، فإذا نزلت نزلوا بها ، ليقيموا لها الواجبات الدينية المفروضة في الخيمة المقدسة . حيث فرضت طبيعة البداوة على أصحابها هذا النوع من أنواع البيوت المقدسة ، وهذه الطقوس الدينية التي تلائم حياة الأعراب .

وبيوت العبادة عند الجاهليين ثلاثة أنواع : بيوت عبادة خاصة بالمشركين عبدة الأصنام ، وهم الكثرة الغالبة ، وبيوت عبادة خاصة باليهود ، وبيوت عبادة خاصة بالنصارى . أما بيوت عبادة المجوس ، فقد عرفت في العربية الشرقية وفي العربية الجنوبية ، ولكن عبّادها هم من المجوس ، أي العجم،فالمجوسية لم تنتشر بين العرب ، ولم تدخل بينهم إلا بين عدد قليل من الناس .

وما ذكرته عن بيوت العبادة ، خاص بالمعابد العامة ، وهناك مواضع عبادة خاصة ، جعلت في البيوت ، وضع أصحابها أصنامهم في ركن من أركانها ، وتقربوا اليها . روي ان العباس ، كان قد أقام الصنمين أسافاً ونائلة في ركن داره ، وكانا حجرين عظيمين[1] . واحتفظ غيره بأصنام في بيوتهم للتبرك بها ، ولحماية البيت ، وكانوا اذا سافروا حملوا أصنامهم الصغيرة معهم للاحتماء بها ، وأخذ بعض شباب المدينة ما وجده من أصنام في البيوت ، تعبّد لها آباؤهم فحطمها ، ومنهم من رماها في مواضع العذرة والقاذورات .

وقد استطعنا اليوم بفضل جهود السياح والمنقبين والباحثين من الحصول على بعض المعلومات عن معابد جاهلية كانت عامرة يوماً ما . وذلك بعثور المذكورين على ألواح مكتوبة وجدت في خرائب تلك المعابد . ولكن ما عثر عليه ، لا صلة له بالدين في الغالب ، فليس فيه أدعية أو صلوات أو كتابات تفصح عن عقائد القوم وعن أمور دينهم . ولهذا فإن علمنا بديانات الجاهليين لا يزال ضحلاً ، لم يتقدم تقدماً مرضياً ، وأملنا الوحيد في زيادته هو في المستقبل،فلعله يخرج من صناديق سره المكتومة ما يفصح عن عقائد القوم .

وقد اتخذ بعض العرب ، وهم المتمكنون ، بيوتاً وكعبات لعبادة أصنامهم ، وضعوا أصنامهم في أجوافها ، ومنهم من اتخذ صنماً ، فلم يبن عليه بناءً ، لعدم استطاعته ذلك . ومن لم يقدر عليه ، ولا على بناء بيت ، نصب حجراً أمام

---

١ الازرقي (١١٢/١) ، (١٨٨/٢) .

الحرم ، وأمام غيره ، مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وسمّوها الأنصاب[1] .

وذكر أن (وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي) ، كان قد اتخذ له صرحاً بالحزورة ، سوق كانت بمكة،يرتقيه بسلالم يتعبد فيه ، فعرف بصاحب الصرح[2] .

والبيت ، مأوى الانسان ومسكنه في الأصل ، ثم تجوز الناس فأطلقوا اللفظة على المعبد ، باعتبار أنه بيت الآلهة أو الإله ، لاعتقادهم أن الآلهة تحل به[3] . وقد كانوا يضعون الصنم أو الأصنام فيه . ويقال للبيت عندئذ (بيت الله) أو (بيت ريام) وهو بيت يذكر (ابن الكلبي) أنه كان لحمير بصنعاء ، وأن الناس كانوا يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح[4] ، أو (بيت الربة) وما شاكل ذلك ، بحسب اختصاص البيت بالصنم .

كذلك أطلقت كلمة (بيت) بمعنى معبد في نصوص المسند،فورد : (وقدسو بيت مرب) ، أي (وقدسوا بيت مأرب) أو (وبيت مأرب المقدس)[5] . فلفظة بيت هي اللفظة التي استعملت لمواضع العبادة ، أي المعبد ، أطلقت قبل اسم الإله أو الموضع لتدل على التخصيص . وهي ترد في لغات سامية أخرى في هذا المعنى نفسه .

وأما (الكعبة) فالبيت المربع ، وكل بيت مربع كعبة عند العرب . وقد خصصت في الإسلام بالبيت الحرام بمكة . والكعبة الغرفة أيضاً . وقد كان لربيعة بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات ، وقيل : ذو الكعبات ، وقد ذكره الأسود ابن يعفر في شعره ، فقال :

والبيتِ ذي الكعبات من سنداد[6]

والمسجد كل موضع يتعبد فيه[7] . وقد استعملها الجاهليون بهذا المعنى أيضاً .

---

١ الاصنام (٢١) « روزا » .
٢ تاج العروس (١٣٩/٢) ، (صرح) .
٣ المفردات (٦٤) .
٤ الاصنام (٧) « روزا » .
٥ CIH 541, Le Muséon, 1934, LXVII, p. 103.
٦ اللسان (٧١٨/١) ، المفردات (٤٤٦) .
٧ اللسان (٢٠٤/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٧١/٢) ، (سجد) .

وقد وردت اللفظة في نصوص بني إرم وفي النصوص النبطية والصفوية . ورد على هذه الصورة (مسجدا) في نصوص بني إرم ، وورد على هـذه الصورة في النصوص الصفوية أيضاً ، وقد عنت به معبداً [1] .

وقد عبر عن المعبد بلفظة (مكربن) ، أي (المكرب) أو (المكراب) في بعض نصوص المسند ؛ إذ ورد (مكربن يعق) ، بمعنى (معبد يعوق)[2] . ومن هذا الأصل أخذت كلمة (مكراب) في الحبشية ، ومعناها (معبد)[3] . ولهذا ذهب (كلاسر) وغيره الى ان (مكربة) Mocoraba ، المدينة المذكورة في (جغرافيا) (بطلميوس) هي (مكة) ، لأنها (مقربة) الى الأصنام ، فهي بمعنى (البيت) و (الكعبة) في لهجتنا [4] .

وتقابل كلمة (المعبد) كلمة Templum اللاتينية التي تعني موضعاً مربعاً ، فهي بمعنى (الكعبة) ، و (كعبة) في اللغة العربية . ويلاحظ توافق تام بين معنى الكلمتين في هاتين اللغتين[5] . ولا بد ان يكون لاتخاذ هذا الشكل للمعبد سبب ، إذ لا يعقل ان يكون قد جاء ذلك عفواً ، ولا سيما اننا نلاحظ ان الكلمتين : اللاتينية والعربية ، قد جاءتا من شكل البناء ونوعه وطرازه .

وذكر علماء اللغة ان في جملة الألفاظ التي تطلق على بيوت الأصنام والعبادة والتصاوير ، لفظة (البد) . وهي تؤدي معنى (صنم) كذلك . وذكروا انها من الألفاظ المعربة عن الفارسية . عربت من (بت)[6] ، وانها تعني البيت اذا كان فيه أصنام وتصاوير[7] .

وذكروا أن في جملة الألفاظ التي أطلقت على بيوت الأصنام لفظة (الطاغوت) والجمع (الطواغيت) . ورد أن العرب « كانت قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمهـا كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، وتهدي اليها ، كما

---

١ العرب في سورية قبل الاسلام (١١٩) .
Shorter Ency. of Islam, p. 330, Cooke, North Semitic Inscriptions, p. 238.
٢ Le Muséon, 1954, LXVII, p. 100.
٣ Ency., II, p. 586.
٤ Glaser, Skizze, II, S. 235.
٥ Ency. Religi., Vol., 12, p. 236.
٦ تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (بدد) .
٧ شمس العلوم (حـ ١ ، ق ١ ، ص ١١٩) ، غرائب اللغة (٢١٨) .

تهدي الى الكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر ، عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت ابراهيم الخليل ومسجده»[1].

وورد أن (الطاغـوت) الصنم ، وكل معبود من دون الله ، ولما تقدم سمي الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن طريق الخير طاغوتاً[2] . واللفظة تعني في لغة (بني إرم) : رئيس عقيدة ضلال ، وشيطان وصنم[3] .

و (الهيكل) من الألفاظ الدالة على موضع العبادة ، استعملت لبيوت الأصنام مجازاً ، ولمعابـد النصارى[4] . والظاهر أن استعمالها كان عند العرب الشماليين في الغالب ، مثل عرب العراق وعرب بلاد الشأم ، ولا سيما عند النصارى منهم . أخذوها من الآراميين ، إذ هي بمعنى بيت الصنم ، أي معبد الوثنيين عندهم[5] . وقد وردت في لغة (المسند) كذلك ، وردت بمعنى (قصر)[6] ، ومعبد في أيام دخول النصرانية الى اليمن .

وقـد أطلق (الديدانيون) على بيت (بعل سمن) ، لفظة : (احرم) بمعنى (الحرم) تعظيماً وتمجيداً له . فهو ذلك الإله[7] . وترد لفظة (محرم) — التي لا زالت حية معروفة يطلقها أهل اليمن على محرم (بلقيس) — في لغة المسند ، بمعنى المعبد ، والمسجد الحرام . وقد وردت في عدد من النصوص[8] .

وبيوت العبادة أنواع . بيوت عبادة كبيرة ، يحج اليها في أوقات معينـة ، ومواسم محددة ، من مواضع قريبة أو بعيدة ، هي محجات يحـج اليها في وقت معين ثابت ، يتقرب بها المتعبدون الى رب المحجة أو أربابها بأداء واجب الخضوع والطاعة . وتكون محجة واحدة في الغالب ، اختارها الإله أو الآلهة من بين سائر أماكن الأرض لتكون موضعاً مقدساً وحرماً آمناً ، فهي أقدس بقعة وأعز مكان في نظر المتعبدين لها على وجه هذه الدنيا . فلا تدانيها المعابد الأخرى ولا تبلـغ منزلتها في الحرمة والمكانة .

---

١ ابن هشام (٨٦/١ وما بعدها) ، هامش على الروض الانف (٦٤/١) .
٢ المفردات ، للاصفهاني (٣٠٧) ، الاصنام (٦) ، تاج العروس (٢٢٥/١٠) ، (طغا) .
٣ غرائب اللغة (١٩٤) . Hughes, Dictionary of Islam, p. 625.
٤ تاج العروس (١٧٠/٨) ، (هيكل) .
٥ غرائب اللغة (٢٠٩) .
٦ Jamme, South Arab. Inscriptions, p. 433.
٧ Histoire, IV, p. 312, Preislamiques, p. 20.
٨ Jamme, South Arabi. Inscriptions, p. 440.

وهناك بيوت عبادة أخرى تكون دون المحجات في الأهمية والدرجة ، لأن الآلهة لم تخترها لنفسها ولم تنص على اسمها ، وانما هي دور عبادة أقامها الناس تقرباً الى تلك الآلهة . وهي متفاوتة في الدرجة أيضاً ، فيها المعابد الكبيرة التي صرف على اقامتها مال كثير ، وفيها معابد بسيطة ، يقيمها الناس تقرباً الى أربابهم .

والناس في ذلك العهد ، كالناس في ايامنا هذه ، لا يكتفون بتشييد معبد واحد في المدينة ، بل نجدهم يقيمون جملة بيوت للعبادة ، وقد خصص بعضها بعبادة جملة آلهة ، وخصص بعضها بعبادة إلـه واحد معين، يذكر اسمه على باب المعبد . وقد تبنى في الموضع الواحد جملة معابد لإلـه واحد ، لأن المعابد من الأعمال الخيرية التي يقوم بها المؤمنون تقرباً الى الآلهة ، لذلك يصادف قيام جملة أسر ببناء معابد لذلك الإلـه ، تسميها باسمه وتنقش اسم الأسرة أو المتبرع بالبناء على موضع بارز من المعبد . وبفضل هذه الطريقة القديمة ، التي لا تزال البشرية تتبعها ، تمكنا من الحصول على معلومات عن تلك المعابد وعن الآلهة التي خصصت لها وعن أسماء المؤمنين الذين أقاموها .

وقد اتخذ الانسان من الكهوف بيوتاً للعبادة ، كما اتخذ من الجبال والمواضع المرتفعة أماكن بنى عليها معابده ، ليكون في رأيه ونظره أقرب الى السماء ، حيث تقيم الآلهة ، فتسمع دعاءه ، وتصل اليها كلمته ، وتستجيب له ، أكثر من استجابتها له لو كان على سطح الأرض . وبنى الحضري معبده في المواطن التي يقيم فيها ، وحاول جهده الإنفاق عليها ، والتفنن في بنائها وزخرفتها ، لتكون بيوتاً تليق بسكنى الأرباب . أما البدو ، فكانت معابدهم في الخيام ، تحفظ فيها أصنامها ، فتنتقل معها ، وتضرب في الموضع الذي تحل القبيلة فيه ، ينظرون اليها نظرة تقديس وإجلال ، لأنها حرم الآلهة وأماكنها وبيوتها المقدسة ، فلا يجوز تدنيسها ولا انتهاك حرمتها . لهذا لم يكن يسمح لأحد بالدخول اليها إلا اذا كان من رجال الدين .

ولهذه الخيام المقدسة سدنة ، يضعون الصنم أو الأصنام في جوفها ، ويسهرون على خدمتها ، وينقلونها معهم حيث تنتقل القبيلة . وهم يتوارثون خدمتها . واذا استقرت القبيلة وتحضرت ، تحضر معبد صنمها بتحضرها كذلك . ووجد الصنم

عندئذ له مستقراً دائماً ومقاماً ثابتاً ، ويصير عندئذ في عداد الأصنام الثابتة . ويكون للصنم عندئذ معبد تتناسب قيمته وأهميته ودرجة عمرانه ، مع مكانة القبيلة وعدد رجالها وغناها وما عندها من مال .

وللعين أهمية كبيرة في تقييم المعبد وفي نشر العبادة وفي تكوين شخصية الإلـه رب المعبد فيما بين الناس . فكما أن قيمة الانسان بملبسه وبأناقته وبحسن مظهره ، كذلك تكون قيمة المعبد بضخامته وبما يزين به من نقوش وزخارف وبما يعلق على الموضع المقدس منه من ذهب وفضة وأحجار كريمة . فالمعبد الضخم ، يدل على قوة الإلـه وقدرته في نظر من ينظر بعينه لا بعقله الى قيم الأمور ، أي في نظر السواد ، وهم الكثرة الغالبة ، ولذلك يجلبهم اليه ، وتلقى ضخامته في نفوسهم تأثيراً كبيراً يجعلهم يشعرون أنهم أمام بيت إلـه حقاً ، لما فيه من روعة ولما تفوح في داخله من روائح البخور والطيب ، لذا حرص رجال الدين على جعل معابدهم ضخمة فخمة ، لتجلب لها أكبر عدد ممكن من المتعبدين .

ومن أشهر المواضع المرتفعة التي حج اليها المتعبدون للتبتل والتعبد ، والتي ورد ذكرها في قصص أهل الأخبار : حراء ، وأبو قبيس ، وثبير .

أما (حراء) فقد ورد في بيت منسوب الى شاعر جاهلي :

فإني والذي حجت قريش محارمه ، وما جمعت حراء[1]

وجعل أحد الأجبل الخمسة التي بُني من حجارتها البيت[2] . واليه كان يلجأ كبار قريش لدعوة آلهتهم في الملمات ، واليه أيضاً كان يأتي بعض المتحنثين النساك الزاهدين في عبادة الأوثان للتفكير والتأمل . وفيه غار تحنث فيه النبي ، ويعرف بـ (جبل النور)[3] . وورد ان أبا طالب أرسل عقيلاً ليأتي بالرسول اليه ، فذهب الى (كبس) ، وأخرجه منه . والكبس الغار[4] . ويظهر انه أراد به غار حراء .

---

١ البكري (٤٣٢/٢) ، (حراء) ، هو « عوف بن الاعوص » العامري ، شرح ديوان لبيد (٢١) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة (٢٦/١) ، (ما ذكر من بناء ابراهيم عليه السلام الكعبة) .
٣ تاج العروس (٨٧/١٠) ، (حرو) .
٤ تاج العروس (٢٣٩/٤) ، (كبس) .

وأما (أبو قبيس) ، فيظهر من غربلة أخبار الأخباريين انه كان من المواضع المقدسة الداخلة في شعائر الحج ، يرتقي الحجاج ظهـره ، ليتموا بذلك مناسك حجهم ، وليدعوا آلهتهم بما يطلبون ويرغبون . وكان مقصوداً عند نزول الشدة والبلاء . فالمظلوم يجد محله فوق هذا الجبل للدعاء عند انحباس المطر ، لنزول الغيث[1] .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ، انه سمّي (أبا قبيس) برجل من مذحـج حدّاد ، لأنه أول من بنى فيه ، أو بقبيس بن شالخ ، رجل من جرهم ، كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنة عمه (مية) ، فنذرت ان لا تكلمه ، وكان شديد الكلف بها فحلف ليقتلن قبيساً ، فهرب منه في الجبل المعروف به ، وانقطع خبره . فإما مات وإما تردّى منه ، فسمي الجبل أبا قبيس . « وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب . وكان أبو قبيس الجبل هذا يسمى الأمين ، لأن الركن ، أي الحجر الأسود ، كان مستودعاً فيه »[2] . « وكان الله عز وجل استودع للركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح » ، فلما أقام (ابراهيم) قواعد البيت ، (جاءه جبريل بالحجر الأسود)[3]. والظاهر ان بيتاً للعبادة كان عليه ، وانه كانت له صلة بالبيت ، فتجسمت هـذه الصلة في الذي ذكروه عن الحجر الأسود ووجوده فيه .

وأما (ثبير) ، فقد كانوا يفيضون منه في الحـج على نحو يذكر في شعائر الحج .

ويلاحظ أن أهل العربية الجنوبية وأهل السراة قدسوا قمم الجبـال ، فجعلوا فيها معابد لعبادة الآلهة ، مثل معبد (اوم) (أوّام) في (الو) . وقد أزيلت معالم تلك المعابد في الإسلام ، ولكن بعضها أخذ طابعاً اسلامياً فصير مثلاً قبراً من قبور الأنبياء مثل : (حضور نبي شعيب) : الذي يقع على قمة جبل تعد من أعلا قمم جبال العربية الجنوبية ، و (نبي ايوب) و (مقلى) عـلى محر (مبلقة)[4] .

---

١ المشرق : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز – أيلول ١٩٤١ ، (ص ٢٥٢ ومـا بعدهـا) .

٢ تاج العروس (٢١٢/٤) ، (قبس) .

٣ الازرقي (٢٧/١) ، (ما ذكر من بناء ابراهيم عليه السلام الكعبة) .

٤ تاج العروس (١٤٨/٣) ، (حضر) ، Beiträge, S. 85, Ency., II, p. 222.

وترجع قدسية المواضع المقدسة وحرمتها الى الاعتقاد بنزول الآلهة في هذه المواضع ، والى وجود قوى خارقة فيها ، أو الى وجود مقدسين فيها قبروا في باطنها ، فقدست تلك المواضع لهذه الأسباب. وتعرف هذه المواضع المقدسة بأسماء من تقدست بهم ، وبأسماء المواضع التي تقع فيها .

وإنا لنرى كثيراً من الأماكن المقدسة قد أقيمت في جزيرة العرب عند الينابيع والآبار المقدسة حيث تروى الأرض بالماء فتنمو به المزروعات ويستقي منها الناس. وقد صوّر هذا الخصب لسكان تلك المناطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين كانت السبب في نظرهم في بعث الحياة للإنسان ولهذه الأرض[1] .

وقدست بعض المواضع وأقيمت المعابد بها ، بسبب وجود أشجار مقدسة بها، ونجد في أخبار أهل الأخبار أن بعض المعابد مثل معبد العزى ، كان المتعبدون يتقربون بها الى سمرات ، أي شجرات ثلاثة ، أو الى شجرة واحدة ، فكانوا يعلقون عليها الحلي ويزينونها ، ومثل معبد (ذات أنواط) ، وهي شجرة كانت تعبد في الجاهلية ، وهي سمرة كان المتعبدون لها ينوطون بها سلاحهم ويعكفون حولها[2] .

وقدست مواضع أخرى لوجود أحجار مقدسة بها ، كانوا يطوفون حولها من هذه المواضع : (عكاظ) . فكان الناس يأتون الموضع في الموسم ، فينصبون فيه خيامهم ، ويقيمون سوقهم ، ويطوفون بأحجار عكاظ ، يقيمون على ذلك أيام الموسم . فهي أيام عبادة وتجارة وفرح .

ولهذه القدسية والحرمة ، لم يسمح للسواد الأعظم من الناس بدخول الغرف المقدسة المخصصة بالآلهة ، لأنها بيوت الآلهة ، وعوض لهم عن هذا التحريم بالطواف حولها أو بلمس جدرانها ، وللسبب نفسه : حتّم على القاصدين لها غسل أجسامهم وتنظيفها ولبس ملابس طاهرة نظيفة ، كان سدنة بعض تلك المعابد ، أو أهل المواضع التي تقع فيها المعابد يؤجرونها للناس بأجر معين مرسوم ، إن كانت تلك المعابد من المعابد الكبيرة وفي مواسم الحج. كذلك لم يكن يسمح لأحد بالدخول الى المعابد والأحذية في أرجلهم فلا بد من خلعها والدخول بغير أحذية

---

١ Ency. Religi., 6, p. 753, Robertson, p. 115.

٢ تاج العروس (٥/٢٣٦) ، (نوط) .

احتراماً لقدسية المكان وخشية التدنيس[١] . وقد حتم الجاهليون على من يريد دخول الكعبة من المتمكنين خلع نعليه ، احتراماً للبيت . ذكر أهل الأخبار ان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة (الوليد بن المغيرة) ، فخلع الناس نعالهم في الاسلام[٢] .

وقد عثر على كتابات جاهلية تبين منها ، ان الجاهليين كانوا يعدّون طهارة الملابس وطهارة الجسم من الأمور الملازمة لمن يريد دخول المعبد ، فإذا دخل انسان معبداً وهو نجس عدّ آثماً ، وقد ورد ان رجلاً اتصل بامرأة ، ثم دخل المعبد بملابسه التي كان يلبسها حين اتصل بها ، فعدّ آثماً ، ودفع فدية عن إثمه ارضاءً للآلهة[٣] وورد ان رجلاً دخل معبد الإله (رب السماء) (ذ سموى) بمعطف نجس ، فدفع فدية عن ذلك ، جزاء ما ارتكبه من إثم[٤] . فدخول المعابد بملابس نجسة ، نجاسة : مادية أو معنوية ، إثم ، تعاقب الآلهة عليه،لهذا اشترطت دياناتهم عليهم عدم دخول بيوت الآلهة ، إلا بملابس طاهرة نظيفة حرمة وتقديراً لهذه البيوت .

وللسبب المذكور اشترط سدنة الصنم (الجلسد) على من يريد من عبّاده تقديم قربان اليه ، أو تكليفه كراء ثياب مسدنة ، ليلبسها بدلاً من ملابسهم ، لأنها ملابس نظيفة طاهرة ، لم تمسها أدران مادية أو معنوية[٥] . وهو شرط نجده عند غير العرب أيضاً كالعبرانيين[٦] . وقد كانت المعابد تدخر ملابس تكريها لمن يريد أداء شعائر زيارة بيوت الأصنام .

وورد في كتب أهل الأخبار ، أن الجاهليين حتموا على المرأة الحائض ألا تمس الصنم ولا تمسح به،والا تدخل بيته لنجاسة الحيض[٧] . وورد أن (فاختة) أم (حكيم بن حزام بن خويلد) ، كانت دخلت الكعبة وهي حامل متمّ بحكيم

---

١ Ency. Religi., 6, p. 753.

٢ ابن رسته ، الاعلاق (١٩١) ، صبح الاعشى (١/٤٢٨) .

٣ Glaser 1052, Hofmus 6, CIH 523, Grohmann, S. 251. f.

٤ Rep. Epigr., 3956, Grohmann, S. 252.

٥ البلدان (٣/١٢٢) .

٦ « ثم قال الله ليعقوب : قم فاصعد الى بيت ايل ، وأقم هناك ، واصنع هناك مذبحا لله الذي ظهر لك عند هربك من وجه عيسو أخيك . فقال يعقوب لاخيه وسائر من معه : أزيلوا هذه الالهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وابدلوا ثيابكم . وهلموا نصعد الى بيت ايل » ، التكوين ، الفصل (٣٥) . الآية ١ وما بعدها .

٧ الاصنام (٣٣) ، خزانة الادب (٣/٢٤٥) .

ابن حزام فأجاءها المخاض ، فلم تستطع الخروج من الكعبة ، فوضعته فيها فلفت في الأنطاع هي وجنينها وطرح مثبرها وثيابها الـتي كانت عليها ، فجعلت لقي لا تقرب[1].فيظهر من هذا الخبر ان اهل مكة كانوا يعتبرون دم المخاض والولادة نجساً ، ولهذا اعتبرت الأنطاع التي وضعت (فاختة) جنينها عليها، بل اعتبرت هي نجسة أيضاً ، فلفت بالأنطاع ، وألقيت ، وجعلت لقي لا يمسها أحد .

وعثر المنقبون على أحواض داخل المعابد في العربية الغربية ، يظهر أنها كانت للوضوء ، لتطهير الجسم قبل الدخول الى المسجد ، موضع الصنم . وذلك بغسل الوجه واليدين والقدمين وربمـا الأبدان كذلك ، قبل الدخول الى بيت الصنم . ولكون هذا الوضوء تطهيراً للجسم ، عرفت (الميضأة) بالمطهرة ، لأنها تطهر من الأدران [2] . ولهذا السبب ، حفرت الآبار في المعابد ، لتموين هذه الأحواض بالماء ، وللتبرك أيضاً بالماء المقدس ، ولاستعماله في أغراض أخرى ، منها تنظيف الجسم من الأدران بعد قضاء الحاجة .

ولهم آداب اتبعوها حين دخولهم بيت الصنم وحين خروجهم منه . من ذلك ان القبائل كانت تتجنب ان تجعل ظهورها على مناة اعظاماً للصنم . فكانت تنحرف في سيرها ، حتى لا يكون الصنم الى ظهرها . وفي ذلك قال الكميت بن زيد ، أحد بني أسد بن خزيمة بن مدركة :

وقد آلت قبائل لا تولي مناة ظهورها مُتَحرِّفينا [3]

وقد تطورت أشكال المعابد وهندستها بتطور الحضارة ، وبشكل طبيعة الأرض التي يقام المعبد عليها . وهي تتناسب مع درجة تطور الشعوب ودرجة رقيها وطراز تفكيرها واختلاطها بالأمم المجاورة . ولذلك نجد معابد (تدمر) مثلاً قد تأثرت بطراز البناء الإغريقي ، لتغلغل الثقافة اليونانية فيها ، ولتأثر سكان المدينة باليونان . كذلك نجد هذا الأثر والأثر الروماني في معابد بلاد الشأم وفلسطين ، فالمعبد اذن

---

١ الروض الانف (١/ ١٣٤) ، الاصابة (١/ ٣٤٨) ، (رقم ١٨٠٠) ، كتاب نسب قريش (٢٣١) .

٢ تاج العروس (١/ ١٣٤) ، (وضوء) .

٣ ابن هشام (١/ ٩٠) ، المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ١١) ، ابن هشام (١/ ٦٥) ، (حاشية على الروض الانف) ، (قصة عمرو بن لحـي ، وذكر أصنام العرب) .

هو نموذج معبر عن نفسية الناس وعن حضارتهم ودرجة تفكيرهم وعن هندستهم، ومدى تأثر فن البناء عندهم بالمؤثرات الداخليـة الأصيلة أو المؤثرات الدخيلة في الزمن الذي قام فيه البناء .

ومن هنا نجد معابد اليمن ، اتخذت لها الحجارة الضخمة المتقطعة من الصخور في بناء الجدر والأرض وفي الأعمـدة ، ونجد المعمار قد تفنن في تزويق الجـدر والأعمدة والسقوف وفي زخرفتها ، فصارت المعابد ضخمة جميلة ، لا تضاهيها المعابد التي أقيمت في مواضع سهلة من جزيرة العرب ، لعدم وجود المواد الصالحة للبناء فيها ، ولأن الطبيعة لم تهب للمعمار فيها ما يدفعه الى بناء أبنية ضخمة فيها تضاهي معابد أهل اليمن .

الاستفسار عن المغيبات :

ولم تكن المعابد مواضع عبادة وتقرب الى الأصنام حسب ، بل كانت مواضع استفسار عن المغيبات كذلك ، يقصدها أهل الحاجات لسؤال الآلهة عمـا عندهم من مشكلات ، أو عما سيخبئه لهم المستقبل من أمور ، أو عن أعمال يريدون القيام بها ، أو عن سرقة ، وما شابه ذلك من طلبات . ومن هذه البيوت بيت رئام ، وقد كانوا يكلمون منه وينحرون عنده[١] . وبيت العزى، وكانوا يسمعون فيـه الصوت[٢] . والمنطبق وكان صنماً من نحاس يكلمون من جوفـه ، فيأتيهم الجواب[٣] . وبيت (الجلسد) ، صنم كندة وأهـل حضرموت[٤] . وقـد ذكر (الجاحظ) : « أنهم كانوا يسمعون في الجاهليـة من أجواف الأوثان همهمة ، وأن خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشرر حتى احترق عامـة فخذه ، حتى عاده النبي ، صلى الله عليه وسلم » . وهو ممن يشكون في صدور مثل هذه الأمور إذ يقـول : « « وهذه فتنة لم يكن الله ليمتحن بهـا الأعراب وأشباه الأعراب من العوام . وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب»[٥] .

---

١ الاصنام (ص ١٢) ، الطبري (٢/٩٧) .
٢ الاصنام (ص ١٨) .
٣ المجد (ص ٣١٨) .
٤ البلدان (٣/١٢٢ وما بعدها) .
٥ الحيوان (٦/٢٠١) .

تكليم الأصنام :

ويقوم الكهان بتكليم الصنم ، وهم الذين يفسرون للسائلين المهمة أو الأصوات الصادرة من تلك الأصنام ويتكلمون على ألسنتها بما يلائم السائل مقابل نذر وهدايا وألطاف يقدمونها الى السدنة . وهــذا النوع من التنبؤ ، معروف عنــد اليونان والرومان، مشهور ومعروف عند غيرهم من الأمم كالبابليين والأشوريين والعبرانيين. بل هو يؤلف جزءاً مهماً من أركان الديانات القديمة ، ويطلق عليه Oracle في الانكليزية من Oraculum اللاتينية ، ومعناها التكلم . ولهذا النوع من التنبؤ صلة كبيرة بالسحــر Magic وبالكهانة في الديانات القديمة والديانات البدائية عند بعض الشعوب الافريقية والاسترالية في الزمن الحاضر . وقد اكتسبت بعض معابد اليونان شهرة كبيرة في هذا النوع من التنبؤ بالغيب ، وأشهرها معبد (دلفي) Delphi الذي كسب شهرة عظيمة في هذا الباب[1] .

وقد ورد في بعض النصوص ، ان قوماً كلموا آلهتهــم في شهر (ذ اجبى ذ عثتر) و (ذ فرعم ذ عثتر) ، فأجابهم الإلـه (عثتر) على ما سألوا عليه . وورد ان جماعة من المؤمنين بـ (عم) ، كلموه ، فأجابهم على ما سألوا عنه . وكانوا اذا كلموا الآلهة ، فوجدوا ان الأجوبة غير منسجمة مع الأسئلة ، أعادوا الأسئلة عليها وقدموا قرابين جديدة لها ، أو وزادوا في الحلوان، يفعلون ذلك حتى يسمعوا الجواب المناسب لأسئلتهم[2] .

ولم أسمع بوجود تكليم في مكة . فلم يذكر أحد من أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يأتون الكعبة لسماع أجوبة الأصنام عن أسئلة يوجهونها اليها، ولا عن وجود سدنة كانوا يقومون بأي نوع من التكليم . وإنما ذكروا أنهم كانوا يسألون الأصنام النصح والارشاد ، والأمر والنهي بفعل فعل أو تركه ، ويكـون ذلك بالاستقسام بالأزلام . وقد خصص الصنم (هبل) بهذا النوع من الإرشاد . وكانت عنـده سبعة قداح ، كل قــدح منها فيه كتاب : قدح فيه العقل ، إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ، ضربوا بالقداح السبعة عليهم . فإن خرج العقل ، فعلى

---

١ Ency. Brita., Vol., 16, p. 830, T.D. Dempsey, The Delphic Aracle, 1918, L.R. Farnell, Cults of the Greek States, Vol., IV, p. 179.

٢ Grohmann, S. 251.

من خرج حمله . وقدح فيه (نعم) للأمر ، إذا أرادوه يضرب به في القداح، فإن خرج قدح فيه نعم ، عملوا به . وقدح فيه (لا) ، فإذا أرادوا الأمر ضربوا به في القداح ، فإذا خرج ذلك القدح ، لم يفعلوا ذلك الأمر . وقدح فيه (منكم) ، وقدح فيه (ملصق) ، وقدح فيه (من غيركم) ، وقدح فيه (المياه) ، فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح ، وفيها ذلك القدح ، فحيثما خرج به ، عملوا به . وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحدهم،ذهبوا به الى هبل وبمئة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا فلان ، أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه . ثم يقولون لصاحب القداح : إضرب ، فإن خرج عليه (منكم) كان منهم وسيطاً ، وإن خرج عليه من (غيركم) كان حليفاً ، وإن خرج عليه (ملصق)، كان ملصقاً على منزلته فيهم لا نسب له ولا حليف ، وإن خرج عليه شيء مما سوى هذا مما يعملون به (نعم) عملوا به ، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك ، حتى يأتوا به مرة أخرى ، ينتهون في أمرهم ذلك الى ما خرجت به القداح [1] .

وهكذا كانت قريش والقبائل التي تحج الى مكة تأتي الى هبل لاستشارته في قضايا تهمها . فما يخرج في القدح مما هو مكتوب ، يكون الجواب . غير أن بعض الأجوبة قد يأتي على خلاف رغبة السائلين ، والذلك كانوا يغرون الضارب على القداح بالمضرب الى أن يخرج القدح الذي فيه يريدون ويشتهون.وقد يؤخرون ذلك بعض الوقت . وهم يفسرون النتيجة التي تظهر أنها رغبة الصنم وارادته بوحيها ، فتظهر بالقداح .

وذو الخلصة من الأصنام التي كان يستقسم عندها كذلك . والى هذا الصنم ينسب قول أحد الشعراء لهذه الأبيات :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العُداة زورا

---

١ الازرقي (١/٦٨ وما بعدها) ، الطبري (٢/١٧٢ وما بعدها) .

وهي أبيات ينسبها بعض الرواة الى امرىء القيس . وكان أبوه قتل ، ف
الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنده بالازلام ، فخرج السهم ين
عن ذلك ، فقال هذه الأبيات التي تتحدث عن غضب الشاعر على هذا الصنم
لنهيه إياه عن الأخذ بالثأر . ولو كانت النتيجة كما يشتهي ، لما قال الشاعر
الأبيات بالطبع ، وتجاسر على الصنم[1] .

ولما كانت الحروب والغزوات من القضايا المهمة ، كانت استشارة الآلهة
والاستقسام بشأنها من الأمور المألوفة ، فكان أهل مكة اذا أرادوا الحرب
عقد هدنة أو إبرام أمر خطير أتوا (هُبل) يستقسمون عنده ليعطيهم الر
المصيب في هذا الموضوع .

والغالب ان يكون الاستقسام أمام الصنم ، ليقع في روع طالب الاستقسام
ما يجري انما هو بعلم الصنم وبوحيه ، فيكون ذلك أوكد في نفسه وأعمق تأثير

أشكال المعابد :

هذا ولا بد لي ان أشير الى اننا لا نملك حتى الآن رأياً واضحاً قاطعاً
شكل المعابد عند الجاهليين . ولا يمكن تكوين رأي واضح عن هذا النحو إلا
قيام علماء الآثار المتخصصين بدراسة آثار المعابد والكشف عنها ورسم مخطط
صحيحة لقواعدها وأسسها . ولذلك ، لا بد من مرور زمن ، حتى يتمكن ال
من تكوين رأي في أصول المعابد ، وكيفية إقامتها من الوجهة الدينية الأصولي
عند العرب قبل الاسلام .

واذا كان في استطاعتنا تحديد شكل (بيت الله) بمكة ، و (كعبة نجران
و (كعبة سنداد) ، أو (كعبات سنداد) ، كما يسميها البعض ، فإن
الصعب علينا تحديد هيأة بيوت الأصنام في المعابد الأخرى ، لعدم ورود نص يع
صفة تلك البيوت في أخبار أهل الأخبار . فلا ندري أكانت مكعبات ، أم
أشكال أخر .

ولما كانت المعابد بيوت الأرباب ، صارت لها حرمة خاصة وقدسية في ك

---

١ الاصنام (٣٥ ، ٤٧) .

دين ، فلا يجوز انتهاك حرمتها ، ولا القيام بأعمـــال شائنة دنسة فيها ، خاصة بالقياس الى الأماكن المقدسة جداً التي تعدّ محجة للناس . وقد اتخذت حول البيوت مواضع عدّت جزءاً من المعبد حددت بحدود ، فما كان داخلاً عدّ حرماً آمناً ، وما كان خارج الحد كان خارجاً عن المعبد ، فليست له تلك الحرمة التي عيّنتها شريعة القوم للمعابد .

وأقدس مكان في المعبد هو (البيت) ، أي الغرفة التي تضم الصنم أو الأصنام . فقد كان البيت ، وهو المسمى الكعبة في مكة ، أقدم موضع عند قريش وعنـد غيرهم من عبدة الأصنام الذين كانوا يقدسون (البيت الحرام) ، وذلك بسبب وجود الأصنام فيه .

ويعبر في العربية الجنوبية عن البيت الذي توضع فيه الأصنام ، بـ (مختن)[1] فهو إذن بمثابة الكعبة بمكة .

ويقال للأرض الحرام المقدسة التي تحيط بـ (البيت) ، (الحرم) . قيـل سمي (الحرم) حرماً لتحريم الناس فيه كثيراً مما ليس بمحرم في غيره من المواضع[2]. وقد وردت اللفظـــة في الكتابات النبطية . فوردت في كتابة نبطية عثر عليها في (بطرا) علماً لحرم الإلـه ذي الشرى ، قصد به الأرض المقـدسة المحيطة ببيت ذلك الصنم ، والمعبد كله ، لأنه محرم ومقدس : (حرم ذي الشرى الإلـه ربنا)[3].

ولا يجوز لأحد انتهاك حرمة الحرم والاعتداء عليه . وإذا دخـل انسان الحرم صار آمناً مطمئناً ، لا يجوز أن يعتدى عليـه ، ولا أن يمس بسوء ، وإن كان قاتلاً . وحدود الحرم أنصابه ، وهي علاماته ، فمن اجتازها وصار في داخلها ، دخل في حرمة الحرم .

وما كان خارج الحرم ، هو من الحل ، أي من المنطقة الخارجة عن حرمة المعبد . فلا تشملها الأحكام المفروضة على الحرم .

وكان الرجل في الجاهلية إذا أحدث حدثاً ولجأ الى الكعبة ، لم يهج ، فكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم ، قيل له : هو صرورة ولا تهجه[4] .

---

١ Grohmann, S. 249.

٢ المفردات (١١٣) .

٣ Lidzbarski, Nord Semi. Epigra., S. 280, CIS., II, p. 350, G. A. Cooke, North Semi. Inscriptions, Oxford, 1903, p. 79, Ency. Religi., 6, p. 753.

٤ تاج العروس (٣/٣٣١) ، (صرر) .

ولمكانة الحرم في نفوس الجاهليين ولأنه موطن آمن من دخل فيه صار آمناً ، كان لا بد من تحديده ووضع معالم تشير الى نهايته ، إمـا بوضع أنصاب على أطرافه من تجاوزها الى داخله صار آمناً فلا يخاف على نفسه ، وإما ببناء حائـل كجدار أو سياج أو أمثال ذلك ليكون اشارة الى حرمة ما وراءه في الداخل . وقد جعل أهل مكة حدود حرم البيت أنصاباً من تجاوزها الى الداخـل صار في حرمة الحرم وفي حماية رب البيت .

وكانت أرض المعابد ، أي حرمها ، واسعة في الأصل ، ذات ماء وأشجار وحمى ، ثم تقلصت وضيقت وحددت بحدود ، بسكن الناس حولها، وبتقربهم من المعبد ، وبزيادة عدد عبّاده . فعندما يتألق نجم معبد ، ويكثر المؤمنون بصاحبه، يكثر زوّاره ، ويتسابق الناس الى السكن بجواره والتقرب منه جهد امكانه ، إذ يكون ذلك شرفاً لهم . شرف مجاورة البيت ، كما يكون مكسباً وموردا طيبـاً للمال ، لرغبة الزوار في مجاورة المعبد ، فيدفع هذا الطمع، أصحاب النفوذ والجاه على اختلاس الأرض والتجاوز على حدود الحروم فتضيق . كالذي حدث بمكة ، إذ كان الحرم واسعاً كبيراً ، يشمل الوادي كله ، فلما هبط (قصي) به وابتنى البيوت ، اعتدى من جاء بعده على الحرم حتّى صغر ، مما دفع الخلفاء على شراء البيوت المجاورة وهدمها لاعادة أرضها الى الحرم ليتسع صدره للناس .

وتلحق بالمعابد أرضون ، يقال لها (حمى) لأنها في حمايـة الأرباب والأصنام ورعايتها ، فلا يعتدى عليها ، ولا يقطع شجرها ولا يرعى فيها ولا يسمح بصيد الحيوان فيها والاعتداء عليه في أرض الحمى[1] . فكان في الطائف (حمى)، وهو (حمى اللات) ، وقد خصص به ، وكان حمى في جرش[2] . بـل كان وادي مكة الذي أُقيم البيت به (حمى) لرب البيت ، ولم يكن يسمح لأحد قبل (قصي) بقطع شجره ، ولا التجاوز على ما فيه من نبت . وقد كان (قُصي) كما يقول أهل الأخبـار أول من اقتطع شجره ، وأقام البيوت لسكناه وسكنى قريش في ذلك الوادي .

ويفهم من كلام (نيلوس) Nilus أن العرب لم يكونوا يحيطون مواضعهم

---

١ اللسان (١٤/١٩٩) ، العرب في سوريا قبل الاسلام (١١١) .
٢ Ency. Religi., 6, p. 753.

المقدسة التي فيها أصنامهم بأسوار ، وإنما كانوا يجعلون لحرمها حجارة تكون حدّاً وعلامة للحرم . ويتبين من كلام هذا المؤرخ الذي أسر العرب ابنه وأرادوا تقديمه الى الزهرة قرباناً على حدّ قوله ، أنه قصد بالعرب الأعراب ، ولا سيما أعراب طور سيناء ، وقد كانوا أشداء غلاظاً يلقون الرعب في النفوس ، وكانوا يتاجرون بالرقيق يقبضون على من يقع في أيديهم ويبيعونه في أسواق الرقيق . وجماعة هذا شأنها لا تستقر في مكان ، لا يمكن بالطبع أن يكون لها معبد ثابت ، وإنما يكون معبدها الموضع الذي يوضع صنم القبيلة فيه . ولتعيين الأرض الحرام توضع تلك الحجارة .

إلا أن هذا لا يعني أن معابد أهل المدر كانت مسورة أو ذات حائل دائماً ، فقد ذكرت أن حرم بيت الله بمكة لم يكن مسوراً ، بل كان معلماً بأنصاب . ومكة موضع حضر . أما حرم معبد (المقه) بمأرب وكذلك أكثر معابد أهل اليمن ، فقد كانت مسوّرة بأسوار عالية قوية ، لها أبواب يدخل المتعبدون منها ، تفتح وتغلق كما نفعل هذا اليوم في دور العبادة عندنا .

ومن المعابد الشهيرة : (البيت الحرام) ، أي (الكعبة) بمكة ، وسأتكلم عليه في موضع خاص . ومعبد (ذو الشرى) Dushare بمدينة (بطرا) ، و (كعبة سنداد) ، و (كعبة نجران) ، ومعابد عديدة في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، ولا سيما اليمن .

والفضل في ظفرنا ببعض المعارف عن (بيت الرب) بمدينة (بطرا) ، يعود الى الكتابات النبطية ، والى ما كتبه بعض الكتبة اليونان والسريان عنه . وقد خصص هذا البيت بعبادة الإلـه (ذي الشرى) ، الذي هو (رب البيت)[1] التي أطلقها النبط على إلههم ، تذكرنا بجملة أخرى معروفة في الجاهلية عند أهل مكة ، كما هي معروفة عند المسلمين حتى اليوم ، هي جملة : (رب البيت) ، التي تعني إلـه البيت ، وهو الكعبة ، وقد أقرها وثبتها الاسلام . وقد نعت (رب البيت)، (رب بيت ذي الشرى) بـ (الذي يفرق الليل عن النهار)[2] وهو نعت له أهمية كبيرة في تكوين فكرة عن وجهة نظر عبّاده اليه .

---

١ CIS, II, 235, RES, 1088.

٢ RES, 1102, Ency. Religi., p. 122.

وقد نصب في هذا المعبد الصنم (ذو الشرى) على قاعدة مكسوة بالذهب ، في بيت موشى بالذهب وبالصور التي تمثل مشاهد تقديم القرابين اليه . وهو في موضع مرتفع على صخرة عالية ، يحج اليه الناس من مواضع بعيدة ، للتقرب الى ذلك الإلـه الذي يقابل الإلـه (باخوس) و (ديونسيوس) (Dionysos- Bacchus) في رأي الكتبة اليونان واللاتين[1] .

وكان لهذا المعبد حج يقع في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام ، فيفد اليه الناس من أماكن بعيدة للتقرب الى (رب البيت) ، فينحرون ويقضون الأيام المعينة ، ثم يعودون الى ديارهم . والظاهر ان هذه الكعبة لم تكن خاصة بأهل (العربية النبطية) ، انما كانت محجة لغيرهم من العرب ، كما يتبين ذلك من تصريحات بعض الكتبة (الكلاسيكيين) عنها .

وقد عرفت بعض معابد الجاهليين بـ (الكعبات) . ويدل ذلك على أن بناءها كان على هيأة مكعب كشكل بناء الكعبة ، وعلى أن العرب كانوا يبنـون بيوت الأصنـام الكبرى على هذا النحو . من هذه كعبة (سنداد) عـلى ما يذكره الأخباريون ، وهي قصر كانت العرب تحج اليـه فيطوفون حوله ، وقد عرف بـ (الكعبات) جمع كعبة وهو البيت المربع والمرتفع ، وبـ (ذات الكعبات) . و (ذي الكعبات) وكان مركز حـج قبائل بكر بن وائل وإياد[2] . ولكـن الأخباريين لم يتحدثوا بشيء من التفصيل عن هذا المعبد وعن كيفيته وشكله وعن الأصنام التي كانت فيه . وقد ذكر (ابن الكلبي) أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة ، إنما كان منزلاً شريفاً[3] .

وذكر أن (ذات الكعبات) بيت كان لبكر وتغلب ابني وائل وإياد، وذكر أنه بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به . وذكر أنه كان لإياد ، وكان كعبـة

---

١ Ency. Religi., 9, p. 122, Epiphanius, Hoer., LI, 22.

٢ البلدان (٥/ ١٥٠) ، « سنداد » ، (٧/ ٢٥٥) ، اللسان (١/ ٧١٨) ، (كعب) ، تاج العروس (١/ ٤٥٦ وما بعدها) ، Ency., II, p. 590.

٣ الاصنام (ص ٤٥) ، « وكان لربيعة بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات • وقيل : ذا الكعبات ، وقد ذكره الاسود بن يعفى في شعره ، فقال : والبيت ذي الشرفات من سنداد » •
اللسان (١/ ٧١٨) ، (كعب) •

بسنداد بين الحيرة والابلة[1] . وهو من منازل إياد أسفل سواد الكوفة ، وكان عليه قصر تحج العرب اليه[2] .

وكان بنجران بيت عبادة عرف بـ (كعبة نجران) . وهو بناء بُني على هيأة الكعبة . وفي رواية تنسب لابن الكلبي انها كانت قُبة من أدم من ثلاث مئة جلد ، كان اذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفداً رفد[3] . ويستخلص من الأخبار الواردة عن هذه الكعبة ومن أسماء أصحابها ومن كونهم أساقفة انها كانت بيعة أسسها النصارى في مركز النصرانية في اليمن ، وهو موضع نجران ، وانه لا علاقة له بالوثنية . ويذكر الأخباريون ان بني عبد المدان ابن الديّان الحارثي أقاموها هناك ، مضاهاةً للكعبة[4] . وقد ذكر (ابن الكلبي) ان كعبة نجران لم تكن كعبة عبادة ، وانما كانت غرفة يعظمها القوم من بني الحارث بن كعب[5] . وبنو الحارث بن كعب هم رؤساء نصارى نجران .

وذكر بعض أهل الأخبار ان كعبة نجران وكانت لمذحج وبني الحارث بن كعب ، عرفت بـ (الربة)[6] .

وقد ذكر (ابن الكلبي) ان رجلاً من جهينة يقال له عبد الدار بن حُديب أراد بناء بيت بأرض من بلادهم يقال لها الحوراء ليضاهي به الكعبة حتّى يستميل به العرب ، فأعظم قومه ذلك ، وأبوا عليه[7] . ونجد في كتاب (الأصنام) لابن الكلبي ، وفي كتب أهل الأخبار أسماء مواضع ذكر انها كانت بيوت عبادة حج اليها العرب حجهم لمكة . وذكر ان قريشاً بَنَت للعزى بيتاً بوادي حراض بإزاء الغمير ، وحمت له شِعباً من وادي حراض يقال له سقام ، يضاهون به

---

١ تاج العروس (١/٤٥٧) ، (كعب) ، الاصنام (٤٥) ، البلدان (٥/١٤٩) .
٢ تاج العروس (٢/٣٨٣) ، (سند) .
٣ البلدان (٨/٢٦٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٥٥٦) ، (نجر) .
٤ البلدان (٨/٢٦٢) .
٥ الاصنام (ص ٤٥) .
٦ تاج العروس (١/٢٦٢) ، (ربب) ، قال الاعشى :

وكعبة نجران حتم عليك ... حتى تناخي بابوابها
يزور يزيد وعبد المسيح ... وقيسا هم خير أربابها

تاج العروس (٣/٥٥٦) ، (نجر) .
٧ الاصنام (٤٥) .

الكعبة ، وقد حجت اليه ، وكانت تنحر عنده، ويتقربون الى العزى بالذبائح[1] .

وقد ذكر الأخباريون أنه كان بعكاظ صخور يطوف الجاهليون بها ويحجون اليها[2] . وإذا تذكرنا (دومة الجندل) ومعبدها الكبير ، فلا يستبعد أن تكون الأسواق الأخرى مواضع مقدسة قديمة كانت محجة للناس عامرة تفد اليها القبائل في مواسم الحج ، ثم فقدت خطورتها قبيل الإسلام ، ولم يبق عليها إلا طابع الأسواق التجارية .

وتكون في المعابد مواضع يلقي فيها العباد وأصحاب النذور هداياهم ونذورهم التي يتقربون بها الى آلهة المعبد . وقد أشار أهل الأخبار الى وجودها في الكعبة وفي المعابد الجاهلية الأخرى . ويظهر من وصفهم لها أنها كانت على شكل حفر ، تلقى فيها تلك الهدايا والنذور . فذكر الأخباريون أنه كان على يمين الداخل الى البيت (جب) ، اتخذ خزانة للبيت يلقى فيه ما يهدى الى الكعبة ، وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحي (هُبَل) وهو صنم كانت قريش تعبده . وقد عرف علماء اللغة الجب بأنه البئر[3] ، ووصفها (الأزرقي) ، فقال : إنها كانت في جوف الكعبة على يمين من يدخلها ، وكان عمقها ثلاث أذرع ، وان اسمها (الأخسف) ، وكانت العرب تسميها (الأخشف)[4] .

السقاية :

وفي المعابد سقايا ، يستقى منها الماء للشرب وللتطهر ، كأن تغسل الأوجه والأيدي والأرجل بالماء ليسمح للزائر بدخول المعبد ، أو لتحل له إقامة الشعائر الدينية . ويعد الماء ماءً مقدساً ، لأنه من أرض مقدسة ، ولذلك يتبرك به أيضاً ، ويستشفى بالشرب منه . وقد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد ، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم ،

---

١ الاصنام (ص ١٦ ، ١٨ وما بعدها) .
٢ البلدان (٦/٢٠٣) ، المشرق ، السنة ٣٧ ، نيسان ـ حزيران ، ١٩٣٩ م (ص ٢٢٠) .
٣ اللسان (١/٢٥٠) « صادر » .
٤ أخبار مكة (١/٢٧ ، ٦٨) ، البلدان (٧/٢٥٨ وما بعدها) .

وعند أدائهم الشعائر الدينية . وبئر زمزم ، هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية .

وقد كانت سقاية الحاج من المآثر الكبيرة عند أهل مكة،وهي تسقية الحجاج من الزبيب المنبوذ بالمـاء . وكان يليها في أيام الرسول العباس بن عبد المطلب[1]. وكان بعضهم يسقي الحاج اللبن بالعسل .

المذابح :

وتلحق بالمعابد مذابح تذبح عليها القرابين التي يتقرب بها المؤمنون الى آلهتهم، ويقال للواحد منها ، (مذبح) و (نصب) و (مصب) و (غبغب) . وقد وردت لفظة (مذبح) و (مذبحت) ، أي (المذبحة) ، في طائفة من الكتابات . وهي مواضع الذبح ، حيث يكون تقريب القرابين الى الآلهة .

وقد ذهب علماء اللغة مذاهب في تحديد معنى (النصب) ، فرأى بعضهم ان النصب كل ما عبد من دون الله ، وذهب بعض آخـر الى ان النصب صنم أو حجر كانت الجاهلية تنصبه ، وتذبح عنده ، فيحمرّ للدم ، وذهب آخرون الى ان الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب ، ويذبح عليها لغير الله تعالى[2]. وعرفها بعضهم بقوله : « النصب الأوثان من الحجارة ، جماعــة أنصاب كانت تجمع في الموضع من الأرض ، فكان المشركون يقربون لها وليست بأصنام » ، « قال ابن جريج : النصب ليست بأصنام . الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تنصب ثلثمائة وستون حجراً . منهم من يقول ثلثمائة منها بخزاعــة . فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة . فقال المسلمون : يا رسول الله ؟ كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فنحن أحق ان نعظمه »[3] . ولو أخذنا برواية (ابن جريج) ، خلصنا الى ان هـذه

---

١ اللسان (٣٩٢/١٤) ، (سقى) ، الاصابة (٢٦٣/٢) ، (رقم ٤٥٠٧) .
٢ اللسان (٧٦٠/١) « صادر » ، (٢٥٩/٢) « بولاق » ، القاموس (١٣٢/١) ، تاج العروس (٤٨٦/١) ، الاصنام (٩٧) ، تفسير الطبري (٤٤/٦) ، الاصنام (٣٣) ، (المطبعة الاميرية ١٩٦٤) .
٣ تفسير الطبري (٤٨/٦) .

الأنصاب ، كانت بعدد أصنام الكعبة ، اي انهم كانوا قد خصصوا بكل صنم نصباً ، يذبحون عليه ما يتقربون به اليه من عتائر . فقد كان عدد أصنام الكعبة ثلثمائة وستون حجراً عـام الفتح على ما يذكره أهـل الأخبار ، إلا اذا اعتبرنا ما ذكروه عن عدد الأصنام وهماً ، وأخذنا برواية (ابن جريج) التي هي دون الرواية الأخرى في الشهرة والذكر .

وأشير الى (النصب) في شعر ينسب الى (الأعشى) ، يقال إنه قاله في مدح الرسول . هو :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه   لعاقبـة والله ربك فاعبـدا [1]

وعلى كل ، فنحن لو أخذنا بالروايتين ، أو برواية واحدة منها ، فإن العدد (٣٦٠) يلفت النظر حقاً . فلمَ خصص رواة الخبرين عدد الأصنام أو الأنصاب بهذا الرقم ، وهل يمثل ذلك شيئاً له صلة بالفلك ، أو بأسطورة دينية قديمـة كانت عند أهل مكة ؟

وقد وردت كلمة (النصب) في آية اللحوم المحرمات التي لا يجوز أكلها في القرآن الكريم : « حرمت عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبعُ ، إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب »[2] . فجعلت الذبائح التي تذبح عـلى النصب للأصنام في جملة التي لا يحل للمسلم أكلها ، فيفهم من هـذه الآية أن النصب مواضع تذبح عليهـا القرابين . كما وردت في موضع آخر من سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمـل الشيطـان . فاجتنبوه »[3] . وقد ذكر علماء التفسير ، أن الأنصاب التي يذبحون عندها [4] .

وقـد ذكر علماء التفسير ، ان أهل الجاهلية كانوا قـد وضعوا حول الكعبة

---

١ تاج العروس (١/٤٨٦) ، (نصب) .
٢ المائدة ، الآية ٣ .
٣ المائدة ، الرقم (٥) ، الآية ٩٠ .
٤ تفسير الطبري (٧/٢١) .

أنصاباً ، أي حجارة كانوا يذبحون عليها ، فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم : وجعلوه على الحجارة . وكانوا يبدلونها إذا شاؤوا بحجر هو أحب اليهم منها[1] . كما كانوا قد وضعوا الأنصاب في بيوت الأصنام الأخرى ، يذبحون عليها ذبائحهم لها . وقد أشير الى (المائرات)، أي الدماء : دماء الذبائح لـ (رشيد بن رميض العنزي) :

حلفت بمائرات حول عوض وأنصار تركن لدى السعير[2]

و (عوض) صنم لبكر بن وائل ، و (السُعَير) صنم لعنزة خاصة .

و (نصب) هي (نصب) و (مصب) في اللهجات العربية الجنوبية ، و (نصب) و (مصبت) في الفينيقية ، و (مصبه) Masseba في العبرانية . ويراد بها مذبح ، تذبح عليها القرابين والضحايا التي يقدمها المتعبدون الى معبودهم Deity . ويعرف بـ Altar أي مذبح في الانكليزية . وهو من حجر واحد في الأصل ، قد يذبح عليه ، فيسيل الدم فوقه ويتلطخ به ، وقد يكون في نظرهم بمثابة المعبود الذي تقدم الضحية اليه . وقد يذبح عليه ، فيسيل الدم من فتحة تكون فيه الى بئر تتجمع فيها دماء الذبائح ، تكون عند قاعدة النصب .

وقد تخصص المذابح بحرق لحم الذبيحة كله أو بعضه عليها ، تقرباً الى الأصنام، كالذي كان يفعله العبرانيون[3] .

وقد عثر المنقبون على أحجار عديدة اتخذت أنصاباً لذبح القرابين عليها أو عندها ، عثر عليها في العربية الجنوبية بصورة خاصة . وفي بعضها فتحة على هيأة ثقب تسيل منه دماء القرابين الى موضع تتجمع فيه . وفي بعض آخر مسايل جانبية ، تسيل الدماء منها الى الخارج . وهذه الأنصاب هي (مذابح) ويقال للواحد منها (مذبحم) في العربيات الجنوبية أي (مذبح) . ولذبح القرابين (ذبحن) و (ذبحم) ، أي (الذبح) و (ذبح) .

---

١ تفسير الطبري (٦/٤٨ وما بعدها) ، « وهي أحجار كانت حول الكعبة يذبحون عليها للاصنام » ، ارشاد الساري (٦/١٧٢) .

٢ تاج العروس (٣/٢٦٨) ، (سعر) ، (٣/٥٥٠) ، (مور) .

٣ Hastings, p. 23.

فالنصب اذن ، الأحجار التي تذبح عليها القرابين وما يهل للأصنام . والعادة أن تكون أمام الصنم ، وعلى مقربة منه . فإذا ذبح القربان سال دمه على النصب الى ثقب يؤدي الى حفرة يتجمع فيها الدم . هي (الغبغب) . و (النصب) هو (مصبه) Massebah في العبرانية ، حيث كانوا يذبحون عليها القرابين . ولكثرة ما كان يذبح عليها صارت تبدو حمراء من لون الدم ، وقد أشير الى الحمرة في حديث اسلام (أبي ذر الغفاري) ، إذ ذكر أنه وصف تعذيب قريش له بقوله : « فرماني الناس حتى كأني نصب أحمر »[1] .

وليس لأهل الأخبار رأي واحد في (الغبغب) ، وإنما ذهب بعضهم الى أن الغبغب هو المنحر ، وذهب بعض آخر الى أنه خزانة المعبد ، يلقي الناذرون فيها ما عندهم من نذور وقربات ، وذهب فريق آخر الى أنه بيت كان الناس يحجون اليه ، كما يحج الى البيت بمكة[2] . وقيل إنه كان لمعتب بن قيس بيت يقال له غبغب ، كانوا يحجون اليه[3] .

والذي عليه أكثر أهل الأخبار أن (الغبغب) المنحر . وقد صرح بذلك (ابن الكلبي) في كتاب (الأصنام) : وهو يتحدث عن (العزى) ، فقال : « ولها منحر ينحرون فيه هداياها ، يقال له الغبغب »[4] . كما صرح بذلك علماء اللغة إذ عرفوا الغبغب بأنه المنحر ، أو نصب كان يذبح عليه في الجاهلية ، أو كل مذبح بمنى . وقد خصصه بعضهم بمذبح منى[5] : أو هو حجر ينصب بين يدي صنم ، وكان لمناف مستقبل ركن الحجر الأسود غبغب ، وقيل كانا اثنين. ويظهر من شرح علماء اللغة للمثل : (رب رمية من غير رام) ، ينسب قوله الى الحكم بن عبد غوث أن الغبغب هو المذبح ، أي المنحر الذي ينحر عليه[6] .

---

١ الاصابة (٤/٩٣) ، (الرقم ٣٨٤) ، « فخررت مغشيا علي ، ثم ارتفعت كأني نصب أحمر » ، الاصنام (١١١) .
٢ مراصد الاطلاع (٢/٩٨٣) ، البلدان (٤/١٨٥) ، اللسان (١/٦٣٧) ، تاج العروس (١/٤٠٣) ، البلدان (٦/١١٢) ، الاصنام (١١١) ، ابن هشام (١/٥٥) .
٣ ابن هشام (١/٥٥) ، البلدان (٦/١١٢) .
٤ الاصنام (١٣) « روزا » .
٥ اللسان (١/٦٣٧) .
٦ اللسان (١/٦٣٧) « صادر » ، (٢/١٢٨ وما بعدها) « بولاق » ، تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) ، البلدان (٦/٢٦٥) ، (الغبغب) .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن (بيوت) الآلهة انه كان لكل (بيت) (غبغب) ، تذبح فيه هداياها ، أي ما يهدى الى تلك البيوت من قرابين . وقيل : الغبغب : المنحر ، وهو جبيل بمنى ، فخصص . وقيل كل منحر بمنى غبغب . قال الشاعر :

والراقصات الى منى فالغبغب[1]

ويذكر علماء اللغة ان (الغبغب) (العبعب) كذلك[2] . وان العبعب موضع الصنم . وصنم لقضاعة ومن داناهم[3] . وبيت كان لمعتب بن قيس، كانوا يحجون اليه كما يحجون الى البيت[4] . ويظهر من هذا الشرح ان (الغبغب) و (العبعب) ، كلمة واحدة ، لشيء واحد .

و (الغبغب) (الجب) كذلك . وهو حفرة يجمع فيها دم البدن ، والجمع (الجباجب) . قال « الزبير بن بكّار : الجباجب جبال مكة حرسها الله تعالى، أو أسواقها أو منحر . وقال البرقي ، حُفرٌ بمنى كان يلقى به الكروش ، أي كروش الأضاحي في ايام الحج ، أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا ، والعرب تعظمها وتفخر بها »[5] .

ويفهم أحياناً ان (الغبغب) ، حفرة أو بئر ، كان المتعبدون للأصنام يرمون بها نذورهم وهداياهم وما يتقربون به الى أصنام من نذور نفيسة ، من ذهب أو فضة أو حجارة كريمة . فكانت تحت صخرة (اللات) حفرة عرفت بـ (الغبغب) حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم الى الصنم . فلما هدم الصنم أخذت من الغبغب تلك الأموال[6] . ويرادف الغبغب (الجب) ، الذي يقال له (الأخسف) و (الأخشف) ، وهو بئر في جوف الكعبة نصب (هبل) عليه . كان الناس يرمون فيها نذورهم وهداياهم . وتقع على يمين من يدخل البيت ، وكان عمقها ثلاث أذرع[7] .

---

١ تاج العروس (١/٤٠٤) ، (غب) .
٢ تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .
٣ تاج العروس (١/٣٦٣) ، (عب) ، البلدان (٦/١١٢) ، الاصنام (١١١) .
٤ البلدان (٤/١٨٥) .
٥ تاج العروس (١/١٧٤) ، (جبب) .
٦ الطبري (٣/٩٩ وما بعدها) .
٧ اخبار مكة ، للازرقي (١/٦٦ وما بعدها) .

و (الغريّ) مذبح على ما يظهر من تفسير علما اللغة لهذه اللفظة . يظهر أنه كان صخرة تذبح عندها الذبائح وتطلى بدمها ، أو نصب تذبح القرابين عليه[1] .

ويعبر عن المذبح الذي تذبح عليه الحيوانات الكبيرة،مثل البقر بلفظة (حردن)[2].

ومن الألفاظ التي تطلق علـى المذبح ، (منطف) و (منطفت) ، أي (المنطفة) ، وهي المذبحة[3] . والمذبح ، هو (مذبحت) في نصوص المسند ، أي موضع الذبح .

المحارق :

وتلحق بالمعبد محارق ، تحرق فيها القرابين ، يقال لها (مصرب)[4] . وقـد كان العبرانيون يحرقون قرابينهم ، في محارق تلحق بالمعبد ، وتكون جزءاً منه . أما العرب ، فإننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا يحرقون قرابينهم في كل جزيرة العرب ، لأننا لا نملك أدلة آثارية على ذلك ، إلا معابد اليمن واعالي الحجاز ، حيث عثر على آثار المحارق في معابدها،مما يدل على أنهم كانوا يحرقون القرابين.

و (المصرب) ، المحرقة ، الموضع الـذي يحرق به الخشب ذي الرائحة الطيبة أو البخور ، وهو مبخرة ، تكون في المعابد ، يحرق بها ، لتفوح منهـا روائح طيبة ، أثناء العبادة . وقد أشير اليها في نصوص المسند .

البخور والمباخر :

وللتبخير شأن كبير في أداء الفروض في المعابد ، إذ لا بد من حرق البخور فيها ، فيبخر بها المذبح والأصنام كما يبخر القائمون بأداء تلك الفروض . وتسمى المبخـرة بـ (مسلم) ، وبـ (مقطر) وذلك في لغـة بعض الجاهليين[5] .

---

١ اللسان (١٥/١٢٢) ، (غرا) ، تاج العروس (١٠/٢٦٤) .

٢ Grohmann, Arabien, S. 247.

٣ Grohmann, Arabien, S. 249.

٤ Grohmann, Arabien, S. 247.

٥ Grohmann, Arabien, S. 247.

و (المجمرة) والمجمر ، الموضع الذي يوضع فيه الجمر بالدخنة للتجمير[1] .

وقد أشير الى المجمرات والمباخر في كتابات المسند . وعثر المنقبون على نماذج منها ، قدمها الناذرون نذوراً الى آلهتهم ، وقد وضعوها في معابدها ، وهي في جملة الهدايا المرموقة التي تقدم الى المعابد بعضها من أحجار وبعضها من معدن بذل جهداً في صنعته وفي زخرفته حيث يكون هدية قيّمة تكون خليقة بوضعها في المعابد .

وقد كان الناس يأتون بالمجامر ليجمّروا بها الكعبة تقرباً بعملهم هذا الى الأصنام ، وذكر ان حريقاً أصاب الكعبة ، بسبب تطاير شرر من مجمرة امرأة جمرت البيت ، فأصاب ستار الكعبة ، فاحترق . والتجمير ، هو من شعائر التقدير والتعظيم . وهو مما يدخل في الطقوس ، وقد صرفت المعابد القديمة أموالاً على شراء (العود) وغيره لاحراقه في المجامر ، لتطييب المذبح والمعبد به . وكان البخور مما يبخر به في المعابد أيضاً . وقد استعمله الجاهليون في بيوتهم المعظمة كذلك .

وتلحق بالمعابد مواضع يخزن فيها ما يقدم الى المعبد من هدايا ونذور ، وما يرد اليه من غلات أوقافه . واذا كانت النذور والهدايا ماشية ، فقد تحفظ في مواضع بعيدة عن المعبد،أو توضع في احماء المعابد لترعى بها . ولا يجوز التعرض لها بسوء . وتعلم بعلامات تشير إلى أنها مما حبس على الأصنام . وكانت لهبل خزانة للقرابين . وكان قربانه مئة بعير ، وله حاجب يقوم بخدمته[2] . وفي جملة ما أهداه الناس الى أصنامهم السيوف والملابس ، وكانوا يعلقونها أحياناً على الأصنام[3] .

سدنة الآلهة :

ولبيوت العبادة سدَنة وحجبة وخدم ، يقومون كلهم بخدمة البيت وما فيه من أصنام . ويعبر في عربيتنا عن الذي يتولى أمر الصنم بـ (السادن) و (سادن الصنم).

---

١ تاج العروس (١٠٨/٣) ، (جمر) .
٢ الازرقي ، اخبار مكة (٦٨/١ وما بعدها) .
٣ نهاية الارب (١٩/١٦) .

وهو المسؤول عن الصنم أو الأصنام ، ومتولي أمرها . وهو المرجع الأعلى في سلسلة الرتب بالنسبة الى المعابد . ويعبر عنه بلفظة (شوع) في المعينية [١] ، وبلفظة أخرى هي (رشو) . وأما إذا كان السادن امرأة ، فيقال لها (رشوت) (رشوة) عندئذ [٢] .

ويقال لسادن الآلهة (افكل) (أفكل) في اللحيانية . جاء (افكل لت) (أفكل لات) أي (سادن اللات) [٣] . وتقابل هـذه اللفظة لفظة (ابكلو) Apkallu في اللغة الأكادية [٤].

وتعد السدانة من المنازل الدينية والاجتماعية الرفيعة عند الجاهليين . وبيد السادن في العادة مفتاح بيت الصنم أو الأصنام . وتكون وراثية في الأغلب تنتقل في أفراد العائلة من الأب الى ابنه الأكبر أو الى غيره من البارزين في الأسرة . وهي منزلة شرف ، تكسب صاحبها جاهاً ، كما تكسبه مالاً ، لما تأتي به اليه من حبوس ونذور وقرابين . لذلك صارت سبباً لوقوع خصومات بين الأسر ، من أجل الاستحواذ عليها ، كالذي حدث مراراً في مكة من أجل الحصول على مفاتيح البيت .

وسدنة الأصنام في الجاهلية قومتها وحجابها ، وكانت السدانة واللواء بمكة لبني عبد الدار في الجاهلية ، فأقرها النبي لهم في الإسلام . فكان اليهم أمر مفتاح البيت [٥] .

ومن قدماء من كانت اليهم ولاية أمر البيت الحرام أي سدانته ، رجل زعموا انه ولي أمر البيت بعد جرهم ، ودعوه (وكيع بن سلمة بن زهير (زهر) الإيادي) . جعلوه سادناً ، وجعلوه كاهناً ، فنسبوا اليه سجعاً من نوع سجع الكهان . ذكر انه جمع إياداً قبيل وفاته فنصحها وأوصاها . وزُعم انه بنى صرحاً بمكة ، وجعل فيه سلّماً كان يرقاه ليناجي الله. وكان الجاهليون يرون انه صدّيق

---

١ راجع النص رقم ٤ و ٥ من كتاب : نقوش خربة معين .

٢ Grohmann, Arabien, S. 248.

٣ Grohmann, Arabien, S. 82, Jaussen-Savignac, Mission, II, 506.

٤ Grohmann, Arabien, S. 248.

٥ تاج العروس (٢٣٣/٩) ، (سدن) .

من الصدّيقين ، وانه ينطق بالخبر اليقين من السماء . وذكر انه صاحب الصرح المعروف بحزورة مكة ، وانه هو القائل : « اسمعوا وصيتي : الكلام كلمتان ، والأمر بعد البيان . من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه ، وكل شاة معلقة برجلها » . فكان أول من قال هذه الكلمة ، فذهبت مثلاً [1] .

ويذكر أهل الأخبار انه لما مات وكيع ، نعي على الجبال . وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادي :

ونحن إياد عباد الإله ورهط مناجيه في سلم
ونحن ولاة الحجاب العتيق زمان النخاع على جرهم

ويفسرون زمان النخاع بأنه داء يقال له النخاع ، سلّط على جرهم ، فأفنى منهم ثمانين كهلاً في ليلة واحدة ، سوى الشباب . وفي هذا الداء قال بعض العرب :

هلكت جرهم الكرام فعالاً وولاة البنية الحجاب
نخعوا ليلة ثمانين كهلاً وشباباً كفى بهم من شباب[2]

ويظهر ان داءً كان قد تفشى في عهد غير بعيد عن الاسلام بين جرهم ، فبقيت ذكراه في النفوس . ولا بد ان يكون (وكيع بن سلمة) ممن عاشوا قبيل الاسلام أيضاً ، فبقيت ذكراه في أهل مكة ، وإلا لما حفظت الذاكرة اسمه .

وقد ذكر أهل الأخبار أحياناً أسماء الأسر التي تولت سدانة البيوت المعظمة والمحجات ، كما ذكروا أسماء السدنة ، ولا سيما السدنة الذين كانت اليهم سدانة تلك البيوت عند ظهور الاسلام . وهم من أسر عريقة ، توارثت هذا المنصب من عهد بعيد ، وحافظت عليه ، وصارت بذلك من أشراف القوم .

---

١ المحبر (ص ١٣٦) ، الامثال ، للميداني (٢/ ٨١) ، البيان والتبيين (٢/ ١٠٩) ، بلوغ الارب (٢/ ٢٦٠) .

٢ بلوغ الارب (٢/ ٢٦٠ وما بعدها) .

حرمة المعابد :

ومع الحرمة التي كانت للمعابد ، انتهك المستهترون وذوو الحاجة حرمتها ، فسرقوا ما تمكنوا عليه من خزائنها . فقد سرقت خزانة الكعبة مراراً . ذكر أهل الأخبار أن سارقاً سرق من مالها في زمن جرهم، وانه دخل البئر التي فيها كنزها، فسقط عليه حجر فحبسه فيها حتى أخرج منها وانتزع المال منه . وسرقت قبيل بنيانها في أيام الرسول ، سرقها فتيان من فتيان قريش وأودعوا المال عند (دويك) مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة . فقطعت قريش يده [1] .

---

١ الروض الانف (١/١٣٠) .

الفصل الرابع والسبعون

الكعبة

وكعبة مكة ، هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على اسمها ومقامها حتى اليوم ، من بين الكعبات التي كانت في الجاهلية . فقد اندثر أثر الكعبات الأخرى وزالت معالمها ، ولم يبق لها مكان . والى الاسلام يعود ولا شك فضل بقاء (البيت الحرام) . وبفضل الإسلام أيضاً جمع العلماء ما تمكنوا من جمعه من تأريخ المدينة القديم والمعالم المتصلة بها ، ومن أخبار قريش ، لما لهذا التأريخ من صلة بظهور الاسلام[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن الكعبة كانت معروفة عند العرب خارج الحجاز كذلك ، وأنهم كانوا يحجون اليها ويقدسونها ويقسمون بها . وأن ممن أقسم بها وذكر البيت

---

١ آل عمران ، الآية ٩٦ ، تفسير الطبري (٦/٤ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، الطبرسي (٤٧٦/٢) ، سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبري (٤٧/٣ وما بعدها ، ٦٦ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٧٨/٧ وما بعدها) ، سورة ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (١٥٢/١٣) ، روح المعاني (٢١٢/١٣) ، تفسير الطبرسي (٣١٧/٦ وما بعدها) ، البقرة ، الآية ١٢٧ ، تفسير الطبري (٥٤٦/١) ، تفسير الطبرسي (٢٠٦/١) ، البقرة ، الآية ١٥٨ ، تفسير الطبري (٤٣/٢) ، تفسير الطبرسي (٢٣٨/١ وما بعدها) ، سورة المائدة ، الآية ٩٧ ، تفسير الطبري (٧٦/٧ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٢٤٦/٣ وما بعدها) ، سورة الانفال ، الآية ٣٤ ، تفسير الطبري (٢٣٨/٣) ، تفسير الطبرسي (٥٣٩/٣) ، سورة الايلاف ، الآية ٣ ، تفسير الطبري (٣٠٧/٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٥٤٣/١٠) .

في شعره (زهير)[١] و (النابغة)[٢] . وقد عرفت بـ (البيت العتيق) ، وبـ (البيت المعمور)[٣] . ورووا أن (عدي بن زيد العبادي) قصدها بقوله :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر المـــاجد الزارا

دعاها (ذات الودع) لأنه كان يعلق الودع في ستورها[٤] .

وقد أقسم بها شاعر جاهلي آخر ، هو (عوف بن الأحوص) إذ قال :

وإني والذي حجت قريش محارمه وما جمعت حراء

وشاعر عامري آخر ، إذ قال :

فأقسم بالـــذي حجت قريش وموقف ذي الحجيج الى إلال[٥]

يريد بذلك مكة . وبمكة بيت الله .

ومعارفنا عن (البيت الحرام) ضئيلة ، وفي الذي يذكره أهل الأخبار عنه ما لا يمكن قبوله ولا الأخذ به ، لأنه لا يدخل في حدود التأريخ ، ولغلبة الطابع القصصي عليه . ثم إن بعضه يناقض بعضاً ، وفي بعضه تحيز وتعصب لبيت قرشي على بيت آخر . وحتى القسم الذي يتناول الأيام القريبة من الإسلام ، لا يخلــو من اضطراب ومن تناقض ، وفيه شعر نحل على أناس ، أقحمت أسمـــاؤهم في قصص مكة ، لتثبيته على طريقتهم في تثبيت الأخبار برواية شعر يتعلق بها .

ولم يعثر حتى الآن على كتابة جاهلية تكشف القناع عن تأريخ (البيت الحرام). ولذلك انحصر علمنا بتأريخه بما ورد في الموارد الاسلامية عنه .

وقد نص في القرآن الكريم ، على ان ابراهيم واسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من البيت « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ،

---

١ فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
ديوان زهير (١٥) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٦) .

٢ فلا ورب الذي قد زرته حججا وما هريق على الانصاب من جسد
(فلا لعمر الذي مسحت كعبته) في رواية أخرى، ديوانه (٢٥)، الثعالبي، ثمار (١٧).

٣ البلدان (١/٥٢١) ، (بيروت ١٩٥٥) .

٤ تاج العروس (٥/٥٣٤) ، (ودع) .

٥ المحبر (٣١٩) ، شرح ديوان لبيد (٢١) .

وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال ابراهيم ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال : ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم اضطره الى عـذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبّل منا انك أنت السميع العليم »[1] . وقد كان تأسيس البيت في ايام العرب الأولى ، في ايام جرهم ، على روايات أهل الأخبار ، وفيهـم تزوج . وفي عهده ظهر ماء بئر زمزم[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان مكة حرم آمن ، لا يحلّ فيه قتال ، ولم يكن أهله يقاتلون فيه ، وان أول بغي وقع فيه ، كان حرب وقعت بين (بني السباق بن عبد الدار) وبين (بني على بن سعد بن تميم) ، حتى تفانوا . ولحقت طائفة من (بني السباق) بعلك ، فهم فيهم . وقيل أول بغي كان في قريش : بغي (الأقايش) ، وهم (بنو أقيش) من بني سهم ، بغى بعضهم على بعض ، فلما كثر بغيهم على الناس ، أرسل الله عليهم فأرة تحمل فتيلة ، فأحرقت الدار التي كانت فيها مساكنهم فلم يبق لهم عقب[3] .

وقد بقي البيت معبوداً مقدساً عند أهل مكة وعند غيرهم ، غير أن المشركين حوّلوه الى بيت لعبادة الأصنام والأوثان والشرك حتى عـام الفتح ، حيث أزال الرسول عنه آثار الجاهلية ، وأمر بطمس معالم الوثنية . وصار حرماً آمنـاً خاصاً بالإسلام لا يدخله مشرك ولا تطأ أرضه أقدام غير مسلم مؤمن بالله وبرسوله .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يعظمون البيت،وأن من سنن تعظيمهم له ، أن من علا الكعبة من العبيد ، فهو حرّ لا يرون الملك من عـلاها ، ولا يجمعون بين عزّ علوّها وذل الرق[4] .

---

١ البقرة ، السورة رقم ٢ ، الآيه ١٢٦ وما بعدها .

٢ الطبري (١/٢٧٥) ، قصص الانبياء ، (٦٩) ،
Shorter Ency. of Islam, p. 178. ff., Grünbaum, Neue Beiträge zu Sem. Sogenkunde, S. 102, Goldziher, Die Richtungen der Islamischen Koran-auslegung, S. 79, J. Harovitz, Koranische untersuchungen, S. 91.

٣ الروض الانف (١/٢٨) .

٤ الثعالبي ، ثمار (١٨) .

وانهم لم يكونوا يبنون بنياناً مربعاً بمكة تعظيماً للكعبة[١] . وأن أول من بنى بها بيتاً مربعاً ، (بديل بن ورقاء) الخزاعي ، وهو أول من اتخذ بمكة روشناً ، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربيع في البناء كيلا يشبه بناء الكعبة[٢] وأن أول من سقف بمكة سقفاً (قصي بن كلاب) ، وكان الناس قبل ذلك إنما ينزلون في العريش . وأن أول من بوب بمكة باباً (حاطب بن بلتعة)[٣] .

و (بديل بن ورقاء) ، هو (بديل بن ورقاء بن عبد العزى) ، شريف كتب اليه النبي يدعوه الى الاسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة[٤] . فلو أخذنا برواية من قال انه كان أول من بنى بيتاً مربعاً بمكة ، وأول من اتخذ بها روشناً ، وجب جعل حدوث ذلك في ايام النبي ، أو بسنين قليلة قبل المبعث ، فهل يعقل ذلك ؟ والروشن الرف ، و (الرشن) الكوة ، من الألفاظ المعربة عن الفارسية[٥] .

وأما (حاطب بن أبي بلتعة) فهو (حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي) ، حليف بني أسد بن عبد العزى ، من الصحابة وممن شهد بدراً ، كان حليفاً للزبير ، وكان قد كتب كتاباً الى قريش يخبرهم بتجهيز رسول الله اليهم ، فضبط الكتاب قبل وصوله مكة ، واعتذر . فهو من الصحابة[٦]،وذكر ان الرسول أرسله الى (المقوقس) صاحب الاسكندرية[٧]. فهل يعقل أن يكون أول من بوّب باباً بمكة ، وقد كانت البيوت قبله بمكة منذ وجدت ، فكيف كان يدخل الناس اليها ، وقد رأينا قصصاً لأهل الأخبار يروونه عن امتناع (الحمس) عن دخول البيوت من أبوابها ، والحمس هم قريش وأهل مكة قبل دخول (حاطب) اليها !

ويذكر أهل الأخبار أن البيت قد تهدم مراراً ، وأن السيول قوضت قواعده عدة مرّات ، لذلك لم يتمكن (بيت ابراهيم واسماعيل) من البقاء ، ولكن

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٦) .
٢ صبح الاعشى (١/٤٢٦) .
٣ صبح الاعشى (١/٤٢٦) .
٤ الاشتقاق (٢٨٠) .
٥ تاج العروس (٩/٢١٦) ، (رشن) .
٦ الاصابة (١/٣٠٠) ، (١٥٣٨) ، المحبر (٧٢) .
٧ المحبر (٧٦) .

الجاهليين حرصوا على المحافظة على أسسه وشكله وموضعه . وإنهم كانوا بعد كل هدم أو تصدع يصيبه يحاولون إرجاعه الى ما كان عليه في أيام آبائهم وأجدادهم جهد امكانهم ، لا يحدثون فيه تغييراً ولا يدخلون على صورة بنائه تبديلاً .

و (البيت الحرام) بناء مكعب ، ولذلك قيل له (الكعبة) . وصفه أهل الأخبار،فقالوا كانت الكعبة قبل الاسلام بخمسة أعوام صنماً ، أي حجارة وضعت بعضها على بعض من غير ملاط ، فوق القامة ، وقيل كانت تسع أذرع من عهد اسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، وكان لها باب ملتصقة بالأرض . وكان أول من عمل لها غلقاً هو تبع[1] . ثم صنع (عبد المطلب) ، لها باباً من حديد ، حلاها بالذهب من ذهب الغزالين . وهو أول ذهب حليت به الكعبة[2] .

ووصف أهل الأخبار لها على النحو المذكور ، يجعلنا نتصورها وكأنها خربة بداثية بسيطة ، هي ساحة تكاد تكون مربعة أحيطت بجدار من أحجار رضمت بعضها فوق بعض من غير مادة بناء تمسك بينها ، تحط في فنائها الطيور وسباع السماء ، ولا يحول بين أرضها وبين أشعة الشمس المحرقة والأمطار التي تنزل على مكة أحياناً على شكل مياه خارجة من أفواه قرب ، أي حائل . إنها في الواقع حائط من أحجار لا يزيد ارتفاعه على قامة إنسان .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن أول من بنى جدار الكعبة ، (عامر) الجادر من الأزد . فقيل له : (الجادر)[3] . وكان أول من جدر الكعبة بعد اسماعيل[4] .

وأول تسقيف لها كان – كما يذكر أهل الأخبار – في التعمير الذي أجري عليها في النصف الأول من القرن السابع للميلاد ، وذلك قبل الاسلام بخمس سنين ، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة . وسبب ذلك حريق أصابها – كما يزعمون – فقرروا إعادة بنائها ، واجتمعوا وعملوا رأيهم فكان قرارهم تسقيفها بخشب ، وقد أقيم السقف على ستة أعمدة من الخشب،وزعت في صفين . وزادا فيها تسع أذرع ، فصارت ثماني عشرة ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد اليها إلا في درج أو سلّم . ورفعوا من جدرانها التي بنوها بساف

---

١ الروض الانف (١/١٢٧) ، الطبري (٢/٢٨٣ وما بعدها) .
٢ الروض الانف (١/١٠١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٦٤) ، (صادر) .
٤ الاشتقاق (٢٥) .

من حجر وساف من خشب ، حتى زادت على ما كانت عليه في الأصل[1] . وورد في الأخبار ان رسول الله لما دخل الكعبة عام الفتح ، قام عند سارية فدعا، وفيها ست سوار[2] .

وذكر أهل الأخبار ، ان سبب بنيان الكعبة ، هو انها كانت رضمة فوق القامة ، وانها كانت قد تصدعت حتى تداعت جدرانها وتساقطت أحجارها ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك ان نفراً من قريش وغيرهم سرقوا كنز الكعبة ، وانما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، فأجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها[3] .

ولم يكن هذا البناء الجديد بناءً فخماً ، كما يظهر من الوصف الوارد في كتب أهل الأخبار . كل ما فيه أنه غرفة سقفت الآن بخشب ، أقيم سقفها على صفين من أعمدة ، كل صف ذي ثلاثة أعمدة . وأما حيطانها ، فقد زيد ارتفاعها فصار ثماني عشرة ذراعاً ، بعد أن كانت تسع أذرع ، أو ارتفاع قامة أو أعلى من ذلك بقليل . وقد بنيت هذه المرة من مادة بناء قوية ، جعلت مدماكاً من حجارة ومدماكاً من خشب ، فكان الخشب خمسة عشر مدماكاً ، والحجارة ستة عشر مدماكاً . وجعلوا سقفها مسطحاً له ميزاب ، يسيل منه ماء المطر . وهو على الجملة لا يقاس بشيء بمعابد العربية الجنوبية مثل معبد (المقه) بمدينة مأرب أو المعابد الأخرى التي تمكن الباحثون من الوقوف على أسسها ومعالمها ، من حيث مساحة البناء أو الفن أو الروعة والعظمة .

ويذكر أهل الأخبار أن أهل مكة استعانوا بتسقيف البيت بخشب سفينة رجل من تجار الروم رمى البحر بسفينته الى الساحل الى (الشعيبة) ، وهو مرفأ السفن من ساحل الحجاز ، وكان مرفأ مكة ، ومرسى سفنها قبل (جدة) . فجاؤوا بالخشب الى مكة ، وكان بها نجار (قبطي) ، استعين به في تسقيف البيت بذلك الخشب . وذكر أن الذي سقف البيت علج كان في السفينة ، يحسن النجارة اسمه

---

١ الروض الانف (١/١٢٧ وما بعدها) ، الطبري (٢/٢٨٣ وما بعدها) ، « دار المعارف » ، البلدان (٧/٢٥٩) ، (الكعبة) ، مروج الذهب (١/١٦٩) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٢ صحيح مسلم (٤/٩٧) ، (باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره والصلاة فيها والدعاء في نواحيها كلها) .

٣ الطبري (٢/٢٨٣) .

(باقوم) . فجيء به مع الخشب،وسقف الكعبة . وقد سألهم عن كيفية تسقيفها هل يجعل السقف قبة أو مسطحاً ، فأمروه أن يكون مسطحاً ، فعمله على ما أمروه به[1] . ويذكرون أن قريشاً حين أرادوا بناء الكعبة أتى (عبدالله بن هبل ابن أبي سالم) ، ومعه مال ، فقال : دعوني أشرككم في بنائها ، فأذنوا له فبنى الجانب الأيمن ، فـ (لبني كلب يد بيضاء في نصرتهم لقريش حين بنوا الكعبة)[2] . وصاحب هذا الخبر هو (ابن الكلبي) ، ولا استبعد أن يكون خبره هذا من وحي العاطفة نحو قومه الكلبيين .

وذكر أن (باقوم) الرومي ، كان يتجر الى (المندب) ، فانكسرت سفينته بالشعيبة ، فخرجت اليه قريش فأخذوا خشبها . وقالوا له ابنها على بنيان الكنائس، وقال لقريش : هل لكم أن تجروا عيري في عيركم ، يعني التجارة ، وأن أمدكم بما شئتم من خشب ونجار ، فتبنوا به بيت ابراهيم[3] .

ويذكر الأخباريون انه كان في بطن البيت قرنا كبش معلقان في الجدار تلقاء من دخلها يخلّقان ويطيّبان اذا طيب البيت ، وقد علق عليهما معاليق من حلي كانت تهدى الى الكعبة . ويرمز القرنان الى قرني الكبش الذي ذبحه ابراهيم الخليل[4] . وقد بقيا في الكعبة الى ايام (عبدالله بن الزبير) فاحترقا مع الكعبة[5] .

وقد زوقت الكعبة بعد هذا الحريق،زوق سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلت « في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمان ، شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين . فلما كان يوم فتح مكة ، دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، البيت ، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب ، فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبلّ بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست .. ووضع كفّيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام ، وقال:

---

١ الازرقي (١/١٠٤) ، ابن هشام (١/١٣٠ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (١/١٣٠) .
٢ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .
٣ الاصابة (١/١٤٠ وما بعدها) ، (رقم ٥٨٣) .
٤ الازرقي (١/١٠٠) .
٥ القاسمي ، شفاء الغرام (١٩) .

أمح جميع الصور ، إلا ما تحت يدي ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه . ونظر الى صورة ابراهيم ، فقال : قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام، ما لابراهيم والأزلام »[1]. وقد بقيت صورة عيسى بن مريم وأمه ، الى ايام عبدالله بن الزبير ، فلما تهدّم البيت ، تهدمت الصورة معه[2] .

وأعاد الجاهليون – كما يذكر أهل الأخبار – الصنم هبل الى مكانه ، نصبوه أمام (الغبغب) ، وأعادوا معه بقية الأصنام ، التي كانت تتعبد لها بعض القبائل . ووضعوا حول الكعبة أصناماً أخرى ، يجب أن تكون من الدرجة الثانية في المنزلة أي أصنام قبائل ضعيفة ، لذلك وضعت خارج البقعة المقدسة . وقد أوصلت الروايات عدة أصنام الكعبة عام الفتح الى (٣٦٠) صنماً ، كان بعضها منحوتاً من الحجارة ، وبعضها معمولاً من النحاس ، وبعضها قوارير ، وكان صنم خزاعة قوارير صفر . ولما دخل الرسول مكة ، أمر بها فأزيلت وحطمت ، فلم يبق من يومئذ بها صنم[3] . وذكر ان النبي دخل مكة « وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً . فجعل يطعنها بعود كان بيده . ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً »[4] .

وذكر في بعض الروايات أن رسول الله بعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحلته دخل الكعبة فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها[5] . وأنه لما طاف بالبيت وجد حولها أصناماً مشدودة بالرصاص ، فحطمت ، وأعظمها (هبل) صنم قريش[6] .

ويتبين من الروايات الواردة عن بناء الكعبة وعن اختلاف أهل مكة وتشاحنهم وتنافسهم فيما بينهم على شرف وضع (الحجر الأسود) في مكانه أنه كان لهذا الحجر أهمية خاصة في نظرهم ، وأنه كان أقدس شيء عندهم . وإلا لما اختلفوا

---

١ الازرقي (١٠٤/١ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٨٧/٣) ، ابن الاثير (١٠٥/٢)، نهاية الارب (٣١٣/١٧) .
٢ الازرقي (١٠٤/١) .
٣ السيرة الحلبية (١٤٤/١) ، ابن الاثير (١٠٥/٢) .
٤ صحيح مسلم (١٧٣/٥) ، « باب ازالة الاصنام من حول الكعبة » ، ارشاد الساري (٢١٠/٧) ، « باب وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »
٥ الروض الانف (٢٧٤/٢) ، نهاية الارب (٣١٢/١٧) .
٦ الروض الانف (٢٧٦/٢) ، نهاية الارب (٣١٤/١٧) .

هذا الاختلاف على وضعه ، حتى ليمكن أن يقال إنه كان فوق أصنام الكعبة منزلة ، بدليل عدم ورود إشارة ما الى وقوع اختلاف بشأن إعادة صنم من تلك الأصنام الى مواضعها . ولو كانت الأصنام أقدس منه ، لكان الاختلاف على شرف وضع تلك الأصنام لا الحجر الأسود بالطبع . وهذا التقديس الزائد يحملنا على التفكير في أسبابه وفي الميزة التي ميزت هذا الحجر على الأصنام وهي في طبيعتها حجارة مثله . لقد ذهب (ولهوزن) إلى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية ، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه ، بل كانت بسبب هذا الحجر . لقد كان هذا الحجر مقدساً في ذاته ، وهو الذي جلب القدسية للبيت ، فصار البيت نفسه مقدساً ، مقدساً في حد ذاته ، بحجره هذا الذي هو فيه ، ولعله شهاب (نيزك) ، أو جزء من معبود مقدس قديم [1] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش ، لأنه يمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين ، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد [2] .

ويلاحظ ان التقرب الى الأحجار في بيوت العبادة كانت شائعة بين الجاهليين . وقد ذكر ان في (غيمان) موضع عبادة وفيه (حجر قحمم) (حجر قاحم) (حجر قاحم) ، وهو يشبه الحجر الأسود الذي كان يتقرب اليه الجاهليون في مكة . والحجر الذي كان في كعبة نجران وفي (تسلال) ، وفي مواضع أخرى عديدة ذكرها (الهمداني) . وقد عثر على مقابر جاهلية عديدة تبين للذين نقبوا فيها ان لها صلة بعبادة الأحجار ، وان تلك المقابر أقيمت عند موضع مقدس لوجود حجر مقدس فيه [3] .

وقد كان الجاهليون يلمسون الحجر الأسود للتبرك به ، وهو مبني في جدار الكعبة ، فيكون اللمس بالطبع للجانب البارز منه . وبين موضع (الحجر الأسود) وباب البيت يكون (الملتزم) ، وفي الناحية الشمالية الغربية (الحجر) أو (الحطيم) .

---

١ Reste, S. 74.

٢ المشرق : (١٩٤١) ، تموز ـ أيلول ، (ص ٢٤٧) .

٣ Beiträge, S. 84.

وكانت الجاهلية تتحالف وتحلف عنده[1] . ويقال للجهة التي فيها (الحجر الأسود) (الركن) . وذكر ان العرب في الجاهلية كانت تطرح بموضع الحطيم ما طافت به من الثياب ، فيبقى حتى يتحطم بطول الزمان ، فسمي الموضع حطيماً[2] .

وقد كانت الجاهلية تتحالف عند (الملتزَم) بالأيمان ، وتدعو على الظالم ، وتعقد الحلف[3] .

وذكر (اليعقوبي) ان الجاهليين كانوا قد وضعوا (إسافاً) و(نائلة)، داخل المسجد الحرام . وضعوا كل واحد منهما على ركـــن من أركان البيت ، فكان الطائف اذا طاف بدأ، بإساف فقبله وختم بـــه . وذكر انهم نصبوا عـــلى الصفا صنماً ، يقال له (مجاور الريح) ، وعلى المروة صنماً يقال له (مطعم الطير)[4] .

وفي روايات أهـــل الأخبار عن تزويق الكعبة بالصور لبس وغموض . وهي روايات عديدة ، يفهم من بعضها أن هذه الصور كانت بالزيت ، رسمت على دعائم السقف . ويفهم مـن بعض آخر أنها كانت قد رسمت على أشياء متنقلة ، وأنها كانت معلقة على جدران البيت . ويفهم من بعض الروايات أن الرسول أمر فطمست معـــالم جميع الصور ، ويفهم من بعض آخر ، أنه استثنى منها صورة مريم وابنهـــا عيسى ، وأنها بقيت كما ذكرت الى أيام عبدالله بن الزبير . فلما تهدم البيت : تهدمت الصورة معه . أما رسم شجر أو صور ملائكة أو أشبـــاه ذلك في الكعبة ، فأمر لا اعتراض عليه ، إذ يجوز أن يكون ذلك في معبد وثني ، يضم الأصنام . ولكن ما للوثنية والانبياء ، وما شأن الشرك بمريم وبابنها وببقيـــة الرسل حتى ترسم صورهم على جدران أو أعمدة البيت ؟ ثم هل كانت الكعبـــة مزوّقة قبل هـــذا التزويق بالرسوم والصور ؟ وهل كانت هذه الصور من بقايا صور قديمـــة ؟ أم هي صور حديثة رسمت بعد أن أعادت قريش بناء البيت ؟ ورأيي ان هذه الصور هي من عمل عمّال نصارى أراهم الروم الذين جلبهم أهل مكة مع (باقوم) بعد تحطم سفينتهم عند الساحل للاتجار معهم ولبناء الكعبة .

---

١ تاج العروس (٣/١٢٥) ، (٨/٢٥١) ، اللسان (٤/١٦٦) ، (١٥/٢٩) ، البلدان (٢/٢٢٣ وما بعدها) ، (٥/١٩٠) ، أخبار مكة ، للازرقي (٢٤٦) ، تاج العروس (٩/٥٩) .

٢ اللسان (١٢/١٣٩) ، (حطم) ، تاج العروس (٨/٢٥١) .

٣ البلدان (٨/١٤٦) « الملتزم » .

٤ اليعقوبي (١/٢٢٤) .

و (باقوم) كما يقول الاخباريون هو الذي أشرف على إقامة البنـاء وهندسته . وهو الذي سقف البيت وأقامه على عمد . ولا أستبعد ان يكون هـو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة بإخوانه من بني جنسه الروم . وقـد كان هؤلاء نصارى ، فرسموا على جدران البيت أو أعمدته صور قصص كتابـي ، ومنه صور الانبياء ، للزينة والزخرف . لم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم في الاصنام. ومن يدري ، فلعله رسم لهم ذلك على أن له صلة بعقيدتهم التي كانوا عليها ، فلم يعترضوا لذلك عليه . أما طمس الاسلام لتلك الصور ، فللعلماء في ذلك كلام. وقد أشير اليه في كتب الحديث ، وأكثرهم على أن الرسول لم يستثن مـن ذلك الطمس صورة[1] .

وفي الحرم بئر (زمزم) ، وهناك مقام ابراهيم ، وبين زمزم ومقام ابراهيم كان موضع الذبح ، ذبح القرابين . ويرى (ولهوزن) احتمال كون موضع المقام هو المكان الذي كان الجاهليون يذبحون فيه[2] .

ويرجع الأخباريون تأريخ بئر (زمزم) الى يوم بناء الكعبة وعهد اسماعيـل . ويقال لها (بئر اسماعيل) أيضاً . وهي في الحرم في جهـة الجنوب الشرقي من الكعبة في الجهة المقابلة للركن . ولا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . ويظهـر من روايات أهل الأخبار عنها انها دفنت في ايام جرهم ، وان أهـل مكة صاروا يستقون الماء من آبار أخرى احتفروها ، ويستوردونه من الخارج اليها ، حتى اذا كانت ايام عبد المطلب ، ألقى في قلبه ان يحتفرها ، فحفرها واستخـرج منها كنزاً ، وظهر الماء بها منذ ذلك اليوم[3] . ولأهـل الأخبار تفاسير عديدة للفظـة (زمزم) ، تدل على انهم لم يكونوا على علم بأصل التسمية ، مما جاء فيها ان الملك (سابور) لما حج البيت أشرف عليها وزمزم فيها ، فقيل لها (زمزم) [4] . وهكذا جعلوا (سابور) من المؤمنين الحجاج للبيت الحرام ، المتبركين بماء زمزم!

---

١ الازرقي (١/١٠٤) ، تعليقات السيد رشدي الصالح ملحس على الازرقي » .

٢ Reste, S. 76.

٣ الطبري (٢/٢٥١) « دار المعارف » ، الروض الانف (١/٨٠ ، ٩٨ وما بعدها) ، الازرقي (١/٢٤ ، ٢٨٠ وما بعدها) ، البلدان (٢/٦٤٣) ، Shorter Ency. of Islam, p. 657.

٤ البلدان (٣/١٤٧) ، الصحاح (٥/١٩٤٥) ، اللسان (١٢/٢٧٥) ، البكري ، معجم (٢/٧٠٠) ، عمدة القاريء (٩/٢٧٧) ، البلدان (٢/٩٤٠ وما بعدها) .

وكان حرم (الكعبة) كما يظهر من روايات أهل الاخبار واسعاً شاسعاً ذا نبت وشجر . ولم يجرؤ أحد على احتطاب شجره او قطعه لحرمة المكان ولحرمة ما فيه ، فبقيت أشجاره على ما هي عليه ، حتى إذا ما كانت أيام (قصي) ، ضاقت مكة بمن وفد عليها من قريش ، ممن جاء بهم (قصي) اليها ، وقطعها (قصي) رباعاً ، وأرادوا البنيان ، ولكنهم هابوا قطع شجر الحرم للبنيان ، وتذكر رواية أنهم قالوا لقصي : كيف نصنع من شجر الحرم ؟ فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك . فكان أحدهم يحوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله[1] . وتذكر روايات أخرى العكس . تذكر أن قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم ، فقطعها قصي بيده ، وأعانوه[2] . وبذلك تقلصت أرض الحرم وقلت أشجاره بالتدريج .

وتذكر رواية ان اهل مكة كانوا يهابون حتى في الإسلام قطع شجر الحرم . وقطع كل شجرة دخلت من أرض الحرم في دور أهل مكة . وان (عمر) لما قطع (دوحة) كانت في دار (اسد بن عبد العزى) ، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين بالكعبة ، وذلك قبل ان يوسع المسجد ، ودّاهـا بقرة . وتذكر ايضاً ان (عبدالله بن الزبير) حين ابتنى دوراً بـ (قعيقعان) ترخص في قطع شجر الحرم للبنيان ، وجعل دية كل شجرة بقرة . وذكر ان (أبا حنيفة) ، قال إن كانت الشجرة التي في الحرم مما يغرسها الناس ويستنبتونها فلا فدية على من قطع شيئاً منها ، وإن كان من غيرها ففيه القيمة بالغاً ما بلغت[3] .

وفي الحديث ان الله حرم مكه ، وحرم شجر الحرم في جملة ما حرمه على الناس[4] .

ويظهر ان أرض مكة كانت كلها في الأصل قبل ايام (قصي) حمى للكعبة ، على عادة الجاهليين في تخصيص (حمى) لأربابهم تكون حول بيوتها ، ولهذا كانت أشجار هذا الحمى أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها ، سوى أخذ بعض أغصانها أو لحائها لعمل قلائد منها للاحتماء منها . فلما استباح أهل مكة لأنفسهم

---

١ الروض الانف (١/٨٧ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٢٥٨) « دار المعارف » .
٣ الروض الانف (١/٨٧ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١/١٢٨) .

التطاول على الحرم ، أي على هذا الحمى ، بقطع شجره وتحويل أرضه الى بناء، أو بابقاء بعض أشجاره في داخل الدور ، بقوا ينظرون الى ذلك الشجر الباقي في البيوت نظرة هيبة وتقدير ، باعتبار انه من بقايا الحرم القديم . وبذلك صغرت مساحة الحرم ، وقلّت مساحته ، حتى اضطر الخليفة (عمر) الى توسيعه بشراء البيوت التي أقامها الناس عليه وادخالها في الحرم من جديد ، وذلك حين ضيّق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها ، فقال : « إن الكعبة بيت الله ، ولا بد للبيت من فناء ، وانكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم » ، فاشترى بعض الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها ، ثم اشترى عثمان دوراً أخرى وأغلى في ثمنها [1] ثم زاد في المسجد من جاء بعدهما حتى وصل الى النحو الذي هو عليه الآن .

ولم يكن للحرم في الجاهلية سور ، إنما كانت تحدد معالمه وحدوده أنصاب نصبت على أطرافه . لتكون علامة على ابتدائه وانتهائه . أما ما نراه في الوقت الحاضر من وجود سور مرتفع له ، أي حائط به غرف ، فإنه مما حدث في الاسلام . وذكر أهل الأخبار ان الحرم قد ضرب على حدوده بالمنار القديمة التي بيّن ابراهيم مشاعرها ، وكانت قريش تعرفها في الجاهلية والإسلام ، لأنهم كانوا سكان الحرم، ويعلمون ان ما دون المنار الى مكة من الحرم ، وما وراءها ليس من الحرم . فما كان دون المنار،فهو حرم لا يحل صيده ولا يقطع شجره ، وما كان وراء المنار ، فهو من الحل يحل صيده ، إذا لم يكن صائده محرماً [2] .

الكسوة :

وكسوة البيت عادة قديمة ، كان يقوم بها الجاهليون . ينسبها الأخباريون الى (تبع أسعد الحميري) ، فيذكرون انه كساها بالأنطاع ، ثم كساها بثياب جدة من عصب اليمن ، أغلى ثياب معروفة في تلك الأوقات [3] . ولا يستبعد ان يكون الإكساء من بقايا المنشأ القديم للبيت ، حيث كان خيمة في الأصل . وقد

---

١ الروض الانف (١/١٢٩ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٢٣٩) ، (حرم) ، اللسان (١٢/١٢٢) ، (حرم) .
٣ الازرقي (١/١٦٥) ، الروض الانف (١/٢٤) .

ورد في الأخبار أنه كان في موضع البيت خيمة قبل أن تكون الكعبة [1] . وكذلك كان معبد بني اسرائيل خيمة في الأصل قبل أن يبنى الهيكل .

ويذكرون أن التبع الذي كسا البيت ، هو التبع الذي أتى به (مالك بن عجلان) الى يثرب لطرد اليهـــود عنها . وذكروا أن ذلك التبع هو (أسعـــد ابو كرب الحميري) [2] . وقد كساها الوصايل ، ثياب حـــبرة من عصب اليمن . وكانت الكعبة تكسى بالحبرة والبرود وغيرها من عصب اليمن ، تكسى بها ويوضع مـا يفضل منها في خزانة الكعبة . فإذا تمزقت الكسوة ، تستبدل بكسوة أخرى تؤخذ من الخزانه . تكسى من الداخل والخارج ، وتطيب بالخلوق وتبخر بالمجـامر [3] .

وقد سبق لي أن تحدثت عن (التبع أسعد) ، وذكرت ما قاله رواة الأخبار عنه ، وما جاء عنه في نصوص المسند . وكان قد علق في ذاكرة أهـل الأخبار أشياء عنه وعن بعض من جاء بعده ، زوقت ونمقت على طريقتهم في رواية أكثر أخبار اليمن . ولعل مـــا ذكروه عن اكسائه البيت ، هو من مصنوعاتهم التي وضعوها في الاسلام ليجعلوا لأهل اليمن فضلاً على الكعبـــة ، فضل يسبق فضل العدنانيين عليها ، وقد رأينا أنهم أوجدوا لهم جملة أنبياء نسبوهم الى قحطان ، ووضعوا أشياء أخرى كثيرة ، في اظهار فضل القحطانيين على الاسماعيليين المتعربين يوم فات الحكم من قحطان وصار في أهل مكة في الإسلام . فكان النزاع القحطاني العدناني المعروف .

ولو جارينا أهل الأخبار ، وأخذنا بروايتهم في ان التبـــع (أسعد أبو كرب الحميري) ، كان أول من كسا الكعبـــة ، نكون قد رجعنا بمبدأ تأريخ اكساء الكعبة الى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد . وقد سبق ان تحدثت عن هذا الملك في الجزء الثاني من هذا الكتاب [4] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان كسوة الكعبة لم تكن كسوة واحدة ، ولا من نسيج واحد ، بل كانت انطاعاً ، أي أبسطـــة من أدم ، وحبرة وبروداً ، وغيرها من عصب اليمن . وهي برود يمنية يعصب غزلها ثم يصبغ وينسج ، فيأتي

---

١ الازرقي (١/٦) « ذكر هبوط آدم الى الارض » .
٢ البلدان (٤/٤٦٣) .
٣ أخبار مكة ، للازرقي (١/١٧٣ وما بعدها) .
٤ (ص ٥٦٩ فما بعدها) .

موشّى ، وقيل هي برود مخططة[1] . وذكر ان النبي كساها الثياب اليمانية ، وان عمر وعثمان كسواها بالقباطي[2] .

وذكر ان أول من كسا البيت الحرير (نتيلة بنت جناب بن كليب) وهي من (بني عامر) المعروف بالضحيان ، وكان من ملوك ربيعة . وكان العباس ابن عبد المطلب ابنها ، قد ضاع وهو صغير ، فنذرت امه إن وجدته ان تكسو البيت الحرير ، فكسته ، فهي أول من كساه ذلك[3] . وقيل أول من كسا البيت الديباج خالد بن جعفر بن كلاب . أخذ لطيمة من البر وأخذ فيها أنماطاً فعلقها على الكعبة[4] .

وروي انهم كانوا يكسون الكعبة يوم (عاشوراء) ، وذكر ان (بني هاشم) كانوا يكسونها يوم التروية بالديباج ، لتظهر في أحسن حال ، ويراها الناس على ذلك . أما اذا حلّ يوم عاشوراء ، فانهم يعلقون الازار عليها . وورد انهم كانوا يكسون الكعبة بالديباج يوم التروية ، فيعلق عليها القميص ولا يخاط ، حتى اذا ما انصرف الناس من (منى) خيط وترك الازار ، ثم تكسى بالقباطي يوم عاشوراء ، ويعلق عليها الازار ، ويوصل بالديباج[5] .

ولا نستبعد احتمال كون يوم (عاشوراء) من الأيام التي كانت لها حرمة وقدسية عند أهل الجاهلية ، وإن كنا نجهل كل شيء عنه وعن سبب احتفال أهل مكة به ، وصومهم فيه . وقد ذهب بعض المستشرقين الى احتمال تأثر قريش بعاشوراء اليهود ، كأن يكون أحد سادة مكة قد أخذ ذلك اليوم عنهم فعظمه ، فأخذه أهل مكة عنه وجعلوه سنّة لهم . غير ان من الجائز ألا يكون لهذا اليوم صلة بعاشوراء اليهود ، وانما كان من تقاليد أهل مكة القديمة المعروفة عند غيرهم أيضاً ، ولا صلة له بيوم يهود[6] .

ويظهر انهم كانوا يضعون الأكسية الجديدة فوق الأكسية القديمة ، فلا يرفعونها

---

١ اللسان (١/٦٠٤) ، (عصب) .
٢ الازرقي ، أخبار مكة (١/١٧٣ وما بعدها) .
٣ الاصابة (٢/٢٦٣) ، (رقم ٤٥٠٧) ، كتاب نسب قريش (١٨) ، الروض الانف (١/٧٧) .
٤ الروض الانف (١/٧٧) .
٥ الازرقي ، أخبار مكة (١/١٧٣ وما بعدها) .
٦ Shorter Ency., p. 47.

عنها ، فكانت تتراكم بعضها فوق بعض ، فلما جاء الاسلام ، استمروا على ذلك أمداً ، ثم رأى (شيبة بن عثمان) سادن البيت ، تجريدها من أكسية الجاهلية ، لأنها رجس من عمل الجاهليين فأزيلت . ثم رأى الخليفة المهدي ، أن الأكسية قد أثقلت الكعبة ، فأمر بتجريدها ، تخفيفاً عنها ، واكتفى بثلاث كسيّ من القباطي والخز والديباج[١] .

وذكر أهل الأخبار أن اول من حلّل البيت (عبد المطلب) ، جدّ النبي ، لما حفر (بئر زمزم)،وأصاب فيه من دفن جرهم غزالين من ذهب ، فضربهما في باب الكعبة[٢] .

المال الحلال :

وقد تجنب أهل الجاهلية بناء معابدهم بمال حرام ، فلما أرادت قريش بنيان الكعبة نادى مناديهم : لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً . لا تدخلوا فيه مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس[٣] . هذا ما يذكره أهل الأخبار ويروونه عن بناء البيت الحرام .

بقية محجات العرب :

ومن محجّات العرب وبيوتها المعظمة : بيت عرف بـ (بس) لغطفان ، كانت تعبده . بناه (ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف) ، لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت ، وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع الى قومه ، فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين ، فقال : هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به عن الحج ، فأغار (زهير بن جناب الكلبي) ، فقتل ظالماً وهدم بناءه . وورد في رواية أخرى ان (العزى) سمرة عبدتها غطفان . أول من اتخذها (ظالم بن أسعد) ، فوق ذات

---

١ الازرقي ، اخبار مكة (١/١٧٣ وما بعدها) ، الاصابة (٢/١٥٧) ، (شيبة بن عثمان) .
٢ البلدان (٤/٤٦٣ وما بعدها) .
٣ الروض الانف (١/١٣٠ وما بعدها) .

عرق الى البستان بتسعة أميال ، بنى عليها بيتاً وسمّاه بسّاً ، وأقام لها سدنة ، فبعث اليها رسول الله (خالدَ بن الوليد) ، فهدم البيت وأحرق السمرة[1] .

وفي أخبار أهل الأخبار عن بيت (العزى) ، أوهام وتناقض . فتراهم يجعلون (العزى) صنماً مرة ويجعلونها (سمرة) أو (شجرة) أو ثلاث سمرات مرة أخرى ، ثم تراهم يخلطون بين البيت وبين الحرم الذي كان حوله ، كما بينت ذلك في اثناء حديثي عن (العزى)[2] . والذي أراه ، انه كان للعزى بيت هو (بس) ، فيه صنم العزى ، وكان حوله حرم ، كحرم مكة ، به (سمرة) أو ثلاث سمرات ، كان الناس يقدسونها أيضاً ويتقربون اليها بالنذور . وهي جزء متمم لبيت العزى . فلما أمر الرسول خالد بن الوليد ، بهدم العزى ، هدم البيت وحطّم الصنم ، فرجع ، فلما سأله الرسول عنه ، واستفسر منه عن السمرة أو السمرات الثلاث ، وعلم منه انه لم يقطعها ، أمره بالعودة اليها وقطعها اجتثاثاً لكل علامة من علائم عبادة هذا الصنم . فقطعها . فقطع عن عبّادها كل صلة لهم كانت تربطهم بذلك الصنم .

ومن محجّات الجاهليين ، بيت الصنم (ذو الخلصة) ، ذكر أنه كان بتبالة ، وكان يسمى ب (الكعبة اليمانية) ، تمييزاً له عن الكعبة التي عرفت بـ (الكعبة الشامية) . وذكر أنه نفسه عرف ب (الكعبة الشامية) ، كما دعي بـ (كعبة اليمامة) ، وقد تحدثت عنه في أثناء كلامي على هذا الصنم . ولما هدم البيت والصنم بأمر الرسول ،صار مكانه موضع عتبة باب مسجد تبالة . وذكر أن البيت هو (ذو الخلصة)،والصم (الخلصة) ، وقيل (ذو الخلصة : الصنم نفسه)[3] وقد عرف البيت بـ (الكعبة) كذلك ، لأنه كان بناءً مكعباً . وكان بيتاً في خثعم باليمن ، وكانت بجيلة تعظمه كذلك . به صنم ، هو (ذو الخلصة) ونصب يذبحون عليه[4] . ويظهر أنه كان من البيوت المعظمة الكبيرة ، بدليل ما ذكره العلماء من أن الرسول قال لجرير بن عبدالله البجلي : « ألا تريحني من ذي الخلصة » ؟ فذهب اليه وأحرق البيت وهدم الصنم وكسر النصب . وذكر

---

١ تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) ، مراصد الاطلاع (٩٣٧) .
٢ البلدان (٤١٢/١) ، (بساء) .
٣ تاج العروس (٣٨٩/٤) ، (خلص) .
٤ ارشاد الساري (٤٢٤/٦ وما بعدها) .

أن موضع (ذي الخلصة) ، صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم[1] .

وقد ذكر (أبو العلاء المعري) أن فدك كانت في الجاهلية ذات أصنام . وكانوا يقصدونها للحج ، وذكر تلبيتهم لها[2] .

وكان بيت (اللات) من البيوت المعظمة عند ثقيف . كانوا اذا عاد أحدهم من سفر ، فأول مـا يفعله أن يأتي (الربة) ، وهي اللات ليتبرك بها . وهي الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف . ولما أسلم (عروة بن مسعود الثقفي) ، وعاد الى قومه دخل منزله ، فأنكر قومه عليه دخوله قبل أن يأتي الربة ، يعني اللات. وفي حديث وفـد ثقيف : كان لهم بيت يسمونه الربة . يضاهون بيت الله[3] . وكانت ثقيف تضاهي أهـل مكة ، وتنافسهم على الزعامة . وكان لبيت اللات أستار وسدنة وحوله فناء معظم ، يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب[4] .

ولأهل اليمن بيوت تعبدوا لها ، وبقيت معظمة عندهم الى الاسلام . من ذلك بيت عرف بـ (بيت رئام) . ذكر (ابن اسحاق) ان أهـل اليمن كانوا يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون . وكانوا يعتقدون ان رئاماً كان فيه شيطان ، وكانوا يملأون له حياضاً من دماء القربان ، فيخرج فيصيب منها ، ويكلمهم ، وكانوا يعبدونه[5] . وبيت غمدان ، وقد ذكروا ان الضحاك بناه باليمن على اسم الزهرة[6] ، فجعلوه بيتاً ، أي موضع عبادة ، بينما هو دار حـكم وبيت الملوك بصنعاء ، كما سبق ان تحدثت عنه .

وذكر بعض أهل الأخبار ان (ريام) بيت بصنعاء كان لحمير ، وكان به كلب أسود . وان الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت[7] .

وكان (ذو الكعبات) لبكـر ولتغلب ابني وائل وإياد بسنداد ، وله يقول الأعشى :

---

١ ارشاد الساري (٤٢٣/٦ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٥٣٥) ، (بنت الشاطئ) .
٣ تاج العروس (٢٦٢/١) ، (دبب) .
٤ تفسير ابن كثير (٢٥٣/٤) .
٥ الروض الانف (٢٨/١) .
٦ نهاية الارب (٦٢/١) .
٧ تفسير ابن كثير (٢٥٤/٤) .

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذو الكعبات من سنداد[1]

وذكر انه بيت كان لربيعة ، كانوا يطوفون به ، وقد ذكره الأسود بن يعفر في شعره ، فقال :

والبيت ذي الكعبات من سنداد[2]

فالبيت للأسود لا للأعشى على هذه الرواية .

وقد تعرض (ابن كثير) لموضوع بيوت الأصنام : اللات والعزى ومناة ، فقال : « وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير ان هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ... قال ابن اسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب وتهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها »[3] . وما فات من أسماء المحجات في العربية الجنوبية والشرقية وفي نجد ، قد يزيد عدده على ما ذكرنا . فات عنا، لأن أهل الأخبار لم يذكروا شيئاً عنها ، لانصراف اهتمامهم الى الحجاز وما كان له صلة بالاسلام، من أرضين ، فحرمنا بذلك من الوقوف على أخبار المحجات في المواضع الأخرى من جزيرة العرب .

ويحج الناس الى هذه البيوت في أشهر معينة من السنة ، هي الأشهر الحرم ، وهي أشهر مقدسة لا يحل فيها قتال ولا اعتداء على أحد،فهي أشهر هدنة وسلام، أشهر خصصت بالآلهة ، فلا يجوز انتهاك حرمتها . وفي شهر الحج الذي يحج فيه الناس الى أصنامهم ، يجتمع الناس في المعبد لأداء الفروض المكتوبة المعينة، فيكون الاجتماع اجتماعاً دينياً وسياسياً وتجارياً يتعامل فيه الناس . ويتبادلون به السلع ، ويعود على أهل الموضع الذي فيه المعبد بأرباح كبيرة ولا شك . وقد ذكرت أن هذه الحرمة لم تكن عامة ، فقد كان من العرب من لا يراعيها ولا يحترمها ، ثم إننا لا ندري إذا كان أهل العربية الجنوبية أو العربية الشرقية كانوا يعرفونها أم لا !

---

١ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٤) .
٢ تاج العروس (١/٤٥٧) ، (كعب) ، اللسان (١/٧١٨) ، (كعب) .
٣ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) .

وليست كل المعابد محجة للناس ، يقصدونها في الأيام أو في المواسم . فقد كان في الموضع الواحد جملة معابد في بعض الأحيان ، ولا يحج اليها ، بل كانت المعابد التي يحج اليها معدودة معينة . لا بد أن تكون لها ميزة شرفتها على سائر دور العبادة الأخرى . ولهذه الميزة قصدت في المواسم من أماكن بعيدة . واذا استثنينا ما ورد عن مكة ، فإننا لا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن المعابد الكبيرة الأخرى . ثم إن في أكثر ما ذكره أهل الأخبار عن مكة غموض ومجال واسع للنقد ، لأنه منقول عن أفواه رجال يظهر أنهم نقلوا ما قيل لهم دون تحفظ أو تمحيص .

المزارات :

وقد عظم بعض أهل الجاهلية قبور ساداتهم ورؤسائهم واتخذوها أضرحة يزورونها ويتقربون اليها ويتبركون بها ، وقد بلغ من بعضهم ان جعلها حمى وملاذاً من دخل اليها أمن ، ومن لجأ اليها وكان محتاجاً أغيث ، ومن طلب العون واستغاث بصاحب القبر أغيث ، حتى صارت في منزلة المعابد . ومنها أضرحة السدنة والكهان وسادات القبائل ، فقد كان قبر (تميم) جدّ قبيلة (تميم) مزاراً معظماً عند أبناء القبيلة من احتمى به من (بني تميم) ومن غيرهم صار آمناً .

ولم أجد في أخبار اهل الأخبار ما يفيد بوجود أضرحة في مكة ، اتخذت مزاراً وموضعاً يتبرك به . يعظمونه ويتقربون اليه بالنذور والذبائح . لقد كان قبر قصي معروفاً عند أهل مكة ، ولكنهم لم يتخذوه مزاراً ومصلى على ما يتبين من روايات الأخباريين .

الفصل الخامس والسبعون

الحنفاء

وقد أشار القرآن الكريم الى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا النصارى ، وانما اعتقدت بوجود إلـه واحد عبدته[1]. وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء ، غير ان ما ذكروه عنهم غامض لا يشرح عقائدهم ، ولا يوضح رأيهم في الدين ، فلم يذكروا عقيدتهم في التوحيد ، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون .

وقد عرف هؤلاء بالحنفاء وبالأحناف ، ونعتوا بأنهم كانوا على دين ابراهيم ، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، ولم يشركوا بربهم أحداً . سفهوا عبادة الأصنام، وسفهوا رأي القائلين بها[2] .

---

١ « وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا · قل : بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » ، البقرة ، رقم ٢ ، الآية ١٢٥ ، تفسير الطبري (١/٤٠٤) ، روح المعاني (١/٣٥٢) ، تفسير المنار (١/٢٧٩ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/١٩٦)، اللسان (١٠/٤٠٢ وما بعدها) ، النهاية في غريب الحديث، لابن الاثير (١/٢٦٥) الطبرسي ، مجمع البيان (١/٤٦٧) ، (١/٢١٥ وما بعدها) ، (طبعة طهران) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢/١٢٨) ، الطبري ، جامع البيان (١١/١٧٧) ، (٢١/٤٠) ، البيضاوي (١/١٥٩ ، ٢١٥) ، تفسير القرطبي (١٠/١٩٨) ، الكشاف، للزمخشري (١/٢٣٦) ، اللسان (٩/٥٦) «صادر» ، تأريخ الخميس ، للدياربكري (٢/١٧٧) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٢٤٤) ، تفسير القرطبي ، الجامع (١٠/١٩٨) ، (حنيفا) ، سورة النحل ، رقم ١٦ ، الآية ١٢٠ ·

٢ النهاية (١/٢٩٩) ·

وقد أشير الى (الحنيفية) و (الحنفاء) في كتب الحديث [1] . وقد بحث عنها شرّاح هذه الكتب . ومما نسب اليه حديث : « لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة » [2] . وحديث : « بعثتُ بالحنيفية السمحة السهلة » [3]. وحديث « أحب الأديان الى الله تعالى الحنيفية السمحة » [4] .

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعيّ على دين ابراهيم . كانوا موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده ، لا يشركون به ولا ينتقصونه . فلما جاء عمرو بن لحيّ ، أفسد العرب ، ونشر بينهم أضاليل عبادة الأصنام ، بما تعلمه من وثنيي بلاد الشأم حين زارهم ، وحل بينهم ، فكان داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها ومضلّهم الأول . وهو على رأيهم موزّع الاصنام بين القبائل ، ومقسّمها عليها . فكان من دعوته تلك عبادة الاوثان ، الى أن جاء الاسلام فأعاد العرب الى سواء السبيل ، الى دين ابراهيم حنيفاً ، وما كان ابراهيم من المشركين [5] .

ولقد فشت دعوة عمرو بن لحي وانتشرت ، حتى دخل فيها أكثرهم ، والضلال سريع الانتشار ، وقلّ عدد من حافظ على دين ابراهيم والمراعي لأحكام دين التوحيد الحنيف : من اعتقاد بوجود إله واحد أحد ، وطواف بالبيت ، وحج اليه ، وعمرة ، ووقوف على عرفة وهدي للبدن ، واهلال بالحج والعمرة ، وغير ذلك . فلم يبق منهم إلا عدد محدود في كل عصر الى زمن البعثة المحمدية [6].

ولسنا نملك ويا للأسف شيئاً من الجاهلية يعيننا في الوقوف على عقائد الأحناف ودينهم ، فليس في كتابات المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى ، بل ولا في كتب اليونان واللاتين شيء عن عقيدتهم وعن آرائهم ،لذلك اقتصر علمنا بأحوالهم على ما جاء في المؤلفات الاسلامية وحدها ، والفضل في حفظ أخبارهم للقرآن

---

١ راجع ونسنك : المعجم المفهرست لالفاظ الحديث النبوي الشريف ، حيث تجد الاشارة الى تلك الاحاديث .
٢ مسند أحمد بن حنبل (١١٦/٤) ، (٢٣/٦) .
٣ اللسان (٥٦/٩ وما بعدها) .
٤ مجمع البيان ، للطبرسي (٢١٥/١ وما بعدها) ، « أحب الدين الي الحنيفية السمحة » ، الاصابة (٥١/١) ، (رقم ١١٤) .
٥ اللسان (٤٠٣/١٠) ، بلوغ الارب (١٩٥/٢) .
٦ بلوغ الارب (١٩٦/٢) .

الكريم ، فلولا اشارته اليهم وذكره لهم ، لما اهتم المفسرون وأصحاب الأخبار بجمع ما كان عالقاً في ذهن الناس عنهم . وللحديث وكتب السير والأدب فضل في جمع أخبارهم يجب ألا ينسى كذلك .

وللعلماء الاسلاميين آراء وتفسيرات في أصل لفظة (حنيف) وحنفاء وأحناف وفي معانيها . فهم يقولون ان الأصل (حنف) ، وحنف بمعنى مال . وحنف القدمين ميل كل واحدة منها نحو الأخرى . والحَنَفُ هو ميل عن الضلال الى الاستقامة ، والجنف ميل عن الاستقامة الى الضلال . والحنيف هو المائل . ومن هذا المعنى أخذ الحنف . وأما الحنيف ، فالذي يميل الى الحق،وقيل الذي يستقبل البيت الحرام ، أو الحاج أو من يختتن،والحنيف من أسلم في أمر الله فلم يلتوِ في شيء ، والحنيف المستقيم الذي لا يلتوِ في شيء[1] .

وقد وردت لفظة (حنيفاً) في عشر مواضع من القرآن الكريم[2] . ووردت لفظة (حنفاء) في موضعين منه[3] . وبعض الآيات التي وردت فيها آيات مكية ، وبعضها آيات مدنية . وقد نص في بعض منها على ابراهيم ، وهو على الحنيفية ، ولم ينص في مواضع منها على اسمه . وقد وردت لفظة (حنفاء) في سورتين فقط . هما : سورة الحج وسورة البينة ، وهما من السور المدنية .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الحنيف عند أهل الجاهلية من اختتن وحج البيت فكل من اختتن وحج البيت هو حنيف[4] . وقد رأى الطبري ان ذلك لا يكفي ،

---

١ المفردات ، للاصفهاني (ص ١٣٣) ، اللسان (١٠/٤٤) ، (٩/٥٦ وما بعدها) « صادر » ، تاج العروس (٦/٧٧ وما بعدها) ، النهاية في غريب الحديث والاثر ، لابن الاثير (١٠/٢٦٥) ، تفسير الطبري (١/٢٥٨ وما بعدها) ، القاموس المحيط ، الفيروزآبادي (٣/١٣٠) ، تفسير الطبري (١/٥٦٣) ، «١٩٥٤» ، (٣/١٠٥) « دار المعارف » ، الملل والنحل ، (٢/٥٢) ، الاغاني (٣/١١٣ وما بعدها) « دار السعادة بيروت ١٩٥٥ م » ، روح المعاني للالوسي (٣/١٧٣ وما بعدها) ، تفسير الخازن (١/٩٨) .

٢ البقرة ، رقم ٢ الآية ١٣٥ ، آل عمران ، ٣ الآية ٦٧ ، ٩٥ ، النساء ، الرقم ٤ ، الآية ١٢٥ ، الانعام ٦ ، الآية ٧٩ ، ١٦١ يونس ، الرقم ١٠ ، الآية ١٠٥ ، النحل ، ١٦ ، الآية ١٢٠ ، الروم ، الآية ٣٠ .

٣ الحج ، الآية ٣١ ، البينة ، الآية ٥ .

٤ اللسان (١٠/٤٠٢ وما بعدها) ، الكشاف (١/١٧٨ ، ٢٣٦ ، ٤٠٧) ، الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن (١/٤٦٧ وما بعدها) ، (٣/١٠٩ وما بعدها) ، تفسير الفخر الرازي (١٣/٥٧ وما بعدها) ، (١٤/١٠ وما بعدها) ، (١٧/١٧١ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣/١٠٤ وما بعدها) .

بل لا بد من الاستقامة على ملة ابراهيم واتباعه عليها [1]. والذين يذكرون أن الحنيف هو من اختتن وحج البيت ، يذكرون أن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، ولهذا فكل من اختتن وحج البيت ، قيل له حنيف . وقــد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام والإغتسال من الجنابة الى ما ذكرت ، وجعلوا ذلك من أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن المشركين[2]، لأن الحنيفية على حد قولهم لو كانت حج البيت والاختتان لوجب أن يكون الذين كانوا يحجّون ويختتنون في الجاهلية من أهل الشرك حنفاء،وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله : « ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين »[3] .

وينسب أهــل الأخبار الى الأحناف بالإضافة الى ما ذكرت ، امتناعهم عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهل الى غير الله . فقد ذكروا عن كل واحد من الأحناف أنه كان قد امتنع عن أكل الذبائح التي تذبح للأوثان والأصنام ، لأنها ذبحت لغير الله . كما نسبوا اليهم تحريم الخمر على أنفسهم ، والنظر والتأمل في خلق الله ، ونسبوا اليهم أداء شعائر الحج وغير ذلك[4] .

وقد لخص (الفخر الرازي) و (الطبرسي) ، آراء العلماء في (الحنيفية) واجملاها في تفسيرهما للآية : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كنت من المشركين » . فقالا : « وفي الحنيفية أربعة أقوال : احدها انها حج البيت ، عن ابن عباس والحسن ومجاهد . وثانيها انها اتباع الحق ، عن مجاهد ، وثالثها انها اتباع ابراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحــج والختان وغير ذلك من شرائــع الاسلام ،

---

١ تفسير الطبري (٣/١٠٥ وما بعدها) ، (٣/٣٠٦) ، (٥/٢٩٧) ، (٧/٢٥١) ، تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢/١٢٨) .

٢ اللسان (٩/٥٦) « صادر » ، القاموس (٣/١٣٠) ، تاج العروس (٦/٧٧ وما بعدها) ، (حنف) .

٣ الطبري ، جامع البيان (١/٥٦٤ وما بعدها) .

٤ الاصنام (٦) « ١٩١٤ م » ، القــرطبي ، الجامع لاحــكام القرآن ، (٤/١٠٩) « ١٩٣٧ م » « مطبعة دار الكتب المصرية » ، ابن خلدون (القسم الاول من المجلــد الثاني) (ص ٧٠٧ وما بعدها) « بيروت ١٩٥٦ م » الخازن ، لباب التأويل فــي معاني التنزيل (١/٢٣٨ وما بعدها ، ٢٥١) ، تفسير الرازي (٨/١٥٠ ومــا بعدهــا) .

والرابع انها الاخلاص لله وحده والاقرار بالربوبية والإذعان للعبودية »[1] .

ترى مما تقدم ، وسترى فيما بعد ان أهل الأخبار لم يكونوا على بينة تامة وعلم واضح بأحوال الحنيفية وبآرائها وقواعد أحكامها وأصولها ، وانهم خلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهبنة ، ولا سيما رهبنة النصرانية . فأدخلوا فيها من يجب اخراجهم عنها ، لأنهم كانوا نصارى على ما يذكره نفس أهل الأخبار في أثناء تحدثهم عنهم ، ومن هؤلاء : قيس بن ساعدة الأيادي وورقة بن نوفل ، وعثمان ابن الحويرث ، فقد نصوا نصاً صريحاً على انهم كانوا من العرب المتنصرة ، ثم نجدهم مع ذلك يدخلونهم في جملة الأحناف .

وللمستشرقين بحوث في أصلها ومعناها وفي ورودها عند العرب قبل الاسلام . ومنهم من يرى ان اللفظة من أصل إرمي ، وقد كانت معروفة عند النصارى ، وأخذها الجاهليون منهم ، وأطلقت على القائلين بالتوحيد من العرب ، على أولئك الذين ظهروا في اليمن خاصة ونادوا بالتوحيد وعبادة الرحمان . وهي ديانة توحيد ظهرت بتأثير اليهودية والنصرانية ، غير ان أصحابها لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وانما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بآراء الديانتين[2] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان اللفظة من أصل عبراني ، هو : (تحينوت) tchinoth ، أو من (حنف) Hnêf ، ومعناه التحنث في العربية ، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزهّاد[3] . وقال (نولدكه) انها من أصل عربي هو (تحنف) ، على وزن تبرر ، وهي من الكلمات التي لها معانٍ دينية . ويلاحظ ان السريان يطلقون لفظة (حنفه) Hanfa على الصابئة[4] . وقد وردت لفظة (حنف) في النصوص العربية الجنوبية ، وردت بمعنى (صبأ) ، أي مال وتأثر بشيء ما[5] .

---

١ مجمع البيان (١/٢١٥ وما بعدها) ، التفسير الكبير ، للفخر الرازي (٤/٨٩ وما بعدها) .

٢ Ency., II, p. 259.

٣ Abraham I. Katsh., Judaism in Islam, New York, 1954, p. 108, f., J.A. Montgomery, Ascetic Strains in early Judaism, in, JBL., Vol., LI, (1932), pp. 183, Tar Andrae, Der ursprung der Islam und das Christentum, uppala, 1926, p. 40, Charles Lyall, The Ward Hanif and Muslim. in JRAS, 1903, p. 772, Sprenger, Das Leben, Bd. I, S. 45. ff.

٤ Ency., II, 259, Barhebraeus, Chronic., p. 176.

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 40.

أي بالمعنى الذي فهمه علماء اللغة. فاللفظة اذن من الألفاظ المعروفة أيضاً عند العرب الجنوبيين .

عندي أن لفظة (حنيف) ، هي في الأصل بمعنى (صابىء) أي خارج عن ملة قوم ، تارك لعبادتهم . ويؤيد رأيي هذا ما ذهب اليه علماء اللغة ، من أنها من الميل عن الشيء وتركه ، ومن ورودها بهذا المعنى في النصوص العربية الجنوبية . وبمعنى (الملحد) ، و (المنافق) ، و (الكافر) في لغة بني إرم، ومن اطلاق (المسعودي) و (ابن العبري) لهذه اللفظة على (الصابئة) . ومن ذهاب (المسعودي) الى أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة . وقد اطلقت على (المنشقين) على عبادة قومهم الخارجين عليها ، كما أطلق أهل مكة على النبي وعلى أتباعه (الصابىء) و (الصباة) ، فصارت علماً على من تنكر لعبادة قومه ، وخرج على الأصنام . ولهذا نجد الإسلام يطلقها في بادىء الأمر على نابذي عبادة الأصنام ، وهم الذين دعاهم بأنهم على (دين ابراهيم) . ولما كان التنكر للأصنام هو عقيدة الإسلام لذلك صارت مدحاً لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة لا ذماً [1] .

وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية . فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله ، وكيفية تصورهم وعبادتهم له ، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسيرون عليها . نعم ، إن نفراً منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الكتب ووقفوا عليها ، ولكن ما تلك الكتب التي قرأوها ، وما أسماؤها . وهل هي التوراة والانجيل ؟ ولكن أي توراة وإنجيل ؟ التوراة والانجيل التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها ؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الحنفاء كانوا يرون تحريفاً في الكتابين ، وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي الناس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية الى دين ابراهيم الحنيف ، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة ابراهيم . ولكن ما هي كتب ابراهيم وما هي عبادته ؟

---

١ راجع ايضا : Ency., II, p. 259.

وليس في امكاننا في الوقت الحاضر وضع حد صريح واضح لمفهوم الأحناف و (الدين الحنيف) عند الجاهليين ، لما ذكرته من عدم وجود موارد واضحة صريحة عن الأحناف ، ولعدم ورود أي شيء عنهم في نصوص جاهلية ، ولأن في الكثير من الذي يذكره المفسرون وأهل الأخبار عنهم غموض وإبهام أو صنعة وتكلف ، لذلك فليس أمامنا سوى الانصراف الى البحث عن جمع كل ما ورد عن الحنيفية في الشعر وفي النثر وتنقيته وغربلته لاستخراج المادة الصافية منه التي تفيدنا في الوقوف على تلك الحركة الدينية التي كانت بارزة عند المذكورين قبيل ظهور الاسلام . والوقوف عليها يفيدنا كثيراً ولا شك في فهم الاسلام الذي أثنى على الحنيفية وأرجعها الى ديانة ابراهيم ، وفي فهم اتجاهات الأحناف ودعوتهم التي وجهوها الى قومهم في نبذ عبادة الأصنام والأحجار والمعبودات المادية الأخرى، والالتجاء الى عبادة إله أعلى لا يشبه المادة ، هو إله واحد لطيف خبير .

والحنفاء ، كما يفهم من روايات أهل الأخبار ، كانوا طرازاً من النسّاك ، نسكوا في الحياة الدنيا ، وانصرفوا الى التعبد للإله الواحد الأحد إله ابراهيم واسماعيل،ساحوا في البلاد على نحو ما يفعله السياح الزهّاد بحثاً عن الدين الصحيح دين ابراهيم ، فوصل زيد بن عمرو بن نفيل الى الشأم والبلقاء ووقف على اليهودية والنصرانية ، فلم يرَ في الديانتين ما يريد[1] . ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحثّهم على ترك عبادة الأصنام ، لذلك لاقوا منهم غشاً ونصباً شديداً . ومنهم من كان يتأمل في هذا الكون،لذلك تجنب الناس واعتزلهم ، والتجأ الى الكهوف والمغاور البعيدة ابتعاداً عن الناس للتأمل والتفكر ، وقد تجنبوا الخمرة والأعمال المنكرة ، وقول الفحش ، وساروا على مثل الاسلام ، وان عاشوا قبل الاسلام، لأن الإسلام دين ابراهيم .

والذي يفهم من القرآن الكريم ، هو ان الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام ، فلم يكونوا من المشركين ، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى ، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، و « وما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من

---

١ بلوغ الارب (٢٤٧/٢ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع البيان (١١٠/٣) (٢٥٢/٧) ، (١٠٧/١١) (١٣٧/١٤) .

المشركين »[1] ، وان قدوتهم في ذلك ابراهيم . ويلاحظ ان لفظة (مسلم) استعملت في مرادف ومعنى لفظة (الحنيف) ، وان ابراهيم هو أبو وأول المسلمين . وقد وصف الاسلام بأنه دين الله الحنيف ، والدين الحنيف ، وان الشريعة الاسلامية، هي الحنيفية السمحة السهلة ، وذلك تمييزاً لها عن الرهبانية المتعصبة[2] .

وقد عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية ، وعدّوهم نصارى عرباً زهاداً كيّفوا النصرانية بعض التكييف ؛ وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها. وقد استدلوا على ذلك بما ورد من تنصر بعضهم ، وبما ورد في بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم ان المراد بهم شيعة من شيع النصرانية [3]. غير ان القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على ان الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وانهم ينتمون في عقيدتهم الى ابراهيم . ثم إن الأخباريين وإن أدخلوا في الأحناف أناساً نصوا على انهم كانوا نصارى ، إلا انهم نصوا في الوقت نفسه نصاً صريحاً على ان البقية الباقية ، كانت واقفة،لم تدخل في يهودية ولا نصرانية ، إذ وجدت في كل ديانة من الديانتين أموراً جعلتها تتريث،فلم تدخل في احداهما، وبقيت مخلصة لسنّة ابراهيم ، لذلك فلا يمكن اعتبار الأحناف نصارى خلصاً ، أو شيعة من الشيع النصرانية .

وقد كان من الحنفاء نفر من النصارى ، أخلصوا لنصرانيتهم وماتوا عليها . فهؤلاء هم نصارى من غير شك ، ويجب اخراجهم من طائفة الحنفاء ، وادخالهم في النصارى ، مثل (بحيرا) الراهب ، وأمثاله ممن سأتحدث عنهم فيما بعد .

ويلاحظ أن جميع من حشرهم أهل الأخبار في الحنيفية ، كانوا من القارئين، الكاتبين . وكانوا يشترون الكتب ويراجعونها ويتسقطون أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات . ولبعض منهم — كما يروي أهل الأخبار — علم باللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية ، كما كان لهم علم ووقوف على تيارات الفكر في ذلك الوقت . وقد أضافوا الى علمهم الذي أخذوه من الكتب ، علماً حصلوا عليه من

---

١ آل عمران ، الآية ٦٧ وما بعدها ، البقرة ، الآية ٣٥ ، آل عمران ، الآية ٩٥ ، النساء ، الآية ١٢٤ ، الانعام ، الاية ٧٩ ، ١٦٢ ، يونس ١٠٥ .

٢ ابن سعد (١٢٨/١) ، قال عبد الله بن أنيس :

فقلت له خذها بضربة ماجد حنيف على دين النبي محمد

٣ Reste, S. 238, J.A. Montgomry, Ascetic Strains in Early Judaism, JBL., Vol., LI, 1932, p. 183, Abraham J. Katsch, Judaism in Islam, p. 108.

أسفارهم الى الخارج مثل العراق وبلاد الشأم ومن اتصالهم بالرهبان وبرجال الكنائس واليهــود . فهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفة من الجاهليين نادت بالاصلاح وبرفع مستوى العقل وبنبذ الأساطير والخرافات وبتحرير العقل من سيطرة العادات والتقاليد فيه ، وذلك بالدراسات والتأمل وبقراءة الكتب وبالرجوع الى دين الفطرة، الذي لا يقر عبادة الشرك ولا عبادة الناس .

لذلك نستطيع أن نقول عن هؤلاء إنهم كانوا أناساً من النوع الذي نطلق عليهم كلمة (مصلحين) في الوقت الحاضر . من هذا الطراز الذي يريد اصلاح الأوضاع ورفع مستوى العقل . فهم جماعة ضد الأوضاع الاجتماعية السائدة في أيامهم . لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الإنسان من التقدم ومن ادراك الواقع . وقد رأت أن العقل لا يقر التقرب الى أحجــار والى التبرك بها والذبح لها ، لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في إمكانها أن تسمع أو تجيب لذلك نفرت منها . ومنهم من آمن بدين كالنصرانية ، ولكنه لم يكن على نصرانية قومه ، لأن عقله لا يقر التقرب الى المادة مثل الصليب والصور والتماثيل ، ومنهم من أبعدته مثل هــذه العبادة عن النصرانية ، فصيرته حائراً في أمره من الديانات ، يعتقد بإلـه ، ولكنه لم يستقر على دين . عاتب على قومه من المشركين ما هم عليـــه من جهل ومن عبادة أحجار ومن كل تقرب اليها .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر ذكروا انهم كرهوا عبادة الأوثان وسخفوا أحلام المتعبدين لها ، إذ وجدوا ان من الحمق التقرب الى حجــر لا يضر ولا ينفع ، وهو جماد ، فلما سمع بعضهم بالاسلام أسلموا . ولكنهم لم يدخلوهم في عداد الأحناف . وقد رأينا ان من أهل الأخبار من جعل (مسيلمة) يدعو الى عبادة (الرحمن) قبل مبعث النبي . وقد ذكروا ان « عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد » السلمي ، كان قد رغب عن آلهة قومه في الجاهلية ، رأى انها باطلة ، وان الناس في ضلال إذ يعبدون الحجارة ، والحجارة لا تضر ولا تنفع ، فكان حائراً ، حتى اهتدى إلى الاسلام[1] .

وليس في أيدينا اليوم مورد يفيد بوجود تكتل وتنظيم لمــن أطلق الأخباريون

---

١ الاصابة (٣/ ٥ وما بعدها) ، رقم (٥٩٠٥) ، الاستيعاب (٢/ ٤٩١ وما بعدها) ، حاشية على الاصابة .

عليهم لفظة : (الحنفاء) : تكتل وتنظيم مع مظاهر خارجية وداخلية تميزهم عن غيرهم من أهل الأديان . لذلك ، فنحن لا نستطيع أن نقول إن الحنيفية كانت فرقة تتبع ديناً بالمعنى المفهوم من الدين ، كدين اليهودية أو النصرانية ، لها أحكام وشريعة تستمد أحكامها من كتب مُنزلة مقدسة ومن وحي نزل من السماء ، على نحو ما نفهمه من الأديان السماوية . لذلك ، فأنا لا أستطيع إقرار رأي من ذهب الى انهم كانوا جماعة دينية منظمة ، كرأي المستشرق (شبرنكر) ، الذي ذهب الى هذا المذهب[1] .

وجلّ هؤلاء الأحناف ، هم من أسر معروفة ، وبيوت يظهر أنهـا كانت مرفهـة أو فوق مستوى الوسط بالنسبة الى تلك الأيام ، ولهذا صار في امكانهم الحصول على ثقافة وعلى شراء الكتب ، وقد كانت غالية الثمن إذ ذاك ، لنيل العلم منهـا . كما صار في امكانهم الطواف في خارج جزيرة العرب لامتصاص المعرفة من البلاد المتقدمة بالنسبة الى تلك الأوقات ، مثل العراق وبـلاد الشأم . وقد اتصلوا كما يزعم أهل الأخبار فعـلاً برجال العلم والدين فيها ، وتحادثوا معهم وأخذوا الرأي منهم . ومن يدري فلعلهم قرأوا عليهم الكتب وفي جملتهـا كتب اليونان ، أو ترجمات كتبهم بالسريانية ، فحصلوا نتيجة لذلك على عـلم بمقالات اليونان وبآرائهم في الفلسفـة والدين والحيـاة . وقد تكون بعض الآراء المنسوبة اليهم ، والتي ترجع الى أصل يوناني ، قد قالوهـا من أخذهم لها من تلك الكتب ومن دراستهم على من اتصلوا بهم من العلماء في أثنـاء وجودهم في العراق وفي بلاد الشأم .

ونجد في الأخبار أن الرسول كان يعدّ الرهبانية مخالفة للحنيفية ، إذ ورد أن أبا عامر بن صيفي — المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهليـة ولبس المسوح — قدم المدينة ورأى الرسول ، وسأله : ما هـذا الذي جئت به ؟ — فقال الرسول : جئت بالحنيفية دين ابراهيم ، قال : فأنا عليها ، فقال الرسول: لستَ عليها ، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منهـا . وقد سماه الرسول الفاسق . فذهب مغاضباً للرسول كما تقول الروايات،متوجهاً الى قيصر ، ليحمله على توجيه جيش الى المدينة للقضاء على الإسلام ، غير أنه مات وهو في بلاد الشأم[2] .

---

١ Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4, Ency., II, S. 259.

٢ مجمع البيان (٩/٦٤ وما بعدها) ، (٣/٥٠٠) ، (طبعة طهران) .

وقد خرج (أبو عامر) واسمه (عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان ابن أمة)[1] الراهب أحد (بني ضبيعة) الى مكة مباعداً لرسول الله ، معه خمسون غلاماً من الأوس ، منهم (عثمان بن حنيف) . « فكان يعد قريشاً ان لو قد لقي محرماً لم يختلف عليه منهم رجلان ، فلما كان يوم أحد ، كان أول من لقي أهل المدينة أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق،وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية (الراهب) فسماه رسول الله الفاسق ، فلما سمع ردهم عليه ، قاتلهم ثم راضخهم بالحجارة » . ثم رجع مع قريش الى مكة ثم خرج الى الروم يوم فتحت مكة فمات بها سنة تسع ، ويقال سنة عشر . وأعطى (هرقل) ميراثه لكنانة بن عبد ياليل الثقفي[2] ، وكان قد اختصم مع علقمة بن علاثة في ميراثه ، فدفع هرقل ميراثه لكنانة قائلاً لعلقمة : هما من أهل المدر وأنت من أهل الوبر.

وكان له ولد اسمه (حنظلة) أسلم ، واستأذن رسول الله في قتل أبيه ، فنهاه عن ذلك . فلما كان يوم أحد شهده ، والتقى هو وأبو سفيان ، فلما استعلى حنظلة رآه (شداد بن شعوب) فعلاه بالسيف حتى قتله ، وقد كاد يقتل أبا سفيان . فقال النبي : « إن صاحبكم تغسله الملائكة »[3] ، فعرف بـ (غسيل الملائكة)[4] . فكان الابن مع المسلمين في هذا اليوم ، وكان الأب مع المشركين .

وروي أنه كان يتزهد في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام خرج الى الشام وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار ، وأتى قيصر فاستنجده على النبي[5] . وروي أنه هو الذي حزب الأحزاب لقتال الرسول : فلما خذل لحق بالروم يطلب النصر منهم ، وقال لأناس من الأنصار ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ،

---

١ تأريخ الطبري (٢/٥١٢) ، (معركة أحد) ، المحبر (٤٧٠) ، سيرة ابن هشام (٢/١٢٩) ، (حاشية على الروض) ، أبو عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الاوس ، الاوسي ، الاصابة (١/٣٦٠) ، (رقم ١٨٦٣) ، مروج الذهب (١/٨٨) ، (دار الاندلس) .

٢ الاصابة (١/٣٦٠) ، (رقم ١٨٦٣) .

٣ الاستيعاب (١/٢٧٩ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ الاصابة (١/٣٦٠) ، (رقم ١٨٦٣) ، الاستيعاب (١/٢٧٩ وما بعدها) ، حاشية على الاصابة) .

٥ تفسير النيسابوري (٩/٧٦) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، روح المعاني (٩/١١١) .

فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه، وكان قد خرج معه كنانة بن عبد يا ليل الثقفي وعلقمة بن علاثة . فأما علقمة وابن ياليل (ابن بالين) ، فرجعا فبايعا النبي وأسلما ، وأما (أبو عامر) فتنصر وأقام[1] .

ويظهر أن (أبا عامر الراهب) ، كان قد وضع مع جماعة من الأنصار الحاقدين على الرسول وعلى المهاجرين الذين صاروا يزاحمونهم في أعمالهم، واستحوذوا على التجارة واستغلوا أرض يثرب فقام قوم منهم بزراعتها ، خطة لعمل مكيدة يخرجون بها الرسول من المدينة ، يساعدهم في ذلك الروم . غير انها لم تنجح ، وهدم المسجد ، الذي تواعدوا على أن يكون موضع التآمر وملتقى الحاقدين على الرسول ، وقضي على المؤامرة ، وبقي (أبو عامر) عند الروم . فلما مات عاد (كنانة بن عبد يا ليل) الثقفي ، وكان رئيس ثقيف في زمانه ، وكان يقول : « لا يرثني رجل من قريش » ، مما يدل على أنه كان من الكارهين لقريش المتحاملين عليها وعلى الاسلام ، ففر الى (نجران) ثم توجه الى الروم . فلما مات (أبو عامر) عاد فأسلم[2] . وعاد (علقمة) أيضاً . وهناك روايات أخرى، تذكر أنه ارتد في أيام (عمر) ، والتحق بالروم ، ثم عاد الى الإسلام[3] .

ولاشتهار أبي عامر بالراهب ، ولما ورد في بعض الأخبار من انه كان حنيفاً ، ذهب (ولهوزن) الى ان الأحناف هم من النصارى ، وان حركتهم حركة نصرانية ، وانهم كانوا القنطرة التي توصل بين النصرانية والاسلام[4] . غير ان ما لدينا من معارف عن الأحناف ، لا يكفي لابداء رأي كهذا الرأي ، وللتسليم بمثل هذا القول ينبغي لنا الوقوف على آرائهم وقوفاً دقيقاً ومقارنة ما لدينا بما نعرفه من النصرانية لنتمكن من التوصل الى رأي علمي في هذا الشأن .

وفي بيت منسوب إلى أمية إشارة إلى الحنيفية ، ذكر فيه ان كل دين زور عند الله إلا دين الحنيفية . وقد رأينا ان أهل الأخبار يدخلون أمية في جملة

---

١ تفسير الطبري (١١/١٧ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٣٢٠/٧) ، (٢٥٣/٨ وما بعدها) .
٢ الاصابة (٣٠٥/٣) ، (رقم ٧٥٣٢) .
٣ الاصابة (٤٩٦/٢) ، (٥٦٧٧) .
٤ Wellhausen, Reste, S. 239. f.

الحنفاء ، ويقولون : انه لبس المسوح تعبداً ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل وحرم الخمر[1] . ويلاحظ ان الأخباريين ينسبون الى عدد من هؤلاء الأحناف لبس المسوح ، مما يشير الى انهم كانوا قد تأثروا بالرهبان المتقشفين وبالزهاد النصارى الناسكين،فأخذوا عنهم هذه الطريقة التي أشير اليها في القرآن الكريم وفي الحديث ، والتي عدّت من البدع الممقوتة في الاسلام .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً ذكروا ان الأحناف قالوه ، هو من نوع كلام الكهان المرتب على طريقة السجع ، أوردوه بنصه على ما ذكروه . غير ان من الصعب تصور صدور ذلك الكلام المنمق من أناس عاشوا قبل الاسلام ، ومحافظة الناس عليه محافظة تامة إلى ما بعد الاسلام . ويظهر على كل حال من دراسة روايات أهل الأخبار عن الكهان والأحناف ان كلام رجال الدين قبل الاسلام كان على هذا النمط من السجع ، ومن جمل مكررة معادة عامة . وقد ظل السجع الطريقة المحببة في الكتابة الى ايامنا هذه عند بعض الكتّاب .

ويفهم من كلام الرواة ان بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل ، أي على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين ديانة ابراهيم[2] . والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر، فخلطوا في بعض الأحيان بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد .

ولدينا أمثلة أخرى على هذا الوهم . وسنرى من تراجم عدد من الاحناف ان منهم من يجب ادخاله في عداد النصارى ، لا الاحناف . وقد نص أهل الاخبار أنفسهم على تنصرهم ، غير انهم ادخلوهم مع ذلك في جملة الاحناف حين تكلموا عنهم . فكأنهم عنوا بالاحناف من كان على حياة الرهبنة والتقشف.

وقد أدخل (المسعودي) بعض الاحناف في جماعة اهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد ، ومن أهل التوحيد ، ممن يقر بالبعث . ثم قال : « وقد اختلف الناس فيهم،فن الناس من رأى انهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك»[3].

---

١ كل دين يوم القيامة عند اللـه الا دين الحنيفة زور
الاغاني (٤/١٢٢) « طبعة دار الكتب المصرية » .

٢ بلوغ الارب (٢/٢٧٠) .

٣ مروج (١/٧٨) ، (دار الاندلس) .

وقد ذكر من بينهم (حنظلة بن صفوان) ، و (خالد بن سنان العبسي) ، و (رئاب الشني) ، و (أسعد ابو كرب الحميري) ، و (قس بن ساعدة الإيادي) ، و (أميـــة بن أبـي السلط الثقفي) ، و (ورقة بن نوفل) ، و (عداس) مولى (عتيبـــة بن ربيعة الثقفي ، و (ابو قيس) (صرمة بن أبـي انس) الانصاري ، و (أبو عامر الاوسي) ، و (عبدالله بن جحش الاسدي) ، و (بحيرا الراهب)[1] . ومن هؤلاء من كان على النصرانية ، وقد نص (المسعودي) نفسه على ذلك .

والذين ذكر الرواة أسماءهم من الحنفاء هم أناس عاشوا في الجاهليـــة المتصلة بالاسلام ، ومنهم من أدرك الرسول ، ولا عبرة بالطبع لما زعمه الأخباريون من طول عمر أولئك الأشخاص وبلوغ بعضهم مئين عدة من السنين ، وادخالهم في المعمرين[2] ، فان من عادة الأخباريين إطالة عمر هؤلاء وأمثالهم من الرجال البارزين الظاهرين ، ليكون ذلك مناسباً لما يجيء في أخبارهم من الحـــكم المنسوبة اليهم ، وهي فكرة عامة نجدها عند غير العرب أيضاً، ولذلك نجد صور الحكماء والفلاسفة في الغالب على صورة شيوخ أصحاب لحى طويلة بيض ورأس جلله الشيب أو قضى على شعره الزمن والتفكير ، فصلّـيع ، لأن هذه من علامات الحكمة والتفكير .

وعندي ان الحنفاء جماعة سخرت من عبادة الأصنام ، وثارت عليها وعـــلى المُثل الأخلاقية الّتي كانت سائدة في ذلك الزمن ، ودعت إلى إصلاحات واسعة في الحياة وإلى محاربة الأمراض الاجتّماعية العديدة الّتي كانت متفشية في ذلك العهد، دعاها إلى ذلك ما رأته في قومها من إغراق في عبادة الاصنـــام ومن اسفاف في شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة ، فرفعت صوتّها كما يرفع المصلحون صوتّهم في كل زمن ينادون بالاصلاح ، وقد أثارت دعوتّهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الاوثان شأن كل دعوة إصلاحية . ويجوز ان يكون من بين هؤلاء من مال إلى النصرانية ، غير اننا لا نستطيـــع ان نقول انهم كانوا نصارى أو يهوداً ، انما أستطيـــع ان أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإلـّه رب السماء (ذو سموى) أو عبادة الرحمـــن في اليمن ،

---

١ مروج (١/٧٨ وما بعدها) .

٢ جعل السجستاني عمر قس بن ساعدة الايادي ، وهو من الحنفاء ، ثمانين وثـــلاث مئة سنة ، بلوغ الارب (٢/٢٤٦) .

متأثرين بمبادىء التوحيد التي حملتهـا اليهودية والنصرانيـة إلى اليمن . ولكنهم لم يكونوا أنفسهم يهوداً أو نصارى ، انما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد .

ولا يعني قولي هذا ان الحنفاء كانوا على رأي واحد ودين واحد كالذي يفهم مثلاً من قولنا يهودي ونصراني ويهود ونصارى ، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة كالذي ذهب (شبرنكر) اليه [1] . إنما كان أولئك الاحناف نفراً من قبائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة ، انما اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الاصنام وفي الـدعوة الى الاصلاح . وهذا المعنى واضح في آيات القرآن الكريم التي أشارت الى الحنفاء .

والرجـال الذين قال أهل الاخبار عنهم إنهم كانوا على دين ، وكانوا من الاحناف ، هم : قس بن ساعدة الإيادي ، وزيد بن عمرو بن نُفيل ، وأميّة ابن أبي الصلت : وارباب بن رئاب ، وسويد بن عامر المصطلقي ، وأسعـد ابو كرب الحميري ، ووكيع بن زهير الإيادي ، وعمير بن جنـدب الجُهني ، وعدي بن زيد العبادي ، وأبو قيس صرمة بن أبي انس،وسيف بن ذي يزن ، وورقة بن نوفل القرشي ، وعامر بن الظّرب العدواني ، وعبد الطابخة بن ثعلب ابن وبرة بن قضاعة ، وعلاف بن شهاب التميمي ، والملتمس بن أمية الكناني، وزهير بن أبـي سُلمى ، وخالد بن سنان العَبْسي ، وعبدالله القضاعي ، وعبيد ابن الابرص الاسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب[2] .

وبعض هؤلاء مثل : (قس بن ساعدة الإيادي) و (عثمان بن الحويرث) و (عدي بن زيد العبـادي) نصارى ، وبعض منهم مثل (أسعد ابو كرب الحميري) ، (ابو كرب اسعد الحميري)[3] و (عبيد بن الابرص) ، و(زهير ابن أبي سلمى) ، مشكوك في أمرهم ، لا نستطيع أن نذكر شيئاً عن دينهم. ولهذا فأنا اذكرهم هنا بحذر ، مجاراة لمن أدخلهم في اهل الدين مـن الجاهليين . ولا أعني انهم كانوا على الحنيفية ، اي على شريعة التوحيد التي ينص عليها أهل الاخبار .

---

١ Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4.

٢ بلوغ الارب (٢/٢٤٤ وما بعدها) ، مروج الذهب (١/٧٨) ، (دار الاندلس) .

٣ بلوغ الارب (٢/٢٤٤) ، مروج (١/٥٢ وما بعدها) .

وقد اقتصر (محمد بن حبيب) على ذكر بعض من تقدم ، حين تكلم عن (أسماء الذين رفضوا عبادة الاصنام) . فذكرهم على هذا النحو : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبيد الله بن جحش ابن رئاب الاسدي . وذكر ان منهم من تنصر ومات على النصرانية ، مثل : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش بن رئاب الاسدي[1] .

فأما قُس بن ساعدة الايادي ، فقد رفعه الاخباريون من مصاف أسوياء البشر ، ووضعوه في صف المعمرين الذين عاشوا مئين من السنين قيل سبع مئة سنة ، وقيل ست مئة سنة ، أو أقل من ذلك بكثير ، غير انه لا يقل عن ثلاث مئة سنة على كل حال[2] .

وأما مولده ، فمجهول . وأما وفاته ، فيكاد يحصل الاتفاق على انه كان قبيل البعثة . وقد ورد في رواية ان الرسول أدركه ورآه يخطب في سوق عكاظ خطبته الشهيرة المعروفة ، غير انه لم يحفظها ، وان أبا بكر ، وكان من جملة من حضر السوق وسمع الخطبة ، كان قد حفظها ، فأعادها على الرسول . وهي الخطبة الشهيرة المتداولة بين الناس والمحفوظة في الكتب . وهناك رواية تذكر ان الرسول كان يحفظها ، وقد تلاها على من حضر عنده ، وتلا بعضاً منها على وفد عبد القيس[3] .

---

١ المحبر (١٧١ وما بعدها) .

٢ وخيل : قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر ، وقيل : حذافة بن زهر بن نزار . وقيل : قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن ايدعان بن النمر الخ ... وقيل : هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك ، وهكذا . بلوغ الارب (٢٤٦/٢) ، البيان والتبيين (١/ ٥٠) « طبعة السندوبي » ، (١٩٢٦) ، شعراء النصرانية (٢/ ٢١١) ، « قس بن ساعدة الايادي بن عمرو بن عدي بن مالك بن أبدطان « ايدعان » بن النمر بن وائلة بن الطمنان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفصى » المحبر (ص ١٣٦) ، الاغاني (١٤/ ٤٠) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢/ ٢٣٠) الميداني ، مجمع الامثال (١/ ١١٧) .

٣ وفي نصها بعض الاختلاف ، راجع : الاصابة (٥/ ٢٨٥) ، « وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رجل منهم : هل تعرف قس بن ساعدة ؟ فقال رسول الله : ليس هو منكم . هذا رجل من اياد ، تحنف في الجاهلية ، فوافى عكاظ والناس مجتمعون ، فيكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه » ، طبقات ابن سعد : الجزء الاول : القسم الثاني (ص ٥٥) ، « وفد بكر بن وائل » ، محاضر الابرار (ص ٤٨ وما بعدها) ، البداية والنهاية (٢/ ٢٣٠) .

ومما يلفت النظر في الروايات الواردة عن حفظ الرسول لخطبة (قس) ، هو اشارتها الى أن النبي كان يحفظ نص الخطبة ، ولم يكن يحفظ الشعر الملحق بها . مع ان حفـــظ الشعر أيسر من حفظ النثر . ولعل الرواة رووا ذلك لإظهار أن الرسول كان لا يقول الشعر ، وانما كان يسمعه . ولكننا نجدهم من ناحية أخرى يروون أنه كان يتلو من الشعر المناسب ما شاء ان يتلو ، وانه كان يستشهد بـه في كلامه ، وأنه كان يحفظ شيئاً من شعر الماضين والحاضرين . ولن يضير النبوة من حفظ الشعر شيئاً .

والنص المحفوظ لخطبة (قس) نص مختلف لم يتفق الرواة عليه . ممـــا يدل على أنه لم يكن مدوناً ، وإنما روي بروايات مختلفة ، ثم دونت فيما بعد .

وأوصل بعض الاخباريين قساً الى القيصر ، فزعموا انه ذهب اليه واتصل به ، وان القيصر أكرمـــه وعظمه . وانه سأله عن العلم قائلاً له : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه . قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فـــا افضل الادب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء في اخلاف وعده . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحق[1] . وهو كلام ينبئك أسلوبه وطبيعته عـن أصله وفصله ، وله أصل يرجع الى الفلاسفة اليونان . ونسبوا له قبراً جعلوه في موضع (رَوْحين) على مقربة من حلب في لحف جبل ينذر له[2] .

ونجد حديث قيصر المزعوم مع (قس) ، في رواية أخرى على شكل آخر . وقد أهملت هذه الرواية اسم قيصر ، فلم تشر اليه ، واكتفت بلفظة (قيل) ، فقالت : « قيل لقس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة ؟ قال : معرفة الرجـــل بنفسه . قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ! قيل له : فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه »[3] .

وقُس هو مخترع أوجد للعرب أشياء عديدة على زعم أهل الاخبار ، أحدث لهم أموراً كثيرة . فهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ

---

١ شعراء النصرانية (٢/٢١١) ، الامالي ، للقالي (٣/٣٧) « دار الكتب » ، العقد الفريد (٢/٢٥٤ وما بعدها ، ٢٩٠ وما بعدها) .
٢ شعراء النصرانية (٢/٢١٦) ، الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) .
٣ العقد الفريد (٢/٢٩٠ وما بعدها) .

عند خطبته على سيف أو عصا وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال : « أما بعد » ، وأول من كتب « إلى فلان بن فلان »[1] . وأول من قال : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » ، فكل ما عرفه العرب من هذه الامور ، هو من صنعة قس وعمله . ثم انه كان أحد حكماء العرب ، وكان أسقف نجران ، وخطيب العرب كافة[2] . وذكـروا ان له ولقومه فضيلة ليست لاحد من العرب ، لان الرسول روى كلامه وموقفه عـلى جمله الاورق بعكاظ وموعظته ، وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه[3] ، وانه قال فيه: « يحشر أمة وحده »[4] .

وجاء في رواية في تفسير قول الرسول : « يحشر أمة وحده » ، أو «يرحم الله قساً ، إني لأرجو ان يبعث يوم القيامة أمة واحدة » ، ان وفـداً من إياد قدم على النبي : فسألهم عن قس ، فقالوا : هلك . فقال : رحمه الله ، كأني أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أورق (أحمر) وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أوجدني أحفظه . فقال رجل من القوم ، أنا أحفظـه يا رسول الله . سمعته يقول : ايها الناس اسمعوا وعوا ... إلى آخر الخطبة ، وما جاء بعدها من شعر ، فقال رسول الله عندئذ قوله المذكور فيه[5] .

ويختلف هذا الخبر بعض الاختلاف مع خبر آخر أشرت اليه قبل قليل ، فقد ورد في ذلك الخبر أن رسول الله كان يحفظ تلك الخطبة ، غير أنه لم يكن يحفظ الابيات الملحقة بها ، وكان (أبو بكر) يحفظها ، فأعادها على مسامعه[6] . كما يختلف عن رواية أخرى ، جاء فيها ان الوفد الذي قدم على الرسول كان وفـد (عبد القيس) ، وأن الذي قرأ الشعر عليه هو أحد بني عبد القيس[7] .

---

١ المؤتلف والمختلف ، للمرزباني (٣٣٨) ، بلـوغ الارب (٢/٢٤٦) ، الاغـاني (١٤/٤٠ وما بعدها) مروج الذهب (١/٨٣) ، (٢/١٠٢) ، (دار الاندلس) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .

٢ اللسان (٨/٥٨) ، شعراء النصرانية (٢/٢١١) .

٣ بلوغ الارب (٢/٢٤٦) .

٤ الاغاني (١٤/٤٠) .

٥ الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) ، المعارف (٦١) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٠ ومـا بعدهـا) .

٦ البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) ، مجمع الامثال ، للميداني (١/١١٧) .

٧ البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .

ويذكر بعض أهل الاخبار ، ان (الجارود) ، وكان في ضمن رجال وفد (عبد القيس) ، قال للرسول حين سأل عن (قس) : « فداك أبي وأمي كلنا نعرفه وإني من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره . كان قس يارسول الله سبطاً من أسباط العمر عمّر ستمائة سنة، تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار». ثم أخذ في وصفه وفي ذكر عقائده ، وفي لقياه لـ (سمعان) رأس الحواريين . وخلص بعد ذلك الى ذكر نص خطبته بسوق عكاظ، ومطلعها : « شرق وغرب» ، حتى انتهى منهـــا ، ثم ألحق بها شعراً[1] . وهي خطبة تختلف تماماً عن الخطبة المعروفة التي تنسب اليه ، وان كانت على نمطها من حيث الاسلوب والافكار ، وفيها مصطلحات اسلامية ترد في القرآن الكريم . ولا استبعد ان تكون من وضع شخص آخر غير الجارود . وضعها في العصور العباسية ، للحث على الزهد .

والجارود من سادات عبد القيس ، وكان نصرانياً ، قدم على النبي سنة عشر في وفد عبد القيس الاخير ، وسرّ الرسول بإسلامه ، وكان حسن الإسلام صلباً على دينه ، وقتل بأرض فارس في خلافة عمر ، وقيل بقي الى خلافة عثمان[2] .

ولو صح ما ذكروه من انه كان أسقفاً على نجران ، لوجب اخراجه اذن من الحنيفية وإدخاله في عداد النصارى . ولكن ليس مؤكداً انه كان اسقفاً على ذلك الموضع ، ويرى الاب (لامانس) احتمال كونه نصرانياً ، لان ما نسب اليه يبعث على هذا الظن[3] . وقد أدخـــل الاب (لويس شيخو) قساً في جملة النصارى الجاهليين،وأورد اكثر ما نسب اليه في ترجمته[4] . غير ان كثيراً من هذا المنسوب اليه منسوب إلى غيره . وقد اشار إلى من نسب اليهم العلماء .

وذهب (شبرنكر) إلى ان قساً كان من (الركوسية) ، وهم فرقة عرفهم اهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين ، شملت جماعة من الحائرين في امر دينهم، ولذلك عمدوا إلى السياحة والترهب والانزواء[5] . وقـــد حسبهم العرب نصارى ، فأدخلوهم فيهم في اثناء كلامهم على هؤلاء[6] .

---

١ البداية والنهاية (٢/ ٢٣٠ وما بعدها) .
٢ الاصابة (١/ ٢١٧ وما بعدها) ، (رقم ١٠٤٢) .
٣ Ency., II, p. 1161, Sprenger, Leben, I, S. 45.
٤ شعراء النصرانية (٢/ ٢١١ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٤/ ١٦٣) .
٦ Sprenger, Leben, I, S. 43.

ويرى (لامانس) انه لو كان قس شخصية تأريخية حقاً ، فإن زمانه لا يمكن ان يكون في ايام الرسول او في ايام مقاربة من ايامه . إذ لا يعقل عنده ان يتكون هذا القصص الذي صير قساً شخصية من الشخصيات الخرافية ، لو كان من المعاصرين او المقاربين له . ثم إن اياداً لم تكن في ايام الرسول كتلة واحدة، حتى ينسب قس اليها . فلا بد اذن ان تكون ايام هذا الرجل بعيدة بعض البعد عن ايام الرسول[1] .

غير ان حجج (لامانس) المذكورة لا يمكن ان تكون سنداً يؤيد ادعاءه في ان قساً كان شخصية خرافية ، او انه كان رجلاً حقاً ، ولكنه كان بعيد العهد عن الرسول . فقد روى الاخباريون قصصاً كثيراً عن سلمان الفارسي وعن غير سلمان من الصحابة ، لا يقل نسيجاً عن نسيج قصص قس ، فهل يتخذ هذا القصص حجة لانكار شخصية سلمان وغيره ممن ورد هذا القصص عنهم ؟ وهل يجوز ان نقول إن سلمان إن كان شخصاً حقاً فوجب ان تكون ايامه بعيدة عن ايام الرسول.

ولدى الرواة أبيات ينسبونها الى بعض الشعراء الجاهليين : هم : الاعشى ، والحطيأة ، ولبيد ، ذكر فيها اسم قُس . وقد أشيد فيها بفصاحته وببلاغته وحكمته ، حتى جعل لبيد لقمان دون قس في الحكم[2] .

وورد اسم (قس) في هذا الشعر وفي أمثاله إن صح انه من شعر الجاهليين حقاً ، وورود اسمه في الحديث وفي الاخبار ، هو تعبير عن رأي اهل الجاهلية في خطيب مفوه عدّ في نظرهم المثل الاعلى في الخطابة وممثل البلاغة عندهم فهو كشيوخ الخطباء عند اللاتين .

---

١ Ency., II, p. 1161.

٢ قال لبيد :

واخلف قسا ليتنى ولعلني   واعيا على لقمان حكم التدبر

الاصابة (٥/٢٨٥) « قس » ، قال الاعشى :

واحلم من قس وأجرى من الذي   بذى الغيل من خفان أصبح حاردا

وفي رواية أخرى :

وأحلم من قيس وأجرء مقدما   لذى الدرع من ليث اذا راح حاردا

ديون الاعشى (ص ٤٩) « تحقيق R. Geyer » • المؤتلف والمختلف (ص ٣٣٨) ، وقال الحطياة :

وأقول من قس وأمضى اذا مضى   من الرمح اذ مس النفوس نكالها

المؤتلف والمختلف (ص ٣٣٨) •

وجميع هذا القصص المروي عن قس ، هو من النوع الذي يحتاج الى تمحيص. وقد نسبوا اليه شعراً ، زعموا انه قاله وهو يبكي بين قبرين بنى بينهما مسجداً ، هما قبرا أخويه ، على حين ان أكثر الرواة يقولون إن هذا الشعر لغيره ، وان قصة القبرين لا تخص قساً،بل تخص أناساً آخرين ، وقد كانا في ايران وأصحابهما قبرا فيها في الاسلام . ورواة هذا الخبر ، هم رواة خطبة قس الشهيرة ، وهم محمد بن السائب الكلبي عن ابي صالح ابن عباس وجماعة آخرون أشار (ابن حجر) الى بعضهم في كتابه : « الإصابة في تمييز الصحابة » ، وقد ضعف ابن حجر هذه الطرق ، فقال : « وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس ، وفيه شعره وخطبته ، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها . وطرقه كلها ضعيفة»[1]. ثم عرج بعد ذلك الى ذكر بعض الطرق التي وردت فيها خطبة قس .

واما (زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبدالله بن قرط ابن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر) ، فهو من قريش من بني عدي ، لم تعجبه عبادة قومه ، فانتقدها وسخفها وهزىء منها ووقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الاوثان ، ونهى عن قتل الموؤودة ، وامتنع من الذبح للأنصاب ومن أكل الميتة والدم وما ذبح للأصنام . فكان في آرائه هذه مثل نفر آخر من قريش منهم : ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيدالله بن جحش ، لاموا قومهم على عبادتهم الاصنام ، واتخاذ الانصاب وعبادة ما لا يضر ولا ينفع[2] . وهم طائفة من المفكرين ، رأى بعضهم بلاد الشأم ، واتصل ببعض المبشرين النصارى ، ووقف على التطورات الفكرية في الخارج ، ولعله كان يقرأ ويكتب ، وله اطلاع على مؤلفات في الفلسفة والدين.

وترجع احدى الروايات سبب خروج (زيد) على عبادة قومه ، انه حضر يوماً وحضر معه في ذلك اليوم (ورقة بن نوفل) ، و (عبدالله بن جحش) و (عثمان بن الحويرث) ، عيداً من أعياد قريش ، عند صنم من أصنامهم ،

---

١ الاغاني (١٤/ ٤٠ وما بعدها) ، الاصابة (٥/ ٢٨٦) .
٢ ابن هشام (١/ ٢٤٤ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٦/ ١٩٠) ، أسد الغابة (٢/ ٢٣٦) ، طبقات الشعراء (ص ٦٦) « طبعة ليدن » ، البداية والنهاية (٢/ ٢٣٧) ، ابن خلدون ، القسم الاول ، المجلد الثاني (ص ٧٠٧) ، المسعودي ، مروج (١/ ٧٠) « محمد محيي الدين عبد الحميدي » الاغاني (٣/ ١١٣) ، البخاري (٥/ ٥٠) ، المعارف (٢٧) .

كانوا يعظمونه ، ويعكفون عنده ، او يديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، وكانوا ينحرون له ، فلما خلد بعضهم إلى بعض وتصادقوا ، قالوا ليكتم بعضكم على بعض ، واتفقوا على ذلك ، ثم قال قائلهم : تعلمون والله ما قولكم على شيء ، لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه . ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع فابتغوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء . فخرجوا يطلبون ويسيرون في الارض يلتمسون اهل الكتاب »[1] .

وقد زار زيد الشأم والبلقاء ، وعاش الى خمس سنين قبل البعث ، فهو من أولئك الرهط الثائرين على قومهم ، والذين أدركوا أيام الرسول . وقد نسبوا اليه شعراً في تسفيه عبادة قومه ، وفي فراقه دينهم وما لقيه منهم . وكان قد أوذي لمقالته هذه في دين قومه ، حتى اكره على ترك مكة والنزول بـ (حراء) ، وكان (الخطّاب بن نفيل) عمه ، وقد وكل به شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفائهم كلفهم ألاّ يسمحوا له بدخول البلدة ويمنعه من الإتصال بأهلها ، مخافة ان يفسد عليهم دينهم وان يتابعه احد منهم على فراق ما هم عليه . واضطر زيد الى المعيشة في هذا المحل ، معتزلاً قومه ، إلا فترات ، كان يهرب خلالها سراً ، ليذهب الى موطنه ومسكنه ، فكانوا اذا أحسوا بوجوده هناك ، آلموه وآذوه[2] .

وورد في رواية ، يرجع رواتها سندها الى (هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل) ، اي الى حفيد (زيد) ، تذكر أن (زيد) خرج مع (ورقة ابن نوفل) يلتمسان الدين ، حتى انتهيا الى راهب بالموصل ، فسأله عن الدين ، فلم يقتنع بالنصرانية ، اما (ورقة) ، فاقتنع بها وتنصر[3] . وتذكر رواية أخرى ان (زيد بن عمرو) خرج الى الشأم ومعه : (ورقة بن نوفل) ، و (عثمان ابن الحويرث) ، و (عبيد الله بن جحش)[4] . ويذكر الرواة أن زيداً كان

---

١ البداية (٢/٢٣٨) ، ابن هشام ، سيرة (١/٢٤٢) .

٢ ابن هشام (١/٢٤٠ وما بعدها) (البابي) ، بلوغ الارب (٢/٢٥١ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/١٦٢) « طبعة دار صادر » ، مروج الذهب (١/٧٠) « القاهرة ١٩٥٨ م » ، البدايه (٢/٢٣٨) .

٣ البداية (٢/٢٣٨) .

٤ البداية (٢/٢٤٣) .

نديماً لورقة بن نوفل ، فمات ورقة ، وخرج زيد الى الشأم ، فقتله لخم وجذام[1].

ويذكر أهل الاخبار ان حرصه على الحنيفية وتمسكه الشديد بها ، حمله على السفر إلى بلاد شاسعة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة ، مبادىء ابراهيم الاصيلة الخالية من كل درن وشائبة . فذهب إلى الموصل والجزيرة ، ثم طاف في بلاد الشأم حتى انتهى إلى راهب بـ (ميفعة)[2] (ببيعة)[3] من أرض البلقاء أو (أيلة) ، فسأله عما قدم من أجله ، فأرشده إلى ان ما يبتغيه ويراه لا يجده في النصرانية، فغادره وتركه ، وعاد يريد مكة موطنه . فلما توسط بلاد لخم أو جذام ، عدوا عليه وقتلوه . وقالوا أيضاً انه التقى في اثناء أسفاره هذه بأحبار اليهود وبعلماء من النصارى ، ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه ، وما يرى فيه التوحيد الخالص ، ومبادىء ابراهيم ، لذلك لم يدخل في ديانة ما من تلك الديانتين ، حتى قتل[4] .

وتذكر رواية من الروايات ، أن (زيد بن عمرو بن نفيل) مات بالسم في بلاد الشأم ، سمّه بعض ملوك غسان[5] . وتجعل رواية أخرى مقتله بمكان يقال له (ميفعة) من أرض البلقاء بالشأم ، وتذكر ان قتلته هم من بني لخم[6] . وتذكر رواية ان (ورقة بن نوفل) ، لما سمع بخبر وفاته بكاه في شعر له[7] .

وهنالك روايات أخرى تفيد رجوع زيد الى قومه بعد عودته من الشأم،ووفاته وفاة طبيعية لا قتلاً بيد إنسان . « توفي وقريش تبني الكعبة قبل ان ينزل الوحي على رسول الله بخمس سنين » ، ودفن بأصل حراء[8] .

---

١ المحبر (١٧٥) .
٢ ابن هشام (١/٢٤٩) .
٣ « ببيعة » ، البداية (٢/٢٣٨) .
٤ ابن هشام (١/٢٤٩ وما بعدها) ، طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٦ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٢٥١ وما بعدها) ، « فلما توسط أرض جذام عدوا عليه فقتلوه » المحبر (ص ١٧٢) ، سير أعلام النبلاء ، للذهبي (١/٩٠ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٧٠٧ وما بعدها) ، المسعودي ، مروج (١/٧٠) ، ارشاد الساري (٦/١٧٢ وما بعدها) .
٥ المسعودي ، مروج (٢/٥٦) .
٦ البداية (٢/٢٤١) .
٧ ابن هشام (١/٢٤٩ وما بعدها) .
٨ طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٧) ، البداية (٢/٢٤١) .

وفي رواية تظهر عليها سيماء الصنعة ، أن الذي أرشد (زيد بن عمرو) الى الحنيفية ، حبر التقى به في بلاد الشأم ، وعالم نصراني ، وذلك أنه كان قد سألها عن دين صحيح قويم ، فأرشداه الى الحنيفية دين ابراهيم . فدخل فيها وصار يرفع يديه الى الله ويقول : اللهم إني أشهدك اني على دين ابراهيم[1] . ونجد في هذه الرواية أسئلة وجهها (زيد) الى الحبر في البحث عن الله وعن دينه الحق، وأجوبة الحبر عليها . كما نجد أسئلة أخرى ذكر أنه وجهها الى العالم النصراني ، ونجد أجوبة ذلك العالم عليها . وكيف أنهما دلاه على الحنيفية[2] .

وذكر (ابن حبيب) ان زيداً (أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان)[3] . وقال عنه (ابن دريد) ، وكان قد « ترك دين العرب في الجاهلية وقلاه »[4] . وقصد بـ (دين العرب) الوثنية ولا شك . وزعم انه « كان يحيي الموؤودة . يقول للرجل اذا أراد ان يقتل ابنته مهلاً : لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها اليك ، وإن شئت كفيتك مؤونتها »[5] . وقيل انه كان يقول : « اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب اليك سجدت اليه . ولكني لا أعلمه . ثم يسجد على راحته »[6] . وانه كان « يقول : إلهي إلٰه ابراهيم ، وديني دين ابراهيم . وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى ! انكاراً لذلك واعظاماً له »[7] . أو « يا معشر قريش : أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى فيه ، وتذبحوها لغيره ! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين ابراهيم غيري »[8] . ويستقبل القبلة ثم يقول :

---

١ الطبري ، تفسير (٣/٣٠٦) ، صحيح البخاري (٥/٥٠) ، « مطبعة الازهر بمصر »،
٢ الاغاني (٣/١٢٦ وما بعدها) « دار الكتب المصرية » ، البداية (٢/٢٣٨) .
٣ المحبر (ص ١٧١) .
٤ الاشتقاق (ص ١٠٣) .
٥ طبقات ابن سعد ، الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٦ وما بعدها) .
٦ المحبر (ص ١٧١) .
٧ أسد الغابة (٢/٢٣٦) ، طبقات الشعراء (٦٦) « طبعة ليدن » ، بلوغ الارب (٢/٢٤٨) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٧) ، ارشاد الساري (٦/١٧١ وما بعدها)
٨ الاغاني (٣/١١٩ وما بعدها) .

أنفي لرب البيت عانٍ راغم   مهما يُجشّمني فإني جاشم
عذت بمـا عاذ به ابراهيم   مستقبل القبلة وهو قائم[1]

وروى ان أسماء بنت أبي بكر « قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري . ثم يقول : اللهم اني لو أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به . ولكني لا أعلم . ثم يسجد على راحته »[2] . ثم يصلي الى الكعبة ويقول : إلهي إلـه ابراهيم ، وديني دين ابراهيم[3] .

وذكر (ابن دريد) أن (زيد بن عمرو بن نفيل) ، أدرك أيام الرسول ، ثم قال : « وكان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الوحي قد حبب اليه الانفراد ، فكان يخلو في شعاب مكـة ، قال : فرأيت زيد بن عمرو بن نفيـل في بعض المشاعب ، وكان قـد تفرّد أيضاً ، فجلست اليه وقربت اليه طعاماً فيه لحم ، فقال لي يا ابن أخي اني لا آكل من هذه الذبائح »[4] .

وذكر (ابن دريد) ، أن زيد بن عمرو قال شعراً في تجنبه الأصنام، هو :

فلا عُزى أدين ولا ابنيتها   ولا صنمي بني عمرو أزور
أربّاً واحداً أم ألف ربّ   أدين اذا تقسمت الأمور[5]

ويفهم من هذا الشعر أن (عزى) ، إلهة ، أي انثى ، وان لها ابنتين اثنتين. ولم يشر (ابن دريد) الى اسميها .

وقد صيغت الرواية المتقدمة التي تشير الى التقاء الرسول بزيد في شكل آخر . صيغت بهذه الصورة : « أتى زيد بن عمرو بن نفيل على رسول الله صـلى الله

---

١ كتاب نسب قريش ، للزبيري (ص ٣٦٤) .
٢ البداية (٢/٢٣٧) ، الذهبي ، تأريخ الاسلام (١/٥٤) . البغدادي ، خزانـة (٣/٩٩) .
٣ المصدر نفسه .
٤ الاشتقاق (٨٤) ، ارشاد الساري (٦/١٧١ وما بعدها) .
٥ الاشتقاق (٨٤) ، وورد :

أرباً واحـدا أم ألـف رب   أدين اذا تقسمت الامـور
عزلت الـلات والعزى جميعـا   كذلك يعقل الجلد الصبور
فـلا عـزى اديـن ولا ابنتيهـا   ولا صنمي بني عمـرو أزور

عليه وسلّم ، ومعه زيد بن حارثة ، وهما يأكلان من سُفرة لهما ، فدعواه لطعامهما ، فقال زيد بن عمرو: يا ابن أخي : أنا لا آكل مما ذبح على النصب»[1].

وورد خبر التقاء (زيد) مع رسول الله في رواية أخرى . يرجع رواتهـا سندها الى (زيد بن حارثة) . يذكرون أنه قال : خرجت مع رسول الله في يوم حار من أيام مكة ، وهو مردفي ، فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل ، فحيـا كل منا صاحبه . فقال النبي : يا زيد مالي أرى قومك قد شنفوك ؟ فأجابـه زيد ، بأنه لا يهتم بذلك ، وأنه خرج يبتغي دين الله ، حتى قدم على أحبـار خيبر ، فوجدهم يعبدون الله ويشركون به . ثم سأل أحد الأحبار ، وهو شيخ منهم عن الدين الذي يبتغيه، فقال له : ما نعلم أحد يعبد الله به إلا شيخاً بالحيرة، فخرج اليه . فلما كلمه قال له : إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك قد بعث نبي، قد طلع نجمه . فعاد الى مكة[2] . ولو صح هذا الخبر اوجب أن يكون زيد قد أدرك مبعث الرسول . ولكن أهـل الأخبار مجمعون على أنه توفي قبل المبعث . وان الرسول نفسه قـال عنه : يبعث يوم القيامة أمة واحدة . وعلى الخبر سيماء الصنعة والتزويق .

وروي عنه ان قومه كانوا اذا دعوه الى وليمة ، كان يأبى ان يأكل منها قائلاً : « اني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه »[3] . وهكذا كان يقاطع أكل لحوم الحيوانات التي تذبـح للأصنام . ويشاركه في الامتناع عن أكل لحوم هذه الذبائح الأحناف الآخرون ، فقد روي ان ورقة بن نوفل كان لا يأكل من لحوم هذه الذبائح أيضاً للسبب المذكور[4] .

ويذكر أهل الأخبار ان (زيد بن عمرو بن نفيل) كان اذا خلص الى البيت استقبله ثم قال : لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً ، البر أرجو لا الخال ، وهـل مهجر لمن قال . ثم يقول :

عذت بما عاذ به ابراهيم   مستقبل الكعبة وهو قائم[5]

---

١ البداية (٢/٢٣٨ ، ٢٤٠) .
٢ أسد الغابة (٢/٢٣١) .
٣ البخاري (٥/٥٠) .
٤ الاغاني (٣/١١٩) .
٥ الاغاني (٣/١١٧) .

أو « لبيك حقاً ، تعبداً ورقاً ، عذت بما عاذ به ابراهيم »[1] .

وذكر انه كان يأمر بالتوحيد وبعبادة إلّه واحد . من ذلك قوله :

لا تعبدنّ إلهاً غير خالقكم وإن دعيتم فقولوا دونه حدد[2]

وزُعم انه كان يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة ، فصلى وسجد سجدتين ، ثم يقول : هذه قبلة ابراهيم واسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلّي له ولا آكل ما ذبح له ، ولا أستقسم بالأزلام ، وانما أصلّي لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبي ، فيقول : لبيك لا شريك لك، ولا ندّ لك . ثم يدفع من عرفة ماشياً ، وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقاً[3] .

ويروي أهل الأخبار أقوالاً أخرى لزيد ، كما رووا له أشعاراً زعموا أنه قالها ، وهي في هذه الأمور التي ينسبونها الى الأحناف من ذكر لديانة ابراهيم وللتوحيد ومن ذمّ الى الأصنام ومن اصلاح لحال مجتمع ذلك اليوم[4] . كما رووا له أبياتاً من شعر زعموا أنه نظمه يعاتب فيه زوجته (صفية بنت الحضرمي) ، لأنها كانت تمانع في خروجه عن مكة وفي سفره الى الخارج التماساً لهذا الدين[5] .

وتفيد رواية من روايات أهل الأخبار بأن (زيد بن عمرو بن نفيل) ، كان في جملة من اشترك في (حرب الفجار) ، تقول إنه كان على رأس (بني عدي) وذلك في يوم شمطة[6] .

وروي أن رسول الله سئل عن (زيد بن عمرو) ، فقال : « يبعث أمة وحده يوم القيامة »[7] . بل روي أنه ترحم عليه ، وأنه قال : « رأيته في الجنة يسحب ذيولاً »[8] .

---

١ الاغاني (٢/٢٣٨) .
٢ تاج العروس (٢/٣٣١) ، (حدد) .
٣ البداية (٢/٢٣٩) .
٤ الاغاني (٣/١١٧) .
٥ ابن هشام ، سيرة (١/٢٤٧) .
٦ البلاذري ، انساب (١/١٠٢) .
٧ البخاري (٥/٥٠) ، المعارف (٢٧) ، البغدادي ، خزانة (٣/١٠٠) .
٨ ابن سعد ، طبقات (٣/٢٧٣) .

وينسب أهل الأخبار لزيد شعراً،هومن هذا الشعر الذي ينسبونه الى الأحناف ، ذي الطابع الديني ، من بحث عن توحيد ، وحث على عبادة إلّه واحد ، واقرار بحساب وكتاب . وأمثال ذلك[1] . وقد نسب بعض منه الى (أمية بن أبي الصلت) ، ونسب بعض منه الى شعراء آخرين . كما ان الرواة يروون هذا الشعر بقراءات مختلفة .

ومن ولد زيد رجل كان له سبق وقدم في الاسلام ، هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . كان من السابقين الأولين ومن المهاجرين،شهد المشاهد والأحداث المهمة ، إلا بدراً ، فإنه لم يكن حاضراً بالمدينة إذ ذاك . وهو أحد العشرة المبشرة . ذكر انه أسلم قبل دخول رسول الله دار الأرقم . ولا بد ان يكون لرأي والده في دين قومه وما أبداه من ثورة صريحة جامحة على عقائدهم أثر في نشوء هذا الابن وفي اقدامه مع السابقين على الدخول في الاسلام ، بعد ان كان والده قد سبق إسلامه برحيله الى الآخرة بسنين . وأمه (فاطمة بنت بعجة بن أمية بن خويلد بن خالد بن اليعمر) من خزاعة . ولسعيد أخت اسمها عاتكة بنت زيد[2] .

وذكر (ابن هشام) ان زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، اتفقوا في الرأي والعقيدة ، وتعاهدوا على نبذ عبادة قومهم وما كانوا عليه من ضلال ، وتصادقوا ، وكوّنوا عصبة خرجت على عبادة قريش ، فلم يشتركوا معهم في أعيادهم،ولم يشاركوهم في عبادتهم ، وظلوا حتى ماتوا عن عبادة قومهم صابئين[3] .

أما عبيد الله بن جحش بن رئاب بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، فقد بقي مرتاباً في دين قومه ، بعيداً عنهم وعن عبادتهم ، حتى اذا ظهر الإسلام دخل فيه ، ثم هاجر مع من هاجر الى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت مسلمة كذلك . فلما صار في الحبشة ، فارق الإسلام

---

١ البداية (٢٤١/٢ وما بعدها) .
٢ كتاب نسب قريش (٣٦٥) ، الاستيعاب (٣٦٥/٤) ، الاصابة (٤٤/٢) ، (رقم ٣٢٦١) .
٣ ابن هشام (٢٤٢/١) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، المحبر (١٧١ ، ١٧٥ ، ٢٣٧) ، الروض الانف (١٤٥/١) .

وتنصر ، وهلك هناك [1] .

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم ، ثم رأى الذهاب الى الروم ، فذهب اليهم ، وتقرب الى قيصر ، وحسنت منزلته عنده ، وتنصر ومنحه لقب (بطريق) ، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة ، ولكن قومه أبوا عليه ذلك ، فلم يتمّ له مراده ، ومات بالشأم مسموماً ، سمّه عمرو بن جفنة الغساني [2].

وذكر (الزبيري) ، أن والدة (عثمان بن الحويرث) ، هي (تماضر بنت عمير بن أهيب بن حذافة بن جمح) [3] . وأنه خرج الى (قيصر فسأله أن يملّكه على قريش ، وقال : أحملهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك ، ففعل . وكتب له عهداً وختمه بالذهب ، فهابت قريش قيصر ، وهمّوا أن يدينوا له ، ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : إن قريشاً لقاح ، لا تملك ولا تملك . فاتسعت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ، فمات عند ابن جفنة ، فاتهمت بنو أسد ابن جفنة بقتله » [3] . وكان ابن جفنة حبس أبا ذئب عنده ، وأبا أحيحة بسبب عثمان بن الحويرث [4] . ويقصدون بابن جفنة : عمرو بن جفنة الغساني [5] .

وتذكر احدى الروايات ، ان وفاة (عثمان بن الحويرث) كانت بالشأم ، وقد مات عند قيصر ، وكانت وفاته قبل المبعث بثلاثين سنة ، أو نحوها . وقد رثاه (زيد بن عمرو بن نفيل) [6] ، وورقة بن نوفل [7] .

ويعد (عثمان بن الحويرث) من أشراف (بني أسد) من قريش [8] . وقد كان مع (خويلد بن أسد) على رأس (بني أسد) في (حرب الفجار) [9] .

---

١ ابن هشام (١/٢٤٣) ، المحبر ٧٦ ، ٨٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣) ، البداية (٢/٢٤٣) .
L. Krehl, Das Leben Muhammad, S. 14.

٢ ابن هشام (١/٢٤٣) ، الاشتقاق (ص ٥٩) ، المحبر (١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ٣٠٧) ، الروض الانف (١/١٤٦) .

٣ كتاب نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، وذكر صاحب « المحبر » أن أمه من الحبشيات (٣٠٧) .

٤ كتاب نسب قريش (٢١٠) .

٥ جمهرة ابن حزم (١٩٠) .

٦ البداية (٢/٢٤٣) .

٧ كتاب نسب قريش (٢١٠) .

٨ المحبر (١٦٥) .

٩ المحبر (١٧٠) .

وكان ينادمه (شيبة بن ربيعة بن عبد شمس) . وقد تنصرا جميعاً ، وقتل شيبة يوم بدر كافراً [1] .

وأما (أمية بن أبي الصلت) ، فهو أحسن الحنفاء حظاً في بقاء الذكر ، بقي كثيراً من شعره ، وربما وضع كثير منه على لسانه ، وحفظ قسط لا بأس به من أخباره . وسبب ذلك بقاؤه الى ما بعد البعث ، واتصاله بتأريخ النبوة والاسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروح الاسلام . لم يكن مسلماً ولم يرض أن يدخل في الإسلام ، لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه ، وأن ينزل الوحي عليه ، فيكون نبي العرب والعالم أجمعين . فلما رأى النبوة في الرسول، حسده ، وأثار المشركين عليه ، ورثى قتلاهم في معركة بدر ، وحرض قريشاً عليه ، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الثقفيون . لم يمت مسلماً ، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه : بل مات كافراً بالديانتين [2] .

وقد جاء في بعض الروايات ، ان وفاة (أمية) ، كانت في السنة الثانية من الهجرة [3] . وورد في روايات أخرى أنه توفي سنة تسع للهجرة ، كافراً قبل أن يسلم الثقفيون [4] .

ورثاؤه قتلى معركة بدر ، محفوظ في قصيدة حائية : مطلعها :

ألا بكيت على الكـرا م بني الكرام أولي الممادح
كبكا الحمام عـلى فرو ع الأيك في الغصن الصوادح

---

١ المحبر (١٧٥) .

٢ الاغاني (٤/ ١٢٠ وما بعدها) ، « طبعة دار الكتب المصرية » ، ابن هشام (١/ ١١، ٤٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٨) ، (٢/ ١٦٠ ، ٣٢١ ، ٤٠١ ، ٤٠٦) ، (٣/ ٦٥) « طبعة محمد محيي الـدين عبد الحميد » ، شرح السيرة النبوية ، لابي ذر بن محمد بن مسعود الخشني (١/ ٢٣ ، ٢٤) ، « تحقيق بولس بروفله » نسب قريش (٩٨) ، جمهرة الانساب (٢٥٧) ، ابن قتيبة ، الشعراء (٤٢٩) ، شعراء النصرانية (٢/ ٢١٩ وما بعدها) ، الاغاني (١٦/ ٦٩) ، الحيوان للجاحظ (٢/ ٣٢٠) ، خزانة الادب (١/ ١١٩) ، الشعر والشعراء (١٧٦) ، النووي ، تهذيب الاسماء (١/ ١٢٦) ، Ency. IV, p. 997.

٣ تاريخ الخميس (١/ ٤١٢) ، الاغاني (٤/ ١٢٤ ، ١٢٩) ، الشعر والشعراء (١/ ٣٦٩) .

٤ الاصابة (١/ ١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين ، ودفنهم بالقليب ،وفيهم (عتبة) و (شيبة) ابنا (ربيعة بن عبد شمس) ، وهما ابنا خالة أميـــة . وقد ذكر بعض الرواة ان الذي حمله على قول هذا الشعر ، هو انه لما وصل الى القليب موضع مدفن قتلى قريش في بدر ، وكان ذاهباً الى المدينة يريد الدخول في الاسلام ، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين : هل تدري ما في هذا القليب ؟ قال : لا . قيل : فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان . فجدع أنف ناقته ، وشق ثوبه ، وبكى ، وعاد الى الطائف[1] .

وذكر ان أمية نال في بيتين من هذه القصيـــدة من أصحاب رسول الله ، ولذلك أهملها (ابن هشام) صاحب السيرة[2] . وذكر أيضاً ان النبي نهى عن روايتها[3] . ولكن الرواة رووها وحفظوها ودوّنوها في الكتب ، فكيف تجرؤوا على حفظها وتدوينها لو صح ان النبي نهى عن روايتها على نحو ما يزعمه أهـل الأخبار .

وأميّة مثل سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء ، سافر الى الشام ، واتصل بأهلها ، وأوى الى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عما يهمه من مشكلات دينية وعما كان يجول في خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم . وكان تاجراً ، يذهب مع التجار في قوافلهم الى تلك الـديار التي كانت في أيدي الروم . ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات الـتي وردت في ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً ، قرأ الكتب ، ووقف عليها ، ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين ،وشكّه في عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات. وقد بدا هذا التأثر في الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملـة في شعره وفي الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين : للعهد القديم والعهد الجديد ومن موارد

---

١ ابن هشام (٢/٤٠١ وما بعدها) ، راجع القصيدة في (ص ٢٠) من ديوان أمية ، بيروت ١٩٣٤ ، بلوغ الارب (٢/٢٥٦) ، خزانة الادب (١/١١٩) ، الحيوان ، للجاحظ (٢/٣٢٠) ، الشعر والشعراء (١٧٦) ، البيان والتبيين (١/٢٩١) ، المسعودي ، مروج (١/٧٣) ، محمد محيي الدين عبد الحميد « ١٩٥٨ م » ، الاغاني (٣/١١٩ وما بعدها) ، خزانة الادب (٢/٣٩ وما بعدها) ، الاغاني (٤/١٢٢) ، الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .

٢ ابن هشام (٢/٤٠٥) .

٣ الاغاني (٤/١٢٣) « ذكر أمية بن أبي الصلت ونسبه وخبره » ، بروكلمان ، تأريخ الادب العربي (١/١١٣) .

أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب [1] .

وقد ورد في بعض الأخبار ان امية سافر مرة مع أبي سفيان والد معاوية في تجارة الى بلاد الشأم ، فكان كلما نزل منزلاً أخذ فيه سفراً له يقرأه على من معه ، كما كان يزور علماء النصارى ويتباحث معهم ، وكان يلبس ثوبين أسودين حينما يقابلهم [2] . ولم تذكر الرواية شيئاً عن السفر أو الأسفار التي كان يقرأ منها أمية ويشرحها لمن معه من التجار . وتذكر رواية أخرى انه كان قد بلغ مع (أبي سفيان) غزة أو (ايلياء) [3] .

ولأمية في هذا اليوم ديوان ضم أكثر ما نسب اليه من شعر . كما ان في بطون كتب الأدب والأخبار أشعاراً أخرى لم يرد لها ذكر في هذا الديوان . ومعظم شعره هو عن الدين والآخرة وعن الجنة والنار والحساب والكتاب ، وقد تضمن إشارات الى حوادث وقعت في ايامه ، أو في ايام قريبة من ايامه مثل قصة الفيل، كما تضمن بعض قصص الأنبياء ، ولتعرض شعره الى هذه النواحي نعت بشاعر الآخرة [4] .

ومما ذكره الأخباريون ورواة شعر أمية من أمثلة على استعماله للكلم الغريب ، انه استعمل (الساهور) للقمر ، وهي كلمة لا تعرفها العرب ، وانه ذكر (السلطيط) ، اسماً لله تعالى . وانه أطلق كلمة (التغرور) على الله تعالى في موضع آخر من شعره ، وانه سمّى السماء (صاقورة) و (حاقورة) وانه استعمل أشياء أخرى من هذا القبيل . ولولعه هذا باستعمال الغريب ، رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره [5] .

---

١ الاغاني (٤/١٢١ وما بعدها) « طبعة دار الكتب المصرية » ، « وكان يحكى في شعره قصص الانبياء ، ويأتي بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، يأخذها من الكتب المتقدمة ، أو بأحاديث من أحاديث أهل الكتاب » الشعر والشعراء (١/٣٦٩) .

٢ البداية والنهاية ، لابن كثير (٢/٢٢٠) ، الاغاني (٤/١٢٣ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) .

٣ البداية والنهاية (٢/٢٢٤) .

٤ تاريخ الادب العربي ، لبروكلمن (١/١١٣) « الترجمة العربية » ، عيون الاخبار ، لابن قتيبة (٦/٣٧٤) ، الحيوان (٧/٣٢١) « عبد السلام محمد هارون » ، البيان والتبيين (١/٢٩١) .

٥ الاغاني (٤/١٢١ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (٢/٢١٩) ، ديوان امية فحول الشعراء ، « جمع بشير يموت » « بيروت ١٩٣٤ م » (ص ٥ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (١/٤٨) .

والساهور ، كلمة آرامية الأصل من أصل (سهرو) Sahro ، بمعنى القمر ، أي تماماً بالمعنى الوارد في شعر أمية[1] .

وهذا الشعر المنسوب الى أميـــة وغريبه خاصة مادة مهمة جداً تجب دراستها بعناية ، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء في أخبار الرواة عن هذه الكلمات وعن أصولها ومواردها الأولى ، إن صح انها من أشعار تلك الأيام حقــاً ، إذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات الى معرفة المنابع التي استقى منها هذا الشاعر علمه وإلهامه ومدى تأثره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التي كانت في مكة وفي خارج جزيرة العرب قبيل الاسلام .

وقد روى الأخباريون قصصاً عن التقاء أمية بالرهبان ، وعن توسمهم معــالم النبوة فيه ، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج من أجوبتها في نظرهم معالم النبوة . فلما كانوا يقفون على الأجوبة ، يقولون له : كادت النبوة تكون فيه ، لولا بعض النقص في علاماتها عنده ، كما رووا قصصاً عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر ، لتنظيفه ، وتهيئة النبوة فيه . ولكنهما عندما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له[2]. وقد حاكى أهل الأخبار في قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول[3] . كذلك رووا أنه كان يتفرس في لغات الحيوانات ، فيعرف مـــا تقوله وما تريده ويقصه على الناس وانه كان يسخر الجنّ ، وكانت تطيعه، وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب[4] . فجعلوه بأخبارهم هذه في مرتبة تضاهي سليمان في علمه بمنطق الطير وبقية الحيوانات[5] . وذكر (ابن دريـد) : « كان بعض العلماء يقول له لولا النبي صلى الله عليه وسلم ، لادعت ثقيف أن أمية نبي ،لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم ، ودارس اليهود وكلّ الكتب قرأ »[6] .

وتشبه قصة تنظيف الطيرين لقلب أمية ، وهي القصة التي أشرت اليها قبــل

---

١ غرائب اللغة العربية (ص ١٨٩) .
٢ الاغاني (٤/١٢٣ وما بعدها) ، شعراء النصرانية ، الجزء الثاني (ص ٢١٩) .
ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء (٢٢٠ وما بعدها) « دار المعارف » .
٣ Sprenger, Leben, I, S. 119, M. cl. Huart, Le Livre de la Création et de L'histoire, I, pp. 55, 153, 155, 156, 190, 191, 195.
٤ البداية والنهاية (٢/٢٢٧ وما بعدها) .
٥ النمل ، الآية ١٥ وما بعدها .
٦ الاشتقاق (ص ١٨٤) .

قليل ، خبر (حليمة السعدية) مرضعة الرسول لصدر النبي . ورواة قصة شق صدر أمية وتنظيف قلبه هم من أهل الطائف ، ويرجعون سند قصتهم الى أخت أمية المسماة (الفارعة) ، « وكانت ذات لُبّ وعقل وجمال ، وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بها معجباً »[1] ، وقد وفدت عليه ، فلما سألها عن شعر أخيها كما يقول الرواة ، قصت عليه قصة الطيرين ، كما قصت عليه قصة وفاته، فقال رسول الله : « ان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها »[2] .

ويشير القصص الوارد عن التقاء (أمية) بالأحبار وبالرهبان وباتصاله بهم ، الى أن امية كان يرجو ان يكون نبياً ، وأنه كان يعتقد بقرب ظهور نبي وتأمله أن يكون هو ذلك النبي المرتجى :

ألا نبيّ منـا فيخـبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا [3]

وقد كسف وتألم كثيراً وأكل الحسد قلبه ، حين فلت الأمر منه ، اذ سمع بإعلان الرسول رسالته ، ودعوة الناس الى دين الله ، الذي كان أمية نفسه يدعو اليه . وقد ورد أنه لما سمع بنبوة الرسول قال : « إنما كنت أرجو ان اكونه»[4].

ويروي أهل الأخبار أن امية كان قد مات وهو معتقد بأن الحنيفية حق إذ رووا أنه قال في مرض موته ، « قد دنا أجلي ، وهذه المرضة فيها منيّتي وأنا أعلم ان الحنيفية حق ، ولكن الشك يداخلني في محمد . وقال : لا بريء فأعتذر ولا قوي فأنتصر » .

وفي جملة ما رووه عنه ، انه عرف مجيء يومه من نعيب غراب ، نعب على مقربة منه . فحدث القوم بما سمعه من الغراب ، وكان يعرف منطقه ، وقال لهم

---

١ البداية والنهاية (٢/٢٢٤ وما بعدها) .

٢ البداية والنهاية (٢/٢٢٤ وما بعدها) ، تهذيب ابن عساكر (٣/١٢٧) ، مروج (١/٥٧ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع (٧/٦٣ وما بعدها) ، الطبري ، تفسير (٩/١٢١) « طبعة البابي » ، تفسير ابن كثير (٢/٢٦٤) ، شرح الشهاب على البيضاوي (٤/٢٣٦) .

٣ البداية والنهاية (٢/٢٢٧) تهذيب ابن عساكر (٣/١٢٧) ، تأريخ الخميس ، (١/٤١٢) .

٤ الاغاني (٤/١٢٣ وما بعدها) .

انه سيموت وذكر علامة ذلك ، فكان ان مات على نحو ما قال للقوم[1] . وذكر أيضاً انه لما كان على فراش الموت محتضراً أفاق عدة مرات ، وكان يتلو في كل مرة : « لبيكما لبيكما ، ها أنذا لديكما » ، ثم يتلو هذا الكلام بكلام آخر فيه توسل وتضرع الى الإلـه ، الى ان أفاق للمرة الأخيرة ، فقال شعراً بيّن فيه ان الموت أمر لا بد منه ، وانه هالك في هذه المرة لا محالة ، ثم هلك ، دون ان يؤمن بالرسول[2] .

وهذا القصص الوارد عن أمية ، هو – بالطبع – من القصص المصنوع الموضوع ، مثل كثير من أخباره وأخبار غيره ، قص على ذوي القلوب الطيبة من الرواة والأخباريين ، فأخذوه ونقلوه كما نقلوا ما شاء الله من الاسرائيليات والأساطير ، وروي على انه مما كان يعلمه الأحبار والرهبان والخاصة من أهل الكتاب .

ولا أستبعد ان يكون هذا القصص قد ظهر في ايام الحجاج عصبية وتقرباً اليه ، فقد كان الحجاج من ثقيف ، وكان أمية من ثقيف كذلك . وقد أنتج الوضاعون في ايامه شيئاً كثيراً من الأخبار في قبيلة ثقيف ، كما أنتجوا شيئاً في ذمها وفي ذم رجالها نكاية به .

وقد يكون في قول (الحجّاج) حين سئل عن شعر أمية ، شيء من التوجع والتألم أو المبالغة في تقديره حين قال : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراسُ الكلام » . وقد يكون كلام الحجاج غير ذلك ، لو كان أمية من قبيلة أخرى .

ونحن نستطيع ادخال قول من قال عن (أمية) « قيل انه كان نبياً »[3] في جملة هذه الدعاوى التي وضعت في هذا العهد ، للرفع من شأن (ثقيف) ومن الرد على المتهجمين عليها الطاعنين حتى في نسبها الذين جعلوا (ثقيفاً) من بقية (ثمود) ، وأيدوا قولهم هـذا بحديث زعموا ان الرسول قاله : « ثقيف من

---

١ البداية والنهاية (٢/٢٢٧) .
٢ الاغاني (٤/١٢٥ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات فحول (ص ٢٢٠ وما بعدها) ، الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .
٣ تهذيب ابن عساكر (٣/١١٥) .

ثمود »[1] ، وجعلوه من عبد لأبي رغال ، وأبو رغال نفسه الذي نسب عبده اليه ، أي جد ثقيف ، هو في نظر العرب وقريش خاصة سبّة[2] .

ويذكرون عنه انه بعد ان صبأ عن قومه وتحنف ، لبس المسوح على زي المترهبين الزاهدين في هذه الدنيا ، ورافق الكتب ونظر فيها ، ليستلهم منها العلم والحكمة والرأي الصحيح ، ثم حرّم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين ، وتجنب الأصنام ، وصام ، والتمس الدين ، وذكر ابراهيم واسماعيل ، وانه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة : «باسمك اللهم» ، وهي الجملة التي نسخت في الاسلام بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم »[3] .

ويذكر أهل الأخبار ان امية أخذ جملة : « باسمك اللهم » من شيخ كان منطوياً على نفسه في برية نائية ، وذلك حينما ألح عليه قوم كانوا معه من قريش في عير لهم ، كانت قد نفرت ، بأن يجد طريقة لطرد حيّة كانت تظهر بين ابلهم فتنفرها ، فذهب الى ذلك الشيخ واستشاره في طريقة تبعد عنهم أذى تلك الحيّة ، فأشار عليه باستعمال تلك الجملة ، فهربت الحيّة ونفرت منهم ، وقد كان سبب ظهور تلك الحيّة كما يذكر أهل الأخبار ، هو أن رجلاً من القوم هو : (حرب بن أمية بن عبد شمس) كان قد قتل حيّة فقررت زميلتها الانتقام من قتلتها ، فقتلته الجن انتقاماً منه بثأر تلك الحيّة . وهربت الجن عند سماعها تلك الجملة . وإليه أشير كما يقول أهل الأخبار بقولهم :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فحرب هذا المذكور في هذا البيت ، هو حرب بن أمية ، وأما الشيخ فكان رجلاً من الجن[4] .

---

١ الاغاني (٣٠٧/٤) « دار الكتب » .
٢ الاغاني (٣٠٢/٤) « دار الكتب » .
٣ المسعودي ، مروج (٥٧/١ وما بعدها) ، ديوان ، أمية « المقدمة » لبشير يموت « بيروت ١٩٣٤ » ، ابن خلدون (١٧٧/١ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٦١ م) ، التنبيه والاشراف (٣٥٩) ، (مكتبة الخياط) .
٤ الحيوان للدميري (١٩٥/٢) ، الاغاني (١٢٢/٤ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) .

ويذكر أنه لم يكن يرتضي من الأديان غير دين الحنيفية ديناً . وأنه قال ذلك في شعر له :

كل دين يوم القيامة عند الله ، إلاّ دين الحنيفية ، زور[1]

وأنه كان يعظم الله في شعره ويكبره ويحمده ، ويرى أنه إلّه واحد لا شريك له ، وأن من يشرك به أحداً فقد ظلم نفسه :

الحمـــد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما[2]

وهناك من يروي أن (النابغة الجعدي) ، كان يدعي أن هذا البيت وما بعده هو من نظمه . قال ذلك أمام (الحسن بن علي بن أبي طالب)[3] .

ويروى ان النبي كان يسمع شعر أمية ، وان (الشريد بن سويد) (الشريد ابن عمرو) الثقفي ، كان ينشد له شيئاً منه ، في اثناء أحد أسفاره . فكان كلما أنشد له شيئاً منه ، طلب منه المزيد ، حتى اذا ما أنشده مئة بيت ، قال النبي له : كاد ليسلم ، أو كاد ليسلم في شعره . وذكر ان الرسول قال في حديث له عنه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه[4] . وانه لما سمع شعره في الدين والحنيفية ومطلعه :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا   بالخير صبحنا ربي ومسّانا

قال : « إن كاد أمية ليسلم »[5] .

---

١ الاغاني (٣/١١٢) ، البغدادي ، خزانة الادب (٢/٣٩) ، شيخو ، شعـــراء النصرانية ، الجزء الثـــاني (ص ٢١٩) ، ابن هشام ، السـيرة (١/٤٠) ، (٢/٩٨٢) ، الاغاني (٤/١٢٣) « دار الكتب » ، الاصابة (١/١٣٠) « مطبعة السعادة » .

٢ المسعودي ، مروج (١/٧٠) .

٣ طبقات ابن سلام (١٠٦ وما بعدها) ، الاغاني (٥/١٠) .

٤ صحيح مسلم « كتاب الشعر » ، (٧/٤٨) « طبعة محمد علي صبيح » ، طبقات ابن سعد : (٥/٣٧٦) ، « الشريد بن سويد » « الرشيد بن سويد » ، بلـوغ الارب (٢/٢٥٣ وما بعدها) ، المعارف ، لابن قتيبة (٢٨) ، المزهر (٢/٣٠٩) ، خزانة الادب (١/٢٢٧) ، ابن سعد (٥/٣٧٦) ، الشعر والشعراء (١/٣٦٩) ، الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .

٥ الاغاني (٤/١٣٢ وما بعدها) « دار الثقافة » ، شرح الشهاب على البيضـــاوي (٤/٢٣٦) ، تفسير ابن كثير (٢/٢٦٤) ، ديوان المعاني ، لابي هلال العسكري (١/٢٦) .

وروي عن (ابن عباس) ، ان الرسول لما سمع شعر (أمية) :

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد[1]

قال: صدق أمية .

وفي رواية أنه : « كان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن خرج الى البحرين، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام هناك ثماني سنين . ثم قدم ، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في جماعة من أصحابة ، فدعاه الى الاسلام ، وقرأ عليه سورة يس ، حتى اذا فرغ منها ، وثب أمية يجر رجليه ، فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد انه على الحق . قالوا : فهل نتبعه ؟ قال : حتى انظر في امره . فخرج الى الشام ، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بها ، ترك الاسلام . وقال : لو كان نبياً ما قتل ذوي قرابته فذهب الى الطائف ومات »[2] .

وفي هذه الرواية المنسوبة الى الزهري ، عن سماع أمية بن أبي الصلت بنبوة النبي وهو في البحرين ، ثم مجيئه الى مكة والتقائه بالرسول ومحاجته له في ظل الكعبة ، ثم انكسافه وتراجعه وذهابه الى الشام ، ثم عودته منها[3] ، تكلف ظاهر، وفي تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضاً .

وورد في رواية أخرى ، ان أمية بن أبي الصلت قدم المدينة فقال للنبي : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال الرسول : الحنيفية دين ابراهيم . قال : فأنا عليها. فقال عليه الصلاة والسلام لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . فقال: أمات الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً ، ثم خرج الى الشأم ، وأرسل الى المنافقين أن استعدوا للسلاح . ثم أتى قيصر ، وطلب منه جنداً ، ليخرج النبي

---

١ الاصابة (١/١٢٩) ، الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) . (القاهرة ١٩٣٩ م).

٢ روح المعاني (٩/١١٢ وما بعدها) ، تأريخ الخميس ، للدياربكري (١/٤١٢) ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي (٧/٦٣ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٥٧ م) .

٣ راجع البداية والنهاية (٢/٢٢٠) .

من المدينة ، فات بالشأم طريداً وحيداً . وهي قصة ينسب وقوعها الى (أبي عامر) الراهب ، كما سبق أن تحدثت عن ذلك[1] .

وتخالف هذه الرواية الروايات المألوفة الواردة الينا عن وفاة (أمية) بالطائف . وتزعم احدى الروايات ، ان أميـة كان قد أخذ ابنتيه وهرب بهما الى أقصى اليمن ، وذلك حين بعث النبي . ثم عاد الى الطائف ، فبينا هو يشرب مع اخوان له في قصر بالطائف ، إذ سقط غراب على شرفة في القصر فنعب، وأدرك أمية انه ميت ، لأنه عرف منطق الغراب ، وحدّث القوم بذلك في قصة مفصلة تجدها في الكتب ثم مات[2] . وقصة الشرب هذه تناقض ما يذكر عنه أهل الأخبار من انه كان لا يقترب من الخمر ، ومن انه كان قد حرمها على نفسه، شأنه في ذلك شأن بقية الأحناف . كذلك يناقض خبر تحريمه الخمر على نفسه،خبر آخر ، خلاصته انه كان يشرب يوماً مع عبدالله بن جدعان ، فأخـذ الشراب برأس (ابن جدعان) ، وأصاب عين أمية ، فلما كان اليوم الثاني وجلس أيضاً للشرب معه ، سأل (عبدالله) أمية عن سبب الألم البادي على عينه ، فلما أخبره بأنـه كان هو سببه ، ترك (ابن جدعان) الخمر استحياء مما فعله وقال شعـراً في سبب تركه الخمر . ويقول أهل الأخبار : « ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية ، إلا ترك الخمر استحياء مما فيه من الدنس »[3] .

وتؤيد قصة ذهاب (أمية) الى اليمن وسكنه أمـداً هناك قصة ينتهي سندها بـ (أبي سفيان) ، خلاصتها انه كان قد ذهب في ركب من قريش الى اليمن في تجارة ، فمرّ بأمية ، وقال له كالمستهزىء به : يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته ؟ فأجابه أمية : اما انه حق فاتبعه . وقال له قولاً يتنبأ فيه بمصير أبي سفيان وكيف سيؤتى به الى الرسول ، فيحكم فيه كما يريد[4] . ففـي هذه القصة توكيـد بخروج أميـة الى اليمن حين بعث الرسول وبمكوثـه زمانـاً هناك .

وذكر أنه الشخص الذي نزلت في حقه الآية : « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه

---

١ روح المعاني (١١١/٩) ، تفسير الطبرسي (٥٠٠/٣) ، (طبعة طهران) .
٢ الاغاني (١٣٠/٤ وما بعدها) ، الاصابة (١٢٩/١) .
٣ الاغاني (٣٣٢/٨) .
٤ البداية والنهاية (٢٢٤/٢) .

آياتنا ، فانسلخ منها »[1] . وهي آية قيل أيضاً إنها نزلت في (بلعام بن باعور) (بلعم بن ابر) ، (بلعام بن باعرا) ، أو في زوج البسوس ، أو في (النعمان ابن صيفي الراهب)[2] .

وأمية كأكثر الشعراء له شعر في المدح وله تعريض . وأكثر مدحه في (ابن جدعان) من أجواد العرب المعروفين المشهورين في الجاهلية[3] . وهو في المدح او في الرثاء او في كل مناسبة اخرى ، مستعمل لكلمات ذات صلة بالدين وبالأفكار الدينية ولمصطلحات لا ترد إلا نادراً في الأشعار المنسوبة الى الشعراء الجاهليين ، مما يدل على غلبة التفكير الديني عليه ، وتأثير ما قرأه او أخذه من غير العرب فيه. سئل الأصمعي عن شعر أمية ، فقال : « ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب،وذهب عمر بن أبـي ربيعة بعامة ذكر الشباب »[4].

ووالد (أمية) ، هو (عبدالله بن أبـي ربيعة بن عوف الثقفي) او (ربيعة ابن وهب بن علاج بن أبـي سلمة) الثقفي على رواية (الزبيري)[5] . أما امه فهي (رقيّة بنت عبد شمس بن عبد مناف) . وقد كان والده شاعراً . ذكر انه مدح (سيف بن ذي يزن)[6] .

ومن الرواة من ينسب القصيدة التي تنسب الى والد أمية ، والتي هي في مدح (سيف بن ذي يزن) ، الى امية نفسه . وفي هذه القصيدة إشارة الى ذهاب (سيف بن ذي يزن) الى هرقل ، فلما لم يجد منه أية مساعدة أو اهتمام ، عافه ، وذهب الى كسرى ، حيث وجد منه مساعدة ، فجاءت اليه بعد سنين

---

١ الاعراف ، الآية ١٧٥ ، الاغاني (١٢٥/٤ وما بعدها) « بيروت » ، تفسير الطبري (٨٢/٩ وما بعدها) .

٢ روح المعاني (١١١/٩) ، تفسير الطبرسي (٤٩٩/٣ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ١٣٨) ، ديوان أمية بن أبي الصلت : تحقيق « فريدرش شولتس » (Friedrich Schulthetz) ، المطبوع بمدينة « لايبزك » سنة ١٩١١ ، وكذلك ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٩٣٤ م . جمع بشير يموت ، التبريزي ، شرح ديوان الحماسة (١٤٥/٤) ، الاغاني (٣٢٧/٨) ، تهذيب ابن عساكر (١٢٣/٣) ، ابن هشام ، (١٤١/٣) .

٤ الاصابة (١٢٩/١) ، الاغاني (١٣٠/٤ وما بعدها) .

٥ نسب قريش (٩٨) .

٦ الاغاني (١٢٠/٤ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٣٦٩/١) ، (بيروت) ، تهذيب ابن عساكر (١١٥/٣) ، اليعقوبي (٢٢/١) ، الاغاني (١٢٠/٤ وما بعدها) ، الازرقي ، تاريخ مكة (٩٣/١) ، جمهرة الانساب (٢٥٧) .

من تعب ومواظبة [1] .

وينسب الى أمية شعر ، ذكر انه افتخر فيه بـ (نزار) وبـ (معـد) . وبقبيلة (إياد) ، حيث نعتهم بـ (قومي إياد)[2] .

ويتلخص ما جاء في شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء في الاعتقاد بوجود إلـه واحد ، خلق الكون وسوّاه وعدله ، وأرسى الجبال على الأرض، وأنبت النبات فيها ، وهو الذي يحيي ويميت،ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم ، وليجازيهم بما كسبت أيديهم ، فريق في الجنة وفريق في النار ، يساق المجرمون عراة الى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة وبالأغلال ، ثم يلقى بهم في النار يصلونها يوم الدين ، يبقون فيها معذبين بهـا ، ليسوا بميتين ، لأن في الموت راحة لهم ، بل قضى الله ان يمكثوا فيها خالدين أبداً[3] .

أما المتقون ، فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال ، لهم ما يشتهون ، فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفاح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم ، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، وحور لا يرين الشمس فيها ، نواعم في الأرائك قاصرات ، على سرر ترى متقابلات ، عليهم سندس وجيـاد ريْط وديباج ، حلّوا بأساور من لجين ومن ذهب وعسجد كريم ، لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولا غول ولا فيها مُليم ، وكأس لا تصدع شاربيها ، يلذّ بحسن رؤيتها النديم ، تحتهم نمارق من دمقس ، فلا أحد يرى فيهم سئيم .

وللوقوف على آراء (أمية) ، وعلى معتقداته الدينية يجب الرجوع بالطبع الى أشعاره وما نسب اليه من كلام . ففي هذا التراث الذي تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية ، تتمثل آراء ذلك الشاعر الجاهلي الذي أدرك أوائل المبعث ، وهي آراء قريبة جداً من الاسلام ، وبعضها يكاد يكون قولاً اسلاميـاً في لفظه وفي معناه مسبوكاً في شعر . وفي هذا الشعر قصص الرسل والأنبيـاء : آدم ونوح وقصة

١ كتاب التيجان ، لوهب ، (٣٠٧) ، الشعراء والشعراء ، لابن قتيبه (١/٣٦٩) ، بروكلمان (١/١١٤) ، Schultheso Orient. Studien, I, 73.

٢ الاغاني (٤/١٢٠) ، (٨/٣٢٧ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (٢/٢٣٤) .

٣ وسيق المجرمون وهم عراة الى ذات المقامع والنكال

ديوان أمية (٤٩) .

جهنم تلك لا تبقى بغيا وعدن لا يطالعها رجيم

ديوان أمية (٥٣) ، (بنسير يموت) .

طوفانه ، والغراب والحمامة[1] ، وقصة ذي القرنين وبلقيس وحكاية الهدهد[2] ، وقصة ابراهيم وتقديم ابنه للذبح،وداوود ، وفرعون ، وموسى ، وابن عاد[3] . وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به ، فوصف ذلك بانياً وصفه على نحو ما جاء في القرآن الكريم عن تكوّن عيسى ، مضيفاً الى ذلك زيادات في حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها[4] . كما أورد في الشعر قصة (لوط أخي سدوم)[5] . وهي من القصص المذكور في التوراة ، وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل[6] .

وفي أكثر ما نسب الى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ، تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلاً لما ورد عنها في القرآن الكريم . بل نجد في شعر أمية استخداماً لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوي ، فكيف وقع ذلك ؟ وكيف حدث هذا التشابه؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق او ان امية اخذ مادته من القرآن الكريم ، او كان العكس ، اي ان القرآن الكريم هو الذي أخذ من شعر امية فظهرت الأفكار والألفاظ التي استعملها امية في آيات الله وسوره ؟ فكتاب الله اذن هو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المتأله ، او ان هذا التشابه مردّه شيء آخر هو تشابه الدعوتين واتفاقهما في العقيدة والرأي ، او اعتماد الاثنين على مورد أقدم ، هما الكتابان المقدسان : التوراة والانجيل ، وما لهما من شروح وتفاسير ، او كتب او موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقي أثرها في القرآن الكريم وفي شعر أمية بن ابي الصلت ، او ان كل شيء من هذا الذي نذكره ونفترضه

---

١ جزى الله الاجل المرء نوحا جزاء البر ليس له كذاب
ديوان أمية (١٨ وما بعدها ، ٥٨) ، (بشير يموت) الحيوان ، للجاحظ (٢/ ١١٧) ، البدء والتاريخ (١/ ٢٤) .

٢ قد كان ذو القرنين قبلي مسلما ملكا علا في الارض غير معبد
من قبله بلقيس كانت عمتي حتى تقضى ملكها بالهدهد
ديوان أمية (ص ٢٦) ، (بشير يموت) .

٣ حي داوود وابن عاد وموسى وفريع بنيانه بالثقال
انني زارد الحديد على النا س دروعا سوابغ الاذيال
ديوان أمية (٥٠ وما بعدها) ، (بشير يموت) .

٤ وفي دينكم من رب مريم آية منبئة بالعبد عيسى بن مريم
ديوان أمية (٥٨) ، (بشير يموت) .

٥ ثم لوط أخو سدوم أتاها اذ أتاها برشدها وهداها
ديوان أمية (٦٩) ، (بشير يموت) .

٦ راجع التوراة ، ومادة (Lot) في معجمات التوراة .

افتراضاً لم يقع ، وان ما وقع ونشاهده ، سببه ان هذا الشعر وضع على لسان امية في الاسلام ، وان واضعيه حاكوا في ذلك ما جاء في القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه .

أما الاحتمال الأول ، وهو فرض أخذ امية من القرآن ، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه ، وجب حصر هذا الجواز في مدة معينة ، وفي فترة محدودة تبتدىء بمبعث الرسول ، وتنتهي في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي سنة وفاة أمية بن أبي الصلت . اما ما قبل المبعث ، فلا يمكن بالطبع ان يكون امية قد اقتبس من القرآن ، لأنه لم يكن منزلاً يومئذ ، وأما ما بعد السنة التاسعة ، فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضاً ، لأنه لم يكن حياً ، فلم يشهد بقية الوحي. ولن يكون هذا الفرض مقبولاً معقولاً في هذه الحالة،إلا اذا أثبتنا بصورة جازمة ان شعر امية الموافق لمبادىء الاسلام ولما جاء في القرآن قد نظم في هذه المدة المذكورة ، اي بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة ، وأن امية كان يتتبع نزول الوحي ، ويجمعه،وانه كان يملك نسخة مما نزل على الرسول ، رجع اليها واقتبس منها ، وإلا سقط العرض . فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر، أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر أميّة وما جاء في معناه وفي موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحي على الرسول وبين السنة التاسعة ، أما الآيات التي نزلت بعد هذه السنة ، فلا تكون شاهداً على أخذ أميّة منها : لأنه كان قد توفي في السنة التاسعة ، فلا يقع هذا الافتراض .

ولكن من في استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه ، وتعيين أوقات نظمه؟ إن في استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذي قاله في مدح عبدالله بن جُدعان او معركة بدر . ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه ، وهي غالبية لم يتطرق الرواة الى ذكر المناسبات التي قيلت فيها . ثم إن بعض هذا الكثير مدسوس عليه ، مروي لغيره ، وبعضه إسلامي ، فيه مصطلحات لم تعرف إلاّ في الإسلام ، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة في شعره هذا بهذه الطريقة. ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر ان امية كان ينتحل معاني القرآن الكريم، وينسبها الى نفسه . ولو كان قد فعل ، لما سكت المسلمون عن ذلك ، ولكان الرسول أول الفاضحين له .

بقي لدينا افتراض آخر . هو أخذ القرآن الكريم من أميــة . وهو افتراض ليس من الممكن تصوره ، فعلى قائله اثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهداً من القرآن الكريم ، وتلك قضية لا يمكن اثباتها أبداً . ثم إن قريشاً ومن لف لفها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه ، لما سكتوا عنه ، ولقالوا له انك تأخذ من أمية ، كما قالوا له : انك تتعلم من غلام نصراني كان مقيماً بمكة ، واليه اشير في القرآن الكريم بقوله : « ولقد نعلم انهم يقولون : انما يعلمه بشر ، لسانُ الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »[1]. ولقد أشار المفسرون الى اسم الغلام ، كما سأتحدث عن ذلك في الفصل الخاص بالنصرانية عند العرب قبل الاسلام ، ولم يشيروا الى أمية بن أبي الصلت[2] . ثم إن أمية نفسه لو كان يعلم ذلك او يظن ان محمداً انما اخذ منه ، لما سكت عنه وهو خصم له ، منافس عنيد ، أراد ان تكون النبوة له ، وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحي عليه ، ثم يتبعه الناس فيؤمنون بدعوته . أما هو فلا يتبعه أحد. هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد اي ظن وإن كان بعيداً يفيد ان الرسول قد اخذ فكرة منه ، او من المورد الذي اخذ أميــة نفسه منه ؟ لو كان شَعَر بذلك ، لنادى به حتماً ، ولأعلن للناس انه هو ومحمد أخذا من منبع واحد ، وان محمداً أخذ منه ، فليس له من الدعوة شيء ، ولكانت قريش وثقيف اول القائلين بهذا القول والمنادين به .

نعم ، لقد ورد في الحديث ، كما قلت قبل قليل ، ان الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية ، وانه كان كلما أنشده شيئاً منه طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مئة بيت ، قال له الرسول : آمن شعره وكفــر قلبه ، او آمن لسانه وكفر قلبه ، ولكننا هنا بحاجة الى تثبيت تأريخ هذا الإنشاد ، وإثبات صحة الرواية وتدقيق رجال السند ، لاثبات ان ما أنشد لم يكن قد نزل في مثله الوحي .

وممن ذهب الى افتراض أخذ الرسول من أمية من المستشرقين (كليمان هوار) و (بور) Power . زعم (بور) انه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن

---

١ النحل ، الآية ١٠٣ .
٢ سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٠) .

الكريم ، فإن ذلك يدل على ان الرسول أخذ من (أمية) ، لأن أمية أقدم من الرسول[1] . وهذا الافتراض مقبول كما لو أثبتنا ان هذا النظم شعر أصيل صحيح، وانه نظم قبل نزول مشابهه في القرآن الكريم ، وانه لم يضف اليه في الاسلام . فإن أثبتنا انه له ، جاز لها مثل هذا الادعاء .

وأما الرأي الثالث – وأعني به رأي من يرجع التشابه بين شعر امية وما ورد من مثل معانيه في القرآن الكريم الى أخذ الاثنين من التوراة والانجيل وتفاسيرهما، والى بعض (الصحف) و (المجلات) التي أشير الى وجودها عند العرب – فهو رأي قديم ، وليس بجديد . رأي قيـل عن الوحي كله ، لا عن القرآن وشعر امية او غير امية ، قبل ان يخلق المستشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة ، فقد زُعم « ان النبي يتعلم من غلام نصراني اسمه جبر !! » . وقد أشير الى هـذا الزعم في كتاب الله ، وجاء الرد عليه في قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون ، إنما يعلمـه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » . فلم يُخفِ القرآن الكريم ذلك الطعن والمغمز ، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يعلمه ، فذكروا جبراً هذا ، وكان غلاماً مقيماً بمكة ، وقال بعضهم بل هو رجل رومي اسمه غير ذلك .

ولو كان الرسول وأمية قد أخذا من منهل واحد ، واستقيا من مورد واحد، لما سكتت قريش عن القول به ، ولما سكت أمية نفسه وهو الغاضب الحاقد على الرسول عن الجهر به . وكيف يعقل سكوته عن هذا ، وهو أمر مهم جـداً بالنسبة اليه . وسيف يحارب به الإسلام؟ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المتنبئين من الإشارة اليه في أثناء حروب الردّة ، وقد كانت فرصة سانحـة لإظهار هذه المقالة . ولما سكت (يوحنا الدمشقي) وأمثاله من التلميح الى ذلك، وقد لمح بأمور كثيرة في طعنه على الإسلام .

ثم إنّ هذ التشابه ، على ما يتبين من نقده وتمحيصه ، ليس من نوع مـا يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين ، إنما هو من قبيل مـا يحدث من اعتماد أحـد الشخصين على الآخر ، بدليل ورود أمور في القرآن الكريم ،

---

١ ديوان امية (ص ٧) ، « المقدمة الالمانية » « تحقيق فردرش شولثيس » ، بروكلمن (١١٣/١) ، Cl. Huart, JA. X, Vol., IV, 1904, p. 125.

لم ترد في التوراة ولا في الانجيل ، ولكنها وردت في شعر امية ، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات في شعر أمية على شكل إسلامي ، لا على النحو الوارد عند أهل الكتاب . واستعمال هذا الشعر لجمل وألفاظ وتراكيب اسلامية واردة في القرآن الكريم وفي الحديث لا في الكتب السماوية المذكورة . فلو كان مردّ هذا التشابه الأخذ من مورد واحد ، لوجب انحصار هذا التشابه في الأمور المشتركة التي ترد في الكتب المقدسة : التوراة والانجيل والقرآن ، وفي شعر أمية حسب ، لا في المسائل التي ترد في شعر أمية وفي القرآن الكريم ، ولا ترد في الكتابين المقدسين أو في الكتب الأخرى .

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة صلة احدهما بالآخر،وأخذ احدهما من الآخر ، تستوجب التأكد من صحة نسبة هذا الشعر الى أمية . ففي هذا الشعر مقدار لا يمكن ان يشك في وضعه وصنعه ، ومقدار نص العلماء نصاً على انه لغيره ، وهم انما ذكروه في شعر أمية ، لأن بعض اهل الأخبار نسبه اليه . ولذلك استدركوا هذا الخبر ، بالاشارة الى اسم قائله الصحيح . فلم يبق من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه ، وهو القليل الذي له صلة بعقيدة ودين . وهذا القليل هو ، في الغالب ايضاً ، تبع لما ورد في القرآن وحده ، لا لما ورد في الكتابين المقدسين . ولما كان القرآن محفوظاً ثابتاً ، فلم يرتق اليه الشك . اما شعر أمية ، فليس كذلك ، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخ النظم . فهذه المقابلة إن جازت ، فانها تكون حجة على القائلين بالرأي المذكور ، لا لهم . وقد كان عليهم ان يثبتوا أولاً اثباتاً قاطعاً صحة رأيهم في أصالة هذا الشعر ، لا ان يفترضوا مقدماً انه شعر أصيل صحيح ، وان يذهبوا رأساً الى انه هو والقرآن الكريم من وقت واحد ، بل انه على حد قول بعضهم أقدم منه ، فكتاب الله منتزع منه .

وممن قال باحتمال أخذ القرآن وأمية من مورد مشترك واحد،(فردرش شولثيس) Friedrich Schulthetz ناشر ديوان أمية. وقد زعم أيضاً احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التي كانت مُنزلة يومئذ ، ونظمها في شعره . استند في زعمه القائل باقتباس الرسول من مورد مشترك الى ورود بعض كلمات في القرآن الكريم وفي الحديث وفي كتب السير ، يفهم منها على زعمه ان الرسول كان قارئاً كاتباً ، ولكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة ، بل ذهب الى انها

(مجلة) و (صحيفة) ، تتضمن أحاديث وتفاسير وقصصاً دينياً قديماً [1] . أما دليله ، فافتراض واحتمال ، وليس له غير هذين . ولا يقوم علم إلا على دليل ملموس .

أما أنا ، فأرى ان مردّ هذا التشابه والاتفاق الى الصنعة والافتعال . لقد كان أمية شاعراً ، ما في ذلك شك ، لاجماع الرواة على القول به . وقد كان ثائراً على قومه ، ناقماً عليهم ، لتعبدهم للأوثان . وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكني لا أظن أنه كان واقفاً على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث من العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . إن هذا الذي أذكره شيء إسلامي خالص،لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ، ولا عند الأحناف. فوروده في شعر أمية وبالكلمات والتعابير الاسلامية ، هو عمل جماعة فعلته في عهد الإسلام : وضعته على لسانه ، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء ، لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الاسلام ، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه،وأنه لم يكن لذلك غريباً ، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب، يعلمون بقرب ظهور نبيّ عربي ، وأنهم لذلك بشروا به ، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا في أيامه ، أو لو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا،وأمثال ذلك من قصص راج وانتشر ، كما راج أمثاله في كل دين من الأديان .

ولا بد وأن يكون هذا الوضع قد صنع في القرن الأول للإسلام ، لأن أهل الأخبار القدامى يذكرون بعض هذا الشعر [2] . وقد يكون قد وضع أكثره في عهد الحجاج تقرباً اليه ، لأنه من ثقيف ، وفي ذلك العهد وضع الوضّاع أخباراً كثيرة في الغض من شأن قوم الحجاج ، نكاية به فتقدم قوم آخرون اليه بالرفع من شأنها وبإضافة ذلك الشعر الى أمية وغيره ، ليكون رداً على كارهي ومبغضي الحجاج .

وتتبين آية الوضع في شعر أمية في عدم اتساقه وفي اختلاف أسلوبه وروحه .

---

١ Ency., IV, p. 998, Tar Andrae, Die Entstehung des Islams und das Christentums, upsale, 1926, S. 48.

٢ بروكلمان (١/١١٣) .

فبينما نجد شعره المنسوب اليه في المدح أو في الرثاء أو في الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين ، في ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب الى شعراء الجاهلية ، نجد القسم الديني منه والحكمي في أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب ، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين ، أسلوب يجعله قريباً من شعر الفقهاء والصوفيين المتزمتين ، ونسّاك النصارى ، فهو بعيد جداً من أسلوب الجاهليين ، حتى أسلوب مثل (عدي بن زيد) العبادي والأعشى وبقية من نسب الى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الاسلام[1] . يضاف الى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر إلى غيره من الشعراء .

وقد يقال إن أسلوب (أمية) في نظم الشعر الديني والحكمي ، هو أسلوب صحيح لا يمكن إلا ان يكون على هذا الحال ، هو أسلوب بعيد عن أسلوب الجاهليين في النظم ، لأن الشعر الجاهلي المعروف نظم في أغراض أخرى لا صلة لها بالحكم وبالدين ، وما جاء منه إلينا في الحكم وفي الدين هو على أسلوب آخر أيضاً ، بدليل ان بعض الشعراء منهم حين نظموا في الحكم ، رق شعرهم وبان عن نظمهم المألوف . وبدليل ان نظم (حسان بن ثابت) في الاسلام ، هو دون نظمه في الجاهلية من حيث الجزالة والفخامة في النظم ، وان شعر (لبيد) في الاسلام ، هو دون ما نظمه في الجاهلية ، بسبب تغير الظروف واختلاف الموضوع . وهو اعتذار صحيح ، ولكن أسلوب أمية في تعبيره عن الجنة والنار والبعث والحساب ، أسلوب آخر ، لا يفصح عن عقلية دينية جاهلية ، وانما عن عقلية إسلامية . ومن هنا جاء شكنا في صحة هذا الشعر وفي أصالته ، وليس من أسلوب النظم .

ولكن من الذي وضع هذا الشعر ، ثم أنكره على نفسه وأسنده إلى أمية ؟ ومن الذي رصع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ، ولكنها أبيات إسلامية ؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر في ديوان نسبه اليه ؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ، ولكن أجوبتها كتاب يؤلف في حياة هذا الشاعر وفي شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك مجال للتنقيب عن هذه الأمور ، رُوي ان الحجّاج قال ، وهو على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية »[2] . فهل ذهب العالمون

---

١ Ency., IV, p. 998.

٢ الاغاني (٤/١٢٣) .

به حقاً قبل ايام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضخماً واسعـاً ؟ أو هو قول من أقوال الحجاج ، وهو ثقفي من قوم أمية ، أو هو قول وزعم من زعم الرواة . وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً . فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمن ربّ العبا   د أنت المليك وأنت الحكمْ

هي قصيدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعرٍ لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه . خذ هذا البيت منها مثلاً :

محمـــداً أرسله بالهـــدى   فعـــاش غنيـــاً ولم يُهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطـــاء من الله أعطيتـــه   وخصّ به الله أهلَ الحرم
وقـد علموا انـــه خيرهم   وفي بيتهم ذي الندى والكرم
يَعيبون ما قال لما دعـــا   وقد فرج الله احدى البُهَمْ
به وهو يدعو بصدق الحديـ   ـث الى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عبـــادَ الإلـ   ـه تنجون من شرّ يومٍ ألم
تنجون من ظلـــمات العذاب   ومن حر نارٍ على من ظلم
دعانـــا النبيّ به خـــاتم   فمن لم يُجبْهُ أسر النـــدم
نبي هدىً صـــادق طيب   رحيم رؤوف بوصل الرحم
بـه ختم الله من قبلـــه   ومن بعـــده من نبي ختم
يموت كما مات من قد مضى   يردّ الى الله بـــاري النسم
مع الأنبياء في جنان الخلود   هُمُ أهلها غير حلّ القسم
وقدس فينـــا بحب الصلاة   جميعاً وعلّم خط القـــلم
كتابـــاً من اللهِ نقرأ بـــه   فمن يعتريه فقدمـــاً أثم

اقرأ هذه المنظومة ، ثم احكم على صاحبها ، هل تستطيع ان تقول انـه كان

شاعراً مغاضباً للرسول ، وإنه مات كافراً ، وان صاحبها رثى كفار قريش في معركة بدر وأنه قال ما قال في الإسلام وفي الرسول ؟ اللهم ، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الايمان ، هو واعظ مبشر ، يخاطب قومه فيدعوهم الى الاسلام والى طاعة الله والرسول . إنه مؤمن قلباً ولساناً ، مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وإنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول ، ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، مع أن أمية ، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها إذن دليلاً على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه في شعر أمية . نحمد الله على أن صنّاعها لم يتقنوا صنعتها ، ففضحوا أنفسهم بها ، ودلّوا على مقاتل النظم .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية ، وهي في وصف الجنة والنار استهلت بهذا البيت :

جهنم تلك لا تبقي بغياً ... وعدنٌ لا يطالعها رجيمُ

ثم استمر في قراءتها ، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنــار ، ثم انعم النظر في هذه الأبيات :

فذا عسل وذا لبن وخمرٌ ... وقمح في منابته صريمُ
ونخل ساقط الأكتاف عد ... خلالَ أصوله رطب قيمُ
وتفاح ورمــان وموز ... وماء بارد عذب سليم
وفيها لحم ساهرة وبحر ... وما فاهوا به لهُمُ مقيم
وحورٌ لا يرين الشمس فيها ... على صور الدمى فيها سهوم
نواعم في الأرائك قاصرات ... فهنَّ عقائل وهُمُ قروم
على سرر ترى متقابلات ... ألا ، ثَمَّ النضارةُ والنعيمُ
عليهم سندس وجياد ريَطٍ ... وديباج يُرى فيها قتوم
وحلّوا من أساور من لُجينٍ ... ومن ذهب . وعسجده كريم
ولا لَغوٌ ولا تأثيم فيها ... ولا غولٌ ولا فيها مُليمُ

وكأس لا تصدع شاربيها يلذُّ بحسن رؤيتها النديم
تصفّق في صحاف من لجين ومن ذهب مباركة رذوم[1]

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هذه الأبيات. لقد حاول ناظمها ادخال بعض الكلمات الجاهلية فيها ، لإلباسها ثوباً جاهلياً ، ولاظهارها بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، بل صيرها في الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الاسلام. وما بي حاجة الى ان أحيلك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن الكريم .

ومن الغريب ان بعض الأخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلاً ان العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء ، وان منهم من نظر في الكتب وكان مقراً بالجنة والنار. وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة الى أمية[2] . وقد نسي ان ما قاله على سبيل التعميم او التغليب ، يناقض ما جاء في القرآن الكريم وما أورده الأخباريون عن الجاهليين .

ثم خذ قصيدته في عيسى بن مريم وحمل أمه به[3] ، وسائر قصائده الأخرى ، تجد عليها هذه المسحة الاسلامية بارزة ظاهرة ، ولكن هذا لا يمنع مع ذلك من القول بوجود أبيات قد تكون من نظم أمية حقاً ، في هذا المنظوم الديني ، غير ان هذا الموجود ، هو على كل حال مما لا يتعارض مع عقائد الاسلام . ومن الممكن ادراكه بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره، وبهذه الطريقة نتمكن من استخلاص الأصيل من شعره من الهجين .

ولأمية بن أبي الصلت أخت ، اسمها (فارعة)[4] . قدمت على النبي بعد فتح الطائف . وكانت ذات لب وعفاف وجمال، وكان يعجب بها . وقال لها يوماً: هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فأخبرته خبره وقصت قصته في شق جوفه

---

١ تجد اختلافا في كلمات هذه القصيدة وأبياتها ، وكذلك في قصائد هذا الشاعر الاخرى ، فارجع في ذلك الى طبعات ديوانه والى كتب الادب لمعرفة مواضع الاختلاف: كتاب البدء والتاريخ (١/٢٠٢ وما بعدها) ، ديوان أمية « طبعة بشير يموت » ، (ص ٥٣) ، ديوان أمية (ص ٥١ وما بعدها) ، « طبعة فريدرش شولثيس » .
٢ كتاب البدء والتأريخ (١/٢٠٢) ، (طبعة كليمان هوار) ، « النص العربي » .
٣ ديوان أمية (ص ٥٨) ، « طبعة بشير يموت » .
٤ اللسان (١/٧٩٢) ، (وثب) .

واخراج قلبه وردّه مكانه وهو نائم وأنشدته شعره[١] ، على ما يزعمه أهل الأخبار.

وذكر أهل الأخبار أسماء أربعة بنين لأمية ، هم : القاسم ، ووهب ، وعمرو (عمر) ، وربيعـة . فأما (القاسم) ، فكان شاعراً ، وله مرثية في عثمان بن عفّان[٢] . وأسلم (وهب بن أمية) كذلك . وذكر أن رجلاً من ثقيف مات في عهد النبي عن غير ولد ، فاختصموا في ميراثه ، فأعطى النبي ميراثه لوهب[٣]. وأما (ربيعة) ، فأسلم كذلك ، وله شعر[٤] . وقد ذكر أهل الأخبار أن (حقة) بنت (وهب بن أمية بن أبي الصلت) ، تزوجت (عبدالله بن صفوان الأكبر)، فولدت له صفوان بن عبدالله بن صفوان[٥] . وذكر أن (ربيعـة) ، قد ولي بعض الوظائف في الإسلام . وأنه صاحب (ربيعتان) ، نهر بقرب الابلة . وأن من ولده (كلدة بن ربيعة) ، وكان شريفاً شاعراً . وقد ذكر أن بغلاً قتل (ربيعة) على باب دار (عبدالله بن عباس)[٦] .

وكل ما يعرف عن سويد بن عامر المصطلقي أنه كان على دين الحنيفية وملة ابراهيم ، وأنه قال شعراً ، وصلت منه بضعة أبيات في (المنايا) وفي المقـدر على الإنسان ، وان المنايا محتومة لا مفرّ منها ، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصي ،وليس لامرىء يدٌ فيما يصيبه من مقدور . فهي في هذه المشكلة المعضلة الـتي شغلت بال الإنسان ولا تزال تشغله مشكلة : (الجبر والاختيار) ، أو (القدر) ، المشكلة التي احتلت منزلة الصدارة في (علم الكلام) . والتي صارت من أهم موضوعات الجدل في الاسلام . ويقال انها أنشدت للرسول ، فلما سمعها، قال : « لو أدركته لأسلم »[٧] .

وأما ورقة بن نوفل ، فهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، يلتحم نسبه بنسب الرسول في جد جده . ذكروا انه ساح على شاكلة من شك في

---

١ الاصابة (٣٦٣/٤) ، (رقم ٨٢٤) .
٢ الاصابة (٢١٣/٣) ، (رقم ٧٠٥٢) .
٣ الاصابة (٦٠٤/٣) ، (رقم ٩١٥٧) .
٤ الاصابة (٤٩٣/١) ، (رقم ٢٥٩٠) .
٥ الاصابة (٦٠٤/٣) ، (رقم ٩١٥٧) .
٦ كتاب البغال، للجاحظ (٢٥٨/٢) ، (من رسائل الجاحظ) ، الاغاني (١٧٩/٣)، الاشتقاق (٣٠٤ وما بعدهـا) ، (١٢٠/٤) ، الشعر والشعراء (٣٦٩/١) ، الاصابة (١٩٧/٢) انساب العرب (٢٦٩) .
٧ بلوغ الارب (٢٥٩/٢) .

دين قومه ، وتتبع اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب ، وعـدّ في جملة المتنصرين في أغلب الروايات ، فقد ذكر انه « تنصر واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ومات عليها »[١] . وهذا هو رأي اكثر اهل الأخبار .

ونسب اليه شعر ذكر انه قاله في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وفيه إشارة الى النار والى الثواب والعقاب بعد الموت والى فكرة التوحيد والايمان برب ليس رب كمثله والى التنديد بالأوثان[٢] .

وله أبيات من الشعر يحث فيها عـلى مساعدة الضعيف ونصر المظلوم ، وعلى فعل الخير للناس[٣] .

ولا نعلم عن حياة ورقة في ايام شبابه شيئاً ، ولعله كان يعين اهله او اقربائه في اتجارهم مع بلاد الشأم او اليمن شأن اكثر شبان أسر مكـة المعروفة في ذلك الوقت . فتعلم بذلك سلوك الطرق الموصلة الى العراق او بـلاد الشأم ، ومن هنا اندفع نحو خارج الجزيرة يلتمس الحكمة والوصول الى رأي يقنعه في الحيـاة . ويظهر انه لم يكن في شبابه من اولئك الشباب الخاملين الذين كانوا يصرفون وقتهم في فراغ دائم ، دون عمل ولا تفكـير ، متوسدين الأرض يقتلون فراغهم في ترهات الكلام ، كما انه لم يكن من اولئك الطائشين النزقين الذين يقضون وقتهم في النزاع والخصومة وشرب الخمر والاعتداء على الناس ، والحصول على المـال للانفاق على اللهو بأية طريقة كانت ، بل كان شاباً متأملاً مفكـراً منكمشاً على نفسه ، مكنه علمه بالكتابة والقراءة من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين ، حتى جاء يوم ، دفعه اجتهاده الذي وصل اليـه على الخروج على تقاليد قومه وانتقاد الأوضاع التي كانوا عليها ، مما حمله على ترك مكة طوعاً او قهراً ، والتجول للبحث او فراراً من غضب قومه عليه .

وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج الرسول . وقد أشير اليـه في خبر « مجيء جبريل الى النبي في حراء » ،وله كلام مع الرسول على ما ورد في بعض الروايات.

---

١ اليعقوبي (١/٢٩٨) « ٢/٢٢ » « ليدن » ، البداية ، لابن كثير (٢/٢٣٨) .

٢ المحبر (١٧١) ، ابن هشام (١/٢٤٣ ، ٢٥٦) ، الاغاني (٣/١١٣ وما بعدها) ، شيخو ، النصرانية (١/١١٨) ، خزانة الادب (٢/٣٩ وما بعدها) ، مـروج (١/٧٣) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام (١/٦٨) .

٣ خزانة الادب (٢/٣٩ وما بعدها) .

يقال إنه قال للرسول وكان قد ذهب اليه مع زوجته خديجة ليسأله رأيه فيما رآه من الرؤيا : « ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ! » وان الرسول قال له : أمخرجي هم ؟ قال : نعم ، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت بـه إلا عودي ، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً »[1] . وأشير اليه في خبر آخر ، حيث ورد أن (خديجة) ذهبت وحدها الى ابن عمها لتسأله عن الرؤيا التي رآها الرسول وعن هذا (الناموس الأكبر) الذي تجلى له . فلما قصت عليه القصة قال : «لئن كنت صادقـة ، إنّ زوجك لنبي ، وليلقين من أمته شدة ، ولئن أدركتـه لأومنَن به »[2] .

وذكر في خـبر آخر أن الرسول قد رأى (ورقة) في منامه ، وكان لابساً ثياباً بيضاً . وان الرسول ذكـر ذلك لمن سأله عنه ، وبين لهم أنـه لو كان من أهل النار لما ظهر له في منامه وهو بهذه الملابس . لأن أهل النار لا يلبسون ثياباً بيضاً[3] . ويروى أن الرسول قال : « لا تسبّوا ورقة بن نوفل ، فإني رأيتـه في ثياب بيض »[4] . قيل إن شخصاً تساب مع أخ لورقة بن نوفل ، فسب ورقة ليحرق قلب أخيه ، فبلغ ذلك الرسول ، فنهى عن سبّه[5] .

وجاء في خبر ان (ورقة) كان يمر بمكـة فيرى بلالاً وهو يعذّب ، يعذبه المشركون برمضاء مكة ، يلصقون ظهره بالرمضاء ، ويضربونه يريدون منـه ان يشرك بالله ، فلا يشرك به . ويأبى إلا ان يقول : أحد أحد ، فيرثي ورقة لحاله ويقول : أحد أحد والله يا بلال . والله لئن قتلتموه فأنتم من الخاسرين[6] . او « والله لئن قتلتموه ، لاتخذن قبره حناناً »[7] .

---

١ الطبري (٢/٢٩٩) « دار المعارف » ، ابن هشام (١/٢٥٤ وما بعدها) ، المسعودي مروج (٢/٥٩) ، (١/٧٣) « محمد محيي الدين عبد الحميد » « ١٩٥٨ م » ، الكامل ، لابن الاثير (٢/٣١) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام (١/٧٥) ، القسطلاني ، شرح صحيح (١/٦٦) ، الاصابة (٣/٦٣٣) .

٢ الطبري (٢/٣٠٠) « دار المعارف » ، ابن سعد ، الطبقات (١/١٩٤) « بيروت ١٩٥٧ م » ، شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني (١/٦٦ وما بعدها) .

٣ الاغاني (٣/١١٣ وما بعدها) « بيروت ١٩٥٥ م » .

٤ كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧) ، الترمذي (٣/٢٥١) ، الاصابة (٦/٣١٨ وما بعدها) ، مجمع الزوائد (٩/٤١٦) .

٥ الاصابة (٣/٦٣٣) .

٦ الاغاني (٣/١١٣ وما بعدها) .

٧ النهاية ، لابن الاثير (١/٢٢٦) ، الاصابة (٦/٣١٨) ، كتـاب نسب قريش (٢٠٨) .

ويظهر من الأخبار المتقدمة ان (ورقة بن نوفل) ، كان قد أدرك ايام الرسول وعاش الى يوم نزول الوحي عليه . بل يظهر من خبر رؤيته لبلال وهو في حالة تعذيبه ، انه عاش مدة بعد نزول الوحي . غير ان الأخبار المذكورة لا تنص على اسلامه ، ولم نجد أحداً قد نص على ذلك . أما خبر رؤيا الرسول له في منامه ، فانه يدل على عدم إسلامه ، وعلى انه كان قد توفي قبل نزول الوحي على الرسول . وهو الرأي الراجح. وهذا ما حمل أحد المؤرخين على القول: وقد اختلف فيه ، فنهم من زعم انه مات نصرانياً ولم يدرك ظهور النبي. ومنهم من رأى انه مات مسلماً وانه مدح النبي[1] . وقد ورد في بعض الأخبار ان الرسول قال لما توفي ورقة : « لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير ، لأنه آمن بي وصدقني »[2] . وورد مثل ذلك من أحاديث زعم ان الرسول قالها في حق ورقة ، وهي كلها تشير الى وفاة ورقة قبل المبعث ، وعلى دينه ، إذ لم يدرك الاسلام .

وورد في بعض الروايات أنه « كان يكتب الكتاب العربي ، فكتب بالعربية من الانجيل ما شاء أن يكتب »[3] . وورد في رواية أخرى أنه « كان يكتب الكتاب العبراني ، فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب »[4] . والخبران هما خبر واحد ، كما يظهر من وحدة النص ، غير إن اسم اللغة التي زعم أنه كان يكتب بها قد حرّف ، فقرأه بعضهم العربي ، وقرأه بعض آخر العبراني . ولما كان الانجيل باليونانية وبلغة بني إرم ، فقد أخطأ الرواة بجعل لغة الانجيل هي العبرانية ، وهم يتوهمون كثيراً فيخلطون بين العبرانية والسريانية . والغالب أنهم كانوا يريدون بالعبرانية لغة بني إرم التي كانت لغة العلم والأدب والدين في العراق وفي بلاد الشأم ، بل وبين مثقفي اليهود ورجال دينهم في ذلك الوقت .

وذكر أهل الأخبار أنه لم يعقب[5] . ولم يذكروا سبب ذلك ، هل كان قد

---

١ المسعودي ، مروج (٥٩/٢) .
٢ القسطلاني ، شرح صحيح (٦٥/١) ، الذهبي ، تأريخ الاسلام (٦٨/١) ، الذهبي ، سير النبلاء (٨٠) ، خزانة الادب (٤١/٢) .
٣ النصرانية (١١٩/١) .
٤ الاغاني (١١٣/٣) ، الاشتقاق (١٦٤) .
٥ كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧) .

تزوج ، ولكنه كان عقيماً ، فلم يعقب ؟ أو أنه عاش أعزب ولم يتزوّج طول حياته ؟

وكان (أبو قيس صرمة بن أبي أنس) (صرمة بن أنس) وهو من بني النجار ، قد ترهب ولبس المسوح ، وهجر الأوثان ، ودخل بيتاً واتخذه مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب ابراهيم ، فلما قدم النبي المدينة أسلم وهو شيخ كبير ، وحسن إسلامه . وفيه نزلت الآية : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »[١].ورووا له شعراً[٢]. وزعم أنه اغتسل من الجنابة ، وهمّ بالنصرانية ، ثم أمسك عنها . وذكر أن (ابن عباس) كان يختلف اليه يأخذ عنه الشعر[٣] .

وأما (وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي)،فهو من إياد ، زعم(ابن الكلبي) انه ولي البيت بعد جرهم ، فبنى صرحاً بأسفل مكة ، وجعل فيه أمة يقال لها (حزورة) ، وبها سميت (حزورة مكة) ، وجعل في الصرح سلّماً ، فكان يرقاه ويزعم انه يناجي الله . وكان ينطق بكثير من الخير ، ويزعم الناس انه صدّيق من الصدّيقين ، وقالوا كان كاهناً[٤] . وذكروا له كلمات مسجعة ، ليس فيها ما يشرح لنا معتقده الديني ويوضحه وضوحاً تاماً[٥] .

والصرح كما يقول علماء اللغة ، بيت يبنى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء

---

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، مروج ، (٥٢/١ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٩٧/٢) « بولاق » .
٢ بلوغ الارب (٢٦٦/٢) .
٣ بلوغ الارب (٢٦٦/٢) ، أسد الغابة (١٨/٣) ، الاصابة (١٧٦/٢) ، (رقم ٤٠٦١) ، الاستيعاب (١٩٤/٢) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ المحبر (١٣٦) ، بلوغ الارب (٢٦٠/٢) .
٥ (وقال الايادي صاحب الصرح ، الذي اتخذ سلما لمناجاة الرب ، وهو القائل : مرضعة وفاطمة ، القطيعة والفجيعة ، وصلة الرحم وحسن الكلم ، زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا ، وبالشر عقابا . وان من في الارض عبيد لمن في السماء . هلكت جرهم وربلت اياد ، وكذلك الصلاح والفساد . من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه . كل شاة معلقة برجلها .
واياه عنى الشاعر بقوله :
ونحن اياد عبيد الاله ورهط مناجيه في السلم
ونحن ولاة حجاب العتيق زمان الرعاف على جرهم
البيان والتبيين (١٠٩/٢) ، الامثال ، للميداني (٨١/٢) .

وكل بناء عالٍ مرتفع[1] . والحزورة الرابية الصغيرة والتل الصغير[2] . ويظهر انه كان بنى صرحه فوق تل في محل منفرد ، ليختلي هناك على طريقة الرهبان والنساك .

وكل ما عرفه أهل الأخبار عن (عمير بن جندب) الجُهني ، انه كان من جهينة ، وانه كان موحداً لم يشرك بربه أحداً ، وانه مات قبيل الاسلام[3] .

وكان عامر بن الظرب العدواني من الحكماء ، نسبت اليه أقوال في الحكم والدين . منها : « إني ما رأيت شيئاً خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء ، لأحياهم الدواء » . ثم قال : « إني أرى أموراً شتى وحتى . قيل له : وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حياً ، ويعود اللاشيء شيئاً ، ولذلك خلقت السماوات والأرض ، فتولوا عنه ذاهبين »[4] .

وقد نسبوا اليه جملة أحكام ، منها حكمه في (الخنثى) ، وقد ذكروا أن حكمه هذا قد أقرّه الاسلام . وقالوا إن العرب كانت إذا أشكل عليها أمر في قضاء ، أو حارت في أمر معضل ترى وجوب الحكم فيه برأي صائب وعقل وتدبير ، ذهبت اليه ، فإذا حكم كان حكمه الحكم الفصل ، فلا رادّ له[5] .

ونسبت الى كل من عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة وعلاف بن شهاب التميمي أبيات ، فيها اقرار بوجود إلٰه واحد خالق لهذا الكون ، وبوجود الحساب والثواب والعقاب[6] .

وأما (المتلمس بن أمية) الكناني ، فذكروا انه كان قد اتخذ من فناء الكعبة موضعاً يخطب فيه ، ويعظ قومه عظات دينية ، فكان في جملة ما قاله لهم :

---

١ تاج العروس (٢/١٧٨ وما بعدها) ، (صرح) .
٢ تاج العروس (٣/١٣٨) ، (حزر) .
٣ بلوغ الارب (٢/٢٦١ وما بعدها) .
٤ المحبر (١٣٥ ، ١٨١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٥ وما بعدها) .
٥ الروض الانف (١/٨٦) ، ابن هشام (١/١٣٤) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، المعمرون (٤٤ وما بعدها) ، عيون الاخبار (١/٢٦٦) ، البيان والتبيين (١/٢٦٤ ، ٣٦٥ ، ٤٠١) ، (٢/٧٢ ، ١٩٩) ، (٣/٣٨ ، ٣٩ ، ٢٩٩ ، ٣٦٩) .
٦ الاغاني (٣/١١٣) ، (طبعة بيروت) ، مروج (٢/٦٠) .

« انكم قد تفردتم بآلهة شتى ، واني لأعلم ما الله راضٍ به . وإن الله تعالى رب هذه الآلهة ، وانه ليحب ان يعبد وحده » . فنفرت كلماته هذه وأمثالها القوم منه وتجنبته ، وقالوا عنه انه على دين بني تميم[1] .

وفي أبيات منسوبة الى زهير بن أبي سُلمى الشاعر المعروف إقرار بوجود إلـه عالم بكل ما في النفوس ، هو (الله) ، لا تخفى عليه خافيـة ، فلا يجوز كتمان شيء عنه ، وبوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا مخلص له[2] .

ونسب الايمان بالله واليوم الآخر الى أشخاص آخرين ، منهم : عبدالله القضاعي والشاعر عَبيد بن الأبرص الأسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب ، والأول منهم هو ابن تغلب بن وبرة بن قضاعة ، كان من الحكماء الخطباء ، يتبع الحنيفية ، وينهج على نهجها مثل الحنفاء[3] .

وأما الثاني ، وهو عَبيد بن الأبرص ، فشاعر جاهلي شهير ، له في قتله قصة ، هي من ذيول قصة (الغريّين) للمنذر بن ماء السماء . نجد في الشعر المنسوب اليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع ، ونراه من المتشائمين المؤمنيـن بالمنايا وبالمحتم المكتوب ، ونراه في القصيدة البائية يتوكـل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه فيقول :

من يسأل الناس يحرموه وسائـل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس لـه شريك علاّمُ ما أخفت القلوب[4]

---

١ بلوغ الارب (٢٧٧/٢) .

٢ فلا تكتمن الله ما في صدوركـم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتـاب فيدخـر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، للامام ثعلب (ص ١٢) ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، شعراء النصرانية ، (القسم الرابع ص ٥١٨) ، بلوغ الارب (٢٧٧/٢ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (٢٨٠/٢) .

٤ البيان والتبيين (٢٢٦/١) ، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٧ ومـا بعدها) ، أسماء المغتالين (٢١١) ، (نوادر المخطوطات) .

ونراه يقول في المنايا :

فأبلــغ بنيّ وأعمامهم بأن المنايا هــي الوارده
لها مدة فنفوس العبــاد اليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا فللموتِ ما تلد الوالده[1]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويتذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال ، وينصح النــاس بالسير على هذا المنوال . والذي يقرأ شعره ، يشعر أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميالة الى التقشف والتصوّف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة ؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ أو هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟

وأما (كعب بن لؤي بن غالب) . فهو من أجداد النبي . وقد كان على الحنيفية،واليه كانت تجتمع قريش في كل جمعة،فكان يعظهم ويوجههم ويرشدهم يأمرهم بالطاعة والتفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين ، ويحثهم على صلة الأرحام وإفشاء السلام وحفظ العهد ومراعاة حق القربة والتصدق على الفقراء والأيتام[2] .

هذه خلاصة موجزة لسير من حشرهم أهل الأخبار في زمرة الحنفاء ، تريك آراء الجماعة تكاد تكون واحدة : كفر بالأصنام وبالشرك كله ، وإعراض عن عادات قومهم ، وثورة على عقائدهم ، وترقب لحدوث تطورٍ واصلاح يقضي على الجهالة ، وقد مهدوا له بدعوتهم تلك التي أشاعوها بين بني قومهم فجلبت عليهم السخط والغضب الشديد ، مما حمل أكثرهم ، وهم في الغالب من مكــة وأطرافها ، على الفرار من بلدتهم الى أطرافها المنعزلة الآمنة وغيرها من الأماكن الخالية ، ليكونوا في أمان من ايذاء قومهم لهم ، وفي وسط يفكرون فيــه في خلق السماوات والأرض تفكيراً هادئاً ، فلا يزعجهم مزعج ، ولا ينغص حياتهم هناك منغص .

---

١ شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٤ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (الجزء الاول ، القسم الاول ص ٣٩) ، بلــوغ الارب (٢/ ٢٨٢) .

لقد جعل أهل الأخبار معظم من تحدثنا عنهم إن لم نقــل كلهم من القارئين الكاتبين ، ونسبوا الى بعضهم قراءة الكتب والصحف والزبور ومجلة لقمان . يريدون بذلك الكتب المقدسة . ويفهم من كلامهم في بعض الأحيــان ان منهم من كان يحسن فهم العبرانية أو لغة بني إرم . ولكن الأخباريين عفا الله عنهم لم يتبسطوا لنا في الحديث عن ماهيــة تلك الصحف وعن محتويات مجلــة لقمان وعن الكتب المُنزلة ، ولم يأتوا بنماذج مفصلة طويلة أو قطع ترشد إلى المظانّ التي نقلت منها. فأضاعوا علينا ، باهمالهم الاشارة الى هذه الأمور ، أشياء كثيرة مهمة ، بنا حاجة ماسة إلى معرفتها ، للوقوف على الحالة الدينية في جزيرة العرب قبيل الاسلام وابان ظهوره .

ويؤكد أهل الأخبار ان بعض أولئك الحنفاء كانوا يسيرون على سنّة ابراهيم وشريعته ، وان بعضاً آخر منهم كان يلتمس كلماته ويسأل عنها ، وانهم في سبيل ذلك تحملوا المشاق والأسفار والصعاب . وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشأم وأعالي العراق . أي المواضع التي كانت غالبية أهلهــا على النصرانية يومئذ ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان . وقد أضافوا اليهم الأحبار أحياناً ، وذكروا ان الرهبان والأحبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمــل ، فليس عندهم ما يأملونه ويرجونه من دين ابراهيم واسماعيل ، ولذلك لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية ، بل ظلوا ينتظرون الوعد الحــق ، ومنهم من مات وهو على هذه العقيدة . مات معتقداً بدين ابراهيم حنيفاً ، غير مشرك بربه أحداً .

أما كيف كانت شريعة ابراهيم ، وعلى أي نهج سار الحنفاء ، وهل كان لهم كتــاب أو كتب أو نحو ذلك ؟ فأسئلة لم يجب عنها أهل الأخبار إجابة صريحة واضحة . لذلك صرنا في جهــل بأمر تلك الشريعة : شريعة ابراهيم ، شريعة التوحيد الحق .

ويذكر أهل الأخبار أنه كان لأتباع ابراهيم من العرب علامات وعادات ميزوا أنفسهم بها عن غيرهم ، منها : الختان ، وحلق العانة ، وقص الشارب . وهي علامــات جعلها بعض المفسرين مــن (كلمات ابراهيم) التي ذكرت في القرآن الكريم ، في الآية : « وإذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمهن »[1] . ذهب القائلون

---

[1] البقرة ، الآية ١٢٤ .

بهذا الرأي الى أن تلك الكلمات هي عشر : « خمس في الرأس ، وخمس في الجسد. فأما التي في الرأس ، فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب وفرق الرأس والسواك. وأما التي في الجسد ، فالاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان»[1].

ومن سنن شريعة ابراهيم الاختتان. وهو من العادات القديمة الشائعة بين العرب الجاهليين الوثنيين. أما العرب النصارى ، فلم يكونوا يختتنون. فالحنفاء في هذه العادة والوثنيون سواء. وفي أخبار معركة (حنين) أن الأنصار حينما أجهزوا على قتلى ثقيف ممن سقط في هذه المعركة مع هوازن وجدوا عبداً ، عندما كشف ليستلب ما عليه وجد أغرل. فلما تبين ذلك للأنصار ، نادى أحدهم بأعلى صوته: يعلم الله أن ثقيفاً غُرْل ما تختتن. فقام اليه المغيرة بن شعبة ، وهو من ثقيف ، فأخذ بيده ، وخشي أن يذهب ذلك عن قومه في العرب ، فقال له : لا تقل ذلك فداك أبي وأمي ، إنما هو غلام لنا نصراني ، ثم جعل يكشف له قتلى قومه ويقول له : ألا تراهم مختتنين[2] ؟

ويتبين من هذا الخبر أن العرب كانوا يعدون الغرل شيئاً معيباً ، ومنقصة تكون حديث الناس. وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعاً كانوا يختتنون ، وأن الاختتان كان من السمات التي تميزهم عن غيرهم ، وأنهم في ذلك كاليهود[3]. وقد ورد في الموارد اليهودية ما يفيد اختتان العرب. ولعل التوراة التي ذكرت قصة اختتان اسماعيل ، أخذت خبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين التي كانت شائعة بينهم في ذلك العهد[4].

الاعتكاف :

وقد نسب الاعتكاف في الكهوف وفي البراري وفي الجبال الى عدد من هؤلاء الحنفاء. فقد ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا قد اعتكفوا في المواضع الخالية البعيدة

---

١ تفسير الطبري (١/٤١٤ وما بعدها) ، روح المعاني (١/٣٧٤) ، بلوغ الارب (٢/٢٨٧) ، المحبر (٣٢٩) .

٢ الطبري (٣/١٣٠) ، « ذكر الخبر عن غزوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، هوازن بحنين » .

٣ الاغاني (٦/٩١) ، « ذكر أبي سفيان وأخباره ونسبه » .

٤ Reste, S. 175.

عن الناس ، وحبسوا أنفسهم فيها ، فلا يخرجون منها إلا لحاجة شديدة وضرورة ماسة [1] . يتحنثون فيها ويتأملون في الكون ، يلتمسون الصدق والحق . والتحنث التعبد . فكانوا يتعبدون في تلك المواضع الهادئة الساكنة ، مثل غار (حراء) . وقد ذكر أن الرسول كان يتحنث فيه الليالي ، يقضيها في ذلك الغار [2] .

ويعبر عن التعبد ليلاً بـ (التهجد) أيضاً . وذكر ان التهجد الصلاة ليلاً . وقد كان الرسول يتهجد [3] . والتهجد التيقظ والسهر بعد نومة من الليل . والهجود النوم عند العرب . ويظهر ان تفسير التهجد بالتعبد ليلاً ، انما ورد من تفسيرهم لما ورد في القرآن الكريم : « ومن الليل فتهجد به نافلة ، عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً » [4] . فخص العلماء التهجد بالتعبد ليلاً .

ويعبر عن التعبد بالنسك ، والنسك : العبادة والطاعة وكل ما يتقرب به الى الآلهة . والنسّاك : المتعبدون . وقد كان الحنفاء من النساك أي المتعبدين. وعدّوا الذبائح من النسك . وجعلوا النسيكة : الذبيحة [5] . والذبائح ، أي النسائك ، هي من أهم مظاهر التعبد والزهد عند الجاهليين .

وممن نسب الى النسك والرهبنة من الجاهليين (أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ابن مالك بن النعمان) ، أحد (بني ضبيعة بن زيد) . وكان في الجاهلية يسمى (الراهب) ، لأنه كان مترهباً ، وقد كان من المقدمين بيثرب ، إذ كان رأس الأوس فيها ، فلما جاء رسول الله الى المدينة ، خاصمه ، ثم خرج الى مكة مباعداً له ، ومعه خمسون غلاماً من الأوس ، واشترك مع قريش يوم أحد [6] .

---

١ تاج العروس (٦/٢٠٣) ، (عكف) .
٢ تاج العروس (١/٦١٦) ، (حنث) .
٣ تاج العروس (٢/٥٤٣) ، (هجد) .
٤ الاسراء ، الآية ٧٩ ، تفسير الطبري (١٥/٩٥) ، روح المعاني (١٥/١٢٧) .
٥ اللسان (١٠/٤٩٨ وما بعدها) ، (نسك) .
٦ نهاية الارب (١٧/٨٩) ، (ذكر غزوة أحد) ، امتاع الاسماع (١/١١٥) ، « غزوة أحد » .

الفصل السادس والسبعون

اليهودية بين العرب

والحديث عن اليهودية بين العرب ، وعن وجود يهود في أنحاء من جزيرتهم، لا يمكن ان يكون حديثاً تأريخياً مبنياً على العلم اذا ارتفعنا به الى الميلاد والى ما قبل الميلاد . ولا يعني كلامي هذا عدم وصول يهود الى جزيرة العرب،وعدم إقامتهم في أماكن منها . فهذا كلام لا يمكن أن يقال ، ولا يمكن قبوله . انما أريد ان أقول اننا لا نملك نصوصاً تأريخية تخولنا ان نتحدث عن اليهود في جزيرة العرب قبل الميلاد حديثاً علمياً ، بأن نعين المواضع التي نزلوا فيها ، والأماكن التي وصلوا اليها ، وما فعلوه هناك ، وفي أي عهد كان ذلك ، ومن قادهم الى تلك الأنحاء ، ومن استقبلهم استقبالاً حسناً ، أو استقبلهم استقبالاً سيئاً من الجاهليين ؟

وقد عرف اليهود عند الجاهليين ، وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي . ولا بد من وقوف الجاهليين على أحوالهم ، لأنهم كانوا كما سنرى يسكنون في مواضع عديدة معروفة تقع ما بين فلسطين ويثرب ، كما سكنوا في اليمن وفي اليمامة وفي العروض . وكان تجار منهم يقيمون في مكة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب للاتجار واقراض المال بربا فاحش للمحتاجين اليه .

ومعارفنا عن يهود جزيرة العرب مستمدة من الموارد الإسلامية . والسبب في ورود خبرهم في هذه الموارد ، هو اصطدامهم بالإسلام ، ومقاومتهم له حينما دعاهم الرسول الى الدخول فيه ، فنزل فيهم الوحي ، وأشير اليهم في الحديث،

وذكروا في كتب التفسير والسير والتواريخ والأدب . ومن هنا تجمعت معارفنا عن يهود الجاهلية . ولهذا تجد الحديث عن يهود الجاهلية لا يرتقي كثيراً عن عصر النبوة ، ولا يبتعد عنه ولكني لا استبعد احتمال تغير الحال ، إذا ما عثر المنقبون في المستقبل على كتابات جاهلية قد تكون مطمورة في الوقت الحاضر في باطن التربة ، يكون لها صلة بيهود جزيرة العرب ، أو إذا ما عثر على مؤلفات ووثائق مكتوبة عبرانية أو غير عبرانية قد تكون مجهولة عن ذوي العلم في الوقت الحاضر ، تكون لها صلة وعلاقة بأمر يهود جزيرة العرب قبل الإسلام .

وقد وردت لفظة (يهود) معرفة في القرآن الكريم . أي على هذا الشكل : (اليهود) . وردت في مواضع من سورة البقرة [1] ومن سورة المائدة [2] ومن سورة التوبة [3] . وكلها سور مدنية . ولم ترد في سورة من السور المكية . كما وردت لفظة (يهودياً) في سورة آل عمران ، وردت في شرح ديانة (ابراهيم) : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً » [4] . وهي من السور المدنية كذلك .

وعبر القرآن الكريم عن اليهود وعن معتنقي اليهودية بـ « الذين هادوا » [5] ، وبـ « من كان هوداً » [6] و « كونوا هوداً » [7] و « كانوا هوداً » [8] . وسورتي الأنعام والنحل من السور المكيّة . وبناء على ذلك تكون جملة « الذين هادوا » قد نزلت قبل نزول لفظة (اليهود) في القرآن الكريم .

وقد عبر عن العبرانيين عامة بـ (بني اسرائل) في القرآن الكريم . عبر عنهم في سور مكية وفي سور مدنية . ويلاحظ ان ورود هذا التعبير في القرآن الكريم ، هو أكثر بكثير من ورود لفظة (اليهود) فيه .

---

١ البقرة ، الآية ١١٣ ، ١٢٠ .
٢ المائدة ، الآية ١٨ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٨٢ .
٣ التوبة ، الآية ٣٠ .
٤ آل عمران ، الآية ٦٧ .
٥ البقرة ، الآية ٦٢ ، النساء ، الآية ٤٦ ، ١٦٠ ، المائدة ، الاية ٤١ ، ٤٤ ، ٦٩ ، الانعام ، الاية ١٤٦ ، النحل ، الاية ١٨٨ ، الحج ، الاية ١٧ ، الجمعة ، الاية ٩ .
٦ البقرة ، الآية ١١١ .
٧ البقرة ، الآية ١٣٥ .
٨ البقرة ، الآية ١٤٠ .

ولما كانت فلسطين امتداداً طبيعياً للحجاز ، كان من الطبيعي اتصال سكانها بالحجاز ، واتصال سكان الحجاز بفلسطين ، وذهاب جاليات يهودية الى العربية الغربية، للاتجار وللاقامة هناك ، خاصة بعد فتوح الدول الكبرى لفلسطين واستيلائها عليها ، وهجرة اليهود الى الخارج . فكانت العربية الغربية لاتصالها بفلسطين من الأماكن الملائمة المناسبة لهجرة اليهود اليها ، واقامتهم فيها ، ولا سيما عند مواضع المياه وفي الأرضين الخصبة العامرة . غير اننا لا نستطيع ، كما قلت ، التحدث عن هجرة اليهود هذه الى هذه الأنحاء حديثاً علمياً معززاً بالكتابات وبالتواريخ .

ولم يترك يهود جزيرة العرب لهم أثراً مكتوباً يتحدث عن ماضيهم فيها. وكل ما عثر عليه منهم ، نصوص معدودة ، وجدت في اليمـــن ، لا تفصح بشيء ذي بال عن اليهود واليهودية . كذلك لم يصل الينا ان أحداً من المؤلفين والكتبة العبرانيين ذكر شيئاً عن يهود الجاهلية . وليس لنا من تأريـــخ اليهود في جزيرة العرب إلا ما جاء في القرآن الكريم وفي الحديث وكتب التفسير والأخبار والسير : فمادتنا عن تأريخ اليهودية في العربية ، لا ترتقي إلى عهد بعيد عن الاسلام .

لقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن اليهود كانوا في جملة من كان في جيش (نبو نيد) يوم جاء الى تيماء . فأقاموا بها وبمواضع أخرى من الحجـــاز بلغت (يثرب) . وأن هؤلاء اليهود أقاموا منـــذ ذلك الحين في تلك الأماكن واستوطنوا وادي القرى وأماكن أخرى الى مجيء الإسلام . غير أن (نبونيـــد) لم يشر في أخبـــاره المدونة الى وجود اليهود في جيشه والى اسكانه لهم في هذه الأرضين كما أننا لم نعثر على كتابات تتحدث عن هذا العهد أو عن العهـد الذي سبقه أو الذي جاء من بعده . لذلك فإننا لا نستطيع أن نعزز هذا الكلام بنصوص وكتابات . وان كنا لا نريد نفي احتمال مجيء اليهود الى هذه الديار في عهـــد (نبو نيد) ، أو في عهد (بخت نصر) ، أو قبل العهدين .

نعم ، لقد عثر على عدد من الكتابات النبطية في الحجر وفي مواضع أخرى من أرض النبط وردت فيها أسماء عبرانية تشير الى أن أصحابها من يهود ، ويعود بعضها الى القرن الأول للميلاد ، ويعود بعض آخر الى ما بعد ذلك مثل الكتابة التي يعود عهدها الى سنة ٣٠٧ ميلادية ، وصاحبها رجل اسمه (يحيى بر شمعون) أي (يحيى بن شمعون)[1] . غير أن هذه الكتابات شخصية ، ولا تفصح بشيء

[1] Islamic culture, vol., III, No. 2, April 1929, Judaeo — Arabic Relations in Pre-Islamics Times, by Josef Horovitz, p. 170.

ذي بال عن عقيدة أصحابها ، ولا عن تأريخهم في هذين الأرضين .

وقد ذهب اليهود الى العربية الشرقية ، ذهبوا اليها من العراق ، فسكنوا في مواضع من سواحل الخليج ، وتاجروا مع أهل هذه البلاد ومع باطن الجزيرة . وقد ساعدتهم بعض الحكومات على الذهاب اليها . وقد كانت ليهود العراق تجارات مع أهل الخليج ، كما يفهم ذلك من مواضع من التلمود .

ويتبين من روايات المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) **Iosephos Flavius** ان اليهودية كانت قد وجدت لها سبيلاً بين العرب . وان بعض ملوك مملكة (حدياب) **Adiabene** كانوا قد دخلوا فيها [1] . ويذكر المؤرخ (سوزومين) **Souzomenos** ان اليهود كانوا ينظرون الى العرب الساكنين شرق الحد العربي **Limes Arabicus** على انهم من نسل اسماعيل ، وانهم كانوا يرون انهم من نسل اسماعيل وابراهيم ، فهم من ذوي رحمهم ، ولهم بهم صلة قربى . وكانوا يرجون لذلك دخولهم في دينهم ، واعتناقهم دين ابراهيم جد اليهود والعرب . وقد عملوا على تهويد أولئك العرب [2] .

ويظهر من مواضع من التلمود ان نفراً من العرب دخلوا في اليهودية ، وانهم جاءوا إلى الأحبار ، فتهودوا أمامهم [3] . وفي هذه المرويات (التلمودية) ، تأييد لروايات أهل الأخبار التي تذكر ان اليهودية كانت في حمير ، وبني كنانة ، وبني الحارث بن كعب ، وكندة [4] ، وغسان [5] . وذكر (اليعقوبي) ان ممن تهود من العرب « اليمن بأسرها . كان تُبّع حمل حبرين من أحبار يهود الى اليمن ، فأبطل الأوثان ، وتهود من باليمن ، وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير . وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام » [6] .

وقد ذكر علماء التفسير في تفسيرهم الآية : « لا اكراه في الدين . قد تبين

---

١ Die Araber, II, S. 65. ff.
٢ Sozomenos, 6, 38, 10-13, 299, 17, Die Araber, II, S. 74.
٣ Y 'bamot, 16 b, 'Aboda Zara 27a, Die Araber, II, S. 74.
٤ المعارف (٦٢١) ، الاعلاق النفيسة (٢١٧) .
٥ البدء والتأريخ (٤/٣١) .
٦ اليعقوبي (١/٢٢٦ وما بعدها) .

الرشد من الغي »[1]، أنها نزلت في الأنصار . كانت المرأة المقلات في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده ، فتهود قوم منهم . فلما جاء الله بالاسلام أرادوا اكراههم عليه ، فنهاهم الله عن ذلك ، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام . أو أنهم لما بقوا على يهوديتهم ، وأمر اليهود بالجلاء ، وفيهم منهم ، شق على آبائهم ترك أبنائهم يذهبون مع اليهود ، فقالوا : « يا رسول الله أبناؤنا واخواننا فيهم .. فسكت عنهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى ذكره : لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ ... فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،قد خيّر أصحابكم ، فإن اختاروكم فهم منكم ، وإن اختاروهم فهم منهم »[2] . وذكر العلماء أيضاً ان ناساً من الأنصار كانوا مسترضعين في بني قريظة وغيرهم من يهود ، فتهودوا ، وأن من الأنصار من رأى في الجاهلية أن اليهودية أفضل الأديان ، فهودوا أولادهم ، فلما جاء الاسلام ودخلوا فيه ، أرادوا اكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه ، فنزل الوحي بالآية المذكورة[3] . فقد كان اذن بين يهود جزيرة العرب ، عرب دخلوا في دين يهود .

وذكر أهل الأخبار أن (جبل بن جوال بن صفوان) الثعلبي ، من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، كان يهودياً فأسلم . فهو عربي ، يظهر أنه أو أهله قبله قد تهودوا ، فكان على دين يهود ، وعاش مع (بني قريظة) ، حتى اعتنق الإسلام[4] . وذكروا أسماء آخرين كانوا من متهودة الجاهليين .

ويرى بعض المؤرخين اليهود أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل عن بقية أبناء دينهم وانفصال ، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن يهود العربية مثلهم في العقيدة،بل رأوا أنهم لم يكونوا يهوداً ؛ لأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ولم يخضعوا لأحكام التامود[5] . ولهذا لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلفين العبرانيين .

وعندي ان عدم ورود شيء عن يهود الحجاز في أخبار المؤلفين العبرانيين

---

١ البقرة ، رقم ٢ ، آية ٢٥٦ .
٢ تفسير الطبري (٣/ ١٠ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (٣/ ١٠ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٣/ ٢٨٠ وما بعدها) .
٤ الاصابة (١/ ٢٢٣ وما بعدها) ، (رقم١٠٧١) .
٥ اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب (ص ١٣) ، (القاهرة ١٩٢٧) .

لا يمكن ان يكون دليلاً على عزلة يهود الحجاز عن بقية اليهود . فقد أهمل غيرهم أيضاً ولم يشر اليهم ، لأن التأليف والنشاط الفكري عند العبرانيين كانا قد تركزا في هذه العهود على المستوطنات اليهودية في العراق وعلى فلسطين ، وعلى (طبريا) بصورة خاصة ، ولم تشتهر الجاليات اليهودية التي انتشرت في مواضع أخرى بالتأليف ، فكان من الطبيعي ان تنحصر أخبار اليهود في هذا العهد في هذين القطرين . ولهذا لم يشر الى يهود الحجاز والى يهود بقية جزيرة العرب . ثم إن الحجاز على اتصال بفلسطين ، وفلسطين جزء من الحجاز متمم له جغرافياً، وهو متصل بفلسطين منذ القدم ، وفلسطين منفذه التجاري ، وميناء (غزة) من المواضع التي كان يقصدها تجار الحجاز للاتجار ،والحركة مستمرة دوماً بين فلسطين والحجاز ، وقد كان تجار اليهود من أهل الحجاز يتاجرون مع بلاد الشأم وفي جملتها أرض فلسطين ، فلا يعقل بالطبع ان يصير يهود الحجاز في عزلة عن يهود فلسطين،والا يكون بين اليهودين اتصال . أما من ناحية الآراء الدينية والاعتقادية، فقد يكون بين اليهودين بعض الاختلاف ، فقد وقع اختلاف في الآراء بين أحبار يهود العراق وبين أحبار يهود فلسطين ، فلا يستبعد اذن رأي من يقول بوجود اختلاف في وجهة نظر يهود فلسطين بالنسبة ليهود الحجاز ، إذ قد يكون يهود الحجاز ويهود جزيرة العرب قد تأثروا بالعرب الذين نزلوا بينهم فاضطروا الى التخفيف من التمسك بشعائر دينهم ، لا سيما وان من بين يهود جزيرة العرب يهود متهودون ، كانوا في الأصل من أدوم ومن النبط ومن العرب ، دخلوا في اليهودية لعوامل متعددة ، فلم يكونوا لذلك على سنّة اليهود الأصليين في المحافظة على شريعتهم محافظة شديدة تامة .

وقد انتشر اليهود جماعات جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر الى يثرب ، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم . وقد أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم على دفع إتاوة لهم ، وعلى تقديم الهدايا اليهم لاسترضائهم . وكان من شأنهم أيضاً التفريق بين الرؤساء وإثارة الشحناء بين القبائل حتى لا تصفو الأحوال فيما بينها وتلتئم ولئلا يكون اتفاقها والتئامها خطراً يتهدد اليهود .

وليس الذي يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشاً الى الحجاز،واستقرار ذلك الجيش في يثرب بعد فتكه بالعماليق وبعد وفاة موسى ، ثم ما يذكرونه عن

هجرة داوود مع سبط يهوذا الى خيبر وتملكه هناك ثم عودته الى اسرائيل[1] وأمثال هذا إلا قصصاً من هذا النوع الذي ألفنا قراءته في كتب أهل الأخبار، لا أستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة أو من أسلم منهم ، لإثبات أنهم ذوو نسب وحسب في هذه الأرضين قديم ، وأنهم كانوا ذوي بأس شديد ، وأن تاريخهم في هذه البقعة يمتد الى أيام الانبياء وابتداء اسرائيل ، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين .

وقد زعم أهل الأخبار ، ان العمالقة كانوا أصحاب عز وبقي شديد ، وكانوا ينزلون الحجاز في جملة ما نزلوا من أماكن في ايام موسى . وكان منهم : بنو هف وبنو سعد وبنو الأزرق وبنو مطروق . وملكهم إذ ذاك رجل منهم اسمه (الأرقم) ، ينزل ما بين تيماء وفدك . وكان سكان يثرب من العمالقة وكذلك سكان بقية القرى . فلما تغلب عليهم العبرانيون انتزعوا منهم مساكنهم ، وأقاموا في مواطنهم في الحجاز[2] .

وقد أخذ أهل الأخبار ما رووه عن دخول اليهود إلى يثرب في ايام موسى ، وما ذكروه عن إرساله جيشاً إلى هذه المنطقة ، ثم ما رووه عن سكنهم القديم في أطراف المدينة وفي أعالي الحجاز ، من سفر (صموئيل الأول) من التوراة[3] . وقد حسب أهل الأخبار العمالقة من سكان يثرب القدماء ، ومن سكان أعالي الحجاز ، فزعموا ان تلك الحروب قد وقعت في هذه المنطقة ، وان اليهود قد سكنوها لذلك منذ ايام موسى . وقد أخذ الأخباريون رواياتهم هذه من اليهود ، وممن دخل منهم في الاسلام[4] .

ويرى بعض الأخباريين أن ابتداء أمر اليهود في الحجاز ونزولهم وادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب إنما كان في أيام (بخت نصر) ، فلما جاء (بخت نصر)

---

١ الاعاني (١٩/٩٤ وما بعدها) ، « أخبار أوس ونسب اليهود بيثرب وأخبارهم » ، ابن خلدون (٢/٨٨) ، (٢/٥٩٤) ، « دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٥٦ » ، أبو الفداء (١/١٢٣) ، ابن الأثير ، الكامل (١/٤٠١ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٥٩٤) «بيروت ١٩٥٦ » ، ابن هشام (٢/١٧) .

٢ الاعاني (١٩/٩٤) ، ابن هشام (٢/١٧) .

٣ صموئيل الاول : الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٥ وما بعد .

٤ Nöldeke, Beiträge, S. 52.

الى فلسطين ، هرب قسم منهم الى هذه المواضع واستقروا بها الى مجيء الإسلام[1]. وليس في هذا الخبر مـا يحملنا على استبعاده ، فهروب اليهود الى أعالي الحجاز ودخولهم الحجاز أمر سهل يسير ، فالأرض واحدة وهي متصلة والطرق مفتوحة مطروقة ، ولا يوجـد أي مانع يمنع اليهود أو غير اليهود من دخول الحجاز . لا سيما وأن اليهود كانوا خائفين فارين بأنفسهم من الرعب ، فهم يبحثون عن أقرب ملجأ اليهم يحميهم من فتك ملك بابل بهم . وأقرب مكان مأمـون اليهم هو الحجاز .

أما ما ورد في روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود الى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشأم وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم الى الفرار الى تلك الأنحاء الآمنة البعيـدة عن مجالات الروم ، فـإنه يستند الى أساس تأريخي صحيح[2] . فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدّى الى هجرة عدد كبير من اليهود الى الخارج ، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين .

وكان يقيم بـ (مقنا) عند ظهور الإسلام قوم من اليهود اسمهم (بنو جنبة) ، وقد كتب اليهم الرسول والى أهل (مقنا) يدعوهم الى الاسلام ، أو الى دفع الجزية[3] . وكتب الى قوم من يهود اسمهم (بنو غاديا)[4] ، والى قـوم آخرين اسمهم (بنو عريض)[5] .

ومن هؤلاء المهاجرين على رأي الأخباريين بنو قريظة وبنو النضير وبنو بهدل . ساروا إلى الجنوب في اتجاه يثرب ، فلما بلغوا موضع الغابة ، وجدوه وبيّاً ، فكرهوا الاقامة فيه ، وبعثوا رائداً أمروه ان يلتمس لهم منزلاً طيبـاً ، وأرضاً عذبة ، حتى إذا بلغ (العالية) ، وهي بطحان ومهزور واديان من حرة على تلاع أرض عذبة . بها مياه وعيون غزيرة ، رجع اليهم بأمرها ، وأخبرهم بما

---

١ الاغاني (١٩/٩٤) ، ابن خلدون (٢/٥٩٤) «دار الكتاب» ، أبو الفداء (١/١٢٣) ، الكامل (١/٤٠١) ، R. Donyy, Die Israeliten zu Mekka, S. 135.

٢ ابن خلدون (٢/٥٩٤) « بيروت ١٩٥٦ » .

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٦) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٩) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٩) .

رآه منها ، فقـر رأيهم على الاقامة فيها . فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان ، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم تلاعه وما سقى من بعاث وسموات[1] .

وسكن اليهود يثرب . سكنها منهم بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص وبنو ماسلة ، سكن هؤلاء المدينة وأطرافها ، وكان يسكن معهم من غير بني اسرائيل بطون من العرب ، منهم : بنو الحرمان حي من اليمن ، وبنو مرثد حي من بَلِيّ ، وبنو نيف وهم من بلي أيضاً ، وبنو معاوية حي من بني سُليم ثم من بني الحرث بن بهثة ، وبنو الشطيّة حي من غسان . وظل اليهود أصحاب يثرب وسادتها ، حتى جاء الأوس والخزرج ، فنزلوها واستغلوا الخلافات التي كانت قد وقعت بين اليهود ، فتغلبوا عليهم ، وسيطروا على المدينة ، وقسموها فيما بينهم ، فلم يبق من يومئذ عليها سلطان[2] .

وتذكر روايات أهل الأخبار أن مجيء الأوس والخزرج الى يثرب كان بعد حادث سيل العرم . جاؤوا اليها لفقر حالهم ، والتماساً لوطن صالح جديد، وأنهم حينما نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة . ولذلك قنعوا بالذي حصلوا عليه من أرض ضعيفة موات ، ومن رزق شحيح . أما المال والثروة والملك والجاه ، فلليهود . بقوا على ذلك أمداً حتى إذا ما ذهب مالك بن العجلان ، وهو منهم، الى أبي جبيلة الغساني رئيس غسان يومئذ ، ونزل عنده ، شكا لأمير غسان سوء حال قومه وما هم عليه من بؤس وضنك . فوعده أبو جبيلة أن يأتي على رأس جيش من قومه لمساعدته ، على أن يقوم بعد عودته ببناء حائر عظيم، يعلن أنه بناه لاستقبال الأمير فيه ، وأن يطلب من اليهود الخروج لاستقباله والتشرف بزيارته في ذلك الحائر ، فإن فعلوه ، فتك بهم وأبادهم . فلما تمّ البناء ، ووصل الأمير في الأجل الموقوت ، ودخل المدعوون رؤساء اليهود الحائر ، فتكت عساكر أبي جبيلة بهم وأهلكتهم . وتمت الغلبة من يومئذ للأوس والخزرج ، وعاد

---

١ الاغاني (٩٤/١٩ وما بعدها) ، ابن خلدون (٥٩٤/٢) ، تاريخ أبو الفداء (١٢٣/١) « مطبعة التقدم » .

٢ الاغاني (٩٥/١٩) ، الكامل ، لابن الاثير (٤٠١/١) .

أبو جبيلة الى مقر ملكه[1] .

غير ان اليهود ظلوا مع هذه الغلبة يتهاترون مع الأوس والخزرج ويعترضونهم ويتناوبونهم ، فعمد مالك بن العجلان إلى الحيلة ، فتظاهر انه يريد الصلح معهم، وانه عزم على تسوية العداوات وطمس الحزازات ، وانه لذلك يدعو رؤساءهم الى طعام ، ليتفاوضوا مع سادات قومه في أمر الصلح . فلما حضر رؤساء يهود، فتك بعشرات منهم ممن استجاب لدعوته ، وفرّ أحدهم ليخبر قومه بما حدث ، وحذر أصحابه الذين بقوا ، فلم يأت منهم أحد .

« فلما قتل مالك من يهود من قتل ، ذلّوا ، وقلّ امتناعهم ، وخافوا خوفاً شديداً ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم لبعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، ولكـــن يذهب اليهودي الى جيرانه الذين هو بين أظهرهم ، فيقول : انما نحن جيرانكم ومواليكم ، فكان كل قوم من يهود لجأوا الى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم » ومنذ ذلك الزمن لم يبق لليهود على هذه الأرضين سلطان[2] .

وورد في رواية أخرى ان (مالك بن عجلان) ، كان من الخزرج ، وكان سيد قومه يومئذ ، وكان على اليهود رجل منهم اسمه (الفَطْيون) ملك عليهم ، واستبد بأمر الناس ، وكان يهودياً ومن بني ثعلبة ، وكان امرأ سوء فاجراً ، قرر ألا تدخل امرأة على زوجها إلا بعد دخولها عليه . فاغتاظ مالك من فعـــل الفَطْيون ومن استذلاله للعرب ، ولما كان زفاف اخته لزوجها ، وكان لا بد من ادخالها على (الفطيون) أولاً ليستمتع بها ، كبر ذلك عليه ، فدخل معها في زي امرأة ، فلما أراد (الفطيون) الخلو بها ، وثب مالك عليه وعلاه بسيفه وقتله ، وخلّص قومه منه ، وفرّ عندئذ الى أبي جبيلة ملك غسان[3] .

وتذكر هذه الرواية أن (أبا جبيلة) لم يكن من غسان، بل كان من الخزرج، وكان عظيماً ذا منزلة كبيرة في الناس ، حتى صار ملكاً على الغساسنة ، ويرجح

---

١ الاغاني (١٩/ ٩٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/ ٥٩٦) ، ابو الفداء (١/ ١٢٣) ، الكامل (١/ ٤٠١) .

٢ الاغاني (١٩/ ٩٥ وما بعدها) ، ابن الاثير ، الكامل (١/ ٤٠١ وما بعدها) .

٣ ابن الاثير ، الكامل (١/ ٤٠١) ، وفي بعض الكتب « القطيون » ، بحرف القاف ، وهو تحريف ، المحبر (١١٢) ، جمهرة أشعار العرب (٢٤٣) ، (القاهرة ١٩٢٦ م) .

رواتها أنه لم يكن ملكاً على آل غسان ، بل كان مقرباً عند ملكهم ، عظيم الحظوة لديه . ودليلهم على ذلك عدم اعتراف الغساسنة بوجود ملك عليهم اسمه (عبيد بن سالم بن مالك بن سالم)،وهو اسم (أبو جبيلة) المذكور . ويذكرون أن (الرمق بن زيد الخزرجي) مدحه بشعر قاله فيه[1] .

وتذكر رواية ان الفطيون اسم عبراني ، واسمه (عامر بن عامر بن ثعلبة بن حارثة) ، وكان تملك بيثرب . فلما قتل خرج مالك بن العجلان ، حتى قدم على (أبي جبيلة) ملك غسان ، فأعلمه غلبة يهود على يثرب وفعله بهم، فقدم (أبو جبيلة) يثرب ، ثم صنع طعاماً ، ومكن الأوس والخزرج ممن دعاهم الى الطعام من قتل مائة من أشراف اليهود ، فقويت الأوس والخزرج عليهم[2] .

وجاء في رواية أخرى ، أن (مالك بن العجلان) ، إنما فرّ الى (تبع) ، بعد قتله (الفطيون) فاستصرخه على اليهود ، فجاء حتى قتل ثلثمائة وخمسين رجلاً غيلة من سادات يهود بـ (ذى حرض) ، ولما أدبهم رجع الى أرضه اليمن[3] .

أما مالك بن العجلان ، فقد صوره اليهود شيطاناً ملعوناً ، وصوروه في بيعهم وكنائسهم ليلعنوه كلما دخلوا ورأوه ، وذكروه في شعرهم في أقبح هجاء قالوه[4].

وقد كان بين يهود يثرب قوم يقال لهم (بني الفطيون) بقوا حتى جاء الرسول الى يثرب . فأجلاهم في السنة الثالثة من الهجرة[5] . وذكر (ابن دريد) أن بعضاً من (بني الفطيون) الذين هم من نسل (الفطيون) ملك يثرب ، قد شهد (بدراً) واستشهد بعضهم يوم اليمامة . وذكر أن نسب (الفطيون) في غسان . وان من ولد الفطيون : (أبو المقشعر) واسمه (أسيد بن عبدالله)[6] .

---

١ ابن الاثير ، الكامل (١/٤٠١ وما بعدها) .

٢ نوادر المخطوطات ، أسماء المغتالين (١٣٦ وما بعدها) .

٣ البدء والتأريخ (٣/١٧٩) .

٤ الاغاني (١٩/٦٩) ، الاشتقاق (ص ٢٧٠) ،

Graetz, Geschichte der Juden, V, S. 431, Hirschfeld, Essai de l'histoire des Juives de Medine, in Revue Etudes Juives, VII, 1883, p. 173, Caussin de Perceval, Essai, II, p. 652, Wellhausen, Skizze, IV, S. 33, Nallino, Raccolta, III, p. 111.

٥ المحبر (١١٢) .

٦ الاشتقاق (٢/٢٤٩) ، « وستنفلد » .

وقد فسّر أهل الأخبار كلمة (الفطيون) بـ (مالك) ، وقالوا إنها تقابل (النجاشي) عند الحبشة ، و (خاقان) عند الترك . وذكروا أسماء نفر ممن كانوا يلقبون بالفطيون [1] .

ويفهم من روايات الأخباريين ان يهود الحجاز كانوا قبائل وعشائر وبطوناً ، منهم : بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو عكرمة ، وبنو محمر ، وبنو زعورا ، وبنو زيد ، وبنو الشطية ، وبنو جشم ، وبنو بهدل ،وبنو عوف ، وبنو القصيص (العصيص) ، وبنو ثعلبة [2] . غير انهم لم يكونوا أعراباً ، أي بدواً يتنقلون من مكان الى مكان ، بل كانوا حضراً استقـروا في الأماكن التي نزلوا فيها ، ومارسوا مهن أهل المدر ، كل جماعة مستقلة تحمل اسمـاً من تلك الأسماء التي ذكرها الأخباريون .

وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود بـ (الكاهنين) ، نسبوا ذلك الى جدهم الـذي يقـال له (الكاهن) . و (الكاهن) هو الكاهن بن هارون بن عمران على زعم بعض أهل الأخبار [3] . فهم على هذه النسبة من أصل رفيع ومن نسب حسيب ، يميزهم عن بقية طوائف يهود. ولهذا كانوا يفتخرون بنسبهم هذا ، ويرون لهم السيادة والشرف على من سواهم من اخوانهم في الدين.

ويرى (نولدكه) احتمال كون بني النضير وبني قريظة من طبقة الكهّان في الأصل : هاجروا من فلسطين على أثر الحوادث التي وقعت فيها ، فسكنوا في هذه الديار . وهناك جملة عشائر وأسر يهودية تفتخر بإلحاق نسبها بالكاهن هارون شقيق موسى النبي [4] .

كذلك يرجع (أوليري) كأمثاله من المستشرقين أصل بني قريظة وبني النضير الى اليهود ، ويرى انهم غادروا ديارهم وجاءوا الى هذه المنطقة في الفترة الواقعة ما بين خراب الهيكل في عام ٧٠ للميلاد وتنكيل (هدريان) باليهود في عام ١٣٢ للميلاد [5] .

---

١ الاشتقاق (٢/٢٥٩) .

٢ الاغاني (١٩/٩٥ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (٢/١٤٧ وما بعدها) ، Nöldeke, Beitage, S. 54.

٣ الاغاني (١٩/٩٥) ، تاج العروس (٥/٢٥٩) ، (قرظ) ، Margoliouth, p. 59, Graetz, History of the Jews, III, p. 56.

٤ Nöldeke, Beiträge, S. 55.

٥ O'beary, p. 173.

ويرجع بعض بقية يهود جزيرة العرب نسبهم الى الكاهنين والى الأسباط العشرة كذلك، فيدعون انهم من تلك الأسباط المفقودة ، وانهم من نسل قدماء اليهود[1] .

وقد كانت منازل بني النضير حينما غزاهم الرسول في وادي بطحان وبموضع البُويرة[2] . ووادي بطحان ، هو أحد أودية يثرب الثلاثة ، وهي : العقيق وبطحان وقناة . وهو وادٍ فيه مياه غزيرة وعيون ، اتخذ به اليهود الحدائق والآطام . وقد كان موضع البُويرة عامراً كذلك ، وهو من تيماء ، فيه نخل وزرع وأشجار . وقد غزاهم الرسول بعد ستة أشهر من غزوة أحد ، فأحرق نخلهم وقطع زرعهم وشجرهم لتطاولهم على المسلمين . ومن ساداتهم : حيي بن أخطب ، وأخوه ياسر بن اخطب ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع، وهو ابو رافع الأعور ، والربيع بن أبي الحقيق[3] . وعمرو بن جحاش .

ومن بني النضير ، كعب بن الأشرف ، وكان معاصراً للرسول ، وكان صاحب لسان ونفوذ . أبوه من طيء على رواية ، ومن بني النضير على رواية أخرى . أما أمه فهي من بني النضير بإجماع الرواة . توفي أبوه – على رأي من يقول إنه من طيء – وهو صغير ، فحملته أمه الى أخواله ، فنشأ فيهم ، وقال الشعر عندهم ، وساد . ولما جاء الرسول الى يثرب ، كان كعب فيمن ناصب الرسول العداء فعلاً وقولاً ، فهجا الرسول ، وهجا أصحابه ، وظل هذا شأنه بالرغم من محاولة المسلمين استصلاحه واسترضاءه . حتى جنى عليه لسانه ، فأهدر النبي دمه ، فذهب اليه نفر من المسلمين ، فاقتحموا داره وقتلوه . وقد كانت له مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج[4].

---

١ Nallino, Raccolta, III, p. 99, Friedlander, The Jews of Arabia and the Rechabites, in Jews quarterly Review, 1910-1911, p. 254.

٢ بالضم ثم السكون ، وقيل بفتح أوله وكسر ثانيه وبفتح أوله وسكون ثانية ، البلدان (٢/٢١٦) ، (١/٥١٢ وما بعدها) ، (السعادة) .

٣ البلدان (٢/٣١٠ وما بعدها) ، البكري ، معجم (١/٢٨٥) « طبعة مصطفى السقا » « بويرة » ، شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص ١٩٣ وما بعدها) ، الطبري (٢/٢٢٤) ، (الاستقامة) ، فتوح البلدان ، للبلاذري (١/٣٢) ، (١٩٣٢ م) ، (القاهرة) .

٤ الاغاني (١٩/١٠٦ وما بعدها) ، المحبر (ص ١١٧ ، ٢٨٢ ، ٣٩٠) ، ديوان حسان (ص ٤٦) «طبعة هرشفلد» ، شرح ديوان حسان (ص ٢٧٢ وما بعدها) «للبرقوقي»، الكامل ، لابن الاثير (٢/٩٩) ، الطبري (٢/١٧٧) ، معجم الشعراء ، للمرزباني (٣٤٣) ، ابن خلدون (٢/٧٥٧) ، ابن هشام (٢/٥٤٨) ، البداية والنهاية (٤/٧٤) .

وكان قد ذهب الى مكة ، فحرض قريشاً على الرسول ، ولما عاد الى موضعه ، ألب المشركين من أهـــل يثرب عليه . ورثا قتلى القليب ، فقتله المسلمون كما ذكرت[1] .

وكانت لبني قريظة حصون ، يتحصنون بها وقت الخطر ، ولهم آبار ، ومنهم (محمد بن كعب القرظي)[2] . والزبير بن باطان بن وهب ، وعزال بن شمويل ، وكعب بن أسد ، وشمويل بن زيد ، وجبل بن عمرو بن سكينة .

وكان بنو قينقاع أول اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء ، وكانوا يسكنون في أحياء يثرب ، وكانوا أغنياء على غير وفاق ووئام مع بقية أبنـــاء قومهم بني قريظة وبني النضير . وقـــد اشتركوا في يوم بُعاث . ووقعت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة معارك فتك فيها ببني قينقاع ، وأصيبوا بخسائر كبيرة اضطرتهم على ما يظهر الى الالتجاء الى يثرب والإقامة فيها في حي واحد من المدينة[3] .

ويرى (أوليري) احتمال كون بني قينقاع من أصل عربي متهود ، أو من بني أدوم[4] .

وقد تكون بعض القبائل اليهودية التي ذكر أسماءها الأخباريون قبائل يهوديـــة حقـــاً ، أي من الجماعات اليهودية التي هاجرت من فلسطـــين في ايام القيصر (طيطوس) Titus ، أو (هدريان) Hadrian ، او قبل ايامها ، او بعدها . ولكن بعضاً آخر منها ، لم يكن من أصل يهودي ، انما كانت قبائـــل عربية دخلت في دين يهود ، ولا سيما القبائل المسماة بأسماء عربية أصيلة . ولبعض هذه

---

١ التنبيه (٢٤٣) ، والمصادر المذكورة ، السيرة الحلبية (٢/٩٤ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٤٠١ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٦٠٨) ، ابن عساكر (١/٤٠) ، البداية والنهاية (٤/٧٤ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٥/٢٥٩) ، (قرظ) ، البداية والنهاية (٤/١١٦) ، الاغاني (١٩/٩٤)، فتوح البلدان ، للبلاذري (١/٢٣ ، ٣٥) ، الطبري (٢/٢٤٥) ، (الاستقامة) ، السيرة الحلبية (٢/١٤٥ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٧٧٧) .

٣ البداية والنهاية (٤/٣) ، الطبـري (٢/١٧٢) ، (الاستقامة) ، البـــدء والتاريخ (٤/١٩٥) ، البلدان (٧/١٩٩) ، ولفنسون (١٢٨ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٢/٢ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٦٠٨) .

٤ O'beary, p. 173. f.

الأسماء ، صلة بالوثنية تشعر انها كانت على الوثنية قبل دخولها في دين يهود[1] . والظاهر انها تهودت إما بتأثير التبشير ، وإما باختلاطها ودخولها في عشائر يهودية جاورتها فتأثرت بديانتها . وقد ذكر البكري ان (بني حشنة بن عكارمة) ، وهم من بليّ قتلوا نفراً من بني الربعة ، ثم لحقوا بتيماء « فأبت يهود ان يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم ، فتهودوا ، فأدخلوهم المدينة . فكانوا معهم زماناً ، ثم خرج نفر الى المدينة ، فأظهر الله الاسلام ، وبقية من أولادهم بها »[2]. وهنالك بطون أخرى عربية الأصل كانت على دين يهود[3] .

وقد اشتهر يهود خيبر من بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم . وخيبر موضع غزير المياه كثيره ، وقد عرف واشتهر بزراعته وبكثرة ما به من نخيل . وعند اجلاء اليهود عن خيبر ، تفرقوا فذهب بعض منهم الى العراق ، وبعض آخر الى الشأم ، وبعض منهم الى مصر . وقد بقوا في كل هذه المواضع متعصبين لوطنهم القديم خيبر ، ينادون بشعارهم الذي كانوا ينادون به قبل الاسلام ، وهو : (يا آل خيبر)[4] .

وقد اشتهرت (خيبر) وعرفت بالحمى . حتى نسبت اليها ، فقيل لها (حمى خيبرية) . وكان من أساطيرهم إذ ذاك ، أن من أراد دخولها فعليه بالتعشير ليتخلص منها . وكان من أوابدهم فيما يزعمون أن الرجل إذا ورد أرض وباء ووضع يده خلف اذنه ، فنهق عشر نهقات نهيق الحمار ، ثم دخلها أمن من الوباء[5] .

وزعم أن يهود خيبر هم من نسل (ركاب) المذكور في التوراة[6] ، وأن (يوناداب) Jonadab (جندب) ابنه : تبدى مع أبنائه ومن اتبعه ، وعاش

---

١ Margoliouth, p. 60, Nöldeke, Beiträge, S. 52, Wüstenfeld, Geschichte von Medina, S. 28.

٢ البكري (١/٢٩) «طبعة السقاء» ، Islamic Culture, III, Vol., 2, p. 177.

٣ Nöldeke, Beiträge, S. 55.

٤ المشرق : السنة السادسة والثلاثون ، ١٩٣٨ (ص ١٥٢ وما بعدها) .

٥ قال عروة بن الورد :

واني وان عشرت من خشية الردى نهاق حمار انني لجزوع

تاج العروس (٣/٤٠٢) ، (عشر) .

٦ الملوك الثاني : الاصحاح العاشر ، الآية ١٥ ـ ٢٨ ، Hastings, p. 784.

عيشة تقشف وزهد وخشونة ، وأن نسلهم هاجر بعد خراب الهيكـــل الأول الى الحجاز حتى بلغوا خيبر ، فاستقروا بها ، واشتغلوا بزراعة النخيـــل والحبوب ، وأنهم أقاموا فيها قلاعاً وحصوناً تحميهم من غارات الأعراب عليهم . ذكر بعض الأخباريين أنها ولاية من سبعة حصون ، منها : حصن ناعم ، والقموص حصن ابن أبي الحقيق وهو أقواها وأعزها وقد أقيم على مرتفع من الأرض حماه وعزز دفاعه ، وحصن الشق ، وحصن النطـــاة ، وحصن السلالم ، وحصن وجده ، وحصن الوطيح ، وحصن الكتيبة (الكثيبة) . وقد أخرجوا منها وأجلوا عنهـــا زمان عمر بن الخطاب [1] .

وقد زعم بعض الأخباريين ان خيبر لفظة عبرانية ، وان معناهـــا الحصن في عربيتنا [2] . وزعم بعض آخـــر انها نسبة الى رجـــل اسمه (خيبر بن فاتيه بن مهلاييل) ، سميت خيبر باسمه ، لأنه كان أول من نزلها [3] . وذهب (وايل) Weil ، الى ان اللفظة لفظة عبرانية ، وهي بمعنى مجموعة مستوطنات[4] . أمـــا (دوزي) ، فقد أخذ بالرواية العربية ، فزعم ان (خيبر) ، كناية عن جماعة من اليهود هاجرت في أيام السبي من فلسطين الى هـــذا الموضع ، وهي من نسل (شفطيا بن مهللئيـــل) من (بني فارص)[5] . وان (فاتيـــه) ، هو تحريف (شفطيا) Shaftja المذكور في سفر (نحميا) من أسفار التوراة ، وهو ابن (مهللئيل) ، الذي هو (مهلاييل) عند أهل الأخبار . وزعم ان زمان هجرة هذه الجماعة يتناسب تماماً مع الرواية القائلة ان هجرة اليهود الى جزيرة العرب كانت في ايام (بخت نصر)[6] .

وذهب المستشرقون ان كلمة (خيبر) ، كلمة عبرانية الأصل (خيبر) Kheber

---

١ البلدان (٣/٤٩٥ وما بعدها) ، البكري ، معجم (١/٥٢١) ، تاج العروس (٣/١٦٨)، (خبر) ، زاد المعاد (٢/١٣٣) ، تاريخ الاسلام (١/٢٩٤ وما بعدها) ، Graetz, III, p. 56, Ency., II, p. 869, Caetani, Annali., II, I, 8-33.

٢ ابو الفداء ، (ص ٨٩) ، البلدان (٣/٤٩٥) ، البكري ، معجم (٢/٥٢١ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/١٦٨) ، (خبر) .

٣ R. Dozy, Mekka, S. 136.

٤ Mohammed der Prophet, S. 185.

٥ نحميا ، الاصحاح الحادي عشر ، الآية ٤ وما بعدها .

٦ R. Dozy, Mekka, S. 136. f.

ومعناها الطائفة والجماعة[1] . وذهب بعضهم الى ان معناها الحصن والمعسكر[2]. وهي من أقدم المواضع التي لجأ اليها اليهود في الحجاز .

ومن الصعب تعيين الزمن الذي هاجر فيه اليهود الى هذا الموضع . لقد رجع بعضهم ذلك الى ايام هجوم الرومان على فلسطين . غير ان من الجائز ان تكون هجرتهم اليها قد وقعت قبل ذلك ، ومن الجائز ان تكون في اثناء السبي واستيلاء البابليين على القدس ، وقد يجوز ان يكون قوم منهم قد جاءوا مع (نبونيد) ملك بابل الى تيماء حين اتخذ (تيماء) عاصمة له . فهاجر قسم منهم الى خيبر والى نواح أخرى من الحجاز[3] .

وأقدم إشارة كتابية ورد فيها اسم خيبر ، نص : حرّان اللجـاة ، ويرجع تأريخه الى سنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقطية الأولى ، وتقابل سنة ٥٦٨ للميلاد . وقد ورد فيه : « بعـد مفسد خيبر بعم »[4] . أي بعد خرب خيبر بعام . وهو يشير الى غزو لهذا الموضع أنزل به خسائر كبيرة ، ولأهميته وفداحته في نفوس أهله أرخوا بوقوعه . ويعود النص المذكور المدون باليونانية والعربية الى (شرحيل بن ظلمو) (شراحيل بن ظالم) ، وقد دوّنه لمناسبة بنائه (مرطولاً) ، فأرخ بتاريخ خيبر المذكور . وهو يشير الى غزوة قام بها أحد أمراء غسان على خيبر[5] .

وقد وجدت كتابات بحروف المسند وكتابات نبطية في خيبر ، هي أقدم عهداً من نص (حرّان اللجاة) ، يفهم منهـا بوجود سكن في هذه الأرضين يعود بعضه الى ما قبل الميلاد . ولم تكتشف تربة خيبر حتى الآن ، وكل ما عثر عليه من عاديات فيهـا هو من النوع الذي وجد ظاهراً على سطح الأرض ، وليس بمستبعد أن يعثر فيها على كتابات قد تكشف عن تأريخ هذه البقعة .

ولما بلغ أهل تيماء ما حدث لإخوانهم في خيبر ووادي القرى ، وفدك ، قبلوا

---

١ Charles Cutler Torrey, The Jewish Foundations of Islam, New York, 1933, p. 13.

٢ Ency., II, p. 870.

٣ Torrey, p. 17, A. Müller, Der Islam, Bd., I, S. 36. ff.

٤ جواد علي ، العرب قبل الاسلام (١/١٩٥ وما بعدها) .

٥ المصدر المتقدم ، المعارف (٣١٣) ، ولفنسون ، السامية (١٩٢) .

الجزية ، وصالحوا الرسول في سنة تسع للهجرة ، فضمن بذلك لهم حرية بقائهم في دينهم . وعلى تيماء كان يشرف حصن السموأل (الأبلق الفرد) . وقد نعتت تيماء في بعض الأشعار بتيماء اليهود[1] .

وتيماء من المواضع القديمة . وقد مرّ الحديث عنها في أماكن من هذا الكتاب . وقد سبق أن قلت بأن الملك (نبو نيد) قد أقام زماناً فيها ، حيث اتخذها عاصمة له . وهي في موقع حسن ، وملتقى طرق هامة يسلكها التجّار . وقد استبد بها اليهود فأقاموا بهـا وجعلوها من أهم مستوطناتهم في الحجاز . استغلوا أرضهـا فزرعوها ، واستنبطوا الماء من الآبار بالإضافة الى واحتها ذات المياه العذبة الغزيرة التي كان لها الفضل في تكوين هذا الموضع واعماره . وقد ذكرت في شعر (امرىء القيس) ، وفيهـا كان حصن السموأل بن عـادياء المذكور في قصص امرىء القيس الشاعر .

ويرى بعض المستشرقين ان (شمعون التيماني) Simeon of Temanite المذكور في التلمود والمدراش ، هو من أهل (تيماء)[2] . ولا يستبعد ان يكون من بين أهل هذه المدينة من حصل على شهرة في العلم بفقه اليهود وبأحوال دينهم . فان مركزها وموقعها يجعل من السهل على سكانها الوصول الى فلسطين وبقية بلاد الشأم وأخذ العلم من علماء تلك البلاد .

وقد عثر الرحّالة (أويتنك) Euting على كتابة مدونة بقلم بني إرم تعود الى عهد كان الفرس قد استولوا فيه على هذا المكان ، تتحدث عن أهميـة تيماء ورقيها في هذا العهد[3] . ولا يستبعد العثور على كتابات عديدة اذا ما قام العلماء بالتنقيب عنها في باطن الأرض ، فإن موضعاً مثل هـذا الموضع لا بد ان يكون غنياً بالكتابات والآثار . وقد وجد (أويتنك) آثار معبد قديم ، وآثار مواضع عتيقة أخرى ترجع الى ما قبل الاسلام[4] . ووجد (جوسن) Jaussen و (سافينه) Savignac آثار مقابر عـلى تلال من النوع الذي يطلق عليـه الآثاريون اسم

---

١ البلدان (٢/٤٤٢) « تيماء » ، فتوح البلدان (١/٢٩) .

٢ Mishna Yadayim, I, 3, Yebamoth, 4, 13, Tosephta Berachoth, 4, 24, Sanhedr, 12, 3, Besa, 2, 19, Bab. Talmud, Zebachim, 32 b. Baba gamma, 90 b., Besa, 21a Tarrey, pp. 26 Margoliouth, p. 68.

٣ Ency., IV, p. 622.

٤ Euting, Tagebuch einer Reise in Innerarabien, II, 148, 199.

(تمولي) Tumuli ، ومرقاة مدرجة تؤدي الى بناء مربع لعله معبد من معابد القوم بُني على هذا التل[1] .

ولا توجد اليوم بقية للأبلق الفرد ، الذي افتخر السموأل وآل السموأل به ، وكذلك يهود تيماء . وليس بمستبعد ان يكون ذلك الحصن من بقايا قصر (نبونيد) أو من بقايا قصور رجاله ، أو من بقايا أبنية غيره ممن نزل هذا المكان . وقد يكون بناء أقامه السموأل وبناه بحجر تلك الأبنية القديمة. وقد اكسب قصر السموأل هذا الموضع شهرة ، وأكسبه خبر وفاء السموأل شهرة كذلك على النحو المذكور في كتب الأدب والأخبار[2] .

وفدك موضع آخر من المواضع الذي غلب عليه اليهود . وسكانه مثل أغلب يهود الحجاز مزارعون عاشوا على الزراعة كما اشتغلوا بالتجارة وببعض الحرف التي تخصص فيها اليهود مثل الصياغة والحدادة والنجارة[3] . والموضع من المواضع القديمة التي يعود عهدها الى ما قبل الإسلام ، وقد ذكره الملك (نبونيد) في جملة المواضع التي زارها والتي خضعت لحكمه في الحجاز . وكان رئيس فدك عند ظهور الإسلام وهجرة الرسول الى يثرب يوشع بن نون[4] .

ووادي القرى ، هو من المواضع التي غصت باليهود ، فكان أكثر أهله منهم. وقد كان يهوده من المزارعين[5] ، وقد حفروا به الآبار ، وتحالفوا مع الأعراب، وعاشوا معهم متحالفين . يعملون بالزرع . وقد غزاهم الرسول مرجعه من خيبر سنة سبع للهجرة ، على أثر اصابة (مدعم الأسود) مولى الرسول بسهم غارب قتله . وهو مولى مولد من (حسمى) ، كان أهداه (رفاعة بن زيد الجذامي) أو (فروة بن عمرو الجذامي) الى الرسول[6] .

---

١ Jaussen and Savignac, Mission Archéologique, II, pp. 133, 163,

٢ أبو الغداء ، تقويم البلدان (٨٦) ، البكري ، معجم (٣٢٩/١) ، البلدان (٦٧/٢) ، اللسان (٧٦/١٢) « صادر » ، ابن حوقل ، صورة الارض (٣٠) ، ابن خلدون (٥٧٤/٢) ، دائرة المعارف الاسلامية « الترجمة العربية » (١٣٠/٦) .

٣ البكري ، معجم (٣٢٧/١) ، تقويم البلدان (٧٨) ،

٤ الطبري (٩٨/٣) « حوادث السنة السابعة » ابن الاثير (٩٣/٢) ، « ذكر فدك » ، البلاذري ، فتوح (٣٦ وما بعدها) ، Nallino, Raccolta, I, 198, III, 97.

٥ زاد المعاد (١٤٦/٢) .

٦ الطبري (١٦/٣) ، (ذكر غزوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وادي القرى) ، الاصابة (٣٧٤/٣) ، (رقم ٧٨٥٨) .

وكان بين أهل مقنا وأيلة في ايام الرسول قوم من اليهود كذلك ، وكذلك أهل بقية القرى الواقعة في أعالي الحجاز وعلى ساحل البحر ، وقد صالحوا الرسول على الجزية ، وبذلك ضمنوا لهم البقاء في هذه الأنحاء [1] . ومن هؤلاء اليهود (بنو جنبة) ، وهم يهود بـ (مقنا)[2]،و (بنو غاديا)[3] ، و(بنو عريض)[4].

وكان بالطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب ، فجاءوا اليها ، ولم تكن قد أسلمت بعد ، فأقاموا بها للتجارة . فلما صالح أهل الطائف الرسول – على ان يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم ، واشترط عليهم ألا يربوا ولا يشربوا الخمر وكانوا أصحاب ربا – وضعت الجزية على يهودها ، وبقوا فيها ، ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف[5] .

ويظهر انه لم تكن لليهود جاليات كبيرة في جنوب المدينة حتى اليمن ، لعدم إشارة أهل الأخبار اليهم ، وان كنت لا أستبعد وجود أفراد وأسر منهم في مكة وفي عدن وفي المدن التي اشتهرت بالتجارة كبعض موانىء البحر الأحمر وموانىء سواحل العربية الجنوبية . غير ان وجودهم في هذه المواضع ، لم يكن له أثر واضح مهم ، فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار .

وقد ذهب بعض المستشرقين ، استناداً الى دراسة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الاسلام ، الى ان اولئك اليهود لم يكونوا يهوداً حقاً ، بل كانوا عرباً متهودين، تهودوا بتأثير الدعاة اليهود[6] . ولكن الاستدلال من دراسة الأسماء على أصول الناس ، لا يمكن ان يكون حجة للحكم على أصولهم وأجناسهم . فالفرس والروم والهنود وغيرهم ممن دخل في الاسلام ، تسمّوا بأسماء عربية ، وبعضها أسماء عربية خالصة . وتسمياتهم هذه لا تعني ان من تسمى بها كان عربي الأصل . ثم إن كثيراً من اليهود في الغرب وفي أمريكة وفي البلاد العربية والاسلامية ، سمّوا أنفسهم بأسماء غير عبرانية ، ولكنهم كانوا وما زالوا على دين يهود .

---

١ البلدان (١٢٨/٨) « مقنا » ، البلاذري ، فتوح (٦٦) ، زاد المعاد (١١٧/٢) ، الطبري (٢٣٢/٢ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧٦/١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .
٥ البلاذري ، فتوح (٦٣) .
٦ W. Caskel, Das attarabische köningreich Lihyan, S. 19.

فالأسماء وحدها لا تكفي في اعطاء رأي علمي في تعيين الأصول والأجناس ، ولا سيا في المواضع الكائنة على طرق التجارة والمواصلات وفي الأماكن التي يكثر فيها الاختلاط .

وللمستشرق (ونكلر) رأي في هذا الموضوع ، خلاصته : ان اولئك اليهود لو كانوا يهوداً حقاً هاجروا من فلسطين الى هذه المواضع ، لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعي على خلاف ما كان عليه هؤلاء اليهود . كانت حالتهم أرقى وأرفع من الحالة التي كانوا عليها ، إذ لا يعقل ، على رأيه ، وصول جماعة الى ذلك المستوى الاجتماعي الذي كان عليه يهود جزيرة العرب لو كانوا من بلاد مستواها الثقافي والمدني أرقى من مستوى من هو دونهم كثيراً في شؤون الحياة . ومستوى الحياة في جميع نواحيها ، في فلسطين ، أرقى وأرفع من مستواها في الأماكن التي وجد فيها اليهود من بلاد العرب . فهم على رأيه عرب متهودون ، لا يهود مهاجرون[1] .

غير أن هنالك من يؤاخذ ونكلر على هذا الرأي ، لأن رأيه لا يمكن ان ينطبق على من ترك دياره وهاجر ، واستقر في موطن جديد لأمد طويل ، لأن الأوضاع المحيطة بالوطن الجديد سرعان ما تؤثر في المهاجرين ، ولا سيا إذا كانوا جماعات صغيرة أو جماعات ليست ذات بأس شديد ، فتجعلها تنصاع للمحيط الذي نزلت به بعض الإنصياع ، فتفقد بعض خصائصها ، لتكتسب خصائص المجتمع الجديد. ثم إن اليهود الذين نزلوا في الحجاز ، كانوا يختلفون مع ذلك عمن كان في جوارهم أو بينهم ، إذ كانوا يشتغلون بالزراعة ويمتهنون بعض المهن التي يأنفها العربي الأصيل ، كما أنهم كانوا لا يرغبون في القتال ، ولا يميلون الى الغزو والحروب، ولم يشتركوا إلا اضطراراً وإلا بإلحاح المصالح الضرورية فيها ، وهم يختلفون في هذه الناحية من الأعراب[2] .

ويلاحظ أن يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها ويحافظون عليها محافظة شديدة ، كما حافظوا عليها في الأقطار الأخرى . فأكثر أسماء القبائل والبطون والأشخاص ، هي أسماء عربية ، والشعر المنسوب الى شعراء منهم ، يحمل الطابع العربي ، والفكر العربي . وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية

---

١ Winkler, Mett. Var. Asal. Ges., VI, S. 222.

٢ Margoliouth, p. 62.

لم يكونوا يختلفون اختلافاً كبيراً عـن العرب ، فهم في أكثر أمورهم كالعرب فيما سوى الدين[1] . ولعل هذا بسبب تأثير العرب المتهودة عليهم ، وكثرتهم بالنسبة الى من كان من أصل يهودي ، مما سبب تأثيرهم،وهم ذوو أكثرية ، في اليهود الأصليين الذين أثروا فيهم فأدخلوهم في دينهم ، فأثروا هم فيهم ، وطبعوهم بطابع عربي .

وقد عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها ، فلبسوا لباسهم ، وتصاهروا معهم ، فتزوج اليهود عربيات ، وتزوّج العرب يهوديات ، ولعلّ كون بعض يهود من أصل عربي ، هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس . والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود عنـد ظهور الاسلام هو الاختلاف في الدين . وقد تمتع اليهود بحرية واسعة لم يحصلوا عليها في أي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد[2] .

ومن الأسماء التي قد تكون من أصل عبراني (زعورا) ، وهو اسم عبراني متأثر بلهجة بني إرم ، و (يساف) ، وقد يكون من (يوسف) ، و (نبتل) وقد يكون من (نفتالي) Naftali ، وأسماء أخرى لم تتمكن من المحافظة على أصلها العبراني ، فتأثرت بخواص اللسان العربي . وليس بين أسماء البطون اليهودية الأحد عشر ، التي كانت في الحجاز في أيام ظهور الإسلام ، اسم تظهر عليه الملامح العبرانية غير الاسم الذي ذكرته وهو (زعوراء)[3] .

وكانت يثرب عند هجرة الرسول اليها ، في أيدي أصحابها الأوس والخزرج، لهم السيطرة والسلطان ، ولليهود آطامهم وقلاعهم في خيـبر وفي تيماء وفي بعض قرى وادي القرى وفي أعالي الحجاز ، يتاجرون ، ويزرعون ،ويقرضون الأموال بالربا الفاحش للأعراب ، ويحترفون بعض الحرف مثل الصياغة ، وهـي حرفة اشتهروا بها منذ القديم ، ويعقدون الأسواق ليقصدها الأعراب للامتيار .

ولكن اليهود مع ما كان لهم من قلاع وآطـام وقرى عاشوا فيها متكتلين مستقلين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم وسلطانهم على الأرضين التي أنشأوا مستوطناتهم

---

١ Nöldeke, Beiträge, S. 55. f.

٢ Graetz, III, p. 58, f., 60.

٣ Margoliouth, p. 60, Nallino, Raccolta, III, p. 104, H. Hirschfeld, Essai sur l'histoire des Juifs de Medine, in Revue des Etudes Juifs, X, 1885, p. 11. f.

فيها ، ولم يتمكنوا من انشاء ممالك وحكومات يحكمها حكام يهود ، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل ، يؤدون لهم إتاوة في كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ومنع الأعراب من التعدي عليهم . وقد لجأوا الى عقد المحالفات معهم ، فكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين .

وقد كان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم ، يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه في كل سنة . وهؤلاء السادة هم أصحاب الآطام والحصون والأرض . ولمن يشتغل في الأرض تسديد ما عليه لصاحبها في مقابل استغلاله لها . وقد اعتنوا عناية خاصة بزراعة النخيل . وعرفت القطعة من الأرض المزروعة نخلاً عندهم بـ (الصورين) (الصور)[١] . ولما كانت الأرضون المزروعة واسعة ، كانت خارج الآطام والحصون ، يحميها حراسها والمشتغلون بها أيام ثمرتها . وأما في أيام الغزو والحروب ، فقد كانت معرضة لهجوم المهاجمين. وهذا ما كان يعرض أعظم غلة لليهود للخطر ، ولهذا شق عليهم كثيراً،وانهارت مقاومتهم حين أمر الرسول بقطع النخل وتحريقه،وأخذوا يلتمسون منه وقف ذلك .

ويتولى الأحبار الأمور الدينية وتنفيذ الأحكام والنظر فيما يحدث بين الناس من خصومات . يقيمون لهم الصلوات وبقية شعائر دينهم ، ويعلمونهم في بيوت المدارس .

وقد أدى التنافس بين سادات يهود الى نشوب معارك بينهم في الجاهلية . وقد أشار اليها القرآن الكريم وأنبهم على ذلك . واضطرت بنو قينقاع بسبب ذلك وبضغط بني النضير وبني قريظة الى الالتجاء الى أحياء يثرب والى محالفة الخزرج، وفي مقابل ذلك تحالفت بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس ، فصاروا فرقتين : فرقة مع الخزرج ، وفرقة مع الأوس .

وفي تأنيب يهود ، لتخاصمهم وتنابذهم واخراجهم بعضهم بعضاً من ديارهم وأسر بعضهم بعضاً وافتداء الأسرى كالذي وقع بين بني قينقاع وبني النضير ، نزل الوحي : « وإذ أخذنا ميثاقكم ، لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم

---

١ الروض الانف (٢/١٩٤) ، ابن هشام (٢/١٩٥) ، (حاشية على الروض) ، (الصور: أصل النخل) ، (الصور : النخلة) ، تاج العروس (٣/٣٤٣) ، (صور) .

من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان . وإن يأتوكم أسرى ، تفتدوهم وهو محرم عليكم اخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون »[1] . أنبهم لأنهم فعلوا فعل المشركين والأعراب ، مع انهم أهل دين واحد وكتاب . أما المشركون فلا لوم عليهم ، لأنهم لم يكونوا على دين ، وليس لهم كتاب يأمرهم وينهاهم .

وفي المعارك والخصومات التي تقع بين يهود ، كانوا يؤدون الدية . وهي على ما يظهر من روايات أهل الأخبار مختلفة ، وغير متكافئة . فكان بنو النضير يؤدون الدية كاملة لشرفهم في يهود ، أما بنو قريظة ، فكانوا يؤدون نصف الدية . وفي خلاف في أداء الدية وقع بينهم ، التجأوا الى الرسول للحكم بينهم ، فذكروا له هذا الاختلاف ، فحكم بالدية متساوية . وفي هذا الحكم نزلت الآية : « سماعون للكذب ، أكّالون للسحت ، فإن جاؤوك فاحكم بينهم او أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين »[2] . ذكر علماء التفسير عن (ابن عباس) أنه قال : «كانت قريظة والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به ، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة ودى مائة وسق من تمر ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا : ادفعوه الينا لنقتله ، فقالوا : بيننا وبينكم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط . النفس بالنفس ، ونزلت أفحكم الجاهلية يبغون »[3] .

وذكر علماء التفسير في تفسيرهم للآيات المتقدمة ، ان أحبار اليهود لم يكونوا يحكمون بالحق فيما بين الناس ، كانوا يحابون ويتحزبون ويحكمون بالباطل ويأكلون (السحت) أي الرشا ، جزاء حكمهم بالباطل . وكانوا يتساهلون في تطبيق أحكام

---

١ البقرة ، الآية ٨٤ وما بعدها ، روح المعاني (٣٠٩/١) ، ابن هشام (٢٣/٢) ، (حاشية على الروض) .
٢ المائدة ، الآية ٤٢ .
٣ تفسير القرطبي ، الجامع (١٨٧/٦) ، تفسير الطبري (١٥٧/٦) .

الشريعة مع الشريف لشرفه ، ويتشددون مع الدنـيء لدناءته وفقر حاله ، ولا يراعون التساوي في أخذ الديّات . « كان الشريف إذا زنى بالدنيئة رجموها هي وحموا وجه الشريف وحملوه على البعير ، أو جعلوا وجهه من قبل ذنب البعير . وإذا زنى الدنيء بالشريفة ، رجموه » . وكان هذا شأنهم « الى ان زنى شاب منهم ذو شرف ، فقال بعضهم لبعض لا يدعكم قومه ترجمونه ، ولكن اجلدوه ومثّلوا به ، فجلدوه وحملوه على حمار أكاف وجعلوا وجهه مستقبل ذنب الحمار . الى ان زنى آخر وضيع ليس لـه شرف ، فقالوا ارجموه . ثم قالوا فكيف لم ترجموا الذي قبله ، ولكن مثل ما صنعتم به فاصنعوا بهذا » ، واختلفوا فذهب فريق منهم الى الرسول ، فحكم بينهم بما جاء بحكم التوراة[1] .

وذكر ان (حيي بن أخطب) كان قد حكم ان للنضري ديتان وللقرظي دية، لأنه كان من النضير[2] .

وذكر أهل الأخبار انه كان لليهود حكام يحكمون بينهم ، ويقيمون حدودهم عليهم . فلما جاء الرسول الى يثرب ، صار اليهود يعترضون على عدالة حـكم بعضهم ، ولا يرضون بتنفيذ أحكامهم عليهم . فكان الحكام او هم يذهبون الى الرسول لكي يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون وفق شريعتهم[3] .

وكان جلّ اعتماد اليهود في هذه المنطقة عند ظهور الاسلام على التجـارة ، ومعاطـاة الربا والزرع ، وبعض أنواع الصناعة : كالصياغة ، وتربية الماشيـة والدجاج ، وصيد الأسماك في أعالي الحجاز على ساحل البحر الأحمر . واشتهروا بالاتجار بالبلح وبالبر والشعير والخمر ، وكانوا يجلبون الخمـر من بلاد الشأم . وكانوا يبيعون بالرهن ، يرهن المشترون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهـم ما يحتاجون اليه . وقد ورد ان الرسول رهن درعاً له عند يهودي من أهل يثرب في مقابل شعير كان به حاجة شديدة اليه[4] .

ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود، النسيج وهو من اختصاص نسائهم على

---

١ تفسير الطبري (٦/١٥٧) .
٢ تفسير الطبري (٦/١٥٧) .
٣ تفسير القرطبي ، الجامع (٦/١٨٧) .
٤ البخاري (٢/١٦ ، ٤٥) ، فتوح البلدان (٦٠) ، ولفنسون (ص ١٨) ، Islamic Culture, 1929, III, No., 2, p. 187.

الأكثر ، والصياغة وقد اختص بها بنو قينقاع ، والحدادة ، وهي صناعة يأنف منها العرب ويزدرونها ويرونها من الحرف الممقوتة الحقيرة .

ولم يكن من مصلحة اليهود ، وهم أهل زرع وضرع ومال وتجارة وأرض ثابتة وقصور وآطام ، أن يشتركوا في الحروب أو يشجعوا وقوعها في ديارهم وفي جوارهم ، بل كان من مصلحتهم أن يعمّ الاستقرار البلاد التي يقيمون فيها ، ليعيشوا عيشة هنيئة ، وليبيعوا ما عندهم من الأعراب وليشتروا منهم ما عندهم من سلع وليقبضوا أموالهم منهم والأرباح التي استحقت على تلك الأموال .

وفي النزاع الذي يقع بين القبائل ، لم يكن من مصلحتهم تأييد حزب على حزب ، خوفاً من الوقوع في أخطاء تجر عليهم أخطاراً ومهالك هم في غنى عنها وفي مأمن من شرّها . ثم إنهم بتحزبهم لطرف يغضبون الطرف الآخر ، فيضمر عندئذ شراً لهم ، فيخسرون بذلك مشترياً وبائعاً . وهم أناس اصحاب سوق وتجارة . غير ان الظروف كانت تكرههم في بعض الأحيان على الاشتراك في الحرب ، وعلى إثارة الحرب أيضاً متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ومصلحة ترتجى كأن ينهكوا العدوّ بحرب مع عدو آخر بإيقاع الفتنة وإشعال النيران ، كما أوقعوا بين الأوس والخزرج ، لإضعاف الطرفين معاً ، حتى لا تبقى لهم قوة تهددهم وتكون خطراً عليهم .

وفي يوم بعاث استعان الأوس ببني قريظة والنضير ،فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا اليهم يحذرونهم من سوء عاقبة الاشتراك في هذا النزاع،فتوقفوا ، غير أنهم عادوا فعاونوا الأوس ، وانضم اليهم بنو النبيت . فلما كسب الأوس الحرب ، كسب بنو قريظة والنضير والنبيت غنائم من الخزرج ، وخرجوا في هذا اليوم منتصرين بانتصار الأوس[1] .

ويذكر أهل السير والأخبار : ان يهود يثرب كانوا اذا تضايقوا من الأوس والخزرج هددوهم بقرب ظهور نبي يستعلون به عليهم . ففي رواية عن بعض الصحابة انهم قالوا : « كنا قد علوناهم في الجاهلية ، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون لنا : إن نبياً يبعث الآن نتبعه ، قد أطل زمانه ،

---

١ ابن هشام (٣/٩٤) ، اليهود (ص ٦٢ وما بعدها) .

نقتلكم معه قتل عاد وإرم »[1] . ولما ذكّرهم معاذ بن جبل وبشر بن البرّاء بن معرور ونفر آخرون بدعواهم تلك ، وبظهور النبي العربي بقولهم لهم : «يا معشر يهود ، اتقوا الله ، واسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن أهل شرك ، وتخبروننا انه مبعوث وتصفونه لنا بصفته » ، فكان جواب يهود لهم ما جاء على لسان سلام بن مشكم أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكره لكم . وقد أشير إلى ذلك في القرآن الكريم : «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا ، كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين »[2] .

واستفتاح اليهود على المشركين ، هو للتفريج عن أنفسهم ولتخويف الأوس والخزرج ولاعتقادهم حقاً بظهور مسيح منهم ، أي من بني اسرائيل. ولهذا أنكروا نبوة الرسول ، وأبوا التسليم بها ، لأنه لم يكن منهم ، ولأن النبوة لا تكون – على رأيهم– إلا في بني اسرائيل.فكيف يصدقون بنبي عربي من الأميين (نبيّ امون ها عولام) Nebi'e Ummot ha-'Olam .

يهود اليمن :

والموضع الثاني الذي عششت فيه اليهودية وباضت ، هو اليمن . ففي هذه الأرض من جزيرة العرب ظهر التهود فيها ظهوراً واضحاً ، وصارت اليهودية ديانة البلاد الرسمية . أما كيفية مجيئها وانتشارها هناك ، ومتى كان ذلك ، فليس لدينا علم واضح دقيق عن ذلك . ويزعم أهل الأخبار ان تبعاً ، وهو التبع (تبّان اسعد ابو كرب) ، اهتدى الى هذه الديانة عند اجتيازه بيثرب وهو عائد الى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي ايران ، وذلك بتأثير بعض الأحبار عليه، ومنذ ذلك الحين صارت هذه الديانة ديانة رسمية للبلاد[3] .

وتجعل بعض روايات الأخباريين اسم هذا التبع (تبع بن حسان) أو (حسان)،

---

١ ابن هشام (٢/١٦٦) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ، تفسير الطبري (١/٣٢٤) .
٢ البقرة ، الآية ٨٩ ، تفسير الطبري (١/٣٢٤) ، روح المعاني (١/٢٨٩) .
٣ الطبري (٢/١٠٥ وما بعدها) ، «طبعة دار المعارف بمصر» .

وهو (تبع الأصغر) ، او (أبو كرب بن حسان بن اسعد الحميري) أو غير ذلك . وتزعم ان حبرين من أحبار اليهود من بني قريظة عالمين راسخين في العلم ، هما اللذان هديا التبع الى اليهودية ، وأبعداه عن عبادة الأوثان[1] .

وقد يكون لهذه الروايات شيء من الصحة ، غير أني أرى ان دخول اليهودية الى اليمن مردّه ايضاً الى اتصال اليمن من عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشأم . وفي قصة سليمان وملكة سبأ إشارة الى تلك الصلات ، والى هجرة جماعات من اليهود الى هذا القطر عن طريق الحجاز ، بعوامل متعددة ، منها : التجارة والهجرة الى الخارج ، وهروبهم من اضطهاد الرومان لهم،وعوامل أخرى جعلتهم يتجهون من الحجاز الى اليمن ، فأقاموا هناك .

وأما يهود اليمن المحدثون فإن أحبارهم ورجال العلم والفهم منهم يرجعون وجودهم في اليمن الى أيام السبي ، أي الى ايام (بخت نصر) ، وهم يزعمون أنهم بقوا في اليمن منذ ذلك الحين ولم يعودوا الى فلسطين[2] . وقد غادروا اليمن بعد التقسيم .

وقد أشار حبر يسمى (ربي عاقبة) (رباي عقيبة) Rabbi 'Aqiba ، في حوالى سنة (١٣٠ م) ، الى زيارته لملك عربي كوشي (مليخ عرابيم) كانت زوجته كوشية كذلك ، وإلى تحدثه معه . ويراد بـ (كوش) الأحباش غير ان بعضهم كان يقصد بها العربية الجنوبية كذلك . ولا يستبعد ان يكون مراد الحبر بذلك اليمن،أو منطقة أخرى من العربية الجنوبية كان الحبش قد استولوا عليها[3] . وربما قصد منطقة افريقية ساحلية كان يحكمها ملك عربي في ذلك الوقت .

وتدل رحلة (ربي عقيبة) R. 'Aqiba هذه إلى اليمن على وجود يهود فيها، إذ لا يعقل سفره هذا إلى تلك البقعة النائية وتجشمه مشقته ، لو لم تكن هناك

---

١ الاغاني (١/١٠٩ وما بعدها) ، (١٣/١٢٠ وما بعدها) ، Caussin de Perceval, Essai, I, 91, Nallino, Raccolta, III, p. 88.

٢ Travels and adventure of the Rev. Poseph Walf, London, 1861, p. 509, R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka von David Zeit bis in's fünfte Jakrhundert unsrer Zeitrechung, 1864, S. 135.

٣ Islamic Culture, III, 2, p. 190 (1929), Josephus, Antiquitate, XV, 3, 29, Die Araber, III, S., 22. Talmud Babli, in Rosh Hashnah, 26a, Kraus, in ZDMG., S. 331, 1916.

جالية يهودية فيها . وقد يجوز ان تكون سفرته الى اليمن مجرد سفـرة استطراق وعبور ، لغاية الذهاب من اليمن إلى الحبشة ، ولكني لا أستبعد مع ذلك وجود اليهود في اليمن في هذا العهد ، إذ كان (أوليوس غالوس) قد جاء بجمع منهم معه في حملته على اليمن ، فيجوز ان يكون بعضهم قد فضّل البقـاء في اليمن والسكن فيها لطيبها ولخصب أرضها وتعبهم من السفر ، ففضلوا لذلك البقاء على الرجوع وتحمّل المشقات والجوع والعطش والهلاك . وقد هلك بالفعل القسم الأكبر من رجال الحملة بسبب صعوبة الطريق والحر الشديد والجوع والعطش[1] .

وقد عثر على كتابة من كتابات القبور في (بيت شعا ريم) Beth She'arim في جنوب شرقي حيفا ، ورد فيها :(منحم قولن حمرن) Mnhm Kwln hmyrn أي (مناحيم قيل حمير) . والموضع الذي وجدت هذه الكتابة فيه ، هو مقبرة من مقابر كبّار الأحبار ، وقد وجدت معها كتابات أخرى ، تشير الى أسمـاء أحبار معروفين قبروا فيها . لذلك فإن (مناحيم) (قيل حمير) هو يهـودي ، قد كان جاء الى فلسطين للزيارة أو للاتصال بعلماء اليهود الذين كانوا قد تجمعوا في (بيت شيعا ريم) ، فرض ومات هناك . ودفن في مقبرة هـذا الموضع . ويرجع الباحثون تأريخ الكتابة المذكورة الى حوالى سنة (٢٠٠ م)[2] .

واستدل بعض المستشرقين بنص دوّنه (شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد) على سد مأرب ، وردت فيه جملة (بعل سمن وارضن) ، أي (رب السماء والأرض) على تهوده بحجة ان هذه العبارة تشير الى التوحيد الخالص ، والتوحيد الخالص هو عقيدة يهود[3] .

وقد ذكر المؤرخ النصراني (فيلوستورجيوس) Philostorgius في حوالى سنة ٤٢٥ م ، ان أهل سبأ كانوا يتبعون في (السبت) سنة (ابراهيم) ، ولكنه ذكر أيضاً انهم كانوا يعبدون الشمس والقمر ومعبودات أخرى ، وان بعضاً منهم كان على دين يهود ،وانه قاوم رسالة (ثيوفيلس) Théophilus الذي أرسله القيصر

---

١ Ullendorff, in Journ. of Sem. Stud., Vol., I, Num. 3, July 1956, p. 221.

٢ S. D. Goitein, Jews and Arabes, New York, 1955, p. 47, Die Araber, III, S., 16. ff., Corp. Inscript. Iudaic., 2, 1952, 207, Nr. 1137, Driver, in Hebrew and Semitic Studies, 1963, 151. f.

٣ Islamic Culture, 1929, III, 2, p. 191, Margoliouth, Relations, p. 68.

قسطنطين (٣٤٠ – ٣٦١ م) للتبشير بين الحميريين . وذكر المؤرخ (ثيودور لكتور) Theodorus Lector ، وهو من رجال النصف الأول للقرن السادس للميلاد ، ان الحميريين كانوا في بادىء أمرهم على دين يهود ، دخلوا فيه في ايام ملكة سبأ المعروفة بقصتها مع سليمان ، بدعوتها اياهم الى هذا الدين. ولكنهم كما يقول هذا المؤرخ عادوا فارتدوا الى الوثنية ، ثم دخلوا بعدئذ في النصرانية في ايام القيصر (أنسطاس) Anastasius (٤٩١ – ٥١٨ م) . ولم يشر هذا المؤرخ الى وجود اليهودية بين الحميريين ، كما انه لم يشر ولا المؤرخ الآخر الى تهود أحد من ملوك حمير[١] .

ويفهم من الجمل : « وان اليهود الكائنين في طبرية يرسلون سنة فسنة ووقتاً فآخر كهنة منهم الى هناك لإثارة السجس بين نصارى الحميريين. فلو كان الأساقفة نصارى وليسوا بشركاء لليهود ، ويودّون ان تستقيم النصرانية ، لرغبوا الى الملك وعظمائه ، ليلقوا القبض على رؤساء كهنة طبرية وبقية المدن ،ويلقوهم في السجن . ولا نقول هذا لنجازي سيئة بسيئة ، بل ليتوثقوا منهم بكفلاء حتى لا يعودوا يرسلون رسائل وأشخاصاً وجيهين الى ملك الحميريين ، فيصب صاعقة الأرزاء على شعب المسيح في حمير ... » ،وهي جمل اقتبسها من رسالة (شمعون) عن تعذيب نصارى نجران ، ان يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين ، بل كانوا على اتصال بهم ، وان أحبار طبرية كانوا يرسلون رجالاً منهم الى اليمن ومعهم أموال ووجوه الى يهودها وملكها وكبارها للتأثير فيهم ولتوثيق صلاتهم وروابطهم بهم . وقد نسب شمعون الى أحبار طبرية ، انهم كانوا يحرضون ملك حمير ويهود حمير على الضغط على نصارى اليمن وعلى اضطهادهم انتقاماً منهم،فطالب الحكومة والنصارى على الضغط على يهود فلسطين وعلى أحبار طبرية بصورة خاصة ، ليكتبوا الى يهود حمير بالكف عن التحرش بنصارى اليمن، وعن تهديدهم بانزال العقوبات بهم انتقاماً منهم إن لم يسدوا لهم النصح .

وورد في أخبار الشهداء الحميريين : أن أحباراً من فلسطين من (طبريا) Tiberias ،كانوا قد جاؤوا إخوانهم في الدين يهود اليمن وسكنوا معهم[٢] . ومعنى

---

١ Margoliouth, p. 62 f., Migne, Patrologia Graeca, XXXV, p. 211, Islamic culture, 1929, III, 2, p. 190, Philostorgius, Hist. Eccl., III, 5.

٢ Margoliouth, p. 68.

هذا أن الصلات بين يهود اليمن ويهود فلسطين كانت موجودة ، وأن يهود اليمن لم يكونوا بمعزل عن يهود فلسطين ، ويجب أن يقال مثل ذلك عن يهود الحجاز ، اذ لا بد وأن يكون ليهود الحجاز اتصال بيهود فلسطين وبيهود اليمن . وكيف لا يكون لهم اتصال بهم ، وهم جيران فلسطين ولهم تجارات معهم ، ثم إنهم على طريق اليمن وفلسطين ، فإذا أراد يهود فلسطين الذهاب الى اليمن ، أو يهود اليمن الذهاب الى فلسطين فلا بد من المرور بأرض يهود الحجاز والنزول بهم .

وقد عثر في اليمن على نص مكتوب بالمسند ، وردت فيه كلمة (يسرائيل) و (رب يهود) . ويدل هذا على أن صاحبه كان على دين يهود . عثر عليه المستشرق (كلاسر) ونشره المستشرق (ونكلر) ، وهذا هو : « تبرك سم رحمنن ذ بسمين (سمن) ويسر ال والهمو رب يهود . ذ هرد عبدهمو وشحرم وامهوبم (؟) وحشكهتو شمسم واولدهمو ذمم (؟) وابشعر ومار وكل ابهه »[1] .

وأما كتابته بلهجتنا ، فعلى هذا المنوال : « تبارك اسم الرحمان الذي في السماء واسرائيل وإلهه رب يهود الذي ساعد عبده شحراً وأمه بم (؟) وزوجته شمساً وأولاده ذمم (؟) وأبشعر ومثاراً وكل أهله (بيته) .

غير أن من الباحثين من يشك في صحة نقل هذا النص نقلاً صحيحاً تاماً ، ولم يتأكد من صحة نقل كلمة (اسرائيل)[2] .

واليهودية وإن ضعفت في اليمن بدخول الحبشة فيها ، بقيت مع ذلك محافظة على كيانها ، فلم تنهزم ، ولم تجتث من أصولها ، وبقيت قائمة في هذه البلاد في الاسلام كذلك فلم يجل أهلها عنها كما أجلي أهل خيبر ، وظلت بقيتهم هناك الى سُنَيّات قريبة حيث غادروها على أثر حوادث فلسطين .

وقد كانت (نجران) من المستوطنات المهمة التي نزل بها اليهود في اليمن[3] . وهي مكان خصب ، وقد عاش اليهود فيها مع غيرهم من العرب من نصارى وعبدة أصنام .

ووجد اليهود في مواضع أخرى من جزيرة العرب . وجدوا في العربية الشرقية

---

١ Glaser 394-395, Revue des Etudes Juives, 1891, vol., 23, p. 122, Winckler, AOF, I, S. 337.

٢ Margoliouth, p. 68.

٣ معجم (١/٣٢٧) .

وفي نجد وفي مواضع من العربية الجنوبية . ولما ارتد (بنو وليعة) والأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي ، وتحصن (الأشعث) في النجير) ، وهو حصن لهم ، كانت فيه امرأة من يهود ، عرفت بشماتتها بوفاة الرسول ، اسمها (هند بنت يامين) اليهودية [1] . مما يدل على وجود اليهود في هذا المكان . وكان بالبحرين قوم من اليهود ، صالحوا المسلمين مثل النصارى على دفع الجزية عن رؤوسهم [2] . وقد كتب (المنذر بن ساوى) العبدي ، يخبر الرسول أن بأرضه يهود ومجوس ، فكتب اليه الرسول : « من أقام على يهودية ، أو مجوسية فعليه الجزية » [3] .

---

١ البلاذري ، فتوح (١١١) ، « ردة وليعة والأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية الكندي » .

٢ البلاذري ، فتوح (٨٩ ، ٩١) ، (البحرين) .

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٣) .

الفصل السابع والسبعون

اليهود والاسلام

ويتبين من القرآن الكريم ، أن اتصال الرسول باليهود اتصالاً مباشراً إنما كان في يثرب . أما في مكة ، فلم يكن لليهود فيها شأن يذكر ، لذلك لا نجد في الآيات المكيّة ما نجده في الآيات المدنية،ولا سيما المتأخر منها ، من تقريع لليهود وتوبيخ لهم ، لوقوفهم موقفاً معادياً من الاسلام ، واتفاقهم مع المشركين في معارضة الرسول ومقاومته . وقد بدأ اليهود يعارضون الرسول والإسلام ، حينما طلب اليهم الدخول في الاسلام والإيمان برسول الله ، وحينما تبين لهم أن الأمر سيفلت من أيديهم ، وأن الرسول ليس كبقية رجال قريش أو غير قريش سهل الانقياد مطواعاً لهم ، وأن تعاليم الإسلام ستفسد العرب عليهم ، ولا سيما بعد تحريم الربا . والربا مورد مهم كان يدرّ ربحاً عظيماً على يهود ، لهذا وجدوا مصلحتهم في معارضته ومقاومته وفي الاتفاق مع المشركين عليه .

ويظهر أنه لم يكن لليهود نفوذ كبير ولا جاليات كبيرة في مكة . فلو كان لهم نفوذ فيها أو رأي مسموع ، لسمعنا به كما سمعنا بخبرهم في يثرب ، ولكان لهم حيّ خاص بهم ، ومكانة بين رجال قريش ، كالذي كان عليه يهود يثرب في اتصالهم بالأوس والخزرج . ولأشير اليهم في السور المكيّة ، على نحو ما أشير اليهم في السور المدنية ، ثم لما اضطر رجال قريش للذهاب الى يثرب مراراً، لاستشارتهم في أمر سلوكهم مع المسلمين، ولما جاء سادات يهود يثرب الى مكة ، لتحريض أهلها على مقاومة الرسول ، ولعقد حلف معهم عليه .

وقد أمل المسلمون ان يساعد اليهود الاسلام على الوثنية وان يقفوا منه موقف ود أو حياد ، ذلك بأنهم أصحاب كتب مُنزلة ودين توحيد ، والاسلام قريب منهم ، وقد اعترف بالأديان السابقة له ، ونزه الأنبيــاء والمرسلين ، وهو دين توحيد كذلك . ثم إن الرسول تودد اليهم حين دخوله يثرب،وأمنهم على أموالهم وأنفسهم ، وزارهم وطمأنهم ، ثم تعاهد معهم في صحائف كتبت لهم ، فيهـا العهد بالوفاء لما اشترط لهم ، ما داموا موفين بالوعد وبالعهد . وقد طلب الى جميع المسلمين الوفاء بما جاء فيها ، ومنعوا من التجــاوز والتطاول على من في يثرب من يهود[1] . وجعل لليهود نصيباً في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم النفقة معهم في الحروب .

ولم تكن علاقات اليهود مع المسلمين سيئة في الأيام الأولى من مجيء الرسول الى يثرب . رأت جمهرة يهود ان الاسلام دين اعترف بالأنبياء ، وانه دين توحيد وانه في جملة أحكامه قريب من أحكام ديانتهم وقواعدهم،وانه يناهض الأوثان ، وقد أشاد بفضل بني اسرائيل وبتفوقهم على غيرهم بظهور الأنبياء من بينهم ، ثم إن قبلته الى القدس ، وقد تسامح معهم فأباح للمسلمين طعام أهــل الكتاب[2] . وهو دين اعترف بأبوة ابراهيم للعرب ، وجعل سنته سنّة له . وقد تسامح معهم وحفظ ذممهم ، فلم ترَ في انتشاره بين أهل يثرب ما يضيرهم شيئاً أو يلحق بهم أذى ، ولذلك أظهرت استعدادها لعقد حلف سياسي معه ووقوفها موقف ود منه او موقف حياد على الأقل ، على ألا يطلب منها تغيير دينها وتبديله والدخول في الاسلام .

ولما دخل أهل يثرب في الإسلام أفواجاً ، وتوجه المسلمون الى اليهود يدعونهم الى الدخول فيه والى مشاركتهم لهم في عقيدتهم باعتبار أنهم أهل دين يقول بالوحي ويؤمن بالتوراة ، وبرسالة الرسل،فهم لذلك أولى بقبول هذه الدعوة من الوثنيين ، أدركت جمهرتهم ان الإسلام إذا ما استمر على هذا المنوال في المدينة من التوسع والانتشار ومن توجيه دعوته الى اليهود أيضاً ، فسيقضي على عقيدتهم التي ورثوها وهي عقيدة لا تعــترف بقيام نبيّ من غير بني اسرائيل ولا بكتب غير التوراة

---

١ ابن هشام (٣/٧٤ ، ١٩٧) ، الروض الانف (٢/١٦) ، (كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينه وبين اليهود) .
٢ المائدة ، الآية ٤٨ .

والكتب التي دونها علماؤهم ، ثم هم يرون ان النبوة قد ختمت ولن يكون المسيح إلا منهم ، فكيف يعتقدون بنبي عربي وهو من الأميين ؟

وقد رفض اليهود الدخـــول في الإسلام ، وأبوا تغيير دينهم ، ودافعوا عن عقيدتهم وتمسكوا بها ، ورفضوا التسليم بما جاء في رسالة الرسول من أن الرسول نبي أرسل للعالمين كافة وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن القرآن كتاب مصدق من الله ، وأن أحكامه مؤيدة لما جاء في التوراة ناسخة لبعضها . وقد جادلوا في ذلك ، وانبرى أحبارهم للدفاع عن عقيدتهم ولمجادلة من يأتي اليهم من المسلمين لاقناعهم في الدخول في الإسلام . وفي القـــرآن الكريم صور من جدلهم هـــذا ومن محاجتهم الرسول في دعوتـــه ، كما نجد مثل ذلك في الحديث النبوي وفي كتب السير .

ويتبين من نتائج دراسة صور هـــذا الجدل والخصام الذي وقع بـــين اليهود والمسلمين ، وهـــو خصام مهم خطير ، أن الخصومة كانت في مرحلتها الأولى رفضاً لدعوة الرسول إياهم للدخول في الإسلام ، وتمسكاً شديداً بعقيدتهم وبدينهم وبما ورد عندهم من أن النبوة قد بدأت وانتهت في بني اسرائيل ، ثم تطورت واشتدت عنفاً وقوة لما تبين لهم أن الإسلام برفض نظريتهم هذه ، وأنه قد حرم أموراً ستؤثر في مستقبلهم ، وقد ألف بين قلوب أهل يثرب وأوجد منهم كتلة واحدة ، وأنه سيحـــدّ من سلطانهم لا محالة ، وأن ملكهم سيزول ، فوسعوا مقاومتهم له ، واتصلوا بمن وجدوا فيه حقداً وبغضاً للرسول ، وبمن تأثر سلطانه بدخول الاسلام في يثرب من أهلها ، ثم لما وجدوا أن كل ذلك غير كاف ، تراسلوا مع أعداء الرسول في خارج يثرب من قريش ، لتوحيد خططهم معهم ، ولحملهم على مهاجمة المسلمين في مدينتهم ومعقلهم قبل أن يستفحل أمرهم ويقوى مركزهم ، فيعجزون جميعاً هم وأهل مكة عن التغلب عليهم والقضاء على الاسلام .

وهكذا بدأت خصومة اليهود للاسلام خصومة فكرية ، هم يرفضون الاعتراف بنبوة الرسول ، وبأن دعوته موجهة اليهم ، ويرفضون نبوة في غير بني اسرائيل ، والرسول يدعوهم الى الايمان بالله والى الدخول في دعوته المبنية على الايمان بالله رب العالمين ، رب العرب وبني اسرائيل والعجم ، وعلى الايمـــان بنبوته وبنبوة الأنبياء السابقين ، ثم تطورت هذه الخصومة الى معارك وحروب ، والحروب كما نعلم تبدأ نزاعاً في الآراء والأفكار ثم تتحول الى صراع ونزاع وقتال .

ومن أشهر سادات يهود الذين وقفوا موقفاً معادياً من الرسول ، وعارضوه معارضة شديدة ، وصمموا على الايقاع به ، حيي بن أخطب ، وأخواه ياسر بن أخطب وجُدَيّ بن أخطب[1] ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وسلام بن الربيع بن أبي الحقيق ، وهو أبو رافع الأعور الذي قتله أصحاب الرسول بخيبر ، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق ، وعمرو بن جحاش ، وكعب بن الأشرف ، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، وكردم بن قيس حليف كعب بن الأشرف ، وكل هؤلاء من بني النضير ، وعبدالله بن صوري الأعور[2] ، وابن صلوبا ، وهما من بني (ثعلبة بن الفطيون) ، وزيد ابن اللعيث (اللعيب)[3] ، وسعد بن حنيف ، ومحمود بن سيحان (سبحان) ، وعزير بن أبي عزير ، وعبدالله بن صيف (ضيف) ، وسويد بن الحارث ، ورفاعة بن قيس ، وفنحاص ، وأشيع ، ونعمان بن أضنا (أمنا ؟) ، وبحري ابن عمرو ، وشاس بن عدي ، وشاس بن قيس ، وزيد بن الحارث ، ونعمان ابن عمرو ، وسكين بن أبي سكين ، وعدي بن زيد ، ونعمان بن أبي أوفى أبو أنس ، ومحمود بن دحية ، ومالك بن الصيف (الضيف) ، وكعب بن راشد ، وعازر ، ورافع بن أبي رافع ، وخالد ، وإزار بن أبي إزار (آزر بن أبي آزر) ، ورافع بن حارثة ، ورافع بن حريملة ، ورافع بن خارجة ، ومالك بن عوف ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وكل هؤلاء من يهود بني قينقاع[4] .

أما الذين حاربوا الاسلام من بني قريظة ، فكانوا : الزبير بن باطا بن وهب ، وعزّال بن شمّويل (سموال) ، وكعب بن أسد ، وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب ، وشمويل بن زيد ، ونافع بن أبي نافع ، وأبو نافع ، وعدي بن زيد ، والحارث بن عوف ، وكردم بن زيد ، وأسامة بن حبيب ، ورافع بن رميلة (زميلة) ، وجبل بن أبي قشير ، ووهب بن يهوذا .

أما من بقية بطون يهود ، فكانوا : لبيد بن أعصم ، وهو من يهود بني زريق ،

---

١ (جد بن اخطب) ، (جدي بن أخطب) ، (حدى بن اخطب) ، الروض الانف (٢/٢٤) .
٢ الروض الانف (٢/٢٤) .
٣ (ابن اللعيب) ، ابن هشام (٢/١٣٦) .
٤ ابن هشام (٢/١٣٦ وما بعدها) ، الروض الانف (٢/٢٤) ، (تسمية اليهود الذين نزل فيهم القرآن) .

وكنانة بن صورياء (صوريا) ، وهو من بني حارثة ، وفردم (قردم) بن عمرو ، وهو من يهود بني عمرو بن عوف ، وسلسلة بن برهام ، وهو من يهود بني النجار[1] .

ويظهر من أقوال علماء التفسير في تفسير لفظة (الطاغوت) الواردة في القرآن الكريم ، أن (كعب بن الأشرف) ، كان من أبرز سادات اليهــود في أيام الرسول[2] . فقد كانوا يتحاكمون اليه ويأخذون برأيه ، وكان المقدم عندهم وعند الأوس والخزرج ، حتى أن الأنصار كانوا يتحاكمون اليه .

ونجد في القرآن أمثلة من أسئلة وجهها اليهود الى الرسول لاحراجــه ولإظهار فساد دعوته بزعمهم . سألوه أن يأتي لهم بمعجزة ، إذ قالوا له : « إن الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يؤتينا بقربان تأكله النار »[3] ، فنــزل الرد عليهم : « قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم ، فلِمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين »[4] . « نزلت في كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، ووهب بن يهوذا ، وفنحاص بن عازورا ، وجماعة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: له : أتزعم أن الله أرسلك الينا ، وأنه أنزل علينا كتاباً عهد الينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار،فإذا جئتنا به صدقناك، فأنزل الله هذه الآية »[5] . وسألوه « أن يصعد الى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه على صدقه دفعة واحــدة ، كما أتى موسى بالتوراة »[6] . وسألوه أسئلة عن أشيــاء مذكورة في التوراة ، وسألوه عن أشياء أخرى محرجة عديدة،وأوحوا الى غيرهم من المشركين بأسئلة مماثلة ليلقوها على الرسول لامتحانه وإحراجه ، وقد نزل الوحي بالردّ عليهم ، وبتأنيبهم على أقوالهم هذه،وبتذكيرهم

---

١ وتختلف الموارد في ضبط هذه الاسماء ، ابن هشام (٢/١٣٧ وما بعدها) ، الروض الانف (٢/٢٤) .

٢ تفسير الطبري (٥/٩٧ وما بعدها) .

٣ سورة آل عمران ، الآية ١٨٣ .

٤ الآية نفسها .

٥ تفسير القرطبي (٤/٢٩٥) ، روح المعاني (٤/١٢٨ وما بعدها) ، تفسير الطبــري (٤/١٣١ وما بعدها) .

٦ سورة النساء ، الآية ١٥٣ ، تفسير القرطبي (٦/٦) ، تفسير الطبري (٦/٦ وما بعدها) ، روح المعاني (٦/٥) ، ابن هشام (٢/١٩٨) .

بما قام به أجدادهم وأسلافهم في مقام أنبيائهم من عـــدم التصديق برسالتهم ومن الطعن بهم ومن إصرارهم على عبادة الأوثان والكفر بالتوحيد [1] .

ووقع جدل بين المسلمين وبين سادات يهود ، أثار نزاعاً بين الطرفين . دخل أبو بكر « بيت المدراس ، فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمع الى رجل منهم يقال له (فنحاص) كان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له : أشيع . فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله انك لتعلم ان محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبـــاً عندكم في التوراة والانجيل . قال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر وانه الينا لفقير ، وما نتضرع اليه،كما يتضرع الينا وإنا عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا ، كما يزعم صاحبكم. ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضربـــة شديدة وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك »[2] . ووقع مثل ذلك في مناسبات أخرى ، جعل اليهود يحقدون على المسلمين .

وعمد اليهود إلى استغلال الأحقاد والبغضاء الكمينة التي كانت كامنة في نفوس اهل يثرب من الأوس والخزرج من ايام الجاهلية ، فأثاروها ، كما استفادوا مما كان بينهم وبين رجال من المسلمين من الحلف والجوار في الجاهلية للاحتماء بهم وللاتقاء بهم مما قد يلحق بهم من أذى في اثارة الفتنة .

وفي عهد (عمر) أمر بإجلاء اليهود ممن لم يكن لديهم عهد من رسول الله . أما من كان له عهد منه ، فقد بقي في وطنه وعلى دينه بالشروط التي ذكرت في الصحف . وقـــد كان في يثرب نفر من اليهود عاشوا فيها في زمن الرسول حتى بعد اجلاء بني النضير وبني قريظة وبعد غزوة خيبر . وقد ورد في روايـة أن النبي لمّا أمر أصحابه بالتهيؤ لغزوة خيبر ، شقّ ذلك على من بقي بالمدينـــة من يهود[3] . ولما مرض عبدالله بن أبـي ، كان اليهود في جملة من التفّ حول سريره في مرضه الذي هلك فيه ، ثم كانوا في جملة من شيعـــه الى قبره ومن

---

١ سورة البقرة ، الآية ١٠١ ، ابن هشام (٢/١٦٧ ، ١٧١ ، ٢٠١) .
٢ آل عمران ، الآية ١٨١ ، تفسير الطبرى (٤/١٢٩ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (١/٥٤٨) ، (طهران) .
٣ الطبقات ، لابن سعد (الجزء الثاني من القسم الاول (ص ٧٧) .

نثر التراب على رأسه حزناً على فراقه [1] . وقد بقيت أسر يهودية في وادي القرى وفي تيماء قروناً عديدة بعد صدور أمر عمر بالإجلاء ، بل ورد أن عـدداً منهم عاش في المدينة أيضاً .

وقد كانت اليهودية قانعة بما أوتيت ، وبما كسبته من مواطن وتجـارة ، إن وجدت سبيلاً الى اقناع سادات القبـائل والأمراء والملوك بالتهود وبالدخول في دعوتها ، فذلك خير وتوفيق . وإن لم تجد في هؤلاء ميلاً الى اليهودية ، رضيت منهم باكتساب العطف والحماية ورعايتهم في تحصيل ديونهم والأرباح التي يحصلون عليها من الربا ، وبالسماح لهم بالتجارة والبيع والشراء ، وهو ما يصبو اليه كل يهودي .

لذلك نستطيع ان نقول ان اليهودية كانت من ناحية التبشير عند ظهور الاسلام جامدة خامدة ، لا يهمها نشر الدين بقدر ما تهمها المحافظة على الحيـاة وعلى المركز الذي توصلت اليه وعلى تجارتها التي تعود عليها بمال غزير . فكانت لهذا لا تهتم بحركة إلا إذا وجدت فيها فائدة لها ، ومنفعة ترتجى منها ، ولا تحارب رأياً إلا إذا وجدت انه سيكون خطراً عليها ، فحاربت النصرانية في اليمن لمـّا وجدت الروم يسيرون على سياسة معادية لليهود، وان النصرانية مهما كانت كنيستها هي فرع من شجرة واحدة هي الشجرة التي يقدسها الروم، فامتداد اي فرع منها الى اليمن ، كفيل بالحاق الأذى الذي لاقاه اخوانهم من البيزنطيين بهم. وحاربت الاسلام بعد هجرة الرسول الى المدينة ، لمّا تبين لها انه يدعو الى رب العالمين ، وانه لم يكن على ما ظنته حينما سمعت بدعوة الرسول وهو في مكـة ، من انـه سيخضع لها ، او سيميل اليها ، فتستفيد منه على الأقل ، فلما وجدت الأمر غير ما ظنت ، عندئذ خاصمته وانضمت الى المشركين في محاربة الاسلام .

ولسنا نجد بين القبائل العربية يهوداً وفدوا اليها وأحبـاراً سكنوا بينها لاقناعها بمختلف الوسائل والطرق للدخول في دين يهود . نعم لم يفعل اليهود هذا كما فعله النصارى ، ولهذا انحصرت سكنى اليهود عنـد ظهور الاسلام في هذه المواضع الخصبة وطرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب ، وانحصر عملهم في التجارة وفي الربا وفي الزراعة وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها . وهي أمور جعلت لهم نفوذاً عند سادات القبائل والأمراء والملوك .

---

[1] الواقدي (٤١٥) ، اليهود (١٧٧) .

وقد كانت لليهود مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم، وأيامهم الماضية ، وأخبار الرسل والأنبياء ، وما جاء في التوراة والمشنـــا ، وغير ذلك . عرفت بين الجاهليين بـ (المدراس) و (بيت المدراس) (والمدراش) . وأطلق الجاهليون على الموضع الذي يتعبـــد اليهود فيه (الكنيس) و (كنيسة اليهود) تمييزاً لهذه الكنيسة عن (الكنيسة) التي هي لفظة خاصة بموضع عبادة النصارى[1] .

وقـــد ذكر بعض علماء اللغة أن الكنيسة كلمة معربة من (كنشت) وهي لليهود ، والبيعة للنصارى . وذهب بعض آخر الى أنها متعبد الكفّار مطلقاً[2] .

وقد أخذ الجاهليون مصطلح (المدراس) من العبرانيين ، من لفظة (مدراش) Midrash التي هي من أصل (درش) Darash التي تقابل (درس) في العربية، وتؤدي هذه الكلمة المعنى المفهوم من لفظة (درس) العربية تمام الأداء . ويقصد بالمدراش درس نصوص التوراة وشرحها وتفسيرها وإيضاح الغامض منها وأسرارها وأمثـــال ذلك ، وينهض بذلك المفسر الشارح (درشن) Darshan ، ولكل طريقة واسلوب . وقد نجمت عن هذه الدراسة ثروة أدبية ودينية طائلة للعبرانيين . نتجت من اتبـــاع جملة طرق في الشرح والتفسير ، منها (مدراش هـــلاخه) Midrash Halachah و (مدراش هاكاده) Midrash Haggadah ، وتختلف هذه في كيفية اتباع طرق العرض والشرح والتفسير[3] .

ولم يكن المدراس (المدراش) موضع عبادة وصلوات حسب ، بل كان الى ذلك دار ندوة ليهود يجتمعون فيـــه في أوقات فراغهم لاستئناس بعضهم ببعض وللبحث في شؤونهم ، وللبت في القضايا الجسيمة الخطيرة على اختلاف درجاتها . فهو اذن مجمع الأحبار ومجمع الرؤساء والسادات وأصحاب الشرف فيهم ، واليه كان يقصد الجاهليون حين يريدون أمراً من الأمور او الاستفهام عن شيء يريدون الوقوف عليه ، واليه ذهب الرسول وكبّار المسلمين لمحادثة يهود ومجادلتهم فـــيما

---

١ اللسان (٣٨٢/٧) ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (١٢٠/٢) ، صحيح مسلم (١٢٢/٥) ، البخاري « كتاب الجزية والموادعة من أهل الذمة والحرب » ، الحديث ٦ ، غرائب اللغة (ص ٢١٣) ، النهاية (٢٠/٢) ، محيط المحيط (٦٤٣/١)، القاموس (٢١٥/٢) .

٢ اللسان (٨٣/٨) ، المعرب (٨١) ، النصـــرانية ، القسم الســـامي ، الجـــزء الاول (ص ٢٠١) .

٣ Ency-Brita., 15, p. 458, Moore, Judaism, I, 125, Jew. Ency., VII, p. 538. f.

كان يحدث بينهم من خلاف او من أمر يريدون البت فيه . ويقال انهم عرضوا أمام الرسول كتبهم ، فكان يقرأها له بعضهم ممن دخل في الاسلام كعبدالله بن سلام او بعض المسلمين ممن كان له علم وفهم في العبرانية لغة يهود .

قال (ابن عباس) : « دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم الى الله ، فقال له نعيم بن عمرو ، والحارث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد ؟ فقال : على ملة ابراهيم ودينه . فقالا : فإن ابراهيم كان يهودياً . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلموا الى التوراة ، فهي بيننا وبينكم ، فأبوا عليه »[1] . ويظهر ان هذا المدراس كان من بيوت مدراسهم بيثرب .

وعرفت مساجد اليهود ، أي المواضع التي كان يصلّون بها ، بالمحاريب جمع محراب . وقد جاءت الاشارة اليها في بيت شعر منسوب الى (قيس بن الخطيم)[2] . أما في النصرانية ، فقد خصصت الكلمة بصدر الكنائس ، وذلك على ما يفهم من الكلمة في الاسلام[3] .

وعرف علماء اليهود ورجال دينهم بـ (الأحبار) جمع (الحبر) وبـ (الربانيين) وقد وردت الكلمتان في القرآن الكريم[4] . وللإسلاميين آراء في أصل (الحبر) ، وهم يذكرون أن من معانيها العالم ، والرجل الصالح[5] . واللفظة من الألفاظ المعربة عن العبرانية أصلها (حبر) Haber وجمعها حبريم Habarim ، ومعناها (الرفيق) camrade و associate ، وكانت ذات مدلول خاص ومعنى معين . وقد أطلقت في العهد التلمودي على العضوية في جمعية معينة ، فأطلقت في العصر الأول والثاني للميلاد على من كان من (الفروشيم) ، وهم شيعة يهودية أقسمت على نفسها بمراعاة النصوص الدينية (اللاوية) على نحو ما نزلت وعلى نحو ما يفعله اللاويون .

---

١ الطبري (١٤٥/٧) .
٢ Margoliouth, p. 73.
٣ النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٧٤) .
٤ حبر بالضم وبالكسر ، المائدة ، الآية ٤٤ ، ٦٣ ، التوبة ، الآية ٣١ ، ٣٤ .
٥ تاج العروس (١٢٠/٣) ، (حبر) ، اللسان (٢٢٨/٥) ، المفردات ، للاصفهاني (ص ١٠٤) .

وللفظة (حبر) أهمية كبيرة عند اليهود ، فإنها تشير الى العلم والمعرفة ، وان كانت لا تصل الى درجـة (رابي) (ربي) Rabbi . ولا تزال مستعملة عندهم فيمن درس الشريعة اليهودية والعلوم الشرعية وتقدم فيها وأتقن الأحكام ، وقضى بين الناس ، غير أنها دون درجة Rabbi [1] . فهي في العبرانية بمعنى عالم ولكن دون المعنى المفهوم في العربية عند علماء اللغة الاسلاميين ، فهذا المعنى هو في مقابل لفظة Rabbi أي (ربّان) لا (حبر) .

وقد وردت لفظة (حبر) في شعر للشماخ :

كما خطّ عبرانيـة بيمينه بتيماء حبر ثم عرض أسطرا[2]

أما (الربّانيون) ، فهم العلماء بالحلال والحرام والأمر والنهي ، على رأي بعض العلماء الاسلاميين . وقال بعض آخر : الربّان العالم الراسخ في العلم والدين ، او العالم العامل المعلّم ، او العالي الدرجة في العلم . وفرّق بعضهم بين الربّانيين وبين الأحبار بأن جعل الأحبار أهل المعرفة بأنباء الأمم وبما كان ويكون ، وذهبوا الى انها من الألفاظ المعربة العبرانية او السريانية [3] . وهي من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم في اثناء الكلام على علماء يهود[4] .

ويتبين من القرآن الكريم انه قد كان للأحبار والربّانيين نفوذ عظيم على اليهود، فكانوا يطيعون أوامرهم ويفعلون ما يأمرونهم به ، وان غالبيتهم لم تكن تفقه شيئاً ولا تعرف من أحكام دينها إلا ما يقوله لهم اولئك الأحبـار[5] . وبعض هؤلاء الأحبار هم من المقيمين في جزيرة العرب في المواطن التي أقامت فيهـا يهود ، وبعض منهم كان يأتي الى يهود العرب من فلسطين : ولا سيما من (طبرية) التي اكتسبت شهرة عظيمة بعد خراب القدس (اورشليم) حيث استقر فيها (السنهدريم) وغدت مركزاً عظيماً للعلوم عند اليهود ، وفيها جمعت (المشنه) (المشنا) Mishna و (الماسورة) الكتاب الذي يبين كيفية تحريك كلمات التوراة[6] .

---

١ اليهود (ص ٢٠) ، The Universal Jewish Ency., Vol.. V, p. 145.
٢ تاج العروس (١١٧/٣) ، (حبر) .
٣ تاج العروس (٢٦٠/١) ، (٢١١/٩) ، المعرب ، للجواليقى (ص ١٦١) ، سيرة ابن هشام (٣٩٥/١) .
٤ المائدة : الآية ٤٤ ، ٦٣ ، آل عمران ، الآية ٧٩ ، تفسير الطبرى (٢٥١/٦) .
٥ التوبة ، الآية ٣١ .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٤٦/٢) .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من رجال يهود ممن أدركوا الاسلام، ذكر عنهم انهم كانوا أحباراً ، وانهم كانوا أصحاب علم بالتوراة وبكتب الأنبياء . وفي مقدمة من ذكروا ، عبدالله بن صوري الأعور ، قالوا : انه لم يكن بالحجاز في زمانه من كان أعلم بالتوراة منه ، وانه كان من بني ثعلبة بن الفطيون . ويقولون : إن الفطيون كلمة تقال لمن يلي أمر اليهود وملكهم ، كما ان النجاشي تقال لمن يلي ملك الحبشة[1] .

وذكر (القلقشندي) أن المشهور من ألقاب أرباب الوظائف عند اليهود ثلاثة ألقاب : الأول الرئيس ، وهو القائم فيهم مقام البطرك في النصارى ، والثاني الحزّان ، وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر ويعظهم ، والثالث الشّبلحصبور ، وهو الإمام الذي يصلي بهم[2] .

وقد أطلق القرآن الكريم على أسفار اليهود ، أي كتبهم المقدسة (التوراة)[3] . وعرفت بهذه التسمية في الحديث وفي كتب التفسير ، وصارت علماً لها في الاسلام . كذلك أطلقت هذه اللفظة على معابد اليهود ، ولم يعرف ورودها في الشعر الجاهلي خلا بيتاً ينسب الى شاعر جاهلي يهودي اسمه (سماك)[4] .

ولعلماء اللغة الإسلاميين آراء في أصل كلمة (التوراة) ، حتى ذهب بعضهم الى أنها عربية . ولكن ذوي أكثريتهم ترى أنها عبرانية ، لأن لغة موسى كانت العبرانية ، وبهذه اللغة نزلت التوراة[5] . ثم هم يختلفون في تعيين حدود التوراة ، فيرى بعضهم أنها خمسة أسفار ، ويرى بعض آخر أنها أكثر من ذلك ، وأنها تشمل الزبور ونبوة أشعيا وسائر النبوات ، لا يستثنى إلا الأناجيل[6] .

---

١ ابن هشام (١٣٦/٢) « محمد محيى الدين عبد الحميد » .

٢ صبح الاعشى (٤٧٤/٥) .

٣ آل عمران ، الآية ٣ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٩٣ ، المائدة ، ٤٦ وما بعدها ، ٤٩ ، الصف ، الآية ٦ ، الفتح ، الآية ٢٩ ، الجمعة ، الآية ٥ .

٤ Ency., IV, p. 706.

٥ اللسان (٢٦٥/٢٠ وما بعدها) ، « ورى » ، تاج العروس (٣٨٩/١٠) ، القراؤون والربانون (١٧٩) ، المفردات ، للاصفهاني ، (ص ٧٤) ، Uni. Jew. Ency., 10, p. 267, Katsh, p. 191.

٦ صبح الاعشى (٢٥٤/١٣ وما بعدها) ، Katsh, p. 191.

وليس في القرآن الكريم تحديد لأسفار التوراة ، ولكن اقتران اسم موسى بها في بعض الموارد منه يشير الى ان المراد بها ما يقال له بـ (الأسفار الخمسة) Pentateuch عند الغربيين . وهذه الأسفار الخمسة هي الأسفار المُنزلة المكتوبة التي نزلت على موسى على رأي قدماء العبرانيين . ثم توسعوا في مدلول اللفظة فيما بعد ، فأطلقوها على جميع الأسفار التي يقال لها العهد القديم . وأطلقتها بعض الفرق على غيرها من الأسفار مثل الأنبياء (نبيم) Nebiim ، والكتب (كتوبيم) Kettubim [1] .

وقد أورد القرآن في مخاطبة يهود وتقريعهم قصصاً عن الأنبياء والمرسلين والأمم القديمة ، منه ما هو مذكور عندهم في الأسفار الخمسة،ومنه ما هو وارد عندهم في (الهكاده) وفي (المشنه) . ولما كان في احتكاك الاسلام بيهود كان لأول مرة في منطقة يثرب ، صارت معظم الاشارات الواردة في القرآن الكريم الى التوراة في السور المدنية لمخاطبة الوحي لهم ، وتوجيه الكلام مباشرة اليهم ، ولم ترد تلك التسمية في الآيات المكية إلا في موضع واحد هو في سورة الأعراف[2].

والمراد من (الكتاب) الذي أنزل على موسى ، والمذكور في مواضع من القرآن الكريم التوراة ، أي هذه الأسفار الخمسة التي نتحدث عنها [3] . وهو تعبير قرآني لا نستطيع أن نقول إنه كان من مصطلحات الجاهليين ، كما أننا لا نستطيع نفي ذلك ، إذ يجوز أن يكون الجاهليون قد أطلقوه على تلك الأسفار ، أو على العهد القديم كله ، بمعنى هذه الأسفار وبقية ما ورد فيها من أخبار الأيام والملوك والأنبياء .

وقد ورد في الأخبار عن (أبي هريرة) ، أنه « كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله »[4] .

---

١ Uni-Jew. Ency., 10, p. 268, Katsh., p. 191. f.

٢ الاعراف : الآية ١٥٧ ، Ency., IV, p. 706.

٣ « ولقد آتينا موسى الكتاب » ، البقرة ، الآية ٧٨ ، روح المعاني (١/٣١٦) ، تفسير الطبرسي (١/١٥٥) ، المفردات ، للاصفهاني (ص ٤٣٧) .

٤ « كتاب تفسير القرآن » ، سورة البقرة : ٢ رقم ١١ ، البخارى (٣/١٩٨) ، « طبعة ليدن » .

وقصد بعبارة أهل الكتاب ، اليهود ، لأنهم أصحاب كتاب موسى ، وبينهم كان نزوله ، ولذلك عرفوا به . ويظهر من خبر أبي هريرة هذا ومن أخبار أخرى في هذا المعنى ان اليهود كانوا يقرؤون على المسلمين كتبهم وهي بالعبرانية ، ثم يفسرونها لهم بالعربية ، وذلك في أيام حياة الرسول .

أما الزبور والزبر ، فقد وردتا في القرآن الكريم . ويراد بـ (الزبر) في بعض الآيات مثل : « وانه لفي زُبر الأولين » الكتب المُنزلة القديمة[1] . وقد وردت الكلمتان في بعض الشعر المنسوب الى الجاهليين كامرىء القيس[2] والمرقش الأكبر[3] وأمية بن أبي الصلت[4] . وذكر علماء اللغة ان معنى زبر كتب ونقش . ويرى بعض المستشرقين احتمال كونها من الكلمات العربية الجنوبية . ويرى بعض آخر انها من أصل (مزمــور) Mazmor العبراني . و (مزمــور) Mazmör في اللهجة السريانية ، و (مزمور) Mazmur في الحبشية . أخذت الكلمة وأجري عليها بعض التغيير حتى صارت على هذا الشكل[5] .

وقد وردت لفظة (الزبور) مفردة في موضعين من القرآن الكريم ، في سورة النساء[6] وفي سورة الأنبياء[7] . أما في الموضع الأول ، فقد ورد فيه : « وآتينا داوود زبوراً » ، ومعنى هذا أن زبوراً أو كتاباً من الكتب المنزلة نزل على داوود . أما الموضع الثاني ، فقد أشير فيه الى (زبور) معرف بأداة التعريف

---

١ الشعراء : الآية ١٩٦ .

٢ أتت حجج بعدي عليها فأصبحت   كخط زبور في مصاحف رهبان
وينسب اليه أيضا هذا البيت :
لمن طلل أبصــرته فشجــاني   كخط زبــور في عسيب يمــاني
شرح ديوان امريء القيس ، تأليف السندوبي (ص ١٨٤) ، قصيــدة رقم ٨٦ ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٨٤) .

٣ وكــذاك لا خــــير ولا   شــي عــلى أحد بــدائم
قد خـط ذلــك في الـزبو   ر الأوليـــات القــدائم
اللسان (١٦/٣) ، النصــرانية : القسم الثاني ، الجزء الثــاني ، القسم الاول (ص ١٨٤) .

٤ وأبرزوا بصعيد مستوى جرز   وأنــزل العرش والميزان والزبر
كتاب البدء (١٤٦/٢) ، النصرانية : القسم الثاني ، الجزء الثاني (ص ١٨٤) .

٥ اللسان (٣١٤/٤ وما بعدها) ، Ency., IV, p. 1184.

٦ الآية ١٦٣ .

٧ الآية ١٠٥ .

(ال) : « ولقــد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبــادي الصالحون » . ولكن لم يضف الى اسم نبي من الأنبياء ، كما رأينــا في الموضع السابق . وقد فسر بعض المفسرين كلمة (الزبور) في هذا الموضع بمعنى الكتاب وكتب الله المنزلة ، أي على التعميم لا التخصيص[1] .

ويراد بالزبور ما يقال له (المزامير) في الترجمات العربية للتوراة ، و Psalms في الانكليزية ، من أصل Psalmos اليونانية التي هي ترجمة لفظة (مزمور) Mizmor العبرانيــة ، ومعناها المدائح والأناشيد . وهي أناشيد شعرية تُرتّم في حمد الإلـه وتمجيده ، ولذلك قيل لهذه المزامير (تحليّم) tehillim في العبرانية . و tillim على سبيل الاختصار ، و tillin في لهجة بني إرم[2] .

وقد « قال أبو هريرة : الزبور ما أنزل على داوود ، من بعد الذكر من بعد التوراة »[3] . وذكر بعض العلماء ان الزبور خص بالكتاب المنزل على داوود[4] . وقد ذهب الشعبي الى ان الزبور ، الكتاب المنزل على داوود ، أما الذكر فما نزل على موسى. وذهب آخرون مذاهب أخرى في تفسير المراد من الزبور ومن الذكر . ولكن الرأي الغالب ان المراد من الزبور ، مزامير داوود . وذلك لنص القرآن على ذلك .

وقد أشار القرآن الكريم الى وجود اختلاف بين بني اسرائيـل في فهم كتاب الله وتفسيره ، وأنهم انقسموا لذلك شيعاً وأحزاباً . ولا يستبعد أن يكون هــذا الاختلاف شاملاً ليهود الحجاز أيضاً ، كأن يكون أحبارهم قد ساروا في اتجاهات مختلفة في التفاسير وفي شرح الأحكام وكان أصحابهم يتعصبـون لهم ويتحزبون ، على نمط الأعراب في عصبيتهم لقبائلهم ، وفي اتباع أقوال ساداتهم دون تعقــل وتفكير . أمــا مواضع الاختلاف ومواطن الفرقة التي كانت تفرق فيما بينهم ، فلا نعرف اليوم من أمرها شيئاً ، لأنها لم تدون ولم تذكر، ولم يشر القرآن اليها، ولكنها على كل لا تخرج ولا شك عما نعرفه من خلاف في أوجه النظر في المسائل المعروفة حتى اليوم في أمور الفروع .

---

١ تفسير الجلالين (٢/٣٣) .
٢ Uni-Jew. Ency., Vol., 9, p. 13.
٣ اللسان (٤/٣١٥) ، « صادر » .
٤ المفردات (ص ٢١٠) .

ونحن لا نستطيع أن نتصور أن سواد يهود الجاهلية كانوا على علم بالكتابة وبالقراءة ثم بأحوال دينهم وأموره. وفي القرآن الكريم أن هذا السواد كان جاهلاً ليس له علم ولا خبر بأمور دينه وشريعته ، وأنه مقلد تابع لما يقوله له أحباره وربّانيوه . فكل ما كانوا يقولونه له ، كانوا يرونه حقاً وعلماً [1] . مع ان من بين أولئك من كان دجّالاً ليس على درجة من دراية وعلم ، ومن كان ينطق بالباطل ولا يخشى الكذب ، لينال بذلك كسباً ومالاً ، وأنه كان لهؤلاء على أتباعهم ومقلّديهم سلطان عظيم .

وقد تعرض (ابن خلدون) لموضوع علم اليهود العرب وثقافتهم ، فقال : « إذا تشوقت العرب الى معرفة شيء مما تتشوق اليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم . وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى . وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية . فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك »[2] . فغالبية يهود جزيرة العرب في الجاهلية ، هم في مستوى ، بعد، دون مستوى يهود البلاد الأخرى ، بسبب تبدّيهم وانقطاعهم عن غيرهم من اليهود .

وقد كانت لليهود مدارس تدارسوا فيها أحكام شريعتهم ، وكان لهم أحبار وحاخامون علّموهم أمور دينهم . ذكر أهل الأخبار انهم كانوا يكتبون بالعبرانية او بالسريانية ، وذلك لاختلاف أهل الأخبار في تعيين تلك اللغة ، وعدم تمكنهم من التمييز بينهما . وفي كتب الأخبار والتواريخ اشارات الى اتصال بعض رجال مكة ويثرب باليهود والاستفسار منهم عن أمور الرسل والأنبياء والماضين وعن بعض الأحكام . وفيها قصص اسرائيلي وجد له سبيلاً الى العربية، يرويه القصاصون عن الرسل والأنبياء ، وأساطير لا يشك في كونها اسرائيلية الأصل. كما نجد ألفاظاً

---

١ « ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا أماني . وان هم الا يظنون » ، البقرة ، الآية ٨٧ ، تفسير القرطبي ، الجامع (١/٢٩٦ وما بعدها) .

٢ ابن خلدون (١/٤٣٩) .

عبرانية لا شك في أصلها وجدت لها سبيلاً الى عربية الجاهليين بسبب اتصال اليهود بهم ، واستعمالهم اياها ، فتأثر بهم الجاهليون وأخذوها منهم واستعملوها أيضاً فصارت من المعربات .

وينسب الى الشاعر (الأسود بن يعفر) بيت شعر هو :

سُطورُ يهوديين في مهرقيهما ... مُجيدين من تيماء أو أهل مدين[1]

واذا صحت نسبة هذا البيت اليه ، يكون قد تعرّف على يهوديين اثنين ، وجدهما يجيدان الكتابة ، وقد كتبا على المهارق . ولم يكن الشاعر على علم أكيد بموطنهما ، فلم يدرِ اذا كانا من أهل تيماء او من أهل مدين .

ولتعبير (مجيدين) أهمية خاصة ، إذ يشير الى تمييزه بين الكتابة الجيدة والكتابة الرديئة ، والى وجود مصطلح (مجيد) عند الجاهليين ، يطلقونه كما نطلقه اليوم على من يجيد الكتابة ويتقنها

ولما كانت اللغة العبرانية لغة الدين عند العبرانيين،وبها نزل الوحي على موسى ، فلا بد أن يكون لعلمائهم ورجال دينهم في جزيرة العرب علم بتلك اللغة وفقه بها. ولكن هذا لا يعني ضرورة كونهم كعلماء طبرية أو قيصرية في فلسطين أو بعض المواضع التي اشتهرت بعلمائها في التلمود بالعراق ، ولست أستبعد أن يكون لهم علم بلغة بني إرم أيضاً ، لأن هذه اللغة كما نعلم كانت لغة العلم والثقافة قبل الميلاد وبعده ، وبها كتبت كتب عدة من التلموديين ، ثم إنها انتشرت بين سواد الناس حتى صارت لغة سواد يهود يتكلمون بها ولو برطانة وبلهجة خاصة هي اللهجة التي يمتاز بها سواد اليهود في كل قطر يعيشون فيه .

أما سواد يهود جزيرة العرب في الجاهلية : فلا أظن أنهم كانوا يتكلمون العبرانية أو لغة بني إرم ، إنما أرى أنهم كانوا يتكلمون لهجة من هذه اللهجات العربية . أعني لهجة العرب الذين كانوا يعيشون بينهم وينزلون بين أظهرهم ، ولم يرد في الأخبار ما يفيد أنهم كانوا يتحادثون بالعبرانية ، بل الذي ورد أن عامتهم لم تكن تعرف تلك اللغة . وأن الخاصة منهم والمزاولين لحرفة الكتابة

---

[1] ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، (ص ٨٢) .

والسحر كانوا يعرفونها ويكتبون بها ، وبها يعوذون أنفسهم وغيرهم من الناس . وكانوا يفسرون التوراة والتلمود والكتب المقدسة لسواد النـــاس من العبرانية الى العربية،لأنهم لم يكونوا يعرفون العبرانية ، لا سيما وقد كان بينهم عرب متهودة .

ولم يظهر في يهود جزيرة العرب من حاز على شهرة في العلم والفقه والتأليف والخطابة على نحو ما ظهر بين يهود العراق او فلسطين او مصر ، وإلا لاشتهر أمره وذاع خبره ، كما ذاع خبر علماء يهود بابـل وفلسطين ومصر . ولا يمكن ان تكون عزلتهم عن بقية يهود الأقطار المذكورة سبباً كافياً في تعليل عدم شيوع اسم أحد من هؤلاء ، إن قضية عزلتهم عن بقية اخوانهم في الدين ، هي نفسها تحتاج الى سند يثبت وجود تلك العزلة . فمواضعهم في أعالي الحجاز ، على اتصال ببلاد الشأم ، وهي لا تبعد كثيراً عن مساكن اخوانهم في فلسطين . ثم انهم كانوا على اتصال مستمر بهم بالتجارة ، وقد كانوا يشترون حاصل بلاد الشأم من خمور وحبوب وما شاكل ذلك ، وينقلونه الى يثرب ، يذهبون اليها للتعامل والاتجار ، فكيف يكون يهود جزيرة العرب في معزل عن غيرهم مع وجود الأسفار والتجارة لا سيما ان احبار (طبرية) كانوا يأتون الى يهود اليمن ليلقنوهـــم أمور الدين ، ولا يستبعد ان يكون من بين اولئك الأحبار من ذهب الى يهود يثرب او خيبر او تيماء .

فالقضية على ما يظهر ، ليست قضية عزلة يهود جزيرة العرب عن بقية يهود وانفصالهم بذلك ثقافياً وعلمياً عن بني دينهـــم انفصالاً يؤثر في مستواهم الثقافي والعلمي ، فيجعلهم دون غيرهم من اخوانهم في العلم والثقافة، انما يظهر ان هنالك جملة عوامل حالت دون نبوغ أحد فيهم . فيهود جزيرة العرب مهما قيل عنهم وعن رقيهم وارتفاع مستواهم عن مستوى من كان في جوارهم ، لم يكونوا في ثقافتهم وفي مستواهم الاجتماعي أرقى من الفلاحين وسكان القرى ومـــا اليها في العراق او فلسطين او مصر ، كما ان حالتهم المادية لم تكن عـــلى مستوى عال بحيث يمكن ان تقاس بالأحوال المادية التي كان عليها اليهود الآخرين في الأرضين المشار اليها ، او أصحاب تلك الأرضين من غير يهود . ثم ان عددهم مهما قيل فيه ، لم يكن كبيراً . وقد رأينا ان رجالهم المحاربين لم يكونوا يتجاوزون كلهم في الحجاز كله بضعة آلاف ، وفي مثل هذا العدد والظروف والأحوال لا يمكن بالطبع ان تتوفر الامكانيات المساعدة على البحث والتتبع والتعمق في العلم .

وقد عرف يهود يثرب بمعرفتهم السحر والاتقاء منه ، وبعلمهم بالتعاويذ ، فكان المشركون يلجؤون اليهم إذا احتاجوا الى السحر أو اذا اعترضتهم مشكلات يرون أنها لا تحل إلا بقراءة التعاويذ عليها . وقد ذكر المفسرون أن اليهود عملوا السحر للنبي ، عمله رجل اسمه (لبيد بن الأعصم) أو بناته وهو من يهود يثرب[1]. وقد أشير الى سحر اليهود في الحديث[2] .

وقد لجأ العرب الى اليهود يأخذون منهم الرقى والتعاويذ . فقد ورد في الأخبار « أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تشتكي ويهودية ترقيها ، فقال أبو بكر : أرقيها بكتاب الله . يعني : بالتوراة والانجيل ... »[3] .

وقد حافظ يهود جزيرة العرب على حرمة السبت ، ويوم السبت من الأيام المقدسة التي يجب مراعاة حرمتها مراعاة تامة ، فلا يجوز ليهودي الاشتغال فيه ، والقيام ببعض الأعمال . ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنّسه بالاشتغال فيه يكون قد ارتكب جرماً عظيماً .

وقد وردت إشارات الى يوم السبت في مواضع من القرآن الكريم ، في معرض الكلام على بني اسرائيل ، وأشير في بعضها الى أخذ موسى العهد منهم بوجوب مراعاة حرمة هذا اليوم ، والى نقضهم له وعدم مراعاتهم جميعاً لهذا العهد، والى أنهم اعتدوا فيه[4] . وفي هذه الإشارات دلالة على أن من اليهود عامة من خالف حرمة هذا اليوم ، فلم ينفذ ما ورد في أحكام شريعته عنه . ولكن هذا عام غير خاص بيهود العرب الجاهليين ، وإنما يشير الى خروج بعض بني اسرائيل على أحكام دينهم وعدم مراعاتهم لها ، وهذا اليوم من أقدس الأيام في نظرهم .

---

١ تفسير الطبري (٣١/٢٢٦)، تفسير الطبرسي (٥/٥٦٨)، روح المعاني (٣٠/٢٨٢).

٢ البخاري : باب السحر ، عمدة القارىء (٢١/٢٧٩ وما بعدها) ، « الحديث رقم ٧٧ وما بعده » .

٣ عمدة القارىء (٢١/٢٦٢) .

٤ الأعراف : الآية ١٦٢ ، النحل : الآية ١٢٤ ، البقرة : الآية ٦٥ ، النساء : الآية ٤٦، ١٥٣ ، أبو الثناء الألوسي ، روح المعاني (١/٢٥٦ وما بعدها) ، اللسان (٢/٣٧) « صادر » ، محيط المحيط (٣/٩١١ وما بعدها) ، الطبري ، تفسير (٩/٦٥) ، الطبرسي ، مجمع البيان (١/١٢٩ وما بعدها) ، الزمخشري ، الكشاف (١/٢١٨) ، الطبرسي (٥/٣٩١) « طهران » ، الطبري ، تفسير (١٤/١٢٤) ، الكشاف (٢/١٧٨) .

وقد وقف العرب الذين كانوا على اتصال باليهود على بعض أحكام دينهم مثل : الرجم بالنسبة للزنا ، واعتزال النساء في المحيض . فذكر العلماء ان حكم الاسلام في الحيض « اقتصاد بين افراط اليهود الآخذين في ذلك باخراجهن من البيوت ، وتفريط النصارى . فانهم كانوا يجامعوهن ولا يبالون بالحيض »[1] ، ومثل الدعاء الى الصلاة عند اليهود بالنفخ في (الشبور)[2] ، وذلك كما تحدثت عنه في موضع آخر ، ومثل صوم (عاشوراء) وأعيادهم ، ومثل الصلاة وأوقاتهم عندهم .

واستعمل يهود يثرب (القرن) في معابدهم ، لاعلان صلواتهم وأعيادهم واعلان احتفالاتهم والحوادث المهمة التي قد تقع لهم . وقد كانوا يستعملون آلتين ، يقال لاحداهما الـ (شوفار) Shophar ومعناها القرن ، ويقال للأخرى القرن، وتصنع من القرون كذلك . ولذلك اختلط الأمر بينهما . والظاهر انهما كانتا تختلفان في نوع قرون الحيوانات التي تتخذان منها[3] .

وقد اختلف يهود جزيرة العرب عن الجاهليين في الأمور التي حرمتها شريعتهم عليهم في مثل المأكولات ، كما اختلفوا عنهم في عباداتهم وفي اعتقادهم بوجود إله واحد ، هو (إله اسرائيل) ، وفي أمور عقائدية أخرى ، واختلفوا عنهم في بعض العادات والمظاهر الخارجية ، فكان اليهود مثلاً يسدلون شعورهم ، أما المشركون فكانوا يفرقون رؤوسهم . ورد عن ابن عباس : « أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كان يسدل شعره وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم ، وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ، ثم فرق النبي ،صلى الله عليه وسلم،رأسه»[4] . ولا يستبعد اختلافهم عنهم في لبس بعض الملابس التي لم تكن مألوفة عند الجاهليين.

وقد ظهر بين اليهود شعراء ، نظموا الشعر بالعربية وعلى طريقة العرب في نظم الشعر . منهم السموأل المشهور ، و (كعب بن الأشرف) وسماك اليهودي، وسأتكلم عنهم في أثناء حديثي عن الشعر .

---

١ ارشاد الساري (١/٣٤٠) ، (كتاب الحيض) .
٢ ارشاد الساري (٢/٢ وما بعدها) ، (كتاب الآذان) .
٣ A Relig., Ency., Vol. III, p. 1599.
٤ عمدة القارىء (١٧/٧١) .

لم يسلم من يهود في ايام الرسول غير عدد قليل من المتبينين منهم . مثل : عبدالله بن سلام ، ولم يتعاون معه غير عدد قليل منهم مثل يامين بن عمير بن كعب النضري ، ويامين بن يامين الاسرائيلي ، ومخيريق ، وكان رجلاً غنياً صاحب نخيل ، وهو أحد بني ثعلبة بن الفطيون ، حث قومه على مساعدة الرسول ومعاونته في غزوة أحد . وكان الرسول قد طلب مساعدتهم لوجود صحيفة بينه وبينهم . فلما اعتذروا له بالسبت ، خالفهم مخيريق قائلاً لهم : لا سبت لكم ، وقاتل معه حتى قتل ، فقال الرسول : مخيريق خير اليهود . وقد وصف بالعلم ، وذكر انه كان حبراً عالماً فيهم[1] . آمن بالرسول وجعل ما له له ، وهو سبعة حوائط فجعلها الرسول صدقة[2] .

أما عبدالله بن سلام ، فكان يدعى ، وهو في يهوديته ، الحصين بن سلام بن الحارث . وسلام اسم والده . فلما أسلم سمّاه رسول الله (عبدالله) ، وهو من بني قينقاع ، أسلم والرسول في مكة لم يهاجر بعد ، وذلك في رواية من الروايات . وأسلم بعد الهجرة على أكثر الروايات . ذكر انه كان شريفاً في قومه ، سيداً ، صاحب نسب وحسب ، وانه كان حبراً عالماً . فلما أسلم ، نبذه قومه ، وتحدثوا فيه[3] . وقد نزلت فيه بضع آيات[4] .

أما أنه كان حبراً من الأحبار ، عالماً في شريعتهم ، فلا يمكن البت فيه ، فقد جرت عادة أهل الأخبار على إطلاق كلمة (الحبر) على نفر ممن أسلم من يهود في أيام الرسول ، كما أطلقت على نفر ممن أسلم بعده ، مثل كعب الذي عرف بكعب الأحبار . ولا يمكن في نظري البت في درجات علم أمثال هؤلاء وفي مقدار فهمهم للتوراة ولكتب يهود إلا بجمع ما نسب اليهم من قول ،ودراسته. عندئذ نستطيع أن نحكم على علمهم إن كان لهم علم بأحكام ديانة يهود وبالعالم وبما كان يتدارسه علماء ذلك العهد . ورأيي أن هذه الدرجات إنما منحها لهم

---

١ ابن هشام (١٤٠/٢) ، (٣٨/٣) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، Graetz, Vol., III, p. 75.

٢ البلاذري ، فتوح (٢٤) ، الاصابة (٣٧٣/٣) ، (رقم ٧٨٥٢) ، (من بني النضر ... ويقال انه من بني قينقاع ، ويقال من بني الفطيون) .

٣ ابن هشام ، سيرة (١٣٧/٢) ، أسد الغابة (١٧٦/٣) ، تهذيب الأسماء واللغات (٢٧٠/١ وما بعدها) ، الروض الانف (٢٥/٢) .

٤ تهذيب الاسماء (٢٧١/١) ، الاصابة (١١٦/٣) ، (٢١٢/٢) ، (رقم ٤٧٢٥) ، (١٩٣٩م) .

بعض ذوي القلوب الطيبة من المسلمين الأولين ، لما رأوه فيهم ، ولما سمعوه منهم من أقوال نسبوها الى الأنبياء والعلماء والى كتب الله القديمة ، ولم يكن لهم بطبيعة الحال علم بها ، لعدم وقوفهم على ما كان يتداوله الأحبار ، فعجبوا من علمهم هذا ، ومن إحاطتهم بأحوال الماضين ، فعدّوهم أحباراً لهم في قومهم علم ورأي. وقد تساهل بعضهم في ذلك لظنه أن في منح هؤلاء أمثال هذه النعوت مما يفيد الاسلام ، إذ يعني هذا تقدير أولئك الأحبار أصحاب العلم الأول له ، وان تقديرهم هذا شهادة مزكّية له . وقد يكون لهم نصيب أيضاً في منحهم هذه الدرجة لأنفسهم للتباهي وللتصدر بذلك بين المسلمين .

وقد نسب أهل الأخبار أقوالاً لابن سلام ، تجد بعضها في كتب التفسير والحديث ، وتجد بعضها في كتب السير والأخبار . لبعضها طابع إسرائيلي ، فهو من القصص المعروفة بالإسرائيليات ، ولبعضها طابع الأقاصيص . قد يكون (ابن سلام) صاحبها ومرجعها ، وقد يكون غيره قد نسبها اليه [1] .

وقد كان له ابنان ، هما يوسف ومحمد ، رويا عنه الحديث [2] . وقد كنّي باسم ولده يوسف ، فعرف بأبي يوسف [3] . ويعد يوسف من الصحابة ، وله حديث عن الرسول ، ويقال إن الرسول هو الذي سمّاه يوسفَ ، وقيل ليست له صحبة . وقد روى عن جماعة من الصحابة [4] .

وقد أسلم يامين بن يامين الاسرائيلي ، على أثر إسلام عبدالله بن سلام [5] .

وأما يامين بن عمير بن كعب ، أبو كعب النضري ، فهو من بني النضير . وقد ساعد اثنين من فقراء أصحاب رسول الله على تجهيزهما بشيء من التمر ليتمكنا بذلك من الالتحاق بالجيش الذي سار في السنة التاسعة من الهجرة لغزوة تبوك [6] . أسلم فأحرز ماله من بني النضير ، ولم يحرز ماله من بني النضير غيره وغير أبي سعيد بن عمرو بن وهب ، فأحرزا أموالها . وذكر أن النبي قال

---

١ Ency., I, p. 30-31, Caetani, Annali, I, p. 413, Harovitz, in ZDMG., IV, 524.

٢ أسد الغابة (١٧٦/٣) .

٣ تهذيب الاسماء واللغات (٢٧١/١) .

٤ تهذيب الاسماء (١٦٦/٢) .

٥ الاصابة (٣٣٣/٦) ، (٦١٢/٣) ، (رقم ٩٢١٤) .

٦ الطبري (١٤٣/٣) ، (حوادث السنة التاسعة) ، الاصابة (٣٣٣/٦) ، (القاهرة ١٩٠٧م) ، (٦١١/٣) ، (رقم ٩٢١٣) .

ليامين : ألم ترَ الى ابن عمك عمرو بن جحاش وما همّ به من قتلي ؟ وكان أراد أن يلقي على النبي رحى فيقتله . فجعل يامين لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله .

وكان فيمن أسلم من بني قريظة (كعب بن سليم القرظي) ، وهو من سبيهم في الاسلام ، ويعد في الصحابة ، ولكن لا تعرف له رواية . وهو والد محمد بن كعب القرظي المعروف بروايته عن أحداث يهود مع النبي ، وعن بعض أخبار بني اسرائيل[1] . وله روايات في حديث الرسول عن بعض الصحابة ، ويعد من التابعين . يقال : انه ولد في حياة الرسول ، وتوفي ما بين سنة ثمان ومئة وسنة عشرين ومئة . وقد عدّه علماء الحديث في طبقة الثقات الورعين[2].

وفيمن أسلم من يهود بني قريظة رفاعة القرظي،وهو رفاعة بن سموأل(سموال)، وقيل : رفاعة بن رفاعة القرظي من بني قريظة ، وهو خال صفية زوجة النبي ، لأن أمها برة بنت سموأل (سموال) ، أما أبوها ، فهو (حيي بن أخطب) من رؤساء يهود ، وكان من كبار المعارضين له ، وهو من بني النضير[3] .

ويعدّ (زيد بن سَعْية) (سعنة) في طبقة الصحابة ، ويقال انه كان أحد أحبار اليهود الذين أسلموا ، وانه كان أكثرهم علماً ومالاً ، وقد شهد مع النبي مشاهد كثيرة ، وتوفي في غزوة تبوك مقبلاً الى المدينة[4] .

ويعدّ (عطية القرظي) من الصحابة كذلك ، كان صغيراً حين غزا النبي بني قريظة ، ولذلك لم يقتل ، فأسلم ، وصحب النبي[5] .

ولم يظهر من يهود اليمن في الإسلام ممن عرفوا برواية الإسرائيليات سوى رجلين ، هما : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه . فأما كعب الأحبار ، فقد أدرك زمن الرسول،غير أنه لم يره ، ولم يدخل في الاسلام إلا في أيام أبي بكر أو عمر . وهو أبو اسحاق كعب بن ماتع بن هينوع (هيسوع) ، وقد عرف

---

١ تهذيب الاسماء (٢/٦٧) ، أسد الغابة (٤/٢٤٢) .
٢ الطبري (٣/٤٤) ، (السنة الخامسة) ، تهذيب الاسماء (١/٩٠) .
٣ الاصابة (١/٥٠٤) ، (رقم ٢٦٦٨) ، تهذيب الاسماء (١/١٧١ وما بعدها ، ١٩١) ، (٢/٣٤٨ وما بعدها) .
٤ تهذيب الاسماء (١/٢٠٤) ، الاصابة (٣/٢٨) ، (١/٥٤٨) ، (رقم ٢٩٠٤) ، (التجارية ١٩٣٩م) ، (واستشهد في غزوة تبوك مقبلا غير مدبر) .
٥ تهذيب الاسماء (١/٢٣٥) ، الاصابة (٢/٤٧٩) ، (رقم ٥٥٨١) .

بين المسلمين بكعب الأحبار وبكعب الحبر من باب التعظيم والتقدير لعلمه . وقد أتاه هـذا اللقب من علمه بالشريعة وبكتب الأنبياء وبأخبار الماضين ، وهو علم لا نستطيع أن نحكم على درجته ومقدار بعده أو قربه من العلم الذي كان منتشراً بين أحبار ذلك العهد ما لم نقف على الأقوال الصحيحة التي صدرت عن ذلك الحبر . أما هذا المروي عنه والمذكور في تفسير الطبري وفي تأريخه وفي كتب من كان يعنى بجمع القصص ولا سيما قصص الرسل والأنبياء، فليس في استطاعتنا التصديق بأنه كله صادر من فم كعب ، إذ يجوز أن يكون من رواية أناس آخرين ثم حمل على كعب .

ولم ينسب أحد الى كعب مؤلفاً، وكل ما نسب اليه فهو مما ورد عنه بالمشافهة والسماع . وهو بين صحيح يمكن أن يكون قد صدر منه ، وبين مشكوك في أمره وضع عليه ، وفيه ما هو اسرائيلي صحيح ، أي انه مما هو وارد في التوراة أو في التلمود أو في الكتب الاسرائيلية الأخرى وفيه ما هو قصص اسرائيلي نصراني ، وما هو محض افتعال وخلط . وبالجملة ، إن هذا الوارد عنه يصلح أن يكون موضوعاً للدراسة ، لمعرفة أصوله وموارده والمنابع التي أخذت منه . وعندئذ يمكن الحكم على درجة أصله ونسبه في علم بني اسرائيل ، وامكان صدوره من كعب أو من غيره ، ومقدار علم كعب ووقوفه على الإسرائيليات .

وأما وهب بن منبه ، فيعدّ من التابعين ، ويعد مرجعاً مهماً في القصص الاسرائيلي . ويقال انه حصل على علمه من كتب الأولين ، وإن أخاً له كان يذهب الى الشأم للتجارة فيشتري له الكتب ليطالعها ، وانه كان على علم غزير بأحوال الماضين ، وكان ملماً بجملة لغات[1] . وإذ كان وهب من المتأخرين وكان نشاطه في الحركة الفكرية في الاسلام لا في الجاهلية ، لم نجعل له في هذا الموضع مكاناً ، انما مكانه في الأجزاء المتعلقة بتأريخ الاسلام .

هذه قصة يهود جزيرة العرب قبل الاسلام ، قصة لا تستند الى مؤلفات تأريخية كتبت في تلك الأيام ، ولا إلى نصوص جاهلية عربية أو أعجمية لها علاقة بيهود كتبت في ذلك العهد ، ولكن تستند ، في أكثر ما حكيناه، الى موارد اسلامية ، ذكرتهم وأشارت اليهم لمناسبة ما وقع بينهم وبين الرسول من خلاف . وقد ورد

---

١ لي مقال عنه في مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الاول والثاني منها .

شيء كثير بحقهم في القرآن الكريم وفي الحديث وفي الأخبار ولا سيا أخبار الغزوات ، يتعلق معظمه بأمر الخصومة التي وقعت بينهم وبين النبي عند قدومه يثرب ، فهو لا صلة له لذلك إلا بما له علاقة بهذه الناحية . وما ورد عنهم إذن هو من مورد واحد وطرف واحد . أما الطرف الثاني من أصحاب العلاقة بهذا التأريخ والشأن ، وأعني بهم اليهود ، فلا صوت لهم فيه ، ولا رأي . فلم تصل الينا منهم كتابة ما عنهم في علاقتهم بالاسلام . كذلك لم تصل الينا كتابة أو رواية أو خبر عن أولئك اليهود في الموارد التأريخية التي دوّنها غيرهم من مؤرخي يهود وكتّابهم عن علاقة يهود جزيرة العرب بالاسلام ، وعن اجلاء يهود الحجاز من مواضعهم الى بلاد الشأم ، لا في العربية ولا في العبرانية ولا في بقية اللغات، مع ما لهذا الحادث من خطر في تأريخ اليهود في جزيرة العرب . ولعل الأيام تكشف لنا عن موارد في العبرانية أو في لغة بني إرم تذكر أحوال يهود جزيرة العرب قبيل الاسلام وعند ظهوره ، وتكشف عن آثار يهود في المواضع التي كانوا يسكنونها في الحجاز ، فتبت في أمور كثيرة عن حياة هؤلاء . وليس احتمال عثورنا على مثل هذه الآثار ببعيد ، فلا بد ان يعثر على حجر من الحجارة المكتوبة التي توضع فوق القبور ، فنعرف منه ما لغة الكتابة التي كان يستعملها أولئك اليهود ، أهي العبرانية ، أو العربية ، أو لغة بني إرم ، أو أبجدية من الأبجديات المشتقة من القلم المسند ؟ وقد يعثر على نصوص أطول من هذه النصوص التي توضع على القبور ، تكشف النقاب عن أمور أخرى مهمة تفيدنا في معرفة أحول اليهود ببلاد العرب قبل الاسلام .

وما دمنا لا نملك نصوصاً يهودية جاهلية ، ولا نصوصاً عربية جاهلية تتعرض ليهود ، فليس في وسعنا إذن أن نتحدث باطمئنان عن أثر اليهود في الجاهليين أو أثر الجاهليين في اليهود . لقد تحدث عدد من المستشرقين عن أثر اليهود في الجاهليين ، فزعموا أن لليهود أثراً عميقاً فيهم ، فالختان مثلاً هو أثر من آثار يهود في العرب ، وشعائر الحج عند الوثنيين أكثرها هي من اسرائيل ، فالطواف حول البيت يرجع أصله الى بني اسرائيل ، ذلك أن قدماءهم كانوا يطوفون حول خيمة الإله (يهوه) إله اسرائيل ، ومنهم تعلمه الجاهليون واتبعوه في طوافهم بالبيت . والاجازة بعرفة يهودية كذلك ، لأن الذي كان يجيز الحجاج بعرفة فيأمر الحج بالرمي بعد أن يلاحظ الشمس وقت الغروب يعرف بـ (صوفة) ، وصوفة

تسمية عبرانية لها علاقة وصلة بهذه الوظيفة وظيفة مراقبة غروب الشمس وتثبيت وقته ، فالإجازة اذن عبرانية الأصل . و (منى) صنم من أصنام اسرائيل، ووادي منى على اسم هذا الصنم الإسرائيلي ، وأسماء أيام الاسبوع هي تسميات أخذت من يهود ، ولفظة (المدينة) التي تطلق على يثرب ، أطلقها اليهود على هذا الموضع قبل الاسلام ، وقد أخذوها من الإرمية ، لتميز هذا المكان عن (وادي القرى). وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل[1] .

وقد غالى بعض اليهود في تقدير يهود جزيرة العرب ، فذهب الى أن أولئك اليهود جلهم إن لم يكونوا كلهم كانوا يحسنون قراءة الكتاب المقدس ، بدليل اطلاق القرآن الكريم عليهم (أهل الكتاب) . وقد فاته أن عبارة (أهل الكتاب) لا تعني أهل الكتابة ، بمعنى أنهم كانوا أصحاب علم بالكتابة ، وإنما المراد من ذلك أهل كتاب منزل سماوي . ويدخل في ذلك النصارى أيضاً لوجود كتاب سماوي لديهم كذلك هو الانجيل . وقد رأيت أن القرآن الكريم قد وصف بعض الأحبار بالعلم ، كما رمى أكثرهم بالجهل. أما السواد الأعظم منهم ، فقد جعلهم عامة تتبع أقوال رجالها ، فلا علم لها ولا معرفة بأمور الماضين أو الحاضرين .

وأنا لا أريد هنا أن أجادل في نفي هذه الأمور ، أو اثباتها ، فأخذ الشعوب واقتباسها بعضها عن بعض ، من القضايا التي لا يمكن أن ينكرها إلا المعاندون الجاهلون المتعصبون . وقد رأيت ان ابن الكلبي وغيره من قدامى الأخباريين قد أشاروا الى أن أصل بعض الأصنام عند العرب هو من الشمال،استورد في مناسبات أشاروا اليها ، كما أن التنقيبات الأثرية قد أثبتت وجود صلات فكرية بين جزيرة العرب وبين العالم الخارجي ، وأن ما يزعمه القائلون بعزلة الجاهليين عن بقية العالم هو هراء لا يستند الى دليل . ولكني في هذه الأمور من الحذرين . أكره الجزم بشيء من غير برهان قاطع ودليل محسوس . فكلام أهل الأخبار ، أكثره مما لا يمكن الاعتماد عليه ، وقد رأينا طبيعة أكثره ونوعه . ثم إن الكثير مما له علاقة بيهود وبالدين هو مما أخذ من أهل الكتاب في الاسلام أو من أفواه مسلمة أهل الكتاب . فهو متأخر عن الجاهلية ، فلا يمكن أن يشمل الجاهليين من اهل الكتاب ومن وثنيين . وعلينا الآن التمييز بين هذا الذي أدخل بين العرب بعد أيام الجاهلية

---

١ اليهود (٧٨ وما بعدها) ، Graetz, Vol., III, p. 60.

وبين ذلك الذي كان معروفاً عند الجاهليين وقد ورد عنهم ، وذلك لنتمكن من ابداء رأي في هذه القضايا المعقدة .

ثم إن العرب كانوا شعباً سامياً ، كاليهود في اصطلاح العلماء،وتشترك البطون السامية في كثير من أصول التفكير والعقيدة ، ومعنى هذا ان ما نجده عند يهود قد يكون عند العرب وعند غيرهم ممن يدخلهم المستشرقون في هذه الزمرة . فلمَ كل شيء ليهود ، ونحكم على ان الجاهليين قد أخذوه منهم ، ولا نقول إن هذا من ذلك التراث القديم الموروث ؟ أنا لا أقول ذلك متأثراً بدافع من العصبية ، انما أقول ذلك لأني أدين بفكرة هي ان الاستعجال في اصدار الأحكام بغير دليل خطأ فاحش لا يجوز لانسان يشعر بانسانيته أن يوقع نفسه فيه .

هذا ولا بد بالطبع من ان يتأثر الجاهليون المجاورون لليهود بعض التأثر بهم ، بأن يأخذوا منهم بعض الأشياء ويتعلموا منهم بعض الأشياء التي تنقصهم والتي هم في حاجة ماسة اليها . فذلك أمر لا بد منه . كما ولا بد وان يكون اليهود قد اقتبسوا أشياء من جيرانهم العرب ، وعملوا على محاكاتهم في حياتهم الاجتماعية ، لا سيما وبينهم يهود من أصول عربية .

الفصل الثامن والسبعون

شعر اليهود

واللغة التي كان يتكلم بها اليهود ، هي اللهجات العربية التي كان يتكلم بها أهل المناطق التي ينزلونها . ولتكلم اليهود في كل قطر يحلّون فيه بشيء من الرطانة ، لا يستبعد أن تكون لغتهم العربية التي كانوا يتكلمون بها عربية تشوبها الرطانة العبرانية . ولكن هذا لا يمنع من وجود أناس فيما بينهم كانوا يتكلمون ويكتبون بالعبرانية ، ولا سيما أنهم كانوا يستعملون العبرانية في دراسة أمورهم الدينية وفي كتابة النشرات والتعاويذ ، كما كانوا يستعملونها في السحر . وقد وردت إشارات الى ذلك في كتب الحديث . وقد ورد أيضاً أنهم كانوا يعلمون أطفالهم العبرانية في الكتاب .

ويروي رواة الشعر شعراً جاهلياً زعموا ان قائليه هم من يهود . وأكثره أبيات لشعراء لا نعرف من أمرهم شيئاً ، لعلها بقايا قصائد . أما القصائد ، فينسب أكثرها الى السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق في تيماء ، وصاحب قصة الوفاء المشهورة [1] . وهذا الشعر المنسوب الى اليهود ، لا يختلف في طريقة نظمه وفي تراكيبه ونسقه عن شعر الشعراء الجاهليين ، ولا نكاد نلمس فيه أثراً لليهودية ولا للعبرانية . فألفاظه عربية صافية نقية مثل ألفاظ أهل الجاهلية ، وأفكاره على

---

١ تأريخ الادب العربي ، لكارل بروكلمان (١/١٢١) ، (طبعة دار المعارف بمصر) ، (طبعة ثانية) ، (تعريب الدكتور عبد الحليم النجار) .

نمط أفكار الجاهليين . ويصعب ان تجد فيه أثراً للتوراة والتلمود ، مما يحملنا على التفكير في صحة هذا الشعر وفي درجة تعمق صاحبه وتفهمه لدين يهود .

ومن الشعراء الذين روى الأخباريون شيئاً من شعرهم بعد السموأل : (أوس ابن دنن) ، وهو من بني قريظة ، و .(كعب بن سعد القرظي) ، و (سارة القريظية) ، و (سعية بن غريض بن عادياء) (شعية بن غريض بن عادياء) ، و (الربيع بن أبي الحقيق) ، و (أبو الديال) (أبو الزناد) ، وله شعر في رثاء يهود تيماء الذين أجلاهم الرسول ، و (شريح بن عمران) ، و (كعب ابن الأشرف) ، و (أبو رافع اليهودي)[1] .

وروى ان (جعفر بن محمد الطيلسي) جمع أشعار اليهود في ديوان ، ويظهر انه أخذ ذلك من كتاب للسكري. ويقال إن الموفق بالله أخا الخليفة المعتمد العباسي طلب من الوزير (اسماعيل بن بلبل) ان يقدم اليه ديواناً في شعر اليهود ، فطلب الوزير من العالم اللغوي الأديب (المبرّد) ان يقدم اليه ديواناً في شعر يهود ، فأخبره المبرد انه لا يعرف شعراً لليهود . فطلب الوزير من العالم (ثعلب) ان يقدم اليه ما عنده من شعر لليهود ، فأجابه ان لديه ديواناً من شعرهم ، فقدمه اليه[2] .

وقد كانت بين المبرّد وثعلب خصومة شديدة ومنافسة عنيفة ، فلعل هذا الخبر هو من مرويات الجماعة المتعصبة لأحد الطرفين في الطعن في أحدهما والحط من شأنه ، فقد تحزّب طلاب العلم وانقسموا جماعتين ، كل جماعة كانت تنتصر لصاحبها ، إذ لا يعقل ألا يكون للمبرد علم بشعر لليهود ، وقد ذكر من سبقه مثل أبي تمام في حماسته والجمحي في طبقات الشعراء كما ورد في الأصمعيات شعراً لهم[3] ، كما ان في كتابه الكامل نتفاً من شعرهم ، أو لعل إنكاره لشعرهم بمعنى ان أكثر ما نسب اليهم من شعر هو في نظره مزيف مصنوع ، ولهذا لم يُعنَ بجمع ما ورد عنهم ، ولا يمكن ان يكون ديواناً في شعر يهود[4] .

---

١ الاعاني (١٩/٩٤ وما بعدها) ، الميداني ، (٢/٢٧٦) ، المشرق ، السنة الثانية عشره (١٩٠٩) ، (١٦٢) ، Margoliouth, p. 76.

٢ Margoliouth, p. 75.

٣ طبقات الشعراء للجمحي (٧٠/ وما بعدها) .

٤ Margoliouth, p. 74.

والشعراء اليهود الذين ذكرهم الجمحي في كتابه (طبقات الشعراء) ، هم: السموأل بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقيق ، وهو من (بني النضير) ، وكعب بن الأشرف ، وشريح بن عمران ، وشعبة بن غريض (شعية بن غريض) وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذيال ، ودرهم بن زيد . وقد ذكر لهم أبياتاً مما قالوه من الشعر[1] .

والسموأل ، وهو من سادات يهود الحجاز ومن أثريائهم وملاكهم ، أحسن الشعراء اليهود حظاً في الخلود . بقيت أشعاره ، وحفظت قصائده ، ولم يبخل علماء الشعر عليه ، فجمعوا شعره في ديوان . ولم يشأ الزمان أن يبخل عليه ، فهيأ له من طبعه . ولا تزال تلك القصة : قصته مع مخلفات امرىء القيس مضرب الأمثال . وصير هذا الشاعر الملاك المرابي مثلاً وقدوة للأوفياء ، فضرب به المثل وقيل : أوفى من السموأل ، ولعل القصيدة المبتدئة بهذه الأبيات :

وفيت بأدرع الكندي ، إني إذا ما ذم أقوام وفيت
وأوصى عادياً يوماً بألا تهدم يا سموأل ما بنيت
بنى لي عادياً حصناً حصيناً وماء كلما شئت استقيت

هي التي خلدت هذه القصة ، وصيرت لها فروعاً وذيولاً ، وهي قصة تجعل الكندي المقصود بها هو الشاعر الشهير امرأ القيس ، وهي التي خلدت اسم صاحب ذلك الحصن .

ونجد هذه القصة في قصيدة للأعشى ، يقال إنه قالها مستجيراً بابن السموأل شريح ، ليفكه من أسره ، وكان قد وقع أسيراً في يد رجل كلبي كان الأعشى قد هجاه ، ثم ظفر به الكلبي ، فأسره وهو لا يعرفه ، فنزل بشريح بن السموأل وأحسن صيافته ، فلما مر بالأسرى ، قال الأعشى أبياتاً يمدحه فيها ، ويمدح أباه ، ويذكر كيف أن أباه اختار أدراع الكندي ، وأبى إلا أن يسلمها إلى آله وذويه ، على أن يسلمها الى آسري ابنه إذا أطلقوه . وهي أبيات نجته من أسر الكلبي ، ففر منه بعد أن وهبه لشريح وهو لا يعرف به . فلما عرف به ، ندم . ولكن ندمه هذا لم يفده شيئاً لأنه جاء بعد فوات الوقت[2] .

---

١ (ص ٧٠ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٩٩/١٩ وما بعدها) .

ويروي الأخباريون ورواة الشعر أشعاراً أخرى للأعشى قالها في مدح السموأل وفي وصف حصنه وفي سرد قصة وفائه ، نجد فيها مصطلحات وجمـلاً وكلمات ترد أيضاً في الشعر المنسوب الى السموأل . وهذا ما يحملنا على التفكير في كيفية حدوث ذلك ووقوعه . هل حدث ذلك لوقوف الأعشى على شعر السموأل واقتباسه منه ، باعتبار أن السموأل أقدم عهداً منه ، أم حدث بتوارد الخـواطر والمعاني فهو من قبيل المصادفة ليس غير ، ام صنع فيما بعد على لسان السموأل بعد شيوع هذا الشعر المنسوب الى الأعشى صاحب الأبلق الفرد ، ام الشعران مصنوعان صنعاً في الإسلام ووضعا على لسان الرجلين ؟ وبالجملة ان أكثر ما ينسب الى السموأل، هو من النوع المصنوع الذي شك فيه ، وبعضه مما نسب الى غيره من الشعراء .

أما جامع شعر السمـوأل في ديوان ، فهو ابراهيم بن عرفـة الملقب بنفطويه (٣٢٣ – ٣٢٤ هـ) ، من مشاهير علماء العربية . وبعض ما هو مذكور في هذا الديوان[١] ، مثل قصيدته الشهيرة :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

مذكـور في حماسة أبي تمام ، وبعضه من مرويات الأصمعي . ولم يذكر نفطويه جامع الديوان سنده في رواية هذا الشعر . وهـذا السند مهم جـداً عند المؤرخ للوقوف على كيفية حصول هذا العالم على شعر السموأل ، ولمعرفة صحة نسبته اليه.

وفي الشعر المنسوب الى السموأل جزء منحول مصنوع ، وُضع عليه ، وجزء منسوب الى غيره ، وقد أشار اليه العلماء . ونحن اذا قمنا بغربلته وتنقيته نجد أقله له وأكثره لغيره ، قد يكون من صنعة شاعر آخر ، وقد يكون من وضع وضَعَة الشعر ومفتعليه . ثم اذا فحصنا هذا القليل الذي يتفق أهل الأخبار على انه له ، لا نجد فيه ما يشير الى وجود أثر لدين يهود في هذا الشعر .

وقد استدل الأب (شيخو) على نصرانية ذلك الشاعر ، من قصيدة نسبت الى السموأل ، ورد فيها شيء من القصص الديني ، والأب شيخو لا يكتفي بنصرانية

---

١ طبع هذا الديوان في بيروت (سنة ١٩٠٩ م) في مجلة المشرق للسنة المذكورة (ص ١٦١ وما بعدها) ، كما نشره عيسى سابا بعنوان شعر السموال ببيروت كذلك . وأعاد نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين بعنوان : « ديوان السموأل » صنعة أبي عبدالله نفطويه وطبع ببغداد سنة ١٩٥٥ م .

السموأل وحده ، بل يرى ان النصرانية هي ديانة جميع الشعراء الجاهليين ، ولهذا ألّف فيهم كتابه (شعراء النصرانية) وتحدث فيه عنهم على انهم نصارى مؤمنون بدين المسيح[1] . وقد فاته شيء واحد لا أدري كيف عزب عن باله ، عفا الله عنه ، هو : تعيينه مذهبهم في النصرانية ، ونصه على ترهبهم وتنسكهم ولبسهم المسوح على طريقة الرهبان .

ومن القصائد المنسوبة الى السموأل ، قصيدة مطلعها :

ألا أيها الضيف الذي عاب سادتي   ألا اسمع جوابي لست عنك بغافل

ختمها بهذا البيت :

وفي آخر الأيام جاء مسيحنا   فأهدى بني الدنيا سلامَ التكامل[2]

وهي قصيدة تختلف في أسلوب نظمها وفي العرض العام عن طرق النظم المألوفة في الشعر قبل الاسلام ، والشعر المنسوب الى السموأل . وقد وردت فيه كلمة (رحمانهم) وأشير فيها الى قصة ابراهيم الخليل ، والذبيح ابنه ، والى تسميته باسرائيل ، ثم الى الأسباط . وقصة بني اسرائيل مع فرعون مصر . وقد أغرق الله فرعون في البحر . والى القدس والطور ، وأمثال ذلك .

وهذه القصيدة هي ردّ لأقوال رجل يظهر أنه عاب بني اسرائيل ، وتهجم عليهم ، فأثار هذا التطاول صاحب هذه الأبيات فنظمها في الردّ عليه ، وفي الفخر بقومه ، مستشهداً على ذلك بالقصص الوارد في التوراة عن بني اسرائيل وعن الأنبياء : ابراهيم وإسحاق ويوسف ، وختمها بالبيت الذي رويته منها عن مجيء المسيح ، وقد دعاه بـ (مسيحنا) ؛ لأن المسيح من اليهود . ذكر المسيح فيها بعد حديثه عن موسى وتكليم الربّ له على جبل الطور ، وهو انتقال فجائي غريب ليست له صلةٌ ما بالأبيات المتقدمة .

---

١ Nallino, Raccolta, III, p. 105, Nöldeke, Sammaual, in Zeitschrift für Assyriologie, XXVII, 1912, S. 177, Welhausen, Zum Koran in ZDMG, LXVII, 1913, S. 630, Eisenburg, Zu Samaw'al, in ZDMG., LXVIII, 1914, S. 644, Al-Samaw'al ibn Adiya, in Zeitschrift für Assyriologie, XXVI, 1912, S. 318.

٢ شعر السموأل (ص ٥٣) ، (عيسى سابا) ، « بيروت ١٩٥١م » .

والحوادث المذكورة في هذه القصيدة ، والاستشهادات التي استشهد بها الشاعر، وإن كانت مما هو مذكور في (الكتاب المقدس) بجزءيه ، تدل على أن ناظمها قد استعان في نظم المصطلحات التي استعملها وطريقة تعبيره عن الحوادث بالقرآن الكريم ، وبالقصص الوارد في كتب سير الرسل والأنبياء ، وأن الغاية من نظمها هو إثبات مجيء المسيح ، وقد جاء . وشهادة شاعر يهودي مفيـدة ولا شك في هذا الباب .

ولم ترد هذه القصة في ديوان السموأل ولا في كتب الأدب القديمـة . وعدم ورودها في تلك الموارد ، دليل بالطبع على أنها مما وضع بعد تدوين شعر السموأل في الديوان المنسوب اليه وفي كتب الأدب القديمة ، وأن هـذه القصيدة هي من الشعر المصنوع المتأخر بالنسبة الى بقية ما نسب اليه .

وللسموأل آراء دينية تراها في هذا الشعر المنسوب اليه ، في بعضه إقرار بالبعث والحساب ، وأن المليك وهـو الرب يجازي الانسان على ما قام به وما فعله من خير أو شر[1] ، وأن الله قد قـدّر كل شيء وقضى به ، وان كل ما قدّره كائن ولكل رزقه[2] ، وان الانسان ميت من يوم يولد ، وفيه جرثومة الموت ، ولد من ميت ، ثم يموت، ثم يبعث تارة أخرى للحساب والكتاب، ولكل أجل[3] .

وفي قصيدة ثانية :

نطفة ما منيت يوم منيت　　أمرت أمرها وفيها بريت
كنّها الله في مكانٍ خفيٍّ　　وخفيٌّ مكانها لو خفيت

وهي في كيفية نشوء الانسان من مَني يُمنى . وهي فكرة يظهر ان صاحب هذا الشعر اقتبسها من القرآن الكريم ، نظراً لمظهر التأثر به في تعبيره عن كيفية خلق الانسان . وقد تطرق في هذه القصيدة الى ما ذكرته من اعتقـاده بالموت وبالبعث بعده وبالحساب والثواب والعقـاب ، والى سليمان والحواريّ يحيى وبقايا

---

١ شعر السموأل (بيروت ١٩٥١) ، « عيسى سابا » (ص ٢٦) .

٢ ليس يعطى القوي فضلا من الرز　　ق ولا يحـرم الضعيف السحيت
بل لـكل من رزقه ما قضى اللـ　　ـه وان حـز آنفـه المستميت
شعر السموأل (٢٨) .

٣ شعر السموأل (ص ٢٩ وما بعدها) .

الأسباط أسباط يعقوب دارس التوراة والتابوت[1]. والى انفلاق البحر لموسى وأشار الى طالوت وجالوت . والاشارات الموجزة هذه ، وإن كانت لقصص موجود في التوراة ، لم يعتمد الشاعر عليها ، بل اعتمد على القرآن الكريم[2] . فـ (طالوت) مثلاً غير مذكور في التوراة ، انما ذكـــر في القرآن الكـــريم . وهو اسم الملك (شاؤول) في التوراة[3] . وفي أخذ الشاعر لهذه التسمية القرآنيـة التي لا وجود لها في التوراة دليل على انه وضع شعره بعد نزول القرآن ، أي في الاسلام . وأما (جالوت) فلفظة وردت في كتاب الله كذلك ، وهي تقابل Goliath في العهد القديم[4] . ويلاحظ ان صاحب القصيدة قد أخـذ مصاب (جالوت) من القرآن الكريم ، كما انه سار على نهجه في ذكر طالوت جالوت ، وهو ينفرد بذلك عن التوراة .

وشعر فيه هذه المصطلحات وهذه المعاني ، لا يمكن أن يكـــون شعراً يهودياً جاهلياً ، بل لا بد أن يكون من الشعر المصنوع المنظوم في الاسلام .

فليس في شعر السموأل إذن شيء خاص من الأشياء التي انفردت بها يهود ، وهذا الفخر الذي نراه في اسرائيل وفي الأسباط هـــو فخر يقوم على نمط فخر القبائل بقبائلهم ، وليس شيئاً من دين . ثم إن بنا حاجةً الى اثبات أنه من نظم السموأل حقاً ، وأنه ليس من نظم إنسان آخر قاله على لسان السموأل في مدح اليهود وفي الفخر بهم . ولا عجب أن يقوم إنسان بوضع شعر على لسال السموأل أو غيره من الشعراء الجاهليين ، فكتب الأدب مليئة بشواهد تذكر أسماء قصائد منتحلة ، وضعت عـــلى ألسنة شعراء جاهليين ، وأسماء من انتحل ذلك الشعر . ولم يكن انتحال ذلك الشعر عملاً سهلاً ، إذ لا بد له من قدرة وعـــلم ومعرفة بأساليب شعر الماضين . وقد كان حمّاد الراوية ، وهو أديب كبير وراوية شهير ، على رأس طبقة المنتحلين الوضّاعين للشعر .

---

١ وبقايا الاسباط أسـباط يعقو ب دارس التـوراة والتـابوت
وانفلاق الأمواج طورين عن مو سى وبعـد الملـك الطالـوت
ومصاب الادريس حين عصى الل ـه واذ صاب حينـه الجـالوت
شعر السموأل (ص ٢٧) ، ديوان السموأل (ص ٢٥) .

٢ سورة البقرة ، الآية ٢٤٦ وما بعدها .

٣ Ency., IV, p. 642.

٤ Ency., I, p. 1008, Hastings, p. 303.

وأشهر القصائد والأشعار المنسوبة الى السموأل ، القصيدة المقولة في الفخر التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداءٍ يرتديـه جميل

وهي قصيدة شهيرة معروفة تعد نموذجاً في الفخر والحماسة وفي حسن النظم ، ولذلك تحفظ في المدارس حتى اليوم ، ويضيف اليها بعض العلماء هذا البيت :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره ... يعزّ عـلى من رامـه ويطول

وبعض العلماء يزيد عليها وينقص منها أبياتاً أخرى . وهي مع ذلك مما يعزوه بعض العلماء الى شعراء آخرين ، فعزاهـا بعضهم الى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، أو عبدالله بن عبد الرحمان ، وقيل ابن عبد الرحيم الأزدي ، وهـو شاعر شامي إسلامي[1] .

وينسب بعض الرواة القصيدة المذكورة الى شاعر إسلامي آخر يسمى (دكين) الراجز[2] . فترى من هذا مبلغ الاختلاف في صحة نسبة هذه القصيدة الى السموأل .

ولم يرد في ديوان السموأل ولا في بعض الكتب الأخرى البيت المتقدم، وأعني به قوله :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره ... يعزّ عـلى من رامه ويطول

ولعدم وروده في ديوانه أهمية بالطبع ، إذ يجوز ان تكون هذه الزيادة متعمدة لاثبات انها من شعر السموأل حقاً ، وآية ذلك ورود (الأبلق الفرد) في هذه القصيدة ، وليس هناك حصن اشتهر وعرف بهذه التسمية غير هذا الحصن .

وينسب الى السموأل قوله معتذراً لرجل من ملوك كندة :

وإن كنت ما بُلّغت عني فلامني ... صديقي وحزت من يدي الأنامل

---

١ ديوان السموأل (ص ١٠ وما بعدها) ، الحماسـة (ص ٤٩) ، العيني (٢/٧٧) ، الأمالي (١/٢٧٢) .

٢ الاغاني (٩/٢٦٢) ، (طبعة دار الكتب المصرية) .

وقد ذكر هذا البيت ، وكذلك بيت آخر معه في ديوانه . غير ان بعض العلماء ينسبها الى معدان بن جواس بن فروة السكوني[1] .

وللأخباريين روايات تختلف بعض الاختلاف في اسم والد السموأل ، فمنهم من جعله عادياء ، ومنهم من دعاه أوفى ، ومنهم من سمّاه حيّان ، (حسان) ، ومنهم من قال له (السموأل بن غريض بن عاديا)[2] . وهم يقولون انه يهودي، ويقولون أحياناً انه من غسان ، وغسان بالطبع ليست من يهود . ومنهم من قال ان والده من يهود ، أما أمه فكانت من غسان[3]. فهو اذن ذو نصفين — اذا صح التعبير — نصف يهودي ، ونصف آخر عربي . ثم هم يذكرون انه كانت له صلات وثيقة بأمراء غسان ، ولصلته هذه بهم قصده امرؤ القيس ، طالباً وساطته له عند الحارث بن أبي شمر الغساني ، ليوصله الى قيصر ، فينال بمساعدته حقه من خصومه[4] . أما نحن ، فلا يهمنا من أمر السموأل في هذا المكان شيء ، وكل ما يهمنا هو ما له صلة بدين اليهود ، وعقيدة يهود الجاهلية في الحجاز .

ويستشهد الذين يذكرون ان اسم والد السموأل هو (عاديا) ببيت شعر نسبوه الى السموأل هو :

بني لي عاديا حصناً حصيناً　　وعينــاً كلما شئت استقيت

فقالوا أن أباه (عاديا) اليهودي ، وهو باني ذلك الحصن[5] .

وقد جعل (ابن دريد) نسب (السموأل) في (بني غسان) ، وجعــل عمود نسبه على هذا النحو : (السموأل بن حيّا بن عادياء بن رفاعه بن الحارث ابن ثعلبه بن كعب)[6] .

---

١ ديوان السموأل (ص ٤٣ وما بعدها) ، سمط اللآلىء (٤٥٧) .
٢ الاغاني (١٢/٣) ، (٩٨/١٩) ، الميداني (٢٧٦/٢) ، تاج العروس (٣٨٢/٧) ، (السموأل بن أوفى بن عادياء بن رفاعة بن جفنة) ، التاج (٣٨٢/٧) ، المشرق ، السنة الثانية عشرة (١٩٠٩) ، (ص ١٦٢) ، اليهود (ص ٢٧) ، معاهد التنصيص (١٣١/١) ، مروج (١٧٦/٢) ، (دار الاندلس) .
٣ الاغاني (٩٨/١٩) ، المشرق ، العدد المذكور .
٤ الاغاني (٩٨/١٩) .
٥ تاج العروس (٢٩٨/٦) .
٦ الاشتقاق (٢٥٩/٢) «وستنفلد» .

ولا يستبعد بعض المستشرقين احتمال كون السموأل من أصل عربي ، هو من غسان . تهود في جملة من تهود من العرب ، لا سيما أن في منطقة يثرب أحياء نص على أصلها العربي ، دخلت في هذا الدين . وقد ذهب بعضهم الى احتمال وجود رجلين بهذا الاسم : رجل غساني عربي ، وآخر يهودي[1] .

وفي هذا البيت المنسوب الى الأعشى :

أرى عاديا لم يمنع الموت ما له وفرد بتيماء اليهـودي أبلـق

ما يشير الى يهودية السموأل ، وهو يشير أيضاً الى غنى عادياء وكثرة ماله .

وقد عرف حصن السموأل بالأبلق ، وبالأبلق الفرد ، وهـو حصن مشرف على تيماء ، وقد ذكر الأخباريون أنه إنما دعي بالأبلق ، لأنه كان في بنائه بياض وحمرة . وكان أول من بناه عادياء أبو السموأل . وقد ذكر ياقوت الحموي أن موضعه على رابية فيها آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنه من العظمـة والحصانة ، وهو خراب[2] ولست أرى أن الأبلق أو الأبلـق الفرد هي تسمية ذلك الحصن ، إنما هي صفة له ، أخذت من البيت :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعزّ عـلى من رامه ويطـول

وهو بيت ينسب قوله الى السموأل . ومن أبيات أخرى تنسب الى الأعشى .

وورد في أبيات منسوبة الى الأعشى ان باني الأبلق هو (سليمان) ، قال :

ولا عاديا لم يمنع الموت ما له وحصن بتيماء اليهودي أبلق
بناه سليمان بن داوود حقبة له أزجٌ عالٍ وطيء موثق
يوازي كبيدات السماء ودونه بلاطٌ ودارات وكلس وخندق[3]

ولكن هذا البيت يناقض ما ينسب الى السموأل من شعر فيه ان بانـي ذلك

---

١ Zeitschrift für Assyriologie, 1912, S. 174.

٢ البلدان (١/٨٦) ، القزويني ، آثار البلاد (٤٨) ، المشرق (١٩٠٩) ، (١٦٣) ، تاج العروس (٦/٢٩٨) ، (بلق) .

٣ البلدان (١/٨٧) ، تاج العروس (٦/٢٩٨) .

الحصن ، هو أبوه (عاديا) (عادياء) . ولست أستبعد ان يكون أكثر هذا الشعر من الشعر المصنوع في الاسلام . وأما نسبة بناء الحصن الى سليمان ، فهي من الأمور المألوفة التي رواها أهل الأخبار عن أبنية سليمان في جزيرة العرب . وردت من أساطير روّجها اليهود بين العرب في الجاهلية وفي الاسلام عن عظمـــة سليمان وبنائه الأبنية العظيمة . وقد خصصوا سليمان دون سائر رجال اليهود بالبنـــاء ، لبنائه الهيكل الذي أدهش العبرانيين ولا شك ، ولم يكن لهم عهد يمثل هذا العهد من قبل . ومن يدري ، فلعل هذه الأبيات المنسوبة الى الأعشى هي من عمـــل أناس في الاسلام كلفهم اليهود صنعها ، للتفاخر والتباهـي بمـآثرهم الماضية ، أو انها حقاً من قول الأعشى ، صنعها لليهود بعد ان فك شريح أسره وأعطاه شيئاً من المال ، والمال مالك لكل لسان .

وزعم أهل الأخبار ان الملكة (الزبّاء) قصدت هذا الحصن ، وحصن مارد ، فعجزت عنها ، فقالت : « تمرد مارد وعزّ الأبلق » ، فسيرته العرب مثـــلاً لكل عزيز ممتنع[1] . و (مارد) حصن بدومة الجندل[2] .

ونحن إذا تتبعنا الشعر المنسوب الى السموأل ، نجـــد معظمه كما قلت منتحلاً موضوعاً ، صنع فيما بعد . وإذا تتبعنا سيرة هذا الشخص وما قيل فيه ، نجـــد أكثره مما لا يستطيع الثبات للنقد . ولعل هذا هو الذي حمل بعض المستشرقين على الشك لا في شعر السموأل وحده ، بل في شخصية السموأل نفسها ، فذهبوا الى أنها من اختراع أهل الأخبار ، اخترعوها لما سمعوه من قصص مذكور في التوراة عن (صموئيل)[3] .

وقد نسب بعض المستشرقين بقـــاء شعر السموأل وعدم ذهابه في الاسلام الى أهله الذين دخلوا في الإسلام ، وبقوا في أماكنهم من تيماء ، فلم يكن من الهين عليهم نبذ شعره وتركه ، ولهذا حافظوا عليه ، فكانت محافظتهم هذه عليه سبب بقائه حتى اليوم[4] .

---

١ تاج العروس (٦/٢٩٨) ، (بلق) .

٢ تاج العروس (٢/٥٠٠) ، (مرد) .

٣ Margoliouth, p. 72, Winckler, in MVAG., Bd., VI, S. 262.

٤ Islamic Culture, III, 2, p. 190, (1939).

وقد ذكر الأخباريون أسماء ثلاثة أولاد للسموأل. أولهم شريح الذي مرّ ذكره. وثانيها حـوط ، وثالثها منذر . ولا نعرف من أمرهما غير الاسم . ويظن أن حوطاً هو الذي وقع في الأسر فذبح [1] .

أما (سعية بن غريض) (شعية بن غريض بن السموأل) (شعبة) ، فهو أخو السموأل على رواية لأبي الفرج الاصبهاني ، جعلت اسم والـد السموأل : (غريض بن عادياء) [2]،وهو حفيده على رواية أخرى . وقد أورد له الاصبهاني جملة أبيات في أثناء كلامه على السموأل [3] . ويذكر أنه كان غنياً صاحب أملاك وأموال ، يعقد المجالس ، وينادمه قوم من الأوس والخزرج ، وأن بعض ملوك اليمن أغار عليه فانتسف من ماله حتّى افتقر ولم يبق له مال ، ثم عاد اليه حاله، وأنه عـاش طويلاً الى أيام معاوية ، وانه دخل في الاسلام ، وأن معاوية رآه يصلي في المسجد الحرام ، فطلب حضوره ، وسأله عن شعر أبيه الذي يرثي بـه نفسه ، فأنشده قصيدته :

يا ليت شعري حين أندب هالكاً مــاذا تـؤبني بــه أنواحي

ويذكر رواة هذا الخبر ان (سعية) كان شيخاً طاعناً في السن يومئذ . وانه لم يكن يرى حقاً لمعاوية في الخلافة ، ولذلك لم يقبل ان يسلم عليه بالخلافة ، وانه أجاب أجوبة فيها خشونة وجفاء ، وان الخليفة كف أصحابه من الإساءة اليـه قائلاً لهم : قد خرف الشيخ ، فأقيموه . فأخذ بيده فأقيم .

والقصيدة المذكورة ينسبها بعض الرواة الى السموأل،وهذه النسبة تجعل السموأل أبا لسعية لا أخاً له . أما اذا جعلناها من شعر غريض (عريض) ، والد سعية ، فلا يكون هناك إشكال ما من ناحية نسبة القصيدة ، غير ان علينا حينئذ جعـل (سعية) (شعية) حفيداً للسموأل ، في رواية من جعله (شعية بن غريض بن السموأل) . باضافـة ولد آخر عـلى أولاد السموأل ، اسمه (غريض) (الغريض) .

---

١ المشرق ، السنة (١٩٠٩) ، (ص ١٦٣) .
٢ الاغاني (١٩/ ١٠٠) ، طبقات الشعراء ، لابن سلام (١١١) ، اليهود (٣١) .
٣ Nöldeke, Beiträge, S. 64.

وذكر البحتري في (حماسته) اسم شاعر يهودي آخر ، هو : عريض بن شعبة، ونسب اليه هذا الشعر :

ليس يعطى القوي فضلاً من الرز   ق ولا يحرم الضعيف الخبيث
بل لكلّ رزقه مـا قضى اللـ   ـه ولو كدّ نفسه المستميت[1]

وهو من شعر السموأل نفسه على رواية بعض الأخباريين، يروونه له مع شيء من الاختلاف[2] .

أما (الربيع بن أبي الحقيق) ، فهو من بني قريظة عـلى رواية ، أو من بني النضير على رواية أخرى . وقد اشترك في يوم بعاث ، وعاصر النابغة الشاعر الشهير ، وخلف جملة أولاد ناصبوا الرسول العداء[3] .

ومن بقية شعراء يهود : (أوس بن دنى) من قريظة[4] ، و (كعب بن الأشرف)[5] ، و (سمّاك اليهودي) . وهـو شاعر قوي في رده على المسلمين عنيف[6] .

وكان (كعب بن الأشرف) رجلاً شاعراً يهجو النبي وأصحابـه ويحرض عليه ويؤذيهم . خرج الى مكة ونزل على (المطلب بن أبي وداعة السهمي) ، بعد معركة (بدر) وجعل يحرض على رسول الله وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب . فكان حاصل هجائه القتل[7] .

وكان (أبو عفك) اليهـودي ممن يحرض على رسول الله ويقول الشعر ، وكان شيخاً كبيراً . فقتل لتحريضه على رسول الله وقوله الشعر فيه[8] .

---

١ Nöldeke, Beitrage, S. 71.

٢ ليس يعطى القوي فضلا من الرز   ق ولا يحـرم الضعيف الشخيت
بل لـكل من رزقه ما قضى اللـ   ـه وان حـز أنفـه المستميت
شعر السموأل (٢٧ وما بعدها) .

٣ الاغاني (٢١/٦١) ، Nöldeke, Beiträge, S. 72.

٤ الاغاني (١٩/٩٤) .

٥ الاغاني (١٩/١٠٦) ، ابن هشام (٢/١٢٣) ، « حاشية على الروض » .

٦ ابن هشام (٢/١٧٩) ، « حاشية على الروض » .

٧ نهاية الارب (١٧/٧٢ وما بعده) .

٨ نهاية الارب (١٧/٦٦ وما بعدها) .

الفصل التاسع والسبعون

النصرانية بين الجاهليين

ولم تكن اليهودية ، الديانة السماوية الوحيدة التي وجدت لها سبيلاً الى جزيرة العرب ، بل وجدت ديانة سماوية أخرى طريقاً لها الى العرب ، هي الديانة النصرانية . وهي ديانة أحدث عهداً من الديانة الأولى ، لأنها قامت بعدها ، ونشأت على أسسها ومبادئها ، ولكنها كانت أوسع أفقاً وتفكيراً من الأولى . فبينما حبست اليهودية نفسها في بني اسرائيل ، وجعلت إلهها إله بني اسرائيل شعب الله المختار ، جعلت النصرانية ديانتها ديانة عالمية جاءت لجميع البشر . وبينما قيّدت اليهودية أبناءها بقيود تكاد تضبط حركاتهم وسكناتهم ، وفرضت عليهم فروضاً ثقيلة ، نجد النصرانية أكثر تساهلاً وتسامحاً ، فلم تقيد أبناءها بقيود شديدة ، ولم تفرض عليهم أحكاماً اشترطت عليهم وجوب تنفيذها . وقد قام رجال الدين النصارى منذ أول نشأتها بالتبشير بها ، وبنشرها بين الشعوب ، وبذلك تميزت عن اليهودية التي جمدت ، واقتصرت على بني اسرائيل .

ولفظة (النصرانية) و (نصارى) التي تطلق في العربية على أتباع المسيح ، من الألفاظ المعربة . يرى بعض المستشرقين أنها من أصل سرياني هو : (نصرويو) Nosroyo ، (نصرايا) Nasraya [1]، ويرى بعض آخر أنها من Nazerenes التسمية العبرانية التي أطلقها اليهود على من اتبع ديانة المسيح . وقد وردت في

---

[1] غرائب اللغة (ص ٢٠٧) ، .Ency., III, p. 848

العهد الجديد في (أعمال الرسل) حكاية على لسان يهود[1] . ويرى بعض المؤرخين أن لها صلة (بالناصرة) التي كان منها (يسوع) حيث يقال : (يسوع الناصري) أو أن لها صلة بـ (الناصريين) Nasarenes = Nazarenes احدى الفرق القديمة اليهودية المتنصرة . وقد بقي اليهود يطلقون على من اتبع ديانة المسيح (النصارى) ، وبهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم ، ومن هنا صارت النصرانية علماً لديانة المسيح عند المسلمين .

ولعلماء اللغة الاسلاميين آراء في معنى هذه الكلمة وفي أصلها ، هي من قبيل التفسيرات المألوفة المعروفة عنهم في الكلمات الغريبة التي لا يعرفون لها أصلاً . وقد ذهب بعضهم إلى أنها نسبة الى الناصرة التي نسب اليها المسيح[2] . وزعم بعض منهم أنها نسبة الى قرية يقال لها (نصران) ، فقيل نصراني وجمعه نصارى[3] . وذكر أن (النصرانة) هي مؤنث النصراني[4] .

ولم أعثر حتى الآن على نص جاهلي منشور وردت فيه هذه التسمية . أما في الشعر الجاهلي ، وفي شعر المخضرمين، فقد ذُكر ان أمية بن أبي الصلت ذكرهم في هذا البيت :

أيام يلقى نصاراهم مسيحهم والكائنين له وداً وقربانا[5]

وذكر ان شاعراً جاهلياً ذكر النصارى في شعر له ، هو :

اليكَ تعدو قلقا وضينها معترضاً في بطنها جنينها
مخالفاً دين النصارى دينها

---

١ أعمال الرسل : الاصحاح ٢٤ ، الآية ٥ « فاننا اذ وجدنا هذا الرجل مفسدا ، ومهيج فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة ومقدام شيعة الناصريين » .
Ency. Relig. Ethic., III, p. 574.

٢ اللسان (٦٨/٧) ، تاج العروس (٥٦٨/٣) ، (نصر) .

٣ المفردات ، للاصفهاني (ص ٥١٤) .

٤ فكلتاهما خرت وأسجد رأسها كما أسجدت نصرانة لم تحنف
اللسان (٦٨/٧) ، (نصر) ، « والنصرانية واحدة النصارى » ، تاج العروس (٣/ ٥٦٩) ، (نصر) .

٥ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٨٧) .

وذكر ان جابر بن حُنَي قال :

وقد زعمت بهراء ان رماحنا رماح نصارى لا تخوض الى دم[1]

وان حاتماً الطائي قال في شعر له :

وما زلت أسعى بين ناب ودارة بلحيانَ حتى خفت أن أتنصرا[2]

وان (طخيم بن أبي الطخماء) قال في شعر له في مدح بني تميم :

وإني وإن كانوا نصارى أحبّهم ويرتاح قلبي نحوهم ويَتَوّقُ[3]

وان حسان بن ثابت قال :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد[4]

غير ان هذه الأبيات وأمثالها إن صح انها لشعراء جاهليين حقاً،هي من الشعر المتأخر الذي قيل قبيل الاسلام . أما قبل ذلك ، فليس لنا علم بما كان العرب يسمّون به النصارى من تسميات .

والذي نعرفه أن قدماء النصارى حينما كانوا يتحدثون عن أنفسهم كانوا يقولون: (تلاميذ) Disciples ، و (تلاميذ المسيح) ، ذلك أنهم كانوا ينظرون الى المسيح نظرتهم الى معلم يعلمهم[5] وكذلك نظروا الى حوارييه ، فورد (تلاميذ يوحنا) وقصدوا بذلك النصارى[6] . وهذه التعابير من أقدم التعابير التي استعملها النصارى للتعبير عن أنفسهم .

كذلك دعا قدماء النصارى جماعتهم بـ (الاخوة) وبـ (الاخوة في الله) Brethren in Lord للدلالة على الجماعة ، وبـ (الأخ) للتعبير عن المفرد ،

---

١ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٧١ ، ٢٢٥) ، شعراء النصرانية (١٩٠) ، المشرق ، السنة السابعة ١٩٠٤ ، (٦٢٠ وما بعدها) .

٢ الاغاني (١٦/١٠٤) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٧١،٢٢٥) .

٣ المشرق ، السنة السابعة ١٩٠٤ (٦٢٠ وما بعدها) .

٤ ديوان حسان (٢٤) .

٥ Hastings, p. 192.

٦ انجيل مرقس : الاصحاح الثاني ، الآية ١٨ .

ذلك لأن العقيدة قد آخت بينهم ، فصار النصارى كلهم اخوة في الله وفي الدين[1]. ثم تخصصت كلمة (الأخ) برجل الدين[2] . ودعوا أنفسهم (القديسين) Saints[3] والمؤمنين[4] والمختارين الأصفياء والمدعوّين ، ويظهر أنها لم تكن علمية ، وإنما وردت للإشارة الى التسمية التي تليها .

وقد كنى عن مجتمع النصارى بـ (الكنيسة) Ecclesia ، وتعني (المجمع) في الاغريقية ، بمعنى المحل الذي يجتمع فيه المواطنون . فكنى بها عن المؤمنين وعن الجماعة التابعة للمسيح . كما عبر عن النصارى بـ (الفقراء) وبـ (الأصدقاء)[5].

وقد عرف النصارى بـ Christians نسبة الى Christos اليونانية التي تعني (المسيح) Messiah ، أي المنتظر المخلص الذي على يديه يتم خلاص الشعب المختار . ويسوع هو المسيح ، أي المنتظر المخلص الذي جاء للخلاص كما جاء في عقيدة أتباعه ، ولذلك قيل لهم أتباع المسيح . فأطلقت عليهم اللفظة اليونانية ، وعرفوا بها ، تمييزاً لهم عن اليهود . وقد وردت الكلمة في أعمال الرسل وفي رسالة بولس الأولى الى أهل كورنتوس[6] .

أما في القرآن الكريم وفي الأخبار ، فلم ترد هذه اللفظة اليونانية الأصل. ولهذا نجد ان العربية اقتصرت على إطلاق (نصارى) و (نصراني) و (نصرانية) على النصارى تمييزاً لهم عن أهل الأديان الأخرى . أما مصطلح (عيسوي) و (مسيحي) ، فلم يعرفا في المؤلفات العربية القديمة وفي الشعر الجاهلي ، فهما

---

١ Hastings, p. 104.

٢ اعمال الرسل ، الاصحاح الاول ، الآية ١٥ وما بعدها ،
Ency. Reli. Ethic., 3, p. 573.

٣ رسالة بولس الرسول ، الرسالة الاولى الى أهل كورنتوس ، الاصحاح الاول ، الآية الاولى وما بعدها .

٤ أعمال الرسل : الاصحاح الخامس ، الآية ١٤ ، رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس ، الاصحاح الاول : الآية الاولى وما بعدها .

٥ Ency. Reli. Ethic., 3, p. 574.

٦ أعمال الرسل : الاصحاح الحادي عشر : الآية ٢٦ ، الاصحاح ٢٦ ، الآية ٢٨ ، رسالة بولس الاولى الى أهل كورنتوس : الاصحاح الرابع ، الآية ١٦ ،
Hastings, p. 127.

من المصطلحات المتأخرة التي أطلقت على النصارى[1] . وقد قصد في القرآن الكريم بـ (أهل الانجيل)[2] النصارى ، إذ لا يعترف اليهود بالانجيل . وقد أدخل علماء اللغة اللفظة في المعربات[3] .

وأهم علامة فارقة ميزت نصارى عرب الجاهلية عن العرب الوثنيين ، هي أكل النصارى للخنازير ، وحملهم للصليب وتقديسه . ورد ان الرسول قال لراهبين أتياه من نجران ليبحثا فيما عنده : « يمنعكما عن الاسلام ثلاث : أكلكما الخنزير ، وعبادتكما الصليب ، وقولكما لله ولد »[4] . وورد انه رأى (عدي بن حاتم الطائي) وفي عنقه صليب من ذهب ، لأنه كان على النصرانية[5] .

وورد في شعر ذي الرمة :

ولكنّ أصل امرىء القيس معشرٌ يحل لهم أكل الخنازير والخمر[6]

يريد انهم نصارى في الأصل،فهم يختلفون عن المسلمين في أكلهم لحم الخنزير وفي شربهم للخمر .

وقد أقسم النصارى بالصليب . هذا (عدي بن زيد) يحلف به في شعر ينسب اليه ، فيقول :

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب[7]

ليس في استطاعتنا تعيين الزمن الذي دخلت فيه النصرانية الى جزيرة العرب . وتحاول مؤلفات رجال الكنائس رد ذلك التاريخ الى الأيام الأولى من التاريخ النصراني[8] ، غير اننا لا نستطيع اقرارهم على ذلك ، لأن حججهم في ذلك غير

---

١ Hughes, Dictionary of Islam, p. 431.
٢ المائدة ، الآية ٤٧ .
٣ النهاية في غريب الحديث (١٣٦/٤) ، المعرب ، للجوالقى (٢٣) .
٤ البلاذري (٧١) .
٥ اللسان (٤٤٣/١٣) ، (وثن) ، السيوطي ، الدر المنثور (٧٥/١٠) .
٦ النصرانية (٧٥) .
٧ شيخو ، شعراء النصرانية (٤٥١) .
٨ النصرانية وآدابها ، القسم الاول ، تاليف لويس شيخو ، بيروت ١٩١٢ م .

كافية للاقناع . ولذلك ، فليس من الممكن تثبيت تأريخ لانتشارها في هذه الأماكن في الزمن الحاضر ، وليس لنا إلا التفتيش عن أقدم الوثائق المكتوبة للوقوف عليها بوجه لا يقبل الشك ولا التأويل . ونحن أمام بحث علمي، يجب ان تكون العاطفة بعيدة عنه كل البعد .

واذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة ، فإن دخول النصرانية اليها كان بالتبشير وبدخول بعض النساك والرهبان اليها للعيش فيها بعيدين عن ملذات الدنيا ، وبالتجارة،وبالرقيق ولا سيما الرقيق الأبيض المستورد من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة . أما هجرة نصرانية كهجرة يهود الى الحجاز أو اليمن أو البحرين ، فلم تحدث ، ذلك لأن النصرانية انتشرت في انبراطورية الروم والساسانيين بالتدريج ،ثم صارت ديانة رسمية للقياصرة والروم وللشعوب التي خضعت لهم . فلم تظلّ النصرانية أقلية هناك ، لتضطر الى الهجرة جماعة وكتلة الى بلد غريب . لذلك كان حديثنا عن نصارى العرب من حيث الأصل والأرومة، يختلف عن حديثنا عن أصل يهود اليمن أو الحجاز .

وبفضل ما كان لكثير من المبشرين من علم ومن وقوف على الطب والمنطق ووسائل الإقناع وكيفية التأثير في النفوس ، تمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فأدخلوهم في دينهم ، أو حصلوا منهم على مساعدتهم وحمايتهم . فنسب دخول بعض سادات القبائل ممن تنصر الى مداواة الرهبان لهم ومعالجتهم حتى تمكنوا من شفائهم مما كانوا يشكون منه من أمراض . وقد نسبوا ذلك الى فعل المعجزات والبركات الإلهية ، وذكر بعض مؤرخي الكنيسة أن بعض أولئك الرهبان القديسين شفوا بدعواتهم وببركات الربّ النساء العقيمات من مرض العقم فأولدن أولاداً . ومنهم من توسل الى الله أن يهب لهن ولداً ذكراً ، فاستجاب دعوتهم ، فوهب لهم ولداً ذكراً ، كما حدث ذلك لضجعم سيد الضجاعمة ، اذ توسل أحد الرهبان الى الله أن يهب له ولداً ذكراً ، فاستجاب له . فلما رأى ضجعم ذلك ، دخل في دينه وتعمد هو وأفراد قبيلته[1] . ومنهم من شفى بعض الملوك العرب من أمراض كانت به مثل (مارايشو عزخا) الراهب . ذكروا أنه شفى النعمان ملك الحيرة من مرض عصبي ألم به ، وذلك بإخراجه الشيطان

---

١ النصرانية وآدابها (١/٣٥) ، Sozomene, Hist. Eccl., VI, 38.

من جسده[١] .

وفي تواريخ الكنيسة قصص عن أمثال هذه المعجزات المنسوبة الى القديسين ، كالتي نسبوهـا الى القديس (سمعان العمودي) (المولود نحـو سنة ٣٦٠ م) يذكرونها على انها كانت سبباً في هداية عـدد من الأمراء وسادات القبائـل الى النصرانية، وبفضل تنصرهم دخل كثير من أتباعهم في هذا الدين[٢] . وكالتي نسبوها الى القديس (أفتميوس) الـذي نصر بفضل هذه المعجزات جمعاً من الأعراب وأسكنهم في أماكن خاصة أنشأ فيها كنائس أطلق عليها في اليونانية ما معناه (المحلة) أو (المعسكر)[٣] .

ولم يعبأ المبشرون بالمصاعب والمشقات التي كانوا يتعرضون لها ، فدخلوا مواضع نائية في جزيرة العرب ، ومنهم من رافقوا الأعراب ، وعاشوا عيشتهم ، وجاروهم في طراز حياتهم ، فسكنوا معهم الخيام ، حتى عرفوا بـ (أساقفة الخيـام) وبـ (أساقفة أهل الوبر) ، وبأساقفة القبائل الشرقية المتحالفـة وبأساقفة العرب البادية . وقد ذكـر ان مطران (بصرى) كان يشرف على نحو عشرين أسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان وقـد نعتوا بالنعوت المذكورة ، لأنهم كانوا يعيشون في البادية مع القبائل عيشة أهل الوبر[٤] .

وقد دخل أناس من العرب بالنصرانية باتصالهم بالتجار النصارى ومجالستهم لهم . روي ان رجلاً من الأنصار ، يقال له (أبو الحصين) ، كان له ابنان، فقدم تجار من الشأم الى المدينة يحملون الزيت ، فلما باعوا وأرادوا ان يرجعوا ، أتاهم ابنا أبـي الحصين ، فدعوهما الى النصرانية، فتنصرا فرجعا الى الشأم معهم[٥] .

ودخلت النصرانية جزيرة العرب مع بضاعة مستوردة من الخارج ، هي تجارة الرقيق من الجنسين ، فقد كان تجار هذه المادة المهمة الرابحة يستوردون بضاعتهم من أسواق عالمية مختلفة ، ولكن أثمن هذه البضاعة وأغلاها هي البضاعة المستوردة من امبراطوريتي الروم والفرس ، لمميزات كثيرة امتازت بها عن الأنواع المستوردة

١ الديورة في مملكتي الفرس والعرب ، للقس بولس شيخو (ص ٣٢ ، ٤٧) .
٢ النصرانية وآدابها (١/ ٨١ وما بعدها) .
٣ المشرق : السنة الثانية عشرة ، الجزء ٥ ، آذار (١٩٠٩ م) ، (ص ٣٤٤ وما بعدها) .
٤ النصرانية (١/ ٣٧) .
٥ تفسير الطبري (٣/ ١٠) ، تفسير القرطبي (٣/ ٢٨٠ وما بعدها) .

من إفريقية مثلاً . فقد كان صنفها من النوع الغالي الممتاز بالجمال والحسن والاتقان ثم بالابتكار وبالقيام بأعمال لا يعرفها من هم من أهل إفريقية . ومن الروميّات والصقلبيات والجرمانيات من صرن أمهات لأولاد عدوا من صميم العرب . وقد كان أكثرهن ، ولا سيما قبيل ظهور الاسلام ، على النصرانية . ومن بينهن من خلدت أسماؤهن لتتحدث للقادمين من بعدهم من الأجيال عن أصولهن في العجم وعن الدين الذي كنّ عليه .

وقد كان في مكة وفي الطائف وفي يثرب وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب رقيق نصراني كان يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والأناجيل، ويقص عليهم قصصاً نصرانياً ويتحدث اليهم عن النصرانية ، ومنهم من تمكن من اقناع بعض العرب في الدخول في النصرانية ، ومنهم من أثر على بعضهم ، فأبعده عن الوثنية ، وسفه رأيها عندهم ، لكنهم لم يفلحوا في ادخالهم في دينهم ، فبقوا في شك من أمر الديانتين ، يرون أن الحق في توحيد الله وفي اجتناب الأوثان ، لكنهم لم يدخلوا في نصرانية ، لأنها لم تكن على نحو ما كانوا يريدون من التوحيد وتحريم الخمر وغير ذلك مما كانوا يبتغون ويشترطون .

وقد أثرت الأديرة تأثيراً مهماً في تعريف التجار العرب والأعراب بالنصرانية . فقد وجد التجار في أكثر هذه الأديرة ملاجىء يرتاحون فيها ومحلات يتجهزون منها بالماء ، كما وجدوا فيها أماكن للهو والشرب : يأنسون بأزهارها وبخضرة مزارعها التي أنشأها الرهبان ، ويطربون بشرب ما فيها من خمور ونبيذ معتق امتاز بصنعه الرهبان . وقد بقيت شهرة تلك الأديرة بالخمور والنبيذ قائمة حتى في ايام الاسلام . ومن هؤلاء الرهبان ومن قيامهم بشعائرهم الدينية، عرف هؤلاء الضيوف شيئاً عن ديانتهم وعما كانوا يؤدونه من شعائر . وقد أشير الى هؤلاء الرهبان الناسكين في الشعر الجاهلي ، وذكر عنهم انهم كانوا يأخذون المصابيح بأيديهم لهداية القوافل في ظلمات الليل[1] .

وقد كانت هذه الأديرة ، وهي بيوت خلوة وعبادة وانقطاع الى عبادة الله والتفكير فيه ، مواطن تبشير ونشر دعوة . وقد انتشرت حتى في المواضع القصية من البوادي. واذا طالعنا ما كتب فيها وما سجله أهل الأخبار أو مؤرخو الكنائس

---

١ Wellhausen, Reste, S. 232.

عن أسمائها ، نعجب من هذا النشاط الذي عرف به الرهبان في نشر الدعوة وفي اقامة الأديرة للاقامة فيها في مواضع لا تستهوي أحداً . وهي متقاربة عديدة في بلاد العراق وفي بلاد الشأم . بل نجد لها ذكراً حتّى في الحجاز ونجد وفي جنوبي جزيرة العرب وشرقيها : تتلقى الاعانات من كنائس العراق والشأم ومن الروم ، حتّى تمكنت من التبشير بين أكثر القبائل . ولولا ظهور الاسلام ونزول الوحي على الرسول في الحرمين ، لكان وجه العالم العربي ولا شك غير ما نراه الآن . كان العرب على دين النصرانية وتحت مؤثرات ثقافية أجنبية ، هي الثقافة التي اتسمت بها هذه الشيع النصرانية المعروفة حتّى اليوم .

وقد ذكر (ابن قتيبة الدينوري) : ان النصرانية كانت في ربيعة ، وغسان، وبعض قضاعة [1] . وقال (اليعقوبي) : « وأما من تنصر من أحياء العرب ، فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى ، منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وورقة بن نوفل بن أسد . ومن بني تميم : بنو امرىء القيس بن زيد مناة ، ومن ربيعة: بنو تغلب ، ومن اليمن: طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم » [2] .

وطبيعي أن يكون انتشار النصرانية في العرب ببلاد الشأم واضحاً ظاهراً أكثر منه في أي مكان آخر . وأقصد ببلاد الشأم ما يقصده علماء الجغرافيا العرب من هذا المصطلح . فقد كان لعرب هذه الديار علاقة مباشرة واتصال ثقافي بغيرهم من سكان هذه الأرضين الذين دخل أكثرهم في الديانة النصرانية ، والذين صارت هذه الديانة ديانة بلادهم الرسمية بعد دخول الروم فيها واتخاذهم النصرانية ديناً رسمياً للدولة منذ تنصر أول قيصر من القياصرة . فكان من أول واجبات الروم السعي في تنصير الشعوب الخاضعة لهم ، لا تقرباً الى الله وحده ، بل لتمكين سلطانهم عليهم . واخضاعهم روحياً لهم . ولهذا كان من سياسة البيزنطيين نشر النصرانية بين أتباعها وفي الخارج وارسال المبشرين والاغداق عليهم ومدهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير ، وبالفعلة لبناء الكنائس الفخمة الجميلة على طراز فني أنيق جميل غير معروف بين من سيبشر بهذا الدين بينهم . وبذلك تبهر عقولهم ، فتشعر أن للدين الجديد مزايا ليست في دينهم ، وأن معابده أفخم من

---

١ المعارف (٦٢١) ، البدء والتاريخ (٤ / ٣١) ، الاعلاق النفيسة (٢١٧) .
٢ اليعقوبي (١/٢٢٧) .

معبدهم ، ورجال دينه أرقى من رجال دينهم . وبذلك يأتون اليها . وللبهرجة والفخفخة أثر عظيم في كثير من الناس ، فالعين عند أكثر البشر ، تقوم مقام العقل . وقد يكون ما قام به الأحباش في اليمن من انشاء الكنائس العظيمة فيها وتفننهم في تزويقها وتجميلها وفي فرشها بأفخر الرياش والفراش لصرف الناس عن الكعبة كما يزعم أهل الأخبار دليلاً على ما أقول .

وقد وجدت النصرانية لها سبيلاً بين عرب بلاد الشأم وعرب بادية الشأم والعراق . فدخلت بين (سليح) ، و (الغساسنة) ، و (تغلب) ، و (تنوخ) ، و (لخم) ، و (إياد)[1] . وقد انتشرت بين عرب بلاد الشأم بنسبة تزيد على نسبة انتشارها بين عرب بلاد العراق ، وهو شيء طبيعي ، فقد كانت بلاد الشأم تحت حكم البيزنطيين ، وديانتهم الرسمية ، هي الديانة النصرانية ، وكانوا يعملون على نشرها وترويجها بين شعوب (انبراطوريتهم) ، وبين الشعوب الأخرى ، لا سيما الشعوب التي لهم مصالح اقتصادية معها . ففي نشر النصرانية بينهم وادخالهم فيها ، تقريب لتلك الشعوب منهم ، وتوسيع لنفوذهم السياسي بينهم ، وتقوية لمعسكرهم المناهض لخصومهم الفرس ، أقوى دولة معادية لهم في ذلك الوقت . ولهذا سعت القسطنطينية لادخال عربهم في النصرانية ، وعملت كل ما أمكنها عمله للتأثير على سادات القبائل لادخالهم في دينهم ، بدعوتهم لزيارة كنائسهم وبارسال المبشرين اللبقين اليهم ، لاقناعهم بالدخول فيها ، وبارسال الأطباء الحاذقين اليهم لمعالجتهم ، وللتأثير عليهم بذلك في اعتناق النصرانية . كما دعوهم لزيارة العاصمة ، لمشاهدة معالمها ولابهار عقولهم بمشاهدة كنائسها ، والاتصال بكبار رجال الدين فيها ، لتعليمهم أصول النصرانية . وأظهروا لهم مختلف وسائل المعونة والمساعدة إن دخلوا في ديانتهم ، وبذلك أدخلوهم في النصرانية فصاروا اخواناً للروم في الدين .

نعم ، دخل سادات القبائل والحكام العرب التابعون لهم في هذه الديانة ، فصاروا نصارى ، ولكنهم لم يأخذوا نصرانية الروم ، بل أخذوا نصرانية شرقية مخالفة لكنيسة (القسطنطينية) . فاعتنقوها مذهباً لهم . وهي نصرانية عدت (هرطقة) وخروجاً على النصرانية الصحيحة (الأرثوذكسية) في نظر الروم . نصرانية متأثرة

---

[1] اليعقوبي (١/٢٢٧) ، (أديان العرب) .

بالتربة الشرقية ، وبعقليـة شعوب الشرق الأدنى ، نبتت من التفكير الشرقي في الدين ، ولهذا تأثرت بها عقلية هذه الشعوب فانتشرت بينها ، ولم تجد لها اقبالاً عند الروم وعنـد شعوب أوروبة . وكان من جملة مميزاتها عكوفها على دراسة العهد القديم ، أي التوراة ، أكثر من عكوفها على دراسة الأناجيل [1] .

والنصرانية التي شاعت بين عرب بلاد الشأم ، هي النصرانيـة اليعقوبية ، أو المذهب اليعقوبي بتعبير أصح . وهو مذهب اعتنقه أمراء الغساسنة وتعصبوا له ، ودافعوا عنه ، وجادوا رجال الدين في القسطنطنية وفي بلاد الشأم في الذب عنه . فزعم مثلاً أن (الحارث بن جبلة) (ملك العرب النصارى) تغلب في مناظرة جرت له مع (البطريرك افرام) (٥٢٦ – ٥٤٥ م) على (البطريرك) وأفحمه في جوابه . وكان افرام ، وهو على مذهب (الملكيـين) ، قد قصده لاقناعه بترك المذهب (المنوفيزيتي) والدخول في مذهبه[2] . ونسبوا الى (المنذر بن الحارث) دفاعاً شديداً عن (المنوفيزيتية)،أي المذهب الذي كان عليه الغساسنة من مذاهب النصرانية ، وذكروا أنه أنب (البطريرك دوميان) وهو في القسطنطنية على تهجمه على (المنوفيزيتين) ، وعمل جهده في التقريب بـين مذهبه ومذهب القيصر ، واتصل بالقيصر (طيباريوس) (٥٧٨ – ٥٨٢ م) ليعمل على بث روح التسامح بين المذاهب النصرانية وترك الحرية للأفراد في دخول المذهب الذي يريدونه والصلاة في أية كنيسة يريدها النصراني[2] .

ويظهر ان بعض الضجاعمة الذين كانوا يتولون حكم عرب الشأم قبل الغساسنة كانوا على دين النصرانية . غير انا لا نستطيع ان نحكم على أي مذهب من مذاهب النصرانية كانوا . فذكروا ان (زوكوموس) ، وهو (ضجعم) جد الضجاعمة تنصر على يد أحد الرهبان ، وذلك ان هذا الرئيس كان متلهفاً الى مولود ذكر ، فجاءه هذا الراهب ، وتضرع الى الله ان يهبه ولداً ذكراً ، فلما استجاب الله له تعمّد وتبعته قبيلته[3] .

---

١ Nöldeke, Geschichte des goraus, I, S. 7.

٢ المشرق ، السنة الرابعة والثلاثون ، كانون الثاني – آذار ، ١٩٣٦ (ص ٦١ وما بعدها) .

٣ النصرانية (١/٣٥) .

وقد كان مشهد القديس (سرجيوس) في (الرصافة) ، من أهم المزارات التي تقصدها المتنصرة من عرب الشأم ، مثل الغساسنة وتغلب . وقد تقرب اليه بعض ملوك الغساسنة بتقديم الهدايا والنذور اليه وبتزيينه وبزيارته، وبالاعتناء بالمدينة وبصهاريجها تكريماً له ، وتقرباً اليه ، وظل هذا المزار مقصوداً مدة في الاسلام. وقد عدّ التغلبيون هذا القديس شفيعهم،جعلوا له راية حملوها معهم في الحروب ، وكانوا يحملونها مع الصليب تبركاً وتيمناً بالنصر[1] .

وكان حاضر (قنّسرين) لتنوخ . أقاموا في طرفها هذا منذ زمن قديم ، مذ أول نزولهم بالشأم . نزلوا في طرفها وتنصروا . فلما حاصر (أبو عبيدة) المدينة ، دعاهم الى الاسلام ، فأسلم بعضهم ، وأقام على النصرانية بنو سليح . كذلك كان في طرف قنسرين عشائر من طيء ، نزلوا بها في الجاهلية على أثر الحروب التي وقعت فيما بينهم ، واستدعت تفرقهم ، فأقاموا عند قنسرين مع القبائل العربية الأخرى التي جاءت الى هذا المكان[2] .

وكان بقرب مدينة (حلب) حاضر يدعى (حاضر حلب) يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم . فلما جاء (أبو عبيدة) الى المدينة ، صالح من فضّل البقاء منهم على دينه على الجزية ، ثم أسلم الكثير منهم فيما بعد[3] .

وتعد بهراء في جملة القبائل العربية المتنصرة عند ظهور الاسلام . تنصرت كما تنصرت غسان وسليح وتنوخ وقوم من كندة ، وذلك لنزولها في بلاد الشأم ولاتصالها بالروم[4] .

---

١ قال الاخطل :

لما رأونا ، والصليب طالعا ، ومار سرجيس ، وسما ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعا خلوا لنا راذان والمزارعا

فأجابه جرير :

أفبالصليب ومار سرجيس تتقي شهباء ذات مناكب جمهورا

وقال :

يستنصرون بمار سرجيس وابنه بعد الصليب ومالهم من ناصر

المشرق ، السنة الرابعة والثلاثون ، نيسان ـ حزيران ، ١٩٣٦ ، (ص ٢٤٦ وما بعدها) .

٢ البلاذري، فتوح (١٥٠ وما بعدها)، (أمر جند قنسرين والمدن التي تدعى العواصم) .

٣ البلاذري ، فتوح (١٥١) .

٤ اليعقوبي (١/٢٩٨) ، الخراج (١٤٦) ، النصرانية (١٢٥) .

وقد سكن قوم من (إياد) السواد والجزيرة ، وسكن قوم منهم بلاد الشأم، فخضعوا للغساسنة وللروم وتنصروا . وهم في جملة القبائل التي لم يأخذ علماء العربية اللسان عنها لمجاورتها أهل الشأم ، ولتأثرها بهم.وهم قوم يقرؤون ويكتبون بالسريانية ، فتأثروا بهم ، لروابط الاحتكاك والثقافة والدين[1] .

وقد ترك لنا رجل من نصارى الشأم نصاً قصيراً مؤرخاً بسنة (٤٦٣) المقابلة لسنة (٥٦٨) للميلاد ، وهي غير بعيدة عن ميلاد الرسول جاء فيها : « نا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم) ، أي (أنا شراحيل بن ظالم بنت ذا المرطول بعد مفسد (خيبر) بعام) . هو على قصره ذو أهمية عظيمة من الناحية اللغوية ، إذ هو النص الجاهلي الوحيد الذي وصل الينا مكتوباً باللهجة التي نزل بها القرآن الكريم . وهو على ما أعلم النص الجاهلي الوحيد أيضاً الذي وصل الينا مكتوباً بصيغة المتكلم،فالنصوص الأخرى التي وصلت الينا والمكتوبة بمختلف اللهجات العربية مدوّنة كلها بضمير الغائب . وهو أيضاً من النصوص العربية القليلة التي تركها النصارى العرب لمن بعدهم في بلاد الشأم.

وقد استغل الروم العربَ المتنصرة بأن أثاروا في نفوسهم العواطف الدينية على المسلمين ، حينما عزم المسلمون على فتح بلاد الشأم وطرد البيزنطيين منها، وأغروا سادات القبائل بالمال وبالهدايا وبالوعود حتى اشتروهم فصاروا الى جانبهم . والمصالح الشخصية هي فوق كل مصلحة عند سادات القبائل ، لا تعلوها عندهم مصلحة ، فانضموا اليهم ، وجاءوا بقبائلهم لتحارب معهم . ومن هذه القبائل العربية التي حاربت مع الروم ، غسان . حاربوا معهم في معارك عديدة . ففي يوم اليرموك كانوا في صفوف الروم ، وكان رئيسهم (جبلة بن الأيهم الغساني) في مقدمة الجيش الذي أرسله هرقل لمحاربة المسلمين . كان على رأس مستعربة الشأم من غسان ولخم وجذام[2] . وقد اشترك مع الروم في حروب أخرى ضد المسلمين.

وكانت (سليح) في جملة القبائل العربية المتنصرة التي حاربت المسلمين . ولما تقهقر الروم وانهزموا ، دفعوا الجزية لاحتفاظهم بدينهم . وكذلك كانت عاملة ولخم وجذام في جملة القبائل المتنصرة التي ساعدت الروم ، وآزرتهم . كانوا مع

---

١ المزهر (١/١٠٥) ، النصرانية (١٢٤) .
٢ البلاذري ، فتوح (١٤٠) ، (يوم اليرموك) .

الروم مثلاً حين مجيء الرسول الى (تبــوك)[1] . وظلوا الى جانبهم يؤيدونهم ، حتى تبين لهم أن النصر قد تحول للمسلمين ، وأن الهزائم قــد حالفت الروم ، عندئذ انضمت في جملة من انضم من منتصرة العرب الى المسلمين لمحاربة الروم[2].

وكادت قبيلة (تغلب) الساكنة غرب الفرات ، أن تفر الى بلاد الروم وتلحق بأرض الروم ، لما غلب البيزنطيون على أمرهم وفتحت بــلاد الشأم والعراق أمام المسلمين . ولما خيرت بين البقاء على دينها ودفع الجزية وبين الدخول في الاسلام، أنفت من دفع الجزية ، ورضيت بدفع ضعف الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض[3] .

وقد نزحت (إياد) الى بلاد الروم وبقيت بها ، ثم عاد جمع منها لاخراج القيصر إياهم ، فنزلوا بلاد الشأم والجزيرة وانضموا الى اخوانهم في الجنس[4] .

ويلي هؤلاء عربُ العراق ، لاحتكاكهم بالنصارى ولانتشار النصرانية في العراق بالرغم من ان ديانة الحاكمين لهذا القطر كانت ديانة أخرى ، وان النصرانية لم تكن في مصلحة الفرس . غير ان الفرس لم يكونوا يبشرون بدينهم ، ولم يكن يهمهم دخول الناس فيه ، إذ عدت المجوسية ديانة خاصة بهم ، وهذا مما صرف الحكومة عن الاهتمام بأمر أديان الخاضعين لها من غير أبناء جنسها، إلا اذا وجدتها تتعارض مع سياستها ، وتدعو الى الابتعاد عنها . ثم إن النصرانيـة التي انتشرت فيها لم تكن من النصرانية المتشيعة للروم ، ولهذا لم تجد الدولة الساسانية من هذه الناحية ما يهدد سياستها بالأخطار ، فغضت النظـر عنها ، وان قاومتهـــا مراراً واضطهدتها ، وفتك ملوكها بعدد من الداخلين فيها ، أشارت اليهم كتب مؤرخو الكنيسة في تواريخهم عن الشهداء القديسين[5] .

وقد أشار أهل الأخبار الى تنصر بعض ملوك الحيرة،ونسبوا اليهم بناء الأديرة

---

١ البلاذري (٧١) ، (تبوك وايلة وأذرح ومقنا والجرباء) .
٢ الخراج (١٣٨) ، (فصل في الكنائس والبيع والصلبان) .
٣ البلاذري (١٨٥) ، (أمر نصارى بني تغلب بن وائل) ، السنن الكبرى (٢١٦/٩) ، الخراج (١٢٠ وما بعدها) .
٤ الطبري (١٩٧/٤ وما بعدها) ، «الجزيرة» .
٥ هنالك عدة مؤلفات في هذا الموضوع ، راجع منها :
Georg Hoffmann, Auszüge aus Syrischen akten Persicher Märtyrer, Leipzig, 1880.

والكنائس ، كما أشار إلى ذلك بعض مؤرخي الكنيسة . كالذي ذكروه عن(المنذر) وعن (النعمان بن المنذر) . غير اننا لا نستطيع اقرار ذلك بوجه عام ، ولا بد من التريث ، إذ يظهر ان أكثر ملوك الحيرة كانوا على الوثنية . وإذا كان كثير من ملوك الغساسنة قد دخلوا في النصرانية فان ظروفهم تختلف عن ظروف ملوك الحيرة . فقد كان الروم ، وهم سادة بلاد الشأم ، على هذه الديانة ، وكانوا يشجعون انتشار النصرانية ويسعون لها ، ولهذا كان لهذه السياسة أثر في الغساسنة أصحاب الروم ، وهم على اتصال دائم بهم بطبيعة حكمهم لبلاد الشأم . أما في العراق ، فلم تكن هذه الديانة ديانة رسمية للحكومة ، انما انتشرت بفضل المبشرين، ولهذا انتشرت بين سواد الشعب،ولم تنتشر بين الملوك. ولم تضغط الحكومة الساسانية على ملوك الحيرة للدخول في هذه الديانة التي لم يكونوا أنفسهم داخلين فيها ، فهي بالاضافة اليهم ديانة غريبة ، لا يعنيهم موضوع انتشارها،ولا يهمهم موضوع انتشارها ، ولا يهمهم شأنها ما دامت لا تتعارض وحكمهم في العراق .

وقد كان (هانيء بن قبيصة الشيباني) ممن كان على النصرانية ، وهو من سادات (بني شيبان) ، ومات وهو على هذا الدين . وكان في جملة من فاوض (خالد بن الوليد) باسم قومه على دفع الجزية للمسلمين .

ومن متنصرة العراق بنو عجل بن لُجيم من قبائل بكر بن وائل . وقد عرف منهم (حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العجلي) الذي سادهم في معركة ذي قار . وقد حاربت (خالد بن الوليد) ، وكان قائدها جابر بن بجير وعبد الأسود . وكان منها في أيام بني أمية أبجر بن جابر . وهو والد حجّار . وقد بقي على نصرانيته في الاسلام[1] .

وكان في الحيرة سراة نصارى اشتركوا مع سراة قريش في الأعمال التجارية مثل (كعب بن عدي التنوخي) ، وهو من سراة نصارى الحيرة ، وكان أبوه اسقفاً على المدينة ، وكان هو يتعاطى التجارة ، وله شركة في التجارة في الجاهلية مع (عمر بن الخطّاب) في تجارة البز ، وكان (عقيداً) له . قدم المدينة في وفد من أهل الحيرة إلى النبي ورأى الرسول ، فأسلم في رواية، ولم يسلم في رواية أخرى . ولما توفي الرسول ، ثبت على الإسلام على رواية من صيّره مسلماً في

---

١ الاغاني (١٣/٤٦ وما بعدها) ، النصرانية (١٣٦) .

أيام الرسول . واشترك في جيش اليمامة الذي أرسله (أبو بكر)، ووجهه (أبو بكر) في رسالة الى (المقوقس)، ثم وجهه (عمر) برسالة اليه في أيامه . وشهد فتح مصر [1] .

وقد أخرجت مدينة الحيرة عدداً من رجال الدين، مثل مار إيليا وأصله من الحيرة، والقديس حنانيشوع، وهو من عرب الحيرة ومن عشيرة الملك النعمان[2]، والقديس مار يوحنا [3]، و (هوشاع) الذي حضر مجمع اسحاق الجاثليق عام ٤١٠ م، وشمعون الذي أمضى أعمال مجمع (بهالا) الذي انعقد سنة ٤٨٦ م، وشمعون الذي حضر مجمع (أقاق)، و (ايليا) المنعقد سنة ٤٨٦ م وأمضى في سنة ٤٩٧ م مجمع (اباي)، و (ترساي) الذي تحزب سنة ٥٢٤ م لنرساي الجاثليق ضد (اليشاع) و (افرام) و (يوسف)، وقد حضر مجمع (أيشوعياب الأرزني) الذي انعقد سنة ٥٨٥ م، وشمعون بن جابر الذي نصّر الملك النعمان الرابع في سنة ٥٩٤ على ما يذكره مؤرخو الكنيسة [4] .

وقد كان (مار يشوعياب الأرزوني) Jesujab I. Arzunita المتوفى سنة ٥٩٦ م من أصل عربي . درس الديانة في (نصيبين) Nisibis، ثم تقدم فصار أسقفاً على (أرزون) Arzun، ثم ترقى حتى صار (بطريكاً) (بطريقاً) على النساطرة سنة ٥٨٠ م . وقد زار الملك (النعمان) . وتوسط عند الروم لمساعدة (خسرو ابرويز) Chosroes Abruizus ضد (بهرام) Beheram — Varames . وقد توفي في خيم (بني معدّ) (المعديين) Maadenes، ونقل الى الحيرة فدفن في دير (هند) ابنة النعمان[5] .

وقد عثر على آثار كنائس في خرائب الحيرة، وأشار أهل الأخبار الى وجود الكنائس والبيع والأديرة في الحيرة . وذكر (ياقوت الحموي) أسماء عدد من الأديرة كانت بالحيرة أو بأطرافها وبالبادية، منها : « دير ابن برّاق » بظاهر الحيرة، و « دير ابن وضّاح » بنواحي الحيرة، وديارات الأساقف، وهي

---

١ الاصابة (٣/٢٨٢)، (رقم ٧٤٢٢) .
٢ الديورة في مملكتي الفرس والعرب (٣٢ وما بعدها) .
٣ الديورة (٤٧) .
٤ أدي شير (٢/٢٠٨) .
٥ W. Smith, A Dictionary, II, p. 370, John of Ephesus, Eccl. Histo., II, 40 ff.

جملة أديرة كانت بالنجف ظاهر الكوفة بحضرتهـا نهر الغدير ، ودير الأسكون « وهو بالحيرة راكب على النجف وفيه قلالي وهياكل وفيـه رهبان يضيفون من ورد عليهم » . ودير الأعور ، بظاهر الكوفة بناه رجل من إياد يقال له الأعور من بني حذافة بن زهر بن إياد ، ودير بني مرينا ، بظاهر الحيرة عنـد موضع جفر الأملاك ، ودير حنظلة ، منسوب الى حنظلـة بن أبي عفراء بن النعمان ، وهم عم إياس بن قبيصة ، وكان من رهـط (أبي زبيد) الطائي ، وكان من شعراء الجاهلية ، ثم تنصر وفارق قومه ، ونزل الجزيرة مع النصارى حتى فقه دينهم وبلغ نهايته ، وبنى ديراً عرف باسمه ، هو هذا الدير ، وترهب حتى مات [1] . ودير حنظلة بالحيرة ،وهو منسوب الى حنظلة بن عبد المسيح بن علقمة، ودير حنة ، وهو بالحيرة كذلك بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع، تقابله منارة عالية كالمرقب تسمى القائم ، لبني أوس بن عمرو بن عامر ، ودير السوا بظاهر الحيرة يتحالفون عنده ، ودير الشاء ، ودير عبد المسيح وهو بظاهر الحيرة بموضع الجرعة بناه عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة ، ودير علقمة بالحـيرة منسوب الى علقمة بن عدي بن الرميك بن توب بن أسس بن دبي بن نمارة بن لخم ، ودير قرة وهو دير بإزاء دير الجماجم بناه رجل اسمه قرة من بني حذافة ابن زهر بن إياد في أيام المنذر بن ماء السماء ، ودير اللُجّ وهو بالحيرة بنـاه النعمان بن المنذر أبو قابوس ، و « كان يركب في كل أحد اليه ، وفي كـل عيد ، ومعه أهل بيته ، خاصة من آل المنذر ، عليهم حلـل الديباج المذهبة ، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب ، وفي أوساطهم الزنانير المفصصة بالجوهر ، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان ، وإذا قضوا صلاتهم ، انصرفوا الى مستشرفه عـلى النجف ، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقيّة يومه ، وخلع ووهب ، وحمل ووصل ، وكان ذلك أحسن منظر وأجمله » [2] .

ودير مارت (مارة) مريم . وهو دير قديم من أبنية آل المنـذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبـي الخصيب مشرف على النجف ، ودير مار فاثيون بالحيرة أسفل النجف ، ودير مر عبدا بذات الأكيراح من نواحـي الحيرة منسوب الى مر عبدا بن حنيف بن وضاح اللحياني كان مع ملوك الحيرة،

---

١ البكري ، معجم (٢/٥٦٧) ، (دير حنظلة) .
٢ البكري ، معجم (٥/٥٩٦) ، (دير اللج) .

ودير ابن المزعوق ، وهو دير قديم بظاهر الحيرة ، ودير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالحرْقة ، وكانت به قبور أهلها ، بنته هند في ايام (خسرو أنو شروان) في زمن مار افريم الأسقف . وأما الدير المعروف بدير هند الأقدم ، فنسب بناؤه الى هند الكبرى ، أم عمرو بن هند[1] .

هذه أسماء اخترتها من بين أسماء أديرة أخرى كثيرة ذكرها (الشابشتي)[2] ، وياقوت الحموي والبكري ، لأن لها صلة بالحيرة وبما جاورها وبالعرب سكان هذه الأرضين . ونجد في بلاد الشأم أديرة أخرى بناها عربها في تلك الديار قبل الاسلام . ونجد على تسميات بعضها الصبغة الإرمية كما في تسمية (مار افريم) (مار افرايم) و (مار عبدا) و (مار فايثون) ، وغيرها . وكلمة (مار) من كلمات بني إرم ، كما نجد الصبغة النصرانية للأعلام واضحة على بعضها كما في عبد المسيح وحنة ومارت مريم وأمثال ذلك ، وهي من الأعلام التي اختصت بالنصارى . وذلك بسبب ان النصرانية كانت متأثرة بثقافة بني إرم ، وكانت تستعمل اللغة الإرمية في الصلوات وفي تأدية الشعائر الدينية الأخرى . ولغة بني إرم هي لغة العلم عند النصارى الشرقيين ، فكان من الطبيعي استعمال نصارى العرب لهذه اللغة في كنائسهم وبيعهم وأديرتهم وفي دراستهم للدين وما يتصل باللاهوت من علوم . ومن هنا استعمل كتّابهم قلم بني إرم في كتاباتهم ، ومن هذا القلم تولد القلم النبطي المتأخر الذي تفرع منه القلم العربي الذي كتب به أهل الحجاز عند ظهور الاسلام ، فصار القلم الرسمي للمسلمين .

وقد نعت الرواة وأهل الأخبار العرب التي دانت بالنصرانية بـ (العرب المتنصرة) ، تمييزاً لها عن العرب الآخرين الذين لم يدخلوا في هذه الديانة ، بل بقيت على اخلاصها ووفائها لديانة آبائها وأجدادها ، وهي عبادة الأوثان . ومن القبائل التي يحشرها أهل الأخبار في جملة (العرب المتنصرة) غسان وتغلب وتنوخ ولخم وجذام وسليح وعاملة . ويلاحظ أن الأخباريين يطلقون على هذه القبائل أو على أكثرها (العرب المستعربة) ، وهم لا يقصدون بذلك نسبها ، لأن من بينها كما نعلم من هو من أصل قحطاني على حسب مذهب أهل الأنساب في نسب

---

١ البكري (٢/٦٠٦) ، البلدان (١١٩/٤ وما بعدها) ، « القول في ذكر الاديرة » .
٢ مطبعة المعارف ، بغداد ، تاريخ كلدو وآثور (٢٩/٢) ، ذخيمة الاذهان (٣١٧) .

القبائل . وإنما يريدون من هذا المصطلح القبائل التي كانت قد سكنت ببلاد الشأم والساكنة في أطراف الانبراطورية البيزنطية وفي سيف العراق من حدود نهر الفرات الى بادية الشأم ، فهو يشمل إذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القوس التي تحيط بحدود الانبراطوريتين . وخاصة تلك القبائل التي دانت بالنصرانية وتأثرت بثقافة بني إرم وبلهجتها ، وذلك لظهور هذا الأثر فيها، وعلى لهجتها خاصة ، مما حدا بعلماء اللغة أن يتحرجوا في الاستشهاد بشعرها في قواعد اللغة . والاستشهاد بشعر قبيلة لاثبات القواعد هو أوثق شاهد في نظر العلماء على التسليم بنقاوة لغة القبيلة التي يستشهد بشعرها وأصالتها .

ووجدت النصرانية بعد بلاد الشأم والعراق لها مواضع أخرى دخلت اليها، هي أطراف جزيرة العرب ، كالعربية الغربية والجنوبية والشرقية . وتفسير دخولها الى هذه الأرضين واضح ، هو اتصالها بطرق القوافل البرية والبحرية في البلاد التي انتشرت فيها النصرانية ، ومجيء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل اليها. وتجار النصارى ، لم يكونوا على شاكلة تجار يهود : كانوا يرون أن التجارة هي كسب مادي ، ولكن التبشير مع التجارة ربح مضاعف ، هو ربح في الدارين : الدنيا والآخرة ، فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم في البلاد التي ينزلونها لنشر دينهم فيها. ثم إن في انتشار دينهم بين سكان هذه المواضع التي يطرقونها كسباً لهم ولبلادهم، وأكثرهم من الروم . فإنهم يجدون بتنصر الغرباء ، إخواناً لهم يرون رأيهم ، ويعطفون عليهم . ثم إنهم سيفضلونهم في تعاملهم معهم على غيرهم ، وسيتساهلون معهم ولا شك . ثم إنهم سيقربونهم بتنصيرهم من العالم النصراني ، وممثل هذا العالم وحماته هم الروم .

وكان أهل دومة الجندل خليط . فيهم نصارى ، قال عنهم أهل الأخبار انهم (من عباد الكوفة)[1] . ويظهر من خبر أسر خالد للأكيدر ومجيئه به على رسول الله ، ومن مصالحة الرسول له على الجزية ، انه كان على النصرانية ، إذ لا تؤخذ الجزية من مشرك[2] .

---

١ البلاذري ، فتوح البلدان (٧٤) ، «دومة الجندل» ،

٢ « ثم ان خالدا قدم بأكيدر على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع الى قريته » ، الطبري (١٠٩/٣) ، (دار المعارف) ، (ذكر الخبر عن غزوة تبوك) ،

أما (أيلة) ، فكان اسم صاحبها في ايام الرسول (يحنة بن رؤبة) (يوحنا بن رؤبة) . وهو نصراني كما يدل اسمه عليه ، جاء الى تبوك في السنة التاسعة من الهجرة ، وكان الرسول بها ، فصالحه على الجزية وبقي في محله[1] . وقد دعاه المسعودي (أسقف أيلة)[2] . وورد في محاضر بعض المجامع الدينية (أسقف أيلة والشراة)[3] .

وكان في وادي القرى نفر من الرهبان، كما ورد ذلك في شعر جعفر بن سراقة أحد بني قرة ، وهو :

فريقان : رهبان بأسفل ذي القرى   وبالشأم عرافون فيمن تنصرا[4]

وتعد طيء من القبائل التي وجدت النصرانية سبيلاً اليها . وقد ورد ان (أحودما) (المغريان) تنقل بين طيء في سنة (٨٧٠) لليونان المقابلة لسنة (٥٥٩) للميلاد[5] . وقد كان عدي بن حاتم الطائي في جملة الداخلين في النصرانية من طيء. ويذكر انه كان (ركوسياً) ، وفد على الرسول ، وأعلن إسلامه[6] . غير ان هذا لا يعني ان النصرانية كانت هي الغالبة على هذه القبيلة ، فقد كان قوم منها يتعبدون للصنم (الفلس) ، أي على الشرك .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً يستحق الذكر عن النصرانية في يثرب . وقد أشار القرآن الكريم في مواضع عديدة من الآيات المدنيــة الى النصارى ، غير ان تلك الاشارات عامة في طبيعة المسيــح وفي النصرانية نفسها لا في نصارى يثرب وفي صلاتهم بالاسلام . ثم إن أهـل السير لم يشيروا الى تصادم وقـع بين النصارى والمسلمين ولا الى مقاومة نصارى يثرب للرسول كالذي وقـع بين يهود يثرب والرسول ، مما يدل على ان النصرانية لم تكن قوية في المدينة،وان جاليتها لم تكن

---

١ البلاذري (٦٦) ، السنن الكبرى (٩/١٨٥ وما بعدها) .
٢ التنبيه (٢٧٢) ، النصرانية (٤٤٨) .
٣ النصرانية (٤٤٨) .
٤ الاغاني (٧/٩٦) « نسب جميل وأخباره » .
٥ النصرانية وآدابها ، القسم الاول (١٣٢ وما بعدها) ، Barhebrael, Chronicon Eccl., III, 100.
٦ الاصابة (٢/٤٦١) ، (رقم ٥٤٧٧) ، المشرق ، السنة الثامنة ، العدد ١١ ، (١٩٠٥)، (٥٠٧) ، النصرانية (١٣٣) .

كثيرة العدد فيها . غير ان هذا لا يعني عدم وجود النصارى في هـذا الموضع الزراعي المهم[1] . فكما كان في مكة رقيق وموالي يقومون بخدمة ساداتهم ، كذلك كان في المدينة نفر منهم أيضاً يقومون بمختلف الأعمال التي يعهد أصحابهم اليهم القيام بها . ولا بد ان تكون لهذه الطبقة من البشر مكانة في هذه المدينة وفي أي موضع آخر من جزيرة العرب . فقد كانت هذه الطبقة عموداً خطيراً من الأعمدة التي يقوم عليها بنيان الاقتصاد في ذلك العهد ، فهي بالنسبة لذلك العهد الآلات المنتجة والمعامل المهمة لأصحاب الأموال وللسادة الأثرياء ، تؤدي ما يطلب منها القيام به وما يراد منها انتاجه بأجور زهيدة وبدقة ومهارة لا تتوفر عند الأحرار من العرب . ثم إن الأحرار مهما بلغ حالهم من الفقـر والفاقة كانوا يأنفون من الأعمال الحرفية ونحوها مما يوكل الى هذه الطبقة القيام به ، لأنها في نظرهم من المهن المنحطة التي لا تليق بالرجل الحر مهما كان عليه من فقر وبؤس ، ولهـذا كان لا بد من الاستعانة بالموالي والرقيق للقيام بأكثر متطلبات حياة الانسان .

ويفهم من بيت للشاعر حسان بن ثابت في قصيدة رثى بها النبي ، وهو :

فرحت نصارى يثرب ويهودها   لما توارى في الضريح الملحد[2]

أنه كان في يثرب نفر من النصارى كما كان بها قوم من يهود . وذكر أن النصارى كانوا يسكنون في يثرب في موضع يقال له : سوق النبط [3] .

ولعل هـذه السوق هي الموضع الذي كان ينزل فيه نبط الشأم الـذين كانوا يقصدون المدينة للاتجار في الحبوب ، فصارت موضعاً لسكنى هؤلاء النصارى ، ونسب اليهم[4] . وقد ورد أن عمر بن الخطاب استعمل أبا زبيد الشاعر النصراني على صدقات قومه ، وأن أبا زبيد هذا كان مقرباً من الخليفـة عثمان بن عفان من بعده [5] .

وقد كان (أبو عامر) الراهب الذي تحدثت عنه أثناء حديثي عن الأحناف،

---

١ السنن الكبرى (٩/١٨٢ وما بعدها) .
٢ ديوان حسان (٥٩) « تحقيق هرشفلد » .
٣ Nallino, Raccolta, III, p. 140.
٤ البخاري (٣/٤١ وما بعدها) ، النصرانية (٤٤٩) .
٥ النصرانية (٤٤٩) .

ممن اعتنق النصرانيـــة ، ومن أهل يثرب . ويظهر أنه كان قد تمكن من إقناع بعض شباب الأوس من اعتناق دينه ، بدليل ما ذكره علماء التفسير من أنه لمـــا خرج من يثرب مغاضباً للرسول ، وذهب الى مكة ، مؤيـداً إياهم ومحرضاً لهم على محاربة الرسول أخذ معه خمسين أو خمسة عشر رجلاً من الأوس ، على مـا ذكره علماء التفسير ، فلما أيس من نجاح أهل مكة في القضاء عـلى الرسول فرّ الى بلاد الشأم على نحو ما ذكرت ، ليطلب مدداً من الروم يعينه في زحفه على المدينة. وأنا لا استبعد احتمال وجود أناس آخرين من أهل يثرب كانوا قد دخلوا في النصرانية ودعوا اليها ، واحتمال وجود مبشرين فيها ، كانوا يسعون لادخـال أهلها في دين عيسى ، يؤيدهم ويمدّهم بالمال والمعونة الروم حكام بلاد الشأم .

وكان بين سكّان مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء النازحين اليها ، لأسباب ، منهـــا : الرق ، والاتجار ، والتبشير ، والحرفة . فأما الرقيق ، فنهم الأسود والأبيض: الأسود من إفريقية ، والأبيض من أوروبة ، أو من أقطار الشرق الأدنى ، وهم أعلى في المنزلة وفي السعر من النوع الأول ، وهم بحكم قانون ذلك العهد وعرفه تبع لسادتهم وفي ملك يمينهم ، يقومون بالأعمال التي توكل اليهم ، ليس لهم التصرف إلا بأمرهم ، فهم في الواقع بضاعة يتصرف بها صاحبها كيف يشاء ، ليس لها صوت ولا رأي ، إن أبق المملوك قتـــل ، أو أنزل به العقاب الذي يراه ويختاره صاحبه ومالكه .

وبين الرقيق الأبيض خاصة نفر كانوا على درجة من الفهم والمعرفة ، يعرفون القراءة والكتابة ، ولهم اطلاع في شؤون دينهم ومعارف ذلك العهد . ولهذا أوكل اليهم القيام بالأعمال التي تحتاج الى مهارة وخبرة وذكاء . وقد كان حالهم لذلك أحسن من حال غيرهم من الأرقاء . ومنهم من كان يشرح لسادتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم ، ويقصون عليهم ما حفظوه ووعوه من أخبار الماضين وقصص الراحلين ، وأكثرهم ممن كانت ألسنتهم لم تتروض بعـــد على النطق بالعربية ، فكانوا يرطنون بها ، أو يتلعثمون ، ومنهم من كان لا يعرف شيئاً منهـــا ، أو لا يعرف منها إلا القليل من الكلمات .

ومن هؤلاء رجل نصراني كان بمكة قيل إن اسمه : سلمان ، أو يسار ، أو جبر ، أو يعيش ، أو بلعام ، ادعى أهل مكة أنه كان هو الذي يلقن الرسول

ما كان يقوله للناس من رسالته ، وأنه هو الذي كان يعلمه . وقد أشير الى قول قريش هذا في الآية : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »[1] . ومن روى من المفسرين أن اسمه جبر ، قال : إنه كان غلاماً لعامر بن الحضرمي ، وأنه كان قد قرأ التوراة والانجيل[2] ، وكان الرسول يجلس اليه عند المروة الى مبيعته ، « فكانوا : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، غلام الحضرمي »[3] .

ومن هؤلاء من زعم انه كان قيناً لبني الحضرمي ، وانه كان قد جمع الكتب ، وهو رومي ، فكان رسول الله يأتي اليه ويجتمع به ، فكان المشركون يقولون : انه يتعلم من هذا الرومي ! وذكر بعض الرواة ان (آل الحضرمي) كانوا يملكون عبدين ، هما : جبر ويسار ، فكانا يقرآن التوراة والكتب بلسانهما، فكان الرسول يمر عليهما فيقوم يستمع منهما . وقيل انهما كانا من أهل (عين التمر) ، وانهما كانا يصنعان السيوف بمكة ، وكانا يقرآن التوراة والانجيل ، فربما مر بهما النبي ، وهما يقرآن فيقف ويستمع . وأما من قال ان اسمه (يعيش) ، فذكر انه كان مولى لحويطب بن عبد العزى . وأما من ذكر ان اسمه (بلعام) ، فقال انه كان قيناً رومياً بمكة وكان نصرانياً أعجمي اللسان ، « فكان المشركون يرون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين يدخل عليه وحين يخرج من عنده ، فقالوا انما يعلمه بلعام »[4] . ومهما اختلف المفسرون في اسم هذا الرجل فإنهم اتفقوا على انه كان أعجمي الأصل ، نصرانياً ، يقرأ الكتب ، وانه كان بمكة نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية يقرأون ويكتبون .

والى هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص ، أعني : يعيش ويقال عائش أو عدّاس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر ، أشير في القرآن الكريم ، في الآية : « وقال الذين كفروا : إن هذا إلا

---

١ سورة النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٢ تفسير الطبري (١٤/١١٩) ، « وكانوا يقولون : والله ما يعلم محمدا كثيرا مما يأتي به الا جبر النصراني ، غلام ابن الحضرمي » ، روح المعاني (١٤/٢١٢ وما بعدها) ، ابن هشام (١/٤٢٠) .
٣ تفسير الطبري (١٤/١٢٠) ، روح المعاني (١٤/٢١٢) ، ابن هشام (٢٦٠) .
٤ تفسير الطبري (١٤/١١٩) ، روح المعاني (١٤/٢٣٣) ، تفسير الطبرسي (المجلد الثالث ٣٨٦) .

إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون »[1] . وقد ذكر المفسرون ان هؤلاء « كانوا كتابيين يقــرأون التوراة ، أسلموا ، وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يتعهدهم ، فقيل ما قيل »[2] .

وعرفت أسماء جملة رجال ونساء من هذا الرقيق الذي جيء به الى مكة والى مواضع أخرى من جزيرة العرب . من هؤلاء نسطاس ، ويقصد بذلك أنستاس ، وكان من موالي صفوان بن أمية . و (مينا) (ميناس) ، و (يوحنا) عبد (صهيب الرومي) ، و (صهيب) نفسه لم يكن عربياً ، انما كان من بلاد الشأم في الأصل ، وهو رومي الأصل ولذلك قيل له (مهيب الرومي) . وكان قد جاء مكة فقيراً لا يملك شيئاً ، فأقام بها ، ثم اتصل بعبدالله بن جُدعان الثري المعروف ، وصار في خدمته ، ولذلك قيل انـه كان مولى من موالي عبدالله بن جدعان . وفي رواية انه كان من (النمر بن قاسط) ، سقط أسيراً في الروم فباعوه ، فاشترى منهم . وقد ورد في حديث : « صهيب سابق الروم » ، فهذا يدل على انه من أصل رومي . وهو من أوائل المسلمين ، يذكر انـه حينما همَّ بترك مكة والذهاب الى المدينة بعد هجرة الرسول اليها « قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد ان تخرج بمالك ونفسك !! والله ، لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني جعلت لكم مالي »[3]،وترك قريشاً ليذهب الى الرسول .

وكان لبني مخزوم الأثرياء جملة جوار يونانيّات ، كما كان لدى العبّاس عم النبي جوار يونانيات،وأشير الى وجود جوارٍ فارسيات . وكان هذا الرقيق الأبيض ذكوراً وإناثاً من جنسيات متعددة ، منهم من كان من أصــل رومي ، ومنهم من كــان من عنصر أوروبي آخر ، ومنهم من كان من الفرس أو من أهل العراق مثــل نينوى وعين التمر ، ومنهم من كان من بلاد الشأم أو من أقباط مصر ، وهم على النصرانية في الغالب[4] .

---

١ الفرقان ، الرقم ٢٥ ، الآية ٤ .

٢ تفسير الطبري (١٨/١٣٧ وما بعدها) ، روح المعاني (١٨/٢٣٤ وما بعدها) ، مجمع البيان (٧/١٦١) ، (طهران) ، (الجزء الثامن عشر) ، (سورة الفرقان) .

٣ ابن هشام (٢/٨٩) ، الاصابة (٢/١٨٨) ، (الرقم ٤١٠٤) .

٤ المشرق ، السنة الخامسة والثلاثون ١٩٣٧ (ص ٨٨ وما بعدها) .

وقد كانت في مكة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة كثيرة العدد من العبيد ، عرفوا بـ (الأحابيش) . وبين هؤلاء عدد كبير من النصارى ، استوردوا للخدمة وللقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة . وقد ترك هؤلاء الأحابيش أثراً في لغة أهل مكة ، يظهر في وجود عدد من الكلمات الحبشية فيها في مثل المصطلحات الدينية والأدوات التي يحتاج اليها في الصناعات وفي الأعمال اليدوية التي يقوم بأدائها العبيد . وقد أشار العلماء الى عدد من هذه الكلمات ذكروا أنها تعربت ، فصارت من الكلام العربي . وقد أشاروا الى ورود بعضها في القرآن الكريم وفي الحديث[1] .

ويشير أهل الأخبار الى ورود بعض الرهبان والشمامسة الى مكة . وقد كان من بينهم من يقوم بالتطبيب . وقد ذكر الأخباريون أن شماساً كان قد قصد مكة ، فعجب الناس به ، وقد سمّوا أحدهم به ، هو عثمان بن الشّريد بن سويد ابن هرمي بن عامر بن مخزوم ، فقالوا له : (شماس)[2] .

وذكر (اليعقوبي) ، ان ممن تنصر من أحياء العرب ، قوم من قريش من بني (أسد بن عبد العزى) ، منهم (عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى)[3]. وقد ورد في بعض الأخبار انه قدم على قيصر ، فتنصر ، وحسنت منزلته عنده . وان قيصر ملكه على مكة . ومنحه براءة بذلك ، واعترف به . وقد سبق ان تحدثت عنه في اثناء كلامي على مكة . وقد ذكرت ان من الصعب تصور بلوغ نفوذ القيصر هذا الحد من جزيرة العرب، فلم يتجاوز نفوذ الروم الفعلي في وقت ما من الأوقات أعالي الحجاز . ولكن ذلك لا يمنع من تقرب السادات وتزلفهم الى عمال الروم وموظفيهم في بلاد الشأم ، باظهار انهم من المخلصين لهم المحبين للروم ، وانهم من كبار السادات ذوي المكانة والنفوذ ، للحصول على مكاسب مادية ومعنوية منهم ، تجعل لهم مكانة عند أتباعهم وجاهاً ومنزلة ونفوذاً على القبائل الأخرى . وقد كان الروم يعرفون ذلك معرفة جيدة ، بفضل دراستهم لنفسية الأعراب ، ووقوفهم على طبائع سادات القبائل ، فكانوا يشجعون هذا النوع من التودد السياسي لكسب العرب وجرهم الى جانبهم .

---

١ « فقال : يا أم خالد ، هذا سناه . وسناه بالحبشية حسنة » ، أسد الغابة (٥/ ٥٧٩) ، المعرب (٢٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٥٢) ، صحيح مسلم (٢/ ١٨٩) .

٢ ابن هشام (٢/ ٣٢٩) ، « من حضر بدرا من بني مخزوم » ، المشرق ، السنة الخامسة والثلاثون ، ١٩٣٧ (ص ٩٠ وما بعدها) ، كتاب نسب قريش (٣٤٢) .

٣ اليعقوبي (١/ ٢٢٧) ، (أديان العرب) .

وعدّ (ورقة بن نوفل) في جملة المتنصرين في بعض الروايات ، فقد ذكر انه « تنصر واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ، ومات عليها »[1] .

وقد استدل (شيخو) من الخبر المروى عن الصور التي قيل إنها صور الرسل والأنبياء وبينها صورة المسيح ومريم ، والتي ذكر أنها كانت مرسومة على جدران الكعبة ، على أنها هي الدليل على أثر النصرانية بمكة . استدل على فكرته هذه بخبر خلاصته أن الرسول حينما أمر فطمست تلك الصور ، استثنى منها صورة عيسى وأمه مريم ، وبخبر ثان ورد عن تمثال لمريم مزوّق بالحلي وفي حجرها عيسى ، باد في الحريق الذي شب في عصر (ابن الزبير) ، وبخبر ثالث عن امرأة من غسان قيل إنها (حجت في حاج العرب ، فلما رأت صورة مريم في الكعبة ، قالت : بأبي أنتِ وأمي : إنك لعربية . فأمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمحو تلك الصور ، إلا ما كان من صورة عيسى ومريم »[2] .

وكان في الطائف نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية ، لم يتعرض سادتهم كسائر رجال الأماكن الأخرى من الحجاز لدينهم ، فتركوهم على دينهم يقيمون شعائرهم الدينية على نحو ما يشاؤون . من هؤلاء (عدّاس) ، وكان من أهل نينوى ، أوقعه حظه في الأسر ، فبيع في سوق الرقيق ، وجيء به الى الطائف فصار مملوكاً لعتبة وشيبة ابني ربيعة . وعند مجيء الرسول الى الطائف عارضاً نفسه على ثقيف أهلها ، كان هو في جملة من تكلم اليه[3] . ومنهم الأزرق ، ذكر أنه كان عبداً رومياً حداداً،وانه هو أبو نافع الأزرق الخارجي الذي ينتمي اليه الأزارقة . وهناك روايات تنفي وجود صلة لهذا الأزرق بالأزرق والد نافع المذكور[4] .

وأما الحديث عن النصرانية في اليمن،فهو حديث غامض أوله ، مبهم أصله ، لا نعرف متى نبدأ به على وجه التحقيق . فليس لدينا نص بالمسند يشير الى مبدأ

---

١ اليعقوبي (١/٢٩٨) ، (ليدن) ، المحبر (١٧١) ، ابن هشام (١/٢٤٣ ، ٢٥٠ وما بعدها) ، النصرانية (١/١١٩) ، المشرق ، السنة الخامسة والثلاثون ، ١٩٣٧ (ص ٢٧٢) .
٢ النصرانية (ص ١١٧) .
٣ ابن هشام (٢/٣٠) ، أسد الغابة (٣/٢٨٩) ، الاصابة (٢/٤٥٩) ، (الرقم ٥٤٧٠) ، النصرانية (٤٥٢) .
٤ البلاذري (٦٢) .

دخول النصرانية العربية الجنوبية.وما لدينا من كتابات مما له بعض العلاقة بالنصرانية انما دوّن في الحقبة المتأخرة من تأريخ اليمن ، وفي أيام الحبشة في اليمن ، وهو ساكت في الجملة عن المبدأ وعن المبشرين بالنصرانية في العربية الجنوبية . فليس لدينا من بين نصوص المسند في هذا الباب عون ولا سند .

وليس لنا اذن إلاّ أن نفعل ما فعلناه بالنسبة الى اليهودية ، فنرجع الى الموارد الاسلامية والنصرانية لنرى رأيها في هذا الباب .

وتزعم الموارد الاسلامية ان الذي نشر النصرانية في اليمن رجل صالح من بقايا أهل دين عيسى اسمه (فيميون) Faymiyon = Phemion [1] ، وكان رجلاً زاهداً في الدنيا مجاب الدعوة سائحاً ينزل القرى لا يعرف بقريـــة إلا خرج منها إلى قرية لا يعرف فيها ، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ، وكان بنّاءً يعمل الطين وكان يعظم الأحد : إذا كان الأحد لم يعمل فيه شيئـــاً . ففطن لشأنه في قرية من قرى الشأم رجل من أهلها اسمـــه (صالح) ، فأحبه واتبعه على دينه ورافقه . وانصرف ومعه صالح من ضواحي الشأم حتّى وطئا بعض أرض العرب، فعـدا عليهما ، فاختطفتهما سيارة من بعض العـرب ، فخرجوا بهما حتّى باعوهما بنجران . وأهلها من بني الحارث بن كعب من بني كهـــلان . وكانوا يعبدون العزى على صورة نخلة طويلة بين أظهرهم . فابتاع رجل من أشرافهم (فيميون)، وابتاع رجل آخر صالحاً ، وقد أعجب صاحب فيميون بـــه ، لما رآه فيه من صلاح وورع ، فـآمن بدينه ، وآمن أهل نجران منذ ذلك الحين بالنصرانية لمعجزة قام بها (فيميون) ، حينما دعا الله يوم عيد العزى ان يرسل عليها ريحاً صرصراً عاتية تُخني عليها . فأتت الريح عليها فجعفتها من أصلها فألقتها ، فـآمن بدينه أهل نجران . فمن هنالك كانت النصرانية بنجران[2] . ويذكر الطبري ان أهل نجران كانوا يعيدون كل سنة ، « اذا كان ذلك العيد علقوا عليها كـــل ثوب حسن وجدوه ، وحليّ النساء . ثم خرجوا ، فعكفوا عليها يوماً »[3] .

ويظن أن (فيميون) كلمة يونانية في الأصل حرفت من أصل Euphemion .

---

١ « فيميون » « قميون » « ميمون » .

٢ الطبري (١٠٣/٢ وما بعدها) ، ابن هشام (٢٠ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (١٧١/١) ، البيضاوي (٣٩٥/٢) ، ابن خلدون (٥٩/٢) .

٣ الطبري (١٢٠/٢ وما بعدها) « دار المعارف » .

وزعم أن (فيميون) عين أحـــد النجرانيين واسمه (عبدالله بن الثامر) رئيساً عليهم ، وجعلهم تحت رعاية أسقف اسمه (بولس)[1] .

وقد ذكر (الأزرقي) أن أهل نجران كانوا من أشلاء سبأ « وكانوا على دين النصرانية على أصل حكم الانجيل ، وبقايا من دين الحواريين ، ولهم رأس يقال له : عبدالله بن ثامر »[2] .

وتذكر رواية اسلامية أخرى أن أهل نجران كانوا أهل شرك، يعبدون الأوثان وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ساحر يعلم غلمان أهـــل نجران السحر ، وكان أحد رجال نجران واسمه (الثامر) يرسل ابنه (عبدالله) مع غلمان أهـل نجران الى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فكان يمر على صاحب خيمة بين نجران وتلك القرية ، وقد أعجبه ما رآه من صلاته وعبادته وتقواه ، فجعل يجلس اليه ويسمع منه حتى دخل في دينه ، وصار يدعو اليه بين أهل بلده . فمن ثم انتشرت النصرانية في نجران ، وظهرت على الوثنية[3] .

وتذكر هذه الرواية ، ان (عبداللهبنالثامر) ، أخذ من ثم يبشر بالنصرانية، ويأتي بالمعجزات إذ يشفي المرضى « حتى لم يبق أحـــد بنجران به ضر إلا أتاه فاتبعه على أمره ، ودعا له فعوفي ، حتى رفع شأنه الى ملك نجران . فدعاه فقال له : أفسدت عليّ أهـــل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلن بك ! قال : لا تقدر على ذلك . فجعل يرسل به الى الجبل الطويل فيطرح عن رأسه فيقع على الأرض ، ليس به بأس ، وجعل يبعث به الى ميـــاه بنجران ، بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك . فيُلقى فيها فيخرج ليس به بأس ، فلما غلبه ، قال عبدالله بن الثامر : انك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به . فإنك إن فعلت ذلك سلطت علي فقتلتني ، فوحد الله ذلك الملك ، وشهد بشهادة عبدالله بن الثامر . ثم ضربه بعصاً في يده فشجه شجـــة غير كبيرة ، فقتله . فهلك الملك مكانه . واستجمع أهل نجران على دين عبدالله بن الثامر »[4] .

ولم تصرح هذه الرواية التي يرجع سندها الى (محمد بن كعب بن القرظي)

---

١ Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 31, anm., I, O'leary, p. 143.

٢ أخبار مكة (١/ ٨١) .

٣ الطبري (٢/ ١٢١ وما بعدها) « دار المعارف » .

٤ الطبري (٢/ ١٢٢) « دار المعارف » .

وبعض أهل نجران ، باسم الرجل الصالح الـذي أخذ منه (عبدالله بن الثامر) نصرانيته . وقد نبّه الى ذلك الطبري ، في اثناء سرده لها ، فقال : «ولم يسموه باسمه الذي سمّاه به وهب بن منبه »[1] .

وقد صيرت بعض الروايات (عبدالله بن الثامر) في جملة من قتلهم (ذو نواس) من النصارى ، غـير ان (الطبري) ، نبه الى خطل هذا البعض ، وبيّن ان (عبدالله) كان قد قتل قبل ذلك ، قتله ملك كان قبله ، هو كان أصل ذلك الدين[2] .

وهنالك قصة ذكرها (ابن اسحاق) ، تزعم أن رجلاً حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجاته ، فوجد عبدالله بن الثامر تحت دفن منها قاعداً واضعاً يده على ضربة في رأسه ممسكاً عليها بيده ، فإذا أخرت يده عنها انثعبت دماً ، واذا أرسلت يده ردّها عليها ، فأمسك دمها ،وفي يده خاتم ، فأقر على حاله وردّوا عليه الدفن الذي كان عليه ، وكان ذلك بأمر عمر بن الخطاب[3] .

والظاهر أن النجرانيين ، لم ينسوا رئيسهم (عبدالله بن الثامر) حتّى بعـد اسلامهم ، فرووا عنه هذا القصص وصيروه على هذه الصورة التي روتها القصة . ويظهر أنه قتل ، فصير شهيداً من الشهداء ، لأنه قتل في سبيل دينه وفي سبيـل نشره بين النجرانيين .

وزعم بعض الأخباريين أن الذي أدخل النصرانية ونشرها في الحميريين ، هو التبع عبـد كلال بن مثوب : أخذ التبع نصرانيته بزعمهم من رجل من غسان ذكروا أنه كان قد قدم عليه من الشام . فلما علمت حمير بتنصر التبع وبتغيير دينه وإعراضه عن عبادتها ، وثبت بالغساني فقتلته[4] . وقد أشير الى تنصره في القصيدة الحميرية[5] .

---

١ الطبري (٢/١٢١ وما بعدها) « دار المعارف » .
٢ الطبري (٢/١٢٣) « دار المعارف » .
٣ الطبري (٢/١٢٤) .
٤ الطبري (٢/٨٦) : « ذكر ما كان من الاحداث في أيام يزدجرد بن بهرام وفيروز بين عمالها على العرب وأهل اليمن » ، النصرانية (١/٥٥ وما بعدها) ، Nallino, Raccolta, III, p. 124.
٥ أم أين عبد كلال الماضي على دين المسيح الطاهر المساح
النصرانية (١/٥٥) .

أما الرواية الأولى فتنسب الى (وهب بن منبه) . وأما الرواية الثانية فتنسب الى (محمد بن كعب القرصي) والى بعض أهل نجران لم يصرح (ابن اسحاق) بذكر أسمائهم ، فالروايتان اذن من مورد واحد هو أهل الكتاب[1] . فوهب بن منبه من مسلمة يهود . وأما محمد بن كعب بن أسد القرظي المتوفى بين سنة ١١٨ — ١٢٠ للهجرة ، فهو من أصل يهودي كذلك ، من قريظة حلفاء الأوس، وقريظة يهود . وكان مثل وهب قاصاً من القصاص يقص في المسجد . وقد جرّ قصصه هذا عليه البلايا ، فكان يقص في المسجد فسقط عليه السقف فمات[2] .

وجدت أقوال محمد بن كعب القرظي سبيلها الى تأريخ الطبري عن طريق سيرة ابن اسحاق ، وهو طريق ابن حميد عن سلمة بن الفضل عن ابن اسحاق صاحب السيرة الذي أخذ منه بلا واسطة كما أخذ منه بالواسطة . أما الأخبار المروية عنه ، فهي في سير الرسل والأنبياء ، وفي انتشار اليهودية والنصرانية في اليمن ، وفي الأمور التي تخص اليهود في الحجاز[3] . وكان من المقربين الى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، لأنه كانت له به معرفة سابقة قبل توليه الخلافة . فلما ولي الخلافة ، كان يذهب اليه ويتحدث معه في الزهد وفي القصص الذي يحمل طابع الاسرائيليات وفي التفسير الذي اشتهر به[4] .

فناقل النصرانية الى نجران اذن رجل غريب جاء الى البلد من ديار الشأم على رواية (وهب بن منبه) . ويرجع (أوليري) هذه الرواية الى أصل يرى جذوره في السريانية[5] . واسم هذا الرجل الصالح غير عربي بالطبع . فلعله من المبشرين الذين كانوا يطوفون بين ديار العرب للتبشير .

ولا يستبعد أن يكون المبشرون قد أدخلوا النصرانية الى اليمن عن طريق الحجاز،

---

١ الطبري (١٠٤/٢) ، تفسير الطبري (٨٥/٣٠) ،
Nallino, Raccolta, Di Scritti, III, 1941, p. 124.

٢ راجع ما كتبته عنه في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الاول ، ١٩٥٠ ، (ص ١٩٨) ، وتهذيب التهذيب (٤٢٠/٩) ، عيون الاخبار (٢٠١/١ ، ٢٦٤) (١٤/٢ ، ٣٤٣) ، (٤/٣) .

٣ الطبري (١٣٨/١) ، (١٠٤/٢) ، ورد اسمه في «٢٩» موضعا من تأريخ الطبري .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٢/٥ فما بعدها) ، مجلد ٧ قسم ٢ ص ١٩٤ ، عيون الاخبار (٣٤٣/٢) ، (٤/٣) .

٥ O'leary, p. 143.

فقد كانوا يتنقلون بين العرب لنشر هذا الدين . وليس بمستبعد أيضاً أن يكون قد دخل عن طريق الساحل أيضاً مع السفن . فقد كان المبشرون يتنقلون مع البحارة والتجار لنشر النصرانية ، وقد تمكنوا بمعونة الحكومة البيزنطية من تأسيس جملة كنائس على سواحل جزيرة العرب وفي سقطرى والهند . كما لا يستبعد أن يكون للمبشرين الذين جاؤوا من العراق كما تذكر بعض الموارد النصرانية السريانية دخل في نشر النصرانية في اليمن . ولا سيما نشر النسطورية في تلك البلاد .

وأما الموارد النصرانية ، فإنها مختلفة فيما بينها في أول من أدخل النصرانية الى اليمن ، فالموارد اليونانية ترى رأياً ، والموارد السريانية ترى رأياً ، والموارد الحبشية ترى رأياً آخر ، يختلف عن الرأيين . وكل رأي من هذه الآراء الثلاثة يرجع شرف نشر النصرانية في اليمن اليه .

يحدثنا كتبة التواريخ الكنسية من اليونان أن القيصر (قسطنطين) الثاني أرسل في عام (٣٥٤) للميلاد (ثيوفيلوس اندس) Theophilus Indus ، أي (ثيوفيلوس الهندي) ، من جزيرة سرنديب أي سيلان الى العربية الجنوبية للتبشير بالنصرانية بين الناس . وقد تمكن من انشاء كنيسة في عدن وأخرى في ظفار وثالثة في هرمز ،وعين للمتنصرين رئيساً ثم رحل . وصارت ظفار في سنة ٣٥٦م مقراً لرئيس أساقفة يشرف على شؤون نصارى نجران وهرمز وسقطرى[1] . وقد عثر على مقربة من خرائب ظفار على أعمدة من الطراز (الكورنثي) وعلى بقايا تيجانها وعليها نقوش صلبان يظهر أنها من مخلفات تلك الكنائس القديمة التي شيدت بمساعدة البعثات التبشيرية وفي أيام الحبشة في اليمن[2] .

وزعم (فيلوستورجيوس) Philostorgius ان هذا الشعب الذي بشر (ثيوفيلوس) بين أفراده بالنصرانية : شعب هندي ، وكان يدعى سابقاً باسم شعب (سبأ) نسبة الى عاصمته سبأ ويعرف اليوم باسم حمير Homeritae [3] . وقد توهم

---

١ « تاوفيل الهندي » النصرانية (١/٥٦) ،
Alt kult., S. 148, Philostorgius, Historia Ecclesiastica, III, 46, Hugh Scott, in the High Yemen, 1947, p. 211, Mordtmann, Miscellen zur himjarischen Alterthumskunde, in ZDMG., 1877, XXXI, S. 64. ff., Migne, Petr. Grea., LXV, Col, 459-637, Conti Rossini, un documento, p. 710.

٢ Alt. Kult., S. 148, Nallino, Raccolta, III, p. 133, Bury, History of the Roman Empire, II, p. 322.

٣ Philostorgius, I, II, 6, ZDMG., 31, 1877, S. 65.

عدد من الكتبة (الكلاسيكيين) فحسبوا الحميريين من الهنود ، كما ان بعضاً منهم ظنوا ان السبئيين من (الكوشيين) الحبش ، والذي أوقعهم في هذا الوهم هو صلات هؤلاء بافريقية وبالهند ، ولوقوع بلادهم على المحيط الهندي وعلى مقربة من افريقية [1] .

وجاء في رواية أخرى ان القيصر (قسطنطين) الثاني أرسل (ثيوفيلوس) الى ملك حمير Homeritae ونجاشي الحبشة Axume وذلك في عام (٣٥٦) للميلاد. برسائل كتبها القيصر الى الملكين . فلما أنهى مهمته لدى ملك حمير ، انتهز هذه الفرصة فزار وطنه الهند ، ثم عاد فذهب إلى الحبشة . وعاد منها فذهب الى أنطاكية Antiochia ومنها الى القسطنطنية [2] . ويظهر من هذه الرواية ان مهمته هذه لم تكن مهمة دينية ، انما كانت ذات طابع سياسي ، الغاية منها ضم حمير والأحباش إلى معسكر البيزنطيين .

وقد كان من مصلحة الحكومة البيزنطية بعد دخول القيصر (قسطنطين) في النصرانية عام (٣١٣) للميلاد واتخاذها ديانة رسمية للدولة ، ان ينشر هذا الدين ويكثر أتباعه ، لما في ذلك من فوائد سياسية ومصالح اقتصادية :فضلاً عن الأثر العميق الذي يتركه هذا العمل في نفوس أتباعه المؤمنين مما يرفع من مكانة القياصرة في نفوس الشعب ويقوي من مراكزهم ونفوذهم على الكنيسة والرعية . وبمساعدة هؤلاء القياصرة تمكن المبشرون من انشاء ثلاث كنائس في (ظفار) و (عدن) و (هرمز)[3] .

ولم يكن يقصد (قسطنطين) كما يرى المستشرق (روسيني) من إرسال الوفد الذي ترأسه (ثيوفيلوس) الى ملك حمير ، هدفاً دينياً محضاً ، وإنما أراد أن يعقد معاهدة تجارية مع الحميريين ويحقق له منافع اقتصادية وسياسية . بأن يحقق له التجارة البحرية ، ويحرض اليمانيين على الفرس ويدخلهم في معسكره بدخولهم

---

١ النصرانية (٥٣/١ وما بعدها) .

٢ Paulys — Wissowa, Zweite Reike, Zehuter Halbband, S. 2167, Philostorgius, Hist. Eccli., II, 6, Kidd, A History of the Church, II, 161, III, 429, Bury, History of the later Roman Empire, II, p. 322.

٣ Ency. of Relig. and Ethi., III, p. 589, Franz Stuhlmann, Der Kampf um Arabien, S. 12.

في النصرانية التي تجمع عندئذ بينهم وبين الروم[1] .

وورد في رواية أخرى أن الحميريين Homeritae دخلوا في عهد (انسطاس) (انسطاسيوس) (٤٩١ – ٥١٨ م) في النصرانية . وذكر أيضاً أنـــه كان في جملة من قصدوا القديس (سمعان العمودي) رجال من عرب حمير ، وقد رآهم (تاودوريطس) في القرن الخامس للميلاد[2] .

وأما الموارد السريانية ، ومنها الموارد النسطورية ، فتزعم أن تاجراً من أهل نجران اسمه (حنان) أو (حيّان) ، قام في أيام (يزدجرد) الأول (٣٩٩ — ٤٢٠ للميلاد) بسفرة تجارية الى القسطنطنية ، ثم ذهب منها الى الحيرة،وفيها تلقن مبادىء النصرانية ودخل فيها . فلما عاد منها الى نجران ، بشر فيها بالنصرانية حتى تمكن من نشرها بين حمير . وترجع تواريخ البطارقة هـــذه الحادثة الى أيام بطرقة (معنى) Ma'na الموافقة لحوالى سنة (٤٢٠) بعد الميلاد[3] . وذكر أنه في عهد البطريق (سيلاس) Silas (٥٠٥ – ٥٢٣ م) ، هرب لاجئـــون من اليعاقبة Jakobiten الى الحيرة ، غير أن النساطرة أجلوهم عنها ،فذهب قسم منهم الى نجران ، فنشروا مذهبهم بين السكان[4] .

وتشير الأخبار الكنسية أيضاً الى أن رسولي الكلدان الأولين: (ادي) و (ماري) كانا قد سارا الى بلاد العرب سكان الخيام ، والى نجران وجزائر بحر اليمـــن . وجاء في المصحف الناموسي : « وبشر الجزيرة والموصل وأرض السواد كلها وما يليها من أرض التيمن كلها وبلاد العرب،سكان الخيام والى ناحية نجران والجزائر التي في بحر اليمن مارى الذي من السبعين »[5] .

وللحبش قصص عن انتشار النصرانية في نجران ، خلاصتها : ان قديساً اسمه

---

١ النصرانيه (١/٥٩) ، Conti Rossini, un documento sul Cristianesimo nello Iemen, p. 710.

٢ النصرانية (١/٥٧ وما بعدها) ، Mordtmann, in ZDMG., XXXI, 1877, S. 65, Theodorus, Lector, Histo. Eccl., I, II, p. 567, (ed. Valesius and Nicephorus Callistus).

٣ Chronik von Séert, II, 149, ABM, 22, Eduard Sachau, zur ausbreitung des Christentums in Asien, Berlin, 1919, S. 68.

٤ Chronik von Séert, II, 144.

٥ النصرانية (١/٥٨) .

(ازقير) Azkir ، أقام كنيسة ورفع الصليب وبشّر بالنصرانية في نجران ، وذلك في ايام الملك (شرحبيل ينكف) ملك حمير ، فاستاء من ذلك (ذو ثعلبان) و (ذو قيفان) ، وأرسلا رجالها إلى المدينة لهدم الكنيسة وانزال الصليب والقبض على القديس ، ففعلوا وألقوا به في غياهب السجن . وفي اثنـــاء اقامته فيه هدى قوماً من السجنـــاء إلى النصرانية بفعـــل المعجزات التي قام بها ، فغضب الملك (شرحبيل) عليه ، وأرسل الى القيلين اللذين كانا في نجران ان يرسلا اليه هذا الرجل الذي فتن الناس ، فأرسل محفوراً اليه . وفي اثناء اجتيازه الطريق إلى عاصمة الملك ظهرت منه معجزات خارقة ، آمن بها عدد ممن رافقوه أو وقفوا على أحواله وتعمّدوا على يديه . فلما وصل إلى (ظفار) عاصمة (شرحبيل) ، انتهره الملك وحاجه في دينه وعرض عليه كتب (يهود) ، ثم أغراه بالذهب والمال ، فقال له القديس : « الذهب والفضة فانيان ، أما كرستس ساكن السماء فباق » . وقد حرضه عليه أحد الأحبار ، فأمر الملك عندئذ بارساله إلى نجران لقتله . فلما بلـغ المدينة ، قتله اليهود ، فمات شهيداً في سبيل دينه[١] .

وتزعم الرواية الحبشية ان نصارى اليمن كانوا يرسلون بهداياهم إلى النجاشي وبالضرائب يدفعونها اليه[٢] .

وذكر ان أحد الأساقفة ممن كان في اليمن ، كان قد اشترك في أعمال مجمع (نيقية) الذي انعقد سنة ٣٢٥ للميلاد[٣] . وإذا صح هذا الخبر ، فإنه يعني ان النصرانية كانت قد وجدت لها سبيلاً إلى اليمن في القرن الرابع للميلاد .

يتبين من هذه الأخبار أن النصرانية لم تدخل العربية الجنوبية من طريق واحد، وإنما دخلتها من الـــبر ومن البحر ، دخلتها من البر من ديار الشأم الى الحجاز فاليمن ، ومن العراق أيضاً مع القوافل التجارية المستمرة التي كانت بـــين اليمن والعراق . ودخلتها من البحر بواسطة السفن اليونانية ودخلتهـــا مع الحبشة كذلك الذين كانوا على اتصال دائم باليمن وبقية العربية الجنوبية منذ أيام ما قبل الميلاد .

---

١ Winckler, AOF., IV, 1896, S. 329. ff., British Museum Orient., 686, 687, 688, 689.

٢ Fell, in ZDMG., 35, 1881, S. 50.

٣ النصرانية (١/٥٧) ، Nallino, Raccolta, III, p. 122, Caetani, Annali, I, p. 125.

وقد كانت نجران أهم موطن للنصرانية في اليمن ، ولعلها الموطن الوحيد الذي رسخت هذه الديانة فيه في هذه البلاد . وقد اشتهرت نجران بالحادثة التي وقعت فيها ، حادثة تعذيب النصارى ، وبما ذكره أهل الأخبار عن الكنيسة التي أنشأها الأحباش فيها وعرفت بـ (كعبة نجران) عند الأخباريين كما عرفت بـ (بيعة نجران) أيضاً . وفي رواية تنسب الى ابن الكلبي (أنها كانت قبّة من أدم من ثلاث مئة جلد ، كان اذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترفد أرفد . وكانت لعظمتها عندهم يسمونها كعبة نجران ، وكانت على نهر نجران ، وكانت لعبد المسيح بن دارس بن عدي بن معقل ، وكان يستغل من ذلك النهر عشرة آلاف دينار ، وكانت القبّة تستغرقها »[1] . وكان ينفق عليها من غلّة ذلك النهر .

وورد في رواية أخرى أنها كانت بناء بني على بناء الكعبة . وقد بناها بنو عبد المدّان بن الديّان الحارثي ، بنوها على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة لها . وكان فيها أساقفة معتمون ، وهم الذين جاؤوا الى النبي ، ودعاهم الى المباهلة[2] .

وتذكرنا قصة (ابن الكلبي) عن أصل كعبة نجران ، وأنها كانت من أدم ، بما نعرفه عن خيمة (يهوه) إلـه العبرانيين ، وتعبد الاسرائيليين له فيها قبل بناء الهيكل ، واعتقادهم أنها خيمة مقدسة ، وبما نعرفه من خيم القبائل المقدسة ، وذلك لأنها كانت بيوتاً توضع فيها الأصنام ويتعبد أفراد القبيلة بها ، فإذا ارتحلوا الى مكان جديد نقلوا خيمتهم معهم. والظاهر ان كعبة نجران المذكورة، إن صحت رواية ابن الكلبي ، كانت من هذا النوع ، خيمة مقدسة في الأصل وذلك قبل دخول أهل نجران في النصرانية ، فلما دخلوها ، لم تذهب عنها قدسيتها ، بل حوّلوها الى كنيسة ، ثم بنوا بيعة في موضعها فيما بعد .

وفي رواية ان قُس بن ساعدة الايادي كان أسقفاً على نجران[3] ، وهي رواية تحتاج الى سند موثوق به ، وقد أخذ بها (شيخو) وأمثاله ممن يرجع كل شيء

---

١ البلدان (٨/١٩٣) ، تاج العروس (١/٤٥٧) ، (٣/٥٥٦) ، ديوان الاعشى (١٢٢) ، (طبعة كاير) « Geyer » ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (٢٨٣) .
Raccolta, III, p. 127.

٢ البلدان (٨/٦٢٣) « نجران » ، تاج العروس (٣/٥٥٦) .

٣ Raccolta, III, p. 128, Lammens, Califat, p. 332.

من هذا القبيل في الجاهلية إلى النصرانية .

وقد كانت نجران المركز الرئيسي للنصرانية في اليمن عند ظهور الاسلام ، لها نظام سياسي واداري خاص تخضع له ، وعليها : (العاقب) ، وهو كما يقول أهل السير : « أمير القوم ، وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ،والذي لا يصدرون إلا عن رأيه » ، و (السيد) ، وهو « ثمالهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم » ، و (الأسقف) ، وهو « حبرهم ، وإمامهم، وصاحب مدراسهم »[١] . ويقصدون به رئيس نجران الديني الذي اليه يرجعون في أمور الدين . أما العاقب والسيد ، فإليهما ادارة الجماعة ، والإشراف على شؤونهم السياسية والمالية ، وتدبير ما يحتاج المجتمع اليه من بقية الشؤون[٢] .

وقد صالح أهل نجران خالد بن الوليد ، في زمن النبي ، في السنة العاشرة من الهجرة ، وبذلك دخل أكثر سكان المدينة في الاسلام . أما من بقي على دينه من النصارى ، فقد فرضت عليه الجزية[٣] .

ويذكر أهل السير ان اسم عاقب نجران في ايام النبي ، هو (عبد المسيح) رجل من كندة . وقد قدم على رأس وفد من أهـل نجران إلى يثرب ، فقابل الرسول ، وتحدث معــه . وكان معه (الأيهـم) وهو سيد نجران يومئذ ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل ، وكان أسقفهم وحبرهم وإمامهم يومئذ ، وله مقام عظيم عندهم ، « وقد شرف فيهـم ، ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه وموّلوه ، وأخدموه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه »[٤] .

وإذا صح ما رواه أهل الأخبار من أن عاقب نجران كان كندياً ، وأن أسقفها كان من (بكر بن وائل) ،فإن ذلك يدل على أن الرئاسة عند النصارى العرب،

---

١ ابن هشام (٢/٢٠٤) ، تاج العروس (١/٣٨٩) ، (عقب) ، (٦/١٤١) ، (سقف) ، اللسان (١١/٥٧) ، « وصاحب مدارسهم » ، ابن سعد (١/٣٥٧) .

٢ Raccolta, III, p. 128.

٣ الطبري (٣/١٥٧) ، « حوادث السنة العاشرة » ، البلدان (٨/٢٦١ وما بعدها) .

٤ ابن هشام (٣/٢٠٤) ، تاج العروس (١/٣٨٩) ، اللسان (٢/١٠٥) ، ابن سعد (١/٣٥٨) ، نهاية الارب (١٨/١٢١) .

لم تكن تتبع العرف القبلي في الزعامة ، وإنما كانت عن تنسيب واختيار ، وأنا لا استبعد احتمال وجود مراجع دينية عليا ، كانت هي التي تتولى النظر في ادارة الكنائس وفي تعيين رجال الدين وفي النظر في المشكلات التي تقع بين النصارى ، أو بين النصارى وغيرهم ، وفي أمر مساهمة النصارى العرب في المجامع الكنسية التي تنظر في المسائل العامة للطوائف .

ويرى بعض أهل الأخبار أن « السيد والعاقب أسقفي نجران اللذين أرادا مباهلة رسول الله » هما من ولد الأفعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن الحارث الجرهمي ، الذي حكم بين بني نزار بن معد في ميراثهم ، وكان منزله بنجران [1] .

ويذكر علماء اللغة ، أن (العاقب) من كل شيء آخره ، والعاقب السيد ، وقيل الذي دون السيد ، وقيل الذي يخلف السيد ، وقيل : الذي يخلف من كان قبله في الخير كالعقوب [2] . والذي أوحى اليهم بهذا التأويل والتفسير ، ظاهر لفظة (عقب) في عربيتنا التي منها اشتقت لفظة (العاقب) على رأيهم . والصحيح أنها لفظة عربية جنوبية وردت في المسند، بمعنى (رئيس) وممثل قوم ، أي رسول قوم ، فورد (عقبت نشقم) ، أي (رئيس) مدينة (نشق) [3] ، وبمعنى ممثل مدينة (نشق) [4] .

وذكر ان نصارى نجران ، أرسلوا العاقب والسيد في نفر لمحاججة رسول الله فيما نزل عليه في المسيح ، من انه عبدالله ، حيث كبر ذلك عليهم سماعه، فأخذوا يخاصمونه ويجادلونه فيه ، وألحوا عليه بالجدل والخصومة ، فدعاهم الى الملاعنة ، فامتنعوا ودعوا الى المصالحة ، فصالحهم [5] . وانه الى ذلك أشير في القرآن الكريم : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم . فقل : تعالوا : ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » [6] .

---

١ المحبر (١٣١) .

٢ تاج العروس (١/٣٨٩) ، (عقب) .

٣ Jamme 619, Ma Mb 178, Mahram, p. 120.

٤ Jamme, South Arabian Inscription, p. 445.

٥ ارشاد الساري (٦/٤٣٧) .

٦ ال عمران ، الابه رقم ٦١ ، تفسير الطبري (٣/٢٠٩ وما بعدها) ، روح المعاني (٣/١٦٥) ، أمتاع الاسماع (١/٥٠٢) ، الواحدي ، أسباب (٧٤) ، ابن سعد (١ قسم ٢ ص ٨٤) ، ارشاد الساري (٦/٤٣٧) .

وورد أيضاً انه لما بعث رسول الله وسمع به أهل نجران أتاه منهم أربعة نفر من خيارهم منهم العاقب والسيد ، و (مار سرجس) ، و (ماريحز) ، «فسألوه ما يقول في عيسى . فقال : هو عبدالله وروحه وكلمته . قالوا هم : لا،ولكنه هو الله نزل من ملكه ، فدخل في جوف مريم ، ثم خرج منها ، فأرانا قدرته وأمره ، فهل رأيت قط انساناً خلق من غير أب ؟ فأنزل الله ، عز وجل ، إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون »[1].

وقد كان لنصارى اليمن كنائس أخرى غير كنيسة (نجران) : فقد كانت لهم كنيسة عظيمة في (صنعاء) ، هي (القليس) التي اكتسبت شهرة عظيمة في كتب الأخبار والتواريخ. وهي كنيسة (أبرهة) ، من أصل (اكلسيا) Ecclysia اليوناني بمعنى الكنيسة ، وموضعها الآن جامع (صنعاء) على ما يظن . وقد أبدع الأحباش في تزيينها وتجميلها ، وأنفقوا عليها مبالغ طائلة .

كما كانت لهم كنائس في (مأرب) و (ظفار) . وقد عهد الأحباش بتدبير شؤون كنيسة (ظفار) الى أسقف شهير يقال له (جرجنسيوس) (جورجيسيوس) (جرجيسيوس) . وهو مؤلف كتاب شرائع الحميريين . وله مناظرات مع اليهود[2] .

وقد بقيت النصرانية قائمة في اليمن في أيام الاسلام ، ففي الأخبار الكنسية أن رئيس البطارقة النساطرة (طيموثاوس) ، نصب في أواخر القرن الثامن للميلاد أسقفاً لنجران وصنعاء ، اسمه (بطرس)[3] . وفي (الفهرست) لابن النديم ، أنه التقى براهب من نجران يدعى حسّان ، كان قد أنفذه الجاثليق الى الصين ، ليتفقد مع خمسة أناسي من النصارى أحوال نصاراها ، فعاد منها سنة (٣٧٧) للهجرة ، وأخبره بعجائب تلك البلاد[4] . وذكر أنه في حوالي سنة ١٢١٠ للميلاد كان في منطقة صنعاء خمسة أساقفة ، وأسقف في مدينة زبيد وأسقف في نجران ، وأنه كان في حوالى سنة ١٢٥٠ للميلاد أسقف في عدن[5] .

---

١ تفسير الطبري (٣/ ١٩ وما بعدها) .
٢ النصرانية (١/ ٦٤) . Migne, Patr. Grae., 86, 567-620.
٣ النصرانية (١/ ٦٧) .
٤ الفهرست (٥٠٤) « مطبعة الاستقامة » .
٥ النصرانية (١/ ٦٧) .

إن بقاء النصرانية في نجران وفي مواضع من اليمن وأنحاء أخرى من جزيرة العرب ، وبقاء اليهود في اليمن الى زمن غير بعيد ، يشير الى أن ما ذهب اليه كثير من المؤرخين من إجلاء أهل الكتاب بأمر الخليفة (عمر) عن جزيرة العرب ثم بقية الخلفاء الذين ساروا على حكم : « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» فيه مبالغة[1] . والظاهر أن الاجلاء كان قاصراً على المواضع التي تعرضت فيها جاليات أهل الكتاب فيها للإسلام بسوء . فطبق على جاليات يهود يثرب ومن كان يسكن الى الشمال منهم ، لوقوفهم موقفاً معادياً شديداً من الاسلام ، ولعملهم في إثارة الفتن على المسلمين . ومن يدري فلعلهم ولعل أهل الكتاب عموماً ساعدوا في قيام الردة وتشجيع المتنبين والمرتدين للقضاء على الخطر الذي زعموه ، خطر ظهور الاسلام وانتشاره في جزيرة العرب وفي خارجها ، وقيام دولة موحدة كبيرة فيها. ومن يدري أيضاً ، فلعل الروم والأحباش كانوا أيضاً في جملة من كان يحرض أهل الكتاب على الدس للإسلام،وأن بعض من أعلن الردة مثل (النعمان الغرور) وهو نصراني ، وغيره ممن ارتد معه من النصارى ، كانوا قد تلقوا عوناً من الخارج ، وهذا ما حمل الخليفة على اتباع قاعدة إجلاء الدساسين من أهل الكتاب مهما كان نوعهم عن جزيرة العرب لحماية الاسلام من خطر الفتنة ومن الردة ، ولم تكن قواعده قد تركزت واستقرت استقراراً تاماً بعد .

إن الذي افهمه من سياسة إجلاء (عمر) لأهل الكتاب ، هو ان ذلك الإجلاء كان خاصاً بالجاليات اليهودية التي كانت تقيم فيما بين فلسطين ويثرب ، وقاصراً عليها ، بسبب وقوفها موقفاً معادياً من الاسلام ، أما النصارى فلم تكن لهم جاليات هناك ، فلم يقع إجلاء لهم فيها . ولكن (عمر) ومن جاء بعده لم يطبقوا الإجلاء على الأسر والأفراد ، بدليل ما نجده في أخبار أهل الأخبار من وجود أسر وأفراد من يهود ونصارى في يثرب وفي مكة وفي الطائف بعد وفاة عمر .

أما في غير الحجاز من بقية أنحاء جزيرة العرب ، فلم يطبق قانون (عمر) على أهل الكتاب ، بدليل دفع جالياتهم (الجزية) عن رؤوسهم في ايامه الى وفاته ، ثم في ايام من جاء بعده من الخلفاء . فكأن الخليفة ، قد طبق أمر الإجلاء على

---

[1] « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاخرجن اليهود والنصارى عن جزيرة العرب حتى لا أدع فيها الا مسلما » ، البلدان (٨/٢٦٣) .

يهود الحجاز لخوفه من خطر بقائهم في مقر الاسلام وفي مدينة الرسول ومن احتمال عودة من هاجر منهم الى أرضهم وتكتلهم من جديد ، وإثارتهم من لم يكن قد تمكن الاسلام من قلبه بعد ، فيقع للاسلام ما وقع في ايام الرسول من اتصالهم سراً بكفار قريش ، ومن حدوث ردة جديدة ، فقرر إجلاءهم جماعة عن تلك الديار .

النصرانية في بقية مواضع جزيرة العرب :

وكان التجار الروم ينزلون سواحل العربية الجنوبية للتزود منها بالماء وبالطعام وللاتجار مع سكانها ، ومنهم من أقام بها وقضى حياته فيها ، وتعرب . وكان منهم من بشّر بالنصرانية وعمل على نشرها بين السكان . ولعل الحكومة البيزنطية كانت ترسل المبشرين الى هذه المواضع للتبشير ، كذلك أرسل نصارى الحيرة المبشرين لنشر نصرانيتهم في العربية الجنوبية[1] . وبعد دخول هذه البلاد في الاسلام احتفظ قوم من النصارى بدينهم ، مقابل دفع الجزية للمسلمين[2] .

وأما اليمامة ، فكانت النصرانية قد وجدت لها سبيلاً بين قراها وقبائلها. ويظهر من شعر للأعشى مدح به (هوذة بن علي) حاكمها عند مبعث الرسول ، انه كان نصرانياً منّ على قوم من (تميم) ففك وثاقهم يوم أسروا ، ويوم قتلوا وسط (المشقر) ، ومنّ عليهم (يوم الفصح) ، يرجو الإلَه بما سدى وما صنعا[3] .

وأما العربية الشرقية ، فقد دخلت النصرانية اليها من الشمال ، من العراق في الغالب . ولكن بعض الروم كانوا قد وجدوا سبيلهم اليها ، فدخلوها من البحر أيضاً . فعششت في مواضع منها مثل البحرين ، وقطر ، وهجر ، وبعض جزر الخليج . وكانت غالبية نصارى هذه الأرضين على مذهب نسطور آخذين هذا المذهب من نصارى الحيرة الذين كانوا على اتصال وثيق بهم ، كما كان رجال دينهم يسافرون الى هذه المنطقة للتبشير بها ، فزرعوا فيها بذور مذهبهم، ونشروه بين من أقبل على النصرانية من العرب .

---

١ النصرانية (٧٠) .
٢ البلاذري (٨٤) .
٣ ديوان الاعشى (٨٦) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٥/٢١١) .

ومن رجال البحرين النصارى (الجارود بن عمرو بن حنش المعلى)[1] : قدم على النبي بالمدينة، فأسلم وأسلم معه أصحابه. وكان حسن الاسلام صلباً حتى هلك، وقد لام قومه ممن انضم الى (المنذر بن النعمان بن المنذر) الغرور، فارتد عن الإسلام وعاد الى دينه الأول[2] . وقد بقي إلى أيام (عمر) في أغلب الروايات والى خلافة عثمان في رواية . واشترك في حروب فارس ، فقتل بها بـ (عقبة الطين)، التي عرفت باسمه ، فقيل لها عقبة الجارود ، وذلك سنة احدى وعشرين في خلافة عمر ، وقيل قتل بنهاوند مع النعمان بن مقرن . وقد رووا له شعراً . وكان ولده (المنذر بن الجارود) من رؤساء (عبد القيس) بالبصرة . وحفيده (الحكم بن المنذر) الذي مدحه (الأعشى الحرمازي) بشعر حسده الحجاج عليه[3] .

---

١ ويقال ابن عمرو بن المعلي ، وقيل الجارود بن العلاء ، وورد الجارود بن عمرو بن حنش ، « والجارود لقب بشر بن عمرو بن حنش بن المعلي من بني عبد القيس العبدى الصحابي ، رضي الله عنه . كنيته أبو المنذر ، وقيل أبو غياث ، وهو أصح) ، تاج العروس (٢/٣١٨) ، (جرد) .

٢ الطبري (٣/١٣٦ وما بعدها) ، « قدوم الجارود في وفد عبد القيس » .

٣ الاصابة (١/٢١٧) ، (رقم ١٠٤٢) .

الفصل الثمانون

المذاهب النصرانية

لقد أصيبت النصرانية بما أصيبت به أكثر الأديان من تشقق وتصدع وانفصام، فظهرت فيها شيع وفرق، تخاصمت فيما بينها وتجادلت. وكان أكثر جدالها في موضوع طبيعة المسيح وعلاقة الأم بالابن، وفي موضوع النفس، وقد عقدت لذلك جملة مجامع كنسية للنظر في هذه الآراء والحكم على صحتها أو فسادها، وفي أمر أصحابها، اجتمع فيها مندوبون من مختلف الأماكن وبينهم بعض الأساقفة العرب. غير انها لم تتمكن من القضاء على النزعات المختلفة، فظهرت فيها جملة مذاهب، حرمت المجامع أصحابها، وحكمت ببدعتهم وبخروجهم على التعاليم الصحيحة، وطلبت من بعضهم الرجوع إلى الدين الصحيح، غير ان منهم من أصر على رأيه، وتحزب له، وبشّر به، فوجد أنصاراً وأعواناً انتموا اليه وتسمّوا به.

والواقع انه لم يكن من السهل على الداخلين في النصرانية فهم قضية معقدة كهذه القضية، وهي قضية فلسفية جدلية أكثر منها عقيدة دينية. ولذلك كان من الطبيعي وقوع الاختلاف فيها، وتشتت آراء النصرانية بالقياس اليها، خاصة وهي حديثة عهد، وأكثر الداخلين فيها هم ممن دخلوا حديثاً في هذا الدين، وليس لهم الإدراك العميق والخيال الواسع لفهم موضوع كهذا الموضوع. ثم إن النصرانية ديانة عالمية، لم توجه لأمة خاصة من الأمم، وقد جاءت ككل الأديان بأحكام لا بد وان يختلف الناس في فهمها، لاختلاف المدارك والثقافات، وهذا

الاختلاف في الفهم ، يؤدي الى ظهور المذاهب والشيع،والى تناحر هذه المذاهب، وادعاء كل واحد منها انه وحده على الحق ، وان ما دونه على الباطل والهرطقة والكفر .

لقد فتح (بولس الرسول) وأتباع المسيح الآخرون ميداناً واسعاً من الجدل في موضوع المسيح : هل المسيح إنسان ، أو هو ربّ ، أو هو من خلق الرب؟ وهل هو والربّ سواء ، أو هو منفصل عن الربّ ؟ هذه الأسئلة وأمثالها مما يتصل بطبيعة المسيح شغلت رجال الكنيسة ، وكتّلتهم كتلاً : كـل كتلة ترى أن رأيها في الطبيعة هو الرأي الصواب ، وأنه هو الدين الحق القويم ، وأن ما دونه ضلال وباطل . فظهرت المذاهب : شرقية وغربية ، وانقسمت الكنيسة على نفسها ، فظهرت من الكنيسة الواحدة كنائس . ولا تزال تنشق ، ويزيد عددها وتظهر أسماء جديدة لمذاهب لم تكن معروفة في النصرانية القديمة .

لقد كان الناصريون الأولون ، وهي التسمية القديمة التي عرف بها النصارى ، في فوضى فكرية . فلم تكن تعاليم المسيح مفهومة عندهم ولا مهضومة ، وكانت تفاسير تلاميذه غير منسقة ولا مركزة تركيزاً يكفي لتوجيه الناصريين وجهة معينة واحدة . ثم إن تعقب اليهود والرومان للنصارى وتنكيلهم بهم ، وخوف الناصري على حياته وعلى ماله إذا تظاهر بدينه : كل هذه كان لها أثر خطير في المجتمع النصراني الأول . ولولا جلـد بعض التلاميذ وتفانيهم في الدعـوة ، وتركيزهم لتعاليمها وتبويبها وصقلها ، لما كان للنصرانية ذكر باق حتى الآن .

وليس في استطاعة أحد الزعمُ بأن هذه النصرانية التي تركّزت وتثبتت عـلى هذه الصورة التي نشهدها،هي النصرانية التي جاء بها المسيح وكان عليها الناصريون، أي أقـدم أتباع عيسى . فالنصرانية هي سلسلة تطورات وأفكار وآراء وضعهـا البارزون من الآباء ، ثم إنها كأكثر الأديان تأثرت بمؤثرات عـديدة لم يكن من الممكن على الداخلين فيها التخلص منها . فدخلت فيها وصارت جزءاً منها ، مع أن بعضها مناهض ومناقض لمبادىء هذا الدين .

وتولد عن هذا الجدل ظهور (الآريوسية) أتباع (آريوس) و (السبيلية) Sabellians وأتباع (الثالوث) Trinitarians ومذاهب أخرى نبعت من تلك البلبلة الفكرية التي أظهرها الاختلاف في طبيعة المسيح . ونظراً الى ما أحدثته هذه الآراء

اللاهوتية من انقسام وتفرق في صفوف النصارى ، وما تركته من أثر خطير في الأحوال الداخلية للانبراطورية . عـزم الانبراطور (قسطنطين) باني القسطنطنية على عقد مؤتمر للتوفيق بين هذه الآراء وتنسيقها ، فعقد مجمع (نيقية) Nicaea حضره (آريوس) للدفاع عن نفسه وحضره جمع من الأساقفة المخالفين له لمحاكمته ولاثبات هرطقته وخروجه على الايمان الصحيح. وكانت النتيجة الوحيدة لهذا المؤتمر وضع بيان دقيق عن الثالوث ، والحكم بفساد رأي آريوس وبخروجه على عقيـدة النصرانية الصحيحة ، ووضع تعريف للايمان الصحيح[1] .

وعقب هذا المجمع الذي انعقد في سنة (٣٢٥) للميلاد وحدد معنى النصرانية وأصولها ، عدة مجامع عقدت للنظر في أمثال هذه المشكلات الخطيرة التي جابهت الكنيسة ، عقد بعضها في القسطنطنية فعرفت بها ، وعقد بعض آخر في (أفسوس) (٤٣١ م) وفي (خلقدونيا) Chalcedon (٤٥١ م) ، ولكنها لم تستطع ان تعيد الوحدة الى الكنيسة ، فانقسمت الى عـــدة كنائس ، وحدث الانفصال الأكبر في سنة (١٠٥٤م) حيث تجزأت الكنيسة الكبرى للانبراطورية الى كنيستين: كنيسة غربية استعملت اللغة اللاتينية لغة رسمية لها ، وكنيسة أرثوذكسية هي الكنيسة الإغريقية الأصلية ، وذلك بسبب خلافات بسيطة ليس لهـــا أثر خطير في جوهر العقيدة . أما الشرق ، أي آسية وافريقية ، فقد سبق نصاراه نصارى الغرب في تحطيم وحدة الكنيسة ، فظهرت عندهم الكنيسة النسطورية والكنيسة اليعقوبية ، في زمان مبكر سبق انفصال الكنيسة اللاتينية عن الإغريقية بزمان طويل .

وقد وصلت الينا أسمـــاء من حضر بعض تلك المجامع الكنيسية ، واشترك في جدالها ومناقشاتها ووقع على قراراتها ومحاضرها ، وبينها أسماء أساقفة بشروا بـــين العرب ، وأساقفة يظهر أنهم كانوا من أصل عربـي بدليل أسمائهم العربية الخالصة أو المنقولة الى اليونانية والسريانية . وقد عرف بعضهم بأساقفة الخيام ، لمرافقتهم للأعراب ومعيشتهم بينهم في الخيام معيشة الأعراب[2] .

---

١ مجلة المشرق ، السنة الثالثة والعشرون (١٩٢٥) ، العدد ٧ ، (٤٨١ وما بعدها) ، خلاصة تاريخ الكنيسة ، لـ « لومند » ، ترجمة الخوري يوسف السناني ، مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين ، بيروت ١٨٨١ ، في جزءين (١/١٧٤ وما بعدها) ، Ency. Religl. and Ethic, I, pp. 775, (Arianism)

٢ النصرانية (١/٣٣ وما بعدها) .

ومن أساقفة الأعراب أسقف عرف باسم (بطرس) ، وقد وقع على أعمال مجمع (أفسوس) بصفة كونه (أسقف محلة العرب) ، والأسقف (تاوتيموس أسقف العرب) الذي وقع على أعمال مجمع انطاكية الذي انعقد عام ٣٦٣ للميلاد[١].

وقد كان بين أساقفـة القدس في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس للميلاد ، أسقف من أصل عربي ، اسمه الياس (٤٩٤ – ٥١٣ م)[٢] .

فالأساقفة الذين كانوا يديرون أمور النصارى العرب ويبشرون بين القبائل الوثنية ، أسهموا في الجدل الديني الذي قام أكثره على بحث موضوع طبيعة المسيح واشتركوا فيه ، وبذلك نقلوا الى العرب هذه الأبحاث اللاهوتية التي شغلت بال العالم المتمدن منذ القرن الأول للميلاد فما بعده ، وكانت أهم مشكلات النصرانية يومئذ مشكلة شغلت بال المؤمنين ، ثم بال الحكومة البيزنطية بعـد تنصرها وبال أتباعها المؤمنين ، وشغلت العالم الغربي حتى بعد عصر النهضة ، مشكلة أطاحت برؤوس الآلاف من الناس باسم الكفر والايمان ، البدعة والحق . وكان في جملة ما أسهم فيه رؤساء أديرة اقليم العربية وضع رسالة مضمونها دستور الايمان، كتبها أولئك الرؤساء ، ووجهوهـا الى يعقوب البرادعي ، ردوا فيها على رأي يحيى النحوي في تثليث الجوهر الفرد ، وذلك بين السنتين ٥٧٠ و ٥٧٨ للميلاد . وقد وقعها ١٣٧ رئيساً لـ ١٣٧ ديراً في اقليم العربية الممتد من شرقي بـلاد الشأم الى الفرات[٣] .

ومن المذاهب النصرانية التي تدخل في حدود موضوعنا : المذهب النسطوري والمذهب اليعقوبي ، وهما من المذاهب الشرقية ، أي من المذاهب النصرانية التي ظهرت وانتشرت في الشرق ، ووجدت لها مجالاً وانتشاراً في العراق وفي بـلاد الشأم ومصر والحبشة وجزيرة العرب .

أمـا المذهب النسطوري ، فينسب الى البطريق (نسطوريوس) (نسطور) Nestorius من (جرمانيقية) Germanicia ، وهـي (مرعش) المتوفـى سنة (٤٥٠ م) ، وله رأي ومقالة في طبيعة المسيح . فجعـل للمسيح طبيعتين

---

١ المشرق ، العدد ١٢ ، الجزء الخامس (٣٥٣) ، النصرانيه (١/ ٣٤) .
٢ W. Smith, A Dictionary of the Bible, II, p. 84.
٣ النصرانيه (١/ ١٠٥ وما بعدها) .

(اقنومين) : أقنوم الانسان يسوع ، وأقنوم الله الكلمة ، وذكر ان مريم هي بشر ولدت بشراً هو المسيح الذي هو إلّه من ناحية الأب الإلّه فقط[1] .

وتستند تعـــاليم نسطور وآراؤه الى الجدل الذي أثاره من تقدمه من الآباء في موضوع طبيعة المسيح ، والانشقاق الذي حدث نتيجة لهـــذا الجدل . وأكثر من أثر فيه وكوّن له رأياً في المسيح هو (ديودورس) Diodorus أسقف (طرسوس) Tarsus و (ثيودور المصيصي) (٣٩٣ – ٤٢٨ م) تلميذ (ديودورس) . وفي انطاكية وقف (نسطور) على آراء هذين العالمين ، وكان قد ترهب وسكن هذه المدينة في عام (٤٢٨ م) وتحمس لها وبشر بها بين الناس ، فأثار عليـــه غضب رجال الكنيسة المعارضين لتلك الآراء ، فصاروا يندّدون به . وبما يقولـــه ويبشر به ، وعدّوه ملحداً خارجاً على تعاليم الكنيسة الصحيحة وعلى مبادىء الدين القويم .

ولنشاط (نسطور) في بث هذه الأفكار وعدم تراجعه عنها ، طلب اليـــه المثول أمام مجلس اجتمع فيه كبار رجال الدين لمحاكمته عرف بـ (مجمع أفسوس) انعقد في عيد العنصرة من عام (٤٣١ م)،وبعد محاكمات ومناظرات قرر المجتمعون الحكم بهرطقة هذه الآراء ومخالفتها للمبادىء العامة التي تدين بها الكنيسة ، وبذلك كان الحكم عـــلى نسطور وأتباعه بالضلال والإلحاد وبعزله من أسقفية القسطنطنية حكماً رسمياً . ومعنى ذلك مقاومة القائلين بهذه الآراء واضطهادهم والتضييق عليهم في حكومة لها كنيسة خاصة ترى أنها على الحق وأن ما دونها على عمى وضلال .

وكانت(الرها) Edessa أهم مركز ثقافي للنساطرة ، ومن أهم معاقل الأدب السرياني . أمّها كثير من طلبـــة العلم السريان للتثقف بها ، ولا سيما في عهـــد الأسقف (ايباس) Ibas (٤٣٦ – ٤٥٧ م) الذي انتخب أسقفاً لهذه المدينة بعد وفاة أسقفها (ربولا) Rabbula في عام (٤٣٦ م) . ثم نالت (نصيبين) Nisibis مكانة كبيرة في النسطوريـــة ، خاصة بعـــد وفاة ايباس ، وانتخاب

---

١ المشرق : السنة ١٩٣١ (٦١٥) ، « لا يدع احد مريم أم الله لانها كانت امراة ، ومن المستحيل ان يولد الله من امراة » ، علوم اليونان وســـبل انتقالها الى العرب ، أوليري ، تعريب الدكتور وهيب كامل (ص ٢٥٤) ، شرح الاصول الخمسة ، لقاضي القضاة ، عبد الجبار بن أحمد ، « تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمـــان » ، القاهرة ١٩٦٥ ، (ص ٢٩٢ ، ٣٩٥ وما بعدها) .

(نونوس) Nounus أسقفاً للمدينة ، وكان هذا متأثراً بالآراء البيزنطية كارهاً للنسطورية ، لذلك رأى النساطرة الانتقال عن (الرها) الى أماكن أخرى لا أثر لنفوذ هذا الأسقف عليها ، فكانت (نصيبين) الموقع المختار من بين هذه الأماكن، ونالت الحظوة عند رجالهم ، واحتلت مكانة (الرها) في العلم[1] .

ولكن الأسقف (نونوس) كان أسقفاً واحداً من عدد عديد من رجال الدين الرسميين الذين يمثلون كنيسة الروم ، الكنيسة التي حكمت حكماً رسمياً بهرطقـة (نسطور) ، لذلك كان على النسطورية مواجهة الاضطهاد والمقاومة في أي مكان من الأماكن الخاضعة للروم ، أو التابعـة لكنيستهم ، وللكنائس المعارضة لآراء نسطور . لذلك فكر النساطرة في حمل آرائهم ومعتقداتهم الى بلد أملوا ان يتمتعوا فيه بحريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية ، لمعارضته للانبراطورية البيزنطية وتشجيعه كل حركة مناوئة لها ، ثم لأن له حكومة ذات دين آخر بعيد عن النصرانية ، فهي اذن لا تتدخل في أمور المذاهب النصرانية إلا إذا كانت مشايعـة للروم ، وليست النسطورية من هذه المذاهب .

وقد أظهر (الشاهنشاه) ملك الملوك ، استعداده لحماية النساطرة ومنحهم الحرية الدينية وحريـة التبشير بمذهبهم بين رعاياه ، كما أظهر رغبته في الاستفادة من علمهم ودرايتهم ، فاختارهم للأعمال التي لم يكن فيهـا متخصصون من أتباعه ، وسمح لهم بالتدريس وبتهذيب الناس وبتعليمهم الفلسفة اليونانية ، ولا سيما فلسفة أرسطو والطب،وغدت (سلوقية) Seleucia على نهر دجلة قبالة العاصمة (طيسفون) مركزاً ثقافياً خطيراً ينافس (الرها) و (نصيبين) ، وصار هـذا المركز من أهم معاقل النسطورية والتبشير في العراق وفي سائر أنحاء انبراطورية الفرس .

ومن هؤلاء النساطرة تعلم عرب بلاد العراق وعلى رأسهم أهل الحيرة النسطورية، ومن أهل الحيرة انتقلت الى جزيرة العرب . ولما كانت السريانية هي اللغة الرسمية لهذه الكنيسة ، صارت هذه اللغة بهذه الصفة لغـة نصارى العرب ، بها يرتلون صلواتهم في الكنيسة وبها يكتبون ، وإن كانت بعيـدة عنهم غير مفهومة لدى

---

١ أدي شير (٢/١٣٠) ، المشرق ، ١٩١٠ م (ص ٣٩٠) ،
Socrates Scholasticus, Hist. Eccl., VII, 29-35, O'leary, p. 133, Ency. Relig. Ethi., p. 323.

الأكثرية منهم . لقد كانت على كل حال لغة رجال الدين . وجلّهم من رجال العلم في ذلك الزمن . فهي عندهم لغة للدين وللعلم ، كما كانت اللاتينية لغة للدين والعلم عند الرومان ، والإغريقية لغة للدين والعلم عنـــد اليونان ، والعربية عند المسلمين .

وأنا حين أقول ان النسطورية كانت قد وجدت لها سبيلاً الى أهل الحيرة ، فدخلت بينهم ، فأنا لا أقصد بقولي هذا ان أهل الحيرة كانوا جميعاً على هذا المذهب ، أو انهم كانوا كلهم نصارى . فقد كان جلّ أهل الحيرة على دين أكثر ملوكهم ، أي على الوثنية ، أما الذين اعتنقوا النصرانية ، فهم العباديون ، وبينهم قوم كانوا على مذهب القائلين بالطبيعة الواحـــدة ، أي مذهب اليعاقبة ، وبينهم من كان على مذهب آخر .

وقد تسربت النسطورية الى العربية الشرقية من العراق وايران ، فـدخلت الى (قطر) والى جزر البحرين وعمان واليمامة ومواضع أخرى . وورد في أسماء من حضر المجامع النسطورية اسم اسقف يدعى (اسحاق) اشترك في مجمع النساطرة الذي عقد سنة ٥٧٦ م ، كما ذكر اسم أسقف آخر يدعى (قـوسي) اشترك في مجمع سنة ٦٧٦ م . وقد كانا أسقفين على (هجر)[١] . كذلك وردت أسماء أساقفة من النساطرة تولّوا رعاية شؤون أبنـــاء طائفتهم في جزيرة (دارين) وفي جزيرة (سماهيج) وفي مواضع أخرى من الخليج ، تولى بعضهم أعمـــاله قبيل الإسلام وعند ظهوره ، وتولى بعضهم رعاية شؤون أتباعه في أوائل عهد الإسلام[٢] .

ومن الحيرة انتقلت النسطورية الى اليمامة فالأفلاج فوادي الـــدواسر الى نجران واليمن ، وصلت اليها بالتبشير وبواسطة القوافل التجارية ، فقد كانت بين اليمن والحيرة علاقات تجارية وثيقـــة ، وكانت القوافل التجارية تسلك جملة طرق في تنمية هذه العلاقات وتوثيقها . وقد قوي هذا المذهب ولا شك بعد دخول الفرس الى اليمن ، لما عرف من موقف رجاله من كنيسة الروم ، ولما كان لأصحابـــه من نفوذ في بلاط (الشاهنشاه) ومن صداقته لهم[٣] .

---

١ النصرانية (٧١) .
٢ النصرانية (٧١) .
٣ النصرانية (١/٥٩ وما بعدها) ،
Assemani, Bibl. Orient., 3, 603, Philby, Arabian Highlands, p. 261.

وتعزو التواريخ النسطورية انتشار النصرانية في نجران الى رجل اسمه (حسّان) أو (حنّان) أو (حيّان) ، ذكرت أنه ذهب في أيام (يزدجرد) (٣٩٩ – ٤٢٠ م) الى القسطنطنية للاتجار . فلما أنجز ما ذهب اليه ، عاد الى وطنه سالكاً اليه طريق (الحيرة) ، وهناك اتصل بنصاراها ، ودخل في النصرانية التي استهوته، فلما بلغ نجران مدينته ، نشط فيها بنشر الدعوة بين الناس حتّى دخل فيها كثير منها ومن بقية حمير[1] .

وقد ورد ان البطريق (تيموثيوس) Timotheos الأول (٧٨٠ – ٨٢٣ م) كان قد نصّب أسقفاً نسطورياً على اليمن[2]. وقد سعى الفرس لنشر مذهب النساطرة بين أهل نجران ، كما سعوا في تقوية الصلات بين الحيرة ونجران . واذا علمنا ان الفرس أنفسهم لم يكونوا على دين المسيح ، عرفنا الأهداف السياسية البعيدة التي كانوا يبتغونها من هذا التقارب ومن نشر المذهب النسطوري في اليمن .

وقد بقيت النسطورية قائمة في اليمن في ايام الاسلام ، ففي الأخبار الكنسية ان رئيس البطارقة النساطرة (طيموثاوس) ، نصّب في أواخر القرن الثامن للميلاد أسقفاً لنجران وصنعاء ، اسمه (مار بطرس) . وان أساقفة من النساطرة كانوا في مواضع متعددة من اليمن وفي عدن ، وذلك في القرن الثالث عشر للميلاد[3] .

أما اليعاقبة ، فقد انتشر مذهبهم بين عرب بلاد الشأم والبادية ، وقد اصطدم هذا المذهب بالكنيسة الرسمية للبيزنطيين ، واعتبرته من المذاهب المنشقة الباطلة ، لذلك حاربته الحكومة ، وقاومت رجاله . كما عارضه النساطرة ، لاختلافه معهم في القول بطبيعة المسيح ، وفي أمور أخرى ، وهذا ما حمل النساطرة على الحكم بهرطقة اليعاقبة ، كما حمل هذا الاختلاف اليعاقبة على الحكم بهرطقة النساطرة ، حتّى صار اختلاف الرأي هذا سبباً في وقوع معارك كلامية وجدل طويل عريض بين رجال المذهبين[4] .

واليعاقبة Jacobite church ، ويدعون بـ (المنوفسيتين) Monophysite = Monophystte أيضاً ، أي القائلين بالطبيعة الواحدة ، لقولهم إن للمسيح طبيعة

---

١ E. Sachau, S. 68, Chro. Seert., I, II, p. 330, Nallino, Raccolta, III, p. 123.

٢ O'leary, p. 141, Sachau, S. 68. f.

٣ النصرانية (١/٦٧) .

٤ شرح الاصول الخمسة ، للقاضي عبد الجبار بن احمد (ص ٢٩٢ وما بعدها) .

واحدة وأقنوماً واحداً ، فقيل لهم من أجل ذلك (أصحاب الطبيعة الواحدة) ، هم مذهب من مـــذاهب الكنيسة الشرقية ، نسبوا الى (يعقـــوب البرادعي) Jacabus Baradaeus ويسمى بـ (جيمس) James أيضاً ، المولود في حوالى سنة (٥٠٠) للميلاد في مدينة (الأجمة) Tela = Tella من أعمال (نصيبين) في شرقي (الرها) Edessa والمتوفى سنة ٥٧٨ للميلاد . ولد في أسرة كهنوتية، وتتلمذ لـ (ساويرس) الذي صار رئيساً على بطريركية أنطاكية في عـــام ٥١٤ للميلاد . ثم اضطر الى مغـــادرة انطاكية الى مصر لاختلافه مع رجال الدين في هذه المدينة في طبيعة المسيح ، إذ كان يقول بوجود طبيعة واحدة فيه ، ومنـــه أخذ يعقوب رأيه هذا في المسيح .

وذهب (يعقوب) في حوالى سنة ٥٢٨ للميلاد الى القسطنطنية ، لحمل القيصرة (ثيودورة) Theodora على التأثير في الكنيسة وحملهـــا على الكف عن اضطهاد القائلين برأيه في طبيعة المسيح . وقد مكث في القسطنطنية خمسة عشر عاماً ، وسعى سعياً حثيثاً في نشر مذهبه والتبشير به ، وهذا ما أوقعه في نزاع مع بقيـة رجال الدين هناك لخروجه على تعاليم المجمع الخلقيدوني الذي عين التعاليم الثابتة في طبيعة المسيح .

وكان (يعقوب) أسقفاً على (الرها) Edessa في حوالى سنة (٥٤١ م) . وكان (الحارث بن جبلة) من المقدرين له ، والمحبوبين عنـــده ، لذلك كان ممن توسطوا لدى بلاط (القسطنطنية) للسماح له بالخروج منها ، وللتوفيق بين آرائه وآراء الكنيسة البيزنطية ، كما توسط (المنذر) لدى البيزنطيين للغرض نفسه[١] .

وكان من جملة تلاميذ (يعقوب) والمبشرين بتعاليمه (أحودمة) (أحودمى) الذي اغتيل بأمر كسرى أنو شروان في ٢ آب من سنـــة ٥٧٥ م . وكان من المبشرين النشيطين ، ذهب الى بني تغلب وبشّر بينهم ، وقد عرف هؤلاء عند السريانيين بالأعراب سكنة الخيام ، وأقام بينهم كهاناً ورهباناً ، وبنى لهم ديراً عرف في السريانية بـ (عين قنا) أي (عين الوكر) وديراً آخر بتكريت سمي (دير جلتاني) . وكانت في ايامه أسقفيتان على العرب : أسقفية عرفت بأسقفية

---

١ W Smith, A Dictionary of the Bible, II, p. 328, Devreesse, Patr. d'Antioche, 75, 88, 96, Bury, Later Roman Empire., II, 391.

العرب ، وأسقفية التغلبيين أو (السن) وكرسيها بـ (عاقولا) (عاقول) . وعاقولا هي موضع الكوفة . أما كرسي أسقفية العرب ، فكان في الحيرة [1] .

كذلك كان من تلاميـــذه (جيورجيوس) (جرجيس) و (غريغور) ، وقد تمكنا بنشاطها وتبشيرهما من نشر هذا المذهب في بلاد الشأم وبين الأقباط والأرمن [2] .

وقد بذل (شمعون الأرشامي) Shem'on of Beth Arsham و (مراثا) Muratha جهداً كبيراً في نشر هذا المذهب بين أهل العراق،وصارت (تكريت) القاعدة الكبرى للمذهب اليعقوبي في العراق . بقيت محافظة على هذا المركز في الاسلام [3] .

وقد دخل أكثر الغساسنة في هذا المذهب ، وتعصبوا له ، وطالما توسطوا لدى الروم في سبيل حملهم على الكف عن اضطهادهم والتنكيل بهم . ظلوا مخلصين لهذا المذهب إلى ظهور الاسلام . وقد نعت بعض ملوكهم بنعوت تدل على تنصرهم وتدينهم ، مثل : المحبين للمسيح والمؤمنين . وقد وردت في بعض المخطوطات اشارة إلى كاهن نعت بـ (كاهن ذي العزة والمحب للمسيح البطريق المنذر بن الحارث) ، كما أنعم القياصرة على بعض ملوك الغساسنة بألقاب لا تمنح في العادة إلا لمن كان على دين النصرانية [4] .

وتذكر تواريخ اليعاقبة قصصاً عن بعض هؤلاء الملوك يشير الى ذكائهم وتمسكهم في قواعد هذا المذهب وتعلقهم به ، ودفاعهم عنه ، وافحامهم بذكائهم وبعلمهم أيضاً لخصوم هذا المذهب من أصحاب المذاهب الأخرى ممن أرادوا اقناعهم بالخروج

---

١ ذخيرة الاذهان (٣٠٣/١) .

٢ وللقائلين بالطبيعة الواحدة جملة أسماء ، منها المنوفيستيون والاوطاخيون ، نسبة الى أوطاخي من القائلين بالطبيعة الواحدة ، والديوسقوريين . راجع : أدي شير : تاريخ كلدو وآشور (١٣٢/٢) ، ذخيرة الاذهان (٢٠٨/١) ، النصرانيــــه (٢٨/١ وما بعدها) ، المشرق ، السنة الاولى ، الجزء السادس (٢٤٩) ، خلاصه تاريخ الكنيسة (٢٨٨/١ وما بعدها) ،
Ency. Relig. and Ethics, XII, p. 172, Ency. Brita., 12, p. 860, Burkitt, early Lastern Christianity, 1904.

٣ Araber, I, S. 10

٤ ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان ، تاليف القس بطرس نصري الكلداني (١٣٢/١) ، النصرانية (٣٦/١) ،
O'leary, p. 192.

من المذهب اليعقوبي ونبذه ، مع ميلهم الى التوفيق بين المذاهب ومنع الفرقة بين النصارى ، كالذي ذكروه من مناظرة وقعت بين البطريرك (البطريق) افرام (٥٢٦ — ٥٤٥ م) ، وهو من بطاركة الملكيين والحارث بن جبلة ملك الغساسنة وهو على اليعقوبية ، وقد أفحم فيها الملك الحارث خصمه على ما يدعيه اليعاقبة بذكائه وبقوة بديهته وحجته،وكالذي رووه عن تعنيف المنذر بن الحارث للبطريرك (دوميان) في أثناء زيارته للقسطنطنية ، لتهجمه على اليعاقبة واثارته بهذا الهجوم الفرقة بين النصارى ، وطلبه منه الاتفاق مع (فولا) بطريرك اليعاقبة على التآخي وتوحيد المساعي ، وكالذي ذكروه عن هذا المنذر أيضاً من كتابته الى القيصر (طيباريوس) للتدخل في حمل البطريرك والأساقفة على ايقاف حملاتهم على اليعاقبة ، ولكي يسعى في اطلاق الحرية لجميع النصارى ، وأن يصلي كل واحد منهم أينما شاء وحيثما شاء [1] .

وكان لليعاقبة مشهد مقدس يحجون اليه للتبرك به والنذر له ، هو مشهد القديس (سرجيوس) (سرجيس) في مدينة (سرجيوبوليس) Sergiopolis ، وهي الرصافة . وكان عرب بلاد الشأم اليعاقبة يتيمنون به ، ويضعون صورته مع الصليب على راياتهم أملاً في الفوز في المعارك . والى هذا القديس أشار الشاعر الأخطل بقوله :

لما رأونا والصليب طالعاً ومار سرجيس وموتاً ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعاً خلّوا لنا راذان والمزارعا [2]

مما يدل على أن شهرة هذا القديس ظلت بين النصارى حتى في أيام الاسلام .

وطالما قصد الأعراب كنيسة هذا القديس لتعميد أبنائهم هناك . وقد كانوا يعقدون العقود عند قبره،ويقسمون الايمان عنده ، دلالة على التشديد فيها وصدقهم في الوفاء . وكان أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به ، ويقصدونه للتبرك به ، على عكس نصارى الحيرة الذين امتهنوا القبر في حروبهم مع الغساسنة ، واعتدوا على المدينة . وقد كان نصارى الحيرة على مذهب (نسطور) في الأغلب ،

---

١ المشرق ، السنة الرابعة والثلاثون (١٩٣٦) (٦١ وما بعدها) .
٢ ديوان الاخطل (٣٠٩) ، المشرق ، السنة الرابعة والثلاثون ، (١٩٣٦) ، كانون الثاني ، ٢ (٢٤٧) ، النصرانية (١/٩٩) .

كما كانوا من الوثنيين ، ولذلك لم تكن لسرجيوس في نفوسهم منزلة ومكانة .

وقد أشار المؤرخ (يوسبيوس القيصري) (أويسبيوس) ، الى رأي كان عند بعض نصارى العرب ، خالفوا بـه مذهب الكنيسة إذ قال : « ونحو هذا الوقت قام آخرون في بلاد العرب منادين بتعليم غريب عن الحق . إذ قالوا إن النفس البشرية في الوقت الحاضر تموت وتبيد مع الجسد . ولكنها يتجددان معاً يوم وقت القيامة »[1] . وليس في هذا الكلام كما نرى ، أية اشارة الى أولئك النصارى العرب ، ولا الى مواضع سكنهم . وكل ما يفهم منه ان خلافهم وقع في زمن قريب من زمنه ، وانه كان في موضوع الروح .

وقد جودل القائلون بهذا الرأي ، ونوقشوا في مجمع انعقد سنة (٢٤٦ م) ، عرف بـ (مجمع العربية) Council of Arabia [2] .

وقد كان لـ (بولس السميساطي) Paul of Samosata ، رأي في المسيح ، حتى قيل انه رأى نفسه في منزلة المسيح ، وقد حكمت الكنيسة عليه بالهرطقة ، وحرمته ، وأعلنت خلعه عن أسقفية (أنطاكية) ، وكان من المقربين الى الملكة (الزبّاء) ، لهذا لم تنفذ ما جاء في حكم الكنيسة عليه[3] .

وذكر أهل الأخبار أن من بين فرق النصرانية ، أو الفرق التي هي بين بين : بين النصرانية والصابئة دين يقال له (الركوسية) ، وذكروا أن الرسول قال لحاتم الطائي : إنك من أهل دين يقال لهم الركوسية[4] . ولكني أشك في صحة هذا الحديث ، إذ كانت وفاة حاتم قبل مبعث الرسول ، ولم يثبت أنه التقى به .

وهناك شيع عقائدها مزيج من اليهودية والنصرانية . وجدت سبيلها في جزيرة العرب ، مثل (الابيونيين) Ebionites و (الناصريين) Zazarenes و (الكسائيين) Elkesaites [5] .

---

١ تاريخ الكنيسة ، ليوسابيوس القيصري ، ترجمة القس مرقس داوود (ص ٢٩٢ وما بعدها) . Eusebius, 6, 37.

٢ A Religious Encyclopaedia, Vol., I, p. 122.

٣ Runciman, The Mediaeval Maniche, 19. ff.

٤ أسد الغابة (٣/٣٩٢) ، المشرق ، السنة ١٩٠٣ (ص ٥٧٤ ، ٧٧٧ ، ٩٢٨) ، ١٩٠٥ ، (ص ٥٠٤) ، ١٩٠٧ م (ص ١١٢٠) ، ١٩٠٨ م ، (ص ٤٨٠) ، ١٩٣٧ ، (ص ٧٣ وما بعدها) ، اللسان (٧/٤٠٥) ، تاج العروس (٤/١٦٣) ، (ركس)

٥ النصرانية (١/١١١ وما بعدها) .

أما (الأبيونيون) Ebionites ، فجماعة من قدماء اليهود المتنصرين عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التي تعني (الفقراء) ، لا يعرف عن كيفية ظهورهم ونشوء عقيدتهم على وجه صحيح أكيد . وكل ما يمكن أن يقال عن معتقداتها إنها مزيج من اليهودية والنصرانية ، وإنها نصرانية بنيت على أسس ودعائم يهودية، فهي نصرانية يهودية في وقت واحد .

وقد ذهب بعض قدماء المؤرخين الى انهم انما دعوا بهذه التسمية نسبة الى مؤسس هذا المذهب المسمى (ابيون) Ebion . غير ان من الصعب اثبات صحة هذا الرأي . وهم يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون ، وينكرون رأي (بولس) الرسول في المسيح ، ويحافظون على حرمة يوم السبت Sabbath وحرمة يوم الرب . وقد ذهب بعض قدماء من تحدث عنهم الى انهم فرقتان بالقياس الى مولد الابن المسيح من الأم العذراء[١] . ويعتقد أكثرهم ان المسيح بشر مثلنا، امتاز على غيره بالنبوة ، وبأنه رسول الله ، أرسله الى الناس أجمعين . فهو رسوله ولسانه الناطق برسالته للعالمين . وهو نبي كبقية من سبقه من الأنبياء المرسلين . وقد آمن بعض منهم بعقيدة (العذراء) وولادتها للمسيح من غير اتصال ببشر ، غير ان بعضاً آخر منهم ، آمن بأن المسيح ابن مريم من (يوسف) فهو بشر تماماً ، وأنكر الصلب المعروف ، وذهب الى ان من صلب ، كان غير المسيح، وقد شبّه على من صلبه ، فظن انه المسيح حقاً . ورجعوا الى انجيل متى بالعبرانية (The Gospel of Mathew) وأنكروا رسالة (باولس) Paul على النحو المعروف عند بقية النصارى[٢] .

وأما (الناصريين) (Nazarenes) ، فهم فرقة معارفنا عن أصلها وعن كيفية ظهورها قليلة كذلك . وأكثر ما نعرفه عنها مستمد مما كتبه عنها (أفيفانيوس) (Epiphanius) و (جيروم) (Jerome) . وقد أدخلهم (أفيفانيوس) في جملة (الهراطقة) (Heratics) ، وذكر انهم كانوا يقرأون النسخة العبرانية لانجيل متى ، the Gospel of Mathew وانهم ظهروا في غور الأردن .

وقد اعترفوا بألوهية المسيح (ابن الله) ، قائلين انه ولد من العذراء مريم،

---

١ Ency. Brita., Vol., 7, p. 881, (Ebionites), Hastings, Ency. Reli. Ethic., 3, p. 574.

٢ Kenneth Scott Latourette, A History of Christianity, p. 122.

واعترفوا برسالة القديس (بولس) ؛ كما حافظوا على ناموس موسى (Mosaic Law) (شريعة موسى) ، وهم يرون ان ميلاد المسيـــح شيء خارق للعادة ، وانه (المولود الأول من الروح القدس)[١] ، وان تعاليمه ، هـــي متممة للرسالات السابقة ومكملة لها . وقد راعوا حرمة السبت ، وما يختص بالأكل وبالختان[٢] .

وأما (الكسائيون) (Elkesaites) ، ففرقة يظهر أنها ظهرت في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد في وادي الأردن ، ومعناهـــا اللغوي (القوى الخفية) ، في لغة بني إرم ، و (المتخفـون) ، أو المتسترون تحت الكساء في لغتنا . وقد نبعت من اليهودية . وهي تنسب الى رجل اسمه (Elkesai) (الكسائي) صاحب كتاب نسب اليه ، ويحافظ الكسائيون على الختان وعلى حرمة السبت وعلى سائر أحكام الشريعة الموسوية ، وينسب اليه أنه كان يرى تحريم أكل اللحوم . والظاهر أن ذلك من وضع المستخفين بتعاليمه . وإنما كان يحرم أكل ذبائح الوثنيين وما أهلَّ للأوثان . وقد حتم على أتباعه التوجه الى بيت المقدس في صلواتهـم ، ومنع التوجه الى الشرق . وهو يعتقد بوجود إلـه واحد ، وباليوم الآخر ، وبملائكته. ويرى أن الشياطين هي النجوم الكائنة في المناطق الشمالية من السماء[٣] .

ومن أهم تعاليم (الكسائيين) الإغتسال ، أو ما يقال له (التعميد) (Babtism) وذلك بالاغتسال في النهر أو في البئر لغسل الأدران من الأجسام وتطهيرهـــا . ويسمي المغتسلُ (باسم الله العلي العظيم) (بسم الله الرحمن الرحيم) ، ويستعمل الغسل في الشفـــاء من الآفات كذلك ، مثل عض الكلب المكلوب أو الحيوانات المؤذيـــة واخراج الأرواح الشريرة من الجسم . ولذلك يمكن تسمية هـــذه الفرقة بالمغتسلة ، لجعلها الغسل من أهم أركان الدين .

وللخبز والملح أهمية خاصة لدى أصحاب هذا المذهب ، فهما بمثابة العهد عندهم. وهم في ذلك على شاكلة يهود ، حيث يتمثل العهد (Convenant) عندهم بالملح والخبز[٤] . ويقسمون بهما الايمان . وللأيمان عندهم قدسية كبيرة ، فلا يجوز لأي

---

١ Hastings, Ency. Relig. Eathl., 5, p. 141, Ency. Brit., 16, p. 178.

٢ History of Christianity, by, Latoure, p. 121.

٣ Hastings, 5, p. 263.

٤ اللاويون ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٣ ، العدد ، الاصحاح الثامن عشر ، الاية ١٢ ، أخبار الايام الثاني ، الاصحاح ١٣ ، الاية ٦ .

إنسان كان أن يحنث بيمينه ، وأن يخالف ما أقسم عليه ، وإلا كان عقابه عند الله عظيماً .

والعرب من الذين يقيمون للقسم بالخبز والملح وزناً عظيماً عندهم . فكانوا يحلفون بهما كما يحلفون بالله وبأصنامهم . ولا يجوز الحلف كذباً بهما . ولا زال الناس يقسمون بالخبز والملح قسمهم بالمقدسات .

وقريب من مذهب (الكسائين) في الاغتسال ما يذهب اليه الصابئون فيه . فللغسل لتطهير الجسم من الآثام الظاهرة والباطنة ومن الأرواح الشريرة مقام كبير عند الصابئة ، ولهذا نراهم يختارون السكنى عند الآبار والأنهار .

ووجدت فرقة عرفت بـ (الفطائريين) (Collyridiens) بالغ أصحابها في عبادة مريم وفي تأليهها ، وكانوا يقدمون لها نوعاً من القرابين أخصها أقراص العجين والفطائر ، لذلك عرفوا بالفطائريين . وقد ذكرهم (أفيفانيوس) في كتاب الهرطقات[1] .

وعلى عكس هؤلاء كان من دعوا بـ (Antidicomariantes) ، وهم الذين أنكروا على مريم دوامها في التبتل ، فسمّوا لذلك بالمعادين لمريم[2] .

وذكر أن فرعاً كان من الأريوسية ، أي من أتباع (أريوس) ، كان معروفاً بين العرب أطلق عليهم القديس (ايلاريوس) اسم (أقاقيين) نسبة الى (أقاقيوس) . كانوا يقولون إن المسيح ليس هو ابن الله ، لأن من قال ذلك جعل لله زوجة[3] .

وقد تحدث أهل الأخبار عن قوم قالوا لهم (الأريسيون) . ذكروا أنهم « فلاحو السواد الذين لا كتاب لهم . وقيل الاريسيون : قوم من المجوس ، لا يعبدون النار ، ويزعمون أنهم على دين ابراهيم ... وقيل إنهم أتباع عبدالله ابن أريس رجل كان في الزمان الأول قتلوا نبياً بعثه الله اليهم » ، « وقال بعضهم في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية »[4] .

---

١ النصرانية (١/١١٣) .
٢ النصرانية (١/١١٣) .
٣ النصرانية (١/١١٣) .
٤ تاج العروس (٤/٩٦) ، (ارس) .

الفصل الحادي والثمانون

التنظيم الديني

وكان لنصارى العرب تنظيمهم الخاص بدور العبادة وبالتعليم والإرشاد ، وهو تنظيم أخذ من تنظيم الكنيسة العام ، ومن التقاليد التي سار عليها آباء الكنيسة منذ أوائل ايام النصرانية حتى صارت قوانين عامة. فللكنيسة درجات ورتب، وللمشرفين عليها منازل وسلالم ، وقد اقتبست هذه التنظيمات من الأوضاع السياسية والاجتماعية التي عاشت فيها النصرانية منذ يوم ولادتها ، والتي وضعها رؤساؤها لنشر الديانة ولتنظيم شؤون الرعية ، حتى صارت الكنيسة وكأنها حكومة من الحكومات الزمنية، لها رئيس أعلى ، وتحته جماعة من الموظفين ، لها ملابس خاصة تتناسب مع درجاتهم ومنازلهم في مراتب الحكومة ، ولهم معابد وبيوت وأوقاف وسيطرة على أتباعهم، جاوزت أحياناً سيطرة الحكومات .

ومن الألفاظ التي لها علاقة بالدرجات والرتب الدينية عند النصارى لفظة (البَطْرك) و (البطريق) . وقد وردت لفظة (البطريق) في شعر ينسب إلى (أمية بن أبي الصلت)[1] .

---

١ من كل بطريق لبطريق نقي الوجه واضح — تاج العروس (٢٩٦/٦) ، النصرانية وادابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩١) ، تاج العروس (١١١/٧) (الطبعة الاولى بمصر ، مطبعة مصر) ، اللسان (٢١٢/١٠ ، ٤٠١) ، (دار صادر) « بيروت ١٩٥٦ » ، البستان (١٥٧/١١) ، « بيروت ١٩٢٧ » ، محيط المحيط (١٠٢/١) « بيروت ١٨٦٧ م » ، مروج (١٩٩/٢) ، صبح الاعشى (٤٧٢/٥) ، (القاهرة ١٩١٥ م) « المطبعة الاميرية » .

وقد ذهب علماء اللغة الى ان (البطرك) ، هو مقدم النصارى ، وهو في معنى (البطريق) أيضاً . وقالوا أيضاً إن البطريق مقدم جيش الروم . و (البطرك) من أصل يوناني هو «Patriarkhis» (بتريارخيس) ، ومعناه (أبو الآباء) ، وذلك لأنه الأب الأول والأعلى للرعية ، فهو أب الآباء ورئيس رجال الدين . أما لفظة البطريق ، فإنها من أصل لاتيني ، هو Patrikios ، وهو يعني وظيفة حكومية وتعني درجة (قائد) في المملكة البيزنطية [1] . فلا علاقة لها اذن بالتنظيم الديني للنصرانية .

وبين البطريق (البطرك) والأسقف منزلة يقال لشاغلها (المطران) ، وقد عرف بأنه دون البطرك وفوق الأسقف . وقد وسمه (القلقشندي) ، بأنه القاضي الذي يفصل الخصومات بين النصارى [2] . واللفظة من الألفاظ المعربة عن اليونانية ، أخذت من (مترووبوليتيس) « Mitropolitis » أي مختص بالعاصمة ، أو المدينة [3] . وقد ذكر علماء اللغة ان لفظة (المطران) ، ليست بعربية محضة [4] .

والأسقف من الألفاظ التي تدل على منزلة دينية عند النصارى ، وقد وردت في كتب الحديث . وقد ذكر بعض علماء اللغة انه انما سمي أسقف النصارى أسقفاً لأنه يتخاشع [5] . واللفظة من الألفاظ المعربة المأخوذة عن اليونانية، فهي(ابسكوبوس) « Episkopos » في الإغريقية ، وقد نقلت منها إلى السريانية ، ثم نقلت منها الى العربية [6] . وقد وردت في كتب التواريخ والسير ، حيث ورد في شروط الصلح التي عقدها الرسول مع أهل نجران ، شرط هو : « لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته » .

---

١ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩٠ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٥) .

٢ صبح الاعشى (٤٧٢/٥) .

٣ محيط المحيط (١٩٨٧/٢) ، غرائب اللغة (ص ٢٦٩) .

٤ تاج العروس (٥٤٦/٣) ، « مطر » ، النصرانية (١٩١) ، البلدان (١٢٢/٤) ، « ديارات الاساقفة » .

٥ اللسان (٥٦/١١) ، البلدان (١٢٢/٤) ، تاج العروس (١٤١/٦) ، صبح الاعشى (٤٧٢/٥) ، مقدمة ابن خلدون (٢٣٤) ، تاريخ ابن خلدون (٢٧ ، القسم الاول ص ٢٩٧) ، اللسان (١٥٦/٩) « صادر » .

٦ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩١) ، غرائب اللغه (ص ٢٥٢) ، محيط المحيط (٩٧٠/١) ، البستان (١١١/١) ، النهاية في غريب الحديث (٢٣٧/٤) .

والقس من الألفاظ الشائعة بين النصارى ، ولا تزال مستعملة حتى الآن . ويقال لها (قسيس) في الوقت الحاضر أيضاً. وهي من أصل آرامي هو « Gachicho » ومعناه ، كاهن وشيخ[1] . وقد جمعها (أمية بن أبي الصلت) على (قساقسة)[2]. وذكر بعض علماء اللغة أن « القس والقسيس العالم العابد من رؤوس النصارى » وأن « أصل القس تتبع الشي وطلبه بالليل . يقال تقسست أصواتهم بالليل ، أي تتبعتها »[3] . وقد وردت لفظة (قسيسين) في القرآن الكريم : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون »[4] . ويدل ذلك على أن موقف النصارى تجاه الاسلام كان أكثر مودة من موقف يهود . وقد نسب ذلك الى القسيسين والرهبان .

وترد لفظة (شماس) في جملة الألفاظ التي لها معان دينية عند نصارى الجاهلية. وهي من الألفاظ الحيّة التي لا تزال تستعمل في هذا اليوم أيضاً. وتعد من الألفاظ المعربة عن السريانية . وهي « Chamocho » في الأصل ، وتعني خادم ، ومنها البيعة . فهي اذن ليست من الوظائف الدينية الكبيرة ، وإنما هي من المراتب الثانوية في الكنيسة[5] . وقد ذكر بعض العلماء بأن الشماس يحلق وسط رأسه ويجعل شعره من جوانب رأسه على شكل دائرة ، وهو الذي يكون مسؤولاً عن الكنيسة ، ويكون مساعداً للقسيس في أداء واجباته الدينية ، وفي تقديس القداس أيام الآحاد والأعياد . يعمل كل ذلك للتعبد ، وليس لأخذ المال والتكسب[6] .

---

١ غرائب اللغه (ص ٢٠١) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩٢) .

٢ لو كان منفلت كانت قساقسة يحييهم الله في أيديهم الزبر

تاج (٢٠٧/٤) .

٣ تاج العروس (٢١٦/٤) ، محيط المحيط (١٢٢١/١) ، تاريخ ابن خلدون (ح ٢ قسم ١ ص ٢٩٧) .

المفردات ، للاصفهاني (ص ٤١٢) ، اللسان (١٧٤/٦) « صادر » صبح الاعشى (٤٧٢/٥) ، مقدمة ابن خلدون (ص ٢٣٣) .

٤ المائدة ، الاية ٨٥ ، أسباب النزول (١٥٢) ، تفسير الطبري (٢/٧) .

٥ النصرانية وادابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩٣) ، غرائب اللغة (ص ١٩١) .

٦ اللسان (١١٤/٦) « صادر » محيط المحيط (١٢٢١/١) ، صبح الاعشى (٥/ ٤٧٢) ، ابن خلدون (٢٩ ، القسم الاول ، ص ٢٩٧) ، البستان (١٢٥٩/١) .

وورد في كتاب رسول الله الى سادة نجران : « لا يغير أسقف عن سقيفاه، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا واقف عن وقفانيته »[1] . ويظهر من هذا الكتاب ان الواقف منزلة من المنازل الدينية التي كانت في مدينة نجران . والظاهر انها تعني الواقف على أمور الكنيسة ، أي الأمور الادارية والمالية والمشرف على أوقافها وأملاكها . فهو في الواقع مسؤول اداري ، اختصاصه الاشراف على الأمور المتعلقة بسير ادارة الكنيسة وأموالها . إذ لا يعقل ان يكون الواقف بمعنى خادم البيعة الذي يقوم بالخدمة بمعنى التنظيف والأعمال البسيطة الأخرى ، إذ لا يعقل النص على مثل هذه الدرجة في كتاب صلح الرسول مع سادة نجران . وقد ذكر بعض علماء اللغة : « الواقف خادم البيعة ، لأنه وقف نفسه على خدمتها »[2] . ولا يعني هذا التفسير بالضرورة الخدمة على النحو المفهوم من الخدمة في الاصطلاح المتعارف. فقد كان الملوك والسادات يلقبون أنفسهم بـ (خادم الكنيسة) و (خادم المعبد) ، أي بالمعنى المجازي . ولا يكون خادماً صارفاً وقته كله في تنظيف الكنيسة وفي القيام بالأعمال التي يقوم بها الخادم الاعتيادي .

وهناك لفظة أخرى لها علاقة بالكنيسة وبالبيعة وبالنواحي الادارية منها ، هي لفظة (الوافه) و (الواقه) . وقد عرفوا صاحبها بـ (قيم البيعة التي فيها صليب النصارى) ، وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (الواهف) ، حيث قالوا : « الواهف سادن البيعة التي فيها صليبهم وقيمها ، كالوافه وعمَلُها الوهافة » ، والوهفية والهُفّية . والظاهر انها كلها في الأصل شيء واحد ، وانما اختلف علماء اللغة في ضبط الكلمة ، فوقع من ثم هذا الاختلاف بينهم[3] . فالوظيفة اذن ، هي بمنزلة الخازن القيم على شؤون الصليب ، يحفظه من السرقة ، ويضعه في خزانة أمينة ، فإذا حانت أوقات العبادة وضعه في موضعه . فالصليب ثمين، وفيه ذهب

١ ابن سعد ، الطبقات (٣٥٨/١) « طبعة صادر » ، « لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا وافه من وفاهيته » ، النهاية في غريب الحديث (٢٣٧/٤) ، « واقه من وقاهيته » ، البلاذري ، فتوح (٧٢) ، (صلح نجران) ، اللسان (٤٥٩/١٧) ، تاج العروس (٤٢١/٩) ، الفائق (٣١٧/٢) ، النهايه (٢٤٠/٤) .

٢ تاج (٢٦٩/٦) ، النصرانية وادابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩٣) اللسان (٣٦٠/٩) ، « صادر » .

٣ تاج (٣٧٣/٦) ، (٤٢١/٩) ، المخصص (١٠٠/١٣) ، اللسان (٥٦١/١٣) « صادر » ،

في الغالب ، لذلك يكون هدفاً للسراق[1] .

ويلاحظ أن علماء الحديث والتأريخ والسير ، ليسوا على اتفاق فيما بينهم في تدوين نص كتاب الصلح الذي أعطاه الرسول لأهل نجران ، إذ تراهم يختلفون في ضبط نصه : وفي جملة ما اختلفوا فيه جملة : « ولا واقه من وقاهيته » ، فقد كتبوها بصور شتى كما رأيت ، كما كتبوا النص بأشكال متباينة ، مما يدل على أن الرواة قد اعتمدوا على نسخ متعددة للكتاب ، وعلى أن أهل نجران كانوا قد نسخوا منه نسخاً ، تحرفت نصوصها بالاستنساخ ، لعدم تمكن الناسخ من ضبط العبارات ضبطاً صحيحاً . فلما دوّن العلماء صورة النص تباينوا في تدوينه ، وأوجدوا لهم تفاسير للفظة (واقف) و (وافه) و (واقه) ، وهي لفظة واحدة في الأصل ، قرأها النساخ ثلاث قراءات ، فظهرت وكأنها ألفاظ مختلفة . وحاروا في تعليل المعنى ، فقال بعضهم الوافه : قيم البيعة بلغة أهل الجزيرة ، وقال بعض آخر بلغة أهل الحيرة ، وقال بعض : كلها في معنى واحد[2] .

وهناك مصطلحات دينية أخرى استعملها النصارى للدلالة على درجات رجال دينهم ، مثل (بابا)،وهي كلمة (رومية) وهو أعلى مرجع في نظر النصارى (الكاثوليك)[3] ، و (والجاثليق) ، وهو رئيس أساقفة بلد ما ، والأعلى مقاماً بينهم ، وقد أطلقت اللفظة على رئيس نصارى بغداد في العهد العباسي[4] ، وهي من أصل يوناني هو (كاثوليكوس) Katholikos ، ومعناه عام[5] .

والساعي من الألفاظ التي تتناول المنازل والدرجات عند النصارى ، وتشمل اليهود أيضاً . ويقصد بها الرئيس المتولي لشؤون اليهود أو النصارى، فلا يصدرون رأياً إلا بعد استشارته ، ولا يقضون أمراً دونه . وقد ورد في حديث حذيفة في الأمانة : « إن كان يهودياً او نصرانياً ليردنه على ساعيه »[6].

---

١ النصرانية وادابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ١٩٤) .
٢ اللسان (١٧/٤٥٩) ، تاج العروس (٩/٤٢١) . النهاية (٤/٢٤٠) .
٣ صبح الاعشى (٥/٤٧٢) ، تاريخ ابن خلدون (ح ٢ القسم الاول ، ص ٢٩٧) ، مقدمة ابن خلدون (ص ٢٣٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
٤ تاج العروس (٦/٣٠٥) ، صبح الاعشى (٥/٤٧٢) ، محيط المحيط (١/٢١٤)، البستان (١/٣٠٩) .
٥ غرائب اللغة (ص ٢٥٦) .
٦ تاج العروس (١٠/١٧٨) « سعى » ، اللسان (١٤/٣٨٧) ، محيط المحيط (١/٩٦٠) ، النصرانية (١٩٢) .

ولفظة (بابا) وما بعدها ، هي من الألفاظ التي شاع استعمالها في العربية في الاسلام ، وليس لدينا ما يفيد استعمالها بين الجاهليين .

وذكر علماء اللغة أن من الألفاظ المعروفة بين النصارى لفظة (العسطوس) ، ويراد بها القائم بأمور الدين ، وهو رئيس النصارى[1] .

أما (الراهب) ، فهو المتبتل المنقطع الى العبادة . وعمله هو الرهبانية . وقد ذكر بعض علماء اللغة ان الرهبانية غلوّ في تحمّل التعبد من فرط الرهبة[2] . وقد ذكرت الرهبانية في القرآن الكريم[3] ، وذكرت في الحديث . وقد نهى عنها الاسلام : « لا رهبانية في الاسلام » . وقد ندد القرآن الكريم في كثير من الأحبار والرهبان ، فورد : « إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل »[4] . ويظهر من ذلك ان جماعة منهم كانت تتصرف بأموال الناس التي تقدم إلى الأديرة والبيع ، فيعيشون منها عيشة مترفة ، لا تتفق مع ما ينادون به من التقشف والزهد والعبادة . كما ان منهم من عاش عيشة رفيهة وبطر ، فتكبر عن الناس وترفع ، حتى جعلوا أتباعهم يحيطونهم بهالة من التقديس والتعظيم ، الى درجة صيرتهم أرباباً على هذه الأرض . فتقربوا اليهم وقدسوهم قدسية لا تليق إلا للخالق . « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله »[5] . ذلك انهم كانوا يحلّون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرّمون ما أحل الله لهم فيحرمونه . « أما انهم لم يكونوا يصومون لهم ولا يصلون لهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلوه واذا حرموا عليهم شيئاً أحله الله لهم حرموه ، فتلك

---

١ تاج العروس (٤/١٩٢) ، اللسان (٦/١٤١) ، محيط المحيط (١/١٣٩٦) .

٢ المفردات ، للاصفهاني (ص ٢٠٣) ، اللسان (حـ ١/٤٣٧) « صادر » القاموس (١/٧٦) ، تاج العروس (١/٢٨١) ، الصحاح ، للجوهري (١/١٤٠) .

٣ المائدة ، الاية ٨٢ ، التوبة ، الاية ٣١ ، ٣٤ ، سورة الحديد ، الرقم ٥٧ ، الايه ٢٧ ، مجمع البيان (٧/١٥٨) ، تفسير الفخر الرازي (١٢/٦٦ وما بعدها) ، روح المعاني (٦/٨ وما بعدها) ، النهاية ، لابن الاثير (٢/١٢٠) .

٤ التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٣٤ ، مجمع البيان (١٠/٤٨) . تفسير الطبري (٧/٨ وما بعدها) ، تفسير الخازن (٧/٢٣٣ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (٤/١٤١ وما بعدها) ، المقريزي ، السلوك من معرفة سير الملوك (١/١٨٢) ، (دار الكتب المصرية ١٩٣٦) ، السيوطي ، الدر المنثور (١٠/٧٥) .

٥ التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٣١ ، جامع البيان (١٠/٨٠) ، الكشاف (٢/٣١) ، روح المعاني (١٠/٧٥) ، تفسير الخازن (٢/٢١٦) .

كانت ربوبيتهم »[1] . وكانوا يطيعونهم طاعة عمياء ، ويأخذون عنهم، ويقدسونهم، ويقبّلون أيديهم ولا يعصون أمراً لهم . وذكر ان (عدي بن حاتم) الطائي ، قال لرسول الله لما سمعه يقرأ : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» ، « يا رسول الله ! إنا لسنا نعبدهم . فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله ، فتحلونه ! قال : قلت بلى . قال فتلك عبادتهم »[2] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن من الرهبان من بالغ في الترهب وفي التزهد ، فخصى نفسه ووضع السلاسل في عنقه أو في يديه أو رجليه ليحبس نفسه ، وامتنع عن المآكل والأطايب ، مكتفياً بقليل من الماء وبشيء من الخبز الخشن ، وأن منهم من امتنع عن الكلام وصام معظم أوقاته ، وابتعد عن الناس متخذاً من الكهوف والجبال والمواضع النائية الخالية أماكن للتأمل والتعبد . وذلك كما يظهر من نهي الرسول عن الرهبنة والرهبانية ، وحمل الاسلام عليها . لأنها تبعد الناس عما أحل الله وقد عوض الاسلام عنها بالجهاد في سبيل الله[3] .

ومن عادات الرهبان وتقاليدهم التي وقف عليها أهل الجاهلية ، الامتناع عن أكل اللحوم والودك ، أبداً أو أمداً ، وحبس النفس في الأديرة والصوامع ، والكهوف ، والاقتصاد على أكل الصعب من الطعام والخشن من الملبس ، ولبس السواد والمسوح . وهي عادة انتقلت الى الأحناف أيضاً والى الزهّاد من الجاهليين الذين نظروا نظرة زهد وتقشف الى هذه الحياة[4] . كما كانوا لا يهتمون بشعورهم فكانوا يطلقونها ولا يعتنون بها ولذلك كانت شعورهم شعثاً ، وعبّر عن الراهب

---

١ تفسير الطبري (١٠/٨٠ وما بعدها) ، تفسير أبى السعود (٥/١٤٢) ، تفسير الطبرسي (٥/٢٢) .

٢ تفسير الطبري (١٠/٨٠ وما بعدها) ، « بولاق » .

٣ النهاية في غريب الحديث ، لابن الاثير (ص ١٦٣) (٢/١٢٠) « المطبعة الخيرية » ، اللسان (١/٤٣٧ وما بعدها) ، تاج العروس (١/٢٨٠ وما بعدها) ، القاموس المحيط (١/٧٦) ، محيط المحيط (١/٨٠٦) ، مجمع البيان (٧/١٥٨) ، (٦/١٧٦) ، جامع البيان (٢٧/٢٣٨) ، (١٠/١١٤ ، ١١٧) ، الكشاف ، للزمخشري (٤/٦٩) . (٢/٣١) ، (١/٤٣) ، روح المعاني (٢٧/١٦٥) ، (١٠/٧٥) ، (٧/٣) ، الدر المنثور (١٠/٧٥) ، صحيح مسلم (٨/٢٢٩) « كتاب الزهد » ، اللسان (١/٤٣٧) « صادر » .

٤ تفسير الطبري (٧/٨) « الطبعة الثانية ١٩٥٦ م » ، تفسير أبي السعود ، (٤/١٤١ وما بعدها) ، تفسير الرازي (١٢/٦٧ وما بعدها) .

بالأشعث ، لأنه كان يطلق شعر رأسه ولا يحلقه ولا يعتني به[1] .

ومن الرهبان من ساح في الأرض ، فطاف بلاد العرب وأماكن أخرى ، وهام على وجهه في البوادي وبين القبائل ، لا يهمه ما سيلاقيه من أخطار ومكاره ، ومنهم من ابتنى له بناءً في الفيافي وفي الأماكن النائية ، واحتفر الآبار وحرث البقول ، وعاش عيشة جماعية ، حيث يعاون بعضهم بعضاً في تمشية أمور الدير الذي يعيشون فيه[2] . ومنهم من عاش في قلل الجبال ، بعيداً عن المارة والناس . قال الشاعر :

لو عاينت رهبان دير في القلل لانحدر الرهبان يمشي ونزل[3]

وقد وقف بعض أهل الجاهلية على أخبار هؤلاء الرهبان وعرفوا بعض الشيء عنهم ، وبهم تأثر بعض الحنفاء على ما يظهر فأخذوا عنهم عادة التحنث والتعبد والانزواء والانطواء في الكهوف والمغاور والأماكن النائية البعيدة للتنسك والتعبد مبتعدين بذلك عن الناس منصرفين الى التأمل والتفكر في خلق هذا الكون دون أن يدخلوا النصرانية .

وقد نهى الرسول بعض الصحابة مثل (عثمان بن مظعون)،وهو من النصارى في الأصل من تقليد الرهبان في الإخصاء وفي الامتناع عن الزواج ومن التشدد في أمور أحلها الله للناس[4] . ويظهر أن هذا التشدد إنما جاء اليه وإلى أمثاله من وقوفهم على حياة الرهبان وعلى رأيهم وفلسفتهم بالنسبة لهذه الحياة . وفي حق هؤلاء نزلت الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم .

---

١ تاج العروس (١/٦٣٨) .

٢ تفسير الطبري (٢٧/١٢٤) ، روح المعاني (٦/٨ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٧/٨ وما بعدها) ، تفسير الخازن (٧/٢٣٣ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (٤/١٤١ وما بعدها) .

٣ تفسير الطبري (٧/٤) .
لو أبصرت رهبان دير في الجبل لانحدر الرهبان يسعى ويصل
تفسير القرطبي ، الجامع (٦/٢٥٨) .

٤ الدر المنثور (٢/٣٠٧) ، مجمع البيان في تفسير القرآن (٧/٦ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٦/٢٦٠ وما بعدها) ، مجمع البيان (٢٧/١٥٨) ، (طبعة دار الفكر . بيروت) ، الدر المنثور ، للسيوطي (٢/٣٠٧) ، روح المعاني (٧/٣) ، (٢٧/١٦٥) .

ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[1] . وذكر أن الرسول لما سمع بابتعاد (عثمان) من أهله ، دعاه ، فنهاه عن ذلك . ثم قال : « ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ! ألا اني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عن سنّتي ، فليس مني . فنزلة الآية : يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا . يقول لعثمان لا تجب نفسك. فإن هذا هو الاعتداء»[2].

وورد في الحديث : « لا صرورة في الإسلام » ، والصرورة التبتل وترك النكاح ، أي ليس ينبغي لأحد أن يقول لا أتزوج ، لأن هذا ليس من أخلاق المسلمين ، بل هو من فعل الرهبان . وهو معروف في كلام العرب . ومنه قول النابغة :

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الإله صرورة متعبد

يعني الراهب الذي ترك النساء[3] .

وقد أشير الى الرهبان في شعر امرىء القيس ، إذ أشار فيه الى منارة الراهب التي يمسي بها يتبتل فيها الى الله ، وعنده مصباح يستنير بنوره[4] . كما أشار فيه اليه وهو في صومعته يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا[5]، دلالة على تهجده وتعبده في وقت يكون الناس فيه نياماً . كما أشير اليهم في شعر شعراء جاهليين آخرين مثل (النابغة الذبياني) ، الذي أشار الى ركوع الراهب يدعو ربه فيه ويتوسل اليه[6] . كما أشار الى موقف الراهب من رؤية امرأة جميلة ، وكيف سيرنو اليها

---

١ المائدة ، الاية ٨٧ .

٢ تفسير الطبري (٦/٧) ، روح المعاني (٧/٧) .

٣ تاج العروس (٣/٣٣١) ، (صرر) .

٤ تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
النصرانية (الجزء الثاني ، القسم الاول ، ص ١٧٥) .

٥ كأنه راهب في رأس صومعة يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا
النصرانية (ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣٩٢) .

٦ سيبلغ عذرا أو نجاحا من امرىء الى ربه رب البرية راكع
دائرة المعارف الاسلامية « الترجمة العربية » (٩/١٠) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الثاني (ص ٣٩٤) .

حتى وان كان راهباً اشمط[1] . وقد أشار الى (ثوبي راهب الدير) والى الحلف بثوبيه[2] .

وورد في الشعر ما يفيد بانقطاع الرهبان في الأماكن الصعبة القصيّة مثل قلل الجبال وذراها ، حيث لا يأتيهم الناس ، فيعيشون في خلوة وانقطاع عن البشر[3]. ومن الأماكن التي اشتهرت بوجود الرهبان فيهـا أرض مدين[4] . ووادي القرى ومنازل تنوخ وصوران وزبد[5] .

وقد سبح الرهبان ورجال الدين ، الله ، في الكنائس وفي الأديرة بألحان عذبة جميلة ، ورتلوا الزبور والأسفار المقدسة الأخرى . وقـد عرف الجاهليون ذلك عنهم ، وأشاروا الى ذلك في شعرهم ، وربما كان بعضهم يحضر تلك التراتيـل ويستأنس بها على الرغم من وثنيته وعدم اعتقاده بالنصرانية .

ويقال للراهب الزاهد ، الذي ربط نفسه عن الدنيا : الربيط . وقيـل له : الحبيس . وذكر أن الربيط ، هو المتقشف الحكيم[6] ، وأن الحبيس هو الذي حبس نفسه في سبيل الله ، فقبعوا في الأديرة وابتعدوا عن الناس . فصاروا كالحبساء[7].

---

١ تفسير القرطبي ، (٦/٢٥٨) .
لو أنها عرضت لاشمط راهب عبـد الالـه صرورة متعبـد
كرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخالـه رشـدا وان لم يرشد

٢ تاج العروس (١/٢٨١) .

٣ لو كلمت رهبان دير في القلل لانحدر الراهب يسعى فنـزل
اللسان (١/٤٣٧) « صادر » ، تاج العروس (١/٢٨١) ، المقريزي ، السلوك في معرفة سير الملوك (١/١٨٢) ، تفسير الطبري (٢٧/١٥٨) ، « البابـي » ، الكشاف (٢/٣١) ، الدر المنـثـور (٦/١٧٧) ، تفسير الخازن (٢/٢١٦) ، (٤/٢٣٢) .
لو أنهـا عرضت لاشمط راهب في رأس مشرفة الذرى متبتل
الاغاني (١٩/٩٢) « دار الثقافة بيروت » . وقد نسب هذا الشعر الى ربيعة بـن مقروم الضبي . وقد مر النصف الاول من هذا البيت من شعر نسب الى النابغـه الذبياني في تفسير القرطبي (٦/٢٥٨) .

٤ قال جرير :
رهبان مدين ، لو رأوك تنزلوا والعصم ، من سعف العقول ، الفادر
اللسان (١/٤٣٧) « صادر » ، تفسير الطبري (٧/٤) .

٥ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٩٦ وما بعدها) .

٦ تاج العروس (٥/١٤٣) ، القامـوس المحيـط (٢/٣٦١) ، المقريزي ، سير (١/١٨٢) ، البلدان (٢/٢١٣) « صادر » .

٧ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٩٧) ، البلدان (٢/٢١٣) .

ويقال للراهب : المقدسي . والمقدس الراهب. وصبيان النصارى يتبركون به، ويتمسحون بملابسه تبركاً[1] . كما قيل له : المتعبد ، والأعابد[2] ونسب الى (امرىء القيس) هذا البيت :

فأدركنه يأخـذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدسي

ويروى المقدس ، وهو الراهب ينزل من صومعته الى بيت المقدس ، فيمزق الصبيان ثيابه تبركاً به[3] .

وأما (النهامي) ، فهو صاحب الدير ، أو الراهب في الدير[4] .

ومن الألفاظ التي شاعت بين النصارى ووصل خبرها إلى الجاهليين ، لفظة : (الأبيل) ، وقد اتخذوها للدلالة على رئيس النصارى . وذكر بعض أهل الأخبار انها تعني أيضاً (المسيح) . وقد كانوا يعظمون الأبيل فيحلفون به كما يحلفون بالله . وهي من الألفاظ المعربة عن السريانيـة (ابيلو) Abilo ، ومعناها في السريانية الزاهد والناسك والراهب . وكانوا يتخذون عادة رؤساءهم من الرهبان المتبتلين[5] . وقد وردت لفظة (الأبيل) في الشعر الجاهلي ، في شعر : الأعشى وفي شعر عدي بن زيد . وورد (أبيل الأبيلين) ، وأريد بذلك المسيح[6]. وذكر ان (الأبيل) هو صاحب النـاقوس ، والراهب أيضاً[7] . وان (الأيبلي) ، هو ضارب الناقوس . و (الأبيل) ، العصا التي يدق بها الناقوس[8] . قال الأعشى:

---

١ اللسان (٦/١٦٩) « صادر » .
٢ اللسان (٣/٢٧٢) .
٣ تاج العروس (٦/٣٩٠) ، (شبرق) .
٤ تاج العروس (٩/٨٨) ، نهم) ، المخصص (١٣/١٠٠) .
٥ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٩٠) ، غرائب اللغة (١٧٢) .
٦ قال ابن عبد الجن ، وقيل عمرو بن عبد الحق :

أما ودماء مائرات تخالها على قنة العزى او النسر عندما
وما قدس الرهبان في كل هيكل أبيل الأبيلين ، المسيح بن مريما
لقد ذاق منا عامر يوم لعلع حساما، اذا ما هز بالكف صمما

اللسان (١١/٦ وما بعدها) ، (أبل) ، (صادر) .
٧ اللسان (١١/٦ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/١٩٩) . الاب مرمرجي ، معجميات عربية سامية (١٣١ وما بعدها) ، شعراء النصرانية ، لشيخو (٤٥٣) ، المخصص (١٣/١٠٠) .
٨ ديوان الأعشى (٥٣) « المطبعة النموذجية ، ١٩٥٠ م » .

وما أيبليّ على هيكـــل بناه وصلب فيه وصارا
يراوح من صلوات المليـك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

يعني بالجؤار الصياح . إما بالدعاء وإما بالقراءة[1] .

والساعور من أسماء المسيح وهو من أصل (سوعورو) So'ouro ، بمعنى زائر . وتطلق اللفظة على من يزور القرى ويطلع على أحوالها وذلك بأمر من الأسقف[2] . وذكر علماء اللغة أن اللفظة من الألفاظ المعربة عن السريانية،وأن الأصل (ساعورا) ، ومعناه متفقد المرضى ، وتطلق اللفظة على مقدم النصارى في معرفة علم الطب[3] .

ويقال لخادم البيعة :الجلاذي[4] . وذكر أن (الجلذي) الراهب والصانع والخادم في الكنيسة . قال ابن مقبل :

صوت النواقيس فيه ما يفرطه أيدي الجلاذيّ جون ما يغضينا[5]

و (الكنيس) و (الكنيسة) موضع عبادة اليهود والنصارى ، فهما في مقابل (المسجد والجامع) عند المسلمين . والكلمة من الألفاظ المعربة عن الآراميـة ، وتعني لفظة « Knouchto » (كنشتو) (كنشت) في السريانيـة ، اجتماع ، ومجمع وأطلقت بصورة خاصة على كنيس اليهود[6] . ولهذا نجد العرب يطلقونهـا على معبد اليهود كذلك. ويقال في العبرانية للكنيس (كنيستا)،بمعنى محل الصلاة . ونجد الكتب العربية تفرق بين موضع عبادة اليهود وموضع عبادة النصارى ،فتطلق (الكنيس) على موضع عبادة اليهود و(الكنيسة) على موضع عبادة النصارى. وقد ذهب بعض علماء اللغة ، الى أن الكنيسة ، هي متعبد اليهود ، وأما (البيعة) ،

---

١ تفسير الطبري (١٤/ ٨٢) .
٢ غرائب اللغة (١٨٧) .
٣ تاج العروس (٣/ ٤٦٨)) « الخيرية » ، النصرانية ، القسم الاول (١٩٤) ، القاموس (٢/ ٤٨) .
٤ اللسان (٥/ ١٤) « المطبعة الأميرية » ، (٣/ ٤٨٢) « صادر » ، تاج العروس (٢/ ٥٥٧) .
٥ تاج العروس (٢/ ٥٥٧) ، (ما يعفينا) ، اللسان (٣/ ٤٨٢) ، (صادر) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢٠٤) ، النصرانية وآدابها ، شيخو (٢/ ٢٠١ وما بعدها) ، « الطبعة الثانية بيروت ١٩٢٣ » .

فهي متعبد النصارى[1] . وقد عرف علماء اللغة العرب ، أنها من الألفاظ المعربة ، فقالوا : وهي معربة ، أصلها كنست[2] .

وقد زوّق النصارى كنائسهم ، وجمّلوها ، وزيّنوها بالصور وبالتماثيل ، ووضعوا الصلبان على أبوابها وفي داخلها . ووضعوا بها المصابيح لإنارتها في الليل، وكانوا يسرجون فيها السرج ، وجعلوا بها النواقيس ، لتقرع ، فترشد المؤمنين بأوقات الصلوات ، ولتشير اليهم بوجود مناسبات دينية ، كوفاة ، أو ميلاد مولود ، أو عرس وأمثال ذلك . ومن الكنائس التي اكتسبت حرمة كبيرة عند النصارى العرب : كنيسة القيامة ، وكنيسة نجران ، وكنيسة الرصافة . وقد أشير في شعر للنابغة الى (صليب على الزوراء منصوب) ، أي على كنيسة .

والتمثال الشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله ، أي من انسان أو حيوان أو جماد[3] . وأدخل العلماء الصور في التماثيل . وقد كانت الكنائس مزينة بالتماثيل والصور ، تمثل حوادث الكتاب المقدس وحياة المسيح . ونظراً الى محاربة الاسلام للأصنام ، والى كل ما يعيد الى ذاكرة الانسان عبادة الأصنام والصور ، ورد النهي عنها في الاسلام . جاء في الحديث : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون »[4] .

وقد كان الروم يمدّون الكنائس والمبشرين بالمال وبالفعلة وبالمساعدات المادية لبناء الكنائس والأديرة . والكنائس والأديرة وإن كانت بيوت تقوى وعبادة ، كانت بيوت سياسة ودعوة وتوجيه . ونشر النصرانية مهما كان مذهبها ولونها ، مفيد للروم ، فالنصراني مهما كان مذهبه لا بد ان يميل الى اخوانه في العقيدة والدين . ففي انتشار النصرانية فائدة من هذه الناحية كبيرة للبيزنطيين .

وفي العربية لفظة أخرى للكنيسة ، إلا أنها لفظة خصصت بكنيسة معينة ، هي الكنيسة التي بناها أبرهة بمدينة صنعاء ، واللفظة هي : (القُلّيس) . وللأخباريين آراء في معناها وفي أصلها ، بنيت على طريقتهم الخاصة في ايجاد التفاسير للكلمات القديمة من عربية ومن معربة ، التي لا يعرفون من أمرها شيئاً . وهي لذلك

---

١ تاج العروس (٤/٢٣٥) .
٢ اللسان (٦/١٩٩) ، تاج العروس (٤/٢٣٥) .
٣ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) .
٤ تفسير الطبري (٢٢/٤٩) ، تفسير القرطبي (٤/٢٧٣ وما بعدها) .

لا تفيدنا شيئاً . والكلمة أعجمية الأصل ، عربت ، وشاع استعمالها ، حتى ظن انهـا اسم تلك الكنيسة . أخذت هذه اللفظة من أصل يوناني هـو (أكليسيا) « Ekklesia » ، ومعنـاه في اليونانية المجمع ، أي الكنيسة . والظاهر أن أهل صنعاء سمعوا اللفظة من الحبش ، حينما كانوا يذهبون الى الكنيسة ، فصيّروهـا اسم علم على هذه الكنيسة ، ولم يدروا أنها تعني الكنيسة ، أي موضع عبادة[1] .

والصوامع والبيع هما من الألفاظ التي استعملها الجاهليون للدلالة عـلى مواضع العبادة عند النصارى . وقد ذهب العلماء الى أن البيعة من الألفاظ المعربة[2]. أخذت من السريانية . وأصل اللفظة في السريانية ، هو (بعتو) بمعنى بيضة ، وقبة ، لأنها كانت قبة في كثير من الكنائس القديمة[3] . وقد استعملت في الحبشية كذلك ولذلك ذهب بعضهم الى أنها من الحبشية[4] . وقال علماء اللغة العرب : الصومعة كل بناء متصمع الرأس ، أي متلاصقه ، والأصمع اللاصقة اذنه برأسه[5] . وقـد أشير الى (البيع) في القرآن : « ولـولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع »[6] . وقد ذهب بعض علماء اللغة ، الى أن البيعة متعبد اليهود[7] . ولكن أغلبهم على انها متعبد النصارى .

وقد وردت لفظة (بيعـة) في نص (أبرهة) الشهير الذي دوّنه على سد مأرب . ففي هذا النص جملة : (وقدس بعتّن) ، أي (وقدس البيعة)[8] .

وذكر ان لفظة (البيعة) قد وردت في شعر ينسب الى ورقة بن نوفل ، حيث زعم انه قال :

أقول إذا صليت في كل بيعة   تباركتَ قد أكثرتَ باسمك داعياً[9]

---

١ (القلّيس) ، (القليسه) ، اللسان (٦/١٨٠) ، (قلس) ، Ency., II, p. 144, Raccolta, III, p. 127.

٢ المعرب (ص ٨١) ٠

٣ معجميات (ص ١٠٩ وما بعدها) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني، القسم الاول (ص ٢١٣) ، غرائب اللغة (١٧٥) ٠

٤ النصرانية (الثاني) ، القسم الاول (٢١٣) « طبعة ثانية » ٠

٥ المفردات (٢٨٨) ، اللسان (٢٠٨/٨) ، تاج العروس (٤١١/٧)

٦ الحج ، الآية ٤٠ ٠

٧ تفسير الطبري (١٧٥/١٥) « البابي » ، اللسان (٢٦/٨) «صادر» ٠

٨ راجع النص في مجلة المجمع العلمي العراقي (٢١٥/٤) ٠

٩ الاغاني (١٦/٣) ٠

كما ذكر انها وردت في كلام أناس من الجاهليين والمخضرمين[١] .

وقد أشير الى ورودها في الشعر الجاهلي وفي بعض الأخبار المنسوبة الى الجاهليين. وردت في شعر منسوب الى (عبد المسيح بن بقيلة) ، وهو كما يظهر من اسمه من النصارى[٢] . ووردت في بيت منسوب الى لقيط بن معبد[٣] ، وفي شعر ينسب الى الزبرقان بن بدر التميمي[٤] . ولا بد ان تكون هذه الكلمة من الكلمات المألوفة عند الجاهلين المتنصرين ، وعند غيرهم ممن كانوا على الوثنية ، غير انهم كانوا على اتصال بالنصارى ، ذلك لأنها من الألفاظ الشائعة المعروفة عند النصارى . وقد كانت البيع منتشرة في المدن وفي القرى والبوادي ، وطالما قصدها الأعراب للاحتماء بها من الحر والبرد وللاستعانة برجالها لتزويدهم بما عندهم من ماء أو زاد أو للتنزه بها واحتساء الشراب .

والصومعة من أصل حبشي هو (صومعت) على رأي بعض المستشرقين . وقد خصصت بـ (قلاية) الراهب[٥] . أي مسكن الرهبان . وبهذا المعنى وردت في القرآن . ويقول علماء اللغة ، أنها على وزن فوعلة ، سميت صومعة ، لأنها دقيقة الرأس . وهي صومعة النصارى[٦] . وذكر بعض منهم أن الصومعة كل بناء متصمع الرأس ، أي متلاصقة[٧] . وقد سميت صومعة لتلطيف أعلاها[٨] . ويدل ورود هذه اللفظة بصورة الجمع في القرآن الكريم ، على وقوف الجاهليين على

---

١ ابن هشام (٩٣٥) « طبعة ليدن » ، تاج العروس (٥/٢٨٥) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢٠١ وما بعدها) .

٢ كم تجرعت بدير الجرعة غصصا كبدي بها منصدعه
من بدور فوق أغصان على كثب زرن احتسابا بيعه
البلدان (٤/١٢٠) « دير الجرعة » ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (٢٠٢ وما بعدها) .

٣ تامت فؤادي بذات الخال خرعبة مرت تريد بذات العذبة البيعا
تاج العروس (٥/٢٨٥) ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (٢٠٢) .

٤ نحن الكرام ، فلا حي يعادلنا منا الكرام ، وفينا تنصب البيع
ابن هشام (١/٩٣٥) ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (٢٠١) .

٥ معجميات (ص ١٠٩ وما بعدها) ، Raccolta, III, p. 127.

٦ اللسان (١٠/٧٦) ، معجميات (ص ١٥٣) ، تاج العروس (٧/٤١١) ، النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني (١٧٤ ، ٢١٣) .

٧ مفردات ، الاصفهاني (ص ٢٨٨) .

٨ اللسان (٨/٢٠٨) « صادر » .

الصوامع ووجودها بينهم[1] . وقد كان الرهبان قد ابتنوا الصوامع وأقاموا بها للعبادة بعيدين في مختلف أنحاء جزيرة العرب ، ومنها الحجاز . وقد وقف الجاهليون عليها ، ودخلوا فيها . أما تجارهم ممن قصد بلاد الشأم والعراق ، فقد رأوا في طريقهم الى تلك الأرضين ، وفي تلك الأرضين بالذات ، حيث انتشرت فيها النصرانية صوامع كثيرة . ونجد في كتب الأخبار أمثلة عديدة تشير الى دخول تجار مكة الصوامع في بلاد الشأم وفي وادي القرى ، للحصول على ملجأ أو عون .

والقُلاّية ، وهي كالصومعة ، يتعبد فيها الرهبان ، وهي من الألفاظ المعربة ، عربت من أصل يوناني هو « Kelliyon » ، ومعناه غرفة راهب أو ناسك[2] . ومن هذا الأصل انتقلت اللفظة الى السريانية فصارت (قلّيتا) ، فانتشرت بين نصارى بلاد الشأم بصورة خاصة ثم بقية النصارى ، منها دخلت العربية . وقد عرف علماء العربية انها من الألفاظ المعربة ، فقالوا : هي تعريب كلاذة ، وهي من بيوت عباداتهم ، أي عبادات النصارى . وقد وردت في الحديث ، كما ورد ذكرها في صلح عمر مع نصارى الشام ، حيث كتبوا له كتاباً : إنا لا نحدث في مدينتنا كنيسة ولا قلية[3] . والظاهر ان النصارى توسعوا في المعنى ، فأطلقوها على المنازل التي يسكنها الرهبان ، ثم توسعوا فيها فأطلقوها على دور المطارنة والبطارقة ، وأصلها بمعنى الأكواخ[4] .

ولفظة (الدير) هي من الألفاظ النصرانية الشهيرة المعروفة بين العرب . وهي أكثر اشتهاراً من الألفاظ الأخرى التي لها علاقة بمواضع العبادة أو السكن عند النصارى ، وذلك لانتشارها ووجودها في مواضع كثيرة من العراق وبلاد الشأم وجزيرة العرب . ولمرور التجار وأصحاب القوافل والمارة بها ، واضطرارهم الى الاستعانة بأصحابها وباللجوء اليها في بعض الأحيان . كما كانت محلاً ممتازاً للشعراء ولأصحاب الذوق والكيف ، حيث كانوا يجدون فيها لذة ومتعة تسر العين والقلب ، من خضرة ومن ماء بارد عذب ومن خمر يبعث فيهم الطرب والخيال ، ولذلك

---

١ سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الآية ٤٠ ، النهاية ، لابن الاثير (٢/١٢٠) ، تفسير الطبري (١٥/١٧٥) .

٢ غرائب اللغة (ص ٢٦٥) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٣) .

٣ النهاية (٣/٣٠٩) ، البكري ، معجم (٢/٥٨٣) ، اللسان (٢٠/٦٣) ، تاج العروس (٨/٨٦) ، (قلل) .

٤ معجميات (ص ١٨٠ وما بعدها) .

أكثر الشعراء في الجاهلية والاسلام من ذكر الأديرة في شعرهم . حتى الشعراء النصارى مثل (عدي بن زيد العبادي) ، يترنم في شعره بذكر الدير ، لأنه نادم فيه (بني علقما) ، وعاطاهم الخمر ممزوجة بماء السماء[1] .

ولفظة (الدير) هي مثل أكثر الألفاظ النصرانية من الألفاظ المعربة . عربت من أصل سرياني ، هو (دير) Dayr ، بمعنى دار ، أي بيت الراهب[2] . ومسكنه ، ولا سيما المحصّن ، ثم خصوا بها مسكن الرهبان[3] . وقد عرف علماء العربية أن الدير هو مسكن النصارى ، يتعبد فيه الرهبان ويسكنون به ، وقد ذكر (ياقوت الحموي) أن الدير بيت يتعبد فيه الرهبان ، ولا يكاد يكون في المصر الأعظم ، وإنما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال ، فإن كان في المصر الأعظم فإنه كنيسة أو بيعة[4] غير أن الأديرة تكون في كل مكان ، تكون في القرى وتكون في المدن كما تكون في البوادي وفي رؤوس الجبال[5] .

و (الديراني) ، صاحب الدير ، وقد ذكر بعض العلماء أن الديراني صاحب الدير الذي يسكنه ويعمره . نسب على غير قياس . ويقال للرجل اذا رأس أصحابه هو رأس الدير[6] .

ولا تقتصر الأديرة على الرجال ، فللراهبات أديرة أيضاً . ويقضي أصحاب الأديرة وقتهم في الزهد والتقشف والعبادة . والقيام بالأعمال اليدوية التي يوكلها رئيس الدير اليهم[7] . وقد عرف الراهب المعتكف بالدير بـ (الديراني) و(الديرانية) ، هي الراهبة[8] . وقد عرفت أديرة الراهبات بـ (أديرة العذارى) كذلك .

---

١ نادمت في الدير بني علقما عاطيتهم مشمولة عندما
كأن ريح المسك من كأسها اذا مزجناهما بماء السما
البلدان (٢/٦٣٩ ، ٦٨٠) ، (٢/٤٤٩) « بيروت » ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢) ، المخصص (١٣/١٠٠ وما بعدها) .
٢ غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
٣ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢) .
٤ معجم البلدان (٢/٦٣٩) ، (٦/٦٣٩) .
٥ اللسان (٥/٢٨٧) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢) .
٦ اللسان (٥/٣٨٧) ، تاج العروس (٣/٢٣١) .
٧ البلدان (٢/٦٣٩) ، (٤/٤٥١) .
٨ النصرانية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢) ، الشعر ، لابن قتيبة (٢٢٩) .

واذ كان لهذه الأديرة حرمة في نفوسهم، فقد كانوا يعقدون فيها عقودهم ويحلفون بها على نحو ما كان يفعلـه الوثنيون في معابدهم حيث كانوا يقسمون الايمـان ويتعاقدون أمام الأوثان ، فكان للنصارى في الحيرة دير السوا ، وفي هـذا الدير كانوا يتناصفون ويحلفون بعضهم لبعض على الحقوق[1] .

وفي الآرامية لفظة هي (عمرو) Oumro ، وقد صارت (العمر) في العربية . ويراد بها البيعة والكنيسة والدير ودار[2] . وقـد وردت في شعر (المتلمس) ، حيث جاء :

ألك السديرُ وبارق ومبايض ولك الخـورنق
والعُمر ذو الأحساء واللذات من صاع وديسق[3]

وعرفت العربية لفظة (الكرح) ، و (الأكيراح) ، وقد عرفها علـماء العربية بقولهم : « الأكيراح : بيوت ومواضع تخـرج اليها النصارى في بعض أعيادهم »[4] . واللفظة من أصل سرياني هو (كرحو) « Kourho » ، بمعنى كوخ ، ومسكن حبيس ، وبيت ناسك وراهب[5] . وذكر ياقوت الحموي : ان « الأكيراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلالي لهم »[6] . وهناك دير اسمه (الأكيراح) ، ورد في شعر لأبي نؤاس ، ويقع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياحين ، وبالقرب منه ديران ، يقال لأحدهما دير عبد ، وللآخر دير هند[7] .

والمحراب من الألفاظ التي استعملهـا النصارى في أمور دينهم كذلك ، إذ أطلقوها على صدر كنائسهم . وقد استعملت في الاسلام أيضاً ، حيث يشير الى القبلة ، ويؤم الإمام فيه المصلّين . وقد ذكر بعض علـماء اللغة ، ان محاريب

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٩٢) .
٢ غرائب اللغة (ص ١٩٦) .
٣ البكري ، معجم (٦٩٦) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٣) ، تاج العروس (٣/٣٢٠) .
٤ يا ديـر حنة من ذات الاكـيراح من يصح عنك فاني لست بالصاح
اللسان (٣/٤٠٥) ، البكري ، معجم (٤/٥٧٥) ، المخصص (١٣/١٠٢) .
٥ غرائب اللغة (ص ٢٠٣) ، النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢ ، ٢١٤) .
٦ البلدان (١/٣٤٥) .
٧ البلدان (١/٣٤٥) .

بني اسرائيل مساجدهم التي كانوا يصلّون فيها [1] . وقد وردت لفظة المحراب في أشعار بعض الجاهليين[2] . كما وردت في القرآن الكريم[3] ، وفي الشعر الجاهلي[4] .

وذكر علماء التفسير أن المحراب كل موضع مرتفع . وقيل للذي يصلي فيه : محراب ، وذكروا أن المحاريب دون القصور ، وأشرف بيوت الدار . قال عدي ابن زيد العبادي :

كدمى العاج في المحاريب أو كالبيض في الروض زهره مستنير[5]

وذكر علماء العربية لفظة (التامور) (التأمور) ، في جملة الألفاظ المتعلقة بالرهبان والرهبنة . وقد عرفها بعضهم بأنها صومعة الراهب وناموسه[6] .

وذكر أن (القوس) ، بمعنى الدير والصومعة أو موضع الراهب . أو معبد الراهب[7] . وذكر أن أصل الكلمة من الفارسية[8] .

وذكر أن (الغربال) ، هو مكان أيضاً من أمكنة الرهبان ، وأنه كهيئة الصومعة في هندسة بنائه وارتفاعه . وأنه كل بناء مرتفع . ويظهر أنها من الألفاظ المعربة[9] .

والاسطوانة ، وهي السارية من الألفاظ النصرانية التي وقف عليها الجاهليون . وقد اتخذها العرب بمعنى العمود الذي كان يتعبد فوقه بعض الرهبان المعروفين بالعموديين Stylites . وقد أشير الى (اسطوان) في شعر نسبوه الى (ذي الجدن) . وفسرت لفظة (الاسطوان) ، و (الاسطوانة) ، بأنها موضع الراهب المرتفع[10] .

---

١ النصرانية ، الجزء الثاني القسم الاول (١٧٤) .
٢ اللسان (١/٣٠٥) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٧٤) ، اللسان (١٧/٧) .
٣ آل عمران ، الآية ٣٧ ، ٣٩ ، مريم ، الآية ١١ ، ص ، الآية ٢١ .
٤ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (١٧٤) .
٥ تفسير الطبري (٢٢/٤٨) ، تفسير القرطبي (١٤/٢٧١) .
٦ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٢) ، تاج العروس (٣/٢٠) ، (أمر) .
٧ اللسان (٨/٦٩) ، معجم البلدان (٤/٢٠٠) .
٨ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول ، (ص ٢١٤) .
٩ تاج العروس (٧/٤١٦) ، البلدان (٣/٥٢٥) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢١٣) .
١٠ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢١١) ، البلدان (١/٣٤٥) ، المخصص (١٣/١٠٠ وما بعدها) .

و (المنهمة) مسكن النهّام ، والنهامي ، هو الراهب . وأمـا المنهمة فوضع الراهب[1] .

ووردت في شعر للأعشى لفظة (الهيكل) . إذ قال :

وما أيبلي على هيكل بناه وصلّب فيه وصارا[2]

ويذكر علماء اللغة ، ان الهيكل : بيت النصارى فيـه صورة مريم وعيسى ، وربما سُمّي به ديرهم . وان الهيكل: العظيم واستعمل للبناء العظيم، ولكل كبير ، ومنه سمي بيت النصارى الهيكل[3] . واللفظة من الألفاظ المعربـة ، وهي ترد في العبرانية (هيكل) وفي الآرامية (هيكلو) . وتعني في اللغتين المعبد الكبير ومعبد الوثنيين[4] .

وقد كان الرهبـان وبقيـة رجال الدين وكذلك الأديرة والكنائس يستعملون المصابيح والقنادل للاستضاءة بها . ويعبر عن المصباح بالسراج كذلك[5] . وقـد تركت مصابيحهم وقناديلهم أثراً ملحوظاً في مخيلـة الشعراء فأشير اليها في شعر (مزرد بن ضرار الذبياني) حيث قيل انه قال :

كأن شعاع الشمس في حجراتها مصابيح رهبان زهتها القنادل[6]

وذكر علماء اللغة ان الزيت الذي له دخان صالـح ويوقد في الكنائس ، هو (السليط)[7] .

ولفظة : قنديل من الألفاظ المعربة ، أصلها يوناني هو : « Candela »، أي شمعة[8] . وقد دخلت الى العربية قبل الاسلام ، عن طريق الاتصال التجاري بين جزيرة العرب وبلاد الشأم .

---

١ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢١٤) .
٢ اللسان (٦/١٤٤) ، الأضداد (٢٤) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢٠٣) .
٣ المخصص (١٣/١٠٠ وما بعدها) ، اللسان (١٤/٢٢٥) ، العقد الثمين (١٨) ، النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢٠٢) .
٤ النصرانية ، الجزء الثاني ، القسم الاول (٢٠٢) ، غرائب اللغة (٢٠٩) .
٥ المفردات ، للاصفهاني (ص ٦٧٤) .
٦ المفضليات (٣٦) « طبعة السندوبي » .
٧ تاج العروس (٥/١٥٨) ، اللسان (٧/٣٢٠) ، (سلط) .
٨ غرائب اللغة (٢٧٩) .

وكان النصارى العرب يتقربون الى رجال دينهم ويتبركون بهم ويحترمونهم حتى قيل إن الصبيان منهم كانوا إذا رأوا الراهب ينزل ليذهب الى بيت المقدس أو غيره خرجوا له فتمسحوا به ولثموا ثيابه ، حتى يمزقوا أثيابه . والى ذلك أشير كما يقول أهل الأخبار — في شعر امرىء القيس :

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس[1]

ولبس رجال الدين ملابس خاصة لتميزهم عن غيرهم ، غلب عليها السواد . وقد اختصت لفظة (المسح) و (المسوح) بالملابس التي كان يلبسها الزهّاد والرهبان .

ومن أهم العلامات الفارقة التي ميزت معابد النصارى عن معابد اليهود والوثنيين : (الناقوس) ، الذي ينصب فوق سطوح الكنائس وفي منائرها ، للاعلان عن أوقات العبادات ولأداء الفروض الدينية ، وهو عند الجاهليين خشبة طويلة يقرع عليها بخشبة أخرى قصيرة يطلقون عليها لفظة (الوبيلة) و (الوبيل) . وهو في مقابل البوق عند يهود يثرب ، اذا أرادوا الاعلان عن موعد العبادة . وقد عرف هذا البوق بين عرب يثرب بـ (القنع) أيضاً[2] ، وبـ (الشبور)[3] . وقد ذكر علماء اللغة ان الشبور « شيء يتعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان يتقربون به» . وقال بعضهم : هو القربان بعينه . وذكروا ان الشبور شيء ينفخ فيه ، فهو البوق عند اليهود ، وهو معرّب وأصله عبراني[4] .

وقد وردت كلمة (الناقوس) في الشعر الجاهلي : وردت في بيت للشاعر المتلمس[5] ،

---

١ المعاني الكبير (٧٦٤/٣) .

٢ القنع ، وورد القبع والفنع والقبع ، اللسان (١٣١/١٠) .

٣ عمدة القارىء (١٠٢/٥ وما بعدها) ، اللسان (١٢٦/٨) .

٤ اللسان (٥٩/٦) ، تاج العروس (٢٨٩/٣) ، (شبر) ، « وقد نفس بالوبيل النافوس » ، تاج العروس (٢٦٢/٤ وما بعدها) .

٥ حنت قلوصي بها والليل مطرق بعد الهدو وشاقتها النواقيس
ديوان المتلمس (١٧٨) ، (طبعة فولرس) ، (لايبزك ١٩٠٣) .

وفي شعر للمرقش الأكبر[1] ، وللأعشى[2] ، وللأسود بن يعفر[3] . وقد أشير في هذه الأبيات الى قرع النواقيس بعد الهدوء إيذاناً بدنو الفجر وحلول وقت الصلاة . وقد كانت هـذه النواقيس في القرى وفي الأديرة ، يقرعها الرهبان والراهبات والقسيسون[4] . وقد أدخل بعض علماء اللغة هذه الكلمة في جملة الألفـاظ المعربة التي دخلت العربيـة من أصول أعجمية[5] . واللفظة من أصل (سرياني) هو (ناقوشا)[6] .

أعياد النصارى :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء أعياد نصرانية ترجع أصول تسميتهـا في الأكثر الى لغة بني إرم، ويظهر أن أولئك الأخباريين تعرفوا عليها في الاسلام باختلاطهم وباتصالهم بالنصارى ، إذ لم يشيروا الى ورود أكثرها في الشعر الجاهلي ، ومن عادتهم أنهم إذا عرفوا شيئـاً كان معروفاً عند الجاهليين جاؤوا ببيت أو أبيات يستشهدون بها على ورودها عند الجاهليين .

ومن الأعياد التي ورد فيها شاهد في الشعر الجاهلي ، (السباسب) ، وهـو (يوم السعانين) و (الشعانين) . وقد وردت كلمة السباسب في بيت للنابغة قاله في عيد السعانين عند بني غسّان ، هو :

---

١ وتسمع تزقاء من اليـوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقس
المفضليات (٤٦٥) ، النصرانية (٢٠٧) .

٢ وكأس كعين الديك باكرت حدها بفتيان صدق والنواقيس تضرب
تاج العروس (٢/٣٣١) ، (حد) ، ويروى لعنترة ، العقد الثمـين في دواوين الشعراء الجاهليين (١٧٩) ، (طبعة الوردت) ، (Ahlwardt) ، (باريس ١٩١٣)، النصرانية (٢٠٧) .

٣ وقد سبأت لفتيـان ذوي كـرم قبل الصباح ولما تفـرع النقس
اللسان (٨/١٢٦) ، (نقس) ، تاج العروس (٤/٢٦٣) .

٤ النصرانيه (٢٠٧) .

٥ عمدة القارىء (٥/١٠٣) ، المعرب (٣٣٩)) .

٦ Shorter Ency., p. 437.

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب[1]

و (السعانين) و (الشعانين) من أصل عبراني (هوشعنا) . وقد وردت هذه الكلمة في صحيفة صلح (عمر) مع نصارى الشأم ، وردت معها لفظة أخرى من الألفاظ النصرانية كذلك هي (الباعوث)[2] ، وهي رتبة تقام في اليوم الثاني من عيد الفصح[3] ، وصلاة لثاني عيد الفصح في بعض الطوائف[4] . وقد ذكرها علماء اللغة في جملة الألفاظ المعربة ، والإرمية الأصل ، وجعلها بعضهم (الباغوث). وذكروا انها (استسقاء النصارى) ، وان (عمر) لما صالح نصارى الشام ، كتبوا له ان لا نحدث كنيسة ولا قلية ولا نخرج سعانين ولا باعوثاً[5] .

و (خميس الفصح) من أعياد النصارى كذلك . وهو بعد السعانين بثلاثة أيام ، وكانوا يتقربون فيه بالذهاب الى الكنائس والبيع[6] .

وقد أشير الى عيد (الفصح) في بيت للأعشى يمدح فيه (هوذة بن علي) لتوسطه لدى الفرس بالافراج عن مئة أسير من أسرى بني تميم همّ الفرس بقتلهم ، وذلك لمناسبة يوم الفصح . وقد كان نصارى الجاهلية يحتفلون به ، فيوقدون المشاعل ، ويعمرون القناديل ، ويضيئون الكنائس بالمسارج ويقصدونها للاحتفال بها ، حتى قيل للقنديل الذي يعمر لهذا اليوم (قنديل الفصح)[7] .

---

١ « والسباسب أيام السعانين . وفي الحديث ان الله تعالى أبدلكم بيوم السباسب يوم العيد . يوم السباسب عيد للنصارى ، ويسمونه يوم السعانين » ، تاج العروس (١/٢٩٣) ، النصرانية (٢١٥) ، غرائب اللغة (٢١٢) ، عن « أحد الشعانين » راجع المشرق : السنة الثامنة ، الجزء ٨ ، السنة ١٩٠٥ م ، (ص ٣٣٧ وما بعدها) .

٢ « أن لا يحدثوا كنيسة ولا قلية ، ولا يخرجوا سعانين ولا باعوثا » ، « ويوم السعانين عيد للنصارى . وفي حديث : شرط النصارى ولا يخرجوا سعانين . قال ابن الأثير: هو عيد لهم معروف . قبل عيدهم الكبير باسبوع . وهو سرياني معرب . وقيل : هو جمع واحده سعنون » ، اللسان (١٧/٧١) ، (سعن) ، (١٣/٢٠٩) ، (صادر) .

٣ النصرانية (٢١٧) .

٤ غرائب اللغة (١٧٣) .

٥ اللسان (١٣/٢٠٩) ، تاج العروس (١/٩٠٣) ، (بعب) ، اللسان (٢/١١٨) ، (بعث) .

٦ الاغاني (٣/٣٢) ، النصرانية (٢١٦) .

٧ قال عدي بن زيد العبادي :

بكروا علي بسحرة فصحبتهم باناة ذي كرم كعقب الحالب
بزجاجة ملء اليدين كأنها قنديل فصح في كنيسة راهب

الاغاني (٩/٥٣) ، اللسان (٣/٣٧٨) ، النصرانية (٢١٦) . وورد في شعر لأوس بن حجر :

عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

شعراء النصرانية (٤٩٤) ، النصرانية (٢١٦) .

وقيل لاجتماع النصارى واحتفالهم (الهنزمن) ، وذكر أن هذه اللفظة من أصل فارسي هو (هنجمن) أو (أنجمن) ، ومنها دخلت الى السريانيــة فأطلقت على اجتماع النصارى واحتفالهم وتعييدهم[1] .

وقد أشار امرؤ القيس في بعض شعره الى عيد النصارى ، ولبس الرهبان فيه ملابس طويلة ذات أذيال[2] .

وكانت الكنائس والأديرة والأضرحة والمقابر الأماكن التي يقصدهـا النصارى في أعيادهم . فتكــون موضع تجمع ولقاء . كانوا يقصدونها للتقرب الى الرب وللصلوات له . وللتوسل اليه بأن يمن عليهم ويبارك فيهم . وكانوا يقصدون المقابر اظهاراً لشعورهم بأن موتاهم وان فارقوهم وابتعدوا عنهم ، غير أنهم لا زالوا في قلوبهم . وأيام الأعياد من أعز الأيام على الانسان ، لذلك فهي أجدر الأيام بأن تخصص لزيارة بيوت الأرباب وبيوت الموتى : القبور .

---

١ قال الاعشى :

اذا كان هنزمن ورحت مخشــما

اللسان (١٧/٣٢٩) ، تاج العروس (٩/٣٦٨) ، النصرانية (٢١٧) .

٢ فآنست ســربا من بعيد كأنه رواهب عيــد في مــلاء مهدب

النصرانية (١٧٣) .

الفصل الثاني والثمانون

أثر النصرانية في الجاهليين

وإذا كنا قد حُرمنا من الموارد الأصلية التي يجب أن نستعين بها في معرفة أثر النصرانية عند نصارى الجاهلية والجاهليين ، فإن في الشعر المنسوب إلى بعض نصارى الجاهلية مثل عدي بن زيد العبادي والى بعض الشعراء ممن كان لهم اتصال بالنصارى مثل الأعشى ، فائدة في تكوين صورة يتوقف صفاؤها ووضوحها وقربها أو بعدها من الواقع والحق على مقدار قرب ذلك الشاعر من الصدق والصواب والواقع والافتعال .

وعدي بن زيد هو أشهر من وصل الينا خبره من شعراء النصارى الجاهليين . هو من العباديين ، أي من نصارى الحيرة ، ولذلك عرف بالعبادي . كان من أسرة اكتسبت نفوذاً واسعاً ونالت حظاً كبيراً عند الفرس وعند ملوك الحيرة ، فكان لها أثر خطير في سياسة عرب العراق في ذلك الزمن . ولما كانت السياسة ارتفاعاً وهبوطاً ، سعادة وشقاء ، لاقى عدي منها الاثنين : ارتفع حتى بلغ أعلى المنازل ، ثم انخفض حتى تلقاه قابض الأرواح وهو في سجنه فقضى عليه بعد أن ترك أثراً خطيراً في سياسة الحيرة وفي تقرير مصير الملك فيها . وعدي ، على ما يذكر أهل الأخبار ، من أهل اليمامة في الأصل : هاجر أحد أجداده من اليمامة الى الحيرة بسبب دم أهرقه هناك ، فخاف على نفسه من الثأر ، ولم يجد محلاً أصلح له وآمن مقاماً من الحيرة ، لوجود (أوس بن قلام) أحد رؤساء بني الحارث بن كعب فيها ، وهو من أصحاب الجاه والنفوذ ، وبينه وبين أوس

نسب من النساء ، وهو نسب يضمن له الحماية والعيش بسلام ، فجاء الى الحيرة وأقام بها حيث أكرمه أوس وقربه الى آل لخم ، واكتسب منزلة عالية عند ملوك الحيرة ، انتقلت من بعده الى أبنائه الذين كوّنوا لهم صلات وثيقة مع آل لخم ومع ملوك الفرس ، بما كان لهم من علم وذكاء وحسن سياسة . ويذكر الأخباريون أن جدّ عدي قد تعلم الكتابة في الحيرة ، فصار من أكتب الناس فيها ، وأنه لذلك انتخب كاتباً لملك الحيرة ، واتصل بحكم وظيفته المهمة هذه بدهاقين الفرس ، وأنه لما توفي أوصى بابنه زيد والد عدي الى واحد منهم يعرف بـ (فروخ ماهان) فأخذه هذا الى بيته ، ورباه مع ولده . فتعلم عندهم الفارسية ، وحذقها وكتب بها وبرّز ، وكان قد حذق الكتابة بالعربية كذلك ، فأوصله الدهقان الى كسرى ، لعلمه هذا باللغتين ولذكائه ، فعينه في وظيفة مهمة لم يكن الفرس يعينون لها أحداً من غيرهم هي وظيفة البريد . وقد مكث في هذه الوظيفة زماناً جعلته يكتسب منزلة محترمة عند عرب الحيرة والفرس .

وعُني زيد بتربية ولده عدياً : أرسله الى الكتّاب ليتعلم به العربية . فلما برع فيها ، أرسله الى كتاب الفارسية حيث تعلم مع أبناء المرازبة فنون القول والكتابة ، ثم تعلم الرماية ولعب الفرس حتى صار من المبرزين فيها . وقد قربه علمه وعقله من آل لخم ومن الفرس حتى وصل الى مناصب عالية جعلت لقوله أهمية كبيرة حتى في تثبيت ملك ملوك الحيرة .

وقد أرسله (هرمز بن أنو شروان) في سفارة مهمة إلى القيصر (طيباريوس) فأدّاها على خير وجه . وعاد فأقام أمداً بالشأم ، ووقف على ما كان فيها من علم ومعالم . وقد زادت هذه الأسفار بالطبع في سعة أفقه وفي ثقافته . ثم عاد الى الحيرة ، فوجد والده قد توفي بعد ان صار المهيمن الحقيقي على البلاد . وزار كسرى ليقدم اليه هدايا قيصر . وارتفع نجمه في البلاطين . وتزوج هنداً بنت الملك النعمان . غير ان تقدمه هذا أوجد له خصومة شديدة من منافسيه (بني مرينا) وهم نصارى مثله ومن أهل الجاه والحسب ، فأغرى خصمه ومنافسه العنيد (عدي بن مرينا) قلب النعمان عليه . وكان عدي بن زيد صاحب الفضل في حصول النعمان على تاج . وظل (ابن مرينا) يعمل في الخفاء للقضاء على عدي ،

حتى تمكن من ذلك ، إذ سجنه النعمان ، ثم أمر فاغتيل وهو في السجن[1] .

وذكر ان (كسرى) جعله كاتباً على ما يجتبى من الفور ، وكان هو سبب ملك النعمان بن المنذر[2] .

والذي يهمنا في هذا الموضع من أمر عدي هو مدى وقوف عدي على النصرانية ومبلغ تسربها في نفسه وفي نفوس أهل الحيرة . أما النواحي الأخرى من حياته ، فليس لها محل في هذا المكان . وشعر عدي وأضرابه من العباديين هو سندنا الوحيد الذي نستخرج منه رأينا في النصرانية عند عدي وعند اخوانه العباديين .

والشعر المنسوب الى عدي أقرب إلى نفوسنا وأسهل علينا فهماً من الشعر المنسوب إلى بقية الجاهليين ، معانيه وألفاظه حضرية متحررة من الأساليب البدوية التي تميل إلى استعمال الجزل من الكلمات ، وهو يخالف مذاهب أولئك الشعراء في كثير من الأمور . ولهذا « كانت الرواة لا تروي شعر أبي دُؤاد ولا عدي بن زيد لمخالفتها مذاهب الشعراء »[3] ، و « لأن ألفاظه ليست بنجدية »[4] . وقد ورد في شعره بعض المعربات مما يدل على أثر الفارسية والإرمية فيه[5] . وكثير من شعره هو في الزهد ، وفي التذمر من هذه الدنيا التي لا تدوم حالها على حال ، وفي تذكير الأحياء بنهاية الأموات بالرغم مما أقاموه وشيّدوه من أبنية ضخمة وقصور شاهقة . وهذا الشعر يتناسب مع ما يذكره أهل الأخبار عن حياة هذا الشاعر وتألق نجمه وبلوغه أعلى المراتب ثم سقوطه فجأة ودخوله السجن واغتياله فيه . وفي شعره قصائد في القيان وفي الخمر تتحدث عن الحياة التي قضاها قائلها، وهي حياة لذيذة ولكنها لا تدوم بالطبع إلى الأبد ، ولا بد لها ان تزول ثم تنتهي بما

---

١ المشرق ، الجزء الاول ، كانون الاول ١٩٤٤ ، (ص ٢٦ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (٤٢٦ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية في الجاهلية حتى عصر بني امية (ص ٧٢) ، (القاهرة ١٩٥٤) ،
Ency., I, p. 137, Brockelmann, I, S. 29, Rothstein, S. 109, Nöldeke, Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden, S. 512, Islamic Culture, IV, p. 31. ff.

٢ نوادر المخطوطات ، أسماء المغتالين (١٤٠) .

٣ الاغاني (٩٣/١٥) ، (مطبعة التقدم) ، (ذكر اخبار أبى دؤاد الايادي ونسبه) ، نالينو (٧٤) .

٤ ابن قتيبة ، الشعر (١١٥) .

٥ نالينو (٧٤) .

يوجب الأسف عليها والألم والتوجع من فنائها ومن ذهاب تلك الأيام .

أما صميم الديانة والآراء النصرانية الخاصة ، وهي ضالتنا في هذا الفصل وهدفنا الذي نقصده ، فلا تجد منها في شعره الموثوق بصحته شيئاً كثيراً. ونحن لا نستطيع بالطبع ان نلوم عدياً على ذلك ، فعدي كما نعلم رجل شعر وسياسة،وليس برجل دين ولا كهانة فيتعمق في شعره بإيراد تواريخ الأنبياء والأوامر والنواهي الإلهية الواردة في التوراة والانجيل . ولم يذكر أحد من الأخباريين عنه انه كان كاهناً أو قسيساً فنأمل منه التطرق في شعره الى موضوعات اللاهوت والكهنوت . فما نجده في شعره عن النصرانية هو من حاصل المناسبات والظروف ، وليس من حاصل بحث متعمد قصد به البحث في الدين من أجل الدين .

ولو كان عديّ قد تعرض للنصرانية عنده وبين قومه لأفادنا ولا شك كثيراً. وما زلنا في الواقع فقراء في ناحية علمنا بمبلغ فهم أهل الحيرة وغير أهل الحيرة من نصارى العرب في الجاهلية لأحكام النصرانية وقواعدها ، ومقدار رسوخها في نفوس أولئك النصارى ولا سيما الأعراب منهم. ولكن عذره كما قلت بيّن واضح، وليس لنا أن نلومه . وما جاء به عن النصرانية في شعره على كل حال مفيد ، أفادنا ولا شك . فلنكن قنوعين غير طامعين ، مكتفين بما أورده عدي عنها في شعره ، ولننظر الى المستقبل ، فهو أملنا الوحيد ، فلعلّه يكشف عن مصادر كتابية مطمورة ، يبعثها من قبورها المغمورة بالأتربة المتراكمة ، وعندئذ تكون أمام المؤرخ ثروة تغنيه،يستطيع أن يظهرها العشاق للمولعين بمعرفة أحوال الماضين.

وقد ورد في قصيدة قيل انه نظمها في معاتبة النعمان على حبسه بيت فيه قسم برب مكة والصليب :

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب[1]

وهذا البيت يدعو الى التأمل والتفكير ، فرجل نصراني يؤمن بعيسى وبالصليب، لا يمكن أن يقسم برب مكة . فمكة كما نعلم مجمع الأصنام والأوثان وكعبة الوثنية في الجاهلية ، فكيف يقسم بربها رجل نصراني يرى الأوثان والوثنية رجساً من عمل الشيطان وكفراً . بل لو فرضنا أنه أقسم بمكة وبرب مكة على سبيل مجاراة

---

١ شيخو ، شعراء النصرانية (٤٥١) .

العرب الوثنيين وتقرباً الى الملك النعمان ، فليس لدينا دليل مقنع يفيد أن وثني الحيرة كانوا يؤمنون برب مكة . ولم يذكر أحد من أهل الأخبار ان أصنام أولئك الوثنيين كانت بمكة ، وأن أهل الحيرة كانوا يزورون مكة ويحجون الى (رب البيت) في جملة من كان يحج اليه من العرب . ولم يرد في روايات أهل الأخبار ان الملك (النعمان) كان وثنياً مؤمناً بقدسية مكة وأنه حج اليها حتى نذهب الى الفرض بأن عدياً ، إنما أقسم بمكة ، مجاراة لهذا الملك ، بل الوارد فيها أنه كان على دين النصرانية ، وانه كان مؤمناً بهذا الدين ، يزور الأديرة ويحضر الصلوات ورجل على هذا النحو من التدين لا يمكن بالطبع أن يحفل بقسم ببيت من بيوت الأصنام . ثم ان مصطلح (رب مكة) ، هو مصطلح اسلامي ، أخذ من عقيدة التوحيد في الإسلام ، فقيل : (رب البيت) و (رب هذا البيت)[1] .

لقد اتخذ الأب (شيخو) هذا البيت دليلاً على انتشار النصرانية في مكة وعلى تنصر أحياء منها ، وعلى ان النصرانية قديمة فيها ، بل يكاد يفهم من قوله ان البيت هو في الأصل كنيسة بنيت بعد المسيح بعهد قليل : بناها النصارى الذين جاءوا إلى هذه المدينة وسكنوها ، وان صور الأنبياء وصورة عيسى وأمه مريم التي ذكر الأخباريون انها كانت مرسومة على جدار الكعبة والتي أمر الرسول بطمسها ومحو معالمها هي دليل على أثر النصرانية في مكة ، ولهذا كان النصارى الجاهليون يحجون اليها ويقدسونها ، ولهذا السبب أقسم[2] عدي بها ، وأقسم الأعشى بها كذلك حيث قال :

حلفت بثوبي راهب الدير والتي بناها قصي والمضاض بن جرهم

وذكر ان من شعر (عدي) هذا البيت :

كلا يميناً بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر الماجد الزارا[3]

وقد اختلف العلماء في مراده بـ (ذات الودع) ، فذهب بعض منهم الى

---

١ « فليعبدوا رب هذا البيت » ، سورة قريش ، الآية ٣ .

٢ النصرانية (ص ١١٨) ، وفي الديوان :

فاني وثوبي راهب اللج والتي بناها قصي وحده وابن جرهم

ديوان الأعشى (ص ٩٥) .

٣ تاج العروس (٥/٥٣٤) ، (ودع) .

ان (ذات الودع) الأوثان ، أو وثن بعينه ، وقيل سفينة نوح ، وكان يحلف بها ، وكانت العرب تقسم بها ، وتقول : بذات الودع . وقيل الكعبة ، لأنه كان يعلق الودع في ستورها [1] .

ولم يرد في شعر عدي شيء ما يتحدث عن عقيدة التثليث ، أي الايمان بالثالوث. وكل ما ورد فيه هو الاشارة الى عقيدة بوجود رب واحد هو (الله) . وهو رب مستجيب مسبّح خلاق [2] . وهذا الرأي اسلامي كما هو معلوم ، وقريب من عقيدة الحنفاء .

ووردت في بيت شعر وجهه الى النعمان كلمة (أبيل) [3] ، وأبيل اسم للمسيح، ويطلق على حبر النصارى أيضاً،ومعناها الناسك والزاهد . وهي من أصل سرياني، من فعل (ابل) بمعنى ناح وبكى على خطاياه،ولذلك قصد بها الناسك والراهب [4]. وقد دعا الأعشى ضارب الناقوس : الأبيل [5] .

ونسب لعدي هذا البيت :

وأهبط اللهُ إبليساً وأوعــده   ناراً تلهب بالأسعار والشرر [6]

---

١ المصدر نفسه .

٢ فانـي قد وكلت اليـوم أمري   الى رب قـريب مسـتجيب

...

أجـل ان اللـه قد فضـلكم   فوق من أحـكأ صلبـا بـازار

...

واذهبـي يا أميـم ان يشأ اللـ   ـه بنفسي من أزم هـذا الخناق
أو تكن وجهه فتلك سبيل النـ   ـاس لا تمنع الحتـوف الرواقي

...

ليس شـيء على المنـون بباق   غـير وجـه المسيـح الخـلاق

شعراء النصرانية (٤٥٢ ، ٤٥٤) ، النصرانية (١٦٢) .

٣ انني واللـه فاقبـل حلفـي   لأبيـل كلمـا صـلى جـار

وروي:

انني والله فاقبـل حلفتـي   بأبيـل كلمـا صـلى جـار

شعراء النصرانية (٤٥٣) ، النصرانية (١٩٤) .

٤ تاج العروس (٧/١٩٩) ، (ابل) ، اللسان (١٣/٦) ، مرمرجي ، معجميات عربية سامية (١٣١ وما بعدها) .

٥ فاني ورب السـاجدين عشيـة   وما صك ناقوس الصلاة أبيلها

النصرانية (٢٠٨) .

٦ النصرانية (١٦٨) .

ولم ترد كلمة (ابليس) في شعر منسوب لشاعر جاهلي آخر ، إنما وردت كلمة (شيطان) في شعر منسوب الى أميّة بن أبـي الصلت .

ونسب الى عدي هذا البيت :

ناشدتنا بكتـاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله تقتنع[1]

ويظهر من دراسة الشعر المنسوب لعديّ أنه كان على مذهب القائلين بالقضاء والقدر . فكل كائن خاضع لحكم القدر ، يفعل به ما يشاء ، ليس في إمكانـه ردّ شيء مقدر كائن عليه . وقد رسخت هذه العقيدة في نفس عدي ولا شك بعد أن زجّ به في السجن ، وأصبح وحيداً لا يدري ما الذي سيصنع به . وهي عقيدة يسلم بها أكثر من يقع في مثل هذه الظروف ، لأنها تفرج عن النفس ، وتخفف بعض التخفيف عما ينتاب المرء وهو في هذه الحالة من همـوم وأحزان . والإيمان بالقدر وبأن الانسان مسير مجبر ، عقيدة لها صلة كبيرة بالظروف الاجتماعية وبالأحوال التي تحيط بالانسان ، وهي ليست من الآراء الدينية الخالصة .

ونسبت لعدي أبيات فيها حكايات من العهد العتيق ، مثل هذه الأبيات وهي في مبدأ الخلق :

اسمع حديثاً لكي يوماً تجاوبه عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا
أن كيف أبدى إلـه الخلق نعمته فينا وعرّفنا آياتـه الأولا
كانت رياحاً وماءً ذا عُرانية وظلمة لم يدع فتقاً ولا خللا
فأمر الظلمة السوداء فانكشفت وعزّل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الأرض بسطاً ثم قدرها تحت السماء سواء مثل ما فعلا
وجعل الشمس مصراً لا خفاء به بين النهار وبين الليل قد فصلا
قضى لستـة ايام خلائقـه وكان آخر شيء صوّر الرجلا[2]
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا[3]

---

١ شعراء النصرانية (٤٧٢) .
٢ قضـى لستة أيـام خليقتـه وكان آخـرها أن صور الرجـلا
الحيوان (٤/١٩٨) ، (عبد السلام محمد هارون) .
٣ البدء والتأريخ (١/١٥٠ وما بعدها) ، النصرانية (٢٥٤) ، وتجد في النص بعض الاختلاف عن النص الذي تجد في كتاب النصرانية ، وفي المراجع الاخرى .

وطابع هذا النظم وأسلوبه يفصحان انه نظم من النوع التعليمي الديني ، لا أدري أكان شاعرنا يعترف به وينسب إلى نفسه؟ أما أنا ، فلا أرى انه لشاعر عربي عاش قبل الاسلام .

ونجد في شعر (عدي) نزعة من نزعات التصوف والتأمل ، جاءت اليه من الأوضاع التي أحاطت به ، من وشايات ، ومن غضب الملك عليه ومن سجن ، بعد ان كان السيد المهيمن . حتى صار الدهر عنده حالاً بعد حال . لا يدوم صفاؤه لأحد ، فلا يركن أحد اليه ، ولا يغتر إن وجد نفسه في أعلى عليين ، فقد يسقط غداً إلى أسفل سافلين[1] .

وهناك شاعر آخر اسمه (الملمس بن عبد المسيح) يدل اسم أبيه على أنه كان نصرانياً ، غير أن هناك رواية أخرى تذكر ان اسم والده (عبد العُزى)[2] . وعبد العُزى من أسماء الوثنيين كما هو معروف . ثم اننا لا نجد في شعره ما يشير الى آراء وعقائد نصرانية يمكن أن يستنبط منها أنه كان نصرانياً . ورجل يحلف في شعره باللات والأنصاب لا يعقل أن يكون نصرانياً[3] .

أما الأعشى ، فهو شاعر عاش في الجاهلية ، وأدرك أيام الرسول . ومدحه بقصيدة جميلة مشهورة ، جعلت أبا سفيان يحرض قومه على ارضائه خوفاً من ان يسلم ومن أن ينظم شعراً آخر في مدح الرسول وفي ذم قريش ، فجعل له مائة من الإبل جمعها من قومه على أن يرجع ويؤجل أمر إسلامه عاماً . فرجع الى بلدته (منفوحة) باليمامة ، وكان قد ولد بها ، فمات بها بعد حين وعرف قبره بين الناس أمداً .

وكان الأعشى كما يروي أهل الأخبار جواباً في الآفاق ، عرف الحيرة ونادم ملوكها ، وزار النجاشي في أرضه ، وتجول في أرض النبيط وأرض العجم . وتنقل في أرجاء اليمن وفي حضرموت وعمان وبلاد العراق وبلاد الشأم ومتع نظره

---

١ العمدة (١/٢٢٣) .

٢ Vollers, Die Gedichte des Mutalammis, Leipzig, 1903, S. 149.

٣ أطردتني حذر الهجاء ولا واللات والأنصاب لا تئل
ديوان المتلمس (١٧١) ، (طبعة فولرس) ، النصرانية (٤٠٤) .

بالآثار القديمة واتخذها عبرة للمعتبرين[1] . وقد وسعت هذه الأسفار آفاق نظره وعرفته على شعوب متعددة وعلى آراء ومعتقدات متنوعة . ومنها هذه النصرانية التي نبحث فيها .

وقد حمله اختلاطه بالنصارى العرب على الاشارة الى بعض طقوسهم وأحوال عباداتهم في شعره . وإلى ان يشير إلى قصص معروف بين أهل الكتاب ، وارد بينهم ، فذكره في شعره . فتراه يتحدث عن حمامة نوح وعن أخبار سليمان وعن جنّ سليمان وعن المباني القديمة العادية المنسوبة اليه ، كما تراه يشير إلى عادة النصارى في الطواف حول الصليب أو تمثال المسيح[2] . ثم تراه يشير إلى الصليب نصبه الراهب في الهيكل بعد ان زيّنه بالصور[3] .

وفي الشعر المنسوب اليه إقرار بإلـه واحد كريم[4] ، ونهي عن عبادة الأوثان ومن التقرب منها[5] ،وفيه ان الرب يكفي الانسان ويرعاه ويساعده في حله وفي ترحاله[6] ،

---

١ وقد طفت للمال آفاقه — عمان فحمص فاوري شلم
أتيت النجاشي في أرضه — وأرض النبيط وارض العجم
فنجران فالسرو من حمير — فأي مرام له لم أرم
ومن بعد ذاك الى حضرموت — فأوفيت همى وحينا أهم
ألم ترى الحضر الا أهله — بنعمى ، وهل خالد من نعم ؟
أقام به سابور الجنود — حولين يضرب فيه القدم
فما زاده ربه قوة — ومثل مجاورة لم بقم
ديوان الاعشى « طبعة رودولف كابر » ، (ص ٣٣ وما بعدها) .
قد طفت ما بين بانقيا الى عدن — وطال في العجم ترحالي وتسياري
ديوان الاعشى (١٢٦) .

٢ قال في مدحه « قيس بن معديكرب الكندي » :
تطوف العفاة بأبوابه — كطوف النصارى ببيت الوثن
ديوان الاعشى (١٩) ، اللسان (١٧/٣٣٤) ، (وثن) .

٣ وما أيبلى على هيكل — بناه وصلب فيه وصارا
ديوان الاعشى (٤٠) ، النصرانية (٢٠٤) ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي (١/١٤٧ وما بعدها) .

٤ ربي كريم لا يكدر نعمة — فاذا تنوشد في المهارق أنشدا
النصرانية (١٦٢) .

٥ وذا النصب المنصوب لا تسكننه — ولا تعبد الأوثان ، والله فاعبدا
النصرانية (١٥٩) .

٦ ولكن ربي كفى غربتي — بحمد الاله فقد بلغن
ديوان الاعسى (١٧) .

وان الانسان عبده[1] . وان الفناء واقع على كل امرىء ، وليس أحد في هذه الدنيا بخالد ، ولو كان الخلود لأحد لكان لسليمان[2] . وفيه حديث عن البعث والحساب يوم الدين .

ونجد في شعره معرفة بنوح وبسفينته ، أشار الى نوح في مدحه إياساً حيث خاطبه بقوله :

جزى الإلـه إياساً خـير نعمته   كما جزى المرء نوحاً بعدما شابا
في فلكه إذْ تبداها ليصنعهـا   وظلّ يجمع ألواحـاً وأبوابا[3]

فهل أخذ الأعشى رأيه هذا عن نوح من أهل الحيرة ؟ وهل كان في ذلك قاصداً متحدثاً مخاطباً رجلاً نصرانياً يعرف الحكاية والموضـوع ؟ أو كان متحدثاً عن نوح حديث من يـدين به ويعتقد ، فهو رأيه ودينه . الواقع أن البت في ذلك أمر لا أراه ممكناً ما لم تتجمع لنا موارد تأريخية كثيرة ، ليتمكن المرء من استنتاج رأي واضح في أمثال هذه الموضوعات المعقدة ، التي لم تدرس مظانهـا المدوّنة ، ولم تنتقد حتى الآن .

وقد ذهب (كاسكل) « Caskel » إلى ان (الأعشى) كان نصرانياً . وذهب الأب (شيخو) هذا المذهب أيضاً ، وجوّز (بروكلمن) تنصره ، لكنه ذهب إلى انه لم يكن متعمقاً في النصرانية[4] . وقد استدل (كاسكل) على نصرانيته من بيتين في ديوانه ، ومن بيت آخر ورد في قصيدة أخرى ، لا يمكن في الواقع ان يكون دليلاً على نصرانية قائله[5] .

وذكر انه كان قدرياً ، روى روايته (يحيى بن متى) وهو من عباد الحيرة،

---

١ فاقسم بالـذي أنا أعبـده   لتصطفقن يوما عليـك المآتم
ديوان الأعشى (٥٨) .

٢ ولو كان شيء خـالدا ومعمرا   لكان سـليمان البريء من الدهر
رآه الهـي فاصـطفاه عبادة   وملـكه ما بين ثـريا الى مصـر
وسخر من جـن الملائـكة تسعة   قياما لديـه يعمـلون بلا أجـر
ديوان الأعشى (٢٤٣) .

٣ شعراء النصرانية (٣٨٩) ، النصرانية (٢٦١) .

٤ تأريخ الادب العربي لبروكلمن (١/١٤٧ وما بعدها) .

٥ انظر البيتين ١٢ ــ ١٣ من القصيدة رقم ٣٤ بديوانه ، والبيت ٩ من القصيدة ١٣ بالديوان ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١٤٧) ، الترجمة العربية) .

انه أخذ مذهبه هذا في القدر من العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك . وقد استشهدوا على قوله هذا في القدر بهذا البيت:

استأثر الله بالوفاء وبالعد　　ل وولى الملامة الرجلا [1]

وقد راجعت شعر (الأعشى) ، فلم أتمكن من استنباط شيء منه يدلني على مقدار علمه بالنصرانية وعلى مدى تعمقه أو تعمق غيره من النصارى بدينهم . فما ذكره مما له علاقة بالنصرانية ، هو شيء عام ، يأتي بخاطر كل شاعر ذكي جوّاب في الآفاق ، له احتكاك واتصال بالنصارى أو بغيرهم ، وهو لا يصلح ان يكون دليلاً على عقيدة ودين وفهم لذلك الدين .

وفي شعر (الجعدي) كلام عن سفينة نوح ، ذكر أنه قال :

يرفعُ ، بالقار والحديد من الـ　　جوز ، طوالاً جذوعها ، عُمما [2]

والنابغة الجعدي ، مخضرم ، يقال إنه كان مثل الحنفاء ، أنكر الخمر والميسر ، وهجر الأزلام والأوثان . وكان ممن فكر في الجاهلية ، وأنكر الخمر والسكر ، وهجر الأزلام واجتنب الأوثان ، وذكر دين ابراهيم . وقد لقي الرسول ، وأسلم وأنشده من شعره . وذكر أنه هو القائل القصيدة التي فيها :

الحمد لله ربي لا شريك له　　من لم يقلها فنفسه ظلما

على نحو شعر أمية بن أبي الصلت ، وقد قيل إنها لأميّة ، لكن صححها حمّاد الراوية [3] .

ونجد في شعر آخرين من غير من ذكرت ألفاظاً وكلمات كانت معروفة عند النصارى وإشارات إلى عباداتهم وعاداتهم ، وردت في شعر (النابغة الذبياني) ولبيد ، وامرىء القيس ، وأوس بن حجر وآخرين غيرهم ممن طافوا في الأرضين وارتحلوا فوقفوا على بعض أحوال النصارى فأشاروا اليها في شعرهم .

---

١ الأغاني (٧٩/٨) ، ماليبو (١٧) .
٢ اللسان (٤٢٥/١٢) ، (عمم) .
٣ الاصابة ٥٠٨/٣) ، (رقم ٨٦٤١) ، أمالي المرتضى (٢٦٣/١ وما بعدها) ، المرزباني (٣٢١) .

ونجد في شعر (الأفوه الأودي) ، وهو صلاءة بن عمرو ، تسجيلاً لأبناء نوح . سجلهم مع من سجل أسماءهم من ملوك التبابعة ممن دانت لهم الأنام ، فنجده يقول :

ولما يعصها سام وحام ويافث حيثما حلت ولام[1]

ولا أدري إذا كان هذا البيت من نظم شاعر جاهلي ، هو الأودي ، أو من نظم شخص آخر نظمه على لسانه في الاسلام . ولكني لا أستبعد بالطبع أن يكون خبر أولاد نوح الثلاثة . وهم : سام ويافث وحام ، قد عرف عند العرب النصارى وعند من كان على احتكاك واتصال بهم .

ونجد في بيت شعر ينسب لأفنون التغلبي ذكراً لولد آدم[2] . وورود آدم في هذا البيت ، إن صح انه من شعر ذلك الشاعر الجاهلي ، دليل على وقوف هذا الشاعر على قصة آدم وانحدار البشر من نسله . ولا يستبعد ان يكون اذن قد وقف عليها باختلاطه ببني قومه تغلب ، وقد كان قسم كبير منهم قد دخلوا في النصرانية. ولا يستبعد أيضاً ان يكون بعض الوثنيين قد وقفوا أيضاً على قصة الخلق كما وردت في الديانتين من اختلاطهم بأهل الكتاب واتصال بهم .

وقد وردت ، في بيت آخر من قصيدة يقال انه قالها في رثاء نفسه ، لفظة (الله) في شكل يفهم منه انه كان يدين بالتوحيد ، وان الآجال كلها بيد الله[3] ، وأشار في بيت آخر إلى عاد وإرم ولقمان وجدن[4] .

وأشير في أشعار بعض الجاهليين الى تعبد النصارى وصلواتهم سجداً وقياماً، وهؤلاء الذين أشير اليهم من الرهبان والناسكين الذين كانوا قد اعتكفوا في الصوامع وفي

---

١ النصرانية (٢٦٦) ، عن الافوه الأودي راجع الاغاني (١١/٤١ وما بعدها) ، ابن قتيبة ، الشعر (١١٠) ، ديوان الأفوه ، (القاهرة ١٩٣٧) ، (تحقيق عبد العزيز الميمني) .

٢ قد كنت أسبق من جاروا على مهل من ولد آدم ما لم يخلعوا رسني
المفضليات (٥٢٤) ، النصرانية (٢٦١) ، شعراء النصرانية (١٩٣) .

٣ لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي اذا هو لم يجعل له الله واقيا
شعراء النصرانية (١٩٣) .

٤ لو أنني كنت من عاد ومن ارم ربيت فيهم ومن لقمان أو جدن
شعراء النصرانية (١٩٣) .

البيع والأديرة النائية يعبدون الله ، ويدعون إلى الرب تقرباً وخشية[1] ، ومنهم من ترك السجود أثراً في جباههم . وقد أطلقوا على صلواتهم هذه اسم (الصلاة). وهي من الألفاظ التي أخذها أولئك النصارى من (بني إرم) ؛ وعرفت المواضع التي كانوا يسجدون فيها بالمساجد ، والمسجد هو الموضع الذي يتعبد فيه[2] .

وقد كان الركوع من العادات المعروفة عند الأحناف والنصارى[3] ، و «كانت العرب في الجاهلية تسمى الحنيف راكعاً إذا لم يعبد الأوثان ، ويقولون : ركع الى الله »[4] . وأما إحناء الرؤوس ، فكان للتعظيم ، ولذلك حنوا رؤوسهم في الكنائس ولرؤسائهم على سبيل الاحترام والتعظيم[5] . وقد كانوا يبجلون رؤوسهم وسادتهم كثيراً ، ولذلك نزل الوحي بتأنيبهم وتقريعهم ، إذ جعلهم هذا الاحترام في مصاف الآلهة والأرباب .

وتلحق بالصلاة التسابيح ، أي ذكر الله وتقديس اسمه ، وقد كان من عادة الرهبان التسبيح بعد الصلاة ، ولا سيما في الضحى والعشي[6] .

---

١ قال منظور الأسدي :

كأن مهواه على الكلكل موفع كفي راحب يصلي
في غبش الصبح أو التجلي

الألفاظ ، لابن السكيت (٤١٢) ، النصرانية (١٧٧) .

وقال البعيث :

على ظهر عادي كأن أرومه رجال يتلون الصلاة قيام

تاج العروس (١٠/٥٣) ، اللسان (١٨/١١١) ، وقال الأعشى :

لها حارس لا يبرح الدهر بينها وان ذبحت صلى عليها وزمزما
ببابل لم تعصر فسالت سلافة تخالط قنديدا ومسكا مختما

وقال المضرس الأسدي :

وسخال ساجية العيون خواذل بجماد لبنة كالنصارى السجد

النصرانية (١٧٧) .

٢ اللسان (٥/١٨٧) ، (سجد) .

٣ النصرانية (١٧٨) .

٤ تاج العروس (٥/٣٦٣) .

٥ قال النابغة الذبياني :

سيبلغ عذرا أو نجاحا من امرىء الى ربه رب البرية راكع

النصرانية (١٧٨) .

٦ قال أمية بن أبي الصلت :

سبحانه ثم سبحانا يعود له وقبلنا سبح الجودي والجمد

وقال الأعشى :

وسبح على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

تاج العروس (٢/١٥٧) ، (سبح) ، اللسان (٣/٢١٠) ، النصرانية (١٧٨) .

وقد كان رجال الدين ، ولا سيما الرهبان منهم ، يقومون بالفروض الدينية فرادى وجماعة ، فيرتلون المزامير والأدعية بنغمات وألحان شجية . وقد عرف ترتيل القسيسين (الهينم) ، وذلك في حالة النغم بخفوت الصوت[1] . وإذا طرّب القس في صوته خفياً قيل لذلك (الزمزمة)[2] . أما إذا تغنى ، فيقال لذلك الشمعلة . وقد قيل للمتغنين في تلادة الزبور (المتشمعل) . وورد : « شمعلة اليهود : قراءتهم ، إذا اجتمعوا في فهرهم »[3] . وأما إذا أطلق صوته بالدعاء فيقال لذلك الجأر[4] . واللحون من الكلمات التي أطلقت على ترتيل أهل الكتاب لكتبهم المقدسة. فقد كانوا يقرؤون التوراة والانجيل في المحافل باللحن . وقد أشير الى ذلك في بعض الأحاديث[5] . أما إذا ردد الشخص نغمات الانجيل في حلقه ، فكانوا يقولون له الترجيع ، ومنه قولهم : رجع الانجيل[6] .

و (التصبيغ) من الألفاظ التي كانت تدل على معنى خاص عند النصارى ، هو التعميد . وقد عرفه الجاهليون . وذكر علماء اللغة ان الصبغة الدين والملة والشريعة والفطرة والختانة . « اختتن ابراهيم ، صلوات الله عليه ، فهي الصبغة .

---

١ « الهينمة : الصوت . وهو شبه قراءة غير بينة » . وأنشد لرؤبة :
لم يسمع الركب بها رجع الكلم   الا وساويس هيانيم الهنم
وفي حديث اسلام عمر ، رضي الله عنه . قال : ما هذه الهينمة ؟ قال أبو عبيدة : الهينمة : الكلام الخفي لا يفهم ... وفي حديث الطفيل بن عمرو : هينم في المقام . أي قرأ فيه قراءة خفية . وقال الليث :
ألا يا قيل ويحك قم فهينم
أي فادع الله » ، اللسان (١٦/١٠٨) ، تاج العروس (٩/١١١) .

٢ « قال الجوهري : الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم . وفي حديث عمر ، رضي الله عنه ، كتب الى أحد عماله في أمر المجوس : وانههم عن الزمزمة . قال : هو كلام يقولونه عند أكلهم بصوت خفي . وفي حديث قباث بن أشيم : والذي بعثك بالحق ما تحرك به لساني ولا تزمزمت به شفتاي . الزمزمة : صوت خفي لا يكاد يفهم »، اللسان (١٥/١٦٥) .

٣ تاج العروس (٧/٣٩٩) ، (اشمل) .

٤ « جأر يجأر جأرا وجؤارا : رفع صوته مع تضرع واستغاثة ... وقال ثعلب : هو رفع الصوت اليه بالدعاء . وجأر الرجل الى الله عز وجل اذا تضرع بالدعاء . وفي الحديث : كأني أنظر الى موسى له جؤار الى ربه بالتلبية . ومنه الحديث الآخر : لخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله » ، اللسان (٥/١٨١) .

٥ النهاية في غريب الحديث (٤/٥٧) ، معجمات (٤٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/٣٣٠) ، اللسان (١٧/٢٦٣) .

٦ اللسان (٩/١٧٢) ، النصرانية (٣٥٦) .

فجرت الصبغة على الختانة . وصبـغ الذمي ولده في اليهودية أو النصرانية صبغة قبيحة ، أدخله فيها »[1] . و « كانت النصارى تغمس أبناءها في ماء المعموديـة ينصرونهم »[2] . وقد صالح عمرُ بني تغلبَ بعدما قطعوا الفرات قاصدين اللحاق بأرض الروم ، على ألا يصبغوا صبياً ولا يكرهوه على دينهم ، وعلى ان عليهم الصدقة مضعفة[3] . وعرفوا (المعمودية) بقولهم : « لفظ معمودية معرب معموذيت بالذال المعجمة ، ومعناها الطهارة . وهو ماء أصفر للنصارى يقدس بما يتلى عليه من الانجيل ، يغمسون فيه ولدهم معتقدين انه تطهير له كالختان لغيرهم »[4] .

وقد كان نصارى الجاهلية يعمّدون أولادهم ، يأخذونهم أطفالاً الى الكنائس لتعميدهم على نحو ما يفعل سائر النصارى . وقد قيل له : التغميس والتصبيغ[5] .

والصوم من الأحكام الدينية المعروفة عند اليهود والنصارى ، وقد أشير اليـه في شعر لأمية بن أبي الصلت وفي بيت ينسب الى النمر بن تولب[6] . وقد عرف أهل الجاهلية ان اليهود كانوا يصومون . وقد أشير الى صومهم في عاشوراء في اثناء الكلام على فرض الصوم على المسلمين بصيامهم شهر رمضان . ولا بد ان يكون للجاهليين علم بصوم النصارى كذلك ، وذلك نتيجة لاتصالهم بهم واختلاطهم معهم .

ومن المصطلحات النصرانية (الحواريون) ، وقصد بها رسل المسيح . وقد وردت اللفظة في مواضع من القرآن الكريم[7] . ووردت لفظة (الحواري) في بيت ينسب الى (ضابىء بن الحارث بن أرطاة البرجمي)[8] . وقد رجّح بعض الباحثين

---

١ تاج العروس (٦/١٩) ، (صبغ) .
٢ المصدر المذكور .
٣ « قال الأزهري : وسمعت النصارى عمسهم أولادهم في الماء صبغا ، لعمسهم اياهم فيه » ، اللسان (١٠/٣١٩) ، فتوح البلدان (١٩٠) .
٤ تاج العروس (٢/٤٣٢) ، (عمد) .
٥ السنن الكبرى (٩/٢١٦) ، « ومنه صبغ النصارى أولادهم في ماء لهم . قال الفراء : انما قيل صبغة لأن بعض النصارى كانوا اذا ولد المولود جعلوه في ماء لهم كالتطهير . فيقولون هذا تطهير له كالختانة » ، اللسان (١٠/٣٢٠) .
٦ صدت كما صد عما لا يحل له ... ساقي نصارى قبيل الصبح صوام
النصرانية (١٧٩) .
٧ آل عمران ، الآية ٥٢ ، المائدة الآية ١١٤ وما بعدها ، الصف ، الآية ١٤ .
٨ وكر كما كر الحواري يبتغي ... الى الله زلفى أن يكر فيقتلا
المشرق ، المجلد ١٩٢٩ (ص ٥٧٥ وما بعدها) ، النصرانية (١٨٩) .

أصل هذه اللفظة الى لغة بني إرم ورجعها اللغويون الى أصل عربي هو (حور)، وذهب آخرون الى أنها من أصل حبشي[1] .

والصليب ، من أهم المصطلحات المعروفة عند النصارى ، لاعتقادهم بصلب المسيح عليه ، حتى صار رمزاً للنصرانية . وصاروا يعلقونه على أعناقهم تبركاً وتيمناً به ، وينصبونه فوق منائر كنائسهم وقبابها ، ليكون علامة على متعبد النصارى . وقد أقسموا به . وقد عرف المسلمون تمسك النصارى به ، واتخاذهم له شعاراً ، حتى كان بعضهم يرسمه على جبهته ، وكانوا يلثمونه ويتمسحون به تبركاً ، ويزينون صدورهم به[2] .

وذكر علماء اللغة (الشبر) على أنه من المصطلحات الشائعة بين النصارى . وهو على حد تعريفهم له : « شيء يتعاطاه النصارى بعضهم لبعض كالقربان، يتقربون به ، أو القربان بعينه » . وذكروا أيضاً أن (الشبر) الانجيل والعطية والخير . ومن ذلك قول عدي :

لم أخنه والذي أعطى الشبر[3]

ويظهر من كتب الحديث ان أهل الكتاب كانوا يخالفون المشركين في بعض عاداتهم ، كالذي ورد عن عبدالله بن عباس من « ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره ، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم . وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يحب موافقة أهل الكتاب

---

١ المشرق ، السنة السابعة ١٩٠٤ (٦٢٠) ، النصرانية (١٨٩) ، معجميات (١٣٩) .

٢ قال الأخطل :

لما رأونا والصليب طالعا ... خلوا لنا راذان والمزارعا

ديوان الأخطل (٣٠٩) . وقال حجار بن أبجر :

هدني عجل وما خلت انني ... خلاة لعجل والصليب لها بعل

الأغاني (١٣/٤٧) . وقال الأقيشر :

في فتية جعلوا الصليب الههم ... حاشاي اني مسلم معذور

النصرانية (٢٠٤) .

ونسم الى عبد المطلب بن هاشم قوله :

لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم ، عدوا ، محالك

اللسان (١١/٦١٩) ، (محل) .

٣ تاج العروس (٣/٢٨٩) ، (شبر) .

فيما لم يؤمر فيه بشيء . ثم فرق النبي صلى الله عليه وسلم رأسه »[1] . وكالذي ورد من ان أهل الكتاب كانوا يخالفون الجاهليين في كيفية التحيـة عند ملاقاة أحدهم الآخر ، وان الرسول أقر المصافحة .

وقد أطلقت لفظة (المصاحف) في شعر ينسب الى امرىء القيس على أسفار النصارى ، وهو قوله : « كخطّ زبور في مصاحف رهبان »[2] . والكلمة على رأي بعض علماء الساميات والنصرانيات من أصل حبشي ، ومفردها (مصحف)[3] . وصحف بمعنى كتب . وقد وردت لفظة (صحيفة) في بيت ينسب الى (لقيط الإيادي)[4] .

والمجلة من الألفاظ المعروفة بين الجاهليين . وقد اشتهرت في العربية باقترانها باسم (لقمان) ، فقيل : « مجلة لقمان »[5] . وأطلقت عند العبرانيين على أسفار الكتاب المقدس على سبيل التخصيص أحياناً وعلى باب التعميم في بعض الأحيان[6] . وقد وردت في شعر للنابغة ، هو :

مجلتهم ذات الإلـه ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب[7]

وقصد بها كتاب النصارى ، فقد مدح به الغساسنة . وهم على دين المسيح .

وقصد بالسفر وبالأسفار الكتاب والكتب من التوراة والإنجيل ، وكلمة (سفر) بمعنى كتاب[8] . وكانت النصارى تقرأ كتبها من الصحف[9] ، وتفسر للمستمعين ما جاء فيها من مشكل .

ولفظة (جهنم) من الألفـاظ المعروفة عند اليهود والنصارى . وهي تعني

---

١ عمدة القارىء (١٧/٧١) .

٢ أتت حجج بعدي عليه فاصبحت كخط زبور في مصـاحف رهبان
العقد الثمين (١٦١) .

٣ النصرانية (١٨١) .

٤ كتاب في الصحيفـة من لقيط الى مـن بالجزيـرة من ايـاد
الأغاني (٢٠/٣٤) ، النصرانية (١٨١) .

٥ النصرانية (١٨١) .

٦ معجميات (١٦٧ وما بعدها) .

٧ « محلتهم » في بعض الروايات ، ديوان النابغة (٨) .

٨ اللسان (٦/٣٥) ، الاشتقاق (١٠٣) ، النصرانية (١٨) .

٩ النهاية (٤/١٣٦) .

الموضع الذي يكون فيه العذاب بعد الحشر ، فيخلد فيه أصحاب الآثام والمعصية. واللفظة من أصل عبراني على رأي المستشرقين وعلماء الساميّات هو (جحينوم) (جهينوم) « Gehinnom » ، أي (وادي حينوم) « Hinnom »[1] . وهو وادٍ يدور حول القدس نحو أربعة كيلومترات،ويعرف اليوم باسم (وادي الربابي) ، وقد كان اليهود الوثنيون يقربون في موضع منه يسمى (توفيث) « Topheth » ، الصبيان قرابين للإلـه (ملوخ) « Molech » = « Moloch » ، يقدمونها ذبائح محروقة إكراماً لـه ، ثم صار هذا الموضع محلاً ترمى فيه أقذار المدينة وجثث الحيوانات ، وتحرق هناك لئلا تنتشر منها الأوبئة ، وصار الموضع رمزاً للجحيم ، ومنه أخذت لفظة (جهنه) « Gehenna » التي هي جهنم[2] ، الموضع الذي يعاقب فيه المجرمون بعد الموت . وهو موضع يقع تحت الأرض ، واسع جداً ، وأكبر حجماً من الأرض . يلقى فيه الآثمون جزاء إثمهم في الدنيا ومخالفتهم شريعة الرب. فيبقون فيه يعذبون . وقد اختلف في موضوع أبدية التعذيب وبقاء وجهنم ، فمنهم من رأى أن جهنم خالدة ، وأن العذاب أبدي ، ومنهم من ذهب الى أنها ترفع بعد انتهاء التعذيب[3] .

وقد وردت لفظة جهنم في مواضع متعددة من شعر أمية بن أبي الصلت ، كما ورد فيه وصفها وكيفية التعذيب فيها[4] . ولمعرفة أصل هذا الشعر : هل هو

---

١ Ency., I, p. 998, Shorter Ency., p. 81.

٢ Hastings, p. 286.

٣ متى ، الاصحاح الخامس ، الآية ٢٩ ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٨ ، Hastings, p. 285.

٤ « ورد في تأريخ دمشق لابن عساكر (١٢٤/٣) : قال عبدالله بن مسلم الدينوري : سئلت هل وجدتم لجهنم ذكرا في الشعر القديم ، فقلت : هذا يحتاج الى تتبع وطلب . وقد أتذكر فلم أذكر الا شيئا وجدته في شعر أمية بن أبي الصلت ، فانه قال :

فلا تدنو جهنم من بريء ... ولا عدن يطالعها أثيم
اذا شبت جهنم ثم وارت ... وأعرض عن فوانسها الجحيم

وروى البيت في المخصص (٦/٩) :

جهنم لا تبقي بغيا ... وعدن لا يطالعها رجيم

وذكر للعديل بن الفرخ (ياقوت ١١٧/٤) قوله في نار جهنم وجنة الخلد :

أما ترهبان الدار في ابني أبيكما ... ولا ترجوان الله في جنة الخلد

وقد ورد اسم جهنام في شعر الأعشى . قال (التاج ٣٧٢/٧) :

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له ... جهنام جدعا للهجين المذمم » ،

النصرانية (٤٦٢ وما بعدها) .

من شعر أمية حقاً ، أو من شعر آخرين وضعوه على لسانه ، لا بد من دراسته ومقارنته بما جاء في الاسلام عن وصف جهنم وكيفية التعذيب فيها . وهناك رواية تنفي ورود لفظة جهنم في أي شعر جاهلي خلا هذا الشعر المنسوب الى أمية بن أبي الصلت ، ويلاحظ انه ذكر (عدن) مع جهنم .

ولم أجد في أشعار الجاهليين ذكراً للانجيل ، إلا في الشعر المنسوب الى (عدي بن زيد العبادي)[1] . وربما في شعر عدد قليل آخر من الجاهليين ، لم أقف عليه . غير ان عدم ورود اللفظة كثيراً في هذا الشعر ، لا يدل على عدم معرفة الجاهليين لها ، ودليلنا على ذلك ورودها في مواضع من القرآن الكريم . وورودها فيه دليل على وقوف الجاهليين عليها واستعمالهم اياها ، وأصلها من اليونانية ، وقد وقف العرب عليها من السريانية أو من الحبشية[2] . وقد ذكرت فيما سبق ان نفراً من أهل الكتاب كانوا قد أقاموا بمكة وكانوا يقرأون التوراة والانجيل بألسنتهم ، فلا يستبعد اذن وقوف بعض الجاهليين ، ولا سيما المثقفين منهم وأصحاب التجارات الذين كانوا يقصدون الحيرة وبلاد الشأم ونجران للتجارة وكان لهم اتصال وثيق بنصارى هذه الأرضين على الانجيل وعلى الكتب الأخرى التي كان يستعملها رجال الكنيسة لافهام الناس أمور الدين .

ويظهر من بعض روايات الأخباريين أن بعض أهل الجاهلية كانوا قد اطلعوا على التوراة والانجيل ، وأنهم وقفوا على ترجمات عربية للكتابين . أو أن هذا الفريق كان قد عرب بنفسه الكتابين كلاً أو بعضاً ، ووقف على ما كان عند أهل الكتاب من كتب في الدين . فذكروا مثلاً أن (ورقة بن نوفل) « كان يكتب الكتاب العبراني ، ويكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » : وقالوا : « وكان امرؤ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، ويكتب من الانجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب »[3] . وذكروا مثل ذلك عن (أمية بن أبي الصلت) ، فقالوا إنه كان قد قرأ الكتب المقدسة[4] ، وقالوا مثل ذلك عن عدد من الأحناف .

---

١ وأوتينا الملك والانجيل نقرؤه ... نشفي بحكمته أحلامنا عللا
الحيوان (٤/٦٤) ، النصرانية (١٨٥) .

٢ اللسان (١٣/١٧١) ، النصرانية (١٨٥) Shorter Ency., p. 168.

٣ راجع ما كتبته عنه في فصل الأحناف ، Sprenger, Leben, I, S. 128.

٤ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (١٧٦) .

وإذا كانت هذه الروايات صحيحة ، فإنها تدل على أن الجاهليين كانوا قد وقفوا على ترجمة العهدين . ويرى بعض المستشرقين احتمال ترجمة العرب للكتاب المقدس قبل الاسلام وعند ظهوره،ترجمة من اليونانية على الأرجح . وقد استندوا في ذلك الى خبر ذكره (ابن العبري) « Barkebraeus » يفيد أن البطريق (المنوفيزيّ) المدعو (يوحنا) « Monophysite Patriarch Johannes » كان قد ترجم الكتاب المقدس الى أمير عربي اسمه (عمرو بن سعد) ، وذلك بين سنتي (٦٣١) و (٦٤٠) للميلاد ، والى أخبار أخرى تفيد أن بعض رجال الدين في العراق كانوا قد ترجموه الى العربية وذلك قبيل الاسلام وعند ظهوره[١].

ولا يستبعد وجود ترجمات للكتاب المقدس في الحيرة ، لما عرف عنها من تقدم في الثقافة وفي التعليم ، ولوجود النصارى المتعلمين فيها بكثرة . وقد وجد المسلمون فيها حينما دخلوها عدداً من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة وتدوين الأناجيل ، وقد برز نفر منهم ، وظهروا في علوم اللاهوت ، وتولوا مناصب عالية في سلك الكهنوت في مواضع أخرى من العراق ، فلا غرابة اذا ما قام هؤلاء بتفسير الأناجيل وشرحها للناس للوقوف عليها . وقد لا يستبعد تدوينهم لتفاسيرها أو لترجمتها ، لتكون في متناول الأيدي ، ولا سيما بالنسبة الى طلاب العلم المبتدئين . وقد لا يستبعد أيضاً توزيع بعض هذه الترجمات والتفاسير الى مواضع أخرى لقراءتها على الوثنيين وعلى النصارى للتبشير[٢] .

ونجد في كتب الأخباريين وفي كتب قصص الأنبياء وفي الفصول المدونة عن الماضين قصصاً وأمثلة وكلاماً يرجع أصله الى بعض أسفار التوراة او الى الأناجيل، غير اننا لا نستطيع ان نؤكد ان هذا المدون قد نقل عن الجاهليين ، وان أهل الجاهلية كانوا يعرفونه ، وانه ليس مما قصه أهل الكتاب أو مسلمة أهل الكتاب مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه على المسلمين ، فدخل بينهم . ثم إن القصص أكثره من (التلمود) و (المشنا) والكتب غير القانونية ، روي بشكل فيه بُعْدٌ في بعض الأحيان عن هذا المدون المعروف ، وهو يفيدنا من هذه الناحية كثيراً في الحكم على مدى معرفة العرب بعلم أهل الكتاب .

---

١ Sprenger, I, S. 131.

٢ Ency., II, p. 504.

وللأسماء أهمية كبيرة في تعيين مبلغ أثر اليهودية والنصرانية في الجاهليين . وإذا كانت أسماء الوثنيين قد ساعدت (ولهوزن) في الكشف عن أسماء أصنام وأوثان لم ترد في كتاب الأصنام لابن الكلبي ولا في كتب الأخباريين الأخرى، وساعدت في الكشف عن مدى تغلغل الوثنية في نفوس أهل الجاهلية ، فإن للأسماء اليهودية أو الأسماء النصرانية التي تسمى بها أهل الجاهلية والتي وصل خبرها الينا أهمية كبيرة في الافصاح عن مدى تأثر الجاهليين بالديانتين . وليس من اللازم أن تكون هذه الأسماء أسماء أناس كانوا على دين يهود ، أو على دين النصرانية ، فالأسماء وإن كان لها ارتباط في الغالب بأديان حامليها غير أنها لا تكون دائماً دليلاً على دين أصحابها ، فللبيئة ولبعض العادات والاعتقادات دخل في اختيار الأسماء . وعلى ذلك فإن ما سنذكره من أسماء لا نذكرها على أن أصحابها كانوا يهوداً أو نصارى حتماً ، وإنما نذكرها على سبيل الإشارة الى أن بعض الجاهليين كانوا يحملون أسماء هي في الغالب من اسماء اليهود والنصارى .

وفي طليعة هذه الأسماء التي يجب ان نذكرها ، الأسماء الواردة في التوراة والانجيل ، فهي أسماء عبرانية ونصرانية معروفة ، وبها تسمى كثير من اليهود والنصارى . ودخولها بين الجاهليين العرب دليل على وجود بعض تلك المسميات بينهم ، وتسمّي أهل الجاهلية بتلك الأسماء .

ومن جملة تلك الأسماء : آدم وقد دعي به آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . قُتل في الجاهلية ، وهو الذي وضع النبي دمه يوم فتح مكة . وقد جاء (ابن دريد) بتفسير لهذه التسمية فذكر انها من الأدمة أو بمعنى الطويل القامة ذي العنق الناصع ، ولم يشر الى وجود علاقة لها باسم آدم أبي البشر[1] . غير أني لا أستبعد احتمال أخذها من التسميات التي كانت بين اليهود أو النصارى عند الجاهليين . غير اننا لا نعرف من أمثال هذه التسميات غير عدد قليل محدود بحيث لا يمكن ان نتخذها قاعدة لبناء حكم عليها في ورود هذه التسمية عند الجاهليين .

وأكثر من هذه التسمية شيوعاً اسم (ابراهيم) ، ومن جملة من تسمى بها: ابراهيم جدّ عدي بن زيد بن حمّان بن زيد بن أيوب من بني امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم . فولد أيوب ابراهيم وسلم وثعلبة وزيد . منهم عدي بن زيد

---

١ الاشتقاق (٤٤) ، النصرانية (٢٢٨) .

ابن حمان بن زيد بن أيوب بن مجروف الشاعر . ومنهم مقاتل بن حسان بن ثعلبة ابن أوس بن ابراهيم بن أيوب ، الذي نسب اليه قصر مقاتل . وقال ابن الكلبي : لا أعرف في الجاهلية من العرب أيوب وابراهيم غير هذين ، وإنما سمّيا بهذين الإسمين للنصرانية [1] .

وممن سمّي بابراهيم : ابراهيم بن كُتيف النبهاني ، وهو شاعر قديم، وابراهيم الأشهلي ، وابراهيم بن الحارث بن خالد التيمي القرشي ، وأبو رافع ابراهيم القبطي ، وهو من موالي الرسول ، وابراهيم بن عبّاد الأوسي ، وابراهيم بن قيس بن حجر بن معديكرب الكندي ، وابراهيم النجّار وهو الذي صنع المنبر لرسول الله . وأكثر هؤلاء هم من الذين عاصروا الرسول وكانوا من صحابته [2] . ويجب ألا ننسى أن الرسول سمّى ابنه الذي توفي صغيراً في حياته ابراهيم [3] .

وعرف من الصحابة رجل اسمه (إسحاق الغَنَوي) [4] ، وعرف ثلاثة صحابيين باسم (اسماعيل) [5] . وأما (أيوب) ، فقد عرف به (أيوب بن مجروف) جد عدي بن زيد العبادي ، وأيوب بن مكرز ، كما تكنى به أبو أيوب خالد ابن زيد الأنصاري من الصحابة ، وهو الذي نزل عليه الرسول يوم مقدمه الى يثرب مهاجراً من مكة [6] .

واسم (داوود) من الأسماء التي وردت في جملة أسماء ملوك بني سليح ، فذكر منهم (داوود اللثق) [7] . وأظن ان لفظة (دؤاد) التي كني بها الشاعر الجاهلي أبو دؤاد الإيادي هي من داوود [8] ، وإنْ ذهب المفسرون فيها مذهباً آخر فقالوا انها من الدُود والدوادة والدودة وأمثال ذلك [9] . وعرف شاعر آخر باسم

---

١ تاج العروس (١/١٥١) ، (أوب) ، النصرانية (٢٢٩) .
٢ أسد الغابة (١/٤٠ وما بعدها) ، الاصابة (١/٢٥ وما بعدها) ، النصرانية (٣٢٩) .
٣ ابن هشام (١/٢٠٦) .
٤ أسد الغابة (١/٦٨) ، الاصابة (١/٤٧) ، (رقم ٩٤) ، النصرانية (٢٢٩) .
٥ أسد الغابة (١/٧٩) ، الاصابة (١/٥٥ وما بعدها) ، النصرانية (٢٣٠) .
٦ ابن هشام (٢/٦٦ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ٣٠٥) ، (٣/٣٤٧ ، ٣٩٢) ، الاشتقاق (٢٦٦) .
٧ الاشتقاق (٣١٩) ، النصرانية (٥٣٢) .
٨ النصرانية (٢٣٢) .
٩ الاشتقاق (١٠٤) .

داوود بن حمل الهمداني[1] ، ومن الأنصار رجل اسمه داوود بن بلال[2] وصحابي اسمه داوود بن سلمة الأنصاري[3] .

وقد عرف داوود في الشعر الجاهلي بنسجه الدروع حتى ضربت بدروعه عندهم المثل . وهي في نظرهم دروع قوية ممتازة ، صنعها من الحديد الذي كان يلين بين يديه[4] . وقد تكرر ورود ذلك في أشعار جملة شعراء ، مما يدل على انها كانت معروفة بين الجاهليين مشهورة . هذا ولا بد ان يكون لذلك أصل بعيد ظهر من قصص بني اسرائيل عن داوود وعن ملكه وحروبه وتغلبه على خصومه. هذا القصص الذي جعل من داوود رجلاً لا يستطاع التغلب عليه بفضل الحديد الذي لان بين يديه ، فصار دروعاً لا تمضي فيه سيوف المقاتلين .

---

١ النصرانية (٢٣٢) .

٢ أسد الغابة (٢/١٢٩) ، الاصابة (١/٤٦٣) ، (رقم ٢٢٨٧ و ٢٢٨٨) ، الاصابة (٤/١٦٩) ، (٩٨٨) .

٣ الاصابة (١/٤٦٣) .

٤ قال طرفة :

وهم ما هم اذا ما لبسوا ... نسج داوود لباس محتضر

النصرانية (٢٧٢) ، شعراء النصرانية (٣٠٩) ، ديوان طرفة (٥٨) .

وقال حصين بن الحمام المري :

صفائح بصرى أخلصتها قيونها ... ومطردا من نسج داوود بهما

الحماسة لأبي تمام (١٨٩) ، النصرانية (٢٧٣) .

وقال حسيل بن سجيع الضبي :

وبيضاء من نسج ابن داوود نثرة ... تخيرتها يوم اللقاء ملابسا

الحماسة لأبي تمام (٢٨٤) ، النصرانية (٢٧٣) .

وللبيد :

ونزعن من داوود أحسن صنعه ... ولقد يكون بقوة ونعيم

صنع الحديد لحفظه أسراده ... لينال طول العيش غير سروم

ديوان لبيد (٨٣) ، (طبعة الخالدي) ، النصرانية (٢٧٣) .

وللأعشى :

ومن نسج داوود يحدى بها ... على أثر العيس عيرا فعيرا

النصرانية (٢٧٣) ، شعراء النصرانية (٣٨٨) .

ولسلامة بن جندل :

مداخلة من نسج داوود شكلها ... كحب الجنا من أبلم متفرق

وله أيضا :

من نسج داوود وآل محرق ... غال غرائبهن فى الآفاق

النصرانية (٢٧٣) .

ولم يخل شعر الأعشى من اسم داوود ، فورد في مناسبة التحدث عن حوادث الزمان واعتداء الدهر على الانسان ، وتبدل الأيام ، كما في موضع آخر في كلامه على الدروع[1] . أما عبيد الأبرص ، فقد ذكره في أثناء كلامه على طول العمر[2] .

وعرف (سليمان) في أبيات للنابغة قالها في مدح النعمان ملك الحيرة بتسخيره الجنّ لبناء تدمر[3] . وعرف بمثل ذلك وببنائه الأبنية الفخمة وبسعه ملكه في شعر شعراء آخرين[4] . واذا كان ما نسب الى أولئك الشعراء صحيحاً ، كان رأيهم هذا في سليمان بتأثير ما كان يقصه أهل الكتاب على الجاهليين من قصص وارد في العهد القديم ، في سفر الملوك الثالث وأخبار الأيام الثاني عن ملكه وعجيب أبنيته[5] .

وقد ورد اسم سليمان علماً لجملة رجال عاشوا في الجاهلية وفي أيام الرسول ، فهناك حاكم من حكام العرب المعروفين في الجاهلية اسمه (سليمان بن نوفل)[6] .

---

١ ومر الليالي كل وقت وساعة   يزعزعن ملكا أو يباعدن دانيا
وردن على داؤود حتى أبدنه   وكان يغادي العيش أخضر صافيا
الحماسة ، للبحتري (٩٠) ، النصرانية (٢٧٢) .

٢ وطلبت ذا القرنين حتى فاتني   ركضا وكدت أن أرى داؤودا
خزانة الأدب (١/٣٢٣) ، النصرانية (٢٧٢) .

٣ ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه   ولا أحاشي من الأقوام من أحد
الا سليمان ، اذ قال الاله له :   قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن اني قد أذنت لهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد
فمن أطاعك فاخضعه بطاعته   كما أطاعك وأدلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة   تنهى الظلوم ولا تقعد على أحد
العقد الثمين (٧) ، شعراء النصرانية (٦٦٣) ، النصرانية (٢٧٤) .

٤ قال الأعشى :
فلو كان حيا خالدا ومعمرا   لكان سليمان البري من الدهر
براه الهي واصطفاه عبادة   وملكه ما بين سرفي الى مصر
وسخر من جن الملائك شيعة   قياما لديه يعملون بلا أجر
البدء والتأريخ (٣/١٠٨) ، النصرانية (٢٧٤) ، وله أيضا :
فذاك سليمان الذي سخرت له   مع الانس والجن الرياح المراخيا
الحماسة ، للبحتري (٨٦ وما بعدها) ، النصرانية (٢٧٥) .

٥ النصرانية (٢٧٣) .

٦ اليعقوبي (١/٢٩٩) ، النصرانية (٢٣٢) .

وهناك جملة من الصحابة عرفوا بسليمان[1] . ومن هذه اللفظة نشأت الأسماء : سلمان وسلام ، وسُليم ، كما يتبين ذلك من أبيات للأسود بن يعفر[2] والحطيئة[3] والنابغة[4]. وعرف بسلمان رجل من نصارى بني عجل اسمه سلمان العجلي .

وهناك طائفة لأسماء نصرانية خالصة تسمّى بها نفر من الجاهليين قبل الاسلام، مثل : عبد المسيح ، وعبد ياسوع ، وعبد يسوع ، وعبد يشوع ، وايشوع ، وأبجر . وقد عرف بأبجر عدد من ملوك الرها ، كما عرف بها أبجر بن جابر سيد بني عجل ، وأفريم ، وبولس ، وجرجس ، وجريج ، ورومان ، وررومانوس ، وسرجس ، وسمعان ، وشمعون ، ونسطاس ، وحنين ، و (حنيناء) و (يحنة)[5] . ومن أسماء النساء : مارية ، ومريم ، وحنة[6] ، ومن بين هذه الأسماء ما كانت خاصة بطبقة الموالي الذين جلبوا من الخارج ، وبيعوا في أسواق النخاسة ، فحافظوا على أسمائهم القديمة التي تشير الى أصولهم في النصرانية .

ونرى ورود (عبد المسيح) بين أسماء أهل الحيرة بصورة خاصة ، ورد علماً لأناس معروفين جداً بينهم ، وكانوا عليهم زعماء ، مثل عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيّان بن بقيلة ، وكان في جملة من خرج لملاقاة خالد بن الوليد

---

١ مثل سليمان بن الحارث ، الاشتقاق (٢/٣١٨) ، وسليمان الليثي بن أكيمة ، وسليمان بن أبي حثمة القرشي ، وسليمان بن صرد الخزاعي ، وسليمان بن عمرو ابن حديدة ، وسليمان بن مسهر ، وسليمان بن هاشم بن عتبة القرشي ، اسد الغابة (٢/٣٥٠ وما بعدها) ، الاصابة (٢/١٢٨ وما بعدها) ، النصرانية (٢٣٢) ، تاج العروس (٨/٣٤٤) .

٢ ودعا بمحكمة أمين سكها ... من نسج داوود أبي سلام
تاج العروس (٨/٣٤٤) .

٣ فيه الرماح وفيه كل سابغة ... جدلاء محكمة من نسج سلام
النصرانية (٢٣٢) .

٤ وكل صموت نثلة تبعية ... ونسج سليم كل قضاء ذائل
ديوان النابغة (٩٩) ، النصرانية (٢٣٣) ، « أراد نسج داوود ، فجعله سليمان ثم غير الاسم ، فقال سلام وسليم . ومثل ذلك في أشعارهم كثير . قال ابن بري : وقالوا في سليمان اسم النبي ، صلى الله عليه وسلم : سليم وسلام فغيروه ضرورة »، اللسان (١٥/١٩٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/٣٤٤) .

٥ البكري ، معجم (٤/٥٨٠) ، تاج العروس (٩/١٨٦) .

٦ النصرانية (٢٣٩) ، وقد أورد قائمة بالاسماء النصرانية ، واورد امثلة لمن تسمى بها قبل الاسلام من الجاهليين ، البكري ، معجم (٤/٥٧٨) ، « دير حنة » .

للاتفاق معه على شروط الصلح[1] . وعادة جعل المرء نفسه عبداً لإلـه أو لشخص مقدس ، كما في هذه التسمية ، لم تكن من العادات الخاصة بالنصارى ، فقد رأينا أن أكثر الجاهلين كانوا يجعلون أنفسهم عبداً لإلـه من الآلهة ، ثم يتخذون ذلك تسمية لهم ، مثل عبد العزى ، وعبد يغوث ، وعبد ودّ ، وأمثال ذلك . فلما كانت النصرانية،تبرأ من تنصر من اسم الآلهة الوثنية،وأحلوا محلها اسم المسيح.

وكان اسم والد حنظلة صاحب دير حنظلة الذي بأرض بني علقمة بالحيرة (عبد المسيح) ، ويذكر الأخباريون أنهم وجدوا على صدر الدير كتابة مكتوبة بالرصاص على ساج محفور : « بني هذا الهيكل المقدس ، محبة لولاية الحق والأمانة ، حنظلة بن عبد المسيح ، يكون مع بقاء الدنيا تقديسه ، وكما يذكر أولياؤه بالعصمة ، يكون ذكر الخاطىء حنظلة »[2] .

غير ان هذه الأسماء اليهودية الأصل أو النصرانية قليلة الاستعمال ، فلم تكن مستعملة بنطاق واسع . وأكثر من تسمى بها ، هم من الموالي والأرقاء ، أو من العرب الذين كانوا على أطراف العراق وبلاد الشأم ، وممن تأثر بالمؤثرات الثقافية الأعجمية ، أو ممن كان على يهودية أو نصرانية ، فتسمى بأسماء محببة أو مباركة في هاتين الديانتين .

وأهل نجران ، هم الذين كانوا يجادلون الرسول في طبيعة المسيح ، فلم يكن بمكة أو بيثرب قوم منهم يستطيعون مجادلته في أمور الدين . وقد ذكر بعض المفسرين ان أهل نجران كانوا أعظم قوم من النصارى جادلوا الرسول في عيسى. جاؤوا إلى الرسول ، فقالوا له : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا : عيسى . تزعم انه عبدالله . فقال : أجل انه عبدالله . قالوا : فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به ، ثم خرجوا من عنده غاضبين . وقالوا إن كنت صادقاً ، فأرنا عبداً يحيي الموتى ويبرىء الأكمه ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه ، فلما عادوا قال رسول الله : مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له : كن فيكون[3] .

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٥٢) ، المعمرون ، للسجستاني (٣٨) ، « طبعة كولدتزيهر » . المشرق ، السنة السابعة عشرة ، (١٩١٤) ، (ص ١٣٢) ، البلدان (٢/٦٧٧) .
٢ البكري ، معجم (٢/٥٧٢) ، (دير حنظلة) .
٣ تفسير الطبري (٣/٢٠٧ وما بعدها) .

وقد جادل بعض النصارى رسول الله في أمور الدين ، ثم أسلموا . ونظراً لقلة عددهم بيثرب ، لم يقاوموه هنا كما قاومه اليهود .

وطبيعي أن يتأثر نصارى الجاهلية بلغة بني إرم ، فيستعملوا المصطلحات الدينية التي كانت شائعة في الكنيسة ، وهي مصطلحات إرمية الأصل في الغالب : فقد كانت لغة بني إرم لغة العلم والدين عند النصارى الشرقيين . بها يقيمون طقوسهم الدينية ، ومنها يترجمون الأناجيل الى أتباعهم النصارى العرب ، فدخلت بذلك الى العربية ألفاظ إرمية ذات معان خاصة . ومنها الألفاظ التي تكلمنا عنها وألفاظ أخرى عديدة لم نتطرق اليها ، لعدم وجود صلة لها بهذا الموضوع ، وخشية الإطالة والخروج على صلب الموضوع . وهناك مصطلحات يونانية ولاتينية وحبشية، لها صلة بالدين وبالمجتمع دخلت العربية أيضاً عن طريق النصرانية ، ظهر أثرها في نصارى بلاد الشأم والعربية الغربية خاصة ، بتأثير الاحتكاك المباشر والتبشير .

وقد عُني بعض الباحثين بجمع المصطلحات الدينية المعروفة عند أهل الكتاب في الجاهلية والتي أقرها الاسلام على نحو ما كانت تعرف به ، أو أعطاها معنى خاصاً ، ومن بينها عدد كبير ورد في القرآن الكريم[1] . ولما كانت غالبية العرب على الوثنية ، وهي ديانة بسيطة قليلة الشعائر بالنسبة الى اليهودية والنصرانية، لذلك كانت هذه المصطلحات شائعة معروفة بين أهل الكتاب من الجاهليين ، وقد نقلوها من اللغات الدينية التي كتب بها علماء أهل الكتاب ، فهي في الغالب من أصل سرياني أو عبراني أو يوناني أو حبشي .

وقد جمع الأب (شيخو) في كتابه : (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية) الألفاظ الخاصة بأهل الكتاب من الأبيات الواردة في دواوين شعراء الجاهلية وفي كتب الأدب ، وهي أبيات منها ما أجمع الرواة وأهل الأخبار على نسبتها الى أولئك الشعراء ، ومنها ما ورد عند بعض الرواة والأخباريين ولم يرد في دواوين أولئك الشعراء، ليجعل من تلك الألفاظ دليلاً على أثر النصرانية في الجاهليين ، وعلى مدى تغلغلها بينهم . وهو حكم لا يمكن أن يكون سليماً ، إلا بعد ثبوت صحة نسبة تلك الأبيات إلى الجاهليين .

---

١ Nöldeke, Neue Beiträge zur Semit. Sparad., S. 1. ff., J. Horovitz, Jewish Proper Names and derivatives in Koran, 145, R. Bell, The Grigin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.

وقد كان للنصرانية أثر مهم في نشر الكتابة العربية ، المأخوذة عن الإرمية ، بين الجاهليين ، الكتابة التي تولد منها قلمنا الذي نكتب به في الوقت الحاضر . وقد وجد المسلمون في فتحهم للعراق مدارس عديدة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة، كما أن تجار مكة ويثرب الذين كانوا يقصدون الشأم والعراق وجدوا الضرورة تحتم عليهم تعلم هذا الخط ، فتعلّموه . ولما نزل الوحي كتب كتابه به ، فصار قلم المسلمين . كما سأتحدث عن ذلك في موضوع الخط عند الجاهليين .

ولم يترك رجال الدين من النصارى العرب لنا أثراً كتابياً ينبىء عن مدى اشتغالهم في علم اللاهوت وفي العلوم الأخرى ، غير أن هذا لا يعني أن النصارى العرب لم يخرجوا علماء دين منهم ، ولم يعطوا النصرانية رجلاً منهم يخدمها ويقف حياته الروحية عليها ، ففي قوائم أسمـــاء من حضروا المجامع الدينية التي عقدت للنظر في الأمور الجدلية وفي القضايا التي تخص مبادىء الدين أسماء رجـــال تنبىء أنهم كانوا عرباً ، وقد دونت في محاضر تلك المجالس أسماء المواضع التي مثلوهـا من بلاد العرب ، كما أن بـــين رجال الدين الكبار الذين نبغوا في العراق من كان أصله من الحيرة ، وإذ كانت غالبية سكان هذه المدينة من العرب ، فلا يستبعد أن يكون من بين هؤلاء العلماء النصارى الحيريين من كان من أصل عربي .

لقد كانت النصرانية عاملاً مهماً بالطبع في ادخال الآراء الإغريقية والسريانية إلى نصارى العرب،فقد كانت الكنيسة مضطرة الى دراسة الإغريقية ولغة بني إرم ، لما للغتين من قدسية خاصة نشأت من صلتهما بالأناجيل . وقد كان أثر الإرمية أهم في الكنيسة الشرقية من الإغريقية ، لكونها لغة الثقافة في الهلال الخصيب في ذلك العهد . ولهذا وجدنا معظم التعابير والمصطلحات الدينية عند نصارى الشرق هي من هذه اللغة ، ومنها أخذها النصارى العرب ، فصارت عربية . وقد كان السريان قد نقلوا بعض مؤلفات اليونان واللاتين الى لغتهم . ولا أستبعد نقلهم بعض تلك المؤلفات ، ولا سيما الدينية منها ، من هذه اللغة إلى اللغة العربيـة ، وذلك قبل الاسلام ، أو ترجمتها ترجمة شفوية لطلاب العلم من العرب ممن كانوا لا يفقهون لغة بني إرم ، أو لا يلمّون بها إلماماً صحيحاً . وإذ كانت هذه اللغة لغة مقدسة ولغة الكنيسة الرسمية ، وكان أكثر رجال الدين من بني إرم،فقد كانت هذه اللغة اللغة المقررة في الكنيسة ، بها يدرس ويتباحث رجال الدين وإن كانوا عرباً، على نحو ما يفعله رجال الدين المسلمين الأعاجم الذين يدرسون العربية بعلومها المختلفة

ليتفقهوا بذلك في الدين ، والعربية هي لغة الدين الاسلامي. وكما يفعل رجال الدين الكاثوليك أيضاً في دراستهم اللاتينية وتبحرهم بها لأن اللاتينية هي لغة النصرانية عند الكاثوليك .

وكان للنصرانية أثر آخر في نصارى عرب الجاهلية، هو أثرها فيهم من ناحية الفن ، إذ أدخلت النصرانية بين العرب فناً جديداً في البناء . هو بناء الكنائس والأديرة والمذابح والمحاريب والزخرفة ، كما أدخلت النحت والتصوير المتأثرين بالنزعة النصرانية . ولدخول أكثر هذه الأشياء لأول مرة بين الجاهليين، استعملت مسمياتها الأصلية اليونانية أو الإرمية في اللغة العربية ، بعد ان صقلت وهذبت ، حتى اكتسبت ثوباً يلائم الذوق العربي في النطق. وستكشف الحفريات في المستقبل عن مدى تأثر النصارى العرب الجاهليين بالفن النصراني المقتبس عن الروم أو عن بني إرم والأحباش .

الفصل الثالث والثمانون

المجوس والصابئة

يقصد الأخباريون بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة : الخير والشر ، فيزعمون أن الخير من فعل النور وأن الشر من فعل الظلمة [1] . وهم يعلمون أن المجوس من الفرس وأنهم عبدة النيران .

وفي القرآن الكريم ذكر للمجوس . وقد ورد ذكرهم في موضع واحد منه : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس، والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد [2] » . وفي ذكرهم في القرآن الكريم دليل كاف على معرفة أهل الحجاز بهم ، ووقوفهم عليهم . وكيف لا يكون لهم علم بهم ووقوف عليهم ، وقد كان لأهل مكة اتصال وثيق بالحيرة كما كان لأهل الحجاز اتصال باليمن ؟ وقد كان المهيمن على اليمن الفرس عند ظهور الإسلام ، حيث طردوا الأحباش وأخذوا محلهم ، وقد كان هؤلاء الفرس على المجوسية ، ثم إنه كان في حضرموت وفي العربية الشرقية أناس منهم أقاموا هناك . وقد كان وكلاء الأكاسرة على هذه الأماكن منهم ، وهم على دين

---

١ النهاية (٤/٨٥) ، اللسان (٨/٩٨) (مجس) ، تاج العروس (٤/٣٤٥) (مجس) ، الملل والنحل (٢/٥٧) ، الحيوان (١/١٩٠) ، (٤/٩٥ ، ٤٧٩ ، ٤٨١) ، المسعودي ، مروج (١/٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٣) ، (بيروت) ، عمدة القارىء (١٥/٧٨) .

٢ الحج ، الآية ١٧ ، عمدة القارىء (١٥/٧٨ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع البيان (١٣/٨٨ وما بعدها) ، تفسير أبي السعود (٤/٨) ، تفسير الطبري (٦/٢٠١) ، روح المعاني (٦/١٧٩) ، تاج العروس (٤/٢٤٥) ، (مجس) .

المجوسية . وقد أشير الى وجودهم في أخبار الفتوح ، حيث دفع الجزية من أبى منهم الدخول في الإسلام . والظاهر أن هؤلاء كانوا مقيمين فيها من أمد طويل بدليل ورود جملة في أخبار الفتوح تفيد ذلك ، وهي : « وأسلم معها جميع العرب وبعض العجم . فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى ، فإنهم صالحوا العلاء »[1] .

ويروي أهل الحديث حديثين يذكرون ان الرسول قالها هما : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يمجسانه » ، أي يعلمانه دين المجوسية . وحديث « القدرية مجوس هذه الأمة »[2] . وفي هذين الحديثين ذكر للمجوس . ولعلماء الحديث كلام عليها . ولا سيما على الحديث الثاني ، وفيه تعريض بالقدرية ، أسلاف المعتزلة .

وكلمة (مجوس) من الكلمات المعربة ، عربت عن لفظة (مغوس) « Maghos » الفارسية التي تعني (عابد النار)[3] . وهي من الألفاظ التي دخلت إلى اليونانية كذلك ، حيث وردت لفظة « Magi » فيها ، وهي جمع (مجوس) « Magus »[4] . وقد دخلت الى لغة (بني إرم) أيضاً . ولا ندري اليوم على وجه صحيح من أي طريق دخلت لفظة (مجوسي) و (مجوس) الى العربية ، عن الفرس أنفسهم ، أو عن اليونانية أو عن طريق لغة (بني إرم)[5] !

وقد عرف علماء اللغة بأن لفظة (مجوس) من الألفاظ المعربة . وقد ذهبوا الى انها معربة عن الفارسية القديمة . ولكنهم اختلفوا فيما بينهم في أصل اللفظة وفي بيان معناها ، وذهبوا في ذلك مذاهب[6] ، وبعض هذه التفسيرات والتأويلات مفتعل يدل على عدم وقوف أصحابها على جلية الموضوع .

---

١ البلدان (٢/٧٤) ، « ومن أبى فعليه الجزية . فصالحهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على أن على المجوس الجزية » ، « وأخذ الجزية من المجوس » ، الطبري (٣/٢٩) .

٢ اللسان (٦/٢١٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٣٤٥) ، اللسان (٨/٩٨) «مجس» « طبعة بولاق » .

٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٩) .

٤ Hastings, p. 565.

٥ Shorter Ency. of Islam, p. 98, Ency., III, p. 97.

٦ اللسان (٨/٩٨) « طبعة بولاق » ، محيط المحيط (٢/٢٥٠) ، تاج العروس (٤/٣٤٥) «مجس» ، الحيوان ، للجاحظ (٥/٦٩) « عبد السلام هارون » ، المعرب ، للجواليقي (٣٢٠) .

ويريد الأخباريون بالمجوسية عبادة النـــار . واذا صح ما ورد في شطر بيت منسوب الى الشاعر الجاهلي (التوأم اليشكري) المعاصر لامرىء القيس ، هو : (كنار مجوس تستعـــر استعاراً)[1] ، فإن فيه دلالةً عـــلى ان هـذا الشاعر هو وامرأ القيس كانا على علم بنار المجوس ، وانها كانت تستعر دائماً ، وربما كانا على علم ببعض تعاليمها أيضاً .

وفي أخبار أهل الأخبار ما يفيد بتمجس بعض العرب ، فورد أن « المزدكية والمجوسية في تميم »[2] . وورد أن (زرارة بن عدس) وابنه (حاجب بن زرارة) ، وهما من سادات تميم كانا قد اعتنقا المجوسية ، واعتنقها أيضاً (الأقرع بن حابس) و (أبو الأسود) ، جدّ (وكيع بن حسان)[3] . وقيل إن أشتاتاً من العرب عبدت النار ، سرى اليها ذلك من الفرس والمجوس[4] .

وكان مجوس اليمن ، من الفرس الـــذين أرسلهم كسرى لطرد الحبش من اليمن ، فهم وأبناؤهم كانوا على هذا الدين ، دين الانبراطورية الفارسية . ولما ظهر الإسلام ، نبذ هؤلاء المجوسية واعتنقوا الإسلام[5] .

وأما مجوس عُمان وبقية أنحاء العربية الجنوبية ، فقد كانوا من الفرس كذلك: من تجار ومن مقيمين من بقية الفرس الذين كانوا قد استولوا على هذه الأرضين . وعند ظهور الإسلام لم يكن لهم نفوذ سياسي ، فقد كان سادات القبائل قـــد كوّنوا مشيخات فيها ، واستقلت في إدارة شؤونها ، غير أن المجوس بقوا فيها ، وعند دخول أهلها في الاسلام ، ودخول البلاد في دين الله ، دفع بعض أولئك المجوس الجزية ، ودخل الباقون في الإسلام . شأنهم في ذلك شأن اليهود والنصارى المقيمين في هذه الأرضين .

وأما مجوس البحرين ، فقد كانوا أكثر عدداً وأكبر نفوذاً من اخوانهـــم في عُمان ، لقرب هذه الأرضين من انبراطوريـــة الساسانيين ، ولهجـــة الفرس من السواحل المقابلة ومن طريق الأبلة الساحلي . وقد عثر المنقبون عـــلى قبور عديدة

---

١ اللسان (٦/٢١٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٢٤٥) ، (مجس) .
٢ البدء والتأريخ (٤/٣١) .
٣ المعارف (٢٦٦) « الصاوي » ، البدء والتأريخ (٤/٣١) ، الاعلاق النفيسة (٢١٧) .
٤ بلوغ الأرب (٢/٢٣٣) .
٥ Ency., Vol., III, p. 99.

تعود اليهم ؛ وعلى آثار لمعابدهم في العربية الشرقية . وكان على (هجر) ، حين أبلغ الرسول دعوته اليها ، رجل من الفرس اسمه (سيبخت مرزبان) ، وقد أسلم وأسلم معه قوم من قومه ، ودفع الجزية من فضّل البقاء منهم على دينه ، شأنهم في ذلك شأن أهل الكتاب[1] . وذكر ان الرسول كتب الى (مجوس هجر يعرض عليهم الاسلام ، فإن أبوا أخذت منهم الجزية ، وبأن لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم)[2] .

وكان باليمامة قوم من المجوس ، عاشوا في قراها ومواضعها، اشتغلوا بالزراعة وبالتعدين . وأرض اليمامة أرض غنية ، وهي (ريف) أهل مكة ، وعليها اعتمادهم في الحصول على الحبوب . كما عرفت بوجود المعادن بها ، فسهّل أهلها دخول المجوس اليها ، للاستفادة منهم في استغلال الأرض وفي التعدين .

هذا ولم نسمع بدخول أحد من ملوك الحيرة ، أو الأمراء الذين عينهم الفرس على العرب في المجوسية مع علاقتهم بالفرس واتصالهم الوثيق بهم ، ووجود الفرس في أرضهم وفي عاصمتهم ، بينما نجد بعضاً منهم وقد دخل في النصرانية . ولعل ذلك بسبب عدم ميل الفرس الى ادخال أحد من الغرباء عنهم في دينهم والى عدّهم المجوسية ديانة قومية خاصة بهم ، فلا يهمهم دخول أحد من غيرهم فيها .

هذا ولا أجد صلة بين (الأسبذية) التي زُعم أنها ديانة قوم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين ، عرفوا بـ (الأسبذيين) ، وبين (بني دارم) ، وكونهم كانوا على هذا الدين . فقد كان أحدهم وهو (المنذر بن ساوى) أسبذياً ، ولم يكونوا كلهم . قيل إنه نسب الى قرية بهجر يقال لها (الأسبذ) ، وقيل الى الأسبذيين[3] . ولا صلة لهذه الأسبذية بالمجوسية ، أو الى ديانة دخلت من فارس الى البحرين . وقد تحدثت في مكان آخر عن وجود قوم من العرب قدسوا (الحصان) . ورأيي أن المراد من (الأسبذية) الفرسان . وأن (المنذر بن ساوى) كان (أسبذاً) أي بدرجة فارس ، وهي من درجة الشرف والرفعة في الجيش الساساني .

---

١ البلاذري (٨٥ وما بعدها) ، البلدان (٢/٧٣ وما بعدها) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٣) ، (صادر) .
٣ فتوح البلدان (٩٨) ، (٨٩) (طبعة المكتبة التجارية) ، محاضرات للدكتور صالح أحمد العلي (١٧١) .

ويذكر علماء اللغة في معرض كلامهم على معنى لفظة (الزمزمة) ان من عادة المجوس الزمزمة عند الابتداء بالأكل ، أي قراءة شيء من كتبهم الدينية قراءة خافتة على المأكول تقديساً وشكراً له . وقد نهى الخليفة عمر عن الزمزمة ، لأنها من علائم المجوس[1] .

وقد عرف عالم المجوس ورئيسهم الروحي عند العرب بـ (الموبذ) و (الموبذان) ، وعرف كبيرهم بـ (موبذان موبذ) ؛ وجعل بعض العلماء (الموبذان) بمنزلة قاضي القضاة للمسلمين ، والموبذ بمنزلة القاضي[2] . وتعني (موبذان موبذ) الموبذ الأعظم . وقد اكتفي أحياناً بلفظة (موبذان) للتعبير عن (موبذان موبذ) . وقد فسر المسعودي لفظة (الموبذ) بمعنى حافظ الدين . ورجع أصلها الى (مو) بمعنى (دين) في رأيه ، و (بذ) بمعنى (حافظ)[3] . ورأى (اليعقوبي) ان (الموبذان) بمعنى عالم العلماء[4] . والموبذ هي من الألفاظ المعربة عن الفهلوية ، فهي من أصل فهلوي هو Magupat ، بمعنى عظيم المجوس . ويتمتع هذا الرئيس الديني الأعظم بسلطات دينية واسعة[5] . وقد أطلق السريان على الموبذ جملة (ريش مكوشي) (Resh Magushi) و (Resh dam'gushi) ، أي (رئيس المجوس) ، و (مكوش) تعني (المجوس)[6] .

وترد في العربية لفظة أخرى ، لها صلة بالمجوسية ، هي (الهربذ) ، و (الهرابذة) . ذكر علماء اللغة أن « الهرابذة : المجوس ، وهم قومة بيت النار التي للهند ... وقيل عظماء الهند أو علماؤهم » . وذكروا أن « الهربذي مشية فيها اختيال ، كمشي الهرابذة ، وهم حكام المجوس . قال امرؤ القيس :

مشي الهربذي في دفه ثم فرفرا »[7]

---

١ اللسان (١٥/١٦٥) ، تاج العروس (٨/١٦٥) ، تاج العروس (٨/٣٢٨) .

٢ اللسان (٣/٥١١) ، (موبذ) ، النهاية في غريب الحديث (٤/١١٩) ، تاج العروس (٢/٥١٣) .

٣ مروج الذهب (١/٢٦٨) ، (ذكر ملوك الساسانية) ، Ency., III, p. 543.

٤ تاريخ اليعقوبي (١/٢٠٧) .

٥ Ency., III, p. 543.

٦ اللسان (٣/٥١٧ وما بعدها) ، (هربذ) .

٧ Ency., III, p. 543.

واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية . من أصل (هـور) و (بت) ، بمعنى رئيس خدام النار . والموكل على خدمة النار في المعبد[1] .

وقد ذكر (الألوسي) ، أن صنفاً من العرب عبد النار ، وقال عنهم : « وهم أشتات من العرب ، وكأن ذلك سرى اليهم من الفرس والمجوس »[2] . ولم يذكر أسماء هؤلاء الأشتات . ولم يتحدث عن طريقة تعبدهم للنار . ولكننا نستطيع أن نجد في (نار الاستمطار) وفي (نار التحالف) وفي النيران الأخرى التي يذكر أسماءها أهل الأخبار دلالة على وجود فكرة تقديس بعض العرب للنار. وقد حبب الاسلام هذه النيران .

فقد ذكر أهل الأخبار ان العرب كانت في الجاهلية الأولى ، اذا احتبس عنهم المطر ، ويئسوا من نزوله ، يجمعون البقر ويعقدون في أذنابها وعراقيبها السلعَ والعشرَ ويصعدون بها في الجبل الوعر ، ويشعلون فيها النار ، ويزعمون ان ذلك من أسباب المطر ، قال الشاعر (الورل) الطائي :

أجاعلٌ أنتَ بيقوراً مسلّعة وسيلة منك بين الله والمطر[3]

وقد أشير الى هذه النار في شعر ينسب الى أمية بن أبي الصلت[4] . ويسمونها بنار الاستسقاء وبنار الاستمطار[5] .

وذكروا ناراً أخرى قالوا لها : (نار التحالف) و (نار المهول) . وقالوا ان العرب كانوا لا يعقدون حلفاً إلا عليها ، وكانوا اذا اختصموا في شيء ، واتفقوا على اليمين ، حلفوا على النار . ولهذا قيل لها (نار التحالف) . وطريقتهم في ذلك أن المتحالفين أو المتخاصمين يحفرون أمام نار يوقدونها ، ثم يلقون عليها

---

١ غرائب اللغة (٢٤٨)

٢ بلوغ الارب (٢/٢٣٣) .

٣ (الوديل الطائي) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، بلوغ الارب (٢/١٦٤) ، خزانة الادب (٣/٢١٢) ، الحيوان (٤/٤٦٨) .

لا در در رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الازمات بالعشر
احاعل أنت بيقورا مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر

اللسان (٤/٧٣) ، (بقر) .

٤ نهاية الارب ، للنويري (١/١٠٩ وما بعدها) ، الحيوان (٤/٤٦٦ وما بعدها) .

٥ نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .

ملحاً وكبريتاً . وعندئذ يذكرون منافع هذه النار ويدعون بالحرمان من خيرها على من ينقض العهد ويحل العقد.وفي حالة الحلف واليمين يقول صاحب النار للحالف: « هذه النار قد تهددتك » ، فإن كان مبطلاً نكل ، وان بريئاً حلف ، ولذلك قيل لها « نار المهول »[1] . وذكروا أيضاً أن هذه النار كانت معروفة في اليمن، مستعرة دائماً ، ولها سادة سدنة وقيّمون يطرحون الملح والكبريت في النار ، أما السدنة فيقومون بأخذ اليمين . وكان سادتها إذا أتى برجل ليحلف ، هيبوه من الحلف بها ، وخوّفوه من الكذب . وقد عرفت هذه النار بـ (نار التحاليف) كذلك . وقد أشار اليها الكميت بقوله :

همُ خوّفوني بالعمى هوّة الردى كما شب نار الحالفين المهوّل

كما أشار اليها شاعر آخر هو أوس ، إذ قال :

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صدّ عن نار المهوّل حالف[2]

وذكر (الجاحظ) أن العرب « يقولون في الحلف : الدّم ، الدّم ، والهدم الهدم ، لا يزيده طلوع الشمس إلا شداً ، وطول الليالي إلا مداً ، ما بل البحر صوفة ، وما أقام رضوى في مكانه ، إن كان جبلهم رضوى .

« وكل قوم يذكرون جبلهم ، والمشهور من جبالهم . وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم »[3] .

بل زعم بعض أهل الأخبار ان حمير كانت تحتكم الى نار كانت باليمن تحكم بينهم فيما كانوا يختلفون بـه . تأكل الظالم ولا تضر المظلوم . فلما اعتنق التبع (تبان أسعد) ، ديانة يهود ، وطلب من قومه الدخول فيها ، أبوا عليه ذلك، وطلبوا منه الاحتكام الى تلك النار في قصة يذكرونها في سبب تهوّد بعض حمير[4].

وللعرب نار السعالى والجن والغيلان[5] . ذكروا ان الغيلان توقد بالليل النيران

---

١ اللسان (٥/٢٤٣) ، (نور) ، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .
٢ اللسان (٧/١٠٢) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، خزانة الادب (٣/٢١٢) ، (خوفونا)، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدها) ، الحيوان (٤/٤٧٠) .
٣ الحيوان (٤/٤٧٠ وما بعدها) .
٤ سيرة ابن هشام (١/٢٧) .
٥ الحيوان (٤/٤٨١) .

للعبث والتخييل واضلال السابلة . وانها ترفع للمثقفر فيتبعها فتهوى بـه الغول . وأورد أهل الأخبار شعراً في ذلك منه شعر لـ (عبيد بن أيوب) ، المعروف بـ (أبي مطراب) ، وكان يزعم انه يؤاكل الظباء والوحش ويرافق الغول والسعلاة ، ويبايت الذئاب والأفاعي[1] .

وذكر أهل الأخبار قصة عن (خالد بن سنان العبسي) النبي العربي الذي منحه بعضهم في الاسلام جملة (عليه السلام) باعتبار انه من أنبياء الله ، قد يكون لها صلة بعقيدة عبادة النار عند العرب . إذ ذكروا ان ناراً ظهرت «بالبادية بين مكة والمدينة في الفترة ، فسمتّها العرب بدأ ، وكادت طائفة منهم ان تعبدها مضاهاةً للمجوس . فقام خالد هذا ، فأخذ عصاه ، واقتحم النار يضربها بعصاه، حتى أطفأها الله تعالى . ثم قال : إني ميت ، فإذا أنا مت ، وحال الحول ، فارصدوا قبري . فإذا رأيتم حماراً عند قبري ، فارموه واقتلوه ، وانبشوا قبري، فإني أحدثكم بكل ما هو كائن . فمات . فلما حال الحول ، رأوا الحمار فقتلوه، وأرادوا نبشه ، فمنعهم أولاده ، وقالوا : لا نسمى بني المنبوش »[2] . وقد عرفت تلك النار بـ (نار الحرتين)[3] . وذكر انها كانت ببلاد عبس ، فإذا كان الليل تضيء نار تسطع وفي النهار دخان مرتفع . وربما بدر منها عنق فأحرق من مرّ بها . فحضر خالد بن سنان النبي ، فدفنها ، فكانت معجزة له[4] . ويظهر ان حرة ، كانت في تلك المنطقة ، ثم خمدت فنسب الناس خمودها الى (خالد بن سنان) .

وللجاهليين استعمالات أخرى للنار ، فكانوا إذا خافوا شرّ رجل ، وتحوّل عنهم أوقدوا خلفه ناراً،ليتحوّل شرهم معه[5] . ويقولون : « أبعده الله واسحقه وأوقد ناراً في أثره » ، يقولون ذلك لكراهيتهم له ، ويتمنّون الموت له . وتعرف هذه النار بـ (نار الطرد)[6] . وذكر أن العرب تدعو على العدو فتقول:

---

١ الحيوان (٤/٤٨١ وما بعدها) ، معجم الشعراء (١٨٢) ، مروج الذهب (١/٣٢٨) ، الحيوان (٥/١٢٣) ، صبح الاعشى (١/٤١٠) .
٢ محاضرات الابرار (١/٧٧) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) ، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .
٣ الحيوان (٤/٤٧٦ وما بعدها) .
٤ صبح الاعشى (١/٤٠٩ وما بعدها) .
٥ اللسان (٧/١٠٢) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) .
٦ خزانة الادب (٣/٢١٣) ، الحيوان (٤/٤٧٤) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) .

أبعد الله داره وأوقد ناراً اثره [1] .

ولا بد أن يكون للنار الموقدة على المزدلفة صلة ما بعقائد الجاهليين القديمة في النار . وينسب الأخباريون هذه النـــار الى (قُصي بن كلاب) ، يقولون إنه أوقدها على المزدلفة حتّى يراها من دفع من عرفة في أيام الحج . وقد بقي الناس يوقدونها الى الاسلام [2] .

ومن نيران العرب ، نار الغدر ، وتوقد بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين ، جبليْ مكة : أبي قبيس وقُعَيْقعان ، أو أبو قبيس والأحمر . فإذا استعرت ، صاح موقدها : هذه غدرة فلان ، ليحذره الناس ، وليعلموا أن فلاناً قد غدر بجاره [3] .

وأما (نار السلامة) ، فهي التي توقد للقادم من سفر سالماً غانماً ، وقـــد عرفت لذلك بـ (نار المسافر) أيضاً [4] . و (نار السليم) ، هي النـــار التي توقد للملدوغ وللمجروح ولمن ضرب بالسياط ولمن عضه الكلب الكَلِبُ ،ويقولون إنها إنما توقد لكي لا يناموا ، فيشتد بهم الأمر ويؤدي الى الهلاك [5] .

وأما (نار الحرب) ، فهي النار التي كانوا اذا أرادوا حربـــاً ، وتوقعوا جيشاً عظيماً ، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليـــلاً على جبلهم ناراً ، ليبلـــغ الخبر أصحابهم . واذا جدوا في جمع عشائرهم اليهم أوقدوا نارين [6] .

ونار الصيد ، هي نار توقد للظباء وللحيوانات الأخرى ، فتغشاها اذا نظرت اليها [7] .

---

١ قال الشاعر :

وجمـــة أقوام حملت ، ولم أكن   كموقـــد نـــار أثرهـــم للتنـــدم

اللسان (٥/٢٤٣) ، (نور) .

٢ صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) ، نهاية الارب فـــي معرفة أنساب العرب (٤٦٢) ، الكامل ، لابن الاثير (٢/١٧) ، نزهـــة الجليس (٢/٤٠٦) .

٣ بلوغ الارب (٢/١٦٢) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) ، نزهـــة الجليس (٢/٤٠٦) .

٤ الحيوان (٤/٤٧٣) ، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .

٥ بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٤١٠) .

٦ الحيوان (٤/٤٧٤ وما بعدها) ، (٥/١٣٣) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، نزهـــة الجليس (٢/٤٠٦) .

٧ صبح الاعسى (١/٤١٠) ، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .

ونار الأسد ، وهي نار توقد اذا خافوا الأسد ، لينفر عنهم ، فإن من شأنه النفار عن النار ، يقال انه اذا رأى النار حدث له فكر يصده عن قصده، ويشغله عن السابلة . ويقولون إن الضفدع اذا رأى النار تحير وترك النقيق[1] .

ونار الفداء ، وكان الملوك منهم ، إذا أسروا نساء قبيلة ، خرجت اليهم السادة منهم للفداء أو الاستيهاب ، فيكرهون ان يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن أو في الظلمة فيخفى قدر ما يحبسونه لأنفسهم من الصفي ، فيوقدون النار لعرضهن[2] .

ونار القرى ، هي من أعظم مفاخر العرب ، وهي النار التي ترفع للسفر ، ولمن يلتمس القرى ، فكلما كان موضعها أرفع كان أفخر . وهي نار مذكورة علي الحقيقة لا على المثل[3] . وعرفت عندهم بـ (نار الضيافة) وبـ (نار الأضياف) أيضاً . وقد ذكر أهل الأخبار انهم ربما يوقدونها بـ (المندلى) ، ليهتدي اليها العميان . فالمندلى خشب ذو رائحة طيبة ، تفوح منه اذا أحرق ، فتشم من مسافة بعيدة[4] . وذكر انهم كانوا يوقدونها في ليالي الشتاء ، خاصة لحاجة الناس إلى القرى في ذلك الوقت . وكلما كانت النار مرتفعة ضخمة، كانت أفخر لصاحبها . وقد أشير اليها في الشعر[5] .

ويطلق العرب على كل نار تراها العين لا حقيقة لها عند التماسها، نار الحباحب، ونار أبي الحباحب . وقد ذكر (الجاحظ) أنه لم يسمع في أبي حباحب شيئاً[6]. ولهم قصص عن شخص زعموا أنه كان يعرف بـ (أبي حباحب) ، وكان رجلاً في سالف الدهر بخيلاً لا توقد له نار بليل ، مخافة أن يقتبس منها نار ، أو يراها الضيفان فيفدون اليه ، فإن أوقدها ثم أبصرها مستضيء أطفأها، فضربت العرب به المثل في البخل ، فقالت : « أخلف من نار أبي حباحب » . وذكر

---

١ صبح الاعشى (٤١٠/١) ، بلوغ الارب (١٦١/٢ وما بعدها) ، خزانة الادب (٢١٢/٣) ، نزهة الجليس (٤٠٦/٢) .

٢ صبح الاعشى (٤١٠/١) ، بلوغ الارب (١٦١/١ وما بعدها) ، خزانة الادب (٢١٢/٣) ، نزهة الجليس (٤٠٦/٢) .

٣ الحيوان (١٣٤/٥) ، خزانة الادب (٢١٢/٣) ، نزهة الجليس (٤٠٦/٢) .

٤ بلوغ الارب (١٦١/٢ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٠٩/١ وما بعدها) .

٥ بلوغ الارب (١٦١/٢) ، صبح الاعشى (٤١٠/١) .

٦ الحيوان (٤٨٦/٤ وما بعدها) ، المخصص (٢٨/١١) ، بلوغ الارب (١٦١/٢ وما بعدها) .

أن (أبا الحباحب) رجل كان لا ينتفع بماله لبخله فنسبوا اليه كل نار لا ينتفع بها[1].

ومن النيران الأخرى : نار البرق ، ونار البراعة ، ونار الخلعاء والهراب ، ونار الوسم ، وهي النار يسم بها الرجل منهم أبله . فيقال له : ما سمة إبلك ؟ فيقول كذا[2] .

وقد ذكر علماء اللغة أن العرب استعملوا النار في معنيين : معنى حقيقي ، ومعنى مجازي . وقصدوا بالنيران الحقيقة ، النيران التي كان يوقدها العرب حقاً، وحصروها في أربعة عشر ناراً أو أكثر من ذلك ، أو أقل[3] . وقصدوا بالنيران المجازية ، استعمال الكلمة في معان مجازية ، مثل قولهم نار الحب ونار المعدة ، ونار الحُمى ، ونار الشوق[4] .

الصابئة :

ونجد في القرآن الكريم اشارة الى الصابئين ، وقد ذكروا بعد اليهود والنصارى في موضع من سورة البقرة[5] ، وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى في موضع من سورة المائدة وفي سورة الحج[6] . ويظهر ان معارف أهل الأخبار عنهم نزرة، فليس لديهم شيء مهم مفيد يفيدنا عن عقائد أولئك الصابئة وآرائهم .

وقد ربط أهل الأخبار بين هؤلاء الصابئة المذكورين في القرآن وبين صابئة حرّان وصابئة العراق ، وجعلوهم طائفتين في الأصل : طائفة هم صابئة حنفاء

---

١ بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدها) .
٢ الحيوان (٤/٤٨٦ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٤١٠) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٢/١٦١ وما بعدها) ، خزانة الادب ، للبغدادي (٣/٢١٢) ، (بولاق) ، نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) ، الحيوان (٥/١٠٧ وما بعدها) ، نزهة الجليس (٢/٤٠٦) .
٤ نهاية الارب (١/١٠٩ وما بعدها) .
٥ البقرة ، الاية ٦٢ .
٦ المائدة ، الاية ٦٩ ، الحج ، الاية ١٧ ، تفسير الطبري (٢/١٤٤) ، « دار المعارف » ، مجمع البيان ، للطبرسي (١/٢٧٨) ، الملل والنحل ، للشهرستاني (٢/٩٨) ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، للدمشقي (١/٤٤) « بطرسبورغ » ، ابن خلدون (٢/٣٢) « دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩ م » ، المسعودي ، مروج (٢/٢٤٧) ، الفهرست (٣٣٢) ، رسوم دار الخلافة (٥) .

وهم في نظرهم أصحاب ابراهيم ممن كان بحرّان وممن كان على دعوته ، وصابئة مشركون وهم من فسدوا من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب[1] .

ولكن الذي يفهم من القرآن الكريم ان الصابئة جماعة كانت على دين خاص ، وانها طائفة مثل اليهود والنصارى ، أي ان الكلمة مصطلح ولهـا مدلول معين مفهوم . فما ذهب اليه المفسرون من هذا التعريف للصابئة ومن هذا التقسيم ، انما تكوّن عندهم في الاسلام ، بعد وقوفهم على أحوال الصابئة واتصالهم بهم .

ويفهم من المواضع التي ورد فيها ذكرهم في القرآن الكريم ، ومن ورود اسمهم مع اليهود والنصارى فيه ، انهم كانوا يعبدون إلهاً ، ويتوجهون في دينهم اليه[2] .

ولا استبعد أن يكون من بين سكان مكة أناس كانوا من الصابئة ، جـاءوا اليها تجاراً من العراق ، أو جاء بهم الحظ اليها ، حيث أوقعهم في سوق النخاسة، فاشتراهم تجار مكة وجاءوا بهم الى مدينتهم ، وعرفوا منهم أنهم صابئة .

ونحن إذا ما تتبعنا ما ورد عن لفظة صبأ وصابىء في الموارد الاسلامية نرى أن هذه الموارد تفسر لفظة صبـأ بمعنى خرج من شيء الى شيء ، وخرج من دين الى دين غيره . وتذكر أن قريشاً كانت تسمي النبي صابئاً،والصحابة الصباة[3] . أي الخارجين على دين قومهم . وهي تستعمل لفظة الصابئة في كثير من الأحوال في معنى حنفاء ، كالذي نراه في ربطهم ابراهيم بهاتين الديانتين ، وعدّهم قدماء الصابئة في جملة الحنفـاء ، فإن هذا يدل على أن المراد من الصابئة بين العرب عنـد ظهور الاسلام هم المنشقون الخارجون على ديانة قومهم ، أي على عبادة الأوثان والمنادين بالتوحيد . وأما ما نراه من إطلاق الصابئة على الصابئة المعروفين في الاسلام ، فإنما حدث في الإسلام .

واطلاق قريش لفظة الصابىء والصباة على المسلمين بدلاً من تسميتهم بمسلمين قضية مهمة جداً ، يجب الاهتمام بها ، وفي الأخبار أمثلة كثيرة على ذلك . فقد

---

١ التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون (١/٨٨٧) ، بلوغ الارب (٢/٢٢٣ ومـا بعدها) .

٢ Dictionary of Islam, p. 551.

٣ النهاية (٢/٣٦٩) ، اللسان (١/١٠٢) ، « وكانت العرب تسمي النبي صلى الله عليه وسلم الصابىء ، لانه خرج من دين قريش الى الاسلام ، ويسمون من يدخل في دين الاسلام مصبوا .. ويسمون المسلمين الصباة » ، تاج العروس (١/٣٠٦) ، « طبعة الكويت » ، القاموس المحيط (١/٢٠) .

ذكرت كتب الحديث والسير واللغة أن قريشاً دعت النبي صابئاً ، وفي جملة من دعاه بذلك عمر قبل اسلامه ، ثم رمي عُمر بها بعد إسلامه أيضاً . ولما أسلم أبو ذر الغفاري ، انهال عليه أهل مكة بالضرب ، لأنه صبأ وفتّن وخرج عن دينهم . ولما أرادت زوج مطعم بن عديّ خطبة ابنة أبي بكر الى ابنها ، ذكرت له أنها تخشى أن يؤثر على ولدها ، فيكون من الصباة . وقد كانت لفظة الصباة والصُّبّاء بمعنى مسلمين عند المشركين،ففي معركة حنين نجد (دريد بن الصمّة) يخاطب أحد رؤوس القوم ويقول له في جملة ما قاله : « ثم ألق الصُبّاء على متون الخيل »[1] . ولما أرسل بنو عامر لبيداً الى النبي ليرى خبره وعلمه، أسلم ، وأصابه وجع هناك شديد من حمّى ، فرجع الى قومه بسبب تلك الحمّى، وجاءهم بذكر البعث والجنّة والنار ، فقال صرافة بن عوف بن الأحوص :

لَعَمْرُ لبيد إنه لابن أمــه ولكن أبوه مسه قدم العهــد
دفعناك في أرض الحجاز كأنما دفعناك فحلاً فوقه قرع اللبد
فعالجت حماه وداء ضلوعــه وترنيق عيش مسه طرف الجهد
وجئت بديــن الصابئين تشوبه بألواح نجد بعد عهدك من عهد
وإن لنا داراً زعمت ومرجعاً وثم إياب القارضين وذي البرد

فكان عمر يقول : « وايم الله إياب القارضين وذي البرد[2] » . فقصد الشاعر بجملة « دين الصابئين » الإسلام ، فالصابئون في نظر المشركين هم المسلمون .

ولما ذهب سعد بن معاذ إلى مكة ، أنبه أبو جهل على قدومه اليها بعد ان دخل في دين الصابئين . ولما قدم خالد بن الوليد على بني جذيمة ، نادوه بأنهم صبأوا ، أي دخلوا في الاسلام[3] . ويلاحظ ان الوثنيين أطلقوا هذه التسمية على كل من أسلم ، وعلى كل من شكّوا فيه ورأوا انه ميال اليهم ، فكانوا يرمونه بهذه التهمة . أما المسلمون ، فلم يرتاحوا اليها . والظاهر انها كانت سبّة بالنسبة اليهم في ذلك العهد ، بدليل انهم كانوا يكذبون من كان يطلقها من المشركين عليهم ويردّ عليهم رداً شديداً ، فلما نادى جميل بن معمر الجمحي في قريش :

---

١ الطبري (١٢٦/١) ، « معركة حنين » .
٢ الاغاني (١٣١/١٥ وما بعدها) « خبر لبيد في مرثية أخيه » .
٣ لقد جمع « ولهوزن » أكثر المواضع التي أطلق الوثنيون فيها هذه اللفظة على المسلمين ، راجع كتابه : Reste, S. 236.

ألا ، ان ابن الخطاب قد صبأ ، وذلك حين دخل في الاسلام ، وشهد بذلك أمام النبي ، نادى عمر من خلفه : كـــذب ، ولكني أسلمت ، وقالت قريش : صبأ عمر[1] . ولا بد ان يكون لتكذيب عمر وغيره الوثنيين لتسميتهم المسلمين بهذه التسمية من سبب . وهو سبب يشعر ان أهل مكة انما أطلقوها عليهم إهانة لهم وازدراء لشأنهم وعلى سبيل السبّة ، لأنها كانت سبّة عندهم وذلك قبل الاسلام. وإلا لما انزعج المسلمون منها ، وردّوا على قريش بسببها رداً قبيحاً . وقد رأيت ان المسلمين كانوا يفتخرون باطلاق الحنيفية عليهم ، وانهم كانوا يرون ان الحنفاء هم سلف المسلمين ، وان ابراهيم كان حنيفاً وكان أول المسلمين .

فالصابئون اذن هم أولئك الخارجون على عبادة قومهم المخالفون لهم في ديانتهم. شأنهم في ذلك في نظر قريش شأن من يسميهم المسلمون في ايامنـــا بالملحدين أو الهدامين ، أو أي مصطلح آخر يراد به الرمي بالخروج على مثـل المجتمع القائم وتقاليده ، وذلك ازدراء بهم ، وتنفيراً للناس عنهم .

---

١ ابن الاثير (٢/ ٣٤ وما بعدها) « ذكر اسلام عمر بن الخطاب » .

الفصل الرابع والثمانون

تسخير عالم الارواح

للعالم الخفي ، وأقصد به عالم الأرواح وكل ما لا تراه العين ويدركه الحس من قوى طيبة أو خبيثة ، أثر خطير في عقائد أهل الجاهلية ، وفي عقائد الشعوب القديمة ، وفي أنفس كثير من الناس حتى اليوم ، إذ يشغل ذلك العالم في الواقع جزءاً خطيراً من الدين ومن حياة الناس عامة . فهناك صلوات وشعائر وأدعيــة مكتوبة وغير مكتوبة تتلى وتقال وتقرأ للسيطرة على ذلك العالم ، وللانتفاع منه ، ولتسخيره في سبيل خير الانسان ومصلحته ، ولتجنب أذى النوع الخبيث منه . واذا تتبعنا هذه الاعتقادات عند الجاهليين ، وجدنا انها قد كونت الجزء الأكبر من عقيدتهم وديانتهم ، وانها والذبائح من الأصول التي ارتكزت عليهـا ديانات العرب قبل الاسلام .

والواقع ان الاعتقاد بالأرواح يشغل حيّزاً كبيراً من فناء الدين عند الجاهليين ، وإن بدا لنا انه شيء لا علاقة له بالدين . فنحن حين البحث في موضوع العقيدة والدين عند أهل الجاهلية ، لا نتحدث بالطبــع عن العقيدة والدين بالنسبة الى معتقداتنا وبالنسبة الى تفكير الانسان في القرن العشرين ، وانما نتحدث عن رأي أناس عاشوا قبل الاسلام ، وعن جماعــة أدركت الاسلام ، كانت الأرواح في نظرها أكثر أثراً في حياة الفرد من أثر الآلهة فيه . فتقرب وتوسل اليها أكثر من تقربه وتوسله إلى آلهته التي كان يرى ان بيدها مفتاح سعادته وشقائه . وآية ذلك كثرة الكلمات والمصطلحات الجاهلية المتعلقة بها ، وما ورد في القرآن الكريم وفي

الحديث النبوي والأخبار من أثر الجن في نفوس القوم ، حتى تصوروهم آلهة وشركاء للأرباب في ادارة دفة هذا الكون .

هذا ، ونحن إن ذكرنا الأرواح ، فإننا لا نقصد المعنى المفهوم منها في رأينا، بل نقصد هذا المعنى وشيئاً آخر أعم وأوسع منه،معنى يشمل أيضاً بعض الأحجار والأشجار والآبار والكهوف وأمثال ذلك من أشياء تصوّر أهل الجاهلية أنها تكمن فيها قوة خارقة تستطيع التأثير في حياة الناس ، فتقربوا اليها بالزيارات والقرابين وبالتضرع والتوسل والأدعية لقدسيتها ولتلك القدرة العجيبة التي فيها ، فهي من حيث النفع أو الضرر كالأرواح : لوجود قوى خارقة غير منظورة فيها ، هي من الأرواح ، فتقرب اليها الانسان لذلك ، لغرض الاستفادة منها أو دفع أذاها.

وطبيعة الأرواح ، طبيعة غير مرئية ولا منظورة ، هي لطيفة خفيّة مستورة . إنما يجوز لبعضها الظهور في صورة أشباح ، والتجسم على هيأة الأجساد . ثم انها على طبيعتين : شريرة وخيرة ، خبيثة وصالحة . من الطبيعة الأولى الشياطين وبعض أنواع الجن ، ومن الطبيعة الثانية الملائكة والشطر الثاني من الجن . وأثر الخبيث من الأرواح أوضح وأكثر في عقلية أهل الجاهلية من أثر الفريق الصالح . وهو شيء منطقي مفهوم ، فالإنسان الى الشر أقرب منه الى الخير ، ذلك أن من طبع الخير عدم إلحاق الأذى بالغير ، فلا يخشى منه . أما الشرير ، ففي طبعه إلحاق الضرر والأذى بكل واحد ، وفي كل لحظة يراها ، لذلك التفتت اليه الأنظار حذراً منه ، وخشية من مكره ، وتقرّبت وتوددت اليه ، لا حباً له ، ولا تقرباً اليه لأنه جدير به ، بل إنما تملّقاً وتزلفاً لإبعاد شره ، وأمن جانبه على نمط ما يفعله الناس تجاه الأقوياء من الأشرار حيث يتقربون اليهم أو يبتعدون عنهم طمعاً ورهبة ، تمشية لأمور معاشهم ، لا حباً لهم واخلاصاً لاستحقاقهم ذلك الحب والاخلاص .

وقد ذكر (الجاحظ) ان الأعراب تجعل الخوافي والمستجنّات جنسين. يقولون جنّ وحنّ[1] . وقصد بـ (الخوافي) الأرواح ، لأنها لا ترى . وذكر غيره ان (الحن) ، حي من الجن ، كانوا قبل آدم ، يقال منهم الكلاب السود البهم ، يقال كلب حني ، أو سفلة الجن وضعفاؤهم أو كلابهم ، « ومنه حديث

---

١ الحيوان (٦/١٩٣) .

ابن عباس ، رضي الله تعالى عنهما ، الكلاب من الحن ، وهي ضعفة الجن ، فإن كان عندكم طعام فألقوا لهن ، فإن لهن أنفساً ، أي تصيب بأعينها »[1]. وذكر ان (الحن) خلق بين الجن والانس[2] .

وذكر (الجاحظ) أيضاً أن بعض الناس يقسم الجنّ على قسمين ، فيقول : هم جنّ و (حنّ).ويجعل (الجن) أضعفها[3] . وقد ذهب بعض أهل الأخبار الى أن (الحن) ، هم كلاب الجنّ وسفلتهم ، وشر أنواع الجـن[4] . ويجعلون الجن فوق الحن[5] .

ويقال للجنّ الجان ، و (الجنة) كذلك . و (الجان) اسم جمع للجنّ على رأي بعض علماء اللغة[6] . وقـد ورد في مقابل (الإنس) في القرآن الكريم ، « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان »[7] . وصيره اسم أبي الجن بعض العلماء ، أي في مقابل آدم أبي البشر[8] . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان كلمة (الجن) من الكلمات المعربة ، وذهب بعض آخر الى انها عربية[9] . وأرى انها من الكلمات السامية القديمة ، لأن الايمان بالجن من العقائد القديمة المعروفة عند قدماء الساميين وعند غير الساميين كذلك . والجن قوم مستترون ، وكلمة (جنون) من هذا الأصل ، ومن معاني أصل الكلمة الاستتار .

ولم يتوصل الباحثون حتى الآن الى رأي ثابت في أصل كلمة (الجن) . فمنهم من رأى أنهم اسم صنم من أصنام العرب القديمة ، ومنهم من رأى أنها من أصل

---

١ تاج العروس (٩/١٨٥) ، (حنن) ·
٢ المصدر نفسه ·
٣ الحيوان (٧/١٧٧) ، (هارون) ، (٦/١٩٣) ·
٤ بلوغ الارب (٢/٣٥١) ·
٥ قال أعشى سليم :
فما أنا من جن اذا كنت حائفا   ولست من النسناس في عنصر البشر
وقال اخر :
أبيت أهوى في شياطين ترن   مختلف نجواهم حن وجن
الحيوان (٦/١٩٣) ·
٦ تاج العروس (٩/١٦٥) ، (جن) ، روح المعاني (١٤/٣٤ وما بعدها) ·
٧ الرحمن ، الاية ٧٤ ·
٨ تاج العروس (٩/١٦٥) ، (جن) ، (والجان · أبو الجن ·· كما أن آدم أبو البشر) ، اللسان (١٣/٩٥ وما بعدها) ، (جنن) ، Reste, S. 148.
٩ Ency., I, p. 1045, Smith, p. 121, Lane, Lexicon, p. 492.

أعجمي ، ومنهم من وجـد لها صلة بالحبشية [1] . أما علماء العربية ، فرأوا أن معنى الكلمة الأصلي هو الاستتار ، وأنها من الاجتنان ، ولعدم إمكان رؤية ذلك العالم أطلقت عليه كلمة (الجن)[2] . وتقابل لفظة (الجن) و (جن) لفظـة (Demons) في الإنكليزية .

ويرى (نولدكه) أن فكرة (الجن) فكرة استوردها العرب من الخارج ، بدليل قولهم ان الجنة من عمل الجن ، ومن تلبس الجن بالانسان . وهي في نظره عقيدة قديمة دخلت العرب من جيرانهم الشماليين ، فقد كان الايرانيون يطلقـون على المجنون لفظة (ديوانه) (Devana) ، أي الذي به (ديو) (dev) من الأصل (ديـوه) (Daiva) ، ومعناه (Demon) ، أي جان . ومن هـذه الفكرة دخلت العهد الجديد من الكتاب المقدس . ويأتي (نولدكه) بدليل آخر على اثبات نظريتـه في أن فكرة الجن فكرة مستوردة من الخارج شيوع قصص بناء جنّ سليمان مدينة (تدمر) بين الجاهليين ، وهو قصص ورد من قصة بناء (سليمان) لـ (تامار) في العهد القديم ، وتفسير (تامار) بتدمر عند المفسرين العبرانيين[3] .

ورأى (روبرتسن سمث) وجوه شبه كبير بين فكرة العرب عن الجن وبين فكرة بعض القبائل البدائية عن الحيوانات . إن رأي الجاهليين في الجن في رأيـه يشبه رأي المتوحشين الطوطميين في الحيوانات الوحشية . وفي القصص الذي يرويه البدائيون عن الحيوانات الوحشية وعن أرواحها وامكان احداثها الأمراض والأذى بالانسان شبّه بهذا القصص المروي عن الحيوانات الوحشية ، مما جعله يتصور ان فكرة الجن عند الجاهليين هي تطور لهذه النظرية القديمة التي تكون عند الطوطميين. انتقلت اليهم من عقيدة سابقة تطورت من عهد عبادة الطوطم. وان الجن (طوطمية) دون ان يكون لها قوم يشعرون بوجود صلة نسب وقربى بها [4] .

ولكن من الصعب تصور ظهور فكـرة الجن عند عرب الجاهلية برمتها من

---

١ Ency. Religl., I, p. 669, Nöldeke, Moallakat, I, 69, 78, Shorter Ency., p. 91, Ency., I, p. 1045.

٢ تاج العروس (٩/١٦٥) ، (جن) ، اللسان (١٣/٩٥ وما بعدها) ، (جنن) .

٣ Ency. Religl., I, p. 670.

٤ Robertson Smith, Marriage, p. 128.

الطوطمية ، لأن هناك أموراً عديدة لا يمكن تفسيرها على وفق هـذه النظرية . ولكننا نستطيع ان نقول انها نوع من أنواع الـ (Animism) [1] . وقد وجدت عند العبرانيين في عهودهم القديمة ، كما كانت عند البابليين وغيرهم .

واذا سكن الجني مع الناس ، قالوا : عامر ، والجمع عمّار ، وإن كان ممن يعرض للصبيان ، فهم أرواح ، فإن خبث أحدهم وتعرم ، فهو شيطان . فإن زاد على ذلك ، فهو مارد . فإن زاد على ذلك في القوة ، فهو عفريت . فإن طهر الجني ونظف ونقي وصار خيراً كله فهو ملك. وهم في الجملة جن وخوافي[2] .

لقد لعب الايمان بالجن عند بعض الجاهليين دوراً فاق الدور الذي لعبته الآلهة في مخيلتهم،فنسبوا اليها أعمالاً لم ينسبوها الى الأرباب ، وتقربوا اليها لاسترضائها أكثر من تقربهم الى الآلهة . إنها عناصر مخيفة راعبة . تؤذي من يؤذيها وتلحق به الأذى والأمراض ، ولذلك كان استرضاؤها لازماً لأمن تلك الآفات . وهذه العقيدة جعلت الجن في الواقع آلهة ، بل أكثر سلطة ونفوذاً منها ، وصيّرت عمل الآلهة سهلاً يسيراً تجاه الأعمال التي يقوم بها الجن . ولا زال أثر هـذه العقيدة باقياً في نفوس النـاس حتى الأيام ، مع تقليل أهمية عمل الجن على الإنسان في الاسلام .

وليست هذه العقيدة عقيدة أهل الجاهلية حسب ، بل هي عقيدة أكثر مـن اعتقد بأثر الأرواح في العالم وفي عمل الإنسان ، اذ صيرتها آلهة مقرّها الأرض ، أو آلهة من الدرجة الثانية . والغريب أننا نرى بعض الشعوب تخصص أعمال الآلهة الكبيرة بناحية معينة ، وتعتبرها آلهة رئيسية كبرى ، بينما تجعل عمل الجن عمـلاً واسعاً يشمل كـل الأرض والانسان ، أي أن عملها أوسع جداً من عمـل تلك الآلهة وأهم .

وفي القرآن الكريم ان قريشاً جعلت بين الله وبين الجنة نسباً : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجِنّة انهم لمحضرون »[3] ، وانهـا جعلت الجن شركاء له : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلَقَهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون »[4] . أي جعلوا لله الجـن شركاء في عبادتهم

---

١ المصدر نفسه .
٢ الحيوان (٦/١٩٠ وما بعدها) .
٣ الصافات ، الآية ١٥٨ .
٤ الانعام ، الآية ١٠٠ .

اياه ، وخرقوا له بنين وبنات ، وتخرصوا لله كذباً ، فافتعلوا له بنين وبنات جهلاً وكذباً[1] . وورد ان الله تزوج الجن ، وان الملائكة هم بناته من هذا الزواج . « قال كبار قريش : الملائكة بنات الله . فقال لهم أبو بكر الصديق : فمن أمهاتهم ؟ قالوا : بنات سراة الجن »[2] .

ويفهم من القرآن الكريم أيضاً ان من العرب من كان يعبد الجن : « قالوا : سبحانك ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون »[3] . وذكر (ابن الكلبي) ان (بني مليح) من خزاعة رهط طلحة الطلحات ، كانوا ممن تعبد للجن من الجاهليين[4] . ويزعمون ان الجن تتراءى لهم[5]. وفيهم نزلت : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم »[6] . وذكر ان قبائل من العرب عبدت الجن ، أو صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن . ويقولون هم بنات الله[7] ، فأنزل الله : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة . أيهم أقرب . ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذوراً »[8] .

وليس لدى المفسرين أو أهل الأخبار علم واضح عن كيفية اعتقاد بعض العرب بألوهية الجن ومصاهرتها للآلهة أو الإله . وما ورد عن ذلك في القرآن ، مجمل . والظاهر أن ذاكرة الأخباريين لم تتمكن من حفظ تفاصيل هذه العقيدة والعقائد المماثلة الأخرى ، ولا بد وأن تكون لها أسطورة قديمة ، يظهر أنها ماتت قبل الاسلام ، أو أن المسلمين تركوا روايتها لمعارضتها للإسلام ولأنها كانت في نظرهم خرافة تتعلق بأصنام ، فلم يروا الاهتمام بها ، وتركوها ، ولولا ورود ذكرها مقتضباً في القرآن ، فلربما صرنا في جهل تام بأمر تلك العبادة .

ويرى (نولدكه) أن الجاهليين لم يتعبدوا للجن ، ولم يتخذوها آلهة على نحو

---

١ تفسير الطبري (١٩٧/٧) .
٢ لباب النقول في أسباب النزول ، للسيوطي (٨١/٢ وما بعدها) ، حاشية على تفسير الجلالين .
٣ سبأ ، الآية ٤١ .
٤ الاصنام (٣٤) ، الاشتقاق (٢٧٦) .
٥ تفسير القرطبي (٣٠٩/١٤) .
٦ الاعراف ، الآية ١٩٣ .
٧ تفسير الطبري (٧٢/١٥) .
٨ الاسراء ، الرقم ١٧ ، الآية ٥٧ .

ما نفهم من معنى الآلهة ، وأن (عبد الجن) ، وإن دل على التعبد للجن ، إلا أن هذه التسمية لا تدل حتماً على عبادة للجن[1] .

وتتألف الجن من عشائر وقبائل ، تربط بينها رابطة القربى وصلة الرحم . وهي كعشائر وقبائل جزيرة العرب ، تتقاتل فيما بينها ، ويغزو بعضها بعضاً . ولها أسماء ذكر بعضاً منها أهل الأخبار ، كما أن لها ملوكاً وحكاماً وسادات قبائل . فهي في حياتها تحيا على شكل نظام حياة الجاهليين . واذا اعتدى معتد على جان انتقمت قبيلته كلها من المعتدي أو المعتدين . وبين قبائل الجن عصبية شديدة ، كعصبية القبيلة عند الجاهليين ، وهي تراعي حرمة الجوار ، وتحفظ الذمم والعقود وتعقد الأحلاف . فنحن إذن أمام حياة جاهلية مستترة غير منظورة ، هي حياة جن جاهليين . ومن الجن (بنو غزوان)[2] ، (بنو عزوان)[3] .

وقد تتقاتل طوائف من الجن ، فيثير قتالها عواصف الغبار ، ولذلك فسر الجاهليون حدوث العواصف والزوابع بفعل الجن . ونجد هذه الفكرة فكرة إحداث الجن للرياح والعواصف في المزامير من أسفار التوراة[4] .

وهم مثل البشر ، فيهم الحضر ، أهل القرار ، وفيهم المتنقلة وهم أعراب الجن ، وفيهم من يسير بالنهار ، وفيهم من يسير بالليل ، وهم (سراة الجن) ، و (السراة) . قال الشاعر :

أتوا ناري فقلت منون قالوا : سراة الجن ، قلت : عموا ظلاما[5]

وللجن كما للانس سادة ورؤساء وعظماء ، نذكر منهم : الشنقناق والشيصبان . وقد ذكر الأول في شعر (بشار بن برد) وفي شعر لأبي النجم ، وفي شعر حسان بن ثابت[6] . و (دحرش) أبو قبيلة من الجن[7] .

وعقد الجاهليون أحلافاً مع الجن على التعاون والتعاضد ، فقد ذكر ان قوماً

---

١ Ency. Religi., I, p. 670.

٢ اللسان (٥/٨٩) ، (وبنو غزوان ، حي من الجن) ، (فرر) .

٣ تاج العروس (١٠/٢٤١) ، (عزا) .

٤ المزمور ١٠٤ ، الآية الرابعة ، Reste, S. 151.

٥ تاج العروس (١٠/١٧٤) ، (سرى) .

٦ الحيوان (١/٣٠٨) ، (٦/٢٢٨ ، ٢٣١) ، ثمار القلوب (٥٥) .

٧ تاج العروس (٤/٣١٠) ، (دحرش) .

من العرب ، كانوا قد تحالفوا مع قوم من الجن من (بني مالك بن أقيش)[1].

ويذكر الرواة قصصاً عن الجن مع الإنسان . يذكرون أن (تأبط شراً) رفع كبشاً تحت إبطه ، وأخذه معه الى الحي ، فصار يبول عليه في الطريق ، حتى إذا قرب من مكانه ، ثقل عليه ، فرمى به ، فإذا هو الغول[2] . ويذكرون أن ابن امرأة من الجن أراد الحج في الجاهلية ، فخافت عليه أمه من سفهاء قريش، ولكنه ألحّ عليها بأن تسمح له بالذهاب . فلما أكمل الطواف ، وصار ببعض دور بني سهم ، عرض له شاب منهم فقتله ، فثارت غبرة شديدة بمكة، ومات من بني سهم خلق كثير قتلهم الجنّ انتقاماً منهم لمقتل الجان ، فنهضت بنو سهم وحلفاؤها ومواليها وعبيدها ، فركبوا الجبال والشعاب بالثنيّة ، فما تركوا حيّة ولا عقرباً ولا عظاية ولا خنفساء ولا شيئاً من الهوام يدب على وجه الأرض إلا قتلوه ، حتى ضجت الجن ، فصاح صائحهم من على أبي قبيس يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم الذين قتلوا منهم أضعاف ما قتله الجن من بني سهم، فتوسطت قريش ، وأنهي النزاع ، وتغلب بنو سهم على الجن[3] .

والجن مثل البشر ، يعتدون كذلك ، ولا يردعهم من اعتدائهم إلا القوة . هذا رجل من (بني سهم) يقص علينا في الاسلام انه كان بـ (تبالة) يراجع نخلاً له ، وبين يديه جارية له ، فصرعت، فأدرك ان الجن هم الذين صرعوها، فوقف عليها قائلاً : يا معشر الجن ! أنا رجل من بني سهم،وقد علمتم ما كان بيننا وبينكم في الجاهلية من الحرب وما صرنا اليه من الصلح والعهد والميثاق ان لا يغدر بعضنا ببعض ، ولا يعود إلى مكروه صاحبه ، فإن وفيتم وفينا ، وإن غدرتم عدنا الى ما تعرفون . فخافت الجن من هذا التهديد ، وأفاقت الجارية ، ولم يصبها بعد ذلك مكروه[4] .

وذهب الجاهليون الى جواز قتل الجن للانسان . وقد بقي هذا الاعتقاد

---

١ الطبري (٢/٣٤٩) ، (دار المعارف) .
٢ الاغاني (١٨/٢١٠ وما بعدها) .
٣ الازرقي (٢/١١ وما بعدها) ، « المطبعة الماجدية بمكة » .
٤ الازرقي (٢/١٢ وما بعدها) .

في الإسلام . فلما قتل (سعد بن عبادة بن دليم) ، زعم أن الجن قتلته [1] . ولما قتل المغني المعروف (الغريض) ، وهو من الموالي ، وكان نشأ خياطاً ثم أخذ الغناء بمكة عن (ابن سريج)،زعم أن الجن نهته أن يغني لحنه الذي يقول فيه :

تشرب لون الرازقي بياضه أو الزعفران خالط المسك رادعه

فلما لم ينته قتلته الجن في ذلك خنقاً [2] .

وزعم أن الجن خنقت (حرب بن أمية) ، وقالت الجن في ذلك شعراً [3] . وقتلت (مِرْداس بن أبي عامر) ، أبا (عباس بن مرداس) ، واستهوت (سنان بن حارثة)،ليستفحلوه،فمات فيهم . واستهووا (طالب بن أبي طالب)، فلم يعثر أهله له على أثر ، واستهووا (عمرو بن عدي) اللَّخمي الملك ، ثم ردّوه على خاله (جذيمة بن الأبرش) ، بعد سنين وسنين . واستهووا (عمارة ابن الوليد بن المغيرة) ، ونفخوا في أحليله ، فصار مع الوحش [4] .

ويروي أهل الأخبار ان الجن تتصادق مع الانسان وتتباغض معه ، وقد تقتله، ورووا في ذلك قصصاً ، وذكروا أنها قد تتألم لوفاة رجل طيب أو شهير محبوب . وقد تعطف على المحتاجين والمعوزين . وفي جملة ما قالوه عن الجن ان (أبا هالة) كان قد خرج في الجاهلية في عِير لقريش يريد الشأم ، فنزل وادياً يقال له : (عز) ، وانتبه آخر الليل فاذا شيخ قائم على صخرة ، وهو ينشد شعراً في رثاء عبدالله بن جُدعان ، وكان ذلك الشيخ جان من الجن . وقد ذكر أهل الأخبار محاورة من الشعر قالوا انها جرت بين (أبي هالة) ، وبين ذلك الشيخ

---

١ كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٧٣) ، المعارف ١١٢ ، الحيوان (٦/٢٠٩) ، الاشتقاق (٤٥٦) . وسمعوا الهاتف يقول :

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده
ورميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

الحيوان (٦/٢٠٩) ، (هارون) ، (١/٣٠٨) .

٢ كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٧٣) ، الاغاني (٢/١٣٦ ، ١٤٣) ، الحيوان (٦/٢٠٨) ، (هارون) ، الحيوان (١/٣٠٧) .

٣ الحيوان (١/٣٠٢) ، (هارون) . وقالت الجن :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

الحيوان (٦/٢٠٧) ، (هارون) .

٤ الحيوان (٦/٢٠٩ وما بعدها) ، (هارون) .

الجني الذي عين وقت وفـــاة (عبدالله بن جدعان) ، وثبته بالضبط ، فكان كما قال[1] .

وقد يقع الحب بين الجن والإنس . فقد ذكر ان الجنية قد تتبع الرجل تحبه، ويقال لها : تابعة . ومن ذلك قولهم : معه تابعة ، أي من الجن . والتابعة جنّية تتبع الانسان . كما يكون للمرأة تابع من الجن ، يتبع المرأة يحبها[2] . وقد يعشق الجني امرأة ويتصادق معها . هذا (منظور) الجني ، عشق امرأة اسمها (حبّة)، وتصادق معها ، فكانت (حبة) تتطبب بما يعلمها منظور[3] .

وقد يسرق الجن الأطفال والرجال والنساء ، وللأخباريين قصص يروونه في ذلك . وينسب فقدان الأشخاص في البوادي إلى الجن في الغالب . غير انهـــا قد تنفع الناس أيضاً ، لأن من الجن من هو طيب النفس ، مفيد نافع ، ولا سيما اذا ما تقرب اليها الانسان وأحسن اليها . رأى الشاعر عبيد بن الأبرص حية، فسقاها . فلما ضل جمل له وتاه ، نادى هاتف بصوت مسموع سمعـــه عبيد بن الأبرص مشيراً إلى الموضع الذي ذهب الجمل اليه . فذهب عبيد إلى المكان، وجاء بجمله[4] . وكان هذا الهاتف هو صوت الحية التي هي جان من الجن .

وقد يتصاهر الإنسان مع الجن ، فقد كان لعمرو بن يربوع بن حنظلة التميمي زوج من الجن : ولكنها لم تبق معه ، بل اختفت بعد ذلك عند ظهور البرق[5] . ونسبت بعض الأسر والقبائل مثل (بني مالك) ، و (بني شيصبان) ، و(بني يربوع بن حنظلة) وعرفوا ببني السعلاة الى الجـــن[6] . ونسب بعض الأخباريين نسب بلقيس وذي القرنين الى الجن[7] . وذكر أيضاً أن زوج (عمرو بن يربوع التميمي) كانت سعلاة ، أقامت مع زوجها في (بني تميم) : فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى ، حنت وطارت اليهم ، فقال شاعرهم :

---

١ الاشتقاق (ص ٨٨ وما بعدها) .
٢ اللسان (٨/٢٩) ، (نبع) .
٣ تاج العروس (١/١٩٨) ، (حب) .
٤ الاساطير العربية (٧٩) ، Reste, 154. ff.
٥ الحماسة (١/٥٦١) ، (طبعة فرايتاغ) ، بلوغ الارب (٢/٣٤٠) ، الحيوان (١/ ١٨٥ وما بعدها ، ١٨٨) ، (هارون) . Reste, S. 154.
٦ الاساطير العربية (٧٥) .
٧ بلوغ الارب (٢/٣٤٩) ، الحيوان (١/١٨٧ وما بعدها) .

رأى برقاً فأوضع فوق بكر   فلا بك ما أسأل وما أغاما[1]

وفي ذلك قال (علباء بن أرقم) :

يا قاتل الله بني السعلاة   عمرو بن يربوع شرار النات[2]

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع زواج الانس بالجن وبالعكس ، أي زواج الجن بالانس . وتعرض لقول من قال إن (بلقيس) كانت من امرأة جنّية . وذكر آراء النــاس في هذا الزواج المختلط ، الذي شك في امكان انجاب نسل منه . وقال : « وقد يكون هذا الذي نسمعه من اليمانية والقحطانية ، ونقرؤه في كتب السيرة ، قص به القصاص ، وسمروا به عند الملوك »[3] . وقد كان لأهل اليمن قصص وأساطير ، بدليل مــا نلاحظه من أن معظم رواة القصص القديم كانوا من أهل اليمن في صدر الإسلام . ويظهر أنهم حذقوا به وتفوقوا به على بقية العرب الذين نسميهم العدنانيين بسبب دخول كثير منهم في اليهوديـــة وفي النصرانية وشرائهم الكتب،وفيها قصص من قصص أهل الكتاب والأساطير القديمة، فزجوه مع ما كان لهم من قصص وثني قديم .

وقد أطلق (الجاحظ) على قول الناس بزواج الانس بالجن وبالعكس (الزواج المركب) ، وأشار إلى قول الشاعر علباء بن أرقم :

يا قاتَلَ اللهُ بني السعــلاة   عمراً وقابوساً شرار النات

انه الدليل على ان السعلاة تلد الناس . هذا سوى ما قالوا في الشق وواق واق ودُوال باي وفي الناس والنسناس[4] .

وذكر أيضاً ان أعراب بني مرة تزعم ان الجن استهوت سناناً بن أبي حارثة المريّ ، وهو والد هرم بن سنان ، لتستفحله إذ كان منجباً ، وكان سنان قد

---

١ الحيوان (١/١٨٦) ، (هارون) ، (٦/١٩٧) .
٢ الحيوان (٦/١٦١) ، اللسان (٢/٤٠٧) ، نوادر أبي زيد (١٠٤ ، ١٤٧) ، المخصص (٣/٢٦) (١٣/٢٨٣) ، الامالي ، للقالي (٢/٦٨) ، محاضرات الراغب (٢/٢٨١) ، الخصائص (٤٥١) ، الفصول والغايات (٢١٠) .
٣ كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٧١) .
٤ كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٧٤) ، الحيوان (١/١٨٩) ، (هارون) .

هام على وجهه[1] .

وقد وجه الانسان جميع مواهبه منذ أقدم ايامه لتسخير عالم الأرواح ، وجعله في خدمته وتحت تصرفه ، أو لتحويله بحسب رغباته ، وتجنب ضرره وأذاه . قام بذلك رجال الدين خاصة ، ورجال الدين بحكم اتصالهم بالآلهة وبالعالم غير المنظور، هم خلفاء الآلهة على وجه الأرض ، وألسنة الأرواح الناطقة بين الناس . فكانوا حكاماً ورجال دين وسحرة وأطباء وعلماء ، كما قام بذلك المنجمون والسحرة والكهّان وغيرهم ممن تكهن وتحدث عن الغيب ، وأظهر ان في قدرته التأثير على حياة الانسان ونفعه وضره بالاستعانة بعالم الأرواح وبما عنده من قدرات خارقة في امكانها اختراق حجب الأسرار والتحكم في العالم الخفي لتحويله إلى صالح انسان أو إلى الاضرار به .

وليس الجاهليون بدعاً في هذه الأمور، بل كان غيرهم من الشعوب كالعبرانيين والبابليين والاغريق والرومان والمصريين والهنود وكل الشعوب الأخرى تعتقد بذلك . ولها رجال ادعوا العلم .

وقد كان الجاهليون يعلقون الحلي والجلاجل على (اللديغ) ، يفعلون ذلك لاعتقادهم انه يفيق بذلك ، فلا ينام ، ولو نام ، سرى السم في جسمه ، فمات . وذهب بعضهم إلى ان تعليق الحلي على اللديغ يبرئه من ألمه . أما إذا علق الرصاص عليه ، أو حلي به ، فانه يموت[2] .

وتقوم الجن بأعمالها بشكل غير منظور في الغالب ، لأنها أرواح . وهي قد تحذّر الانسان أو ترشده الى شيء يريده بصوت جهوري مسموع ، يقال له : الهاتف ، دون أن يرى الشخص أو الأشخاص صاحب ذلك الصوت . وهي تنبىء عن المستقبل كما تتحدث عن الماضي[3] . وقد ذكر (الجاحظ) أن « الأعراب وأشباه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف ، بل يتعجبون ممن ردّ ذلك » . ثم قال : « قالوا: ولنقل الجن الأخبار علمّ الناس بوفاة الملوك ، والأمور المهمة ، كما تسامعوا بموت المنصور بالبصرة وفي اليوم الذي توفي فيه بقرب مكة . وهذا الباب أيضاً كثير »[4] .

---

١ المصدر نفسه (ص ٣٧٥) ، الحيوان (٧/٢٤) ، الميداني (١/٢٠٢) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٠٤) .
٣ الحيوان (٦/٢٠٢) .
٤ الحيوان (٦/٢٠٢ وما بعدها) .

والجن وان كانت من الأرواح ، أي أنها غير منظورة ، إلاّ أن في استطاعتها أن تتجسم متى شاءت . فتظهر على هيئة جسم من الأجسام . إذ أن للجن قدرة على التشكل بالشكل الذي تريده ، تظهر في صورة حيوان أو في صورة إنسان أو غير ذلك . ومن هنا نجد قصص مصاهرة الانسان للجن ، وظهور نسل وأسر من هذا الزواج . وفي استطاعتها أيضاً تغيير الشكل الذي ظهرت به بشكل آخر حيث تشاء[1] . كما ورد ذلك في قصة الشاعر (تأبط شراً) والكبش الذي حمله، بينما هو جني . ومن هنا تختلف طبيعتها عن طبيعة البشر والحيوان .

وقد تتمثل الجن في صور حيوانات مشعرة ، أي ذات شعر كثيف . فالجن عند الشعوب السامية ذات شعر كثيف ، لذلك قيل لها (سعريم) (Sa'irim) في العبرانية . وهي تختـار الأماكن الموحشة المقفرة في الظلام ، مثل رهبان الليل (ليليت) (Lilith) ، وتذهب مع الحيوانات التي تنفر من الانسان مثل النعامة[2] .

وفي الأساطير الجاهلية ان البقر اذا أوردت « فلم ترد ، ضربوا الثور ليقتحم الماء ، فتقتحم البقر بعده ، ويقولون إن الجن تصدّ البقر عن الماء ، وان الشيطان يركب قرني الثور »[3] . وقد ذكرت هذه الأسطورة في أشعار جاهلية ، يظهر من نقدها ودراستها انها من آثار العقائد الجاهلية في الجن . وقد اتخذت مثلاً لمن ينزل عليه مكروه في سبيل إخافة غيره ، فيكون بذلك كبش الفداء . واعتقادهم ان الشيطان يركب قرني الثور ، هو الذي جعلهم يتصورون ان الثور يتقدم البقر في شرب الماء ، ذلك لأن الشيطان ركب قرنيه ، فلا يخشى الثور اذن من الجن، والشيطان أخبث أنواع الجن وأذكاها . فتخافه الجن ، وتفسح المجال للبقر في ورود الماء . أما ضرب الثور لتوجيهه إلى الماء ، فلأجل ان الشيطان ركب قرنيه، فبضربه وبتقدمه يتقدم الشيطان نحو الماء فتخافه الجن وتفزع منه ، وتسمح للبقر بورود الماء ، ولهذا ضرب ، ليستفيد بذلك غيره[4] .

---

١ Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semite, p. 120.

٢ Robertson, p. 120, B.C. Thompson, Semitic Magic, London, 1908, p. 57.

٣ قال الاعشى :

لكالثور والجني بضرب وجهه   وما ذنبه ان عافت الماء باقر

ولغيره :

اني وقتلي سليكا حين أعقله   كالثور يضرب لما عافت البقر

٤ بلوغ الارب (٣٠٣/٢ وما بعدها) .

وأهم مواطن الجن في نظر الجاهليين ، هي المواضع الموحشة ، والأماكن المقفرة التي لا تطرق إلا نادراً والمحلات التي لا تلائم الصحة ، والمقابر والأماكن المظلمة والمهجورة . ففي مثل هـذه المواطن تنزل الجن ، وتفضل الاقامة بها ، وسبب ذلك ، هو أن الانسان يخشى هذه المواضع ، ويحس بشيء من الخوف والوحشة من الدخول اليها ، فقد يتعرض فيها الى التهلكة ، فأوحى هذا الاحساس اليه أنها (مسكونة) ، وأن سكانها هم الجن . وأنهم قد يتعرضون له بسوء إن لم يعرف كيف يسلك سلوكاً طيباً معها ، ولذلك صار يتحاشى ولوج هذه المواضع ، لا سيما في الليالي المظلمة ، واذا دخلها مضطراً ، تخيل الأشباح والأرواح وهي تلعب به كيف تشاء ، وتحوم حوله . ومن هنا ظهر عنده القصص المروي عن مواطن الجن .

وسكنت الجن المواضع المظلمة والفجوات العميقة فيها وباطن الأرض ، ولذلك قيل لها : ساكنو الأرض . كما سكنت المقابر[1] . والمقابر هي من المواضع الرئيسية المهمة المأهولة بالجن ، ولذلك يخشى كثير من الناس ارتيادها ليلاً . وهي لا بد أن تكون على هذه الصفة ، فهي مواطن الموتى ، وأرواح الموتى تطوف على القبور ، والموت نفسه شيء مخيف ، والجن أنفسها أرواح مخيفة ، فهل يوجد موضع أنسب من هذا الوضع لسكن الجن ؟

وتزعم الأعراب أن الجن سكنت (وبار) . وحمتها من كل من أرادها ؛ وهي بلاد من أخصب بلاد العرب ، وأكثرها شجراً ، وأطيبها ثمراً ، وأكثرها حباً وعنباً . فإن دنا إنسان من تلك البلاد ، متعمداً أو غالطاً ، حثوا في وجهه التراب ، فإن أبى الرجوع خبلوه ، وربما قتلوه . فليس في تلك البلاد إلا الجن ، والإبل الحوشية[2] .

وقد زعم ان (يبرين) من مواطن الجن . وكانت في الأصل مواضع عاد . فلما هلكت ، سكنتها قبائل الجن . وقد روى أهل الأخبار قصصاً عنها وعن اتصالها بالانسان . وزعم بعض منهم ان (النسناس) ، هم قوم من الجن[3] .

---

١ Reste, S. 151.

٢ الحيوان (٦/٢١٥ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٤/٢٥٧) ، (نس) .

وقد ورد مثل هذه الأقوال عن مواضع أخرى كانت عامرة آهلة، ثم أقفرت، مثل الحجر موضع ديار ثمود[1] ، مما يدل على ان من اعتقادات العرب قبل الاسلام هو ان المواضع التي تصيبها الكوارث تكون بعد هلاك أصحابها مواطن للجن . ونجد مثل هذه الأساطير عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب[2] .

وأشير في شعر (لبيد) الى (جن البدي) . قيل : « والبدي : البادية ، أو موضع بعينه » وقيل واد لبني عامر[3] . وأشار (النابغة) الى (جنة البقار) . وذكر ان البقار واد ، أو رملة ، أو جبل ، سكنته الجن ، فنسبت اليه[4] . وأشير إلى (جنة عبقر) في شعر (زهير) و (لبيد) و (حاتم)[5] . وعبقر أرض بالبادية كثيرة الجن ، وذكر بعضهم انها باليمن[6] ، قال لبيد :

ومن فاد من اخوانهم وبنيهم كهول وشبان كجنة عبقر

وقال بعض العلماء : عبقر قرية يسكنها الجن فيما زعموا ، فكلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يصعب عمله ويدق أو شيئاً عظيماً في نفسه نسبوه اليها . ولهذا قالوا : العبقري للسيد الكامل من كل شيء ، وللذكي الممتاز[7] .

والمواضع المذكورة هي المواضع المفضلة المختارة لسكنى الجن . غير أن مواطن الجن غير محدودة ولا معينة ، إنها تسكن كل موضع ومكان ، حتى بيوت الناس لا تخلو منها ، بل حتى البحار والسماء لا تخلو منها كذلك ، فدولتها إذن على هذا الوصف أوسع من دولة الإنسان . وعلى من سكنت الجن بيته ألا يمسها بأذى ولا يلحق بها أي سوء ، وأن يقوم بترضيتها بالبخور وبما شاكل ذلك مما تحبه الجن ، وإلا أساءت اليه ، وجعلت بيته مؤذياً شؤماً ، لا يرى من يسكن فيه أي خير .

---

١ Reste, S. 150.

٢ Robertson, p. 120.

٣ الحيوان (١٨٩/٦) ، (هارون) .

٤ الحيوان (١٨٩/٦) ، اللسان (٤٧/٦) ، (٣٣٠/١٢) .

٥ الحيوان (١٨٩/٦) ، اللسان (٢٠٩/٦) ، البلدان (١١٣/٦) ، ثمار القلوب (١٨٨) .

٦ تاج العروس (٣٧٩/٣) ، (عبقر) ، اللسان (٥٣٤/٤) .

٧ تاج العروس (/٣٧٩) ، (عبقر) .

وكان الرجل في الجاهلية إذا اطّرف داراً ذبح فيها ذبيحة ، يتقي بها أذى الجن ، لاعتقادهم ان في كل دار جنّاً يقيمون بها فلترضيتهم وللتقرب اليهم ، يذبحون ذبيحة عرفت عندهم بـ (ذبائح الجن)[1] . ولا تزال عادة الناس ذبح ذبيحة عند الابتداء ببناء دار ، وعند الانتقال اليها . وكانوا أيضاً يذبحون ذبيحة عند استخراجهم عيناً ، أو شرائهم داراً ، أو بنيانهم بنياناً ، مخافة أن تصيبهم الجن ، فأضيفت الذبائح اليهم لذلك . وقد نهى النبي عن ذبائح الجن[2] .

وكان في اعتقادهم ان الأماكن المذكورة مليئة بالجن ، لذلك كانوا يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم ، اذا نزلوا منازلهم ، يقولون : نعوذ بأعز أهل هذا المكان ، أو اني أعوذ بكبير هذا الوادي . والى ذلك أشير في القرآن الكريم: « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً »[3]. روي عن (حجاج بن علاط السلمي) ، « انه قدم مكة في ركب فأجنهم الليل بواد مخوف موحش ، فقال له الركب : قم خذ لنفسك أماناً ولأصحابك، فجعل يطوف بالركب ويقول :

أعيذ نفسي وأعيذ صحبي   من كل جني بهذا النقب
حتى أأوب سالماً وركبي »[4]

فوصل وركبه سالماً الى مكة دون أن يمسه أو أن يمس من كان معه من الركب أحد بسوء[5] .

وروي أن الرجل منهم كان إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل عمد الى واد ذي شجر فأناخ راحلته في قرارته وهي القاع المستديرة وعقلها وخط عليها خطاً ثم قال : « أعوذ بصاحب هذا الوادي . وربما قال بعظيم هذا الوادي »[6] . قال أحدهم :

---

١ اللسان (١٣/٢١٣) ، (سكن) .
٢ اللسان (٢/٤٣٧) ، (ذبح) .
٣ سورة الجن ، رقم ٧٢ ، الآية ٦ ، تفسير الطبري (٢٩/٦٧ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١/١٣٦) .
٥ الروض الانف (١/١٣٦) ، الاصابة (١/٣١٢) ، (١٦٢٢) .
٦ بلوغ الارب (٢/٣٢٥) .

قد بتُّ ضيفاً لعظيم الوادي   المانعي من سطوة الأعادي
راحلتي في جاره وزادي[1]

وقالوا إنهم كانوا في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً يقولون : نعوذ بأعز أهل هذا المكان . يقولون ذلك عند نزولهم وادياً في الغالب،إذ نجد الرواة يكررون عبارة: « كانوا إذا نزلوا الوادي ، قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادي » ، أو « بعزيز هذا الوادي »[2] . ويظهر أنهم تخوفوا من الوديان خاصة ، لما قد يقع فيها من مهالك ، فنسبوا ذلك الى فعل الجن .

وقال آخر يستجير بجن (عالج) ويتوسل اليهم ألا يرهقوه بغويّ هائج ، إذ يقول :

يا جن أجزاء اللوى من عالج   عاذ بكم ساري الظلام الدالج
لا ترهقوه بغويّ هائج

وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البيد   بسيّد معظم مجيد
أصبح يأوي بلوى زرود   ذي عزة وكاهل شديد

وقد استعاذ رجل منهم ومعه ولد ، فأكله الأسد فقال :

قد استعذنا بعظيم الوادي   من شر ما فيه من الأعادي
فلم يجرنا من هزبر عادي[3]

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يرون أن الجن تعزف في المفاوز بالليل. والعزف والعزيف صوت الجن ، وهو جرس يسمع بالمفاوز . وهو صوت يسمع بالليل كالطبل . وروي عن (ابن عباس) قوله : « كانت الجن تعزف بالليل كله بين الصفا والمروة »[4] . وقد اشتهر موضع (العزاف) ، وقيل (ابرق

١ بلوغ الارب (٢/٣٢٦) .
٢ تفسير الطبري (٢٩/٦٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٢٦) .
٤ تاج العروس (٦/١٩٧) ، (عزف) .

العزاف) بأنه موضع يسمع به عزيف الجن[1] .

وقد موّن القصص الاسرائيلي أهل الجاهلية بشيء مما كان ينقصهم من أساطير الجن ، وتوسع وزاد هذا القصص في الاسلام ، حتى تولد منه هـذا الذي نجده مدوناً عن أخبار الجن في المؤلفات الاسلامية .

وتخبر الجن الانسانَ بحوادث تقع في مواضع بعيدة ، وهو لا يعلم عنها شيئاً . فلما هبط (نباش بن زرارة بن وقدان) ، زوج (خديجة بنت خويلد) قبل النبي ، وادياً يقال له (عز) ، انتبه في آخر الليل ، فاذا شيخ قائم على صخرة ، وهو يقول :

ألا هلك السيّال غيث بني فهر وذو العز والباع القديم وذو الفخر

فقال له نباش :

ألا أيها الناعي أخا الجود والفخر من المرء تنعاه لنا من بني فهر

وبقيا يقولان الأبيات ، حتى أخبره الشيخ بوفاة (عبدالله بن جدعان) في وقت حدده وضبطه له . فلما وصل مكة ، علم بوفاته على نحو ما أخبره به ذلك الشيخ . وهو جني من الجن ، ينظم الشعر ، وقد رثى (ابن جدعان)[2] .

ونجد في شعر الشعراء الجاهليين أمثال (أمية بن أبي الصلت) و (الأعشى) إشارات الى الجن . وهم من أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال بأهـل الكتاب وبكتبهم ، وقد زعم أن بعضاً منهم كان قد قرأ تلك الكتب ووقف على العبرانية أو السريانية . ولهذا ورد في شعرهم شيء من قصص أهل الكتاب . وفي جملته ما ذكرته من اشاراتهم الى الجن . وتراهم يربطون بينها وبين (سليمان) . أخذوا ذلك ولا شك من الأساطير العبرانية ، التي صيّرت الجن في خدمة (سليمان) . نجد الأعشى يقول :

وسخّر من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون محاربا

---

١ تاج العروس (٦/١٩٧ ، ٢٨٧) ، (برق) .
٢ الاشتقاق (٨٨ وما بعدها) .

قصد بذلك (سليمان)[1] . ونجد أن في جملـــة ما نسب عمله الى جن سليمان بعض المواضع مثل تدمر وقصر غمدان .

وقال النابغة الذبياني :

إلا سليمان إذ قـــال الإلـه لـــه قم في البرية فاحددها عن الفند
وخَيِّس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تـــدمر بالصفاح والعمد
فمـــن عصاك فعاقبه معـــاقبة تَنْهى الظلوم ولا تقعد على ضمد[2]

وفي هـــذا الشعر إن صح أنه من نظم النابغة حقاً ، دلالة على تأثر الشاعر بالأسطورة اليهودية عن (تامار) ، وعن جن سليمان .

ونسبوا السيوف المأثورة الى جن وشياطين (سليمان) . ونسبوا اليه واليهم أشياء عديدة أخرى[3] .

وقد ادعى اناس من الجاهليين انهـــم كانوا يرون الغيلان والجن ، ويسمعون عزيف الجان ، أي صوت الجن . وقد بالـــغ الأعراب في ذلك ، وأغربوا في قصص الجان ، لما كانوا يتوهمونه من ظهور الأشباح لهم في تجوالهم بالفيافي المقفرة الخالية ، فتصوروه جناً وغولاً وسعالى ، وبالغوا في ذلك أيضاً ، لما وجدوه في أهل الحضر ولا سيما في الاسلام من ميل إلى سماع قصص الجان والسعالى والغول[4] . وقالوا انهم ربما نزلوا بجمع كثير ، ورأوا خياماً ، وقباباً ، وناساً ، ثم اذا بهم يفقدونهم من ساعتهم ، وذلك لأنهم من الجن[5] .

ونسبوا إلى الجن إحداث كثير من الأمور غير الطبيعية ، مثل الأمراض والأوبئة والصرع والاستهواء والجنون خاصة . فالجنون هو تلبس الجـن بالانسان ودخولهم جسمه . لذلك ربطوا بين الجن والجنون . ويرى (نولدكه) ان فكرة أن الجنون من عمل الجن ، عقيدة قديمة وجدت عند غير العرب كذلك . فقد كان الايرانيون

---

١ ناج العروس (٩/١٦٥) ، (جن) .
وسخر من جن الملائك تسعة قيامـا لديـه يعملون بلا أجـــر
اللسان (١٣/٩٧) ، (جن) .
٢ الحيوان (٦/٢٢٣) .
٣ الحيوان (٦/١٨٧) .
٤ الحيوان (٦/١٧٢ وما بعدها ، ١٨٢) .
٥ الحيوان (٦/٢٠٠) ، (هارون) .

يطلقون على المجنون لفظة (ديوانه) (Devana) ، أي الذي به (ديو) (Dev) من الأصل (ديوه) (Daiva) ، ومعناها (Demon) أي جـان . ومن هذه الفكرة دخلت في العهد الجديد من الكتاب المقدس . ومن الفارسية دخلت (ديوان) (Daiwan) في الإرمية بينما دخلت إلى الفارسية كلمة (شدها) (Shedha) من أصل (شدهان) (Shedhan) الإرمي واستعملت في مقابل (Deo) أي جان . و (شيده) (Shedh) في الإرمية الجان[1] .

وهم يزعمون أن الجن اذا عشقت انساناً صرعته ، ويكون ذلك عـلى طريق العشق والهوى ، وشهوة النكاح . وأن الشيطان يعشق المرآة ، وان نظرته اليهـا من طريق العجب بها أشد عليها من حمى أيام ، وان عين الجـان أشد من عين الانسان[2] .

والعرب تزعم أن الطاعون من الجن ، ويسمون الطاعون رماح الجن . قـال الأسدي للحارث الملك الغساني :

لعمرك ما خشيت على أبيٍّ رماح بني مقيّـدة الحمار
ولكـني خشيت على أبيٍّ رماح الجن أو إياك حـار[3]

وللجنّ حوار مع الإنس وكلام نجده منثوراً كما نجـده منظوماً في شعر ينسب الى الشعراء الجاهليين . ويروي الأخباريون شعراً ينسبونه الى (جذع بن سنان) ورد فيه وصف ملاقاته للجن ومحاورته معها ودعوته إياها الى الطعام وامتناعها عن الأكل ، كما رووا شعراً لغيره يصف ملاقاة بين الجن وبين أصحاب هذا الشعر[4] . وهو قصص لم يبخل على الجن فأعطاها شعراً من هذا الشعر الجاهـلي الفصيح ! وقد سخر (الحيتعور) أحد (بني الشيصبان) من الجن من الأشعار التي جمعها (المرزباني) (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) ، من شعر الشعراء الجن ، فما هذا الذي جمعه إلا قطعة من شعرهم ، وهل يعرف البشر من النظم كما يعرف الجـن .

---

١ Ency. Relig., I, p. 670.

٢ الحيوان (٢١٧/٦ وما بعدها) .

٣ الحيوان (٢١٩/٦) .

٤ بلوغ الارب (٣٥٠/٢ وما بعدها) .

وانما للبشر خمسة عشر جنساً من الموزون ، قل ما يعدّوها القائلون ، وإن للجن آلاف الأوزان ما سمع بها الإنس[1] .

طعام الجن :

وطعام الجن مثل طعام الانسان ، وهم يشاركونه أكلــه في بعض الأحيان . « رووا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، انه سأل المفقود الــذي استهوته الجن : ما كان طعامهم ؟ قال : الفول . قال : فـــا كان شرابهم ؟ قال : الجدف . ورووا ان طعامهم الرمة وما لم يذكر اسم الله عليه »[2] . وقد جاء قوم من الجن الى نار (شمر بن الحارث الضبّي) ، فدعاهم الى الطعام بقوله :

أتوا ناري فقلت منون قالوا سراة الجن قلت عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم زعيم نحسد الإنس الطعاما[3]

والحوشي من الإبل هي التي قد ضربت فيها فحول إبل الجن . فالحوشية من نسل إبل الجن[4] . ويقال انها منسوبـة إلى (الحوش) بلاد الجن من وراء رمل يبرين ، لا يمر بها أحد من الناس ، وقيـل هم من بلاد الجن . وقيل الحوشية إبل الجن ، أو منسوبة الى الحوش وهي فحول جن ، تزعم العرب انها ضربت في نعم (بني مهرة بن حيدان) فنتجت النجائب المهرية من تلك الفحول الوحشية ، فنسبت اليها ، فهي لا يكاد يدركها التعب[5] .

الحية :

والحية ، من أكثر الحيوانات وروداً في القصص الـذي يرويه الأخباريون عن الجن . وقد جعلوها فصيلة مهمة من فصائلها ، ونوعاً بارزاً من أنواعهـا . قال

---

١ رسالة الغفران (٢٩١) ، (بنت الشاطىء) .
٢ الحيوان (٦/٢١٠ وما بعدها) .
٣ الحيوان (٦/١٩٧) .
٤ الحيوان (٦/٢١٦) .
٥ الحيوان (٤/٣٠٢) ، (حاش) .

بعض العلماء : الجان ، حيّة بيضاء ، وقال بعض آخر : الجان حيّة ، أو ضرب من الحيّات[1] . ولما قام (حرب بن أمية) جد معاوية بن أبي سفيان مع (مرداس ابن أبي عمرو) باصلاح (القرية) ، وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتف لا يرام، فأضرما النار في الغيضة ، فلما استطارت وعلا لهيبها سمع من الغيضة أنين وضجيج كبير ، ثم ظهرت منها حيات بيض تطير حتى قطعتها وخرجت منها ، فما لبث أن مـات الرجلان ، أماتهما الجن على ما يزعمه رواة هذا الخبر[2] . ولعلهما ماتا بعضة حية من تلك الحيات التي كانت ساكنة بين تلك الأعشاب وقد هاجتها تلك النيران . ومثل هذه المواضع تكون موئلاً للحيات والحشرات ، فابتدعت مخيلـة القصاصين هذه القصة عن فزع الجن وطيرانها في صورة ثعابين بيض . ويعلـل (نولدكه) وفاتهما بفعل الاختناق من الغاز الذي تصاعد من الاحتراق[3].

وذكروا أن الحيّة لا تموت حتف أنفها ، وإنما تموت بعرض يعرض لهـا . وانها تصبر على الجوع حتى ضرب بها المثل في ذلك . وانها اذا هرمـت صغرت في بدنها . ولم تشته الطعام[4] . وانها تنطق وتسمع . وقد أورد أهل الأخبار شعراً في ذلك ، ذكروا أنه للنابغـة . ومذهب النابغة في الحيات مذهب أمية بن أبي الصلت ، وعدي بن زيد وغيرهما من الشعراء[5] ، الذين تأثروا برأي أهل الكتاب فيما جاء عن الحيـة في العهدين وفي كتب الشروح والتفاسير والقصص الاسرائيلي القديم .

ولم تنفرد مخيلة الجاهليين وحدها باختراع اسطورة ان الحيات هي من الجن ، وانها جنس منها ، فان غير العرب من الساميين مثل العبرانيين كانوا يقولون أيضاً بهذا القول . وكذلك قال بهذه الأسطورة غير الساميين ، مما يدل على انـه من الأساطير القديمة جداً التي انتشرت عند البشر ، بسبب ما قاسوه في ايام بداوتهم من هذا الحيوان[6] . ونجد قصة الحية في سفر التكوين . وهي في هذا السفر أشد

---

١ تاج العروس (١٦٥/٩) ، (جن) .
٢ الحيوان (١٤٣/٢) ، (حاشية) ، Robertson, p. 233.
٣ Ency. Religi., I, p. 670.
٤ الحيوان (١١٨/٤ وما بعدها) ، (موت الحية) .
٥ الحيوان (٢٠٣/٤ وما بعدها) .
٦ Ency. Religi., I, p. 669.

الحيوانات حيلة ، فهي التي خدعت حواء خدعتها الشهيرة ، وسببت طردها وطرد زوجها آدم من الجنة الى الأرض[1] .

ولعقيدتهم هذه في (الحية) ، كانوا اذا وجدوا حية ميتة كفنوها ودفنوها ، فعلوا ذلك في الاسلام أيضاً . جاء انه بينما كان (عمر بن عبد العزيز) يمشي في أرض فلاة ، فاذا حية ميتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها . وورد انه كان جمع من أصحاب رسول الله « يمشون فرفع لهم اعصار ، ثم جاء اعصار أعظم منه ، ثم انقشع ، فاذا حية قتيل ، فعمد رجل منا الى ردائه وكفّن الحية ببعضه ودفنها . فلما جنّ الليل اذا امرأتان تتساءلان أيكم دفن عمرو بن جابر ؟ فقلنا ما ندري ما عمرو بن جابر ! فقالتا إن كنتم ابتغيتم الأجر ، فقد وجدتموه . إن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين منهم . فقتل عمرو ، وهو الحية التي رأيتم »[2] .

« وفي الحديث : انه نهى عن قتل الجنان . هي الحيات التي تكون في البيوت ، واحدها جان ،وهو الدقيق الخفيف »[3] . والجان الشيطان أيضاً . وورد في الحديث : ذكر الحيات ، فقال : من خشي خبثهن وشرهن واربهن ، فليس منّا . أي من توقى قتلهن خشية شرّهن فليس ذلك من سنتنا . وكانت الجاهلية تقول انها تؤذي قاتلها أو تصيبه بخبل[4] .

وذكر العلماء أن (اللاهة) الحية ، أو الحية العظيمة . وأن (اللات) ، الصنم المعروف أصله (لاهة) كأنه سمي بها . وان اسم الجلالة منها[5] . وفي الأساطير الجاهلية ما يفيد تعبد الجاهليين للحية ، وفي هذا التفسير ما يؤيد هذا الرأي .

ويقال للحية : (بنت طبق) . و (بنات طبق) الحيات ، والحية (أم طبق) وبنت طبق . وهي (الدواهي) . ومن أساطيرهم أن بنت طبق سلحفاة تبيض تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحف ، وتبيض بيضة تنقف عن حية[6] .

والحيات شياطين ، وللعرب شجر يطلقون عليه (الصوم) ، كريه المنظ

---

١ السفر الثالث من التكوين ، الآية ١ وما بعدها .
٢ الروض الانف (١٣٦/١) .
٣ اللسان (٩٥/١٣) ، (جنن) .
٤ تاج العروس (١٤٥/١) ، (أدب) .
٥ تاج العروس (٤١٠/٩) ، (لاه) .
٦ تاج العروس (٤١٥/٦) ، (طبق) .

جداً ، يقال لثمره (رؤوس الشياطين) أي الحيات . وليس له ورق[1]

الغول :

وقصص الغول هي من أشهر القصص الجاهلي المذكور عن الجن ، ومع خطر الغول وشراسته في رأي الجاهليين ، ورد في قصصهم تزوج رجال من الإنس منهم . وورد ان الشاعر (تأبط شراً) تعرض بغيلة . فلما امتنعت عليه ، جللها بالسيف فقتلها . وهم يروون ان من الممكن قتل الغول بضربة سيف . أما اذا ضربت مرة ثانية ، فانها تعيش ولو من ألف ضربة . وهكذا ترى قصصهم يروي تغلب الانسان على الغيلة في بعض الأحيان . وأكثر قصص الغول منسوب الى (تأبط شراً)[2] . وللقب الذي يحمله هذا الشاعر أو حمل عليه دخل ، ولا شك ، في ظهور هذا القصص .

ويرى علماء اللغة أن من معاني (الغول) التلون ، والظهور بصور مختلفة ، والاغتيال . ويرون أن الغول أنثى ، وأما ذكرها فيسمى (قطرباً)[3] . ولصفة التلون والظهور بصور مختلفة سموا الغول (حيتموراً) ، وهو كل شيء لا يدوم على حالة واحدة ، ويضمحل كالسراب[4] . وذكر في وصف غدرها بالإنسان أنها اذا أرادت أن تضل إنساناً أوقدت له ناراً ، فيقصدها ، فتدنوا منه ، وتتمثل له في صور مختلفة ، فتهلكه روعاً ، وان خلقتها خلقة إنسان ، ورجلاها رجلا حمار[5] .

وذكروا ان الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسُفّار ، ويتلون في ضروب الصور والثياب ، ذكراً كان أو أنثى . وقد قال (كعب بن زهير) الشاعر الصحابي ، الذي مدح الرسول ، في وصف تلون الغول :

---

١ تاج العروس (٣٧٢/٨) ، (صام) .

٢ بلوغ الارب (٣٤١/٢ وما بعدها) ، الاغاني (٢٠٩/١٨ وما بعدها) ، الحيوان (٢٣٣/٦ ، ٢٣٥) .

٣ بلوغ الارب (٣٤٦/٢ وما بعدها) ، الحيوان (٤٨/٦) ، تاج العروس (٥١/٨) ، (غال) .

٤ بلوغ الارب (٣٤٧/٢) .

٥ بلوغ الارب (٣٤٨/٢) ، الحيوان (٢١٤/٦) .

فما تدوم على حالٍ تكون بها كما تلوّن في أثوابها الغول[1]

وفي تلوّن الغول يقول (عباس بن مرداس السلمي) :

أصابت العامَ رِعْلاً غول قومهم وسط البيوت ولون الغول ألوان[2]

فالغول تتحول في أي صورة شاءت ، وتتمثل في صور مختلفة ، إلا رجليها ، فلا بد من ان تكونا رجلي حمار[3] .

وذكر ان (الغول) (السعلاة) ، وهما مترادفان ، وذكر ان الغيلان جنس من الجن والشياطين ، والعرب تسمي الحية الغول . وقيل ان (أنياب أغوال) الواردة في شعر لامرىء القيس ، الحيات ، وقيل : الشياطين[4] .

وإلى الشاعر (عبيد بن أيوب) شاعر (بني العنبر) ، يعود قسط كبير من القصص الوارد عن (الغول) و (السعلاة) . فقد كان يخبر في شعره انه يرافق الغول والسعلاة ، ويبايت الذئاب والأفاعي ، ويؤاكل الظباء والوحش. وقد أورد أهل الأخبار شيئاً من شعره في هذا الباب[5] . وذكر بعض علماء اللغة ، ان الغول الذكر من الجن ، والسعلاة الأنثى. والغول ساحرة الجن ، وتقول إن الغول يتراءى في الفلاة للناس فتضلهم عن الطريق[6] .

واما (السعالي) ، وواحدتها السعلاة ، فذكر أنها سَحَرة الجن ، وقيل : إن الغيلان جنس منها ، وان الغيلان هي إناث الشياطين ، وأنها — أي السعالي — أخبث الغيلان ، وأكثر وجودها في الغياض ، وانها إذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر ،وان الذئب يأكل السعلاة[7] . وذكر ان (السعلاة) اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغول لتفتن السفّار . وهم إذا رأوا المرأة

---

١ الحيوان (١٥٨/٦ وما بعدها) .
٢ الحيوان (١٦١/٦) .
٣ الحيوان (٢٢٠/٦) .
٤ تاج (٥١/٨) ، (غال) .
٥ الحيوان (٤٨٢/٤) ، (هارون) ، (١٢٣/٥ ، ١٣٨ ، ٢٤١) ، (١٢٨/٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٣٥ ، ٢٥١ ، ٣٩٥) .
٦ تاج العروس (٥١/٨) ، (غال) .
٧ بلوغ الارب (٣٤٦/٢ وما بعدها) .

حديدة الطرف والذهن ، سريعة الحركة ممشوقة ممحصة . قالوا : سعلاة . وقال الأعشى :

ورجالٍ قتلى بجنبي أريك ونساءٍ كأنهـن السعالى [1]

وذكر أن في الجن سحرة كسحرة الانس لهم تلبيس وتخييل ، وهم السعالى . وهم أقدر من الغيلان في هذا الباب [2] .

الشيطان :

والشيطان هو (Satan) في الانكليزية ، و (Diabolos) في الإغريقية . ويرجع علماء اللغة كلمة (الشيطان) الى أصل (شطن) ، ويقولون إن من معاني هذه الكلمة الخبث ، ولما كان الشيطان خبيثاً قيل له (شيطان) ومعنى ذلك ان فكرة خبث الشيطان كانت معروفة لصاحبها قبل التسمية [3] . فلما بحث عن لفظة مناسبة لها ، اختاروا هذه الكلمة التي تدل على الخبث . وهو تعليل من تلك التعليلات المعروفة المألوفة التي كان يرجع اليها علماء اللغة كلما أعياهم الوصول الى أصول الأشياء .

و (الشيطان) (ساطان) (سطن) في العبرانية ، ومعناه : عدو ومشتك في هذه اللغة [4] . ومن هذه اللغة جاءت لفظة (Satan) في الانكليزية .

وذكر (الطبري) : « والشيطان في كلام العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء »[5] . ثم قال : « وانما سمي المتمرد من كل شيء شيطاناً لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله وبعده من الخير . وقد قيل انه أخذ من قول القائل شطنت داري من دارك ، يريد بذلك بعدت . ومن ذلك قول نابغة بني ذبيان :

نأت بسعادٍ عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها رهين

---

١ الحيوان (٦/١٥٨ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٧/٣٧٥ وما بعدها) ، (سعل) .
٣ اللسان (١٧/١٠٤) ، (سطن) ، الحيوان (١/١٥٣ ، ٢٩١) .
٤ غرائب اللغة (٢١٢) .
٥ تفسير الطبري (١/٣٧ وما بعدها) .

والنوى الوجه الذي نوته وقصدته ، والشطون البعيد . فكأن الشيطان على هذا التأويل شطن . ومما يدل على ذلك كذلك ، قول أمية بن أبـي الصلت :

أيمـا شاطن عصاه عكـاه ثم يلقى في السجن والأكبال

ولم ترد لفظة (الشيطان) في شعر الشعراء الجاهليين ، خلا شعر (أمية بن أبـي الصلت) و (عدي بن زيد العبادي) . والأول شاعر وقف،على ما يظهر من شعره ، على شيء من اليهودية والنصرانية . وأما الثانـــي ، فهو نصراني ، لذلك يجوز لنا ان نرجع علمها بالشيطان الى ما جاء في اليهودية والنصرانية عنه ، ولذلك نستطيع ان نقول ان هذه اللفظة جاءت العرب عن طريق أهل الكتاب .

وذكر علماء اللغـــة ، أن (الأزب) اسم من أسماء الشياطين ، وذكروا أن (الأزب) شيطان اسمه أزب العقبة ، وقيل هو حية [1] . وأن من أسماء الشيطان: (الحُباب) . ويقع على الحية أيضاً ، لأن الحية يقال لها شيطان ، وفي حديث : « الحباب شيطان » [2] . وذكروا أن من أسماء الشيطان (الطاغوت) [3] .

ومن الشياطين ، شيطان اسمه (زوبعة) ، وقيل هو رئيس للجن . ومنـــه سمي الإعصار زوبعة ، ويقال أم زوبعة وأبو زوبعة وهو الذي يثير الاعصار ، حين يدور على نفسه ، ثم يرتفع في السماء ساطعاً كأنه عمود [4] .

وأما ما ورد في القصص عن الشياطين عند الجاهليين ، فهو يختلف عما جاء عن الشيطان في الكتب اليهودية والنصرانية ، مما يدل على أن منبعـــه منبع آخر ، وان (الشيطان) عند الجاهليين ، هو غير الشيطان المعروف عند اليهود والنصارى، الذي دخل الى العرب قبيل الإسلام وفي الإسلام .

ومن القصص المذكورة ، استمد بعض الجاهليين قصصهم عن ذكـاء الشيطان وعن حيلـــه . ومن هذا القصص ولا شك استعمل النـــاس مصطلح (تشيطن) و (الشيطنة) بمعنى الذكاء والحيلة ، لما رسخ في ذهنهم من ذلك القصص عن ذكاء الشيطان وسعة حيله وتلاعبه بأذكى البشر . وهو في التوراة ذو طبع شرير ،

---

١ تاج العروس (١/١٤٧) ، (أزب) ، (١/٢٨٤) ، (زبب) .
٢ اللسان (١/٢٩٥) ، (حبب) .
٣ تفسير الطبري (١٤/٧١) ، (٢٣/١٣١ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٥/٣٦٧) ، (تزبع) .

وزعيم العصاة لأوامر الله ، يضل الناس ويسلك بهم سبل الخطيئة ، ولذلك تعوذوا منه [1] .

ومن القصص المذكور استمد أيضاً علماء اللغة ما ذكروه من ان كلمة (الشيطان) تعني الحية [2] ، ففي ذلك القصص ظهور الشيطان على صورة (حية) خدعت أبوينا آدم وحواء في الجنة . وتمثّل هذا القصص في الأدبين العبراني والنصراني . وسبب ذلك هو ما علق بأذهان العبرانيين من مكر الحيات ودهائها وخبثها وميلها الى الشر ، وما علق بذهنهم عن هذه الصورة في الشيطان . والحية هي عند أكثر الشرقيين رمز يشير الى الثورة والعصيان والشر . وهذه الفكرة هي من أسطورة شرقية قديمة عن سقوط البشرية في الشر ، وتتمثل في سقوط آدم وحواء وطردهما لذلك من الجنة ، وفي تعاليم زرادشت من ان الشرير ظهر في هيأة حية ، وأخذ يعلم الناس الشر [3] .

وزعم ان (شيطان الحماطة) الحية [4] . وورد (شيطان حماط) . ولعل ذلك بسبب لجوء الحيات الى الحماط ، والحماطة شجرة شبيهة بالتين ، وهي أحب الشجر الى الحيات ، إذ تألفها كثيراً [5] . وفي هذا المعنى ورد في قول الشاعر :

تلاعِبُ مثنى حضرمي كأنه تعمج شيطان بذي خروع قفر [6]

والتعمج التلوي . والمراد هنا تلوي شيطان بمكان قفر نبت فيه الخروع. وقصد بالشيطان الحية .

وقد وصف الشيطان بالقبح ، فإذا أريد تعنيف شخص وتقبيحه ، قيل له : « يا وجه الشيطان » وما هو إلا شيطان ، يريدون بذلك القبح ، وذلك على سبيل تمثيل قبحه بقبح الشيطان . وقيل : الشيطان حية ذو عرف قبيح الخلقة [7] .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/٦٥١) .
٢ اللسان (١٧/١٠٤) ، تاج العروس (٩/٢٥٣) ، (شطن) ، (والعرب تسمى كل حية شيطانا) ، الحيوان (١/٣٠٠) .
٣ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٠٠) ، Hastings, p. 829.
٤ الحيوان (٦/١٩٢) .
٥ تاج العروس (٥/١٢١) ، (حمط) .
٦ الحيوان (١/١٥٣) ، (٦/١٩٢) .
٧ الفاخر (ص ٢٣٨) ، الحيوان (١/٣٠٠) ، تاج العروس (٩/٢٥٣) ، (شطن) .

وقيل إنه كان حية زعم أنها تأتي حول البيت ، فلا يطوف أحد . ولما شرعوا ببناء الكعبة في أيام شباب الرسول، جاء طير فالتقط الحية[١] . ولقبح وجه الشيطان، قالوا للذي به لقوة أو شتر ، إذا سب : يا لطيم الشيطان . وقالوا للمتكبر الضخم : ظل الشيطان[٢] . وكانوا إذا أرادوا ضرب مثل بقبح انسان قالوا : لهو أقبح من الشيطان[٣] . وقالوا لشجرة تكون ببلاد اليمن، لها مظهر كريه (رؤوس الشياطين)[٤] . وبهذا المعنى فسرت (رؤوس الشياطين) في الآية : « إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم : طلعها كأنه رؤوس الشياطين »[٥] . « يقول تعالى ذكره كأن طلع هذه الشجرة ، يعني شجرة الزقوم في قبحه وسماجته رؤوس الشياطين في قبحها » ، « وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة في تقبيح الشيء ، قال : كأنه شيطان ، فذلك أحد الأقوال . والثاني أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطاناً . وهي حية له عرف فيما ذكر ، قبيح الوجه والمنظر ، وإياه عنى الراجز ، بقوله :

عنجرد تحلف حين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرف

ويروي عجيز : « والثالث ان يكون مثل نبت معروف برؤوس الشياطين ، ذكر انه قبيح الرأس »[٦] . ويظهر ان العرب في الجاهلية ، كانوا يطلقون (رؤوس الشياطين) على شجر كريه المنظر جداً ، قال علماء اللغة : « والصوم : شجر على شكل شخص الانسان كريه المنظر جداً ، يقال لثمره رؤوس الشياطين ، يعني بالشياطين الحيات ، وليس له ورق »[٧] . وقد جمع هذا التفسير بين الشياطين والحيات والقبح . ويمثل الصورة التي رسمها الناس في مخيلتهم للشياطين .

وكانت الشعراء تزعم ان الشياطين تلقى على أفواهها الشعر ، وتلقنها اياه

١ الفاخر (ص ٢٣٨) .
٢ الحيوان (١٧٨/٦) .
٣ الحيوان (٢١٣/٦) .
٤ الحيوان (٢١١/٦) ، (٣٩/٤ وما بعدها) .
٥ الصافات ، ٣٧ ، الآية ٦٣ وما بعدها .
٦ تفسير الطبري (٤٠/٢٣ وما بعدها) .
٧ اللسان (٣٥١/١٢ وما بعدها) ، (صوم) .

وتعينها عليه ، وتدعي ان لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود . وبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بهذا الشأن ان ذكروا لهم أسماء شياطينهم ، فقالوا : إن اسم شيطان الأعشى مسحل ، وللأعشى أشعار فيه ، يمدحه ويثني عليه ، لأنه يعاونه ويساعده في نظم الشعر فيلقيه عليه إلقاءً . وقد زعم (حسان بن ثابت) ان شيطانه الذي يلهمه الشعر هو من (بني شيصبان) من فصائل الجن . وقد انتقلت هذه العقيدة في إلهام الشعر للشعراء إلى المسلمين كذلك . وقد دعا (جرير) شيطانه الذي يلقي عليه الشعر (ابليس الأباليس)[1] .

ويكنى عن الشيطان بالشيخ النجدي[2] . وقد أشير اليه مراراً في كتب السير والأخبار . أشير اليه في بنيان الكعبة ، حين حكموا رسول الله في أمر الركن من يرفعه، فحضر في زي شيخ نجدي بين الحاضرين ، وصاح : يا معشر قريش أرضيتم أن يليه هذا الغلام دون أشرافكم وذوي أسنانكم ، وحضر اجتماع (دار الندوة) . وأيد قرارهم في قتله . وذكر علماء الأخبار ، أنه عرف بالشيخ النجدي ، لأنه تمثل نجدياً ، وقيل لأن نجداً يطلع منها (قرن الشيطان) ورووا أحاديث تذكر ذلك ، وتذكر أن الفتن تخرج من المشرق ، والمشرق نجد بالنسبة لأهل الحجاز[3] .

و (قرن الشيطان) ، ناحية رأسه ، ومنه الحديث : تطلع الشمس بين قرني الشيطان ، فإذا طلعت قارنها ، وإذا ارتفعت فارقها[4] . وفي الأساطير أن للشيطان قرنين .

وكان الكهان يستعينون بالشياطين في الإخبار عن المغيبات، يذكرون أن الشياطين يسترقون السمع من السماء ، فيخبرونهم عن أنباء الأرض . وكان للكاهن (صاف

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٦٩ وما بعدها) ، قال الاعشى :

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له   جهنام جدعا للهجين المذمم

وقال :

حباني أخي الجنى نفسى فداؤه   بأفيح جياش العشيات مرجم

الحيوان (٦/٢٢٥ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢/٥١٢) ، (نجد) .

٣ الروض الانف (١/٢٩١) .

٤ تاج العروس (٩/٣٠٦) ، (قرن) .

ابن صياد) شيطان يلقي اليه بما خفي من أخبـــار الأرض ، وذكر أن النجوم تقذف الشياطين،وأن الجاهليين كانوا يرون ذلك ، وهو موجود في أشعار القدماء من الجاهلية ، منهم عوف بن الجزع ، وأوس بن حجر ، وبشر بن أبـي خازم وكلهم جاهلي ، وقد وصفوا الرمي بالنجوم[1] .

و (ابليس) من هذه الأفكار التي نفذت الى العرب عن طريق أهل الكتاب ، والعلماء على ان الكلمة معربة ، وهي كذلك[2] . فأصلها (ديابولس) « Diabolos » وهي كلمة يونانية استعملت في مقابل لفظة (شيطان)[3] . وقد أطلقت لفظـــة (أباليس) في مقابل (شياطين) . وقد ورد ان من أسماء ابليس (قترة) ، وان اللفظة علم للشيطان . ومن المجاز أبو قترة : ابليس . « وفي الحديث نعوذ بالله من الأعمين ومن قترة وما ولد . الأعمين الحريق والسيل ، وقترة من أسماء ابليس ، وكنيته : أبو قترة . وقترة حية صغيرة ، لا ينجو سميمهـا[4] ، ولعل بين التسميتين صلة .

شق :

ومن الجن جنس صورة الواحد منهم عـــلى نصف صورة الانسان ، واسمه (شق) ، وانه كثيراً ما يعرض للرجل المسافر اذا كان وحده ، فربما هلك فزعاً، وربما أهلكه ضرباً وقتلاً . ورووا في ذلك قصصاً . منه ما زعموه من ان (علقمة ابن صفوان بن أمية بن محرث الكناني) جد (مروان بن الحكم) ، خرج في الجاهلية ، وهو يريد مالاً له بمكة ، وهو على حمار ، وعليـــه إزار ورداء ، ومعه مقرعة ، في ليلة اضحيانة ، حتى انتهى الى موضع يقال له (حائط حزمان)، فاذا هو بشق ، له يد ورجل ، وعين ، ومعه سيف ، وهو يقول :

---

١ الروض الانف (١/١٣٥) ، (فصل في الكهانة) .

٢ المعرب ، للجواليقي (٢٣) ، تاج العروس (٤/١١١) ، (البلس) .

٣ Ency. Religi., 4, p. 600, Geiger, was hat Mohammad aus der Judenthume Aufgenomen, Leipzig, 1902, S. 107, Weil, Biblische Legenden der Muselmanner, S. 12, Shorter Ency., p. 146, Grünbaum, Beiträge Zur Sem. Sagen, S. 60.

٤ اللسان (٥/٧٣) ، (ابليس) ، تاج العروس (٣/٤٨٠) ، (قتر) ، (٤/١١١) ، (البلس) .

علقم إني مقتول وإن لحمي مأكول
أضربهـم بالمذلول ضرب غلام شملول
رحب الذراع بهلول

فقال علقمة :

يا شقها مالي ولك اغمد عني منصلك
تقتل من لا يقتلك

فقال شق :

عبيت لك عبيت لك كيما أتيح مقتلك
فاصبر لما قد حم لك

فضرب كل واحد منهما صاحبه ، فخرا ميتين[1] .

الهاتف والرئي :

ويؤمن الأعراب بالهاتف،ويتعجبون ممن يرد ذلك . وهم يزعمون أنهم يسمعون الهاتف يخبرهم ببعض الخبر ، فيكون صحيحاً . فمن ذلك حديث (الأعشى بن نبّاش بن زرارة الأسدي) ، أنه سمع هاتفاً يقول :

لقد هلك الفيّاض غيثُ بني فهر وذو الباع والمجد الرفيع وذو الفخر

فقال مجيباً له :

ألا أيها الناعي أخا الجود والندى من المرء ننعاه لنا من بني فهر

فقال :

نعيت ابن جدعان بن عمرو أخا الندى وذا الحسب القدموس والحسب القهر[2]

١ الحيوان (٦/٢٠٦) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٦/٢٠٢) .

وزعموا أن لنقل الجن الأخبار ، علم بوفاة الملوك وأصحاب النباهة والجاه، وأمثال ذلك من الأمور الخطيرة [1] .

وتتردد في الأخبار كلمة (هاتف) و (الهاتف) ، بمعنى صوت صادر من مصدر غير مرئي،وردت في مواضع عديدة من القصص الجاهلي ، ووردت بعدها الجمل التي قالها الهاتف لمن وجه خطابه اليه . وهي تكهن واخبار ، عن أمر وقع وحدث ، أو لتحذير من القيام بعمل ما ، أو بإرشاد الى عمل أو جهة أو ما شابه ذلك من الأمور . وقد تستعمل بمعنى (الرئي) الذي يهتف للكاهن ، أو الصوت الذي يزعم أنه يخرج من جوف الصنم [2] .

الرئي :

وكانوا يقولون ، إذا ألف الجني انساناً وتعطف عليه ، وخبّره ببعض الأخبار وجد حسّه ورأى خياله ، فاذا كان عندهم كذلك قالوا : مع فلان رئي من الجن ، يخبره بما وقع ويقع وعن الأسرار . وممن يقولون ذلك فيه : عمرو بن لحي بن قمعة ، والمأمور الحارثي ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وهم من الرؤساء السادة ، وقد كان لكل كاهن وعرّاف رئي يخبر صاحبه بما يُسأل عنه. وذكر انه قد كان مسيلمة يدعي ان معه رئياً في أول زمانه ، ولذلك قال الشاعر حين وصفه :

ببيْضة قارورٍ وراية شادنٍ وخلة جني وتوصيل طائر [3]

الملائكة :

والملائكة هم روحانيون ، أي من أرواح في نظر أهل الجاهلية . ويدل ورود الملائكة في مواضع عديدة من القرآن الكريم ومن الآيات التي تشير الى مجادلة المشركين ومحادثتهم للرسول في الملائكة ، ان فكرة الملائكة كانت معروفة شائعة

---

١ المصدر نفسه (ص ٢٠٣) .
٢ تاج العروس (٦/٢٧٣) ، (هتف) .
٣ الحيوان (٦/٢٠٥ وما بعدها) ، (هارون) .

بينهم ، وأن بعض العرب كانوا يعبدونها ، كما يظهر ذلك من الآية : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت وليّنا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون »[1] .

غير أن المفسرين ، لم يشيروا الى أولئك الذين تعبدوا للملائكة ، ولم يذكروا أسماءهم ، مع أنهم ذكروا اسم من تعبد للجن[2] . بل يظهر من تفسيرهم للآية المذكورة ، أنها وردت على سبيل الاستفهام « كقوله عز وجلّ لعيسى : أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله . قال النحاس : فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت لهم ، فهو استفهام توبيخ للعابدين »[3] . ولكنهم أشاروا في مواضع أخرى الى ان مشركي قريش كانوا يقولون : الملائكة بنات الله،وكانوا يعبدونها . ويقولون ان امهاتهن بنات سروات الجن ، يحسبون انهم خلقوا مما خلق منه ابليس[4] .

وقد أشير في القرآن الكريم ، الى ان من الجاهليين من زعم ان الملائكة بنات الله[5] . وتحدث المفسرون في تفسير ذلك ، غير انهم خلطوا في الغالب بين الملائكة والجن . ولم يأتوا بشيء يذكر عن رأي أهل الجاهلية في الملائكة . وما ذكروه هم عن الملائكة ، هو اسلامي ، يرجع في سنده الى أهل الكتاب ، ولا سيما القصص الاسرائيلي ، ولهذا فهو مما لا يمكن ان يقال عنه انه يعبر عن رأي الجاهليين . ويظهر ان الجاهليين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الملائكة، لأن الاعتقاد بالملائكة من عقيدة الديانة اليهودية ثم النصرانية ، وهم لا يعرفون الكتاب ، إلا من كان منهم على دين اليهودية أو النصرانية ، أو كان من الحنفاء أو على اتصال بأهل الكتاب ، كأمية بن أبي الصلت وأمثاله .

وقد أشير الى الملائك ، أي (الملائكة) في شعر ينسب الى (أمية بن أبي الصلت) ، هو :

---

١ سبأ ، الآية ٤٠ وما بعدها .
٢ راجع تفسير الطبرى (٦٩/٢٢) ، روح المعاني (١٣٩/٢٢) ، القرطبي ، الجامع (٣٠٩/١٤) .
٣ القرطبي ، الجامع (٣٠٨/١٤ وما بعدها) .
٤ تفسير الطبرى (٦٧/٢٣ وما بعدها) .
٥ الصافات ، الآية ١٤٩ وما بعدها ، الاسراء ، الآية ٤٠ ، الزخرف ، الآية ١٥ وما بعدها ، تفسير الطبري (٨٣/١٤) .

وكأن بِرقعَ ، والملائك حوله سدرٌ تواكله القوائم أجرد[1]

وورد (ملأك) في شعر رجل من عبد القيس جاهلي يمدح بعض الملوك ، قيل هو النعمان . وقيل هو لأبي وجزة يمدح به عبدالله بن الزبير :

فلست لإنسيّ ، ولكن لِملأك تنزل من جو السماء يصوب[2]

وقد زعم أن الملائكة تصافح الناس وتناجيهم . زعم ذلك حتّى في الإسلام . ذكر (ابن دريد) ان (عمران بن الحُصين بن عُبيد بن خلف) ، وهو من الصحابة ، وعرف بـ (أبي نجيد) ، « كانت تصافحه الملائكة وتناجيه لداء كان به ، فاكتوى ، فذهب عنه ذلك . وذهب ما كان يسمع ويرى »[3] .

السحر :

والسحر من أهم الوسائل التي لجأ اليها البشر وأقدمها منذ أعتق أيامه في التأثير على الأرواح ، وقد جعله جزءاً من الدين ، لذلك كان من اختصاص رجال الدين ، يقومون به في المعابد قيامهم بالشعائر .

واذ كان معظم الناس في الزمن الحاضر يفرقون بين الدين والسحر ، ويعدّون السحر شيئاً بعيداً عن الدين ، بل هو ضد الدين ، فإن قدماء البشر لم يكونوا ينظرون اليه هـذه النظرة ، كانوا ينظرون اليه كما قلت على انه جزء مهم من الدين ، بل هو أهم جزء فيه وأعظمه ، بل ما زلنا نجد ديانات القبائل البدائية تعدّ السحر جزءاً من الدين[4] . وهو كذلك في كل دين بدائي .

وعمل الساحر هو السحر ، والسحر في عرف بعض علماء اللغة الإسلاميين هو

---

١ اللسان (٤٩٦/١٠) .

٢ اللسان (٤٩٦/١٠) .

٣ الاستقاق (٢٧٨/٢) ، (طبعة أوربة) ، (انه كان يرى الحفظة ، وكانت تكلمه حتى اكتوى) ، الاصابة (٢٧/٣) ، (الرقم ٦٠١٢) .

٤ R. Campell Thompson, Semitic Magic its Origins and Development, London, 1908, p. XVII, Smith, p. 90.

« عمل يقرب فيه الى الشيطان »[1] . وقد فسّر بعض العلماء كلمة (الجِبْت) في القرآن الكريم بمعنى السحر ، كما ذكر أنها تعني الساحر والكاهن والصنم وكل ما عبد من دون الله . وفسر (الطاغوت) بمعنى الشيطان[2] .

وقد وردت كلمة (السحر) و (سحر) و (الساحر) و (الساحرون) و (السحرة) و (مسحوراً) و (مسحورون) في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، ويدل ورودها فيه بهذه الكثرة على مبلغ أثر السحر في عقلية الجاهليين. وقد اتهم أهل مكة الرسول أنه ساحر ، حينما أخبرهم بنزول الوحي عليه . وقالوا انه يستمد وحيه من الشياطين .

وقد جمع البخاري بين الكهانة والسحر بأن قدّم الكهانة على السحر ، لأن مرجع الاثنين شيء واحد هو الشياطين[3] .

وقد حملت تلك المواضع من القرآن الكريم المفسرين على جمع ما علق بأذهان الناس عن السحر . أما كتب الحديث ففيها مادة مفيدة وردت ضمناً عن عقيدة أهل الجاهلية به . كما وردت في أخبار أهل الأخبار إشارات اليه ، تجمل جميعها ان الاعتقاد بالسحر بين الجاهليين كان شائعاً معروفاً . وان ممارسيه في جزيرة العرب كانوا عرباً ويهوداً ، وانهم كانوا يرون ان أصوله في بابل وعند يهود .

وقد كان أكثر السحرة في الجاهلية من يهود[4] . يقصدهم الجاهليون من أنحاء بعيدة ، لاعتقادهم بسعة علمهم وباختصاصهم فيه . وكان اليهود يسندون علمهم الى بابل،ولهذا نجد الأحاديث والأخبار العربية ترجع علم السحر الى بابل واليهود .

والفرق بين الكهانة والسحر ان الكهانة تنبؤ ، فسند الكاهن هو كلامه الذي يذكره للناس . أما السحر ، فانه عمل في الأكثر ، للتأثير في الأرواح ، كي تقوم بأداء ما يطلب منها . ولا يمكن صنع سحر ما لم يقترن بعمل . ويصحب هذا

---

١ تاج العروس (٣/٢٥٨) ، (سحر) ، اللسان (٤/٣٤٨) ، (سحر) .

٢ النساء ، الآية ٥٠ ، « وسمي الساحر والكاهن جبتا » ، المفردات (٨٣) ، تاج العروس (١/٥٣٥) ، شمس العلوم (ح ١ ، ق ٢ ، ص ٢٤٤) .

٣ عمدة القارىء (٢١/٢٧٣ ، ٢٨٢) ، « باب السحر » ، ارشاد الساري (٨/٤٠١) ، الطبري (٢/٤٢١ ، ٤٤٥) ، الطبرسي ، (١-٢) ، (٣٨٤) .

٤ عمدة القارىء (٢١/٢١٣) ، الطبري (٢/٤٣٩) ، العقد الفريد (٦/٢٧٦) ، تفسير الرازي ، (١٧-١٨) (ص ٩) ، سنن ابن ماجة (٢/١١٧٣) ، روح المعاني (٣٠/٢٨٢) .

العمل كلام مفهوم أو غير مفهوم ، وإشارات ، يدعي الساحر انه انما يقوم به وبالإشارات لتسخير الأرواح ، وان ما يفعله مفهوم عند جنوده ، وهم الجن والشياطين .

وفن مثل هذا مغرٍ جداً ، فمن من الناس من لا يريد تسخير القوى الخفية لخيره ولصالحه ، وإلحاق الأذى بأعدائه ومبغضيه . ولذلك كان للسحر وللسحرة أثر خطير في التأريخ ، بالرغم من مقاومة بعض الأديان له . فما يقوم به السحرة من أعمالٍ وخفة ، وما لشخصيات بعض السحرة من تأثير نفسي كبير ، تجعل من الصعب على بعض الناس ان يكذّبوا أقوالهم وأفعالهم ، ولذلك يتأثرون بهم ، ويأخذون بما يقولونه لهم ، حتى تكون للساحر مكانة كبيرة في نفس ذلك الشخص.

وللسحر أغراض عديدة ، وقد استخدم في معالجة أمور كثيرة ، حتى ادارة الملك والقضاء على الأعداء،للسحر وللسحرة فيها صولات وجولات . ومن الطبيعي أن يكون للحب المكانة البارزة فيه ، حتى ليكاد يتخصص بهذا الجانب من حياة الإنسان . ولما كانت العادة أن يتزوج الرجل من جملة نساء صار السحر من أهم الوسائل التي استعانت بها الزوجات للتأثير في قلب الرجل ، ولكسب المكانة الأولى عنده ، وللتفريق بين الرجل وبين بقية أزواجه . ومصداق ذلك ما ورد في القرآن الكريم عن السحرة في هذه الآية : « ولكن الشياطين كفروا ، يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلّمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة ،فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه»[١] . فالتفريق بين المرء وزوجه : كان ولا يزال من أهم أعمال السحرة . ونجد في الحديث تقريعاً ولوماً للسحرة لاستخدامهم السحر في هذا الغرض الفاسد .

والساحر في معالجة الحب على طريقين : اشعال جذوة نار الحب في قلب من يقصد إثارته عنده ، أو اطفاء نارها وإخمادها واماتتها في قلب المسحور . ولكل من الطريقين قواعد وأحكام وأصول يجب تطبيقها بعناية ؛ وإلا بطل فعل السحر.

أما إشعال نيران الحب ، فيكون بطرق متعددة يتبعها الساحر ، فقد يستعين بالنباتات والأعشاب ، يستخرج أدوية منها يقدمها الى المرأة لتُوجر الرجل اياها سراً . وقد يستعين بالجمر يقرأ عليه ، ثم يرمى في الممرات التي يمر الرجل ،

---

١ البقرة : الآية ١٠٢ ، عمدة القاريء (٢٧٨/٢٠ وما بعدها) .

أو الشخص المراد سحره منها . وقد يدفن السحر في موضع كمقبرة أو محل آخر ليؤثر من ذلك الموضع على المسحور . وقد يستعين بالخرز يسحر عليها ، فتحبب المرأة الى زوجها ، وتسمى (التِوَلة)[1] .

وكما يستعمل السحر لاشعال نيران الحب في القلب ، كذلك يستعمل لايقاد البغض والكراهية في النفوس . ففي استطاعة الساحر بما عنده من جنود مجندة ان يلقي البغضاء والكراهية والحقد في نفس أي شخص يود انساناً آخر ، فينقلب مبغضاً حاقداً كارهاً لمن كان يحبه ويعشقه . ومجال هذا الباب واسع جداً للنساء خاصة .

وفي استطاعة الساحر مداواة العاشق وإماتة عشقه بوصفة يعطيها اليه تقضي على حبّه الجامح قضاءً تاماً يسمونها (السلوانة) و (السلوان) . وما هذه الوصفة إلا مادة ذات سحر عجيب يغتسل بها الانسان أو يشربها ، فتطفىء في الحال أو بعد أمد كل نيران للحب مؤججة في قلب العاشق . والسلوانة هي شيء من تراب قبر ، أو خرزة تسحق ويشرب ماؤها ؛ فيورث شاربها سلوة . وتكون الحرزة شفافة ، تدفن في الرمل فتسودّ ، ثم تستخرج لسحقها وشربها ، وقد يكتفى بصب ماء المطر على تلك الخرزة لسقي العاشق ذلك الماء الذي يسمونه (السلوان)، ليشفى من العشق[2] . ولا بد أن يكون لاختيار الماء وتراب القبر أو مسحوق الخرزة في معالجة العشق ، سبب يمكن تفسيره بأنه لغسل قلب المحب،وإماتة الحب فيه .

ومن أهم الأعمال التي يعالجها السحرة ، اخراج الجن من المجانين . فالجنون هو من عمل الجن . تحل الجنة بالإنسان فتأخذ عقله . ومن هنا قيل لهذا المرض (جنة) و (جنون)[3] . ومن واجب الساحر اخراج الجن من هؤلاء المرضى، وهو عمل يقوم به الساحر حتى اليوم،ويكون ذلك بضرب المريض بالعصا لإخراج

---

١ بالكسر وبالضم ، « وقيل هى معاذة تعلق على الانسان » ، اللسان (١٣/٨٥) .

٢ يا ليت أن لقلبي من يعلله ... أو ساقيا فسقاني عنك سلوانا

وورد :

شربت على سلوانة ماء مزنة ... فلا وجديد العيش يا مي ما أسلو

وجاء :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد ان هما شفياني

فما تركا من رقية يعلمانها ... ولا سلوة الا بهما سقياني

اللسان (١٩/١١٨ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٩/١٦٤ وما بعدها) ، « جنن » .

الجنة منه . أو بسقيه بعض الأشربة السحرية ، أو بتدليك جسمه وغسله،وبإدخاله محلاً مظلماً هادئاً يحرق فيه البخور ، وبتعليق بعض العزائم والحجب وما شاكل ذلك لإبعاد الجن عن المجنون وإعادة عقله اليه .

ويداوي الساحر أمراضاً عديدة أخرى ، بل كل أنواع الأمراض ، وما المرض في نظر القدماء إلا أرواح شريرة حلت في الأجساد أو بجزء منها ، فألحقت بها الأمراض . ولن يشفى الجسد أو الجزء المصاب منه إلا بطرد تلك الأرواح. وطرد الأرواح من أعمال السحر . والساحر هو سلف من أسلاف الأطباء . وكلمة (طبيب) العربية هي من هذا الأصل . فالطب في اللغة السحر ، و (المطبوب) هو المسحور ، والطابّ هو الساحر يستخدم طبه في الشفاء[1] . وقد أدخلت كتب الحديث السحر في (كتاب الطب)[2] . فالساحر هو طبيب يعالج أشياء عديدة ، ثم تخصص الأطباء بالطب ، غير ان الأطباء ظلوا يمارسون حتى في أوروبة السحر في معالجة مرضاهم مدة طويلة ، الى ان تطور العلم ، وظهر البحث الحديث .

ويقوم أكثر مداواة المرضى بواسطة السحر بالنفث على المريض أو في فمه وبامساك الرأس أو الجزء المريض ، لقراءة شيء عليه يضمن شفاءه ، أو بتدليك ذلك الجزء منه . وقد يعطى حجباً وتمائم تشفي المريض من مرضه . والنفث في الفم من العادات الجاهلية القديمة ، يقوم بـه الكاهن والساحر والأب في بعض الأحيان ، لاعتقادهم ان ذلك سيلهم الطفل فيعلمه العلم والحكمة والذكاء ويمنحه الصحة الجيدة .

ومن طرق السحر عند الجاهليين ، النفثُ في العُقد ، وقد دلّت عليه هذه الآية الكريمة : « ومن شرّ النفّاثات في العقد »[3] . ويكون ذلك بعقد عقد والنفث عليها[4] . ويذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن (لبيد بن أعصم

---

١ صحيح مسلم (١٤/٧) ، اللسان (٤٢/٢) ، تاج العروس (٣٥١/١) ، عمدة القارىء (٢٢٩/٢١) .

٢ راجع كتب الحديث : (كتاب الطب) ، ارشاد الساري (٣٦٠/٨ وما بعدها) ، عمدة القارىء (٢٧٧/٢١ وما بعدها) .

٣ الفلق : الآية ٤ .

٤ الكشاف (٢٤٤/٤) ، تاج العروس (٦٥٠/١) « نفث » ، صحيح مسلم (١٤/٧) ، « باب السحر » ، عمدة القارىء (٢٨٠/٢١ وما بعدها) ، أسباب النزول (٣٤٦ وما بعدها) .

اليهودي) سحر الرسول ، ودس ذلك السحر في بئر (لبني زريق) تسمى (بئر ذروان) (بئر ذي أروان) ، وأنه وضع ذلك السحر في جف طلعة تحت راعوفة ، أي في قشر الطلع وتحت حجر في أسفل البئر . فلما استخرج السحر ، وجدوه مشاطة رأس وأسنان مشطه ، وإذا فيه معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر [1] . ويقوم بهذا السحر الرجال والنساء . غير أن المفسرين وأهل الأخبار واللغة حينما يذكرون هذا النوع من السحر يذكرون أن النساء النفاثات هن اللواتي كنّ يقمن بذلك . أخذوا رأيهم هذا من الآية المذكورة التي تشير الى بنات لبيد وكنّ ساحرات ، والاشارة في هذه الآية عن حادث معين ، ولم يقصد بها الاطلاق.

والنفث في العقد ، وعقد سبع عقد توضع فيها مادة السحر ، من طرق السحر القديمة المعروفة عند العبرانيين والآشوريين وغيرهم . وقد عثر في الكتابات المسمارية على تعليمات في كيفية اتقاء شر الأرواح الخبيثة وأرواح الأموات الشريرة التي تسحر الناس ، فكان مما جاء فيها عقد سبع عقد ووضع مادة سحرية فصلت في تلك التعليمات لاتقاء شر سحر تلك الأرواح [2] .

ويذكر المفسرون وأهل الحديث ان الرسول لما سحره (لبيد بن الأعصم) من (بني زريق) ، كان « يخيل اليه انه كان يفعل شيئاً وما فعله » [3] ، حتى علم بسحر (لبيد) ، فلما استخلصه من البئر ، ذهب أثر ذلك السحر عنه .

وقد كان السحرة اليهود يقرأون شيئاً ويهمهمون عند عقدهم كل عقدة من هذه العقد ، ويقال لذلك Ghabar [4] . ومن هؤلاء اقتبس السحرة العرب طريقتهم في النفث على العقد .

والمواد التي يستعين بها الساحر لعمل السحر عديدة . أوراق بعض النباتات والملح والبخور والدماء والعظام وقرون الحيوانات يدفنها أو يحرقها أو يذيبها في الماء . وفي كل سحر لا بد أن يشفع الساحر سحره بطقوس أو بحركات خاصة ، وبتمتمة تلقي في الروع ان الساحر يقول شيئاً ويخاطب أشخاصاً هم الجن . والتمتمة

---

١ الطبرسي ، الجزء التاسع ، المجلد الخامس (٥٦٨) ، ارشاد الساري (٤٠٣/٨ وما بعدها ، ٤٠٧) .

٢ Semitic Magic, p. 33.

٣ ارشاد الساري (٤٠٣/٨ وما بعدها) ، شرح صحيح مسلم ، للنووي (١٥/٩) « حاشية على ارشاد الساري » ، الطبري (٤٣٩/٢) ، سنن ابن ماجه (١١٧٣/٢) .

٤ Hastings, p. 569.

هي في الغالب كلام غير مفهوم عند الناس ، ولكنه عند الساحر وجنوده الجن والشياطين كلام واضح بليغ .

ويعمد السحرة الى الصور والرموز في سحرهم ، ومنهم من كانوا لا يعرفون الكتابة ولا القراءة فيرمزون الى من يريدون سحره ، أو إلحاق الأذى به ، أو يصورونه . وقد يشيرون بالصور والرموز الى الجن والشياطين . وهم في الغالب يدفنون تلك الصور والرموز في المقابر ، لأنها من أنسب الأماكن للسحر . وقد عثر على عدد من هذه الاشارات والصور السحرية . ومنها ما هو مكتوب بكتابات لها صور بالسحر[1] .

إبطال أثر القوى الخفية :

وقد حمل اعتقاد الجاهليين بوجود قوى خفية تؤثر في الانسان ، أهل الجاهلية على العمل على التغلب على تلك القوى أو الحد منها وايقاف فعلها وذلك بابتداعه طرقاً عديدة لذلك ، مثل استعماله (النفرات) أو السحر ، أو (الرقي) ، أو التمائم ، والتعاويذ وما شابه ذلك من أمور .

و (النفرة) شيء يعلق على الصبي لخوف النظرة[2] . و (التنفير) الطرق التي يستعملها الانسان لتنفير القوى الخفية وابعادها عنه . وطريقتهم في ذلك شبيهة بطرقهم في تنفير الثقلاء وغير المرغوب فيهم من الناس وابعادهم ، وذلك باتخاذ كل ما ينفر ويقزز ، لتعاف تلك الأرواح المواضع التي اختارتها والأشخاص الذين نزلت بساحتهم وحلت في أجسامهم ، ومنها طريقة (التنجيس) . وطريقتهم في ذلك تعليق الأقذار من خرق المحيض وعظام الموتى وأمثال ذلك على الصبي ومن يُخاف عليه عيون الجن ، لاعتقادهم ان الجن سوف تبتعد عن هؤلاء وتهرب منهم . ويقال للمعوذ (المُنَجَّس) ، وللشخص الذي عوّذ له (المُنَجَّس) . والتنجيس يشفي إلا من العشق[3] .

---

١ Hastings, p. 569.

٢ تاج العروس (٣/٥٧٩) ، (نفر) .

٣ ورد : « وعلق انجاسا على المنجس » ، اللسان (٨/١١١) ، (نجس) ، بلوغ الارب (٢/٣١٩) .

واتخذ الجاهليون طرقاً عدة للتخلص من الجن ، ولا سيما من الخطفة والنظرة . أي من خطف الجن للأطفال ومن حسدها لهم . فهداهم تفكيرهم الى تعليق بعض الأشياء على الصبي[1] ، مثل سنّ ثعلب ، أو سن هرة ، وتقطير شيء من السوائل في عينيه عند الولادة لتنفير الجن منه . وتسمى هذه الأمور المنفرة للجن النفرات[2] .

ومن النفرات التحايل على الجن بتغيير الأسماء ، بتغريبها ، كأن يسمى الصبي بأسماء بعض الحيوانات الصغيرة أو الأشياء التافهة الحقيرة ، وبذلك تنفر الجن منه ، فلا تقترب منه ، ولا تمسه بسوء[3] . « قال أعرابي لما ولدت قيل لأبي نفر عنه ، فسماني قنفذاً وكنّاني أبا العدّاء »[4] .

التحصن من الجن :

والاستعاذة بالجن تفيد أيضاً في نظر الجاهليين في حماية الشخص من أذاهم . فإذا استعيذ بعظيم الجن ، استجاب العظيم نداء المستعيذ . فكان المسافرون إذا خافوا من طوارق الليل ، عمدوا الى واد ذي شجر ، فأناخوا رواحلهم ، وعقلوها وخطّوا عليها خطاً ثم نادوا : نعوذ بعظيم هذا الوادي ، أو نعوذ بصاحب هذا الوادي . فيستجيب عندئذ عظيم الوادي لنداء المستعيذ ، فلا يسمح لأحد أن يلحق به أذى . . وقد أشير الى ذلك في القرآن : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهقاً »[5] . وذكر ان العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض ، وتوسطوا بلاد الحوش ، خافوا عبث الجنان والسعالى والغيلان والشياطين ، فيقوم أحدهم فيرفع صوته : إنا عائذون بسيد هذا الوادي ! فلا يؤذيهم أحد ، وتصير لهم بذلك خفارة[6] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٣١٩) .

٢ بلوغ الارب (٢/٣٢٥) ، التاج (٣/٥٧٩) .

٣ بلوغ الارب (٢/٣٢٥) .

٤ اللسان (٧/٨٥) ، التاج (٣/٥٧٩) ، (نفر) .

٥ سورة الجن ، الآية ٦ .

٦ الحيوان (٦/٢١٧) .

ذبائح الجن :

ولارضاء الجن واسكاتها ، وتجنب أذاها ، قام الجاهليون بتقديم الذبائح لها . فاذا أراد انسان السكن في بيت جديد ، أو استخراج الماء من بئر احتفرها أو من عين ماء ، أو ما شاكل ذلك وخاف من وجود الجن فيها ذبح ذبيحة ، يرضى بها الجن ، فلا تتحرش عندئذ به ولا تصيبه بأذى،لأنه قد تقرب بالذبيحة اليها وبيّن لها انه صديق لها ، فيعيش عندئذ قرير العين في بيته الجديد ، لا يمس عماره بسوء . ويقال لهذه الذبائح : (ذبائح الجن) . وقد نهى الاسلام عن ذبائح الجن . ورد انهم « كانوا اذا اشتروا داراً أو استخرجوا عيناً أو بنوا بنياناً ، ذبحوا ذبيحة مخافة ان تصيبهم الجن ، فأضيفت الذبائح اليهم لذلك »[1] .

و (النُّشرة) سلاح مفيد جداً لحل عقد الرجل عن مباشرة أهله . وقد كانت مشهورة في أيام الرسول . وقد أباح العلماء « النشرة العربية التي لا تضر إذا وطئت ، وهي أن يخرج الإنسان في موضع عضاه ، فيأخذ عن يمينه وشماله من كل ، ثم يذيبه ويقرأ فيه ، ثم يغتسل به »[2] . ويدل نعت هذه النشرة بالنشرة العربية على وجود نشرات غير عربية ، وهي النشرات التي كان يعملها اليهود . وقد كانوا يستعملون الأدعية العبرانية ، لذلك نهى الاسلام عن استعمال تلك النشرات .

و (النُشرة) في تعريف علماء اللغة : رقية يعالج بها المجنون والمريض ومن كان يظن أن به مساً من الجن . وإذا نشر المسفوع كان كأنما أنشط من عقال، أي يذهب عنه سريعاً . وفي الحديث أنه سئل عن النشرة ، فقال هي من عمل الشيطان . وقد أدخلها بعضهم في السحر[3] .

و (العوذة) ، ويقال لها (المعاذة) و (المعاذات) . تستعمل في التعويذ

---

١ اللسان (٣/٢٦٢) ، تاج العروس (٢/١٣٨) ، (ذبح) ، اللسان (٢/٤٣٧) ، (ذبح) ، (صادر) .

٢ عمدة القارىء (٢١/٢٨٤) ، تاج العروس (٣/٥٦٦) ، سنن أبي داوود (٤/٦) .

٣ تاج العروس (٣/٥٦٦) ، (نشر) ، الحيوان (٤/١٨٥) ، اللسان (٥/٢٠٩) ، (نشر) ، (صادر) .

من الفزع والجنون[١] . وتبعث تسميتها على الظن بأنها من المصطلحات الاسلامية ، وانها أخذت تسميتها من المعوذتين. غير ان ورودها في مواضع عديدة من الحديث، واستعمالها في القرآن الكريم للتعبير عن فكـــرة معينة معلومة ، يدلان على انها من المصطلحات التي كانت معروفة بين أهل (يثرب) حتى إن بعض الصحابة ذكروا انها نزلت للتعويذ . ومعنى (أعوذ) أعتصم وألتجيء ، فلا يستبعد ان يكون أهل يثرب على الأقل قد تعلموا ذلك من اليهود الذين كانوا يقرأون بعض التعاويذ من التوراة لحماية أنفسهم من شر الأمراض .

وتستعمل (الرقية) في مداواة الآفات ، مثل الحمى والصرع والنظرة ولدغات العقارب والحيات وأمثال ذلك ، وتكون بقراءة شيء على المريض أو على موضع المرض ثم النفث عليه ، أو بحمل شيء مكتوب . وقد جاء في بعض الأحاديث جوازها في الاسلام ، وفي بعضها النهي عنها . وقد ذكر علماء الحديث ان الاسلام قد نهى عن الرقية التي تكون بلسان غير عربي ، ويدل هذا على ان الجاهليين كانوا يذهبون الى أهـل الكتاب ولا سيما اليهود منهـــم ، فيرقونهم بالعبرانية أو السريانية ، ولذلك نهوا عنه . وقد عرضت بعض أنواع الرقية التي كان يستعملها أهل الجاهلية على الرسول لأخذ رأيه فيها ، فأباحهـا لهم ، وأباح لهم كل رقية ليس فيها شيء من ألفاظ الجاهلية[٢] .

وقـــد حفظت الكتب لنا أنموذجات من بعض الرقى ، منها هذه الرقية التي استعملت في اشعال نيران الحب : « هوا به هوا به ، البرق والسحابة ، أخذته عركن ، فحبه تمكن . أخذته بإبره ، فلا يزل في عبره ، جلبته بإشفى ، فقلبه لا يهدا . جلبتـــه بمبرد ، فقلبه لا يبرد »[٣] . فهذه الرقية تلهب قلب الرجل ، وتهيجه ، وتجعله كأنه في إجانة غسل الثياب . يعمل على وفـق ارادة المرأة التي استعملت تلك الرقية .

---

١ اللسان (٥/ ٣٤) ، سنن ابن ماجة (٢/ ١١٦٣) ، اللسان (٣/ ٤٩٩) ، العقد الفريد (٦/ ٢٧٤) .

٢ شرح الامام النووي على متن مسلم (٩/ ٣٩) ، ارشاد الساري (٨/ ٣٩١) ، سنن أبي داود (٤/ ١٠ وما بعدها) ، اللسان (١٤/ ٣٣٢) ، (صادر) ، (١٩/ ٤٩) ، تاج العروس (١٠/ ١٥٤) ، اللسان (٣/ ٤٩٩) ، (٤/ ٣٣٢) ، صحيـــح مسلـــم (٧/ ١٨) ، سنن ابن ماجة (٢/ ١١٦٦) ، (كتاب الطب ٣٨) .

٣ بلوغ الارب (٣/ ٧) .

أما إذا سئمت المرأة زوجها ، وأرادت الابتعاد عنه ، وطرده عنها ، فسبيلها في ذلك رقية تبعد الرجل ، وتنفره منها ، وذلك بأن تقول : « بأفول القمر ، وظل الشجر ، شمال تشمله ، ودبور تدبره ، ونكباء تنكبه ، شيك فلا انتقش» . فاذا أتمت ذلك ، رمت في أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة . ثم تقول : « حصاة حصت أثره ، ونواة نأت داره ، وروثة راثت خبره ، لفعته ببعرة »[1] .

و (العزائم) الرقيّ ، أو ضروب منها . يقال عزم الراقي ، كأنه أقسم على الداء ، وعزم الحوّاء ، إذا استخرج الحية . كأنه يقسم عليها . والعزيمة من الرقيّ التي يعزم بها على الجن والأرواح[2] . ومن اعتقادات الأعراب أن الجن لا تجيب صاحب العزيمة ، حتى يكون المعزّم مشاكلاً لها في الطباع[3] . وأن للمعزمين جنوداً من الشياطين والجن تتبع أوامرهم وتطيعهم وتخدمهم وتتصرف بين أمرهم ونهيهم[4] .

ومن ضروب الرقية ، ما يدعيه الحوّاء من اخراج الحية من جحرها ، بعزيمة يقوم بها، تجبرها على الخروج منه . وقد قالت بذلك الشعراء في الجاهلية والاسلام. وكانوا يؤمنون بذلك ويصدقون به . وقد أشير في شعر لأمية بن أبي الصلت ، الى اخراج الحية من جحرها . وقد تحدث (الجاحظ) عن ذلك ، وعلل سبب خروجها وجاء بأبيات شعر في ذلك ، وتحدث عن تمويه الحواء والراقي[5] .

و (التمائم) ومفردها (التميمة) ، هي عوذة على هيأة قلادة من سيور تضم خرزاً ، وقد تكون من خرزة واحدة تستعمل للصبيان والنساء في الغالب اتقاء النفس والعين . فاذا كبر الطفل ، انتزعت التميمة منه . وقيل : التمائم «خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم ينفون بها النفس والعين بزعمهم ، فأبطله الاسلام » . وذكر ان التميمة خرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق . وكانوا يعتقدون انها تمام الدواء والشفاء[6] . وقد أشير اليها في الشعر الجاهلي .

---

١ بلوغ الارب (٣/٧) .
٢ اللسان (١٢/٤٠٠) ، (عزم) ، الحيوان (٤/١٨٤) .
٣ الحيوان (٤/١٨٥ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٤/١٨٤ وما بعدها) ، الفهرست ، (الفن الثاني من المقالة الثامنة) .
٥ الحيوان (٤/١٨٤ وما بعدها) .
٦ اللسان (١٢/٦٩ وما بعدها) ، (تمم) .

وكانوا يستعملونها بكثرة ، يتعوذون بها ، لذلك عدها بعض الصحابة من الشرك، لأنهم جعلوها واقية من المقادير والموت وأرادوا دفع ذلك بها ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله[1] .

وللخرز عند الجاهليين وعند الأعراب حتى اليوم ، أهمية كبيرة في السحر ، وفي دفع أذى الأرواح والعين ، وفي النفع والحب ، وأمثال ذلك . ولما كانت الخرز فصائل وأنواعاً ، فقد خصوا كل فصيلة باسم معين ، وجعلوا لكل قسم وصنف أثراً خاصاً يمتاز به عن بقية الأصناف الأخرى . فالتولة مثلاً الخرزة التي تحبب المرأة الى زوجها[2] ، و (العُقرة) (خرزة العقر) خرزة تشدّها المرأة على حقويها لئلا تلد . يزعم الأعراب انها إذا علقت على حقو المرأة لم تحمل إذا وطئت . وقيل العكس : العقرة خرزة تعلق على العاقر لتلد[3] . و (الينجلب) خرزة للتأخيذ ، تفيد في رجوع الرجل بعد الفرار وفي اكتساب عطفه بعد وقوع بغضه[4] . وكانوا يقولون أقوالاً في ذلك مثل : « أخذته بالينجلب ، فلا يرم ولا يغب ، ولا يزل عنـد الطنب » ، و « وأعيذه بالينجلب ، ان يقم وان يغب » . فهم يربطون الرجل بهذه الخرزة . فيجعلونه لا يفارق بيته وأهله .

و (الخَصُمة) ، وهي خرزة للدخول على السلطـان والخصومة تجعل تحت الخاتم أو في زر القميص أو في حمائل السيف[5] . و (العطفة) هي خرزة تجلب العطف لصاحبها[6] . و (السلوانة) خرزة تسحق ويشرب ماؤها ، فيورث شاربه سلوة . وقيل : خرزة للتأخيذ ، يؤخذ بها النساء الرجال ، وقيل خرزة للبغض بعد المحبة ، وقيل خرزة شفافة تدفن في الرمـل . فتسود فيبحث عنها ويسقاها الانسان فتسليه ، أو يسقاه العاشق فيسليه عن المرأة . وقيل خرزة كانوا يقولون : اذا صب عليها ماء المطر ، فشربه العاشق سلا. أو هو ان يؤخذ تراب قبر ميت، فيجعل في ماء فيسقى العاشق ، فيموت حبه . أو هو دواء يسقاه الحزين

---

١ اللسان (١٢/٧٠) ، (تمم) ، سنن أبي داود (٤/٩) ، النهاية (١/١٤٣) ، تاج العروس (٧/٢٤٢) ، شحن العلوم (ج ١ ق ١ ص ٢١٥) .

٢ تاج العروس (٧/٢٤٢) .

٣ تاج العروس (٣/٤١٤) ، (عقر) ، بلوغ الارب (٣/٧) .

٤ تاج العروس (٨/٣٧٩) ، بلوغ الارب (٣/٧) .

٥ تاج العروس (٨/٣٧٩) ، (خصم) .

٦ تاج العروس (٦/٢٠٠) ، بلوغ الارب (٣/٧) .

فيفرحه[1] . و (القرزحلة) ، وهي خرزة من خرز الضرائر[2] .

وكانوا يرقون بالخرز . فللخرزة (الهنمة) ، رقية خاصة ، هي : « أخذته بالهنمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة »[3] . وللقبلة و (الدردبيس) ، وهي خرزة مؤثرة ذات قوة فعالة ، يتحبب بها النساء الى أزواجهن،تؤخذ من القبور العادية، أي القبور الجاهلية القديمة ، رقية خاصة ، هي : « أخذته بالدردبيس تدرّ العرق اليبيس ، وتذر الحديد كالدريس » . وقيـــل الدردبيس خرزة سوداء ، كأن سوادها لون الكبد ، اذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشف مثل العنبة الحمراء للحب، تتحبب بها المرأة الى زوجها ، توجد في قبور عاد[4] .

ومن خرزهم : (كرار) ، خرزة تؤخذ بها نساء الأعراب . وقيـــل خرزة تؤخذ بها النساء والرجال . ورقيتها : « يا كرار كرّيه ، يا همرة اهمريه ، ان أقبل فسرّيه ، وان أدبر فضريه ، من فرجه الى فيـــه »[5] . ومنها (الهمرة) ، خرزة للتأخيذ . وهي خرزة الحب ، يستعطف بها الرجال ، ورقيتها : « يا همرة اهمريه ، ويا غمرة اغمريه ، ان أقبل فسرّيه ، وإن أدبر فضريه ، من استـــه الى فيه ، وماله وبنيه »[6] . ومثلها (الهصرة) ، خرزة للتأخيذ[7] .

ومن الخرز المعروفة : (الكحلة) ، خرزة من خرزات العرب للتأخيـــذ ، تؤخذ بها النساء الرجال . أو هي خرزة سوداء تجعل على الصبيان للعين والنفس من الجن والإنس ، فيها لونان بياض وسواد[8] .

اصابة العين :

كان للجاهلين رأي وعقيدة في العين وفي أثرها في الحياة ، فهم يعتقدون بأثر

---

١ تاج العروس (١٠/١٨١) ، (سلا) .
٢ بلوغ الارب (٣/٦ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٦/١٠٧) ، تاج العروس (٩/١١١) ، (الهينمة) .
٤ تاج العروس (٤/١٤٩) ، (الدردبيس) .
٥ تاج العروس (٣/٥١٩ وما بعدها) ، (كرر) ، بلوغ الارب (٣/٧) .
٦ تاج العروس (٣/٦٢٣) ، (همر) ، بلوغ الارب (٣/٧) .
٧ تاج العروس (٣/٦٢١) ، (هصر) .
٨ تاج العروس (٨/٩٥) ، (كحل) ، اللسان (١١/٥٨٥) ، (كحل) .

العين وإصابتها . ولخطر هذه الإصابة وأهميتها ، تفننوا في ابتداع وسائل الوقاية منها ، وحماية أنفسهم من أثرها . وقد زعموا أن عيون بعض النـاس تصيب ، وانها ان أصابت شيئاً أهلكته ، فان (العين) لا تنتج الا شراً ، وهي لا تكاد تكون في خير مطلقاً . ولذلك تجنّبوا (العائن) وابتعدوا عنه. و (العائن) و (المعيان) و (العيون) هو من تصيب عيونه . فكان أحدهم اذا ما اتصل بإنسان، وصادف أن نظر ذلك الانسان الى شيء أعجبه ، أو رأى شيئاً لفت نظـره ، ثم صادف ان وقع مكروه لمن نظر اليه ، أو الى ما كان قد رآه (العـائن) ، نسب ذلك المكروه اليه ، ورمي باصابة العين ، وقد يحدث من ذلك الرجل مثل مـا حدث له مع من وقع المكروه عليه ، فيرمى عندئذ بإصابة معين ، وينبذه النـاس خوفاً من اصابتهم بعينيه . فيقال ان فلاناً لعيون : اذا كان يستشرف للنـاس ليصيبهم بعين . ويقال للعيون انه لنفوس ، وما أنفسه ، وقد أصابته نفس أو عين[1] .

ولا تقتصر الاصابة بالعين على اصابة عيون الانسان،فقد تصيب عيون الحيوان كذلك . وهناك حيوانات عديدة لها قدرة على الاصابة بعينيها مثل الحيات والثعلب والطاووس . وأكثر الحيوانات التي تكون لعيونها بريق أو لمعان خاص ، هي من هذا القبيل . وقد حمل هذا الاعتقاد بعض الناس على التخوف من تلك الحيوانات والابتعاد عنها ، بل بلغ الخوف ببعضهم ان امتنعوا من ذكر اسم أمثـال تلك الحيوانات أو تهجّي حروف أسمائها خشية العين[2] . والكـلاب من الحيوانات التي تصيب بعيونها . ورد عن (ابن عبـاس) قوله : « الكلاب من الجن ، فان غشيتكم عند طعامكم ، فالقوا لهن ، فان لهن أنفساً . أي أعيناً »[3] . ولخوفهـم من اصابة عيون الحيوان كرهوا الأكل بين يديها . فكانوا إمـا ان يشغلوها عن النظر اليهم بشيء يرمونه لها لتأكله ، ولو بعظم . وإما ان يطردوها ، فيتخلصوا من اصابتهم بعيونها[4] .

---

١ الحيوان (٢/١٤٢ وما بعدها) .

٢ روح المعاني (٣٠/٢٨٤) ، Ency. Religi., 5, 610.

٣ اللسان (٦/٢٣٦) ، (نفس)، « ان الكلاب من الجن ، وان الجن من ضعفة الجن ، فاذا غشيكم منها شيء ، فالقوا اليها شيئا واطردوهـا ، فان لها أنفس سوء » ، الحيوان (٢/١٣١) .

٤ الحيوان (٢/١٣٢) .

ويعبر عن العين التي تصيب (المعين) بـ (النفس) . يقال نفسته بنفس ، أي أصبته بعين ، وأصابت فلاناً نفس ، أي عين . وفي الحديث « انه نهى عن الرقية إلا في النّملة والحُمَة والنفس ، أي العين »[1] . و (النافس) : العائن ، والمنفوس المعيون . و (النّفوس : العيون الحسود المتعين لأموال الناس ليصيبها ، وما أنفسه ، أي ما أشد عينه)[2] .

و (السفعة) العين . ورجل مسفوع ، أي معيون أصابته سفعة ، أي عين . ويقال به سفعة من الشيطان ، أي مس ، كأنه أخذ بناصيته . ويعبر عنها بـ (النظرة) كذلك . وقيل : النظرة الإصابة بالعين والسفعة العين[3] . و (النظرة) الغشية أو الطائف من الجن ، وقد نظر ، فهو منظور ، أصابته غشية أو عين . وفي الحديث أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، رأى جارية ، فقال : ان بها نظرة ، فاسترقوا لها . قيل معناه : ان بها اصابة عين من نظر الجن اليها وكذلك بها سفعة[4] . وقد يخصصون (النظرة) بإصابة عين الجن[5] .

وللحاسد نفس على المحسود . وقد يصل نفس الحاسد الى حد الإهلاك . والعائن ربما لا يتعمد الأذى ، انما عينه هي التي تصيب بمجرد المقابلة أو وقوع النظرة على الشيء ، ولذلك كان أذاه عند المقابلة ووقوع عين العائن على المعيون . أما الحاسد ، فإنه يصيب في الغيبة وفي الحضور ، لأن عينه تنفذ وتصل الى المحسود ، وان كان غائباً عن الحاسد[6] . ولخطر الحسد وشدة أذاه ، اتخذت الحمائل الخاصة بمقاومة عيون الحسود .

ولحماية النفس من العين ، استعملت الحرز والتعاويذ والرقي . ومن الحرز التي استخدمت في حماية الأطفال من اصابة العين ، (الكحلة) ، وهي خرزة سوداء

---

١ تاج العروس (٤/٢٥٩) ، (نفس) .
٢ اللسان (٦/٢٣٦) ، (نفس) .
٣ تاج العروس (٥/٣٨١) ، (سفع) .
٤ تاج العروس (٣/٥٧٤) ، (نظر) .
٥ عمدة القارىء (٢١/٢٦٤ وما بعدها) ، اللسان (١٧/١٧٦) .
٦ روح المعاني (٣٠/٢٨٤) .

تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم . و (القبلة) ، وهي خرزة بيضاء تجعل في عنق الفرس من العين[1] .

و (الودعة) ، تفيد في دفع أذى العين عن الانسان . وذكـــر انها مما يقذفه البحر ، وهي تتفاوت في الصغر والكبر ، وهي خرزة تثقب وتتخذ منها القلائد، وللحماية من العين[2] .

---

١ تاج العروس (٨/ ٧١) ، بلوغ الارب (٣/ ٧) .

٢ تاج العروس (٥/ ٥٣٤) ، (ودع) .

الفصل الخامس والثمانون

في اوابد العرب

وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية ، بعضها يجري مجرى الديانات ، وبعضها يجري مجرى الاصطلاحات والعادات ، وبعضها يجري مجرى الخرافات ، وقد كانت قد هيمنت وسيطرت على عقليتهم ، ولا سيما تلك الأمور التي كانت تتصل بحياتهم . كالكهانة والحداسة والرقية والتنجيس والتنجيم ، وغير ذلك مما له علاقــة بحياة الانسان حتى قيل انهم كانوا (بين متكهن وحدّاس وراق ومنجس ومتنجم)[1] .

الكهانة :

وفي طليعة بعض الناس الموهوبين ، بما لهم من قدرة خفية خارقة والهــام ، الاتصال بالآلهة وبالأرواح ، والاستئناس بها والأخذ منها ، والحصول عــلى علم غزير منها يتعلق بالمستقبل عامة وبمستقبل كل إنسان خاصة ، أو التأثير عليهــا بصرف الخير الى شخص ودفع الأذى عنه،وبتوجيه الشر الى شخص يراد توجيهه اليه وإيذاؤه . ويقال للاتصال بالآلهة أو الأرواح لمعرفة المستقبل والتنبؤ عما سيحدث :

---

١ ارشاد الساري (٨/٤٠٠) ، صحيح مسلم (٧/٣٥ وما بعدهــا) ، عمــدة القارى، (٢١/٢٧٥) ، اللسان (١٧/٢٤٤) ، الروض الانــف (١/١٣٦) ، مــروج الذهب (٢/٨٢) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

(الكهانة) « Divination » ، ويقال لمن يقوم بذلك الكاهن . أما الذي يزعم أن في امكانه التحكم في الأرواح وتوجيهها الوجهة التي يريدها ، فيقال له (ساحر) ويقال لعمله (السحر) . وتقابل كلمة (السحر) في العربية كلمتا « Magic » و « Sorcery » في الانكليزية .

والكهانة في اللغة العربية تعاطي الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ومعرفة المغيّبات والأسرار ، وتقابل بهذا التعريف في العربيـة كلمة « Soothsayer » في الانكليزية . وتقابل كلمة (كاهن) لفظة (كوهين) « Kohen » في العبرانية و (كهنا) « Kahna » في لغة بني إرم ، وكلاها من الأصل السامي القديم[1] .

ومن مرادفات الكاهن : (الطاغوت) . وبهذا التفسير فسر العلماء قوله تعالى: « فمن يكفـــر بالله ويؤمن بالطاغوت »[2] . قالوا : الطاغوت : الكاهن . وهم كهان تنزل عليهم شياطين يلقون على ألسنتهم وقلوبهم . والطواغيت التي كانوا يتحاكمون اليها ، كان في جهينة واحد ، وفي أسلم واحد ، وفي كل حي واحد. وهم كهان تنزل عليهم الشياطين[3] . وذكر بعض علـماء التفسير ان الطاغوت : الشيطان في صورة انسان يتحاكمون اليه . وقد وردت اللفظة في موضع آخر من القرآن الكريم بعد لفظة (الجبت) ، اذ جاء في التنزيل : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت »[4] . وقد ذكروا ان الجبت السحر والساحر ، بلسان الحبشة والطاغوت الكاهن[5] . وان الجبت والطاغوت صنمان ، أو ان الجبت الأصنام والطاغوت تراجمة الأصنام ، والذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس ، أو ان الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله أو طاعة أو خضوع له ، كائناً ما كان ذلك المعظـــم من حجر أو انسان أو شيطان . وإذ كان ذلك كذلك . وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها كانت معظمة بالعبادة من دون الله ، فقد كانت جبوتاً وطواغيت.

---

١ ارشاد الساري ٣٩٨/٨) ، اللسان (٣٦٢/١٣ وما بعدها) ، (كهن) ، مفتاح السعادة، لطاش كبري زاده (٢٩٣/١ وما بعدها) ،
Nöldeke, Neue Beiträge Semitischen Sprachwissenschaft, S. 36.

٢ البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٥٦ .

٣ تفسير الطبري (١٣/٣ وما بعدها) .

٤ النساء ، الآية ٥١ .

٥ تفسير الطبري (٨٤/٥) .

وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله،وكذلك الساحر والكاهن اللذان كانا مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله ، وكذلك حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله ، فكانا جبتين وطاغوتين[1] .

وذكر علماء التفسير في قوله تعالى : « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به . ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً »[2] ، أن (الطاغوت) الكاهن الذي كان يحكم بين الناس ، ويتحاكمون اليه . وأنها نزلت في حق يهودي اختصم مع مسلم ، فكان المسلم أو المنافق يريد الاحتكام الى الكاهن ، وكان اليهودي يدعو الى النبي أو المسلمين ، لأنهم لا يقبلون الرشوة ، فاصطلحا أن يتحاكما الى كاهن من جهينة ، أو الى كاهن بالمدينة، أو الى كعب بن الأشرف، فنزل الوحي بتوبيخ ذلك المسلم أو المنافق[3] .

والتكهن عن المستقبل والتحدث عن الماضي ، موضوع له فروع عديدة . وقد عدّ علماً من العلوم عند كثير من الأمم ، وألفوا فيه . وتنبؤ الأصنام هو نوع من هذه الأنواع . ويدخل في التكهن التنبؤ بواسطة وسيط : مكالمة صنم ، أو (تابع) أي (رئي) ، وقراءة كبد الشاة وقراءة أعضائها كما كان عند البابليين وعند المصريين . والتكهن بحركات الطيور ، وتفسير الأحلام . وتفسير بعض الظواهر الطبيعية وما شابه ذلك وكل هذه كانت معروفة عند الجاهليين .

وليس من الضروري ان يكون التكهن بتكليم الصنم حتماً وفي المعبد بالضرورة، فقد كان من الكهان من يقيم في بيته ويتكهن مع ذلك للناس ، ينطق بما يوحى اليه وبما يشعر به . وقاصدوه يرون ان فيه قوة خارقة وقابلية لتلقي الوحي من تلك القوة التي يتصورونها على هيأة شخص غير منظور يلقي الى الكاهن الوحي ، فينطق بما يناسب المقام وبما يكون جواباً على الأسئلة التي توجه اليه . ويطلقون على ذلك الشخص الخفي اسم (تابع) أو (صاحب) أو (مولى) و (ولي) و (رئي) ، لأنه يكون تابعاً وصاحباً للكاهن . يتبعه ويصاحبه ويلقي اليه

---

١ تفسير الطبرى (٨٣/٥ وما بعدها) .
٢ سورة النساء ، الآية ٦٠ .
٣ تفسير الطبري (٩٦/٥ وما بعدها) .

(الرئي) . يكشف له الحجب ويأتيه بالأسرار . فهو (حاز) و (حزّاء) و (حازية) و (الرائي) في العهد القديم[1] .

وكان من رأي الجاهليين ان هناك وحياً يوحى الى الكاهن بما يقوله ، وقد قالوا لذلك المصدر الذي يوحي اليه : (شيطان الكاهن) ، كما قالوا للمصدر الذي يوحي الى الشاعر بوحي شعره : (شيطان الشاعر) ، ذلك لأن شيطان الكاهن يسترق السمع ويلقي به الى الكهنة[2] . يسترقه من السماء ، فيأتي به الى الكاهن ويلقي ما استرقه اليه ، فيلقي الكاهن ما ألقى عليه شيطانه الى الناس ، وبذلك يتنبأ لهم[3] . « سأل رسولَ الله ، صلى الله عليه وسلم ، ناسٌ عن الكهان ، فقال : ليسوا بشيء ، فقالوا : يا رسول الله ، انهم يحدثونا أحياناً بشيء ، فيكون حقاً ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : تلك الكلمة من الحق ، يخطفها من الجني فيقرها في اذن وليه ، فيخلطون معها مئة كذبة[4] » .

وقد وردت كلمة (كاهن) في القرآن الكريم في معرض الردّ على قريش الذين اتهموا الرسول بأنه (كاهن) . وبأنه يقول القرآن على نمط سجع الكهان. فجاء فيه : « فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون »[5] ، و « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »[6] . فرد عليهم بقوله : « ما هذا القرآن بقول شاعر ، لأن محمداً لا يحسن قيل الشعر ، فتقولوا هو شعر، قليلاً ما تؤمنون . يقول تصدقون قليلاً به أنتم ، وذلك خطاب من الله لمشركي قريش . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون . يقول ولا هو بقول كاهن ، لأن محمداً ليس بكاهن ، فتقولوا هو

---

١ Reste, S. 134, Shorter Ency., p. 207.

٢ تاج العروس (٩/٣٢٦ وما بعدها) ، اللسان (١٧/٢٤٤) ، الطبرسي (٥/٣٤٩ ، ٣٦٧) ، بلوغ الارب (٢/٢٦٩) ، مروج الذهب (٢/١٧٢ وما بعدها) ، مفتاح السعادة ، لطاش كبري زاده (١/١١٣ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٨/٣٩٨) ، مقدمة ابن خلدون (١/١٠١ وما بعدها) .

٣ صبح الاعشى (١/٣٩٨) .

٤ ارشاد الساري (٨/٤٠٠) ، صحيح مسلم (٧/٣٥ وما بعدها) ، عمدة القارىء (٢١/٢٧٥) ، اللسان (١٧/٢٤٤) ، الروض الانف (١/١٣٦) ، نهاية الارب (٣/١٢٨) ، (في أخبار الكهان) .

٥ سورة الطور ، الآية ٢٩ ، تفسير الطبري (٢٧/١٨) .

٦ الحاقة ، الآية ٤٢ .

ممن سجع الكهان »[1] . فكان للكهان أسلوب خاص في كلامهم عند التنبؤ والتكهن هو أسلوب السجع . ولذلك عرف بـ (سجع الكهان) . وقد امتاز سجعهم هذا باستعمال الكلام الغامض ، والتعابير العامة الغامضة التي يمكن تفسيرها تفاسير متناقضة ومختلفة . وهو أسلوب تقتضيه طبيعة التكهن ، لكي لا يلزم الكاهن على ما يقوله من قول ربما لا يقع ، أو قد يقع العكس . ففي مثل هذه الحالة ، يمكن أن يكون للكاهن مخرجٌ باستعماله هذا النوع من الكلام .

وقد ورد أن الرسول نهى عن محاكاة الكهان في سجعهم ، فذكر عنه قوله: « أسجعٌ كسجع الجاهلية »[2] .

ويذكر أهل الأخبار أن (تابع) الكاهن ، وهو شيطانه وجنيّه، كان يسترق في الجاهلية الأخبار من السماء ، فيلقي بها الى الكاهن المختص به . فيخبر الكاهن من يأتي اليه للكهانة . بقوا على ذلك الى ظهور النبوة ، فلما نزل الوحي انقطعت الكهانة ، إذ وجد الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع لهم شهاباً رصداً . وقالوا إن قوله تعالى : « وانّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً »[3] ، إنما عني به هذا الحادث . حادث منع الشياطين من استراق السمع[4] .

ويذكر أهل الأخبار أيضاً ان « القذف بالنجوم قد كان قديماً ، وذلك موجود في أشعار القدماء من الجاهلية . منهم : عوف بن الجزع ، وأوس بن حجر ، وبشر بن أبي خازم ، وكلهم جاهلي . وقد وصفوا الرمي بالنجوم »[5] . وان من عقائد أهل الجاهلية ان في تساقط النجوم والشهب دليل على موت عظيم أو ميلاد مولود عظيم[6] . وذكر ان الرسول كان جالساً مع قوم من الأنصار إذ رمي بنجم فظهر نوره ، فقال لهم : ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في

---

١ تفسير الطبري (٢٩/٤٢) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٨٧) .
٣ سورة الجن ، رقم ٧٢ ، الآية ٨ وما بعدها .
٤ تفسير الطبري (٢٩/٦٩ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (٢/١٠) ، (المنيرية) ، نهاية الارب (٣/١٢٤ وما بعدها) ، مفتاح السعادة (١/٢٩٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/٣٢٦ وما بعدها) ، (كهن) ، مروج الذهب (٢/١٥٢ وما بعدها) .
٥ الروض الانف (١/١٣٥) .
٦ الروض الانف (١/١٣٦ وما بعدها) .

الجاهلية ؟ قالوا : يا رسول الله كنا نقول حين نراه يرمى به مات ملك ، ولد مولود[1] .

وقد جعل (المسعودي) حدة الأذهان مع نقصان الأجسام وتشويه الخلق ، من جملة العوامل التي دفعت على التكهن والإخبار عن الغيب . وضرب مثلاً على ذلك : شق ، وسطيح ، وسملقة ، وزوبعة ، وسديف بن هوماس ، وطريفة الكاهنة ، وعمران أخي مزيقياء ، وحارثة ، وجهينة ، وكاهنة باهلة وأشباههم من الكهان[2] .

وقد يلحق التابع من الجن أشخاصاً لم يشتهروا بالكهانة وإنما عرفوا بشدّة ذكائهم ومعرفتهم بعواقب الأمور ،مثل (أحيحة بن الجُلاح) وكان من أشراف المدينة ، وقد اشتهر عندهم بكثرة صوابه وسرعة ادراكه للعواقب . فعللوا ذلك بوجود تابع له من الجن كان يعلمه المغيبات[3] .

قال (الجاحظ) : « وكانوا يقولون ، إذا ألف الجني إنساناً وتعطف عليه ، وخبره ببعض الأخبار ، ووجد حسه ورأى خياله ، فإذا كان عندهم كذلك قالوا : مع فلان رئي من الجن . وممن يقولون ذلك فيه عمرو بن لحي بن قمعة ، والمأمور الحارثي ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب .

فأما الكهان ، فمثل حارثة جهينة ، وكاهنة باهلة ، وعُزى سلمة ، ومثل شق وسطيح وأشباههم[4] .

والكهان يرون تابعهم ، وقد يتجلى لهم في صورة إنسان . ويظهر على صورة رجل للكواهن كذلك . فقد كان للغيطلة ، وهي على ما يزعمه أهل الأخبار كاهنة أبوها مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوق بن مرّة ، وشنوق أخو مدلج ، تابع يفد اليها ، ويدخل غرفتها ، ويجلس تحتها . كما كان لفاطمة بنت النعمان النجارية ، وهي كاهنة كذلك ، تابع من الجن « كان إذا جاءها ، اقتحم عليها في بيتها . فلما كان في أول البعث،أتاها ، فقعد على حائط الدار ولم يدخل ، فقالت له : لِمَ لا تدخل ؟ فقال : قد بعث نبي بتحريم الزنى »[5] .

---

1 السيرة الحلبية (١/١٤٠) .
2 مروج (٢/١٥٤) .
3 الاعاني (١٣/١١٥) « ذكر احيحة بن الجلاح » .
4 الحيوان (٦/٢٠٣ وما بعدها) .
5 الروض الانف (١/١٣٧) .

فالكاهن اذن ، هو الذي يتنبأ بواسطة تابع ، ولا يستطيع غير الكاهن رؤية التابع . وتكون الكهانة كلاماً يلقيه الكاهن نفسه ، أو تابعه ، جواباً عن أسئلة الكاهن . ولما كان التابع روحاً ، كان من الطبيعي تصور صدور ذلك الكلام من روح لا يمكن لمسها ولا رؤيتها ، ترى وتسمع وتعقل ، وتجيب ما يطلب منها الاجابة عنه .

ويكون الكاهن في أثناء تكهنه في غيبوبة أو في شبه غيبوبة في الغالب ، ذلك بأنه متصل في هذه الأثناء بعالم مجهد صعب لا يتحمله كل انسان، ولاتصال الروح فيه ، واتصال الروح بجسم الكاهن شيء جد عسير ، يتصبب العرق منه . خاصة اذا كان المتكلم الكاهن نفسه .

ويكون التكهن ، في الغالب ، في مكان هادىء تكتنفه ظلمة أو عتمة ، لأن للهدوء والظلام أثراً عظيماً في النفوس ، ويسبقه حرق بخور في الأكثر يستمر الى ما بعد انتهاء التنبؤ ، لأن البخور من الروائح الطيبة التي تؤثر في الأرواح ، فتجلبها الى المكان بسرعة . ثم إن له تأثيراً خاصاً في الأعصاب، وهو بذلك مادة صالحة في الايحاء لمن يقصد استشارة الكهان .

ويروي الأخباريون ان الناس كانوا اذا قدموا على الكهان امتحنوهم ليتأكدوا من صدق تكهنهم ومقدار علمهم . وذلك باخفاء شيء اخفاءً لا يمكن الاهتداء اليه ، أو بوضع لغز ، أو ما شابه ذلك ، فيبدؤون الكاهن بالسؤال عنه . فاذا أجاب جواباً دل على معرفة وسعة علم ، سألوه عن الأمر الذي عندهم والذي من أجله قصدوه . ويكون لهؤلاء الكهان أجر يدفع اليهم . والعرف الغالب ان الكهانة لا تكون ولا تصح إلا بتقديم شيء للكاهن ، لأن التابع لا يرضى بالتنبؤ إلا اذا رأى حلاوة التنبؤ .

ومن قبيل الامتحانات التي امتحن بها الكهان ، امتحان (عتبة بن ربيعة) الى بعض كهان اليمن ليتأكد من صدق تكهنه قبل النظر في أمر اختلاف ابنته (هند) مع زوجها (الفاكه بن المغيرة) في فرية رماها (الفاكه) زوجته بها[1]. وامتحان (عبد المطلب) للكاهن (ربيعة بن حذار الأسدي) حين اختصم مع (بني كلاب وبني رباب)[2] . وامتحان (الكاهن الخزاعي)[3] وغير ذلك .

---

١ نهاية الارب (٣/١٣١) ، صبح الاعشى (١/٣٩٨ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (٣/١٣٣) .
٣ نهاية الارب (٣/١٣٢) .

وما يعطاه الكاهن ويجعل له على كهانته ، يقال له (الحُلوان) و (حلوان الكاهن) ، وهو شيء غير معين ولا ثابت ، انما يتفق عليه ، والرأي الشائع بين العامة حتى الآن أن الكهانة لا تصدق إذا لم يعط الكاهن أو الساحر (حلوانه)؛ لأن ما يقدم الى الكاهن لا يخصه ولا يكون له ، إنما هو للرئي ، والرئي لا يقوم بعمله ولا يحسن أداءه إلا بحلوان ، يقبله مهما كان ، وعلى الكاهن استشارة (التابع) ومراجعته فيه حتى يقنع ، ويوافق على الأجر . ولما كان الاسلام قد منع الكهانة، كان من الطبيعي نهيه عن دفع الحلوان [1] .

والكهّان إنما صاروا كهاناً ، أي متنبئين بالغيب ، لأن « الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في الأمور ، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم اليه » [2] . وهذا هو تعليل إسلامي بالطبع لمصدر تنبؤ الكهان ، أما رأي الجاهليين عنه ، فلا علم لدينا عنه ، لعدم ورود شيء منهم الينا .

وتقدم الكهانة على القدرة الشخصية وعلى ذكاء الكاهن ،لذلك لم تكن كالسدانة مثلاً إرثاً ينتقل من الآباء الى الأبناء ، بل كان في إمكان كل شخص يرى في نفسه القدرة على التنبؤ بالغيب والتحدث عما سيحدث للسائلين ان يدعي الكهانة وان يعد نفسه كاهناً يتكلم باسم الأرباب ، وينطق بالقوة الخفية التي توحي اليه بالنبوءات ، فيتخذ له مكاناً في معبد أو في موضع آخر أو في بيته ليقصده من يريد استشارته في عظائم الأمور مهما اختلفت وتنوعت عن المستقبل وعن الأخبار وعن الأسرار والمغيّبات وعن القيام بعمل من الأعمال .

وفي الأقوال المنسوبة الى الكهان ، قسم بالكواكب كالشمس والقمر وبالنجوم وبالليل وبالنهار وبالأشجار وبالرياح والكلمات وبالجبال والأنهار وبالطيور وبما شابه ذلك أمور طبيعية ، الغرض منها التأثير في نفوس السامعين والأغراب في الكلام ، ليكون بعيداً عن الأسلوب المألوف . وقد روى الأخباريون نماذج من هذا الكلام،

---

1 « أعطيت الكاهن حلوانه ، أي كراء كهانته » ، الاشتقاق (٢/٣١٤) ، « نهى النبي صلى الله عليه وسلم ، عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن » ، ارشاد الساري (٨/٤٠٠) ، اللسان (١٨/٢١١) ، تاج العروس (١٠/٩٦) ، اللسان (١٤/١٩٤) ، (صادر) « حلو » ، النهاية (٣/٢٥٦ وما بعدها) ، مفتاح السعادة (١/٢٩٣ وما بعدها) .

2 عمدة القاريء (٢١/٢٧٥) ، ارشاد الساري (٨/٣٩٨ وما بعدها) .

من هذا السجع المعروف بـ (سجع الكهان) ، نسبوه الى أصحابه من كهان الجاهلية . وهي نسبة مهما حاولوا اثبات صحتها وصدق روايتها ، فانهم عاجزون في رأيي عن اقناعنا بصحة ما يقولون. كيف حفظوا ذلك الكلام وتناقلوه بالحرف الواحد بوزنه وبأسلوبه وبنصه وبفصه الى أن أوصلوه الى أيدي العلماء والمدونين فثبتوه بالتدوين ؟ وكيف لم يخطئوا في ذلك ولم ينسوا منه حرفاً ، حتى لكأنه كلام مقدس وارد عن وحي سماوي ، فلا بد من المحافظة على نصه وروايته على نحو ما ورد وحفظ ؟ واذا كان العلماء قد تساهلوا في رواية متن حديث رسول الله فسمحوا بالتصرف فيه بشرط المحافظة على المعنى محافظة تامة ، لصعوبة التمسك برواية النص على نحو ما ورد عن الرسول . فكيف يعقل محافظة الرواة على حرفية كلام الكهان على نحو ما نسب اليهم . وكلام الكهان ليس بشيء بالقياس الى كلام الرسول ، ثم انه أقدم منه ، ولم يكن مدوناً ولا مكتوباً في كتاب على ما يفهم من روايات الأخباريين .

وقد كان للكهان على ما يتبين من قصص الأخباريين أثر كبير في حياة العرب قبل الإسلام . فقد كان الناس يستشيرونهم في إبرام مهمات الأمور ، كإعلان حرب أو كشف عن جريمة أو بحث عن شيء مفقود وما شاكل ذلك . لقد كانوا يستشيرونهم في الحروب ، يتنبؤون للناس بقرب حدوث غزو أو نزول كارثة أو خير سيقع قريباً . لقد كان هجوم بني أسد على (حجر) بمشورة الكاهن وبرأيه ، وكان تركهم تميماً وافتراقهم عنهم في يوم جبلة بتحذير من الكاهن كذلك[1] . وقد استعان النعمان أو يزيد بن عمرو الغساني بالكاهن (الحمس التغلبي) ، لاخباره عمن تجاسر على ناقته فقتلها ، كما استعان (عتبة بن ربيعة) في اثبات نسب ابنته (هند) منه[2] .

وقد اشترك الكهان أنفسهم في الغزوات وفي الحروب . كانوا يشجعون قومهم ويحثونهم على القتال ، وكان بعضهم من مشاهير الفرسان ، مثل (زهير بن جناب) ، و (جذيمة) العبسي ، وقلطف الكاهن ، والمأمور كاهن مذحج .

---

١ الاعاني (١٠/٣٦) ، مروج الذهب (٢/١٧٣ وما بعدها) ، نهاية الارب ، للنويري (٣/١٢٤) ، صبح الاعشى (١/٣٩٨) ، Reste, S. 136.

٢ الاغاني (١٠/٢٧) ، « ذكر مقتل خالد بن كلاب » ، صبح الاعشى (١/٣٣٨ وما بعدها) ، Reste, S. 136.

ولم يكن الكهان من الطبقات الدنيا عند عرب الجاهلية ، ولا من سواد الناس. لقد كان منهم من هو من سادة القبيلة ومن الأشراف . ولا بد أن يكونوا من هذه الطبقة ، ليكون حكمهم نافذاً بين الناس بما لهم من عز ومنزلة وجاه . وقد عدّ الأخباريون (زهير بن جناب) رئيس كلب في جملة الكهان[1] . وقد كان للقبائل (كهان) تلتجيء اليهم في الملمات ، لتستشيرهم وتعمل برأيهم في الغزو والحرب . يسيرون معها ، وقد يقودونها في المعارك .

وقد كان لكل قبيلة كاهن منها أو عدة كهان،تلتجيء القبيلة اليهم لاستشارتهم في كل أمر عظيم يحدث لهم . ولا يشترط ان يكون كاهن القبيلة رجلاً ، إذ يجوز ان يكون امرأة . وكان كاهن ثقيف (قريش) عند ظهور الاسلام رجلٌ يقال له (خطر) ، وكان لجنب كاهنهم كذلك ، وكان لقريش حين ظهور الاسلام كاهنة تدعى (سوداء بنت زهرة بن كلاب) ، وهكذا كان شأن بقية القبائل . فلما ظهر الاسلام ، ودّع اولئك الكهان رئيهم وتابعهم ، وكهانتهم ، إذ نهى الاسلام عنها . وقد كان لبعضهم أثر مهم في إعداد قبائلهم للدخول في الاسلام[2] .

وقد أشار بعض الكتبة الكلاسيكيين الى وجود كهان عند العرب، كما انه ورد في كتابات طور سيناء ما يدل على وجودهم عند القبائل[3] .

ولم يكن الكاهن ، كاهناً ، بمعنى المخبر عن المغيبات فقط، بل كان حاكماً يحكم بين الناس فيما يقع بينهم من خلاف . فالكاهن حاكم يفصل في الخصومات . وقد كان أكثر حكام العرب كهاناً ، يقصدهم المتخاصمون من مواضع بعيدة لما عرفوا به من إصالة الرأي ، وصحة الحكم .

وقد ذكر أن الكاهن كان لا يلبس المصبغ . أما العراف فإنه لا يدع تذييل قيصه وسحب ردائه[4] ، ويدل ذلك على أنهما كانا يميزان أنفسهما بمميزات وعلامات وأنهما كانا يتجنبان بعض الأمور .

---

١ الاغاني (٦٦/٨) ، (٧٣/١٥) ، (٩٩/٢١) .

٢ الروض الانف (١٣٧/١ وما بعدها) ، مفتاح السعادة ، (١١٣/١ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٢٤/٣) ، صبح الاعشى (٣٩٨/١) .

٣ Ency. Religl., I, p. 667.

٤ تفسير الطبري (٥٧/١٨) ، ثمار القلوب (١٩٣) ، بلوغ الارب (٤٠٧/٣) .

وقد اشتهر في الجاهلية عدة كهّان ذكر الأخباريون أسماءهم ، منهم : شقّ ، وسَطِيح ، وأوس بن ربيعة ، والخمس التغلبي ، وعُزّى سلمة الكاهن ، ونفيل ابن عبد العزي ، وخنافر بن التوأم الحميري ، وسواد بن قارب الدوسي ، وعمرو ابن الجعيد ، وابن الصياد ، والأبلق الأزدي ، والأجلح الدهري ، وعروة بن زيد الأزدي ، ورباح (رياح) بن عجلة ، وهو المعروف بعراف اليمامة ، والكاهن الخزاعي ، وهو جدّ (عمرو بن الحمق) ، وكان منزله بعسفان ، واليه احتكم هاشم وأمية [1] ، و (كهال) ، أحد الكهنة الجاهليين [2] .

وأشهر الكهان وأعرفهم : شق وسطيح ، وللأخباريين عنهما قصص أخرجهما من عالم الواقع ، وجعلهما في جملة الأشخاص الخرافيين . فشق في زعمهم إنسان له يدٌ واحدة وعين واحدة ، وجعلوه من المتشيطنة صورته صورة نصف آدمي . وذكروا أنه كان معاصراً لمالك بن نصر اللخمي ، وأنه استدعاه واستدعى سطيحاً معه لتفسير رؤيا رآها أفزعته ، وأنهما أخبراه بوقوع غزو الحبشة لليمن وبظهور سيف بن ذي يزن . وقالوا : إنه من بني جليحة ، وأنه عمّر ثلاثمائة سنة [3] . وقالوا ان سطيحاً كان كتلة من لحم يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه إلا الجمجمة ، وأن وجهه في صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، وكان في عصره من أشهر الكهّان ، وان كسرى بعث اليه عبد المسيح بن بقيلة الغساني ليسأله في تأويل رؤيا رآها ، فأخبره بظهور أمر رسول الله وبقرب زوال ملك العجم ، فأخبر (عبد المسيح) كسرى بذلك [4] .

وزعم ان سطيحاً جسد ملقى لا جوارح له ، ولا يقدر على الجلوس ، إلا اذا غضب انتفخ فجلس . وكان شق شق انسان ، له يد واحدة ، ورجل واحدة ،وعين واحدة . وولد سطيح وشق في اليوم الذي ماتت فيه طريفة الكاهنة ،

---

١ تاج العروس (٣٢٦/٩) ، بلوغ الارب (٢٦٩/٢ وما بعدها) ، مروج الذهب (١٧٥/٢ وما بعدها) ، الكامل ، لابن الاثير (١٠/٢) ، البيان والتبيين (٢٨٩/١) ، نهاية الارب (١٣٢/٣) ، الثعالبى ، ثمار (١٠٥ وما بعدها) ، Reste, S. 136. f.

٢ تاج العروس (١٠٦/٨) ، (كهل) .

٣ الاشتقاق (٣٠٣) ، المستطرف (٨٠/٢ وما بعدها) ، (ربيعة بن نصر اللخمي) ، الازمنة والامكنة (١٩٣/٢) ، الاشتقاق (٢٨٦) .

٤ القزويني : عجائب المخلوقات (٣٧١/١) « طبعة وستنفلد » ، الطبري (٩٩/٢) ، نهاية الارب (١٢٨/٣ وما بعدها) ، (في أخبار الكهان) ، Ency., Vol., IV, p. 370.

ة (عمرو بن عامر) ، وهي بنت الخير الحميرية ، ودعت بسطيح قبل ان ت ، فأتيت به ، فتفلت في فيه ، وأخبرت انه سيخلفها في علمها وكهانتها . ن وجهه في صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، ودعت بشق ففعلت به فعلت لسطيح ، ثم ماتت وقبرها بالجحفة[1] .

وقد ذكر (المسعودي) ، نسب الكاهن (شق) على هذا النحو : (شق مصعب بن شكران بن أنرك بن قيس بن عنقر بن أنمار بن ربيعة بن نزار) . كر نسب (سطيح) على هذه الصورة : (هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن ن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان)[2] . ودعاه بـ (سطيح الغساني) في مع آخر . وأورد سجعاً من سجعه ، كما أورد أخبـاراً لشق المعاصر له[3] . دعاه (الجاحظ) بـ (سطيح الذئبي) ، كما دعاه (ابن اسحاق) بذلك، ينسب الى جد اسمه (ذئب)[4] .

واذا كانت رواية أهل الأخبار عن وجود الكاهن (سطيح) صحيحة، فيجب يكون قد عاش في القرن السادس للميلاد ، اذ هم يذكرون أنه كان معاصراً سرى أنو شروان ، وللنعمان بن المنذر ، ويروون أنه أخبر (عبد المسيح بن ان) ، الذي جاء اليه ليستفسر منه عن رؤيا رآها كسرى في منامه فأزعجته، بره بمولد الرسول . وذكروا أيضاً ان كسرى كان يستعين في حكمه بالكهان، تشيرهم ، وانه كان لديه ثلثمائة وستون كاهناً وسحرة ومنجمين ، وكان من م كهنة من العرب ، وأشهرهم : السائب[5] .

وذكر بعض أهل الأخبار « أن خالد بن عبدالله القسري كان من ولد شق ا . فهو خالد بن عبدالله بن أسد بن كرز . وذكر أن كرزاً كان دعيـاً ، ه كان من اليهود فجنى جناية ، فهرب الى بجيلة ، فانتسب فيهم . ويقـال ن عبداً لعبد القيس ، وهو ابن عامر ذي الرقعة . وسمي بذي الرقعة ، لأنه

الروض الانف (١/١٨ وما بعدها) .

مروج الذهب (٢/١٦٠) ، « دار الاندلس » ، سيرة ابن اسحاق (٤٧) ، (طبعة أوربة) ، عجائب المخلوقات (٣١٠) ، الحيوان (٣/٢١٠) ، (٦/٢٠٤ ، ٢٠٦ وما بعدها) .

مروج الذهب (٢/١٧٥ وما بعدها) ، الحيوان (٣/٢٠٤) ، (٦/٢٠٤) .

الحيوان (٣/٢١٠) ، البيان والتبيين (١/٢٨١) ، ابن اسحاق (٤٧) ، (كوتنكن) .

تأريخ الخميس (١/٣٢٢) ، نهاية الارب (٣/١٢٨ وما بعدها) .

كان أعور يغطي عينه برقعة ابن عبد شمس بن جون بن شق الكاهن بن صعب»[1]. ويظهر أن أعداء (القسري)، قد أوجدوا له هذه القصة للحط منه، كما أوجدوا قصصاً شبيهاً بهذه القصة، حكوها عن ثقيف، نكاية بالحجاج المكروه.

والى هؤلاء تجب اضافة (الأفعى الجرهمي)، وكان منزله بنجران، واليه احتكم ولد نزار في إرث والدهم[2].

ورووا ان الكاهن (الخزاعي) كان من الكهان المعروفين واليه تحاكم (أمية بن عبد شمس) و (هاشم بن عبد مناف) في أمر مفاخرتهما، فحكم لهاشم على أمية، فخرج الى الشأم وأقام بها عشر سنين. وانه قال في حكمه كلاماً مسجعاً ختمه بقوله: «ولأمية أواخر»، فكانت أول عداوة بين بني هاشم وبني أمية[3]. وهكذا جعلوه يتنبأ بظهور ملك بني أمية. وربما كان هذا الملك هو الذي أوحى الى مفتعل القصة بابداع موضوع اختيار (أمية) الشأم لتكون داراً له أقام بها مدة نزاعه مع هاشم، فحكم ان الملك عليها كان مكتوباً لبني أمية منذ عهد الجاهلية.

وتشبه هذه القصة، قصة شك (الفاكه بن المغيرة) في سيرة زوجه (هند بنت عتبة بن ربيعة)، وتكلم الناس فيها، وذهاب والدها وزوجها بها الى كاهن من كهان اليمن، فلما امتحنه عتبة، وتبين له ان الكاهن حاذق لا يخطىء قال له: قد جئناك «في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يأتي الى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها، ويقول لها: انهضي حتى بلغ هنداً. فقال: انهضي غير رسحاء ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية، فنهض اليها الفاكه، فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده، وقالت اليك عني، فوالله لأحرص ان يكون ذلك من غيرك! فتزوجها أبو سفيان، فولدت له أمير المؤمنين معاوية»[4]. وهي قصة تتحدث عن نفسها، ولا حاجة لي الى ابداء أي تعليق عليها.

وكان (صاف بن صيّاد) يتكهن ويدعي النبوة. وخبأ له النبي خبيئاً فعلمه.

---

١ الروض الانف (١/١٩).
٢ مجمع الامثال (١/١٧ وما بعدها).
٣ المستطرف (٢/٨١)، نهاية الارب (٣/١٢٣ وما بعدها).
٤ المستطرف (٢/٨٢)، نهاية الارب (٣/١٣١ وما بعدها)، (الباب الثالث من القسم الثاني من الفن الثاني. في أخبار الكهنة).

وكان يدعي أن شيطانه كان يأتيه بما خفي من أخبار الأرض[1]. ويذكر ان الرسول سأله : كيف يأتيك هذا الأمر ؟ قال : يأتيني صادقاً وكاذباً[2] . وأن رسول الله ذهب اليه ليرى أمره وكان (ابن صياد) في نخل ، فكلمه رسول الله . وذكر أنه انطلق مرة مع (عمر بن الخطاب) في رهط قبل ابن صياد ، فوجده عند (أطم بني مغالة)[3] .

وكان في بني لهب كاهن لهم يقال له خطر بن مالك. وكان في أيام الرسول. وكان اذ ذاك شيخاً كبيراً[4] . وكان (أبو برزة) الأسلمي من الكهان المعروفين في المدينة أيام الرسول ، وقد تحاكم اليه بنو قريظة وبنو النضير في أمر الديات التي كانت بينهما[5] .

وذكر أن (خطر بن مالك) كان من أعلم كهان (بني لهب) ، وأنهم كانوا يأتونه في الملمات،أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة ، وقد تنبأ لقومه بانقطاع الكهانة وظهور الرسول بمكة حين سألوه عن سبب تساقط النجوم في السماء[6] .

وكان في دوس كاهن اسمه سواد بن قارب الدوسي أو السدوسي . وقد وفد مع وفد من قومه على الرسول وأسلم معه أمامه . وكان له رئي يأتي اليه[7]. وذكر أهل الأخبار انه كان حاذقاً في الكهانة ، مصيباً بها ، « خرج خمسة نفر من طيء من دور الحمى ، منهم : برج بن مسهر ، أحد المعمرين،وأنيف بن حارثة، ولأم عبدالله بن سعد والد حاتم ، وعارف الشاعر ، ومرة بن عبد رضا،يريدون سواد بن قارب ، ليمتحنوا علمه . فقالوا : ليخبىء كل منا خبياً ولا يخبر أصحابه ، فان أصاب عرفنا علمه،وان أخطأ ارتحلنا عنه . ثم وصلوا اليه فأهدوا اليه إبلاً وطرفاً ، فضرب عليهم قبة ونحر لهم،فلما مضت ثلاثة أيام دعاهم، فتكلم برج ، وكان أسنهم فذكر القصة بجميع ما خبأوه ثم بمعرفته بأعيانهم وأنسابهم فقال فيه عارف الشاعر :

---

١ الروض الانف (١/١٣٧) .
٢ مقدمة ابن خلدون (١/٩٥ وما بعدها) .
٣ زاد المسلم (٢/١٠٤ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١/١٣٨ وما بعدها) .
٥ تفسير الطبري (٥/٩٧ وما بعدها) .
٦ السيرة الحلبية (١/١٣٩) .
٧ الروض الانف (١/١٣٩ وما بعدها) ، نزهة الجليس (١/٢٧٧) .

الله أعلم لا يجاري الى القالات في حصني سواد
كأن خبيثنا لما انتخبنا بعينه يصرح أو ينادي[1]

ومن الكهان المعروفين (الحصين بن نضلة) وقد عرف بـ (الكاهن) ، وقيل : إنه سيد أهل تهامة في أيامه[2] . و (عمرو بن الحمق) ، وقد أسلم وصحب النبي ، وشهد المشاهد مع علي[3] .

وكان (ربيعة بن حُذار الأسدي) من الكهان المعروفين ، واليه تحاكم (بنو كلاب) و (بنو رباب) لما خاصموا (عبد المطلب) في مال قريب من الطائف . فحكم لـ (عبد المطلب)[4] .

وذكر (المسعودي) اسم كاهنين ، دعاهما بـ (سملقة) و (زوبعة)[5] . وقد أشار (الجاحظ) اليهما في معرض كلامه على الخرافات[6] .

وأشار (الجاحظ) الى كاهن ظهر في (بني جهينة) ، عرف بـ (حارثة جهينة)[7] ، والى (عزى سلمة) . وقد قال (الجاحظ) عن (عزى) ، أنه كان من أكهن العرب واسجعهم . ودعاه بـ (سلمة بن أبي حية)[8] .

وكان (خُنافر بن التوأم الحميري) كاهناً ، وكان قد أوتي بسطة في الجسم، وسعة في المال ، وكان عاتياً ، فلما وفدت وفود اليمن على النبي ، وظهر الاسلام أغار على إبل لمراد فاكتسحها وخرج بأهله وماله ولحق بالشحر ، فحالف (جودان ابن يحيى الفرضمي) ، وكان سيداً منيعاً ، ونزل بواد من أودية الشحر ، ثم جاءه (شصار) رئيه ، فنصحه بالعودة الى اليمن ، والدخول في الاسلام . فأسلم على يد معاذ بن جبل بصنعاء ، فترك الكهانة وتعلم سوراً من القرآن[9] .

---

١ الاصابة (٢/٩٥) ، (رقم ٣٥٨٢) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٧٩) .
٣ الاشتقاق (٢٧٩) ، الاصابة (٢/٥٢٦) ، (رقم ٥٨٢٠) .
٤ نهاية الارب (٣/١٣٣) .
٥ مروج الذهب (٢/١٦٠ ، ١٧٦) .
٦ الحيوان (١/٣٠٩) .
٧ الحيوان (٦/٢٠٤) ، مروج الذهب (١/٢٣٧) ، ثمار القلوب (٨١) .
٨ الحيوان (٦/٢٠٤) ، البيان والتبيين (١/١٩٥) ، رسائل الجاحظ (١٣٠) .
٩ الامالي ، للقالي (١/١٣٤ وما بعدها) ، الاصابة (١/٤٥٦) ، (رقم ٢٣٤٢) ، تاج العروس (٣/١٩٢) ، (خنافر) .

ومن الكهان (المأمور) ، وهو (الحارث بن معاوية) الكاهن . وكانت ملحج في أمره تتقدم وتتأخر[1] . و (قلطف) الكاهن ، وهو من طيء[2] .

وكان (زهير بن جناب الكلبي) ، و (جذيمة) العبسي ، كهاناً[3] . وزهير من الفرسان ، فكان من فرسان كلب ، وكان شاعراً[4] .

ويعدّ (الأفكل) من الكهان الفرسان ، وله فرس اسمه هبود[5] .

ولم تحرم النساء الكهانة ، فكان لهن فيها حصة ونصيب . وقد حفظ الأخباريون أسماء عدد من الكاهنات اشتهرت كهانتهن في الجاهلية ، منهن طريفة الكاهنة ، وزبراء ، وسلمى الهمدانية ، وعفيراء الحميرية ، وفاطمة بنت مرّ الخثعمية ، وسجاح ، وغيرهن . وقد نسبوا الى طريفة إخبارها عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه وبخراب سد مأرب ، وذكروا انها سارت مع القبائل حين خافت سيل العرم[6] . ونسبوا الى بقية الكاهنات أمثال هذا القصص عن أمور ستقع قالوا انها وقعت كما تنبأن به .

وذكر (المسعودي) ، ان (طريفة) كانت كاهنة لعمرو بن عامر . وقد نعتها بـ (طريفة الخير) . وقد تنبأت له بقرب تهدم السد،وظهور سيل العرم . كما تنبأ بذلك أخ للملك اسمه (عمران) ، وكان عقيماً كاهناً ، فوقع ما تنبآ به[7] .

وكان من شهيرات الكاهنات أيضاً (الغيطلة) ، وهي (أم الغياطل) ، وهي من (بني مُرة بن عبد مناة بن كنانة)[8] . وقيل : « الغيطلة بنت مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوق بن مرة . وشنوق أخو مدلج » . وقد عرف ولدها بالغياطل ، وهم من بني سهم بن عمرو بن هصيص[9] .

---

١ الاشتقاق (٢/٢٣٩) .
٢ الاشتقاق (٢/٢٣٧) .
٣ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزءالاول) ، (ص ٧) .
٤ معجم الشعراء (١٣٠) ، الشعر والشعراء (٢٢٣) .
٥ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ٩) .
٦ بلوغ الارب (٢/٢٨٣ وما بعدها) ، الاغاني (١٣/١٠٥) « ذكر خبر مضاض بن عمرو » ، الطبري (٢/٢٤٤) ، مروج الذهب (٢/١٧٥) . Reste, S. 137.
٧ مروج الذهب (٢/١٦٧ وما بعدها) .
٨ الروض الانف (١/١٣٨ وما بعدها) .
٩ الروض الانف (١/١٣٧ وما بعدها) .

ويقال أيضاً أن (سُعدى بنت كريز بن ربيعة) كانت قد تكهنت ، وهي خالة عثمان بن عفان[1] .

وكان لفاطمة بنت النعمان النجارية تابع من الجن ، وكان اذا جاءها اقتحم عليها في بيتها ، وقد أدركت مبعث الرسول[2] .

وكانت سوداء بنت زهرة بن كلاب ، كاهنة قريش . ويذكر أن والدها أعطاها لحافر قبور ليحفر لها قبراً في الحجون ، فيدفنها حيّة فيه . أي يئدها ، لأنها ولدت زرقاء شيماء ، وكانوا يئدون من البنات من كان على هذه الصفة ، غير أن حافر القبر عاد بها الى والدها ، لأنه لم يشأ دفنها في خبر يرويه أهل الأخبار[3] .

وكان في (خثعم) كاهنة عرفت بفاطمة[4] .

ولاستشارة الناس هؤلاء الكهان في الأمور وطلبهم منهم الفصل فيها صارت كلمة (حكم) مرادفة لكلمة (كاهن) في بعض الأحايين . وقد روى الأخباريون أمثلة عديدة من حكم هؤلاء الكهان بين الناس وطريقة فصلهم في الأمور ، فهم في هذه الحالة حكام يفصلون في القضايا التي يتفق الجانبان المتخاصمان فيها على احالتها عليهم . ولم تكن لنفوذ أحكامهم مناطق وحدود . لقد كان حدود أحكامهم المدى الذي وصلت شهرة الكاهن اليه ، لذلك كان الناس يقصدون الكاهن من مناطق بعيدة في بعض الأحيان لشهرته الواسعة التي يتمتع بها بين الناس . وتتوقف هذه الشهرة بالطبع على مبلغ ذكاء ذلك الكاهن وقدرته في فهم طبيعة المتخاصمين أو السائلين ، ليتمكن من إصدار حكم معقول مقبول . وتكون أحكامهم قطعية ، على الطرفين اطاعتها والامتثال لها ، وليس لأحد أن يعترض عليها . ولذلك يأخذ الكاهن من الطرفين المتخاصمين قبل سماعه الشكوى عهداً بوجوب الامتثال لحكمه وعدم ردّه مهما كان نوع الحكم .

---

١ نهاية الارب (٣/١٢٦) ، (٣/١٣٠) ، (طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة).
٢ الروض الانف (١/١٣٧) .
٣ الروض الانف (١/١٤١) .
٤ أنساب الاشراف (١/٧٩) .

العرّاف :

ويطلق بعض علماء اللغة على الكاهن (العرّاف) ، فهو عندهم مرادف للكاهن . غير ان من العلماء من يفرق بين الكلمتين ، ويرى بينهما فرقاً ، فالكاهن الـذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ، ويدعي معرفة الأسرار ، والعراف هو الذي يدعي معرفة الشيء المسروق ومكـان الضالّة ونحوهما ، أو الذي يزعم انه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله[1] . ومنهم من يذهب الى ان العراف من اختص بالإنباء عن الأحوال المستقبلة . أما الكاهن فهو الذي اختص بالإخبار عن الأحوال الماضية[2]. وقد فرّق بين الكاهن والعراف في حديث : « من أتى عرافاً أو كاهناً ... »[3] . وأطلق بعضهم العراف على من يدعي الغيب مطلقاً وفي ضمنهم المنجم والحازي[4] .

وذكر ان (العراف) الكاهن أو الطبيب أو المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب[5] . فللكلمة معان عديدة ، ولا تختص بمعنى واحد . وقد ذهب (المسعودي) الى ان العراف دون الكاهن[6] . ونجد هذه النظرة عند غيره أيضاً .

وخلاصة ما يفهم عن الكهانة والعرافة في روايات الأخباريين أن الكهانـة هي التنبؤ بواسطة تابع . وأن العرافة تكون بالملاحظات وبالاستنتاجات وبمراقبة الأشياء لاستنتاج أمور منها ، يخبر بها السائلون على سبيل التنبؤ . وهي على ما يظهر من تلك الروايات ، دون الكهانة في المنزلة ، ولم يكن للعرافين اتصال ببيوت العبادة والأصنام[7] ، ولم يكن لهم (رئي) أي (تابع) ، وإنما كانوا يستنبطون مـا يقولونه بذكائهم وعـلى القياس . فيأخذون بالمشابهة وبالارتباط بين الحوادث ، ويحكمون بما سيحدث بموجب ذلك[8] .

وقد عدّ العبرانيون العرافة من الحيل الشيطانية كالسحر والتفاؤل ، لأنهـا من

---

١ النهاية (٤/٤٣) .
٢ تاج العروس (٦/١٩٣) .
٣ النهاية (٣/٩٨) .
٤ تاج العروس (٦/١٩٣) .
٥ تاج العروس (٦/١٩٣) .
٦ مروج (٢/١٥٤) .
٧ (وأما العراف ، وهو دون الكاهن) ، الحيوان (٦/٢٠٤) .
٨ مفتاح السعادة (١١٣١ وما بعدها) .

رجس المشركين . وتشمل عندهم التنجيم والقرعة والزجر وما شاكل ذلك[1] . وقد نهي عنها في الإسلام .

وقد اعتمد العرّاف على الخط . فكان يخط خطوطاً ، ثم ينظر اليها. ليستنبط شيئاً منها ، يتنبأ به للناس . ومن مشاهيرهم (حليس الخطاط الأسدي) . وقد ذكر أنهم كانوا يخطون خطوطاً ، ثم ينظر العراف ويقول : « ابنا عيان،اسرعا البيان ، ثم يخبر بما يرى »[2] .

وتعتمد العرافة – كما تعتمد الكهانة – على الذكاء والتفرس في الأمور والتجارب. وقد خصصها أكثر الناس في الإسلام بالتوصل الى معرفة الأشياء المفقودة.والعراف بما عنده من الملكات والمواهب المذكورة ، يقضي ويتنبأ للناس فيما يراه ، ومن أشهر العرافين في الجاهلية : عرّاف اليمامة ، وهو (رباح بن كحلة) (رباج ابن عجلة) (رياح بن كحلة) المذكور في الشعر ، وعرّاف نجد وهو الأبلق الأسدي[3] . والأجلح الزهري ، وعروة بن زيد الأسدي[4] .

وفي عرّاف اليمامة ورد قول الشاعر :

فقلتُ لعرّاف اليمامة داوني　　فإنك ان داويتـني لطبيب

والأبلق الأسدي ، هو عراف نجد ، وفيه يقول عروة بن حزام :

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه　　وعرّاف نجد إن هما شفياني[5]

وقد كان أهـل الجاهلية يعرضون صبيانهم على (العرافين) لإخبارهم عن

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/٩٣) .

٢ فأنتم عضاريط الخميس اذا غـزوا　　غناؤكم تلـك الاخاطبط في التـرب
الحيوان (١/٦٣) .

٣ بلوغ الارب (٣/٣٠٦ وما بعدها) ، قال عمرو بن حزام العذري :
وقلت لعـراف اليمامـة داوني　　فانــك ان أبرأتنــي لطبيـب
فما بي من سـقم ولا طيف جنة　　ولــكن عمى الحمـيري كذوب
تاج العروس (٦/١٩٣) ، (فقلت) ، الحيوان (٦/٢٠٥) ، مروج الذهب (٢/١٥٤)، ثمار القلوب (٨١) .

٤ الحيوان (٦/٢٠٤) ، (الازدي) ، مروج (٢/١٥٤) ، (دار الاندلس) .

٥ مروج الذهب (٢/١٥٤) ، (العرافة وبعض العرافين) ، رسائل الجاحظ (١٣٠) ، مقدمة ابن خلدون (٩٤ وما بعدها) ، الحيوان (٦/٢٠٤) . (١/٦٣) .

مستقبلهم . وكانت الأسواق مثل سوق عكاظ موئلاً لهم . فكان العراف فيها يمر به الناس صبيانهم ، ويقول عنهم ما يجول بخاطره ، وذلك بالتفرس في وجه الصبي ، ومقارنة ذلك بما حصل عليه من تجارب في هذا الباب[١] .

وفي اللغة العربية كلمة قديمة أخرى لها صلة بموضوعنا هذا ، هي (القيافة) . ويقصد بها التنبؤ والإخبار عن شيء بتتبع الأثر والشبه[٢] . وتدخل في ذلك قيافة آثار الأقدام والأخفاف والحوافر للاستدلال منها على أصحابها ، وتعيين النسب في حالة الشك فيه . وما زالت القيافة معروفة عند العرب حتى الآن . وقد اشتهرت بها (بنو مُدلج) خاصة ، حتى قيل للقائف (مدلجيّ) بسبب هذا الاختصاص[٣]، وبنو لهب[٤] ، وأحياء مضر[٥] .

ويرى (المسعودي) ان القيافة من الأمور التي برع بها العرب واختصوا بها، وصار لهم مران وخبرة بها ، وذكر ان ممن عرف واشتهر بها (مجزز المدلجي) ، وقد تعجب الرسول من قيافته وصدقه[٦] .

وذكر أهل الأخبار ان (الحازر) ، هو من يحزر الأشياء ، وان (الحزارة) في معنى القيافة .

وأما (الفراسة) ، فتكون بالاستدلال بهيأة الانسان وأشكاله وأقواله على صفاته وطبائعه . وقد ذهب بعض المستشرقين الى أنها من الكلمات المعربة التي أخذت من (بني إرم) ، وانها أحدث عهداً من لفظة (القيافة) التي هي من الكلمات العربية الجاهلية[٧] . وقد توسع في معناها وألف فيها الكتب في الإسلام وتبحر فيها بعض أئمة الفقهاء مثل الشافعي[٨] .

وأما (العيافة) فهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها،

---

١ السيرة الحلبية (١/١١٤) .
٢ اللسان (١١/٢٠١ وما بعدها) ، مروج الذهب (٢/١٤٤) .
٣ المسطرف (٢/٨٢) ، Ency., II, p. 1048, Muh. Stud., I, S. 184.
٤ بلوغ الارب (٣/٢٦٢) .
٥ مروج (٢/١٤٩) .
٦ مروج الذهب (٢/١٥٠) .
٧ Ency., II, p. 108.
٨ النهاية (٣/٢٠٧ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٢٦٣ وما بعدها) ، نهاية الارب (٣/١٤٩) .

وقراءة بعض أحشائها ، ولذلك قيل في العبرانية للعائف (الشاق) ، لشقه الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخراج الخبر مما يراه على تلك الأحشاء من ألياف يرى أن في أوضاعها معاني يذكرها للسائل على شكل نبوءة [1] . وكانت معروفة خاصة عند الكلدانيين .

وقد اشتهرت (بنو أسد) بالعيافة ، فقصدها الناس للأخذ منها ، حتى الجن سمعت بعيافتها ، وعجبت منها ، فجاءت اليها تمتحنها في هذا العلم [2] .

واشتهرت (بنو لِهْبٍ) بالعيافة كذلك، ولهبٌ حي من الأرد . ومن هؤلاء (العائف اللهبي) ، (لهب بن أحجن بن كعب) ، وهو الذي تكهن بموت عمر بن الخطاب قبل وقوعه بعام [3] .

والزجر العيافة . وهو يزجر الطير بعافها. وأصله ان يرمى الطير بحصاة ويصيح، فان ولاه في طيرانه ميامنه تفاءل به أو مياسره تطير . وهو ضرب من التكهن . وانما سمي الكاهن زاجراً ، لأنه اذا رأى ما يظن انه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة [4] .

وتطلق لفظة (الحازي) على من يحزر الأشياء ويقدّرها بظنه ، فهي من الكلمات المستعملة في الكهانة ، ويطلق على من يشتغل بالنجوم اسم (حزّاء) ، لأنه ينظر في النجوم وأحكامها بظنه وتقديره [5]. وأطلقت أيضاً على من يزجر الطير ، ولا سيما الغراب [6] .

---

١ تاج العروس (٢٠٧/١) ، قاموس الكتاب المقدس (١٢٩/٢) .

٢ « وبنو أسد يذكرون بالعيافة ويوصفون بها ، قيل عنهم ان قوما من الجن تذكروا عيافتهم ، فأتوهم ، فقالوا : ضلت لنا ناقة ، فلو أرسلتم معنا من يعيف . فقالوا : لغليم منهم : انطلق معهم ، فاستردفه أحدهم ، ثم ساروا ، فلقيهم عقاب كاسرة احدى جناحيها ، فاقشعر الغلام وبكى ، فقالوا : مالك ؟ فقال : كسرت جناحا ورفعت جناحا ، وحلفت بالله صراحا ، ما أنت بانسي ولا تبغي لقاحا » ، تاج العروس (٢٠٧/٦) ، اللسان (١٦٧/١١ وما بعدها) .

٣ الروض الانف (١١٨/١ وما بعدها) . قال عبدالرحمن الخزاعي :

تيممت لهبا أبتغي العلم عندهم وقد رد علم العائفين الى لهب

تاج العروس (٤٧٥/١) ، (لهب) .

٤ تاج العروس (٢٣٤/٣) ، (زجر) .

٥ الروض الانف (١١٨/١ وما بعدها) .

٦ النهاية (٢٥٧/١) .

وقد أشير في كتب أهل الأخبار الى (حازي) عرف واشتهر بين الجاهليين بـ (حازي جهينة)[1] .

الراقي :

ويقال لمن يعمل الرقية ويرقي : (الراقي) . والرقية العوذة التي يرقي بها صاحب الآفة كالحمّى والصرع . قال عروة :

فما تركا من عوذة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقياني[2]

ويقال لأجرة الراقي : (البسلة) و (بسلة الراقي) . و (البسل) الحلال ، والبسل أيضاً الحرام،فهو من الأضداد . وبسل الدعاء بمعنى آمين ، أي الاستجابة. وكان الرجل اذا دعا على صاحبه ، يقول : قطع الله مطاك . فيقول الآخر : بسلا بسلاً ، أي آمين آمين[3] .

الاستقسام بالأزلام :

ومن طرق التنبؤ الاستقسام بالأزلام ويقابل ذلك ما يقال له (كسيم) (كسم) « Gasam » في العبرانية . وهي طريقة معروفة عند البابليين كذلك[4] . وعند غيرهم من الشعوب . وقد أشير في التوراة الى أن (نبو ختنصر) (بختنصر) (نبخذ نصر) « Nebuchadnezzar » أجال السهام حين عزم على فتح (أورشليم) (القدس) . « فإن ملك بابل قد وقف عند أم الطريق في رأس الطريقين ليباشر عرافة . فأجال السهام وسأل الترافيم ونظر في الكبد »[5] . وقد خرج السهم الذي كتب عليه (أورشليم) ، فعمل به وهاجم القدس وفتحها[6] .

---

١ البيان والتبيين (٢٨٩/١) .

٢ تاج العروس (١٥٤/١٠) ، (رقى) .

٣ تاج العروس (٢٢٧/٧) ، (بسل) ، الروض الانف (٧٥/١) .

٤ Hastings, p. 567.

٥ حزقيال ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٢١ .

٦ Hastings, p. 567.

وتعني لفظة (كوسيم) «Gosem» و «Gesem» «Kosem» العرافة في العبرانية[1]. من أصل (كسم) (كيسم) (قيسم) وهو التكهن. وهو أصل (سامي). واليه تعود كلمة (الاستقسام)، لا الى (قسم) بمعنى تقسيم الشيء وتجزئته. وهو المعنى الذي ذهب اليه أكثر علماء اللغة. وقريب من معنى (قيسم) (كيسم) ما ذكره علماء اللغة من أن القِسْمَ هو الحظ والنصيب. فإن للحظ والنصيب علاقة وثيقة بالتكهن، لما فيه من معرفة المستقبل والوقوف عليه.

وقد عرف أهل الأخبار (الأزلام): انها السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها. وعرفوا (الزلم)، انه السهم، وانه القدح المزلم[2]. وعرفوا القدح: انه السهم قبل ان ينصل ويراش. وان القدح: قدح السهم، وجمعه قِداح، وصانعه قدّاح[3]. وقد فسر بعض العلماء الأزلام بأحجار بيض تشبه أحجار الشطرنج، كما جعل بعض آخر تلك السهام في مقابل (الكعاب) التي يستعملها الروم والفرس في الاستخارة[4]. وذكر بعض آخر ان «الأزلام: سهام كانت لأهل الجاهلية مكتوب على بعضها: أمرني ربي، وعلى بعضها: نهاني ربي، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً، ضرب تلك القداح، فإن خرج السهم الذي عليه أمرني ربي مضى لحاجته، وإن خرج الذي عليه نهاني ربي لم يمض في أمره»[5]. وذكر ان الأزلام التي كانوا يستقسمون بها غير قداح الميسر، وانها قدّاح الأمر والنهي لا قداح الميسر[6]. وذكر ان أهل الجاهلية، كانوا اذا أرادوا ان يخرجوا في سفر، جعلوا قداحاً للجلوس والخروج، فإن وقع الخروج خرجوا، وإن وقع الجلوس جلسوا[7].

وطريقة الضرب بالقداح، ان الرجل منهم اذا أراد ان يخرج مسافراً، كتب في قدح هذا يأمرني بالمكث، وهذا يأمرني بالخروج، وجعل معها أزلاماً منحة،

---

١ العدد، الاصحاح الثالث والعشرون، الآية ٢٣، صموئيل الاول، الاصحاح السادس، الآية ٢، اشعياء، الاصحاح الرابع والاربعون، الآية ٢٥.

٢ اللسان (١٢/٢٧٠).

٣ اللسان (٢/٥٥٦) (قدح)، تاج العروس (٢/٢٠٢)، (قدح).

٤ تفسير الطبري (٦/٤٢ وما بعدها)، روح المعاني (٦/٥٩ وما بعدها).

٥ اللسان (١٢/٤٧٨ وما بعدها)، (قسم)، (صادر).

٦ اللسان (١٢/٤٧٩)، (قسم)، تاج العروس (٦/٤١٧)، (قسم).

٧ تفسير الطبري (٦/٤٢ وما بعدها).

أي لم يكتب فيها شيئاً ، ثم استقسم بها حين يريد الخروج ، فإن خرج الذي يأمر بالمكث ، مكث ، وإن خرج الذي يأمر بالخروج خرج ، وإن خرج الآخر أي المسح ، أجالها ثانية حتى يخرج أحد القدحين[1] . وهكذا يفعلون في سائر أمور الاستقسام .

وقد جمع المفسرون ما تمكنوا من جمعه عما علق في أذهان الناس من الأزلام، لورود الإشارة اليهـا في موضعين من سورة (المائدة)[2] . وأورد علماء الحديث والأخبار ما وصل الى علمهم أيضاً عن (الاستقسام بالأزلام) . ويظهر مما ذكروه أن أهل الجاهلية كانوا يقيمون في أيامهم وزناً كبيراً للاستقسام بالأزلام لاعتقادهم أنه يحكي ارادة الأرباب ويتحدث عن مشيئتها . لذلك كانوا لا يفعلون فعلاً ولا يعملون عمـلاً إلا بعد أخذ رأيها بالاستقسام . فإن جاء أمر فعلوا ، وان جاء نهي امتنعوا .

وجاء في سورة المائدة : « وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق لكم »[3]، وذلك مع أمور نهى عنها الاسلام . منها تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذُكي ، وما ذبح على النصب . وجاء ذكر الأزلام في موضع آخر مع ذكر الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، حيث جعلت رجساً من عمل الشيطان ، لذلك ، على المسلم اجتنابها والابتعاد عنها[4] . فالاستقسام بالأزلام من الأمور التي نزل الأمر بالنهي عنها في الاسلام . وقد جاء الأمر بالنهي عنها في شريعة يهود كذلك إذ اعتبرت (رجساً) ، ومن أعمال الوثنيين[5] .

ويكون الاستقسام عند الأصنام في الغالب لاعتقادهم ان النتيجـة تمثل ارادة الصنم ومشيئته ، غير ان ذلك ليس بشرط ، فقد كان أصحاب الأزلام يحملون أزلامهم معهم ، ويستقسمون حيث يطلب ذلك منهم . فهم في ذلك مثل أصحاب

---

١ تفسير الطبري (٤٢/٦ وما بعدها) .

٢ سورة المائدة ، الآية ٣، ٩٠ ، تفسير الطبري (٤٩/٦) ، روح المعاني (٥٩/٦ وما بعدها) ، الطبري (٢٤٠/٢) .

٣ الآية ٤ ، تفسير البيضاوي (١١٨/١) ، تفسير الطبرسي (٢٣٨/٣ وما بعدها) ، (١٥٦/٣ وما بعدها) .

٤ المائدة ، الآية ٩٣ ، تفسير البيضاوي (١٣٢/١) .

٥ Hastings, p. 567.

(الفأل) والقارئون للرمل والسحرة في الوقت الحاضر ، يتنقلون بين الناس عارضين فنهم عليهم في مقابل حلوان يقدم اليهم . وهذا النوع ، من أصحاب الأزلام ، هم من الطبقة المرتزقة على شاكلة هذه الجماعة المذكورة في هذه الأيام . وقد كان منهم من يستقسم لنفسه بنفسه ، وذلك بأن يستقسم بالأزلام التي عنده في بيته ، والتي قد يحملها معه ، تماماً كما يفعل أهل (الاستخارة) في الاستخارة بالمسبحة (السبحة) أو بوسائل الاستخارة الأخرى في الوقت الحاضر .

قال أهل الأخبار : « والأزلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهي وافعَلْ ولا تفعل ، قد زُلمت وسويت ووضعت في الكعبة ، يقوم بها سدنة البيت ، فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى السادن فقال : اخرج لي زلماً، فيخرجه وينظر اليه ، فاذا خرج قدح الأمر مضى على ما عزم عليه ، وان خرج قدح النهي قعد عما أراده ، وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابه ، فاذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما »[1] .

و « قالوا : كانوا اذا كانت مداراة أو نكاح أو أمر يريدونه ، ولا يدرون ما الأمر فيه ولم يصح لهم أخذوا قداحاً لهم فيها : أفعل ولا أفعل لا يفعل ، نعم لا خير ، شر بطيء سريع ، فأما المداراة فإن قداحاً لهم فيها بيضاً ليس لهم فيها شيء ، فكانوا يجيلونها فمن خرج سهمه فالحق له ، وللحضر والسفر سهمان ، فيأتون السادن من سدنة الأوثان ، فيقول السادن : اللهم أيهما كان خيراً فاخرجه لفلان ، فيرضى بما يخرج له ، فإذا شكوا في نسب الرجل أجالوا له القدّاح وفيها : صريح ، وملصق ، فإن خرج الصريح ألحقوه بهم ، وان خرج الملصق نفوه ، وان كان صريحاً ، فهذه قدّاح الاستقسام »[2] . « وان كان بين اثنين اختلاف في حق سمي كل منهما له سهماً وأجالوا القداح ، فمن خرج سهمه فالحق له »[3] .

وذكر ان أقداح (هُبل) سبعة ، وضعت قدّامه . فان أراد أحدهم سفراً أو عملاً أو تجارة أو زواجاً أو بتاً في نسب مشكوك فيه أو دفع دية أو ان

---

١ اللسان (١٢/٢٧٠ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (٣/١١٧ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢/٦) ، الدرالمنثور (١/٣١٩) .
٣ صبح الاعشى (١/٤٠٢) .

يخرجوا ماءً ، أتوا هُبَلَ ، ومعهم مائة درهم وبجزور فأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم ، وكانت أزلامهم سبعة قدّاح محفوظة عند سادن الكعبة وخادمها، وهي مستوية في المقدار عليها أعلام وكتابة قد كتب على واحد منها (أمرني ربي) وعلى واحد منها (نهاني ربي) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد (ملصق) وعلى واحد (العقل) وواحد غفل ليس عليه شيء ، فاذا أرادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذي تصدوا له استقسم لهم صاحب القداح بقدحي الأمر والنهي ، فان نجح قدح الأمر ائتمروا وباشروا فيما تصدوا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء أو نحو ذلك مما يتفق لهم ، وإن خرج قدح النهي أخروا ذلك العمل الى سنة فاذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى .

ويروى ان السؤال إن كان يخص اقداماً أو احجاماً ، استعمل صاحب القداح قدحي (نعم) أو (لا) فاذا ظهر للمجيل قدح (نعم) عمل به ، ومضى الى ما قصد ، وإن جاء (لا) أي النهي توقفوا سنة . أما اذا كان نزاعاً في نسب أحد منهم ، استقسم بالأزلام الموسومة بـ (منكم) و (من غيركم) و (ملصق) ، فان ظهر (منكم) ، اعتبر المتنازع على نسبه منهم ، وإن خرج (من غيركم) اجتنبوه ونفروا منه ، وان ظهر (ملصق) ، بقي أمره على ما كان عليه قبل الاستقسام ، وأما اذا كان السؤال نزاعاً في (العقل) : أي دية القتيل ، بأن اشتبه عليهم القاتل ، أحضروا من اتهم بالقتل بالقدحين الموسومين بـ (العقل) وبـ (الغفل) ، واستقسم بهما ، فمن خرج عليه العقل تحمّل الدية ، وإن خرج (الغفل) أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب عليه[1] .

ولما أراد (أبو سفيان) الخروج الى (أحد) ، استخار هبل . بأن كتب على سهم نعم ، وعلى آخر لا ، وأجالها عند هبل ، فخرج سهم نعم ، فخرج بقومه الى (أحد) . وقال يقول : أعلُ هبل . وقال عمر : الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان : أنعمت فعال عنها ، أي اترك ذكرها ، فقد صدقت في فتواها، وأنعمت ، أي أجابت بنعم[2] .

---

١ بلوغ الارب (٣/ ٦٦ وما بعدها) ، الاصنام (ص ٢٨) ، النهاية (٣/ ٢٦٨) ، تاج العروس (٨/ ٣٢٦) ، تفسير الطبري (٦/ ٤٢ وما بعدها) .

٢ اللسان (١٢/ ٥٨٩) .

ولصاحب الأزلام وخازنها حق يتقاضاه مـن الطالبين في مقابل عمله . فكان سادن (هُبل) يتقاضى مئة درهم أجراً عن الاستقسام ، كما سبق ان ذكرت، فان تكرر ذلك زيد أجره على ما يذكره الرواة . وقد كان غير العرب يدفعون حلواناً الى صاحب الأزلام ليتنبأ لهم . فلما انطلق (شيوخ مديان) (مدين) و (مؤآب) الى (بلعام) ليستقسم لهم ، حملوا حلوانهم معه ، فقدموه اليه مقابل ما قام به من عرافة اليهم[1] .

وقيل للذين يضربون بالقداح (الضرباء)[2] . والواحد الضريب والضارب . وهو الموكل بالقداح ، وقيل الذي يضرب بالقداح . يقال هو ضريب قداحٍ[3] .

وقد أشير الى الاستقسام في شعر الشعراء الجاهليين ، وقد ذكرت في قصة الشاعر (امرىء القيس) الكندي حينما جاء الى الصنم (ذي الخلصة)، ليستقسم عنده بشأن الأخذ بثأر أبيه . فلما خرج النهي عنه ثلاث مرات ، غضب على صنمه ، وكسر الأزلام ورماها في وجهه ، كما يقول الرواة قائلاً : « لو كان أبوك المقتول لما نهيتني» ، وأنشد :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا لم تنه عن قتل العداة زورا

وأشار الحطيئة الى ذلك بقوله :

لم يزجر الطير،إن مرت به سنحاً ولا يفيض على قسمٍ بأزلام[4]

وقال طرفة :

أخذ الأزلام مقتسماً فأتى أغواهما زلمه[5]

وهناك طرق عدة عرفت عند الشعوب القديمة في التكهن بالسهام ، ومنها رمي السهام في الهواء لمراقبة حركاتها وكيفية سقوطها ، ومنها رمي حزمة من السهام أمام الصنم ، فالسهم الأول الذي يقع قبل بقية الأزلام ، يكون هو السهم الذي

---

١ العدد ، الاصحاح الثاني والعشرين ، (الآية ٧ وما بعدها) ، Hastings, p. 567.
٢ الاشتقاق (٢٧٨) .
٣ اللسان (١/٥٤٧ وما بعدها) .
٤ اللسان (١٢/٢٧٠) ، الاصنام (٤٧) ، نهاية الارب (٣/٦٧) .
٥ اللسان (٢/٢٧٠) .

أمر به الصنم في زعمهم ، فيعمل بموجب ما كتب عليه[1] .

ولخص (الألوسي) الأزلام التي كانت عند العرب على ثلاثة أنحاء : أحدها: قداح الميسر العشرة ، وثانيها : لكل أحد ، وهي ثلاثة على أحدها مكتوب (افعل) ، أي أمر ، وعلى الثاني (لا تفعل) وعلى الثالث (غفل) . فاذا أراد أحدهم الأمر جعلها في خريطة ، وهي (الربابة) وأدخل يده فيها وأخرج واحداً ، فان طلع الآمر فعل أو الناهي ترك أو الغفل أعاد . وثالثها : للأحكام وهي التي عند الكعبة . وكانوا يتحاكمون عند (هبل) في جوف الكعبة . وكان عند كل كاهن وحاكم للعرب مثل ذلك . وكانت سبعة مكتوب عليها ما سبق[2] .

و (القُرعة) أي (السهمة) ، نوع من أنواع التنبؤ بالغيب التابعة للاستقسام بالأزلام . و (السهمة) هي رضاء بحكم (السهم) ، أي بحكم وقوع السهام على الأشياء . وهي جواب فصل يمثل ارادة الآلهة للسائل أو للمختصمين في أمر من الأمور . وقد قيل للسهم: الحظ والنصيب[3] ، لأنه يتكلم عن حظ الانسان ونصيبه .

والتنبؤ بالتفرس في الأشباح التي تظهر على الماء ، أو الزيت المصبوب في الأقداح ، أو الحركات التي تظهر على سطح السائل بعد رمي شيء فيه ، لمعرفة الأسرار والمغيبات والاجرام كالسرقات والقتل ، والزنى ، ودراسة سطح المرآة : هذه وأمثالها كانت معروفة عند البابليين والعبرانيين ، وعند غيرهم من الشعوب. وعقيدتهم أن الأرواح هي التي ترشد الى اظهار المخفيات ، وان هناك مأمورين من بينهم واجبهم اخبار العراف والعائف والكاهن بما يطلب منهم معرفته ليقوله للسائل[4] .

ومن ضروب التنبؤ (الطرقُ) ، وهو الضرب بالحصى للكشف عن المستقبل، يقوم بذلك الرجال والنساء . ويقال للقائمين بذلك الطُرّاق والطوارق[5] . وورد ان الطرق : الضرب بالحصى والخط في التراب ، وهما ضربان من التكهن . وقيل أيضاً : الطرق : أن يخط الرجل في الأرض بإصبعين ثم باصبع ، ويقول :

---

١ Hastings, p. 567.

٢ بلوغ الارب (٣/ ٦٧ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٨/ ٣٥٢) ، « سهم » .

٤ Ency. Religi., 4, p. 807.

٥ النهاية (٣/ ٤٠) .

ابني عيان اسرعا البيان،وزعم بعضهم أن الطرق ان يخلط الكاهن القطن بالصوف فيتكهن . وقد نهي عنه في الإسلام . ورد في الحديث:انه قال : الطرق والعيافة من الجبت[1] .

ويدخل في ضروب التنبؤ (الخط) « وهو الذي يخطه الحازي . يأتي صاحب الحاجة الى الحازي فيعطيه حلواناً ، فيقول له : اقعد حتى أخط لك ، وبين يدي الحازي غلام له معه ميل ، ثم يأتي الى أرض رخوة فيخط فيها خطوطاً كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين،وغلامه يقول للتفاؤل : « ابني عيان ، أسرعا البيان » ، فان بقي خطان فهما علامة النجح ، وإن بقي خط واحد فهو علامة الخيبة ... وقيل : الخط هو ان يخط ثلاثة خطوط ، ثم يضرب عليهن بشعير أو نوى ، ويقول : يكون كذا وكذا . وهو ضرب من الكهانة »[2] . وكانت العرب تسمي ذلك الخط الذي يبقى من خطوط الحازي الأسحم . وكان هذا الخط عندهم مشؤوماً . وقد كان الخط من علوم العرب القديمة[3] .

وعلم الخط هو علم الرمل . وينسب الى (ابن عباس) قوله : علم قديم تركه الناس . وخط الزاجر في الأرض ، رسم خطاً باصبعه ، ثم زجر . وذكر ان (الخطيطة) الرملة التي يخط عليها الزاجر ، وان الأسحم اسم خط من خطوط الزاجر ، وهو علامة الخيبة عندهم . وذلك ان يأتي الى أرض رخوة وله غلام معه ميل ، فيخط الأستاذ خطوطاً كثيرة على عجل لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو منها خطين خطين ، فان بقي من الخطوط خطان ، فهما علامة النجح وقضاء الحاجة ، ويمحو وغلامه يقول للتفاؤل : ابني عيان أسرعا البيان ، واذا محا الخطوط ، فبقي منها خط ، فهي علامة الخيبة[4] .

---

١ اللسان (٢١٥/١٠) ، (طرق) تاج العروس (٤١٧/٦) ، (طرق) ،
لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولازاجرات الطير ما الله صانع
النهاية (٤٠/٣) ، اللسان (٨٤/١٧) ، سنن أبي داوود (١٦/٤) .

٢ النهاية (٣٠٣/١ ، ٣٣٨) « خطط » ، (٤٠/٣) « طرق » ، تاج العروس (٤١٧/٦) ، اللسان (٨٥/١٧) .

٣ اللسان (٢٨٧/٧ وما بعدها) ، (خطط) .

٤ تاج العروس (١٣١/٥) ، (خطط) .

الأحلام :

والأحلام (Dreams) و (الرؤيا) (Visions) باب من أبواب الكهانة كذلك، فهي تفسير لما سيقع في المستقبل من حوادث . وقد تخصص بذلك أناس تعاطوا تعبير الرؤيا والأحلام . وإذ كان اعتقاد الشعوب القديمة ان الأحلام حقيقة ، لا كما نتصورها نحن ، كان الاهتمام بها كبيراً ، والاعتناء بها شديداً ولا يزال يخصها كثير من الناس بالعناية .

وقد فسرت بعض الشعوب القديمة الأحلام بأنها الآلهة أو الأرواح تتجلى في الإنسان في أثناء منامه ، فتطلعه على أشياء كثيرة تتعلق بحياته وعصره ، وتساعده بذلك على حلّ مشكلات عديدة عويصة لديه ، أو تهديه الى أمور لم يكن يعرف عنها شيئاً ، أو تحذره بقرب حلول كارثة أو خطر به أو بغيره ، أو بحصول خير له أو لغيره . وقد ترجع به الى أيام ماضية وحوادث قديمة سالفة كان قد نسيها وذهبت من ذاكرته . ونجد في المؤلفات اليونانية واللاتينية والسريانية وفي الكتابات الهيروغليفية والمسمارية أشياء عديدة من القصص المتعلق بالأحلام . وفيها أن كثيراً من الملوك والخاصة كانوا يقيمون وزناً عظيماً لما يرونه ، أو يراه الناس من أحلام . وقد نجح كثير منهم كما خسر كثير منهم أيضاً بسبب تأثير الأحلام فيهم ، حتى إن بعضهم اتخذ له مفسراً للأحلام أو جملة مفسرين ، ليكونوا في خدمته حتى اذا ما رأى حلماً فسروه له .

ولما كانت بعض الأحلام مزعجة ، رجع الكهان المتخصصون بالأحلام أسبابها الى فعل الأرواح الشريرة . أما الأحلام المريحة الطيبة ، فقد جعلوها من إلهام الآلهة في الانسان . ولأهمية الاعتقاد بالأحلام ، وضعت قواعد وتعاليم للأشخاص الذين يريدون معرفة مستقبلهم بالرؤيا والأحلام . وقد نصح في بعضها باجتناب الأكل الثقيل ، وبشرب بعض الأشربة المعينة وبالنوم في المعابد ، للحصول على الرؤيا الصادقة . والابتعاد عن أضغاث الأحلام . وضع تلك القواعد أناس تخصصوا بهذا الفن ، يلجأ اليهم من يرى حلماً ليجد تفسيره عندهم . فلكل شيء في الرؤيا والحلم معنى خاص ، لا يمكن ان يعرفه إلا ذوو الخبرة والعلم[1] .

وقد عثر على كتابة لحيانية في موضع (الخريبة) ، تبين منها وجود صنم في معبد هذا الموضع تخصص بتفسير الأحلام[2] .

---

١ مقدمة ابن خلدون (١٠٣/١) .

٢ Jaussen — Savignac, Mission, II, p. 417, Euting 825, Arabien, S. 89.

وفي كتب التفسير والسير والأخبار والأدب أمثلة عديدة من الرؤيا ، تشير الى ان الاعتقاد بالأحلام كان معروفاً عند الجاهليين ، وان أثره كان عميقاً في حياتهم. وقد يكون لأهل الكتاب أثر عليهم في كيفية تفسير الأحلام وتوجيه تعبير الرؤيا، غير ان الاعتقاد بالأحلام هو اعتقاد عام ، وكان يقوم به متخصصون بتفسير الأحلام . وقد عرف في الاسلام واشتهر به (ابن سيرين)[1] .

وقد عرف بعض العلماء الاسلاميين الحلم بأنه عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء المزعجة ، وخصصوا الرؤيا بما يراه الانسان في منامه من الخير والشيء الحسن[2] . وهم بذلك على طريقة القدماء في جعل الأحلام نوعين : أحلام من فعل الشيطان والأرواح الخبيثة ، وأحلام من إلهام الآلهة في الانسان ، وهي التي تنكشف من رؤية أشياء جميلة وعن أشياء يرغب صاحب الحلم في الحصول عليها وتحقيقها.

ويرجع العلماء الرؤيا الى النفس ، تطلع على الواقعات فتتذكرها ، وتوحي بها الى صاحبها . وهم يعتقدون بها ، وجعلوها جزءاً من النبوة[3] .

---

١ (كتاب التعبير) ، عمدة القاري (١٢٦/٢٤) ، الفهرست (٤٣٩) . (الكتب المؤلفة في تعبير الرؤيا) .
٢ النهاية (٢٨٩/١ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٥٥/٨) ، (حلم) .
٣ مقدمة ابن خلدون (١٠٢/١ وما بعدها) .

الفصل السادس والثمانون

الطيرة

وقد كان للطيرة شأن كبير في حياة الجاهليين.وهي معروفة عند جميع الشعوب، ويقال لها في العبرانية : طيّر « Tayyar » ، فهي من نفس الأصل الذي أخذ العرب منه التسمية [1] . ويقال لها في الانكليزية « Augury » ، ويرى بعض الباحثين أن الطيرة انتقلت الى العبرانيين من العرب[2] . وهناك نوع آخر من التطير يقال له « Haruspicy » في الانكليزية ، ويقصد به الطيرة من الحيوانات الميتة ، أو مراقبة الحيوان في أثناء ذبحه لمعرفة المستقبل من حركاته وهو يرتجف رجفة الموت[3] .

ويقول علماء الأخبار ، إن الطيرة من زجر الطيور ومراقبة حركاتها ، فإن تيامنت دل تيامنها على فأل ، وان تياسرت دل على شؤم[4] . فهي اذن تشمل التيمن والتشاؤم ، إلا أنها خصصت بالتشاؤم فيما بعد . فصارت تعني هذا المعنى عند الاستعمال . قال (الجاحظ) : « وأصل التطير إنما كان من الطير ومن جهة الطّير ، إذا مرّ بارحاً أو سانحاً ، أو رآه يتفلى وينتف ، حتى صاروا

---

١ Ency. Religi., 4, p. 807.

٢ Ency. Religi., 4, p. 778, 807, Hastings, p. 568.

٣ Ency. Religi., 4, p. 778.

٤ اللسان (٥١٢/٤ وما بعدها) ، مفردات ، للاصفهاني (٣١٢) ، صبح الاعشى (٣٩٩/١)

اذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم ، أو الأعضب أو الأبتر ، زجروا عند ذلك وتطيروا ، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال . فكان زجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطيّر ، ثم استعملوا ذلك في كل شيء »[1].

قال أحدهم :

عوى الذئب فاستأنستُ للذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

كأن الذي يرى ما يكره أو يسمع يطير .

وقد عد العلماء الطيرة والزجر في معنى واحد ، لأن أصلهما انهم كانوا اذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير ، ثم يحكمون من حركاته على ما سيحدث ويقع ، فالزجر والطيرة من ثم شيء واحد[2] . وقد قيل لمن يزجر الطير (زاجر) « لأنه اذا رأى ما يظن انه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة »[3] .

والطيور هي مادة التطير ، وذلك بمراقبة حركاتها وسكناتها . وهو ما يقال له في العبرانية : (نيحوش) (نحوش) « Nihush » من أصل (نيحيش) (نحش) . وتقابل لفظة (نحش) كلمة (حنش) في العربية وتعني (الثعبان) . وقد ذهب بعض علماء التوراة ان لكلمة (نحش) ، صلة بالثعبان ، ذلك لأن الثعبان كان من الآلهة القديمة ، بينما يرى بعض آخر عدم وجود صلة ما للثعبان بهذا الموضوع ، لأن العبرانيين لم يتعبدوا البتة للثعابين ، فلا صلة للثعبان به[4] .

ويدخل في باب الزجر ، زجر الطير والوحش . ويذكر بعض العلماء ان الأصل في الطيرة ، هو زجر الطير ، ثم صار في الوحش ، وقد يجوز ان يغلب أحد الشيئين على الآخر فيذكر دونه ويرادان جميعاً[5] .

وقد يراد بالطيرة (التشاؤم) الذي هو خلاف التيامن . غير أن (التشاؤم)

---

١ الحيوان (٤٣٨/١) ، (هارون) . العمده (٢٥٩/٢ وما بعدها) .
٢ صبح الاعشى (٣٩٦/١) .
٣ تاج العروس (٣٦٤/٣) ، اللسان (٤٠٧/٥) ، (طير) .
٤ Ency. Religi., 4, p. 807, Hastings, p. 568.
٥ العمدة (٢٦٠/٢) .

هو في الواقع أوسع مجالاً وأكثر ساحة من الطيرة ، لأن التشاؤم طيرة وزيادة ، وأعني بالزيادة تشاؤم المتشائمين من أمور أخرى كثيرة مثل التشاؤم من ذوي العاهات أو القبح من البشر ، والتشاؤم من سماع الكلام السيء أو الأخبار السيئة عند الصباح أو من رؤية ميت أو سماع نياحة أو مشاهدة مخلوق مشوه أو سماع اسم موضع يدعو التشاؤم أو اسم شخص فيه معنى التشاؤم وأمثال ذلك ؛ فتكون كل هذه الأمور مدعاة للتشاؤم عند المتشائمين . « حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم ، أو الأعضب أو الأبتر ، زجروا عند ذلك وتطيروا عندها كما تطيروا من الطير اذا رأوها على تلك الحال »[1] .

ويقول علماء اللغة : الشؤم : خلاف اليمن . ورجل مشؤوم على قومه[2] . وأصل ذلك هو أن العرب تتفاءل بالجهة اليمنى ، وتتشاءم من الجهة اليسرى ، ولذلك كانت إذا أرادت أن تعمل عملاً عمدت الى (الزجر) وهو رمي الطير بحصاة ، ثم يصيح الرامي ، ليفزعها ويزجرها ، وعندئذ يراقب حركة طيرانها، فإن تيامنت أي جرت يمنة تفاءل به ، وان تشاءمت أي تياسرت ، تشاءم به . فالتيمن هو بالتيامن والتشاؤم هو بالتياسر . ولذلك قيل للكاهن (زاجر) أيضاً، « لأنه إذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة »[3] . ولاعتماد الزاجر على الطيور في الغالب في هذا النوع من التكهن قيل له : (الطيرة) . قال علماء اللغة : « وقيل للشؤم طائر وطير وطيرة ، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها والتطير ببارحها ونعيب غرابها وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها . فسموا الشؤم طيراً وطائراً وطيرة لتشاؤمهم بها »[4] .

ولا بد ان يكون للتطير صلة بعقيدة استحالة الأرواح طيوراً بعد مفارقتها الأجساد ، فقد كان من المتعارف عليه عند كثير من الشعوب القديمة ان بعض فصائل الطيور هي أرواح الموتى بعد مفارقتها الأجساد ، وانها لذلك تعي وتفهم، وان في استطاعة بعض الناس فهم منطقها وتكليمها . ومن هنا ظهرت فكرة

---

١ الحيوان ، للجاحظ (٣/٤٣٨) « تحقيق محمد عبدالسلام هارون » .
٢ اللسان (١٢/٣١٤) .
٣ تاج العروس (٣/٣٦٤) ، اللسان (٥/٤٠٧) ، (١٢/٣١٤) « شام » .
٤ تاج العروس (٣/٣٦٤) ، (طير) .

(منطق الطير) . وقد كان (سليمان) يحادث الطير[1] . فاذا كانت الطير على هذه الصفة ، ففي حركاتها وسكناتها منطق لمن لا يحسن منطقها ، يشير الى ما يجب على الانسان ان يفعله أو يتركه من أعمال .

وقد كان للتطير والتفاؤل شأن كبير في حياة الجاهليين . كما كان لهما مثله في حياة شعوب أخرى عديدة : ومن بينهم اليونان والرومان والفرس . والتطير هو نظير التشاؤم في المعنى كما قلت . أما نظير التفاؤل ، فهو التيامن . وفي روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من أمثلة الطيرة وقعت لبعض القبائل عند إقدامها على الحرب ، فخسرت لتطيرها . ويحدث من التطير النحس ، وأما من التفاؤل فيكون السعد .

وفي الأخبار : « كانت العرب اذا خرج أحدهم من بيته غادياً في بعض الحاجة ، نظر : هل يرى طائراً يطير ، فيزجر سنوحه أو بروحه ، فاذا لم ير ذلك ، عمد الى الطير الواقع على الشجر ، فحركه ليطير ، ثم نظر الى أي جهة يأخذ ، فزجره . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « اقروا الطير على مكناتها : لا تطيروها ولا تزجروها »[2] . وذكر « انهم كانوا في الجاهلية اذا خرج أحدهم لحاجة ، فان رأي الطير طار عن يمينه تيمن به واستمر ، وإن طار عن يساره تشاءم به ورجع ، وربما كانوا يهيجون الطير ، ليطير فيعيدون ذلك »[3] .

وقد أبطل الرسول الطيرة . « وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يتفاءل ولا يتطير . وأصل الفأل الكلمة الحسنة يسمعها عليل ، فيتأول منها ما يدل على برئه، كأن سمع منادياً نادى رجلاً اسمه سالم ، وهو عليل ، فأوهمه سلامته من علته، وكذلك المضل يسمع رجلاً يقول يا واجد ، فيجد ضالته . والطيرة مضادة للفأل. وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد . فأثبت النبي الفأل واستحسنه وأبطل الطيرة ونهى عنها »[4] .

وروي أن أهل الجاهلية كانوا يقولون : « إن الطيرة في المرأة والدار والدابة»[5]

---

١ Ency. Religl., 4, p. 808

٢ جامع الأصول (٤٥٨/٨) .

٣ ارشاد الساري (٣٩٦/٨) .

٤ تاج العروس (٣٦٤/٣ وما بعدها) .

٥ أمالي المرتضى (٢٠٢/٢) .

و (الكدس) التطير ، و (الكدسة) عطسة البهائم ، وقد تستعمل للإنسان : ومنه الحديث : اذا بصق أحدكم في الصلاة ، فليبصق عن يساره أو تحت رجله، فإن غلبته كدسة أو سعلة ففي ثوبه . والكادس ما يتطير به من الفال والعطاس وغيرهما . ومنه قيل للظبي وغيره إذا نزل من الجبل وغيره كادس[1] .

ومن الألفاظ المستعملة في (الزجر) (سنح) و (برح) . وللفظة (برح) معان عديدة ، وهي من الكلمات السامية الواردة والباقية في عدد من لهجاتها . ومنها لفظة (البارح) وهي ضد (السانح) . و « السانح ما مرّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك الى يمينك ، والعرب تتيمن به ، لانه أمكن للرمي والصيد . والبارح ما مرّ من يمينك الى يسارك،والعرب تتطير به ، لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف »[2] .

وقد ذكر بعض اللغويين عكس المعنى ، كما ذكر أن أهل نجد كانوا يتشاءمون بالبوارح ويتيمنون بالسانح . أما غيرهم من العرب ، فقد كانت تتيمن بالبارح، وأن بعضاً منهم لم يكن له رأى في شيء من هذا[3] . وذكر ان أهل (العالية) يتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح[4] .

قال ذو الرمة وهو من نجد :

خليلي ، لا لاقيتما مــا حييتما   من الطير إلا السانحات وأسوأا

وقال النابغة ، وهو نجدي أيضاً ، يتشاءم بالبارح :

زعم لا لاقيتما البوارح ان رحلتنا غداً   وبذاك تنعاب الغراب الأسود

وقد عبر (كثير)عن رأي أهل الحجاز بقوله :

أقول إذا ما الطير مرت مخيفة   سوانحها تجري ولا استثيرها[5]

وذكر أن هذيلاً كانت تتشاءم بالسنيح . أما غيرها،فكانت تتشاءم بالبارح[6] .

---

١ تاج العروس (٤/٢٣٠) ، (كدس) .
٢ النهاية (١/٨٥) ، المعاني الكبير (٣/١١٨٧) .
٣ الاغاني (٩/١٥٧) « أخبار النابغة وسببه » ، Reste, S. 202.
٤ العمدة (٢/٢٦٣) .
٥ البرقوقي (ص ١٩ وما بعدها).
٦ المعاني (٣/١١٨٦) .

ويقال للمتطيرين من الرجال (الخثارم)[1] .

وذكر ان (بني لهب) ، « هم أعيف العرب وأزجرهم للطير »[2] . وهم بطن من العرب يعرفون بالعيافة . ولأهل الأخبار قصص عن عيافتهم وعن زجرهم للطير[3] .

ومن الطيور التي تطير منها أهل الجاهلية : الغراب وطيور الليل ، وهي البومة ، والصدى ، والهامة ، والضوّع ، والوطواط ، والخفاش ، وغراب الليل[4] .

وقاعدتهم في الطيرة ، انهم يشتقون من اسم الشيء الذي يعاينون ويسمعون . من ذلك قول سوّار بن المضرب :

تغنّى الطائران ببين ليلى على غصنين من غَرْبٍ وبان
فكان البان أن بانت سليمى وفي الغرب اغتراب غيرُ دانِ

فاشتق الاغتراب من الغرب ، والبينونة من البان .

وقال عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأبقع
حرِق الجناح كأن لحْيَيْ رأسه جلمان بالأخبار هُش مُولع
فزجرته ألا يفرخ بيضه أبداً ويصبح خائفاً يتفجع
إن الذين نَعَبْتَ لي بفراقهم هم أسهروا ليلى التمام فأوجعوا

فقال : وجرى بينهم الغراب ، لأنه غريب ، ولأنه غراب البين ، ولأنه أبقع . ثم قال : حرق الجناح تطيراً أيضاً من ذلك . ثم جعل لحيي رأسه جلمين ، والجلم يقطع . وجعله بالأخبار هشاً مولعاً ، وجعل نعيبه وشحيجه كالخبر المفهوم[5] .

وأشأم الطيور عند الجاهليين ، (الغراب) : « ليس في الأرض شيء يتشاءم

---

١ المعاني (١١٨٧/٣) .
٢ الاشتقاق (ص ٢٨٨) ، صبح الأعشى (٣٣٩/١ وما بعدها) .
٣ صبح الأعشى (٣٩٩/١ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٢٩٨/٢) ، (هارون) .
٥ الحيوان (٤٤٢/٣ وما بعدها) ، (هارون) .

به إلاّ والغراب أشأم منه »[1] ، ولذلك قالوا إذا نعب : خيراً خيراً ، وذلك من باب التفاؤل بالأضداد[2] . « والعامة تتطير من الغراب ، إذا صاح صيحة واحدة، فإذا ثنى ، تفاءلت به » ، « واذا صاح الغراب مرتين ، فهو شرّ ، واذا صاح ثلاث مرات ، فهو خير »[3] . وورد (غراب البين) و (الغراب الأبقع) و (الغراب الأسود)[4] . ويراد بذلك التشاؤم بفراق الأحبة ، ويقال للغراب الأسود (حاتم) ، والحتمة السواد ، وهو مشؤوم ، لأنه يحتم بالفراق[5] .

« والعرب تتشاءم من الغراب، ولذا اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب »[6].

« فالغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم ، ألا تراهم كلما ذكروا ما يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه ؟ وقد يذكرون الغراب ولا يذكرون غيره ، ثم إذا ذكروا كل واحد من هذا الباب لم يمكنهم أن يتطيروا منه إلا من وجه واحد ، والغراب كثير المعاني في هذا الباب ، فهو المقدم في الشؤم»[7].

وروي أن (ابن عباس) كان إذا صاح الغراب ، قال : اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إلّه غيرك . قال الجاحظ : « وليس في الأرض بارح ولا نطيح ، ولا قعيد ، ولا أعضب ولا شيء مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه ، يرون أن صياحه أكثر أخباراً ، وان الزجر فيه أعم. قال عنترة :

---

١ تاج العروس (٤٠٧/١) ، « عزب » ، قال رؤبة :

فازجر من الطير الغراب الغاربا

اللسان (٤٣٨/٢) ، الحيوان للجاحظ (٣١٦/٢) .

٢ الحيوان للجاحظ (٤٥٧/٣ ، ٤٥٨) « طبعة عبد السلام محمد هارون » .

٣ الحيوان ، للجاحظ (٤٥٧/٣ وما بعدها) ، حياة الحيوان ، للدميري (٢٥٥/٢) .

٤ قال عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع ... وجرى بينهم الغراب الأبقع

خرق الجناح كأن لحى رأسه ... جلمان بالاخبار هش مولع

اللسان (٢١٠/١٦) ، القاموس (٢٠٤/٤) ، « غراب البين » ، الحيوان للجاحظ (٤٣١/٣) ، البيان والتبيين (٨٣/١) « لجنة » ، قال النابغة :

زعم البوارح أن رحلتنا غدا ... وبذاك خبرنا الغراب الاسود

الحيوان ، للجاحظ (٤٤٢/٣) .

٥ اذا ما رأت عبس من الطير جاثما ... شديد سواد الزف ظلت تفزع

الاسنقاق (١٦٦/٢) ، اللسان (٣/١٥) ، الحيوان للجاحظ (٤٣٦/٣) ، (هارون) ، بلوغ الارب (٣٣٨/٢ وما بعدها) .

٦ الحيوان للجاحظ (٣١٦/٢) ، حياة الحيوان ، للدميري (١٩٠/٢) .

٧ الحيوان للجاحظ (٣١٦/٢) ، حباة الحيوان (٢٤٤/٢) .

حَرِق الجناح كأنّ لحيَّ رأسه جلمان ، بالأخبار هش مولع[1]

وفي الغراب وشؤمه يقول الأعشى :

ما تعيف اليوم في الطير الروح من غراب البين أو تيس برح[2]

وقد كنوا عنه بكنى عديدة ، دلالة على مقـدار اهتمامهم به . فقالوا له : أبو حاتم ، وأبو جحادف ، وأبو الجراح ، وأبو المرقال ، وأبو حذر ، وأبو زيدان ، وأبو زاجر ، وأبو الشؤم ، وأبو غياث . ووضعوا الأمثلة على لسانه وعنه . وقصوا عنه الحكايات . من ذلك ، انه أراد ان يقلد القطاة في مشيها ، فحاكاها ، لكنه لم يفلح في المشي مشيها ، فلما أراد العود الى مشيته الأولى ، أضل مشيته ، إذ نسيها ، فنسي المشيتين : فلذلك سمّوه : أبا المرقال[3]. وضربوا المثل بالغراب الأعصم ، فقالوا : أعز من الغراب الأعصم،للشيء القليل الوجود[4]. وأوردوا له قصصاً مع الديك ومع حيوانات أخرى . ورموه بالفسق والفجور[5] .

وفي الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين اشارات الى شؤم الغراب . جاء في شعر (حسان بن ثابت) :

وبيّن في صوت الغراب اغترابهم عشيةَ أو في غصن بان فطربا

فصوت الغراب ، يشير الى الغربة والاغتراب ، لذلك كره[6] .

وهو من ألأم الطير وأخبثها ، وهو من عبيد الطير ، وليس من أحرارها ، فهو دنيء النفس ، إذا صادفته جيفة ، نال منها ، وهو لا يتعاطى الصيد . فهو حيوان خبيث الفعل وخبيث المطعم ، لذلك عدّ العرب أكله عاراً يعير من يقدم

---

١ الحيوان (٢/٣١٦) ، (هارون) .
٢ العمـدة (٢/٢٦٠) ، تاج العروس (٦/٢٠٧) ، (عـاف) ، اللسان (٩/٢٦١) ، (عيف) .
٣ الحيوان ، للجاحظ (٣/١٢٩) ، حياة الحيوان ، للدميري (٢/١٧٢) .
٤ حياة الحيوان (٢/١٧٣) .
٥ الحيوان (٣/١٣١) ، حياة الحيوان (٢/٢٧٣ وما بعدها) ، (٣/٣١٧) ، (هارون) ، (فسق الغراب وتأويل رؤياه) .
٦ البرقوقي (ص ١٩) ، بلوغ الارب (٢/٣٣٤ وما بعدها) .

عليه . وكانوا يتعايرون بأكل لحمه[1] . وليس ذلك ، لأنه يأكل اللحوم ولأنه سبع » ، لو كان ذلك منهم « لكانت الضواري والجوارح أحق بذلك عندهم»[2] إنما امتنعوا عن أكله ، لأنه يأكل الجيف والقاذورات ، ولذلك عدّه العبرانيون من الحيوانات النجسة ، والحيوانات النجسة،هي في الغالب الحيوانات التي لا يجوز أكل لحومها ، والظاهر أنه كان على هذه النظرة عند أغلب الساميين .

ونعت الغراب بـ (الأعور) ، قيل إنه نعت بذلك لحدة نظره[3] ، وقيل إنما سمّوه (الأعور) تفاؤلاً بالسلامة[4] . ووصف بالحذر ، فقيل : أحذر من غراب ، وقيل انه نعت بذلك على التشاؤم به ، لأن الأعور عندهم مشؤوم ، وقيل لخلاف حاله ، لأنهم يقولون : أبصر من غراب ، ويقال سمي الغراب أعور ، لأنه إذا أراد أن يصيح يغمض عينيه[5] .

ويذكر أهل الأخبار ان غراب البين نوعان : أحدهما صغار معروفة بالضعف واللؤم . أما الآخر ، فانه ينزل في دور الناس ، ويقع على مواضع اقامتهم اذا ارتحلوا عنها وبانوا منها ، ولذلك سمي بغراب البين[6] .

وللعرب عادات بالنسبة الى الغراب ، ترى انه اذا علق منقار الغراب على انسان ، حفظ من العين . أما اذا علق طحاله على انسان ، هيج الشبق. وان دمه اذا جفف وحشي به البواسير ، أبرأها . واذا أكل مشوياً ، نفع القولنج . واذا غمس الغراب الأسود بريشه في الخل ، وطُلي به الشعر ، سوّده . واذا طلي بها انسان مسحور ، بطل عنه السحر . واذا جفف لسان الغراب (الزاغ) ، ثم أكله انسان عطشان ، ذهب عطشه[7] .

---

١ فمــا بالعــار مـا عيرتمونـا شواء الناهضـات مع الخبيص
فما لحم الغــراب لنـا بـزاد ولا سـرطان أنهــار البـريص
الحيوان ، للجاحظ (٢/٣١٤ وما بعدها) ، (٢/٣١٣) ، (هارون) ، (لؤم الغراب وضعفه) .

٢ الحيوان للجاحظ (٢/٣١٧) ، (التعاير بأكل لحم الغراب) .

٣ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٢٥٨) .

٤ الحيوان ، للجاحظ (٢/٣١٤ وما بعدها) .

٥ تاج العروس (٣/٤٢٨) ، (عور) .

٦ الحيوان ، للجاحظ (٢/٣١٥) ، حياة الحيوان ، للدميرى (٢/٢٤٦) .

٧ حياة الحيوان ، للدميري (٢/٢٤٥ ، ٢٥٥) .

ونسب الى المرقش السّدوسي ، ذكر الغراب في شعره ، إذ قيل انه قال :

ولقـد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
واذا الأشائـم كالأيـا مين ، والأيامنُ كالأشائم[1]

ويبين هذان البيتان رأي هذا الشاعر في التيامن والتشاؤم .

وكان العرب اذا أرادوا ان يصفوا أرضاً بالخصب والسواد ، قالوا : وقعوا في أرض لا يطير غرابها ، فهذا يعني ان الأرض كلها خصبة مزروعة سوداء ، لا ترى فيها قطعة بيضاء ، ولا ترى إلا الزرع والخيرات والثمر . واذا أرادوا التعبير عن انتقال مرحلة الشباب إلى مرحلة الشيخوخة ، وعن التهام الشيب لسواد الرأس : قيل : طار غراب البين[2] .

وقد يكون في جملة أسباب تشاؤم العرب من الغراب، انه كان يضر بإبلهم . فهم يذكرون انه اذا وجد دبرة في ظهر البعير ، أو قرحة في عنقه ، سقط عليها ونقره وعقره . ولذلك كانوا اذا رأوا دبرة بظهر البعير ، غرزوا في سنامه إما قوادم ريش أسود ، وإما خرقاً سوداً ، لتفزع الغربان فلا تقترب منه ولا تسقط عليه . وقد يضعون الريش في اسنمتها وتغرز فيها[3] . والعرب تسمي الغراب لذلك (ابن دأية) ، لأنه ينقر دبرة البعير أو قرحة عنقه ، حتى يبلغ الى دايات العنق وما اتصل بها من خرزات الصُّلب ، وفقار الظهر[4] .

والغراب من الطيور التي ورد ذكرها في التوراة . والعبرانيون مثـل العرب اعتقدوا بالطيرة منه ، أي بتأثير حركاته وسكناته في احداث الفأل والشؤم[5] .

وقد ذكر (الجاحظ) جريدة بأسماء الجهات التي يقف عليهـا (الغراب) فينعب ، وما سيقع من وقفته تلك ومن نعيبه ، وما يجب أن يفعله أو يتجنبـه

---

١ المعاني (١١٨٧/٣) .
٢ تاج العروس (٤٠٧/١) .
٣ الحيوان ، للجاحظ (٤١٦/٣ وما بعدها) ، (هارون) .
٤ الحيوان (٤١٥/٣ ، ٤٣٩) ، (هارون) .
٥ الملـوك الاول ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ٦ ، التـكوين ، الاصحاح الثامن ، الآية ٧ ، Ency. Religi., 4, p. 808.

الانسان في هـــذه الحالات . كما ذكر أموراً أخرى تخص التطير أو التفاؤل من أصوات الحيوانات أو من رؤيتها [1] .

وكان (أمية بن أبـي الصلت) ممن يتطير من الغراب ، ويذكر أهل الأخبار أنه بينا كان يشرب مع اخوان له في قصر (عيلان) بالطائف ، إذ سقط غراب على شرفة القصر ، فنعب نعبة ، فقال أمية : « بفيك الكثكث » ، أي التراب وتشاءم منه ، وقد مات فعلاً في مكانه بعد نعيبه للمرة الثالثة [2] .

وفي شعر أمية قوله :

بآية قام ينطق كـــل شيء وخان أمانة الديك الغرابُ

وذلك أن من أحاديث العرب ، أن الديك كان نديمـاً للغراب ، وأنهما شربا الخمر عند خمّار ولم يعطياه شيئـاً ، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب ، ورهن الديك ، فخاس به ، فبقي محبوساً . وأن نوحاً حين بقي في اللجـة أياماً بعث الغراب ، فوقع على جيفة ولم يرجع ، ثم بعث الحمامة لتنظر هـل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مرفأ ، واستجعلت على نوح الطوق الذي في عنقها ، فرشاها بذلك . وفي جميع ذلك وغيره قال (أمية) ذلك البيت وأبياتاً أخرى ، تطرق فيها الى قصص اسرائيلي آخر ، أخذ علمه به من أهل الكتاب . « فقـد كان داهية من دواهي ثقيف ، وثقيف من دهاة العرب ، وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنه قد كان همّ بادعاء النبوة ، وهو يعلم كيف الخصال التي يكون الرجل بها نبياً أو متنبياً اذا اجتمعت له ، نعم وحتى ترشح لـــذلك بطلب الروايات ، ودرس الكتب ، وقد بان عند العرب علاّمة ، ومعروفاً بالجولان في البـــلاد ، رواية » [3] .

ومن رأي العرب ان الغراب لا يشيب ، وضربوا به المثل في ذلك ، فقالوا : « حتى يشيب الغراب ويبيضّ القار » ، ضربوا به مثلاً في الاستمرار على العمل

---

١ نهاية الارب (٣/١٣٤ وما بعدها) .

٢ نهاية الارب (٣/١٣٩) ، حياة الحيوان (٢/١٧٣) ، الحيوان (٣/١٣١) .

٣ الحيوان (٢/٣٢٠) .

وعدم الملل من شيء[1] . ويقولون : ذهب الغراب يتعلم مشي العصفور أو القطاة، فلم يتعلمها ، ونسي مشيته . فلذلك صار يحجل ولا يقفز قفزان العصفور ، أو مشية القطاة[2] .

والبوم من الطيور التي يتشاءم منها بعض الناس ، ولعل ذلك بسبب منظرها الكئيب ولصوتها الحزين وظهورها في الليل ، والليل هو رمز الشر . ويدل وصفها بـ (أم الخراب) و (أم الصبيان) على النظرة السيئة التي كان يراها العرب لها[3] . ويقال إن من أنواعها الصدى والهامة . ولعل اعتقادهم ان الصدى والهامة أو ذكر البوم منها ، هي روح الميت المرفرفة على القبر هو الذي حمل أولئك المتشائمين على التشاؤم منها .

والعاطوس ، وهي سمكة في البحر أو دابة من الحيوانات التي كان العرب يتشاءمون منها[4] . وكذلك (الأخيل) وهو (الشقراق) ، « يتطيرون منه ، ويسمونه مقطع الظهور : يقال اذا وقع على بعير ، وان كان سالماً يئسوا منه ، واذا لقي المسافر الأخيل تطير وأيقن بالعقر إن لم يكن موت في الظهر »[5] . وهم يتشاءمون من الثور الأعضب أي المكسور القرن[6] . ويتشاءمون من (العراقيب) ، الشقراق . وتقول العرب : اذا وقع الأخيل على البعير ليكشفن عرقوباه . وقيل: كل طائر يتطير منه للإبل ، فهو طير عرقوب لأنه يعرقبها[7] .

ويتطيرون بالصرد ، ومن أسمائه الأخطب،ويقال (الأخيل) كذلك . و(الواق) أيضاً الصرد[8] . ويتشاءمون من (الأفكل) ، وهو الشقران ، فإذا عرض لهم كرهوه وفزعوا منه وارتعدوا[9] .

---

١ اللسان (٦٢٩/١١) ، الحيوان (١٣١/٣) ، حياة الحيوان (١٧٧/٢) .
٢ الحيوان (٣٢٥/٤) .
٣ حياة الحيوان (١٨١/١ وما بعدها) .
٤ قال طرفة بن العبد :
لعمري لقد مرت عواطيس جمة ومر قبيل الصبح ظبي مصمع
تاج العروس (١٩٢/٤) ، حياة الحيوان ، للدميرى (١٢١/٢ ، ٢٢١) ، العمدة (٢٦٠/٢) ، اللسان (١٤٢/٦) .
٥ بلوغ الارب (٣٣٧/٢) ، البرقوقي (٣٤٨) ، ديوان حسان (ص 22) «هرشفلد» .
٦ بلوغ الارب (٣٣٨/٢) ، العمدة (٢٦٢/٢) .
٧ تاج العروس (٣٧٨/١) ، (عرقب) .
٨ العمدة (٢٦١/٢) .
٩ تاج العروس (٦٥/٨) ، (افتكل) .

والثعلب والأرنب من الحيوانات التي استعان بها الزاجر ، في الزجر[1] . والواقع أن أهل الزجر قد توسعوا في علمهم حتى شمل كل المخلوقات ، فحركات الإبل والخيل وسكناتها كلها ذات معان ومفاهيم يعرفها المشتغلون بالطيرة ، وكانوا يستعينون بغيرها من الحيوانات .

وقد ذكر بعض الأخباريين أن العرب تتشاءم من الأفراس بالأشقر[2] . وذكروا أيضاً أنها تطيرت من : « المرأة ، والدار ، والفرس » . وفي الحديث : « إن كان الشؤم ، ففي الدار والمرأة والفرس »[3] . وورد : « إنما الشؤم في ثلاثة : في الفرس والمرأة والدار » . وذكر أن (عائشة) ، قالت : « وإنما قال : ان أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك » ، أي ان الرسول انما قال ذلك حكاية عن أهل الجاهلية فقط[4] .

وكما يتغلب الانسان على الأمراض بالأدوية والعلاج ، كذلك يمكن التغلب على النحس وشؤم ناصية المرأة وعتبة الدار بالذبائح في بعض الأحيان ، ولهذا جرت العادة بذبح ذبيحة أو عدة ذبائح عند زفاف العروس إلى بعلها ووصولها عتبة بيته طرداً للأرواح الشريرة وإرضاء لها ، كما جرت العادة بذبح الذبائح حين الانتقال إلى دار جديدة ، أو حين الشعور بوجود أرواح فيها ، ويقال لهذه الذبائح (ذبائح الجان)[5] .

وقد ابتدع الجاهليون طرقاً لإبعاد الطيرة من تفكيرهم ، من ذلك انهم تجاهلوا بقدر إمكانهم ، المسميات التي تبعث على التشاؤم بتسميتها بضدها من الكلمات التي لا يتشاءم منها ، فسمّوا اللديغ بالسليم ، والبرية بالمفازة ، وكنّوا الأعمى أبا بصير والأعور ممتعاً ، والأسود أبا البيضاء ، وسمّوا الغرب بحاتم ، وذلك لتشاؤمهم من الغراب[6] . والتسمية بالأضداد لدفع الطيرة عن الأذهان ، ليست عادة جاهلية حسب ، انما هي معروفة في الاسلام كذلك . كما انها معروفة عند غير العرب من الأمم قديماً وحديثاً .

---

١ Reste, S. 202.

٢ مجمع الامثال (٢/٨٦) .

٣ « لا عدوى ولا طيرة ، انما الشؤم في ثلاث في الفرس والمرأة والدار » ، جامع الاصول (٨/٣٩٦) ، عمدة القارىء (٢١/٢٨٩) .

٤ القسطلاني ، ارشاد (٥/٧٣ وما بعدها) .

٥ تاج العروس (٢/١٣٨) .

٦ الحيوان (٣/٤٣٩) ، « عبد السلام هارون » ، بلوغ الارب (٢/٣٣٨ وما بعدها) .

التثاؤب والعطاس :

ويدخل في الطيرة بعض ما يصدر من الانسان والحيوان من حركات ، مثل التثاؤب والعطاس . والتثاؤب عمل من أعمال الشيطان . وأما العطاس ، فقد كان أثره في ايجاد الشؤم شديداً ، وهو من العادات الجاهلية المذكورة في الشعر المنسوب الى الجاهليين . ذكر ان امرأ القيس قال :

وقد اغتدي قبل العطاس بهيكل   شديد منيع الجَنْب نعم المنطّق

وانه أراد بذلك انه كان يتنبه للصيد قبل ان يتنبه الناس من نومهم، لئلا يسمع عطاساً فيتشاءم بعطاسه[1] .

وقيل ان العرب كانت تتطير منه ، فإذا عطس العاطس ، قالوا : قد ألجمه ، كأنها قد تلجمه عن حاجته[2] .

ويقال الكدسة لعطسة البهائم . وقد تقال لعطسة الإنسان . والكادس ما يتطير به من الفال والعطاس وغيرهما . وقيل الكادس : القعيد من الظباء ، وهو الذي يجيء من خلفك ، ويتشاءم به ، كما يتشاءم بالبارح[3] .

والعطاس فضلاً عن ذلك دواء في نظر أهل الجاهلية ، لذلك كانوا يتجنبونه بقدر إمكانهم ، ويحاولون جهـــدهم حبسه وكتمه . فإذا عطس أحدهم وكان وضيعاً مغموراً أسمعوه كلاماً مراً فيه رد للشؤم على صاحب العطاس ، كأن يقولوا له : « ورياً وقحاباً » . والوري هو داء يصيب الكبد فيفسدها ، والقحاب هو السعال ، أو : « بك لا بي : أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا بي » . أما إذا كان العاطس معروفاً محبوباً شريفاً ، قالوا له : « عمراً وشباباً » . وكلما كانت العطسة شديدة كان التشاؤم منها أشد[4] .ويقال للدعاء على العاطس (التشميت) و (التسميت)[5] .

---

١ العمده (٢/٢٦٠) ، ارشاد الساري (٩/١٢٥ وما بعدها) .
٢ المعاني الكبير (٣/١١٨٥) .
٣ تاج العروس (٤/٢٣٠) ، (كدس) .
٤ المعاني الكبير (٢/١٠١٥) ، بلوغ الأرب (٢/٣٣٢) .
٥ اللسان (٢/٣٥٧) ، تاج العروس (١/٥٥٩) ، « شمت » .

وقد نهى الإسلام عن التشاؤم بالعطاس ، وعكسه ، فجعله محبوباً ، بحديث: « إن الله يحب العطاس ، ويكره التثاؤب »[1] .

واذا مات رجل قالوا : عطس الرجل ، و (عطست به اللُجم)، واللجمة ما تطيرت منه ، ويقال للموت : لجم عطوس[2] .

بعض من أنكر الطيرة :

وكان بين الجاهليين أناس أنكروا الطيرة ، ولم يحفلوا بها . منهم المرقش من بني سدوس ، حيث قال :

إني غدوت وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتم
فـاذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم
فكذاك لا خـير ولا شرّ على أحد بدائم[3]

وممن كان ينكر الطيرة ويوصي بذلك ، سلامة بن جندل ، والحارث بن حلزة . ونجد الشاعر (الخُثيم بن عدي) يمدح (مسعود بن بحر الزهري) ، بقوله :

وليس بهيّاب اذا شد رحله يقول عداني اليومَ واق وحاتم
ولكنه يمضي عـلى ذاك مقدماً إذا صدّ عن تلك الهنات الخثارم

فهو يمدحه ، ويقول إن ممدوحه لم يكن من الخثـارم ، أي المتطيرين ، بل كان اذا أراد أن يمضي أمراً ، صد عن تلك الهنات ، فلا يحفل بواق وحاتم[4] .

وكان النابغة من المتطيرين ، خرج مع (زبّان بن سيـار) يريدان الغزو ، فبينما هما يريدان الرحلة ، إذ نظر النابغة واذا على ثوبه جرادة تجرد ذات ألوان، فتطيّر وقال : غيري الذي خرج في هذا الوجه ! فلما رجع زبّان من تلك الغزوة سالماً . أنشأ يذكر شأن النابغة ، فقال :

---

١ جامع الاصول (٧/٣٩٦ وما بعدها) .
٢ اللسان (٦/١٤٢) .
٣ الحيوان (٣/٤٣٦ ، ٤٤٩) ، (هارون) .
٤ الحيوان (٣/٤٣٧) ، (هارون) .

تخبّر طيره فيها زيادٌ لتخبره وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد أشار له بحكمته مُشير
تعلّم أنه لا طير إلا على متطيّر وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحاييناً وباطله كثير [1]

واسم النابغة زياد [2] .

وهناك نوع آخر من التنبؤ يقال له في الانكليزية « Hepatscopy » ، ويراد به استخراج الغيب من دراسة كبد الأضاحي التي تقدم الى الآلهة . وقد اشتهر به الكلدانيون على الأخص،وتوسعوا فيه فشمل أيضاً قراءة الرئة أو بقية الأحشاء . وكان معروفاً أيضاً عند العبرانيين واليونان والرومان والمصريين وغيرهم [3] . وللكبد أهمية خاصة عند العرب ، وهو في نظرهم معدن العداوة ومقر الحقد ، لذلك يقال للأعداء : سود الأكباد ، لأن الحقد قد أحرق أكبادهم حتى اسودت [4] .

وقد تشاءموا من بعض الأيام ، مثل (الأيام النحسات) . وهي كل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر ، مثل أربع خلون ، وأربع وعشرين ، وأربع بقين . كما تشاءموا من بعض الشهور ، مثل شهر شوّال ، ولذلك كرهت التزوج فيه [5] . وورد يوم نحس و (أيام نحسات) ، وهي المشؤومات . والعرب تسمي الريح الباردة إذا دَبرت نحساً . والنحس : الجهد والضر ، وخلاف السعد من النجوم وغيرها [6] . وقد كان أهل نجد يتيمنون بالسانح ، ويتشاءمون بالبارح ، ويخالفهم أهل العالية ، فيتشاءمون بالسانح ، ويتيمنون بالبارح [7] .

ويدخل في هذه الأيام تشاؤم بعض الجاهليين من يوم معين وتفاؤلهم من يوم آخر . فيكون يوم التشاؤم يوم بؤس ، يغضب فيه من يتشاءم منه على كل من يراه أول مرة أو في ذلك النهار ، وقد يلحق بـه سوءاً كالذي روي من قصة

---

١ الحيوان (٣/٤٤٧) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٥/٥٥٥) ، (هارون) .
٣ Ency. Religi., 4, p. 808, Hastings, p. 568, Diodorus Sici., II, p. 29.
٤ اللسان (٤/٣٧٨) .
٥ مروج الذهب (٢/١٠٨ وما بعدها) .
٦ اللسان (٦/٢٢٧) .
٧ العمدة (٢/٢٦٣) .

(يومي البؤس والنعيم) عند (المنذر بن ماء السماء) أو (النعمان بن المنذر)[1] . ويكون يوم التفاؤل (يوم نعيم) يفرح فيه صاحبه ويهش لكل من يراه ولا سيما لأول قادم عليه . وعبر عنهما بـ (يوم بؤس) و (يوم نُعم)[2] .

وكانت العرب تتشاءم من كلبة يقال لها (براقش)[3] .

١

الفأل :

والفأل ضد التشاؤم والطيرة . ويكون برؤية شيء أو سماع أمر أو قول أو غير ذلك يُتفاءلُ منه ، كأن يسمع مريض رجلاً يقول يا سالم فيقع في ظنه انه يبرأ من مرضه ، أو يسمع طالب حاجة رجلاً يقول يا واجد فيخال انه يجد ضالته ، فيتوقع صحة هذه البشرى ، ويقال لذلك في الانكليزية Omen . وهو معروف عند العبرانيين وقد ذكر في التوراة[4] .

وأصل كلمة (الفأل) على ما يظهر للتشاؤم والتفاؤل ، أي انها كالطيرة أريد بها الحالتان ، ثم تخصصت بالحسن ، كما تخصصت الطيرة بالشؤم[5] . وقد نهي في الحديث عن الطيرة . أما الفأل ، فقد ورد ان الرسول كان يتفاءل ولا يتطير لما في التفاؤل من أثر طيب في أعمال الانسان[6] .

وضد (الشؤم) (اليمن) ، ومن معاني اليمن (البركة) ، و (الميامين) على نقيض (المشائم) ، و (الميمون) ضد (المشؤوم)[7] . وورد (ميمون النقيبة)[8] و (ميمون الناصية) . ويلاحظ ان للناصية علاقة متينة بالشؤم والتيمن ، فكما يقال (ميمون الناصية) قيل (شؤم الناصية) كذلك ، وهي كناية عن الانسان . فقد كان في رأيهم ان من الناس من هم شؤم ، ويجلبون الشؤم على من يراهم،

---

١ البلدان (٦/٢٨٣ وما بعدها) ، الأغاني (٥/٢١٣) ، ابن قتيبة : الشعر (١٤٤) ، القالي ، الامالي (٣/١٩٥) .

٢ اللسان (١٢/٥٧٩) .

٣ الحيوان (٥/٤٥٤) ، (هارون) .

٤ جامع الاصول (٨/٤٦٧) ، « كتاب الطيرة » ، اللسان (١٤/٢٧) ، ارشاد الساري (٨/٣٩٧) ، Ency., II, p. 46, Reste, S. 203. ff.

٥ في الحديث « أصدق الطيرة الفأل » ، النهاية (٣/١٩٥) .

٦ النهاية (٣/١٩٥) ، جامع الاصول (٨/٤٦٧) .

٧ تاج العروس (٩/٣٧١) .

٨ تاج العروس (١٠/٤٩١) .

وان منهم من تجلب رؤيته الخير لمن يراه . ويكون للحسن والقبح ولسياء الوجه والجسم دخل كبير في تكوين رأي عن الشخص الذي يُتشاءم أو يُتفاءل منه . وقد قلت إن بعض العاهات التي تكون في بعض الناس ، تجعل غيرهم يتشاءمون منهم عند وقوع نظرهم عليهم في الصباح .

وهناك كلمات عديدة في التشاؤم و (الشؤم) ، مثل (شائم) و (شؤم) و (مشؤوم) و (مشوم) و (مشائيم) و (تشاءموا) ، و (الأشأم) وأمثال ذلك[1] .

ولا يقتصر استعمال هذه الألفاظ على جنسٍ معين ، بل تقال لكل ما يجلب الشؤم على الانسان . فمن البشر – كما قلت – من هم شؤم على غيرهم ، يجلبون الشرّ لمن يتشاءم منهم ، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال . ولما كان التشاؤم قضية اعتبارية تتعلق بالنفس والمزاج ، كان بعض الأشخاص أو الحيوانات أو الأشياء شؤماً عند ناس ، بينما هم ليسوا كذلك عند جماعة آخرين . ولكن الغالب أن التشاؤم من الأشياء القبيحة أو الناقصة أو الراعبة وما شابه ذلك ، فهذه المزعجات تؤثر على النفس ، فتجعلها تتشاءم منها ، وتتوقع حدوث النحس من رؤيتها ، ولا سيما في الصباح ، وعند الهمّ بالشروع في عمل مهم .

وكانوا يحبون أن يأتوا أعداءهم من شق اليمين[2] . يتفاءلون بذلك . لأن في اليمين اليمن ، وفي اليسار العسر .

وللأسماء والكلمات أثرها في الفأل وفي الطيرة ، فالأسماء الحسنة الجميلة تبعث على التفاؤل ، أما الأسماء الخبيثة والرديئة فإنها تولّد التشاؤم . وقد عرف هذا النوع من التفاؤل في الإسلام ، ولم ينه عنه . بل قيل ان الرسول كان يتأثر من الأسماء ، وكان يقول إذا أعجبته كلمة : « أخذنا فألك من فيك » ، وانه يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع : يا راشد ، يا نجيح ، وأنه قال : « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل »[3] .

وللطيرة سمت العربُ المنهوش السليم ، والبرّية المفازة ، وكنّوا الأعمى أبا بصير ،

---

١ تاج العروس (٨/٣٥٤) .
٢ الحيوان (٥/٥١٦) ، (هارون) .
٣ جامع الاصول (٨/٣٩٤) .

والأسود أبا البيضاء ، وسمّوا الغراب بحاتم ، إذ كان يحتّم الزجر به على الأمور[1] .

وورد ان العرب اذا تطيروا من الانسان وغيره قالوا : صباح الله لا صباحك[2] .

ولإيمان العرب بباب الطيرة والفأل عقدوا الرتائم ، وعشروا اذا دخلوا القرى تعشير الحمار ، واستعملوا في القداح الآمر ، والناهي ، والمتربص ، وهن غير قداح الأيسار[3] .

ومن أبواب الفراسة النظر إلى خطوط الكف للاستدلال بها على طبيعة صاحب الكف وعلى ما سيحدث له من أحداث . وقد أشار الى الكف والى أسرارها الأعشى في قوله :

أنظر الى كفٍ وأسرارها   هل أنت ، إن أوعدتني ، ضائري[4] ؟

ولمراقبة الكلف الذي يظهر على وجه القمر ودراسة النجوم والظواهر الطبيعية التي تحدث للأجرام السماوية كالكسوف والخسوف ، أهمية كبيرة في التكهن . وقد كان الجاهليون يعتقدون ان للكسوف والخسوف أثراً في حياة الانسان ، فاذا وقعا دلا على موت انسان عظيم أو حياته ، أو ولادة مولود صاحب حظ كبير[5] . وكذلك كان رأيهم في تساقط النجوم . وقد أشير اليه في أشعار القدماء من الجاهلية ، منهم عوف بن الجزع وأوس بن حجر وبشر بن أبي خازم[6] .

وقد كان في زعم الكهان من صنف المنجمين أن في استطاعتهم التأثير في الأجرام السماوية وفي احداث الضباب والأمطار والعواصف والرياح ، وقد نهي عن التصديق بها في الاسلام ، لتعارضها مع الايمان بسيطرة الله وهيمنته وحده على الكون .

وكان للجاهليين اعتقاد بأثر فعل النجوم في الانسان ، ولهذا كانوا يراقبون السماء لتفسير ما يرون فيه من تساقط نجوم ، ومن أخبار الشياطين عما يستمعون اليه من وحي السماء . وذكر أنهم كانوا يفزعون إذا تساقطت الشهب بكثرة غير

---

١ الحيوان ٣(٤٣٩/٣) ، (هارون) ، (٢٥٣/٤) .
٢ اللسان (٥٠٢/٢) .
٣ الحيوان (٤٤٠/٣) ، (هارون) .
٤ المعاني الكبير (١١٨٥/٣) .
٥ اللسان (٢٠٨/١١) ، الروض الانف ١٣٥/١) .
٦ الروض الانف(١٣٥/١) .

معهودة . وقد حدث أن تساقطت النجوم بكثرة ففزعوا وجزعوا وقالوا : « هلك من في السماء . فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً ، وصاحب البقر يذبح كل يوم بقرة ، وصاحب الغنم كل يوم شاة حتى أسرعوا في اتلاف أموالهم . فقالت ثقيف بعد سؤال كاهنهم .. امسكوا عن أموالكم ، فإنه لم يمت من في السماء . ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هي . والشمس والقمر كذلك »[1] . فكأنهم تصوروا أن تساقط النجوم هذا بكثرة معناه اختلال نظام السماء وموت من فيه ، واحتمال فناء العالم تبعاً لذلك .

وكانوا إذا خافوا من شيء وأرادوا الاستعاذة ، كأن يكون الانسان مسافراً فرأى من يخافه قال : حجراً محجوراً ، أي حرام عليك التعرض بي . وقد ترك هذا الاستعمال في الاسلام[2] .

وقد ورد الحديث في النهي عن التطير . جاء : « الطيرة شرك . ولكن الله يذهبه بالتوكل »[3] .

---

١ السيرة الحلبية (١/١٤١ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (٩٣) .
٣ جامع الاصول (٨/٤٦٧) . « كتاب الطيرة » ، سنن أبي داورد (٤/١٧ وما بعدها) ، « باب في الطيرة » ، عمدة القارىء (٢١/٢٧٣) ، « باب الطيرة » ، اللسان (١٠/٤٥٠) ، (شرك) .

الفصل السابع والثمانون

من عادات وأساطير الجاهليين

ولأهل الجاهلية عادات وأساطير كثيرة ، وقد اختص العرب بقسم منها ، أما القسم الثاني فهو عام معروف ، عرف عند الساميين والعجم ، وهي مما يقال له (الشعبيات) أو (الفولكلوريات) في مصطلح الافرنج لهذا العهد .

فمن ذلك ما كانوا يفعلونه في أسفارهم إذ كان أحدهم اذا خرج الى سفر عمد الى شجرة من (الرتم) ، فعقد غصناً منهـا ، فاذا عاد من سفره ووجده قد انحلّ ، قال : قد خانتني امرأتي ، وإن وجده على حالته قال لم تخني[1] . ويقال لذلك العقد (الرتم) و (الرتمة) . وذكر ان الرجل منهم كان اذا سافر عمد الى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها ، فاذا عاد نظر الى ذلك الخيط ، فان وجده بحاله علم ان زوجته لم تخنه ، وإن لم يجده أو وجده محلولاً قال : قد خانتني . ويقال : بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن الشجر بطرف غصن آخر[2].

وتستعمل (الرتمة) لتذكير الانسان بشيء ، يستعملها من يكثر نسيانه . وهي خيط يعقد في الاصبع للتذكير . وقد يعقد على الخاتم[3] .

ومن اعتقادهم في السفر ان من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره .

---

١ المستطرف (٢/٧٨) .

٢ بلوغ الارب (٢/٣١٦ وما بعدها) ، نهاية الارب (٣/١٢٥) ، اللسان (١٥/١١٦) ، صبح الاعشى (١/٤٠٨) .

٣ تاج العروس (٨/٣٠٣) ، (رتم) .

فان التفت تطير ، وفسره بالعودة . فلذلك لا يلتفت إلا العاشق الذي يريد العود[1].

ومنها التصفيق : كانوا اذا ضل الرجل منهم في الفلاة ، قلب ثيابه ، وحبس ناقته ، وصاح في أذنها كأنه يومىء الى انسان ، وصفق بيديه : الوحا الوحا ، النجا النجا ، هيكل ، الساعة الساعة ، إليّ إليّ ، عجّل ، ثم يحرك الناقة فيهتدي . قال الشاعر :

وأذن بالتصفيق من ساء ظنه فلم يدرِ من أي اليدين جوابها[2]

وذكر انه كان يقلب قيصه ويصفق بيديه كأنه يومىء بهما الى انسان فيهتدي[3].

وكان أحدهم اذا أراد دخول قرية ، فخاف وباءها أو جنّها ، وقف على بابها قبل ان يدخلها ، فنهق نهيق الحمار ، ثم علق عليه كعب أرنب ، كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن . ويسمون هذا النهيق التعشير .

وروي ان (عروة بن الورد) خرج الى (خيبر) ليمتار ، فلما قربوا منها، عَشّرَ من معه ، وعاف (عروة) أن يفعل فعلهم . فيقال : إن رفقته مرضوا، ومات بعضهم ، ونجا (عروة) من الموت والمرض[4] .

وكان مسافرهم إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل ، عمد الى وادٍ ذي شجر ، فأناخ راحلته في قرارته ، وهي القاع المستديرة، وعقلها ، وخط عليها خطاً ، ثم قال : أعوذ بصاحب هذا الوادي[5] . والى ذلك أشار القرآن «وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً»[6]. وذكر أنهم كانوا إذا نزلوا الوادي ، قالوا : نعوذ بسيّد هذا الوادي من شر ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعاً[7] .

ومن عادات بعض العرب أنهم إذا خافوا شر إنسان وأرادوا عدم عودته اليهم، أوقدوا خلفه ناراً ، إذا تحول عنهم ، ليتحول ضبعه معه ، أي شره . وكانوا يقولون : أبعد الله دار فلان وأوقد ناراً اثره ، والمعنى لارجعه الله ولارده[8] .

---

١ المسنطرف (٢/٨٠) ، بلوغ الارب (٢/٣٢٨) .
٢ نهاية الارب (٣/١٢٢) ، صبح الاعشى ١/٤٠٥) .
٣ المسنطرف (٢/٨٠) ، بلوغ الارب (٢/٣١٦) .
٤ بلوغ الارب (٢/٣١٥ وما بعدها) .
٥ بلوغ الارب (٢/٣٢٥) .
٦ الجن ، الآية ٦ .
٧ تفسير الطبري (٢٩/٦٨) .
٨ اللسان (٣/٤٦٦) ، (وقد) .

وإذا غاب انسان ، فلم يقفوا على أثره ، ففي الوسع الاهتداء اليه، وذلك بأن يذهبوا الى بئر قديمة أو حفر تديم ، ثم ينادوا في البئر أو الحفر اسم الغائب ثلاث مرات ، فإن سمعوا صوتاً علموا أنه حي معافى ، وإن لم يسمعوا شيئاً علموا أنه قد مات [1] .

وإذا أرادوا ضمان عدم رجوع الثقلاء ومن لا يرغب في عودتهم ، فإن الثقيل اذا غادر المحل ، عمد صاحب البيت والمكان الى كسر شيء من الأواني أو رمى حجراً خلفه ، وفي ذلك ضمان بألا يعود[2] .

ومن خرافاتهم أن أحدهم كان إذا اشترى داراً أو استخرج ماء عين أو بنى بنياناً وما أشبهه ، ذبح ذبيحة للطيرة . وقد عرفت عندهم بـ (ذبائح الجن) . وكانوا يفعلون ذلك مخافة أن تصيبهم الجن وتؤذيهم . وقد نهي في الإسلام عن ذبائح الجن[3] .

وأوجدوا لدوام الحب علاجاً ، هو شق الرداء والبرقع . زعموا أن المرأة إذا أحبت رجلاً أو أحبها ثم لم تشق عليه رداءه ، ويشق عليها برقعها ، فسد حبهما، فإذا فُعل ذلك دام حبهما [4] .

وإذا صعب على المرأة العثور على خاطب لها ، فإن في الإمكان تيسير ذلك بنشر جانب من شعرها ، وتكحيل إحدى عينيها ، وتحجيل احدى رجليها، ويكون ذلك ليلاً ، ثم تقول : « يا لكاح ، أبغي النكاح ، قبل الصباح » ، فيسهل أمرها ، وتتزوج عن قريب[5] .

ومن آرائهم أن الرجل منهم اذا عشق ولم يسل وأفرط عليه العشق ، حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبي : وقام آخر فأحمى حديدة أو ميلاً وكوى به بين إليتيه فيذهب عشقه [6] .

ولدوام الحب بين الرجل والمرأة ، يشق الرجل برقع من يحبها وتشق المرأة رداءه ، فيصلح حبهما ويدوم ، فإن لم يفعلا ذلك فسد حبهما [7] .

---

١ بلوغ الارب (٣/٣ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٣٠) .
٣ اللسان (٢/٤٣٧) ، (ذبح) ، ثمار القلوب (ص ٦٩) .
٤ نهاية الارب (٣/١٢٦) .
٥ بلوغ الارب (٢/٣٣٠) .
٦ بلوغ الارب (٢/٣٢١) .
٧ بلوغ الارب (٢/٣٢٢) .

واذا غاب عن النساء من يحبينه أخذن تراباً ،
ليرجع سريعاً[1] .

واذا أرادت المقلاة ان يعيش ولدها ، ففي
الشريف سبع مرات ، وعندئذ يعيش ولدها . وا:
يقتل غدراً . وقد ذكر ذلك في شعر لبشر بن أبي

ومن عقائدهم ان صاحب الفرس المهقوع اذا ركبه
وطمحت الى غيره . والهقعة : دائرة تكون بالفرس .
في الأكثر[3] .

وكان الصبي اذا بثرت شفته ، حمل منخلاً على رأسه ونادى بـ
« الحلاء الحلاء ، الطعام الطعام » فتلقي له النساء كسر الخبز والتمر واللحم في المنخل ، ثم يلقى ذلك للكلاب ، فتأكله فيبرأ من المرض فان أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب تمرة أو لقمة ، بثرت شفته[4] .

وتعالج (الخطفة) و (النظرة) عند الصبيان بتعليق سن ثعلب ، أو سن هرة على الصبي ، فان تلك الأسنان تهرّب الجن . ويهربها كذلك تنقيط شيء من صمغ (السمرة) (حيض السمرة) ، وهي شجرة من شجر الطلع ، بين عيني النُّفَساء ، وخط شيء منه على وجه الصبي خطاً ، فلا تجرؤ الجنية على التقرب من الصبي ، ويقال لذلك (النفرات) . فاذا قال لها صواحباتها في ذلك ، قالت :

كانت عليه نفرهْ ثعالب وهررهْ
والحيض حيض السمرهْ

ومن عاداتهم في إبعاد الجن عن الصبيان ، تنفير المولود ، وذلك ان يسميه باسم غريب منفر ، فينفر الجن منه ، ولا يتقربون منه[6] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٣٣٩ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣١٧ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٢٣) .
٤ بلوغ الارب (٢/٣٢٨) .
٥ نهاية الارب (٣/١٢٤) ، بلوغ الارب (٢/٣٢٥) ، تاج العروس (٣/٥٧٨ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (٢/٣٢٥) .

وعادة أخذ الغلام اذا ثغر ، السن الساقط ووضعه اياه بين السبابة والإبهام ، واستقبال الشمس ، وقذف السن في عينها ، لا تزال معروفة حتى الآن ، وهم يقولون في ذلك : « ابدليني بسن أحسن منها ، ولتجرِ في ظلمها إياتك »[1] ، أو « أبدليني أحسن منها ، أمن على أسنانه العوج ، والفلج ، والثَّعَل » . قال طرفة :

بدلته الشمس من منبته بردا أبيضَ مصقولَ الأُشَر[2]

واعتقد قوم منهم ان من ولد في القمراء ، تقلصت غرلته ، فكان كالمختون[3] . واعتقدوا ان طول الغرلة من تمام الخلقة وأقرب ما يكون الى السؤدد[4] .

ومن عقائدهم ، أن المولود إذا ولد يتناً ، كان ذلك علامة سوءٍ ، ودليلاً على الفساد . واليتن خروج رجل المولود قبلَ رأسه[5] .

ومن عقائدهم ان الرجل كان اذا ظهرت فيه القوباء عالجها بالريق ، واذا أصيب او أصيبت دابته بالنملة ، وخط عليها ابن المجوسي اذا كان من اختته تبرأ وتنصلح وترأب[6] .

وزعموا أن من أصيب بـ (الهُدَبِد) ، وهو (العَشَا) يكون في العين ، عمد الى سنام فقطع منه قطعة ، ومن الكبد قطعة ، وقلاهما ، وقال عند كل لقمة يأكلها بعد أن يمسح جفنه الأعلى بسبابته :

فيا سناماً وكَبِدْ ألا اذْهَبا بالهُدَبِدْ
ليس شفاء الهدبد إلا السنام والكبد

ويزعمون أن ذلك يذهب بالعشا بذلك[7] .

وقد زعم الجاهليون أن الطاعون الذي كان يقع كثيراً في الجاهلية فيحصد الناس

---

١ بلوغ الارب (٢/٣١٨) .
٢ نهاية الارب (٣/١٢٢) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٣١) .
٤ تاج العروس (٨/٤١) ، (غرل) ، بلوغ الارب (٢/٣٣١) .
٥ الحيوان (١/٢٨٦) ، (هارون) .
٦ بلوغ الارب (٢/٣٢٩) ، وتعرف (القوباء) بـ (كوباية) بلغة العامة لهذا العهد .
٧ انه لا يبرىء داء الهدبد مثل القلايا من سنام وكبد
تاج العروس (٢/٥٤٥) ، (الهدبد) ، بلوغ الارب (٢/٣٤٠) .

حصداً ، هو من وخز الجنّ،وأنه من فعلهم في الإنسان ودعوه (رماح الجن)، وذكر ذلك في الشعر فقال أحد الشعراء :

لعمرك ما خشيت على عديّ رماح بني مقيدة الحمار
ولكني خشيت على (عديّ) رماح الجن أو إياك جار[1]

وكانوا يرون أن أكل لحوم السباع يزيد في الشجاعة والقوة[2] .

وفي حركات الإنسان دليل ومعان تنبيء عن أشياء . فإذا اختلجت العين دل، ذلك على توقع قدوم شخص غائب محبوب . ولا تزال هذه العادة باقية عند الناس اليوم[3] .

ومن عاداتهم أن أحدهم اذا خدرت رجله ، ذكر أحب الناس اليه، فتنبسط[4].

وكانوا يعقدون الرتم للحمى ، ويرون أن من حلها انتقلت الحمى اليه . قال أحد الشعراء :

حللت رتيمة فكثت شهراً أكابد كل مكروه الدواء[5]

وقد زعموا أن في البطن حية ، اذا جاع الانسان،عضت على شرسوفه وكبده . وقيل : هو الجوع بعينه ، ليس أنها تعض بعد حصول الجوع[6] .

وكان من عادة الجاهليين حمل ملوكهم على الأعناق إذا اشتد بهم المرض. وهم يعتقدون أنهم بذلك سيتغلبون على المرض ، ويعللون ذلك بأنه أسهل على المريض، وأكثر راحة له من وضعه على الأرض[7] .

واعتقدت العرب ان دمَ الملوك والرؤساء يشفي من عضة الكلب[8] ، وزعموا ان الكَلَب جنون الكلاب المعتري من أكل لحم الانسان . وأجمعت العرب ان

---

١ ثمار القلوب (٦٨) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٢٣) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٢١ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٣/١٧٠) ، (خدر) .
٥ بلوغ الارب (٢/٣١٧) .
٦ بلوغ الارب (٢/٣١٣ وما بعدها) .
٧ بلوغ الارب (٣/٢٠ وما بعدها) .
٨ بلوغ الارب (٢/٣١٩) .

دواءه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاه ، وقيل إن الرجل الكَلِب يعض انساناً فيأتون رجلاً شريفاً ، فيقطر لهم من دم اصبعه ، فيسقون الكلب فيبرأ[1] .

ومن عقائدهم انهم كانوا اذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن ان يأخذوا بثأره ، فيأخذون روثة ، ويفتونها على رأسه ، ويقولون : روثة راث ثائرك . وقد يذر على الحية المقتولة يسير رماد ، ويقال لها : قتلك العين فلا ثائر لك . وفي أمثالهم لمن ذهب العين دمه هدر : هو قتيل العين[2] .

واعتقد الجاهليون بـ (السفعة) ، و (السفعة) العين تصيب الانسان : عين إنسية وعين جنية ، و (السفعة) النظرة من الجن[3] .

واذا طالت علة الواحد منهم ، وظنوا ان به مساً من الجن ، لأنه قتل حية أو يربوعاً أو قنفذاً ، عملوا جمالاً من طين ، وجعلوا عليها جوالق وملؤوها حنطة وشعيراً وتمراً ، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر الى جهة المغرب وقت غروب الشمس ، وباتوا ليلتهم تلك ، فاذا أصبحوا ، نظروا الى تلك الجمال الطين، فاذا رأوا انها بحالها ، قالوا : لم تقبل الهدية ، فزادوا فيها ، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا : قد قبلت الدية ، واستدلوا على شفاء المريض ، وفرحوا ، وضربوا بالدف[4] .

ومن أوابدهم تعليق الحلي والجلاجل على اللديغ ، يرون انه يفيق بذلك، ويقال انه انما يعلق عليه ، لأنهم يرون انه ان نام يسري السم فيه فيهلك ، فشغلوه بالحلي والجلاجل وأصواتها عن النوم . وذهب بعضهم الى انه اذا علق عليه حلي الذهب برأ ، وإن علق الرصاص أو حلي الرصاص مات[5] .

ومن آرائهم في إطفاء نار الحرب انهم كانوا ربما أخرجوا النساء فبلن بين الصفين ، يرون ان ذلك يطفىء نار الحرب ويقودهم الى السلم[6] .

---

١ تاج العروس (١/٤٦٠) ، (كلب) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٥٨) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٦٥) .
٤ بلوغ الارب (٢/٣٥٩) .
٥ والى هذه العقيدة أشار النابغة الذبياني بقوله :
فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها ... بحلي النساء في يديه قعاقع
بلوغ الارب (٢/٣٠٤) .
٦ بلوغ الارب (٢/٤) .

ومن وسائل إبعاد الجن عن الناس ، وإبعاد عيونهم عنهم ، تعليق كعب الأرنب . يقولون إن من فعل ذلك لم تصبه عين ولا سحر ، وذلك لأن الجن تهرب من الأرنب ، لأنها ليست من مطايا الجن ، لأنها تحيض . وذكر أيضاً ان من علق على نفسه كعب أرنب ، لم يقربه (عمار الحي) (جنّان الحي) و (جنّان الدار) ، و (عمّار الدار) ولا (شيطان الحماطة) وجانّ العشرة (جار العشيرة) وغول العقر (غول القفر) ، وكل الخوافي وان الله يطفىء نار السعالي[1] . و (الحماطة) شجرة شبيهة بالتين تأوي اليها الحيات[2] .

وكانوا إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له ، نجسوه بتعليق الأقذار عليه ، كخرقة الحيض وعظام الموتى . وذكروا أن أنفع من ذلك أن تعلق طامث عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك . ويشفي التنجيس من كل شيء ، إلا من العشق[3] .

ومن مذاهبهم قولهم في الدعاء : « لا عشت إلا عيش القُراد » . يضربونه مثلاً في الشدة والصبر على المشقة.يزعمون أن القُراد يعيش ببطنه عاماً وبظهره عاماً[4] .

وكانوا يتبركون بأشياء ، منها المدمى من السهام ، الذي ترمي به عدوك ثم يرميك به . وكان الرجل إذا رمى العدو بسهم فأصاب ، ثم رماه به العدو وعليه دم ، جعله في كنانته تبركاً به . ذكر أن (سعداً) قال : « رميت يوم أحد رجلاً بسهم فقتلته ، ثم رميت بذلك السهم أعرفه ، حتى فعلت ذلك وفعلوه ثلاث مرات ، فقلت :هذا سهم مبارك مدمى فجعلته في كنانتي ،فكان عنده حتى مات»[5].

كان أحدهم يلقى الرجل يخافه في الشهر الحرام ، فيقول : حجراً محجوراً ، أي حرام محرم عليك هذا الشهر ، فلا يبدؤه بشر[6] . وكانوا يقولون ذلك اذا نزلوا مكاناً وخافوا فيه من الجن .

وكان من عاداتهم أنهم كانوا إذا أرادوا أن تورد البقر الماء ، فعافته قدموا ثوراً ، فضربوه،فورد ، فاذا فعلوا ذلك، وردت البقر . وفي ذلك قال الأعشى :

---

١ نهاية الارب (٣/١٢٣ وما بعدها) .

٢ عنجــرد تحلف حــين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرف

بلوغ الارب (٢/٣٢٤) ، اللسان (٩/١٤٦) .

٣ بلوغ الارب (٢/٣١٩) .

٤ بلوغ الارب (٢/٣٣٩) .

٥ اللسان (١٤/٢٧٠) ، (دمى) .

٦ تاج العروس (٣/١٢٣) ، (حجر) .

ومـــا ذنبه إن عافت الماء باقر وما أن تعاف الماء إلا لتضربا [1]

ويقولون إن الجن تصد البقر عن الماء ، وان الشيطان يركب قرني الثور [2] .

ويظهر أن هذا الاعتقاد من الاعتقادات التي كانت شائعة بين الجاهليين، بدليل وروده في أشعار عدد من الشعراء. وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصدّ الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الماء حتى تهلك [3] .

ومن عـــاداتهم أيضاً أنهم كانوا اذا وقع العُرُّ في ابلهم ، اعترضوا بعـــيراً صحيحاً لم يقع ذلك فيه ، فكووا مشفره وعضده وفخذه . يرون أنهم اذا فعلوا ذلك ذهب العر عن ابلهم [4] .

وذكر أن العرّ قروح مثل القوباء ، تخرج بالإبل متفرقة في مشافرها وقوائمها يسيل منها مثل الماء الأصفر ، فتكوى الصحاح لئلا تعديها المِراض . تقول منه: عرت الإبل ، فهي معرورة . قال النابغة الذبياني :

فحملتني ذنْب امرىء وتركته كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع [5]

وفي المعنى المذكور قول الشاعر :

فألزمتني ذنباً وغيريّ جرّه حنانيْكَ لا تكوِ الصحيح بأجربا

وقول آخر :

كمن يكوي الصحيح يروم برءاً به من كل جرباء الإهاب [6]

وذكر ان الفصيل كان اذا أصابه العر، عمدوا الى أمه فكووها، فيبرأ فصيلها [7] .

---

١ كتاب المعاني الكبير (٢/٩٢٨ وما بعدها) .

٢ بلوغ الارب (٢/٣٠٣) .

٣ وفي ذلك قال أنس بن مدركة في قتله سليك بن سلكة :
اني وقتـلي سليكا ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر
الدميري ، حياة الحيوان (١/١٨٢) ، الحيوان (١/١٨ وما بعدها) ، (هارون) .

٤ كتاب المعاني الكبير (٢/٩٢٨) ، اللســـان (٦/٢٣٠ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٣٩٨ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٥ وما بعدها) ، الحيوان (١/١٧) ، (هارون) .

٥ تاج العروس (٣/٣٩٠) ، (العر) ، اللسان (٤/٥٥٥) ، (عرر) .
وكلفتني ذنب امـرىء وتركـه كذي العر يكوي غـيره وهو راتع
بلوغ الارب (٢/٣٠٥) .

٦ بلوغ الارب (٢/٣٠٥ وما بعدها) .

٧ بلوغ الارب (٢/٣٠٦) .

ومن ذلك انهم كانوا يفقأون عين فحل الإبل ، لئلا تصيبها العين . وكانوا اذا كثرت إبلهم فبلغت الألف ، فقأوا عين الفحل ، فان زادت الإبل على الألف فقأوا العين الأخرى . وذلك المفقأ والمعمى[1] .

وكانت العرب اذا أجدبت ، وأمسكت السماء عنهم ، وتضايقوا من انحباس المطر ، وأرادوا ان يستمطروا ، عمدوا الى السلع والعُشَر ، فحزموهما، وعقدوهما في أذناب البقر ، وأضرموا فيها النيران ، وأصعدوها في موضع وعر ، واتبعوها، يدعون الله ويستسقون ، وانما يضرمون النار في أذناب البقر تفاؤلاً للبرق بالنار . وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات[2] . ويقال لهذا الفعل (التسليع) . وذكر ان التسليع في الجاهلية انهم كانوا اذا أسنتوا ، أي أجدبوا ، علقوا السلع مع العشر بأذناب البقر وحدروها من الجبال وأشعلوا في ذلك السلع والعشر النـــار يستمطرون بذلك . ونجد من الرواة من يقول : حدروها من الجبال وأشعلوا في ذلك السلع والعشر النار ، ومنهم من يقول : ثم يضرمون فيها النار ،وهم يصعدونها في الجبل ، فيمطرون[3] .

وقد أشير الى هذا الفعل في الشعر ، قال أمية بن أبـي الصلت :

سَلَعٌ ما ، ومثله عُشَرٌ ما عائلٌ ما ، وعالت البيقورا

وقال الورك الطائي (وداك الطائي) :

لا درّ درّ رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجاعل أنت بيقوراً مسلّعة ذريعةً لك بين الله والمطر[4]

ومن السلع « المُسَلَّعة » ، كانت العرب في جاهليتها تأخذ حطب السلع والعشر في المجاعات وقحوط القطر ، فتوقر ظهر البقر منها ، وقيل : يعلقون ذلك في أذنابها . ثم تلعج النار فيها يستمطرون بلهب النار المشبه بسنى البرق . وقيـل :

---

١ بلوغ الارب (٢/٣٠٦) ، (وذلك المفقأ والمعمى) ، الحيوان (١/١٧) ، (هارون) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٠١ وما بعدها) .
٣ اللسان (٨/١٦١) ، (سلع) ، تاج العروس (٥/١٣٨٤) ، (سلع) .
٤ اللسان (٨/١٦١) ، (سلع) ، تاج العروس (٥/٣٨٥) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٢) ، « الورك الطائي » ، اللسان (٨/١٦١) ، « وداك الطائي » ، تاج العروس (٥/٣٨٥)، (سلع)، ابن فارس، رسالة النيروز (١٨)، (الورل الطائي)، (١٨)، (الورك الطائي)، اللسان (٤/٧٣) .

يضرمون فيها النار ، وهم يصعدونها في الجبل ، فيمطرون »[1] .

وقد تعرض (أبو الحسين أحمد بن فارس) لموضوع (البيقور) ، فقال : « كانت العرب اذا أمسكت السماء قطرها ، استمطروا ، فعمدوا الى شجرتين يقال لها السلع والعشر ، فعقدوهما في أذناب البقر فأضرموا فيها النار ، وأصعدوها في جبلٍ وعرٍ وتبعوا آثارها ، يدعون الله عز وجلّ ويستسقونه . قال ابن الكلبي : وانما يضرمون النار تفاؤلاً للبرق » . « كانوا اذا فعلوا ذلك توجهوا نحو المغرب من بين الجهات كلها قصداً الى العين ، والعين قبلة العراق . قال العجاج :

سارٍ سَرى من قبل العين فجرّ غُرُّ السحاب والمرابيع البكر »[2]

عقيدتهم في الحيوان :

وللجاهليين عقائد في الحيوان . فمنهم من كان يعتقد أن للجن بهذه الحيوانات تعلقاً ، ومنهم من يرى أنها نوع من الجن ، ومنهم من كان يرى أن لبعضها ، مثل الورل والقنفذ والأرنب والظبي واليربوع والنعام ، صلة بالجن ، وأنها مراكب لها ، يمتطونها كما يمتطي الإنسان الخيل والبغال والإبل والحمير[3] .

ومن مراكب الجن ، (العضرفوط) ، قال الشاعر :

وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد ألذّ وأشهى من وخيد الثعالب
ومن فارة مزمومة شمرية وخود بردفيها أمام الركائب
ومن عضرفوط حطّ بي من ثنية يبادر سرباً من عظاء قوارب[4]

والعضرفوط دويبة من دواب الجن[5] ، ويقال : العضرفوط ذكر العِظاء ، وقيل : دويبة تسمى العِسودة ، بيضاء ، ناعمة[6] .

واعتقدوا أن السموم لما فرقت على الحيوانات ، احتبست العظاية (العظاءة)

---

١ اللسان (١٦١/٨) ، (سلع) .
٢ ابن فارس ، رسالة النيروز (١٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣٦٠/٢) .
٤ تاج العروس (١٨٣/٥) ، (العضرفوط) .
٥ وكل المطايا قد ركبنا ولم نجد ألذ وأشهى من ركوب الارانب
ومن عضرفوط عنّ لي فركبته أبادر سربا من عظاء قوارب
بلوغ الارب (٣٦٠/٢) .
٦ اللسان (٣٥١/٧) ، (عضرفوط) .

عند التفرقة حتى نفد السم ، وأخذ كل حيوان قسطاً منه على قدر السبق اليه ، فلم تنل العظاية نصيباً منه ، فخسرته . لذلك صارت تمشي مشياً سريعاً ثم تقف، لما يعرض لها من التذكر والأسف على ما فاتها من السم[1] .

و (الظباء) ماشية الجن ، في زعم بعضهم وهي تسمع وتكلم ، ولهم قصص عنها[2] .

وتزعم العرب أن (الهديل) ، فرخ على عهد (نوح) مات عطشاً ، وضبعه أو صاده جارح من جوارح الطير ، فما من حمامة الا وهي تبكي عليه[3] .

وللخرز عند الجاهليين وعند الأعراب حتى اليوم ، شأن كبير في السحر وفي دفع أذى الأرواح والعين ، وفي النفع والحب ، وأمثال ذلك . وسأتحدث عنها في المكان المخصص بالسحر .

وضرب المثل ببخل (أبي حباحب) . من محارب خصفة ، وكان بخيلاً ، فكان لا يوقد ناره الا بالحطب الشخت لئلا ترى ، وقيل : اسمه (حباحب)، فضرب بناره المثل ، لأنه كان لا يوقد الا ناراً ضعيفة ، مخافة الضيفان، فقالوا : نار الحباحب[4] .

وأم حباحب : دويبة ، مثل الجندب ، تطير ، صفراء خضراء ، رقطاء برقط صفرة وخضرة ، ويقولون اذا رأوها : أخرجي بُردى أبي حباحب ، فتنشر جناحيها ، وهما مزينان بأحمر وأصفر[5] .

وللعرب أساطير عن الكواكب ، من ذلك ما ذكروه من ان (الدّبران) خطب (الثريا) وأراد القمر ان يزوجه منها ، فامتنعت وأعرضت ، وقالت للقمر : ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له ؟ فجمع الدبران قلاصه، ووضعها قدامه ، وأخذ يتبعها يريد اقناعها بالزواج منه . ومن ذلك قولهم في (المرزم) ، وهو (الشعْرى) ، يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر . تقول العرب : اذا

---

١ بلوغ الارب (٢/٣٦٠ وما بعدها) ، الدميري ، حياة الحيوان (٢/١٢٢) ، (العظاءة) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٦١ وما بعدها) ، حياة الحيوان ، للدميري (٢/١٠٢ وما بعدها) ، (الظباء) .
٣ الدميري ، حياة الحيوان (٢/٣٨٢) ، تاج العروس (٨/١٦٤) ، (هدل) ، بلوغ الارب (٢/٢٦٤) .
٤ اللسان (١/٢٩٧) ، (حبحب) .
٥ اللسان (١/٢٩٨) ، (حجب) .

طلعت الشعرى جعل صاحب النحل يرى ، وهما الشعريان : (العبور) التي في (الجوزاء) و (الشعرى الغميصاء) التي في الذراع . تزعم العرب انهما أخت (سهيل) . وقد عبدت طائفة من العرب (الشعرى العبور) . قالوا : انها عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها عرضاً غيرها ، فأنزل الله : « وانه هو رب الشعرى » ، وسميت الأخرى (الغميصاء) ، لأن العرب قالت في حديثها انها بكت على أثر العبور حتى غمصت[1] .

وزعموا ان (سهيلاً) كان عشّاراً على طريق اليمن ظلوماً فمسخه الله كوكباً . وعرف بأنه نجم يماني عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ[2] .

و (الشمس) إلهة عند كثير من الجاهليين ، فتعبدوا لها ، وعدّت صنماً عندهم[3].

ومن أساطيرهم ما تحدثوا به عن (برد العجوز) . حدثوا ان عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في أواخر الشتاء وأوائل الربيع فيسوء أثره على المواشي ، فلم يكترثوا بقولها ، وجزوا أغنامهم ، واثقين باقبال الربيع ، فلم يلبثوا إلا مديدة حتى وقع برد شديد ، أهلك الزرع والضرع ، فقالوا هذا برد العجوز . يعنون العجوز التي كانت تُنذر به .

وحدثوا : أن عجوزاً كانت بالجاهلية ، ولها ثمانية بنين ، فسألتهم أن يزوجوها وألحت عليهم ، فتآمروا بينهم ، وقالوا : إن قتلناها لم نأمن عشيرتها ، ولكن نكلفها البروز للهواء ثماني ليال ، لكل واحد منا ليلة . فقالوا لها : ان كنت تزعمين أنك شابة ، فابرزي للهواء ثماني ليال ، فإننا نزوّجك بعدها ، فوعدت بذلك ، وتعرت تلك الليلة والزمان شتاء كلب ، وبرزت للهواء . وفعلت مثل ذلك في الليل الآخر ، فلما كانت الليلة السابعة ، ماتت .

ونسب العرب اليها برد الأيام الثمانية ، وأسماؤها : الصنّ ، والصنبر ، والوبر ، وآمر ، ومؤتمر ، ومعلّل ، ومطفىء الجمر ، ومكفىء الظعن[4] .

ومن الأمور التي تداولوها قولهم في (زمن الفطحل) . وضربهم المثل به . قالوا : أيام كانت الحجارة رطبة ، وإذ كل شيء ينطق[5] . وهو دهر لم يخلق

---

١ تاج العروس (٣/٣٠٥) ، (شعر) .
٢ تاج العروس (٧/٣٨٤) ، (سهل) .
٣ تاج العروس (٤/١٧٢) ، (شمس) .
٤ الثعالبي ، ثمار (٣١٣/١ وما بعدها) .
٥ الثعالبي ، ثمار (٦٤٢ وما بعدها) .

فيه الناس بعد[1] .

وكانوا يعتقدون بالمسخ . وهو تحويل صورة الى أخرى أقبح منها ، وتحويل انسان الى حيوان أو حجر . ولهم اعتقادات في مسخ الأطفال ، وتبديل (الجن) لهم بأولادهم من ذوي العاهات . وقد زعموا أن (اللات) صنم ثقيف ، كان في الأصل يهودياً يلتّ السويق في (الطائف) فسخ حجراً ، عبد فصار (اللات).

وللعرب قصص وضعوه على ألسنة الحيوانات نجده في كتب الأدب . ولهم أمثلة وراءها قصص في سبب ضربها . ونجد في كتب الأمثال والأدب أشياء كثيرة من ذلك . وقد صوّروا بعض الحيوانات ناطقة عاقلة،ونسبوا لها الحكمة والقول الحسن، وصوروا بعضها بليدة غبيّة . ونجد في كتب الأمثال والأدب أشياء كثيرة من ذلك[2] .

واتخذوا من بعض الناس مثلاً على أمر من أمور الحياة . وضربوا بهم الأمثال. فضربوا المثل ببلاغة (سحبان وائل) وبقدرته على الخطابة[3] . وبفصاحة (قس بن ساعدة الايادي)[4] . وجعلوهما المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة عند العرب .

ووضعوا (باقل) مثلاً للعي والبلادة[5] . فما رووه عنه ، أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً ، فمرّ بقوم فقالوا : بكم أخذت الظبي ؟ فمدّ يديه ، وأخرج لسانه ، يريد بأصابعه عشرة دراهم وبلسانه درهماً فشرد الظبي حين مدّ يديه ، وكان الظبي تحت إبطه ، فجرى المثل بعيه ، وقيل : أشد عياً من باقل ، وأعيا من باقل،كما قيل أبلغ من سحبان وائل[6] . وذكر أنه كان من ربيعة[7] .

واتخذوا (بيهس) الفزاري،الملقب بنعامة ، مثلاً للحمق ، فقالوا: أحمق من بيهس . وهو أحد الاخوة السبعة الذين قتلوا،وترك هو لحمقه[8] . زعموا أنه هو القائل:

ألبس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

وإنما لقب بيهس بنعامة لأنه كان شديد الصمم ، وإذا دعا الرجل من العرب

---

١ تاج العروس (٨/٦٣) ، (المطحل) .
٢ راجع كتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب كليلة ودمنة وكتب الادب الاخرى .
٣ الثعالبي ، ثمار (١٠٢ وما بعدها) ، الدينوري ، المعارف (٦١١) .
٤ الثعالبي ، ثمار (٦٠ ، ٩٨ ، ٢٢٢ ، ١٢٤ وما بعدها ، ١٤٢) .
٥ الميداني ، الامثال (٢/٤٣) ، الثعالبي ، ثمار (١٠٢) .
٦ الثعالبي ، ثمار (١٢٧) .
٧ تاج العروس (٧/٢٣٤) ، (بقل) .
٨ تاج العروس (٤/١١٣) ، (بهس) .

على صاحبه بالصمم، قال: اللهم اصنجه صنجاً كصنج النعامة. والصنج أشد الصمم[1].

وضرب المثل بحمق (هبنقة)، واسمه (يزيد بن ثروان) أحد بني قيس بن ثعلبة، الملقب بـ (ذي الودعات). لقب بـه لأنه جعل من عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف مع طول لحيته. فسئل عن ذلك، فقال: لئلا أضل، أعرف بها نفسي، فسرقها أخوه في ليلة وتقلدها، فأصبح هبنقة ورآها في عنقه، فقال: أخي أنت أنا، فمن أنا؟ فضرب بحمقه المثل. فقيل أحمق من هبنقة[2].

وضربوا المثل بحمق دُغة. وهي بنت منعج، زوّجت وهي صغيرة في بني العنبر، فحملت، فلما ضربها المخاض ظنت انها تحتاج الى الخلاء، فبرزت الى بعض الغيطان ووضعت ذا بطنها، فاستهل الوليد، فجاءت منصرفة وهي لا تظن إلا انها أحدثت. فقالت لأمها: يا أماه، هل يفتح الجعُر فاه؟ قالت: نعم ويدعو أباه، فسبّ بها بنو العَنْبر، فسموا بني الجعراء[3].

وقيل هي امرأة من بني عجل بن لجيم. وقيل هي: دغة بنت معيج بن إياد ابن نزار. ولدت لعمرو بن جندب بن العنبر[4]. وذكر ان اسمها: مارية بنت ربيعة، من عجل، وكانت عند (جندب بن العنبر) فولدت له (عدي بن جندب)، وكانت حمقاء حسناء[5].

وضربوا المثل بـ (جوف حمار). وقالوا: هو أكفر من حمار، وأخلى من جوف حمار. وهو رجل من عاد، يقال له حمار بن مويلع، وجوفه واد له طويل عريض. لم يكن ببلاد العرب أخصب منه، وفيه من كل الثمرات، فخرج بنوه يتصيدون: فأصابتهم صاعقة فهلكوا، فكفر. وقال: لا أعبد من فعل هذا ببني، ودعا قومه الى الكفر فمن عصاه قتلـه، فأهلكه الله تعالى وأخرب واديه، فضرب العرب به المثل في الخراب والخلاء. قال الأفوه الأودي:

وبشؤم البغي والغشم قديماً   قد خلا جوف ولم يبق حمار[6]

---

١ الثعالبي، ثمار (٤٤٥).

٢ قال الفرزدق:

فلو كان ذا الودع بن ثروان لالتوت   به كفه أعني يزيد الهبنقا

تاج العروس (٥/٥٣٤)، (ودع).

٣ الثعالبي، ثمار (٣٠٩).

٤ تاج العروس (١٠/١٢٨)، (الدغية).

٥ الدينوري، المعارف (٦٢٠).

٦ الثعالبي، ثمار (٨٤)، الميداني (١/٢٥٧).

وذكر ان الجوف واد بأرض عاد ، فيه ماء وشجر ، حماه رجل اسمه حمار وكان له بنون فأصابتهم صاعقة فماتوا ، فكفر كفراً عظيماً وقتل كل من مر به من الناس . فأقبلت نار من أسفل الجوف فأحرقته ومن فيه وغاض ماؤه فضربت العرب به المثل . فقالوا : أكفر من حمار ، ووادٍ كجوف الحمار وكجوف العير وأخرب من جوف حمار[1] .

وورد انه (حمار بن مالك) ، وهو رجل من عاد وقيل من العمالقة . كان مسلماً أربعين سنة في كرم وجود ، فخرج بنوه عشرة للصيد ، فأصابتهم صاعقة فهلكوا . فكفر كفراً عظيماً . وقال لا أعبد من فعل ببنيّ هذا . وكان لا يمر بأرضه أحد إلا دعاه الى الكفر ، فان أجابه وإلا قتله . فأهلكه الله وخرب واديه[2] .

واذا وعد انسان وعداً ، فعليه الوفاء به ، لأن من شمائل الكريم الوفاء بالوعود والعهود . قالت العرب : « خلاف الوعد من أخلاق الوغد » . وكانت العرب تستعيبه وتستقبحه . وقد ضربوا المثل برجل من العرب في مخالفته المواعيد، فقالوا : « مواعيد عرقوب » . وعرقوب صاحب المواعيد[3] ، قيل : انه من الأوس ، كان أكذب أهل زمانه . فضربت به العرب المثل في الخلف ، فقالوا : مواعيد عرقوب . وذلك انه أتاه سائل ، وهو أخ له ، يسأله شيئاً . فقال له عرقوب : اذا أطلع نخلي ، « وفي رواية : اذا أطلعت هذه النخلة » ، فلما أطلع، أتاه على العدَة ، قال : اذا أبلح ، فلما أبلح أتاه ؛ قال : اذا أزهى ، فلما أزهى أتاه ؛ قال : اذا أرطب ، فلما أرطب أتاه ؛ قال : اذا أتمر . فلما أتمر ، عمد اليه عرقوب وجدّهُ ليلاً ، ولم يعطه منه شيئاً . فصارت مثلاً في إخلاف الوعد. وورد :

وأكذب من عرقوب (يثرب) لهجة ... وأبين شؤماً في الحوائج من زحل

وورد «مواعيد عرقوب أخاه بيترب» ، بالتاء وهي باليمامة . ويروى بالمثلثة، وهي مدينة الرسول نفسها. ويقال : هو أرض بني سعد. والأول أصح، وبه فسر قول كعب بن زهير :

كانت مواعيد (عرقوب) لها مثلاً ... وما مواعيدها إلا الأباطيل

---

١ تاج العروس (٣/١٥٦) ، (حمر) ، (٦/٦٣) ، (الجوف) .

٢ فبشؤم الجور والبغي قديما ... ما خلا جوف ولم يبق حمار

تاج العروس (٣/١٥٦) ، (حمر) .

٣ تاج العروس (٢/٥٣٦ وما بعدها) ، (وعد) .

وورد : « هو أكذب من عرقوب يترب » ، وتقول : « فلان اذا مطل تعقرب واذا وعد تعقرب » . ومن أمثالهم : « الشرّ ألجأه الى مخ عرقوب » « وشر ما أجأك الى مخة عرقوب » ، أي : عرقوب الرجل لأنه لا مخّ له . يضرب هذا عند طلبك من اللئيم أعطاك أو منعك . وهو لغة بني تميم . ومن المستعار : ما أكثر عراقيب هذا الجبل . العراقيب خياشيم الجبال وأطرافها وهي أبعد الطرق ، لأنك تتبع أسهله أين كان . والعراقيب من الأمور كالعراقيل عظامها وصعابها[1] .

وضربوا المثل في الاقامة على الذل برجل من ضبّة ، زعموا أنه عرف عندهم بـ (قضيب) فقالوا : أصبر من قضيب . و (قضيب) رجل آخر تمار بالبحرين، كان يأتي تاجراً فيشتري منه التمر ، ولم يكن يعامل غيره[2] .

وضربوا المثل بـ (حديث خرافة) . زعموا أنه كان رجلاً من (بني عذرة) أو من (بني جهينة) سبته الجن ، فكان يكون معهم ، فاذا استرقوا السمع أخبروه فيخبر أهل الأرض ، فيجدونه كما قال . وقيل: « استهوته الجن واختطفته ثم رجع الى قومه، فكان يحدث بما رأى، يعجب منها الناس، فكذبوه ، فجرى على ألسن الناس وقالوا : هذه خرافة . ويقال أيضاً للخرافات الموضوعة من حديث الليل : حديث خرافة . وذكر أن (عائشة) قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثيني :قلت ما أحدثك حديث خرافة . قال : أما انه قد كان»[3] وذكر أيضاً أنه قال لها : « ان أصدق الأحاديث حديث خرافة »[4] .

---

١ تاج العروس (١/٣٧٨) ، (عرقب) .

٢ ومنه قولهم :

أقيمي عند غنم لا راعي   من الفل التي تلوى الكثيب

لانتم حين جاء القوم سيرا   على المحزاة أصبر من قضيب

أي لم تطلبوا بقتلاكم ، فأنتم في الذل كهذا الرجل ، تاج العروس (١/٤٣٣) ، (قضب) .

لانتم ، يوم جاء القوم سيرا   على المخزاة اصبر من قضيب

اللسان (١/٦٨٠) ، (قضب) .

٣ تاج العروس (٦/٨٣) ، (خرف) .

٤ ابن قتيبة ، المعارف (٦١٠ وما بعدها) ، (حديث خرافة) .

الفهرس

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

الجزء السابع

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء السابع

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

٧

○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الثامن والثمانون

أثر الطبيعة في اقتصاد الجاهليين

للوقوف على أسس اقتصاد أمة من الأمم،لا بد من الوقوف على طبيعة إقليمها من جوّ وأرض. فللطبيعة أثر كبير في تحديد خيرات تلك الأمة وفي تكوين سماتها وعاداتها وانتاجها:من ناتج زراعي أو حيواني أو صناعي ، ثم في فقرها وغناها .

فالجوّ البارد ذو الأمطار الغزيرة ، لا يمكن أن يكون أثره في الأحياء أثر الجو الحار الرطب ، أو الجو الحار الجاف،أو الجو المعتدل . الجو البارد يدفع الانسان إلى العمل ويبعث فيه الحيوية والنشاط ، ويجبره على العمل ، ويقدم له الماء هدية من السماء ، ثم هو يُكره الأرض أن تتلقح بماء المزن ، لتولد خضرة تكسو الأرض ببساط جميل يخلب الألباب ، ولتولد للماشية علفاً طرياً شهياً ، وللإنسان أرضاً طيعة لا تحتاج الى سقي باليد أو بالآلة ، ثم هو يوفر له كثيراً من الجهد الذي يجب على الانسان أن يبذله في البلاد الحارة الجافة لاستصلاح التربة ولمكافحة الحشرات التي تبارك فيها الحرارة الى غير ذلك من صعوبات ، لا تقاس بها الصعوبات التي تواجه سكان البلاد الباردة الممطرة .

أما الجو الحار الرطب ، فيغيث الانسان بمطر ، قد ينهمر انهماراً، وقد ينزل بمواسم ، لكن حرارته الشديدة المتشبعة بالرطوبة ، تهدّ الجسم ، وتعطيه رخاوة في بدنه وفي عقله ، تجعله يميل الى الخمول والكسل والدعة ، والى الاسترسال في العواطف ، ثم تحرمه من نشاط انسان الجو البارد ، وتجعله دونه في العمل وفي السعي في هذه الحياة والضرب في هذه الأرض وفي استغلال التربة وما فيها وما

عليها . وأما الجو الحار الجاف ، فيحرم سكانه من نعمة (الغيث) في الغالب ، ويلبس سطح الأرض أكسية غبراء من رمال تذروها الرياح ، ثم هو يجعل من الصعب على الانسان أو الحيوان ان يجد قوته في هذه القفار الواسعة المغبرة ، أو ان يعيش فيها عيشة مستقرة دائمة ، في مجتمعات كثيفة كمجتمعات الأجواء الباردة أو المعتدلة أو الحارة الرطبة ، فاضطر إلى التنقل والارتحال بحثاً عن الكلأ والماء ، اللهم إلا في مواطن الماء ، وهي عزيزة ثمينة لأنها في أرض غلب على طبعها الجفاف . فتصير هذه المواطن القليلة هدفاً لهجمات العطاشى عليها في سني القحط وانحباس المطر ، وايام الضيق والشدة ، لسد الرمق وللمحافظة على ما في الجسم الذابل النحيل من عروق لتعينه على البقاء ، حتى يفنى بطعنة ، أو يموت حتف أنفه .

تبلغ مساحة جزيرة العرب حوالى مليون وربع مليون ميل من الأميال المربعة . اذا ثبتنا مواضع المياه على (خارطتها) ، نجد انهـا قليلة ، لا يتناسب توزيعها ووجودها مع هذه المساحة الشاسعة . ثم انها مياه ضيقة المعين ، لا يتسع صدرها لارواء بقاع واسعة على نحو ما نجده في مياه الأنهار الكبيرة . وفي هذه المواضع انحصر السكن ، فصار من ثم عدد سكانها قليلاً جداً في كل وقت . واذا قسنا مساحة الأرضين الخصبة منها القابلة للزرع والإنبات ذات الماء بالأرضين المجدبة ، نجد انها قلة إلى كثرة ، وان ما لا يصلح منها للزرع أكثر بكثير مما يصلح له . وان مساحة البراري والبوادي تزيد على مساحة الأرض الطيبة الخصبة ، وان هنالك أرضين ذات طبقات ثخينة من الرمال ، أكرهت الناس على الابتعاد عنها ، ترفعاً من ان يطأ وجهها خف جمل أو نعل انسان ، أو ان تدوسها الأقدام .

وقد نشأ عن هذا الوضع ضيق في مساحة الأرضين المزروعة ، لشح الماء وعدم كفايته لارواء الانسان ولارواء ماشيته واسقاء أرضين واسعة ، ضيق أثر في شكل تكوين المجتمع العربي ، فلم يسمح بظهور المجتمعات الكثيفة الكبيرة في جزيرة العرب ، والمجتمعات الكثيفة الكبيرة ، هي المجتمعات الخلاقة التي تتعقد فيها الحياة ، وتظهر فيها الحكومات المنظمة للعمل وللانتاج وللتعامل بين الناس . جعل المجتمعات المذكورة مجتمع مستوطنات ، رزقها من زراعتها الصغيرة ومن رعاية الماشية ، وصار اقتصادها من ثم اقتصاداً بدائياً لا تعقيد فيه ولا تطوير يحول المواد الأولية الى مواد أخرى أفيد منها وأكثر ربحاً تفيد المجتمع ، وتعود عليه بأرباح طائلة من بيع المنتجات في الأسواق .

وهو ضيق صبر العرب قوماً يكرهون الزراعة وينفرون منها ، ويرون المزارع مواطناً من الدرجة الدنيا ، ولا سيما ذلك المزارع الذي يزرع الخضر والبقول وعلف الحيوان ، فهو عندهم (خضّار) . ولو كانت للعرب ميـاه فائضة ، وأمطار غزيرة لما كرهوا الزراعة ، ولما ازدروا شأنها ، فحرمانهم من الماء جعلهم يستحقرون شأن الزراعة لأنهم لم يتذوقوا ثمرتها ولم يشعروا بخيراتها ، ولهذا اختلف عنهم أهل اليمن وبقية العربية الجنوبية ومن وجد عندهم المـاء ، فغرسوا وزرعوا واعتبروا الزراعة نعمة ، وتقدموا إلى آلهتهـم لكي تبارك في زرعهم وتنعم في حصادهم وتعطيهم غلات وافرة كثيرة .

وجوّ جزيرة العرب جو من أجواء البلاد الحارة الجافة . أمطاره على العموم قليلة ، ولا سيما في أواسط جزيرة العرب . وقد تنحبس في بعض السنين انحباساً تاماً ، فيسبب انحباسها هذا كارثة ومصيبة ، يجف في أثنائهـا العشب ، وييبس كل أخضر ، فلا تجد الإبل لها طعاماً ، ولا يكون في وسع أهلها تقديم طعام لها لعدم وجوده عندهم ، وقد ينفق مالهـم من العطش والجوع ، فيصاب أصحابها بخسائر كبيرة ، وقد يهلك عدد من الناس قبل بلوغهم موضع ماء ، إما من شدة الحر والعطش والجوع ، وإما من السيف الذي لا بد لهم من استعماله لاجبار أهل الماء على السماح لهم بمشاركتهم لهـم اياه ، او بالاستحواذ عليه ونزولهم بـه ، وطردهم أصحابه عنه الى أماكن أخرى ، أو بهروبهم من هذا الموضع لقوة أصحابه ولتمكنهم من رد الطامعين عنه .

وتتساقط الأمطار في العربية الغربية والعربية الجنوبيـة ، ولكن سقوطها ليس منتظماً وعلى طول أيام السنة . فقد تثور السماء فجأة على الأرض ، فترسل عليها سيلاً مدراراً ، يكتسح ما يجده أمامه من إنسان وحيوان وكل عائق ، ليجد له سبيلاً الى أرض منخفضة أو الى أودية ، ثم لا يلبث أن يختفي ويزول ، لأن عمره قصير في الغالب ، إذ تبتلعه أرض رملية ، فيغور الى باطنها ليكوّن مياهاً جوفية ، وقد تبتلعه البحار ، إذ يسيل بشدة الى الأودية المنحدرة الشديدة الانحدار فيتوجه مسرعاً نحو البحر ، فيذهب فيها هباءً من غير أن يفيد أحداً من الناس أو أن يغيثهم بشيء . وفي كتب أهل الأخبار قوائم بسيول كثيرة مهلكة مدمرة وقعت قبل الإسلام وبعده .

والأمطار في جزيرة العرب هي قليلة على العموم ، مقدار ما يتساقط منهـا

لا يسد رمق الزرع ولا يغني الزارع ولا يكفي في بعض السنين لانبات الخضرة ولظهور الكلأ . وقد يستمر هذا المعدل سنين ، فيتضايق الناس ، وقد ترد بعدها سنين ينهمر فيهـا المطر انهماراً ، فيسقط من السماء وكأنه ماء انهمر من أفواه قرب ، فيسبب سيولاً تؤذي الناس ولا تنفعهم ، وقد يستمر هطول المطر على هذا المعدل من الشدّة عدة سنين ، ثم يقف فيشح ، وتبخل السماء ، فلا تعطي الأرض من غيثها إلا قليلاً . وقد تبخل بخلاً شديداً فلا تعطيها منه شيئاً يذكر ، فيتضايق الناس ، ويعيشون عندئذ عيشة صعبة قاسية ، قد تضطرهم إلى الارتحال الى مواضع أخرى بحثاً عن الكلأ والماء .

وقد يكون انحباس المطر ، ظاهرة موضعية ، تصيب موضعاً ، ولا تصيب مواضع أخرى ، وقد يكون عاماً ، يصيب أكثر جزيرة العرب أو كلها. وتكون شدته عندئذ في هذه الحالة أعم وأشد . وضرره في الناس أكثر ، فأينما ترحـل القبائل لا تجد أمامها إلا القحط والمحنة ، وقلة المـاء والغذاء ، أي (القحط) والجدب والمحل . و (القحط) الجدب من أثر احتباس المطر ، فيتأذى الناس ، ويقل الطعام وترتفع أسعاره . ويعيشون في شدة [1] . ويلازم القحط في الغالب ، اختفاء الطعام وارتفاع ثمنه . فالقحط ملازم اذن لانحباس المطر ، ويلازمه الجوع وارتفاع السعر ، وقلة الطعام ، واختفاؤه من السوق ، بسبب الخزن أمـلاً في الحصول على ربح ومكسب ، أو بسبب قلة حاصل الموسم . ويقال أقحط القوم، أي أصابهم القحط ، وكان ذلك في اقحاط الزمان .

وقد يعقب انحباس المطر ظهور الملح في طعم مياه الآبار والعيون [2] ، حتى قد يصير الشرب منها صعباً ، والزرع عليها غير ممكن . فيضطر أصحابها عندئذ الى تركها والارتحال عنها الى مواضع أخرى ، يحفرون فيها آباراً جديدة ؛ تكلفهم مالاً وجهداً ، وقد لا يجدون في الأرض الجديدة ماءً عذباً سائغاً فراتاً للشاربين ، وقد لا يجدون فيها ما يكفيهم لشربهم ولشرب أموالهم ؛ مما يحملهم على الارتحال إلى أرض أخرى ، أو على التشتت والتبعثر ، بسبب عدم وجود الماء أو عـدم سدّه حاجتهم .

---

١ تاج العروس (٥/٢٠١) ، (قحط) .
٢ تاج العروس (٢/٢٢٩) ، (ملح) .

ويقال للسنة وللأرض التي لم يصبها المطر : (الجماد) . وسنة جامدة لا كلأ فيها ولا خصب ولا مطر . وأرض جماد ، يابسة لم يصبها مطر ولا شيء فيها [1]. وهي من السنين الحرجة في حياة العرب ، المؤذية المهلكة للأنفس وللمال . ويقال للمُحل (الجدب) . والجدب نقيض الخصب [2] . و (المحل) الجدب وانقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ . وتعد أيام المحل من شرّ الأيام ، يقال : (زمان ماحل) ، و (مكان ماحل) ، و (بلد ماحل) ، و (أرض محـل) ، وأرض محلة ومحول . يريدون بالمحل الشدة والجوع الشديد وإن لم يكن جدب ، على سبيل المجاز ، لأن المُحل الجدب ويبس الأرض وانقطاع المطر ، فتشتد حالة الناس ، ويظهر الجوع ويعيش الناس في ضنك شديد [3] .

ويقال لمثل هذه السنين الشديدة ، التي تجف فيها المراعي ، ويصاب النـاس فيها بأزمة شديدة،سنة جرداء ، وسنة الجمود لجمود الرياح فيها وانقطاع الأمطار وذهاب الماشية وهزالها وثبات الغلاء ؛ ويقال لها الحطمة والأزمة واللّزبة والمجاعة والرّمد ، وكحل والقصر والشدة والحاجر ، وما شاكل ذلك من ألفاظ فيها معاني الشدة والفقر والجوع [4] .

وكان منهم من يتصور أن نجوم الشتاء هي سبب نزول الغيث . ولذلك كانوا إذا لم يمطروا ، وانحبست السماء عندهم يقولون : « أجحرت النجوم » . قال الراجز :

إذا الشتاء أجحرت نجومـه واشتد في غير ثرى أزومه

ومن المجاز أجحر القوم ، إذا دخلوا في القحط . والجحرمة الضيق [5] . وليس أشد على العرب وأضيق في انحباس المطر عنهم .

---

١ تاج العروس (٢/ ٣٢٤ وما بعدها) ، (جمد) .
٢ تاج العروس (١/ ١٧٦) ، (جدب) .
٣ تاج العروس (٨/ ١١٣) ، (محل) .
٤ الصفة (٢١٤) .
٥ تاج العروس (٣/ ٨٨) ، (جحر) . قال زهير بن أبي سلمى :
اذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ونال كرام المـال في الجحرة الاكل
يريد بكرام المال الابل ، يقول : انها تنحر وتؤكل لانهم لا يجدون لبنا يغنيهم عن أكلها ، تاج العروس (٣/ ٨٨) ، (جحر) .

وإذا أمطرت السماء ، استبشر الناس خيراً ، فالمطر خير وبركة ونعمة . يعقبه ربيع مفرح مبهج ، تسمن فيه إبلهم ومواشيهم ، ويكثر ولدها ، فتنمو أموالهم، وكانوا يقولون اذا ألبنوا وسمنت إبلهم : « كان ربيعنا مملوحاً »[1] .

وقد تهب بعض الرياح فتنكب الناس بأنفسهم وبأموالهم وتؤذيهم، لذلك يسمونها (النكباء) . و (النكباء) ريح انحرفت ووقعت بين ريحين . وهي تهلك المال وتحبس القطر . ذكر انها تهب بين الصبا والشمال ، والجربياء التي بين الجنوب والصبا . وذكر بعضهم ان نكب الرياح أربع : الأزيب ، وهي نكباء الصبا والجنوب ، مهياف ملواح ميباس للبقل ، وهي التي تجيء بين الريحين . وذكر بعض آخر ان الأزيب ، هو الجنوب لا نكباؤها . والثانية الصابية ، وتسمى النكيباء أيضاً ، وهي نكباء الصبا والشمال ، معجاج مصراد لا مطر فيها ولا خير عندها . والثالثة الجربياء ، وهي نكباء الشمال والدبور ، وهي قرة وربما كان فيها مطر قليل ، وهي نيحة الأزيب . والرابعة الهيف ، وهي نكباء الجنوب والدبور، وهي نيحة النكيباء[2] .

وقد تأتي السماء بسحب كثيفة من جراد ، فلا تهبط مكاناً إلا جردته . والجراد من شر الآفات والنوازل التي تنزل بالزرع، بجرده جرداً وينزل الخسائر بأصحابه، أضف الى ذلك الأوبئة والأمراض التي كانت تهب بين الحين والحين ، فتصيب الانسان أو الحيوان أو الزرع ، وهو عاجز إذ ذاك عن مقاومتها وعن التغلب عليها ، نضيف اليها الحميّات التي كانت قد عششت في مواضع المياه، كالعيون ، فكانت تصيب الناس ، ولا يكاد يسلم منها انسان ، فقد عرفت (خيبر) بالحمى، حتى قيل لها (حمى خيبرية) أو (خيبرية) ؛ وعرفت يثرب بالحمى أيضاً ، وعرفت مواضع من وادي القرى ، بالحمى كذلك ، كما عرفت (هجر) في العربية الشرقية بهذا الوباء كذلك .

ويتضايق الانسان في التهائم من أثر الحرارة المتشبعة بنسب عالية من الرطوبة . ودرجات الحرارة فيها وإن كانت دون درجتها في الأماكن الأخرى في الأغلب ، غير أن اقترانها بالرطوبة العالية جعلتها حرارة تضايق الانسان الى حد مزعج ، تبعث على الاسترخاء والكسل ، حتى صيرت الجسم خاملاً ، خال من الحيوية

---

١ تاج العروس (٢٢٨/٢) ، (ملح) .
٢ تاج العروس (٤٩٤/١) ، (نكب) .

والنشاط ، غير فعّال لا يستطيع أن يعمل بنشاط وهمة أهل الأجواء المعتدلة أو الحارة الجافة . وعلى الرغم من ارتفاع نسبة الرطوبة في هذه التهائم وتشبع هوائها ببخار الماء ، فإنها لم تحظ بدرجة عادلة من المطر ، يخفف من شدة وطأة الحرارة فيها . ويسقي أرضها سقياً كافياً لتنبت لسكانها ما ينبته الجو الاستوائي المشبع بالرطوبة المذابة في الحرارة المشابه لجو هذه التهائم في البلاد الأخرى . فحرمت من الغابات ومن الأشجار الضخمة ذات الخشب الصلد ، ومن الأدغال التي تؤوي الوحوش ، ومن المياه الفوّارة المتدفقة ، ومن الحشائش ، ومن أمثال ذلك مما يرى في البلاد ذات المناخ المشابه ، مما يكون ثروة لسكانها ، قد تعوض عن حرمانهم من الجو المعتدل ، أو الجو البارد المنشط .

وتخف الرطوبة ويقل شأنها وتذهب حدّتها كلما ابتعد الانسان عن الساحل ، فيزداد الجفاف في الجو حتّى يبلغ أقصاه في البواطن ، فيشعر الانسان عندئذ بانطلاق في جسمه وبشيء من النشاط في حركته ، وبحدة في ذهنه ، لأنه يجد أمامه مناخاً أصح وأصفى من مناخ السواحل ، هواؤه جاف في الشتاء وفي الصيف ، البرودة فيه في موسم الشتاء أظهر وأبرز من برودة الأشتية في التهائم ، والحر فيه في الصيف أخف على الجسم بكثير من حر صيف السواحل . أما المطر ، فنسبة سقوطه في الباطن أقل من نسبة هطوله على التهائم وفي العربية الجنوبية . وقد عوضت الطبيعة أهل البواطن عن شح مطرها هذا ، بارسال ألوان وأشكال من الأهوية والرياح والعواصف عليهم ، تحمل بعضها في أمواجها سحراً عجيباً ينعش الروح والبدن ، اذا مس انساناً أنساه شظف عيشه وغلظ الجو الذي يعيش فيه ، وصيره يحس وكأنه ملك الملوك ، وصاحب خزائن الأرض ، واذا مست عصاه أحداً من أصحاب الحس المرهف ، أثارت فيه قريحته ، فصيرته شاعراً ينظم إحساسه بكلم موزون مقفى ، وبشعر غزلي ، يتغزل فيه ، يتغزل بتلك الأهوية ، التي لمست جسمه ، وأغرقت فمه ووجهه بقبلاتها الحبيبة المثيرة ، التي أنسته أشجانه وما يلاقيه في حياته من ضيق وشح ، وهو ما يكاد يفيق من حلم حبه هذا ، حتى يفاجأ بأعاصير ورياح الواقع ، تعصف به وبخيمته الخفيفة ، وبماله ، تتلاعب به ، وقد ترشق وجهه بموجات متعاقبة من سموم مشبع برمال ، تجعله يغمض عينيه ويسدّ فمه ، ويبرقع وجهه ببرقع ليقيه من هذه الرياح العاتية التي تحرشت بـه من غير سبب ، مع انه انسان مسكين قنوع ، لا دخل له في وجوده في هذا المكان ،

ولد فيه عن غير عمد ولا اختيار ، وسيموت فيه وهو لا يدري لمَ يموت ، ولمَ عاش ، والى أين ذاهب . فاذا ذهبت وولت ، وركد الجو واستقر ، جلس تحت خيمته التي لا تقيه من حر ولا من برد ، ولا من شمس ولا من مطر : إلا بقدر ، ليستجم ويستريح ، أو ليستلقي على أرضها ، وليتناول أكله ، وهو أبسط أكل يأكله انسان في هذه الحياة من غير شك .

والسعيد في جزيرة العرب من ولد في مستوطنة ذات ماء . فهو في عيشة هنيئة راضية ، في بيت مهما كان نوعه ، فإنه أحسن حالاً على كل حال من بيوت الوبر أو الشعر ، يستطيع أن يشرب فيه ماءً يتناوله من منبعه ، لا من قرب خزن الماء فيها أياماً ، وأن يرى نخلاً وشيئاً من شجر وخضرة وزرع ، وصوت رجال ونساء وأطفال ، وبعض بائعين وبائعات . أي حياة جماعة . وهو أكثر سعادة وحضارة إن كانت مستوطنته على ملتقى طرق ، تمر بها القوافل لتمتار منها ميرة الطريق ، ولتأخذ منها الماء ولتسقي إبلها وترويها ، ولتشتري منها ما تجده من حاجات ضرورية ومن منتوجات موضعية ، تحتاج اليها ، أو يمكن بيعها في مواضع أخرى . وفي هذه المواضع نجد الحضارة الجاهلية ومن آثارها نستنبط التأريخ الجاهلي ، وفيها نرى معدن الرقة وموطن اللين والدماثة ، لما فيها من ظرف تهدأ النفس وتريح الأعصاب ، فصار أصحابها من ثم ألين عريكة وأسهل انقياداً من الأعراب الذين ولدوا في محيط خشن ، ونشأوا من خشونة ، فصار طبعهم من ثم غليظاً خشناً ، وهو لا يمكن أن يكون إلا كذلك ، وليس له دخل في ظهور هذا الطبع عنده .

ومن هنا صار أهل اليمن من ألين العرب عريكة ، ومن أكثرهم تعاوناً فيما بينهم . جاء في الحديث : « ان رجلاً من أهل اليمن قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : إنا أهل قاه ، فاذا كان قاه أحدنا دعا من يعينه فعملوا له، فأطعمهم وسقاهم من شراب يقال له المزر ، فقال : أله نشوة ؟ قال : نعم . قال : فلا تشربوه . قال أبو عبيدة : القاه سرعة الاجابة وحسن المعاونة ، يعني ان بعضهم يعاون بعضاً ، وأصله الطاعة . وقيل المعنى : إنا أهل طاعة لمن يتملك علينا ، وهي عادتنا لا نرى خلافها ، ، فاذا أمرنا بأمر أو نهانا عن أمر أطعناه، فاذا كان قاه أحدنا ، أي ذوقاه أحدنا دعانا الى معونته . وقال الدينوري : اذا تناوب أهل الجوخان ، فاجتمعوا مرة عند هذا ومرة عند هذا وتعاونوا على

الدياس ، فان أهل اليمن يسمون ذلك القاه ، ونوبة كل رجل قاهـة ، وذلك كالطاعة له عليهم »[1] . وجاء في الحديث : « أهل اليمن هم أرق قلوباً ، أي ألين ، وأقبل للموعظة ، والمراد ضد القسوة والشدة »[2] .

ومن هنا صار الأعرابي جلفاً صعباً خشناً ، يكره كل شيء لا يجده عنده ، لا يخضع لسلطان ، ولا يستسلم لقيادة أحد إلا لقيادة قبيلته المتمثلة في سيدها الى غير ذلك من صفات وسمات تحدثت عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وفي مواضع أخرى من الأجزاء الباقية .

والماء في أغلب أجزاء جزيرة العرب مقنن قدر بقدر ، ليس فيه فيض ، ولا زائد يحمله الى الجري الى مسافات بعيدة وبكميات كبيرة عن منبعه . ثم هو بين عيون وحسي وآبار محفورة،ومدى موارد هذه المياه مقدر محدود ، وهي لا تفيض فيض مياه الأنهار . فلم يتسع زرعها ، ولم تتحمل نشوء مجتمعات كبرى عندها ، وإنما ساعدت على ظهور مستوطنات ، لم تكن حضرية تماماً ولا بـدوية تماماً ، بل كانت متنزلة بين المنزلتين ، ودرجة وسطى بين الحضارة والبـداوة . تمكنت من إعالة نفسها ، بما توفر فيها من مواد أولية ، وبما زرعته من نخيـل وحب وخضر ، ومن بيع ما زاد عن حاجتها الى من حولها والى من كان يقصدها من الأعراب . وأوجدت فيها حرفاً ، ولكنها لم تكن حرفاً متطورة ذات انتاج واسع، لضآلة الموارد ، ولصغر المجتمع ، ولعدم وجود رؤوس الأموال الكبيرة لتشغيلها في استغلال ما قـد يكون فيها من موارد طبيعية كامنة أو ظاهرة . وفي تغرير الناس للعمل في استثمارها وفي استثمار الأرض استثماراً واسعاً ، ينتج غلة وافرة ، وفي مجتمعات صغيرة ، ذات مـوارد محدودة ، لا يمكن أن تظهر فيها رؤوس أموال كبـيرة ، وكيف تبرز رؤوس الأموال في مستوطنات فقيرة ، مواردها محدودة ، وخيراتها مقننه ، وهي في محيط فقير ، تتناولها الرياح من كل جهة ، وأعين الأعراب الجياع الفقراء لها بالمرصاد .

وقد انتشرت هذه المستوطنات وتناثرت وتبعثرت في أرضين واسعة غلب على طبعها اليباس والجفاف ، كسيت بطبقات متفاوتة السمك من الرمال، فحالت بينها

---

١ تاج العروس (٤٠٧/٩) ، (القاه) .
٢ اللسان (١٢٢/١٠) ، (رقق) .

وبين تكرين المجتمعات الكبيرة ، وبين ظهور حكومات كبيرة قوية في جزيرة العرب . وجعلت من العرب شعوباً وقبائل ، متناثرة متشاحنة ، ذات لهجات ، تشعر كل قبيلة منها ، انها أمة قائمة بذاتها ، ولها كيان خاص ، ونسب وجدّ ، ولاء أبناؤها للقبيلة ، ولرمزها : سيد القبيلة ولرؤسائها المتزعمين لفروعها ولأغصانها ، أو للمكان الذي أقامت فيه . ومجتمع مثل هذا ، حضره في مستوطنات متباعدة صغيرة ، وبدوه متباعدون متنافرون متشاحنون ، لا أمان فيه للافراد وللتجار وللمسافرين إلا بعقود وبعهود ، لا يمكن ان يظهر فيه اقتصاد متين متطور ، ذو انتاج متطور متقدم ، يفيض على حاجة أهله ، فيصدره الى الخارج ، فتخلف اقتصاده ، ولم ينتج إلا المواد الأولية البسيطة المتوفرة لديه ، مثل التمور والحبوب والخمور والجلود ، وهي سلع استهلكت في الداخل ، ولم يصدّر منها الى الخارج إلا القليل مثل الجلود ، ثم هو أخّر الزراعة وعاق أهل المال من البحث عن الماء لخوفهم من تعرضهم لغارات الأعراب الفقراء. وخطر الأعراب على الزرع لا يقل عن خطر الجراد عليه.لذلك لم يقبل المتمكن المتمول استنباط الماء ومن الزرع عليه، إلا اذا وجد نفسه في مكان مأمون وفي موضع محمي له فيه أهل وعشيرة وجوار .

أما السلع المعدنية ، فهي من حاصل مواطن الحضر ، وهي من حديد ، في الغالب،صنعت من حديد استخرج من معادن جزيرة العرب ، ومن حديد استورد من الخارج،ومن سلع حديد استوردت من الخارج ، إذا استهلكت أعيد سبكها ، ثم استعملت من جديد . وأغلبها صناعة سيوف وخناجر ، ومساحي ومناجل وما شابه ذلك من مواد ضرورية للحياة في جزيرة العرب . ولم نسمع بتصدير شيء منها الى الخارج ، لأنها لم تكن بانتاج واسع ولا باتقان لتنافس السلع المماثلة لها في الخارج ، بل نجد أن أهل جزيرة العرب كانوا يستوردون أمثالها من الخارج أيضاً ، لرخص ثمنها بالنسبة الى المنتوج المحلي ، ولتفوقها على المنتوج العربي في نقاوة المعدن وفي الصنعة والاتقان .

والمعادن في جزيرة العرب ، محدودة وبقدر وبشح في الغالب ، وقد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن وجود ذهب وفضة وخامات حديد ونحاس في مواضع من جزيرة العرب . وسأتحدث عنها أيضاً في أثناء بحثي عن الصناعة عند الجاهليين . وهي في العربية الغربية وفي العربية الجنوبية في الغالب . وقد

عرفت المواضع التي استخرج المعدن منها بـ (المعدن) و (معدن)[1] . والمعدن مكان كل شيء يكون فيه أصله ومبدؤه[2] . ولكن استخراج المعدن من منجمه وخامه ، يحتاج الى مال وعلم وأيد عاملة فنية ، لها مران وخبرة في الاستخراج وفي التنقية ، ليمكن استخراجه بكميات وافرة ، وبسعر اقتصادي مناسب ، منافس للأسعار العالية في الأسواق الأخرى . وهذه الشروط لم تكن متوفرة عند أهل الجاهلية ، لذلك لم نسمع بتصديرها من المعادن ، إلا الذهب ، حيث قدمه السبئيون للآشوريين وللعبرانيين ، رشوة وجزية كما تقول الموارد . أما المعادن الأخرى ، فلم نسمع في كتب المتقدمين على الإسلام من الأعاجم ، ولا في كتابات الجاهليين ولا في أخبار أهل الأخبار ، أنها صُدّرت الى الخارج .

وأما الأخشاب الصلدة الثقيلة القوية مثل الساج ، وهو خشب رزين قوي[3] ، ومثل الآبنوس ، والصندل ، وأمثالها ، فغير موجودة في جزيرة العرب ، وانما كانت تستورد من الهند في الغالب لعمل السفن وللأغراض الأخرى ، لأنها من أشجار تحتاج الى أمطار وحرارة ورطوبة ، وهي شروط غير متوفرة في أكثر أنحاء بلاد العرب . وفي بلاد العرب أشجار ذات خشب ، نمت في الجبال بصورة خاصة ، لذلك عرفت بـ (شجر الجبال)[4] ، سأتحدث عنها في أثناء بحثي عن الشجر ، أمدت أهل العربية الغربية والجنوبية ، بشيء من حاجتهم الى الخشب ، حيث استعملوه في البناء وفي الأثاث ، لكن أخشابها لم تكن قوية صلدة مثل الأخشاب المذكورة ، ثم ان الناس كانوا يقتطعون شجرها ولا يزرعون غيرها في مواضعها ، فقلّت ، وقلّ الخشب نتيجة لذلك ، حتى ان أهل الأخبار ليذكرون ان أهل مكة لما أرادوا تسقيف الكعبة ، لم يجدوا خشباً يصلح للتسقيف،فلما سمعوا بخبر تحطم سفينة رومية عند (الشعيبة) ، ذهبوا الى هناك ، وجاءوا بالخشب اللازم للتسقيف من ذلك الميناء . وخشب السراة،وخشب المواضع المرتفعة الأخرى، خشب لا يضاهي خشب الهند أو افريقية في الصلابة وفي المتانة والصلادة ، لذلك لم يستعمل في بناء السفن ولم يساعد في تطوير وسائل النقل في البحار .

---

١ كمجلس
٢ تاج العروس (٢٧٥/٩) ، (عدن) .
٣ تاج العروس (٦١/٢) ، (ساج) .
٤ تاج العروس (٣٣٥/٨) ، (الساسم) .

أما الأنحاء الأخرى من جزيرة العرب ، فلم يكن شجرها من النوع المنتج للخشب الصلد المتين الصالح لصناعة السفن أو لأعمال البناء ولصنع أثاث البيت وغيره ، وإذا وجد شجر ذو خشب أنبتته الطبيعة ، أو كان من زرع الانسان، فإنه لم يكن كثيراً ولا كافياً لسدّ حاجات الناس . ثم ان شجر الطبيعة – ما نبت منه في الجبال ، وما أنبت منه في السهول والمنخفضات – مشاع بين أهل المنطقة ، يقطعه من يريد ، لا يجبر قاطعه على زرع غيره في محله ، لذلك قضى عليه هذا القطع والاهمال ، وصار الخشب اللازم للنجارة وفي الأعمال الاخرى قليلاً في جزيرة العرب ، مع أنه من الوسائل المهمة الداخلة في تنمية الاقتصاد وفي الترفيه عن الناس وفي رفع مستواهم الحضاري .

ولم تعرف بلاد العرب بتصدير الخضر والأثمار والحبوب . فلم نعثر في الاخبار على خبر يفيد تصدير شيء منها الى العراق أو بلاد الشأم ، أو أي بلد آخر خارج حدود جزيرة العرب . بل نجد أنها كانت تستورد الحبوب والدقيق والزيوت من بلاد الشأم ، وذلك لان موارد الماء فيها لم تمكنها من زرع زراعة كثيفة واسعة ، فصارت زراعتها زراعة محلية في الغالب ، عمادها الاستهلاك المحلي ، أو التصدير الى الارضين المجاورة للمزارع في داخل الجزيرة وفي المواسم الجيدة وعند ظهور فيض في الحاصل ، فصارت اليمامة ريفاً لاهل مكة تمونهم بالحبوب ،وكانت سوقاً للأعراب ، تمدّهم بالتمور . وكانت الطائف ، مزرعة تمد أهل مكة بالأثمار والزبيب .

والجمل في طليعة حيوان جزيرة العرب من حيث الفائدة والشهرة . هو رمز البداوة وعنوان الصحارى،والحيوان الوحيد الذي رضي بمصادقة الأعرابي وبتمضية حياته معه ، قاطعاً الفيافي والبراري معرضاً نفسه للجوع وللعطش ، ولتحمل الحياة الشاقة الخشنة في البادية ، مع الأعراب الغلاظ الجفاة ، الذين استصعب اخوانهم أهل الحضر العيش معهم ، وهو لولاه لما تمكن الأعراب من اختراق البوادي ومن التنقل بها ، ولما طابت لهم الحياة . فخيامهم من وبره ، وشربهم وكسر حدة جوعهم من لبن نياقه ، ثم هو طعامهم عند الحاجة ، ورأس مالهم ، اذا احتاجوا الى مال . تليه الخيل والضأن والمعز والحمير وغيرها . وهي كلها دونه بكثير في تحمّل العطش والجوع ومشقات الحياة ، ثم هي لا تستطيع تحمل غلظ الأعراب وصعوبة حياتهم ، لأنها أكثر رقة من الجمل ، لذلك اجتنبت البوادي،

وعاشت على المراعـي الخضراء وعنـد مشارف الحضارة ، وشاركت الحضر في بيوتهم ، فهي من أموال العرب في الغالب ، أي الحضر والرعاة الملازمين للمراعي المتصلة بمشارف الحضارة .

ودولة الحيوان في جزيرة العرب دولة صغيرة ، اذا قيست بما يجب ان تكون عليه بالنسبة الى المساحة السطحية . وسبب صغرها ان المراعي الغنية بالعلف اللازمة لتربية الحيوان ولإكثار نسله ، لم تكن متوفرة عند أهل الجاهلية ، وان أصحاب الماشية كانوا عالة على الطبيعة ، لعسر أحوالهم وعدم تمكنهم من الانفاق على الماشية وتهيئة العلف الصحي اللازم لنمو الحيوان ولاكثار نسله، ثم إن الأحوال الاقتصادية لم تكن حسنة وعلى ما يرام ، بل كانت منخفضة ، وهذا ما حدَّ من الاستهلاك المحلي ، وحدَّ من عدد الذين كانوا يمتهنون حرفة تربيـة المواشي ، الى أسباب أخرى لا مجال للبحث عنها في هذا المكان .

والعدد العام لسكان جزيرة العرب ، في الجاهلية وحتى الآن هو قليل بالنسبة الى ما يجب ان يكون عليه اذا قسنا العدد بعدد الأميال المربعة التي تكوّن المساحة السطحية لبلاد العرب . وسبب ذلك ان المسكون المعمور منها ، قليل بالنسبة الى المهجور القفر ، والبوادي فيها أوسع وأكثر من الأرضين الصالحة للزرع وللرعي وللسكن . وان الموارد المعاشية التي تُعيّش الانسان وحيوانه ، لا تكفي في معظم أنحاء جزيرة العرب لاعاشة المجتمعات الكثيفة المكتظـة ، والمستوطنات الضخمة : فالحسي أو العيون أو الآبار أو البرك ، أو ما أشبهها من موارد ماء ، لا يمكن ان تستضيف مجتمعاً كبيراً مع توابعه من المواشي ، وهي لا تتمكن أيضاً من توفير الماء اللازم لزرع كثيف ، ولتهيئة كلأ تعلفه المواشي. لذلك صار حجم مستوطناتها يتناسب مع حجم الماء المتوفر فيها ، وانتاجها انتاج محدود ، هو حاصل زراعي في الغالب ، يختلف قلة وكثرة باختلاف حجم المساحات المزروعة ، أي سعة الماء الموجود في المستوطنة .

وفي هذه المستوطنات وفي الأرياف والقرى، نجد الملكية الفردية ، بصور متباينة. ملكية دور ثابتة ، وملكية مزارع وآبار . فالذي يحضر بئراً وينفق من ماله على حفرها تكون البئر بئره ، في امكانه بيع الماء منها للمحتاج اليه ، وفي امكانه الزرع عليها ، فيكون الزرع زرعه بالطبع ، وله بيع حاصله من تمـر أو خضر ، أو

حب . والذي أقام على مقربة من الحضر ، ولا سيما من حضر العراق وبلاد الشأم استطاع الاتجار مع تلك البلاد ، ببيع ما عنده من ماشية وجلود وبشراء ما كان يحتاج اليه من مواد ضرورية ،أو من مواد يتاجر بها مع المستوطنات ومع الأعراب. فتولد رأس المال في هذه المستوطنات ، ولا سيما في الكبيرة منها ، ذات الماء الغزير ، وجاء الرأس المال بالعبيد ، لتشغيلهم في الزرع .

أما البوادي وديار الأعراب ، فالأرض فيها للقبيلة ، ما خلا الاحماء . وأما الماء والكلأ فللجميع ، لا يمنع أحد من أبنائها من وروده ، وحق الرعي فيها للجميع . لصاحب الإبل حق رعي إبله في أي موضع شاء من حيّه ، وله أن ينقل بيته في (دبرته) ، ليجد لإبله الكلأ اللازم لها ، وأن يذهب الى البرك ومواضع الماء لأخذ ما يحتاج اليه من الماء ، الذي يكون في الغالب على ساعات أو أيام من بيته . واذا جف الكلأ واختفى خير الأرض ، اضطر للانتقال الى مواضع أخرى ، ليجد فيها ما يعلف إبله . وفي هذا المجتمع الاعرابي ، ملكية فردية ، هي ملكية الخيام وما فيها من أشياء بسيطة وملكية إبل ، وبعدد ما يملكه الإنسان من جمال ونوق ، تقدر ملكية الأفراد . وفيه شيوع : شيوع في الماء والكلأ والنار . الماء للجميع ، ما لم يكن محمياً ولا مملوكاً ، والنار للجميع ، أي حق الاحتطاب ، فلكل حق قطع الشجر وما يراه من زرع نابت غير محمي ولا مملوك .

ومجتمع على هذا النوع من البساطة في الحياة ، يكون اقتصاده بالطبع بسيطاً ، الجمل والناقة فيه ، المال ورأس المال . وكل شيء يقاس فيه على عدد من الناحية الاقتصادية ، ما يملكه الانسان من أباعر ونوق . فهو اقتصاد إبل ، الإبل فيه في محل الدراهم والدنانير أو الفضة والذهب . وهو عالم استهلاكه قليل وتصديره قليل كذلك ، ليس فيه استهلاك سلع متطورة ، وليس فيه انتاج متطور ، كل انتاجه الإبل ومشتقاتها وكفى .

وقد حالت البراري بين العرب وبين تكوين المجتمعات الكبيرة ، وعرقلت الاتصال بين المستوطنات التي بعثرتها ونشرتها هنا وهناك . وبعثرت الأعراب في البوادي على شكل قبائل وعشائر ، تغزو بعضها بعضاً طمعاً في رزق هي في حاجة اليه ، وتعقد أحلافاً فيما بينها للدفاع عن نفسها ، ثم هي توجه كل أنظارها نحو

المستوطنات ومواضع الحضر ، لتجد فيها غفلة أو موضع ضعف تدخل منه الى ديارهم لتأخذ منها كل ما يمكن أخذه ، وكل شيء يقع في أيديهم هو ثمين بالنسبة لهم ، لأنهم لا يملكون شيئاً ، والذي لا يملك شيئاً ويجهل قيم الأشياء يحسب كل شيء يقع في يديه ثميناً له قيمة . وهكذا صارت البوادي والأعرابية من عوامل القلق وعدم الاستقرار في جزيرة العرب،ومن عوامل التحاسد والتباغض والتناحر فيما بين سكانها لأتفه الأسباب ، حتى صارت من الأمراض المستعصية عند العرب ، التي لا تزال باقية حية . وفي ظروف من هذا النوع ، لا يمكن أن يظهر فيها اقتصاد متطور وانتاج كبير ، وان يرتفع مستوى حياة الناس ، فتأخر اقتصاد سكان جزيرة العرب ، وغلب على سواد الناس . وهبط بينهم مستوى المعيشة ، حتى اضطر البعض إلى وأد بناتهم خشية املاق، أو بيع أولادهم من جوع وفقر .

وقد وجدت هذه الروح الأعرابية بين الحضر كذلك ، تجسمت في العصبية للحي وللقرية ، وفي تناحر الزعماء على الزعامة والملوك على الملكية ، حتى في اليمن التي تمثل النموذج الحسن للانسان الحضري الطبع الهادىء،نجد الملوك يحاربون بعضهم بعضاً ، والزعماء يثورون على ملوكهم لأخذ عروشهم ، مما حمل الحبش والفرس والروم على التدخل في شؤونها ، فدمرت المدن والقرى والمستوطنات ، وأحرق الزرع ، وتباهى الملوك والثوار بعدد ما أحرقوه من مدن وقرى وزرع ، ومحيط تسوده الفتن والقلاقل والحروب لا بد وان يتأثر اقتصاده بها ، وأن يتأخر زرعه وعمله ، وكيف يعمل الانسان ويجازف بماله ، وهو غير مطمئن على حياته ولا واثق من يومه ولا مما سيأتيه به الغد من مصائب وأحزان !

لقد حالت البوادي بين العرب وبين ظهور اقتصاد متقدم متطور عندهم ، يقوم على تحويل المواد الأولية ، أي المواد الخام الى مواد أفيد منها وأهم ، والى انتاج كبير راق ، يجلب لهم دخلاً طيباً يرفع من مستواهم . فساءت أحوالهم وغلب الفقر عليهم . وصار معاشهم ضيقاً ، وحياتهم الاقتصادية متأخرة ، أغلب منتجاتهم بسيطة ، ليس فيها تطوير ولا تنويع ، ولا تصنيع ، وليس في أسواقهم مشترون جيوبهم منتفخة بالعملة ، ليجازف التاجر بجلب سلع متنوعة اليها،فصارت سلعهم قليلة ، اقتصرت على السلع الضرورية جداً للبيت ، وعلى الناتج الطبيعي المستحصل من الزرع أو من الحيوان ومن الحاصل المحلي في الغالب .

وقد أوجد عدم التناسق والتناسب والاتزان بين نسب توزيع الخصب الى الجدب تبايناً كبيراً في كيفية توزيع الناس ، فجعل السكان ثلاث طبقات : أهل مدر ، وهم حضر مستقرون ، وهم أرقى أهل جزيرة العرب . وأهل وبر ، وهم أعراب يقطنون البــوادي . وطبقة ثالثة ، كانت بين بين ، ووسط بين الحضر وبين البدو ، عاشت عـــلى اتصال ومقربة من الحضر ، لم تبتعـد عنهم ، ولم تفارق الماء والحضارة ، بل لازمتها ، ولم تمعن في البادية إلا في أيام الربيع عند نزول الغيث واخضرار الأرض،فتبتعد عندئذ بماشيتها الى البادية لتنعم هناك بنعمة الربيع. وهي جماعة الرعاة . والرعاة قوم بين الحضر وبــين الأعراب . كانوا متنقلة في الأصل ، فلما قاربوا الماء والحضر ، تأثروا بالظروف الجديـدة ، فاستقروا بعض الاستقرار ، وأضافوا الى رعاية الإبل ، رعاية البقر والغنم والخيل . وكان هؤلاء مادة الحضر في الغالب ، والجرثومة التي كونت المجتمع الحضري .

واقتصاد الأعراب اقتصاد واحد ، وان تنوع أصحابه قلوا أو كثروا ، قبائل كانوا أم عشائر أم أفخاذ . لأن جذوره وأسسه واحدة،هي البادية وتربية الإبل ، وليس في البادية غير كلأ وعشب وشجيرات أو أشجار ، تعلف أوراقها وأغصانها الإبل ، ويحتطبها البدو لبيع حطبها من أهل الحضر ان كانوا على مقربة منهم ، أو لاستعماله وقوداً لهم ، أو فحماً يبيعونه للحضر ، وليس فيها غير (وبر) ، وشيء من الملح ، يحملونـــه الى أهل الحواضر لبيعه منهم . وأما مشترياتهم ، فبسيطة،تمور ودقيق وأبسط أنواع الثياب وما يحتاج البيت اليه من مواد . واقتصاد من هذا النوع ، لا يساعد على ظهور رأس مال كبير ، وعـــلى حدوث تطوير في الصناعة،لذلك تخلف اقتصاد الأعراب عن اقتصاد المستوطنات والقرى بدرجات ودرجات .

أما اقتصاد أهل الحضر ، فإنه اقتصاد متطور بالقياس الى اقتصاد الأعراب : اقتصاد البداوة ، أو اقتصاد بدوي إن شئت تسميته بذلك . اقتصاد الحضر متفاوت في الدرجات ، أبسطه اقتصاد المستوطنات الصغيرة المنتشرة في بواطن جزيرة العرب وأعلاه اقتصاد المدن الواقعة في أطراف الجزيرة وعلى سواحل البحر وفي أرضين خصبة غنية بالماء وبالزرع . وقد برز بعض أهل تلك المستوطنـات في التجارة ، وبرز بعض آخر بالزراعة ، وجمع بعض آخر بين الزراعة والحرف اليدوية القائمة على أساس تحويل المنتجات الزراعية الى منتجات أخرى ، أو تحويل الجلــود الى

أدم ، أو تحويل المواد الأولية المتيسرة الى مـــواد ذات ضرورة للمجتمع . وهي إما استهلاكية ، تُوجِرَ بها في الأسواق الداخلية ، وإما انتاجية، صنعت للإستهلاك المحلي وللتصدير .

ومن أبرز المستوطنات التي ظهرت في باطن جزيرة العرب ، مستوطنات اليامة، والمستوطنات التي ظهرت على الأودية ومواضع الماء . وقد عاشت عـلى الزراعة وتربية الماشية ، وموّنت الأعراب بالتمور ، وموّنت الحجاز بالحبوب . ومنها ما كانت ملتقى طرق برية ، ربطت العربية الجنوبية بالعراق ، ومنها ما ربط بين العربية الشرقية وبلاد الشأم . وأنا آسف ، لأن أقول إن معارفنا عن المستوطنات قليلة ، لعدم وصول شيء في النصوص الجاهليه عنها ، ولعدم تطرق أهل الأخبار اليها ، إلا عندما يكون لذكرها صلة بالأيام أو بالشعر أو بالحوادث البارزة جداً التي وقعت قبيل الإسلام ، أو التي كان لها اتصال بظهور الاسلام .

وأما المستوطنات التي برزت وظهـــرت في أطراف الجزيرة ، فهي عديدة ، أشهرها وأعرفها وأعرضها ذكـــراً مكة والمدينة . مكة في التجارة ، والمدينة في الزراعة . ولا يعني ذلك،ان المدينتين المذكورتين كانتا أعظم المستوطنات المذكورة، وأبرزهما في التجارة والزراعة عند ظهور الاسلام ، وان البقيـــة الباقية ، لم تكن لاحقة بهما في الناحيتين . فقول مثل هذا لا يمكن ان يجزم به مؤرخ حصيف ، وانما جاءتهما هذه الشهرة بفضل الاسلام،فقد ظهر الاسلام في المدينتين المذكورتين، ونزل القرآن الكريم فيهما ، وأشير فيه الى أمور عديدة وقعت بهما،وعاش الرسول فيهما ، فمن هنا صار اهتمام العلماء وأهل الأخبار بهما أكثر من سائر مواضع جزيرة العرب ، ولا سيما المواضع البعيدة النائية عن المدينتين ، والتي لم يكن لها اتصال متين بظهور الاسلام ، ومن هنا كثرت أخبارهما ، حتى ظن الناس ان مكة قبل الاسلام . كانت أرض التجارة والتجار ، وقبلة جميع العرب، ومجمع أصنام كل العرب ، وموضع تكدس الأموال، وبلد الربا والمرابين . وهو استنتاج أخذ من الروايات التي قصها أهل الأخبار عنها دون نقد ولا تحليل . ولكننا لو استعرضنا ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم عن هجر وعن البحرين وبقية العربية الشرقية ، فانه يرينا على قلته ، ان مدن وقرى هذا الجزء من جزيرة العرب ، لم تكن أقل درجة في المال والتجارة والانتـاج من مكة أو المدينـــة ، إن لم تكن قد تفوقت عليهما بالفعل ، بدليل ما جاء في أخبارهم عن مقدار الزكاة والصدقات التي أرسلها عمال

الرسول والخلفاء الى المدينة ، فانها تدل على وجود تجارة وأعمال في هذه الأرضين ربما كانت قد فاقت أرباح وأعمال أهل مكة ، لكننا لا نعرف عنها شيئاً ، بسبب عدم اهتمام المؤرخين والأخباريين بأخبارها في الجاهلية ، لعدم وجود صلة لها بتأريخ الاسلام ، أو بسبب عدم وقوفهم على أخبارها ، فلم يتطرقوا لذلك الى شيء من أحوالها بصورة مفصلة،فظهرت وكأنها قد تأخرت عن مكة من النواحي الاقتصادية بكثير . وصارت مكة،بذلك،الموطن المتفوق الأول في المال وفي الزعامة وفي كل شيء في جزيرة العرب .

لقد أثر الجو اذن على اقتصاد جزيرة العرب ، كما أثر عليهم في كل شيء، حتى صيرهم على النحو المعروف،لهم خصائصهم وصفاتهم المميزة لهم عن غيرهم، ولو كان للعرب جو مثل أجواء أوروبة ، لكان شأنهم ولا شك في التأريخ شأن آخر . على كل ، فقد كتب عليهم أن يعيشوا في الجو المذكور ، وكان من نصيبهم في هذه الحياة حرارة وجفاف ، وحرارة ورطوبة ، وأرضون غلب عليها اليبس والجفاف ، فصارت موارد رزقهم شحيحة في الجاهلية، وتخلفوا عن غيرهم في الانتاج وفي الابداع ، وغلب على سوادهم الفقر . والفقر كافر لا يرحم ، ولولا (النفط) اليوم ، الذي جاء على عرب القرن العشرين بالمال ، لما تضخمت جيوب الأسياد ، وبنيت القصور الشاهقة الضخمة بالملايين من الجنيهات ، وأملي ان يكون هذا المال سبباً في استغلال العرب أنفسهم لمواردهم الظاهرة والباطنة ، وأن يكون سبباً من أسباب التعمير ، لا الانفاق والتبذير ، وأن يحول الطاقات المهملة الى طاقات منتجة ، قبل أن يأتي يوم تنضب فيه آبار النفط ،أو ان يموت النفط فيه أو يهمل،بسبب العثور على موارد تكون أحسن نوعية وأقل كلفة منه .

لقد جعل هذا الجوّ العرب — كما سبق أن ذكرت — قبائل وشعوباً متنابذة متخاصمة ، متحالفة متعاقدة متآخية ، متطرفة في كل شيء ، متطرفة في حبها وفي اخلاصها ، متطرفة في الوقت نفسه في بغضها وفي حقدها ، تميل الى المادة الى درجة العبادة ، ثم تتطرف في أمور عاطفية بعيدة عن المادة والماديات بعداً كبيراً، تمجد العقل والتعقل ، وتقيم وزناً كبيراً للحكمة ولضرب الأمثال ، حتى ليخيل إليك أن كل أفعال الناس وأعمالهم إنما تصدر منهم عن عقل وحكمة ، لكنك سرعان ما تصطدم بوجود واقع آخر ، هو واقع تغلب العواطف على العقل ، وانصياعهم الى الانفعال وسرعة التأثر وفقدان الوزن بين الأمور بميزان العقل ،

وتركهم أنفسهم فريسة لهذه العواطف ، تعبث بهم في حياتهم ، ولا تزال تعبث بهم الآن . تراهم كرماء،يقدمون أعز شيء عندهم لضيوفهم ، بإسراف وتبذير، ثم تراهم بخلاء يحرصون على أتفه الأشياء أحياناً حرصاً يدفعك على الاستغراب من وجود هــذا التضاد في الأخلاق ، أو ما نسميه بازدواج الشخصية في اصطلاح المحدثين على نحو ما تحدثت عن ذلك في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

لقد أثرت الطبيعة اذن في تكييف اقتصاد الجاهليين وفي تعيين موارده ، وفي توجيههم توجيهاً تجارياً في المواضع التي قلّ فيها الزرع ، مثل مستوطنات الأطراف حيث نجد أهلها يميلون الى التجارة ، ويرون فيها مهنة من أشرف المهن،وتوجيهاً زراعياً في المواضع التي توفرت فيها شروط الزراعة ، وتوجيهاً رعوياً في المواضع الأخرى ، لا سيما بين الاعراب . فلندخل الآن في استعراض هذا التوجيــه وفي دراسة الموارد الطبيعية لجزيرة العرب ، وفي دراسة كيفية تعامل أهل الجاهلية في الاسواق ، بعد أن قدمنا مقدمتنا القصيرة عن أثر الطبيعة في الاقتصاد .

الفصل التاسع والثمانون

الزرع والمزروعات

والزراعة هي عماد ثروة اليمن وبقية العربية الجنوبية والمواضع التي تتوفر فيها المياه في جزيرة العرب . وهي رأس مالها الاكبر في حياتها . والمورد الأول الذي يتعيش عليه النـــاس . وقد انحصرت في المواضع الخصبة ، أي في المواضع التي جادت عليها الطبيعة بالأمطار أو بالينابيع والجعافر والعيون وبالمياه الجوفية القريبة من سطح الأرض وبالحسي وما أشبه ذلك . وحيث أن أغلب أرض بلاد العرب هي أرض صحراوية موات ، لهذا فإن الزراعة فيها معدومة ، ويمكن في المستقبل احياء قسم منها ،وذلك باستخدام الوسائل الحديثة التي استنبطها العقل والتي سيستنبطها في استخراج الماء وفي اصلاح التربة ، وسيتحول شكل جزيرة العرب عندئذ عمّا هو عليــه الآن كثيراً ولا شك . وقد حولت في هذه الأيام مناطق موات ، الى أرض عمار ، تسقى بالميـــاه المنبعثة من الآبار (الارتوازية) ومن السدود التي حبست ميــاه السيول ، وصارت تنتج في مواضع عديـــدة من جزيرة العرب غلة زراعية وافرة بفضل استعمال الفن الحديث في استنباط الماء وفي كيفية الاستفادة من التربة وفي ادخال أساليب الزراعة الحديثة الى هـذه الأماكن . وقد يأتي يوم ، تتحول فيه معظم أرض جزيرة العرب الفارغة المهملة التي يخشى الانسان من ولوجها الى أرض خصبة منتجة ، اذا ما زرعت زراعة حديثة ، تناسب جو بلاد العرب وتركيب تربتها ،واستنبطت المياه الكافية من جوفها للزراعة وللشرب .

ونحن وإن كنا لا نملك مراجع جاهلية مكتوبة واسعة تتحدث عن الزراعة في

جزيرة العرب قبل الاسلام وعن أنواعها وتفاصيلها وأساليبها وطرقها وضرائبها وعن كيفية استغلال الأرض وطرق الاستفادة منها وواجب الفلاح تجاه صاحب الأرض، وعن الحاصلات السنوية ومقدار ما تأخذه الحكومة من المزارعين من ضرائب ، وأمثال ذلك من أمور متصلة بالزراعة ، لكنا قد تمكنا من تكوين رأي فيها من مراجعتنا للكتابات الكثيرة التي وصلت الينا وفيها أمور متعددة لها علاقة بهذه الموضوعات،كما ان آثار الأقنية والسدود الجاهلية المنتشرة في مختلف نواحي اليمن ، هي في حد ذاتها شاهدة على مقدار توسع اليمانيين في الزراعة في ذلك العهد. ونجد مثل هذه الآثار الجاهلية في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، وهي دليل واضح على انها كانت مزروعة معمورة،لا مغمورة مهملة كما هو شأنها في الوقت الحاضر.

أما بخصوص الزراعة واستغلال الأرضين وايجارها وجباية الضرائب عنها والعقود التي كان يعقدها الملوك مع كبار الاقطاعيين وتنظيم المياه وأمثال ذلك،فقد وصلت الينا كتابات وأوامر عامة فيها ، كان يصدرها الملوك و (الكبراء) ، يعلنونها على الناس ، ليطلعوا عليها ، وليعملوا بموجبها ، تكتب على الحجارة ، وتوضع في محلات عامة ، أو في خزانات المسؤولين وذوي الشأن،ليرجع اليها حين الحاجة.

وهنالك كتابات كتبها رؤساء عشائر وأصحاب أملاك ، عن حدود أملاكهم، أو عن تأجيرها لغيرهم ، أو عن انشاء سدود لضبط المياه وتوزيعها ، أو عن حفر آبار ، وأمثال ذلك ، وهي كلها على صفتها الشخصية ذات قيمة بالقياس إلى هذا ، لما ورد فيها من أفكار ومصطلحات فنية ، تمكننا من تكوين رأي في الزراعة والنظم الاقتصادية في العربية الجنوبية في ذلك العهد .

واذا كنا قد حصلنا على فكرة ما عن الزراعة في اليمن وفي بعض أقسام العربية الجنوبية استناداً الى الألفاظ والمصطلحات الزراعية في الكتابات الجاهلية والى الوثائق الخاصة بالأرض وبالضرائب وبالتأجير وبعقود البيع والشراء ، والى بعض الصور المنقوشة على هذه الكتابات ، فاننا لم نعثر ، ويا للأسف ، على كتابات جاهلية تتحدث عن هذه الأمور في الحجاز وفي أواسط جزيرة العرب وفي الأقسام الشرقية منها ، وآراؤنا عنها مستمدة في الدرجة الأولى من المراجع الاسلامية ومن مشاهدات السياح لمناطق الآثار ووصفهم آثار الزراعة في المناطق التي مروا بها ، ومن تقارير الخبراء (الجيولوجيين) وغيرهم من موظفي شركات النفط العاملة في جزيرة العرب .

وفي لغة المسند مصطلحات زراعية تعبر عن معان خاصة ، وفيها مسمّيات لآلات وأدوات استخدمت في الزراعة . ولا بد أن تكون لهجات أهل العربية الجنوبية أوسع ألفاظاً في الزراعة من لهجات العرب الآخرين القاطنين في الأنحاء الأخرى من جزيرة العرب ، بسبب تنوع الأجواء في العربية الجنوبية ، وما أعقب ذلك من تنوع الزرع وطرق الزراعة فيها ، أضف الى ذلك خصب التربة ووجود الماء فيها ، وجوداً لا يماثله أي مكان آخر في جزيرة العرب . فظهرت فيها ألفاظ زراعة ومصطلحات زراعية لم تعرفها عربيات بقية جزيرة العرب،اضطرت اللهجات الأخرى إلى أخذها منها ، لعدم وجودها عندها ، ونجد في معجمات اللغة وفي كتب النبات والأدب ألفاظاً زراعية ، نص العلماء على أنها من لغات أهل اليمن .

وقد حفظت الأيام بعض الحجارة المكتوبة بالمسند ، وعليها صور ، أفادتنا في تكوين فكرة عن ملامح المزارع قبل الاسلام ، وفي تبين طراز معيشته ، وشكل بعض ملابسه ، وما شابه ذلك . وبين هذه الحجارة المصورة المكتوبة ، حجر حفرت عليه صورة حرّاث حافي القدمين وقد ارتدى ثوباً بلغ ركبتيه وشد وسطه بحزام وأمسك بيده اليسرى الحبل أو النطاق المتصل بالمحراث ، وباليمين آلة على هيأة فأس من خشب ، ربما استعملها في ضرب ثوري المحراث ، أو استعملها في حفر الأرض أيضاً وفي تفتيت التراب المحفور . وقد رُبط الثوران بالمحراث، وأخذا يحرثان الأرض ، والفلاح يوجهها . ورسمت تحت الصورة صورة ثلاثة رجال ، يظهر من ملامحهم ومن شكل ملابسهم أنهم كانوا من أصحاب الأرض.

ولأهل اليمن سبق على غيرهم من أهل جزيرة العرب في الزراعة ، وهم حتى الآن على ما كانوا عليه من ميل اليها ، ويشتغل عدد منهم اليوم في المملكة العربية السعودية أجراء لغيرهم في زراعة الأرض ، أو مشاركون لأصحاب الأرض في الحاصل . أما الأعراب ، فكانوا يزدرون شأنها ، وينقصون من قدر المزارع (الحضار) . ونجد هذه النظرة الازدرائية الى المزارع عند أهل الحضر أيضاً ، حتى أن بعض الصحابة كرهوا تعاطي العمل في الأرض . حتى بعد الفتح،تاركين ذلك الى أهل الذمة . روي عن (أبي أمامة الباهلي) أنه قال ، إذ رأى سكة وشيئاً من آلة الحرث ، فقال : سمعت النبي يقول : لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الذل . قالوا في تفسيره: « لما يلزمهم من حقوق الأرض التي يزرعونها، ويطالبهم بها الولاة . بل ويأخذون منهم الآن فوق ما عليهم بالضرب والحبس ،

بل ويجعلونهم كالعبيد أو أسوأ من العبيد ، فإن مات أحد منهم ، أخذوا ولده عوضه بالغصب والظلم ، وربما أخذوا الكثير من ميراثه ويحرمون ورثته ، بل ربما أخذوا من ببلد الزارع فجعلوه زراعاً ، وربما أخذوا ماله »[1] . وهو تفسير فيه شيء من التكلف ، يفصح عن كراهية القوم للزراعة أكثر من المعنى المذكور ، وأما الحديث نفسه ، من حيث الصحة أو الضعف ، فللعلماء كلام فيه . وفي كتب الحديث أحاديث أخرى تحث على الزراعة والزرع .

وورد في الحديث أن الرسول كان يحدث جمعاً من الصحابة عن الجنة ، وعن رجل زرع في الجنة فاستوى نباته ، وعنده رجل من أهل البادية ، فلما انتهى الرسول من كلامه ، قال الأعرابي : « والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً ، فإنهم أصحاب زرع . وأما نحن ، فلسنا بأصحاب زرع »[2] .

وكراهة الزرع ، كراهية نشأت من عدم توفر الماء والأرض لأكثر الناس ، فصاروا يكرهونها، أما الذين ملكوهما فلم يزدروها ولم يغضوا من شأنها، والأعرابي لا يملك شيئاً ، فصار يكره كل شيء لا يملكه ولا يقدر عليه ، من زراعة ومن حرف ومن قيود اجتماعية ومن تنظيم ، ومن كل ما يخالف مألوفه من عرف وتقاليد . ولذلك صارت الزراعة من عمل أهل المدر ، وعمل كل من وجد لديه الماء الوافر ، ليأخذ منه ما يلزمه للزرع ، وسادات القبائل ، الذين توفر الماء عندهم ، أو كان لديهم المال لتشغيله في البحث عن الماء ، زرعوا مثل أهل الحضر ، وشغلوا العبيد وأتباعهم في الزراعة ، لما وجدوا فيها من مكسب وربح ، وكان للكثير منهم زرع وحوائط .

ونظراً لتغير الحال عند العرب في الاسلام ، وظهور الدعوة فيه الى الأمة والجماعة ، فقد حث الرسول المسلمين على الزرع ، وظهر من روى عن الرسول انه قال الزراعة أفضل المكاسب ، وذلك لما فيها من عموم الانتفاع ، حتى ان منهم من فضلها على التجارة للتوسعة على الناس ، ولما للقوت الذي يأتي منها من صلة بحياة الناس[3] . ومع ذلك ، فقد بقي العرف الجاهلي مسيطراً على عقلية السادة

١ ارشاد الساري (١٧٢/٤) .
٢ ارشاد الساري (١٩٠/٤) .
٣ ارشاد الساري (١٧١/٤) ، (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان او بهيمة الا كان به صدقة) ، صحيح البخاري (كتاب المزارعة وفي كتاب الادب في باب رحمة الناس والبهائم) ، صحيح مسلم (كتاب البيوع في باب فضل الغرس والزرع) ، زاد المسلم (٣٣٣/٢ وما بعدها) .

الكبار ، من افتخارهم بحيازة الأرض ، ومن ازدرائهم من الاشتغال بأنفسهم بها، فكانوا يستخدمون العبيد والأجراء وكُرّاء الأرض في استغلالها ، فهؤلاء وأمثالهم خلقوا للعمل في الأرض ، أما هم فقد خلقوا ليكونوا سادة ، عملهم امتلاك الأرض ، وقد ظهر من هؤلاء جيل امتلك أرضين واسعة في البلاد المفتوحة شغل فيها أهل الذمة ، والنبط وسكان الأرضين المفتوحة ، ومئات وآلافاً من الرقيق والعبيد ، كان عليهم العمل ، ولسيدهم الكسب الوفير والمغنم .

وقد يزرع أهل الحضر في جوف القرية من النخيل والأشجار ، أو داخل ما طاف به سور المدينة ، ويقال لذلك (الضامنة) ، لأن أربابها قد ضمنوا عمارتها وحفظها ، فهي ذات ضمان ، محروسة آمنة ، وتحت رعاية وعيون أصحابها . وقد يزرعون خارج قريتهم ، وخارج العمارة في البرّ ، أي في الضاحية ، ويقولون لذلك (الضاحية) . وفي كتاب النبي لأكيدر : إن لنا الضاحية من البعل ، وان لكم الضامنة من النخل[1] . وقد كان زرع أهل الطائف وأهل يثرب وقرى اليمامة واليمن وغيرها بين ضاحية وضامنة . والضاحية أوسع وأكثر بالطبع ، لاتساع العين ووفرة الماء .

ولم يكن من الممكن بالنسبة لأيام الجاهلية ، زرع مساحات واسعة بالحبوب أو الخضر والنخيل وبقية الشجر ، لصغر حجوم المياه ، وقلة المطر ، وعدم كفايته لارواء الزرع منذ بذر بذوره حتى حصاده ، وللظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت مهيمنة على مجتمع ذلك العهد ، من عدم وجود حكومات قوية كبيرة ترعى الأمن وتحمي حقوق المزارع وزرعه من العبث به ، ثم تشجيعه وتقديم المعونة له . لذلك كان من الصعب ظهور مزارع كبيرة تنتج غلات عظيمة تعرض للاستهلاك المحلي والتصدير . ولم يكن في وسع أحد انشاء مثل هذه المزارع إلا اذا كان متمكناً ذا مال ونفوذ ، وصاحب عشيرة قوية ، تحمي حقه ممن يريد الاعتداء عليه .

وزرع ، بمعنى طرح البذر . وقيل الزرع نبات كل شيء يحرث . ويقال زرعت الشجر كما يقال زرعت البرّ والشعير . والزريعة الشيء المزروع، والزرعة البذر[2] . فالزراعة اذن ، هي التي تكون بفعل انسان . بطرح بذراً أو بغرس

---

١ تاج العروس (٢٦٦/٩) ، (ضمن) .

٢ تاج العروس (٣٦٨/٥) ، (زرع) .

غرساً ، أو ينبت نبتاً . وأزرع الزرع طال . وموضع المزروع المزرعة . وقد غلب على المكان الذي يزرع براً وشعيراً[1] .

ويكون (الغرس) بفعل انسان ، يقوم بغرس الغرس . وغرس الشجر يغرسه غرساً ، أثبته في الأرض ، والغرس الشجر ، والغراس وقت الغرس[2] . فلا يكون الغرس ببذور ، وانما بغرس غرس ، ينمو ويكبر ، فيصير غرساً . ولا تعبر لفظة (غرس) عن ظهور النبات بفعل الطبيعة ، وانما تعبر عن غرس (فسيل) ليصير شجراً . من ذلك فسيل النخل ، وقضبان الكروم والأوراد،وأمثال ذلك[3] . ويعبر عن صغار الفسيل بـ (الوديّ) . وفي حديث أبي هريرة ، لم يشغلني عن النبي غرس الودي[4] . و (التغاريز) ما حول من فسيل النخل[5] .

وغرسوا الشجر سككاً . والسكة السطر المصطف من الشجر والنخيل . وقد كانت بساتين يثرب سككاً مسطرة بسطور النخل . ومنه الحديث : خير المال : سكة مأبورة ومهرة مأمورة . المأبورة المصلحة الملقحة من النخل، والمأمورة الكثيرة النتاج والنسل[6] . وغرسوا النخل أسطراً على جانبي مسايل الماء والجداول والسواقي. والسطر ، الصف من الشيء كالكتاب والشجر والنخل . يقال بنى أسطراً من نخل، وغرس سطراً من شجر ، أي صفاً[7]

وغرسوا (الكرم) سككاً كذلك . وقد يتخذون له (عريشاً) يعترش العنب . و (العريش) ، ما عرش للكرم من عيدان تجعل كهيأة السقف ، فتجعل عليها قضبان الكرم فتعترشها[8] .

ويعبر بلفظة (نَبَتَ) عن كل ما نبت من نفسه ، أي بدون فعل فاعل، وانما بفعل الطبيعة في التربة ، وذلك في الغالب المألوف . وذلك بتأثير المطر عليها، أو بتأثير السيول والطوفان والرطوبة والمياه الجارية ، وأمثال ذلك ، مما يكون سبباً

---

١ تاج العروس (٣٦٨/٥) ، (زرع) .
٢ تاج العروس (٢٠١/٤) ، (غرس) .
٣ تاج العروس (٥٨/٨) ، (فسل) .
٤ تاج العروس (٣٨٧/١٠) ، (ودي) .
٥ تاج العروس (٦٤/٤) ، (غرز) .
٦ تاج العروس (١٤٣/٧) ، (سك) .
٧ تاج العروس (٢٦٦/٣ وما بعدها) ، (سطر) .
٨ تاج العروس (٣٢٢/٤) ، (عرش) .

لنبت النبات . يقال : « نبتت الأرض وأنبتت » ، و « نبت الكلأ »[1] .

وترد لفظة (سقح) بمعنى زرع وغرس في لغة المسند[2] . وقد فسرها بعض علماء العربيات الجنوبية بمعنى هيأ المـاء وجمعه وأجرى السواقي والأرض وحفـر القنوات ومهدها للزرع ، وبعبارة مختصرة التمهيد لكل شيء ولكل عمل[3] .

التربة :

وللتربة عند العرب أسماء ، وذلك لأهميتها بالنسبة الى حياتهم . فنجد في كتب المعاجم ألفاظاً كثيرة لها ، من حيث لونها ومن حيث خصبها ومن حيث نوعهـا ومن حيث وجود الماء فيها الى غير ذلك . وهم يقولون للأرض الطيبة السهلـة التي لا يعلوها السيل (الأبهر) . وقيل الأبهر ما بين الأجبل[4] . ويقولـون : (السُخاخ) للأرض اللينة الحرّة[5] . ويقولون أرض حلاوة ، تنبت ذكور البقل[6] . و (الخصب) نقيض الجدب ، وأرض خصبة منبتة ، قابلة للزرع . و(العثعث) ما لان من الأرض ومن مكارم المنابت: وقيل الكثيب من السهل أنبت أو لم ينبت[7] . و (الجادسة) ، الأرض لم تعمر ولم تعمل ولم تحرث . ورد في الحديث : من كانت له أرض جادسة ، قد عرفت له في الجاهلية حتى أسلم ، فهي لربها . أي الأرض التي لم تزرع قط[8] .

والسبخة ، أرض ذات نزو وملح . والسباخ الأرض التي تعلوهـا الملوحة ، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر[9] .

---

١ تاج العروس (١/٥٨٨) ، (نبت) .

٢ كما في هذه الجملة : « وسقح كل اسررس وجروبس » ، أي « وزع كل الاوديه والجروب » ، Mordtmann und O. Mittwoch, Alt sud. Inchr., S. 9.

٣ وذلك كما في هذه الجملة : « صير وبقر وجرب وبقل وسقح كل اسررم وجربم » ، ومعناها « صير وحرث وعمل المدارج وزرع البقول ومهد كل الاودية والجرب » ، REP. EPIGR 3856, Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S. 35.

٤ تاج العروس (٣/٦٣) ، (بهر) .

٥ تاج العروس (٢/٢٦١) ، (سخ) .

٦ تاج العروس (١٠/٩٦) ، (حلو) .

٧ تاج العروس (١/٦٣٣) ، (عث) .

٨ تاج العروس (٤/١١٨) ، (جدس) .

٩ تاج العروس (٢/٢٦١) ، (سبخ) .

والبلوقة ، المفازة ، وهي الأرض المستوية اللينة،أو التي لا تنبت إلا (الرخامي) على رأي آخر،والثيران تولع به وتحفر أصوله فتأكل عروقه . وهي من الأرضين التي ليس بها شجر ولا تنبت شيئاً البتة على بعض الآراء . وقد يكون قفرها هذا ، وعدم انباتها سبب قول الأعراب أنها مساكن الجن . ويظهر من أقوال بعض علماء اللغة أن البلوقة أرض واسعة مخصبة ، أي على عكس ما ذكره بعض آخر ، من أنها الأرض التي لا تنبت شيئاً[1] .

ويعبر عن الأرضين الزراعية بلفظة (ارض) (أرض) في جميع اللهجات العربية الجنوبية . وهي من أصل يرد بهذا المعنى في جميع اللهجات السامية . وهي تشير في الغالب الى الأرضين المعدّة لزراعة الخضر والحبوب ، وقد يراد بها الأرضين المزروعة بالخضر والحبوب . ولذلك فلفظة (أرض) ، قد تعني أرضاً صالحة للزرع ، غير أنها غير مزروعة ، وقد تعني أرضاً مزروعة ، ويرادف هذا المعنى معنى لفظة (المزرعة) .

والقراح : الأرض لا ماء بها ولا شجر ، وقيل الأرض المخلصة للزرع والغرس ، وقيل : القراح المزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيها شجر[2] .

و (الجربة)[3] ، المزرعة . ومنه سميت الجربة المزرعة المعروفة بوادي زبيد . والجربة : القراح من الأرض المصلحة لزرع أو غرس ، واستعارها (امرؤ القيس) للنخل ، فقال :

كجربة نخل أو كجربة يثرب[4]

والركيب : المزرعة والقراح الذي يزرع فيه ، والمشارة ، أو الجدول بين الدبرتين ، أو ما بين الحائطين من النخل والكرم،وقيل ما بين النهرين من الكرم . قال تأبط شراً :

فيوماً على أهل المواشي وتارة   لأهل ركيب ذي ثميل وسنبل

وأهل الركيب ، هم الحُضّار[5] .

١ تاج العروس (٦/٢٩٩) ، (بلق) .
٢ تاج العروس (٢/٢٠٥) ، (قرح) ، المخصص (١٠/١٤٨) .
٣ بالكسر .
٤ تاج العروس (١/١٧٩) ، (جرب) .
٥ تاج العروس (١/٢٧٨) ، (ركب) .

فالركيب اذن أرض زراعة ، تكون محددة ، معينة المعالم ، يمتلكها مالك أو ملاك ، تزرع أشجاراً مثمرة في الغالب ، لا حبوباً .

والحقل ، قراح طيب يزرع فيه ، وقيل هو الموضع الجادس أي البكر الذي لم يزرع فيه قط . يقال أحقلت الأرض ، صارت ذات حقل . والمحاقل المزارع[1].

والمبقلة : الأرض التي يزرع البقل فيها . وأما المبطخة ، وتجمع على مباطخ، فالأرض التي يزرع فيها البطيخ . والمرج : الأرض الواسعة ذات كلأ وماء ، تمرج فيها الدواب حيث شاءت[2] .

والسبخة أرض ذات نز وملح ، وهي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض النبات . ولهذا لا يزرعها الفلاح ، وتترك لعدم صلاحها للزرع ، ولصعوبة استصلاحها بغسلها من الأملاح[3] . وفي جزيرة العرب سباخ رخوة قد تغوص فيها الأقدام ، لذلك ابتعد عنها المسافرون .

ويعبر في المسند عن الأرض المزروعة نخيلاً بلفظة (انخل) ، أي (نخيل) . ويراد بذلك الأرض المغروسة نخلاً . ويعبر عن الأرض المزروعة أشجاراً بلفظة (اثمر) ، أي أشجاراً مثمرة ، وعن الأرض المخصصة بزراعة الحبوب بكلمة (مذرا) (مذرى)[4] . وعن الارض التي تزرع أعناباً بـ (اعنب) ، أي بساتين الكروم .

وفسر بعض الباحثين في العربيات الجنوبية لفظة (موفرن) (موفر)، الواردة في نصوص المسند ، بمعنى الأرض الصالحة للزراعة بصورة عامة ، كما فسرها بعضهم بمعنى المزرعة والحديقة[5] . وهي في مقابل لفظة (الوفراء) في عربيتنا ، والوفراء الأرض التي لم ينقص من نبتها شيء ، والأرض التي في نباتها فرة ، أي كثرة . يقال أرض وفراء ، وهذه أرض نباتها فر ، وفرة[6] .

---

١ تاج العروس (٧/٢٨١) ، (حقل) ، القاموس (٢/٣٥٨) ، جامع الاصول (١١/٤٧٨) .
٢ عمدة القارىء (١١/٢١٤ وما بعدها) .
٣ تاج العروس ٢(/٢٦١) ، (سبخ) .
٤ REP. EPIGR., Tome, V, p. 196.
٥ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 58.
نقوش خربة معين (ص ٢٥) ، النقش رقم ١٧ .
٦ تاج العروس (٣/٦٠٥) ، (وفر) .

وقد حوّل بعض أصحاب الأرض والمزارعين الأرضين الزراعية الى بساتين وحدائق ، غرست بالنخيل والشجر الملتف درّت عليهم أرباحاً حسنة ، من بيع ثمارها . واكتسبت بعضها شهرة ، بسبب وقوع أحداث فيها ، مثل : (الحديقة) من أعراض المدينة ، كانت بها رقعة بين الأوس والخزرج[1] ، ومثل (حديقة الرحمان) ، بستان كان لمسيلمة بفناء اليمامة ، فلما قتل عندها سميت : (حديقة الموت)[2] .

والحديقة ، الروضة ذات الشجر ، والبستان عليه الحائط ، وخص بعضهم من النخل والشجر الملتف ، وخص بعضهم الشجر بالمثمر ، وقال بعضهم بل هي الجنة من نخل وعنب ، والقطعة من النخل[3] . و (المخرف) مثل (الخروفة) النخلة أو النخيل دون البستان[4] . و (المخرفة) سكة النخل والبستان من النخل[5] .

وقد وردت الجنة مفردة ومجموعة ومنكّرة ومُعرّفة في القرآن الكريم . وتقابل (كن) « Gan » و (كنّه) « Gannah » = « Gehenne » في العبرانية ؛ وهي في معنى (فردوس) الفارسية الأصل ، و « Paradise » في الانكليزية[6] . ويراد بها موضع للأشجار الجميلة التي تسرّ الناظرين والأشجار المثمرة والورد والزهر والمياه . والحديقة ذات النخيل والشجر ، أو ذات النخل والعنب . وهي البستان عند بعض اللغويين[7] . وأما (الجنينة) ، فتصغير جنة .

و (البستان) من الألفاظ المعربة . ذكر علماء اللغة أنها (معرب بوستان . فبو بمعنى الرائحة . وستان – بالكسر – الجاذب) بالفارسية[8] . و (الروضة) و (الريضة) ، مستنقع الماء من قاع فيه جراثيم ورواب سهلة صغار في سرار الأرض . وقيل الأرض ذات الخضرة ، وقيل البستان الحسن ، وقيل الروضة عشب وماء ، ولا تكون روضة إلا بماء معها أو الى جنبها ، وقيل أرض ذات مياه وأشجار وأزهار

---

١ تاج العروس (٦/٣٠٩) ، (حدق) .
٢ تاج العروس (٦/٣١٠) ، (حدق) .
٣ تاج العروس (٦/٣٠٩) ، (حدق) .
٤ الروض الانف (٢/٢٩١) .
٥ تاج العروس (٦/٨١) ، (خرف) .
٦ Ency., I, p. 1014, Hastings, p. 262, 681.
٧ القاموس (٤/٢١١) ، تاج العروس (٩/١٦٦) ، (جنن) .
٨ تاج العروس (٩/١٤٠) ، (البستان) .

طيبة . وإن كانت الرياض في أعالي البراق والقفاف ، فهي السلقان ، واحدها سلق ، وان كانت في الوطآت فهي رياض . ورب روضة فيهـا حرجات من السدر البري ، وربمـا كانت الروضة ميلاً في ميل ، فإذا عرضت جداً فهي قيعان . ورياض (الصُّمان) والحزن بالبادية أماكن مطمئنة مستوية يستريض فيها ماء السماء ، فأنبتت ضروباً من العشب ولا يسرع اليها الهيج والذبول[1] .

ويقال للبستان إذا كان محاطـاً بجدار (الحائط) ، وتجمع على حوائط . وقد وردت هذه اللفظة في كتب الحديث[2] . وهناك لفظة أخرى تؤدي هذا المعنى هي (الحظار) . ويراد بها الأرض التي فيها الزرع المحاط عليها . وقد ذكرت في كتب الحديث[3] . وذكر علماء اللغة أن من معاني (الحظار) ، الحائط وكل ما حال بينك وبين شيء ، وما يعمل للابل من شجر ليقيها البرد والريح . والجدار من الشجر يوضع بعضه على بعض ليكون ذرى للمال يرد عنه برد الشمال في الشتاء[4] .

ويعبر في المسند عن الحقول والبساتين وكل المزارع التي تكون داخل حدود القرى و (الهكر) (الهجر) أي المدن ، أو في ضواحيها وأطرافها ، بلفظة (اقنى) ، التي تعني الممتلكات ، أي المزارع المملوكة المغروسة بالشجر . أما لفظة (أرض) ، فتطلق بمعنى المزارع والأرضين المزروعة خارج حدود القرى والمدن ، وتزرع عادة بالمزروعات الواطئة ، أي : (الخضر)[5] .

وتحدد الأرضين بحدود تعين معالمها وتثبتها . ويقال للحدود (وثن) أي حد ، ويجمع على (اوثن) . وهناك لفظة أخرى تطلق على الحد هي (زنن) . وتعني الخط الفاصل الذي يعين الحدود[6] . وتجمع اللفظة على (ازنن) .

والدِّبر مشارات المزرعة ، أي مجاري مائها . وقيل : الدبار الكـردة من

---

١ تاج العروس (٥/٣٨) ، (روّض) .
٢ القاموس (٣٥٥/٢) ، (حوط) ، جامع الاصول (٤٧٧/١١) ، تاج العروس (١٢٣/٥) .
٣ جامع الاصول (٢٢٩/١١) .
٤ تاج العروس (١٥٠/٣) ، (حظر) .
٥ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 8.
٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 69, 72, Glaser 1061, Hofmus. 12.

المزرعة ، والدبار : الأنهار الصغار التي تنفجر في أرض الزرع[1] . و (الكردة)، الدبرة من المزارع ، وهي المشارات أي سواقيها . وهي من الألفاظ المعربة عن الفارسية[2] . و (المَشارة)[3] ، الكردة ، وهي من الألفاظ المعربة[4] .

ويعرف حافظ الكرم والنخل والزرع بـ (الناطر) و (الناطور) . ذكر علماء اللغة ان اللفظة من كلام أهل السواد ، ليست بعربية محضة ، ومنهم من جعلها من الألفاظ الأعجمية[5] . و (النُطّار) الخيال المنصوب بين الزرع[6] .

وقد استغل أهل اليمن الجبال والمناطق المرتفعة ، فزرعوها بمختلف المزروعات التي تلائم طبيعتها ، ففي المحلات التي يكون الجو فيها بارداً في الشتاء ولطيفاً في الربيع والصيف غرست الأشجار التي تلائم ذلك ، وزرعت في المناطق الوسط المعتدلة النباتات التي تحب اعتدال الجو . أما في التهائم والمناطق المنخفضة الحارة، فقد زرعت النباتات التي تحب هذا الجو . وبذلك تنوعت المزروعات . وتكاثرت ألوانها ، وصار في الامكان الحصول في موسم الشتاء على المزروعات التي تزرع في الصيف ببعض البلاد الباردة ، والحصول في موسم الصيف على المزروعات التي تزرع في الشتاء .

ولتحقيق غرس الجبال والمناطق المرتفعة ، لا بد من تمهيدها للزرع . وذلك بجعلها مدرّجات عريضة ، تسند جوانبها الظاهرة بالصخور والحجارة منعاً من انهيار تربتها والمزروع فيها ، ويقال لهذه المدرجات في المسند (جروب) (جرب) جمع (جربت) (جربة) . وتحمى الجربة بحائط من الحجارة . وهي تعني الحجارة المقطوعة،على سبيل المجاز المرسل من باب تسمية الكل باسم الجزء علاقة[7] .

وأهل اليمن لا يزالون يتبعون هذه الطريقة ، وفي كثير من المناطق الجبلية والهضاب المهملة الآن آثار تلك المدرجات . تتحدث عن زرع يانع في الأيام

---

١ تاج العروس (٣/١٩٧) ، (دبر) .
٢ تاج العروس (٢/٤٨٥) ، (كرد) .
٣ بالفتح .
٤ تاج العروس (٣/٥٤٢) ، (هشر) .
٥ تاج العروس (٣/٥٧٢) ، (نطر) .
٦ تاج العروس (٣/٥٧٣) ، (نطر) .
٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 43, 124, Kat. Texte, II, S. 32.

القديمة ، وهي تناجي أهل البلاد لعلّهم ينتبهون اليها فيعيدون اليها الحياة . وقد كانت زراعة الكروم ولا تزال من أهم المزروعات التي تعتمد على هذه الطريقة . وهي تتحمل جواً بارداً بعض البرودة ومعتدلاً ، ولهذا تجود بالثمر الكثير الطيب في هذه المدرّجات .

وقد أشار (بطلميوس) ، الى اتخاذ أهل النجود والجبال في بلاد العرب المدرجات لزرعها وتشجيرها.وأطلق على الجبال المكونة للقسم الجنوبي من (السراة) اسم « Climax Mons » ومعناه الجبال المدرجة ، فترى وكأنها ذات سلالم . وهذه الطريقة شائعة في اليمن حتى اليوم ، ولا سيا في جبل حضور نبي شعيب وفي الأقسام الغربية من السراة . فجبال (القليمس) « Climax Mons » التي يشير اليها (بطلميوس) ، إذن هي القسم الجنوبي من السراة الممتد في اليمن وعسير[1].

وزرع أهل (السراة) على هذه الطريقة أيضاً ، وكذلك أهل الجبال والمرتفعات، ففي استطاعة المزارع في المواضع المرتفعة الاستفادة من ماء المطر وبالتحكم فيه ، وبحصره في (الركيب) أي المشارة المزروعة ، أعني المزرعة التي يزرع بها ، والتي قد تكون ما بين ساقيتين أو الجدول بين الدبرتين ، أو المزرعة بصورة عامة. كما جاء في قول تأبط شراً :

فيوماً على أهل المواشي وتارة   لأهل ركيب ذي ثميل وسنبل[2]

لقد تبين من نتائج الفحص العام الذي قام بـه الباحثون لمواضع من العربية الجنوبية ، ان الزراعة كانت متقدمة تقدماً كبيراً في اليمن بالنسبة الى بقية أنحاء جزيرة العرب ، وأن العربي الجنوبي حرص حرصاً شديداً على الاستفادة من الأمطار في إرواء أرضه ، كما يتبين ذلك من آثار السدود التي تلاحظ في كل واد تقريباً . وهي سدود أقيمت لا لكي تتحكم في سير (السيول) وفي ضبطها خشية إغراق المدن والقرى والزرع فقط ، بل لكي يمكن خزنها في أحواض وتوجيهها الوجهة التي يريدونها في أوقات الحاجة اليها ، وذلك بواسطة أبواب

---

1 Glaser, Skizze, II, S. 215, D.G. Hogarth, The Penetration of Arabia, p. 20, Forster, II, p. 270. f.

2 تاج العروس (١/٢٧٨) ، (ركب) .

تفتح وتغلق حسب الحاجة ، وقنوات ومجاري للماء توصل إلى مواضع الزرع والحاجة إلى الماء .

وقد درس بعض الباحثين ومنهم (بوون) « R. Le Baron Bowen » حالة الإرواء والزراعة في العربية الجنوبية دراسة علمية قيّمة وقدّم لنا معلومات ثمينة عن هذا الموضوع ، جعلتنا نأخذ فكرة عن أسلوب الزراعة والري عند العرب الجنوبيين منذ الألف الثانية قبل الميلاد إلى ما بعد الميلاد[١] . ودرس غيره من الباحثين بعض أساليب الزراعة واستغلال الأرض عند العرب الجنوبيين ، ولا سيما القتبانيين وعند غيرهم أيضاً ، وفي تقارير خبراء الزراعة والنفط والمعادن الذين سبروا أرض جزيرة العرب في مواضع مختلفة منها ، بعض المعلومات المفيدة عن الزراعة وعن أمور الري عند الجاهليين .

والأودية هي من أهم مناطق الزراعة في اليمن وفي العربية الجنوبية وفي بقية أنحاء جزيرة العرب ، ففيها الخصب والنماء والماء . ويقال للوادي (سرن) (السر) و (سرم) (سرّ) ، والجمع (أسرار) ، في العربيات الجنوبية . (والسر) في قول علماء اللغة بطن الوادي وأطيبه ، وأفضل موضع فيه ، وأخصب الوادي، والذي كَمّ نداه ولم ييبس[٢] . ويقال له (نخل) في اللهجة الصفوية . وقد وردت في الكتابات الصفوية أسماء جملة أودية ، زرعوا بها[٣] .

ونجد أطراف الأودية وجروفها وقد ظهرت المستوطنات بها ، كما ظهرت عند مصبّاتها ، وذلك لاستفادتها من السيول التي قد تهطل فتملأ بطونها . وهي تشبه المستوطنات التي تظهر على شواطىء الأنهار ، حيث تستفيد من المياه الجارية في النهر . وهي مستوطنات زراعية ، جلّ زراعتها النخيل ثم الحبوب وبعض الأشجار المثمرة والخضر والبقول .

وقد عثر على كتابات عديدة بالمسند وباللهجات العربية الأخرى ، تتحدث عن حفر آبار وعن زرع وعن تملك لهذه الآبار ، وأسماء تلك الأودية والمواضع التي

---

١ The Bible and the Ancient Near East, p. 317, 321, 325, R. Le Baron Bowen, Irrigation in Ancient qataban, Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 43.

٢ تاج العروس (٣/٢٦٣) ، (سر) .

٣ CIS 269, Pars quinta, p. 44, Dunand 1330 a.

حفرت بها تلك الآبار . وهي وثائق تملك ، تبين حق صاحبها في تلك البئر .

ونجد في كتاب صفة جزيرة العرب وصف مواضع كانت غنية بالأغيال والمآجل والعيون ، وقد نبتت حولها الأشجار المثمرة والزروع ، وأنواع الخضر والبقول والأزهار ، مما يشير الى ما للماء من أهمية في احياء هذه الأرضين وفي استنباتها ، فلولا الأمطار الموسمية التي غذت اليمن بالماء الذي أولد الحياة في الأرض، لكانت اليمن قفراء مثل أكثر أرجاء جزيرة العرب ، ليس فيها نبت ولا زرع ، يكره أهلها الزراعة ويستهجنونها ، ويرون في الاشتغال بها خسة ودنية . وقد أقبل أهل هذه الأرضين التي توفرت بها مصادر الماء ، على استغلالها استغلالاً طيباً ، يدل على أن العرب لو تهيأ لهم الماء لما كرهوا الزراعة وازدروا شأن المزارعين .

واليمامة من الأرضين الخصبة في جزيرة العرب ، قال عنها أهل الأخبار : «وكانت أحسن بلاد الله أرضاً،وأكثرها خيراً وشجراً ونخيلاً من سائر الحجاز»[1]. وقد نعتت بـ (ريف مكة) ، إذ كانت تمون مكة بالحبوب ، ولولاها لما تمكنت مكة من العيش برخاء . فلما أسلم (ثمامة بن أثال بن النعمان) الحنفي سيد أهل اليمامة ، أراد العمرة ، فلما سمع بـه المشركون جاءوه ، فقالوا : يا ثمامة صبوت وتركت دين آبائك ! قال : لا أدري ما تقولون إلا اني أقسمت برب هذه البنيّة لا يصل اليكم من اليمامة شيء مما تنتفعون بـه حتى تتبعوا محمداً من آخركم .. وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة ، ثم خـرج فحبس عنهم ما كان يأتيهم منها من ميرتهم ومنافعهم ، فلما أضرّ بهم كتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحض عليها ، وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضرّ بنا ، فان رأيت أن تكتب اليـه أن يخلّي بيننا وبين ميرتنا فافعل . فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان خلّ بين قومي وبين ميرتهم »[2] . وبذلك استراحوا وعادت أقواتهم اليهم .

ويجب ان نحمل ما جاء في الشعر من (جوع قديم) لبني حنيفة ، وهم من أهل اليمامة ، محمل الأقوال التي يقولها الشعراء عند استهزائهم بخصومهم ، أو عند

---

١ تاج العروس (١١٥/٩) ، (يمم) .

٢ الاستيعاب (٢٠٦/١ وما بعدها) ، الاصابة (٢٠٤/١) ، (رقم ٩٦١) ، صحيح البخاري (كتاب الصلاة، باب الاغتسال اذا أسلم وربط الاسير في المسجد)، صحيح مسلم (كتاب الجهاد) ، زاد المسلم (٢٧٨/٢ وما بعدها) .

حنقهم على قوم لم ينالوا منهم خيراً ، أو محمل العصبيات القبلية . ورد في الشعر قول أحد الشعراء :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعه
لم يحذروا من ربها سوء العواقب واتباعه

وروي بهذه الصورة :

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن اعواز[1]

وقد ذكروا ان (بني حنيفة) كانوا قد اتخذوا إلهاً من حيس ، فأصابتهم سنة ، فعمدوا اليه فأكلوه فعيرهم الشاعر به . والحيس في تفسير علماء اللغة : تمر يخلط بالسمن وأقط فيعجن ، أو هو التمر البرني والأقط يدقان ويعجنان بالسمن عجناً شديداً ثم يندر منه نواه ، ثم يسوى كالثريد ، وهي الوطبة ، وربما جعل فيه سويق أو فتيت عوض الأقط[2] .

وذكر أن اسم اليمامة القديم هو (الجوف) ، وأن الجوف المطمئن من الأرض وهو أوسع من الشعب تسيل فيه التلاع والأودية وله جرفة[3] . فالجوف أرض خصبة ذات مياه قد تسيل وقد تكون قريبة من سطح الارض . ولما كانت اليمامة على هذه الصفة ، لا يستبعد أن تكون قد سميت بهذه التسمية .

وباليمامة أودية خصبة ، صارت من أهم مواضع الخصب فيها ، لوجود الماء فيها على مقربة من سطح الارض ولوجود العيون العذبة بها . من هذه الاودية : (العرض) . والعرض الوادي يكون فيه قرى ومياه ، أو كل وادٍ فيه نخل ، وقال بعضهم : كل وادٍ فيه شجر[4] . ومن أعراض اليمامة ، عرض شمام ، وعرض حجر . فالاول يصب في (برك) وتلتقي سيولها بـ (جو) في أسفل (الخضرمة) ، فإذا التقيا سميا (محققاً) ، وهو قاع يقطع الرمل . قال الاعشى :

---

١ الاعلاق النفيسة (٢١٧) .
٢ تاج العروس (١٣٥/٤) ، (حاس) .
٣ تاج العروس (٦٢/٦) ، (جوف) .
٤ تاج العروس (٤٥/٥) ، (عرض) .

ألم ترَ أن العرض أصبح بطنه   نخيـــلاً وزرعاً نابتاً وفصافصا

وقال المتلمس وبه لقب :

وذاك أوان العرض جنّ ذبابـه   زنابـــيره والازرق المتلمـس[1]

وفي الشعر المتقدم دلالة على خصب (العرض) ، وكثرة زرعه ونخله ، وعلى اشتغال أهله بالزراعة .

وفي اليمامة مرتفع يقال له (عارض اليمامة) . والعارض الجبل وقد جاء ذكره في الحديث[2] . وإلى ذلك أشار (عمرو بن كلثوم) بقوله :

وأعرضت اليمامة واشمخرت   كأسياف بأيدي مصلتينا[3]

ومن أودية اليمامة (العقيق) ، وهو واد واسع مما يلي (العرمة) تتدفق فيه شعاب العارض وفيه عيون عذبة الماء[4] . وبه معدن .

ومن مواضع اليمامة الحصية (قُرّان) ، موضع به ماء ونخيل ، وهـــو لبني سحيم من بني حنيفة ، ويذكر مع (ملهم)[5] . و (ملهم) موضع كثير النخل، به ماء . ويوم (ملهم) حرب نسبت لهذا المكان بين تميم وحنيفة[6] .

وكانت في الحجاز ، ولا سيما ما وقع منه شمال المدينة ، عند ظهور الاسلام، مواضع كثيرة ذات عيون ومياه جارية ، غرست بالنخيل،واشتغل أهلها بالزراعة. وقد كان وادي القرى كثير المياه بصورة خاصة،بالنسبة إلى باطن جزيرة العرب، وعلى مواضع المياه أقيمت مستوطنات وقرى عديدة ، عاشت على النخيل والزرع وعلى القوافل التي تسلك هذا الوادي تحمل التجارات . وقد وردت أسماء مواضع عامرة آهلة بالسكان في غزوات النبي ، تقع كلها في شمال (يثرب) الى فلسطين، وبين مكة ويثرب بعض مواضع مياه ، عاش سكانها على النخيل والقوافل والرعي

---

١ تاج العروس (٥/٤٦) ، (عرض) .
٢ تاج العروس (٥/٤٣) ، (عرض) .
٣ تاج العروس (٥/٤٩) ، (عرض) .
٤ تاج العروس (٧/١٥) ، (عق) .
٥ تاج العروس (٣/٤٨٨) ، (قرر) ، (٩/٣٠٩) ، (قرن) .
٦ تاج العروس (٩/٦٨) ، (لهم) .

وبعض الزرع . وكذلك وجدت بعض مواضع مياه (مكة) والعربية الجنوبية . ومن الأماكن الخصبة (وادي الغرس) ، قرب (فدك) بينها وبين (معدن النقرة) ، وكانت فيه منازل بني النضير[1] .

ومن المواضع التي استغلت في الزراعة الجرف . وهو موضع قرب المدينة على ثلاثة أميال منها ، بها كانت أموال (عمر) . ومنه حديث (أبي بكر) انه مرّ يستعرض الناس بالجرف فجعل ينسب القبائل حتى مر ببني فزارة[2] . وكان (عبد الرحمن بن عوف) يزرع به على عشرين ناضحاً ، فكان يدخل منه قوت أهله سنة[3] . أي انه كان يسقي زرعه نضحاً ، والناضح البعير أو الحمار أو الثور الذي يستقي عليه الماء ، والنضيح من الحياض ما قرب من البئر حتى يكون الافراغ فيه من الدلو ، ويكون عظيماً ، وهي ناضحة وسانية[4] .

وأرض يثرب وما تبعها من أطراف ، هي من الأرضين الخصبة ، وقد حفر أصحابها آباراً بها ، وسقوها منها ، وغرسوا عليها النخيل وزرعوا بها ، واتخذوا لهم بها (الحوائط) و (البساتين) . ويظهر أن بعضها كانت واسعة تسقى بآبار غنية بالماء ، لها جملة نواضح . وهي تظهر أن أهل المدينة كانوا مزارعين، وأن مزارعهم كانت تأتي عليهم بمال طيب ، جعل بعضهم من الأثرياء . وقد استفيد من شراج الحرة في سقي المزارع ، وكانت تستمد ماءها من الحرة . وقد كانت للزبير بن العوّام مزرعة على هذه الشراج ، كما كان لأنصاري مزرعة عليها كذلك ، وقد ورد ذكرهما في كتب الحديث بسبب اختلافهما على السقي[5] .

وتنافي هذه الأخبار المتحدثة عن اشتغال الأنصار بالزراعة ، الأخبار الأخرى التي يرويها أهل الأخبار أيضاً ، الذاكرة أن الأنصار ، أهل المدينة لم يكن لهم علم بالزراعة ولم يكونوا يقبلون عليها ، إقبال يهود خيبر وفدك ووادي القرى على الفلاحة . ويظهر أن رواياتهم هذه إنما نشأت من الوضع السيء الذي كان فيما بين الأوس والخزرج ومن تقاتلهم بعضهم مع بعض ، على الرئاسة والزعامة، وبسبب العصبية القبلية الضيقة ، فأثر كل ذلك على الزراعة في يثرب وفيما حولها

---

١ تاج العروس (٤/٢٠١) ، (غرس) .
٢ تاج العروس (٦/٥٦) ، (جرف) .
٣ الاستيعاب (٢/٣٨٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ تاج العروس (٢/٢٤٠) ، (نضح) .
٥ ارشاد الساري (٤/١٩٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/٦٣) ، (شرج) .

فجعلها متأخرة لاعتداء كل جانب منها على زرع خصمه،وقد ألهاهم عن الزرع .

وبالمدينة وأطرافها مواضع عرف الواحد منها بـ (البقيع) . والبقيع الموضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والمكان المتسع ولا يسمى بقيعاً إلا وفيه الشجر ، ومنه (بقيع الغرقد) ، وقد ورد في الحديث ، وهو مقبرة مشهورة بالمدينة . سمي بالغرقد ، بشجر له شوك فذهب وبقي الاسم لازماً للموضع، وبقيع الخيل ،وبقيع الخبجبة، وبقيع الزبير ،وبقيع الخضمات،موضع عند خرم بني النبيت [1] .

وبيثرب ثلاثة أودية مهمة هي : العقيق ، وبطحان ، وقناة [2] . وفي وادي العقيق عيون ونخيل ، وقد ذكر في الحديث[3] . والأودية المذكورة من المواضع الخصبة المنبتة في هذه المنطقة ، ومياهها قريبة من سطح الأرض ، ومن الممكن العثور عليها بسهولة بحفر الآبار بها .

ومن الأودية التي استفيد منها في الزراعة (وادي مهزور) ، وقد ذكر في الحديث . ذكر انه وادي بني قريظة ، وان الرسول قضى في سيله ان يحبس حتى يبلغ الماء كعبين . وذكر بعضهم انه يذكر مع (مذينيب) يسيلان بماء المطر خاصة ، وهو من أودية المدينة . ومن مهزور الى مذينيب شعبة تصب فيها [4] .

وقد كان من الممكن استصلاح الأرض المحيطة بيثرب ، بحفر الآبار بها ، فالماء فيها غير بعيد عن سطح الأرض ، وهو عذب أو مج لكنه يصلح للشرب ولسقي الزرع . ولما نعمت يثرب بالهدوء في عهد الرسول ، أقبل بعض المهاجرين على الزراعة فيها ، فحفروا الآبار وزرعوا عليها ، وحوّطوها ، وجنوا منها ثمراً طيباً ، ولولا الفتوحات الاسلامية التي اجتذبت اليها المهاجرين والأنصار على السواء، للخيرات الكثيرة التي كانت في الأرضين المفتوحة ، لتحولت يثرب الى بساتين ومزارع منتجة ، تمون الأماكن البعيدة عنها بالتمور وبالفواكه والخضر .

وقد زرع أصحاب الأرض بيثرب أرضهم بقولاً وحبوباً ، ومنهم من زرع تحت النخيل ، ورد أن مولى من موالي (عثمان بن مظعون) كانت في يده أرض

---

١ تاج العروس (٢٨٠/٥) ، (بقع) .
٢ تاج العروس (١٢٥/٢) ، (بطح) .
٣ تاج العروس (١٥/٧) ، (عق) .
٤ تاج العروس (٦٢٠/٣) ، (هزر) .

لآل مظعون بالحرة ، فكان يزرعها قثاءً وبقلاً [1] . ولما صارت أرض (بني النضير) خالصة لرسول الله ، كان يزرع تحت النخل في أرضهم فيدخل من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة ، وما فضل جعله في الكراع والسلاح [2] . وقد كان بنو النضير قد استغلوا أرضهم ، وأقاموا بها (الحوائط) ، ولما أسلم (مخيريق) ، وهو أحدهم ، جعل للرسول ما له وهو سبعة حوائط ، فجعلها الرسول صدقة [3] .

وذكر في بعض الروايات أن (أحيحة بن الجلاّح) ، وكان من أصحاب الأملاك بيثرب ، كانت له بساتين وأرضين يزرعها ويسقيها بالسواني فلا يعبأ بتأخر المطر وانقطاعه . ونسب بعض أهل الأخبار له هذه الأبيات :

إذا جمادي منعت قطرها   إن جناني عطن معصف
معرورف أسبل جباره   أسود كالغابة مغدودف
يزخر في أقطاره مغدق   بحافتيه الشوع والغريف [4]

ويظهر من وجود المصطلحات الآرامية والفارسية والنبطية في لغة زراع يثرب ، أنهم استعانوا في الجاهلية بالرقيق المستورد من العراق ومن بلاد الشأم في زراعة الأرض وفي انباتها ، حتى أنهم أخذوا مسمّياتها منهم ، مثل (الخربز) الذي هو البطيخ في لغة أهل مكة ، كانوا يسمونه (الخربز) ، و (الخربز) لفظة عربية معربة ، من أصل فارسي ، وقد وردت في الحديث [5] .

ونجد في مواضع من بقية جزيرة العرب مياهاً صارت مواطن لسكن ، اختلفت كثافة سكانها باختلاف مقدار الماء. وهي رحمة وغوث بالنسبة للرحل ولأهل القوافل ولذلك صارت ملاذاً استليذ به في هذه البوادي البعيدة الأبعاد الجافة القاسية ، وقد اضطرت القوافل إلى الاتجاه نحوها للوصول الى أهدافها ، لذلك صارت عقداً ، تجتمع في بعض منها جملة طرق برية ، إذ كانت ذات مياه غزيرة وعلى مفترق طرق ، تختصر الأبعاد والمسافات ، وفي هذه الأماكن ، ظهرت زراعة النخيل ، وهي زراعة تقنع بالقليل من الماء ، لامتصاصها الرطوبة من باطن الارض،وبعض

---

١ البلاذري ، فتوح (٣٢) .
٢ البلاذري ، فتوح (٣١) .
٣ البلاذري ، فتوح (٣١) .
٤ تاج العروس (٥/٤٠٤) ، (شوع) .
٥ تاج العروس (٤/٣٣) ، (الخربز) .

النباتات الاخرى ، التي لا تحتاج الى سقي كثير ، وظهرت البيوت المعدة لاستقبال التجار والمسافرين وأصحاب القوافل .

وفي العربية الشرقية مواضع قرب فيها الماء العذب من وجه الأرض ، أو ظهر على وجهها وفار على شكل عيون ، وفي هذه المواضع صار سكن وزرع تناسبت كثافته مع كثافة الماء ومدى وصوله ، حيث توقف عند ذلك المكان الذي انتهى اليه . فالماء هو الذي يحدد الزرع ويعين نوعه ، وهو الذي يقرر السكن ويثبت حده . ومن هذه المواضع التي وجد فيها سكن وزع (هجر) ، وقد اشتهرت بنخيلها ، فقصدها الأعراب لامتيار التمر منها ، حتى ضرب بها المثل في كثرة التمر ، فقيل : كمبضع تمر الى هجر . ويظهر ان مياهها كانت راكدة متجمعة، فتسببت في ظهور الأوبئة فيها . قال (عمر) « عجبت لتاجر هجر ، وراكب البحر . وانما خصها لكثرة وبائها،أي تاجرها وراكب البحر سواء في الخطر »[1].

والأحساء من المواضع المشهورة بالزراعة في العربية الشرقية ، وقد عرفت بزراعة النخيل وبعض الأشجار والخضر ، وهي لا تزال على مكانتها ، فلا تزال عيون مائها تمون الناس بماء شربهم وزرعهم . و (قطر) موضع قديم يعود عهده الى ما قبل الميلاد ، وقد أشير اليه في الكتب اليونانية واللاتينية ، وأسس به المبشرون كنائس، وقد ساهم أساقفته في المجامع الكنسية التي انعقدت للنظر في أمور الجدل بين المذاهب النصرانية ، كما اشتهرت بثياب جيدة نسبت اليها ، أشير اليها في الحديث ، كما أشرت الى ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

و (كاظمة) اسم قديم معروف ، يرد في الشعر الجاهلي وفي القصص ، جو من سيف البحر من البصرة على مرحلتين . وفيه ركايا كثيرة وماؤها شروب . وقد أشير الى قطاها في شعر لامرىء القيس[2] . و (المرائض) في ديار (تميم) بين (كاظمة) و (النقيرة) فيها أحساء[3] .

---

١ تاج العروس ٣(٦١٤/٤) ، (هجر) .
٢ تاج العروس (٤٧/٩) ، (كظم) .
٣ تاج العروس (٣٩/٥) ، (روض) .

الفصل التسعون

الزرع

ولا بد من حرث الأرض وتنقيتها من الشوائب الضارة بالزرع ، ومن تليينها، وذلك قبل الشروع بالبذر أو بالغرس . وقد كان بعضهم يحرق الأدغال والأعشاب وما يجده على الأرض المراد زرعها من زوائد وأوساخ ، وذلك للتخلص منها ، وللاستفادة منها في تقوية التربة وزيادة نمائها . ثم يقومون بحراثتها فيندمج رمادها في التربة ويصير جزءاً منها . وقد يقتلون أصول الزرع السابق وما يكون قد نبت على الارض من نبات غريب مؤذ للزرع ، قبل حراثة التربة . فاذا تم ذلك ، ونظفت التربة،سقوها بالماء ليكون من السهل على الأكار حرث الارض وتعزيقها، وربما لا يسقونها ، بل يحرثونها مباشرة . وذلك بالنسبة للأرضين التي تسقى بماء السماء ، حيث لا يتوفر الماء الجاري ، أو ماء الآبار . ومتى تمت الحراثة وقلبت التربة ، تهيأت للزرع ونظمت وفقاً لنوع الزرع الذي سيكون فيها ، على هيأة ألواح طويلة دقيقة ، أو مربعات تتخللها السواقي والقُني ، أو غير ذلك ، ثم يشرع بعد ذلك في الزرع والغرس . ويقوم الزارع نفسه في العادة بحرث أرضه واصلاحها وتمهيدها للزرع . وقد يقوم بالحراثة أشخاص مقابل أجر يدفع لهم .

والحرث والحراثة العمل في الأرض زرعاً كان أو غرساً . وقد يكون الحرث نفس الزرع . وذكر أن الحرث قذفك الحب في الأرض للازدراع ، والحرّاث الزرّاع[1] . و (الكرّاب) في مرادف الحرّاث ، والكرابة الحراثة . والكِراب

---

[1] تاج العروس (٦١٤/١) ، (حرث) .

والكرب إثارتك الأرض . و (الفلاح) في معنى الحرّاث والأكار . لأنه يفلح الأرض ، وحرفته الفلاحة . ورد : « أحسبك من فلاحة اليمن ، وهم الأكرة، لأنهم يفلحون الأرض يشقّونها » . والفلاحة الحراثة ، وهي حرفة الأكار [1] .

و (الجوّار) الأكار ، وقيل : هو الذي يعمل لك في كرم أو بستان [2] . و (الأكار) الحرّاث والزارع ، والمؤاكرة المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض . وهي المخابرة . ويعدّ الأكار من الطبقات المحتقرة عند العرب . وفي حديث قتل أبي جهل ، فلو غير أكّار قتلني . أراد به احتقاره وانتقاصه، كيف مثله يقتل مثله [3] ، فهو رجل شريف غني ثريّ ، فكيف يقتله من هو دونه في المنزلة والمكانة ، فكان يتمنى وهو مقتول ، لو كان قاتله مثله في المنزلة والمكانة .

وقد اشتهرت اليمن بالفلاحة ، ورد : « وأحسبك من فلاحة اليمن . وهم الأكرة ، لأنهم يفلحون الأرض ، يشقونها » [4] . وقد بقيت شهرة أهل اليمن بالفلاحة الى هذا اليوم ، ومنهم قوم هاجروا الى العربية السعودية للاشتغال بالفلاحة في أرضها .

وأساليب الحراثة تكاد تكون واحدة عند جميع شعوب الشرق الأدنى . وبعض الاساليب بدائي جداً ، يُستعمل في حراثة الارضين الصغيرة بصورة خاصة . فتستعمل الحجارة أو الاخشاب أو الفؤوس على اختلاف أنواعها ، وبعضها متقدم نوعاً ما اعتمد على المسحاة وعلى آلات الحراثة التي تجرها الحيوانات ، وتستعمل هذه الطريقة في حراثة المزارع الكبيرة ، ومنها سكة الحراث حديدة الفدان التي يحرث بها الارض . وينسب الى الرسول قوله : ما دخلت السكة دار قوم إلاّ ذلوا . إشارة الى ما يلقاه أصحاب المزارع من عسف السلطان وإلحاح عليهم بالمطالبات وما ينالهم من الذل عند تغير الاحوال بعده . وقد ذكرت السكة في ثلاثة أحاديث بثلاث معان مختلفة [5] . وورد في بعضها ما يفيد العكس ، أي مدح

---

١ تاج العروس (٢/ ٢٠٠) ، (فلح) .
٢ تاج العروس (١١٣/٣) ، (جار) .
٣ تاج العروس (١٧/٣) ، (أكر) .
٤ تاج العروس (١٩٩/٢) ، (فلح) .
٥ تاج العروس (١٤٣/٧) ، (سكك) .

للزراعة والزراعة وحث عليها .

وتشبه آلات حراثة الجاهليين الآلات التي يستعملها الفلاحون في بلاد العرب اليوم . وقد استعملوا (الفدان) في الفدن . و (الفدان) الثوران اللذان يفدن عليهما ، ولا يقال للواحد فدان[1] . وذكر ان (الهيس) الفدان ، أو أداته كلها بلهجة أهل اليمن ، أو بلغة أهل عُمان[2] .

ومن الآلات التي استعملت في حراثة التربة : المحفار ، وهي المسحاة وغيرها مما يحفر به[3] . والمِخَدّة ، حديدة تخدّ بها الارض[4] ، والمعول ، لتكسير الحجارة والحفر . والمسحاة ، وهي من حديد ، وصانعها سحّاء ، وحرفته السحاية[5] ، وهي لا تزال تستعمل في الحراثة وفي سد المياه وفتحها في السواقي لسقي المزارع والبساتين ، ولقلع الأعشاب والأشجار . و (المرّ) ، المسحاة أو مقبضها ، وقيل هو الذي يعمل به في الطين[6] .

ومن المصطلحات المستعملة في الحراثة ، العزق ، وهو تشقيق الارض بفأس . والأداة المعزق والمعزقة[7] . والكور الحفر ، ومنها كرت الارض كوراً أي حفرتها[8] . والجوّار الأكار ، والأكار الحفّار[9] . والتربيك في الحرث رفع الأعضاد بالمجنب[10] . والكَرَم من الارض التي عدنوها بالمعدن حتى نقّوا صخرها وحجارتها ، فتركوا مزرعتها لا حجر فيها ، وهي أفضل أرضهم . والارض الكرم يحرث فيها البرّ ، وهي سهلة لا تحتاج الى العدن[11] . والمعدن الصاقور . ويقال عدنت الارض أي أصلحتها[12] . وأما قولهم نخنختُ الارضَ فبمعنى شققتها

---

١ القاموس (٤/٢٥٥) ، (فدن) ، المخصص (١٥٢/١٠ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٩٩/٩) ، (فدن) .

٢ المخصص (١٥٢/١٠) ، القاموس (٢٦٠/٢) ، تاج العروس (٢٧٦/٤) ، (الهيس) .

٣ القاموس (٤٢/٢) ، تاج العروس (١٥١/٣) ، (حفر) .

٤ المخصص (٤٧/١٠) .

٥ تاج العروس (١٧٠/١٠) ، (سحا) .

٦ تاج العروس (٥٣٨/٣) ، (مرر) .

٧ القاموس (٢٦٤/٢) ، تاج العروس (١٢/٧) .

٨ تاج العروس (٥٣١/٣) ، (كور) .

٩ القاموس (٢٦٥/١ ، ٢٩٤) ، تاج العروس (١١٣/٣) ، (جاد) .

١٠ المخصص (١٤٨/١٠ وما بعدها) ، القاموس (٤٩/١) .

١١ المخصص (١٤٨/١٠) ، تاج العروس (٤١/٩ وما بعدها) ، (كرم) .

١٢ المخصص (١٤٨/١٠) ، تاج العروس (٢٤٧/٩ وما بعدها) ، (عدن) .

للحرث . والنخة البقر العوامل[1] . ويقال رضت الارض اذا أثرتها[2] . وأما وطدت الارض فبمعنى ردمتها لتصلب ، والميطدة خشبة يوطد بها المكان من أساس بناء وغيره ليصلب[3] . ويقال شحبت الارض شحباً وأشحبها ، اذا قشرت وجهها بمسحاة وغيرها ، وهي يمانية[4] . ويقال لكل واحد من أخاديد الارض تَلَم والجمع التِلام . وهو مشق الكراب في الارض بلغة أهل اليمن[5] . والحرق بمعنى شق الارض للحرث . وخضضت الارض بمعنى قلبتها[6] .

والحيوانات المستخدمة في الحراثة هي الثيران والحمير والخيل والجمال ، وذلك بحسب كثرة هذه الحيوانات وقلتها،ويستعمل في الحرث حيوان واحد حيناً وحيوانان حيناً آخر . وقد وصلت الينا بعض النصوص الجاهلية محفوراً فيها صور حيوانات تحرث ، تجر المحراث ويسوقها الفلاح . ويكون الكراب على البقر ، وهو الغالب، وفي المثل : « الكراب على البقر »[7] .

ويظهر من كتب الحديث أن اعتماد أهل الحجاز في الحراثة كان على البقر . وقد ورد في الحديث : « بينما رجل راكب على بقرة ، التفتت اليه ، فقالت : لم أخلق لهذا ، خلقت للحراثة »[8] . ويظهر أنهم كانوا يستعملون الكلاب في الحراثة كذلك . ففي الحديث : (كلب حرث) . وقد ورد أيضاً (كلب غنم) و (كلب ماشية) ، و (كلب صيد) ، و (كلب زراعة)[9] .

ويشتغل الفلاح بعد حراثة الارض باصلاحها ونثر الحب فيها نثراً متساوياً منتظماً ، ويستعمل لذلك بعض الآلات ، مثل (المالق)[10] و (المِمْلَقَة) .

---

١ تاج العروس (٢٨٢/٢) ، (نخخ) .
٢ تاج العروس (٣١٣/٨) ، (رضم) .
٣ القاموس (٣٤٥/١ وما بعدها) .
٤ المخصص (١٤٨/١٠) ، القاموس (٨٥/١ وما بعدها) .
٥ المخصص (١٤٨/١٠) ، القاموس (٨٣/٤) .
٦ المخصص (٢٤٨/١٠) .
٧ المخصص (١٥٠/١٠) .
٨ عمدة القاريء (١٥٩/١٢ وما بعدها) ، (باب استعمال البقر للحراثة) .
٩ عمدة القاريء (١٥٧/١٢ وما بعدها) ، جامع الاصول (٤٦١/٧ وما بعدها) ، « في ذكر الكلاب واقتنائها » ، ارشاد الساري (١٧٢/٤ وما بعدها) ، (باب اقتناء الكلب للحرث) .
١٠ كهاجر .

وهي خشبة عريضة ، تجرها الثيران ، وقد أثقلت لتستوي السنّة واللؤمة فتتلا على الحب ، وتملس التربة المثارة [1] . و (المِجَزّ) ، وهي شبحة فيها أسنان وفي طرفها نقران يكون فيها حبلان وفي أعلى الشجة نقران فيها عود معطوف ، وفي وسطها عود يقبض عليه ثم يوثق بالثورين فتغمز الاسنان في الارض حتى تحمل ما قد أثير من التراب حتى يأتيا به المكان المنخفض [2] . (والمجنب) وهي شبحة مثل المشط ، إلا أنها ليست لها أسنان ، وطرفها الاسفل مرهف يرفع بها التراب على الاعضاد والفلجان [3] .

ويعبر في عربية القرآن الكريم عن طرح البذر في الارض بلفظة (زرع) . ويقال أيضاً : زرعت الشجر كما يقال زرعت البُرّ والشعير . والزرع الإنبات . ومن هذا الاصل لفظة الزرع والزراعة [4] .

وتثار الارض وتقلب على الحبّ ، لضمان طمر الحب في التربة ، فلا يظهر على سطحها ، فتلتقطه الطيور ، ويتعرض للعوارض الجوية التي تفسده وتتلفه . ثم تسقى الارض ، ويقال للسقية الاولى العَفْر ، ثم تسقى بعد ذلك بحسب الحاجة حتى ينمو الزرع وينضج ويجمع ، فيقطع عندئذ السقي [5] .

والحِبة [6] ، بزور البقول والرياحين ، أو بزر العشب ، أو جميع بزور النبات، وبزر كل ما نبت . والحبّة أيضاً يابس البقل ، تقول العرب : رعينا الحبة ، وذلك في آخر الصيف ، اذا هاجت الارض ويبس البقل والعشب وتناثرت بزورها وورقها ، فإذا رعتها النعم سمنت عليها . ويسمّون الحبّة بعد الاندثار : القميم والقف [7] .

والبزر كل حب يبذر للنبات. والبزور: الحبوب الصغار، مثل بزور البقول وما أشبهها [8] .

---

١ المخصص (١٠/١٥٤) ، القاموس (٣/٢٨٤) ، تاج العروس (٧/٧٣) ، (ملق) .
٢ المخصص (١٠/١٥٤) ، تاج العروس (٤/١٦) ، (جز) .
٣ المخصص (١٠/١٥٤) ، تاج العروس (١/١٩١) ، (جنب) .
٤ تاج العروس (٥/٣٦٨) ، (زرع) .
٥ تاج العروس (٣/٤١٠) ، (عفر) .
٦ بالكسر .
٧ تاج العروس (١/١٩٨) ، (حبب) .
٨ تاج العروس (٣/٤٠) ، (بزر) .

و (البذر) ، ما عزل للزراعة من الحبوب . و (البذر) زرع الارض[1] .

وتزرع بعض الزروع على السواقي وأطراف مسايل الماء ، وذلك بوضع (البذر) أو (البصل) في حفر ، ثم يوضع فوقها قليل من التراب ، لمنع الطيور من التهامها ، وللمحافظة عليها من أثر الجو فيها . وقد يزرع البزر ، فإذا نبت ، تقلع النبتة الواحدة ، لتزرع في موضع آخر .

وإذا أصاب الزرع الخصب والنماء ، عبر عن ذلك بلفظة (خصب) في المسند[2]. اللفظة التي نستعملها نحن في الزراعة ، بمعنى كثرة العشب والزرع والنماء والوفرة[3].

ولا بد لنمو الزرع ونضوجه من اسقاء ، ويعبر عن السقي بلفظة أخرى هي (المكر) . والمكر سقي الارض . يقال أمكروا الارض إذا سقوها[4] .

ولتقوية الارض وإعادة الحيوية اليها ، استخدم الجاهليون التسميد . وبالسماد تعاد الى الارض بعض قوتها ، وينمو الزرع . وقد استعملوا في ذلك جملة وسائل كما يفعل المزارعون في الزمن الحاضر الذين لا يزالون يسيرون على طريقة القدماء في التسميد ، فاستعملوا فضلات الانسان والحيوانات ، كما استعملوا الزبل أيضاً . وذكر أن من أسمدتهم عذرة الناس والسرقين برماد ، يسمد به النبات ليجود[5] . والسرجين ، والسرقين ، الزبل تدبل به الأرض[6] . والمزبلة موضع الزبل ، وزبل زرعه يزبله ، سمده ، أي أصلحه بالزبل وكذلك الأرض[7] . ويقال لتسميد الأرض بالزبل (عــدن الأرض) أي أصلحها بالزبل[8] . ويقال دبل الأرض دبولاً ، بمعنى أصلحها بالسرقين ونحوه لتجود ، فهي مدبولة[9] .

ولحماية الزرع من عبث الطيور وبقية الحيوانات به ، اتخذوا وسائل عديدة لحمايته . منها : اللعين . ما يتخذ في المزارع كهيأة رجل ، أو الخيال تذعر به

---

١ تاج العروس (٣/٣٥) ، (بذر) .
٢ REP. EPIGR. 4646.
٣ تاج العروس (١/٢٣٥) ، (خصب) .
٤ تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مكر) .
٥ تاج العروس (٢/٣٨١) ، (سمد) .
٦ تاج العروس (٩/٢٣٤) ، (سرجن) .
٧ تاج العروس (٧/٣٥٤) ، (زبل) .
٨ تاج العروس (٩/٢٧٤) ، (عدن) .
٩ تاج العروس (٧/٣١٧) ، (دبل) .

الطيور والسباع والوحوش[1] . و (الخيال) ، كساء أسود ينصب على عود يخيل به للبهائم والطير فتظنه انساناً . وقيل خشبة توضع فيلقى عليهـــا الثوب للغنم اذا رآها الذئب ظنها انساناً . و (الخيلان) ، ما ينصبه الراعي عند حظيرة غنمه . وقيل : الخيال ، ما نصب في أرض ليعلم انها حمى ، فلا تقرب[2] .

الحصاد :

ويحصد الزرع بعد نضجه ، يحصد بالمنجل . وأكثر ما يستعمل في البر والشعير ونحوهما من الزرع . والمحصد ، المنجل[3] . والحصاد هو (فقل) في المسند[4] . وقد فسر بعض العلماء لفظة (خرفت) بمعنى الحصاد كذلك[5] . ولا يقصد بالحصاد هنا حصاد الحبوب وحدها ، كالحنطة والشعير ، كما نفهم من معنى اللفظـــة في عربيتنا ، وانما يقصد بها هذا ومعنى آخر هو جني الثمار وقطف الأعناب ، عند نضوجها .

ويقال لمن يحصد الحصاد بالأجرة (المحاين) ، وللعمل (المحاينة) ، يقال استأجره محاينة ، أي على الحصاد[6] .

وترد لفظة (افقل) من أصل (فقل) في النصوص الزراعية ، وهي من الالفاظ اليمانية القديمة التي وعتها كتب اللغة ، فذكرت ان (الفقل) التذرية بلغة أهل اليمن ، وان أهل اليمن يذرّون بالمفقلـــة ، وهي الحفراة ذات الاسنان ، يرفعون بها الدق ثم ينثرونه ويذرونه لاستخلاص الحب منه . و (الدق) ما قد ديس ولم يذر[7] . و (افقل) في نصوص المسند ، هي البيادر التي تتجمع من

---

١ تاج العروس (٩/٣٣٥) ، (لعن) .
٢ تاج العروس (٧/٣١٥) ، (خيل) .
٣ تاج العروس (٢/٣٣٦) ، (حصد) .
٤ Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 117.
٥ Glaser 181, CIH 197, REP. EPIGR. 3966, Mordttmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 113.
٦ تاج العروس (٩/١٨٨) ، (حين) .
٧ تاج العروس (٨/٦٥) ، (فقل) .
REP. EPIGR., VII, p. 285, Num. 4636, Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S. 157.

هذه الحبوب بعد التذرية .

وترد لفظة (خرف) في عربية القرآن الكريم بمعناها الوارد في نصوص المسند. فذكر علماء اللغة ، ان (خرف) بمعنى صرم واجتنى ، وان الاختراف بمعنى لقط النخل بسراً كان أو رطبـاً ، وأنها تعني قطف الثمر ، كما وردت لفظة (المخرفة) بمعنى البستان والنخل والسكة بين صفين من النخل : يخترف المخترف من أيهما شاء ، والمخترف هو القاطف للثمر ، وأن (المخرف) بمعنى زنبيل صغير يخترف فيه من أطايب الرطب،أو الآلة التي تخترف فيها الثمار و (الخارف) حافظ النخل ، والخرّاف النظار ، والخرافة ما خرف من النخل[1] .

وقد وردت لفظة (نحقل) بمعنى الناتج والمحصول . و (حقل) بمعنى الحاصل. أي الحاصل الزراعي المجموع من الحقل والمزرعة ، وذلك كما في هذه الجملة : « نحقل ثمنيت الفم بقـلم لس » . ومعناها : « الحاصل ثمانيـة آلاف لس من البقول » . و (لس) نوع من الكيل أو الوزن ، أو الكومـات ، أو الحزم .

ويعبر عن الدراسة بلفظـة (علص) في المسند . وفسّر بعض علماء المسند لفظة (معلصت) ، بمعنى المزرعة والحقل[2] . ولا استبعد كونهـا آلة من آلات الدراسة أيضاً .

واذا ديس الزرع قيل لذلك العمل الدق والدياس والدّراس. والإكادة كالإداسة[3] . وأما الدقّوقة ، فالبقر والحمر التي تدوس الزرع لاستخراج حبه وتهشيم سيقانه[4] . وقد تستعمل بعض الآلات لقطع سوق الزرع وتهشيمه وتهشيم السنبـل ، تجرها الثيران أو الحمير ، ويجلس عليها شخص ليثقلها ، وهي مثل العجلة ، التي تقطع الجلّ ، يقال لها (الحيلان) . وهي آلة من خشب لها محالتان كمحالة العجلة ، قد أنعلتا بحديد مضرس اذا دارتا على الجل قطعتاه ، فتجعـلان في طرفي عارضة

---

١ تاج العروس (٦/٨١ وما بعدها) ، (خرف) .

٢ Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 115, Nr. 84, RW 125, CIH 197, Glaser 181.

٣ « أكد الحنطة داسها ودرسها » ، تاج العروس (٢/٢٩١) ، « أكد » .

٤ تاج العروس (٦/٣٤٦) ، (دق) .

ضخمة ، ويقعد عليها رجل ليثقلها ، ثم يجرها الثور على الجل[1]. وأما (المقحفة) فالخشبة المتقفعة التي يقحف بها الحب ، أي يذرى[2] .

وبعد الدياسة والدراسة يذرى الطعام لفصل الحب عن التبن . ويستعملون في ذلك آلات التذرية ، وهي آلات يدوية ما زال الفلاحون يستعملونها كما كانت قبل آلاف السنين ، تتألف من مقبض طويل وأصابع في رأسه يذرى بها الهشيم في الهواء ، ليحمل الهواء التبن ، وهو خفيف الوزن إلى مكان والحب الى مكان آخر . وقد ذكر العلماء جملة أسماء لآلة التذرية ، منها (المذرى) و (المذرّة)[3] و (المروح) و (المرواح) و (الميثار)[4] و (الحفراة) ، وهي (الرفش) أيضاً[5] .

ويتولى الفلاحون دوس الحاصل بأنفسهم ، لهشم السيقان والحصول على التبن والحب . يستعملون في ذلك أرجلهم وآلات الدياسة . أما إذا كان الحاصل كبيراً، فيستعملون عندئذ الحيوان يمشي عليه ، أو بجر آلات الدياسة الثقيلة لهشم السيقان وفصل الحب عنها .

ومن عادات أهل اليمن في الدرس والدياسة التناوب ، وذلك بأن يجتمعوا مرّة عند هذا ومرة عند هذا ، فيتعاونوا على الدياس ، ويسمون ذلك (القاه). وذلك كالطاعة له عليهم ، لأنه تناوب قد ألزموه على أنفسهم ، فهو واجب لبعضهم على بعض . وقد وصف أحد أهل اليمن ذلك للرسول بقوله : « انا أهل قاه : فإذا كان قاه أحدنا دعا من يعينه ، فعملوا له ، فأطعمهم وسقاهم من شراب يقال له المزر »[6] . وكان أهل (الجوخان) يتناوبون ويتعاونون على الدياس ، يجتمعون مرة عند هذا ومرة عند هذا ، يرون التعاون فيما بينهم لزاماً عليهم ، وكالطاعة لهم ، ونوبة كل رجل قاهة[7] .

---

١ المخصص (١١/٥٥) .
٢ تاج العروس (٦/٢١٦) ، (قحف) .
٣ المخصص (١١/٥٥) ، تاج العروس (٣/٢٢٤) ، (ذر) .
٤ المخصص (١١/٥٥) .
٥ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
٦ تاج العروس ٩(/٤٠٧) ، (القاه) ، المخصص (١١/٥٥) .
٧ تاج العروس (٩/٤٠٧) ، (القاه) .

ويجمع الفلاحون الحاصل ثم يقسمونه بحسب الاتفـــاق ، إن كان هناك فلاح ورب أرض ، ليأخذ كل واحد منهما نصيبه ، أو يوزع حسب نصيب كل من الشركاء ، إن كان الزرع شركة . أو يسلم الى صاحب الزرع ، ان كان الزرع زرعه ، وكان الفلاحون عبيداً له . ويخزن الحاصل في مخازن مبنيـة ، وفي بيادر وبيدر الطعام كومه . والبيدر الموضع الذي يداس فيه الطعام ، والمكان الذي يجمع الطعام فيه . وهو (الأندر) ، و (الكدس)[1] . و (الأندر) ، كدس القمح خاصة[2] . والكُدس : الحب المحصود المجموع . وهو العرمة من الطعام والتمر والدراهم ونحو ذلك ، مما يكدس بعضه فوق بعض[3] .

وذكر علماء اللغة أن (الجرين) للحب ، والبيدر للتمر . وذكـــروا أيضاً أن الجرين موضع الـــبر ، بلغة أهل اليمن ، وان (الجرد) الطحن شديـــداً بلغة هذيل[4] .

وينقل الطعام بأوعية الى المخازن ، ومنها نوع يقال له (العيبة) ، وهو زنبيل من أدم ، ينقل فيه الزرع المحصود إلى (الجرن) في لغة همدان[5] . وهناك أسماء أوعية أخرى استعملت في نقل الحاصل من أرض الحصاد وكوم التذرية الى المخازن. ويعبر عن حمل الزرع بعد الحصاد إلى البيدر بلفظة (رفع) كأن يقال : (رفع الزرع) ، و (الرفاع) اكتناز الزرع ورفعه بعد الحصاد[6] . وأما (الغبوط) فالقبضات المصرومة من الزرع . و (الغبوط) هي القبضات التي اذا حصد البر وضع قبضة قبضة ، الواحد غبط[7] . وأما (المكتل) ،فزنبيل يحمل فيه التمر أو العنب إلى (الجرين) ، وقيل هو شبه الزنبيـــل يسع خمسة عشر صاعاً . وفي حديث خيبر : فخرجوا بمساحيهم ومكاتلهم[8]. وكان (عمال خيبر) قد خرجوا بمساحيهم

---

١ تاج العروس (٣/٣٥) ، (بدر) .
٢ تاج العروس (٣/٥٦٠) ، (ندر) .
٣ تاج العروس (٤/٢٣٠) ، (كدس) .
٤ تاج العروس (٩/١٦٠) ، (جرن) .
٥ تاج العروس (١/٤٠٢) ، (عاب) .
٦ تاج العروس (٥/٣٥٨) ، (رفع) .
٧ تاج العروس (٥/١٩٠) ، (غبط) .
٨ تاج العروس (٨/٩٤) ، (كتل) .

ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم والجيش ، قالوا : محمد والخميس معه ، فأدبروا هراباً »[1] .

و (الحنوان) ، هما الخشبتان اللتان عليهما الشبكة ينقـل عليها البُرّ[2] .
و (الوشيجة) ، ليف يُفتل ثم يشبك بين خشبتين ينقل بها البر المحصود[3] .

ويعبر عن جمع المحصولات في مواضع معينة لتحسينها ، أو لخزنهـا ، أو لتجفيفها وللمحافظة عليها بجملة ألفاظ ، منها : (الكدس) ، ويراد بها الحب المحصود المجموع ، وهو العرمة من الطعام والتمر والدراهم ونحو ذلك[4] . ومنها (المربد) ، والمربد كل شيء حبست به الإبل والغنم . ولهذا قيـل مربد النعم الذي بالمدينة . وهو أيضاً الجرين الذي يوضع فيه التمر بعد الجداد لييبس ، وهو (الأندر) بلغة أهل الشأم ، والبيدر بلغة أهل العراق[5] . وأما (المسطح)، فكان مستو يبسط عليه التمر ويجفف ، ويسمى (الجرين) يمانية[6] . وأما (الصبرة)، فما جمع من الطعام بلا كيل ووزن بعضه فوق بعض . يقال اشتريت الشيء صبرة، أي بلا وزن ولا كيل . والصبرة الكدس[7] .

وللمحافظة على الحبوب وغيرها من التلف ، اتخذت مخازن تحت الأرض تحفظ فيها سميت (مدفنن) (المدفن) في المسند[8] . ولا تزال هذه الطريقة معروفة في مواضع من جزيرة العرب حيث يخزنون القمـح وسائر الحبوب في حفر تحفر في الأرض . ويعرف (المدفن) بـ (قنت) : أي الحفرة في لغة المسند كذلك . وهي مخزن يخزن فيه الحب . وذكر (الهمداني) ، ان أهل اليمن كانوا في أيامه يحفرون حفراً في الأرض ويدفنون الذرة فيها ، ويسع المدفن خمسة آلاف قفيز الى ما هو أقل . ويسد عليه ، ويبقى على ذلك مدة طويلة . فإذا كشف المدفن ترك

---

١ سيرة ابن هشام (٢/٢٣٦ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .
٢ المخصص (١١/٥٥) .
٣ المخصص (١١/٥٥) ، تاج العروس (٢/١١١) ، (وشج) .
٤ تاج العروس (٤/٢٣٠) ، (كدس) .
٥ تاج العروس (٢/٣٤٩) ، (ربد) .
٦ تاج العروس (٢/١٦٣) ، (سطح) .
٧ تاج العروس (٣/٣٢٤) ، (صبر) .
٨ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 73.

أياماً حتى يبرد ويسكن بخاره ، ولو دخله داخل عند كشفه لتالف بحرارته[1] .

ويعبر عن قطف الثمار وجزها ، ولا سيما النخل بلفظة (الصرام) ، و(صرم) و (اصطرام)[2] . و (اصطرام) النخل اجترامه . وجرم النخل جرماً ، خرصه وجزه ، والجرام صرام النخل[3] . وتؤدي لفظة (الجداد) معنى (الصرام) كذلك، وقيل : الجداد بمعنى الحصاد والقطاف[4] .

---

١ الصفة (١٠٨) .

٢ تاج العروس (٣٦٥/٨) ، (صرم) ، جامع الاصول (٤٧٧/١١) .

٣ تاج العروس (٢٢٤/٨) ، (جرم) .

٤ تاج العروس (٣١٣/٢) ، (جدد) .

الفصل الحادي والتسعون

المحاصيل الزراعية

الحبوب :

يطلق علماء اللغة على الحنطة والشعير لفظة : (الحب)[1] . وهما عماد الخبز في جزيرة العرب حتى الآن . وتقابل اللفظة كلمة (ميرس) في المسند .

والحنطة من أهم المواد الضرورية التي يتاجر بها ، وهي (بُر) في المسند[2] . والبُر[3] ، الحنطة في لغة القرآن الكريم كذلك . وهي (قمح) أيضاً . وقد تكلم بها أهل الحجاز ، ووردت في الحديث . وذكر أنها شامية وقيل قبطية[4] . وهي آرامية الأصل ، من (قمحو) « Gamho »[5] . وهي غذاء الطبقة المترفة والموسرة في الأكثر لغلاء ثمنها بالنسبة الى الفقراء . وقد تباهى الناس وافتخروا بتقديمهم (البر) الى الضيوف[6] . و (الحنطة) من الألفاظ التي كانت شائعة عند العرب أيضاً ، فهي

---

١ تاج العروس (١٩٨/١) ، (حبب) .

٢ راجع السطر : «٩٧» من النص الموسوم ب : CIH 241, Glaser 618.

٣ بالضم .

٤ تاج العروس (٢٠٨/٢) ، (قمح) .

٥ غرائب اللغة (٢٠٢) .

٦ قال المتنخل الهذلي :

لا در دري ان أطعمت نازلكم ... قرف الحتى وعندي البر مكنوز

تاج العروس (٣٨/٣) . (بر) .

(حطاه) (خطاه) « Chittah » في العبرانية مثلاً [1] . وقد قيل لهـا (بر) في العبرانية كذلك [2] .

ويقال للحنطة : (البيضاء) ، وهي (السمراء) أيضاً [3] . و (البثنية) ، الحنطة الجيدة [4] .

وذكر (ابن المجاور) اسم موضع يقال له (بحرى) ، ذكر انه اشتهر بزرع الحنطة ، وان سكانه يزرعون الحنطة مرتين في السنة ، في كل ستة أشهر مرة [5] . واشتهرت (الطائف) بزراعة نوع من الحنطة الجيدة [6] . وأشير إلى نوع من الحنطة عرف بـ (المهرية) : قيل انها حنطة حمراء ، وكذلك سفاها ، وهي عظيمة السنبل غليظة القصب مربعة [7] .

والشعير ، أرخص من الحنطة ، ولذلك كثر استعماله في الأكـل ، فمنه كان خبز أكثر الناس [8] . ولا زال خبز أهل القرى وبعض الأعراب . وقد كان يهود المدينة يتاجرون به وبدقيق الشعير : يبيعونه في مواطنهم ، وفي الأسواق ولا سيما سوق (بني قينقاع) . وقد استدان الرسول من أحـد اليهود صاعين من دقيق الشعير .

ويقال للطحين في كتابات المسند (دققم) أي (دقيق) [9] . ويصنع بطرق مختلفة ، أشهرها (الرحى) ، التي تدار باليد ، والتي يديرها الحيوان ، والتي تدار بالقوى المائيـة . و (الطحانة) التي تدور بالماء [10] . ومع ان معظم الأسر تصنع الطحين في بيوتها ، فإن كثيراً من الناس يشترون الطحـين من الأسواق ، ويستوردونه من الخارج من بلاد الشأم في الغالب ، ويبيعونه في الأسواق المحلية . ويقال للدقيق (طحنم) في لغة المسند كذلك ، أي (طحين) [11] .

---

١ Hastings, p. 972, The Bible Dictionary, II, p. 549.

٢ Encyclopaedia Biblica, by Cheyne, Vol., II, p. 908.

٣ تاج العروس (٥/١٠) ، (بيض) .

٤ تاج العروس (٩/١٣٥) ، (بثن) .

٥ ابن المجاور (١/٢٦) .

٦ ابن المجاور (١/٢٥) .

٧ تاج العروس (٣/٥٥١) ، (مهر) .

٨ البخـاري (٥/٤٧) .

٩ راجع السطر الـ «١٢٠» من النص الموسوم بـ : CIH 241, Glaser 618.

١٠ تاج العروس (٩/٢٦٨) ، (طحن) .

١١ Handbuch, I, S. 137

ويظهر ان (الرز) لم يكن من الحبوب المعروفة عند أهل الحجاز ، أو الأماكن الأخرى من جزيرة العرب . وهو من طعام الحضر .

وقد تعود الناس استعمال حبوب أخرى بدلاً من الحنطة والشعير والذرة ، وذلك في سني الفاقة والعوز . وبعض هذه الحبوب هو من الحبوب التي تنبت بالطبيعة . ومن جملة هذه الحبوب (الطهف) ، حب يؤكل في المجهدة ضاو دقيق . لونه أحمر ، ويختبز[١] . و (العَلَس) ، وهو حبة سوداء ، إذا أجدبوا طحنوهما وأكلوها . وقيل هو ضرب من الحنطة ، يكون بناحية اليمن ، وقيل هو طعام أهل صنعاء . ويقال إنه العدس[٢] . و (البيقية) ، وهو حب أخضر يؤكل مخبوزاً ومطبوخاً ، حبه أكبر من الجلبان ينبت في الحروث[٣] . و (السلت) ، وهو حب بين الشعير والبر ، إذا نقي انجرد قشره ، فكان مثل البر . وقيل شعير لا قشر له أجرد، كأنه الحنطة يكون بالغور والحجاز[٤] . ويقال للرطب من السلت: (البيضاء)[٥] .

وقد عرفت زراعة الذرة باليمن بصورة خاصة ، كانوا يخبزونها ويستخرجون منها شراباً يقال له : (المزر) . أشير اليه في كتب الحديث والفقة ، وقد نهى الرسول عن شربه[٦] . وذكر أن المزر نبيذ الذرة والشعير والحنطة والحبوب ، وقيل نبيذ الذرة خاصة ، وقيل المزر من الذرة ، والبتع نبيذ العسل ، والجعة نبيذ الشعير ، والسكر من التمر ، والخمر من العنب[٧] .

القطنية :

ويطلق علماء اللغة على حبوب الأرض التي تدخر كالحمص والعدس والباقلاء والترمس والدخن والأرز والجلبان : (القطنية) ، وأطلقها بعض آخر على ما سوى

---

١ تاج العروس (١٨٦/٦) ، (أطهف) .
٢ تاج العروس (١٩٥/٤) ، (علس) ، المخصص (٦٤/١١) .
٣ تاج العروس (٣٠٢/٦) ، (بيقية) .
٤ تاج العروس (٥٥٤/١) ، (سلت) .
٥ تاج العروس (١٠/٥) ، (بيض) .
٦ الاصابة (١٣٧/١) ، (رقم ٥٦٧) ، (أوس بن بشير) .
٧ تاج العروس (٥٤١/٣) ، (مزر) .

الحنطة والشعير والزبيب والتمر ، أو على الحبوب التي تطبخ . وجعلها بعضهم : العدس والخلر ، وهو الماش ، والفول ، والدجر ، وهو اللوبياء ، والحمص وما شاكلها . وقد ذكر ان الخليفة (عمر) كان يأخذ من القطنية العشر[1] .

و (الحمص) معروف عند العرب ، وهو بري ، أي وحشي ، ينبت من نفسه ، وبستاني ، أي ينبت بزرع الانسان. وقد علفوا به فحول الدواب والجمال. وقد عالجوا به وبدقيقه وبنقيعه أمراضاً عديدة[2] . و (العدس) ، معروف عندهم أيضاً ، ويقال له (العلس) ، و (البلس) أيضاً[3] . وذكر ان (العلس) ، ضرب من البر جيد ، تكون حبتان منه في قشر ، يكون بناحية اليمن . وهو طعام معروف عند أهل صنعاء[4] .

والجلبان من (القطنية) (القطاني) ، نبت يشبه الماش ، أو هو حب أغبر أكدر على لون الماش إلا انه أشد كدرة وأعظم جرماً يطبخ[5] . و (الماش) ، معروف عند العرب كذلك ، يأكله الحضر ، ويداوون به[6] .

وقد أشير في القرآن الكريم الى البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل[7] . ولفظة (بقلن) ، و (بقلت) ، الواردة في نصوص المسند ، هي في مرادف (بقل) ، و (البقل) في عربيتنا ، وأما لفظة (تبقلت) ، فتقابل لفظة (تبقيل) ، ويراد بها زرع الأرض بالبقول .

والسلق من البقول ، وهو نبت ، له أوراق طوال.وأصل ذاهب في الأرض ، يطبخ ورقه . وقد ذكر ان أهل المدينة كانوا يأخذون ورق السلق ، فيجعلون فيه حبات من شعير ، ويطبخونه ، فيكون من ذلك أكل لذيذ[8] .

و (القثاء) ، الخيار ، ويقال انه اسم جنس لما يقول له الناس الخيار ، والعجور والفقوس ، وبعض الناس يطلقه على نوع يشبه الخيار . ويقال هو أخف

---

١ تاج العروس (٣١١/٩ وما بعدها) ، (قطن) ، اللسان (٣٤٤/١٣) .
٢ تاج العروس (٣٨٣/٤) ، (حمص) .
٣ تاج العروس (١٨٦/٤) ، (عدس) .
٤ تاج العروس (١٩٥/٤) ، (علس) .
٥ تاج العروس (١٨٦/١) ، (جلب) .
٦ تاج العروس (٣٥٢/٤) ، (ماش) .
٧ البقرة ٢٢ ، الآية ٦١ .
٨ عمدة القارىء (١٨٢/١٢) ، صحيح البخاري (١٠٩/٢) ، تاج العروس (٣٨٢/٦)، (سلق) .

من الخيار[1] . ويطلق العرب لفظة (الشعارير) على القثاء الصغير[2] . وذكر بعض علماء اللغة أن الخيار شبه القثاء ، وأن اللفظة ليست بعربية أصيلة [3] . وهي من أصل فارسي ، هو (خيار) ، ولهم نوع آخر من الخيار اسمه (خيار جنبر)[4]. وأما لفظه (القثاء)، من المعرّبات كذلك ، عربت من أصل آرامي[5] . و (القثد) نبت يشبه القثاء ، وقيل ضرب منه ، وهو القثاء المدور ، أو هو الخيار . وفي الحديث انه كان يأكل القثد بالمجاج[6] . والمجاج العسل .

ويقال للقثاء (قشّايم) (قشّائم) « Kishshu'im » في العبرانية، و (قثوتو) في لغة بني إرم . ويظهر أن لفظة (قثّاء) من الألفاظ القديمة . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنها من الألفاظ الإرمية في الأصل[7] . أما لفظة (خيار) فيرون أنها من أصل فارسي[8] .

وذكر علماء اللغة أن (الفقّوس) ، هو البطيخ الشامي ، والذي يقال له البطيخ الهندي ، بلغة أهل مصر ، والحبحب بلغة أهل اليمن[9] .

وقد اختلف علماء التفسير واللغة في معنى (الفوم) ، فذهب بعضهم الى انه الثوم ، وقال بعض آخر الحنطة ، وهو لغة قديمة فيها . وذهب بعض آخر ، الى انه الحنطة وسائر الحبوب التي تخبز ، كما ذهب جماعة الى ان الفومة هي كل عقدة من بصلة أو ثومة أو لقمة عظيمة[10] .

والثوم ، بقلة معروفة كثيرة بأرض العرب، يأكلونها ويداوون بها نيئة ومعجونة، ومسحوقة ، ومطبوخة ، ومسلوقة[11] .

---

١ تاج العروس (١/١٠٠) ، (أقثأ) .
٢ تاج العروس (٣/٣٠٤) ، (شعر) .
٣ تاج العروس (٣/١٩٥) ، (خير) .
٤ غرائب اللغة (٢٢٦) .
٥ غرائب اللغة (٢٠٠) .
٦ تاج العروس (٢/٤٥٩) ، (قثد) .
٧ Encyclopaedia Biblica, by Cheyne, Vol., I, 965, Hastings, p. 271, Hastings, A Dictionary, Vol., I, p. 531.
٨ غرائب اللغة العربية (ص ٢٢٦) .
٩ تاج العروس (٤/٢٠٩) ، (فقس) .
١٠ تاج العروس (٩/١٥) ، (فوم) .
١١ تاج العروس (٨/٢٢٠) ، (الثوم) .

والبصل معروف وواحدته بصلة . وذكر انه (الفراريس) ، أو (الفراديس)[1]. وهم يداوون به ، ويضرب به المثل ، فيقال : أكسى من البصل[2] .

الكمأ :

والكمأ نبات معروف في جزيرة العرب ، يخرج من غير زرع كما يخرج الفطر . والعرب تسميه (جُدري الأرض) ، ويقال لبائعه (الكمّاء) . وقد استعمل العرب ماءه لشفاء العين . وقد أشير اليه في الحديث . وهو من النبات الذي يقتات به في أوقات ظهوره[3] . والكمأة السوداء خيار الكمأة. وأما (الجبأة)، فالكمأة الحمراء ، وقال بعض علماء اللغة الجبأة هنة بيضاء كأنها كمأة[4] .

وأما (الفطر) ، فهو ضرب من الكمأة . وقد ذكر علماء اللغة أنه قتال[5] . وقد أخذوا هذه الفكرة من وجود فصائل سامة منه . إلا أن بينه ما هو غير سام .

وذكر علماء اللغة أسماء أنواع عديدة لنباتات تشاكل الكمأة ، منها : العرجون، والطرثوث ، نبت رملي طويل مستدق كالفطر ، يضرب الى الحمرة وييبس ، يؤكل منه حلّز ، وهو الأحمر ، ومنه مرّ وهو الأبيض ، وذكر بعض علماء اللغة أن الطرثوث نبت على طول الذراع ، لا ورق له ، كأنه من جنس الكمأة[6] و (الطرثوث) و (الضغبوس)[7] . وذكر بعض علماء اللغة ، أن (الضغابيس) صغار القثاء ، جمع ضغبوس . وقيل : هي أغصان شبه العراجين تنبت بالغور ، في أصول الثمام والشوك طوال حمر ، وهي التي تؤكل ، أو نبات كالهليون ، ينبت في أصل الثمام يسلق بالخل والزيت ويؤكل[8] .

---

١ تاج العروس (١٥/٩) ، (فوم) .
٢ تاج العروس (٢٢٨/٧) ، (بصل) .
٣ تاج العروس (١١٢/١) ، (كمأ) ، المخصص (٢/١٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٥٠/١) ، (جبأ) .
٥ تاج العروس (٤٧٠/٣) ، (فطر) .
٦ تاج العروس (٦٣١/١) ، (طرثوث) .
٧ المخصص (٢/١٢ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (١٧٦/٤) ، (الضغابيس) .

وهناك بقول برية ، منها (القلقلان) ، و (البسباس)[1] ، و (الذرق)[2] ، و (النفل)[3] ، و (الملاح)[4] .

فصيلة اليقطين :

و (اليقطين) في تعريف علماء العربية : ما لا ساق له من النبات ونحوه ، أو كل شيء ذهب بسطاً في الأرض ، نحو القرع ، والبطيخ ، والشريان ، والدباء ، والحنظل ، ونحوها[5] . فكل هذا النبات هو من اليقطين.

واليقطين ، مذكور في القرآن الكريم[6] . وقد ذهب بعض علماء التفسير الى ان المراد من اليقطين في القرآن الكريم ، القرع ، وذهب بعض آخر ، الى انه الدباء ، وذهب بعض آخر الى انه البطيخ . وذهب قوم الى ان اليقطين شجرة غير ذات أصل من الدباء ونحوه أو غيره . وقد ذكروا ان أمية بن أبي الصلت أشار الى قصة (يونس) ، وكيف ان الله أنبت عليه شجرة من يقطين ، أظلته وعاش عليها ، وذلك قبل الاسلام ، إذ قال :

فأنبت يقطيناً عليه برحمة   من الله لولا الله ألفي ضاحيا[7]

وذكر ان (القرع) ، حمل اليقطين ، وكان النبي يحبه . وأكثر ما تسميه (الدباء) ، وقلّ من يستعمل القرع[8] .

والبطيخ من المزروعات المعروفة في بلاد العرب[9] . وعرف أيضاً بـ (الخربز). وهي لفظة معربة من أصل فارسي هو (خربوزة)[10] . وقد وردت لفظة (الخربز)

---

١ تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) .
٢ تاج العروس (٣٥١/٦)، (ذرق) .
٣ تاج العروس (١٤١/١) ، (نفل) .
٤ تاج العروس (٢٢٩/٢) ، (ملح) .
٥ تاج العروس (٣١١/٩) ، (قطن) .
٦ الصافات ، ٣٧ ، الآية ١٤٦ .
٧ تفسير الطبري (٦٤/٢٣ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٤٦٢/٥) ، (قرع) .
٩ القاموس (٢٥٧/١) ، تاج العروس (٢٥٣/٢) ، (البطيخ) .
١٠ القاموس (١٢٥/٢) ، تاج العروس (٣٣/٤) ، (الخربز) .

في الحديث ، مما يدل على انها كانت معروفة في الجاهلية . والظاهر انها وردت من العراق بواسطة التجار العرب أو التجار الفرس الذين كانوا يتاجرون مع الحجاز ، أو بواسطة الرقيق المستورد من هنالك ، والذي استخدم في الزراعة في هذه الديار .

وذكر علماء اللغة أن (الحبحبة) البطيخ المعروف بالبطيخ الشامي ، الذي يسميه أهل العراق: (الرقي) والفرس تسميه : (الهندي) لما أن أهل العراق يأتيهم من جهة (الرقة) ، والفرس من جهة الهند ، وأن أصل منشئه من هنالك . وذكر بعض علماء اللغة أنه يسمى (الجوح) ، ويسميه المغاربة : (الدلاع)[1] .

والحنظل ، معروف جداً عند العرب ، وهم يداوون به ، ويعالجون به أمراضاً كثيرة،ولا زال الأعراب يقيمون له وزناً كبيراً في طبهم . ويأكلون حبه أيضاً .

النبات الشائك :

ومن فصائل النبات عند العرب ، النبات الشائك ، أي ذو الشوك . وهو كل نبات به شوك ، وأرض شاكة كثيرة الشوك . وشجرة مشوكة كثيرة الشوك ، وأرض مشوكة فيها السحاء والقتاد والهراس ، وذلك لأن هذا كله شاك . والسحاء، نبت شائك ، له زهرة حمراء في بياض تسمى (البهرمة) ، يرعاه النحل عسله غاية[2] . و (القتاد) ، شجر صلب له شوكة كالابر ، وجناه كجناة السمر ، ينبت بنجد وتهامة . قال بعض علماء اللغة ، إنه من العضاه ، وهو ضربان . فأما القتاد الضخام ، فانه يخرج له خشب عظام ، وشوكة حجناء قصيرة . وأما القتاد الآخر ، فإنه ينبت صعداً لا ينفرش منه شيء ، وهو قضبان مجتمعة ، كل قضيب منها ملآن ما بين أعلاه وأسفله شوكاً . وفي المثل : من دون ذلك خرط القتاد . وقد ذكر أن الإبل لا تأكل القتاد إلا في عام جدب ، فيجيء الرجل ويضرم فيه النار حتى يحرق شوكه ثم يرعيه إبله ، ويسمى ذلك التقتيد . والتقتيد هو أن تقطع القتاد ، فتحرقه ، أي شوكه،فتعلفه الإبل ، فتسمن عليه ، وذلك عند الجدب[3] .

---

١ تاج العروس (١/١٩٩) ، (حبب) ، (٢/١٣٤) ، (جوح) .
٢ تاج العروس (١٠/١٧١) ، (سحا) .
٣ تاج العروس (٢/٤٥٨) ، (قتد) .

و (الهراس) ، شجر شائك ، شوكه كأنه حسك ، ثمره كالنبق ، قال بعض علماء اللغة : انه شجر ، وقال بعض آخر انه بقل ، أو شوك من أحرار البقول[1] . و (الحسك) ، نبات له ثمرة خشنة تعلق ثمرته بصوف الغنم ووبر الإبل في مراتعها ، وعند ورقه شوك ملزز صلب ذو ثلاث شعب ، لا يكاد أحد يمشي في أرض حسكة ، إلا أحد في رجليه حذاء[2] . و (النفل) ، نبت من أحرار البقول ،ومن سطاحه ، ينبت متسطحاً وله حسك ، قيل : هو قت البرّ ، تأكله الإبل والخيل وتسمن عليه[3] .

والعوسج ، شجر من شجر الشوك ، له ثمر أحمر مدوّر ، كأنه خرز العقيق. وقيل : هو شجر كثير الشوك ، وهو ضروب ، منه ما يثمر ثمراً أحمر يقال له المقنع فيه حموضة . والعوسج المحض ، يقصر أنبوبه ويصلب عوده ولا يعظم شجره ، فذلك قلب العوسج ، وهو أعتقه[4] . وذكر ان (المصعة) ثمرة العوسج وحمله ، وهو قدر الحمصة حلو طيب يؤكل ، أحمر ، ومنه قولهم : هو أحمر كالمصعة ، ومنه اسود لا يؤكل على أردأ العوسج وأخبثه شوكاً[5] .

---

١ تاج العروس (٢٧٢/٤) ، (هرس) .
٢ تاج العروس (١١٩/٧ وما بعدها) ، (حسك) .
٣ تاج العروس (١٤١/٨) ، (نفل) .
٤ تاج العروس (٧٤/٢) ، (عسج) .
٥ تاج العروس (٥١٢/٥) ، (مصع) .

الفصل الثاني والتسعون

الشجر

الشجر في تعريف علماء اللغة : ما قام من النبات على ساق ، أو ما سما بنفسه دق أو جل ، قاوم الشتاء ، أو عجز عنه[1] . وتطلق اللفظة على كل الشجر ، مهما كان أصله ، شجر زرعه إنسان بغرس ، أو بحب . أو شجر أنبتته الطبيعة. شجر الحضر ، أي الشجر الذي يعيش بين أهل المدر ، وشجر وحشي ، نبت على الجبال أو في البوادي ، دون أن تتعهده يد إنسان .

والشجر : شجر مثمر ، وشجر غير مثمر . ثم هو أهلي ، أي من غرس وزرع الانسان ، وبري أي من انبات وغرس الطبيعة . والعادة ان ثمر الشجر الأهلي أطيب وألذ من ثمر الشجر البري ، لاعتناء الانسان به ورعايته له. ويستعمل الشجر الذي لا ثمر له ، حطباً أو في أعمال البناء إن كان ذا خشب جيد ، وفي أعمال أخرى . وفي جبال (السراة) أنواع من أشجار الجبال . ومن الأشجار المثمرة النخيل وسائر أشجار الفواكه .

وقد وجد النخل في كل مكان من جزيرة العرب فيه ماء ولو كان قليلاً . وهو شجر صبور ، يصبر على العطش طويلاً ، ومن أجل ذلك صار مثل الجمل رمزاً للصحراء . ولم ينفر العربي من زراعة النخيل نفوره من زراعة أشجار الفواكه والخضر بوجه خاص . وقد تخصص بزراعة النخل المستقرون بالطبع .

---

1 تاج العروس (٣/٢٩١) ، (شجر) .

أما الأعراب ، فإنهم لاضطرارهم الى التنقل من مكان الى مكان،ولعدم استقرارهم في موضع واحد استقرار أهل الحضر ، لم يكن ميسوراً لهم غرسه . ثم انهم كانوا يزدرون الزراعة بجميع أنواعها ، وفي ضمنها زراعة النخيل ، وأية زراعة أخرى بلا استثناء .

والنخل ، هو شجر التمر ، وهو (ن خ ل) (نخل) في المسند كذلك[1] . وقد صورت النخلة ونحتت على بعض الصخور وعلى كثير من نصوص المسند ، وجعلت رمزاً للشمس . وكان السومريون يجعلونها رمزاً للشمس كذلك[2] . والظاهر أن تحمل النخلة لحرّ الشمس ، ووجودها في مناطق دافئة ، ومنظر رأسها الذي هو على شكل كرة مكونة من السعف ، الذي يشبه خيوط أشعة الشمس ، حمل الناس على تصور قيام صلة لها بالشمس ، فجعلوها رمزاً لها وعلامة عليها .

وتعني لفظة (انخل) (أنخل) ، (النخيل) وبساتين النخيل ومزارعها[3]. ومن (نخل) أخذت لفظة (منخل) بمعنى مزرع النخيل ، أي الموضع المزروع نخلاً . وقد عني العرب الجنوبيون بزراعة النخيل ، وكونوا بساتين واسعة منها . وكانت (نجران) من أهم المناطق المشهورة بزراعة النخيل[4] .

واذا استقام فسيل النخل وثبت في الأرض ، صبر على العطش ، وتحمل السكوت عن طلب الماء ، أمداً طويلاً ، لاعتماده على رطوبة الأرض ولامتصاص جذوره للمياه الجوفية . ويقال للنخلة التي لا تحتاج الى سقي : (الغامرة)[5] .

وقد ورد عن الرسول قوله : « خير المال سكة مأبورة » ، قيل أراد النخل المصطف ، والسكة أيضاً : السنة وهي الحديدة التي يشق بها الفدان الأرض ، ويقال لها أيضاً المان[6] . وقد اعتبر العرب النخل من الشجر المبارك الذي بورك فيه لما فيه من فوائد .

---

١ RW 155, Bu Jemen 1907, 286, C 1514, Burchard 4, Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 234.

٢ Carl Rathjens, Sabaeica, S. 140.

٣ REP. EPIGR. 4626' VII, II, p. 278.

٤ Wissmann — Höfner, S. 9.

٥ تاج العروس (١٤٨/٣) ، (غمر) .

٦ الروض الانف (٢٠٧/٢) .

والنخيل ، هي مثل الجمال ثروة ورأس مال تدر على صاحبه ربحاً وافراً ، ومن كان له نخل وافر كان غنياً ثرياً . وقد ربح أصحاب النخيل أرباحاً طائلة من اشتغالهم بزراعة النخيل . فالتمر هو مادة ضرورية يعيش عليها أكثر العرب ويتأدمون بها . يأكلونه بدلاً من اللحم . وكان الأعراب يأتون أهل الريف ، بما عندهم من وبر ومن حاصل البوادي ، ليبادلوه بالتمر وبالدقيق وبما يحتاجون اليه في حياتهم البدوية من حاجات ضرورية . فكسب أصحاب النخيل أرباحاً طيبة من بيعهم التمور . ولا يوجد مكان في جزيرة العرب فيه ماء ، إلا والنخلة هي سيدة المزروعات فيه ، بل تكاد تكون النبات المتفرد بالزرع في أكثر الأمكنة ، لا يزاحمها نبات آخر من النبات .

ويقال للنخل المرتفع طولاً مجنون[1] ، وهو نخل يقل تمره ، وتقل فائدته لذلك. واذا غرس النخل سطراً على جدول أو غير جدول ، قيل : (نخل ركيب)[2].

و (الجباب) تلقيح النخل ، وزمن الجباب زمن التلقيح للنخل ، و (الأبر) تلقيح النخل أيضاً[3] . وكانوا يلقحون النخلة بدس شمراخ الفحال في وعاء الطلع[4] .

ويؤكل التمر رطباً ، ويؤكل يابساً جافاً . ويقال لنضيج البسر قبل ان يتمر (رطباً) وواحدته (رطبة)[5] . واذا كان التمر يابساً قيل له (القسب)[6] . ويستعمل (القسب) بعد انتهاء موسم التمر وذهابه ، وهو أكثر تمر الأعراب ، لسهولة المحافظة عليه من التلف ومن الفساد وتغير الطعم .

وقد لجأ الجاهليون الى طريقة كبس التمر ، للمحافظة عليه زمناً طويلاً ، ولسهولة نقله والاتجار به من مكان الى مكان . ومن طرقهم في ذلك ، أنهم كانوا ينزعون نواة التمر ، ثم يكنزونه في قرب وظروف من الخوص ، ويقولون

---

١ تاج العروس (١٦٦/٩) ، (جنن) .
٢ تاج العروس (٢٧٩/١) ، (ركب) .
٣ تاج العروس (١٧١/١) ، (جبّ) .
٤ تاج العروس (٢١٧/٢) ، (لقح) .
٥ تاج العروس (٢٧١/١) ، (رطب) .
٦ تاج العروس (٤٣٨/١) ، (قسب) .

لذلك التقليف . والقلف التمر الذي نزع نواه وكنز في القرب وظروف الخوص[1]. ولا تزال طريقة التقليف معروفة ، ويقال لما يخصف من التمر في (الخصاف) ، تمر مخصوف[2] ، وللتمر المكبوس في الخصافة مع ظرفه (الخصافة) ، أما القربة التي يكبس في داخلها التمر ، فيقال لها مع تمرها المكبوس بها (الكيشة) في لغة أهل العراق في الوقت الحاضر . و (تمر كيشة) ، هو التمر الذي يستخرج من (الكيشة) .

وقد يحفظ التمر في (القراب) ، وعاء شبه جراب من أدم : « وفي كتابه لوائل بن حجر : لكل عشرة من السرايا ما يحمل القراب من التمر »[3] .

ويكنز التمر في وعـاء من خوص يقال له : (جلة) و (الجلة)[4] ، وهو (القفعة) ، ويسمى بالعراق (القفة) ، و (جلة التمر) في لغة أهل اليمن[5].

وللنخل فوائـد كثيرة جعلها بعضهم نحواً من (٣٦٠) فائدة ، مثل استعمال سعفه وخوصه وجذوعه وليفه في حاجات الإنسان . حيث يصنع منها مختلف الأشياء، ويباع بعضها في الأسواق ، فتكون دخلاً لأصحابها . وصارت منها صناعة تعيّش عليها أناس ، ولا زالت الصناعات المستندة على استغلال النخلة وأجزائها وسعفها باقية ، وان أخذت في الأفول والاندثار ، بسبب منافسة الجديد للقديم ، وانصراف الناس عن الوسائل البدائية القديمة الى الجديد المريح الرخيص .

والنخل في كل موضع من جزيرة العرب فيه ماء . وهو أنواع وفصائل كثيرة. وقد اشتهرت (هجر) بكثرة تمرها ، وبزيادته عن حاجة أهلها ، فكان الأعراب يأتونها للامتيار ، ولشراء التمر منها . وفيها ضرب المثل: كمبضع تمر الى هجر، و (كجالب التمر الى هجر) . وكانت تصدره الى البوادي والى اليمامة ، حين يقل تمرها . وقد عرفت بكثرة وبائها . قال (عمر) : « عجبت لتاجر هجر وراكب البحر » ، كأنه أراد لكثرة وبائها وخطر البحر ، فتاجرها وراكب البحر في الخطر سواء[6] .

---

١ تاج العروس (٦/٢٢٧) ، (قلف) .
٢ تاج العروس (٦/٨٨) ، (خصف) .
٣ تاج العروس (١/٤٢٣) ، (قرب) .
٤ اللسان (١٣/١٥٦) ، (جلل) ، تاج العروس (٧/٢٦٠) ، (جلل) .
٥ تاج العروس (٥/٤٧٨) ، (قفع) .
٦ تاج العروس (٣/٦١٤) ، (هجر) .

واشتهرت خيبر بكثرة تمورها كذلك ، حتى ضرب بها المثـــل في كثرته كما ضرب المثل بكثرة تمر هجر . قال (حسان بن ثابت) :

فأنا ومن يهدي القصائد نحونا　　كمستبضع تمراً الى أهل خيبرا

وقال (خارجة بن ضرار المري) :

فإنك واستبضاعك الشعر نحونا　　كمستبضع تمراً الى أهل خيبرا[1]

ولا تزال أرض خيبر تحتضن النخيل وتتعهدها بالعناية والرعاية ، وقد وصف (فلبي) موضعها في الوقت الحاضر ، وذكر ان الذي يعتني بالنخيل ، هم قوم من (العبيد) ، يقومون بفلاحة الأرض وبالعناية بالشجر ، مقابل الحصول على نصف الحاصل ، فإذا حل موسم القطاف ، أخذت الحكومة حصتها قبل اقتسام الحاصل، ثم قسّم الباقي بين الأعراب الذين يدعون ملكية الأرض وبين العبيد الذين يسهرون طيلة أيام السنة على رعاية الشجر وعلى الزرع ، والمفروض أن تكون القسمة قسمة عادلة ، قسمة مناصفة ، غير ان الأعراب يشتطون في القسمة فيأخذون لهم أكثر مما يأخذ العبيد[2] . وينطبق هذا الوصف على حالة قسمة الحاصل في المواضع الأخرى من جزيرة العرب في الجاهلية ، ولا سيما في العربية الجنوبية . فقــد كان جباة الحكومة أول من يأخذ حصة الحكومة ، أو حصة الحاكم المهيمن على المكان ، ثم يأتي دور صاحب الأرض ، الذي يحاول الاستئثار بالحاصل حتى لا يترك للفلاح الذي يفلح ويتعب ويكدّ إلا أقل ما يمكن اعطاؤه له .

وبأرض خيبر جملة عيون ومسايل ماء ، لا زال الناس يزرعون عليها . وتوجد آثار نقوش وكتابات تشير الى سكن كان بهذا الموضع يعود الى أيام الجاهليـــة . وقد عثر (فلبي) على نقود قديمة ، ومن الممكن استصلاح أرض خيبر وتحويلها الى أرض زراعية منتجة .

و (تيماء) من المناطق الخصبة كذلك . وتشاهد آثارها ظاهرة للعيان . وقــد حصل المنقبون على مجموعات أثرية منها ، في جملتها قطع من النقـــود تعود الى

---

١ تاج العروس (٥/٢٧٨) ، (بضع) .
٢ عبد الله فلبي ، أرض الانبياء (ص ٣٨) .

القرن الأخير قبل الميـــلاد [1] . وهناك آثار آبار ومسايل ماء تدل على أن الأرض كانت مخصبة مزروعة ، ومن أشهر آبارها بئر (خداج) [2] . يستقي منها الأعراب ويزرعون عليها في الوقت الحاضر [3] . وقد وجد (فلبي) صوراً وصخوراً منحوتة تمثل رأس الإلـه (صلم) إلـه ثمود وإلـه هذه المنطقة ، وأمامها أرض ممهدة كانت موضع تقديم القرابين لذلك الإلـه [4] .

وقد وجد (فلبي) وغيره من السياح ممن زار هذه الأرضين الواقعـــة شمال (يثرب) ، آثار مستوطنات جاهلية كثيرة وآثار قنوات وآبار ومسايل ميـــاه ، تدل على أنها كانت عامرة مزروعة ، وان في الامكان احياءها ، وآن آفة اندثارها هو كثرة الغزو الذي وقع عليها وعدم وجود حكومات تدافع عنها وتحميها مـــن غزو الأعراب ، الذين كانوا وباءً بالنسبة للحضر ، ينهبون ما يجدونه أمـــامهم ويحرقون الزرع ثم يهربون .

وعرفت اليمامة بتمورها أيضاً ، وهو أنواع عديدة ، وكـان الأعراب يأتونها لشراء التمر منها ، وقد عرف الذين يردون اليمامة لامتيار التمر بـ (السواقط) ، و (السقاط) ما يحملونه من تمر [5] .

وعرفت يثرب وما حولها وما وقع أعلاها الى بلاد الشأم بكثرة نخلها ، وهو نخل زرع سككاً في بساتين على طريقة الأنبـــاط في أمصارهم ، لا يخافون عليها كيد كائد . تتخلله السواني والسواقي لتسقيه ، فيثرب حوائط وآطام ، عاش أهلها على الزرع والغرس والجلاد [6] . وقد أشير الى كثرة نخل يثرب في شعر ينسب الى الشاعر (امرىء القيس) ، فنعتها بـ (جنة يثرب) :

علون بأنطاكية فوق عقمة كجرمة نخل أو كجنة يثرب [7]

---

١ أرض الانبياء (١١١) .
٢ ارض الانبياء (١١٥) .
٣ أرض الانبياء (١١٦) .
٤ المصدر نفسه (ص ١٢١) .
٥ تاج العروس (٥/١٥٦) ، (سقط) .
٦ الروض الانف (٢/٢٠٧) ، تاج العروس (٥/١٢٣) ، (حوط) ، جامع الاصول (١١/١٧٧) .
٧ تاج العروس (٨/٢٢٤) ، (جرم) .

وقد افتخر (كعب بن مالك) يوم الخندق على قريش بأن قومه غرسوا النخل حدائق تسقى بالنضح من آبار ثقبت من عهد (عاد) أي من آبار قديمة جداً ، فهي تسقي النخيل المغروسة عليها ، ولهم رواكد فيها (الغاب) و (البردى) يزخر فيها نهر (المرار) ، ولهم الزرع الذي يتباهى بسنبله الجميل ، لا سيما إذا أصابته أشعة الشمس ، لم يجعلوا تجارتهم اشتراء الحمير لأرض دوس أو مراد، بل أثاروا الأرض وحرثوها وغرسوها على نحو ما تفعل النبط في أمصارها ، لا يخافون عليها كيد كائد ، دلالة على عز أهل يثرب ومنعتهم وأنهم لم يغلبوا على بلادهم من قديم الدهر كما أجليت أكثر الأعاريب عن محالها وأزعجها الخوف عن مواطنها [1] .

ومن أنواع التمور : (الصرفان)[2] ، و (البرني) ، تمر أصفر مدور ، من أجود التمور . وقيل : ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحاء عذب الحلاوة [3] . و (التعضوض) ضرب من التمر ، والعمر نخل السكر ، وهو معروف عند أهل البحرين[4] . و (البحون) ، ضرب من التمر[5] ، والصفرى ، وقد نعت بأنه سيد التمور ، ثم (السرى) ، ثم (اللصف)، ثم (الفحاحيل) ، ثم (المجتنى) ، ثم (الجعادى) ، ثم (الشماريخ) ، ثم (المشمرخ) ، ثم (البياض) ، ثم (السواد) وهما ألوان كثيرة[6] .

الكرم :

والكرم شجر العنب ، والعنب ، ثم الكرم . وقد زرع في مواضع كثيرة من جزيرة العرب في البساتين وفي الحدائق . وفي الأماكن التي توفرت فيها المياه والجو الطيب المناسب لزراعته ، مثل اليمن ، التي اشتهرت به ، و (الطائف) وهو

---

١ سيرة ابن هشام (٢٠٧/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) الروض الانف (٢٠٧/٢) .
٢ تاج العروس (١٦٤/٦) ، (صرف) .
٣ تاج العروس (١٣٧/٩) ، (برن) .
٤ تاج العروس (٤٢٠/٣) ، (عمر) :
٥ اللسان (١٩٠/١٦ وما بعدها) ، (بحن) ، تاج العروس (١٣٥/٩) ، (البحون) .
٦ الصفة (١٦١) .

أجناس عديدة، بعض أصيل أي من نابت جزيرة العرب ومن تربتها، وبعض مستورد استورد من بلاد الشأم بصورة خاصة ومن أماكن أخرى ، فغرس في بلاد العرب ونبت نباتاً حسناً ، وأجاد اجادة طيبة، جعل زرّاع الكروم يكثرونه من زراعته.

والعنب ، هو (عنبم) ، أي (عنب) في لغة المسند كذلك[1] .

وإذا يبس العنب دعي (زبيباً) . ويعرف الزبيب بـ (فصمم) ، أي (فصم) (فصيم) في اللهجة الحميرية . وقد وردت هذه اللفظة في نص أبرهة ، بمناسبة توزيع أبرهة الزبيب على العمال الذين ساهموا في بناء سد مأرب[2] .

وقد كان أهل اليمن كما يظهر من نصوص المسند يكثرون من زراعة الأعناب ويربحون من زراعتها كثيراً ، بدليل ورود كثير من النصوص الزراعية ، وفيها: أن أصحابها قد غرسوا أعناباً في المناطق الفلانية والفلانية ، أو ورثوا المزرعة الفلانية وفيها أعناب كثيرة . وبدليل حفر صور أغصان العنب وعناقيد العنب في الأحجار وابرازها على الألواح المصنوعة من الجبس ، أو حفرها على الأخشاب للزينة والزخرفة ، وتفننهم في ذلك ، حتى صارت هذه الزخرفة من مميزات الفن اليماني. وما كانوا يفعلون ذلك لو لم يكن للأعناب وجود في اليمن ، ولو لم تكن زراعته منتشرة كثيراً في تلك البلاد .

ومن أنواع العنب : العنب (الجرشي) ، وهو عنب طيب ، يقول علماء اللغة : هو أطيب العنب كله ، وهو أبيض الى الخضرة ، رقيق صغير الحبة ، وهو أسرع العنب إدراكاً ، عناقيده طويلة ، ينسب إلى جرش ، مخلاف باليمن[3]. والعنب (الكلافي) ، وهو نوع من أنواع أعناب أرض العرب ، وهو عنب أبيض فيه خضرة ، وزبيبه أدهم أكلف ، ولذلك سمي : الكلافي . وقيل : هو منسوب الى الكلاف بلد بشق اليمن[4] . والعنب التربي نسبة الى (تربة) ، والعنب التبوكي نسبة الى تبوك . و (الرمادي) ، ضرب من العنب بالطائف أسود

---

١ Halevy 360, 362.

٢ راجع السطر ١٢٨ من نص أبرهة ، جواد علي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الاول من المجلد الرابع (ص ٢١٨) .

٣ تاج العروس (٤/٢٨٧ وما بعدها) ، (جرش) .

٤ تاج العروس (٦/٢٣٨) ، (كلف) .

أغبر[1] . و (الغربيب) ، ضرب من العنب بالطائف شديد السواد ، وهو من أجود العنب وأرقه وأشده سواداً[2] . و (الحمنان) ، عنب طائفي ، أسود الى الحمرة صغير الحب[3] . والدوالي نوع من الكروم[4] .

و (العنجد) ، الزبيب ، أو ضرب منه ، أو الأسود منه ، أو الرديء منه[5]. و (الفرصد) ، عجم العنب ، أو عجم الزبيب[6] .

وقد اشتهرت قرية (ثافت) باليمن بكثرة كرومها ، ويقال لها (أثافت) و (اثافة) أيضاً . وقد عرفت بخمرها المصنوع من هذه الكروم . وكان الأعشى كثيراً ما يتجر فيها ، وكان له معصار للخمر يعصر فيها ما جزل له أهل أثافت من أعنابهم[7] .

ويقال (الأكار) لمن يشتغل في بستان عنب . ويقال للأكار (الجوار)[8] . والأكار الزراع والحرّاث[9] .

والتين هو من الأشجار المعروفة في الحجاز وفي اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد أشير اليه في القرآن الكريم[10] . وهو كثير في أرض العرب، وأجناسه كثيرة ، برية ، وريفية ، وسهلية ، وجبلية . ويكون أخضر اللون ، أو أصفر،وأحمر وأسود . وهو كثير بالسراة مباح،يؤكل رطباً ويزبب ويدخر[11] . وذكر بعض علماء اللغة انه (البلس) ، وقال بعض آخر : البلس : ثمر كالتين يكثر باليمن ، وقيل هو التين نفسه اذا أدرك[12] . ومنه (الطبار) ، قيل هو تين كبير من أكبر أنواع التين ، كميت أنى تشقق ، واذا أكل قشر لغلظ لحائه ،

---

١ المخصص (١١/٢٢) .
٢ تاج العروس (١/٤١٠) ، (غرب) .
٣ تاج العروس (٩/١٨٣) ، (الحمن) .
٤ اللسان (١١/٢٥٤) .
٥ تاج العروس (٢/٤٣٣) ، (عنجد) .
٦ تاج العروس (٢/٤٥١) ، (الفرصد) .
٧ تاج العروس (١/٥٣٤) ، (أثث) .
٨ تاج العروس (٣/١١٣) ، (جار) .
٩ تاج العروس (٣/١٧) ، (أكر) .
١٠ سورة التين .
١١ تاج العروس (٩/١٥٤) ، (تين) .
١٢ تاج العروس (٤/١١١) ، (بلس) .

فيخرج أبيض ، ويزبب . وذكر بعض علماء اللغة ، انـه من شجر الضرف ، وهو على صورة التين ، إلا انـه أدق[1] . و (الضرف) ، شجر التين ، يقال لثمره البلس . أو هو من شجر يشبه الأتأب في عظمه وورقه ، إلا ان سوقه غبر مثل سوق التين ، وله تين . وقيل : له جني أبيض مدوّر مفلطح كتين الحماط الصغار ، مُرّ يضرس بأكله الناس والطير والقرود[2] .

والرمّان من الفواكه المعروفـة في الحجاز وفي اليمن ، وقد ذكر في القرآن الكريم[3] . ومنه أنواع بريّة ، ذكر بعض علماء اللغة منها (المظ) . وهو ينبت في جبال السراة ، وفي بقية الجبال . وذكر بعض آخر ، أنه شجر الرمّـان[4] . و (الجشب) قشور الرمان عند أهل اليمن[5] .

والتفّاح بأرض العرب كثير[6] . والموز معروف عندهم ، ولا سيما في العربية الجنوبية وفي التهائم[7] . و (الخوخ) معروف عند العرب[8] ، ويقال له (الفرسك)[9] .

و (الفرصاد) ، التوت أو حملـه أو أحمره . و (التـوت) من الألفاظ المعربة[10] . ويربون على ورقه ديدان الحرير .

و (الزيتون) ، شجر معروف في بلاد العرب ، استخرجوا منه زيت الزيتون . وقد ذكر في القرآن الكريم[11] .

و (السدر) ، من الأشجار المعروفة في كل مكان من جزيرة العرب . ورد ذكره في القرآن . واستعمل ورقه في مقام الصابون ، كما استفيد من ثمره ومن أغصانه وأخشابه . وهو يتحمل الصبر على العطش لعمق جذوره في باطن الأرض. وبذلك لاءم جوّ جزيرة العرب هذا النوع من الشجر ، وما زال الناس يزرعونه في كثير من المواضع . وقد استعمل مظلة يجلسون تحتها في أيام الحرّ الشديد ومجلساً

---

١ تاج العروس (٣/٣٥٥) ، (طبر) .
٢ تاج العروس (٦/١٧١) ، (الضرافة) .
٣ سورة الانعام ، الآية ٩٩ ، ١٤١ .
٤ تاج العروس (٥/٢٦٤) ، (مظظ) .
٥ المخصص (١١/١٤٠) ، تاج العروس (١/١٨٣) ، (جشب) .
٦ تاج العروس (٢/١٢٨) ، (التفاح) .
٧ تاج العروس (٤/٨٣) ، (موز) .
٨ تاج العروس (٢/٢٥٦) ، (الخوخة) .
٩ تاج العروس (٧/١٦٨) ، (الفرسك) .
١٠ تاج العروس (٢/٤٥١) ، (الفرصد) .
١١ سورة التين .

يجلسون فيه لتمضية الوقت والتسلي والترويح عن النفس .

والسدر من العضاه ، هو لونان ، فمنه عبري ومنه ضال . فأما العبري ، فما لا شوك فيه إلا ما لا يضير . وأما الضال ، فذو شوك . وذكر أهل الأخبار : أن أجود نبق يعلم بأرض العرب . نبق هجر . وهو أشد نبق حلاوة وأطيبه رائحة. يفوح فم آكله وثياب ملابسه كما يفوح العطر[1] .

الجوز :

والجوز معروف بأرض العرب ، ويربى باليمن . وبالسروات شجر جوز لا يربى ؛ وخشبه موصوف بالصلابة والقوة،وينبت الجوز في الجبال والمرتفعات. وقد أشير الى صلابة وقوة خشب الجوز في شعر للأعشى . وقد زعم ان سفينة (نوح) كانت من خشب الجوز[2] . والجوز نوعان : جوز يربى ؛ أي يزرعه الانسان بنفسه ويرعاه ، وجوز وحشي ، نبت على الطبيعة ، دون ان تزرعه يد انسان . وهو أنواع عديدة ، لها أسماء ترد في كتب اللغة .

اللوز :

واللوز ثمر معروف في بلاد العرب ، ومن أسمائه القمروص . وهو على نوعين: حلو ومرّ . وقد استعملا في المعالجة : في معالجة أمراض عديدة ، من باطنية وجلدية . واستعمل الحلو منه في الطعام ، وفي الحشو . والثمر الملوّز ، هو الثمر المحشو به . وذلك ان ينزع منه نواه ، ويحشى فيه اللوز[3] . واللوز ، صنف

---

١ تاج العروس (٣/٢٦١) ، (سدر) .

٢ قال الجعدي :

كأن مقط شرا سيفه | الى طرف القنب فالمنقب
لطحن بترس شديد الصفا | ق من خشب الجوز لم يثقب

وقال في وصف سفينة نوح :

يرفع بالقار والحديد من الجوز طوالا جذوعها عمما

تاج العروس (٤/٢٠) ، (جوز) .

٣ تاج العروس (٤/٧٩) ، (اللوز) .

من المزج ، والمزج ما لم يوصل الى أكله إلا بكسر،وقيل هو ما دق من المزج. أو المرّ من اللوز[1] .

الثمر :

والثمر ، حمل الشجر[2] . وهو (ثمــر) في نصوص المسند كذلك ، ويجمع عندهم على (اثمر) ، أي (أثمار) . و (الفاكهة) الثمر كله[3] . وفي القرآن الكريم : « وفاكهة وأباً » . قال العلماء الأب الكلأ ، وما تأكله الأنعام ، والمرعى كله . والفاكهة ما أكله الناس . فالأب من المرعى للدواب كالفاكهة للانسان[4] .

ويحتاج الشجر المثمر الى رعاية وعناية وحماية من أذى الطبيعة ومن أذى الإنسان والحيوان . فعلى صاحبه حمايته من الشمس المحرقة ، ومن البرد الشديد ومن الأهوية والعواصف ، ومن الحشرات التي قد تصيبه فتأتي عليه ، ومن الأمراض والآفات الزراعية ، ومن تطاول إنسان غريب عنه عليه ، بقطعه أو بسرقة ثمره، ثم حمايته من أذى الحيوان ، بأكله أو بأكل ورقــه أو ثمره ، وكسر أغصانه ، وأمثال ذلك مما يلحقه من أذى بالشجر وبثمره .

ولحماية الشجر ، أحاطوا الأرض المشجرة بحائط مرتفع قدر الإمكان ، ليمنع الانسان أو الحيوان من دخولها ، ومن الاعتداء على شجرها أو ثمرها ، ويقــال لها (الحائط) . و (الحائط) البستان . وقــد أطلقت اللفظة على البستان من النخل في الغالب . وكانت (يثرب) ، ذات (حوائط) . وقد أشير اليهــا في الحديث : ورد : « على أهل الحوائط حفظها بالنهار . يعـني البساتين »[5] .

وقد عني أهل الجاهلية بتحسين وبتنويع وبتطعيم أشجارهم المثمرة ، وكان منهم مثل أهل الطائف واليمن من استورد الشجر المثمر الجيد من الخارج . من بــلاد الشأم ومن افريقية والهند ومن المواضع التي اشتهرت بصنف جيد من أصناف الشجر من جزيرة العرب ، وبذلك نوّعوا ثمرهم وحسنوا أصناف شجرهم ، ويظهر أثر

---

١ تاج العروس (٢/١٠٠) ، (مزج) ، (٤/٧٩) ، (اللوز) .
٢ تاج العروس (٣/٧٧) ، (ثمر) .
٣ تاج العروس (٩/٤٠٢) ، (فكه) .
٤ تاج العروس (١/١٤٢) ، (أب) .
٥ تاج العروس (٥/١٢٣) ، (حوط) .

استيراد الشجر من خارج جزيرة العرب ، من الأسماء الأعجمية التي عرفت بها في الجاهلية ، والتي تتحدث عن المكان الذي استوردت منه .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الأشجار نبتت ونمت نمواً طبيعياً ، منها ما نبت على الجبال والمرتفعات ، ومنها ما نبت في البوادي وفي التهائم . فهي من الأشجار الوحشية التي لم تزرعها يد إنسان . بعض منها مثمر ، يستفاد من ثمره ، وبعض منها مثمر ، غير أنه لا يمكن الاستفادة من ثمره ، ولا ينتفع به إنسان أو حيوان . وبعض منه عقيم ، غير مثمر .

ومن الأشجار المعروفة : التين الوحشي ، أو التين البري . ويكثر وجوده في الجبال والمرتفعات . وقد عرفت جبال السراة بكثرة وجود هذا التين بها ، والزيتون الوحشي (العتم) . ذكر علماء اللغة ان (العتم) شجر الزيتون البري ، وقيل هو ما ينبت منه في الجبال ، ويوجد شجر يشبهه ينبت بالسراة [1] . ويستخرج الأهلون اليوم منه دهناً قاتم السواد يسمى (القطران) ، لطلاء الأبواب والنوافذ في أرض (شمران) المحاذية للسراة في المملكة العربية السعودية [2] . واتخذت منه الأسوكة . ورد : الأسوكة ثلاثة : أراك ، فإن لم يكن فعتم أو بطم [3] .

والحماط ، شجر شبيه بالتين ، خشبه وجناه وريحه ، إلا ان جناه هو أصغر وأشد حمرة من التين ، ومنابته في أجواف الجبال ، وقد يستوقد بحطبه ويتخذ خشبه لما ينتفع به الناس ، ويبنون عليه البيوت والخيام . وقيل هو في مثل نبات التين ، غير انه أصغر ورقاً وله تين كثير صغار من كل لون أسود وأملح وأصفر ، وهو شديد الحلاوة ، ويحرق الفم اذا كان رطباً ، فإذا جفّ ذهب ذلك عنه ، وهو يدّخر . وله اذا جف متانة وعلوكة ، وهو أحب شجر الى الحيات ، تألفه كثيراً ، ولذلك قيل : شيطان حماط . وهو شجر التين الجبلي ، أو هو الأسود الصغير المستدير منه ، أو هو شجر (الجميز) [4] . و (الجميز) التين الذكر ، يكون بالغور ، وهو حلو ، وهو الأصفر منه والأسود يدمي الفم [5] .

---

١ تاج العروس (٨/٣٨٨) ، (عتم) .
٢ جريدة البلاد السعودية (العدد ١٦٤ ، السنة الاولى ، ١٢ أغسطس ١٩٥٩) ، « الزراعة ومشاكلها في شمران » .
٣ تاج العروس (٨/٣٨٨) ، (عتم) .
٤ تاج العروس (٥/١٢١) ، (حمط) .
٥ تاج العروس (٤/١٨) ، (جمز) ، عرام (٤١٥) .

والتألب ، وينبت بجبال اليمن ، وله عناقيد كعناقيد البطم ، فإذا أدرك وجف اعتصر للمصابيح ، وهو أجود لها من الزيت . وتقع السرفة في التألبة فتعريها من ورقها . ويتخذ من عيدان التألب القسي[1] . و (الألب) شجرة شاكة كالاترج ، ومنابتها ذرى الجبال ، وهي سم ، يؤخذ خضبها وأطراف أفنانها فيدق رطباً ويقشب به اللحم ويطرح للسباع كلها ، فلا يلبثها اذا أكلته ، فإن هي شمته ولم تأكله عميت عنه[2] .

و (الشوحط) ، ضرب من شجر الجبال ، تتخذ منه القسي . ويكثر وجوده في جبال السراة ، فإنها هي التي تنبته . وله ثمرة مثل العنبة الطويلة ، إلا أن طرفها أدق . وهي لينة تؤكل[3] . و (النبع) ، شجر من أشجار الجبال ، أصفر العود رزينه ثقيله في اليد ، وإذا تقادم احمر . تتخذ منه القسي . وكل القسي إذا ضمت الى قوس النبع كرمتها قوس النبع ، لأنها أجمع القسي للارز واللين ، ولا يكون العود كريماً ، حتى يكون كذلك ، أي شديداً ليناً . وتتخذ السهام من أغصانه . وله ذكر في شعر الشعراء الجاهليين[4] .

ومن أشجار الجبال : (الرنف) ، و (الحثيل) ، و (البان) ، و(الظيان). و (الرنف) ، شجر ينضم ورقه الى قضبانه إذا جاء الليل وينتشر بالنهار . وفي مقتل (تأبط شراً) ، أن الذي رماه لاذ منه برنفة ، فلم يزل (تأبط شراً) يجدمها بالسيف حتى وصل اليه فقتله ، ثم مات من رميته[5] . و (الحُثَيْل) ، شجر جبلي يشبه الشوحط ، ينبت مع النبع وأشباهه[6] . و (البان) ، شجر ، ولحب ثمره دهن طيب . وتعالج بحبه جملة أمراض جلدية وداخلية . وهو يطول

---

١ المخصص (١١/١٤٢) ، عرام (٤٠٧ ، رقم ١٠) .

٢ تاج العروس (١/١٤٩) ، (ألب) .

٣ قال الاعشى :

وجيادا كانها قضب الشو حط يحملن شكة الابطال

تاج العروس (٥/١٦٥) ، (شحط) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٣٩٦) .

٤ تاج العروس (٥/٥١٨) ، (نبع) .

٥ تاج العروس (٦/١٢٢) ، (أرنف) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٣٩٦) :

٦ قال أوس بن حجر :

تعلمها في غيلها وهي حظوة بواد به نبع طوال وحثيل

تاج العروس (٧/٢٧٣) ، (حثل) .

باستواء مثل نبات الأثل ، وورقه له هدب كهدب الأثل ، وليس لخشبه صلابة. وعدّه بعض العلماء من العضاه ، وله ثمرة تشبه قرون اللوبياء ، إلاّ أن خضرتها شديدة . فهو من النبات الذي تطيب به[1] . و (الظيان) ، ياسمين البرّ ، وهو نبت يشبه النسرين ، وضرب من اللبلاب . وقد دبغ بورقه ، ويلتف بعضه على بعض[2] . وهو على هذا التعريف ، ليس من الأشجار التي تعطي الخشب . وبعض ما ذكرته ينبت في الهضاب والأودية[3] . وذكر أن للظيان ، ساق غليظة ، وهو شاك ، ويحتطب . وله سنفة كسنفة العشرق . والسنفة: ما تدلى من الثمر وخرج عن أغصانه . والعشرق : ورق يشبه الحندقوقا منتنة الرائحة[4] .

والقرظ ، شجر عظام لها سوق غلاظ ، أمثال شجر الجوز وورقه أصغر من ورق التفاح ، وله حب يوضع في الموازين . وهو ينبت في القيعان ، واحدته قرظة . ويستعمل حبه للتداوي . ويدبغ به ، ويستخرج صبغ منه ، يصبغ به الأديم . والقرظ من أشهر مواد الدباغة وصبغ الجلود عند الجاهليين[5] .

و (الضهياء) ، وهو شجر يشبه العنّاب تأكله الإبل والغنم[6] . و (العرعر) شجر يعمل به القطران ، وهو شجر عظيم جبلي لا يزال أخضر ، يسميه البعض (السرو) ، وقيل : الساسم ، وقيل الشيزى ، وله ثمر أمثال النبق ، يبدو خضر ، ثم يبيض ، ثم يسود حتى يكون كالحمم ، ويحلو فيؤكل واحدته عرعرة[7] . و (البشام) ، شجر عطر الرائحة طيب الطعم ، يدق ورقه ويخلط بالحنّاء يسود الشعر . وقيل : هو شجر ذو ساق وأفنان وورق صغار، أكبر من ورق الصعتر ، ولا ثمر له ، واذا قطعت ورقته أو قصف غصنه هريق منه لبن

---

١ تاج العروس (١٤٧/٩) ، (البون) .

٢ تاج العروس (٢٧٣/٩) ، (ظن) ، (٢٣٣/١٠) ، (ظنى) .

٣ قال أوس بن حجر :

بـواد بـه نبـع طوال وحثيل   وبان وظيـان ورنـف وشوحط
الف أثيث ناعم متغيل

(آنف) تاج العروس (١٢٢/٦) ، (آرنف) .

٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٩) .

٥ تاج العروس (٢٥٨/٥) ، (قرظ) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٦) .

٦ عرام (٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤١١) ، تاج العروس (٢٢٢/١٠) ، (ضهي) .

٧ تاج العروس (٢٩٢/٣) ، (عرر) .

أبيض . قيل : ويستاك بقضبه . وفي حديث (عتبة بن غزوان) ، ما لنا طعام إلا ورق البشام[1] .

و (الدلب) ، شجر (الصنّار) ، معرب (جنار) الفارسية ، واحدته (دلبـــة) ، شجر عظيم ، ورقه يشبه الخروع إلا أنه أصغر منه ، ومذاقه مرّ عصف ، وله نوّار صغار . يتخذ منه النواقيس . تقول العرب : هو من أهل الدربة بمعالجة الدلبة ، أي هو نصراني[2] . و (التنضب) ، شجر ضخام ليس له ورق ، وهو يسوق ويخرج له خشب ضخام وأفنان كثيرة ، وإنما ورقـه قضبان تأكله الإبل والغنم . وقال بعض العلماء : التنضب شجر له شوك قصار ، وليس من شجر الشواهق ، تألفـــه الحرابـي . وذكر بعض آخر ، أن التنضبة شجرة ضخمة يقطع منهـــا العمد للأخبية ، وتتخذ منها السهام . وذكر بعض آخر : التنضب شجر حجازي ، وليس بنجد منه شيء إلا جزعة واحدة بطرف (ذقان) عند التقيدة ، وهو ينبت ضخماً على هيئة السرح ، وعيدانه بيض ضخمة ، وهو محتظر وورقه منقبض ولا تراه إلا كأنه يابس مغبرّ وان كان نابتاً . وشوكـــه كشوك العوسج ، وله جـــني مثل العنب الصغار يؤكل . وهو أحيمر . ودخان التنضب أبيض مثل لون الغبار ، ولذلك شبهت الشعراء الغبار به . وقـــد قطعت منه العصي الجيـــاد[3] . وذكر أن للتنضب ثمراً يقال له (الهمقع) يشبه المشمش يؤكل طيباً[4] .

والأيدع ، شجر يشبه الدلب ، إلا أن أغصانه أشد تقارباً من أغصان الدلب، له وردة حمراء ، وليس له ثمر ، نهى الرسول عن كسر شيء من أغصانه وعن السدر والتنضب والشبهان ، لأن هؤلاء جميعاً ذوات ظلال يسكن الناس فيها من البرد والحر[5] .

---

١ تاج العروس (٨/٢٠٣) ، (بشم) .

٢ تاج (١/٢٤٧) ، (دلب) .

٣ قال عقيل بن علقمة المري :

وهل أشهدن خيـــلا كأن غبارها ... بأسفـــل علكـــد دواخـــن تنضب

وقال النابغة الجعدي :

كـــأن الدخـــان الـــذي غادرت ... ضحيـــا دواخـــن مـــن تنضـــب

تاج العروس (١/٤٨٩) ، (نضب) .

٤ عرام (٤٠) ، تاج العروس (٥/٥٦١) ، (همقع) .

٥ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٠) .

والشبهان والشبه ، نبت كالسمر شائك له ورد لطيف أحمر،وحب كالشهدانج يشرب للدواء ، وترياق لنهش الهوام ، نافع للسعال ، ويفتت الحصى ويعقل البطن . وذكر انه شجر من العضاه[1] . فهو من النباتات التي تطبب بها .

و (السرح) شجر كبير عظيم طويل لا يُرعى وانما يستظل فيه وينبت بنجد في السهل والغائط ، ولا ينبت في السهل والغلظ ، ولا ينبت في رمل ولا جبل ، ولا يأكله المال إلا قليلاً . له ثمر أصفر ، أو هو كل شجر لا شوك فيه . وقد ورد ذكره في الشعر الجاهلي[2] .

و (السلم) ، شجر من العضاه ، وورقه القرظ الذي يدبغ به الأديم . وهو سلب العيدان طولاً شبه القضبان ، وليس له خشب ، وإن عظم ، وله شوك دقاق طوال حاد ، وله برمة صفراء فيها حبة خضراء طيبة الريح وفيها شيء من مرارة ، وتجد بها الظباء وجداً شديداً[3] . والسماق في جملة الشجر الذي ينبت في جزيرة العرب ، ذكر بعض العلماء انه يسمى (الظمخ) في الحجاز ، و (العرتن) في نجد . وهو من شجر القفاف والجبال. وله ثمر حامض عناقيد فيها حب صغار. وهو من النبات الذي يداوى به ، في جملة أمراض[4] . وورد ان (الظمخ) ، هو شجر السماق ، ويقال فيه الظنخ ، والزمخ ، والطنخ . وان الظمخ ، شجرة على صورة الدلب ، يقطع منها خشب القصارين التي تدفن ، وهي العرن ، وهي أيضاً شجرة التين في لغة طيء[5] . وذكر ان (العرنة) عروق (العرتن) ، و (العرنة) خشب الظمخ ، واحدتها ظمخة . شجرة على صورة الدلب ، يقطع منها خشب القصارين التي تدفن . وقيل هو شجر يشبه العوسج ، إلا انه أضخم منه ، وهو أثيث الفرع وليس له سوق طوال . وسقاء معرون دبغ به[6] .

و (الخزم) . شجر كالدوم سواء ، وله أفنان وبسر صغار يسودّ إذا أينع مرّ عفص لا يأكله الناس . تتخذ من لحائه الحبال . والخزّام بائعه[7] . وذكر

---

١ تاج العروس (٩/٣٩٣) ، (اشبه) .
٢ تاج العروس (٢/١٦١) ، (سرح) .
٣ تاج العروس (٨/٣٣٧) ، (سلم) .
٤ عرام (٤٠٢ وحاشية رقم ٢) ، تاج العروس (٦/٣٨٥) ، (سحق) .
٥ تاج العروس (٢/٢٧٠) ، (الظمخ) .
٦ تاج العروس (٩/٢٧٧) ، (عرتن) .
٧ تاج العروس (٨/٢٧٤) ، (خزم) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٢) .

أنه شجر يشبه ورقه ورق البـردي ، وله ساق كساق النخلة يتخذ منه الأرشية الجياد[1] . وأما (الدوم) ، فشجر ثمره (المقل) . تعبل شجرته وتسمو ولهـا خوص كخوص النخل ، وتخرج أفناء كأفناء النخلة[2] . وذكر أن (المقل) صمغ شجرة شائكة كشجرة اللبان ، وهو الذي يسمى (الكور) ، أحمر طيب الرائحة. ينبت بعمان،في جبل يدعى (قهوان) مطلّ على البحر . وهو من الأدوية المعروفة عند العرب . و (المقل المكي) ، ثمر شجر الدوم ، الشبيه بالنخلة في حالاتهـا ينضج ويؤكل ، ويستعملونه لمعالجـة المعدة . ويتدخن اليهود بالمقل ، الذي هو الكندر ، وحبّه يجعل في الدواء[3] .

و (الشقب) ، شجر ينبت كنبتة الرمّان وورقه كورق السدر ، وجناه كالنبق وفيه نوى . وذكر أنـه شجر من شجر الجبال ينبت في جبال اليمن على أفواه الأودية ، له أساريع كالشطب التي في السيف ، يتخذ منها القسي[4] . و(الإثرار) وله ورق يشبه ورق الصعتر وشوك نحو شوك الرمان ، ويقدح ناره إذا كان يابساً فيقتدح سريعاً ، وقد يتخذ من (الإثرار) القطران ، كما يتخذ من العرعر[5] .

و (المرخ) من شجر النار عند العرب ، أي من الأشجار التي تورى بسرعة وتعطي ناراً طيبة ، سريع الورى كثيره ، حتى قالوا : في كـل شجرة نار ، واستمجد المرخ والعفار . وقيل هو من العضاه ، وهو ينفرش ويطـول في السماء حتى يستظل فيـه ، وليس له ورق ولا شوك ، وعيدانه سلبة قضبان دقاق ، وينبت في شعب وفي خشب ، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به . ذكروا أنـه ليس في الشجر كله أورى ناراً من المرخ ، وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً وهبت الريح وجاء بعضه إلى بعض فأورى فأحرق الوادي . ولم ير ذلك في سائر الشجر[6].

---

١ عرام (ص ٤٠٢ وحاشية رقم ٢) .
٢ تاج العروس (٢٩٧/٨) ، (دوم) .
٣ تاج العروس (١١٨/٨) ، (مقل) .
٤ تاج العروس (٣٢٣/١) ، (شقب) ، عرام (٤٠٣) .
٥ عرام (٤٠٢ ، ٤٠٨) .
٦ قال الاعشى :

زنـادك خـير زنـاد الملـو ... ك خالـط فيهـن مـرخ عفارا
ولوبـت تقـدح في ظلمـة ... حصـاة بنبـع لاوديت نـارا

تاج العروس (٢٧٨/٢) ، (مرخ) .

و (العفار) ، من شجر النار كذلك . وهو شجر يتخذ منه الزناد ، يسوى من أغصانه فيقتدح به . شبيه بشجرة الغبيراء الصغيرة ، وهو شجر خوار . وقيل في قوله تعالى : « أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها » إنها المرخ والعفار . وهما شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر[1] .

و (الأراك) من الحمض ، وقيل الحمض نفسه ، له حمل كحمل عناقيد العنب ، يستاك به ، أي بفروعه . وهو أفضل ما استيك بفروعه ، وأطيب ما رعته الماشية رائحة لبن . تتخذ المساويك من الفروع ومن العروق ، وأجوده عند الناس العروق[2] . ويقال للغصن من ثمر الأراك (المرد) ، والنضيج منه (الكباث) ، و (البرير) ثمر الأراك أيضاً[3] . و (الطلح) ، شجر عظيم حجازي جناته كجنات السمرة ؛ وهو شوك أحجن ومنابته بطون الأودية ، وهو أعظم العضاه شوكاً وأجودها صمغاً . وذكر بعض علماء اللغة ، ان الطلح شجرة طويلة لها ظل يستظل بها الناس والإبل وورقها قليل ولها أغصان طوال عظام ، ولها شوك كثير مثل سلاء النخل ، ولها ساق عظيمة لا تلتقي عليها يدا الرجل ، وهي أم غيلان ، تنبت في الجبل ، الواحدة طلحة . وذكر بعض آخر ، ان الطلح أعظم العضاه وأكثره ورقاً ، وأشده خضرة ، وله أشواك ضخام طوال وشوكه من أقل الشوك أذى ، وليس لشوكته حرارة في الرجل ، وله برمة طيبة، وليس في العضاه أكثر صمغاً منه ولا أضخم ولا ينبت إلا في أرض غليظة شديدة خصبة . وقد فسر بعض العلماء قوله تعالى : « وطلح منضود » ، بأنه الطلع ، و (الطلع) لغة في الطلح . وذكروا ان الطلع الموز . وهذا في نظر بعض آخر ، غير معروف ، لأن شجر الموز غير شجر الطلح[4] .

و (النشم) ، شجر جبلي ، تتخذ منه القسي ، وهو من عتق العيدان[5] .

---

١ تاج العروس (٣/٤١٢) ، (عفر) .

٢ تاج (٧/٩٩ وما بعدها) ، (ارك) .

٣ تاج العروس (٢/٥٠٠) ، (مرد) .

٤ تاج العروس (٢/١٩٠) ، ، (طلح) .

٥ تاج العروس (٩/٧٦) ، (نشم) .

و (الغرب) ، شجر ، يسوى منه الأقداح البيض[1] . و (العرفط)[2] ، شجر من العضاه ، وهو فرش على الأرض لا يذهب في السماء ، وله ورقة عريضة وشوكة حديدة حجناء ، وهو مما يلتحى لحاؤه وتصنع منه الأرشية التي يستقى بها ، وتخرج في برمه العلفة كأنها الباقلاء ، تأكله الإبل والغنم . وقيل لبرمته الفتلة ، وهي بيضاء كان هيادبها القطن . وهو من خرج العيدان ، وليس له خشب ينتفع به فيما ينتفع من الخشب وصمغه كثير ، وربما قطر على الأرض حتى يصير تحت العرفط ، مثل الأرحاء العظام . وذكر بعض علماء اللغة : العرفط ، شجرة قصيرة متدانية الأغصان ، ذات شوك كثير طولها في السماء كطول البعير بأركالها وريقة صغيرة . تنبت في الجبال ، تأكل الإبل بفيها أعراض غصنتها . وذكر أن لصمغها رائحة كريهة ، فإذا أكلته النحل حصل في عسلها من ريحه . وقد أشير الى رائحته هذه في كتب الحديث[3] .

و (الغرف) شجر يدبغ به ، ويعمل منه القسي ، وذكر انه لا يدبغ به ، وقيل يدبغ بورقه ، وإن كانت القسي تعمل من عيدانه ، وذكر انه اذا جف فمضغ شبهت رائحته رائحة الكافور . وجعله بعضهم ثماماً . فقالوا : الثمام أنواع ، منه : الغرف ، وهو شبيه بالأسل ، وتتخذ منه المكانس ، ويظلل به المزاد فيبرد[4] . و (الشث) شجر من أشجار الجبال ، وقيل ضرب من الشجر ونبت طيب الريح مرّ الطعم يدبغ به ، ينبت في جبال الغور وتهامة ونجد . وقيل شجر مثل شجر التفاح القصار في القدر ، ورقه شبيه بورق الخلاف ، ولا شوك له ، وله برمة موردة صغيرة ، فيها ثلاث حبات أو أربع سود ، ترعاه الحمام اذا انتثروا[5] .

وذكر ان (الغُرَيْف) شجر خوّار مثل الغرب أو البردي[6] . و (الضرو)

---

١ تاج العروس (٤٠٧/١) ، (غرب) .

٢ بالضم .

٣ تاج العروس (١٨٢/٥) ، (اعرنفط) .

٤ تاج العروس (٢٠٩/٦) ، (غرف) .

٥ تاج العروس (٦٢٧/١ وما بعدها) ، (شث) .

٦ قال حاتم في صفة نخل :

رواه يسيل الماء تحت أصوله ‏ ‏ ‏ ‏ يميل به غيل بادناه غريف

وقال أحيحة بن الجلاح :

يزخر في حافاته مغدق ‏ ‏ ‏ ‏ بحافتيه الشوع والغريف

شجرة الكمكام ، وهو شجر طيب الريح يستاك به ، ويجعل ورقه في العطر ، وأكثر منابت الضرو باليمن ، وهو من شجر الجبال كالبلوط العظيم له عناقيد كعناقيد البطم ، غير انه أكبر حباً ، ويطبخ ورقه فإذا نضج صفي وردّ ماؤه الى النار فيعقد . يتداوى به[1] . وذكر ان الكمكام قرف شجر الضرو ، وقيل صمغ شجرة تدعى الكمكام تجلب من اليمن ، وقيل هو علك الضرو . وقرف شجرة الضرو أو لحاؤها من أفواه الطيب . وقد يستاك به[2] .

و (المظ) ، شجر الرمان أو بريه ، ينبت في جبال السراة ولا يحمل ثمراً وإنما ينوّر نوراً كثير . ومنابته الجبال . وفي نوره عسل كثير وعص وتأكله النحل فيجود عسلها ، وله حطب أجود حطب وأثقبه ناراً يستوقد كما يستوقد الشمع . وقيل هو الرمان البري الذي تأكله النحل ، وإنما يعقد الرمان البري ورقاً ولا يكون له رمان . وقيل هو : دم الأخوين ؛ وهو دم الغزال ، الذي يعرف بالقاطر المكي ، وهو عصارة عروق الأرطي ؛ وهي حمر ، والإرطاة خضراء ، فإذا أكلتها الابل احمرت مشافرها[3] .

و (السماق) من الأشجار التي تنبت بجبال تهامة ، وأهل الحجاز يسمونه (الضمخ) ، وأهل نجد يسمونه (العرتن)[4] .

و (الشوع) ، شجر البان ، أو ثمره . قيل شجر طوال وقضبانه طوال سمجة ، ويسمى ثمره أيضاً الشوع . وهو يريع ويكثر على الجدب وقلة الأمطار ، والناس يسلفون في ثمره الأموال . وأهل الشوع ، يستعملون دهنه كما يستعمل أهل السمسم دهن السمسم . وهو جبلي ، وقيل ينبت في الجبل والسهل[5] .
و (الضبر) ، شجر جوز البر ، يكون بالسراة في جبالها ينور ولا يعقد . وذكر بعض علماء اللغة ، أن (الضبر) ، (جوز بويا) ، و (جوز بوا) ، كما يسميه البعض . وذكر بعض آخر ، أنه جوز صلب . و(الضُبّار) ، شجر يشبه شجر البلوط ؛ وحطبه جيد ، مثل حطب المظ . فإذا جمع حطبه رطباً ،

---

١ تاج العروس (٦/ ٢١٠) ، (غرف) .
٢ تاج العروس (١٠/ ٢١٩) ، (ضرى) .
٣ تاج العروس (٥/ ٢٦٤) ، (مظظ) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٢) .
٥ تاج العروس (٥/ ٤٠٤) ، (شوع) .

ثم أشعلت فيه النار ، فرقع فرقعة المخاريق ، ويفعل ذلك بقرب الغيـاض التي فيها الأسد . فتهرب[1] .

و (الطباق) ، شجر ينبت متجاوراً ، لا تكاد ترى منه واحدة منفردة ، وهو نحو القامة ، وله ورق طوال دقاق خضر تترلـج ، إذا غمزت يضمد بها الكسر فيجبر . وله نور أصفر مجتمع ، ولا تأكله الإبل ولكـن الغنم ، ومنابته الصخر مع العرعر ، والنحل تجرسه والأوعال أيضاً . وينبت بجبال نواحي مكة ، وقد استخدم في معالجة أمراض جلدية وداخلية[2] . و (السرّاء) ضرب من شجر القسي[3] . و (الصوم) ، شجرة بلغة هذيل ، قيل انها على شكل الانسان ، كريهة المنظر جداً ، يقال لثمرها رؤوس الشياطـين ، يعني بالشياطين الحيات ، وليس لها ورق . وقيل لها هدب ولا تنتشر أفنانها بنبت نبات الأثل ، ولا تطول طوله ، وأكثر منابتها بلاد (بني شبابة)[4] .

و (القتاد) شجر ضخم ينبت بنجد وتهامة . وهو شجر صلب له شوك كالأبر. وهو من العضاه. وهو ضربان ، فأما القتاد الضخام ، فإنه يخرج له خشب عظام وشوكة حجناء قصيرة ، وأما القتاد الآخر ، فإنه ينبت صعداً لا يتفرش منه شيء وهو قضبان مجتمعة ، كل قضيب منها ملآن ما بين أعـلاه وأسفله شوكاً ، وفي المثل: من دون ذلك خرط القتاد . وإبل قتادية تأكل شوك القتاد[5] .

و (الأشكل) ، السدر الجبلي ، وقيل : شجر مثل شجر العنّاب في شوكه وعقف أغصانه ، غير أنه أصغر ورقاً وأكثر أفناناً ، وهو صلب جداً ، ولـه نبيقة حامضة شديدة الحموضة ، منابته شواهق الجبال تتخذ منه القسي[6] .

و (الصاب) و (السلع) ضربان من الشجر مرّان ، والمصاب قصب السكر[7]. و (السّرح) من الأشجار ، له ثمر يقال له (الآء) ، يشبه الزيتون على قول

---

١ تاج العروس (٣/٣٤٧) ، (ضبر) .
٢ تاج العروس (٦/٤١٥) ، (طبق) .
٣ تاج العروس (١/٧٧) ، (سرأ) .
٤ تاج العروس (٨/٣٧٢) ، (صام) .
٥ تاج العروس (٢/٤٥٨) ، (قتد) .
٦ تاج العروس (٧/٣٩٣) ، (شكل) .
٧ تاج العروس (١/٣٤٠) ، (صوب) .

أو الموز على قول آخر . يأكله الناس ويرتبون منه الرب[1] . و (الغضور) شجر أغبر ينبت في كل جبال تهامة[2] . وذكر أن (السرح) شجر كبار عظام طوال لا ترعى وإنما يستظل فيه ، وينبت بنجد في السهل والغلظ ، ولا ينبت في رمل ولا في جبل ولا يأكله المال إلا قليلاً له ثمر أصفر . وقيل السرحة ، دوحة محلال واسعة يحل تحتها الناس في الصيف ويبنون تحتها البيوت[3] .

و (الغاف) شجر عظام ينبت في الرمل ويعظم،وورقه أصغر من ورق التفاح، وهو في خلقته ، وله ثمر حلو جداً ، وهو غلف كأنه قرون الباقلى وخشبه أبيض أو هو شجر الينبوت يكون بعمان . وذكر ان الغاف من العضاه ، وهي شجرة نحو القرظ شاكة حجازية تنبت في القفاف[4] .

الأشجار العادية :

ونجد في كتب اللغة والأخبار ألفاظاً تعبر عن قدم الأشجار وضخامتها، فاستعملوا (العادي) ، و (العدمل) ، و (العدملة) ، و (العُدملي) للقديم من الشجر . وقد رأينا انهم استعملوا (العادي) بمعنى الشيء القديم ، ولا شيء قديم لا يعرف أصله[5] . ومنه (العيدانة) ، للشجرة الصلبة القديمة ، التي لها عروق نافذة إلى الماء[6] . و (العُدمل) ، كل مسنّ قديم . وقيل هو الضخم القديم من الشجر[7] . و (العدولي) ، الشجرة القديمة الطويلة[8] . و (الربوض) ، الشجرة العظيمة الضخمة الغليظة[9] . والدوائح ، العظام من الشجر[10] . و (الهيكل) ،

---

١ تاج العروس (١٦٢/٢) ، (سرح) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٤٠٠) .
٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠١) ، تاج العروس (٤٥٠/٣) ، (غضر) .
٣ تاج العروس (١٦١/٢) ، (سرح) .
٤ تاج العروس (٢١٤/٦) ، (غيف) .
٥ تاج العروس (٤٣٧/٢) ، (عود) .
٦ تاج العروس (٤٣٨/٢) ، (عود) .
٧ تاج العروس (١٢/٨) ، (العدمل) .
٨ تاج العروس (١١/٨) ، (عدل) .
٩ تاج العروس (٣٠/٥) ، (ربض) .
١٠ تاج العروس (١٣٧/٢) ، (الداح) .

النبات الطويل البالغ العبل ، أي العظيم ، وكذلك الشجر[1] . أما الشجرة الطويلة، فيقال لها (سحوق) و (سهوق) . والنخلة السحوق ، الطويلة التي بعد ثمرها على المجتني . وقيل هي الجرداء الطويلة التي لا كرب لها[2] . و (السمق) من الشجر ، هو الشجر الطويل المرتفع[3] . والقراح ، النخل الطويل الذي زال كربه وصار أملس[4] .

جماعة الشجر :

وفي دواوين اللغة ألفاظ كثيرة أطلقت على جماعة الشجر من حيث كثافتها في أرض تنبت بها ، ومن هذه الألفاظ : (الدخل) ، الشجر الملتف ، كالدغل[5] . و (الدغل) ، الشجر الكثير الملتف ، وقيل هو اشتباك النبت وكثرته ، وأعرف ذلك في الحمض ، والجمع أدغال[6] . و (الشجـــراء) ، اسم لجماعة الشجر[7] ، و (الغيضة) ، مجتمع الشجر في مغيض ماء ، والمراد بالشجر ، أي شجر كان ، أو خاص بالغرب لا كل شجـر[8] ، و (الأجمة) ، الشجر الكثيف الملتف[9] . وأما (الغيطلة) ، فهي الشجر الكثيف الملتف ، وجماعـة الشجر والعشب وكل ملتف مختلط ، وقيل جماعة الطرفاء[10] . و (الحرجة) ، اسم لمجتمع الشجر ، وقيل الشجر الملتف . وقيل الحرجة تكون من السمر والطلح والعوسج والسلم والسدر . وقيل هو ما اجتمع من السدر والزيتون وسائر الشجر[11] . و (العيص) ، الشجر الكثير الملتف ، وقيل هو الشجر الملتف النابت بعضه في أصول بعض . وقيل : ما اجتمع بمكان وتدانى والتف من السدر والعوسج والنبع والسلم من العضاه كلها.

---

١ تاج العروس (٨/ ١٧٠) ، (هيكل) .
٢ تاج العروس (٦/ ٣٧٧) ، (سحق) .
٣ تاج العروس (٦/ ٣٨٤) ، (سحق) .
٤ تاج العروس (٢/ ٢٠٥) ، (قرح) .
٥ تاج العروس (٧/ ٣٢٠) ، (دخل) .
٦ تاج العروس (٧/ ٣٢٢) ، (دغل) .
٧ تاج العروس (٣/ ٢٩١) ، (شجر) .
٨ تاج العروس (٥/ ٦٥) ، (غيض) .
٩ تاج العروس (٨/ ١٨٠) ، (أجم) .
١٠ تاج العروس (٨/ ٤٦) ، (غطل) .
١١ تاج العروس (٢/ ٢٠) ، (حرج) .

وهو من الطرفاء الغيطلة ، ومن القصب الأجمة . وقيل العيص مـا التف من الشجر وكثر مثل السلم ، والطلح ، والسيال ، والسدر ، والعرفط ، والعضاه[1] . وأما (الرمخ) ، فالشجر المجتمع كذلك[2] .

وأما (الغيل) ، فالشجر الكثير الملتف الذي ليس بشوك يستتر به . وقيل جماعة القصب والحلفاء[3] وأما (الغريف) ، فالشجر الكثير الملتف من أي شجر كان ، أو الأجمة من البردي والحلفاء ، وقد يكون من الضال والسلم[4] . وأمـا (الأبأة) ، فالقصبة ، أو أجمة الحلفاء والقصب خاصة ، وماؤها شر المياه[5] . وأما (الزأرة) ، فالأجمة ذات الحلفاء والماء والقصب . و (الزأرة) قرية كبيرة بالبحرين ، وبها عين معروفة ، يقال لها عين الزأرة ، وقيل (مرزبان الزأرة) كان منهـا . و (المرزبان) الرئيس ، أي رئيس الأجمـة[6] . و (الخيس) و (الخيسة) : فالشجر الكثير الملتف ، والمجتمع من كل الشجر ، أو ما كان حلفاء وقصباً ، وقيل الملتف من القصب والأشاء والنخل . وقيل : منبت الطرفاء وأنواع الشجر ، والخيسة ، الأجمة[7] . و (الربض) ، جماعة الطلح والسمر ، وقيل : جماعة الشجر الملتف[8] . و (الوهط) ، ما كـثر من العرفط ، وقيل : وهط من عشر ، كما يقال عيص من سدر . وقيل : الوهط : المكـان المطمئن من الأرض المستوى ، تنبت فيـه العضاه ، والسمر ، والطلح ، والعرفط[9] . ويقال للغملى من النبات ، وهو ما التف بعضه على بعض (الشربب)[10] .

و (الأيكة) ، الشجر الملتف الكثير ، وقيل : الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما ، أو الجماعة من كل الشجر حتى من النخل ، وخص بعضهم به منبت الأثل ومجتمعه . وقال بعض علماء اللغة : الأيك الجماعة الكثيرة من الأراك تجتمع

---

١ تاج العروس (٤/٤١١) ، (العيص) .
٢ تاج العروس (٢/٢٥٩) ، (رمخ) .
٣ تاج العروس (٨/٥٣) ، (الغيل) .
٤ تاج العروس (٦/٢١٠) ، (غرف) .
٥ تاج العروس (١/٣٩) ، (أباءة) .
٦ تاج العروس (٣/٢٣٠) ، (زأر) .
٧ تاج العروس (٤/١٤٤) ، (الخيس) .
٨ تاج العروس (٥/٣٠) ، (ربض) .
٩ تاج العروس (٥/٢٤٣) ، (وهط) .
١٠ تاج العروس (١/٣١٥) ، (شرب) .

في مكان واحد . وقد ذكرت الأيكة في القرآن الكريم[1] . قيل أن شجر أصحاب الأيكة كان الدوم ، وقيل : أثـــل ورهط من عشر ، وقصيمة من غضى[2] . وأما (العيكة) ، فلغة في الأيكة[3] .

و (الغابة) ، الأجمة ذات الشجر المتكاثف ، لأنها تغيب ما فيها ، وقيل الغابة : الأجمة التي طالت ولها أطراف باسقة . يقال : ليث غابة . وقيل الغابة أجمة القصب . وفي الحديث : كان منبر الرسول من أثـــل الغابة ، وفي رواية من طرفاء الغابة . والغابة غيضة ذات شجر كثير ، وهي على تسعة أميـــال من المدينة . وقيل : موضع قريب من المدينـــة . والعرب تسمي ما لم تصبه الشمس من النبات كله : الغيبان[4] .

و (الصور) ، جماع النخل ، وقيل النخل المجتمع الصغار . قيـــل : ويقال لغير النخل من الشجر صور[5] . و (العقدة) ، المكان الكثير الشجر ، يرعونه من الرمث والعرفج ، وقيل الحائط الكثير النخل[6] .

وتنبت القصباء والحلفاء في الماء الراكد أو الهادىء ، وعلى حواشي الأنهار حيث يظهر الماء في المنخفضات . جاء في شعر للأعشى :

كبردية الغيل وسط الغريف إذا ما أتى الماء منها السديرا[7]

والقصباء جماعة القصب ، وقيل منبتها . وقد أقصب المكان ، وأرض قصبة ومقصبة ، أي ذات قصب[8] . وينبت في المواضع التي يكثر وجود الماء الراكدة أو الهادئة بها ، مثل المستنقعات والبطائح ، مثل بطائح العراق ، حيث تعد من أهم منابت القصب والبردي في العراق حتى اليوم .

والقصب مادة مهمة لأهل الريف ، ولمن يعيش على الماء ، مثل أهل البطائح

---

١ القرآن الكريم في سورة الحجر ، والشعراء ، و ص ، و ق .
٢ تاج العروس (١٠٤/٧ وما بعدها) ، (الايك) .
٣ تاج العروس (١٦٥/٧) ، (عيكة) .
٤ تاج العروس (٤١٦/١ وما بعدها) ، (غيب) .
٥ تاج العروس (٣٤٣/٣) ، (صور) .
٦ تاج العروس (٤٢٧/٢) ، (عقد) .
٧ تاج العروس (٢١٠/٦) ، (غرف) .
٨ تاج العروس (٤٣٠/١) ، (قصب) .

والأهوار ، والمستنقعات ، والأجم التي تتخللها المياه . إذ اتخذوا منها بيوتاً صنعوها من القصب ، ولا زال سكان (الأهوار) في العراق يصنعون بيوتهم من القصب . واتخذوا منها فراشاً يجلسون عليه ، هو (البارية) ، ويقال لها (البوري) ، و (البورية) ، و (البورياء) ، و (الباري) ، و (البارياء) . الحصير المنسوج من القصب . وقد أشير إلى (البوري) في الحديث[1] .

والحلفاء نبت من الأغلاس ، قلما تنبت إلاّ قريباً من ماء أو بطن واد، وهي سلبة غليظة المسّ ، وقد يأكل منها الإبل والغنم أكلاً قليلاً ، وهي أحب شجرة الى البقر . وقد كانت الأسود تأوي اليها . ومن مآوي الأسود الآجام ومنابت الحلفاء . وقد تجف ، إذا قلّ الماء[2] .

والبرّدي من النبات الذي يحتاج مثل القصب والحلفاء الى ماء . فهو لا ينبت إلا قريباً من ماء أو في مستنقع أو هور ، أو منخفض فيه ماء . ويؤلف أجمة في وسط ماء[3] .

و (الجليل) ، نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت . وهو (الثمام) في رأي بعض علماء اللغة[4] . و (الثمام)،نبت ضعيف له خوص ، أو شبيه بالخوص، وربما حشي به وسدّ به خصاص البيوت . وهو أنواع . فنها : الضعة ومنها الجليلة ، ومنها الغرف ، وهو شبيه بالأسل وتتخذ منه المكانس : ويظلل به المزاد فيبرد الماء . يقال : (بيت مثموم) مغطى به . وقد يستعمل لإزالة البياض من العين[5] .

الفحم وقطع الشجر :

وقد صنع أهل الجاهلية من النباتات البرية والأشجار الجبلية الفحم ، وهم لا يزالون يصنعونه من هذه المواد . وذلك بإشعالها أولاً ثم باطفاء جمرها ،

---

١ تاج العروس (٦٠/٣ وما بعدها) ، (بار) .
٢ تاج العروس (٧٦/٦) ، (حلف) .
٣ تاج العروس (٢٩٨/٢) ، (برد) .
٤ تاج العروس (٢٦١/٧) ، (جلل) .
٥ تاج العروس (٢١٩/٨) ، (ثمم) .

للاستفادة من الفحم الحاصل من ذلك في أغراض شتى . ويحمله أصحابه الى أهل المدر ، لبيعه لهم ، أو لمقايضته مع الباعة بمواد أخرى يحتاجون اليها . وقد أدى الإسراف في ذلك وفي قلع الأشجار البرية النابتة بالطبيعة دون التعويض عنها بزراعة غيرها في مكانها ، الى تحوّل الأرضين الشجراء الى أرض جرداء ، وإلى إلحاق ضرر كبير بمصدر ثروة مهمة من الثروات الطبيعية .

وتشاهد في كثير من المناطق الجبلية والنجود بقايا أشجار قديمة وأصول أشجار ممتدة بين الصخور تدل على أن هذه المناطق الجرد كانت ذات أشجار باسقة ، ولكنها أصابها الدمار بفعل جهل الانسان واعتدائه عليها ، وعدم عنايته بها،فتلفت وبادت ، حتى استحالت تلك البقاع الشجراء قفاراً جرداً .

وكان مما ضيق من مساحة الأرضين المشجرة ، التي شجرتها الطبيعة بنفسها ، قطع الإنسان للشجر من عروقه أو من موضع اتصال الساق بالأرض ، للاستفادة من المقطوع الى أقصى حدّ ممكن ، مما أهلك النبت ، فأمات عروقه ، وقطع عنه مادة الحياة ، ولم يحفل بغرس آخر في مكانه ، ليأخذ محله ، لأن الأرض ليست أرضه ، وإنما هو يريد بيع الخشب والحطب ليستفيد من الثمن ، فقلت مساحة الأرض المشجرة بالطبيعة ، بهذا التجاوز الفظيع . ولم تعوض الطبيعة الإنسان عن الضرر الذي ألحقه بنتاجها ، فقد أعطته كثيراً ، وكان من الواجب عليه أن يعينها في الانبات ، لا أن يعمل على إفساد ما زرعته .

آفات زراعية :

ويفهم من بعض النصوص الجاهلية ان الزراعة كانت تتعرض لآفات زراعية خطيرة تقضي على المزروعات في بعض الأحيان . وطالما وجدنا أصحابها يسألون الآلهة وقاية مزروعاتهم وحمايتها وانزال البركة عليها ومنحهم غلات وافرة كثيرة . وقد يكون من بين هذه الآفات:الحشرات والجراد وانحباس المطر . ومن طرق هذه الحماية في نظرهم تسمية الزرع باسم إلـه ، ليكون في حمايته ورعايته . وقد يخصص نصيب منه لذلك الإلـه ، في مقابل حمايته له .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة في معاني الآفات التي تصيب الزروع ، مثل : البثق ، وهو داء يصيب الزرع من ماء السماء[1] ، و (الغمل) ، وهو مرض

[1] تاج العروس (٦/٢٨٣) ، (بثق) .

يغمل النبات ، فيجعله يركب بعضه بعضاً ويذبل ويعفن[1] . و (الخناس) ، داء يصيب الزرع فيتجعّن منه فلا يطول[2] . و (الشفران) ، و (اليرقان) ، آفة للزرع تصيبه فيصفر منها ، وقيل دود يكون في الزرع فيتلفه[3] ، و (الأرقان)[4] ، والرصع ، والوصم ، وهو العيب في العود ، والقادح ، أكال يقع في الشجر وفي الخشب فيأكله ، والقادح أيضاً العفن ، ويقع القادح في الأسنان ، وهو السواد الذي يظهر فيها[5] . والسوس ، داء يصيب الزرع ، لوقوع السوس فيه ، بسبب حشرة تعبث فيه ، ويقال مثل ذلك بالنسبة إلى الصوف والثياب والطعام ، إذا عبثت العثة فيها[6] . و (العُثة)[7] سوسة ، أو الأرضة التي تلحس الصوف فتؤذيه . وقيل : دويبة تعلق الإهاب فتأكله . والجدجد أيضاً دويبة تعلق الإهاب فتأكله[8] . والأرضة ضربان ، ضرب صغار ، مثل كبار الذر ، وهي آفة الخشب خاصة ، وضرب مثل كبار النمل ، ذوات أجنحة ، وهي آفة كل شيء من خشب ونبات . غير انها لا تعرض للرطب ، وهي ذوات قوائم . وقيل : هي دودة بيضاء شبه النملة تظهر في أيام الربيع . وقيل دودة بيضاء سوداء الرأس ، وليس لها أجنحة ، وهي تغوص في الأرض وتبني لها كنّاً من الطين ، وهي تأكل الخشب وغيره[9] . والنخر ، داء يصيب الأغصان والسيقان ، والخشب ، فيسبب جفافها وتفتتها[10] . و (الفادحة) ، دودة تأكل الشجر[11] .

و (القتع) ، دود حمر تأكل الخشب ، أو هي الأرضة ، وقيل الدود مطلقاً . وقيل هي السرفة ، والقتعة ، والهرنصانة ، والحطيطة ، والبطيطة ، واليسروع ، والعوانة ، والطحنة[12] .

---

١ تاج العروس (٨/ ٥٠) ، (غمل) .
٢ تاج العروس (٤/ ١٤٣) ، (خنس) .
٣ تاج العروس (٧/ ٩٧) ، (يرق) .
٤ تاج العروس (٦/ ٢٧٨) ، (ارق) .
٥ تاج العروس (٢/ ٢٠٣) ، (قدح) .
٦ تاج العروس (٤/ ١٦٨) ، (سوس) .
٧ بالضم .
٨ تاج العروس (١/ ٦٣٢) ، (عث) .
٩ تاج العروس (٥/ ٤) ، (أرض) .
١٠ المخصص (١١/ ٥٦) ، تاج العروس (٣/ ٥٥٩) ، (نخر) .
١١ المخصص (١١/ ١٢ وما بعدها) .
١٢ تاج العروس (٥/ ٤٥٨) ، (قتع) .

و (السرفة) ، دويبـــة تؤذي الزرع ، تثقب الشجر ثم تبني فيها بيتاً من عيدان دقـــاق تجمعها بمثل غزل العنكبوت ، وقيل دودة تنسج على بعض الشجر وتأكل ورقه وتهلك ما بقي منه بذلك النسج[1] . وذكر أن (الهرنصانة) السرفة[2] ، وأن (البطيطة) السرفة كذلك[3] . وأن (الحطيطة) السرفة أيضاً[4] .

ومن الأمراض والآفات التي تصيب النخيل ، الدمان ، ويقع عـــلى التمر فيفسد ، وتصيبه العفونة قبل إدراكه حتى يـسود[5] . والمُراض ، داء للثمار يقع فيها فيهلكها[6] ، و (القشام)[7] ، وهو أن ينتفض تمر النخل قبل أن يصـــير بلحاً[8] . وذكر بعض العلماء أن الدمان فساد النخل قبل إدراكه ، وإنما يقع ذلك في الطلع يخرج قلب النخلـــة أسود معفوناً . وذهب آخرون الى أنه فساد الطلع وتعفنه وسواده . وقال بعضهم : الدمان التمر المتعفن ، وأنه فساد التمر وعفنـه قبل إدراكه حتى يسود من الدمن . وأما المُراض ، فذكر بعض العلماء أنه اسم لجميع الأمراض . وأما القشام ، فهو أكال يقع في التمر[9] .

ومن الآفات التي كانت تصيب الزرع فتؤذي الناس وتلقي بأصحـــاب الزرع خسائر كبيرة (الجراد) . فقد كان يكتسح الزرع في بعض السنين اكتساحاً ، فيأتي في موجات كثيفة ، ويلتهم كل ما يجده أمامه ، حتى يجرد الأرض جرداً ، ولا يترك من نبتها شيئاً . ونجد في كتابات المسنـــد اشارات اليه . ويقال له : (اربي) في العربيات الجنوبية[10] . وفي العربية : (جراد سد) ، أي كثير سد الأفق . ويقال جاءنا سد من جراد ، إذا سد الأفق من كثرته[11] .

وللجراد أسماء تمثل مراحل نموه ، ذكرها علماء اللغة. مما يدل على مدى اتصاله

---

١ تاج العروس (١٣٧/٦) ، (سرف) .
٢ تاج العروس (٤٤٧/٤) ، (الهرنصانة) .
٣ تاج العروس (١٠٩/٥) ، (بط) .
٤ تاج العروس (١١٩/٥) ، (حطط) .
٥ القاموس (٢٢٣/٤) ، تاج العروس (٢٠٣/٩) ، (دمن) .
٦ تاج العروس (٨٦/٥) ، (مرض) .
٧ بالضم كغراب .
٨ القاموس (١٦٥/٤) ، (قشم) .
٩ عمدة القاريء (٣/١٢) .
١٠ South Arabian Inscriptions, p. 427.
١١ تاج العروس (٣٧٣/٢) ، (سدد) .

بحياة الناس ، وما كان يحدثه من أذى وأثر في زرعهم . وإذا أكل الجراد نبت أرض ، قيل : أرض مجرودة ، وجرد الجراد الأرض جرداً[1] ،ومن أسماء الجراد (الجندب) . وقيل انه الصدى يصر بالليل ويقفز ويطير . وقيل هو أصغر من الصدى يكون في البراري ، وقيل هو الصغير من الجراد[2] .

وكان الجراد يغزو المزارعين فيأتي على ما زرعوه ، لا يترك لهم منه شيئاً ، وهم عاجزون عن الاتيان عليه. وهو أنواع عديدة من حيث اللون والجسم . وكان إذا انتقل من مكان إلى مكان ظهر في السماء ، وكأنه سحابة من كثرته . وقد صار طعاماً لهم ، يأكلونه كما يأكل هو زرعهم . ذكر ان (ابن أبي أوفى) قال: غزونا مع النبي سبع غزوات أو ستاً كنا نأكل معه الجراد[3] .

الأسوكة :

السواك سوك الفم بالعود . والعود مسواك . ويتخذ من الأراك ، فإن لم يكن فعتم أو بطم[4] . ويستاك بالبشام كذلك ، وهو شجر ذو ساق وأفنان وورق صغار أكبر من ورق الصعتر ولا ثمر له[5] .

١ تاج العروس (٣١٩/٢) ، (جرد) .
٢ تاج العروس (١٧٦/١) ، (جدب) .
٣ ارشاد الساري (٢٧١/٨) ، (باب جواز أكل الجراد) .
٤ تاج العروس (٣٨٨/٨) ، (عتم) .
٥ تاج العروس (٢٠٣/٨) ، (بشم) .

الفصل الثالث والتسعون

المراعي

وفي جزيرة العرب مراعي ، منها الخاص ، ومنها العام . والمراعي الخاصة ما تكون ملكاً لرجل أو أسرة أو قبيلة تفرض سلطانها على المرعى ، مثل الاحماء ، حيث لا يسمح لأحد غير مأذون بالرعي في (الحمى) . أما المراعي العامة، فهي التي لا تدخل في ملك أحـــد ، وإنما يرعى فيها كل أبناء الحي ، وجميع أبناء القبيلة ، لأن أرض القبيلة ملك للقبيلة ما دامت عزيزة فيها مالكة لرقبتها ، يرعى فيها كل أبنائهـــا ، فإذا ذلت واستخذت طمعت فيها القبائل المجاورة القوية ، فشاركتها في أرضهـــا ، وربما أجلتها عنها . وإذا ارتحلت القبيلة عن أرضها ، وتركتها ، ونزل بها نازل جديد ، صارت الأرض ملكاً له ، ما لم يدفع عنها بالقوة ، أو يتركها هو رضاءً . فإذا ارتحل عنها ، ونزل في مكان جديـــد ، سقط حقه فيها ، وانتقلت رقبة الأرض الى النازل الجديد . وهكذا تكون المراعي عامة مشاعة بين جميع أبناء القبيلة ، ما خلا الحمى ، ينتفع بها جميع أبنائها ، بما في ذلك سادة القبيلة وأصحاب الاحماء ، الذين ترعى إبلهم في احمائهم ، كما ترعى مع إبل الناس في مراعي القبيلة ، ولا يجوز لأحد من القبيلة أن يأخذ من أرباب المواشي عوضاً عن مراعي القبيلة ، لأنها للجميع . وقد أخذ بهذا الحـــكم في الإسلام بالنسبة للمراعي الموات ، بقول الرسول : « الناس شركاء في ثلاث: الماء ، والنار ، والكلأ »[1] .

[1] الاحكام السلطانية (٢٠٨) .

و (الرِعي) الكلأ ، وهو ما ترعاه الراعية . والراعي ، هو الذي يتولى أمر الماشية التي ترعى ، ويقال للذي يجيد رعية الإبل (ترْعاية) و (ترْعى) ، أو هو الحسن الارتياد للكلأ للماشية ، أو صناعته وصناعة آبائه رعاية الإبل . و (الرُعاوى) الإبل التي ترعى حوالى القوم وديارهم لأنها الإبل التي يعتمل عليها [1].

ويقال للمرعى في المسند (مرعم) ، (مرعيم) ، (مرعى)[2] . والمرعى موضع الرعي . والرِعي الكلأ . والمرعى والرعي ما ترعاه الراعية . ورُعيان ، ورُعاء ، رعاة الغنم على الأكثر . ويقال (ترعى) و (ترعاية) و (تراعية) للرجل يجيد رعية الإبل ، أو هو الحسن الارتياد للكلأ للماشية ، أو صناعته وصناعة آبائه رعاية الإبل . و (الرُعاوى)[3] ، الإبل التي ترعى حوالى القوم وديارهم ، لأنها الإبل التي يعتمل عليها [4] . ويقال للمرعى (الأب) ، وهو الكلأ جميعه الذي تعتلفه الماشية ، رطبه ويابسه[5] .

ويعبر عن الإبل إذا رعت بـ (سامت المال) ، و (سامت الإبل) ، يقال سامت الراعية والماشية والغنم تسوم سوماً ، رعت حيث شاءت ، فهي سائمة . والسوام والسائمة الإبل الراعية ، وقيل كل ما رعى من المال في الفلوات إذا خلي وسومه يرعى حيث شاء ، والسائم الذاهب على وجهه حيث يشاء . وذكر ان السوام والسائمة كل إبل ترسل ترعى ولا تعلف في الأصل . وورد في الحديث : سائمة الغنم[6] . و (السرح) المال السائم . وذكر بعض علماء اللغة ان المال لا يسمى سرحاً إلا ما يغدى به ويراح[7] .

وتؤدي لفظة (مرتع) معنى (مرعى) . ورتع بمعنى أكل وشرب للبهائم. ولا يكون الرتع إلا في خصب وسعة [8] . وتؤدي لفظة (النجعة) ، معنى طلب الكلأ في موضعه . و « والنجعة عند العرب المذهب في طلب الكلأ في موضعه ،

---

١ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعى) .
٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 57, Halevy 147.
٣ كسكاري ويضم .
٤ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعى) .
٥ تاج العروس (١/١٤٢) ، (أبّ) .
٦ تاج العروس (٨/٣٥٠) ، (سوم) .
٧ تاج العروس (٢/١٦٠) ، (سرح) .
٨ تاج العروس (٥/٣٤٧) ، (رتع) .

والبادية تحضر محاضرها عند هيج العشب ونقص الخرف وفناء ماء السماء في الغدران، فلا يزالون حاضرة يشربون الماء العدّ حتّى يقع ربيع بالأرض خرفياً كان أو شتياً، فإذا وقع الربيع توزعتهم النجع وتشبعوا مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب ، إذا أعشبت البلاد ، ويشربون الكرع وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع الى أن يهيج العشب من عام قابل وتنش الغدران فيرجعون الى محاضرهم على أعداد المياه»[1].

ويقال أرض معرضة ، للأرض الّتي يستعرضها المال ويعترضها ، أي هي أرض فيها نبات يرعاه المال إذا مرّ فيها[2] .

وإذا أقامت الإبل في المرعى ، قيل : (عدنت الإبل) ، وخص بعضهم به الإقامة في (الحمض) ، وقيل يكون في كل شيء[3] .

وقد تكون المراعي عند مشارف أهل الحضر ، لا تبعد عن القرى وعن مستوطناتهم كثيراً ، وذلك بالنسبة لرعي الغنم . فيؤدي أهل البيوت أغنامهم الى الراعي ، ليأخذها الى الخارج فيرعى بها وتتجمع عند الراعي أغنام لمختلف الناس، في مقابل أجر يدفع له . وقد كان الرسول راعي غنم ، يرعى غنم قريش، وغنم أهله بـ (أجياد) بالقراريط[4] .

وكان بين أصحاب الغنم ، وبين أصحاب الإبل تنازع ، وقد كان يستطيل أصحاب الإبل على أصحاب الغنم[5] .

و (المنقل) النجعة يتنقلون من المرعى إذا احتفوه إلى مرعى آخر ، وذلك إذا رعوا فلم يتركوا فيه شيئاً . والناقلة ضد القاطنين ، والجمع النواقل . والنقل الطريق المختصر[6] . والنُجعة طلب الكلأ في موضعه . والبادية تحضر محاضرها عند هيج العشب ونقص الخرف وفناء ماء السماء في الغدران ، فلا يزالون حاضرة يشربون الماء العدّ حتّى يقع ربيع بالأرض خرفياً كان أو شتياً ، فإذا وقع الربيع توزعتهم النجع وتبعوا مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب إذا أعشبت البلاد

---

١ تاج العروس (٥/٥١٩) ، (نجع) .
٢ تاج العروس (٥/٤٩) ، (عرض) .
٣ تاج العروس (٩/٢٧٤) ، (عدن) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٥ وما بعدها) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٦) .
٦ تاج العروس (٨/١٤٤) .

ويشربون الكرع وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع إلى ان يهيج العشب من عام قابل ، وتنش الغدران ، فيرجعون إلى محاضرهم على أعداد المياه[1] .

وإذا أمطرت السماء مطراً كافياً ، كان ذلك خيراً للعرب وفرحة عظيمة . إذ تغيث الأرض وتكسوها حلة سندسية جميلة ، وتزول الغبرة عن وجهها ، وتظهر الأرض فرحة مستبشرة بعد عبوس وكآبة . فتهيج الأرض وتنبت نبتاً أخضر ، يكون بهجة للناظرين وطعاماً شهياً للإبل ولبقية حيواناتهم، تقبل عليه إقبالاً شديداً، فتشبع وتصح أجسامها ، ويكثر نسلها . ويقال للخضرة التي تكسو وجه الأرض (الكلأ) ، وهو العشب ، رطبه ويابسه . وأرض كليئة ومكلأة ، كثيرة الكلأ[2]. وذكر ان العشب الكلأ الرطب ، والرطب من البقول البرية ، ينبت في الربيع ، وهو سرعان الكلأ في الربيع يهيج ولا يبقى . ويدخل في العشب ، أحرار البقول وذكورها ، فأحرارها ما رقّ منها وكان ناعماً . وذكورها ما صلب وغلظ منها. وذكر بعضهم ان العشب كل ما أباده الشتاء وكان نباته ثانية من أرومة أو بذر[3].

وفي ذلك يقول الأعشى :

ألم تر أن الأرض أصبح بطنها نخيلاً وزرعاً نابتاً وفصافصا

والفصافص الرطب من علف الحيوان ، ويسمى (القت) . وقيل هو رطب القت . وفي الحديث : ليس في الفصافص صدقة[4] .

و (البقل) ما نبت في بزره لا في أرومة ثابتة . وذكر أنه كل ما اخضرت به الأرض . والفرق بين البقل ودقّ الشجر ، أن البقل إذا رعي لم يبق له ساق، والشجر تبقى له سوق وإن دقت . وقال بعض علماء اللغة : البقل ما لا يثبت أصله وفرعه في الشتاء . والبُقلة ، بقل الربيع خاصة . وبقلت الأرض إذا أنبتت[5]. وذكر أن من أسماء بقل الربيع : الجشر[6] .

---

١ تاج العروس (٥/٥١٩) ، (نجع) .
٢ تاج العروس (١/١١١) ، (كلأ) .
٣ تاج العروس (١/٣٨٣) ، (عشب) .
٤ تاج العروس (٤/٤١٦) ، (فصص) .
٥ تاج العروس (٧/٢٣١) ، (بقل) .
٦ تاج العروس (٣/١٠١) ، (جشر) .

وترد لفظة (لسسن) ، (لسس) ، الواردة في نصوص المسند في معنى (لساس)[1] في عربيتنا[2] . ويراد بها أول البقل ، وقيل هو من البقل ما استمكنت منه الراعية وهو صغار . وقيل : البقل ما دام صغيراً لا تستمكن منه الراعية ، وذلك لأنها تلسه بألسنتها لساً[3] .

والحشيش الكلأ اليابس ، ولا يقال وهو رطب حشيش . والطاقة منه حشيشة . والعشب يعمّ الرطب واليابس . وقال بعض علماء اللغة : الحشيش أخضر الكلأ ويابسه . وقال بعض آخر العرب إذا اطلقوا اسم الحشيش عنوا به الخليّ خاصة، وهو أجود علف يصلح الخيل عليه . وهو من خير مراعي النعم . وقال بعض آخر : البقل أجمع رطباً ويابساً حشيش وعلف وخلي[4] . والخلي : الرطب من النبات . وقال بعض علماء اللغة : هو النبات الرقيق ما دام رطباً[5] .

وترد في المسند لفظة (جمست) (جمسة) ، بمعنى الحشائش عند جفافها والنبت إذا ما ذهبت غضاضته[6] . وهي بهذا المعنى في عربية القرآن الكريم . فالجامس من النبات ما ذهبت غضوضته ورطوبته فولى وجسا[7] .

وتنبت الأمطار ما دقّ من الشجر ، وبعض أنواع الشجر ، وقد تثمر ثمراً يستفيد منه الانسان . كما يستفيد من عوده ومن حطبه وخشبه . أما ورقه فيكون طعاماً شهياً للإبل . ونجد في كتب اللغة أسماء عدد كبير من هذه النباتات . وقد استعان الأعراب بالنبات وبالشجر في مداواة أنفسهم ، علمتهم تجاربهم الطويلة القديمة ، ما ينفع منها في معالجة ما يصابون به من مرض، فصار لهم طب خاص بهم، يقوم على الفراسة وعلى الملاحظة وعلى التجارب في استخدام النبات في مداواة الانسان وفي معالجة ماله ؛ ولا زال هذا الطب معمولاً به في البوادي ، عند الأعراب .

---

١ كغراب .

٢ القاموس (٢/٢٤٩) .

٣ تاج العروس (٤/٢٤١) ، (لسس) ، REP. EPIGR., Tome, V. P. 196.

٤ تاج العروس (٤/٢٩٨) ، (حشش) .

٥ تاج العروس (١٠/١٢٠) ، (خلى) .

٦ REP. EPIGR., Tome, V, P. 196.

٧ القاموس (٢/٢٠٥) ، تاج العروس (٤/١٢٢ وما بعدها) ، (جمس) .

ويعد الأراك من أطايب أكل الإبل ، إذا أصابت منه شيئاً ، ظهر طعمه في اللبن ، وهم يستحسنون هذا اللبن . وقد كان الرعاة إذا مروا به اجتنوا ثمرته ، و (الكباث) ، هو أحسن ثمره ، ولونه أسود ، وهو أطيب ثمر الأراك . وقد اجتناه الرسول يوم كان راعياً [1] . وهو النضيج من ثمر الأراك . وما لم ينضج فهو (برير) . وقيل : الكباث هو ما لم ينضج منه ، وقيل حمله إذا كان متفرقاً [2] .

وتكتسي الأرض بعد ظهور الكلأ ثوباً سندسياً جميلاً ، فتظهر خضراء، لكثرة ما عليها من (الخضر) ، وهو الزرع والنبات الذي نبت عليها . و (الخضر) ، المكان الكثير الخضرة . ويراد بالخضرة (البقلة الخضراء) ، وهي بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدخن وكذلك ثمرتها وترتفع ذراعاً،وهي تملأ فم البعير . و (الخضر) ضرب من الجنبة ، والجنبة من الكلأ ما له أصل غامض في الأرض، مثل النصي والصليان . وليس الخضر من أحرار البقول التي تهيج في الصيف . وجيدها الذي ينبته الربيع بتوالي أمطاره فتحسن وتنعم ، ولكنه من البقول التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول ويبسها حيث لا تجد سواها،وتسميها العرب الجنبة، فلا ترى الماشية تكثر من أكلها ولا تستمرئها [3] .

والجنبة ، عامة الشجر التي تتربل في زمان الصيف . واسم لنبوت كثيرة ، وهي كلها عروق . سميت جنبة ، لأنها صغرت عن الشجر الكبار وارتفعت عن التي لا أرومة لها في الأرض . فمن الجنبة : النصي والصليان والحماط والمكر والحذر والدهماء . صغرت عن الشجر ونبلت عن البقول [4] . والنصي : نبت ما دام رطباً، فإذا ابيض ، فهو الطريفة ، فإذا ضخم ويبس ، فهو الحلي . وهو من أفضل المرعى [5] . وذكر أن (الطريفة) من النصي ، إذا ابيض ويبس ، أو هو منه اذا اعتم وتم وكذلك من الصليان . وذكر أيضاً أن الطريفة من النبات ، أول الشيء ، يستطرفه المال،فيرعاه كائناً ما كان . وسميت طريفة ، لأن المال يطرفه

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٦) .
٢ تاج العروس (١/٦٤٠) ، (كبث) .
٣ تاج العروس (٣/١٧٩) ، (خضر) .
٤ تاج العروس (١/١٨٩) ، (جنب) .
٥ تاج العروس (١٠/٣٧٠) ، (أنصى) .

إذا لم يجد بقلاً . وقيل لكرمها وطرافتها واستطراف المال إياه . وقيل: الطريفة خير الكلأ ، إلا ما كان من العشب . ومن الطريفة النصي والصليان والهلى والشحم والثغام[1] .

و (الحلي) ما ابيض من يبيس النصي والسبط ، وقيل : هو كل نبت يشبه نبات الزرع، أو اسم نبت بعينه. وقيل هو من خير مراتع أهل البادية للنعم والخيل[2].

والحماط ، شجر شبيه بالتين ، خشبه وجناه وريحه ، إلا أن جناه هو أصغر وأشد حمرة من التين ، ومنابته في أجواف الجبال ، وقد يستوقد بحطبه ، ويتخذ خشبه لما ينتفع به الناس ، يبنون عليه البيوت والخيام . وقيل : هو في مثل نبات التين ، غير أنه أصغر ورقاً ، وله تين كثير صغار من كل لون أسود وأملح وأصفر ، وهو شديد الحلاوة يحرق الفم إذا كان رطباً ، فإذا جف ذهب ذلك عنه . وهو يدخر وله إذا جف متانة وعلوكة . وهو أحب شجر الى الحيات ، أي انها تألفه كثيراً . يقال : شيطان حماط[3] .

والصليان ، نبت من الطريفة ، ينبت صعداً وأضخمه أعجازه وأصوله على قدر نبت الحلي ، ومنابته السهول والرياض . وقيل الصليان من الجنبة لغلظه وبقائه[4] .

والمكرة نبتة غبراء مليحاء تنبت قصداً ، كأن فيها حمضاً حين تمضغ ، تنبت في السهل والرمل ، لها ورق وليس لها زهر . وقد تقع المكور على ضروب من الشجر كالرغل[5] . و (الدهماء) ، عشبة عريضة ذات ورق وقضب ، كأنها القرنوة ، ولها نورة حمراء يدبغ بها ، ومنبتها قفاف الرمل[6] .

الحمض والخلة :

ويقسم بعض العلماء المرعى كله إلى حمض وخلة . فالحمض ما فيه ملوحة ،

---

١ تاج العروس (١٧٧/٦ وما بعدها) ، (طرف) .
٢ تاج العروس (٩٨/١٠) ، (حلي) .
٣ تاج العروس (١٢١/٥) ، (حمط) .
٤ تاج العروس (٤٠٦/٧) ، (صلل) .
٥ تاج العروس (٥٤٨/٣) ، (مكر) .
٦ تاج العروس (٢٩٩/٨) ، (دهم) .

والخلة ما سواه . وكل أرض لم يكن بها حمض ، فهي خلّة ، وإن لم يكن بها من النبات شيء . وخلل الأرض التي لا حمض بها ، وربما كانت بها عضاه ، وربما لم تكن . ولو أتيت أرضاً ليس بها شيء من الشجر وهي جرز من الأرض، قلت انها خلة [1] .

والحمض ما ملح وأمر من النبات ، كالرمث والأثل والطرفاء ونحوها . وذكر أن الحمض من النبات كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ولا أصل له . ومن الحمض النجيل ، والخذراف ، والاخريط ، والقضة ، والقلام ، والهرم ، والحرض ، والدغـــل ، وما أشبهها . وذكر أن الحمض كل نبات لا يهيج في الربيع ويبقى على القيظ وفيه ملوحة ، إذا أكلته الإبل شربت عليه،واذا لم تجده رقت وضعفت . وهي كفاكهة الإبل ، والخلة ما حلا ، وهي كخبزها ، تقول العرب : الخلة خبز الإبل ، والحمض فاكهتها ويقال لحمها [2] .

والرِمْث ، مرعى للإبل ، وهو من الحمض ، وشجر يشبه الغضى،لا يطول ولكنه ينبسط ورقه ، وهو شبيه بالأشنان ، وله هدب طوال دقاق ، وهـو مع ذلك كله كلأ تعيش فيه الابل والغنم وإن لم يكن معها غيره ، وربما خرج فيه عسل أبيض كأنه الجمان ، وهو شديد الحلاوة وله حطب وخشب ووقوده حـار ويتنفع بدخانه من الزكام . ويرتفع دون القامة فيحتطب[3] .

والطرفاء جماعة الطرفة ، شجر . قيل انها أربعة أصناف من الأثـل ، وقيل الطرفاء شجر من العضاه ، هدبه مثل هدب الأثـــل ، وليس له خشب . وإنما يخرج عصياً سمحة في السماء ، وقد تتحمض به الإبل إذا لم تجد حمضاً غيره . وقيل انه من الحمض[4] .

والأثل : شجر ، عدّه بعضهم نوع من الطرفاء ، وقال بعض آخر : الأثلة سمرة أو عضاهة طويلة قويمة يعمل منها الأقداح[5] . والنجيـــل ، ضرب من دق الحمض ، وقيل هو خير الحمض كله وألينه على السائمة . وذكر انه إذا أخرج

---

١ تاج العروس (٣٠٧/٧) ، (خلل) .
٢ تاج العروس (٢٢/٥) ، (حمض) .
٣ تاج العروس (٦٢٥/١) ، (رمث) .
٤ تاج العروس (١٧٧/٦) ، (طرف) .
٥ تاج العروس (٢٠٢/٧) ، (أثل) .

عن الحمض أربع شجرات ، فسائره نجيل . هي الرمث والغضى والسلج . ومن النجيل : الخذراف ، والرغل ، والغولان ، والهرم ، والفذا، والقلام والطمحاء[1] . والخِذراف ، نبات ربعي إذا أحس بالصيف يبس ، أو هو ضرب من الحمض له وريقة صغيرة يرتفع قدر الذراع[2] . والرُغل ، نبت ، أو حمضة تنفرش وعيدانها صلاب وورقها نحو من ورق الجاجم إلا انها بيضاء ومنابتها السهول ، والإبل تحمض به[3] .

والغولان ، حمض كالأشنان ، وقيل شبيه بالعنظوان ، إلا انه أدق منه . وهو مرعى[4] . و (الهَرم) ، نبت ضعيف ترعاه الإبل ، وقيل ضرب من الحمض فيه ملوحة . وقيل هو يبيس الشبرق ، وهو أذله وأشده انبساطاً على الأرض واستبطاحاً . وقيل شجر ، وان الهرمة البقلة الحمقاء[5] . و (الغذام) ، نبت من الحمض[6] . و (القلام) من الحمض: هو كالأشنان إلا انه أعظم[7] . و (القِضاض)[8] شجر من الحمض ، وقيل هو دقيق ضعيف أصفر اللون[9] .

والأراك من الحمض ، وقوم مؤركون نازلون بالأراك يرعونها ، ويقال أطيب الألبان ألبان الأوارك . وفي الحديث أتي بلبن الأوارك وهو بعرفة ، فشرب منه[10] .

و (الحرض) ، من النجيل . وذكر أنه الأشنان ، تغسل به الأيدي على أثر الطعام . وشجرته ضخمة ، وربما استظل بها ، ولها حطب ، وهو الذي يغسل به الناس الثياب . وأنقى وأبيض حرض هو حرض ينبت باليمامة ، بواد منها يقال له جوّ الخضارم[11] . و (الحيهل) ، شجرة قصيرة من دق الحمض

---

١ تاج العروس (١٢٨/٨) ، (نجل) .
٢ تاج العروس (٨٠/٦) ، (خذرف) .
٣ تاج العروس (٣٤٨/٧) ، (رغل) .
٤ تاج العروس (٥٢/٨) ، (غال) .
٥ تاج العروس (١٠٢/٩) ، (هرم) .
٦ تاج العروس (٣/٩) ، (غذم) .
٧ تاج العروس (٣١/٩) ، (قلم) .
٨ وورد بالصاد .
٩ تاج العروس (٧٩/٥) .
١٠ تاج العروس (١٠٠/٧) ، (أرك) .
١١ تاج العروس (١٨/٥ وما بعدها) ، (حرض) .

لا ورق لها ، وقيل إنه (الهرم) ، وهو إذا أصابه المطر نبت سريعاً ، وإذا أكلته الإبل ، فلم تبعر ولم تسلح مسرعة ماتت ، وبذلك فسروا تسمية (الهرم) هرماً[1] .

وقد يضطر أصحاب الماشية الى اطعامها ما ينبت في الأرض السبخة ، أي ذات الملح . يقال (ملح الماشية) ، بمعنى أطعمها سبخة الملح[2] . و (السبخة) ، أرض ذات نز وملح ، وهي لا تكاد تنبت إلا بعض الشجر والنبات[3] . وتوجد السباخ في مواضع من جزيرة العرب ، في الأماكن الوطئة ، حيث تنز الأرض ، ويعلوها الملح ، وتكون رخوة .

ولفظة (رعى) من الألفاظ التي كثر ورودها في الكتابات الصفوية ، وهي كتابات أصحابها رعاة ، كانوا يتنقلون مع ماشيتهم من مكان الى آخر في طلب المرعى،فكانوا يكتبون خواطرهم على الحجارة والصخور ، تخليداً لنزولهم هاتيك المواضع . وهم من عشائر مختلفة امتهنت الرعي ، فكانت تتنقل من مكان الى مكان . تتوغل في الربيع في البوادي ، فإذا انتهى الموسم ويبس الكلأ ، عادت الى مواضع قريبة من الحضر ، حيث يتوفر فيها الماء ، فترعى ماشيتها بكلأ هذه الأرضين ، وتبيع الى أهل المدر ، ما يكون عندها من وبر وأصواف ومنتوج ألبان .

وتثبت النصوص الصفوية أن أصحابها كانوا جماعة من الرعاة ، يتنقلون من مكان الى مكان ، بدليل الإشارة الى المرعى (همرعى) (هـ مرعى) ، (ها مرعى) ، أي (المرعى) والى الماء والى البقر والإبل والشياه (شهى) (شاهي) ، والأودية (هنخل) (هـ — نخل) (ها نخل) وغير ذلك من الألفاظ التي ترد على ألسنة الرعاة . فكان هؤلاء الصفويون يتنقلون مع الكلأ والماء لرعي ماشيتهم[4] .

---

١ تاج العروس (٧/٢٩٨) ، (الحيهل) .

٢ تاج العروس (٢/٢٢٩) ، (ملح) .

٣ تاج العروس (٢/٢٦١) ، (سبخ) .

٤ ديسو ، العرب في سورية قبل الاسلام (ص ٩٤ وما بعدها) .

أصناف الرعاة :

والرعاة على صنفين : رعاة الإبل ، وهم الممعنون في البوادي ، والذين يبيتون مع الإبل في المرعى لا يأوون إلى بيوتهم ، ولا يرعون غيرها ، وهم : (الجشر) أو هم الذين يرعون الإبل ، ويقيمون معها في المرعى ، ولا يرعون معها غيرها من بقية الحيوانات[1] . وهم جلّ الأعراب ، بل كلهم ، لأن حياة الأعرابي هي حياة رعي إبل ، يرعاها عند بيته أو على مبعدة منه . بات مع الإبل بعيداً عن بيته أو أهله اياماً أو موسم الربيع ، أو أقام عند خيمته مع إبله ، فهو راعي إبل في الحالتين .

وراعي الإبل ، هو الأعرابي الأصيل ، ابن البادية جوّاب بيداء ، لا يأكل البقل والخضر ، هو كما قال الراجز :

جوّاب بيداء بها غروف لا يأكل البقل ولا يريف
ولا يرى في بيته القليف[2]

ويقال للأعرابي الذي ينشأ في البدو والفلوات لم يزايلها : المقحم[3] .

ويكون هؤلاء الرعاة الأعراب من أبعد الرعاة عن (المصانع) ، أي القرى والحضر ، ومن أهلها ، لا يذهبون اليها ولا يتصلون بها[4] . فهم يعيشون في عالم خاص بهم بعيد عن القيود والتكاليف ، والتنويع في المأكل والمشرب .

ورعاة يرعون إبلاً ويرعون غيرها معها من بقر وخيل وغنم . وهم لعدم استطاعة البقر والغنم من التوغل في البادية والتعمق في طياتها ، لا يستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً ، لعدم استطاعة تلك الحيوانات الصبر على العطش كثيراً . ولهذا فهم على اتصال بالحضر وبالحضارة ، وهم مرحلة وسطى بين الحضارة وبين

---

١ تاج العروس (٣/١٠٠ وما بعدها) ، (جشر) ، قال الاخطل :
تسأله الصبر من غسان اذ حضروا والحزن كيف قراه الغلمة الجشر
« وانما قالوا له ذلك ، لانه كان يقول لهم : أنتم جشر ، اي رعاة ابل » ، تاج العروس (١٧٤/٩) ، (حزن) .

٢ تاج العروس (١٢٣/٦) ، (تريف) ، (٢٢٧/٦) ، (قلف) .

٣ تاج العروس (١٧/٩) ، (قحم) .

٤ تاج العروس (٤٢٢/٥) ، (صنع) .

الأعرابية ، وهم الجرثومة التي نبتت منها المجتمعات العربية الحضرية في العراق وفي بلاد الشأم وفي جزيرة العرب ، وهم من أهل الخيام السود المنسوجة من شعر الماعز ، أو من صوف الأغنام. وقد أشير اليهم في التوراة ، وقد كانوا يسكنون شرق العبرانيين وفي أرض فلسطين .

وكانوا ينتجعون أيام الكلأ فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد ، فتقع بينهم ألفة ، فإذا افترقوا ورجعوا الى أوطانهم ساءهم ذلك ، وقد عرف هؤلاء بـ (الخلطاء) . كما كانوا يتشاركون في الرعي ، وذلك أن يستأجروا راعياً أو رعاة ، ويقدم كل واحد من الشركاء ما يريد تقديمه من الإبل أو الشياه ، ويحتمل كل واحد من المتشاركين أجر الرعي ، حسب عدد إبله أو شياهه[1] .

ولا يشترط في الراعي ، أن يكون أجيراً لغيره يرعى إبل وماشية غيره ، فقد يكون راعياً ، وهو مالك لإبله ولبقية الماشية التي يرعاها ، وهو إنما سُمّي راعياً لأنه اتخذ الرعي وسيلة للحياة يعيش عليها ، ويجوز أن يكون قد ورثها عن آبائه وأجداده ، ويجوز أن يكون قد اختارها هو حرفة له ، كما يجوز أن يكون راعياً لمال غيره من أهل قبيلته أو من الأبعدين ، وقد يكون هؤلاء من أهل الحواضر المستقرين ، يسلمون ما لهم للرعاة ، لترعى في البوادي ، وليكثر نسلها وتصح أجسامها ، فإذا أرادوا بيعها طلبوا من الرعاة اعادتها اليهم .

ويقوم الأبناء في العادة برعي إبل الأب والعائلة ، ونجد في القصص إشارات اليهم ، لطمع الرجال في الإبل ، وازدراءهم شأن الراعي لصغر سنه ، فيستاقون إبله ، مما يتسبب عن ذلك تعقب السراق ، ووقوع حوادث بينهم وبين أرباب الإبل .

ولا يربي الرعاة الدجاج والبط والحمام والأوز والطيور المختلفة والخنازير ، انما يربيها أهل الريف . والريف ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها، وأرض فيها زرع وخصب ، أو حيث تكون الخضر والمياه والزروع[2] . وتربية الدجاج حرفة ينظر العربي اليها نظرة ازدراء واستهجان ؛ فلا يليق برجل حر يحترم نفسه ، ان يخدم طيراً أو حيواناً صغيراً كالدجاجة ، ولذلك كانت من حرف

---

١ تاج العروس (١٣٢/٥) ، (خلط) .
٢ تاج العروس (١٢٣/٦) ، (تريف) .

(النبط) والعرب المتنبطة ، أي أهل الريف ممن خالط النبط ، أي بني إرم ، ومن تأثر بهم . وقد ربى أهــل القرى الدجاج والطيور ، لأكلهم ، إذ كانوا يأكلون لحم الدجاج . ذكر ان الرسول والصحابة أكلت لحومها [1] ، ونجد الشعراء يشيرون إلى صياح الديكة عند دنوهم من الأرياف ، لتربيتهم الدجاج واعتنائهم بها ، واعتبارهم لحومها من ألذّ اللحوم .

وترعى الماشية في القرى وفي المزارع بما يظهر من أخضر على وجه الأرض بعد الحصاد ، ويقال لذلك : المحشرة [2] .

الرعاة والحضارة :

وقد حدث في الجاهلية ما يحدث اليوم : يتنقــل الأعراب بمواشيهم وبيوتهم وكل ما يملكون من باطن جزيرة العرب في الجفاف ، فيتجهون نحو الشمال ، نحو بلاد الشأم والعراق للرعي والاكتيـال . ينزلون هناك جماعات حيث يجدون المــاء والكلأ ، في مواضع مختلفة قد تكون بعيــدة عن القرى والمدن ممعنة في البادية ، وقــد تكون في أطراف القرى وبين الحضر ، وقد يدخلون بين الحضر للاكتيال والامتيار وللري في مواضع العشب والكلأ المحيطة بهم . وهم على هــذه الحالة ما دامت بهم حاجة إلى كل أولئك ، فإذا انتهت أو شح ما قصدوه انتقلوا إلى مواضع أخرى ، وهكذا كانت سنّة البدوي في الحياة .

وقد كانوا يفدون دومـاً من باطن الجزيرة ، فيتوغلون في بادية الشأم ومنهم من كان يمعن في التوغل في تلك البادية حتى يصل أقصاها ،أي أعاليها في الشمال ، فيدخل الأرضين الجنوبية من (تركية) في الوقت الحاضر ، وأعالي العراق وبلاد الشأم . ومنهم من كان يجد له طيب العيش والمقام ، في هــذه المهابط والمواطن الجديدة ، فيقيم بها ، وقد يتحضر قوم منهم ، ومن هؤلاء تولد حضر العرب في هذه الديار .

ولمّا كان في مجيء الأعراب على هذه الصورة محاذير وأخطار على الحضر وعلى الحكومات ، اضطرت الحكومات المسيطرة على العراق وبلاد الشأم الى اتخاذ وسائل

---

[1] تاج العروس (٢/٣٨) ، (دج) .
[2] تاج العروس (٣/١٤٢) ، (حشر) .

الحماية المختلفة لحماية أرضهـا منهم ، فبنت المسالح ووضعت الحرس في المواضع المشرفة على البوادي الممسكة بعنان طرقها ، لمراقبة القادم والخارج ولابلاغ رجال الأمن بدنوّ الخطر ، وحذرت من الأعراب ، فأشرفت على حركاتهم وسكناتهم خشية انتهازها فرص الضعف ، فتعبث على عادتها بالأمن . وقد أنشأ الرومـان واليونان بركاً واتخذوا صهاريج لخزن مياه الأمطار ليستفيد منها الأعراب وليجدوا فيها ما يحتاجون اليه ، فلا يتوغلوا عميقاً في بلاد الشأم ، كما أقامـوا حصوناً في أطراف البادية لمراقبة حركات الأعراب .

وهكذا أمـن حكّام الشأم من خطر الأعراب ، بعد أن اتبعوا معهم سياسة الترضية والتهدئة للاستفادة منهم في حفظ الحدود . وأقـام قسم من الأعراب في المواضع التي تتوافر فيها المياه ، وزرعوا ، واشتغلوا ببعض الحرف مثـل غزل الأصواف ونسجها ، والتوسط في التجارة بين الأعراب وسكان المدن والقرى البعيدة عن البادية من بلاد الشأم ، وزرع الحبوب وأشجار الزيتون والكروم . واستفادوا من هذا الحاصل الزراعي ببيعه للأعراب المحتاجين اليه .

ولا حاجة بي إلى الاشارة إلى أثر المراعي في حياة جزيرة العرب ، وفي حياة الأعراب بصورة خاصة . فعلى المراعي تتوقف حياة الماشية عماد الثروة والمال لأهل البادية ، وهي من أهم المشكلات العويصة بالنسبة اليهم وإلى الحكومات حتى الآن. والأعرابي ومعه ماشيته وراء المراعي يفتش عنها في كل مكان، وينتقل اليها ليجد فيها الكلأ لماشيته . وسبب هذه المشكلة هو قلة وجود الماء في جزيرة العـرب ، وقلة الأمطار وانحصارها في مواسم ضيقـة لا تمتـد طويلاً ، وانحباسها في بعض السنين ، مما يسبب قصر زمن الرعي ، وجفاف الكلأ والتأثير في حياة الماشية بحيث تتعرض للهلاك والموت . وهذا مما يحمل القبائل على التنقل من مكان إلى مكان ، فتتزاحم وتتطاحن للاستيلاء على المراعي .

الفصل الرابع والتسعون

الثروة الحيوانية

والحيوان ثروة مهمة وخاصة لتلك البلاد الفقيرة التي لا تملك صناعة ، والتي تكون مواردها الطبيعية محدودة . فتعوض عن الصناعة بتربية الحيوان وبالزراعة إن توفر الماء . والإبل مصدر ثروة عظيمة في الجاهليـة ، لاستفادتهم منها في أمور كثيرة عديدة . وبعدد الإبل تقاس الثروات . والإبل المال عند العرب ، وأساس التعامل بينهم . قال بعض العلماء : « المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان . وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم »[1] . وفي الحديث نهي عن اضاعة المال. قيل أراد به الحيوان ، أي يحسن اليه ولا يهمل[2] .

ويطلق العرب على الإبل والبقر والشاء (النعم) ، وزاد بعض علماء اللغة المعز والضأن . وذكر بعض آخر ، ان النعم ، إنما خصت بالإبل ، لكونها عنـدهم أعظم نعمة . وقيل إن العرب إذا أفردت النعم ، لم يريدوا بها إلا الإبل ، فإذا قالوا الأنعام : أرادوا بها الإبل والبقر والغنم[3] .

ويراد بـ (الماشية) ، الإبل والغنم ، وقيل الإبل والبقر والغنم ، وقال بعض العلماء ، وأكثر ما يستعمل في الغنم ، وقيل : كل مال يكون سائمة للنسل والقنية

---

١ تاج العروس (٨/١٢١) ، (مول) .
٢ تاج العروس (٨/١٢١) ، (مول) .
٣ تاج العروس (٩/٧٩ وما بعدها) ، (نعم) .

من إبل وشاء وبقر ، فهي ماشية . وأصل المشاء النماء والكثرة . ومشت الماشية مشاءً كثرت أولادها [1] .

و (الشاة) ، الواحدة من الغنم ، تكون للذكر والأنثى ، أو يكون من الضأن ، والمعز ، والظباء ، والبقر ، والنعام ، وحمر الوحش . وفي الحديث : فأمر لها بشياه غنم ، انما أضافها إلى الغنم ، لأن العرب تسمي البقرة الوحشية شاة ، فيزها بالاضافة لذلك ، وشاء ، وشياه ، وشواد ، وأشاوه ، وشويّ ، وشيه ، في حالة الجمع [2] .

و (السوام) و (السائمة) ، الإبل الراعية ، وقيل كل ما رعى من المال في الفلوات ، إذا خلي وسومه يرعى حيث شاء . والسائم الذاهب إلى وجهه حيث شاء ، يقال سامت السائمة ، وأسامها هو ، أي أرعاها أو أخرجها إلى الرعي . وذكر ان السوام والسائمة كل إبل ترسل ترعى ولا تعلف في الأصل . وسوّم الخيل ، أرسلها إلى المرعى ، ترعى حيث شاءت [3] .

والجمل هو الحيوان الوحيد الذي رضي بمرافقة الأعراب وبمشاطرتهم حياتهم في البوادي . ألفهم وعاشرهم وشاركهم في مسرّاتهم وفي أحزانهم ، صابراً راضياً، يحملهم ويحمل أثقالهم ، لا يسألهم على ذلك أجراً ، وهو مع ذلك طعامهم إذا جاعوا ، أو شعروا انه قد مرض مرضاً لا يرجى شفاؤه،أو انه قد كبر وأسنّ ، فصار لا يصلح للعمل ، ومن وبره صنعوا خيامهم . وهو قنوع يقنع بالقليل ولا يطالب بالكثير . ويصبر على العطش والجوع ، لا يباريه في هذا الصبر أي حيوان من الحيوانات التي ألفت الانسان وقاسمته حياته . إذا اخضرت الأرض ، وجد طعامه هبة ، لا يكلف مالكه شيئاً عن اقتضامه له ، وإذا يبست الأرض ، قنع بالتهام اليابس ، وبتناول العوسج ونباتات البر ، التي يكون عمرها أطول من عمر الكلأ ، وإذا بَعُدَ الماء صبر على العطش حتى يجده،لا يلح على صاحبه بوجوب تقديم الماء له ، كما تفعل الخيل والحمير والبغال .

وتعدّ لحوم الإبل من اللحوم اللذيذة الطيبة عند العرب . وتنحر عند قدوم شخصية كبيرة تقديراً لها ، وتنحر تقرباً الى الأصنام وفي المناسبات الدينية ، وتعقر

١ تاج العروس (١٠/٣٤٣) ، (مشى) .
٢ تاج العروس (٩/٣٩٥ وما بعدها) ، (شوه) .
٣ تاج العروس (٨/٣٥٠) ، سوّم) .

القبور إكراماً لصاحب القبر ، ويبيع الجزّارون لحومها وسائر اللحوم الأخرى . ونظراً الى أهمية الإبل بالنسبة الى حياة الأعراب ، ولغلاء ثمنها ، ولعدم تمكنهم من شراء عدد كثير منها ، إلا بالنسبة للموسر منهم ، اقتصدوا في ذبحها ، إلا لعلة قاتلة ومرض مهلك ، لأنها أصول أموالهم ، فهم يريدون إكثارها،وفي اكثارها اكثار لأموالهم ، ولا سيما في إكثار الإبل النجيبة التي لا توازى عندهم بثمن ، والتي تعدّ مقياس الثراء والجاه والغنى عند العرب .

وإذا مات فصيل الناقة أو ذبح ، سلخ برأسه وقوائمه ثم حشي جلده تبناً لترأمه أمه وتشم رائحته ، فتدر عليه ولا ينقطع لبنها ، فتحلب . ويقال للجلد المحشو بالتبن (البو)[١] .

و (الأشراط) الإبل أو الغنم تعزل للبيع . و (الشريطة) ، الجماعة المعزولة منها ، المعدّة للبيع[٢] .

والجمل،هو الحيوان الوحيد الذي لم يجد الأعرابي في تربيته بأساً ولا غضاضة، ولا حطة لقدر ومنزلة . فاجتناه وتباهى به وافتخر ، وجعله مقياس ثرائه وماله، وأعز شيء عنده في حياته ، وما الذي يملكه الأعرابي في دنياه غير هذا الجمل! أما البقر والغنم والحمير والبغال ، فهي دون الجمل في المكانة والمنزلة عنده،فترفّع لذلك عن تربيتها ، واعتبر تربيتها وخدمتها وبيعها عملاً من أعمال (النبط) والخدم والعبيد والأعاجم.وكيف يقبل أن ينظف تلك الحيوانات وأن يجمع روثها ، ويتحمل سقوط أبوالها عليه ، وأن يشم رائحة أرواثها وبولها ، وهي حوله أو في بيته ، والروث قذارة . وكيف يرضى أن يحشها وأن يقدم لها العلف والقت، ثم تروّث له . جاء في المثل : أحشك وتروثني[٣] ؟.

والجمل قليل الكلفة ، لا يكلف أكله صاحبه كثيراً ، يعيش على ما تنبته الأرض ، وعلى ما يجده على وجهها من يابس النبات ، ومن عوسج ونبات ذي شوك ، ومن نباتات أخرى تتبطر عليها بقية الماشية . وهو لا يطلب من صاحبه علفاً غالياً ، أو متنوعاً ، كما تفعل بقية الماشية ، مثل البقر والخيل والغنم

---

١ الفاخر (٢٤٩) .
٢ تاج العروس (١٦٧/٥) ، (شرط) .
٣ تاج العروس (٦٢٦/١) ، (راث) .

والحمير ، مع انها ليست في صبر الجمل ولا في قدرته على تحمّل المشقات وحمل الأثقال إلى مسافات طويلة في البوادي ، وفي الرمال التي تفزع منها بقية الماشية ، وتهلك إن اجبرت على السير بها .

والإبل من حيث الأصالة والعرق أجناس وأصناف ، فيها الإبل الأصيلة التي يفتخر أصحابها بها ، ويظنون على غيرهم بها ، ولا يعطون منها لأحد ، وفيها الإبل الرخيصة ، من الصنف الواطيء المعــدود للبيع ، لخساسة جنسه ، ولعدم نجابته . وكان الملوك وسادات القبائل يجنون الأصيل من الإبل ، فكـان (النعمان ابن المنذر) ، وهو من أصحاب الهوايات في حيازة النادر من الأشياء ، يمتلك الإبل الجيدة ، ومنها إبل عرفت بـ (عصافير النعمان) . وقد أمر للنابغة بمائة ناقة من عصافيره بريشها وحسام وآنية من فضة ، أعطاها بريشها ليعلم أنهـا من عطايا الملوك . وكانت للملك (المنذر) ملك الحيرة إبل نجائب منهن إبل عرفت بـ (عصافير المنذر »[1] .

ومن الابل الجيدة الشهيرة ، النجائب القطريات . نسبت الى قطر وما والاها من البر[2] . و (المهرية) ، وقد نالت حظاً واسعاً من الشهرة حتى زعم أنهـا من إبل الجن[3] . وقد اشتهرت (جرش) ، باليمن بإبلها . فقيل (ناقة جرشية) وبعير جرشي[4] . والأرحبيات من نجائب الابل الكريمة ، منسوبة الى بني أرحب من همدان[5] ، والصدفية ، والجرمية ، والداعرية[6] .

وكانوا لا يبيعون الإبل النجيبة ، إلا عن اضطرار . ويسمونها (الحرائز) . ذكر علماء اللغة ان الحرائز من الإبل التي لا تباع نفاسة . ومنه المثل : لا حريز من بيع ، أي ان أعطيتني ثمناً أرضاه لم أمتنع من بيعه . والحرزة خيار المال ، لأن صاحبها يحرزها ويصونها ، ومنه الحديث في الزكاة : لا تأخذوا من حرزات أموال الناس شيئاً ، أي من خيارها[7] .

---

١ تاج العروس (٣/٤٠٨) ، (عصفر) .
٢ تاج العروس (٣/٥٠٠) ، (قطر) .
٣ تاج العروس (٣/٥٥١) ، (مهر) .
٤ تاج العروس (٤/٣٨٧) ، (جرش) .
٥ تاج العروس (١/٢٦٨) ، (رحب) .
٦ الصفـة (٢٠١) .
٧ تاج العروس (٤/٢٤) ، (حرز) .

وللعرب مصطلحات يقولونها في الإبل إذا كثر عددها . منها (الهجمة) القطعة الضخمة منها ، قيل : أولها أربعون إلى ما زادت ، و (الهنيدة) ، المائة فقط ، وقيل : هي ما بين الثلاثين والمائة ، أو ما بين السبعين والمائة ، أو ما بين السبعين إلى دوينها ، أو هي ما بين التسعين إلى المائة . وقال بعض علماء اللغة : إذا بلغت الإبل ستين ، فهي (عجرمة) ، ثم هي (هجمة) حتى تبلغ المائة [١] . وتطلق لفظة (الكور) على الجماعة الكثيرة من الإبل [٢] .

والعارض الناقة المريضة أو الكسير ، وهي التي أصابها كسر أو آفة ، وكانوا ينحرون العوارض،ومن عادتهم انهم لا ينحرون الإبل إلا من داء يصيبها ،وتقول العرب للرجل إذا قدم اليهم لحماً أعبيط أم عارضة . فالعبيط الذي ينحر من غير علة . والعرب تعير من يأكل العوارض ، ومن ينحر الإبل المريضة للضيوف [٣] .

ويقال للإبل وللبقر (العوامل) [٤] ، ويظهر أن ذلك بسبب تشغيل أهل القرى لها في كثير من الأعمال في مثل الحمل وسحب الماء من الآبار والحراثة وأمثال ذلك من أعمال . وأطلقت اللفظة على بقر الحراثة والدياسة . وفي حديث الزكاة : ليس في العوامل شيء... العوامل من البقر،هي التي يستقى عليها ويحرث وتستعمل في الأشغال [٥] .

وذكر (الهمداني) أن بالعربية الجنوبية من البقر الجندية والحديرية والجبلانية ، وهي قوية [٦] . وقد استخدم أهل العربية الجنوبية البقر في الحراثة ، وكذلك غيرهم في معظم أنحاء جزيرة العرب .

والخيل جماعة الأفراس [٧] . و (الفرس) للذكر والأنثى ، ولا يقال للأنثى فرسة [٨] . و (الحصان) الفرس الذكر ، أو هو الكريم المضنون بمائه ، حتى

---

١ تاج العروس (٩٩/٩) ، (هجم) ، (٥٤٧/٢) ، (هند) .
٢ تاج العروس (٥٣٠/٣) ، (كور) .
٣ تاج العروس (٤٢/٥) ، (عرض) .
٤ تاج العروس (٣٤/٨) ، (عمل) .
٥ تاج العروس (٣٥/٨) ، (عمل) .
٦ الصفحة (٢٠١) .
٧ تاج العروس (٣١٥/٨) ، (خيل) .
٨ تاج العروس (٢٠٦/٤) ، (فرس) .

.سمّوا كل ذكر من الخيل حصاناً[1] . و (الحجر) ، الأنثى من الخيل[2] .
و (الطحون) الكتيبة من الخيل[3] .

لم تكن الخيل كثيرة في الحجاز عند ظهور الاسلام . ففي معركة (بدر) لم يكن مع المسلمين سوى فرسين ، فرس للمقداد بن عمرو ، وفرس لمرثد بن أبي مرثد[4] ، ولم يكن مع قريش سوى مائة فرس[5] . فقد كانت غالية الثمن ، وتكاليفها عالية ، فعسر على من لا مال له شراؤها والانفاق عليها . وقد ورد في بعض الروايات أن (المقداد بن عمرو) ، كان فارس يوم بدر ، حتى انه لم يثبت انه كان فيها على فرس غيره . وكان اسم فرسه (سبحة)[6] .

والأخدرية من الخيل منسوبة الى (أخدر) فحل أفلت فتوحش ، ذكر أهل الأخبار انه كان لسليمان ، أو لأزدشير (أردشير) . وهناك حمر عرفت بالأخدرية كذلك ، ذكروا انها منسوبة اليه أيضاً . والخدري ، الحمار الأسود ، والأخدري وحشيه ، ويقال للأخدرية من الحمر بنات الأخدر[7] .

والأغنام عند الحضر وأشباههم ،يربونها للاستفادة من لحومها وألبانها وأصوافها، ولحاجتها إلى الماء والكلأ والعلف بصورة دائمة ، صارت من ماشية أهل الحضر والمراعي . وهي مصدر ثروة لأصحابها ، تصدّر إلى أسواق العراق وبلاد الشأم لبيعها هناك . ومن أنواعها المشهورة : الكباش العوسية . والعوس ، ضرب من الكباش البيض[8] ، ويكون صوفها أبيض ، وهو مرغوب مطلوب .

و (المعز) خلاف الضأن من الغنم ، والمعز ذوات الشعور ، والضأن ذوات الصوف ، و (الماعز) واحد المعز[9] . ويستفاد من لحوم المعز ومن ألبانها وشعرها. وكان أعراب بادية الشأم الساكنين على مقربة من فلسطين ، يتخذون بيوتهم من

---

١ تاج العروس (٩/١٨٠) ، (حصن) .
٢ تاج العروس (٣/١٢٥) ، (حجر) .
٣ تاج (٩/٣٦٨) ، (طحن) .
٤ الطبري (٢/٤٧٨) .
٥ الطبري (٢/٤٧٧) .
٦ الاصابة (٣/٤٣٤) ، (رقم ٨١٨٥) .
٧ تاج العروس (٣/١٧١) ، (خدر) .
٨ تاج العروس (٤/١٩٩) ، (العوس) .
٩ تاج العروس (٤/٨٢) ، (معز) .

شعر الماعز ، كما تتخذ البسط والسجاجيد منها . و (العنز) الأنثى من المعز . ويكثر وجود المعز السبري في جبال السراة وفي المناطق الصخرية ، حيث يعيش على الأشجار والأعشاب البرية . ويربي الرعاة المعز ، حيث يأخذون قطعانها الى المواضع المعشبة القريبة من الماء لترعى هناك ، وتربى بصورة خاصة في الأرضين الجبلية والمتوجة ، حيث يتسلق المعز المرتفعات ، فيأكل ما يجده أمامه من شجر وحشائش .

الطيور :

وقد عني أهل المدر وأهل الريف ، بتربية الطيور . وعلى رأسها الدجاج . وقد عدّ أكله من طعام المترفين المتمكنين ، لارتفاع ثمنه بالنسبة الى الفقراء ، وكانوا يتفننون في طبخه . وقد أكله النبي والصحابة [1] .

والأوز عند العرب البطّ ، صغاره وكباره [2] . ويعدونه من طير الماء، ويذكر علماء اللغة أن (بطة) و (بط) من الالفاظ المعربة [3] . واللفظة إرمية أصلها في لغة بني إرم (بطو) [4] .

ويربي الزرّاع الحيوانات للاستفادة منها في الخدمات الزراعية وفي معاشهم ، كالجمال للنقل والحراثة ومتْح الماء من الآبار العميقة ، والبقر للانتفاع بألبانها ولحومها وللحراثة ومتح الماء ، والضأن والمعز والدجاج وغير ذلك من الحيوانات الأخرى الأليفة ، مثل البط والأوز ، وغيرها ، مما يربيه الحضر وأهل الريف .

تربية النحل :

والنحل ذباب العسل ، يقع على الذكر والأنثى [5] . و (اليعسوب) أمير النحل

---

١ تاج العروس (٣٨/٢) ، (دجّ) .
٢ تاج العروس (٥/٤) ، (الاوز) .
٣ تاج العروس (١٠٨/٥) ، (بطّ) .
٤ غرائب اللغة (١٧٤) .
٥ تاج العروس (١٢٩/٨) ، (نحل) .

وذكرها والرئيس الكبير[1] . والعسل من الأغذية الثمينة عند أهل الجاهلية ، وقد استعملوه في المعالجة من أمراض عديدة ، نص عليها في كتب الحديث والطب . وقد أطلق العرب لفظة (العسل) على ما يشبه العسل في الحلاوة أو في الشكل ، فقالوا : عسل العرفط ، وهو صمغ العرفط لحلاوته ، وعسل اللبنى ، صمغ ينضح من شجرة ، يشبه العسل لا حلاوة له ، ويتبخر به ، وعسل الرمث، شيء أبيض يخرج منه كالجمان[2] . ويعسل النحل في (الخلى) ، وقد يتخذ النحل خليته بنفسه ، في الجبال وفي البساتين ، فتكون خلايا طبيعية ، وقد يعمل الانسان بيده خلية النحل ، كما يفعل من يربي النحل ، فيتخذ لها ما يشبه الراقود من طين، ويقال لها (كوارة) ، أو خشبة تنقر ليعسل فيها ، وأشياء أخرى[3] . وهي خلايا أهلية . و (الكور) موضع الزنابير ، و (كوارة النحل) ، شيء يتخذ للنحل من القضبان والطين ، ضيق الرأس تعسل فيه ، وقد يراد باللفظة العسل في الشمع[4] . و (الشمع) الموم كذلك[5] . و (الجزع) خلية النحل[6] .

وتعزل للنحل مواضع منتبذة عن البيوت يقولون لها : (المصانع) ، واحدتها مصنعة [7] .

والنحل من الجوارس في اصطلاح أهل الأخبار ، ويعنون بذلك أنه يلحس الشجر والنور للتعسيل . فهو من الجوارس[8] .

وقد عدّ (سترابون) العسل من جملة المحصولات التي اشتهرت بها العربية السعيدة ، وذكر أنه كثير جداً فيها[9] . وهو كثير في اليمن ، ولا تزال اليمن على شهرتها به[10] .

وقد كانت الجبال والهضاب المنعزلة ، من مواطن النحل الوحشي ، وهناك

---

١ تاج العروس (١/٣٨١) ، (عسب) .
٢ تاج العروس (٨/١٧) ، (عسل) .
٣ تاج العروس (١٠/١١٨) ، (خلا) .
٤ تاج العروس (٣/٥٣١) ، (كور) .
٥ تاج العروس (٩/٧٠) ، (الموم) .
٦ تاج العروس (٥/٣٠١) ، (جزع) .
٧ تاج العروس (٥/٤٢٣) ، (صنع) .
٨ تاج العروس (٤/١١٨) ، (جرس) ، (٣/٧٨) ، (ثمر) .
٩ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٤٧) .
١٠ أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها (٢٣) .

(معيدون)[1] ، حذقوا الرقي والنزول من الجبال ، يذهبون الى الجبال للبحث بين صخورها عن خلايا للنحل لاستخلاص العسل منها . وقد اشتهرت جبال (بني سُليم) ، بكثرة ما بها من عسل ، وبقيت على شهرتها هذه في الإسلام[2] .

وقد عني الحضارمة بتربية النحل ودرّ العسل عليهم ربحاً طيباً . ونجد في كتاب رسول الله لربيعة بن ذي مرحب الحضرمي واخوته وأعمامه « أن لهم أموالهم ونخلهم ورقيقهم وآبارهم وشجرهم ومياههم وسواقيهم ونبتهم وشراجعهم بحضرموت»[3] وفي ذكر النحل بعد الأموال ، اشارة الى أهميته وكونه من مصادر الرزق عندهم في ذلك الوقت .

الأسماك :

وقد أشير في القرآن الكريم الى صيد البحر ، فورد فيه : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً، واتقوا الله الذي اليه تحشرون »[4] . وصيد البحر ، ما يصطاد من البحار من حيوانات تعيش فيه . وقد كان العرب يعتاشون من البحر ، ولا سيما سكان السواحل حيث يسدّ هذا الصيد جزءاً مهماً من معيشتهم ، فيستعملون ما يحتاجون اليه ، ويبيعون الفائض منه ، أو يتقاضون به . وقد كان سكان السواحل يخرجون بالوسائل المتيسرة لهم لصيد السمك ، ومنهم من يصطاد عند السواحل فيجمع ما يقع تحت يديه ليستفيد منه .

ويقال لصياد السمك (العركي) كذلك . ولهذا قيل للملاحين (عرك) لأنهم يصيدون السمك . وفي الحديث ان النبي كتب إلى قوم من اليهود على ساحل خليج العقبة عليكم ربع ما أخرجت نخلكم ، وربع ما صادت عروككم ، وربع المغزل. والعروك جمع عرك ، وهم الذين يصيدون السمك[5] .

---

١ المخصص (١٨٠/٨) .
٢ ابن المجاور (١٤/١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) .
٤ المائدة ، الآية ٩٩ .
٥ تاج العروس (١٦١/٧) ، (عرك) ، القاموس (٢١٣/٣) ، المخصص (٢٨/١٠) .

وقد عاش على صيد البحر خلق كثير من سكنة السواحل ، في ذلك الزمن ، حيث كانت سبل العيش عندهم قليلة ضيقة . وقد استفادوا من الحيتان والأسماك الأخرى الكبيرة بصورة خاصة للحمها الغزير ، ولاستعمال عظامها وهي كبيرة في حاجات متعددة ، حتى جلودها استفادوا منها . والحيتان معروفة في البحر الأحمر وفي البحر العربي والخليج . وهي لضخامتهـا يحتاج في صيدها الى آلات والى أيدي متعددة . وقد أشير اليها والى ضخامتها في القرآن الكريم .

والحوت ، في رأي بعض علماء اللغة السمك كله . ولكن الغالب أنه ما عظم منه ، والسمك في العرف أصغر من الحوت .

ويجفف السمك في الشمس ، ويملح أحياناً ، ويجفف في الهواء ليؤكل وقت الحاجة اليه . وقد يستعمل علفاً للحيوانات . وقد يطحن السمك المجفف ويؤكل طحينه ، ويجعل علفاً للحيوانات . وقد يحفظ السمك في ماء مملح أو في خلّ ، ويقال للسمك المملح ما دام طرياً (القريب)[1] . وأما السمك المقور في ماء وملح، فهو (النشوط)[2] ، والمقر السمكة المالحة أو المنقعة في الخل[3] . و (الحساس) ، سمك يجفف ويسمى (قاشعاً) كذلك[4] .

ومن حيوان البحر (التّامور)[5] ، و (الاطوم) سلحفاة بحرية غليظة الجلد، يشبه بها جلد البعير الأملس وتتخذ منها الخفاف للجمالين ، وتتخذ منهـا النعال . وقيل : انها سمكة عظيمة ، يقال لها المصلة والزالخة ، تحذى من جلدها النعال[6] . و (النكيع) دابة من دواب البحر[7] ، و (الزجر) ، سمك عظام[8] ، و (اللخم) سمك بحري ، ضخم لا يمر بشيء إلا قطعه ، وهو يأكل النـاس . وقيـل هو الكوسج ، وقيل القرش[9] . و (الجمل) ، كاللخم من السمك الضخم ، ويقال

---

١ القاموس (١/١١٥) ، (قرب) ، تاج العروس (١/٤٢٥) ، (قرب) .
٢ القاموس (٢/٣٨٨) ، (نشط) ، تاج العروس (٥/٢٣٢) ، (نشط) .
٣ القاموس (٢/١٣٦) ، (مقر) ، تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مقر) .
٤ المخصص (١٠/٢٠) ، القاموس (٢/٢٠٧) .
٥ المخصص (١٠/٢٠ وما بعدها) .
٦ القاموس (٤/٧٥) ، تاج العروس (٨/١٨٧) ، (أطم) .
٧ المخصص (١٠/٢٠ وما بعدها) .
٨ القاموس (٢/٣٨) ، تاج العروس (٣/٢٣٤) ، (زجر) .
٩ تاج العروس (٩/٥٨) ، (لخم) .

له (البال) ، قيل إن طول السمكة منه ثلاثون ذراعاً ، ويقال هي (الكبع)[1] . و (الكبع) ، جمل البحر ، وقيل سمك بحري وحشي الهيئة ، ومنه يقال للمرأة الدميمة : يا وجه الكبع[2] . و (الكنعد) و (الكنعت) ضرب من سمك البحر[3] . و (سابوط) دابة من دواب البحر[4] . و (قضاعة) اسم كلب الماء ، وقيل كلبة الماء[5] . و (قبع) دويبة بحرية[6] ، و (الدوع) ضرب من الحيتان بلهجة أهل اليمن ، وسمكة حمراء صغيرة كأصبع[7] . و (العنز) ، ويقال لها (عنز الماء) أيضاً ، سمكة كبيرة ، لا يكاد يحملها بغل[8] .

و (الجريث) سمك يقال له (الجريّ) . ويظهر أن اليهود كانوا لا يأكلونه، ولما جاء الإسلام ، سألوا عن أكله ، فاختلف الناس فيه ، فمنهم من أباحه ومنهم من نهى عنه . وذكروا اسم نوع آخر من السمك اسمه (الصلور) ، قالوا إنه (الجريث) ، وأما (الانقليس) ، فإنه (مار ماهي) بالفارسية ، أي حية الماء[9] . وقد ذكر أحد الشعراء أن الأزد كانوا يأكلون : (الشيم) ، والجريث ، والكنعد[10] ، و (الشيم) نوع من السمك أيضاً[11] . فقال :

قل لطغام الأزد لا تبطروا بالشيم والجريث والكنعد[12]

وقد كان أهل البحرين يحملون (الكنعد) المالح في الجلال البحرانية . يستخرجونه من البحر . وذكر الشاعر (جرير) هذا السمك أيضاً ، وذكر أنهم كانوا يشوونه ويأكلونه مع البصل[13] .

---

١ تاج العروس (٢٦٣/٧) ، (جمل) .
٢ تاج العروس (٤٩٠/٥) ، (كبع) .
٣ القاموس (١٥٦/١ ، ٢٣٤) ، تاج العروس (٤٨٧/٢) ، (كنعد) .
٤ القاموس (٢٦٣/٢) ، تاج العروس (١٤٩/٥) ، (سبط) .
٥ القاموس (٦٩/٣) ، تاج العروس (٤٧٠/٥) ، (قضع) .
٦ القاموس (٦٥/٣) ، تاج العروس (٤٥٧/٥) ، (قبع) .
٧ تاج العروس (٣٣٢/٥) ، (داع) .
٨ تاج العروس (٦١/٤) ، (عنز) .
٩ تاج العروس (٦٠٩/١) ، (جريث) .
١٠ قل لطغام الازد لا تبطروا بالشيم والجريث والكنعد
تاج العروس (٤٨٧/٢) ، (كنعد) .
١١ تاج العروس (٣٦٣/٨) ، (شيم) .
١٢ تاج العروس (٤٨٧/٢) ، (كنعد) .
١٣ تاج العروس (٤٨٧/٢) ، (كنعد) ، (١٣٥/٩) ، (البحون) .

و (القرش) سمك ضخم كبير ، يقال له Shark في الانكليزية ، يستفاد من لحومه ، كما يستفاد من شحومه في الأغراض الطبية ، وقد يستفاد من جلوده الغليظـة في صنع الأحذية . وزعم أهل الأخبار ، أن (القرش) ، دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها [1] .

وأشير في الحديث الى دابة من دواب البحر ، يقال لها (العنبر) ، عـثر عليها رجال سرية كان الرسول قد أرسلها الى ناحية السيف ، فجاعوا فأكلوها . ويذكر علماء اللغة أنها سمكة بحرية يبلغ طولها خمسين ذراعاً يقال لها بالفارسية (باله) تتخذ من جلدها الترسة ،فعرف الترس المتخذ منها بالعنبر . قال العباس بن مرداس:

لنا عارض كرهاء الصريم فيه الأشلة والعنبر

وذكر أن الناس كانوا يحتذون أحذية من جلد العنبر فيكون أقوى وأبقى ما يتخذ منه وأصلب [2] .

وقد اتخذوا من جلد الأسماك الكبيرة الخشنـة مادة تحك بها السياط والقدحان والسهام والصحاف ، ويقال لهذا الجلد : (السفن) . وقيل : السفن جلد الاطوم تسوى قوائم السيوف من جلدها ، أو جلد أخشن غليظ كجلود التماسيح أو الضب يجعل على قوائم السيوف ، أو يسحج بها القدح حتى تذهب عنه آثار المبراة [3] .

وقد ذكر اللؤلؤ والمرجان في القـرآن الكريم ، ويستخرج اللؤلؤ من أجواف الصدف . وقد اشتهر به أهل العربية الشرقية بصورة خاصة ، يستخرجه الغواصون من البحر . ولا تزال هذه المنطقة تستخرجه وتربح منه . ويوجد اللؤلؤ في البحر الأحمر ، ولا سيما قرب جدة والى الجنوب [4] ، لكنه لم يشتهر لؤلؤه شهـرة لؤلؤ الخليج ، ولم يشتهر غواصو البحر الأحمر بالغوص [5] . ولعل اللؤلؤ الذي ذكر في القرآن الكريم هو من اللؤلؤ المستورد من الخليج . واللؤلؤ الدر في تفسير علماء اللغة [6] .

---

١ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) ، القاموس (٢/٢٨٣) ، (قرش) .
٢ تاج العروس (٣/٤٢٦) ، (العنبر) .
٣ تاج العروس (٩/٢٣٦) ، (سفن) .
٤ ابن المجاور (١/١٠٥) .
٥ تويتشل ، المملكة العربية السعودية ، (ترجمة شكيب الامـوي) ، (ص ٣٧) ، (القاهرة ١٩٥٥ م) .
٦ تاج العروس (١/١١٣) ، (لألأ) .

وتعدّ جزيرة (فرسان) من مغاصات الدر ، أي اللؤلؤ[١] .

و (المرجان) مادة كلسية ، يفرزها نوع من الحيوانات البحرية نظير هيكل لوقاية جسمه من الأمواج . وقد تتوسع فتكون صخوراً مرجانية تكون خطراً على السفن . وله ألوان مختلفة ، من أبيض وآخر أحمر ، وبعضه متفرع على هيئة مروحة أو أشكال النبات . وتصنع منه حلي ، ولذلك ُعدّ في جملة المواد الثمينة مثل اللآلىء التي تدخل في التجارة . وهو في البحر الأحمر ، ولا سيما في ساحل جزيرة العرب، كثير . ويظهر ان أهل الأخبار وعلماء اللغة ، لم يكونوا على علم واضح بالمرجان ، فذهب بعض منهم الى انه صغار اللؤلؤ ، وقال بعض آخر الى انه (البسذ) ، وهو جوهر أحمر ، وذهب بعض آخر الى انه عظام اللؤلؤ ، وذهب آخرون الى انه خرز أحمر ، الى غير ذلك من آراء[٢] . و (البسذ) ، لفظة فارسية[٣] . وقد ذكر علماء التفسير ان (كعب الأحبار) قال : المرجان (البسذ)[٤] .

والصدف ، وهو المحار ، غشاء اللؤلؤ . ويظهر أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن السماء إذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها، فما وقع فيها من مطر فهو لؤلؤ[٥]. وقد استفادوا من الصدف ، إذ اتخذوا منه حلياً وزينة . وأكلوا ما في جوفها . وهناك ألفاظ تؤدي معنى الصدف، مثل الجُمّ ، وهو صدف من أصداف البحر[٦]. و (القبقب)[٧] و (القنقن) ضرب من صدف البحر ، يعلق على الصبيان من العين[٨] . و (الدوك) ضرب من صدف البحر[٩]، والدلاع ضرب من محار البحر[١٠] .

وقد استفادوا من السلاحف ، ولا سيما البحرية منها . استفادوا من هيكلها ومن لحمها ، وعالجوا بعض الأمراض بدمها[١١] . وذكر أن (الغيلم) السلحفاة ،

---

١ تاج العروس (٤/٢٠٦) ، (فرس) .
٢ تاج العروس (٢/٩٩) ، (مرج) .
٣ تاج العروس (٢/٥٥٤) ، (البسذ) .
٤ تفسير الطبري (٢٧/٧٦) .
٥ تفسير الطبري (٢٧/٧٧) ، تاج العروس (٦/١٦١) ، (صدف) .
٦ القاموس (٤/٩١) ، تاج العروس (٨/٢٣١) ، (جمّ) .
٧ القاموس (١/١١٣) .
٨ المخصص (١٠/٢٠) ، القاموس (٤/٢٦١) .
٩ المخصص (١٠/٢٠) .
١٠ القاموس (٣/٢٢) .
١١ تاج العروس (٦/١٤٥) ، (سلحفية) .

وقيل الذكر منها[1] . واتخذوا من عصب الساحفاة ومن عظامها خرزاً يظنم منها القلائد والأسورة[2] .

وفي جزيرة العرب حيوانات وحشية ، منهـا ما كانت مؤذية وهي السباع . ومنها ما كانت تفيد الانسان ، إذ كان يصطادها ويأكلها : مثل الغزلان والظباء الوحشية ، والبقر الوحشي ، و (الناشط) هو الثور البري[3] ، والحمر الوحشية ، والوعل . وقد تمكن الإنسان من تأليف بعض هذه الحيوانات مثل الغزال والظبي ، فرباها بمقياس صغير في البيوت وفي البساتين .

وتوجد القردة في مواضع من جبال السراة وفي العربية الجنوبية ، وقد كانت تؤذي النبات والشجر[4] .

وعرفت (النمور) في مواضع من جزيرة العرب ، فقد ذكر العلماء ان في جبل (أقراح) نمور وأراوي[5] . وان في جبـل (شواحط) كثير من النمور والأراوي[6] . والأروى أنثى الوعول وهي تيوس الجبل[7] . وعرفت مواضع الأسود بـ (مأسدة) ، ومنها (بيش) (بيشة) باليمامة[8] .

ويظهر ان أهل الجاهلية لم يستذوقوا لحم الخنزير ، ولعل منهم من كان يحرم كله أو يتجنبه . وقد ذكر ان الأحناف كانوا يحرمون أكله على أنفسهم ، وان من سنن ابراهيم ، تجنب أكل لحمُ الخنزير ، غير ان النصارى العرب ، ومنهم (تغلب) كانوا يأكلونه ، وقد عيرهم غيرهم بأكله . ولا نجد في الشعر الجاهلي ولا في القصص اشارات الى أكل أهل الجاهلية لحم الخنزير ، ولا الى تربيتهم له. ويظهر انهم كانوا يكرهونه ، وإلا لما سكتت روايات أهل الأخبار عن ذكره ، ولقام الرعاة بتّربيته وبالعناية به ، عنايتهم بالحيوانات الأخرى .

واستعان الجاهليون بالكلاب في الصيد ، وهناك فصائل خاصة منها استخدمت

---

١ تاج العروس (٩/٥) ، (غلم) .
٢ تاج العروس (١/٣٨٣) ، (عصب) .
٣ تاج (٥/٢٣١) ، (نشط) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٧) .
٥ عرام ، اسماء جبال تهامة (٤٣٣) .
٦ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٤) .
٧ تاج العروس (١٠/١٥٩) ، (روى) .
٨ تاج العروس (٤/٢٨٥) ، (بيش) .

في الصيد . كما استخدموها في حراسة الماشية ، وفي الحرث[1] .

وقد كانت الذئاب والسباع تؤذي الرعاة . تغتنم الفرص ، فتهجم على ماشيتهم وتفترس ما تستطيع افتراسه منها . ولهذا كانوا إذا نزلوا أرضاً مسبعة ، أي ذات سباع ، خافوا منها ، وأوقدوا بها ناراً في الليل ، لطرد السباع عنهم ، إذ كانت تخشى النار . واذا كثرت السباع في الطريق ، قيل : أسبعت الطريق . والمسبوعة البقرة التي أكل السبع ولدها[2] . ويقال للأرض التي تكثر فيها الذئاب: أرض مذأبة ، كقولك أرض مأسدة من الأسد ، للأرض التي تكثر فيها الأسود . وإذا جاع الذئب ، صار شرساً جريئاً لا يهاب الإنسان ، فيهجم على الغنم ، مع وجود الرعاة معها ، وقد يهاجم البشر . وقد تختفي الذئاب بالغضى ، فيقال ذئاب الغضى[3] .

وفي موضع يقال له (بستان ابن عامر) مأسدة[4] . وهو مجتمع النخلتين : النخلة اليمانية والشامية[5]. و(عثر) مأسدة أيضاً باليمن ، وقيل جبل بتبالة مأسدة[6] . ومن مواضع الأسد : أسد خفان ، وأسد الشرى من بلاد لخم ، وأسد حاملة، وأسد الملاحيظ ، وأسد المقيضا ، وأسد الكطاء ، وأسد تعشر ، وأسد لية ، وأسد حلية ، وأسد السحول،وأسد عتود وغيرها . وهناك مواضع أخرى اشتهرت بوجود الوحش بها[7] .

العلف :

و (العلف) هو ما تأكله الماشية ، وقوت الحيوان وقضيم الدابة . وبائعه العلاّف[8] . ومنه (القتّ) ، الفصفصة ، وقيل الرطب واليابس من العلف ،

---

١ ارشاد الساري (٤/١٧٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٣٧٥) ، (سبع) .
٣ تاج العروس (١/٢٤٨) ، (ذأب) .
٤ تاج العروس (٢/٣٧٤) ، (سدد) .
٥ تاج العروس (٩/١٤٠) ، (البستان) .
٦ تاج العروس (٣/٣٨٢) ، (عثر) .
٧ الصفة (١٢٧) .
٨ تاج العروس (٦/٢٠٤) ، (علف) .

وخص بعضهم به اليابس منه[1] . و (الفصفصة) رطب القت . وفي الحديث : ليس في الفصافص صدقة . وهي الرطبة من علف الدواب ، أي القت . واللفظة من المعربات ، عربت من أصل فارسي ، هو (اسبست) و (اسفست)[2] .

والتبن من علف الماشية ، وكذلك (الحشيش) ، وهو الكلأ اليابس . ذكر بعض علماء اللغة ان الحشيش لا يطلق على الكلأ الرطب ، وقال بعض آخر : الحشيش : أخضر الكلأ ويابسه . وذكر بعض : ان العرب اذا أطلقوا اسم الحشيش ، عنوا به الخليّ خاصة ، وهو أجود علف يصلح الخيل عليه ، وهو من خير مراعي النعم ، وهو عروة في الجدب وعقدة في الأزمات . وقال بعض علماء اللغة : البقل أجمع رطباً ويابساً . حشيش وعلف وخلي[3] . و (الخلي) ، الرطب من النبات . وقيل : هو الحشيش الذي يحتش من بقول الربيع ، وقيل: هو النبات الرقيق ما دام رطباً . وقيل : كل بقلة قلعتها . وأخلت الأرض كثر خلاها[4] .

وقد تعلف بعض الماشية شعيراً ، مثل الخيول الأصيلة والبقرة الحلوب . وقد تعلف نخالة . وقد تمزج النخالة بالملح ، لتقوية عظام الحيوان . وقد تعلف سمكاً مجففاً ، أو طحين السمك المجفف ، أو عظامه ، وذلك كما فعل أهل العربية الجنوبية ، لكثرة وجود السمك عندهم ، فتصح أجسام ماشيتهم وتدر عليهم الحليب . ويعتنى بعلف الخيل الكريمة خاصة ، حتى كان الرجل منهم يبيت طاوياً ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه وأهله وولده[5] . وكانوا يعلفون خيولهم ذرة . قال (أبي بن خلف) لرسول الله : « إن عندي فرساً أعلفه فرقاً من ذرة »[6] .

وقد يكون العلف (سحالة) ، والسحالة قشر البر والشعير ونحوه ، وقد تحات من الدخن والذرة[7] ، وتقدم السحالة الى الدجاج والطيور خاصة .

ومن علف الإبل (الخبط الملجون) ، وهو ورق الشجر يخبط ثم يخلط بدقيق

---

١ تاج العروس (١/ ٥٧١) ، (قتّ) .
٢ تاج العروس (٤/ ٤١٦) ، (فصص) .
٣ تاج العروس (٤/ ٢٩٨) ، (حشش) .
٤ تاج العروس (١٠/ ١٢٠) ، (خلى) .
٥ بلوغ الارب (٢/ ٧٧) .
٦ كتاب نسب قريش (٣٨٧) .
٧ تاج العروس (٧/ ٣٧٢) ، (سحل) .

أو شعير فيعلف الإبل ، وكل ورق أو نحوه ، فهو ملجون أو لجين[1] . والخليط من العلف طين مختلط بتبن ، أو تبن مختلط بقت[2] .

نجابة العرق :

وللعرب عناية خاصة بالأصل والعرق : عرق الإنسان وعرق الحيوان . فهم يضنون بذي العرق الكريم من أن يتصل بما دونه في الإصالة والنجابة، لئلا يتردى نسله ، وينحط عقبه . وكذلك كانوا يفعلون بالخيل والإبل . فهم يحافظون على أنساب الكريم الأصيل النجيب من الجنسين ، ويدوّنون شجرة النسب ، ويحفظونها حفظهم لأنساب الناس . وكانوا يضنون بضراب الجمل وبعسب الحصان الأصيل ، إلا إذا كانت الناقة أو الفرس من الأصائل النجيبات . وقد كان بعضهم من يوافق على ضراب فحل نجيب لديه ، إذا أعطى ثمناً يوافق عليه عن ذلك الضراب ، لحاجته الى المال .

وكان من شدة عنايتهم بالخيل والإبل ، أنهم حفظوا أنسابها ، ودوّنوا أسماء النابه منها ، ووضعوا الكتب فيها ، وقد طبعت بعض منها ، وهي لمشاهير الأخباريين مثل ابن الكلبي . ولا زال العرب يعتنون بنسب فحول الخيل والإبل، ويدوّنون شجرة أنسابها ويحفظونها حفظ أنساب الناس .

ضراب الفحل :

وكان منهم من يأخذ الكراء على ضراب الفحل . فيجعل على الضراب أجراً يتفق عليه . فينزو الفحل على الناقة في مقابل ذلك الأجر . وكانوا يزيدون في ثمن ضراب الجمل اذا كان أصيلاً معروفاً . وقد نهى الاسلام عن ثمن الضراب، وجعله من السحت[3] . كما نهى عن عسب الفحل ، أي ثمنه . و (العسب) ،

---

١ تاج العروس (٩/٣٣٠) ، (لجن) .

٢ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .

٣ تاج العروس (١/٣٤٦) ، (ضرب) ، زاد المعاد (٤/٢٥٧) .

ضراب الفحل وطرقه ، أو ماء الفحل فرساً كان أو بعيراً . واعطاء الكراء على الضراب ، واسم للكراء الذي يؤخذ على ضرب الفحل[1] . ويقال للضراب (الشبر) كذلك . وهو طرق الجمل وضرابه ، وأخذ الكراء على ضراب الفحل[2] . والعادة عندهم انهم يستأجرون الفحل للضراب ، للناتج . وللفقهاء في جواز ذلك وعدمه أقوال .

الأمراض والأوبئة :

ويصاب الحيوان كما يصاب الإنسان بالأمراض والأوبئة . وقد تفتك به فتكاً فتؤذي صاحبه ، وتنزل به خسارة كبيرة ، ولا سيما إذا كان ذلك الحيوان من الإبل . وقد يتأذى الحيوان من حيوان آخر فيهلكه ، فقد تصيب بعض الطيور الإبل فتؤذيها . وكل طائر يتطير منه للإبل، فهو عرقوب ، لأنه يعرقبها . وعرقبه قطع عرقوبه . وطير العراقيب الشقراق ، وتقول العرب : إذا وقع الأخيل على البعير ليكشفن عرقوباه[3] . مما يدل على أنه كان يؤذي الإبل . و (القراد) تعفن الإبل وتؤذيها ، كما تؤذي غير الإبل من الحيوان أيضاً[4] .

وقد تصاب الإبل بـ (الهيام) ، وهو داء يأخذ بها ، فيصيبها مثل الحمى، ولذلك عرف بـ (حمى الإبل) . وقيل انه جنون يصيب الإبل فيهلكها . يصيبها في الموضع المهيم الموبىء ، الذي تكون فيه نقوع ساكرة لا تجري ولذلك قال أهل الأخبار إن الهيام يحدث من ماء تشربه الإبل مستنقعاً ، وعن شرب النجل اذا كثر طحلبه واكتنفت الذبان به . وبتهامة مياه من هذا النوع[5] .

و (النقبة) قرحة تخرج بالجنب ، وجرب يصيب الإبل[6] . (والنقر) ، مرض

---

١ تاج العروس (١/٣٨٠) ، (عسب) .
٢ تاج العروس (٣/٢٨٨) ، (شبر) .
٣ تاج العروس (١/٣٧٨) ، (عرقب) .
٤ تاج العروس (٢/٤٦٤) ، (قرد) .
٥ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٠ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) .
٦ تاج العروس (١/٤٩٠) ، (نقب) .

يصيب الشاة[1] .

وقد كانوا يتوسلون الى الأصنام لتشفي ماشيتهم من أمراض قد تصاب بها . روي عن (ساعدة الهذلي) أنه « قال : كنّا عند صنمنا سواع ، وقد جلبنا اليه غنماً لنا مائتي شاة قد أصابها جرب فأدنيتها منه أطلب بركته »[2] . فالأصنام تشفي من الأمراض وتبارك في الماشية وفي الانسان على رأي الجاهليين .

---

١ تاج العروس (٣/٥٨١) ، (نقد) .

٢ الاصابة (٢/٤) ، (رقم ٣٠٣٨) .

الفصل الخامس والتسعون

الارض

والأرض هي مصدر الثراء والغنى للانسان ، وعلى مقدار ما يملكه الانسان من أرض ، تكون ثروته ويكون غناه ، وعلى قدر ما يبذله صاحب الأرض من جهد في استغلالها وفي تطويرها وفي استنباط ما في باطنها من خيرات يتوقف دخله منها وغلته التي تأتيه من أرضه هذه .

ولا تعرف ملكية الأرض والماء ، إلا بين الحضر . أما الأعراب ، فإن هذه الملكية تكون عندها للقبيلة ولساداتها ، حيث يحمون بعض الأرضين ، أو يستنبطون الماء من أرض موات لا ماء فيها ، فتتحول الأرض بذلك الى أرض نافعة ذات ماء ، يبسط حافرها حمايته عليها ويجعلها ملكاً له ، وقد يزرع عليهـا ، فتصير الأرض التي يزرعها ملكاً له . وبهذه الطريقة تكونت الملكية بين القبائل.ولا يستطيع أن ينال من هذه الملكية بالطبع إلا المتمكن من أبناء القبيلة ومن ساداتهـا ، ممن يتمكن بما لديه من مال وامكانيات من استنباط الماء ومن احياء الأرض واستغلالها بما عنده من موالٍ وعبيد .

ويكتسب هذا التملك صفة شرعية ، إذ يعتبر ملكـاً صرفاً لصاحبه ، ليس لأحد حق منازعته عليه . ولمالكه أن يتصرف به كيف يشاء . له أن يبيعه ، وله أن يهبه ، وان مات انتقلت ملكيته الى ورثته .

فالأرض في معظم جزيرة العرب ، حق عام مشاع لا تعود ملكيته لأحد .

الى ان صار الرعي ، وأخذت القبائل تنتقل من مكان الى مكان ، ففرض سادتها حق الحمى ، وهو نوع من التملك المتولد من حق الاستيلاء بسبب الزعامة والقوة والاغتصاب ، فصار الحمى ملكاً لسادات القبائل ، وصارت الأرض المتبقية التي دخلت في حوزة القبيلة بسبب بسطها سلطانها عليها ، ملكاً لها . ملكاً مشاعاً بين جميع أبناء القبيلة ، ليس لأحد صد أحد من أبناء قبيلته عن ارتياد أرضها ، إلا بقانون القوة والعزة والتجبر ، أو بفرض سلطانه على الأرض باستنباط مائها ، وهو حق لا يعمل به إلا القوي المتمكن .

ومن هذا الإحياء للأرض الموات تكونت بعض المستوطنات في البوادي، جلب ظهور الماء فيها الناس اليها ، فسكنوا حولها ، وجاءوا من أطرافها للاستقاء من مائها ، وشجع العثور عليه في هذا الموضع المتمكنين الآخرين على الحفر أيضاً ، فكان اذا ظهر ماء عذب ، جذب الناس اليــه ، وسحرهم بسحره ، وأناخهم حوله ، فتوسعت بذلك تلك المستوطنات ، وتعددت،وظهرت فيها الملكية الفردية، والحياة الحضرية القائمة على الحيازة والتملك الفردي ، بصورة أوسع مما نجدها عند البدوي الاعتيادي الذي لا يملك إلا بيته ، وهو خيمته وأهله ، وما قــد يكون عنده من الإبل .

ظهور القرى :

وصار بعض هذه المستوطنات قرى ، توسع قسم منها حتى صار بمنزلة المدن، منها ما كان يضاهي (يثرب) أو مكة في الحجم ، غير أنه لم يشتهر ولم يذكر، لعدم وجود تماس له وصلة مباشرة بتأريخ الإسلام . وهي مستوطنات سكن وماء وأسواق وتجارة ، ذكرها أهل الأخبار بقولهم : « قرية كانت عظيمة الشأن » وبقولهم : (قرى) . وصار بعض منها (قرى وزروع ونخيل)[1] ، أي قرى غلبت الزراعة على أهلها ، فظهرت الزراعة بها . زراعة نخيل ، إن كانت زراعة النخيل هي الزراعة المتغلبة عليها ، وزراعة نخيــل وزروع أخرى ، إن شاركت

---

١ الصفة (١٤٧) ، (حائط بني غبر : قرية عظيمة بها سوق ؛ وكذلك جماز قريــة عظيمة أيضا) ، الصفة (١٤٢) .

الزروع الأخرى النخيل في ذلك . وهذا هو سبب نص (الهمداني) وأمثاله ممن كتب عن مواضع جزيرة العرب ، على القرى ، بأنها قرى ، أو قرى سكن ، أو قرى نخيل[1] ، أو قرى زراعة ونخيل ، أو نخل وقرية[2] .

وأما القرى التي غلب التعدين عليها ، فقد نص عليها بأنها (معدن)، لتمييزها عن القرى الأخرى[3] .

وهكذا ظهرت في البوادي مستوطنات زراعية رعوية ، كفت نفسها بنفسها ، توقف حجمها على كمية الماء فيها ، وتوقف انتاجها على مقداره وكميته، وظهرت فيها نتيجة لذلك الملكية الفردية ، تملك المقيم فيها الأرض التي استقر بها وبنى بيته عليها ، وتملك زرعه وحاصله إن كان له زرع ، وتملك ماشيته إن كان صاحب ماشية . وتولد نتيجة لكل ذلك مجتمع مستقر ، تعاون فيما بينه في الدفاع عن نفسه وعن ماله ، وفي جلب السلع التي يحتاج اليها الانسان والميرة ، وتولد فيها تعامل وبيع وشراء ، توقف حجمه بالطبع على حجم ذلك المكان وعلى مقدار وجود الماء به .

فالبحث عن الماء والحصول عليه بالمال وبالخدم والعبيد، كوّن الملكيات الفردية في البوادي بين الأعراب ، وأوجد المستوطنات الحضرية والمستقرات ، وصيّر من بعض البدو حضراً أو أشباه حضر ، وغيّر بعض التغيير من معاييرهم ومقاييسهم الاجتماعية ، بجعلهم زراعاً وفلاحين ، بعد كره واستهجان للمزارع وللزراعة . وهذه المستوطنات هي مستوطنات نشأت وظهرت بجهد الانسان وبعمله وجدّه ، وباستثمار عقله وماله وفي تسخير أتباعه في استنباط الماء ، وتحويل الأرض البكر الى أرض زراعة وسكن ، وفي جزيرة العرب مستوطنات عديدة من هذا القبيل، ومعظم مستوطنات يثرب ، هي من هذا النوع ، مستوطنات قامت على الآبار التي احتفرها المتمكنون من أهلها ، فزرعوها وأقاموا الأطم بها لحماية الزرع والناس من الأخطار . والأطم القصور ، وكل حصن بُني بالحجارة أطم . وقيل هو

---

١ (وفي ثنية الحفير نخل) ، الصفة (١٤٨) ، (روضة الحازمي ، وبها النخيل وحصن منيع) ، الصفة (١٤٢) .
٢ (والعذيب نخل وقرية) ، الصفة (١٤٩) .
٣ (وقرية عظيمة يقال لها : العوسجة . وهي معدن . وكذلك شمام : معدن ..) ، الصفة (١٤٩) .

كل بيت مربع مسطح . وقد اشتهرت يثرب بآطامها . وذكر (الأعشى) آطام جو بقوله :

فلما أتت آطام جوّ وأهله أنيخت فألقت رحلها بفنائكا[1]

وأقيمت الحصون لحماية هذه المستوطنات ، واتخذت وسائل التحصن الأخرى لحماية النفس والزرع من الأعراب الجياع . ولا تزال في اليمامة آثار حصون وآطام عادية ، تعود الى ما قبل الإسلام بأمد . وكانت حماية ومنعة للساكنين حولها ، وتشاهد آثار السكن في أطرافها ، وآثار آبار مندرسة ، وآثار زرع ، هي مزارع القوم . فنجد في الافلاج حصوناً ، ونجد في (ملهم) حصوناً كان يتحصن بها (بنو يشكر) ، ونجد في أرضين أخرى حصوناً بنيت كلها لدرء النفس من الأخطار[2] . واليمامة حصون متفرقة ونخل ورياض ، وفيها بتل ، والبتيل ، هن مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين ، ويرجع أهل الأخبار زمانها الى (طسم) و (جديس) ، وذكروا أن طول بعضها خمسمائة ذراع[3] .

وقد أشار أهل الأخبار الى قرى ومستوطنات قديمة في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، نسبوها الى (عاد) والى (طسم) و (جديس) لبعض منها حصون وآبار . فالقربة ، موضع قديم به ماء عادي ، أي ماء قديم ، الى جنبه آبار عادية وكنيسة منحوتة في الصخر[4] .والقصر العادي بالأثل من عهد طسم وجديس[5] ، و (القرية) : القرية الخضراء ، خضراء حجر ، هي حضور لطسم وجديس ، وفيها حصونهم وبتلهم . والبتيل : هنّ مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين . بناء بعضه مائتا ذراع أو خمسمائة ذراع مرتفعاً سامقاً في السماء[6] . وبقرية بني سدوس ، قصر مبني بصخر منحوت ، نسبه أهل الأخبار الى (سليمان بن

---

١ تاج العروس (١٨٧/٨) ، (أطم) .
٢ العقد الفريد (١٩٠/٥) ، البلدان (٥٣٧/٢) .
٣ الصفة (١٤٠ وما بعدها) .
٤ الصفة (١٥٢) .
٥ الصفة (١٦٠) .
٦ الصفة (١٤١) .

داوود)[1] . و (تر) نخيل وحصون عادية وغير عادية[2] .

الى غير ذلك من قرى وقصور وحصون قديمة ذكرها أهل الأخبار ، أشرت الى بعض منها في مواضع من هـذا الكتاب ، نشأت ونبتت في البوادي ، في المواضع التي أمكن للانسان بفنه البدائي وبعلمه في ذلك الوقت من استنباط المـاء فيها . وبظهور ذلك المـاء نبتت مستوطنات وزروع ونخيـل وملكيات في أرض كانت ميتة ليس لها مالك ، فأحياها استنباط الماء منها ، وجعلها ملكاً لأصحاب المـاء .

وقد كانت هذه الآطام والحصون معاقل لأصحاب الأرض ومنازل لهـم ، ومخازن يخزنون بها حاصل أرضهم وماشيتهم عند دنو الخطر ، وقد يحتمي بهـا عبيدهم وأتباعهم ، فهي مثل قلاع الأشراف النبلاء في أوروبـة أيام الاقطاع ، ومثل المحافد والقصور في اليمن . وهي تختلف في الحجم والسعة باختلاف درجة ومنزلة المالك للأرض ، من حيث تملكه للمال وللخدم والعبيد وما عنده من ثراء، وقد صارت سبباً في تحويل أصحابها الى حضر أو شبه حضر ، ولو انهم كانوا وسط بواد وبين أعراب ، فإقامتهم في أبنية مستقرة وحرثهم الأرض وزرعها ، واستخدامهم للعبيد في الفلاحة ، طورتهم بعض التطوير ، حتى صاروا على شاكلة الحضر ، يتركون منازلهم لزيارة القرى والأرياف ، ويتصلون بالحضر وقد يقيمون بينهم على نحو ما يفعله كثير من سادات (شيوخ) القبائل في الوقت الحاضر ، وكان جلّ سادات القبائل الكبار من أصحاب الأبنية الثابتة، لهم منازلهم ومزارعهم وأعرابهم الذين لم تمكنهم أحوالهم المادية من تملك الأرض والزرع ، فاشتغلوا برعي الإبل .

وقد تتعرض مزارع هذه المستوطنات الى الأخطار مع وجود الحصون وأبنيـة الحماية الأخرى ، فالمزارع الكبيرة لا يمكن حمايتها إلا إذا حميـت بحصون عديدة من جميع جهاتها، وحمايتها على هذا النحو عمل مكلف باهظ ، لذلك كان المهاجم يهـاجم الزرع ليحرق قلوب أصحابه المتحصنين في الحصن ، فلما هاجم (بنو يربوع) (بني يشكر) ، تحصن (بنو يشكر) بحصنهم بقرية (ملهم) ،

---

١ الصفة (١٤١) .
٢ الصفة (١٤١) .

فأحرق (بنو يربوع) بعض زرعهم ، وعقروا بعض نخلهم ، فلما رأى القوم ذلك نزلوا اليهم فقاتلوهم[1] .

وقد اتخذ المزارعون ملاجىء لهم عند أماكن زرعهم يأوون اليها لحماية أنفسهم من أشعة الشمس ومن المطر والعواصف ، وكانوا يسكنون بها ، كانت هذه سنتهم في الجاهلية وفي الإسلام . وقد ذكر مؤلف (بلاد العرب) أن بروضة السويس قبتين مبنيتين يسكنها الزرّاعون[2] .

وقد أولد هذا المجتمع تبايناً في منازل الناس ، جعل من أصحاب الأرض الكبيرة ملاكاً كباراً لهم أطم وحصون ، يأوون اليها ، ولهم خدم يخدمونهم ويخدمون زرعهم وماشيتهم ، هم العنصر المنتج ، والآلة التي تساعد على الانتاج وعلى تكثيره ، وعلى تزييد أموال الملاّك ، أما هم أنفسهم فمجرد خدم ورقيق ، خلقوا لخدمة سادتهم ووجدوا لرعاية أموالهم والعناية بزرعهم وتكثير رزقهم . والى جانب هؤلاء أناس أحرار ، كان في رزقهم شحّ ، وفي حياتهم عسر ، وقوتهم قليل ، قاموا بمختلف الأعمال والحرف لإعالة أنفسهم وسدّ رمقهم .

وقد تمكنت بعض هذه المستوطنات من انتاج حاصل زراعي سد حاجة أهل المستوطنة ، ومن بيع الفائض منه الى الأعراب. وبينها مستوطنات زرعت الحبوب، مثل الحنطة وصدرتها الى أماكن أخرى . فقد ذكر ان قرى اليمامة كانت تمون مكة بالحبّ ، وتمون الأعراب بالتمور . وما هذه القرى سوى مستوطنات ، ظهرت في البوادي بسبب وجود الماء فيها ، وبسبب استنباطه من الأرض بحفر الآبار ، فنمت وتوسعت ، لاتساع صدر الماء بها ، ولتفضل الأرض على من نزل بها باعطائهم ماءً كافياً . كفاية تساعد على توسع المستوطنة ، فيما لو عمل النازلون بها على استنباطه من باطنها . واستعملوا عقولهم وأيديهم في استغلال التربة للحصول على موارد الرزق منها .

وتحدد الأرض المملوكة بحدود ، وقد توضع على أطرافها علامات ، لتكون حدودها معلومة ، فلا يتجاوز عليها . ويقال للحد بين الدارين، أو بين الأرضين (الجهاد) . وقد أشير الى (الجوامد) ، أي الحدود في الحديث . ورد : اذا

---

١ النويري ، نهاية الارب (١٥/٣٨٥) ، (يوم الحائر وهو يوم ملهم) .
٢ بلاد العرب (٣٠٤) .

وقعت الجوامد فلا شفعة في الحدود[1] .

والأرض عامر أو غامر ، والعامر المأهول والمزروع والمستغل ، والغامر خلاف العامر ، وهو الخراب . وقد قسم (عمر) السواد الى عامر وغامر ، أي عامر وخراب . والغامر الأرض ما لم تستخرج حتى تصلح للزراعة والغرس ، وقيل : هو ما لم يزرع مما يحتمل الزراعة . وانما قيل له غامر ، لأن الماء يبلغه فيغمره[2]. ويقال للأرض العامرة : (السوداء) ، وأرض سوداء ، أرض مغروسة ، والأرض في عرف العرب اذا غرست اسودت واخضرت ، و (البيضاء) الخراب من الأرض ، لأن الموات من الأرض يكون أبيض[3] .

والبور : الأرض قبل أن تصلح للزرع ، وقيل : هي الأرض التي لم تزرع، أو الأرض كلها قبل أن تستخرج حتى تصلح للزرع أو الغرس . وفي كتاب النبي لأكيدر دومة : ولكم البور والمعامى وأغفال الأرض . فالبور الأرض الخراب التي لم تزرع،أو هي التي تجم سنة لتزرع من قابل[4] . وذكر أن المعامى الأعلام من الأرض ما لا حدّ له . والأغفال ما لا يقال على حده من الأرض[5] . والمعامى على حدّ قول بعض العلماء:أغفال الأرض التي لا عمارة بها ، أو لا أثر للعمارة بها[6] . والغفل : ما لا عمارة فيه من الأرضين ، وقيل الموات ، وأرض غفل لا علم بها ولا أثر عمارة ، وأرض سبسب ميتة لا علامة فيها ، وكل ما لا علامة فيه ولا أثر عمارة من الأرضين والطرق ونحوها غفل ، وبلاد أغفال لا أعلام فيها يهتدى بها[7] . وقد ورد في كتاب الرسول الى الأكيدر : « أن له الضاحية والبور والمعامى وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن ، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور »[8] .

---

١ تاج العروس (٣٢٥/٢) ، (جمد) .
٢ تاج العروس (٤٥٤/٣) ، (غمر) .
٣ تاج العروس (١٠/٥) ، (بيض) .
٤ تاج العروس (٦٠/٣) ، (بدر) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٢٨٩/١) .
٦ تاج العروس (٢٥٥/١٠) ، (عمى) .
٧ تاج العروس (٤٧/٨) ، (غفل) .
٨ ابن سعد ، طبقات (٢٨٨/١ وما بعدها) .

والضاحية ما كان خارج السور من النخل ، والضاحية البادية ، وضواحي قريش النازلون بظواهر مكة [1] .

والعامر ، إما ملك للحكومة ، وإما ملك للملوك ولذويهم ، وإما ملك للمعبد، أي أوقاف حبست على المعابد ، وإما ملك لأسر وأفراد ، وذلك بالنسبة للحضر، وفي العربية الجنوبية بصورة خاصة . وأما بالنسبة الى الأعراب ، سكنة البوادي ، فأرض القبيلة – كما سبق ان قلت – ملك لها ، إلا ما حمى منها ، فهو من حق أصحاب الإحماء . فالأرض اذن مشاعة بين أبناء القبيلة ، ويدخل في ذلك الماء والكلأ .

وقد عبر في أحد النصوص عن الأرض التي آلت الى صاحبها بطريق التملك بـ (مقبلت قنيو)) ، أي الأرض التي أقبلت الى الشخص بطريق الملكية [2] . ومعناها الأرض المقتناة أي الملك . وهي أرض ملكها صاحبها إرثاً من أهله،وذلك تمييزاً لها عن الأرض التي يتملكها صاحبها شراءً ، وقد عبر عنها بـ (شامتهو) ، أي الأرض المشتراة [3] .

وتعد كل الأرضين التي لا تملكها الجهات المذكورة ملكاً للدولة . ورقبتها بيد الحكومة ، وتسجل باسم الشعب الحاكم . فإذا كانت الحكومة حكومة معين ، تسجل الأرض باسم شعب معين ، وإذا كانت الأرض في سبأ ، تسجل باسم شعب سبأ ، وقد توسعت رقعة الأرضين الحكومية بالفتوحات الواسعة التي تمت في عهد الملك (كرب ايل وتر)،وفي عهود الملوك المحاربين مثل (شمر يهرعش) الذين إذا انتصروا على خصومهم جعلوا أرضهم وما يملكونه غنيمة لحكومتهم ، تابعة لبيت المال . وذلك على نحو ما فعله المسلمون في الفتوحات من تسجيلهم الأرضين التي فتحوها باسم (بيت مال المسلمين) .

وقد تؤجر أرض التاج للقبائل والعشائر بعقد يتفق عليه ، تذكر فيه شروطه في الوثائق التي تدوّن لهذه الغاية ، ويتم الدفع بموجبها ، فيكون إما عيناً ، وإما نقداً . وقد يقوم سادات القبائل باستغلال الأرضين المؤجرة على حسابهم ، وقد

---

١ تاج العروس (١٠/٢١٨) ، (ضحو) .

٢ REP. EPIGR. 2876, Tome, V, p. 209.

٣ الفقرة الثالثة من النص المذكور .

يؤجرونها أو يؤجرون أجزاءً منها الى حاشيتهم أو أتباعهم في مقابل جعل يدفع لهم . فيكون دخلهم من هذه الأرض المؤجرة من العوائد التي اتفقوا على استحصالها من المستأجرين الثانويين ومن صغار الفلاحين .

وقد كان الفلاح مغبوناً في الأكثر ، لأنه بحكم فقره واضطراره الى استئجار الأرض بشروط صعبة في الغالب ، مضطر الى الاستدانة في أغلب الأحيان ، لضمان معيشته في مقابل تعهده بدفع ما استدانه في آخر موسم الحصاد وقطف الثمر فإذا حلّ الأجل ، اضطر الى دفع ديونه وما ترتب عليها من ربا فاحش ، وما عليه من حق للحكومة ولصاحب الأرض ، فلا يتبقى لديه ما يكفيه في عامه الجديد ، فيضطر الى تجديد الاستدانة ، والغالب أن أصحاب الأرض هم الذين يقومون بتقديم الديون الى الفلاحين ، لربطهم طول حياتهم بالأرض ، فلا يتمكن الفلاح من الهروب منها بسبب ثقل ما عليه من الديون ، ووجوب دفعها مع فائضها كاملة إن أراد تركها ، وهو حلّ لا يتمكن من تنفيذه ، فيظل لذلك مرتبطاً مع عائلته بأرض المالك صاحب الديون .

وكانت حكومة سبأ تستغل أرضها الخاضعة للخزينة العامة ، أي (أرض السلطان) ، إما بادارتها نفسها وباستغلالها بتشغيل المزارعين بها على حساب الدولة ، وإما ببيعها ، وإما بتأجيرها في مقابل (أجر) يقال له (اثوبت) في لغتهم[1] .

وامتلكت المعابد أرضين واسعة شاسعة ، استغلتها باسم الآلهة ، ودرّت عليهم أرباحاً كثيرة . وهي أرضين سجلت باسمها منذ نشأت المعابد وظهرت ، فارتبطت بها ، وصارت وقفاً عليها . منها ما سجل في عهد (المكربين) أي حكومات رجال الدين في العربية الجنوبية ، يوم كان (المكرب) هو رجل الدين والحاكم الدنيوي ، فكانت نظرتهم ان الأرض وما عليها ملك الآلهة . ورجال الدين الحكام هم خلفاء الآلهة على الأرض ، وهم وحدهم لهم حق الحكم والفصل بين البشر ، وما يقررونه حق ، وما يخالفونه ويحرمونه فهو باطل . وهم الذين يفصلون بين الحرام وبين الحلال ، ويقررون ما يوافق حكم الآلهة وما يخالفه. فهم حكام الشرع والقانون .

---

١ Glaser 904, Halevy 51, 1571, Handbuch, I, S. 137, Rhodokanakis, Katab. Texte, I, S. 70.

وكانت للمعابد الأخرى أحباس خصصت بها ، وحميت للمعبد ولما ينذر له ويحبس عليه من حيوان يرعى فيه ، فلا يتطاول عليه أحد . وقد سبق ان تحدثت عن حرم (العزى) ، وهو شعب حمته قريش للصنم ، يقال له (سقام) في وادي حراض ، وقد كان حرماً آمناً ، لا يجوز قطع شجره ولا الاعتداء على ما يكون فيه من انسان وحيوان[1] . وهو قرب مكة بين (المشاش) و (الغمير) فوق ذات عرق ، الى البستان ، وقيل بالنخلة الشامية[2] . كما كان للبيت الحرام ، حرم واسع به شجر وزرع ، سبق ان تحدثت عنه .

وقد وجدت في بعض المناطق ، مثل أرض قبيلة (بكل) (بكيل) ، أملاك واسعة حبست على (المقه) ، كانت تدبرها وتتصرف بها عشيرة (مرثد) ، ووجدت أرضون واسعة في مناطق أخرى ، جعلت المعبد من أكبر ملاك الأرض. وقد استغل المعبد بنفسه بعض أملاكه ، وأجر بعضاً آخر للأسر المتنفذة ولسادات القبائل ، بموجب اتفاقات دوّنت وحفظت في خزائن المعابد . وقد كان المتنفذون قد استولوا على بعض حبوس المعابد ، واستغلوها ، ولما كانوا أقوياء ،والأوقاف في مناطق نفوذهم ، ولا يمكن للمعبد أن ينتزعها منهم ، اضطر إلى تأجيرها لهم ببدل ايجار رمزي ، ليحافظ بذلك على اسم وقفه ، فلا يستبد أولئك السادة به ، ويسجلونه ملكاً باسمه . فصارت هذه الأملاك من أملاك المعبد بالإسم ، ومن أملاك الملاك الأقوياء بالفعل .

ولا نجد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد بوجود حبوس كبيرة وكثيرة على المعابد في العربية الغربية أو العربية الوسطى أو العربية الشرقية ، على نحو ما وجدناه في اليمن ، ويعود سبب ذلك في رأيي الى صغر مساحات الأرضين الخصبة المزروعة في هذه الأقسام ، والى قلة الماء فيها ، مما جعل من الصعب على الناس التخلي عن أرضين كبيرة للمعبد . بل ترينا أخبارهم ان أهل هذه المناطق كانوا لا يتأثمون أحياناً من التطاول على (حرم) المعابد ، فكانوا يقطعون شجره ويستقطعون قطعاً من أرضه لاتخاذها منازل لهم كالذي حدث لـ (حرم) بيت الله .

وقد كان الملوك وكبار الملاك يقطعون أرضهم اقطاعات لاستغلالها . ويعبر عن

---

١ البلدان (٥/٩١) ، (٦/١٦٦) .
٢ تاج العروس (٥/١٩) ، (حرض) .

ذلك بلفظة (بضع) في المسند ، أي القطعة . وقد يراد بها الأرض المعطاة لجماعة لاستغلالها في الزراعة [1] .

وفي أواخر عصور الملكية في سبأ ، نجد طبقة الأشراف وسادات (الأعراب) (اعربم) والقبائل وقد ازداد نفوذها وقوي سلطانها ، فنازعت الملك على صلاحياته في بعض الأحيان . وصار لرؤساء القبائل نفوذ قوي في المملكة ، حتى قلصت حكم الـ (مزود) واستأثرت بالأرض ، واحتكرتها ، فاضطر الملوك الى التزول عن حقهم في الأرضين الى أولئك الرؤساء في مقابل اتفاقيات تحدد الواجبات والمبالغ التي يجب على رئيس القبيلة أن يقدمها الى الملك في مقابل استغلاله للأرض ، ويقوم الرئيس بإيجار أرضه لأتباعه المتنفذين في القبيلة أو لأفراد قبيلته الاعتياديين، يتقاضى على ذلك أجراً يتفق عليه ، باهظاً مرهقاً للفلاح المسكين الذي لا يملك في العادة أرضاً ، فتحولت العربية الجنوبية بذلك الى دولة اقطاعية ، أرباحها وحاصلها وناتجها وقف وإقطاع لطبقات معينة متنفذة .

وفي جملة تلك الواجبات تقديم عدد يتفق عليه من أتباع من حصل على أرض حكومية للقيام بالخدمات العسكرية ، ووجوب الدفاع عن الحكومة عند ظهور خطر عليها . فيقوم المقتطع للأرض بإرسال رجاله على حسابه للدفاع عن الملك . وبذلك صارت جيوش الملك مؤلفة من جنود مرتزقة وجنود أرسلوا الى القتال إرسالاً بأمر سادتهم تنفيذاً لالتزاماتهم التي ألزموا أنفسهم بها مع الملوك .

ويمكن حصر الأشخاص الذين تمتعوا بنعم الاقطاع وامتيازاته بالملوك وبذويهم ، والملك هو الراعي الشرعي للحق العام ، وهو الناظر والوصي لأرض الدولة ، وهو بهذه الصفة يصطفي لنفسه ولأولاده ولأهله خيرة الأرضين ، ثم يليه من بعده رجال الدين الناطقون باسم الآلهة ، وهم في نظر الشرع ، أي الدين أصحاب الأرض ، لأن الأرض ملك للآلهة . ثم يليهم قادة الجيش وصفوة الملوك وكبار الحكام ، والسادات . سادات الحضر وسادات القبائل . أما السواد ، وهم غالبية الناس ، فليس منهم من يملك إلا المساحات الصغيرة من الأرض ، وإلا البيوت، وأغلب الباقين عالة على غيرهم ، يتعيشون باستعمال أيديهم في كسب قوتهم .

---

١ راجع الفقرة الثانية من النص :
Glaser 1000 A, B, 1693, Rhodokanakis, Kataba. Texte, II, S. 41.

وقد يؤجر سيد القبيلة أو سادات الأرض ما استحوذوا عليه من الحكومة من أرضين الى أناس غرباء أجراء أم الى قبائل أخرى ، في مقابل شروط يعينها ، فيستغلون الأرض بموجبها ، ويكونون عندئذ في حمايته وفي رحمته ورعايته، فيعاملون عندئذ وكأنهم فرع من فروع قبيلة صاحب الأرض . واذا استمر العقد ، فقد يدمجهم الزمن في قبيلة سيد الأرض فيعدّون منها ، وينسبون اليها، مع انهم غرباء عنها . ومن هنا نرى ان القبائل في العربية الجنوبية ، لم تكن على نحو ما نفهمه من معنى القبيلة ، من انها بنو أب واحد ، وأصحاب نسب واحد يصعد حتى يتصل بجد ، بل قد تكون من قبائل وعشائر مختلفة ومن جماعات عمل ، تمثل مختلف الحرف ، انضمت الى قبيلة كبيرة [1] ، أو الى ملاّك كبير ، للعمل في أرضه أو لأداء خدمات له ، فلما طال بها المقام اندمجت في القبيلة الكبيرة ، أو في قبيلة الملاّك الكبير ، فعدّت منها ، أو في آل وأتباع صاحب الأرض ، فعدّوا من أتباعه ، ونسبوا اليه ، حتى اذا طال الزمن وتقادم العهد، صار ذلك الرئيس جداً لهم ، وعدّ نسبهم منه .

ولما ظهر الإسلام ، كان الأقيال وسادات القبائل قد استبدوا بالأمر وتحكموا في رقاب الأرض ، واقطعوها فيما بينهم ، ولقب بعضهم كما سبق أن تحدثت عن ذلك أنفسهم بألقاب الملوك . ومن هؤلاء (بنو وليعة) ملوك حضرموت : (حمدة) ، و (مخوس) ، و (مشرح) ، و (أبضعة)[2] . و (الحارث ابن عبد كلال) ، و (نعيم بن عبد كلال) ، و (النعمان) قيل ذي دعين (ذي يزن) ومعافر وهمدان[3] وشريح بن عبد كلال ، وزرعة ذي رعين[4] . و (جيفر بن الجلندي) و (عبد بن الجلندي) وهما من الأزد . وكان(جيفر)، يلقب نفسه بلقب ملك عمان[5] . و (ذو الكُلاع بن ناكور بن حبيب بن مالك ابن حسان بن تبع) ، و (ذو عمرو)[6] ، و (معدي كرب بن أبرهة) صاحب

---

١ J. Rychmans, L'Institution Monarchique, p. 178.

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٩) .

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٥٦) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٤ وما بعدها) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٢) .

٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .

خولان[1] . و (ربيعة بن ذي مرحب) الحضرمي ، وآل ذي مرحب ، وكانوا يملكون الأموال والنحل والرقيق والآبار والمياه والسواقي والشراجع بحضرموت[2] ، و (وائل بن حجر) ، من كندة حضرموت ، وكان يملك الأرضين والحصون والأودية ، وكان (الأشعث) وغيره من كندة ينازعونه في واد[3] .

ويقال لتقديم الفلاح أو المستأجر لأرض ما،ما عليه من حقوق تجاه الحكومة ، التي استأجر الأرض منها ، أو صاحب الملك ، الذي استأجر أرضه لزراعتها ، (دعثم) (دعث)[4] ، أي (غلة) ، تسلم الى وكلاء الحكومة أو صاحب الأرض عن حقهم المتفق عليه .

وتعرف الأرضون الحكومية التي تعطى باللزمة والإجارة لمن لا يملكها بـ (مقبلت) و (قبلت) ، و (مقبل) ، من أصل (قبل)[5] . تعطى في مقابل تعهد يتعهد الملتزم والمؤجر بدفع مبلغ معين أو حصة معينة الى الملك أو ممثليه من الموظفين أو أصحاب الأرض ، وذلك في مقابل استغلاله للأرض . وقد تدون شروط الاتفاق وتثبت ليرجع اليها اذا حدث اختلاف .

وقد صالح الرسول أهل خيبر ، على حقن دمائهم ، وعلى ان يقوموا على النخل والزرع ، لأن لهم علماً باصلاح الأرض وخدمة الزرع ، ولم يكن لرسول الله وأصحابه غلمان يقومون بذلك ، فأعطاهم خيبر على ان لهم الشطر من كل زرع ونخل وشيء ما[6] . فبقوا يستغلونها على نصف ما خرج منها ، فكان (الخارص) يأتي اليهم عند الموسم يخرص ما يخرج منها ، فيأخذ النصف ، ويترك النصف الآخر لليهود[7] . وصالح الرسول أهل (فدك) على نصف الأرض بتربتها ، وعلى نصف النخل[8] .

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٧) .
٤ Handbuch, I, S. 137.
٥ REP. EPIGR. 2876, Tome, V, p. 209.
٦ البلاذري ، فتوح (٣٧) .
٧ البلاذري ، فتوح (٣٩ وما بعدها) .
٨ البلاذري ، فتوح (٤٢ وما بعدها) .

عقود الوتف :

وقد وصلت الينا وثائق مهمة تتضمن عقوداً في استغـلال الأرضين ، عرفت باسم (وتفم) (وتف) . وهي عقود تبين ان الحكومة كانت تؤجر الأرض لمن يريدها في مقابل حقوق يقدمها اليها . وتشمل عقود الوتف ، العقود التي عقدت بين المعبد والوجهاء وسادات القبائل أيضاً ، والعقود التي عقدها كبـار أصحاب الأملاك الذين فاضت أملاكهم عن حاجتهم الى المحتاجين اليها في مقابل شروط اتفق عليها دونت في (الوتف) .

وقد عثر على نصوص (وتف) ورد فيها اسم (مرثد) . مما يدل على أن (بني مرثد) هؤلاء كانوا يستأجرون الأرضين لاستغلالها ، في مقـابل تعهدات خاصة يقدمونهـا الى أصحاب الأرض . وتتناول معظم هذه العقود (الوتف) استئجار أرضين خاضعة للحكومة وأرضين هي من أوقاف المعابد . وجدت المعابد أن من الصعب عليهـا ادارتها فأجرتها الى (بني مرثد) لاستغلالها ، وقد قام (بنو مرثد) بتأجير قسم منها الى غيرهم من العشائر التابعة لهم في مقابل جعل يقدمونه لهم،يزيد على مقدار بدل الإجارة المتفق عليه مع المعبد ، وبذلك استفادوا من الفرق بين بدل الإجارتين .

ولدينا جملة نصوص (وتف) يفهم منها أن بعض المتعاقدين من مستأجري أملاك المعبد قد قدّموا نذوراً وذبائح الى الآلهة التي أوقفت عليها الأرض المستأجرة لأنها أعطتهم غلة طيبة وحاصلاً وافراً طيباً بعد فقر وجوع . ويظهر من بعضها أن أولئك المستأجرين المتعاقدين كانوا قد تهاونوا في تنفيذ ما ورد في العقد ، أو أنهم أخلوا بها عمداً ، فلم ينفذوا ما جاء فيها ، واتفق أن نزلت آفات طبيعيـة بزروعهم ، مثل جفـاف أتلف معظم حاصلهم ، ففشا الجوع بينهم ، ففسروا ذلك على أنه غضب حلّ بهم من آلهتهم ، وانتقام نزل بهم منها . ولهذا كفّروا عن ذنوبهم وتابوا عما ارتكبوه من آثام ، بعدم تنفيذهم تلك الاتفاقيات، وعاهدوا آلهتهم على ترضيتها وتقديم الذبائح اليها في كل عام بانتظام ، ان هي غفرت لهم قبح أعمـالهم ، وباركت في زروعهم ، وهم في مقابل ذلك سيوفون بالعهد ، ويؤدون ما فرض عليهم من (الوتف) كاملاً غير منقوص[١] .

---

١ Oslander 10, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 158.

وقد استغلت الأرض في العربية الجنوبية ، ولا سيما في اليمن استغلالاً حسناً بالنسبة الى باقي أنحاء جزيرة العرب ، وذلك لسقوط المطـــر الموسمي بها بكميات مناسبة للزراعة ، ولوجود موارد طبيعية للمياه بكثرة فيهـــا بالقياس الى المواضع الأخرى من جزيرة العرب ، ثم لوجود فجوات ومنخفضات بين الجبال والهضاب ساعدت على خزن مياه الأمطار بها ، كما ساعدت عـــلى اقامة السدود في أفواه الأودية لحصر المياه في المنخفضات ومنعها من السيلان الى البحر . وبسبب هـــذه الميزات ظهر في اليمن اقتصاد زراعي وحاصل زراعي،أمكن استغلاله في الداخل، وتصدير الفائض منه الى الخارج .

الاقطاع :

الاقطاع في الاسلام يكون تمليكاً ويكون غير تمليك . والقطائع انما تجوز في عفو البـــلاد التي لا ملك لأحد فيها ولا عمارة فيها لأحـــد ، وفيما ليس بمملوك كبطون الأودية والجبال والموات ، فيقطـــع الإمام المستقطع منها قدر ما يتهيأ له عمارته باجراء الماء اليه أو باستخراج عين منه ، أو بتحجر عليه للبناء فيه . ومن الاقطاع اقطاع ارفاق لا تمليك كالمقاعدة بالأسواق التي هي طرق المسلمين ، فمن قعد في موضع منها كان له بقدر ما يصلح له ما كان مقيماً فيه ، فإذا فارقه لم يكن له منع غيره منه ، كأبنية العرب وفساطيطهم ، فإذا انتجعوا لم يملكوا بها حيث نزلوا منها ، ومنها اقطاع السكنى . وفي الحديث : لما قدم النبي المدينـــة أقطع الناس الدور ، معناه أنزلهم في دور الأنصار يسكنونها معهم ، ثم يتحولون عنها . ومنه الحديث ، انه أقطع الزبير نخلاً،يشبه انه انما أعطاه ذلك من الخمس الذي هو سهمه ، لأن النخل مال ظاهر العين حاضر النفع ، فلا يجوز اقطاعه . وأما اقطاع الموات ، فهو تمليك[1] .

وهو ضربان : إقطاع تمليك ، وإقطاع استغلال . فأما اقطاع التمليك فتنقسم فيه الأرض المقطعة ثلاثـــة أقسام : موات وعامر ومعادن . فأما الموات ، فعلى ضربين : أحدهما ما لم يزل مواتاً على قديم الدهر فلم تجر فيه عمـــارة ولا يثبت

---

١ تاج العروس (٥/٤٧٤) ، (قطع) ، ارشاد الساري (٤/٢٠٦) ، صبح الاعشـــى (١١٣/١٣ وما بعدها) .

عليه ملك ، فهذا الذي يجوز للسلطان أن يقطعه من يحييه ومن يعمره ، والضرب الثاني من الموات ما كان عامراً ، فصار مواتاً عاطلاً . وذلك ضربان : أحدهما ما كان جاهلياً،فهو كالموات الذي لم يثبت فيه عمارة ، ويجوز اقطاعه . والضرب الثاني ما كان إسلامياً جرى عليه ملك المسلمين ثم خرب حتى صار مواتاً عاطلاً وقد اختلف فيه الفقهاء .

وأما العامر فضربان : أحدهما ما تعين مالكه فلا نظر للسلطان فيه ، والضرب الثاني من العامر ما لم يتعين مالكوه ولم يتميز مستحقوه ، وهو على ثلاثة أقسام : تكلم فيها الفقهاء .

وأما اقطاع الاستغلال فعلى ضربين : عُشر وخراج . فأما العشر : فإقطاعه لا يجوز . وأما الخراج ، فيختلف حكم اقطاعه باختلاف حال مقطعه ، وله ثلاثة أحوال ، ذكرت في كتب الفقه .

وأما اقطاع المعادن ، فهو ضربان ، ظاهرة وباطنة ، فأما الظاهرة ، كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ، وهو كالماء الذي لا يجوز اقطاعه والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه . وأما المعادن الباطنية ، ففي جواز اقطاعها قولان : أحدهما لا يجوز كالمعادن الظاهرة ، وكل الناس فيها شَرَع . والقول الثاني : يجوز اقطاعها . وفي حكمه قولان : أحدهما أنه إقطاع تمليك يصير به المقطع مالكاً لرقبة المعدن كسائر أمواله في حال عمله وبعد قطعه يجوز له بيعه في حياته وينتقل الى ورثته بعد موته . والقول الثاني أنه اقطاع ارفاق لا يملك فيه رقبة المعدن ويملك به الارتفاق بالعمل فيه مدة مقامه عليه ، وليس لأحد أن ينازعه فيه ما أقام على العمل ؛ فإذا تركه زال حكم الاقطاع عنه وعاد الى حال الإباحة . فإذا أحيا مواتاً بالإقطاع أو غير اقطاع فظهر فيه بالإحياء معدن ظاهر أو باطن ملكه المحيي على التأبيد كما يملك ما استنبطه من العيون واحتفره من الآبار [1] .

وأما الاقطاع عند أهل الجاهلية ، فكان معروفاً عندهم ، وقد أشير اليه في نصوص المسند . وقد كان اقطاع تمليك ، واقطاع استغلال .

فأما اقطاع التمليك ، فيشمل الموات والعامر والمعادن . وقد أقطع الحكام في كل هذه الأقسام الثلاثة . فكان الملوك ، يهبون الموات أو العامر الى من يريدون

---

١ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٩٠ وما بعدها) .

من أقربائهم أو قواد جيوشهم أو سادات القبائل ، أو كبار الموظفين ومن يرضون عنه . يعطونهم أرضاً مواتاً لا أصحاب لها ، أو أرضاً عامرة لها أصحاب وملاّك. فقد كانوا يحاربون ، فإذا انتصروا اصطفوا لأنفسهم ما أحبوا من أرض مملوكة للدولة أو للاشخاص ، فسجلوه ملكاً باسمهم ، وأعطوا مـا شاءوا الى خاصتهم وذوي رحمهم وقواد جيشهم ، ملكاً لهم ، يملكون رقبته وكل ما عليه من شجر ونبات وماء ومعادن ورقيق وأناس ، لا ينازعهم في ذلك منازع،لهم حق بيعه إن شاءوا ، أو حق ايجاره ، أو اعطائه لأي شخص آخر لاستغلاله ، وإن وجدت فيه معادن ، فهي لهم أيضاً .

وقد يغضب ملك أو أي حاكم متفرد بأمره على من هو من تبعتـه ، فينتزع منه ملكه ، ويستولي عليه وعلى كل ما عليه ، وقد يقطعه كله أو جزءاً منه أحد خاصته ، أو يقطعه اقطاعاً ، لجملة أشخاص . هبة أي تمليكاً ، أو غير تمليك، أي عارية ، رقبته للحاكم ، ومنفعته لمن أقطع له الى أجل معين أو الى أجل غير محدود ، يكون له ولورثته حق الانتفاع منه . والحاكم الذي يقطع الإقطـاع لمن يشاء ويهب الأرض لمن يحب ، لا يعجز عن استعادة ما أقطعه تمليكاً أو استغلالاً متى أحب ، فهو الآمر بأمره والناهي ، لا يعارضه معارض ، متى أراد الاستيلاء على أرض أو على اقطاع اقطعه أحداً ، أمر بالاستيلاء عليه ، فيطاع أمره وينفذ ما دام قوياً له الحول والطول .

ولا يعني الاقطاع عند الجاهليين وجوب وجود العبيد أو الأقنـان في الأرض لاستغلالها ولإعمارها ، فقد يتعامل الاقطاعي ، مع أجراء أو أجرار يتفقون معـه على استثمارها في مقابل حقوق يدفعونها له . أما إذا كان متمكناً غنياً له خـدم ورقيق وأتباع ، فقد يستخدمهم في خدمة ملكه بأجر او بغير اجر ، حسب مبلغ هيمنته عليهم ومقدار نفوذه بين قومه واهله .

وقد عرف اقطاع المعادن عند الجاهليين : ما ظهر من المعادن ، وما بطن . ويظهر ان أهل اليمن لم يكونوا يفرقون في الاقطـاع بين النوعين من المعـدن . فكانوا يقطعون المعادن الظاهرة ، مثل الذهب والملح ، كما كانوا يقطعون المعادن الباطنة ؛ أي المعادن التي يكون جوهرها مستكناً فيها ، لا يوصل اليه إلا بالعمل، كمعادن الذهب والفضة والصفر والحديد ، فهذه معادن باطنة سواء احتاج المأخوذ

منها الى سبك وتخليص أو لم يحتج ، في حين أن المعادن الظاهرة ، ظاهرة على سطح الأرض ، ولا يبذل لاخراجها ما يبذل في اخراج المعادن الباطنة . أما الإسلام ، فقد جعل حكم المعادن الظاهرة حكم الماء العدّ من ورده أخذه، لا يجوز اقطاعه والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه[1] .

وفي كتب السير والتأريخ أن الرسول أقطع بعض سادات القبائل ورؤساء الوفود اقطاعاً ، وأمر فكتبت لهم كتب التملك . فأعطى (الزبير بن العوّام) « ركض فرسه من موات النقيع (البقيع) ، فأجراه ، ثم رمى بسوطه رغبة في الزيادة . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أعطوه منتهى سوطه »[2] . وفي حديث (أسماء) بنت (أبي بكر) ، أنه أقطع الزبير أرضاً من أموال بني النضير ذات نخل وشجر[3] .

وقد سأل (الأبيض بن حمّال) رسول الله ، ان يستقطعه ملح مأرب ، فأقطعه . « فقال الأقرع بن حابس التميمي : يا رسول الله إني وردت هذا الملح في الجاهلية ، وهو بأرض ليس فيها غيره ، من ورده أخذه ، وهو مثل الماء العدّ بالأرض . فاستقال الأبيض في قطيعة الملح . فقد أقلتك على ان تجعله مني صدقة . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : هو منك صدقة ، وهو مثل الماء العدّ من ورده أخذه »[4] . و (الأبيض بن حمال) ، سبأي من أهل مأرب ، وكان من سادة قومه . وفد على أبي بكر ، لما انتقض عليه عُمال اليمن ، فأقره أبو بكر على ما صالح عليه النبي ، من الصدقة ، ثم انتقض ذلك بعد أبي بكر وصار الى الصدقة . وكان مصاباً بـ (حزازة) في وجهه ، وهي القوباء ، فالتقمت أنفه[5] .

وأقطع الرسول « بلالَ بن الحارثَ » المعادن القبلية جلسيّها وغوريها. وحيث

---

١ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٩٧) .

٢ الاحكام السلطانية (١٩٠) ، (في أحكام الاقطاع) .

٣ ارشاد الساري (٤/٢١٠) ، البلاذري ، فتوح (٢٤ ، ٤٢) ، (موات البقيع) ، صبح الاعشى (١٣/١٠٥) .

٤ الاحكام السلطانية (١٩٧) ، (في أحكام الاقطاع) ، صبح الاعشى (١٣/١٠٥) .

٥ الاصابة (١/٢٩) ، (رقم ١٩) .

يصلح الزرع من قَدَسٍ ، ولم يقطعه حق مسلم »[1] . وذكر ان المراد من الجلسي والغوري : أعلاها وأسفلها ، وذكر ان الجلسي بلاد نجد والغوري بلاد تهامة[2] . وذكر ان (القبلية) ، ناحية من ساحل البحر ، بينها وبين المدينة خمسة ايام ، وقيل : ناحية من نواحي الفرع بين نخلة والمدينة ، وهي التي أقطعها الرسول ، بلال بن الحارث . وورد أيضاً : (معادن القلبة)[3] . ولم يذكر العلماء أسماء المعادن التي كانت في هذه الأرض . وقد باع بنو (بلال) (عمر بن عبد العزيز) أرضاً منها ، فظهر فيها معدن أو معدنان ، فجاءوا اليه ، وقالوا : انما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن . فقال (عمر) لقيمه : أنظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصهم بالنفقة وردّ عليهم الفضل[4] .

وأقطع الرسول (وائل بن حجر) ارضاً بحضرموت[5] . وكان أبوه من أقيال اليمن ، وفد على النبي واستقطعه أرضاً فأقطعه إياها وكتب له عهداً[6] . وأقطع (زيد الخيل) الشاعر الفارس لما وفد عليه في سنة تسع من الهجرة أرضين . هي (فيد) وكتب له بذلك[7] ، فلما وصل موضع (قردة) ، توفي بها فدفن هناك، وأقام عليه (قبيصة بن الأسود بن عامر) المناحة سنة[8] .

واقطع الرسول (حمزة بن النعمان بن هوذة) (جمرة) العذري ، أرضاً من وادي القرى ، وكان سيد (بني عذرة)[9] . وكان (جمرة) أول من قدم بصدقة (بني عذرة) الى النبي ، وقدم في وفد قومه . وقد نزل أرضه التي اقطعها الرسول له الى أن مات[10] . واقطع الرسول (ساعدة التميمي العنبري)

---

١ الاحكام السلطانية (١٩٨) ، (في أحكام الاقطاع) ، تاج العروس (٢٧٥/٩) ، (عدن) .
٢ الاحكام السلطانية (١٩٨) .
٣ تاج العروس (٧٣/٨) ، (قبل) .
٤ البلاذري ، فتوح (٢٧) .
٥ ارشاد الساري (٢١٠/٤) .
٦ الاصابة (٥٩٢/٣) ، (رقم ٩١٠٢) .
٧ تاج العروس (٣١٥/٧) ، (خيل) .
٨ الاصابة (٥٥٥/١) ، (رقم ٢٩٤١) .
٩ البلاذري ، فتوح (٤٨) ، (حمزة) . وضبطه الاخرون « جمرة » ، الاصابة (٢٤٤/١) ، (رقم ١١٨٤) ، (٣٩٦/١) ، (رقم ٢١١٠) .
١٠ الاصابة (٢٤٤/١) ، (رقم ١١٨٤) .

بئراً في الملاة[1] . وأقطع (مجاعة بن مرارة) الحنفي اليمامي ، وكان من رؤساء (بني حنيفة) أرضاً باليمامة يقال لها (العورة) ، وكتب له بـذلك كتاباً[2] . وكانت خصبة منتجة ذات ماء .

واقطع الخلفاء القطائع كذلك ، فأقطع (أبو بكر) (الزبير) ما بين (الجرف) الى (قناة) . واقطع (عمر) (الزبير) (العقيق) ، واقطع (خوات بن جبير) الأنصاري أرضاً تتصل بالعقيق ، فعرفت بقطيعة خوات ، فباعها، واقطع (عليا) (ينبع)[3] .

الحمى :

وتفرد العزيز من أهل الجاهلية بالحمى لنفسه ، كالذي كان يفعله (كليب بن وائل) ، فإنه كان يوافي بكلب على نشاز من الأرض ، ثم يستعديه ويحمي ما انتهى اليه عواؤه من كل الجهات ، وتشارك الناس فيما عداه حتى كان ذلك سبب قتله[4] . والحمى ، موضع فيه كلأ يحمى من الناس ان يرعى . وذكر ان الشريف من العرب في الجاهلية اذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلب ، لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ، وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله[5] .

وقد نهى النبي ان يحمى على الناس حمى كما كانوا في الجاهليـة يفعلون إلا ما يحمى لخيل المسلمين وركابهم التي ترصد للجهاد ويحمل عليها في سبيل الله ، وابل الزكاة كما حمى عمر (النقيع) لنعم الصدقة والخيل المعدة في سبيل الله[6] . وكان الرسول قد حماه ، وهو موضع على عشرين فرسخاً من المدينـة ، وقدره

---

١ الاصابة (٢/٤) ، (رقم ٣٠٢٧) .
٢ الاصابة (٣/٣٤٢) ، (٧٧٢٤) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٦) .
٤ قال العباس بن مرداس :

كما كان يبغيها كليب بظلمه ... من العز حتى طاح وهو قتيلها
على وائل اذ يترك الكلب نابحا ... واذ يمنع الاقناء منها حلولها

الاحكام السلطانية (١٨٦) .
٥ تاج العروس (١٠/٩٩) ، (حمى) ، ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .
٦ تاج العروس (١٠/٩٩) ، (حمى) .

ميل في ثمانية أميال[1] . وقد جعل بعض العلماء هذا النقيع : نقيع الخضمات ، وجعله بعضهم غرز النقيع . وذهب بعضهم مذهباً آخر في تعيين موضع المكان[2] .

وقد حمى عمر (السرف) (الشرف) أيضاً[3] . وفي الشرف حمى (ضرية) ، وضرية بئر وفي الشرف الربذة ، وهي الحمى الأيمن . وفي الحديث ان عمر حمى الشرف والربذة[4] . ويقال لحمى الربـذة (حمى الحناكية) في الوقت الحاضر . وهناك حمى آخر ، يسمى (حمى النير)[5] . وذكر ان بالنير قبر (كليب وائل) ، الذي تنسب اليه بدعة الاحماء ، وهو قريب من (ضرية)[6] .

ومن أشهر الأحماء وأكبرها في جزيرة العرب ، حمى (ضرية) . يذكر أهل الأخبار أنه سمي بـ (ضرية بنت ربيعة بن نزار) . وقد حماه (عمر) لإبـل الصدقة وظهر الغزاة ، وكان ستة أميال من كل ناحية من نواحي ضرية، وضرية في وسطها[7] . وحمى (فيد) ، ذكر أنه فلاة في الأرض بين (أسد) ، و(طيء) ، في الجاهلية . فلما قدم (زيد الخيل) على رسول الله أقطعه (فيد)[8] . وقـد أشير الى هذا الحمى في الشعر[9] . و (فيد) قلعة وبليدة بطريق مكة ، في نصفها من الكوفة في وسطها حصن عليـه باب حديد وعليها سور دائر ، كان الناس يودعون فيها فواضل أزوادهم الى حين رجوعهم ، وما ثقل من أمتعتهم ، وهي قر أجأ وسلمى جبلي طيء . وقد ذكرت في شعر ازهير[10] ، وفي شعر لبيـد بن

---

١ ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .

٢ تاج العروس (٥/٥٣٠) ، (نقع) ، (٨/٢٨٠) ، (خضم) .

٣ بين العلماء اختلاف في ضبط الاسم ، فمنهم من ضبطه « السرف » ، ومنهم من ضبطه بحرف الشـين ، أي « الشرف » ، والصحيـح أنـه « الشرف » ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .

٤ تاج العروس (٦/١٥٢) ، ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .

٥ الصفة (٤٠٨) .

٦ تاج العروس (٣/٥٩٣) ، (نـير) .

٧ تاج العروس (١٠/٢١٩) ، (ضرى) .

٨ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .

٩ سقى الله حيا بين صارة والحمى حمى الفيد صوب المدجنات المواطر
تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .

١٠ ثم استمروا وقالوا ان مشربكم ماء بشرقي سلمى فيد أو ركك
تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) ، و « رك ماء شرقي سلمى ، أحد جبلي طيء . له ذكر في سرية علي ، رضي الله عنه ، الى الفلس » تاج العروس (٧/١٣٦) ، (رك) .

ربيعة[1] ، وفي شعر لآخرين[2] . وقد زعم بعض أهل الأخبار أنها سميت بـ (فيد ابن حام) أول من نزلها[3] . وقد يشير هذا الزعم الى وجود جالية من العبيد في هذا المكان ، عهد اليها زراعة الأرض . وذكر أنها عرفت بكعكها حتى ضرب به المثل :

وتلك فيد قرية والمثل في كعك فيد سائر لا يجهل[4]

وقد أعطى الرسول (بني قرة بن عبدالله بن أبي نجيح) النبهانيين المظلة كلها أرضها وماءها وسهلها وجبلها حمى يرعون فيه مواشيهم[5] .

ولا تزال عادة الاحماء متبعة حتى الآن . فـ (سجا) مثلاً وهو ماء يعد في حمى الأمير (فيصل آل سعود) خص به إبله وخيله[6] .

وقد عرف الاحماء عند العرب الجنوبيين ، وقد ذكر (الحمى) بلفظة (محمت) و (محميم) في نصوص المسند . أي (المحماة) و (المحمى) ، ومعناها الأرض المحماة ، أي (الحمى)[7] .

وذكر علماء اللغة ان (الحمى) (المحجر) . والمحجر : (الحديقة) ، والمرعى المنخفض والموضع فيه رعي كثير وماء ، وما حول القرية ، ومنه محاجر أقيال اليمن ، أي ملوكها ، وهي الاحماء . كان لكل واحد منهم حمى لا يرعاه غيره . وذكر ان محجر القيل من أقيال اليمن حوزته وناحيته التي لا يدخل عليه فيها غيره[8] . وورد ان (بني عمرو بن معاوية) لما امتنعوا عن دفع الصدقات خرجوا الى (المحاجر) ، وهي أحماء حموها ، فنزلوا بها وتحصنوا ، وقاوموا منها

---

١ مرية حلت بفيد وجاورت أرض الحجاز فأين منك مرامها
تاج العروس (٤٥٧/٢) ، (فاد) .

٢ لقد أشمتت بي أهل فيد وغادرت بجسمي صبرا بنت مصان باديا

٣ تاج العروس (٤٥٧/٢) ، (فاد) .

٤ تاج العروس (٤٥٧/٢) ، (فاد) .

٥ ابن سعد ، الطبقات (٢٦٧/١) .

٦ محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي ، صحيح الاخبار عما في بلاد العرب من الآثار (١٨/١) .

٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 120, Mordtmann, Himj. Inschri., S. 42.

٨ تاج العروس (١٢٦/٣) ، (حجر) .

جيش المسلمين[1] . ويظهر ان المحاجر ، هي أبنية حصينة من حجارة ، اتخذت في أملاك أهل المحاجر ، للدفاع عنها ايام الخطر .

ولم يستعمل الحمى كما يظهر من كتب الحديث والفقه في غير الرعي ، رعي الكلأ الذي ينبت فيه . ولم أعثر حتى الآن على نص يفيد انهم استعملوه لأغراض زراعية . ويظهر ان لفظة (الحمى) قد خصصت بهذا النوع من المراعي ، لتمييزها عن المراعي العامة التي يتساوى فيها الجميع في حقوق الرعي ، فهي مراعي مشاعة لا يجوز منع إبل أحد من الرعي فيها ، وتساهم في الرعي فيها إبل السادة أصحاب الاحماء .

الموات :

والأرض الموات التي لا مالك لهـا ولا ينتفع بها ولا ماء بها ، والموتان من الأرض ما لم يستخرج ولا اعتمر ، وأرض ميتة وموات من ذلك[2] . وقد يستصلح الموات ويعمر ، ويكون من خيرة الأرضين المثمرة ، فتكون رقبته بيد مصلحه ، لأنه أحياه بعد أن كان مواتاً ، وصرف عليه مالاً وجهداً ، فيكون له .

ويكون إحياء الموات ، بجمع التراب المحيط به حتى يصير حاجزاً بينه وبين غيره ، أو سوق الماء اليه إن كان يبساً وحبسه عنه إن كان بطائح أو مغموراً بماء ، أو بحرثه لزرعه أو لتعديله وتسويته لاعداده للزراعة أو للسكن أو لأي انتفاع آخر ، أو بحفر آبار فيه لاسقائه أو لزرعه،أو للاستفادة من البئر ، ببيع مائها ، فتكون البئر ملكاً لصاحبها ، ليس لأحد محاججته فيها ، فقد صرف عليها وانفق جهداً في استنباط الماء منها . وفي التأريخ الجاهلي أمثلة عديدة لآبار حفرها أصحابها في أرض موات ، فصارت ملكاً لهم ، وصارت الأرض المحيطة بها ملكاً له قدر وصول الماء اليها .

احياء الموات :

وقد أثبت اقدام سادات القبائل وأعزة أهل القرى على إحياء الموات، باستنباط

---

١ الطبري (٣/٣٣٤) ، « ذكر خبر حضرموت في ردتهم » .
٢ تاج العروس (١/٥٨٧) ، (موت) ، اللسان (٢/٩٣) .

الماء من جوف التربة وبالاستفادة من ماء السماء المنهمر قرباً ، على ان من السهل تحويل الغامر من الأرض الى أرض عامرة حية منتجة، والى تكوين قرى ومستوطنات في المفاوز والبوادي ، كما وقع ذلك في اليمامة وفي الحجاز وفي مواضع أخرى ، حيث حفر رجال آباراً واستنبطوا عيوناً ، أحيت الأرض بعد موت ، وأولدت قرى عليها . غير ان عقلية البداوة ، وأعني بها الروح الفردية ونزعة الغزو بسبب الجهل والفقر ، وعدم وجود حكومة تحمي الأمن وتدافع عن هذه المستوطنات وعن مشاريع الأفراد ، تشعر ان من واجبها البحث عن الماء في كل مكان ، قد كانت من أهم العوائق في عدم إحياء الأرض وإنباتها ، وفي تأخر سكان جزيرة العرب وفي تفقيرهم . فكان على من يحيي أرضاً حماية ما أحياه بنفسه والدفاع عنه بأهله وبماله وبنفوذه وقوته ، وإلا عرّض نفسه وما أحياه للخطر ، وهذا عمل مجهد شاق ، جعل أكثر المتمكنين يحجمون عنه ، ولا يقبلون عليه ، ولم يقبل عليه إلا المجازف القوي المتمكن من القيام به بما له من جاه ونفوذ .

وأهم ما تعرض له إحياء الموات من خطر،هو خطر الغزو ومحاولات الاستيلاء عليه . وحماقة البحث عن العامر لأخذه أو لأخذ ما يوجد فيه بدلاً من إحياء موات وتعميره . وذلك لما قلته من وجود الفقر وفقدان الأمن والحماية ، فتحول قسم كبير من العامر بسبب هذا المرض الى غامر ، إذ خربت مصادر الحياة فيه وهو المياه وطمرت ، فماتت ، وماتت المستوطنات التي كانت عليها بسبب ذلك.

الماء والكلأ والنار :

الماء إذا كان عاماً ، فإنه لا يمتلك . والماء العام مثل عيون الماء التي لا تكون في حيازة مالك ، بل تكون مشاعة بين الجميع ، لا يملكها أحد من أهل الحي ، وليس لرقبتها مالك ، فماؤها للجميع . مثل أن تكون العين في قرية أو في مدينة أو في أرض قبيلة ، فلكل إنسان حق الانتفاع منها ، لا يمنعه أحد منها ، ولا يستوفى بدل عن ذلك الماء . وقد ورد أن الناس شركاء في الماء ، ماء الأرض وماء السماء ، إذا كانا في أرض عامة ، أي مشاعة،ينتفع منها كل إنسان[1] .

---

١ تاج العروس (٩٩/١٠) ، (حمى) .

واذا كان الكلأ في أرض عامة ، فإنه يكون أيضاً ملكاً للجميع ، أي مشاعاً بينهم . فلا يجوز لأي أحد منع آخر من الاستفادة منه ، لأنه مشترك بين الجميع ، فلا يكون أحد أخص به من أحد ، ولو أقام عليه وبنى عليه . وباستثناء الأحماء فإن الكلأ النابت في موطن قبيلة هو لكل أبناء القبيلة ، ليس لأحد صد أحد عنه إلا اذا كان غريباً عن القبيلة دخل أرضها بغير اذن من أبنائها وهو ليس في حماية أحد منها . فالكلأ في البادية لا يعود لمالك فرد ، وانما هو ملك القبيلة ، أبناء القبيلة فيه شركاء ، يرعون فيه سواء[1] .

وقد ورد في الحديث ، انه قال : الناس شركاء في ثلاث : الكلأ والماء والنار . ومعنى النار الحطب الذي يستوقد به ، فيقلع من عفو البلاد . وكذلك الماء الذي ينبع ، والكلأ الذي منبته غير مملوك والناس فيه مستوون . وذهب بعضهم الى ان الماء ماء السماء والعيون والأنهار التي لا مالك لها . وأراد بالكلأ المباح الذي لا يخص به أحد ، وأراد بالنار الشجر الذي يحتطبه الناس من المباح فيوقدونه[2] . فكل هذه الموارد الثلاثة ، موارد مشاعة للجميع ، يشترك في الانتفاع بها كل الناس . وهو مذهب أهل الجاهلية أيضاً ، ما لم يبسط أحد من الملوك أو سادة القبائل سلطانه عليها ، ويعلن انها في حمايته ، إذ تكون حينئذ ملكاً له .

الأرض ملك الآلهة :

الأرض كما سبق ان بينت ملك للآلهة . وكل شيء على هذه الأرض هو ملك لها كذلك . والناس أنفسهم عبيد لها (ادم)[3] . ورأيهم هذا يطابق رأي الإسلام بالنسبة الى الملك . فالله في الإسلام مالك الملك ، وهو مالك كل شيء . والمال مال الله والناس عبيد له . وعندهم أن ممثلي السلطة الإلهية على هذه الأرض هم الذين ينظمون الملك ويقيمون العدل بين الناس ويحققون الحق كما تأمرهم الآلهة به . وكما شرعته لهم وأوصت به . فهم في ذلك مثل الإسلام أيضاً في أن أولي الأمر

---

١ تاج العروس (١٠/٩٩) ، (حمى) .
٢ اللسان (١٠/٤٤٩) ، (شرك) .
٣ (ادم) ، (ادوم) (ادومت) ، (أوادم) ، (عبيد) ، (عبدات) ، Grohmann, S. 126.

أي (السلطان) يحكمون بين الناس بالقسط والعدل وبما أنزله الله على رسوله من أحكام وأوامر ونواه . فهم ظل الله وخلفاء رسول الله على العباد .

هذا هو المبدأ العام بالنسبة الى الملكية والتملك عند العرب الجنوبيين . ويتمثل هذا الرأي في عقود التملك (شامت) (شمت) بالشراء المدوّنة باللهجات العربية الجنوبية ، حيث يذكر المتعاقدون أنهم باعوا أو تملكوا ملكاً مثل أرض أو دار أو بستان أو غير ذلك ، بموافقة (الإلـه الفلاني) ، وبرضاه . وانهم أجروا ذلك وفقاً لأوامره ونواهيه يكتبون ذلك على حجر يضعونه على حدّ الملك أو باب الدار ، ليكون بمثابة شهادة تمليك . أو صك بيع أو شراء وسند (طابو) ، أي سند تملك كما يعبر عن ذلك في لغة أهل العراق في الوقت الحاضر .

وحكم ان الملك ملك الآلهة ، لا يعني ان الملكية هي مجرد انتفاع الى أجل محدد أو لا محدد . أو ان من حق السلطان انتزاع الملك من صاحبه والاستيلاء عليه أو اعطائه لآخر باعتباره ممثل سلطة الآلهة على الأرض . بل الملكية تملك دائم ، لا يجوز لأحد منازعة صاحب الملك على ملكه ، لأن انتزاع الملك من صاحبه ومن دون رضاه تعسف وظلم . ولا ترضى الآلهة بظلم أحد ، حتى وإن صدر ذلك الظلم من (السلطان) أي الملك أو من خوّله الملك الحكم نيابة عنه . وقد خولت القوانين المالك الذي يغتصب ملكه حق مقاضاة المغتصب عند ذوي الرأي و (أولي الأمر) وعند المعابد وإن كان ذلك المغتصب ملكاً . صحيح ان بعض الملوك ظلموا الناس ، بمصادرة أملاكهم وأموالهم ، وبالاستيلاء على كل ما ملّكه أفراد رعيتهم من دون دفع تعويض عنه . غير ان هذا عمل شاذ ، وقد وقع لظروف شاذة . كأن يكون الشخص الذي صودر ملكه من أعداء الملك أو قد قام بعمل معاد للحكومة ، أو قاوم (أولي الأمر) بطريقة من الطرق ، أو خالف أوامر المعبد وأحكام دينه إلى غير ذلك من أمور . فهذه أمور شاذة لا تكون قاعدة حكمية عامة ، لأن الأصل القانوني هو : ان الملكية حق مقدس لا يجوز مسه ولا الاعتداء عليه ، لأن الآلهة لا ترضى بذلك ، وهي تنتقم من المعتدين مهما كانوا .

والملك هو كل ما تملكه يمينك ويكون في حوزتك احتواءً قادراً على الاستبداد به . وكل ما صار في ملكك إما شراءً واما إرثاً أو لقطة لم يظهر مالكها ولم ينازعه عليها منازع ولم يعارض في تملكه لها قانون ، واما هبة أو ما شاكل ذلك.

وذلك بالنسبة الى الملك الدائم الذي لا يمكن انتزاعه من صاحبه ، لأن الآلهة أمرت به وأقرته . خلاف الملكية المؤقتة ، التي تمنح الإنسان حق التصرف بالملك ولكن لأجل وبشروط تعين وتثبت لا يجوز تخطيها والعمل بخلافها . مثل التملك بعقد ، أي بشروط ويعبر عن ذلك بـ (شامت) (شمت) . ويكون ذلك شراءً ، أو بعقد خاص أو بإيجار[1] .

ولا نجد في الحجاز أو نجد أو العربية الشرقية ملاكاً مزارعين كباراً على نحو ما نجده في اليمن أو في بقية العربية الجنوبية ، وذلك لصغر مساحة الأرضين المسقاة بالمطر أو بالمياه الأرضية في هذه البلاد . نتيجة شح الأرض وبخلها على الناس بالماء . ولهذا لم يظهر في الحجاز أو في نجد أو أرض العروض مزارعون كبار ، لهم عدد كبير من الفلاحين والرقيق يستغلونهم في استغلال الأرض . ومع ذلك فاننا لا نجد حتى في اليمن أو في العربية الجنوبية أناساً أصحاب أرضين واسعة أي من نسميهم اليوم بـ (اقطاعيين) على نحو ما نجده في أرض السواد ، أي العراق ، حيث كان الإقطاعيون يملكون مساحات واسعة من الارض ، تسقيها الانهار دون كبير عناء ، ويعمل فيها الفلاحون بأجور بخسة ورقيق الارض والخول فتأتي لاصحابها بالمال والثراء .

الخليط :

ويعرف المشارك في حقوق الملك كالشرب والطريق ونحو ذلك بـ (الخليط) . والخليط الشريك المشارك في الشيوع . وقد حدثت خصومات في موضوع هذه الشركة . وقد بحث فيها الاسلام . جاء في الحديث : « ما كان من خليطين فانهما يتراجعان بينهما بالسوية » . وورد أيضاً : « الشريك أولى من الخليط . والخليط أولى من الجار » . وأراد بالشريك المشارك في الشيوع[2] .

---

١ Grohmann, Arabien, S. 126.

٢ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .

الفصل السادس والتسعون

الارواء

تعطي الديانات السامية الماء أهمية كبيرة . وقد أثابت الأشخاص الذين يتقربون الى آلهتهم بتقديم الماء الى العطاشى ، وفرضت عليهم تقديم الماء الى العطشان لاغاثته وانقاذه من الهلاك . وفي الأسفار القديمة أمثلة عديدة على ذلك ، كما أشادت تلك الأديان بقيمة الماء في الحياة .

ولا بد ان تكون للوثنية العربية النظرة ذاتها التي نراها في الأديان الأخرى بالنسبة الى الماء ، بأن أعطته شيئاً من التقديس والأهمية ، وجعلت له مكانة في عقائدها ، وذلك قياساً على ما قلته من تقديس الأديان الأخرى له . وإن كنا نجهل ذلك لعدم ورود شيء عن ذلك في المسند . ولكن عدم ورود شيء من ذلك في المسند لا يكون دليلاً على عدم تقديس العرب الجاهليين له،لأن نصوص المسند لم تختم بعد ، وما وصل الينا ليس إلا شيئاً قليلاً بالنسبة الى ما قد يعثر عليه في المستقبل ولا شك .

وفي الأخبار المروية عن الجاهليين وغيرهم من تقديس بعض الآبار والعيون، والتبرك بشرب الماء منها ، دليل على نظرة التقديس التي نظرتها الشعوب السامية وغيرها الى الماء . فالماء هو الحياة . وفي القرآن الكريم : « وجعلنا من الماء كل شيء حي »[1] . ولا بد أن تكون هذه النظرة التقديسية هي التي حملت الجاهليين

١ الانبياء ، الرقم ٢١ ، الآية ٣٠ .

على تقديس بئر زمزم . ولا يقدر أهمية البئر حق قدرها إلا قطّان هـذا البلد الكائن في وادٍ غير ذي زرع وماء ، ولولا زمزم والآبار الأخرى التي احتفرها أهله ، والآبارٌ والعيون الواقعة في أطرافه ، يحملون منها الماء الى بلدهم حملاً ، لهلك أهله ، أو هجروه . ولا يـدرك المرء قيمة الماء إلا اذا كان في صحراء قفرة لا ماء فيها ثم نفد ماؤه . ولهذا كان الغيث رحمة عظمى للأعراب ، يغيثهم بعد أن يتعرضوا للجدب والهلاك .

ولا غرابة بعد ذلك ، اذا رأينا العرب تقول في دعائها على الإنسان : ما له أحرّ الله صدره ، أي أعطشه . وفي الدعاء : سلط الله عليه الحِرَّة تحت القِرَّة! يريد العطش مع البرد ؛ ورماه الله بالحرة والقرة ، أي بالعطش والبرد . وقالوا: أحرّ الرجل ، فهو محرّ : عطشت ابله[1] . وأي شيء أعظم مصيبة وخطراً على الانسان من العطش في أرض حارة !

وتعدّ بقاع جزيرة العرب من الأرضين الجافة ، فالأمطـار فيها ، ولا سيا أقسامها البعيدة عن البحر شحيحة ، والأنهار الكبيرة معدومة فيها ، والعيون قليلة أيضاً ، وجوّها جاف لا نكاد نستثني منهـا إلا سواحلها ، وهذا الجفاف صيّر القسم الأكبر من أرضها صحاري قاحلة تكسوها طبقة غليظة من الرمال في بعض الأماكن مثل الربع الخالي ، كما جعلها غير قابلة للزرع . على ان من الممكن ان تبعث الحياة في مناطق واسعة شاسعة من هذه الأرضين ، فتجعل أرضين منتجـة مخصبة نافعة ، اذا اتبعت الأساليب العلمية في معالجة الأرض ، وفي استنباط الماء، وفي السيطرة على الأمطار والسيول التي تنشأ منها في بعض الاحيان وتغور في الرمال دون ان يستفاد منها ، بإقامة السدود والحياض الصناعية التي تخزن فيها الى وقت الحاجة ، وذلك كما فعل الجاهليون في بعض الاماكن،وخاصة في العربية الجنوبية ، من اقامة سدود تحجز السيول وتحبسها ، فإذا انقطعت الامطار وحل الجفاف استفيد منها في الإرواء .

ونجد في بطون الكتب أسماء مواضع عديدة كبيرة كانت ذات عيون وميـاه وآبار ونخيل وأناس عند ظهور الاسلام[2] ، وهي اليوم صحاري خالية أو مواضع صغيرة لا أهمية لهـا ، وذلك بسبب اهمال الانسان لها واعتدائه عليها ، وتحول

---

١ اللسان (١٧٨/٤ وما بعدها) ، (حرر) .
٢ ابن المجاور (٩/١ ، ١٦ وما بعدها ، ١٣٢) .

الطرق التجارية عنها . ويظهر أن لاشتراك القبائل في الفتوح ، ونزولها في العراق وفي بلاد الشأم والأماكن الغنية الأخرى بعد دخول هذه الأماكن في الإسلام أثراً في هجرة الناس عن مواضع العيون والآبار في الحجاز وفي بقية جزيرة العرب ، لقلة خيراتها وحاصلاتها وعـدم تعلق الفلاح بالأرض في تلك الأماكن . أما في الوطن الجديد الذي حمله الفتح اليه ، فقد وجد فيه خيراً كثيراً وأرضاً وماءً وجواً ألطف وأرق من الجو الذي كان يعيش فيه ، وبذلك خسرت جزيرة العرب عدداً كبيراً من سكّانها ، ممن فضل الهجرة على القعود .

ومن يقرأ كتاب (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز) وكتباً أخرى من هذا القبيـل ، يعجب من التدهور الذي أصاب الزراعـة في جزيرة العرب بعد الاسلام ، إذ يجد أسماء مواضع عديدة كانت تكفـي نفسها ، أو تصدر الحاصل الزراعي الى الأسواق المجاورة ، ثم قلّ حاصلها كثيراً بإهمال الزراعة . وإعراض الناس عنها ، حتّى بعض النواحي القريبة من مكة والمجاورة لها ، كانت مشهورة بالخضر والفواكه والأزهار والرياحين ، ثم فقدت شهرتها من بعد . وذكر (ابن المجاور) ان موضع (الزهـران) كان معروفاً بزراعة (الزعفران) ، وكان الموظفون يجبون جباية لا بأس بهـا منه ومن الزرع والضرع وسقـي الأنهار . «فلما دار الدهر ، نقص جميع ما ذكرناه ، لاختلاف النيات مع قلة الأمانات»[1]. وفي هذا الكتاب أمثلة عديدة على هذا التدهور المؤسف الذي حل بالزرع وبالماء وبالأيدي العاملة المشتغلة باصلاح الأرض ، والذي كان من جملة أسبابه ما قلته من هجرة المتمولين والمثرين والسادة الكبار من الحجاز وبقيـة جزيرة العرب الى العراق وبلاد الشأم ، لوجود مجال واسع للإثراء ، لا مثيل له في جزيرة العرب .

وللعرب مصطلحات كثيرة في الإرواء وفي سقيهم وسقي إبلهم، لارتباط حياتهم بالماء، ولأثر الحر والعطش والجفاف فيهم وفي أموالهم . وفي جملة هذه المصطلحات (الشريعة) ، « مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون . وربما شرعوها دوابهم ، فشرعت تشرب منها . والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عدّاً لا انقطاع له ، ويكون ظاهراً معيناً لا يستقى بالرشاء . واذا كان من السماء والأمطار ، فهو الكرع . وقد أكرعوه إبلهم فكرعت فيه وسقوها بالكرع. وهو مذكور في موضعه كالمشرعة »[2] . وتقابل هذه اللفظة لفظة (مشرعن) في

---

١ ابن المجاور (٩/١) .
٢ تاج العروس (٣٩٥/٥) ، (شرع) .

لغة المسند ، أي (المشترع) ، والمشرعة [١] .

وقد تخصص أناس باستنباط المياه وتقدير حفر الآبـار ، كما تخصص آخرون بالسيطرة عليها وحصرها بالسدود . وسمى علماء اللغة المقدر لمجاري المياه (القنّاقن) وهو مثل المهندس في هذا الفن [٢] . وذكر بعضهم أن (القُناقن) البصـير بحفر المياه واستخراجها ، والمهندس الذي يعرف موضع المـاء تحت الأرض ، أو هو الذي يسمع فيعرف مقدار الماء في البئر قريباً أو بعيداً [٣] .

وقد قسم بعض العلماء المياه المستخرجة الى ثلاثة أقسام : مياه أنهار ، ومياه آبار ، ومياه عيون .

وقسّموا مياه الأنهار الى ثلاثة أقسام : أنهار كبار لم يحفرها الآدميون، وأنهار صغار ، لم يحتفرها إنسان ، وأنهار احتفرها الناس . فتكون ملكاً لمن احتفرها ، لا حق لغيرهم في الانتفاع منها .

وأما الآبار ، فآبار تحفر للسابلة،فيكون ماؤها مشتركاً ، وآبار تحفر للإرتفاق بمائها . كالبادية إذا انتجعوا أرضاً وحفروا فيها بئراً لشربهم وشرب مواشيهم . كانوا أحق بمائها ما أقاموا عليها في نجعهم،فإذا ارتحلوا عنها صارت البئر سابلة . وآبار مملوكة . وتكون ملكاً لمالكها لا ينازعه عليها منازع .

وقسموا العيون الى ثلاثة أقسام : عيون لم يستنبطها الآدميون . وعيون استنبطها إنسان ، فتكون ملكاً لمن استنبطها ، ويملك معها حريمها . وعيون يستنبطها الرجل في ملكه ، فتكون ملكاً له [٤] .

واليمن مثل سائر أقسام جزيرة العرب ، خالية من الأنهـار الكبيرة كدجلة والفرات والنيل ، وخلوّها من أمثال هذه الأنهـار أثرت كثيراً — ولا شك — في وضع الزراعة فيها . ولكن الطبيعة عوّضتها بعض التعويض عن هذه الخسارة ، فصار حالها أحسن كثيراً من حال الأقسام الشرقية أو الوسطى من جزيرة العرب . فجعلت لها رياحاً تحمل اليها الأمطار في مواسم معروفة ، وجعلت لها أمكنة ملائمة لخزن هذه الأمطار الهاطلة ، استبدت بها أيدي الانسان ، وتحكمت فيها بأن جعلت

---

١ Rhodokanakis, Stud., Lexi., I, S. 113.

٢ المعاني الكبير (المجلد الثاني) ، (ص ٦٤٠) .

٣ تاج العروس (٩/٣١٥) ، (قنن) ، المخصص (١٠/٣٣) .

٤ الاحكام السلطانية (١٩٧ وما بعدها) .

لها أبواباً ومنافذ ، وسدوداً في بعض المواضع ، وتمكنت بذلك من خزن هذه الأمطار للاستفادة منها في أيام الحاجة . ثم جعلت لها تربة حسنة طيبة أريضة تنبت كل ما يبذر فيها ، وتنبت ما يتساقط عليها من بذور متطايرة مع الهواء ، حتى شاع صيتها وانتشر خبرها بين الناس ، فعرفت باليمن الخضراء .

وقد ساعدت هذه الأمطار أهل اليمن كثيراً في تطوير أحوالهم من النواحي الاجتماعية ، فمال كثير منهم الى الاستقرار والى الاشتغال بالزراعة والتعيش منها . وساعد ذلك على سكناهم في المدر وفي القرى والمدن ، على عكس ما يحدث في الأرضين التي غلبت عليها الطبيعة الصحراوية لانحباس المطر عنها ، وهي حالة اضطرت أصحابها الى التنقل فيها من مكان الى مكان طلباً للكلأ والماء ، وجعلت من أصحابها أناساً فقراء ، يعيشون عيشة شظف وضنك وفقر ، مع ما وهبتهم الطبيعة من ذكاء مفرط واستعداد للتطور إن تهيأت لهم الظروف الملائمة وساعدتهم الأحوال .

والأمطار قليلة بصورة عامة في جزيرة العرب ، فلم تعتمد الزراعة فيها على الأمطار كما تعتمد في البلاد الأوروبية ، وإنما تعتمد على الجعافر والحسي والعيون والآبار . ولهذا السبب انحصرت الزراعة في الأماكن التي توجد فيها هذه الموارد المائية . ويختلف عمق الآبار باختلاف المواقع ، وباختلاف سطوح المياه الجوفية عن سطح الأرض . ولما كانت بعض الآبار عميقة جداً بسبب بعد سطح مائها عن سطح الأرض ، لم يستفد منها في الزراعة كثيراً ، وإنما استفيد منها في شرب الانسان والحيوان فقط .

وفي العربية الغربية مواضع عديدة كانت ذات ماء ، ورد اسمها في كتب اللغة وفي كتب (الجغرافيا) والبلدان والرحلات . تكونت من سقوط الأمطار على الجبال والمرتفعات . وبعضها ماء عذب ، وبعض منها ماء مج أو مالح ، وقد استفيد منها في السقي وفي الزرع . ويظهر من دراسة ما ذكره العلماء عنها ، انه قد كان في الامكان الاستفادة منها واستغلالها لأغراض زراعية ، لو كان لأهل هذه الأرضين علم بكيفية السيطرة على الماء ، وكيفية استنباطه من باطن الأرض ، وكيفية الهيمنة عليه بحفر مجار له . فقد كانت لبني الحارث بن بُهثة بن سُليم : عيون ماء في صخور ، لم يتمكنوا من الانتفاع بها ، لأنهم لم يتمكنوا ان يجروها

الى حيث ينتفعون بها [1]. وكان في (يَلَمْلَم) عين كبيرة تخرج من جوف من أعذب ما يكون من العيون وأكثرها ماءً ، لم يزرعوا عليها إلا في يسيرة ، لأنها تجري في رمل [2] ، ولم يكن علم على ما يظهر في كيفية اسء هذا الماء من ذلك الرمل . وكان في امكانهم مسك مسايل المـــاء من الجري البحر ، وحبسها في أحباس ، بصنع سدود لها ، لو كان لهم علم ومال و كبيرة تكون عندها المؤهلات والامكانيات لعمل السدود ، للاستفادة من مياه المنابع التي كانت تجري طيلة ايام السنة ، فتحول بينها وبين الذهاب عبث البحر . فتحيي بذلك أرضين مواتاً وعدم وجود حكومات كبيرة تقوم بمثل الأعمال وبضبط الأمن . واشاعة الاستقرار ، هو من أهم العوامـــل التي سبباً في عدم الاستفادة من المياه وفي تأخر الزراعة في جزيرة العرب ، فلو هنالك حكومات كبيرة ، لكان في وسعها الاستفادة من المياه الظاهرة والباطن مياه السماء ، فتحيي بذلك أرضين كثيرة خصبة ، وتحمي الزرع من عبث ال ونشيع الأمن والطمأنينة في النفوس فيقبل الناس على الزرع والعناية بالضرع .

وقد ذكر (عرام) اسم موضع دعاه (ذا مجر) ، ذكر أنه غدير كبي بطن وادي قوران ، وبأعلاه ماء يقال له (لقف) ، وهو آبار كثيرة ، عذبة ليس عليها مزارع ولا نخل ، لغلظ موضعها وخشونته ، وفوق ذلك ماء يق (شسي) ماء آبار عذاب [3] . وذكر اسم جبل يقال له (مغار) في جوفه أ منها حسي يقال له (الهدّار) يفور بماء كثير ، لم يستفد منها فائدة تذك فكانت المياه تذهب عبثاً إلى سباخ لعدم وجود من يتغلب عليها بعقله وبعلمه ويستروضها لتخدمه في إحياء الأرض وفي اعاشته وإعاشة ماشيته .

أما العربية الشرقية والعربية الوسطى ، فانهما أقل مياهاً من العربية الغربيــ لقلة مـــا يسقط عليها من الأمطار . ولذلك صارت مواضع الماء فيها متباعـ والمسافات التي يجب أن يقطعها المسافرون من موضع الى موضع أطول من المسـ التي تقطع بين منازل العربية الغربية ، لتباعد مواضع المياه . ومن أهم موارد

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٧) .
٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٨) .
٣ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٣) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٣ وما بعدها) .

في العربية الشرقية نهر (مُحلم) بهجر البحرين . ذكر بعض أهل الأخبار أنه في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم ، وأن (تبعاً) نزل عليه فهاله . وان مياهه الجوفية متصلة بسيح الأطلس الذي يكون مخرج مائه من عين الناقة [1] .

إن قلة الأمطار أو شحتها وانحباسها في بعض السنين وعدم وجود الماء في أكثر أنحاء جزيرة العرب ، أثر أثراً كبيراً في حياة أهلها الاجتماعية ، فحوّل قسماً كبيراً منهم الى بدو رحل ، يتنقلون من مكان الى مكان طلباً للكلأ والماء ، هدفهم في هذه الحياة الحصول على الكلأ والماء . والكلأ والماء هما العزّ والجاه والثراء وأغلى شيء في هذه الدنيا ، فقاتل بعضهم بعضاً من أجل الحصول عليها، وقطعوا مسافات شاسعة بحثاً عنها . ولم يتمكن الروم والرومان من منعها من دخول بلاد الشأم بحثاً عن الكلأ والماء ، ولم يتمكن الساسانيون من منعهم من الوصول الى هذه الثروة العظيمة كذلك . هذه الثروة التي سببت اقتتال القبائل فيما بينها من أجل الحصول عليها .

ولحماية الماء ولا سيما مياه الآبار من اعتداء الطبيعة أو الإنسان عليه أقاموا أبنية فوقه ، في أيام الجاهلية وفي الاسلام . وقد أشار العلماء الى قباب بنيت فوق المياه، فقد اتخذ أهل بطن (السيدان) قباباً على كل ماء به ، ومياهه تسمى الجرور والجراير ، لبعد قعرها ، ولأنها لا تخرج إلا بالغروب والسواني لبعد الماء فيها عن سطح الأرض [2] .

انحباس المطر :

يؤدي انحباس المطر الى كوارث ومصائب تترك أثراً كبيراً في أحوال السكان. تهلك أموالهم وهي كل ما عندهم في هذه الحياة ، وقد يموت الكثير منهم من العطش والجوع . ولهذا عمد الناس في جزيرة العرب، كما عمد غيرهم الى استرضاء آلهتهم بالتقرب اليها بتقديم الهدايا والقرابين ، وبالتوسل اليها لانزال المطر، وبالصلاة لها صلاة خاصة يقال لها صلاة الاستسقاء، هي صلاة أقرتها الأديان السماوية أيضاً ،

---

١ الصفة (١٦٠) .

٢ بلاد العرب (٣١٨) .

لم يرد في نصوص المسند ويا للأسف شيئاً عنها ، غير اننا نملك نصاً جاء فيه ان شخصاً قدّم قرابين الى الإلـه (عثتر) والى معابده كلها ، لأنـه منّ على سبأ وأتباعهم ، فأرسل عليهم (سقي خرف ودثا)[1] ، أي (مطـر الخريف ومطر الربيع) . ومعنى ذلك ان القوم كانوا قد توسلوا الى هذا الإلـــه ليرسل عليهم الغيث الذي انحبس عنهـــم في موسميه المعروفين في اليمن ، ونذروا له نذراً إن استجاب لهم ، وقد استجاب لدعوتهم فأرسله عليهم ، فقدمت اليه تلك الذبائح والقرابين .

وقد تحدثت في أثنـــاء كلامي على الحياة الدينية عن عادة أهـــل الجاهلية في الاستمطار ، وعن هذه النار التي كانوا يولعونها والتي يسمونها (نار الاستمطار). وهي عادة قد تكون مألوفة بين أهل مكة وأهل الحجاز . وهي من العادات التي أبطلها الاسلام ، إذ أحل محلها صلاة الاستسقاء[2] .

وقد تهطل الأمطار أحياناً هطولاً شديداً مؤذياً ، فتكوّن سيولاً عارمة تجرف الزروع والبيوت والمواشي وتنكب الناس بعيشهم الضيق الذي هم فيـه . ونجد في كتب أهل الأخبار إشارات الى سيول عديدة حدثت في الجاهليـة والإسلام ، في الحجاز واليمن وفي أمكنة أخرى ، فأصابت الناس بأضرار كبيرة ، حيث تنحدر بشكل سريع وشديـــد وبقوة كبيرة من الجبال والهضاب والمرتفعات الى الأوديـة والسهول فتغمرها بالمياه ، وفي كتب الأخبار أن السيول قد أصابت مكـــة مراراً في الجاهلية وفي الاسلام . وهي في جملة المصائب والكوارث التي تنزل بالناس ، فلا عجب إذا ما رأينا المثل العربـي يقول : « سال بهم السيل،وجاش بنا البحر . أي وقعوا في أمر شديد ، ووقعنا نحن في أشد منه ، لأن الذي يجيش به البحر أسوأ حالاً ممن يسيل به السيل »[3] .

ولفظة (سقى) من الألفاظ الواردة في المسند ، بمعنى (مطر) و (ارواء)

---

١ Rhodokanakis, Katab. Texte, II, S. 53, Glaser 1752.

٢ الا در رجـــال خاب سعيهـــم ... يستمطرون لـدى الازمات بالعشر
أجاعــل أنت بيقـورا مسلعة ... ذريعــة لـــك بين الله والمطـــر
تاج العروس (٣/٥٤) ، (٥/٣٨٥) ، بلوغ الارب (٢/١٦٤ ، ٣٠٢) .

٣ تاج العروس (٧/٣٨٦) ، (سال) .

و (سقي)[1] . ولفظة (مسقت) و (مسقيت) بمعنى (مسقى) و (مسقبة). ووردت لفظة الإرواء في النصوص العربية الجنوبية كذلك : وردت في نص معيني على هذه الصورة (رويم) (روي) بمعنى (ارواء)[2] ، وذلك كما في هذه الجملة : « رويم لا نخلهمى » ، أي « لارواء نخيلهم »[3] ، وفي هذا المعنى جملة : (رويم وسقيتم لنخلهمو)[4] ، أي « ارواء وإسقاء نخيلهم » .

و (المكر) سقي الأرض ، وأرض ممكورة ، مسقاة ، ومكر أرضه، سقاها[5].

أنواع السقي :

ويسقى الزرع في جزيرة العرب ، إما بالسيح ، والسيح الماء الجاري الظاهر على وجه الأرض[6] ، ويقال له : (المسقوي)[7] ، وإما بماء المطر ، أي بما تسقيه السماء ، ويقال له : (المظمّى)[8] ، وإما من الآبار ، أي بالدلاء. وقد تستخدم النواعير في رفـع الماء من الأنهار الى السواقي لتجري الى المزارع ، أي بالطرق الفنية التي يستخدمها الانسان في تسخير الماء في خدمته .

ويقال لما سقته السماء من النخل (العثري) . وقيل (العثّرى) هو من الزرع ما سقي بماء السماء والمطر وأجري اليه الماء من المسايل ، وقيل النخيل التي تشرب بعروقها من ماء المطر[9] . وفي هذا المعنى (العذي) ، والعذي أيضاً الموضع الذي ينبت في الشتاء والصيف من غير نبع ماء ، وقيل العذي : الزرع الذي لا يسقيه إلا المطر[10] . وقد اتخذت المرتفعات وذرى الجبال قرى ومزارع ، صارت زراعها

---

١ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 115, 119.

٢ Halevy 174.

٣ Rhodokanakis, II, S. 129.

٤ Glaser 423, Rep. Epigr. 852.

٥ تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مكر) .

٦ تاج العروس (٢/١٦٨) ، (السيح) .

٧ تاج العروس (١٠/١٧٩) ، (سقى) .

٨ تاج العروس (١٠/١٧٩ ، ٢٣٢) ، (سقى) ، (الظمياء) .

٩ تاج العروس (٣/٣٨٢) ، (عثر) ، اللسان (٣/٣٨٢) ، (عثر) .

١٠ تاج العروس (١٠/٢٣٩) ، (عذى) .

أعذاء ، لا تسقى[1] . و (عمد) الأرض التي تسقى بماء السماء في لغة المسند[2] . ونقرأ لفظة (أعذاء) في كتب من وصف جزيرة العرب ومواضعها وزروعها[3] ، وقد قصدوا بها زروع نبتت على ماء السماء .

المطر :

ويقال للمطر في المسند (ذ ن م م) (ذنم) . وقد وردت هذه اللفظة في عدد من النصوص[4] . ويقال له (دثن) أيضاً[5] . وهي (الدث) في عربية القرآن الكريم، يقال دثت السماء اذا نزل منها الدث ، والدث هو المطر الضعيف[6] . ويراد بـ (دثن) (الدث) في المسند ، المطر الذي يتساقط بعد الحرّ الشديد وفي نهاية القيظ .

ويقال للمطر الغيث كذلك . وذكر بعض علماء اللغة أن الغيث هو المطر الخاص بالخير الكثير النافع ، ومن المجاز : الغيث بمعنى الكلأ ينبت بماء السماء ، وكذا السحاب . ورأى بعض العلماء أن الغيث اسم المطر كله . وأما السبل ، فالمطر أيضاً ، أو المطر بين السحاب والأرض حين يخرج من السحاب ولم يصل الى الأرض ومثله العثانين . وأما الودق ، فالمطر أيضاً . ومنه النزل والرجع في كلام هُذيل . وكذلك الحرج والقطر والحدر . وقيل : النصر ، الغيث . والذهاب اسم المطر كله ضعيفه وشديده[7] . و (الدِّيمة) ، مطر يدوم أي يطول زمانه أياماً . وأرض مديمة ، أصابتها الديم ، والمدام المطر الدائم[8] . و (الديمن) و (الديم) ، هو الزرع الذي يسقى بماء المطر ، في اصطلاح أهل العراق اليوم . واذا بكر الغيث في أول الوسمي ، قيل له (باكور)[9] . أما آخر أمطار السنة

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٧) .
٢ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 445.
٣ بلاد العرب (٣٠٥) .
٤ Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 101, Num. 76, S. 238, Num. 171.
٥ CIH 540.
٦ تاج العروس (١/٦٢١) ، القاموس (١/١٦٦) .
٧ تاج العروس (١/٦٣٢) ، (٩/١٢٠ وما بعدها) ، المخصص (١١/٥) .
٨ تاج العروس (٨/٢٩٦) ، (دوم) .
٩ تاج العروس (٣/٥٧) ، المخصص (١١/٨) .

الذي يأتي في وقت الخراف ، أي أواخر الخريف[1] ، فإنه (خرفن) في نصوص المسند ، أي (الخراف) .

ويقال للمطر الـذي ينزل في فصل الخريف : (الخريف) ، ويقال له : (الخرفي) كذلك ، أو هو أول المطر في أول الشتاء ، وهو الذي يأتي عند صرام النخل ، ثم الذي يليه الوسمي . وهو عند دخول الشتاء ، ثم يليه الربيـع ، ثم يليه الصيف ، ثم الحميم . وقال بعض علماء اللغة : أول المطر الوسمي ، ثم الشتوي ، ثم الدفيء ، ثم الصيف ، ثم الحميم ، ثم الخريف ، ولذلك جعلت السنة ستة أزمنة . وقال أبو حنيفة : ليس الخريف في الأصل باسم للفصل، وانما هو اسم مطر القيظ ، ثم سمي الزمن به . والحجاز كله يمطر بالخريف ، ونجد لا تمطر به[2] .

والمزن السحاب . وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم . ويقول علماء اللغة ان المزن جمع مزنة ، وهي السحاب الأبيض . وقد كان جل اعتماد أهـل جزيرة العرب في الشرب ، وفي الإرواء على ماء المطر . كما نجد ذلك في الآية : «أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن ، أم نحن المنزلون »[3] .

ولارتباط حياة العرب بالمطر،كثرت الألفاظ المتعلقة به في لغتهم . ففي معاجم اللغة ألفاظ كثيرة في معنى المطر وفي أمور تتعلق به ، في مثل السحاب ، وأنواعه وأسماء قطعه ، وما شاكل ذلك من ألفاظ وأسماء ، تمثل لك مدى عناية العرب بالمطر ، لشدة حاجتهم اليه .

وللعرب علامات إذا ظهرت دلت عندهم على أنها أمارات الغيث وعلاماته ، منها الهالة التي تكون حول القمر ، إن كانت كثيفة مظلمة ، كانت من دلائل المطر ، ولا سيما إن كانت مضاعفة . ومنها (الندأة) ، وهي الحمرة التي تكون عند مغرب الشمس أيام الغيوث . والمبشرات ، وهي عدة علامات تتوالى ، تدل عندهم على نزول الغيث . ومنها الرعد والبرق،ومنها أن ترى القمر أو الكواكب في الصحو يحيط بها لون يخالف لون السماء ، وكذلك إن رأيت القمر في الغيم

---

١ المخصص (١١/٥) .
٢ تاج العروس (٦/٨٢) .
٣ تاج العروس (٩/٣٤٥) ، (مزن) .

وإن كان قزعاً كأنه تحيط به خطوط كخطوط قوس المزن ، وهي القسطانيـة . وبعض الرواة يجعل قوس الغيم أيضاً بدأة[1] .

وهم يعتبرون الغيث نعمة ورحمة ، ولهذا كانوا يفرحون بنزوله ويستبشرون ، لا سيما إذا كان نزوله بعد قحط وجدب . ويهنأ أحدهم الآخر بانصبابه لما سيصيبهم جميعاً من خير عميم . ولكنه قد يصير نقمة إذا نزل سيـلاً مدراراً ، يكتسح كل شيء يجده أمامـه ، وقد تمتليء به بطون الأودية ، فتغرق سيولهـا القرى والمستوطنات . مثل ما كانت تصاب به مكة من السيول . فمكة في واد على طرفيه جبال ، إذا نزلت عليها الأمطار سالت الى بـاطن الوادي ، فتؤذي البلدة والحرم ، وقد أقيمت الردم لمنع السيول من اغراق الحرم ، والبيوت ، غير أن السيول تكون قاهرة جبارة في بعض الأحيان ، فلا يقف أمامها ردم ولا سكر. وقد أشار أهل الأخبار الى المهم من هذه السيول[2] .

وقد هددت السيول يثرب بالغرق أيضاً ، مع انها ليست في واد ، وذلك من سيل (مهزور) . وقد أقام (عثمان) ردماً لمنع سيل هذا الوادي من اغراق المدينة[3] .

الاستفادة من مياه الأمطار :

وقد اضطر سكان جزيرة العرب ان يلجأوا الى الوسائل الصناعية للاستفادة من المياه ، وذلك لقلتها وشحها ، سواء أكانت مياه أمطار أم مياه أرض ، متدفقة من أجواف الأرض على هيأة عيون أو جعافر . وفي جملة ما اتخذوه اقامة السدود في الأرضين التي تساعد طبيعتها على اقامة السدود ، وحفر الآبار للاستفادة منها في السقي وفي الزراعة بمقياس يتناسب بالطبع مع كميات مياه الآبار .

وقد اتخذ أهل المواضع المرتفعة مثل الأماكن الجبلية التي يصعب نقل الماء اليها كل الوسائل الممكنة للمحافظة على ماء المطر والسيطرة عليه وجمعه لئـلا يذهب

---

١ « قوس المزن » ، تاج العروس (٢٠٦/٥) ، القاموس (٢٧٩/٢) .
٢ البلاذري ، فتوح (٦٥) .
٣ البلاذري ، فتوح (٣٤) .

سدى ، فحفروا الصهاريج العميقة في البيوت وفي أماكن أخرى ليسيل اليهـا ، وسلطوا مياه الميازيب على أماكن تسيل منها الى هذه الصهاريج . ولا يزال بعض الميازيب الجاهلية في حالة جيدة يستعمل في الأغراض التي صنع من أجلها . وهي مصنوعة من الصخور ، وبعضها من المرمر الأبيض الجميل . وفي مسجد (حصن غيمان) ، صهريج جاهلي قديم ، يستعمل لخزن المياه . وهناك صهاريج عديدة في هذا الموضع ، كلها من ايام الجاهلية . وبعضها مفتوح على هيـأة حوض ، وأكثره من النوع المغطى والمنقور في الصخر . وقد تساقطت سقوف بعض هذه الصهاريج أو أصيبت بتلف في بعض أقسامها وظهرت هيآتهـا للعيان ، فعرفت أشكالها وأعماقها ، ولبعضها ممرات توصل بعضها ببعض ، فتجعلها كأنها شبكـة تربط مساحة واحدة تملأ بالماء تحت سطح الأرض. ولهذه الصهاريج فتحات تستخرج منها المياه للارواء[1] .

ولهذه الصهاريج أهمية خاصة في ايام الحروب ، إذ تمنع العدو من قطع المـاء عن المحاصرين ، وبذلك يستطيعون البقاء مدة طويلة يدافعون عن أماكنهم خلف الأسوار .

وقد استخدمت الصهاريج لخزن الماء ، حتى البيوت استخدمتها لذلك ، فكان إذا وقع الغيث سال الى هـذه الصهاريج فخزنته . وقد اتخذ أهل المدن الصهاريج الكبيرة لتموين النـاس بالماء ، وبنوا الصهاريج في المعابد ليستفيد منها المتعبدون القادمون اليها ورجال الدين .

وقد عثر على صهاريج عديدة في حضرموت وفي اليمن ،عرفت عند الحضرميين بـ (نقب) . وهي عبارة عن حفر نقرت في الصخور وفي المواضع الحجرية وفي مواضع أخرى . يبلغ قطر أفواهها وفتحاتها زهاء المتر في الغالب . أما أعماقهـا فهي مختلفة وكذلك أقطارها السفلى أي من جهة قواعدها . فقد عثر على بعضها، وأعماقها تتراوح من ثلاثة أمتار الى أربعة ، وأقطارها السفـلى تتراوح من خمسة أمتار الى ستة . ويقال لعملية الحفر (نقب) كما في هذه الجملة : (نقبو نقب)[2] أي (نقبوا نقباً) ، ومعناها (حفروا نقباً) و (حفروا صهريجاً) .

---

١ Sabaeica, I, S. 76.

٢ Ry 63, Wissmann und Höfner, Beiträge, S. 56.

وتوصل هذه الصهاريج بمجاري تحت الأرض قد يبلغ أطوالها جملة كيلومترات لايصال الماء منهـا الى مواضع السكن أو الزرع . وتكون الصهاريج مرتفعة عن مسايل المياه الأرضية ، ليسيل منها الماء الى الجهات التي تريدها . ويكون معينها هو ماء المطر[1] . ويظهر أن طريقة توزيع الماء من النقاب بمسايل للمياه أرضيـة كانت شائعة قبل الإسلام في المدن والقرى المرتفعة البعيدة عن الغيـول والنهيرات والآبار والتي تتساقط فيها الأمطار ، فلجأت الى هذه الطريقة الفنية لحبس ميـاه الأمطار للاستفادة منها في الشرب والاستعمال وفي الزراعة أيضاً .

الذُّهب :

ويقال لموضع تجمع مياه الأمطار ومسيلها (ذهبن) ، أي (الذُّهب) . ويستخدم هذا الماء المتجمع لاسقاء الحيوان وللشرب ولإسقاء الزرع ، قـال (الهمداني) : « والذُّهب ... يمتلىء من السيل ، فإذا امتلأ نف فيه الطهف والدخن ، فنضب الماء ، ثار نبته »[2] . وقد كانوا يستفيدون من أمثال هذه (الذُّهب) بتسويرهـا وحصر الماء فيها ثم توجيهها الى الأحواض الكبرى للاستفادة منها عند انحباس الأمطار .

وكانت أشراج الحرة بيثرب من مسايل الماء ، فإذا هطلت الأمطـار انحدرت اليها وامتلأت بها فتسيل الى الأرضين المزروعة ترويها بالماء[3] . وقد تحبس الشراج فتكون أحواضاً يستفاد منها في السقي والزرع .

وهناك حفر تتجمع فيها المياه فيستفاد منهـا في الشرب . وقد ذكر علماء اللغة ألفاظاً عديدة تتعلق بالحفر على اختلاف أنواعها ، وفي جملتها الحفر التي تتجمع فيها المياه . وذلك لكثرتها ولأهميتها في حياتهـم العملية ، إذ كانت على ضآلـة بعضها ووسخ مائها ، غوثاً للمسافرين العطاشى الذين هم ودوابهم في آخـر رمق من الحياة . فهي تكون في مثل هذه الظروف هبة ولقطة لا تقدر بثمن .

ومن مواضع تجمع الماء في الحفر الأوقة ، وهي حفرة يجتمع فيها الماء،وجمعها

---

١ Beiträge, S. 54. ff.

٢ الهمداني ، صفة (١٩٩) . Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 113.

٣ البلاذري ، فتوح (٢٥ وما بعدها) .

أوق[1] . والوجيل والمَوْجل ، حفرة يستنقع فيها الماء يمانية[2] . والمرهة ، حفيرة يجتمع فيها ماء السماء[3] . والهَوْقة ، وهي حفرة كبيرة يجتمع فيها الماء ، وتألفها الطير[4] . و (الركية) البئر . وقد كانوا يتبردون بها في ايام الحر[5] . و (المركو) ، الحوض الكبير وقيل الحويض الصغير يسويه الرجل بيديه على رأس البئر اذا أعوزه إناء يسقي فيه بعيراً أو بعيرين[6] .

والنقر ، الغائر من الأرضين ، وهي موارد الماء في جزيرة العرب . اذا احتفرت ، ظهر الماء بسهولة في آبارها ، وقد تظهر البرك فيها . ومن هذه النقر ، موضع (معدن النقرة) ، منزل لحاج العراق بين أضاخ وماوان . فيه بركة ، وثلاث آبار ، بئر تعرف بالمهدي ، وبئران تعرفان بالرشيد ، يظهر أنها حفرت في أيام الخليفتين: المهدي والرشيد، وآبار صغار للأعراب . وعندها تفترق الطرق، فمن أراد مكة نزل المغيثة ، ومن أراد المدينة أخذ نحو العسيلة . ذكر أن هذا الموضع إنما سُمّي نقرة ، لأن النقرة كل أرض متصوبة في هبطة فهي نقرة[7] .

الحياض :

وقد ترك الجاهليون حياضاً واسعة كانوا أنشأوها في مواضع كثيرة من اليمن وبقية العربية الجنوبية لخزن الماء فيها للاستفادة منها أيام الجفاف . فإذا ما تساقطت الأمطار ، سالت الى هذه الحياض ، وبعضها عميق واسع لا تنضب منها مياهها طوال السنة . وقد أحيطت هذه الحياض بجدران متينة من الصخور صفت ورتبت على هيأة مدرجات ، حتى إذا انخفض الماء أمكن لمن يريد الاستسقاء منها أن

---

١ « الاوقة بالضم : الركية مثل البالوعة في الارض ، خليقة في بطون الاودية ، وتكون في الرياض أحيانا . تسمى اذا كانت قامتين أوقة . فما زاد وما كان أقل من قامتين ، فليست بأوقة . وفمها مثل الركية وأوسع أحيانا . وهي الهوة » ، تاج العروس (٦/٢٨٢) .
٢ تاج العروس (٨/١٥٣) .
٣ تاج العروس (٩/٤١١) .
٤ المخصص (١٠/٤٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/٩٧) .
٥ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) ، جامع الاصول (٩/٣٢١) ٤
٦ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) .
٧ تاج العروس (٣/٥٨٢) ، (نقر) .

ينزل على هـذه الدرجات حتى يبلغ الماء ولا يزال بعض هذه الحياض موجوداً يستعمله الناس . وقد وصف السوّاح الذين زاروا اليمن بعضها وتحدثوا عنها وعن أبعادها وعن طرق بنائها وهندستها [1] .

ولمنع تسرب المـاء من الحوض ، يسدّ ما بين الحجـارة من منافذ بالمدرة المعجونة ، وتطلى أوجه الجدر بمادة تغطيها مثل الصهريج لمنع تسرب الماء وخروجه الى الخارج ، كما يبلط قاع الحوض ويطلى كذلك . وتوضع حجارة تنصب حول الحوض ، ويسد ما بينها بالمدرة ، ويقال لذلك النصيبة . ويمدر الحوض اذا طين وسُدّ خصاص ما بين حجارته ، كما يعبر عن ذلك بلفظة اللوط . ويوضع الإباد حول الحوض ، أي التراب ، لدعمه وتقويته . وقد ترفـع جدر الحوض فوق الأرض ، وتعمل فيه صنابير لخروج الماء فيها ، وقد تنشأ فيها حنفيات لأخذ الماء منها . تعمل من المعدن أو الحجارة [2] .

وقد عثر على ميازيب ومثاعب حجر نحتت نحتاً جميلاً ، وضعت في جدران الأحواض ، ليسيل منها الماء [3]. وقد صنعت مواضع مسايل بعضها على هيأة رؤوس حيوانات فتحت أفواهها ، ومن هذه الأفواه المفتوحة يتساقط المـاء . ولا يزال بعضها في هيأة حسنة ومستعملة حتى الآن . واستعملت بعضها في السطوح لسيلان الأمطار منها ، كما عثر على صخور منحوتة نحتاً جميلاً جداً كانت تكوّن الواجهة الظاهرة من جدران الحياض . وقد نحت بعضها على شكل صور حيوانات بارزة أو أوجه حيوانات ، ونحت بعضها على صور أوراق نبـات وأغصان أعناب أو عناقيد أعناب وما شابه ذلك من أجزاء النبات .

وثعب الماءُ سالَ ، ومنه اشتق مثعب المطر . والثعب مسيل الوادي ، ومنه مثاعب المدينة ، أي مسايل مائها . والمثعب المرزاب [4] .

وتعمل الأحواض لشرب الإبل وغيرها . وقد يوضع في وسطها حجر ، يكون مقياساً للماء ، يقال له (القداس) إذا غمره الماء رويت الإبل ، أو هـو حجر يطرح في حوض الإبل ، يقدّر عليه الماء ، يقتسمونه بينهم . وقيل هو حصاة ،

---

١ Carl Rathjens, Sabaeica, I, Teil, Hamburg, 1953, 113.

٢ المخصص (١٠/٤٩ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (١/١٤٧) ، (أزب) .

٤ تاج العروس (١/١٦٣) ، (ثعب) .

توضع في الماء قدر الري للابل ، أو يقسم بها الماء في المفاوز[1] .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة أطلقت على الحوض ، بحسب شكله واتساعه وعمقه منها الحوض المركو . أما المقراة ، فالحوض العظيم . وأما الجرموز ، فالحوض الصغير ، وقيل هو حوض مرتفع الأعضاد . والنضيج الحوض ، وخصه بعضهم بالحوض الصغير . والجابية الحوض كذلك . وأما الشَّرَبة فالحوض يجعل حول النخلة يملأ ماء ، فيكون ري النخلة . والحضج الحوض[2] .

ويقال لموضع تجمع الماء ، والمكان الذي يخزن فيه فيكون على هيأة بحيرة صغيرة أو حوض (بحرت) ، (البحرة)[3] . ولا يزال أهل الشأم يطلقون لفظة (بحرة) على حوض الماء الذي يقيمونه في أفناء دورهم ، للتمتع بمنظره وبمنظر الماء الذي يتدفق منه . وقد يضعون الأسماك فيه . وقد وردت اللفظة في هذه الجملة : « وصرح ثبرن وبحرت بموثب احلين »[4] ، ومعناها : « وأعلى حصن ثبر ، والبحرة الكائنة في أسفل السلالم » . ويظهر ان أصحاب الحصن كانوا قد أقاموا (بحرة) عند قاعدة السلالم التي ترتقي الى الحصن،وذلك من أجل نقل الماء منها الى أعلى للاستفادة منه ، ولاحمائه وسكبه على المحاصرين في أثناء الحصار[5] .

والمقرى والمقراة كل ما اجتمع فيه الماء من حوض وغيره ، وخصه بعضهم بالحوض . وذكر بعضهم ، ان المقراة المسيل ، وهو الموضع الذي يجتمع فيه ماء المطر من كل جانب . وقيل المقراة شبه حوض ضخم يقرى فيه من البئر ، ثم يفرغ في المقراة . وقريّ الماء مسيله من التلاع ، أو مجرى الماء في الروض[6] .

ويقال للموضع الذي يستنقع فيه الماء ، أي يجتمع : (النقيع) ، فإذا نضب الماء نبت فيه الكلأ[7] . و (المنقع) الموضع الذي يستنقع فيه الماء ، أي

---

١ تاج العروس (٤/٢١٣) .
٢ المخصص (١٠/٤٩) .
٣ « والبحرة مستنقع الماء » ، تاج العروس (٣/٢٨ وما بعدها) ، Glaser 1144, Halevy 353, Rep. Epigr. 647, II, p. 75.
٤ راجع نهاية الفقرة الثالثة من النص : Glaser 1144, Halevy 353.
٥ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 73.
٦ تاج العروس (١٠/٢٩٠) ، (قرى) .
٧ ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .

يجتمع[1] . و (الحيل) الماء المتنقع في بطن واد[2] .

ويقال لموضع تجمع المياه في خزانات صغيرة لخزنها فيها وتوزيعها على السواقي (مزف) . تأتي المياه اليها من خزانات أخرى أكبر منها . فتخزن فيها لإعادة توزيعها . والفعل هو (زف) من (زفف) . وتطلق لفظة (زف) على مواد عمل ما . وأما العمل نفسه فيقال له (فعل)[3] .

وقد أشير في نص الى وجود (هور) أمـــام (محفد) ، اي حصن : (بقنو هور محفدهمو ذ معينن)[4] ، ومعناها : (أمام هور محفدهم « حصنهم » ذي المعين) . و (هور) في هذه الجملة هو (الهور) في عربيتنا . وهو (بحيرة تغيض فيها مياه . فتتسع ويكثر ماؤها) ، ويجمع على أهوار[5] . أما في النص ، فلا يراد به هذا المتسع الواسع من الماء ، بل يراد به حوض أو متجمع من الماء أوسع من البحرة ، كان أمام الحصن[6] .

وقد وردت لفظة (بركتن) أي البركة في اللهجات العربية الجنوبية كذلك ، ووردت لفظة أخرى هي (عسن) يظهر أنها تعني بركة كبيرة أو صهريج ماء تحت الأرض ، أو جملة برك تتصل بمأخذ أو مآخذ ، تتجمع فيها المياه[7] . وقد ذكر علماء اللغة أن البركة مثل الحوض يحفر في الأرض لا يجعل له أعضاد فوق صعيد الأرض . ويسمي العرب الصهاريج التي سويت بالآجر وصرجت بالنورة في طريق مكة ومناهلها بركاً . وربّ بركة تكون ألف ذراع وأقل وأكثر . وأما الحياض التي تسوى لماء السماء ، ولا تطوى بالآجر ، فهي الأصناع واحدها صنع[8] .

وقد طليت جدران البرك الجاهلية بمادة متماسكة قوية ، ترى اليوم وكأنها قد فرغ منها من عهد قريب . فلم تتشقق ولم تصب بتلف إلا قليلاً . فيها فتحات عملت لمرور الماء منها الى السواقي . وقد استعمل مثل هذه البرك لخزن الماء وللارواء

---

١ تاج العروس (٥/٥٣٠) ، (نقع) .
٢ تاج العروس (٧/٢٩٨) ، (حيل) .
٣ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 100.
٤ Langer I, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 37.
٥ تاج العروس (٣/٦٢٤) ، (هور) .
٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 37.
٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 114.
٨ تاج العروس (٧/١٠٦) ، (برك) .

في الوقت نفسه.وتمكن الاستفادة منها إذا ما نظفت من المواد الزائدة التي تراكمت فيها وأدخلت عليها بعض الإصلاحات[1] .

و (الأضاة) الغدير ، والماء المستنقع من سيل أو غيره[2] . والغدير مستنقع الماء ، ماء المطر صغيراً كان أو كبيراً ، غير أنه لا يبقى الى القيظ إلا ما يتخذه الناس من عد ووجد أو وقط أو صهريج أو حائر . والعد الماء الدائم الذي لا انقطاع له . ولا يسمى الماء الذي يجمع في غدير أو صهريج أو صنع عداً ، لأن العد ما يدوم مثل ماء العين والركية[3] . ويعبر عن (الغدير) بـ (النهي)، وقيل النهي الغدير حيث يتحير السيل فيوسع ، وكل موضع يجتمع فيه الماء أو الذي له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه[4] .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة أطلقت على النهيرات والسواقي المتفرعة منها . ومنها الشراج ، جمع شرج،وهي مسايل الماء من الحزْن الى السهل . والأربعاء، وهي مسايل ومساقي يسقى منها النخيل والبساتين ، ويزرع على جانبيها[5] . وأما (الجعافر) ، فقيل : (الجعفر) النهر ، وقيل هو النهر الصغير ، وقيل هو النهر الكبير الواسع : وقيل النهر الملآن ، أو فوق الجدول[6] .

ويقال للجدول الربيع في عربية القرآن الكريم ، ويجمع على (أربعاء)[7].وأهل المدينة يغرسون الشجر على جانبيه . ويقال له أيضاً (السعيد) . ويراد به النهر الذي يسقي المزرعة . وقد ورد في الحديث : « كنا نزارع على السعيد »[8] . و (الجدول) النهر الصغير[9] . ويقال لأوائل الجداول (أقبال الجداول)[10] . وأما السواقي بين الزروع ، فتسمى (دبار)[11] .

---

١ Sabaeica, I, S. 84.
٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٦) .
٣ تاج العروس (٣/٤٤١) ، (غدر) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٨١) ، (نهى) .
٥ عمدة القارىء (١١/ ٢٠٠ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٣/١٠٤) ، (جعفر) .
٧ تاج العروس (٥/٣٤٢) ، (ربع) ، جامع الاصول (١١/ ٣٧٠ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٢/٣٧٨) ، « سعد » .
٩ تاج العروس (٧/٢٥٤) ، (جدل) .
١٠ جامع الاصول (١١/٤٧٨) .
١١ تاج العروس (٣/٢٠٠) ، « دبر » .

ويطلق أهل اليمن على ساقية الماء والجدول الصغير (الغيـل) ، وهي من الألفاظ القديمة المستعملة في الري . وفي اليمن جملة أغيال ، يقل ماؤها عند انحباس المطر ، ويزداد عند هطوله في مواسمه . ويشرب أهل صنعاء من مياه الغيل المسمى (الغيل الأسود) ، ويزرعون عليه[1] . وذكر علماء اللغة ان الغيل المـاء الجاري على وجه الأرض ، وقال بعضهم ما جري من المياه في الأنهار والسواقي . وأما الذي يجري بين الشجر ، فهو (الغلل) . « وفي الحديث ما سقي بالغيل ففيه العشر ، وما سقي بالدلو ، ففيه نصف العشر »[2] .

الأودية :

والأودية هي من أهم مناطق الماء والخصب في جزيرة العرب ، وذلك لوجود الماء بها قريباً من سطح الأرض في الغالب ، وقد يخرج الى وجه الأرض . ولهذا نجد فيها مواضع عديدة خصبة ذات مزارع ونخيل منتشرة كأنها الجزر في البحار. وهي في الأصل مسايل ماء ، حفرتها الأمطار والسيول المنهمرة على الجبال والهضاب والتلال ، في سيرها نحو الأماكن المنخفضة ، وعملت لها منافذ سارت مياهها منها. و (الوادي) ، هو (سر) (س ر) في العربية الجنوبية[3] . وذكر علـماء اللغة أن (السرّ) بطن الوادي وأطيبه وأفضل موضع فيه ، وكذلك سرارة الوادي، أي بالمعنى الوارد من اللفظة في المسند ، أو قريب منه[4] .

ومن أودية جزيرة العرب : وادي الحمض ، ووادي الدواسر ، ووادي الرمة ، ووادي حنيفة ، ووادي تبالة ، ووادي رنية ، ووادي تربة ، وغيرها مما يرد في كتب (الجغرافيا) وما ألّف في وصف جزيرة العرب ، أو وصف بقاعها ، وفي كتب البلدان .

ولهذه الأودية فضل لا ينكر في ظهور مواطن الحضارة في جزيرة العـرب ، ففي بواطنها وعلى جانبيها قامت مواطن استيطان منها نبتت الحضارة الأعرابيـة

---

١ تاج العروس (٥٣/٨) ، العظم (١/ ٨٥ ، ١٠٣) .
٢ تاج العروس (٥٣/٨) ، (غيل) .
٣ Mordtmann und Mittwoch, Alt. Sab. Inschr., S. 9.
٤ تاج العروس (٢٦٣/٣) ، (سرر) .

في جزيرة العرب ، حضارة تمثل مرحلة متقدمة بالنسبة الى الحياة الأعرابية، عمادها الزراعة وتربية الحيوان . وهي تثبت للمرء بجلاء ان سبب انتشار الأعرابية في جزيرة العرب ، هو الجفاف الذي غلب عليها وندرة وجود الماء بها ، وان الماء لو توفر بها ، لكان نصيبها في الحضارة مثل نصيب غيرها من البلاد التي تقدمت في ايامها وازدهرت ، فلما ظهر الماء في هذه المواضع ، ظهر السكن والاستقرار، ولو رزق العرب سكان جزيرة العرب ما رزق غيرهم من جو طيب، ومن أرض خصبة ذات أنهار وماء ، كان شأنهم غير هذا الشأن ولا شك .

ويقال للوادي (العقيق) . وذكر أن العقيق كل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسعه [1] . أي في معنى وادي . والأعقة من مواضع الخصب والزرع في جزيرة العرب ، إذ تكون المياه فيها قريبة من سطح الأرض . منها عقيق اليمامة ، وهو وادٍ واسع مما يلي العرمة ، تتدفق فيه شعاب (العارض) ، وفيه عيون عذبة الماء ، وموضع بتهامة ، وموضع بنجد ، يقال له عقيق القنان ، تجري اليه مياه قلل نجد وجباله ، والعقيق ، ستة مواضع أخر ، وهي أودية شقتها السيل عادية منها عقيقان في بلاد بني عامر من ناحية اليمن . ومن الأودية المشهورة : وادي العتيق بالحجاز [2] . و (العرمة) أرض صلبة تتاخم الدهناء ويقابلها عارض اليمامة [3] .

والأودية هي من أخصب المواضع في جزيرة العرب ، حتى إن كانت جافة في معظم أيام السنة ، وذلك لخصب تربتها ، ولقرب الماء فيها من سطح الأرض، ولوجود العيون والبرك في بعض منها . وهي قبلة أنظار الأعراب والرعاة بعد نزول الغيث وامتلائها بالسيول ، إذ يظهر فيها الكلأ : وتبقى في حفرها المياه ، فتكون بركاً للشرب .

وقد زرع أهل وادي (مهزور) على مياهه ، ويستمد هذا الوادي ماءه من السيل ، وكذلك وادي (مذينيب) . ومن (مهزور) الى (مذينيب) شعبة يصب فيها [4] . ويسيلان بماء المطر خاصة ، و (مهزور) هو وادي (بني قريظة) ، وقد كان يحدث اختلاف فيما بين المزارعين في حقوقهم في المساء : ولا سيما في

---

١ تاج العروس (١٥/٧) ، (عق) .
٢ تاج العروس (١٥/٧) ، (عق) .
٣ تاج العروس (٣٩٥/٨) ، (عرم) .
٤ البلاذري ، فتوح (٢٣ وما بعدها) .

ايام انحباس المطر أو أيام نزوله بشح ، واستغلال أهل الأرضين العالية للسماء ، مما يسبب انقطاعه عن الأرضين الواطئة الواقعة على مسايله . وقد كان (مهزور) يهدد المدينة بالغرق عند سقوط الأمطار بشدة وتكوينها سيولاً طاغية ، ولما هدد المدينة بالغرق في خلافة (عثمان) اتخذ له ردماً[1] . وقد هدد المدينة مراراً بالغرق، ولما كاد ان يغرقها سنة (١٥٦ هـ) حفرت الحكومة له منسوباً ، غاص منه الماء الى وادي بطحان[2] . وقد قضى الرسول في سيل (مهزور) ان لأهل النخل الى العقبين ، ولأهل الزرع الى الشراكين ، ثم يرسلون الماء الى من هو أسفل منهم[3].

و (بطحان) هو أحد أودية المدينة الثلاثة ، وهي العقيق وبطحان وقناة[4] .

الأنهار :

وليس في جزيرة العرب أنهار كبيرة بالمعنى المعروف من لفظة نهر ، مثل نهر دجلة أو الفرات أو النيل ، بل فيها أنهار صغيرة أو جعافر . وهي لذلك لم تستفد من نعم الأنهار الكبيرة التي نعمت بها البلاد الأخرى ، ولم تسعد بسبب ذلك بظهور المجتمعات الكبيرة بها ، ولا بظهور الحضارة فيها ، لأن الحضارة الراقية لا تكون ولا تنمو إلا في المجتمعات الكبيرة ، حيث تتوفر بها بذور الحضارة والثقافة ، ولا تظهر هذه البذور مع وجود الجفاف وفقدان الماء أو قلته .

ومن الأنهار الصغيرة التي نجدها في اليمن نهر الخارد . وكان السهل الذي عاش فيه المعينيون،وبنوا فيه عاصمتهم يسقى بهذا النهر ، وتنبت فيه مختلف النباتات والزروع ، وكان يصل الى مقربة من العاصمة وربما تجاوزها الى مواضع أخرى ؛ ولا تزال هذة المنطقة تعد من المناطق الزراعية الجيدة ؛ وقد تحول قسم منها بسبب الجفاف الذي حل بها الى مناطق تعلوها كثبان رملية ، ومناطق قاحلة ، بعد ما كانت من أجود الأرضين لأهل معين[5] .

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٤) .
٢ البلاذري ، فتوح (٢٤) .
٣ تاج العروس (٣/٦٢٠) ، (هزر) ، البلاذري ، فتوح (٢٤) .
٤ تاج العروس (٢/١٢٥) ، (بطح) .
٥ محمد توفيق ، آثار معين في جوف اليمن (ص ٤ وما بعدها) ، من منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، سنة ١٩٥١ م .

ومن أنهار اليمن الأخرى ، مَوْر ، وهو من أغزر أنهار اليمن ماءً وأكبرها ، وهو بالقرب من وادي (صبيا) . ينبع من جبال الهضبة الى جنوبي صعدة ، وتصب فيه أودية من (عمران) و (حجة) ، ويمر من جبال (حجة) وجبال (حجور) في اتجاه البحر الأحمر حيث يصب به شمال (اللحية) . وتجري الأقسام الشرقية من هذا النهر في أكثر أيام السنة[1] .

وسُردد ، واد متسع بتهامة اليمن ، مشتمل على قرى ومدن وضياع[2] . ويتألف من فروع تنبع من جبال (كوكبان) ومن جبال حضور وحراز ، ويصب في البحر الأحمر شمال (الحديدة)[3] . ووادي سهام واد ينبع من جبال خولان وآنس ، ماراً بجنوبي جبال حراز ، ثم يصب في البحر الأحمر جنوبي الحديدة[4]. وبه مياه حارة[5] . ووادي (أذنة) من أودية سبأ ، وهو الذي كان يموّن سد مأرب بالماء . ومن أودية اليمن الأخرى : رزان ، و (رمع) (رماع) ، وهو متصل بوادي سهام ووادي مور ، مشتمل على عدة قرى[6] ، وشرس ، و (ريمة) و (زبيد) . وتعرف هذه الأنهار بـ (وادي) في اصطلاح أهل اليمن[7] .

و (الدبل) الجدول من جداول الأنهار . وانما سميت الجداول دبولاً لأنها تدبل ، أي تصلح وتجهز وتنقى . ومنه الحديث انه غدا الى النطاة ، وهي من حصون خيبر ، وقد دل على مشارب كانوا يسقون منها دبول . كانوا ينزلون اليها بالليل فيتروون من الماء ، فقطعها ، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى أعطوا بأيديهم[8].

وتكرى الأنهار وموارد المياه الأخرى ، لاستخراج الطمي منها ولتعميقها حتى

---

١ تاج العروس (٣/٥٥٠) ، (مار) ، زيد بن علي عنان ، تاريخ اليمن القديم (ص ١٠) ، (المطبعة السلفية) ، (القاهرة) .
٢ تاج العروس (٢/٣٧٥) ، (سرد) .
٣ تاريخ اليمن القديم (١١) .
٤ تاريخ اليمن القديم (١١) .
٥ الصفة (١٠٥) .
٦ تاج العروس (٥/٣٦٢) ، (رمع) .
٧ الدكتور أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها (ص ٥) .
٨ تاج العروس (٧/٣١٧) ، (دبل) .

لا يسيل الماء على حافات مورد الماء[1] . وكانوا يكرونها بالمساحي، ويرمون الطمي على الجانبين .

وإذا جرى الماء عـلى وجه الأرض قيل له (السيح) . وباليمامة ثلاثة أودية بأقصى العرض ، عرف كل واحد منها بسيح ، ونسب الى أهلـه أو مكانه[2] . وقد أشار (الهمداني) الى « السيح يجري تحت النخل والآبار »[3] ، وقصد به الماء الجوفي . وأشار الى (سيح الغمر)[4] والى سيح دعاه سيح ابن مربع ، ذكر أنه كان غزيراً ثم انقطع بضعف أهله[5] . وذكر اسم سيح آخر دعاه سيح قشير ، ويسمى أيضاً بسيح اسحاق[6] .

الحسي :

وينتفع من الأحساء والرحاب في الزراعة، وذلك باستنباط مياهها الجوفية المنحسرة عن قشرة الأرض بمسافة غير بعيدة ، والتي قد تظهر على سطح الأرض وتسيل . والحسي سهل من الأرض يستنقع فيه الماء أو غلظ فوقه رمل يجمع مـاء المطر . وفي جزيرة العرب أحساء كثيرة ، منها أحساء بني سعد بحذاء هجر بالبحرين ، وأحساء خرشاف ، بسيف البحرين ، وأحساء بني وهب ، على خمسة أميال من المرتمى فيه بركـة ، وتسعة آبار كبار وصغار بين القرعاء وواقصة على طريق الحاج ، والأحساء ماء لغنى ، والأحساء ماء باليمامة ، وأيضاً ماءة لجديلة طيء بأجأ[7] . والأحساء التي على الخليج ، هي من أهم هذه الحسي في الوقت الحاضر. وهي وحدة ادارية في المملكة العربية السعودية ، بها عيون تفيض مـاء ، تروي بساتين النخيل والأشجار الأخرى .

و (البئر) يشبه الأحساء ، يجري تحت الحصى على مقدار ذراع أو ذراعين

---

١ تاج العروس (١٠/٣١٢) ، (كرى) .
٢ تاج العروس (٢/١٦٨) ، (السيح) .
٣ الصفـة (١٥٩) .
٤ الصفـة (١٥٠) .
٥ الصفـة (١٤٨) .
٦ الصفـة (١٦٠) .
٧ تاج العروس (١٠/٨٩) ، (حسى) .

ودون الذراع ، وربما أثارته الدواب بحوافرها [1] . والباثر من الماء البادي من غير حفر . والبثر أرض سهلة رخوة . وذكر بعض علماء اللغة ان البثور الأحساء وهي الكرار [2] . وذكر بعضهم ان (الكرار) البئر ، أو الحسي ، أو موضع يجمع فيه الماء الآجن [3] .

وقد تنبع العيون في مواضع رملية ، فلا تمكن الناس من الاستفادة من المـاء فائدة كبيرة تخرج من جوف رمل من أعذب ما يكون من العيون وأكثرها ماءً، تجري في رمل فلا تمكن الزرّاعين عليها إلا في مواضع يسيرة من أحناء الرمل ، فيها نخيل ، وتتخذ البقول والبطيخ ، وتسمى هذه العين (البحير) [4] .

وتكون تربة الرحبة خصبة ، ولهذا صارت مواطن صالحة للزراعة لو استنبطت مياهها التي في جوف الأرض القريبة من السطح ، لأفادت في توطين الأعراب . والرحبة في تعريف علماء اللغة « من الوادي مسيل مائـه من جانبيه فيه . جمعه رحاب . وهي مواضع متواطئة يستنقـع الماء فيها ، وهي أسرع الأرض نباتاً ، تكون عند منتهى الوادي وفي وسطه ، وقد تكون في المكان المشرف يستنقع فيها الماء وما حولها مشرف عليها ، ولا تكون الرحاب في الرمل ، وتكون في بطون الأرض وفي ظواهرها » [5]. والرحبة الأرض الواسعة المنبات. ومن الرحاب المشهورة: (الرحبة) حذاء القادسية ، وواد قرب صنعاء ، وناحية بين المدينة وبلاد الشأم قرب وادي القرى ، ورحبة باليمامة ، تعرف برحبة الهدّار ، وصحراء بها أيضاً فيها ماء وقرى [6] . وقد وجدت كتابات جاهلية في بعض هذه الرحاب ، تشير الى سكن أناس فيها ونزولهم هناك قبل الاسلام .

والنُقرة الوهدة المستديرة في الأرض ليست بكبيرة يستنقع فيها الماء [7] .

و (الحفر) الموضع فيه ركايا محفورة ، يستقى منها الماء . منها (حفر ضبّة)، وهي ركايا بناحية (الشواجن) بعيدة القعر عذبة المـاء [8] . والشواجن ، واد

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٠ ، ٤٢١) ، تاج العروس (٢٥/٣) ، (بثر) .
٢ تاج العروس (٢٥/٣) ، (بثر) .
٣ تاج العروس (٥١٩/٣) ، (كرّ) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٨) .
٥ تاج العروس (٢٦٨/١) ، (رحب) .
٦ تاج العروس (٢٦٨/١) ، (رحب) .
٧ تاج العروس (٥٨١/٣) ، (نقر) .
٨ تاج العروس (١٥٢/٣) ، (حفر) .

كبير بديار ضبة في بطنه أطواء كثيرة ، منها الصاف واللهابة وثبرة ، ومياهها عذبة[1] . ومنها (حفر سعد بن زيد مناة بن تميم) ، بحذاء (العرمة) وراء الدهناء يستقي منها بالسانية[2] .

و (القلات) النقرة في الجبل تمسك الماء ، وقيل كل نقرة في أرض يستنقع فيها الماء . وإذا سالت السيول ملأت القلات . وفي الحديث ذكر لقلات السيل[3]. ومثلها (الوقب) . وهي نقرة في الجبل أو في الصخر يجتمع فيها الماء كالوقبة، أو هي نحو البئر في الصفا تكون قامة أو قامتين يستنقع فيها ماء السماء[4] .

الآبار :

وفي الأماكن التي تكون المياه الجوفية فيها غير بعيدة عن سطح الأرض،ويكون من السهولة حفر الآبار فيها ، يحفر الناس آباراً في بيوتهم وفي أملاكهم للشرب والزرع إن كانت عذبة وللتنظيف والاستعمال . ويستعان بالخدم وبالسقائين في جلب مياه الشرب من الآبار العذبة والعيون والنهيرات . كما حفروا الآبار في الحصون . وقد كانت في حصن الهجوم بئر عظيمة عميقة ، عذبة الماء . وقد بني الحصن من حجارة ضخمة ذكر أن طول الحجر منها سبع أذرع في عرض ثلاثة أذرع ، وأقام أصحابه عليه الأسوار والأبراج . وقد فتح في أيام الرسول[5] .

و (البئر) هي (بار) في كتابات المسند . والجمع (ابار) أي (آبار) . وقد وصلت الينا نصوص عديدة في حفر آبار أو في شرائها وبيعها ، وفي تعميرها وإصلاحها . وهي ثروة ورأس مال كبير في جزيرة العرب،تحيي الأرض وتميتها. وتغني الناس وتميتهم ، ولذلك كانوا اذا حفروا بئراً أو اذا ظهرت لهم مياه عذبة غزيرة ، يقدمون الى آلهتهم الشكر والحمد والنذور. وقد أقامت الآبار الكبيرة العميقة العذبة مدناً . وأماتت مدناً بسبب نضوب مياهها وجفافها ، وهي على هذه الأهمية الخطيرة الى الآن .

---

١ تاج العروس (٩/٢٥١) ، (شجن) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
٣ تاج العروس (١/٥٧٢) ، (قلت) .
٤ تاج العروس (١/٥٠٥) ، (وقب) .
٥ ابن المجاور (١/٢١) .

وللأهمية المذكورة للآبار في حياة العرب ، كثرت في لغتهم المصطلحات الخاصة بها ، من أسماء لأنواع الآبار ومن مصطلحات للحفر ولوسائل الحفر ، ومن ألفاظ للمواد التي تستعمل في بناء البئر وفي استخراج الماء منها ، ومن كلمات تشير الى أبعاد البئر ، ومقدار ما فيها من ماء ، وأبعاد أفواهها . ومن أسماء البئر (الطوى) و (الطوية) ، اذا بنيت بالحجارة[1] . و (الجب) ، البئر ، وقيل البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر ، ولا تكون جباً حتى تكون مما وجد ، لا مما حفره الناس[2] . و (القليب) البئر ما كانت . وقيل : البئر قبل ان تطوى ، فإن طويت فهي الطوي ، أو العادية القديمة منها التي لا يعلم لها رب ولا حافر يكون في البراري[3]. وقد عرفت بـ (الرس) كذلك[4] .

ومن أنواع الآبار التي ذكرها علماء اللغة : الشبكة ، ويراد بالشبكة الآبار المتقاربة والأرض الكثيرة الآبار . وأما (الفُقُـر) ، فهي ركايا تحفر ثم ينفذ بعضها الى بعض حتى يجتمع ماؤها في ركي . واذا اجتمعت ركايا ثلاث فما زاد الى ما بلغ من العدة قيل له (فقير) ، ولا يقال ذلك لأقل من ثلاث . وورد ان الفقير فم القناة ، والمكان السهل تحفر فيه ركايا متناسقة ، وفم القناة التي تجري تحت الارض ، ومخرج الماء منها[5] . وأما (الكظامة) ، فإنها بئر الى جنبها بئر بينهما مجرى في بطن الارض . وقيل : كل ما سددت من مجرى ماء أو باب أو طريق ، فهو كظم ، والذي يسدّ به الكظامة . وقيل : هي آبار متناسقة تحفر ويباعد ما بينها ، ثم يخرق ما بين كل بئرين بقناة تؤدي الماء من الأولى الى التي تليها تحت الأرض فتجتمع مياهها جارية ثم تخرج عند منتهاها فتسيح على وجه الأرض[6] .

و (الجفر) البئر التي ليست بمطوية ، وتجمع على جفار . وأما (الجدّ) ، فالبئر الجيدة الموضع من الكلأ ، والجمع أجداد ، والملك البئر ينفرد بها الرجل ،

---

١ تاج العروس (٢٢٩/١٠) ، (طوي) .
٢ تاج العروس (١٧٢/١) ، (جبب) .
٣ تاج العروس (٤٣٧/١ وما بعدها) ، (قلب) .
٤ المخصص (٢٤/١٠) .
٥ تاج العروس (٤٧٤/٣) ، (فقر) .
٦ تاج العروس (٤٧/٩) ، (كظم) ، المخصص (٣٤/١٠ وما بعدها) .

والبود البئر كذلك[1] . والسهبرة من أسماء الركايا[2] . و (القليب) البئر ما كانت ، والبئر قبل ان تطوى ، فإذا طويت فهي (الطوي) ، أو العادية منها التي لا يعلم لها رب ولا حافر يكون في البراري[3] . و (الطوي) البئر المطوية بالحجارة[4] .

ومن المواضع التي عرفت بأطوائها موضع (الأطواء) باليمامة ، قرب (قر قرى) ، ذو نخل وزرع كثير[5]

وقد تكون الآبار ذات مياه غزيرة كبيرة ، تخص المدينة بأسرها ، أو القبيلة بأسرها ، وقد تكون ملك أسرة تستغلها الأسرة لحسابها ، أو ملك فرد يستفيد منها مباشرة أو يبيع مياهها للناس،لاسقاء الأرضين أو الماشية . وقد تباع لأشخاص آخرين ، وقد تؤجر . وطالما كانت الآبار مصدر نزاع خطير بين القبائل وسبباً في إثارة الحروب .

و (العِد) البئر لها مادة من الأرض ، فهي كثيرة الماء دوماً ولا تنزح . وأما (المفهاق) فإنها البئر الكثيرة الماء ، و (الغروب) الدلاء ، واحدها (غرب) وهي التي تجرها الإبل ، و (الاسجل) الواسع من الدلاء بمائها ، والغَلَل الماء الجاري يجري تحت النخيل،و (اليعبوب) النهر الجاري وتسلسله مضيه في جريته. و (الخسف) البئر ذات الماء الكثير[6] .

وقد اشتهرت بعض الآبار بغزارة مياهها ، ذكر (الهمداني) أن (بئر النقير) بناحية البحرين « على عشر قِيَم لا تنكش ، ويجتمع عليها كثير من ورّاد العرب وربما سقى عليها عشرة آلاف بعير »[7] . وهناك آبار أخرى عرفت بغزارة مياهها .

وقد يحفرون سلسلة آبار يخرق أسافلها ، ليفرغ بعضها في بعض من موضع الماء . مثل (الهباءة) . وكانوا يزرعون عليها الحنطة والشعير وما أشبه[8] .

---

١ تاج العروس (٣٠٧/٢) ، (البود) .
٢ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي (٣٢٣/٨ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٨٥/٣) ، السهبرة) .
٣ تاج العروس (٤٣٧/١ وما بعدها) ، (قلب) .
٤ تاج العروس (٢٢٩/١٠) ، (طوى) .
٥ تاج العروس (٢٢٩/١٠) ، (طوى) .
٦ العمدة (٩٤) .
٧ الصفة (١٦٣) .
٨ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٥) .

ولم يكن من السهل في ذلك الزمن حفر الآبار ، لعدم توفر الآلات والأدوات الفنية . فإن حفر البئر الى عمق بعيد الغور كما تتطلبه الأماكن المرتفعة يحتاج الى آلات كثيرة والى علم وتدبير وفن وذكاء في محافظة جدران البئر من الانهيار على الحفّارين ، وعلى الماء بعد الانتهاء من الحفر ، فتندثر ويذهب المجهود في حفرها عبثاً . هـذا ولا بد لمهندس الآبار من معرفة بطبيعة الأرض ومظنة وجود الماء فيها أو عدمه ومدى عمقه ، فلا يعقل اقدام شخص على حفر بئر في أرض لا يعرف من أمرها شيئـاً . وحفر البئر في النجاد عمل مكلف باهظ ، فلا بد إذن من تخصص أناس بهندسة الآبار ، ليقوموا بهذا العمل الذي لا يمكن القيام به ما لم يسنده علم وفهم .

وقد تخصص أناس بحفر الآبار وباختيار المواضع التي يحتمل وجود المياه العذبة بها . ولهم في ذلك علم ودراية وخبرة . وكانوا إذا قربوا من المـاء احتفروا بئراً صغيرة في وسط البئر بقدر ما يجدون طعم الماء ، فإن كان عذباً حفروا بقيتهـا ، ولذلك يقال (التعاقب) و (الاعتقام)[1] . فالاعتقام إذن عملية تجريبية لاختبار طعم ماء البئر وتجربته من حيث العذوبة والملوحة وعليها تتوقف عملية الحفر .

ومتى حفرت البئر ووصل الى الماء ، قيل : أمهت البئر ، وأموهت ، وأمهيت . ويقال ابتأرت بئراً ، أي حفرتها . ويقال أيضاً : حفـرت البئر حتى نهرت ، أي بلغت الماء . واذا بلغ الحفارون الأرض الغليظة قيـل : بلغت الكدية . واذا وصلوا موضعاً صعباً فصعب الحفر ، قيل : بلغ مسكة البئر . ويقال أجبلت ، أي انتهيت الى جبل . ويقال الصلود ، وهي الارض التي تحفـــر فيغلب جبلها الحافر . فيصلد الحفر على الحافر لصعوبة الأرض . واذا حفر الحفارون حتى يبلغوا الطين ، فيقال عندئذ : أثلجت ، فإذا بلغ الماء ، قيل : أنبط ونبط . والنبط أول ما يظهر من ماء البئر حين تحفر . وإن بلغ الرمل ، قيل : أسهب ، وإن انتهى الى سبخة ، قيل : أسبخت . ويقال : تأثل البئر اذا حفرت البئر ، وهزمت البئر حفرتها[2] .

ويتحايل الحفارون في الحفر اذا فوجئوا بصخرة أو أرض صلدة ، تمنعهم من

---

١ تاج العروس (٨/٤٠٣) ، المخصص (١٠/٤١) .
٢ المخصص (١٠/٤٠ وما بعدها) .

الاستمرار في الحفر ، خاصة اذا كانوا قد بلغوا عمقاً بعيداً في باطن الارض . وقد كلفهم الحفر صرف مال كثير ، فإذا تركوه أصيب صاحب البئر بخسارة ، لذلك يتحايل الحفارون على الأرض بالتعريج في الحفر ، يمنة ويسرة ، للعثور على موضع ينزلون منه الى موضع وجود الماء ، ويقولون لذلك : (التلجيف) . ويراد به الحفر في جوانب البئر[1] .

وقد تنقر آبار صغيرة ضيقة الرؤوس في نجفة صلبة ، لئلا تهشم ، ويقال لمثل هذه الآبار المناقر . وأما المنقر ، فيراد بها البئر التي يكثر فيها الماء[2] . وفي بعض المناطق الصخرية والجبليـة آبار منقورة تتجمع فيها مياه جوفية تنحدر اليهـا من المواضع المرتفعة أو من مياه الامطار التي تتساقط على المواضع المرتفعة فتسيل الى أفواه تلك الآبار وتدخل اليها وتتجمع فيها ، فيستفيد منها الناس .

وفي جملة الألفاظ الواردة في الكتابات العربية الجنوبية والمستعملة في حفر الآبار وتوسيعها وتعميقها ، لفظة (حفر) ، وهي بالمعنى المفهوم منهـا في عربيتنا . ولفظة (سنبط) ، ويقصد بها معنى (استنبط) ، من (نبط) ويراد بهـا ظهور الماء واستخراجه من باطن الارض . وأما لفظة (سبحر)، فتعني (استبحر)، من أصـل بحر ، بمعنى التعميق . ولا يزال حَفَرَةُ الآبار في العراق يستعملون لفظة تبحير البئر بمعنى تعميقهـا[3] . وفسرت لفظة (ضفر) ، بمعنى الـدعم بالحجارة ، أي كسوة جدار البئر بالحجارة[4] .

وللمحافظة على البئر من الانهيار بسبب رخاوة جدرانها وتساقط المياه المنتوحة منها ، عمدوا الى زبرها من قعرها الى أعلاها بالحجارة . ويعبر عن هذا الجدار بلفظة (كولم) (كول) في المسند . وبـ (جول) في عربيتنا . ورد في كتب اللغة : « الجول : جدار البئر »[5] . ويقال لمثل هذه البئر (المزبورة) أي المطوية

---

١ تاج العروس (٦/٢٤٣) ، (لجف) ، المخصص (١٠/٤١) .
٢ المخصص (١٠/٤٦) ، تاج العروس (٣/٥٨١) ، (نقر) .
٣ « يوم حفر وسنبط وسبحر » ، بمعنى « يوم حفر واستنبط وعمق » ، او « حين حفر واستنبط وعمق » ، النقش رقم ١٦ المنشور في (ص ٢٣) من كتاب « نقوش خربة معين » .
٤ نقوش خربة معين (ص ٢٣) .
٥ تاج العروس (٧/٢٦٧) . Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 28.

بالزبر . وأما (المعروشة) ، فالتي تطوى قدر قامة من أسفلها بالحجارة ، ثم يطوى سائرها بالخشب وحـده ، وذلك الخشب هو العرش . فإن كانت كلها بالحجارة ، فهي مطوية ، وليست معروشة . وهناك تعابير أخرى تشير الى تبطين البئر وكساء جدرانها بمواد مقوية تمنعها ان تنهار . فإذا بنيت البئر بالحجـارة ، قيل بئر مضروسة وضريس ، وهو ان يسدّ ما بين خصاص طيّها بحجر ،وكذلك سائر البناء . ويقال الأعقاب للخزف الذي يُدخّل بين الآجر في الطي لكي يشتد. والوَسْب خشب يُطوى به أسفل البئر اذا خافوا ان تنهال ، والجمع الوسوب[1]. والحامية الحجارة تطوى بها البئر[2] .

وهناك ألفاظ عديدة ذكرها علماء اللغة للآبار التي تكثر مياهها أو تقل . فورد: بئر غزيرة بمعنى كثيرة الماء ، وورد بئر ميهة وماهة إذا كثر ماؤها ، والعيلم البئر الكثيرة الماء . والحَسِيف التي تحفر في حجارة فلا ينقطع ماؤها كـثرة ، وهي التي خسفت الى المـاء الواتن تحت الارض ، ويقال بئر سجر ومسجورة بمعنى مملوءة ، وبئر ذات غيث أي مادة . والقيلذم ، البئر الكثيرة الماء ، وبئر مقيضة كثيرة الماء قد قيضت عن الجبل . والبئر الماكدة التي يثبت ماؤها على قرن واحد لا يتغير ، وإن كثر منها ، وان وضع عليهـا قرنان أو أكثر ، غير أن ذلك إنما يكون على قدر ما يوضع عليها من القرون بقدر مائها ، وبئر مكود وماكدة لا تنقطع مادتها ، والهزائم الآبار الكثيرة الماء ، وبئر زغربة كثيرة الماء ، وبئر ذمة وذميم وذميمة كثيرة الماء كذلك ، والنقيع البئر الكثيرة الماء[3] .

ويقال حبض ماء البئر ، وذلك إذا انحدر ونقص ، ونكزت البئر أي قـلّ ماؤها ، وبئر نزح ماء فيها ، وبئر مكول وهي التي يقلّ ماؤهـا فيستجم حتى يجتمع الماء في أسفلها ، واسم ذلك الماء المكْلَةُ ، وبئر قطعة وبئر ذمة قليلة الماء، وبئر ضهول قليلة الماء ، والخليقة البئر التي لا ماء فيها ، وقيل هي الحفـيرة في الارض المخلوقة ، والضَّغيط بئر تحفر الى جنبها بئر أخرى فيقلّ ماؤها ، وبئر قَرُوع قليلة الماء وهي كالضنون سميت بذلك لانها تقرع قرعاً كلما فني ماؤها ،

---

١ تاج العروس (١/٥٠٣) ، (وسب) .

٢ المخصص (١٠/٤٢ وما بعدها) .

٣ المخصص (١٠/٢٧ وما بعدها) .

وبئر رشوح وبروض وبضوض قليلة الماء[1] .

وتستخرج المياه من الآبار بالدلاء ، تربط بالحبال الى الأعمدة المثبتة فوق البئر. ويقال للعمود (عمد) (عامود) والجمع (عُمُد) و (أعمد)[2] . وأما (الدلو) وهو الوعاء أو القربة المصنوعة من الجلد في الغالب ، فيقال له (علبت) و (علبم) في المسند[3] ، تمتلىء بالماء حين دخولها في ماء البئر ، فتسحب وهي مملوءة بـه . فإذا بلغت موضع سكب الماء سحبت الى ذلك المكان لتفريغ مائها فيه ، فينساب الى (مسقيت) أي (مسقية) ، بمعنى الساقية لإرواء المزرعة ، أو لايصاله الى المدينة أو البيوت .

وأما الآلة التي تعلق عليها الدلاء والمتصلة بالأعمـــدة فتعرف بـ (اعرز) في المسند[4] . ويقال للدولاب الذي يستقى عليه : المنجنون ، وذلك في عربيتنا[5] .

ويقال لتفريغ الركية وأخذ ما فيها من ماء (حبض) في لغة المسند . وهي بهذا المعنى أيضاً في عربية القرآن الكريم . والاحباض ان يذهب ماء الركية فلا يعود ، و (أحبض الركية) احباضاً ، فلم يترك فيها ماء[6] .

ولا بد للدلاء من حبال قوية متينة تتحمل الاحتكاك بينها وبين البكرة وتساعدها في حمل الدلو . وهذه الحبال تتخذ من مواد مختلفة ، تفتل وتبرم ، والعادة ان يقوى الحبل بجملة حبال تبرم بعضها فوق بعض وتشد شداً قوياً لئلا تتهرأ بسرعة فينقطع . وقد يتكون الحبل الواحد من مجموع عشرة حبال . أما مادة الحبـــل فالليف والخوص والجلود ولا سيما جلود الإبل والابق والمصاص ، وهو نبات ، ولحاء الشجر والقنب ، ومشاقة (السلْب) ، وهو ضرب من الشجر ينبت متسلقاً فيطول . ويؤخذ فيحل ثم يشقق فتخرج منه مشاقة بيضاء كالليف يتخذ منها أجود ما يكون من الحبال . وقد تصنع من القطن ومن ليف جوز الهند[7] .

---

١ المخصص (١٠/٣٩ وما بعدها) .
٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 115, 152.
٣ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 132.
٤ CIH 303, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 131.
٥ تاج العروس (٩/١٦٦) ، (جنن) .
٦ تاج العروس (٥/١٨) ، (حبض) .
٧ المخصص (٩/١٧٠ وما بعدها) .

ولفتل الحبال تستعمل المغـــازل والمبارم ، لغزل الالياف وبرمها بعضها فوق بعض ، كما تستعمل بعض المواد المقوية للألياف مثل الزيوت لتحافظ عـــلى قوة الحبل وعلى تماسكه فتبقيه طرياً، فلا ينقطع بسهولة . وقد تخصص أشخاص بصناعة الحبال وعاشوا عليها ، وقد كانت ذات أهمية بالنسبة لذلك الزمن .

ويقال للدلو العظيمة : (الغرب) . ويتخذ من مسك ثور ، والغرب الراوية[1]. و (السانية) الغرب وأداته ، والناقة إذا سقت الارض ، وسنيت الدابة ، إذا استقى عليها ، والقوم يسنون لانفسهم إذا استقوا[2] . والسنايـة والسناوة السقي ، وهو سان . والساني ، يقع على الرجل والجمل والبقر ، كما أن السانية على الجمل والناقة . والمسنوية ، البئر التي يسنى منها ، وركية مسنوية ، إذا كانت بعيـــدة الرشاء لا يستقى منها إلا بالسانية من الإبل[3] .

وتستخدم الثيران والجمال والحمير والبغال في متْح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لسقي المزارع والبساتين والناس ، ويشرف على ذلك العبيـد أو الفلاحون أو أصحاب البئر . أما الآبار الصغيرة الخاصة بشرب الناس ، فيستخرج الماء منها الإنسان ، وتصب الدلاء المياه في أحواض أعدت لذلك ، لها منفذ يسيل منه الماء الى السواقي .

وقد تحمى البئر من الأدران ومن الأتربة ومن أخذ الماء منها ، بإقامة بنـــاء فوقها على هيأة غرفة ، فإذا أقيم ذلك على البئر عرف بـ (منشا) في المسند . وقد تؤدي هذه اللفظة معنى أخذ الماء وتوجيهه الى الجهة المـراد ارسال الماء اليها بمجرى يأخذ ماءه من (فنوت)[4] . وفسرت لفظة (ثقول) بمعنى تعليق . وتعليق شيء فوق بئر ، أو انشاء سقف فوقها لحماية البئر ولتعليق الأدوات التي يمتح بها الماء من البئر عليهـــا ، وذلك كما في هـــذه الجملة : (ابارسم وثقولسم) ، ومعناها : (وكل آبارهم وسقوفها) أو (وكل آبارهم والأعمدة المقامـة فوقها للاستقاء بها)[5] .

---

١ تاج العروس (١/٤٠٥) ، (غرب) ، الخراج (٩٦) ، المبرد ، الكامل (٢/٧٣٢) .
٢ تاج العروس (١٠/١٨٥) ، (سنى) .
٣ تاج العروس (١٠/١٨٦) ، (سنى) .
٤ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 113.
٥ Kat. Texte, II, S. 28.

وتتعرض الآبار لسقوط الأتربة والرمال فيها ، وقد تنهـار جدرانها فينضب ماؤها ، ولا تمكن الاستفادة منها إلا بنزحها . ويقـال لنزح البئر جهرت البئر واجتهرت ، أي نزحت . وقيل المجهورة المعمورة منها عذبة كانت أو ملحة[1] . ولا بد من نزح هذه الآبار دائماً ، اذا أريد بقاء الماء فيها ، وإلا ذهب ماؤها وانتفت فائدتها ، فتترك وتهمل .

وتنظف الآبار بنزول الرجال فيها فيشد الرجل وسطه بالحبل ، ويترك طرفه في يد رجل ، أو مشدوداً بشيء ثابت قوي . ويقال لهذا الحبل (الجعار)[2] . وذكر ان (الجعار) حبل يشد به المستقي وسطه اذا نزل في البئر لئلا يقع فيها ، وطرفه في يد رجل ، فإن سقط مدّه به . وقيل هو حبل يشده الساقي الى وتد ثم يشده في حقوه[3] . وتعمل في جدر الآبار في العادة مواضع للأقـدام متقابلة يضع النازل في البئر رجليه عليها ، تمكنه من النزول لمتح البئر ، واستخراج ما قـد يتساقط فيها من أتربة ورمال ، أو لحفر قاعها لزيادة الماء فيها .

ويعبر عن انهيار البئر وسقوطها بألفاظ ، مثل : (صقعت) ، وانقاصت ، وانقاضت ، وانهارت ، وتنقضت ، وتجوخت ، وانقارت . والهدم ما تهدم من نواحي البئر في جوفها ، وانخسفت البئر ، تهدمت[4] .

وتنظف الآبار بالجُبْجبة ، تملأ بالأتربة وبالطين وبالأوساخ المتراكمة في قاع البئر وترفع ، وتصنع من جلود وأدم ، وهي نوع من الزبيل . ويستعمـل في التنظيف (الثوج) كذلك ، وهو زبيل ، يعمل من خوص ، يحمل فيـه التراب وغير ذلك . ويستعمل القفير كذلك ، وهو الزبيل بلغة أهل اليمن . ومن أسماء الزبيل أيضاً (الصن) وهو زبيل كبير ، والحفص زبيل صغير من أدم ، والعرق نوع من أنواع الزبيل . ويقال للخشبتين اللتين تدخلان في عروتي الزبيل اذا أخرج به التراب من البئر (الميسْعان). وقيل المسمع العروة التي تكون في وسط المزادة[5].

---

١ المخصص (٣٩/١٠ وما بعدها) .
٢ المخصص (١٧١/٩) .
٣ قال احدهم :

ليس الجعار مانعـي من القـدر ولـو تجعـرت بمحبـوك ممر

تاج العروس (١٠٢/٣) ، (جعر) .
٤ المخصص (٤٤/١٠) .
٥ المخصص (٤٥/١٠ وما بعدها) .

وتسحب الزبيل بحبال أعلى لاستخلاص ما فيها من تراب وطين ووسخ حتى تنظف.

ومن الالفاظ المعبرة عن تنقية البئر ونزولها وتنظيفها من الاوساخ والاتربة قولهم: نُثِلَتْ البئر ، أي أخرج ترابها ، واسم ذلك التراب النثيلة والنثالة والثلة والنبيثة. ويقال نبيثة النهر كذلك . وأما خمامة البئر ، فيراد بها ما كنس منهـــا . ويقال جَهَرْتُ البئر ، بمعنى أخرجت ما فيها من الحمأة . وأما الشأو ، فما يخرج من ترابها ، وقد شأوت البئر نقيتها ، ويقال للذي يُخرج به المشآة ، ويقال أخرجت من البئر شأواً أو شأوين ، وهو ملء الزبيل من التراب . وجششت البئر أجشها جشاً ، أي كنستها . ونكشتُ البئر ،أخرجت ما فيها من الحمأة والجيئة والطين[1].

وقد يتغير طعم مياه الآبار وألوانها لعوامل عديدة . وهناك مصطلحات عديدة ذكرها علماء اللغة للدلالة على فساد ماء البئر ونتنـه . مثل : المسيط والضّغيط ، والحمأة الطين الاسود المنتن ، وقد يحمىء ماء البئر فيكدر وتخالطه الحمأة فتتغير رائحته . وتنزع حمأة الآبار وتنظف ليمكن الاستفادة منها[2] . والجيئة والجيأة : البئر المنتنة[3] .

وقد كان أهل المدن والقرى يشربون من العيون ومن موارد المياه الطبيعيـــة الاخرى إن كانت في قراهم عندها أو على مقربة منها ، كما كانوا يحتفرون الآبار في بيوتهم أو في خارجها للاستفـادة من مياهها ، فإن كانت عذبة فرحوا بهـــا وشربوا منها . وكانت قريش قبل جمع قصيّ إياها وقبل دخولها مكة تشرب من حياض ومصانع على رؤوس الجبال ، ومن بئر حفرها (لؤي بن غالب) خارج الحرم تدعى (اليسيرة) ، ومن بئر حفرها (مرة بن كعب) تدعى (الروي)، وهي ما يلي (عوفة) ثم حفر (كلاب بن مرة) خم ورم ، و(الجفر) بظاهر مكة[4] ، وورد أن الذي حفر بئر (خم) هو (عبد شمس بن عبد مناف) ، حفرها بمكة[5] . وأن الذي حفر بئر (رم) هو (مرة بن كعب) أو (كلاب ابن مرة) حفرها بمكة[6] . وذكر أن (الجفر) بئر بمكة كانت لبني تيم بن

---

١ المخصص (١٠/٤٥) ، تاج العروس (٤/٣٥٩) ، (نكش) .
٢ تاج العروس (١/٥٨) ، (حمىء) .
٣ المخصص (١٠/٤٧) .
٤ البلاذري ، فتوح (٦٠) .
٥ تاج العروس (٨/٢٨٣) ، (خم) .
٦ تاج العروس (٨/٣١٨) ، (رمم) .

مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي[1] .

ثم إن (قصي بن كلاب) حفر بئراً سماها (العجول) واتخذ سقاية ، ثم إنه سقط في العجول بعد ممات (قصي) رجل فعطلت[2] . وورد أن الذي احتفرها (قصي) أو (عبد شمس)[3] . وحفر (هاشم بن عبد مناف) (بذر)، وهي البئر التي عند حطم الخندمة على فم شعب أبي طالب ، وهي لبني عبد الدار[4]. وحفر (هاشم) أيضاً (سجلة) ، وقد دخلت في المسجد[5] . وحفر (عبد شمس ابن عبد مناف) (الطوى) وهي بأعلى مكة ، و (الجفر) ، وحفر (ميمون ابن الحضرمي) (بئرة) ، وهي آخر بئر حفرت في الجاهلية بمكة . وعندها قبر (المنصور) . وورد أن (عبد شمس) حفر أيضاً بئرين وسماهما (خم) و (رم) ، على ما سمى (كلاب بن مرة) بئريه[6] . فأما (خم) فهي عند (الردم) . وأما (رم) ، فعند دار (خديجة بنت خويلد)[7] .

وحفرت بنو أسد بئر (شُفَيَّة)[8] . وحفر (بنو عبد الدار) (أم أحراد)، وقد أشير اليها في الحديث[9] . وحفر (بنو جمح) (السنبلة) . وذكر ان الذي حفرها (بنو جمح) و (بنو عامر)[10] . وحفر (بنو سهم) (الغمر) ، وهي بئر (العاص بن وائل) . وحفرت (بنو عدي) (الحفير) . وحفرت (بنو مخزوم) (السقيا) ، و (بنو تيم) (الثريا) ، وهي بئر (عبدالله بن جدعان) . وحفرت (بنو عامر بن لؤي) (النقيع) ، وكانت لجبير بن مطعم بئر ، وهي بئر بني نوفل ، وكان عقيل بن أبي طالب ، حفر في الجاهلية بئراً،

---

١ تاج العروس (١٠٥/٣) ، (جفر) .
٢ البلاذري ، فتوح (٦٠) .
٣ تاج العروس (٨/٨) ، (عجل) .
٤ تاج العروس (٣٦/٣) ، (بذر) ، البلاذري ، فتوح (٦١) .
٥ البلاذري ، فتوح (٦١) .
٦ البلاذري ، فتوح (٦١) .
٧ وقال عبد شمس :

حفرت خما وحفرت دما   حتى أرى المجد لنا قد تما

البلاذري ، فتوح (٦١) .
٨ البلاذري ، فتوح (٦١) ، تاج العروس (٢٠١/١٠) ، (شفى) .
٩ البلاذري ، فتوح (٦١) ، تاج العروس (٣٣٥/٢) ، (حرد) .
١٠ البلاذري ، فتوح (٦٢) ، تاج العروس (٣٨٣/٧) ، (سنبل) .

وهناك آبار أخرى غيرها ، ذكرها (البلاذري) في كتابه (فتوح البلدان)[1] .

وقد اشتهرت بعض الآبار وعرفت ، ، ولا تـزال معروفة نقـرأ أسماءها في الكتب . ومن أشهرها (بئر زمزم) ، ذات الشهرة البعيدة ، بسبب مكانتها من الكعبـة ، وبئر (طوى) . وهي بئر حفرها عبد شمس بن مناف[2] . وبئر (ذروان) ، وهي لبني زريق ، جاء ذكرها في حديث سحر النبي[3] . و (بئر رومة) ، وهي ليهودي كان يبيع الماء منها للناس ، وقد حصل على مال كثير منها ، وكان اذا غاب ، قفل عليها بقفل ، فلا يستطيع أحد أخـذ الماء منها . فشكا المسلمون ذلك الى الرسول ، فقـال : « ومن يشتريهـا ويمنحها للمسلمين ويكون نصيبه كنصيب أحدهم ، فله الجنة » . فاشتراها (عثمان) بخمسة وثلاثين ألف درهم ، فوقفها[4] .

وبيثرب وأطرافها آبار عديدة ، كان يستقي منها أهلهـا للشرب ، منها بئر (غرس) . ويظهر انها كانت من أجود وأحسن آبار يثرب . وقد ورد ذكرها في الحديث ، حيث ورد : نعم البئر بئر غرس ، هي من عيون الجنـة . وغُسّل رسول الله منها[5] . وذكر انها كانت بقباء ، وانه برك فيها[6]. ويستقى منها على حمار[7] . ومنها بئر (مالك بن النضر بن ضمضم) ، وهي التي يقال لهـا بئر (أبي أنس)[8] . ولمـا نزل الرسول منزل (أبي أيوب) ، كان أبو أيوب يخدمه ويستعذب له هذه البئر[9] . ولما صار الرسول الى منزله ، كان خدمه يحملون قدور الماء الى بيوت نسائه من بئر السقيا ، ومن بئر غرس[10] .

وبئر (بضاعـة) بئر معروفة بالمدينة ، قطر رأسها ستة أذرع ، وهي في بستان ، وكان أهل يثرب يطرحون فيها خرق الحيض ولحوم الكلاب والمنتن[11] .

---

١ (من ص ٢٦ فما بعدها) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٢٩) ، (طوى) .
٣ تاج العروس (١٠/١٢٦) ، (ذرو) .
٤ المعارف (ص ٨٣) .
٥ تاج العروس (٤/٢٠١) ، (غرس) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٤) .
١٠ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٤) .
١١ تاج العروس (٥/٢٧٨) ، (بضع) .

وكان أهل العربية الغربية يحفرون حفراً ، يجعلونها كالبئر ، يلقون بها الجيف وما شاكلها . وذكر أن (الجباجب) ، حفر بمنى كان يلقى بها الكروش ، كروش الأضاحي في أيام الحج ، أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا ، والعرب تعظمها وتفخر بها[1] . وقد ورد أن الرسول كان يشرب من بئر (بضاعة) وأنه بصق فيها وبرك[2] . وأن خيل رسول الله كانت تسقى منها ، وأن أهل المدينة كانوا يغسلون مرضاهم بمائها ، لاعتقادهم أنه يشفي من المرض[3] . ولعل قصة رمي الجيف والمنتن بها من القصص الموضوع المصنوع ، أو أن ذلك حدث فيما بعد ، حين أهمل شأنها، فلم يعد الناس يستقون منها ، فاتخذت موضعاً يرمى فيه الجيف .

ومن بقية الآبار (البُقَيْع) وقيل هي السقيا التي بنقب بني دينار ، وبئر (جنب) ، وبئر (جاسم)، بئر أبي الهيثم بن التيهان براتج[4] ، وبئر (العبيرة)، بئر (بني أمية بن زيد) ، وقد شرب منها الرسول وسماها (اليسيرة)[5] . وبئر (رومة) بالعقيق ، وكانت لرجل من مزينة يسقى عليها بأجر ، فقال رسول الله : نعمْ صدقة المسلم هذه من رجل يبتاعها من المزني فيتصدق بها[6] . وكان المزني ، قد ضرب خيمة الى جنب البئر ، يأخذ أجور الدلاء ، وله جرار بها ماء بارد ، مرّ الرسول به مرة فشرب منها ماءً بارداً ، فقال : هذا العذب الزلال[7] .

ويرد في كتب السير مصطلح (بئر السقيا) و (بيوت السقيا) ، و (السقيا) ورد أن الرسول كان يشرب من بيوت السقيا[8] ، وورد أن خدمه كانوا يحملون قدور الماء الى نسائه من (بئر السقيا) ، وأنه شرب حين خرج الى (بدر) من (بئر السقيا)[9] . وقد ذكر بعض العلماء ، أن (بيوت السقيا) موضع في

١ تاج العروس (١/١٧٤) ، (جبب) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٥) .
٤ تاج العروس (٥/٢٨٠) ، (بقع) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣ وما بعدها) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٦) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٦) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٤ ، ٥٠٦) .

بلاد (عذرة) ، يقال له (سقيا الجزل) ، قريب من وادي القرى[1] . وهناك بئر قيل لها (السقيا) بنقب بني دبار ، ورد ذكرها في الحديث[2] . وهناك مواضع أخرى عرفت بـ (السقيا) ، و (سقيا) ، منها سُقيا غفار ، و (السقيا الجزل) ، (سقيا يزيد) ، والسقيا للعنبر[3] .

وقد ذكر ان الرسول قد شرب من الآبار المذكورة ، وبصق فيها وبرك[4] ، ليبارك في مائها .

ولأبي عبيدة ، معمر بن المثنى كتاب في الآبار ، جمع فيه ما ورد ذكره من الآبار[5] .

وقد اتخذ النبط وغيرهم من القبائل آباراً لشربهم ولشرب مواشيهم، لها فتحات تسدّ بالحجارة ، فلا يمكن لأحد غريب الوقوف عليها ، فإذا داهمهم عدو ، أو أرادوا النقلة الى أماكن أخرى ، سدوا بها فتحاتها ، ووضعوا فوقها من التراب ما يخفي معالمها . وقد أشار اليها الكتبة اليونان واللاتين .

ولا تزال بعض الآبار القديمة مستعملة ينتفع بمائها وهناك آبار طمرت ، أو جفت مياهها ، وقد عثر عند أفواهها على كتابات تشير اليها والى أسماء أصحابها. وهناك آبار أخرى عديدة عثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب، وبعضها عميقة جداً ، وهي كلها (عادية) من أيام الجاهلية . والبئر العادية البئر القديمة التي لا يعرف لها مالك.

وقد استغلت بعض الآبار الجاهلية المندثرة ، بتنظيفها وتطهيرها واستغلالها . ذكر (فؤاد حمزة) ان آباراً عديدة جاهلية نظفت وأصلحت ، فعادت اليها الحياة، واستغلت مياهها في إحياء الأرضين التي كانت خصبة مثمرة ثم تحولت الى موات[6]. ولا يزال الناس يستغلون في اليمن وفي غير اليمن بعض الآبار القديمة للشرب ، وذلك لصعوبة استخراج مياهها للزراعة لعمقها ، واقتصار الناس هناك في استخراج

---

١ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .
٢ تاج العروس (٥/٢٨٠) ، (بقع) .
٣ بلاد العرب (٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٩٦) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣ وما بعدها) .
٥ « كتاب الآبار » تاج العروس (٣/٣٦) ، (بذر) .
٦ فؤاد حمزة (ص ١٩٠) .

الماء على الدلاء[1] . ويظهر من وجود بعض الآبار (العادية) في البراري ان تلك المواضع كانت في محلات مأهولة ، ثم تركها أهلها فعميت،وبقيت آثارها تتحدث عن وجود سكن قديم في هذه المواضع . وفي اليمامة آبار عديدة عادية ، لا تزال على وضعها ، وهي من آبار ما قبل الاسلام . وأشار العلماء الى مياه عادية ، فقد ذكروا ان (لبينة) ماءة عادية ، أي من المياه القديمة التي يعود عهدها الى الجاهلية [2] .

وقد عثر المنقبون على نصوص جاهلية مدوّنة بالمسند ، تتعلق بتملك الآبار وبحفرها وبإصلاحها . وقد أرخ بعض منها بأيام ملك ، أو برجل عظيم كان معروفاً مشهوراً في زمانه،أو بحادث وقع لهم ذي بال . وقد أمدتنا هذه النصوص ببعض المعلومات عن الآبار وعن أصحابها وأسماء المواضع التي حفرت بها .

ويكون نضوب الماء من البئر ، أو تحول مائها العذب الى ماء ملح ، نكبة بالنسبة لأهل البئر ، ففي تبدل طعم الماء هذا خسارة كبيرة لأهل الماء ، وعليهم البحث عن مورد آخر لسدّ رمقهم ، واطفاء ظمأ أموالهم ، وحفر بئر أخرى في مكان آخر . ونقرأ في كتب أهل الأخبار واللغة أمثلة كثيرة عن هذا التبدل الذي حدث في طعم الماء ، وسببه ، هو انحباس المطر ، وتحول مجاري المياه العذبة الجوفية من مكان الى مكان ، مما يسبب نضوب ماء الآبار والعيون التي كانت على المجاري القديمة ، أو تقليل كمياته ، فتظهر عندئذ ملوحة التربة ، وقد تتغلب على طعم الماء العذب ، فتحوله الى ماء ملح[3] .

وقد هجرت مستوطنات عديدة بسبب وقوع هذه الظواهر المحزنة في موارد مياهها كانت تستمد مياهها من حوض ماء جوفي ، فلما قلت المياه فيها ، أو تحولت الى موضع آخر ، لعوامل (جيولوجية) ، تأثرت المنطقة التي فيها الماء، بهذا التحول ، واضطر سكانها إلى تركها ، نتيجة انقطاع موارد المياه عنها ، أو تبدل طعمها ، تبدلاً لا يطاق .

---

١ نزيه مؤيد العظم ، رحلة في بلاد العرب السعيدة (ص ٤٥) .

٢ بلاد العرب (٢١١) .

٣ تاج العروس (٢/٢٢٨ وما بعدها) ، (ملح) .

العيون :

ويقال لينبوع الماء (العين) . وعيون الماء معروفة مشهورة في مواضع كثيرة من جزيرة العرب ، وهي مواضع الخصب والنماء والزرع . ويستفاد منها في سقي المزارع وإرواء الأشجــار المغروزة في هذه الأماكن ، على أن كثرة مياه بعض العيون قد صار سبباً في انتشار الأوبئة مثل (الملاريا) كما في واحة خيبر ذات العيون العديدة . ويقال لمجاري الماء من العيون القصّب ، وقيل قصبة كل مخرج ماء . ويقال للعين التي لا ينقطع ماؤها عين حشد . أما إذا كانت العــين كثيرة الماء فيقال لها عين غزيرة ، وعين زغربة ، وعين غدقة ، وعين ثرة ، وكذلك ثرثارة[1] . وقد ذكر العلماء أسماء عيون عديدة كانت ذات مياه عذبة ، هي رحمة للناس تنقذ حياتهم وحياة ماشيتهم من العطش والحرّ الشديد ، وقد أقيمت حولها قرى ، مثل (ينبع) ، قرية وحصن ، ذكر أنها كانت ذات عيون كثيرة ، زرعت عليها نخيل وزروع[2] .

وبعض العيون عيون معدنية ، بعضها بارد ، وبعضها حار يستشفى فيه. ويقال للعين الحارة : الحمّة[3] . وذكر علماء اللغة ان الحمة كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفى بالغسل منه . وقد أشير اليها في الحديث[4] . وكان أهل الجاهلية يستشفون بالاغتسال في العيون الحارة ، وخاصة عند اصابتهم بأمراض الجلد .

والعيون : هي مما استنبطته الطبيعة في الغالب ، فلا يد للانسان في وجودها ، وهي تكون عامة لأهل المنطقة التي تقع فيها ، يشربون منها سواء ، وقد تكون مما استنبطه الآدميون ، فتكون ملكاً لمستنبطها ولورثته من بعده ، لهم تملكها ولهم حق بيعها ، تسقي ملكهم لا ينازعهم عليها منازع ، واذا سال ماء العين فيعبر عن ذلك بلفظة (ثج) ، أي سال[5] .

ونقرأ في كتب الأخبار واللغة لفظة (الغمر) علماً لمواضع فيها مياه غزيرة ، قد تكون آباراً وقد تكون عيوناً . ومنها (الغمــر) ، بئر قديمة بمكة حفرها

---

١ المخصص (١٠/٣٣) .
٢ تاج العروس (٥/٥١٧) ، (نبع) .
٣ المخصص (١٠/٣٣) .
٤ تاج العروس (٨/٢٦٠) ، (حمم) .
٥ تاج العروس (٢/١٣) ، (ثجّ) .

بنو سهم ، و (غمر ذي كندة) بينه وبين مكة يومان ، و (الغمر) باليمامة، موضع ماء[1] . وأما لفظة (الركايا) ، فتعني الآبار[2] .

الكراف :

وترد لفظة (كرفن) ، أي (الكرف) و (الكريف) ، في النصوص المتعلقة بالإرواء والإسقاء والزراعة . وقد فسرها بعض العلماء بـ (صهريج) . وفسر (الهمداني) لفظة (كريف) بقوله : « كريف جوبة عظيمة في صفا يكون فيها الماء السنة وأكثر »[3] . والكرف صهاريج ، نقرت في الصخر ، ومنها كريف (درداع) ، وهو كريف (وحاظة) واسمها (سباع) ، ذكر ان مساحته (٦٠٠) ذراع في مثلها ، وكريف (الوفيت) ، منقور في الصخر الأسود، عمقه في الأرض خمسون ذراعاً ، وعرضه عشرون ، وطوله خمسون . محجوز على جوانبه جدار يمنع السقوط فيه[4] .

ويقال للموضع الذي يجتمع فيه ماء كثير ،أو للماء الجاري الدائم الذي له مادة لا تنقطع كماء العين والبئر (العِدُ) . وقد وردت اللفظة في كتب الحديث . وقد نهى الرسول عن اقطاع (الأعداد)[5] . وقد ذكر علماء اللغة ان من معاني العِدّ : الماء القديم الذي لا ينتزح ، وانه الماء الكثير بلغة تميم، والماء القليل بلغة بكر بن وائل ، والركيّ في لهجة بني كلاب . ومن الماء العدّ : كاظمة ، جاهلي اسلامي ، لم ينزح قط . وفي الحديث نزلوا أعداد مياه الحديبية ، أي ذوات المادة كالعيون والآبار[6] .

القنى :

والقناة كظيمة تحفر في الأرض تجري بها المياه ، وهي الآبار التي تحفر في

---

١ تاج العروس (٣/٤٥٣ وما بعدها) ، (غمر) .
٢ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) .
٣ الهمداني (ص ٨٠) ، Rhodokanakis, II, S. 95, Hartmann, Arab. Frage, S. 400.
٤ زيدان ، العرب قبل الاسلام (١٦٨) .
٥ جامع الاصول (١١/٢٢٨) .
٦ تاج العروس (٢/٤١٦) ، (عدّ) .

الأرض متتابعة ليستخرج ماؤها ويسيح على وجه الأرض[1] . ويكثر وجودهـا في العربية الجنوبيـة ، ولا تزال آثارها باقية ، وقد استفيد من بعضها في الشرب والسقي . والقنا والفقر ، واحد[2] ، و (الفقرة) الحفرة في الأرض[3] .

التلاع :

وقد تنحدر المياه من عيون في الاسناد والنجاف والجبال حتّى تنصب في الأودية وفي الأماكن المنحدرة ، مكونة تلاعاً . و (التلعة) مسيل الماء من أعلى الوادي الى أسفله . والتلاع مجاري أعلى الأرض الى بطون الأودية . وتلعة الجبل أن الماء يجيء فيخدّ فيه ويحفره حتّى يخلص منه . وربما جاءت التلعة من أبعد من خمسة فراسخ الى الوادي ، فإذا جرت من الجبال فوقعت في الصحارى حفرت فيهـا كهيأة الخندق ، وإذا عظمت التلعة حتّى تكون مثل نصف الوادي أو ثلثيـه ، فهي ميثاء . وقد تجري التلاع عند سقوط المطر وتكوين السيول ، فيجري المـاء بسرعة جارفة ، تجرف ما قد يقف أمامها من مانع . ولذلك كانوا يخافون نزول التلعة ، خشية خطر مجيء السيل فيجرف من قد يكون فيها . وللعرب أمثلـة في التلاع ، منها : (لا يمنع ذنب تلعة) ، يضرب للذليل الحقير ، و (لا أثق بسيل تلعتك) ، يقال لمن لا يوثق به ، (ما أخاف إلا من سيل تلعتي) ، أي من بني عمي وأقاربي ، لأن من نزل التلعة ، وهي مسيل الماء ، فهـو على خطر ان جاء السيل جرف به[4] . مما يدل على غرق أناس في هذه التلاع .

ويقال لمسيل ما بين التلعتين (المذنب) ، وذنب التلعة . والمذنب مسيل في الحضيض ليس بخدّ واسع . وأذناب الأودية ومذانبها أسافلها . وقال بعض علماء اللغة : المذنب : مسيل ما في الحضيض والتلعة في السند ، والجدول يسيـل عن الروضة بمائهـا الى غيرها ، فيتفرق ماؤها فيها ، والّتي يسيل عليها الماء مذنب أيضاً . قال امرؤ القيس :

---

١ تاج العروس (٣٠٤/١٠) ، (قنو) .
٢ عرام ، اسماء جبال مكة وتهامة (ص ٤١٣) .
٣ تاج العروس (٤٧٥/٣) ، (فقر) .
٤ تاج العروس (٣٩١/٥) ، (تلع) ، (٦٤٨/١) ، (ميث) .

وقد اغتدي والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كل مذنب[1]

واذا انحدر المطر الى موضع واطىء ، قيل إنشل ، وانشل السيل وانسل ابتدأ في الاندفاع قبل أن يشتد[2] .

و (الوشل) : ماء يخرج من شاهقة ، فيسقط الى منحدر[3] . وتوجد الأوشال في الجبال ، وفي الشواهق . وذكر علماء اللغة ان الوشل الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، يقطر منه قليلاً قليلاً ، أو الماء الكثير ، فهو من الأضداد . وفي تهامة جبل يقال له الوشل فيه مياه كثيرة . وقد يقال للقطرات التي تنزل من سقف كهف أو حف جبل فتجتمع في أسفله الوشل[4] .

التحكم في الماء :

وللسيطرة على المياه ، ولا سيما مياه الأمطار ، عمد أهل الجاهلية الى اتخاذ مختلف الوسائل في التحكم فيها . بعضها بدائية وبعضها راقية تدل على براعة وعلم وفن . منها اتخاذ السدود للهيمنة على الماء ، وخزنه للاستفادة منه عند الحاجة ، وتوجيهه الجهة التي يريدونها . وقد أظهر العرب الجنوبيون مقدرة كبيرة في الاستفادة من الأمطار ومن مياه الينابيع والأنهار لاستعمالها في الإرواء والشرب والسقي . وتحكم مهندس الإرواء عندهم في الماء وسيطر عليه ، لكيلا يذهب هباء ، فاستخدم لضبطه الأبواب والفتحات والحواجز والرحاب ، ونوّع في المجاري وفي مسايل المياه ، ليستفيد من الماء قدر إمكانه فلا يفلت منه شيء .

ولم يكن من السهل على حكومات ذلك الزمن السيطرة على مياه السيول والاستفادة منها ، فكانت تذهب سدى ، بعد أن كانت تصيب الأرض والناس بالأضرار وحين تنحدر هذه السيول من النجاد والجبال والأمكنة المرتفعة ، تتحول الأودية فجأة وبسرعة أنهاراً عريضة كبيرة ، تسيل مياهها مندفعة هدارة ، لكنها لا تلبث

---

١ تاج العروس (١/٢٥٥) ، (ذنب) .
٢ تاج العروس (٧/٣٩٥) ، (شلل) .
٣ عرام ، أسماء جبال تهامة وسكانها (ص ٣٩٧) ، (نوادر المخطوطات) .
٤ تاج العروس (٨/١٥٤) ، (وشل) .

طويلاً، بل تزول وتذهب وتجف الأودية ولا يبقى فيها من الماء شيء ، إذ يسيل الى البحر أو يغور في التربة . وقد اجتهد الجاهليون أن يستفيدوا من هذه السيول فأقاموا السدود على قدر إمكانهم كما فعلوا في سدّ مأرب وفي سدود أخرى كما يظهر من الآثار ، ولكن قدرتهم الفنية والمالية لم تكن من الاتساع والقوة بحيث تساعدهم على السيطرة على السيول .

وقد عثر على آثار سدود في مختلف أنحاء جزيرة العرب . وقد أنشئت في المواضع التي يزورها الغيث وتنهمل عليها الأمطار . وقد تقام لضبط مياه النهيرات والينابيع ، لجمعها ، ثم إعادة توزيعها . وبعض هذه السدود المندثرة هو اليوم في مناطق صحراوية لا ماء فيها ولا بشر ، مما يشير الى أنها كانت مأهولة ، ثم عفى على أهلها الدهر ، فأهملت وتهدمت .

وبعض هذه السدود ، سدود بسيطة ، صنعت من تراب أو من تراب وحجارة لمنع ماء المطر من الذهاب عبثاً ، فيسدّ طريقه ويحبس في منخفض أو حوض ليستفاد منه . وقد أمر الرسول بسدّ ماء السماء في موضع ليستفاد من الماء ، فعرف بـ (سد) . ويطل جبل (شوران) على السد[1] . وأمر (معاوية) بسد الوادي الذي يمر بحرة المدينة ، فحبس سيله بسد ، عرف بسد معاوية فهو يحتبس فيه الماء ، يرده الناس بمواشيهم يسقونها[2] . ويمر على طرف (قدوم) ويصب في (أحد)[3] . و (قدوم) جبل على ستة أميال من المدينة[4] .

وتتخذ (المُسُك) لمسك الماء وحبسه ، تمنعه من الذهاب عبثاً . كأن تمنعه من ان ينصب في البحر[5] .

ويقال للسد (عرمن) في العربيات الجنوبية ، أي (العرم) . فلفظة (العرم) تعني السد عند اليمانيين القدماء ، ولم تكن علماً على سد معين . أعني سد مأرب . وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم سيل العرم »[6] .

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٤٢٥) .
٢ بلاد العرب (٤٠١) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٦) .
٤ تاج العروس (٩/٢٠) ، (قدم) .
٥ تاج العروس (١٧٧/٧ وما بعدها) ، (مسك) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٧) .
٦ سورة سبأ ، الآية ١٦ .

وفي هذه الآية اشارة الى حادث انفجار سد مأرب كما يذهب الى ذلك المفسرون.

وتولت الحكومات في اليمن إنشاء السدود وحفر القنوات والسواقي ، وأنفقت على الأعمال من أموالها ، وقدّمت المواد الغذائية وبعض الأجور الى العمال . وكانت تطالب الى سادات القبائل والقرى تقديم الرجال للعمل وتقوم هي بإعاشتهم طوال أيام عملهم ، كالذي ورد في نص (أبرهة) عامل الحبشة على اليمن ، فقد كان يقدم الطعام الى العمال لقاء اشتغالهم ببناء السدّ . وقد ذكر مقدار ما قدّمه وما صرفه عليهم من طحين وبرّ وتمر ولحم وقد يشغل العمال سخرة ، فلا تدفع الحكومة أو سيد القبيلة أو الموضع اليهم شيئاً . وقد كانت السخرة شائعة في ذلك العهد ، لا في اليمن حسب ، بل في العالم القديم كلـه ، فيسخر العمال بتكسير الحجارة واقتلاعها من المحاجر ونقلها الى الأماكن التي يراد إقامة السدود أو منشآت البناء فيها أو غير ذلك ، ثم بإصلاحها وببقية أعمال البناء اللازمة ، الى أن تنجز ، وعندئذ يسمح لهم بالانصراف الى حيث يشاؤون .

وفي الحالات الاضطرارية يحشر الناس حشراً ، كما في الفيضانات المفاجئة التي تنشأ عن السيول . فتحشر الحكومة ورؤساء المدن والعشائر كل من يجدونه أمامهم للعمل على إنشاء الحواجز والسدود وفتح المجاري لمرور المياه لانقاذ الأرواح والأموال من الكوارث والأضرار .

وقد تتولى المعابد هذه الأعمال ، فتصرف عليها من واردها ، تعدّ ذلك هبة أو ديناً تتقاضاه من أصحاب الأرض ومن المستأجرين في المدن والقرى، كما يتولاها أيضاً رؤساء القبائل ، بأن يكلفوا القبيلة القيام بذلك العمل ، مقابل تعهدهم بتقديم الطعام للمشتغلين به ، وقد يكلفونهم ذلك سخرة مستخدمين حق القوة التي يتمتعون بها إن كانوا رؤساء أقوياء .

وفي كتب أهل اللغة والأخبار تعابير عديدة عن سيـل السيول ، وأثرها في الأرض وجرفها التربة وما عليها ، وتفتيتها أشفار الأودية والأماكن التي تنحدر منها وكيفية قلعها الأشجار والصخور[1] . يظهر منهـا كلها ان أثر السيول كان شديداً مؤذياً ، وهو ما زال على أذاه الى هذا اليوم .

---

١ المخصص (٩/١٢٦ وما بعدها) .

المسايل :

وللسيطرة على المياه ، ولا سيما مياه الأمطار،عمد العرب الجنوبيون الى الوسائل الصناعية الفنية في التحكم فيها ، فأنشأوا المجاري الصناعية لتجري فيها المياه وتسيل فلا تذهب عبثاً ولا تجري في القنوات إلا بقدر . ومن هذه المجاري ما يقال له (ماخذ) و (ماخذت) في لغة المسند . أي (مأخذ) و (مأخذة) . ويراد بالمأخذ المجرى المحفور المعمق لمرور المياه الى الحقول والبساتين أو المعابد[1] .

ويقال للقناة أي الممر الذي تمرّ منه المياه (عبرن) في اللهجات العربية الجنوبية، أي المعبر . ذلك لأن المياه تعبرها وتجري فيها وتسيل منها الى الأماكن التي كان يقصد وصولها اليها[2]. وترد بكثرة في النصوص المتعلقة بتنظيم الإرواء وفي النصوص المتعلقة بشؤون الزراعة . وأما لفظـة (امررن) فتعني (المرور) ، والامرار و (الممرات) ، وقد وردت في النصوص الزراعية بمعنى الممرات المائية التي تجري فيها المياه ، فهي بمعنى سواقٍ لإسقاء الأرض[3] . وأما الممر الواحد أو الوادي ، فيقال له (سرن)[4] .

وترد كثيراً في النصوص المتعلقة بشؤون الإرواء لفظة (حرت) . وورودها فيها يدل على وجود علاقة لها بالإسقاء والإرواء. ويظهر أن لهذه اللفظة صلة بلفظة (خر) العربية التي تعني ما خدّه السيل من الأرض ، والشق ، فيقال خر الماء الأرض خراً اذا شقها ، والهوى من علو الى أسفـل ، واذا تدهدى الشيء من علو[5] . وهي بهذا المعنى وبمعنى ثقب وفتحة في لغة بني إرم وفي العبرانية المتأخرة، وتؤدي لفظة (خرو) Harru معنى قناة في الأشورية . وهذا يدل على ان للفظة (حرت) معنى قناة أو فتحة تفتح في السد ، أو في مجرى ماء ، لإسالة المـاء من الفتحة الى القناة أو المجرى المخصص بجري الماء[6] .

وقـد عثر السيّاح الذين زاروا اليمن ودرسوا آثار السدود على (حرّات)

---

١ RW 59, Bu. San'a 1909, Jemen, II, 341, Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 17.

٢ REP. EPIGR. 4351, VII, II, p. 210.

٣ REP. EPIGR. 4351, VII, II, p. 209.

٤ REP. EPIGR. 4351.

٥ تاج العروس (٣/١٧٢) ، (خرّ) .

٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 81, 85, 115.

كثيرة تتخلل جـانبي السد . وهي عبارة عن فتحات مستديرة ، تختلف أقطار فتحاتها بحسب كميات المياه المراد إمرارها منها الى (القنوات) . وهذه الفتحات هي الحرات (حررتن) . والفتحة الواحدة هي (حرت) (حرة)[1] .

ويعبر عن احداث فتحة أو ثغرة في جدار أو جبل أو في صخرة لإسالة الماء منها أو فتح شيء ما ، بلفظة (بلق) . وتؤدي لفظة (مخض) معنى (بلق) أيضاً ، فهي أيضاً بمعنى احداث ثغرة أو فتحة ، غير أنهـا تستعمل للتعبير عن معان أخرى مثل فتح الطرق وشقها في الجبال في الغالب ، أو احداث طريق فوق (منقلن) . ويراد بالمنقل معنى (نقيل) أي ممر .

ولما كانت العربية الجنوبية ذات جبال ومرتفعات ، تصطدم بها الرياح المتشبعة بالأبخرة ، فتتساقط مطراً ، عمل المهندسون على الاستفادة من هذه الأمطار بالتحكم فيها وبتوجيهها الجهة التي يريدونها ، وذلك بإحداث فتحات في الصخور وعمـل قنوات وأنفاق لإكراه الماء على المرور منها الى المواضع التي يريدون خزنها فيهـا للاستفادة منهـا عند الحاجة ، ولتكوين مسايل كبيرة تتجمع فيها المياه فتجري كالأنهار .

وتؤدي لفظة (قلح) معنى سال وجرى وصب ، ولها معان أخرى ذات صلة بالحركة . وبهـذا المعنى ترد لفظة (سفح) كذلك[2] . ولسفح في عربيتنا معنى قريب من معناها في المسند ، فمن معاني السفح ، عرض الجبل حيث يسفح فيه الماء ، وسفح بمعنى سال وأراق وصب[3] . وهي معان لها صلة بجريان الماء .

وأما لفظة (منفخت) (منفخة) و (منفخ) ، من أصل (نفخ) ، فإنها تعني فتح الماء واسالته ، وذلك بفتـح الفتحات الماسكة له ليسيل منها الى المجاري المخصصة بمسيله . وهي في معنى لفظـة (منفس) التي هي من أصل (نفس) . ويراد بها خروج المـاء وجريانه من الفتحات الحابسة له وارتفاعه نتيجة لفتح الماء . وهي من ألفاظ الإرواء الواردة في الكتابات العربية الجنوبية[4] . ويستعمل العراقيون جملة (تنفس الشط) ، بمعنى ارتفع ماء النهر وزاد ، وذلك

---

١ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 118.

٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 82.

٣ تاج العروس (٢/١٦٤) ، (سفح) .

٤ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II. S. 82.

في ايام الفيضان . و (تنفس الموج) و (تنفس دجلة) . فالمنفخ والمنفس اذن في معنى واحد ، ويطلقان على عملية رفع مستوى الماء بزيادة كمياته من الفتحات التي تضبطه وتسيطر عليه ، لأجل رفع مستواه في الأنهار أو في المجاري والسواقي لإرواء الأرضين في يسر وسهولة ، ولا سيما الأرضين المرتفعة بعض الارتفاع .

ويقال لمجرى الماء الصغير المتفرع من مجرى أوسع منه (مسبا) . وذهب بعض الباحثين الى أن المراد بهذه اللفظة الصهريج . وقد عرف علماء اللغة (المسبا) بأنه الطريق في الجبل[1] .

أما السواقي ومجاري الماء الصغيرة التي تستعمل في اسقاء المزارع والحدائق ، فيقال لها (مسقيت) ، أي (مسقية) و (ساقية)[2] . وذهب (رودوكناكس) الى أن لفظة (مسفحة) (المسفحة) ، تعني الساقية أيضاً[3] .

ويعبر عن خروج الماء وسيلانه ونزوله بلفظة (فجر)[4] . و (الفجر) في عربيتنا تفجير الماء ، يقال انفجر الماء وتفجر : سال وانبعث . والمفجر والمفجرة منفجر الماء من الحوض وغيره . وفجرة الوادي ، متسعه الذي ينفجر اليه الماء[5] . و (الشرج) مسيل ماء من الحرة الى الوادي ، ومنفسح الوادي[6] ، فلها علاقة بمسير الماء وسيلانه . وبهذا المعنى وردت لفظة (سفح) في المسند[7] .

المصانع :

وللاستفادة من ماء المطر استعملوا المصانع ، جمع مصنعة . مساكات لماء السماء ، يحتفرها الناس فيملؤونها ماء السماء يشربونها . والمصنعة كالحوض أو شبه

---

١ « والمسبأ كمقعد الطريق في الجبل » ، تاج العروس (١/٧٦) ، (سبأ) ، Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 112, Hommel, Aufs. und Abbädlungen, S. 126.

٢ Glaser 1150, Halevy 193, 199.

٣ Müller, WZKK, II, S. 189, Rhodokanakis, Stud. Lexi, II, S. 89.

٤ Halevy 149, Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 59.

٥ تاج العروس (٣/٤٦٤) ، (فجر) .

٦ تاج العروس (٢/٦٣) ، (شرج) .

٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 59, Alt. Sab. Inschr., S. 77.

الصهريج ، وذكر ان الحبس مثل المصنعة [١] . وذكر ان المصانع مساكات لماء المطر يحتفرها الناس ، وأن العرب تسمي القرى مصانع ، تقول هو من أهل المصانع ، أي القرى والحضر ، والمصانع أيضاً المباني من القصور والآبار وغيرها والحصون . والصنع ، مصنعة الماء ، وهي خشبة يحبس بها الماء وتمسكه حيناً ، وسمت العرب أحباس الماء الأصناع ، وبهذا المعنى : الصناع والصناعة [٢]. و(الرصف) السد المبني للماء [٣] . ويكون من حجارة مرصوف بعضها الى بعض في مسيل فيجتمع فيها المطر [٤] .

السكر :

ويعبر في لهجة أهل الحجاز بلفظة (سِكْر) و (سكر الأنهار) عن سدّ الماء وحبسه ، وذلك لضبط الماء ، فلا يتسرب الى المزرعة أو الى مكان فيغرقه، أو لحبس الماء للاستفادة منه في الإسقاء [٥] . وقد يكون السكر ثابتاً دائماً ، مبنياً له فتحات تغلق وتفتح وقت الحاجة اليه ، وقد تكون مؤقتة تزال وتسدّ بحسب الحاجة ، وتكون هذه في السواقي والنهيرات . وتؤدي لفظة (حبس الماء) معنى سدّه ومنعه من السيلان والجري ، وذلك بواسطة السكر والحاجز المقام . وتؤدي لفظة (السكر) ، أيضاً معنى سدّ النهر و (العرم) أي السدّ، والمسناة [٦] .

الأحباس :

و (الحِبس) خشبة أو حجارة تبنى في مجرى الماء لتحبسه ، كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم . والجمع أحباس . وقيل ما سدّ به مجرى الوادي في أي

---

١ تاج العروس (٥/٤٢٢) . (صنع) ، المخصص (١٠/٥٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٤٢٢) ، (صنع) .
٣ المخصص (٩/١٥٣) .
٤ تاج العروس (٦/١١٧) ، (رصف) .
٥ عمدة القارىء (١١/٢٠٠ وما بعدها) ، (باب سكر الانهار) ، تاج العروس (٣/٢٧٤) ، (سكر) .
٦ تاج العروس (٣/٢٧٤) ، (سكر) .

موضع حبس . وقيل الحبس كالمصنعة تجعل للماء [1] . و (العرمة) سدّ يعترض به الوادي ليحتبس به الماء ، والأحباس تبنى في أوساط الأودية [2] . و (الرجيع) محبس الماء ، و (الخرنق) مصنعة الماء ، والسرج والقرى والحافشة . وهذه مسايل الماء [3] . و (الخربق) مصنعة الماء واسم حوض [4] . و(الردم) السدّ [5] . و (الحواجر) و (الحاجر) ما يمسك الماء من شفة الوادي ويحيط به [6]. ومن الأحباس : حبس ضعاضع . جبيل عنده حبس كبير يجتمع عنده الماء . وهو حجارة مجتمعة وضعت بعضها على بعض [7] .

وتكون على السواقي ومسايل الماء والسدود ، مسايل جانبية ، تفتح عند الحاجة لمرور الماء منها الى المزارع ، تخرج من المسيل الأعظم يمنة ويسرة ، يقال لها : (النواشط) . وطريق ناشط ، اذا كان ينشط من الطريق الأعظم يمنة ويسرة [8] .

وقد كان نضوب الماء من الآبار والغدران ومواضع الماء الأخرى من المشكلات التي جابهت الجاهليين . ومن المشكلات التي ما برح سكان جزيرة العرب يواجهونها اليوم أن بعض الآبار يغور ماؤها ، فيضطر الناس الى ترك أماكنهم ، أو قد يتبدل طعم الماء ، فلا يكون مستساغاً للشرب ولا مجدياً في الزراعة . وحفر الآبار في مواضع متقاربة يؤدي الى انخفاض مستوى الماء أو نضوبه في كثير من الأحيان. وقد أدى إهمال الناس للآبار الى تراكم الأتربة فيها ، وانهيار جدرانها ، ونضوب الماء منها ، وارتحال الناس عنها .

السدود :

السد في اللغة الحاجز ، والوادي فيه حجارة وصخور يبقى الماء فيه زماناً .

---

١ تاج العروس (٤/١٢٤) ، (حبس) ، اللسان (٦/٤٥) ، (حبس) .
٢ تاج العروس (٨/٣٩٥) ، (عرم) .
٣ تاج العروس (٦/٣٣١) ، (خرنق) .
٤ تاج العروس (٦/٣٢٧) ، (خربق) .
٥ تاج العروس (٨/٣٠٩) ، (ردم) .
٦ تاج العروس (٣/١٢٥) ، (حجر) .
٧ قال الشاعر :
وان التفاتي نحو حبس ضعاضع ... واقبال عيني في الظبا لطويل
عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٠) .
٨ تاج العروس (٥/٢٣٢) ، (نشط) .

وقد كان الجاهليون يقيمون حواجز عند مخارج السيول ، لحبس الماء في المنخفضات لتكوين أحواض لحفظ الماء فيها ، للاستفادة من مائها عند انقطاع السيول وظهور الجفاف . ولما كان بناء سد ضخم بحجارة وبجدر مرتفعة طويلة ، عمل يحتاج الى مهارة وخبرة والى مال ، والى وجود حكومة كبيرة متمكنة من الناحية المادية ، وهي شروط لم تكن متوفرة في معظم أنحـاء جزيرة العرب ، ما خلا اليمن ، صارت السدود في معظم أنحـاء جزيرة العرب سدوداً صغيرة بدائيـة في أغلب الأحيان ، هي مجرد حواجز من تراب أو من صخور كدّست بعضها فوق بعض لحبس الماء في المنخفض ومنعه من الجريان . وقد شاهد السياح آثار سدود جاهلية في أنحاء جزيرة العرب ، ووصفوها ، وذكروا أن من الممكن الاستفادة من بعض تلك السدود ومن مواقعها ، وأشادوا بمقدرة من شيدها وأقامها وبقابلياته الهندسية وبفطنته في حسن اختيار المواقع ، بالرغم من ضعف القدرة الفنية وبدائية الأساليب الّتي استعملت في ذلك الزمن[١] .

ومن السدود : (السد) ماء سماء في (حزم بني عوال) ، جبيل لغطفان أمر الرسول بسدّه . وسد (أبي جراب) أسفل من عقبـة منى دون القبور عن يمين الذاهب الى منى ، منسوب الى (أبي جراب عبدالله بن محمـد بن عبد الحارث بن أمية الأصغر) ، وسد قناة[٢] ، وسد (العياد) ، وقد أقيم في موضع يبعد عن الطائف زهاء ستة أميال ، كتب عليه بالخط الكوفي المحفور على الحجر : « هذا سد عبدالله بن معاوية أمير المؤمنين . بناه عبدالله بن ابراهيم » . وكان ذلك سنة (٥٨) للهجرة . وقد أقيم بالحجارة وحدها ، فلم يضع مهندسه ، عبدالله ابن ابراهيم ، مادةً من مواد البناء مثل الملاط أو الطين وما شابه ذلك بين الحجارة لتثبيتها وضمها بعضها الى بعض حتى تتماسك ، فتكون كأنها قطعة واحدة . وهي طريقة معروفة في اليمن ، استعملها المهندسون الجاهليون كما يظهر ذلك من فحص الخرائب العتيقة الباقية من الأبنية والسدود الجاهلية . ولا يزال هذا السدّ في حالة ممتازة يتحدث عن نفسه وعن قدرة المهندس الذي أقامه في هذا المكان .

---

١ تويتشل ، المملكة العربية السعودية (ص ٥٠) .

٢ تاج العروس (٢/٣٧٣) ، (سدد) .

سد مأرب :

واستبد سدّ مأرب من بين سائر سدود جزيرة العرب بالإسم والذكر ، ونال مكانة كبيرة في كتب التفسير والسير والأخبار. ولذكر القرآن لـ (سيل العرم)، نصيب كبير في توجيه أنظار علماء التفسير واللغة والأخبار اليه ، وفي خلود اسمه الى الآن . وقد روى أهل الأخبار قصصاً عنه وعن كيفية خرابه ، وتشتت شمل سبأ بسببه ، ونزوحهم الى مواضع بعيدة عن ديارهم القديمة .

ويعدّ سدّ (مأرب) من أهم السدود التي أقيمت في اليمن وفي جزيرة العرب. وقد بني من أجل السيطرة على مياه الأمطار والسيول التي تتدفق منها لوقاية المزارع والقرى منها ، وللاحتفاظ بهذه السيول للاستفادة منها إذا انقطعت الأمطار . وإرواء مناطق واسعة من الأرضين ، جيدة التربة ، خصبة مثمرة . لكن بها حاجة شديدة الى الماء ، وما كان في الامكان إنباتها لولا السيطرة على السيول وإنشاء هذا السدّ .

وتأتي السيول الى السد من أماكن عديدة ، من (ذمار) ، و (جهران) ، و (الحدي) ، و (حولان) ، وبلاد مراد ، وقيفة ، وعروش ، وجوانب ردمان ، وشرعة ، وكومان وغيرها ، وذلك اذا أمطرت السماء وتجمعت فيها السيول وانحدرت . حتّى تنتهي إلى وادي (أذنة) ، فتسير فيه المياه حتى تنتهي إلى مضيق بين جبلين ، يقال لكل منها (بلق) ، ويسميها (الهمداني) مأزمي مأرب ، تسير المياه فيه حتى تدخل منخفضاً من الأرض واسعاً ، هو حوض هذا السد . تدخر مياه الأمطار فيه . وله سدود وأبواب لحجز المياه وحبسها ، أو لتصريفها حسب الحاجة . فتمر من أبواب تفتح وتغلق ،لتمر المياه منها في قنوات توزع إلى الأماكن التي يراد توجيه الماء اليها [1] .

ولا توجد لدينا نصوص عن أول رجل أقام هذا السد ، وعن العهد الذي تم فيه البناء. وكل ما لدينا اليوم عن وقت بنائه لأول مرة هو لذلك حدس وتخمين .

---

١ زيدان ، العرب قبل الاسلام (١٧٠ وما بعدها) ، العظم (٨٨/٢ وما بعدها) ، البلدان (٣٨٣/٤) ، حمزة (١٢٦) ، الاغاني (٧٢/١٦) ، الصفة (٨٠) ، Müller, Burgen, II, S. 83. f.

ويرى (كلاسر) أن عهده يعود الى السنة السبعمئة قبل الميلاد[1] . وقد بقي قائماً يؤدي واجبه الى حوالى السنة (٥٧٥) بعد الميلاد[2] . ويظهر من بعض الكتابات المحفورة على جدرانه بالمسند أن جملة تحسينات وتعميرات أدخلت عليه في أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعدها ، وآخرها هو اصلاح أبرهة له الذي تمّ على أثر تصدعه سنة ٥٤٢ للميلاد . ويظهر أن تصدعاً آخر وقع للسدّ في أيام طفولة الرسول ، وذلك في حوالى السنة (٥٧٥) للميلاد ، لم يكن من الممكن التغلب عليه، بسبب التدهور الاقتصادي الذي حدث في هذا العهد في اليمن وارتباك الأوضاع السياسية واضطراب الأمن وانتشار الثورات في كل مكان وتدخل الأجانب في شؤون البلاد، فتصدع قسم كبير منه ، ولم يهتم أحد من الحاكمين في اعادته الى أصله بإصلاحه وترميمه ، وتحولت بذلك الأرضين الخصبة التي كانت تروى بمائــه والتي كانت واسعة إلى أرضين موات ، غطتها الطبيعة بطبقة من الرمال والأتربة وألبستها أكسية الصحراء الحزينة ، حداداً على فراقها لذلك السدّ العتيد .

وتعود أقدم الكتابات الباقية إلى أيام (المكربين) . وتأتي كتابة (سمه على ينف) (سمهعلي ينوف) مكرب سبأ على الرأس . ويظهر منها ان هذا المكرّب قد أقام سد (رحاب) ، وقد اشتغل بــه ابنه (يثع أمر بين) وقوّاه ، كما بنى سداً آخر عند (حبابض) ، ويقع في المنطقة الشمالية من سد مأرب[3] .

وقام المكرب (كرب ال بين بن يثع امر) ، ببناء جزء من السد وتقويـة أجزائه الأخرى . كما قام الملوك بإضافة أجزاء جديدة اليه ، وتقوية الأجزاء القديمة منه . ومن هؤلاء الملك (ذمر على ذرح) ملك سبأ ، والملك (يدع ال وتر) (يدع ايل وتر)[4] .

كذلك أصلح الملك (شمر يهرعش) هذا السد ، ورممه الملك (شرحبيل يعفر) في سنة (٤٤٩) للميلاد . ولكن المياه جرفت أقساماً منه سنة (٤٥٠) للميلاد ، أي

---

١ Ency., III, p. 290.

٢ A Grohmann, Südarabien als wirtschaftsgebiet, II, 23-28, A. Grohmann, S. 151.

٣ Ency., III, p. 290, Müller, Burgen, II, S. 13. f.

٤ Müller, Burgen, II, S. 15.

بعد سنة من الترميمات ، فاضطر إلى إعادة إصلاحه وتقويته[1] .

وقد أقام المهندسون في الجهة الضيقة التي تسيل منها السيول الى المجاري ثم الى حوض واسع سداً قوياً طوله نحو من (٥٧٧) متراً ونصف المتر ، عرف بـ (رحاب) في المسند . أقيم في المنطقة التي تضيق فيها الشقة بين جزءي جبل (بلق) ، حيث يمر بينهما وادٍ يفصل بين الجزءين المعروفين بـ (بلق القبلي) و (بلق الأوسط) . فسدّ الوادي بذلك وتحكم السد بمسير ماء السيول . وصار يجري من خلال فتحة ، هي باب يتحكم الإنسان فيهـا كيف يشاء الى (وادي أذنة) (وادي ذنـة) ، حيث يملأ الحوض[2] . وينتهي الحوض بسدين آخرين أقيما لتنظيم تصريف الماء المخزون عند الحاجة وتوجيهه الى الأرضين المحتاجة اليه ، بهما منافذ هي أبواب تفتح وتغلق للتحكم في توزيع الماء .

وقد استخدمت في بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور، وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض ، وتثبت وتتماسك وتكون وكأنها قطعة صلدة واحدة . ونحتت الصخور ، بحيث صارت تتداخل بعض في بعض ، بأن يدخل رأس من صخرة في فتحة مقابلة لها ، فتكون كالمفتاح في القفل ، وبذلك تتماسك هذه الصخور وترتبط ارتباطاً وثيقاً ، وتكون كأنها صخرة واحدة . وقد وجد ان بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان اسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس يبلغ طول الواحد منها حوالى (١٦) سنتمتراً ، وقطرها حوالى الثلاثة سنتمترات ونصف . وذلك بصب المعدن في ثقب الحجر ، فإذا جمد وصار على شكل (مسمار) ، يوضع الحجر المطابق الذي صمم ليكون فوقه في موضعه بإدخال (المسمار) في الثقب المعمول في الجهة السفلى من ذلك الحجر ، وبذلك يرتبط الحجران بعضهما ببعض برباط قوي محكم . وقد اتخذت هذه الطريقة لشد أزر السد ، وليكون في امكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل[3] . أما المادة التي استعملت في البناء لربط الأحجار بعضها ببعض فهي من أحسن أنواع الجبس Gips ، وقد تصلب هذا الجبس الذي طليت

---

١ Glaser 554, Ency., III, p. 290.

٢ « وادي أذنة » ، الصفة (٨٠ ، ٩٤) .

٣ العظـم (٢/٩٢) . A. Grohmann, S. 152.

به واجهات السد أيضاً حتى صار كأصلب أنواع السمنت[1] .

وقد أقام المهندسون أبواباً لدخول المياه منها وخروجها ، كما أنشأوا فتحات لتقسيم المياه وتوزيعها على المجاري والسواقي تفتح وتقفل بحسب حاجة المزارع والأماكن الى المياه . ولا يزال بعض جدر السد قائماً ، وآثار السواقي والمجاري التي كانت تجري فيها المياه من الحوض باقية ، وهي تدل على مهارة مهندسي الري في ذلك العهد وعلى براعتهم في كيفية الاستفادة من الأرض ومن الطبيعة لخدمة الإنسان .

وبنيت في اليمن سدود أخرى ، منها (قصعان) ، و (ربوان) ، وهو سدّ قتاب ، وشحران ، وطمحان ، وسد عباد ، وسد لحج ، وهو سد عرايس ، وسد سحر ، وسد ذي شهال ، وسد ذي رعين ، وسد نقاطة ، وسد نضار وهران ، وسد الشعباني ، وسد النواسي ، وسد الخانق بصعدة ، وسد ربعان ، وسد سيان ، وسد شبام ، وسد دعان وغيرها[2] . وذكر (الهمداني) أن في مخلاف (يحضب العلو) ثمانين سداً[3] .

وسد (الخانق) سد ينسب الى (نوال بن عتيك) مولى سيف بن ذي يزن ، ومظهره في (الخنفرين) من رحبان . وقد خربه (ابراهيم بن موسى العلوي) بعد هدم صعدة[4] .

وهناك آثار سدود جاهلية أخرى أقيمت في مواضع متعددة من العربية الجنوبية . منها آثار سد قتباني أقيم عند موضع (هجر بن حميد) بوادي بيحان . وقد درسه ووصفه (بورن)[5] . كان يسقي بمائه منطقة واسعة من أرض مملكة قتبان .

---

١ A. Grohmann, S. 152.

٢ زيدان ، العرب قبل الاسلام (١٦٩) ، Müller, & Südarabische, S. 88.

٣ الصفة (١٠١) ، زيدان (١٦٩) .

٤ زيدان ، (١٦٩) .

٥ A. Grohmann, S. 153, Hamilton, Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, in G.J., 101, (1943), 116.
Philby, The Land of Sheba, G. J., 92 (1938), 113, 119.

وآثار سد (مرخة)[1] ، وآثار سد آخر أقيم عند (شبوة) ، وسد آخر عند (الحريضة) ، تفرعت منه شبكة من القنوات والمجاري لايصال الماء إلى المزارع والأرضين الخصبة التي تعيش عليها .

وقد ظهرت من الصور (الفوتغرافية) ، الذي أخذت من الجو لبعض مواضع من جزيرة العرب آثار شبكات للإرواء تتصل بأحواض مياه وسدود أقيمت لخزن مياه الأمطار فيها للاستفادة منها وقت الحاجة . ففي (وادي عديم) آثار جدر سدود وقنوات ومجاري مياه متصلة بعضها ببعض تمتد إلى مسافات بعيدة كانت تمدها بإكسير الحياة . وكذلك تشاهد آثار الإرواء عند (حصن العر) و (ثوبة) في القسم الجنوبي من (وادي حضرموت) . وقد نحتت الصخور عند (نجران) لعمل ممر منها للماء ليذهب إلى حوض واسع أحيط بسد وجدار حيث يمكن خزن مئة مليون (غالون) من الماء فيه[2] .

توزيع الماء :

وقد يوزع الماء الجاري من العيون والأنهار ، بالنصيب . بأن تعين أوقات تفتح فيها المياه على مزرعة ما ، فإذا انتهى الوقت سد الماء ، وحوّل الى مزرعة أخرى ، وذلك لقلة الماء وعدم كفايته في اسقاء المزارع كلها دفعة واحدة،فيوزع بالحصص ، في أوقات تثبت وتعين . وقد تقع الخصومات من جراء التجاوز وعدم التقيد بضبط الأوقات ، كما يحدث في أيامنا في كثير من الأماكن الزراعية . ونجد في كتب الأخبار أمثلة عديدة من أمثلة هذا النزاع . ويقال للنصيب من السقي (سِقي)[3] . أي الحظ من الشرب[4] .

---

١ G. Gaton Thompson — E.W. Gardner, Climate, Irrigation and Early man in the Hadhramaut, G.J., 93 (1939), 34. f, A. Grohmann, S. 153.

٢ A. Grohmann, S. 153, Philby, The Land of Sheba, G.J., 92 (1938), 16.

٣ المفردات ، للاصفهاني (٢٣٥) .

٤ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .

حقوق الري :

وللجاهليين أعراف محلية قامت مقام القوانين في الاستفادة من الماء . والمياه عندهم ، اما مياه طبيعية لا دخل ليد الإنسان في استنباطها ، مثل مياه الأمطار والعيون والأنهار . واما مياه وجدت باستنباط الانسان لها ، باستخدام ماله ويده في تذليلها، كمياه الآبار والعيون التي يفجرها الانسان ومياه الصهاريج والكهاريس والمياه التي تتجمع من إقامة السدود وما شاكل ذلك مما للإنسان يد وعمل في الاستفادة منها .

وطبيعي ان تختلف هذه الأعراف باختلاف مواضع جزيرة العرب . فالمياه في العربية الجنوبية من أمطار ومن مياه مستخرجة أو نابعة هي أكثر بكثير من مياه أي منطقة أخرى من جزيرة العرب . ولهذا نجد لها ذكراً في الكتابات العربية الجنوبية ، حيث نجد فيها إشارات إلى أحكام وإلى كيفية السقي وحقوق أصحاب الأرض في الماء وحقوق المستأجرين للأرض في الماء وإلى خصومات وقعت بينهم في موضوع حقوق التصرف بالماء .

ولدينا في الوقت الحاضر كتابات ، هي قوانين صدرت من حكومات العربية الجنوبية في تنظيم حقوق السقي والاستفادة من الماء ومن حق الانتفاع من الآبار . كما تعرضت لموضوع حقوق شراء الأرض ، وكيفية بيعها وما إلى ذلك مما يتعلق بالري والزراعة .

وأما في الحجاز ، فقد استخدمت الآبار المحفورة ، يحفرها أهلها ليستفيدوا من مياهها في الشرب وفي اسقاء الزرع والمواشي ، وقد يكرونها لغيرهم مقابل كراء يعين . لهذا وضعوا أعرافاً خاصة بالنسبة إلى الاستفادة من حقوق ملكية الآبار .

الخصومات بسبب الماء :

وطالما وقعت مشاحنات وخصومات بين أصحاب المزارع بسبب اشتراكهم في الماء ، في مثل الشراج والجعافر والأنهار وأمثالها ، إذ كان يستأثر بعضهم به ، ولا يدع الماء يسيل الى غيره إلا بعد أن يسقي زرعه سقياً كاملاً ،وكان أصحاب

المزارع الذين تقع مزارعهم في أعالي منابع الماء يستأثرون به ، بتوجيهه الى مزارعهم ، أو بوضع سكر يحبس الماء عن البساتين الواقعة خلف السكر، فيذهب الماء الى مزارعهم ولا ينال المزارع الأخرى الا القليل منه.ونجد مثل هذه الخصومات في العربية الجنوبية وفي منطقة يثرب وفي مواضع الحسي وعيون الماء . وقد خاصم أنصاريٌ (الزبيرَ بن العوّام) عند النبي في شراج الحرة ، وهي مسايل الماء التي يسقون بها النخل ، فقضى النبي ، أن يسقى الأعلى ثم الأسفل[١] .

---

١ ارشاد الساري (١٩٧/٤ وما بعدها) ·

الفصل السابع والتسعون

معاملات زراعية

وقد تطرقت كتب الحديث والفقه الى ذكر معاملات زراعية ، كان المزارعون في الجاهلية يمارسونها . وهي عبارة عن عقود ومواثيق كانوا يأخذونها على أنفسهم بالقيام بأعمال زراعية معينة ، مثل : المحاقلة ، والمخابرة ، والمزارعة ، والمساقاة .

المحاقلة :

ولم ترد في نصوص المسند معلومات مسهبة عن المحاقلة عند العرب الجنوبيين . ولكن في استطاعتنا أن نقول انها لم تكن تختلف في أسلوبها عن المحاقلة عند أهل الحجاز قبيل الاسلام . والمحاقلة عندهم اكتراء الأرض بالحنطة أو الذهب أو شيء آخر ، والمزارعة على نصيب معلوم يتفق عليه بالثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر ، أو على الأوسق من التمر والشعير ، أو على الدينار والدرهم[1] . ويقال للمحاقلة (نحقل) في المسند[2] .

---

١ القاموس (٣/٣٥٩) ، جامع الاصول (١١/٤٧٨) ، تاج العروس (٧/٢٨١) ، (حقل) ، عمدة القارىء (١٢/١٨٠ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٤/١٨٧) ، صحيح مسلم (٥/٢٦) .

٢ Rhodokanakis, Katab. Texte, I, S. 84.

والمخابرة هي المؤاكرة،وهي المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض[1]. وقيل : المخابرة المزارعة على النصف ونحوه ، أي الثلث ، والمزارعة على نصيب معين كالثلث والربع وغيرهما وقيل المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض[2]. والمؤاكرة المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع . وهي المخابرة[3] . وفي الحديث كنا نخابر ولا نرى بذلك بأساً حتى أخبر رافع ان رسول الله نهى عنها . وقد اختلف علماء اللغة في أصل اللفظة ، فقال بعضهم : هي من خبرت الأرض خبراً كثر خبارها ، وقال بعض آخر من خيبر ، لأن النبي أقرها في أيدي أهلها على النصف من محصولها ، فقيل خابرهم ، أي عاملهم في خيبر[4] . و (الخبر) في قول علماء اللغة الزرع ، ومن هذه اللفظة يجب أن يكون أصل المخابرة . ويظهر من اختلاف العلماء في تعريف المراد من لفظة المخابرة ، التي تعني المزارعة أنهم لما أرادوا وضع حد لمعناها ، وجدوا المخابرين أي المزارعين أنماطاً وأشتاتاً في تثبيت حصص المخابرة ونصيبها ، فحفظ كل ما سمعه ، وظن أن ما وعاه وسمعه هو المخابرة ، فجاءت تعاريفهم من ثمّ على هذا النحو . ولو أخذناها ودققناها، وجدنا أنها كلها شيء واحد . هو : المخابرة المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض . أما تثبيت الأنصبة ، فلا دخل له بالتعريف ، لأنه مجرد تعامل أشخاص واتفاق أفراد ، منهم من كان يزيد في النصيب ومنهم من كان ينقص منه : حسب الحاجة ، على نحو ما يقع في كل تعامل مثل البيع والشراء .

والمزارعة ، المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها[5] ، فإن كان من العامل ، فهي مخابرة[6] .

وقد كانوا يتعاملون مع المزارعين أو الأجراء على (القصارة) . وهي ما يبقى في المنخل بعد الانتخال، أو ما بقي في السنبل من الحب ، مما لا يتخلص بعدما

---

١ جامع الاصول (٤٧٢/١١) ، شرح النووي (٤٠٦/٦ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (١٦٧/٣) ، (خبر) .

٣ تاج العروس (١٧/٣) ، (أكر) .

٤ تاج العروس (١٦٧/٣) ، (خبر) .

٥ تاج العروس (٣٦٨/٥) ، (زرع) .

٦ ارشاد الساري (١٧٠/٤) ، (ما جاء في الحرث) .

يداس ، أو ما يبقى علـى الأرض من حب بعد التذرية [1] . فيشترط بعضهم ان تكون القصارة للمذري ، وقد لا يوافق على ذلك صاحب الزرع ، فتكون له . وقد يحدث الاختلاف بين صاحب الزرع وبين المذري ، بسبب اتهامه للمذري ، باستغلال الشرط ، والإفراط في إسقاط الحب على الأرض للاستفادة منه .

وذكر ان أحدهم كان يشترط في المزارعة ثلاثة جداول والقصارة، أي ما سقى الربيع . وقد نهى النبي عن ذلك[2] . والجدول النهر الصغير ، ونهر الحوض ونحو ذلك من الأنهار الصغار[3] .

ولما جاء المهاجرون إلى يثرب ، وكان بينهم قوم يحسنون الزراعـة ، وكانوا يريدون عملاً يعتاشون منه ، حاقلوا أصحاب الأرض على زرع أرضهم في مقابل نصيب معلوم ، كانوا يتفقون عليه . وقد نجح بعض منهم في استغلال الأرض ، وكسبوا منها . غير ان قسماً منهم اختصموا مع الملاّك ، بسبب توزيع الحاصل أو الماء ، فكان الرسول يتداخل بنفسه لحسم الخلاف . وقد صار الصحابة من من أهل مكة بين تاجر وبين زراع ، ورد في حديث (أبي هريرة) : « لم يشغلني عن النبي غرس الوديّ ، أي صغار النخل »[4] . وورد ان الأنصار قالوا للمهاجرين : تكفونا المؤونة في النخل بتعهده بالسقي والتربية ونشرككم في الثمرة، واتفقوا على ذلك[5] .

وقد نهى الإسلام عن المحاقلة والمزارعة والمؤاكرة . وذلك لما كان يقع بسببها من خلاف بين المالك والفلاح ، وما كان يقع من ظـلم في القسمة أو اختلاف على توزيع الحاصل . فلما جاء الرسول الى (يثرب) ، ورأى هذه الخصومات ، نهى عن إيجـار الأرض وكرائها بقوله : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحهـا ، فإن لم يفعل فليمسك أرضه »[6] . وفي رواية أخرى أنه لم « يحرم المزارعة ؛ ولكن قال أن يمنح أحدكم أخاه خير له من أن يأخذ شيئاً معلوماً ،

---

١ اللسان (٥/١٠٠ وما بعدها) ، (قصر) .
٢ اللسان (٥/١٠١) ، (قصر) .
٣ اللسان (١١/١٠٦) ، (جدل) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٨٧) ، (ودى) .
٥ ارشاد الساري (٤/١٧٥) .
٦ عمدة القاريء (١٢/١٨٠ وما بعدها) ، تاج العروس (٥/٣٦٨) ، (زرع) .

لأنهم كانوا يتنازعون في كراء الأرض حتى أفضى بهم الى التقاتل بسبب كون الخراج واحداً لأحدهما على صاحبه ، فرأى أن المنحة خير لهم من المزارعة التي توقع بينهم مثل ذلك »[1] .

وقد ذكر العلماء أن هذا النهي إنما وقع بسبب المنازعات التي كانت تقع فيما بين الطرفين المتعاقدين ، لاتفاقهما على شيء مجهول ، وذكروا مثلاً آخر على ذلك هو كري المزارع على الأربعاء وبشيء من التبن . والربيع هو النهر الصغير. فتقع المنازعة ويبقى المزارع أو رب الأرض بلا شيء[2] . وقد كانوا يتعاقدون على ما ينبت على ربيع الساقي ، أي النهر الذي يسقي الزرع . فيقع اختلاف بين المزارع والمالك ، أو بين صاحب الماء والمزارع[3] . أما إذا كان الاتفاق على شيء واضح معلوم ، في مثل استئجار الأرض البيضاء من السنة الى السنة ، أو في آجال يتفق عليها بالذهب والفضة ، أي بالدنانير والدراهم ، فقد جاز كذلك كما ورد في كتب الحديث[4] .

المساقاة :

وكما مارس أصحاب الأملاك والمزارعون الجاهليون طريقة المحاقلة والمزارعة ، مارسوا (المساقاة) كذلك . وتكون بالاتفاق بين طرفين على قيام أحدهم بتوجيه الماء إلى صاحب أرض أو ملتزم لها أو غير ذلك ، وهو محتاج إلى ماء مقابل تعهد يقدمه الطرف الثاني إلى صاحب الماء بعوض ، مثل جزء من حاصل أو عين وما شابه ذلك ، مقابل ذلك الماء . وذكر ان المساقاة ، أن يستعمل رجلاً في نخيل أو كرم ليقوم باصلاحها مقابل أن يكون له سهم معلوم مما تغله.وأهل العراق يسمونها معاملة[5] . وذكر العلماء ان أهل المدينة كانوا يقولون للمساقاة المعاملة ،

---

١ ارشاد الساري (٤/١٨٧ وما بعدها) .
٢ عمدة القاري، (١٢/١٨٣) ، شرح النووي ، (٦/٤٠٠) ، (حاشية على ارشاد الساري) .
٣ تاج العروس (٥/٣٤٢) ، (ربع) .
٤ تاج العروس (١٢/١٨٤) .
٥ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) ، (٨/٣٦) ، (عمل) ، اللسان (١١/٤٧٦) .

وللمزارعة المخابرة ، وللإجارة بيع ، وللمضاربة مقارضة ، وان لهم لغات اختصوا بها [1] .

وقد يخصص الماء كله بالزرع ، أي يكرى كله لمؤجره ، وقد يكرى لما يسد حاجة الزرع ، أي لإرواء الزرع الذي اتفق على إسقائه بالماء ، في كل وقت ، في النهار أو في الليل ، وفي أي لحظة يشاء المستأجر لذلك الماء . وقد يكون على حظ من الماء ، مثل ربع يوم أو ليلة ، أو يوم معين ، أو وقت يثبت . ويقال لهذا الماء (ربيع) ، أي حظ [2] .

وطالما وقعت الخصومات بين المزارعين بسبب اختلافهم على الماء . فالماء هو رأس مال المزارع ، فإذا انقطع عن زرعه ، تأثر زرعه ، وتعرض للهلاك ، وزرعه هو رأس ماله وحياته . ومن هذا القبيل الخصومات التي تقع بسبب اشتراك جملة مزارعين في مورد ماء واحد ، ومحاولة كل واحد منهم الحصول على أكبر مقدار من الماء ، أو أخذه قبل غيره . والخصومات التي تقع من سيل الماء في الشرائج . والجداول التي تمر في عدة مزارع والينابيع والعيون التي تروي جملة أحواط ومحاقل . وقد أشير إلى جملة أنواع من هذه الخصومات في كتب الحديث [3] .

ومن عادة أهل (يثرب) أنهم كانوا يكرون الأرض ، لأجل قصير أو لأجل طويل . فإذا كان الأجل طويلاً فربما غرسوا شجراً ، على نصيب معلوم من الثمر ، وذلك لأن أكثرهم لم يكونوا يملكون كثيراً من الذهب والفضة ، فكانوا يتعاملون على الشطر مما تغله الأرض . ولما جاء المهاجرون زارعوا الأنصار بالشكر على الثلث والربع ، حتى ما كان بالمدينة بيت هجرة ، إلا وزرع على الشطر [4] ، أو على التبن أو على أوسق من تمر أو برّ أو غير ذلك. وكرى بعضهم أرضه بالدراهم والدنانير وبالفضة وبالذهب . وقد أشير الى ذلك في كتب الحديث [5] .

---

١ جامع الاصول (١٧٢/١١) ، شرح النووي (٤٠٦/٦ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٣٤٢/٥) ، (ربع) .

٣ عمدة القارىء (١٨٨/١٢ وما بعدها) ، (كتاب المساقاة) .

٤ ارشاد الساري (١٧٦/٤ وما بعدها) .

٥ ارشاد الساري (١٨٨/٤ وما بعدها) .

اكراء الأرض :

واكراء الأرض ، بمعنى إيجار أرض ما لمدة معينة محدودة ، أو بدون حد بشروط وفي مقابل بدل . ويقال لهذا البدل الذي يدفع عن ثمرة استغلال الأرض أو أي كراء (اثوبت) ، أي (الثواب) (ثواب) . ثواب أجر الانتفاع من الشيء الذي أجر . وقد يكون هذا الشيء أرضاً وقد يكون داراً وقد يكون حيواناً . فورد في بعض النصوص العربية الجنوبية ان اختين استأجرتا أرضاً على ساحل نهر (عبرت) ، وبقراً لتقوما بإيجارها الى الفلاحين لاستغلالها بزرعها ، وبتنمية البقر بشروط معينة ، تنتهي بأجل نص عليه ، في مقابل بدل ايجار (اثوبت) يدفع الى أصحاب المال . وقد أشير في الكتابة الى أن الإلّه (المقه) ، قد وافق على العقد وباركه[1] . ومعنى ذلك أن العقد عقد شرعي وقد سجل رسمياً وصار عقداً معترفاً به قانوناً من الحكومة ومن المعبد .

ويراد بلفظة (عبرت) ، لفظة (عبرة) و (العبرة) في لغتنا . والعبرة شاطىء النهر وناحيته ، قال النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر :

وما الفرات إذا جاشت غواربه ترمي أواذيه العبرين بالزبد
يوماً بأطيب منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد[2]

وورد في أحد النصوص ، ان ناساً (ادم) ، استأجروا أرضاً من الآلهة ، على أن يدفعوا أجرها سنة بعد سنة ، وحسبما اتفقوا عليه مع الآلهة[3] ، مما يدل على ان هذه الأرض المؤجرة هي من أوقاف المعبد . وقد أجرها أولئك الناس ، من رجال الدين الذين بيدهم أمر حبوس الآلهة .

ومن حق المؤجر ، أي المالك إبطال العقد ، إذا أخل المستأجر بشرط العقد أو أظهر كسلاً وتباطؤاً أو عدم مبالاة في استغلال الشيء المؤجر[4] . ويعني هذا ان

---

١ Glaser 862 = CIH 290, 1064, 1572, Halevy 49, SD 13, Glaser 131, CIH, 99, Grohman, 126, Handbuch, I, S. 124.

٢ تاج العروس (٣٧٦/٣) ، (عبر) .

٣ Halevy 49, SD 13, Glaser 131, CIH 99, Grohmann, S. 126.

٤ Grohmann, S. 126, SD 21.

الاتفاق كان على دفع نصيب معين من الغلة أو من ثمرة العمل . وبمـــا ان هذا النصيب متوقف على مقدار الجهد الذي يبذل في استغلال الملك المؤجر ، بحيث اذا زاد ، زاد نصيب المؤجر عن ايجار ملكه ، وإذا قلّ ، قلّ نصيبه أيضاً ، ومن حيث ان من مصلحة المؤجر ان يزداد وارد (اثوبت) ملكه ، لذلك صار من حقه إبطال العقد ، إذا رأى تهاوناً في تطبيق ما جاء فيه .

وقد كان أهل الحجاز ، يكرون أرضهم ، يكرونها بالثلث والربع والطعـــام المسمى وبالذهب وبالورق . وكانوا يدفعون الأرض إلى من يزرعها ببذر من عنده على أن يكون لمالك الأرض ما ينبت على مسايل الماء ورؤوس الجداول أو هـذه القطعة والباقي للعامل . وقد نهى رسول الله عن أكثر أنواع هذه الكراء ، ذكر انه قال : « من كانت له أرض فليزرعها ، فإن لم يزرعها فليمنحهـا أخاه ، فإن لم يمنحها أخاه فليمسكها »[1] .

بيوع زراعية :

وتضطر الظروف الاقتصادية المزارعين الى بيع الثمار وخضر البقـــول قبل بدو صلاحها، وقد يفعلون ذلك تخلصاً من معاملات جني الثمر وحراسته من اللصوص، وحمله الى الأسواق ، وأمثال ذلك من معاملات تحتاج الى مال وجهـــد . ويقال لذلك (المخاضرة) . وقد عرفت بأنها بيع الثمار قبل بدو صلاحها ، سميت بذلك لأن المتبايعين تبايعا شيئاً أخضر بينهما ، مأخـــوذ من الخضرة ، ويدخل في ذلك بيع الرطاب والبقول وأشباهها[2] . فكان صاحب الأشجار والمزرعة يبيع ثمار زرعه لغيره ، فيبيع الثمار قبل أن تطعم ، ويبيع الزرع قبل أن يشتد ويفرك منـــه . وقد نشأت عن هذا البيع خصومات ومنازعات بسبب وقوع عاهات في الحاصل ، تفسد على المبتاع ربحه ، فيطلب عندئذ من البائع استرجاع ما دفعه لـــه كله أو بعضه ، وتقع عندئذ الخصومات . وقد بقيت سنتهم على ذلك حتى مجيء الرسول الى المدينة ، فكانوا يأتونه للمقاضاة ، فوقع النهي منه على هذا النوع من البيوع،

---

١ صحيح مسلم (٥/ ١٨ وما بعدها) ، « باب كراء الارض » .

٢ تاج العروس (٣/ ١٨٠) ، (خضر) .

ولم يسمح به إلا أن يبدو صلاح الثمر ، فيتبين صلاحه ونوعه . وعندئذ لا يحق لمبتاع التذمر من شرائه ، لأنه شاهد ما ينوي شراءه ورآه ، فلا غبن فيه [1] .

ومن بيع المخاضرة شراؤها مغيبة في الأرض ، كالفجل ، والبصل،واللفت ، والثوم وشبهه ، وللفقهاء في ذلك جملة آراء [2] .

وورد ان (المحاقلة) نوع من البيوع . وهي بيع الطعام في سنبله بالبر ، وقيل اشتراء الزرع بالحنطة . وقد نهي عنها في الاسلام [3] .

ومن أنواع البيوع التي تعرض لها الفقهـاء (المزابنة) . وهي بيع الثمر في رؤوس النخل بالتمر كيلاً ، وبيع الزبيب بالكرم كيلاً . وذكر بعض العلماء ان المراد بذلك بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر ، وبيع العنب بالزبيب ، وبيع التمـر في رؤوس النخل بالتمر . وذكر أيضاً ان من المزابنة بيـع التمر بكيل جزاف ، وكل تمر بيع على شجره بتمر كيلاً ، وقد نهي عنه في الحديث لأنه بيع مجازفة من غير كيل ولا وزن . وقد نهي عنه لما يقع فيه من الغبن والجهالة. وذكر ان المزابنة كل جزاف لا يعرف كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود . أو هو بيع معلوم بمجهول من جنسه ، أو هو بيـع مجهول بمجهول من جنسه ، أو هو بيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن، لأن البيّعين إذا وقفا فيه على الغبن ، أراد المغبون أن يفسخ البيع وأراد الغابن أن يمضيه فتزابنا فتدافعا فاختصما [4] .

جمعيات زراعية :

ويظهر من بعض الكتابات ان بعض المقاطعات الزراعية كانت في ادارة مجلس يتألف من ثمانية أشخاص عرفوا بـ (ثمنيتن) ، أي (الثمانية) ، أداروا شؤون المقاطعة من إشراف على العمل ، ومن ادارة لأمور الزروع ، ومن تهيئة للبذور وما يحتاج اليه الزرع ، ومن دفع حصص الحكومة والمعبد ، ومن خزن وبيـع

---

١ عمدة القارىء (١٢/ ٢ وما بعدها) .
٢ عمدة القارىء (١٢/ ١٤) .
٣ ارشاد الساري (٤/ ١٨٠) .
٤ عمدة القارىء (١١/ ٢٩٠ وما بعدهـا) ، (١٢/ ١٣ وما بعدهـا) ، القاموس (٤/ ٢٣٠) ، تاج العروس (٩/ ٢٢٤) ، (زبن) .

وتصريف[1] . فهم هيأة مجلس زراعي لمشروع تعاوني يضم أهـــل تلك المقاطعة ، واجبهم تمشية أمور هذه المؤسسة الزراعية والاشراف عليها ، واعطاء كـــل ذي حق حقه ونصيبه في هذه الجمعية الزراعية التعاونية .

ويظهر ان شيئاً من التخصص ، كان قد وجد في هذه الجمعيات ، فعهدت أمر الادارة إلى رجل عرف بـ (سمخض) ، كان بمثابة مدير للجمعية ، واجبه الاشراف على الأرض التي أوكل أمر ادارتها اليه. أما وظيفته،فعرفت بـ (سمخضت) أي ادارة أرض أو ادارة مقاطعة ، أو (ادارة) بتعبير أصح .

وعرف من تولى أمر جبايـــة الضرائب والاشراف على الموظفين الذين يوكل أعمال الجباية اليهم ، بـ (نحل) ، ويقال لوظيفته (نحلت)[2] . ولا استبعـــد أن تكون (نحلت) ، جماعة جمعت بين أعضائهـــا روابط فكرية واقتصادية . فتعاونت فيما بينهـــا على العمـــل معاً والاشتراك في استغلال حاصل هذا العمل . ودليل ذلك أننا نجد معاجم اللغة تفسر (النحلة) بالديانة [3] ، ولهذا التفسير صلة بما ذهبت اليه من معنى للفظة (نحلت) ، وعلى ذلك يكون الـ (نحل) رئيساً للنحلة ، يشرف عليها ويدفع بالنيابة عنها حق الحكومة والمعبد .

وقد ورد في أحـــد النصوص أن جمعية من هذه الجمعيات الثماني ، كانت تدير أرضين في ضواحي مدينة (هرم) . وقد نعت أعضاؤها بـ (ابعل) ، أي سادة ورؤساء [4] . فهم سادة هذه الجمعية وأصحاب الارادة فيها .

الهروب من الأرض :

وقد جابهت حكومات العربية الجنوبية المشكلة التي تجابه كل حكومة . مشكلة هرب المزارعين من الأرض والالتجاء الى المدن . ففي بعض نصوص المسند الخاصة بالزراعة نجد تهديداً للمزارعين الذين يفرون من المزارع ويجلون عنهـا ، فيلحقون بذلك الأذى بالزراعة وبالحاصل . والواقع أن حياة الفلاح في المزرعة كانت صعبة

---

١ النص الموسوم بـــ Halevy 147

٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 56, Hartmann, Arab. Frage, S. 208, 401, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II,S. 67.

٣ تاج العروس (٨/١٣٠) ، (نحل) .

٤ راجع السطر الاول من النص الموسوم بـــ : Halevy 147.

قاسية ؛ فلا يكاد دخل الفلاح يكفيه مؤونته ومؤونة عياله ، ولا سيا أيام الشدة حين يقل الزرع أو يتعرض للتلف لعوامل عديدة ليس في طاقة الفلاح مكافحتها، فضلاً عن الضرائب الباهظة التي عليه أن يدفعها الى صاحب الأرض والحكومة والمعبد . فلاذ بأذيال الهرب من الأرض الى المدن للاشتغال فيها ، بالرغم من تشديد الحكومة في منع الهجرة وترك المزارع من غير موافقة أصحاب الأرض . وقد عرف الهارب من الأرض والمجلي عنها بـ (مهسجلت) في نصوص المسند [١] .

ويقال للأرض التي يهاجر المهاجر اليها ، وللمكان الذي يفر اليه المزارع من الحضر ليجد فيه رزقاً يبحث عنه (مهجرت) في لغة المسند . أي (المهجرة) ، بمعنى : (المهجر)[٢] .

العمري والرقبى :

ومن عقود أهل الجاهلية : (العمري) و (الرقبى) . والعمري ما يجعل لك طول عمرك أو عمره ، أو هو أن يدفع الرجل الى أخيه داراً ، فيقول له : هذه لك عمرك أو عمري أينا مات دفعت الدار الى أهله . وقد عمرته اياه وأعمرته جعلته له عمرة أو عمري ، أي يسكنها مدة عمره ، فإذا مات عادت الي[٣] . و(الرُقبى)[٤] أن يعطي الانسان انساناً ملكاً كالدار والأرض ونحوهما ، فأيهما مات رجع الملك لورثته . أو ان يجعله لفلان يسكنه ، فإن مات ففلان يسكنه ، فكل واحد منهما يرقب موت صاحبه . وقد أرقبه الرقبى ، وأرقبه الدار جعلها له رقبى[٥] . وللفقهاء كلام في الاثنين[٦] .

ويكون (العمري) و (الرقبى) في الأرض كذلك ، كأن يعطي الرجل رجلاً أرضاً يستغلها طول حياة أحدهما ، فأيهما مات طبقت بحق الأرض ما اتفق عليها من شروط . وقد كانوا يفعلون ذلك بالنسبة للأقرباء والأصدقاء والمقربين لمساعدتهم .

---

١ السطر التاسع والعاشر من النص : REP. EPIGR. 4646

٢ Halevy 147, Rhodokanakis, Stud. Luxl., I, S. 57.

٣ ارشاد الساري (٤/٣٦٤) ، تاج العروس (٣/٤٢١) ، (عمر) .

٤ كبشري

٥ تاج العروس (١/٢٧٥) ، (رقب) .

٦ ارشاد الساري (٤/٣٦٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٤٢١) ، (عمر) .

العرية :

العرية النخلة المعراة . وأعراه النخلة وهب له ثمر عامها [1] . والعرية أيضاً التي تعزل عن المساومة عند بيع النخل ، والتي يعريها صاحبها رجلاً محتاجــاً ، وأن يشتري الرجل النخل ثم يستثني نخلة أو نخلتين ، يقال أعرى فلان فلاناً ثمر نخلة ، إذا أعطاه إياها يأكل رطبها ، وليس في هذا بيع ، وإنما هو فضل ومعروف . فالعرية اذن النخلة عزلتها من المساومة ، والإعراء أن نجعل ثمرتها لمحتاج أو لغير محتاج عامها ذلك ، وقد رخص الرسول في العرايا ، وللفقهاء كلام في ذلك[2] .

---

١ قال سويد بن الصامت الانصاري :

ليست بسنهــاء ولا رجبيـــة ولكن عرايا في السنين الجوائـــح

اللسان (١٥/٤٩) ، (عرا) .

٢ اللسان (١٥/٥٠) ، (عرا) .

الفصل الثامن والتسعون

الحياة الاقتصادية

وأقصد بالحياة الاقتصادية كل ما يتعلق بمفهوم الاقتصاد من معنى ، ما يتعلق منه بالحكومة أو ما يتعلق منه بالشعب . وما يتعلق منه بالتجارة والمال ، أو ما يتعلق منه بالزراعة أو بالصناعة والحرف .

واقتصاد أية أمة ، حاصل أمور عديدة : الجو ، من حر وبرد ، ومن مطر وجفاف ، ومن ثروات طبيعية ، تستنبط من الماء أو التربة ، ومن نشاط وجهد وظروف اجتماعية ، هي من حاصل تأثير المحيط في أهله .

وأدخل هنا في الحياة الاقتصادية ما يشمل التجارة بنوعيها تجارة البر وتجارة البحر ، وما يشمل الزراعة ، ثم ما يشمل الحرف والصناعات .

وتشمل التجارة : الاتجار داخل جزيرة العرب ، أي تعامل أبناء بلاد العرب بعضهم مع بعض ، والاتجار مع الخارج ، أي مع الحكومات الغريبة مثل الهند وحكومات افريقيا والفرس والروم .

لقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب السامية نشطون في عالم التجارة . والتجارة تكاد تكون الحرفة الوحيدة عند العرب التي لم ينظر العربي اليها والى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء وانتقاص . بل اعتبرت عندهم من أشرف الحرف قدراً ومنزلة . ونظر الى التاجر نظرة تقدير وتجلة ، مع أنها حرفة مثل سائر الحرف ، فيها من الحيل والخداع واللعب على الناس ما في أية حرفة أخرى

وفيها عمل وجهد على نحو ما نجد في الزراعة أو في الصناعة. ولكنها نظرة واجتهاد الى الحياة ، وظروف طبيعية ، جعلت العرب تجاراً في الغالب ، فشرفوا التجارة على غيرها من الحرف ، وقدموها عليها في المنازل والدرجات . وقد بقيت على هذه المنزلة والدرجة في الإسلام كذلك . وأشير الى شرفها وسمو منزلتها في كتب الحديث ، مما يدل على ما كان للتجارة من منزلة في نفوس الناس .

والتاجر الذي يبيع ويشتري . ومن المجاز التاجر الحاذق بالأمر ، لما تحتاجه التجارة من ذكاء وحذق في مساومات البيع والشراء . وذكر علماء اللغة ان العرب تسمي بائع الخمر تاجراً ، وان أصل التاجر عندهم الخمّار ، يخصونه من بين التجار[1] . والتجارة صناعة التاجر ، وهو الذي يبيع ويشتري للربح[2] . و (التاجر) هو (مكر) في لغة المسند ، و (تمكرو) في الآشورية[3] .

كان الملوك تجاراً يبيعون ويشترون ، وكان رؤساء المعبد تجاراً يتاجرون باسم معابدهم ، ويكسبون من الضرائب التي تقدم للمعابد كسباً فاحشاً ، وكان أصحاب الأملاك ورؤساء العشائر تجاراً كذلك ، يتاجرون بما يقدمه اليهم من هو دونهم في المنزلة من حاصل وغلة ، ويتاجرون بما يستوردونه من الخارج ، من افريقية أو من الهند ، من حاصلات ثمينة غالية في نظر تجار ذلك اليوم ، لبيعه في الداخل أو نقله الى بلاد الشأم أو العراق لتصريفه في أسواق تلك الجهات .

وفي اللهجات العربية ألفاظ ومصطلحات كثيرة لها صلة بالتجارة وبالتعامل ، وهي من اللغات العالمية الغنية في هذه المادة . ويلاحظ بصورة عامة ان اللهجات السامية غنية كلها تقريباً بالألفاظ المستعملة في البيع والشراء والتعامل والتجارة ، وفيها مترادفات كثيرة في هذا الباب. وكثرة هذه الألفاظ دليل على حذق الساميين عموماً بالتجارة وافتتانهم بها ، وعلى وجود عقلية تجارية لديهم . والتأريخ يؤيد ذلك ، فترى الساميين عموماً ، وهم أنشط من غيرهم ، يتنقلون من مكان الى مكان طمعاً في ربح ، وركضاً وراء تجارة ، وهم من أحذق الناس يومئذ في التحكم في الأسعار وفي التعامل وفي البيع والشراء .

---

١ تاج العروس (٣/٦٦) ، (تجر) .
٢ ارشاد الساري (٤/١٣) .
٣ Grohmann, S. 124.

وفي القرآن الكريم لفظة (تجارة) و (تجارتهم) ومصطلحات أخرى عديدة ذات صلة بالاتجار والتجارة والمعيشة والكسب . كما أن فيه اشارات كثيرة الى تجارة قريش والى أثر التجارة في حياة الناس في ذلك الوقت . وفيه تحريم للربا وتوبيخ وتقريع و « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »[1] . وفيه أمور أخرى توحي الينا بما كان للتجارة من أثر كبير في حياة أولئك الجاهليين . بل نجد القرآن الكريم يحاججهم ويناقشهم ويخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها لغة الربح والخسارة والكسب والثواب والعقاب ، والتأجيل والتعجيل ، وما أشبه ذلك من كلام له أبلغ الوقع والادراك في نفس التاجر ، الذي يعي الناحية المادية من ربح وخسارة وكسب وتوفير ، أكثر من وعيه وادراكه للأمور الروحية التي لا يفهمها كثيراً ، لأنها ليست من صميم حياته ومحيطه العملي .

والتجارة أنواع كثيرة ، تشمل كل أنواع البيع والشراء . والتاجر ، هو الذي يتاجر في الأسواق . غير أن منهم من تخصص في نوع خاص من أنواع التجارة مثل بيع الحبوب ، وقد يتخصص ببيع نوع خاص من الحبوب ، مثل الحنطة ، فيقال له : (حنّاط) وحرفته (الحناطة)[2] . وقد يتخصص ببيع وشراء (البز) ، فيقال له (البزاز) وحرفته (البزازة)[3] . وقد يتخصص ببيع (الزيت) ، فيقال لبائعه (الزيات) وللذي يعتصره (الزيات) كذلك[4] .

وتكون التجارة بالمقايضة ، وهي المعاوضة ، اذا عارض التاجر أو أي شخص متاعاً بمتاع آخر ، وبادل سلعة بسلعة أخرى[5] . وهي الطريقة القديمة في الاتجار ، قبل ان يتعامل بالذهب والفضة وزناً ، في تقييم قيم الأشياء ، وقبل ان تعرف النقود ، التي ولدت من التعامل بالذهب والفضة . وطريقة المقايضة أو المبادلة أو المعاوضة ، لا تزال طريقة قائمة معروفة ، تتبعها الدول ، في تصريف منتجاتها بمنتوجات أخرى عوضاً عن النقد ، لحاجتها الى النقد والى تصريف حاصلاتها

---

١ سورة المطففين ، الآية ١ وما بعدها .
٢ تاج العروس (٢/١٢١) ، (حنط) .
٣ ارشاد الساري (٤/١٣) ، تاج العروس (٤/٨) ، (بزز) .
٤ تاج العروس (١/٥٤٧) ، ، (زيت) .
٥ تاج العروس (٥/٨١) ، (قيض) .

الفائضة عليها . وقد اتبع الجاهليون هذه الطريقة ، فكانوا يبادلون الجلود بسلع أخرى ، ويبادلون التمر بالحنطة[1] . وقد اتبع الجاهليون طريقة التعامل بالذهب والفضة وزناً كذلك ، كما تعاملوا بالنقود .

ويتبين لنا من دراسة كتب التفسير والحديث وكتب الأدب والأخبار والسير انه كان لأهل مكة عرف وضعوه في أصول التجارة يمكن ان نسميه (قانون التجارة) بالنسبة لأهل تلك المدينة ، تكوّن من تجاربهم في الاتجار ومن تعاملهم بعضهم مع بعض ، ومن تجاربهم وتعاملهم مع الخارج ، مثل تعاملهم مع الفرس والروم والحبش ، حيث أخذوا من هؤلاء الأعاجم النظم والقواعد التجارية التي كانوا يسيرون عليها والتي لم تكن معروفة عند أهل مكة ، بسبب اختلاف المحيط وطريقة التعامل التجاري بين الدول . فتجار مكة وأصحاب المال ، هم الذين وضعوا أصول التعامل في التجارة فيما بينهم،وهم الذين كوّنوا بأنفسهم قوانينهم ، إذ لا حكومة منظمة لهم تضع التشريع وتقوم بالتنفيذ على نحو ما كان في العربية الجنوبية أو عند الفرس أو الروم .

ويتبين لنا من دراسة الموارد المذكورة كذلك ، أن أهل مكة كانوا خبراء في أصول تنمية الأموال وفي كيفية استثمارها واستغلالها . فكانت لهم مرابحات وكانت لهم شراكات وتعامل ومراسلات مع غيرهم من أصحاب المال في مختلف أنحاء جزيرة العرب ، وكان لهم ربا ، للحاجة ، أي للشدة والعسر والضيق . أو للتعامل بالمال المقترض بالربا لانمائه في مشاريع اقتصادية تعود بالفائدة على المقترض أكثر من فائدة الربا التي يدفعها للمرابي،حتى ظهر في مكة أناس كانوا يعدّون من كبار الأغنياء بالنسبة لأهل تلك المدينة وبالنسبة لجزيرة العرب في ذلك الوقت.

وفي المسند ألفاظ كثيرة ذات معاني تجارية تتعلق بالبيع والشراء والامتلاك والعقود وهي دليل على أن العرب الجنوبيين كانوا قوماً تجاراً يجنون من التجارة أرباحاً طائلة ، ويعيش الكثير منهم عليها . فكانوا يبيعون ويشترون ويصدرون ويستوردون في الداخل والخارج،يقصدون الأسواق الشهيرة القريبة منهم ، كما يقيمون الأسواق في بلادهم في المواسم أو في أيام معينة من الاسبوع للبيع والشراء ، ولسد حاجاتهم

---

١ تقويم البلدان (٩٩) .

بما يفيض عليهم من حاصل زراعة أو منتوج حيوان يبدلونه مقايضة بما يعوزهم من ضرورات وحاجات .

والتجارة هي (ش ت ي ط) (شتيط) في لغة قتبان . وقد وردت هـذه اللفظة في عدد من النصوص القتبانية ، في أوامر أصدرها ملوك قتبان لتنظيم التجارة وتنظيم الجباية ، وفي كيفية جباية (المكس) عن البضائع التي تباع في الأسواق، وفي العقوبات التي تفرض على المخالفين وعلى المتهربين من دفع جبايـة السوق . وقد حددت القواعد التي يسمح بموجبها للغرباء في الاتجار بأسواق مملكة قتبان ، وفي كيفية اتجار القتبانيين في الأسواق الخارجية .

وفي جملة هذه النصوص نص أصدره الملك (شهـر هلال بن يدع اب) (شهر هلل بن يدع اب) في تنظيم التجارة وفي كيفية الاتجار . وقد نشر على شكل اعلان أو مرسوم ملكي موجه من الملك الى التجار من أهـل قتبان ، والى الغرباء الوافدين عليها للاتجار ، وقد كتب ونشر ليطلع عليه الناس كما تفعل الدول في الوقت الحاضر .

وقد وردت في النص جملة مصطلحات وألفاظ ، لهـا معان تجارية ، مثل (يشط) أي يتاجر ، و (يعرب) من (عرب) بمعنى يقدم عربوناً ويضع عربوناً[1] . ومن أصل (عرب) العرابة والعربون في العربية الشمالية[2] . و (خدر) بمعنى أقام ومقيم ومقيمين ونازلين . وقد ورد في المعجمات اللغوية ان من معانـي هذه اللفظة الاقامة بالمكان[3] . ويقصد بذلك النازلون في مكان ما . ولما كان هذا النص أمراً وقانوناً في تنظيم التجارة ، فقد حدد ما جاء فيه من أوامر ، بالنسبة الى سكان المدينة (تمنـع) وخارجها ، وكذلك مملكة قتبان ، والمقيمين بها ، والوافدين من خارج قتبان للعمل بالأسواق والاتجار . ولذلك وردت هذه الجملة: « ومن يتجر تجارة بتمنع وبخارج تمنع ، فعليه ان يقدم عربوناً الى تمنع ، وان يكون مقيماً بشمر ، وإن آثر قتبان محلاً لاتجاره ، وأراد ان يتجول ليشتري ، فعليه أن يشتري من شمر ... » . فحدد بذلك كيفية الاتجار وحق الاتجار والموضع

---

١ راجع السطر الثامن من النص : REP. EPIGR. 4337.

٢ القاموس (١/١٠٢) ، تاج العروس (٣/٣٣٣ وما بعدها) ، « الكويت » ، (٣/١٧٠ وما بعدها) ، (خدر) .

٣ القاموس (٢/١٨) .

الذي يجب ان يشترى منه بالنسبة الى تجار قتبان والى التجار الغرباء عن تمنع .

وقد حدد هذا القانون حقوق الـ (خدر) ، أي التاجر النازل والمقيم في إمارة (شمر) ، والذي يتجول فيذهب الى قتبان للاتجار فيها والتسوق من أسواقها، ويذهب الى قبائلها لبيع ما عنده اليها أو لشراء ما يحتاج اليه من تجارة منها ، وعليه أن يفعل ذلك ، ولكنه ملزم بأخبار (عهر شمر) ، بذلك ، وذلك لتسوية المشكلات والحسابات التي تتولد من المعاملات التجارية . وقد تطرق النص الى الأضرار التي قد تصيب الأجانب أو القتبانيين ، والى احقاق الحقوق ، ولهذا وضع الملك هذا الأمر . وجاءت في آخر النص هذة الجملة : « وخمسي ورقم » أي « خمسين ورق » . وقد سقطت كلمات قبلها ، فلم يعرف المراد من ذكر هذا الرقم ، أقصد وضع تأمينات بهذا القدر المذكور ، أم قصد جزاء يفرض على المخالفين ، أو غير ذلك .

وهذه القوانين القتبانية ،هي من أقدم وأشهر القوانين التي وصلت الينا باللهجات العربية القديمة في كيفية تنظيم الاتجار والتعامل في السوق وفي تعيين حقوق الحكومة ونصيبها من الأرباح المتأتية من التجارة.وهي دليل ناطق على مقدار عناية القتبانيين بأمور التجارة بالنسبة لذلك الوقت .

التجارة البرية :

والتجارة البرية ، هي عماد تجارة الجاهليين ، ولا سيما الجاهليين القريبين من الاسلام وسندهم الأول في رخائهم وفي كسب ثرواتهم . وعماد هذه التجارة وسندها القوافل . فقد كان الملوك وسادات القبائل والأشراف يرسلون تجاراتهم بقوافل الى مواضع اتجارهم ، فتبيع ما تحمل وتشتري ما تحتاج اليه من تجارة ، لتبيعها في مكان آخر بثمن غال ، ويكسب أصحاب هذه القوافل كسباً حسناً من هذا الاتجار .

والتجارة البرية : إما تجارة داخلية ، أي داخل قطر من أقطار جزيرة العرب وبين أقطارها ، وإما تجارة خارجية ، كانت تتم مع بلاد الشأم والعراق ، أي خارج حدود جزيرة العرب في اصطلاح الجغرافيين المسلمين .

وقد أشير في التوراة وفي الكتابات الآشورية والمؤلفات اليونانية واللاتينية إلى

اتجار العرب مع الخارج ، كما أشير إلى اتجار الآشوريين والفرس والرومان والروم مع العرب ، وإلى طمع الدول الكبرى لعالم ذلك الوقت في جزيرة العرب ، نظراً لما كانوا يسمعونه عن ثرائها وغناها ، ولموقعها الجغرافي المهم الذي يقع بين افريقية وآسية ، ويهيمن على المياه الدافئة ذات المنافع الكبيرة بالنسبة للتجارة العالمية في كل وقت وزمان .

والعربية الجنوبية في كتب اليونان والرومان وفي التوراة، بلاد غنية ذات خيرات وثروات وتجارات وأموال ، قوافلها تخترق جزيرة العرب الى بلاد الشأم والعراق، وفي بلادها الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، تتاجر مع الخارج فتربح بتجارتها هذه كثيراً ، وبذلك اكتنزت المعادن الثمينة المذكورة والأموال النفيسة حتى صارت من أغنى شعوب جزيرة العرب .

وفي (المزامير) أن (شبا) ستعطي (الذهب) لملك العبرانيين في جملة الشعوب التي ستخضع له ، تقدم له الجزية[1] . وورد في (أرميا) أن (شبا) كانت ترسل (اللبان) الى اسرائيل[2] . وقد ذكروا في سفر (حزقيال) في جملة كبار التجار . كانوا يتاجرون بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب[3] . وأشير في (أيوب) الى قوافل (شبا) التي كانت تسير نحو الشمال حتى تبلغ اسرائيل[4] .

وفي هذه الاشارات دلالة على الصلات المستمرة التي كانت بين العبرانيين والسبئيين ، وعلى أن السبئيين كانوا هم الذين يذهبون الى العبرانيين ، يحملون اليهم الذهب والأحجار الكريمة والطيب واللبان . فتبيع قوافلهم ما عندها في أسواق فلسطين ، ثم تعود حاملة ما تحتاج اليه من حاصلات بلاد الشأم ومصر وفلسطين .

ويظهر من سفر (يوئيل) ان السبئيين كانوا يشترون السبي من فلسطين ، من (بني يهوذا) ، حيث جاء فيه تهديد لأهل صور وصيدا بأن رب اسرائيل سينتقم منهم جزاء اعتدائهم على الاسرائيليين ونهبهم ذهبهم وفضتهم . وسيجعلهم عبيداً يباعون في الأسواق إلى السبئيين : « وأبيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا

---

١ المزامير ، المزمور الثاني والسبعون ، الآية ١٥ .
٢ أرمياء ، الاصحاح السادس ، الآية ٢٠ .
٣ حزقيال ، الاصحاح السابع والعشرون ، الآية ٢٢ وما بعدها .
٤ أيوب ، الاصحاح السادس ، الآية ١٩ .

تبيعونهم للسبئيين ، لأمة بعيدة ، لأن الرب قد تكلم » . مما يدل على انهم كانوا من المشترين للرقيق ، ينقلونه الى بلادهم للاستفادة منهم في مختلف نواحي الحياة، يتخذون النساء الجميلات زوجات لهم ، ويتخذون البشعات والقويات للخدمة ، ويعهدون للرجال بالأعمال المختلفة التي تحتاج إلى ذكاء ومهارة وفن واتقان، وبأعمال أخرى صناعية وزراعية ، وأمثال ذلك .

وقد أشير الى ثراء السبئيين وامتلاكهم للذهب والفضة في بعض الكتابات الآشورية ، فذكر (تغلاتبليزر) الثالث مثلاً أنه أخذ الجزية من السبئيين،أخذها ذهباً وفضة وإبلاً : جمالاً ونوقاً ولباناً وبخوراً من جميع الأنواع ، كما ذكر (سرجون) أنه أخذ الجزية من (يثع أمر) ملك سبأ ، أخذها ذهباً وخيلاً وجمالاً ومن مصنوعات الجبال[1] .

وقد سبق لي أن تحدثت عن هذا الموضوع في أثناء حديثي عن صلات الآشوريين مع العرب ، وعندي أن هذه الجزية التي دفعت الى الآشوريين ، قد تكون جزية بالمعنى المفهوم من اللفظة ، أي نتيجة قهر وإكراه وخضوع لحكم الآشوريين وهزيمة لحقت بالسبئيين في حرب أو حروب وقعت مع الآشوريين ، وقد تكون بمعنى ضريبة دفعها السبئيون الى الآشوريين في مقابل السماح لهم بالاتجار في أسواق الحكومة الآشورية،فهي ضرائب يدفعها التجار أو تدفعها الحكومات الى الحكومات الأخرى في مقابل السماح لها بالاتجار معها ، وفتح أبواب أسواقها لرعاياها ، للبيع والشراء .

وفي كتب اليونان واللاتين تأييد واتفاق تام مع ما جاء في التوراة عن ثراء السبئيين ، وعن امتلاكهم الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وقد بالغت في ذلك مبالغة أخرجتها من حدود الواقع الى الخيال . فنسبوا لهم استعمال الأثاث المصنوع من الذهب والأواني المستعملة من الذهب والفضة ، وغير ذلك مما أخرج وصفهم من حدود المعقول وأدخله في عالم القصص والأساطير .

وقد بالغ (سترابو) في وصف ثراء السبئيين بسبب اتجارهم بنوع من العطور الزكية ، دعاها باسم (اللارم) Larimum وبالمواد الأخرى النفيسة ، وذكر انه كانت « لديهم كميات كبيرة من مصوغات الذهب والفضة ، كالأسرّة والموائد

---

١ Hastings, p. 842.

الصغيرة ، والآنية والكؤوس ، أضف اليها فخامة منازلهم الرائعة ، فإن الأبواب والجدران والسقوف مختلفة الألوان بما يرصع فيها من العاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة »[1] .

وقد كانت هذه الشهرة من أهم العوامل التي دفعت بالقيصر (أغسطس) إلى ارسال حملته المشهورة المخفقة على اليمن . وهاك ما كتبه المؤرخ (بلينيوس) Pliny عن ثروة العرب وعن تجارتهم ، لترى ما كان ماثلاً في مخيلة الرومان واليونان عن العرب . قال : « ومن الغرابة ان نقول : إن نصف هذه القبائل التي تفوق الحصر ، يشتغل بالتجارة ، أو يعيش على النهب وقطع الطرق . والعرب أغنى أمم العالم طراً ، لتدفق الثروة من روما وبارثيا اليهم ، وتكدسها بين أيديهم . فهم يبيعون ما يحصلون عليه من البحر ومن غاباتهم . ولا يشترون شيئاً مقابل ذلك »[2] .

وقد أشار (بلينيوس) إلى ان المعينين كانوا يملكون أرضاً غنية خصبة ، يكثر فيها النخيل والأشجار ، وكان لهم قطعان كثيرة من الماشية ، وان السبئيين كانوا أعظم القبائل ثروة بما تنتجه غاباتهم الغنية بالأشجار من عطور وبما يملكونه من مناجم الذهب والأرضين المزروعة المرواة ، وما ينتجونه من العسل وشمع العسل . كما كانوا ينتجون العطور[3] .

وقد عدّ (سترابو) العسل في جملة المحصولات التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، وذكر انه كثير جداً فيها[4] .

وقد كان العرب الجنوبيون يتاجرون مع بلاد الشأم ، فيرسلون اليها قوافلهم مارة بالحجاز الى أسواق بلاد الشأم بالطرق البرية التي لا يزال الناس يسلكونها حتى اليوم مع شيء من التحوير والتغيير . وقد عثر على كتابة دونها كبيران شكرا فيها الإله (عثتر) ، لأنه نجاهما مع قافلتهما من الحرب التي كانت قد وقعت بين (مصر) وبين (مذي) ، فوصلا معها سالمين الى مدينة (قرنو) ، أي

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٦٢) ، (١٩٥٢) .
٢ مجلة المجمع العلمي العراقي (ج ١ م ٣ ص ١٢٩) .
٣ مجلة المجمع العلمي العراقي (الجزء الاول : المجلد الثالث) ، (١٩٥٤ م) (ص ١٣٩) .
٤ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٤٧) .

عاصمة (معين) . وقد ورد أنهما كانا يتاجران مع (مصر) و (اشر)، أي (آشور) ، و (عـــبر نهرن) (عبر نهران)[1] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن هذه الكتابة تشير الى حرب وقعت فيما بين السنة (٢٢٠) والسنة (٢٠٥) قبل الميلاد . أي في عهد (البطالمة) ، وأن تلك الحرب كانت بين (الميديين) الذين أشير اليهم بـ (مذى) وبين (البطالمة) الذين أشير اليهم بـ (مصر)، لأنهم حكام مصر ، أو الحرب التي وقعت فيما بين (السلوقيين) وبين (البطالمة)، والتي أدت الى الاستيلاء على (غزة) سنة (٢١٧) قبل الميلاد . وقد كان العرب الجنوبيون يتاجرون مع هذه المدينة التي تعتبر الميناء الذي يؤدي بالتجار الى موانىء مصر[2] .

وقد كانت (البتراء) أي (سلع) Sela ، أهم عقدة طرق يمر بها المعينيون والسبئيون . ومنها يتجه طريق نحو البحر الميت ، لمن يريد الاتجار مع بلاد الشأم وطريق آخر ينتهي بغزة ، لمن يريد الاتجار مع هذا الميناء المهم ، الذي بقي العرب يتاجرون معه الى أيام الرسول . وقد كان (هاشم بن عبد مناف) ممن يتــاجر معه ، وبه توفي كما تذكر الأخبار .

وقد كان الذهب في رأس السلع التي حملها تجار العرب إلى الآشوريين وحكومات العراق وبلاد الشأم،وفي التوراة ذكر للذهب الذي كان يجلبه العرب إلى العبرانيين، وقد أشرت إلى ما ذكره الكتبة اليونان عن الذهب عند العـرب ، ولعلهم كانوا يحملون الفضة اليهم كذلك . فقد كانت للفضة مناجم في جزيرة العرب. وقد ورد في أخبار أهل الأخبار ان (أبا سفيان) كان قد حمل فضة كثيرة معه لبيعها في أسواق بلاد الشأم ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد ، فلا يستبعد تصدير العرب للفضة لبيعها في تلك الأسواق في ذلك العهد .

أما منتوجات الحديد أو مصنوعات معادن أخرى ، فلا نجد لها ذكراً في قائمة السلع التي كان يحملها التجار العرب إلى الخارج ، بل يظهر ان أهــل جزيرة العرب ، كانوا هم الذين يستوردون مصنوعات المعادن من الخارج إلى جزيرتهم ،

---

١ REP. EPIGR. 3022, J. Pirenne, Paléographie des Inscriptions Sud-Arabes, I, (1956), p. 211.

٢ Die Araber, I, S. 74. f.

فنجد في الأخبار انهم كانوا يفتخرون بالسيوف الهندوانية ، أي المصنوعة بالهند ، أو المعمولة من حديد هندي ، أو المعمولة على طراز سيوف الهند . وقد عثر المنقبون على مصنوعات معدنية ، تبين للبهم انها من مصنوعات الرومان والروم ، مما يدل على انها قد استوردت من الخارج ، أو ان العمال والمشتغلين في الصناعات المعدنية ، كانوا قد رأوا تلك النماذج فعملوا على محاكاتها وصنع أمثالها . ونظراً لتأخر الصناعة عند الجاهليين ، وإلى نظرتهم الازدرائية اليها واحتقارهم لمن كان يشتغل بها ، فلا يعقل ان تجد مصنوعاتهم المعدنية مكانة لها بين المنتوجات المماثلة لها في الأسواق الخارجية . لهذا اقتصرت صادرات جزيرة العرب إلى الخارج على المواد الخام ، المتيسرة في بلاد العرب ، أو المستوردة من افريقية أو من الهند ومن وراء بلاد الهند ، وأهمها العطور والطيب والجلود .

وكان (الطيب) ، من أهم المواد التي تاجر بها العرب الجنوبيون . تاجروا بتصديره الى خارج العربية الجنوبية الى بلاد الشأم ومصر والعراق وتاجروا به في الداخل أي في العربية الجنوبية ، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد عرف (الطيب) بـ (طب) (طيب) في لغة المسند[1] . ويستخرج الطيب من أنواع متعددة من الأشجار ، ويجلب بعضه من الخارج من الهند وافريقية ، ويصدر الى مصر وأسواق بلاد الشأم والعراق .

والبخور من المواد الثمينة ذات السعر العالي بالنسبة لتجارة ذلك الوقت . والبخور ما يتبخر به ، وثياب مبخرة مطيبة[2] . وقد كانوا يحرقون البخور في المباخر ، ويبخرون به المعابد والأصنام ، كما كانوا يبخرون الضيوف ، ويطيبون ثيابهم به . ومنه (القسط) ، وهو عود هندي يتبخر به ، يجاء به من الهند ، يجعل في البخور والدواء . ويوجد قسط عربي . وورد (قسط اظفار) ، قيل هو ضرب من الطيب ، وقيل من العود[3] . وعندي أنه (قسط ظفار) ، نسبة الى (ظفار) قرب مرباط بالعربية الجنوبية ، وتعرف بـ (ظفار الساحل)، نسب اليها العود الذي يتبخر به لأنه يجلب اليها من الهند ، ومنها الى اليمن ، كنسبة الرماح الى (الخط) ، فإنه لا ينبت به ، وإنما تجلب من الهند[4] . وقد أشير

١ Müller, Biblische Studien, III, S. 85.

٢ تاج العروس (٣/٣٢) ، (بخر) .

٣ تاج العروس (٥/٢٠٥) ، (قسط) .

٤ تاج العروس (٣/٣٧٠) ، (ظفر) .

الى (العود) في الحديث . ورد : عليكم بالعود الهندي . وقيل هو القسط البحري[1].

و (المسك) من أنواع الطيب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم[2] ، ويحفظ عادة في قوارير ، وهو من الطيب الثمين الذي يباع بأثمان غالية . وكانت العرب تسميه (المشموم) . ويذكر علماء اللغة أن اللفظة معربة،عربت من أصل فارسي هو (مشك)[3] . ورد في الحديث أطيب الطيب المسك . واستعملوه في الطب ، عالجوا به جملة أمراض[4] .

والعنبر من المواد التي تذكر بعد المسك في العربية ، وللأخباريين آراء في أصل العنبر ، وأجوده ما يجلب من شحر عمان[5] .

و (المرّ) ، وهو (امرر) في المسند ، من المواد الثمينة الغالية في قائمة المنتجات العربية التي تباع داخل البلاد العربية وخارجها ، وقد أقبل العبرانيون والمصريون على استيراده وشرائه لاستعماله في الأغراض الدينية ، فاستعمل في المعابد وفي التحنيط ، واستعمل في جملة الأجزاء التي تدخل في الدهن المقدس[6] . وذكر علماء اللغة ان (المر) كالصبر ، دواء سمي به لمرارته . وقد عالجوا به جملة أمراض[7] .

و (الصبر) عصارة شجر مرّ ، وأجوده (السقطرى) ، ويعرف أيضاً بالصبارة [8] .

وأما (القرفة) ، فإنها من المواد الثمينة كذلك ، وتنبت في جزيرة (سيلان) بصورة خاصة . وتقشر ويستعمل قشرها ، أو يستعمل دهنها الحاصل من ثمرها في بعض الأحيان[9] . ويرى علماء اللغة ان (القرفة) ضرب من (الدار الصيني) ، وهو أنواع ، منه (الدار صيني) الحقيقي ، ومنه المعروف بـ (قرفة القرنفل)[10] .

---

١ تاج العروس (٢/٤٣٧) ، (عود) .
٢ سورة المطففين ، الآية ٢٦ .
٣ تاج العروس (٧/١٧٦) ، (مسك) .
٤ تاج العروس (٧/١٧٦ وما بعدها) ، (مسك) .
٥ تاج العروس (٣/١٢٦) ، (العنبر) ، الاشارة الى محاسن التجارة . (ص ١٩ وما بعدها) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٢٦) ، Hastings, p. 639.
٧ تاج العروس (٣/٥٣٧) ، (مرر) .
٨ تاج العروس (٣/٣٢٥) ، (صبر) .
٩ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢١٢) ، Hastings, p. 786.
١٠ تاج العروس (٦/٢١٩) ، (قرف) .

و (القرنفل) من المواد المستوردة من الهند وما وراءها . وقد استعملوه طيباً، كما عالجوا به ، وطيبوا به الأكل . وقد أشير اليه في شعر لأمرىء القيس،حيث أشار الى رائحته الطيبة ، وأشير اليه في شعر لعمرو بن كلثوم[١] .

وقد ذكر (الكافور) في القرآن الكريم : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً »[٢] . وفي ذلك دلالة على معرفة العرب به ووقوف قريش عليه واستعمالها له . وذكر أن الكافور ، طيب ، أو أخلاط من الطيب تركب من كافور الطلع ، وقيل يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين[٣] .

وأما (قصب (الذريرة) ، فهو (قليمتن) ، أي (القليمة) في المسند، وهو (قصب الطيب)[٤] . و (الذرور) عطر يجاء به من الهند ، كالذريرة ، وهو ما انتحت من قصب الطيب ، وقيل هو نوع من الطيب مجموع من أخلاط. وبه فسر حديث عائشة : طيبت رسول الله لاحرامه بذريرة [٥] .

و (السليخة) نوع من الـ Cassia ، أي قشرة تؤخذ من شجرة القرفة ، أو من أشجارها[٦] . وذكر علماء اللغة أن السليخة عطر ، وكأنه قشر منسلخ ، ودهن ثمر البان قبل أن يربب بأفاويه الطيب ، فإذا ربب بالمسك والطيب ثم اعتصر ، فهو منشوش . أي اختلط الدهن بروائح الطيب[٧] .

و (الكندر) ضرب من العلك ، وقيل هو اللبان ، وقد عولج به[٨] . و (اللبان) ، مشهور في العربية الجنوبية ، وهو من حاصل الهند والعربية الجنوبية وافريقية ، وهو ضرب من الصمغ ، وذكر انه الكندر . وانه يصنع من عصير جملة أنواع من الشجيرات ، ويستخرج من عصير يستنبط بشق قشر الشجيرة ،

---

١ قال عمرو بن كلثوم :

كأن المسك نكهته بفيها … وريح قرنفل والياسمينا

تاج العروس (٧٩/٨) ، (القرنفل) .

٢ سورة الدهر ، الآية ٥ .

٣ تاج العروس (٥٢٧/٣) ، (كفر) .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢١٦/٢) ، Hastings, p. 786.

٥ تاج العروس (٢٢٣/٣) ، (ذر) .

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢٦٢/٢) ، Hastings, p. 119.

٧ تاج العروس (٢٦٢/٢) ، (سلخ) .

٨ تاج العروس (٥٢٩/٣) ، (الكندر) .

وتجفيف العصير . وقد استخدم في المعابد . وأشير في سفري (أشعياء)[1] ، و (أرمياء)[2] ، إلى ان العبرانيين كانوا يستوردونه من (شبا) ، أي من أرض (سبأ) ، وأشهره من شحر عمان . وأحسنه ما يجمع من موضع تجمعه قبل سقوطه على الأرض ، أو تلوثه بمادة غريبة قد تتساقط عليه[3] .

ولفظة (الكندر) من أصل أعجمي هو Cunduru ، وهو من الألفاظ (السنسكريتية) . فيظهر ان الكلمة دخلت العربية من الهند[4] .

وقد كانت في المعابد مخازن تجمع فيها أصناف الطيب والمر والبخور ، وذلك للتصدير والبيع . وقد كانت تقوم بمهمة وسيط في البيع والشراء ، تبيع ما تخزنه وتحصل بذلك على عمولة تستفيد منها وتدر عليها أرباحاً طائلة جداً ، تثري منها. وهكذا نجد المعابد وهي تكاد تحتكر تلك المواد وتنفرد ببيعها إلى التجار[5] .

ويقسم الطيب إلى ذكور الطيب وإلى إناثه . وذكور الطيب ما يصلح للرجال دون النساء نحو المسك والعنبر والعود والكافور والغالية والذريرة . وعرف هذا النوع بـ (ذكارة الطيب) . والمؤنث طيب النساء ، كالخلوق والزعفران[6] . وورد ان (الغالية) ، طيب عرف في زمن (معاوية) ، وذلك ان (عبدالله ابن جعفر) دخل عليه ورائحة الطيب تفوح منه ، فقال له ما طيبك يا عبدالله ؟ فقال : مسك وعنبر جمع بينهما دهن بان . فقال معاوية : غالية أي ذات ثمن غال . وقيل أول من سمّاها بذلك (سليمان بن عبد الملك) ، وانما سميت لأنها أخلاط تغلي على النار مع بعضها[7] . والخلوق من طيب النساء،يتخذ من الزعفران وغيره ، وتغلب عليه الحمرة والصفرة . وقد نهي عنه ، لأنه من طيب النساء[8].

---

١ أشعياء ، الاصحاح ٦٠ ، الآية ٦ .
٢ أرمياء ، الاصحاح ٦ ، الآية ٢ .
٣ تاج العروس (٣٢٩/٩) ، (لبن) ، الاشارة الى محاسن التجارة (ص ٢٢) .
٤ W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 633.
٥ Rhodokanakis, Stud. Lexd., I, S. 6.
٦ اللسان (٣١٠/٤) ، (ذكر) .
٧ تاج العروس (٢٧٠/١٠) ، (غلى) .
٨ تاج العروس (٣٣٧/٦) ، (خلق) .

قوافل سبأ :

وقد أشير في التوراة الى قوافل سبأ ، وهي قوافل كانت تسير من العربية الجنوبية مخترقة العربية الغربية الى فلسطين ، فتبيع ما تحمله من سلع هناك . وقد كان السبئيون يسيطرون على العربية الغربية ، حتى بلغت حدود مملكتهم أرض فلسطين . ولم تشر التوراة الى وجود قوافل بحرية وسفن للسبئين في البحر الأحمر ، تتاجر مع فلسطين ومصر ، ولم نعثر على كتابات بالمسند تشير اليها ، لذلك ، فليس في استطاعتنا التحدث عن التجارة البحرية للسبئين مع بلاد الشأم .

سارت حكومة سبأ على سياسة التوسع التجاري ، وهذا التوسع يقتضي السيطرة على الطرق،فبذلت جهدها لبسط سلطانها على الطرق والمسالك وجعلها تحت نفوذها وحكمها . وبعد استيلائها على بقية الحكومات العربية الجنوبية الأخرى وضعت الطرق الجنوبية المؤدية الى أرض اللبان والمواد الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، والى الموانىء والمرافىء التي تتاجر مع إفريقية والهند وتستورد منها السلع النفيسة الثمينة تحت نفوذها وحكمها ، وحسنتها وشقت طرقاً جديدة لأغراض حربية واقتصادية ، وبلطت بعض مواضع منها لتقاوم السيول والأمطار ، وأحكمت جوانبها وحصنتها بالحجارة الصلدة حتى تقاوم السيول التي تنحدر من المرتفعات على هذه الطرق فلا تلحق الأذى بها . ولا تزال آثار تلك الطرق باقية ، وقد كتب عنها السياح .

واتجهت نحو السيطرة على الطرق البرية المؤدية الى بلاد الشأم . ولهذه الطرق أهمية كبيرة بالنسبة الى اليمن والعربية الجنوبية . وهي طرق موازية للطريق البحرية الممتدة في البحر الأحمر ، ولها شأن خطير في التجارة العالمية . وقد أسست مواضع حراسة ، لحراسة القوافل من قطاع الطرق ومن تحرش القبائل بها ، ولعل أهل يثرب الذين يرجعون نسبهم الى اليمن ، هم من الرجال الذين غرسهم السبئيون في هذا المكان لحماية قوافلهم التي تذهب الى بلاد الشأم .

ووجه السبئيون أنظارهم نحو العراق وموانىء الخليج العربي كذلك،فاستخدموا الطريق الممتدة من نجران الى (السليل) ومن هناك الى الخليج والعراق[1] .

---

1 Rhodokanakis, Altsab. Texte., S. 9, W. H. Irvine Shakespear, in the Geogr. Journal, LIX., No. 5, (1922), p. 321.

وتوجد آثار طرق جاهلية مبلطة تبليطاً حسناً وأخرى ممهدة تمهيداً فنياً . وقد أنشىء بعضها في أرض جبلية وفي أرضين وعرة ، وذلك باستعمال الآلات بمهارة فائقة في قطع الصخور لانشاء هذه الممرات . وقد زفّت بعض هذه الطرق وغطي بطبقة من الاسفلت ، ووضعت عليها صُوى ترشد المارة ، ولما كانت الطرق الطويلة المبلطة تبليطاً فنياً تحتاج إلى نفقات طائلة وإلى أيد عاملة كثيرة وإلى حكومة كبيرة غنية ، لم يكن من الممكن يومئذ فتح طرق طويلة ممهدة تخترق جزيرة العرب ، على شكل الطرق التي أنشأها الرومان في امبراطوريتهم ، لسير القوات العسكرية عليها والتجارات فاقتصر على إقامة الطرق الضرورية القصيرة التي توصل المدن والقرى بالمواضع المهمة [1] .

وقد كان اعتماد التجار على الحيوانات ولا سيما الجمل في نقل تجارتهم . أما العربات فلم تكن مستخدمة في أغراض تجارية في جزيرة العرب . ولم ترد إشارات اليها في نصوص المسند ، ولا في النصوص الجاهلية الأخرى ، ولا في أخبار أهل الأخبار . وقد ظل اعتماد التجار وأصحاب القوافل على الحيوانات طوال العهود الإسلامية الى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد ، ففيه أخذ في تمهيد الطرق لسير وسائل النقل الحديثة عليها، فأخذت تنافس تلك الوسائل القديمة ، وستقضي عليها في المستقبل بالبداهة .

والتجارة هي التي نقلت بعض الكتابات الشمالية إلى العربية الجنوبية ، وأدخلت الكتابة الثمودية والكتابة النبطية إلى اليمن . وأصحاب الكتابتين من الشعوب المقيمة في العربية الشمالية كما هو معروف. فكتاباتهم لم تأت إلى هنا قافزة متخطية المسافة، بل جاءت مع أصحابها التجار الذين قصدوا هذه الأماكن للاتجار ، ومن بينهم من سكن فيها واختلط بأهلها ومات فيها . وقد كتبوا فيها الكتابات التي عثر عليها بعض العلماء في أماكن متعددة من خرائب اليمن ، وقد يعثر على عدد منها وعلى كتابات أخرى . قد يكون من بينها كتابات بلغات أعجمية في المستقبل بعد قيام بعثات الحفر بالتنقيب هناك .

١ Sabaeica, I, p. 78.

الفصل التاسع والتسعون

ركوب البحر

والبحر في رأي علماء العربية الماء الكثير ، ملحاً كان أو عذباً ، وقد غلب على الملح فقط ، حتى قلّ في العذب . وهو خلاف البر[1] . وأطلق أهل العربية الجنوبية على البحر اللفظة نفسها التي نطلقها عليه ، فيقولون (بحرم) أي بحر . وقد ذكر البحر في معاهدة التآخي والأخوة (تاخين) التي عقدت في القرن الرابع للميلاد بين ملك الحبشة (جدرت) والملك (يدع اب غيلان) ملك حضرموت ، لمقاومة ملك سبأ وذي ريدان[2] . وذكر في النص المعروف بنص (أبنة) ، حيث ورد : « وكل الت ذ بحرم ويبسم ومشرقم ومعربم » : ومعناه الحرفي : «وكل آلهة البحر واليابسة والمشرق والمغرب » . وقد ذهب (رودوكناكس) الى أن لفظة البحر تعني الجنوب ، وأن لفظة (يبسم) (يابس) (يَبْس) (يابسة) تعني الشمال ، وأن معنى الجملة المذكورة: «وكل آلهة الجنوب والشمال والمغرب»[3]. وقد وردت اللفظة بمعنى (بحر) في نص « Glaser 830 » ، حيث جاء : «ببحرم ويبسم وكل تشعث وزبد »[4] ، أي « ببحر ويابسة وكل العطايا والهدايا » .

---

١ تاج العروس (٢٧/٣) ، (بحر) .

٢ السطر الخامس عشر والسادس عشر من النص : Glaser 850.

٣ Rhodokanakis, Studi. Lexi., II, S. 10, 166.

٤ السطر الخامس عشر من النص ، Rhodokanakis, II, S. 10, Mordtmann, Himj. Inschri., S. 21.

ووردت لفظة (اليم) في القرآن الكريم[1]، ويراد بها البحر. وقد ذكر بعض علماء اللغة انها لغة سريانية[2]. وفي اللغة العربية ألفاظ أخرى مرادفة للبحر أيضاً، منها (القَلَمَّس)، و (الدأماء)، و (الكافر)، و (الخنبل)، و (الخضم)، و (العَيْلم)، وغير ذلك من ألفاظ ترد في كتب اللغة[3].

ولجزيرة العرب سواحل طويلة تحيط بها من جميع جهاتها الثلاث، أما حدها الشمالي فهو أرض تتصل بالعراق وببلاد الشأم. وقد عرف أهل السواحل البحر وعركوه، وعملوا على استغلال ثرواته قدر طاقتهم، وتعاملوا مع أهل السفن الذين كانوا يقصدونها من مسافات بعيدة، وركب جمع منهم السفن، للاتجار مع السواحل المقابلة لهم. فباعوا في أسواقها واشتروا، وقد أظهر أهل السواحل العربية الجنوبية والشرقية نشاطاً في ركوب البحر، لا نجده عند أهل السواحل الغربية، على ما يتبين من روايات أهل الأخبار.

ولتكوين رأي عن مدى وقوف الجاهليين على البحار وعلى مدى توغلهم فيها، وركوبهم أمواجها للتجارة أو للاستيطان في مواطن جديدة غريبة، لا بد لنا من الرجوع إلى مراجع لنستحلب منها مادة نكوّن منها علمنا عن هذا الموضوع. والآثار هي أول ما يجب الرجوع اليه لاستخلاص هذه المادة، ولكنها ويا للأسف شحيحة، ليس فيها شيء كاف منها. وأما الموارد الأعجمية، مثل الموارد المدونة باليونانية واللاتينية والسريانية، فلم تتحرش بموضوع العرب والبحار وبتجارتهم في البحر. وأما الموارد الاسلامية، فهي بخيلة، ليس فيها ما يفيدنا عن العرب والبحر غير نزر يسير يفيد، ان أهل الجاهلية، كانوا يكرهون ركوب البحر، ويتهيبون منه، وانهم لم يكونوا يملكون سفناً لعبوره، حتى ان المهاجرين الأولين من المسلمين، لما هربوا من مكة إلى الحبشة، ركبوا سفناً بدائية حبشية، أوصلتهم إلى الحبشة، وان الخليفة (عمر) كان يتهيب ركوب البحر، وكان يوصي قوّاده بتجنيب جيوشهم مخاطره، والابتعاد عنه قدر الامكان، وبضرورة وضع أرض آمنة وراء الجيش ليكون في وسعهم الرجوع اليها عند المهالك والمآزق[4].

---

١ طه، الآية ٣٩، ٧٨، ٩٢، القصص، الآية ٧، الاعراف، الآية ١٣٥.

٢ المخصص (١٠/١٦٣)، تاج العروس (٩/١١٤)، (يمم)، اللسان (٤/٤٢)، (بحر).

٣ راجع الالفاظ المذكورة في كتب اللغة والمعجمات.

٤ ارشاد الساري (٤/١٤ وما بعدها).

وانه لمّا كتب إلى (عمرو بن العاص) ، يسأله عن البحر ، فقال : خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ، دود على عود . كتب اليه (عمر) أن لا يركبه أحد طول حياته ، فلـما كان بعد (عمر) لم يزل يركب حتى كان زمن (عمر بن عبد العزيز) ، فاتبع فيه رأي (عمر) . وكان منع عمر شفقة على المسلمين[1] .

وقد عرف العربي عند الأعاجم ببغضه للبحر وبخوفه منه وبابتعاده عنه . ورد في حكم (أحيقار) : « لا تُرِ العربي البحر ، ولا تُرِ الصيدوني (الصيداني) الصحراء »[2] . وذلك لاشتهار العربي عندهم بسكنه في البوادي وبابتعاده عن البحر ولاشتهار أهل (صيدا) بركوبه وبقهر أمواجه .

وإذا كنا قد فشلنا في الحصول على صورة مفصلة واضحة عن العرب والبحر من الموارد التي أشرت اليها ، وهي مادة المؤرخ في حصوله على مادته التأريخية، فليس لنا من سبيل لتكوين صورة ولو باهتة عن الموضوع ، سوى الرجوع الى اللغة نستلهم من ألفاظها المتعلقة بالبحر وبوسائل ركوبه ، ما فات وروده في تلك المصادر . فاللغة كما نعلم مظهر من مظاهر الحياة العقلية والعملية لكل أمة ، وهي لم تخلق دفعة واحدة،ولم يأخذها الخلف عن السلف كاملة ، وإنما خلقت بالتدريج وعلى قدر الحاجة ، فإذا ظهرت أشياء جديدة خلق المتكلمون بها لها ألفاظاً جديدة وإذا اندثرت أشياء ، فقد تندثر ألفاظها . واللغة مثل الناطقين بها في حياة وموت مستمرين . وإذا حصرنا الألفاظ التي أطلقها الجاهليون على البحر وعلى وسائل ركوبه وعلى ما فيه ، نستطيع اذن أن نعرف ماذا كانوا يعرفونه عنه وماذا كانوا يجهلون من أمره .

فلنأخذ الألفاظ المتعلقة بالبحر اذن سنداً لنا ، من لغتنا العربية نستنبط منهـا علم الجاهليين به ، مع العلم بأن هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لا يمكن أن تؤدي المهمة على أحسن وجه ، لأنها لغة أهل برّ ، وليس لأهل البر علم أهل الساحل به . والأحرى بنا الاستعانة بلغات أهل السواحل في مثل هذه الدراسة ، لكننا لا نملك نصوصاً جاهلية مدوّنة بها ، حتى نستنبط منها ما نريد ، وليس في لهجات المسند عن البحر سوى نزر يسير ،ولكننا ما دمنا لا نملك وسيلة للإحاطة

---

١ ارشاد الساري (١٥/٤) .

٢ A. T. Olmstead, History of the Persian Empire, p. 326.

بعلم الجاهليين بالبحر سوى دراسة هذه اللغة ، فما علينا إلا أن نتتبع ما جاء فيها عنه ، وفي هذا الذي سنقف عليه تصوير لرأي المتكلمين بها بالبحر،وهو تصوير يمثل رأي أهل البرّ عنه .

يقال لشاطىء البحر (الساحل) في عربية القرآن الكريم ، وهو بمعنى ريف البحر وشاطئه[1] . وقد وردت اللفظة في كتاب الله[2] . وقد خصصت هذه اللفظة بالبحر ، أما شط النهر ، فقد عرف بـ (الشاطىء)[3] . ويقال للساحل أيضاً (السيف) و (سيف البحر)[4] . وذكر علماء اللغة ان (العيقة) ساحل البحر وناحيته[5] ، وان (العدّان) ، موضع كل ساحل . وقيل هو الساحل نفسه[6] . وذكر ان « السيف ساحل الوادي ، أو لكل ساحل سيف ، وانما يقال ذلك لسيف عمان »[7] . وورد ان (الطف) و (الطفطاف) ساحل البحر[8] .

و (القاموس) ، بمعنى معظم ماء البحر ، أو البحر ، أو أبعد موضع فيه غوراً ، ووسط البحر[9] ، ولجة البحر ، معظم البحر ، ومنه بحر لجي[10] ، و (الشرم) ، لجة البحر ، وقيل موضع ، وقيل هو أبعد قعره ، أو الخليج منه . وقد ذكر (أمية بن أبي الصلت (الشروم) في وصفه جهنم :

فتسمو لا يغيبها ضراء ولا تخبو فتبردها الشروم

والشرم ، مرسى من مراسي خليج السويس ، بينها ستة مراحل[11] .

و (العوطب) ، لجة البحر ، أو المطمئن بين الموجتين ، أو أعمق موضع

---

١ القاموس (٣/٢٩٤) ، (سحل) ، تاج العروس (٧/٣٧١) ، (سحل) .
٢ سورة طه ، الآية ٣٩ .
٣ المخصص (١٠/٣٠) ، القاموس (٣/٣٦٨) ، تاج العروس (١/٨٠) ، (شطأ) .
٤ القاموس (٣/١٥٦) ، المخصص (١٠/٢٠) .
٥ القاموس (٣/٢٧٥) ، تاج العروس (٧/٢٧٥) ، تاج العروس (٧/٣١) ، (عيق) .
٦ القاموس (٤/٢٤٧) ، تاج العروس (٩/٢٧٥) ، (عدن) .
٧ تاج العروس (٦/١٤٩) ، (سيف) .
٨ تاج العروس (٦/١٨٢) ، (طفف) .
٩ القاموس (٢/٢٤٣) ، تاج العروس (٤/٢٢٣) ، (قمس) .
١٠ القاموس (١/٢٠٥) ، تاج العروس (٢/٩٢) ، (لج) .
١١ تاج العروس (٨/٣٥٧) ، (شرم) .

في البحر[1] ، و (الدردور) موضع في البحر يجيش ماؤه ، قلما تسلم منه السفينة، ويخاف منه الغرق[2] . و (الخليج) ، وهو من البحر ، سمي بذلك لأنـــه يجذب من معظم البحر[3] ، والخور الخليج من البحر ، وقيل مصب المـــاء في البحر ، وقيل مصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض ، وقيل : عنق من البحر يدخل في الأرض[4] ، والغبُّ الضارب من البحر حتّى يمعن في البر[5] .

وذكر علماء اللغة أن الجزيرة إنما سُمّيت جزيرة لانقطاعها عن معظم الأرض أو لما جزر عنه[6] . و (البضيع) ، الجزيرة في البحر ، والبحر نفسه[7] . وأما (الدبر) ، فقطعة تغلظ في البحر كالجزيرة يعلوها الماء وينضب عنها[8] .

والسفينة هي واسطة النقل على وجه الماء في الأنهار وفي البحـــار . وهي من الكلمات المعروفة في عربيتنا ، وقد أشير اليها في شعر عمرو بن كلثوم :

ملأنا البرّ حتّى ضاق عنّا ومـوج البحر نملؤه سفينا[9]

وقد وردت لفظة (سفينة) و (السفينة) في القرآن الكريم[10] ، ويدل ذلك على انهـــا من الألفاظ الّتي كانت معروفة ومستعملة بهذا المعنى في أيام ظهور الاسلام .

وعبر عن السفينة بلفظة أخرى هي (الفُلك) ، وتقـع على الواحد والاثنين والجمع . وقد وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم[11] . كما يعبر عنهـــا

---

١ القاموس (١/١٠٦) ، تاج العروس (١/٣٨٧) ، (عطب) .
٢ تاج العروس (٣/٢٠٥) ، (در) .
٣ القاموس (١/١٨٦) ، تاج العروس (٢/٣٤) ، (خلج) .
٤ تاج العروس (٣/١٩٢) ، (خار) .
٥ القاموس (١/١٠٩) ، تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .
٦ المخصص (١٠/١١) ، القاموس (١/٣٨٩) ، تاج العروس (٣/٩٨) ، (جزر) .
٧ القاموس (٢/٦) ، تاج العروس (٥/٢٧٨) ، (بضع) .
٨ القاموس (٢/٢٦) ، تاج العروس (٣/١٩٨) ، (دبر) .
٩ اللسان (١٣/٢٠٩ وما بعدها) ، (سفن) ، تاج العروس (٩/٢٣٦) ، (سفن) .
١٠ الكهف ، الآية ٧٢ ، ٨٠ ، العنكبوت ، الآية ١٥ .
١١ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (٥٢٦) ، اللسان (١٠/٤٧٩) .

بـ (مركب) ، والجمع مراكب[1] . ولو ان المركب كلمة عامة تطلق على كل ما يركب عليه ، فالدواب هي مركب أيضاً لمن يركبها ، غير ان (المركب) السفينة على سبيل التغليب والاصطلاح. وقد عبر القرآن الكريم عن السفن والمراكب بلفظة (الجاريات) و (الجوار) ، و(الجارية) كما في هذه الآية : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » ، وكما في هذه الآية : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » ، وفي مواضع أخرى[2] . و (الجارية) المركب أيضاً ، صفة غالبة لأنها تجري على الماء[3] .

وقد وردت لفظة (الفُلك) بصورة خاصة تعبيراً عن سفينة نوح الواردة في الطوفان . ويذكر بعض المفسرين أن السفينة ، أي (الفُلك) ، كانت مصنوعة من خشب الساج ، وكانت (ذات ألواح ودُسُر) ، أي أن ألواحها قد التصقت بعضها ببعض بـ (دسر) وهي المسامير[4] .

وورد في القرآن الكريم : « والفلك التي تجري في البحر »[5] . وورد في الشعر :

جَوافِلَ في السراب كما استقلت فلوك البحر زال بها الشرير

والفلوك هنا جمع (الفلك) ، وأما الشرير ، فشجر البحر[6] . ويظهر من هنا أن (الفلك) هي سفينة من سفن البحر . وهي من السفن الكبيرة . وقد ورد في القرآن أيضاً (في الفلك المشحون) أي السفينة المشحونة المملوءة كما ورد : « حتى إذا كنتم في الفُلك وجرين بهم بريح طيبة » . وفي هذه الآية معنى مهم ، يدل على إحاطة الجاهليين بالبحر وركوبهم فيه ، وتسييرهم لها بفعل الرياح . وقد وردت في القرآن الكريم إشارات الى صنع الفلك والى سيرها مواخر في البحر .

---

١ اللسان (٨/٢٩٢) .
٢ سورة الشورى ، الآية ٣٢ ، والرحمن ، الآية ٢٤ ، والحاقة ، الآية ١١ ، اللسان (٨/٢٩٢) ، شمس العلوم (حـ ١ ق ٧ ص ٣١٨) ، القاموس (٤/٣١٢) .
٣ تاج العروس (١٠/٧٢) ، (جرى) .
٤ قصص الانبياء (ص ٣٤) ، تاج العروس (٣/٣١٦) ، (دسر) ، Ency., II, p. 117.
٥ البقرة ، الآية ١٦٤ .
٦ المخصص (١٠/٢٣) ، القاموس (٢/٥٧) .

ويقال للسفينة : (البارجة) أيضاً ، والجمع (البوارج) . وذكر انها السفن الكبار ، وانها سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال[1] .

و (القرقور) : ضرب من السفن ، وقيل : هي السفينة العظيمة أو الطويلة . والقرقور من أطول السفن . وجمعه قراقير . وفي الحديث : « فاذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ ركب شهداء البحر في قراقير من درّ »[2] .

و (الخليّة) العظيمة من السفن ، والجمع خلايا . قال طرفة :

كأنّ حدوج المالكية ، غدوة خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

وقال الأعشى :

يَكُبُّ الخليّة ذات القلاع وقد كاد جؤجؤها ينحطم[3]

وقيل هي التي يتبعها زورق صغير[4] .

وذكر ان من أسماء السفن الكبيرة (الخلج) . وقيل انها دون العدولية . وأما (الصلفة) فسفينة كبيرة ، و (الزنبرية) نوع من أنواع السفن الكبيرة [5] . و (القادس) : السفينة العظيمة ، وقيل صنف من أصناف المراكب ، أو لوح من ألواحها [6] .

وقد ضرب (لبيد بن ربيعة العامري) مثلاً بسفينة (الهندي) في طولها وعرضها وفي إحكام عملها ، عملها صانعها من صفائح مشبوحة ودهنها وسدّ المسافات التي تكون بين صفائح الخشب حتّى لا ينفذ منها ماء البحر[7] . مما يدل بالطبع على وقوفه عليها وعلى شهرة تلك السفن في تلك الأيام .

---

١ اللسان (٢/٢١٣) ، القاموس (١/١٧٨) ، تاج العروس (٢/٧) ، (برج) ، المخصص (١٠/٢٦) .
٢ اللسان (٥/٩١) .
٣ اللسان (١٤/٢٤١) ، تاج العروس (١٠/١١٩) ، (خلا) .
٤ تاج العروس (١٠/١١٩) ، (خلا) ، القاموس (٤/٣٢٥) .
٥ المخصص (١٠/٢٥ وما بعدها) .
٦ القاموس (٢/٢٣٩) ، تاج العروس (٤/٢١٣) ، (قدس) .
٧ شرح ديوان لبيد (ص ١٤٢) .

وقد أشار بعض الكتبة من اليونان واللاتين[1] الى نوع من السفن دعوه « Madarata » ، ذكروا أن ميناء (عمانه) « Omana » كان قد اشتهر ببنائه . وقد صنعت هذه السفن من الألواح المشدودة بالليف . وقد رأى بعض الباحثين أن هذه اللفظة من أصل عربي ، هو (مدرّعات) ، ويراد بها السفن المشدودة بدروع النخل . ورأى آخرون أنها من أصل « Mabarata » جمع (معبر) من أسماء السفن في لغة بني (إرم)[1].

وذكر علماء اللغة أن (المِعْبَر) ما عبر به النهر من فلك أو قنطرة أو غيره ، والمعبرة سفينة يعبر بها النهر[2] . فالمعابر إذن من الوسائل المستعملة في عبور النهر على ما يظهر من شرح أولئك العلماء .

وقريب من هذا الوصف وصف نوع من السفن عرف بـ (العمائم) . ذكر علماء العربية أنه : عيدان مشدودة تركب في البحر ويعبر عليها[3] . وهو نوع بدائي بالطبع لا يمكن أن يقارن بالسفن التي كانت عند الرومان واليونان . و (الطوف) قرب ينفخ فيها ويشد بعضها الى بعض ، فتجعل كهيئة السطح يركب عليها في الماء ويحمل عليها الميرة والناس ، ويعبر عليها ، وهو الرمث . وربما كان من خشب والجمع أطواف . وذكر بعض العلماء أن الطوف التي يعبر عليها الأنهار الكبار تسوى من القصب والعيدان يشدّ بعضها فوق بعض ، ثم يقمط بالقمط حتى يؤمن انحلالها ثم تركب ويعبر عليها ، وربما حمل عليها الحمل على قدر قوته وثخانته ، ويسمى : (العامة)[4] .

والرمث خشب يضم بعضه إلى بعض كالطوف ويركب عليه في البحر . وفي الحديث ان رجلاً أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنا نركب أرماثاً لنا في البحر ولا ماء معنا ، أفنتوضأ بماء البحر . فقال : هو الطهور ماؤه الحل ميتته . قال أبو صخر الهذلي :

---

١ العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، تأليف جورج فضلو حوراني ، وترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (ص ٦٠ وما بعدها) .

٢ اللسان (٤/٥٣٠) ، (عبر) .

٣ اللسان (١٢/٤٢٥) ، القاموس (٤/١٥٤) ، تاج العروس (٦/١٨٤) ، المخصص (١٠/٧٩) .

٤ تاج العروس (٦/١٨٤) ، (طوف) ، القاموس (٣/١٧٠) .

تمنيت من حبّي عُليَّةَ أننا على رمثٍ في الشرم ليس لنا وفر[1]

وذكر علماء العربية اسم نوع من السفن قالوا له : (البوصي) . وقالوا انه فارسي معرب ، وان الكلمة وردت في شعرٍ للأعشى[2] . وذُكر ان (البوصي) الملاح ، وقيل الزورق ، وان الكلمة معربة (بوزي)[3] .

وذهب بعض علماء اللغة إلى ان (العدولية) الواردة في قول طرفة بن العبد :

عدوليّة أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاّح طوراً ويهتدي

سفناً منسوبة إلى قرية بالبحرين يقال لها (عدولي) ، أو إلى قوم كانوا ينزلون هجر ، أو إلى عدول ، رجل كان يتخذ السفن[4] . ولا يستبعد ان يكون مراد الشاعر من السفن (العدولية) ، السفن القادمة من ميناء (أدولس) (عدولي) ميناء تجاري على ساحل الحبشة اشتهر بالتجارة قبل الاسلام .

ويظهر من شعر طرفة المذكور ، ان رجلاً اسمه (ابن يامين) كان تاجراً يملك سفناً ، وأن سفنه كانت تمخر العباب . وذكر أيضاً أنه كان بحاراً ، وورد (ابن نبتل) بدلاً من (ابن يامين)[5] .

وذكر علماء اللغة أن من أسماء المراكب المائية الصغيرة : الزورق والقارب والركوة . والزورق ، السفينة الصغيرة ، وقيل هو القارب الصغير[6] . و(الركوة) زورق صغير[7] .

وقد عرفت السفن المستعملة في القتال بأسماء خاصة ، منها البارجة ، وهي سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال[8] .

---

١ تاج العروس (١/٦٢٥) ، (رمث) ، القاموس (١/١٦٢) ، (رمث) .

٢ مثل الفراتي ، اذا ما طما يقذف بالبوصي والماهر
تاج العروس (٤/٣٧٦) ، القاموس (٢/٢٩٦) ، المخصص (١٠/٢٣) ، بلوغ الارب (٢/٣٦٧) .

٣ تاج العروس (٤/٣٧٦) ، اللسان (٧/٩) .

٤ القاموس (٤/١٤) ، تاج العروس (٨/١١) ، (عدل) ، بلوغ الارب (٣/٣٦٥) .

٥ بلوغ الارب (٣/٢٦٥ وما بعدها) .

٦ تاج العروس (٦/٣٦٩) ، (زرق) .

٧ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) .

٨ المخصص (١٠/٢٦) ، القاموس (١/١٧٨) ، تاج العروس (٢/٧) .

والشراع هو (ماكنة) السفينة وقوتها المحركة الدافعة لها . ويقال له (القِلع) أيضاً [1] ، وجلّ كذلك [2] . وقد ذكر علماء اللغة ، أن الشراع كالملاءة الواسعة فوق خشبة من ثوب أو حصير مربوع وتر على أربع قوى ، تصفقه الريح فيمضي بالسفينة [3] . ويظهر من هذا الوصف أن أشرعة أهل الجاهلية كانت بسيطة ، ولم تكن متداخلة كأشرعة الروم . والشراع البسيط على النحو المذكور ، يكون ضعيفاً فاتر الهمة لا يتمكن من دفع السفن الكبيرة ، بل وقد لا يتمكن حتى من دفع السفن الصغيرة بسرعة ، بسبب صغر حجمه ، ثم إنه لا يتمكن من الاستفادة من قوة الريح ، ومن استخدام هذه القوة في توجيه السفينة بسرعة نحو هدفها ، والسير بها في عرض البحر ، بينما يتمكن الشراع المكون من عدة أقلعة ، من الاستفادة من الريح ، ومن دفع السفينة دفعاً سريعاً ، ومن حملها الى عرض البحر ، فيقلص من المسافات ويبعدها عن أخطار لصوص البحر ، ولذلك لم تتمكن سفن أهل الجاهلية من مواجهة سفن الروم ومن تحديها ، حين دخلت سفنهم البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط .

والدقل : سهم السفينة ، وهو خشبة طويلة تشد في وسط السفينة ، يمد عليها الشراع [4] . والجؤجؤ : صدر السفينة [5] ، و (المرنحة) : صدر السفينة كذلك [6] ، وعرف (الدقل) بـ (الدوقل) كذلك ، وتسميه البحرية (الصاري) [7] . و (الصاري) الملاّح أيضاً ، لحفظه السفينة [8] . و (القب) ، رأس الدقل ، و (القرية) ، خشبة مربعة على رأس القب [9] .

وأما الذي يعدل اتجاه السفن ويغير من اتجاهها ، فهو (السُكّان) ، وهو (الكوثل) أيضاً . وذكر أيضاً ان (السُكّان) ما تُسكّن به السفينة تمنع به

---

١ بالكسر ، اللسان (٨/٢٩٢) ، القاموس (٣/٧٤) .
٢ اللسان (١١/١٢١) ، (والجل بالفتح : الشراع) ، تاج العروس (٧/٢٦٠) ، (جلل) .
٣ تاج العروس (٥/٣٩٥) ، (شرع) .
٤ تاج العروس (٧/٣٢٣) ، (دقل) .
٥ تاج العروس (١/٤٩) ، (جأجأ) .
٦ تاج العروس (٢/١٤٧) ، (رنح) .
٧ اللسان (١١/٢٤٦) ، تاج العروس (٧/٣٢٣) ، (دقل) .
٨ تاج العروس (١٠/٢٠٩) ، (صرى) .
٩ اللسان (٢/٤٥٥) ، تاج العروس (٢/١٤٧) ، (رنح) .

من الحركة والاضطراب[1] . وذكر بعض علماء العربية ان (الكوثل) مؤخر السفينة، وفيه يكون الملاحون ومتاعهم[2] . والأغلب انه (السُكّان) ، ويعبر عنه بـ (الخيزرانة) كذلك[3] . وبلفظة أخرى هي (الدويطرة) . وقد عرفت بأنها كوثل السفينة[4] .

ويعرف سكان السفينة بـ (الخيزرانة) وبـ (الخيزران) . قال النابغة يصف الفرات وقت مدّه :

يظل من خوفه الملاّح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد[5]

ويستعمل الملاحون (المجاديف) (المجاذيف) في تجديف السفينة[6] . و (المجداف) خشبة رأسها لوح عريض تدفع بها[7] . ويقال له (المقذف) و (المقذاف) أيضاً[8] . ولم يتطرق علماء اللغة ولا أهل الأخبار إلى عدد (مجاديف) السفينة الواحدة ، أي إلى عدد رجالها الذين كانوا يجدفون بالمجاديف . فالسفن الكبيرة الضخمة تحتاج إلى عدد من المجدفين ، قد يبلغون العشرات . وقد كانت سفن الروم ، ذات طابقين بالنسبة للمجدفين ، فيجلس عدد منهم في الطابق الأسفل ، ويجلس فوقهم عدد آخر من المجدفين ، لتسير السفينة بسرعة ، وقد استخدموا هذه الطريقة في سفنهم الحربية بصورة خاصة ، لأنها سفن ، يجب ان تعتمد على السرعة وعلى خفة الحركة لتتمكن من التغلب على سفن الأعداء .

وأما (المُردي) ، فخشبة يدفع بها الملاّح السفينة . وذلك كي يحركها عند

---

١ اللسان (١٣/٢١١) ، قال طرفة :

كسكان بوصي بدجلة مصعد .

٢ اللسان (١١/٥٨٣ وما بعدها) .

٣ قال الاعشى :

من الخوف كوثلها يلتزم

اللسان (١١/٥٨٤) .

٤ اللسان (١١/٥٨٤) ، (٢/٤٥٥) .

٥ اللسان (٤/٢٣٨) .

٦ بالدال والذال جميعا ، لغتان فصيحتان .

٧ اللسان (٩/٢٣) .

٨ اللسان (٩/٢٧٧) ، القاموس (٣/١٢٢) ، تاج العروس (٦/٥٤) ، (جدف) ، (٦/٢١٨) ، (قذف) .

الشواطىء والسواحل حيث تكون المياه ضحلة [1] . والقيقلان خشبة يدفع بها السفينة أيضاً [2] .

ويقال للذي يشتغل في السفينة ويعمل على تسيرها (الملاّح) ، ويقال له (صار) و (الصاري) أيضاً [3] . وحرفته (الملاحة) . ويقال للملاّح : (السفّان) كذلك ، وهو الـذي يشتغل في السفن ، ويعبر عنه بـ (النوتي) [4] . والجمع (نوتية) و (نَوّاتين) . « وفي حديث علي ، كرم الله وجهه : كأنه قلع داريّ عنجه نوتية » . وورد أن (النوتي) البحار ، وهو من كلام أهل الشأم [5] ، واللفظة من أصل يوناني [6] .

و (الربّان) ، أو (ربان السفينة) ، هو قائدها الذي يجريها . ويرى علماء اللغة أنها دخيلة معربة [7] .

ويقال للموضع الذي ترفأ اليه السفن (المرفأ) . من أصل (رفأ) بمعنى أدنى . وورد في حديث (تميم الداري) : « أنهم ركبوا البحر ثم أرفأوا الى جزيرة » [8] . ويعبر عن (المرفأ) بلفظة (الكلاّء) و (المُكلا) أيضاً . لأنه يكلأ السفن من الريح ، وذلك بحبس السفن فيه لحمايتها من الريح ولإنزال ما فيها ، وأخذ ما فيه من تجارة وناس [9] . ويقال للمرفأ (الميناء) كذلك ، وعرفوه بأنه الموضع الذي ترفأ فيه السفن [10] . كما يقال له : (فرضة)

---

١ اللسان (٣/٤٠٢) ، القاموس (٤/٣٣٤) ، تاج العروس (١٠/١٤٨) .
٢ بلوغ الارب (٣/٣٦٦) .
٣ اللسان (١١/١٢١) ، (١٤/٤٦٠) .
٤ اللسان (٢/٦٠٠ وما بعدها) .
٥ اللسان (٢/١٠١) .
٦ غرائب اللغة (٢٧١) .
٧ اللسان (١٣/١٧٥) .
٨ اللسان (١/٨٧) ، « وفي حديث أبي هريرة في القيامة ، فتكون الارض كالسفينة المرفأة في البحر تضربها الامواج » ، تاج العروس (١/٧١) ، (رفأ) .
٩ اللسان (١/١٤٦) ، تاج العروس (١/١١٢) ، (كلأ) ، « سوق الكلا » بالبصرة ، موضع يكلئون سفنهم به ، أي يحبسونها .
١٠ اللسان (١٣/٤٢٦) ، (ميني) ، كل مرسى السفن ، تاج العروس (٩/٣٥٥) ، (مأن) .

و (فرضة البحر)[1] و (المَرْساة) ، البقعة التي ترسو فيها السفينة[2] .

ومن مصطلحات السفن في العربية ، الشحن ، فيقال شُحنت السفينة شحناً بمعنى ملئت ، ومخرت السفينة ، أي جرت[3] . وحبت السفينة ، أي جرت[4] ، وجنحت السفينة جنوحاً إذا انتهت إلى الماء القليل فلزقت بالأرض فلم تمض ، وجمحت جموحاً إذا تركت قصدها فلم يضبطها الملاحون ، ويقال ماهت السفينة إذا دخل فيها الماء ، ورست وأرست ، إذا بلغ أسفلها القعر فثبتت، وإذا أرسيت وسخرت أطاعت وطاب لها السير ، وحدرت السفينة أحدرها، وتقاذفت في البحر جرت ، وشجّت البحر قطعته[5] . وهناك مصطلحات عديدة أخرى يشير ورودها في اللغة إلى معرفة في البحر وفي استخدام السفن في البحار .

وعند دنوّ السفينة من الأماكن التي تريدها ، ترسو في مرفأ لتفرغ حمولتها أو لتحميلها أو لتزود بما تحتاج اليه من زاد وطعام ، فتلقي بمراسيها في المرفأ تثبيتاً لها فلا تتحرك ولا تأخذها الأمواج ولا الرياح . ويسمي الملاحون المِرساة (الأنجر) ، ويكون من الخشب الصلب الثقيل أو حديداً أو حجراً كبيراً ، وقد يكون على شكل كرة ، وقد يكون على شكل مربع أو مستطيل ، أو على شكل (خطّاف) ، أو حديد محجن[6] . فإذا أرادت السفينة الرسو أنزل إلى الماء ليستقر على القاع فتثبت السفينة[7] . وقد وصف (الأنجر) ، انه خشبات يخالف بينها وبين رؤوسها وتشدّ أوساطها في موضع واحد ، ثم يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة ، ورؤوس الخشب ناتئة تشد بها الحبال وترسل في الماء إذا رست السفينة ، تعريب لنكر من أصل فارسي[8] .

وقد ذكر علماء اللغة أن (السبابجة) ، هم قوم من السند يستأجرون ليقاتلوا ، وكانوا قوماً جلاوزة وحرّاس السجن في البصرة أيام الإسلام . وكان رئيس السفينة

---

١ اللسان (٧/٢٠٦) .
٢ القاموس (٤/٣٣٤) ، تاج العروس (١٠/١٤٩) ، (رسا) .
٣ القاموس (٢/١٣١) ، (نحر) .
٤ تاج العروس (١٠/٨١) ، (حبو) .
٥ المخصص (١٠/٢٣ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٣/٥٥٧) ، (نجر) .
٧ تاج العروس (١٠/١٤٩) ، (رسا) .
٨ تاج العروس (٣/٥٥٧) ، (نجر) .

البحرية يستأجرهم ليكونوا معه يبذرقونها ، أي يخفرونها ويقاتلون من يتصدى لها بسوء [1] . وقد كانت بالأبلة التي عاشت قبل البصرة جاليات جاءت اليها من الهند، فقد كان الاتجار بين الهند وجنوبي العراق وسواحل جزيرة العرب اتجاراً قديماً ، وقد أقامت جاليات أخرى منها في مواضع من هذه السواحل ، وقد أشرت الى عثور العلماء على هياكل بشرية بأرض عمان ، تمثل (الدرافيديين) ، أي سكان الهند القدامى ، والى وجود أثر للملامح هندية في سكان ساحل عمان تظهر عليهم حتى اليوم .

وصناعة السفن الكبيرة تحتاج الى أخشاب صلدة قوية والى مسامير من حديد تستعمل في ربط الألواح والأخشاب بعضها ببعض ، والى أيدي فنية عاملة ، وعلم بهندسة بناء السفن . ولم تتيسر هذه الأشياء في جزيرة العرب . فالخشب الصالح لبناء السفن غير موجود في أكثر أنحائها ، ولهذا اقتصرت صناعة السفن على السفن الصغيرة في الغالب ، وهي سفن ليس في مقدورها اختراق آفاق البحار الكبيرة والمحيطات ، والتجول بحرية في أية ناحية كانت من نواحي البحر الواسعة. ولم يكن لها إلاّ السير في محاذاة السواحل ، وهو سير يكلفها كثيراً ، فعلى السفن أن تقطع مسافات طويلة معرضة نفسها لمخاطر الاصطدام بالصخور الكامنة في المياه ولهجمات لصوص البحر الجائعين وللجوء الى مراسي كثيرة طلباً للماء العذب والزاد، ولتمضية وقت طويل ، على حين لا تحتاج السفن الكبيرة الى كل ذلك ، فهي قادرة بفضل متانتها وقوة صنعها من اختصار المسافات وتقصير الوقت وحماية نفسها من هجمات لصوص البحر باستخدام الرياح البحرية ، وقطع البحر باستقامة وبحُرية الى أي ميناء يريده الربان .

وكان على أصحاب معامل السفن العرب استيراد الخشب القوي الصالح لبناء السفن من الخارج ، أو شراء السفن جاهزة من الأسواق الخارجية ، وفي كلتا الحالتين يتكلف المشتغلون بالتجارة البحرية تكلفاً باهظاً ، ويكونون عالة في قوتهم وفي أعمالهم على الخارج . وهذا ما سهّل للرومان واليونان والفرس مزاحمة الدول العربية الجنوبية في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي ، ومن إنزال خسائر فادحة في ثروة العرب ، أثرت أثراً كبيراً في الأوضاع السياسية والاقتصادية لجزيرة العرب،

---

١ اللسان (٢/٢٩٤) ، (١٠/١٤) .

كما أثرت عليها من الناحية العسكرية إذ جعلت السواحل مكشوفة مفتوحة من الوجهة الحربية فأنزلت الدول الكبرى في مواضع منها قواتاً لحماية مصالحها التجارية وقوافلها البحرية وذلك قبل الميلاد وبعد الميلاد إلى ظهور الاسلام .

والساج من أثمن الأخشاب وأنفسها في صناعة السفن، فهو خشب مقاوم صلب، وقد استورد من الهند[1] . ويظهر انه هو الخشب الذي ذكر (ثيوفراستوس) « Theophrastus » ، انه كان بجزيرة (تيلوس) « Tylus » ؛ ويقصد بها البحرين، والخشب الذي كان في ميناء (عمانة) عمان الذي أشار اليه صاحب مؤلف (الطواف حول البحر الأريتري) ، والذي ذكر انه خشب مستورد من ميناء (بريجازا) بالهند[2] .

وقد صنع الجاهليون سفنهم وقواربهم بأيديهم ، مستعينين بالخشب المستورد وبالخشب المحلي . صنعوها في مواضع متعددة من سواحل جزيرة العرب، ولا سيما على سواحل الخليج ، حيث تيسر لسكانها استيراد الخشب الصالح لبناء السفن من الهند . وهي صناعة لا تزال حية ، إلا ان الهرم بدأ يظهر عليها ، وأخذت تتقلص ، وأوشكت على توديع الدنيا ، لتراكم الأمراض عليها ، ولعجزها عن مد نفسها بمقومات الحياة الملائمة لعصر السرعة .

وتتكون السفن الكبيرة الجيدة من سقائف ، وهي ألواح السفينة . وكل لوح سقيفة[3] . وقيل إن اللوح من ألواح السفينة ، هو القادس[4] . وأما ما بين كل خشبتين من السفينة ، فيقال له الطائق[5] . وتخرز السفن بالليف ، ويجعل في خللها القار[6] . والجلفاظ الذي يجلفظ السفن ، وهو أن يدخل بين مسامير الألواح ، وخروزها مُشاقة الكتان ، ويمسحه بالزفت والقار[7] . وقد تطلى السفن بالقار ، وتدسر . ويراد بالدسر المسامير لغاية التسمير والتدسير[8] . ويقال للموضع الذي يجتمع

---

١ القاموس (١/١٩٥) ، تاج العروس (٢/٦١) .
٢ حوراني (ص ٢٤٤ وما بعدها) .
٣ القاموس (٣/١٥٢) .
٤ القاموس (٢/٢٣٩) ، تاج العروس (٤/٢١٣) .
٥ القاموس (٣/٢٦٠) ، « طوق » .
٦ المخصص (١٠/٢٥ وما بعدها) ، القاموس (٢/١٢٤) ، تاج العروس (٣/٥١٢) .
٧ القاموس (٢/٣٩٤) ، القاموس (٢/٣٥٣) .
٨ القاموس (٢/٢٩) ، تاج العروس (٣/٢٠٦) .

فيه الماء الراشح جمّة المركب[1] .

ولم ترد في نصوص المسند المصورة صورة سفينة نهتدي بها الى معرفة أشكال السفن عند العرب الجاهليين . كذلك لم يعثر المنقبون حتى الآن على صورة لها في النصوص التي ظُفر بها في أماكن أخرى من جزيرة العرب . ولا يستبعد أن تكون سفن العرب أنواعاً متعددة ، بحسب أغراضها ووفرة الخشب الصالح لبناء السفن، وعلى قدر اختلاط سكان سواحل الجزيرة بغيرهم من أصحاب السفن . ولا أستبعد أن يكون أهل العربية الجنوبية والعربية الشرقية قد تأثروا بصناعة السفن اليونانية والساسانية والهندية والافريقيــة لاختلاطهم بهم ، ومجيء سفن هؤلاء الى مراسي السواحل العربيــة ، ولتمكنهم من شراء الخشب الصلد الصالح لبناء السفن من افريقية والهند .

ولم تتمكن سفن ذلك اليوم ، وحتى أعظمها وأكبرها من مناطحـــة عواصف البحار ومقاومة أمواجها ، فكثرت أمراضها وعللهـــا ، وفي جملتها الخروق التي كانت تصيب مواضع اتصال ألواحها ، فتفكك أوصالها فتهلك، ويتعرض أصحابها إلى خسائر كبيرة . أضف إلى ذلك تعرضها إلى تحرش لصوص البحر بها ، الذين كانوا يترصدون السفن ، فإذا وجدوا فرصة مناسبة ، هاجموها لأخذ ما قد يقع في أيديهم من حمولتها النفيسة . ولهذا كانت أجور نقـــل التجارة بالسفن عالية ، لتعوض عن خسائر السرقة والغرق ، ثم إن أجواف تلك السفن كانت صغيرة ، لا تتحمل حملاً كثيراً ، فصار أصحابها لا يحمّلونها إلا السلع الغالية التي لا تحتاج الى مكان كبير والتي تتحمل أرباحها دفع الأجور الغالية عن نقلهـــا الى المواضع التي يراد ايصالها اليها .

ولا يتسع هذا المكان لذكر كل الألفاظ والمصطلحات التي لها علاقة بالبحر ، فهناك أسماء لمختلف أنواع السفن ، وأسمـــاء أدوات كثيرة استعملت في السفن ، وأسماء للساحل وللجزر وللنباتات البحرية وغير ذلك وردت في كتب اللغة ، واليها يجب ان يرجع من يريد المزيد من هذه الألفاظ والمصطلحات ، غير ان علينا ان ننتبه الى ان في هذه المصطلحات ، مصطلحات عديدة دخلت العربية في الاسلام .

وتفيدنا هذه الألفاظ والمصطلحات فائدة كبيرة في الوقوف على مدى تأثر البحرية

---

١ القاموس (٤/٩١) .

العربية الجاهلية بالبحرية الأجنبية ، وذلك بدراسة أصول هذه الألفاظ والمصطلحات لمعرفة المكان الذي جاءت منه والشعب الذي موّن البحّارة العرب بها .

ونجد في مصطلحات البحر ألفاظاً يونانية ، وألفاظاً لاتينية ، وألفاظاً فارسية ، وألفاظاً حبشية،ودخول هذه الألفاظ اللهجات العربية دليل على تأثر البحرية العربية ببحرية تلك الأمم واتصالها بها وأخذها منها . وقد أشار علماء اللغة الى أصول بعض هذه الألفاظ ، فذكروا انها أعجمية . ولمّا كان علمهم باللغات الأعجمية غير الفارسية محدوداً ، لم يتمكنوا من تشخيص أصول بعض المصطلحات المعربة عن اليونانية أو اللاتينية أو الحبشية أو الهندية ، فرجعوها الى أصل فارسي في الغالب، وهي ليست من الفارسية في شيء .

ولم يرد في الكتابات الجاهلية ما يفيد بدخول أهل العربية الغربية البحار ، والأخبار الإسلامية لا تشير الى ذلك أيضاً ، بل الذي يفهم منها أن أهل الحجاز لم يكن لهم نصيب في البحر ، وأنهم كانوا يركبون البحر في سفن حبشية توصلهم الى السواحل الافريقية للاتجار هناك . ولما خرج المسلمون الأولون مهاجرين الى الحبشة ، انتهوا الى (الشعيبة) ، فوجدوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما الى أرض الحبشة بنصف دينار[1] . و (الشعيبة) ، مرسى السفن من ساحل بحر الحجاز ، وكان مرسى مكة قبل جدة[2] .

ونجد في خبر عودة المهاجرين من الحبشة ، أنهم حملوا في سفينتين ، حملهم عليهما النجاشي . أي أن السفينتين كانتا من سفن الحبش[3] . ولم يرد في الخبر ، اسم الموضع الذي أبحروا فيه منه الى الحجاز،ولا اسم المرسى الذي رست السفينتان فيه ، واتجه المسلمون منه الى يثرب .

ويظهر أن تلك السفن كانت صغيرة مكشوفة الجوانب ولم تكن تتسع لعدد كبير من المسافرين ، حتى أن حركات المسافرين كانت تؤثر فيها . روي أن (جعفر بن أبي طالب) ، سأل رسول الله كيف نصلي في السفينة إذا ركبنا في البحر ، فقال : صلّ قائماً إلا أن تخاف الغرق ، أو يصلي قائماً إلاّ أن يضر بأهلها . وصلى أنس في السفينة جالساً[4] .

---

١ الطبري (٢/٣٢٩) .
٢ تاج العروس (١/٣٢١) ، (شعب) .
٣ الروض الانف (٢/٢٥٠ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١/٢١٥) .

ومما يؤسف له أن أهل الأخبار لم يذكروا أسماء المواضع التي كان يتاجر معها العرب على السواحل الافريقية المقابلة ، ولم يذكروا حتى أسماء المرافىء التي نزل بها المهاجرون المسلمون الأولون من مكة على ساحل الحبشة ، ولا اسم الموضع الذي نزل به وفد (قريش) الى الحبشة ، الذي جاء لتحريض الحبش على من هاجر اليهم من المسلمين ، ولم يذكروا كذلك اسم الموضع الذي أبحر منه المسلمون للعودة الى الحجاز ، يوم أرسل الرسول (عمرو بن أمية الضمري) ليعود بهم الى يثرب ، ولا اسم الموضع الذي نزلوا به من ساحل الحجاز[1] .

١ الروض الانف (٢/ ٢٥٠ وما بعدها) .

الفصل المئة

التجارة البحرية

وليس في كتابات المسند التي وصلت الينا شيء عن التجارة البحرية . ولا يعقل بالطبع ألا يكون لسكان سواحل جزيرة العرب علم بالبحر ، والا تكون لهم سفن مهما كان حجمها ، كانوا يركبونها في اتجارهم مع افريقية ومع بلاد الهند وايران . فقد علمنا أن العرب الجنوبيين كانوا قد أقاموا دولة (اكسوم) في الحبشة . وقد رأينا أن من المستشرقين من يرى أن أصل كلمة (حبشت) (حبشة) ، من أصل عربي ، وأن (الحبشة) أرض في العربية الجنوبية في الأصل ، منها هاجر الحبش ، سكان تلك الأرض ، وهم من العرب فنزلوا بالأرض التي سميت باسمهم في إفريقية ، وقد رأينا أيضاً أن العرب امتلكوا السواحل الافريقية المقابلة للعربية الجنوبية أمداً طويلاً ، كما امتلكوا بعضاً منها في الاسلام الى عهد غير بعيد ، ولا يعقل بالطبع ذهابهم الى تلك السواحل ونزولهم بها بغير ركوب سفن ، ولا يعقل أن يكونوا قد ذهبوا اليها بسفن أجنبية ، بل لا بد وأن يكونوا قد عبروا الى تلك السواحل بسفن كانت تعود لهم ، ولا بد وأن لهم أسطول تجاري كانوا يمخرون به عباب البحار للاتجار .

وقد رأينا من كتب بعض الكتبة اليونان واللاتين ان الصومال كان يحكمه حكام عرب ، وان التجار العرب كانوا يشاهدون بكثرة في (رهابتا) « **Rahapta** » على مقربة من (زنجبار) . وان مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) ،

كان قد ذكر ان رئيس (معافر) كان يحكمها بموجب حق قديم . وان أهل مدينة « Muza » يحكمونها باسمه، ويبعثون اليها بسفن تجارية يديرها ربابنة ووكلاء عرب ألفوا أهل البلاد ، واختلطوا بهم ، وصاهروهم، وخبروا الساحل ، واطلعوا على لغتهم[1] .

إن خلوّ كتابات المسند من كل إشارة الى البحر والى السفن والى الاتجار مع الأقطار الواقعة على السواحل ، لأمر يؤسفنا كثيراً، فقد حرمنا الكلامَ على البحرية العربية وعلى علم العرب الجنوبيين بالبحار ، وبات علمنا بالتجارة علماً ضئيلاً محدوداً ، وليس لنا إلا التطلع الى المستقبل ، فهو وحده الكفيل بزيادة علمنا في هذا الموضوع .

وقد كان أكثر ثراء العربية الجنوبية من التجارة ، التجارة البرية والتجارة البحرية ، والاتجار بالمواد الناتجة في جزيرة العرب ذاتها ، والاتجار بالمواد المستوردة من الخارج ولا سيما السواحل الافريقية أو الهند .

وقد كان الاتجار مع افريقية سهلاً يسيراً بالنسبة الى تجار العربية الجنوبية ، ولا سيما تجار اليمن . فإن الشقة بين سواحل افريقية وسواحل اليمن ليست واسعة كبيرة ، ولهذا كان في استطاعة السفن الشراعية ان تقطعها بدون مشقات وصعوبة كبيرة . تذهب الى افريقية تحمل اليها حاصلات اليمن ، ثم تعود اليها وهي محملة بالبضائع الافريقية الثمينة ، مثل الأخشاب والعاج ، وببضاعة ثمينة أخرى: بضاعة حية تتحرك وتنطق ، هي الزنوج . يستوردونهم شراءً من أسواق النخاسة ، أو اقتناصاً من السواحل ، لحاجة البلاد الى استخدامهم في الانتاج وفي أداء الخدمات التي يأنف العربي عادة من القيام بها . وقد كان هذا الوارد عصباً حساساً في الانتاج في ذلك العهد .

ولم ترد في كتابات المسند التي عثر عليها في جزيرة العرب وياللأسف معلومات عن أسفار العرب البحرية ، لا الى سواحل افريقية ولا الى سواحل الهند وجنوب ايران . ولكن وجود السبئيين في الساحل الافريقي وتكوينهم حكومة هناك ، ثم احتلال الحبش للعربية الجنوبية الغربية مراراً ، وذهاب المسلمين الأوائل مهاجرين الى الحبشة ، وحث الرسول لهم على الذهاب الى أرض الحبشة ، لأن بها ملكاً

---

١ Periplus, 7, 10, 14, 17.

لا يظلم عنده أحد . وهي أرض صدق[1] . وذهاب المسلمين الى مرسى (الشعيبة) للسفر منه بسفن التجار اليها ، كل ذلك دليل على وجود اتصال بحري بين افريقية واليمن .

وقد أشرت في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، الى عثور العلماء علـى كتابات معينة في جزيرة (ديلوس) Delos من جزر اليونان ، وهي نصوص ذات أهمية كبيرة بالنسبة الى بحثنا هذا ، فإنها ترينا وصول المعينيين الى هذه الجزيرة وإقامتهم فيها ، واتجـارهم مع اليونان ، ومن يدري ، فلعلّهم كانوا قد توغلوا شمالاً أيضاً ، ونزلوا بلاد اليونان،وتاجروا هناك ، ومع شعوب أوروبة في ذلك العهد . وقد ورد في نص من هذه النصوص : (هنا) أي (هانىء)،و(زيد ايل) من (ذي خذب) ، نصبا مذبح ودّ وآلهة معين بـ (دلث) ، أي بـ (ديلوس). وقد كتب بالمسند ، وباليونانية ، وقد جاء في النص اليوناني : « يا ودّ إلـــه معين يا ودّ » . وفي هذا النص والنصوص الأخرى دلالة على وجود جالية معينية في هذه الجزيرة وسكناها فيها ، وعلى تعلقها بدينها وبآلهتها وعدم تركها لها حتى في هذه الأرض البعيدة عن وطنها . ومن يدري ؟ فلعلّها كانت عـلى اتصال ببلادها ، وكانت تتجر معها ، فترسل اليها حاصلات اليونان ومنتوجات أوروبة، وتستورد منها حاصلات اليمن والعربية الجنوبية وافريقية والهند .

وقد أشرت في ذلك الجزء أيضاً الى عثور العلماء على كتابة معينيـة بمصر ، كتبت حوالى سنة (٢٦٣) قبل الميلاد ، وذلك بالجيزة . وهي كتابـة قصيرة ، ولكنها ذات أهمية كبيرة : لأنها تشير الى وجود المعينيين بمصر في ذلك العهد . وعن وجود صلات تجارية ربطت بين مصر وجزيرة العرب من البـرّ والبحر . وهي تتحدث عن رجل اسمه (زيد بن زيد ايل) من (آل ظبرن) ، اعترف بوجود دين عليه وواجب هو توريد وتزويد (ابيتت الالت مصر) ، أي (بيوت آلهة مصر) ، أو (معابد آلهة مصر) بـ (امررن وقلمتن) (قليمتن) ، أي بـ (المرّ والقليمة) . ويقصد بلفظـة (قليمتن) (قلمتن) ، مـا يقال له « Calamus » في الانكليزية و « Kalamus » في الألمانية،ويراد به ما يقال له قصب الذريرة أو قصب الطيب . و (امررن) ، بمعنى (المرّ) ، وهو معروف مشهور

---

١ الروض الانف (١/٢٠٤) .

عند العرب ، ودواء كالصبر مرّ ، استعمل في معالجة أمراض عديدة [1] . وقد كان ذلك في شهر (كيحك) من السنة الثانية والعشرين من حكم الملك (بطلميوس)[2].

وقد ذهب(رودوكناكس) « Rhodokanakis » ناشر النص المذكور ومترجمه الى احتمال كون (زيد ايل) كان كاهناً في معابد مصر ؛ ولو كان من أصل غير مصري ، فقد كان المصريون قد تساهلوا في هذا العهد – كما يرى – فسمحوا للغرباء بالانخراط في سلك الكهان وخدمة المعابد ، وتساهلوا مع (زيد ايل) هذا فأدخلوه في طبقة(اويب) « Ueeb » وانتخبوه كاهناً ليضمن لهم الحصول على المرّ والقليمة بأسعار رخيصة لاستيراده اياها باسمه ومن موطنه مباشرة من غير وساطة وسيط[3] .

وقد ذهب (رودوكناكس) أيضاً الى ان (زيد ايل) ، كان يستورد المرّ والقليمة لا لحسابه الخاص ومن ماله ، بل لحساب المعابد المصرية ومن أموالها . فلم يكن هو إلا وسيطاً وشخصاً ثالثاً يتوسط بين البائع والمشتري ، يشتري تلك المادة ويستوردها باسمه ، ولكنه يستوردها للمعابد ولفائدتها . وهو لا يستبعد مع ذلك احتمال اشتغاله هو لنفسه وعلى حسابه في التجارة ، يستوردها لنفسه ويبيعها في الأسواق ، ويتصرف بالأرباح التي تدرها كما يريد . وهو لا يستبعد أيضاً احتمال مساعدة المعابد له بتجهيزه بالمال لتقوية رأس ماله ، أو انتشاله من خسارة قد تصيبه .

وقد أصيب هذا التاجر كما يظهر من هذا النص بخسارة كبيرة في شهر (حتحر) ربما أتت على كل ما كان يملكه ، فهبت المعابد المصرية لإنقاذه ، واعادة اعتباره المالي اليه ، بإسناده بتقديم أقمشة الـ (بص) (بوص) اليه . وقد أخذها وصدرها في سفينته التي يستورد بها المرّ والقليمة الى الأسواق ، فربح منها . واستورد المرّ والقليمة وأعاد الى المعابد ثمن ما أخذه منهـا من تلك السلعة ، وأدى ديونه في شهر (كيحك) . وقد عاد اليه اعتباره وأنقذ من تلك الضائقة الماليـة التي حلت

---

١ تاج العروس (٣/٥٣٧) ، (مرر) .

٢ REP. EPIGR. 3427, Tome. V, p. 151, Rhodokanakis, Die Sarkophaginschrift Von Gizeh, S. 113, in Zeitschrift für semitistik, Bd., II, 1924, Conti Rossini, Chrest. Ar. Merid., 1931, p. 86.

٣ Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, Bd., 2, 1924, S. 116. ff.

به بمدة قصيرة لا تتجاوز شهراً كما يرى ذلك (رودوكناكس)[1] .

ولم يذكر النص اسم الجهة التي ذهبت السفينة اليها ، ولا اسم الموضع الذي أرسل (البوص) اليه ، ولا اسم المكان الذي استوردت القليمة وكميات المرّ منه.

و (البص) (البوص) ، هو (البز) في عربيتنا . والبز : الثياب ، وقيل ضرب من الثياب ، وبائعه البزاز[2] . ويظهر انه كان من الأصناف الجيدة ، التي امتازت مصر به ، فاشتهر في الخارج ، فكان يُصدّر إلى الأسواق الخارجية . وهي لفظة معربة ، عربت من أصل يوناني هو « Vissas » ، ومعناه نسيج كتان ، ونسيج من كتان هندي رقيق جداً[3] .

لقد كانت حكومة البطالمة قد احتكرت صناعة نسيج الكتان وتجارة البزّ (بوص) ، وبيع المرّ والبخور والعطور والصبر وغير ذلك . وكانت تنتهج في خطتها الاقتصادية نهج احتكار الدولة بيع السلع الرائجة المهمة . نعم ، سمحت للتجار المستوردين باستيراد ما يشاءون من المر والبخور واللبان والصمغ والصبر وما شاكل ذلك من الخارج ، ولكنها لم تسمح لهم ببيعها أو تحويلها أو تغيير شكلها من غير استئذان الحكومة وموافقتها، ذلك لأنها تعدها من المواد الداخلة في دائرة الانحصار والاحتكار (Statesmonopol) ، والتابعة لمراقبة الحكومة .

أما نسج (البوص) (البص) البز ، فقد أودع أمره إلى المعابد ، تشرف عليه وتدبر صناعته ، ورثت ذلك من عهود سبقت أيام البطالمة،وذلك في مقابل السماح لها بأخذ ما تحتاج الى استعماله في المعابد أو لحاجات رجال الدين الخاصة ، وتسليم بقية ما ينسج الى دوائر الحكومة المختصة لبيعه للناس[4] .

ويظهر من المؤلفات اليونانية واللاتينية أن العرب كانوا يملكون سفناً في البحر الأحمر وفي البحر العربي وفي الخليج ، إلا أن سفنهم لم تكن ضخمة ، ولهذا لم تتمكن من مجابهة السفن الرومانية والسفن اليونانية حين نزلت تلك البحار . لأنها كانت أضخم منها ، وكانت ذات أربعة صفوف من المجاذيف ، كما أنها كانت سريعة الحركة وذات مرونة في الاستدارة وفي الالتفاف وفي الرجوع والانتقال ،

---

١ Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, Bd. 2, 1924, S. 117.

٢ تاج العروس (٤/٧) ، (بزّ) .

٣ غرائب (٢٥٦) .

٤ المصدر نفسه (ص ١١٥ وما بعدها) .

وذلك بفضل أشرعتها التي طوّرت تطويراً كبيراً ليناسب تطورها هذا فعل الرياح بها ، ولتتمكن من السير مع الأهوية أو ضدها ، وبسبب آخر هو تطوير هندستها بصورة مستمرة ، لتجاري التيار ولتقطعه بكل سهولة ، دون أن يعيقها أو يلحق أذى بها . وبفضل هذا التطوير تمكنت تلك السفن من التغلب على السفن العربية، ومن ملاحقة لصوص البحر (القرصان) الذين كانوا يتحرشون بالسفن ليأخذوا ما فيها ، بسفنهم الصغيرة البدائية،وبذلك صار في مستطاع السفن اليونانية والرومانية دخول الموانىء العربية والموانىء الافريقية ومن الوصول الى الهند .

وقد أشار (أغاثرشيدس) الى هذا التفوق ، كما أشار اليه (سترابو) في أثناء كلامه على حملة (أوليوس غالوس) وعن خطأه في تقدير موقفه من البحرية العربية . فقد ذكر (سترابو) أن (أوليوس غالوس) ظن أن للعرب سفناً كبيرة في البحر وأنها ستظهر أمام سفنه وستقاومه ، لهذا أمر ببناء سفن طويلة لمجابهة تلك السفن ، مع أن العرب قوم تجارة وبيع وشراء ، ولم يكونوا أمة حرب ، لا في البحر وحده ، بل في البرّ أيضاً . ومع ذلك بنى ما لا يقل عن ثمانين سفينة حربية ، منها سفن ذوات صفّين من المجاذيف ومنها ذوات ثلاثة ، ومنها ذوات صف واحد ... ولما أدرك خطأه ابتنى مئة وثلاثين سفينة للحمل ، ركب فيها نحو من عشرة آلاف من المشاة .. وبعد أن خسر كثيراً من سفنه ، غرق عدد منها وغرق من فيها من بحارة ، وذلك بسبب صعوبة الملاحة لا بمقاومة من عدوّ[1] .

ولا نجد في كتب أهل الأخبار ما يشير الى وجود قوى بحرية عربية ، بل نجد فيها أن سفن الروم كانت هي التي تمخر عباب البحر الأحمر وكانت هي المهيمنة عليه وأنها كانت تصل الى سواحل افريقية وتذهب الى الهند . ونجد فيها أن سفن الحبشة كانت تأتي (الجار) و (الشعيبة) ، وموانىء عربية أخرى لتتاجر معها ، وأن سفن الساسانيين كانت تهيمن على مياه الخليج العربي والبحر العربي،ثم نجد في روايات أهل الأخبار عن كيفية احتلال الحبش لليمن واحتلال الفرس لها وعن هجرة المهاجرين الأولين من مكة الى الحبشة ووصفهم لكيفية بناء الكعبة وأخذهم لخشب سفينة رومية ما يؤيد أن الجاهليين لم يكونوا يملكون سفناً

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٦٤) لسنة ١٩٥٢ م .

كثيرة كبيرة قوية في ذلك العهد ، وأنهم كانوا قد تركوا البحر الى غيرهم منذ عهد قبل الاسلام .

ويعود تفوق سفن اليونان والرومان على السفن العربية في البحار الى ما قبل الميلاد . لا بل نستطيع أن نرجع هذا التفوق الى ما قبل أيام اليونان والرومان ، نستطيع أن نرجعه الى أيام المصريين . فقد ورد في أخبارهم انهم أرسلوا سفنهم الى البحر الأحمر فوصلت الى السواحل الافريقية ، وانهم كانوا قد حفروا قناة لتصل بين نهر النيل والبحر الأحمر ، فيكون في وسع السفن القادمة من البحر الأبيض من اليونان أو من ايطاليا أو من أي مكان آخر دخول نهر النيل والمرور من القناة الى البحر الأحمر ثم الى المحيط للاتجار مع أسواق البلاد الحارة، والعودة من تلك الأسواق بحاصلات آسيا وافريقية الى اوروبة . وهو مشروع يدل على ذكاء وحنكة في السياسة ، مهّد الدرب لمشروع قناة السويس الحديث .

ولما استولى (دارا) (داريوس) على مصر ، قرر اعادة ذلك المشروع المصري القديم ، الذي كان قد اندثر وأكلته الرمال . بأن أمر بشق قناة تصل النيل بالبحر الأحمر عن طريق الفرع البلوزي أحد فروع النيل القديمة ، بالقرب من الزقازيق ، مخترقة وادي الطميلات ثم البحيرات الى السويس . وهو مشروع يدل على ذكاء ذلك الملك وادراكه لأهمية ربط البحرين بطريق مائي ، والى ما فيه من فوائد في السياسة وفي الاقتصاد وفي الناحية العسكرية .

ووضع (الاسكندر) الأكبر مشروعاً خطيراً آخر يفوق كل ما وضع من قبله من مشاريع . فقد وضع خطة السيطرة على المياه الدافئة بالسيطرة على سواحل جزيرة العرب ، وذلك بالاستيلاء عليها ، ويكون بذلك ملك أكبر امبراطورية عرفت حتى ذلك اليوم تمتد من الهند الى مصر وما وراء مصر من أرضين[1] . وقد كلف قوّاده بالالتفاف حول جزيرة العرب ، وباشروا بتنفيذ الأمر بالفعل ، وقد رأينا قائده (نيرخوس) « Nearchus » على رأس أسطول ضخم ، لعله أعظم أسطول شاهده الخليج والبحر العربي حتى ذلك العهد . وقد رأينا كيف قرر الإحاطة بجزيرة العرب من الجنوب والغرب بالسيطرة على سواحلها وانشاء أسطول يمخر المياه المحيطة بها ، بعد أن هيمن على السواحل الشرقية . وقد استعان

١ Arrianus, Anabasis, VII, 19, 20.

نفسه بخبرة الفينيقيين وعلمهم بالبحر . نقلهم الى هذه المياه وكلفهم بناء السفن له ، وبإدارتها له . ولو قدر للاسكندر أن يعيش طويلاً لتحقق مشروعه الضخم، ولكن القدر قضى عليه مبكراً ، فمات مشروعه معه ؛ ولم يكن لخلفائه ما كان لسيدهم من عزم ، فتركوا المشروع ، ولم يتحمسوا له[١] .

وقد أدرك البطالمة قيمة القناة القديمة التي كانت تربط النيل فالبحر المتوسط بالبحر الأحمر ، فأمر (بطلميوس الثاني) (١٨٥ – ١٤٦ ق. م.) بإعادتها ، ومكن بذلك تجاره من دخول البحر الأحمر ومن نقل التجارة من أسواقها الأصلية الى مصر ، ومنها الى أسواق اليونان والرومان وسائر بلاد أوروبة بالطرق المائية ، وضبط بذلك الممر المائي العالمي القديم ، هذا الممر الذي فتح ذهن (دلسبس) فيما بعد فجعله يفكر في موضع أصلح رآه في المكان الحالي المعروف بـ (قناة السويس) القناة العالمية التي تلعب اليوم دوراً خطيراً في الاقتصاد العالمي وفي السياسة الدولية والموقف الحربي للدول .

وعيّن البطالمة موظفين خاصين مهمتهم الإشراف على إدارة التجارة البحرية وسير السفن . فنجد في كتابة تعود الى سنة (١٣٠) قبل الميلاد إشارة الى موظف كان مسؤولاً عن سير السفن وعن الطريق الصحراوية الممتدة الى قفط ، ونجد أخباراً تعود الى ما بين سنتي ١٢٠ و ١١٠ قبل الميلاد تتحدث عن سفن كانت تسير بين مصر والهند ، كما نجد فيها وفي نصوص تعود الى عهود متأخرة عن هذه اشارات الى وجود موظفين مسؤولين عن البحرين الأحمر والهندي[٢] .

وقد كان لوقوف (هيبالس) « Hippalus » ، وهو أحد اليونان أو الرومان على سرّ الاستفادة من الرياح الموسمية في تسيير السفن وفي تقصير الوقت في قطع المسافات ، وفي تمكينها من الابتعاد عن أخطار السير في محاذاة السواحل أهمية كبيرة في تطوير فن الملاحة الأوروبية بالنسبة لذلك العهد[٣] . ويمكن اعتبار وقوف هذا الملاح على هذا السرّ من أهم الأحداث البارزة التي حدثت في ذلك العهد والتي مكنت الغربيين من التوفق في البحر بالنسبة لتلك الأيام . أضف الى

---

١ Arrianus, Anabasis, VII, 19, 20.

٢ حوراني (ص ٦٦) .

٣ Pliny, VI, 26, Tarn, The Greeks in Bactria and India, p. 366.

ذلك أن الذين خبروا البحر وعركوه من بعده أضافوا ما استفادوه من فنه ومن علم من تقدم عليه علماً آخر مكن البحارة البطالسة ثم الرومان الذين جاؤوا من بعدهم فحكموا مصر ، ثم اليونان من السيادة على البحار ومن انتزاع المغانم من التجار العرب ومن غيرهم ومن إلحاق ضرر بالغ بهم ، وبذلك وضعوا لمن جاء بعدهم من دول أوروبة خطط السيطرة على البحار وعلى العالم القديم .

ويعدّ القيصر الروماني (أغسطس قيصر) من أهم القياصرة الذين وجهوا أنظارهم نحو الشرق ، ونستطيع ان نقول انه خليفة (الاسكندر الأول) في هذا الباب ، ومن أساتذة (نابليون) في خططه العسكرية الرامية الى السيطرة على الشرق . لقد نوى الاستيلاء على بلاد العرب ، وربما على ما وراء بلاد العرب من أرضين ، وكانت غايته من هذه النية – كما قال سترابو – « إما ان يسترضي العرب ، وإما ان يخضعهم ، كما انه فعلت في نفسه الروايات الشائعة منذ القدم ان العرب قوم واسعو الثراء ، وانهم يستبدلون الفضة والذهب بعطرهم وحجارتهم الكريمة ، دون ان ينفقوا مع الغرباء ما يحصلون عليه في مقايضاتهم التجارية . فأمل أحد أمرين : إما ان يحصل على أصدقاء موسرين ، وإما ان يتغلب على أعداء موسرين »[1] .

واذا كان (أغسطس) قد أخفق في تحقيق مشروعه في احتلال جزيرة العرب ، فإنه لم يهمل ناحية الاستفادة من البحار ، فشجع الملاحين ، وزاد عدد السفن الذاهبة الى الهند ، وقد كان عددها لا يزيد على عشرين سفينة في السنة الواحدة قبل أيامه ، فارتفع عدد ما يصل الى الهند منها الى ما لا يقل عن (١٢٠) سفينة في السنة الواحدة[2] . وقد أقام اليونان والرومان معبداً في موضع « Mauziris » على ساحل الـ (مالابار) في أيام (أغسطس) ، ووجود هذا المعبد في هذا الموضع دليل على المدى الذي وصل اليه التجار اليونان والرومان في بلاد آسية ، وعلى مقدار تشجيع القيصر لأولئك التجار[3] .

وبدلاً من أن ينتظر التاجر الروماني أو اليوناني البضائع الثمينة ، تأتي اليه الى أسواق مصر أو بلاد الشأم محملة بسفن عربية أو على ظهور جمال القوافل كما كان

---

١ الصفحة (٢٦٤) من المجلد الثاني من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة « ١٩٥٢ م »
٢ حوراني (ص ٧٥) . Strabo, 17, I, 13.
٣ حوراني (ص ٧٥) .

ذلك في الغالب ، وهي بأسعار عالية ، إرتاد هو البحر الأحمر ، ومنـه المحيط الهندي الى سواحل افريقية أو سواحل العربية الجنوبية أو الهند فما وراءها، يشتري من موانئها وأسواقها ما يريـد ، بأسعار رخيصة جداً بالقياس الى تلك الأسعار التي كان يدفعها للتجار الموردين في أسواق مصر أو أسواق بلاد الشأم ، فاستفاد هو ، واستفادت حكومته منه ، وخسر التجار العرب بوصول هؤلاء التجار الى تلك الأسواق ومنافستهم لهم خسائر فادحة ، أوجدت خللاً في الحياة الاقتصادية للدول العربية ، وضرراً عاماً في جميع نواحي الحياة الأخرى .

وطالما تشكى الرومان واليونان من فداحة الأرباح والضرائب التي كان يفرضها التجار العرب على البضائع المرسلة اليهم ، والتي كانوا يحتاجون اليها ويشترونها بأي ثمن كان . وقد ذكر (سترابون) الجغرافي الشهير في جملة الأسباب التي حملت القيصر (أغسطس) على إرسال حملته الشهيرة ، هو ثراء أهل تلك البلاد، وحصولهم على أرباح مفرطة من الغرباء وفي ضمنهم الرومان واليونان من اتجارهم معهم ، ومن تحكمهم في وضع الأسعار ، دون أن يعطوا أولئك التجار والبلاد التي يحملون تجارتهم اليها شيئاً[1] .

وقد كان للأحداث السياسية ، في الانبراطوريتين الرومانية واليونانية أثراً كبيراً في حالة الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي . ففي أيام الفتن والاضطرابات وحدوث القلاقل ، لم يكن في وسع أصحاب السفن الرومان أو اليونان التوغل في البحار البعيدة عن مناطق نفوذ الانبراطوريتين ، لضعف وسائل حماية السفن التجارية وحماية التجار والمستعمرات العديدة المقامة على السواحل . ولهذا نجد (سترابو) يذكر أنه قبل أيامه لم تكن هنالك سفن كثيرة تجتاز البحر الأحمر ، فقد كان كل ما يرسله الرومان من السفن لا يزيد على العشرين سفينة ، تجتاز هذا البحر، فتصل الى ما وراءه في المحيط[2] .

وأخذ التجار اليونان والرومان يقصدون سواحل افريقية وبلاد العرب والهند ، ويقيمون في موانئها للاتجار . وقد عثر على نقود يونانية ورومانية في مواضع متعددة من هذه السواحل ، كما عثر فيها على آثار معابد ومباني تشير الى أصل يوناني

---

١ راجع الترجمة المنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٧٦٣) ، (١٩٥٢ م) .

٢ Strabo, 17, I, 13.

وروماني ، كذلك نجد أخباراً لأشخاص يونانيين ورومانيين ذهبوا الى أرض سبأ للاتجار .

ولم يجد الرومان ولا اليونان مقاومة تذكر حينما ولجوا البحر الأحمر والمحيط الهندي . لقد كانت سفنهم أكبر وأقوى من سفن العرب ، وأحدث منها، وأقدر على الحركة والمقاومة . تتحمل صعاب البحر ، وتقاوم الأعاصير والظروف القاسية الشديدة ، وتتسع لاستيعاب أعداد كبيرة من الرجال ، وتحمل حملاً كبيراً بالقياس الى السفن العربية . وهذا مما يقلل بالطبع من أجور النقل ، ومن أخطار الغرق والاصطدام بصخور السواحل ، ومن التعرض للصوص البحر ، ويخفض من أثمان البضائع في الأسواق ، ويزيد في عدد المستهلكين .

وقد رأى البحر الأحمر سفناً أقوى وأضخم من السفن العربية الصغيرة ومن سفن سكان سواحل افريقية : رأى سفناً تسير بقوة أربعة صفوف من المجاذيف « Quadriremes » [1] أخذت تتعقب لصوص البحر، وتحمي سفن اليونان والرومان ، وتحمي المستعمرات التي أنشئت على سواحل البحر الأحمر لإيواء تلك السفن، وتقديم المساعدات الى أصحابها ، وشراء السلع من القبائل الساكنة على مقربة منها ، وسرعان ما صارت أسواقاً للبيع وللشراء ، يبيع فيها هؤلاء التجار الأجانب ما يأتون به من تجارة من حوض البحر المتوسط ، ويشترون منهم ما عندهم من مواد أولية ، يقبل عليها أهل مصر واليونان والرومان وسكان البحر المتوسط . وقد أثرت هذه الأسواق بالطبع في مصالح التجار العرب الذين كانوا يقومون بمثل هذه الأعمال ، وألحقت بهم ضرراً ولا شك .

ولوعورة الساحل العربي على البحر الأحمر ولكثرة صخوره المؤذية للسفن ، ولكثرة لصوص البحر فيه ، ولأسباب أخرى تجنبت السفن الرومانية واليونانية هذا الساحل قدر إمكانها ، فلم ترسُ به إلا في المواضع الآمنة التي أمنت النزول بها ، وسيطرت عليها بوضع حاميات عسكرية بها ، أو بعقد محالفات وعهود ومواثيق مع سكانها . وقد كان ميناء (مخا) « Muza » الميناء المفضل لها . قصدته للاتجار

---

١ حوراني (ص ٥٩) ، Agatarchides, I, 83, 85, 88.

ولتموين نفسها بالماء والغذاء[1] . وقد كان في استطاعة سفن تلك الأيام السير على مبعدة من ذلك الساحل ودون توقف حتى تصل الى الميناء المذكور ، أو الى ميناء عدن « Arabia Eudaemon » ، وبذلك تجنبت السفن المخاطر والمهالك التي كانت ستتعرض لها فيما لو سارت في محاذاة الساحل العربي .

ويظهر أن موضع (لويكه كومه) ، أي (القريـة البيضاء) كان ميناءً معروفاً في القرن الأخير قبل الميلاد ، ففيه هبط (أوليوس غالوس) سنة (٢٥ أو ٢٤) قبل الميلاد في حملته التي أمر القيصر (أغسطس) بإرسالها على اليمن . ولو لم يكن من المرافىء الحسنة الصالحة لرسو السفن لما نزل به الجيش الروماني . ويكتنف تأريخه الغموض ، فلم يرد اسمه كثيراً في كتب اليونان والرومان ولا في كتب الإسلاميين . ويقال إنه ظل قائماً حتى نهاية القرن الثالث بعـد الميلاد[2] . ولعلّه (الحوراء) ، مرفأ سفن مصر قديماً ، وقد ذكره أصحاب الرحل[3] .

و (الجار) ، فرضة أهل المدينة ، ترفأ اليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين والبحرين ، وبحذائها جزيرة في البحر ميل في ميل يسكنها التجار[4]. فهي من الموانىء التي كان يقصدها التجار من السواحل المقابلة ومن سواحل افريقية الشرقيـة والمحيط الهندي . وذكر ان النـاس كانوا لا يعبرون الى الجزيرة إلا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة . وان بينها وبين المدينة يوم وليلة ، وبين أيلة نحو من عشر مراحل ، والى ساحل (الجحفة) نحو ثلاث مراحل[5] . وقد عرفت تلك الجزيرة بـ (قراف) ، وسكانها تجار كنحو أهل الجار[6] .

و (الشعيبة) من المراسي القديمة في الحجاز ، وهي أقدم من جدة . وهي خور أمين تقصده السفن لتتزود بما تحتاج اليه من زاد وماء ، ولتفرغ فيه ما تأتي

---

١ « المخا : موضع باليمن بين زبيد وعدن ، بساحل البحر . وهو مقصود » ، البلدان (٢٠٢/٧) ، « ومخا : مقصورة ، بساحل بحر اليمن تجاه باب المندب ... قـال الصاغاني : ترفأ بمكلئها السفن » ، تاج العروس (٣٢٨/١٠) .

٢ Handbuch, I, S. 114.

٣ تاج العروس (١٦١/٣) ، (حور) .

٤ تاج العروس (١١٢/٣) ، (جار) .

٥ البلدان (٣٥/٣) .

٦ عرام ، أسماء جبال تهامة وسكانها (ص ٣٩٨ وما بعدها) ، (نوادر المخطوطات) ، تاج العروس (٢٢٠/٦) ، (قرف) .

به من شحن من افريقية الى الحجاز . وهو مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة . واليه جنحت سفينة (باقوم) ، التي تحطمت بدفع الريح لها ، فاستعانت قريش في تجديد عمارة الكعبة بخشب تلك السفينة على نحو ما تحدثت عنه في أثناء كلامي على تجديد بناء الكعبة قبل المبعث بقليل[1] . ومنه هاجر المسلمون الى الحبشة في السنة الخامسة من المبعث،حيث وجدوا سفينتين للتجار حملوهم فيها الى الحبشة[2]. ومنه كان يذهب تجار مكة الى افريقية للتجارة قبل الاسلام .

وميناء « Muza » = « MUZA » من موانىء اليمن المهمة على البحر الأحمر[3]، وكان مقصوداً ، وتصل اليه السفن البيزنطية والسفن الواردة من مصر ، ومن هنا كانت تتزود تلك السفن بضائع البلاد العربية ، أو تبيع فيه ما استوردته من مصر أو من سواحل حوض البحر المتوسط . وقد تتزود ما تحتاج اليه من ماء وزاد ، ثم تتجه الى افريقية أو إلى سواحل الهند . وقد كانت به جاليات من اليونان أو من غيرهم مقيمة هناك للاتجار والتعامل مع الوطنيين . وهو ميناء (مخا) المشهور[4]. ويذكر أهل الأخبار ، ان بين (مخا) وبين (باب المندب) ، أي الساحل الافريقي المقابل للساحل العربي يومين أو أكثر ، وان باب المندب ، مرسى ببحر اليمن ، وهو اسم ساحل مقابل لزبيد اليمن ، وهو جبل مشرف ندب بعض الملوك اليه الرجال حتى قدّوه بالمعاول ، لأنه كان حاجزاً ومانعاً للبحر عن ان ينبسط بأرض اليمن ، فأراد بعض الملوك أن يغرق عدوّه ، فقدّ هذا الجبل وأنفذه الى أرض اليمن ، فغلب على بلدان كثيرة وقرى أهلك أهلها وصار منه بحر اليمن الحائل بين أرض اليمن والحبشة والآخذ الى عيذاب وقصير الى مقابل (قوص) ، والملك هو (الاسكندر)[5] . وبهذه الطريقة أوجد أهل الأخبار لهم تأريخاً لباب المندب ، وحلّوا مشكلة كيفية انفصال افريقية عن اليمن !

وميناء « Arabia Eudaemon » ، هو ميناء (عدن) ، وهو ميناء مهم في ذلك الوقت أيضاً ، ولا يزال يحافظ على مركزه وأهميته من الوجهة العسكرية

---

١ البلدان (٥/٢٧٦) ، ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، (القسم الاول ص ٤٢ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٣٢٩) .
٣ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٨/٩٧) .
٤ البلدان (٧/٢٠٢) ، تاج العروس (١٠/٣٣٨) ، (مخى) .
٥ تاج العروس (١/٤٨٢) ، (ندب) .

والاقتصادية [1] . وقد ذكره (بطلميوس) باسم « Arabia Emporion » . وقد كان مركزاً لتبادل السلع الافريقية والهندية والمصرية ، ومكاناً تبحر منه السفن الى الهند ، كما تلتجيء اليه السفن الواردة من تلك البلاد . وقد استولى عليه الرومان في فترات .

ويذكر أنه في حوالى سنة (٣٤٥) ، أسس أحد المبشرين واسمه (ثيوفيلوس) « Theophilus » المعروف بالهندي ، كنيسة في (عدن) « Adane » [2] .

وجزائر (فرسان) ، من الجزر التي كان يتاجر أهلها مع الحبشة ، ويذكر (الهمداني) أن سكانهـا كانوا يعملون في التجارة الى بلاد الحبش ، ولهم في السنة سفرة [3] .

وميناء « Cana » (قنا) ، هو موضع (حصن غراب) (حصن الغراب). وهو سوق اللبان الذي يزرع داخل البلاد ، يؤتى به الى ذلك الميناء على ظهور الجمال ، أو في الأرماث المصنوعة من الجلد ، وفي القوارب . وهو ميناء تجارة كذلك مع مدن الساحل البعيد، مع بعض مدن الهند ، وميناء (عمانه) « Umana » (عمان) والموانيء التي على الخليج [4] . وتقع (قنا) على مرتفع ، قريب من (مبفع) [5] ، و (ميفع) ، قرية على الساحل ، و (ميفعة) ، بلدة بين (ميفع) و (أحور) ، إلا أنها ليست على الساحل ، بل بينها مرحلة [6] .

وأما ميناء « Moscha » ، فهو (ظفار) من أعمال الشحر ، قريب من صحار . وبجبال ظفار (اللبان) ، واليه يحمل ، وبه يقسم ويوزع ، ولا يسمح بحمله الى غيره [7] . وقد ذكر عدد من المؤلفين اليونان واللاتين . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنه (مسقط) وأنه « Mosca Portus » [8] . ويذكر أهل الأخبار ،

---

١ البلدان (١٢٧/٦) ، ابن المجاور (١٠٦/١ وما بعدها) .
٢ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٩٨/٨ وما بعدها) .
٣ الصفة (٥٣) .
٤ Periplus, 20. f., 27.
٥ تاج العروس (٣٠٥/١٠) ، (قنا) .
٦ تاج العروس (٥٦٦/٥) ، (يفع) .
٧ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٣٤٢/٣) ، Glaser, Skizze, II, S. 180, Ptolemy, VI, 7, 10.
٨ Pauly-Wissowa, 31 ter Halbband, 1933, S. 343, Forbiger, Handbuch der Alter Geography, II, S. 757.

أن (ظفار) قرب مرباط ، وتعرف بـ (ظفار) الساحل ، واليها ينسب القسط، وهو العود الذي يتبخر به ، لأنه يجلب اليها من الهند ، ومنها الى اليمن، كنسبة الرماح الى (الخط) ، فإنه لا ينبت به ، وهي قريبة من (الشحر)[1] .

وكان أهل (جرها) « Gerrha » على ساحل الأحساء من أنشط الناس في في التجارة ، يتاجرون في البر والبحر،ويتاجرون مع الهند وسواحل ايران الجنوبية، كما كانوا يتاجرون مع العربية الجنوبية وأرض العراق . وكانوا قوماً مسالمين لا يرغبون في الحروب . فلما أراد (أنطيوخس) « Antiochus » الثالث الاستيلاء على المدينة وذلك في حوالي سنة (٢٠٥) قبل الميلاد ، سألوه الصلح والمهادنة ، « وألا يقضى على ما أعطتهم الآلهة من سلام وحرية أزليين »[2] .

وأما مدينة (أبولوكس) « Apologus » ، فهي الأبلة في الكتب الاسلامية و « Uubulum » في الكتابات الأكادية. وقد كانت من أهم موانىء أعالي الخليج في أيام فتح المسلمين للعراق . تصدر الى الهند حاصلات العراق وبلاد الشأم وآسية الصغرى وأوروبة ، وتستورد منها أخشاب الصندل والآبنوس ومنتجات الهند وسيلان والصين[3] . وقد عرفها أهل الأخبار،فذكروا انها كانت أقدم من البصرة، لأن البصرة ، مصرت في أيام (عمر) ، وكانت الأبلة حينئذ مسالح من قبل كسرى ، وقد كان تجارها يربحون ربحاً عظيماً ، وهي أرض واسعة . قال (خالد ابن صفوان) : « ما رأينا أرضاً مثل الأبلة مسافة ، ولا أغذى نطفة، ولا أوطأ مطيّة ، ولا أربح لتاجر ، ولا أحفى بعابد »[4] .

وهناك مواني عديدة أخرى ، ذكر المؤلفون اليونان واللاتين أسماءها ، وقد تحدثت عنها في الجزء الثالث من كتابي : (تاريخ العرب في الاسلام) ، وشخصت مواقعها قدر الامكان . وقد كان لا بد من ان يكثر عدد الموانيء في تلك الأيام، فسفن ذلك العهد لم تكن ضخمة كسفن هذا اليوم ، ولم يكن في استطاعتها هذا الابتعاد عن السواحل كثيراً ، ولا السير الى مسافات شاسعة ، إذ كان لا بد لها

---

١ تاج العروس (٣/٣٧٠) ، (ظفر) .
٢ Polybius, Historia, Book, 13, Chapter 9.
٣ Pliny, VI, 31, 32, Dio Casius, Roman History, 68, 28, 29.
جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٨/١٠٠) .
٤ تاج العروس (٧/٢٠٠) ، (ابل) .

من التزود دوماً بالماء والغذاء ، ولا سيما بالنسبة الى السفن الصغيرة ، فأخذت ترسو في مراسي كثيرة لتموين نفسها ولإراحة أصحابها ، من عناء البحر ، ولم تتخلص السفن من تعدد الرسو في المواني إلا بعد تحسن صناعة بناء السفن، وظهور السفن البخارية ، فانتفت حاجتها اليها ، وقد قضى هذا التحسن على أكثر المواني، فماتت وذهبت مع العصور التي ولدت فيها .

وقد تتجه السفن من ميناء (مخا) الى السواحل الافريقية مخترقة مضيق المندب، وقد تتجه الى (عدن) ، ثم تواصل سيرها نحو السواحل الافريقية ، بعد أن تتمون بما تحتاج اليه من ماء وزاد ، أو تتجه الى ميناء (أكيلا) « Acilla » ، الواقع على مقربة من (رأس الخيمة) « Massandum » ، للإقلاع منه الى الهند[1] . وهو أقرب طريق يوصل العرب الجنوبيين وعرب سواحل عمان الى تلك البلاد .

ولما تحسنت هندسة بناء السفن صار في امكانها قطع مسافات أبعد من دون حاجة الى الرسو في موانىء عديدة ، وصارت السفن القادمة من مصر ترسو في ميناء (عدن) رأساً ، وبعد أن يستريح أصحابها يتجهون الى سواحل افريقية أبعد مما كانوا يصلون اليها في السابق ، أو يتجهون نحو الهند . وبذلك قصر الوقت وقلت كلفة الأسفار ، وصار في وسع اليونان والرومان دخول الأسواق الأصلية رأساً ، يأخذون منها ما يريدون ويبيعون فيها ما عندهم دون حاجة الى وسيط . وكانت السفن اليونانية والرومانية تتحمل من صعاب البحر ، وتقاوم الأعاصير والظروف القاسية الشديدة ، وتتسع لاستيعاب أعداد كبيرة من الرجال ، وتحمل حملاً كبيراً بالقياس الى السفن العربية . وهذا ما قلل بالطبع من أجور النقل ، وخفض من أثمان البضائع في الأسواق ، وزاد في عدد المستهلكين .

ولكن السفن اليونانية والرومانية جوبهت مع ذلك بلصوص البحر الذين كانوا يتعقبون السفن ، ويغيرون عليها عند تقربها من السواحل . كان هؤلاء اللصوص قد ابتنوا سفناً لهم ، فإذا رأوا سفناً يونانية أو رومانية أو غيرها وقد وقعت في قبضة الأعاصير ، أو اصطدمت بالصخور البحرية أو كانت على مقربة منهم وفي مناطق يمكن وصولهم اليها ، أغاروا عليها وأخذوا منها كل ما تقع أيديهم عليه .

---

١ Pliny, VI, 32, Glaser, Skizze, II, S. 186.

ولا ينجو منها أحد ، حتى أصحابهـــا يؤخذون أسرى ، فيباعون في الأسواق خولاً.

ولحماية السفن والتجار ، أنشأ الرومان واليونان قوة بحرية حربية ، تولت حراسة السفن التجارية وحماية المستعمرات التي أقاموها على سواحل هذه الطرق المائية العالمية المهمة . ولم تكن المسافات بين المستعمرات الساحلية قصيرة ، ليكون في الامكان الدفاع عنها والتعاون فيما بينها . وللتغلب على هذا الضعف ولحمايتها حمايـة قويـة زوّدوها بما تحتاج اليه من مياه عذبة ومن أطعمة ومن جنود لصد غارات المعتدين. وبذلك هيمنوا على البحار : وضبطوا البحر الأحمر بصورة خاصة، ولم يبق للعرب من مجال في التجارة العالميـة إلا بسلوك الطرق البرية الموصلة الى بـلاد الشأم والعراق .

وقد تكون في إشارة (بليني) « Plinus » الى وجود جاليـات يونانية على سواحل بلاد العرب في مواضع غير بعيدة عن موضع « Attevae » الـذي هو (عدن) ، ايماءة الى وجود مستعمرات يونانية على سواحل جزيرة العرب أنشئت قبل أيامه لضبط الأمن في البحار وللاتجار مع العرب وبسط نفوذ الروم عليهم . وفي جملة تلك الأماكن التي ذكرها : « Arethusa » و « Larisa » و « Chalcis » . ذكر انها كلها كانت قد خربت بسبب الحروب ، مما يدل على انها كانت قـد أقيمت قبل أيامه بزمان[1] .

وقد ضمنت تلك القوة البحرية الضخمة للرومان السيطرة على البحر الأحمر وعلى البحر العربي،واستطاعت احتلال (عدن) . ففي أيام (كلوديوس) « Claudius » (٤١ — ٥٤ م) كان هذا الميناء في قبضة الرومان[٢] . وكانت به حامية رومانية. وتمكن هذا القيصر الذي كانت عدن خاضعة له في أيام مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) ، أو أي قيصر آخر ، قد يكون « Coligula » وقـد يكون (طيريوس) « Tiberius » ، من عقد معاهدة مع الملك (كرب ايل) « Charibael » (ملك سبأ وذو ريدان) في ذلك الـوقت . ولم يشر مؤلف

---

١ Pliny, 6, 159, Die Araber, I, S. 120.

٢ Wissmann, Geogr. Grundlagen, 107, Grohmann, Arabien, S. 28, Periplus Maris Erythraei., 26.

الكتاب المذكور الذي لا نعرف اسمه اليوم الى اسم القيصر ، بل اكتفى بذكر اللقب فقط ، وهو (قيصر) ، وهو كما نرى لقب عام ، يطلق على كل من يحكم انبراطورية الرومان . وقد ذهب بعض الباحثين الى عدم امكان التفكير في القيصر (أغسطس) ، والى احتمال كونه قيصراً آخر ، وقد يكون بالاضافة الى من ذكرته .(نيرو) أو (تراجان) ، أو (سبتيموس سويرس) (سبتيميوس سفيروس) « Septimius Severus »[1] .

واهتم (تراجان) بأمر التجارة البرية والبحرية ، جعل أرض النبط ولاية خاصة دعاها : (الكورة العربية) أو (المقاطعة العربية) « Arabia Provincia » وذلك سنة (١٠٦) للميلاد . واهتم بالطرق البرية ، فأصلح طريقاً مهمة تمر من دمشق الى أيلة فبصرى والبتراء ، وهي طرق قديمة ومعروفة ، بالنسبة للاتجار مع بلاد العرب ، وكانت في حاجة الى عناية واصلاح ووضع معالم . واعتنى بميناء (أيلة) فعمره ووضع ادارة (كمركية) فيه ، وجعله من الفرض المهمة في خليج العقبة ، بل والبحر الأحمر . وأصلح القناة القديمة بعد أن تراكمت فيها الأتربة حتى سدّت مجراها ، وحفر قسماً جديداً من طرفها الغربي ، أوصلها بالنيل عند (بابلون) « Babylon » ، موضع مصر القديمة . وبذلك سهل الاتصال بالفرع الغربي للنيل المؤدي الى الاسكندرية ، وبرز ميناء (القلزم) « Clysma » حيث التقت قناة تراجان بالبحر الأحمر[2] .

وعثر على كتابة دوّنها قوم من أهل تدمر ، اشتغلوا بالملاحة في البحر الأحمر ، أشادوا بفضل القيصر (هدريان) (هدريانوس) (١١٧ — ١٣٨ م) عليهم[3] . وتدل هذه الكتابة على اشتراك التدمريين في الملاحة ، مع انهم من أهل مدينة صحراوية ، عماد حياتها التجارة بالبضائع الواردة اليها بالطرق البرية .

وقد توغل الملاحون في أيام أسرة (انطونينوس) « Antonines » (٩٨–١٩٢م) حتى أدركوا موضع (رهابتا) على مقربة من (زنجبار) في السواحل الافريقية، ووصلوا الى سواحل الصين في آسية. وهذا هو سر وجود أسماء مواضع في جغرافيا

---

١ Die Araber, I, S. 43.

٢ حوراني (٨٦) .

٣ Dio Casius, 68, 14, Ptolemy, IV, 5, 14.

(بطلميوس) (في حوالي ١٥٠ – ١٦٠ للميلاد) لم ترد في كتب المؤلفين السابقين الذين عاشوا قبل هذا الجغرافي اليوناني الشهير . وفي جملة ما ذكره هذا الجغرافي أسماء مواضع عديدة في جزيرة العرب ، لم يشر اليها المؤلفون اليونان والرومان السابقون ، وأوصاف أدق وأصدق من الأوصاف التي ذكروها ، وفي ذلك دلالة على زيادة علم اليونانيين والرومان في هذه الأيام بأحوال الشرق نتيجة زيادة اختلاطهم واتصالهم بالشرقيين .

ومعارفنا بأخبار الملاحة في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي في العهد البيزنطي، أي العهد الذي أصبحت فيه القسطنطينية فيه عاصمة بدلاً من روما (٣٣٠ م) ، قليلة ضحلة ، لأن أكثر المؤرخين الذين عاشوا في هذه الحقبة ثم ما بعدها الى ظهور الإسلام إنما اهتموا بالأمور الدينية ، وكانوا إذا ما تطرقوا الى النواحي الجغرافية أو التاريخية المعاصرة للبلاد الخارجة عن نطاق الانبراطورية البيزنطية أو نفوذها السياسي ، أوجزوا القول إيجازاً لا يعطي القارىء رأياً في الأحوال العامة وفي ضمنها التجارة والملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي .

لقد أثرت الأوضاع السياسية القلقة التي حدثت في الدولة البيزنطية ، والحروب المتوالية بين الساسانيين والبيزنطيين ، أثراً خطيراً على البحرية البيزنطية في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي ، إذ حدّت من توسعها ، وقلصت من عدد سفنها ، ولم تجد بسبب انشغال الحكومة في تلك الحروب عناية ورعاية ، ولهذا اقتصر نشاطها على البحر الأحمر وعلى السواحل الافريقية التي كانت على صلات حسنة بالبيزنطيين . فكانت تصل الى ميناء (أدولس) ، ومنه يصل التجار الى أسواق الحبشة الداخلية ، أو الى موانى (سقطرى) ، وقد كان بها مستوطنون يونانيون، أقاموا فيها منذ أمد طويل ، وبنوا بها كنائس ومستوطنات للاقامة فيها ، وظل بعضهم بها الى أيام الإسلام .

وكانت السفن اليونانية تموّن نفسها بما تجده في (ادولس) وفي (سقطرى) من تجارات ، بعضها من نفائس تجارة الهند جاءت بها السفن الساسانية الى هذه المواضع ، فيشتريها التجار اليونان ويأخذونها الى بلادهم .

ويذكر أهل الأخبار ان (سقطرى) كانت مركزاً هاماً من مراكز التجارة في البحر ، وكان بها قوم من اليونان يحفظون أنسابهم محافظة شديدة . وقد كانوا بها

من أيام ما قبل الميلاد ، وربما كانوا بها قبل أيام (الاسكندر) . ولما ظهرت النصرانية تنصر من كان بها من اليونانيين . ويذكرون ان قوماً منهم طرحهم (كسرى) في هذه الجزيرة . وكانت بوارج الهند تأوي اليها . وقد اشتهرت بالصبر الجيد الذي لا يوجد مثله في غيرها ، وبدم الأخوين ، وهو صمغ شجر يسمونه (القاطر) ، وهو (الأيدع) ، وقد ساكن العربُ اليونانَ[1] . ويذكر أهل الأخبار ان (أرسطو) ، هو الذي أشار على (الاسكندر) ، بإجلاء أهل (سقطرى) ، وإسكان طائفة من اليونان بها ، لحفظ (الصبر) لعظيم منفعته . وذكروا ان بينها وبين (المخا) ثلاثة أيام مع لياليها ، وان من مدنها : (بروه) و (ملتده) ، و (منيسة) ، وهي مسكن ملك الزنج[2] .

أما البحرية والتجارة البحرية الساسانية ، فإننا لا نعرف عنها في هذا العهد معرفة واسعة ، ولا نستطيع أن نتحدث عن وجود قوة بحرية ساسانية ، أو نشاط بحري في البحر الأحمر في كل العهود ، وإنما كان أقصى ما وصل اليه نفوذ الساسانين في البحر ، هو باب المندب ، أي مدخل البحر الأحمر ، حيث وقفوا عنده . وقد صار البحر الأحمر ، منذ استيلاء اليونان والرومان على مصر ، بحراً يونانياً رومانياً بيزنطياً ، حرسوه بأساطيل قوية ، ضمنت لهم التفوق فيه ، فلم يكن في وسع الفرس ولوجه أو التوغل فيه .

وقد ذكر أن (أردشير) الأول (٢٢٥ – ٢٤١ م) بنى جملة موانى بحرية وأن (نرسي) (٢٩٢ – ٣٠٢ م) عقد صلات وديّة مع ملك الزنوج في شرق الصومال ، وأن (سابور) الثاني حوالى سنة (٣١٠ م) هاجم البحرين ، وأقام حامية بها ، وفتك بقبائل عديدة ، وذلك رداً على هجوم تلك القبائل على سواحل فارس .

وصار للفرس نشاط ملحوظ في الخليج وفي المحيط الهندي . وقد أنشأ الفرس جملة كنائس في سواحل الهند وسقطرى ، أنشأها الفرس النساطرة ، وكانوا تجاراً ، نزلوا في هذه المواضع للاتجار : كما كانت هنالك سفن فارسية في (أدولس) . وكان الساسانيون يستغلون الظروف الحرجة ، والأوضاع القلقة التي

---

١ البلدان (٩٣/٥ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٢٧٣/٣) ، (السقطري) .

تقع في انبراطورية الروم ، فيزيدون من نشاطهم في البحر ، ويمعنون في مطاردة التجـــار البيزنطيين في البحر العربـي وفي الخليج وفي الهند ، حتى قلّ عدد سفن الروم ، في المحيط ، واكتفت بالوصول الى باب المندب والسواحل الافريقية في بعض الأحيان ، عند اشتداد الأزمات ، ووقوع قلاقل داخليـــة ، أو نزول كوارث بالروم في الحروب .

وقد وجد الساسانيون أن من الأصلح لهم نقل التجارة الآتية الى تجـــارهم من الصين والهند وسيلان الى الخليج حيث لا يزاحمهم أحد ، ومنه الى العراق ، أو من الهنـــد والصين الى فارس ، ثم العراق ومنه الى (نصيبين) ، أو الى بلاد الشأم ، لبيعها الى البيزنطيين . وفي جملة مواد هذه التجارة (الحرير) الذي كان مطلوباً عند البيزنطيين ، لأنه من الألبسة الفاخرة بالنسبة للطبقة الحاكمة ولرجـال الكنيسة وللطبقة المترفة المرفهة ، فكان يباع بأغلى الأثمان[1] .

وقد دخل الأحباش البحرَ ، فكانوا يسيرون سفنهم بـــين السواحل الافريقية والسواحل العربية الغربية والجنوبية . ولو لم تكن لهم قوة بحريـــة ما تمكنوا من الاستيلاء على اليمن وعلى مواضع من العربية الجنوبية جملة مرات . آخرها فتحهم اليمن سنة (٥٢٥) للميلاد . وقد تولت سفنهم نقل حاصلات الحبشة والسواحل الافريقية إلى بلاد العرب ، وكان التجار العرب ينقلون هذه السلع الى بلاد الشأم أو العراق . وقد ذكر أهل الأخبار ان (الجار) ، وهي مدينة على ساحل بحر القلزم بينها وبين المدينة يوم وليلة وبينها وبين أيلة نحو من عشر مراحل ، والى ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل ، كانت فرضة ، ترفأ اليها السفـــن من الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند ، وبحذاء الجار جزيرة في البحـــر تكون ميلاً في ميل لا يعبر اليها إلا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة[2] .

ولكن قوة الحبشة البحرية لم تكن قوة قوية ضخمة ، ولم تكـــن مكونة من سفن كبيرة ذات مرونة وقابلية على الحركة ، بل كانت سفناً صغيرة لا تضاهي السفن اليونانية في الضخامة وفي الفن ، ولم تكن كثيرة العدد، ولا سيما في الجاهلية القريبة من الاسلام ، بدليل ما ورد في بعض الروايات من ان السفن التي حملت

---

١ Runciman, Byzantine Civilization, p. 164.

٢ البلدان (٣/٣٥) .

جيش ملك الحبشة إلى اليمن لاحتلالها سنة (٥٢٥) للميلاد ، وذلك في عهد (ذي نواس) كانت سفناً يونانية أمر القيصر بارسالها إلى الحبشة لحمل الجيش الى اليمن[١] . وبدليل ما ورد في روايات إخراج الحبش وطردهم من اليمن ، من ان السفن التي حملت الفرس إلى اليمن كانت ثماني سفن ، غرق منها سفينتان ، وبقيت ست سفن فقط ، وقد تغلب من كان بها مع ذلك على الحبش . فلو كان للحبش أسطول بحري قوي ، ولو كانت لهم هيمنة على البحر، لما كان في إمكان هذه السفن الفارسية الست الوصول الى مياه اليمن ، وإنزال ما فيها من جنود ، ومن التغلب على الحبش والقضاء على حكمهم هناك .

وضعف بحرية الحبشة ، هو الذي جعلها لا تستطيع الوفاء بوعدها للقيصر (جستنيان) « Justinian » في شراء الحرير من الهند ومن وراء الهند ، وبيعه للروم . فقد كان هذا القيصر قد أرسل في عام (٥٣١ م) وفداً الى (أكسوم)، ليفاوض الحبش في هذا الموضوع لحرمان الساسانيين من ربح كبير كانوا يجنونه من الاتجار بالحرير المستورد من الهند ومن وراء الهند ، فوافقوا على ذلك، لكنهم لم يتمكنوا في النهاية من الوفاء بالوعد ، لعدم تمكن سفنهم البحرية من الوصول الى الهند ومن منافسة التجار الفرس الذين كانوا قد استقروا في سيلان وفي الهند وفي مواضع أخرى منذ عهد طويل[٢] .

ولم يتمكن الأحباش أن يُفيدوا فائدة تجارية كبيرة من فتحهم لليمن . ولم يحصل البيزنطيون على ما كانوا يتوقعون الحصول عليه من الاتصال بالحبش من البرّ ، وذلك عن طريق (المقاطعة العربية) في جنوب بلاد الشأم فالحجاز الى اليمن . فلم يتمكن الحبش من احتلال الحجاز ، للاتصال بالروم . وأخفق (أبرهه) في الاستيلاء على مكة على نحو ما تحدثت عنه في موضعه . وتمكن الفرس من طردهم من اليمن بكل سهولة ، دون أن يقوم الحبش ولا حلفاؤهم البيزنطيون بإرسال قوات بحرية لمقاتلة السفن الساسانية القليلة التي جاءت بمقاتلين من المساجين المجرمين ، لا بجيش نظامي مدرب ، وقد تمكنوا مع ذلك من التغلب على الحبش ، بمساعدة كبيرة بالطبع من اليمانيين أنفسهم الذين كانوا قد أعلنوا

---

١ الطبري (١٢٧/٢) .

٢ Procoplus, Persian Wars, I, 29, 9-13, Malalas, 18, 456-459.

ثورة عامة علـى الحبش . ولو كان للحبش أو لحلفائهم البيزنطيين أساطيل من السفن المحاربة القوية ، لمـا تمكن الفرس من الاستيلاء على اليمن بتلك القوة الضعيفة !

ولم يكن الساسانيون أقوياء في البحر عند ظهور الاسلام ، وآيـة ذلك هو ان عاملهم على اليمن ، كان يرسل ألطاف اليمن وما يجمعه منها إلى (كسرى) عن طريق البر ، وقد تحدثت عن تعرض (بني تميم) بقافلة كسرى التي كانت قادمة من اليمن في طريقها الى (المدائن) . ولو كان للفرس أسطول قوي من سفن ضخمة على نمط سفن البيزنطيين ، لاستخدموه واسطة للنقل بين اليمن والعراق ، ولسمعنا بوجوده في البحر . وقد يقال إن الفرس استخدموا البر ،لأنه أسهل عليهم من البحر ، وأقصر مسافة وأسرع من حيث الوقت ، ثم هو يمر بأرضين صديقة للفرس أو موالية لهم ، أو تابعة لأمراء موالين لهم ، خاضعين لسيادتهم ، وليس في ذلك دليل على عدم وجود أسطول قوي لهم في البحر ، ولكننا مـع موافقتنا على هذا التعليل ، فإننا لا نسمع في أخبار أهل الأخبار المنقولة من روايات فارسية أصلية ، ما يفيد بوجود فعل وأثر لأسطول ساساني ما وراء عمان إلى السواحـل الافريقية ، ثم إن الفرس كانوا قد تحكموا في السواحل العربية الجنوبية قبل فتحهم لليمن ،ولكنا لا نجد في هذا العهد أثراً لحكم فارسي على السواحل العربية الجنوبية، مما يدل على زوال حكمهم عنها وعدم وجود أسطول ساساني في مياه هذه السواحل، فتخلصت منهم ، واستقلت بأمرها وادارتها .

وقد استفاد أهل مكة ، من الأحداث التي وقعت في اليمن ، ولا سيما بعـد موت أبرهة وموت مشروعه في الاستيلاء على مكـة قبل وفاته . وإني أرى أن حملة (أبرهة) على مكة ، لم تكن حملة غايتها هدم الكعبة ، ونقض قواعدها ، كما يذكر ذلك أهل الأخبار ، وإنما كانت لدوافع اقتصادية وسياسية ، فقد كانت مكة قد برزت وظهرت الى الوجود ،قبل أبرهة . واستغل أهلها مواهبهم وذكاءهم في كيفية جمع المال ، حتى صاروا تجاراً ووسطاء في التجارة ، يتاجرون بين بلاد الشأم واليمن ، وبـين الحبش والعراق ، وصاروا أصحاب مال ، لهم نقود : دنانـير ، ودراهم ، وذهب ، وفضة ، وغير ذلك مما يسيل له لعاب التاجر وصاحب المال ، أضف الى ذلك وقوع مكة في موقع مهم ، والاستيلاء عليه يمهد للسير نحو بلاد الشأم ، للاتصال بالروم ، أصحاب مشروع الحملـة الأصليون ،

كما تحدثت عن ذلك . فالعوامل إذن اقتصادية سياسية ، وليست العوامل التي ذكرها أهل الأخبار .

وقد ساهم أهل الهند في تسخير البحر كذلك ، فكانت سفنهم تمخره ما بين الهند وساحل الخليج الى (الابلة) . كما كانت تتجه نحو (سقطرى) وسواحل افريقية الشرقية . فقد ذكر أهل الأخبار أن (بوارج الهند) كانت تتاجر مع هذه الجزيرة [1] . وقد مونت الهند جزيرة العرب بالحديد الجيد ، الذي صنعت منه السيوف الهندوانية ، نسبة الى الهند . و (التهنيد) ، عمل الهند . كما مونتهم بالعود الطيب ، وبالخشب الصلد [2] .

وبظهور الاسلام ، وباستيلاء المسلمين على مصر وعلى شمالي افريقية ، وبفتح بلاد الشأم والعراق وايران وما وراء ايران تغير الحال بالطبع ، فماتت الانبراطورية الساسانية ، ومات أسطولها معها ، وانقطعت صلة البحرية البيزنطية بالبحر الأحمر وبالمحيط الهندي ، وأبعد الأوروبيون من البحار الدافئة الى أن تبدلت الدنيا مرة أخرى ، فظهر المكتشفون الأوروبيون وفي مقدمتهم البرتغال ، فعاد التفوق البحري للغرب ، وانتزع البحر من البحرية الاسلامية ، لأنها ظلت جامدة محافظة لم تحدث تغيراً في هندسة السفن ، ولا في أسلوب القوى المحركة لها وفي قابليتها على الحركة ، فصارت عاجزة عن مقاومة العقل الحديث ، وغلبت على أمرها نتيجة جمود العقلية وعدم التطور مع عقلية الزمن .

هذا ولا بد لي هنا من لفت نظر القارىء الى ورود شيء في كتب أهل الأخبار عن حملات الروم على بلاد العرب وعلى البحر الأحمر ، ولو ان هذا المذكور المدون في كتبهم ، هو من نوع القصص المعروف المألوف الذي ألفنا قراءته في كتب أهل الأخبار ، فيه مبالغة وغرابة وخيال ، وفيه سذاجة تنم عن عقلية سطحية تروي كل ما يقال لها من غير نقد ومناقشة . وقد أخذ من أهل الكتاب وفي الاسلام في الغالب . ولكنه قصص يستند — على كل حال — الى أصل وسبب وإن كان بعيداً . ثم انه قصص طريف يريك مبلغ علم القوم بأحوال الماضين ، وكيف يروون قصص الحوادث المتقدمة وينقلونه على انه تأريخ للماضين. ويكاد يكون أكثر تأريخ من تقدم زمن الاسلام من هذا النوع .

---

١ البلدان (٥/٩٣) .

٢ تاج العروس (٢/٥٤٧) ، (هند) .

الفصل الواحد بعد المئة

تجارة مكة

وكان أهل مكة من أبرع التجار ومن أنشطهم في العربية الغربية عند ظهور الإسلام . وقد أشير الى تجارتهم في القرآن الكريم[1] . وسبق أن تحدثت عن تجارتهم في أثناء كلامي على مجمل الحالة السياسية لجزيرة العرب عند ظهور الإسلام .

وقد استفاد أهل مكة ، ولا شك ، من الوضع السيء الذي طرأ على اليمن بدخول الحبش اليها ، ومن تردي الأوضاع السياسية فيها والاضطرابات المستمرة التي وقعت بتصادم الوطنيين والغزاة الأحباش. فانحسر كل نفوذ سياسي أو عسكري كان لحكومات اليمن في الحجاز أو على بعض القبائل ، ووجدت قريش نفسها حرّة مستقلة وفي وضع يمكّنها من استغلال مواهبها في التجارة ، فقامت بمهمة الوسيط ، تنقل تجارة أهل اليمن والعربية الجنوبية الى أسواق فلسطين ، وتنقل تجارة بلاد الشأم وحوض البحر المتوسط الى الحجاز ونجد واليمن، وبذلك حصلت على أرباح طائلة عظيمة ، جعلتها من أغنى العرب عند ظهور الإسلام، وصيّرت مكة مركزاً خطيراً من مراكز الثروة والمال في جزيرة العرب في ذلك الحين .

وقد وصف أهل الأخبار أهل مكة بترفعهم عن البخل والشح، فقال (الجاحظ) وهو يصفهم : « ومن العجب ان كسبهم لما قلّ من قبل تركهم الغزو ، ومالوا الى الإيلاف والجهاد ، لم يعترِهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل خلقة

---

[1] سورة قريش .

في الطبـاع ، فأعطوا الشعراء كما يعطى الملوك ، وقروا الأضياف ، ووصلوا الأرحام ، وقاموا بنواثب زوار البيت . فكان أحدهم يحيس الحيسة في الأنطاع فيأكل منها القائم والقاعد والداخل والراكب ، واطعموا بدل الحيس الفالوذج »[1].

فورد الكسب الأول عند العرب في الجاهلية هو الغزو على رأي أهل الأخبار ، وقد ترفعت قريش عنه ، وصرفت نفسها الى التجارة . ومن طبع التجار البخل ومسك اليد ، أما قريش ، فخالفتهم في البخل ، ووصلت الشعراء وقرت الأضياف. ونسب (الجاحظ) سبب تركهم الغزو الى كونهم أهل حمس ديانين ، فقال : « وكانوا ديانين ، ولذلك تركوا الغزو ، لما فيه من الغصب والغشم واستحلال الأموال والفروج من العرب »[2] . ويعتقد (الجاحظ) ، بأن للدين أثراً كبيراً على سلوك الانسان وعلى كره الحرب ، إذ تراه يقول : « ثم جاء ما هو أعجب من هذا وأهم ، وذلك أنا قد علمنا ان الروم قبل التدين بالنصرانية كانت تنتصف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالاً فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال والقود والقصاص ، اعتراهم مثل ما يعتري الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفاً ، ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة وسرت في لحومهم ودمائهم ، فصارت تلك الديانة تعترض عليهم ، خرجوا من حدود الغالبين الى أن صاروا مغلوبين »[3] . فالنصرانية قد أثرت على الروم حتى جعلتهم يكرهون الحروب ، وصاروا مغلوبين بعدما كانوا غالبين . ثم جاء بدليل آخر على إثبات رأيه في ان الدين ينقص من شهوة الحرب ، هو ان (التغزغز) من الترك ، نقصت عندهم الشجاعة وذهبت عنهم الشهامة بعد ان دانوا بالزندقة[4] . فالدين اذن مخفف من شهوة الحرب مبرد من التعطش الى القتال ، لكنه على رأيه أيضاً ، يحول المتدينين الى أسود في المعارك ، فقريش التي تركت الغزو بتة ، كانوا مع طول ترك الغزو ، إذا غزوا ، غزوا كالأسود مع الرأي الأصيل والبصيرة النافذة، والخوارج

---

١ كتاب البلدان (ص ٤٦٨) ، (نشر الدكتور صالح احمد العلي) ، (مستلة من مجلة كلية الآداب سنة ١٩٧٠) .

٢ كتاب البلدان (٤٦٨) ، (وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشديد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الاموال واستحسان الغصوب) ، كتاب البلدان (٤٧٢) .

٣ كتاب البلدان (٤٧١) .

٤ كتاب البلدان (٤٧١) .

على اختلافهم من أحرار وعبيد وموالي يقاتلون قتال الباسل المستميت مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم ، و « في هذا دليل على ان الذي سوّى بينهم التدين بالقتال» ، وان استبسال قريش والخوارج وغيرهم من المتدينين « انما هو بسبب الديانة »[1] ووحدة العقيدة وعامل الدفاع عنها والجهاد في سبيلها .

وقد نسب (الجاحظ) ميل قريش الى التجارة واشتغالهم بها الى تحمسهم في دينهم وتشددهم في الدين ، فقال: « وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشديد في الدين فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال واستحسان الغصوب، فلما تركوا الغزو لم تبق مكسبة سوى التجارة فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم والى النجاشي بالحبشة والى المقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »[2] .

فتحمس قريش في دينهم ، حملهم على ترك الغزو ، وترك الغزو حملهم على التكسب بالتجارة ، فاتجار قريش في مكة وضربهم في الآفاق ، هو بسبب البحث عن رزق يعوضهم عن رزق الغزو ، الذي أبعده الدين عن قلوبهم ، فكان ما كان من أمر تجارتهم . هذا هو رأي الجاحظ في السبب الذي حمل قريشاً على الانصراف الى التجارة .

وفي القرآن : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »[3] . فمكة بلد بوادٍ قفر غير ذي زرع ولا ماء ، ليس لأهلها ما لسكان الأرياف والقرى التي تملك المياه والأنهار من ثمرات النبات والأشجار، فصارت الطائف مصيفاً لهم ، ومورداً يمدهم بثمر النبات والأشجار[4] ، واستغل أهلها فقر واديهم ، وموقع مدينتهم الذي تمر به القوافل ، وشجعوا من كان يسكن حولهم على الحج الى معبدهم وعلى قصده أيام السنة وموسم الحج،فاستفادوا من الحجاج . وجعلوا الموسم سوقاً يتعاطون فيه البيع والشراء ، فربحوا وصار لهم مال استثمروه وشغلوه ، في سوق مكة وفي الأسواق الأخرى ، وتعاملوا مع الأعراب ، وعقدوا الإيلاف مع ساداتهم ومع الفرس والروم والحبش ، فصاروا

---

١ كتاب البلدان (٤٧٢) .
٢ كتاب البلدان (٤٧٢) .
٣ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (١٣/١٥٢) . –
٤ تفسير الطبري (١٣/١٥٥) .

يخرجون الى خارج مكة بأمان بفضل العقــود والعهود التي عقدوها مع سادات الأعراب ، وهي أهم في نظري من أي عقد آخر عقدوه مع حكام العراق وبلاد الشأم أو اليمن ، إذ كان في استطاعة الأعراب نهب قوافل مكة وسلب أموالها ، وهي ذاهبة أو آيبة محملة ، فلا يستطيع أهل مكة فعل شيء ، ولا تبقى أية فائدة عندئذ لعقود الإيلاف المعقودة مع الحكّام المذكورين . وقد علم سادة مكة ذلك ، فتعاقدوا مع سادات الأعراب ، وأدوا لهم نصيباً من الربح ، وبذلك أمنوا جانب أعرابهم ، فكانوا إذا تحرش بهم متحرش ، أدّبه سادة قبيلته ، واستعادوا منه ما أخذه من نهب وسلب .

وقوم هم أهل قرار ، لهم بيت مقدس ، ولهم تجارة ، لا يفكرون في غزو ، ولا يرتاحون من وجود أهل شغب وفتن بينهم . فالغزو سواء أكان منهـم أو كان عليهم مضرّ بهم . ولا يعود عليهم بفائدة ، بـل هو يبعد القاصدين لهم عنهم ، وفي ابتعادهم عنهم خسارة ، ثم هو يعرقل تجارتهم ويحول دون اتجارهم ، والتجارة مورد رزقهم وعليها معاشهم . وقريش من المستقرين ، ومن التجـار ، ولهم معبد ، فكان من صالحهم اشاعة الأمن والابتعاد عن التشاحن وفض كـل خلاف يقع فيما بينهم ، أو فيما بينهم وبين غيرهم بالتي هي أحسن ، وجرّ الناس اليهم ، والعمل على اكتساب صداقة أهل الحضر وأهل الوبر أيضاً ، وعلى إنصاف الغريب الذي قد لا يجد له مجيراً من بين أهل مكة فيظلم ، وعلى تقديم الرفادة للحجاج الضعفاء ، وإسقائهم الزبيب المنبوذ بالماء في أيام الحج ، وعلى شراء الألسنة ، ألسنة الشعراء خاصة ، لما كان لها من أثر في النفوس .

وللمنافع المادية التي كانوا يحصلون عليها من تآلفهم مع القبائل ، حرصوا على ألا يؤذي أحد منهم أحداً من الغرباء ، فيثير قوم الغريب عليهم ، لا سيما إذا كان ذلك الغريب من قبيلة تمر تجارة قريش بها . فلما عذب أهل (مكة) (أبا ذر الغفاري) ، أقبل (العباس) عليهم ، وقال : « ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنــه من طريق تجارتـكم الى الشام ؟. فأنقذه منهم »[1] . فزهد قريش وعدم ميلهم الى الاعتداء على الغرباء ، لم يكن كما رأى (الجاحظ) عن (تحمس) وعن دين ، وإنما كان عن طمع في المال وفي الكسب وفي الحصول على كسب

---

١ الاصابة (٤/٦٤) ، (رقم ٣٨٢) .

من تجارة تمر بطرق يجب أن تكون آمنة بالنسبة لها أمينة ، ولا يكون ذلك الأمان ممكناً، إلا بتأليف قلوب سادات القبائل ، والحرص على منع أهل مكة من الاعتداء على الغرباء .

بل نجد أهل مكـة يجيرون كل غريب حتى إن كان صعلوكاً أو خليعاً أو مستهتراً بالعرف والأخلاق ، أو قاتلاً غادراً ، أملاً في الاستفادة منهم ، وفي عدم التحرش برجالهم إن خرجوا متاجرين يحملون أموالهم لبيعها في الأسواق البعيدة، ولاستخدامهم في حمايتهم ممن قد يتحرش بهم من الأعداء والأعراب، ونجد في كتب أهل الأخبار أسماء عدد من أمثال هؤلاء ، كانوا قد لجأوا الى مكة وأقاموا بهـا واستقروا وعاشوا بها مجاورين لسادتها ، آمنين على حياتهم لأنهم في جوار سيد من قريش .

وفي القرآن الكريم آيات تدل على وجود مستوى راق في مكة ، وفي أماكن أخرى للتجارة والاقتصاد ، وتدل على تنسيق وعمل منظم بين التجار . وقد وردت فيه إشارات الى (رؤوس الأموال) ، وهـي الأموال الخالصة التي تشغل في التجارة والتي تعطي أيضاً المحتاجين اليها لتربو ولتعطي صاحبها الربا ، كما وردت فيه إشارات الى البيع والشراء والقروض والرهون والشركات والتكاتب والتعامـل التجاري وأمثال ذلك . وكل ذلك قد نظم وهذب وفقاً لقواعد الاسلام وصار أساساً لنظم التجارة والمال في الاسلام . ولهذا تستدعي دراسة النظـم الاقتصادية والتجارة في الاسلام الرجوع الى السناد ، وسنادها هو نظمها وقواعدها قبل الاسلام .

ويظهر من كتب التفسير والسير ان أهل مكة كانوا يسهمون في رؤوس أموال قوافلهم التي يبعثون بها الى بلاد الشأم واليمن ، وفي الأعمال التجارية الأخرى . يسهم أفراد أسرة تجارية واحدة أو جملة أسر ، بل معظم أفراد مكة الأحرار في تلك القوافل ، كل بحسب نصيبه لينعموا بالأرباح . وقد ساعدت هذه الشركة على إعانة أصحاب السهام وعلى مساعدة أهل مكة في رفع مستواهم المعاشي . وإذا كنا لا نملك موارد تتحدث عن أنظمة تلك الشركة أو الشركات وقوانينها، وعن كيفية توزيع الأرباح بين المساهمين ، وعن أنواع تلك الشركات وأصول حساباتها ووكلائها في الخارج ، فمن الميسور ان نظفر بقدر كبير من جذورها وأصولها في

فصول الشركات والقضايا المتعلقة بتنظيم التجارة في الاسلام في كتب التفسير والحديث والفقه خاصة ، ففي هذه الفصول إشارات كثيرة إلى شؤون التجارة والاقتصاد عند الجاهليين .

ويظهر مما ذكره أهل الأخبار وأوردوه عن قوافل مكة ، أن مال القافلة ، لم يكن مال رجل واحد ، أو أسرة معينة ، بل كان يخص تجاراً من أسر مختلفة ، وأفراداً وجد عندهم المال ، أو اقترضوه من غيرهم فرموه في رأس مال القافلة أملاً في ربح كبير. فقد ذكروا أن قافلة قريش التي كانت في خفارة (أبي سفيان) والتي أثارت معركة (بدر) ، كان رأس مالها مختلطاً ، ساهم فيه كل متمكن من أهل مكة . حتى « لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير »[1] .

ويظهر من سورة (قريش) أن قريشاً كانت ترحل رحلتين في السنة : رحلة في الشتاء الى اليمن ، ورحلة في الصيف الى بلاد الشأم . وهما رحلتان تجاريتان، تشتري فيها وتبيع ، وتربح منها ربحاً صيرها في وضع مالي حسن . وقد صارت مكة لذلك العهد مركزاً مالياً خطيراً في الحجاز ، وسوقاً لتبادل السلع . ولم تكن قريش تستورد التجارة لتخزنها في مكة ، أو لتصرفها في أسواق مكة وحدها . فمكة وحدها بلدة صغيرة لا تستوعب أسواقها هذه التجاراة ، بل كانت تستوردها من الشمال والجنوب ، لتصرف ما يمكن بيعه في أسواق مكة وهو القليل، ولتصدر وهو الغالب ما استوردته من الجنوب الى الشمال أعني بلاد الشأم ، ولتصدر ما استوردته من بلاد الشأم ، الى اليمن ومنها الى بقية العربية الجنوبية والسواحل الافريقية المقابلة ، فتربح من هذه الصفقات ربحاً حسناً .

وتروي كتب أهل الأخبار أن قريشاً كانوا لا يخرجون عيراً فيرحلون إلا من (دار الندوة)[2] . فكأنها كانت منطلق التجار والتجارة . ولعلهم كانوا يفعلون ذلك لكونها ندوة مكة ودار الرأي والحكم في هذه المدينة ومجلس أهل المال فيها . وكذلك كان يفعل أهل المدن المتاجرة، تتحرك قوافلهم من ساحة مجالسها ليشاهدوا الناس . وإذا عادت أناخت في هذه الساحات أيضاً ، ليراها أهل البلد ، فتكون

---

١ امتاع الاسماع (١/٦٦) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٧٠) ، (ذكر قصي بن كلاب) .

لهم فرحة تشبه أفراح العيد .

والرحلتان المذكورتان ، هما من قوافل قريش الكبيرة التي كانت القافلة الواحدة منها تتألف من أكثر من ألف بعير ، والتي يساهم فيها كل من شاء ممن له مال من أهل مكة ، ويريد الاتجار به ، تشترك فيها الأسر المعروفة بالغنى والتجارة من قريش ويساهم معها من له مال في ذلك الوقت ، رجاء الربح والكسب . وقد كانت قافلة (أبو سفيان) التي أهاجت وقعة بدر من قبائل قريش كلها ، وأخصها (بطون كعب بن لؤي) . ليس فيها من (بني عامر) ، إلا ما كان من (بني مالك بن حِسْل) ، ولذلك عرفت نفرة قريش الى (بدر) بـ (نفرة بني كعب بن لؤي)[1] .

وكانت قافلة (أبو سفيان) المذكورة ، قد تاجرت ببلاد الشأم وهمّت بالعودة إلى مكة ، فلما سمع رسول الله بأبي سفيان مقبلاً من الشأم ، بألف بعير ، محملة بأموال عظيمة ، ندب المسلمين اليه ، وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها ، فانتدب الناس ، وكان أبو سفيان يتحسس الأخبار ، فبلغه خبر استنفار الرسول أصحابه ، فأرسل (ضمضم بن عمرو) الغفاري إلى مكة ، وأمره ان يأتي قريشاً فيستنفرهم الى أموالهم ويخبرهم ان محمداً قد عرض لها في أصحابه . فخرج اليها ، فلما بلغها ، وقف على بعيره ببطن الوادي ، وقد جدع بعيره وحول رحله ، وشق قيصه ، ثم صرخ : يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى ان تدركوها ، الغوث ، الغوث . فتجهز الناس سراعاً ، وساروا حتى بلغوا (بدراً) ، وكان (أبو سفيان) ، قد غير طريقه حين سمع خبر خروج رسول الله بأصحابه ، فساحل بقافلته وترك بدراً يساراً ، وانطلق حتى أسرع فبلغ مكة ، وكانت قريش قد نزلت (الجحفة) ، فكتب اليها : انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجّاها الله فارجعوا . وأصر بعض رؤساء قريش على ورود (بدر) ، وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام . وفيه ماء ، وعلى الإقامة ثلاثاً ، ينحرون الجزور ، ويطعمون الطعام ، ويسقون الخمر ، وتعزف عليهم القيان حتى تسمع بهم العرب

---

١ الطبري (٢/٤٢٢) .

وبمسيرهم وبجمعهم ، فلا يزالون يهابونهم أبداً بعدها . ومضوا الى بدر ، فوقعت معركة بدر[1] .

وما كان إصرار رؤساء قريش على المسير الى المسلمين لملاقاتهم في الطريق ، اسلوباً من أسلوب التجار في الحفاظ على السمعة وفي الظهور بمظهر القوي المتمكن حتى لا يطمع بهم الطامعون ويتجاسرون عليهم . فكان خروجهم هذا نوعاً من التحدي ومظهراً من مظاهر اظهار القوة ، لتخويف الغير ، لعلمهم بقوتهم ، فكأنهم أرادوا انزال ضربة بمن خرج مع الرسول لملاقاة القافلة ، معتمدين على عددهم وقوتهم ، حتى يتهيب المسلمون في المستقبل من التحرش بقوافلهم ،وليكون ذلك درساً لهم . ولعلهم كانوا لا يريدون في الواقع الاشتباك مع المسلمين في قتال ،وانما كانوا أرادوا مجرد تخويفهم واظهار أنفسهم مظهر القوي العزيز المهاب ، كما يظهر ذلك من قول أهل الأخبار من أنهم كانوا أرادوا الاقامة ببدر ثلاثة ايام ، ينحرون الجزور ، ويطعمون الطعام ، ويسقون الخمر ، وتعزف عليهم القيان حتى تسمع بهم العرب وبمسيرهم وبجمعهم ، فلا يزالون يهابونهم أبداً بعدها. ولكن أبت الأقدار إلا ان يقع الاصطدام فوقع على نحو ما هو مذكور .

وكانت (بصرى) سوق قريش في رحلتهم الى بلاد الشأم ، عندما تقف قوافلهم وتحط رواحلهم ، فيشترون ويبيعون ويمكثون حتى ينتهوا من تجاراتهم ثم يعودون الى مكة . وكان منهم من يصل الى (غزة) ويتاجر في أسواقها، حيث تبيع أسواقها منتوجات حوض البحر المتوسط وما يرد اليها من (أوروبة) من تجارة . ويبيع التجار العرب فيها ما يحملونه من بلاد العرب من سلع مستطرفة مطلوبة في أسواق البحر المتوسط . وبها مات (هاشم بن عبد مناف) جد النبي ، حين كان توجه للشأم بالتجارة ، فأدركته منيته فمات بغزة وبها قبره ، فقيل غزة هاشم[2] .

---

١ ابن هشام (٢/٦١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٢/٦١ وما بعدها) ، الطبري (٢/٤٢١ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٩٨) ، القاموس (٤/١٧٦) ، تفسير ابن كثير (٤/٥٥٣ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣٠/١٩٧ وما بعدها) .

٢ وقد رثاه « مطرود بن كعب » الخزاعي بقوله :

وهاشم في ضريح عند بلقعة تسفى الرياح عليه وسط غزات

وقيل « بين غزات » ، وورد :

ميت بردمان ، وميت بسلمان ، وميت عند غزات

تاج العروس (٤/٦٥) .

والأدم ، هي في رأس قائمة السلع التي كان يحملها أهل مكة الى بلاد الشأم، كانوا يجمعونه من اليمن ومن الطائف ويحملونه الى بلاد الشأم والعراق . ومنه ما كان معمولاً مصقولاً معتنى به ، زخرف بالذهب ، لذلك عرف بـ (المذاهب). و (المذاهب) الجلود المذهبة [1] . وهي من أرقى الجلود وأغلاها،يشتريها الأغنياء لاستعمالها في الأشياء الغالية الثمينة .

وتعدّ اليمن من أهم الأماكن المصدرة لجلود البقر في جزيرة العرب ، وقد كانت تحمل الى مكة والى مواضع أخرى لبيعها في أسواقها منها البصرة في الإسلام، حيث كان التجار يحملون جلود البقر من اليمن اليها [2] . واشتهرت أيضاً بعطورها لجودتها . روي أنّ (عبدالله بن أبي ربيعة) كان يبعث بعطر اليمن من اليمن الى أمه (أسماء بنت مخرّبة) ، أم (أبي جهل) ، فكانت تبيعه الى الأعطية، وكانت تضع العطور في قوارير ، وتزنها ، فتبيع نقداً ، أو ديناً . فإذا باعت ديناً كتبت مقدار الدين في كتاب [3] . ولعل شهرة مكة بعطورها ، إنما جاءتها من العطور المستوردة التي تأتي اليها من اليمن ومن أماكن أخرى .

وكان الزيت على رأس السلع التي كان يشتريها أهل مكة وتجار يثرب من بلاد الشأم ، لصفائه ولنقاوته وجودته ، وكان (دحية بن خليفة الكلبي) يتجر مع بلاد الشأم بالزيت والطعام ؛ وصادف رجوعه من الشأم وقت صلاة الجمعة ، والرسول يخطب ، فلما سمع المصلون خلف الرسول صوت أجراس القافلة جعلوا يتسللون اليها ، خشية ان يسبقوا اليها ، فتباع ، حتى بقيت منهم عصابة اثني عشر رجلاً وامرأة . فوبخهم الله بالآية : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ،والله خير الرازقين » [4].

---

١ تاج العروس (١/٢٥٨) ، (ذهب) .

٢ قال الشاعر :

والله للنوم بجرعاء الحفر ... أهون من عكم الجلود بالسحر

بلا العرب (ص ٣٠٨) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٨/٢٢٠) ، الواقدي ، مغازي (٦٥) .

٤ الجمعة ، الآية ٩ ، تفسير الطبري (٢٨/٦٦ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٦ وما بعدها) ، الواحدي أسباب النزول (٣٢٠) ، مسند الامام أبي حنيفة (٧٣ وما بعدها) .

وقد عرف الزيت المستورد من الشأم بالزيت الركابي ، لأنه كان يحمل على الإبل من الشأم[1] .

ولم يشر أهل الأخبار إلى رحلة على شاكلة رحلتي الشتاء والصيف الى العراق . وإنما أشاروا الى تجار منهم كانوا يتاجرون مع الحيرة . ومعنى هذا ذهاب قوافل صغيرة الى العراق ، لم تكن بحجم قوافل قريش الى بلاد الشأم أو اليمن . ولم يشر القرآن الكريم أيضاً الى رحلة جماعية الى العراق أو الى موضع آخر . مما يدل على أن قريشاً كانت ترحل رحلتين جماعيتين كبيرتين في السنة الى بلاد الشأم في الصيف ، والى اليمن في الشتاء فقط . أما رحلاتهم الأخرى ، فلم تكن كبيرة ضخمة وجماعية ، بل كانت قوافل دون القافلتين في الحجم ، وكانت خاصة أصحابها أغنياء ، لهم رؤوس أموالهم ، يبعثون بقوافلهم على حسابهم ، في كل وقت شاؤوا ، وتكون أرباحها لهم : لا يشاركهم فيها مشارك ، وقد يرأسون بأنفسهم قوافلهم ، فيذهبون بها الى العراق ، ولهم فيه تجار وأصحاب ، فإذا باعوا عادوا ببضاعة جديدة وبما كسبوه الى مكة .

فقد رووا ان (أبا سفيان) كان يذهب بنفسه إلى العراق للاتجار ، يحمل معه حاصلات اليمن والحجاز ، ويعود بحاصلات العراق وبما يحتاج اليه أهل الحجاز واليمن من بضاعة . بل ذكروا انه كان يفد على (كسرى) ، يحمل اليه الهدايا تقرباً اليه . ذهب اليه مرة ، ومعه خيل وأدم ، فقبل (كسرى بن هرمز) الخيل وردّ الأدم وأعطاه هدايا وألطافاً[2] . وكان من مصلحة كسرى التقرب الى أهل مكة ، فقد كانوا تجاراً ، وكانوا على طريق مهم وفي مركز خطير من الناحية السياسية والتجارية ، كما كان نفسه يتاجر مع العرب ويتبايع معهم ، لذلك كان من مصلحته مجاملة أهل مكة والاتصال بهم .

وذكر انه قد كانت له صلات برؤساء وتجار الحيرة ، وبملوكها أيضاً ، يحمل اليهم الهدايا ، ويأخذ منهم ألطافهم ، ثم يعود بما يجده في أسواق الحيرة من تجارات . قدم مرة على عمرو بن هند ، أو النعمان بن المنذر ، فوجد عنده (مسافر بن عمرو بن أمية القرشي) ، وكان قد ترك مكة ونزل الحيرة ، وهو

---

١ تاج العروس (١/٢٧٧) ، (ركب) ، كتاب البلدان (٤٨٨) .
٢ الاغاني (١٢/٤٦) ، العقد الفريد (٢/٢١) ، « اللجنة » .

في قبة من أدم حمراء ، أمر الملك بضربها له ، إكراماً له ، وكان الملك اذا فعل ذلك برجل ، عرف قدره ومكانته ، فالتقى بـ (مسافر)[1] .

وكان أبو سفيان – كما يقول أهل الأخبار – تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش الى الشأم وغيرها من أرض العجم ، وكان يخرج أحياناً بنفسه ، وكانت اليه راية الرؤساء المعروفة بالعقاب ، وكان لا يحبسها إلا رئيس ، فإذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعت تلك الراية بيد الرئيس . وكان صديقاً للعباس ونديمه في الجاهلية[2] .

وكان (مسافر بن أبي عمرو بن أمية) ، وهو من رجال قريش جمالاً وجوداً وشعراً ، ومن فتيانها ، ممن يتاجرون مع العراق ، ويربح من تجارته هذه ربحاً طيباً ، وكان هلاكه بالعراق . فقد كان قد خرج في تجارة الى الحيرة ، فهلك بها عند (النعمان بن المنذر) ، ورثاه (أبو طالب)[3] .

وكان (عبدالله بن جدعان) من أثرياء مكة ومن تجارها . ذكر أنه تاجر مع الحيرة . ويظهر مما ذكره أهل الأخبار عنه ، أنه كان ثرياً جداً ، وربما عدّ أثرى قريش في أيامه ، واليه تنسب قصة ادخال (الفالوذج) الى أهل مكة ، حيث يذكرون أنه تعلمها من أهل العراق ، وجاء ومعه طبّاخ خاص ليطبخ له طبيخ الحيرة وأهل فارس .

وكان (العاص بن وائل بن هاشم) السهمي من تجار مكة ، الذين رحلوا بتجارتهم إلى خارج مكة . وكان من أشراف قريش . وقد مات بالأبواء[4] . ولعله كان خارجاً في تجارة له فمات هناك . ومن ولده (عمرو بن العاص) . وقد أسلم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة معاً[5] . وكان تاجراً كذلك . ويذكر (ابن كثير) ان (عمرو بن العاص) وفد على (مسيلمة) ، وذلك بعد ما بعث رسول الله وقبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة ، فقال :

---

١ الاغاني (٤٦/٨ وما بعدها) .
٢ الاستيعاب (٨٦/٤) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ كتاب نسب قريش (١٣٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٠٣) .
٤ كتاب نسب قريش (٤٠٨) .
٥ كتاب نسب قريش (٤٠٩) .

وما هي ؟ فقال : « والعصر إن الانسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال : وقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر ، وانما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو ، والله انك لتعلم أني أعلم انك تكذب[1] . والرواية موضوعة ، فسورة (العصر) من السور المكية ورقمها (٢٧) حسب ترتيب نزول السور بمكة على رأي العلماء ، أي قبل الهجرة ، وقبل إسلام (عمرو) بزمن ، وقبل مجيء (مسيلمة) إلى المدينة مع وفد حنيفة ، وبعد مجيئه اليها بدأت دعوته بمعارضة الرسول . ثم ان جملة : « ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ » ، جملة تشعر ان (عمرو بن العاص) كان مسلماً إذ ذاك ، بينما كان هو من المشركين في ذلك العهد . ثم إن ما نسب الى (مسيلمة) من آيات ، وضع على وزن آيات القرآن ومحاكاة لها ، وليس في : (يا وبر يا وبر الخ) أي شيء يضاهي : (والعصر) في النسق أو في المعنى ، وعندي أن الخبر من الأخبار الموضوعة . وقد يكون (عمرو بن العاص) قد زار اليمامة ، فهذا شيء غير مستبعد . فقد كان تاجراً وكان تجار مكة يسافرون الى اليمامة والى غيرها للاتجار ، أما أنه ذهب خاصة لزيارة (مسيلمة) ومكالمته على نحو ما يرد في الخبر ، فأسلوب يدل على وجود الصنعة فيه أكثر مما يدل على الصحة وصدق الرواية .

وقد عرف أهل الحيرة بنشاطهم في الأسواق وباتجارهم مع أسواق جزيرة العرب وغيرها ، حتى قيل : « إنك لا ترى بلداً في الأرض ليس فيه حيري »[2] . وقد كانت الحيرة نفسها سوقاً مقصودة ، تشتري وتبيع ، يأتيها التجار من مختلف الأمكنة ، وموضع تجاري على هذه الشاكلة لا بد أن يذهب أهله الى الأسواق الأخرى للبيع والشراء.وقد عرف أهل الحيرة بحذقهم في الصيرفة وفي بيع الفلوس . قيل لأحد أهل الحيرة ممن يتعاطى الطب : « ما لأهل الحيرة والطب . عليك ببيع الفلوس في الطريق »[3] .

---

١ تفسير ابن كثير (٥٤٧/٤) ، البداية والنهاية (٣٢٦/٦) .

٢ مختصر كتاب البلدان (ص ٥١) .

٣ ابن العبري : تأريخ مختصر الدول (ص ٢٥٠) .

وكان تجار الحيرة يزورون مكة للاتجار بها ، ولهم مع تجارها عقود وجوار وتجارة ، فإذا ذهب أحدهم الى مكة نزل على حليفه وجاره ، ثم باع ما عنده من تجارة ، واشترى ما يجده بمكة من سلع مطلوبة مرغوبة ثم يعود الى الحيرة . وكان منهم من كوّن مع حلفائه من أهل مكة تجارة مشتركة تتعامل بالحيرة وبمكة وبمواضع أخرى ، وتسوي أشغالها بالمراسلة ، يدير الحيريون منهم أعمال الشركة بالحيرة ، ويدير المكيون منهم أعمالها بمكة ، ثم يتراجعون في الحساب ، ويقتسمون الأرباح والخسائر على وفق ما اتفقوا عليه .

وقد كانت تجارة قريش تجارة واسعة ، وقد أقام تجارهم وكالات ومتاجر في مواضع متعددة ، لتتولى أمر البيع والشراء . ولعلهم كانوا يمثلون مصالح مكة السياسية في الحبشة كذلك ، كأن يتولى هؤلاء التفاوض مع الحكومة هناك في عقد عهود سياسية واقتصادية وما شابه ذلك . وقد كان اتصال أهل مكة بالحبشة وثيقاً ودائماً ، ويظهر انهم كسبوا منافع مهمة من أعمالهم واشتغالهم في تلك البلاد[1] .

وقد عهدت قريش الى أناس آخرين من رجالها بقيادة قوافلها ، الى بلاد الشأم أو الى اليمن . كما قام رجال منها بتجهيز قوافل لهم لتتاجر بأموالهم . ولما هاجر الرسول الى (يثرب) استاؤوا من خبر هجرته استياءً كبيراً ، لعلمهم بأهمية موقع (يثرب) ، وبما سيقوم به المسلمون من التعرض بقوافلهم ومن تحرشهم بتجارهم وفي هذا العمل نكبة عظيمة تصيب تجارتهم وأرباحهم ومنافعهم المادية . فتشاوروا في أمرهم وتناقشوا ، وقالوا : « قد عوّر علينا محمد متجرنا وهو طريقنا » وقال (أبو سفيان) و (صفوان بن أميّة) : « إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا »[2] ، وقال أيضاً : « كنّا قوماً تجاراً ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا »[3] ؛ وقال غيره مثل ذلك من كلام ، يشعر بمقدار الأضرار والخسائر التي منيت بها تجارة قريش بسبب هجرة الرسول الى يثرب واعتراضه طرق القوافل . لا سيما بعد أن تبين لها أن جميع السبل التي فكرت في سلوكها لتسيير قوافلها عليها ، هي غير أمينة ولا سالمة ، وأن المسلمين

---

١ الاغاني (٨/٥٠) .

٢ الطبري (٢/٤٩٢ وما بعدها) .

٣ الطبري (٢/٦٤٦) .

قد أخذوا يباغتون قوافلهم حتّى في الطرق الجنوبية المؤدية الى اليمن والطرق البعيدة الى تؤدي الى العراق .

وقد وقف المسلمون لقريش بالمرصاد ، وأخذوا باعتّراض قوافلهم ، فما كادت تمضي سبعة أشهر من مقـدم الرسول المدينة ، حتّى أمر (حمزة) بالتوجه الى ساحل البحر من ناحية العيص ، للتحرش بعير لقريش كانت قد جاءت من الشأم تريد مكة ، فيهـا أبو جهل في ثلاثمائة راكب[1] ، فكان خبر هذه السرية أول خبر سيء يبلغ مسامع قريش ؛ وقـد نجت القافلة ، إلا أن الخبر جعل قريشاً تشعر أنه سيكون مقدمة لأخبار سيئة ستصيب مصالحها التجارية وحياتها الاقتصادية ، ولن يكون لها من نجاة ، إلا بالتهيؤ للقضاء على الرسول والإسلام . كما فكرت في وضع خطط لتغيير طرقها التي تسلكها في ذهابها الى الشأم باتباع طرق بعيـدة سالمة ، تكون بعيدة عن المسلمين ، وقد سلكتها فيما بعد ، حين ضيق المسلمون على قوافلها التي كانت تسير على الطرق المألوفة ، فتبين أنها لم تكن سالمة أيضاً وأن المسلمين أخذوا يهاجمونها على كل طريق ، مهما كان .

وكان من غيظهم على الرسول ، ومن تأثرهم بما أصاب تجارتهم من خسارة وضرر ، ان لقبوا الرسول بـ (القاطع) . ولما ذهب (الحجاج بن علاط) ، الى مكة ، وكان تاجراً له مال بمكة أودعه زوجته ، ومالاً متفرقاً في تجار أهل مكة ، وكان مسلماً يكتم إسلامه ، قالوا له : أخبرنا بأمر محمد ، فإنه قد بلغنا ان القاطع قد سار الى خيبر ، وهي بلدة يهود وريف الحجاز[2] . فنعتوا الرسول بـ (القاطع) لأنه قطع عليهم تجارتهم وهدد طرقهم التي يسلكونها للوصول الى أسواق الشأم وبلاد العراق .

ولما كان الشهر الثامن من مقدم الرسول المدينة ، أرسل سرية الى بطن (رابغ) بلغت (ثنية المرة) ، وهي بناحية الجحفة ، لتقابل عيراً لقريش ، اختلف في أميرها ، فقيل : كان (أبو سفيان) ، وقيل بل (مكرز بن حفص) ، وقيل (عكرمة بن أبي جهل) . فكان بين المسلمين والمشركين رمي ، ونجت القافلة .

---

١ الطبري (٢/٤٠٢) ، امتاع الاسماع (١/٥١) .

٢ الطبري (٣/١٨) .

وكانت كبيرة على ما يظهر ، إذ كان عدد رجالها ، أي حراسها مائتين[1] . ورجع المسلمون دون ان يغنموا شيئاً ، وقد كانت السرية انذاراً آخــر لقريش بالخطر الذي سيحيق بتجارتها وبمصالحها المادية وبأن ما كانت تربحه من أرباح لن يدوم لها فيما بعد .

وقد تمكن (أبو بصير) من إنزال ضربات موجعة بتجارة قريش ، اختار (العيص) ، وهو ناحية على ساحل البحر على طريق عير قريش الى الشأم موضعاً ينقض منه على قوافل قريش ، فيسلب ما فيها من مال ويقتل من يقتل من المارة ، حتى ضيق عليها ، وهرب اليه من كان بمكة محبوساً من المسلمين ، حتى تجمع عنده قريب من سبعين مسلماً ، أغار بهم مرة على ركب كان يريد الشأم ، معهم ثمانون بعيراً ، فأخذوا ذلك وأصاب كل رجل منهم قيمة ثلاثين ديناراً . فغاظ قريش تضييق (أبو بصير) عليهم ، حتى كتبوا الى رسول الله يسأله بأرحامهم إلا أدخل أبا بصير اليه ومن معه . فكتب اليه ان يعود ومن معه[2] .

ولما عقد صلح (الحديبية) وكانت الهدنــة بين قريش والرسول ، استراحت (قريش) ، وإن بقيت خائفة من أن لا تجد أمناً لها ، فأرسلت قافلة في نفر من قريش فيها (أبو سفيان) ، الى (غزة) متجرها في بلاد الشأم ، فوصلت سالمة الى هناك ، وتاجرت ثم عادت[3] .

وذكرت كتب التأريخ والأخبار أسماء عدد من رجال مكة كانوا يخرجون الى التجارة بأموالهم وأموال غيرهم من أمثال أبي العــاص زوج زينب بنت رسول الله ، وكان يخرج تاجراً الى الشأم . وكان رجلاً مأموناً ، يخرج بماله وأموال رجال من قريش أبضعوها معه[4] . وقد عرف (بالأمين) ، وكان من رجــال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة ، يخرج بماله وبمال غيره تاجراً ، يأتمنون به ، ثم يعود فيؤدي الى كل ذي مال من قريش ماله الذي كان أبضع معه . وكان آخر خروجه تاجراً بأمواله وبأموال قريش قبل الفتح ، خرج الى الشأم فلما انصرف قافلاً لقيته سرية لرسول الله ، أميرهم (زيد بن حارثة) ، وكان أبو العاص

---

١ الطبري (٢/٤٠٢) ، امتاع الاسماع (١/٥٢) .
٢ امتاع الاسماع (١/٣٠٥) .
٣ الطبري (٢/٦٤٦) ، (ذكر خروج رسل رسول الله الى الملوك) .
٤ الطبري (٢/٢٩٢) .

في جماعة عير ، وكان زيد في نحو سبعين ومائة راكب ، فأخذوا ما في تلك العير من الأثقال وأسروا منهم ناساً ، فاستجار (أبو العاص) بزينب، فأجارته ، وردّ الرسول الأموال والأسرى اليه ، وعاد مع القافلة الى مكة ، فأدى الى كل ذي مال من قريش ماله الذي كان أبضع معه ، ثم أعلن أمام قريش شهادة الاسلام ، وتركهم فقدم يثرب مسلماً ، ورد رسول الله ابنته عليه[1] .

ومن تجار قريش (صفوان بن أمية بن خلف) ، ذكر انه كان أحد العشرة الذين اليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الاسلام من عشرة بطون . وكان أحد المطعمين في الجاهلية والفصحاء ، وأحد أشراف قريش ، واليه كانت الأيسار ، وهي الأزلام، فكان لا يسبق بأمر حتى يكون هو الذي يجري يسره على يديه . وكان يقال له : (سداد البطحاء) . وهو أحد المؤلفة قلوبهم . وكان غنياً ،وكذلك كان أولاده[2]. ورد في الحديث : ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية ، وقنطر أبوه ، أي صار لها مال كبير ، كأنه يوزن بالقنطار[3] ، فهما من أسرة ثرية ثقيلة الثراء .

وتعدّ أيام مغادرة القوافل وأيام عودتها سالمة ، من الأيام المشهودة في مكة ، يخرج فيها أهل البلدة لتوديع القافلة متمنين لها النجاح والفلاح والعودة سالمة بربح وافر كثير ، داعين آلهتهم ان تبارك في رجالها وتمنحهم العون والفلاح في البيع وفي وقايتها من شر السفر ومن أذى الأشرار قطّاع الطريق . ويخرج فيها أهل مكة فرحين مستبشرين ، لاستقبال القافلة قادمةً من سفرتها البعيدة وهي محملة بسلع جديدة وبثمن ما باعته من سلع وما ربحته من فروق الأسعار : سعر الشراء وسعر البيع ، حتى اذا ما بلغت القافلة مكة ، كان أول واجبها زيارة رئيسها وأصحابها (البيت الحرام) لرفع الحمد والشكر الى رب البيت على ما أنعمه عليها من الأمن والسلامة وما رزقها من ربح . ثم يعود مع أصحابه الى بيوتهم ليستريحوا وليقوموا بتصفية حسابهم ، واعطاء كل واحد من المساهمين في رأس مال القافلة نصيبه من الربح .

وقد ذكر أن قريشاً كانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً . وأن قافلة

---

١ الاصابة (١٢١/٤) ، (رقم ٦٩٢) ، الاستيعاب (١٢٥/٤) ، (حاشية على الاصابة)

٢ الاصابة (١٨١/٢ وما بعدها) ، الاستيعاب (١٧٩/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ تاج العروس (٥٠٩/٣) ، (قنطر) .

(أبي سفيان) التي كانت سبب وقعة بدر، كانت ألف بعير ، وكان المال خمسين ألف دينار، فسلّم أبو سفيان الى أهل العير رؤوس أموالهم ، وأخرجوا أرباحهم، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً[١] .

وقد اشتهرت بعض الأسر من قريش بالتجارة مع الأقطار البعيده عن مكة . وقد ذكر أهل الأخبار أن بني (عبد مناف) المعروفين بـ (أصحاب الإيلاف) كانوا أسرة ثرية غنيّة اختصت بالاتجار مع الخارج . وكانوا أربعة أخوة ، هم: هـاشم ، وكان يؤالف الروم ، فأمن في تجارته الى الشأم . أما الأخ الثاني ، فعبد شمس، وكانت تجارته مع الحبشة . وأما الثالث فكان المطلب ، وكان يرحل الى اليمن . وأمـا الرابع ، فهو نوفل ، وكان يرحل الى فارس . وقد عرف هؤلاء بـ (المتجرين)[٢] وبـ (المجبرين) وبـ (المجيرين)[٣] .

ولم يكن الإيلاف إيلافاً مع الروم أو الفرس أو الحبشة ، وإنما كان إيلافاً مع سادات القبائل . فبفضل العقود والعهود التي عقدها (هاشم) واخوته مع سادات العرب أمكن مرور قوافل مكة بأمن وسلام نحو العراق وبلاد الشأم واليمن والحبشة. ولولا هذه العقود التي جبرت قلوب سادات القبائل بتقديم حقـوق مرور لهم ، أو بإشراكهم في مال القافلة ، بحمل تجار مكة ما عندهم من سلع لبيعها عـلى حسابهم ، وتقديم ثمنها مع الربح الذي جاؤوا به على سعر البيع المقدر ، لما كان في إمكان قريش ضبط أولئك الأعراب ومنعهم من التحرش بقوافلهم ومرورهـا الى الأسواق بأمن وسلام .

ويرجع أهل الأخبار مبدأ (الإيلاف) وخروج قريش من مكة بالقوافل الى بلاد الله الأخرى الى (هاشم بن عبد مناف) ، فهم يذكرون ان قريشاً كانوا تجاراً « وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، انما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشأم فنزل بقيصر ، فكان يذبح كـل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون، وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم،

---

١ نهاية الارب (١٧/ ٨١) ، (ذكر غزوة أحد) .
٢ بلوغ الارب (٣/ ٢٨٥) .
٣ تاج العروس (٦/ ٤٤) ، (الف) .

فذكر ذلك لقيصر فقيل له : ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم ، وانما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز ، فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث اليه في كل يوم فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : أيها الملك ، إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم ! فكتب له كتابَ أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرَّ بحيِّ من العرب بطريق الشأم أخذ من أشرافهم إيلافاً — والإيلاف : أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف انما هو أمان الطريق — وعلى ان قريشاً تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون اليهم رؤوس أموالهم وربحهم. فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشأم حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يُجوّزهم يوفيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب حتى أوردهم الشأم وأحلهم قراها ، ومات في ذلك السفر بغزة . وخرج المطلب ابن عبد مناف الى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجر اليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم ، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى (الفيض) وهلك بردمان من اليمن . وخرج عبد شمس بن عبد مناف الى الحبشة ، فأخذ إيلافاً كفعل هاشم والمطلب ، وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحجون. وخرج نوفل ابن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافاً ممن مر به من العرب ، ثم قدم مكة ورجع الى العراق فمات بسلمان . واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها ، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والاسلام »[1] . وبهذا القصص ، أوجد أهل الأخبار مبدأ الإيلاف ، ومبدأ خروج قريش بالتجارة الى الأقطار المذكورة . ويكون عمل (آل عبد مناف) وفق هذه القصة ، عملين : أخذهم أماناً من الملوك المذكورين بمعاملة قريش معاملة حسنة وحمايتهم لهم في أرضهم من كل تعدّ قد يقع عليهم، ومراعاتهم مراعاة خاصة حين مجيئهم اليهم للاتجار ، معاملة الأحسن حظوة بين التجار الذين يتاجرون في أسواقهم ، والعمل الثاني ، هو عقدهم الإيلاف مع

[1] ذيل الامالي (١٩٩ وما بعدها) .

سادات القبائل الذين يمرون بهم في ذهابهم وإيابهم الى الشأم والعراق واليمن والحبشة، بأن يأمنوا عندهم في أرضهم ، ولا يعتدى على أحد منهم .

وموضوع ذهاب هاشم واخوته الى الشأم أو العراق أو اليمن أو الحبشة، موضوع طبيعي لا داعي إلى اثارة الشك حوله ، فقد وجدنا أن غيرهم من تجار مكة كانوا يتاجرون مع الأماكن المذكورة ، تاجروا معها قبلهم وتاجروا معها بعدهم، أما أنهم التقوا بقيصر وبكسرى وبالنجاشي وبتبابعة اليمن ، وتعاقدوا وتعاهدوا معهم ، فقضية أخرى فيها نظر ، وقد عوّدنا أهل الأخبار على سماع مثل هذا القصص . وكل ما نستطيع أن نتصوره فيما لو صدقنا بالخبر ، هو أن أولئك الأخوة قد قابلوا بعض موظفي الحدود وتصادقوا معهم وقدّموا لهم بعض الهدايا، فصاروا يتساهلون معهم في جباية الأعشار وفي أخذ حقوق المرور ، فشاع بين قومهم أنهم تعاقدوا مع أولئك الملوك .

والإيلاف ، العهد والذمام وشبه الإجازة بالخفارة ، من ألف بينهما تأليفاً ، أوقع الألفة وجمع بينهما بعد تفرق ووصلهما ، ومن ذلك المؤلفة قلوبهم ، أمر النبي بتألفهم ، أي بمقاربتهم وإعطائهم من الصدقات ليرغبوا من وراءهم في الإسلام ، ولئلا تحملهم الحميّة مع ضعف نياتهم على أن يكونوا مع الكفار على المسلمين[1] . وصار أهل مكة ، بفضل الإيلاف ، آمنين امتيارهم وتنقلاتهم شتاءً وصيفاً والناس يتخطفون من حولهم ، فإذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد . فالإيلاف العهود التي أخذتها قريش من سادات القبائل إذا خرجت في التجارات فتأمن بها[2] .

وقد عرف أصحاب الايلاف، وهم الاخوة الأربعة أبناء عبد مناف بـ(المجبرين)، إذ كانوا يؤلفون الجوار يتبعون بعضه بعضاً ، يجيرون قريشاً بميرهم ويجبرون فقيرهم ، ولذلك قيل لهم (المجبرين) .

وذكر أن كل واحد من الأخوة المذكورين أخذ حبلاً من ملك . فأما هاشم فإنه أخذ حبلاً من ملك الروم ، وأما عبد شمس ، فإنه أخذ حبلاً من النجاشي. وأما المطلب ، فإنه أخذ حبلاً من أقيال حمير . وأما نوفل ، فإنه أخذ حبلاً من

---

١ تاج العروس (٦/٤٤) ، (ألف) .
٢ تاج العروس (٦/٤٤) ، (ألف) .

كسرى ، فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الأمصار بحبال هؤلاء[1] .

و (الحبل) العهد والذمة والايمان ، يقال كانت بينهم حبال فقطعوها ، أي عهود وذمم . وذلك أن العرب كانت تخيف بعضها بعضاً فكان الرجل إذا أراد سفراً أخذ عهداً من سيد قبيلة فيأمن بذلك ما دام في حدودها حتى ينتهي الى أخرى فيأمن بذلك[2] . والحبل الحلف أيضاً والعصم[3] . فالحلف بمعنى العهد بين القوم والمعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . وقد كانت الأحلاف كما سبق أن تحدثت عنها من أهم سمات الجاهلية ، وقد نهي عنها في الاسلام ، لما كانت توقعه من أضرار في المجتمع بسبب التكتلات والتحزبات والعصبية التي تؤدي الى القتال . فورد : لا حلف في الاسلام وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه ، فذلك الذي قال فيه الرسول:وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة . يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق . وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام[4] .

وكانت للعرب تعابير ومصطلحات في اعطاء العهد والأمان ، ومنها مصطلح : (لا بأس) . والبأس العذاب والشدة والخوف ، وإن قال الرجل لعدوه لا بأس عليك ، فقد أمنه ، لأنه نفى البأس عنه . وهو في لغة (حمير) (لبات)[5] .

وبفضل اتباع سياسة تأليف قلوب القبائل ، باشراك ساداتها في تجارة قريش ، أو اعطاء ساداتها جعالة مرور ، أو هدايا ، أو بالتصاهر معها ، أو باكراء إبلها لنقل تجارة قريش ، تمكنت قريش من تأليف قلوب سادات القبائل ، فأمنت على نفسها ، وصارت قوافلها تخرج في أي وقت شاءت من أوقات السنة في الشهور

---

١ تاج العروس (٦/ ٤٤) ، (الف) .
٢ تاج العروس (١/ ٢٦٩ وما بعدها) ، (حبل) .
٣ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٧٥ وما بعدها) ، المحبر (١٦٢) ، الطبري (٢/ ١٢) ، Kister, p. 126.
٤ تاج العروس (٦/ ٧٥) ، (حلف) .
٥ قال شاعرهم :

تنادوا عند غدرهم لبات   وقد بردت معاذر ذي رعين

تاج العروس (٤/ ١٠٤) ، (بؤس) ، (١/ ٥٨٠) ، (لبت) ، اللسان (٦/ ٢٠ وما بعدها) ، (بؤس) .

الحل أو في الشهور الحرم . لا تخشى بأساً ، حتى انها صارت تعطي أمانها لغيرها، وبذلك ألفت القبائل الأخرى التي لم تكن لها عقود وإيلاف وحبال مع القبائل المحالفة لقريش ، فصارت تحمل كتاب أمان قريش وشعارها ، وهو ما عضد من شجر الحرم ، يوضع حول العنق ، على ما يزعمه أهل الأخبار ، فيكون جواز سفر وكتاب مرور .

والإيلاف ، أي عقد (الحبال) مع سادات القبائل ، عمل مهم جداً بالنسبة لكل صاحب عمل وتاجر . إذ يتمكن التاجر به من حماية نفسه وماله ومن المرور بأمن وسلام ، دون أن يتعرض لخطر النهب والسلب . وهو حتى اذا تعرض للخطر ، فإن سيد القبيلة بنفوذه وبسيادته على قبيلته كفيل بأن يعيد اليه ما انتهب منه . ولهذه الأهمية ، عقدت قريش الحبال مع سادات القبائل الذين تمر تجارة تجارها بأرضهم . عقدتها قريش ، أو أمضاها تجار من تجارها، بما لهم من صداقة وصلات زواج وروابط بسادات القبائل ، ولا سيما بسادات قبائل المناطق التي تمر الطرق التجارية بأرضها ، فلهذه القبائل بالذات أهمية كبيرة بالنسبة الى كل تاجر، وللحكومات بصورة خاصة بالطبع ، ولهذا تنافست على الاستحواذ عليها حكومات اليمن وحكومة الحيرة ، والساسانيون . وقد رأينا (امرأ القيس) المتوفى سنة (٣٢٨) للميلاد يصل بجيشه الى (نجران) مدينة (شمر) ، ورأينا في خبر سجّل بالمسند وصول جيوش اليمن الى أرض الخليج . فلهذه الأرضين ، كاليمامة ونجد والبحرين أهمية كبيرة بالنسبة للتجارة في جزيرة العرب لمرور الطرق البرية التي تربط العربية الجنوبية بالعربية الشمالية وبالعراق وسواحل الخليج بها ، ولمرور الطرق التي تربط العربية الغربية بالعربية الشرقية وبالعراق بأرضها. وقد رأينا كيف تعرضت قافلة (كسرى) التي قدمت من اليمن ، قاصدة المدائن الى السلب والنهب، وكيف تعرضت (لطيمة) النعمان الى النهب في هذه الطرق .

ويذكر أهل الأخبار ، ان تجار اليمن والحجاز ، كانوا يتخفرون بقريش ، اذا كانوا بأرض مضر . وان قريشاً استفادوا من عقدهم الإيلاف مع تميم وأسد ، و (بني عمرو بن مرثد) من (بني قيس بن ثعلبة) ، ومع قبائل (ربيعة) عامة . و (مضر) و (ربيعة) ، هي من قبائل نزار ، و (قريش) نفسها من ولد (مضر بن نزار) في عرف النسابين ، فإذا أخذنا بذلك علماً، استطعنا القول إن هذا النسب ، انما هو مصالح تجارية وروابط سياسية مصلحية ، جمعت

هذه القبائل في (بوتقة) مصالح مشتركة ، فأوجدت منها هذا النسب الذي أفاد أهل مكة كما أفاد القبائل الأخرى المشتركة فيه ، والتي كانت تتاجر في أسواق مشتركة فتبيع وتشتري وتنتفع بفضل هذا النسب السياسي .

وللنسب أهمية كبيرة في تأليف القبائل وفي المحافظة على الأمن في البوادي . والتصاهر هو من أهم الروابط التي كانت تربط بين القبائل وبين الأفراد . ومن هذه الأهمية ظهر التصاهر السياسي والتصاهر الاقتصادي ، عند الملوك وعند سادات القبائل والأشراف ، فصاهر رجال من قريش قوماً من (تميم) ومن (بني عامر ابن صعصعة) ومن يثرب واليمن ، وصاهر ملوك الحيرة سادات القبائل المعروفة، للاستفادة من المصاهرة لمآرب سياسية واقتصادية ، بالحصول على تأييد قبائل أولئك السادة : ولمرور تجارتهم من أرضهم بأمن وسلام . وقد كانوا يعرفون كيف يختارون من يصاهرونه بالطبع ، يختارونه لكثرة عدد أبناء قبيلته ولمنزلتها ولمكانتها بين القبائل ، ليتخذوا منه قوة في تأديب القبائل الأخرى . وهو عمل لم يكن سادات القبائل في جهل من أسبابه ، وفي غفلة عن ادراك كنهه ، لذا كانوا يتاجرون به ، كما تاجر به الملوك ، أو سادات القبائل ، فيشترطون فيه شروطاً فيها مكاسب ومنافع لهم . كأن يطعمهم الملوك (الطعم) ويعطونهم الآكال ، ويجعلون لهم جباية الطرق ، وبعض الامتيازات على القبائل الأخرى ، ويجعلونهم على مقربة منهم في مجالسهم ، ويقربونهم بذلك على غيرهم من السادات .

وقد كان لهذا التقديم الحضري أهمية كبيرة في نفوس القبائل ، فهو عندهم أمارة من أمارات التشريف والتقدير . والأعرابي وإن ازدرى الحضر والحضارة، يقر مع ذلك في نفسه بتفوق الحضري عليه : ان لم يكن بالسلاح وبالقتال ، فبالحيل والغش والخداع كما يرى الأعرابي ذلك ، أي باستعمال الحضري ذكاءه المبني على التجارب والتقدم في مستوى الحياة في التغلب على الأعراب البسطاء الذين وإن كانوا أذكياء بالبديهة ، لكن ذكاءهم لا يكافىء ذكاء الحضر في التخلص من المتاعب والورط المعقدة التي تحتاج الى خداع .

وقد افتخر سادات القبائل الذين كان مستواهم العقلي فوق مستوى قبائلهم بكثير — بفضل اتصالهم بالحضر ، وزياراتهم (الأرياف) وبيوت الملوك ، بل البلاد الأعجمية المتقدمة أيضاً — بهذا التقديم ، واعتبروه شرفاً وتعظيماً ، فأكثروا من زيارة الملوك ، وانتهزوا المناسبات للاتصال بهم ، وافتخروا بما كانوا ينالونه منهم

من عطايا وصلات وخلع ، وهو تكريم كان يؤدي أحياناً الى نتائج محزنة، بسبب مبالغة بعض الملوك في تكريم سيد قبيلة ، وتقديمه على غيره من السادات ، مما كان يثير حقد بقية السادات ، الذين قد تتهيج عواطفهم عندئذ لهذا التقديم، وقد يعتبرونه إهانة خاصة قصد توجيهها اليهم ، فينتقمون ممن قدم عليهم ، أو ينتقمون من الملك ، بالإغارة على أرضه وأمواله . ونجد تأريخ الحيرة مليئاً بحوادث سببها إسراف بعض الملوك في الانصياع لعاطفتهم بتقديم سيد قبيلة،وتأخير آخر بإجلاسه في مكان هو دون المكان الذي كان من اللازم اجلاسه فيه من مجلس الملك. ولقرب المكان وبعده من الملك ومن صدر المجلس أهمية كبيرة عند سادات القبائل وفي عرف المجتمع آنذاك ، حتى صار ذلك سنة لهم ، اتبعوها في مجالسهم أيضاً ، فإذا دخل الناس مجلس سيد القبيلة جلسوا حسب منازلهم وأقدارهم في مجتمعهم ، على الرغم من مظاهر (الدمقراطية) والمساواة التي تظهر عليهم ، والتي تبدو عندهم في مخاطبة بعضهم بعضاً .

السلع :

والأدم والزبيب والصمغ والطيب والتبر والبرد اليمانية والثياب العدنية والأسلحة ومصنوعات الحديد والمعادن الأخرى ، هي من أهم السلع الرئيسية التي تتكون منها تجارة قريش . وبعض هذه السلع مهم وغال ومطلوب . فكان تجار مكة يشترونه من معادنه ومواضعه ، ويبيعونه في الأماكن التي تبحث عنها ، وتربح من ذلك ربحاً كبيراً . وقد كانت (الأدم) على رأس الأموال التي تاجرت بها ، حتى ان قريشاً كانت قد جعلتها على رأس الهدايا والألطاف التي كانت تهديها الى الملوك والرؤساء وأكابر الناس. فلما ذهب (أبو سفيان) الى العراق،ووصل الى (كسرى) كما يزعم أهل الأخبار ، أهدى اليه أدماً وخيلاً ، فقبل (كسرى بن هرمز) الخيل وردّ الأدم[1] . ولما أرسلت (قريش) (عبدالله بن أبي ربيعة) و (عمرو ابن العاص بن وائل) الى النجاشي ومعهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، جمعت له أدماً كثيراً ، ولم تترك من

---

١ الاغاني (١٢/٤٦) ، العقد الفريد (٢/٢١) ، (لجنة) .

بطارقته بطريقاً إلا وله هدية ، فكانت الأدم على رأس ألطاف مكة وهداياها [1] .

ومن العطور التي كانت معروفة بمكة : (الذرور) ، عطر يجاء به من الهند كالذريرة ، وهو ما انتحت من قصب الطيب ، وقيل هو نوع من الطيب مجموع من أخلاط ، وبه فسر حديث عائشة : طيبت رسول الله لإحرامه بذريرة [2] .

وأغلى سلع قريش التي كانت تحملها لبيعها في أسواق بلاد الشأم ، هي (الفضة). ولما أرسل الرسول (زيد بن حارثة) على عير لقريش كان فيها (أبو سفيان)، وكانت قد غيرت طريقها الذي يسلك الى الشأم ، وسلكت طريق العراق ، كانت مع (أبي سفيان) فضة كثيرة ، وهي أعظم تجارتهم ، فالتقى بها (زيد بن حارثة) فأصاب العير ، وبلغ خمس الرسول من الغنيمة عشرون ألفاً ، ومعنى هذا ان قيمة الغنائم ، كانت مائة ألف[3]. وقد ذكر في خبر هذه السرية ان الفضة كانت آنية كثيرة ، وسكت خبر آخر عن نوع الفضة ، وانما ذكر ان (أبا سفيان) كان يحمل معه فضة كثيرة [4] .

والأسلحة من أهم مواد التجارة التي كان يتاجر بها التجار . فالسلاح أداة ضرورية جداً بالنسبة الى الأعرابي ، فبه يدافع عن نفسه ، وهو لا ينام إلا وسلاحه الى جانبه ؛ حتى إذا ما شعر بأقل حركة ، نهض وهو بيده ليدافع به عن نفسه . والتاجر نفسه مع انه انسان مسالم لا يميل بطبيعة عمله الى حمل السلاح والتقاتل كان مضطراً مع ذلك الى حمله معه والى استخدام العبيد والأعوان للدفاع عن نفسه وعن أمواله . ولهذا كان يحرص على شرائه من أي مكان يجده فيه ليدافع به عن نفسه ، كما كان يتاجر به لأن الاتجار به من أربح الأعمال في السوق ، لإقبال الناس عليه ، فكان يشتريه من صناعه ومن أسواقه ، ليبيعه لمن يطلبه بسعر أعلى ، فيربح بذلك كثيراً من الفرق بين السعرين .

وكان لأهل مكة خاصة حس مرهف نحو التجارة . كانوا إذا سمعوا أجراس

---

١ الروض الانف (١/٢١١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/٢٢٣) ، (ذر) .
٣ الطبري (٢/٤٩٢ وما بعدها) .
٤ الطبري (٢/٤٩٢ وما بعدها) .

عير ، هرعوا نحوها يلتمسون خبرها . فلما أقبلت من الشأم عير لدحية بن خليفة الكلبي ، أو لعبد الرحمن بن عوف ، تحمل زيتاً أو طعاماً ، وكان رسول الله يخطب يوم الجمعة ، والناس خلفه صفوفاً ، فلما سمعوا بها ، جعلوا يتسللون ويقومون اليها ، خشية أن يسبقوا اليها ، فتباع ، حتى بقيت منهم عصابة اثني عشر رجلاً وامرأة . وكانوا إذا أقبلت العير ، استقبلوها بالطبل والمزامير والكبر والتصفيق. فلما نظر رسول الله الى المصلّين وقد انفضوا من حوله ، عنفهم ووبخهم ، ونزل في حقهم ما نزل في الآية من ترك البيع حالة صلاة الجمعة [1] .

ويتبين من كتب الحديث ان الصحابة كانوا يتعاطون التجارة ، ويتكسبون في الأسواق ، وقد كانوا نشطين جداً في ذلك ، وكان أهل مكة أكثر نشاطاً من أهل المدينة في هذا الباب ، فلا يكاد بعضهم يصل المدينة مهاجراً من مكة حتى يسأل عن السوق ، ويبحث عن رزق ، فذهب بعضهم الى سوق بني قينقاع ، وهي من أسواق يهود ، فنجحوا فيها وحصلوا على ربح ومال أعالوا به أنفسهم . وقد كان في جملة ما أجاب به أبو هريرة ، وقد قيل فيه : إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ، وان المهاجرين والأنصار لا يحدثون عنه بمثل حديث أبي هريرة : « إن اخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صفق الأسواق ، وكنت ألزم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على ملء بطني ، فأشهد اذا غابوا ، واحفظ اذا نسوا ، وكان يشغل اخوتي من الأنصار عمل أموالهم ، وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصُّفّة أعي حين ينسون [2] » . فالأنصار كانوا أصحاب زرع وأموال ، والمهاجرون كانوا أصحاب تجارات .

وكانوا اذا التهوا في السوق وانصرفوا في التجارة ونسوا أمورهم الأخرى ، قالوا ألهانا الصفق بالأسواق ، يعني الخروج الى تجارة وبيع وشراء . وقد أدى

---

١ سورة الجمعة ، الآية ٩ وما بعدها ، تفسير الطبري (٦٦/٢٨ وما بعدها) . تفسير النيسابوري (٦٨/٢٨ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير ابن كثير (٣٦٦/٤ وما بعدها) ، الواحدي ، أسباب النزول (٣٢٠) ، مسند الامام أبي حنيفة (٧٣ وما بعدها) ، ارشاد الساري (١٢/٤ وما بعدها) ، اثار السنن (٨٨/٢) ، تيسير الوصول (١٨٢/١) .

٢ صحيح البخاري (٥٢/٣ وما بعدها) ، (كتاب البيوع) ، عمدة القارىء (١٦١/١١ وما بعدها) ، ارشاد الساري (١٥/٤ وما بعدها) .

انصراف بعض الصحابة الى السوق وتعلقهم بالتجـارة الى انفضاضهم أحياناً عن الرسول وهم حوله ، فورد في الحديث : « بينما نحن نصلي مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبلت من الشأم عير تحمل طعاماً فالتفتوا اليهـا حتى ما بقي مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلا اثنا عشر رجلاً ، فنزلت : واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً »[1] .

وكان (العباس بن عبد المطلب) من أغنياء قريش ، ومن المقرضـين للمال بفضل يأخذه من المدين يضعه عـلى رأس ماله . وقد بقي على ماله وثرائه في الاسلام كذلك . وكان الرسول قد أبطل ربا العباس في أول ما أبطل من ربا في الاسلام . وكان العبـاس يتاجر كذلك ، له محل يتاجر فيه ، ويستقبل التجار الغرباء . وقد ذكر أن (عفيف الكندي) كان في جملة من تاجر معه في الجاهلية، وقد جاء اليه ليبتاع منه بعض التجارة[2] .

ولما آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين،آخى بين (عبد الرحمن بن عوف)، وهو من المهاجرين ، وبين (سعد بن الربيع) ، وهو من أكثر الأنصار مالاً ، فقال (سعد بن الربيع) : « أقاسمك مالي نصفين وأزوجك » . قال (عبـد الرحمن) : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلّوني على السوق . فدلوه على سوق قينقاع ، فغدا اليه ، ثم تابع الغدوّ ، فما لبث أن جمع مالاً من تعامله بالسوق وصار من المثرين[3] .

وقد كان (عبد الرحمن) تاجراً بمكة قبل هجرته الى يثرب ، وصاحب مال. فلعل الرسول أراد من مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، أن يساعـد المهاجرون الأنصار وأن يتعاونوا معاً ، كما كان شأن عبد الرحمن وسعد بن الربيع ، وهمـا من أصحاب الخبرة والتجربة في العمل ، فيفيدوا بذلك الإسلام بما يحصلون عليه من مال .

وقد ذكر أهل الأخبار ، أن عبد الرحمن ، تصدق على عهـد رسول الله ، بشطر ماله ، ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار ، ثم حمل خمسمائة فرس في سبيل

---

١ البخاري (٣/٥٥) ، ارشاد الساري (٤/١٤ وما بعدها ، ٥٥) .
٢ الاصابة (٢/٤٨٠) ، (رقم ٥٥٨٨) .
٣ ارشاد الساري (٤/٤ وما بعدها) .

الله وخمسمائة راحلة ، وكان أكثر ماله من التجارة . وذكروا أنه أعتق ثلاثين ألف نسمة وأنه أوصى لكل من شهد بدراً بأربعمائة دينار ، فكانوا مائة رجل[1] . وذكروا أنه كان تاجراً مجدوداً في التجارة ، وكسب مالاً كثيراً ، وخلف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ، ومائة فرس ترعى بالبقيع ، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً فكان يدخل منه قوت أهله سنة . وذكروا أنه صالح امرأته التي طلقها في مرضه من ثلث الثمن بثلاثة وثمانين ألفاً ، وقيل عن ربع الثمن من ميراثه . ورووا أنه أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً . وأنه كان يقول : « قد خشيت أن يهلكني كثرة مالي . أنا أكثر قريش كلهم مالاً »[2] .

وكان (أبو بكر) تاجراً معروفاً بالتجارة بمكة قبل الاسلام. ولقد بعث النبي وعنده أربعون ألف درهم ، ولما أسلم كان يعتق منها ويعول المسلمين ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف[3] .

وكان (طلحة بن عبيد الله بن عثمان) القرشي التيمي ، من تجار مكة ، ولما قدم المدينة مهاجراً ، أخذ يتاجر مع (الشأم) ، وذكر انه اشترى مالاً بـ (بيسان) ، وان غلته تبلغ ألفاً وافياً كل يوم . والوافي في وزنه وزن الدينار ، وعلى ذلك وزن دراهم الفرس التي تعرف بالبغلية . وقد ساهم في حرب الجمل ، التي وقعت سنة ست وثلاثين[4] .

والزبير من رعيل التجار كذلك ، وكان تاجراً مجدوداً في التجارة ، كان له ألف مملوك يؤدون اليه الخراج[5] ، وله أرضون واسعة وأموال طائلة .

تجار يثرب :

ولم يشتهر أهل (يثرب) في كتب أهل الأخبار بالتجارة ، وانما اشتهروا فيها بالزراعة ، ولا سيما بزراعة النخيل . ولكننا نجد ان من بينهم من كان يتاجر مع

---

١ الاصابة (٢/٤٠٨) ، (رقم ٥١٨١) .
٢ الاستيعاب (٢/٣٨٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ الاصابة (٢/٣٣٣) ، (رقم ٤٨١٧) .
٤ الاستيعاب (٢/٢١٠ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الاستيعاب (١/٥٦٣) ، (حاشية على الاصابة) .

بلاد الشأم واليمن ، وله أموال شغلها في التجارة ، كما ان من بينهم من كان يعطي فضل ماله بالربا للمحتاج الى المال ، وكان منهم من حصل على مال كثير فابتنى له (الأطم) و (الحصون) ليحصن نفسه وماله بها . ولما هاجر المهاجرون اليها ، تعاظم شأن التجارة بها ، إذ أخذ المهاجرون والأنصار يتاجرون مع الشأم، فيبيعون ويشترون ويستوردون التجارة الى المدينة ، بقوافل تأتي محملة بالزيوت وبتجارة الشأم اليها . حتى أمر الرسول باتخاذ سوق بها ، يتاجر فيه التاجر دون ان يدفع خراجاً ، بقوله : هذا سوقكم لا خراج عليكم فيه[1] . فرفع عن تجار يثرب ما كان يدفعه تجار الأسواق الأخرى من خراج الأعشار .

ويظهر من دراسة وتشريح كتب التفسير والحديث والسير والأخبار ، أنه قد كان بين أهل (يثرب) وأهل مكة فروق في أصول التعامل التجاري ، فوزن أهل يثرب يختلف عن وزن أهل مكة ، وكيلهم يختلف عن كيلهم أيضاً ، وتعاملهم في السوق يختلف بعض الاختلاف عن تعامل أهل مكة . ثم هم فوق ذلك يختلفون عن أهل مكة في أنهم أصحاب زرع ، وأهل مكة أصحاب تجارة، ولما جاء الرسول الى المدينة ، وجد لهم معاملات تخص أكثرها الزراعة لم تكن معروفة بمكة ، فسألهم عنها ، وحدد لهم موقف الإسلام منها .

وسبب هذا الاختلاف ، هو اختلاف طبيعة المكانين . فمكة بلد غير ذي زرع فقلّ عندهم التعامل الزراعي ، لعدم احتياجهم اليه . أما (يثرب) ، فبلد زراعة عيشة أهله على الزراعة واستغلال الأرض ، لذلك صار أكثر تعاملهم بأعمال تتعلق بالزراعة وباستغلال الأرض ، وبالاشتراك والتعاون في استغلال الملك الفائض على حاجات صاحبه ، فظهرت عندهم أعراف زراعية ، لم تعرف بمكة . وكانت عندهم بعض حرف ، لم تشتهر بمكة . ومن هنا راعى التشريع الإسلامي في التجارة أعراف أهل مكة فيها ، وراعى في التشريع الزراعي وفي الحرف أعراف أهل يثرب في الاثنين .

واقتصاد يثرب اقتصاد زراعي ، الانتاج فيه انتاج زراعي ، ثم حيواني، عماد الانتاج فيه التمور والخضر ، أما اقتصاد مكة ، فهو اقتصاد تجاري عماده التجارة القائمة على أساس شراء السلع من الأسواق ونقلها الى مكة ، وتصريفها من هناك

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٨) .

على أهل مكة ومن حولهم ، ونقل الفائض الى الأسواق الموسمية وأسواق العراق وبلاد الشأم والعربية الجنوبية . فهو اقتصاد لا يعتمد على الانتاج المحلي ولا على حرف محلية ، إنما يقوم على أساس شراء المنتجات الأجنبية من مصادرها بأسعار أعلى ، للحصول على الأرباح عن طريق الفرق بين السعرين : سعر الشراء وسعر البيع ، أو عن ثمن التوسط في معاملات البيع والشراء .

ويظهر ان أهل يثرب لم يكونوا قد أقبلوا على الزراعة اقبالاً كافياً ، وان الأرض لم تكن قد استغلت استغلالاً جيداً، لهذا نجد الرسول بعد هجرته الى هذه المدينة يحث المسلمين على الاقبال على الزراعة وعلى العمل بها ، وعلى استغلال الأرض ، لأن فيها قوت المسلمين ، فأراد بذلك سد النقص الذي كان يجابه أهل المدينة وغيرها في الحبوب وفي أقواتهم الأخرى ، وهذا مما أدى الى احياء بعض أرضها في أيامه ، أحياها أهل يثرب وأحياها بعض المهاجرين .

وكان بعض تجار مكة يمرون بيثرب في طريقهم من مكة الى بلاد الشأم ، وفي عودتهم منها الى مكة . ولما خرج (هاشم) في عير لقريش فيها تجارات ، كان طريقه على المدينة ، ثم نزل بسوق النبط ، وهي سوق تقوم بها في السنة يحشدون لها ، يبيعون ويشترون[1] . وهي سوق يظهر انها كانت تقام في موسم معين من السنة ، فيتجمع فيها التجار للبيع والشراء . ولما خرج (عبدالله) والد الرسول الى الشأم الى غزة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجارتهم ثم انصرفوا ، مرّوا بالمدينة ، وبها توفي فدفن هناك ، في دار النابغة ، وهو رجل من بني عدي بن النجار[2] .

وقد كان الأنباط يتاجرون مع المدينة ، يأتون اليها بـ (الدرمك) ، وهو الدقيق الحواري ، وهو دقيق أبيض،وبالزيت . وكانوا يأتون اليهم بأخبار الروم[3]. ولعلهم كانوا يتاجرون في موضع معين من أسواق يثرب،فعرف لذلك بسوق النبط.

وقد نافست (يثرب) مكة في التجارة بعد هجرة الرسول اليها ، إذ أخذ المهاجرون يتاجرون منها مع بلاد الشأم والعراق ، وصارت القوافل ترد اليها محملة

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٧٨) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٩٩) .
٣ امتاع الاسماع (١/٤٤٥ وما بعدها) .

ببضائع بلاد الشأم ، وأخذ الأنصار والمهاجرون يتاجرون معاً في الأسواق ، وقد تضخمت هذه التجارة بعد فتح مكة،ودخول القبائل في الإسلام ووصول الصدقات الى بيت المال في المدينة ، فتحسن حال أهل المدينة وصار لهم رأس مال مكنهم من تشغيله في التجارة وفي الزراعة ، فاستغلوا أرض يثرب بزرعها زروعاً مختلفة، ثم استغلوا أموالهم هذه في الخارج بعد الفتوح .

وقد نشأت يثرب وتوسعت لوجود المـاء بها ، وهذا المـاء هو الذي صيرها مستوطنة زراعية ، كما صير غيرها من المستوطنات العديدة التي تقع في شمالها وتمتد حتى تتصل في فلسطين مستوطنات زراعية منتجة ذات بساتين ومزارع يعتمد في زرعها على العيون والآبار . وكان عماد حاصلها التمر . وقد أحاطت بيثرب هالة من (الحوائط) المغروسة بالنخيل ، غرسها سادات يثرب ، فصارت من أهم موارد رزقهم ، وقد زرعوا بعض الخضر والبقول تحت النخيل ، لسد حاجتهم وبيع الفائض منه في الأسواق . ولكبار الملاكين فيها (أطم) يعيشون فيها ويخزنون بها ميراثهم وحاصلهم ، ويحتمون بها عند الخطر . وأما سواد الناس،فلهم بيوتهم، وبعضها بيوت ذات طابقين . ولم تكن المدينـة مسورة ولا محاطة بخندق على ما يظهر من روايات أهـل الأخبار ، بل كانت مدينة مكشوفة ، اذا داهمها خطر ، قام أهلها بسد منافذ طرقها ، وبالدفاع عنها من السطوح ، وبمقاومته في الأزقة .

وأرض يثرب أرض خصبة كان من الممكن زرعها لو أقبل أهلها على الزراعة، ولكنهم لم يقبلوا عليها اقبالاً تاماً ، بل قام المتمكنون منهم بغرس الأرضين الغنية بالماء ، والأرضين التي كان الماء فيها قريباً من سطح الأرض بحفر الآبار بها ، وتركوا الأرضين الأخرى مواتاً لم تزرع . وشغلوا الموالي والرقيق في الزراعة ، ولو أجهدوا أنفسهم في استصلاح التربة وفي استنباط الماء ، وحبس مياه السيول ، لأحيوا بذلك أرضين واسعة . بدليل ان بعض المهاجرين ممن كانت عندهم رغبة في الزراعة وأموالاً ، عملوا في استصلاح أرضين مواتاً حتى أحيوها ، وصارت تأتي اليهم بغلات وافرة .

ومن أثرياء يثرب (أحيحة بن الجلاح) ، وهو من سادة الأوس[1] . وهو

---

١ تاج العروس (١١٩/٢) ، (أح) .

من أصحاب الأرض ، وكان شريفاً في قومه ، مات قبل الاسلام . وكانت تحته (سلمى بنت عمرو الخزرجية) ، وتزوج (سلمى) بعده (هاشم بن عبد مناف) فولدت له (عبد المطلب) جد النبي[1] .

وسعد بن عبادة بن دليم ، سيد الخزرج ، هو من أغنياء يثرب ومن أصحاب الأطم فيها . وكان سيداً كريماً مضيافاً ، جفنته تدور مع النبي في بيوت أزواجه وكان يأخذ كل ليلة جماعة من أهل الصفة يعيشهم ، وكان أهل الحاجة يذهبون الى أطمه ينالون الشحم واللحم[2] .

والطائف مصيف أهل مكة ومتمونها من الفواكـــه والزبيب والعسل والخضر . وقد اشترى أغنياء قريش بها الأملاك والبساتين وشاركوا أهل الطائف في التجارة . وهي بلاد (ثقيف) . وثقيف من المتحضرين النشطين الأذكياء . وللطائف قرى، أولها (لقيم) ، وآخرها (الوهط) . وكان اسمهـــا القديم (وج) . ويذكر أهل الأخبار ، أن (الطائف) ، كانت في الأصل قرية بالشأم ، أو قطعة من الجنة التي كانت لأصحاب الصريم ، أو باليمن بنواحي صنعـــاء ، فنقلت بدعوة (ابراهيم) الى الحجاز ، لتكون مصيفاً وجنة لأهل مكة . وكانت بغير سور، فلما جاء (الصدف بن الدمون) من حضرموت الى (وج) ، وكان قد أصاب دماً في قومه ، لحق بثقيف وأقام بها ، وأقام لهم طوفاً أطـــاف بوج ، فسميت بالطائف منذ ذلك الوقت . ومنهم من يزعم ، أنها إنما سميت بذلك لأن (جبريل) لما نقلها من موضعها ، طاف بها بالبيت سبعاً ، ثم وضعها بموضعهـا ، فعرفت بالطائف[3] .

وكان أهل الطائف مزارعين ، عاشوا عـلى الزراعة ، واتخذوها تجارة لهم . زراعة الكروم والفواكـــه والحبوب . وكسبوا من ذلك مالاً ، وكان منهم من اشتغل بدبغ الجلود ، وبيع (الأدم) أي الجلود المدبوغة أو تصديرها الى الخارج، ومنهم من تاجر ، وساهم مع تجار مكة في تجارتهم . فتجمع من كل ذلك رأس مال شغله أصحابه في الربا ، فكانوا يقرضون المال لمن يحتاج اليه من أهل الطائف ومن غيرهم ، لوجود مال فائض عندهم .

---

١ الاصابة (٣٧/١ وما بعدها) ، (رقم ٥٥) ، المحبر (٤٥٦) .
٢ الاصابة (٢٧/٢ وما بعدها) ، (رقم ٣١٧٣) .
٣ تاج العروس (١٨٤/٦) ، (طوف) .

ووجد التجار في كل مكان وجدت فيه أسواق وسلع وتجارة من بلاد العرب في الجاهلية وفي الاسلام ، لم تكن تخلو منهم مدينة من المـــدن أو قرية كبيرة . فسوق الفلج كان سوقاً لبني نزار واليمن[1] . وبـ (العوسجة) وهي معدن ، تجار[2]، من الجائز ان يكونوا قد تجمعوا في هذا المكان للاتجار بالمعدن الذي يستخرج منه، فكانوا يتعاطون الاتجار بالمعادن .

١ الصفة (١٦٠) .

٢ بلاد العرب (٣٦٨) .

الفصل الثاني بعد المئة

القوافل

وتنقل التجارة البرية بطرق القوافل ، وذلك لضمان حماية الأموال والتجارة والأرواح . و (القافلة) ، الرفقة القفال والمبتدأة في السفر[1] . وذكر علماء اللغة أن (القافلة) العير كذلك . وذكر بعض منهم أن (العير) الإبل التي تحمل الميرة ، أو كل ما امتير عليه إبلاً كانت أو حميراً أو بغالاً[2] . وقد أطلق أهل السير والتأريخ ومن تحدث عن وقعة بدر : لفظة (العير) على قافلة قريش التي كان يرأسها (أبو سفيان) ، كما أطلق بعضهم (ركبان قريش) على من كان مع (أبي سفيان) من تجار قريش ، معهم أموالهم وتجاراتهم من بلاد الشأم[3] . ونجد كتب السير والتواريخ تطلق لفظة العير على قوافل قريش بغير حصر ، مهما كان حملها . فلما تحدثوا عن سرية (حمزة) الى العيص استعملوا لفظة (عير) لقريش ، واستعملوا هذه اللفظة في مناسبات أخرى ، مما يدل على أنهم أرادوا بها قافلة ، أي جماعة من جماعات السفر ، مهما كان حملها .

والركبان والركب : ركاب الإبل . وقال بعض علماء اللغة : الركب : ركبان

---

١ تاج العروس (٨/٨٣) ، (قفل) .

٢ تاج العروس (٣/٤٣٣) ، (عير) ، تفسير الطبري (١٣/١١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٩/٢٣٠ وما بعدها) ، اللسان (٤/٦٢٤) ، (عير) .

٣ الطبري (٢/٤٢١) ، (ذكر وقعة بدر الكبرى) .

الإبل في السفر دون الدواب ، وهم العشرة فصاعداً ، وذكر ان من الجائز استعمال (الركب) للخيل وللجيش[١] .

و (القيروان) الجماعة من الخيل. والقفل ، جمع قافلة . وهو معرب (كاروان). وقد تكلمت به العرب . قال امرؤ القيس :

وغارة ذات قيروان كأن أسرابها الرعال[٢]

وورد في الحديث انهم كانوا يترصدون عيرات قريش ، أي إبلهم ودوابهم التي كانوا يتاجرون عليها[٣] .

ويقال للعير التي تحمل الطيب : (اللطيمة) . وذكر ان اللطيمة العير التي تحمل الطيب وبز التجارة[٤] . فاللطيمة ، قافلة تحمل تجارة نفيسة الى الأسواق. وقد كان ملوك الحيرة يرسلون لطائمهم الى الأسواق ، لتتاجر بالطيب ، ومنهم (النعمان بن المنذر) ، وكان يبعث الى (سوق عكاظ) في وقتها بلطيمة يجيزها له سيد مضر ، فتبتاع وتشتري له بثمنها الأدم والحرير والوكاء والمغراء والبرود من العصب والوشي والمسير والعدني[٥] .

ويقال لقافلة الإبل التي تخرج ليجاء عليها بالطعام ، (ركابا) حين تخرج ، وبعد ما تجيء . وتسمى عيراً على هاتين المنزلتين . والتي يسافر عليها الى مكة أيضاً ركاب تحمل عليها المحامل ، والتي يكترون ويحملون عليها متاع التجار وطعامهم كلها ركاب ، ولا تسمى عيراً ، وإن كان عليها طعام ، اذا كانت مؤاجرة بكرى . وليس العير التي تأتي أهلها بالطعام ، ولكنها ركاب . يقال : هذه ركاب بني فلان . ويقال زيت ركابي ،لأنه يحمل من الشأم على ظهور الإبل[٦] .

وذكر ان العسجدية : ركاب الملوك التي تحمل الدق من المتاع[٧] . فهي عير

---

١ تاج العروس (١/٢٧٦) ، (ركب) .
٢ تاج العروس (٩/٣٠٩) ، (قرن) .
٣ اللسان (٤/٦٢٤) ، (عير) .
٤ تاج العروس (٩/٦٠) ، (لطم) ، اللسان (١٢/٥٤٣) ، (لطم) .
٥ الاغاني (١٩/٧٥) ، شرح ديوان لبيد (٤٨) ، الامثال للميداني (٢/٣٤) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٣٥٩ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (١/٢٧٧) ، (ركب) ، ارشاد الساري (٤/٧٤) .
٧ تاج العروس (١/٦٠) ، (لطم) .

اذن تحمل متاعاً ثميناً، كالذهب والجوهر . وذكر ان العسجدية الإبل تحمل الذهب، وهي ركاب الملوك التي تحمل الدق الكثير الثمن ، والسوق يكون فيها العسجد ، وهو الذهب ، وركاب الملوك ، وهي إبل ، كانت تزين للنعمان بن المنذر[1] .

و (السابلة) (الواطئة) ، وهم المارة . سموا بذلك لوطئهم الطريق[2] . وهم الذين يسلكون الطرق . والسابلة من الطرق المسبولة ، المسلوكة ، وابن السبيل ، هو ابن الطريق ، والذي قطع عليه الطريق ، والمنقطع[3] .

ويسمى كل طريق يكثر الاختلاف عليه محجة ، ويسمى الطريق المدروس (الأيتار المليكي) ، ويسمى الطريق الضيق الحبل شركاً ، وحبال الطريق ايتاره. وطريق جادة ، أي مجدودة بالوطء ، وقارعة الطريق ، في معنى مقروعة ، والريع الطريق[4] .

وكلما كانت الأموال ثمينة وكثيرة ، كانت القافلة كبيرة . يحرسها عدد كبير من الحراس لحمايتها من لصوص الطرق وقطاع السبل الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب . ونقل التجارة بالقوافل طريقة عالمية قديمة،أشير اليها في الكتابات، وفي الكتب المقدسة .

ولم يكن من السهل على التجار في ذلك الزمن التوسع في تجارتهم والمجازفة بالمتاجرة مع أماكن أخرى بعيدة . فالتاجر محتاج الى حماية حياته وأمواله ، ولم تكن الحماية ممكنة إلاّ في ظل حكومة مدنية قوية ، تحمي أبناءها وكل من يفد على أرضها وعلى الأرض الخاضعة لها من اعتداء المعتدين .

لهذا صار لزاماً على التجار الالتجاء الى نظام القوافل ، ولا سيما القوافل القوية الكبيرة معتمدة على حماية نفسها بنفسها أولاً ، ثم على حماية الحكومة ثانياً . وقد عمدت في الدرجة الأولى الى استرضاء سادات القبائل ، وذلك لتأمين حمايتهم في المناطق التي تمرّ بها القافلة ولبذل العون والمساعدة لها بتقديم حق مرور للرؤساء وهدايا وعطايا مناسبة وعقد عقود ومواثيق ، وإلا تعرضت أموال القافلة للأخطار.

---

١ تاج العروس (٤٢٢/٢) ، (العسجد) .
٢ تاج العروس (١٣٥/١) ، (وطا) .
٣ تاج العروس (٣٩٦/٧) ، (سبل) .
٤ الصفة (١٨٣) .

ولطول الطرق وبُعد المسافات ، كان على القوافل استرضاء كبار سادات القبائل للحصول على حمايتهم.ومعنى هذا دفع اتاوات لهم ، وتحميل المشترين تلك الاتاوات. وهذا مما زاد في الأسعار وجعل الأثمان عالية ، وقد أضر ذلك بالتجارة العربية ولا شك ، كما أضر بالمنتجين الذين كانوا يبيعون انتاجهم اليسير وأكثره مواد خام يتعيشون عليها بأسعار بخسة لسدّ رمقهم في هذه الحياة .

وقد عمد تجار مكة – كما ذكرت ذلك في مواضع من هذا الكتاب – الى أساليب مختلفة في استرضاء سادة القبائل الذين تمر بأرضهم قوافلهم،منها استرضاؤهم بالمال ، وإشراكهم معهم في رأس المال ، بتقديم ما عندهم من سلع يتوسطون لهم ببيعها في الأسواق ، أو بشراء ما يريدون شراءه من تلك الأسواق وتقديمه لهم ، ومنها التصاهر معهم ، ودعوتهم لزيارة مكة وتقديم الهدايا لهم ، ثم ضبط كل ذلك بعقود (الإيلاف) ، التي وضعت قواعد وأصول وحقوق مرور قوافل مكة وقوافل تجارها الخاصة في كل الأيام والمواسم بأمن وسلام ، في مقابل تعهدات وعقود عينت بعقود الإيلاف .

وكان كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز يتخفر بقريش ما داموا في بلاد مضر . « لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر ، ولا يهيجهم حليف لمضري . كان ذلك بينهم . فكانت كلب لا تهيجهم لحلفهم بني تميم،وطيء أيضاً لا تهيجهم لحلفهم بني أسد . وكانت مضر تقول : قضت عنا قريش مذمة ما أورثنا اسماعيل من الدين . فإذا أخذوا طريق العراق ، تخفروا ببني عمرو بن مرثد ، من بني قيس بن ثعلبة ، فتجيز ذلك لهم ربيعة كلها »[1]. وهكذا تمكنت قريش من تأمين مصالحها التجارية بعقد الأحلاف مع سادات القبائل،وصار تجارها يتنقلون في مختلف أنحاء جزيرة العرب بحرية وأمان .

والجمال هي واسطة النقل في جزيرة العرب ، هي قطار القوم وسياراتهم في ذلك العهد. وليس في استطاعة حيوان آخر القيام بمثل تلك المشاق من قطع المسافات البعيدة في أماكن لا ماء فيها إلا في مواضع متباعدة وفي أماكن يتغلب عليها الجدب والشظف . كان على ذلك الحيوان ان يتحمل ثقل ما يوضع على ظهره،وان يسير به مسافات طويلة ، ثم عليه ان يتحمل العطش والجوع . ولولا الخواص الجسمية

---

(1) المحبر (ص ٢٦٤) .

التي امتاز بها عما عداه من الحيوانات ، لما كان في امكانه احتمال هذه المشقات ولعجز عنها حتماً . وقد أشير في التوراة الى قوافل الإبل الضخمة التي كانت تأتي من جزيرة العرب الى بلاد الشأم ، وهي محملة بالبضائع الثمينة النفيسة لتبيعها هناك[1] .

ولا تحتاج الإبل الى شرب الماء كل يوم ، لذلك غدت الحيوان المثالي الملائم لحياة الأعرابي وللبادية . والجمل صبور على الجوع وفي استطاعته مكافحة جوعه بأكل العوسج والنباتات التي تنبتها البادية . وللعرب أسماء في اظماء الإبل . ومنها (الخمس) أن ترد الإبل الماء يوماً فتشربه ، ثم ترعى ثلاثة أيام ، ثم ترد الماء اليوم الخامس ، فيحسبون اليوم الأول والآخر اليومين اللذين شربت فيهما . وقيل أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع[2] . ومن الأظماء (الغبّ) ، وذلك أن ترد الإبل يوماً وتصدر ، فتكون في المرعى يوماً ، وترد اليوم الثالث . وما بين شربتيها ظمأ طال أو قصر[3] . وعرف (الغب) أنه ورد يوم وظمىء آخر . وقيل : هو ليوم وليلتين ، وقيل هو أن ترعى يوماً وترد من الغد[4] . ومن أمثال العرب المتعلقة بهذا الموضوع : يضرب أخماساً لأسداس ، أي يسعى في المكر والخديعة . وأصله من اظماء الإبل ، فقد كان الرجل إذا أراد سفراً بعيداً عوّد إبله أن تشرب خمساً سدساً ، حتى إذا دفعت في السير صبرت ، ثم ضرب مثلاً للذي يراوغ صاحبه ويريه أنه يطيعه ، وقيل يضرب لمن يظهر شيئاً ويريد غيره ، أو الذي يقدم الأمر يريد به غيره ، فيأتيه من أوله ، فيعمل رويداً رويداً[5] .

وإذ كانت هذه القوافل في حياة القوم على جانب من الخطورة ، كما كانت المصدر المهم من مصادر الثروة ، وضعها أصحابها في حماية آلهتهم ، واتخذ بعضهم إلهاً خاصاً واجبه حماية القافلة وايصالها سالمة الى المحل المقصود . وقد عرف الإلـه (شيع هـ - قوم) (شيع القوم) ، بأنه إلـه القوافل ، الساهر على حمايتها

١ الملوك ، الاول ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢ ، اشعياء ، الاصحاح ٦٠ ، الآية ٦ ، Hastings, p. 946.

٢ تاج العروس (٤/١٤٠) ، (خمس) .

٣ تاج العروس (١/٩٣) ، (ظمىء) .

٤ تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غبب) .

٥ تاج العروس (٤/١٤٠) ، (خمس) .

وحماية أصحابها التجار . وعرف الإلـه (أبو إيلاف) (ايلف) (ايلاف) ، بأنه إلـه القوافل والتجار وأرباب القوافل كذلك . وكان أصحاب القوافل يقدمون الى آلهتهم النذور والقرابين بعد انتهاء رحلة القافلة ، براً بنذرهم لهـا ، وتقرباً اليها ، كي تستمر في بذل حمايتها لهذه القوافل ورعايتها لها ، كما كانوا يأتون الى المعابد والمحجات فيطوفون بها ، ويقصدون أصنامهم فينحرون عندها شكراً وتقرباً اليها لما أنعمت عليهم من نعم الحماية والربح الوافر الذي كسبوه في رحلاتهم هذه . وفي الذي يذكره أهل الأخبار عن طواف رؤساء قوافل مكة بالكعبة قبل بدئهم الرحلة وبعد انتهائهم منها ، الكفاية للدلالة على أهمية هذه الرحلات التجاريـة في نفوس القوم .

والغالب ان تعهد حراسة القوافل منذ يوم مغادرتها مكانهـا الى حراس أشداء أقوياء يحملون سلاحهم معهم ، لمقاومة المعتدين . أما رئاسة القافلة، فلا تعطى إلا للمعروفين بشجاعتهم وبقوتهم وببأسهم وبالحيل وبمعرفتهم للطرق ، ولأهل البيوتات والجاه العريض والسمعة بين القبائل . فرئيس القافلة وكبيرها ، هو دماغها المفكر وقلبها النابض ، وعلى حركاته وأعماله يتوقف مصير القافلة ومصير الأموال الثمينة التي توضع تحت يديه ، فإذا أظهر الرئيس جبناً أو عدم مقدرة في قيـادة القافلة وفي الدفاع عنها ، حين تعرّضها للخطر ، فقد تقع فريسة سهلة بأيدي لصوص الطرق ، وتنتهب أموالها ، فتكون هذه النتيجة طامـة كبرى للمساهمين في أموال القافلة .

ولأهمية قادة القوافل المذكورة ، عملت لهم تماثيل لتخليد ذكراهم ، وكرّموا في الكتابات . وقد عثر على عدد من هذه التماثيل والكتابات في مدينة (تدمر) . وحمل الكثير منهم ألقاب الشرف التي كانت لا تمنح إلا لمن يؤدي خدمات ممتازة للمدينة في ذلك العهد ، ووصل بعضهم الى درجة عضو في مجلس المدينة الحاكم . وقد نال بقية قادة القوافل مثل هذا الاحترام من أصحابهم . ولقب قائد القافلـة في الكتابات الجاهلية بـ (زعيم القافلة) وبـ (زعيم السوق)[1] .

حتى رؤساء الحكومات مثل كسرى وملوك الحيرة ، كانوا لا يسلمون زمـام قوافلهم إلا للأشداء المعروفين من الرجال . كانوا يتاجرون في الأسواق يشترون

---

١ . Cooke, North — Semitic, pp. 274-279.

ويبيعون ، فإذا أقبل الموسم أرسلوا قافلتهم الى السوق برئاسة رجل مشهور معروف بالشجاعة لا يهاب الموت ليوصلها الى السوق المقصود أو المكان المراد وصول البضاعة اليه ، ذلك لأن مجال حكمهم أو نفوذهم ، لا يصل الى الأنحاء البعيدة، فاضطروا الى استئجار الشجعان المعروفين بقيادتهم للقوافل ، لحماية تجارتهم وأموالهم من اعتداءات المعتدين .

وتعتمد القوافل على الأدلاء الخبراء بطرق البوادي لإيصالها الى أهدافها بأمن وسلام وبأقصر الطرق، ولتجنيبها أخطار الأعداء وشر قطاع الطرق ، عند شعورها بوجود خطر عليها إذا ما سلكت الطريق العام ، أو طريقها الذي قررت السير به نحو المكان الذي تريده . فلما أبلغ جواسيس (أبو سفيان) أن النبي قد خرج يترصده نحو (بدر) ، أسرع فاستعان بالأدلاء فانحاز عن بدر ، وساحل ، وتخلص بعلم أدلائه وعلمه بالطرق من وقوعه ووقوع قافلته بأيدي المسلمين . والى الدليل والأدلاء أشير في قول الشاعر :

شدوا المطيّ على دليل دائب من أهل كاظمة بسيف الأبحر[1]

وقد استعان قادة الجيش وأمراء السرايا والغارات بالأدلاء أيضاً ، لإرشادهم الى المواضع التي كانوا يقصدونها، وكان الرسول يستعين بالأدلاء ، ويسأل الخبراء أصحاب العلم بطرق البادية حين يغزو ، أو حين يرسل سراياه على قوم . وفي غزوة (بئر معونة) كان (المطلب السلمي) دليلها على الطريق[2] .

ويذكر أهل الأخبار ، ان (قريش بن بدر بن يخلد بن النضر) ، كان دليل (بني كنانة) في تجارتهم ، فكان يقال : (قدمت عير قريش) ، فسميت قريش بذلك . وأبوه (بدر) صاحب (بدر) الموضع الذي لقى فيه رسول الله قريشاً[3] . فقريش بن بدر ، اذن هو على هذه الرواية ، هو أول دليل يصل الينا خبره من أدلاء قوافل قريش، وهو مؤسس تجارتها .

ولا بد للقوافل من منازل تنزل بها لتستريح ولتريح دوابها من التعب ولتتمون

---

١ تاج العروس (٣٢٥/٧) ، (دلل) ·
٢ الاصابة (٤٠٥/٣) ، (رقم ٨٠٣٢) ·
٣ كتاب نسب قريش (١٢) ·

بالماء وبالزاد إن احتاجت اليه . ونظراً الى بطء الحيوان في سيره وعدم تمكنه من السير مسافات طويلة دون توقف وراحة ، كانت (منـــازل) ذلك الوقت غير متباعدة . ويقال للمكان الذي تنزل به القوافل : (المنزل) . والمنزل : المنهل والدار[1] ، وهو في معنى (الخان) ، و (الخان) لفظـــة معربة معناها المنزل والحانوت[2] . وقد اشتهرت اللفظة في الاسلام ، وأطلقت على منازل المسافرين في الطرق وفي القرى والمدن ، وتعني المنـــزل المخصص لنزول المسافر ، وهو منزل يكون كبيراً في الغالب ، يستريح فيه المسافر ، تاجر كان ، أو غير تاجر ، ويضع فيه مطاياه .

وأما (الفندق) ، فبمعنى المنزل الذي ينزل به التجار والمسافرون ، وهي من الألفاظ المعربة عن اليونانية من أصل Pandhokiyon[3] . وقد استعملها عرب بلاد الشأم . ويظهر انها من الألفاظ التي شاع استعمالها في الاسلام . وقد ذكر بعض علماء العربية ، ان الفندق بلغة أهل الشأم الخان والسبيل من هذه الخانات التي ينزلها الناس مما يكون في الطرق والمدائن ، وهو فارسي[4] .

ولم تكن منازل أهل الجاهلية منازل مبنية بالضرورة ، فقد كان المسافرون يضربون لهم خياماً يأوون اليها ، أو يلجأون الى ظل مثل شجرة ، يحتمون به من أشعة الشمس ، وقد يفترشون الأرض وينامون جنب إبلهم ، وكل ما يلزم في المنزل أن يوجد به ماء . فالماء هو اكسير الحياة بالنسبة للمسافر ، وهـــو أهم لهم من الطعام ، فطعامهم في ذلك الوقت طعام قليل بسيط : تمرات مع لبن ، أو سويق ، وما شاكل ذلك ، ثم هم لا يأكلون كثيراً ولا يقيمون لوجبات الطعـــام وزناً ، وقد يكتفي أحـــدهم بأكلة واحدة من هذه الأكلات الجافة التي يحملها ، وقد يقتاتون بما يجدونه من نابت في طريقهم من ثمر شجر بري أو بقل أو أعشاب ، ولهذا ، صارت المنازل على مواضع الماء .

ولم تكن الأبعاد بين هذه المنازل متساوية ، بل كانت مختلفة ، تتوقف أبعادها على الماء . فإذا وجد الماء في مواضع متقاربة ، قامت عليها مستوطنات متقاربة ،

---

١ تاج العروس (٨/١٣٤) ، (نزل) .
٢ تاج العروس (٩/١٩٤) ، (خان) .
٣ غرائب اللغة (٢٦٣) .
٤ تاج العروس (٧/٥١) ، (الفندق) .

وصارت المسافات فيما بينها غير بعيدة ، وإذا كان الماء بعيداً ، صارت المنازل متباعدة ، وقد لا يهم الماء القوافل إذا كانت مزودة به ، وكل ما تلاحظه في سفرها هو تعب الانسان ومقدار تحمل دابته مشقة السفر والبعد ، ولهذا كانوا يقطعون طرقهم بمراحل ، و (المرحلة) المنزل بين المنزلين ، يقال بيني وبين كذا مرحلة أو مرحلتان[1] . فهم يقطعون طرقهم على قدر طاقتهم ومقدار تحمل إبلهم على السير . وقد علمتهم تجاربهم مقدار ما يقطعون ، فإذا شعروا بالتعب وبتعب دوابهم ، نزلوا منزلاً ، قد يكون مأهولاً به ماء ، وقد يكون خالياً في عراء ، للاستراحة به ، فإذا ارتاحوا استمروا في سيرهم نحو جهتهم المقصودة .

و (الفرسخ) في تفسير علماء العربية الراحة ، و (فرسخ) الطريق هو ثلاثة أميال هاشمية ، أو ستة ، أو اثنا عشر ألف ذراع ، أو عشرة آلاف ذراع ، سمي بذلك لأن صاحبه اذا مشى قعد واستراح من ذلك ، كأنه سكن . واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية . وقيل : الفرسخ الساعة من النهار[2] .

و (الميل) مقياس تقاس به الأبعاد ، يقال قطع كذا ميلاً . وهو منار يبنى للمسافر في أنشاز الأرض ، ومنه الأميال التي في طريق مكة ، وهي الأعلام المبنية لهداية المسافرين[3] .

ونظراً الى وجود إمارات وعشائر وقبائل عديدة تمرّ بأرضها القوافل ، فقد كان على أصحاب القوافل وأرباب المال إرضاء هؤلاء المتنفذين بإعطاء إتاوات مرور لهم ، وهدايا لحمايتهم وللسماح لهم بالمرور ، على نحو ما تفعله حكومات هذا اليوم من استيفاء حق المرور (ترانزيت) (ترانست) عن التجارة والسيارات . فإذا تحرش بهم متحرش ، وحاول قطّاع الطرق الاعتداء عليهم ، كان من واجب سيد القبيلة والرئيس المتنفذ في تلك الأرض تعقب المعتدين وتأديبهم وإعادة ما استولوا عليه الى أصحابه . وبهذه الطريقة أمنت القوافل على أموالها،وأخذت تقطع البوادي والطرق البعيدة الطويلة ، وهي في حمى هؤلاء المتنفذين .

---

١ تاج العروس (٣٤١/٧ وما بعدها) ، (رحل) .
٢ تاج العروس (٢٧٢/٢) ، (الفرسخ) .
٣ تاج العروس (١٢٣/٨) ، (ميل) .

وقد كان الملوك وسادات القبائل والمتنفذون الذين تمر قوافل التجـــارة بمناطق نفوذهم ، أو الـــذين تقع الأسواق في أرضهم أو في مناطق نفوذهم ، يشتطون في الإتاوة ، ويشتدون في جباية المكس ، ويبالغون في رفع حق المرور والحقوق الأخرى المكتسبة بالعرف والعادة أو بقانون القوة والكيف ، فيؤذون بذلك التجار والتجـــارة ويضطرون التجار الى رفع أسعار البيع ، للحصول على أرباح لهم ، فتضررت التجارة بذلك ضرراً كبيراً ، وقـــلّ الاقبال على شراء السلع المستوردة من جزيرة العرب إلا ما كان ضرورياً ، ولا مناص من شرائها ، وارتفع عـلى المشتري سعر المواد المستوردة ، واضطر التجار الى التحكم في أسعـــار الشراء من الأسواق المحلية في جزيرة العرب ، بشرائها بأسعار متهاودة لضمان تصريفهـــا في الأسواق الخارجية وفي كل هذه الأحوال ضرر عـــام للبائع وللمشتري وللمستهلك وللاقتصاد العربي بوجه عام .

وقد كانت القوافل تقصد الأماكن التي تريد البيع والشراء فيها في مواسم معينة في الغالب ، وذلك لاجتماع التجار فيها ، وهذا مما يهيء للتاجر أكبر عدد ممكن من التجار ، كما كان التجار يقصدون الأسواق المؤقتة التي تقام في الأعيـاد وفي المناسبات الدينية لبيع ما عندهم من بضاعة ولشراء ما يأتي به الناس من أموال ، ولم يكن ذلك خاصاً بجزيرة العرب ، فقد كان العبرانيون وغيرهم من بقية الشعوب السامية يفعلونه أيضاً . ونرى ان الأسواق التي كانت تقـــام في جزيرة العرب ، كانت تقام في مواسم معينة تقع في الأشهر الحرم ، وذلك لضمان مرور التجـــار بأمان ، فلا يتحرش بهم إلا مستهتر طريد، والغالب ان سادات القبائل التي تحرش المستهترون بالقافلة التي مرّت بأرضهم ينتقمون بأنفسهم منهم .

وقد كان الجاهليون يضعون أعلاماً على الطريق ليهتدي بها، يقال لها (الصُّوى) و (الثوة) . ويقول علماء اللغة إن الصُّوى : الأعلام المنصوبة من الحجارة في المفازة المجهولة يستدل بها على الطرق . والثوة كالصُّوة ، وربما نصبت فوقهـــا الحجارة ليهتدى بها ، وإن العوة كالصوة التي هي العلم . وفي الحديث : « ان للاسلام صُوى ومناراً كمنار الطريق »[1] وذكر أن (الصُوة) ، حجر يكون علامة في الطريق[2] .

---

1 المخصص (١٠/٨١) ، اللسان (١٤/١٢٧) ، « صادر » .
2 تاج العروس (١٠/٢١٥) ، (الصوة) .

وذكر أن (الثوة) حجارة ترفع فتكون علماً بالليل للراعي اذا رجع، وأخفض علم يكون بقدر قعدتك، وارتفاع وغلظ وربما نصبت فوقها الحجارة ليهتدى بها[1].

والمنار: العلم يجعل للطريق أو الحدّ للأرضين والعلامة التي توضع على الحدود لتوضح معالمها[2]. وقد كان أهل العربية الجنوبية يضعون علامات على الطرق لتشير الى معالمها، فلا يضل عنها من يسلكها من الرجال والقوافل. وقيل في الإسلام للأعلام المبنية في طريق مكة أميال لأنها بنيت على مقادير مدى البصر من الميل الى الميل، وكل ثلاثة أميال منها فرسخ[3]. والمنار محجة الطريق، قال الشاعر:

لعلك في مناسمها منار الى عدنان واضحة السبيل[4]

والعلامة، شيء منصوب في الطريق يهتدى به. ويقال لما يبنى في جواد الطريق من المنازل يستدل بها على الأرض أعلام. والأعلام الحدود. والمعلم، ما يستدل به على الطريق من الأثر[5]. فقد كان من الصعب حتّى على خبراء البادية الاهتداء الى الطرق بدون وضع علامات تشير اليها.

والنعامة المفازة، وقيل علم من أعلام المفاوز يهتدى به[6]. و (المنقل)، الثنية في الجبل وكل طريق في الجبل نقيل، في لغة أهل اليمن[7].

والآجام علامات وأبنية يهتدى بها في الصحاري. و (الوجم)، حجارة مركومة بعضها فوق بعض على رؤوس القور والآكام، وهي أغلظ وأطول في السماء من الأروم. وحجارتها عظام، لا يحركها الانسان ولو اجتمع جمع منهم بصعوبة، ينسبها الناس الى صنعة عاد[8]. و (الآرام) الأعلام تنصب في المفاوز

---

١ تاج العروس (٦٤/١٠)، (ثوى).
٢ اللسان (٥/ ٢٤٠ وما بعدها).
٣ اللسان (٦٣٩/١١).
٤ تاج العروس (٥٨٨/٣)، (نور).
٥ تاج العروس (٤٠٦/٨)، (علم).
٦ تاج العروس (٧٩/٩)، (نعم).
٧ تاج العروس (١٤٥/٨)، (نقل).
٨ قال رؤبة:
وهامة كالصمد بين الاصماد أو وجم العادي بين الاجماد
تاج العروس (٨٩/٩)، (وجم).

يهتدى بها ، أو خاص بعاد ، أي بأعلامهم ، و (الأروم) الأعلام في المفاوز. وكان من عادة الجاهلية ، انهم اذا وجدوا شيئاً في طريقهم لا يمكنهم استصحابه تركوا عليه حجارة يعرفونه بها حتى اذا عادوا أخذوه . وقيل قبور عاد[1] .

وقد كان الجاهليون قد مهدوا الطرق وكسوا بعضها بمادة قوية مثل (الاسمنت) ووضعوا عليها العلامات . وقد أطلق العرب لفظة (العود) على الطريق القديم العادي[2] .

وسن الطريق سناً اذا ساره ، ويقال ترك سنن الطريق ، أي جهته[3] . وقد كان القادة يتنكبون عن سنن الطريق ، ليباغتوا العدو ، أو ليتجنبوا تعقبهم لهم.

وقد كان لرؤساء القوافل علم بالأبعاد والمسافات وبالأماكن التي يجب النزول بها والتمون منها بالماء والطعام . ونجد في كتب أهل الأخبار أخباراً بأسماء منازل القوافل وبأبعادها وقد استقيت من أفواه رجال القوافل في الجاهلية . كما نجد ان للأعراب دراية مدهشة بمواضع الماء وبالطرق مع مرورها في بوادي يصعب السير فيها ، وقد ورثوا علمهم هذا عن أسلافهم ومن تجاربهم الخاصة التي تعلموها من كثرة أسفارهم وتنقلاتهم .

وقد كان التجار وأصحاب القوافل يقطعون أسفارهم بمراحل ، ينزلون في كل مرحلة بمنزل يستريحون فيه ويموّنون أنفسهم بما يحتاجون اليه من ماء وزاد. ويعبرون عن المسافات التي تقطعها القافلة بين منزل ومنزل آخر بـ (مسيرة) ، فيقولون (مسيرة يوم) أو (مسيرة نهار) وما شابه ذلك . كما عرفوا الأبعاد بالفرسخ والميل[4]. و (النزل) المنزل ، وما هيء للضيف ان ينزل عليه . ومنه منازل الطريق[5] .

وتراعى القوافل في سيرها الى أهدافها الأخذ بأقصر الطرق الآمنة المطمئنة التي تتوفر فيها المياه ، وقد تعدل من سيرها فتسلك طرقاً بعيدة أو وعرة إذا أحست بعدو يتربص لها في الطريق المسلوك ، أو بلصوص ظهروا فيها ، أو بقوم يريدون الاستيلاء على قافلتهم ، كالذي فعله (أبو سفيان) مقفله من الشأم يريد مكة ،

---

١ تاج العروس (٨/ ١٨٤) ، (ارم) .
٢ تاج العروس (٢/ ٤٣٧) ، (عود) .
٣ تاج العروس (٩/ ٢٤٢ وما بعدها) ، (سن) .
٤ اللسان (١١/ ٦٣٩) ، « صادر » .
٥ تاج العروس (٨/ ١٢٣) ، (نزل) .

حيث بدل طريقه ، فحوّله عن (بدر) ، وساحـــل ، فأضاع بذلك الفرصة على المسلمين ووصل سالماً بقافلته الى مكة .

قوافل الميرة :

وقد يجتمع نفر للذهاب الى سوق للامتيار منه . وقد يذهب أصحاب البيوت الى الأسواق ليمير أهله بما يحتاجون اليه من طعام ولباس ، وكان (الأعشى) المازني الشاعر في جملة من يمتار من سوق (هجر) . وقــد خرج مرة يمتار في شهر (رجب) ، من (هجر) فهربت امرأته بعده ناشزة عليه ، فعاذت برجل منهم يقال له (مطرف بن نهصل) ، فلما قدم الأعشى أخبر أنها نشزت، وأنها عاذت بـ (مطرف) فأتاه ، فقال له : يا ابن عم عندك امرأتي معـــاذة فادفعها اليّ فامتنع مطرف ، وكان أعزّ منه ، فخرج حتى أتى النبي فعـــاذ به وأنشده شعراً ، فكتب الرسول الى (مطرف) أن يدفع زوجة الأعشى اليه ، فدفعها اليه[1] .

وقد استغل بعض الناس هذه الطرق للتعيش منها ، فعمل على حفر آبار بها ، وعلى تهيئة ما يمكن تهيئته من وسائل الراحة للمسافرين،لينزلوا بها وليخففوا بذلك عنهم عناء السفر . وليتزودوا بالماء الطيب العذب . فنشأت عشرات المنازل ، التي أراحت المسافرين وأصحاب القوافل،وجعلتهم في مأمن من الجوع والعطش وإمكانية التيه في البوادي والقفار . كما حفظت لهم حياتهم وأموالهم بضمان أصحاب تلك المنازل للمسافرين حياتهم وأموالهم من تحرش أحد بهم ما داموا في جوارهم وفي حماهم ، وضمان قبائلهم لهم حق الحماية والجوار ، والقيام معهم بمعاقبة من يتطاول على المسافرين وينتهك حرمة الجوار .

وقد صارت الطـــرق مورداً من موارد العيش لمن لا عيش له ولا رزق من الصعاليك والذؤبان . فتجمعوا ، وكوّنوا عصابات أخذت تتربص بالقوافل ، حتى اذا جاءت قافلة انقضت عليها وسلبتها ، ثم فرت بما غنمته الى مواضع نائية قصية

---

١ الاصابة (٢/٢٦٧) ، (رقم ٤٥٣٥) ، الاستيعاب (٢/٢٥٦) ، (حاشية عـــلى الاصابة) .

بعيدة عن أي حكم ، لتعيش على ما غنمته . وقـد عرف هؤلاء بـ (لصوص الطرق) . وكان المطرود من قبيلته ومن غضب أهله عليـه فنفوه عنهم وتبرأوا منه ، والعبيـد الآبقون ، يتجمعون في المواضع الحصينة ، وفي المراقي الصعبة التي تشرف على الطرق ، ويهاجمون منها المارة والسابلة والقوافل . ولما ظهر الاسلام، كان قوم من هؤلاء جماعهم من كنانة ، ومزينة ، والحكم ، والقارة ، ومن اتبعهم من العبيد ، قد اعتصموا في (جبل تهامة) ، وآذوا الناس ، فكتب لهم رسول الله ، انهم إن آمنوا وأسلموا ، فعبدهم حر ، ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه ، أو مال أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان[١] .

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٨) .

الفصل الثالث بعد المئة

طرق الجاهليين

لا أملك نصاً جاهلياً فيه أخبار عن الطرق التي كان يسلكها الجاهليون في تنقلاتهم من مكان الى مكان ، لأغراض خاصة ، أو للرعي أو للاتجار ، ومما سأذكره عن الطرق مأخوذ من الموارد الإسلامية فقط . وهي موارد تعرضت لموضوع (المسالك) والطرق التي كان يسلكها الحجاج والمسافرون والتجار في أيام الخلافة ، داخل أرض الخلافة وخارجها . وعلى رأس هذه الموارد كتب (المسالك والممالك) ، وبقية كتب (الجغرافيا) والسياحات ووصف جزيرة العرب ففي هذه الموارد وصف للمسالك والطرق ولسكك البريد التي كانت في بلاد العرب وهي وإن كانت طرقاً إسلامية ، إلا أنها بنيت على الطرق الجاهلية القديمة في الأغلب،وما فعله المسلمون ، هو أنهم اختصروا بعضاً منها ، أو أقاموا مستوطنات جديدة عليها ، أو حفروا آباراً بين منازلها التي كانت متباعدة ، بدليل أن المنازل والمواضع الجاهلية التي ترد أسماؤها في الشعر الجاهلي ترد كذلك في وصف الإسلاميين لطرق جزيرة العرب على النحو الوارد في ذلك الشعر ، أو في أخبار أيام العرب أو في كتب السير والتواريخ .

ولهذا فسيكون اعتمادي في وصف طرق القوافل عند أهل الجاهلية ، على هذه الموارد الاسلامية ، مع العلم بأن بعض المسالك الجاهلية ، قد ماتت وذهب أثرها، وان بعضاً منها بقي على حاله ، وان بعضاً من الطرق المسلوكة في الوقت الحاضر، والتي مهدت وعمرت تعميراً حديثاً بالوسائل الفنية المعروفة في هذا اليوم،هي طرق

جاهلية قديمة ، كانت مسلوكة قبل الاسلام . وهي طرق طبيعية كانت مسلوكة لوجود الماء فيها في مواضع متقاربة ، وقد أقيمت عندها مستوطنات ، وبقيت على حالها ، لم تذهب فائدتها ، ولم تتغير مواضع الاستيطان فيها ، لذلك صارت السبل التي تسلك بين أجزاء جزيرة العرب الى هذا اليوم .

ومما يؤسف له كثيراً ، هو ان الموارد الاسلامية التي تحدثت عن غزوات الرسول وسراياه وعن الوفود التي قصدته من مختلف أنحاء جزيرة العرب ، والعمال والرسل الذين أرسلهم الرسول الى سادات القبائل أو لجمع الصدقات ، ثم عن حروب الردة وعن عمال الخلفاء على أقاليم جزيرة العرب،سكتت عن ذكر الطرق التي سلكت والمنازل التي نزلت ، ولم تفصل في ذكر المنازل والمراحل، فأضاعت علينا بذلك معرفة الطرق الجاهلية التي كان يسلكها الجاهليون في تجاراتهم وفي أسفارهم ، ثم ان الذين بحثوا في الاسلام عن المسالك والطرق ، وذكروا المنازل مع أبعادها بالأميال أو بالفراسخ ، أو بالمراحل ، لم يهتموا بالاشارة الى ذكر تواريخ هذه الطرق أو المنازل والى أصلها ، هل هي جاهلية أم هي اسلامية ، أم معدلة ، ولمثل هذه الملاحظات التي أهملوها أهمية كبيرة بالنسبة للبحث بالطبع.

وسأبدأ بالطرق التي سلكها أهل الجاهلية فيما بين العراق وبلاد الشأم . وقد كان منهم من يحاذي الفرات ، حتى لا يبتعد عن الماء والغذاء وأهل الحضر ، ثم يسلك الطرق الشمالية التي مهدها الروم ، لدخول بلاد الشأم ، وهي في أيدي الروم في الغالب ، غير ان الفرس استولوا عليها في بعض الأحايين ، ونظراً الى ما لهذه الطرق من الأهمية من الناحية الاقتصادية والعسكرية ، فقد تشدد الروم في مراقبة القوافل التي تقصد بلاد الشأم ، أو تخرج منها للذهاب الى العراق،وتصعبوا في السماح لها وللتجار بالمرور .

ومن التجار من كان يخرج من الحيرة الى بلاد الشأم،فيسلك طريق (القطقطانة)، وهو موضع سبق أن تحدثت عنه في أثناء كلامي على نهاية الملك (النعمان بن المنذر) ، إذ جاء في رواية أن (كسرى) أمر به فسجن بـه . وهو موضع غير بعيد عن الكوفة من جهة البرية بالطف[1] . ثم يسلك الطريق الى (البقعة)،

---

[1] البلدان (١٢٥/٧) ، الاغاني (٢٨/٢) ، تـاج العروس (٢٠٩/٥) ، (قطط) ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (٢٦٨/٣) .

ثم الى (الأبيض) ، ثم الى (الحوشي) ، ثم الى (الجمع) ، ثم الى (الحطى) ، ثم الى (الجبة) ، ثم الى (القلوفي) ، ثم الى (الأعناك) ، ثم الى (أذرعات) ، ثم الى (دمشق)[1] .

وطريق آخر سلكه الناس من العراق الى بلاد الشأم يبدأ من (عين التمر) ، وهو موضع تحدثت عنه في مواضع من هذا الكتاب ، ويتجه نحو (الأخدمية) ، ثم الى (الخفية) ، ثم الى (الخلط) ، ثم الى (سوى) ، ثم الى (الأجيفر) ، ثم الى (الغربة) ، ثم الى (بصرى)[2]

وقد سبق لي أن تحدثت عن بصرى في مواضع من هذا الكتاب . وهي المدينة التي وصل اليها الرسول مع عمه (أبي طالب) ، وبها كان (بحيرا) الراهب على ما جاء في كتب السير ،واليها كان يقصد تجار مكة ، حيث يتاجرون بأسواقها. وبها قبر (بحيرا) ، وهو يزار[3] .

وأما طرق العربية الشرقية مع العراق ، فقد كان من الجاهليين من يسلك الطرق المائية فيتجه نحو سواحل الخليج عن طريق الأبلة ، فيحاذي الساحل ، ومنهم من كان يتجه الى الشرق نحو جزر الخليج ، ثم يتجه منها الى ساحل (عمان) ، ومنهم من كان يسلك طرق البر . وقد ذكر (ابن خرداذبه) ، ان الطريق من البصرة الى عمان على الساحل ، يمر الى (عبادان) ، ثم الى (الحدوثة) ، ثم الى (عرفجا) ، ثم الى (الزابوقة) ، ثم الى (المقر) ، ثم الى (عصى) ، ثم الى (المعرس) ، ثم الى (خليجة) ، ثم الى (حسان) ، ثم الى (القرى) (القرنتين) ، ثم الى (مسيلحة) (مسلحة) ، ثم الى (حمض) ، ثم الى ساحل (هجر) ، ثم الى (العقير) ، ثم الى (قطر) ، ثم الى (السبخة) ، ثم الى (عمان)[4] .

ومن الطرق المهمة التي تربط اليامة بجنوب العراق ، طريق يأخذ من الأبلة (البصرة) ، ثم يتجه نحو (كاظمة) ، ثم الى منازل ثلاثة لم يذكر أسماءها (ابن خرداذبه) ، ثم الى (القرعاء) ، ثم الى (طخفة) ، ثم الى (الصمّان) ،

---

١ ابن خرداذبه ، المسالك والممالك (٩٩) ، (وسيكون رمزه : المسالك) .
٢ المسالك (٩٧) .
٣ صبح الاعشى (١٠٨/٤) .
٤ المسالك (٦٠) ، قرامة (١٩٣) ، صبح الاعشى (٥٧/٥) .

ثم منازل ثلاثة لم يشر الى اسمها (ابن خرداذبه) ، ومنها الى (جب التراب) ، ثم الى منزلين آخرين ، ومنها الى (سليمة) ، ثم الى (النباك) ، ومنه الى (اليمامة)[1] . ويتفق وصف هذا الطريق ، وأسماء المواضع مع ما ذكره (قدامة بن جعفر) في كتابه (الخراج) سوى ان (ابن خرداذبه) ، يبدأ بالبصرة ، ثم ينتهي باليمامة ، أما (قدامة) ، فيبدأ باليمامة وينتهي بالبصرة .

ونجد في كتاب بلاد العرب ، للحسن بن عبدالله الاصفهاني وصفاً لطريق آخر يتجه من (حجر) اليمامة حتى ينتهي بالبصرة ، ذكر فيه أسماء المواضع ووصف الأرض والمياه ، وينتهي طريقه بـ (سفوان) ، (صفوان) ، المعروف اليوم في العراق . وقد ذكر (كاظمة) ، وذكر أنها على ساحل البحر ، وبها حصن وتجار ودور مبنية ، ثم ذكر أسماء مواضع تقع بينها وبين (سفوان)[2] . ولما كانت البصرة اسلامية ، بنيت في زمن (عمر) ، فإن الجاهليين ، كانوا يسافرون من (الأبلة) التي حلت البصرة محلها الى جزيرة العرب .

ويبدأ هذا الطريق بالحرمليّة ، وهو ماءة في قف في شُعبة عليه نخلات ، ثم تركب القف ، فتأخذ على واد يقال له (ذو جراف) ، فتجزعه عرضاً ، ثم تنتهي الى (المديدان) ، ثم تجزع (الحرملية) ثم وادي (بنبان) حتى تصل (سوبس) ، ثم (البديع) ، ثم (الطنب) ، ثم (الجرداء) ، وهي روضة تشرب من وادي جراف . ثم (الراح) . فإذا جزته وقعت في العرمـة ، ثم تخترق وادي حرج حتى تنتهي الى (الجرباء) وعلى يسار الجرباء في العرمة ماء يقال له (الرداع) ، فإذا فصلت من العرمة من حيال الجرباء صرت الى واد يقال له (مجمع الأودية) ثم تصبر الى (ذات الرّئال) ، ثم تنتهي الى (الحفر) ، حفر سعد ، ثم تفوز الى (الدهناء) ، فتصل (خشاخِش) فتقع في معبر ، فتعبر جبال الدهناء ، فتصل الى أبرق يقال له (القنفذ) ، ثم تستقبل(الصمان) ، فتمضي فيه حتى تنتهي الى (المعا) ، ثم ترد (طويلعا) ، وهو وسط الطريق بين حجر وبين البصرة . وهو موضع فيه ماء وفيه تجار ، وحصن يتحصنون به من اللصوص[3] .

---

١ المسالك (١٥١) ، كتاب الخراج ، لقدامة (١٩٣) ، (نبذ طبعت مع المسالك) .
٢ بلاد العرب (٣٠١ـ٣٢٤) .
٣ بلاد العرب (٣٠١ـ٣١٤) .

ثم تجوز (طويلعاً) الى وادٍ يقال له (الشيط) ، فإذا انحدرت من عقبة الشيط تأتي (الوريعة) ، فإذا جزته ، تأتي (الدوّ) . فإذا فصلت في (الدو) صرت الى (كفـة العرفج) ، وفي منقطع (الدو) حين تجوزه وادٍ يقال له (وادي السيّدان) ، وعلى الطريق ماء (النحيحة) ، تخرج منه الى (تياس)، وقريب منه ثمد يقال له (الفارسي) ، ثم تجوز ثماد أخرى حتى تصل (المخارم)، فتهبط (كاظمة) . ثم تخرج من (كاظمة) الى (النجفة) ، ثم تمضي الى (الصليف) (الصليب) ، ثم تهبط الى (أيرمى) (أيرمى الركبان)، وهو علم مبني من حجارة للطريق ، وهو شبه شخص إنسان . ثم تصل (الحزيز) ، ثم تهبط (سفوان) ، ثم تخرج حتى تهبط (الأحواض) ، وهو ماء للسانية، ثم تصل البصرة [1] .

وهناك طريق يوصل (حجراً) بالكوفة ، يبدأ بالحبل ، وهو ماء في ناحية القف ، لراعية اليمامة ، ثم تخرج منه فترد القف ، ثم تمضي حتى ترد (البالدية)، فإذا خرجت منها وردت ماءً يقال له (الغميم) ، ثم ترد وادياً يقال له (العتك)، ثم (مبايض) ، ثم تجوزه الى (تعشار) ، ف (مويهة) ، ثم (تلعة) ، ثم (السقيا) ، ثم تجوز الدهناء ، فتعلو قفاً يوصلك الى (المجازة) وهي من طريق مكة الذي يأخذ عليه البصريون ، عليه المنار من بطن فلـج . وهي منهل ، ثم تجوزها فتقع في (اللوى) ثم تصير الى (لينة) ، وهي ماءة كبيرة ، ثم تسير فترد (زبالة) ، وهي سوق من أسواق طريق الكوفة المؤدي الى مكة . فإذا خرجت من (زبالة) وردت (القاع) ، ثم تخرج منه الى (العقبة) ثم ترد (الشقوق) ، ثم (واقصة) ، ثم (العذيب)[2] .

ويذكر علماء اللغة ان العرب أطلقت (القعقـاع) على الطريق من اليمامة الى الكوفة ، وذكر بعضهم الى مكة [3] .

وكان بين أهل (الحيرة) وبين أهل مكة اتصال تجاري وثيق ، بـل واتصال ثقافي أيضاً ، فنها حمل الخط العربي الى مكة على روايـة أهل الأخبار . وكان

---

١ بلاد العرب (٣٠١ـ٣٢٤) .
٢ بلاد العرب (٣٢٧ـ٣٣٥) .
٣ تاج العروس (٥/٤٧٧) ، (قع) .

التجار يرحلون منها الى (القادسية) ، وهو موضع معروف سبق ان تحدثت عنه ، وبه كانت وقعة القادسية [1] . ومنه الى (العذيب) ، وهو مسلحة بين العرب وفارس في حد البرية ، وبها حائطان متصلان من القادسية الى العذيب ومن الجانبين كليهما نخل [2] ، وبالعذيب أحساء ، غزير الماء ، يخرج الماء خريراً من قوة اندفاعه على ما يفهم من شعر ورد على لسان بعض الضبيين [3] . ويخرج الانسان من العذيب فيدخل المفازة ، ويكون بنجد حتى يبلغ موضع (ذات عرق) [4] . والعذيب بين القادسية ومغيثة ، وفي الحديث ذكر العذيب . وهو ماء لبني تميم . وهو طرف أرض العرب [5] .

ويتجه الطريق من (العذيب) الى المغيثة ، وفيها برك [6] . وماؤها ماء السماء، ثم يتجه الى (وادي السباع) ، ثم الى (القرعاء) [7] ، وفيه آبار ، ثم الى (واقصة) [8] ، ثم الى (العقبة) ، وبها آبار [9] ، ثم الى (القاع) ، ومن (القاع) الى (زبالة) ، ومن (زبالة) الى (الشقوق) ، ومن (الشقوق) الى (البطان) ، وهو قبر العبادي [10] : ثم الى (الثعلبية) ، وهو ثلث الطريق

---

١ المحبر (١٤ ، ٢٦١ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢) ·

٢ المسالك (١٨٥) ، بلاد العرب (٣٣٤ ، ٣٣٧) ، تاج العروس (١/٣٧٠) ، (عذب) ، المفصل (٤/٢٢٥ وما بعدها) ·

٣ المحبر (٢٤٨) ·

٤ المسالك (١٢٥) ·

٥ تاج العروس (١/٣٧٠) ، (عذب) ·

٦ المسالك (١٢٥ـ١٢٨) ، قدامة (١٨٦) ، بلاد العرب (٣٣٥) ·

٧ المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) ، بلاد العرب (٢٩٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥) ، تاج العروس (٥/٤٦٣) ، (قرع) ·

٨ المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) ، بلاد العرب (٣٣٤،٣٣٥) ، تاج العروس (٤/٤٤٥) ، (وقص) ·

٩ المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) بلاد العرب (٣٣٤،٣٣٥) ·

١٠ « البطان » ، « البطانية » ، ابن رسته ، الاعلاق (١٧٥) ، المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) ، وبطان بين الشقوق والثعلبية في طريق الكوفة · وأنشد نصر :

أقول لصاحبي من التأسي وقد بلغت نفوسهم الحلوقا
اذا بلغ المطي بنا بطانا وجزنا الثعلبية والشقوقا
وخلفنا زبالة ثم رحنا فقد وأبيك خلفنا الطريقا

تاج العروس (٩/١٤٢) ، (بطن) ·

فيها برك[1] ، ثم الى (الخزيمية) ، وهي مدينـــة سميت (خزيمة) لأن خزيمة صيّر فيها سواني ، وكانت تسمى (زرود)[2] ، ثم الى (الأجفر)[3] ، ثم الى (فيد) ، وهي نصف الطريق ، وبها منزل العامل في الاسلام . وبهـــا أسواق وقناة وزروع ، وبرك وآبار وعيون جارية ، وقد عظم شأنها في الاسلام ، ذكر أن بها حصناً ، عليه باب حديد وعليها سور دائر ، وكان الحجاج يودعون فيها فواضل أزوادهم الى حين رجوعهم وما ثقل من أمتعتهم ، وهي قرب (أجأ) و (سلمى) جبلي طيء . وقد ذكرت في شعر (زهـــير بن أبـي سلمى) ، إذ قال :

ثم استمروا وقـالوا إن مشربـكم ماء بشرقيّ سلمى فيد أو ركك[4]

وتقع في فلاة في الأرض بين أسد وطيء ، اقطعها الرسول الى (زيد الخيل)[5].

ثم الى (توز) ، فيها برك وآبـــار وحصن بناه (أبو دلف)[6] . ثم الى (سميراء)[7] ، ثم الحاجر[8] . فمعدن القرشي ، وهو (معدن النقرة)[9] . وعنده تفترق الطريق ، فمن أراد مكة نزل (المغيثة) ، ومن أراد (المدينة) أخذ نحو العسيلة فهبطها . وهو منزل حاج العراق بين (اضاخ) و (ماوان) . وفيه بركة وثلاثة آبار ، بئر تعرف بالمهدي ، وبئران تعرفان بالرشيد وآبار صغار للأعراب تنزح عند كثرة الناس وماؤهن عذب[10] .

فمن أخذ على المدينة ، فمن المعدن الى العسيلة ، ثم الى بطن نخـل ، ثم الى

---

١ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) ، « الثعلبية بطريق بكة حرسها الله تعالى عـــلى جادتها من الكوفة حتى منازل أسد بن خزيمة » ، تاج (١/١٦٥) ، (ثعلب) .

٢ قدامة (١٨٦) ، المسالك (١٢٧) ، (والخزيمية ، منزلة للحاج بين الاجفر والثعلبية) تاج العروس (٨/٢٧٥) ، (خزم) .

٣ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) ، تاج العروس (٣/١٠٦) ، (جفر) .

٤ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) .

٥ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فيد) .

٦ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) ، تاج العروس (٤/١٢) ، (توز) .

٧ يـا رب جـار لـــك بالحزيز بـين سمـيراء وبـين تـــوز
تاج العروس (٣/٢٧٨) ، (سمر) .

٨ تاج العروس (٣/١٢٦) ، (حجر) .

٩ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) .

١٠ تاج العروس (٣/٥٨٢) ، (نقر) .

الطرق ، ثم الى المدينة[١] . وهي (يثرب) . وذكر بعض أهل الأخبار ان (مرزبان البادية) كان قد عيّن على المدينة في الجاهلية عاملاً يجبي خراجها ، وكانت قريظة والنضير ملوكاً ملكوها على المدينة على الأوس والخزرج ، وفي ذلك يقول شاعر الأنصار :

تؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير[٢]

ومن المدينة الى (السيالة) ، ومنها الى (الروحاء) ، ثم الى (الرويثة) ، ومنها الى (العرج) ، ثم الى (السقيا) ، ثم الى (الأبواء) ، ثم (الجحفة) ، ثم الى (قديـــد) ، ثم الى (عسفان) ، ثم الى (مر الظهران) ، ثم الى مكة[٣] .

ومن أراد (مكة) قصد (مغيثة الماوان)[٤] ، ومن (مغيثة) الى (الربذة) وماؤها كثير . واليها هاجر (أبو ذر) الغفاري ، وبها مدفنه . وقـــد خربت سنة (٣١٩) للهجرة بالقرامطة[٥] . ومن الربذة الى معدن بني سليم ، ومن معدن بني سليم الى العمق ، ومنه الى (أفاعية)[٦] (الأفيعية) الى (المسلح) ، ثم الى (الغمرة) ، ومنه يعدل الى اليمن ، ومن الغمرة الى (ذات عرق) ، ومنه يقع الاحرام[٧] ، ثم الى (أوطاس) ، ثم الى بستان بني عامر (بستان ابن عامر) ، ثم غمر ذي كندة ، ثم مشاش ، ثم مكة[٨] .

ويلاحظ أن هذا الطريق هو من أقصر الطرق المؤدية من (الحيرة) الى (المدينة) ، وهو يمر بجبلي (طيء) ، أي (جبل شمر) في الوقت الحاضر . ويمر عـلى (حائل) بجبلي طيء ، وهو مدينة في الوقت الحاضر ورد ذكرها في شعر (امرىء القيس) إذ يقول :

---

١ المسالك (١٢٨) ، قدامة (١٨٧) .
٢ المسالك (١٢٨) .
٣ الصفة (١٨٤ وما بعدها) .
٤ قدامة (١٨٦) ، (بين معدن النقرة والعمق عند ماوان) ، تاج العروس (١/٦٣٧) ، (غوث) .
٥ تاج العروس (٢/٥٦٢) ، (ربذ) .
٦ تاج العروس (١٠/٢٨٢) ، (فعا) .
٧ قدامة (١٨٦) .
٨ المسالك (١٣٢) .

يا دار ماوية بالحائـــل فالفرد فالجبتين من عاقل[1]

وبجبل (سلمى) مدينة اسمها (أُرك) ، عرفت بمدينة (سلمى) ، وأصحابها من (طيء) : وقد انحاز اليها (خالد بن الوليد) ، لما أرسله (أبـو بكر) من (ذي القصـــة) لمحاربة المرتدين[2] . وقد نزل (خالد) بأجأ ، ثم تعبـأ لملاقاة (طليحة الأسدي) ، فالتقى به على (بزاخة)[3] .

ويسلك هذا الطريق في الوقت الحاضر الحجاج الذين يقصدون الحج عن طريق النجف بالسيارات .

و (الربذة) من القرى القديمة في الجاهلية ، وهي عن المدينة من جهة الشرق على طريق حاج العراق على نحو ثلاثة أيام سميت بـ (خرقة الصائغ) ، بها مدفن (أبي ذر)[4] .

ومعدن بني سليم ، هو لبني سلـــيم ، الذين غزاهم الرسول غـزوة (قرارة الكدر) ، ويقال : « قرقرة بني سليم وغطفان » ، لمـا بلغه ان بقرارة الكدر جمعاً من غطفان وسليم يريد الكيد للمسلمين[5] . و (الكدر) ماءة لبني سليم في ديار غطفان ناحية المعدن[6]. والى هذا الموضع أيضاً وصل الرسول في غزوته المعروفة بغزوة السويق ، وسببها ان (أبا سفيان) نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ، انتقاماً لبدر ، فسلك النجدية حتى نزل بصدور قناة الى جبل يقال له (تيت) ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرج الى (بني النضير) ، ثم خرج فأرسل رجالاً من قريش الى ناحية من المدينة يقال لها (العُريض) ، فحرقوا في أصوار من نخل لها ، وقتلوا رجلين ، ثم انصرفوا راجعين ، فخرج رسول الله في طلبهم حتى بلـغ (قرقرة الكدر) ، فوجد ان (أبا سفيان) قد فاته وأصحابه ، وكان أبو سفيان وأصحابه يلقون جرب الدقيق ويتخففون ، وكان

---

١ تاج العروس (٧/٢٩٥) ، (حول) .
٢ الطبري (٣/٢٥٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/١٠١) ، (أرك) .
٣ الطبري (٣/٢٥٥) ، تاج العروس (٢/٢٥٣) ، (بزخ) .
٤ ابن رستة (١٧٩) ، تاج العروس (٢/٥٦٢) ، (ربن) .
٥ امتاع الاسماع (١/١٠٧) .
٦ تاج العروس (٣/٥١٨) ، (كدر) ، (٣/٤٩٠ وما بعدها ، (قرر) ، الطبري (٢/٤٨٢) .

ذلك عامة زادهم ، فلذلك سميت غزوة السويق[1] .

وقد غزا الرسول (بني سليم) مرة أخرى فسار عليهم حتى بلغ موضع (بحران) معدناً بالحجاز من ناحية الفرع ، فلما لم يجد أحداً منهم ، وكانوا قد تفرقوا رجع عنهم . ويظهر ان قريشاً كانوا قد جاءوا اليهم ، واتفقوا معهم على مهاجمة المدينة ، بدليل ما ورد في خبر هذه الحملة من انه « غزا يريد قريشاً وبني سليم »[2] .

و (بحران) موضع بناحية الفرع من الحجاز ، به معدن للحجاج بن علاط البهري[3] . و (الفرع) بالحجاز ، من أضخم أعراض المدينة[4] .

وهذا الطريق هو الطريق الذي كان أهل مكة في الجاهلية يسلكونه الى العراق . ولما خافت قريش طريقها الذي كانت تسلك الى الشأم حين كان من وقعة (بدر) ما كان ، قررت سلوك طريق العراق ، أي هذا الطريق ، واستأجرت لها دليلاً خريتاً بالطرق عالماً بها ، هو (فرات بن حيان) ، وخرجت القافلة تحمل مالاً كثيراً ، فيه فضة كثيرة ، وهي عظم تجارتهم ، سلكت طريق (ذات عرق) ، ثم خرج الدليل بهم على (غمرة) ، وانتهى الى النبي خبر العير وفيها المال الكثير ، فأرسل (زيد بن حارثة) على سرية ، التقت بالقافلة بموضع (القردة) ، فظفر بالعير ، وأفلت أعيان القوم . وأتى بدليلها أسيراً ، وخمست الغنائم ، فبلغ الخمس عشرين ألف درهم[5] .

وقد ذكر (الهمداني) ، أسماء منازل طريق الكوفة — يثرب ، والكوفة — مكة على هذا النحو . الكوفة ، فالقادسية ، فالمغيثة ، ثم القرعاء ، ثم واقصة ، ثم العقبة ، ثم القاع ، ثم زبالة ، ثم الشقوق ، ثم البطان ، ثم الخزيمية ، ثم الأجفر ، ثم فيد ، ثم توز ، ثم سميراء ، ثم الحاجر ، ثم معدن النقرة ، ثم العسيلة ، ثم بطن نخل ، ثم الطرف ، ومنه الى المدينة .

---

١ الطبري (٤٨٣/٢ وما بعدها) ، ابن هشام (١١٩/٢) ، (حاشية على الروض) ، امتاع الاسماع (١٠٦/١) .
٢ الطبري (٤٨٧/٢) ، ابن هشام (١٢٠/٢) ، امتاع الاسماع (١١١/١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٣١/٣) ، (بحر) .
٤ تاج العروس (٤٤٩/٥) ، (فرع) .
٥ الطبري (٤٩٢/٢) ، امتاع الاسماع (١١٢/١) ، ابن هشام (١٢١/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .

ومن الطرف يؤدي الطريق الى مكة، فيمر بالسيالة ، ثم الروحاء ، ثم الرويثة، ثم العرج ، ثم السقيا ، ثم الأبواء ، ثم الجحفة ، ثم قديد ، ثم عسفان ، ثم مرّ الظهران ، ثم مكة [١] .

ومن أخذ الجادة من مكة الى معدن النقرة ، فمن مكة الى البستان ، ثم ذات عرق ، ثم الغمرة ، ثم المسلح ، ثم الأفيعية ، ثم حرة بني سليم ، ثم العمق ، ثم السّليلة ، ثم الربذة ، ثم ماوان ، ثم معدن النقرة . وهو ملتقى الطريقين [٢] .

وقد عرف طريق العراق من الكوفة الى مكة بـ (المثقب) . يقال : سلكوا المثقب ، أي مضوا الى مكة . وقيل انه طريق ما بين اليمامة والكوفة . وذكر بعض العلماء انه طريق كان بين الشأم والكوفة وكان يسلك في أيام بني أمية . ويظهر ان الاسم من الأسماء القديمة ، بدليل اختلاف العلماء في تعليل التسمية ، فقال بعضهم سمي لمرور رجل به يقال له مثقب ، وقال بعض آخر سمي بذلك لأن بعض ملوك حمير بعث رجلاً يقال له مثقب على جيش كثير الى الصين فأخذ ذلك الطريق فسمي به [٣] .

وكان حاج البصرة اذا أرادوا الحج ، اتجهوا الى (المنجشانية) على ستة أميال من البصرة ، تنسب الى (منجش) مولى (قيس بن مسعود) [٤] ، ثم الى (الحفير)، وهو ركايا ما بين (ماوية) و (المنجشانيات) [٥] ، ثم الى (الشجى) ، ثم الى (الحرجاء) ، وهو ماءة احتفرها (جعفر بن سليمان) على طريق حاج البصرة [٦] ، ثم الى (الحفر) [٧] ، ثم الى (ماوية) ، ثم الى ذات العشر ، ثم الى (الينسوعة) ، ينسوعة القف ، منهل من مناهل طريق مكة على جادة البصرة، بها ركايا كثيرة عذبة الماء عند منقطع رمال الدهناء بين ماوية النباج [٨] . ثم الى

---

١ الصفة (١٨٣ وما بعدها) .
٢ الصفة (١٨٥) .
٣ تاج العروس (١/١٦٦) ، (ثقب) ، ابن دريد ، جمهرة اللغة (١/٢٠٣) ، الصفة (١٧٣،١٧٦) ، البلدان (٤/٤١٤) .
٤ تاج العروس (٤/٣٤٨،٣٥٤) ، (م/ج/ش) ، (نجش) .
٥ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
٦ تاج العروس (٢/٣٢) ، (خرج) .
٧ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
٨ تاج العروس (٥/٥٢٣) ، (نسع) .

(السُمَيْنة) ، أول منزل من النباج لقاصد البصرة[1] ، ثم الى (النباج) ، ويقال له نباج بني عامر بن كريز ، وهو بحذاء (فيد) ، وبه يوم من أيام العرب ، مشهور لتميم على بكر بن وائل . وقد استنبط ماءه (عبدالله بن عامر ابن كريز) ، شقق فيه عيوناً وغرس نخلاً ، وسكن به رهطه بنو كريز[2] . و (عامر بن كريز بن ربيعة) القرشي العبشمي ، والد (عبدالله) ، وهو من المحمقين في قريش ، ذكر انه أسلم يوم الفتح ، وكان ابنه (عبدالله) أميراً على البصرة زمن عثمان[3] ، كما كان صهراً لمعاوية ، ومن أغنياء المسلمين[4] .

ومن النباج الى (العوسجة) ، ثم الى (القريتين) ، ثم الى (رامة) ، ثم الى (امرة) ، ثم الى (طخفة) ، ثم الى (ضرية) ، ثم الى (جديلة) ثم الى (فلجة) ، ثم الى (الدثينة) (الدفينة) . ثم الى (قبا) ، ثم الى (مران) ، ثم الى (وجرة) ، ثم الى (أوطاس) ، ثم الى (ذات عرق) ثم الى بستان ابن عامر ، ثم الى مكة[5] .

ويلاحظ أن مبدأ هذا الطريق ، قد عمر في الاسلام ، وذلك بسبب تأسيس البصرة ، ولكنه يسلك أيضاً الطريق الجاهلي القديم في مواضع كثيرة منه .

و (بستان ابن عامر) عند مكة ، ويرى بعض العلماء أن هذه التسمية مغلوطة وأنها من أقوال سواد الناس وأن الصحيح بستان ابن معمر ، وهو مجتمع النخلتين اليمانية والشامية[6] . بينما يرى بعضهم العكس ، إذ قال : « وبستان ابن عامر بنخلة . هو عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة . ولا تقل بستان ابن معمر ، فإنه قول العامة »[7] . وورد أيضاً « بستان ابن عامر لعمر بن عبدالله بن معمر ابن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ، ولكن الناس غلطوا فيها ، فقالوا : بستان ابن عامر ، وبستان بني عامر ، وإنما

---

١ تاج العروس (٩/٢٤٢) ، (سمن) .
٢ تاج العروس (٢/١٠٣) ، (نبج) .
٣ الاصابة (٢/٢٤٨) ، (رقم ٤٤١٨) .
٤ المحبر (٤٧،٥٧،١٥٠،٣٤٦،٣٦٣،٣٨٧،٤٤٠،٤٥٠) .
٥ المسالك (١٤٦ وما بعدها) ، قدامة (١٩٠) ، بلاد العرب (٣٧١) .
٦ بلاد العرب (٣٧٤) ، تاج العروس (٣/٤٢٤) ، (عمر) .
٧ تاج العروس (٣/٤٢٤) ، (عمر) .

هو بستان ابن معمر ، وقوم يقولون نسب الى ابن عـــامر الحضرمي ، وآخرون يقولون نسب الى ابن عامر بن كريز »[١] . وذكر أنه على مقربة من هذه البستان موضع يقال له (المسدّ) ، وهو مأسدة[٢] .

ويقع موضع (السّيّ) ، وهو ماء من ذات عرق الى (وجرة) على ثلاث مراحل من مكة الى البصرة وخمس من المدينة . فهو من منازل طريق البصرة — مكة . واليه أرسل الرسول (شجاع بن وهب) الأسدي ، على (بني عامر) بناحية (ركبة)[٣] . ووجرة في طريق البصرة . وأما (ذات عرق) فحد يفصل في عرف علماء جزيرة العرب بين الحجاز ونجد. فمن ذات عرق الى الغرب الحجاز، ومن ذات عرق مشرقاً ، فهو نجد[٤] . واذا جزت (وغرة) ووجرة فأنت في نجد الى أن تبلغ (العذيب) ، و (غمرة) في طريق الكوفة[٥] . وهي فصل ما بين تهامة ونجد[٦] .

وعلى مقربة من (ذات عرق) ، يقع قبر أبو رغال في موضع يقــال له (الغُمَيْر)[٧] ، بين ذات عرق وبين البستان[٨] .

وقد ذكر (القلقشندي) طريقاً يبدأ بالبصرة ويتجه نحو (اليمامة) ، على هذا النحو : (البصرة) ، ثم (المنجشانية) ، ثم الى (الكفير؟) (الحُفير) ، ثم الى (الرحيل) ، ثم الى (الشجى) ، ثم الى (الحفر) ، ثم الى (ماوية) ، ثم الى (ذات العشر) ، ثم الى (الينسوعة) ، ثم الى (السمنية) ، ثم الى (النباج) ، ثم الى (العمومية ؟) (العوسجة) ، ثم الى (القريتين) ، ثم الى (سويقة) ، ثم الى (صداة) ، ثم الى (السدّ) ، ثم الى (السقي) ،

---

١ البلاذري ، فتوح (٦٣) .
٢ تاج العروس (٢/٣٧٤) ، (سدد) .
٣ امتاع الاسماع (١/٣٤٤) .
٤ بلاد العرب (١٥،١٧٨،٣٣٦) .
٥ بلاد العرب (٣٣٦) .
٦ تاج العروس (٣/٤٥٥) ، (غمر) .
٧ كزبير :
٨ قال امرؤ القيس :
كأثل من الاعراض من دون بيشة ودون الغمـــير عامدات لغضورا
تاج العروس (٣/٤٥٥) ، (غمر) .

ثم الى (المنبية) ، ثم الى (السفح) ، ثم الى (المريقة) ، ثم الى (اليمامة)[1] .

وذكر (الهمداني) أسماء بعض المواضع التي كان يسكنها المسافرون من الكوفة الى العراق ، وهي الطرق السالكة التي عرفت بـ (المحجة)،لأنها طرق الحج[2] .

وقد ذكر (الهمداني) أسماء مواضع يمر بها الطريق من (نجران) الى البصرة . وهي : نجران ، ثم كوكب ، ثم الحفر ، ثم العقيق ، وهو معدن ذهب ، ثم (الفلج) ، ثم (الخرج) ، ثم (الخضرمة) ، ثم (الفقى) ، ثم البصرة[3].

وإذا أراد أهل اليمامة السفر الى مكة،سافروا الى العرض ، وهو بطن العرض، عرض بني حنيفة ، الوادي المعروف اليوم باسم الباطن ، وفيه مياه وقرى[4] ، ثم (الحديقة) ، ثم الى (السيح) ، وهو سيح (آل ابراهيم بن عربي) والى اليمامة في عهد (عبد الملك) و (هشام)[5] ، ثم الى (الثنية) ، ثم الى (سقيراء)، ثم الى (السدّ) ، ثم الى صداة ، ثم الى (شريفة) ، ثم الى (القريتين) من طريق البصرة ، فيتصل الطريق بطريق البصرة ، ويسلكها على نحو ما مر[6] . وقد ذكر (قدامة) منازل هذا الطريق على هذا النحو : (العرض) ، ثم (حديقة) ، ثم (السيح) ، ثم (الثنية العقاء) ، ثم (سقيراء) ، ثم (السدّ) ، ثم (مراره) ، ثم (سويقة) ، ثم (القريتين) ، ثم طريق البصرة[7] .

ونجد في (بلاد العرب) وصف طريق يبدأ بـ (حجر) اليمامة وينتهي بمكة . ويبدأ بـ (بطن العرض) ، ثم (السيح) ، ثم (ثنية الأحيسى) ، ثم ناحية من (قرقرى) اليمامة ، ثم (المنفطرة) ، ثم (الغُزيز) ، ثم (الوركة) ، ثم (أهوى) و (أضيمر) ، ثم (العفافة) ، ثم (عكاش) ، ثم (المروت)، ومنه الى (السحامة) وعليها طريق المنار ، واذا جزت أهوى ، فمن ورائها موبهة

---

١ صبح الاعشى (٥/٦١) .
٢ الصفة (١٣١) .
٣ الصفة (١٦٦) .
٤ بلاد العرب (٣٦١) .
٥ بلاد العرب (٣٦١) .
٦ المسالك (١٤٦ وما بعدها) .
٧ قدامة (١٩١) .

يقال لها (الأسودة) ، ثم تعبر رملة يقال لها (جراد) ، ثم تصل (الهلباء) بحايل ، فإذا جزت (الهلباء) وقعت في واد ، تجوزه فترد (عكاشا) ، ثم ترد (العيصان) ، وهو معدن ، ثم ترد معدن الأحسن ، وهو من أول عمل المدينة ، ثم تجوزه الى (العلكومة) ، ثم ترد (الدثينة) (الدفينة) ، قرية على طريق البصرة الى مكة [1] . ثم يسلك هـذا الطريق المواضع التي ذكرتها عند حديثي على طريق البصرة ـ مكة .

وكان لأهل اليمامة طرق توصلهم الى اليمن ، منها طريق يؤدي الى (الخرج)[2]، ثم الى (نبعة) ، ثم الى (المجـازة) ، و (المعدن) ، و (الشفق) ، (الشقق ؟) ، ثم (الثور) ، ثم (الفلج) ، وهو قرية كبيرة بها نخيـل ومزارع وعين يقال لها (الذّبا) يخرج منها سبعة عشر نهراً ، وهي من الأفلاج[3]. ثم (الصفا) ، وبئر الآبار ونجران ، ثم الحمى وبرانس ، ومريع ، والمهجرة[4] . ثم يسلك طريق المهجرة المؤدي الى صنعاء[5] .

وذكر (الهمداني) طريقاً يصل نجران باليمامة ثم ينتهي بالبصرة . ومعنى ذلك طريق يوصل البصرة باليمن ، فنجران من أهم عقد الطرق المؤديـة الى اليمن . ويبدأ الطريق بنجران،ومنها الى (كوكب) ، ثم الى (الحفر) ، ثم (العقيق)، وهو معدن يعق عن الذهب ، وهو لجرم وكندة ، ثم (المقترب) ، ثم (الفلج) ، ثم (الخرج) ، ثم (الخضرمة) ، ثم (الفقى) ، وهو طرف اليمامة ، ثم البصرة[6] .

وذكر (الهمداني) أن من يريـد التوجه من (الفلج) الى اليمامة ، سلك طريق (العقيمة) ، أو (مخمسة) . ومن أخذ (الثفن) من الفلج الى اليمامة أخذ أسافل أودية جعدة ، فيأخذ الغادي على أسفل الغيل من الثفن ، ثم يقطـع (غلغل) و (الثجة) و (النضخ) ، فإن أحب شرب بدلاميس ، ثم نسلة

---

١ بلاد العرب (٣٦١ ـ ٣٧١) .
٢ تاج العروس (٢٩/٢) ، (خرج) ، بلاد العرب (٢٣٣،٣) .
٣ بلاد العرب (٢٢١ وما بعدها) ، الصفة (١٥٩ وما بعدها) ، تاج العروس (٨٦/٢ وما بعدها) .
٤ قدامـة (١٩٣) .
٥ المسالك (١٥٢ وما بعدها) ، الخراج (١٩٣) .
٦ الصفة (١٦٦) .

الى الخرج ، وإن أحب شرب بالمرّاء ، ثم برك ثم بريك[١] .

وإذا أراد أهل البحرين التوجه إلى اليمامة ، صعدوا الطريق، فيكون عن يمينهم (خرشيم) ، وهي هضاب وصحراء مطرّحة إلى (الحفرين) وإلى (السلحين) ، ثم (الحابسية) ، ثم (مُزَلَّقَة) ، ثم (الموارد) ثم الفروق الأدنى ثم الفروق الثاني ، ثم الحوار ، خوّار الثلع ، ثم الصليب ، وعن يمينك الصلب ، صلب المِعَى والبرقة برقة الثور . ثم الصّمان ، ثم ترجع إلى طريق (زَرْنى) ، فعن يسارك (الدُبيب) ، وعن يمينك (الدحرض) ، ثم تقطع بطن (قو) ، ثم السمراء ، ثم تأخذ في الدهناء وتأخذ على الشجرة ، ثم الى (الحل) خل الرمل ، ثم قَلْت هبل ، ثم (النظيم) نظيم الجفنة ، ثم شباك العرمة والغرابات ، ثم تقطع العرمة و (شيعاً) ، ثم تسير في (السّهباء) ، ثم تقطع جبيلاً يقال له (أنقد) ، ثم الروضة ، ثم ترد (الخضرمة) جو الخضارم . وهي أول اليمامة قبل البحرين[٢] .

وكان لأهل نجد جملة طرق يسلكونها في اتجاههم نحو (مكة) أو المدينة أو اليمن . وقد عرف طريق نجد الى مكة بـ (الجلال) وبـ (مثقب) وبـ (القعقاع)[٣] . وذكر أن (المثقب) طريق العراق من الكوفة الى (مكة) ، وكان فيما مضى طريقاً بين اليمامة والكوفة يسمى (مثقباً) ، وذكر أنه طريق العراق الى مكة . وقد أوجدوا لذلك جملة تعاليل لحلّ مشكلة التسمية . فقالوا : إنه سُمّي مثقباً لمرور رجل به يقال له مثقب . وقالوا : بل لأن بعض ملوك حمير بعث رجلاً يقال له مثقب على جيش كثير الى الصين ، فأخذ ذلك الطريق فسمي به . وذكر بعض آخر . أنه طريق كان بين الشأم والكوفة ، وكان يسلك في أيام بني أمية[٤] .

وذكر ان (القعقاع) الطريق لا يسلك إلا بمشقة ؛ وهو طريق من اليمامة إلى الكوفة ؛ وقيل إلى مكة[٥] .

---

١ الصفة (١٥٠) .

٢ الصفة (١٣٨ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٧/٢٦٠) ، (جلل) .

٤ تاج العروس (١/١٦٦) ، (ثقب) .

٥ تاج العروس (٥/٤٧٧) ، (قعقع) .

ويكون طريق نجد الى المدينة ومكة جزءاً من طريق العراق إلى المدينتين، وقد ذكرت أسماء بعض المواضع التي يسلكها القادمون من الكوفـة أو الحيرة ثم من البصرة إلى المدينة أو مكة ، وهي تمرّ بعد اجتيازها حد العراق بنجد . ومن هذه المواضع : (القَرْدة) (القَرَدة) ، الذي كانت اليه سرية (زيد بن حارثة) للتعرض بقافلة لقريش تنكبت طريق الشأم خوفاً من تحرش المسلمين بها وسلكت طريق العراق في الشتاء ، فالتقى بها (زيد بن حارثة) بهذا الموضع فظفر بالعير[1].

ومن مواضع طرق نجد (قطن) ، وهو جبل بناحية (فيد) ، به ماء لبني أسد ابن خزيمة بنجد . واليه أرسل الرسول ، (أبا سلمة بن عبد الأسد) ، لما بلغه ان (طليحة) و (سلمة) ابن خويلد ، قد استعدا لحرب رسول الله . وقد نكب بالسرية عن الطريق وسار بها ليلاً ونهاراً حتى يعجل بها إلى ملاقاتهما ، فنذر بهم القوم وتفرقوا ، ثم عاد بعد أن وجد سرحاً ومعه ثلاثة رعاء مماليك[2] . و (قطن) جبل في غرب (القصيم) من نجد لا زال معروفاً بقرب بلدة (الفوارة)[3] .

و"نَجْد" في اصطلاح بعض العلماء ، ما بين (العذيب) الى (ذات عـرق) والى اليمامة والى اليمن والى جبلي طيء ، ومن المربد الى (وجرة) . وذات عرق أول تهامـة الى البحر . وذكر ان الأعراب يقولون : إذا خلفت (عجلز) مصعداً ، فقد انجدت . و (عجلز) فوق (القريتين) ، فإذا أنجدت عن ثنايا ذات عرق ، فقد اتهمت ، فإذا عرضت لك الحرار بنجد قيـل ذلك الحجاز . وذكـر أن نجـداً الأريضة التي تقـع جنوب العـراق والشأم ، وشمال تهامة واليمن . وذكر أن كل مـا وراء الخندق على سواد العراق ، فهو نجد . والغور كل ما انحدر سيله مغربياً وما أسفل منها مشرقياً فهو نجد . وتهامة ما بين ذات عرق الى مرحلتين من وراء مكة ، وما وراء ذلك من المغرب فهو غور ، وما وراء ذلك من مهب الجنوب فهو السراة الى تخوم اليمن[4] .

وأما طرق العربية الغربية ، فأهمها الطرق الممتدة من بلاد الشأم الى اليمـن ، وتتصل بها الطرق الآتية من مصر . وقد كان الجاهليون يقصدون دمشق للاتجار

---

١ امتاع الاسماع (١/١١٢) ، تاج العروس (٢/٤٥٠) ، (فرد) .
٢ امتاع الاسماع (١/١٧٠) ، تاج العروس (٩/٣١٢) ، (قطن) .
٣ العرب (١٩٦٨) ، (حـ ١١ ص ٩٧٧) .
٤ تاج العروس (٢/٥٠٩) ، (نجد) .

بها وللاصطياف ، ولزيارة أمراء الغساسنة الذين كانوا قد امتلكوا قصوراً بها ، غير أن بعضاً منهم كان يقف عند (بصرى) ، يتاجر في أسواقها ثم يعود . ومنهم من كان يتوجه الى (غزة) ، للاتجار بها لوجود تجار بها قصدوها من سواحل البحر الأبيض ، معهم تجارة ساحل البحر . وقد كان (هاشم) ممن قصد هذه المدينة .

ويبدأ طريق دمشق بـ (الكسوة) ومن (الكسوة) الى (جاسم) ، وهو موضع ورد ذكره في شعر لحسان بن ثابت ، إذ قال :

قد عفا جاسم الى بيت رأس فالجوابي فحارث الجولان[1]

ومن (جاسم) الى أفيق ، وأفيق من أعمال حوران ، وهو عقبة طويلة ، وأفيق في أول العقبة ينحدر منها الى غور الأردن ومنها يشرف على طبرية[2] . ومن (أفيق) الى (طبرية) . وتعد (سرغ) ، في آخر الشأم وأول الحجاز ، بين (المغيثة) و (تبوك) ، وفيها لقي (عمر) أمراء الأجناد[3] ، ثم (تبوك) وهي قرية مهمة يرد خبرها في أخبار غزوات الرسول ، إذ عرفت بغزوة (تبوك). وبها صالح رسول الله (يحنة بن رُؤبة) ، صاحب أيلة ، وأهل جرباء وأذرح[4].

ومن (تبوك) يتجه الطريق إلى (المحدثة) ثم إلى (الأقرع) ، ثم إلى (الجنينة)[5] ، ثم إلى (الحجر) ، وهي في نظر أهل الأخبار ديار ثمود وبلادهم ، وقد أشير اليها في القرآن : « كذب أصحاب الحجر المرسلين »[6] ، وقد مر بها رسول الله في غزوته لتبوك ، ونهى عن دخول مساكنها وعن الشرب من مائها ، واستحث راحلته ، وأسرع حتى خلفها[7] . وذكر « ان بيوتها منحوتة في الجبال مثل المغاور ، كل جبل منقطع عن الآخر ، يطاف حولها ، وقد نقر فيها بيوت

---

١ المسالك (٧٨) ، تاج العروس (٢٢٨/٨) ، (جسم) .
٢ تاج العروس (٥٤/٧) ، (فوق) .
٣ تاج العروس (١٦/٦) ، (سرغ) .
٤ الطبري (١٠٠/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (١١٣/٧) ، (باك) ، ابن سيد الناس (٢١٥/٢ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (١٦٦/٩) ، (جنن) .
٦ الحجر ، الرقم ١٥ ، الآية ٨٠ .
٧ تفسير الطبري (٣٤/١٤) . ابن سيد الناس (٢١٨/٢) .

تقلّ وتكثر على قدر الجبال التي تنقر فيها. وهي بيوت في غاية الحسن فيها بيوت وطبقات محكمة الصنعة وفي وسطها البئر التي كانت تردها الناقة [1] . وهي قريـــة لا تزال معروفة مسكونة [2] .

ثم إلى (وادي القرى) ، فتمر القوافل في قرى عديدة ، ثم إلى (الرحيبة)، ثم إلى (ذي المروة) ، وهو قرية بين (ذي خشب) ، و (وادي القرى)[3] ، ثم إلى (المر) ، ثم إلى (السويداء)[4] ، ثم إلى (ذي خشب)[5] ، وهو واد على مسيرة ليلة من المدينة ، ذكر في الأحاديث والمغـــازي ، ويقال له (وادي خشب) ، فيه عيون[6] ، ثم إلى المدينة[7] .

ولما سار الرسول الى (تبوك) نزل (ذا خشب) ، ثم (ثنية الوداع) ، ثم مرّ بوادي القرى ، ثم بالحجر ، ثم تبوك[8] .

وهناك طريق يمتد من (أيلـــة) إلى (حقل) ، ثم (مدين) ، ثم إلى الأغواء ، ثم إلى (الكلابة) ، ثم إلى (شغب) ، ثم إلى (بدا) . وشغب موضع ذكر في حديث الزهري ، انه كان له مال بشغب وبدا ، وهما موضعان كانا في الشأم ، وبه كان مقـــام (علي بن عبدالله بن عباس) وأولاده الى أن وصلت اليهم الخلافة . وبشغب مات الزهري ، وهو (أبو بكـر محمد بن مسلم ابن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب الزهري) ، المدني ، مات سنة (١٢٤ هـ) في أمواله بها . وذكر انه قبر بأداما ، وهي خلف شغب وبدا ، وهي أول عمل فلسطين وآخر عمل الحجاز ، وبها ضيعة (الزهري) التي كان فيها[9] .

ومن (بدا) يتجه الطريق الى(السرحتين) ، ثم الى (البيضاء) ، ثم الى (وادي القرى) ، ثم الى (الرحيبـــة) ، ثم الى (ذي المروة) ، ثم الى (المر) ، ثم الى (السويداء) ، ثم الى (ذي خشب) ، ثم الى المدينـــة ،

---

١ تاج العروس (١٢٤/٣ وما بعدها) ، (حجر) .
٢ بلاد العرب (٣٩٧ وما بعدها) .
٣ بلاد العرب (٤١٤،٤١٣،٣٩٦،٣٩٥) .
٤ تاج العروس (٣٨٥/٢) ، (سود) .
٥ بلاد العرب (٤١٤،٤٠٦) .
٦ تاج العروس (٢٣٥/١) ، (خشب) .
٧ المسالك (١٥٠) ، قدامة (١٩١) .
٨ الطبري (١٠٠/٣ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (٤٤٥/١ وما بعدها) .
٩ تاج العروس (٣٢٢/١) ، (شغب) ، (٣٣/١٠) ، (بدى) .

ومنها الى مكة . وقد كان حجاج مصر يسلكون هذا الطريق،إذا جاؤوا من البر[1].

وهناك طريق ساحلي سلكه حجاج مصر أيضاً ، يبدأ بشرف البعل ، ثم الى (الصلا) ، ثم الى (النبك)[2] ، ثم الى (ظبة) ، ثم الى (عونيد) ، ثم الى (الوجه) ، ثم الى (منخوس) ، ثم الى (الجرة) ، ثم الى (الأحساء) ثم الى (ينبع) ، ثم الى (مسئولان) ، ثم الى (الجار) ، ثم الى المدينة[3] . و (الجار) على ساحل البحر ، وهو فرضة المدينة ، ترفأ اليه السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن ، وبحذائه جزيرة في البحر ميل في ميل يسكنها التجار[4] . و (ينبع) حصن له عيون فوّارة ، ذكر بعضهم أنها مائة وسبعون عيناً، ونخيل وزروع ، بطريق حاج مصر عن يمين الجائي من المدينة الى (وادي الصفراء) ، وقد جفت عيونه فيما بعد ، كما ذكر من زارها من الباحثين[5] .

وأما طريق المدينة المؤدي الى مكة ، فيمر بـ (الشجرة) ، وهو ميقات أهل المدينة ، ثم الى (ملل) ، ثم الى (السيالة) . وقد ذكر أنها أول مرحلة لأهل المدينة ، إذا أرادوا مكة ، وأنها بين (ملل) والروحاء[6] . ثم الى (الرويثة) ثم الى (السقيا) ، فيهـا نهر جار ، بين المدينـة ووادي الصفراء[7] . ثم الى (الأبواء) ، وهي قرية من أعمال (الفرع) بين المدينة والجحفـة[8] ، ثم الى (الجحفة) ، وهي من تهامة ، وفيها آبار ، وهي ميقات أهل الشأم ، وكانت تسمى (مهيعة) ، فنزل بها (بنو عبيل) ، وهم اخوة عـاد وكان أخرجهم العماليق من يثرب فجاءهم سيل جحاف فاجتحفهم فسميت الجحفة . وهكذا فسرّ

---

١ المسالك (١٤٩ وما بعدها) ، قدامة (١٩٠) ·

٢ (موضع بين ضجوة ومضيق جبة من منازل حاج مصر) ، تاج العروس (١٨٦/٧) ، (بنك) ·

٣ قدامة (١٩١) ·

٤ تاج العروس (١١٢/٣) ، (جار) ·

٥ تاج العروس (٥١٧/٥) ، (نبع) ·

٦ تاج العروس (٣٨٥/٧ وما بعدها) ، (ملل)

٧ تاج العروس (١٨٠/١٠) ، (سقى) ·

٨ تاج العروس (٦/١٠) ، (أبى) ·

(ابن الكلبي) ، سبب تسمية هذه القرية القريبة من البحر بهذه التسمية[1] .

والأبواء من المنازل التي كان يطرقها المسافرون إلى بلاد الشأم ، فهي على طريق التجارة القديم . وللرسول غزوة عرفت بغزوة الأبواء وبغزاوة ودّان،وصل فيها إلى موضع (ودّان) ، وكان يريد اعتراض عير لقريش ، مرت بهذا المكان، وهي أول غزوة غزاها الرسول . وقد وادع فيها (بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة) على ألا يكثروا عليه ولا يعينوا أحداً عليه[2] ، مما يدل على ان هذا الموضع كان لبني ضمرة في ذلك العهد . وورد انه كان لبني ضمرة ولغفار وكنانة[3] .

وودّان قرب الأبواء والجحفة من نواحي (الفرع) ، بينها وبين (هرشى) ستة أميال ، وبينها وبين (الأبواء) نحو من ثمانية أميال ، وكانت قرية سكنها (الصعب بن جثامة) الليثي من أصحاب الرسول ، فنسب اليها[4] .

و (هَرْشى) ثنية قرب (الجحفة) في طريق مكة يرى منها البحر ، ولها طريقان فكل من سلكها كان مصيباً ، وهي على طريق الشأم وطريق المدينة الى مكة في أرض مستوية ، وأسفل منها (ودّان) على ميلين مما يلي المغرب . ويتصل بها من الغرب خبت رمل في وسط هذا الخبت جبل أسود شديد السواد صغير يقال له طفيل[5] .

ومن الجحفة يتجه المسافر إلى (قُديد)[6] ، ثم الى (عسفان) ، ثم الى بطن مر ، ثم الى مكة[7] . و (بطن مر) ، قرية كبيرة ، وعلى أربعة أميال منها قبر (ميمونة) زوجة النبي ، وعلى مسافة منها مسجد عائشة ، ومنها يحرم أهل مكة ، وهو حد الحرم[8] .

والجحفة من منازل طريق تجارة مكة الى الشأم ، ولذلك صارت هي والمواضع التي تقع على هذا الطريق من الأهداف التي قصدها المسلمون للتحرش بقوافل

---

١ تاج العروس (٦/٥٣) ، (جحف) .
٢ امتاع الاسماع (١/٥٣) ، الطبري (٢/٤٠٣) .
٣ تاج العروس (٢/٥٣٠) ، (ودد) .
٤ تاج العروس (٢/٥٣٠) ، (ودد) .
٥ تاج العروس (٤/٣٦٧) ، (هرش) .
٦ تاج العروس (٢/٤٦١) ، (قدد) .
٧ المسالك (١٣١) .
٨ قدامة (١٨٧) .

قريش . ومن نواحي الجحفة (ثنية المرة) ، ومنها سار (عبيـدة بن الحارث ابن المطلب) على عير لقريش يحرسها مائتان من المشركين بقيادة (أبو سفيان)، أو غيره وذلك في السنة الأولى من الهجرة ، فالتقى بها على ماء يقال له (أحياء) من بطن (رابغ) على عشرة أميال من الجحفة ، وأنت تريد قديداً عن يسار الطريق[1] .

و (رابغ) وادٍ عند الجحفة قرب البحر بين (البزواء) و (الجُحفة) دون (عزور) ، وقرية لا تزال معروفة . بينها وبين (بدر) خمس مراحل . الأول (قاع البزواء) ، ثم عقبة وادي السويق ، ثم آخر ودان ، ثم شقراء ، ثم رابغ[2] . وهي اليوم قرية ، مياهها عذبة ذات مزارع ونخيل .

وأرسل الرسول سرية أخرى إلى (الخرّار) للتعرض لعير قريش التي كانت تسلك الجحفة ، فلما وصلت (الخرّار) من الجحفة قريباً من (خم) ، وجدت عير قريش قد سبقتها ، ونجت[3] . و (خم) غدير دون الجحفة وقيل بالجحفة[4] .

وعلى مسيرة يوم من (ينبع) ، يقع جبل (رضوى) الذي يبعد سبع مراحل عن المدينة[5] ، ومن نواحي هذا الجبل ناحية (بواط) ، واليها خرج الرسول غازياً معترضاً عير قريش ، التي كانت مارة بهذا المكان . وكانت قافلة كبيرة تتألف من ألفين وخمسمائة بعير ، يحرسها مائة رجل من قريش ، فيها (أمية بن خلف) ، وقد أفلتت القافلة ونجت ، دون أن يقع أي قتال[6] .

وببطن ينبع موضع يقال له : (ذو العشيرة) ، (ذات العشيرة) ، اليه كانت غزوة (العشيرة) (غزوة ذات العشيرة) ، حين بلغ الرسول خبر خروج عير لقريش الى بلاد الشأم ، وقد جمعت قريش أموالها في تلك العير ، ولكن القافلة نجت ، فوصلت سالمة الى بلاد للشأم ، وهي التي خرج الرسول في طلبها

---

١ الطبري (٢/٤٠٢) ، امتاع الاسماع (١/٥٢) .
٢ تاج العروس (٦/١٠) ، (ربغ) .
٣ الطبري (٢/٤٠٣) ، امتاع الاسماع (١/٥٣) ، تاج العروس (٣/١١٣) ، (خرر) .
٤ تاج العروس (٨/٢٨٣) ، (خم) .
٥ تاج العروس (١٠/١٥١) ، (رضو) ، عرام (٣٩٦) .
٦ الطبري (٢/٤٠٥،٤٠٧) ، امتاع الاسماع (١/٥٤) ، تاج العروس (٥/١١٢) ، (باط) .

لما عادت ، وكانت وقعة بدر . فرجع الرسول الى المدينة ، بعد أن صالح (بني مدلج) وحلفاءهم (بني ضمرة)[1] .

ولما هاجر الرسول من مكة الى المدينة سلك به الدليل طريقاً لا تسلكه القوافل، أي طريقاً لا يسلكه المسافرون عادة الى المدينة ، ليتجنب من ملاحقة قريش له . سلك به وبصاحبه (أبي بكر) أسفل مكة ، ثم مضى بهما حتى حاذى بهما الساحل ، وعارض الطريق أسفل من (عسفان) ، ثم سلك بهما على أسفل (أمج) ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعدما جاوز (قديداً) ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما (الخرّار) ، ثم سلك بهما (ثنية المرة) (ثنية المرأة) ، ثم أجاز بهما (مدلجة لقف) (لقف) ، ثم استبطن بهما (مدلجة مجاج) (مجاج) ، طريق يقال له (المدلجة) بين طريق (عمق) وطريق الروحاء[2] . ثم سلك مرجح من مجاج ، ثم بطن (مرجح ذي العضوين) ثم (بطن ذي كشد) (بطن ذات كشد) (ذي كشد) ، ثم أخذ بهما على (الجداجد) ، ثم على (الأجرد) ، ثم سلك بهما (ذا سلم)[3] (ذا سمر)[4] من بطن أعداء (مدلجة تعهن) ، ثم على (العبابيد)،ويقال (العبايب) ويقال (الغيثانة)[5] (العتبانة)[6] ، ثم أجاز بهما (الفاجة) ، ويقال (القاحة)[7] . ثم هبط بهما (العرج) ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج ، فسلك بهما ثنية (العائر)[8] (الغابر)[9] (الأعيار)[10] ، ويقال (ثنية الغائر)[11] ، عن يمين

---

١ الطبري (٢/٤٠٨ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (١/٥٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٤٠٣) ، (عشر) ، (ويقال فيه العشير بغير هاء أيضا) .

٢ الطبري (٢/٣٧٧) ، « لقف » ، نهاية الارب (١٦/٣٣٨) .

٣ سيرة ابن هشام (١/٩) ، (حاشية على الروض) .

٤ المسالك (١٢٩ وما بعدها) .

٥ ابن هشام (١/٩) ، (حاشية على الزوض) .

٦ المسالك (١٢٩ وما بعدها) .

٧ ابن هشام (١/٩) ، (حاشية على الروض) ، المسالك (١٢٩) .

٨ ابن هشام (١/١٠) ، (حاشية على الروض) .

٩ الطبري (٢/٣٧٧) .

١٠ المسالك (١٢٩) .

١١ ابن هشام (١/١٠) ، حاشية على الروض) .

(ركوبة) ، ثم هبط (بطن رئم)[1] (بطن ريم)[2] ، ثم قدم بهما (قباء)، ثم (يثرب)[3] .

ولما سمع الرسول بقدوم (أبو سفيان) مقبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم ، خرج لملاقاتها في موضع (بدر) . وكان بدر طريق ركبان قريش من أخذ منهم طريق الساحـــل الى الشام[4] . فخرج من المدينة على نقب المدينة ، فنزل بالبقع ، ويقال بئر أبي عتبة ، وهي على ميل من المدينة ، ثم اتجه نحو (بيوت السقيا) ، فضرب عسكره هنـــاك . ثم أمر أصحابه ان يستقوا من (بئر السقيا) ، وصلى عنـد بيوت السقيا ، وسلك من السقيا بطن العقيق حتى نزل تحت شجرة بالبطحاء ، ثم سلك (ذي الحليفة) ، ثم على (أولات الجيش) (ذات الجيش) ، ثم على (تربان) ، ثم عـــلى (ملل) ، ثم على (غميس الحمام) من (مريين) ، ثم على صخيرات اليمام، ثم على (السيالة) ، ثم على (فج الروحاء) ، ثم على (شنوكة) ، وهي الطريق المعتدلة ، ثم على (عرق الظبية) (الظبية) ، ثم على (سجسج) ، وهـــي بئر الروحاء ، حتى اذا كان بالمنصرف ، ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على (النازية) بريد (بدراً) ، فسلك في ناحية منها ، حتى جزع وادياً يقال له (وحقان) بين (النازية) وبين مضيق الصفراء ثم على المضيق ثم انصب منه الى (الصفراء) ، وهي قرية بين جبلين ، ثم سلك الى واد يقال له (ذ فران) ، ثم سلك على ثنايا يقال لها (الأصافر) ، ثم انحط منها إلى بلد يقال له (الدبّة) (الدبة) ، وترك (الحنان) بيمين وهو كثيب عظيم كالجبل ، ثم نزل بدراً[5] .

---

١ الطبري (٢/٣٧٧) ، المسالك (١٢٩ وما بعدها) .

٢ ابن هشام (١/١٠) ، حاشية على الروض) .

٣ ابن هشام (١/١٠) ، (حاشية على الروض) ، الطبري (٢/٣٧٧) ، المسالك (١٢٩ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٦/٣٣٨ وما بعدها) .

٤ الطبري (٢/٤٢٢) ، (ذكر وقعة بدر الكبرى) .

٥ ابن هشام (٢/٦٣ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الطبري (٢/٤٣٣ وما بعدها) .

و (السقيا) ، موضع به ماء ، بين المدينة ووادي الصفراء[1] ، يعرف اليوم بـ (أم البرك)[2] .

و (شنوكة) ، جبل جمع على (شنائك) في شعـــر لكثير ، لأنه ثلاث أجبل صغار منفردات من الجبال ، يمر منها الطريق الى بدر والصفراء وإلى النازية ورحقان ، ويدع المنصرف الى يساره[3] . وتقع بين (المنصرف) وبين الروحاء . ولا تزال معروفة[4] .

و (المنصرف) ، موضع يقال له (المسيجد) في الوقت الحاضر ، وهــو قرية كبيرة[5] . وتقع على طريق المدينة المتجه الى (الصفراء) فالساحـــل والذي يتصل بجدة . وهو غير بعيد عن (النازية) . و (النازية) عين ثرة على طريق الآخذ من مكة الى المدينة قرب الصفراء ، وهي الى المدينة أقرب[6] .

و (بدر) أسفل وادي الصفراء ، وهو الى المدينة أقرب ، يقال إنه هــو منها على ثمانية وعشرين فرسخاً ، وبينه وبين (الجار) ، وهو على ساحل البحر ليلة . وبه بئر حفرها رجل من غفار ، اسمه (بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة) وقيل (بدر بن قريش بن يخلـــد بن النضر بن كنانة ، وقيل بدر رجـــل من (بني ضمرة) سكن ذلك الموضع فنسب اليه ، ثم غلب اسمه عليه ، وقيل بدر رجل من جهينة كان يملك البئر فسمّيت به . ولهم تفاسير أخرى من هذا القبيل في تعليل سبب تسمية بدر بدراً[7] . وبدر قرية كبيرة في الوقت الحاضر أسفـــل (وادي الصفراء) ، يتجه منها طريق الى (ينبع) ، ومن ينبع الى مكة[8] .

وكان (أبو سفيان) لما بلـغ (الزرقاء) من بلاد الشأم ، وهو منحدر إلى مكة ، أخبره أحدهم ان محمداً قد كان عرض لعيرهم في بدأتهم ، وانه تركه

---

١ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .
٢ العرب (١٩٦٨) ، (حـ ١١ ص ٩٧٧) .
٣ تاج العروس (٧/١٥١) ، (شنوكة) ، العرب (١٩٦٨) ، (حـ ١١ ص ٩٧٧) .
٤ العرب (١٩٦٨) ، (حـ ١١ ص ٩٧٧) .
٥ العرب (حـ ١١) ، (السنة الثانية) ، (١٩٦٨) ، (ص ٦٢) .
٦ تاج العروس (١٠/٣٦٥) ، (نزا) .
٧ تاج العروس (٣/٣٤) ، (بدر) .
٨ العرب (١٩٦٨) ، (حـ ١١ ص ٩٧٨) .

مقيماً ينتظر رجعتهم ، فخرج خائفاً من الرصد ، فلما بلغ الساحل،أرسل رسولاً استأجره بعشرين مثقالاً ، وأمره أن يخبر قريشاً ان محمداً قد عرض لعيرهم ، فذهب اليهم وأخبرهم ، فتجهزوا وأسرعوا لانقاذ قافلة (أبي سفيان) ، الذي خاف خوفاً شديداً حين دنا من المدينة ، فلما أصبح (أبو سفيان) ببدر ، ضرب وجه عيره فساحل بها ، وترك بدراً يساراً وانطلق سريعاً ، حتى بلغ مكة . وكان أهل مكة قد خرجوا من مكة على طريق (مرّ الظهران) ، ثم (عسفان) ثم (قديد) ، ثم إلى (مناة) من البحر ، ثم (الجحفة) ، ثم (الأبواء) ، ثم (بدر)[1] ، حيث التقوا برسول الله ، فوقعت معركة بدر .

وكانت قريش تأخذ الساحل : ساحل البحر حين تأخذ إلى الشأم[2] . وهو طريقها الى متجرها هناك ، وقد عرف بالمعرقة ، وفيه سلكت عير قريش حين كانت وقعة (بدر) . ومن هذا قول (عمر) لسلمان أين تأخذ إذا صدرت أعلى المعرقة أم على المدينة ؟[3] . ويقع طريق المعرقة بين (عزور) وبين (رضوى) تختصره العرب إلى الشأم والى مكة وإلى المدينة . وهو بين الجبلين[4] .

ومن مواضع هذا الطريق : العيص ، وهو عرض من أعراض المدينة ،وموضع على مقربة من ساحل البحر[5] . ومن (ذي المروة)[6] . وهو موضع على طريق تجارة قريش مع الشأم ، وبه كان عمر طريق الشأم ومصر إلى المدينة ومكة[7] . وإلى سيف البحر ناحية العيص أرسل الرسول (حمزة) ، حين بلغه ان (أبا جهل) قد جاء بعير لقريش من الشأم يريد مكة في ثلاثمائة راكب[8] . فقد كان هذا الموضع من الساحل مسلك قوافل قريش . ولا يزال اسم العيص معروفاً . وفي مقابله (الحوراء) ، مرفأ سفن مصر في القديم[9] .

---

١ امتاع الاسماع (١/٦٦ وما بعدها) ، الطبري (٢/٤٣٧ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٦٣٩) .
٣ تاج العروس (٧/١١) ، (عرق) .
٤ عرام (٣٩٦) .
٥ تاج العروس (٤/٤١١) ، (عيص) .
٦ الطبري (٢/٦٣٩) .
٧ بلاد العرب (٣٩٥،٣٩٦،٤١٣،٤١٤) .
٨ امتاع الاسماع (١/٥١ وما بعدها) ، ابن هشام (٢/٥٦) ، (حاشية على الروض)
٩ تاج العروس (٣/١٦١) ، (حور) .

ولم يذكر علماء السير والأخبار أسماء المراحل التي قطعتها قريش عند زحفها على (أحد) بتفصيل . وكل ما ذكروه أن قريشاً جاؤوا فنزلوا (عينين) بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة [1] . وذكر أنه الجبل الذي أقام عليه الرماة يوم أحد ، ولذلك قيل ليوم أحد يوم عينين [2] . وكانوا قد قدموا من (ذي طوى) على طريق (الأبواء) حيث همت وهي هناك أن تنبش قبر (آمنة) أم النبي . وسلكوا (العقيق) حتى نزلوا ظاهر المدينة [3] . ثم التقوا بالمسلمين عند أحد .

ويظهر من هذه الأسماء ، أن قريشاً سلكت في سيرها على المدينة الطريق المألوف الذي يمر بالأبواء . و (ذو طوى) موضع قرب مكة عرف بالزاهر ، به بئر حفرها (عبد شمس بن عبد مناف)[4] .

ولما سار الرسول للعمرة ، سلك طريق (الفرع) (الفروع) نحو (مر الظهران) ، ثم (بطن يأجج) ، وحبس الهدي بـ (ذي طوى) ودخل مكة من الثنية[5] . و (مر الظهران) ، واد به عيون ومياه ، غير بعيد عن مكة ، وبه (مجنة) ، ويعرف الآن بوادي فاطمة [6] .

وخرج الرسول من المدينة ، فسلك حرة بني حارثة ، ثم (الشوط) بين المدينة وأحد ، ثم (الشيخين) حتى نزل الشعب من (أحد) في عدوة الوادي الى الجبل[7] . ولما عاد الرسول الى المدينة ، بلغه أن (أبا سفيان) كان بموضع (ملل) ، يقرر الرجوع على المسلمين ، وأن رجلاً أخبره أنه رأى (أبا سفيان) بالروحاء ،وهو مجمع مع قريش على السير على المدينة . وسأل الرسول عن موضع قريش فقيل له : إنه بالسيالة ، فخرج من المدينة حتى وصل (حمراء الأسد) فبلغه رجوع قريش الى مكة ، وذهاب شرها فرجع الى يثرب[8] .

---

١ الطبري (٢/٥٠٢) ، (غزوة أحد) .
٢ تاج العروس (٩/٢٩١) ، (عين) .
٣ امتاع الاسماع (١/١١٥ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١٠/٢٢٩) ، (طوى) .
٥ امتاع الاسماع (١/٣٣٧ وما بعدها) ، الطبري (٣/٢٣ وما بعدها) .
٦ بلاد العرب (٢٤،٣٢) .
٧ الطبري (٢/٥٠٤ وما بعدها) .
٨ الطبري (٢/٥٣٤) ، امتاع الاسماع (١/١٦٧ وما بعدها) .

ولما عاد (عمرو بن أمية الضمري) من مكة ، وكان قد وجهه الرسول لقتل أبي سفيان ، خرج إلى (التنعيم) ، ثم أخذ طريق (الصفراء) ، ثم (غليل ضجنان) ، ثم أخذ المحجة ، ثم (النقيع) حتى وصل المدينة [1] . و (التنعيم) على ثلاثة أميال أو أربعة من مكة ، وهو أقرب أطراف الحل إلى البيت ، على يمينه جبل نعيم ، وعلى يساره جبل ناعم ، والوادي اسمه (نعمان)[2] . و (الصفراء) واد بين مكة والمدينة ، وراء بدر مما يلي المدينة [3] . و (ضجنان) غليل يظهر من وصف خبر رجوع (عمرو بن أمية) إلى المدينة ، انه بعد الصفراء ، ذكر انه موضع أو جبل بين مكة والمدينة ، ويظهر ان العلماء كانوا قد اختلفوا في تعيين مكانه[4] . و (النقيع) هو (نقيع الخضمات) الذي حماه (عمر) لنعم الفيء وخيل المجاهدين فلا يرعاها غيرها . وورد في الحديث أول جمعة جمعت في الاسلام بالمدينة في نقيع الخضمات[5] . ويظهر من شعر لمعبد بن أبي معبد الخزاعي ، ان ماء (ضجنان) بعد ماء (قديد)[6] .

ولما سار الرسول على (بني لحيان) ، خرج من المدينة ، فسلك على (غراب) جبل بناحية المدينة على طريقه الى الشأم ، ثم على (مخيض) ، ثم على (البتراء) ثم صفق ذات اليسار ، ثم على (بين) ، ثم على (صخيرات السيام) ، ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة ، حتى نزل على (غُران)، وهي منازل بني لحيان . و (غران) وادٍ بين (أمج) و (عسفان) الى بلد يقال له (ساية) . ثم سار الرسول حتى نزل (عسفان) ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كُراع (الغميم) ، ثم (كرا) ، ثم قفل الرسول راجعاً الى المدينة [7] .

---

١ الطبري (٢/٥٤٣ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٨٤) ، (نعم) .
٣ تاج العروس (٣/٣٣٥ وما بعدها) ، (صفر) .
٤ تاج العروس (٩/٢٦٣) ، (ضجن) .
٥ تاج العروس (٥/٥٣٠) ، (تقع) .
٦ تهوى على دين أبيها الاتلد قد جعلت ماء قديد موعدي
وماء منجنان لها ضحى الغد
الطبري (٢/٥٦٠) .
٧ الطبري (٢/٥٩٥) .

ويظهر من هذا الوصف أن الرسول أراد اعماء خبر غزوته عن (بني لحيان)، فسلك طريق الشأم ، ثم غيَّر اتجاهه ، فتوجه نحو (يين) وصخيرات السيام ، فبلغ الجادة ، ثم أسرع حتى بلغ (غران) ، منازل (بني لحيان) بين (أمج) و (عسفان) . فتكون منازل (بني لحيان) في هذه المنطقة .

ولما سار الرسول على مكة عام الفتح ، سلك طريق (العرج) ، و (العرج) جبل بين مكة والمدينة يمضي الى الشأم[1] ، ووادٍ يقع بين أم البرك ، الموضع المعروف بالسقيا قديماً ، وبين الجيّ ، الوادي الذي يقطعه المسافرون مع طريق السيارات القديم الى (المسيجد)[2] ، وذكر أنه على أربعة أميال من المدينة[3] ، وكان الرسول قد نزل (السقيا) ، وهي (أم البرك) الآن[4] ، وذكر أنه بين المدينة والصفراء ، وفي الحديث أنه كان يستعذب من بيوت السقيا[5] . و (الصفراء) وراء (بدر) مما يلي المدينة[6] . كما مرّ بثنية العقاب[7] وبالأبواء، وبذي الحليفة ، وبالجحفة ، وبالكديد ، وهو موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة بين (عسفان) و (رابغ) ، وقيل بين عسفان وقديد بينه وبين مكة ثلاث مراحل ، أو بين ثنية غزال وأمج[8] . وبـ (قديد)[9] ، وبمر الظهران[10] .

ولما حج الرسول حجة الوداع ، سار من المدينة،فصلى الظهر بـ(ذي الحليفة)، ثم استوى بالبيداء ، ومرّ إلى (القاحة) ، وهو موضع على ثلاث مراحل من

---

١ المسالك (١٧٢) .
٢ بلاد العرب (٢٩،٣٣٨) .
٣ تاج العروس (٢/٧٢) ، (عرج) .
٤ بلاد العرب (٢٩،٣٣٠،٣٩٦) .
٥ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .
٦ تاج العروس (٣/٣٣٥) ، (صفر) .
٧ الطبري (٣/٥٢) .
٨ تاج العروس (٢/٤٨٣) ، (كد) .
٩ تاج العروس (٢/٤٦١) ، (قد) .
١٠ امتاع الاسماع (١/٣٥٧ وما بعدها) ، الطبري (٣/٤٢ وما بعدها) ، (ذكر الخبر عن فتح مكة) .

المدينة وعلى ميل من (السقيا) ، وهو بين (الجحفة) و (قديد)[1] . ثم سار إلى (ملل) (يلملم)[2] ، وهو موضع به آبار ، على مسافة اثني عشر ميلاً من (الشجرة)[3] ، أو سبعة عشر ميلاً من (المدينة) ، وقيل عشرين ميلاً[4] ، ثم شرف السيالة ، وهو موضع بين (ملل) و (الروحاء) في طريق مكة[5] ، ثم (عرق الظّبية) بين (الروحاء) و (السيالة) ، وهو دون (الروحاء) ، ثم نزل (الروحاء) ، ثم راح من (الروحاء) فصلى العصر بالمنصرف[6] . و (المنصرف) على أربعة بُرُد من (بدر) مما يلي (مكة)[7] ، وصلى المغرب بالمُتعشى وتعشى به ، وصلى الصبح بالأثاية . و (أثابة) بطريق (الجحفة) إلى مكة ، فيه مسجد نبوي ، قيل بينه وبين المدينة خمسة وعشرون فرسخاً ، أو بئر دون العرج[8] . وأصبح بالعرج يوم الثلاثاء[9] .

ونزل (السقيا) يوم الأربعاء ، وأصبح بالأبواء ، ثم راح إلى (الجحفة) ، ثم راح منها إلى (قديد) ، ثم (عسفان) ، ثم (الغميم) . ثم (مر الظهران) ، ثم نزل موضع (سرف) . ولما انتهى الى (الثنيتين) بات بينهما ، بين (كداء) و (كدى) ، ودخل مكة من (كداء)[10] .

وأما الطريق من مكة الى الطائف ، فمن مكة الى بئر ابن المرتفع ، ثم الى قرن المنازل ، وهي ميقات أهل اليمن والطائف ، ثم الى الطائف ، ومن أراد من مكة الى الطائف على طريق العقبة يأتي عرفات ، ثم بطن نعمان ، ثم يصعد عقبة حراء ، ثم يشرف على الطائف ويهبط ويصعد عقبة خفيفة ، تسمى (تنعم

---

١ تاج العروس (٢/ ٢١٠) ، (قاح) ، امتاع الاسماع (١/ ٥١٢) ، (حاشية رقم ٣) .
٢ « يلملم » هكذا في امتاع الاسماع (١/ ٥١٣) ، وهو خطأ ، فـ « يلملم » ميقات أهل اليمن ، والصواب « ملل » .
٣ المسالك (١٣٠، ١٨٧) .
٤ تاج العروس (٨/ ١٢٠) ، (ملل) .
٥ تاج العروس (٧/ ٣٨٥ وما بعدها) ، (سال) ، (٦/ ١٥٢) ، (شرف) .
٦ امتاع الاسماع (١/ ٥١٣) .
٧ تاج العروس (٦/ ١٦٥) ، (صرف) .
٨ تاج العروس (١٠/ ١٠) ، (أثى) .
٩ امتاع الاسماع (١/ ٥١٣) .
١٠ امتاع الاسماع (١/ ٥١٦ وما بعدها) .

الطائف) ، ثم يدخل الطائف[1] .

وبين مكة والطائف ، موضع يقال له (بطن نخلة) (نخلة)[2] ، اليه أرسل الرسول (عبدالله بن جحش) على رأس سرية ، ليرصد بها عير قريش . فسلك على الحجاز ، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له (بحران) سلك طريقه نحو (نخلة) حتى بلغها ، فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش وخمراً ، فاستولت على العير وأخذت أسيرين ممن كان يحرس العير ، ورجعت الى المدينة . وذكر أن (عبـــدالله بن جحش) كان يحمل كتاباً من الرسول ، يعين له الهدف ، أمره ألا يفتحه إلا بعد أن يسير ليلتـين ، فلما سار وصار ببطن (ملل) أو عند (بئر ابن ضميرة) فتح الكتاب ، فإذا فيه أن يذهب الى (بطن نخلة) ليتحسس أخبار قريش[3] .

وقد سلك أهل مكة في ذهابهم إلى اليمن وفي إيابهم منها جملة طرق ، منها ما تمرّ بالساحل ، ومنها ما تمر شرقاً عنه. ومن هذه الطريق : طريق يبدأ بمكة ، ثم إلى (قرن المنازل) ، قريـــة كبيرة ، وهو ميقات أهل اليمن والطائف ، واسم واد[4] . ثم إلى (الفتق)[5] ، وهو قرية ، ثم إلى (صفن) (صفر) (صقر) ، ثم إلى (تربة) ، ثم إلى (كرى) (كرا) (كدا) (كدى) ، ثم إلى (رنية) ، ثم إلى (تبالة) ، ويرد اسمها في تأريخ (الحجاج) ، فقد استعمل عبد الملك (الحجاج) عليها ، فلما أتاها استحقرها ولم يدخلها ، فقيل : « أهون من تبالة على الحجاج »[6] . ثم إلى (بيشة بعطان) ، ثم إلى (جسداء) ، ثم إلى (بنات حرب) (بنات حرم) ، ثم إلى (يبمبم) ، وهو منزل في صحراء فيه بئر واحدة عذبة ، وليس به أهل ، وحوله أعراب من خثعم ، وبينه وبين

---

١ المسالك (١٣٤) ، قدامة (١٨٧ وما بعدها) .

٢ وقد ذكر في شعر لامرىء القيس :

فريقان منهـم سالك بطن نخلة ... واخر منهم جازع نجـد كبكـب

تاج العروس (١٣١/٨) ، (نخل) .

٣ الطبري (٤١٠/٢ وما بعدها) ، ابن هشام (٥٩/٢) ، (حاشية على الروض) ، امتاع الاسماع (٥٥/١ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٣٠٦/٩) ، (قرن) ، صبح الاعشى (٤٣/٥) .

٥ تاج العروس (٤١/٧) ، (فتق) .

٦ تاج العروس (٢٣٩/٧) ، (تبل) .

(جرش) نحو أربعة عشر ميلاً ، ومنه إلى (كتنة) (كثبة) ، ثم إلى (الثجة) ، ثم (سروم راح) (شروم راح) ، ثم إلى (المهجرة) ، وفيما بين (سروم راح) والمهجرة طلحة الملك ، شجرة عظيمة تشبه الغرب ، غير انها أعظم منه ، وهي الحد ما بين عمل مكة وعمل اليمن[1] . وكان النبي حجز بها بين اليمن ومكة[2] .

ومن (المهجرة) يتجه الطريق الى (عرقة) ، وهو أول عمل اليمن ، ثم الى (صعدة) ، وهي مدينة يدبغ فيها الأدم ، واشتهرت بالنعل[3] . ولصعدة مخاليف ، وقرى كثيرة . وقد ذكر (قدامة) أن أكثر تجار (صعدة) من أهل البصرة ، وطريق منها للبصريين يرجع الى (ركبة) (الركيبة) . مما يدل على أن التجارة كانت متينة بين أهل اليمن وبين أهل البصرة في الإسلام . ومن يدري ، فلعل هذه التجارة تعود الى ما قبل تأسيس البصرة ، أي الى ما قبل الإسلام .

ومن صعدة ، يتجه الطريق الى (الأعمشية) ، ومن الأعمشية الى خيوان ، قرية جبلية الماء من السماء ، وفيها كروم ، ومن خيوان الى (اثافت) ، وهي قرية عظيمة وفيها زروع وكروم ، وماء الشرب من بركة[4] . ثم الى صنعاء)[5] .

والطريق المذكور ،هو الطريق الذي عليه الأميال ، وهو طريق العوامل والعمال[6] . فهو الطريق المسلوك الذي يمر به البريد .

وذكر العلماء أن أهل (صنعاء) كانوا إذا أرادوا مكة قصدوا (الرحابة) ، ثم الى (رافدة) ، ثم الى (خيوان) ، ثم الى (صعدة) ، ثم الى (النضح) ، ثم (القصبة) ، ثم (الثجة) ثم كثبة ، (كتنة) ، ثم بنات حرم (بنات حرب) ثم جسداء ، ثم بيشة ، ثم تبالة ، ثم رنية ، ثم الزعراء ، ثم صفر ، ثم الفتق ، ثم بستان ابن عامر ، ثم مكة[7] .

---

١ المسالك (١٣٤ وما بعدها) .
٢ قدامة (١٨٩) .
٣ المسالك (١٣٥) ، تاج العروس (٣٩٨/٢) .
٤ المسالك (١٣٦) ، قدامة (١٨٩) ، صبح الاعشى (٤٣/٥ وما بعدها) .
٥ المسالك (١٣٦) .
٦ قدامة (١٩٠) .
٧ قدامة (١٩٢) ، الصفة (١٨٦) .

و (تربة) بناحية (العبلاء) ، على أربع ليال من (مكة) طريق صنعاء ونجران . واليها أرسل الرسول (عمر بن الخطاب) على رأس سرية في شعبان سنة سبع . وأصحابها من (عجز هوازن)[1] .

وذكر (الهمداني) محجة (صنعاء) إلى مكة على هذا النحو : ريدة ، ومنها إلى (أثافت) ، ثم خيوان ، ثم العمشية ، ثم صعدة ، ثم إلى (العرقة) ، في المحجة اليسرى القديمة ، ثم بقعة في المحجة اليمنى المحدثة ، ثم إلى مهجرة ، ثم إلى أرينب ، ثم سروم الفيض ، ثم إلى الثجة ، ثم الى كتنة،ثم الى المجيرة، ثم الى يبَنبم ، ثم الى بنات حرب ، ثم الى الجسداء ، ثم الى بيشة بعطان ، ثم تبالة ، ومنها الى كرى ، ثم تربة ، ثم الى الصفن ، ثم الفتق ، ثم الى رأس المناقب ، ثم قرن المنازل ، ثم رمة ، ثم الزيمة ، ثم مكة[2] .

وذكر (الهمداني) ان هنالك طريقاً يمر بتهامة ، هو محجة صنعاء الى مكة. فقال : « من صنعاء صليت من البون ، ثم المربد ، ثم أسفل العرقة وأخرف ، ثم الصرجة ، ثم رأس الشقيقة ، ثم حرض ، ثم الحصوف من بلد حكم ثم الجوينية من قنونا وتسمى القناة ، ثم دوقة وهي للعبديين من بقايا جرهم ، ثم الى السّرين ، ثم المعجر ، ثم الحيال ، ثم الى يلملم ثم ملكان ثم مكة . هذه طريق الساحل » . « والمحجة القديمة ترتفع الى حلي العليا وتسمى حلّية ، واليها ينسب أسود حلية ... ثم الى عشم ، ثم على الليث ومركوب الى يلملم »[3] .

وأما محجة (عدن) ، فمن عدن الى المخنق ، ومن المخنق الحُجار ، ومن الحجار المسيل ، ومن المسيل عبرة ، ومن عبرة الى كهالة ، بئر ذي يزن ، ومن كهالة الماجلية ، ثم المقعدية ، ثم الى زبيد ، ثم الى المعقر ، ثم الكدراء ، ثم المهجم ، وبالمهجم تفضى محجة صنعاء على وادي سهام ، ثم بلحة من وادي مور ، ثم الحسارة ، ثم العباية ، ثم الشرجة ، ثم العُرش ، ثم عثر[4] .

وذكر (ابن خرداذبه) طريقاً ساحلياً ربط (عمان) بمكة ، وهو الطريق الذي سلك في الإسلام . وقد كان جاهلياً ولا شك، لأن الجاهليين والروم وغيرهم كانوا يساحلون العربية الغربية والجنوبية والشرقية ، ويهبطون بعض المواضع التي

---

١ امتاع الاسماع (١/٣٣٣) ، تاج العروس (١/١٥٩) ، (ترب) .
٢ الصفة (١٨٦ وما بعدها) .
٣ الصفة (١٨٨) .
٤ الصفة (١٨٨) .

يذكرها المسلمون كمراحل لهذا الطريق . ويبدأ الطريق بعمان ، ثم يمر الى (فرق)، ثم الى (عوكلان) ، ثم الى ساحل (هباه) (هماه) ، ثم الى (الشحر)، وهي بلاد (الكندر)[1] ، ثم الى مخلاف (كندة) ، ثم الى مخلاف (عبدالله بن مذحج) ، ثم الى مخلاف (لحج)[2] ، ثم الى (عدن أبين) ، ثم الى (مغاص اللؤلؤ) ، ثم الى (مخلاف بني مجيد) ، ثم الى (المنجلة) ، ثم الى مخلاف الركب ، ثم الى المندب ، ثم الى مخلاف زبيد ، ثم الى غلافقة ، ثم الى مخلاف علك ، ثم الى الحردة ، ثم الى مخلاف حكم ، ثم الى عثر ، ثم الى مرسى ضنكان ، ثم الى مرسى حلي، ثم الى السرين ، ثم الى أغيار ، ثم الى الهرجاب، ثم الى الشعيبة ، ثم الى منزل لم يذكر (ابن خرداذبه) اسمه ، ثم الى (جدة) وهي اسلامية ، لم تكن في الجاهلية ، وإنما ذكرت هنا ، لأن هذا الطريق ، كان يسلك في الاسلام ، ومن جدة الى مكة[3] .

ويوجد طريق بري بين مكة وحضرموت يمر بـ (نجران) و (الضحيان) و (تثليث) ، وهو طريق مختصر يكون الجادة الى حضرموت[4] .

وذكر (الهمداني) ان محجة حضرموت من العبر الى الجوف ، ثم صعدة ، وتنضم معهم في هذه الطريق أهل مأرب ، وبيحان ، والمشروين ، ومرخة ، وهذه محجة حضرموت العليا . وأما محجتها السفلى ، فن العبر في شثز صيهد الى نجران ، ثم من نجران حبونن ، ثم الملحات ، ثم لوزة ، ثم عبالم ثم مريع ، ثم الهجيرة ، ثم تثليث ، ثم جاش ، ثم المصامة ، ثم مجمعة ترج ، والتقت بمحجة صنعاء بتبالة[5] .

---

١ قال الشاعر :

اذهب الى الشحر ودع عمانا الا تجد تمرا تجد لبانا

المسالك (١٤٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٢٩٣) ، (شجر) .

٢ « ولحج بفتح فسكون بعدن أبين . سمى بلحج بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميع بن حمير بن سبأ » ، تاج العروس (٢/٩٤) .

٣ المسالك (١٤٧ وما بعدها) ، قدامة (١٩٢ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٥/٥٧) .

٤ تاج العروس (١٠/٢١٧) ، (ضحا) .

٥ الصفة (١٨٨ وما بعدها) .

الفصل الرابع بعد المئة

الاسواق

والسوق المحل الذي يتسوق منه . وهي إما ثابتة مع أيام السنة ، يبيع فيها الباعة ويقصدها المشترون للشراء ، وإما موسمية ، تعقد في مواسم معينة ، فإذا انتهى الموسم رفعت . ويقال للسوق القسيمة كذلك[1] .

وتكون الأسواق الثابتة في مواضع السكن ، كالقرى والمدن والمستوطنات، أي بين (الحضر) ، حيث القرار والاستقرار والإقامة ، فيجلس الناس في السوق يبيعون ما عندهم من سلع ، يبسطونها على الأرض ، أو على (الدكة) المبنية للجلوس عليها ، ولعرض البضاعة فوقها ، أو على مائدة أو ما شابه ذلك، وهم من صغار الباعة ممن لا تكون عندهم سلع كثيرة . أما الباعة الكبار فيجلسون في (حوانيت) ، وهي (الدكاكين) ، يبيعون فيها سلعهم التي توضع فيها ، ولها أبواب ، فإذا انتهوا من البيع ، أغلقوها ليعودوا اليها في اليوم الثاني . ويقال للحانوت (المبيعة) كذلك .

ولم يكن كل الباعة يملكون حوانيتهم ، أو ما يعرضونه من سلع للبيع . فبينهم

---

١ « والقسيمة ، وهي السوق ايضا » ، القاموس (١٦٥/٤) ، والقسيمة كسفينة ، وبه يفسر قول عنترة :

وكان فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها اليك من الفم

وعلى قول ابن الاعرابي أصله القسمة فاشبع الشاعر ، ضرورة . وهي السوق » ، تاج العروس (٢٧/٩) ، (قسم) .

من كان يشتغل لغيره ، كأن يكون مملوكاً ، أقامه سيده في (مبيعته) ، ليبيع عنه ، وليأتي بثمن ما باعه اليه ، ومنهم من كان أجيراً اتفق مع صاحب الحانوت ومالكه على أن يشتغل عنده في مقابل أجر يقدمه اليه ، فهو لا ينال من الدكان إلا أجر عمله .

والبيع في العربية من الأضداد ، يقال : باع فلان اذا اشترى ، وباع من غيره . والبائع هو كل من البائع والمشتري ، والبياعة : السلعة ، والتبايع المبايعة ، والبيعة الصفقة على ايجاب البيع وعلى المبايعة ، والمبيعة الدكان ، أي موضع البيع[1] .

وقد تخصص بعض الجاهليين في عمله ، فنهم من كان حدّاداً ، حرفته معالجة الحديد ، ومنهم من كان نجاراً ، ومنهم من كان بزّازاً ، ومنهم من كان عطّاراً ، ومنهم من كان (جزاراً) حرفته (الجزارة) . وقد يجتمع صنف واحد من الباعة في مكان واحد ، يكوّنون سوقاً خاصة بهم ، فتسمى سوقهم باسم ذلك الصنف .

وهناك مصطلحات تطلق على السوق من حيث الرواج والكساد . فإذا نشطت السوق وراج عمل أصحابها قيل نفقت السوق[2] ، واذا كسدت قيل انحمقت[3] .

و (الصفقة) البيعة . يقال صفقة رابحة وصفقة خاسرة ، أي بيعة . وإنما قيل للبيعة صفقة ، لأنهم إذا تبايعوا تصافقوا بالأيدي ، ويقال لمن لا يشتري شيئاً إلا ربح فيه : إنه لمبارك الصفقة . والصفقة تكون للبائع والمشتري . والصفق التبايع . وفي حديث (ابن مسعود) صفقتان في صفقة ربا ، أراد بيعتان في بيعة ، وهو على وجهين ، أحدهما أن يقول البائع للمشتري بعتك عبدي هذا بمائة درهم على أن تشتري مني هذا الثوب بعشرة دراهم ، والوجه الثاني أن يقول بعتك هذا الثوب بعشرين درهماً على أن تبيعني سلعة بعينها بكذا وكذا درهماً[4] .

و (الصفاق) الكثير الأسفار والتصرف في التجارات[5] .

---

١ تاج العروس (٥/٢٨٤ وما بعدها) ، (بيع) .
٢ القاموس (٣/٢٨٦) ، تاج العروس (٧/٧٩) .
٣ القاموس (٣/٢٢٤) ، تاج العروس (٦/٣٢٤) .
٤ تاج العروس (٦/٤٠٩) ، (صفق) .
٥ تاج العروس (٦/٤٠٩) ، (صفق) .

وقد يشهد الأسواق للتجارة قوم لا رأس مال عندهم ولا نقد لديهم ، فإذا اشترى التجار شيئاً دخلوا معهم فيه . ويقال لهؤلاء : (الصعافقة)[1] .

وقد ترد التجارة من الخارج لبيعها في السوق . ويقال للذين يجلبون الإبل والغنم للبيع الأجلاب والجلب . وذكر ان الجلب ما يجلب من إبل وغنم وخيل ومتاع وسبي . وفي المثل : النفاض يقطر الجلب ، أي اذا نفض القوم ، بمعنى نفدت أزوادهم قطروا إبلهم للبيع ، كالجليبة و (الجلوبة)[2] . ويقال لموضع بيع النعم : (المربد)[3] .

وتمتار القبائل ميرتها من أسواق الحضر ، والميرة الطعام يمتاره الانسان، وجلب الطعام . فكان رجالها يقصدون الأسواق في المواسم وعند الحاجة لشراء ما فيها من طعام يحتاجون اليه ، ومن حاجيات أخرى يحتاجون اليها،ثم يعودون الى منازلهم . و (الميار) جالب الميرة ، ويقال للرفقة التي تنهض من البادية الى القرى لتمتار (ميارة)[4] .

و (السواقط) الذين يردون اليمامة لامتيار التمر ، و (السقاط) ما يحملونه من التمر[5] .

ويقال لكل سوق يجلب اليها غير ما يؤكل من حر الطيب والمتاع غير الميرة (لطيمة) . والميرة لما يؤكل . وذكر أن اللطيمة سوق فيها أوعية من العطر ونحوه ، وربما قيل لسوق العطارين لطيمة[6] .

ويقال للإبل التي تخرج ليجاء عليها بالطعام (ركاباً) ، حين تخرج وبعدما تجيء . وتسمى عيراً على هاتين المنزلتين . والتي يسافر عليها الى مكة أيضاً ركاب تحمل عليها المحامل والتي يكترون ويحملون عليها متاع التجار وطعامهم كلها ركاب ، ولا تسمى عيراً ، وإن كان عليها طعام إذا كانت مؤاجرة بكرى . وليس العير التي تأتي أهلها بالطعام ولكنها ركاب . ويقال زيت ركابي ، لأنه

---

١ تاج العروس (٦/٤٠٧) ، (الصعفوق) .
٢ تاج العروس (١/١٨٤) ، (جلب) .
٣ تاج العروس (٢/٣٤٩) ، (ربد) .
٤ تاج العروس (٣/٥٥٢) ، (ماير) .
٥ تاج العروس (٥/١٥٦) ، (سقط) .
٦ تاج العروس (٩/٦٠) ، (لطم) .

يحمل من الشأم على ظهور الإبل[1] .

ويباع في الأسواق كل شيء : سلع مختلفة الأصناف والألوان ومنها البشر والحيوان . وقد ذكر العبيد والإماء مع الحيوانات في بعض الأوامر والأنظمة التي أصدرها الملوك في تنظيم البيع والشراء ، وفي كيفية جباية حصة الحكومة من البيع والشراء ، كما في هذه الجملة المقتبسة من أمر ملكي أصدره الملك (شمر يهرعش ملك سبأ وذي ريدان) في تنظيم التجارة والجباية : « بن انسم وابلم وثورم وبعرم وشامت بمنمو ذ يشامتم عبدم فعو امتم وبعرم »[2] . ومعناها : « من انس (بشر) وإبل وثيران وبعر تشتري . ومن يشتري عبداً أو أمتاً أو بعراً » . فذكر (انسم) أي (انس) وذكر بعدهم الإبل والثيران والبعر وغير ذلك . وكيف يميز بين الانسان والحيوان ، والانسان في ذلك الوقت سلعة ، مثل سائر السلع تباع وتشترى ، ليكون عبداً وخادماً ومملوكاً لمشتريه !

والبضاعة ، القطعة من مال يتجر فيه . وأبضعه البضاعة أعطاه اياها[3] . وهي من الألفاظ التجارية التي لا زالت رائجة جارية على كل لسان في الأسواق .

ويقال لثمن الشيء : (القيمة) ، وهو ثمن الشيء بالتقويم . وقومت السلعة ثمّنتها . ويقول أهل مكة : (استقمتها) ، أي ثمّنتها ، ويقولون استقمت المتاع ، أي قوّمته[4] .

و(العينة) خيار المال . وعين التاجر ، إذا باع من رجل سلعته بثمن معلوم الى أجل معلوم ثم اشتراها منه بأقل من ذلك الثمن الذي باعها به . وقد كره العينة أكثر الفقهاء وروى فيها النهي[5] .

وقد كانت بالقرى والمدن أسواق محلية ، فكان بمكة والمدينة أسواق بها مبيعات. ويظهر أن (ملأ) القرى كانوا يشرفون عليها ويأخذون ضرائب البيع والشراء منها . وقد ورد أن (عمر) استعمل على سوق المدينة (السائب بن يزيد) وسليمان بن أبي خيثمة وعبدالله بن عتبة بن مسعود[6] . ولم تشر الرواية الى الأعمال

---

١ تاج العروس (٢٧٧/١) ، (ركب) .

٢ REP. EPIGR. 3910.

٣ تاج العروس (٢٧٩/٥) ، (بضع) .

٤ تاج العروس (٣٦/٩) ، (قوم) .

٥ تاج العروس (٢٩١/٩) ، (عين) .

٦ الاصابة (١٢/٢) ، (رقم ٣٠٧٧) .

التي أناطها (عمر) بهؤلاء . ولكني لا استبعد احتمال كون هذا التعين استمرار لعادة قديمة كانت متبعة بيثرب قبل الإسلام ، لمراقبة السوق ، ولمنع التلاعب به وأخذ الحقوق من التعامل بالسوق .

أسواق العرب الموسمية :

وللعرب أسواق يقيمونها شهور السنة وينتقلون من بعضها الى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من حاجة الى بيع أو شراء[1] . وتقع هذه الأسواق في مواضع مختلفة متناثرة من جزيرة العرب . فهي إذن أسواق عربية . وهنالك أسواق أخرى قصدها العرب للاتجار في مواسم وفي أوقات مختلفة ، كانت خارج جزيرة العرب ، في العراق أو في بلاد الشام أو في الحبشة ، وقد كان العرب يقصدونها أيضاً للاتجار والامتيار .

وقد ذكر (اليعقوبي) ، ان أسواق العرب كانت عشرة أسواق يجتمعون بها في تجاراتهم ويجتمع فيها سائر الناس ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم[2] . ويظهر من قول (اليعقوبي) هذا من انهم كانوا يأمنون فيها على دمائهم وأموالهم أثناء التقائهم بها . ان من دين أهل الجاهلية ، اعتبار هذه الأسواق أماكن حرماً ، يأمن الانسان فيها دمه وماله ما داموا في ضيافة السوق وحرمته . ولهذا كان لكل سوق (قومة) يقومون بأمر السوق وبالمحافظة على الأرواح والأموال فيه . فقد « كان في العرب قوم يستحلون المظالم ، إذ حضروا هذه الأسواق ، فسمّوا (المحلّون)[3] . وهؤلاء (المحلون) ، هم مثل (المحلون) الذين كانوا لا يقيمون وزناً لحرمة (الحرم) و (الحرمات) ، مثل حرم مكة ، ولا يقيمون للأشهر الحرم قدراً ، فكانوا يعتدون فيها وفي كل شهر ، ولذلك قيل لهم (المحلون) .

---

١ بلوغ الارب (١/٢٦٤) ، المرزوقي ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١ وما بعدها) ، المفضليات (٢٠٨) ، البكري ، معجم (٣/٩٥٩) ، النقائض (١/١٣٩) ، العقد الفريد (٥/٢٠٨) ، البيان والتبيين (٣/١٠٠) ، الاغاني (٥/٢٣) ، (١١/٨٢،٦) ، (١٢/١٦) ، (١٥/٢٤٠) ، أسد الغابة (٢/٢٢٤) ، الاغاني (١٤/١٤٥) .

٢ اليعقوبي (١/٢٣٩) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

٣ اليعقوبي (١/٢٤٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

ومن المحلّين قبائل من أسد وطيء وبني بكر بن عبـــد مناة بن كنانة وقوم من بني عامر بن صعصعة[1] .

ولحماية الأسواق والمجتمع من (المحلّين) ، الذين أباحوا لأنفسهم استحلال المظالم ، ظهر قوم من أهل المروءة والمعروف ، تواصوا فيما بينهم على ردّ السفيه عن سفهه والغاوي عن غيّه،ونصبوا أنفسهم حماة على الأسواق ، يحملون سلاحهم فيها في الأشهر الحلّ وفي الأشهر الحرم للذود عن الحرمات . وقد عرف مثـــل هؤلاء بـ (الـــذادة المحرمون) . وقد تحدث عنهم (اليعقوبـي) ، فقال : « وكان في العرب قـــوم يستحلّون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق ، فسمّوا المحلّون ، وكـــان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، فيسمون : الـــذادة المحرمون . وأما المحلّون ، فكانوا قبائل من أسد وطيء وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة وقوم من بني عامر ابن صعصعة . وأمـــا الذادة المحرمون ، فكانوا من بني عمرو بن تميم ، وبني حنظلة بن زيد منـــاة ، وقوم من هذيل ، وقوم من بني شيبان وقوم من بني كلب بن وبرة . فكانوا هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس ، وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم »[2] .

والذود في اللغة السوق والطرد والدفـع . فالذادة هـــم المدافعون الذابون عن المظلومين ، والواقفين أمام الظالمين . وقد ورد (ذادة) بمعنى يذودون عن الحرم[3] .

ولم تكن هذه الأسواق محصورة في موضع معين ، انما كانت تعقد في مواضع مختلفة متعددة من جزيرة العرب . وقد خصصت في الغالب بامتيار الأعراب وبشراء ما عندهم من سلع فائضة عليهم . ولا يستبعد بالطبع ورود التجار الأجانب اليها من غير العرب:فقد كان الروم مثلاً يتوغلون الى مسافات بعيدة في هذه الأرضين الشاسعة للبيع والشراء .

وبحكم ورود أناس الى هذه الأسواق لا يسهل الاجتماع والاتصال بهم في الأوقات الأخرى ، فقد قصدها أناس من أماكن بعيدة بحثاً عن طلب أو ترويجاً لرأي ،

---

١ اليعقوبي (١/٢٤٠) ، العقد الفريد (٢/٢٠٦) ، البيان والتبيين (٣/١٠٠) .
٢ اليعقوبي (١/٢٤٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) .
٣ تاج العروس (٢/٣٤٧) ، (ذود) .

فقصدها المبشرون للاتصال بالقبائل وللتأثير في بعض أفرادها لادخالهم في دينهم . وفي كتب السير : ان الرسول نفسه كان يخرج في المواسم ، لعرض نفسه على القبائل ، ولهدايتهم الى الاسلام .

ومن أشهر أسواق العرب عند ظهور الإسلام : (سوق دومة الجنـــدل) ، و (سوق هجر) ، و (سوق عمـان) ، و (سوق المشقر) ، و (سوق عدن أبين) ، و (سوق صنعاء) ، و (سوق حضرمـــوت) ، و (سوق ذي المجاز) ، و (سوق مجنة) ، و (سوق عكاظ) ، و (سوق حباشة) ، و (سوق صحار) ، و (سوق بدر)[1] ، و (سوق بني قينقاع) ، و (سوق الشحر) ، و (سوق عـــثر) ، وأسواق محلية أخرى تأتيها القبـــائل والعشائر للامتيار. وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن أسواق العرب الكبيرة كانت في الجاهلية ثلاث عشرة سوقاً ، وأولها قياماً دومة الجندل[2] .

وذكر (الهمداني) ، أن من أسواق العرب القديمة : عدن ، ومكة ، والجند ، ونجران ، وذو المجاز ، وعكاظ ، وبدر ، ومجنة ، ومنى ، وحجر اليمامة ، وهجر البحرين[3] . وسوق (همل) من الخارف ببلد حاشد[4] . وهناك أسواق أخرى عديدة وردت أسماؤها عرضاً في روايات أهل الأخبار .

أما (دومة الجندل) ، فكانوا ينزلونها أولّ يوم من شهر ربيـــع الأول ، يجتمعون في أسواقها للبيع والشراء والتبادل . وكان أكيدر صاحب دومـة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم ، وتدوم سوقهم الى نصف الشهر . وكان (أكيدر) يعشر الناس ، . وربما يتولاها بنو كلب الذين يأتونهـم متأخرين ، فيتولونها ، وتدوم عندئذ الى آخر الشهر ، ويتولون هم حينئـذ تعشير الناس[5] . ويعرف البيـــع فيها بـ (بيـــع الحصاة) ، وهو نوع من أنواع المقامرة أبطله

---

١ الطبري (٢٧٦/٢) ، صبح الاعشى (٤١٠/١ وما بعدها) .
٢ المرزوقي ، الازمنة والامكنة (١٦١/٢) .
٣ الصفة (١٧٩ وما بعدها) .
٤ الصفة (١١٣) .
٥ البلدان (١٠٦/٤ وما بعدها) ، (٦٢٨/٢ وما بعدها) ، « طبعة طهران » « سنة ١٩٦٥ » ، اليعقوبي (٢٢٦/١) « طبعة النجف » ، ابن خلدون (٢ ، القسم الاول ص ٧٧٣) « بيروت ١٩٥٦ م » .

الاسلام[١] . وكانت تقصدها قبائل الشأم والحجاز والأقسام الشمالية والغربية من أعالي نجد ، وتقيم بالقرب منها كلب وجديلة طيء .

وكان الذي يشرف على هذه السوق سادات العرب من كلب أو من غسان ، يتنافسون عليها ويتزايدون ، فأي الحيين فاز ، خضع ودان له الآخر . وكان مكس هذه السوق لمن يتولى الاشراف عليها . وهم جميعاً يأخذون الاذن بالإشراف على السوق من الملك الذي يحكم الموضع في ذلك الوقت[٢] . وكان الإشراف على هذه السوق عند ظهور الاسلام بين (الأكيدر) وبين (قنافة الكلبي) الذي كان ينافسه على الملك[٣] .

وذكر (ابن حبيب) انه « كان لكلب فيها قُنّ كثير في بيوت شعر ، فكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء ويأخذون كسب أولئك البغايا ، ولما كان الاسلام حرم هذه العادة بالآية : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا »[٤] .

ودومة الجندل في غائط من الأرض خمسة فراسخ ، ومن مغربه عين تثج فتسقي ما به من النخل والزرع ، ودومة ضاحية بين غائطها واسم حصنها مارد[٥]. وهو حصن قديم ، ورد ذكره في الشعر الجاهلي وفي كتب الأدب . وقد اكتسب شهرة كبيرة بين الجاهليين حتى ضربوا به وبـ (الأبلق) حصن السموأل المثل في العزّ والمنعة ، فقالوا : « تمرد مارد وعز الأبلق » ، قالوا : قصدتهما الزباء فعجزت عن قتالها ، فقالت : « تمرد مارد وعزّ الأبلق » ، وذهب مثلاً لكل عزيز ممتنع[٦] . ويظهر أن حصن (مارد) كان من الحصون الحصينة القديمة التي

---

١ بلوغ الارب (١/٢٦٤ وما بعدها) ، المسعودي ، التنبيه (٢١٤) ، الطبري (٢/٥٧٨) « مطبعة الاستقامة » ، تاريخ الخميس (٢٠/١ وما بعدها) ، فتوح البلدان (١/٦٨ وما بعدها) . جمهرة أنساب العرب (٤٠٣) ، فتوح البلدان (٢٢٣) « دار النشر للجامعيين . بيروت ١٩٥٧ » .

٢ البلدان (٤/١٠٦) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦١ وما بعدها) ، المحبر (٢٦٤) ، البكري (٢/٥٦٤ وما بعدها) ، مراصد الاطلاع (٢/٥٤٢ وما بعدها) ، التاريخ الكبير (١/٨٩ وما بعدها) ، المسالك والممالك (١١٥) الكامل (٢/١٩٢) ،

٣ الازمنة والامكنة (٢/١٦١) .

٤ النور ، الرقم ٢٤ ، الآية ٣٣ ، المحبر (٢٦٤) ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١ وما بعدها) ، البلدان (٤/١٠٦) .

٥ تاج العروس (٨/٢٩٧) ، (دوم) .

٦ تاج العروس (٢/٥٠٠) ، (مرد) .

بنيت بـ (الجندل) ، أي الحجر[1] .

ولم تكن دومة الجندل سوقاً يقصدها التجار في موسم واحد معين ، بل كانت مفرقاً مهماً من مفارق الطرق ، وموضعاً يقصده أصحاب القوافل الذاهبون من جزيرة العرب الى العراق والى بلاد الشأم ، وبالعكس ، لوجود الماء العذب بها ، وما يحتاج المسافر اليه من زاد وماء . وهي اليوم (الجوف) في المملكة العربية السعودية .

ويقصد سوق المشقر الأعراب الساكنون في العربية الشرقية والأعراب القريبون الى هذا الموضع ، ويرد الى هذه السوق تجار فارس ببياعاتهم يقطعون البحر ، فيتاجرون مع من يقصد هذه السوق من القبائل والحضر . وكانت بنو تميم وعبد القيس جيرانها . أما المشرف عليها فرؤساء تميم من بني عبدالله بن زيد رهط المنذر بن ساوى ، وكانوا يتلقبون بألقاب الملك . ويسيرون في معاملتهم في هذه السوق سيرة الملوك بدومة الجندل ، ويأخذون العشر . وكان من يؤمها من التجار يتخفرون بقريش ، لأنها لا تؤتى إلا في بلاد مضر . وكان بيعهم فيها الملامسة والهمهمة . وتقوم سوقها أول يوم من جمادى الآخرة الى آخر الشهر[2] .

وقد قصد هذه السوق أحياء من العرب من مختلف أنحاء جزيرة العرب ، كما وفدت اليها اللطائم . وطالما اعجبت أرض هجر ، وموضع المشقر منها ، بعض هؤلاء الأعراب فيبقون فيها ولا يرتحلون عنها ، فمن هناك صارت بهجر طوائف من كل حي من العرب وغيرهم[3] .

ويحمي المشقر حصن قديم قويم ، يقال ورثه (امرؤ القيس) ، وقد أشير اليه في الشعر . قال عنه (المخبل) :

---

١ تاج العروس (٧/٢٦٦) ، (الجندل) .

٢ المحبر (ص ٢٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٢٦) ، البكري ، معجم (٤/١١٩٣) ، البلدان (٥/١٣٤) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦٢ وما بعدها) ، اثار البلاد وأخبار العباد (ص ٧٣) ، مراصد الاطلاع (٣/١٢٧٥) ، البكري (٣/١٢٣٢) .

٣ الازمنة والامكنة (٢/١٦٣) .

فلئــن بنيت لي المشقر في صعب تقصر دونــه الهمم
لتنقبن عــني المنيّــة ان الله ليس كعلمه عــلم[1]

وكان من الحصون التي تحمي قرى ساحل الخليج من الأعراب ، به حاميــة كبيرة ، تغلق عليها الأبواب عند دنو الخطر . ويظهر من قصة فتك المكعبر بتميم ، أنه كان ذا بابين ، وكان قد بني لحماية المنطقة من الأعراب وللمحافظة عــلى الأمن . وقد كان حصناً كبيراً ادخر فيه الفرس الميرة والأرزاق لتوزيعها عــلى الأعراب أيام المجاعة . وبه جنود من الفرس ، يحكمهم قوّاد منهم ، يقـومون بضبط الأمن ومراقبة حركات الأعراب .

وتعقد سوق هجر في شهر ربيع الآخر ، وكان الذي يتولى تعشير التجار بها (المنذر بن ساوى) ، أحد بني عبدالله بن دارم . وهو ملك البحرين[2] . وهجر اسم لجميع أرض البحرين ، وقصبة بلاد البحرين . وقد عرفت بكثرة تمرهـا ، ومنه المثل كمبضع تمر الى هجر . وذكر أن (عمر) تذكرها فقـال : عجبت لتاجر هجر وراكب البحر ، كأنه أراد لكثرة وبائها ، فتاجرهـا وراكب البحر في الخطر سواء[3] . ويظهر أنها كانت موبوءة .

ثم يرتحلون نحو عمـــان من البحـرين أيضاً ، فتقوم سوقهم بها . ثم يرتحلون فينزلون (إرم) وقرى الشحر ، فتقوم أسواقهم بها أياماً . ثم يرتحلون فينزلون سوق عدن[4] .

أما (سوق‌عدن) ، فكانت تقوم أول يوم من شهر رمضان الى عشر يمضين منه . وكانت الأبناء هي التي تعشر التجار بها ، والأبناء هم أبناء الفرس الذين فتحوا اليمن مع وهرز وقتلوا الحبشة . وكان التجار لا يتخفرون فيها بأحد، لأنها أرض مملكة ، وأمرها محكم[5] . أما ما قبل حكم الأبناء . فقد كان يعشر هــذه

---

١ وقال عنه « لبيد » :
وافنى بنات الدهر أرباب ناعط بمستمع دون السمـــاء ومنظـر
وانزلن بالدومي من رأس حصنه وانزلن بالاسباب رب المشقـر
تاج العروس (٣/٣١١) ، (شقر) .
٢ صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٣/٦١٣ وما بعدها) ، (هجر) .
٤ صبح الاعشى (١/٤١١) .
٥ المحبر (ص ٢٦٦) .

السوق ملوك حمير ، ثم من ملك اليمن من بعدهم . وأشهر ما يباع فيها الطيب . ولم يكن أحد يحسن صنع الطيب من غير العرب ، حتى ان تجار البحر ترجع بالطيب المعمول تفخر به في السند والهند ، ويرحل به كذلك تجار البر الى فارس والروم[1] .

وأما سوق صنعاء ، فكانت تقوم في النصف من شهر رمضان الى آخره . وكانت الأبناء تعشرهم . وكان بيعهم بها الجس جس الأيدي[2] . وقد اشتهرت ببيع الخرز والأدم والبرود . وكانت تجلب اليها من معافر[3] . والقطن والكتّان والزعفران والأصباغ وأشباهها مما يتفق بها ، ويشترون بها ما يريدون من البر والحديد وحاصلات اليمن وما يأتي الى اليمن من تجارات البحار[4] .

وسوق ذي المجاز ، قريبة من عكاظ ، وتقوم أول يوم من ذي الحجة الى يوم التروية . ثم يصيرون الى منى[5] . وقد كانت لهذيل . وكانت مبايعة العرب بها بإلقاء الحجارة ، وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول السلعة يساومون بها صاحبها ، فأيهم أراد شراءها ألقى حجراً ، وربما اتفق في السلعة الرهط ، فلا يجدون بدّاً من أن يشتركوا وهم كارهون . وربما ألقوا الحجارة جميعاً فيوكسون صاحب السلعة اذا تظاهروا عليه. وكانت قريش تخرج قاصدة اليها من مكة ، فإن اخذت على حزن لم تتخفر من القرب حتى ترجع ، وذلك أن مضر عامتهم لا تتعرض لتجار قريش ولا يتهجّمهم حليف لمضري مع تعظيمهم لقريش ومكانتهم في البيت[6] .

وأما سوق حُباشة ، فن أسواق العرب المشهورة القديمة في الجاهلية في العربية الغربية . وهي سوق بتهامة ، يتاجر فيها أهل الحجاز . وأهل اليمن . وكان

---

١ الازمنة والامكنة (٢/١٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٣٦) .

٢ المحبر (ص ٢٦٦) .

٣ صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) .

٤ الازمنة والامكنة (٥/١٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٣٦) .

٥ المحبر (ص ٢٦٧) .

٦ الازمنة والامكنة (٢/١٦١) .

في جملة من حضرها وتاجر فيهـا الرسول[1] . وكانت تقام في شهر رجب[2] . وحباشة سوق أخرى كانت لبني قينقاع[3] .

وكان الجلندي بن المستكبر ، هو الذي يعشر تجـار سوق صُحار بعمان ، وكذلك تجار سوق (دبا) . وكان يقصد سوق (دبا) تجار السند والهند والصين ومواضع أخرى ، فهي سوق عظيمة كبيرة ، ذات تجارة مـع العالم الخارجي . احدى فرضَتي العرب . ويقوم سوقها آخر يوم من رجب . وكان بيعهم فيهـا المساومة . وتقوم سوق صُحار أول يوم من رجب . تقوم خمس ليال[4] . ويذكر بعض أهل الأخبار ان البيع في سوق صحار هو بالقاء الحجارة[5] .

وقد اشتهرت (صحار) بثيابها ، فعرفت باسمها ، كما كانت سوقاً للتجارات المستوردة من اليمن والصين والبحرين والهند . ولذلك كانت سوقاً نشطة ، وبها أصحاب حرف وصناعة[6] .

وأما (بدر) ، فكان موضعاً فيه ماء وفيه وقعت معركة بدر الكبرى . وكان موسماً من مواسم العرب ، تجتمع لهم بها سوق كل عام ، يجتمعون فيـه للتجارة وللتنزه ، فكانوا ينحرون ويطعمون ويشربون ويسمعون الغناء[7] . وذكر ان موضع (بدر) بئر حفرها رجل من غفار ، ثم من (بني النار) اسمه بدر . وذكر انه (بدر بن قريش بن يخلد)[8] ، وبه سمي الموضع بدراً ، وقيل بدر رجـل من (بني ضمرة) سكن المكان فنسب اليه[9] ، وهو بين مكة والمدينة أسفـل وادي الصفراء ، وهو الى المدينة أقرب ، وبينه وبين (الجار) ، وهو ساحل

---

١ بالضم والشين معجمة ، البلدان (٣/٢٠٦) ، شرح القاموس ، (٤/٢٩٣) . وقد كان هذا الموضع هو السبب الباعث لياقوت الحموي على تأليف كتاب معجم البلدان ، راجع مقدمة الجزء الاول من معجم البلدان .

٢ اخبار مكة ، للازرقي (١/١٩٤ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٦/٢٦٣) ، البلدان (٣/٢٠٦) .

٤ المحبر (ص ٢٦٥ وما بعدها) .

٥ اليعقوبي (١/٢٣٦) « النجف » ، الازمنة والامكنة (٢/١٦٣) .

٦ راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة « صحار » .

٧ الطبري (٢/٢٧٩) ، البلدان (٢/٨٨) .

٨ الروض الانف (٢/٦١) .

٩ تاج العروس (٣/٣٤) ، (بدر) .

البحر ومرفأ ليلة [1]. ويظهر انه كان من المواضع المقدسة على شاكلة (سوق عكاظ) به أحجار ، يتقرب اليها الناس ، وبه ماء فصار سوقاً في موسمه المخصص له ، يقصده الناس من مكة ومن المواضع القريبة لبيع ما عندهم من ناتجهم فيه،ولشراء ما يحتاجون اليه منه .

وأما سوق بني قينقاع ، فسوق لليهود يذهب اليها الناس للاتجار وابتياع ما عند يهود من سلع ، ولبيع ما عندهم ليهود .

أما (سوق الشحر) شحر مهرة ، فتقوم السوق تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود . ولم تكن بها عشور ، لأنها ليست بأرض مملكة . وكانت التجار تتخفر فيها ببني محارب بن هرب ، من مهرة . وكان قيامها للنصف من شعبان . وكان بيعهم بها إلقاء الحجارة [2] . وكان غالب ما يعرض فيها الأدم والبُز وسائر المرافق. ويشترون بها الكندر ، والمرّ ، والصبر ، ويقصدها تجار من البرّ والبحر [3] .

وأما سوق الرابية بحضرموت ، فلم يكن يصل اليها أحد إلاّ بخفارة ، لأنها لم تكن أرض مملكة . وكان من عز فيها بزّ صاحبه . فكانت قريش تتخفر فيها ببني آكل المرار ، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة [4].

وتقوم سوق نطاة بخيبر وسوق حجر باليمامة يوم عاشوراء الى آخر المحرم [5] .

وأشهر الأسواق المتقدمة وأعرفها (سوق عكاظ) ، وهي سوق تجارة وسوق سياسة وسوق أدب ، فيها كان يخطب كل خطيب مصقع ، وفيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل على ما يذكره بعض أهل الأخبار . وكان يأتيها قريش وهوازن وسليم والأحابيش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب . وكانت تقوم للنصف من ذي القعدة الى آخر الشهر . ولم تكن فيها عشور ولا خفارة . وكان بيعهم السرار : إذا وجب البيع

---

1 تاج العروس (٣/٣٤) ، (بدر) .

2 المحبر (ص ٢٦٦) .

3 الازمنة والامكنة (٢/١٦٣) ، اليعقوبي (١/٢٢٦) ، تاج العروس (٦/٢٩٣) .

4 المحبر (ص ٢٦٧) ، الازمنة والامكنة (٢/١٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٣٦) .

5 المحبر (ص ٢٦٨) .

وعند التاجر فيها إلف ممن يريد الشراء ولا يريده أشركه في الربح[1] .

وذكر ان عكاظ نخل في وادٍ بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق العرب . وقيل : عكاظ ماء ما بين نخلة والطائف الى بلد يقال له الفتق ، كانت موسماً من مواسم الجاهلية . تقوم هلال ذي القعدة وتستمر عشرين يوماً . وكانت تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، يقيمون على ذلك شهراً ، يتبايعون ثم يتفرقون. فلما جاء الاسلام هدم ذلك[2] .

وذهب فريق من أهل الأخبار الى أن انعقاد سوق عكاظ إنما كان يقوم بهلال شهر ذي القعدة ويستمر لمدة عشرين يوماً[3] . وهم يخطئون رأي من يذهب الى أن انعقاد السوق كان في شهر شوّال ، وحجتهم أن انعقاد السوق كان في الأشهر الحرم ، ليراعي الناس حرمة تلك الأيام فلا يعتدون على من يقصد السوق،وشهر شوال لا يدخل في جملة الأشهر الحرم ، لذلك فلا يمكن أن يكون انعقاد السوق فيه . ويستدلون بدليل آخر ، هو تقاتل بعض العرب في أيام عكاظ ، ونظراً لوقوع ذلك القتال في شهر حرام ، أطلقوا على تلك الأيام ، أيام الفجار ، وهي أربعة أيام : يوم شمطه،ويوم العبلاء ، ويوم الحريرة ، ويوم شرب ، وهذه الأسماء هي أسماء أماكن في عكاظ . وما كان العرب ليطلقوا على تلك الأيام أيام الفجار لو لم تكن قد وقعت في أيام حرم[4] .

---

١ الحيوان ، للجاحظ (٧/٢١٥) ، البكري ، معجم (٣/٩٥٩ وما بعدها) ، المحبر (ص ٢٦٧) ، « وكانت تقوم هذه السوق في قول أول ذي القعدة الى عشرين منه ، ثم يتوجهون الى مكة فيقفون بعرفات ويقضون مناسك الحج ثم يرجعون الى أوطانهم . وفي قول اخر : انهم كانوا يقيمون به جميع شوال الى غير ذلك من الاقوال المختلفة . ولعل ذلك لاختلاف العادة في السنين ، أو لاختلاف القبائل في الاقامة في هذا الموسم . والذي عليه صاحب قبائل العرب ، أنهم كانوا يقيمون في هذه السوق من نصف ذي القعدة الى آخره ... » بلوغ الارب (١/٢٧٠) .

٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) .

٣ مراصد الاطلاع (٢/٩٥٣) ، القاموس المحيط (٢/٣٩٦) ، أخبار مكة ، للازرقي (١٢٩) ، صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) ، البلدان (٣/٧٠٤) ، الازمنة والامكنة (٢/١٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٣٦) .

٤ أخبار مكة (١٣٢) ، الاغاني (٩/١٧٦) ، (١٠/٩) ، العقد الفريد (٣/٣٧٧) ، أخبار مكة (١/٦٦) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٣٥٨ وما بعدها) .

وجاء في بعض الأخبار ان أشراف العرب كانوا يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل ان الملوك كانوا يرضخون للأشراف ، لكل شريف بسهم من الأرباح . فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ ، فإنهم كانوا يتوافون بها من كل أوب[1] . فسوق عكاظ ، اذن سوق حرة ، لا عشور فيها ولا خفارة . وهي تختلف بذلك عن بقية الأسواق التي كان يعشرها الملوك ، اذا كانت في حكم (ملك) ، أو في حكم الأمراء وسادات القبائل ، على أن يؤدوا سهماً من الأرباح المتجمعة من العشور والخفارات الى أشراف العرب، أي سادات القبائل الذين تقام تلك الأسواق في أرضهم . فأشراف (تميم) وإن أشرفوا على هذه السوق ، وحكموا بها ، ونظموا أمورها ، إلا انهم لم يكونوا يجبون شيئاً من التجار . ولعل ذلك كان بتأثير قريش عليهم ، فقد كان رجال مكة هم المستأثرون الأثيرون في عكاظ . وكانوا يشجعون العرب على حضورها ، لما لهم فيها من منافع اقتصادية ، وقد كان لهم أنفسهم اشراف على نواح من أمور السوق . ويظهر انه لأجل تشجيع القبائل على حضور (عكاظ) وجمع أكثر مَن يمكن جمعه من التجار، اتفقوا مع سادات تميم ، ولا سيما مع (بني دارم) على أن يتركوا السوق حرة ، ليقصدها أي تاجر ، فلا يكلف أحد منهم بكلفة العشور والخفارة ، ولا يهان أو يعتدى عليه ، وهو بالطبع في شهر حرام ، ليضمنوا بذلك حضور أكبر عدد ممكن من الناس ، وليضمنوا مجيئهم بعد ذلك الى مكة ، وقد كانوا يسعون جهد طاقتهم لجلب العرب اليها من الأماكن البعيدة، ليستفيدوا منهم في موسم الحج ، وليكوّنوا معهم صلات طيبة ، وعلاقات وثيقة تؤمن لهم ولقوافلهم ولتجاراتهم حق المرور بأمن وسلام ، وتقديم كل ما يحتاج اليه رجال القوافل من ماء وطعام ومأوى وحماية .

ويعرض للبيع وللشراء في سوق عكاظ وفي الأسواق الأخرى كل أنواع البضاعات ، من أدم ومن حبوب وأقمشة الى بضاعة حية ناطقة هي الحيوان ، أو الانسان ، حيث يعرض الرقيق في السوق . وقد كان شراء (خديجة) زوجة الرسول لـ (زيد بن حارثة) من سوق عكاظ[2] . وقد اشتهرت سوق عكاظ

---

١ المرزوقي ، الامكنة (٢/١٦٦) .

٢ المعارف (ص ١٤٤) .

بأديمها حتى عرف بين تجار الأديم بـ (الأديم العكاظي)[1] مع أنه لم يكن من حاصل عكاظ ، بل كان يورد الى السوق من مختلف الأنحاء .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (سوق عكاظ) موسم عظيم من المواسم، وقد اتخذت سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة . وهي من أعظم أسواق العرب على الاطلاق في الجاهلية وفي الإسلام . ثم تضاءل شأنها وخربت بعد سنة (١٢٩) للهجرة ، عندما ظهر الخوارج الحرورية مع المختار بن عوف في مكة ، فنهبت هذه السوق ، وخاف الناس على أنفسهم من الذهاب اليها ، فتركت[2] .

ولو أخذنا بهذه الرواية ، نكون قد جعلنا مبدأ هذا السوق سنة (٥٨٥) أو (٥٨٦) للميلاد تقريباً . أي ان تأريخ سوق عكاظ لم يكن بعيد عهد عن الإسلام. فهو قبله بنحو ربع قرن . وقد أقيمت وعمر الرسول آنذاك (١٥) عاماً .

ويذهب الناس بعد سوق عكاظ الى سوق أخرى ، هي سوق مجنة ، فيقيمون بها عشرة أيام . فإذا رأوا هلال ذي الحجة في نهاية هــذه الأيام العشرة قصدوا ذا المجاز ، وهي سوق جاهلية ، فيقيمون فيها ثمانية أيام يبيعون ويشترون ، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز الى عرفة ، فيأخذون ذلك اليوم من الماء ما يرويهم من ذي المجاز . وقد سمي هذا اليوم باسم يوم التروية لترويهم من المــاء بذي المجاز ، حيث كان ينادي بعضهم على البعض الآخر أن يترووا من المــاء لأنه لا يوجد ماء بعرفة . كذلك لا يوجد ماء بالمزدلفة يومئذ . ويعتبر يوم التروية نهاية أسواقهم . وكان العرب لا يتبايعون في يوم عرفة ولا في أيام منى . فلـما جاء الإسلام أحل لهم ذلك[3] .

وذكر ان (ذا المجاز) موضع بمنى ، وذكر انه سوق كانت في الجاهليـة على فرسخ من عرفة ، بناحية كبكب ، سمي به لأن إجازة الحج كانت فيه[4] . و (كبكب) . جبل بعرفات خلف ظهر الإمام اذا وقف ؛ وقيل هو ثنية[5] .

---

١ البلدان (٣/٧٠٤) ، تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) .

٢ الازرقي ، أخبار مكة (١٢٩ وما بعدها) ، البكري ، معجم (٣/٩٥٩ وما بعدها) ، اللسان (٧/٤٤٧) .

٣ أخبار مكة ، للازرقي (١٢٩ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٤/٢١) ، (جوز) .

٥ تاج العروس (١/٤٤٤) ، (كبب) ، (ك/ب/ب) .

ويذكر علماء التفسير ان متجر الناس في الجاهلية كان سوق عكاظ وذو المجاز، فلما جاء الاسلام تركوا ذلك . وكانوا لا يتجرون في أيام الحج ، فكانوا لا يبيعون أو يبتاعون في الجاهلية بعرفة ، ويبتاعون ويبيعون قبل وبعد أيام الحج ، اذ كانوا يتأثمون من الاتجار في أيام الحج[1] .

وقد كان الحج من أكبر مواسم الربح لقريش،تبيع قريش ما عندها للأعراب القادمين اليها من البادية ولأهل القرى البعيدة عن مكة ، وتشتري منهم ما يحملونه معهم من مواد وسلع ، ثم تقوم قوافلهم بنقـــل الفائض مما اشترته الى الأسواق الخارجية في بلاد الشأم أو العراق ، وتشتري في مقابل ذلك ما يحتاج اليه الحجاز وأعراب البادية من سلع ومواد .

ومكة في مواسم الحج وفي المناسبات الأخرى سوق تجارية مهمة ، لا تقل شأناً في الواقع عن الأسواق الأخرى . وقد تمكن أهلها النشطون في جمع المـــال من اكتناز الأموال ومن استثمار ما يحصلون عليه من أرباح حتى صاروا من أغنى الناس في الحجاز .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان حظ المفاخرة والمباهاة والتمـدح والذم ، لم يكن بأقل من حظ البيع والشراء في سوق عكاظ . فقد كان الشعراء يعرضون أجود وأحدث مـــا عندهم من شعر على الحاضرين[2] . وكان كثـــير من هؤلاء الحاضرين إنما يفدون اليها للوقوف على أحدث ما يقال من صنوف الشعر ، وهو صنف رائج أكثر من رواج النـــثر بالطبع ، لما فيه من ايقاع وموسيقى ووزن وسهولة في الحفظ وأثر في النفس ، لذلك كان للشاعر في هذه السوق مكانة تزيد كثيراً على مكانة التاجر فيهـــا ، لما لشعره من أثر في الحياة العامـة لمجتمع ذلك اليوم .

ويقال إن الشاعر الشهير (النابغة الذبياني) ، كان يحضر سوق عكـــاظ ، فتضرب له قبة من أدم ، يجلس تحتها ، فيفد اليه من الشعراء من يريد أن يفتخر

---

١ تفسير الطبري (٢/ ١٦٥ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٥/ ٢٥٤ وما بعدها) ، اللسان (٩/ ٤٤٧) ، « وقد كانت قبائل العرب تجتمع فيه كل سنة ، يتفاخرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون » ، البلدان (٦/ ٢٠٣) ، ابن خلدون ، المجلد الثاني (ص ٦٤٢) .

بشعره على غيره ، لينشد أمامه شعره ، فيحكم على شعره برأيه ، لما لرأيه من أثر في الناس . وكان الشاعران الأعشى وحسان بن ثابت ممن احتكما اليه وكذلك الشاعرة الخنساء [1] .

ومن حضر عكاظ الخطيب الجاهلي الشهير (قس بن ساعدة الايادي) (شيشرون) العرب ، وعمرو بن كلثوم التغلبي ، الشاعر المعروف [2] . ويذكر أهل الأخبار ان الرسول رأى (قس بن ساعدة الأيادي) يخطب في هذه السوق . وقد قصد الرسول سوق عكاظ وسوق مجنة وذي المجاز ، يدعو من كان يحضر المواسم الى دين الله . وقيل انه مكث سبع سنين يتبع الناس في مواسمهم في سوق عكاظ ، وكان فيمن كلمهم ودعاهم الى الاسلام (بنو عامر بن صعصعة) [3] .

وحال الأسواق الأخرى مثل حال سوق عكاظ من حيث ورود الشعراء اليها لعرض ما عندهم من شعر جديد . والظاهر ان قرب سوق عكاظ من مكة ، وورود الحجاج اليها قبل البدء بالحج ، ثم ورود اسمها في أخبار الرسول،ولكونها سوق مكة وتجار قريش ، ووقوعها في أرض يتكلم أهلها باللغة التي نزل بها الوحي ، هذه الأسباب وغيرها هي التي خلدت اسم هذه السوق ، وربطت بينها وبين الشعر والنثر ، أكثر من الأسواق الأخرى التي كانت بعيدة عن مكة ، وبعيدة لذلك عن ذاكرة أهل الأخبار .

هذا وان للباحثين في موضع سوق عكاظ آراء متباينة فيه . ولا زالت هذه الآراء متباينة فيه حتى اليوم [4] .

هذا ، وقد كان موضع عكاظ في الأصل مكاناً مقدساً على ما يظهر من أخبار أهل الأخبار . فقد ذكروا أن العرب كانت تطوف بصخور كانت هناك ويحجون اليها ، وكانوا يذبحون وينحرون الى تلك الأصنام والأنصاب . حتى تلطخت تلك

١ الاغاني (٩/١٥٦) « مطبعة التقدم » ، شعراء النصرانية (٥/٦٤٠) .

٢ الاغاني (٩/١٧٦) .

٣ البكري (٥/٢٥٩ وما بعدها) ، ابن كثير ، البداية (٣/١٤١) .

٤ لسان العرب (٧/٤٤٧) ، معجم ، البكري (٣-٤/٩٦١) ، البلدان (٣/٧٠٤) ، القاموس ٢(/٣٩٦) ، تاج العروس (٥/٢٥٥) ، مراصد الاطلاع (٢/٩٥٣) ، شرح ديوان الحماسة (٣/١٥١٤ وما بعدها) .

الأنصاب والأرض التي تحيط بها بدماء البدن[1]. ويظهر أن أهمية ذلك المكان الدينية كانت قد قلّت بالتدريج، إذ غطت قدسية مكة عليه. ولما جاء الإسلام، وأزال الأنصاب والأصنام ذهبت كل أهمية لمحجة عكاظ واختفت أهمية السوق معه حتى ماتت على نحو ما ذكرت.

ويتقدم سادات الناس في مثل هذه المناسبات الى آلهتهم باطعام الفقراء واضافة الناس. وكان (خويلد بن فضيل بن عمرو بن كلاب) المعروف بـ (الصعق)، لأن صاعقة نزلت عليه فأحرقته، ممن يطعم بعكاظ. وكان من سادات قومه[2]. ويترك هذا الكرم أثراً في نفوس من يحضر السوق، ويكون سبباً للحصول على ثناء ومديح الشعراء على أولئك الكرماء.

والظاهر من روايات أهل الأخبار عن هذه الأسواق، انها كانت كلها في الأصل، مواضع مقدسة، لها أصنام تعبدها القبائل، وتأتي للتقرب اليها في مواسم معينة، هي مواسم حجها، فتتحول تلك المواسم الى أسواق للبيع والشراء. فقد ذكروا ان (بني وبرة)، كانوا يفدون الى (دومة الجندل) للتقرب الى (ودّ)، وكان سدنته من (بني الفرافصة بن كلب)[3]، وأن (بني عبد القيس) كانوا يتقربون الى صنم لهم اسمه (ذو اللّب)، وكان بالمشقر، وسدنته (بنو عامر)[4].

ويجب ألا ننظر الى هذه الأسواق نظرتنا الى السوق بالمعنى المفهوم من اللفظة في الوقت الحاضر. فقد كانت أسواق الجاهلية أوسع مجالاً من ذلك بكثير. كانت مجامع لأهل اللسان من شعراء ومن خطباء، من مرموقين معروفين ومن مغمورين طلاب شهرة، قصدوا هذه الأسواق للحصول على اسم وسمعة، كما هو شأن سوق عكاظ. كما كانت مجتمعات تعقد فيها العقود والمعاهدات والاتفاقات القبلية والعائلية، ومواضع يعلن فيها عن التبني وعن الخلع، أي خلع الأفراد،

---

١ البلدان (٢٠٣/٦)، البكري (٩٥٩/٣ وما بعدها).

٢ جمهرة، ابن حزم (ص ٢٦٩).

٣ جمهرة أنساب العرب، لابن حزم (ص ٤٥٨).

٤ جمهرة، ابن حزم (ص ٤٦٠).

لجرائم يرتكبونها ، وهي ساحات محاكم ، يجلس فيها المتخاصمون للاستماع الى قرار حاكم مهاب محترم ، اتفقوا على تحكيمه في نزاعهم . وقد كانت الحكومة في هذه السوق الى (بني تميم) ، وكان آخر من حكم منهم فيها : الأقرع بن حابس التميمي[1] .

ويروي أهل الأخبار أن فرسان العرب كانوا إذا حضروا موسم عكاظ تقنعوا إلا (أبا سليط) (طرفة بن تميم) ، فارس عمرو بن تميم في الجاهلية ، فإنه كان لا يتقنع ولا يبالي أن تقع عيون الفرسان عليه ، وذلك اعتماداً على نفسه وازدراءً لشأن أعدائه ومن يريد إلحاق الأذى به[2] . وقد كانت سوق عكاظ وبقية الأسواق ، من أهم المواضع التي تجلب أنظار الفرسان اليها ، إذ كان الكثير منهم يتصيدون فرص الأخذ بالثأر ، بعد انفضاض موسم السوق ، أو الحصول على غنائم بمهاجمة التجار ومن يحمل تجارة دسمة أو حمولة ثمينة ، ولهذا كان لا بد للفرسان ومن يريد الحصول على مغنم أو تنفيذ مأرب ما من التحفظ والاحتراز حذر انكشاف أمره ، فيكون عرضة للغدر .

وإذا وقعت في هذه الأسواق خصومات في مثل اختلاف في سعر أو اختلاف في تجارة ، فهناك حكّام يلجأ المتخاصمون اليهم للنظر في خصوماتهم وللنظر في كل خصومات أخرى قد تقع على الحاضرين . فيقوم هؤلاء الحكام بفض ذلك النزاع. وقد اشتهر سادات بني تميم بالنظر في الخصومات التي تقع في الأسواق القريبة منهم أو التي تقع في ديارهم ، وكان من أواخر حكامهم (الأقرع بن حابس)[3] .

سوق عكاظ في الاسلام :

كانت سوق عكاظ عامرة مقصودة في الجاهلية ، « فلما جاء الاسلام هدم

---

١ صبح الاعشى (١/ ٤١٠ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (ص ١٣١) ، اليعقوبي (١/ ٢٢٦) ، العقد الفريد (٢/ ٢٠٦) ، البيان والتبيين (٣/ ١٠٠) .

٣ صبح الاعشى (١/ ٤١٠) .

ذلك »[1] . وورد في كتب الحديث : « عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : كانت عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز ، أسواقاً في الجاهلية ، فلما كان الاسلام تأثموا من التجارة فيها ، فأنزل الله : ليس عليكم جناح في مواسم الحج . قرأ ابن عباس كذا »[2] . وورد في تفسير الطبري : « قال ابن عباس : كانت ذو المجاز وعكاظ متجر الناس في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام تركوا ذلك حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج »[3] . وورد : « كانوا يحجون ولا يتجرون ، فأنزل الله : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم »[4] . وتفسير ذلك كما جاء في كتب التفسير والحديث ، وكما سبق أن تحدثت عن ذلك في الجزء الخاص بالحياة الدينية عند أهل الجاهلية ، ان الجاهليين كانوا يتأثمون من الاتجار في الحج ، فلا يحجون ولا يتجرون ، وتكون تجارتهم في الأسواق المذكورة قبل الحج ، أو في مكة بعد الحج ، وبقوا على ذلك حتى رفع عنهم الحرج بنزول الوحي : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم »[5] ، فرخص لهم في المتجر والركوب والزاد ، وأحل الله لهم الاتجار في الحج[6] ، فصاروا يتبايعون بمكة ، فأثر ذلك على الأسواق المذكورة .

وكان تحديد مواقيت الحج ، وانتشار الاسلام ، ومنع التعرض والتحرش بالناس طيلة أيام السنة ، في جملة العوامل التي قللت من أهمية تلك الأسواق ، فلم يعد الحجاج في حاجة الى الذهاب قوافل اليها ، استغلالاً لحرمة الأشهر ، بل صاروا يتجهون الى المواقيت المعينة للحج رأساً ، فيتجرون بمكة ويعودون الى ديارهم ، فقلّت بذلك أهمية تلك الأسواق حتى ماتت .

وسبب آخر ، هو في نظري أهم من كلّ ما ذكرت . هو أن هجرة الرسول الى يثرب ، وانتصار الاسلام على مكة ، ثم وفاته بيثرب ، واتخاذ الخلفاء الثلاثة الأول إياها قاعدة لهم ولبيت مال المسلمين ، ثم خروج سادات مكة اليها في

---

١ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) .
٢ ارشاد الساري (٤/٣٧) .
٣ تفسير الطبري (٢/١٦٤ ، ١٦٥) .
٤ تفسير الطبري (٢/١٦٤) .
٥ سورة البقرة ، رقم ٢ الآية ١٩٨ .
٦ تفسير الطبري (٢/١٦٤ وما بعدها) .

حيـــاة الرسول ، وانتقالهم الى الأمصار المفتوحة لادارتها سياسياً وعسكرياً ، أو للاشتغال بها بالزراعة والتجارة وبالأعمال الأخرى المربحة، كل هذه العوامل وأمثالها جعلت مكة في الدرجـــة الثانية بعد (يثرب) ، حتى أن من بقي بالمدينة من الصحابة ولم يغادرها كما غادرها غيرهم الى الأمصار المفتوحة ، وجـــدوا أن من أدب الصحبة ملازمة قبر الرسول ، والثوى بها في الحياة وفي الممات ، ولم يقيموا بمكة إلا فترات ، لحج أو لزيارة ، فأثر ذلك على وضعها المالي ، وأزال مكانتها القديم في التجارة ، فتغير بذلك كل شيء .

الفصل الخامس بعد المئة

البيـع والشراء

أنواع البيع :

وقد تعرض أهل الأخبار لبعض أنواع البيع وطرقها التي كان يستعملها الجاهليون، وهي لا تختلف في طبيعتها عن طبيعة ما يسمى بـ (الحظ والنصيب) في العهد الحاضر . ونظراً الى ما قد كانت تسببه هذه الأنواع من خصومات ومنازعات بين المشتري وبين البائع ، من بيعهم شيئاً مجهولاً غير معلوم ، والى ما في كثير من هذه البيوع من غرر ، نهى الاسلام عنها ، وجاء ذكرها لذلك في كتب الحديث والفقه .

والبيع والشراء ، إما أن يكونا بشروط ، يشترطها أحدهما أو كلاهما عند عقد الصفقة ، ويتم التوافق والتعاقد عليها برضى البائع والمشتري ، أي الطرفين . وإما ألا يكونا بشروط . فإذا اشترط المشتري على البائع شرط حق إرجاع السلعة اليه، إن وجد فيها شيئاً مخالفاً للوصف ، ورضي البائع بذلك ، فللمشتري حق إرجاع السلعة اليه في حدود معقولة ، وقد يعين زمن ذلك الحق وهو ما يحدث في الغالب.

ومن جملة طرق البيع (بيع الحصاة) . وهو بيع ذكر أهل الأخبار أنه كان متبعاً في سوق (دومة الجندل) المنعقدة في أول يوم من شهر ربيع الأول . وقد ذكروا أن هذه المبايعة من بيوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام . وتفسير ذلك أن يقول أحد المتبايعين للآخر : إرم هذه الحصاة ، فعلى أي ثوب وقعت فهو لك

بدرهم ، أو أن يبيع أحد المتبايعين من أرضه قدر ما انتهت اليه رمية الحصاة ، أو أن يقبض على كف من حصى ويقول : لي بعدد ما خرج في القبضة من الشيء المبيع ، أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لي بكل حصاة درهم ، أو أن يمسك أحدهما حصاة في يده ، ويقول : أي وقت سقطت الحصاة وجب البيع ، أو أن يتبايعا ويقول أحدهما : إذا نبذت اليك الحصاة فقد وجب البيع ، أو أن يعترض القطيع من الغنم فيأخذ الحصاة ويقول : أي شاة أصابتها فهي لك بكذا [1] ، أو هو أن يقول بعتك من السلع ما تقع عليه حصاتك إذا رميت بها ، أو بعتك من الأرض الى حيث تنتهي حصاتك . أو أي ثوب من هذه وقعت الحصاة التي أرمي بها فهو لي بكذا ، فيقول البائع : نعم . فيقع البيع لوجود شروط الايجاب والقبول[2] .

ومن طرق البيع بيع الملامسة ، والمراد بالملامسة المس باليد ، وأن يجعل عقد البيع لمس المبيع . وذكر أن بيع الملامسة : أن تشتري المتاع بأن تلمسه ولا تنظر اليه . وذلك كأن يقول : « لَمَسْتَ ثوبي أو لمستُ ثوبك أو إذا لمست المبيع، فقد وجب البيع بيننا بكذا وكذا ، ويقال هو أن يلمس المتاع من وراء الثوب ولا ينظر اليه ، ثم يوقع البيع عليه » و « قيل : معناه أن يجعل اللمسَ باليد قاطعاً للخيار »[3] .

وقيل هو أن يأتي البائع بثوب مطوي ، ثم يطلب من المشتري أن يلمسه ، ثم يقول له : « بعتك اياه بثمن كذا بشرط أن يقوم لمسك مقام نظرك » . أو أن يقول له : « اذا لمست هذا الشيء فهو بيع لك » . فيكون اللمس نهاية خيار المشتري . وهو يحل بذلك محل النظر الى الشيء الذي سيباع وتدقيقه وتمحيصه للوقوف على مقدار جودته أو بما فيه من عيوب . فهو بيع شرطه اللمس ولا خيار

---

١ جامع الاصول (١/٤٤١) ، بلوغ الارب (١/٢٦١) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦٤) ، زاد المعاد (٤/٢٦٦) .

٢ صحيح مسلم (٥/٣) ، الجصاص (١/٥٣٠) ، اللسان (١٤/١٨٣) ، تاج العروس (١٠/٩٢) ، (حصا) ، زاد المعاد (٤/٢٦٦) .

٣ اللسان (٦/٢١٠) ، صحيح مسلم (٥/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٣٤٠) ، (لمس) ، زاد المعاد (٤/٢٦٦) .

فيه[1] . ومن بيع الملامسة ، أن يقول الرجل للرجل : أبيعك ثوبي بثوبك ولا ينظر واحد منهما الى ثوب الآخر ، ولكن يلمسه لمساً[2] .

واختلف الفقهاء في تفسير الملامسة على ثلاث صور : إحداها أن يكتفي باللمس عن النظر ولا خيار له بعده ، بأن يلمس ثوباً لم يره ثم يشتريه على أن لا خيار له اذا رآه . الثانية ، أن يجعل اللمس بيعاً ، بأن يقول : اذا لمسته ، فقد بعتكه ، اكتفاءً بلمسه عن الصيغة . الثالثة ، أن يبيعه شيئاً على انه متى لمسه لزم البيع وانقطع خيار المجلس وغيره اكتفاء بلمسه عن الالزام بتفرق أو تخاير. وبطلان المبيع المستفاد من النهي ، لعدم رؤية المبيع ، واشتراط نفي الخيار في الأولى ونفي الصيغة في عقد البيع في الثانية ، وشرط نفي الخيار في الثالثة[3] .

ومن البيوع ، بيع المنابذة . وهو أن يجعلا النبذ بيعاً . وهو أن تقول لصاحبك: انبذ إلي الثوب أو غيره من المتاع ، أو انبذه اليك ، وقد وجب البيع بكذا وكذا . أو هو أن ترمي اليه بالثوب ويرمي اليك بمثله . وهو أن يجعلا النبذ بيعاً بغير صيغة ، أو أن يجعلا النبذ قاطعاً للخيار . ويقال له بيع الالقاء[4] . وقيل هو أن تقول : إذا نبذت الحصاة اليك ، فقد وجب البيع ، أو أن ينبذ الرجل الى الرجل بثوبه ، وينبذ الآخر اليه ثوبه ، ويكون ذلك بيعهما من غير نظر ولا تراضٍ . فيكون النبذ وحده هو البيع[5]

و (النجش) ، أن يبيع الإنسان بياعة فتساومه بثمن كثير لينظر اليك ناظر

---

١ صحيح البخاري (٨٧/٢) ، تاج العروس (٣٤٠/٤) ، (لمس) ، بلوغ الارب (٢٦٥/١) .

٢ ارشاد الساري (٦٤/٤) .

٣ ارشاد الساري (٦٤/٤) ، (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبستين وعن بيعتين ، نهى عن الملامسة والمنابذة في البيع ، والملامس لمس الرجل ثوب الآخر بيده بالليل أو بالنهار ولا يقبله الا بذاك » ، زاد المسلم (٥١٧/٥ وما بعدها) ، صحيح البخاري (كتاب البيوع ، باب بيع الملامسة) ، (وفي كتاب اللباس ، في باب اشتمال الصماء) ، (باب الاحتباء في ثوب واحد) ، صحيح مسلم (كتاب البيوع ، باب ابطال بيع الملامسة) .

٤ تاج العروس (٥٨١/٢) ، بلوغ الارب (٢٦٤/١ وما بعدها) ، صحيح البخاري (٨٧/٢) ، ارشاد الساري (٦٤/٤ وما بعدها) .

٥ صحيح مسلم (٣/٥) ، الشوكاني ، نيل الاوطار (١٤٧/٥ وما بعدها) ، اللسان (٥١٢/٣) .

فيقع فيها ، وكذلك في الأشياء كلها . وقيل : النجش في البيع أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها ، ولكن ليسمعه غيره فيزيد بزيادته . وقيل أن تمدح سلعة غيرك ليبيعها ، أو أن تنفر الناس عن الشيء الى غيره . والغاية من كل ذلك هو غش المشتّري وجرّ النفع . لذلك نهي في الاسلام عنه . و(التناجش) في البيع المنهى عنه ، هو التزايد في البيع وغيره[1] . وأن يقول الرجل للرجل بيعٌ فيقول نظر ، أي انظرني حتى اشتري منك[2] . والنجش في الشرع ، أن يزيد في ثمن السلعة من غير رغبة ليوقع غيره فيها . فهو بيع غش وخداع[3] .

ويقال للنجش الفلح . قالوا ، الفلح النجش في البيع،وذلك أن يطمئن اليك ، فيقول لك بع لي عبداً أو متاعاً أو اشتره لي ، فتأتي التجار فتشتريه بالغلاء وتبيع بالوكس وتصيب من التاجر ، وهو الفلاح . وذكر انه زيادة المشتّري ليزيد غيره فيغريه[4] .

ومن طرق البيع أيضاً : البيع ناجزاً بناجز . أي يداً بيد[5] . ومن بيوعهم قول أحدهم بعتك هذا الثوب نقداً بدينار ونسيئة بدينارين ، وقد ورد في الحديث : لا يجوز شرطان في بيع ، أي مثل هذا البيع[6] .

والبيعُ مُزابنة ، وهو بيع التمر في رؤوس النخل بالتمر . وبيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر . أو بيع كل ثمر على شجرة بتمر كيلاً . أو بيع التمر على رؤوس النخل بالذهب والفضة . وقد نهي عنه في الاسلام ، إلا اذا انضج ولا يباع منه إلا بالدرهم والدينار . وذلك لأنه بيع مجازفة ، ولما يقع فيه من الغبن والجهالة[7] . وروي عن الإمام (مالك) انه قال : المزابنة كل جزاف لا يعرف كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعداد. أو هي

---

١ تاج العروس (٣٥٤/٤) ، (نجش) . «نهى النبي صلى الله عليه وسلم، عن النجش»، البخاري (٦٩/٣ وما بعدها)، (كتاب البيوع)، عمدة القاري، (٢٥٨/١١ وما بعدها)، اللسان (٣٥١/٦) ، القسطلاني (٦٢/٤) ، زاد المسلم (٤٨٥/٥) .

٢ المخصص (٢٥٤/١٢) .

٣ تاج العروس (٣٥٤/٤) ، (نجش) ، عمدة القاري، (٢٥٨/١١ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (١٩٩/٢) ، (فلح) .

٥ المخصص (٢٥٤/١٢) .

٦ تاج العروس (١٦٦/٥) ، (شرط) .

٧ صحيح البخاري (٩٤/٢) ، « كتاب البيوع » ، القاموس (٢٣٠/٤) ، صحيح مسلم (١٣/٥) ، زاد المسلم (٤٧٧/٥ وما بعدها) .

بيع معلوم بمجهول من جنسه أو بيع مجهول بمجهول من جنسه ، أو هي بيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن ، لأن البيعين اذا وقفا فيه على الغبن ، أراد المغبون أن يفسخ البيع ، وأراد الغابن أن يمضيه ، فتزابنا فتخاصما فتدافعا [1]. وتكون المزابنة في النخل غالباً . وذكر ان سبب ورود النهي عن هذا البيع ، هو انه يؤدي الى ربا الفضل ، إذ الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة من حيث انه لم يتحقق فيها المساواة المشروطة في الربوى بجنسه[2] .

وكان هذا البيع معروفاً عندهم . وذلك أن يبيع رجل تمر نخله بتمر كيلاً أو بغير كيل ، أو أن يبيع كرمه بزبيب ، فورد النهي عنه في الإسلام ، وإنما نهى عن ذلك لجهل المبيع[3] . واعتبر هذا البيع نوعاً من أنواع الربا [4] .

ومن البيوع الجاهلية : المخاضرة ، بيع الثمار خضراً قبل أن يبدو صلاحها . ويدخل فيه بيع الرطاب والبقول وأشباهها على قول بعض . سُمّي مخاضرة لأن المتبايعين تبايعا شيئاً أخضر بينهما ، مأخوذ من الخضرة [5] .

وقد نهي عن (المعاومة) في الإسلام . وهي بيع النخل معاومة . وأن تبيع زرع عامك بما يخرج من قابل . أو أن تبيع تمر النخل أو الكرم أو الشجر سنتين أو ثلاثاً فما فوق[6] . فهو بيع السنين ، ولما فيه من غرر ومن بيع لمجهول، لم يصح هذا البيع في الإسلام[7] .

و (الطنى) : شراء الشجر ، أو بيع تمر النخل خاصة [8] . ونهى في الإسلام عن بيع صبرة التمر المجهولة القدر ، أي بيع المبيع بالكومة ، ولا يعلم مكيلته بالكيل[9] .

---

١ تاج العروس (٩/ ٢٢٤ وما بعدها) ، البخاري (كتاب البيوع ، في باب بيع المزابنة) ، صحيح مسلم (كتاب البيوع ، في باب كراء الارض) .
٢ زاد المسلم (٥/ ٤٧٧) .
٣ زاد المسلم (٥/ ٤٨٢) .
٤ « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن بيع الثمر بالتمر ، وقال ذلك الربا تلك المزابنة الا أنه رخص في بيع العرية، النخلة والنخلتين يأخذها أهل البيت، بخرصها تمرا يأكلونها رطبا » ، زاد المسلم (٥/ ٤٩٤ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٣/ ١٨٠) ، (خضر) ، القاموس (٢/ ٢١) ، صحيح مسلم (٥/ ١١) .
٦ تاج العروس (٨/ ٤١٢) ، (عام) .
٧ صحيح مسلم (٥/ ١٧ وما بعدها) .
٨ القاموس (٤/ ٣٥٨) ، تاج العروس (١٠/ ٢٢٨) ، (طنى) .
٩ صحيح مسلم (٥/ ٩) .

ومن ذلك أيضاً البيع المعروف بـ (المجر) : وهو من بياعات الجاهلية . والمجر بيع ما في بطون الحوامل من الإبل والغنم ، وهو ان يباع الشيء بما في بطن الناقة ، وأن يباع البعير أو غيره بما في بطن الناقة ، ولا يقال لما في البطن مجراً إلا اذا ثقلت الحامل . فالمجر اسم للحمل الذي في بطن الناقة ، وحمل الذي في بطنها[1] .

ونهى الاسلام عن بيع (حبل الحبلة) ، وهو بيع نتاج النتاج،وبيع الأجل، فكان الرجل في الجاهلية يبتاع الجزور الى أن تنتج الناقة ثم تنتج التي في بطنها ، أو بيع حبل الكرم قبل أن يبلغ ، ومنه بيع الملاقيح والمضامين . والملاقيح ما في البطون من الأجنة والمضامين ما في أصلاب الفحول ، وكانوا يبيعون الجنين في بطن الناقة وما يضربه الفحل في عام أو أعوام . وسبب النهي عنه انه من بيوع الغرر ، وهو بيع مجهول[2] .

ومن بيوع أهل الجاهلية : (الغَدَوى) ، وذلك أن تبيع الشاة بنتاج ما نزا به الكبش ذلك العام . وقيل كل ما في بطون الحوامل ، وقوم يجعلونه في الشاة خاصة . أو هو أن يباع البعير أو غيره بما يضرب الفحل ، أو أن تباع الشاة بما نزا به الكبش . وكان الرجل منهم يشتري بالجمل أو العنز أو الدراهم ما في بطون الحوامل[3] .

وأما بيع (الغذى) ، فهو كالسابق أن يباع بنتاج ما نزا به الكبش . وقيل بل يكون الغذى من الإبل والبقر والغنم[4] . وأظن أن (الغدى) و (الغذى) شيء واحد . وقد أخطأ بعض النساخ في حرفي الدال أو الذال ، فصارت الكلمة كلمتان .

وقد نهي في الحديث عن بيع الملاقيح والمضامين . روي عن سعيد بن المسيب

---

١ اللسان (١٥٨/٥) ، زاد المعاد (٢٦٧/٤) ، القاموس (١٣١/٢) ، تاج العروس (٥٣٣/٣) ، (مجر) .
٢ عمدة القارىء (٢٦٢/١١ وما بعدها) جامع الاصول (٤٤١/١ وما بعدها) ، زاد المعاد (٢٦٦/٤) ، صحيح البخاري (٨٧/٢) ، اللسان (١٣٩/١١) ، صحيح مسلم (٣/٥) .
٣ المخصص (٢٥١/١٠ ، القاموس (٢٦٩/٤) ، تاج العروس (٢٦٣/١٠) ، (غدا) .
٤ تاج العروس (٢٦٣/١٠) ، (غذا) .

أنه قال : «لا ربا في الحيوان ، وإنما نهي عن الحيوان عن ثلاث ، عن المضامين والملاقيح وحبل الحبلة » فالملاقيح ما في ظهور الجمال ، والمضامين ما في بطون الاناث . وورد العكس . أي الملاقيح ما في بطون الاناث ، والمضامين ما في أصلاب الجمال . وكانوا يتبايعون أولاد الشاء في بطون الأمهات وأصلاب الآباء [1].

و (الرجع) أن تباع الذكور ويشترى بثمنها الاناث . وقيل بيع الابل بعد الارتجاع منها . و « الرجعة : إبل تشتريها الأعراب ليست من نتاجهم وليست عليها سماتهم » . و « الراجعة : الناقة تباع ويشترى بثمنها مثلها » . والرَّجيعة بعير ارتجعته ، أي اشتريته من أجلاب الناس ، ليس هو من البلد الذي هو به. وكانوا يربحون من بيع الذكور وشراء الاناث بثمنها ، لأن الاناث تلد ، فيكثر عندهم المال . « قيل لقوم من العرب بمَ كثرت أموالكم ؟ فقالوا : أوصانا أبونا بالنجع والرجع » . فالنجع : طلب الكلأ ، والرجع أن تباع الذكور ويشترى بثمنها الاناث[2] . وبذلك يكثرون أموالهم .

وتدخل في البيوعات الجاهلية بيع الرجل ما ليس عنده ، وهو يتضمن نوعاً من الغرر ، فإنه اذا باعه شيئاً معيناً وليس في ملكه ثم مضى ليشتريه ويسلمه له كان متردداً بين الحصول وعدمه ، فكان غرراً يشبه القمار فنهى الاسلام عنه[3] . وبيع المعدوم لا يدري يحصل أو لا يحصل ولا ثقة لبائعه بحصوله بل يكون المشتري منه على خطر ، فإن البائع اذا باع ما ليس في ملكه ولا له قدرة على تسليمه ليذهب ويحصله ويسلمه الى المشتري كان ذلك شبيهاً بالقمار والمخاطرة من غير حاجة بهما الى هذا العقد ولا تتوقف مصلحتها عليه ، لهذا منع الشارع بيعه، لا لكونه معدوماً بل لكونه غرراً[4] .

وقد نهى الاسلام عن بيع الرجل على بيع أخيه وسومه على سومه . فورد ان الرسول نهى عن أن يستام الرجل على سوم أخيه[5] . وكان أهل الجاهلية يستامون بعضهم على بعض بما في ذلك استيام الأخوة ، فنهى عنه ، لما قد يحدث هذا الاستيام من فرقة واختلاف بين الأخوة .

---

١ تاج العروس (٢/٢١٦) ، (لقح) ، (٩/٢٦٦) ، (ضمن) .
٢ المخصص (١٠/٢٥٢) ، تاج العروس (٥/٣٥٢) ، (رجع) .
٣ زاد المعاد (٤/٢٦٢) .
٤ زاد المعاد (٤/٢٦٣) .
٥ صحيح مسلم (٥/٣ وما بعدها) .

ونهى الإسلام عن التلقي للركبان ، أي عن تلقي البيوع والسلع حتى تبلغ الأسواق . وقد ورد في الحديث : « لا تلقوا الجلب ، فمن تلقاه فاشترى منه، فإذا أتى سيده السوق فهو بالخيار » . وذلك لأن من تلقاهم يكذب في سعر البلد ويشتري بأقل من ثمن المثل وهو تغرير[1] . وقد نهي عن بيع الحاضر للبادي. وذلك بأن يكون له سمساراً ليكسب منه ، أو أن يطلب الحاضر من البادي أن يترك متاعه عنده حتى يبيعه بسعر أغلى ، وذلك لما في هذا البيع من تغرير ومن ضرر يصيب الناس[2] .

ونهى الإسلام عن بيوع أخرى من بيوع الجاهلية ، منها بيع (الغرر) ، ويراد به البيوع التي لا يحيط بكنهها المتبايعان ، وهو بيع المخاطرة وهو الجهل بالثمن أو المثمن أو سلامته أو أجله ، ومن ذلك بيع العبد الآبق الذي لا يقدر على تسليمه والفرس الشارد والطير في الهواء، وبيع السمك في الماء ، وكبيع ضربة الغائص وما تحمل شجرته أو ناقته وما يرضى له به أو يهبه له أو يورثه إياه ونحو ذلك مما لا يعلم حصوله أو لا يقدر على تسليمه أو لا يعرف حقيقة مقداره، فهو بيع شيء مجهول[3] . وقد كانت من البيوع الشائعة بين الجاهليين تفنناً في الغش ، وفي الكسب من أي طريق كان .

وقد عرفوا بيعة الغائص ، بأن يقول الغائص في البحر للتاجر: أغوص غوصة، فما أخرجت فهو لك بكذا ، فيتفقان على ذلك . وقد نهي عنه لأنه غرر[4] .

ومن البيوع الجاهلية : (الجس) ، وهو بيع عُرِف بسوق صنعاء . فإذا تعاقد شخصان على سلعة ، ووافقا على البيع ، جس أحدهما يد الآخر ، علامة على صحة البيع[5] .

ومنها : (السرار) . فإذا وجب البيع وعند التاجر إلف ممن يريد الشراء ولا يريده ، أشركه في الربح[6] .

---

١ صحيح مسلم (٥/٥) .
٢ صحيح مسلم (٥/٦) .
٣ عمدة القارىء (١١/٢٦٢ وما بعدها) ، جامع الاصول (١/٤٤١ وما بعدها) ، زاد المعاد (٤/٢٦٦) ، صحيح البخاري (٢/٨٧) ، « كتاب البيوع » .
٤ تاج العروس (١/٣٥٠) ، (ضرب) .
٥ المحبر (ص ٢٦٦) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦٤) .
٦ المحبر (ص/٢٦٧) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦٤) .

وهناك نوع من البيوع يقال له (الجزاف) ، وهو أخذ الشيء بالحدس بلا كيل ولا وزن ولا عدد[1] .

وقد عرف (بيع المزايدة) عند الجاهليين كذلك[2] . وهو أن يعرض ما يراد بيعه للبيع فيتزايد من يريد شراءه على ثمنه ، حتى يقف على آخر من يقدم أكبر سعر له[3] .

ومن البيوع بيع (العينة) ، أن يشتري التاجر بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم ويقبضه ثم يبيعها من طالب العينة بثمن أكثر مما اشتراه الى أجل مسمى ، ثم يبيعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن الذي اشتراها به ، فهذه عينة . وسميت عينة لحصول النقد لطالب العينة . وذكر ان العينة ، اذا باع التاجر من رجل سلعته بثمن معلوم الى أجل معلوم ، ثم اشتراها منه بأقل من ذلك الثمن الذي باعها به . وللفقهاء كلام في هذا البيع[4] . وقد كانوا يربحون من (العينة) ، قال « عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وكان من سادة قريش : « أغد غداً الى السوق ، فخذ لي عينة » ، فغدا ابنه فتعين من السوق عينة لأبيه ، ثم باعها ، فأقام اياماً ، ما يبيع في السوق طعاماً ولا زيتاً غير ابنه من تلك العينة . وربح منها ربحاً طيباً[5] .

وقد كان في جملة البيوع التي نهى عنها الرسول ، بيع حاضر لباد ، والبادي هو الذي يكون في البادية ، مسكنه المضارب والخيام ، والحاضر ساكن الحضر ، وصورة البيع للبادي أن يقدم غريب من البادية بمتاع ليبيعه بسعر يومه ، فيقول له بلدي : اتركه عندي ، لأبيعه لك على التدريج بأغلى منه . أو أن تشتري السلع من الأعراب الوافدين على القرى وهم في طريقهم الى السوق وأماكن البيع بأثمان بخسة ، ثم عرضها في السوق واغلاء أثمانها فيها ، أو تشرى السلع منهم ، وهي في السوق وعرضها مرة أخرى للبيع ، لكسب الفرق بين السعرين . وقد نهى الإسلام عن هذا البيع ، لما فيه من احتكار واضرار بالمصلحة العامة ، ليكتسب

---

١ شمس العلوم (حـ ١ ق ٢ ص ٣٣٠) .
٢ القسطلاني (٤/ ٦١ وما بعدها) .
٣ اللسان (٣/ ١٩٩) .
٤ تاج العروس (٩/ ٢٩١) ، (عين) .
٥ كتاب نسب قريش (٣٠٤) .

بذلك نفر محدود من الناس . وللفقهاء في هذا البيع كلام وآراء[1] .

وقد كان الناس يلجأون الى أساليب غير حميدة من أساليب التلاعب بالأسعار ، وغش المشترين والتحايل بالبيع ، كأن يأتي البائع بجماعة من أصحابه يتظاهرون بالشراء وبالتكالب على السلعة لرفع السعر ، حتى يدفع الحاضرين على رفع السعر ، فيرسو البيع عليهم . وبذلك يغش البائع المشتري . وهو بيع نهي عنه في الاسلام .

ومن البيوع التي تتضمن الغش والخداع بيع التصرية . وكان من عادة العرب اذا أرادوا بيع شاة أو ناقة تركوا أياماً لا يحلبونها ، فيبقى اللبن في ضرعها ، فيكبر ، فيعرضها البائع للبيع ، ويظن المشتري ان كبر ضرعها ووجود اللبن بغزارة فيه ، هو بسبب ان تلك الشاة أو الناقة حلوبة ، فيشتريها ، فيغش . ونظراً الى ما في هذا البيع من غش وخداع نهي عنه في الاسلام[2] ، وجعل خيار البيع ثلاثة أيام ، فإن ردها ردّ معها صاعاً من تمر ، وإن شاء أمسكها . ويقال لهذا البيع أيضاً بيع المصراة[3] .

وقد يشتري الشركاء سلعة رخيصة ، ثم يتزايدون بينهم حتى يبلغوا غاية ثمنها ، فيشتريها من يرسو الثمن عليه ، ويأخذها . ويقال لذلك : (التقاوي) . ولم يرَ الإسلام بأساً بذلك . وفي حديث ابن سيرين لم يكن يرى بأساً بالشركاء يتقاوون المتاع بينهم فينمى ويزيد[4] .

ومن البيوع التي نهي عنها في الإسلام (الإعراب) . أن يقول الرجل للرجل : إن لم آخذ هذا البيع بكذا ، فلك كذا وكذا من مالي[5] .

---

١ عمدة القاريء (١١/٢٥٨) ، ارشاد الساري (٤/٧٢ وما بعدها) .

٢ صحيح البخاري (٢/٨٧) ، « وفي حديث النبي ، صلى الله عليه وسلم : من اشترى مصراة ، فهو بخير النظرين ، ان شاء ردها ورد معها صاعا من تمر ... لا تصروا الابل والغنم » ، اللسان (١٤/٤٥٨) .

٣ صحيح مسلم (٥/٤) ، تاج العروس (١٠/٢٠٩) ، (صري) .

٤ تاج العروس (١٠/٣٠٧) ، (قوو) .

٥ تاج العروس (١/٣٧٢) ، (عرب) .

الخلابة :

ومن البيوع الفاسدة الخلابة . وتقوم على المخادعة ، والخلابة المخادعة . وفي الحديث : أن بيع المحفلات خلابــة ، ولا تحلّ خلابة مسلم . والمحفلات التي جُمع لبنها في ضرعها . وفي حديث النبي ، أنه قال لرجل كان يخدع في بيعه: إذا بايعتَ ، فقل لا خلابة ، أي لا خداع[1] . وذلك لأن بعض الباعــة كانوا يخادعون المشتري في بيوعهم .

ومن بيوع أهل الجاهلية : بيع المواصفة ، وهو أن تواصف الرجل بالسلعة ليست عندك . وقد أبطل هذا البيع بعض الفقهاء ، وأجازه بعض آخر ،إذا وافقت السلعة الصفة[٢] .

وقد يتفق في السلعة الرهط ، فلا يجدون بداً من أن يشتركوا وهم كارهون. وربما اتفقوا فألقوا الحجارة جميعاً إذا كانوا عدداً على أمر بينهم فوكسوا صاحب السلعة إذا طابقوا عليه[٣] .

ومن بيوع أهل الجاهلية بيعهم الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح . وقد نهي عنه في الاسلام ، إلا سواء بسواء ، أي إلا متساوين ، ويداً بيد . ويسمى هذا البيع (مراطلة) إن كان بالوزن ، ومبادلة إن كان بالعدد[٤] . وأما بيع الذهب بالفضة ، والفضة بالذهب ، فقد أبيح ذلك في الاسلام كيف شاء المتبايعون ، بتفاضل أو بتساو ، لأن بيع الذهب بالفضة والعكس يسمى (صرفاً) ويجوز فيه التفاضل ، لكن يشترط فيه التقابض يداً بيد[٥] .

ويظهر من منــع الاسلام لبيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة إلا أن يكونا متساويين ويداً بيد ، أي مقبوضين ، ان أهل الجاهلية كانوا يبيعون الذهب بذهب

---

١ اللسان (٣٦٣/١) ، (خلب) .
٢ تاج العروس ٥(٣٩/) ، (روض) .
٣ المحبر (٢٦٤) . (أسواق العرب المشهورة في الجاهلية ومبايعتهم فيها) .
٤ قال ابن عاصم في تحفة الحكام :
والجنس بالجنس هو المراطلة   بالــوزن أو بالعـد فالمبــادلة
٥ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم (٤٧٠/٥ وما بعدها)، (القاهرة ١٩٥٦م).

يزيد عليه حين يؤديه في أجله المحدود ، فاعتبر الاسلام ذلك علة من علل الربا، وعلته هنا الثمينة ، ولو تبايــع الناس بالجلود لنهى عن التفاضل فيها . والعلة في الأربعة الأخرى الادخار للقوت أو ما يصلح للقوت . وعلة الربا هي النقدية أو الطعم أو الاقتيات[1] .

ومن بيوع أهل الجاهلية بيع حق الانتفاع ، مثــل أن يبيع بائع لمشتري حق الانتفاع من ظهر دابة ، بأن يستفيد من ركوب ظهر الدابة التي اشتراها، ولكن الدابة تكون مع ذلك لصاحبها . ومن ذلك اشتراط البائع على المشتري ظهر الدابة الى مكان معين[2] .

وقد كان الباعة الجاهليون يفعلون في أسواقهم ما يفعله باعة أيامنا من صخب في السوق ، ومن لغط ومن قسم عــلى جودة السلع ورخص أسعارها ، يريدون التأثير على المشترين وحملهم على الشراء . وقد لاحظ الرسول ما في هذا الصخب من ضرر ، وما في هذا النوع من الدعاية للبضاعة من غش ، فنهى عنه[3] .

وقد لخصت بعض كتب الحديث والفقه البيوع وعرفتها عــلى النحو الآتي : البيع المطلق إن كان بيع العين بالثمن ، والمقايضة إن كان عيناً بعين ، والسلم ان كان بيع الدين بالعين ، والصرف ان كان بيع الثمن بالثمن ، والمرابحة ان كان بالثمن مع زيادة ، والتولية إن لم يكن مع زيادة . والوضيعة ان كان بالنقصان ، واللازم إن كان تاماً ، وغير اللازم ان كان بالخيار ، والصحيح والباطل والمكروه[4].

والبيع نقــداً ، وهو خلاف النسيئة . وهو أن يشتري الرجل شيئاً ، فيعطي البائع نقداً معجلاً[5] . أما بيع النسيئة ، فهو البيع المؤخر ، أي الـذي يدفع ثمنه مؤخراً[6] .

وقد اتخذ الاسلام قاعدة عامة في البيوع ، هي : بطلان بيع المبيع الذي يقوم على بيع المجهول كمّاً وكيفيةً وقبل التأكد منه ، أي بيع المجهول ، لما في ذلك

---

١ زاد المسلم (٤٧٢/٥) .
٢ ارشاد الساري (٤٣٣/٤) .
٣ عمدة القاريء (باب كراهية الصخب « السخب » في السوق) ، (٢٤٢/١٠) .
٤ عمدة القاريء (١٥٩/١١ ، ١٧٥) ، « كتاب البيوع » .
٥ تاج العروس (٥١٦/٢) ، (٤٥٤/١) ، « طبعة الكويت » ، « نساء » ، البخـــاري (٥٩/٣) ، (كتاب البيوع) ، عمدة القاريء (١٨٢/١١) ، (كتاب البيوع) .
٦ تاج العروس (٤٥٤/١) ، (نسأ) ، (طبعة الكويت) .

من التغرير ، أي الخداع في البيع والغبن ، ولما يقع من هذه البيوع من أضرار ولما تحدثه من خصومات ومجادلات ومن تلاعب في الأسعار ومن تأثير ذلك في الناس المنتفعين . فأبطل بيع المبيع قبل القبض، إذ كان الجاهليون يتبايعون بالذهب والطعام وهو مرجأ ، يشترون الطعام من الركبان جزافاً ، ثم يبيعونه في مكانه ، للكسب، فنهى الرسول عن هذا النوع من البيع ، حتى يؤووه الى رحالهم ويحوّلوه، وفي رواية ويكتالوه ، وأمر الرسول بضرب من يبتاع الطعام جزافاً [1] ، كما نهى عن معظم البيوع المذكورة واعتبرها باطلة ، لا تعتبر عقداً صحيحاً مشروعاً لمن عقده .

والبيوع المذكورة وإن كانت بيوعاً بنيت في الواقع على ايجاب وقبول في البيع وتراض من الطرفين وبموافقة بحصول البيع من المتعاقدين : البائع والمشتري ، غير ان هذه البيوع كانت تحدث منازعات أحياناً بين الطرفين ، وتنتج ضرراً لذلك نهي عنها في الاسلام وقيّد بعضها بقيود حتى تحدّ من وقوع المخاصمات قدر الامكان ومن وقوع الغلط في السلعة ، من حيث الجنس والنوع أو من حيث الصفة ، ومن وقوع الغبن والتغرير .

الحكرة :

الحكرة وتعرف أيضاً بالاحتكار ، ويراد بها حبس الطعام ليتربص به الغلاء . وذلك للحصول على كسب زائد . وقد كان أهل المال من الجاهليين يقصدون الأسواق ، فيشترون ما يرون فيه ربحاً في المستقبل من طعام أو ما شابه ذلك من مواد ضرورية ، ثم يختزنونها ، ويبيعونها عند حلول الموسم أو وقوع مجاعة أو فرص مؤاتية بسعر مرتفع ، غير مبالين بما في ذلك من ضرر ومن استغلال لأحوال الناس . وقد ورد النهي عن هذا البيع في الإسلام [2] .

ومن التجار المتمكنين من كان يشتري حمولة قافلة كاملة ، ثم يحتكرها ليبيعها

---

١ صحيح مسلم (٥/٧ وما بعدها) .

٢ « في الاحتكار والتسعير » ، جامع الاصول (٢/٢٢ وما بعدها) ، اللسان (٤/٢٠٨) ، (حكر) ، تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حكر) .

وقت الحاجة ، أو يدخرها ويبيع منها على التفريق بغية الربح ، فلا ينافسه على ربحها أحد[1] . ويجعل لما اشتراه السعر الذي يشاء .

ومن التجار من كان يتلقى (الركبان) ليشتروا ما معهم من طعـــام ، وذلك قبل وصولهم السوق[2] . فيتضرر بذلك تجار الأسواق ، والمستهلكون، أي المشترون، ومن هذا القبيل ، خروج الحضر،لاستقبال البدو ، أي الأعراب ، الذين يقصدون الحواضر ، لبيع ما عندهم من سلع ، فكان أصحاب المال يستقبلونهم قبل وصولهم السوق، وقبل اتصالهم بالتجار ، ووقوفهم على السعر ، فيشترون منهم ما يحملونه من سلع ، لبيعها في السوق[3] .

شهود البيع :

وقد كان من الجاهليين من يشهد (شهوداً) على التبايع ، أي يجعل له شهوداً يشهدون على صحة المعاملة ، ومنهم من كان يكتب التبايـــع وشروطه بكتاب ، حتى لا ينكل أحد المتبايعين عن البيع ، ويلحق الضرر بالطرف الآخر . إذ يكون الكتاب حجة وشاهداً والى ذلك أشير في القرآن الكريم : « وأشهدوا إذا تبايعتم . ولا يضار كاتب ولا شهيد »[4] ، وذلك منعاً لما قد يحدث من خلاف ونزاع بين المتكاتبين ، فيرجع عندئذ الى ما هو مكتوب ويعمل بموجبه .

فسخ البيع :

والبيع عقد فيه ايجاب وقبول ، فلا يجوز فسخه والتخلص منه من غير سبب مخل بعقد شرط البيع . أما اذا حصل تراض على فسخ الصفقة فذلك مباح لأنه قـــد حصل عن رضا وموافقة واختيار ، دون إكراه ولا إجبار . ويعبر عن تفاسخ الصفقة بـ (تقايل البيع) . يقال : تقايلا بعدما تبايعا أي تتاركا . وأقلته

---

١ اللسان (٤/٦٢٤) ، (عير) .
٢ ارشاد الساري (٤/٧٤) .
٣ ارشاد الساري (٤/٧٢ وما بعدها) .
٤ البقرة ، الآية ٢٨٢ ، تفسير الطبري (٣/٨٨) .

البيعَ إقالة : فسخه . وعاد المبيع الى مالكه والثمن الى المشتري،اذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما [1] .

العربون :

و (العربون) ما عقد به البيع[2] . ويعبر عنه بـ (عربن) في المسند . وتقابل هذه اللفظة لفظة (العربان) في عربية القرآن الكـريم[3] . وهو ما يقدمه المشتري للبائع لعقد البيع ، اذا كان البيع نسيئة ، حتى يسلم تمام الذي الذي اتفق عليه . ولهذا لا يكون عربوناً اذا تم البيع يداً بيد ، أي اذا دفع الثمن كاملاً في مجلس البيع ، وتم البيع والاستلام ، إذ لا حاجة عندئذ اليه ، لأن العربون وديعة تقدم للائتمان ، لتكون وثيقة للبيع ، ولقبول المشتري السلعة ، فلا يحق له النكول عن البيع وإلا خسر عربونه ، وليكون ضماناً للبائع على البيـع ، فإذا نكل المشتري وامتنع عن الشراء خسر عربونه ، وصار حقه للبائع بدل النكول . ولهذا يكون العربون في الغالب مبلغاً يرضي البائع ، أي متناسباً مع قيمة البيع[4] .

وكما يكون (العربون) في البيع يكون في الاجارة ، وفي العمل . وذلك أن يقدم الرجـل ربَّ العمل أو المال الى الصانع أو التاجر ليرتبط العقد بينهما حتى يتوافيا بعد ذلك[5] . فإذا أخلف رب العمل أو المال في وعده وخاس في عهده ، صار العربون من حق الصانع أو التاجر .

ويعبر عن العربون بلفظة (ودعت) في المسند . ويراد بها الوديعة [6] . والوديعة في عربيتنا ما استودع . يقال : استودعه مالاً وأودعه إياه : دفعه اليه ليكون عنده وديعة [7] . فالوديعة في هـذه العربية قد تؤدي معنى العربون ، وقد تؤدي معنى الرهن والرهينة ، وقد تؤدي معنى الاستيداع مطلقاً ، أي ايداع شيء عند شخص

---

١ اللسان (١١/٥٧٩ وما بعدها) ، (قيل) .
٢ تاج العروس (٩/٢٧٧) ، (عربن) .
٣ تاج العروس (١/٣٧٢) ، (عرب) .
٤ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .
٥ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .
٦ REP. EPIGR. 3911.
٧ اللسان (٨/٣٨٦) ، (ودع) .

وحفظه لديه . وأنا لا أستبعـد أن يكون هذا المعنى ، هو معناها في لغة المسند أيضاً .

ويقال للعربون ، الأربون كذلك . وهو ما عقد به المبايعة ، أو البيعـة من الثمن . وفي الحديث أنه نهي عن بيع العربان ، وهو أن يشتري السلعة ويدفـع الى صاحبها شيئاً ، على أنه إن أمضى البيع حسب من الثمن ، وإن لم يمض البيع كان لصاحب السلعة ، ولم يرتجعه المشتري . وذكر هو القليل من الثمن أو الأجرة يقدمه الرجل الى الصانع أو التاجر ليرتبط العقد بينهما حتى يتوافيا بعد ذلك . فكما أنه يكون في البيع يكون في الاجارة . وللعلماء الفقهاء آراء في جواز أو عدم جواز البيع بالعربون[1] .

و (الكُلأة) النسيئة والعربون ، أي السلفة . وفي الحديث نهي عن الكالىء بالكالىء ، يعني النسيئة بالنسيئة[2] .

و (المسكان) العربون كذلك . وجاء في الحديث النهي عن بيـع المسكان ، وهو أن يشتري شيئاً فيدفع الى البائع مبلغاً على انه إن تم البيع احتسب من الثمن ، وإن لم يتم كان للبائع ولا يرتجع منه[3] .

الخيار في البيع :

والخيار في البيوع طلب خير الأمرين : إما الامضاء وإما البيـع أو فسخه[4] . فقد يرى البائع أو المشتري في السلعة المشتراة رأياً ، لم يكن له حين عقد صفقة البيع . وللفقهاء كلام عليه ، وهو أنواع عندهم ، منها خيار المجلس ، وخيار الشرط ، وخيار الرؤية وهو شراء ما لم يره على انـه بالخيار إذا رآه ، وخيار العيب ، وخيار تلقي الركبان ، وخيار تفريق الصفقة وتفريقها بتعددها بالابتداء ، وخيار العجز عن الثمن ، وخيار فقد الوصف المشروط في المبيع ، والخيار فيما رآه

---

١ « وفي حديث عمر أن عامله اشترى دارا للسجن بأربعة الاف، وأعربوا فيها اربعمائة، أي أسلفوا » ، تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .
٢ تاج العروس (١/١١١) ، (كلا) .
٣ تاج العروس (٧/١٧٧) ، (مسك) .
٤ تاج العروس (٣/١٩٥) ، (خير) .

قبل العقد اذا تغير عن صفته ، وغير ذلك[1] . وقد جعل بعضهم الخيار ثلاثة أضرب : خيار المجلس ، وخيار الشرط ، وخيار النقيصة [2] .

وقد يشترط في البيع ألا يضمن عهدته . ويقال لهذا النوع من البيع : (الملسى) و (الملسى) ، هي البيعة التي لا يتعلق بها تبعة ولا عهدة . يقال : أبيعك الملسى لا عهدة . أي تتملس وتنفلت ولا ترجع إليّ . ويقال في البيع ملسى لا عهدة ، أي قد انملس من الأمر لا له ولا عليه[3] .

صفات البيع :

وإذا تم عقد بيع بين بائع ومشترٍ ، يضع أحدهما يده في يد الآخر ، دلالة على قبول البيع وتمامه . ومن هنا قيل للتبايع الصفق . وورد : تصافقوا ، أي تبايعوا [4] . وبذلك يتم البيع ويكون في عرفهم بيعاً صحيحاً .

وكانت عادتهم انهم اذا تبايعوا تصافقوا بالأيدي ، دلالة على عقد البيع وحصول الرضا به ، ووقوع الايجاب والقبول من البائع والمشتري ، ومن هنا قيل للبيعة صفقة ، والصفقة تكون للبائع والمشتري[5] . ومتى تم التصافق فلا يجوز لأحدهم النكول عن البيع ، لأنه عقد عقداً وأمضى أمراً ، وكان عليه أن يعمل رأيه قبل المصافقة ، واذا كانت البيعة على شيء مجهول ، كأن تكون السلعة المباعة قد خبئت في خباء وبيعت مجهولة ، ووافق المشتري على شرائها على تلك الحالة ، ثم تبين انها دون الثمن بكثير ، فلا حق للمشتري برد البيع ، لأنه حين شرائه تلك السلعة كان يعلم انها مخبأة وانها تباع بيع الشيء المجهول . وقد رضي بالبيع بالمصافقة ، فلا حق له اذن برفض السلعة .

---

١ ارشاد الساري (٤/٤٢) ·

٢ تاج العروس (٣/١٩٥) ، (خير) ·

٣ قال الراجز :
لما رأيت العام عاما أعبا وما ربيع مالنا بالملسى
تاج العروس (٤/٢٤٩) ، (ملس) ، اللسان (٦/٢٢١) ، (ملس) ·

٤ اللسان (١٠/٢٠٠ وما بعدها) ، (صفق) ·

٥ تاج العروس (٦/٤٠٩) ·

الدَّيْن :

وقد لعبت الديون دوراً خطيراً في الحياة العامة في الجاهلية وفي الحياة الاقتصادية بصورة خاصة ، لاضطرار التجار الى التعامل بالدين ، وكذلك الباعة والمشترين . وتلعب الحاجة الدور الأول في التداين ، فلولاها لما استدان مدين .

وقد استدان أصحاب المال بعضهم من بعض أيضاً ، لتمشية أمورهم المالية ، ولتوسيع رأسمالهم بالدين ، بتشغيله للحصول على ربح كبير منه . وذلك على نحو ما يفعل التجار في هذا اليوم ، من التداين من البنوك ، لتشغيل ما يستقرضونه منها في أعمال تجارية تأتي اليهم بأرباح تزيد كثيراً على مقدار الفائدة التي ستدفع للبنوك .

وقد أشير الى الدَّين في القرآن الكريم . ورد في سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجلٍ مسمّى ، فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل »[1] . يعني « يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إذا تداينتم يعني إذا تبايعتم بدين أو اشتريتم به أو تعاطيتم أو أخذتم به الى أجل مسمى . يقول الى وقت معلوم وقتموه بينكم . وقد يدخل في ذلك القرض والسلم في كل ما جاز السلم شرى أحل بيعه ، يصير ديناً على بائع ما أسلم اليه فيه ، ويحتمل بيع الحاضر الجائز بيعه من الأملاك بالأثمان المؤجلة . كل ذلك من الديون المؤجلة الى أجل مسمى ، إذا كانت آجالها معلومة بحد موقوف عليه . كان ابن عباس يقول : نزلت هذه الآية في السلم خاصة »[2] .

و (السلم) الذي يشير (ابن عباس) اليه ، هو (السلف) . وأسلم وأسلف بمعنى واحد[3] . والسلف القرض الذي لا منفعة فيه للمقرض ، غير الأجر والشكر ، وعلى المقترض ردّه كما أخذه[4] .

والدين في تعريف العلماء ما له أجل ، وما لا أجل له فقرض . وبينهما وبين

---

١ الآية (٢٨٢) .

٢ تفسير الطبري (٣/٧٦) .

٣ تاج العروس (٨/٣٣٧) ، (سلم) .

٤ تاج العروس (٦/١٤٣) ، (سلف) .

السلم فروق عرفية[1] . والقرض ما تعطيه من المال لتقضاه[2] .

وقد كان من الصعب دفع الديون أو استحصالها ، للأحوال الاقتصادية السيئة التي قد تحيط بالمدين . فإذا أخذ الرجل الدين أكله ، فإذا أراد صاحب الدين حقه لواه به ، أي مطله . ومنه المثل : الأخذ سلجان والقضاء ليان[3] .

المنحة :

والمنحة العطيّة . وقد تقع المنحة على الهبة مطلقاً ، لا قرضاً ولا عارية، فتكون له . وقد تكون اعارة للاستفادة من منفعة ، ثم تعاد . ومن هذا القبيل منحة الأرض . فقد تمنح هبة ، فتكون لمن وهبت له ، يستغل منفعتها، وله ان يبيعها متى شاء ، لأنها هبة وهبت له ، فصارت في حكم ملكه ، وقد تستغل إعارة لأجل يتفق عليه ، أو بغير أجل ، يستردها صاحبها متى شاء وأحب. ومن المنح، منح الإبل ، للاستفادة من وبرها وألبانها وولدها ، والسفر عليها ، واكرائها للقوافل وللأشخاص . والمنحة المعارة مردودة . وقد ورد في الحديث : المنحة مردودة ، والعارية مؤداة[4] . وورد ان المنحة عند العرب على معنيين: أحدهما ان يعطي الرجل صاحبه المال هبة أو صلة فتكون له . وأما المنحة الأخرى، فإن يمنح الرجل أخاه ناقة أو شاة يحلبها زماناً وأياماً ثم يردها . وهو تأويل ما ورد في الحديث من قوله : المنحة مردودة والعارية مؤداة[5] .

---

١ تاج العروس (٩/٢٠٧) ، (دين) ·

٢ تاج العروس (٥/٧٦) ، (قرض) ·

٣ تاج العروس (٢/٥٩) ، (سلج) ·

٤ تاج العروس (٢/٢٣٢) ، (منح) ·

٥ تاج العروس (٢/٢٣٢) ، (منح) ·

الفصل السادس بعد المئة

الشركة

والشركة في البيع ، معروفة عند الجاهليين ، فقد كان النـاس يشتركون في البيع ، بالمساهمـة ، بمال الشركة مناصفة أو على نصيب يعين أو بنسب يتفقون عليها ، وبالمساهمة بمال يقدم من جهة وبعمل يقوم به الطرف الآخر وَفْق شروط يتفق عليها المشاركون بالنسبة الى الربح أو الى الخسارة . وقد كان من عادة أهل مكة مساهمة معظم أهلها في مال تجارتهم التي يرسلونها الى اليمن والى بلاد الشأم، ولهذا كانت القافلة الـتي يرسلونها تكون كبيرة ضخمة ، يزيد عدد جمالها على الألف . ومعنى هذا أن المال الذي تحمله القافلة يكون كبيراً غالياً ، وذلك لأن أكثر أهل مكة من الأغنياء والموسرين والمتوسطين قد ساهموا فيه .

ويقال للشريك (الجار) . و (الجار) الشريك في العقار والشريك في التجارة [1].

وقد يتكاتب الشركاء فيما بينهم ، بأن يكتبوا ما اتفقوا عليه في صحيفة تحفظ نسخ منها عند الشركاء . وقد يتكاتبون ، وانما يرضون بالوفاء عـلى ما اتفقوا عليه ، معتمدين على اخلاصهم في النية وعزمهم على الوفاء بما اتفقوا عليه بكل أمانة واخلاص . ونجد في كتب أهل الأخبار أمثلة على تشارك أشخاص للقيـام بأعمال تجارية في مختلف أنحاء جزيرة العرب . فهي تبين ان الشراء كانوا يقدمون من أموالهم كذا وكذا من المال ، للعمل شركة. فيخلطون المال المقدم من الشركاء

---

١ تاج العروس (١١١/٣) ، (جار) .

حتى يصير شيئاً واحداً ، وبعد إخراج رأس المال بعد الحساب ، والمؤن والكلف يقسم الربح نصفين إن كانا شريكين ، أو أكثر حسب عدد الشركاء ومقدار ما ساهم به كل واحد من الشركاء في رأس المال . وتوزع الخسائر ، إن كانت هنالك خسائر على عدد المساهمين ، وبنسب ما ساهم كل واحد من المساهمين في رأس المال[1] .

وقد ورد في الأخبار ان (نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم) كان في الجاهلية شريكاً (للعباس بن عبد المطلب) ، وكانا شريكين متفاوضين في المال متحابين . ولما وقع في الأسر في (بدر) ، فداه العباس . وقد كان غنياً ، أسلم ، وأعان رسول الله يوم بدر بثلاثة آلاف رمح[2] . وكان (السائب بن أبي السائب صيفي بن عائذ) يشارك الرسول في تجارته ، ويتاجران مع بلاد اليمن[3] . وذكر ان (السائب بن عبدالله) المخزومي ، كان هو شريك الرسول وصاحبه في الجاهلية[4] . وورد ان (السائب بن الحارث بن صبرة) ، كان شريكاً للنبي بمكة[5] . ويظهر ان اشتراك الثلاثة في الاسم ، صير ثلاثتهم شركاء للرسول في تجارته ، والصحيح ان واحداً منهم كان شريكاً له .

وكان (مرداس بن أبي عامر) ، والد (العباس بن مرداس) الشاعر ، شريكاً لحرب بن أمية ، والد أبي سفيان[6] . وكان (العباس بن أنس) شريكاً لعبد المطلب[7] .

وقد شارك (البراء بن عازب) (زيد بن أرقم) بالصرف ، وهو بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة . ثم راجعا رسول الله فيه ، فقال لهما : ما كان يداً بيد فخذه ، وما كان نسيئة فذروه[8] .

وقد تشارك أهل مكة فيما بينهم في تكوين الشركات ، كما تشاركوا مع غيرهم

---

١ نهاية الارب (١٨/٩) .
٢ البرقوقي (ص ٧٢) .
٣ امتاع الاسماع (٨/١ وما بعدها) ، الاصابة (١٠/٢) ، (رقم ٣٠٦٤) .
٤ الاصابة (١٠/٢) ، (رقم ٣٠٦٦) .
٥ الاصابة (١٠/٢) ، (رقم ٣٠٥٧) .
٦ الاصابة (٢٦٣/٢) ، (رقم ٤٥١١) .
٧ الاصابة (٢٦٢/٢) .
٨ ارشاد الساري (٢٩٠/٤) .

في تكوين شركات ، أسست لها فروعاً في المحال التي أقام فيها الشركاء الغرباء. فقد شاركوا بعض أهل اليمن ، وجعلوا من مواضع شركائهم فروعاً لهم هناك ، يبيعون ويشترون شراكة ، ويقتسمون الأرباح والخسائر على حسب ما اتفقوا عليه. فشاركوا أهل الحيرة ، كانوا يرسلون تجارتهم اليهم ، لبيعها في أسواق الحيرة ، ويرسل شركاؤهم من أهل الحيرة بضائعهم الى مكة،لتصريفها بها ، ثم يتحاسبون ويقسمون الأرباح أو الخسائر حسب ما اتفقوا عليه . وكان (كعب بن عدي) التنوخي الحيري ، شريك (عمر) في التجارة . يتاجر معه في البز . وقد أسلم قبيل وفاة الرسول ، وكان قد ذهب في وفد من أهل الحيرة الى المدينة ، فعرض الرسول عليهم الاسلام فأسلموا ، فلما انصرفوا الى الحيرة ، جاءتهم أنباء وفاة الرسول ، فارتاب أصحابه ، وقالوا : لو كان نبياً لم يمت ، وقال كعب : فقد مات الأنبياء قبله ، وثبت على الإسلام ، ثم خرج الى المدينة ، ورأى (أبا بكر) ، فلما بعث أبو بكر جيشاً الى اليمامة ذهب معه ، ثم أرسله (عمر) الى (المقوقس) وقدم الاسكندرية سنة خمس عشرة رسولاً من (عمر) الى المقوقس. وشهد فتح مصر .

وورد في رواية أخرى ، أنه أسلم بعد وفاة الرسول ، في خلافة (أبي بكر). وورد في رواية أخرى أنه كان أحد وفد الحيرة الى الرسول ، وكان شريك النبي في الجاهلية[1] . وكان عقيداً أي حليفاً لعمر[2] .

وقد أشرك أهل مكة سادات القبائل معهم في الاتجار ، تأليفاً لقلوبهم ، وحماية لتجارتهم ولقوافلهم من التعرض للسلب والنهب ، وكانوا يعطونهم نصيبهم من الأرباح . وهو عمل حكيم جعل سادات القبائل يفدون الى مكة ، ويعقدون العقود مع تجارهم للاتجار معهم . وبذلك توسعت تجارة مكة وزادت رؤوس أموال قريش .

وقد كان أهل اليمن يتشاركون في الأرض ، وهو أن يدفعها صاحبها الى آخر بالنصف أو الثلث أو نحو ذلك . وقد أشير الى هذا التشارك في نصوص المسند . وفي حديث معاذ : انه أجاز بين أهل اليمن الشرك ، أي الاشتراك في الأرض[3] .

---

١ الاصابة (٢٨٢/٣) ، (رقم ٧٤٢٢) .
٢ الاصابة (٢٨٢/٣) ، (رقم ٧٤٢٢) ، تاج العروس (٤٢٨/٢) ، (عقد) .
٣ اللسان (٤٤٩/١٠) ، (شرك) ، تاج العروس (١٤٨/٧) ، (شرك) .

أنواع الشركات :

ويقسم الفقهاء الشركة في التجارة الى شركة عنـــان ، وشركة مفاوضة ، أو شركة عنان وشركة تفويض[1] . وجعلها بعضهم أنواعاً أربعـــة : شركة الأبدان كشركة الحمّالين والجمّالين وسائر المحترفة ليكون كسبها متساوياً أو متفاوتاً مع اتفاق الصنعة واختلافها ، وشركة الوجوه ، كأن يشترك وجيهان عند الناس ليبتاع كل منها بمؤجل ويكون المبتاع لها ، فإذا باعا كان الفاضل عن الأثمان بينهما ، وشركة المفاوضة ، بأن يشترك اثنان بأن يكون بينهـــا كسبها بأموالها وأبدانهما وعليها ما يعرض من مغـرم . وسميت مفاوضة من تفاوضا في الحديث شرعا فيه جميعاً ، وشركة العنان . وكلها باطلة إلا شركة العنان ، لخلو الثلاث الأولى عن المال المشترك ولكثرة الغرر فيها بخلاف الأخيرة فهي الصحيحة[2] .

فأما (شركة العنان) أو (العنان) (شركة عنان) ، فهي أن يخرج كل واحد من الشريكين دنانير أو دراهم مثل ما يخرج صاحبه ويخلطاها ، ويأذن كل واحد منها لصاحبه بأن يتجر فيه . فإن ربحا في المالين فبينهما ، وان وُضعا فعلى رأس مال كل واحد منها . وسميت هذه الشركة شركة عنان لمعارضة كل واحد منها صاحبه بمال مثل ماله ، وعمله فيه مثل عمله بيعاً وشراءً . وقـــد أشير الى هذه الشركة في شعر ينسب الى النابغة الجعدي ، حيث يقول :

وشاركنا قريشاً في تقاهـــا وفي أحسابها شِرك العنان[3]

وهناك شركة أخرى عرفت بـ (شركة المفاوضـة) (فوضى) ، وهي أن يشتركا في كل شيء في أيديهما أو يستفيداه من بَعْدُ ، وقيل هـــو أن يعارض الرجلُ الرجل عند الشراء فيقول له : أشركني معك ، وذلك قبل أن يستوجب العَتَق . ورد : « الشركـــة شركتان : شركة العنـــان ، وشركة المفاوضة »[4] .

---

1 تاج العروس (١١١/٣) ، (جار) ، تاج العروس (٢٨/٩) ، (عن) .
2 ارشاد الساري (٢٨١/٤) ، (باب الشركة) .
3 اللسان (٢٩٢/١٣) « صادر » ، تاج العروس (١٤٨/٧) ، (شرك) ، (وفي أنسابها) تاج العروس (٢٨٢/٩) ، (عن) .
4 اللسان (٢٩٢/١٣) « صادر » .

وذكر أن شركة المفاوضة ، وهي العامة في كل شيء . وشركة العنان في شيء واحد . يقال شاركته شركة مفاوضة ، وذلك أن يكون مالهما جميعاً من كل شيء يملكانه بينهما . وقيل شركة المفاوضة أن يشتركا في كل شيء في أيديهما أو يستفيآنه من بعد . يقال تفاوض الشريكان في المال إذا اشتركا فيه أجمع . والمفاوضة المساواة . ويقال متاعهم فوضى بينهم إذا كانوا فيه شركاء . كما يقال أيضاً فوضى فضا . قال الشاعر :

طعامهم فوضى فضا في رحالهم ولا يحسنون السرّ إلا تناديا [1]

المشاركة :

ويعبر عن (الشريك) بـ (الخليط) . والخليط المشارك في حقوق الملك كالشرب والطريق ونحو ذلك . وقيل الخليط والمخالط ، لا يكون إلا في الشركة. وفي الحديث ، أي حديث الشفعة : الشريك أولى من الخليط ، والخليط أولى من الجار . أراد بالشريك المشارك في الشيوع ، والخليط المشارك في حقوق الملك . ومنه الحديث : ما كاد من خليطين ، فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية [2] .

وقد أشير الى (الخلطاء) في القرآن ، ورد : « قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض » [3]. والخلطاء الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، وقد تغلب الخلطة في الماشية [4] .

وقد أشار أهل الأخبار الى ان تجار قريش صاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء [5] ، جابوا البلاد وضربوا في الأرض الى قيصر بالروم والى النجاشي بالحبشة ؛ والى المقوقس بمصر . فهم شركاء يكسبون عيشهم بالتجارة بعد أن حرموا من خيرات الأرض في واديهم القفر .

---

١ تاج العروس (٥/٧١) ، (فوض) .
٢ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .
٣ سورة ص ، الرقم ٣٨ ، الآية (٢٤) .
٤ تفسير الطبري (٢٣/٩٢) ، تفسير النيسابوري (٢٣/٩٢) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير القرطبي (١٥/١٧٩) .
٥ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١ وما بعدها) ، البلدان (٤٧٢) .

والخلطاء الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، وقد تغلب الخلطة في الماشية [1] . وذلك أن يتخالطوا في الماشيــة ، فيقدم كل واحد عدداً من الماشيـة ، ترعى معاً ، ويقال لذلك : (الخلاط) . وقد أشير اليه في كتب الحـديث [2] . وذكر بعض العلماء : أن الخليطين الشريكين لم يقتسما الماشية وتراجعها بالسوية . وقـد يكون الخليطـان الرجلين يتخالطان بماشيتها وإن عرف كل واحد ماشيته ، ولا يكونا خليطين حتى يريحا ويسرحا ويسقيا معاً ، وتكون فحولها مختلطة ، وان تفرقا في مراح أو سقي أو فحول فليسا خليطين ، ولا يكونان خليطين حتى يحول عليهما حول من يوم اختلطا . وللفقهاء بحث في هذا الموضوع [3] .

والتراجع بين الخليطين ، أن يكون لأحدهما مثلاً أربعون بقرة وللآخر ثلاثون ومالها مشترك ، فيأخذ العامل عن الأربعين مسنـة وعن الثلاثين تبيعاً ، فيرجع بأذل المسنة بثلاثة أسباعه على خليطه ، وبأذل التبيع بأربعة أسباعه على خليطه لأن كل واحد من السنين واجب على الشيوع ، كأن المال ملك واحد [4] .

والخلاطة شركة في الواقع ، تختلف عن الشركة المعروفة في كونها شركـة بالمال ، وتلك شركة برأس المال . وكل واحد من الخليطين يتصرف بمـا عنده من مال ، ثم يتراجعا عند الحساب ، لاخراج ما فيه من ربح أو غرم ، وبذلك تختلف الخلاطة عن الشركة [5] .

السفتجة :

وعرفت (السفتجة) بين الجاهليين . وهي كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالاً قراضاً يأمن به من خطر الطريق . وقيل : هو قرض استفاد بـه المقرض سقوط خطر الطريق ، بأن يقرض ماله عند الخوف ليرد عليه في موضع أمن . أو أن يعطي رجل مالاً لآخر ، وللآخر مال في بلد المعطي ، فيوفيه إياه فيستفيد

---

١ تفسير النيسابوري (٢٣/٩٢) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٢ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .
٣ تاج العروس (٥/١٣٣) ، (خلط) .
٤ تاج العروس (٥/٣٥١) ، (رجع) .
٥ ارشاد الساري (٤/٢٨٤) .

أمن الطريق وفعلــه السفتجة ، والجمع السفاتج . وقد كان أهل الجاهلية يعطون مالاً لشخص محتاج اليه ، على أن يوفيه في بلده لوكيل صاحب المال أو لمن يثق به ، في مقــابل نفع يعين ، أو قرض لا نفع له . وقد نهى النبي عن قرض يجرّ نفعاً [1] .

الوكالة :

وعرفت الوكالة عند الجاهليين . والوكيل ، هو الذي يقــوم بأمر الانسان ، سمي به لأن موكله قد وكل اليه القيام بأمره ، فهو موكول اليه الأمر [2] وحــكم الوكيل حكم الأصيل ، والتاجر الوكيل في البيع والشراء ، وفي كل تعامل ، هو بمنزلة التــاجر الأصيل صاحب المال ، وما يعقده من عقود ، يكون ملزماً بحق التاجر الأصيل . وقد عرف العلماء الوكالة : انها تفويض شخص أمره الى آخر فيما يقبل النيابة [3] .

ولا يشترط في الوكالة ، أن تكون وكالة تجارة ، بل يجوز أن تكون وكالة في كل شيء ، كأن تكون إشرافاً على أهل أو بيت لحمايته أثناء غياب صاحبه ، كما تكون وكالة حراسة أموال والتصرف بها . فقد كاتب (عبد الرحمن بن عوف) (أميةَ بن خلف) أن يحفظه في صاغيته بمكة ، وأن يحفظ (عبد الرحمن) صاغية (أمية) بالمدينة [4] .

وكانوا يوكلون وكلاء عنهم في اجراء العقود والتوقيــع على العهود ، وعلى شروط السلم ، اذا كانوا مخولين . ولما جاء وفد (هوازن) الى رسول الله ، يسأله المنّة عليه برد أموالهم وسبيهم ، سأل رسول الله من كان عنده من أصحابه من الناس من المقاتلين في أمر رد السبي ، فتنازلوا عن حقهم فيــه طيبة لرسول الله ، فقال رسول الله : « إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ، ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع لنا عرفاؤكم أمركم » ، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ، ثم

---

١ تاج العروس (٥٩/٢) ، (السفتجة) .
٢ تاج العروس (١٥٩/٨) ، (وكل) .
٣ ارشاد الساري (١٥٥/٤) ، (كتاب الوكالة) .
٤ ارشاد الساري (١٥٦/٤) .

رجعوا،وقد طيبوا وأذنوا لرسول الله أن يرد السبي اليهم،لتوكيل الناس لهم ذلك[1] .

السمسرة :

والسمسار المتوسط بين البائع والمشتّري لامضاء البيع . وهو الذي يسميه الناس الدلال ، فإنه يدل المشتّري على السلع ويدل البائع على الأثمان . واللفظة من الألفاظ المعربة ، وقد ذكرت في شعر للأعشى :

فأصبحت لا أستطيع الكلام   سوى أن أراجع سمسارها[2]

والسمسار الرجل الحاذق المتبصر ، وسمسار الأرض العالم بها ، والحاذق المتبصر بأمورها[3] . وقد ذهب علماء اللغة الى انها لفظة عرّبت عن الفارسية ، وذهب بعض الباحثين الى انها من أصل إرمي[4] .

والسمسار الذي يبيع البرّ للناس . وفي حديث : (قيس بن أبي عروة) : « كنا قوماً نسمى السماسرة بالمدينة في عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فسماانا النبي ، صلى الله عليه وسلم ، التجار »[5] . والسمسرة ، هو أن يتوكل الرجل من الحاضرة للبادية فيبيع لهم ما يجلبونه . قيل القيم بالأمر الحافظ له[6] . ويظهر أنهم كانوا يطلقون لفظة (السمسير) على الوكيل والقيم بالأمر الحافظ له في الأصل ، ثم غلب استعمالها فيمن يدخل بين البائع والمشتّري . كما استعملوها خاصة فيمن يدخل بين البائع البادي والمشتّري الحاضر ، أو عكسه[7] .

ومن طريقتهم في السمسرة أن يقول صاحب السلعة للسمسار بع هذا الثوب فما زاد على كذا وكذا فهو لك ، فما زاد على ما اتفق عليه يكون أجرة سمسرة . أو أن يقول : بعه بكذا فما كان من ربح فهو لك[8] . أو أن يترك السعر للسمسار ، يبيعه حسب خبرته وقدرته على السوم ، فإن باع الشيء دفع صاحب السلعة له

---

١ ارشاد الساري (٤/١٦١) .
٢ تاج العروس (٣/٢٨٠) ، (سمسر) ، اللسان (٤/٣٨٠) ، (سمسر) .
٣ تاج العروس (٣/٢٨٠) ، (سمسر) .
٤ غرائب اللغة (١٨٩) .
٥ اللسان (٤/٣٨٠) ، (سمسر) .
٦ اللسان (٤/٣٨٠) ، (سمسر) .
٧ ارشاد الساري (٤/٧٢ وما بعدها) .
٨ ارشاد الساري (٤/١٣٦) .

أجر سمسرته. وقد يأخذها من المشتري وقد يأخذها من صاحب السلعة ومن المشتري.

ولا تنحصر السمسرة بالبيع في السوق، ويحمل السمسار السلعة معه يعرضها على من يريد الشراء، فقد تكون السمسرة عن طريق بيع ملك ثابت؛ مثل دار أو أرض أو بئر، فيراجع السمسار من يرغب في الشراء في بيته أو في أي مكان آخر مناسب، فلا ينادي المتساومين المتنافسين لشراء الملك، وقد يقف عند الدار أو الأرض أو البئر، في يوم يعين ووقت يثبت، ثم ينادي على السعر فيزايد الراغبون في الشراء السعر، حتى يقف على أعلا المتزايدين. ويدخل في هذه المزايدات بيع الحيوان من نعم وماشية وغير ذلك.

ومن السماسرة من كان يربح ربحاً حسناً، ولا سيما أولئك الذين كانوا يرعون أمور (الركبان) من الأعراب، ويبيعون لهم على الأمانة والتصريف ويكونون لهم وكلاء، إذ كانوا يبخسون الأعراب حقهم ويتناولون منهم أكثر مما يجب أخذه عن أتعابهم، لجهلهم بمعاملات السوق والبيع والشراء.

الفصل السابع بعد المئة

المال

المال في اللغة ما ملكته من كل شيء ، وهو في الأصل ما يملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم . وفي الحديث نهي عن إضاعة المال ، قيل أراد به الحيوان[1] . ويشمل المال الصامت وهو العين[2] ، والورق وسائر المصوغ منها[3]. والعرض ويشمل الأمتعة والبضائع والجواهر والمعادن والأخشاب وسائر الأشياء المصنوعة منها ، والعقار من مسقف ومن مزروع مثل البساتين والكروم والمراعي والغياض والآجام وما يحويه من العيون والحقوق في مياه الأنهار ، والحيوان بأنواعه . ويدخل الرقيق أيضاً في أصناف المال بالنسبة الى ذلك العهد ، لأن له قيمة وثمناً ، وهو ثروة لصاحبه وملك ، وهو بوجه عام كل ما تملكه مما له ثمن .

و (العين) الدينار والذهب عامة[4] . و (الوَرِق) ، الدراهم المضروبة ، وقيل الفضة ، كانت مضروبة أولاً[5] . ويلاحظ ان الكلمتين تعبران عن الذهب

---

١ اللسان (١١/١١/٦٣٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/١٢١) ، (مول) .
٢ القاموس (٤/٥٢) ، كتاب الارشاد الى محاسن التجارة (ص ٢ وما بعدها) .
٣ القاموس (٣/٢٨٨) وما بعدها) ، تاج العروس (٧/٨٦ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٩/٢٨٨) ، (عين) .
٥ تاج العروس (٧/٨٥) ، (ورق) .

والفضة ، وعن الدنانير والدراهم . والدنانير من ذهب ، والدراهم من فضة . ويعبر عن الذهب بلفظة (الصفراء) للونه[1] . وعبروا عن الفضة بـ (البيضاء) وبالأبيض لبياض الفضة ، ومنه الحديث : أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وهما الذهب والفضة[2] .

ويقال للمال (النشب) ، والنشب المال والعقار ، وأكثر ما يستعمل في الأشياء الثابتة التي لا براح بها كالدور والضياع . والمال أكثر ما يستعمل فيما ليس بثابت كالدراهم والدنانير،وربما أوقعوا المال على كل ما يملكه الإنسان ، وربما خصصوه بالابل ، والعروض اسم للمال[3] .

والذهب والفضة ، هما مقياس الثراء عند الحضر . ويكون ذلك بحيازتهم سبائك من ذهب أو فضة ، أو مصوغات ، أو دنانير ودراهم . و (الثري) ، الكثير المال ، والثرة كثرة المال[4] . وهو الذي يملك الذهب والفضة أو الأموال الأخرى. والغني ، ذو الوفر ، أي المال الكثير[5] .

وكان الذهب والفضة ، مقياسي الثراء عند الانسان قبل أن تضرب النقود وتسك السكك ، بل بقيا على ذلك حتى بعد ضرب النقود ، بسبب ندرة الدنانير ، وقلة الدراهم ، وتفضيل البعض الذهب على الدينار والفضة على الدرهم،لهذا نجد أهل الجاهلية يتعاملون بالذهب والفضة وزناً في تعيين الأسعار وفي شراء الحاجات وفي المهور مع وجود الدنانير والدراهم ، بل بقي التعامل بهما في الاسلام أيضاً . ولما أرسل الرسول (شجاع بن وهب الأسدي) الى (الحارث بن أبي شمر) الغساني ، أمر له (الحارث) بمائة مثقال ذهب[6] . وأجاز رسول الله (مسعود بن سعد) الجذامي رسول (فروة بن عمرو الجذامي) اليه،باثنتي عشرة أوقية ونش ، وذلك خمسمائة درهم . وكان (فروة) عامل قيصر على (عمان) من أرض البلقاء ، فأرسل (مسعوداً) الى الرسول ليخبره باسلامه ، وأرسل معه هدية الى الرسول[7] .

---

١ تاج العروس (٣/٣٣٥) ، (صفر) .
٢ تاج العروس (٥/٩) ، (بيض) .
٣ تاج العروس (١/٤٨٤ وما بعدها) ، (نشب) .
٤ تاج العروس (١٠/٥٦) ، (ثرو) .
٥ تاج العروس (١٠/٢٧١) ، (غنى) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦١) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٢) .

ونظراً لوجود أناس كانوا يتلاعبون في نوعية الذهب والفضة ، بغش المعدنين ومزج معادن خسيسة فيها،فقد ظهر أناس تخصصوا بفحص الذهب والفضة وبتعيين درجتها من حيث الجودة والنقاوة ، وبتعيين سعر السبائك وما يباع منها وفقاً لذلك ، ثم تخصص هؤلاء بدراسة النقود ، وتعيين درجة نقاوتها وتثبيت وزنها ، وذلك لوجود الغش فيها بالنسبة لذلك العهد . فإذا اشتروا نقداً أو باعوه ، أو صرفوه بنقد آخر ، فحصوه فحصاً دقيقاً وتأكدوا منه قبل الشراء أو التصريف لكي لا يكون مغشوشاً . فصار هؤلاء ، هم صيارفة النقود ، وخبراء السكة في ذلك العهد . وقد كان الصيارفة يجلسون أمام باب (الهيكل) في القدس ، يبيعون ويشترون ويصرفون النقود . وقد أشير اليهم في (الأناجيل) ، ووبخهم (المسيح) وقلب موائد صيرفتهم[1]. وكانوا يصرفون الدنانير بالدراهم والدراهم بنقود النحاس، والعملات الأجنبية بالعملة الرومانية الدارجة في فلسطين ، تماماً كما يفعل صيارفة هذا اليوم في بلاد الشرق الأدنى .

ويظهر من الأناجيل ، ان أولئك الصيارفة ، كانوا يجلسون عند موائدهم التي يصرفون عليها النقود . أما كبارهم ، أي الأغنياء منهم من أصحاب المال ، فقد كانوا يتعاملون بالقروض ، يقرضون المال للمحتاج اليه في مقابل دفع فوائد عنها هي الربا ، وفي تشغيل أموالهم في مشاريع تعود عليهم بالأرباح[2] .

وقد تاجر أهل الجاهلية في (الصرف) ، وهو بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، أو أحدهما بالآخر . وقد أقر الرسول الصرف ، اذا كان يداً بيد ، أي متقابضين في المجلس : ونهى اذا كان نَساء[3] . والصيرفي ، والصيرف ، والصراف : صراف الدراهم ونقادها من المصارفة وهو من التصرف على ما يذكره علماء اللغة[4] . وقد جاءت لفظة (الصرف) والصيرفة في رأيي من (الصرف) أي الفضة ، فالصرف الفضة في لغة العرب الجنوبيين . و (الصريف)[5] الفضة

---

١ انجيل متى ، الاصحاح ٢١ ، الآية ١٢ .

٢ Hastings, p. 630.

٣ ارشاد الساري (١٣/٤) .

٤ تاج العروس (١٦٤/٦) ، (صرف) .

٥ كأمير .

أيضاً في لغة القرآن الكريم ، كما يذكر ذلك علماء اللغة . قال الشاعر :

بني غدانة حقاً لستم ذهباً ولا صريفاً ولكن أنتم خزف[1]

وذلك انهم كانوا يتعاملون بالفضة في الغالب ، لكثرتها بالنسبة الى الذهب ، حتى غلب اسمها على هذا التعامل . فقيل : الصرف والصيرفة والصراف ، وهو الذي يتعامل بالصرف . فصارت كلمة (الصرف) التي تعني الفضة مرادفة لنقود ، كما صارت لفظة (الفلوس) التي هي جمع (فلس) أصغر عملة من العمل وهي من النحاس ، مرادفة للنقود . وفي العبرانية شبه لذلك . فالنقود ، أي العملة (Money) هي (Keseph) في العبرانية ،و (Keseph) الفضة ،وقد استعملها العبرانيون في معنى العملة ، لأنهم كانوا يتعاملون بها في حياتهم اليومية ، فكانت مشترياتهم وأجورهم ومعاملاتهم بالفضة وبالعملة المعمولة منها ، حتى صارت في معنى النقود[2].

ومن تعامل الصيارفة ، شراء الدنانير بالدراهم والدراهم بالدنانير ، بأن يساوم رجل رجلاً على بيع مائة دينار بدراهم ، فيتراوض الطرفان على ذلك ويتساوما حتى يتفقا على عدد ما يدفع من الدراهم[3] ، وذلك لاختلاف نوع الدراهم ، وأوزانها وجودة فضتها . ويكون العكس ، بأن يبيع شخص دراهم في مقابل دنانير . وقد يتبايعون على بيع الذهب بالذهب ، مضروباً كان أو غير مضروب، أو بيع الذهب بالذهب ، مضروباً كان أو غير مضروب ، أو بيع الفضة بالفضة. وكانوا يتلاعبون في تصريف النقود ويتحكمون في أسعار صرفها ، لاحتكارهم الصرافة في الأسواق ، ويربحون خاصة من فروق تصريف العملة الأجنبية بالعملة الرائجة في السوق .

وقد عرف الصراف بالحيلة والخداع والغش في الصرف ، ولهذا السبب لعنوا في الأناجيل ، وقلب (المسيح) موائد صيرفتهم . و (الصيرفي) المحتال المتصرف في الأمور والمجرب لها كالصيرف . قال سويد بن أبي كاهل اليشكري :

ولسانا صيرفياً صارماً كحسام السيف ما مس قطع[4]

---

١ تاج العروس (١٦٣/٦) ، (صرف) ، وورد : « بني غدانة ما ان انتم ذهبا » .

٢ Hastings, p. 627.

٣ ارشاد الساري (٧٩/٤) .

٤ تاج العروس (١٦٤/٦) ، (صرف) .

ولا زال الناس يومنا هذا يطلقون لفظة (صراف) على المحتال الذكي الذي يعرف كيف يتعامل مع الناس .

ومن مصطلحات الصيارفة المذكورة في كتب اللغة (الشوقل) يقال : شوقل الدينار إذا عايره وصححه ووزنه ، واستعملوا الشاقل أيضاً في المعايير . ويظهر من مراجعة كتب اللغة ، أن علماء اللغة لم يكونوا على علم واضح بأصل لفظة (شقل) ، فاكتفوا بقولهم شقل الدينار وزنه[1] . وترد هذه اللفظة في الإرمية كذلك ، بمعنى الوزن ، أي وزن الدنانير والدراهم[2] ، وترد بهذا المعنى أيضاً في العبرانية . وقد أخذ هذا الوزن من الأوزان البابلية ، وقد كانت الأوزان البابلية أساساً لجميع الأوزان التي استعملت في الشرق الأدنى ، بل وفي أوروبة أيضاً . و (الشقل) (Shekel) هو جزء من ستين جزءاً من (المن) (Manu) [3] . فمن هذا الوزن ورد اصطلاح (شقل) و (شوقل) بمعنى وزن العملة بالميزان في لغات أهل الشرق الأدنى، لأنهم كانوا يصححون العملة ويعايرونها بوزنها بالميزان، لتظهر صحة وزنها ، فيتبين به الزائف منها من الصحيح .

وقد برع قوم من (الصيارفة) بتنقاد الدراهم ، أي بتمييز الدراهم واخراج الزائف منها . وقد برع في ذلك نفر من أهل مكة ، لأنهم تجار يتعاملون في الأسواق ويتعاطون الربا والصيرفة وتبديل العملة .

وكان اليهود من الصيارفة ، يتعاطون بيع الذهب والفضة وتبديل النقود والربا . وكان الأعراب يحفظون عندهم ودائعهم ، ذهباً وفضة ونقوداً . ذكر أن رجلاً من قريش استودع (عبدالله بن سلام) ألفاً ومائتي أوقية ذهباً[4] . وذكر علماء التفسير ، أن من اليهود من كان يأكل الأمانات ويجحدها فلا يؤديها الى أصحابها، إلا بالتهديد والقوة، وقد استحل أكل أموال العرب ، ذلك أنهم قالوا : لا حرج علينا فيما أصبنا من أموال العرب ولا إثم ، لأنهم على غير الحق وأنهم مشركون[5].

---

١ التاج (٣٩٢/٧) ، (شقل) .
٢ غرائب اللغة (١٩١) .
٣ Hastings, p. 627.
٤ تفسير النيسابوري (٢٢٥/٣) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٥ تفسير الطبري (٢٢٦/٣ وما بعدها) .

وكان الصيارفة يعتبرون النقود الطيبة اللينة نقوداً صحيحة ، والنقود الصلبة نقوداً زائفة ، فالدرهم القسي ، هو درهم زائف . لذلك كانوا إذا قالوا (درهم قسي) ، عنوا بقولهم درهم زائف مغشوش ، فضّته صلبة رديئة ليست باينة . وفي الحديث : كانت زيوفاً وقسياناً [1] . قال مزرد :

وما زوّدوني غير سحق عمامة وخمسمىء منها قسيّ وزائف[2]

رأس المال :

ورأس المال أصله يقال أقرضني عشرة برؤوسها ، أي قرضاً لا ربح فيه إلا رأس المال [3] . وقد أشير اليه في القرآن الكريم في تحريم الربا . « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون »[4] . فأوجب الاسلام على المرابين الذين دخلوا فيه التوبة من الربا وأن يأخذوا رؤوس أموالهم التي أعطوها من غير زيادة عليها ، مهما كان قدرها ، فهذه الزيادة هي الربا [5] .

وما يضعه التاجر من مال ليتاجر به ، هو رأس ماله الذي يتاجر به . وما يتجمع من مال يقدمه المساهمون في تكوين شركة ، هو رأس مال الشركة ، الذي تشتغل به ليأتي عليها بأرباح توزع على المساهمين ، حسب نسب حصصهم في رأس المال ، وما يقدم من مال قراضاً ، فهو رأس مال ، وكل مال يتخذ أساساً لعمل هو رأس مال ذلك العمل .

استثمار الأموال :

وقد أبدع أصحاب الأموال بمكة وأجادوا في تشغيل رؤوس أموالهم وفي استثمارها ،

---

١ الروض (١/٩٥) ، تاج العروس (١٠/٢٩٣) ، (قسا) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٩٣) ، (قسا) .
٣ تاج العروس (٤/١٥٧) ، (رأس) .
٤ البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٧٩ .
٥ تفسير الطبري (٣/٧١) ، روح المعاني (٣/٤٦) .

فزادت ونمت . شغلوها في التجارة ، وشغلوها في أعمال نستطيع أن نسميها أعمالاً مصرفية بلغة هذا اليوم ، مثل اعطائها للمحتاج اليها بفائض هو (الربا) ، أو (مضاربة) ، أو مسالفة ؛ وشغلوها باستثمارها بمشاريع زراعية وصناعية وما شابه ذلك ، مشاركة أو على ربح ثابت معين ، أو مساهمة في الأرباح دون الخسائر . وكان بعض منهم ، قد ساهم في أعمال عديدة ، واستثمر أمواله بها ، فإذا خسر في عمل ، عوض عن خسارته تلك بربح يأتيه من عمل آخر .

ولم يكتف تاجر مكة بالاتجار على حسابه ، بل ساهم مع غيره من أهل مكة في تكوين رؤوس أموال القوافل ، بحيث صارت القوافل تجارة شركاء ، أو شركة عامة يساهم فيها من يشاء من أصحاب المال . وساهم تاجرهم أيضاً بتوزيع أمواله على التجار الآخرين ، ليشاركهم بذلك في أرباحهم ، فكان (أبو سفيان) يتاجر بتجارته وعلى حسابه ، يذهب بنفسه على رأس قافلته الى العراق للاتجار بالحيرة ، وكان من المساهمين في قوافل قريش كذلك ، كما كان يقدم ماله للتجار ، للاتجار به مع أموالهم ، فيشاركهم بذلك في أرباحهم ، ويأخذ منهم ما يقع له من نصيب في الأرباح . وكان (العبّاس) قد وزع مالاً من ماله على التجار لاستثماره ، وكان للحجاج بن علاط السُلمى مال متفرق في تجار أهل مكة[1] .

وكانوا يتعاملون مع غير تجار قريش كذلك ، يقرضونهم المال ويستقرضون الأموال منهم ، ويتاجرون على الأرباح والخسائر ، ونجد في الأخبار أسماء رجال من الطائف أو من الحيرة أو من أهل اليمن ، كانت لهم شراكة مع تجار من تجار مكة ، خلطوا أموالهم مع أموال أولئك الغرباء عنهم . فهم (خلطاء) ، أي شركاء . و (الخليط) الشريك[2] . فأهل مكة خلطاء فيما بينهم ، وخلطاء مع غيرهم أيضاً . يتاجرون بأموالهم ويتاجرون بأموال غيرهم كذلك . « وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »[3] .

الربا :

وفي جملة وسائل استثمار المال : الربا ، وقد كان شائعاً بين أهل الجاهلية ،

---

١ الطبري (٣/١٧) .
٢ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١ وما بعدها) ، البلدان (٤٧٢) .

كما كان شائعاً معروفاً بين غير العرب . وقد عرفه العلماء بأنه : « الزيادة على رأس المال »[1] « وهو في الشرع الزيادة على أصل المال من غير عقد تبايع »[2] والإرباء الزيادة على الشيء ، والزيادة هي الربا[3] . وكل قرض جرّ منفعة ، فهو ربا[4] ، ويقال له : (اللياط) ، وهو الربا الذي كانوا يربونه في الجاهلية الى أن يأخذوا رؤوس أموالهم ويدعوا الفضل عليها[5] .

وقد كان أهل الجاهلية يزيدون على الدين شيئاً ويؤخرونه . كأن يحل دينك على رجل فتزيده في الأجل ويزيدك في الدين . وقد نهي عنه في الاسلام[6] . وهو في الواقع ربا ، لأنه استغلال ووجود منفعة بغير جهد . ويقال لذلك : المعاومة .

وقد اشتط أهل المال في الاستفادة من المقترضين ، فتقاضوا منهم الربا الفاحش، وألحفوا في زيادته ، وتشددوا في المطالبة برأس المال ورباه ، ولم يمهلوا معسراً ، ولم يتساهلوا في الأداء الى وقت الميسرة ، إلا إذا زادوا في الربا ، وأخذوا ربا المال وربا الربا . وكان اليهود من أشهر المرابين في الحجاز ، كما اشتهرت بذلك مكة والطائف ونجران ، ومواضع المال الأخرى من جزيرة العرب . وكان من عادة هؤلاء أنهم كانوا يحتسبون الربا الذي يستحق في آخر السنة ولا يدفع للمرابي جزءاً من رأس المال ، أي من المبلغ المقترض ، فيؤدي الربا للسنة التالية على أساس المبلغ المقترض مع رباه ، وإذا أجل دفع ربا هذا المبلغ الجديد المكون من المبلغ الأصل ورباه ، أضيف عليه فصار المبلغ المقترض ورباه ثم ربا المبلغين جزءاً من القرض ، ويطلب من المدين دفع الربا على هذا الأساس .

والربا هو (نشك) (نشق) (Neshec) في العبرانية . وتعني اللفظة الزيادة التي تؤخذ عن كل دين يعطى لمدين،سواء كان ذلك الدين نقوداً أو عيناً، بضاعة أو ملكاً ، أو أي شيء آخر يستدان من مدين في مقابل زيادة تؤدى عليه عند

---

١ المفردات (ص ١٨٥) .
٢ اللسان (١٤/٣٠٥) .
٣ تفسير الطبري (٣/٦٧) .
٤ اللسان (٩/١٥٩) ، (سلف) .
٥ اللسان (٧/٣٩٦ وما بعدها) ، (لوط ، ليط) ، الروض الانف (١/٦٢) .
٦ تاج العروس (٨/٤١٢) ، (عام) .

استحقاق الأجل المعين . وقد أشير اليه في التوراة[1] . وعرفت الزيادة التي تؤخذ على المبلغ بـ (تربيث) أيضاً ، أي ربا . غير أن ربا (النشق) ، استعمل في ربا المال ، أي الربا المأخوذ عن النقد من دنانير ودراهم ، فهو في مقابل (ربا النسيئة) في الإسلام . وأما (التربيث) ، فهو الربا المأخوذ عن الطعام مثل الحنطة والشعير والتمر وما شابه ذلك من طعام . وهو ما يقال له (ربا الفضل) في الاسلام . وقد تطلق لفظة (نشق) على الربوين : ربا الدنانير والدراهم ، وربا الفضل . وقد حرمت التوراة على اليهود تعاطي الربا فيما بينهم، وأحلته بالنسبة للغرباء . فجوزت لليهودي أخذه ممن لم يكن على دينهم . ولكنهم لم يتقيدوا بما جاء في التوراة من تحريم الربا عليهم ، فتعاطوه فيما بينهم ، لا سيما بعد عودتهم من السبي ، وصار الربا من أهم المنافع بالنسبة لأرباب المال عندهم[2] .

وقد كان الرومان واليونان قد كوّنوا (بنوكاً) أي مصارف تعاملت بالمال، وتعاطت قرضه مقابل ربح هو رباه . وقد حدد بنسبة واحد في الشهر ، و (١٢) في السنة ، وذلك في مقابل الاعتماد (Creditum) . وقد تعاطت المعابد أعمال الربا كذلك ، ومن هذه معابد (بابل)[3] .

وأصل (الربا) هو وجود حاجة لدى انسان الى مال ، ووجود أناس ذوي مال يريدون استغلال أموالهم وتكثيرها ، فيقرضونها الى المحتاج اليها مقابل زيادة يتفق عليها تدفع عن المال المقترض للأجل المتفق عليه . ويستغل المرابي في الغالب حاجة الشخص الذي يريد المال ، فيشتط عليه ويتعسف في شروطه،ويضطر المدين الى قبول ما تملى عليه من شروط لحاجته الى المال ، وعلى دفع الربح العالي الذي فرضه المرابي عليه . ومن الربا انهم « كانوا يبيعون البيع الى أجل ، فإذا حل الأجل زادوا في الثمن على أن يؤخروا »[4] .

---

١ الخروج ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الآية ٢٥ ، اللاويون ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٣٦ .

٢ W. Smith, A Dictionary of the Bible Vol., III, p. 1606, Beetons, Illustrated Dictionary of Religion, Philosophy, Politics, and Law, p. 523, John, Babylonian and Assyrian Laws, Contracts, and Letters, 211, Hastings, A Dictionary of christ and the Gospels, I, 837, The Bible Dictionary, Vol., II, p.540.

٣ Hastings, A Dictionary of Christ and the Gospels, I, p. 837.

٤ تفسير القرطبي (٢٠٢/٤) .

ويدخل في الربا الربا في الطعام ، وقد كان شائعاً بين أهل العمود والبوادي بصورة خاصة ، إذ ليس عندهم دراهـم ولا دنانير ، فكانوا يأخذون الصاع الواحد مقابل صاع وزيادة ، والزيادة رباه ، حتى يكون قفزاناً كثيرة . فاستغل المرابون أهل الحاجة وضايقوهم بالطلب . ورد ان أحدهم في الجاهلية يبيع الرجل البيع الى أجل مسمى ، فإذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه . فهو ربا مثل الربا في النقد[1] . كما فعلوا ذلك في الدنانير والدراهم ، فكان أحدهم يبيع الدينار بدينارين ، والدرهم بدرهمين ، وفي الذهب والفضة ، فكانوا يعطون مثقالاً مقابل مثقالين أو أكثر أو أقل من المثقالين ، فالزيادة هي الربا . ومعنى هذا ان الربا كان يعادل المبلغ المقترض،فالدرهم بدرهمين والدينار بدينارين ، وهو ربا فاحش ، استغل فيه المرابي حاجة المدين الى المال ، ولهذا نهي عنه في الاسلام بتحريم كل أنواع الربا في القرآن وفي الحديث حيث ورد : « لا تبيعوا الدينار بالدينارين ولا الدرهم بالدرهمين »[2] ، و « الدينار بالدينار لا فضل بينهما، والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما »[3] .

أما رباهم بالذهب والفضة ، فكانوا يأخذونه وزناً فإذا أعادوه زادوا عليـه وزن الربا ، المتفق عليه ، ولهذا ورد في الحديث : « لا تبيعوا الذهب بالذهب، إلا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها غائباً بناجز »[4] . فمنع الرسول الزيادة ، وجعل الربا قرضاً ، يعاد الى صاحبه وزناً بوزن ، أي متساويين في الوزن . كما منع الزيادة في البيع ، فجعل الزيادة على ثمن البيع ، الذي يدفع بأجل ربا ، لأنه زيادة على المبلغ ، واستغلال لحاجة المشتري ، وهو بيع غرر .

وورد في الحديث أنهم كانوا يشترون الصاع بالصاعين أو أكثر ، كأن يعرض أحدهم سلعة ، فيبيعها بسلعة مثلها ، ولكن بضعف وزنها أو أكثر ، فقد اشترى غلام لمعمر بن عبدالله صاعاً وزيادة من شعير بصاع من قمح ، فلما عاد بما اشتراه أمره سيده برده ، لأنه سمع أن الرسول قال : الطعام بالطعام مثلاً بمثل . وورد أن بعضاً من الصحابة كانوا يشترون صاعاً من التمر الجيد بصاعين من الجمع ،

١ اعلام الموقعين (٢/١٣٨ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣/٦٧) .
٢ البخاري (٥/٤٢) ، (كتاب البيوع ، باب الربا) .
٣ البخاري (٥/٤٥) ، (كتاب البيوع ، باب الربا) .
٤ البخاري (٥/٤٢) ، (كتاب البيوع ، باب الربا) .

أي من تمر مختلط من أنواع متفرقة وليس مرغوباً فيه ، وما يخلط إلا لرداءه . فلما سمع بذلك الرسول ، قال لا تفعلوا ولكن مثلاً بمثل ، أو بيعوا هذا واشتروا بثمنه من هذا وكذا الميزان[1] .

وسبب هذا التوسع في هذا النوع من الربا ، ان العرب ، كانوا أهل تجارة وأهل زراعة ورعي ، ولم تكن العملة من دنانير ودراهم ، منتشرة بين المزارعين وأهل البوادي ، فكانت المقايضة تقوم عندهم مقام العملة . فمن احتاج الى طعام، أخذ من بائعه أو مالكه أو مكتنزه كيلاً بكيل مثله ، لأجل معلوم على أن يعطيه زيادة عليه ، يتفق على مقدارها . فيأخذ قفيص تمر بقفيص ونصف أو قفيصين، أو أكثر من ذلك ، على نحو ما اتفق عليه ، يؤديه له من جنس التمر المسلف ومن جودته ، فإذا حل الأجل ، ورأى المستحق أن يؤخر دينه ، على أن يزيد في المال فعل ، وكلما أخره زاد في المـــال حتى يصير أضعافاً مضاعفة ، وذلك بسبب الحاجة والفقر . فهذا هو ربا مثل ربا الدنانير والدراهم ، نشأ من الحاجة والظروف التي كان عليها أهل الجاهلية في ذلك العهد . ونجد هذا النوع من الربا عند غير العرب من الشعوب أيضاً ، وهو ربا الفقراء والمحتاجين في الغالب ، أما ربا الدراهم والدنانير ، فكان ربا التجار ، ومن كان يريد تنميـة ثروته وزيادة تجارته ، فكان يقترض بالربا لهذه الغاية .

والربا المذكور ، هو الأصل ، وأما ربا الدراهم والدنانير أي ربا العملة ، فتأخر بالنسبة اليه،لأن الانسان مارس التجارة قبل ان تكون لديه دراهم ودنانير، كانت تجارته مبادلة سلع بسلع ، وذلك قبل ضرب العملة . فكان الربا ربا سلع ومواد عينية . يقدم المرابي طعاماً الى تاجر آخر أو الى محتاج ، الى أجل معين، على أن يزيده في الكمية عند حلول أجل الربا ، وفقاً لما اتفق عليه ، فإن أخره زاد في المال ، وكلما أخره زاد في المال ، حتى يتضاعف أضعافاً مضاعفة ، فهذا أصل الربا الأول ، فلما أوجد الانسان العملة وتعامل بها ، وأقبل عليها ، ظهرت تجارة جديدة ، أساسها التعامل بالعملة ، وظهر بذلك ربا العملة، الذي غلب على الربا الأول ، حتى صار وكأنه هو الربا وحده ولا ربا سواه .

ووجهة نظر المرابين الى الربا ، أنه نوع من أنواع البيوع ، وأن الربا مثل

---

[1] البخاري (٥/٤٧) . (كتاب البيوع ، باب بيع الطعام مثلا بمثل) .

البيع . ففيه إيجاب وقبول . ولما نزل الأمر بتحريمه عجب المرابون من التحريم ، عجبوا كيف حرم البيع وأحل الربا ، مع ان الاثنين في نظرهم واحد . وذلك كما يظهر من الآية : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا »[1] . فنظموا البيع والربا في سلك واحد ، لافضائهما الى الربح ، فاستحلوه استحلاله . وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهماً بدرهمين جاز ، فكيف إذا باع درهماً بدرهمين[2] . فكان التاجر والمرابي عندهم سواء بسواء ، فكلاهما يعامل المشتري أو المدين معاملة كسب ونهب ، والحصول منهما على أكثر ما يمكن الحصول عليه من ربح ومكسب . والإثراء بأية طريقة كانت . ولهذا عجبوا من تحريم الاسلام للربا ، وهو كسب يأتي عن ايجاب وقبول ، ومن تحليله للبيع ، وهو كسب أيضاً ، مبني على إيجاب وقبول .

وقد اشتهر اليهود بمعاطاة (الربا) ، وقد أشير الى ذلك في القرآن الكريم[3] . كما عرف به أهل مكة والطائف ونجران وسائر من كان لديه فضل من المال وأراد استغلاله . وذلك للظروف الاقتصادية التي كانت سائدة في ذلك العهد . من عدم وجود صناعة يشغل أصحاب المال بها أموالهم ، فيكثرونها باستغلالها بإنشاء صناعات أو توسيع حرف،ومن عدم وجود مياه غزيرة وأرضين خصبة تسقي سيحاً بصورة دائمة ، حتى يشغل صاحب المال ماله في استغلال الأرض ، ولهذا عمد أصحاب المال الى تكثير أموالهم بطريق إقراضه والاستفادة من رباه .

وكان ربا الجاهلية ان الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال الى أجل ، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذي عليه المال : أخر عني دينك وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك . فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة . وروي عن (عطاء) انه قال : « كانت ثقيف تداين في بني المغيرة في الجاهلية فإذا حل الأجل قالوا : نزيدكم وتؤخرون » ، فكان يكون أضعافاً مضاعفة[4] . وروي

---

١ البقرة ، الآية ٢٧٥ .

٢ ارشاد الساري (٤/٢٦ وما بعدها) .

٣ سورة النساء ، الرقم ٤ ، الآية ١٦١ ، تفسير الطبري (٦/١٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٦/١٣) .

٤ تفسير الطبرى (٤/٥٩) ، تفسير الالوسي (٤/٤٩) .

أيضاً « ان الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية، كان اذا حل مال أحدهم على غريمه يقول الغريم لغريم الحق : « زدني في الأجل وأزيدك في مالك »[١] . وذكر « ان ربا أهل الجاهلية : يبيع الرجل البيع الى أجل مسمى ، فإذا حل الأجل ، ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه »[٢] . وذكر أيضاً انهم « كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين . فيقول لك كذا وكذا ، وتؤخر عني ، فيؤخر عنه »[٣] . أو أن يقول أحدهم لمدينه اذا حل الدين : إما أن تقضي وإما أن تربي »[٤] . وذكر ان « الربا الذي كانت العرب تعرفه وتفعله انما كان قرض الدراهم والدنانير الى أجل بزيادة على مقدار ما استقرضه على ما يتراضون به » . و « ان ربا الجاهلية انما كان قرضاً مؤجلاً بزيادة مشروطة، فكانت الزيادة بدلاً من الأجل »[٥] .

وروي عن (ابن زيد) أنه كان يقول : إنما كان الربا في الجاهلية وفي التضعيف وفي السن . يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل ، فيقول له : تقضيني أو تزيدني ، فإن كان عنده شيء يقضيه قضى وإلا حوله الى السن التي فوق ذلك . إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ، ثم حقة ، ثم جذعة ثم رباعياً ثم هكذا الى فوق . وفي العين يأتيه فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل ، فإن يكن عنده أضعفه أيضاً ، فتكون مائة فيجعلها الى قابل مائتين ، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه . فهذا قوله : « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة »[٦] .

ومن أغراض الربا وأسبابه الحاجة . الحاجة الى المال لسدّ دين أو عجز وللتغلب على فاقة أو ما شاكل ذلك من ضرورات ، فيضطر المحتاج الى اللجوء الى المرابي ليستدين منه في مقابل زيادة يؤديها اليه عند حلول الأجل . وقد يأخذ المدين المال ليشتغل به فيربح منه ، فيؤدي المال ورباه ، ويستفيد من الربح الذي حصل عليه

---

١ تفسير الطبري (٦٩/٣) .
٢ تفسير الطبري ٦٧/٣) .
٣ تفسير الطبري ٦٧/٣) .
٤ عمدة القارىء (٢٠٢/١١) .
٥ أحكام القرآن ، للجصاص (٤٦٥/١ وما بعدها) .
٦ تفسير الطبري (٥٩/٤) .

من تشغيله لذلك المال في تجارة أو في أعمال انتاجية أخرى . ورد عن (ابراهيم النخعي) أنه قال : « كان هذا في الجاهلية ، يعطي أحدهم ذا القرابة المال يكثر به ماله »[1] . وورد أنهم كانوا يعطون الرجل المال ليكثر به ماله ، وذلك عن طريق تشغيله لذلك المال[2] .

وقد قسّم العلماء الربا الى نوعين : ربا النسيئة وربا الفضل . أما الأول ، فهو الذي كان يتعارفونه في الجاهلية . كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر قدراً معيناً ، ثم اذا حل الدين طالب الدائن المدين برأس المال ، فإن تعذر عليه الأداء زادوا في الحق والأجل[3] . « وفي الحديث : انما الربا في النسيئة هي البيع الى أجل معلوم ، يريد أن بيع الربويّات بالتأخير من غير تقابض هو الربا ، وإن كان بغير زيادة . وكان (ابن عباس) « يرى بيع الربويات متفاضلة مع التقابض جائزاً ، وان الربا مخصوص بالنسيئة »[4] . وقد ورد في الحديث : « انما الربا في النسيئة وما كان يداً بيد فلا بأس »[5] .

وكان بيع النسيئة بيعاً معروفاً ، ولما قدم الرسول المدينة ، كانوا يتبايعون بهذا البيع . فقال : « ما كان يداً بيد فلا بأس به وما كان نسيئة ، فهو ربا »[6] . والنسيئة ، التأخير الى أجل ، هو الموسم ، أو أي أجل يتفق عليه .

وقسّم بعض الفقهاء الربا الى ثلاثة أنواع : ربا الفضل ، وهو البيع مع زيادة أحد العوضين على الآخر ، وربا اليد ، وهو البيع مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما ، وربا النساء ، وهو البيع لأجل . وكل منها في الاسلام حرام[7].

وعرفوا ربا الفضل ، بأنه الربا الذي يباع فيه الشيء بضعفه ، مثل أن يباع من الحنطة بمنوين مثلاً[8] ، وأن يباع الدرهم بدرهمين . وقد خصص العلماء ربا

---

١ تفسير الطبري (١/٣٠ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (٢١/٣٠) .
٣ تفسير الطبري (٣/٦٧) .
٤ اللسان (١/١٦٧) ، تاج العروس (١/٤٥٧) ، (طبعة الكويت) .
٥ مسند الامام أبي حنيفة (ص ١٥٨) ، عقود الجواهر (٢/٣٠) .
٦ البخاري (٥/٤٥) ، (كتاب البيوع ، باب النهي عن بيع الورق بالذهب دينا) .
٧ ارشاد الساري (٤/٢٦ وما بعدها) .
٨ تفسير النيسابوري (٣/٧٩) ، « حاشية على تفسير الطبري » ، تفسير القرطبي (٣/٣٤٨) .

الفضل في ستة أعيان ، وهي : الذهب ، والفضة ، والبر ، والشعير ، والتمر ، والملح ، فاتفق النـــاس على تحريم التفاضل فيها مع اتحاد الجنس ، وتنازعوا فيما عداها[1] وقد منع هذا الربا في الاسلام . فإذا باع رجل رجلاً دينـــاراً بدينارين الى أجل ، أو درهماً بدرهمين ، أو كيلة حنطة بكيلتين أو أكثر كما كان يفعل أهل الجاهلية ، فالزيادة هي ربا ، ولذلك نهي عنه في الإسلام[2] .

ولما نزل الأمر بتحريم الربا ،وذلك في آخر ما نزل من الوحي،وقبل وفاة الرسول بتسع ليال على بعض الروايات[3] . صعب ذلك على الأغنيـاء الذين كانـوا يعيشون على الربا ويقولون إنما البيع مثل الربا[4] . وذكر علماء التفسير أن الآية : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين »[5] ، إنما نزلت « في العباس بن عبد المطلب ورجل من بني المغيرة كانوا شريكين في الجاهلية ، سلفا في الربا الى أنـــاس من ثقيف من بني عمرو . وهم بنو عمرو بن عمير . فجاء الإسلام ، ولهما أموال عظيمة في الربا ، فأنزل الله ذروا ما بقي من فضل كان في الجاهلية من الربا »[6] . وذكر أيضاً « أن نبي الله ، صلى الله عليه وسلم، قال في خطبته يوم الفتح : ألا إن ربا الجاهلية موضوع كله . وأول ربا ابتدىء به ربا العباس بن عبد المطلب »[7] .

ولما جاء وفد (ثقيف) الى المدينة ، لمفاوضة الرسول في أمـــر دخولهم في

---

١ اعلام الموقعين (٢/١٣٦ وما بعدها) .

٢ مسند الامام أبي حنيفة (ص ١٥٩) ، صحيح مسلم (٥/٤٢) ، « باب الربا » ، « لا تبيعوا الذهب بالذهب ، ولا الورق بالورق الا وزنا بوزن مثلا بمثل سواء بسواء » ، صحيح مسلم (٥/٤٢ وما بعدها) .

٣ تفسير الطبرى (٣/٧٦) ، « وعن ابن عباس . قال : آخر ما انزل على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، آية الربا » ، « وعن ابن عباس قال : آخر آية نزلت على النبي، صلى الله عليه وسلم ، واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » ، تفسير الطبري (٣/٧٥) .

٤ البقرة ، الآية ٢٨٢ ، تفسير الطبري (٣/٦٨) ، « وقد قيل ان هذه الايات في أحكام الربا هن اخر آيات نزلت من القرآن » ، « ان عمر بن الخطاب قال : كان اخر ما انزل من القرآن آية الربا . وان نبي الله ، صلى الله عليه وسلم ، قبض قبل أن يفسرها »، تفسير الطبري (٣/٧٥ وما بعدها) .

٥ البقرة ، الآية ٢٨٢ .

٦ تفسير الطبري (٣/٧١) .

٧ تفسير الطبري (٣/٧٢) ، تفسير ابن كثير (١/٣٣٠) .

الاسلام ، قال (عبد ياليل) وهو لسانهم الناطق باسمهم : « أرأيت الزنا ! فإنا قوم عُزّاب لا بد لنا منه ، ولا يصبر أحدنا على العُزبة ؟ قال : هو مما حرم الله ؛ قال : أرأيت الربا ! قال : الربا حرام ! قال : فإن أموالنا كلها ربا ! قال : لكم رؤوس أموالكم . قال : أفرأيت الخمر ! فإنها عصيرُ أعنابنا ولا بد لنا منها ! قال : فإن الله حرمها ! »[1] .

وكانت ثقيف قد صالحت النبي « على ان ما لهم من ربا على الناس وما كان للناس عليهم من ربا ، فهو موضوع . فلما كان الفتح استعمل عتّاب بن أسيد على مكة . وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة . وكانت بنو المغيرة يربون لهم في الجاهلية . فجاء الاسلام ولهم عليهم مال كثير. فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم ، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الاسلام ، ورفعوا ذلك الى عتّاب بن أسيد . فكتب عتاب الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ... الى ... ولا تظلمون . فكتب بها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى عتّاب . وقال : إن رضوا وإلا فآذنهم بحرب »[2] . وذكر ان (بني عمرو بن عوف) ، الذين كانوا يأخذون الربا من (بني المغيرة) ، هم : (مسعود وعبد ياليل وحبيب وربيعة بنو عمرو بن عمير. وهم من كبار الملاكين والأثرياء في ثقيف[3] .

وأسقط النبي عن أهل نجران كل ربا كان عليهم في الجاهلية ، إلا رؤوس أموالهم فإنهم يردّونها وأسقط عنهم كل دم كانوا يُطلبون به[4] .

وقد كان إرغام ثقيف وغيرهم من الذين كانوا يتاجرون بالربا على ترك الربا ، والاكتفاء بأخذ رؤوس أموالهم إن كان لهم ربا في الجاهلية ، خسارة كبيرة لهم ، أرغموا عليها إرغاماً ، لتحريم القرآن له . واحلال (القرضة الحسنة) محله ، والقرض الحسن ، هو اقراض المال للمحتاج اليه من غير اشتراط زيادة عليه حين إعادته ، أي من غير ربا لذلك المال .

---

١ الطبري (٣/٤٩٢) .
٢ تفسير الطبري (٣/٧١) ، البلدان (٦/١٠ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (٣/٧١) .
٤ اللسان (١٤/٣٠٥) .

واضطر من كان له فضل ربا من ربا الجاهلية وهو في الإسلام على تركـه والتنازل عنه . وعلى أخذ خالص ماله فقط الذي أقرضه للمدين من غير أي ربح. وفرض الاسلام على هؤلاء الدائنين أيضاً وجوب التساهل مع المدينين وتأجيل الدفع إن كان المدين في عسر وضيق حال حتى يتحسن حاله فيتمكن من الدفع[1] .

وقد ذكر الفقهاء أن الربا ربوان : فالحرام كل قرض يؤخذ به أكثر منه أو تجرّ به منفعـة فحرام ، والذي ليس بحرام أن يهبه الإنسان يستدعي به مـا هو أكثر أو يهدي الهدية ليهدى له ما هو أكثر منها[2] وقد دعـا بعض العلماء الربـا الأولى بـ (ربا البيع) . وقال عنه انه هو الربا المحرم[3] .

وأول اشارة وردت في القرآن الكريم الى الربا ، هي الاشارة الواردة في سورة الروم : « وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هـم المضعفون »[4] . وسورة الروم من السور المكية ، أما المواضع الأخرى التي أشير فيها الى الربا ففي سوره البقرة[5] وسورة آل عمران[6] وسورة النساء[7] ، وهي من السور المدنية . ويظهر من دراسة هـذه المواضع ان حرمة الربا انما نزلت في المدينة ، أما في مكة ، فلم يكن قد حرّم ، وانما حث الأغنياء على قرض المال للمحتاج اليه لوجه الله ، مساعدة له ، ويكون ثوابه عند الله .

وفي سورة (المزمل) ، وهي من السور المكية ، وتعد السورة الثالثة في ترتيب سور القرآن : « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسنـاً »[8] ، وفي سورة التغابن « ان تقرضوا الله قرضاً حسناً ، يضاعفه لكم ويغفر لكم »[9].

---

١ تفسير الطبري (٣/٧٢ ، ٧٤ وما بعدها) ٠

٢ اللسان (١٤/٣٠٤) « صادر » ، تفسير الطبري (٢١/٣٠ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٤/٣٦) ٠

٣ تفسير ابن كثير (٣/٤٣٤) ٠

٤ سورة الروم ، الآية ٣٩ ٠

٥ البقرة ، الآية ٢٧٥ فما بعدها ٠

٦ آل عمران ، الآية ١٣٠ ٠

٧ النساء ، الآية ١٦١ ٠

٨ المزمل ، الرقم ٧٣ ، الآية ٢٠ ٠

٩ التغابن ، الرقم ٦٤ ، الآية ١٧ ٠

وهذه السورة هي من السور المكية كذلك . ولم يكن الربا قد حرّم في هذا العهد كما ذكرت . فيكون الاسلام قد وضع مبدأ القرضة الحسنة ، وهو القرض لله وفي سبيله ، بغير زيادة ، والتبرع في سبيل الله ، في موضع الربا في ذلك الوقت. فلما نزل الأمر بتحريمه ، جعلت القرضة الحسنة ، من أعمال البر والتقرب الى الله. وصار كل قرض يؤخذ عليه ربح ربا محرماً،يعاقب الله الإنسان يوم القيامة عليه . ولعن آكل الربا ومُؤكله وكاتبه وشاهديه [1] .

وقد ذكر علماء التفسير في تفسيرهم الآية : « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس ، فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله،فأولئك هم المضعفون » [2] . ان هذا كان في الجاهلية يعطي أحدهم ذا القرابة المال يكثر به ماله . أو ان الرجل يقول للرجل : لأمولنك فيعطيه ، فهذا لا يربو عند الله لأنه يعطيه لغير الله ليثري ماله ، أو ان الرجل يلزق بالرجل ، فيخف له ويخدمه ويسافر معه ، فيجعل له ربح بعض ماله ليجزيه ، وانما أعطاه النّاس عونه ولم يرد وجه الله ، أو هو ما يعطى الناس بينهم بعضهم بعضاً ، يعطي الرجل الرجل العطية ليثيبه ، يريد أن يعطي أكثر منها [3] »

ويذكر العلماء ان رسول الله لما ظهر على مكة وضع يومئذ الربا كله ، وحتّم على المرابين أخذ رؤوس أموالهم من غير زيادة عليها ، وذكر بعض العلماء ان التحريم نزل في ربا « بني عمرو بن عمير بن عوف من ثقيف وفي بني المغيرة من بني مخزوم » ، أو « في العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان ، وكانا قد أسلفا في التمر ، فلما حضر الجداد قال لهما صاحب التمر لا يبقى لي ما يكفي عيالي اذا أنتما أخذتما حظكما كله،فهل لكما ان تأخذا النصف واضعف لكما ففعلا، فلما حل الأجل طلبا الزيادة ، فبلغ ذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم،فنهاهما وأنزل الله تعالى هذه الآية فسمعا وأطاعا وأخذا رؤوس أموالهما » [4] . وقيل : « نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا فجاء الاسلام ولهما أموال عظيمة في الربا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . فقال

---

١ البخاري (٥/ ٥٠) ، (كتاب البيوع ، باب لعن آكل الربا ومؤكله) .
٢ الروم ، الرقم ٣٠ ، الآية ٣٩ .
٣ تفسير الطبري (٢١/ ٢٩ وما بعدها) ، روح المعاني (٢١/ ٤٠ وما بعدها) .
٤ اسباب النزول (ص ٦٥) .

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ألا ان كل ربا من ربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب »[1] .

فنحن إذن أمام أفراد وأمام شركاء كانوا يتعاملون بالربا ، أي قرض المال في مقابل جر مغنم منه . وقد حصل هؤلاء المرابون على أموال طائلة منه . أضف الى ذلك أنهم كانوا تجاراً ، يسافرون الى الخارج ويربحون من تجارتهم هذه ربحاً حسناً .

ولضبط المدين الآخذ بالربا ، كانوا يكتبون الدين ورباه في صحيفة ، يكتب كاتبها اسمه فيها ، ويكتب فيها اسم المدين واقراره بدينه للدائن ، وبمقدار الزيادة . والغالب أنهم كانوا لا يذكرون أصل الدين ، بل يذكرون الرقم الذي يبلغه هذا المبلغ مع فائضه مضافاً اليه ، حتى يظهر الفائض وكأنه جزء من رأس المال . ويشهد على صحة العقد شاهدان . ولهذا لعن الرسول آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه[2] .

وكان (أبو لهب) من أصحاب المال بمكة ومن المرابين . ذكر أنه كان قد لاط (العاصي بن هشام) بأربعة آلاف درهم ، فلما وقعت معركة بدر ، استأجره بها على أن يجزىء عنه بعثه ، فلم يخرج (أبو لهب) مع من خرج من رجال قريش . وكان (العاصي) قد أفلس ، فلم يتمكن من دفع المبلغ ورباه ، فتنازل (أبو لهب) عنه على أن يخرج الى بدر في مكانه[3] . وفي سورة (تبت) اشارة الى أن (أبا لهب) ، كان ملاّكاً ذا مال وقد كسب كثيراً .

وقد كان أهل يثرب يقترضون المال والطعام من اليهود في مقابل ربا فاحش . فورد ان أنصارياً اقترض ثمانين ديناراً من يهودي ، وقد أعطاه رباً بلغ خمسين في المئة من المبلغ لسنة واحدة[4] . وقد وبخهم القرآن لأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل[5] .

---

١ المصدر نفسه .

٢ البخاري (٥/٥٠) ، الترتيب والبيان عن تفصيل آي القرآن (٢/٢٣٤) ، عقود الجواهر (٢/٣٣) ، تيسير الوصول (١/٦٨) ، مسند الامام أبي حنيفة (ص ١٥٨) .

٣ الروض الانف (٢/٦٢) .

٤ البخاري ، بيوع (٣٤) ، ١٤ . Watt, Muhammad at Medina, p. 297.

٥ تفسير الطبري (١/١٧ فما بعدها) .

القراض :

وفي جملة وسائل تنمية المال وزيادته : القراض ، وهو المضاربة في كلام أهل الحجاز ، ويراد به تقديم مال الى شخص يتجر به على ربح معين . وكان معروفاً بين أهل مكة ، فكانوا يضاربون بأموالهم مساهمة منهم في الأرباح . ومنه حديث الزهري : « لا تصلح مقارضة من طُعمته الحرام » . فكانوا يعطون المال مضاربة الى شخص يتجر به ، على جزء يأخذه من ربح المال[1] ، وذلك كأن يعطي رب مال رجلاً مالاً يعمل فيه ويأذن له أن يشتري ما يشاء ، وأن يبيع بالسعر الذي يشاء ، ويدير هذا المال على يديه ، وبعد إخراج رأس المال وما صرف على التجارة من أتعاب وأجور ، وضرائب ، يوزع الربح نصفين ، أو أثلاثاً : لرب المال الثلثان ، وللعامل بحق عمله الثلث ، أو حسب ما تعاقدا عليه[2] . وقيل : القراض : أن يدفع اليه مالاً ليتجر به والربح بينهما على ما يشترطان والوضيعة على المال[3] .

وذكر ان المضاربة ان تعطي انساناً من مالك ما يتجر فيه على أن يكون الربح بينكما ، أو يكون له سهم معلوم من الربح . والمضارب صاحب المال والذي يأخذ المال كلاهما مضارب . ويقال للعامل : ضارب ، لأنه هو الذي يضرب في الأرض. وجائز أن يكون كل واحد من رب المال ومن العامل يسمى مضارباً ، لأن كل واحد منهما يضارب صاحبه ، وكذلك المقارض[4] .

فنحن اذن أمام نوع من الاتجار بالمال ، يقدم فيه صاحب المال مالاً الى شخص آخر ليعمل به رأس مال التجارة ، على أن يكون الربح بينهما على نحو ما اتفقا عليه . وقد عرف بالقراض وبالمضاربة .

و (الوضيعة) الخسارة ، وفي حديث (شريح) الوضيعة على المال والربح على ما اصطلحا عليه ، يعني أن الخسارة من رأس المال[5] . وذلك لاشتراط بعض الجاهليين ، أن القراض على جزء من الربح ، على ألا يتحمل صاحب المال ،

---

١ اللسان (٢١٧/٧) « صادر » ، (قرض) .
٢ نهاية الارب (١٩/٩) .
٣ تاج العروس (٧٧/٥) ، (قرض) .
٤ اللسان (٥٤٤/١) ، (ضرب) ، تاج العروس (٣٤٩/١) ، (ضرب) .
٥ تاج العروس (٥٤٤/٥) .

أي المقرض له أيـة خسارة إذا خسرت التجارة . وعلى المقترض ارجاع المـال كاملاً الى المقرض .

التسليف :

وفي جملة وسائل الاستفادة من المال : التسليف . وهو تسليف المال لمزارع أو لأصحاب الإبل والماشية في مقابل شيء يتفق عليه ، يدفع بعد البيع أو الحصاد. يدفع نقوداً أو عيناً أو إبلاً أو ماشية أو أي شيء آخر يتفق عليه . والسلف ، هو أن يعطى مالاً في سلعة الى أجل معلوم بزيادة في السعر الموجود عند السلف، وذلك منفعة للمسلف. وقيل كل مال قدمته في ثمن سلعة مضمونة اشتريتها للصفقة، فهو سلم وسلف . والسلف القرض الذي لا منفعة فيه للمقرض غير الأجر والشكر وعلى المقترض رده كما أخذه[1] .

وذكر العلماء أن السلف في المعاملات له معنيان : أحدهما القرض الذي لا منفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر وعلى المقترض ردّه كما أخـذه . والعرب تسمي القرض سلفاً ، والمعنى الثاني في السلف ، هو أن يُعطى مالاً في سلعة الى أجل معلوم بزيادة في السعر الموجود عند السّلف ، وذلك منفعة للمسلف[2] .

ولما قدم النبي المدينة ، وجدهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين ، أي يعطون الثمن في الحال ويأخذون السلعة في المآل. فقال لهم : من أسلف فـلا يسلف إلا في كيل معلوم ووزن معلوم الى أجل معلوم[3] . ويظهر من ذلك انهم كانوا يسلفون المزارع مالاً ، ويشترطون عليه أن يعطيهم في مقابل ذلك حاصلاً ، أو يبيع زرعه عندهم أو بواسطتهم ، وذلك على نحو ما يفعـل المزارعون في هذا الوقت . فيكسب المسلف،ويربط المزارع به ، بحيث يرغمه على أن يكون مرجعه الوحيد في بيع حاصله . فجوّز الرسول السلف،على أن يكون بيعاً شرعياً صحيحاً، كيل معلوم ووزن معلوم الى أجل معلوم .

و (القرض) الذي لا منفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر ، هو ما يقال

---

١ تاج العروس (١٤٣/٦) ، (سلف) .
٢ اللسان (١٥٩/٩) ، (سلف) .
٣ البخاري (٥٥/٥ وما بعدها) ، (كتاب البيوع ، باب السلم) .

له (قرضاً حسناً) في الاسلام ، وهو ما تعطيه لتقضاه ، أي ما يعطى قرضاً ، فيعاد الى صاحبه[1] .

وقامت المعابد في العربية الجنوبية بتسليف المال للمحتاج اليه . ولا أعني بالمال النقود ، بل كل شيء له ثمن وقيمة . وكانت تتقاضى فائضاً في مقابل الاستفادة منه . وقد كانت معظم معابد ذلك الوقت تقوم مقام (بنوك التسليف) في هذا اليوم بتسليف الأموال الى المحتاج لها ، لما كان عندها من فائض يأتيها من أملاكها ومن حقوقها المفروضة على أتباعها ، فتاجرت في الأسواق ، وسلفت الفائض الى المتسلفين .

ولهذه المعابد بيوت وضعت بها أموال المعبد ، وهي خزائن المعابد ، وبيوت المال عند المسلمين . وقد كانت في المعابد في الغالب ، ليكون في وسع أصحاب النذور طرح نذورهم بها . أما الزروع والمواشي التي تكون من حقوق المعبد فتحفظ في المخازن المخصصة لهذه الغاية وفي (حرم) الآلهة المحماة باسمها لرعي ماشيتها . وقد تحدثت عن (الغبغب) الذي كان بمكة في الجزء السادس من هذا الكتاب ، وقد كان خزانة للكعبة ، وأشرت الى وجود خزائن لبيوت الأرباب الأخرى . وسدنة الأصنام هم حفاظها وأمناؤها ، ولا استبعد احتمال قيام هؤلاء السدنة بالاتجار باسم المعابد ، وبتسليف ما في خزائنها من مال الى المحتاجين اليه .

وقد عرف الاستلاف من بيت المال في الاسلام . استلف منه بعض الخلفاء والعمال وكبار الرجال لحاجتهم الى المال أو لتشغيله وللاستفادة منه تجارة أو لاستخدامه في مشاريع زراعية مثل إحياء موات ، أو تحويل مجرى ماء الى غير ذلك من سلف وقروض نص عليها أهل التواريخ والأخبار .

الافلاس :

والافلاس ذهاب المال ، واذا لم يبق للتاجر مال[2] . فقد كان التاجر يصاب بخسارة فادحة ، تتغلب على أرباحه وعلى ما عنده من مال ، أو تتعرض أمواله

---

١ تاج العروس (٥/٧٦) ، (قرض) .
٢ اللسان (٦/١٦٦) ، (فلس) .

للنهب ، فلا يستطيع إعادة اعتباره ، فلا يكون في وسعه دفع ما بذمته من قروض أو رأس مال الى دائنيه ، فيعلن عندئذ عدم تمكنه من دفـــع ما عليه ، ويشهر افلاسه . وهذا ما يقال له الافلاس .

والمفلس مسؤول عن وفاء ديونه . وعليه ارضاء خصومه ، بدفع ما بذمته لهم دفعاً كاملاً أو حسب ما يتفق معهم عليه ، أو تقسيطاً. ويكون الشركاء مسؤولين عن افلاسهم أيضاً ، وعليهم تحمّل المسؤولية كل حسب حصته في الشركة .

الفصل الثامن بعد المئة

أصحاب المال

وصاحب المال عند أهل الجاهلية ، من له تجارة وجمع منها مالاً ، أو من له زرع ونخيل ، جاء اليه بربح طيب ، أو من له إبل ، والإبل هي (المال) عند العرب ، ومقياس ثراء الانسان ، لأنهم لا يعرفون مالاً غيرها ، أو من له حرفة رائجة ، وذلك بين أهل المدن والقرى ، حيث يستطيع صاحبها الحصول منها على ربح طيب اذا عرف كيف يستغل مواهبه في اختيار حرفته وفي تشغيل الأيدي العاملة لزيادة الانتاج .

وقد أشار أهل الأخبار الى رجال جاهليين ومخضرمين كان يملك كل واحد منهم عشرات الألوف من الدراهم ، أي النقود ، عدا الإبل والمزارع والأملاك. من هؤلاء : (عبدالله بن جدعان) . ويظهر انه كان واسع الثراء ، لم يبلغ أحد مبلغه في كثرة ماله بمكة ، حتى ذكر انه كان يأكل بصحاف من ذهب ، ويشرب بآنية من فضة ، وبكؤوس من البلور ، وانه كان قد امتلك قياناً ليغنين له . وللجرادتين ، وهما قينتان من قيانه ،شهرة واسعة في كتب الأدب ، تغنيان له ولمن يحضر مجلس شرابه ليلاً ، وكان بيته داراً للضيفان .

وكان استعمال الأغنياء لآنية من الفضة والذهب في أكلهم وشربهم معروفاً بمكة. وقد كان ذلك يترك أثراً في نفوس الفقراء الذين لا يملكون قوتاً لهم . ولهذا السبب نهي عن استعمالها في الإسلام ، ونهي أيضاً عن استعمال ثياب الحرير . وقد كانت ثياب الحرير والملابس المقصبة بالذهب ، وحلل الديباج من ألبسة

الأغنياء ، الذين كانوا يعتنون بملابسهم وينفقون في شرائها مالاً ، وهي تستورد من الخارج من اليمن ومن بلاد الشأم والعراق .

ويفهم من القرآن الكريم أن بين الجاهليين من كان يكتنز الذهب والفضة ، ولا يعطي مما جمعه للفقراء والمحوجين شيئاً . وقد بشر هؤلاء بعذاب أليم ، لاكتنازهم المال وعدم إخراج شيء منه من حق مفروض عليهم ، لينفق في موضعه ومكانه الذي وضعه الله له[1] . وأشار الى أناس حبب اليهم جمع القناطير المقنطرة من الذهب والفضة[2] . وكان أغنياؤهم يعيشون عيشة مترفة ، يحتسون الماء بآنية من ذهب ، حتى قيل لأحدهم (حاسي الذهب) و (شارب الذهب)[3]. ويستخدمون الأثاث الفاخر ، والمذهبات ، وهي الأشياء المطلية بالذهب ، والبرد المذهبة والملابس المذهبة ، والحلي المصوغة من الذهب ، على حين يعيش بعضهم عيشة كفاف ، وبعض منهم عيشة فقير معدم .

وقد عرف (عثمان بن عمرو بن كعب) ، وهو من (بني تيم بن مرة) بـ (شارب الذهب) ، لغناه وكثرة ماله ، حتى كان يشرب بآنية من ذهب، وقد عدّ في أجواد قريش[4] .

ويظهر من سورة « تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب»[5] أن (أبا لهب) كان رجلاً ثرياً كسب مالاً وذرية ذكوراً . وهو عم من أعمام النبي ، واسمه (عبد العزّى) ، وكان يرى نفسه لكثرة ماله وولده ، أنه من رجال قريش وسادتهم ، فلا يليق به اتباع ابن أخيه ، وهو أصغر منه سناً وأقل منه مالاً . يقال إنه قال للنبي : « ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك ؟ قال : كما يعطى المسلمون ! فقال : مالي عليهم فضل ! قال : وأي شيء تبتغي : قال : تباً لهذا من دين . تباً أن أكون أنا وهؤلاء سواء »[6] .

وقد تحدثت عن (أبي سفيان) في مواضع من هذا الكتاب ، وكان تاجراً

---

١ سورة التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٣٤ .
٢ سورة آل عمران ، الرقم ٣ ، الاية ١٤ .
٣ المحبر (١٣٧) .
٤ المحبر (١٣٧) .
٥ سورة تبت ، الرقم ١١١ ، الآية ١ وما بعدها .
٦ تفسير الطبري (٣٠/٢١٧) .

يجهّز التجار بماله وأموال قريش الى الشأم وغيرها من أرض العجم، وكان يخرج أحياناً بنفسه[1] . وقد عهدت اليه قريش بقيادة قوافلها الى الشأم ، وبسبب قيادته قافلتها الى الشأم وقعت معركة بدر . ويظهر انه كان يدفع أمواله الى كبار تجار قريش ممن كانوا يتاجرون مع الشأم والعراق ، للاتجار بها ، فإذا عادوا يصيب من أرباحها .

ويتبين من خبر وقوع ابنه (عمرو) أسيراً يوم بدر ، ومن امتناعه من تخليصه من أسره بتقديم فدية عنه ، ومن قوله لمن ألح عليه بإفدائه : « أيجمع عليّ دمي ومالي ! قتلوا حنظلة وأفدي عمراً ، دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم » ، انه كان شحيحاً ، حمله شحه على تفضيل المال على ابنه . حتى حمله شحه هذا على مخالفة دين قريش،وعرفهم في عهدها ألا تعرّض لأحد حاجاً أو معتمراً إلا بخير. فلما جاء (سعد بن النعمان بن أكال) ، وكان شيخاً مسلماً كبيراً الى مكة معتمراً ، عدا عليه (أبو سفيان) ، فحبسه بمكة بابنه (عمرو) ، مما حمل الرسول على فك أسر ابنه بـ (سعد بن النعمان بن أكال)[2] .

وكان يتاجر بالفضة وبالأدم ، والأدم من تجارة قريش المهمة . ويظهر انه كان يشتري الأدم من الطائف ومن اليمن ، ثم ينقله الى بلاد الشأم . وقد أشير الى أدم قريش ، وهو أديم عرف في الأسواق بجودته وبنفاسته .

وكان (العباس بن عبد المطلب) من أثرياء قريش . كانت له ثروة واسعة من نقود ومن ذهب وفضة . وقد استغل ماله بالتجارة وبإقراضه بالربا ، قيل عنه إنه « كان ذا مال كثير متفرّق في قومه »[3] . كان يقرضهم ويسلفهم ويشاركهم في تجارتهم . ولما انتهى الى المدينة قال الرسول له : « يا عبّاس افدِ نفسك وابني أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث ، وحليفك عروة ابن عمرو بن جحدم ، أخا بني الحارث بن فهر . فإنك ذو مال . فقال : يا رسول الله ؛ إني كنت مسلماً ، ولكن القوم استكرهوني ، فقال : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقاً فالله يجزيك به . فأما ظاهر أمرك فقد كان

---

١ الاستيعاب (٤/٨٦) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٢/١٧٢) ، (رقم ٤٠٤٦)
٢ الطبري (٢/٤٦٦ وما بعدها) .
٣ الطبري (٢/٤٦١) .

علينا ، فافدِ نفسك – وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب – فقال العباس : يا رسول الله ، احسبها لي في فدائي ، قال: لا ، ذاك شيء أعطاناه الله عزّ وجلّ منك ، قال : فإنه ليس لي مال . قال: فأين المال الذي وضعته بمكة حيث خرجت من عند أم الفضل بنت الحارث ، ليس معكما أحد . ثم قلت لها : إن أصبت في سفري هذا فللفضل كذا وكذا ، ولعبدالله كذا وكذا ، ولقثم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا ! قال : والذي بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيري وغيرها ، وإني لأعلم أنك رسول الله ، ففدى العباس نفسه وابني أخيه وحليفه »[1] . وكان ذلك عند وقوعه في الأسر ببدر[2] .

وكانت أم العباس غنية على ما يظهر ، ذكر انه ضاع وهو صغير ، فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت الحرير ، فوجدته فكست البيت الحرير ، فهي أول من كساه ذلك[3] . وكان له مال في الطائف ، فإذا كان الموسم جيء اليه بالزبيب لينتبذه للحجاج ، فقد كان المتولي لأمر السقاية بمكة . وذكر انه كان يملك (مكوكاً) ، مصوغاً من فضة مموهاً بالذهب يشرب به[4] .

وقد نجح بعضهم في الزراعة نجاحاً باهراً ، وأظهر مقدرة في إحياء الأرض الموات . ومن هؤلاء : (عبدالله بن عامر بن كريز) . وكان صغيراً في أيام النبي ، وولي (البصرة) في أيام (عثمان) . وكان ابن خال (عثمان) . وله (النباج) الذي يقال له نباج ابن عامر ، وله (الجحفة) ، وله بستان ابن عامر بنخلة على ليلة من مكة ، وله أرضون أخرى ، تمكن من معالجتها ومن إظهار الماء فيها ، حتى جمع ثروة طائلة من الزراعة[5] .

ونجح (عبدالله بن عمرو بن العاص) في الزراعة أيضاً ، فقد كان له مال بالطائف على ثلاثة أميال من (وج) ، هو كرم فاخر موصوف ، « كان يعرش على ألف ألف خشبة شراء كل خشبة درهم » . وقد كان يحصل منه على أكوام كبيرة من الزبيب[6] .

---

١ الطبري (٢/٤٦٦) .
٢ الاصابة (٢/٢٦٣) ، (رقم ٤٥٠٧) .
٣ الاصابة (٢/٢٦٣) ، (رقم ٤٥٠٧) ، الاستيعاب (٣/٩٤) ، (حاشية على الاصابة)
٤ تاج العروس (٧/١٧٩) ، (مك) .
٥ كتاب نسب قريش (١٤٨) ، الاستيعاب (٢/٢٥١) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ تاج العروس (٥/٢٤٣) ، (وهط) .

وعرف (آل مخزوم) بالثراء في الجاهلية وفي الاسلام. مرّ (عثمان بن عفان) بمجلس لبني مخزوم ، فسلم عليهم ، ثم قال : « إنه ليعجبني ما أرى من جمالكم ونعمة الله عليكم » . « وزعموا أن قوماً قعدوا يذكرون الأغنياء من قريش، فقال أحدهم : (المغيرة بن عبد الرحمن) . فقال له القوم : « وهل لمغيرة من مال؟» فقال الرجل : أليس له أربع بنات وأربع أخوات ؟ وكان المغيرة يقول : لا أزوج كفؤاً إلا بألف دينار ! فكان إذا خطب اليه الكفؤ ، قال له : قد علمت قولي ؟ فيقول له الخاطب : قد علمتُ وقد أحضرت المالّ ؟ فيزوجه ويقبض المال منه ؛ ثم يقول له : أختم عليه بخاتمك ، فإذا أدخل زوجته ، بعدما يجهزها بما يصلحها ، ويخدمه خادمين ، ويدخل بيتها نفقة سنة دفع اليها صداقها مختوماً بخاتم زوجها ، ثم يقول لها : هذا مالك ، وما جهزناك به صلة منّا لك»[1]. وهي قصة مهما قيل فيها فإنها تشير الى ثراء وغنى آل مخزوم .

وعكرمة بن أبي جهل من أغنياء قريش كذلك ، ولما ندب (أبو بكر) الناس لغزو الروم ، خرج معهم غازياً ، فبصر (أبوبكر) بخباء عظيم ، حوله ترابط ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة ، فجاء اليه ، فإذا خباء (عكرمة) ، فعرض أبو بكر عليه المعونة ، فقال : « أنا غني عنها ، معي ألفا دينار ، فاصرف معونتك الى غيري »[2] .

وكان (الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس) من تجار مكة ، وكان يخرج بتجارته الى الخارج ، فيذهب الى الحيرة ، للاتجار بسوقها . ومرّ (الحكم) بحاتم الطائي فسأله الجوار في أرض طيء حتى يصل الى (الحيرة) فأجاره ونحر له وأوصله الى الحيرة .

ومن أغنياء الطائف (مسعود بن معتب الثقفي) ، قيل انه كان له مال عظيم. وانه أحد من قيل فيه انه المراد من الآية : « على رجل من القريتين عظيم » . وكانت له مزارع بها أشجار كروم وفواكه ، وله عبيد ، وقصر ضخم[3] .

ومن رجال الطائف الأغنياء (مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي) ، كان غنياً

---

١ كتاب نسب قريش (٣٠٨ وما بعدها) .
٢ كتاب نسب قريش (٣١١) .
٣ تاج العروس (١٨٤/٦) ، (طوف) .

يرابي عماله . ولإخوته ربا عند (بني المغيرة بن عبدالله) ، فلما أسلموا طالبوهم، فقالوا : ما نعطي الربا في الاسلام ، واختصموا الى (عتاب بن أسيد) ، فكتب به الى النبي ، فنزلت : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين »[1] .

ولا توجد لدينا قوائم بمقدار ما كان يملكه الأغنياء في الجاهلية من مال ، وأقصد بالمال هنا : النقود ، من دنانير ودراهم ، لعدم وصول موارد مدونة فيها مثل هذه القوائم ، إلا أن الموارد الاسلامية قد تطرقت الى ذكر ما قدمه بعض من أسلم من النقود في سبيل الله،وبعض ما قدمه المشركون من أجل الدفاع عن مصالحهم ، كما أشارت الى أمور أخرى وردت فيها أعداد وأرقام ، قد ترسم لنا صورة عن أموال بعض الأغنياء عند ظهور الإسلام . فقد ورد في كتب السير والتواريخ مثلاً أن الرسول استسلف من (عبدالله بن أبي ربيعة) أربعين ألف درهم ، فأعطاه . واستقرض من (صفوان بن أمية) خمسين ألف درهم فأقرضه . واستقرض من (حويطب بن عبد العُزى) أربعين ألف درهم . فكانت ثلاثين ومائة ألف قسمها بين أهل الضعف ، فأصاب الرجل خمسين درهماً وأقل وأكثر ، وبعث من ذلك الى بني جذيمة[2] .

وورد أن (المطلب بن أبي وداعة) ، فدى أباه يوم بدر بأربعة آلاف درهم[3] . وهو مبلغ يمكن أن يتحدث عمّا كان لدى آل (أبي وداعة) من مال .

واستعان الأغنياء بخزنة يخزنون لهم أموالهم ، ويكتبون لهم حساباتهم ، فكان لـ (طلحة بن عبيد الله) خازن ، يحفظ له ماله ، ويشرف على أملاكه ونخله وزروعه[4] . والخازن ، هو الذي يحافظ على المال وخزنه ، والخزانة مكان الخزن[5] . وقد كانت الخزائن معروفة عند الجاهليين ، وقد أشير اليها في مواضع من القرآن الكريم[6] . وكان (بلال المؤذن) خازناً لأبي بكر ، ثم صار خازناً للرسول ،

---

١ الاصابة (٣/٣٩٢) ، (رقم ٧٩٥٨) .
٢ امتاع الاسماع (١/٣٩٥) .
٣ كتاب نسب قريش (٤٠٦) .
٤ ارشاد الساري (٤/٧٩) .
٥ تاج العروس (٩/١٩١) .
٦ غافر ، الاية ، ٤٩ ، الزمر ، الاية ٧١ ، ٧٣ ، الملك ، الاية ٨ ، الانعام ، الاية ٥٠ ، هود ، الاية ٣١ ، الاسراء ، الاية ١٠٠ ، يوسف ، الاية ٥٥ ، ص ، الاية ٩ ، الطور ، الاية ٣٧ ، المنافقون ، الاية ٧ ، الحجر ، الاية ٢١ .

لما أعتقه (أبو بكر) ، يقوم بحفظ ما يأتي الى الرسول من بيت المال ، ويعطي منه من يأمره باعطائه منه[1] .

واتخذوا لهم محاسبين يحسبون لهم حسابهم ، وتجار لهم قوافل ولهم شركات مساهمة ، يساهم فيها كل من أراد من أهل مكة ، كان لا بد لهم من استخدام المحاسبين ، لحساب رؤوس أموالهم ومصاريفهم وتقدير أرباحهم وخسائرهم . وقد « استعمل الرسول رجلاً من الأسد على صدقات (بني سليم) ، يدعى (ابن اللتيبة) ، فلما جاء حاسبه ، فقد صح ان رسول الله حاسب . وبكتاب الحساب تحفظ الأموال »[2] . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال آخرين عينّهم الرسول لأخذ صدقات المسلمين ومحاسبتهم عليها .

وقد استغل أهل مكة (الطائف) ، فكانت لقريش أموال بها يأتونها من مكة فيصلحونها ، فلما فتحت مكة وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها ، حتى اذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المكيين . وصارت الطائف مخلافاً من مخاليف مكة . وممن كان له مال بالطائف (العباس بن عبد المطلب) ، كانت له بها أرض ، بها كروم ، فكان الزبيب يحمل منها فينبذ في السقاية للحجاج[3] .

والتجارة من أهم موارد الثراء عند الجاهليين ، وقد كان أكثر أغنياء مكة تجاراً . وأهم ما يمتاز به ثراء التاجر عن ثراء غيره من الأغنياء ، هو أن ثراءه ثراء نقود ، وتعامله بالدنانير والدراهم في الغالب ، وأن ما يبيعه ويشتريه هو من منتوج ومحصول غيره ، فهو وسيط ، يكسب ربحه من البيع والشراء ، أي من فرق السعر الذي يكون بين سعر شرائه وسعر بيعه ، وقد يخسر بالطبع . أما ثراء الأغنياء المزارعين ، فمن بيع حاصلهم ، ويزيد كسبهم كلما ارتفع سعر البيع ، فتزيد به ثروتهم وتتوسع أرضهم . وأما ثراء سادة القبائل ، فمن المال ، أي الإبل ، ومن الجباية والتعامل مع التجار ومن الجهود الشخصية التي يبذلونها في الحصول على المال ، مثل حفر الآبار واستنباط الماء في الأرض الموات وغير ذلك .

ومن وسائل الثراء العثور على (الرّكاز)[4] ، دفين أهل الجاهلية ، أي الكنز

---

١ الاستيعاب (١/١٤٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة ، (١/١٦٩) ، (رقم ٧٣٦) .
٢ نهاية الارب (٨/١٩٢) .
٣ البلاذري ، فتوح (٦٨) .
٤ الركاز ككتاب .

الجاهلي ، والمال العاديّ يوجد مدفوناً . و (الركزة) واحدة الركاز ، القطعة من جواهر الأرض المركوزة فيها ، وقطع عظام مثل الجلاميد من الذهب والفضة تخرج من الأرض أو من المعدن. وأدخل بعض العلماء المعادن في الركاز. وخصص أهل الحجاز الركاز بالمال المدفون خاصة مما كنزه بنو آدم قبل الاسلام ، وأما المعادن ، فليست بركاز[1] . وعرف الركاز بـ (السيوب) . وذكر أن السيوب المعادن ، وذكر أنها عروق من الذهب والفضة تسيب في المعدن ، أي تتكون فيه وتظهر ، سميت سيوباً لانسيابها في الأرض . وذكر أنها المال المدفون في الجاهلية أو المعدن . وقد وردت اللفظة في كتاب الرسول لـ (وائل بن حجر) . إذ ورد « وفي السيوب الخمس »[2] .

وقد اعتبر الجاهليون (الركاز)،مالاً يأخذه من يعثر عليه ، ونصيباً حلالاً، حكمه حكم اللقطة التي لا صاحب لها ، أما الاسلام ، فقد فرض الخُمس في الركاز . وإنما كان فيه الخمس لكثرة نفعه وسهولة أخذه . فما استخرج من الركاز ، فلمستخرجه أربعة أخماس ولبيت المال الخمس[3] .

ونجد السور المكية الأولى من سور القرآن ، تصور أغنياء قريش ، أناساً متغطرسين غلاظ الأكباد يرون أنفسهم فوق الناس ، لغناهم ولمكانتهم بسبب ذلك في قومهم ، وكان ضعف حال الرسول بالنسبة لهم ، وصغر سنه من أهم العوامل التي دفعت أولئك السادة على مقاومته ومقاومة ما جاء به،خاصة في دعوته انصاف الفقير وإخراج حق الله المكتوب للفقراء من أموالهم صدقة وزكاة،تزكية لأموالهم، وإسعافاً لنفقرائهم ، قال أبو لهب للرسول : « ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك؟ قال : كما يعطى المسلمون ! فقال : ما لي عليهم من فضل. قال : وأي شيء تبتغي ؟ قال : تباً لهذا من دين ، تباً أن أكون أنا وهؤلاء سواء »[4] .

ويصورهم القرآن الكريم قوماً ألهاهم التكاثر والتفاخر ، تفاخروا بأموالهم وبوجاهتهم في قومهم ، بل تفاخروا حتى بمن توفي منهم من سادتهم[5]. لا يرحمون

١ تاج العروس (٣٩/٤) ، (ركز) .
٢ تاج العروس (٣٠٥/١) ، (سيب) .
٣ تاج العروس (٣٩/٤) ، (ركز) .
٤ تفسير الطبري (٢١٧/٣٠) .
٥ سورة التكاثر ، الرقم ١٠٢ .

فقيراً ، ولا يعطفون على يتيم ، بل كانوا يأكلون أموال اليتامى ، ويقهرونهم ، ولا يعطونهم حقوقهم[1] ، اذا جاءهم سائل انتهروه ، وطردوه طرداً قبيحاً ، واذا طلب محروم منهم عوناً أبعدوه عنهم . واذا وزن بائعهم أنقص في الميزان ، واذا كال قصر في الكيل : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم »[2].

ونجد هذه الصور البشعة المعبرة عن جشع بعض الأغنياء في كتب السير والحديث والأخبار أيضاً ، اذ صورت بعضها بعضهم وقد اعتدى على أموال رجل غريب جاء يتاجر بمكة ، فتلقاه تاجر من تجارها ، عامله على سلعة له ، ثم بايعه ، فلما قبضها ماطله الثمن، ثم أكله . هذا (أبو جهل) ابتاع إبلاً لرجل من (اراش) (اراشة) بمكـة ، فطله بأثمانها ، فأقبل (الاراشي) حتى وقف على ناد من قريش ، ورسول الله في ناحيـة من المسجد جالس . فقال : يا معشر قريش من رجل يؤديني على أبي الحكم بن هشام ، فإني رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي . فقـال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس ، يشيرون الى رسول الله ، وهم يهزأون به لما يعلمون بينـه وبين أبي جهل من العـداوة ، اذهب اليه فإنه يؤديك عليه . فذهب به الى أبي جهل ، وأخـذ منه حقه ، وأعاده عليه[3] . وهذا رجل من (زبيد) قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه (العاصي بن وائل) ، وكان ذا قـدر بمكة وشرف فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليـه الزبيدي الأحلاف ، فأبوا أن يعينوه على (العاصي بن وائل) وزبروه . فلما رأى الزبيدي الشر أوفى عـلى أبي قبيس وقريش في أنديتهم ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعتـه ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

---

١ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ١٥٢ ، الاسراء ، الرقم ١٧ ، الاية ٣٤ ، الفجر ، الرقم ٨٩ ، الاية ١٧ ، الضحى ، الرقم ٩٣ ، الاية ٩ ، ومواضع أخرى ، المعجم المفهرس (٧٧٠) .
٢ الرحمن ، الاية ٩ ، المطففين ، الاية ١ وما بعدها ، تفسير الطبري (٥٧/٣٠ ومـا بعدها) ، تفسير النيسابوري (٤٤/٣٠) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٣ ابن هشام ، سيرة (٢٣٧/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .

فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبدالله بن جدعان ، وتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه . وعرف حلفهم هذا بحلف الفضول ، ثم مشوا الى (العاصي بن وائل) ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه[1] . فكان حلف الفضول نتيجة لما كان يقع بمكة من اعتداء على حقوق وأموال الغرباء والمستضعفين من الناس .

وذكر ان منهم من كان يأكل أجر العامل الأجير ، ومنهم من كان يشتط على عبده ، فيشغله في أشغال صعبة ، ثم يطلب منه أجره ، وقد يستقل أجره فيضربه ليحمله على ان يشتغل له أكثر من شغله ، ليجيء اليه بمال زائد . ومنهم من كان يحمل إماءه على البغاء ليأخذ أجرهن ، كما أشير الى ذلك في القرآن الكريم . وكما أشرت الى ذلك في مواضع أخرى من هذا الكتاب. ومنهم من كان لا يبالي للحصول على المال بسلوك أي سبيل يؤدي اليه .

وهي صورة تعارض ما نقرأه في أخبار أهل الأخبار عن تعاطف أغنياء مكة مع فقرائهم ، وعن اخراجهم جزءاً من أموالهم لمساعدة البائس والفقير والصعلوك والغريب ، حتى صار الفقير عندهم كالكافي وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء الى غير ذلك من نعوت وأوصاف[2] ، وكما جاء في شعر ينسب الى (مطرود بن كعب الخزاعي)[3] . وما ذكروه عن الذادة الذين أخذوا على أنفسهم الذود عن الضعيف والمظلوم .

ونجد أناساً بين الأعراب كانوا يشعرون بما كان يعانيه الفقراء من شدة الفقر، ومن شدة ما أصاب بعضهم من إملاق ، ومن اضطرار بعضهم إلى وأد بناته من شدة الفقر ، كما أشير الى ذلك في القرآن الكريم ، وهذا مما حمل بعض أصحاب القلوب الرحيمة الشفيقة على ودى البنات، وحمل مؤونتهن وبذل الرعاية لهن حتى يكبرن فيتزوجن . وقد ذكر ان من هؤلاء الذين وهبوا الشعور بالمسؤولية الانسانية وبالشفقة والرحمة والحنان : (صعصعة بن ناجية بن عقال) ، فقد أحيا الموءودات فبعث الرسول وعنده مائة جارية وأربع جوار أخذهن من آبائهن لئلا يوأدن[4] .

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٩٠ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (١/٩٠ وما بعدها) .

٢ ثمار القلوب (١٠ وما بعدها) .

٣ الروض الانف (١/١١٧) .

٤ المحبر (١٤١) .

عادات وأعراف :

ويظهر من بعض الأخبار ان الوأد لم يكن عن إملاق حسب ، بل كان لسبب آخر ، أراه متصلاً بعقيدة ودين . فقد ذكر ان وفد (جعفى) ، قال لرسول الله : « يا رسول الله ! إن أمنا مُليكة بنت الحلو ، كانت تفك العاني وتطعم البائس وترحم المسكين ، وانها ماتت وقد وأدت بنيّة لها صغيرة فما حالها؟ قال : الوائدة والموءودة في النار »[1] . فلم يكن الوأد هنا بسبب الفقر والإملاق ، بل لسبب آخر ، قد تكون له صلة بدين أو بعرف اجتماعاً . ويلاحظ ان (جعفى) كانوا يحرمون القلب في الجاهلية ولا يأكلونه . ولما قدم وفدهم الى يثرب ، قال رسول الله : بلغني انكم لا تأكلون القلب ؟ قال : نعم . قال : فإنه لا يكمل اسلامكم إلا بأكله . ودعا له بقلب فشوي ، ثم ناوله أحد رجال الوفد، فلما أخذه أرعدت يداه ، فقال له رسول الله : كُله ، فأكله وقال :

على أني أكلت القلب كرهاً وترعد حين مسته بناني[2]

وقد حمل الأعشى على أولئك الذين ينامون وهم متخمون ملاء البطون،وجيرانهم جياع يتضورون من الجوع ، إذ يقول :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وفي هذا المعنى يقول بشر بن المغيرة :

وكلّهم قد نال شبعاً لبطنه وشبع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه

ولعلّ هذا الشعور هو الذي حمل (عروة بن الورد) على أن يكون سيد الصعاليك ومجمعهم ومغيثهم ، حتى قيل له : (عروة الصعاليك) ، لأنه كان يجمع الصعاليك في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه[3] .

وفي القرآن الكريم أن (ملأ) نوح ، وهم الأعزة أصحاب الحول والطول،

---

١ ابن سعد ، الطبقات (٣٢٥/١) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (٣٢٤/١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١٥٣/٧) ، (صعلك) .

يقولون لنوح : « مـا نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الـذين هم أراذلنا »[1] ، وفيه أنهم قالوا لـه : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون »[2] . وقول ملأ نوح هذا ، هو تعبير عن رأي ملأ قريش الذين كانوا يقولون لو كان محمد رسولاً حقاً ، لكان رجلاً من رجال قريش أو الطائف الأغنياء أصحاب المال ، فالرئاسة ولو كانت نبوة لا تكون إلا في رجل عظيم : « وقالوا : لـولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[3].وكانوا يسخرون من المسلمين ويستهزئون بهم حينما يرونهم خلف الرسول ، يدخلون المسجـد الحرام ، وهم من الأراذل الضعفاء والفقراء ، فيضحكون ويقولون جـاءكم ملوك الأرض كسرى وهرقل ؛ فدين يكون اتباعه ومعتنقوه من الرقيق والضعفاء دين ليس له شأن ، ولا يمكـن أن يكون مقبولاً حتى يكون أتباعه من الأغنياء ملأ القوم .

وقضى أغنياء مكة وسادتها لياليهم في مجالسهم ونواديهم ، وعادتهم أنهم كانوا يتنادمون ، يشربون ويسمعون القيان ، ويتنادرون ويسمعون القصص والنكـات ، ثم يعودون الى بيوتهم ، ونجد في كتب أهل الأخبار أسماء ندماء قريش .

وأكثر الأغنياء من التدهن ، فالتدهن من النعيم ، وهم يتدهنون بالدهون الجيدة المطيبة . ويقال لكثرة التدهن (التورن)[4] . و (التودن) ، كثرة التدهين والتنعيم[5].

وفي مقابل هذه الطبقة الغنيـة ، كان السواد فقيراً ، ومنهـم معدمون تماماً لا يملكون شيئاً ، اذا عجزوا عن الحصول على قوت ، عمدوا الى الشجر فأكلوا ورقه أو ثمره إن كان برياً لا يملكه أحد ، أو الى الأعشاب فأكلوها . ورد في حديث (عتبة بن غزوان) : ما لنا طعام إلا ورق البشام[6] . أو الى (العلهز) فأكلوه . وهو طعام من الدم والوبر كان يتخذ في أيام المجاعة ، وذلك أن يخلط الدم بأوبار الإبل ثم يشوى في النار ، قيل وكانوا يخلطون فيه القردان ، وذكر انه الصوف ينفش ويشرب بالدماء ويشوى ويؤكل . ورد في حديث (عكرمة) :

---

١ سورة هود ، الرقم ١١ ، الاية ٢٧ .
٣ سورة الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الاية ١١١ .
٣ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الاية ٣١ .
٤ تاج العروس (٩/٣٦٠) ، (التورن) .
٥ تاج العروس (٩/٣٦٠) ، (ودن) .
٦ تاج العروس (٨/٢٠٣) ، (بشم) .

كان طعام أهل الجاهلية العلهز[1] . أو الى (القرف) ، لحاء الشجر ، فأكلوه[2] . وأكلوا (الوزين) ، وهو الحنظل يؤكل باللبن أيام الحاجة[3] .

وقد كان الناس يصابون بالشدة والعسر ، ويعبر عن ذلك بـ (الحشر) : والحشر إجحاف السنة الشديدة بالمال . واذا أصابت الناس سنة شديدة فأجحفت بالمال وأهلكت ذوات الأربع قيل حشرتهم السنة ، بمعنى أصابهم الضرر والجهد[4] .

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبر عن الشدة والضيق والفقر وضنك الحياة ، وسوء الحال ، من ذلك (القشف) والضعف والشظف ، وغير ذلك[5] . وفي كثرة هذه الألفاظ تعبير عن سوء الأحوال وعن تبرم الناس من الحياة ومن شدتها عليهم في ذلك الوقت ، حيث كانت حياتهم في عسر وضيق .

سرقة أموال الآلهة :

وقد ورد في نص من نصوص المسند ، وعيد بأن ينزل الإله رب السماء (ذ سموي) غضبه ولعنانه وكل سوء ، وأن يلحق البؤس (يباس) بكل (نفس) إنسان لا يبالي بأوامر ذلك الإله ، فيسرق (ذ يسرقن) محرمه ، ويسرق من أموال محرمه (بقرم) بقراً ، أو غير ذلك كما أشير الى العقوبات التي ستنزل بذلك الإنسان المتطاول المخالف لأوامر الآلهة[6] . عقوبات العذاب (عذبن) تنزلها الآلهة على أولئك الأشخاص[7] .

ولهذا النص أهمية كبيرة بالنسبة الينا ، لأنه شاهد ناطق على أن الإنسان عند الحاجة وعند تصوره وجود منفعة وفائدة له لا يعبأ بسرقة آلهته وبالسطو على ما في معابدها من أموال وحلال ، وأنه لا يتردد من السطو على أوقاف تلك الآلهة

---

١ تاج العروس (٤/٦١) ، (العلهز) .

٢ وان قرى قحطان قرف وعلهز ... فاقبح بهذا ويح نفسك من فعل
تاج العروس (٤/١٦) ، (العلهز) .

٣ تاج العروس (٩/٣٦١) ، (وزن) .

٤ تاج العروس (٣/١٤٢) ، (حشر) .

٥ تاج العروس (٦/٢٢١) ، (قشف) .

٦ REP. EPIGR. : 820.

٧ الفقرة السادسة من النص : REP. EPIGR. : 820.
Rhodokanakis, Stud. Lexd. II, S. 162.

وأخذ ما فيها . لا فرق في ذلك بين إنسان قديم ، كان للدين عليه وعلى مجتمعه نفوذ وسلطان،وبين مجتمع حديث تهذب فيه الانسان وارتفعت فيه مداركه ومزاياه فها نحن أمام جماعة سرقت معبد (محرم) إلآهها (ذو سموي) رب السماء ، ولم تكتف بسرقة ذلك المعبد ، بل سرقت البقر في الأرض المحبوسة على ذلك الإلـه . ولهذا أمر رجـال ذلك المعبد الناطقين باسم ذلك الإلـه بكتابة ذلك النص ليقرأه الناس وليروا مـا فيه من لعنات ستنزل على من يتجاسر على مخالفة أوامر ذلك الإلـه ، فيسرق معبده ويسرق بقره .

ويلاحظ ان التشريع قد اعتبر القبيلة والجماعة وحدة اجتماعية مسؤولة أمام الإلـه عن كل ما اقترفه أفرادها من سرقات وآثام . فإذا سرق أحدهم من معبده أو ألحق أضراراً بأملاكه ، صارت القبيلة مسؤولة قانوناً وكلها أمامه ، وعليها إنزال عقابها بالفاعل ، بالاضافة الى العقاب الذي يفرضه المعبد عليه . وبإيقاع المسؤولية على القبيلة كلها ، يكون المعبد قد أمن بذلك من غدر الأفراد المجهولين ، ومن تطاول السرّاق المتسترين على أموال المعابد والآلهة،ومتى وجدت القبيلة أنها مسؤولة عن ذلك بالتضامن ، فإنها تكون حذرة وعيناً على السرّاق والمفسدين ، لا سيما اذا ما علمت ان الآلهة تغضب عليها فتصيبها بالكوارث،فتقلّ بذلك حوادث السرقات بالنسبة الى أموال المعابد والأوقاف .

ويجب أن نتذكر هنا القصة التي يرويها أهل الأخبار عن سرقة (كنز الكعبة) وذلك قبل بنيانها بقليل ، ووضع السراق ما سرقوه عند (دويك) مولى لبني (مليح ابن عمرو) من خزاعة ، وقطع أهل مكة يده لذلك . وما ذكره أيضاً من أن سارقاً سرق من مالها زمن جرهم ، فانتزع المال منه[1] .

كذلك يجب أن نتذكر ان سارقاً سرق من بيت (عائشة) شيئاً ، فدعت عليه، فقال لها النبي : « لا تسبخي عنه بدعائك عليه » ، أي لا تخففي عنه إثمه الذي استحقه بالسرقة بدعائك عليه[2] . سرق بيت رسول الله مـع انه مسلم مؤمن بالله وبرسوله،لم يردعه عن السرقة دينه ، وقد تكون الحاجة قد دفعته إلى تلك السرقة.

ووصلت الينا نصوص أخرى يفهم منها أن أشخاصاً استدانوا من أموال المعبد، فلم يؤدوها له ، وأن قوماً أكلوا حقوق الآلهة المفروضة عليهم من أعشار ونذور،

---

١ ابن هشام (١/ ١٣٠) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (١/ ١٣٠) .
٢ تاج العروس (٢/ ٢٦٠) ، (سبخ) .

وفي بعض منها إقرار من أصحابها بأنهم أكلوا حق الآلهة ، أو لم يتمكنوا من الوفاء بديونهم أو بنذورهم لها ، فهي تتوسل اليها بأن تغفر لأصحابها ما اقترفوه بسبب ذلك من إثم ، وأن تمن عليهم بالصحة والعافية . ويظهر أنهم أصيبوا بسوء ومرت بهم أوقات عصيبة ، جعلتهم ينسبون ما حلّ بهم الى فعل الآلهة ، والى غضبها عليهم بسبب أكلهم أموالها وحقوقها ، فكتبوا ما كتبوه يستغفرون ويتوبون، يرجون الصفح والعفو ، وقد وعد بعضهم بالوفاء بل ما أخذه ولوّاه .

دفن الذنوب :

ومن عادة العرب في الجاهلية ، أن أحداً منهم إذا جنى جناية ، أو نهب شيئاً أو أكل مالاً ، أو غش أحداً في تجارة ، أو أكلها بالباطل ، وأراد المجنى عليه العفو عمّا وقع ، فالتعويل في الصفح فيها على الدفن . وطريقتهم فيه أن تجتمع أكابر قبيلة الذي يَدْفن الذنب بحضور رجال يثق بهم المدفون له ، ويقوم منهم رجل ، فيقول للمجني عليه : نريد منك الدفن لفلان ، وهو مقر بما أهاجك عليه ، ويعدد ذنوبه التي أخذ بها ولا يبقي منها بقية ، ويقر الذي يدفن ذلك القائل على أن هذا جملة ما نقمه على المدفون له،ثم يحفر بيده حفيرة في الأرض، ويقول : قد ألقيت في هذه الحفيرة ذنوب فلان التي نقمتها عليه ، ودفنتها له دفني لهذه الحفيرة ، ثم يرد تراب الحفيرة اليها حتى يدفنها بيده . ولا يطمئن خاطر المذنب منهم إلا به ، إلا أنه لم تجر للعرب فيه عادة بكتابة ، بل يكتفي بذلك الفعل بمحضر كبار الفريقين ، ثم لو كانت دماء أو قتلى عفيت وعفيت بها آثار الطلائب[1] .

---

١ صبح الاعشى (٢٥٢/١٣) .

الفصل التاسع بعد المئة

الطبقة المملوكة

وأدنى الطبقات منزلة في المجتمع ، هي الطبقة التي تحترف الحرف ، وطبقة الرقيق ، أي الطبقة المملوكة ، التي تساوي الحيوان في كونها مخلوقات حية مملوكة لغيرها ، ليس لها في هذه الحياة حرية ولا رأي ولا اختيار . فقدت حريتها بالرق ، وصارت ملك سيدها ، وهي وما تنتجه ملك للمالك ، ويدخل في ذلك نسلها الى الأبد ، إلا اذا منّ المالك على عبده بفك رقبته ، فيصير حراً، وتنتقل الحرية الى نسله كذلك .

والرقيق سلعة من سلع السوق ، تباع وتشترى كما تباع وتشترى أية سلعة أخرى . وليس لها سعر ثابت معين ، انما يتوقف ثمنها على عمر تلك السلعة وعلى درجتها من الجمال وعلى نوع جنسها وعلى حذق ومهارة ودرجة فطنة وذكاء تلك السلعة الآدمية ، وعلى الأعمال التي تتمكن من القيام بها . ولم نعثر على نصوص جاهلية فيها أسعار الرقيق ، أما أخبار أهل الأخبار ، فقد ذكرت في بعض المناسبات أسعار بعض الرقيق ، فساعدتنا بذلك على تكوين رأي عن سعر هذه البضاعة الحية عند ظهور الاسلام .

فقد ذكرت كتب السير والتواريخ والصحابة ، أن (خديجة) ملكت (زيد ابن حارثة) اشتراه لها (حكيم بن حزام بن خويلد) ، بسوق عكاظ بأربعمائة درهم[1] . وذكرت أن (أبا بكر) اشترى (بلال بن رباح) مؤذن الرسول

---

1 ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاحكام السلطانية ، لأبي يعلى (١٨٥) .

وهو من الحبش ، أي من الزنوج بخمس أواق ، وقيل بسبع أواق ، وقيل بتسع أواق ، ثم اعتقه . وكان خازناً له [1] . كما كان خازناً للرسول [2] . وبيع (يعقوب) المدبر والمعروف بـ (القبطي)،من (نعيم النحام) بثمانمائة درهم ، وقيل بسبعمائة أو تسعمائة [3] .

الاتجار بالرقيق :

وكان الرقيق إذ ذاك تجارة نشطة مربحة ، يكسب صاحبها منها،ربحاً طيباً،وكان المتاجر بالرقيق ، يشتري تجارته من الأسواق الخارجية ، ثم يأتي بسلعته الى أسواق جزيرة العرب لبيعها فيها ، في الأسواق الموسمية وفي الأسواق المحلية الدائمة ، مثل سوق مكة ويثرب والطائف ونجران وغيرها،ففي كل هذه الأسواق وأمثالها طلب شديد على الرقيق ، لأنه وسيلة من وسائل تأدية الأعمال والانتاج . وأسواق العراق وبلاد الشأم من أهم الأسواق التي مونت جزيرة العرب بالرقيق الأبيض. أما السواحل الافريقية،فقد مونتها بالرقيق الأسود . وهو أرخص ثمناً من الرقيق الأبيض ، وكفاءته محدودة،وقابلياته للعمل معينة ، وهو لا يجاري الرقيق الأبيض في كثير من الأمور .

والرقيق المملوك : بين الرق . والرق ، الملك والعبودية . ورق صار في عبودية . واسترق المملوك فرق : أدخله في الرق . والرقيق العبد ، والرق العبودة. سمّي العبيد رقيقاً لأنهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون [4] . و (المملوك) العبد . وقيل الذي سبي ولم يملك أبواه ، أو اذا ملك ولم يملك أبواه ، فهو عبد مملكة. « وفي الحديث : ان الأشعث بن قيس خاصم أهل نجران الى عمر في رقابهم وكان قد استعبدهم في الجاهلية ، فلما أسلموا أبوا عليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا كنا عبيد مملكة ولم نكن عبيد قن » . المملكة . أن يغلب عليهم فيستعبدهم

---

١ الاستيعاب (١/١٤٥) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاصابة (١/١٦٩) ، (رقم ٧٣٦) .
٣ ارشاد الساري (٤/١١١) ، الاصابة (٣/٦٣٠) ، (رقم ٩٣٥٩) .
٤ اللسان (١٠/١٢٤) ، (رقق) ، تاج العروس (٦/٣٥٩) ، (رق) .

وهم في الأصل أحرار . والقنّ العبد ، ويقال المشترى[1] .

والعبد : المملوك خلاف الحر ، و (العِبِدّي) جماعة العبيد الذين ولدوا في العبودية . « وفي حديث عامر بن الطفيل : انه قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم: ما هذه العِبِدّي حولك يا محمد ؟ أراد فقراء أهل الصفة ، وكانوا يقولون اتبعه الأرذلون »[2] .

و (القِن) عبد مملك هو وأبواه ، أو هو الخالص العبودة ، أو الذي ولد عندك ولا تستطيع اخراجه عنك[3] .

ومن الرقيق ، رقيق تبع الأرض ، فهو دائماً بها ، يباع معها ، ويشترى بشرائها ويقال له (امّي) في لغة العرب الجنوبيين . وأما (الأدم) ، فيمثلون الطبقات الدنيا ، من عمال يشتغلون بالأرض أو بالحرف ، فهم أحرار من حيث التنقل وامتهان الحرف ، غير انهم من الطبقات الدنيا ، وكذلك الـ (غبر) ، وهم من الفقراء المعدمين ، وطبقة (مى) (امى) ، وهم الأوباش غير المثقفين[4] . ولعل لفظة (الأمى) ، قد جاءت من هذا الأصل .

ونظراً لصغر مساحة الأرضين التي كانت تزرع في الحجاز ، فإننا لا نستطيع أن نجد اقطاعاً فيه على نمط الاقطاع الذي نراه في العربية الجنوبية ، ولا نجد فيه تذمراً بين الفلاحين على نحو ما وجدناه في اليمن ، كما لا نجد سادة أملاك في الحجاز لهم نفوذ واسع ، على نحو ما نجده في اليمن من تحكم الأقيال والأذواء وبقية الملاكين في الحكم وفي المجتمع ، وفي شؤون رقيقهم المستخدم في استغلال الأرض . وكل ما نجده ان أشخاصاً كانوا يمتلكون ينابيع أو عيوناً أو آبار ، وقد زرعوا بمائها . وزراعة تعتمد على هذا النوع من الري لا يمكن أن تكون زراعة كثيفة تدر على أصحابها ربحاً طائلاً . لذا فهي لا تحتاج الى تشغيل عدد كبير من العبيد والأرقاء .

وكانت الغزوات والحروب أهم مورد لتجارة الرقيق . وهو مورد قديم معروف. فالغالب المنتصر يأخذ من يقع في قبضته من أسرى ، ويعده ملكاً له . وقد كان

---

1 اللسان (١٠/٤٩٣) ، (ملك) .
2 اللسان (٣/٢٧١) ، (عبد) ، تاج العروس (٢/٤٠٩) ، (عبد) .
3 تاج العروس (٩/٣١٤) ، (قن) .
4 Grohmann, S. 124.

في إمكان الأسرى فك أسرهم بـ (الفداء) . أما من لم يتمكن من دفع الفدية منهم ، فيعد بحسب القانون ملكاً لآسره أو للدولة بحسب القوانين النافذة ، فيجوز في هذه الحالة امتلاك الأسير وتشغيله في الأعمال التي يكلفه إياها سيده ، ويجوز له إطلاق حريته وعدّه حرّاً معتق الرقبة وبيعه في أسواق النخاسة . وقد كان تجار العبيد يفدون الى هذه الأسواق ، ليبتاعوا منها العبيد الذين يحتاجون اليهم ، ويأخذونهم معهم الى بلادهم ، ليبيعوهم مرة ثانية في أسواق النخاسة ، لمن هو في حاجة اليهم .

والحروب مورد من موارد الرزق للمحاربين الشجعان الذين يتمكنون من أسر من يبرز لهم ، والأسر خير للآسر من محارب يقتله ، فقتله لا يفيده من الناحية المادية شيئاً ، سوى ما قد يقع في يديه من أسلابه . أما أسره ، فإنه يفيده فائدة مادية ، فعلى الأسير ترضيته بدفع فدية مرضية ، إن أراد فك أسره وتحرير رقبته ، وإلا صار عبداً مملوكاً لآسره ، له أن يمتلكه وله أن يبيعه ، والغالب أنه يبيعه في حالة عجزه عن تقديم فدية ، أو عجز أهله عنها ، كي يتخلص بذلك آسره من أخطار هروبه منه ، فيأخذه الى الأسواق ويبيعه فيها .

وقد يقع القريب أسيراً في يدي قريب له ، فيكون مملوكاً له . ولا تسقط صلة الرحم حق التملك . وللأسير فداء نفسه حتى إن كان أخاً لآسره أو عماً له[1] . ولكن الأغلب أن يتوسط الناس بين الآسر وأسيره ، لفك أسره ، وأن تتغلب عاطفة الدم على المطالبة بالمال .

ومن أسباب الرق الفقر ، ونجد في كتب الحديث والأخبار أن عوائل باعت أولادها من ذكور وأناث ، من الفقر . وكان بعض من باع أولاده يشترط أن يكون الولاء لهم : والولاء سبب من أسباب الارث . جاءت (بريرة) الى (عائشة) ، وكانت مكاتبة ، ولم تكن قضت من مكاتبتها شيئاً ، وكانت كاتبتهم على تسع أواق في كل سنة وقية ، فقالت : « يا أم المؤمنين اشتريني فإن أهلي يبيعوني ، فاعتقيني . قالت عائشة : نعم . قالت بريرة : إن أهلي لا يبيعوني حتى يشترطوا ولائي . قالت : لا حاجة لي فيك . فسمع ذلك النبي ، فقال : ما شأن بريرة ؟ فذكرت له شأنها ، فقال : اشتريها فأعتقيها وليشترطوا ما شاؤوا .

---

١ ارشاد الساري (٤/٣١٥) ، (باب اذا أسر أخو الرجل أو عمه هل يفادى ؟) .

فاشترتها واعتقتها . فقال النبي : الولاء لمن أعتق وإن اشترطوا مائة شرط[1] .

وقد وجد الرقيق في كل مكان من جزيرة العـــرب ، لا سيما في المستوطنات الزراعية والقرى ومواضع التجار والتعدين ، لحاجة هذه المواضع الى الأيدي العاملة والى من يدافع عنها ، حتى انهم كانوا يقذفون بعبيدهم في الحروب للدفاع عنهم. ولما أراد (مجاعة) مصالحة (خالد بن الوليد) على (الصفراء والبيضاء ونصف السبي والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة) ، قال (سلمة بن عمير الحنفي) : « لا والله لا نقبل ، نبعث الى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نقاضي خالداً ، فإن الحصون حصينة والطعـام كثير ، والشتاء قد حضر »[2] . فجعـــل (سلمة بن عمير) أهل القرى والعبيد في جملة من يتكل عليهم في قتال (خالد). ولما كان القتال بين (خالد) وبين (مسيلمة) واستحر القتل ، « قال أهـــل القرى : نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم . فقال لهم أهـــل البادية : إن أهـــل القرى لا يحسنون القتال ، ولا يدرون ما الحرب ! فسترون اذا امتزنا من أين يجيء الخلل ! فامتازوا »[3]. ونجد في رواية أخرى ان (خالداً) صالح (مجاعة) على (الصفراء والبيضاء والحلقة وكل حائط رضانا في كل ناحية ونصف المملوكين)[4] . بدلاً مـــن جملـــة : « ونصف السبي » التي ترد في روايات أخرى . والمملوك العبد ومن دخل في الرق . وهذا مما يدل على وجود عدد كبير من العبيد في اليمامة في ذلك العهد ، لحاجة أهل اليمامة وهم أهل زرع في الغالب اليهم ، لتشغيلهم في الأعمال الزراعية وفي التعدين والحرف .

ونجد اشارة الى الموالي في بعض كتب الرسول الى سادات القبائل . فلما كتب الرسول عهده لقيس بن سلمة الجعفي ، جاء فيه : « كتابٌ من محمـد رسول الله لقيس بن سلمة بن شراحيل : إني استعملتك على مران ومواليهـا ، وحريم ومواليها والكلاب ومواليها »[5] . وفي النص على ذكر الموالي في هـذا العهد دلالة على انهم كانوا يكوّنون طبقة ظاهرة في (جعفى) .

---

١ ارشاد الساري (٤/٤٣٩) .
٢ الطبري (٣/٢٩٨) ، (ذكر بقية خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة) .
٣ الطبري (٣/٢٩٢) .
٤ الطبري (٣/٢٩٩) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٣٢٥) .

وأما (أهل القرى) ، فهم المستوطنون الذين أغراهم عثورهم على الماء على السكن حوله وعلى الاشتغال بالزراعــة ، كما استقروا حول مواضع المعادن وفي المستوطنات القديمة التي نسبت الى (طسم وجديس) . فهم طبقة خاصة من أهل اليمامة ، وهم حضر اليمامة ، وأصحاب العمل والثراء ولهم العبيد لحاجتهم اليهم . أما الطبقة الثانية ، فأهل البادية . ممن سكن بيوت الوبر ، ولم يقم في بيوت من طين . ولم يفلح ولم يزرع ، بل كان رزقه على الإبل .

وكان لأهل القرى حصونهم ، يحتمون بها من الأعراب ومن كلّ من يريد بهم سوءاً ، ولهم مخـــازنهم يخزنون بها طعامهم ، ولهم آبارهم في داخل قراهم وحصونهم ، فإذا حوصروا كان لديهم الماء ، فلا يحتاجون الى مصالحة المحاصر لهم لعطشهم ولعدم وجود الماء عندهم ، وتكون حصونهم عند الحصار قد امتلأت بهم ، وقد أغلقوا أبوابها ، وقد احتلوا أبراجهم وسطوحها لرمي المحاصر بالسهام وبالماء الحار وبالحجارة ، وحولها خنادق تمنع العدو من الدنو من حائط الحصن ، وقد رفعوا جانب الخندق المقابل للحصن حتى يصعب على من يريد تسلقه وتسوره الوصول الى الحصن . وبعض هذه الحصون عالية سميكة الجدران، ذكر (الهمداني) أن جدر (الهيصمية) ، وهي لبني (صُهيب) من (بني قشير) يركض عليها أربع من الخيل ، وكان من الصعب أن ينال رأسها السهم . وذكر عن (القصر العادي) بالأثل ، أنه قصر منيف من عهد (طسم) و (جديس) ، أقيم على حصن من طين ثلاثين ذراعاً دكّة ، ثم بني الحصن . ووصف حصوناً كثـــيرة بعضها من حصون ما قبل الإسلام ، بنيت لحماية أهلها من الغارات[1] .

و (القصب) دون الحصون ، ذكرها (الهمداني) بقوله : « وبالمذارع وغيرها قصب دون الحصون لطاف تسمى الثنية »[2] . والقصبة القصر أو جوفه ، يقال كنت في قصبة البلد والقصر والحصن ، أي جوفه . والقصب من البلد : المدينة والقرية[3] .

وورد في خبر مصالحة (خالد بن الوليد) (بني حنيفة) ، انه صالحهـــم

---

١ الصفة (١٥٩ وما بدها) .
٢ الصفة (١٥٩) .
٣ تاج العروس (١٣١/١) ، (قصب) .

« على الرقيق ولم يصالحهم على أنفسهم » ، وأنه أخذ منهم رقيقاً ، كان فيه أمة سندية سوداء ، لم تكن من بني حنيفة ، وانما كانت من رقيقهم ، فصارت الى (علي بن أبي طالب)[1] . وفي وجود هذه السندية في اليمامة دلالة على وجود الرقيق المستورد من الهند في جزيرة العرب في الجاهلية،وقد كانت أسواق البحرين وبقية أسواق العربية الشرقية تشتري الرقيق الوارد عليها من الهند ، فلا يستبعد وصول رقيق السند وغير السند من بلاد الهند الى اليمامة والى أماكن أخرى من جزيرة العرب قبل الاسلام .

ويعرف بائع الرقيق بالنخاس ، والنخاسة حرفته ، والنخاس في الأصل بياع الدواب[2] .

وقد كان تجار الرقيق يشترون الرقيق ويزوّجونه ، ليجنوا نسله لهم ، فيبيعوه في الأسواق . يفعلون ذلك فعل من يربي الخيل أو الإبل أو البقر ، لتكثير نسله وبيعه . وبذلك يكثر مال صاحبه ، وينسب المولد الى الأرض التي ولد بها،والتي يكون سيده مقيماً بها ، والى قبيلة سيده أيضاً ، فيقال هو من مولدي السراة ، وهو من مولدي هذيل .

ويعرف (العبد) المولود في الرق بالوليد . قال بعض علماء اللغة : الوليد من يولد في الرق[3] . و (المولدة) الجارية المولودة بين العرب كالوليدة . وورد عربية مولدة ورجل مولد اذا كان عربياً غير محض[4].وترد لفظة (مولد) ومن (مولدي) في تراجم بعض الأشخاص . فقد كان (أبو كبشة) مولى رسول الله من مولدي (مكة) ، وقيل من مولدي أرض دوس[5] . وكان (أنسة) مولى الرسول من مولدي (السراة)[6] . وكان (أبو موهبة) وهو من موالي الرسول كذلك ، مولداً من مولدي (مزينة)[7] .

---

١ المعارف (٢١٠) .
٢ تاج العروس (٢٥٥/٤) ، (نخس) .
٣ تاج العروس (٥٤٠/٢) ، (ولد) .
٤ تاج العروس (٥٤٢/٢) ، (ولد) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٤٩٧/١) ، الاصابة (١٦٤/٤) ، الاستيعاب (١٦٤/٤) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ ابن سعد ، طبقات (٤٩٧/١) .
٧ ابن سعد ، طبقات (٣٩٨/١) ، (ويقال أبو موهبة وأبو موهوبة) ، الاصابة (١٨٨/٤) ، (رقم ١١٠٥) .

وتطلق لفظة (غلام) على الولد الى ان يشب ، ويطلق على الغلام الذي يكون مملوكاً ، أو يخدم غيره . وقد يطلق أيضاً على الكهل[1] . وكان (شقـران) ، واسمه (صالح بن عدي) ، غلاماً للرسول ، وكان حبشياً[2] . وكان (سفينة) غلاماً للرسول ، وهو من أصل فارسي[3] . وكان (مدعم) غلاماً للنبي ، وكان من مولدي (حسمى)[4] . وهبه له (رفاعة بن زيد الجذامي) ، ويظهر انــه كان من الزنج ، إذ عرف بالأسود[5] . وكان (كركرة) غلاماً للنبي[6] . وكان نوبياً ، أهداه له (هوذة بن على الحنفي اليمامي) فأعتقـه[7] . وكان (رباح) غلاماً للرسول[8] . وكان أسود ، وكان يستأذن عليه ، ثم صيره الرسول مكـان (يسار) بعد قتله ، فكان يقوم بلقاحه . وكان يؤذن له[9] .

وتطلق لفظة (خادم) و (خادمة) على من يقوم بالخدمة ، خدمة البيت، أو السفر ، وكل خدمة أخرى يطلبها المالك . وفي حديث فاطمة وعلي : « اسألي أباك خادماً تقيك حرّ مـــا أنت فيه »[10] . ويخدم الخدم في البيوت ، يقومون بتنظيفها وبالطبخ والخبز وما شاكل ذلك من أعمال . وكان (أنس بن مالك بن النضر) الأنصاري خادماً لرسول الله . وكان يخرج معه يخدمه،وهبته أمه للنبي[11] لم يكن عبداً بل كان حراً من الأنصار،نذرت أمه ان تجعله خادماً لرسول الله ، ووفت بنذرها ، وكان كثير المال .

ومن خدم رسول الله ، (سلمى) أم رافع ، امرأة أبي رافع[12] ، و(خضرة)[13]،

---

١ تاج العروس (٩/٥) ، (غلم) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، ابن سعد ، اصابة (٢/١٥٠) ، (رقم ٣٩١٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) ، ابن سعد ، اصابة (٢/٥٦) ، (رقم ٣٣٣٥) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) .
٥ الاصابة (٣/٣٧٤) ، (رقم ٧٨٥٨) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) .
٧ الاصابة (٣/٢٧٧) ، (رقم ٧٤٠٢) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٨) .
٩ اصابة (١/٤٩٠) ، (رقم ٢٥٦٥) .
١٠ تاج العروس (٨/٢٦٩) ، (خدم) .
١١ الاصابة (١/٨٤) ، (٢٧٧) ، ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) .
١٢ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاصابة (٤/٣٢٦) .
١٣ ابن سعد ، طبقات (١/٤٩٧) ، الاصابة (٤/٢٧٧) ، (رقم ٣٤٤) .

و (رضوى)[1] ، و (ميمونة بنت سعد)[2] . و (مارية) جدة المثنى بن صالح ابن مهران ، مولى (عمرو بن حريث)[3] . و (مارية) المكناة بـ (ام الرباب)[4] و (موهبة)[5] .

الموالي :

ويعد المولى في طبقة المملوكين ، وللفظة (مولى) معان عديدة ، منها المعنى الذي نقصده منها في هذا المكان ، وهو (العبد)[6] . ولا يشترط في المولى أن يكون أعجمياً ، أي من أصل غير عربي ، فيقع الولاء على العرب كذلك ؛ كأن يؤسر ، أو يقع في غنيمة قطاع طرق ، فيكون ملكاً لهم ، يبيعونه في في الأسواق ، أو يطلبون فداءه من إله ، وإلا بيع مع الرقيق . وقد كان بمكة وسائر الأمكنة الأخرى عدد كبير من هؤلاء ، ومن جملتهم (زيد بن حارثة ابن شراحيل الكلبي) ، مولى خديجة بنت خويلد ، زوج الرسول ، ثم مولى الرسول . فقد كان من كلب . أصابته خيل من (بني القين بن جسر) ، وكان قد خرج مع أمه لتزيره أهله ، فباعوه بسوق حباشة من أسواق العرب ، وهو يومئذ ابن ثمانية أعوام ، ثم أعتقه الرسول[7] .

وكان (ثوبان) مولى رسول الله من العرب من أهل اليمن ، وقيل من السراة ، ابتاعه النبي بالمدينة فأعتقه ، ويظهر انه مات ولم يكن يملك شيئاً[8] . وكان (فضالة) مولى رسول الله من أهل اليمن[9] .

وقد يكون للعبد مالكين أو أكثر . كأن يقع في أسر رجلين أو أكثر ،

---

١ ابن سعد ، طبقات (٤٩٧/١) ، الاصابة (٢٩٥/٤) ، (رقم ٤٢١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٤٩٧/١) ، الاصابة (٣٩٩/٤) ، (رقم ١٠٢٧) .
٣ الاستيعاب (٣٩٨/٤) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣٩٢/٤) ، (رقم ٩٨٦) .
٤ الاستيعاب (٣٩٩/٤) ، (حاشية) ، الاصابة (٣٩١/٤) ، (رقم ٩٨٥) .
٥ الاصابة (٣٩٧/٤) ، (رقم ١٠٢٥) .
٦ تاج العروس (٣٩٩/١٠) ، (ولى) .
٨ الروض الانف (١٦٤/١) .
٩ ابن سعد ، طبقات (٤٩٨/١) ، الاصابة (٢٠٥/١) ، (رقم ٩٦٧) .
ابن سعد ، طبقات (٤٩٨/١) ، الاصابة (٢٠٢/٣) .

فيصير عبداً لها أو لهم . أو أن يتشارك رجلان أو أكثر في شراء عبد ، فيكون مملوكاً لمشتريه . وكان بعضهم يتشاركون في شراء العبيد . وقد يبيع بعضهم حصصهم من العبيد لشركائهم أو لغيرهم ، وقد يمنّ بعض منهم على عبده ، أو عبيده ، فيتنازل عن حقه فيه أو فيهم ، ويبقى العبد مملوكاً للشريك الآخر أو لبقية الشركاء ، لحقهم فيه . وكان منهم من يرضى بعتقه على أن يدبر له ما بذمته من حق[1] .

ومن حق سيد العبد بيعه متى شاء ، أو إهداءه الى من يريد . فهو ملك ، ومن حق المالك أن يفعل بما يملكه ما يشاء ويريد[2] .

وقد تضخم عدد الموالي بين أهل الحضر وبين أهل المدر ، حتى صار لهم شأن يذكر ، ولما ظهر الاسلام كان الموالي من العوامل المؤثرة في التوازن السياسي عند الحضر وعند القبائل ، حتى ذكروا في العقود لكثرة عددهم وللحقوق المترتبة لسادتهم عليهم ، فلما عقد الرسول عقده مع وفد (جعفى) من قبائل اليمن ، واستعمل الرسول (قيس بن سلمة) من بني (مرّان بن جعفى) ، كتب له كتاباً فيه : « اني استعملتك على مرّان ومواليها ، وحريم ومواليها ، والكلاب ومواليها »[3] . و (الكلاب) ، أود ، وزبيد ، وجزء سعد العشيرة ، وزيد الله ابن سعد ، وعائذ الله بن سعد ، وبنو صلاءة من بني الحارث بن كعب . ولما عقد الرسول عهده مع (وفد همدان) ، وكتب لقيس بن مالك بن سعد بن لؤي الأرجي كتاباً ، ولاه فيه على قومه ، جاء فيه انه ولاه « على قومه همدان : أحمورها وغربها وخلائطها ومواليها أن يسمعوا له ويطيعوا »[4] . وذكر الموالي مع همدان والأحمور والغرب والخلائط يشير بالطبع الى أهميتهم والى كثرة عددهم في ذلك العهد .

والأحمور : هم قُدم ، وآل ذي مران ، وآل ذي لعوة ، وأذواء همدان . والغرب : أرحب . ونهم ، وشاكر ، ووادعة ، ويام ، ومرهبة ، ودالان ، وخارف ، وعذر ، وحجور[5] .

---

١ ارشاد الساري (٣٠٣/٤) .
٢ الاصابة (٣٧٤/٣) ، (رقم ٧٨٥٨) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٣٢٥/١) .
٤ ابن سعد ، طبقات (٣٤١/١) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٣٤١/١) .

ولما كتب الرسول الى (ربيعة بن ذي مرحب) الحضرمي وآله ، يدعوه الى الإسلام ، أشار الى (رقيقهم) ، في الكتاب ، مما يدل على أن عددهم كان كبيراً [1] .

بيع الولاء :

وقد نهى الإسلام عن بيع الولاء وعن هبته . وهو أنه إذا مات (المُعْتَق) ورثه شرعاً (مُعْتِقه) حسب قوانين أهل الجاهلية ، وكانت العرب تبيعه وتهبه مع أنه كالنسب فلا يزول بالإزالة . وقد كانوا في الجاهلية ينقلون الولاء بالبيع وغيره ، فإذا أعتق رجل عبده ، صار له حق ولائه ، وله ولورثته حق بيع ذلك الولاء ، على نحو ما كان لهم من حق الحصول على إرثه ، فنهى الشارع عن ذلك [2] .

رزق المملوك :

وما يحصل عليه العبد من عمل يديه ، يكون لسيده ، لأنه ملك يمينه ، مملوك الرقبة . وإذا شهد غزواً أو حرباً فلا يسهم له بسهم في الغنائم ، لكونه مملوكاً [3]. وإذا حارب سيده حارب معه ، وإذا أمر بالاشتراك في غزو أو حرب وجبت عليه الطاعة وبذل النفس في القتال ، دون أن يصيب من غنائمه أي شيء .

وإذا عهد السيد الى مملوكه القيام بتجارة ، فإن التجارة وأرباحها تكون لسيد العبد . وكان الرسول قد أعطى (العباس) عمه عشرين غلاماً ، تجروا بماله [4] . وكان لـ (تميم الداري) خمسة غلمان يتاجرون بالخمر . اسم أحدهم (فتحا)، وكان من بيت المقدس ، فلما رآهم الرسول مع (تميم) قال له : « بعني غلمانك لأعتقهم » ، فقال له تميم : قد اعتقتهم يا رسول الله . و (فتحا) هو الذي

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٢ زاد المسلم (٥/٥٠٣ وما بعدها) .
٣ الاصابة (٢/١٥٠) ، (رقم ٣٩١٦) .
٤ المقريزي ، امتاع الاسماع (١/٦١) .

أسرج مسجد النبي . وكان يسرج بسعف النخل . فقدم (فتحا) بالقناديل والزيت والحبال وأسرج المسجد ، فسماه الرسول (سراجاً)[1] .

واذا أجاز مالك عبد لعبده الاشتغال بالتجارة ، صار من حقه الاتجار حسب ما اتفق عليه . ويقال للعبد المأذون له في التجارة : (المجيز)[2] .

وقد يقرر السيد ضريبة يفرضها على عبده ، يدفعها اليه في كل يوم ، وعلى العبد أداءها له[3] . فيشتغل العبد في السوق أو يقوم بأي عمل يتمكن منه لأداء ما فرضه سيده عليه . ونظراً الى عدم تمكن بعضهم من الوفاء بما فرض عليه ، فقد عمد بعضهم الى السرقة ليسدّ مبلغ ما فرض عليه . وفرض بعض منهم على إمائه أن يزنين ، ليأتين اليهم بما فرضوه عليهن من ضريبة ، فقد ذكر علماء التفسير ان (عبدالله بن أبي بن سلول) كان يكره فتياته على البغاء ، ليأخذ أجورهن ، وروي عن (عبدالله بن عباس) انه قال : « كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا يأخذون أجورهن ، فقال الله : لا تكرهوهن على الزنا من أجل المنالة في الدنيا »[4] . وفي منع ذلك وتحريمه نزل في القرآن الكريم : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً »[5] .

وتكون المسبية ملكاً لسابيها ، له أن يصيبها متى شاء ، وله أن يبقيها عنده حتى تموت ، أو يموت هو ، فتنتقل إرثاً لورثته ، وله أن يبيعها متى أراد . وكان منهم من يصيب المسبيات،غير أنه يعزل ، فلا ينزل فيها ، حتى لا يحصل لها الولد المانع من البيع . وذلك لحبهم للأثمان[6] .

ومن الحرف التي شاعت بين الرقيق الحجامة ، وقد كان سادتهم يأخذون أجورهم منها . ومن الحجامين الذين ورد اسمهم في الكتب (سالم الحجام) ، وقد حجم الرسول وشرب دم المحجمة التي فيها دم الرسول تبركاً به[7] .

---

١ الاصابة (١٧/٢) ، (٣١٠٣) .
٢ تاج العروس (٢١/٤) ، (جوز) .
٣ ارشاد الساري (١٣٩/٤) .
٤ تفسير الطبري (١٠٣/١٨ وما بعدها) ، الاستيعاب (٤٠١/٤) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣٩٤/٤) ، (رقم ١٠٠٣) .
٥ سورة النور ، الرقم ٢٤ ، الاية ٣٣ ، أسباب النزول (ص ٢٤٥ وما بعدها) .
٦ ارشاد الساري (١١٠/٤) .
٧ الاصابة (٦/٢) ، (رقم ٢٠٥١) .

العتق :

العتق خلاف الرق ، وهو الحرية . يقال عتق العبد ، أي خرج عن الرق . ويقال : هو مولى عتاقة ، ومولى عتيق ، إذا كان عبداً فعتق ، فصار مولى لسيده ، تربطه به رابطة الولاء ، فهو في حمايته ورعايته[1] . ولما فتح الرسول مكة عفا عن أهلها وأطلقهم فلم يسترقهم ، فعرفوا بالطلقاء . « وفي الحديث : الطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف ، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة . وفي رواية: بعضهم أولى ببعض . وفي حديث حنين ، خرج ومعه الطلقاء ، وهم الذين خلى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم،واحدهم طليق »[2] . والطليق الأسير الذي أطلق أساره وخلى سبيله ، لمنة أراد الآسر أن يمن بها على أسيره[3] .

وقد ينجح العبد المعتق في حياته بعد نيله حريته ، فيصير من ملاك العبيد . ومن بين الصحابة جماعة كانت من الرقيق في الجاهلية ، فلما أسلمت عتقت وتحسن حالها فاشترت لها الرقيق .

المكاتبة :

فالعتق هو فك الرقبة ، وعودة الحرية الى العبد . ومن أبواب فك الرقبة وتحريرها من العبودية المكاتبة ، وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا منجماً اذا أديته ، فأنت حر ، ويبين عدد النجوم ، وقسط كل نجم : فإذا أدى العبد ما عليه ، صار حراً . وقد عرف ذلك في الاسلام أيضاً . وقد كان (سيرين) والد (محمد بن سيرين) المشهور ، من سبي (عين التمر) فاشتراه (أنس بن مالك) الأنصاري ، وكان كثير المال ، فأراد (سيرين) فك نفسه من العبودية ، وسأل أنساً المكاتبة ، فأبى ، فانطلق (سيرين) الى (عمر) ، فأمره أن يكاتبه ، وتلا عليه « فكاتبوهم إن علمتم ان فيهم خيراً » . وذكر في رواية أخرى ، ان أنساً كاتبه على عشرين ألف درهم ، فأتاه بكتابته ، فأبى ان

---

١ تاج العروس (٧/٣) ، (عتق) .
٢ تاج العروس (٧/٤) ، (عتق) .
٣ تاج العروس (٦/٤٢٥) ، (طلق) .

يقبلها منه إلا نجوماً ، فأتى (عمر) فذكر ذلك له ، فقال : أراد أنس الميراث ، وكتب الى أنس ان اقبلها من الرجل ، فقبلها . وورد في صحيفة المكاتبة : هذا ما كاتب أنس غلامه سيرين . كاتبه على كذا وكذا ألفاً ، وعلى غلامين يعملان مثل عمله[1] . وكاتب (عبدالله بن عمر) غلاماً له يقال له شرف على خمسة وثلاثين ألف درهم ، فوضع من آخر كتابته خمسة آلاف[2] .

وذكر (الدميري) ان (المكاتبة) لفظة اسلامية[3] . ولكني أشك في صحة هذا الرأي ، لأن التكاتب كان معروفاً عند الجاهليين ، وهو عقد من العقود ، يؤدي العبد بموجبه ما فارقه عليه من أداء المال ، فإذا أداه استحق العتق ، وإن عجز عن أداء نجم يحل عليه ، فلسيده تعجيزه[4] . ودليل ذلك ما ورد عن المكاتبة في القرآن الكريم من قوله : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم ، فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً »[5] . فنسق الآية يدل على وجود التكاتب عند الجاهليين ، واذا وجد ، فلا يستبعد استعمالهم لفظة (المكاتبة) قبل الاسلام .

أما (التنجيم) ، فمن (نجم المال) ،إذا أداه نجوماً ، أي يؤديه عند انقضاء كل شهر منها نجماً ، حتى أنهم كانوا يؤدون الديات نجوماً . قال زهير في ديات جعلت نجوماً على العاقلة :

ينجمها قوم لقوم غرامـــة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

« وفي حديث سعد : والله لا أزيدك على أربعة آلاف منجمة تنجيم الدين . هو أن يقدر عطـــاؤه في أوقات معلومة متتابعة مشاهرة أو مساناة . ومنه تنجيم المكاتب »[6] . ويظهر من ذلك أنهم كانوا في الجاهلية ينجمون حق العتق،ويكتبون بذلك كتاباً .

---

١ ارشاد الساري (٤/٣٢٩) ، (باب المكاتب) ، تفسير الطبري (١٨/٩٨ وما بعدها)
٢ تفسير الطبري (١٨/١٠١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١/٤٤٥) ، (كتب) .
٤ تاج العروس (١/٤٤٥) ، (كتب) .
٥ سورة النور ، الرقم ٢٤ ، الاية ٣٣ ، تفسير الطبري (١٨/٩٨ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٩/٧٢) ، (نجم) .

وكان منهم من يوصي بفك رقبة عبد له ، أو أمة بعد وفاته . وللفقهاء آراء في بيع (المدبر) ، وهو العبد الذي علق سيده عتقه على الموت[1] .

سوء حالة العبيد :

ونظراً الى ما كان يعانيه الرقيق من معاملة غليظة شديدة قاسية ، ومن قسوة ينزلها بهم أصحابهم عند صدور أي شيء منهم لا يرضى عنه أصحابهم ، فقد فرّ كثير منهم من ساداتهم ، وخرجوا على أمرهم ، فأبقوا مع علمهم بما في الإباق من عقوبة صارمة يدخل فيها قتل الآبق . وانضم بعض منهم الى الخارجين على عرف قبيلتهم من الضلال والصعاليك والخلعاء وألفوا عصابات أخذت تعتدي على المارة وتغزو العشائر ، فتصيب منها مغنماً . وقد تكتل قوم من كنانة ومزينة والحكم والقارة ومن اتبعهم من العبيد في جبل تهامة ، وأخذوا يغتصبون المارة ، وقد كتب اليهم الرسول ، انهم إن آمنوا بالله وبرسوله وعملوا بسنة الاسلام ، فعبدهم حرّ ومولاهم محمد . ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم[2] . ويظهر أنهم كانوا قد هددوا الأمن في ذلك الوقت ، وقطعوا السبيل ، مما أدى بالرسول الى الكتابة اليهم بالدعوة الى الإسلام وبترك الفتنة .

وقد فرّ بعض الرقيق من ساداتهم ، ودخلوا في الاسلام ، وقد خاف سادات قريش والطائف من هذه الظاهرة ، لما قد تتركه من أثر عليهم وعلى أوضاعهم الاقتصادية ، والعبيد ركن قويم في نظمهم الاقتصادية ، فحسنوا بعض الشيء من أحوال رقيقهم ، وشددوا على من شعروا ان في نفسه ميلاً الى الاسلام .

وقد أمر الاسلام بالعطف على الرقيق ففي القرآن : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب

---

١ ارشاد الساري (٣١٣/٤) .

٢ ابن سعد (٢٧٨/١) .

من كان مختالاً فخوراً »[1] . وفي كتب الحديث أحاديث في الحث على إنصاف المماليك ، أي الرقيق . منهـا حديثه : « إن اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس،ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم مـا يغلبهم فأعينوهم »[2] . وحث في أحاديث أخرى على إنصاف الجواري والاحسان اليهن ، وعتقهن وتزويجهن إن أمكن[3] . كما حث العبيد على خدمة سادتهم باخلاص . ونهى سادة الإماء من اكراههن على الزنا ، لأخذ أجورهن[4] .

تعرب العبيد والموالي :

وقد أشار أهل الأخبار الى أقوام من العبيـد ، تعربوا واستقروا فصاروا من العرب . كما أشار الكتبة اليونان واللاتين الى أقوام من الأعاجم نزلت سواحـل جزيرة العرب ، لأغراض تجارية وعسكرية ، فأقامت بهـا واستقرت ، وتعربت ونسيت أصلها ، واتخذت نسباً عربياً . وقد عثر الباحثون والمنقبون المحدثون على بقايا هياكل بشرية ، وبقايا عظام بشر،في مواضع متعددة من السواحل والبواطن ، تدل على ان أصحابها من الأعاجم ومن الافريقيين الوافدين على جزيرة العرب ، وقد أقاموا واستقروا بها وماتوا فيها. كما سبق أن تحدثت عن ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب .

ومن المتعربة قوم عرفوا بـ (الصعافقة) . قال أهل الأخبار إن آباءهم كانوا عبيداً استعربوا أو أنهم كانوا قوماً من بقايا الأمم الخالية ضلت أنسابهم . وقـد ذكروا أن مساكنهم كانت في اليمامـة في موضع يقال له (صعفوق) ، به قناة يجري منها نهر كبير ، أو أنهم بالحجاز . وقيل ان (الصعافقة) خول لبني مروان ، أنزلهم اليمامة ، ومروان بن أبي حفصة منهم[5] .

---

١ النساء ، الرقم ٤ ، الاية ٣٦ ، تفسير الطبري (٥/٥٠) .
٢ ارشاد الساري (٤/٣٢٠ وما بعدها) .
٣ المصدر نفسه .
٤ المصدر نفسه كذلك .
٥ تاج العروس (٦/٤٠٧) ، (الصعفوق) .

السخرة :

السخرة، تكليف شخص وقهره على ما لا يريده . وسخره تسخيراً أذله وكلفه ما لا يريد وقهره وأجبره على عمل بلا أجرة ولا ثمن[1] . وقد عرفت السخرة في العربية الجنوبيــة ، إذ كانت تلك الحكومات تقوم بإنشاء الأبنية العامــة والطرق والجسور والسدود ، وبتشييد القصور على طريق (السخرة) . وهي طريقة كانت معروفة في كل أنحاء العالم في ذلك الوقت ، وكانت معروفة الى عهــد قريب . وذلك بأن تطلب الى الموظفين والى المدن والقرى وسادات القبائل تقديم ما يتمكنون من تقديمه من أتباعهم لتشغيلهم قسراً بأعمال تريد القيام بها . فيقدم كل منهم ما يتمكن من جمعه ، ويساقون سوقاً الى مكان العمل للعمل هناك حتى ينتهي العمل.

وتتكلف الحكومة الانفاق على العمال الذين تكلفهم القيام بالأعمال العامة ، تدفع اليهم عطاياهم ، وتعرف بـ (شبو) ، وتعني (الرزق) عيناً ، وذلك بأن تقدم اليهم الطعام اللازم لعيشهم في مقابـل اشتغالهم بتلك الأعمــال ، كما يقوم المعبد بتقديم ذلك اذا كان المعبد هو صاحب العمل[2] . وترد لفظة (أشبى) بمعنى أعطى في عربية القرآن الكريم[3] ، وهو معنى قريب من معنى لفظة (شبو) في لغــة المسند .

والسخرة عمل مرهق ، يقوم به المسخر المسكين دون مقابل ، فهو لا يحصل وهو في موقع العمل حتى على أكل بطنه إلا بشق الأنفس ، من الإهمال وسرقة القوت وسوء الاستعمال ، ثم انه قد يحبس أياماً وأشهراً وهو في هــذا الوضع ، لا يدفع له شيئاً ليستعين به في تمشية أموره ، أو في إعالة عائلته البعيدة عنه ، اذا كان متزوجاً ، أو معيلاً لأهله ، وطالما تعرض للمرض ، ومنهــم من كان يموت من الارهاق والجوع ، ولذلك ، كان الهرب من السخرة شيئــاً مألوفاً ، على الرغم من تشديد الحراسة على معسكرات العمل ومواضع تجمــع المسخرين ، وعلى الرغم من العقوبات الشديدة التي تفرض على الهارب في حالة القبض عليه .

---

١ تاج العروس (٣/٢٦٠) ، (سخر) .

٢ Glaser 1150, Halevy 192, 199.

٣ القاموس (٤/٣١٦) ، تاج العروس (١٠/١٩٢) ، (شبا) .

وكانت الحكومات تسرف في استخدام السخرة وتشتط، فتنجز بالسخرة كثيراً من الأعمال التي هي من صميم عملها وواجبها . ولن يتأثر بالسخرة إلا الطبقات الفقيرة التي لا تملك دفاعاً عن نفسها ، ولا تجد من يساعدها ويعاونها . أما سادات القبائل ووجوه البلد والأشراف وأصحاب الأرض، فلا تقع السخرة عليهم ، وإنما يرسلون ما يطلب منهم من أتباعهم للقيام بالأعمال المطلوبة ، وقد يسخرونهم لأداء أعمال خاصة بهم ، لا صلة لها ولا علاقة بالأعمال العامة وبالنفع العام . ثم إن مفهوم القيام بالأعمال العامة وبالاشتغال بمشاريع النفع العام ، لا يطبق لدى هذه الحكومات ولدى بعض الحكومات حتى في هذه الأيام إلا على هذه الطبقات الفقيرة ، فعليها وحدها القيام بهذه الواجبات. ومثل هذه النظرة الى السواد الأعظم من الأمة ، جعل هذا السواد يكره حكوماته ، ويكره الحاكمين ، ويتهرب من الخدمة ما أمكنه ذلك ، لأنه لا يشعر بحكومة تعطف عليه ، ولا بحاكمين ينظرون الى مصالحه ، وإنما هم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم هم الناس ، وأما أبناء الشعب فإنما خلقوا لخدمته ليس غير .

ولما قام أبرهة باصلاح سد (مأرب) ، طلب من الأقيال وسادات القبائل وأصحاب الأرض مدّه بالمسخرين ، فأرسلوا اليه ما طلب منهم ، واشتغلوا في اصلاح السد وفي العمل على رتق ما صدع منه . فقاموا بنقل الحجارة الصلدة من مواضع مقالع الحجر ، وعملوا مسخرين في أعمال البناء ، ولم يدفع لهم شيئاً سوى الأكل ، وقد بقوا هناك حتى تم العمل ، فسمح لهم بالعودة الى ديارهم .

والمفروض في أخذ المسخرين من المدن والقرى والقبائل ، أن يكون ذلك متناسباً مع عدد السكان ، وعدد رجال القبيلة . فالمدينة الكبيرة تقدم عدداً يزيد على ما تقدمه المدينة الصغيرة أو القرية ، والقبيلة الكبيرة تقدم عدداً يزيد على عدد ما تقدمه القبيلة الصغيرة ، غير ان ذلك لا يطبق بصورة عملية ، فالعادة أن تفرض الأعمال الشاقة على الضعفاء والفقراء ، وربَّ قرية تقدم من المسخرين ما يزيد على ما تقدمه مدينة كبيرة . وهكذا الحال بالنسبة الى القبائل الضعيفة والقبائل القوية .

وقد كان الرقيق في أوائل من استجاب الى الإسلام ، تخلصاً من رق العبودية ، كان العبد إذا استطاع التخلص من سيده ، ودخل في الإسلام صار حراً طليقاً . وهذا مما أغضب سادة قريش وغيرهم من الملاّك أصحاب العبيد، وجعلهم يقولون: إن محمداً قد أفسد علينا عبيدنا . ولما حاصر الرسول (الطائف) نزل اليه رقيق من رقيق أهل الطائف ، فأسلموا واعتقوا [1] ، وجعل الرسول ولاء هؤلاء العبيد لسادتهم حين أسلموا [2] ..

---

١ البلاذري ، فتوح (٦٧) .

٢ الاصابة (٢/٤٥٤) ، (رقم ٥٤٤٥) .

الفصل العاشر بعد المئة

الاتاوة والمكس والاعشار

والإتاوة : الرشوة والعطاء والخراج ، يقال أدى إتاوة أرضه أي خراجها ، وضربت عليهم الإتاوة ، أي الجباية [1] . وهي ما كان يفرضه الملوك وأصحاب الأرض وسادات القبائل من حقوق على رعاياهم وأتباعهم ، ويجبرونهم على أدائها لهم . وهي بالطبع جباية مكروهة ، كان الناس يتهربون منها كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، ويتهربون من رؤية وجوه عمالها ، الذين كانوا يكرهونهم كرهاً شديداً لاشتطاطهم عليهم ، وتعسفهم بهم ، وأخذهم أكثر مما يجب أخذه في أغلب الأحوال،ليأكلوا منها ما يتمكنون من أكله ، فقد كانت الجباية من موارد الرزق الحرام والكسب الغير المشروع للجباة .

ويقال للخراج والإتاوات (الطعم) ، يقال فلان تجبى له الطعم ، أي الخراج والاتاوات . ويقال جعل السلطان ناحية كذا طعمة لفلان ، أي مأكلة له . وفسر بعضهم الطعمة بشبه الرزق وبالمأكلة [2] . وفي هذا التفسير تفسير لوجهة نظر الجاهليين والإسلاميين بالنسبة الى الاتاوة وكل أنواع الجباية،كانوا يرون أنها مأكلة للحكّام ورزقاً يأخذونه من أتباعهم ، ليعتاشوا به مع ما يعتاشون عليه من ارزاق، مثل الاتجار في السوق واستثمار الملك ، بينما لا ينال الأتباع منه أي شيء ، إلا بتوسل واستعطاف ودعاء ومدح وتمرغ على أعتاب أبواب الحكام .

---

١ تاج العروس (١٠/٧) ، (أتو) .
٢ تاج العروس (٨/٣٧٨) ، (طعم) .

و (المكس) هو ما يأخذه الماكس من جباية من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية ، أو الدراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق . والمكوس، هي الضرائب التي كان يأخذها العشارون ، والمكس النقص ، وبين المكس والنقص صلة وعلاقة ، فتأدية المكس ، هو نقص بصيب مال المؤدي للمكس . وقد أشير اليه في شعر (جابر بن حني) التغلبي ، الذي يقول :

أفي كل أسواق العراق اتاوة   وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[١]

ومعنى هذا أن الناس كانوا يدفعون إتاوة في أسواق العراق ، يدفعون عن كل ما يبيعونه مكساً هو درهم . وهو مكس يزيد بزيادة ثمن البيع ، فإذا كان ثمن المباع كثيراً ، زاد مكسه ليتناسب مع الثمن .

وتقابل لفظة (مكس) لفظة « Telos » في اليونانية،و « Toll » في الانكليزية . ويقال للموضع الذي تمكس البضائع والسلع فيه « Telonion » [٢] . ويجب أن نميز بين هذه الضريبة وبين لفظة « Tribute » التي هي في مقابل « Mas » ،لأن المكس، ضريبة تؤخذ عن السلع وعن حق مساهمة الحكومة في الأرباح ، بينما الثانية ضريبة اجبارية تؤخذ من الناس[٣] . وقد ترجمت لفظة « Tribute » بـ (جزية) وجباية واتاوة في اللغة العربية . يقال جبى الخراج جباية . وورد في شعر للجعدي :

دنانير يجبيها العباد وغلة   على الأزد من جاء امرىء قد تمهلا[٤]

ونجد علماء اللغة يجعلون لفظة (الماكس) في مرادف لفظة (العشار) . وعرفوا المكس ، بأنه ما يأخذه العشار ، وهو ماكس ، فالعشار هو الماكس ، وورد في الحديث : لا يدخل صاحب مكس الجنة . قيل صاحب مكس هو العشار[٥] . والعشار هو قابض العشر ، والعشر أخذ واحد من عشرة . فالماكس ، اذن هو الجابي القابض للمكس ، وهو العشر ، أي عشر ما يباع ، وقد غلبت عليه

---

١ تاج العروس (٤/٢٤٩) ، (مكس) ، المخصص (١٢/٢٥٣) .

٢ Hastings, p. 948.

٣ Hastings, p. 948.

٤ تاج العروس (١٠/٦٥ وما بعدها) ، (جبى) .

٥ تاج العروس (٤/٢٤٩) ، (مكس) .

لفظة (العشار) لأنه يأخذ العشر ، عشر أموال الناس ، ولأنه يعشرهم . وقد كان (العشر) ، من أهم سمات الجاهلية ومعالمها ، « وفي الحديث إن لقيتم عاشراً فاقتلوه ، أي إن وجدتم من يأخذ العشر على ما كان يأخذه أهل الجاهلية مقيماً على دينه ، فاقتلوه ، لكفره أو لاستحلاله لذلك إن كان مسلماً وأخذه مستحلاً وتاركاً فرض الله ، وهو ربع العشر »[1] .

فالمكس ، إذن هي الضرائب التي تؤخذ عن المبيعات والمشتريات ، أي عن التجارة ، يجبيها جباة المكس ، أي العشارون من الأسواق ومن المواضع المخصصة لمرور التجار بها على الحدود ، ولا صلة لهذا العمل بعمل جباية الجزية والخراج .

ولفظة (الإتاوة) و (العشر) و (المكس) والجزيـة من الألفاظ التي لا يشك في كونها كانت معروفة عند الجاهليين . وقد أشرت الى ورود لفظـة (الإتاوة) في شعر (جابر بن حني التغلبي) . ووردت في شعر للجعدي . هو:

موالي حلف لا موالي قرابة ولكن قطيناً يسألون الاتاويا

أي هم خدم يسألون الخراج[2] . وكانت الكلمة على ما يظهر عامة ، بمعنى ضريبة من غير تعيين .

وأما (الخراج) ، فللعلماء في أصلها ومعناها كلام . وقد وردت لفظة (خرجاً) في القرآن الكريم . وردت في سورة الكهف : « فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً »[3] . وقد قرأها بعض المفسرين (خراجاً) ، وذهبوا الى أنها بمعنى الأجر ، وقال بعض منهم إن الخراج عند العرب هو الغلة[4] . ووردت في سورة (المؤمنون) : « أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين»[5]. وفسر العلماء اللفظتين بمعنى الأجر[6] .

---

١ تاج العروس (٣/٤٠٠) ، (عشر) .
٢ تاج العروس (١/٧) ، (اتو) .
٣ الكهف ، الرقم ١٨ ، الاية ٩٤ .
٤ تفسير الطبري (١٦/١٩) .
٥ المؤمنون ، الرقم ٢٣ ، الاية ٧٢ .
٦ تفسير الطبري (١٨/٣٣) ، روح المعاني (١٨/٤٨) .

وذهب علماء اللغة الى ان الخرج بمعنى الإتاوة تؤخذ من أموال الناس ، كالخراج ، وهما واحد لشيء يخرجه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم . وقال بعضهم : الخراج الفيء والخرج الضريبة والجزية . وذكروا ان الخراج الذي وظفه (عمر) على السواد وأرض الفيء ، فإن معناه الغلة أيضاً ، لأنه أمر بمساحة السواد ودفعها الى الفلاحين الذين كانوا فيه على غلة يؤدونها كل سنة ، ولذلك سمي خراجاً ، ثم قيل بعد ذلك للبلاد التي فتحت صلحاً . ووظف ما صولحوا عليه على أراضيهم خراجية ،لأن تلك الوظيفة أشبهت الخراج الذي ألزم به الفلاحون وهو الغلة ، لأن جملة معنى الخراج الغلة . وقيل للجزية التي ضربت على رقاب أهل الذمة خراج ، لأنه كالغلة الواجبة عليهم ، وفي الأساس : ويقال للجزية الخراج ، فيقال أدى خراج أرضه والذمي خراج رأسه . وعن ابن الأعرابي الخرج على الرؤوس والخراج على الأرضين . وقال الرافعي : أصل الخراج ما يضربه السيد على عبده ضريبة يؤديها اليه ، فيسمى الحاصل منه خراجاً . وقال القاضي : الخراج اسم ما يخرج من الأرض ثم استعمل في منافع الأملاك كريع الأرضين وغلة العبيد والحيوانات »[1] .

والخراج ، هو (طسقا) « Tasqa » في التلمود ، و« Maddata » (مدّاثاً) في الموارد السريانية النصرانية[2] . ولفظة (طسقا) ،هي من الألفاظ الإرمية الأصل. وتعرف ضريبة الأرض بـ « Halk' » و « Halak » وبـ « Minda » (ميندا) وبـ « Midda » في لغة بني إرم . ووردت باسم (طسقا) وبـ (مناثا ذ ــ ملكا) « Mnata d-Malka » في التلمود ، وباسم (طسقا) و (مدّثا) « Maddata » في السريانية[3] .

ولفظة (طسقا) معروفة في العربية كذلك ، فهي عندهم (الطسق) ، وتؤدي المعنى ذاته المفهوم منها في التلمود . ذكر علماء العربية أن الطسق ، ما يوضع من الخراج المقرر على الجربان . وكتب (عمر) الى (عثمان بن حنيف) في رجلين من أهل المدينة أسلما إرفع الجزية عن رؤوسهما وخذ الطسق من أرضيهما . وذكر بعض علماء اللغة أنها لفظة معربة أو مولدة[4] . فهي ضريبة الأرض . وتقابل

---

١ تاج العروس (٢/٢٨) ، (خرج) .

٢ Die Araber, I, S., 632, G. Widengren, The Status of the Jews in the Sassanian Empire, p. 149.

٣ Die Arabe, I, S., 632, Brockelmann, Lexi. Syriac., 374.

٤ تاج العروس (٦/٤٢٣) ، (الطسق) .

(فورس) « Phoros » في اللغة اليونانية . وتؤخذ عيناً في الغالب ، أي غلة [1] .

وأما الجزية ، فقد ذكر العلماء ، انها خراج الأرض ، وما يؤخذ من الذمي. ورد في الحديث : ليس على مسلم جزية ، وورد : من أخذ أرضاً بجزيتها [2] ، وورد في القرآن الكريم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخــر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون » [3] . وقد ذكر المفسرون ان الجزية الخراج عن الرقاب [4] . ويظهر من الحديث ومن كتب الفقه ، ان المراد بها ضريبة الرأس. ولما كتب الرسول الى (المنذر بن ساوى) ، بشأن أتباعه ، قال له : « ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » [5] . وقد أمر الرسول عماله بأخذ الجزية من أهل الكتاب ، ممن يريد البقاء في دينه . فهي اذن ، بهذا المعنى ضريبة تؤخذ من غير المسلمين ، في مقابل الزكاة التي تؤخذ من المسلمين .

وضريبة الرؤوس معروفة ، وهي تؤخذ من المغلوب على أمره ، ولا سيما بعد الحروب . فتفرض على المغلوب ضريبة على رأس كل انسان بالغ . ولذلك أنفت تغلب من أدائها ، ولم تقبل بتأديتها ، لأن في أدائها مذلة وصغاراً . وهي ضريبة دائمة ، تلازم من فرضت عليه ما دام في حكم من فرضهـــا ، وهي تختلف عن الفدية التي تفرض على الأسير لفك أسره ، وعن المبلغ الجماعي الذي يفرض على المغلوب في مقابل التصالح معه ، وهو ما يعبر عنه في العربية بـ « وصالحهم على كذا وكذا » يؤدونه جزاء العفو عنهم .

وعبر عن الجزيـة بلفظـــة « Keraga » « Keraga » في التلمود . وبـ « Kesef Rexa » « Kesef Resha » ، أي ضريبـــة الرأس في المـــوارد النصرانية السريانية،وبـ « Belo » (بلو) في لغة بني إرم وبـ « Kesap Gulgulta » في التلمود أيضاً [6] . وقـــد ذهب بعض الباحثـــين الى أن لفظة (الجزية) و (جزية) من أصل سرياني هو « Gzita » ، وذهب بعض آخر الى أنهـــا

---

١ Hastings, p. 948.

٢ تاج العروس (١٠/٧٣) ، (جزى) .

٣ التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٢٩ .

٤ تفسير الطبري (١٠/٧٧) .

٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٣) .

٦ Die Araber, I, S. 632, Die Aramaische Sprache, I, 149.

من أصل فارسي هو « Gazitak » و (كزيد) بمعنى ضريبة يدفعهـا الذمي ، أي الذي أمنته الحكومة على حياته وماله وعرضه . وذهب بعض آخر الى أنهـا من أصل عربي[1] . وتقابل هذه الضريبة ما يقال له « Kensos » في اليونانية ، وهي ضريبة كان يأخذها الرومان من اليونان عن رؤوسهم ، وهي لا تدفع غلة أو سلعة وإنما تؤخذ منهم نقوداً ، أي بالعملة الرومانية[2] .

وقد كانت الحكومات العربية الجنوبية تتقاضى العشر أيضاً عن البيوع وتوسعت حكومة (قتبـان) في العشر ، فجعلته إتاوة كل وارد أو ربح يصيبه الرجل ، سواء أكان ذلك من البيع والشراء أو من الإجـارة والإرث والزرع وكل عمل آخر[3] . ويظهر أن العشر،قد أخذ عن الزرع أيضاً في حكومة (سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) أيضاً ، وفي حكم الحبش على اليمن . وقد وردت لفظـة (عشر) و (عشورت) في كتابات المسند ، وتعني العشر،الذي نبحث عنه[4].

وأشار (بلينيوس) ، الى العشر ، فذكر ان العرب الجنوبين كانوا يعشرون اللبان وما تنتجه بلادهم من بخور ، يعشرهم رجـال الدين باسم الإلـه (سن) (سين)[5] . ومعنى هذا ان المعبد كان يعشر المتمكنين من أصحاب الحاصل ، فيأخذ منهم عشر غلتهم من هذه المواد . وأعتقد انهم كانوا يعشرون كـل مال يدخل اليهم ، ولا يقتصر هذا التعشير عـلى المواد المذكورة ، أي عـلى الغلة الزراعية ، بل يشمل ذلك كل ربح مهما كان نوعه،جاء عن الزراعة أو التجارة . وهذا التعشير لكل شيء ، كان متبعاً عند غير العرب كذلك[6] . ونجد (صموئيل) يهدد شعبه بأنه سيعشر زرعه وكرومه وغنمه،ويأخذ جواريه وعبيده وشبانه وبناته، فيجعلهم عبيداً له ، يسخرهم كالحمير إن لم يستجيبوا له ، ويسمعوا لما طلبه منهم[7].

---

١ Die Araber, I, S., 633, C. Brockelmann, Lexl. Syriac., (1928), 111, G. Widengren, p. 154. غرائب اللغة (٢٢٣) .

٢ Hastings, p. 948.

٣ راجع الفقرة الخامسة من النص المرسوم بـ : Glaser 1601 Rhodokanakis, Katab. Texte, I, S. 7.

٤ Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S., 58.

٥ Pliny XII, 65.

٦ صموئيل الاول ، الاصحاح الثامن ، الاية ١١ ـ ١٧ ، Hastings, p. 944.

٧ صموئيل الاول ، الاصحاح الثامن ، الاية ١ وما بعدها .

والعشر ، معروف عند غير العرب أيضاً ، وهو يقابل (اش — رو — و) « Isch-ru-u » في الآشورية ، أي (عشر) ، وهو ما يدفع عن الأموال والذهب عندهم،و (مَعَشير) « Ma'asher » في العبرانية ، وقد جرى التعشير عندهم قبل أيام موسى ، ونص عليه في التوراة . فكانوا يقدمون عشر أموالهم صدقة تزكيهم، يدخل فيه البقر وبقية الماشية ، وتوسع (الفريسيون) في ذلك ، فأدخلوا في العشر، عشر النعناع والشبث والكمون[1] .

وقد أشير في نصوص المسند الى الضرائب التي كان على المتبايعين في الأسواق أداؤها الى الحكومة . فعلى كل متعامل في السوق دفع (همد) الى جباة السوق . والـ (همد) ما يؤخذ من المتعاملين في السوق عن اتجارهم بها . فهي ضريبة البيع والشراء[2] . وقد حذرت تلك النصوص المخالفين المتهربين من دفع ما عليهم من الـ (همد) بإنزال أقصى العقوبات عليهم بما في ذلك مصادرة أموالهم ، إن حاولوا أكل حق الحكومة ، والتهرب من دفع حصتها من الربح .

وهناك ضريبـــة أخرى ذكرت في النصوص كذلك ، هي (فرعم) ، أي (فرع) . يظهر أنها كانت عندهم تطوعية ، لا يجبر الإنسان على أدائها ، وإنما هي صدقة يتصدق بها من يشاء .

وقد كانت الحكومات العربية الجنوبية قد عينت جباة يجلسون في الأسواق وعند مدخل الحدود لجمع الضرائب المفروضة على البيع والشراء والاتجار وحق المرور . أما ضرائب غلات الأرض ، فلها جباتها ، كما كان يلتزمها كبار أصحاب الأرض وأصحاب الأقطاع ، فيـــدفعون للحكومة حصتها من الزرع ، وهم يجبون تلك الحصة من صغار المزارعين التابعين لهم أو المستأجرين لأرضهم ، فيأخذون منهم كل ما يمكنهم أخذه للاستئثار به ، واعطاء القليل منه الى الحكومة . وبذلك كان صغار المزارعين والمستأجرين للأرض يلاقون عنتـــاً شديداً من الضرائب المفروضة عليهم .

وقـــد كان المتولون لأمر الأسواق يأخذون عشور التجار . لهم جباة يجوبون السـوق ، ليأخذوا عُشر ما يباع . فكان (الأكيدر) يعشر سوق دومة الجندل،

---

١ راجع سفر التكوين ، الاصحاح ١٤ ، الاية ٢٠ ، والاصحاح ٢٨ ، الايـــة ٢٢ ، قاموس الكتاب المقدس (١٠٣/٢) ، (عشر عشور اعشار) .

٢ REP. EPIGR. 4337.

وربما يتولاها سادة (كلب) ، أو بعض الغساسنة ، وكان (قنافة) الكلبي ، ممن ينافس الأكيدر على دومة يتولى جباية العشر كذلك . وكذلك كان المتولون لأمر الأسواق الأخرى يأخذون العشر . فالعشر ، الجباية المألوفة التي يدفعها التجار عن تجاراتهم في كل ما يبيعون ويشترون ، وعن مكس السلع التي تنقل لبيعها في الأسواق الخارجية ، فقد كان التجار العرب إذا دخلوا حدود بلاد الشأم، عشرهم رجال المكس على الحدود . واذا تاجروا في أسواق بلاد الشأم عشرهم العشارون في هذه الأسواق .

وكان (زنباع بن روح) ممن يعشر من يمر به بمشارف الشأم[1] . وهو من (جذام) . وكان يعمل للحارث بن أبي شمر الغساني . ذكر ان (عمر) خرج تاجراً في الجاهلية مع نفر من قريش ، فلما وصلوا الى فلسطين ، قيل لهم إن (زنباع بن روح) يعشر من يمر به ، فعمدوا الى اخفاء ما معهم من ذهب ، فلما وجده ، أغلظ عليهم في العشر ، ونال من عمر ، فقال (عمر) في ذلك :

متى ألق زنباع بن عمرو ببلدة لي النصف منه يقرع السن من ندم
ويعلم أن الحي حي ابن غالب مطاعين في الهيجا مضاريب في الهيم[2]

ويقال لعمال العشور والجزية (الحشّار) ، وفي حديث وفد ثقيف اشترطوا أن لا يعشروا ولا يحشروا،أي لا يندبون الى المغازي ولا تضرب عليهم البعوث، وقيل لا يحشرون الى عامل الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم،بل يأخذها في أماكنهم[3] .

وورد في كتاب الرسول لعبد يغوث بن وعلة الحارثي : « ولا عشر ولا حشر » ، وورد في كتابه الى (يزيد بن المحجل الحارثي) « ان لهم نمرة ومساقيها ووادي الرحمن من بين غابتها ، وانه على قومه من بني مالك وعقبة لا يغزون ولا يحشرون » ، وجاء مثل ذلك في كتابه لقيس بن الحصين ذي الغصة: « لا يحشرون ولا يعشرون »[4] ، ووردت هذه الجملة في كتابه لبني جعيل من

---

١ تاج العروس (٤٦١/٥) ، (قرع) .
٢ الاصابة (٥٣٣/١) ، (رقم ٢٨١٧) .
٣ تاج العروس (١٤٢/٣) ، (حشر) .
٤ ابن سعد (٢٦٨/١) .

بلي[1] ، وقد فسّر (ابن سعد) جملة « وانهم لا يحشرون » ، بقوله : « لا يحشرون من ماء الى ماء في الصدقة » ، وعبارة : « لا يعشرون » بقوله: « ولا يعشرون يقول في السنة الا مرة » . وفسر (السعاية) الواردة في الكتاب بالصدقة[2] . وعندي ان الحشر يجب أن يكون في معنى له صلة بالجلاء ، أو بالجمع لسخرة وتكليف بقيام عمل إجباري . وقد ورد في كتب اللغة ان الحشر الجلاء ، ولذلك قيل في بني النضير عندما أجلوا انهم أول حشر حشر الى أرض المحشر ، كما قالوا يوم المحشر وأرض المحشر . والحشر أيضاً بمعنى إجحاف السنة الشديدة بالمال[3] . فاللفظة اذن علاقة بالاجلاء وبالسخرة وبالندبة الى الحرب أو للقيام بعمل إجباري جماعي . ولا زال أهل العراق يستعملون لفظة (الحشور) في معنى جمع الناس للسخرة ، ولأي عمل تريده الحكومة إجباراً .

و (العشر) كما يتبين من النصوص الجاهلية ومن الموارد الاسلامية ، أقدم ضريبة معروفة عند العرب ، وهي ضريبة عامة تشمل أرباح التجارة ، كما تشمل أرباح الزراعة . وقد عرفت في جميع أنحاء جزيرة العرب . وهي في الواقع من أقدم الضرائب المعروفة في التاريخ فرضتها الحكومات والأديان على الأتباع منذ أقدم العصور .

ولم أقف على وجود (العُشّار) في مكة أو في يثرب أيام الجاهليين ، ولكن هذا لا يعني نفياً لوجود هذه الضريبة عند أهل المدينتين . ولا استبعد وجودها عندهم ، وذلك أنهم كانوا يأخذونها من المتبايعين في الأسواق لصرفها في الشؤون العامة المتعلقة بمجتمعها ، فقد كان لكل سوق في الجاهلية عشارون يجمعون العشر فلا داعي لاستثناء سوقي مكة والمدينة من العشر .

وقد سبق لي أن ذكرت أن سادات مكة كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن يقدموا من أموالهم مالاً للرفادة ولتحمل الأشناق ونفقات الدفاع عن المدينة . يدفعها كل انسان حسب قابليته المالية وامكانياته ، ولعلهم كانوا يأخذون من أرباحهم التي يحصلون عليها من القوافل نصيباً معلوماً قبل توزيعها على المساهمين ، ليكون عوناً للمدينة في تمشية أعمالها وفي الدفاع عن شؤونها .

---

١ « وأنهم لا يحشرون ولا يعشرون » ، ابن سعد (١/ ٢٧٠) .
٢ ابن سعد (١/ ٢٧٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٣/ ١٤١ وما بعدها) ، (حشر) .

الطعمة :

وترد في كتب أهل الأخبار لفظة (طعمة) ، بمعنى المأكلة ، ورد أن النعمان ابن المنذر جعل لبني لأم من طيء ربع الطريق طعمة لهم لصهر كان لهم عنده أي ان النعمان جعل حق الطريق لهم ، يجبون من المارة جبايتهم فيأخذونها لهم ، ولا يعطونها للملك ، لأنه كان قد تنازل عن حقه فيها اليهم . يقال فلان تجبى له الطعم ، أي الخراج والإتاوات[1] . وكان من عادة الملوك ، التنازل عن حق جباية الإتاوة عن بعض الأرضين أو الطرق لسادات القبائل ، تأليفاً لقلوبهم ، واسكاتاً لألسنتهم ، ولأنهم يعلمون أن نفوذهم على تلك الأرضين أو القبائل لم يكن ثابتاً قوياً ، بل كان بالإسم فقط ، وإنهم لا يتمكنون من أخذ جبايتها ، لذلك كانوا يتظاهرون أمام الناس بالتنازل عن حقهم في تلك الضرائب .

ضرائب الزراعة :

وعلى أصحاب الأرض والمزارعين دفع نصيب الحكومة من الحاصل . وقد عينت الحكومات موظفين لجباية حصتها ، عرفوا بـ (حزرو) في نصوص المسند . وواحدهم (حزر)[2] . (الحازر) والخارص في لغة القرآن الكريم . ويذكر علماء اللغة ان (الحزرة) من المال خياره . وفي الحديث ان الرسول بعث مصدقاً ، فقال له : لا تأخذ من حزرات أنفس الناس شيئاً ، خذ الشارف والبكر يعني في الصدقة[3] .

والخرص الحزر والحدس والتخمين . هذا هو الأصل في معناه . ومنه خرص التمر والنخل،لأن الخرص انما هو تقدير بظن لا احاطة . وفاعل ذلك (الخارص). وما يقدر هو خرص الأرض ، وخرص النخل . وكان هؤلاء الخراص يذهبون في المواسم الى البساتين والمزارع لخرصها . وفي الحديث كان النبي يبعث الخراص على نخيل خيبر عند ادراك ثمرها فيحزرونه رطباً كذا وتمراً كذا[4] .

---

١ تاج العروس (٣٧٨/٨) ، (طعم) .

٢ Rhodokanakis, Katba. Texte, II, S. 75, 99.

٣ تاج العروس (١٣٨/٣) ، (حزر) .

٤ تاج العروس (٣٨٥/٤) ، (خرص) .

ولا نستطيع أن نأتي بتأريـــخ ثابت معين عن مبدأ فرض الضرائب الزراعية والضرائب الأخرى في العربية الجنوبية ، ولا في أي مكان آخر من جزيرة العرب ، لعدم ورود نصوص جاهلية عن ذلك . ويظهر ان ما نسميه بالضرائب ، كان في بادىء أمره صدقة يدفعها المتمكن عن نفسه وعن أمواله ، قربة للآلهة وزكاة لنفسه ولأهله ولأمواله ، لترضى عنه الآلهة ، ولتمنّ عليه بالصحة والعافية . ومن هذا القبيل النذور ، التي كان يكثر منها الانسان في السابق فكانت تكوّن مورداً حسناً من موارد الحكومة والمعبد . فلما ظهر الملوك ، وصارت الحكومـــة حكومتهم ، فرضوا ضرائب إلزامية لتكون وارداً يمون الملوك وحكومتهم بما يحتاجون اليه من مال ونفقات .

والضرائب عالية في الغالب ، بالنسبة الى المزارعين المالكين لأرضين صغـــيرة وللمزارعين الذين يشتغلون بأجور ، أو يستغلون الأرض بعقود فعلى هـــؤلاء دفع عوائد أخرى الى سادتهم أصحاب الملك،والى رجال الدين الذين يطالبون المزارعين بدفع زكاة زرعهم لهم قسراً ، فلا يبقى لدى هؤلاء من غلتهم إلا النزر اليسير الذي لا يكاد يكفيهم . فعاش الفلاح في ضنك من العيش . وهذا مما أثر على الوضع العام للدولة بالطبع .

أما كبار الملاكين وسادات القبائل والأشراف،فلم يكونوا يدفعون الى حكومتهم إلا جزءاً صغيراً من دخلهم الذي يحصلون عليه من الزرع . فقد كانوا يتحايلون عليها في تقدير غلاتهم، كما كانوا يحملون المزارعين والمستأجرين لأملاكهم وأفراد قبيلتهم العبء الأكبر في دفع الضرائب . فقد كانوا هم الذين يقومون بجمع الغلّة وتوزيعها وافراز حصة الحكومة وحصة المعبد والحقوق الأخرى المترتبة على المزارع. فكانوا يتناولون حصصهم كاملـــة وزيادة ، ويحملون مزارعيهم ومن يشتغل في خدمتهم دفع حصة الحكومة والمعبد ، فلا يقع عنهم من باقي الحصـــة إلا الشيء القليل . يقع ذلك والحكومة عارفة به ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، لنفوذ كبار الملاكين وسادات القبائل وسلطانهم على أتباعهم الموروث من العادة والعرف .

ولضمان تحصيل حصص الحكومة من الـــزرع ، كان جبـــاة الضرائب يأتون المزارع ، فيأخذون ما قدروه وخرصوه من خيار الزرع ويتركون الباقي للفلاح . وقد يثبتون حصة الحكومة عند حلول أوان التقدير ويعينونهـــا ، فإذا حان وقت

جمع الحاصل ، جاءوا فأخذوا غلة ما عينوه . ويقولون لهذا الذي تأخذه الحكومة من الغلة (رزم)[1] . يأخذونه وهو بعد على الأرض ، قبل نقله الى موضع التجميع والتخزين .

والمزارع الصغير مغبون في كل شيء ،وكذلك الفلاح. كان على المزارعين والفلاحين أن يبدأوا عملها بالاستدانة من وكلائهم الذين يتوكلون عنهم في تصريف حاصلهم أو من رب الأرض ، فيحملونهم ربا الدين ويتحكمون عندئذ في أمورهم ، ويحصلون منهم على ربح يؤثر عليهم ، حتى اذا انتهى الموسم ، أو حال الحول وجد هؤلاء أنفسهم وقد أثقلتهم ديونهم ، وتكاثرت عليهم التزاماتهم ، وقد صاروا تابعين لأصحاب الأرض ، لا يستطيعون ترك أرضهم إلا بعد ترضيتهم وتسوية ديونهم .

وكما يفعل بعض الناس في الزمن الحاضر من التهرب من دفع الضرائب بمختلف الطرق ، كذلك تهرب الناس في الجاهلية من دفع الضرائب الى الحكومات،بالرغم من العقوبات الصارمة التي فرضت على المتهربين والمخالفين . وفي ضمن ذلك الاستيلاء على الحاصل الزراعي كله ، وتهديم المذاخر التي قد يخفى فيها الحاصل وتهديم أملاك صاحبه . ونجد في أحد النصوص ان من يخفي حاصله ولا يدفع ما عليه ويخفيه في القنن جمع قنة (قنت) ، أي المخازن ويتستر عليه ، فإنه يصادر عليه ويؤخذ منه ، بل يستولي على كل ما يعثر عليه في المزرعة ويتلف ، ويعاقب بالقتل أيضاً[2] .

أما بالنسبة الى الضرائب الزراعية عند أهل العربية الغربية أو أهل المواضع الأخرى من جزيرة العرب ، فلا نملك نصوصاً جاهلية عن هذا الموضوع . ولكنا نجد في القرآن الكريم وفي كتب التفسير اشارة اليها . ورد فيه : « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم »[3] . وورد : « وهو الذي

---

١ تاج العروس (٨/ ٣١٠ وما بعدها) ، (رزم) .

٢ REP. EPIGR. 2860, Tome, V, p. 192.

٣ سورة الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ١٣٨ وما بعدها .

أنشأ جنّات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[1] . وورد ، « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون »[2] . ففي الآيات المذكورة أن أهل الجاهلية ، كانوا جعلوا لله ولشركائه من ثمراتهم ومما لهم نصيباً ، فإذا كان يوم حصاد الزرع أو قطف الثمر، أخرجوا من كل عشرة واحداً ، فهي العشور . عشور كل شيء من نخل أو عنب أو حبّ أو فواكه أو قصب . وأما أموالهم ، فقد جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحامياً ، وأنعاماً لا يذكرون اسم الله عليها[3] .

ونجد في كتب رسول الله الى الملوك وسادات القبائل اشارة الى (العشر) ، أي الى هذا الحق الذي كانوا قد فرضوه على أنفسهم ، ففي كتابه الى (عبد يغوث بن وعلة الحارثي) : « ان له ما أسلم عليه من أرضها وأشيائها ، يعني نخلها ، ما أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وأعطى خُمس المغانم في الغزو، ولا عشر ولا حشر »[4] . وفي كتابه لقيس بن الحصين ذي الغصة ، أمانة لبني أبيه بني الحارث ولبني نهد : « ان لهم ذمة الله وذمة رسوله، لا يحشرون ولا يعشرون »[5]، وفي كتابه لبني جُعيل : « لهم مثل الذي لهم ، وعليهم مثل الذي عليهم ، وانهم لا يحشرون ولا يعشرون »[6] . وفي كتابه الى (العلاء بن الحضرمي) : « وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور »[7] . وفي كتابه « لبادية الأسياف ونازلة الأجواف مما حاذت صحار : ليس عليهم في النخل خراص ولا مكيال مطبق حتى يوضع في الفداء وعليهم في كل عشرة أوساق وسق »[8] ، أي العشر .

---

١ سورة الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ١٤١ .
٢ سورة الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ١٣٦ .
٣ تفسير الطبري (٨/ ٣٠ وما بعدها) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٦٨) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٦٨) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٧٠) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٧٦) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٨٦) .

ونجد في كتاب رسول الله لعمرو بن معبد الجهني وبني الحرقة من جهينة وبني الجرمز : « وما كان من الدين مدونة لأحد من المسلمين قضى عليه برأس المال وبطـل الربا في الرهن . وأن الصدقة في الثمار العشر »[1] . فجعل الصدقة بمعنى العشر ، أي زكاة الثمار . ونجد العلماء يجعلون الصدقة زكاة ، والزكاة صدقة ، يفترق الإسم ويتفق المسمى[2] ، ونجدهم يفرقون بينهما في بعض الأحيان ، اذ تكون الصدقة تطوعاً ، بينما الزكاة حكماً مفروضاً ، له حدود معلومة على نحو ما حددته كتب الفقه والأحكام .

وقد كان هذا شأن أهل الحجاز ، ولا سيما أهل يثرب يؤدون عشر حاصل زرعهم ، يوم حصاده وعند الصرام ، وبقوا على حالهم هذه حتّى فرضت الصدقة المعلومة ، أي الزكاة ، فسن العشر ونصف العشر ، وترك عشر الجاهلية ، على نحو ما نجده في كتب الفقه والأحكام[3] . وفي الحديث : فما سقت الأنهار والغيم العشور ، وفيما سقي بالسانية والغروب والدلاء نصف العشر[4] .

وقد أشير الى (العشر) في كتاب (عمر) الى (زياد بن حدير) ، حيث جاء : « ان أقاموا ستة أشهر فخذ منهم العشر ، وان أقاموا سنة ، فخذ منهم نصف العشر »[5] . وفي كتاب آخر بعث اليه أيضاً هذا نصه : « لا تعشرهم في السنة الا مرة »[6] .

وعرف من كان يجمع (الصدقة) في الاسلام بـ (المصدق) . وهو آخذ الصدقات ، أي الحقوق من الإبل والغنم يقبضها ويجمعها ، والمتصدق معطيها[7] . وقد جاء ناس من الأعـراب الى رسول الله ، فقالوا : إن ناساً من المُصدّقين

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١ وما بعدها) .
٢ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١١٣) .
٣ تفسير الطبري (٨/٤٢ وما بعدها) .
٤ صحيح مسلم (٣/٦٧) ، (باب ما فيه العشر او نصف العشر) ، الاحكام السلطانية (١١٨) ، تاج العروس (١/٤٠٥) ، (غرب) ، (١٠/١٨٥) ، (غرب) .
٥ كتاب الخراج ، للقرشي (١٧٢) ، خورشيد أحمد فارق ، حضرت عمركه سركاري خطوط (ص ١٣٥) .
٦ كتاب الخراج ، للقرشي (١٧٢) ، خورشيد أحمد فارق (ص ١٣٦) .
٧ تاج العروس (٦/٤٠٦) ، (صدق) .

يأتوننا فيظلموننا ، فقال رسول الله : ارضوا مصدقيكم[1] . وقد حث الرسول على إرضاء المصدق[2] .

و (الساعي) مثل المصدق ، من يستعمل على الصدقات ويتولى استخراجها من أربابها . وفي حديث وائل بن حجر ، ان وائلاً يستسعي ويترفل على الأقيال، أي يستعمل على الصدقات[3] . وقد أهمل استعمال لفظة (الساعي) في هذا المعنى فيما بعد ، واستعملت في أمور أخرى ، مثل سعاة البريد . وقيل لمن يتولى أمر الصدقات ويشرف على سعاتها (عامل الصدقة) ، و (عمال الصدقات) .

ونجد في كتب اللغة لفظة (السمرج) ، في معنى له صلة بالضرائب ، يذكر علماء اللغة انها لفظة فارسية معربة ، تعني استخراج الخراج في ثلاث مرات ، أو اسم يوم ينقد فيه الخراج ، ويوم جباية الخراج . أو هو يوم للعجم يستخرجون فيه الخراج في ثلاث مرات[4] . وذكر بعض علماء اللغة ان (الشمرج) اسم يوم جباية الخراج للعجم ، وقد عربه (رؤبة) ، بأن جعل (الشين) سيناً[5] .

هذا ونستطيع حصر الضرائب التي كان يدفعها أهل الجاهلية في ثلاثة أصناف : ضرائب الأرض أي ما يؤخذ عن غلة الأرض ، وضرائب الرؤوس أي ما يقال الجزية في الإسلام ، وضرائب التجارة والأرباح . وقد كانت تقدم الى الحكومة أو سادة القبائل ، على شكل نقود ، أو سبائك ذهب أو مصوغات . حيث تحفظ في خزائنهم وفي خزائن المعابد في حالة الضرائب التي تدفع الى المعبد[6] .

وكانت الجباية بأنواعها من المآكل والمطاعم بالنسبة لبعض من يتولون أمرها، يأكلون ما يتمكنون من أكله ، ويسلمون الباقي الى من عينهم عليها ، ونجد في الموارد الاسلامية اشارات الى الرشوة والمرتشين وآكلي الصدقات والى (المصانعة) أي الرشوة ، يقال صانع الوالي أو الأمير اذا رشاه[7] .

---

١ صحيح مسلم (٣/٧٤) ، (باب ارضاء السعاة) .
٢ صحيح مسلم (٣/١٢١) ، (باب ارضاء الساعي ما لم يطلب حراما) .
٣ تاج العروس (١٠/١٧٨) ، (سعى) .
٤ تاج العروس (٢/٦٠) ، (سمرج) .
٥ تاج العروس (٢/٦٥) ، (شمرج) .
٦ Hastings, p. 944. f.
٧ تاج العروس (٥/٤٢٢) ، (صنع) .

الفصل الحادي عشر بعد المئة

النقود

وفي الموارد الاسلامية بعض الأخبار عن نقود كانت متداولة في الحجاز عند ظهور الاسلام . وقد سميت تلك النقود بأسمائها ، وأشير الى وزنها ومقدارها . وعثر الباحثون على نماذج من نقود جاهلية تعود الى عهود مختلفة في مواضع متعددة مختلفة من جزيرة العرب ، قدمت لنا بعض المعارف عنها وعن مصادرها ، فمن الموارد الاسلامية ومن بعض كتابات المسند التي أشير فيها الى نقود جاهلية ومن قطع النقود الجاهلية التي عثر عليها المنقبون ، جمعنا ما سنقوله عن نقود أهل الجاهلية .

وقد استعمل أهل العربية الجنوبية النقود في معاملاتهم ، استعملوا نقوداً سكّت من ذهب ، ونقوداً سكّت من فضة ، وأخرى سكّت من نحاس ومن معادن أخرى . وقد عثر على نماذج من كل نوع من هذه الأنواع . كما تعاملوا بالنقود الأجنبية كذلك ، مثل النقود اليونانية والرومانية والمصرية والحبشية والفارسية . وقد عثر على نماذج من هذه النقود في مواضع متعددة من العربية الجنوبية : في اليمن ، وفي حضرموت ، وفي مواضع أخرى . وقد زاد تعامل أهل اليمن بالنقود الحبشية والساسانية في أثناء احتلال الحبش والساسانيين لليمن ، ولا شك .

وفي بعض المتاحف ودور الآثار وعند بعض هواة جمع النقود والأشياء القديمة ، قطع من نقود جاهلية ضربت في العربية الجنوبية ، بعضها من ذهب ، وبعضها من فضة ، وبعض آخر من نحاس ، ومنها الكبير ، ومنها نقود صغيرة دون

على بعضها اسم الملك الذي ضربت في أيامه ، أو الحرف الأول من اسمه ، وعلى بعض آخر رموز وصور ألفَ العرب الجنوبيون ضربها على النقود ، مثل صورة (أثينة) أو (البوم) وهي من الطيور التي ألف العرب الجنوبيون إظهار صورتها على النقد ، وعلى الحجارة المكتوبة وعلى جبهات البيوت .

والعملــة تطور خطير من التطورات التي أثرت في الحيــاة الاقتصادية للبشر . أحدث اختراعها انقلاباً كبيراً في النظم الاقتصادية والاجتماعية ، ويعدّ ايجادها من المخترعات الكــبرى التي لعبت دوراً خطيراً في حياة الإنسان ولا تزال تلعبه . قلصت أعمال المقايضة المرهقة المتعبة،وقضت على التعامل بالوزن في تقدير الأثمان . أعني التعامل بوزن الــذهب والفضة ، في تقدير قيم الأشياء ، بأن يعطي إنسان إنساناً قيراطاً من ذهب ، أو نصف مثقــال ، أو مثقالاً مقابل سلعة ثم التساوم على سعرها . أو وزن مثقال من فضة أو أقل من ذلك أو أكثر في مقابل سلعة يريدها المشتري . وهو نظام سبق نظام النقد ، الذي ولدت منه فكرة العملــة . وهو نظام متقدم بالنسبة الى نظم المقايضة التي سبقته، قلّص من صعوباتها كثيراً، وأراح التاجر في التعامل ، حتى ولدت فكرة سك العملــة ، فقلصت منه ومن تعقيداته ، لسهولــة التعامل بالعملة ، ولاكتسابها صفة رسمية وسعراً ثابتاً مقرراً ووزناً معيناً حددته الحكومات .

وفي وسعنا اطلاق مصطلح (النقد الطبيعي) على نظام المقايضة ، أي مبــدأ مبادلة سلعة بسلعة . فهو في الواقع نظام يستند على مبدأ التسعير وتثمين السلع وبيع سلعة بثمن سلعة أخرى . ولما وجد الانسان صعوبة كبيرة في التعامل بهذه الطريقة، هداه عقله وتقدمه الفكري الى ابتداع طريقة التعامل بالذهب والفضة وزناً . فخفف الإنسان بذلك كثيراً من التعقيدات والصعوبات التي كان يجابهها في تعامله بالمقايضة، فكان إذا أراد شراء حاجة عامل صاحبها بمقدار موزون من الذهب أو الفضة ، يقدمه اليه في مقابل شرائها ، ثم انتقل بعد ذلك الى طريقة سك العملة . فسهل بذلك معاملاته في البيع والشراء كثيراً ، ولا زال هذا النظام سائداً في كل أنحاء العالم ، مع نظام العملة الورقية ونظام التعامل بالصكوك .

وقد تعامل الجاهليون بالطرق الثلاثة المذكورة . تعاملوا بالمبادلة ، أي المقايضة، وتعاملوا بوزن الذهب والفضة ، وتعاملوا بالعملة . ولما ظهر الاسلام كانت هذه الطرق لا تزال مألوفة عندهم متبعة ، فكانوا يبيعون تمراً بتمر ، وشعيراً بشعير،

وحنطة بحنطة . وقد أشير الى هذه النوع في كتب الحديث ، وأشرت اليهـا في باب البيوع . ولم يراع أهل الجاهلية تنوع الصنف في البيع ، كأن يبيعوا حنطة من جنس معلوم بحنطة من جنس آخر ، بل كانوا يبيعون الحنطـة بالحنطة من نفس الجنس والنوع ، بوزن مختلف لوجود تباين في الجودة أو تراب أو حبوب غريبة في احدى الحنطتين . كما تعاملوا بتنوع السلع ، مثـل بيـع حنطة بشعير وبالعكس ، وبيع تمر بصوف أو بجلود ، وما شاكل ذلك لوجود حاجة ولقلة النقد .

وتعاملوا بوزن الذهب والفضة ، فاشتروا الرقيق بأواقي يحددونها من ذهب أو من فضة ، وباعوا التجارة بأواقي الذهب والفضة . تعاملوا بالأواقي وبأقـل منها وبأكثر حسب قيم الأشياء ودرجة تثمينها [1] . ونجد ذكر هذا التعامـل في كتب الحديث والفقه ، لمـا لـه من دور خطير في معاملات الناس في الجاهلية وفي والاسلام .

و (النقد) في مصطلح علماء العربية تمييز الجيد من الرديء . قال الشاعر :

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة   نفي الدنانير تنقاد الصياريف

والنقد اعطاء النقد . ونقد الثمن أعطاه نقداً معجلاً [2] . ويظهر ان الجاهليين كانوا يطلقون لفظة (النقد) على العملة ، وعلى التعامل بها من أخذ وقبض وتمييز الجيد من الرديء منها .

و (السِكة) : حديدة منقوشة كتب عليها ، يضرب عليها الدنانير والدراهم . ومنه الحديث انه نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس . أراد بها الدرهم والدنانير المضروبين . سمى كل واحد منها سكة لأنه طبـع بالحديدة المعلمة له [3] .

ونجد في كتب الحديث رواية تذكر ان أول من ضرب الدينار تبـع ، وهو

---

١ « وكانوا يتبايعون بأوزان اصطلحوا عليها فيما بينهم • وهو الرطل الذي هو اثنتا عشرة أوقية • والاوقية هي أربعون درهما » ، الاحكام السلطانية (١٥٩) ، (حاشية رقم ١) •

٢ تاج العروس (٥١٦/٢) ، (نقد) •

٣ تاج العروس (١٤٣/٧) ، (سكك) •

(أسعد بن كرب) ، وان أول من ضرب الفلوس وأدارها في أيدي الناس : (نمروذ بن كنعان)[1] .

وقد وردت في كتابات سبئية وقتبانية إشارات الى نقود سبئية وقتبانية كانت مستعملة في تلك الأيام . ويرجع بعض العلماء تأريخ أقدمها الى حوالى سنة (٤٠٠) قبل الميلاد[2] . وقد ورد ذكر بعضها مع أسماء ملوك سبئيين وقتبانيين ، في تدوين عقود زراعية أو ضرائب في الغالب ، وقد ذكرت حين الإشارة الى دفع مبلغ أو الى تحديد غرامات . ولكن ورود أسمائها في تلك العقود وفي الأوامر الملكية لأولئك الملوك لا يدل على أنها سكت في أيامهم ، وضربت في عهدهم ، فقد يجوز أن تكون قد ضربت قبل أيامهم بأمد طويل أو قصير ، وأنها كانت مستعلة قبل أيامهم وفي أيامهم في الأسواق ، ولذلك أشير اليها في تلك الكتابات .

ونجد في أحد وجهي بعض النقود رأس رجل ظهرت ملامح وجهه الى العنق، يحيط به غصنا شجر على هيأة دائرة ، وقد تدلى شعر الرأس الى العنق، وظهرت عليه تموّجات الشعر على هيأة خصل محفورة . وأما صورة الأوجه ، فهي جانبية اتجاهها نحو اليمين في الغالب . ولولا وجود بعض حروف المسند عليها لحسبتها من النقود المضروبة عند اليونان ، ونجد في الوجه الآخر من النقد صورة البوم في الغالب : جسمها جانبي ، أي قد امتد نحو الجانب . أما الوجه ، فقد صور وكأنه ينظر اليك ، وقد برزت عيناه بصورة واضحة ظاهرة حتى بدتا في شكل لا يتناسب أحياناً مع حجم الوجه . ومن ينظر الى هذا الوجه يخيل اليه أنه ينظر الى رأسي بومتين لا بومة واحدة[3] .

وتحمل بعض النقود إشارات ورموزاً لها صلة بديانة العرب الجنوبيين قبل الإسلام ، ومن ذلك ، الهلال ، إشارة الى الإلّه القمر[4] . والهلال وفي داخله

---

١ مسند أبي حنيفة (ص ١٦٣) .

٢ Handbuch, I, S. 96.

٣ انظر الالواح المصورة للنقود الملحقة بكتاب :
G. Fr. Hill, A Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia, London, 1922.
وسيكون رمزه : Hill

٤ Handbuch, I, S. 35.

أو في مقابله كوكب ذو رؤوس تلتقي بنقطة في الوسط ، وأحياناً على هيأة قرص دون رؤوس . يمكن اعتبارهما أساس الكوكب والهلال (النجمة والهلال) المستعملين في بعض الأعلام الإسلامية واللذين يشاهدان على قبب المساجد ويعتبران عند المسلمين وعند الغربيين شعاراً للإسلام . وهمـا في الأصل من شعائر الوثنيين الجاهليين . وقد يكون الكوكب ذو الرؤوس أو القرص رمزاً يشير الى الشمس .

وللعلماء الباحثين في النقود العربية الجنوبية آراء في الحروف المقطعة المضروبة على النقود . وفي الحروف المتصلة المربوطة بعضها ببعض في بعض الأحيان على هيأة الطغراء ، وذهب بعضهم الى ان هذه الحروف هي الأحرف الأولى لأسماء الملوك الذين ضربت تلك النقود في أيامهم . وذهب آخرون الى انها أسماء المواضع التي ضربت فيها تلك النقود . وذهب آخرون الى انها رموز الآلهة ، وقد ضربت تبركاً باسمها . ومهما يكن من شيء ، فبين الباحثين في النقود العربيـة الجنوبية اختلاف في هذا الموضوع ، لم يتوصلوا فيه الى حل متفق عليه[1] .

ومن الملوك الذين ضربت بعض النقود في أيامهم ، ملك ذكر لقبه وحده ، وهو (ينف) (ينوف) ، دوّن اسمه الأول الذي يعرف به . وإذ قد تلقب جملة ملوك بهذا اللقب ، فن الصعب البت في تعيين الملك صاحب هذا النقد[2] . وملك ذكر اسمه الأول ، وهو : (شمر) ، والظاهر انه (شمر يهرعش) ملك سبأ وذي ريدان[3] . و (كرب ال وتر يهنعم) ، وهو ابن الملك (ذمر على بين) و (عمدن يهقبض) ، و (عمدن بين) ، وملوك آخرون[4] .

وقد وردت لفظة (بلط) في نصوص المسند، ترجمت بـ (نقد) وبـ « Coin » في الانكليزية[5] . و (أبلط) في عربيتنا بمعنى لصق بالأرض وافتقر ، وذهب ماله ، وأفلس . والبلطة المفلس[6] .

وقد ذكر (نزيه مؤيد العظم) ، ان أهل اليمن يطلقون على النقود لفظـة

---

١ Hill, XIVI.

٢ Hill, p. p. IVII.

٣ Hill, p. IX.

٤ Hill, p. IXVIII.

٥ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 428, Rhodokanakis, Kaba. Texte, II, S. 25, anm. 3.

٦ تاج العروس (٥/١١١) ، (بلط) .

(ظلط)[1] . ولعل لهذه اللفظة صلة ببعض أسماء النقود اليمانية قبل الاسلام .

وهناك لفظة أخرى وردت في نصوص المسند ، هي (خبصتم) ، (خبصت). ويرى (رودوكناكس) أنها اسم نقد أقل سعراً وثمناً من سعر النقد الذهب ، وأنه لم يكن من الذهب ولا من الفضة بل من المعادن الأخرى[2] .

ووردت لفظة (رضيم) (رضى) بعد العدد خمسة ، في نص سبئي . ذكرت مع العدد في أمر يشير الى غرامة تفرض على المقصر والمتاهل في العمل ، فحمل ذلك بعض الباحثين على الذهاب الى أنها تسمية لنوع من النقد الذي كان مستعملاً آنئذ . ولكن هناك من يرى أن اللفظة ليست تسمية وسمة لنوع من أنواع النقود، وإنما هي صفة لها، بمعنى مرضية ومرض وبمعنى تامة وافية صحيحة ، غير مزيفة ولا منقوصة في الوزن[3] .

وإذا كنا لا نستعمل اليوم في لغتنا الألفاظ والتعابير التي تدل على صحة النقود وسلامتها من الغش والتزوير كثيراً ، فإن القدماء ولا سيما صيارفتهم وأصحاب المال كانوا يستعملونها في معاملاتهم اليومية وفي عقودهم التي كانوا يدونونها ، لأن سك العملة وضربها لم يكن يومئذ متقناً ولا مضبوطاً من حيث المادة أو الوزن. وكان من السهل تقليد العملة وغشها والتلاعب بوزنها . ولذلك كان ثمنها عرضة للتغير والتلاعب بالسعر في بعض الأحيان، كما كان من السهل غش الناس بإعطائهم العمل المزيفة ، حتى حفظت كتب الماضين أمثلة عديدة على ذلك ، وكتب القدماء فصولاً في كشف الغش في النقود وفي معاقبة المسؤولين عنه .

ومن الألفاظ التي استعملها أهل العربية الجنوبية للتعبير عن صحة العملة وسلامتها من الغش والتي دونوها في كتاباتهم ، لفظة (مصعم) (مصع) ، بمعنى نصع وخلص ، أي خالصة من كل غش ، صحيحة لا شائبة فيها . ولفظة (رضيم) المتقدمة ، ولفظـــة (خبصتم) (خبصت) من هذه التعابير على رأي بعض الباحثين[4] .

---

١ رحلة (٨٥) .

٢ Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 26.

٣ Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 26.

٤ Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 26.

ويلاحظ وجود أثر للسكة اليونانية على السكة العربية الجنوبية . وقد وجد شبه أيضاً بين بعض النقود العربية الجنوبية ونقود الساسانيين . ونظراً الى وجود صلات تجارية بين اليونان والساسانيين والعرب الجنوبيين ، فلا يستبعد تأثر دور ضرب السكة في اليمن وفي حضرموت بطريقة ضرب النقود عند اليونان والساسانيين[1] . ومن أهم ملامح تأثر ضرب النقود بنقود اليونان ، هو وجود صورة (البوم) رمز (أثينة) مطبوعاً على النقود ، على نحو ما طبعت على النقود اليونانية ، حتى صار من الصعب التفريق بينهما ، فكأنما أخذ عمال ضرب النقود قالباً للنقد اليوناني ، ثم حفروا عليه حروف المسند وضربوه[2] . ثم صور الملوك ، وكراسي جلوسهم عليها ، والصولجان الذي بأيديهم ، فكل هذه نقلت نقلاً عن النقود اليونانية .

ولا بد أن تكون في اليمن دور لضرب النقود سكّت فيها عملتهم . وإني لآسف إذ لم أقف على كتابات جاهلية فيها ما يفيدنا عن كيفية ضرب النقود عند العرب الجنوبيين أو عند غيرهم وأوزانها وأنواعها ، وما شابه ذلك من أمور تتعلق بها ، وليس لنا من أمل في زيادة علمنا بها غير الترقب والانتظار ، فلعل يقظة العرب تولّي تأريخ العرب القديم ما يستحقه من عناية ورعاية وبحث ، فيجدّون في تتبع مواطن الآثار الغنية المطمورة لاستخراج دفائنها التأريخية الثمينة التي تظهر لنا أموراً كثيرة من تأريخ تلك الأيام .

وقد عثر في بصرى وفي مواضع من المنطقة التي عرفت بـ (المقاطعة العربية) (الكورة العربية) على نقود معظمها من نقرد الرومان واليونان ، كما عثر على نقود نبطية . ويذهب بعض الباحثين في النمّيات ، أن الملك (الحارث الثالث) (٨٧ - ٦٢ ق. م.) ، هو أول ملك نبطي ، أمر بضرب النقود ، أخذ السكة من اليونان أثناء استيلائه على دمشق . وقد عثر على نقد من فئة (دينار) طبع عليه رمز يمثل اتفاق الحارث و (سكاورس) وصورة جمل وشجرة . وعثر على نقود أمر (الحارث) هذا بضربها ، تشبه النقود التي ضربها (ديمتريوس

---

[1] Carlo Conti Rossini, Monete Sud-Arabiche, Rendiconti della R. Acad. dei Lincei, 30, (1922), p. 239, Handbuch, I, S. 96, 175.

[2] Mardtmann und Mittwoch, Saba. Inschri., S. 8.

الثاني ؟) (الثالث) « Demetrius Eukairos III » بمدينة (دمشق) شبهاً كبيراً ، ولهذا يرى الباحثون أنها تقليد ومحاكاة لها . ولم يصل الينا نقد من نقوده يحمل كتابة مدوّنة بالنبطية [1] .

وجاد (عبادة) الثالث من ملوك النبط علينا بقطع من النقود ، يرى الملك على أحد وجهيها ومعه صورة امرأة يظن انها صورة أمه ، وانها تشير الى مبدأ حكمه إذ كان قاصراً ، فكانت أمه تدير الملك باسمه نيابة عنه ، وذلك بالنسبة الى النقود التي ضربت في أوائل أيام الحكم . وأما في النقود المتأخرة ، فإنها صورة زوجته ، التي كانت تساعده وتؤازره [2] . وتشاهد صورة نسر واقف قابض على جناحيه في الوجه الثاني من أحد النقود ، وعلى طرفي الصورة كتابة ، وصورة رأس رجل في القطعتين المرقمتين (٧) و (٨) يرى انها رأس الملك وعلى طرفي الصورة كتابات نبطية وتأريخ الضرب .

وتعدّ النقود التي ضربت في أيام (الحارث) الرابع من خير ما ضرب من النقود في أيام النبط ، ولم يعثر على نقد له ضرب في مدينة (دمشق) في المدة التي استولى فيها على تلك المدينة ، وقد ضرب بعضهـا باسم الملك وباسم زوجته (خلدو) (خلد) ، زوجته الأولى . وصورت صورة زوجته هذه على النقد ، وضرب بعضها باسمه وباسم زوجته الأخرى (شقيلة) وطبعت صورتها على النقد كذلك . وضرب بعض آخر باسم الملك وحده ، وهي مختلفة : بعضها من الفضة ، وبعض آخر من البرونز ، وعلى عدد منها تأريخ الضرب [3] .

وضرب اسم (شقيلة) الثانية ملكة النبط مع اسم الملك (ملكو) (مالك) الثاني في نقد وصل الينـا . وقد وصفت في النقود بأنها أخته . أما القطع التي وصلت الينا ، فبعضها مصنوع من الفضة وبعض آخر من البرنز ، وعلى نقوده شيء من التبديل والتغيير عن النقد الذي ضرب في أيام (الحارث) الرابع [4] .

وتبورك في بعض النقود مثل نقود (بصرى) بضرب صور الآلهة أو نعوتها

---

١ G. Fra-Hill, Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia, London, 1922, pp. XI, Die Araber, I, S. 298.

٢ Hill, p. XIV, XV, XVI, 4, Pl., 1, 6, 7, 8, Morey, Rev. Num., 1911, p. 79.

٣ Hill. p. XVII, 5, Pl., 9, 10, 11, 12, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 19, 20, 21, II, 1-12, Dalman, Neue Petra Forschungen, S., 106.

٤ Hill, p. XIX, II, Pl., II, 13-17.

أو رموزها على النقود ، فقد ضرب نعت الإلـه (دو شرى) (ذو الشرى) على نقد ضرب في (بصرى) . كما أشير الى هذا الإلـه في نقد ضرب بـ (بصرى) بتصوير منظر من مناظر الاحتفالات السنوية التي كانت تقام في كل عام اكراماً له ، وتعرف بـ « Actia Dusaria » [1] . أما آلهة المدينة التي ضربت صورتها على بعض النقود ، فتشبه صورتها صورة (عشتاروت) (عشتروت) المعروفة بفلسطين وفينيقية . ويظهر أنها (اللات)[2] . وتشبه في بعض النقود صورة (أثينة) ، وقد دعيت بـ « Tyche » ، و (أثينة) هي (اللات) عند أهل حوران[3] .

وعثر في جزيرة (فيلكا) على نقود يونانية من بينها درهم ضرب في عهد الملك (انطيوخس) الثالث من ملوك السلوقيين ، ويعود تأريخ هذا الدرهم الى حوالى السنة (٢١٢) قبل الميلاد . وتبين أن بعض الدراهم قد ضرب في (جرها) « Gerhha » (الجرعاء) ، كما عثر على نقود ضربت من النحاس ، تبين أن قطعة منها ضربت في عهد (سلوقيوس) الأول ، ضربها باسم الملك (الاسكندر) الأكبر ، وأن قطعتين منها ضربتا في أيام (انطيوخس) الثالث . فهي تعاصر الدراهم المذكورة [4] .

أما أهل الحجاز ، فقد تعاملوا بالنقود الرومية والساسانية : تعاملوا بالدنانير ، وتعاملوا بالدراهم ، وتعاملوا بالدانق . وتعاملوا بنقود أهن اليمن ، ولعلهم كانوا يتعاملون بنقود أهل الحبشة كذلك . فقد كان أهل مكة خاصة تجاراً يتاجرون مع اليمن ويتاجرون مع العراق وبلاد الشأم والحبشة . وتجارتهم هذه تجعلهم يستعملون مختلف النقود .

ولم يرد في الأخبار ما يفيد قيام أهل العربية الغربية أو أي مكان آخر في جزيرة العرب بضرب النقود الجاهلية فيها ، لكن ذلك لا يمنع من احتمال عثور النقابين في المستقبل على نقود محلية ضربت في مكة أو في الطائف أو في يثرب أو في مكان آخر ولو على نطاق ضيق محدود .

١ Hill, p. XXVII.

٢ Hill, p. XXIX.

٣ Hill, p. XXX.

٤ نقود يونانية من جزيرة فيلكا ، وزارة التربية والتعليم : قسم الآثار والمتاحف ، مطبعة حكومة الكويت .

وكان تعامل أهل مكة بالدنانير ، ترد اليهم من بلاد الشأم ، ولا سيما دنانير هرقل . وبالدراهم الفارسية البغلية ، « فكانوا لا يتبايعون إلا على أنهــا تبر . وكان المثقال عندهم ، معروف الوزن ، وزنه اثنان وعشرون قيراطاً إلا كسراً، ووزن العشرة دراهم، سبعة مثاقيل ، فكان الرطل اثنتي‌عشرة أوقية . وكل أوقية أربعون درهماً . فأقر رسول الله » ذلك ومن جاء بعده الى أيام (عبد الملك بن مروان) ، فأمر أن تضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطاً من قراريط الدينار[1] . وذكر أن الدنانير التي كانت ترد مكة في الجاهلية رومية ، والدراهم كسروية[2] .

وقد اشتهرت دنانير (هرقل) ، وعرفت بـ (الهرقلية) ، حتى انها كانت تسمى الدنانير عامةً (الهرقلية)[3] ، والظاهر ان ذلك بسبب كونها مجلوّةً مطبوعة طبعاً حديثاً ، لم تطمس آثارها ولم يمض زمن طويل عليها،أو لأن العرب حصلت في عهده على أكثر دنانيرها ، فنسبتها اليه .

والدينار عملة من الذهب ، عرف علماء اللغة أنها من الألفاظ المعربة ، ولكنهم لم يتأكدوا من أصلها ، فذهبــوا الى أنها من أصل فارسي[4] . وهي معربة من أصل يوناني هو (ديناريوس) « Dinarius » مختصر « Dinarius Aureus » « Aureus Denarius » كما جاء ذلك في تأريخ (بلينيوس)[5] . والظاهر أن العرب استعملوا التسمية التي كانت شائعة في بلاد الشأم ، منذ عهد إصلاح (قسطنطين) الأول (٣٠٩ ــ ٣١٩ م) لنظام النقد . فأطلقوا على العملة الذهب لفظة دينار . وقد كان أهل الشأم قد اقتصروا على لفظة « Dinarius » منذ ذلك العهد[6] .

وقد ورد ذكر الدينار في القرآن الكريم : « ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم مَن إن تأمنه بدينارٍ لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه

---

١ فتوح البلدان (٤٥٢) ، (أمر النقود) ،
Josef Von Karabacek, zur orientalischen Alterumskunde, Wien, 1908, S. 61.
المخصص (١٢/٢٧) ، جامع الاصول (١/٣٧١) ·
٢ فتوح البلدان (٤٥٣) ·
٣ « دنانير شيفت من هرقل بروسم » ، الجواليقي (ص ٣٤٩) ، المخصص (١٢/٢٢)، حاشية على الصفحة ٣٧١ وما بعدها من الجزء الاول من كتاب : جامع الاصول من أحاديث الرسول ، لابن الاثير الجزري ·
٤ تاج العروس (٣/٢١١) ، (دينار) ·
٥ Pliny, Hist. Nat., Book, XXXIII, 13.
٦ Ency., I, p. 975.

قائماً »[1] . والقنطار وزن . وتأويل الكلام أن من أهل الكتاب الذي إن تأمنه على عظيم من المال كثير يؤده اليك ولا يخنك فيه ومنهم الذي إن تأمنه على دينار يخنك فيه ، فلا يؤده اليك إلا بالتقاضي والمطالبة[2] .

ويعرف (الدينار) بـ (العين) . والعين الذهب عامة[3] ، فكأنهم سمّوا عيناً ، لأنه من ذهب .

وقد فكر المسلمون قبل (عبد الملك بن مروان) في موضوع النقود ، وفي ضرورة تحويلها الى نقد اسلامي . وكان (عمر) في جملة من فكر في ذلك . انه أراد أن يجعل الدراهم من جلود الإبل ، فلما استشار ذوي الخبرة ، لم يقرّوه على رأيه فأمسك[4] . وذكر انه أمر بضرب الدراهم ، فضربت سنة ثماني عشرة من الهجرة[5] . وضرب (عثمان) الدراهم كذلك . ثم ان معاوية ضرب الدراهم السود ، وضرب أيضاً دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً[6] . وضرب (زياد) النقد كذلك . ولما قام (عبدالله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة . وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة . وضرب (مصعب بن الزبير) دراهم بالعراق ، ثم غيرها (الحجاج) ، حتى استقر الأمر لعبد الملك ، فعرب النقد على نحو ما هو معلوم[7] .

وقد بقي العرب يتعاملون بالدنانير الرومية الى أيام عبد الملك ، حيث أمر بضرب الدنانير ، فضربت بدمشق . وقد نعت الدينار الجديد بـ (أحرش) اذا كانت فيه خشونة لجدته . ومنه الحديث ان رجلاً أخذ من رجل آخر دنانير حرشاً ، وهي الجياد الخشن الحديثة العهد بالسكة التي عليها خشونة النقش[8] .

ومن أسماء الدينار (السكّي)[9] .

---

١ آل عمران ، الآية ٧٥ ، المفردات (١٧١) .
٢ تفسير الطبري (٣/٢٢٥ وما بعدها) ، تفسير النيسابوري (٣/٢٢٥ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٣ تاج العروس (٩/٢٨٨) ، (عين) .
٤ فتوح البلدان (٤٥٦) ، (أمر النقود) .
٥ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٠ حاشية) .
٦ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٠ حاشية) .
٧ الاحكام السلطانية (١٦٠ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٤/٢٩٦) ، (حرش) .
٩ تاج العروس (٧/١٤٣) ، (سك) .

وقد ذكر علماء اللغة أن لفظة الدرهم فارسية الأصل ، وقد عربت ، وقالوا في جمعهـا دراهم ودراهيم[1] . وهو نقد من الفضة . وقـد عرف بـ (درم) Diram في الفارسية وبـ (درخمة) (درخما) Drachma في اليونانية . والظاهر أن العرب أخـذوا بالتسمية الفارسية . وقد استعملوا في تعـاملهم دراهم الفرس ودراهم اليونان .

وأشير الى الدراهم في الآية : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين »[2] . ويذكر المفسرون أنه كان من عادة الجاهليين التعامل بوزن الدراهم بالأواقي إن زاد عددها على وزن أوقية،وكان وزن الأوقية أربعين درهماً. فما نقص عن هذا المقدار،جرى التعامل عليه بالعدد ، وما زاد عليه جرى التعامل عليه بالوزن[3] .

وكانت الدراهم مختلفة كباراً وصغاراً ، فكانوا يضربونها مثقالاً ، وهو وزن عشرين قيراطاً ، ويضربون عشرة قراريط ، وهي أنصاف المثاقيل . وكان أهل الجاهلية يتعاملون بها حسب وزنها . وهي دراهم الأعاجم[4] .

وقد قسّم العلماء الدراهم التي كان يستعملها الجاهليون من أهل مكة وغيرهم الى نوعين : الدراهم السود الوافية ، والدراهم الطبرية العتق . والوافية هي البغلية. وكان لهم دراهم تسمى (جوراقية) . والدرهم الطبري : ثمانية دوانق ، والدرهم البغلي : أربعة دوانق ، وقيل العكس . والدرهم الجوراقي : أربعة دراهم ونصف[5].

وورد ان الدراهم كانت في أيام الفرس مضروبة على ثلاثة أوزان: منها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً ، ودرهم وزنه عشرة قراريط ، ودرهم وزنـه اثنا عشر قيراطاً[6] .

---

١ قال الفرزدق :
تنفـي يداهـا في كل هاجـرة نفـي الدراهيم تنقـاد الصياريف
تاج العروس (٢٩٨/٨) ، (درهم) .

٢ سورة يوسف ، الآية ٢٠ ، المفردات (١٦٨) .

٣ تفسير الطبري (١٠٢/١٢ وما بعدها) .

٤ فتوح البلدان (٤٥١) ، (أمر النقود) .

٥ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى الحنبلي (ص ١٠٨ ، ١٥٨ وما بعدها) ، (تحقيق محمد حامد الفقي) ، الاموال ، لابي عبيد (رقم ١٦٢٢) .

٦ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٥٩) ، الاحكام السلطانية للماوردي (١٥٣) .

وعرفت دراهم الأكاسرة بـ (دراهم الأسجاد) . قيل انها عرفت بذلك ، لأنها كانت عليها صور يسجدون لها ، وقيل : كانت عليها صورة كسرى ، فمن أبصرها سجد لها ، أي طأطأ رأسه لها وأظهر الخضوع . وإياها عنى الأسود بن يعفر النهشلي في رواية من الروايات بقوله :

من خمر ذي نطف أغنّ منطق   وافى بهـا كدراهم الأسجاد[1]

وذكر في رواية أخرى ، ان الأسجاد : اليهود والنصارى ، أو معناه الجزية[2] .

وكان الفرس عند فساد أمورهم فسدت نقودهم من العين والورق غير خالصة، إلا انها كانت تقوم في المعاملات مقام الخالصة وكان غشها عفواً لعدم تأثيره بينهم الى أن ضربت الدراهم الاسلامية فتميز المغشوش من الخالص[3] .

وورد انه كانت باليمن دراهم صغاراً ، في الدرهم منهـا دانقين ونصف[4] . وورد ان الدرهم اليمني كان دانقاً[5] . ويظهر انــه كان من أيام الحميريين ، بدليل تسمية (الماوردي) لهذه الدراهم بدراهم حميرية ، وكانت كما يقول قليلة[6] .

وعلى هذا يكون أهل مكة قد تعاملوا في الجاهلية بعملة الروم،وبعملة الفرس، وهي الدراهم على الأكثر ، وبعملة اليمن ، وأشار بعض العلماء الى عملة مغربية ، لم يذكروا عنها شيئاً[7] .

وذكر أن (عمر بن الخطّاب) ، أمر بضرب الدراهم على نقش الكسروية ، وشكلها بأعيانهـا ، غير أنه زاد في بعضها : (الحمد لله) ، وفي بعضها : (محمد رسول الله) ، وفي بعضها ، (لا إلَه إلا الله وحـده) . وكان ذلك سنة ثمـاني عشرة من الهجرة . وفي آخر مدة عمر وزن كل عشرة دراهم ستـة مثاقيل . فلما بويع (عثمان) ضرب في خلافته دراهم نقشهـا : (الله أكبر) .

---

١ تاج العروس (٢/٣٧٢) ، (سجد) .
٢ تاج العروس (٢/٣٧٢) ، (سجد) .
٣ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٥٤) ، لابي يعلى (١٦٣) .
٤ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٥٩) .
٥ المصدر نفسه (ص ١٦٢) ، الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٥٤) .
٦ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٥٤) .
٧ شرح النووي على صحيح مسلم (٤/٣٢٣) ، (حاشية على ارشاد الساري) .

وفي عهد (معاوية) ، ضرب الدراهم السود الناقصة من ستة دوانق ، فتكون خمســة عشر قيراطاً ، تنقص حبة أو حبتين . وضرب منها (زياد) ، وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وكتب عليها ، فكانت تجري مجرى الدراهم. ولما قام (عبدالله بن الزبير) بمكة ضرب دراهم مدورة ، وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة ، وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً ، فدورها عبدالله . وضرب مصعب بن الزبير دراهم بالعراق ، وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل . فلما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان ، ضرب الــدنانير والدراهم في سنة ست وسبعين من الهجرة [1] .

وجاء في رواية أخرى أن أصحاب رسول الله كانوا يتعاملون بدراهم العجم، فكان إذا زافت عليهم أتوا بها السوق ، فقالوا : من يبيعنا بهذه ؟ وذلك أنــه لم يضرب النبي ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، ولا معاوية[2]. وأن أول من ضرب المنقوشة عبد الملك بن مروان[3] . ونجد بين العلماء اختلافاً في أول من أمر بضرب الدنانير والدراهم في الاسلام .

وذكر بعض أهل الأخبار ، أنه كانت لقريش أوزان في الجاهلية ، فدخــل الإسلام ، فأقرت على ما كانت عليه ، كانت قريش تزن الفضــة بوزن تسميه درهماً ، وتزن الذهب بوزن تسميه ديناراً ، فكل عشرة من أوزان الدراهم سبعة أوزان الدنانير . وكان لهم وزن الشعيرة وهو واحد من الستّين من وزن الدرهم، وكانت لهم الأوقية وزن أربعين درهماً ، والنش وزن عشرين درهماً ، وكانت لهم النواة وهي وزن خمسة دراهم ، فكانوا يتبايعون بالتبر على هذه الأوزان . وقد أقرهم الرسول على ذلك [4] . وكانوا يحتفظون بالأوزان المقررة ، حتّى إذا حدث اختلاف على الوزن ، رجعوا الى الوزن المقرر المعتبر . وكان (أبو وداعة ابن ضبيرة السهمي) يمتلك وزن مثقال في الجاهلية ، يوزن به[5] .

---

١ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى الحنبلي (ص ١٦٠ وما بعدها الحاشية) .
٢ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٥) .
٣ الاحكام السلطانية ، لابي يعــلى (١٦٤) ، وللمقريزي رســالة في النقود القديمة والاسلامية مطبوعة .
٤ فتوح البلدان (٤٥٢ وما بعدها) ، (أمر النقد) .
٥ فتوح البلدان (٤٥٢) ، (أمر النقد) .

وقد كانوا يثلمون أطراف الدينار والدرهم ، أو يقطعونهما قطعاً ، فيتعاملون بالقطع حسب الوزن ، ويفعلون ذلك غشاً ، كما كانوا يكسرون النقود ، للتأكد من صحة معدنها ، أو لتحويل الدنانير الى تبر[1] . وقد نهي في الاسلام عن التلاعب بالعملة ، مثل قرضهم أطراف الدراهم والدنانير بالمقراض، لغرض الاستفادة من تلك القراضة ، إذ يجمعونها فيسبكونها ، فيخرجون بذلك النقد المقروض عن سعره[2] .

والدرهم اذا عدل المثقال ، فهو درهم واف ، وهو الذي لا يزيد ولا ينقص بل وفى بزنته[3] .

وأطلق علماء اللغة على الدرهم لفظة (الورِق) ، وعلى الموسر المالك للدراهم المورق ، وسمّوا الفضة ورَقاً[4] . وقد وردت اللفظة في نصوص المسند ، وكأنها نوع من أنواع العُمل ، أو وزن . فورد (خمسي ورقم) ، أي (خمسين ورق)[5] ، و (عشر ورقم) ، أي (عشر ورق) ، فكأن لفظة (ورق) هنا اسم علم لنوع معين من العملة ، أو وزن معين وعيار كان معروفاً عندهم . وذهب بعض العلماء إلى ان الورق : الذهب . وهذا التفسير ينطبق مع ما ذهب اليه المستشرقون من أن لفظة (ورق) في المسند ، تعني ذهباً . ولو فسرناها بهذا المعنى أيضاً ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون المراد من (ورقم) عملة خاصة ضربت من ذهب . وأرجح ان المراد منها عملة خاصة عرفت بهذه التسمية .

وذكر بعض العلماء أن الورق : المال ، ورجل ورّاق كثير المال . والدراهم بعينها والفضة[6] .

---

١ (وفي الحديث : نهى عن كسر السكة الجائزة بين المسلمين الا من بأس ، يعني الدنانير والدراهم المضروبة ، أي لا تكسر الا من أمر يقتضي كسرها ، اما لرداءتها أو في صحة نقدها ... وقيل : كانت المعاملة بها في صدر الاسلام عددا لا وزنا ، وكان بعضهم يقص أطرافها فنهوا عن ذلك) ، اللسان (٦/ ٢٠) ، (بأس) .

٢ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٦) .

٣ تاج العروس (١٠/ ٣٩٤) ، (وفى) .

٤ تاج العروس (٧/ ٨٥ وما بعدها) ، المخصص (١٢/ ٢٤) ، « باب بيع الورق بالذهب نسيئة » ، عمدة القارىء (١١/ ٢٩٦) ، اللسان (١٠/ ٣٧٤ وما بعدها) ، (ورق) .

٥ Rep. Epigr. 4337.

٦ الاشتقاق (١٠٢) .

وأطلق أهل الحجاز على الدرهم والدينار لفظة (الناض) ، وذلك إذا تحول عيناً بعد أن كان متاعاً . وفي حديث (عمر) كان يأخذ الزكاة من ناض المال ، وهو ما كان ذهباً أو فضة ، عيناً أو ورقاً . وقالوا إن النض هو الدرهم الصامت[١]. أما إذا كان الدرهم رديئاً ، فيعبرون عنه بلفظة (بهرج) و (قسيّ) . فيقولون درهم بهرج ، أي رديء ، وكل مردود عند العرب بهرج ونبهرج . وذكر بعض العلماء أن اللفظة فارسية من (نبهرة) ، وأنها بمعنى الباطل والرديء، والدرهم البهرج الذي لا يباع به لرداءته ، والذي فضته رديئة وكل رديء من الدراهم وكل مردود عند العرب بهرج[٢] .

وتعرف الدراهم بـ (قطاع) بلغة هذيل[٣] .

ودرهم زائف مغشوش ، مردود لغش فيه . يقال درهم زيف وزائف . وزاف فلان الدراهم جعلها زيوفاً[٤] . ودراهم فسول ، دراهم زائفة ، وأفسل عليه دراهمه ، اذا زيفها . « ومنه حديث حذيفة انه اشترى ناقة من رجلين وشرط لهما من النقد رضاهما ، فأخرج لهما كيساً فأفسلا عليه ، ثم أخرج كيساً فأفسلا عليه ، أي أرذلا وزيفا منها . وأصلها من الفسل وهو الرديء الرذل من كل شيء »[٥] . وكان (عبدالله بن مسعود) يكسر الزيوف وهو على بيت المال[٦] .

ويعبر عن الدراهم الموزونة بـ (دراهم مجربة)[٧] ، لأنها مجربة . وقد ظهر من التجربة انها صحيحة غير منقوصة .

وقد ورد في الأخبار ، ان الخمسمائة درهم ، كانت تعادل في أيام النبي اثنتي عشرة أوقية ونش[٨] . وأن الدرهم سبعة دوانيق ، وكل عشرة دراهم سبعة

---

١ تاج العروس (٥/ ٩٠) ، (نض) .
٢ تاج العروس (٢/ ١٠ وما بعدها) ، (بهرج) .
٣ تاج العروس (٥/ ٤٧٤) ، (قطع) .
٤ المخصص (١٢/ ٢٧) ، تاج العروس (٦/ ١٣٣) ، (زاف) .
٥ تاج العروس (٨/ ٥٨) ، (فسل) .
٦ الاحكام السلطانية ، لابي يعلى (١٦٧) .
٧ تاج العروس (١/ ١٨١) ، (جرب) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/ ٢٦٢) .

مثاقيل[1] . و (النش) نصف أوقية ، وهو عشرون درهماً ، لأنهم يسمون الأربعين درهماً أوقية ، ويسمون العشرين نشاً ، ويسمون الخمسة نواة[2] .

وقد ذكر علماء اللغة نقداً دعوه (النُمّي) ، وقالوا إنه الدرهم الذي فيه رصاص أو نحاس ، وقال بعض آخر إنه الفلس من الرصاص بالروميّة ، وكانت بالحيرة على عهد النعمان بن المنذر[3] . قال النابغة أو أوس بن حجر :

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنمي سفسير[4]

و (الدانق) من الأوزان ومن النقد . وهو (داناق) ، أيضاً ، من أصل فارسي هو (دانك) في الفهلوية ، ومن Dang و (دانك) Danak في الفارسية ، وهو (دنك) Dank في الارمية[5] . وهو يعادل سدس الدينار أو سدس درهم . وكان معروفاً عند أهل مكة في الجاهلية[6] .

أما (الفلس) ، فلفظة لاتينية يونانية الأصل ، عرّبت من أصل Follis اللاتيني ، ويراد بها نقود مسكوكة من النحاس . وقد استعملها العرب في تعاملهم واحتفظوا بالأصل الأجني . وقد كان الفلس في أيام القيصر (أنستاس الأول) (أنسطاسيوس الأول) (٤٩١ – ٥١٨ م) زهاء ثلاثين غراماً ، ووسم بالحرف M . وظهرت بعد ذلك فلوس بأوزان تقل عن هذه . ولما ضرب المسلمون النقد ، كانت الفلوس في جملة ما ضرب من نقد[7] .

---

١ شرح النووي على صحيح مسلم (٤/٣٢٤) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ تاج العروس (٤/٣٥٦) ، (نش) .

٣ تاج العروس (٩/٨٥) ، (نم) ، (ن/م/م) ، (١٠/٣٧٨) ، (نمى) ، اللسان (١٢/٥٩٣) ، (نمم) .

٤ تاج العروس (٣/٢٧٢) ، (السفسير) ، (٩/٨٥) ، (ن/م/م) .

٥ Ency., I, p. 912.

٦ اللسان (١١/٣٩٤) ، (دنق) ، القاموس (٣/٢٣٢) ، تاج العروس (٦/٣٤٩) ، (دنق) .

٧ تاج العروس (٤/٢١٠) ، (الفلس) ، Ency., II, p. 47.

وذكر بعض أهل الأخبار ان (القيراط) جزء من الدينار أو الدرهم . وقد ذكر (القيراط) في الحديث . في حديث رعي الرسول غنم قريش وفي أحاديث أخرى[1] . وذكر بعض العلماء ان العرب لم تكن تعرف القيراط الذي هو من النقد[2] . وذكر (ابن الأثير) ان القيراط جزء من أجزاء الدينار ، وهو نصف عشرة ، ويظهر أن منهم من كان ستعمله وزناً ، ومنهم من جعله جزءاً من الدنانير والدراهم[3] .

١ ارشاد الساري (٤/١٢٧) .
٢ المصدر نفسه .
٣ تاج العروس (٥/٢٠٣) .

الفصل الثاني عشر بعد المئة

الصناعة والمعادن والتعدين

الصناعة حرفة الصانع وعمله الصنعة . ورجل صنع ، حاذق في الصنعة، وعماد الصانع على يديه ، يستعملها في صنع الأشياء ، كما يعتمد على ذكائه في تحويل الأشياء إلى أشياء أخرى أهم منها أو أي شيء آخر يريده ، أو يطلب منه . وهو بالطبع من أهم العناصر المنتجة اللازمة في الحياة الاقتصادية ، فهو محور الانتاج ، وعلى قدر انتاج أمة ، يقاس غناها ومقدار تقدمها في الحياة وتكون منزلتها بين الشعوب . فبالصناعة يتم تحويل المواد الخام ، الفائضة عن الحاجة ، إلى مواد أخرى أفيد منها ، تستهلك في الأسواق المحلية ، أو تباع في الأسواق الخارجية .

والحِرفة ، الطعمة والصناعة التي يرتزق منها ، وهي جهة الكسب . وكل ما اشتغل الإنسان به وضرى بـه ، أي أمر كان فإنه عند العرب يسمى (صنعة) و (حرفة) . يقولون : صنعه فلان أن يعمل كذا ، وحرفة فلان أن يفعل كذا ، يريدون دأبه وديدنه . ذكر أن (علي بن أبي طالب) ، قال : «إني لأرى الرجل ، فيعجبني ، فأقول ، هل له حرفة ؟ فإن قالوا : لا سقط من عيني »[1] .

و (المهنة) ، عند العرب الحذق بالخدمة والعمل . وامتهنه : استعمله للمهنة

---

١ تاج العروس (٦/٦٩) ، (حرف) .

وابتذله ، والماهن : العبد والخادم[1] . والمهنة العمل ، والعامل هو الذي يقوم بعمل ما ، والعملة العاملون بأيديهم ، وهم الذين يرتزقون بعمل أيديهم . والعمالة رزق العامل الذي جعل له على ما قلد من العمل . ومن العملة : العاملون في طين ، أو في حفر ، أو في بناء أو غير ذلك . وعامله معاملة سامه بعمل . والأعمال الذين يقومون بما تحتاج اليه من عمارة وزراعة وتلقيح وحراسة ونحو ذلك . وما يعطاه العامل من أجر العمل هو (العملة)[2] .

وأغلب العمَلة فقراء لا يملكون شيئاً ، رزقهم بعملهم ، فإذا مرض أحدهم أو أصيب بعاهة انقطع رزقه . ثم ان أجورهم قليلة وأرزاقهم من عملهم شحيحة، ولذلك كانت حياتهم ضنكة . عليهم العمل قدر الإمكان لإعاشة أنفسهم وذويهم، والمشي على أرجلهم بحثاً عن عمل . ولهذا فلا عجب إذا ما عرفوا بـ (بني عمل). و (بنو عمل) المشاة على أرجلهم من المسافرين. الذين وصفهم أحدهم الأعراب فقال :

يحث بكراً كلما نص ذمل قد احتذى من الدماء وانتعل
ونقب الأشعر منه والأظل حتى أتى ظل الأراك فاعتزل
وذكر الله وصلى ونزل بمنزل ينزله بنو عمل
لا ضفف يشغله ولا ثقل[3]

والحرف ، أي العمل باليد من الأمور المستهجنة عند الأعراب ، وعند أكثر العرب أيضاً ، فلا يليق بالعربي الشريف الحرّ ، أن يكون صانعاً ، لأن الصناعة من حرف العبيد والخدم والأعاجم،والمستضعفين من الناس . وقد سبق أن تحدثت عن مكانة الصناع في المجتمع ، وعن ازدراء الناس لهم ، على الرغم من احتياجهم اليهم ، وكونهم الطبقة المنتجة المثمرة في المجتمع : وأن أيديهم هي التي تصنع ما يحتاج الإنسان اليه من حاجات ، ومدحهم الرجل الصنع اليد ، بقولهم : « رجل صنع اليدين » . أي حاذق ماهر في الصنعة مجيد من قوم صنعى الأيدي،

---

١ تاج العروس (٩/٣٥٤ وما بعدها) ، (مهن) .
٢ تاج العروس (٨/٣٥) ، (عمل) .
٣ تاج العروس (٨/٣٥) ، (عمل) .

حتى أنهم كانوا إذا وصفوا انساناً بالبلاغة ، قالوا : رجل صنع اللسان ، ولسان صنع . قال الشاعر حسان بن ثابت :

أهدى لهم مدحي قلب يوازره   فيما أراد لسان حـائك صنع[1]

ولا تقوم صناعة ، إلا في مكان تتوفر فيه امكانياتها من استقرار وأمن، ومن وجود حاجة اليها ، ومن توفر المواد الأولية فيها ، والمواد الخام اللازمة لهـا . ومعنى هذا وجـود مكان حضري . أما البداوة ، فحاجاتها الى الانتاج قليلة ، لسذاجة الحياة وبساطتها فيها . ولهذا تكون الصناعة فيها بسيطة ، بساطة تتناسب مع بساطة ذلك المجتمع البدوي ، ومع درجة بداوته ، ولهـذا تفاوتت مستويات الصناعة البدوية ، بتفاوت مستوى البداوة ، وبتفاوت درجة حاجاتها الى الأشياء . فالبداوة المنعزلة عن الحضارة، التي قلّ اتصال أبنائها بالحضر ، وبالعالم الخارجي، وشحت خيراتها ومواردها الأولية ، لا يمكن أن تظهر فيها صناعة متطورة ، ولا يعقل نموّ عمل مزدهر فيهـا ، لانعدام الموارد الطبيعية المغذية للعامل ، وللسادة أصحاب المال ، ولعدم وجود حاجة اليها مع تلك البداوة القانعة بالبساطة في الحياة . ومن هنا نجد ، أن الصناعة ، لم تتطور ، إلا في المجتمعات المتطورة،التي توفرت فيها امكانيات التصنيع ، وشعرت بضرورة الاستفادة من الثروات الطبيعية المتوفرة لديها بتصنيعها ، أي بتحويلها الى موارد أخرى يحتاج اليها ، وتوفرت فيها الوسائل اللازمة لظهور الصناعة .

والمجتمعات البدوية مهما كانت من البداوة أو البدائية ، فإنها لا تخلو من وجود صناعات بها . صناعات بدائية ، هي من ناتج حاجات ذلك المجتمع ، وناتجهـا يتناسب بالطبع مع حالة تلك البداوة . ولا يصح نفي وجود الصناعة بها .

وقد لعب الرقيق والموالي دوراً كبيراً في أعمال الحرف والزراعـة في جزيرة العرب . إذ استخدموا في التعدين وفي الزرع . وقد ذكر (الهمداني) أنه كان بمعدن (شمام) ألوف مـن المجوس الذين يعملون المعدن ، حتى أنه كان لهم بيتا نار يعبدان في ذلك المكان[2] . وذكر أنه كان بـ (جهران) قوم من وضيع

---

١ تاج العروس (٥/٤٢١) ، (صنع) .
٢ الصفة (١٤٩) .

تبع ، أي من الطبقة الوضيعة ، وكذلك بـ (قتاب) ، حيث نسبوا الى (تبع) قوله :

فسكنت العراقَ خيارَ قومي وسَكَنت النبيط قرى قتاب[1]

وكان بمدينة العقيق ، وهي معدن، مائتا يهودي[2] . ولم يذكر (الهمداني) متى كانوا هناك ولا سبب وجودهم بهذا الموضع ، للاتجار أو للعمل بالمعدن .

وقد نتج من هجرة الأجراء والصناع الى القرى والمدن اختلاط في السكان ، لا يحدث مثله عند أهل الوبر . وهو مما جلب ازدراء الأعراب على الحضر ، فكان سكان (ذمار) جمع من حمير ومن أنقار من الأبناء . وكان أهل (جهران) من بطون حمير ، وقوم من وضيع تبع[3] . وقد استعمل الهمداني لفظة (أخلاط) للتعبير عن اختلاط سكان موضع ما ، ووجود عناصر متباعدة فيه لا ترجع الى قبيلة واحدة[4] . واستعمل لفظة (خليط) كذلك[5] ، لأن مدن اليمن وقراها كانت خليطاً من بطون ترجع الى عشائر مختلفة . وهي سمة الحياة الحضرية ، حيث يفد الناس الى مواضع الحضارة من مختلف البطون والعشائر .

وقد استعمل (الهمداني) لفظة (لحوم العرب) في معنى بطون العرب، وكذلك لفظة (طخوم) في المعنى ذاته[6] . وذلك في أثناء حديثه عن المواضع التي اختلط فيها السكّان لوجود فرص العمل بها والرزق الوافر الجزيل .

الإجارة :

والأجر والأجرة يقال فيما كان عن عقد وما يجري مجرى العقد[7] . والاجارة

---

١ الصفة (١٠٤) .
٢ الصفة (١٥٣) .
٣ الصفة (١٠٤) .
٤ الصفة (٩٥) ، (وفيهم أخلاط من بني غيلان ...) .
٥ الصفة (٥٤) .
٦ الصفة (١٦٥) .
٧ المفردات (ص ٩) .

ما أعطيت من أجر في عمل[1] . وهي شرعاً عقد على منفعة مقصودة معلومة قابلة للبذل والإباحة بعوض معلوم[2] . وهي واسعة تشمل نواحي متعددة من فروع الاستئجار.

والأجير ، من يشتغل لغيره في مقابل أجر يدفع له . والأجـرة ، الكراء . وهو ما يعطى الأجير في مقابلة العمل[3] . منهم من يشتغل في الحرف، مثل النجارة والحدادة والبناء وأمثال ذلك ، ومنهم من يشتغل في الزراعة ، ومنهم من يستأجر لأداء أعمال لأجل ، مثل خدمة القوافل ، أو حراسة زرع وما شابه ذلك، فاذا انتهى الأجل انتهى العمل .

وما يدفع الى الأجير في مقابل عمله ، يتوقف على الشروط التي اتفق صاحب الأرض مع الأجير عليها . فقد يكون الأجر نقداً ، ويقال لذلك (ورقم) (ورق) في لغة المسند . وهو في القليل ، لقلة النقد آنذاك . وقد يكون حصة، أي نصيباً يتفق عليه مع الملاك يؤخذ من الحاصل ، وقد يكون مقايضة ، بأن يدفع للأجير ما يحتاج اليه في حياته من ملبس أو غذاء،أو حيوان ، وأمثال ذلك ، في مقابل جهده وتعبه .

ومن ذلك استئجار الإنسان للقيام بتنفيذ عقد محدد ويبين ويتفق عليه ، كأن يقوم برعي النعم والماشية مقابل مبلغ من مال أو شيئاً آخر يتفق عليه ، كالذي روي من أن الرسول رعى غنم قريش عـلى قراريط[4] . أو استئجار شخص أو أشخاص للعمل في سفينة أو في أرض أو لارشاد قافلة أو نفر الى طريق للوصول الى موضع[5] . أو استئجار رجـل ليعمل عملاً محدد بأجل ، أي بوقت ، كأن محدد بالساعات أو النهار أو الليل كالحراسة أو أياماً أو شهوراً أو سنة او أكثر أو بغير أجل موقوت[6] . أو استئجار رجل للقيام بعمل محدود معين كالغزو[7] ، أو الحمل ، أي أن يحمل حمـلاً ينقله الى موضع يعين له . أو ينقله من مكان الى مكان[8] .

---

١ اللسان (٤/١٠) .
٢ ارشاد الساري (٤/١٢٦) .
٣ تاج العروس (٣/٧) ، (أجر) .
٤ ارشاد الساري (٤/١٢٦ وما بعدها) .
٥ ارشاد الساري (٤/١٢٧ وما بعدها) .
٦ ارشاد الساري (٤/١٣١ وما بعدها) .
٧ ارشاد الساري (٤/١٢٩ وما بعدها) .
٨ ارشاد الساري (٤/١٣٥) .

ومن ذلك استئجار النبي (عبدالله بن أريقط) من (بني الديل) ، ثم من (بني عدي) ليكون هادياً له للطريق يوصله الى يثرب ، فساحل به وبأبي بكر وبعامر بن فهيرة ، حتى بلغ يثرب . وكان قد ساحل ، لأن أهل مكة كانوا يتبعون طريق (بـــدر) الى المدينة ، فأراد التخلص بـــذلك من تعقيبهم له[1] . واستئجار المقاتلين ، للقتال عنهم . فقد كان أحدهم يعتذر عـــن المشاركة بنفسه في القتال لوجود أسباب مانعـة ، فيرسل غيره للقتال عنه ، يدفع اليه أجراً عن ذلك[2] .

و (الكروة) و (الكراء) أجرة المستأجر . والمكاري ، هو الـــذي يكري دابته لغيره ، في مقابل (كروة)[3] . والمكـــارين ، هم الذين يكرون دوابهم ، وتدخل الإبل فيها ، فقد كان من أصحاب الإبل من يكاري إبله للتجار ولغيرهم تنقلهم الى مسافات بعيدة أو قريبة .

ويستخدم الملاكون وسادة الأرض الأجراء ممن لا أرض لهم ولا مـــال لديهم يحصلون به على أرض يستغلونها ، في الاشتغال بأرضهم ومزارعهم لإصلاحهـــا وزرعها وبنائها . ويعرف هؤلاء بـ (ملجا) في بعض نصوص المسند . واللفظة من أصل (لجا) التي هي لجأ في عربيتنا . ويقيم اللاجيء في ملجئه ويتمتع بحماية صاحبه وسيده ما دام فيه ، يزرع ويبني لسيده في مقابل هـــذه الحماية التي يتمتع بها والحماية التي تحميه من أي ظلم أو اعتداء[4] .

ويعبر عن الأجراء الذين يستخدمهم الملاكون في زراعة الأرض واستغلالهـــا مقابل أجر يدفع لهم بلفظة (اجرم) في المسند[5] . أي أجير وأجراء . والأجراء جماعة كبيرة ، تنقلت من ملك الى ملك ، ومن خدمة سيد الى خدمة سيد آخر ، لتخدم ملاكاً في مقابل أجر يتفق عليه ، وعقد يبرم بين المالك والأجـير ، فإذا انتهى العقد أو العمل ، أو رأى المالك انتفـاء الحاجة الى خدمة الأجير ، أنهـى عمله . وقد كان الأجراء طبقة بائسة لا تملك شيئاً غير عمل يدها ، ولهذا كانت مضطرة بحكم فقرها هذا الى التنقل من مكان الى مكان للحصول على عمل تقتات

---

١ ارشاد الساري (١٢٨/٤) .
٢ ارشاد الساري (١٣٠/٤) .
٣ تاج العروس (٣١٢/١٠) ، (كرى) .
٤ Kat. Texte, II, S. 36.
٥ Jamme, South Arabian Inscriptions, pp. 76, 77.

منه . فكانت من جملة المشكلات الاجتماعية التي تعرضت لهـا حكومات جزيرة العرب في ذلك العهد .

وجاء في أحد النصوص المعينية : « كل معن حرم واجرم » ، أي : « كل معين أحرار وأجراء » . ويقصد بـ (كل معـين) كل شعب معين[1] . فقسم هذا النص شعب معين الى أحرار ، والى أجراء . وهم أكثر حرية من (الأدم) ، أي (العبيد) والرقيق ، لأنهم يشتغلون بأجر وبعقود يتفقون عليها ، فاذا انتهى العقد ، أو حصل خلاف،جاز للأجير الانتقال الى موضع آخر ، أو الى صاحب محل آخر للعمل لديه ، على حين لا يجوز للعبد فعل ذلك ، لأنه ملك يمين .

ومن أجراء الزراعة أجراء (المحاينة) ، يؤدون خدماتهم موسم الحصـاد ، وينالون أجرهم في مقابل حصاد الحصاد ، حسب ما اتفق عليه . فهم يحصدون الزرع وينقلونه مع سنبلـه الى موضع تجميعه[2] . ويكون ذلك في المزارع الكبيرة التي تحتاج الى أعداد كبيرة من حصاد الزرع .

واليمن ، هي في مقدمة أجزاء جزيرة العرب في الصناعة ، ولا نكاد نجد في جزيرة العرب مكاناً يسبقها فيها . وهي الأولى في الانتاج أيضاً . وقـد عرفت منتجاتها في كل موضع من بلاد العرب . وهي المكان الوحيد فيها ، الذي زادت صادراته فيه على وارداته ، وكان مستواه المعاشي فيه أعلى من المستوى المعاشي لبقية أجزاء جزيرة العرب . وكان مستهلكاً ومنتجاً ، لحاجتـه الى الاستهلاك . ثم هو المكان الوحيد ، الذي نجد فيه التمايز الطبقي ، والعنعنات الطبقية واضحة ظاهرة ، لتباين الظروف المعاشية التي عاشت فيها طبقات المجتمع ، فأسياد أغنياء ، وطبقات وسط ، وطبقات فقيرة معدمة ، لا تجد رزقها إلا بشق الأنفس .

ولم تبرز صناعة اليمن في نوع واحد أو في صنف معين ، بل برزت في كل نوع من أنواعها المعروفة في ذلك العهد ، والتي دعت الحاجة الى ظهورها ، والتي وجدت موادها الأولية فيها . مثل صناعة الحديد واستخراج المعادن ، وتحويلهـا الى مصنوعات ، والنجارة والحياكة ، والدباغة ، والأصباغ والصموغ ، وغـير ذلك من صناعات اشتهرت اليمن بها وارتبط اسمها بها .

---

١ النقش رقم ٥ ، الفقرة ٣ من كتاب خربة معين (ص ٥)

٢ تاج العروس (١٨٨/٩) ، (حين) .

و (الذهب) هو (ذهبن) في لغة المسند، أي (الذهب). ويقال له التبر أيضاً. وذكر أن (التبر) الذي في المعدن، والذي لم يضرب ولم يصنع[1]. ومن أسمائه (العسجد). وقيل العسجد اسم جامع يطلق على الجوهر كله كالدر والياقوت[2]. وذهب (ابريز)، بمعنى خالص. و (العقيان)، الذهب الخالص، أو الذهب الذي لا يستذاب من الحجارة، وإنما هو ذهب ينبت نباتاً[3]. مما يدل على أنهم يقصدون وجود حبيبات منه خالصة في معادنه، يجمعونها، فيحصلون عليه من غير نار ولا اذابة حجر. وكانوا يطحنون أحجار الذهب، ويذرون تراب المعدن، لاستخلاص الذهب منه. يقال: «ذريت تراب المعدن، طلبت ذهبه»[4]. ويقال لتراب الذهب (السحالة)، وهي أيضاً قشر البر والشعير والأرز[5].

وكانوا يضعون المعدن في التنور ليميع، ثم يجعلونه في (الكوج)، ليتخلص المعدن وينقى من الشوائب[6].

وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء مواضع عرفت بوجود خام الذهب بها، مثل موضع (بيشة) أو (بيش)، وقد كان الناس يجمعون التبر منه، ويستخلصون منه الذهب[7]. و (ضنكان)، وكان به معدن غزير من التبر[8]. والمنطقة التي بين القنفذة ومرسى (حلج)[9]. وورد أن بـ (بيش) عدة معادن[10]. وذكر (الهمداني) أن بقرية (بنات حرب) شيء من الذهب[11]. وأن معدن (صعاد)، وهو من ديار (عقيل) هو أغزر معدن في جزيرة العرب، وهو الذي ذكره

---

١ تاج العروس (١/٢٥٨)، (ذهب).

٢ تاج العروس (٢/٤٢٢)، (العسجد).

٣ تاج العروس (١٠/٢٤٩)، (عقى).

٤ تاج العروس (١٠/١٣٦)، (ذرو).

٥ تاج العروس (٧/٣٧٢)، (سحل).

٦ بلاد العرب (٣٨٠ وما بعدها).

٧ البلدان (٢/٣٣٣ فما بعدها)، الصفة (١٢٧، ١٥٣، ٢٥٧)، المسالك والممالك (١٨٨)، فؤاد حمزة، في بلاد عسير (٦١ فما بعدها)، Moritz, S. 105.

٨ الصفة (١٢٠)، (وضنكان: وهو معدن غزير ولا بأس بتبره).

٩ Moritz, S. 110, Glaser, Skizze, S. 29.

١٠ تاج العروس (٤/٢٨٥)، (بيش).

١١ الصفة (٢٥٧).

الرسول في قوله: مُطرت أرض عقيل ذهباً . مما يدل على أنه كان معدن ذهب[1]. وقد ذكر بعض العلماء أن العرب تسمي معدن الذهب (خُزَيْبة)[2] .

ومن معادن الذهب ، معدن (القُفاعة)[3] ، ومعدن (الأحسن) ، (الحسن) وهو معدن لبني كلاب ، من أول عمـل المدينة وأدنى عمل المدينة الى اليمامة[4] . ومعدن (المؤخرة) ، وهو من مياه (بني الأضبط) من بني كلاب . وهو معدن ذهب وجزع أبيض[5] ، و (ثَخْب) ، وهو جبل بنجد لبني كلاب، عنده معدن ذهب ومعدن جزع[6]،و (القَشْراء)[7] ، و (خُصَلّة) ، ومعدن (خصلة) بحذائها ، وكان بـه ذهب[8] ، ومعدن (شيبان) ، وبه معادن الذهب والفضة والصفر[9] ، ومعدن (موزر) ، بضرية من ديار كلاب[10] ، و (ناضحة) بين اليمامة ومكة[11] ومعدن (الهردة)[12] ، ومعدن (المخلفة) ، وهو معدن ذهب جيد ، بأرض حجور . وقد وصفه الهمداني ، وذكر ما كان يستخرج منه من الذهب[13] . وقد ضبط معدن الهردة بـ (الهروة) في موضع آخر مـن (تاج العروس) ، وقال إنه عنـد (الحوأب) وبه معـدن ذهب[14] ، ومعدن

---

١ الصفة (١٧٧) .
٢ كجهينة ، تاج العروس (١/٢٣٢) ، (خزب) .
٣ الصفة (٦٧ ، ٧٣) ، العرب ، السنة الثانية (الجزء الحادي عشر) (آب ١٩٦٨) ، (ص ٩٨٠ وما بعدها) ، (اشكر الدكتور صالح أحمد العلي على تقديمه هذا العدد وأعدادا أخرى من هذه المجلة الي للاستفادة منها ، ولتقديمه كتبا أخرى ، لم تكن متيسرة لدي) ، الصفة (٦٧) .
٤ بلاد العرب ، للحسن بن عبدالله الاصفهاني (ص ٣٧٠ ، ٣٨٧) « ١٩٦٨ » ، (تحقيق حمد الجاسر والدكتور صالح أحمد العلي) .
٥ بلاد العرب (١٩٨) ، العرب (آب ١٩٦٨) ، (ص ٩٨٤) .
٦ بلاد العرب (١٥٩ ، ١٩٩) ، تاج العروس (١/١٦٢) ، (ثخب) ، العرب (٩٨٤) ، (آب ١٩٦٨) .
٧ بلاد العرب (١٩٩) ، العرب (٩٧٩ وما بعدها) ، (آب ١٩٦٨) .
٨ بلاد العرب (٤٥) .
٩ بلاد العرب (٣٩٨) .
١٠ بلاد العرب (٢٠٠) ، العرب (٩٨٤ وما بعدها) ، (آب ١٩٦٨) .
١١ بلاد العرب (١٦٦) ، العرب (٩٨٥) ، (آب ١٩٦٨) .
١٢ بلاد العرب (١٥٤) ، تاج العـروس (٢/٥٤٦) ، (هـرد) ، العـرب (٩٨٩) ، (آب ١٩٦٨) .
١٣ الصفة (١١٣) ، العرب (٩٨٣) ، (آب ١٩٦٨) .
١٤ تاج العروس (٣/٥٦) ، (بقر) .

(المجيرة)[1] . ومعدن (الحراضة) ، ويقع بين (ينبع) والمروة معـــادن للذهب[2] ومعدن (الحُفير) بناحية (عماية) وهو معدن ذهب غزير ، ومعدن (الحسن) ، ومعدن (الثنية) ثنية (حصن بن عصام الباهلي) ، ومعدن تياس ، ذهب مخف بتياس[3] . و (العقيق) : وهو من معادن الذهب[4] . وهو مدينة كان فيها مائتا يهودي ونخل كثير وآبار[5] . ومعدن الضبيب ، عن يسار الضبيب[6] .

ويظهر أن منجم (مهد الذهب) ، هو المنجم الذي كان لبـني سُليم ، فعرف باسمهم وقيل له : (معدن بني سليم) (معدن سُلَيم) ، وقـد أقطعه الرسول (بلال بن الحارث)[7] . وقد عثرت شركة التعدين السعودية العربية على أدوات فيها استعملها الأولون قبل الاسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه ، مثل رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح ، وشاهدت آثار القــوم في حفر العروق التي تكون الذهب . وقد عرف معدن (بني سليم) بـ (فران) (قران ؟) ، وقــد نسب الى (فران بن بلي) دخلوا في (بني سليم) ، ويأخذ عليه طريق الكوفة الى مكة[8] .

وتعرف (الفضة) ، في نصوص المسند بـ (صرفن) (الصرف) . والفضة من المعادن المشهورة المعروفة في اليمن . و (الصريف) الفضة الخالصة[9] . وقد كانت جزيرة العرب في جملة الأسواق التي موّنت العبرانيين بهذا المعدن[10] .

ومن المواضع التي عرفت بالفضة (عوسجة) في بلاد هذيل . فقــد كان

---

١ الصفة (١٥٤) ، العرب (٩٨٩) ، (آب ١٩٦٨) ، الصفة (١٥٤) .
٢ العرب (٩٩٠) ، (آب ١٩٦٨) .
٣ الصفة (١٥٢) ، البلدان (٢/٢٧٧) .
٤ الصفة (١٦٦) .
٥ الصفة (١٥٣) ، البلدان (٢/٢٧٧) .
٦ الصفة (١٥٣) .
٧ « بلال بن الحارث بن بجير » ، الاصابة (١/١٦٨ وما بعدها) ، (رقم ٧٣٥) ، الصفة (١٣١) ، Naval, p. 517.
٨ بلاد العرب (١٤٨ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٣) ، (وفران بن بلي بن عمران بن الحافي في قضاعة) ، تاج العروس (٩/٣٠٠) ، (فرن) .
٩ تاج العروس (٦/١٦٣) ، (صرف) .
١٠ Hastings, p. 619.

معدناً للفضة [1] . ومعدن (شمام) ، معدن فضة ومعدن نحاس وصفر ، « وكان به ألوف من المجوس الذين يعملون المعدن ، وكان به بيْتنا نار يعبـــدان [2] » ، ومعدن (شيبان) [3] ، ومعدن (اليحموم) .

وقد ذكر (الهمداني) أن بـ (قرية المعدن) ، معدن فضة ، فضة لا نظير لها في الغزر ، وبقربه معدن الرضراض [4] ، وهو معدن فضة كذلك ، لا نظير له [5]. وذكر صاحب كتاب بلاد العرب أن (خزبة) معدن من معادن اليمامة ، وكانت جبالها إنما هي فضة ،ثم مسخت معادنها فصارت شيئاً آخر إذا صيرت الى (الكوج) التي كانت تخاص فيه ، وتخلصت تصدعت كتصدع الزجاج ، لا ينتفع بها [6] .

و (اللجين) الفضة [7] ، و (الوذيلة) القطعة من الفضة ، وقيل السبيكـــة منها ، وقيل القطعة من الفضة المجلوة ، ولعل ذلك هو الذي حمل الطائيين على تسمية المرآة (الوذيلة) ، لأن المرآة في ذلك الوقت صفيحة من المعدن مجلوة ، ينظر فيها [8] .

وقد كانت السلطات الحاكمة تأخـــذ (الخمس) من معادن (الفرع) ، و (نجران) ، و (ذي المروة) ، و (وادي القرى) [9] . مما يدل على ان الناس كانوا يستغلون مناجم هذه الأرضين في الاسلام .

ويظهر ان ما كان يستخرجه أهل الجاهلية من الذهب والفضة من معادنهما لم يكن بمقياس واسع وبكميات كبيرة تصلـــح للتصدير الى الخارج ، بدليل اننا لم نعثر على خبر عنه لا في كتابات المسند ولا في روايات أهـل الأخبار ، ثم انهم لو كانوا يستخرجون المعدنين المذكورين بكميات وافرة،لاستمروا على الاستخراج ولحسنوا كيفية استخلاص المعدنـــين المذكورين من معدنهما الى ظهور الاسلام ،

---

١ تاج العروس (٢/٧٤) ، (عسج) ، بلاد العرب (٢٤١) ، الصفة (١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣) .
٢ بلاد العرب (٢٣٦) ، الصفة (١٤٩ ، ١٥٤) .
٣ بلاد العرب (٣٩٨) .
٤ الصفة (٨١) .
٥ الصفة (٢٠٢) .
٦ بلاد العرب (٣٧٩ وما بعدها) .
٧ تاج العروس (٩/٣٣٠) ، (لجن) .
٨ تاج العروس (٨/١٥٣) ، (وذل) .
٩ البلاذري ، فتوح (٢٧) .

ولأشير الى ذلك حتماً في الموارد الاسلامية ، ولما سكتت هذه الموارد عن الاشارة اليها .

وقد استخدم أهل اليمن الرصاص في كثير من الأعمال ، منها صبه في أسس الأعمدة،وبين مواضع اتصال الحجارة ، لترتبط بعضها ببعض . وقد عثر المنقبون على بقايا منه في مواضع متعددة من الأماكن الأثرية باليمن . والرصاص ضربان : أسود ، وهو الأسرب والأبار ، والأبيض ، وهو القلعي . وقد عرف بالآنك ، والأسرب ، والأسرف ، والصرفان . وشيء مرصص مطلي بـه . وكانوا يطلون الأواني به ، ويشربون بها [١] . وذكر أن (الآنك) ، هو الأسرب ، وهـو الرصاص القلعي ، أو أبيضه ، أو أسوده ، أو خالصه ، وذكر أن الآنك بمعنى الخالص ، وأنهم كانوا يقولون:هذا رصاص آنك ، بمعنى هذا رصاص خالص [٢] . وقال بعض العلماء : الانك هو القزدير (القصدير) . وورد في الحـديث : من استمع الى مغنيـة صب الله الآنك في اذنيه يوم القيامة [٣] . والأسرب ، الآنك ، وهو الرصاص ، واللفظة من المعربات ، عربت من أصل فارسي [٤] . والأسرف، لفظة معربة أيضاً ، تعني الآنك ، من أصل فارسي،هو (سرب) [٥] . و(الصرفان) هو الرصاص القلعي ، وقيل النحاس [٦] . وأرى أن الرصاص القلعي ، هو رصاص استخرج من (القلعة) موضع باليمن ، بوادي (ظهر) به معدن حديد ، واليـه نسبت السيوف القلعية . زعموا أن (الجن) تغلبت عليه [٧] .

وللحديد معدن في (رُغافة) ، باليمن على مرحلة من صعدة [٨] . وفي (قساس) ذكر انه جبل بديار بني نمير ، وقيل بني أسد فيه معدن حديد . وذكر أهـل الأخبار اسم موضع آخر عرف بوجود معدن الحديد فيه ، قالوا انه بأرمينية منه

١ القاموس (٢/٣٠٤) ، تاج العروس (٤/٣٩٧) ، (رص) .
٢ تاج العروس (٧/١٠٤) ، (أنك) .
٣ تاج العروس (٧/١٠٤) ، (انك) .
٤ تاج العروس (١/٢٩٧) ، (سرب) .
٥ تاج العروس (٦/١٣٨) ، (سرف) .
٦ تاج العروس (٦/١٦٤) ، (صرف) .
٧ تاج العروس (٥/٤٨٠) ، (قلع) .
٨ العرب (١٩٩ وما بعدها) ، (آب ١٩٦٨) .

السيوف القساسية [1] . وذكر (الهمداني) أن باليمن معادن حديد غير معمولة بنقم وغمدان [2] .

ولعل كثرة الحديد باليمن ، واشتهارها به ، جعل أهل الأخبار يروون ان أول من عمل السنان من حديد هو (ذو يزن) (ديرون الحميري) [3] ، وانما كانت أسنة العرب من صياصي البقر [4] . وقد اشتهرت اليمن بسيوفها ، فالسيوف اليمانية هي من السيوف الجيدة التي اكتسبت سمعة طيبة عند الجاهليين .

و (النحاس) الصفر ، وقيل ما سقط من شرار الصفر ، أو الحديد اذا طرق [5] . والصفر ، النحاس الجيد ، وقيل هو ضرب من النحاس ، وقيل هو ما صفر منه . والصفر الذهب أيضاً [6] .

واستعملت لفظة (هاع) بمعنى سال وذاب ، في نصوص المسند ، استعملت لمناسبة صب الرصاص الذائب في أسس الأبنية وبين فواصل أحجار الأعمدة، لتشدها شداً محكماً .

والكبريت من المعادن الموجودة فى اليمن . و (ذمّار) هي مركزه ومنها يجلب الى سائر أعمال اليمن [7] . وذكر انهم كانوا يكبرتون أباعرهم ، يطلونها بالكبريت مخلوطاً بالدسم والخضخاض ، وهو ضرب من النفط أسود رقيق لا خثورة فيه ، وليس بالقطران ، لأنه عصارة شجر أسود خاثر . وكانوا يستحمون في العيون التي يجري منها الماء مشوباً به ، ولها رائحة الكبريت [8] .

و (الجزع) من الأحجار التي تستعمل في الفصوص التي توضع في الأختام .

---

١ قال الراجز :
أخضر من معدن ذي قساس ‌‌ كأنه في الحير ذي الاضراس
ترمي به في البلد الدهاس
تاج العروس (٢١٧/٤) ، (قس) ، العرب (٩٩٢) ، (آب ١٩٦٨) .
٢ الصفة (٢٠٢) .
٣ ثمرات الاوراق (١٣٣/٢) ، (حاشية على المستطرف) .
٤ ثمرات الاوراق (١٣٣/٢) ، العقد الفريد (٣٧٠/٣) ، اللسان (٤٥٢/٢) ، الروض الانف (٩/١) ، تاج العروس (١٤٥/٢) .
٥ تاج العروس (٢٥٤/٤) ، (نحس) .
٦ تاج العروس (٣٣٧/٣) ، (صفر) .
٧ ابن المجاور (١٩٠/٢ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٥٧٥/١) ، (كبرت) .

وقد تحفر عليها كتابة أو صور[1] . وقد عثر على فصوص من هذا النوع في مواضع عديدة من الآثار في اليمن وفي العربية الجنوبية والغربية وفلسطين . وذكر علماء اللغة أن الجزع : الخرز اليماني الصيني ، وزاد بعضهم الصيني ، فيه سواد وبياض تشبه به الأعين . قيل إنه سُمّي جزعاً ، لأنه مجزع ، أي مقطع بألوان مختلفة . وقد أشير اليه في شعر امرىء القيس[2] . ومن الجزع : الجزع السماوي، وهو العشاري من وادي عشار[3] .

وقد اشتهرت (ظفار) بالجزع . فقيل : (جزع ظفار)[4] . قيل إنه من (ظفار الحقل) ، قرب صنعاء على مرحلتين منها ، وقيل إنه منسوب الى (ظفار أسد) مدينة باليمن[5] . وكان لعائشة عقد من جزع ظفار[6] . واستخرج أيضاً من جبل شبام[7] . ومن معادنه معدن ضهر ، ومعدن سعوان ، ومعدن عذيقة ، بمخلاف خولان[8] . ومن الجزع الموشى والمُسيّر ، وهو في مواضع من اليمن ، منها النقمى[9] .

وعرفت اليمن بالعقيق ، تتخذ منه الفصوص ، يؤتى به من اليمن من معدن له على مرحلة من (صنعاء) يقال له (مقرأ) (مقرى) . وهو أجود من عقيق غيرها[10] . ويوجد عقيق آخر يستورد من الشحر . وقد تختم

---

١ الاشارة الى محاسن التجارة (ص ١٨) .

٢ كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

وقال أيضا :

فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم في العشير مخول

القاموس (١٢/٣) ، (جزع) ، تاج العروس (٣٠٠/٥) ، (جزع) ، ابن المجاور (١٨٤/٢) .

٣ الاكليل (٣٠/٨) ، العرب (٩٩٨) ، (آب ١٩٦٨) .

٤ قال المرقش الاكبر :

تحلين ياقوتا وشذرا وصنعة وجزعا ظفاريا ودارا توائما

تاج العروس (٣٠٠/٥) ، (جزع) .

٥ تاج العروس (٣٧٠/٣) ، (ظفر) .

٦ تاج العروس (٣٠٠/٥) ، (جزع) .

٧ ابن المجاور (١٨٤/٢) .

٨ الاكليل (٣٠/٨) ، العرب (٩٩٧ وما بعدها) ، (آب ١٩٦٨) .

٩ الصفة (٢٠٢) .

١٠ تاج العروس (١٠٣/١) ، (قرأ) .

به[1] . وذكر انه يستخرج من جبل شبام[2] . ومن (الهام) ، ومن (الهان) ، ومن (شهارة) ، ومن قساس[3] . وذكر (الهمداني) ، ان العقيق الأحمر ، والعقيق الأصفر العتيقين من ألهان[4] .

وقد عرف معدن (بقران) بالأحجار التي تستخرج منها الفصوص البقرانية . وهو في مخلاف بني نجيد من اليمن[5] . وذكر (الهمداني) ، أن (البقران) ألوان ، ويبلغ المثلث بها مالاً ، إذ يشترى بأسعار عالية ، وهو أن يكون وجهه أحمر ، فوق عرق أبيض ، فوق عرق أسود . ويوجد البقران بجبل أنس ، وهو ينسب الى أنس بن ألهان بن مالك[6] .

ومن الأحجار الأخرى : الفصوص السعوانية من سعوان ، واد الى جنب صنعاء ، وهو فص أسود فيه عرق أبيض ، ومعدنه بشُهارة ، وعيشان من بلد حاشد الى جنب هنوم ، وظليمة والجمش من شرف همدان . والعشاري ، وهو الحجر السماوي[7] .

ومن الفصوص الثمينة : (الدهنج) كالزمرد ، حصى أخضر تتخذ منه الفصوص ، وأجوده : (العدسي)[8] . ومن معادنه حرة بني سليم[9] ، وحرة النار[10] .

ومن الجواهر الأخرى : (الزمرد)[11] والزبرجد[12] ، و (الشذر) ، قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا إذابة الحجارة ، ومما يصاغ من الذهب فرائد يفصل بها اللؤلؤ والجوهر ، وقيل خرز يفصل بها ، أو اللؤلؤ الصغار[13] .

و (الجمست) معدن يستخرج من (الصفراء) على ثلاثة أيام من المدينة ،

---

١ تاج العروس (١٥/٧) ، (عق) .
٢ ابن المجاور (١٨٤/٢) .
٣ العرب (٩٩٨) ، (آب ١٩٦٨) .
٤ الصفة (٢٠٢) .
٥ تاج العروس (٥٦/٣) ، (بقر) .
٦ الصفة (٢٠٢) .
٧ الصفة (٢٠٢) .
٨ تاج العروس (٤٦/٢) ، (دهنج) .
٩ العرب (٩٩٥) ، (آب ١٩٦٨) .
١٠ العرب (٩٩٥) ، (آب ١٩٦٨) ، تاج العروس (١٣٥/٣) . (حرر) .
١١ تاج العروس (٣٦٤/٢) ، العرب (٩٩٦) ، (آب ١٩٦٨) .
١٢ تاج العروس (٣٦٣/٢) ، (الزبرجد) .
١٣ تاج العروس (٢٩٤/٣) ، (شذر) .

وهو في جملة ما يقال له (القوارير)[1] . والبلور ، ويستخرج من البراري مـن بين الحصى ، ومن (ضهر) ، و (سعوان) ، ومن (عذيقة) مخلاف خولان، ومن وادي عشار ، ومن الهان ، وشهارة[2] .

و (الدرة) اللؤلؤة العظيمة ، وما أعظم من اللؤلؤ[3] . ويستخرج اللؤلـؤ من الخليج ، وقد اشتهرت البحرين به منذ أيام ما قبل الإسلام . وأما (الياقوت)، فأجوده الأحمر الرماني ، وقد استورد من سرنديب (سيلان)[4] .

والزاج ، مشهور في اليمن ، ويقال له الشب اليماني ، وهو من الأدوية[5] . و (الشب) ، حجارة يتخذ منها الزاج وما أشبهه ، وأجوده ما جلب من اليمن، وهو شب أبيض له بصيص شديد ، وقد استعمل في دباغـة الجلود . وقد أشير اليه في الحديث . وذكر بعض العلماء ان الزاج كثير الأصناف،وهو غير الشب ، وينبعثان من معدن واحد ، والشب من المعادن الأربعة التي لم تكمـل صورتها ، وهي الزاج والملح والنوشاذر والشب ، والشب يشبه الزاج وفيه بعض حموضة ، وأما الزاج فحموضته أكثر ، والشب أنواع[6] . وقد ذكروا انه ماء يقطر،فيجمد قبل أن يصل الى الأرض ، فيصير هذا الشب اليماني . ومن معدنه (إسبيل) ، جبل من ديار عنس من مذحج ، بقربه مقطر الشب[7] ، ومعدن الأشعر . ويظهر من أقوال أهل الأخبار انهم كانوا يستخرجونه من (غرض) الجبال ، وهي شقوق تكون في الجبل ، يحفرون بها ، ويستخرجون منها الشب[8] .

ويطلق العرب على الموضع الذي يستخرجون المعدن منه (المعدن) . وقد عرفوا (المعدِن)[9] بأنه منبت الجواهر من ذهب ونحوه ، ومكان كل شيء يكون فيه أصله ومبدؤه ، نحو معدن الذهب والفضة والأشياء . ومنه حديث بلال بن الحرث

---

١ تاج العروس ٣(/٤٩١) ، (قرر) ، العرب (٩٩٦) ، (آب ١٩٦٨) ،
٢ الاكليل (٨/٣٠) ، العرب (٩٩٧) ، (آب ١٩٦٨) ، الصفة (٢٠٢) .
٣ تاج العروس (٣/٢٠٤) ، (در) .
٤ تاج العروس (١/٥٩٨) ، (ياقوت) .
٥ تاج العروس (٢/٥٥) ، (زوج) .
٦ تاج العروس (١/٣٠٨) ، (شبب) .
٧ العرب (٩٩٣) ، (آب ١٩٦٨) .
٨ العرب (٩٩٤) ، (آب ١٩٦٨) .
٩ كمجلس .

أن الرسول أقطعه معادن القبيلة جلسيها وغوريها . وهي المواضع التي تستخرج منها جواهر الأرض[١] . وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة أيام ، وقيل ناحية من نواحي الفرع ، بين نخلة والمدينة[٢] . ومن المعادن : معدن الغاف[٣]، ومعدن النقرة ، منزل لحاج العراق بين إضاخ وماوان ، وبها سوق ، وبها بركة وثلاثة آبار وآبار صغار للأعراب تنزح عند كثرة الناس ، وعندها تفترق الطريق. فمن أراد مكة نزل المغيثة ، ومن أراد المدينة أخذ نحو العسيلة فنزلها[٤] . و(العيصان) من معادن بلاد العرب[٥] .

ومن المعادن التي لم يخصص أهل الأخبار نوع معدنها : معدن (البثر)[٦] ، ومعدن النميرة[٧] (التميرة ؟) ، ومعدن (حليت)[٨] ، ومعدن (الحربة)[٩] ، ومعدن (خزبة)[١٠] ، ومعدن (خصلة)[١١] ، ومعدن (الشبيكة)[١٢] ، ومعدن (الشجرتين)[١٣] ، ومعدن (عراقيب)[١٤] ، ومعدن (ذي العوسج)[١٥] ، ومعدن (العيصان)[١٦] لبني نمير ، ومعدن (عيهم)[١٧] ، ومعدن (قساس) ، وقد كشف فيه حديثاً معدن الحديد[١٨] ، ومعدن (الكوكبة) ، ويظهر انه كان

---

١ تاج العروس (٩/٢٧٥) ، (عدن) .
٢ تاج العروس (٨/٧٣) ، (قبل) .
٣ تاج العروس (٦/٢١٤) ، (غيف) .
٤ تاج العروس (٣/٥٨٢) ، (نقر) .
٥ تاج العروس (٤/٤١١) ، (العيص) .
٦ بلاد العرب (٧٤) .
٧ بلاد العرب (٣٨٢) ، العرب (٩٨٨) ، (آب ١٩٦٨) .
٨ بلاد العرب (١٠٧) .
٩ بلاد العرب (٣٧٩) .
١٠ بلاد العرب (٣٧٩ ، ٣٨٢) .
١١ بلاد العرب (٣٨ ، ٤٥) .
١٢ بلاد العرب (٢٤١) .
١٣ بلاد العرب (٩٦) .
١٤ بلاد العرب (١٠٧) .
١٥ بلاد العرب (٢١٠) .
١٦ بلاد العرب (٢٧٠ ، ٣٨٢) ، البلدان (٣/٧٥٣) .
١٧ بلاد العرب (١٨٣) .
١٨ بلاد العرب (٢٣٦) .

من معادن الفضة [1] ، ومعدن المزبدة [2] ، ومعدن (النقيب)[3] ، ومعدن (منضح) ، وهو اسم معدن جاهلي بالحجاز عند جوبة ماء عظيمة يجتمع فيها الماء[4] ، ومعدن اللقط[5] ، ومعدن (ماوان) ، وهو معدن مشهور[6] ، ومعدن (النصب) من معادن القبلية [7] ، ومعدن (النقرة)[8] ، وبـ (بيش) ، وهو مخلاف من مخاليف مكة عدة معادن[9] . ومعدن شمام ، و (بحران) ، وهو بناحية الفرع من الحجاز به معدن للحجاج بن علاط البهري ، له ذكر في سرية (عبدالله بن جحش)[10] ، و (حوراء) بناحية المدينة وبها معدن البرام[11] . ومعدن (فران) ، وينسب الى (فران بن بليّ بن عمرو)[12] . ومعدن (المحجة) بين العمق وبين أفيعة[13] . ومعدن هبود لبني نمير[14] .

والملح من المواد التي تاجر بها الجاهليون . وتوجد معادنه في مواضع متعددة من جزيرة العرب . وقد كان بعضهم يستحضره من المياه المالحة ، ومنهم من كان يستخرجه من مناجم تحفر ، فيستخرج منها . وقد ذكر (الهمداني) أسماء مواضع وجدت فيها معادن الملح[15]. وقد أشير في (المسند) الى الملح والى الاتجار به ، والى وجود كيّالين كانوا يكيلونه ويرسلونه الى الأسواق لبيعه فيها .

ومن أشهر مواضع الملح في اليمن : جبل الملح في بلاد مأرب ، وهو ملح صاف كالبلور ، وكان النبي قد أقطعه (الأبيض بن جمال)[16] .

---

١ بلاد العرب (٣٨٢ وما بعدها) .
٢ بلاد العرب (٣٩٤) .
٣ بلاد العرب (١٨١) .
٤ تاج العروس (٢/٢٤٠) ، (نضح) ، العرب (٩٨٤) ، (آب ١٩٦٨) .
٥ العرب (٩٨١) ، (آب ١٩٦٨) .
٦ العرب (٩٨٢) ، (آب ١٩٦٨) .
٧ العرب (٩٨٥) ، (آب ١٩٦٨) .
٨ ابن خرداذبة (١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٧) ، تاج العروس (٣/٥٨٢) ، (نقر) ، العرب (٩٨٧ وما بعدها) ، (آب ١٩٦٨) ، الصفة (١٨٤ وما بعدها) .
٩ تاج العروس (٤/٢٨٥) ، (بيش) .
١٠ تاج العروس (٣/٣١) ، (بحر) .
١١ تاج العروس (٥/٢٢٩) ، (نبط) .
١٢ الصفة (١٧٠) .
١٣ الصفة (١٥٤) .
١٤ بلاد العرب (٣٨٢) .
١٥ الصفة (١٥٥) .
١٦ الصفة (٢٠١) .

وقد استغل التجار (مكر) في العربية الجنوبية تجارة الملح ، فأخذوا يستغلون مناجمه ، ويحملونه منها قوافل الى الأسواق . ونظراً الى سعة هذه التجارة والى كثرة الملح المستخرج ، ظهرت جماعة عرفت بـ (زلا) (سلا) في لغة المسند، تخصصت بكيل الملح وتعبئته في الجوالق لإرساله الى الأسواق[1] .

الأحجار :

واستفيد من الأحجار في البناء ، ولاسيما في العربية الجنوبية ، إذ كان الحجر مادة البناء عندهم . ويقطع من المقالع قطعاً بعضها ضخمة استخدمت في بناء الأبنية المهمة مثل : قصور الملوك والمعابد والسدود وبيوت السادات .

ولتثبيت الأحجار ولصقها بعضها فوق بعض ، استخدم (الجص) ، ويقال له (القص) بلغة أهل الحجاز . واللفظة معربة على ما يذكره علماء اللغة[2] . و (النورة) حجر يحرق ويستخدم في البناء ، و (البورق) ، وهو حجر يحرق أيضاً ، ويستعمل لتبييض الجدران ، ومواد أخرى تشبه (السمنت) في قوتها وفي صلابتها وفي تثبيت الأحجار بعضها فوق بعض .

ويقال لبعض أنواع الأحجار (المُسنى) ، وتعمل منها نصب السكاكين[3] . و (الشزب) ، حجر يعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداهن وقحفة[4] . و (الهيصمي) وهو حجر يشاكل الرخام ، إلا أنه أشد بياضاً يخرط منه كثير من الآنية[5] .

وقد نحت النحاتون من بعض الحجارة قدوراً للطبخ،عرفت عندهم بـ (البُرمة). وقيل البرمة قدر نحت من حجارة أو عمل من حديد أو نحاس . و (المبرم) صانعها أو من يقتلع حجارتها من الجبال فيسويها وينحتها . وقيل للمعدن الذي تقتلع منه هذه الحجارة : (معدن البرم) و (معدن البرام)[6] . ومن هذه المعادن

---

١ Glaser 1571, Arabien, S. 124.
٢ تاج العروس (٣٧٧/٤) ، (جص) .
٣ الصفة (٢٠٢) .
٤ الصفة (٢٠٣) .
٥ الصفة (٢٠٢) .
٦ تاج العروس (١٩٨/٨) ، (برم) ، الصفة (١٢١) .

(قدقد) ، جبل به معدن البرام[1] .

وكانوا يحفرون المعادن ويدخلون المنجم لاستخراج المعدن منه . وقد ينهار المعدن على حافره فيقتله . والى ذلك أشير في الحديث : « المعدن جبار والبئر جبار والعجماء جبار » . ومعناه أن تنفلت البهيمة العجماء فتصيب في انفلاتها انساناً أو شيئاً ، فجرحها هدر ، وكذلك البئر العادية يسقط فيها انسان فيهلك ، فدمه هدر . والمعدن اذا انهار على حافره فقتله فدمه هدر . ومعناه اذا انهار على من يعمل فيه فهلك ، لم يؤخذ به مستأجره[2] .

النسيج والحياكة :

وقد اشتهرت اليمن عند ظهور الإسلام بالنسيج والحياكة . وهي قد أصدرت أنواعاً عديدة من الأقمشة والثياب الى مختلف أنحاء جزيرة العرب اكتسبت شهرة بعيدة في كل مكان ، لجودة صنعها ونفاسة مادتها . ومن ثياب أهل اليمن الناعمة الثياب التي تعرف باسم (الخال) ، وهو ثوب ناعم ، وضرب من البرود ، وقيل برد أرضه حمراء فيها خطوط سود[3] . و (الوصائل) ، وهي ثياب يمانية حمر أو ثياب حمر مخططة ، أو برود حمر فيها خطوط خضر[4] . والعصب ، وهي ضرب من البرود وضرب من الثياب ، يعصب غزلها ، أي يدرج ثم يحاك ، وليس من برود الرقم . وقيل العصب : برود يمانية يعصب غزلها ، أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج، فيأتي موشى لبقاء ما عصب فيه أبيض ، لم يأخذه صبغ وقيل برود مخططة . وورد أن (عمر بن الخطاب) أراد أن ينهى عن عصب اليمن . وقال نبئت أنه يصبغ بالبول ، ثم قال : نهينا عن التعمق . ويدل هذا الخبر إن صح ، على أن البرود العصب، هي البرود المشدودة المصبوغة بالعصب، ولا ينبت العصب والورس إلا في اليمن . وهو يدل أيضاً على أن العصب

---

١ تاج العروس (٢/٤٦١) ، (قد) .
٢ تاج العروس (٣/٨٥) ، (جبر) .
٣ قال الشماخ :
وبردان من خال وتسعون درهما ... على ذاك مقروظ من الجلد ماعز
تاج العروس (٧/٣١١) ، (خول) ، (٧/٣١٣) ، (خيل) .
٤ تاج العروس (٨/١٥٦) ، (وصل) .

صبغة تستخرج من نبات العصب ، تصبغ بها البرود ونحوها من الأشياء[1] .

والممرجل (الممرحل) ، ثياب من الوشي فيها صور المراجل[2] . ويظهر انها المراجل ، جمع (المرجل) . والمرجل (المرحل) برد يماني ، ومن أمثالهم : حديثاً كان بردك مرجلياً ، أي انما كسيت المراجل حديثاً ، وكنت تلبس العباء. ويظهر انها كانت موشاة وكانت من ألبسة المترفين ، ففي الحديث : «حتى يبني الناس بيوتاً يوشونها وشي المراحل » ، يعني تلك الثياب ، ويقال لها أيضاً المراجل بالجيم[3] . وذكر ان (المرحل) ، برد فيه تصاوير رحل وما ضاهاه[3] .

وقد صورت بعض ثياب أهل الجاهلية ونمقت ، ومنها ثياب صلبت ، أي نقشت بالصلبان . وقد نهى الرسول عن لبس هذه الثياب ، وذكر انه نهى عن الصلاة بالثوب المصلب[4] .

والمقطعات من الثياب كل ما يفصل ويخاط من قمص وجباب وسراويلات وغيرها ، وما لا يقطع منها كالأردية والأزر والمطارف والرياط التي لم تقطع وانما يتعطف بها مرة ويتلفع بها أخرى . وقيل القصار من الثياب، وبرود عليها وشي[5].

والحبرة،وهي ضرب من ضروب البرود كذلك ، وهي البرود الموشاة المخططة. وقيل ضرب من برود اليمن منمر . وذكر أن الحبير الثوب الجديد الناعم . وفي حديث أبي ذر : الحمد لله الذي أطعمنا الخمير وألبسنا الحبير[6] . وفيه دلالة على أن (الحبير) من ألبسة المتمكنين ، وليس في وسع الفقراء اقتناؤها .

والمعاجر ، من ضروب الثياب المصنوعة في اليمن . والمعجر ثوب تعجر به المرأة،أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة . وقيل ثوب يمني يلتحف به ويرتدى[7]. و (السيراء) ، وهي ثياب مخططة ، ونوع من البرود ، فيه خطوط صفر ،

---

١ تاج العروس (١/٣٨٢ وما بعدها) ، (عصب) .

٢ تاج العروس (٧/٣٣٩) ، (رجل) ، القاموس (٣/٣٨٢) .

٣ قال امرؤ القيس :

فقمت بها أمشي تجر وراءنا على أثرنا أذيال مرط مرحل

يروى بالحاء والجيم ، أي معلم . تاج العروس (٧/٣٤٧) ، (رحل) .

٤ تاج العروس (١/٣٣٧) ، (صلب) .

٥ تاج العروس (٥/٤٧٥) ، (قطع) .

٦ تاج العروس (٣/١١٨) ، (حبر) .

٧ تاج العروس (٣/٣٨٣) ، (عجر) .

أو يخالطه حرير والذهب الخالص ، وقيل ثوب مسير فيه خطوط تعمل من القزّ كالسيور ، أو خطوط من الذهب . وهي من حلل الأغنياء والكبراء . روي أن (أكيدر) أهدى الى الرسول حلة سيراء ، وفي حديث عمر : رأى حلة سيراء تباع [1] .

والثياب السحولية ، أثواب كرسف من ثياب (سحول) موضع باليمن تنسج به الثياب السحولية ، وتحمل منه الى سائر الأنحاء . وهي ثياب قطن بيض . قال طرفة :

وبالسفح آيات كأن رسومها يمان وشته ريدة وسحول [2]

وذكر ان السحل ثوب أبيض رقيق من القطن ، أو من الكرسف من ثياب اليمن . والسحيل الخيط غير مفتول ، والغزل الذي لم يبرم ، فأما الثوب ، فإنه لا يسمى سحيلاً ولكن يقال له : السحل ، وقيل : السحيل الخيط غير مفتول ، ومن الثياب ما كان غزله طاقاً واحداً . والمبرم المفتول الغزل طاقين . و (المتأم) ما كان سداه ولحمته طاقين ليس بمبرم ولا مسحل . والسحل والسحيل الحبل الذي على قوة واحدة ، والمبرم الذي على طاقين . وذكر ان السحيل من الحبل الذي يفتل فتلاً واحداً كما يفتل الخياط سلكه ، والمبرم أن يجمع بين نسيجتين فيفتلا حبلاً واحداً [3] . ولما توفي الرسول ، كفن في ثلاثة أثواب سحولية ، ويروى في ثوبين سحوليين [4] .

وقد اشتهرت عدن بصنع البرود كذلك . ورد في الحديث أن الرسول كان قد استعمل هذه البرود [5] . وقد عرفت بـ (العدني) وبـ (العدنيات) . وهي ثياب كريمة نسبت الى عدن ، واشتهرت برياطها ، فقيل : (رياط عدنيات) [6] .

---

١ تاج العروس (٣/٢٨٧) ، (سير) .
٢ تاج العروس (٧/٣٧٢) ، (سحل) .
٣ تاج العروس (٧/٣٧١) ، (سحل) .
٤ جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم ، تحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصرالدين الاسد ، (ص ٦) ،(دار المعارف) بمصر ، تاج العروس (٧/٣٧٢) ، (سحل) .
٥ مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١٠/٣٨ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٩/٢٧٦) ، (عدن) .

وقد اشتهرت قطر بنوع من الثياب يقال لها : الثياب القطرية ، كما اشتهرت بنوع من النجائب : هي (النجائب القطريات)[١] . وذكر أنها برود من غليظ القطن ، أو هي برود حمر لها أعلام فيها بعض الخشونة . وجاء في الحديث أن الرسول توشح بثوب قطري[٢] .

واشتهرت (هجر) بثيابها كذلك ، واعتبرت من الملابس الفاخرة التي تستحق الإهداء . ولما أرسل الرسول (سليط بن عمرو العامري) الى (هوذة بن علي الحنفي) ، أجاز هوذة (سليطاً) بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر[٣] .

وقد اشتهرت برود وثياب اليمن بجودة النسج وبحسن الصنعة والدقة . كما امتازت بألوانها وبوشيها ، والوشي النمنمة والنقش[٤] . ومنها المرحل ، وهي برد فيه تصاوير رحل ، والمرط المرحلة ، ومنه الحديث كان يصلي وعليه من هذه المرحلات ، يعني المرط المرحلة[٥] .

ومن برد اليمن المعروفة (الخمس) ، ويقال لها أيضاً الخميس . ذكر انه انما قيل للثوب خميس ، لأن أول من عمله ملك باليمن يقال له الخِمْس ، أمر بعمل هذه الثياب فنسبت اليه[٦] . و (الفوف) من برود اليمن ، وهي ثياب رقاق موشاة[٧] .

ولأهل المعافر ثياب جيدة ، وهم يستعملون (السكينية) في رؤوسهم ، وهم من حمير ، وملوكهم (آل الكرندي)[٨] .

واشتهرت (صحار) ، قصبة عمان مما يلي الجبل ، بثياب عرفت بها ، فقيل لها (ثوب صحاري) ، وثياب صحارية . وفي الحديث ان رسول الله كفن في ثوبين صحاريين[٩] .

وقد اشتهرت (الحيرة) بنوع من الأنماط ، تزين بها الرحال ، حتى عرف

---

١ القاموس (٢/١١٩) .
٢ تاج العروس (٣/٥٠٠) ، (قطر) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٢) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٩١) ، (وشي) .
٥ تاج العروس (٧/٣٤١) ، (رحل) .
٦ تاج العروس (٤/١٤٠) ، (خمس) .
٧ تاج العروس (٦/٢١٥) ، (فوق) .
٨ الصفة (٩٩) .
٩ تاج العروس (٣/٣٢٧) ، (صحر) .

بها ، فقيل : (الحاري)[1] . والنمط ، ظهارة فراش ما ، أو ضرب من البسط ، أو ثوب صوف يطرح على الهودج ، له خمل رقيق . وقيل : ضرب من الثياب المصبغة ، ولا تكاد العرب تقول : نمط ، إلا لما كان ذا لون من حمرة أو خضرة ، أو صفرة ، فأما البياض ، فلا يقال أنماط[2] .

وقد اشتهرت صناعة البسط في جزيرة العرب . وهناك أنواع عديدة منها تنسب الى مواضع متعددة . وهي تصنع من الأصواف ومن شعر المعز . ويشتغل بنسجها النساء والرجال . وقد اشتهرت بعضها باسم (العبقري) و (العباقري). وفي الحديث : أنه كان يسجد على عبقري ، وهي هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش . وذكر بعض العلماء أن (عبقرة) موضع باليمن أو بالجزيرة ، يوشى فيه الثياب والبسط ، ثيابه في غاية الحسن والجودة ، فصارت مثلاً لكل منسوب الى شيء رفيع[3] .

وقد اشتهرت اليمن بكثرة المشتغلين من أهلها بالحياكة ، وعرفت بها بقية العربية الجنوبية . وقد قيل في انتقاص أهل اليمن وفي النيل منهم؛ انهم بين حائك برد وسائس قرد . ونسوة حوائك ، يشتغلن بالحياكة . ورد في شعر ذي الرمة قوله يصف محلة :

كأن عليها سحق لفق تأنقت ... بها حضرميات الأكف الحوائك[4]

وأشير الى الحياكة في نصوص المسند،إذ كانت صناعة النسيج من أهم الصناعات في اليمن . وقد عرف (الحائك) عندهم بـ (انم)[5] . وكان أهل مكة يقصدون اليمن ، فيشترون منها الألبسة اللطيفة الجيدة ويحملونها الى الأسواق لبيعها ، ومنها أسواق بلاد الشأم .

وقد نشأت من الألياف والخوص وعيدان بعض الأشجار صناعة ، فاستفيد من خوص الدوم في صنع أحفاش النساء ، والدوم شجر المقل ، واحدتها دومة[6] .

---

١ تاج العروس (١٦٦/٣) ، (حار) .
٢ تاج العروس (٢٣٤/٥) ، (نمط) .
٣ تاج العروس (٣٧٩/٣) ، (عبقر) .
٤ تاج العروس (١٢٤/٧) ، (حاك) .
٥ Glaser 1000 A, Arabien, S. 24.
٦ تاج العروس (٢٩٧/٨) ، (دوم) . .

واستفيد من لحاء الخزم في صنع الحبال ، ويقال لصانعها (الخـزام)[1] ، وسف الخوص على هيأة سفرة ، ويقال لذلك السمهة[2] . وصنعت الحصر من بردى وأسل ومن الخوص[3] . وقيل للحصير المنسوج من سعف النخل (الفحل) . وأما الحصير المنسوج من الدوم ، فيقال له (الطلّيل)[4] . والبارية الحصير . قـــال بعضهم : الحصير المنسوج من القصب[5] .

وتاجر أهل اليمن بـ (الخضاب) ، ويكون ذلك بالحناء ، واذا كان بغير الحناء قيل : صبغ شعره . وذكر أهـــل الأخبار أن (عبد المطلب) أول من خضب بالسواد من العرب ، وكـل ما غير لونه ، فهـــو مخضوب [6] . وكانوا يخضبون به الأطراف كذلك[7] . واختضبوا بـ (الوسمـــة) كذلك[8] . وكانوا اذا أرادوا الحصول على لون أسود قاتم ، ليبدو الشعر به أسود، خلطوا الحناء بالوسمة. والحناء ورق نبات ، وكذلك الوسمة ، يدقان حتى يصيران كالطحين الناعم جداً، أو يطحنان ، ثم يعجن الطحين بالماء فيخضب به . ويخلطون بالحناء دقيق ورق البشام فيسود الشعر[9] .

---

١ المخصص (١١/١٣٦ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/٢٧٤) ، (خزم) .
٢ تاج العروس (٩/٣٩٢) ، (سهم) .
٣ تاج العروس (٣/١٤٣) .
٤ تاج العروس (٧/٤٢٠) .
٥ تاج العروس (٣/٦٠ وما بعدها) .
٦ تاج العروس ١(/٢٣٦) ، (خضب) .
٧ تاج العروس (١/٢٣٦) ، (خضب) .
٨ تاج العروس (٩/٩٤) ، (وسم) .
٩ تاج العروس (٨/٢٠٣) ، (بشم) .

الفصل الثالث عشر بعد المئة

حاصلات طبيعية

الصبغ :

والصبغ ما يلوّن به . وقد استخرج أهل الجاهلية الأصباغ من بعض النبات، لاستعمالها في الصناعة أو في البناء وفي صبغ الانسجة. واشتهرت مواضع من جزيرة العرب بحذقها في الصباغة ، وباتقانها استخراج الصبغ من النبات وبعض المعادن . وقد كانت سلعة مطلوبة رائجة ، لأنها جيدة ثابتة لا تتغير بسرعة .

وقد عصفر الجاهليون ثيابهم بالعصفر . وهو نبات ينبت بأرض العرب ، سلافته الجريال ، صبغ أحمر[1] وبزره (القرطم) ، الذي يصبغ به منه[2] . وصبغوا بـ (الفرصاد) ، وهو صبغ أحمر[3] ؛ وبـ (الفوّة) ، عروق يصبغ بها . وقيل : هي عروق حمر دقاق لها نبت يسمو في رأسه حبّ أحمر شديد الحمرة كثير الماء يكتب بمائه وينقش . قال الأسود بن يعفر :

جرت بها الريح أذيالاً مظاهرة كما تجرّ ثياب الفوة العرس

واستعملت (الفوة) دواءً لمعالجة الجلد[4] .

---

١ تاج العروس (٧/٢٥٥) ، (جرل) .
٢ تاج العروس (٣/٤٠٨) ، (عصفر) .
٣ تاج العروس (٢/٤٥١) ، (الفرصد) .
٤ تاج العروس (١٠/٢٨٥) ، (الفوة) .

و (الاحريض) العصفر ، يقال حرض ثوبه إذا صبغه بالاحريض[1] .

و (النكع) اللون الأحمر ، وزهرة حمراء يصبغ بها . و (النكعة) ثمر النقاوى، وهو نبت أحمر ، ومنه الحديث : كانت عيناه أشد حمرة من النكعة . وهي صمغة القتاد (القناد)[2] . و (الصِرف) صبغ أحمر تصبغ به شرك النعال[3] . و (اللك) نبات يصبغ به ، وهو صبغ أحمر يصبغ به جلود البقر والمعز وغيرها، و(اللكاء) الجلود المصبوغة باللك[4] .

وأكثر أصباغهم ، هي أصباغ أخذت من النبات . وهو شيء طبيعي لسهولة استحصال الأصباغ من النبات ، ولتوفره لديهم في الحضر وفي البرّ . أما الأصباغ المستخرجة من المعادن ، فهي أقل بكثير من الأصباغ المستخرجة من النبات ، لما يحتاج استخراج الأصباغ منها الى مهارة وحذق وتقدم في الصناعة والعلم .

العصير :

والعصير ، هو ما يحلب من الشيء اذا عصرته ، وهو العصارة . ويعصر كل ماله دهن أو شراب أو عسل ، وأمثاله . و (المعصرة) موضع العصر ، والمعصر، ما يعصر فيه العنب ، والمعصار الذي يجعل فيه الشي فيعصر حتى يتحلب ماؤه . والعواصر ، ثلاثة أحجار يعصر بها العنب ، يجعلون بعضها فوق بعض[5] .

وتعصر الأشياء للشرب ، كالخمور والأشربة ، أو للتداوي ، لاستعمال العصير دواءً يتداوى به ، أو لاستخراج الدهن من المعصور . وقد استعمل المزارعون المعاصرَ لعصر الأعناب أو لاستخراج الزيوت من البذور ونسمى (المعصرة) (موهت) في المسند ، من أصل (وهت)[6] . ومن معاني هذه اللفظة الضغط وشدة الدوس،وهي تستعمل في الحقول كما تستعمل في البيوت وفي محلات الاتجار بالزيوت .

---

١ تاج العروس (٥/١٩) ، (حرض) .
٢ تاج العروس (٥/٥٣١) ، (نكع) .
٣ تاج العروس (٦/١٦٤) ، (صرف) .
٤ تاج العروس (٧/١٧٤) ، (لك) .
٥ تاج العروس (٣/٤٠٥) ، (عصر) .
٦ REP. EPIGR. 2876, V. p. 209.

و (القطران) ، عصارة الأبهل والارز ، وهو ثمر الصنوبر . يطبخ فيتحلب منه ، ثم يهنأ به الإبل[1] . ويتخذ القطران من الإثرار ، وهو شجر يقتدح سريعاً اذا كان يابساً[2] . كما يتخذ من العرعر[3] .

والزفت ، كالقير ، وقيل هو القار ، والزفت المطلى بـه ، وهو غير القير الذي يقير به السفن ، انما هو شيء أسود أيضاً يمتن به الزقاق الخمر . وقد نهي في الحديث عن المزبت والمقير . والزفت أيضاً دواء . وهو شيء يخرج من الأرض يقع في الأدوية[4] . وذكر أهل الأخبار ، انهم كانوا يستخرجون (الزفت) من أعجاز شجر (الأرز) وعروقه ، وانهـم كانوا يستصبحون بخشب الأرز . وقد أشير اليه في الحديث[5] . وقد استخرجوا الزفت من شجر (التنوب) وغيره من ضروب الصنوبر ، وهو قريب من دهن القطران[6] .

الزيوت والدهون :

ويستعمل الحضر الزيت في أكلهم وفي تزييت شعرهم ، وفي أمـور أخرى . وهم يحصلون عليه من النبات بعصر لب الثمر المتشبع بالزيت . واليمن هي على رأس الأمصار العربية في انتاج الزيت . زيت الزيتون وغيره ، وقد كانت تصدره الى الحجاز والى مواضع أخرى من جزيرة العرب . والزيت في اللغة دهن ، وهو عصارة الزيتون[7] . ويعد التزييت ، أي التدهن بالزيت الجيد المطيب من علائم النعيم والرفاه .

و (السليط) ، الزيت عند عامة العرب وعند أهل اليمن دهن السمسم ، وقد ذهب بعضهم الى العكس . وقيل هو كل دهن عصر من حب . وذكر أن دهن

---

١ تاج العروس (٣/٤٩٩ وما بعدها) ، (قطر) ، نهاية الارب (١١/٣٢٣) .
٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٨) .
٣ عرام (٤٠٣) .
٤ تاج العروس (١/٥٤٦) ، (زفت) .
٥ تاج العروس (٤/٣) ، (ارز) .
٦ نهاية الارب (١١/٣٢٤) .
٧ تاج العروس (١/٥٤٦) ، (زيت) .

السمسم هو السيرج والحل[1] . و (السيرج) ، هو (الشَّيْرج)[2] ، دهن السمسم[3] ، و (الحَل) ، هو الشيرج ، أي دهن السمسم[4] .

ومن الدهون ، دهن يستخرجه أهل اليمن من (الكاذى) . والكاذى شجر شبه النخل في أقصى بلاد اليمن ، وطلعه هو الذي يصنع منه الدهن . وذكر أنهم كانوا يقلعون طلع (الكاذى) قبل أن ينشق ، فيلقى في الدهن ويترك حتى يأخذ الدهن ريحه ويطيب[5] . ودهن الغار ، دهن يستخرج من شجر الغار ، وهو شجر الغار ، وهو شجر له حمل أصغر من البندق أسود يقشر ، له لبٌ يستخرج منه الدهن ، وورقه طيب الريح يقع في العطر ، ويستعمل ثمره في الأدوية . ويستصبح بدهن الغار[6] .

واستخرج أهل (الشوع) دهناً منه ، كما يستخرج أهل السمسم دهناً منه . وذكر ان (الشوع) شجر البان ، الواحدة (شوعة) . وهو يريع ويكثر على الجدب وقلة الأمطار ، وهو مطلوب مرغوب ، فكان الناس يسلفون في ثمره الأموال[7] . و (البان) ، شجر يستخرج من حبّ ثمره دهن طيب يستعمل في التدهين وفي معالجة أمراض عديدة . وقد ذكر في شعر (امرىء القيس)[8] .

وزيت مقتت ، اذا أغلي بالنار ومعه أفواه الطيب ، ودهن مقتت مطيب طبخ فيه الرياحين ، أو خلط بأدهان طيبة . والتقتيت جمع الأفاويه كلها في القدر وطبخها[9] .

واستخرج من موم العسل شمع ، وهو ما يستصبح به . ويذكر علماء اللغة أن (الموم) لفظة مولدة جاءت من الفارسية ، وأن لفظة (الشمع) لفظة مولدة كذلك[10] . ونظراً لوجود العسل بكثرة في اليمن وفي (السراة) وفي مواضع أخرى

---

١ تاج العروس (١٥٨/٥) ، (ملط) .
٢ كصيقل وزينب .
٣ تاج العروس (٦٤/٢) ، (شرج) .
٤ تاج العروس (٢٨٦/٧) ، (حلل) .
٥ تاج العروس (٣١٢/١٠) ، (كذا) .
٦ تاج العروس (٤٥٧/٣) ، (غار) .
٧ تاج العروس (٤٠٤/٥) ، (شوع) .
٨ تاج العروس (١٤٧/٩) ، (البون) .
٩ تاج العروس (٥٧١/١) ، (قت) .
١٠ تاج العروس (٤٠٢/٥) ، (شمع) .

من جزيرة العرب في الجاهلية ، فلا استبعد استخدام أهل الجاهليين شمع العسل لصنع الشموع للاستصباح ولأغراض أخرى .

والحرض ، الأشنان تغسل به الأيدي على أثر الطعام . وشجرته ضخمة وربما استظل بها ، ولها حطب وهو الذي يغسل به الناس الثياب . وقد مدح الأشنان النابت بجو الخضارم باليمامة . والحرّاض من يحرقه للقلي ، أي الذي يوقد على الحرض ليتخذ منه (القلى) للصبّاغين . يحرق الحمض رطباً ثم يرش الماء على رماده فينعقد فيصير قلياً . قال عدي بن زيد العبادي :

مثل نار الحراض يجلو ذرى المز ن لمن شامه إذا يستطير[1]

و (القصيص) نبت ينبت في أصول الكمأة ، يجعل غسلاً للرأس . وقد ذكر في شعر عدد من الشعراء ، منهم امرؤ القيس ، والأعشى وعدي بن زيد العبادي[2].

الصمغ :

الصمغ في تعريف علماء العربية : غراء القرظ ، وهو الصمغ العربي ، ولكل شجر صمغ ، وهو نضحه فيسيل منه[3] . وكانوا يشرطون الشجر ليخرج منه غراءه ، أو كانوا يعصرون بعض النبات ، فيخرج منه عصير ، يستخرجون منه صمغاً . ومن الأشجار التي استخرجوا منها الصمغ (الصاب) ، يشرط فيخرج منه غراء ، وهو شيء مرّ ، ينعقد كالصبر[4] . واستخرجوا صمغاً من (القرظ) ، وهو شجر معروف في بلاد العرب ، استخرجوه من عصارته ، استفادوا منه في الطب ، دعاه الأطباء الاسلاميون : (أقاقيا)[5] . و (الصرب) ، صمغ أحمر يستخرج من الطلح ، وقيل هو صمغ الطلح والعرفط ، وهي حمر كأنها سبائك تكسر بالحجارة[6] .

---

١ تاج العروس (١٩/٥) ، (حرض) .
٢ تاج العروس (٤٢٣/٤) ، (قصص) .
٣ تاج العروس (٢٢/٦) ، (صمغ) .
٤ تاج العروس (٣٤٠/١) ، (صوب) ، (٢٢/٦ ، (صمغ) .
٥ تاج العروس (٢٥٨/٥) ، (قرظ) .
٦ تاج العروس (٣٣٤/١) ، (صرب) .

والعرب تسمي صمغ العرفط عسلاً لحلاوته ، وعسل اللبنى طيب ، وهو صمغ ينضح من شجرة يشبه العسل لا حلاوة لـــه ، ويتبخر به . وعسل الرمث شيء أبيض يخرج منه كالجمان[1] .

و (الأيدع) ، صمغ أحمر يؤتى به من (سقطرى) ويتداوى به . داووا به الجراح . وذكر ان الأيدع صبغ أحمـــر ، وهو خشب البقـم . وقيـل هو دم الأخوين . وقيل الأيدع شجر له حبّ أحمر يصبغ به أهل البدو ثيابهم . وان البقم يحمل في السفن من بلاد الهند . وقد اشتهرت جزيرة سقطرى بأحسن أنواع الأيدع والصبر ، حتى قيل : صبر سقطرى[2] . وذكر ان (دم الأخوين) هو (القاطر المكي) ، وهو عصارة حمراء[3] .

وقد عرفت جزيرة العرب بتصديرها بعض أنواع الصمغ واللثى ، وهو شيء يسقط من شجر السمر ، أو هو ماء يسيل من الشجر كالصمغ ، فإذا جمد ، فهو صعرور . وقيل شيء يسيل من الثمام وغيره ، وللعرفط لثى حلو يقـــال له المغافير[4] . والمغافير ، هو صمغ شبيه بالناطف ينضحه العرفط ، وقد يكون المغفور للعشر والسلم والثمام والطلح وغير ذلك . وورد ان المغافير : صمغ الرمث والعرفط ، وذكر أن المغافير عسل حلو مثل الرب إلا انه أبيض[5] .

و (العلك) ، المضغ ، وصمغ الصنوبر والارزة والفستق والسرو والينبوت والبطم ، وهو أجودها . يمضغ في الفم ، للتسلية ولمنع العطش بظهور اللعـــاب في الفم ، ولأغراض طبية[6] . وقد اشتهر علك الضرو ، المستخرج من شجر الضرو ، الذي ينبت باليمن . ويعالج به في الطب[7] .

و (الكندر) اللبان ، وهو ضرب من العلك ، يستخدم في الطب[8] . واللبان شجيرة شوكة لا تسمو أكثر من ذراعين ولها ورقة مثل ورقة الآس ، وثمره مثل

---

١ تاج العروس (١٧/٨) ، (عسل) .
٢ تاج العروس (٥٦٤/٥) ، (أيدع) .
٣ تاج العروس (٥٠١/٣) ، (قطر) .
٤ تاج العروس (٣٢٣/١٠) ، (لثى) .
٥ تاج العروس (٤٥٣/٣) ، (غفر) .
٦ تاج العروس (١٦٤/٧) ، (علك) .
٧ تاج العروس (٢١٩/١٠) ، (ضرى) .
٨ تاج العروس (٥٢٩/٣) ، (الكندر) .

ثمرته ، وله حرارة في الفم . وهي من الصمغ . وذكر أن اللبان شجر الصنوبر[1]. وذكر أن لحب ثمر البان دهن طيب ، وحبّه نافع لمعالجة جملة أمراض جلدية وأمراض داخلية[2] . وذكر أن (الشوع) ، شجر البان ، أو ثمره . قيل إنه يربع ويكثر على الجدب وقلة الأمطار ، والناس يسلفون في ثمره الأموال . وأهل الشوع يستعملون دهنه ، كما يستعمل أهل السمسم دهن السمسم . وهو جبلي ، وقيل ينبت في السهل والجبل[3] .

وورد أن الكندر لا يكون إلاّ بالشحر من اليمن ، ومنابت شجره الجبال ، وقد استعمل دواءً لمعالجة أمراض عديدة[4] .

والصبر ، أنواع فيه العربي والأسقطري ، وأجوده (الأسقطري) . وهو عصارة شجر ، تترك حتى تثخن ، ويشمس حتى يجف . وفي اليمن نوع منه أحمر ملمع بصفرة[5] .

و (الضجاج) مثل شجر (اللبان) يكون في أرض عمان . وهو صمغ أبيض تغسل به الثياب ، فينقيها مثل الصابون[6] . وذكر أنه ثمر نبت أو صمغ تغسل به النساء رؤوسهن[7] .

والمقل ، يستخرج من شجر يشبه الكندر ، طيب الرائحة ، وأكثر نباته فيما بين الشحر وعمان ، وذكر أن المقل المكي ، هو صمغ الدوم ، لأن الدوم هناك يدرك ويصمغ[8] .

و (الدبس) عسل التمر وعصارته ، وهو ما يسيل من الرطب . ويقال له : (الصقر) في لغة أهل يثرب . وذكر انه ما سال من جلال التمر . وأطلق أيضاً على تحلب من الزبيب والعنب[9] . و (الصقر) عند أهل البحرين ما سال

---

١ تاج العروس (٩/٣٢٩) ، (لبن) .
٢ تاج العروس (٩/١٤٧) ، (البون) .
٣ تاج العروس (٥/٤٠٤) ، (شوع) .
٤ نهاية الارب (١١/٢٩٩ وما بعدها) .
٥ نهاية الارب (١١/٣٠٤ وما بعدها) .
٦ نهاية الارب (١١/٣٠٩) .
٧ تاج العروس (٢/٦٨) .
٨ نهاية الارب (١١/٣٢١ وما بعدها) .
٩ تاج العروس (٤/١٤٥) ، (دبس) .

من جلال التمر التي كنزت وسدك بعضها على بعض في بيت مضرج تحتها خواب خضر ، فينعصر منها دبس خام كأنه العسل[1] .

والصبيب عصارة ورق الحناء والعصفر ، وقيل هو العصفر[2] .

الدباغة :

والدباغة حرفة الدبّاغ ، دبغ الإهاب بمـا يدبغ به[3] . والإهاب الجلد من البقر والغنم والوحش ، أو هو ما لم يدبغ[4] . وقد استخدم الدباغون في ذلك مواد مختلفة ، بعضها بدائية ، وعالجوا الجلد قبل دبغه لترقيقه وتنظيفه وصقله . وقد اشتهرت في ذلك جملة مواضع ، منها : مدينة (جرش) ، وهي من مخاليف اليمن من جهة مكة ، وقد نسب اليها الأدم المعروف بـ (أدم جرش) ، و (أدم جرشي) ، وهي مدينة تسقى بالآبار ، يستخرج منها الماء بالدلاء ، على الإبل، وقد فتحت في حياة النبي في سنة عشر للهجرة صلحاً على الفيء ، وأن يتقاسموا العُشر ونصف العشر[5] . وقد اشتهرت بإبلها كذلك ، التي نسبت اليها[6] . ومنها (صعدة) ، في مخلاف خولان ، وكانت تسمى في الجاهلية (جماع) ، وكان بها قصر قديم ضخم . ذكر (الهمداني) انها كورة بلاد خولان وموضع الدباغ في الجاهلية ، وذلك انها في موسط بلاد القرظ . وقد اشتهرت أيضاً بالنصال[7] . ونعتها بأنها « بلد الدباغ في الجاهلية الجهلاء ، وهي في موسط بلد القرظ ، ربما وقع فيها القرظ من ألف رطل الى خمسمائة بدينار مطوق على وزن الدرهم القفلة»[8].

والأدم من السلع المهمة المشهورة في تجارة أهل الجاهلية . والأديم ، الجلـد الذي قد تمّ دباغه . وقيل الجلد ما كان أو أحمره أو مدبوغه ، وقيل هـو بعد

---

١ تاج العروس (٣/٣٣٩) ، (صقر) .
٢ تاج العروس (١/٣٣١) ، (صبب) .
٣ تاج العروس (٦/٨) ، (دبغ) .
٤ تاج العروس ١(/١٥١) ، (أهب) .
٥ البلدان (٣/٨٥) .
٦ تاج العروس (٤/٢٨٧) ، (جرش) .
٧ الصفة (٦٦ وما بعدها) .
٨ الصفة (١١٤) .

الافيق ، وذلك إذا تمّ واحمر[1] . ويدخل في الحرف التي تقوم على تحويل الجلد الى سلع ، مثل الأحذية ، وصنع القباب . التي تضرب للملوك وللسادة وللأشراف امارة على الرئاسة والسيادة . وتصبغ جلودها بلون أحمر في الغالب . وكانت غالية، لذلك لم يستعملها إلا أصحاب الجـاه والمال . فكان سادة مكة إذا نزلوا منزلاً ضربوا قباباً من أدم[2] ، وكان حكام عكـاظ والسادات الذين يحضرون السوق ، يضربون لهم قباباً ، وأما سائر الناس ، فيضربون لهم بيوت الشعر . وبيوت الشعر أرخص ثمناً من قباب الأدم .

وقد اتخذ العرب بيوتاً من جلد عرفت بـ (القشاعة) و (القشوع) ، وذكر بعضهم أن (القشاعة) بيت من أدم . وربما اتخذوا من جلود الإبل صواناً للمتاع[3]. وذكر أن البيت من أدم ، هو (الطراف) . وهو بيت من بيوت الأعراب ليس له كفاء ، قال طرفة بن العبد :

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدد[4]

وقد اشتهرت اليمن بدباغة الجلود وبالاستفادة من هـذه الجلود في أغراض مختلفة ، وبتصدير الجلود الى أماكن أخرى من جزيرة العرب . ولا تزال اليمن تصنع الجلود على الطريقة القديمة ، وتصدرها الى الخارج . وقد ذكر (ابن المجاور) ان الأديم يدبغ في جميع اقليم اليمن والحجاز ، وانهم يبيعونه طاقات بالعدد ، وقد اشتهرت مكة بدبغ الجلود كذلك ، جلود الجمال والبقر والغزلان[5] . واشتهرت الطائف في دباغة الجلود كذلك ، وذُكر ان مدابغها كانت كثيرة ، وأن مياهها كانت تنساب الى الوادي فتنبعث منها روائح كريهة مؤذيـة[6] . وكانوا يدبغون

---

١ تاج العروس (٨/ ١٨١) ، (أدم) ، المفضليات ، للضبي (٥٦) ، (أحمد محمد شاكر)، (دار المعارف ١٩٦٤م) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/ ١ ، ص ٤١) .

٣ تاج العروس (٥/ ٤٦٧ وما بعدها) ، (قشع) .

٤ تاج العروس (٦/ ١٧٩) ، (طرف) .

٥ ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجـاز ، المسماة تأريخ المستبصر ، القسم الاول (ص ١٣) .

٦ البلدان (٦/ ١٠ وما بعدها) .

بصورة خاصة الأدم الثقيل المليح[1] . وذكر (الهمداني) ، انها « بلد الدبّاغ ، يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة »[2] .

وقد ذكر علماء اللغة أسماء مواد كثيرة استعملت في دباغة الجلود ، وذكروا أيضاً طرقاً متعددة في كيفية الدبغ وفي أسماء الجلود المدبوغة والمواد التي تصنع من مختلف الجلود[3] . والواقع ان اعتماد العرب الجاهليين على الجلود كان كبيراً ، لأنها كانت متيسرة لديهم ، وهي أسهل في العمل من الخشب أو الحديد أو الأشياء الأخرى بالنسبة الى عمال جزيرة العرب في ذلك العهد .

و (القرظ) من أهم ما استعمل في دباغة الأدم، يجلب فيطحن بحجر الطواحين، ثم يستعمل في الدباغة . ومن (العقيق) يجلب القرظ الى مكة لاستعماله في الدباغة[4]. وقد أشار بعض الأخباريين الى ضخامة حجر الطواحين التي يطحن بها القرظ[5] . واستعمل (الغرف) في الدباغة كذلك.وعرفت الجلود التي تدبغ به بالجلود الغرفية، ومنها جلود يمانيـــة وجلود بحرانية . وسقاء غرفي دبغ بالغرف . وكذلك مزادة غرفية[6] .

ومن المواد التي استعين بها في دباغة الجلد : (الدهناء) . وهي عشبة حمراء لها ورق عراض يدبغ به[7] ، و (القرضم) قشر الرمان ، ويدبغ به[8] . و(الشث) نبت طيب الريح مر الطعم يدبغ به ، قيل ينبت في جبال الغور وتهامة ونجد . وذكر بعضهم (الشب) في جملة ما كان يدبغ به[9] . و (الأرطى) شجر دبغ به ، وعرف الجلد الذي يدبغ به بـ (المأروط) وبـ (الأرطى) ، وبـ (أديم مرطى)[10] .

---

١ ابن المجاور (١/٢٥) ·
٢ الصفة (١٢٠) ·
٣ المخصص (٤/١٠٠ وما بعدها) ·
٤ تاج العروس (٥/٢٥٨) ، (قرظ) ، ابن المجاور (١/٣٢) ·
٥ ابن المجاور (١٠/٢٠) ·
٦ تاج العروس (٦/٢٠٩) ، (غرف) ·
٧ تاج العروس (٩/٢٠٥) ، (دهن) ·
٨ تاج العروس (٩/٢٤) ، (قرضم) ·
٩ تاج العروس (١/٦٢٧) ، (شث) ·
١٠ تاج العروس (٥/١٠١) ، (ارط) ·

وعرف الجلد الذي يدبغ بغير (القرظ) بـ (الجلد الحوري)[1] . و (الأفيق) الجلد الذي لم يتم دباغه ، أو الأديم دبغ قبل أن يخرز أو قبل أن يشق . وقيل هو ما دبغ بغير القرظ والأرطى وغيرهما من أدبغة أهل نجد ، وقيل هو حين يخرج من الدباغ مفروغاً منه ، وقيل رائحته ، وقيل ما يكون من الجلد في الدباغ[2] .

الخمور :

وقد اتخذوا من التمور والكروم والشعير والذرة خموراً ، وذكر ان الخمر ما أسكر من عصير العنب خاصة . وتستعمل لفظة (الشراب) في معنى الخمر كذلك . وفي الحديث حرمت الخمر وما شرابهم يومئذ إلا الفضيخ البسر والتمر ، ونزل تحريم الخمر التي كانت موجودة من هذه الأشياء لا في خمر العنب خاصة[3]. وأما النبيذ ، فهو ما نبذ من عصير ونحوه ، كتمر وزبيب وحنطة وشعير وعسل، يقال نبذت التمر والعنب ، اذا تركت عليه الماء ليصير نبيذاً ، وقد ينبذ في وعاء عليه الماء ويترك حتى يفور فيصير مسكراً . وسواء أكان مسكراً أو غير مسكر ، فإنه يقال له : نبيذ ، ويقال للخمر المعتصر من العنب نبيذ ، كما يقال للنبيذ خمر[4] .

ويظهر من كتب الحديث ، ان أكثر خمور أهل المدينة هي خليط من البسر والتمر[5] . وأن منهم من كان يخلط الزبيب والتمر ، أو الرطب والبسر . وكانوا ينتبذونها في الدباء ، والمزفت ، والحنتم ، والنقير ، والمقير[6] .

وذكر أن الخليفة (عمر) حدد المواد التي تعمل منها الخمور بخمسة أشياء : الحنطة ، والشعير ، والتمر ، والزبيب ، والعسل . وجعل الخمر ما خامر العقل[7].

---

١ تاج العروس (٣/١٦١) ، (حور) .
٢ تاج العروس (٦/٢٨٠) ، (أفق) .
٣ تاج العروس (٣/١٧٦ وما بعدها) ، (خمر) .
٤ تاج العروس (٢/٥٨٠) ، (نبذ) .
٥ صحيح مسلم (٦/٨٨) .
٦ صحيح مسلم (٦/٩٢ وما بعدها) .
٧ صحيح مسلم (٨/٢٤٥) ، (باب في تحريم نزول الخمر) .

وقد ذكر هذه الأشياء لأنها كانت هي الشائعة المعروفة عند أهل مكة ويثرب في ذلك العهد على ما يظهر ، لأن هناك خموراً عملت من غير هذه الأشياء .

وكان لأهل اليمن شراب عرف عندهم بـ (البتع) ، وهو من العسل ينبذ حتى يشتد ، وذكر أنهم كانوا يطبخون العسل حتى يعقد ، فيكون البتع . وشراب عرف بـ (المزر) ، وهو من الذرة[1] . وخطب (أبو موسى الأشعري) ، فقال : « خمر المدينة من البسر والتمر ، وخمر أهل فارس من العنب ، وخمر أهل اليمن البتع ، وهو من العسل ، وخمر الحبش السكركة »[2] . وقد ذكر (ابن عمر) الأنبذة ، فقال : « البتع نبيذ العسل : والجعة نبيذ الشعير ، والمزر من الذرة ، والسكر من التمر ، والخمر من العنب »[3] . وذكر أن المزر نبيذ الذرة والشعير والحنطة والحبوب ، وقيل نبيذ الذرة خاصة[4] . ويظهر أن اطلاق المزر على أنبذة الحبوب ، هو من باب التجوز والتعميم ، وأن الأصل هو نبيذ الذرة .

و (الضريّ) ، الماء من البسر الأحمر والأصفر يصبونه على النبق فيتخذون منه نبيذاً[5] .

وقد اشتهرت (دُرْنى) بخمورها المصنوعة من الكروم ، وقد ذكرها (الأعشى) في شعره . وكان الأعشى ، يزورها ، وذكر انها هي (أثافت) التي ذكرها (الأعشى) أيضاً في شعره ، فقال :

أحب أثافِتَ وقت القطاف   ووقت عصارة أعنابها

وكان كثيراً ما يزورها ، وله بها معصر للخمر يعصر فيه ما أجزل له أهل أثافت من أعنابهم[6] . وورد انها من قرى اليامة ، كما ذكرت ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

---

١ صحيح مسلم (٦/٩٩ وما بعدها) ، (باب بيان ان كل مسكر خمر ، وان كل خمر حرام) .
٢ تاج العروس (٥/٢٦٩) ، (بتع) .
٣ تاج العروس (٣/٥٤١) ، (مرز) .
٤ المصدر نفسه .
٥ تاج العروس (١٠/٢٢٠) ، (ضرى) .
٦ الصفة (٦٦) .

وأنا لا أستبعد استخدام الجاهليين للماء في ادارة المطاحن ، وقد ذكر (الهمداني) أن أهل اليمن بأودية : سربة ، وشُراد ، وبنا ، وماوة ، والموفد ، وجمع ، ويحصب ، وأودية رعين ، ووادي ضهر ، كانوا يديرون مطاحنهم بالماء[1] . ولم يشر (الهمداني) الى تأريخ استعمال هذه المطاحن التي تدار بالماء ، ولكني لا أستبعد أخذهم هذه الصناعة من الجاهليين ، وقد أشير الى الطحن والمطاحن والطحين في نصوص المسند . ورد في بعضها ان الحكومات كانت تتقاضى الإتاوة من الناس إما نقداً ، وإما (ورقاً) ، أي ذهباً سبائك ، وإما (طحناً) أي طحيناً ، وهو الدقيق . ويقال له (طحنم) و (طحن) في المسند ، وإما (دعتم) ، أي بضاعة ، بمعنى مواد عينية . فذكر (الطحين) في هذه النصوص ، يشير الى وجود المطاحن بكثرة في اليمن ، وربما كانت تصدر الفائض منه الى الخارج .

---

١ Handbuch, I, S. 137.

الفصل الرابع عشر بعد المئة

الحرف

من الحرف المتداولة بين الجاهليين النجارة والحدادة والحياكة والنساجة والخياطة والصياغة والدباغة والبناء ونحوها من حرف يحترفها الحضر في الغالب. أما الأعراب فقد كانوا يأنفون من الاشتغال بها، وينظرون الى المشتغلين بها نظرة احتقار وازدراء لأنها في عرفهم حرف وضيعة، خلقت للعبد والرقيق والمولي، ولا تليق بالحرّ، حتى إن الشريف منهم وذا الجاه، كان لا يحضر وليمة يدعوه اليها شخص من أصحاب هذه الحرف، استنكافاً وازدراءً؛ لأنه ليس في منزلته ومكانته. وقد كان عمل الرسول كبيراً في نظر رؤساء القوم يومئذ، حينما جوّز حضور طعام الخيّاط والصائغ وأمثالها، وكان يحضر منازلهم، فعدّ القوم ذلك عملاً غير مألوف ومخالفاً للعرف والتقاليد [1].

وقد كان أكثر أهل القرى ينظرون الى الحرف والمحترفين بها نظرة ازدراء كذلك، ويأنفون لذلك من التزاوج معهم، ويعيّرون من يتزوج من امرأة أبوها قين أو نجار أو دبّاغ أو خياط، ويلحق هذا التعيير الأبناء كذلك. وينظرون هذه النظرة الى المشتغلين بزراعة الخضر مثل البقول في الغالب، ولا تزال هذه النظرة معروفة في جزيرة العرب وفي أماكن أخرى خارج حدود هذه الجزيرة

---

١ « وفيه جواز أكل الشريف طعام الخياط والصائغ واجابته دعوته »، « باب ذكر الخياط »، عمدة القاريء (١١/ ٢١٠ وما بعدها).

كالعراق . وهذه هي مشكلة من جملة المشكلات التي أثرت في الاقتصاد العربي وفي الحياة الاجتماعية ، وإن كانت قد أخذت تخف في هذه الأيام .

ولم يكن العرب وحدهم ينظرون الى الحرف والمشتغلين بها نظرة ازدراء ، بل كانت شعوب العالم كلها تقريباً تنظر الى طبقة أصحاب الحرف مثل هذه النظرة؛ لأن الحرف هي من أعمال الطبقات الدنيا من سواد الناس الرقيق والموالي . أما الحُرّ ، فلم يخلق لها ولم تخلق له . كذلك كانت نظرة قدماء اليونان الى هذه الحرف ، لأنها عندهم من الأعمال التي يقوم بها سواد الناس ورقيقهم[1] .

وهذه الحرف لم يختص بها الجاهليون وحدهم،بل كانت عامة معروفة ومتداولة عند جميع الشعوب لتلك العهود. وهي لبساطتها وبداءتها متشابهة،لا تجد اختلافاً في آلاتها وأدواتها المستعملة عند الشعوب . فأدوات النجار تكاد تكون واحدة، سواء أكانت عند النجار العربي الجاهلي ، أو النجار العبراني ، أو النجار النبطي . وكذلك قل عن أدوات الحدّاد والصائغ وغيرهما من الطبقات العاملة التي ترتزق وتعيش على هذه الحرف التي تعتمد على اليد .

ونجد في كتب اللغة والأدب وأمثالها ألفاظاً عديدة معربة ، استعملها أهل الجاهلية وذلك بتعريبها ونقلها من أصول عجمية معروفة ، فيها الفارسي والآرامي واليوناني واللاتيني والحبشي والنبطي . وهي مما يدخل في باب الآلات والأدوات والمآكل والملابس والبيت والثقافة والعلم ، دخلت العربية، لأنها كانت مصطلحات متداولة عند أهلها معروفة ، أخذها العرب منهم باحتكاكهم وبتأثرهم بهم ، وقد صقل بعضها وهذب ووسم بسمة عربية ، وأدخل على بعض آخر بعض التعديل ليتناسب مع أسلوب النطق العربي ، وقبل بعض آخر على نحو ما كان في أصله واستعمل في العربية حتى صار في ظن من لا وقوف له على العربية انه عربي صميم .

والألفاظ المعربة التي نعنيها ، قديمة ، دخلت قبل الاسلام بمئات السنين . وقد استعملتها الألسن وتداولتها ، وصارت بهذا الاستعمال ألفاظاً عربية مستساغة . ومنها ما هو مستعمل حتى الآن . وجمع هذه الكلمات وضبط معانيها وتبويبها وتصنيفها ، عمل مهم نافع أرجو أن يتهيأ له أصحاب العلم والاختصاص ، فبها

---

[1] Hastings, p. 52.

نتمكن من الوقوف على الاتصال الفكري الذي كان بين العرب وغيرهم ، وبها نتمكن أيضاً من الوقوف على مدى الاتصال ومقدار تغلغله في جزيرة العرب . وبأمثال هذه الدراسة سنتمكن أيضاً من تكوين صورة علمية صحيحة للتأريخ الجاهلي وهي صورة ستغير ، ولا شك ، كثيراً من هذه الآراء القديمة عند كثير من الناس عن الجاهليين ، تكونت من دراستهم لروايات أهل الأخبار عن العرب قبل الاسلام .

ولم يخفَ أمر هذه المعربات عن قدماء علماء اللغة ، فقد أدركوا وجودها ودخولها في العربية قبل الاسلام ، وألفوا فيها ، وأشاروا اليها في معجمات اللغة ووضع بعضهم بحوثاً في معربات القرآن . وهي تفيدنا فائدة كبيرة بالطبع في الوقوف على الصلات الثقافية التي كانت بين العرب والعالم الخارجي قبل الاسلام، وإن كانت تلك البحوث والمؤلفات قد كتبت بطريقة ذلك العهد ، استناداً الى الروايات دون التثبت منها وتعرّف أصولها وتتبع مواردها بدراسة اللغات الأجنبية ومقارنتها ومطابقتها بالأصل . وهي طريقة أوقعتهم في أغلاط ، ولكنها، أفادتنا مع ذلك فائدة كبيرة في معرفة هذا الغريب الدخيل ، وفي تكوين رأي في الدراسات اللغوية عند علماء اللغة القدامى[1] .

وقد عثر الرحالون والمنقبون على ألواح من الخشب وعلى شبابيك ومواد خشبية أخرى في اليمن وفي حضرموت منقوشة نقشاً بديعاً ومحفورة حفراً يدل على دقة الصنعة وإتقان في العمل . وهي شاهد على تمكن النجار من مهنته ، وعلى قدرته فيها ، وعلى حسن استعماله ليده وعلى سيطرته عليها في استخدامها للأدوات النجارية في صنع النفائس والطرائف من الخشب .

والحرف وراثية في الغالب ، يتعلمها الإبن عن والده ، وتنحصر في العائلة فتنتقل من الآباء الى الأبناء . ولا يسمح لغريب أن يتعلم أسرار الحرفة وأن يقف عليها وخاصة في الحرف المربحة وفي الحرف التي تحتاج الى مهارة ودقة وذكاء خوفاً من وقوع المنافسة ، وانتقال سر العمل والنجاح الى شخص غريب فينافس أصحاب الحرفة في عملهم وينتزع منهم رزقهم . لذلك حوفظ على أسرار المهنة ، ولم يبح بأسرارها حتى لأقرب الناس اليهم ، وفي حالة اكتشاف رجل طريقة جديدة غير

---

١ المعرب ، للجواليقي ، الاتقان في علوم القرآن ، للسيوطي (١/٢٣١) .

معروفة في حرفته، فإنه يحتفظ بسره حتى لا يتسرب الى الغرباء ومنهم من لا يعلّم حتى أولاده سرّ المهنة إلا في حـالة شعوره بعجزه عن العمل أو بقرب وفاتـه ودنوّ أجله، خشية انتقال السر منهم الى غيرهم، فينافسونهم على رزقهم ومصدر قوتهم من هذا السرّ .

وينضم أصحاب الحرف بعضهم الى بعض مكوّنين (صنفاً)، أي طبقة خاصة، تتعاون فيما بينها تعاون النقابات الحرفية والمهنية في الوقت الحاضر، يتولى رئاستها أبرز رجال (الصنف) . وإذا مات أحدهم تعاونوا في تشييعه ودفنه وفي مساعدة أهله ومؤاساتهم . وذلك لحماية رجال الحرفة من كل سوء قد يقع عليها وللمحافظة على حياتهم، ولا يسمح (الصنف) بدخول غريب بينهم، لأنهم جماعة ورثت حرفتها، فلا يجوز لغريب مزاحمتهم فيها .

ويتجمع رجال بعض الحرف في أماكن معينة، كما هو الحال في الوقت الحاضر، كأن يتجمع الحدادون في منطقة معينة، والصاغة في حي، والصفارون في حـي والنجارون في حي، وذلك للتعاون فيما بينهم، وتنسب تلك المحلات اليهم .

وقد تشتهر مدينة ما بحرفة من الحرف، فيكون لمنتوجها شهرة واسعة وتباع بأسعار عالية . وقد تشتهر منطقة بجملة صناعات . فقـد اشتهرت اليمن بالبرود كما اشتهرت بسيوفها، التي اكتسبت شهرة بعيدة واسعة في كل جزيرة العرب . واشتهرت بعقيقها كذلك وبأنواع أخـرى من التجارات . واشتهرت مكة ببعض أنواع العطور واشتهرت ثقيف بالدباغة وبالأدم .

وقد كانت أجور العمل معروفة عند الجاهليين . فتُدفع للعمال والصناع أجور يومية، كما تدفع لهم أجور مقطوعة عن عمل معين . وليس لهـؤلاء العمال من أتعاب عملهم سوى ذلك الأجر المتفق عليه . أما الرقيق، فلا يدفع لهم في العادة أي شيء، سوى ما يقدم لهم من طعام وملبس وحماية . وعليهم في مقابل ذلك الاشتغال بالشغل الذي يوكل اليهم به أسيادهم، ولا حق له بالنسبة لقوانين ذلك الوقت الامتناع عن القيام بالعمل الذي كلفوا به .

والأجور، قد تكون يومية وقد تكون سنوية وقد تكون مقطوعة. ولا يشترط في الأجر أن يكون نقداً، فقد يدفع عينة، أي مالاً مثل طعام، أو كساء، لندرة النقد في ذلك الوقت . ومن أمثلة الحرف التي تدفع عنها الأجور، حرفة

البناء ، فيُدفع للعامل أجر يومي في الغالب . والنجارة والحصاد ، وتدفع عنها أجور مقطوعة على الأكثر والرعي وأمثال ذلك من حرف ، يقوم بها سواد الناس لاعاشة أنفسهم منها .

ويمكن تصنيف وجمع الحرف التي عرفت عند الجاهليين في حرف النجارة ، وهي تنجير الخشب وتحويله الى متاع وأثاث أو الى عمل البناء أو الى تماثيل وزخارف وما أشبه ذلك ، ثم حرف البناء ، وتتناول كل ما يتعلق بالبناء من أعمال ، ثم حرف الإعاشة ، ثم حرف التعدين والمعادن ، ثم حرف الجلود، وحرف الملابس وحرف التجميل وحرف أخرى .

النجارة :

والنجارة من الحرف القديمة المهمة في المدن . وقد عثر على نماذج من مصنوعات خشبية في اليمن تدل علـى حذق النجار وذكائه وتقدمه في مهنته . ويظهر من روايات أهل الأخبار أن أهل مكة والمدينة لم يكونوا على حظ كبير في النجارة ، ولذلك كانوا يستعينون بالرقيق وبالأجانب في أعمال نجارتهم كاليهود أو الروم : وفي الذي رووه عن تسقيف الكعبة في أيام الرسول وقبل نزول الوحي عليه مـا يدل على ندرة النجارين في مكة في تلك الأيام . ويعلل أهل الأخبار ذلك بسبب أنفة العربي من الاشتغال بالحرف . فاعتمد على الأجانب وأغلبهم من الرقيق في اداء هذه الحرفة .

والنجار ، هو الذي ينجر الخشب . فيقوم بنشره وحفره واصلاحه وعمله على النحو المطلوب وحرفته النجارة . وفي هذا المعنى : نجارة الخشب[1] .

ومادة النجارة ، الخشب . وهو نوعان : نوع مستورد من الخارج ، إمـا من الهند ، وإما من إفريقية ، وهو من النوع الجيد الصلب القوي المقاوم . وهو ثمين غال . لهذا استعمل في صنع الأثاث الفاخر الثمين وفي الأدوات التي تحتاج الى خشب صلب مقاوم وفي المعابد والقصور وفي الأبنية المهمة ، ومن أهم أنواعه

---

١ اللسان (٥/١٩٣) ، Hastings, A dicti. of the Bible, I. p. 356.

الساج والآبنوس والعندل . ونوع هو من حاصل أرض جزيرة العرب وناتجها . وهو دون الخشب الأول في المقاومة والجودة ، وفي الاستفادة منه في أعمال النجارة لأن معظمه ليس من النوع الناضج الغليظ الصلد القوي ، لا يصلح إلا للأعمال النجارية الاعتيادية وللوقود، ما خلا أنواعاً قليلة منه استخرجت من بعض الأماكن مثل (النضار) ، وهو خشب غليظ بعض الشيء ينبت شجره في غور الحجاز ، وبعض أشجار اليمن والمناطق الجبلية الأخرى[1] .

وترد في كتابات المسند كلمة (عضم) (عض) ، ويراد بها (الخشب) في لهجتنا[2] ، ترد في كتابات البناء بصورة خاصة ، أي الكتابات التي هي عبارة عن وثيقة بناء ، إذ كان أرباب الدور والأبنية يذكرون المواد التي استخدموها في البناء ، وفي جملة ذلك الخشب . وقد وردت لفظة (العضم) في كتب اللغة بمعنى خشبة ذات أصابع يذرى بها الطعام[3] . ويشترك العبرانيون مع العرب الجنوبيين في تسمية الخشب بـ (عض)[4] .

وقد استخدم الخشب في تقوية الجدر ، استخدموا الخشب القوي الصلد منه . ولا تزال آثاره باقية ظاهرة فيما تبقى من أبنية الجاهليين ، وبعضه قوي لم يعث به الزمن فساداً ، ولم يفنه ، كما استخدم في صنع السقوف والأبواب وفي تقوية السلالم ، وفي صنع الشبابيك وأمثال ذلك من الأعمال التي تدخل في صلب البناء ، وتكون جزءاً منه . وقد استورد معظم هذا الخشب الصلد القوي الساج[5] والآبنوس والصندل[6] من الهند ومن افريقية لعدم وجوده في جزيرة العرب ، ولا تزال آثاره وقطع منه باقية على الرغم من مرور مئات من السنين عليه .

واستخدم الخشب في صنع أثاث البيت وفي كثير من الأدوات المستخدمة في حياة الانسان . وقد عثر على بعض مصنوعات من الخشب استخدمت أثاثاً، تدل على مهارة صناعها وعلى حسن تصرفهم في صنعها وفي هندستها . ويعبر عن الأثاث في المعينية بلفظة (رثد) . وهي في مقابل متاع . وتؤدي أيضاً معنى التنظيم

---

١ تاج العروس (٣/٥٧١) ، (نضر) .
٢ Rep. Epi., Num. 2789.
٣ تاج العروس (٨/٤٠١) ، (عضم) .
٤ راجع المعجمات في العبرانية .
٥ تاج العروس (٢/٦١) .
٦ تاج العروس (٧/٤٠٨) .

والترتيب وتنسيق الأشياء . وفي المسند لفظة أخرى تؤدي هذا المعنى هي لفظة (ربب) ومعناها السناد والأساس أيضاً[1] . وبالمعنى المذكور ترد لفظة (رثد) في عربية القرآن الكريم[2] .

وقد ذكر في القرآن الكريم أسماء بعض الأثاث ، مثل الأرائك[3] والسرر[4] « متكئين على سرر مصفوفة » ، « وسرراً عليها يتكئون » ، و « على سرر موضونة » ، و « على سرر متقابلين » ، و « فيها سرر مرفوعة » ، والكرسي[5] . وقد تصنع السرر من سعف النخيل ، كما تصنع الكرسي في هذه المادة أيضاً ، وتصنع المشاجب من الأعواد المركبة توضع عليها الثياب[6] . واذا بوعد بين الأشياء المنسوج بها السرير أو غيره من سعف النخل ، قيل لذلك مرمل ، فيقال: سرير مرمل ، اذا كان قد نسج وجهه بالسعف ، وبوعد فيه بين الأشياء المنسوج بها[7] .

وقصد بالكرسي ، الكراسي الكبيرة المرتفعة ، وقد استخدم خاصة لجلوس الملوك ، وفي غرف الاستقبال . وقد أشير الى الكرسي في القرآن الكريم . فورد : « وسع كرسيه السماوات والأرض » .

والعرش من الألفاظ الواردة في القرآن الكريم كذلك ، وهو من البيت سقفه ، ويجمع على عروش ، والعرش شبه الهودج أيضاً . وقد يصنع من الخشب ، يقوم بصنعه النجار ، وقد يكون من حجارة أو غير ذلك . ومن ذلك العرش الذي يتربع عليه الملوك ، والعرش : الخيمة من خشب وثمام ، والتابوت أيضاً أي سرير الموت والخشب تطوى به البئر[8] ، والعرش هو السرير الذي ينام عليه . قد يكون له حاجز يمنع النائم من السقوط ، وقد يكون له حاجز . وهو بهذه التسمية (عرش) عند العبرانيين[9] .

---

١ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 53.

٢ شرح القاموس (٢/٣٥٠) .

٣ المفردات في غريب القرآن ، للراغب الاصفهاني (ص ١٤) ، وسيكون رمزه : المفردات ، « وقال الزجاج : فراش في حجلة . وقيل هو السرير مطلقا سواء كان في حجلة أو لا . او كل ما يتكأ عليه » ، شرح القاموس (٧/١٠٠) ، شمس العلوم (١/٧٢) .

٤ المفردات (ص ٢٢٨) .

٥ المفردات (٤٤١) .

٦ جامع الاصول (٤/٣٩٩) ، شرح القاموس (١/٣٠٩) .

٧ جامع الاصول (٩/٣٤٧) ، شرح القاموس (٧/٣٥٢) .

٨ المفردات (ص ٣٣٢) ، تاج العروس (٤/٣٢١) ، (عرش) .

٩ Smith, Vol., I, p. 177.

وقام النجار بصنع أواني الطعام أيضاً ، ولا سيما الأواني الكبار التي تستعمل في إطعام عدد من الناس في المناسبات ، وتدخل بيوت الملوك وسادات القبائل والأغنياء الكرماء في الغالب وفي بعض الظروف والمناسبات ، مثل المآتم والأفراح. ومنها (الجفنة) ، وهي – كما يقول بعض علماء اللغة – أعظم ما يكون من القصاع ، يوضع فيها الطعام ، ليتناول منه عدد من الناس . وقد افتخر الشاعر (حسان بن ثابت) بـ (الجَفَنات) دلالة على الكرم والجود[1] . و (القصعة) وهي تلي الجفنة في السِّعة ، يشبع الضخم منها عشرة أشخاص[2] . ثم (الصحفة) وتجمع على (صحاف) وقد وردت في شعر معزوّ للأعشى :

والمكاكيك والصحاف من الفضة والضامرات تحت الرجال

وتصنع من الفضة كذلك ، كما رأينا في هذا البيت المتقدم ، وذكر أنها تشبع خمسة أشخاص[3] . ويليها في الحجم والسعة (المئكلة) ، تشبع الرجلين والثلاثة . ثم الصحيفة ، وتشبع الرجل[4] .

وتصنع بعض هذه الأواني من مواد أخرى ، كالأدم ، أو من المعدن كما قلت في (الصحاف) حيث تصاغ من الذهب والفضة لبيوت الملوك والأمراء والشيوخ والأغنياء .

وقام النجار ، ولا سيما من تخصص بالقداحة منهم ، بعمل القدح النضار ، وهو القدح المعمول من النضار. والنضار خشب معروف في الحجاز في أيام الرسول يكون بغور الحجاز ، يعمل منه ما رقّ واتسع وغلظ من الأقداح ،وذلك لتحمل هذا الخشب ما لا تتحمله الأنواع الأخرى من الخشب المستخرج من الحجاز . وقد كانوا يدفنون هذا الخشب حتى ينضر ، ثم يعمل فيكون أمكن لعامله في ترقيقه . وقد كان عند الرسول قدح نضار عريض . ويعبر أيضاً عن الأقداح المنحوتة من الخشب بـ (الخشيب)[5] .

---

١ تاج العروس (٩/١٦٢) .
٢ تاج العروس (٥/٤٦٩) ، المعرب (ص ٢٧٤) .
٣ تاج العروس (٦/١٦١) .
٤ تاج العروس (٦/١٦١) .
٥ تاج العروس (١/٢٣٣) ، (٣/٥٧١) .

كما جهز النجارون أصحاب الحرف الأخرى بالأدوات المساعدة التي تساعدهم في حرفهم ، فصنع لأهل الطعام (الروسم) أو (الروشم) ، وهو خشبة فيها كتاب منقوش يختم به الطعام لئلا يسرق منه ، ويستخدمه الحنّاطون وأمثالهم من باعة الطعام ، وقيل : الطابع الذي يطبع به رأس الخابية . واللفظة من الألفاظ المعربة على رأي بعض العلماء[1] . وصنع للمزارعين (النورج) ، وهو المدوس ، يداس به الطعام ، وقد يصنع من الحديد أيضاً[2] . و (الهاون) ، وهو المهراس والمنحاز ، ويدق به ، وقد أدخل في المعربات . وقد يصنع من حجر[3] ، فيدق اللحم أو الحبوب فيه لسحقها .

وصنع النجار (الميتدة) ، وهي مطرقة من خشب ، يستعملها الأعرابي بصورة خاصة لدق أوتاد خيمته في الأرض . وتعرف بـ (مقبه) (مقابه) عند العبرانيين[4] .

وصنع النجار أبواب البيوت ، ويقال للخشبة التي تدور فيها رجل الباب (النجران) . ويقال لأنف الباب الرتاج ، ولمترسه القُنّاح والنجّاف . وعمل (النجيرة) : السقيفة من خشب ليس فيها قصب ولا غيره[5] .

وصنع النجار صناديق من خشب ، لخزن الأشياء فيها ، تقفل بقفل . وقد عني بزخرفتها بتلوينها أو بالحفر على أوجهها ، وذلك بالنسبة للصناديق الثمينة التي تستعملها الطبقات الراقية .

وفي جملة مصنوعات النجار (الحدوج) ، مركب من مراكب النساء يشبه المحفة ، تركبه نساء الأعراب على الإبل . وذكر ان الحدج مركب ليس برحل ولا هودج تركبه نساء الأعراب[6] . والهودج مركب للنساء مقبب وغير مقبب

---

١ المعرب (ص ١٦٠) ، تاج العروس (٣١٣/٨) .

٢ المعرب (ص ٣٣٥) ، تاج العروس (١٠٥/٢) .

٣ المعرب (ص ٣٤٦) ، « والهاون الذي يدق فيه ، فارسي معرب » ، تاج العروس (٣٦٩/٩) .

٤ Hastings, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 291.

٥ اللسان (١٩٣/٥) .

٦ تاج العروس (١٩/٢) ، (حدج) .

يصنع من العصي ثم يجعـل فوقه الخشب فيقبب . وذكر انه محمل له قبّة تستر بالثياب يركب فيه النساء[1] .

ويستعين النجار بجملة أدوات في صنعته ، بعضها من صنع الحداد ، لأنها من الحديد ، مثل الفأس على اختلاف أنواعها ، والمنشار والمحفرة والمحفار ، والمنقار والمسحل والمثقب والكلبتان والمسامير والأوتاد وغير ذلك من أدوات تستعمـل في قطع الخشب وفي تنظيمه وصقله وهندسته لجعله صالحاً للعمـل[2] . ونجد في كتب اللغة ألفاظاً عديدة تتعلق بهذا الموضوع .

ومن الأدوات التي يستعين بها النجارون في قيـاس تربيع الخشب (الكُوس) وهي خشبة مثلثة[3] .

ويستعمل النجار المنشار في قطع الأخشاب والأشجار . ويقـال لنحت الخشب النشر كذلك[4] . أما المنقار ، فهو حديدة كالفأس مستديرة لها خلف ينقر بها ، ويقطع بها الحجارة والأرض الصلبة والخشب[5] . ولا سيما في نقش الخشب وحفره. والحفرة وتعرف بالمحفار أيضاً ، حديدة يحفر بها الشيء[6] ، وتستعمـل في حفر الخشب لأغراض متعددة ، مثل نقشه أو الكتابة عليه . وأما المِسحْل ، فالمنحت، آلة ينحت بها الخشب كالمبرد[7] . والمثقب آلة يثقب بها[8] . والكلبتان آلة يستعملها النجار والحداد ، يستعملها النجّار في اخراج المسامير . ويستعملها الحداد في أخذ الحديد المحمي[9] . وأما المسامير ، فما يشد به[10]

ونجد في (الكتاب المقدس) – في التوراة والانجيل – أسمـاء أدوات عديدة استعملها النجار في عمله ، منها ما استعمل لقطع الخشب واعطائه الشكل المطلوب ،

---

١ تاج العروس (١١٥/٢) ، (هدج) .
٢ بلوغ الارب (٣٩٦/٣ وما بعدها) .
٣ المعرب (ص ٢٨٨) ، « الكوس : خشبة مثلثة تكون مع النجار يقيس بها تربيع الخشب . وهي فارسية » ، تاج العروس (٢٣٦/٤) .
٤ تاج العروس (٥٦٥/٣) .
٥ تاج العروس (٥٨٠/٣) .
٦ تاج العروس (١٥١/٣) .
٧ تاج العروس (٣٧٢/٧) .
٨ تاج العروس (١٩٦/١) .
٩ تاج العروس (٤٦١/١) .
١٠ تاج العروس (٢٧٨/٣) .

ومنها ما استعمل لنشر الخشب وقصه ، ومنهـــا ما استعمل لثقبه باستعمال المثاقب الآلية أو اليدوية التي تعمل الثقوب بالطرق وبطريقة الحفــر ، كما أشير فيه الى المسامير[1] . وقد ذكر في القــرآن الكريم ألواح الخشب التي تستعمل في صنــع السفن ، و (الدسر) وهي المسامير . والسفن في ذلك العهد من صنع النجارين . وآلات النجارة المذكورة في التوراة وفي الأناجيل،معروفة ومستعملة عند الجاهليين. وقد تصنع الدسر من الخشب .

وهناك نجارون تخصصوا بصنع القوارب والسفن ، لاستعمالها في صيد السماك وفي البحار للتجارة البحرية والنقل . ونظراً لعدم وجود الأنهر الكبيرة والبحيرات في جزيرة العرب ، انحصرت حرفة صنع القوارب والسفن في السواحل . ويستورد أهل هذه السواحل الخشب القوي الصلد من افريقية والهند لصنع السفن الكبيرة التي يكون في مقدورها الابتعاد عن الساحل والسير الى الأماكن البعيدة .

ولا يستبعد قيام النجار الجاهلي بصنع العربات والمركبات ، وذلك لاستخدامها في السلم وفي الحرب . فقد كان المصريون والعراقيون وأهل بلاد الشأم يستخدمونها، وليس من المعقول عدم وجود علم للجاهليين ولا سيما لأهل اليمن بصنعها وبالاستفادة منها . والعربة هي (عجله) (ع ج ل هـ) عند العبرانيين وتستخدم في نقل الحاصلات . وقد أشير اليها في التوراة[2] . وقد عرفت بـ (م ر ك ب ه) (مركبه) كذلك ، وبـ (مركب) أيضاً ، من أصل (ركب) احدى الألفاظ التي ترد في اللهجات السامية . وهي (مركبة) في عربيتنا و (نركبتو Narkabtu) في الأشورية و (مركبثا Markabtha) في السريانية . وقد تعني الحيوان وحده الذي يركب عليه[3] .

ويراد بـ (عجاه) ، العربة التي تستخدم في نقــل الحاصلات الزراعية في الغالب ، وقد عثر عــلى صور عربات في الآثار المصرية والأشورية واليونانيــة والرومانية . وبينها عربات استخدمت في القتال . ولبعضها مظلات لتحمي ركابها من الشمس والمطر . ويسحب العربات الزراعية ثور أو ثوران في الغالب . وقد

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣) ، Hastings, p. 53.

٢ Gen, XIV, 19, 27, Num., VII, 3, 7, 8, Smith, Dict., Vol. I, p. 281. Ency. Bibl., Vol. I, P. 724, Hastings, Dict., Vol. I, P. 372.

٣ Ency. Biblica., Vol. I, p. 724 ff.

تستخدم الحمير والبغال . أما عربات القتال فتجرها الخيل . وقد كانت دواليب العربات من الخشب ، إلا انها صنعت من الحديد أيضاً . والغالب أن يكون للعربة دولابان ، ولكن العربات ذات الأربعة دواليب كانت معروفة أيضاً ومستعملة ، ولا سيما في أمور النقل . وقد كان الأكاسرة يستعملونها لنقل عوائلهم ، ولها ستائر وسقف[1] .

وذكر علماء العربية أن العجلة : الدولاب[2] . وأن (المركب) واحد مراكب البرّ والبحر[3] . والظاهر أن العجلات والمركبات كانت نادرة الوجود في أكثر مواضع جزيرة العرب . إذ لا نجد لها ذكراً في أخبار الأخباريين عن الجاهليين ولا في كتب اللغة .

الحدادة :

وقد دفعت حاجة الانسان الى المعادن لاستخدامها في أمور حربية وزراعية وفي البيت على انصرافه الى الاشتغال بها لتحويلها الى أشياء نافعة . فظهرت الحدادة والصياغة وأمثالها ، واشتغل بعض الناس بالبحث عن الحديد وعن المعادن الأخرى واستخلاصها من المواد الغريبة المختلطة بها . كما اشتغلوا في خلط المعادن لإيجاد أنواع جديدة منها . وقد وقع ذلك بين أهل الحضر في الغالب ، أما أهل الوبر ، الأعراب ، فلبساطة حياتهم لم يشعروا بحاجة لهم الى هذه الصناعات ، واذا شعروا بوجود حاجة لهم فيها اشتروها من أهل المدن ، واحتقروا الصناعات وأهل الصناعة والمحترفين بالحرف .

ويعرف الحدّاد بـ (القين) كذلك عند الجاهليين[4] . وهو الذي يعدّ للزرّاع الأدوات التي تستعمل في حرث الأرض، مثل المسحاة والمحراث والمنجل والأدوات

---

١ Smith, Dict., Vol. I, P. 295, Hastings, Dict., Vol. I, P. 357, Ency. Bibli., Vol. I, P. 724.

٢ اللسان (١١/٤٢٨) .

٣ اللسان (١/٤٣١) .

٤ « والحداد ككتان معالجه ، أي الحديد ، أي يعالج ما يصنعه من الحرف . ومن المجاز : الحداد السجان ؛ لانه يمنع من الخروج ، أو لانه يعالج الحديد من القيود »، شرح القاموس (٢/٣٣١) ، تاج العروس (٢/٣٣١) ، (حدد) .

الأخرى ، يصنعها من الحديـــد ، كما أنه يعد للحرف الأخرى ولأهل البيوت كثيراً من الآلات،يصنعها من الحديد . وكان فضلاً عن ذلك الخبير الاختصاصي بصنع السلاح على اختلاف أنواعه وتجهيز الحكومات والأفراد بالسلاح الذي يستعمل في الدفاع وفي الهجوم ، لذلك كانت حرفته مهمة خطيرة ، ولا يزال الحـــدّاد يعدّ للناس في جزيرة العرب السلاح ، كالسيوف والخناجر والدروع والسكاكين والنصال المعدنية وغير ذلك من أدوات كانت تستعمل في الحروب لذلك العهد ، وسأفرد لها بحثاً خاصاً .

وذكر بعض علماء اللغة أن القين هو العامل بالحديد . وقال بعض آخر : إن القين الذي يعمل بالحديد ويعمل بالكير ، ولا يقال للصائغ قـــين . وذكر بعض آخر أن القين الحدّاد ، ثم صار كل صائغ عند العرب قيناً . وذكر بعض آخر: أن القين هو الذي يصلح الأسنة،الى غير ذلك من آراء . وكان من بين أصحاب الرسول من كان قيناً ، مثل (خباب بن الارت)[1] ، ذكر أنه كان يشتغـــل للعاص بن وائل . وكان العاص هذا من الانادقة، ومثله : عقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة ، وأبيّ بن خلف[2] . وكان خبّاب يضرب السيوف الجيـــاد وبدقهـــا ، حتى ضرب به المثل ، ونسبت اليه السيوف[3] . كما اشتهر بها رجل آخر عرف بـ (ريش المقعد) ، أي النبـــل . والمقعد اسم رجل كان يريش السهام[4] . والنبل : السهام ، والنبّال صاحب النبال وصانعها ، وحرفته النبالة[5] . وتحبس في الجعبة ، يحملهـــا صاحبها معه ، فإذا أراد الرمي ، فتحها ليستخرج منها ما يشاء .

ومن الحدادين الأعاجم الذين ذكرهم أهل الأخبار ، الأزرق بن عقبة أبو عقبة

---

١ تاج العروس (٣١٦/٩) (قين) ، البلاذري (١٧٥/١) وما بعدها) .

٢ عمدة القاري، (٢٠٨/١١ وما بعدها) ، « وخباب بن الارت بن جنـــدلة بن سعد بن خزيمة الخزاعي ، وقيل : التيمي ، وهو أصـــح ، أبو عبدالله ، من السابقـــين في الاسلام ، وشهد بدرا ، ثم نزل الكوفة ، ومات بها سنة سبع وثلاثين » ، شـــرح القاموس (٢٢٨/١) .

٣ تاج العروس (٢٢٨/١) .

٤ تاج العروس (٢٢٨/١) .

٥ تاج العروس (١٢٥/٨) .

الثقفي ، غلام الحارث بن كلدة الثقفي ، ذُكر انه كان رومياً حداداً[1] .

ويرجع في روايــة تنسب الى (ابن الكلبي) مبدأ الحدادة عنــد العرب الى (الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة) ، فهو في هذه الرواية أول من عمل الحديد من العرب ، وكان حداداً ، فنسب اليه الحداد ، فقيل لكل حداد : هالكي . ولذلك قيل لبني أسد القيون ، وقال لبيد :

جنوح الهالكيّ على يديه مُكبّـاً يجتلي نقب النصالِ[2]

وعرف القين الذي يقوم بطبع السيوف وصقلها بـ (الطبّاع) و (الصيقل)[3] . وقد عرفت اليمن بإجادتها صنع السيوف وطبعها وصقلهـا ، حتى اشتهرت بذلك في جميــع أنحاء جزيرة العرب . واشتهرت السيوف المصنوعـة من حديد بيحان بالجودة ، لجودة حديدها وقوته[4] . ومن الأدوات التي يستعملها (الصيقل) في صقل السيوف (المصقلة) ، وهي خرزة يصقل بها[5] .

ويقال طبع الطبّاع السيف ، أي صاغه ، وكذلك طبع الطبّاع الدرهم. والطبع عند علماء اللغة هو الختم ، والتأثير في شيء ما ، وتصوير الشيء بصورة مثل طبع السكة وطبع الدرهم ، وهو عندهم أعم من الختم وأخص من النقش[6] .

ويعتني الحداد باختيار الحديد عند صنعه السيوف الجيدة الثمينة ، ويخرج منه خبثه ، وينفق جهده في صقل السيف وفي اتقان عمل الحديد الملتهب قبل تبريده ، وإلا صار خشناً قليل الفائدة لا يشترى بثمن جيد . ويقال لهذا النوع من السيوف الخشنة الخشيب ، وتستعمل اللفظة في الضد أيضاً ، فتطلق على السيف الصيقل ، وتطلق على السيف الحديث الصنعة كذلك[7] .

ومن أنواع الحديد الجيد الذي يستخدمه الحدّاد في صنع المصنوعات الثمينة ، (الفالوذ) أي (الفولاذ) . ويقال له (بلدو) Poldo في السريانية و (فلده)

---

١ البلاذري (١/١٥٧) ، الاصابة (١/٢٩) .
٢ اللسان (١٠/٥٠٧) ، « الهالك بن مراد بن أسد بن خزيمة » ، العمدة (٢/٢٣٢) .
٣ بلوغ الارب (٣/٤٠١ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/٤٠٤) .
٤ بلوغ الارب (١/٢٠٤) .
٥ تاج العروس (٧/٤٠٣) .
٦ تاج العروس (٥/٤٣٨) .
٧ تاج العروس (١/٢٣٣) .

(فلداه) في العبرانية . وتصنع منه الأسلحة بصورة خاصة [١] . وهو معروف في العربية ، وعرف بقولهم : « وهو مصاص الحديد المنقى من خبثه » [٢] .

ويستعين الحدّاد بأدوات في طرق الحديد وفي تغيير شكله على النحو المطلوب. ومن أهم هذه الأدوات (الكير) ، وهو المنفاخ ، وهو زق ينفخ فيه الحداد، أو جلد غليظ ذو حافات ، يستعمل لاثارة النار وإيقادها ، كي ترتفع درجات حرارتها فتؤثر في الحديد وتجعله ليناً يسهل طرقه واعطاؤه الشكل المطلوب [٣] . والكور وهو مجمرة الحدّاد وهي مبنية بالطين وبالحجارة ، وتوقد فيها النار ، ويسلط عليها الكير ، ويوضع الحديد على النار ليحمى ويلين [٤] . ومن أصل (كوّر) (كور) و (كير) ، ويراد بها الموضع الذي تحرق فيه القرابين من بخور وذبائح تهيأ للحرق تقرباً الى الآلهة [٥] . ويعرف الكور بـ (كور) عند العبرانيين . وقد وردت اللفظة في التوراة [٦] .

ويطرق القين الحديد المحمى على (السندان) ، ليحوله الى الشكل الذي يريده . ويعرف بـ (العلاة) أيضاً [٧] .

وقد استغل اليهود انفة أهل المدينة والعرب الصرحاء من الاشتغال بالحدادة ، فاحتكروها لأنفسهم ، وربحوا منها ربحاً طيباً ، وذلك بإنتاجهم الأدوات والآلات الزراعية وبصنعهم الأسلحة اللازمة لكل انسان لحماية نفسه ، مثل صنع السيوف والخناجر والدروع . وقد سلحوا أنفسهم بها ، كما باعوا منتوجهم من غيرهم . وتصنع الدروع من الحديد الثقيل،كي تقاوم قراع السيوف [٨] . وقد تزرد الدروع، لتقاوم في الدفاع ، ويقال عندئذ (درع مزرود) [٩] .

والسرد عند علماء اللغة نسج الدرع ، وهو تداخل الحلق بعضها في بعض .

---

١ Smith, Dict. of the Bible, Vol. III, p. 1377.

٢ اللسان (٣/٥٠٣) .

٣ عمدة القارىء (١١/٢٢٠) ، تاج العروس (٣/٥٣٢) ، مجمع الامثال (١/٦) .

٤ تاج العروس (٣/٥٣٠ ، ٥٣٢) .

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 33, 170.

٦ Smith, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 637.

٧ شرح ديوان لبيد (ص ٩٦) .

٨ تاج العروس (٥/٣٢٥) .

٩ تاج العروس (٢/٣٦٣) .

والسرد اسم جامع للدروع وسائر الحلق . وسمي سرداً لأنه يسرد فيثقب طرفا كل حلقة بالمسمار ، فذلك الحلق المسرد . والمسرد هو المثقب . وهو السرّاد[1] . ويراد بالحلقة السلاح عاماً ، وقيل : الدرع خاصة ، وانما ذلك لمكان الدروع ولشدة غنائه . وقد سمي (النعمان) دروعه حلقة [2] .

وتصنع النصال من الحديد أيضاً . والنصل حديدة السهم والرمح ، ويقال نصل السيف ونصل السكين . وقد ذكر أيضاً أن نصل السيف حديدة السيف مالم يكن له مقبض . فإذا كان لها مقبض ، فهو سيف . وقيل : إن النصل السهم العريض الطويل ، والمشقص على النصف من النصل[3] .

ومن المجاز الحداد السجّان ، لأنه يمنع من الخروج أو لأنه يعالج الحديد من القيود . وفي هذا المعنى ورد :

يقول لي الحداد وهو يقودني   الى السجن لا تفزع فما بك من باس

والحداد البواب ، لأنه يمنع من الخروج[4] .

والعتلة : حديدة كأنها رأس فأس عريضة ، في أسفلها خشبة تحفر بها الأرض والحيطان ، وليست بمعقفة كالفأس ، ولكنها مستقيمة مع الخشبة ، أو هي العصا الضخمة من حديد ، لها رأس مفلطح ، يهدم بها الحائط . وقيل : هي بيرم النجار[5] .

ومن مصنوعات الحداد (الإبزيم) ، وهو حلقة لها لسان يدخل في الخرق في أسفل المحمل ، ثم تعض عليها حلقتها ، والحلقة جميعها (ابزيم) . وقد أدخلها الجواليقي في باب المعربات[6] من الفارسية . ومن مصنوعات الحدّاد (المقدحة)، الأداة التي استعان بها الإنسان في إيجاد النار . وهي حديدة يقدح بها حجر يوضع عليه مادة قابلة للالتهاب ولأخذ النار ، مثل الصوف ، فيورى منها النار[7] .

١ تاج العروس (٢/٣٧٥) .
٢ تاج العروس (٦/٣١٩) .
٣ تاج العروس (٨/١٣٦) .
٤ تاج العروس (٢/٣٣١) ، (حد) .
٥ تاج العروس (٨/٣) .
٦ المعرب (ص ٢٤) ، تاج العروس (٨/٢٠٢) .
٧ تاج العروس (٢/٢٠٢) .

ويهيء الحدّاد أقفال الأبواب ، وقد يصنعهـا النجار أيضاً . ويوضع خلف الباب وتد من حديد لتسميرها ، فلا يمكن فتحه[1] ، كما يهيأ البيت بمـا يحتاج اليه من أدوات تستعمل في الطبخ وفي الغسيل وفي الزينة . ويجهز الرجـل والمرأة بالأدوات المساعـدة للتجميل كـ (المدرى) ، وهو شيء يسرح به شعر الرأس محدد الطرف من حـديد ، وقد يصنع من غيره مثل الخشب . وهو كسنّ من أسنان المشط ، أو أغلظ قليلاً ، إلا أنه أطول[2] .

وقد ذكر أصحاب اللغة بعض أسمـاء الآلات والأدوات التي كان يستعملها الحدادون في حرفتهم ، نذكر بعضاً منها ، مثل : (القرزم) و (العلاة) . والقرزم لوح الإسكاف المدور . و (المِطرقة) ، و (الفطيس) ، وهي أكبر من المطرقة ، وهي (الميفعة) أيضاً . و (المِـبرد) الذي يبرد به الحديد ، و (البرادة) ما سقط منه[3] . وأما (فسالة الحديد) فما تناثر من الحديد عند الضرب اذا طبع ، و (المشحذ) مبرد للحديد ، أعظمها وأخشنها . وقال بعض اللغويين : المشحذ المسن ، و (المقراص) وهو للحديـد كالمقراض للثوب ، والمنفاخ (المنفاخة) وهو ما ينفخ به الكير ، والكير الذي ينفخ فيه[4] . وأما المبني من الطين ، فهو الكور . و (المشرجع) مطرق لا حروف لنواحيه ، ومطرقة مشرجعة ، مطولة ولا حروف لنواحيها . أما اذا كان الشيء مربعاً ، وقد نحتت حروفه ، قيل له (شرجعة) . و (العسقلان) ، أصغر مطرقات الصائغ . و (الغُداف) الحديدة التي يدخل في أحد طرفيها الخاتم ويركزها على الجبأة ، والخشبة التي بين يديه . أما (الحِملاج) ، فنفاخ الصائغ ، وهو حديدة مجوفة ينفخ فيها الصائغ ، اذا أراد النفخ في كيره . وله الكلبتان والمثقب[5] .

وقد وردت في التوراة لفظة (ا ج ن) (اجن)[6] ، وهي (اجانة) و (اجان) في العربية . وهي إناء يعجن فيه العجين ،أو يوضع فيه سائل أو أي مادة أخرى .

---

١ المعرب (ص ٢٦٤) .
٢ جامع الاصول (٧/ ٥٧١) .
٣ شمس العلوم (١/ ١٤٥) .
٤ المغرب (٢/ ٢٢٠) .
٥ أخذت ذلك من بلوغ الارب (٣/ ٤٠٣ وما بعدها) .
٦ Hastings, Dict. of the Bibl., Vol. I, p. 533.

ولا تزال الكلمة حيّة معروفة . وتصنع من المعدن في الغالب ، ولكنها قد تصنع من خشب في بعض الأحيان .

ويستخدم الحدّاد المطرقة في طرق الحديد المحمى لتحويله الى الشكل المطلوب. ويقال للمطرقة الكبيرة (الفطيس) ، وتقابلها لفظة (بطيش) Pattish ، عند العبرانيين[1] . وقد أشار علماء اللغة الى (الفطيس)[2] . ويستخدم الـ (قـدوم) ، وهي مطرقة كذلك ، تسمى بـ (قردم) (قردوم) عند العبرانيين[3] . وذكر علماء العربية أن (القدوم) التي ينحت بها[4] .

ومن أنواع المطارق مطرقة دعيت بـ (جرزن) عند العبرانيين ، وتستخدم في القطع : في قطع الأشجار والأخشاب التي تستعمل في البناء . ويرى بعض العلماء أنها أخف من (القردم)[5] . وبين (جرزن) و (الجرز) اللفظة العربية تقارب وارتباط . وقد ذكر علماء اللغة أن (الجرز) من السلاح ، والعمود من الحديد وأن الجواز بمعنى : قاطـع ، ولذلك قالوا سيف جراز ومدقة جراز[6] . وهي الفأس في العبرانية ، ولعلها بهذا المعنى في العربية أيضاً . وتستعمل لقطع الأحجار والاخشاب ولتكسيرها[7] .

والمطارق الحديثة المستعملة في الشرق الأوسط وفي بلاد العرب ، لا تزال محافظة على شكلها وهيئتها التي كانت عليها عند الجاهليين وعند غيرهم قبل الاسلام . كما يظهر ذلك من النماذج التي عثر عليها ومن صور المطارق المصورة على بعض الآثار . وبعض هذه المطارق ذات رأسين ، وبعضها ذات حافتين . ويختلف شكلها باختلاف المهمة التي تستخدم فيها . واستخدمت المطارق في الحروب كذلك، حملها المحاربون معهم في قتال الأعداء وفي فتح الثغرات في الجدر والأسوار وتحطيم الدبابات والآلات الأخرى المستخدمة في حروب تلك الأيام .

---

١ Hastings Dict. of the Bible, Vol. I, p. 291.

٢ شمس العلوم (١/١٤٥) ، المغرب (٢/٢٢٠) .

٣ Smith, Dict., Vol. I, p. 142.

٤ اللسان (١٢/٤٧١) .

٥ Hastings, Dict., Vol. I, P. 205, Smith, Dict., Vol. I, 141 f., Ency. Bibli., Vol. I, p. 392.

٦ اللسان (٥/٣١٧) .

٧ The Bible Dictionary, I, p. III.

الصياغة :

و (الصائغ) ، من يحترف الصياغة ، وذلك في اللهجة العربية الشمالية ، ويشتغل في صياغة الذهب والفضة . وقد كان بين أصحاب الرسول من احترف هذه الحرفة . وقد ورد عن أبي رافع الصائغ ان عمر بن الخطاب كان يمازحه بقوله : « أكذب الناس الصواغ ، يقول اليوم وغداً »[1] . وكلام عمر بن الخطاب هذا يدل على أن الصاغة لذلك العهد كانوا يخلفون أيضاً في المواعيد ، ولا يحافظون على الأوقات .

وقد تحدث بعض الكتبة اليونان عن أثاث وحلي مصنوعة من الذهب والفضة ، ذكروا أن السبئيين كانوا يستعملونها في بيوتهم ، ولكننا لم نقف على شيء مهم من ذلك ، إلا قطعاً متآكلة من المعدن وصلت الينا . لتتحدث عن عمل الصاغة والحدادين في العربية الجنوبيـــة . وأكثرها من المصنوعات المعمولة من البرنز . فلدينا مصباح من البرنز مصاب ببعض العطب ، عثر عليه في (شبوة) ، علـــى طرفه جسم (أيل) جميل ، صنع وكأنه متهيء للوثوب . وهنـاك قطع أخرى تمثل احداها جملاً ، وأخرى حصاناً ، كما عثر على عصي مصنوعة من البرنز ، وعلى ألواح من هذا المعدن أيضاً ، عليها كتابات . وهي محفوظـــة في المتاحف الأوروبية . وهذا الذي عثر عليه هو شيء قليل بالطبع بالنسبة الى ما سيعثر عليه ، متى سمح للآثاريين بالبحث عن الآثار والكشف عن المطمور في جزيرة العرب ، ولا سيما في العربية الجنوبية حيث تشاهد تلول من الأتربة منتشرة تضم تحتها كنوزاً ثمينة من الآثار .

ويقال للذهب الأنضر ، وقـــد ذكر بعض علماء اللغة أن لفظـــة الأنضر اسم للذهب والفضة ، وكذلك النضار . أما النضرة فإنها السبيكة من الذهب . ونُضار الجوهر الخالص من التبر[2] .

وقد عرف التبر ، بأنه الذهب كله ، وقيل : هو من الذهب والفضة وجميع جواهر الأرض من النحاس والصفر والشبه والزجاج وغير ذلك مما استخرج من المعدن قبل أن يصاغ ويستعمل . وقيل : التبر هو الذهب المكسور ، وقيل الفتات

---

١ تاج العروس (٦/٢٣) .
٢ تاج العروس (٣/٥٧١) .

من الذهب والفضة قبل أن يصاغا ، فإذا صيغـــا فهما ذهب وفضة . وورد التبر ما كان من الذهب غير مضروب فإذا ضرب دنانير فهو عين . وقد يطلق التبر على غير الذهب والفضة من المعدنيات كالنحاس والحديـــد والرصاص ، وأكثر اختصاصه بالذهب . وورد في الحديث : الذهب بالذهب تبرها وعينها ، والفضة بالفضة تبرها وعينها [١] . وأما (الجذاذ) ، فإنه حجارة فيها ذهب ، أي الحجر الذي يقلع من مناجم الذهب ، ثم يسحن بالمساحن لاستخلاص الذهب من المواد الأخرى . والمسحنة حجر يدق به حجارة الذهب[٢] .

والحلي ، ويراد بها ما يزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة [٣] ، هي من أهم أعمال الصائغ عند الجاهليين ، يقوم بصنعها من الذهب أو الفضة ، ويزينها ببعض الحجارة في بعض الأحيان . وقد اشتهر (بنو قينقاع) في منطقة (يثرب) بإجادتهم حرفة الصياغة واتقانهم لها . ومن هذه الحلي ما يعلق على الصدر، ومنها ما يوضع في الأيدي أو في الأصابع ، ومنه ما يوضع حول الساق . وما يعلق في مواضع أخرى من الجسد مثل الأذنين أو الأنف أو على الجبين ، كما ان بعضه مما يحلى به الحيوان أو الأشياء النفيسة في البيت .

ومن الحلي المشهورة عند الجاهليين ، القلادة . وتصنع من الذهب أو الفضـــة في الغالب ، وقد تكون من ربط حجارة أو عظام أو خرز بعضهـا الى بعض . وتربط حول العنق ، وتتدلى عـــلى الصدر . على أن القلادة في اللغة لفظة عامة تطلق على أمور كثيرة . وقد كان الجاهليون يضعون قلادة في عنق البدن ، مثل عروة مزادة ، أو خلق نعل،أو غير ذلك ، ليعلم أنها هدي . كما كانوا يقلدون الإبل بلحاء شجر الحرم ، ويعتصمون بذلك من أعدائهم[٤] .

والأسورة من أدوات الزينة كذلك . وقد استعملها أهل الجاهلية ، تضعهـــا المرأة في يديها . ويذكر علماء اللغة أن (السوار) لفظة معربة،عربت من الفارسية وأصلها في الفارسية (ستوار) ، فأخذها العرب وعربوها . واشتقوا منها (سوّرت

---

١ اللسان (٤/٨٨) .
٢ المعاني الكبير (٢/٨٤٨) .
٣ تاج العروس (٦/٢٣) .
٤ تاج العروس (٢/٤٧٥) ، جامع الاصول (٥/٤٠٩) .

الجارية) و (جارية مسوّرة)[1]. على أن بعض المحاربين كانوا يستعملون الأسورة، ويتباهون بها في الحروب .

وأما (العصمة) ، فقيل إنها القلادة ، وقيل إنها شبه السوار ، توضع حول اليد . وأما المعصم ، فإنه موضع السوار من اليد أو الساعد[2] . وأما القرط ، فمن حلي الاذن يعلق بشحمة الاذن[3] ، سواء أكان درّة أم ثومة من فضة أم معلاقاً من ذهب[4] .

والخلخال من أدوات الزينة التي تستعملها النساء ، يوضع على الساق يصاغ من الذهب أو الفضة[5] . وقد يحشى بالقار ، كما تحشى الأسورة أيضاً في بعض الأحيان لتبدو غليظة . ويستعمل القير والقار في طلي السفن ، لمنع الماء من الدخول فيها . والعرب تسمى الخضخاض قاراً ، وهو قطران وأخلاط تهنأ بها الإبل . وقد ذكر انه صعد يذاب ، فيستخرج منه القار[6] . ولا يزال أهل البادية والقرى يتحلون بالخلخال . وللأجراس الصغيرة التي تعلق به رنين خاص ونغمات . وهو من أدوات الزينة المستعملة بين شعوب الشرق الأوسط منذ القديم . وقد أشير اليه في التوراة[7] .

وقد نهى الاسلام تبختر النساء بالخلاخل ، واثارتهن نغماتها ، لما في ذلك من اثارة للرجال وتأثير عليهم[8] .

والخاتم من عمل وصنع الصائغ ، وهو من حلي الاصبع.ويحلى بالحجارة الكريمة في الغالب ، مثل الياقوت والماس والشذر وغير ذلك . ويستعمل الخاتم للختم كذلك أي للطبع بدلاً من التوقيع ، وذلك بحفر رمز أو كلمة أو عبارة أو اسم صاحب الخاتم على الخاتم ، فإذا أريد كتابة كتاب أو تصديق قرار أو وثيقة ختم به على

---

١ تاج العروس (٣/٢٨٣) ، المفردات (ص ٢٤٧) ، جامع الاصول (٥/٤٠٨) .
٢ تاج العروس (٨/٤٠٠) .
٣ **جامع الاصول (٧/٥٢٦) ، المغرب (٢/١١٧)** .
٤ تاج العروس (٥/٢٠٢) .
٥ قال امرؤ القيس :
كأني لم أركب جوادا للذة   ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
تاج العروس (٧/٣٠٩) .
٦ المعرب (ص ٢٦٦) .
٧ Hastings, Dictl. of the Bible, I, p. 99.
٨ السورة ٢٤ الآية ٣١ .

الشيء المراد ختمه . فيقوم اذ ذاك مقـــام التوقيع والاعتراف بصحة المذكور ويقال لما يوضع على الطينة وما يختم على اللبنة الخاتم كذلك[1] . ولذلك عدّ الخاتم عند الشعوب القديمة رمزاً للتفويض والتصديق والملك . وختم الملك ، يدل عـلى ارادة الملك ورضائه وأمره . ولذلك قيل : خاتم الملك[2] .

وقد يصنع الخاتم من الشبه أو الصفر أو الحديد ، ويعمل على صور وأشكال متعددة متنوعة . وقد كان خاتم رسول الله من حديد ملوي ، عليه فضة[3] .

وفي المتاحف وعند الناس عدد كبير من الأختام،عثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب . وهي تكون عند علماء الآثار دراسة خاصة ، لما كان لها من أهمية عند الشعوب القديمة ولما في بعضها من دقة في الصنعة ومن تفنن وابداع وبعض هذه الأختام مستورد من الخارج وبعضه متأثر بالاختام الأجنبية ، مثـــل الأختام العراقية أو الأختام اليونانية أو الفارسية .

ويقوم الصائغ بعمل الزينة للرأس ، ومنها التيجان . وقـــد كان ملوك الحيرة يضعون التيجان عـــلى رؤوسهم . وقـــد ورد في شعـــر لمالك بن نويرة أن تاج النعمان بن المنذر كان من الزبرجد والياقوت والذهب[4] .

ومن حلي النساء الفتخ والخُرص والسخاب والحلق . وقد حـــلي بها الأولاد كذلك[5] . وكذلك المسكة من ذهب والسلسلة والأطواق والأجراس والجلاجـــل ويراد بالفتخ الخواتيم الضخام . يكون في اليد والرجـــل ، بفص وبغير فص وقيل الخاتم أياً كان ، أو حلقة من فضة[6] . وأما المسكة ، فسوار من ذبل أو عاج ، فإذا كانت من غيرهـا أضيفت الى ما هي منـــه[7] . وتوضع السلسلة في العنق ، وأما الأجراس فتوضع في الأرجل[8] .

---

١ تاج العروس (٨/٢٦٦) ، اللسان (١٢/١٦٣) ، « صادر » .
٢ Smith, Vol. III, p. 1044.
٣ جامع الاصول (٥/٤٠٢) .
٤ لن يذهب اللؤم تاج قد حبيت به من الزبرجد واليـاقوت والذهب
المعرب (ص ٣٥٦) ، تاج العروس (٢/١٢) .
٥ جامع الاصول (٥/٤٠٤ وما بعدها) .
٦ جامع الاصول (٥/٤٠٨) ، تاج العروس (٢/٢٧٠) .
٧ جامع الاصول (٥/٤٩٣) .
٨ جامع الاصول (٥/٤١٠) .

ومن الحلي : (الحُبلة) ، ضرب من الحلي يصاغ على شكل ثمرة (الحبلة) يوضع في القلائد في الجاهلية [1] .

ويقال للنقوش والزينة المزوقة والتصاوير المموهة بالذهب (الزخرف) . وذكر علماء اللغة أن (الزخرف) الذهب ، وهو الأصل ، ثم قيل لكل زينة زخرف، وكذلك كل شيء مُوّه به . وقد ورد في كتب الحديث والأخبار أن الكعبة كانت قد زينت بالزخرف ، أي بنقوش وتصاوير ، وكانت بالذهب . فلما كان يوم الفتح ، لم يدخل الرسول الكعبة ، حتى أمر بالزخرف فنحي ، وبالأصنام فكسرت ، فدخل بعد ذلك الكعبة [2] .

وقد ألف أهل مكة وغيرهم استعمال الآنية المصنوعة من الذهب والفضة ، فاستعملوا الأكواب والأباريق والكؤوس والقوارير والأواني ، وبعضها عليه صور مرسومة أو محفورة . وقد أشير في القرآن الكريم الى هذه الأواني ، وذكرت في كتب الفقه ، وقد ورد النهي عن الشرب بأواني الذهب في الحديث[3] ، وفي ذلك دليل على وجودها واستعمالها عند العرب قبل الاسلام .

وقد ذكر علماء اللغة أن من الأواني المستعملة من الفضة الجام [4] ، وعرفوا الكوب بأنه كوز لا عروة له ، أو هو المستدير الرأس الذي لا خرطوم له . وقد ذكر في شعر عدي بن زيد العبادي[5] ، وفي شعر نفر آخر من الشعراء الجاهليين ممن ألفوا الحضارة . وورد (أكواب) جمع (كوب) في القرآن الكريم ، دليل على استعمال أهل مكة للأكواب .

واللفظة من الألفاظ المعربة عن اليونانية . وتقابل لفظة Cup في الانكليزية . وقد أخذت من هذا الأصل اليوناني .

والكوب ، هو في معنى (كوس) عند العبرانيين ، أي كأس في عربيتنا . وتصنع الكؤوس من المعدن ، كما تعمل من الطين . وعملت كؤوس الملوك وكبار

---

١ اللسان (١١/١٤٠) .
٢ تاج العروس (٦/١٢٦) .
٣ شمس العلوم (١/١٠٣) .
٤ تاج العروس (٨/٢٣٤) .
٥ متكئاً تصفق أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب
تاج العروس (١/٤٦٤) .

الأغنياء من الذهب والفضة . ولبعضها يد أو علاقة ليحمل الكأس بها [1] . وقد ذكرت لفظة (كأس) في القرآن الكريم .

واستعمل أهل مكة الأباريق المصنوعة من الذهب والفضة كذلك . وقد ذهب علماء اللغة الى ان لفظة (ابريق) لفظة معربة ، أصلها فارسي هو : (آب رى). وقد وردت لفظة (الأباريق) في القرآن ، كما وردت لفظة (ابريق) في شعر منسوب الى عدي بن زيد العبادي [2] .

وأخذ تجار مكة من الفارسية بعض الألفاظ الحضارية التي لها علاقة بالصياغة ، بحكم اتصالهم بالعراق ، مثل لفظة (زركش) ، وهي من أصل فارسي معناه الراسم والناقش على الذهب [3] .

وصاغ الصياغ خرزاً من الفضة ، جعلوها على أمثال اللؤلؤ ، وعرفت عندهم باسم (الجمان) . وقد وردت لفظة (جمانة) في شعر منسوب للبيد . وذكر الجواليقي أن اللفظة معربة من أصل فارسي . وانها تكلمت بها العرب قديماً [4] .

ويصنع الصائغ اطارات للمرائي ، جمع المرآة ، وهي ما تراءيت فيه،وما ترى فيه صور الأشياء [5] . وقد يصنع الصائغ المرآة على هيأة سبيكة مصقولة من الفضة اذا نظر اليها بان وجه الانسان.وقد ذكر العلماء نوعاً من المرائي دعوه (السجنجل)، وقد وردت هذه اللفظة في معلقة امرىء القيس،وذكر العلماء أن اللفظة معربة من أصل رومي [6] .

وقام الصائغ بعمل كل ما طلب منه ، فعمل قبيعة السيف من الذهب والفضة وزين السيوف بالذهب والفضة ، بل صنع بعضهم أنوفاً من ذهب لمن أصيبت

---

١ Smith, Vol. I, p. 372.

٢ ودعا بالصبوح يوما فقامت قينة في يمينها ابريق

تاج العروس (٦/٢٨٦) ، وورد « فجاءت » ، المعرب (ص ٢٣) ، شمس العلوم (١/١٤٥) .

٣ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ص ٣٨١ ، تموز ١٩٦٠) .

٤ المعرب (١١٥) ، تاج العروس (٩/١٦٣) .

٥ تاج العروس (١٠/١٣٩) .

٦ المعرب (ص ١٧٩) :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

تاج العروس (٧/٣٧١) .

أنوفهم . فذكر أن صائغاً صنع أنفاً من ذهب لعرفجة بن سعد،وكان قد أصيب أنفه يوم الطلاب في الجاهلية [1] .

وزينت الدروع والدرق بالذهب كذلك.ووجد الصائغ عملاً مهماً له في المعابد، اذ أمدها بزخارف مموهة بالذهب وضعت على أبوابها وعلى الأماكن المقدسة فيها . كما أمدها بالتماثيل المصنوعة من الابريز وبالقناديل والمصابيح المصنوعة من الذهب والفضة .

ومن أدوات الصاغة المهمة التي يستعملونها في صناعتهم (الحماليج) ، وهي المنافيخ ، وتستخدم في إيقاد النار وفي زيادة لهبها كي تتمكن من صهر المعدن أو جعله ليناً ليحوله الصائغ على الشكل الذي يريده [2] .

ومن الأدوات المصنوعة من الحديد ومن النحاس والبرنز أيضاً (التور)[3] و (الطست)[4] و (الطاجن)[5] ، وهي أوان يوضع فيها الماء في الغالب . وذكر بعض علماء اللغة انها كلها ألفاظ معربة من الفارسية [6] .

وقد عرف التور بأنه إناء من الأواني ، وقيل انه إناء من صفر أو حجارة كالإجانة وقد يتوضأ منه[7] .

ومن الأدوات التي يصنعها النحاسون (القمقم) . ذكر بعض علماء اللغة انه الجرة أو ما يستقى به من نحاس[8] . واللفظة ما تزال حية معروفة في العراق ،

---

١ جامع الاصول (٥/٤١٠ وما بعدها) ، اللسان (٨/٢٥٩) .
٢ المعاني الكبير (٢/٧٦٣) .
٣ المعرب (ص ٨٦) ، (تاج العروس (٣/٧٠) .
٤ المعرب (ص ٨٦) ، تاج العروس (١/٥٦٣) ، المغرب (٢/١٤) ، فرائد اللغة (ص ٢٣٨) .
٥ « الطجن : القلو ، دخيل في العربية ... والمطجن : كمعظم ، المقلو في الطاجن » ، تاج العروس (٩/٢٦٨) .
٦ المعرب (ص ٨٦)
٧ اللسان (٤/٩٦) .
٨ المعرب (ص ٢٦٠) : « والقمقم كهدهد : الجرة عن كراع . وايضا آنية من نحاس وغيره ، يسخن فيه الماء ، ويكون ضيق الرأس . قال الاصمعي : هو رومي معرب « كمكم » بكافين عجميتين . وقال عنترة :
وكأن ربا أو كحيلا معقدا ... حش القيان به جوانب قمقم
ومنه استعير لاناء صغير من نحاس أو فضة او صيني يجعل فيها ماء الورد ، تاج العروس (٩/٣٣) .

تطلق على وعاء يوضع فيه ماء الورد ، يسكب منه في المآتم خاصة .

وقد اشتهرت بعض مواضع اليمن بالمعادن ، وتعرف الأرضين المحتوية على خاماتها بـ (متعْدِن) عند أهل الأخبار . ويذكر بعد هذه اللفظة اسم المكان الذي يوجد فيه المعدن ثم نوعه ، فقد ورد مثلاً (معدن عشم) و (معدن ضنكان) ، وقد اشتهرا بالذهب . وذكر ان ذهبهما من النوع الجيد الجليل . أما (معدن القفاعة) ، ففيه ذهب كذلك ، لكنه دون ذهب المعدنين المذكورين ، وهو خير من ذهب (معدن بني محيد)[1] .

وقد استغل الناس مناجم الذهب والفضة والحديد ، وعثر عند بعضها على أدوات استخدمت في إذابة المعدن ، لاستخلاصه من المواد الغريبة العالقة به . وقد ذكر (فؤاد حمزة) في كلامه على جبل (تهْلَل) بجوار السودة في عسير ، وبه معدن الحديد[2] ، أنه عثر فيها على آثار عشرات النقر لإذابة المعادن . وقد كانوا يضعون خام الحديد المستخرج من منجمه في هذه النقر ومعه الخشب والأغصان التي توقد لايجاد النار الكافية لإذابة المعدن واستخلاصه من المواد الغريبة المختلطة في خامه . فإذا ذاب المعدن وخلص من المواد الغريبة التي كانت ممتزجة به ، عولج معالجة خاصة لتنقيته ولاستخراج فحمه والمواد الأخرى التي تجعله هشاً قابلاً للكسر والثلم بسهولة . وقد يعالج جملة مرات إن أريد استعماله في أمور تستدعي استعمال حديد نقي صاف في مثل السيوف الجيدة التي يجب صنعها من هذا الحديد .

واستعمل الأتون أيضاً في إذابة المعادن لتنقيتها وإذابتها ولإحالتها الى الشكل المطلوب . وتوقد النيران في أسفل الأتون ، لتذيب المعدن وتحيله الى سائل يسيل من فتحة تقع في جانبه ليحوله المعدن الى الشكل الذي يريده . ويخرج الدخان من فتحة تكون في نهاية موقد النار ؛ وتقوم هذه المدخنة في تهوية الموقد في الوقت نفسه . وطريقة إذابة المعادن وتنقيتها هذه ، معروفة عند الرومان واليونان والفرس والعبرانيين . ويطلق العبرانيون على الأتون ، لفظة (أتون) كذلك[3] .

وأشير الى معادن أخرى في اليمن ، منها : الفضة ، وقد وجد في (معدن

---

١ بلوغ الارب (١/٢٠٤) .

٢ في بلاد عسير : (ص ١١٣ وما بعدها) .

٣ Smith, Dict. of the Bible, Vol., I, p. 637.

الرصاص) ، موضع بين (فهم) من همدان ، بين خولان العالية ومراد ، ومعها الرصاص ، وعليه كان اعتماد أهل اليمن . وكان في الموضع قرية تسمى (قرية الرصاص) ، وأهلها من العرنيين . وقد ارتدّوا ، فقتلهم رسول الله[1] . وعرف الرصاص الخالص بالآنك[2] . وقد ذهب بعض الباحثين الى انها من أصل إرمي هو (أنكو) Anko[3] .

ومن المعادن : الجزع ، واليقران ، والعقيق ، وهو في مواضع عديـدة من اليمن ، بعضه بعدن أبيض ، وبعضه بأرض وادعة بين صعدة والحجاز ، وفي نجران وبيحان[4] .

والنحاس ، هو (نحشت) في العبرانية . ويعرف بـ (صبرو) Siparu في البابلية . ومن هذه اللفظة (الصفر) ، المستعملة في العراق بمعنى نحاس[5] . وذكر علماء اللغة أن النحاس ضرب من الصفر والآنية شديدة الحُمرة[6] . وذكروا أن الصفر : النحاس الجيد ، وقيل ضرب من النحاس . والصفار صانع الصفر[7].

وقـد عرف المشتغلون بالمعادن طريقة خلط المعادن ، فاستعملوها في أغراض شتى . فخلطوا بين الفضة والرصاص أو النحاس في صنع النمي ، وهي الفلوس . وكانت في الحيرة على عهد النعمان بن المنذر[8] . وخلطوا الحديد بمعـادن أخرى ، ليتناسب مع طبيعة الأشياء التي يراد صنعها منه . ويكون خلط المعادن بنسب مقدرة معلومة كي تؤدي الغايـة المرجوة منه . ومن هذه المعادن : الشبه . وقد ذكر علماء اللغة أنه ضرب من النحاس يلقى عليه دواء فيصفر[9] .

وفي العربية لفظة (فولاذ) ، وتعني معنى Steel في الانكليزية ، أي نوعـاً خاصاً من أنواع الحديد وتقابل لفظة (فلدو) (بلدو) في السريانية و (فلداه)

---

١ بلوغ الارب (١/٢٠٤) .
٢ شمس العلوم (١/١٠٢) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٧٢) .
٤ بلوغ الارب (١/٢٠٤) .
٥ Ency. Bibli., Vol., I, p. 893.
٦ اللسان (٦/٢٢٧) .
٧ اللسان (٤/٤٦١) .
٨ تاج العروس (٩/٨٥) .
٩ اللسان (١٣/٥٠٥) .

في العبرانية . ويظهر أن الفولاذ كان معروفاً عند الشعوب القديمة قبل الميلاد[1] .

ولم يختلف أهل اليمن القدماء عن أهل اليمن المحدثين في طرقهم البدائيـــة في استخراج المعادن واستخلاصها من خاماتها ، ولا يزال أهـل اليمن يضرمون النار في الحجارة المحتوية على المعدن ، فيسيل المعدن بتأثير الحرارة ، فإذا سال سكب عليه الماء ، فيبرد ، وتتكون قطع منه ، يستعان بها في صنع ما يحتاجون اليه من آلات وأدوات .

ولا يزال كثير من سكان جزيرة العرب يمارسون الصناعات على الطريقة القديمة ، يعتمدون فيها على الأيدي وعلى الآلات البدائية التي ورثوها من الماضي ، فيدبغون الأدم على طريقتهم الموروثة ، ويصنعون سرج الخيل وهوادج الإبل ، والأحذية ، وينسجون الأنسجة من صوف الأغنام أو الماعـز أو الوبر ، للملابس ، ولبيوتهم التي تنتقل بتنقلهم .

والعطارة من الحرف القديمة المعروفة ، وقد ذكرت في التوراة[2] . والعطّار وإن كان اسمه قد جاء من العطر بسبب تعاطيه بيع الطيب والعطور ، يبيـع أيضاً مختلف الأعشاب والعقاقير والأدوية . فهو صيدلي في الواقـــع ، واليه تأتي وصفة الطبيب تعيّن الأعشاب والعقاقير التي يحتاجها المريض . وقد كان العطارون يبيعون في مكة ويثرب وأماكن أخرى أنواع العطور والطيوب ، وفي جملتها المسك. وقد ضرب الرسول المثل (بصاحب المسك) أي العطار ، إذ جعله مثـــال الجليس الصالح[3] للرجل .

ويبيع العطارون عـــدة أشياء تستعمل في الطب وفي الطعام ، مثـــل الزعفران والكركم وهو أصفر ، وذكر أنه (الهُرد) ، وهو عروق يصبغ بها[4] . ومثل (المصطكا) ، وهو علك رومي ، ويدخل في الأدوية أيضاً[5] .

وقد يحمل العطارون آلتهم معهم ، يضعونهـــا في خريطة من أدم ، يطلقون

---

١ Smith, A dictl. of the Bible, Vol., III, p. 1377.

٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٢) .

٣ عمدة القارىء (١١/٢٢٠) .

٤ المعرب (ص ٢٩١) .

٥ المعرب (ص ٣٢٠) .

عليها (القفدانة) و (القفدان) . وهي لفظة فارسية معربة ، وتطلق على المكحلة كذلك كما يقول بعض علماء اللغة [1] .

حرف الإعاشة :

وأعني بها الحرف التي تهيء الأكل للإنسان من تقديم أكل وشراب وما يتعلق بهما من أعمال مساعدة في تهيئة ذلك . فيدخل فيها طحن الحبوب والطبخ والخبز والأواني التي يوضع فيها الطعام وما شابه ذلك من أمور .

ولا بد للإنسان من سحق الحبوب وطحنها ليكون في امكانه أكلها والاستفادة منها . لذلك فقد يدقها دقاً بين حجرين أو بآلات صلبة ، ثم يلهم الحبوب المدقوقة لهماً أو يحمصها على النار أو يمزجها بمادة أخرى لتكون طيبة المذاق مستساغة في الطعم . وقد يطحنها طحناً ، أي يحولها الى دقيق بواسطة : الرحى ، وهي حجران من حيث الأساس أحدهما ثابت وهو الأسفل ، والآخر متحرك وهو الحجر الأعلى وهو أصغر قليلاً من الحجر الأسفل ، به فتحة توضع الحبوب بها فتنزل منها الى سطح الحجر الثاني،فتقع بواسطة حركة الحجر الأعلى بين الحجرين وتداس فتسحق ، وبواسطة استمرار الحركة وثقل الحجر الأعلى تتحول الحبوب الى طحين يخرج من بين الحجرين الى الخارج حيث يسقط في حفرة أمامية عملت لتجميع الطحين بها ، وذلك فيما إذا كان الحجر الأسفل مبنياً على قاعدة ، أما اذا كان متحركاً فيسقط الطحين على أطراف الرحى على قاش أو أي شيء يوضع تحت الحجر الثاني ، ثم يجمع الطحين .

وهذا النوع من الرحي هو من النوع المحسن الذي يمثل تقدماً في صناعة طحن الحبوب . وقد عثر على نوع هو أبسط من الرحى المتقدمة ، فهو عبارة عن حجر مائل نوعاً ما ، أحد طرفيه مرتفع عن الطرف الآخر ، يوضع الحب عليه ثم يسحق بحجر اسطواني الشكل في الغالب يمسك بالأيدي من مقبض تحت منه على كل طرف من طرفيه ثم يحرك على الحبوب لسحقها ، وقد يقبض بطرفي الحجر ثم يحرك نحو الأسفل فالأعلى حتى تسحق تلك الحبوب وتتحول الى طحين.

---

[1] المعرب (ص ٢٦٣) ، تاج العروس (٢/٤٧٤) .

ولا أستبعد استعمال العرب الجنوبيين للطواحين الكبيرة التي تدار بالماء ، وذلك بالاضافة الى الطواحين التي تديرها الحيوانات ، وذلك لبيع الطحين في الأسواق . وقد كان الناس يستعملون الرحي في الغالب للحصول على الطحين ، فلم يكد يخلو بيت منها ، ولذلك كانت صناعــة الرحي من الصناعات النافقة المربحة في ذلك الزمان .

والطحن من الأعمال التي تخصص بها النساء ، وتقوم به الخادمات في البيوت الكبيرة . وقد توضع جملة رحى في البيت الكبير حيث تخبز كميات وافرة من العجين لإعاشة أفراد البيت .

ولمكانة الرحي عند القوم يومئذ ، تخصص أناس باصلاح الحجـر لتحويله الى رحى صالحة لطحن الحبوب أو لعمل الزيوت. وليس يصلح كل حجر لأن يكون حجر رحى ، ولهذا فعلى الخبير بالرحى اختيار الحجر الصالح ، ثم عليه اصلاحه ليكتسب الاستدارة وعمل ثقب فيه ونقره وغير ذلك مما يتعلق بهذا العمل . وتكون حجارة الرحى مختلفة في الحجم ، باختلاف العمل الذي يوكل اليها أداؤه . فبعض الرحى كبيرة ثقيلة ذات قطر واسع ، وتستخدم في طحن بعض المواد الصلبة مثل العفص ومواد الدباغــة الأخرى والمواد التي تستخدم في إنتاج الزيت والطحين . ويستخدم الحيوان لإدارة مثل هذه الرحى . وقد عثر على حجارة رحى ضخمـــة استخدمها العرب قبل الإسلام في تلك الأغراض .

وبائع الحنطة يقال له الحنّاط ، يعيش من الإتجار بالحنطة ، وقد يبيع معهـا الشعير والحبوب الأخرى . وقد ورد ذكر (الحناطين) في كتب الحديث[1] .

والخبز في العادة هو من الأعمال البيتية ، أي من الأعمال التي تتم في البيت ، حيث تقوم الزوجة بخبزه ، ويقوم الرقيق أي الخدم بخبزه في البيوت الكبيرة الغنية. وهو من اختصاص النساء .

وقد احترف بعض الناس الخبازة ، وعرف واحدهم بـ (الخبـــاز) ، إذ يصنع الخبز المصنوع من الحنطة أو المصنوع من الشعير أو من الذرة ومن الرز . والخبز على أنواع ، فيه الغليظ وفيه الطري وفيـه الناشف ، وفيه ما يضاف اليه

١ المعرب (ص ١٤١) ، تاج العروس (٥ / ١٢١ وما بعدها) .

السكر . وقد ذكر أن من الخبز الغليظ ما يقال له (جرذق) و (جردق) و (الجردقة) ، واللفظة فارسية معربة وأصلها (كرده)[١] .

والخبز المصنوع من الحنطة ، هو أجود أنواع الخبز وأغلاها ، ولذلك يعتبر خبزها خبز الأغنياء وخبز الطبقة المتمكنة . أما خبز الأعراب والفقراء وأهل القرى فهو الخبز المصنوع من الشعير أو من الذرة . ويقتات فلاحو بلاد الشأم واليمن بخبز الذرة ، لوجوده بكثرة عندهم ، ولرخص ثمن الذرة بالنسبة الى القمح . كما يقتات بعضهم بالخبز المصنوع من (الدخن) ، وهو من الحبوب القديمة وقد أشير اليه في التوراة[٢] .

ومن أنواع الخبز (المرقق) ، أي الرقاق ، وقد ورد ذكره في كتب الحديث[٣] ، ويقال له (المرقوق) في بلاد الشأم ، ويعرف بـ (رقيقم) أي (الرقيق) عند العبرانيين[٤] . ولا زال معروفاً مستعملاً . ويكون ناشفاً رقيقاً يمكن حفظه وخزنه مدة طويلة . ولذلك يدخر للشتاء وللأسفار . ويرقق خبز الرقاق بآلة تسمى : المرقاق[٥] .

والخبز الجيد هو الخبز المصنوع من الطحين المنقى الصافي من قشرة الحبوب ، وذلك بنخل الطحين في منخل فيسقط لبّ الطحين ويعزل عن القشرة الني تبقى في المنخل ، حيث يستعمل لأغراض أخرى كعلف للحيوان ، أو لتنظيف الأواني وما شابه ذلك من أعمال .

و (الكعك) ، هو نوع من الخبز اليابس . ويحمل في الأسفار أيضاً ، حيث يبقى مدة طويلة محافظاً على طعمه ونكهته . وقد ذكره بعض اللغويين في المعربات[٦] . والسميذ ، نوع من أنواع الخبز اليابس كذلك .

وقد يحلى الخبز ، بوضع مادة حلوة فيه ، وقد يعجن بالدهن أو الزيت ،

---

١ المعرب (ص ٩٥ ، ١١٥) ، تاج العروس (٦/٣٠٥) .
٢ حزقيال ، الاصحاح الرابع ، الاية التاسعة ، Hastings, Dict., Vol., I, p. 315 f.
٣ المعرب (ص ١٩٧) ، فتح الباري (٩/٤٦٤) ، اللسان (١٠/١٢٣) .
٤ Hastings, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 318, Hastings, a dict. of Christ and the Gosple, Vol., I, p. 231.
٥ تاج العروس (٦/٣٥٩) .
٦ تاج العروس (٧/١٧٤) ، المعرب (ص ٢٩٧) .

وقد توضع فيــه بعض المواد لاعطائه نكهة خاصة ، أو يوضع عليه السمسم أو غيره ، كما نفعل اليوم .

ويخبز الخبز عند الحضر وأهل الريف في (التنور) . و(التنور) من الألفاظ الواردة في عدد من اللغات السامية ، فهو (تنورو) Tanuru في الآشورية [1] . و (تنور) في العبرانية [2] . والتنور العربي هو نفس البابلي القديم نفسه [3] .

وقد عيّر (حسان بن ثابت) رهط (النجاشي) الشاعر بأنهــم لم يكونوا أهل حرب ولا طعان ولا فرسان ، وانما هم قوم لا يعرفون غير الأكل والجلوس حول التنانير ، يأكلون ما يخبز فيها [4] .

وعاش بعض الناس على بيع الحليب واللبن والزبدة والجبن . أما (اللبن) ، فإنه الحليب المثخن ، أي الحليب الغليظ . غلظ بتسخينه وبإضافة خميرة اليه . وأما الزبدة ، فتستخرج من خض الحليب وتحريكه ، فتتجمع مادة دهنه وتكون الزبدة . وأما الجبن ، فإنه من أكل أهل القرى والمدن في الغالب . أما الأعراب ، فلم يستعملوه بكثرة ، ولا زالوا على هذه العادة . وقد يستعمل بعضهم اللبن المجفف ، فبعد تحويلهم الحليب الى لبن ، يجففون اللبن ، ويستعملونه عند الحاجــة . وقد ذكـر الجبن في التوراة بـ (جبينه) من أصل (جبن) احـد الألفــاظ السامية القديمة [5] .

ويعيش أناس من الجزارة ، فكانوا يبيعون اللحم ويتكسبون بهذه الحرفة ، كما كانوا يقومون بالجزارة للناس في مقابل أجر يتقاضونه ، قد يكون نصيباً يدفع اليهم من الذبيحة ، وقد يكون شيئاً آخر يحصل التراضي عليه [6] . ولكن العــادة أن يقوم الذبّاحون بذبح الذبائح لأهل البيوت مقابل دفع شيء اليهم من الذبيحة أو بعض الأشياء التي يحتاجون اليها ، وقد يقوم بالذبح أصحاب البيوت أو الخدم أو الطبّاخون وذلك في العوائل الكبيرة ، ولهذا فحرفة الجزارة لم تكن من الحرف

---

١ Reallexikon, Bd., I, S. 5 Lieferung, S. 387.

٢ Hastings, A Dictionary of the Bible, p. 315.

٣ Reuther, Innenstadt von Babylon, S. 26, f., 53, 107, 118.

٤ الا طعــان ، الا فرسان عاديـــة   الا تجشؤكم حــــول التنانــير
ديوان حسان (ص ٢١٥) « البرقوقي » .

٥ Smith,Vol., I, p. 237.

٦ جامع الاصول (٤/٣٩٦) .

الشائعة ، لا سيما وأن سواد الناس لم يكن في امكانهم تناول اللحوم في كل يوم، لغلائه بالنسبة لهم ، بل كانوا يعيشون على الخبز وبعض الادام الرخيص ، ولهذا صار الخبز المادة الأساسية في معيشة الإنسان ، ومن هنا قيل له (العيش) ، وقيل للطعام : (العيش) . كما كان اللبن أساساً لمعيشتهم ، وقد يتأدمون بالتمر مع الخبز[1] .

وأحسن اللحوم عند العرب لحوم الإبل ، لا يفضلون شيئاً عليها ، ومنهم من كان يستطيب أكل الضب[2] . وهم في أكل لحم الجمل على عكس يهود ، الذين يحرمون أكل لحوم الجمل . أما لحوم الغنم والماعز ، فإنها تكون عند أهل القرى والمدن ، حيث يبيعها الجزارون . وقد يأكلون لحوم الخيل . وفي الأدب العربي قصص عن ذبح فرس لضيف قادم ، حين لا يكون لدى المضيف من حيوان سوى الفرس . وقد يأكلون الحمر الوحشية ، والحيوانات الأخرى حيث يصطادونها. أما الدجاج ، فإنه من مآكل أهل القرى والمدن حيث تربى عندهم ويبيعونها في السوق .

وكان مأكولهم في غالب الأزمان لحوم الصيد والسويق والألبان ، وكان الغالب من أهل باديتهم لا يعاف شيئاً من المأكل لقلتها عندهم . وكان الاصطياد ديدناً لهم ، وسيرة فاشية حتى كان ذلك أحد المكاسب التي عليها معاشهم،لاضطرارهم الى النقلة في الغالب وتشاغلهم بالحروب وغزو بعضهم بعضاً،ولضيق ذات يدهم، فكانوا يتغلبون على كل ذلك بالاصطياد وبمطاردة الحيوانات بكل طريقة ممكنة لأكل لحومها[3] .

والطباخة من الحرف التي كانت معروفة عند الجاهليين . وقد ورد في كتب اللغة والأخبار وكتب الحديث أسماء بعض الأطعمة التي كان يستعملها أهل الجاهلية وبينها أسماء أطعمة معربة ، اقتبسها العرب من الفارسية والارمية واليونانية . ومن هذه الاطعمة المعربة ، (الخرديق) (الخردق) ، وهو طعام شبيه بالحساء أو

---

١ اللسان (٦/٣٢٢) .

٢ بلوغ الارب (١/٣٨٠) ، وكان الرسول ممن لا يستسيغ أكل العنب ، كتاب التاريخ الكبير ، لابي عبد الله ، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي البخاري (المتوفى سنة ٢٥٦هـ) ، (١/١٧٠) ، «طبعة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٦٣ هـ» .

٣ بلوغ الارب (١/٣٨٠ وما بعدها) .

(الخزيرة)[1] . وقيل المرقة بالشحم . ذكر العلماء أنها من أصل فارسي ، هو (خورديك)[2] . و (الخشنكان)[3] .

وتقوم المرأة صاحبة البيت بالطبخ ، أما اذا كانت الأسرة غنية موسرة ، فتستخدم طبّاخات للطبخ . وقد يقوم (طباخ) بذلك . وفي الولائم الكبيرة حيث يدعى عدد كبير من النـاس ، يصعب على الطبّاخات الطبخ بالقدور الكبيرة ، ولهذا يقوم الرجال بذلك .

وقد استخدم أصحاب المال والثراء طبّاخين أعاجم لطبخ الأطعمة لهم ، وذلك لاتقانهم عمل الطبخ ولتفننهم فيه،ولمعرفتهم بأنواع المآكل الأعجمية التي لا يعرفها العرب . وقد ذكر أن (عبدالله بن جدعان) جاء بطبّاخ فارسي من العراق ليطبخ له مأكولات لا يعرفها أهل مكة وقد أعجبته، ومنها الفالوذج ، وهو من مأكولات الفرس .

وتستعمل القدور في طبخ الأكل . والعادة أن تكون هذه القدور من معدن . مثل نحاس أو حديد . ولكنها قد تصنع من الحجارة المنحوتة أو طين مشوي بالنار ، أي قدور من فخار . وتستخدم المقلاة للقلي ، فيقلى فيها أو في القـدر ما يراد قليه من لحم أو غير ذلك . وقد يسلق اللحم ، أو الخضر سلقاً، ويعبر عن ذلك في العبرانية بلفظة (سلق) كذلك . أما (المرق) ، فيقال له (مرق) في العبرانية كذلك . وقد يهيأ الطعام بطريقة الشوي على النار ، بأن يشوى اللحم أو السمك على النار ، ويعبر عن ذلك بالشواء . يعلق اللحم أو السمك بعود أو أعواد أو بعمود من حديد ، ثم يقرب من اللهيب أو الجمر حتى ينضج اللحم أو السمك فيرفع للأكل .

وقيل للقدر (البرمة) بلغة أهل مكة والجمع (بِرام) . وقد وردت لفظة (قدور) في القرآن الكريم : « وجفان كالجوابي وقدور راسيات »[4] والمفرد : قدر . و (القدير) ما يطبخ في القدر . وقيل ما طبخ من اللحم بتوابل ، فإن لم يكن ذا توابل فهو طبيخ . والقدّار : الطبّاخ ، وقيل الجزّار ، وقيل الجَزّار

---

١ المعرب (ص ١٢٨) .
٢ تاج العروس (٣٢٧/٦) .
٣ المعرب (ص ١٣٤) .
٤ اللسان (٨٠/٥) . البيان (١٩/١) .

هو الذي يلي جزر الجزور وطبخها . قال مُهلهل :

إنّا لنضرب بالصوارم هامها　　ضرب القدار نقيعة القدّام[1]

وعرفت البرمة بقولهم : البرمة : قدر من حجارة والجمع برم وبرام . وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن[2] .

ويطلق على الحجارة التي تنصب عليها القدر الأثافي ، واحدتها أثفية ، وعلى المسافة بين أثافي القدر التي يجتمع فيها الجمر (الرِّبعة)[3] .

وطعام ابن البادية طعام محدود ، لضيق أرضه وسذاجة حياته . أما الحضر ، ولا سيما أصحاب الحضارة ومن كان منهم على اتصال بالروم والفرس ، فكانت أطعمتهم متعددة متنوعة ، فيها تفنن ومهارة في الطبخ . وقد يبقى الأعرابي مدة لا يذوق فيها طعاماً مطبوخاً باللحم ، لأن اللحم نادر في البادية ، إلا اذا جاء ضيف فنحر له ، أو وقع له صيد. ولهذا أكل بعضهم الضباء والأرانب والحيوانات الأخرى التي تقع أيديهم عليها ، لحاجتهم الى اللحوم ، وأكلوا الجراد . والأغلب شيء لحوم الصيد ، لسهولة ذلك .

أما الحضر وسادات القبائل وذوو اليسار ، فكانوا يطبخون وقد وردت اسماء بعض أطعمتهم في الشعر وفي الحديث النبوي ، ومنها الثريد وهو لحم مقطع يغلى في الماء ، وقد يوضع البصل معه أو مادة أخرى ، وبعد نضجه يثرد خبز ويلقى اللحم والمرق عليه ، فيسمى الأكل ثريداً . وقد كان من الأكل الطيب المحبوب . وقد ذكر في كتب الحديث . ويقدم في الولائم وللضيوف . والخبز ممدوح عند العرب ، ولذلك مدح هاشم حين هشم الخبز . والثريد عام في الأشراف ، يقدمونه للناس ، ويرون أكل الخبز ، سبباً في صفاء العقل . ولهذا ذكروا أن كسرى مدحه ، حينما سمع حديث هوذة بن علي الحنفي معه ، فلما رأى رجاحة عقل هوذة وحسن ذكائه ، قال له : « ما غذاؤك ببلدك ؟ قال : الخبز . فقال كسرى : هذا عقل الخبز ، لا عقل اللبن والتمر . ويقال : إن عبدالله بن حبيب العنبري ، كان يعاف التمر ، ولا يرغب في اللبن ، ولا يأكل

١　اللسان (٥/ ٨٠) .
٢　اللسان (١٢/ ٤٥) .
٣　المخصص (١١/ ٣٣) .

إلا الخبز ، فقيل في المثل : « أقرى من آكل الخبز » وكان من الأجواد[1] .

وفي كتـاب الأغاني : أن كسرى قال كلامه المذكور المتقدم الى غيلان بن سلمة ، وهو من ثقيف ، وكان قد جاء مع أبـي سفيان في تجـارة الى العراق . وقد خاف أبو سفيان من الفرس ومن احتمال مصادرتهم أموال تجـارتهم ، فتقدم غيلان ، ودخل مع الداخلين الى بلاط كسرى ، وتحدث معه ، فأعجب كسرى به ، وأخذ يسائله ، حتى سرّ منه ، فاشترى منه تجارته ، وقال له ذلك القول المذكور ، وكساه ، وبعث له معه من الفرس من بنى له أطماً بالطائف ، فكان أول أطم بني بها »[2] .

وفي المـآدب الكبيرة يكون (الثريد) ، هو الطعـام الرئيسي . ويهيأ بسلق قطع اللحم الملقاة في الماء ، وقد يضاف اليه البصل والحمص ، فإذا سلق اللحم ونضج ، وتولد منه مرق ، ألقي مع مرقه على الخبز المثرود في قصع وصحاف ، ليأكله المدعوون . والثريد من الأطعمة المحببة الى نفوس أهل مكة والحجـاز . وقد قـدم (ابرهة) الثريد الى الجنود والفعلة الذين أتموا سدّ مأرب ، وذلك يوم الاحتفال بانتهاء العمل . وقد يقابل ذلك ما يقال له (سلوق) و (سليقوت) عند العبرانيين[3] . وقد أشير الى الثريد في قصة ذهاب (هاشم بن عبـد مناف) الى بلاد الشأم ، والتقائه بهرقل ، وتثريده لمن معه ولأهل مكة .

ولازدراء العرب من يزرعون البقول والخضر ، أحجم الناس عن زراعتهـا ، فقلّ وجودها في مطابخ أهل الحضر . أما أهل البادية ، فإن ما كلهم تكاد تكون خلواً من الخضر المطبوخة ، لندرة الخضر في البادية ، ولأنهـا تحتاج إلى لحم ، وهو نادر في البادية أيضاً . ثم إن الطبخ المعقد ، لا يناسب الحياة في الصحراء ، لهذا كان المطبخ الجاهلي، مطبخاً يكاد يكون مستغنياً عن الخضرة المطبوخة باللحوم. لا يستثنى من ذلك إلا السادة المتصلون بالروم وبالفرس وأهل اليمن ، والأغنياء من أهل المدن والقرى ، فقد كان في امكانهم الحصول عليها، ومن هنا استعملوها في الطبخ ، يطبخونها مع اللحم .

---

١ مجمع الامثال (٢ / ٧٣) ، بلوغ الارب (١/٨٦ وما بعدها) .

٢ الاغاني (١٢/٤٦) .

٣ Ency. Bibli., Vol., I, p. 888.

لذا صار عماد الأكل الجاهلي والتمر واللبن والسمن والدقيق المصنوع من البر أو الشعير والشحوم والعسل ، وذلك عند أهل الحضر في الغالب ، والجراد والأقط. واذا دققنا في قائمة المأكولات الجاهلية ، رأينا موادها لا تتعدى هذه الأشياء ، وهي تختلف باختلاف خلط هذه المواد وباختلاف مزجها وطبخها . ولكنها كلها لا تخرج عن حدود الأشياء المذكورة .

ونجد في قائمة مأكولات أهل الجاهلية أكلات تقوم على استعمال الدقيق في الطبخ . من ذلك الحساء : وهو طبيخ يتخذ من دقيق وماء ودهن . وقد يحلّى ويكون رقيقاً يحسى[1] .

وقد يستعمل الدقيق مع الحليب ، بأن يطبخ ، ومن ذلك الحريرة : الحسا من الدسم والدقيق ، وقيل هو الدقيق الذي يطبخ بلبن ؛ وقيل الحريرة من الدقيق والخزيرة من النخال[2] . وقد عرفت قريش باكثارها من أكل أكلة عرفت بـ (سخينة) ، ولاكثار قريش من أكلها عيّرت بها حتّى قيل لها (سخينة). والسخينة أكلة ارتفعت عن الحساء وثقلت عن أن تُحسى ، وهي طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء ، وذكر انها دقيق يُلقى على ماء أو لبن فيطبخ ثم يؤكل بتمر أو يحسى ، وقيل تعمل من دقيق وسمن . وذكر أن الناس يأكلون السخينة في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال[3] .

ويذكر أهل الأخبار أن أول من لقب قريشاً بـ (سخينة) (خداش بن زهير)، حيث يقول :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة   على سخينة لولا الليل والحرمُ

فذهب ذلك على أفواه الناس حتّى كان من التّمازح به ما كان بين معاوية بن أبي سفيان وبين الأحنف بن قيس التميمي ، حين قال له : ما الشيء الملفّف في البجاد ؟ فقال له : السخينة يا أمير المؤمنين ، أراد معاوية قول الشاعر :

---

١ اللسان (١٤/١٧٧) .

٢ اللسان (٤/١٨٤) .

٣ اللسان (١٣/٢٠٦) .

إذا ما مـــات ميت من تميم فسرّك أن يعيش فجيء بزاد
بخبز ، أو بلحم ، أو بتمر أو الشيء الملفف في البجـــاد

يريد وطب اللبن ، وأراد الأحنف قول خداش بن زهير ، يا شدة ما شددنا.. البيت . وحتى قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، لكعب بن مالك الأنصاري: أترى الله نسي قولك ؟ يعني :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبنّ مغـــالب الغلاب[1] »

وورد في بعض الروايات أن البيت المتقدم هو من شعر حسّان بن ثابت[2] .

ومن المآكل التي يأكلها أصحاب العيال إذا غلب عليهم الدهـر : النفيتة ، وهي الحريقة ، أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب حـــتى تنفت ، ويتحسى من نفتها ، وهي أغلظ من السخينة . وقد قيل عنها : حساء بين الغليظة والرقيقة[3] . والحريقة اسم مرادف للنفيتة[4] .

ومن المآكل الحدرقة . وهي دقيق يلقى على ماء أو على لبن فيطبخ ثم يؤكل بتمر أو يحسى وهو الحساء ، فهي مثل السخينـة ، والنفيتة والخزيرة والحريرة . وقيل الحريرة أرق منها[5] . و (النجيرة) العصيدة : وهي لبن وطحين يخلطان[6] . ومنها (الصحيرة) ، وهي اللبن يغلى ثم يذر عليه الدقيق . ومنها (العكيسة) ، وهي لبن يصب عليه الإهالة وهي الشحم المذاب . ومنها (الغريقة) ، وهي حلبة تضم الى اللبن والتمر وتقدم إلى المريض والنفساء ، ومنها (الرغيدة) وهي اللبن الحليب يغلى ثم يذر عليه الدقيق حتى يختلط فيلعق[7] .

ومن مآكلهم : (الأصية) ، وهي دقيق يعجن بلبن وتمر ، ومنها (الرهية)، وهي برّ يطحن بين حجرين ويصب عليه لبن . ومنها (الوليقة) وهو طعـــام

---

١ العمدة (١/٧٦ وما بعدها) ، « القاهرة ١٩٦٣ م » .
٢ العقد الفريد (٦/٢٩٢) ، كتاب التأريخ الكبير ، للبخاري (١/٧٠) ، بلوغ الارب (١/٣٨١ وما بعدها) .
٣ اللسان (٢/١٠٠) ، بلوغ الارب (١/٣٨٣) .
٤ اللسان (١٠/٤٣) .
٥ اللسان (٢/١٠٠) ، (١٠/٤٠) .
٦ اللسان (٥/١٩٤) .
٧ بلوغ الارب (١/٣٨٣) .

يتخذ من دقيق وسمن ولبن ، ومنها (الخزيفة) ، وهي شحمة تذاب ويصب عليها ماء يطرح عليه دقيق فيلبك به ، ومنها (الرغيفة) ، وهي حسو من دقيق وماء وليست في رقة السخينة . و (الربيكة) ، وهي طعام يتخذ من بر وتمر وسمن . ومنها (التلبينة) ، وهي حُثالة تتخذ من دقيق أو نخالة ويجعل فيها عسل . ومنها (الوشيقة) ، وهي أن يُغلى اللحم ثم يرفع . و (العثيمة) ، طعام يطبخ ويجعل فيه جراد وهو (الغثيمة) أيضاً . و (البغيث) و (الغليث) الطعام المخلوط بالشعير[1] .

و (العريقة) ،وهي شيء يعمل من اللبن . و (البكيلة) السمن يخلط بالأقط، وقيل الدقيق يخلط بالسويق ثم يبل بماء أو بسمن أو بزيت[2] .

ومن مآكلهم (الخزيرة) ، وهي أن ينصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير ، فإذا نضج ، ذر عليه الدقيق . فإن لم يكن لحم ، فهو عصيدة . وينسب صنعها إلى سويد بن هرمي . ولذلك قال شاعرهم لبني مخزوم :

وعلمتمُ أكل الخزير وأنتم   على عدواء الدهر صم صلاب[3]

وعرفت الخزيرة : انها اللحم الغابُ يؤخذ فيقطع صغاراً في القدر ثم يطبخ بالماء الكثير والملح ، فإذا أميت طبخاً ذرّ عليه الدقيق فعصد به ثم أدم بأي ادام شيء ، ولا تكون الخزيرة إلا وفيها لحم ، فإذا لم يكن فيها لحم فهي عصيدة. وقيل الخزيرة مرقة،وهي أن تصفى بلالة النخالة ثم تطبخ ، وقيل الخزيرة والخزير الحسا من الدسم والدقيق . وقيل الحسا من الدسم[4] .

وصنع أهل مكة طعاماً ، عدّ عندهم من رقيق العيش،هو لباب البرّ بصغار المعزى[5] .

وهناك أكلات أخرى بسيطة ، مثل أكل تمر مع لبن ، أو الزبد مع الرطب ،

---

١ بلوغ الارب (١/٣٨٣ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (١/٣٨٤) .
٣ بلوغ الارب (١/٣٨٤ وما بعدها) .
٤ اللسان (٤/٢٣٧) .
٥ البيان (١/١٨) ، الحيوان (٥/٤٨١) .

أو خلط لبن بلبن آخر ذكر أسماءها علماء اللغة[١] ، لا أرى حاجة إلى ذكرها ، لعدم وجود أهمية لها وعلاقة كبيرة بهذا الموضوع .

وقد استورد الحضر بعض مآكلهم من الخارج ، لاستساغتهم واستحسانهم،فقد قيل إن عبدالله بن جدعان سيد قريش كان قد زار العراق ، ودخل قصر كسرى وأكل عنده . وكان في جملة ما أكل (الفالوذج) ، فتعجب منه ، وسأل عنه، فوصف له . ويقال انه ابتاع غلاماً يصنعه ، وأخذه معه إلى مكة ، وصار يأكله وأمر بوضع موائده بالأبطح إلى باب البيت ، ليأكله النـــاس ، وكان ممن أكله أمية بن أبي الصلت ، فقال فيه شعراً ومدح صاحبه لجوده وكرمه[٢] :

الى ردح من الشيزى عليها   لُباب البُرّ يُلبكُ بالشِهاد

والردح : الجفنة العظيمة ، والشيزى : خشب أسود تتخذ منـــه القصاع ، واللباب : الخالص ، والشهاد : العسل[٣] . وقد نسب (البرقوقي) ذلك البيت الى (ابن الزبعرى)،عبدالله وهو من الشعراء الذين عرفوا بهجائهم للرسول وبدفاعهم عن المشركين[٤] .

وكان عبدالله بن جُدعان من أغنى أغنياء قريش ، جمع مالاً عظيماً ، ولكنه كان على خلاف عادة التجار الأغنياء كريماً جواداً متأنقاً ينفق على طعامه وشرابه. كسا بيته بأحسن ما كان في ذلك العهد ، كانت أواني شربه من ذهب ، وفيـه ورد في المثل : أقرى من حاسي الذهب[٥] .

ويقال إن ابن جدعان هذا كان في ابتداء أمره صعلوكاً تَرِبَ اليدين، شريراً فاتكاً ، لا يزال يجني الجنايات ، فيعقل عنه أبوه وقومه ، حتى أبغضته عشيرته، ونفاه أبوه ، وحلف لا يُؤويه أبداً ، فخرج في شعاب مكة تائهاً حائراً ، فرأى شقاً في جبل ، فدخل فيه ليستريح ، وإذا به يعثر على مقبرة فيها جثث عليهـا

---

١ اللسان (١/٣٨٤) .
٢ مجمع الامثال (٢/٧٣) ، الاغاني (٨/٤) « طبعة ساسي » ، بلوغ الارب (١/٣٨١) .
٣ البيان (١/١٧ وما بعدها) .
٤ البرقوقي (ص ٥٧) .
٥ مجمع الامثال (٢/٧٢) .

ثياب قد بليت ، صارت كالهباء حين لمسها ، ووجد كنزاً حمله معه الى والـده ليسترضيه ، فرضي عنه ، ومن هناك جاء غناه [1] . ويقال إنه كان نخاساً [2] .

وروي انه مذ هذا الحادث صار يطعم الناس ويفعل المعروف، وصنع له جفنة كبيرة جداً يأكل منها القائم والراكب لعظمها ، ووضع له جفاناً في ردحة بيته ليأكل منها من يقصده . وورد ان الرسول ربما كان يحضر طعامـه ، وقد رأى جفنته ، واستظل بها لضخامتها [3] .

ولمكانته هذه ولمنزلته في قومه وبين الناس ، آمنت به العرب ، ووثقت به ، فكانت تدفع أسلحتها اليه ، حتى تفرغ من التسوق من سوق عكاظ ومن الحج ، فإذا أرادت الرجوع ، دفع اليها أسلحتها [4] .

وقد عرف السكر عند الجاهليين ، ويقال له : المبرت بلغة حمير [5] . ولا يستبعد صنعه في جزيرة العرب أو استيراده من الهند أو من أماكن أخرى . وقد ذكر (ديوسقوريدس) Dioscurides أن في الهند وفي اليمن مادة تشبه الملح في المنظر، تستخرج من سائل كالعسل [6] ، وفي هذا الوصف ما ينطبق على السكر .

حرف أخرى :

ومن الحرف الحلاقة والحجامة . ويجمع الحلاّق في الغـالب بين حلاقة الشعر والحجامة . ويستعمل الحـلاق الموسى والمقص في الحلاقة ، ويتخذ المرآة لإراءة المحلوق شعره وكيفية قصه، وكذلك يتخذ أدوات زينة وطيب لتطييب الشخص، إذ الحلاقة نوع من أنواع الزينة كذلك . وكانت حلاقة الرأس مختلفة ، لا تجري على طريقة واحدة . فللقبائل عادات مختلفة في طريقة حلاقة الشعر وقصـه ، كما أن الأعراب يختلفون عن أهل المدن في تنظيم شعر رؤوسهم وحلاقته. وهم يدهنون

---

١ بلوغ الارب (١/٨٧ وما بعدها) .
٢ المعارف (ص ٢٥٠) .
٣ بلوغ الارب (١/٨٨ وما بعدها) .
٤ الاغاني (١٩/٧٦) .
٥ شمس العلوم (١/١٤٦) ، (البرت بالضم السكر الطبرزذ ، باعجام الذال ، وهـو لغة اليمن) ، تاج العروس (١/٥٢٥) ، (برت) .
٦ Ency. of Islam, Vol., IV, p. 510.

شعورهم ويتركونها تتــدلى في الغالب ، وقد يجعلونها ضفائر وجدائل تتدلى على الاكتاف .

واعتماد الحجام على الموسى يشرط به جروحاً خفيفة يمص منها الدم بكأس من الزجاج توضع فوق الشرط ، ثم يسحب الحجام الهواء من الفتحة الضيقـة المتصلة بقناة داخل الكأس ، فيخرج الدم الى داخل الكأس . وقــد كانت الحجامة من وسائل التداوي في ذلك الزمن . كذلك عدّ (الفصد) ، وهو اخراج الدم من عرق في اليد ، نوعاً من أنواع المداوة . ويقال للقائم به (الفصاد) . وقــد يقوم بذلك الأطباء . واستعمل نوع من الديدان في امتصاص الدمّ كذلك ، وذلك كنوع من أنواع المعالجات الطبية . ولا تزال هذه الطريقة معروفة عنـد الأعراب وأهل القرى والمدن . وقد حجم الرسولَ رجلٌ اسمه (أبو طيبة) ، وأعطاه أجره عليه[1] ويستعمل الفصاد المبضع في الفصد[2] .

وعاش بعض الناس على بيع الحطب ، فكانوا يجمعونه من البادية ومن الجبال ويأتون به إلى المدن والقرى مثل مكة ويثرب فيبيعونه . يقوم بذلك (الحطّابة)[3] . وقد نعتت امرأة أبي لهب في القرآن الكريم بـ (حمّالة الحطب) ، وذلك على سبيل الازدراء والتحقير . ويشد الحطب ويربط بحبل ، ويوضع على ظهر الدابة، وقد يحمله الأشخاص لبيعه . والأغلب أن تبيع النساء العاقول والحطب .

والرتم من الحطب الذي يعطي ناراً شديدة ذات لهب ، يبيعه الحطابون لأهل المدن ، ويقال له (روتيم) في العبرانية . ويتخذ منه فحم ، وذلك باطفاء ناره قبل احتراقه . فيتولد من ذلك الفحم[4] .

ومن أنواع الحطب الأطد ، وهو : (اطد) في العبرانية أيضاً . والعوسج، والحدق . ويقال له (حدق) في العبرانية كذلك ، والسمر ، وهو (شمير) عند العبرانيين[5] .

وقد كان أكثر من يتعاطى الطبخ والخبازة والجزارة من العبيد . وقد تخصص

---

١ عمدة القاري (١١/٢٢١ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٣٧/٨) .
٢ المغرب (ص ٣٩) .
٣ المغرب (ص ١٢٦) .
٤ Hastings, Dict. of the Bible, Vol., I, p. 71.
٥ Smith, Dict., Vol., III, p. 1191.

بعضهم بعمل واحد من الحرفة الواحدة ، مثل بيع نوع واحد من الطبيخ ، فذكر ان رسول الله دعا اليه مرة عبداً ، كان يبيع الخرديق[1] . و (القدّار) هو (الجزار)[2] .

والموقد ، هو الموضع الذي توقد فيه النار ، ويعرف بـ (ميقده) عند العبرانيين[3] . وقد كان عرب بلاد الشأم والعراق يتخذون المواقد للاصطلاء بها في أيام الشتاء ، كما يستعمله الطباخ موضعاً للطبخ ، يضع القدور عليه ويشعل فيه النار .

وقد عاش أناس على كراء الحمير والإبل للمحتاجين الى ذلك ، ويقال لذلك البرطسة[4] . ولمكتريها للناس المبرطس[5] .

وقد احترف بعض الناس حرفة صنع الحصر والسلال والقلل والسرر . صنعوها من الخوص ومن سعف النخيل . لوجودها بكثرة . وصنعها بعضهم من القصب وذلك في الأماكن التي تكثر فيها المياه والرطوبة . ولا تزال هذه الحرف قائمة معروفة.وتصنع بعضها بنسج الخوص أو الألياف كما هو الحال بالنسبة الى (الحصر)، جمع حصير المنسوج الذي يبسط في البيوت . وذكر أن الحصير : سقيفة تصنع من بردي وأسل ثم تفرش[6] .

ويستخدم (السفط) في حفظ الأوراق والأشياء الثمينة . ويصنع من القصب والخيزران ومن الخوص أيضاً ، حيث يصف صفاً .

و (القفة) ، نوع من السلال أيضاً . وتكون مختلفة الحجوم . وتستخدم في أغراض متعددة ، ومنها نقل الطين ، وتعرف عند أهل العراق بـ (قفة طين)، أو لنقل الأحجار. وتصنع من المعدن أو من الأغصان. وأشير اليها بـ « Kophinoi » و « Kophinos » « Cophinus » في الأناجيل، من اليونانية حيث تسمى بـ« Kophinoi »

---

١ تاج العروس (٦/٣٢٧) .
٢ الفاخر (ص ٩٨) .
٣ Hastings, Dict. of the Bible , Vol., I, p. 72.
٤ شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ١٥٥) .
٥ شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ١٥٥) .
٦ اللسان (٤/١٩٥ وما بعدها) .

« Kophinos » واللاتينية، حيث تسمى بـ « Cophinus »[1] . ولعل بين لفظة (قفة) والتسمية اليونانية اللاتينية صلة. ومن لفظة « Kophinos » ، أخذت لفظة « Coffen » أي تابوت . ويلاحظ أن بين هذه اللفظة ولفظة (كفن) العربية ، صلة كبيرة كذلك[2] .

وذكر علماء اللغة ان القفة : الزّبيل ، ويسمونها القفعة ويجعلون لها معاليق يعلقونها بها من آخرة الرحل ، يلقي الراكب فيها زاده وتمره ، وهي مدورة . وعرفت انها شبه زبيل صغير من خوص يجتنى فيه الرطب وتضع فيها النساء الغزل[3] . وعرف الزبيل والزنبيل : بالجراب ، وقيل الوعاء يحمل فيه ، والقفة[4] .

وأما السلة المصنوعة من الخوص ، فيقال لها (العلاقة) في العراق في الوقت الحاضر . وتكون صغيرة ومتوسطة . أما الكبيرة، فيقال لها (الكوشر) و (الزنبيل) ، ويستعملها الحمالون في حمل الأشياء للناس .

وتستعمل السلال المصنوعة من الأعواد ومن أغصان الشجر الطرية في حفظ الأطعمة والمطبوخات ، لدخول الهواء اليها ، ولمنع الطيور والكلاب والقطط من الوصول اليها . وتكون مثل هذه السلال مرتفعة ذات قاعدة أصغر من الوجه العريض الذي يوضع على العرض .

وقد وردت في التوراة والانجيل وفي الكتب اليونانية واللاتينية وفي الآثار المصرية أسماء سلال صنعت في ذلك العهد. تفيدنا في تكوين فكرة عن السلال عند الجاهليين. وقد صنعت بعض تلك السلال من القصب ومن التبن ومن الخوص ومن الأعواد، وهي مختلفة في الأحجام والسعة . ففي التوراة لفظة هي : (س ل) (سل) ، وهي (السلة) عندنا . والجمع (سلال) . وتصنع في بلاد العرب من الخوص أو من الأغصان الطرية. وتستعمل في نقل الخبز واللحوم والخضر والأشياء الأخرى[5].

---

١ Hastings, Dict., vol., I, p. 256, Hastings, Dict. of the Christ, vol., I, p. 174, Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 171.

٢ The Bible dictionary, vol., I, p. 283.

٣ اللسان (٢٨٧/٩) .

٤ اللسان (١١/ ٣٠٠ وما بعدها) .

٥ Hastings, Dict., vol., I, p. 255, Smith, Dict., vol., I, p. 171, Ency. Bibl., vol., p. 499.

وهي مثل الكيس أحياناً ، يمكن ضمها بعضها الى بعض وتكون لها يد تحمل بها. وهي في مقابل (الطبق) عند العراقيين . غير ان الطبق ثابت يصنع من أغصان بعض الأشجار مثل الرمان،حيث تكون لينة لا تنكسر . ويكون بأحجام متعددة، منه ما هو صغير الحجم ، ومنه ما هو وسط ومنه ما هو كبير ، يستعمل لنقل الخضر والفواكه من البساتين والحقول الى مواضع البيع . ومنه ما يستعمله القصابون المتجولون لبيع اللحم .

والسرير: المضطجع والذي يجلس عليه [١] . وكانت أكثر الأسرة مصنوعة من الجريد ، وذلك لتوفر الجريد في كل أنحاء جزيرة العرب ، وقلة الخشب فيها .

ولبست العباءة كذلك . تلبس فوق الملابس . وقد ذكر أن رسول الله كان يلبس العباء [٢] .

والبيطرة من الحرف المعروفة عند الجاهليين . وقد كانوا يستعملون الأدوية والكيّ في مداواة الحيوان كما يستعملون بعض الآلات في معالجتها ، مثل (المبزغ) وهو مثل مشرط الحجام [٣] .

حرف الجلد :

والدباغة حرفة مهمة اشتهرت بها أماكن متعددة من جزيرة العرب ، ولا سيما بعض القرى والمدن مثل الطائف وجرش مواضع متعددة في اليمن وفي العربية الجنوبية . وهي صناعة تقوم على أساس اصلاح الجلد وإبعاد الصوف والشعر عنه، للاستفادة منه في أغراض نافعة . وقد استخدم الدباغون موادَّ مساعدة تعين على نتف الصوف والشعر من الجلد بسهولة ، وبدون أذى له أو للجلد ، مثل مادة الجير أو مواد أخرى ، كما استخدموا مواد تساعد على حفظ الجلد ومنعه من التلف لدبغه ، مثل العفص وغيره من مواد نباتية دابغة . وقد أنف كثير من الناس من هذه الصناعة وتجنبوها ، لما ينشأ عنها من روائح كريهة ولاستعمال

١ اللسان (٤/ ٣٦١) .
٢ البيان (١/ ٢٣٦) ، (٢/ ٣٠) .
٣ المغرب في ترتيب المعرب : تأليف أبي الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي المطرزي الخوارزمي المتوفى سنة ٦١٦ ، (ص ٣٧) طبعة حيدر آباد ، تاج العروس (٣/ ٥١)

الدباغين بها مواد تعدّ نجسة في نظر بعض الأديان . كما منعوا إقامة المدابغ في الأماكن المأهولة المعمورة ، وحرصوا على عزلها وحصرها في الأماكن البعيدة عن أحياء السكنى ولا سيما سكنى الطبقات المتنفذة الغنية .

ويقوم الدباغون ببيع ما يدبغونه من التجار . وقد يحمل إلى أسواق بعيدة لاستخدامه في أغراض عديدة ، كتحويله إلى قرب يخزن فيها الماء أو يحمل أو أوعية تحفظ فيها الخمور والسمن والسويق والطيب ، أو أحذية وسيور وغير ذلك من الحاجات . وقد يحوّله الدباغون أنفسهم إلى هذه الأشياء المذكورة. كما تخصص أناس بحرف تحويل الجلود إلى مواد نافعة يستعملها الانسان في حياته اليومية، كالمواد المتقدمة والدلاء وأمثال ذلك من أدوات .

والقرب في ذلك الوقت مهمة جداً في حياة الانسان. فقد كانت مخازن متحركة يخزن فيها أشياء كثيرة ضرورية . فكانت أوعية لحمل الماء في الحضر وفي السفر، كما كانت الأوعية الرئيسة لحفظ الخمور والأنبذة والزيوت والدهون والشحوم والدبس والمواد الغذائية الأخرى. يحتاج اليها الأعرابي في حله وفي ترحاله والحضري في مستقره وفي سفره. كان المصريون واليونان والرومان والعبرانيون يحفظون الخمور والأنبذة في أوعية القرب. وقد أشار الى ذلك بعض الكتبة القدماء . ويعالج اهاب القرب معالجة خاصة ليعطي الشراب نكهة طيبة ، ولئلا يتأثر الشراب من رائحة الجلد[١] .

وذكر علماء اللغة أن (القربة) الوطب من اللبن ، وقد تكون للماء ، وقيل هي المخروزة من جانب واحد[٢] .

وأما (الجراب) فوعاء من اهاب الشاء لا يوعى فيها إلا يابس[٣] . فهو وعاء من الجلد إذن خصص لحفظ الأشياء الجافة كالدقيق وما أشبه لحفظه . كما يقال لوعاء الزاد ، المزود[٤] .

وتدخل المصارين ، وهي أمعاء الحيوانات المذبوحة ، في جملة الأعمال التي

---

١ Smith, Dict. of the Bible, vol., I, p. 223.

٢ اللسان (٦٦٨/٦) .

٣ اللسان (٢٦١/١) ، تاج العروس (١١٩/١) ، (جرب) .

٤ تاج العروس (٣٦٦/٢) .

يقوم بها الدباغون ، إذ يتعهدونها بالرعاية والعناية والاصلاح ، فينظفونها مما بها من أوساخ ويصلحونها ويعالجونها ، ثم يبيعونها من التجار أو يحوّلونها إلى مواد نافعة مفيدة ، مثل اتخاذها أوتاراً لآلات موسيقية أو للأقواس لرمي السهام ، أي لأغراض حربية . وكلما كانت العناية شديدة بمعالجة هذه الأمعاء ، كانت الأوتار ذات قابلية كبيرة على الشد والتوتر ، وبذلك يكون مجال رمي السهام بالأقواس كبيراً ، وفائدة القوس في القتال عظيمة . وقد كان القوّاسون : أي الرماة بالقوس ، قوة ذات أهمية في مصير حرب ما في ذلك العهد .

وتدخل الجلود في أغراض حربية كذلك . فقد استخدمت لحماية الجسم من ضربات السيوف ومن تساقط السهام عليه ، كما استخدمت في صنع الدروع والخوذ الواقية للرأس ، وفي حماية الدبابات والمنجنيقات بتغليفها بجلود ثخينة مقاومة. وتعالج بمواد خاصة تكسبها مقاومة خاصة أمام تساقط النار أو الماء الحار أو الزيوت الساخنة عليها ، وقد تعمل ستائر منها يحتمي الجنود المشغلون لها تحتها من المواد المقذوفة عليهم . وهناك استعمالات أخرى للجلود أدت للجيوش خدمات كبرى في الحروب . فالقرب ، مادة ضرورية في الحرب ، لأنها أوعية ومخازن للماء ، والماء مادة ضرورية للانتصار في الحروب . والراوية وهي المزادة من ثلاثة جلود ، هي مادة ضرورية في الحرب وفي غير الحرب لما تحمله من ماء[1] . وصنعت الدرق من الجلود ، وهي الحجفة تتخذ من جلود ليس فيها خشب ولها عقب[2]. ويراد بالحجفة الترّوس من جلود خاصة ، وقيل من جلود الإبل مقورة بلا خشب ولا عقب . وقد كانت معروفة عند الأحباش خاصة[3] . ويراد بالترّوس كل الأسلحة التي يتوقى المحارب بها . والتراسة صنعة الترّوس ، وأما الصانع ، فهو الترّاس[4] .

وتفرغ أناس لاحتراف أنواع خاصة من أعمال الجلود ، فصرف بعضهم نفسه الى صناعة القرب والدلاء وأدوات السقي ، وتخصص قوم بعمل السروج ونحوها من الأدوات التي تستعمل في الحيوان مثل اللجام و (الرسن)، كما تخصص آخرون

---

١ المغرب (ص ٢٢٥) .

٢ تاج العروس (٦/ ٣٤٢) .

٣ المصدر المذكور (٦/ ٦٥) .

٤ تاج العروس (٤/ ١١٤) .

بصنع الأحذية . وذكر بعض العلماء أن بعض هذه الأدوات المصنوعة مثل (الرسن)[1] هي من الألفاظ المعربة ، وان (الرسن) لفظة فارسية الأصل ، وقد عربت في الجاهلية . وتصنع (القباب) ، من الأدم خاصة[2] . وقد تكون كبيرة ، ولكنها ذات أحجام مختلفة .

ومن الأدوات المصنوعة من الجلد (الجلبان) ، وهي شبه جراب من الأدم، يوضع فيه السيف مغموداً ، ويطرح فيه الراكب سوطه وأداته ، ويعلقه بآخر الرحل وواسطته[3] . والغرز وهو ركاب الرحل الذي تركب به الابل ، ويصنع من الجلد . فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب[4] . والسقاء وهو ظرف الماء اذا كان من جلد[5]،ويكون في الغالب من جلد رقيق[6] . والركوة دلو صغير يشرب فيه ، ويصطحب في الأسفار[7] . والكنانة وهي الجعبة التي يكون فيها النشاب[8] ، والقفّاز ويعمل لليدين وقد يحشى بالقطن وتكون له أزرار يزرّ بها على الساعدين من البرد.وقد كان يستعمله النساء[9] . وأما (الأرندج) و (اليرندج) فذكر الجواليقي أنها لفظة معربة ، وأن أصلها (رندة) ، وهي كلمة فارسية ، ويراد بها الجلد الأسود المدبوغ بالعفص حتى يسود . وقد وردت لفظة (أرندج) في شعر منسوب الى الأعشى[10] .

وتصنع الهمايين من الجلود أيضاً . وقد اشتهرت همايين عجر . واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية[11] . ويراد بالهميان الكيس تجعل فيه النفقة ويشد على الوسط .

---

١ المعرب (ص ١٦٤) .
٢ تاج العروس (٤١٩/١) .
٣ جامع الاصول (٣٩٧/٤ ، تاج العروس (١٨٧/١) .
٤ جامع الاصول (٣٧١/٤ ، ٥٠٤) ، تاج العروس (٦٣/٤) .
٥ جامع الاصول (١١٩/٦) .
٦ جامع الاصول (١٢٥/٦) .
٧ جامع الاصول (١١٩/٦) .
٨ جامع الاصول (٣٢٧/٩) .
٩ جامع الاصول (٣٦٥/٤) .
١٠ عليه ديابوذ تسربل تحته ارندج اسكافه يخالط عظلما
المعرب للجواليقي (ص ١٦) ، تحقيق أحمد شاكر ، (القاهرة ١٩٤٢) ، تاج العروس (٥٠/٢) .
١١ تاج العروس (٣٦٨/١) .

وتحلى الجاهليون بحلي مصنوعة من الجلد أيضاً . ومن هذه الحلي الجمانة : وهي سفينة من أدم ينسج ، وفيها خرز من كل لون ، تتوشحه المرأة [١] .

ويصنع الخوان من الجلد في بعض الأحيان ، ويراد به ما يؤكل عليه الطعام ، وهو من الألفاظ المعربة [٢] . وأما الصُفن ، فخريطة الراعي ، يكون فيها طعامه وزاده وما يحتاج اليه . وقيل : هو مثل الركوة [٣] .

و (العياب) ، هي أوعية من الأدم ، ويقال للواحد منها (عيبة) ، يوضع فيها المتاع والثياب ، وتطلق أيضاً على الزبيل ، الذي ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجرين [٤] . و (الشن) الوعاء المعمول من أدم ، فإذا يبس فهو شن . وفي المثل : « وافق شن طبقه » . يضرب لكل اثنين أو أمرين جمعتهما حالة واحدة اتصف بها كل منهما ، وهناك قصص عن أصل هذا المثل [٥] .

واستعمل النصارى واليهود (الزنار) ، يشدونه في وسطهم على القميص أو الثوب أو المسوح الذي يلبسونه ، ويتدلى أحد طرفيه الى قريب من القدمين . ويصنع من الجلد أو الحرير أو القطن أو الوبر أو شعر الماعز . وقد يشد على الوسط عدة مرات . وقد يوضع فيه محل لحفظ منديل فيه ، أو محبرة وحبر اذا كان صاحبه من الرهبان أو الكتاب ، وقد يوضع خنجر أو سلاح حاد فيه . وهو يشبه في فائدته الحزام في الوقت الحاضر . واذا اشتغل الفلاح أو الأعرابي أو غيرهما بعمل ما رفع الطرف الأسفل من قميصه الى الزنار أو الحزام ، ليسهل عليه العمل ، وقد يضع في عُبّه أي القسم الواقع فوق الزنار من جهة الصدر أشياء عديدة يحملها معه مثل خبزه وطعامه أو نقوده أو أشياء أخرى يحتاج اليها في ترحاله [٦] .

وقد كان الجاهليون يستفيدون من جلود السمك أيضاً ، يصنعون منها أشياء متعددة . فالسفن مثلاً وهو جلد الأطوم ، وهي سمكة في البحر ذات جلد خشن

---

١ تاج العروس (٩/١٦٣) .
٢ تاج العروس (٩/١٩٤) .
٣ المغرب (ص ٣٠٤) .
٤ البرقوقي (ص ٥٨) .
٥ اللسان (١٠/٢١٤) .
٦ Hastings, Dict., of the christ, vol., I, p. 498.

يستخرج منه السياط والسهام ، ويكون على قوائم السيوف[1] .

واستخدم الجاهليون كذلك فراء مختلف الحيوانات في الأيام الباردة، ومن أنواع الفراء نوع يدعى (سبنجونة) ، وهي من جلود الثعالب ، وهي من الألفاظ المعربة[2] ، ونوع آخر يدعى (الفنك) ، وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الفنك دابة يفترى جلدها ، وذكر أيضاً ان الفنك جلد يلبس[3] .

ومن أنواع الفراء (المساتق) وواحدتها (المُستُقَة) . وقد ورد ذكرها في كتب الحديث ، حيث قيل إن الرسول كان يلبس (مستقة) ، كما ذكر أن عمر كان يصلي وعليه (مستقة) . وذكر الجواليقي انها لفظة معربة عن الفارسية ، وانها (مشته) بالفارسية . وقيل : انها فراء طوال الأكمام[4] ، وذكر انها جبة واسعة[5] .

ويقوم صانع الأحذيــة بصنع الأحذية ، مثل النعال والخف (والقفش) أو (الكفش) ويراد به الخف أو الخف القصير ، واللفظة من الألفاظ المعربــة عن الفارسية[6] . ومن أنواع النعال ، النعالُ السبتية التي لا شعر لهـــا ، وتصنع من جلود البقر المدبوغة بالقرظ[7] . و (السبت) كل جلد مدبوغ أو المدبوغ بالقرظ ، ومنه تصنع النعال السبتية[8] .

ويقال للخف (الموزج) أيضاً ، وقد ذكر الاسم في كتب الحديث وكذلك (الموق) . وذكر أن (المـــوق الخف الغليظ يلبس فوق الخف) . وقد ذكر الجواليقي أن أصل الموزج فـــارسي هو (موزه) (موزجان) وأدخـــل الموق أيضاً في باب المعربات[9] . والجمع (أمواق) ، ويظهر من بيت شعر لـ (النمر بن

---

١ المغرب (ص ٢٥٥) ، تاج العروس (١٨٧/٨) .
٢ المعرب (ص ١٨٨) .
٣ المعرب (ص ٢٤٨) ، تاج العروس (١٧٠/٧) .
٤ المعرب (ص ٣٠٨) .
٥ تاج العروس (٧٠/٩) .
٦ المعرب (ص ٢٦٨) .
٧ جامع الاصول (٣٩٨/٤) .
٨ قال عنترة :

بطل كــأن ثيابـــه في سرحـــة ... يحذى نعـــال السبت ليس بتوأم

تاج العروس (٥٤٨/١) .
٩ المعرب (ص ٣١١) .

ثولب) ، أن العباديين ، وهم نصارى الحيرة كانوا يمشون بالأسواق[1] . وهناك نوع آخر من أنواع الخفاف ، يقال لها (القسوبية) و (القساب)[2] ، و (النعل) هو لباس الرجل المستعمل عند الجاهليين وعند الساميين . وهو (نعليم) أي (نعل) في العبرانية . ولا يزال النعل مستعملاً حتى اليوم . يستعمل في البيت وفي خارجه ، وهو يحمي باطن القدمين من حر الأرض في الصيف ومن الحجارة والمواد المؤذية التي تكون على وجه الأرض . وقد يستعمل نعلاً من خشب، يستعمله أهل القرى وأهل المدن في البيوت . والعرب تمدح برقة النعال وتجعلها من لباس الملوك ، وتقدم النعال على سائر أنواع الأحذية[3] .

ومن أنواع النعال : (النعال السبتية) . وهي المصنوعة من الجلد المدبوغ بالقرظ . وخص بعضهم جلود البقر ، مدبوغة كانت أم غير مدبوغة . وقيل نعال سبتية : لا شعر عليها . وذكر انها نعال أهل النعمة والسعة[4] .

وعرفت (حضرموت) بنعالها ، فقيل (نعل حضرمي) و (الحضرمي) . وعرفت بأنها النعال المخصرة التي تضيق من جانبيها ، كأنها ناقصة الخصرين[5] .

وقد تفنن في تزيين وزخرفة الجلود . فذهّبوها ورسموا عليها صوراً، وضغطوا عليها بآلات لابراز بعض الصور عليها . ومن الجلود المذهبة : (المذاهب)، وهي جلود كانت تذهب ، تجعل فيها خطوط مذهبة ، فيرى بعضها في أثر بعض ، فكأنها متتابعة . وقيل سيور تموّه بالذهب[6] .

والجلود التي يستعملها الاسكافي هي: جلود البقر والجمال والغنم والماعز وقد تستعمل جلود الثعابين والسمك إذا كانت كبيرة سميكة ، وذلك بعد إصلاحها ودبغها .

ويستعمل الإسكافي والنحّات الإزميل . وقد ذكر علماء اللغة ان الازميل حديدة تجعل في طرف رمح الصيد لصيد البقر : بقر الوحش . والمطرقة[7] . وهي من الألفاظ المعربة وأصلها (زميلي) ، «Zmili» في اليونانية[8] .

---

١ فترى النعاج به تمشي خلفة مشى العباديين في الاسواق
المعرب ، للجواليقي (ص ٣١١) .
٢ البرقوقي (ص ١٤٦) .
٣ اللسان (٦٦٧/١١) .
٤ اللسان (٣٦/٢ وما بعدها) ، الروض الانف (٧١/١) .
٥ اللسان (٢٠٢/٤) ، الروض الانف (٧١/١) .
٦ اللسان (٣٩٥/١) .
٧ تاج العروس (٣٦٠/٧) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .

الحياكة والنسيج والثياب :

والحياكة والنسيج ، من الحرف التي لا ينظر الى صاحبها نظرة احترام وتقدير في المجتمع العربي القديم ، ويقوم بالغزل النساء في الغالب . والحياكة والنسج في الحضر في الغالب . وقد ذكر أهل اللغة أسماء بعض آلات الحياكة والنسج ، مثل (الحف) وهي الآلة التي تلمظ بها اللحمة أي تلقم وتصفق ليلتقمها السدى . وقيل : الحفة المنوال ، وهو الخشبة التي يلف عليها الحائك الثوب ، وقيل : الحف المنسج[1] . و (الوشيعة) وهي المنسج ، وهي قصبة في طرفها قرن يدخل الغزل في جوفها ، وتسمى السهم . وقيل لفيقة من غزل ، وتسمى القصبة التي يجعل النساج فيها لحمة الثوب للنسج[2] . و (المشيعة) ما يلف عليه الغزل[3] . و (الثناية) التي يثنى عليها الثوب . و (العدل) خشبة لها أسنان ، مثل أسنان المنشار ، يقسم بها السدى ليعتدل . و (الصيصية) عود من طرفاء ، كلما رمي بالسهم فألحمه ، أقبل بالصيصة فأدبر بها ، وقيل : إنها شوكة الحائك التي يسوّي بها السداة واللحمة[4] . و (النير) لحمة الثوب ، وقيل : الخشبة المعترضة التي فيها الغزل . وقد تنسج الثياب على نيرين ، ويكون بذلك أصفق وأبقى[5] . و (الصنار) رأس المغزل[6] . وأما (المداد) فالعصا في طرفها صنارتان يمدد

---

١ تاج العروس (٦/٧٢) ، المعاني الكبير (١/٥٠) .

٢ تاج العروس (٥/٥٤٣) .

٣ بلوغ الارب (٣/٤٠٤) .

٤ « والصيصة كذا في سائر النسخ ، وهو خطا ، أو هو على التخفيف . وفي الصحاح والعباب : والصيصية ـ شوكة الحائك التي يسوى بها السدى واللحمة ، وأنشد لدريد بن الصمة :

فجئت اليــه والرماح تنوشه كوقـع الصياصي في النسيج الممد

قال ابن بري : حق صيصية الحائك أن تذكر في المعتل ، لان لامها ياء ، وليس لامها صادا » تاج العروس (٤/٤٠٥) .

٥ تاج العروس (٣/٥٩٣) .

٦ « قال أبو حنيفة : وهي فارسية معرب جنار ، وقد جرت في كلام العرب . وقال الليث : هو فارسي دخيل . والصنار : رأس المغزل ، ويقال : هي الحديدة الدقيقة المعقفة التي في رأس المغزل ، ولا تقل صنارة . وقال الليث : الصنارة مغزل المرأة ، وهو دخيل » تاج العروس (٣/٣٤١) .

بهما الثوب[1] . و (الكُفة) الخشبة المعترضة في أسفـــل السدي[2] . و (الحماران) يوضعان تحتها ليرفع السدي من الأرض . و (المثلث) قصبات ثلاث . و(المبرم) و (البريم) ، الحبل الذي جمع بين مفتولين ففتلا حبلاً واحداً . و (المبرم) من الثياب المفتول الغزل طاقين ، ولذلك اطلقت اللفظة على نوع خاص من الثياب. و (الدعائم) خشبات تنصب ويمدّ عليها السدي . و (الشفشقة) قصبة تشق وتوضع في السدي عرضاً ، ليتمكن به من السقي . و (الكحـّمة) ما يلحم به، وأداة الحائك المنصوبة تسمى (المنوال) ، وهو (النول) أيضاً[3] .

وأما المادة التي يغزل منها ويحاك وينسج ، فهي الصوف بأنواعه ، وشعر الماعز والوبر والقطن والشاش والبز والكتان والحرير . وأما التي يغزل بها ، فهي (المغزل)[4] ومنه نوع بسيط يحمل باليد . وهو قديم جداً معروف في العصور المتقدمة قبـــل الاسلام ، ولا يزال معروفاً ومستعمـــلاً في الزمن الحاضر ، ومنه ما هو سريع بعض السرعة . وهو على هيأة دولاب يدار بالأرض ، فيكون سريعاً بالغزل بعض السرعة بالنسبة الى اليد ، ويكون مجـــال الغزل فيه أوسع من مجال الغزل بالمغزل اليدوي البسيط .

ويلف الغزل على آلة تسمى (الهراوة) ، وذلك تمهيداً لتقديمها الى (النساج) لنسجها[5] .

ويقال للمغزل : « المُردن » أيضاً . وقيل : (المردن) المغزل الذي يغزل به الردن . والردن الغزل . وقيل : الغزل يفتل الى قدّام ، وقيـــل هو الغزل المنكوس ، وثوب مردون : منسوج بالغزل المردون[6] .

والغزل هو من أعمال النساء في الغالب ، فهي تمسك المغزل وتغزل به . وقد يقوم الرجال بالغزل أيضاً . وهنـاك أنواع من المغـــازل وهي متشابهة من حيث

---

١ « والامدة كالاسنة جمع مداد كسنان ، وضبطه الصاغاني بكسر الصخرة ٠٠ سدى الغزل ٠ وهي أيضا المساك في جانبي الثوب اذا ابتديء بعمله » تاج العـــروس (٤٩٨/٢) ٠
٢ بلوغ الارب (٣/ ٤٠٤ وما بعدها) ٠
٣ بلوغ الارب (٣/ ٤٠٤ وما بعدها) ٠
٤ تاج العروس (٨/ ٤٢) ٠
٥ المعاني الكبير (١/ ٥٠) ٠
٦ اللسان (١٣/ ١٧٨) ٠

الأساس والتصميم . وقد عثر على أنواع منها في مواضع من جزيرة العرب .

وفي التوراة وصف لكيفية إعداد الصوف وشعر الماعز للغزل . فقد كان على الغزّال تنظيف الصوف والمادة المراد غزلها قبل غزلها ، وذلك بنثر المادة وتنظيفها من المواد الغريبة المختلطة بها . وقــد تضرب بعصا أو بآلة خاصة ، على نحو ما يفعله (الندّاف) في الوقت الحاضر ،لتلطيف المادة المراد غزلها وجعلها سهلة للغزل. وقد تغسل بالماء ثم تنشف ثم تنظف . فإذا وجد ان المادة المــراد غزلها صارت نقية صالحة للغزل ، غزلت . وقد عثر على صور لعمال كانوا يقومون بغسل المواد قبل غزلها على نهر النيل ، وقد صورت على جدران مقابر قدماء المصريين[1] .

وأهل الجاهلية مثل من تقدم أيضاً في تنظيف الصوف وشعر الماعز والوبر والكتان وسائر المواد الأخرى المراد غزلها ، كانوا ينظفونها ويمشطونها بأمشاط خاصــة ، لاخراج ما قد يعلق بها فيها من مواد غريبة ، ويعالجونها معالجة خاصة . فــإذا نظفت وخلصت من الشوائب ، غزلت . وقد كانوا يدقون الكتّان لتهترىء أليافه وتتشقق فتنفصل ، ثم يمشط بالممشقة ، حتى يخلص وتبقى فتاته وقشوره ، ويؤخذ الكتان لغزله ونسجه . أمـــا الفتات والقشور ، فهي المشاقة ، وتستعمل في حشو الخفتان وللقبس[2] .

ويقال لمشاقة الكتان وللخشن من ليف الكتان والقنب (أسطبـــة)[3] . ويظهر أنها من أصل يوناني هو « Stippi »[4] .

ويهيأ الفتـــال (السلك) ، وهو الخيط . وقد يكون من حرير أو قطن أو كتّان . وإذا وضع في الخيط الخرز واللؤلؤ ، فيقال لذلك عندئذ (السمط)[5] .

ومن اللوازم المستعملة في البيوت وفي الحياة اليومية والتجارية ،الحبال ،يستعملونها من لحاء الشجر في بعض الأحيان ، يؤخذ فيدق ويفتل منه حبل ، ويقال لذلك

---

١ Hastings, p. 873.

٢ المغرب (١٨٦/٢) ، « والمشاقة (كثمامة) : ما سقط من الشعر أو الابريسم والكتان والقطن عند المشط ، أي تخليصه وتسريحه ، وهي المشاطة أيضا » . تاج العروس (٧٠/٧) .

٣ تاج العروس (٢٩٨/١) .

٤ غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .

٥ المغرب (ص ٢٦٤) ، « والسلكة (بالكسر) : الخيط الذي يخاط به الثوب ، ج سلك بحذف الهاء ، جمع الجمع : أسلاك وسلوك . » تاج العروس (١٤٤/٧) .

(القَرَن)[1] ، أو من شعر الماعــز أو من الأصواف ، أو من مختلف الألياف المستخرجة من النبات ، أو من الخوص .

أما الخيوط ، فإنها أدق من الحبل ، وتصنع من الكتان أو القطن أو الصوف أو الحرير ، ويخيط بها . وأما (الاطنب) و (الطنب) ، فإنها حبال الخيمة ، تستخدم لربط الخيمة . وأما (الوتر) ، فيصنع من أمعاء الحيوانات ، وتوضع في الأقواس ، لرمي السهم ، وتستخدم في الآلات الموسيقية كذلك . وتستخــدم الحبال رُبُطاً ، يربط بها . يربط بها الأسرى والمساجين والحيوانات[2] .

والصوف مادة مهمة في صنع البسط والسجاجيد . وأكثر صوف جزيرة العرب من النوع الخشن ، الذي يصلح لصنع السجاد . وتصنع منه الخيام كذلك . والمستعمل في صنع الخيام هو من شعر الماعز في الغالب . أما أصواف الأغنام ، فتستعمل في الغزول والأنسجة اللطيفة التي تحتاج إلى صوف ناعم ودقيق . ولا يزال أهل البادية يصنعون خيامهم الشهيرة ذات اللون الأسود من شعر الماعز[3] . وقد كان عمــاد العبرانيين في نسجهم على الصوف وشعر الماعز والكتان[4] . وقد عرف البساط الضخم المنسوج من الوبر أو الصوف بـ (الاراخ)[5] ، ويقال للفسطاط (البلق)[6] .

وقد اشتهرت اليمن بالغزل والنسيج ، وعرفت بإنتاج بعض البرد التي اختصت بها حتى عرفت بـ (البرد اليمانية) . وهي من الأنواع الغالية الثمينة التي لا يشتريها في العادة إلا المترفون والمرفهون . وقد جعل النبي في جملة ما يدفعه أهل الجزية الثياب عوضاً عن النقد إن لم يكن في قدرة من فرضت عليه الجزية دفعها نقداً[7] ، كما عرفت بصنع (الحلل) الغالية ، اشتهرت بجميــع أنواع الغزل والنسيج ، غزل القطن والصوف والحرير ، وبأنسجة الصوف والقطن والحرير . وقــد كان من عادة رؤساء اليمن لبس الملابس الثمينة والحلل الغالية المصنوعة في بلادهم ،

---

١ المخصص (١١/١٥) ، تاج العروس (٩/٣٠٥) .

٢ Hastings, Dict. of the Bible, I, p. 479, Smith, Vol., I, p. 352.

٣ تويتشل (ص ٣٣) .

٤ Hastings, p. 873.

٥ شمس العلوم (١/٧١) .

٦ شمس العلوم (١/١٨٥) .

٧ « وعلى كل حالم : ذكر أو أنثى ، حر أو عبد ، دينار واف أو عوضه ثيابا » ، « اسلام بني الحارث بن كعب على يدي خالد بن الوليد » ، ابن هشام (٤/٢٤٢) « القاهـرة ١٩٢٦ » ، الطبري (٣/١٥٨) .

كما كانوا يصدرونها الى الخارج لبيعها في مختلف أسواق بلاد العرب وفي العراق وبلاد الشأم .

وعرفت دور النسيج في اللهجات العربية الجنوبية بـ (تعمت) . وقد ورد في كتب اللغة: « عمت الصوف والوبر ... لف بعضه على بعض مستطيلاً ومستديراً حلقة فغزله » . وورد : « يعمت الغزل »[1] .

وقد ازدهرت صناعة غزل القطن ونسجه في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية في القرن السادس للميلاد[2] ، فصارت صناعة الغزل والنسيج من أهم الموارد التي يتعيش عليها عدد كبير من الشعب والتي تكون مورداً كبيراً من موارد الدولة . وقد كان للملوك مغازل ودور نسيج تعمل لحسابهم ولهم . وقد عرفت دور النسيج الملكية بـ (تعمت ملكن)[3] ، أي (المنسج الملكي) و (دار النسيج الملكية).

وهناك لفظة أخرى في المسند للموضع الذي ينسج فيه وتغزل فيه الغزول ، هي لفظة : (ح ل ل ت) (حللت) . ويرى (رودوكناكس) انها (حلالة) . وأما النساج ، فيقال له (انم) في المسند[4] ، وهو للمفرد والجمع[5] . وعندي ان المراد بـ (ح ل ل ت) (حللت) ، الحلة . والحلة عند علماء اللغة إزار ورداء ، بُرْدٌ أو غيره . وقيل : الحلل الوشي والحبر والخز ، وقيل : كل ثوب جيد جديد تلبسه غليظ أو رقيق ، وقيل : كل ثوب له بطانة ، وعند الأعراب من ثلاثة أثواب القميص والإزار والرداء[6] . فيراد بها الموضع الذي تعمل فيه الحلل .

---

١ « عمت يعمت عمتا من حد ضرب كما هو مقتضى قاعدته · لف الصوف بعضه على بعض مستطيلا ومستديرا حلقة ، ليجعل في اليد فيغزل بالمدرة ·· والعميتة من الوبر كالغليلة من الشعر · ويقال عميتة من وبر أو صوف كما يقال سبيخة من قطن وسليلة من شعر ·· عمت الوبر والصوف لفه حلقة فغزله كما يفعله الغزال الذي يغزل الصوف ، فيلقيه في يده ·· والاسم العميت ··· يعمت يغزل من العميتة ، وهي القطعة من الصوف ··· عمت فلان الصوف يعمته عمتا اذا جمعه بعدما يطرقه ، وينفشه ، ثم يعمته ليلويه على يده ويغزله بالمدرة ··· » تاج العروس (١/٥٦٤ وما بعدها) ·

٢ Von Kremer, Kulturgeschichte, II, S. 326.

٣ الفقرة الرابعة من النص الموسوم بـ : Glaser 1150, Halevy 192, 199.

٤ Rhodokanakis, Altsab. Texte, I, S. 74.

٥ Rhodokanakis, Altsab. Texte, I, S. 27.

٦ تاج العروس (٧/٢٨٣ وما بعدها) ، شمس العلوم (١/٧٦) ·

وقد كانت بعض الحكومات تحتكر صناعة بعض أنواع النسيج ، وذلك بصنع أنواع فاخرة منه لاستعمال الملوك ، أو للانعام بــه على الأمراء والكبراء ورجال الدين كالذي كان في مصر . وبوسم بسمة المعمـل وبشعار الحكومة أو الحاكم ، ليكون في علم الناس انه من صنع الحكومة . وقـد تبيعه الحكومة للناس . وتعد هذه الأنواع من النسيج من أفخر ما تنتجه المناسج ، ويعرض في السوق .

وقد كان الملوك والكهنة والأغنياء المتأنقون بملابسهم ، يرتدون أنسجة دقيقـة مصنوعة صنعاً خاصاً بأيد ماهرة متقنة لعملها،لا تصنع الا الأنسجة الثمينة الغالية . ومن هذه الأقمشة ما كان يصنع من الكتان الخالص أو الصوف النـاعم الرقيق ، ومنه ما كان يصنع من الحرير الخالص أو المخلوط بمـادة أخرى . وقد يقصب القماش بالذهب ، يوشى بــه ، كألبسة الملوك ورجال الدين الكبار الذين كانوا يرتدون ملابس موشاة ومطرقة في أثناء أدائهم الصلوات واقامة الشعائر الدينيـة . وقد كان الملوك والكهـان يستوردون الأقمشة الجيدة من أماكن أخـرى اشتهرت باتقانها واجادتها صنع الأقمشة الجيدة ، مثل بابل وبلاد الشأم والهند ومصر وفارس وغيرها لمثل هذه الأغراض[1] .

وقد اشتهرت منسوجات اليمـن في كـل مكان من جزيرة العرب ، بجودتها وأناقتها ، وظلت محافظة على سمعتها هذه الى الاسلام، فكان أغنياء الحجاز وغيرها من جزيرة العرب يفتخرون بحصولهم عليها ويلبسونها خاصة في أعيادهم ومواسمهم. وكانت البرد المعروفة بـ (الحبر) ، وهـي برد موشاة مخططة ، تعد من أثمن البرد اليمانية في القرن السادس والسابع الميلاديين ، ولما قدم وفد نجران على الرسول كانوا يتوشحون بها . ولما توفي الرسول ، ووضع مسجى في ناحية من البيت ، وضعت عليه الحبرة[2] .

ويقال للثوب الجديد الناعم (الحبير) . وذكر أيضاً ان الحبير البرد الموشى المخطط ، وأن الحبرة ضرب من برود اليمن منمر ، وبائعها حبري لا حبار[3] . وتعد (ثياب الحبرة) من الثياب الغالية الجيدة التي يلبسها الأغنيـاء والسادات ،

---

١ Hastings, p. 874.

٢ المغرب (ص ١٠٤) ، جامع الاصول (٤٧٨/٧) ، تاج العروس (١١٨/٣) ، (حبر) شمس العلوم (١٤٤/١) ، الطبقات ، لابن سعد (٣٥٧/١) .

٣ تاج العروس (١٨٨/٣) ، (حبر) ، الطبقات لابن سعد (٣٥٧/١) .

فلما قدم وفد نجران على النبي بالمدينة « فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحبرة ، وأردية مكفوفة بالحرير »[1] .

واشتهرت اليمن بـ (المراجل) ، وهي ضرب من البرود[2] . وذكر بعض علماء اللغة أن البرد المُرجل، فيه صور كصور الرجال . وورد ثوب مرجل بمعنى معلم[3] ، وبرد مرحل أي برد فيه تصاوير رحل على تفسير بعض علماء اللغة . وورد المرحلات يعني المرط المرحلة ، وهي الموشاة ، وقد أشير اليها في كتب الحديث[4] . و (القيصران) وهو ضرب من الثياب الموشاة[5] . والعصب ضرب آخر من البرود اليمانية يعصب غزله ثم يصبغ ثم يحاك وينسج ، فيأتي موشى لبقاء ما عصب فيه أبيض لم يأخذه صبغ . وقيل : هي برود مخططة[6] . ويقال ثوب مبرج إذا كان ثوباً ذا تصاوير[7] .

وقد عرفت (البُرد) ، أنها أكسية يلتحف بها ، وقيل إذا جعل الصوف شقة وله هدب . وقيل : البرد من برود العصب والوشي ، وأما البردة ، فكساء مربع أسود فيه صغر تلبسه الأعراب ، وأن البرد ثوب فيه خطوط وخص بعضهم به الوشي[8] .

واشتهر بلد المعافر بنوع من البرد والثياب ، حتى قيل له : برد معافري وثوب معافري[9] . وأما (الشرعبية) فضرب من البرود[10] . وذكر انها من الثياب الحارية . واليها أشير في شعر امرىء القيس :

فلما دخلناها أضفنا ظهورنا الى كل حاري حديد مشطب[11]

---

١ الطبقات ، لابن سعد (٣٥٧/١) .
٢ المعرب (ص ٢٧٢) ، جامع الاصول (٤٠٨/٤) .
٣ تاج العروس (٣٣٥/٧) .
٤ تاج العروس (٣٤١/٧) .
٥ تاج العروس (٣٤٢/٧) .
٦ تاج العروس (٣٨٣/١) ، المغرب (٤٥/٢) .
٧ شمس العلوم (١٥٤/١) .
٨ اللسان (٨٧/٣) ، النهاية في غريب الحديث والاثر ، (٨٦/١) .
٩ تاج العروس (٤١٢/٣) .
١٠ اللسان (٤٩٤/١) .
١١ العمدة ، لابن رشيق (٢٢٠/٢) .

وعرفت (صنعاء) بوشيها وبأنواع أخرى من النسيج[1] .

وعرفت اليمن بنوع من البرود سُمّي (عَصْباً) لأن غزلــه يعصب ، أي يدرج ، ثم يصبغ . وذكر أنها خاصة باليمن ، لأنها تصبغ بالعصب . ولا ينبت العصب والورس إلا باليمن[2] . وقيل العصب برود مخططة ، اشتهرت بها اليمن[3].

والمسندة والمسندية وأثواب سند ، نوع من البرود اليمانية[4] . والثياب القدميـة منسوبة الى موضع باليمن[5] . وثوب (أكباس) (أكباش) من برود اليمن[6] .

وهناك ضرب من البُرود قيل له (القطرية) والمفرد (قطري) . وكان الرسول متوشحاً بثوب قطري . كما كان على عائشة درع قطري ثمنه خمسة دراهم،وذكر أن البرود القطرية حُمر لها أعلام فيها بعض الخشونة ، وأنهـا تأتي من (قطر) بسيف البحرين[7] .

وعرفت الأنسجة اليمانية المصنوعة من الكتان في كل مكان من جزيرة العرب . وقد كانت لباس الأغنياء والوجهاء . وتعطي أنسجة الكتان برودة خاصة في الصيف ، ولهذا كانت رائجة في كل مكان . وقد كانت مصر ذات شهرة خاصة في تصدير أنسجة الكتان ، فقد كان كتانها لطيفاً ناعماً . ولهذا بيع بثمن مرتفع . وذكــر علماء العربية أن الكتان لفظة عربية النجار ،سمي بذلك لأنه يُخيس ويلقي بعضه على بعض حتى يكتن[8] .

و (البرجد) ، كناية عن كساء ضخم مخطط . وقد ذكر في شعر طرفة[9]. وذكر انه كساء من صوف أحمر[10] .

والعباءة ، هي مقابل (س م ل هـ) (سمله) (شمله) عنــد العبرانيين

---

١ نهاية الارب (١/٣٦٩) .
٢ اللسان (١/٦٠٤) ، الروض الانف (١/٧١) .
٣ تاج العروس (١/٣٨٣) ، (عصب) .
٤ اللسان (٣/٢٢٣) .
٥ اللسان (١٢/٤٧٢) .
٦ اللسان (٦/٣٣٩) .
٧ اللسان (٥/١٠٦) .
٨ اللسان (١٣/٣٥٥) .
٩ شرح المعلقات ، للزوزني (ص ٤٨) « دار صادر » ، شمس العلوم (حـ ١ ق ١ ص ١٤٩) .
١٠ تاج العروس (٢/٣٠١) ، (البرجد) .

و « Himation » عند اليونان[1]، وتلبس فوق الألبسة . وتكون بعضها ثقيلة تصنع من الوبر أو الصوف ، وتستعمل في الشتاء خاصة وفي الأوقات الباردة ، وبعضها خفيف ، يصنع من الصوف أو من شعر الماعز . وتستعمل في الأوقات التي لا يكون فيها البرد شديداً وفي أيام الصيف . وقد يستلقي عليها الانسان ، فتكون بمثابة فراش له . وقد تصنع العباءة من قطعتين من القماش ، وقد تصنع من قطعة واحدة . وهي أحسنها وأغلاها . وتكون عباءة الأغنياء والرؤساء من قماش جيد منسوج نسجاً خاصاً محلاة في الغالب من ناحية العنق والصدر والجهة العليا من اليدين بخيوط من الحرير أو الذهب يروفها (الروّاف) ، بأشكال متعددة فيختلف سعرها لذلك باختلاف الجهد الذي بذله الروّاف في تطريزها وفي زخرفتها .

وتصنع أحسن العباءات من الوبر[2] . وقد تفنن فيها ، وتخصصت بعض الأماكن بنسجها . ولا تزال هذه الصناعة باقية تدر على أصحابها ربحاً يتعيشون منه ، كما تصنع من أوبار الجمال أشياء أخرى عديدة . على أن القرن العشرين قد علّم سكان الجزيرة تصدير الوبر الى الخارج الى المعامل الحديثة لاستعماله مع الأصواف في صناعة الغزل والنسيج .

والشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به كالمشمل . والمشملة عند العرب مئزر من صوف أو شعر يؤتزر به ، فإذا لفق لفقين ، فهي مشملة يشتمل بها الرجل إذا نام بالليل . وقيل المشملة والمشمل : كساء له خمل متفرق يلتحف به دون القطيفة . واشتمل الثوبَ أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده[3] .

وقد ذكر أن الجاهليين كانوا يستوردون الجبب والأردية والأقمصة والأقمشة من بلاد العراق والشأم ، وكانت غالية الثمن وذات قيمة عندهم ، لحسن صنعتها وإتقان قماشها . وقد كانت للرسول جبة من صنع بلاد الشأم[4] ، وكان له طيلسان مدبج، أي منقوش الأطراف بالديباج[5] . وفي جملة ما استورد من مصر من ألبسة

---

١ Hastings, Dict. of the Bible, Vol., I, p. 625, Hastings, a dictionary of christ and the Gospels, vol., I, p. 498, ff.

٢ تويتشل (الصفحة ٣٢) ، اللسان (/١١٨) ، المخصص (١١٨/٤) .

٣ تاج العروس (٣٩٧/٧) ، (شمل) .

٤ عمدة القاري (٣٠٣/٢١) ، « والجبة : ثوب من المقطعات يلبس » ، تاج العروس (١٧٣/١) .

٥ المغرب (ص ١٧٤) .

وثياب ، القباطي وهي ثياب بيض دقيقة رقيقة تتخذ بمصر[١] ، والقسي[٢] وهي ثياب منسوجة من كتان وابريسم مضلعة ، تصدر من مصر ، من قرية تسمى القسي فنسبت اليها .

وقد بقيت مصر تصدر القباطي حتى في الاسلام . وذكر علماء اللغة أن القباطي والثياب القبطية منسوبة الى القبط ، أهل مصر الخلص من ولد القبط بن حام بن نوح على رأي بعض النسابين ، أو من ولد قبط بن مصر بن فوط بن حام على رأي فريق آخر . وذكر أن لفظة قبطية ، وردت في شعر لزهير هو هذا البيت:

ليباح كأن بالأتحمية مسبع إزاراً وفي قبطية متجلبب[٢]

وورد ذكرها في بيت شعر آخر ينسب له أيضاً هو[٣] :

ليأتينك مني منطق قــذع باق ، كما دنس القبطية الودك

وقد ورد ذكرها في كتب الحديث ، فقد ذكر أن الرسول كسا (أسامة) قبطية [٤] .

وأشير الى ثياب بيض قيل لها (القبطرى) . وزعم بعض علماء اللغة أن في الكلمة غلط ، وأن الراء زائدة [٥] .

وعرفت بعض الثياب بـ (الأنماط) ، جمع (نمط) ، وهي الثياب المصبغة . وفي حديث (ابن عمر) أنه كان يجلل بدنه بالأنماط . وذكر أن الأنماط ضرب من البسط له خمل رقيق[٦] .

---

١ المغرب (٢/١٠٧) ، جامع الاصول (٤/٣٩٥) ، اللسان (٧/٣٧٣) .
٢ تاج العروس (٥/٢٠٠) .
٣ اللسان (٧/٣٧٣) .
٤ المصدر نفسه .
٥ اللسان (٧/٣٧٣) .
٦ قال المتنخل :
علامات كتحبير النماط
اللسان (٧/٤١٧ وما بعدها) .

ويقال للنمط الزوج كذلك . وقيل الزوج : الديباج واللون[1] .

وأما السبج ، فالسبجة درع عرض بدنه عظمة الذراع ، وله كُمّ صغير نحو الشبر ، تلبسه ربات البيوت . وقيل هي بردة من صوف فيهـا سواد وبياض . وقيل ثوب له جيب ولا كمّين له ، يلبسه الطيّانون . وقيل هي مدرعة كُمها من غيرها . وقيل كساء أسود ، أو القميص . وهي لفظة معربة أصلها بالفارسية (شبي) . وذكر ان (السباج) ثياب من جلود[2] .

وقد كانت بعض الثياب المستوردة من بلاد الشأم ومصر ومن الأرضين التي تسودها أكثرية نصرانية ترد وعليها صلبان منسوجة . فلما جاء الاسلام ، وأمر بطمس الصلبان ، كان الرسول اذا رأى الصليب في ثوب قضبه وقطع موضعه أو نقشه[3] .

وإذا كان الحرير المعروف بـ (الخسرواني) ، معروفاً حقاً عند الجاهليين ، فإنه يدل على انه كان مستورداً من العراق ، بدلالة اسمه عليه . ويذكر علماء اللغة انه منسوب الى الأكاسرة ، وانه حرير رقيق حسن الصنعة[4] .

ولفظة (حرير) من الألفاظ المستعملة في العربية ، غير أن من الصعب تعيين أصلها . وقد ذكر (سترابون) أن اليونان أخذوا الحرير من الهنود . ولذلك أطلقوا عليه لفظة أخذوها من اسم أحد الشعوب الهندية . أما العبرانيون فقد أطلقوا عليه لفظة (مسى)[5] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن لفظة (سريقوم) « Sericum » الواردة في النصوص الكلاسيكية تعني الحرير الخام . ووردت في العبرانية لفظة (دمشق) « Demeshek » ، يرى بعض العلماء أنها تعني حريراً دمشقياً ،

---

١ قال الاعشى :

وكل زوج من الديباج يلبسه   أبو قدامة ، محبو بذاك معـا

وقال لبيـد :

من كل محفوف ، يظل عصية   زوج ، عليـه كلـه وقرامهـا

اللسان (٢/٢٩٣) .

٢ اللسان (٢/٢٩٤) .

٣ المعرب (ص ٣٠٥)

٤ المعرب (ص ١٣٥) ، « والخسرواني (بضم الاول والثالث) : شراب ونوع من الثياب كالخسروي . قال الزمخشري : منسوب الى خسروشاه من الاكاسرة » ، تاج العروس (٣/١٧٦) .

٥ اللسان (٤/١٨٤) ، Hastings, Vol. I, p. 624. (1910).

أي معمولاً بدمشق . وذهب آخرون الى أن اللفظة ، محرفة من لفظة (دمقس) الواردة في العربية ويراد بها نوع من الحرير أو الحرير الخام[1] . والديباج من الثياب المعمولة من الحرير . واللفظة من الألفاظ الفارسية المعربة [2] .

ومن الثياب والأقمشة التي تحمل اسماً معرباً (الدخدار) . وهو كما يقول (الجواليقي) (تخت دار) بالفارسية . وذكر أنه ورد في هذا البيت منسوب الى عـدي بن زيد العبادي :

تلوح المشرفيـة في ذراه ويجلو صفح دخدار قشيب[3]

وأشير إلى (الديباجة) في شعر (حسان بن ثابت) ، ويراد بها الثياب المتخذة من الابريسم[4] .

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (سندس) ، وذهب العلماء إلى ان المراد بها رقيق الديباج ، وذكر بعضهم أنه ضرب من (البزيون) يتخذ من المرعزاء ، واللفظة من الألفاظ المعربة [5] .

وأما الاستبرق ، فإنه ما خشن من الديباج على رأي بعض العلماء . وأصله من الفارسية ، فهو من المعربات[6] .

وكان الأغنياء وسادات القبائل يلبسون الألبسة المنسوجـة من الحرير ، وهي ثمينة غالية ، يستوردونها من الخارج ، وينسج بعض منها في اليمن . وقد نهى

---

١ Smith, Dictl. of the Bible, Vol. II, p. 1310 f.

٢ المعرب (ص ١٤٠) ، تاج العروس (٢/٣٧) ، المخصص (٤/٧٦) .

٣ المعرب (ص ١٤١) ، « الدخدار ، بالفتح : ثوب أبيض مصون ، أو اسود . وقد جاء في الشعر القديم . وهو معرب تخت دار ، فارسية ، أي يمسكه التخت ، أي ذو تخت . وقال بعضهم : أصله تختار ، أي صين في التخت ، والاول أحسن . » ، تاج العروس (٣/٢٠٣) .

٤ البرقوقي (ص ١٤٦) ، تاج العروس (٢/٣٧) ، (دبج) .

٥ المعرب (ص ١٧٧) ، « السندس (بالضم) : البزيون ... وقال الليث : انه ضرب من البزيون ، يتخذ من المرعزي ، أو ضرب من البرود . وفي الحديث : ان النبي صلى الله عليه وسلم ، بعث الى عمرو (رضي الله عنه) بجبة سندس . قال المفسرون في السندس : انه رقيق الديباج ورفيعه ، وفي تفسير الاستبرق : غليظ الديباج ، ولم يختلفوا فيه . معرب بلا خلاف عند أئمة اللغة » ، تاج العروس (٤/١٦٨) .

٦ اللسان (١٠/٥) ، المخصص (٤/٧٦) .

الاسلام عن لبس الحرير ، لما في ذلك من ترف يميت الرجولة ومن تشبّه بمترفي العجم ، ومن تأثير يتركه استعماله في نفوس الفقراء .

ومن أنواع الثياب الجيدة المصنوعة من القز الأبيض (الدمقس) ، وهو ناعم وذكر علماء اللغــة أن اللفظة من الألفاظ المعربة القديمة الواردة في شعر لامرىء القيس[1] . ويرى بعض الباحثين أن الدمقس تحريف (مدقس) وهو الحرير الأبيض، وأن أصلها يوناني هو : « Metaxa »[2] .

ويعرف الحرير الجيد بالسَّرق ، وقيل : السرق شقق الحرير أو الأبيض أو الحرير عامة . وذهب بعض العلماء الى أنها من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، وأن أصلها سَرَه أي جيد . وقد ورد في الحديث : انك في سرقة من حرير ، أي قطعة من جيد الحرير[3] . ويقال للسرق (سريكون) « Sirikon » « Sericum » في اليونانية[4] . ويراد بها الحرير عامة . ومن هذا الأصل جاءت لفظة (السرق) على ما أرى .

ويعرف الحرير بـ (مشى) و (دمشق) في العبرانية . وقد ذهب بعض علماء التوراة أن للفظة (دمشق) صلة بدمشق الموضع المعروف . ودمشق من المواضع المشهورة منذ القديم بنسج الحرير . وذهب آخرون أنها من أصل (دمقس) ، تحرف فصار (دمشق) ولا علاقة لها بدمشق . وأما لفظة (حرير) ، فتعرف بـ « Sericum » عند اليونان واللاتين كما ذكرت . أما لفظة (حرير) المستعملة في العربية ، فإن من الصعب تعيين أصلها والوقت الذي ظهرت فيه[5] .

والخز : ثيــاب تنسج من صوف وإبريسم ، وقيــل انه الثياب المعمولة من

---

١ فظل العذارى يرتمـين بلحمهـا وشحم كهـداب الدمقس المفتــل
المعرب (ص ١٥١) ، « الدمقس (كهزبر) ، الابريسم أو القــز ... أو الديباج أو الكتان ... والدمقس والمدقس مقــلوب ... وثوب مدمقس منسوج به » ، تاج العروس (٤/١٥٤ وما بعدها) .

٢ غرائب اللغة (ص ٢٥٨) .

٣ تاج العروس (٦/٣٧٩) ، المعرب (ص ١٨٢) ، المخصص (٤/٦٨) .

٤ غرائب اللغة (ص ٢٥٩) .

٥ Smith, A dict. of the Bible, Vol. III, p. 1310 f.
Hastings, Dict. of the Bibl., Vol. I, p. 624.

الإبريسم[1] . وقيل انه الحرير[2] . وذكر علماء اللغة أن (اللاذ) ثياب من حرير تنسج بالصين ، وأن (الاضريج) الخز الأصفر ، وأن المطرف : ثوب مربع من خزّ له أعلام[3] .

وربما كان (الديبوذ) و (الدبابوذ) من الثياب التي وصلت إلى الحجاز من الاتصال التجاري بالعراق . واللفظة من المعربات . ذكر الجواليقي انها من الألفاظ الفارسية الأصل ، وان المراد بها ثوب ذو نيرين ، وأورد شعراً للأعشى جاءت فيه هذه اللفظة [4] .

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (سرابيل) جمع (سربل) . وذكر علماء اللغة أن (السربال) القميص من أي جنس كان[5] ووردت السربال في شعر منسوب إلى الأعشى :

مقلص أسفل السربال معتمر[6]

وفي هذا المعنى لفظة (سروال) ، والجمع (سراويل) والسربال هو (سربالين) (س ر ب ل ي ن) في العبرانية [7] . وهو أيضاً (السروال) في العربية و (الشروال) من أصل فارسي . وقريب من السربال والسروال (اللباس) الطويل المستعمل عند أهل القرى والفلاحين وبين كثير من أهل المدن في الوقت الحاضر . يشد عند

---

١ اللسان (٥/٣٤٥) ، تاج العروس (٤/٣٣) .
٢ المخصص (٤/٦٨) .
٣ المخصص (٤/٦٨) .
٤ المعرب (ص ١٣٨ وما بعدها) ، « الديبوذ : ثوب ذو نيرين ... معرب ، فارسيته دوپوذ (بالضم) ، ونقله الجوهري عن أبي عبيدة ، وأنشد بيت الاعشى يصف الثور :
عليه ديابوذ تسربل تحته   أرندج أسكاف يخالط عظما » ،
تاج العروس (٢/٥٦٢) .
٥ المفردات (ص ٢٢٨) .
٦ برصوم : الالفاظ السريانية (ص ٢٥٨) ، « السربال ، بالكسر : القميص أو الدرع أو كل ما لبس فهو سربال والجمع سرابيل . قال الله تعالى : وسرابيل تقيكم بأسكم . ومنه قول كعب بن زهير :
شم العرانين أبطال لبوسهم   من نسج داود في الهيجا سرابيل
... وقد تسربل به وسربلته اياه ، ألبسته السربال . ومنه حديث عثمان رضي الله تعالى عنه : لا أخلع سربالا سربلنيه الله تعالى . السربال القميص وكنى به عن الخلافة » ، تاج العروس (٧/٣٧٤) .
٧ Hastings, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 625 f.

الخصر ثم يعرض وينتهي بفتحتين ضيقتين لدخول الرجلين منها . ولا زال (الشروال) مستعملاً بين الايرانيين والأكراد وفي بلاد الشأم . وقد ذكر علماء اللغة أن السروال لفظة معربة من أصل فارسي . وورد «في حديث أبي هريرة : أنه كره السراويل المخرفجة » أي (الواسعة الطويلة)[1] . وقد اشتهر الفرس بلبس السراويل ، والظاهر أن الرسول كره السراويل الواسعة الطويلة ، لأنها كانت من سنة الأعاجم . فأراد عدم التشبه بهم . وأما القميص ، فقد يقال له (الدرع) والسربال[2] .

وأما (القز) (القهز) ، فهما ثياب صوف كالمرعزي وربما خالطها الحرير[3] . وأما (الزازفية)، فثياب بيض من كتان[4] . وأما (الخنف) فما غلظ من الثياب[5] .

ومن الأكسية (الجودياء) ، وقد ذكر بعض علماء اللغة أنها لفظة معربة عن أصل فارسي أو نبطي، وذكروا أن الأعشى تصرف بها في شعره فجعلها (اجياد)[6].

وهناك نوع من أنواع القميص أو البرد المنسوجة من الصوف فيها سواد وبياض يقال لها (سبيج) (السبيج) و (السبجة) و (السبيجة) . وقد ذكر الجواليقي أنها من الألفاظ المعربة[7] .

والطيلسان : من الألفاظ المعربة ، ويراد بها ثوب يلبس على الكتف ، أو ثوب يحيط بالبدن ينسج للبس ، خال عن التفصيل والخياطة . وذكر أيضاً أنه كساء مدور أخضر ، لا أسفل له ، لحمته أو سداه من صوف[8] . وقد اشتهرت

---

١ اللسان (١١/ ٣٣٤) .

٢ اللسان (٧/ ٨٣) ، (١١/ ٣٢٥) .

٣ المخصص (٤/ ٦٨) .

٤ النهاية في غريب الحديث (١/ ٨٣) .

٥ النهاية (١/ ٤) .

٦ « والجودياء (بالضم) : الكساء ، نبطية او فارسية . وعربها الاعشى فقال :

وبيداء تحسب آرامها ... رجال اياد بأجيادها

وأنشد شمس لابي زبيد الطائي في صفة الاسد :

حتى اذا ما رأى الانصار قد غفلت ... واجتاب من ظلمة جودي سمور

قال : جودي بالنبطية هي جودياء ، أراد جبة سمور » ، تاج العروس (٢/ ٣٢٨) ، المعرب (ص ١١١ وما بعدها) .

٧ المعرب (ص ١٨٢) ، تاج العروس (٢/ ٥٦) .

٨ المعرب (ص ٢٢٧) ، المغرب (٢/ ١٦) .

الفرس بلبسه ، ويسمى عندهم بـ (تالسان) ، حتى استعمل العرب جملة : « يا ابن الطيلسان » أي يا ابن الأعجمي في الشتم ، وذلك من تطلسهم به[1] .

والساج : الطيلسان الضخم الغليظ ، وقيل : هو الطيلسان المقوّر ينسج كذلك، وقيل : هو طيلسان أخضر . وفي حديث ابن عبّاس ، أن النبي ، كان يلبس في الحرب من القلانس ما يكون من السيجان الخضر،جمع ساج ، وهو الطيلسان الأخضر ، وذكر (ابن الأعرابي) : السيجان الطيالسة السود[2] .

و (الشوذر) من الألفاظ المعربة القديمة على رأي بعض العلماء ، ويراد بها الملحفة والإزار[3] .

وقد اشتهرت اليمن بصنع الأزر ، واشتهرت بهذه الصناعة مواضع أخرى . وقد كان العراق يصدر الأزر إلى جزيرة العرب . واشتهرت ازره عند العبرانيين. فأطلقوا عليها (ازرت شنعار) (ازرت شنعر) ، أي (ازر شنعار) . ويريدون بشنعار ما يقال له أرض بابل . وهو من نسيج جيد مبروم . وقد عرفت بـ (لُبلّي برمه) « Lubulti birme » ،وعرف النساج الذي اختص بهذا النوع من الأزر بـ (اشبر برمي) « Ushbar Birmi »[4].

و (القهز) و (القهزى) ، ثياب بيض يخلطها حرير . وهي من الألفاظ المعربة. وذكر بعض علماء اللغة أن الأصل الفارسي هو (كهزانة)[5] .

والخميصة : ثوب أسود معلم من خز أو صوف . وأما الأنبجانية فكساء له خمل ، وقيل : الغليظ من الصوف . والفروج : القباء له فرج من وراء أو من أمام . وأما المِرْطُ فالكساء يتغطى به[6] .

ومن أنواع الثياب (القباء) . وقد ذكر بعض العلماء ان اللفظة فارسية الأصل معربة[7] .

---

١ تاج العروس (١٧٩/٤) .

٢ اللسان (٣٠٢/٢ وما بعدها) .

٣ المعرب (ص ٢٠٥) ، « والشوذر : الملحفة معرب ، فارسيته جادر » ، تاج العروس (٢٩٤/٣) .

٤ Hastings, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 230.

٥ المعرب (ص ٢٦٣) ، « ثياب تتخذ من صوف أحمر كالمرعزي وربما يخالطه الحرير . وقيل هو القز بعينه . وأصله بالفارسية كهزانه » ، تاج العروس (٧٢/٤) .

٦ جامع الاصول (٤٩٦/٧) .

٧ المعرب (٢٦٢) ، تاج العروس (٢٨٦/١٠ وما بعدها) .

و (النرمق) ثياب لينة بيض ، وهي من الألفاظ المعربـة عن الفارسية ، وأصلها (نرمه)[1] . وأمـا (النمرق) و (النمرقة) ، فالوسادة أو الميثرة والطنفسة [2] .

ولاحتياج الانسان الى الملابس في كل زمن ، كانت حرفـة الغزل والحياكة يحترفها كثير من الناس وتعيش عليها أسر عديدة . ويمكن عدّها من أهم الحرف في ذلك العهد ، وعد العمال المشتغلين بها من أكثر عمال الحرف الأخرى عدداً . ولم يكن المتعاطون لهذه الحرف هم أصحاب معامل النسيج ، ولكن أصحابها الأغنياء والمتمولون . أما المشتغلون بها ، فعمال يشتغلون فيها بأجر يتقاضونه ، ومنهم من كان رقيقاً مملوكاً يعمل لحساب سيده ومالكه ، في مقابل قيامـه بأوده . والقليل من العمال من كان يملك مصانع نسيج ، تعمل له وتدر الربح عليه .

بل كان الملوك يشاركون الشعب في امتلاك دور النسيج وينافسونهم في الإنتاج . وفي نصوص المسند إشارات عديدة الى دور الحياكة والنسيج الملكية ، والى انتاجها واشتغالها . ولا يستبعد احتكارهم لها أو احتكار صناعة بعض الأنواع من النسيج وبيع الأقمشة . وقد علمنا في الجزء السابق من هذا الكتاب أن البطالمة كانوا قـد احتكروا بيع أنواع معينة من النسيج وصناعتها . وقد ظل احتكار حكومات مصر لأنواع معينة من النسيج معروفاً الى الاسلام ، تنسجها في معاملهـا ، ولا تسمح للأهلين بإنتاجها ، كما فعل ذلك غير المصريين أيضاً . فصناعة النسيج صناعة مهمة ذات أرباح وفوائد،وهي من أهم الصناعات في المجتمع . ولأرباحها هذه ولكونها مورداً مهماً ، فكرت بعض الدول في احتكارها ، للحصول على أرباحهـا ، كما تفعل الدول في الزمن الحاضر في احتكار بعض الصناعات والمناجم وبعض المصالح العامة مثل سكك الحديد أو التلفون والبرق وغير ذلك لتكون مورداً يمون الدولة بالمال.

ومن أسماء القطن (الطوط) ، وقيل : الطوط قطن البردي . وورد في شعر لأمية ابن أبي الصلت :

والطوط نزرعه أغن جراؤه فيه اللباس لكل حول يعضد[3]

---

١ المعرب (ص ٣٣٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/٧٥) .
٢ تاج العروس (٧/٨١) .
٣ تاج العروس (٥/١٧٩) ، (طوط) .

ولم يقتصر عمل الحائك على حياكة الأقمشة ونسجها وحدها ، بل شمل عمله كل شيء يحاك ، مثل البسط والطنافس والسجاجيد و (الدرانك) التي هي نحو من الطنافس والبسط . ويذكر علماء اللغة أن اللفظة من المعربات . وذكر بعض العلماء أن (الدرنوك) و (الدرموك) ضرب من الستور والفرش ، يكون فيها الصفرة والخضرة ، وقال بعض آخر : انه ضرب من الثياب له خمل قصير كخمل المناديل ، وبه شبه فروة البعير . وورد انه الطنفسة والبسط ذات الخمل . وقد تكون كبيرة تفرش البيت[١] . والأنماط ، وهي ضرب من البسط[٢] ، وضرب من الثياب المصبغة ، وثياب من صوف تطرح على الهودج[٣] . والنساجة وهي ضرب من الملاحف المنسوجة[٤] . والقطيفة وهي دثار مخمل . وقيل هي كساء مربع غليظ له خمل ووبر[٥] . والوسادة وهي المخدة[٦] . والنمرقة وهي الوسادة ، وقيل الصغيرة منها ، أو هي الميثرة ، وتوضع على الرحل كالمرفقة ، غير ان مؤخرها أعظم من مقدمها ولها أربعة سيور تشد بآخرة الرحل[٧] .

وهناك حرفة أخرى لها علاقة بالنساجة والحياكة ، هي الخياطة[٨] . وحرفة الخياط تحويل الأقمشة الى كسوة ، وصنع الثياب والعمائم بتفصيل القماش وقصه ثم خياطته على وفق القياس المطلوب . وهي حرفة تروج في المدن . أما في البادية ، فتقوم المرأة بعمل الضروريات ، ويلتجيء الرجال الى القرى والمدن في شراء ما يحتاجون اليه من ثياب . ونجد بين أسماء الثياب ، ما هو معرب ، مما يدل على أنه منقول مستورد ، وأن الخياطين الجاهليين قد رأوه فقلدوا صنعه .

كذلك نجد بين أسماء أجزاء الثوب أسماء معربة . فذكر علماء اللغة أن (الدخريص) و (التخريص) من المصطلحات المعربة ، وأن أصلها فارسي ، وهي تعني (البنيقة) و (اللبنة) . وقد وردت (الدخارص) في شعر منسوب الى الأعشى[٩] .

---

١ المعرب (ص ١٥٢) ، تاج العروس (٧/١٢٩) .
٢ جامع الاصول (٤/٣٩٥) ، تاج العروس (٥/٢٣٤) .
٣ المعرب (٢/٢٣١) ، تاج العروس (٣/٢٣٤) .
٤ جامع الاصول (٤/٣٩٩) .
٥ المغرب (٢/١٢٨) ، تاج العروس (٦/٢٢٤) .
٦ جامع الاصول (٤/٤٠٢) ، تاج العروس (٢/٥٣٤) .
٧ تاج العروس (٧/٨١) .
٨ تاج العروس (٥/١٣١) .
٩ المعرب (ص ١٤٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٣٩٣) ، (٦/٣٠٠) .

ويعبر عن (الخيّاط) بلفظة (درز)، و (بنو درز) الخيّاطون والحاكة[1]. و (الخياط) الإبرة[2]. والإبرة، هي التي يخاط بها، وذلك بإدخال الخيط في سمّها أي في ثقب الإبرة، وتخييط ما يراد تخييطه بها. والخياطة صناعة الخائط[3]. ويقال للذي يُسوّي الابر الأبّار[4]. و (السم) الثقب، ومنه (سم الخياط)، أي سم الإبرة[5].

ومن أسماء الخياط: (القراريّ). قال الأعشى:

يشق الأمور ويجتابها كشق القراري ثوب الردن[6]

ويعبر عن خياطة الخياط الثوب خياطة متباعدة بـ (شمج) و (شمرج)، وذلك بأن يباعد بين الغرز. و (الشمرج) الرقيق من الثياب وغيرها[7].

ويعبر عن الخيط بلفظة (السلك) و (السلكة)[8].

والثوب اللباس[9]، وهو ما يلبس[10]. ولذلك فهما من الكلمات العامة التي تطلق على أشياء عديدة. وقد اشتهرت بعض الثياب بكونها ثياب رقاق، منها (السبوب) والسب: الشقة البيضاء، وكذلك الخمار. و (الشف)، وهو الثوب الرقيق، و (اللهله) و (النهنه)، الثوب الرقيق النسج. وثوب هلهل وهلهال، رقيق النسج، وهو المتدارك النسج[11].

والمواد التي يستعين بها الخياط في صنع الثياب والاكسية هي الأنسجة المصنوعة من القطن أو الحرير أو الكتان أو الأصواف أو الشاش أو البز أو الكرباس.

---

١ اللسان (٣٤٨/٥).
٢ بكسر الخاء.
٣ اللسان (٢٩٨/٥ وما بعدها).
٤ اللسان (٤/٤).
٥ اللسان (٣٠٣/١٢).
٦ اللسان (١٧٧/١٣).
٧ اللسان (٣٠٨/٢ وما بعدها).
٨ اللسان (٢٩٨/٥)، (٤٤٣/١٠).
٩ اللسان (٢٤٥/١).
١٠ القاموس (٢٤٨/٣).
١١ المخصص (٦٣/٤).

ولفظة (قطن) ، من الألفاظ التي يصعب تعين أصلها . وقد ذهب كثير من الباحثين الى أنها من أصل هندي . وفي التوراة لفظة (كربس) « Karpas » ، أي الكرباس ، فسرها علماء التوراة بمعنى (قطن) . ولفظة (كرباس) معروفة في العربية . وهي من الألفاظ المعربة المعروفة عند الجاهليين. وترد في لغة بني إرم وفي العبرانية واليونانية واللاتينية . وقد ذهب بعض العلماء،أنها من أصل سنسكريتي وانها تعني شجرة القطن . وقد ذكرت اللفظة في تأريخ (هيرودتس) ، وعرفها اليونان الذين كانوا في حملة الاسكندر الكبير . ودعوها « Carbasus » و « Carbasina » . وقد أشار الى القطن (هيرودوتس) و (سترابو) وصاحب مؤلف « Periplus maris Erythr » و(لوقان) « Lucan » و « Quintus Curtius » وأشاروا الى صلتها بالهند [1] . واللفظة من الألفاظ الواردة في الفارسية أيضاً . وذهب علماء العربية الى ان الكرباس ثوب من القطن الأبيض معرب عن الفارسية[2]. وفي حديث عمر : « وعليه قميص من كرابيس » ، جمع كرباس وهو القطن[3] .

ومن أسماء القطن الخرفع والخرنع . وذكر أن (الطوط) ، هو قطن البردي[4] .

والبز عند علماء العربية : الثياب ، وقيل ضرب من الثياب ، وقيل البُز من الثياب أمتعة البزاز ، والبزاز بائع البَز وحرفته البزازة . والبِزّة الهيئة والشارة واللبسة[5] . وذكر ان (البز) ضرب من برود اليمن[6] .

واللباس والألبسة والملبس كل ما يلبس[7] . والكسوة ، اللباس أيضاً . والكساء واحد الأكسية[8] . وقد عرفت لفظة الكسوة في العربيات الجنوبية كذلك ، إذ وردت في بعض النصوص ، (كسوت) (كشوا) (كشوي)[9] . وذكر علماء العربية ان الكساء الذي لا بطانة له ، يقال له : (كساء سمط)[10] .

---

١ Ency. Bibli., Vol. I, p. 915, Hastings, Diction. of the Bible, Vol. I, p. 623, Smith, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 360.

٢ القاموس المحيط (٢/٩٣) ، تاج العروس (٤/٢٢١) .

٣ اللسان (٦/١٩٥) .

٤ المخصص (٤/٦٩) .

٥ اللسان (٥/٣١٢) .

٦ المعاني الكبير (٣/١١٧٥) .

٧ اللسان (٦/٢٠٢ وما بعدها) .

٨ اللسان (١٥/٢٢٣ وما بعدها) .

٩ Mahram, p. 439.

١٠ اللسان (٧/٣٢٤) .

وفي العبرانية لفظة (بجد) وتقابل (بجاد) و (بجد) في العربية ، وتعني اللباس عامة ، من دون تمييز . أما لفظة (لبوش) ، فهي من أصل (لبس) ، وهي في معنى (لبوس) و (لبس) في العربية [١] . والبجاد عند العبرانيين من الألبسة التي تستعملها الطبقات الراقية [٢] .

وذكر علماء العربية أن البجاد : كساء مخطط من أكسية الأعراب . وقيل : اذا غزل الصوف بسرة ونسج بالصيصة ، فهو بجاد . ويقال للشقة من البجد : قليح وجمعه (قلح) . وقيل البجاد الكساء [٣] . وقيل انـه من وبر الإبل وصوف الغنم مخيطة [٤] .

ومن أنواع الأكسية : (المشملة) : كساء يشتمل به دون القطيفة . وذكر : المشمل : كساء له خمل متفرق يلتحف به دون القطيفـة . وورد في الحديث : « ولا تشتمل اشتمال اليهود » ، وهو افتعال من الشملة ، وهو كساء يتغطى به ويتلفف فيه ، والمنهي عنه هو التجلل بالثوب وإسباله من غير أن يعرف طرفه [٥] . وهو (سمله) « Simlah » و « Salmah » عند العبرانيين .

و (البرنس) : كـل ثوب رأسه منه ملتزق به دُرّاعة كان أو ممطراً أو جُبّة . وذكر أن (البرنس) قلنسوة طويلة ، وكان النسّاك يلبسونها في صدر الإسلام . وهو من (البرس) ، القطن [٦] . وعرف بهذه التسمية أيضاً عند العبرانيين [٧] .

والمُلاءة : الريطة ، وهي الملحفة والإزار [٨] . وذكر أن الريطة الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين ، وقيل : الريطة كلا ملاءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد ، وقيل : هو كل ثوب لين دقيق . والرائطة : المنديل [٩] .

---

١ Ency. Bibli., Vol. I, p. 1135. f.

٢ The Bible Dictionary, I, p. 30.

٣ اللسان (٣/٧٧) .

٤ شرح المعلقات العشر ، للتبريزي (ص ٧٧) .

٥ اللسان (١١/٣٦٩) .

٦ اللسان (٦/٢٦) .

٧ The Bible Dictionary, I, p. 96.

٨ اللسان (١/١٦٠) .

٩ اللسان (٧/٣٠٧) .

والإزار : الملحفــة ، والمئزرة : الإزار [١] . والرداء الذي يلبس ، والجمع أردية [٢] . وذكر أن المئزر من الصوف أو الشعر يؤتزر به، فإذا انفق فهو (شملة) يشتمل بها الرجل اذا نام بالليل[٣] .

والردن : الكُمّ . يقـال : قميص واسع الردن . وذكر أن الردن مقدم كمّ القميص ، وقيل هو أسفله ، وقيل : هو الـكمّ كله [٤] .

ويصنع الخياط الهماين جمع (الهميان) ، ويراد به الحزام وبه كيس تجعل فيه النفقة ويشد على الوسط . وقد يصنع من الجلود أيضاً ، وهو من الألفاظ المعربة من الفارسية [٥] .

أما (الكيس) ، فهو لحفظ ولخزن ولحمل الأشيـاء . ويعرف بـ (كيس) في العبرانية كذلك ، وقد يصنع من الجلد . وأما (الخريطة) ، فإنها (خريط) في العبرانية . وتحفظ فيها الأشياء الثمينة ، وقد تحلى وتزخرف . وأما (الصرة)، وهي (صرور) في العبرانية ، فلصر الأشياء [٦] . ولا تزال هـذه الأسماء مستعملة معروفة .

والجاهليون مثل عرب الاسلام في اختلاف ملابسهم ، فقـد كانت ملابسهم تختلف باختلاف منازلهم ودرجاتهم . فللشرفاء والوجهاء أهل المدن والقرى لبس خاص يميزهم عن الطبقات الدنيا من الناس . وللتجـار لبس خاص بهم ، أما الأعراب ، فكانوا يتميزون أيضاً بطريقة لبسهم عن أهل المدن والقرى . ثم انهم عموماً كانوا يختلفون في ألبستهم باختلاف أمكنتهم وبحسب درجة اتصالهم واختلاطهم بالأعاجم . فقد كان عرب العراق قـد تأثروا بألبسة الفرس وبألبسة بني إرم ، فأخذوا منهم . وتأثر عرب بلاد الشأم بالروم ، فأخذوا منهم بعض ملابسهم ،

---

١ اللسان (١٦/٤ وما بعدها) .
٢ اللسان (٣١٦/١٤ وما بعدها) .
٣ الاغاني (٣٧٢/١) .
٤ اللسان (١٧٨/١٣) .
٥ المعرب (ص ٣٤٦) ، « والهميان دخيل معـرب . والعرب قد تكلمـوا به قديمـا ، فاعربوه . ويقال له هميان أعجر ، وهماين عجر . وقد جاء ذكر لفظ الجمع في حديث النعمان يوم نهاوند : تعاهدوا هماينكم في أحقيكم واشساعكم في نعالكم » ، تاج العروس (٣٦٧/٩ وما بعدها) .
٦ Hastings, Dict. of the Bible, Vol. I, p. 231.

حتى أسمائها ، احتفظوا بها ، وقد حفظتها لنا كتب الاسلاميين . وبعضها لا تزال حية نستعملها هذا اليوم . ولا تختلف ألبسة الرأس المعروفة عند الجاهليين عن ألبسة الرأس المستعملة بين الأعراب وفي قرى جزيرة العرب . فقد اقتضت طبيعة الصحراء ، أن يحمي الجاهلي رأسه بألبسة واقية تقيه من أذى أشعة الشمس المحرقة ومن الرمال التي تذرها العواصف في العيون وفي الأنوف ، فأوجد لنفسه ألبسة رأس مناسبة له ولبساطة حياته . فستر رأسه بقطعة قماش مربعة الشكل في الغالب ، تمتد على أطرافه ليتلثم بها وقت ظهور العواصف وارتفاع الرمال ، أو وقت ظهور السموم ، فيحمي نفسه منهما ومن العطش ، كما يحمي مؤخر رأسه من أشعة الشمس ، ولتحميه من البرد في الشتاء كذلك . ويضع فوق هذه القطعة عقالاً ، يصنع من الصوف أو من شعر الماعز أو الوبر ، ليمسك قطعة القماش فلا تسقط . وتعرف قطعة القماش هذه بالكوفية وبـ (الكفية) في الوقت الحاضر ، ويقال لها وللعقال (الكفية والعقال) و (الكوفية والعقال) في اصطلاح المحدثين .

أما عرب بلاد الشأم ، فقد كانوا يضعون لباداً فوق رأسهم مصنوعاً من مادة مضغوطة من الصوف أو الوبر ، يشبه ما يسمى بـ (العرقجين) في العراق (العرقية) ، يلف حوله بقماش مختلف الألوان ، قد يمتد أحد طرفيه ، ليستعمل لثاماً للوجه وستراً للرقبة ، وهو زي الفلاحين والرعاة .

والعمامة من لباس الرأس عند الجاهليين . « والعرب تقول للرجل إذا سُوّد : قد عمم . وكانوا إذا سوّدوا رجلاً عمموه عمامة حمراء. وكانت الفرس تتوج ملوكها فيقال له متوج »[1] . ويقال لها (السبائب) كذلك . والعمامة : (السُب)[2] .

وعادة صبغ الثياب ، من العادات المعروفة عند العرب قبل الإسلام . وكانوا يستعملون في ذلك أصباغاً مختلفة، كالقرف وهو قشور الشجر ، والجذور يستخرجون ما فيها من مادة ملونة لصبغ ما يضعونه فيها من ملابس ، والأصباغ المستخرجة من بعض النباتات[3] . ولألوان العمائم أو الملابس دخل في المناسبات الاجتماعية ، فكانوا يستعملون للحرب مثلاً نوعاً خاصاً من العمائم ذوات ألوان خاصة ، تعبر

---

١ اللسان (١٢/ ٤٢٤) .
٢ اللسان (١/ ٤٥٦) ، الروض الانف (١/ ٥٩) .
٣ المخصص (١١/ ١٤) .

عن المواقع ، ويستعملون في الأحزان نوعاً خاصاً من العمائم والثياب ، وفي الفرح ملابس خاصة ، وهكذا ، كما كانوا يقومون بتجميرها في بعض الأحوال .

ويقوم بصبغ الثياب وقصرها الصباغون، يصبغون الملابس كما يصبغون الأقمشة قبل تفصيلها وخياطتها . وذكر أن الكهان كانـــوا لا يلبسون المصبغ[1] ، ولعلهم كانوا يفعلون ذلك بسبب اعتقادهم أن تابع الكاهن ينفر من الصبغ .

وفي جملة الأصباغ المعروفة والشائعة عنـــد الجاهليين ، العصفر ، وهو نبت أصفر يستخرج منه صبغ أصفر ، تصبغ به الثياب والأقمشة وأمثالها . ومن هذه الصبغة جاءت لفظة (المعصفرات) ، ويراد بها الثياب المصبوغة بالعصفر[2]. والورس وهو صبغ أصفر ، يؤخذ من نبت طيب الرائحة تصبغ به الملابس، فيقال ملحفة مورسة ، إذا كانت مصبغة بالورس[3] . وقد جاء النهي عن لبس الثياب المعصفرة في الاسلام[4] .

والثوب الأحمر ، هو الثوب المصبوغ بلون أحمر ، أما (الكركم) ، فالثوب الأحمر كذلك . و (ثوب مشرق) ، ثوب بين الحمرة والبياض ، و (ثوب قتمة) و (مقتوم) ثوب سواده ليس بشديد ، و (ثوب مفروك) ، مصبوغ بالزعفران ، وزبرقت الثوب زبرقة ، صفرته . وقد سمي (الزبرقان بن بدر) بذلك ، لصفرة عمامته[5] .

ويظهر ان الصباغين كانوا يمطلون بالمواعيـــد ويخلفون ، لذلك ضرب بهـــم وبالصياغين المثل في الخلف . وورد في الحديث : « أكـــذب الناس الصباغون والصوّاغون »[6] .

ويستعمل شعر الماعز في الغالب لصنع الخيام،وذلك للأعراب وللتجار والمسافرين وغيرهم . والاتجـــار بالخيام ، من التجارات التي كانت رائجة يومئذ ويستعمل شيوخ القبائل والرؤساء والملوك خياماً خاصة مصنوعة من أقمشة غليظة تتحمل المطر والعوارض الطبيعية الأخرى ، ولها أسعار غالية عالية ، تختلف باختلاف حجمها

---

١ بلوغ الارب (٣/٤٠٧) ، اللسان (٨/٤٣٧) .
٢ جامع الاصول (٤/٣٦٥) .
٣ المعرب (٢/٢٤٦) .
٤ صحيح مسلم (٦/١٤٤) .
٥ المخصص (٤/٩٥) .
٦ اللسان (٨/٤٣٧) .

ونوع القماش المصنوعة منه . ولبعضها قواطع تجزىء الخيمة الى أقسام تكون شبه غرف يسكن فيها . ويستعمل بعضها مضارب يعقد فيها ديوان الرئيس ، وبعضها معابد توضع فيها الأصنام والأشياء المقدسة التي تتنقل مع القبيلة ، يحملها الكهنة معهم.وقد أشير الى هذه الأصنام المتنقلة مع القبائل في الأخبار التي سجلها الآشوريون عن حروبهم مع الأعراب، كما كان العبرانيون يصنعون خياماً واسعة تكون مقدسة لخدمة الرب . ومن الخيم الكبار (الفسطاط) . ويطلق على الأبنية كذلك[1] .

والبساط ، ما بسط . وقد اشتهرت أنواع خاصة من البسط بين الجاهليين . منها بسط عبقر ، والبساط العبقري من الأبسطة الجيدة ، ومن عادة العرب أنهم اذا استحسنوا شيئاً أو عجبوا من شدته ومضائه نسبوه الى (عبقر) . وعبقر عندهم أرض من أرض الجن . وورد (ثياب عبقرية) نسبة الى عبقر . حتى قالوا : « ظلم عبقري » أي شديد فاحش[2] . ومن أنواع البسط : (النخ) . وهو بساط طوله أكثر من عرضه ، وهو فارسي معرب ، وجمعه نخاخ[3] .

وللعرب طرق في هيأة لبسهم وفي كيفية وضعها على أبدانهم ، ولا سيما أهل الحضر منهم. كما كانوا يكيفون لبسهم حسب المناسبات في مثل الغارات والحروب والسفر . ومن ضروب لبسهم ، ما يقال له : (الاضطباع) ، ويقال له : (التأبط) ، وهو أن يدخل الثوب من تحت يده اليمنى فيلقيه على منكبه الأيسر[4] .

ومن ضروب اللبس : (التفضل) ، وهو التوشح ، أن يخالف اللابس بين أطراف ثوبه على عاتقه . وأما (الفضلة) فالثياب التي تبتذل للنوم لأنها فضلت عن ثياب الصرف[5] . وعرف التوشح : أن يتوشح بالثوب، ثم يخرج طرفه الذي ألقاه على عاتقه الأيسر من تحت يده اليمنى ، ثم يعقد طرفيها على صدره . وقيل : التوشح بالرداء مثل التأبط والاضطباع ، وهو أن يدخل الثوب من تحت يده اليمنى فيلقيه على منكبه الأيسر ، كما يفعل المحرم[6] .

وأما (الاشتمال) ، فهو ادارة الانسان الثوب على جسده كله حتى لا تخرج

---

١ المعرب (٢/٩٦) ، تاج العروس (٥/١٩٨ وما بعدها) .
٢ المخصص (٤/٧٣) .
٣ اللسان (٣/٦١) .
٤ اللسان (٧/٢٥٤) ، المخصص (٤/٩٧) .
٥ اللسان (١١/٥٢٦) ، المخصص (٤/٩٩) .
٦ اللسان (٢/٦٣٣) .

منه يده . وروي أن النبي نهى عن اشتمال الصّماء . والشملة الصّمّاء التي ليس تحتها قميص ولا سراويل ، وذكر أن اشتمال الصّماء هو أن يشتمل بالثوب حتى يجلل به جسده ولا يرفع منه جانباً ، فيكون فيه فرجة تخرج منها يده ، وهو التلفع ، وربما اضطجع فيه على هذه الحالة . وذكر الفقهاء : أن الاشتمال هو أن يشتمل بثوب واحد ليس عليه غيره ، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على منكبه فتبدو منه فرجة[1] .

(والسند) ، ضرب من ضروب اللبس عند العرب ، وهو أن يلبس قميصاً طويلاً تحت قميص أقصر منه . كما أن السند ضروب من البرود ، وضرب من الثياب . وذكر أن السناد هي الحمراء من جباب البرود[2] .

وإذا نام الشخص وأدخل رأسه في ثوبه قيل لذلك الكبس والكباس[3] . و (الكمكمة) التغطي بالثياب[4] .

وقد عرف الجاهليون (الكلل) . و (الكلة) : الستر الرقيق يخاط كالبيت يتوقى فيه من البق[5] .

ويعبر عن الستر بـ (السجف) ، وهو قماش يستر به . والسجافة السدافة ، أي الحجاب . وكل باب ستر بسترين مقرونين فكل شق منه سجف . وقيل لا يسمى سجفاً إلا أن يكون مشقوق الوسط كالمصراعين[6] .

---

١ اللسان (٣٦٨/١١) ، المخصص (٩٧/٤) .
٢ اللسان (٣/٢٢١ وما بعدها) ، المخصص (٩٩/٤) .
٣ اللسان (١٩٠/٦) .
٤ اللسان (٥٢٨/١٢) .
٥ اللسان (٥٩٥/١١) .
٦ اللسان (١٤٤/٩) .

الفصل الخامس عشر بعد المئة

قياس الابعاد والمساحات والكيل

وقد استعمل الجاهليون قياس الأبعاد والوزن والكيل في معاملاتهم. وهي متقاربة بين الشعوب السامية لاختلاط هذه الشعوب بعضها ببعض، ولمستوى تلك الشعوب في الأيام الماضية، ودرجتها في الثقافة بالنسبة إلى تلك العهود، هذا ونجد الأوزان والمكاييل قد تطورت شيئاً فشيئاً، تطورت بالتدريج من أحوال بدائية حسية يدركها الانسان البدائي، إلى أن اتخذت أشكالاً تستند إلى أسس علمية. ويستعمل الوزن لقياس الكميات. أما المسافات والأبعاد، فتقاس بالطبع بمقاييس تستند إلى أساس تقدير الأبعاد.

ويختلف أهل الجاهلية في الكيل والوزن، اختلاف الناس في هذا اليوم. منهم من يوزن الشيء، ومنهم من يكيله كيلاً. كان أهل المدينة يكيلون التمر، وهو يوزن في كثير من أهل الأمصار. وان السمن عندهم وزن، وهو كيل في كثير من الأمصار[1]. وقد يباع الشيء عدداً، بينما يباع وزناً عند قوم آخرين. والذي يعرف به أصل الكيل والوزن، أن كلّ ما لزمه اسم المختوم والقفيز والمكوك والمدّ والصاع، فهو كيل. وكل ما لزمه اسم الأرطال والأواقي والأمناء، فهو وزن. ودرهم أهل مكة ستة دوانيق، ودراهم الإسلام المعدّلة كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل[2].

---

١ تاج العروس (١٠٧/٨)، (كيل).
٢ تاج العروس (١٠٧/٨)، (كيل)، اللسان (١٢٥/١٤ وما بعدها).

وقد كان الجاهليون يستعملون المكاييل في الغالب لقياس الجوامد والمائعات على حدّ سواء . وذلك كما يتبين من دراسة أسماء المعايير بالقياس الى المعايير المستعملة عند الرومان واليونان . وكما يتبين من مراجعة معجمات اللغة ، حيث تذكر المقياس في قياس الجوامد أحياناً وفي قياس المائعات أحياناً أخرى . وكما يتبين من عدم تفريق بعض اللغويين بين الوزن والكيل .

وقد جاءت في كتب الحديث والفقه وكتب اللغة أسماء بعض العيارات والموازين التي كان يستعملها العرب قبل الاسلام . ويظهر من هذه الكتب أن هذه العيارات والموازين كانت تختلف باختلاف المواضع ، وإن اتفقت في الأسماء . فبين مكة والمدينة مثلاً اختلاف في تقدير العيارات . كذلك اختلف العرب في وزن الأشياء في بعض الأحيان ، فقد ذكر أن أهل المدينة كانوا يكيلون التمر ، وهو يوزن في كثير من الأمصار. ثم إن بعض المواد تكال وتوزن ، فالسمن يكال في بعض الأماكن ، ويوزن في أماكن أخرى ، ويكال ويوزن في آن واحد في أماكن غيرها [1] . وقد ورد في الحديث : « الوزن وزن أهل مكة ، والمكيال مكيال أهل المدينة » [2] .

والكيل والوزن سواء في معرفة المقادير . وتعني لفظة (كال) معنى وزن . وقد ورد عن النبي أنه قال : المكيال مكيال أهل المدينة والميزان ميزان أهل مكة [3]. وورد : الكيل كيل الطعام ، يقال : كلتُ الطعام إذا توليت ذلك له . وورد في القرآن الكريم : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » [4] . وذلك إن كان مخصوصاً بالكيل ، فحث على تحري العدل . وقد وردت لفظة : (الكيل) و (كيل) و (المكيال) و (كلتم) و (اكتالوا) و (نكتل) في مواضع من القرآن الكريم [5] .

ويعبر عن الوزن وعن قياس الأبعاد بلفظة : (كل) (كال) أي (كالَ)

---

١ تاج العروس (٨/١٠٧) ، (كيل) .
٢ جامع الاصول (١/ ٣٧١) .
٣ جامع الاصول (١/٣٧١) ، اللسان (١١/٦٠٥) .
٤ سورة المطففون ، الآية ١ وما بعدها ، المفردات (٤٦٠) .
٥ الانعام ، الآية ١٥٢ ، الاعراف الآية ٨٥ ، يوسف الآية ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٨ ، الاسراء ، الآية ٣٥ ، الشعراء الآية ١٨١ ، هود ، الآية ٨٤ وما بعدها .

في المسند . والوحدة (كلت) أي (كيلة)[1] . آما في عربيتنا ، فقد استعملت في الوزن والكيل[2] . وجاء الكيل : كيل الطعام[3] . وورد كال البئر ، أي قدر ما فيها من ماء[4] . والإسم (الكيلة) ، والكيل ، والمكيل ، والمكيال،والمكيلة، ما كيل به حديداً كان أو خشباً . وكال الدراهم والدنانير وزنها .

وفي معنى (كلت) ترد لفظة (سفرت) (سفرة) . وتستعمل خاصة في قياسات الأبعاد ، مثل البعد بين مكانين ، أي المسافات والأطوال فهي بمعنى مرحلة أي وحدة قياسية للبعد[5] . ومعدل ما يسافره الانسان أو تقطعه القافلة في اليوم ، أي السفرة التي تتمكن منها القافلة في اليوم ، فسفرت ، هي سفرة في لغتنا ، أي مرحلة .

وتعد قياسات الأبعاد والموازين والمكاييل البابلية من أهم وأدق المكاييل والأوزان عند الشعوب الشرقية . فقد استند البابليون في قياساتهم هذه الى أسس علمية . وهم في ذلك أدق من قدماء المصريين ، ومن اليهود[6] .

والعادة قياس الأبعاد الصغيرة والمسافات القصيرة ، بمقاييس تتناسب مع هذه الأبعاد . وذلك باستعمال مقاييس صغيرة مثل الاصبع والشبر والذراع ، صارت أساساً للمقاييس التي تقاس بها المسافات البعيدة ، مثل المسافات بين مراحل السفر أو الأبعاد بين المدن والقرى وما شاكل ذلك . إذ لا بد من اتخاذ وحدة قياسية كبيرة في قياس الأبعاد الطويلة ، لسهولة الضبط والحفظ ، ولهذا اصطلحت الأمم على اتخاذ وحدات كبيرة في قياسات المراحل والأبعاد ، سمتها .

وقاس الجاهليون مساحات الأرضين الزراعية بمقدار البذور المنثورة وبمقدار ما يحرثه ثور واحد أو حيوان في نهار . ويراد بذلك متوسط عمل محراث واحد في الأرض . فتقدر مساحة أرض بمقدار كميات البذور التي تنثر في الأرض ، وتذكر عندئذ مقدار كيلات البذور المنثورة ، ويدل عددها على مساحة الأرض .

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 79.

٢ اللسان (١١/٦٠٤ وما بعدها) « دار صادر » .

٣ المفردات (ص ٤٦٠) .

٤ اللسان (١١/٦٠٤) « دار صادر » .

٥ Rhodokanakis, Studi., II, S. 79.

٦ Hastings, p. 967.

ولو تعمقنا في دراسة قياس المسافات ، فإننا نجد أن الانسان قد استعان بأجزاء جسمه في بادىء الأمر في القياسات ، فاستعان بالإصبع ، واعتبره وحدة قياسية صغيرة لقياس البعد، استعمل عرضه كما استعمل طوله . واستعمل (الكف) قياساً للأبعاد كذلك . وهو أربع أصابع عند العبرانيين[١] . واستعمل (الشبر) للأبعاد التي تزيد على الكف . والشبر هو مسافة ما بين طرف الإبهام وطرف الخنصر ، ويساوي ثلاث كفوف . ويعدل من ثمانية قراريط الى أحد عشر قيراطاً . واستعملت (الذراع) وجعلوها تعادل شبرين . وتقدر بنحو قدم الى قدمين . ثم (الخطوة) وتعادل ذراعين أو ثلاث أقدام أو اثني عشر كفاً . ثم (القامة)، وتعادل خطوتين أو أربع أذرع أو ستة أقدام . ثم (القصبة) . وتعادل قامة ونصف قامة ، أو ستة أذرع . وتعادل تسع أقدام أو ستاً وثلاثين كفاً[٢] .

والكف – عند العرب – اليد ، أو منها إلى الكوع[٣] . والشبر ما بين أعلى الإبهام وأعلى الخنصر ، ويكال به . ومنه (الشّبر) ، كيل الثوب بالشبر ، يشبره شبراً[٤] . والذراع من طرف المرفق إلى طرف الاصبع الوسطى ، وقيل الذراع والساعد واحد . يقال ذرع الثوب وغيره ، قاسه بالذراع . وهو ما يذرع به من حديد أو قضيب[٥] . و (الباع) ، قدر مد اليدين وما بينهما من البدن ، ويستعمل في قياس الأعماق ، مثل الآبار ، وأعماق الماء[٦] .

والخطوة ما بين القومين[٧] . والقامة عند العرب ، مقدار هيأة رجل ، والبكرة بأداتها ، وقيل : البكرة التي يستقى بها الماء من البئر[٨] . والقامة مقياس أيضاً تقاس به الأعماق[٩] .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣١) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣١) ، Hastings, p. 967.
٣ تاج العروس (٦/٢٣٤) ، (كف) .
٤ تاج العروس (٣/٢٢٨) ، (شبر) .
٥ تاج العروس (٥/٣٣٣ وما بعدها) ، (ذرع) .
٦ تاج العروس (٥/٢٨٣) ، (بوع) .
٧ تاج العروس (١٠/١١٥) ، (خطا) .
٨ تاج العروس (٩/٣٦) ، (قوم) .
٩ قول أبو ذؤيب :

فلو كان حبلا من ثمانين قامة   وخمسين بوعا نالها بالانامل

« وفي الديوان : وتسعين باعا ، وأما بوعا فانه رواية الاخفش » ، تاج العروس (٥/٢٨٣) ، (بوع) .

وذكر الذراع في القرآن الكريم في آية : « في سلسلة ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلكوه »[1] . ويعبر به عن المذروع ، أي الممسوح بالذراع[2] . وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الذراع من طرف المرفق الى طرف الإصبع الوسطى[3] . وذكر بعض العلماء أن الذراع والساعد واحد . وأما المذارعة فالبيع بالذراع[4] . ويقال ذراع من الثوب والأرض[5] . فتستعمل المذارعة إذن في الأموال المنقولة التي لها اتساع مثل الثياب والأقمشة والخشب وما شابه ذلك ، كما يستعمل في ذرع الأرض . وقد اختلف الذراع الجاهلي عن الذراع في الاسلام[6] .

والقصبة من أصل « Kas - Pu » في البابلية ، ومعناها (ساعتان) ، أي مسيرة تقطع في ساعتين . وورد « Kas - Pu Kakkari » في النصوص البابلية ، ويراد بالجملة : ما يقابل (قصبة أرض) أو (ميل أرض)[7] . وقد كان أهل مصر في الاسلام يمسحون أرضهم بقصبة طولها خمسة أذرع بالتجاري ، فمتى بلغت المساحة أربعمائة قصبة ، فاسمها : الفدان[8] .

و (الغلوة) ، وكانت مقياساً يونانياً ، وتعادل نحو (١٤٥) خطوة ، أو ثُمن ميل . وتسمى (فرسخاً) أيضاً[9] . وذكر علماء اللغة أن (الغلوة) قدر رمية بسهم ، وتستعمل في سباق الخيل[10] . وقيل هي قدر ثلاثمائة ذراع الى أربعمائة ذراع . وذكر بعض علماء اللغة،أن الفرسخ التام خمس وعشرون غلوة[11] .

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن الفرسخ ساعة من النهار . وقال بعض آخر انه المسافة المعلومة ، وهو ثلاثة أميال هاشمية أو ستة أو اثنا عشر ألف ذراع أو عشرة آلاف ذراع . واللفظة من الكلمات المعربة ، وهي « Frasong » (فرسنك)

---

١ الحاقة ، الآية ٢٣ ، تفسير الطبري (٢٩/ ٤٠ وما بعدها) ، « بولاق » .
٢ المفردات (١٧٦) .
٣ تاج العروس (٥/٣٣٣ وما بعدها) .
٤ Ency., I, p. 959.
٥ المفردات (١٧٦) .
٦ تاج العروس (٨/١٢٣) ، (ميل) .
٧ Schrader, S. 339.
٨ تاج العروس (٥/٢٠٣) ، (قرط) .
٩ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٣٢) .
١٠ اللسان (١٥/١٣٢) « صادر » .
١١ تاج العروس (١٠/٢٦٩) ، (غلا) .

في الفهلوية . وقد أشير الى هذا المقياس الفارسي في بعض مؤلفات الكتبة اليونان مثل (هيرودوتس) و (كسينوفون) « Xenophon » . وهو « Farsong » في الفارسية الحديثة . Prasakhā في لغة بني إرم[1] .

وأما (الميل) ، فقياس روماني . وقد اختلف في طوله ، فقيل إنه ثلث الفرسخ ، وقيل إنه ثلاثة آلاف ذراع أو أربعة آلاف ، وقيل أربعة آلاف خطوة ، كل خطوة ثلاثة أقدام . وقيل إنه سدس الفرسخ . وهو من الألفاظ المعربة ، من أصل « Miloin »[2] . وذكر علماء اللغة أن الميل هو المنار يبنى للمسافر في أنشاز الأرض ، وأنه أيضاً الأعلام المبنية على الطرق لهداية الناس[3] .

وقد استخدم الجاهليون مصطلحات خاصة في تقدير المسافات والأبعاد ، ولا سيما في الأسفار . فاستعملوا مصطلح (مسيرة ساعة) ومسيرة ليلة ومسيرة نهار ومسيرة قافلة وأمثال ذلك . وقصدوا بذلك معدل ما يقطعه الانسان والقافلة في المدد المذكورة . واستعملوا (البريد) في تقدير الأبعاد والمسافات ، و (البريد) ، فرسخان ، كل فرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف ذراع ،أو أربعة فراسخ ، وهو اثنا عشر ميلاً . وفي الحديث : لا تقصر الصلاة في أقل من أربعة برد ، وهي ستة عشر فرسخاً ، وفي كتب الفقه : السفر الذي يجوز فيه القصر أربعة برد ، وهي ثمانية وأربعون ميلاً بالأميال الهاشمية في طريق مكة[4] .

وقاس الجاهليون المساحات ، مثل مساحات البيت أو الملك كالأرضين بالذراع ، إن كانت غير كبيرة . أما اذا كانت كبيرة ، فقد قيست بمقدار متوسط ما يحرثه (الفدان) في اليوم . وذكر علماء اللغة أن (الفدان) الثوران اللذان يقرنان فيحرث عليهما ، وأن الفدان المزرعة[5] ، والآلة ، ومقدار محدود من الأرض اصطلح الناس على تحديد مقداره[6] .

---

١ تاج العروس (٢/٢٧٢ وما بعدها) ، البلدان (١/٣٥) ، « الباب الثالث » ، Ency., II, p. 70, Horn, Grundriss der Iranische Philologie, I, 127.

٢ تاج العروس (٨/١٢٣) ، البلدان (١/٣٦) ، Hastings, p. 968.

٣ تاج العروس (٨/١٢٣) ، (ميل) .

٤ تاج العروس (٢/٢٩٨) ، (برد) .

٥ اللسان (١٣/٣٢١) ، « صادر » ، (فدن) .

٦ تاج العروس (٩/٢٩٩) ، (فدن) .

وتقاس الأرض بالجريب أيضاً . قال علماء اللغة : الجريب من الأرض مقدار معلوم الذراع والمساحة ، وهو عشرة أقفزة ، كل قفيز منهـا عشرة أعشراء ، فالعشير جزء من مائة جزء من الجريب . وقيل : الجريب المزرعة،وقدر ما يزرع فيه من الأرض . وقد استعمـل للطعام ولتقدير غلة الأرض ، أي وحدة قياس للأرضين ، ومكيلة في آن واحد[1] . وقال بعض العلماء انه يختلف باختلاف البلدان[2] .

ومن وحدات القياس في اليمن : (ا م ت) (امت) . وقد ذكرت هـذه الوحدة في نصوص المسنـد . وتقاس بها الأبعاد طولاً وعرضاً[3] . وذكر علماء اللغة أن (الأمت) الحزر والتقدير ، يقال كم أمت ما بينك وبين الكوفة ، أي قدر ، وأمت القوم أمتاً ، إذا حزرتهم[4] . فللمعنى اذن صلة بالمعنى المفهوم من اللفظة في لغة المسند .

والشوحط من وحدات قياس الأبعاد كذلك . فورد : (سدثي شوحطم) ، أي ستون شوحطاً . وقد ذكر هذا المقياس في كتابات المعينيين[5] . ولعله قصبـة أو خشبة ، حدد طولهـا ، واعتبرت كالمتر و (الياردة) وحدة أساسية لقياس الأبعاد . و (الشوحط) ، في كتب اللغة ضرب من شجـر الجبال تتخذ منـه القسي ، أو ضرب من النبـع تتخذ منه القياس[6] . فلا يستبعد وجود صلة بين الشوحط اليماني،وهذا الشوحط ، وهو اتخاذ قضب الشوحط ، مقياساً معيناً محدداً، لقياس الأبعاد .

وترد في بعض كتابات المسند لفظة (ممد) مع العدد، كأنها استعملت للتعبير عن قياس . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنها لا تعبر عن وحدة قياسية قائمـة بذاتها ، كما تعبر لفظة قدم أو ذراع ، بل هي تعبر عن معنى عام ، هو مسافة

---

١ اللسان (١/٢٦٠) ، « صادر » ، (جرب) .

٢ تاج العروس (١/١٢٩) ، المخصص (١٢/٢٦٤ وما بعدها) ، برصوم (ص ١٣٦) .

٣ راجع الفقرة الرابعة من النص : Glaser 1150, Halevy 192, 199.

٤ تاج العروس (١/٥٢٢) ، (امت) .

٥ راجع النص الموسوم بـ : Halevy 352

٦ تاج العروس (٥/١٦٥) ، (شحط) .

أو كيل أو وزن . ويفهم ذلك المعنى من مكانة الكلمة وموضعها في الجملة [1] .

وأما وزن الأشياء ، أي تقدير مقدار ثقلهـا ، فيختلف في الغالب باختلاف طبيعة الشيء المراد معرفة وزنه وتقدير ثقله . فإذا كان الشيء جافاً قدّر بمعايير خاصة ، واذا كان سائلاً قدّر بمعايير أخرى . غير ان هـذا التفريق ليس بعدّ قاعدة عامة ، وانما يختلف باختلاف الأماكن والأعراف والعادات . فقـد يزن بعض الناس المائعات بمعايير توزن بها الأشياء الجافة عند أناس آخرين ، فالسمن مثلاً يوزن ويكال ، والتمر يوزن ويكال ، وهناك أمثلة عديدة أخرى من هذا القبيل [2] .

وأما الأوزان ، أي معرفة الخفـة أو الثقل للأشياء التي يراد وزنها لمعرفـة مقدارها ، فقد كانت توزن بوضعها في إحـدى كفتي ميزان ووضع الأوزان في الكفة الثانية . وقد كانت للأوزان البابلية شهرة ، وعليها كان اعتماد العبرانيين .

والميزان الآلة التي يوزن بهـا . وقد ذكر علماء اللغة أسماء أجزاء الميـزان . والميزان الذي كان يستعمله الجاهليون لا يختلف عن الميزان المستعمل عند الشعوب الأخرى . ويقوم الوزن على أساس المعادلة بين الكفتين [3] .

ويظهر أن الجاهليين كانوا قد أخذوا الأوزان من العراق ومن بـلاد الشأم ، واستعملوها كلها وبأسمائها الأصلية ، وذلك بدليل ما نجده في أسماء هذه الأوزان التي استعملوها من مسميات بابلية أو إرمية وفهلوية ويونانية ورومانية . لقد أخذوها بتعاملهم مع أهل العراق ومع أهل بلاد الشأم ، وأدخلوا مسمّياتها الى لغتهم بعد ادخالهم بعض التحوير والتغيير عليها لتتناسب مع النطق العربي . وقد كان لا بد لهم من استخدام تلك الموازين كلها أو أكثرها على حدّ سواء ، لأنهم تعـاملوا وتاجروا مع العراق وبلاد الشأم منذ القدم . فكان لا بد لهم من التعـامل مع كل بلد بموازينه وبمقاييسه ،ومن استعمال هذه الأوزان في بلادهم أيضاً بحكم ذلك التعامل والإتجار ، كما نستعمل اليوم الأوزان والمقاييس الأجنبية في التعـامل عندنا بدلاً من الموازين والمقاييس القديمة .

---

١ Rhodokanakis, Kata. Textile, II, S. 34.

٢ اللسان (١٤/١٢٥) .

٣ المخصص (١٢/٢٦٣) .

ومن الأوزان التي يعود أصلها الى الروم : (الرطل) ، وهو « Litra » عند اليونان . والأوقية ، وتقابل « Ounguiya » « Oncia » عند البيزنطيين[١] . و (الدرهم) ، وهو وحدة وزن ، وقطعة نقد ، من « Dhrakhmi » [٢]. (وقيراط) وهو من « Keration » [٣] .

ومن وحدات القياس التي يعود أصلها الى الفارسية : (الدانق) ، فإنه من (دانك) ، وهو سدس الدرهم[٤] . وأما (المثقال) فمن أصل آرامي ، من « Matqolo » [٥] .

والقسطاس : الميزان ، ويعبر به عن العدالة ، كما يعبر عنها بالميزان[٦] . ويذكر العلماء ان القسطاس أقوم الموازين[٧] . و (القسط) مكيـال يسع نصف صاع . و (الفرق) ستة أقساط . وذكر بعضهم ان (القسط) أربعمائة وواحد وثمانون درهماً . والقسط الحصة من الشيء ، والمقدار[٨] .

ويقاس الذهب بالوزن ، وكذلك الفضة ، فكان التجّار يحملون معهم الموازين ليزنوا بها هذين المعدنين . وقد كان (الشاقل) هو وحدة القياس للوزن عنـد الجاهليين . ويقال في العربية : « شقل الدينار وشوقل الدينار ، بمعنى وزنه وعايره وصححه » . وجاء أن الشقل : الوزن . يقال : اشقل لي هـذا الدينار ، أي زنه[٩] . واللفظـة من الألفاظ البابلية التي دخلت الى لغة بني إرم والى العبرانية والعربية[١٠] .

و (الحبّة) من العيارات المستعملة عند الجاهليين والتي بقيت مستعملة في الإسلام كذلك ، ولا تزال تستعمل . أما وزنها فاختلف فيه باختلاف الأزمنة والأمكنـة

---

١ غرائب اللغة (٢٥٤) .
٢ غرائب اللغة (٢٥٨) .
٣ غرائب اللغة (٢٦٧) .
٤ غرائب اللغة (٢٢٧) .
٥ غرائب اللغة (١٧٦) .
٦ المفردات (٤١٣) .
٧ المخصص (٢٦٣/١٢ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٢٠٥/٥) ، (قسط) .
٩ اللسان (٣٥٦/١١) ، القاموس (٤٠١/٣) .
١٠ غرائب اللغة (ص ١٩١) ، برصوم ، الالفاظ السريانية (ص ٩٧) Schrader, S. 340.

وقد قدرها بعضهم بعُشر الدانق[1] . وقدرها بعض آخر بسدس ثمن درهم ، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من درهم[2] .

والقيراط ، هو نصف دانق . وذكر بعض العلماء أنه جزء من أجزاء الدينار، وهـــو نصف عشره في بعض البلاد في الإسلام ، وجزء من أربعة وعشرين فى بلاد الشأم[3] . وهو عند الروم جزء من أربعة وعشرين من أجزاء شيء . وهـو من أصل رومي هو « Keration »[4] . ويظهر أو وزنه لم يكن ثابتاً ، بل اختلف باختلاف البلدان[5] .

و (المثقال) من الأوزان القديمة عند العرب ، وقد وردت لفظة (مثقال) في القرآن الكريم تعني مقدار ووزن[6] . ويظن بعض المستشرقين ان (المثقال) من أقدم المعايير عند العرب ، ويستعمله العطارون والصيارفة وباعة اللؤلؤ والحجـــارة الثمينة . وهو عبـــارة عن اثنتين وسبعين شعيرة . وفي بعض الموارد : المثقـــال عشرون قيراطاً . وهو يقابل الـ « Solidus » عند الروم على وفق النظام الذي أقره القيصر (قسطنطين) « Costantine » . وهو نظام اتبع في بلاد الشأم،وأقره العرب واستعملوه[7]. واللفظة من الألفاظ المعربة عن الإرمية من أصل(متقولو) « Matqolo » على بعض الآراء[8] .

والأوقية من الأوزان التي كانت مستعملة في الجاهلية . وقد اختلف العلماء في ضبط وزنها وتعيين مقداره . فقال بعضهم : هي سبعة مثاقيـــل ، وانها أربعون درهماً . وقال بعض آخر : هي أربعون درهماً . وقـد ورد في الحديث : ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة[9] . وفي حديث النبي : انه لم يصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنتي عشرة أوقية ونش . قال مجاهد: الأوقية أربعون درهماً،

---

١ تاج العروس (٥/٢٠٥) ، Ency., II, p. 185.
٢ القاموس (٣/٣٣٠) ، تاج العروس (٥/١٨٠) ، (دنق) .
٣ اللسان (٧/٣٧٥) ، (قرط) .
٤ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) .
٥ تاج العروس (٥/٢٠٣) ، (قرط) .
٦ تاج العروس (٧/٢٤٥) ، (نقل) .
٧ Ency., III, p. 558.
٨ غرائب اللغة (١٧٦) .
٩ تاج العروس (١٠/٣٩٦) ، (وقى) .

والنشُ عشرون[1] . وهي تقابل « Uncia » عند الروم .
و (البزمة) وزن ثلاثين درهماً[2] .

وقد أشير في الحديث الى (نواة من ذهب) ، وقد جعل بعض العلماء النواة زنة ، وقال بعض آخر : النواة من العدد عشرون أو عشرة ، أو هي الأوقيــة من الذهب أو أربعة دنانير أو ما زنته خمسة دراهم أو ثلاثــة دراهم ونصف أو ثلاثة دراهم وثلث[3] .

وقد كان الجاهليون يبايعون الذهب والفضة بالأوزان التي ذكرتهــا مثل النواة والحبة والشعيرة والمثقـــال والأوقية . ولما جاء الرسول المدينة وجد أهلها يبايعون اليهود الوقية من الذهب بالدنانير ، فقال لهم : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلاّ وزناً بوزن »[4] .

وأما الرطـــل ، فإنه في مقابل « Litra » في اليونانية ، و « Libra » في اللاتينية . وهو قدر نصف (من) . وهو من الأوزان المعروفة عنـد الجاهليين . وذكر أن الرطل الجاهلي هو ضعف الرطل الإسلامي ، وقد اختلف وزنه عنـــد المسلمين باختلاف الأماكن والمواضع والناس[5] . وذكر بعضهم : الرطل اثنا عشر أوقية بأواقي العرب ، والأوقية أربعون درهماً ، فذلك أربعمائة وثمانون درهماً[6] .

وأما (المــنّ) ، « Mnh » « Mina » « Maneh » « Mna » « Mana » (منا) و (منو) « Mnu » في البابلية ، فإنه خمسة عشر شاقلاً ، وعشرون شاقلاً وخمسة وعشرون شاقلاً ، أي انه ورد في ثلاثة أوزان . فعرف كل وزن من هذه الأوزان الثلاثـة باسم (من)[7] . وهو معروف عنـــد قدماء اليونان ، وعند السريان[8] . وهو من الأوزان المعروفة عند العـــرب الجاهليين .

---

١ اللسان (١٥/٤٠٤) ، «صادر» ، (وقى) ، تاج العروس (٨/٢٠٢) ، (بزم) .
٢ تاج العروس (٨/٢٠٢) ، (بزم) .
٣ تاج العروس (١٠/٢١٩) ، عمدة القاريء (١١/١٦٤) .
٤ صحيح مسلم (٥/٤٦ وما بعدها) .
٥ Ency., III, p. 1129.
٦ تاج العروس (٧/٣٤٦) ، (رطل) .
٧ قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٢٥) ،
Hastings, p. 970, Shrader, Keil. und das alte Testment, S. 338.
٨ غرائب اللغة (٢٧٠) .

وقد ذكر علماء اللغة انه كيل أو ميزان وهو رطلان[1] .

والقنطار وزن أربعين أوقية من ذهب ، وقيل ألف ومئتا دينار ، وقيل ألف ومئتا أوقية ، وقيل سبعون ألف دينار ، وقيل ثمانون ألف درهم ، وقيل مئة رطل من ذهب أو فضة . وزعم بعض علماء اللغة انه سرياني ، وزعم آخرون انه عربي[2]. ويظهر انه لاتيني الأصل وانه من أصل « Centenarium Pondus » أي وزن يساوي مئة ضعف وزن آخر[3] . وقد اختلف العلماء في القنطار ، وقد ذكر العلماء آراءهم فيه. ويظهر انهم كانوا قد اختلفوا فيه في الجاهلية كذلك،وسبب ذلك على ما يظهر ، انهم استعملوه وزناً ، أي معياراً ، واستعملوه ثمناً ، أي بمقدار ما يعادله بالذهب والفضة ، وبالنقد ، ثم بالمقايضة ، مثل قولهم انه ملء ثور ذهباً أو فضة[4] .

وقد ذكر في الآية : « ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤده لك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً »[5] . وفي الآية : « وآتيتم إحداهن قنطاراً »[6] . وورد : « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة»[7]. وفي الإشارة الى القنطار في القرآن الكريم دلالة على استعماله في الحجاز وربما في أماكن أخرى من جزيرة العرب كذلك .

والقناطير جمع قنطار . ومعنى القناطير المقنطرة : المال الكثير من الذهب والفضة ، والمال الكثير بعضه على بعض . ويظهر من اختلاف المفسرين وسائر العلماء في مقدار القنطار أن العرب لا تحد القنطار بمقدار معلوم من الوزن، ولكنها تقول هو قدر ووزن ؛ لأن ذلك لو كان محدوداً قدره عندها لم يكن بين متقدمي أهل التأويل فيه كل هذا الاختلاف[8] .

والمُدّ مكيال ، وهو رطلان أو رطل وثلث أو ملء كفي الإنسان المعتدل ،

---

١ تاج العروس (٩/ ٣٥٠) ، « منن » ، برصوم (١٢١) .
٢ المخصص (١٢/٢٦٦) .
٣ غرائب اللغة (٢٧٩) ، Ency., II, p. 1022.
٤ تاج العروس (٣/٥٠٩) ، (قنطر) .
٥ آل عمران : الآية ٧٥ .
٦ النساء : الآية ١٩ .
٧ آل عمران : الآية ١٤ .
٨ تفسير الطبري (٣/ ١٣٠) ، « طبعة بولاق » .

إذا ملأهما ومدّ يده بهما ، وبه سُمّي مُدّاً[1] . وقيل هو ربع الصاع ، لأن الصاع أربعة أمداد . وقد اختلف في مقدار المدّ في الإسلام ، وقد ورثوا ذلك من الجاهلية ، فقد اختلفوا في مقداره أيضاً باختلاف مواضعهم[2] .

والصاع من المكاييل التي كان يستعملها أهل الحجاز عند ظهور الإسلام . وقد عرف خاصة عند أهل المدينة . ويأخذ أربعة أمداد . وهو يأخذ من الحبّ قدر ثلثي الصاع في بعض الأماكن . وكان لأهل المدينة صيعان مختلفة . وورد صاع المدينة أصغر الصيعان . كما ورد في كتب الحديث والفقه،صاع النبي وصاع عمر[3] وقد كالوا به التمر والحبوب[4] . وقد اختلف العلماء في مقداره في الاسلام . ومردّ ذلك الى الجاهليــة الذين كانوا يختلفون في تقدير الصاع وذكــر المفسرون أن (صواع الملك) ، أو (صاع الملك) حسب قراءة (أبي هريرة) كناية عن الصاع الذي يكــال به الطعام . وذكر أنه الإناء الذي يكال به الطعام ، وإناء يشرب فيه ، وكان يشرب الملك ، وهو من فضة . وكان للعباس في الجاهليــة واحد ، وهو المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه ، كانت تشرب فيه الأعاجم[5] .

والقفيز من المكاييل القديمة المستعملة لتقدير كميات الأشياء الجامدة ، ويتسع لنحو عشرة (غالونات) : وأصله من المكاييل البابليـة . وقد ذكــره المؤرخ (اكسينيفون)[6] ، وهو عند العرب أصغر من القاب « Cub »[7] .

والوسق من المكاييل التي كان يستعملها العرب قبل الاسلام كذلك . قيــل : هو ستون صاعاً . وقيل : هو حمل بعير . وقيــل : الوسق مئة وستون منّاً . وقال الزجّاج : خمسة أوسق هي خمسة عشر قفيزاً . وكل وسق بالملجم هو ثلاثة أقفزة . وقيل إن الوسق ستون صاعاً . وهو ثلاث مئة رطل وعشرون رطلاً عند

---

١ القاموس (١/٣٣٧) ، تاج العروس (٢/٤٩٨) ، (مدد) ·

٢ تاج العروس (٢/٤٩٨) ، (مدد) ·

٣ عمدة القارىء (١١/٢٤٧ وما بعدها) ، جـامع الاصول (١/٣٧٤) ، المخصص (١٢/٢٦٤) ، اللسان (١٠/٨٢) ، تاج العروس (٥/٤٢٣) ، (صاع) ·

٤ صحيح مسلم (٥/٦ وما بعدها) ·

٥ تفسير الطبري (١٣/١٣) ، تفسير القرطبي (٩/٢٣٠) ·

٦ Anabasis, I, 5.

٧ J. Abermyer, Die Landschaft Bobylonien, S. 221. ff., 241.

أهل الحجاز . وأربع مئة رطل وثمانون رطلاً عند أهل العراق على اختلافهم في مقدار الصاع والمدّ . والأصل في الوسق الحمل . وقيل : الوسق العِدْل ، وقيل : العدلان ، وقيل هو الحمل عامة [1] .

واستعملوا الحمل كيلاً ، وقد رأينا ان بعضهم عرّف الوسق بأنه عدل ، أو عدلان ، وهو مقدار ما يحمله الحيوان . وبهذا المعنى وردت لفظة (الوِقر) وتطلق على حمل البغل أو الحمار أو البعير [2] ؛ فهو شيء تقديري غير مضبوط تماماً. وقد ورد في القرآن للكريم : « كيل بعير » [3] ؛ وذلك تعبيراً عن حمل بعير ، وهو مقدار ما يحمل . كما ورد فيه « حمل بعير » في المعنى نفسه [4] .

ولا يزال العرف جارياً بين أهل القرى والبادية في البيع (حمولاً) ، جمع (حمل) ، وهو حمل (بعير) أو حمار أو غير ذلك من الدواب التي تنقل الشيء الذي يراد بيعه مثل الملح أو (العوسج) أو (العاقول) أو (حطب البادية) أو الزرع الى الأسواق ، فتباع حملاً لا وزناً ، ويشتريه المشترون على هذه الصفة.

وذكر علماء اللغة ، أن الكر ، مكيال لأهل العراق ، وقد أشير اليه في كتب الحديث . وذكر أنه ستة أوقار حمار ، وهو عند أهل العراق ستين قفيزاً . والقفيز ثمانية مكاكيك . والمكوك صاع ونصف. وهو ثلاث كيلجات . وذكر (الأزهري) أنه اثنا عشر وسقاً ، كل وسق ستون صاعاً أو أربعون أردباً بحساب أهل مصر [5] . وهو (كور) في لغة بني (ارم) ، ويعادل عند أهل بابل وقر ستة حمير [6] .

وذكر علماء اللغة ، أن (المكوك) طاس يشرب به أعلاه ضيق ووسطة واسع، والصاع كهيئة المكوك . وكان للعباس مثله في الجاهلية يشرب به . وقد ورد في الحديث أن الرسول كان يتوضأ بمكوك . ويسع صاعاً ونصفاً ، أو نصف رطل

---

١ اللسان (١٢/٢٥٨) ، المخصص (١٢/٢٦٥ وما بعدها) ، المفردات (٥٤٥) ، تاج العروس (٧/٨٩) ، (وسق) .
٢ اللسان (١٢/٢٥٨) ، المخصص (١٢/٢٦٠) .
٣ سورة يوسف ، الآية ٦٥ .
٤ يوسف ، الآية ٧٢ .
٥ شرح القاموس (٣/٥١٩) ، اللسان (٥/١٣٧) .
٦ J. Obermeyer, S. 241.

الى ثماني أواق،أو يسع نصف الويبة ، والويبة اثنان وعشرون ، أو أربع وعشرون مداً بمد النبي ، أو هو ثلاث كيلجات ؛ وهو صاع ونصف . والكيلجة تسع منّا وسبعة أثمان منا . والمنا رطلان ، والرطل اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية أستار وثلثاً ، والأستار أربعة مثاقيل ونصف ، والمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم ، والدرهم ستة دوانق ، والدانق قيراطان ، والقيراط طسوجان ، والطسوج حبتان، والحبّة سدس ثمن درهم ، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من درهم . وذكر أن الكر : ستون قفيزاً ، والقفيز ثمانية مكاكيك ، والمكوك صاع ونصف، وهو ثلاث كيلجات[1] .

والكيلة مقياس استعمله العبرانيون والجاهليون ؛ وهي« Seah» ، و « Saton » في اليونانية « Modius » ، وهي تختلف باختلاف اصطلاح الأمم . فالكيلة العبرانية كبيرة بالقياس الى الكيلة الرومانية ، وهي تعادل كيلة وربع كيلة رومانية . وتبلغ ثلث (الأيفة)[2] . وتعادل اثنين وعشرين « Sextari » [3]. وتستعمل في وزن المواد الجامدة مثل الحبوب .

وأما (الأيفة) « Ephah » ، فكلمة مأخوذة من اللغة المصرية ، ترد كثيراً في العهد القديم . وهي تعادل ثلاث كيلات « Seah » . وتستعمل لقياس المواد الجافة فقط ، وتقابل « Atrabe » ، و « Metretis » عند اليونان ، وهي مجزأة الى عشرة أجزاء ، يقال للجزء الواحد (العمر) (عومير) (اومير) « Omer » ، أو الكومة . ويقال له (عشر) « ‘Issaron » أيضاً[4] . وتقسم الى ستة أقسام كذلك يطلق على كل قسم اسم (سدس)[5] .

ولعل لأومير (عومير) « ‘Omer » ، صلة بـ (الغمر) عند الجاهليين . وهو عندهم قدح صغير يتصافن به القوم في السفر ، اذا لم يكن معهم من الماء

---

١ تاج العروس (٧/١٨٠) ، (ملك) .

٢ التكوين الاصحاح ١٨ ، الآية ٦ ، والاصحاح الثالث عشر ، الآية ٢١ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٨١) ، تاج العروس (٨/١٠٧) ، (كيل) .

٣ Hastings, p. 969.

٤ الخروج ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٣٦ ، الخروج ، الاصحاح التاسع والعشرون ، الآية ٤٠ ، الكتاب المقدس (٢/٢٨١) ، Hastings, p. 969.

٥ Hastings, p. 969.

إلا يسيراً على حصاة يلقونها في إناء ثم يصب فيه من الماء قدر ما يغمر الحصاة فيعطاها كل رجل منهم . وقيل هو (القعب) الصغير يحمله الراكب معه ، يعلقه على رحله . وقيل : الغمر : أصغر الأقداح . قال أعشى باهلة يرثي أخاه المنتشر بن وهب الباهلي :

تكفيه حزة فلذان ألمّ بها من الشواء ويروي شربه الغمر

والغمر يأخذ كيلجتين أو ثلاثاً ، والقعب أعظم منه ، وهو يروي الرجل[1] .
و (الكيلجة)[2] ، مكيال[3] .

و (الكر) من المكاييل المستعملة عند العبرانيين . وذكر علماء اللغة أن الكُرّ مكيال لأهل العراق . وقد أشير اليه في كتب الحديث والفقه . ويظهر أنه مكيال للمائعات . ورد : إذا كان الماء قدر كرّ لم يحمل القذر . ومكيال للجوامد أيضاً. وهو ستة أوقار حمار ، وهو عند أهل العراق ستون قفيزاً . والقفيز ثمانية(مكاكيك). والمكوك صاع ونصف ، وهو ثلاث كيلجات . وذكر الأزهري أنه اثنا عشر وسقاً ، كل وسق ستون صاعاً أو أربعون اردباً بحساب أهل مصر[4] .

واستعمل الجاهليون (الزق) ، وحدة عامة لوزن المائعات . فورد: (زق خمر) مثلاً . ويستعمل خاصة في الخمور[5] .

وقد عثر على عدد من قطع الأوزان المصنوعة من الحديد وبعضها من برونز ، وقد استعملت في وزن الأشياء . وقد تأثر بعضها بالعوارض ولعبت الأيدي ببعض آخر . ونأسف على عدم وقوفنا وقوفاً تاماً على أسماء الأوزان ومقدار ثقلها ، لعدم وصول عدد كاف منها الينا عليه كتابة تشير الى اسمه ومقدار وزنه ، ولعل الأيام تجود علينا منها بما يحقق لنا هذه المعرفة .

أما (الصُّبرة) : فما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض .

---

١ تاج العروس (٣/٤٥٤) ، (غمر) .
٢ بكسر الكاف وفتح اللام .
٣ تاج العروس (٢/٩١) ، (كلج) .
٤ تاج العروس (٣/٥١٩) ، (كر) .
٥ تاج العروس (٦/٢٧١) .

فهي : الطعام المجتمع كالكومة[1] . ومن ذلك بيع (الصبرة) من التمر . وقد نهى الاسلام عن هذا النوع من البيع[2] .

والفالج والفلج مكيال ضخم ، وقيل هو القفيز . وقد ذكر بعض الباحثين انه سرياني الأصل ، وأن أصله (فالغا) فعرب . قال الجعدي يصف الخمر :

ألقى فيها فلجان من مسك دا   رين وفلج من فلفل ضرم

ومن هنا يقال للظرف المعدّ لشرب القهوة وغيرها (فلجان) ، والعامة تقول: فنجان[3] .

و (الطسق) مكيال أيضاً[4] . وهو من أصل فارسي ، وذكر أنه مكيال لكيل الزيوت وكل أنواع الدهن[5] . وهو ضريبة الأرض كذلك ، أي في معنى خراج في الإسلام . كتب عمر الى (عثمان بن حنيف) في رجلين من أهل المدينة أسلما : ارفع الجزية عن رؤوسهما وخذ الطسق من أرضيهما[6] .

والفرق مكيال بالمدينة ، اختلف فيه . فقيل : يسع ستة عشر مداً ، وذلك ثلاثة آصع ، أو يسع ستة عشر رطلاً ، وهي اثنا عشر مداً وثلاثة آصع عند أهل الحجاز . أو هو أربعة أرباع ، وقيل الفرق خمسة أقساط ، والقسط نصف صاع . وقيل غير ذلك[7] . وذكر أن (الفرق) هو مكيال لأهل اليمن ، وقد ذكر في عهد الرسول لقيس بن مالك بن سعد بن لأي الأرحبي الهمداني ، إذ جاء فيه : « وأطعمه ثلاثمائة فرق من خيوان ، مائتا زبيب وذرة شطران ومن عمران الجوف مائة فرق بُرّ »[8] .

وقد ذكر بعض علماء اللغة اسم مكيال من مكاييل أهل اليمن دعوه (الذهب) ، ويجمع على أذهاب[9] .

---

١ اللسان (٤٤١/٤) ، « صادر » .
٢ صحيح مسلم (٩/٥ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٨٧/٢) ، (فلج) .
٤ اللسان (٢٢٥/١٠) .
٥ غرائب اللغة (٢٣٨) .
٦ تاج العروس (٤٢٣/٦) ، (الطسق) .
٧ تاج العروس (٤٣/٧) ، (فرق) .
٨ ابن سعد ، الطبقات (٣٤١/١) ، (وفد همدان) .
٩ المخصص (٢٦٤/١٢) .

ومن المكاييل المذكورة في التوراة والمعروفة عند الجاهليين كذلك ، والتي تكال بها الأشياء الجافة : (القبضة) ، أي كومة اليد . والكومة كيلة عند الشعوب الأخرى وهي بمعنى (صبرة) . ولا يزال البدو يستعملونها ، ولكنها ليست من المكاييل الرسمية ، بل هي في الواقع كيلة عرفية . وهي تختلف في المقدار والكمية بحسب اتساع قبضة اليد[1] . وقد كان الجاهليون يكوّمون ما يريدون بيعه بالتكوم كوماً ، ولا زال هذا البيع معروفاً . وقد كان أهل الجاهلية ، يبيعون قبضة من التمر ، أو قبضة من السويق ، أو الدقيق ، وذلك بحسب ما تقبضه اليد ، أي كفاً منها[2] .

١ اللاويون : الاصحاح الثاني ، الآية الثانية « كومة من ذهب وكومة من فضة » ، تاج العروس (٩/٥٢) ، (كوم) .
٢ تاج العروس (٥/٧٤) ، (قبض) .

الفهرس

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

الجزء الثامن

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

٨

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الثامن

○ الطبعة الثانية ○
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل السادس عشر بعد المئة

الفن الجاهلي

العمارة :

لظهور الفن وازدهاره في مكان ما لا بد من توفر تربة خصبة فيه تمونه بالمواد الأولية اللازمة ، ولا بد من وجود جو يساعد على نمو بذوره وانمائها وازدهارها . وجزيرة العرب أرض كما نعلم غلب عليها الجفاف وتحكمت فيها أشعة الشمس المحرقة والسموم الحارة الجافة ، وهي ذات جو مشرق صاف صاحٍ في الغالب ، ولكنه جاف يابس ، لا تبكيه السماء في الغالب إلا بمقدار ، فإذا سالت دموعه، انهمرت انهماراً ، وتحولت الى سيول جارفة عارمة سرعان ما تختفي وتزول ، بأن تغور في باطن الأرض ، وقد تنزل الأمطار نزولاً لا بأس به ، فتخضر الأرض وتنبت الأزهار والأعشاب ، وتضحك ويضحك الناس معها ، وتهيج قرائحهم لفرحهم وطربهم من حصولهم على هذه النعمة الكبرى ، التي لا تدوم طويلاً ، وهذا أمر يؤسف له ، أو قد لا تعود اليهم ثانية إلا بعدَ أجل ، لانحباس البخار مولد المطر ، فيلجأ المخلوق الى خالقه يتوسل اليه أن يغيثه بانزال الغيث عليه بكل الوسائل التي يتوصل اليها عقله لاقناعه آلهته بإنزال المطر ليغيث الانسان والحيوان والنبات .

ولظهور العمارة وفن النحت والزخرف ، لا بد من وجود أحجار صالحة للبناء أو للنحت والحفر ، حتى يكون في امكان المعمار أو النحات تحويلها الى أبنية أو

أصنام وتماثيل أو ما شاكل ذلك . وأرض سهلة لا حجر طبيعي فيها لا يمكن أن يظهر فيها بناء أو فن إلا اذا كانت قريبة من مواطن الحجر أو من مواطن الحضارة حيث تستوردها عندئذ من تلك الأماكن . لذا نجد الفن الجاهلي قد تركز وانحصر وبرز في العربية الغربية وفي العربية الجنوبية وفي المواضع القريبة من مواضع الحجر ومن أهل المدر في الغالب .

وفي اليمن أنواع من الأحجار الصالحة للبناء وللنحت ، كما توفرت فيها ، المواد المساعدة الأخرى التي تدخل في انشاء العمارات مثل الجبس . ولهذا قامت فيها بيوت مرتفعة ذات طوابق متعددة،ولا يزال أهل اليمن وبعض أهل المواضع الأخرى من العربية الجنوبية يبنون البيوت والقصور المرتفعة السامقة ، وما كان بوسعهم ذلك لولا وجود المواد الصالحة للبناء ، التي تستطيع البقاء ومقاومة الطبيعة أمداً [1] . وبفضل المواد المذكورة بقيت أبنية من أبنية الجاهليين اليمانيين الى الإسلام بقيت محافظة على نفسها وعلى شكلها العام ، ولولا يد الإنسان التي لعبت بها وخربت أكثرها لبقيت أزمنة طويلة أخرى ولا شك . ولو كانت تلك الأبنية قد بنيت بالطابوق أو باللبن وبالمواد المستعملة في البناء في وسط وفي جنوب العراق ، لما تمكنت من البقاء طويلاً ، لأنها مواد لا تتحمل معاركة الطبيعة زماناً طويلاً ، لذلك تنهار بسرعة إذا لم ترعاها يد الإنسان دوماً بالاصلاح والتعمير [2] .

وقد ساعدت وفرة الرخام والحجارة الصلدة في اليمن في التعويض عن استعمال الخشب القوي الصلد في البناء فاستعمل المعماريون الأعمدة العالية الجميلة ذوات التيجان في رفع السقوف وفي إقامة الردهات الكبيرة وفي « الطارمات » أمام الأبنية ، وفي واجهات المعابد بصورة خاصة ، استعملوها بدلاً من الخشب الذي لا يتحمل الثقل كما يتحمله الحجر ، والذي لا يعمر طويلاً كما يعمر الحجر . وبفضل هذه الحجارة استطاع المعماريون أن يستفيدوا من الماء بإقامة السدود القوية التي تتحمل ضغط السيول العالي عليها ، وهذه ميزة لا نجدها بالطبع في العراق .

وقد ساعدت طبيعة اليمن عامل البناء في نحت الحجر وقطعه وصقله وتكييفه بالشكل الذي يريده . وتمكن بذلك من وضع أحجار مصقولة بعضها فوق بعض

---

١ A. Grohmann, S. 140.

٢ A. Grohmann, S. 140.

لتكوين أعمدة منها أو جدر معبد أو حيطان سدود أو قصور بحيث يوضع حجر فوق حجر ، فيجلس فوقه بصورة يصعب على الإنسان أن يتبين منها مواضع اتصال الحجر بعضه ببعض . ولولا وجود الحجر الجيد لديه لما تمكن من القيام بإنشاء الأبنية الضخمة المؤلفة من جملة طوابق والتي قاومت الدهر ، ولكان بناؤه من الطابوق ، أي من اللبن الذي حُجّر بالنار ، والطابوق لا يمكن أن يقوم مقام الحجر في البناء ، ولا أن يقاوم الطبيعة وأن يعمر طويلاً . ونظراً لصغر حجمه بالنسبة الى الحجر ، ولضرورة ربطه بعضه ببعض بمادة ماسكة مثل الجبس فإن البناء به لا يمكن أن يكون متيناً ، ولا يمكن أن يقاوم الرطوبة والعوامل الجوية الأخرى ، فيتآكل ويتداعى ، ولا سيما في المواضع السهلة ذات الرطوبة ، أو التي تتساقط عليها الأمطار بكثرة، فتكوّن سيولاً عارمة تكتسح ما تجده أمامها من أبنية مبناة بمادة غير متينة متانة الحجر .

وتفيدنا دراسة المباني اليمانية في الزمن الحاضر فائدة كبيرة في تكوين فكرة عن البناء عن أهل اليمن قبل الاسلام.ففي هذا البناء الذي نراه عناصر عديدة لا تزال حيّة باقية ، هي من بقايا البناء اليماني الجاهلي . وما قاله « الهمداني » في صفة بعض المباني والقصور الجاهلية التي كانت قائمة في أيامه ثم زالت ، ينطبق على أوصاف القصور والمباني القائمة الآن ، كما أن في دراسة أسماء أجزاء البناء وما يستعمل فيه فائدة كبيرة في حلّ كثير من المعضلات الفنية المتعلقة بفن العمارة عند الجاهليين .

وقد زال أكثر المباني الجاهلية ، ويا للأسف ، بسبب اعتداء الانسان بجهله ، عليها . فقد حمله كسله وجهله على تدمير تلك الأبنية ، لاستعمال حجارتها في بناء بيوت جديدة ولأغراض أخرى . ونجد في الأبنية الحديثة ، وأكثرها أبنية رديئة قبيحة بالقياس الى القصور القديمة ، حجارة ضخمة ، بعضها مكتوب كتابة كاملة انتزعت من الأبنية الجاهلية ، وبعضها ناقص الكتابة لتلف الكتابة المكملة أو لنقلها إلى موضع آخر . ونجد حجارة مكتوبة وقد طليت بالجبس ، لاعطاء الجدار الذي دخلت فيه وجهاً أملس . ونجد في الكتب القديمة مثل كتب الهمداني إشارات الى مثل هذه الأعمال ، التي ما تزال جارية مستمرة بالرغم من قرار الحكومات المعنية بمنع هذه الأعمال . وقد حطمت تماثيل جميلة عثر عليها بين الرمال ولا تزال تحطم ، لأنها في نظر العاثرين عليها أصنام لقوم كفرة ، وتماثيل قوم ممسوخين

غضب الله عليهم ، فلا يجوز الاحتفاظ بها ، فهشمت وعبث بها ، وبذلك خسر العرب كنوزاً فنية وذخائر لا تقدر بثمن،كان في وسعنا الاستفادة منها في تدوين تأريخ الجاهليين .

وقد حطمت ودمرت قصور عظيمة في اليمن،بقيت بعضها قائمة الى الاسلام، مثل قصر (غمدان) بصنعاء ، الذي يبالغ أهل الأخبار في وصف ارتفاعه وضخامته، وقد كان مؤلفاً من طبقات بعضها فوق بعض ، ثم هدم وقلّ في الاسلام ، أمر الخليفة (عثمان) بهدمه ، فزالت معالمه ، ولو بقي إلى اليوم لكان من المفاخر[1] ، ومثل المعابد الضخمة،وقصور الأسر الحاكمة ، مثل قصر (شمر) بذي ريدان ، وأبنية أخرى قوضت لأسباب عديدة ، فضاع بذلك علينا تراث مهم . وفعل مثل ذلك في الأبنية الأخرى . ففي العراق مثلاً ، هدمت قصور الحيرة وبيوتها،لاتخاذ حجارتها مادة لبناء الكوفة ، و « وجد في قراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر ، ان المسجد الجامع بالكوفة بني ببعض نقض تلك القصور ، وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم »[2]. وقد أضاعت علينا هذه الأعمال معالم قيّمة من تراث الجاهليين .

وقد هدم قصر (بهر) (ذي بهر) ببيت حنبص ، وهو أثر جاهلي مهم ، بقي قائماً الى حوالى سنة (٢٩٥) للهجرة ، فأمر بإحراقه (ابن أبي الملاحف) القرمطي ، فأحرق ، وظلت أخشابه تحترق أربعة أشهر على مـا يزعمه الرواة ، مبالغة منهم بالطبع[3] .

ولأهل اليمن عادات جميلة أفادتنا فائدة طيبة ، وذلك بوضعهم عـلى الجدر حجارة مكتوبة تحمل اسم الدار أحياناً واسم صاحبها واسم الإلـه الذي تبرك صاحب المبنى بتقديمه اليه تيمناً به ، حتى الترميمات والاصلاحات التي يقوم بهـا أصحاب البناء تدوّن على هذه الحجارة ، ولا سيا الترميمات والاصلاحات التي تدخل على المعابد والمباني العامة ، تعين عليها بدقة تامة ، فيذكر الموضع الذي ابتدأ بـه والموضع الذي انتهى منـه ، ويذكر مقدار ما صرف عليه في بعض الأحيان .

---

١ تاج العروس (٢/٤٤٦) ، (غمد) .
٢ البلاذري ، فتوح البلدان (٢٨٤) .
٣ الاكليل (١/١٢) (حاشية رقم ١) .

ومن هذه الكتابات أخذ معظم علمنا بتأريخ اليمن القديم .

ويظهر أن أهل الحجاز لم يكونوا على شاكلة أهل اليمن في بناء البيوت الضخمة من الحجارة والمواد البنائية الأخرى التي يعمّر بها البناء عمراً طويلاً ، بدليل ما نشاهده في اليمن وفي مواطن أخرى من الجزيرة العربية من بقايا معابد ومبانٍ ضخمة ، وعدم وجود شيء من ذلك في الحجاز ، وبدليل ما أورده أهل الأخبار من قصص عن مباني اليمن العادية ، وما شاهدوه من بقاياها في أيامهم هناك ، وهي تتحدث عن فن عمراني متقدم ، على حين خلت أخبارهم من هذا القصص عن الحجاز ، بل يظهر منها أن أكثر أبنية مكة ويثرب لم تكن إلا أبنية صغيرة ضيقة،أكثرها من اللبن أو الطين ، وقد عرشت بجريد النخل وبالعيدان وبالأخشاب المحتطبة من التلال والجبال . وقد عرفت بيوت أهل الحاجة في مكة بـ (عروش مكة)[1] .

وقد امتازت (يثرب) عن مكة بوجود (الأطم) بها ، والأطم ، هي قصور تتكون من طابقين في الغالب ، أو ثلاثة طوابق ، تكون ضخمة نوعاً ما يعيش فيها سادتها ، وتكون حصوناً لأهل المدينة يتحصنون بها عند دنو خطر عليهم ، ويحمون أموالهم بها . وقد بنيت بالآجر وباللبن أحياناً ، وبالطين أحياناً أخرى ، حيث تجعل الجدر عريضة ، لتقف صامدة أمام الدهر وأمام المهاجمين، وتتخذ في أعلى الأطم مواضع يقف عليها المدافعون لرشق المحاصر بالسهام ، أو بالحجارة ، وبصب الماء الحار أو النار عليه ان قرب من جدار الأطم . وقد اتخذت الأطم في يثرب ، لعدم وجود سور حولها يحميها من الأعداء ، ولكونها مكشوفة ، لا تحميها حواجز طبيعية ، يتحصن بها أهل المدينة عند دنو الخطر منهم ، فلم يجدوا أمامهم من وسيلة سوى بناء هذه الأطم للدفاع عن أنفسهم ، على نحو ما فعل أهل الحيرة في مدينتهم ، حيث بنوا القصور .

وتوجد في أعالي يثرب إلى فلسطين بقايا حصون وقصور ومواضع قديمة ، كانت آهلة عامرة ، أما الآن فلم تبق منها غير بقية من آثارها ، وهي لا تزال مادة (خاماً) لم تكتشف ، ولم تدخلها بعثات علمية منتظمة ، وتشاهد عندها بعض

---

١ المغرب (٢/٣٧) ، « عروش مكة ، بيوتها لانها كانت عيدانا تنصب ويظال عليها »، شرح القاموس (٤/٣٢٢) .

أحجار مكتوبة ، بقلم مشتق من المسند ، وبلهجات عربية تختلف عن لهجة (ال)، أي عن العربية التي نزل بها القرآن ، مما يدل على انها كانت في الأصل لقبائل كانت لهجاتها لا هي عربية جنوبية ولا هي عربية من عربية أهل البوادي، ولكنها كانت متأثرة بالثقافة التي تدون بالقلم المسند ، ثم تأثرت بلغة الأعراب الذين جاءوها من البوادي وذلك قبيل الاسلام ، فنزلت هذه المواضع ، وزاحمت أهلها، ثم غلبتهم على أمرهم ، فاختفت اللهجات العربية القديمة،وحلت محلها لهجة (ال). وسيجد المنقبون الذين سينقبون في المستقبل في هذه المواضع آثاراً ستحدد لهم الاتجاهات الثقافية والحضارية التي دخلت جزيرة العرب ، واللغات التي كانت سائدة فيها .

وفي المسند مصطلحات كثيرة خاصة بالبناء وبالآلات والمواد التي تستعمل فيه، وفي أجزاء البناء . واللهجات العربية الجنوبية هي أغنى بمصطلحات البناء من العربية التي نزل بها القرآن الكريم . وذلك لأن أهل العربية الجنوبية كانوا حضراً في الغالب وأهل مدر ، حتى أن أعرابهم كانوا يقيمون في أكواخ وعشش ثابتة مستقرة . لهذا كثرت في لغتهم ألفاظ الحضارة التي تقوم على الإقامة والاستقرار. وظهرت عندهم ألفاظ لمواد تستعمل في البناء مثل أنواع الصخور والحجارة ، وكيفية قطعها ، وأنواع الخشب المستعمل فيه ، وآلات القطع أو آلات المعار وغير ذلك من مصطلحات لا نجد لها مقابلاً في هذه العربية التي نتكلم بها . وذلك لأن حضارة البناء التي ظهرت في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية للأسباب المذكورة لم يظهر ما يماثلها في المواضع الأخرى من جزيرة العرب ، حيث قام عمرانها على المدر بالنسبة للحضر . أي على الأبنية المتخذة من المدر أو من اللبن أو من الآجر. ومثل هذه الأبنية ، لا تحتاج الى مصطلحات والى آلات كثيرة ، ولما كانت الحاجة هي أم الاختراع في اللغات ، لذلك قلّت مصطلحات العمران في اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، بينما كثرت فيها مصطلحات أهل الوبر ومصطلحات البداوة ، في مثل أجزاء الخيمة وما يتعلق بحياة الفرس والجمل ، حيث قصرت دونها هنا لغة المسند .

وقد درس الآثاريون في الأيام المتأخرة موضوع الفن العربي الجنوبي ووضعوا بحوثاً فيه ، استندت على الملاحظات والدراسات التي قاموا بها في مواطن الآثار أو من ملاحظاتهم للقطع الأثرية وللصور التي أخذت لها . وقد وجد بعضهم مثل

الباحثة (جاكلين بيرين) Jacqueline Pirenne ، ان الحضارة العربية الجنوبية انما برزت وظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد ، برزت بتأثير الحضارة اليونانية — الفارسية عليها . وقد زعمت ان القلم العربي الجنوبي أخذ من القلم اليوناني في ابتداء القرن الخامس قبل الميلاد ، وان عناصر الحضارة العربية الجنوبية ، وخاصة الفن منها مثل النحت والعمارة ، قد غرفت من مناهل يونانية — فارسية . أما ما قبل هذا الوقت ، فلم يكن لشعوب الشرق الأدنى أي أثر حضاري أو ثقافي على أهل العربية الجنوبية [١] .

وقد درست باحثة أخرى موضوع الفن العربي الجنوبي ، هي (برتا سيكال) Berta Segall . ذهب اجتهادها بها إلى أن هنالك مؤثرات حضارية خارجية أثرت على الحضارة العربية الجنوبية ، وأرجعت هذه المؤثرات إلى أثر يوناني هيلليني ، وأثر سوري حثي وأثر فينيقي وإلى عناصر حضارية أخرى . وذكرت ان هذه المؤثرات أثرت على الحضارة العربية الجنوبية ، وتولد من هذا المزيج الأجنبي والعربي حضارة العرب الجنوبيين [٢] .

لقد تبين من دراسة الفخار الذي عثر عليه في العربية الجنوبية انه من صنع محلي ومن تصميم محلي أيضاً . وقد تبين أيضاً انه لا يخلو مع ذلك من المؤثرات الأجنبية التي أثرت عليه ، ولا سيما على المظهر الخارجي للفخار في مثل الزخرفة والشكل . فقد أثر الفخار العراقي والسوري على الفخار العربي الجنوبي . ويظهر من الفخار الذي عثر عليه في (هجر بن حميد) ، انه قد تأثر بمؤثرات شمالية سورية وعراقية [٣] .

وتقدمت معارفنا بعض التقدم بالنسبة للفن المعماري عند العرب الجنوبيين.وتوجد

---

١ Jacqueline Pirenne, La Grèce et Sabe, Paris, 1955, The Bible and the Ancient Near East, by G. E. Wright, p. 313, 319.

٢ Berta Segall, Sculpture from Arabia Felix, American Journal of Archaeology, 59, 1955, p. 207., Ars Orientalis, II, 1957, p. 37, Promlems of Copy and Adaptation in the second quarter of the First Millennium B.C., American Journal of Archaeology, 60, 1956, p. 165, The Lion Riders from Timna, in Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 155, The Bible and the Ancient Near East, p. 319.

٣ The Bible and the Ancient Near East, p. 320, Belletin of the American Schools of Oriental Research, 172, 1963, p. 55.

لدينا فكرة عامة عـن فن هندسة المعابد ، أخذناها من فحص معابد (حقه) و (مأرب) و (تمنع) و (حريضة) و (خور روري) . وتقدمت معارفنا أيضاً في موضوع أبنية المقابر والأضرحة عند الجاهليين ، وكذلك عن هندسـة البيوت . وقد وجـد أيضاً أن الفن المعماري قد تأثر بمؤثرات خارجية كذلك . بمؤثرات عراقية وسورية وفينيقية ويونانية ومصرية [1] .

ويظهر الأثر اليوناني على سك العملة عند العرب الجنوبيين . فقد ضرب النقد على شاكلة النقد اليوناني ، لا يختلف عنه إلا في وجود الحروف العربيـة الجنوبية على ذلك النقد . فالنقد العربي الجنوبي ، هو تقليد ومحاكاة للنقـد اليوناني ، الذي ظهر في أيام (البطالمة) و (السلوقيين) ، ويكاد يكون قالباً لها ، أضيفت عليه حروف المسند . فالبومة التي تمثل (أثينا) ، والتي كانت تضرب على العملة اليونانية ، ضربت على النقد العربي الجنوبي ، الى غير ذلك من أمور بحث عنها علماء (النمّيات) .

ولكننا لا نستطيع أن نقول اليوم ان معارفنا عن الحضارة العربية الجنوبية قـد تقدمت تقدماً مرضياً ، وانها صارت واضحة مفهومة ، وسوف تبقى معارفنا عن هذه الناحية وعن النواحي الأخرى ناقصة ما دامت أكثر الآثار مدفونة تحت طبقات كثيفة من التربة لم تلمسها الأيدي حتى الآن . لقد تقدمت معارفنا عن هذه النواحي على نحو ما ذكرت بسبب قيام بعض الباحثين المحدثين بالتنقيب في بعض المواضع بصورة جدّية علمية وبشيء من التعمق في باطن الأرض ، ويمكن أن نتصور ما سيحصل عليه الباحثون من معلومات عن الجاهلية لو سمح لهم في التنقيب بأسلوب جدي علمي في باطن الأرض وفي مواطن الآثار .

استعمل اللحيانيون لفظة (بنى) (بنا) للتعبير عن بناء شيء . وذلك كما نفعل نحن في عربيتنا . وتشمل اللفظة بناء كل الأبنية ، من بناء بيوت أو قبور أو غير ذلك . وقد وردت في عدد من النصوص [2] .

ويعبر عن المبنى بالتعبير نفسه في العربيات الجنوبية ، فيقال (مبنى) . وإذا

---

١ The Bible and the Ancient Near East, p. 320.

٢ راجع النصوص ١٦ ، ٢٦ ، ٧٤ ، ٩٠ من كتاب : W. Caskel, S. 133.

أريد التعبير عن تقديم البناء الى إلـه أو جماعـة ، كأن يسمى باسم الإلـه ويحبس عليه ، فيعبر عن ذلك بلفظة (قتدم) أي قدم بهذا المعنى المفهوم منها في عربيتنا، وبمعنى أهدى[1] . وأما الفعل فهو (بنى) ، وذلك كما في هذه الجملة : « عسى وبنى »[2] ، أي « تملك وبنى » . و (هبنى) ، وذلك كما في هذه الجملة : « هبنا عقبتهن قلت »[3] ، أي « بنى قلعة قلت » . ويراد بـ (عقبت) (عقبة) القلعة . وللفظة علاقة بكلمة (عقبة) التي نستعملها نحـن بمعنى صعوبة وعائق ، ونجمعها على (عقبات) .

واستعمل اللحيانيون لفظـة (حفر) بالمعنى المفهوم من اللفظة في عربيتنا . استعملت لكل أنواع الحفر : حفر الأسس أو الآبار أو العيون ، أو الحفر على الأحجار والخشب ، لغرض النقش والزخرفة ، أو لأي هدف آخر[4] .

ويشق المعاريون أسساً في الأرض للأبنية الفخمة ، كالبيوت المؤلفة من طبقات عدة كالمعابد ، لتحمل الأرض ثقل البناء . ويختلف عمق الأساس وعرضه باختلاف سمك الجدار وثقل البنـاء . ويحفر العمال الأرض بالقدر الذي يعينه البناء ، حتى إذا ما بلغوا العمق المقرر ، وضعوا المواد اللازمة كالحجـارة أو الكلس المخلوط بمواد أخرى ، ثم يترك الأساس مدة حتى يجف ويستقر ، ثم يقام عليه الجدار . ويقال لهذا الأساس في العربيات الجنوبية (موثر)،وهي بمعنى (الأس) والأساس والأسس في عربية القرآن الكريم[5] .

وقد ورد في كتب اللغة ، (والوثير) : الفراش الواطىء ، وكذلك الـوثر كل شي جلست عليه أو نمت عليه فوجدته وطيئاً ، فهو وثير[6] .

وتؤدي لفظة (مبحر) معنى : (أساس) وسناد . فـ (مبحر) كل بناء هو أساسه وسناده في لغة السبئيين[7] .

---

١ راجع السطر الاول من النص الموسوم بـ : ثقب الحجر .
٢ راجع النص الموسوم بـ Glaser 1089, 1660, Halevy 208. وهو من معين
٣ الجملة الثانية من نص أبنة ، Rhodokanakis, Stud., II, S. 48.
٤ راجع النص ٦١ من كتاب : W. Caskel, S. 133.
٥ شرح القاموس (٤/٩٦) ، ابن سلام ، كتاب الاجناس من كلام العرب (ص ١٣) .
٦ تاج العروس (٣/٥٩٨) .
٧ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 439.

وترد لفظة (برا) بمعنى بنى وأنشأ وأقام وشق وما شابه ذلك[١] . وترد بعدها لفظة : (هشقر) في الغالب . ومن هذا الأصل لفظة : (مبرام) (مبرا) بمعنى بريء من الدين ، وبراءة الذمة[٢] . وترد لفظة (برأ) في كتب اللغة بمعنى الخلق . و (البرية) : الخلق ، وأصله الهمز ، والجمع البرايا والبريّات. والبرى: التراب[٣] .

وأما (هشقر) فمعناها أكمل الشيء ، وانتهى منه ، وأتمه وغطاه وستره . وهي من أصل : (شقر) ، وترد من هذا الأصل لفظة (تشقر) و (شقرم) ، بمعنى الأعلى والنهاية ، وذلك كما في هذه الجملة : « بتوربم اد شقرم »[٤] ، أي من الأساس إلى الأعلى ، أو إلى النهاية . و (ربب) معناها الأساس[٥] .

أما أعلى البناء ونهايته ، أي تاجه الذي ينتهي عنده ، فيقال له (تفرع) . و (تفرع) نهاية الجدار وأعلاه ، والمكان الذي ينتهي فيه[٦] .

ومن العبارات الواردة في بعض النصوص المتعلقـة بالبناء ، هذه العبـارة : (بن موثر هو عـدي مريمن) ، وهي في معنى العبارة : (بن أشرس عد شقرن) التي ترد في النصوص المعينية ، ومعناها من (الأساس الى أعلى)[٧]. فلفظة (موثر) وكذلك لفظة (أشرس) هما بمعنى الأساس أي أساس البناء ، و(عد) حرف جرّ بمعنى الى ، و (مريمن) و (شقرن) كلاهما بمعنى أعلى ، أي أعلى البناء .

ويقال لتعلية البناء (تعلى) . أما تقوية البناء والجدر وحمايتها من السقوط ، فيعبر عنه بـ (تصور) ، من أصل (صور) ومعناها وضع أوتدة وأعمدة عند

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 87.

٢ المصدر نفسه (ص ٤٧ حاشية ٤٢) . Rhodokanakis, Bodenwirtschaft, S. 24.

٣ شرح القاموس (١٠/٣٦) .

٤ الفقرة الخامسة من نص ابنة .

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 486.

مجلة المجمع العلمي العراقي ، (المجلد الرابع ، الجزء الاول) ، (١٩٥٦) ، (ص ٢٠٧) « السطر ١٠٣ من نص أبرهة » ،

Mordtmann und mittwoch, Sab. Inschr., S. 45. f.

٦ راجع النص الموسوم بـ : Sab. Denkma., S., 31, CIH 325.

٧ Mordtmann und mittwoch, Alt. Inschr., S. 25.

الجدار أو البناء للتقويـــة والإحكام[1] . وهي بذلك قريبـة من معنى (الظئر) في لهجة القرآن الكريم .

ويعبر عن إتمام بناء ما أو اكمال شيء آخر بلفظة (تقه) و (قه)، بمعنى (وقه) أي أكمل وأنجز . وهي مرادفة للفظة : (تفرع) ، وللفظة (هوعب) أيضاً . وكلها بمعنى الإنجاز والإكمال والانتهاء من عمل ما . ولفظة (قه) هي من أصل (وقه) . وتعني جملة: (إتقه عن) انتهى[2] . وقد ذهب (رودوكناكس) الى أن لفظة (وكن) هي بهذا المعنى أي اكمل وانجز في بعض الأحيان[3] .

ويعبر عن اصلاح البناء وترميمه بلفظة (هحدث) ، وهي فعل ماضٍ أي (أحدث) ، ومعناها أقام ورمم وأحدث وأنشأ . أما سقوط حائط أو سقف أو ما شابه ذلك ، فيعبر عنه بلفظة (تل) و (تلت) ، ومن هذا الأصل لفظة (تلو) ، أي الخرائب والتلال ، وتقابلها لفظة (خيل) في المعينية ، و (ذخبل)[4]، أي تداعى وسقط ووقع .

وفي معنى الاصلاح والترميم أيضاً لفظة (غوث) الواردة في الكتابات المعينية[5]. وقريب من هذا المعنى معنى (غوث) في لهجة القرآن الكريم ، ففي الإغاثة معنى المساعدة والاصلاح وترميم التصدع وإصلاحه .

وترد مع هذه اللفظة لفظة أخرى ، هي (سعذب) ، وهي فعل ماضٍ بمعنى أعاد وأرجع الشيء إلى ما كان عليه[6] ، من أصل (عذب) . وأما حرف السين الداخل على أول اللفظة فإنه في مقام حرف الهاء في السبئية ، يدخلان على المصدر فيحولانه إلى فعل ماضٍ .

ويقال لمقدم كل بناء (صلوتن) (الصلوة)[7] . وقد وردت اللفظة في كتابات

---

١ راجع النص الموسوم بـ : Glaser 1150, Halevy 192, 199.
وكذلك : Rhodokanakis, Stud., II, S. 54.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 46.

٣ المصدر نفسه (ص ٤٧) .

٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.

٥ راجع النص : Glaser 1144, Halevy 353,
Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, 31.

٦ Rhodokanakis, Stud., II, S. 31.

٧ Rhodokanakis, Stud., II, S. 31.

دوّنت لمناسبة إقامـــة سدود كذلك . ووردت في بعض الكتابات هذه الجملة : (بن ذت هورتن عدي صلوت بن ذن محرمن وميسلن)[1] ، ومعناها : « من هذه الجهة الخلفية الى الجهة الأمامية أو الصالة الأمامية بين هـــذا الحرم وموقد النار » .

ويقال للجهة الخلفية من البناء (هورتن) . من أصل : (ورث) ، بمعنى وراء . و (ورّه) في لغة أهل العراق ، وذلك كما نرى في هذا النص .

وتؤدي لفظة (صلوت) معنى (فناء) أيضاً ، وقد تؤدي معنى موضع منعزل أو مكان للصلاة . وقد يراد به فناء يؤدي إلى (مبسل) يقع مقابله تماماً[2] .

وللفظة (صلوتن) (صلت) (صلوت) معنى آخر بعيد عن هـــذا المعنى بعداً كبيراً ، هو (وثيقة) و (شهادة) و (عقد) ، فتكون في معنى (سمع) و (اسمع) التي تطلق على هذا المعنى أيضاً في العربيات الجنوبية[3] .

ويقال للبـاب (خلف) و (خلفتن) في السبئية . ويـــراد بـ (خلف) و (خلفتن) (الخلفة) الشباك كذلك[4] . وقد كان أصحاب القصور يستعملون الشبابيك كثيراً في قصورهم ، ويزينونها بالرخام الرقيق وبالزخارف لتظهر جميلة خلابة . ويقصد بـ (خلف) و (خلفتن) المنافذ الخلفية كذلك .

وتتكون الأبواب من (مصرع) ، أو من (مصرعي) ، ويراد بذلك (مصراع) واحد أو مصراعان[5] .

ويعبر عن الباب بـ (الخلف) في عربيتنا كذلك[6] . وأما لفظـــة (مصرع الباب) و (المصرع) و (مصراعا الباب) فمعروفة في عربيتنا كذلك[7] .

ويعبر عن الباب العظيم ، أو الباب المغلق وفيه باب صغير ، أو عما يغلق به

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 45.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 46.

٣ Rhodokanakis, Stud., II, S. 44, Der Grundsatz der affentlichkeit, S. 21, 24, Stud., I, S. 63.

٤ Rhodkanakis, Stud., I, S. 70. والجملة الرابعة من نص أبنة .

٥ راجع الجملة الثانية من النص : Glaser 1144, Halevy 353.

٦ اللسان (٩/٩٣) .

٧ اللسان (٨/١٩٩) .

الباب بلفظة (رتج) (رتاج) في اللحيانية[١] . ولفظة (رتاج) لفظة معروفة في عربيتنا كذلك .

ويعبر عن السلالم والدرجات بلفظة (احلين) ، تطلق على السلالم من أية مادة مصنوعة ، من الحجر أو الخشب[٢] ، كما يعبر عنها بلفظة (علوم) و (علوه) أيضاً ، لأنها طريق يؤدي إلى أعلى[٣] .

ولفظة (علية) ، والجمع (علالي) ، هي عند أهل الحجاز بمعنى غرفة أيضاً ، والجمع (غرف) و (غرفات) . وقد وردت لفظة (غرف) و (غرفات) في القرآن الكريم[٤] .

وعبر عن السقف وسطح البناء بلفظة (ظلّن) و (ظلل) أي (الظلة)[٥] و (الظل) . وذلك لاستظلال الإنسان بالسقوف وحمايتها للبيوت والغرف من وهج الشمس .

ويعبر عن الشيء المسقوف مثل ذي سقف أو ما شابه ذلك بلفظة (مسقفن)[٦] ، أي (المسقف) ، من أصل (سقف)[٧] . ووردت لفظة (مسقف) بمعنى الموضع المسقوف[٨] .

ويعرف المكان الذي ينفذ منه النور الى مكان ما (مصبح) في الحضرمية . ويمكن أن نقرأها (مصباح) كذلك . فالمصبح الكوة أو النافذة التي ينفذ منها النور الى مكان ما . والنور هو (صبحت) في الحضرمية ، وذلك كما ورد في هذه الجملة : (صبحت عينو)[٩] ، أي (نور عينه)[١٠] .

---

١ النص رقم ٢٢ و ٨٥ من كتاب : W. Caskel, S. 134.

٢ راجع الجملة الرابعة من النص :
Glaser 1144, Halevy 353, Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, Glaser 283, Halevy 238.

٣ Rhodokanakis, Stud., S. 47.

٤ البيان (١٩/١) « لجنة » .

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, 30, 54.

٦ CIH, 182.

٧ Mordmann, Himj. Inschr., S. 36.

٨ Glaser, 799, CIH 132, Rhodokanakis, Stud., II, S. 34.

٩ Oslander 29.

١٠ Rhodokanakis, Stud., II, S. 28.

وأما الموضع الذي ينفذ النور اليه ، ويستقر فيه ، وقد يكون مسقوفاً وربما لا يكون مسقوفاً ، فيقال له (منحل)[١] . وعلى هذا المنحل يكون المصبح أي المنفذ الذي ينفذ النور منه[٢] .

ويعبر عن الجدار والسور بلفظة (جنا) في لغة المسند[٣] .

وقد فسر بعض علماء العربيات الجنوبية لفظة (بره) بمعنى مجاز[٤] . ومن هذا الأصل أخذت كلمة (ابرى)[٥] ، ولعلها تؤدي معنى خارج كذلك .

وترد لفظة (أدرف) في مصطلحات البناء كذلك[٦] ، وتعني طرف البناء ، وطرف كل شيء . وقد استعملت للتعبير عن تحصين جانب القلعة أو الحصن مثلاً ، أو تحصين جوانب وأطراف برج ما[٧] .

ويعرف مقدم البناء أو مقدم أي شيء بـ (قدم) وبـ (انف) . أما الجهة المضادة للمقدمة فيقال لها (معذر) ، فمعذر أي بناء أو أي شيء هو الجهة الخلفية لذلك البناء أو لذلك الشيء ، كما تطلق هذه اللفظة على الأسوار الخلفية للمدينة[٨] .

ويقال للطابق الأعلى من البناء (علوهو) (علوه)[٩] ، و (علين) (عليان)، لعلوّه بالقياس إلى الطابق الذي تحته . أما الطابق الأسفل ، فيقال له (سفله) (سفلهو)[١٠] .

ويقال للبيت إذا كان فوق البيت (علية) والجمع (علالي) . وتقابل لفظة (علية) لفظة (غرفة) والجمع (غرف) و (غرفات) . والغرفة عُلّية من

---

١ راجع الجملة الثانية من النص : Glaser 1089, 1660, Halevy 208.
٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.
٣ راجع أيضا الجملة الثالثة من نص أبنة .
٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.
٥ المصدر نفسه .
٦ Müller, in DMG., 37, 383, Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.
٧ CIH, 197, Glaser 181, Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.
٨ Rhodokanakis, Stud., II, S. 64.
٩ راجع النص الموسوم بـ : CIH 325, Rhodokanakis, Stud., II, S. 46 f.
١٠ المورد نفسه .

البناء . وسميت منازل الجنة (غرفاً)[1] .

ويعبر عن العمل الفني المتقن بلفظة (نكل) ، ومن هذا الأصل لفظة (نكلو) و (نكلتو) في الأشورية[2] .

وقد كان أصحاب الأبنية يذكرون المواد التي استخدموها في الأبنية بكل تفصيل لا يكتفون بذكر أسماء المواد حسب ، بل يذكرون حتى صفاتها . فإذا كان الحجر غير مهندس ولا مصقول ذكروه ، وإذا كان مصقولاً ومهندساً ومقطوعاً عبروا عن ذلك بلفظة (تقرم)[3] .

ويقال للحجارة الحادة أو الملساء (زلت) ، وهي تقابل لفظة (زِلّة) في لهجتنا[4] وهي بمعنى أرض ذات حجارة ملساء أو حادة في اللهجتين المعينية والسبئية كذلك ، وتعني لفظة (صلال) ألواحاً من الحجر في اللهجة الحضرمية . وأما الجمع فهو (ازلت)[5] .

وتؤدي لفظة (زلت) معنى سيلان الزفت أو القار على أرض ما كأرض غرفة مثلاً أو أرض شارع أو حمّام لتبليط الأرض بهذه المواد . وذلك كما يفهم من هذه الجملة : (زلت أوسطهس) أي (وزفت أو وقير الأواسط) ، ويراد بالأواسط وسط الأشياء أو الشيء[6] .

ويقال للحجارة المكسرة الناتجة عن تكسير الأحجار الأخرى أو عن القلع (جريم) (جرب) . ويراد بها الحجارة المقطوعة أيضاً . وتوضع هذه الحجارة في أماكنها على نحو ما قلعت من المقلع ، فلا تصقل ، ولا تمسها آلات الصقل . أما الحجارة المقلوعة التي تصقلها الأيدي وتنقحها ، فتعرف بـ (منهمتم) (منهمة) . وتبنى هذه الحجارة مع الحجارة الأخرى ، وتوضع بينها مواد البناء التي تلزم تلك الحجارة . والعادة هي أن توضع الحجارة المصقولة المعمولة المهندسة

---

١ البيان والتبيين (١/١٩) « لجنة » ، المفردات (ص ٣٦٥) .
٢ Rhodokanakis, Stud., I, S. 26.
٣ راجع الجملة الثانية من النص الموسوم بـ : Glaser, 1089, 1660, Halevy 208.
٤ CIH, II, p. 23, Rhodokanakis, Stud., II, S. 35.
٥ راجع الجملة الثالثة من النص : Glaser 144, Halevy 353.
٦ Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.

في جبهة الجدار لتكسبه منظراً جميلاً حسناً ، توضع وراءها الحجـارة الأخرى المقطوعة ، وذلك لأن صقل جميع الحجارة التي تدخل في البناء يستنفد وقتاً كبيراً كما يكلف ثمناً باهظاً . ويضع المعار الحجارة بالطبع وضعاً متناسباً بحيث لا تكون مرتفعة أو منخفضة وتملأ الفرج ومواضع اتصال الحجارة بمواد البنـاء التي تلزمه وتمسكه بين الحجارة [١] .

وقد توضع الحجارة لـ (جرب) على شكل طبقة واحدة في الجدار أو عـلى هيأة طبقات وصفوف للزينة . ونجد هذه الطريقة في أبنية الحبشة كذلك[٢] .

ومن هذا الأصل جاءت لفظة (جربة) و (جروب) بمعنى المدرجات التي يضعها الفلاحون على الجبل ، وذلك لزرعها بأنواع المزروعات ، ولا سيما الكروم[٣]. وكذلك الأسوار التي تحيط بالبساتين .

وهناك من يرى أن (منهمتم) من (منهمت) (منهمة) تعني على العكس الحجارة المقلوعة غير المصقولة . و (حجر منهوم) بمعنى مقطوع غير مصقول[٤].

وهناك لفظة أخرى تطلق على الحجارة المنحوتة المهندسة باليد هي (تقرم) من أصل (تقر)[٥] . وهناك نوع آخر من الحجر يقال له (بلق)[٦] . وقد ذكر علماء اللغة أن (البلق) الرخام وحجارة باليمن تضيء ما وراءها كالزجاج[٧] .

ويعبر عن قطع الحجارة من الصخر وعن صقلها لجعلها صالحة للبناء ، بلفظة (اثع) في اللحيانية [٨] . وأرض اللحيانيين أرض صلدة صخرية ، لذلك استخرج اللحيانيون حجر أبنيتهم منها فبنوا بها بيوتهم ، كما نحتوا الصخور وجعلوها على هيأة كهوف لكي تكون ملاجىء لهم .

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 43.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 44.

٣ Rhodokanakis, Stud., II, S. 43, SE 48, 92, Ryckmans 340, BASOR, Nu. 83, 1961, p. 24.

٤ Glaser Zwei Inschriften, 47, Rhodokanakis, Stud., II, S. 47. f.

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 54, 63.

٦ المصدر نفسه (ص ٦٤) .

٧ شرح القاموس (٦/٢٩٨) .

٨ النص ٧٢ من كتاب : W. Caskel, S. 110.

ويعبر عن تكسير الصخور وثقبها وعمل خرق بها بلفظة (جوبن) ، وتعني (الجوب) . والجوب هو عمل نقب في الحجر ، أو ممر . وأما لفظة (جوب) فجمع (جوبة) ، ويراد بها الفراغ بين شيئين[١] .

ويُستعان بفؤوس ومطارق في تكسير الحجارة وهندستها واصلاحها لتتخذ الشكل المطلوب . فتستخدم المطارق الثقيلة في كسر الحجارة . وتكون ذات رؤوس مختلفة الأشكال تناسب المهمة التي تؤدى بها . وتستعمل الفؤوس في هندسة جوانب الحجارة وصقلها ، وهي ذات أشكال مختلفة كذلك ، ، منها ذات رأس حاد نابت يتصل بقاعدة عريضة وتستخدم في نقر الحجارة ، ومنها ذات رأسين حادين عريضين ، ولها خصر في الوسط وتستخدم في شذب أطراف الحجارة وصقلها . ولا تزال هذه المطارق والفؤوس مستعملة في مثل الأعمال التي قام بها الجاهليون .

ويعبر عن تزيين الحائط وزخرفته بالحجارة أو بالأخشاب التي يوضع بين حجر الجدار وطابوقه بحيث تبرز للعيان وتوضع في أبعاد متناسقة ، يعبر عن ذلك بلفظة (موسم) . ومن هنا لفظة (وسم) التي تعني التزيين والتزويق أيضاً[٢] . فلفظة (موسم) تعني الزخرفة والنقش في البناء[٣] .

وأما الحجارة المصنوعة وما يقال له (طابوق) في العراق ، أي الحجارة المكوّنة من الطين المشوي ، فيقال لها (لبتم) (لبت)[٤] . ويراد بها اللبن كذلك أي الطين المجفف . وعادة مزج الحجارة المصنوعة أي الطابوق بالحجارة الطبيعية المقلوعة سواء أكانت مصقولة أم غير مصقولة هي عادة معروفة في البناء في الشرق[٥] .

وأما اللبن ، أي الطين المجفف بالهواء وبأشعة الشمس والمصنوع بقوالب ولكنه لم يوضع في النار لإحراقه ، فيقال له : (لبن) أيضاً . وقد ورد (لبن شمس) أيضاً[٦] . ويطلق العبرانيون لفظة لبنة على اللبن ، وعلى الطابوق أي اللبن المفخور بالنار .

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 63.

٣ المصدر نفسه (ص ٦٤) .

٤ راجع النص الموسوم بـ : CIH 325, Sab. Denkm., 31.

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 43, 54.

٦ راجع الجملة الخامسة من النص ، Hommel, Aufs. und abh., S. 167, anm. 5.

وقد عثر المنقبون على لبن جاهلي في أماكن متعددة من جزيرة العرب . وقد كان أهل الحجاز يستعملونه في أبنيتهم ، لم ينفردوا بالطبع في ذلك وحدهم ، بل كان يفعل ذلك كل الجاهليين ، وقد بني مسجد الرسول باللبن . وكان الرسول ينقله مع الناقلين وهو مختلف الحجم . بعضه واسع ثخين ، وبعضه متوسط أو صغير . ويكثر استعماله في الأمكنة التي تقل فيها الحجارة ، وتتقلب على طبيعة أرضها التربة الطينية ، فيكون من السهل على أهلها اقامة ابنيتهم باللبن بارتفاعات مختلفة تبعاً لمتانة البناء ورغبة صاحب البناء في الارتفاع . وقد عثر على آثار قلاع وحصون وأسوار بنيت باللبن . ويمكن لمثل هذه الأبنية البقاء مدة طويلة ، لجفاف أجواء الشرق الأوسط وقلة الأمطار فيه ، ولا سيما اذا كانت ذات أسس وقواعد وجدر ثخينة وفي أماكن جافة بعيدة عن رطوبة الأرض .

أما الطابوق ، أي الآجر ، فيتكون من طبخ اللبن في الكورة أي الأتون ، أو بتكديس اللبن طبقات وصفوفاً ، ووضع الوقود بينها ، فإذا اشتعلت النار يضلد اللبن ويشوى فيكون آجراً . وطريقة صنع الآجر بإحراق اللبن في الأتون ، لا تزال شائعة معروفة في جزيرة العرب . وهي طريقة صنع الطابوق عند الفراعنة والسومريين والأشوريين والبابليين وغيرهم من الشعوب .

ولم يكن في استطاعة الفقير بناء بيته باللبن أو بالطابوق ، بل كان يشيد بيته بنفسه بالطين ، فيقيم جدره بالطين طبقة طبقة ، اذا جفت طبقة وضع فوقها طبقة أخرى ، وهكذا ، ويسقف بيته بالأغصان ، وبسعف النخل ، ويضع فوقها طبقة من الطين لتخفف عنه وهج الحرّ في أيام الصيف ، وتمنع عنه سقوط المطر عليه عند نزوله . أما الأعرابي فلم يكن له بيت دائم ، لا من الآجر ولا من اللبن، بل كان بيته خيمة تتنقل معه حيث يشاء ، يستظل بها وينام تحتها ، فهي بيته الحقيقي .

ويقوّى الطين الذي يصنع منه اللبن أو تقام به جدر البيوت أو تفرش به سقوف البيوت بالتبن ، يخلط مقدار مناسب منه بالتراب ، ثم يعجن الخليط ويترك مدة حتى يختمر ، ثم يستعمل عندئذ ، فيكون أقوى وأدوم بقاءً من اللبن أو الطوف المصنوعين من التراب الصرف . وهذه الطريقة معروفة أيضاً عند العراقيين والمصريين وعند غيرهم من الشعوب في العهود القديمة ولا تزال مستعملة عند

حفدتهم . ويعرف التبن بـ (تبن teben) عند العبرانيين[1] .

وتطين جدر البيوت الفقيرة والريفية بالطين ، وذلك لتكون مُلْساً خالية من الثقوب . ويستعمل الطيّانون آلة تسمى المِسجة . ويذكر علماء اللغة أنها يمانية ، وأنها خشبة يطين بها ، وهي المالجة بالفارسية . ويعبر عن تطيين الحائط بلفظة وسج ، وذلك اذا مسح الحائط بالطين الرقيق . وقد ذكر علماء اللغة أن السجة والسجة صنمان[2] .

ويقال للحجارة المربعة ، سواء أكانت مقلوعة أم مصنوعة ، (ربعم) (ربعت) (ربعة) أي (مربعة)[3] . وهي تدخل في البناء إما مستقلة ، وإما مع أنواع أخرى من الطابوق والحجارة . وقد توضع على مسافات وأبعاد متناسبة ومتناسقة ، لتكوّن نوعاً من أنواع الزخرف في الجدر . وقد ذكر (الهمداني) في صدد ذلك هذه الجملة: « المكعب وذلك بكعاب خارجة في معارب حجارته على هيأة الدروق الصغار »[4] . وهذا النوع من الزخرفة معروف في اليمن . أما في الحبشة ، فقد كانوا يضعون حجارة منحوتة على هيأة رؤوس قردة للزينة[5] .

ويعبر عن إدخال الحجارة بين حجارة أخرى للزينة أو الزخرفة أو ملء الفراغ بين جبهتي جدار بحجارة صغيرة لسدّ الفراغات (ولج) . أما (موبلجم) (مولج)، فتعني الموضع الذي وضعت تلك الحجارة فيه[6] . والايلاج هو إدخال شيء في شيء.

وأما الحفر على الحجر أو الجدار ، بقصد التزيين والزخرفة ، فيعبر عنه بلفظة (فتخ)،وتقابل بلفظة (بتاخو Patahu) . والحفر والنقش العميق على الحجارة والطابوق من مذاهب التزيين المتبعة في الشرق حتى الآن . وقد ذهب (رودوكناكس) إلى أنها تعني معنى (ولج) كذلك ، أي ادخال الحجارة المحفورة والمنقوشة والمنحوتة بين حجارة جدار ما مثلاً للتزيين والتزويق[7] .

---

١ Smith, Vol., III, p. 1386.

٢ شرح القاموس (٢/٥٦) .

٣ CIH 325.

٤ الاكليل (٨٠) » طبعة Müller «

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 44.

٦ Rhodokanakis, Stud., II, S. 43.

٧ Rhodokanakis, Stud., II, S. 43.

وتؤدي لفظـة : (فلزتم) (فلزت) (فلزة) ، معنى : أبعاد وطريق جانبي واخلاء وحفر ونقب. وقد أريد بها عمل ثقب في جدار في بعض الكتابات[1].

وكان من عـادة أهل اليمن صهر الرصاص وصبه بين حجارة الأعمدة وفي أسسها ، وذلك لربطها وتقويتها ، ويقال لذلك : (صهرم)[2] من (صهر) ، التي تعني جعل الرصاص مائعاً يصب في المكان المراد تقويته أو تثبيته ، أو لأي غرض آخر من هذا الصهر . وقد استعملوا الرصاص المصهور في سد (مأرب) كذلك ، استعملوه مادة ماسكة تمسك بعض الصخور التي تؤلف الجدر الأماميـة وفي مواضع أخرى منه[3] .

وقد استعمل المهندسون العرب الجنوبيون (القيطران) القار في البناء . استعملوه خاصة في الأماكن الرطبة والتي تسيل عليها المياه وفي الأسس لمنع الرطوبة ، كما استخدموه في رصف الشوارع ورصف قيعان السدود . فقد وجدت آثار قيعـان بعض السدود وهي مرصوفة ومكسوة بطبقة من القطران .

وفي معنى (قطر) ترد لفظـة (قتر) ، و (قتر) أيضاً . و (القتار) بمعنى الدخان . ومن هذا المعنى جاءت جملة: (قتر اللحم) أي شُوي وظهرت رائحته . وفي معنى (قطر) لفظة (هيع) أيضاً . ومعناها (سال) و(ماع). ولهذا استعملت في النصوص ذات الصبغة الدينية في القرابين حيث تسيل دماؤها ، وفي الري لسيلان الماء ، وفي صهر المعادن[4] .

وفسر بعض الباحثين لفظة (هيع) ، بمعنى بنى ، أي أنشأ بنـاء ، وفي مقابل لفظة (برا) في المسند[5] .

واستعملت مواد دهنية مستخرجة من زيوت بعض الأشجار في منع الرطوبـة أو الماء من التسرب الى الأسس والجدر والسقوف .

والخشب هو (عض)[6] في العربيات الجنوبية . وقد استعملـه العرب الجنوبيون

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 47.
٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 48.
٣ Wissmann-Hofner, S. 25.
٤ شرح القاموس (٣/٤٧٩) ، Rhodokanakis, Stud., II, S. 168.
٥ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 427, 433.
٦ Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.

في تسقيف بيوتهم ، ولعمل الأبواب ، كما أدخلوها في البناء كذلك لتقويته . أما لفظة (عضن) (العض) ، فقد ذهب (رودوكناكس) الى أن المراد بها نوع خاص من الخشب ، نوع ذو رائحة زكية ، يستعمل خاصة للحرق في مذابح المعابد[1] .

ويلاحظ من فحص بقايا بعض الأبنية القديمة من عهود ما قبل الاسلام أنها خالية من المواد الماسكة التي توضع عادة بين الحجر لتثبيته بعضه على بعض . ومعنى هذا أن المهندسين المعماريين كانوا قد وضعوا هذه الحجارة بعضها فوق بعض على نحو يجعلها كأنها متداخلة بعضها في بعض فتثبت مدة طويلة وتتماسك وتصبح وكأنها قد لصق بعضها ببعض بمادة من المواد المستعملة في العادة في تثبيت الحجارة مثل الجص أو الكلس أو الطين ، ويسمى بـ (الخلب) عند أهل اليمن اليوم[2] .

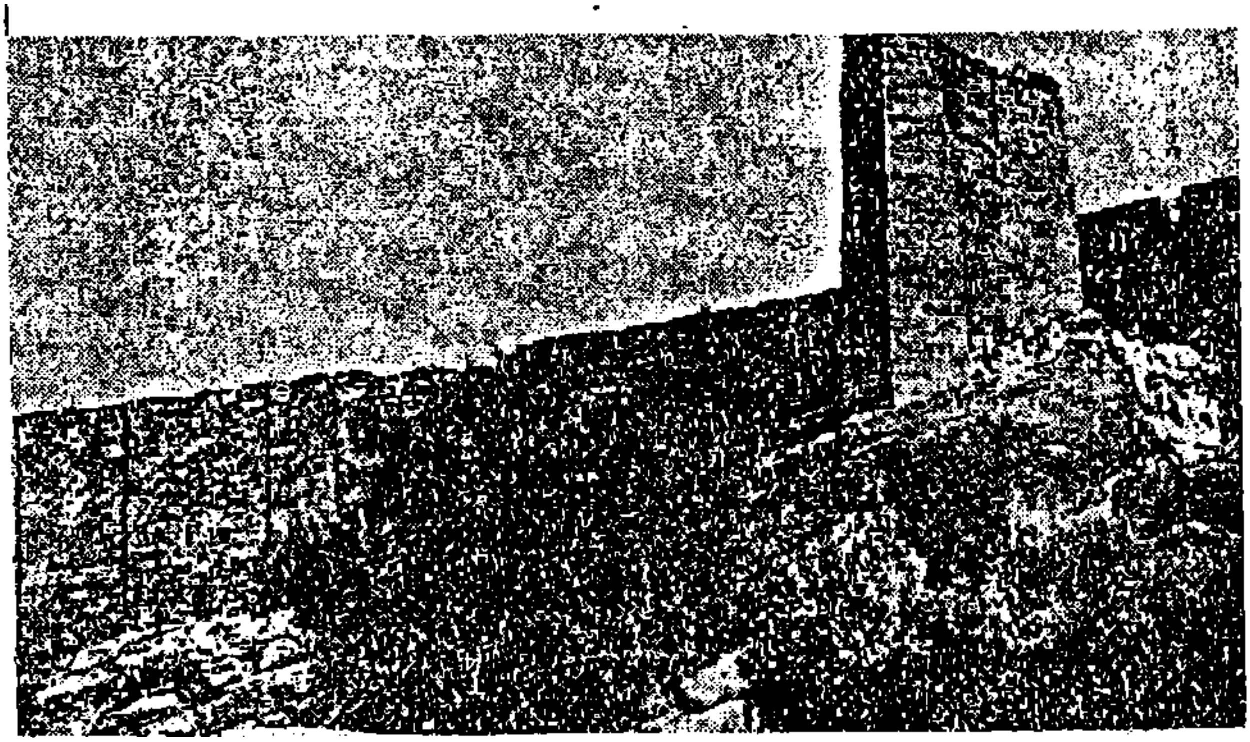

من بقايا سد مأرب

من كتاب : Qataban and Sheba (ص ٢٢١)

والحجارة التي أقصدها هي صخور اقتطعت من الجبال ، وأكثرها هي صخور كبيرة وهي بعد أن تسوى وتشذب وتهذب يوضع بعضها فوق بعض بحيث تتثبت

---

١ المصدر نفسه (ص ٣٩) .

٢ المعظم (ص ١٣٣) .

بعامل الثقل وبهذه الطريقة تقام الجُدُر، ويجري ذلك في المباني الضخمة الكبيرة التي تستعمل فيها الصخور . وأما أوجه الجدر من الداخل فقد تملج بمادة كالجص لتجعلها مُلْساً ناعمة ، وبذلك تسد الفرج بين محال اتصال الصخور .

واستعملت في مباني أخرى المواد البنائية التي توضع بين الآجر والصخور الصغيرة والحجارة لتثبيتها ولضمان تماسكها . ومن هذه المواد الجص والطين والكلس، وقد تكحل الفواصل التي بين الأحجار بالكلس وبالجص لسدّ الفرج بينها وللزينة أيضاً . وأما الجدر الداخلية فتكسى بطبقة لتجعلها جميلة مُلْساً على نحو ما يفعله أهل اليمن وما يفعله غيرهم في الزمن الحاضر . وقد وجدت البعثات الأثرية التي نقبت في العربية الجنوبية بقايا جدران بيوت ، وقد كسيت بطبقة ملساء من الجص، تدل على مهارة البناء في ذلك الوقت . وقد تزخرف المواضع البارزة من الجدار بزخرف يصنع بقوالب خاصة توضع عليها المادة اللينة التي يراد زخرفتها ، فإذا جفت رفع القالب عنها ، فتظهر بارزة بالحفر التي تكون حولها .

وتكسى الجدر الخارجية للبناء بالجص والكلس في بعض الأحيان . فإذا كسيت بالجص ، ظهرت بيضاً ترى من مسافات بعيدة ، جاء في شعر لعدي بن زيد :

شاده مرمراً وجلله كِلْساً فللطير في ذراه وكور[1]

وقد ورد أن الجص لغة ، والعرب تسميه القصة[2] .

ولم يكتفِ المتفنن العربي الجنوبي بإقامة الأبنية حسب ، بل استخدم الحجارة للتعبير عن شعوره وعن خواطره ، ينحتها على الصخور ويبثها على ألواح الحجر. وإذا كان العربي الصحراوي قد عبر عن شعوره وعن خواطره بالشعر ينظمه أبياتاً أو مقاطع أو قصائد ، يسر نفسه بها ، ويسر الآخرين ، فقد عبر العربي الجنوبي عن مشاعره وخواطره بنوع آخر من الشعر ، هو الشعر المادي المتمثل في البناء وفي النحت والتصوير بالإضافة الى الشعر المعروف الذي لم يترك لنا أثراً مكتوباً منه ويا للأسف .

---

١ الكامل (١/٥٩) .

٢ شمس العلوم (ح ١ ق ٢ ص ٢٧٩) .

والعربي الجنوبي متفنن بطبعه مذواق ، لم يكتف بهندسة الحجارة وصقلها وتزيينها ، بل اهتم بالألوان كذلك وبالمظاهر الخارجية للبناء . فاتخذ الحجارة الملونة للبناء ، وكوّن منها مناظر متعددة الألوان ، محاكاةً للطبيعة ، وتأثيراً على النظر. وبنى جدران قصر غمدان من حجارة ذات ألوان مختلفة ، فبنى سافاً بالحجارة البيضاء ، وبنى سافاً آخر بحجارة سُود ، وبنى سافاً ثالثاً بحجر أحمر ، وسافاً آخر بحجر أخضر[1] وهكذا ، وذلك إمعاناً في التفنن وفي التزويق ولا شك. وكسا السقوف والأبواب والأعمدة وبعض الجدران بصفائح الذهب والفضة وبالحجارة الكريمة وبسن العاج والأخشاب الغالية الثمينة،فأكسب البناء روعة وجمالاً وخشوعاً. ونجد ذلك في المعابد وفي القصور[2] .

واستعمل المعمار العربي الجنوبي الرخام لإكساء أوجه الجدران أو في فرش أرض الغرف والمعابد ليكسبها بهجة وجمالاً ، واستعمله ألواحاً رقيقة تزخرف بالصور والنقوش ، لتعبر عن مباهج الحياة ، كما استعمل ألواحاً رقيقة شفافة منه لتكون مكان الزجاج المستعمل في النوافذ في وقتنا الحاضر . ولا يزال أهل اليمن يستعملون الرخام المرقق في نوافذهم ، توارثوا ذلك عن آبائهم وأجدادهم، وهو يعطي النافذة رونقاً وجمالاً لا يتوافران في الزجاج .

وتكون النوافذ والشبابيك في جدار الغرفة المطل على صحن الدار . أما الجدر المقامة على الطرقات والأزقة ، فتكون خالية منها وذلك لئلا ينفذ منها اللصوص أو الأعداء الى الدار ، وليمنع المارة من التطلع الى داخل الغرف والبيوت . أما البيوت المرتفعة المكونة من طابقين فأكثر، فقد حليت بالنوافذ ، ومن هذه النوافذ ما كان يصنع من الخشب ومنها ما كان يصنع من الحجارة ، ولا سيما الرخام . وجعل العربي الجنوبي الطوابق العليا مواضع للدفاع عند الحاجة ، ولا سيما في الأماكن المنعزلة النائية ، وجعل لمزارعه مواضع مرتفعة مبنية أو من الأخشاب أو على الأشجار لمراقبة من يحاول السرقة وسلب الفلاح ثمار أتعابه .

والنافذة ضرورية جداً بالنسبة للأبنية العالية التي عرفت بها العربية الجنوبية ،

---

١ D.H. Müller, Burgen und Schlösser, I, S. 348.

٢ Strabo, X, 778, Hand. der altar, altir., I, S. 146.

وذلك للدفاع بواسطتها عن البيوت ولدخول النور والهواء اليها ، وقد صنعت من لوح مرقق من الرخام ، عملت فيه ثقوب ، لدخول الهواء منها . وتعمل الألواح المصنوعة من الرخام ألواحاً رقيقة جداً ، وقد تكون شفافة كالزجاج ، لتنير الغرف . ولا تزال نوافذ بيوت العربية الجنوبية محافظة على طرازها القديم . وقد استخدمت بعض النوافذ الجاهلية في البناء . وقد صنعوا النوافذ من الخشب أيضاً ، زخرفوها بزخارف جميلة وأحاطوها بأحجار أو بمرمر لتمسكها ولتعطيها منظراً جميلاً .

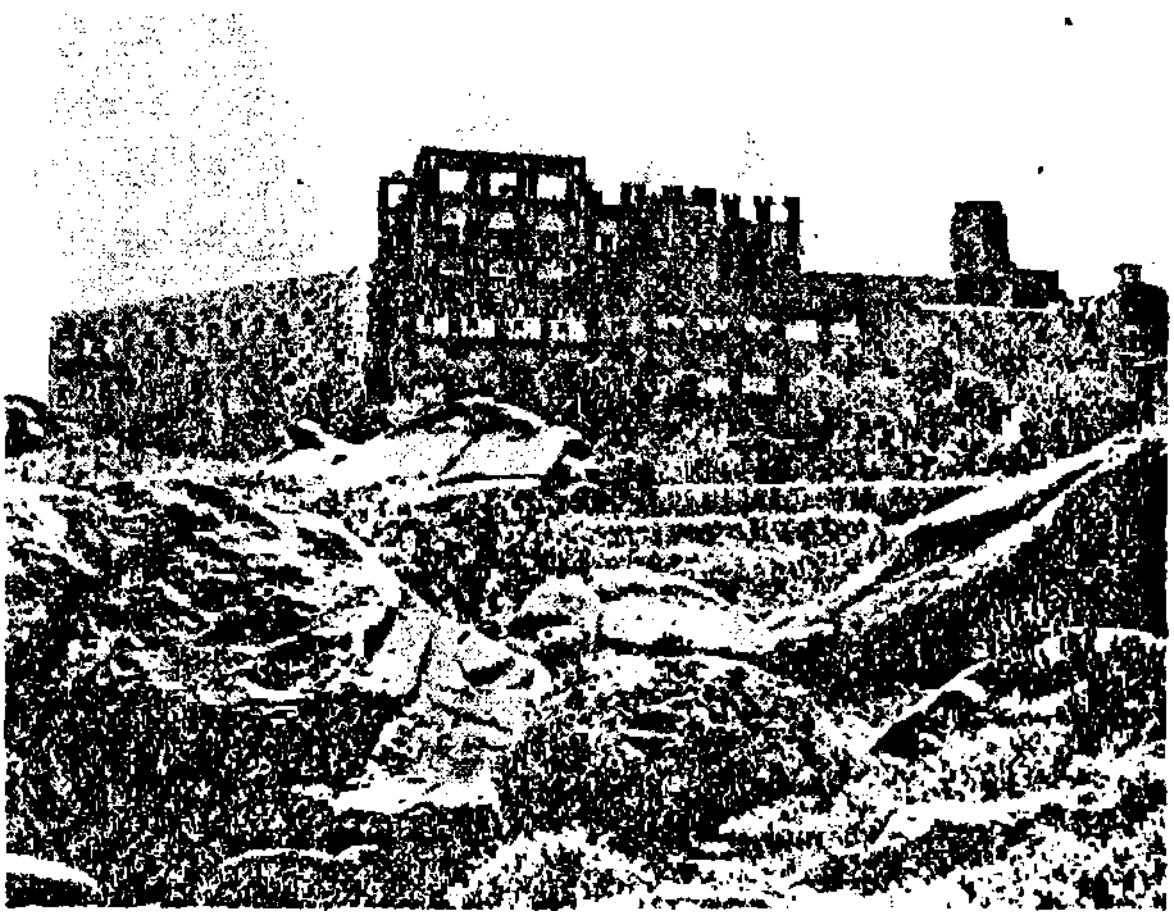

قصر الامام أحمد بمدينة « تعز » ، وترى نوافذه وهي ذات طابع يماني قديم
من كتاب : Gunther Pawelke, Jemen. (ص ٥٧)

ويعبر في اللحيانية بلفظة (بت) ، أي (بيت) عن معنيين ، عن معنى (بيت) ، أي موضع سكن ، وعن معنى معبد . وذلك كما في هذه الجملة : « بنيو بت هصن لذ غبت »[١] ومعناها : « بنوا بيت هصن لذي غابة » ،

١ النص رقم ٢٦ من كتاب : W. Caskel, S. 88.

و (ذو غابة) هو إلـه اللحيانيين ، أو بتعبير آخر : (بنوا معبد هصن للإلـه ذي غابة) .

ويعبر عن البناء والبناية بلفظة (مبنى) في لغة سبأ [1] . وهي من أصل (بنا) (بنى) .

وقد ذكر علماء اللغة اسماء الدور بحسب نوع بنائها من حيث المادة أو المساحة أو الارتفاع وغير ذلك. ويقال للدار المنزل كذلك والدارة والمنزلة والمباءة والمَعان والوطن والمغنى والمثوى والمربع [2]. والصرح هو كل بناء مرتفع. وأما الأطم والأجم فالحصن .

والدار المسكن والبيت، وترد اللفظة في النصوص اللحيانية ، قال (ابن الكلبي) : « بيوت العرب ستة : قبة من أدم ، ومظلة من شعر ، وخبـاء من صوف ، وبجاد من وبر ، وخيمة من شجر ، وقنة من حجر ، وسوط من شعر ، وهو أصغرها » . وقال البغدادي : الخباء بيت يعمل من وبر أو صوف ، أو شعر ، ويكون على عمود أو ثلاثة ، والبيت يكون على ستة أعمدة الى تسعة . والخيمـة في عرف العرب : كل بيت من بيوت الأعراب مستدير ، أو ثلاثة أعـواد أو أربعة يلقى عليها الثمام ويستظل بها في الحر ، أو أعواد تنصب وتجعل لها عوارض وتظلل بالشجر فتكون أبرد من الأخبية . أو عيدان تبنى عليها الخيام ، أو مـا يبنى من الشجر والسعف يستظل به الرجل اذا أورد إبله الماء. والخيمة عند العرب البيت والمنزل وسميت خيمـة [3] لأن صاحبها يتخذها كالمنزل الأصلي . وورد أن الخيمة لا تكون إلا من أربعة أعواد ، ثم تسقف بالثمام ولا تكون مـن ثياب ، وأما المظلة ، فمن الثياب وغيرها [4] .

و (القبة) من البناء ومن الأدم . وقيل : القبة من الخباء بيت صغير مستدير وهو من بيوت العرب [5] . و (المظلة) : الكبير من الأخبية ، قيل : لا تكون إلا من الثياب ، وهي كبيرة ذات رواق ، وربما كانت شقة وشقتين وثلاثاً ،

---

1 Jamme, South Arabian. Inscriptions, p. 439.

2 بلوغ الارب (٣/٣٨٩ وما بعدها) .

3 تاج العروس (١/٥٢٩) ، (بيت) .

4 تاج العروس (٨/٢٨٥) ، (خيم) .

5 تاج العروس (١/٤١٩) ، (قبب) .

وربما كان لها كفاء ، وهو مؤخرها . قال بعض العلماء لا تكون المظلة إلا من الشعر خاصة . إلى غير ذلك من آراء[1] . والخباء : ما يعمل من صوف أو وبر ، وقد يكون من شعر ، وقد يكون على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك ، فهو بيت[2] .

ويظهر من تضارب آراء العلماء في تعريف الأسماء المذكورة ، انهم أخذوا معانيها من موارد مختلفة من رعاة ومن شبه حضر ومن أعراب ، ومن جهات مختلفة،فكان كل مورد يفسر الشيء تفسيراً يختلف عنه عند مورد آخر ، فتضاربت من ثم تلك الآراء .

ويقال لصحن الدار: حُرّ الدار وقاعتها وباحتها وساحتها وصرحتها وبحبوحتها. وفي الدار البيت . والمخدع ، وهو البيت في البيت ، والنفق والسرب ، فالبيت تحت البيت ويتألف البيت من غرف . والغرفة في أعلى هي (العلية) والجمع علالي. والخزانة هي التي يحفظ فيها الشيء . والمرقد ، هو المضجع[3] .

وما يحيط بالبناء هو الحائط والجدار . والأُس هو أصل الحائط . والرهص ، هو البناء من الطين الموطوء ، ينضد بعضه فوق بعض ، ويقال للنضدة الواحدة دمص ، أما النضدة السفلى،فيقال لها رهص[4] . والخط الواحد من الحائط ساف ، ويقال للصف الواحد من اللبن أيضاً ساف[5] . وإذا أقيم الآجر بعضه فوق بعض، فهو السميط[6] . ويقال للحائط حين يبلغ العقد أو الثقيف أو التقبيب ، ارتفع الحائط . ويقال للعقد : عقد الأزج وللبيت مغمى إذا سقف بالخشب ، وبيت مقيب إذا كان ذا قباب . أما إذا كان على هيأة السنام ، فيقال له بيت مسنم. والبرزخ الفرجة بين الأزجّين في صهوة البيت ، والهدف ترس الأزج .

وتقوى الجدر بالأوتاد ، وذلك برز الوتد في الحائط عند البناء ، وقد عثر

---

١ تاج العروس (٤٢٧/٧) ، (ظلل) .
٢ تاج العروس (٦٠/١) ، (خبأ) .
٣ بلوغ الارب (٣٨٩/٣) .
٤ « والدمص بالكسر : كل عرق من الحائط خلا العرق الاسفل فانه رهص » شرح القاموس (٣٩٦/٤) ، بلوغ الارب (٣٩٠/٣) .
٥ شرح القاموس (١٤٧/٦) .
٦ شرح القاموس (١٦١/٥) .

على أوتاد من الخشب مرزوزة في بقايا أبنية السبئيين والمعينيين وغيرهم لتقوية الجدر ، أو لاستعمالها لأغراض أخرى ، مثل تعليق أشياء عليها، أو استعمالها بمثابة السلالم للتسلق إلى أعلى .

وفي الدار الصُّفَّةُ ، وتسمى بحسب الجهة المتجهة اليها . ويقال صفة فراتية إذا كانت الشمس لا تقع فيها رأساً . و (المقنوءة) مكان ظلـه دائم ويكون بارد الهواء . والزاوية ملتقى الحائطين في البيت . والكوة الثقب في أعالي البيت . ويقال لهـا الشاروق . والمشكاة التي في الحائط . ويقال لها الأوقة ويقال بيت مأوّق[1] .

ويقال للسطح الإجار والصهوة . وسقف البيت أعلاه الداخل . وأما سمكه ، فما كان بين قراره الى سقفه . والطّاية السطح . والـدرج المرتقى الى السطح إن كان من خشب دعي بـ (سلم) . وكل مرقاة عتبة . والفرغ الخلاء بين المرقاتين. والعلاوة هي أعلى الحائط الذي لا يغمى . والتفاريج والطنف آجر أو نحوه يجتح به أعلى الحائط ليقيه المطر أن يسيل عليه . وهو الكثة والافريز . والهرادة مـن الخشب لأعالي الحيطان ، والنجيرة سقيفة بخشب لا يخالطها غيره[2] .

ويسقف البيت بالخشب ، يوضع عليه عُرضـاً ، ويسمى (العراص) ، ثم تلقى عليه أطراف الخشب الصغار[3] . وقد يطيَّن ، أو يجصّص ، أو يبنى فوقه ليمنع المطر من السقوط من خلال الخشب على البيت ، وحرّ أشعة الشمس مـن النفاذ اليه .

وكانت بيوت أزواج النبي من اللبن ، ولها حجر من جريد مطرورة بالطين، وعلى أبوابها مسوح الشعر[4] . وهذه كانت صفة معظم بيوت أهل يثرب والمدينة، ما عدا بيوت الأثرياء ، فقد كانت من حجر وكلس ولها كل وسائل الترفيـه والراحة المتوفرة بالقياس الى ذلك الزمان .

واللبن جمع لبنة . وأما الذي يعمل اللبن ، فهو اللبان . والملبن الآلـة التي

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٩٠) .
٢ بلوغ الارب (٣/٣٩١) .
٣ البرقوقي (ص ١٣٧) .
٤ طبقات ابن سعد (١/٤٩٩ وما بعدها) .

يضرب بها . والسابل ، الأداة التي ينقل عليها . والسميقـان والأسمقة خشبات يدخلن في السابل . والطوب هو الآجر ، والطباخ هو الذي يطبخ أتونه، والأطيمة: أتون الجرار والقصاع وأمثالها . والبلاط : الحجارة تفرش بها الأرض . ويقال أرض مبلطة ، إذا فرشت بالبلاط[1] .

وقد عرف بعض علماء اللغة اللبن بأنه المضروب من الطين مربعاً للبناء[2]، وتقابل لفظة (اللبنة) كلمـة Libbatu في الأشورية ، و (لبيتو) و (لبنتو) في الإرمية[3] .

والطيّان ، الذي يعمل الطين ، ويطين الحائط أو السطح ، ويشتغل بالطين . والملاط ما رق من الطين . ونحوه السيّاع . ويقال للمالج الذي يمسح بـه وجه الحائط المسجّة والمسيعة . وأما الخيط الذي يقدر به البناء ، فيقال له (المطحر) . والشيّد والشص الجص . والجصّاصة موضع الجص . والملاّحة مجمد الملـح . والجيـار والكلّس الصاروج . والصاروج النورة وأخلاطها . والثلاجة مكبس الثلج[4] .

وتوضع في سطوح الدور ميازيب لتسيل منها مياه الأمطار إلى أسفل ، وتعرف بـ (المثاعب) ، وواحدها (مثعب) ، ويكون من خشب وغيره . ويسيل الماء إلى (البالوعة) ويقال لها (البلّوعة) كذلك[5] . ولفظة (مئزاب) و (مرزاب) من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، ولكنها من الألفاظ القديمة الداخلة إلى العربية[6].

وموضع الطبخ في الدار هو المطبخ . وأما المخبز فهو موضع التنور . ويقـال للتنور الوطيس والهيلم والمِسعر كذلك . والكرامة طبق التنور ، والمناقـة حجره . وأما الساعور، فتنور صغير في الأرض[7] .

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٩١) .
٢ شرح القاموس (٩/٣٢٨) .
٣ برصوم (ص ٢٦٩) .
٤ بلوغ الارب (٣/٣٩١) .
٥ بلوغ الارب (٣/٣٩١ وما بعدها) .
٦ المعرب (ص ٣٢٦) ، المغرب (ص ١٤) ، شرح القاموس (٣/٢٦٩) .
٧ بلوغ الارب (٣/٣٩٢) .

والسور هو حائط الحصن والمدن . وأما الربض ، فحائط حول السور . والشرف هو ما أشرف فوق الحائط ، ويتشرف الناس من ورائه[١] . ويعبر عن (السور) بـ (حل) Hel في العبرانية ، أي (حائل) ، وهو الحائط الذي يحيط بالمدينة[٢]. وتطلق لفظة (حال) و (حويل) على الحائط ، وعلى الحدّ الذي يفصل بين ملكين ، لأنه حائل يحول بين الأملاك وبين الأشياء ، فلا تختلط ويمتزج بعضها ببعض[٣] .

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٩٢ وما بعدها) .

٢ Roland de Vaux, Ancient Israel, London, 1961, p. 233.

٣ تاج العروس (٧/٢٩٥) ، Rhodokanakis, Stud., II, S., 31.

الفصل السابع عشر بعد المئة

القصور والمحافد والاطام

وقد أورد علماء اللغة العربية ، جملة ألفاظ لها صلة بالمباني الضخمة وبالمباني العالية . منها : (قصر) والجمع (قصور) ، و (محفد) والجمع (محافد) و (أطم) ، و (مجدل) ، و (حصن) و (برج) وغير ذلك من ألفاظ لبعض منها صلة بالناحية الحربية ، لذلك أترك أمرها إلى ذلك الباب ، وسأقتصر هنا على الكلام على المباني الأخرى التي تخص الحياة الاجتماعية في الأكثر .

والقصر البيت الكبير الفاخر ، وتقابل لفظة (قصر) كلمة (قصرو) في لغة بني إرم[1] . وقد أطلقها علماء اللغة على البيوت الكبيرة لأهل الجاهلية في اليمن، فقالوا : (قصور اليمن) . واشتهر من بينها (قصر غمدان) و (قصر سلحين) ، وقد أطلقها عرب العراق على حصونهم التي كانوا يتحصنون بها عند دنو خطر عليهم ، فكانت الحيرة مكونة من (قصور) ، أقامها أشرافها ، واتخذوها بيوتاً لهم ، وحماية لأموالهم ، وملجأ يلجأ اليه أتباعهم عند دنو الخطر ، للدفاع عن سادتهم وعن أموالهم ، يصعدون الى أعلى القصر ، فيرمون المهاجم بالحجارة والخزف والسهام والنار ، ويصبون عليه الماء الحار . ولما هاجمها (خالد بن الوليد) ، أخذ يحاصرها قصراً قصراً ، ويفتحها ، وبذلك سقطت المدينة، المؤلفة

---

1 غرائب اللغة (٢٠١) .

من هذه القصور . ولا تزال اللفظة معروفة في العراق ، فيعرف حصن (الأخيضر) المشرف في البادية بـ (قصر الأخيضر) ، ويطلق على بعض قرى عـين التمر القصور ، لأنها كناية عن بيوت تحمى بـ (قصر) في الأصل[١] .

وتخزن في غرف الطابق الأرضي من القصر الميرة ، وما يحتاج اليه ، وكذلك الماشية ، أما الطابق الثاني ، أو ما بعده ، فيتخذ مسكناً ، لأهل القصر ، وقد تعمل به منافذ صغيرة ، ليرمي منها المدافعون المهاجمين بالسهام وبالحجارة ، لمنعه من الدنو من القصر ، ويدافع عنه من السطح كذلك .

والمحفد من الألفاظ الواردة في كتب اللغة ، وجمعها (محافد) . وتعني في العربية الجنوبية القلعة والحصن ، أي المكان الحصين المنيع الذي يتحصن فيه الجنود للدفاع[٢] . وتعرف بـ (محفدن) في العربية الجنوبية ، أي (المحفد) .

وترد لفظة (صحفت) مع (محفد) . وأما (صحفت) ، فقد فسرت بمعنى المجاز أو الطريق أو الممر أو الخندق . وهي في معنى لفظة (ضخف) التي تعني الحفر ، ومنها (مضخفة) التي تعني المسحاة[٣] . ويكون الخندق حول المحفد ، يحميه من غارات الأعداء ، فيحول بينهم والوصول إلى سوره . وتؤدي لفظة (صحفت) معنى ممر في داخل الحصن يربط بين السور وداخل الحصن[٤] .

والمجدل ، هو القصر المشرف[٥] . فهو نوع من أنواع الأبنية الضخمة . وهو الحصن في داخل المدن عند العبرانيين ، ويقابل لفظة Castellum في اللاتينيـة[٦] . وقد وردت لفظة (مجدل) و (مجادل) أي في صيغة الجمع في النصوص اللحيانية بمعنى البرج والحصن[٧] .

وأما الأطم فالحصن والجمع آطام . وهي القصور والحصون. وقال (الأصمعي)

---

١ راجع الجزء الثالث من تاريخ الطبري ، في فتوح العراق ، وكذلك فتوح البلدان للبلاذري .

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S., 61.

٣ Rhodokanakis, Stud., II, S., 61.

٤ المصدر نفسه .

٥ شمس العلوم (حـ١ ق٢ ص ٣٠٦) .

٦ Roland de Vaux, Ancient Israel, London, 1961, p. 235.

٧ راجع النص ٢٦ في كتاب : W. Caskel, S. 88.

الآطام الدور المسطحة السقوف ، موشاة أي منقوشة [١] . وهي معروفة عند أهل (المدينة) . وقد تحارب الأوس والخزرج عندها ، فأرخوا بهذا اليوم . وكانت الأوس والخزرج تتمنع بها ، فأخربت في أيام (عثمان) [٢] .

وتقوّى الحصون بسكك الحديد أحياناً ، وبكل وسائل التقوية والإسناد،لتتمكن من الصمود أمام العدو ، ومن تحمل ضربات الآلات التي تستخدم للهدم . ويعبر عن التقوية هذه بلفظة (سكم) ، أي (سك) [٣] .

وقد فسر بعض علماء العربيات الجنوبية لفظة (صرحت) (صرحة) (صرحس) التي ترد في كثير من الكتابات المتعلقة بأعمال البناء ، بالطبقة الثانية من البناء أو أعلى كل بناء [٤] . وفي كتب اللغة : (الصرح : بيت واحد يبنى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء) ، وقيل (القصر) أو كل بناء عال مرتفع . وفي التنزيل: إنه صرح ممرد من قوارير ، والجمع صروح . وقال بعض المفسرين : الصرح بلاط اتخذ لبلقيس من قوارير [٥] .

وترد لفظة (صرحت) بهذا الشكل في بعض الكتابات ، كما ترد بغير تاء ، أي (صرح) . وقد وردت على هذه الصورة : (صرحس) في بعض الكتابات المعينية ، كما وردت على هذا الشكل : (صرحسن) أي (الصرح) .

والغالب بين علماء اللغة أن الصرح البيت العالي ، وقد قيّد بعضهم ذلك بالبيت العالي المزوق [٦] . وحيث ان البيوت المرتفعة العالية هي في اليمن وفي مواضع من العربية الجنوبية الأخرى في الغالب ، ونظراً لورود اللفظة في كتابات العرب الجنوبيين،فإننا نستطيع أن نقول باحتمال أخذ الحجازيين لفظة (الصرح) و (صرح) من العرب الجنوبيين .

---

١ الاغاني (١٤/١) ، « طبعة ساسي » ، شمس العلوم (حـ١ ق١ ص ٨٥) .

٢ التنبيه والاشراف (ص ١٧٦) .

٣ Rhodokanakis, Stud., II, S. 46.

٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, 32, f., Glaser 1059, 1660, Halevy 208, Glaser 1144, Halevy 353, Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 446.

٥ شرح القاموس (١٧٩/٢) . « الصرح : بيت عال مزوق » ، المفردات (٢٨٠) .

٦ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٢٨٠) .

الأعمدة والاسطوانات :

ومن الرخام أقيمت أعمدة جميلة كسيت تيجانها بالنقوش وبالزخرف الأخاذ. وقد تمكن المعماريون من وضع الصخور بعضها فوق بعض وضعاً فنياً في غاية الدقة جعلتها تظهر وكأنها قطعة واحدة. فقد صقلوا الصخور صقلاً تاماً بدقة وعناية، وجعلوا نهايتها متطابقة تماماً. فإذا جلست بعضهــا فوق بعض، انطبقت على بعضها، وبدت وكأنها قطعة واحدة يصعب التمييز بين مواضع انطباقها. وقد نقروا أحياناً في أواسط الرخام نُقراً عميقة، ثبّتوا في داخلها أوتاداً من الرصاص أو الحديد، لتربط بين قطع الرخام، ولتكون لها سنــداً وقوة، فلا تسقط. وقد وجدت مثل هذه الأوتاد بين الصخور المكونـــة لسد مأرب[1]، وكذلك في قصر (غمدان)[2].

وأقيمت الأعمدة على قواعد تحمل الصخور الثقيلة المؤلفة منها تربط بينها أوتاد مربعة في الغالب، وتكون القواعد أكبر حجماً من العمود ليستقر ثقـل الأعمدة عليها، ولتكون أثبت على سطح الأرض. وتقوى هذه القواعد بصب الرصاص عليها. وقد وجد ان المعماري العربي الجنوبي تعمــد في جعل الجدران المرتفعة ميّالة إلى الجدار الداخلي كلما ارتفع البناء، بمعنى انه يجعل الجدران الخارجية أقرب إلى واجهة الجدران الداخلية في أعالي البناء من القواعد، فتكون المسافة عندئذ بين الجدارين عند السقف أقرب وأقصر منها عند القاعدة[3]. ويظهر انـه تعمد ذلك لأغراض هندسية واقتصادية، تستدعيها المحافظة على الحجارة من عبث الطبيعة بها وتقوية لها، وتخفيفاً عنها، واقتصاداً في مواد البناء.

وأقيمت بعض الأعمدة على أرض البناء رأساً من دون قاعدة بارزة يرتكز عليها بمعنى ان المعمار لم يجعل قاعدة العمود أوسع وأعرض من هيكل المجموع، فيظهر العمود وكأنه قد نبت من الأرض.

وقد عثر المنقبون على أنواع متعـــددة من الأعمدة، تيجان بعضها مربعة أو

---

١ Glaser, Reise, S. 60, Hand. der Alt., I, S. 146.

٢ D.H. Müller, Burgen und schlösser, I, S. 345.

٣ Hand-der altar. alter., I, S. 146.

ذات زوايا مستقيمة . منها ما هو بسيط بدون زخرفة ولا نقوش ، ومنها ما هو مزخرف أو عليه بعض النقوش أو بعض الحروف أو الكتابات . ومن جملة الزخرف الذي زين تيجان الأعمدة زخرف يمثل زهرة الزنبق وأنواعاً أخرى من الزهور[1] .

وتمثل الأعمدة المربعة الشكل أو المستطيلة والخالية من الزخرف أقدم أنواع الأعمدة بالنسبة للفن المعماري العربي الجنوبي . ونجد نماذج منها في خرائب معبد (قرنو) عاصمة معين . وفي (صرواح) (الخريبة) وفي (مأرب) (حرم بلقيس) (محرم بلقيس)[2] وقد اقتطع المعمار هذه الأعمدة من الصخور ، كتلاً كتلاً ، ثم أمر بصقلها وتشذيبها حتى حولها الى قطع أكسبها شكلاً هندسياً ، قواعدها مربعة أو مستطيلة ، وضعها بعضها فوق بعض الى الارتفاع المقصود ، مكوناً منها اسطوانة تحمل البناء .

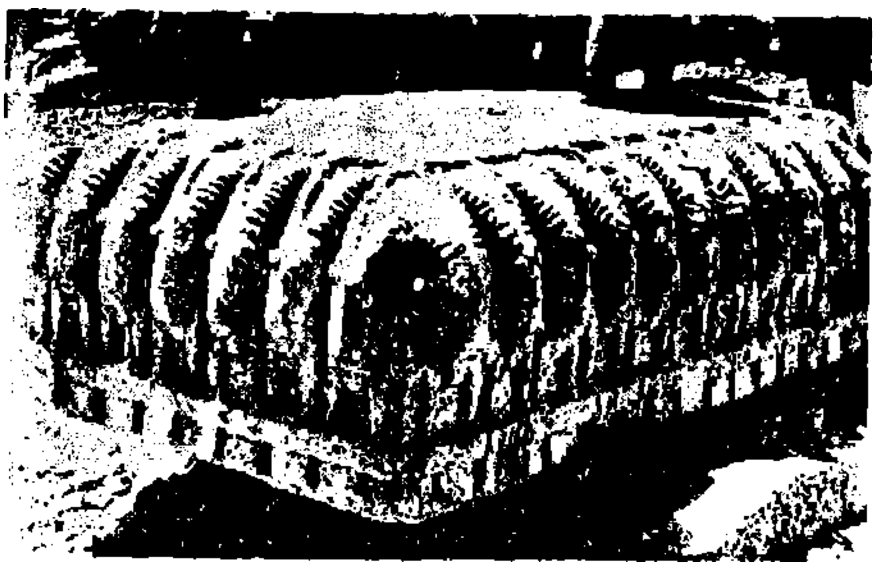

ونرى في هذه الصورة تاج أحد الأعمدة،وقد زخرف بحيث ظهر وكأنه كتلة من رؤوس خرفان أوحيوانات لها قرنان كالوعل وقد أبدع الفنان في حفره حتى ظهر الحجر، كأنه مجموعة حيوانات وقفت بعضها الى جانب بعض ، وزخرفت قاعدة الحجر، كما ترى في الصورة ويظن بعضهم أنه رمز الإلـه القمر .

من كتاب : Qataban and Sheba (ص ٢٢٤)

١ Hand. der altar. alter., I, S. 147, Deutsche Aksum Expedition, II, S. 143. ff.
٢ A. Grohmann, S., 209.

وقد أبدع الفنان في الحفر ، وأجاد في الزخرفة وفي اتقان عمله ، وأعطى عمله روعة ، فترى الحفر على مستوى واحد ، وقد عمل بدقة ومهارة . واتقان العمل والإبداع في الفن من المزايا التي امتاز بها أهل العربية الجنوبية حتى اليوم .

وهناك أنواع من الأعمدة تتكون من ثمانية أضلاع ، وأنواع أخرى تتكون من ستة عشر ضلعاً ، عثر عليها في مدينة (تلقم) ، وتتكون تيجانها من ست درجات : ثلاث منها على هيئة نصف اسطوانة : بطونها الى الخارج وقاعدتها العمود ، وثلاث على هيأة صفائح مستطيلة ذات ستة عشر ضلعاً . وقد نحتت هذه التيجان ورتبت على هذا الشكل : الدرجة السفلى مكونة من مستطيل ذي ستة عشر ضلعاً ، وفوقه درجة على هيئة نصف أسطوانة يليها مستطيل ذو ستة عشر ضلعاً ، وهكذا الى أن ينتهي التاج بالدرجة السادسة للتاج[1] .

وقد عثر على نماذج من الأعمدة المثمنة الأضلاع في معبد (صرواح) بـ (أرحب) ، وفي (حقه) وفي (العرين) وفي (بيت غفر) وفي (سوق النعم) وفي (شبام كوكبان) وفي (مأرب) ، وفي مواضع أخرى . ويرجع عهد هذا النوع إلى ما قبل الميلاد ، ويمتد إلى ما بعده . ويرى بعض الباحثين ان أكثر هذه الأعمدة قد ظهر في فترة من الزمن تقع فيما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثاني من بعد الميلاد[2] .

وقد رأى (كلاسر) Glaser عموداً مثمناً ذا تاج (كورنثي) في مسجد (منقط) بالقرب من (بريم) ، يرى الباحثون انه من صنع عامل يوناني . وهم يرون ان أصله من مدينة (ظفار) التي لا تبعد كثيراً عن هذا المكان ، جيء به من هناك إلى هذا المسجد . وقد كانت (ظفار) مركزاً خطيراً وعاصمة لحمير ، وفيها أسس (ثيوفيلوس) كنيسة حوالي سنة (٣٥٤) للميلاد . وصارت هذه المدينة مركزاً لأسقفية تشرف على نجران وهرمز وسقطرى . وقد عثر في هذا المسجد على قطع أخرى أثرية ، عليها آثار الصلبان وكتابات حبشية وآثار أخرى تشير إلى أصل نصراني ، يظهر انها من أيام استيلاء الحبشة على اليمن ، وانها ترجع إلى ما بين سنة (٥٢٥) و (٥٧٠) للميلاد . وفي خلال هذه المدة كان

---

١ Hand. der altar. alter., I, S. 148.

٢ A. Grohmann, S. 210.

احتلال الحبشة للعربية الجنوبية [1] .

ولا استبعد أن يكون من بين هذه الأعمدة التي نحت الصليب فوقها ، أعمدة جاهلية أخذت من المعابد الوثنية ، ثم حفر الصليب عليها ، لتتناسب مع الطقوس النصرانية . أو أنها كانت معابد وثنية قديمة ، فلما استولى الحبش على اليمن ، أو عند اعتناق أهل تلك المواضع للنصرانية حوّلوا تلك المعابد الى كنائس وأحدثوا فيها بعض التكييف والتغيير لتكون في وضع يناسب الكنيسة ، فكان في جملة ما أدخلوه عليها حفر الصلبان على أعمدة تلك المعابد .

وتظهر الأعمدة المكونة من ستة عشر ضلعاً ، وكأنها اسطوانة ، أي عموداً ذا شكل دائري . لأن الأضلاع صارت ضيقة متقاربة أعطت العمود شكل اسطوانة. وقد عثر على نماذج من هذه الأعمدة في مدينة (تلقم) وفي معبد (صرواح) بأرحب ، وفي (صرواح) (الخريبة) وفي (الفراس) ، وفي جامع المتوكلية بصنعاء [2] .

ويرى بعض الباحثين أن الأسطوانات ، أي الأعمدة المدوّرة ذات الشكل الاسطواني التام ، قد ظهرت بعد الأعمدة المذكورة ، وأنها ترجع الى الأزمنة المتأخرة للدلك من تأريخ اليمن [3] .

ومن العربية الجنوبية انتقلت هذه الأعمدة إلى بلاد الحبشة ، حيث نجدها في معابد الحبشة القديمة . وقد أخذ أهل تلك البلاد هذا النوع من الأعمدة في جملة ما أخذوه من حضارة أهل العربية الجنوبية [4] . وقد رأينا ان أهل سبأ كانوا قد أقاموا حكومة لهم في إفريقية ، وقد ترك أهل العربية الجنوبية ، ولا سيما أهل سبأ منهم ، آثاراً في اليمن في مختلف النواحي ، ما تزال ظاهرة للعيان .

وقد استعملت الأعمدة المصنوعة من الخشب لحمل السقوف ، ولا سيا في البيوت.

---

١ Philostorgios, Historia Ecclesiastica, III, 4, Handb. der altar. alter., I, S. 148.

٢ A. Grohmann, S., 210, Rathjens un Van Wissmann, Vorislamische Altertümer, 132, 133, Glaser, Geographische forshungen in Jemen, 1882, 73.

٣ A. Grohmann, S., 210.

٤ Deutsche Aksum — Expedition, II, S. 101. f, 154, ff, Hand. der altar. alter., I, S. 148.

وتوجت هذه الأعمدة بتيجان في الغالب ، جعلت على هيآت وأشكـال مختلفة . ولا يزال الناس يستعملون هذه الأعمدة في بناء البيوت .

وقد نوّع المعمار هندسة تيجان الأعمدة والأساطين، بأن جعلها أشكالاً وأنماطاً ، راعى وحرص على أن يجعلها تتناسب مع شكل العمود الذي سيوضع التاج فوقه، أو الاسطوانة التي سيوضع عليها . وقد مرّ هذا التنويع في أدوار وأطوار ، كما مرت صناعة الأعمدة والأساطين بهذه الأدوار كذلك . لقـد كان التاج في بادىء أمره جزءاً أساسياً من أجزاء العمود ، أي قطعة منه . هي القطعـة الأخيرة من قطع العمود . وعلى هذا الجزء أقام قواعد السقف من غير أن يميزه عن الأجزاء الباقية من أجزاء العمود بأي شيء . ثم بدا له أن يجعل للقطعة الأخيرة حافة عليا بارزة ، وأن يجعل أعلاها أوسع من أسفلها الذي هو قاعدة التاج التي ترتكز على بقية أجزاء العمود . وذلك لأسباب فنّية تتعلق بالبناء وبعقد عقود سقوف المعابد. ثم أخذ يجعل التاج قطعة حجر تكون أوسع مساحة من مساحة القطعة من العمود الذي سيوضع فوقها ، أي أوسع من مساحة العمود نفسه ، وصار يزخرفه ويتفنن في زخرفته،حتى ظهرت عنده جملة تيجان أقيمت عليها سقوف المعابد والقصور .

وقد عثر على تيجان بسيطة هي عبارة عن حجر وضع فوق العمود ، ولكي يربط هذا التاج بالعمود ربطاً محكماً ، ويجلس فوقه جلوساً تاماً هندسياً ، فقد ربط بالعمود بوتد يقوم مقام المسمار في ربط أجزاء الخشب بعضها ببعض، يدخل في التاج وفي العمود ليربط بينهما ويجعلهما وكأنهما قطعة واحدة من حجر . وقد توضع بين التاج والعمود مادة بنائية لتشد بين الحجرين وتمسك بينهما ، فضلاً عن (المسمار) الذي يدخل في الثقب الموجود في الحجرين،إن كان ذلك (المسمار) متحركاً أي متنقلاً ، أو في الثقب المحفور في الحجر المقابـل ، إن كان ذلك (المسمار) أو الوتد ثابتاً وقد نحت في أحد الحجرين حتى صار مرتفعاً كقطب الرحي،ليدخل في التجويف المعمول في الحجر الثاني المقابل وبذلك يتماسك الحجران.

وقد وجد (كلاسر) تاج عمود ، ظهر أنه كان مؤلفاً من حجرين ، حجر مربع الشكل أطرافه قائمة الزوايا ، وأضلاعه الخارجية عدلة ، ثم حجر آخر أقيم تحته ، أي فوق العمود ، أطرافه الخارجية منحوتة نحتاً جعل الأطراف مائلة نحو العمود ، أي الى الجهة السفلى[1] . وربما كان هذا النوع من التيجـان مرحلة من

١ A. Grohmann, S., 210.

مراحل تكبير التاج وتطويله بجعله يتألف من جملة طبقات . كما عثر على تيجان جعلت جملة طبقات ، طبقة مصقولة ملساء ، وطبقة منحوتة ومزخرفة زخرفة هندسية أو بأشكال أخرى حسب ذوق المهندس المعمار الذي وضع تصميم المكان .

عثر على نماذج أخرى عديدة من التيجان ، تفنن في نحتها وفي تكوينها المعمار. وتمثل بعض منها شخصية ذلك المعمار تمام التمثيل . فهي مستقلة تمثل طابع العمارة العربية الجنوبية . ولكننا نجد بعض التيجان وكأنها تقليد ومحاكاة لتيجان أجنبية . فبينها تيجان تشبه تيجان أعمدة بعض معابد مصر التي تعود إلى ما قبل الميلاد ، ونجد بعضاً وكأنه محاكاة لتيجان يونانية أو رومانية أو فارسية أو حبشية . وقد ذهب بعض الباحثين إلى ان عدداً من تيجان الأعمدة الموجودة اليوم في بعض دور الحكومة بصنعاء،أو في المساجد أو في بعض البيوت هي من أيام الاحتلال الحبشي أو الساساني لليمن . ولا يستبعد أن يكون من بينها تيجان وأعمدة أخذت من كنيسة (القليس)[1] .

ولما كانت العربية الجنوبية على اتصال بالعالم الخارجي ، منذ عصور ما قبل الميلاد،وقد شهدت فتوحاً أجنبية ، كما كانت لها صلات تجارية مع الروم والإفريقيين والهنود والفرس ، فلا يستبعد استخدام العرب الجنوبيين للأعاجم في أعمال البناء، وتأثرهم بالأساليب المعمارية الاجنبية ، ولا سيما في أثناء الفتح الحبشي لليمن ، فقد ذكر أهل الأخبار أن الحبش استعانوا بفعلة من الروم في بناء (القليس) ، كما أن الروم كانوا قد شيدوا كنائس في عدن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب. وقد بنيت هذه الكنائس وفقاً لأسلوب الفن البيزنطي النصراني ولا شك . وقد كان بين الفرس من يحسن البناء ويتقنه ، كما كان لأهل العربية الجنوبية اتصال بالفرس قبل هذا الفتح ، وكانت فيها جاليات منهم ولا سيما في الأقسام الجنوبية الشرقية ، فأثروا بذلك في طراز البناء .

وما قلته من تفنن المعمار العربي الجنوبي في تنويع الأعمدة وتيجانها ينطبق أيضاً على القواعد التي أقيمت الأعمدة عليها . فبعد أن كانت قاعدة العمود أو الاسطوانة بسيطة ، لا تمتاز عن العمود بأي شيء ، بل كانت قطعة واحدة منه ، ليست لها عن بقية الأقسام أية ميزة ، رأى المعمار تمييزها عن بقية الأقسام ، فجعلها أوسع

---

١ A. Grohmann, S. 218, Sabaeica, I, 119. ff.

من العمود ، وأعطاها أشكالاً هندسية وزخرفية ميزتها عن العمود وعن تاجه . فنجد قواعد أعمدة على شكل مربع أو على شكل مستطيل أو على شكل دائري . ثم نجدها بسيطة تماماً ، ونجدها مزخرفة ومزوقة . ونجدها وقد نحتت على شكل تظهر وكأنها من طبقات مختلفة .

وعلى هذه الأعمدة والتيجان والاسطوانات أقيمت سقوف المعابد والقصور وبيوت السادات عقدت عقداً على نحو ما نراه في الوقت الحاضر من بناء المساجد وبعض الأسواق القديمة والأبنية الأثرية . ولا يستبعد استعمال أهل اليمن للقباب في معابدهم وفي قصورهم ، فمادة البناء متوفرة عندهم ، والإمكانيات الفنية موجودة عند المعمار العربي الجنوبي . عقدت على عقود وأقواس ينتهي مركز ثقلها بتيجان الأعمدة أو برؤوس الأعمدة على طريقة بنائهم للمساجد في هذه الأيام .

ولم تجر حتى الآن حفريات علمية واسعة في اليمن وفي بقية أنحاء العربية الجنوبية، كما أن دراسات المتخصصين الضليعين بعلوم العربيات الجنوبية قليلة ، ولهذا كان علمنا بالآثار العربية الجنوبية ضحلاً لا يعين على تكوين رأي علمي واضح صحيح في آثار تلك الأرضين وفي صلة الحضارة العربية الجنوبية بغيرها من الحضارات .

لقد وضع (كلاسر) مخططات تقريبية لبعض المعابد والأبنية القديمة في اليمن ، مثل معبد صرواح ومعبد (محرم بلقيس) حرم بلقيس ، وهو معبد إله سبأ الرئيس (المقه) وأماكن أخرى ، كما وضع غيره مخططات أخرى . ولكن هذه الدراسات تقريبية وغير كاملة . ولا بد من وقت للبحث في هندسة هذه الأماكن بحثاً علمياً دقيقاً . ومثل هذه البحوث لا تقوم إلا بحفريات عميقة منتظمة. توصلنا إلى أسس تلك الأبنية وما طمر في الأرض من آثار تتعلق بتلك الأماكن .

وقد تمكن المنقبون في هذا اليوم من تثبيت معالم بعض المعابد ولا سيما معبد (المقه) بمأرب ، حيث شخصوا بعض معالمه ، إلا أن تحديده بصورة مضبوطة واضحة ، وتعيين مواضع العبادة فيه ، تحتاج الى دراسات أثرية واسعة وبمقياس كبير . فقد أمكن مثلاً تنظيف بعض مواضع معبد (اوم) (اوام) بمدينة (مأرب) من الأتربة ، لتظهر معالمه ، وأمكن بذلك من الحصول على معلومات أثرية لا بأس بها عنه ، غير أن معارفنا عنه لا تزال قليلة ، لأن البحث العلمي لم يتم على هذا المعبد حتى الآن . وترى في الصورة بقايا الأعمدة التي كانت تحمل

سقوف المعبد ، كما تشاهد بعض بقايا جداره ، وهو من المعابد المهمة التي كانت في (مأرب) .

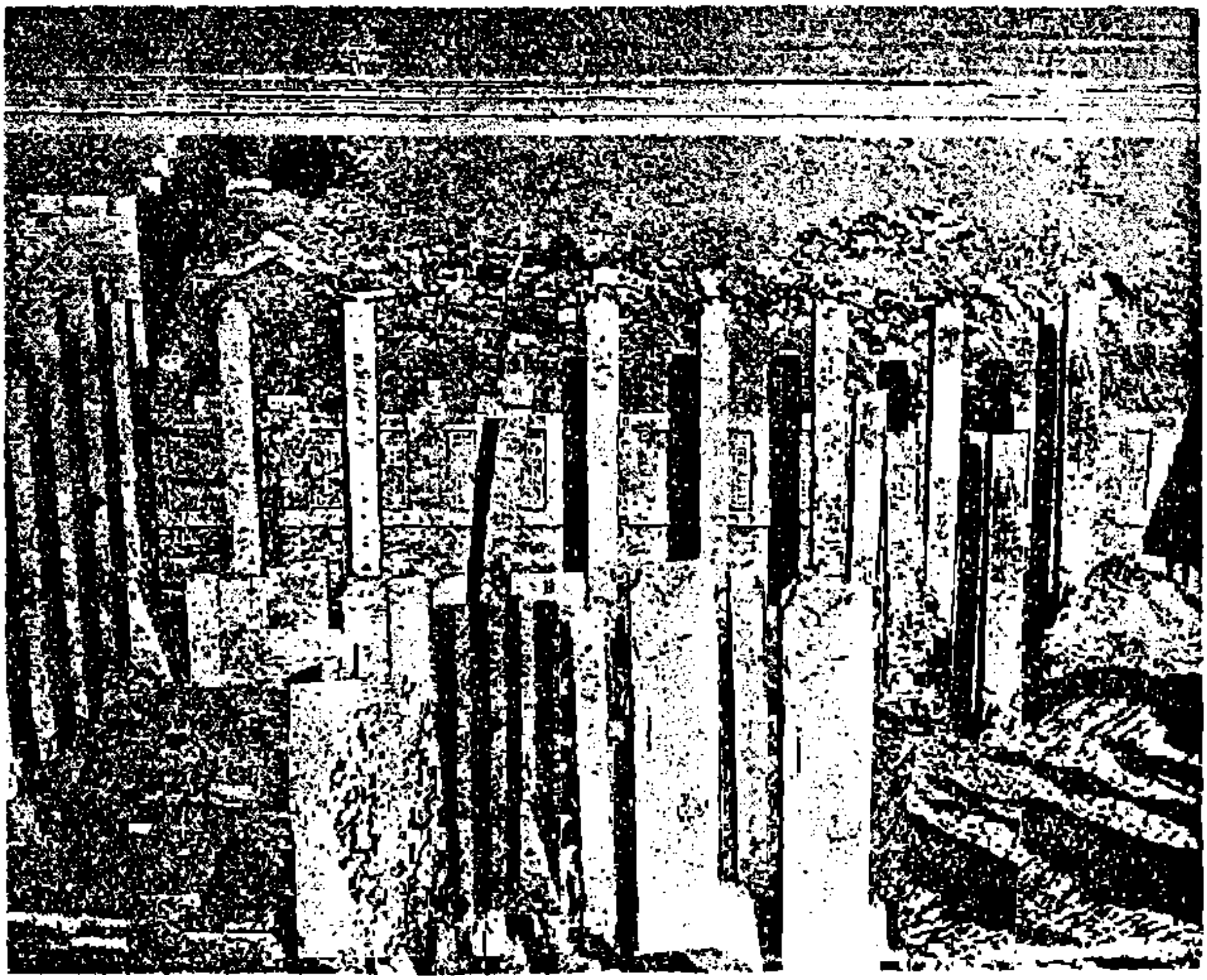

معبد أوام بمدينة مارب
من كتاب Qataban and Sheba (ص ٢٥٧)

وقد نسي اسم هذا المعبد القديم ، الذي كان يسميه السبئيون معبد (اوم) (أوّام) . وكانوا يتقربون اليه بالهدايا والنذور ، تقدم باسم رب هذا المعبد : (بعل اوم) . وهو (المقه) إلٓه سبأ الأكبر ، إلٓه القبيلة القديم. وهو القمر. ويسمى معبده في هذا اليوم بـ (حرم بلقيس) وبـ (محرم بلقيس) ، ويقع على مسافة ميلين تقريباً من قرية (مأرب) الحديثة . وتقع معظم ساحة المعبد وجدره وأبنيته تحت الرمال . وما لم ترفع هذه الكثبان الرملية عنه ، فإنه من المستحيل التحدث عنه حديثاً علمياً . وقد سرق الناس أحجار السقوف وأعالي جدار المعبد ، لاستعمالها في البناء ، ولما زار (كلاسر) المعبد ووصفه ، رأى سقف

المعبد ، أي البيت الذي يتعبد فيه ، وكذلك أعالي سوره ، وكانت زيارته لـه سنة (١٨٨٨ م) ، ولا نجد اليوم من آثار السقف وأعالي الجدران شيئاً ، بسبب سرقة الأحجـار ، ولولا الرمال التي غطت الأرض والجدران وساحة المعبد ، وحفظت في باطنها أحجارها وبعض الأعمدة الضخمة التي صعب على الناس قلعها، لما تبقى من حجارة هذا المعبد شيئاً .

جانب من معبد ـ أوام ـ
وترى أبوابا ونوافذ لقاعة
من قاعات هذا المعبد ٠
ويظن أنها ليست من أصل
المعبد بل أضيفت اليه ٠
من كتاب
Qataban and Sheba
(ص ٢٧٢)

وقد بني هذا المعبد في أيام (المكربين) ، وقد وجدت فيه كتابة تعود الى أيام المكرب (يدع ايل ذرح بن سمهعلي) مكرب سبأ . ويرى (البرايت) أنه حكم في منتصف القرن السابع قبل الميلاد . وربما كان هذا المكرب قد جدد بناء هذا المعبد الذي أقامه مكربون سبقوه في الحكم[1] .

ونجد في هذه الصورة بقايا جدار معبد (اوم) ، وبقايا نوافذ حجرية ، وقد تخللتها ثقوب لدخول الهواء والنور منها ، وقد نقشت وزخرفت . وقد جدد ورمم بناء المعبد مراراً ، وأضيفت عليه جملة زيادات ، كما يتبين ذلك من الكتابات التي عثر عليها المنقبون داخل المعبد، وقد دوّنت لمناسبات التجديد وادخال الإضافات، ثم من طراز الهندسة الذي نراه في البناء ومن تنوع الأحجار ومادة البناء .

وهذه صورة أخرى ، أخذت أثناء قيام بعثة (وندل فيلبس) بأعمال الحفر في معبد (اوام) وترى الأعمدة قائمة ، والعمال يشتغلون في إزاحة الأتربة التي طمرت ذلك المعبد القديم .

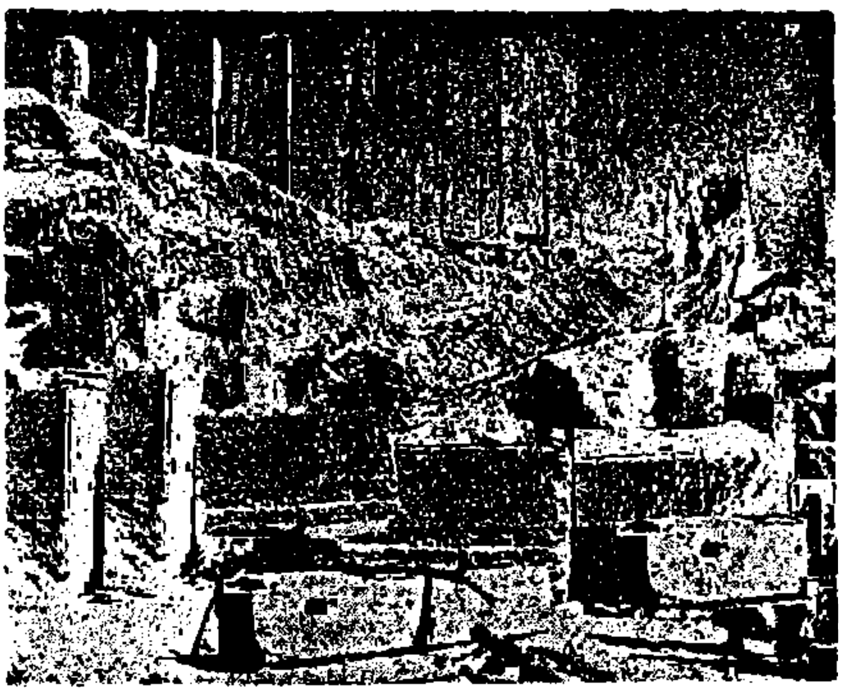

من كتاب : Qataban and Sheba (ص ٢٥٦)

---

١ راجع الصفحة (٢١٥ وما بعدها) من كتاب :
Archaeological Discoveries in South Arabia, 1958, by John Hopkins Press.
للوقوف على وصف هذا المعبد .

وهذه صورة أخرى لمعبد (اوم) (اوام) ، في أثنـــاء قيام بعثة (وندل فيلبس) بالحفر فيه .

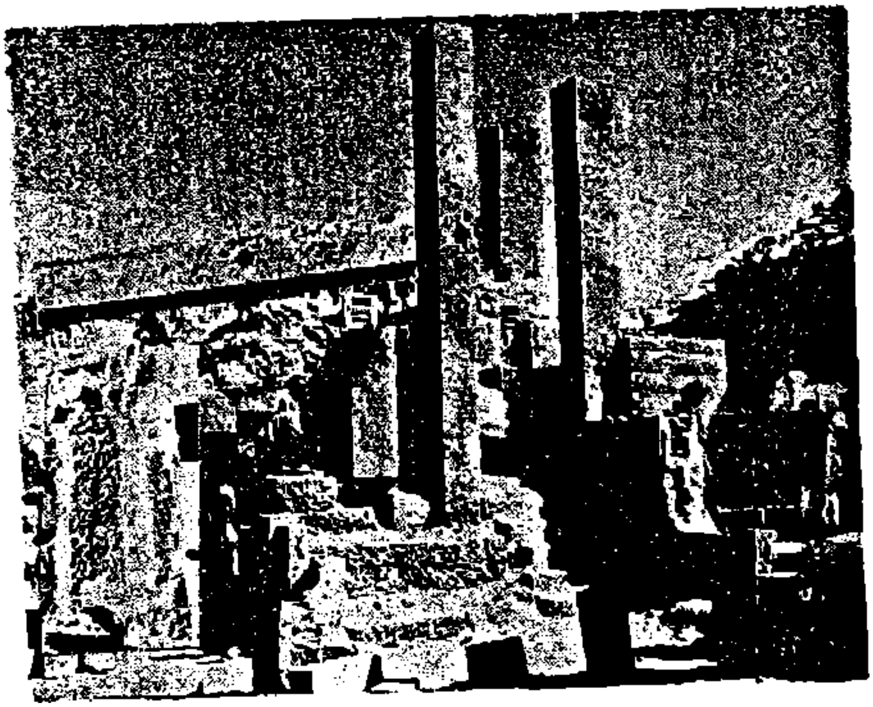

ونرى في هذه الصورة أعمال الحفر لبعثة (وندل فيلبس) وهي تجري في معبد (عثتر) بمدينة (تمنع) عاصمة قتبان. ويعود عهده الى القرن الأول قبل الميلاد .

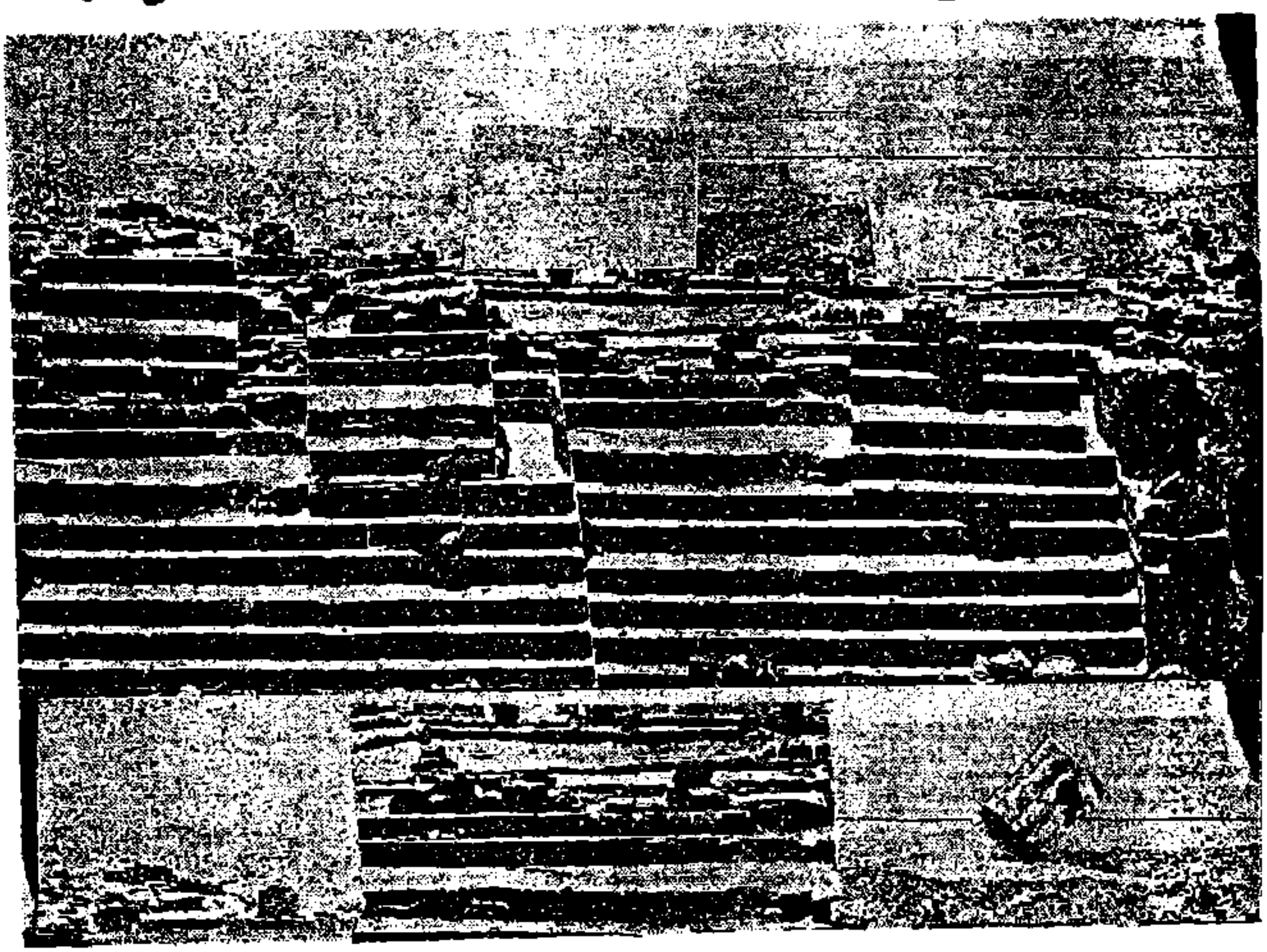

وتوجد في خرائب (مأرب) آثار معبد آخر خصص لعبادة (المقه) كذلك ، هو معبد (برن) (بران) . ويعرف موضعه بـ (العمايد) عند أهل مأرب الحاليين . وذلك لوجود أعمدة من أعمدته القديمة ظاهرة على سطح الأرض . ولم يقم العلماء بالتنقيب عن هذا المعبد المهم[1] .

ضريح أحد الائمة في مسجد الاشرفية بمدينة تعز
من كتاب : Günther Pawelke Jemen, (ص ٦٤)

وقد بقيت في العربية الجنوبية بقية من أصول الهندسة المعمارية الجاهلية ، تظهر معالمها في المباني الضخمة التي تكون بيوت الحكام والأسر الغنية ، والتي تضم في الغالب أحجاراً قديمة مكتوبة وغير مكتوبة ، وتراثاً قديماً موروثاً ورثه المعماريون من عرب ما قبل الإسلام . وترى في الصورة نموذجاً من الريازة القديمة المتمثلة في مسجد (الأشرفية) بمدينة تعز ، وهي ريازة أخذت من الفن الجاهلي . وترى الضريح ، وقد أقيم

---

١ Archaeological Discoveries in South Arabia, pp. 238, A. Jamme, Inscriptions de Al Amyid a Mareb, in Le Muséon, LXVIII, (1955), pp. 317, Jamme 534.

على طراز عربي قديم، لا يشبه الأضرحة التي توجد في البلدان العربية الأخرى، لاستمداده هندسته من هندسة الأضرحة القديمة في العربية الجنوبية .

وترى في هذه الصورة المأخوذة لجامع (الجندية) فناً ، يختلف عن فن بناء المساجد في العراق أو في بلاد الشأم ، فلعقود هذا الجامع ولأعمدته واسطواناته صلة بالأبنية العربية الجنوبية القديمة . وأنت إذا دققت في هذه الصورة ترى طراز بناء القسم الأيمن منها يختلف عن طراز بناء الجزء الأيسر منها،ومع ذلك فإن للطرازين صلة بالفن العربي الجنوبي . وترى سطح السقف ، وقد زين بأفاريز لها صلة بالأفاريز التي كان يعملها العرب الجنوبيون على مثل هـــذه المواضع من أسوار مدنهم ، وأبنيتهم الضخمة من دور وقصور .

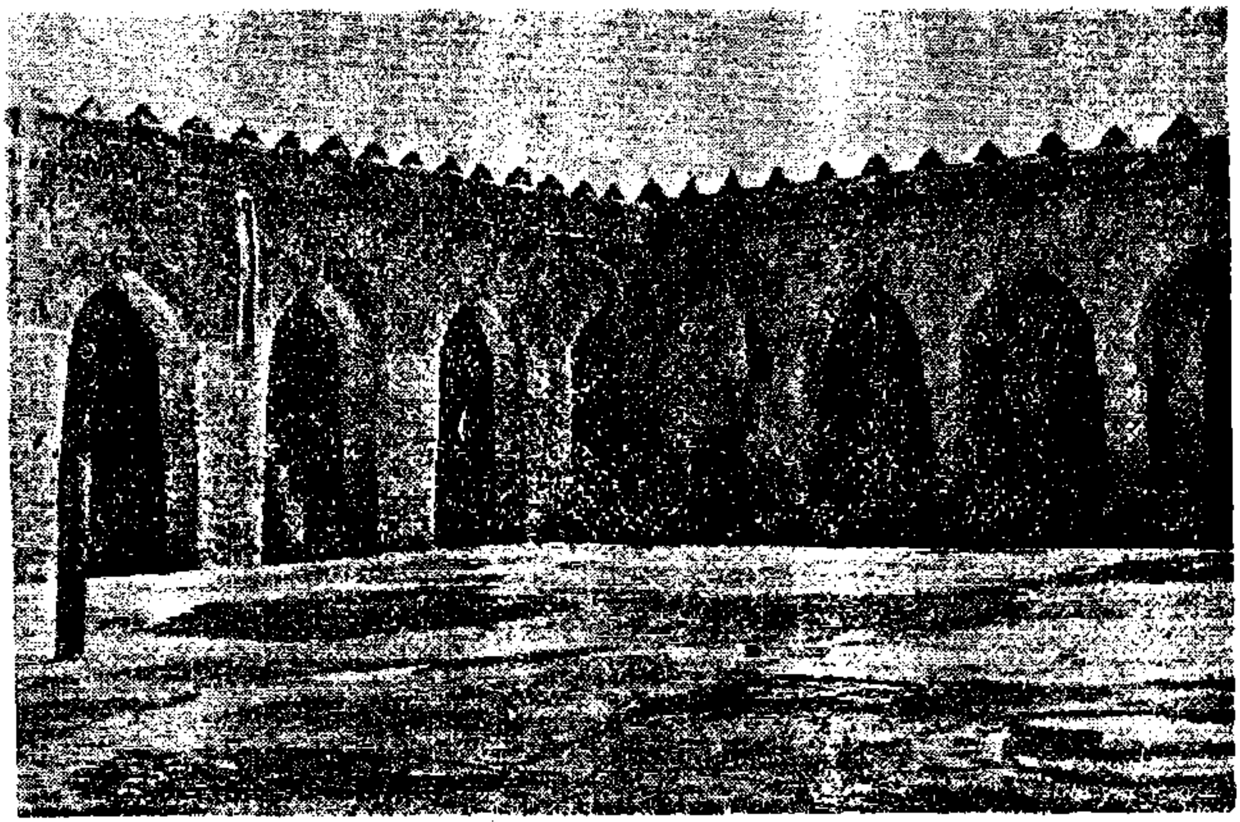

جامع الجندية

من كتاب : (Jamen, das Verbotene land)

لمؤلفه Günther Pawelke (ص ٩٦)

وترى في الصورة التالية التي هي صورة مسجـــد بمدينة (تعز) ، فناً ، له جذور وأصول قديمة ، استمد روحه من الفـــن العربي الجنوبي الذي يعود إلى

أيام ما قبل الاسلام . وهو فن له استقلال في الشخصية ، ومزايا تميزه عن الفن في المواضع الأخرى من جزيرة العرب. ونرى بعض قباب مساجد اليمن لها شخصية مستقلة ، ترشدنا إلى انها من أصل ذلك الفن اليماني العريق في القدم .

مسجد في تعز

من كتاب (Jamen, das Verbotene land)

لمؤلفه Günther Pawelke (ص٤٨)

وعندي إن من الواجب في هذا اليوم دراسة الفن المعماري القائم حالياً في العربية الجنوبية ، المتجلي في الأبنية القائمة الباقية التي لها طابع عربي جنوبي خاص ، من قصور ودور ومساجد وأضرحة ، ودراسة فن الزخرفة المتمثلة في النقش على الحجر ، من زخرف قديم وزخرفة حديثة ، ودراسة الأعمال الفنية السائدة اليوم، مثل النجارة والحفر والنقش والرسم وما شاكل ذلك، لأن مثل هذه الدراسة تساعدنا كثيراً في الوقوف على الفن العربي الجنوبي .

وقد أبدع أهل العربية الجنوبية في فن الزخرفة . و (الزُخرف) في تفسير علماء العربية الذهب في الأصل ، ثم سميت كل زينة زخرفاً ، ثم شبه كل مموه مزوّر به . وفي حديث يوم الفتح أنه لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنحّي وأمر بالأصنام فكسرت . الزخرف هنا نقوش وتصاوير[1] . ومن النقوش التي عثر

---

١ تاج العروس (١٢٦/٦) ، (زخرف) .

عليها في العربية الجنوبية نقوش حيوانات وأشجار وصور بشر حفرت على الأحجار أو المعادن أو الأخشاب ، وعلى ألواح من الجبس ، استعملت في أغراض مختلفة للزينة . ومنها أحجار منقوشة ، نقشت عليهـا عناقيد عنب وأغصان وأوراق ، وما شاكل ذلك . وجد علماء الآثار أن بعضاً منها يعود عهده الى القـرون الأولى من الميلاد[1] .

وإذا كانت المعابد شاهداً على الفن وعلى التفكير الديني لقوم مـن الأقوام ، فإن المقابر هي شاهد كذلك على وجهة نظر القوم الى العالم الآخر ، عـالم ما بعد الحياة . فما في القبر من أدوات وأشربة وطعام وآنية ، أو من بساطة وسذاجة ، تشير الى تفكير القوم في شكل الحيـاة الآخرة وفي كيفيتها وفي درجة تعلقهم وتمسكهم بالآلهة وبالدين .

وخير مثال على ذلك ، أهرامُ مصر وآثارها ، فإنها آثار قبورية ، تمثل مبلغ تغلغل الدين في نفوس الحاكمين وفي الشعب ، ووجهة نظرهم الى عالم ما بعـد الحياة . لقد أنفق الحاكمون على قبورهم أكثر مما أنفقوه على قصورهم في الدنيا . إن بهم – بعد الموت – حاجةً الى كل ما يحتاج اليه الإنسان في الحياة . ولهـذا ادخروه في هذه المقابر ، ليستفيد منها الميت بعد انتقاله الى العالم الآخر ورجوع الحياة اليه . أما العربي ، فلم يهتم بقبره اهتمام المصري به ، فلم يترك (المكربون) ولا الملوك ولا الأمراء ما تركه الفراعنة والكهان والأمراء في قبـورهم ، لا كله ولا بعضه . إنه لم يكن يحفل بالحياة الآخرة احتفال أهل مصر بها ، لذلك نجد قبره ساذجاً ، ثم هو لم يدخل فيه طعاماً ولا شراباً ولا أثاثاً ، ولم يدخل فيـه كذلك خدماً وحشماً من بقايا الحاشية المسكينة التي أدخلت الى القبر قسراً لتخدم سيدها في العالم الآخر ، كما خدمته في العالم الأول .

وقد يقال إن لفقر بلاد العرب دخلاً في ذلك ، ولكن ما بال أهل اليمن ، وقد كانوا في سعة وخير ، لا يفعلون في قبورهم بعض ما فعله أهـل مصر . وما بال قبور ملوكهم ساذجة ، لا تحوي ذهباً ولا حجارة كريمـة ولا تصاوير وتماثيل وتوابيت وجثثاً للضحايا التي تدفن مع الميت ؟ إن ذلك ، إن دلّ عـلى شيء ، فإنما يدل على اختلاف في وجهة نظر القوم عن وجهه نظر المصريين مثلاً

[1] Beiträge, S. 18.

عن الحياة الآخرة . ونحن لا نتكهن في الزمن الحاضر عن وجهة نظرهم في ذلك الزمن ، لعدم وجود كتابات جاهلية أو آثار تتحدث عن تلك الحياة .

وإذا قلنا إن تلك القبور كانت ساذجة خالية من الكنوز التي نجدها الناس في اهرامات مصر ، فإن ذلك لا يعني ان قبور الجاهليين ، كانت كلها خالية من النفائس تماماً. فقد عثر في بعض منها على أساور من ذهب وخواتم وتماثيل وجرار بل وعلى سيوف وخناجر وسكاكين ، وضعت مع الميت في قبره، كما يروي أهل الأخبار ان بعض الجاهليين كانوا يتعقبون المقابر القديمة، فينبشونها لاستخراج ما فيها من أشياء نفيسة ، حتى ذكروا ان ثراء (عبدالله بن جدعان) انما كان من المقابر القديمة التي كانت بمكة [1] ، ورووا قصصاً عن قبور زعم ان الناس عثروا فيها على كنوز ، وقد سبب هذا القصص إقدام الناس على نبش المقابر الجاهلية لاستخراج ما قد يكون في جوفها من ذهب وكنوز ، مما أفسدها وأزال معالمها وأضاع علينا تراث الجاهليين .

وقد ذكر (أبو علي لغدة) الأصفهاني ، ان « بجلدان هضبة سوداء ، يقال لها بتعة ، وبها نُقُبٌ ، كل نقب قدر ساعة، كانت تلتقط فيه السيوف العادية، والخرز ، يزعمون أن فيه قبوراً لعاد ، وكانوا يعظمون ذلك الجبل » [2] .

وقد عثر على بعض المقابر الجاهلية في العربية الجنوبية ، ظهر منها ان القبور ساذجة لا تكلف فيها ولا تعقيد في الغالب . ولكنها مختلفة باختلاف الأرضين والقبائل وطبيعة الأرض . فقد عثر على قبور اتضح منها ان الجاهليين في بعض أماكن من اليمن ، وضعوا الميت في تابوت قائم الزوايا ، مصنوع من الحجر ، وقد غطي بغطاء من الحجر كذلك . ومثل هذه القبور لا تكون في العادة إلا في الأماكن التي تتوفر فيها الحجارة. أما في الأماكن الصحراوية والترابية التي لا تتوافر فيها مثل هذه الحجارة ، فلم يكن من الممكن وضع الميت في مثل هذا التابوت ، ولهذا كانوا يدفنونه في الأرض في لحد ، ثم يهال على الميت التراب . وقد عثر على جملة قبور تكوّن مجموعة واحدة يحيط بها حائط معقود بالحجارة يتراوح ارتفاعه من متر إلى خمسة أمتار . وهي مدافن أسرة واحدة في الغالب . وقد أشير إلى

---

١ الروض الانف (٢/٩٢ وما بعدها) .
٢ بلاد العرب (١٣ ، ٣٠) .

أمثال هذه المقابر في الكتابات . كما عثر على قبور هي غرف نحتت في الصخور، وقد كُتب على باب الغرفة ، أي القبر ، اسم صاحب القبر أو أسماء المدفونين في الغرفة [1] . وقد وصف (هريس) بعض هذه القبور [2] .

وعثر على بقايا مقبرة خارج سور مأرب من ناحية الشمال والغرب ، تبين من فحصها ودراستها ان بعض الموتى قد دفنوا وقوفاً ، وبعضهم قد دفنوا على الطريقة المألوفة أي اضطجاعاً على الأرض. ومن هذه المقبرة العامة الجاهلية حصل (كلاسر) على عدد كبير من شواهد القبور ، التي وضعت فوق قبور أصحابها لتدل عليهم ولتشير إلى صورة صاحب القبر واسمه [3] .

وقد عثر في معبد (اوم) (اوام) ، المعروف بمحرم (بلقيس) ، على مقابر ، لها أبواب تؤدي اليها . ذات غرف ، اتخذت مواضع لوضع الجثث بها . وجد أن بعضها كانت مقابر للمكربين وللملوك ، فقد عثر على اسم (سمه علي ينف) (سمهعلي ينف) (سمه علي ينوف)،مكتوباً على حجر في أحد القبور، وعثر على اسم آخر هو : (يثع امر بين بن يكرب ملك وتر) وهما من الملوك الذين اعتنوا بهذا المعبد ، فأضافوا اليه اضافات، ولعلّ الحفريات المقبلة ستكشف عن أسماء ملوك آخرين قبروا في هـذا المعبد الكبير ، الذي كان المعبد الرئيسي لشعب سبأ في عاصمته مدينة مأرب (هجرن مربن) ، (هجرن مرب) .

وقد عثر في هذه المقابر على مباخر ، يظهر أنها استخدمت لتبخير القبر عند دفن الموتى ، وفقاً لطقوسهم الدينية ، كما عثر على قطع من الأحجار الكريمة وبعض المصوغات المعمولة من الذهاب ، ونظراً لوجودها مبعثرة ، يظن أن الأيدي قد عبثت بها ، فنهبت ما كان أهل الموتى قد دفنوه مع الميت من أشياء ثمينة [4] .

ووصف (فون ريده) نوعاً من الأضرحة وجده في (صهوة) بحضرموت . وقد وصفه بأنه بناء على هيأة مكعب ، طول كل ضلع منه زهاء ٢٥ قدماً ، وبارتفاع مماثل . وقد شيد من حجارة مربعة كبيرة ، ويبلغ سمك حائطه قدمين.

---

١ Handb. der altar. alter., I, S. 162.

٢ W.B. Harris, A Journey through The Yemen, London, 1893, p. 273.

٣ Wissmann-Höfner, S. 28.

٤ Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 235

وهو مقسم في الداخل الى قسمين . يكون القسم الواحد غرفة يفصل بينهما حائط يبلغ ارتفاعه ست أقدام من مدخل البنـاء . ويتكون السقف من حجارة عرضها قدمان. ونجد في جوانبه ثلاثة أهرام للزخرفة . وعلى البناء كتابة قبورية تشير الى القبر[1] .

ولتخليد ذكرى صاحب القبر ، ولوقوف الناس عليه، استخدم العرب الجنوبيون كغيرهم شواخص قبور ، هي عبارة عن أعمدة من الحجر رباعية أو غير رباعية يكتب في أعلاها اسم المتوفى . وقد يصور تحت الكتابة صورة تمثل الميت ، أو ترمز إلى شيء ديني . وقد عثر (كلاسر) على عدد من هذه الشواهد القبورية في مأرب[2] .

وقد تكون الشواخص على هيأة صخور مستطيلة ، يكتب عليها اسم صاحب القبر . وقد تزخرف هذه الصخور . وتنتهي الكتابة بلفظـة (صلم) في بعض الأحيان ، بمعنى صنم ، أي صورة ، ويراد بها صورة المتوفى ، أو الرمز الدال على شيء مقدس . وقد تدوّن الكتابة في القسم الأسفل من الشاهد ،وتحفر الصورة في القسم الأعلى منه . وعثر كلاسر أيضاً على نوع آخر ساذج من الشواهد، هو عبارة عن نصب يشتمل على الكتابة وتحتها عينان فقط[3] . وتثبت هذه الشواهد في الأرض . وقد وجد لبعضها حافة رقيقة كحد السكين ، وذلك لتسهيل تثبيتها في الأرض ، ومقاومتها لعبث الهواء والآفات الأخرى فيها[4] .

ويقال للقبر (مثبر) و (هقبر) (القبر) في اللحيانية[5] . وقد عثر المنقبون على أحجار قبور ، كتبت عليها اسماء الموتى ، وصورت عليهـا صور تشير الى الميت ، وحفرت عليها بعض الرموز والإشارات المستعملة في طقوسهم الدينية .

وقـد وجدت في المقبرة الملكية لملوك أوسان تماثيل لبعض ملوك هذه الأسرة الصغيرة التي حكمت مملكة أوسان ، وقد كتبت على قاعدة التماثيل أسماء الملوك ، ويتبين من وجودها في هذه المقبرة ، أن آل الميت دفنوا مع الملك المتوفى تمثالاً

---

١ A. von wrede, Reise in Hadhramaut, S. 245.

٢ Handb-der altar-alter, I, S. 163, Wissmann-Höfner, S. 28

٣ D.H. Müller, Südarrabische Altertuner, S. 50.

٤ Handb-der altar-alter. I, S. 164.

٥ النص رقم ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ من كتاب : W. Caskel, S. 99, 133.

له ، ربما ليدل على قبره . وكتب لذلك عليه اسمه ليعرف ، ولم يعثر على مواد أخرى ثمينة،ويظهر أنها كانت موجودة غير أن السرّاق سرقوها،فلم يبق فيها غير ما فات عنهم ، فلم يصلوا اليه. وقد موّنت المقابر الأخرى التي سلمت علماء الآثار والباحثين بألواح من الحجر ، نحتت عليهــا صور المتوفين ، فوضعت شواخص على القبور ، ليعرف بالشاخص صاحب القبر ، كما عثر على مثل هذه الشواخص في باطن القبر ، مما يدل على أنها دفنت مع الميت في القبر .

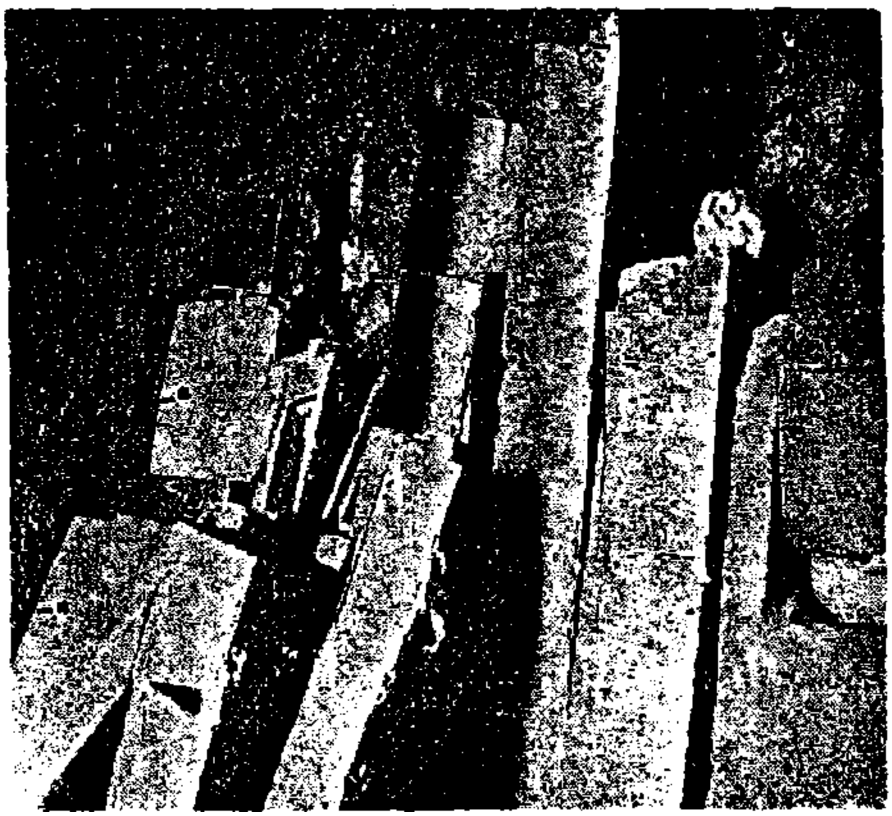

شواخص قبور حاول صانعوها ابراز معالم أصحابها
وقد أبدعوا في بعضها وخابوا في البعض الاخر .
من كتاب : Qataban and Sheba (ص٢٢٤)

ونرى في الصورة التالية تماثيل صغيرة استخرجت من مقبرة قديمة ، ويلاحظ ان الأنف دقيق ، وقد حفرت العيون حفراً ، وجعلت واسعة نوعاً ما في بعض التماثيل . وقد نقرت بعض هذه القبور نقراً في الصخور ، وهي صغيرة لا تتسع إلا لميت واحد ، ولكن المنقبين وجدوا مقابر جماعية ، تضم أفراد العائلة الواحدة .

تماثيل عثر عليها في مقبرة قديمة
من كتاب « Qataban and Sheba » (ص١١٧)

وعثر في المقابر التي ضمت جدث نساء على أقراط وحلى نسائية ، وعلى أشياء أخرى تستعملها المرأة . وقد أمكن بواسطتها من تشخيص صاحبة القبر ، ومن الوقوف على مكانة أسرتها ومنزلتها . وتوجد بعض الحلى في المتاحف ، وهي

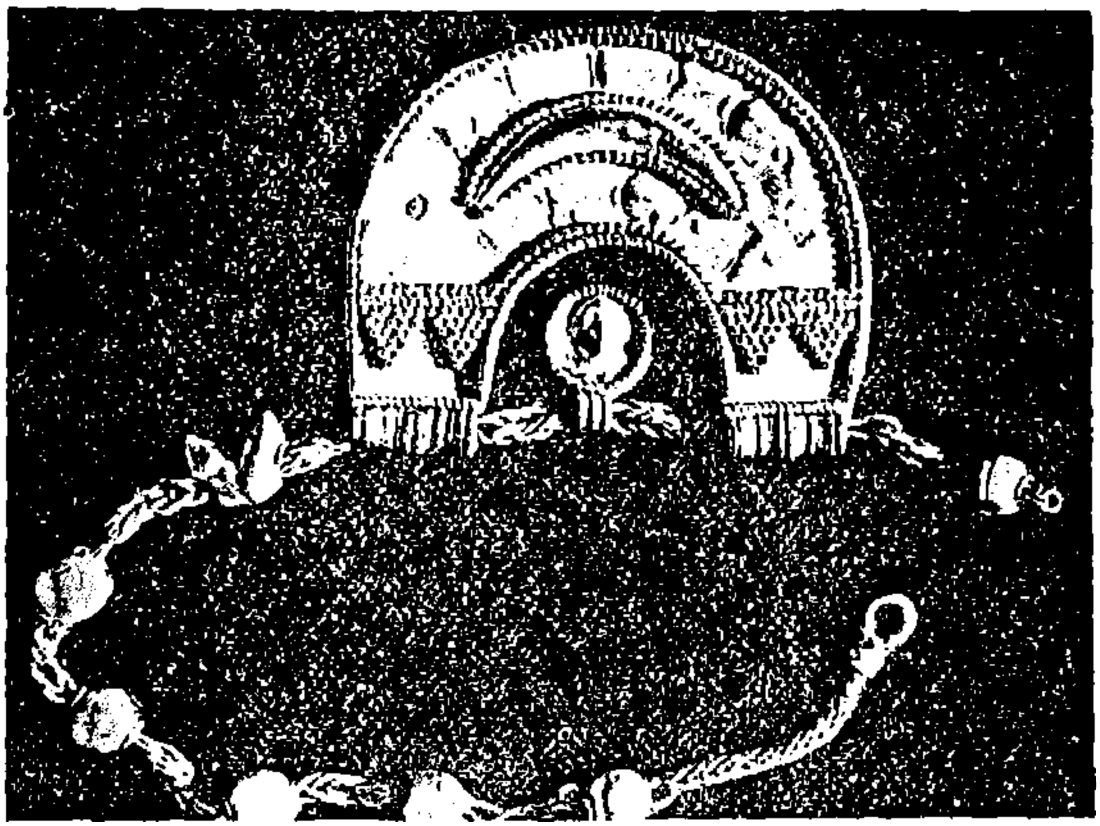

قلادة من الذهب الخالص تعود الى القتبانيين ، عثر عليها في مقبرة قديمة عند «تمنع»
من كتاب : « Qataban and Sheba » ص(١٠٦)

جميلة تدل على مهارة (الصائغ) العربي الجنوبي. وفي جملة ما عثر عليه قلادة، عمل القسم الرئيسي منها على شكل هلال، بداخله زخارف، كما ترى في الصورة السابقة التي عثر على أصلها في مقبرة قديمة من مقابر (تمنع) عاصمة قتبان .

ووجدت مصوغات أخرى من ذهب، لا يزال الصاغة يصوغون من أمثالها في العربية الجنوبية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب. منها ما يعلق على الرأس، ومنها ما يعلق على الرقبة، ومنها ما يوضع على الزند أو المرفق أو الأرجل، ويلاحظ ان لفن الصاغة في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية طابع خاص يميزه عن فن الصاغة في البلاد الأخرى. وقد وضع الصاغة شعارات دينية على بعض المصوغات تيمناً وتبركاً بها. ولهذا فمن المستحسن مقارنة المصوغات الحالية مع المصوغات الجاهلية التي عثر وسيعثر عليها، للتوصل بهذه المقارنة إلى معرفة تأريخ هذه الحرفة عند العرب.

وقد وجدت مجامر قديمة في مواضع متعددة من اليمن. وقد استعمل بعضها في المعابد، واستعمل بعض آخر في البيوت حيث يحرق فيها البخور أو بعض الأخشاب ذوات الروائح الطيبة العطرة لتطييب القادم. ولا تزال هذه العادة المعروفة قبل الاسلام مستعملة في اليمن، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب، كما في (بيشة) مثلاً، وذلك على سبيل التقدير والتكريم والاحترام[1] .

---

[1] في بلاد عسير : (ص ٦٢) .

الفصل الثامن عشر بعد المئة

الخزف والزجاج والبلور

الخزف : ما عمل من الطين وشوي بالنار فصار فخاراً ، وبائعه الخزّاف[1] .
والفخّار : الخزف . وذكر انه ضرب من الخزف تعمل منـه الجرار والكيزان وغيرها . وورد في القرآن الكريم : « من صلصال كالفخار »[2] .

والفخارة من الخزف المعروفة عند الجاهليين . ومادة الفخار الطين يسوّى على الشكل المطلوب . فإذا جف ، فخر بالنار . وأواني الشرب أي الجرار هي من أكثر الفخار استعمالاً حيث يوضع فيها الماء ، والكيزان[3] . واستعمل الفخار لخزن المواد الغذائية أيضاً ، ولحفظ الأشياء الثمينة مثل الذهب والنقود والحلي، ولأغراض أخرى عديدة ، ويكون في كل الأماكن الأثرية مادة مفيدة للآثاريين .

وقد ذهب بعض علماء اللغـة إلى ان (الكوز) لفظة معربة ، عربت عن الفارسية ، وذهب آخرون إلى انها عربية أصيلة[4] ، وصانعها هو (الكوّاز) .
وعرف الخزف بأنه كل ما عمل من طين وشوي بالنـار حتى صار فخاراً . أما صاحبه ، فهو الخزّاف[5] .

---

١ اللسان (٩/٦٧) .
٢ الرحمن ، الاية ١٤ ، اللسان (٥/٤٩ وما بعدها) .
٣ شرح القاموس (٣/٤٦٦) .
٤ شرح القاموس (٤/٧٦) .
٥ شرح القاموس (٦/٨٤) .

وقد عثر على جرار على هيأة (التومة) ، أي ذات عنق طويل ، وأما أسفلها فواسع ، في مواضع متعددة من جزيرة العرب وفي بلاد الشأم . وتعرف بـ (بقبق) و (بقبقة) . وهي (بقبق) (بقبوق) في العهد القديم[1] .

وللتربة أهميـة كبيرة في صنع الخزف ، ولهذا اشتهرت بعض المواضع ذات التربة الجيدة بجودة فخارها ، فكانت تصدره الى أماكن أخرى . كما أن للعناية التي يبذلها الفخار في عجن الطين وفي تنقيته من الشوائب أهمية كبيرة في صناعة الفخارة .

ولم يشر أهل الأخبار الى الآلات التي يستعين بها الخزاف والكواز الجاهلي في صناعته . ولكن سكوتهم هـذا لا يكون دليلاً بالطبع على عدم استعانة الفخار والكواز بالآلات ، فليس من المعقول صنع أنواع الفخار بغير آلة . فإن عملها باليد وبغير آلة ، أمر يكاد يكون صعباً . وكل الخزف الذي عثر عليه ، يدل على أنه صنع بآلة ؛ لأنه على شكل منتظم . والآلة التي يستخدمها الخزاف في صناعته ، هي دولاب يدير قرصاً من الخشب ، يوضع عليه الطين ثم يحرك ، فيدور القرص ويدور الطين الذي عليه معه ، ويعالجه الخزاف بيده ليعطيه الشكل الذي يريده . ولصنع خزف جيد لا بدّ من العناية بالطين ، فيختـار ترابه من تربة جيدة خالية من الأملاح والرمال ، ثم يعجن بعناية ، ويترك مـدة ليختمر جيداً . وإلا كان الخزف رديئاً . وقد يدهن الخزف بعد جفافه بدهن ملون أو ينقش بنقوش ، ثم يفخر بالنار .

واستخدم (الأتون) ، لتحويل المواد التي صنعها الخزاف من الطين الى خزف. والأتون هو (كورة) في أسفله موقد توقد فيه النيران ، فيرتفع لهيبها وتصعـد حرارتها من خلال فتحات تكون في قاع الأتون الذي هو سقف الموقد الى أعلى مارة بين مصنوعات الطين الموضوعة في باطن الأتون لتشويها فتتحول بـذلك الى خزف وفخار . وتكون الأتونات مرتفعة لها فتحة في أعلاها وفتحة في الجانب تغلق أثنـاء العمل ، وتفتح بعد نضوج الخزف والفخار . ولا يزال الخزافون والفخارون يصنعون بضاعتهم بهـذه الأتونات على النحو المذكور . ويذكر علماء

---

١ ارميا ، ١٩ ، ١١٠ ، Ency. Bibl. Vol. I, p. 600.

العربية أن الأتون لفظة معربة . وأنها تطلق على أخدود الجيار والجصاص وأتون الحمّام[1] .

وقد كان الجاهليون يدهنون الجرار أحياناً ، لسدّ مساماتها لمنع السوائل من السيلان منها ، فكانوا يضعون النبيذ فيها مثلاً والسمن وامثالها . وصانعها هو الجرّار[2] . وقد كان أهل يثرب يحملون الخمر في جرار حمر ، يطلقون عليها اسم (الحنتمة) ، وذكر ان (الحنتم) الخزف الأخضر أو كل خزف[3] . وورد : الحنتم جرار مدهونة خضر كانت تحمل إلى المدينة فيها الخمر ثم اتسع فيها فقيل للخزف كله حنتم . وقد نهي عن الدباء والحنتم . وانما نهي عن الانتباذ فيها لأنها تسرع الشدة فيها لأجل دهنها . وقد أشير اليها في شعر للنعمان بن عدي :

من مبلغ الحسناء أن حليلها بميسان يسقى من رخام وحنتم[4]

وطالما استعملت الجرار لخزن الأشياء النفيسة فيها مثل الذهب والنقود والحلي وما شاكل ذلك ، إذ توضع هذه الأشياء في داخل جرة ثم تسد وتدفن حتى لا يقف عليها اللصوص والطامعون في المال . وقد عثر الجاهليون والمسلمون على كنوز كانت مخبأة في جرار طمرت تحت التراب .

والقلال من صنع الخزاف . وعرفت القلة بأنها الحب العظيم ، وقيل الجرة العظيمة ، أو الجرة عامة . وقيل الكوز الصغير . وذكر انها إناء للعرب كالجرة الكبيرة ، إلى غير ذلك من آراء ، يظهر من غربلتها ان القُلة جرة كبيرة،بدليل ما ورد عنها في الحديث من اشارات تفيد كلها ان القُلة كبيرة . وقد اشتهرت (هجر) بقلالها ، فقيل (قلال هجر) . وهجر قرية قريبة من المدينة،وليست هجر البحرين . وكانت تعمل بها القلال . واشتهرت الأحساء بقلالها أيضاً[5] .

وعرف (الحُب) بالجرة الضخمة وبالخابية ، وبأنه الذي يجعل فيه الماء . وذكروا

---

١ اللسان (٧/١٣) .
٢ تاج العروس (٩٢/٣) .
٣ المغرب (ص ١٤٢) ، « الحنتم : الجرار الخضر ، كانوا يحملون فيها الخمر » ، جامع الاصول (٥٠٠/٥) .
٤ تاج العروس (٢٦٤/٨ وما بعدها) .
٥ اللسان (٥٦٥/١١) .

أنه فارسي معرب[1] . وعرفوا (الخابية) بالحُب ، سمي بالخابية لأنه يستر الشيء ويخفيه[2] .

وقد عثر المنقبون على قلل وجرار وكؤوس من خزف ، وجدت على بعضها كتابات ، عثر على كثير منها في المقابر ، مما يدل على أنها دفنت مع الموتى في القبر . وقد يستنتج من ذلك أن أصحاب الموتى كانوا يتصورون أن موتاهم سيحتاجون اليها فى حياتهم الثانية لشرب الماء بها ، ولذلك دفنوها معهم ، وقد يدل دفنها معهم ، على أنهم أرادوا بذلك وضع ما كان يستعمله الميت في حياته لإظهار تقديرهم للميت ، وأنهم يتنازلون عنها إليهم ، ولذلك دفنوا معه حليّه وسلاحه وما كان عزيزاً عنده ، فقد عثر في المقابر على رؤوس حراب ، وعلى سيوف وخناجر ، وسكاكين ، ولا يعقل دفن هذه الأشياء مع الميت وفي قبره عبثاً ، بل لا بد وأن يكون لهم رأي فيه .

وقد استعملوا القدور المصنوعة من الحجر ، كقدور (البُرَم) المصنوعة من حجر صلد قوي يستخرج من موضع يسمى (المعدي) لا يبعد كثيراً عن الطائف[3].

والأعراب أقل من أهل المدر استعمالاً للفخار ، وذلك بسبب وضعه وطبيعة حياته . فالفخار ثقيل وهو سهل الكسر ، ويجب بذل عناية في حفظه ، وحياة الأعرابي حياة تنقل ، ولا توجد لديه أوعية لحفظ الفخار من الكسر ، ولهذا استخدم الأدوات المصنوعة من الجلود والمعدن والخشب بدلاً من الفخار .

ومن أواني الشرب (الراقود) ، وهو دنّ ، يسيع باطنه بالقار . وذكر (الجواليقي) ان اللفظة من الألفاظ الفارسية المعربة[4] . و (القافزة) ، وهي (القاقوزة) و (القازوزة) . وهي مشربة أو قدح ، أو الصغير من القوارير والطاس[5] .

---

١ اللسان (١/٢٩٥) .
٢ اللسان (١/٦٢) .
٣ ابن المجاور (١/٢٥) .
٤ المعرب (ص ١٦٠) ، تاج العروس (٢/٣٥٦) .
٥ المعرب (ص ٢٧٣) .

أدوات مصنوعة باليد ، تمثل كفاءة وقدرة العامل اليماني ودقته في الصنعة
من كتاب « اليمن » « Yemen » لمؤلفه : « Günther Pawelke » (ص ١٦١) .

ولا بد أن يكون بين الجاهليين أناس تخصصوا بصنع الزجاج وعمله ، فقد عثر على أواني معمولة من الزجاج وعلى قطع زجاج . وقد ذكر علماء اللغة أسماء أدوات من الزجاج ، مثل (الباطية) ، وهو إناء واسع الأعلى ضيق الأسفل[1] . وذكر بعض العلماء أن الباطية شيء من الزجاج عظيم ، يملأ من الشراب ويوضع

---

١ المعرب (ص ٨٣) .

بين الشَّرب يغرفون منها[1] وهو (الناجود) على رأي بعض علماء اللغة [2] . وتصنع الأقداح والقوارير والقناديل والأسرجة من الزجاج أيضاً ، والمصباح ، هو السراج يصنع من الزجاج كذلك ، وفيه موضع لوضع الفتيلة عليه ، لتأخذ وقودها الذي يساعد على إدامة اشتعالها منه . وهذا الوقود هو الزيت[3] .

وقد ذكر الزجاج في القرآن الكريم: « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح،المصباح في زجاجة،الزجاجة كأنها كوكب درّي يوقد من شجرة مباركـــة »[4] . وذكر علماء اللغـــة أن الزجاج : القوارير ، وان الزجاجة القنديل[5] . وأن القوارير : أواني من زجاج في بياض الفضة لصفائها [6] .

والمصباح : السراج ، وهو قرطه الذي تراه في القنديل وغيره [7] . وعرف السراج ، بأنه المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل ، والمسرجة التي فيها الفتيل[8] .

و (القنديل) ، لفظة معربة ، عربت عن اللاتينية من لفظة Candela . وتعني مصباح وسراج ونبراس . وتقابل لفظة (نبراس) لفظة (نبرشتا) Nebrastha في لغة بني إرم . ولفظة (منوراه) (منوره) Manorah في العبرانية[9] .

والقنديل ، لفظة أعجمية تخصصت بالمصابيح المحمولة . وقد يعلق القنديل وقد يتصل برجل تحمله . وتقابله لفظة (نبرشتا) في لغة بني إرم . أي (النبراس) في عربيتنا . و (منوره) (مينوره) في العبرانية . وقـد أشير إلى القناديل في التوراة . وتستعمل في المعابد وفي بيوت الأغنياء . وقد تصنع من الذهب والفضة والبرونز ، على أشكال متنوعة [10] .

---

١ المغرب (ص ٤١) .
٢ شرح القاموس (١٠/٣٧) ، (٢/٥١١) .
٣ شرح القاموس (٢/٥٢ ، ١٧٥) .
٤ النور ، الاية ٣٥ .
٥ اللسان (٢/٢٨٧) .
٦ اللسان (٥/٨٧) .
٧ اللسان (٢/٥٠٦) .
٨ اللسان (٢/٢٩٧) .
٩ Ency. Bibl. Vol. I, p. 644.
١٠ شرح القاموس (٨/٨٨) ،
Ency. Biblt. Vol. I, p. 644, ff. Hastings, Vol. I, p. 348.

ومن مصنوعات الزجاج (المرآة) . وهي (مرات) في العبرانية أيضاً . وقد صنعت من المعادن المصقولة كذلك مثل النحاس. ووردت في التوراة لفظة (هجلونيم) فسرت بمعنى (مرآة اليد)[1] ، وتعني (المجلاة) في عربيتنا . والكأس ، هو إناء الشرب ، يشرب به . ويصنع من مواد مختلفة فقد يكون من الزجاج وقد يكون من معدن مثل الذهب أو الفضة أو الحديد وقد يكون من فخار . ويقال له (كوس) عند العبرانيين[2] . وقد ينقش ويحلى بزخارف وباللؤلؤ والحجارة الكريمة . وقد ذكر (الكأس) في القرآن الكريم .

والراووق ، المصفاة ، وقيل : الباطية والناجود . وذكر بعض علماء اللغة ان الراووق الكأس . وقد وردت اللفظة في شعر لعدي بن زيد العبادي :

قدمته على عقار كعين الديك صفى سلافَهُ الراووقُ[3]

وقد عرف أهل العربية الجنوبية (البلور) لوجوده في اليمن وفي أماكن أخرى. وهم يستخرجونه من نوع خاص من الحجر ويصقلونه بعناية ، والغالب عليه اللون الأبيض غير ان بعضه ذو ألوان أخرى ، هو لون الحجر الذي أخذ منه .

ولا يزال أهل اليمن يمارسون صقل الحجارة الكريمة التي يستخرجونها من بعض الجبال ، مستعملين في ذلك الماء والتراب الناعم على حجارة رملية ويصنعونها بأشكال مختلفة ويستعملونها في صنع الحلي . وهي ذوات ألوان متعددة : بيض وسود وخضر وزرق وصفر وحمر ، ومنها ما يجمع عدة ألوان متمازجة . ويعد جبل نقم وجبل الغراس من أهم المواطن التي تستخرج منها مثل هذه الحجارة على مقربة من صنعاء[4] .

وقد عُني العرب الجنوبيون بشق الطرق وتمهيدها ، وبعمل القناطر والجسور وقد بلطوا بعض الطرق بالحجارة وبمادة تشبه (السمنت) ، وترى اليوم بقايا قناطر عملوها في الأودية للعبور عليها ، وقد دمر الكثير منها بسبب الحروب

---

١ Hastings, Dict. Vol. II, p. 181.

٢ Hastings, Dictl. of the Bible, Vol. I, p. 533.

٣ شرح القاموس (٣٩٣/٦) .

٤ العظم (الصفحة ١٣٦) .

والاهمال . ونرى في الصورة بقايا قنطرة جاهلية وقد تطرق اليها الخراب من كبر العمر . وقد عملت على وادٍ يفصل بين الجبال .

منظر طريق جبلي قديم
من كتاب : Jemen (ص ١٣٦)

الفصل التاسع عشر بعد المئة

الفنون الجميلة

وبين الآثار التي عثر عليها الرحالون ، أو نقلت إلى بعض متاحف الغرب ، عدد من التماثيل والصور المنحوتة على الحجارة ، وهي قليلـة في الوقت الحاضر لا تعطينا فكرة واضحة عن الفن العربي الجنوبي ، وبعضها يمثل فناً عربياً جنوبياً أصيلاً ، فلا يشبه المنحوتات اليونانية أو الرومانية ، أو المصرية ، أو الايرانية ، أو غيرها،وبعض آخر له شبه بفن بعض هذه الشعوب،مما حمل المستشرقين على أن يذهبوا إلى أن هذا التشابه هو نتيجة تقليد ومحاكاة لذلك الفن[1] .

ونلاحظ على هذا التمثال الذي عثر عليه في مقبرة قديمة عند (تمنع) عاصمة (قتبان) ، ويعود عهده إلى القرن الأول أو الثاني قبل الميلاد ، ان المثّال حاول جهد إمكانه اعطاء تمثاله الذي صنعه طابعاً عربياً جنوبياً ، لكنـه لم يتمكن من ذلك ، وقد دوّن في أسفله اسم صاحبه ، وهو (جبا ام هنعمت) ، (جبأ أوام هنعمت) .

ومن الصعب إصدار حكم عام على الفن العربي الجنوبي استنـاداً الى هذه التماثيل والصور المنحوتة أو البارزة ، لأنها قليلة غير مغنية وغير كافية لإصدار حكم

---

١ Handbuch, I, S. 165.

تمثال رجل اسمه « جبأ أوم هنقمت » عثر عليه في مقبرة قديمة عند « تمنع » يعود تاريخه الى القرن الاول أو الثاني قبل الميلاد .

من كتاب Qataban and Sheba (ص ١٢٤)

في هذا الموضوع . ثم هي من صنع أيد متعددة ، فيها أيدٍ قوية ذات موهبة ، وفيها أيدٍ ضعيفة انتاجها بدائي يشبه فن البدائيين ، لا تناسق فيه ولا تناسب بين الأجزاء . وقد نشأ ذلك بالطبع عن تفاوت مواهب المشتغلين بهذه الصناعات وعن وجود أناس اتخذوا الحفر في المرمر حرفة يتكسبون بها ، وقد يكون لأنهم ورثوا تلك الحرفة ، فاشتغلوا بها ، مع عدم وجود قابليات فنية لديهم .

وقد عبر عن النحات ، أي المثال الذي يصنع التماثيل بلفظة (هصنع) ، أي الصانع في اللغة اللحيانية . ويعبر عن صنع التمثال بلفظة (نحت)[1] ، أي حسب تعبيرنا عن نحت التماثيل في الوقت الحاضر . وتطلق لفظة (هصنع) على الرسام

---

١ راجع النص ٨٣ في كتاب : W. Caskel, S. 118

كذلك وعلى المعمار[١] .

ويلاحظ أن الفن العربي الجنوبي مثل أكثر الفنون الشرقية الأخرى،لا تجاري الفن اليوناني في هيأة الجسم في موضوع إبراز جماله[٢] . فإذا ما نظرت الى تمثال أو صورة بارزة أو حفر عربي جنوبي ، ترى فرقاً واضحاً بين عمل الفنان في هذه الصور وعمل الفنان الهلليني اليوناني المعاصر له . ففي عمل هـذا الأخير نرى عملاً فنياً جميلاً راقياً ، يبرز جمال الفن وروحية (الفنان) ، وهو عمل يقرب القطعة المعمولة الى قلبك ، ويجعلها تؤثر فيك تأثيراً عميقاً ، على حين لا نرى مثل هذا الإبداع في الفنون الشرقية في الغالب .

وفي الفن اليوناني تناسق وتناسب بين الأجزاء . راعى الفنان فيه النسب الطبيعية للجسم فمثلها في تماثيله ، وأظهرها بمظهر يشعرك بقوة فنه وبتمكنه من التعبير عن أحاسيسه . أما الفن الجاهلي ، عموماً عربي جنوبي أو من موضع آخر ، فإنه لم يتمكن من تحقيق هذا التناسق ولا النسب ولا الاتساق والتوازن بين الأعضاء . ولم يتمكن الفنان مع كل ما بذله من جهد من اظهار الجمال الفني على القطـع التي صنعها ، ولا من اعطائها حياة ودماً وروحاً أخاذة تجعلك تشعر انك أمام فنان عبر عن إدراكه الفني وعن الحس الذي يشعر به أحسن تعبير بأية طريقة أو مدرسة من مدارس الفن . وبأية وسيلة من وسائـل التعبير عن الذوق الفني الذي تملك الفنان فجعله يعبر عنه بطريقته التعبيرية الخاصة بهذا الانتاج المجسم لروحه والذي نسميه الفن .

ولا تملك المتاحف في الوقت الحاضر تماثيـل جاهلية بالحجم الطبيعي للانسان . ويظهر ان اعتبار كثير من الناس للتماثيل أصناماً قد أدى بهم إلى اتلافها والقضاء عليها . وهناك أمثلة عديدة تؤيد هذا الرأي ذكرها القدامى والمحدثون . بل إن هذه النظرة لا تزال عند البعض . ثم إن الناس لم يكونوا يدركون قيمة الأثر في حفظ تأريخ أمتهم ، ولهذا فلم يكونوا يهتمون بالتماثيل ولا بالأحجار المكتوبة ولا بكل أثر من الآثار . وتوجد اليوم قطع تماثيل يظهر انها من تماثيل حطمها الانسان بيده وهشمها بنفسه ، إما للقضاء على معالم الوثنيـة المتجسمة في نظره في هذا

---

١ راجع النص رقم ٣٢ في كتاب : W. Caskel, S. 93

٢ Handb. der altar. alter I, S. 166.

التمثال ، وإما للاستفادة من أحجاره في أغراض البناء أو أغراض أخرى تفيده. ومن بينها رؤوس تماثيل أو أقدام تمثال ، أو جسم تمثال بلا رأس ولا أرجل. أما التماثيل الصغيرة ، فقد وصل عدد منها دون أن يمسها أي سوء. وقد استخرج عدد منها من باطن الأرض ، استخرجه المنقبون والمواطنون الذين أخذوا يحفرون التلول الأثرية للبحث عن أثر يبيعونه لتجار العاديات. ونجد في دور المتاحف وعند جماع العاديات عدداً منها.

ومن بين التماثيل الكاملة التي تستحق الدراسة والانتباه ثلاثة تماثيل للملوك من مملكة (أوسان) . يبلغ ارتفاع احداها (٨٩) سنتمتراً . وقد نحتت من المرمر. وهي تمثل مرحلة من مراحل التطور في فن النحت عند العرب الجنوبيين . وقد حاول النحات جهد امكانه بذل أقصى ما عنده من فن وقابلية وموهبة في اعطاء هؤلاء الملوك ما يليق بهم من جلال ووقار ومظهر ، وإبراز ملامحهم وملابسهم ، ولكنه فشل في نواحٍ ووفق قدر استطاعته في نواحٍ . وقد نحت شعر الرأس وجعله متدلياً طويلاً مجعداً . وجعل للتماثيل قواعد استقرت عليها ، دوّن عليها أسماء أصحابها . وقد اختلف الباحثون الذين بحثوا في خصائص النحت البارزة على هذه التماثيل في تقدير عمرها ، فذهب بعض منهم الى أنها ترجع الى القرن السادس أو الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وذهب بعض منهم الى أنها ترجع الى القرن الأول قبل الميلاد ، بينما رأى آخرون أنها من نحت القرن الأول بعد الميلاد[1] .

وهناك تماثيل صغيرة لرجال ونساء وأطفال بعضها من حجر وبعضها من معدن تكشف لنا عن عادات وتقاليد المجتمع في ذلك العهد . في مثل الكشف عن الحلي التي كانوا يحلّون بها جيد المرأة وعنقها ، أو التي تحلى بها الأيدي أو الأرجل ، كما تكشف بعضها عن ملابس المرأة والرجل والأطفال في تلك الأوقات ، ولهذا فإن لهذه التماثيل أهمية كبيرة لا من الناحية الفنية حسب ، بل من الناحية التأريخية أيضاً لأنها تتحدث عن العوائد الاجتماعية كذلك .

وتعبر بعض شواخص القبور عن شعور الحزن والأسى في نفس من أمر بحفر

---

١ A. Grohmann, S. 222.

تلك الشواخص أو نحتها . فقد حرص صانعها على أن تكون معبرة عن المناسبة التي عملت من أجلها على أكمل وجه . وأكملها برموز واشارات دينية لها صلة وعلاقة بالحياة الثانية ، وتزيد في فوائد هذه الشواخص بالنسبة لعمل الباحث ، التماثيل التي وضعت مع الميت في قبره ، لتعبر عنه . فهي تعبير آخر عن هذا الشعور المؤسف في شكل آخر من أشكال الفن .

وقد كانت العادة آنذاك ، دفن تماثيل مع الموتى ، أو صوراً محفورة على الصخر ، فقد عثر في مصر وفي الحجاز وفي بلاد الشأم على مثل هذه التماثيل مدفونة في القبور ، على مقربة من الأجداث . بعضها تماثيل رجال وبعضها تماثيل أطفال ، ومن النادر تماثيل نساء ، ولعل ذلك بسبب النظرة الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك العهد ، من إعطاء الأولوية للرجل في المجتمع ثم للأولاد الذكور .

ونرى في هذه الصورة رأس رجل عربي جنوبي ، حفر النحات عيني الرجل حفراً ، وجعلها واسعة ، فبدتا وكأنهما قد قلعتا ، وأوصل اللحية بشعر الرأس ، حتى أحاط الشعر بالرأس والوجه ، وصار كأنه هالة . أما الفم ، فصغير مفتوح ، ولم يتمكن النحات من حفره حفراً يقارب الطبيعة ، ولم يتمكن كذلك من إبراز معالم الأنف . أما الجبين فأملس ، وأما الوجنتان ، فلساوان كذلك ، وأما الحجر المنحوت ، فمن الرخام .

وإذا قارنت هذا التمثال والتماثيل العربية الجنوبية بالتماثيل اليونانية ، أو بالتماثيل اليونانية التي عثر عليها في جزيرة (فيلكا) في الكويت ، تجد فرقاً عظيماً من النواحي الفنية : فالفنان اليوناني له إدراك عظيم للقيم الفنية ، له قدرة عظيمة على

إبراز الملامح ، وفي تقدير النسب بين الملامح وأعضاء الجسد ، ثم هو متمكن تماماً من كيفية إظهار الحاجبين وحفر الأنف ، وابراز العينين . ومع مرور مئات السنين على الفن اليوناني،فإنك تستطيع أن تجد فيه حتى يومنا هذا الإبداع والجمال والاتساق والانسجام . خذ هذه الصورة ، التي هي تمثال من الطين المحروق ، عثر عليه في جزيرة فيلكا ، ويعود عهده إلى حوالى (٢٠٠) سنة قبل الميلاد ، ثم قارنه بصور التماثيل التي عثر عليها في العربية الجنوبية ترى فرقاً كبيراً جداً بين الفنين .

تمثال من الطين المحروق من القلعة اليونانية حوالي ٣٠٠ ق.م. من جزيرة فيلكا .

ولكننا نجد مع ذلك في الفن العربي الجنوبي ، محاولة تستحق التقدير ، تظهر في طموح الفنان العربي الجنوبي ورغبته جهد إمكانه في اظهار شخصيته ومواهبه الفنية ، وهو لو وجد التقدير الذي كانت يظهره اليونان للفن ، لأبدع ولا شك ابداعاً كبيراً في عمله الفني .

وقد عبر الفنان العربي الجنوبي عن مشاعره بطريقة أخرى ، هي طريقة الحفر على الحجر أو المعدن أو الخشب أو أية مادة أخرى يمكن الحفر عليها . وذلك بطريقتين : طريقة الحفر أي نقش الصورة أو ما يراد تخليد أثره على المادة حفراً كأن تحفر صورة إنسان أو حيوان حفراً عليها بأن تجعل معالم الصورة محفورة حفراً، عميقاً نازلاً في تلك المادة . فالحفر في هذه الحالة هو رسم محفور . وطريقة الحفر البارز ، وذلك بجعل الأثر المراد تخليده بارزاً ظاهراً فوق سطح المادة التي حفر عليها . وذلك بأن يؤشر معالم ما يراد تخليده ويرسم ، ثم يحفر ما حوله من سطح المادة التي رسم عليها ، فتبرز الصورة وترتفع بهذا الحفر عن سطح تلك المادة .

وعثر على عدد من تماثيل الحيوانات ، نحتت من المرمر ومن أحجار أخرى : فعثر على تمثال بقرة ، وعثرت بعثة (وندل فيلبس) على تماثيل ثيران في خرائب مأرب . كما عثر بعض الباحثين على تماثيل أسود أو خيل[1] . وقد تمكن الفنان من التعبير عن موهبته الفنية في بعض المنحوتات ، وأجاد في إبراز مظاهر بعض أعضاء جسم تلك الحيوانات التي نحتها . وقد وصلت بعض هذه التماثيل وهي مهشمة ، وقد فقدت بعض منها بعض أجزاء جسمها ، فأضاع هذا الفقدان على الباحثين امكانية اعطاء رأي علمي عن هذه المنحوتات .

ومن الصعاب التي اعترضت (الفنان) العربي الجنوبي مسألة التعبير عن الحركات ، ورسم الأشياء المتجاورة ، والتمييز بين البعيد والقريب ، والتفريق بين المنازل الاجتماعية ، كالسيدة المصون صاحبة البيت وبين خادمتها . وهي مشكلات تواجه كل فنان،ولا يتغلب عليها بالطبع إلا من له قدرة وعلم بالتصوير والنحت . ومن جملة النواقص التي نلاحظها على الصور المحفورة أن أكثر القطع المحفورة لم تتمكن من التنسيق بين وضع صاحب الصورة . فبينما نجد الوجه مثلاً وهو متجه الى الأمام ، كأن صاحبها ينظر اليك ، نرى الساقين والقدمين جانبيتين وهذا الوضع لا يتناسب بالطبع مع وضع القسم الأعلى من الجسم .

وقد نشأت عن صعوبة التعبير عن الأشياء المتجاورة،مثل رسم ثورين متجاورين يجران محراثاً ، أو فرسين مربوطتين معاً في محراث، مشكلة لم يتمكنوا من التغلب عليها ، فلجأوا الى طريقة بدائية في الغالب ، يتحدث وضعها عن هذا العجز ،

---

١ A. Grohmann, S. 224

هو رسم أحد الحيوانين مثلاً ، وكأنه تحت الحيوان الثاني المجاور له ، وذلك كما نرى في الصورة التي تمثل فلاحاً يحرثه ويجر محراثه ثوران ، فوضع الفنان الثور الجانبي الأيمن فوق الثور الجانبي الأيسر ، ظاناً ان ذلك قد عبر عن هذا الوضع ، فبدا الثوران وكأن أحدهما قد ركب الآخر[١] .

وقد عثر على لوح يمثل وجه انسان مستدير ، رسم كأنه مع الجبين دائرة كاملة . وقد حفر الشعر على صورة قوس يكاد يحيط بالوجه إلا الحنك ، وقد برز الشعر متموجاً ، وقد فصلت بين الأمواج قواطع جعلت الشعر خصلاً . أما العينان فصغيرتان بالنسبة الى الأنف . وبدا الفم مقفلاً وقد حلق صاحب الرأس ذقنه ، وترك له شاربين طويلين يتصلان بالشعر المتدلي من الرأس . أما الأذنان فقد اختفتا تحت الشعر ولا أثر لهما في الصورة . والرقبة غليظة وقد أحاطت بها حيتان ارتفعتا الى أعلى على هيأة قوس . ويظهر في هذه الصورة أثر الفن الساساني[٢] .

وقد عبر النحات عن تجعد شعر الرأس بحفره بصورة تشعرك انه يعبر عن شعر متجعد . وذلك بإحداث ثغرات تظهر الشعر وكأنه عقد ، وقد جعله متدلياً الى الكتفين ، أو نازلاً على الجبين حتى الحاجبين ، ولأجل أن يريك العينين وكأنهما في صورة طبيعية وضع أحجاراً ملونة أو أصباغاً في بعض الأحيان على باطن العين لتظهر التمثال وكأنه بعينين حقيقيتين تنظران الى الأشخاص[٣] .

وحال حفر الأزهار وعناقيد العنب ورؤوس الحيوانات وبعض الكروم هي خير من حيث الإجادة من تصاوير الإنسان أو الحيوانات كاملاً . وقد عثر على قطع رسمت فيها التيوس وهي من الحيوانات الكثيرة في اليمن ، وقد رسمت بصورة تتمثل فيها القوة والحيوية[٤] .

وقد استعمل العرب الجنوبيون الكروم كثيراً للزخرفة ، ولا يستبعد ذلك منهم فالكروم من النباتات المحبوبة الكثيرة في اليمن . وقد درّت عليهم أرباحاً طائلة واستعملت للأكل وللشرب . وهي تعطي نبيذاً طيباً وخمراً مشهوراً . فلا غرابة إذا

---

١ Handb. der altar. alter. I, S. 167.

٢ Hand. der altear. alter. I, S. 168.

٣ Arabien, S. 274 f.

٤ Handb. der altar. alter. I, S. 168, A. Grohmann, Göttersymbole, S. 60.

ما استعملوه بكثرة للزينة ، يحفرون صوره في اطارات الألواح أو الصور ، أو يكبسون صوره في الجبس .

وعثر على قطع فنية نفيسة ، من الحجر النفيس الغالي المحفور ،أي من الأحجار الكريمة ، حفرت عليها صور ذات صلة بالأساطير الدينية ، مثل القطعة النفيسة المحفوظة في المتحف البريطاني ، ويظهر انها من صنع فنان قتباني ، حفر عليها أيلين أو وعلين وقد وقف كل واحد منهما على جانب، وقفا على القدمين الخلفيتين ورفعا القدمين الأماميتين الى أعلى ، وصور النحات القدم المقابل للشخص الذي يقابل القطعة أو ينظر اليها وقد عقف ، أي بوضع منحن . أما القدم المقابل للقدم المعقوف ، فلم يتمكن النحات من اعطائها الوضع الصحيح . ونجد رأسي الحيوانين وقد اتجها الى الداخل ، فكأنهما يريدان الكلام مع بعضها أو الالتقاء ، ولاظهار قرني الحيوانين معقوفين ، نحت النحات عليها نحوتاً على شكل (الجزر) ، أو الورق الرفيع . ووضع للحيوانين ذيلين قصيرين ، وقد جعل آلة الذكر للحيوانين متنصبتين . وجعل تحت القدم المرتفع لكل حيوان رمزاً ، له فم مفتوح متصل برقبة أو بجسم ينتهي بدائرة صغيرة ، ثم بما يشبه كرة قائمة على ثلاثة أرجل . ووضع بين الحيوانين (طغراء) قراءته : (اب عم) ، (ابي عم) ، أي (أبي) (عم) إلـه قتبان[1] .

وبين الأحجار الكريمة المحفورة التي عثر عليها في خرائب اليمن،أحجار أصلها من العراق ومصر ومن أحجار يونانية من أيام القياصرة ومن العصور الهيلينية ، وقد نحتت على بعض منها حروف بالمسند المعبرة عن بعض المعاني الدينية أو عن أسماء أصحابها[2] . وهي تستعمل خاتماً في الأصابع ، وتختم بها الوثائق والرسائل .

وقد وضعوا (الدُّمَى) على ألواح الأبواب ، إما للزينة ، وإما لدفع الشر والأذى أو للتبرك والتقرب . وقد قيل ان (الدمية) الصورة المصورة أو الصنم[3] . وقد عرفـوا (الدُّمية) بالصورة وبالصنم وبالصورة المنقشة بالعاج ، ونحـوه . وعرّفوها أيضاً بالصورة المصورة لأنها يتأنق في صنعتها ويبالغ في تحسينها[4] .

---

١ A. Grohmann, Göttersymbole, 56, Abb. 141, A. Grohmann, S. 241.

٢ A. Grohmann, S. 242.

٣ البرقوقي (ص ٢١٩) .

٤ اللسان (١٤/٢٧١) .

وقد اتخذ العرب الجنوبيون من الحجر أثاثاً لهم ، فنحتوا منه أسرّة وعروشاً . وقد عثر على قطع من المرمر ، هي من بقـايا عروش أو كراسي عملت لبعض الأغنياء . وعثر على كراسي مصنوعة من أحجار أخرى . كما عثر على صناديق صنعت من حجر ، وقد زوّقت واجهاتها وزخرفت وحفرت عليها بعض الصور التي تمثل الأوراق والنباتات والأزهار والنوافذ أو واجهات البيوت[١] .

واتخذوا من الحجارة مذابح Altars . وللمذابح مكانة في الطقوس الدينية ورسوم العبادة عند الجاهليين . ويقال لها : (مذبحت) و (مذبح) و (حردن) . تذبح عليهـا حيوانات كبيرة مثل ثيران . وقد عثر على نماذج منها في مختلف المعابد[٢] . وقد زين بعض منها وزخرف بصور حيوانات حفرت عليها أو نحتت كما حفرت عليها رموز لها علاقة بالعبادة والآلهة . وهي تفيدنا من هـذه الناحية في الوقوف على فن الزخرف والنقش وعلى كل ما له من علاقـة بالحياة الدينية عند الجاهليين .

وللمباخر والمجـامر والمحارق أهمية أيضاً بالنسبة لمن يريد الوقوف على الفن الجاهلي . وقد عرفت المحارق بـ (مصرب) و (مشود) . وهي مواضع لحرق ما يقدم الى المعبد من ضحايا عليها[٣] . وعرفت المجامر بـ (مسلم) ، وأمـا المبخرة ، فهي (مقطر)[٤] . وقد عثر على نماذج عديدة منها . وقد صنعت من مواد مختلفة من مرمر ومن معادن . مثل البرنز أو الذهب أو الفضة . وقد تفنن في صنعها ، وبعضها مفتوح ليس له غطاء ، وبعض آخر له غطاء . وقد نقش على بعض منها اسم الطيب الذي يحرق بالمجمرة ، واسم صاحبها والمعبد أو الإله الذي خصصت به .

ولم يصل إلينا ويا للأسف من مصوغات الذهب والفضة شيء كثير . والصياغة صناعة اشتهر بها العرب الجنوبيون ، حتى بالغ في ذلك بعض الكتـاب اليونان ، فأشاروا الى أوانٍ وأثاث وأدوات منزلية أخرى مصنوعة من الذهب والفضـة[٥] .

---

١ A. Grohmann, S. 243.

٢ Arabien, S. 247 f.

٣ Arabien, S. 248. Rep. Epig. 4708, 4839.

٤ Arabien, S., 248, A. Grohmann, Südarabien als Wirtschaftsgebiest, I, 115. f., C. Thompson, The Tombs and Moon Temple of Hureidha, 49.

٥ De Mari Erythraeo, 2, Strabo, XVI, 778, Handb., I, S. 171.

ولكننا لم نر شيئاً مما ذكروا ، ولم يروا هم ذلك أيضاً بالطبع ، وإنما رووا ذلك عن طريق السماع .

ويعرف الذهب بـ (ذهب) في العربيات الجنوبية . وأما الفضة ، فيقال لها (صرف)[١] . وقد وردت أرض (شبا) في جملة الأماكن التي مونت العبرانيين بالذهب ، حمله اليهم تجار (شبا)[٢] .

وترد في الكتابات جمل مثل : (قدم تمثالاً من ذهب) ، مما يدل على أن العرب الجنوبيين كانوا ينذرون الى آلهتهم إن منت عليهم وأجابت طلبهم بأن يقدموا لها نذراً هو تمثال من ذهب . غير أن الباحثين لم يعثروا حتى اليوم إلاّ على عدد محدود من تماثيل صيغت من ذهب ، بل عثروا على تماثيل من البرنز . لذا ذهب بعضهم الى ان العرب الجنوبيين قصدوا بكلمة (ذهبن) ، أي (الذهب) ، معدن البرنز ، وذهب بعضهم الى أنهم قصدوا معادن طليت بماء الذهب[٣] .

وفي جملة ما هو محفوظ من أعمال الصاغة ، قلادة جميلة من الذهب عثر عليها في خرائب مدينة (تمنع)[٤] سبق أن وضعت صورتها قبل صفحات . وقلائد أخرى وصفائح من الذهب حفرت عليها صور بعض الحيوانات . كما عثر على معادن مطلية بطبقة من ذهب[٥] .

وقد وصلت قطع فنية نفيسة مصنوعة من المعادن ، تدل على ذوق عال وعلى مهارة في الصنعة واتقان . من ذلك مصباح يضيء بالزيت ، مصنوع من البرنز يتكيء على قاعدة . أما موضع الزيت ، فينساب انسياباً جميلاً ، وقد صنع بشكل متناسق ، وارتفع فوق المصباح من الطرف العريض تمثال (ايل) جميل جداً ربطه بالمصباح حزمة انفتحت عند اتصالها بالمصباح على هيئة أصابع يد . فلما ارتفعت ، اتصل بعضها ببعض على هيأة ضفيرة ، الى موضع اتصالها بالأيل . وقد انكسرت يدا الحيوان وكانت ممتدة . أما الرقبة والرأس والقرنان ، فقد صنعت بدقة وبمهارة،وعلى الجملة ان القطعة تدل على تطور كبير في فن الصناعات اليدوية عند العرب الجنوبيين ، وذلك كما نراه في الصورة المذكورة .

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 167.

٢ حزقيال : الاصحاح السابع والعشرون ، الاية : ٢٢ .

٣ A. Grohmann, S. 230.

٤ W. Phillips, Qataban and Sheba, p. 114.

٥ A. Grohmann, S. 242.

ونرى في قطعة أخرى مصنوعة من البرنز فناً وخيالاً ، نرى رجلاً قد وضع على رأسه غطاءً يشبه الخوذة ، وأمسك بيديه أسدين ، فاليد اليمنى أمسكت بيد أسد ، واليد اليسرى أمسكت بيد الأسد الآخر وقد أدار الأسدان رأسيهما الى الجانبين ، وكأنهما يتلويان من شدة القبض عليهما ، وإن كانت لا تمثل أجزاء الأجسام تمثيلاً كاملاً ، تعطي انطباعاً حسناً ، وتعبر عن الفكرة تعبيراً طيباً[1] .

وهناك قطعة مصنوعة من البرنز كذلك ، تمثل منظراً رمزياً : ففي الوسط راقص يشبه شكله شكل الشيطان في الأساطير ، وقد اتصل فوق رأسه ، وعلى الغطاء عمود يحمل طيراً ماداً جناحيه . ويقابل الطائر أيلان ، انتصب كل أيل على جانب من جانبي الطير ، وكأنهما يتقاتلان، ويحمل الأيلان حيوانين[2] .

ونرى في هذه الصورة تمثالاً من البرنز لثور يرمز إلى الإلـه القمر ، وقد عثر عليه في (ظفار) .

تمثال مصنوع من البرونز يمثل اله القمر عثر عليه في ظفار .

من كتاب Qataban and Sheba (ص ٣٠٥)

---

١ Handb., I, S. 172.

٢ راجع الصورة المرقمة ٦٨ والمنشورة على الصفحة ١٧٢ من كتاب : Handb., I, S. 172.

ونرى في هذه الصورة تمثال رجل صنع من النحاس . تظهر على شعر رأسه نتوءات بارزة كأنها الخرز ، ربما تمثل زينة ، أو تعبر عن شعر صاحبها المتموج. أما الوجه ، فلا يمثل وجه أهل اليمن ، بل كأنه يمثل وجهاً لـ (بوذا) ، أي وجهاً متأثراً بالفن الهندي الصيني القديم . الأنف فيه ضخم ، والفم كبير ، وقد غطى الجسم بقميص له رأس يغطي الرقبة ويصل الى الحنك، وتجد القميص مفتوحاً تحت الخصر ، وأما أعلى القميص فمغلق ، وقد شد على الخصر (خنجر) مستقيم، على طريقة أهل اليمن في حمل الخناجر الى هذا اليوم ، وقد مدّت اليد اليمنى الى أعلى ، وظهرت أصابع الكف واضحة مفصلة . أما اليد اليسرى ، فقد مدت الى أعلى قليلاً ، وكفها مقبوض ، مكوّناً ثقباً ، يظهر أنه صنع لوضع عصا في الثقب ، أو شيئاً آخر يرمز الى سيادة ومنزلة اجتماعية . ونجد الجسم لا يتناسب مع ضخامة الرأس والكتفين ، فهو ضئيل ضعيف . ونجد الأذن صغيرة بالنسبة الى الرأس . وقد وضعت في مقدم الشعر . ونرى ان الوجه حليق ، مما يدل على أن

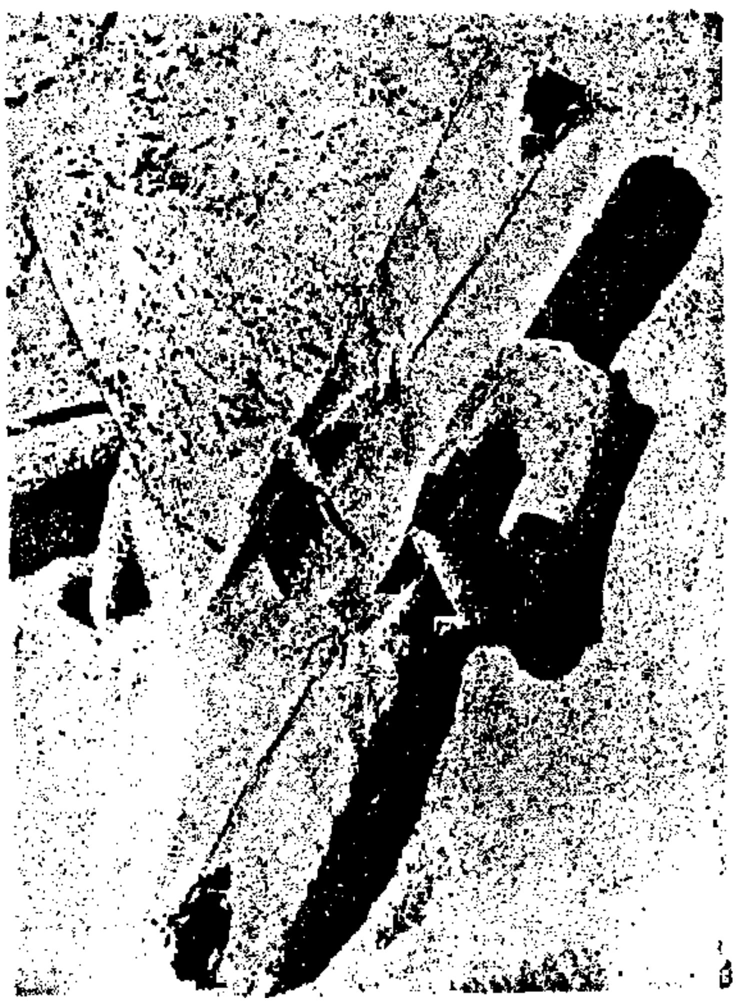

بعض الناس كانوا يحلقون شعر أوجههم في تلك الأيام . وأما الرقبة فغليظة[1] .

وهناك قطع أخرى هي عبـارة عن تماثيل بشر أو حيوانات مثل حيات أو جمال أو خيل أو جرذان وأمثال ذلك ، وقد صنعت من البرنز كـذلك ، بعضها في غاية الجودة والاتقان . ومن بين هذه القطع المتقنة عصا انتهى طرف منها على هيأة أفعى ، نرى فيها الأناقة والرشاقة ، وعصا أخرى رأسها على هيئة حيّـة وقـد تدلى الى أسفل . والقطعتان من الصناعات المتأخرة ومن أواخر أيام دولة حمير[1] .

وبين القطع القديمة المصنوعة من البرنز ، تمثال رجل ماش يبلغ ارتفاعه (٩٣) سنتمتراً ، رجله اليسرى متقدمة على اليمنى ، ويرى القسم الأعلى من الجسم عارياً إلا من جلد أسد أو فهد لف على الظهر ، ويتصل طرفاه بالصدر . أما الوركان فقد غطيا بمئزر شد على الجسم بحزام عريض . وقد جعل المثّال الرأس وكأنـه قد غطي بخوذة مجعدة ، كناية عن الشعر ، وقد تدلى على الجبين . ووضع شيئاً أشبه بالريشة للمحافظة على الشعر ، وجعل للرجل لحية عبر عن تجاعيد شعرهـا بعقد . وجعل العينين واسعتين ، أما الأنف فكبير ملتحم ، وأمـا الفم فصغير . وأما الجسم عموماً ، فهو نحيف . وقد عثر على هذا التمثال في المدخل المؤدي الى (حرم بلقيس)[3] . ويرى بعض الباحثين أنه يعود الى القـرن السابع أو السادس قبل الميلاد . وأن صاحبه كان من كبار الموظفين في أيامه ، وربمـا كان بدرجة حامل أختـام الملك أو كاتم أسراره ، وقد قدم التمثال تقربة ونذراً إلى الإلـه (المقه) . ووجد اسم صاحبه مدوّناً على الكتف الأيسر منه ، وهو (معدكرب) (معديكرب)[4] .

وبين التماثيل المصنوعة من البرنز تمثال امرأة وهي ترقص ، وقد لبست فستاناً طويلاً يمتد على سروال ، وكأنه يمثل الزي الفارسي القديم ، المعروف في العراق،

---

١ Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 270.

٢ Handb., I, S. 173.

٣ A. Grohmann, S. 232.

٤ Jamme, Sabaean Inscriptions on two Bronze Statues from Marib, JAOS, 77, 1957, 32, 35, A. Grohmann, S. 232.

وقد أبدع صانع التمثال في عمله فجعله حياً ينبض بالحياة ، وقد ضيق خصر المرأة، وجعل الساقين بعضهما فوق بعض ، ليأخذ جسمها وضع راقصة وهي في حالة رقص ، كما ترى في هذا التمثال .

تمثال من البرونز لراقصة ، عثر عليه في ظفار .

من كتاب Qataban and Sheba (ص ٣٠٥)

ونجد في مصنوعات المعادن مصنوعات تتحدث عن وجود أثر عراقي عليها ، ومصنوعات أخرى تشير الى وجود أثر مصري أو يوناني أو هندي عليها . وقد نسب بعض الباحثين وجود هذا الأثر الى الصلات التجارية التي كانت تربط بين الأرضين المذكورة وبين العربية الجنوبية ، كما نسبوه الى أثر الرقيق المشترى من تلك البلاد والمستورد الى العربية الجنوبية ، حيث كلف بأداء الحرف اليدوية . وحيث أن هذا الرقيق كان من بلاد مختلفة،لهذا ظهر التنوع في هذه الصناعات[1] .

ومن المصنوعات البرنزية التي يظهر عليها أثر الفن اليوناني مجموعة التماثيل التي

١ A. Grohmann, S. 230. ff.

عثر عليها في بيت (يفش) في خرائب (تمنع)[1] ، وتماثيل أخرى حفظت في متحف (صنعاء) . وتمثالين لزنجيين عثر عليهما في موضع (نخلة الحمرا) (نخلة الحمراء) على مسافة خمسين كيلومتراً جنوب شرقي (صنعاء) . وتماثيل أخرى لبعض الحيوانات ، مثل تمثال حصان وتمثال آخر لأسد .

والتماثيل البرونزية التي عثر عليها في بيت (يفش) بمدينة (تمنع) ، هي من الآثار المهمة التي عثر عليها في أرض قتبان . ونظراً للأثر (الهليني) البارز على جسم الأسد وعلى وجه راكبه المحافظ على الملامح اليونانية يرى الباحثون انها من القطع الفنية التي ربما يعود عهدها الى القرن الأول للميلاد ، حيث كان اليونان اذ ذاك يمخرون عباب البحار ، وكان تجارهم ينقلون المصنوعات اليونانية الى مختلف الأنحاء من العالم ، لبيعها ولشراء ما يحتاجون اليه من النفائس التي لا توجد في بلاد اليونان وفيما وراءها . والظاهر ان الفنانين العرب ، وقفوا على قطع فنية يونانية ، فقلدوها وعملوا على صنع مثلها،وقد ضربوا على القاعدة الحروف المسند، الدالة على صاحب البيت . ومن هذه التماثيل تمثال أسد ، امتطى على ظهره ولد بيده اليمنى لجام ، وبيده اليسرى شيء يشبه القفل ، وقد صنع الأسد وكأنه يريد الوثوب ، وذلك كما تراه في الصورة . وقد قدّر تأريخ صنعه فيما بين السنة ٧٥ و ٥٠ قبل الميلاد . ومنهم من يجعله بعد ذلك،أي في القرن الأول للميلاد[2] .

وقد تبين من هذه التماثيل أن العرب الجنوبيين ، كانوا ينتعلون نعالاً على نحو أنعلة هذا اليوم ، وهي سميكة لتقاوم الأرض فلا تأكلها عند المشي ، كما تبين لنا من دراسة هذه التماثيل أن بين ملابس العربية القديمة قبل الإسلام وبين ملابس العرب في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية في الوقت الحاضر تشابه كبير . ومن الممكن في هذا اليوم عمل دراسة عن ملابس العرب الجنوبيين بالاستعانة بهذه التماثيل وبالصور المحفورة على الأحجار ، التي تمثل مختلف طبقات المجتمع في ذلك العهد .

---

١ Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, I, 155, ff., B. Segall, Sculpture from Arabia Felix, The Hellevistic Period, AJA, 59, (1955), 210.ff., Grohmann, S. 234.

٢ Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 155.

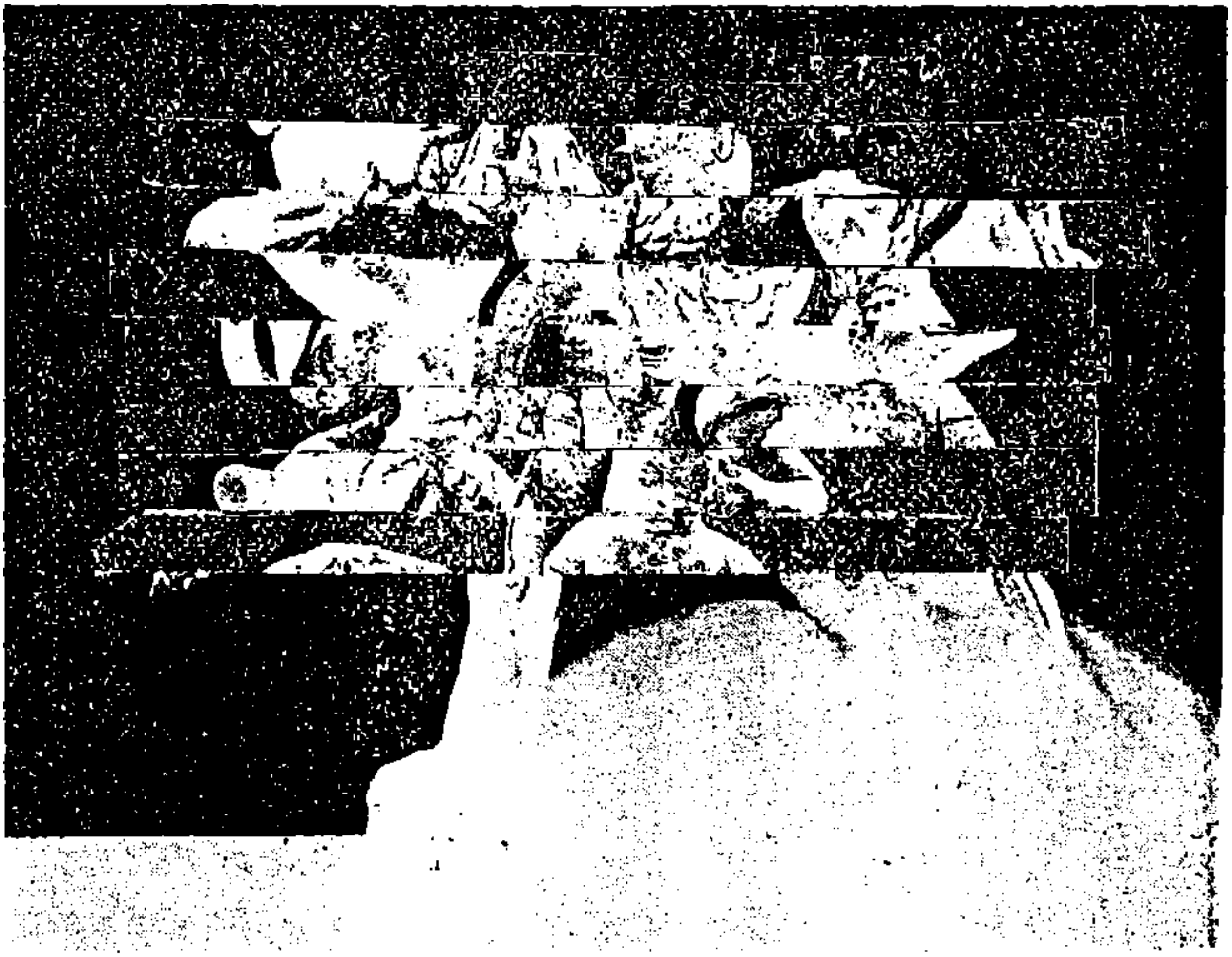

تمثال الاسد وعليه طفل • وقد أخذت الصورة من كتاب : Qataban and Sheba
لمؤلفه وندل فيلبس (ص ١١٢) •

تمثالان صنعا من البرنز ، ويرى على التمثال أثر الفن « الهيليني » واضحا بارزا •
من كتاب : Qataban and Sheba (ص ١٨٩)

أما الخشب المزخرف ، فهو وجه آخر من أوجه الفن وأضرابه ، وقد استعمل في البناء وفي أثاث البيت وفي صنع التماثيل والألواح المكتوبة وفي أغراض أخرى . وقد عثر المنقبون على نماذج منه . ولما كان الخشب معرضاً للتلف والهلاك أكثر من المعدن والحجر ، لذلك فإن يد الطبيعة قد لعبت بالكثير منه ، كما استعملته يد الإنسان قبل الاسلام وبعده في أمور أخرى غير الأمور التي خصصها أصحاب تلك الأخشاب لها ، لذلك زالت معالم الكثير منها ، واستعمل بعض منه في الوقود وفي أعمال البناء . ولا زلنا لا نملك نماذج من الأثاث المعمول من الخشب ، مثل صناديق لحفظ الألبسة والأشياء الأخرى التي تحتاج الى حفظ،وسرر منامة وكراسي وغير ذلك مما يستعمله الانسان في حياته من مصنوعات الخشب .

إن الفنان العربي الجنوبي حاول جهد طاقته إظهار شخصيته في أعماله الفنية ، وهو وإن كان قد حاكى غيره وقلده في بعض الأمور ، غير أنه نجح في اعطاء فنه صورة المحيط الذي عاش فيه . فنرى السحنة اليمانية على وجوه بعض التماثيل، ولا سيما في أوجه الرجال.ونجد الطابع العربي الجنوبي يبرز على بعض المصنوعات. وسوف يزداد علمنا ولا شك في المستقبل بالفن العربي الجاهلي في المستقبل حين تهدأ الأحوال وتقوم البعثات العلمية بالحفر العلمي المنظم في جزيرة العرب ، فربما يعثر على أعمال فنية تغير وجهة نظر العلماء المكتوبة عنه في هذا اليوم .

وأما الحديث عن الفن في الحجاز قبل الاسلام ، فحديث مقتضب مختصر ، لأن البحث العلمي لم يبدأ هناك حتى الآن . فاقتصر علمنا عنه على ما ورد في الموارد الاسلامية وحدها . وما ورد في هذه الموارد هو اشارات عارضة ذكرت عرضاً في أحوال لا علاقة لها بالفن بل في البحث عن أمور أخرى ، مثل : فتح مكة ، حيث أشير الى وجود تصاوير وأصنام في الكعبة ، أمر الرسول بطمسها وازالة معالمها وبكسر كل ما كان هناك من أصنام،ومثل ما جاء في كتب الحديث والفقه عن (الصور والتماثيل) في باب النهي عنها في الاسلام . وذلك يدل على ان بعض أهل مكة وسائر مواضع الحجاز الأخرى ، كانوا يضعون الصور والتماثيل في بيوتهم ، وان طائفة من الناس كانت تصوّر وتتعيش من بيع الصور ، وأن طائفة أخرى كانت تنحت وتعمل التماثيل ، وأن طائفة من النساجين والخياطين كانوا يجعلون صور انسان أو حيوان على الستائر أو الملابس لتزويقها ، فنهى عن

ذلك الاسلام[1] .

ونحن لو أخذنا بروايات أهل مكة عن بناء الكعبة ، خرجنا منها على أن الكعبة لم تكن عند ظهور الاسلام وبعد تعميرها الأخير قبل البعثة ، شيئاً يذكر من ناحية الفن والهندسة المعمارية ، فهي لم تكن سوى بيت مكعب ، تحيط بحرمه البيوت ، ولم يكن الحرم واسعاً وله سور ، وانما كان ساحة مفتوحة تجاوز عليها أهل مكة ، فأدخلوا جزءاً منها في بيوتهم ، ولذلك اضطر الخلفاء إلى توسيعها ، بشراء البيوت المجاورة وهدمها لاعادة ادخالها في الحرم . ونحن لا نجد اليوم أثراً باقياً على وضعه وحاله من آثار الجاهلية سوى (الحجر الأسود) ، وبئر زمزم ، أما الأشياء الأخرى مثل الكعبة ، فإنها من بناء الاسلام .

أما بيوتها ، فلا علم واضح لنا عنها ، لأن أهل الأخبار لم يتحدثوا عنهـا حديثاً فيه إفاضة ، وقد ورد في خبر إساءة الجوار لرسول الله ، أن رسول الله كان يجلس تحت ظلة أمام باب داره ، فكان جيرانه يرمونه بالحجارة ، مما يدل على أنهم كانوا يبنون ظللاً على أبواب بيوتهم يجلسون تحتها على (دكة) ويستظلون بها من حرارة الشمس حين وقوفهم أمام الباب . ولا بد وأن تكون بيوت تجار مكة ، من حجارة وكلس ، وقد تكون من طابقين أو أكثر ، ولكن الأخبار لا تتحدث بحديث مفصل عنها .

وفي أعالي الحجاز ، آثار من بقايا أبنية ومن تماثيل وكتابات مكتوبـة ومن تصاوير نقشت على الصخور ، تعبر عن حالة النقّاش الذي نقشهـا ، وهو من الأعراب . وفي جملة الصور مناظر إنسان يصيد غزالاً ، أو يجاهد في قتل أسد أو حيوان مفترس ، أو فارساً قد امتطى ظهر فرسه : أو مناظر قطعان حيوانات وحشية أو أليفة ، وما شاكل ذلك من مناظر تمر على عيون الرعاة . وبعض هذه الصور مما يعود عهده الى ما قبل الميلاد . وهي تستحق الدرس وتوجب على عشاق الفن دراسة النواحي الفنية والتعبيرية في هذه الصور المرسومة على الأحجار والصخور .

وفي المتحف البريطاني حجر ، رمز اليه بـ B. M. 120928 كتب عليه بالحروف الصفوية (هف زبن بن أحرب) أي (هذا لزبان بن أحرب) . وقد حفر صورة جمل تحت الكتابة ، جعله لاعباً بذنبه ، وله سنام ضخم لا يتناسب حجمه

---

١ تنوير الحوالك (٢/ ٢٤١) ، تاج العروس (٤/ ٤٢٣) ، (قصص) .

مع جسم الجمل ، وله رقبة ورأس،أقرب إلى رقبة الزرافة ورأسها من رأس ورقبة الجمل . ولكن الرسم لا بأس به بصورة عامة ، إذا أدركنا أن راسمه من الأعراب الذين عاشوا قبل الإسلام .

ونجد في الأحجار الصفوية الأخرى ، صور فرسان ، وهم يتحاربون ، أو يتسابقون ، وصور خيل وحيوانات أخرى . وبعض هذه الصور في غاية من الاتقان والإبداع ، وبعضها تمثل فناً بدائياً ، لكنه يعبر عن وجود قابلية لدى راسمي هذه الصور الذين كانوا أعراباً يتنقلون في البوادي ، وهم مع ذلك كتبة ، لأننا نجد أسماء من رسم هذه الصور مكتوبة تحتها أو حولها لتدل عليهم .

وأما العربية الشرقية ، فقد عثرت البعثات التي نقبت بها على أعمال فنية عديدة، وقد عثر في (أبو ظبي) وفي أماكن أخرى من الخليج على آثار لم تكن معروفة من قبل . وقد أشرت في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب إلى عثور المنقبين عن الآثار على آثار مهمة في البحرين وفي جزيرة (فيلكا) من جزر الكويت ، وهي

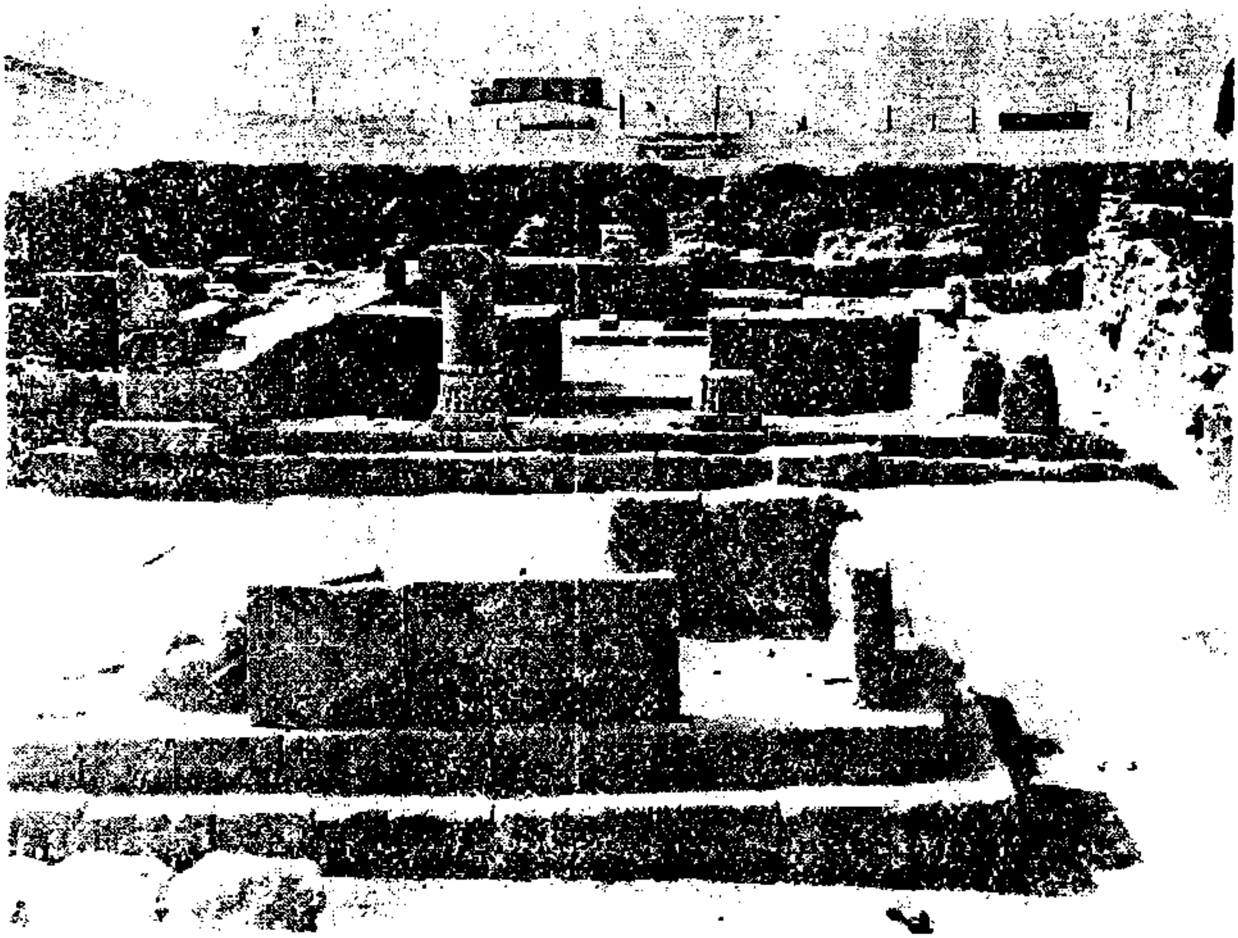

منظر المعبد الهيلبني بعد تنظيفه ، وهو في جزيرة فيلكا وهو من منشورات قسم المتاحف والاثار بدولة الكويت

تشير الى أثر الاختلاط الذي كان بين الهند ، وفارس والروم والعراق وبين سكان الخليج ، قبل الميلاد بعهود طويلة . ولا بد وأن تنبت في هذه الأرضين حضارة مختلطة ، لأنها على ساحل بحر ، وعلى طريق يعتبر من أهم طرق العالم في التجارة وفي المواصلات الدولية في القديم وفي الحديث .

وفي جملة ما عثر عليه في جزيرة (فيلكا) بقايا معبد يوناني ، بناه جنود الاسكندر حين أقاموا واستقروا بها ، وقد تمكنت البعثة (الدانماركية) التي نقبت في هذه الجزيرة من العثور عليه ،ونظفت ساحته حتى ظهر على هذه الصورة التي تراها في الصفحة السابقة .

وفي جملة ما عثر عليه في جزيرة (فيلكا) نقود تعود الى أيام (السلوقيين) خلفاء الاسكندر ، وآثار اليونانيين الذين أقاموا في هذه الجزيرة منــذ جاء جيش الاسكندر لفتح الهند . فاستقر قسم منهم بها وأنشأ معبداً فيها ، عثر في أنقاضه على بقايا أعمدة حجرية استخدمت لرفع سقفه ، يظهر عليها الأثر الهليني بكــل وضوح ، وعلى أحجار منقورة مزخرفة وعلى كتابات . وقد استخدم الحجر في أعمال البناء ، كما ترى ذلك في الصورة المأخوذة لموضعه، بعد تنظيفه وإعادة دائرة

تمثال أفروديت ، ويعود عهده الى حوالي السنة ٢٠٠ قبل الميلاد
وهو من منشورات قسم الاثار والمتاحف بدولة الكويت

الآثار والمتاحف في الكويت للأحجار الى مواضعها . كما عثر في هذه الجزيرة على جرار كثيرة تعود الى العهد البرونزي ، تشبه الجرار الخزفية التي لا زال الناس يستعملونها في مواضع متعددة من جزيرة العرب .

ومن أبدع ما عثر عليه في هذه الجزيرة ، تمثال صغير من الطين المحروق يمثل (أفروديت) ، يعود عهده الى حوالى السنة (٣٠٠) قبل الميلاد ، وهو تاريخ انشاء هذا المعبد ، ومخربشة جميلة ، تمثل شجرة ، يظهر انها كانت قد وضعت في أعلى واجهة المعبد . وتمثال رأس الاسكندر ، تحيط به الهالة ، وتمثال آخر ، صنع من الطين المحروق ، وعدد كبير من الأختام، حفرت عليها مناظر مختلفة ، فيها صور حيوانات ، يعود عهدها الى القرن الثالث قبل الميلاد .

تمثال رأس الاسكندر تحيط به الهالة
من منشورات قسم الاثار والمتاحف بدولة الكويت

أما عن الفن العربي في العراق ، فنحن لا نستطيع أن نتكلم عنه إلا بإيجاز مخل ، وسبب ذلك ، أن الحيرة التي كانت عاصمة المناذرة ، والتي كانت من أكبر المستوطنات العربية ، هدمت في الفتح الاسلامي وما بعده لاستخدام طابوقها

وأخشابها في بناء (الكوفة) . فقد بني مسجد الكوفة بأنقاض قصور الحيرة ، فزالت بذلك معالم تلك المدينة ، ولم يبق منها أي شيء بتوالي الأيام .

ويظهر من الأخبار الواردة في كتب أهل الأخبار ، أن أهل الحيرة كانوا يتخذون (إيواناً) في قصورهم • يجعلونه موضعاً يجلسون فيه . عرف بالإيوان الحيري . وقد كانوا يزخرفون الجدر باستعمال (الآجر) المزخرف . كما كانوا يطلون الجدر على الطريقة العراقية القديمة بطبقة من (الجص) ، ليظهر أملس أبيض ، وكانوا يطلون الجدر الخارجية للبيوت بهذه الطبقة ، ومن هنا بدت مدينتهم وكأنها مدينة بيضاء ، فقيل لها الحيرة البيضاء .

التصوير :

وقد عثر المنقبون والباحثون عن الآثار القديمة على رسوم بشر وحيوان ونبات نقشها الجاهليون على الصخور والحجارة، يرمز بعض منها الى أمور دينية وأساطير قديمة . ويعبر البعض الآخر عن مواهب فنية عند حافري هذه الصور ، وعلى مقدرة تقدر في الرسم ، وعلى وجود ميول فطرية عند أصحابها في الفن ، وفي محاولة إبراز العواطف النفسية والتعابير بلغة فنية يفهمها كل إنسان ، هي لغة الرسم والنقش .

وفي أخبار أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا يتقربون الى الصور، كما كانوا يزينون بيوتهم بالصور وبالنسيج المصور ، كما كانوا يستعملون ستائر ذات صور ، ويلبسون ملابس ذات صور ورسوم . ولما فتح الرسول مكة ، أمر بتحطيم ما كان بها من أصنام وأوثان . وقد ذكر أهل الأخبار ، انه كانت في الكعبة حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وجد صور الملائكة وغيرهم ، فرأى ابراهيم مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة أجمعين . فأمر الرسول بطمس تلك الصور ، فغسلت بالماء ، ومسحت بثوب بلّ بالماء ، فطمست ، إلا صورة عيسى بن مريم وأمه ، إذ أمر الرسول بابقائها كما تقول بعض الروايات ، فبقيت الى ايام (عبدالله بن الزبير) ، فلما

تهدم البيت ، تهدمت الصورة معه[1] .

وفي شعر (امرئ القيس) اشارة الى التصوير . ففي البيت :

بلى ربّ يومٍ قد لهوت وليلة   بآنسة كأنها خط تمثـال

اشارة الى التصوير . فالخط ، الكتابة والرسم ، والتمثال الصورة ، والصنم ، أي التمثال المجسد . والتماثيل الصور . وقد كانوا يصورون الصور ويرسمونها قبل الاسلام[2] .

ولكننا لا تملك اليوم صوراً زيتية أو صوراً أخرى مرسومة بالألوان او بالحبر او الصبغ الأسود عـلى أدم او قراطيس ، او الواح ، فإن مثل هـذه الصور لا يمكن أن تعمر طويلاً تحت الأتربة لذلك تبلى، ولا استبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على مثل هذه الصور ، لما ذكرته من وجود الصور والتصوير عنـد الجاهليين .

وقد كان الجاهليون يقتنون الصور يضعونها في بيوتهم للزينة ، كما كان هناك مصورون يعيشون من بيع الصور التي يرسمونها ، وصنّاع تماثيل ، ينحتونها او يعملونها بالقوالب بجعـل عجين الجبس فيها ، فإذا جفّ أخذ شكل التمثال ، فيباع . وقد أشير الى التصوير وصنع التماثيل في الحديث ، بمناسبة ما ورد فيـه من كره الإسلام للتصـوير ، أو تحريمه كما ذهب اليه البعض ، فقـد كره في الاسلام تصوير كل ذي روح ، مثـل تصوير إنسان أو حيوان ، وكره بيع المصورات ، واتخـاد التصوير حرفة يتعيش منها . وقـد سأل بعض المصورين (ابن عباس) رأيه في التصوير ، وهي حرفته التي كان يتعيش منها ، فنهاه عنها ، إلا إذا صور شجراً أو شيئاً لا روح فيه . وكانت معيشة هـذا المصور من صنعة يده ، يصنع التصاوير ويبيعها للناس[3] .

---

١ الازرقي (١٠٤/١ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٨٧/٣) ، ابن هشام ، سـيرة (٢٧٤/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٢٧٤/٢ ومـا بعدها) ، ابن الاثير (١٠٥/٢) ، نهاية الارب (٣١٣/١٧) ، أمتاع الاسمـاع (٣٨٥/١) .

٢ الخزانة (٣١/١) ، (بولاق) .

٣ ارشاد الساري (١٠٧/٤) ، (باب بيع التصاوير) .

وقد كانت الوثنية لا تتعارض مع التصوير ، بل كانت تشجعه وتشجع الفنون الجميلة . فقد كانت الأصنام عماد سنتهم ، واليها كانوا يتقربون ، وكانوا يضعونها في بيوتهم للتقرب اليها والتبرك بها ، كما أنهم لم يكرهوا الغناء ولا الموسيقى ، لما لها من صلة بأعيادهما وبالطقوس الدينية .

وقد منع من بيع الأصنام ، أي التماثيل في الاسلام ، كما حرم بيع الصور المتخذة من جوهر نفيس[1] ، وكان بين أهل مكة وغيرها من القرى أناس يتعيشون من بيعها ، ويتفننون في صنعها ، فاتت بذلك هذه الحرفة التي هي من الفنون الجميلة ، مثل التصوير .

---

١ ارشاد الساري (٤/١١٤) ، (باب تحريم بيع الميتة والاصنام) .

الفصل العشرون بعد المئة

أمية الجاهليين

الشائع بين كثير من الناس ان العرب قبل الاسلام كانوا في جهالة عمياء وضلالة، لا يقرأون ، ولا يكتبون ، وان الكتابة كانت قليلة بينهم ، واستدلوا على رأيهم هذا باطلاقهم لفظة (الجاهلية) على ايامهم ، وبما جاء من انهم كانوا قوماً (أميين لا يكتبون) . واستدلوا على ذلك بحديث ذكر ان الرسول قاله ، هو « إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب »[1] .

وقد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن معنى (الجاهلية) ، وعن الآراء التي قيلت فيها ، حديثاً فيه إفاضة وإحاطة ، وقد قلت فيما قلته ان تفسير الجاهلية بالجهل ، الذي هو ضد العلم ، تفسير مغلوط ، وان المراد من الجاهلية السفه والحمق والغلظة والغرور ، وقد كانت تلك أبرز صفات المجتمع الجاهلي آنئذ ، وتحدثت في كتابي : (تأريخ العرب قبل الاسلام) عن معنى الأمية وذلك في اثناء كلامي على أميّة الرسول وآراء العلماء فيها من مسلمين ومستشرقين[2]، وقلت ان للأمية معنى آخر غير المعنى المتداول المعروف ، وهو الجهل بالكتابة والقراءة . فقد ذكر (الفرّاء) وهو من علماء العربية المعروفين ، ان الأميين هم

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٨) ، الصاحبي (٨/١١) ، تفسير القرطبي (٢/٥) ، البقرة الاية ٨٧ ، اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) ، تاج العروس (٨/١٩١) ، (أمم) .
٢ الصفة ١٣٦ وما بعدها .

العرب الذين لم يكن لهم كتاب[1] . ويراد بالكتاب . التوراة والانجيل . ولذلك نعت اليهود والنصارى في القرآن بـ (اهل الكتاب) . وهذا المعنى يناسب كل المناسبة لفظة (الأميين) الواردة في القرآن الكريم ، وتعني الوثنيين اي جماع قريش وبقية العرب ، ممن لم يكن من يهود وليس له كتاب .

وللعلماء آراء في الأمية ، وذلك لما لها من صلة بالرسول ، ولما كان القرآن قد نعت قوم الرسول بالأميين ، وجعل الرسول أمياً مثلهم، فقد ذهبوا الى ان العرب كانوا قبل الاسلام أميين بمعنى انهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون إلا من شذّ منهم وندر ، وإلا أفراداً من أهل مكة ، زعموا انهم تعلموا الكتابة من عهد غير بعيد عن الاسلام ، ولو أخذنا أقوالهم مأخذ الجد ، وجب علينا القول بأنهم انما تعلموها في حياة الرسول اي قبل الوحي بسنين ليست بكثيرة ، وان مكة كانت المدينة الوحيدة التي عرفت الكتابة في جزيرة العرب ، وهو كلام لا يقوم على علم . فقد كان بيثرب كتّاب يكتبون بكتاب مكة ، وكان في أماكن أخرى كتّاب يكتبون بكتابهم أيضاً ، فضلاً عن انتشار الكتابة بالمسند في العربية الجنوبية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب .

والرسول أمي ، لم يقرأ ولم يكتب ، فإذا أراد كتابة رسالة او عهد او تدوين للوحي ، أمر كتابه بالتدوين . على ذلك أجمع المسلمون . وقد وردت في القرآن آيات مثل : « اقرأ باسم ربك »[2] ، وآية : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون »[3] . اخذها البعض على ان فيها دلالة على ان النبي كان يقرأ ويكتب ، واستدل أيضاً ببعض ما ورد في كتب الحديث والسير ، وفيه ما يفيد انه كان ملماً بالقراءة والكتابة . كالذي ورد في صلح (الحديبية) انه « هو الذي كتب الكتاب بيده الشريفة. وهو ما وقع في البخاري»[4]. وما جاء في السيرة لابن هشام : « فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكتب

---

١ المفردات (ص ٢٢) .

٢ سورة اقرأ ، الآية الاولى .

٣ العنكبوت ، الاية ٤٨ ، تفسير الطبري (٢١/٤) .

٤ الروض الانف (٢/٢٣٠) ، الحلبية (٣/٢٣ وما بعدها) .
Nöldeke, Geschichte des Qorāns, I, S. 13.

الكتاب هو وسهيل »[1] . وما جاء في البخاري : « وأخـــذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الكتاب ليكتب ، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد »[2] . وقالوا ان في هذا المذكور وفي غيره من مثل ما ورد من ان الرسول « لما اشتد وجعه ، قال : ائتوني بالدواة والكتب اكتب لكم كتاباً لا تضلون معه بعدي أبداً »[3] ، ومثل ما ورد « في حديث أبي بكر رضي الله عنه ، انه دعا في مرضه بدواة ومزبر فكتب اسم الخليفة بعده »[4]،دلالة صريحة على قدرته على الكتابة والقراءة[5] .

وللعلماء كلام في الأدلة المذكورة ، ولهم آراء في تفسير الآيات التي تعرضت لموضوع الأمية . والأمي في تفسير علماء اللغـــة من لا يكتب ، او العيي الجلف الجافي القليل الكلام . قيل له أمي لأنه على ما ولدته أمه عليه من قلة الكـــلام وعجمة اللسان[6] ، او الجهل التام بالقراءة والكتابة . « لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب »[7] ، او لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة او عديمة[8] ، او الأمي الذي على خلقة الأمة ، لم يتعلم الكتاب ، فهو على جبلته . وقد ورد في الحديث : « إنا أمة أمية لا نكتب »[9] ، او « إنا أمـــة أمية لا نكتب ولا نحسب »[10] ، او « بعثت الى أمة أمية » ، فذهبوا الى ان العـــرب كانوا على أصل ولادة أمهم ، لم يتعلموا الكتابة ولا الحساب ، فهم على جبلتهم الأولى . « وكل شيء للعرب ، فإنما هو بديهة وارتجال ... ثم لا يقيـده على نفسه ولا

---

١ Nöldeke, I, S. 13.

٢ الروض الانف (٢/ ٢٣٠) ، الطبري (٣/ ٨٠) ، (السنة السادسة) ، (٢/ ٦٣٥) (دار المعارف) ، الحلبية (١/ ٢٤) .

٣ البلاذري (١/ ٥٦٢) ، (ائتوني باللوح والدواة ــ أو بالكتف والدواة ــ أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده) ، (ائتوني أكتب كتابا لا تضلوا بعدي أبدا) ، الطبـــري (٣/ ١٩٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٤ تاج العروس (٣/ ٢٣١) ، (زبر) .

٥ Nöldeke, I, S. 12. ff.

٦ اللسان (١٢/ ٣٤) ، (أمم) .

٧ تاج العروس (٨/ ١٩١) ، (أمم) .

٨ تاج العروس (٨/ ١٩١) ، (أمم) .

٩ اللسان (١٢/ ٣٤) ، (أمم) .

١٠ تاج العروس (٨/ ١٩١) ، (أمم) ، المفردات (٢٢) .
اللسان (١٢/ ٣٤) ، (أمم) .

يدرسه احداً من ولده . وكانوا اميين لا يكتبون »[1] .

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (الأمي)[2] ، و (أميون)[3] ، و (اميين)[4] ، ونعت الرسول بـ (النبي الأمي)[5] ، وردت في سور مكيـــة وفي سور مدنية . وردت لفظة (الأمي) في سورة الأعراف ، وهي من السور المكية ، ووردت لفظة (أميون) و (الأميين) في سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة الجمعة ، وهي من السور المدنية . ويلاحظ ان الآيتين المكيتين،خاصتان بالرسول، فنعت فيها بـ (النبي الأمي) ، اما الآيات المدنية ، فقد قصد بها (الأميين) الذين ليس لهم كتاب . بمعنى المشركين :

وقد بحث (الراغب الاصبهاني) في معنى (الأمية) فقال : « والأمي : هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وعليه حمل:هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم . قال قطرب : الأمية : الغفلة والجهالة . فالأمي منــه ، وذلك هو قلة المعرفة . ومنه قوله تعالى : ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب إلا اماني ، اي إلا ان يتلى عليهم . قال الفراء : هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب . والنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ، قيل منسوب الى الأمة الذين لم يكتبوا لكونهم على عادتهم . كقولك عامي لكونه على عادة العامة . وقيل : سمي بذلك لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله منه بقوله : سنقرئك فلا تنسى . قيل سمي بذلك لنسبته الى أم القرى »[6] .

وقد ذهب بعض العلماء الى ان الأميين من لا كتاب لهم من الناس ، مثـــل الوثنيين والمجوس ، قال الطبري في تفسير الآية : « وقـل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا »[7] : « يعني بذلك جل ثناؤه ، وقل

---

1 البيان والتبيين (٢٨/٣) .
2 الاعراف ، الاية ١٥٦ وما بعدها .
3 البقرة ، الآية ٧٨ .
4 ال عمران ، الاية ١٠ ، ٧٥ ، الجمعة ، الاية ٢ .
5 الاعراف ، الاية ١٥٦ وما بعدها .
6 المفردات في غريب القرآن (٢٢) .
7 آل عمران ، الرقم ٣ ، الاية ٢٠ .

يا محمد للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى والأميين ، الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب أأسلمتم .. »[1] . وذهب كثير من المفسرين الى ان الأميين الذين لا كتاب لهم ، اي الذين ليسوا يهوداً ولا نصارى . وورد : « ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يكره ان يظهر الأميون من المجوس على اهل الكتاب من الروم »[2] . قال الطبري : « وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يكره ان يظهر الأميون من المجوس على اهل الكتاب من الروم ، ففرح الكفار بمكة وشمتوا ، فلقوا اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : انكم اهل كتاب والنصارى اهل كتاب ، ونحن اميون ، وقد ظهر اخواننا من اهل فارس على اخوانكم من اهل الكتاب »[3] . فالمسلمون اهل كتاب ، والمجوس اميون كمشركي مكة وبقية العرب المشركين ، لا لكونهم لا يقرأون ولا يكتبون ، بل لأنهم لم يؤمنوا بالتوراة والانجيل .

ويلاحظ ان الآية : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين »[4] ، والآية : « ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل »[5] ؛ والآية : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا اماني »[6] ، وكذلك: « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم »[7] ، لا تؤدي معنى الأمية ، بمعنى الأمة الجاهلة بالقراءة والكتابة ، لعدم انسجام التفسير مع المعنى ، وانما تؤدي معنى وثنية ، اي امة لم تؤمن بكتاب من الكتب السماوية ، اي في المعنى المتقدم .

«والأمي والأمان –بضمها– من لا يكتب او من هو على خلقة الأمة لم يتعلم الكتاب ، وهو باق على جبلته . وفي الحديث: إنا أمة امية، لا نكتب ولا نحسب . اراد انه على اصل ولادة امهم ، لم يتعلموا الكتابة والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى .

---

١ تفسير الطبري (٣/١٤٣)

٢ روح المعاني (٢١/١٧ وما بعدها) ، (كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم أهل الكتاب ، وكان المشركون يحبون أن يغلب أهل فارس لانهم أهل أوثان) ، تفسير الطبري (٢١/١٢ وما بعدها) .

٣ تفسير الطبري (٢١/١٣) .

٤ ال عمران ، الرقم ٣ ، الاية ٢٠ .

٥ ال عمران ، الرقم ٣ ، الاية ٧٥ .

٦ البقرة ، الرقم ٢ ، الاية ٧٨ .

٧ الجمعة ، الرقم ٦٢ ، الآية ٢ .

وقيل لسيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الأمي لأن امة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب ، وبعثه الله رسولاً ، وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة احدى آياته المعجزة ، لأنه صلى الله عليه وسلم ، تلا عليهم كتاب الله منظوماً تارة بعد اخرى ، بالنظم الذي انزل عليه ، فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، ففي ذلك انزل الله تعالى : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذاً لارتاب المبطلون. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج احاديث الرافعي ان مما حرم عليه صلى الله عليه وسلم : الخط والشعر ، وانما يتجه التحريم ان قلنا انه كان يحسنها ، والأصح انه كان لا يحسنها ، ولكن يميز بين جيد الشعر ورديئه . وادعى بعضهم انه صار يعلم الكتابة بعد ان كان لا يعلمها لقوله تعالى من قبله في الآية . فإن عدم معرفته بسبب الاعجاز . فلما اشتهر الاسلام وأمن الارتياب عرف حينئذ الكتابة . وقد روي عن ابن ابي شيبة وغيره : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كتب وقرأ ، وذكره مجالد للشعبي . فقال ليس في الآية ما ينافيه . قال ابن دحية : واليه ذهب ابو ذر الفتح النيسابوري والباجي وصنف فيه كتاباً ، ووافقه عليه بعض علماء افريقية وصقلية . وقالوا : ان معرفة الكتابة بعد اميته لا تنافي المعجزة ، بل هي معجزة اخرى بعد معرفة اميته وتحقق معجزته ، وعليه تتنزل الآية السابقة والحديث فإن معرفته من غير تقدم تعليم معجزة . وصنف ابو محمد بن مفوز كتاباً رد فيه على الباجي وبين فيه خطأه ، وقال بعضهم يحتمل ان يراد انه كتب مع عدم علمه بالكتابة وتمييز الحروف ، كما يكتب بعض الملوك علامتهم وهم اميون ، والى هذا ذهب القاضي ابو جعفر السمناني »[1] .

وقد تعرض (الألوسي) لهذا الموضوع في تفسيره الآية : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم ، وما يجحد آياتنا إلا الظالمون »[2] . فقال: « واختلف في انه صلى الله عليه وسلم ، أكان بعد النبوة يقرأ ويكتب ام لا ؟ فقيل انه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة ، واختاره البغوي في التهذيب ، وقال : انه الأصح . وادعى بعضهم انه صلى الله عليه وسلم ، صار يعلم الكتابة بعد ان كان

---

١ تاج العروس (٨/١٩١) ، (أمم) .
٢ العنكبوت ، ٢٩ ، الاية ٤٨ ، تفسير الطبري (٢١/٤) ، تفسير الالوسي (٢١/٤)

لا يعلمها ، وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية ، فلما نزل القرآن واشتهر الاسلام وظهر امر الارتياب تعرف الكتابة حينئذ . وروى ابن ابي شيبة وغيره: ما مات صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ . ونقل هذا للشعبي فصدقه،وقال : سمعت أقواماً يقولونه وليس في الآية ما ينافيه . وروى ابن ماجه عن أنس قال: قال صلى الله عليه وسلم : رأيت ليلة أسري بي مكتوباً على الجنة : الصدقة بعشر امثالها ، والقرض بثمانية عشر .

ثم قال : ويشهد للكتابة احاديث في صحيح البخاري وغيره ، كما ورد في صلح الحديبية : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله ، الحديث .

وممن ذهب الى ذلك ابو ذر عبد بن احمد الهروي ، وابو الفتح النيسابوري ، وابو الوليد الباجي من المغاربة ، وحكاه عن السمناني . وصنف فيه كتاباً ، وسبقه اليه ابن منية. ولما قال ابو الوليد ذلك طعن فيه ورمي بالزندقة وسبّ على المنابر، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدّعاه ، وكتب به الى علماء الأطراف، فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتابة بعد اميته صلى الله عليه وسلم ، لا تنافي المعجزة ، بل هي معجزة اخرى لكونها من غير تعليم .

وقد رد بعض الأجلة كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح إنا أمة أمية نكتب ولا نحسب . وقال : كل ما ورد في الحديث من قوله : كتب ، فمعناه امر بالكتابة ، كما يقال : كتب السلطان بكذا لفلان . وتقديم قوله تعالى : من قبله على قوله سبحانه : ولا تخطه كالصريح في انه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً . وكون القيد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطّرد . وظن بعض الأجلة رجوعه الى ما قبله وما بعده ، فقال : يفهم من ذلك انه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعد انزال الكتاب ، ولولا هذا الاعتبار ، لكان الكلام خلواً من الفائدة . وأنت تعلم انه لو سُلّم ما ذكره من الرجوع ، لا يتم امر الإفادة إلا اذا قيل بحجية المفهوم ، والظانّ ممن لا يقول بحجيته .

ثم قال الألوسي في تفنيد هذه الردود ما نصه :

ولا يخفى ان قوله عليه الصلاة والسلام : إنا امة امية لا نكتب ولا نحسب ، ليس نصاً في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام . ولعل ذلك باعتبار

انه بعث عليه الصلاة والسلام ، وهو واكثر من بعث اليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب اميون ، لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد . واما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالمكاتبة ، فخلاف الظاهر . وفي شرح صحيح مسلم للنووي عليه الرحمة نقلاً عن القاضي عياض : ان قوله في الرواية التي ذكرناها : ولا يحسن يكتب فكتب ، كالنص في انه صلى الله عليه وسلم كتب بنفسه ، فالعدول عنه الى غيره مجاز لا ضرورة اليه . ثم قال : وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة وشنعت كل فرقة على الأخرى في هذا »[1] .

وبحث (القرطبي) في هذا الموضوع ايضاً ، فقال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، الضمير في قبله عائد الى الكتاب ، وهو القرآن المُنزل على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، اي وما كنت يا محمد تقرأ قبله ، ولا تختلف الى اهل الكتاب ، بل أنزلناه اليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك ، فلو كنت ممن يقرأ كتاباً ، ويخط حروفاً لارتاب المبطلون اي من اهل الكتاب ، وكان لهم في ارتيابهم متعلق ، وقالوا الذي نجده في كتبنا انه امي لا يكتب ولا يقرأ وليس به . قال مجاهد : كان اهل الكتاب يجدون في كتبهم ان محمداً صلى الله عليه وسلم ، لا يخط ولا يقرأ ، فنزلت هذه الآية ؛ قال النحاس : دليلاً على نبوته لقريش ، لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط اهل الكتاب ولم يكن بمكة اهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ، وزالت الريبة والشك .

الثانية : ذكر النقاش في تفسير الآية عن الشعبي انه قال : ما مات النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى كتب . واسند ايضاً حديث ابي كبشة السلولي ؛ مضمنه : انه صلى الله عليه وسلم ، قرأ صحيفة لعيينة بن حصن ، وأخبر بمعناها. قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف ، وقول الباجي رحمه الله منه .

قلت : وقع في صحيح مسلم من حديث البراء في صلح الحديبية ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال لعلي : اكتب الشرط بيننا : بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال له المشركون : لو نعلم انك رسول الله تابعناك — وفي رواية بايعناك — ولكن اكتب محمد بن عبدالله ، فأمر علياً

---

1 محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن (ص ٣٥٨ وما بعدها) (الطبعة الثانية) ، (عيسى البابي الحلبي) .

ان يمحوها ، فقال علي : والله لا أمحاه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرني مكانها ، فأراه فمحاها وكتب ابن عبدالله . قال علماؤنا رضي الله عنهم : وظاهر هذا انه عليه السلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيده ، وكتب مكانها ابن عبدالله . وقد رواه البخاري بأظهر من هذا . فقال : فأخذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الكتـــاب فكتب . وزاد في طريق أخرى : ولا يحسن ان يكتب. فقال جماعة ، بجواز هذا الظاهر عليه وانه كتب بيده ، منهم السمناني وأبو ذر والباجي ، ورأوا ان ذلك غـــير قادح في كونه أمياً ، ولا معارض بقوله : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، ولا بقوله : إنا أمة أميـــة لا نكتب ولا نحسب ، بـل رأوه زيادة في معجزاته ، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته ، وذلك انه كتب عن غير تعلم لكتابة ، ولا تعاط لأسبابها ، وانما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ابن عبدالله لمن قرأها ، فكان ذلك خارقاً للعادة ، كما انه عليه السلام عَلِم علم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب ، فكان ذلك أبلغ معجزاته ، وأعظم فضائله . ولا يزول عنه اسم الأمي بذلك ، ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة : ولا يحسن ان يكتب. فبقي عليه اسم الأمي مع كونه قال : كتب . قال شيخنا أبو العباس احمد بن عمر : وقد أنكر هذا كثير من متفقهة الأندلس وغيرهم ، وشددوا النكير فيه ، ونسبوا قائله الى الكفر ، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية ، وعدم التوقف في تكفـــير المسلمين ، ولم يتفطنوا ، لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليـــه السلام في الصحيح ، لا سيما رميُ من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة ، عـــلى ان المسألة ليست قطعية ، بل مستندها ظواهر أخبار آحاد صحيحة،غير ان العقل لا يحيلها ، وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها .

قلت : وقال بعض المتأخرين من قال هي آية خارقة ، فيقـال له : كانت تكون آية لا تنكر لولا انها مناقضة لآية أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب،وبكونه أمياً في أمة أمية قامت الحجة ، وأفحم الجاحدون ، وانحسمت الشبهة ، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية . وانما الآية ألا يكتب،والمعجزات يستحيل ان يدفع بعضها بعضاً . وانما معنى كتب وأخذ القلم ، أي أمر منْ يكتب به من كتّابه،وكان من كتبة الوحي بين يديه صلى الله عليه وسلم ، ستة وعشرون كاتباً.

الثالثة — ذكر القاضي عياض عن معاوية انه كان يكتب بين يدي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ألقِ الدواة وحرّف القلم وأقم الباء وفرّق السين ، ولا تعوّر الميم ، وحسّن الله ، ومدّ الرحمن ، وجوّد الرحيم . قال القاضي : وهذا وان لم تصح الرواية انه صلى الله عليه وسلم ، كتب ، فلا يبعد ان يُرزق علم هذا ، ويُمنع القراءة والكتابة .

قلت : هذا هو الصحيح في الباب انه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وانما امر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجى . فإن قيل : فقد تهجى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حين ذكر الدجّال ، فقال : مكتوب بين عينيه ك ا ف ر ، وقلتم ان المعجزة قائمة في كونه أمياً ، قال الله تعالى : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، الآية . وقال : إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب . فكيف هذا ؟ فالجواب ما نص صلى الله عليه وسلم ، في حديث حذيفة ، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضاً . ففي حديث حذيفة : يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، فقد نص في ذلك على غير الكتاب ممن يكون أمياً . وهذا من أوضح ما يكون جلياً »[1] .

وقد ذهب (الطبرسي) في تفسيره للآية المذكورة الى ان الرسول ساوى قومه في المولد والمنشأ ، لكنه جاء بما عجز عنه الآخرون من كلام الله والنبوة ، فهو أمي مثلهم . ثم عرض رأي (الشريف المرتضى) ، القائل : « هذه الآية تدل على ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ما كان يحسن الكتابة قبل النبوة ، فأما بعد النبوة فالذي نعتقده في ذلك التجويز ، لكونه عالماً بالكتابة والقراءة والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع على أحد الأمرين . وظاهر الآية يقتضي ان النفي قد تعلق بما قبل النبوة دون ما بعدها ، ولأن التعليل في الآية يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوة ، لأن المبطلين انما يرتابون في نبوته صلى الله عليه وسلم ، لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة . فأما بعد النبوة ، فلا تعلق له بالريبة والتهمة فيجوز ان يكون قد تعلمها من جبرائيل عليه السلام ، بعد النبوة »[2] .

وتعرض (الجاحظ) لهذا الموضوع أيضاً ، فقال نقلاً عن كلام شيخ من

---

١ الجامع لاحكام القرآن (٣٥١/١٣ وما بعدها) .
٢ الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن (الجزء الثامن من ٢٨٩) .

البصريين ، « إن الله انما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ، ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يتعمد البلاغة ، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة،ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب ، من قيافة الأثر والبشر ، ومن العلم بالأنواء وبالخيل ، وبالأنساب وبالأخبار ، وتكلف قول الأشعار ، ليكون اذا جاء بالقرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب، كان ذلك أدل على انه من الله .

وزعم ان الله تعالى لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظاً من الحاسب الكاتب ، ومن الخطيب الناسب ، ولكن ليجعله نبياً ، وليتولى من تعليمه ما هو أزكى وأنمى . فإنما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القبائل ليجلي له الكثير »[1] .

وقد رد (الجاحظ) على كلامه هذا ، بقوله : « وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يُرِد إلا الخير . وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه . ولو زعم ان أداة الحساب والكتابة ، وأداة قرض الشعر ورواية جميع النسب ، قد كانت فيه تامة وافرة ، ومجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة الى ما هو أزكى بالنبوة ، وأشبه بمرتبة الرسالة ، وكان اذا احتاج الى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، واذا احتاج الى الخطابة كان أخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، ولو كان في ظاهره ، والمعروف من شأنه انه كاتب حاسب ، وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، ما كان ذلك بمانع من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لأمره على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم . ولكنه اراد ألا يكون للشاغب متعلق عما دعا اليه حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وان رق ، وليكون ذلك أخف في المؤونة ، وأسهل في المحنة . فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته ، صار لسانه لا ينطلق به ، والعادة توأم الطبيعة . فأما في غير ذلك فإنه اذا شاء كان أنطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف . وكانت آلته أوفر وأداته أكمل،إلا انها كانت مصروفة الى ما هو أرد».

---

١ البيان والتبيين (٤/٣٢) .

وبين ان نضيف اليه العجز ، وبين ان نضيف اليه العادة الحسنة وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له ، فرقٌ .

ومن العجب ان صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام في حال معجزة قط ، بل لم يره إلا وهو ان أطال الكلام قصر عنه كل مُطيل ، وان قصر القول اتى على غاية كل خطيب ، وما عدم منه إلا الخط واقامة الشعر ، فكيف ذهب ذلك المذهب ، والظاهر من امره عليه السلام خلاف ما توهم !؟ »[1] .

فهذا هو رأي الجاحظ في امية الرسول .

واما حديث : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ، فيعارضه حديث آخر ينسب الى الرسول هو : « قريش اهل الله ، وهم الكتبة الحسبة »[2] . « ويقال قريش اهل الله ، لأنهم كتبة حسبة »[3] . والقرآن الكريم نفسه ، يفند ان قريشاً لم يكونوا يحسنون الكتاب او الحساب ، لما فيه من آيات تناقض هذا الرأي . وفي الحديث ، أحاديث كثيرة يجب عدم الأخذ بها ، لأنها ضعيفة ، ويشبه ان يكون الحديث المذكور واحد منها . ومن هذه الأحاديث الضعيفة ، حديث : « حق الوالد على ولده ان يعلمه الكتابة والسباحة ، والرماية ، وان لا يرزقه إلا طيباً » ، وحديث : « حق الوالد على ولده ان يحسّن اسمه ، ويزوّجه اذا أدرك ، ويعلمه الكتاب »[4] . والحديث المذكور من الأحاديث التي يرجع سندها الى (ابي هريرة) وفي الأحاديث المنسوبة اليه احاديث كثيرة يجب عدم الأخذ بها .

ولو أخذنا بالحديث على علاته ، وقبلناه دون نقد، كما يفعل كثير من الناس، وجب علينا القول ان الرسول كان يقرأ ويكتب . ورد : « وذكر صاحبُ الشرعة ايضاً ، انه صلى الله عليه وسلم ، قال لمعاوية رضي الله عنه ، وهو يكتب بين يديه : ألقِ الدواة ، وحرّف القلم ، وانصب الباء ، وفرّق السين ، ولا تعوّر الميم ، وحسّن الله ، ومد الرحمن ، وجوّد الرحيم »[5] ، وانه قال (لزيد بن ثابت) وهو احد كتّابه : « اذا كتبتَ بسم الله الرحمن الرحيم فبيّن

---

١ البيان والتبيين (٣٣/٤ وما بعدها) .
٢ الصولي ، أدب الكتاب (٢٨) .
٣ حكمة الاشراق (٦٧) .
٤ الجامع الصغير ، رقم ٣٧٤٢ ، و ٣٧٤٣ ، حكمة الاشراف (٦٦ وما بعدها) .
٥ حكمة الاشراق (٦٧) .

السين فيه »[1] ، فهل يعقل صدور هذا الوصف ، وهذه التسمية للحروف، وهذه المصطلحات من رجل أمي ، لا يقرأ ولا يكتب . وقد روى الرواة هذين الحديثين مع تعارضهما لأقوال العلماء ، ورووا ايضاً ان (ابا ذر) الغفاري سأل الرسول : « يا رسول الله ، كل نبي مرسل بمَ يُرسل ؟ قال : بكتاب منزّل . قلت : يا رسول الله ، اي كتاب أنزل على آدم ؟ قال : ا ب ت ث ج الى آخره . قلت : يا رسول الله ، كم حرف ؟ قال : تسع وعشرون . قلت : يا رسول الله ، عددت ثمانية وعشرين ، فغضب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى احمرت عيناه ، ثم قال : يا ابا ذر ، والذي بعثني بالحق نبيـاً ! ما أنزل الله تعالى على آدم إلا تسعة وعشرين حرفاً . قلت : يا رسول الله ، فيها ألف ولام. فقال عليه السلام : لام ألف حرف واحد ، أنزله على آدم في صحيفة واحدة ، ومعه سبعون ألف ملك . من خالف لام ألف ، فقد كفر بما أنزل على آدم ! ومن لم يعدّ لام ألف فهو بريء مني وأنا بريء منه ! ومن لا يؤمن بالحروف، وهي تسعة وعشرون حرفاً لا يخرج من النار ابداً »[2] . وبعد فهل نقبل بحديث من هذا النوع ، وكل ما فيه يطعن في صحته !

ويظهر صراحة من الآية : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين »[3] ، ان مرادها من الأميين ، ليس الجهل بالكتابة والقراءة ، وانما العرب الذين لم يكن عندهم كتاب منزل من السماء . ودليل ذلك ما اورده (الطبري) في تفسيرها من اقوال وروايات . فقد قال : « والأميون هم العرب » ، قال (قتادة) : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم . قال : كان هذا الحي من العرب امة أمية ليس فيها كتاب يقرأونه ، فبعث الله نبيه محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، رحمة وهدى يهديهم بـه » ، وقال : « كانت هذه الأمة أميـة لا يقرأون كتاباً » ، وقال : « انما سميت امة محمد صلى الله عليه وسلم الأميين لأنه لم ينزل عليهم كتاباً » ، وقوله : « ويعلمهم الكتـاب . يقول ويعلمهم

---

١ الجامع الصغير (٨٣٥) ، حكمة الاشراق (٦٧) .

٢ صبح الاعشى (٣/٧) .

٣ الجمعة ، الاية ٢ .

كتاب الله وما فيه من امر الله ونهيه وشرائع دينه،والحكمة يعني بالحكمة السنن ». وقال : « ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ايضاً ، كما علم هؤلاء . يزكيهم بالكتاب والأعمال الصالحة ويعلمهم الكتاب والحكمة كما صنع بالأولين » ، وقال في تفسير « وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين . يقول تعالى ذكره ، وقد كان هؤلاء الأميون من قبل ان يبعث الله فيهم رسولاً منهم في جور عن قصد السبيل وأخذ على غير هدى مبين . يقول يبين لمن تأمله انه ضلال وجور عن الحق وطريق الرشد »[1] . وقال (ابن كثير) في تفسيرها : « وذلك ان العرب كانوا قديماً متمسكين بدين ابراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً ... فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل لجميع الخلق ، فيه هدايته والبيان لجميع ما يحتاجون اليه من امر معاشهم ومعادهم »[2] . وقال (القرطبي) : قال ابن عباس : الأميون العرب كلهم ، من كتب منهم ومن لم يكتب ، لأنهم لم يكونوا اهل كتاب»[3]. فالأميون اذن هم العرب ، لأنهم كانوا اهل شرك ، وليس لهم كتاب ، وليس للفظة صلة بالأمية التي تعني الجهل بالقراءة والكتابة .

واما حديث : « إنا امة أمية لا نكتب ولا نحسب . الشهر هكذا وهكذا : مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »[4] . وقد نسب سنده الى (ابن عمر)،فحكمه حكم الحديث السابق ، وقد فسر الحساب ، بأنه حساب النجوم وتسيرها،لا الجهل بالحساب .

وقد ذهب (شبرنكر) الى ان الرسول كان يقرأ ويكتب ، وانه قرأ (اساطير الأولين)[5] ، و (شبرنكر) من المستشرقين العاطفيين . الذين يأخذون بالخبر ، مهما كان شأنه فيبني حكماً عليه .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان المقصود من الأميين هنا الوثنيون . وان الأمية هذه اخذت من اليهود الذين كانوا يطلقون لفظة (امت) و (اميم)

١ تفسير الطبري (٢٨/٦١ وما بعدها) .
٢ تفسير ابن كثير (٤/٣٦٣) .
٣ الجامع لاحكام القرآن (١٨/٩١) .
٤ ارشاد الساري (٣/٣٥٩) .
٥ Nöldeke, I, S. 16, Ency. of Islam, Vol. IV, p. 1016.

على غيرهم ، يريدون بهـا الوثنيين . كما في جملـة : (امت ها عالولام) Ummot ha Olam [1] . وقـد أطلق اليهود على الغرباء وعلى كل من هو غير يهودي ، (كوي) Goy للواحد ، و (كويم) Goyim للجمع . وتقابل هذه اللفظة لفظة Gentile في اللاتينية . ويقال للغريب عنهم (اخريم) Ahrim و Nochrim ، كذلك،تمييزاً لهم عن العبرانيين الذين يذهبون الى انهم أمة مقدسة مفضلة على العالمين[2] .

وذهب بعض المستشرقين اليهود الى ان لفظة (الأميين) معربة من اصل (كوى) و (كويم) المذكور[3] .

والذي أراه ان لفظة (أمي) و (أمية) لم تكن تعني عند الجاهليين معنى عدم القراءة والكتابة والجهل بهما ، وانما كانت تعني عندهم : مشركين ووثنيين، وهو المعنى الذي ورد في القرآن الكريم . والذي نعت الرسول فيه بالأمي ، لأنه من العرب ، ومن قوم ليس لهم كتاب ، عرفوا بذلك من قبل اهـل الكتاب اليهود . أما تفسيرها بالجهل بالكتابة والقراءة ، فقد وقع في الاسلام ، أخذوه من ظاهر معنى لفظـة (الكتاب) الواردة في القرآن ، فظنوا انها تعني (الكتابة) بينما المراد منها الكتاب المُنزل ، لعدم انسجام تفسيرها بالكتابة مع معنى الآية ، ودليل ذلك انهم لما فسروا (الأمية) بمعنى عدم القراءة والكتابة حاروا في ايجاد مخرج لهذا التفسير ، فقالوا ما قالوه في تفسيرها من انها سميت بالأمية لأنها على خلقة الأمة ، او لأنها على الجبلة والفطرة ، وأصل ولادة الأمهات وما شاكـل ذلك من تفاسير مضطربة باردة ، تخبر ان علماء اللغة لم يجدوا لها أصلاً ووجوداً عند الجاهليين فلجأوا الى هذه التعليلات[4] . ولو كانت الأمية معروفة عند اهـل الجاهلية بهذا المعنى لاستشهدوا عليها بشعر من أشعار الجاهليين أو المخضرمين ، ولما لجأوا الى هذه التفاسير المتكلفة ، لأن من عادتهم الاستشهاد بالشعر في تفسير

١ Shorter Ency. p. 764, Horovitz, Koranische Utersuchungen, 1926, S. 51, Buhl - Shaeder, Das Leben Muhammeds, Leipzig, 1930, S. 56, Nöldeke, Geschichte des Qorans, I, S. 14.

٢ The Universe. Jewish Ency. Vol. 4, p. 533.

٣ Torrey, The Jewish foundation of Islam, New York, 1933, p. 38, Abram I. Katsh, Judaism in Islam, New York, 1934, p. 75.

٤ تاج العروس (٨/١٩١) ، (أمم) .

الألفاظ ، ولا سيما الألفاظ الغريبة ، فعدم استشهادهم بشاهد من شعر او نثر في تفسير الأمية هو دليل على ان اللفظة بهذا التفسير من الألفاظ التي ولدت في الاسلام ، وانها لم تكن عربية خالصة ، وانما سمعوها من اهل الكتاب .

وعندي ان يهود يثرب هم الذين أطلقوا لفظة (الأميين) على العرب المشركين، على عادتهم حتى هذا اليوم في نعت الغرباء عنهم بألفاظ خاصة مثل (كوييم)، لتمييزهم عن أنفسهم ، باعتبارهم (شعب الله المختار) المؤمن بإله اسرائيل .

ومما يؤيد هذا الرأي ، اننا نطلق في عربيتنا لفظة (الأمي) على من لا يعرف القراءة والكتابة معاً ، بينما نطلق على الشخص الذي يحسن القراءة ولا يحسن الكتابة قارىء ، او قارئة،وذلك لوجود جماعة كانوا يحسنون القراءة،ولكنهم لا يكتبون . ونجد اليوم من النساء من يحسنّ القراءة ولا يكتبن، ولما نزل الوحي على الرسول: باقرأ ، قال الرسول : ما أنا بقارىء ، او لست بقارىء[1] ، ولم يقل : أنا أمي، مما يدل على ان الأمية انما صارت تعبر عن معنى عدم القراءة والكتابة فيما بعد . ثم اننا لا نجد في اللغات القديمة لفظة واحدة في معنى (الأمية) التي نستعملها في عربيتنا في الوقت الحاضر ، اي في معنى الجهل بالقراءة والكتابة معاً ، وانما يقال لا يقرأ او لا يكتب ، او يجهل القراءة والكتابة ، فلا يعقل خروج العربية على هذه القاعدة . واستعمالها الأمية قبل الاسلام مصطلحاً للتعبير عن الجهل بالكتابة والقراءة معاً . ولم أعثر في النصوص الجاهلية على هذه اللفظة او على لفظة اخرى تؤدي هذا المعنى .

ولا يعقل ان يكون اليهود او غيرهم قد أطلقوا الأمية على العرب ، بسبب جهل العرب الكتابة والقراءة . فقد كان سواد يهود ونصارى جزيرة العرب أمياً ايضاً ، لا يقرأ ولا يكتب،إلا ان القرآن الكريم أخرجهم من الأميين،واستثناهم، وأطلق عليهم (اهل الكتاب) ، وذلك يدل دلالة واضحة على ان المراد من (الأميين) العرب الذين لهم كتاب ، اي العرب الذين لم يكونوا يهوداً ولا نصارى لا من لا يحسن الكتابة والقراءة.والقرآن الكريم هو الذي هدانا الى لفظة (الأميين) فلم ترد اللفظة في نص من نصوص الجاهلية وبفضله ايضاً عرفنا مصطلح (أهل الكتاب) دلالة على اهل الديانتين .

---

١ إمتاع الاسماع (١/١٣) ، (ثم قال اقرأ : قلت ما اقرأ) ، تفسير الطبري (٣٠/١٦١) ، تفسير النيسابوري (٣٠/١٢٥) ، (حاشية على تفسير الطبري) .

وأنا لا أريد ان أثبت هنا ان العرب قاطبة كانت أمة قارئة كاتبة ، جماعها يقرأ ويكتب ، وانها كانت ذات مدارس منتشرة في كل مكان من جزيرتهم ، تعلم الناس القراءة والكتابة والعلوم الشائعة في ذلك الزمن ، فقول مثل هذا هو هراء ، ما في ذلك شك ، ولا يمكن أن يدعيه أحد ثم ان شيوع القراءة والكتابة بالمعنى المفهوم عندنا ، لم يكن معروفاً حتى عند أرقى الشعوب إذ ذاك مثل اليونان والرومان والساسانيين في عالم ذلك العهد . فسواد كل الأمم كان جاهلاً لا يحسن قراءة ولا كتابة ، وانما كانت القراءة والكتابة في الخاصة وفي أصحاب المواهب والقابليات الذين تدفعهم مواهبهم ونفوسهم على التعلم والتثقف وتزعم الحركة الفكرية بين أبناء جنسهم . ومن هنا كانت كل الأمم أمية من حيث الأكثرية والغالبية ، انما اختلفت في نسبة المتعلمين والمتخصصين والمجتهدين ودرجتهم فيها . وفي هذا تتباين وتختلف أيضاً ، فقد كان اليونان والرومان والعالم النصراني في الدرجة الأولى في العهد الذي قارب الاسلام ، يليهم الفرس واليهود والهنود . أما العرب ، فقد كانوا يتباينون في ذلك أيضاً تبايناً يختلف باختلاف أماكنهم كما سأبين ذلك .

فأهل البوادي ، ولا سيما البوادي النائية عن الحواضر ، هم أميون ما في ذلك من شك ،لأن طبيعة البادية في ظروفها المعلومة لا تساعد على تعلم القراءة والكتابة ، ولا على ظهور العلوم وتطويرها فيها ، غير اننا لا نعني انهم كانوا جميعاً أميين، لا قارىء بينهم ولا كاتب . فقد كان بينهم من يقرأ ويكتب ، بدليل هذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها مبعثرة في مواضع متناثرة من البوادي ، وفي أماكن نائية عن الحضارة . وهي كتابات أعراب ورعاة إبل وبقر وأغنام،دونوها تسجيلاً لخاطر ، أو للذكرى ، أو رسالة لمن قد يأتي بينهم،فيقف على أمرهم ، ومن هنا نستطيع أن نقول ان أعراب الجاهلية ، كانوا أحسن حالاً من أعراب هذا اليوم ، فقد كان فيهم الكاتب القارىء ، الذي يهتم بتسجيل خواطره ، وباثبات وجوده بتدوينه هذه الكتابات ، وأن الأمية المذكورة لم تكن أمية عامة جامعة ، بل أمية نسبية ، على نحو ما نشاهده اليوم في مجتمعاتنا من غلبة نسبة الأمية على نسبة المتعلمين .

وأما أهل الحواضر ، فقد كان بينهم من يقرأ ويكتب ، كما كان بينهم الأمي أي الجاهل بالقراءة والكتابة . كان منهم من يقرأ ويكتب بالقلم المسند ، وكان

بينهم من يقرأ ويكتب بالقلم الذي دوّن به القرآن الكريم ، فصار القلم الرسمي للاسلام ، بفضل تدوين الوحي به ، كما كان بينهم من يكتب بقلم النبط وبقلم بني إرم . وكان بينهم من يكتب ويقرأ بقلمين أو أكثر .

وقد سبق ان ذكرنا ان الأحناف كانوا يكتبون ويقرأون ، ورأينا بعضاً منهم كان يكتب بأقلام أعجمية ، وكان قد وقف على كتب أهل الكتاب ، وكانوا أصحاب رأي ومقالة في الدين وفي أحوال قومهم . وذكرت انهم قالوا عن بعضهم ، مثل (ورقة بن نوفل) ، انه كان « يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب بالعبرانية من الانجيل ما شاء أن يكتب »[1] .

وقد ذكر (الهمداني) ان العرب كانت «تسمي كل من قرأ الكتب أو كتب: صابئاً ، وكانت قريش تسمي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أيام كان يدعو الناس بمكة ويتلو القرآن: صابئاً »[2] . فالصباة على تفسير (الهمداني) ، هم الكتبة وكل من قرأ الكتب ، وعلى ذلك يكون الحنفاء في جملة الصباة .

وقد ذكر أهل الأخبار انه كان لدى (الأكاسرة) ديوان خاص يدون فيه كل ما يخص عرب الحيرة وسائر العرب بالعربي ، ويتولى أيضاً ترجمة كل ما يرد الى الدولة بالعربية الى الفارسية ، ويترجم ما يصدر بالفارسية من الحكومة الى العرب بالعربية ، وان في جملة من اشتغل في هذا الديوان وقام بالترجمة فيه (زيداً العبادي) ، أبا الشاعر الشهير (عدي بن زيد العبادي) ، وزعم (ابن الكلبي) ان ملوك الحيرة كانوا يملكون دواوين فيها أخبارهم ومقدار مدد حكمهم وما قيل في مدحهم من شعر ، وفي خبر صحيفة المتلمس وقراءة أحد غلمان الحيرة للصحيفة التي كان يحملها ما يشير الى معرفة غلمان أهل الحيرة القراءة والكتابة[3] . وفي كل هذه الروايات والأخبار تفنيد لزعم من ذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا جميعاً في جهالة وأمية .

---

١ الاغاني (٣/١٢٠) .

٢ الاكليل (١/٤٤) .

٣ الفهرست (ص ١٢ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٣٦٨ وما بعدها) . (فأعطى المتلمس كتابه بعض الغلمان فقرأه) ، (فاذا أنا بغلام من أهل الحيرة يسقي غنيمة له من نهر الحيرة ، فقلت : يا غلام . اتقرأ ؟ قال : نعم . قلت : اقرأ) مجمع الامثال (١/٤١٢ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٣٧٤) ، النصرانية وآدابها (١/١٥٧) .

بل ورد في روايات أهل الأخبار في ترجمة عدي بن زيد العبادي المذكور : ان كان في الحيرة معلمون ، يعلمون الأطفال القراءة والكتابة ، يذهبون الى بيوت الأطفال يعلمونهم ان شاء أهلهم ، أو يعلمونهم في الكتاتيب . وقد ورد أيضاً : ان من الكتاتيب ما كانت تعلم بالعربية ومنها ما كانت تعلم بالفارسية . فكان جدّ عدي بن زيد العبادي مثلاً ممن تعلم في دار أبيه ، وخرج من أكتب الناس في يومه « وطلب حتى صار كاتب ملك النعمان الأكبر . وكان أبوه زيد ممن حذق الكتابة والعربية ، ثم علم الفارسية . ولما تحرك عدي ، وأيفع ، طرحه أبوه في الكتاب ، حتى اذا حذق أرسله المرزبان مع ابنه شاهان مرد الى كتاب الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ، ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى خرج من أفهم الناس بها ، وأفصحهم بالعربية ، وقال الشعر وتعلم الرمي بالنشاب ، فخرج مع الأساورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة وغيرها »[1] .

وذكر أهل الأخبار ان (لقيط بن يعمر الإيادي) الشاعر كتب صحيفة الى قومه إياد ، يحذرهم من كسرى[2] . وكان كاتباً ومترجماً في قصر كسرى، يكتب من الفارسية الى العربية ومن العربية الى الفارسية[3] ، فلما أراد كسرى الانتقام من قومه ، كتب اليهم قصيدة في صحيفة ، فيها :

سلام في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من إياد

وذكر ان (سعد بن ملك) أرسل ابنه (المرقش) الشاعر المعروف وأخاه الى رجل من أهل الحيرة ، فعلمهما الكتابة ، فكانا يكتبان أشعارهما[4] ، وذكر انه كان يكتب بالحميرية ، وانه كتب أبياتاً بها على خشب رحل « الغفيلي الذي تركه وحده لما مرض ، فلما قرأوا الكتابة ضربوا (الغفيلي) حتى أقر[5] .

وكان جفينة العبادي ، وهو من نصارى الحيرة ، وظئراً لسعد بن أبي وقاص،

---

١ الاغاني (٢/١٨ وما بعدها ، ١٠١) .

٢ الاغاني (٢٠/٢٣ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٩٧ وما بعدها) ، بروكلمن ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/١١٢) ، (المترجم) ، (٢/١٠١ وما بعدها) .

٣ البكري ، معجم (١/٥٢) .

٤ المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) ، الاغاني (٦/١٣٠) .

٥ الشعر والشعراء (١/١٣٩) .

كاتباً ، قدم المدينة في عهد عمر ، وصار يعلم الكتابة فيها . وقد اتهمه (عبيد الله بن عمر) بمشايعة أبي لؤلؤة على قتل أبيه ، فقتله وقتل ابنيه[1] .

ولما نزل (خالد بن الوليد) الأنبار ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا الى قوم من العرب قبلنا — فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها — فقال : ممن تعلمتم الكتاب ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشدوه قول الشاعر :

قومي إياد لو انهم أمم   أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم باحةُ العراق إذا   ساروا جميعاً والخط والقلم[2]

ووجد (خالد بن الوليد) أهل (النقيرة) يعلّمون أولادهم الكتاب في كنيستها . وهي قرية من قرى (عين التمر) . ومنها كان (حمران) مولى (عثمان بن عفان)[3] . ولما فتح (خالد) حصن عين التمر ، وغنم ما فيه ، « وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل ، عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم »[4] ، ثم أخرجهم ، فقسّمهم في أهل البلاء ، فكان منهم نصير ،أبو موسى ابن نصير ، وسيرين أبو محمد بن سيرين ، وحمران مولى عثمان وغيرهم .

فنحن في العراق أمام مدارس تعلم العربية في القرى وفي الأماكن التي تكون غالبية سكانها من العرب ، وتعلمهم أمور دينهم من نظر في الأناجيل وفي الكتب الدينية النصرانية والعلوم اللسانية المعروفة الى غير ذلك من علوم ومعرفة وثقافة .

وورد في روايات أهل الأخبار ان عدداً من الشعراء الجاهليين كانوا يكتبون ويقرأون . وكان منهم من اذا نظم شعراً دوّنه ثم ظل يعمل في اصلاحه وتنقيحه وتحكيك ما نظمه الى أن يرضى عنه . فينشده الناس . وممن كان يكتب ويقرأ

---

١ الطبري (٤٢/٥) ، ابن سعد ، طبقات (٣/١ ص ٢٥٨) ، (ليدن) ، البلاذري ، فتوح البلدان (٤٦٠) .
٢ الطبري ، (٣٧٥/٣) .
٣ البلدان (٨٠٧/٤ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣٧٧/٣) ، (خبر عين التمر) .

سويد بن الصامت الأوسي ، صاحب مجلة لقمان ، والزبرقان بن بدر[1] ، وكعب ابن زهير[2] ، وكعب بن مالك الأنصاري[3] ، والربيع بن زياد العبسي ، وكان هو واخوته من الكملة . وقد كتب الى (النعمان بن المنذر) شعراً يعتذر اليه فيه[4].

وذكر ان أهل (دومة الجندل) كانوا يكتبون ويقرأون ، وان أهل مكة انما تعلموا الكتابة من أحدهم . وورد ان قوماً من (طيء) تعلموا الكتابة والقراءة من كاتب الوحي لهود . وذكر ان (بشر بن عبد الملك) السكوني ، أخو (أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن) السكوني الكندي صاحب دومة الجندل ، وكان نصرانياً ، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين ، تعلم الخط العربي من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه ، فرآه (سفيان بن أمية بن عبد شمس) و (أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب) يكتب فسألاه أن يعلمها الخط ، فعلمها الهجاء ، ثم أراهما الخط ، فكتبا . ثم ان بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم (غيلان بن سلمة الثقفي) ، فتعلم الخط منهم ، وفارقهم بشر ومضى الى ديار مضر ، فتعلم الخط منه (عمرو بن زرارة بن عدس) فسمي عمرو الكاتب . ثم أتى بشر الشأم ، فتعلم الخط منه ناس هناك[5] .

وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين : (مرامر بن مرة) ، و (أسلم بن سدرة) ، و (عامر بن جدره) ، الذين وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم أهل الأنبار – رجل من طابخة كلب ، فعلمه رجلاً من أهل وادي القرى ، فأتى الوادي يتردد ، فأقام بها،وعلم الخط قوماً من أهلها[6].

وقد وصف الشاعر (أبو ذؤيب) الهذلي كاتباً من اليمن وهو يكتب كتاباً، ولم يكن خط هذا الكاتب بالقلم العربي ، قلم أهل مكة ، وانما كان بقلم أهل اليمن وهو المسند . وذلك كما يظهر من تعابير هذا الشاعر الواردة في شعره ، إذ يقول :

---

١ الاغاني (٢/١٨٠) .
٢ الشعر والشعراء (١/٩١) .
٣ ابن هشام (٢/٨٧ وما بعدها) .
٤ الاغاني (١٦/٢٢ وما بعدها) ، المرتضى ، أمالي (١/١٣٦) .
٥ فتوح البلدان (٤٥٦) ، (أمر الخط) .
٦ فتوح البلدان (٤٥٧) ، (أمر الخط) .

عرفتُ الديار كرَقْم الدوا ة يزبره الكاتب الحميريّ
برقم ووشي كما زخرفت بميشمها المُزدَهاة الهدي
أدانَ وأنبأه الأولو ن أن المدان المليُّ الوفيّ
فنمنم في صحف كالريا ط فيهن إرث كتاب محيّ[1]

وهي قصيدة عدتها أربعة عشر بيتاً ، ذكر في أولها دروس الديار وطموسها الى أن رثى ابن عمه (نشيبة) بخمسة أبيات من آخرها[2] .

ويظهر من هذه الأبيات ان ذلك الكاتب الحميري كان يكتب بالحبر الموجود في دواة على شيء يصلح للكتابة عليه كأديم أو قرطاس ، ولم يكن يستعمل المزبر المعمول من حديد لنقش الحروف على الحجر . وهذا مما يدل على ان أهل العربية الجنوبية كانوا يكتبون على مواد الكتابة الأخرى بالحبر والقلم ، فعل أهل مكة وأهل الحيرة ودومة الجندل .

وذكر أهل الأخبار أيضاً ، ان رجلين من (بني نهد بن زيد) يقال لهما (حزن) و (سهل) كانا يكتبان ويقرآان . وكانا قد زارا (الحارث بن مارية) الغساني ، وكان عندهما حديث من أحاديث العرب ، ولها ظرافة وأدب وصحبة ، فنزلا منزلاً طيباً من قلب الحارث ، فحسدهما (زهير بن جناب الكلبي) وكان من ندماء الملك ، فأراد افساد مكانهما عنده ، فقال له : « هما يكتبان اليه بعورتك وخلل ما يريان منك »[3] . يريد اخباره انهما كانا يتجسسان عليه فيكتبان بأخباره الى خصمه (المنذر) الأكبر ، ملك الحيرة ، جدّ النعمان بن المنذر .

وأما عرب بلاد الشأم ، فلم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن علمهم بالكتابة والقراءة ، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون دليلاً على جهلهم بها . ولا سيما انهم كانوا على اتصال ببني إرم في بلاد الشأم وبعرب بلاد العراق ، ثم انه يجوز انهم كانوا يكتبون بقلم بني إرم ، على عادة معظم شعوب الشرق الأدنى إذ ذاك ،

---

١ ديوان الهذليين (١/ ٦٤) .
٢ الخزانة (٣/٢٩١) ، (بولاق) .
٣ الاغاني (٥/١١٨) ، (دار الكتب) .

في الكتابة به ، لأنه كان قلم العلم والثقافة والأدب في ذلك الحين . ثم اننا سمعنا ان ملوكهم المتنصرين كانوا يرأسون مجالس المناظرات في أمور الدين ، ويبحثون مع رجال الدين في موضوعات دينيـــة ، ويدافعون عن مذهب اليعاقبة في طبيعة المسيح ، ومثل هؤلاء الملوك لا يعقل أن يكونوا جهلة أميـــين لا يقرأون ولا يكتبون .

وقد سبق أن تحدثت عن الكتابات الصفوية وعن كتابات عربية شمالية أخرى، عثر عليها السياح والمستشرقون في مواضع متعددة من (الصفاة) وفي البوادي ، كتبت على صخور وهشيم صخور منثور ، دلّ البحث فيهـا على انهـا كتابات أعراب ، كان أصحابها يتنقلون من مكان الى مكان طلباً للمرعى والصيد .

وتدل تلك الكتابات الصفوية على ان أعراب الجاهلية كانوا في أيام الجاهليـــة أحسن حالاً من حيث علمهم بالكتابة والقراءة من أعراب هذا اليوم . فالكتابات الصفوية الكثيرة المبعثرة في البوادي ، هـــي كتابات أعراب ، متجولين ، كانوا يرعون الإبل وبقية الماشية،فكانوا يسلّون أنفسهم بالكتابة والتصوير على الحجارة ، بينما لا نكاد نجد بين أعراب هذا اليوم من يكاد يقرأ ويكتب .

كما تحدثت عن كتابات ثمودية ، وثمود قوم من لبّ العـــرب ومادة العرب البائدة الأولى في عرف النسابين ، وتحدثت أيضاً عن القلم المسند بلهجاته ولغاته ، فهل يصدق بعد هذا قول من زعم ان العرب قبل الاسلام كانوا في جهالة عمياء، لا يقرأون ولا يكتبون .

ولا يعقل أن يكون المذكورون أميين كتبوا للتسلية والتلهية ، وان الأوامـــر والقوانين التي دوّنها ملوك اليمن قبل الاسلام وأعلنوها للناس بوضعها في المحلات العامة وفي الأماكن البارزة كانت مجرد تدوين أو تزويـــق وتزيين ، لا للاعلان ولإفهام المواطنين بمحتوياتها . إن تدوين تلك الكتابات ووضع الحجارة الفخمـــة المكتوبة للإعلان ، دليل على ان في الناس قوماً يقرأون ويكتبون ويفهمون ، وان الحكومات انما أمرت بتدوينهـــا لإعلام الناس بمحتوياتها للعمل بها ، كما تفعـــل الحكومات في الوقت الحاضر عند إصدارها أمراً أو قانوناً بإذاعته بالوسائل المعروفة على الناس للوقوف عليها ، وان من بين الحجارة الصفوية واللحيانية والثموديـــة المكتوبة ، ما هو رسائل وكتب وجهت الى أشخاص معروفين ، كما نفعل اليوم في توجيه الرسائل الى الأقرباء والأصدقاء .

ووجد عند ظهور الاسلام قوم كانوا يكتبون ويقرأون ويطالعون الكتب بمكة ولهم إلمام بكتب أعجمية ، ومن هؤلاء (الأحناف) وقد ذكر عن بعض أنهم كانوا يجيدون بعض اللغات الأعجمية ، وانهم وقفوا على كتب اليهود والنصارى وعلى كتب أخرى . وفي معركة (بدر) اشترط الرسول على من أراد فداء نفسه ولم يكن موسراً من أهل مكة ، أن يعلم عشرة نفر من المسلمين القراءة والكتابة، كما كان من عادة أهل مكة تدوين ما يجمعون عليه وما يلزمون أنفسهم بــه في صحف يختمونها بخواتمهم وبأسمائهم لتكون شواهد على عزمهم كالــذي فعلوه في الصحيفة . وذكر ان أمية بن أبي الصلت كان فيمن قرأ الكتب ووقف عليها [1]، وذكروا غيره أيضاً .

وذكر أهل الأخبار ان قوماً من أهل يثرب من الأوس والخــزرج ، كانوا يكتبون ويقرأون عند ظهور الاسلام ، ذكروا فيهم : سعد بن زرارة ، والمنذر ابن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وكان يكتب بالكتابين العربية والعبرية أو السريانية ، ورافع بن مالك وأسيد بن حُضير ، ومعنى (معن) بن عدي البلوي ، وأبو عبس بن كثير ، وأوس بن خولى ، وبشير بن سعيـد ، وسعد بن عُبادة ، والربيع بن زياد العبسي ، وعبد الرحمن بن جبر ، وعبدالله ابن أبي ، وسعد بن الربيع ، وقد رجعوا أصل علمهم بالكتابة والقراءة الى قوم من يهود يثرب ، مارسوا تعليم الصبيان القراءة والكتابة : دعوهم (بني ماسكة)[2]. ويظهر ، إن صحت هذه الرواية ، ان يهود يثرب كانوا يكتبون بالعربية أيضاً ، وانهم كانوا يعلمونها للعرب . وتعرض البلاذري لهذا الموضوع فقال : « كان الكتاب في الأوس والخزرج قليلاً ، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول ، فجاء الاسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون »[3] . ونجد هذا الخبر في موارد أخرى ، أخذته دون أن تشير الى السند ، فظهر وكأنه حقيقة مسلمة وخبر متواتر ، حتى جــاز على المحدثين ، فبنوا عليه حكماً ، هو أن الكتاب كان في يثرب قليلاً ، حتى جاء الاسلام ،

---

١ المعارف ، لابن قتيبة (ص ٢٨) .

٢ صبح الاعشى (٣/١٥) .

٣ البلاذري ، فتوح (٤٧٩) .

فانتشر بها ، وانه لو كانت الكتابة منتشرة عندهم ، لما كلف الرسول القارئين الكاتبين من أسرى بدر، بأن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة ، فداءً لنفسه من الأسر[1] .

ويظهر ان يهود يثرب ، وربما بقية يهود ، مثل يهود خيبر ، وتيماء وفدك ووادي القرى ، كانوا يكتبون بقلمهم ، كما كانوا يكتبون بالعربية ، ويظهر من استعمال (البلاذري) جملة : « وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول »[2]،ان يهود يثرب كانوا يكتبون بالعربية ، كما كان يكتب بها صبيان المدينـــة ، وكانوا يعلمون الكتابـــة لصبيان يثرب في مدارسهم . وفي هذا الخبر وأمثاله دلالة على ان الكتابة كانت معروفة بين أهل يثرب أيضاً قبل الاسلام ، وانها كانت قديمة فيهم ، ولهذا فلا معنى لزعم من قال انها انتشرت بيثرب في الاسلام ، وان الكتابة كانت قليلة بها قبل هذا العهد.

وقصد أهل الأخبار بجملة « وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، الكتابة بالخط العربي الشمالي ، لا بالقلم المسند ، لأن هـــذا هو مرادهم من (الكتاب العربي) و (كتاب العربية) ، ويظهر ان اليهود قد تعلموا الخط العربي من عرب العراق وبلاد الشأم،أو من التجار والمبشرين الذين كانوا يفدون الى الحجاز، وأما القلم المسند ، الذي هو قلم العرب الجنوبيين ، فلم يكن مستعملاً في يثرب، وإلا لأشير اليه ، مع انها من القواعد المتعصبة للقحطانية ، وحاملة الدعوة الى اليمن قبل الاسلام وفي الاسلام . وهذا يدل على ان المسند كان قـــد طورد في جزيرة العرب قبل الاسلام ، وأن سلطانه كان قد تقلص كثيراً خارج العربيـة الجنوبيـة قبل نزول الوحي على الرسول ، وربما كان القلم العربـي الشمالي قد دخل العربية الجنوبية أيضاً قبل الاسلام ، فأخذ ينافس المسند فيها ، ولا سيا في المناطق التي تركزت فيها النصرانية وتحكمت في أهلها ، فأخذ النصارى يقاومون ذلك القلم ، لأنه قلم الوثنية ، ويعلّمون أولاد النصارى القلم العربـي الشمالي ، لأنه قلمهم الذي كانوا يعلمون به في كنائس العرب في العراق وفي دومة الجندل وبلاد الشأم .

وقد أطلق العرب على الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي،وقيل الحساب

---

١ ابن سعد ، طبقات (الجزء الثاني ، القسم الاول) ، (١٤) .
٢ البلاذري ، فتوح (٤٥٩) ، (المكتبة التجارية) .

أيضاً ، والجَلَد أي الشجاعة ، وقول الشعر ، وأصحاب الشرف والنسب: الكملة. وجمع بعض أهل الأخبار الى ذلك استواء القامة وكمال الانسان[1] . ومن هؤلاء الكملة : (سعد بن عبادة بن دليم) سيد الخزرج ، وهو من أسرة غنية تطعم الفقراء ، ولها أطم يأوي اليه الفقراء للأكل . ولما نزل النبي يثرب ، كانت جفنة (سعد) تدور مع النبي ، وكان يعشي كل ليلة أهل الصفة[2] .

ومن الكملة : الربيع بن زياد العبسي . وكان هو واخوته من الكملة[3] . و (رافع بن مالك) ، و (أسيد بن حضير) ، و (عبدالله بن أبي) ، و (أوس بن خولى) ، و (سويد بن الصامت) ، و (حضير الكتائب)[4].

ويظهر من النظر الى قائمة أسماء من أدخلهم أهل الأخبار في الكملة ، ان الكتابة والرماية والعوم ، لم تكن الشروط الأساسية الكافية ، لكي يعد الانسان كاملاً ، فقد توفرت هذه الشروط في أناس آخرين ، لم يدخلوا مع ذلك في الكملة ، وانما هنالك أشياء أخرى بالاضافة الى الأمور المذكورة ، هي الشرف وكمال الجسم والعقل والامتناع عن الهجر في الكلام ، والتحلي بالحكمة وبالفطانة واللب وقول الشعر المحكم الحكيم .

وكان (عبد الرحمان بن جبر) ، أبو عبس الأنصاري ، يكتب بالعربية قبل الاسلام . ومات سنة أربع وثلاثين[5] .

وكان (المنذر) ، (منذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان) الخزرجي من الكتبة . وكان أحد السبعين الذين بايعوا الرسول ، وأحد النقباء

---

١ المعارف (٢٥٩) ، الاغاني (٢٥/٣) ، (دار الكتب) ، ابن سعد ، طبقات (٥٤٢/٣)

٢ ابن سعد طبقات (٦١٣/٣) ، الاصابة (٢٧/٢) ، (رقم ٣١٧٣) ، الاستيعاب (٣٢/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، أسد الغابة (٣٧٨/٢) ، ابن الاثير ، الكامل (٣٧٨/٢) ، ابن هشام (٨٩/٢) .

٣ أمالي المرتضى (١٣٦/١ ، ١٩٠) ، الاغاني (٢٢/١٦ وما بعدها) .

٤ فتوح البلدان (٤٥٩ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (٥٤٢/٣) ، الاصابة (٩٨/١ وما بعدها) ، (رقم ٣٣٤) ، تفسير الطبري (٢٣/٤) ، الروض الانف (٢٦٥/١ وما بعدها) ، الاغاني (١٦٤/٢) ، ابن هشام ، سيرة (٢٦٥/١) ، (حاشية على الروض) .

٥ المعارف (٣٢٦) ، (أبو عيسى) ، الاصابة (٣٨٦/٢) ، (رقم ٥٠٩٧) ، (١٥٠/٤) ، (رقم ٨٨٠) .

الاثني عشر . « وكان يكتب في الجاهلية بالعربية »[1] . قتل يوم بئر معونـة .

وكان (أبو جبيرة بن الضحاك) الأنصاري ، ممن يكتب . وقد تولى الكتابة للخليفة (عمر)[2] .

وكان (قيس بن نشبة) عم الشاعر (العباس بن مرداس) السلمي ، أو ابن عمه من الكتبة . ذكر انه كان ممن قرأ الكتب وتأله في الجاهلية . والعباس بن مرداس نفسه كان كاتباً ، ذكر انه لما سمع ان رجلاً من أهل مكة اشترى إبلاً لقيس بن نشبة فلواه حقه ، وان (قيساً) قام بمكة يقول :

يا آل فهرٍ كنت في هذا الحرم في حرمة البيت وأخلاق الكرم
أظلم لا يمنع مني من ظلم

بلغ ذلك (عباس بن مرداس) فكتب اليه أبياتاً منها :

وآتِ البيوت وكن من أهلها صدداً تلق ابن حرب وتلق المرء عبّاسا

فقام العباس بن عبد المطلب وأخذ له بحقه ، وقال : أنا لك جار ما دخلت مكة ، فكانت بينه وبين بني هاشم مودة[3] .

وفي جملةِ من كان يكتب ويقرأ من أهل مكة (حرب بن أمية) . واليـه ينسب قوم من أهل الأخبار ادخال الكتابة بين قريش . وهو أبو (أبـي سفيان ابن حرب) ، فهو جدّ (معاوية بن أبـي سفيـان) . وورد ان الذي حمـل الكتابة الى قريش بمكة (أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة) . فهو ناشر الكتابة على هذه الرواية بين أهل مكة[4] . والاثنان على رأي أهل الأخبار من أقدم كتّاب مكة اذن ، بل هما ناشرا الكتابة بها . وقد ذهب (ابن قتيبة) أن (بشر بن عبد الملك العبادي) علم (أبا سفيان بن أمية) ، و (أبا قيس بن عبد مناف بن زهرة)

١ الاستيعاب (٣/٤٣٨ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣/٤٤٠) ، (رقم ٨٢٢٦) .
٢ الجهشياري (١٦) ، الاصابة (٤/٣١) ، (رقم ١٨٨) .
٣ الاصابة (٣/٢٤٩ وما بعدها) ، (٧٢٤٤) .
٤ الفهرست (ص ١٣) ، المعارف (٧٣) .

الكتاب ، فعلّما أهل (مكة)[1] . وقد ذكر (السيوطي) عن (أبي طاهر) السلفي في (الطيوريات) بسنده عن (الشعبي) ، انه « قال : أول العرب الذي كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس » . تعلم من أهل الحيرة ، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار[2] .

ولو أخذنا برأي من قال إن (حرب بن أمية) أو (أبو سفيان بن أمية) ، هما أول من علم أهل مكة الكتابة ، نكون قد جعلنا (بني أمية) أول من أدخل القلم الى مكة ، بفضل تعليم (بشر) لهم هذا القلم . ومنهم انتشر بين أهل مكة في عهد غير بعيد عن ايام النبي .

وذكر ان في جملة من كان يكتب قبل الاسلام (عمرو بن عمرو بن عدس)[3].

وذكر (ابن النديم) ان (أسيد بن أبي العيص) كان من كتّاب العرب. وذكر انه كان في خزانة (المأمون) كتاب بخط (عبد المطلب بن هاشم) في جلد أدم ، فيه ذكر حق (عبد المطلب بن هاشم) من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري ، من أهل وزل صنعا عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه . وكان الخط شبه خط النساء[4] .

وكان (حنظلة بن أبي سفيان) ممن يحسن الكتابة والقراءة بمكة . فقد ورد في الأخبار انه كتب من مكة الى والده (أبو سفيان) ، وكان إذ ذاك مع العباس بن عبد المطلب بنجران ، يخبره خبر الرسول[5] . وكان والده يكنى به . وقد قتله (علي بن أبي طالب) يوم (بدر)[6] .

وكان (بغيض بن عامر بن هاشم) من كتّاب قريش قبل الاسلام . وهو الذي كتب الصحيفة على بني هاشم[7] . وورد ان (أبا الروم بن عبد شرحبيل) واسمه (منصور بن عكرمة) هو الذي كتب الصحيفة[8] .

---

١ المعارف (٥٥٣) .
٢ المزهر (٣٤٢/٢) .
٣ المزهر (٣٥١/٢) ، (النوع الثاني والاربعون : معرفة الكتابة) .
٤ الفهرست (١٣ وما بعدها) .
٥ الاغاني (٢٥٠/٦) ، (دار الكتب) .
٦ نسب قريش (١٢٣) .
٧ كتاب نسب قريش (٢٥٤) .
٨ كتاب نسب قريش (٢٥٥) ، الروض الانف (٢١٩/١) .

وكان (الوليد بن الوليد) وهو أخو (خالد بن الوليد) ممن يكتب ويقرأ، وكان (خالد) ممن يقرأ ويكتب كذلك . وكان الوليد سبب اسلام (خالد) . فقد كان قد فر من مكة ولحق بالرسول عمرة القضيّة ، وكتب الى أخيه خالد، ان الرسول قال له : « لو أتانا ، لأكرمناه ، وما مثله سقط عليه الاسلام في عقله » ، فوقع الاسلام في قلب خالد . وكان سبب هجرته[1] .

وكان (نافع بن ظريب بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف بن قصي) القرشي ممن يكتب . أسلم يوم الفتح . وهو الذي كتب المصاحف لعمر بن الخطاب[2] ، أو المصحف له . وذكر انه كان يكتب المصاحف،وانه كتب المصاحف لعثمان[3] ، فيظهر انه كان من نسّاخ المصاحف ، ينسخها للناس .

وكان (حاطب بن أبي بلتعة) من الكتّاب . وكان حليفاً لبني أسد بن عبد العُزى ، ويقال حالف الزبير ، وقيل مولى (عبيد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد) . وهو الذي كتب كتاباً الى أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله اليهم ، فنزلت فيه : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم »[4] . وقد شهد مع علي بن أبي طالب على كتاب رسول الله لسلمة بن مالك السلمي، الذي كتب الرسول به اقطاعه ما بين ذات الحناظى الى ذات الأساود[5] .

وكان الحكم بن أبي أحيحة سعيد بن العاصي ، وهو الذي سمّاه رسول الله (عبدالله) من اولئك الذين أمرهم الرسول ان يعلم الكتاب بالمدينة . وكان كاتباً قتل يوم (مؤتة)[6] .

يقول أهل الأخبار : ولما نزل الوحي كان « في قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجرّاح ، وطلحة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو ، أخو سهيل بن عمرو العامري من قريش،

---

١ نسب قريش (٣٢٤) .
٢ الاستيعاب (٣/ ٥١٠) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ الاصابة (٣/٥١٥) ، (رقم ٨٦٥٨) .
٤ الاصابة (١/٢٩٩) ، (رقم ١٥٣٨) ، المقريزي ، امتاع (١/٣٦٢) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٥) .
٦ نسب قريش (١٧٤) .

وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري ، وحويطب بن عبد العزى العامري ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، ومن حلفاء قريش : العلاء الحضرمي »[1] .

ولكننا لو أحصينا أسماء من كان يكتب من اهل مكة، ممن نص أهل الأخبار على أسمائهم ، وممن لم ينصوا على اسمهم ، وانما ذكروهم عرضاً في اثناء كلامهم عنهم فذكروا انهم كانوا يكتبون ويقرأون ، لوجدنا ان عددهم أكثر بكثير من هذا الرقم المذكور ، رقم سبعة عشر كاتباً ، او بضعة عشر نفراً[2] ، وهو عدد ورد اليهم على ما يظهر من خبر آحاد ، انتشر في الكتب، فصار متواتراً منتشراً حتى في كتب المؤلفين في هذا اليوم ، اتخذوه دليلاً على أمية العرب قبل الاسلام .

وقد استعان الرسول بقوم كتبوا له ، أشار العلماء الى أسمائهم . منهم من كتب له الوحي ، فعرفوا من ثم بـ (كتاب الوحي) . ومنهم من كتب له بريده ورسائله، ومنهم من تولى له تدوين المغانم وأمور الزكاة والخرص والصدقة وما الى ذلك من امور اقتضاها تطور الظروف والأحوال ، ومنهم مثل (زيد بن ثابت) من كتب له بالعربية وبالعبرانية او السريانية . وذكر ان بعضهم كان مثل زيد يكتب بغير العربية أيضاً . وكان ممن كتب له : (علي بن ابي طالب) ، و (عثمان بن عفان) ، و (معاوية بن أبي سفيان) ، و (حنظلة الأسيدي) ، و (خالد بن سعيد بن العاص) ، و (ابان بن سعيد) ، و (العلاء بن الحضرمي) ، و (عبدالله بن أبي سرح)[3] .

وروي ان « أول من كتب له أبي بن كعب ، وكان اذا غاب أبي كتب له زيد بن ثابت » ، وكان يكتب في الجاهلية[4] .

---

١ فتوح البلدان (٤٥٧) ، (أمر الخط) .
٢ فتوح البلدان (٤٥٧) ، (أمر الخط) ، العقد الفريد (٢٤٢/٤) .
٣ الطبري (١٧٣/٣) (ذكر من كان يكتب لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم) ، التنبيه والاشراف (٢٤٥ وما بعدها) ، الوزراء والكتاب (١٢ وما بعدها) ، العقد الفريد (٢٤٦/٤) .
٤ الطبري (١٧٣/٣) ، (دار المعارف) ، المعارف (١١٢ وما بعدها) .

وجاء في ترجمة أنس بن مالك : أن أمه جاءت به يوم قدم الرسول يثرب وقالت له : « يا رسول الله ، هذا ابني وهو غلام كاتب »[1] . ومعنى هذا أن غلمان يثرب كانوا يقرأون ويكتبون .

وقد ورد في أخبار (بدر) أنه كان في أسرى قريش قوم يقرأون ويكتبون ، وقد أمر رسول الله بفك رقاب هؤلاء الأسرى على أن يكون فداؤهم تعليم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة[2] . وقد علّم كل واحد منهم صبيان يثرب الكتابة فانتشرت الكتابة بينهم[3] .

وذكر أن ممن كتب لرسول الله : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، والزبير بن العوّام ، وخالد وابان ابنا سعيد بن العاص ، وحنظلة الأسيدي ، والعلاء بن الحضرمي ، وخالد بن الوليد ، وعبدالله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وعبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول ، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهيم بن الصلت ، ومعيقيب بن أبي فاطمة ، وشرحبيل بن حسنة ، وعبدالله ابن الأرقم الزهري . وذكر أن عدد من كتب للرسول ثلاثة وأربعون كاتباً[4] .

وأول من كتب للنبيّ من قريش (عبدالله بن سعد بن أبي سرح)، وأول من كتب له مقدمه المدينة (أُبي بن كعب) ، وهو أول من كتب في آخر الكتاب : وكتب فلان بن فلان . وهو من كتاب الوحي والرسائل . وقد كان (عبدالله بن الأرقم الزهري) من كتاب الرسائل للرسول ، وأما الكاتب لعهوده إذا عهد وصلحه إذا صالح ، فعلي بن أبي طالب[5] . وقد وردت في أواخر بعض كتب الرسول أسماء كتاب تلك الكتب .

وفي طبقات (ابن سعد) صورة كتاب أمر بتدوينه رسول الله لنهشل بن مالك الوائلي من باهلة ، كتبه (عثمان بن عفّان)[6] .

---

١ ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٧/١٠) .
٢ طبقات (٢/١ ص ١٤) .
٣ امتاع الاسماع (١/١٠١) .
٤ الاستيعاب (١/٣٠) ، (حاشية على الاصابة) ، الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب (١٢ وما بعدها) ، العقد الفريد (٤/٢٤٦) .
٥ الاستيعاب (١/٣٠) ، الجهشيارى ، (١٣) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٤) .

وكان (علي بن أبي طالب) من كتاب الوحي ، والكاتب لعهود الرسول إذا عهد ، وصلحه إذا صالح[1] . ذكر أنه تعلم الكتابة وهو صغير ، ابن أربع عشرة سنة ، تعلمها في (الكتاب)[2] .

وكان من كتّاب رسول الله الذين كتبوا له الرسائل الى سادات القبائل يدعوهم فيها الى الاسلام : خالد بن سعيد بن العاص[3] ، والمغيرة بن شعبة[4] ، ومعاوية[5] ، وعبدالله بن زيد[6] ، وأبي بن كعب[7] ، وعلي[8] . وجُهيم بن الصلت[9] ، والأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي[10] ، والزبير بن العوّام[11] ، والعلاء بن الحضرمي[12] ، وعقبة[13] ، والعلاء بن عقبة[14] ، وعثمان بن عفّان[15] ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري[16] ، وثابت بن قيس بن شماس[17] .

وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، من كتاب الرسول ، وقد كان أول مرتد في الإسلام . ارتد وكان قد خالف في كتابه إملاءه ، فأنزل الله فيه آيات من القرآن نهى فيه عن اتخاذه كاتباً ، فهرب ، فلما كان يوم (الفتح) التجأ[18] الى (عثمان) أخوه من الرضاعة فأجاره ، واستجار له (عثمان) عند النبي فأجاره له . وقد عينه (عثمان) عاملاً على مصر ، وافتتح إفريقية ، ومات سنة ست وثلاثين ،

---

١ الاستيعاب (١/ ٣٠) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الفصول المختارة ، للمفيد (٢/ ٦٦) ، (النجف) .
٣ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٦٥ ، ٢٧١) .
٤ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٦٦ ، ٢٦٨) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٦٦ ، ٢٦٧) .
٦ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٦٧) .
٧ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٦٧ ، ٢٧٨) .
٨ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٦٧) .
٩ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٦٨) ، الاصابة (١/ ٢٥٧) ، (١٢٥٦) .
١٠ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٦٨ ، ٢٦٩) .
١١ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٦٩) .
١٢ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٦٩ ، ٢٧١) .
١٣ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٧١) .
١٤ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٧١ ، ٢٧٣) .
١٥ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٨٤) .
١٦ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٨٦) .
١٧ ابن سعد ، الطبقات (١/ ٢٨٦) .
١٨ رسائل الجاحظ (٢/ ١٨٨) .

أو سبع وخمسين ، أو تسع وخمسين[1] . وروي أنه كان أول من كتب له من قريش[2] .

وهناك رواية يرجع سندها الى (أنس بن مالك) ، تذكر أن « رجلاً كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سميعاً بصيراً ، كتب سميعاً عليماً ، وإذا أملى عليه سميعاً عليماً ، كتب سميعاً بصيراً . وكان قد قرأ البقرة وآل عمران ، وكان من قرأهما قرأ قرآناً كثيراً ، فتنصر الرجل ، وقال إنما كنت أكتب ما شئت عند محمد .. قال : فمات »[3]. ولا نعرف كاتباً ينطبق عليه هذا الوصف سوى (عبدالله بن سعد بن أبي سرح) . فهو المراد بهذه القصة . وهي قصة لا يمكن أن تكون صحيحة ، لأن ارتداد (عبدالله) إنما كان بمكة ، فدليل النص عليه في سورة الأنعام[4] ، وهي سورة مكية ، فكيف يكون قد قرأ سورة البقرة وآل عمران ، ثم تنصر ، وهما سورتان مدنيتان .

وفي (عبدالله) نزلت الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال : أوحي إليّ ولم يوحَ اليه شيء . ومن قال : سأنزل مثل الذي أنزل الله »[5]، على رأي أكثر المفسرين . « كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فيما يملي عزيز حكيم ، فيكتب غفور رحيم ، فيغيره ، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوّل ، فيقول نعم سواء . فرجع عن الإسلام ، ولحق بقريش . وقال لهم : لقد كان ينزل عليه عزيز حكيم ، فأحوّله ثم أقول لما أكتب ، فيقول : نعم سواء . ثم رجع الى الإسلام قبل فتح مكة » . وورد في رواية أخرى: « وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سميعاً عليماً ، كتب هو عليماً حكيماً : وإذا قال : عليماً حكيماً ، كتب سميعاً عليماً ، فشك وكفر . وقال : إن كان محمد يوحى اليه ، فقد أوحي إليّ وإن كان الله ينزله ، فقد أنزلت مثل ما أنزل الله . قال محمد : سميعاً عليماً . فقلت أنا : عليماً حكيماً .

---

١ الاصابة (٢/٣٠٩) ، (رقم ٤٧١١) .
٢ الاستيعاب (١/٣٠) ، (حاشية على الاصابة) ، البلاذري ، أنساب (١/٣٥٨) ، الجهشياري (١٣) .
٣ السجستاني ، المصاحف (٣) .
٤ اسباب النزول (١٦٥) .
٥ الانعام ، الاية ٩٣ .

فلحق بالمشركين ، ووشى بعمّار وجبير عند ابن الحضرمي ، أو لبني عبد الدار، فأخذوهم فعذّبوا »[1] .

وورد في رواية أخرى : « كان قد تكلم بالإسلام فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم يكتب له شيئاً ، فلما نزلت الآية التي في المؤمنين : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة . أملاها عليه ، فلما انتهى الى قوله : ثم أنشأ خلقاً آخر ، عجب عبدالله في تفصيل خلق الإنسان ، فقال : تبارك الله أحسن الخالقين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت عليّ ، فشك عبدالله حينئذ، وقال لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إلي كما أوحي اليه ، ولئن كان كاذباً ، لقد قلت كما قال . وذلك قوله : ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . وارتد عن الإسلام »[2] .

وورد أنه كان يقول : كنت أصرف محمداً حيث أريد . كان يملي عليّ عزيز حكيم ، فأقول : أو عليم حكيم ، فيقول : نعم كلّ صواب . فهدر النبي دمه[3] . وذكر أنه « قال لقريش : أنا آتي بمثل ما يأتي به محمد . وكان يملي عليه الظالمين ، فيكتب : الكافرين ، يملى عليه سميع عليم ، فيكتب : غفور رحيم وأشباه ذلك . فأنزل الله : ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إليّ ، ولم يوح إليه شيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . فلما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله بقتله ، فكلمه فيه عثمان بن عفّان ، فأمر رسول الله بتركه[4] .

وقد ذكر (الجاحظ) أنه « كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخالف في كتابة املائه . فأنزل الله فيه آيات من القرآن نهى فيه عن اتخاذه كاتباً ، فهرب حتى مات بجزيرة العرب كافراً »[5] . والصحيح أنه هرب ، فلما كان يوم الفتح أمن النبي الناس إلا أربعة نفر وامرأتين . عكرمة ، وابن خطل ، ومقيس ابن صبابة ، وابن أبي سرح ، فأما عبدالله فاختبأ عند عثمان ، فجاء به حتى

---

١ تفسير الطبري (٧/١٨٠ وما بعدها) .
٢ اسباب النزول (١٦٥) .
٣ المعارف (١٣٠ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (٣٩٣/١) .
٤ فتوح البلدان (٤٥٩) ، (أمر الخط) ، المعارف (٣٠٠ وما بعدها) .
٥ ذم أخلاق الكتب ، رسائل الجاحظ (١٨٨/٢) .

أوقفه على النبي ، وهو يبايع الناس ، فاستجار له عثمان ، فأجاره . وعاش وشهد فتح مصر مع (عمرو بن العاص) ، وأمَّره (عثمان) على مصر . واختلف في وفاته ، فقيل مات سنة (٣٦ هـ) وقيل عاش الى سنة تسع وخمسين . وكان أخاً لعثمان في الرضاعة [١] .

وكان (جهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي)، ممن تعلم الخط في الجاهلية ، فجاء الاسلام وهو يكتب ، وقد كان كتب لرسول الله [٢] . ذكر انه كان هو و (الزبير بن العوّام) يكتبان أموال الصدقات [٣] . وهو الذي كتب كتاب الرسول الى (يحنه بن رؤبة) بتبوك ، وكتابه ليزيد بن الطفيل الحارثي [٤] .

وذكر اسم (الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي) في جملة من كتب للرسول . ففي طبقات ابن سعد ، أنه كتب له كتابه لعبد يغوث بن وعلة الحارثي [٥] ، وكتابه لعاصم بن الحارث الحارثي [٦] ، وكتابه للأجب ، رجل من (بني سُليم) [٧]. وكان اسمه (عبد مناف بن أسد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم) ، ويكنى (أبا عبدالله) . كان من السابقين الأولين ، قيل أسلم بعد عشرة ، وقيل قبل ذلك . وكان رسول الله يجلس في داره التي على (الصفا) ، حتى تكاملوا أربعين رجلاً ، وكان آخرهم إسلاماً (عمر) فلما تكاملوا أربعين رجلاً خرجوا ،وأقطعه النبي داراً بالمدينة [٨] .

و (عبدالله بن الأرقم بن أبي الأرقم) من كتاب الرسول كذلك . كان يجيب عنه الملوك ، وبلغ من أمانته عنده أنه كان يأمره أن يكتب الى بعض الملوك

---

١ الاصابة (٢/٣٠٩) ، (رقم ٤٧١١) ، أسد الغابة (٣/١٧٣) ، الاستيعاب (١/٣٨١) .
٢ الاصابة (١/٢٥٧) ، (رقم ١٢٥٦) . فتوح البلدان (٤٥٩) ، (أمر الخط) ، الاستيعاب (١/٢٤٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) ، (كتاب من حضر من الكتاب) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٨) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٨) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٩) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣ وما بعدها) .
٨ الاصابة (١/٤٢ وما بعدها) ، (رقم ٧٣) .

فيكتب ويختم ولا يقرأه لأمانته عنده . » قال عمر : كتب الى النبي ، صلى الله عليه وسلم كتاب . فقال لعبدالله بن الأرقم الزهري : أجب هؤلاء عني . فأخذ عبدالله الكتاب فأجابهم ، ثم جاء به ، فعرضه على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أصبت . قال عمر : فقلت : رضي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما كتبت ، فما زالت في نفسي يعني حتى جعلته على بيت المال »[1] . وكتب لأبي بكر وعمر ، وكان على بيت المال أيام عمر ، وكان أميراً عنده . وذكر أنه كان إذا غاب عن الرسول ، وغاب زيد بن ثابت ، واحتاج الرسول أن يكتب الى أحد أمر من حضر أن يكتب . فمن هؤلاء عمر وعلي وخالد بن سعيد والمغيرة[2] .

وكان عبدالله بن الأرقم بن عبد يغوث الزهري ، والعلاء بن عقبة ، يكتبان بين الناس المداينات وسائر العقود والمعاملات[3] . وذكر ان (عبدالله بن الأرقم) الزهري ، كان من المواظبين على كتابة الرسائل عن النبي[4] .

وكان (حنظلة بن الربيع بن صيفي) الأسيدي ، من كتاب الرسول ، وقد نعته الطبري بـ (كاتب النبي)[5] . وعرف بـ (الكاتب) . وهو من (بني أسيد) ، وبنو أسيد من أشراف تميم . وهو ابن أخي (أكثم بن صيفي) حكيم العرب[6] . وقد عرف بـ (حنظلة الكاتب)[7] . وذكر انه كان « خليفة كل كاتب من كتّاب النبي ، اذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب . وكان يضع عنده خاتمه ، وقال له : ألزمني ، واذكرني بكل شيء لثالثة . فكان لا يأتي على مال ولا طعام ثلاثة ايام إلا أذكره ، فلا يبيت رسول الله وعنده شيء منه » . ومات بمدينة الرها[8] .

---

١ الاصابة (٢/٢٦٥) ، (رقم ٤٥٢٥) ، نزهة الجليس (٢/٦٥) .
٢ الاصابة (٢/٢٦٥) ، (رقم ٤٥٢٥) .
٣ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) .
٤ الاستيعاب (١/٣٠) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الطبري (٣/٥٧٠) « دار المعارف » ، المعارف (٢٩٩ وما بعدها) .
٦ الاستيعاب (١/٢٧٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٧ فتوح البلدان (٤٥٩) ، الاصابة (١/٣٥٩) ، (رقم ١٨٥٩) .
٨ الجهشياري (١٣) .

ومن كتّاب الرسول : (شرحبيل بن حسنة) الطابخي . ويقال الكندي[1] ، ويقال التميمي[2] . وهو ممن سيره (أبو بكر) في فتوح الشأم . وكان أميراً على ربع من أرباع الشأم لعمر بن الخطاب ، وقد مات في طاعون (عمواس) .

وكان (خالد بن سعيد بن العاص) (خالد بن سعيد بن العاصي) ممن كتب للرسول . كتب له كتابه الى (بني عمرو بن حمير)[3] . وهو من السابقين الأولين . وقد استعمله الرسول على صدقات مذحج[4] وعلى صنعاء ، فلم يزل عليها الى أن مات رسول الله[5] . وكان له اخوة هما : أبان وعمرو ين سعيد بن العاص، وكانا ممن عملا للرسول . فلما توفي الرسول ، رجعا مع خالد عن أعمالهم، فخرجوا الى الشام[6] ، وفي جملة ما كتبه خالد ، كتاب الرسول لبني أسد[7] ، وكتابه للعدّاء بن خالد بن هوذة ومن تبعه من عامر بن عكرمة[8] ، وكتابه لراشد ابن عبد السلمي ، وكتابه لحرام بن عبد عوف من (بني سُليم)[9] ، وكتابه لبني غاديا ، وهم قوم من يهود ، وكتابه لبني عريض ، قوم من يهود[10] ، وكتابه لثقيف[11] ، وكتابه لسعيد بن سفيان الرعلي[12] .

وكان (ابان بن سعيد بن العاص) (العاصي) ، وهو أخو خالد ، ممن أسلم بعد هجرة الرسول إلى يثرب . ويقال ايام خيبر . وكان هو الذي تولى إملاء مصحف عثمان على زيد بن ثابت ، يوم جمعه في خلافة عثمان ، أمرهما بذلك عثمان . وذلك في رواية من جعله حياً إلى ايام الخليفة (عثمان) . وزعم في

---

١ فتوح البلدان (٤٥٩) ، (أمر الخط) .
٢ الاصابة (١٤١/٢) ، (رقم ٣٨٦٩) ، الاستيعاب (١٣٨/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٥/١) ، الجهشياري (١٢) .
٤ الاصابة (٤٠٦/١) ، (رقم ٢١٦٧) ، الاستيعاب (٣٩٨/١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الاستيعاب (٤٠٠/١) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ الاصابة (٥٣٢/٢) ، (رقم ٥٨٤٨) ، الاستيعاب (٤٠٠/١) .
٧ ابن سعد ، طبقات (٢٧٠/١) .
٨ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣/١) .
٩ ابن سعد ، طبقات (٢٧٤/١) .
١٠ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .
١١ ابن سعد ، طبقات (٢٨٤/١) .
١٢ ابن سعد ، طبقات (٢٨٥/١) .

روايات أخرى انه قتل يوم أجنادين سنة ثلاث عشرة ، أو يوم اليرموك . وقيل قتل يوم مرج الصفر . وذكر في رواية انه توفي سنة سبع وعشرين في خلافة عثمان[1] .

وكان (طلحة) من الكتبة[2] . وهو أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الاسلام ، وأحد الستة أصحاب الشورى . وكان تاجراً ، وكان عند وقعة بدر في تجارة في الشأم . ولما قدم المدينـة آخى النبي بينه والزبير[3] . وذكر انـه آخى بينه وبين (كعب بن مالك) حين آخى بين المهاجرين والأنصار . وكان من الأغنياء ، كانت غلته ألفاً وافياً كل يوم . والوافي وزنه وزن الدينـار ، وعلى ذلك وزن دراهم فارس الّتي تعرف بالبغلية[4] .

والزبير بن العوّام في جملة من كتب للرسول . كتب له كتابه لبني معاوية بن جرول الطائيين[5] .

و (أبو عبيدة بن الجراح) ، من هذه الجماعة الكاتبة القـارئة . وهو من الأوائل الذين دخلوا في الاسلام ، كان إسلامه قبل دخول النبي دار (الأرقم). وقد آخى الرسول بينه وبين (سعيد بن معاذ)[6] .

و (العلاء بن الحضرمي) ، وهو (عبدالله بن عماد) ، وكان أبوه قـد سكن مكة وحالف حرب بن أمية ، وكان للعلاء عدة إخوة منهم : (عمرو بن الحضرمي) ، وهو أول قتيل من المشركين ، وماله أول مال خمس في المسلمين، وبسببه كانت وقعة بدر . وقد استعمل النبي (العلاء) على البحرين[7] . وهـو الذي كتب للرسول كتابه لبني معن الطائيين[8] ، وكتابه لأسلم من خزاعة[9] .وكان

---

١ الاصابة (١/٢٤) ، (رقم ٢) .
٢ المزهر (٢/٣٥١) .
٣ الاصابة (٢/٢٢٠) ، (رقم ٤٢٦٦) .
٤ الاستيعاب (٢/٢١٠ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٩) .
٦ الاصابة (٢/٢٤٣) ، (رقم ٤٤٠٠) ، الاستيعاب (٣/٢) ، (حاشية على الاصابة)
٧ الاصابة (٢/٤٩١) ، (رقم ٥٦٤٤) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٩) ، (صادر) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١) .

أخوه (ميمون بن الحضرمي) صاحب بئر (ميمون) التي بأبطح مكة، احتفرها في الجاهلية . وذكر (المسعودي) أن العلاء ربما كتب بين يدي النبي مع (ابان ابن سعيد)[1] .

و (يزيد بن أبي سفيان) أخو (معاوية) من الكتاب كذلك توفي سنة (١٨) أو (١٩) للهجرة[2] . وهو ممن أسلم يوم الفتح . وقد كان عمر قد استخلفه على (الشأم) بعد وفاة (معاذ) ، فلما مات استخلف أخاه (معاوية)[3] .

وكان (معاوية بن أبي سفيان) من كتبة الرسول . وذكر أنه كان (من الكتبة الحسبة الفصحاء)[4] . ومعنى هذا أنه كان يتقن الكتابة والحساب . ولم يذكر من ذكر سيرته متى تعلم الكتابة . ولا استبعد أن يكون قد تعلمها بمكة قبل دخوله في الإسلام . وهو ممن ولد قبل الإسلام وأسلم عام الفتح . فتكون كتابته للرسول اذن بعد هذا العام . ومن كتبه التي كتبها للرسول كتابه لربيعة بن ذي مرحب الحضرمي[5] ، وكتابه لبني قرة بن عبدالله بن أبي نجيح النبهانيين[6] ، وكتابه لعتبة بن فرقد[7] ، وكتابه لوائل بن حجر لما أراد الشخوص الى بلاده[8] .

وذكر (المسعودي) أن (معاوية) كتب للرسول قبل وفاته بأشهر[9] .

و (المغيرة بن شعبة) من دهاة العرب وشياطينهم . أسلم قبل عمرة الحديبية. وكان يقال له (مغيرة الرأي) . وكان رسول (سعد) الى (رستم) ، أصيبت عينه باليرموك ، وروي انه كان أول من وضع ديوان البصرة ، وأول من سلم

---

١ التنبيه (٢٤٦) .
٢ الاصابة (٣/٦١٩) ، (رقم ٩٢٦٧) .
٣ الاستيعاب (٣/٦١٢) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ الاصابة (٣/٤١٢ وما بعدها) ، (رقم ٨٠٧٠) الاستيعاب (٣/٣٧٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الجهشياري (١٢) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٧) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٥) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٧) .
٩ المسعودي ، التنبيه (٢٤٦) .

عليه بالامرة[1] . وهو الذي كتب كتاب رسول الله الى أهل نجران[2] . وكتابه ليزيد بن المحجل الحارثي . وكتابه لبني قنان بن ثعلبة من بني الحارث[3] ، وكتابه لبني جُوين الطائيين ، وكتابه لعامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي[4] ، وكتابه لبني الجُرمز بن ربيعة ، وهم من جهينة[5] . وذكر انه والحصين بن نمير كانا يكتبان ما بين الناس[6] .

و (معيقيب) ابن أبي فاطمة ، من (ذي أصبح) وقيل من (بني سدوس) ، وكان حليفاً لبني عبد شمس . أسلم بمكة . وقد ولاه (عمر) بيت المال ، ثم كان على خاتم (عثمان)[7] . وورد انه كان حليف بني أسد ، وكان يكتب مغانم رسول الله[8] .

وكان (عقبة بن عامر بن عبس) الجهني الصحابي المشهور من الكتاب . وصف بأنه « كان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه ، فصيح اللسان ، شاعراً كاتباً ، وهو أحد من جمع القرآن » . وعثر على مصحفه بمصر على غير تأليف مصحف (عثمان) « وفي آخره : كتبه عقبة بن عامر بيده »[9] . ونجد في طبقات (ابن سعد) صورة كتاب أمر الرسول بكتابته لعوسجة بن حرملة الجهني في آخره : « وكتب عقبة وشهد »[10] .

وجاء في خبر ضعيف أنه كان للرسول كاتب يقال له (السجل) ، وكاتباً يقال له : « ابن خطل ، يكتب قدام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا نزل : غفور رحيم ، كتب رحيم غفور ، وإذا نزل : سميع عليم ، كتب عليم سميع . وفيه : فقال ابن خطل : ما كنت أكتب إلا ما أريد ، ثم كفر ولحق بمكة .

---

١ الاصابة (٤٣٢/٣) ، (رقم ٨١٨١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) ، (صادر) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٨/١) ، (صادر) .
٤ الطبقات (٢٦٩/١) ، (صادر) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٢٧١/١) .
٦ الجهشياري (١٢) .
٧ الاصابة (٤٣٠/٣) ، (رقم ٨١٦٦) .
٨ الجهشياري (١٢) .
٩ الاصابة (٤٨٢/٢) ، (رقم ٥٦٠٣) .
١٠ ابن سعد ، طبقات (٢٧١/١) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قتل ابن خطل ، فهو في الجنة . فقتل يوم الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة »[1] . وهذا وهم ، وقد خلط صاحب هذا الخبر بين (عبدالله بن أبي سرح) وبين (ابن خطل) الذي لم يرد في الأخبار أنه كتب للرسول .

وذكر (ابن دحية) أن في (بني النجار) كاتباً كان يكتب الوحي للرسول ثم تنصر[2] . وهو خبر لا نجده في الموارد الأخرى ، ولم ينص على اسم الكاتب، والأغلب في نظري أنه من الأخبار الموضوعة ، وضع على بني النجار للإساءة اليهم ، وضعه من كان يتحامل عليهم .

ويظهر ان كتّاب الرسول قد وزعوا الأعمال الكتابية فيما بينهم، او ان الرسول هو الذي وزع تلك الأعمال عليهم ، بحيث خصص كل واحد منهم بعمل من الأعمال . فقد روي ان علياً وعثمان كانا يكتبان الوحي فإن غابا كتب أبي بن كعب وزيد بن ثابت . وان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية يكتبان بين يديه في حوائجه ، وان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس . وان عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء . وان زيد بن ثابت يكتب الى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي . وان معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي يكتب مغانم رسول الله . وان حنظلة بن الربيع (ربيعة) بن المدقع بن أخي أكثم بن صيفي الأسدي (الأسيدي) ، خليفة كل كاتب من كتّاب النبي ، اذا غاب عن عمله فغلب عليه اسم الكاتب . وكان يضع عنده خاتمه . وقال له : الزمني واذكرني بكل شيء لثالثة . فكان لا يأتي على مال ولا طعام ثلاثة ايام إلا اذكره ، فلا يبيت رسول الله وعنده شيء منه[3] . فهو كاتب عام يكتب للرسول في كل أموره ، وهو خليفة كل الكتّاب . ولهذا غلبت عليه لفظة (الكاتب) . وقد كانت وفاته في خلافة (عمر) ، ومات في (الرها) من بلاد مضر[4] .

---

١ ابن سيد الناس ، عيون الاثر (٢/٣١٦) .
٢ ابن سيد الناس ، عيون الاثر (٢/٣١٦) .
٣ الجهشياري (١٢ وما بعدها) ، المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) ، المعارف (١٣٠) .
٤ المسعودي ، التنبيه (٢٤٦) . المعارف (١٣٠) .

وذكر أن (المغيرة بن شعبة) و (الحصين بن نمير) يكتبان أيضاً فيما يعرض من حوائجه[1] .

و (حذيفة بن اليمان)(توفي سنة ٣٦ هـ) ممن يكتب خرص النخل[2] . وخصص (المسعودي) عمله بخرص الحجاز[3] .

وذكر (عبدالله بن زيد) الضمري في جملة كتّاب رسول الله الى الملوك[4] . ونجد في طبقات (ابن سعد) صورة كتاب أرسله رسول الله (لمن أسلم من حدَس من لخم) ، كتبه له (عبدالله بن زيد)[5] .

وكان (العلاء بن عقبة) فيمن كتب للنبي . وذكر أن الرسول كان يبعثه والأرقم في دور الأنصار . وكانا يكتبان بين الناس المداينات والعهود والمعاملات[6] . وفي جملة ما كتبه للرسول كتابه لبني شَنْخ من جهينة[7] ، وكتابه للعباس بن مرداس السلمي ، أنه أعطاه (مدفواً)[8] . وذكر أنهما كانا يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم ، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء[9] .

و (أبي بن كعب بن قيس) من كتّاب الوحي ، وهو من يثرب من (بني النجار) من (الخزرج) . وقد عرف بـ (سيد القرّاء) ، وكان أقرأ الناس للقرآن . وكان أحد فقهاء الصحابة وأقرأهم لكتاب الله . وكان ممن كتب للنبي قبل (زيد بن ثابت) ومعه أيضاً . وذكر انه كان أول من كتب لرسول الله مقدمه المدينة ، وأول من كتب في آخر الكتاب : « وكتب فلان» وكان اذا لم يحضر دعا رسول الله (زيد بن ثابت) فكتب . وكان وزيد يكتبان الوحي

---

١ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) ، نهاية الارب (١٨/٢٣٦ وما بعدها) .
٢ المعارف (١١٤) ، نهاية الارب (١٨/٢٣٦) .
٣ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) .
٤ الاصابة (٢/٣٠٥) ، (رقم ٤٦٩٠) .
٥ الطبقات (١/٢٦٦ وما بعدها) .
٦ الاصابة (٢/٤٩١ وما بعدها) ، (رقم ٥٦٤٩) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٩ الجهشيارى (١٢) .

بين يدي الرسول ، ويكتبان كتبه الى الناس وما يقطع وغير ذلك[1] . ونجد في طبقات ابن سعد ، صور كتب دونها أبي للرسول ، منها كتابه لخالد بن ضماد الأزدي ، وكتابه لعمرو بن حزم ، وهو عهد يعلمه فيه شرائع الاسلام وفرائضه وحدوده ، حيث بعثه الى اليمن[2] ، ومنها كتابه لجنادة الأزدي[3] ، وكتابه للمنذر ابن ساوى ، وكتابه الى (العلاء بن الحضرمي) ، بشأن ارسال ما تجمع عنده من الصدقة والعشور[4] ، وكتابه لجمّاع في جبل تهامة كانوا قد غصبوا المارة من كنانة والحكم والقارة ومن اتبعهم من العبيد[5] ، وكتابه لبارق من الأزد . وقد شهد على صحته أبو عبيدة بن الجرّاح وحذيفة بن اليمان[6] .

وزيد بن ثابت من الأنصار ، من (بني النجار) . ولما قدم الرسول المدينة استكتبه ، فكتب له الوحي ، كما تولى له أمر كتابة الرسائل . ذكر أنه تعلم الكتابة على أسرى (بدر) في جماعة من غلمان الأنصار . فقد « كان فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية أربعين أوقية ، فمن لم يكن عنده علّم عشرة من المسلمين ، فكان زيد بن ثابت ممن عُلّم » . وذكر أنه جاء الى أبيه وهو يبكي، فقال ما شأنك ؟ قال : ضربني معلمي ، قال : الخبيث يطلب بذحل بدر ، والله لا تأتيه أبداً[7] .

وروي أنه في السنة الرابعة من الهجرة أمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود ، وقال لا آمن أن يبدّلوا كتابي[8] . فتعلم كتابهم ، وتولى أمر كتابة رسائل الرسول اليهم ، والرد على رسائلهم[9] . ونسب اليه اتقانه الكتابة بلغات أخرى . ذكر المسعودي منها : الفارسية والرومية والقبطية والحبشية . وأنه تعلم

---

١ الاستيعاب (١/٢٧ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (١/٣١) ، (رقم ٣٢) ، فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) ،

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٧) ، المعارف (٢٦١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٠) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٦) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٨) .

٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦ وما بعدها) .

٧ امتاع الاسماع (١/١٠١) ، الطبقات (٢/١٤) ، الجهشياري (١٢) .

٨ امتاع الاسماع (١/١٨٧ ، ١٩٤) ، السجستاني ، المصاحف (٣) .

٩ فتوح البلدان (٤٧٣ وما بعدها) .

ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن ، وكان يكتب الى الملوك ويجيب بحضرة النبي ويترجم له[1] وقيل إنه كان من أعلم الصحابة بالفرائض[2] . وكان هو الذي تولى قسم غنائم اليرموك . وتولى جمع القرآن في أيام أبي بكر ، بتكليف من الخليفة. وذكر أنه كان « رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض »[3] . وقد عرض زيد القرآن على رسول الله ، « وكان آخر عرض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، القرآن على مصحفه ، وهو أقرب المصاحف من مصحفنا »[4] .

وكان حين قدم رسول الله المدينة ابن احدى عشرة سنة . وكان يوم (بعاث) ابن ست سنين وفيه قتل أبوه . ويظهر انه كان قد تعلم الكتابة وهو صغير. ذكر انه أتي بزيد النبي مقدمه المدينة ، فقيل هذا من بني النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة،فقرأ عليه فأعجبه ذلك،فقال : تعلم كتاب يهود،فإني ما آمنهم على كتابي . فتعلمها ، وتولى الكتابة بالعبرانية أو السريانية بين الرسول واليهود ، فضلاً عن كتابة رسائله وما ينزل عليه من الوحي حين يكون عنده . لذلك عدّ من البارزين في قراءة القرآن . وبرز في القضاء والفتوى والفرائض،وعدّ من أصحاب الفتوى، وهم ستة : عمر وعليّ وابن مسعود وأبي وأبو موسى ، وزيد بن ثابت . وهو الذي جمع القرآن[5] .

وهو الذي جمع القرآن في عهد (أبي بكر) ، وقد اختلف في سنة وفاته، فقيل مات سنة اثنتين أو ثلاث أو خمس وأربعين ، وقيل سنة احدى أو اثنتين ، أو خمس وخمسين . وفي خمس وأربعين قول الأكثر . وذكر ان حسان رثاه بقوله :

---

١ التنبيه (٢٤٦) ، فتوح البلدان (٤٧٩) ، السجستاني ، المصاحف ، تقييد العلم (٥١) .

٢ الاستيعاب (١/٢٩) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ الاصابة (١/٥٤٣ وما بعدها) ، (رقم ٢٨٨٠) ، الاستيعاب (١/٥٣٢) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ المعارف (٢٦٠) .

٥ الاصابة (١/٥٤٣) ، (رقم ٢٨٨٠) ، الاستيعاب (١/٥٣٢) ، (حاشية على الاصابة) ، نزهة الجليس (٢/٦٥) ، أسد الغابة (٢/٢٢١ وما بعدها) .

وعهد رسول الله الى (زيد) احصاء الناس والغنائم ، وتقسيمها عليهم حسب حصصهم[2] .

وكان (ثابت بن قيس بن شماس) الأنصاري ممن كتب للرسول . كتب له كتابه لوفد ثمالة والحدّان . وقد شهد على الكتاب ووقع عليه (سعد بن عبادة)، و (محمد بن مسلمة)[3] . وكان خطيب الأنصار . وقد قتل يوم اليمامة[4] . وهو الذي أمره الرسول أن يجيب على خطاب خطيب (تميم) ولسانها الناطق (عُطارد ابن حاجب) . فكان خطيب المسلمين[5] .

و (محمد بن مسلمة) ، هو من الأوس . ولد قبل البعثة ، وهو أول من سُمّي في الجاهلية محمداً . أسلم قديماً على يدي (مصعب بن عمير) ، وآخى الرسول بينه وبين (أبي عبيدة) . واستخلفه الرسول على المدينة في بعض غزواته . وقد كتب للرسول كتابه لمهري بن الأبيض . توفي سنة (٤٣) أو (٤٦ هـ)[6] .

وكان (أوس بن خولي) من كتّاب يثرب ، ولما كان صلح (الحديبية) وأراد الرسول تدوين الصلح « دعا أوسَ بن خولي يكتب ، فقال سهيل : لا يكتب إلا ابن عمك عليّ ، أو عثمان بن عفان ، فأمر علياً فكتب »[7] . وهو من الخزرج . ولما آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين آخى بينه وبين شجاع بن وهب[8] . وكان من (الكملة) ، ولما قبض الرسول وأرادوا غسله ، حضرت

---

١ الاصابة (١/٥٤٤) ، (رقم ٢٨٨٠) ، الطبري (٢/٤٢١) ، (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ، تهذيب الاسماء واللغات ، للنووي (١/٢٠٠ وما بعدها) ، تهذيب التهذيب ، للعسقلاني (٣/٣٩٩) ، (حيدر آباد ١٣٢٥ هـ) ، اليعقوبي (٢/١٥٧ ، ١٩٥) ، (هوتسما) ، ابن هشام ، سيرة (٣/١١) ، (مطبعة حجازي بالقاهرة) .

٢ امتاع الاسماع (١/٤٢٦) .

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦) ، (١/٣٥٤) ، (صادر) .

٤ الاصابة (١/١٩٧) ، (رقم ٩٠٤) .

٥ الطبري (٣/١١٦) ، (قدوم وفد تميم ونزول سورة الحجرات) .

٦ الاصابة (٣/٣٦٣ وما بعدها) ، (رقم ٧٨٠٨) ، ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦) ، (١/٣٥٥) ، (صادر) .

٧ امتاع الاسماع (١/٢٩٦) .

٨ الاصابة (١/٩٥ وما بعدها) ، (رقم ٣٣٤) .

الأنصار ، وأبت على المهاجرين إلا أن يحضر منها أحد ، فقيل لهم : اجتمعوا على رجل منكم ، فاجتمعوا على أوس بن خولي ، فحضر غسل رسول الله ودفنه مع أهل بيته . وتوفي في خلافة عثمان[1] .

وكان (عبدالله بن رواحـــة) الخزرجي من كتّاب الرسول ومن الشعـــراء المعروفين بيثرب ومن السابقين الأولين من الأنصار وأحد النقباء ليلة العقبة. وكان الرسول يقول له : « عليك بالمشركين » ، فينظم الشعر فيهم . وكان يناقض (قيس بن الخطيم) في حروبهم ، ولما دخل الرسول مكة في عمرة القضاء كان ابن رواحة بين يديه ، وهو يقول :

خلّوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم عــلى تأويله
ضرباً يزيل الهــام عن مقيله ويذهل الخليــل عن خليله

ومدح الرسول ، وكان من جيد مدحه له قوله :

لو لم تكن فيه آيات مبينـــة كانت بديهته تنبيك بالخبر[2]

وذكر بعض أهل الأخبار أنه لما نزلت : « والشعراء يتبعهم الغاوون . قـال عبدالله بن رواحـــة : قد علم الله أني منهم ، فـــأنزل الله : إلا الذين[3] آمنوا وعملــوا الصالحات »[4] . وسورة الشعراء التي فيها آية : « والشعراء يتبعهـــم الغاوون » وما بعدها ، من السور التي نزلت بمكة إلا هذه الآيـة وما بعدها ، وهي أربع آيات في آخرها ، نزلت بالمدينة في شعراء الجاهلية ، ثم استثنى منهم شعراء المسلمين منهم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ، فقال تعالى : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فصار الاستثناء ناسخاً له من قوله والشعراء يتبعهم الغاوون[5] .

---

١ الاستيعاب (١/٤٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاصابة (٢/٢٩٨ وما بعدها) .
٣ في الاصابة (ان الذين) ، وهو غلط مطبعي .
٤ الشعراء ، الاية ٢٢٤ وما بعدها .
٥ الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص ١٥١ وما بعدهـــا) ، (حاشيـــة على أسباب النزول) ، (القاهرة ١٣١٥ هـ) .

وهناك كتبة آخرون كتبوا الكتاب والكتابين والثلاثة للرسول، ذكر (المسعودي) أنه لم يثبت أسماءهم في جملة أسماء من كتب للرسول لأنه لم يكتب من أسماء كتاب الرسول إلا من ثبت على كتابته واتصلت أيامه فيها وطالت مدته وصحت الرواية على ذلك من أمره دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتباً ويضاف الى جملة كتابه[1] .

وذكر ان كتاب النبي كانوا يكتبون بالخط المقور ، وهو النسخي . أما الخط (المبسوط) ويسمى باليابس ، فقد استعمل في النقش على الأحجار وأبواب المساجد وجدران المباني ، وفي كتابة المصاحف الكبيرة ، وما يقصد به الزينة والزخرف ، وغلب عليه اطلاق لفظ (الكوفي)[2] .

وكان بشير بن كعب العدوي ممن قرأ الكتب[3] . وذكر أنه كان من التابعين[4]. وكان (عبدالله بن عمرو بن العاص) ممن قرأ الكتب ، وكان يكتب الحديث بين يدي رسول الله ، ويقرأ بالسريانية[5] .

وذكر أهل الأخبار ان رجلاً من أهل اليمن كان يقرأ الكتب ، وان امرأة اسمها (فاطمة بنت مرّ) ، كانت قد قرأت الكتب كذلك[6] .

وكان من النساء من يحسن القراءة والكتابة . منهن : (الشفاء بنت عبدالله بن عبد شمس) القرشية العدوية . من رهط (عمر)[7] . أسلمت قبل الهجرة ، وهي من المهاجرات الأول . وكانت من عقلاء النساء ، وكان (عمر) يقدمها في الرأي . وكان رسول الله يزورها ويقيّل عندها في بيتها ، وكانت قد اتخذت له فراشاً وإزاراً ينام فيه . وقد أمرها الرسول أن تعلم (حفصة) الكتابة ، فعلمتها ،

---

١ المسعودي ، التنبيه (٢٤٦) .

٢ حفني بك ناصف (٦١ وما بعدها) .

٣ بضم أوله مصغرا ، الاصابة (١/١٨٣) ، (رقم ٨٢٢) .

٤ الاصابة (١/١٧٧) ، (رقم ٧٧٨) .

٥ المعارف (٢٨٧) ، الاصابة (٢/٣٤٣) ، (٤٨٤٧) ، الاستيعاب (٢/٣٣٨ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٦ الروض الانف (١/١٠٤) .

٧ فتوح البلدان (٤٧٧ وما بعدها) ، (٤٥٨) ، (المكتبة التجارية) .

كما علمتها (رقية) تسمى (رقية النملة)[1] . وقد تعلمت الكتابة في الجاهلية[2] .

وكانت (حفصة) زوج النبي وابنة (عمر) تكتب[3] . وكانت (أم كلثوم) بنت (عقبة) تكتب[4] . وكذلك كانت (عائشة بنت سعد) ، و (كريمة بنت المقداد)[5] ، و (شميلة)[6] .

وورد ان (عائشة) زوج الرسول ، انها كانت تقرأ المصحف ولا تكتب[7] . ولا شك في انهما تعلمتا القراءة في الاسلام .

وورد في بعض الأخبار أن العرب كانت تسمي كل من قرأ الكتب أو كتب: صابئاً . وكانت قريش تسمي النبي أيام كان يدعو الناس بمكة ويتلو القرآن صابئاً[8].

وقد اشتهر أهل اليمن بشيوع الكتابة والقراءة فيهم ، فكان غلمانهم يتعلمونها ويرددون قراءة ما يكتبون ويقرأون وقد أشير الى ذلك في شعر (لبيد) فورد :

فنعاف صارة فالقنان كأنها ... زبر يرجعها وليد يمان

متعود لحن يعيد بكفه ... قلماً على عسب ذبلن وبان[9]

والزبر : الكتب ، فقال : كأن تلك المنازل كتب يرددها وليد يمان ، أي غلام يمان ، لأن الكتاب فيهم ، لأنهم أهل ريف . متعود لذلك : فهم ، ولحن : بمعنى فهم، يعيد بكفه قلماً ، يكتب في العسب والبان . وكانوا يكتبون في العسب والبان والعرعر[10] . فيظهر من ذلك أن أهل اليمن ، حتى غلمانهم ، كانوا يكتبون ، ويردد الأطفال الكتب ، لحفظها ولتعلمها ، على نحو ما يفعلون في الكتاتيب هذا اليوم .

---

١ الاصابة (٤/٣٣٣) ، (رقم ٦٢٢) .
٢ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٣ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٤ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٥ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٦ البلاذري ، انساب (١/١٣٧) ، الإصابة (٤/٣٣٥) ، (رقم ٦٣٢) .
٧ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٨ الاكليل (١/٤٤) .
٩ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، (تحقيق الدكتور احسان عباس) ، (ص ١٣٨) ، (طبعة الكويت ١٩٦٢) .
١٠ المصدر نفسه .

ويظهر أن ثقيفاً كانت قد حذقت الكتابة وبرزت بها . فقد ورد أن عمر بن الخطاب قال : « لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف » ، وأن عثمان ابن عفان قال : « اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف »[1] . وذكر أن (غيلان بن سلمة بن معتب) ، وهو ممن أسلم يوم الطائف ، كان كاتباً كما كان معلماً[2] .

وورد في الأخبار أن الجاهليين كانوا يضعون الكتب التي ترسل الى الملوك من الآفاق ، على لوح ضمت اليه ألواح من جوانبه ، فلا تمسها إلا يد الملك ، يأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء ويجيب على ما فيها . وفي هذا الخبر دلالة على شيوع الكتابة والمراسلات عند الجاهليين ، وعلى وجود ديوان خاص لدى الملوك ، يتولى النظر في المراسلات . وفي هذا المعنى ورد في شعر لبيد :

أو مذهبٌ جدد على ألواحـ هن الناطق المبروز والمختوم[3]

ويظهر ان قوماً من الشعراء كانوا يكتبون ويقرأون . ومنهم من كان على ثقافة وعلم . ورد في شعر للشاعر (لبيد) قوله :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زُبر تجدّ متونهـا أقلامها[4]

ولا يمكن صدور هذا البيت ، إلا من رجل كاتب له ذكاء حاد ، وربما كان ذلك الشاعر كاتباً يدون شعره ويحفظه عنده ، فوصفه مثل هذا للطلول ، لا يمكن أن يقال إلا من رجلٍ له علم بالكتابة ، وحذق ودراية .

وفي البيت الآتي :

فمدافع الريّان عُرّي رسمهـا خلقاً كما ضمن الوحي سلامها

إشارة الى الكتابة كذلك ، فالوحي هو الكتابة ، والسّلام الحجارة ، أي كان

---

١ ابن فارس ، الصاحبي (٢٨) .
٢ المحبر (٤٧٥) .
٣ شرح ديوان لبيد (ص ١١٩) .
٤ شرح ديوان لبيد (ص ٢٩٩) ، بلوغ الارب (٣ /٣٦٧ وما بعدها) .

ما بقي من رسمها بعد أن عريت ، مثل ما يبقى من الكتابة في الأحجار[1]. ويؤخذ من ذلك ان الحجارة كانت – كما ذكرت في مواضع من هذا الكتاب – مادة من مواد الكتابة عند الجاهليين .

وفي شعر لبيد :

فنعاف صارةَ فالقنـــان كأنها ... زُبر يرجعها وليد يمان
مُتعود لحنٌ يعيد بكفّـــه ... قلماً على عُسب ، ذبلن وبان[2]

دلالة واضحة على إلمامه بالكتابة والقراءة ، وعلى وقوفه على خط أهل اليمن ، وعلى دراسة غلمان اليمن للزبر ، وهي الكتب .

بل ورد : ان لبيداً كان يدون شعره ، ويهذبه بعد كتابته ، وانه كان يكتب. روي : « ان عمر بعث الى المغيرة بن شعبة ، وهو على الكوفة ، يطلب اليه أن يستنشد من قبله من شعراء الكوفة ما قالوه في الاسلام . فأجابه الأغلب ، وردّ عليه لبيد قائلاً : إن شئت ما عفى عنه – يعني الجاهلية – فقال : لا ، أنشدني ما قلت في الاسلام . فانطلق ، فكتب سورة البقرة في صحيفة ، ثم أتى بها ، وقال : أبدلني اللهُ هذه في الاسلام مكان الشعر . فكتب المغيرة بذلك الى عمر ، فنقص عطاء الأغلب خمس مئة ، وجعلها في عطاء لبيد »[3] .

وكان الشاعر (المرقش) ، وهو من شعراء الحيرة ، كاتباً قارئاً ، تعلم الكتابة والقراءة في (الحيرة) مع أخيه (حرملة) عند رجل من أهل الحيرة[4] . وكذلك كان الشاعر (لقيط بن يعمر الإيادي) كاتباً قارئاً ، وقد عرف بين أهل الأخبار بـ (صحيفته) التي أرسلها الى قومه (إياد) ، ينذرهم فيهـــا بعزم (كسرى) على غزوهم ، وهي قصيدة افتتحت بهذا البيت :

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ٢٩٧) .

٢ شرح ديوان لبيد (ص ١٣٨) .

٣ شرح ديوان لبيد (ص ٢٨ ، ٣٦) ، الاغاني (١٥/١٣١) .

٤ الأغاني (٦/١٣٠) ، المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .

سلام في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من إياد[1]

ويجب ألا ننسى الشاعر : (أمية بن آبي الصلت) الذي لم يكن كاتباً قارئاً حسب ، بل كان واقفاً على كتب أهل الكتاب كذلك ، وكان يقرأها ، ويقتبس منها ، وقد استخدم في شعره ألفاظاً ذكر أنه أخذها من كتب أهل الكتاب[2] .

ونضيف الى من تقدم : (الزبرقان بن بدر)[3] ، و (النابغة الذبياني)[4] و (الربيع بن زياد العبسي)[5] ، و (لبيد بن ربيعة العامري)[6] ، و (كعب ابن زهير بن أبي سلمى)[7] .

ودعوى ان الجاهليين كانوا أميين وعلى الفطرة والبديهة ، لا يحسنون كتابة وقراءة خلا نفر بمكة وأشخاص بيثرب ، دعوى باردة سخيفة ، لا يمكن لمن له إلمام بأحوال الجاهلية أن يصدق بها . فأهل الأخبار الذين يروون هذه الرواية ، يعودون فيخطئون أنفسهم ، بسرد أسماء رجال من جزيرة العرب ومن العراق وبلاد الشأم ، ذكروا انهم كانوا يقرأون ويكتبون ، بل ذكروا أكثر من ذلك، ذكروا ان منهم من كان يقرأ العبرانية أو السريانية ، كالأحناف ، ثم انهم يذكرون أخبار مراسلات سادات القبائل في مختلف مواضع جزيرة العرب مع الرسول ، ومكاتبة مسيلمة مع النبي وتأليفه كتاباً زعم انه وحي نزل عليه من السماء مثل ما نزل على الرسول ، فهل يعقل بعد ذلك ، قول قائل ان العرب كانوا أميين ، خلا نفر . وقد رأينا انهم تركوا آلاف الكتابات باللهجات العربية

---

١ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (١٥٢/١) ، الاغاني (٢٤/٢٠) ، مختارات ابن الشجري (٢ وما بعدها) .

٢ ابن هشام ، سيرة (٤٨/١) ، الاغاني (١٢٣/٣) ، (١٢١/٣ وما بعدها) ، (١٢٩/٤) ، ابن قتيبة ، المعارف (٢٨) ، ابن سعد ، الطبقات (٣٧٦/٥) ، المزهر (٣٠٩/٢) .

٣ الاغاني (١٨٠/٢) .

٤ البغدادي ، الخزانة (٣٩٢/٢ وما بعدها) .

٥ الاغاني (٢٢/١٦ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (١٣٦/١) .

٦ ابن قتيبة ، الشعر (٢٣٣ وما بعدها) ، الخزانة (٢١٥/٢) .

٧ ابن قتيبة ، الشعر (٩١/١) ، جمهرة أشعار العرب (٢٤) .

الجنوبية وبالثمودية واللحيانية والصفوية ، بل قد نجد الكتابة في بعض قبائل الجاهلية مثل قبائل الصفاة ، أكثر اتساعاً وانتشاراً مما عليه الحال بين قبائل هذا اليوم .

وبعد ، فالأمية الجماعية التي فرضها أهل الأخبار على الجاهليين ، فجعلوهم أميين مائة بالمائة ، لم تكن أمية صحيحة ، وإنما جاءت من وهم في فهم المراد من المواضع التي أشرت اليها من القرآن ، بدليل مناقضة أهل الأخبار أنفسهم ، بذكر أسماء من ذكرناهم وممن لم نذكرهم ممن كان يقرأ ويكتب بهذا القلم العربي الذي دوّن به القرآن . وبدليل ما أوردته من أقوال المفسرين في الأمية ، من أنها الوثنية ، لا الأمية بمعنى الجهل بالكتابة والقراءة حتماً ، لعدم انسجام هذا المعنى مع تفسير الآيات ، ثم إن القرآن الكريم حين تعرض للأمية ، بمعنى عدم القراءة والكتابة ، قال : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون . وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لأرتاب المبطلون »[1] . فعبر بذلك تعبيراً مبيناً عن معنى عدم القراءة والكتابة ، بأفصح عبارة ، فقال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك » ، ولو كانت الأمية بهذا المعنى لما أهمل ذكرها في هذا المكان . ومن ذلك الوهم جاءت الأحاديث الضعيفة من أنه كان من أمة أمية لا تحسب ولا تكتب ، ولعاطفة دينية ، شددوا في أمية العرب ، فجعلوها جميعاً أميين ، لاظهار معجزة للرسول – هو في غنى عنها – في أنه ظهر بالنبوة في أمة أمية ، وجاء من الله بأحسن بيان ، وهي حجة له على أهل الكتاب والمشركين .

وبعد ، فقد فهمنا من روايات أهل الأخبار ، ان أهل مكة انما تعلموا الكتابة في عهد غير بعيد عن الاسلام . فهل يعني هذا انهم لم يكونوا يحسنون الكتابة والقراءة قبل هذا العهد أبداً ؟ والذي أراه ان ذلك شيء غير معقول ، وان أهل مكة كانوا يكتبون ويقرأون ، كانوا يكتبون بالمسند ، القلم الذي كتب به أكثر أهل جزيرة العرب قبل الاسلام ، بدليل ما نقرأه في كتب أهل الأخبار من زعمهم ان أهل مكة كانوا يجدون بين الحين والحين كتابات مدونة بالمسند في مقبرة

---

١ العنكبوت ، الاية (٤٦ وما بعدها) .

مكة القديمة وفي مواضع أخرى منها ، وفي عثور الناس على هذه الكتابات دلالة على ان سكان مكة كانوا يكتبون بالمسند أو بأقلام مشتقة منه ، ولا يعقل عـــدم استعمال أهل الحجاز لهذا القلم ، وقد وجدنا انه والأقلام المشتقة منه ، قد كونت قلم أهل هذه البلاد قبل الاسلام ، والظاهر انهم وجدوا ان القلم الذي كان يكتب به النبط وبقية العرب ، مثل عرب الحيرة ، كان أسهل استعمالاً ومرونة من القلم المسند البطيء الحركة ، وانه لا يأخذ حجمـاً كبيراً بالقيـــاس الى الخط العربـي الجنوبي ، لذلك فضلوه على هذا القلم ، واستعملوه عوضاً عنه ، دون أن يجروا عليه تحويراً أو تغييراً ، لإصلاح ما فيه من خلل ، فلما جـاء الاسلام ، أجرى عليه ما أجرى من تحوير وتغيير وتطوير .

الفصل الحادي والعشرون بعد المئة

الخط العربي

للعلماء الذين اشتغلوا في موضوع نشوء الخط عند البشر ، والقلم الأول الذي تفرعت منه سائر الأقلام ، نظريات في تأريخ الكتابة وظهورها ، وفي المراحل التي مرّت عليها من أول عهد مرت فيه وهو عهد الكتابة الصورية Pictography الى وصولها الى مرحلة الحروف . وهذه النظريات مع أنها مرت بمناقشات وبحوث وتحددت حتى أصبحت معروفة عند علماء الخطوط ، لم تستقر حتى الآن . لأن ما وصل الينا من نماذج كتابية أثرية ، لا يكفي لابداء رأي مقبول أو رأي قاطع في أصل الخط وفي منشئه وفي الأمة التي أوجدته . ولا أعتقد أن في امكان أحد القطع في ذلك ، ما لم يعثر المنقبون في المستقبل على نماذج عادية غير معروفة ، تكون كافية لإبداء رأي علمي في هذا الموضوع .

واختراع الكتابة من الاختراعات الكبرى التي غيرت مجرى البشر،وهو اختراع لا تقل أهميته عن أعظم الاختراعات والاكتشافات والمغامرات التي قام بها الانسان منذ يومه الأول حتى هذا اليوم . ومنها هروب الانسان من أحضان أمه الأرض، وعقوقه بحقها ، والتبطر بها ، وذهابه الى القمر ثم الى ما وراء القمر من عوالم سابحة راقصة في هذا الذي نسميه السماء . ونحن لا نحفل اليوم بموضوع أهمية اختراع الكتابة ، بالنسبة الى تقدم العقل البشري ، ولا يعرف معظم الناس عنه أي شيء ، ولا يحفلون به ، لأنه صار من القديم البائد . وكل قديم بائد يكتب عليه النسيان . وسيأتي يوم ولا شك ينسى فيه الجاهون من بعدنا بمئات وبآلاف

من السنين ، يوم هروب الإنسان من الأرض ، ولا ينظرون إليـــه إلا كما ينظر الانسان الأمي الجاهل الى مبدأ الكتابة أو الى اختراع النار أو اختراع الطباعة أو غير ذلك من المخترعات التي إذا مضى وقت طويل على اختراعهـــا نسيتها ذاكرة البشر ، ونسيت كل أثر تركته في تطور حياة هذا الإنسان المغامر المغرم بالبحث عن المجهول .

ولعلي لا أخطأ إذا قلت إن الإنسان قد فكر في الكتابة منذ أيامه الأولى أي منذ شعر بنفسه ، وصار يُعبر عمـــا في ذاته ، فكر بها لأنه كان في حاجة الى تسجيل أعماله ومعاملاته وكلامه ، ليتمكن من تذكرها عند الحاجة والى مراجعتها. كما فكر في تسجيل حوادثه وشعوره وتأثره بالمرئيات الجميلة أو المحزنة،وبالخواطر التي كانت تمر عليه ، وبكل إحساسه وعواطفه . وكان كلما تقدم عقله وتوسعت مداركه شعر بحاجتـــه الى تدوين أعماله وأحاسيسه ، فعمد الى الطرق البدائية في التدوين ، ثم طوّرها تدريجياً حتى وصل الى مرتبة الكتابة الصورية ، أي أنـــه استخدم الصور في مقام الألفاظ . بأن يرسم صورة ، فإذا رآها أحد عرفها وسماها باسمها.وعرفت هذه الطريقة بالكتابة الصورية . غير أن هذه الطريقة وإن عبرت بعض التعبير عن مشاعر الكاتب ، إلا أنها كانت عاجزة عن التعبير عن الأمـور الروحية وعن الألفاظ المعنوية ، وعن الأمور الحسابية وغير ذلك . لـذلك لم يقنع بها بل أخذ يشحذ ذهنه لإيجاد طريقة أخرى مختصرة وبسيطة ولها قابلية على رسم المعاني والاحساس،فأوجد من الكتابة الصورية ، اختزالاً نسميه : الكتابة المقطعية. أي انه اختزل الصور ، وجزأها الى مقاطع . وأخذ منها مقاطعها الأولى . فسماها بأسمائها الأصلية . فوصل بذلك الى مرحلة المقاطع . وتمكن بسليقتـه وبذكائه من تحليل الأسماء والألفاظ التي يراد تدوينها الى مقاطع ، وتدوين أي كلمة بمقاطعهـا التي تتألف منها . وقد سهلت هذه المرحلة عليه كتابة الكلمات التي تعبر عن الآراء ومن تسجيل جمل وصفحات فيها ألفـــاظ مادية محسوسة وألفاظ ليست بمسميات لأشياء مادية وإنما هي تعبير عن معان وإحساس . مثل موت وحياة ورأي ومـــا شاكل ذلك . إلا أنه وجد أن هذه الطريقة لا تزال طريقة صعبة عسيرة ، وأن على الإنسان أن يحفظ صور مئات من العلامات التي تعبر عن المقاطع لتدوين رسالة. لذلك فكر في اختزالها أيضاً وفي غربلتها وجزم المقاطع للوصول الى الجذور الأساسية للألفاظ وقد نجح في عمله هذا فتوصل إلى إيجاد الحروف . فبلغ بـذلك النهاية .

وهي المرحلة الحقيقية للكتابة . وبذلك استطاع أن يدوّن كل ما يدور بخلده من آراء بحروف ، يضعها بعضها الى بعض ليولد منها الألفاظ التي تدوّن بعضها الى بعض لتعبر عما يريد الكاتب تدوينه .

وما ذكرته يمثل مجمل رأي العلماء في تطور الكتابة من الرموز والعلامات البدائية الى بلوغها مرحلة الكمال والتمام . وقد أخذوا رأيهم هذا من الصور والنقوش التي عثر عليها في الكهوف وعلى الصخور وفي المقابر في مختلف أنحاء العالم . ولكن رأيهم هذا يتشعب ويتضارب عندما يتعرض للأصل الذي أوجد الحروف، والمكان الذي صار له شرف ايجاد الكتابة ، وحل المشكلة المستعصية التي دوخت الانسان، مشكلة تدوين ما يدور بخلده بيسر وسهولة . فذهب بعض الباحثين الى ان الكتابة انما ظهرت في العراق ، وذهب بعض آخر الى انها ظهرت في لبنان ، وذهب بعض الى انها من نبت أرض النيل ، وذهب آخرون الى انها من ثمرات جزيرة (كريت) . ولكل رأي ودليل وحجة تقوم على دراسة الكتابات والنصوص التي عثر عليها في تلك الأرضين .

والذين يرون ان العراق هو وطن الكتابة الأول ، يرون ان الخط انما ظهر بتأثير عبادة النجوم ، وذلك في أرض (كلديا) ، وكان الكهنة قد وضعوا رموزاً للنجوم ، ومن تلك الرموز أخذت الأبجدية الأولى ، وتفرعت الألفباء السامية الغربية التي صارت أماً لمجموعة من الأبجديات ، ومن قائلي هذه النظرية والمدافعين عنها المستشرق (هومل)[1] .

وهناك طائفة من العلماء رأت ان الأبجدية الأولى هي وليدة أرض النيل . وأن الذين أوجدوا الأبجدية انما أخذوها منها . وكان المصريون قد استعملوا في بادىء أمرهم الكتابة الصورية ، ثم اختزلوها وأولدوا منها (الكتابة الهيروغليفية) . وهي كتابة متطورة متقدمة بالنسبة الى الكتابة الصورية . وقد صارت هذه الكتابة أماً لأقدم الكتابات . إذ تعلمها أهل (سيناء) وأهل بلاد الشام،ثم اختزلوها وجزموها ، حتى أوجدوا من هذا الجزم الحروف الهجائية[2] .

---

١ Grundriss, I, S. 97, Geschichte Babylonien und Assyrian, S. 50.

٢ Ency. Britanica, Vol. I p. 680, Hubert Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems, S. I, A.H. Gardiner, « The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet », in the Journal of Egyptian Archaeology, 1916.

وعثر المنقبون في طور سيناء في (سرابيط الخادم) على كتابة قديمة يعود عهدها الى سنة (١٨٥٠) قبل الميلاد ، دفعت بعض العلماء مثل (مارتن اشبرنكلنك) على القول بأن هذه الكتابة هي وليدة الكتابة الهيروغليفية ، وانها الحلقة المفقودة التي توصل بين الهيروغليفيـة وبين مرحلة الحروف . وذهب الى ان العمال الذين كانوا يشتغلون في مناجم طور سيناء انما اهتدوا الى التدوين بالحروف من معرفتهم للهيروغليفية . إذ اختزلوا المقاطع ، وأخذوا بالجزء الأول من كل مقطع وسمّوا ذلك الجزء باسم من أسماء الصور بلغتهم ، فتكونت عندهم مجموعة من الحروف كونت الأبجدية الطورسينائية ، بلغ عددها اثنين وعشرين حرفاً ، أصبحت نموذجاً للأبجديات الأخرى التي اعتمدت عليها [١] .

وقد انتشرت هذه الأبجدية من (طور سيناء) الى الشرق فوصلت الى الشأم وجزيرة العرب ، وصارت أصل الأبجديات في هذه الأماكن غير انها لم تستعمل في العراق ، حيث كانت الكتابة المسمارية ، ولا في مصر ، حيث كانت الكتابة (الهيروغليفية) . وقد تغيرت أشكالها باستعمالها الطويل ، وتحرفت بمرور الزمن ، وتبدلت الأسماء التي وضعها كتّاب طور سيناء لحروفهم ، كما تبدلت من حيث الترتيب وبذلك تولدت منها أقلام جديدة [٢] .

ورأى بعض العلماء ان الخط الكنعاني الذي هو من الخطوط القديمة ، قد اشتق من الخط الهيروغليفـي ، لوجود شبه بين الحروف الكنعانيـة وبعض الصور الهيروغليفية . ورأى بعض آخر انه مشتق من الكتابة المسمارية . ورأى آخرون انه اشتق من الأبجدية (الطورسينائية) ، إذ يصعب تصور اشتقاق الخط الكنعاني من الهيروغليفية رأساً لبعد ما بين الكتابتين ، وإن كان هناك شبه بين بعض الحروف الكنعانية والصور الهيروغليفية . ومن الخط الكنعاني تولدت بعض الأقلام السامية المتأخرة [٣] .

وذهب باحثون الي أن الفينيقيين هم أول من اخترعوا الأبجدية ، ومن هـذه الأبجدية الفينيقية تولدت الأبجديات الأخرى ، وذهب قسم منهم الى أن الفينيقيين ، إنما أخذوا أبجديتهم هذه من الهيروغليفية ، بأن شذّبوها وجزموا مقاطعها ، وأولدوا

---

١ Martin Sprengling, The Alphabet : its Rise and development from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931, The Universal Jewish Ency. I, p. 198.

٢ The Universal Jewish Ency. I, p. 198.

٣ The Jewish Quarterly Review, XII, (1950), 83-100, 159-179.

منها الحروف[1] . ونظراً الى وجود هوة كبيرة بين الكتابة الفينيقية وبين الهيروغليفية، رأى بعض الباحثين ، أن الفينيقيين ، إنما أخذوا خطهم من الخط الطورسينائي ، ثم طوروه وحسّنوه وأوجدوا منه خطهم الذي أولد جملة خطوط .

وطائفة أخرى من العلماء ، رأت أن وطن (الألفباء) الأول هو جزيرة قبرس أو جزيرة كريت ، حيث عثر فيهما على نماذج قديمة للكتابة اتخذوها حجة يستند اليها في هذا الرأي . وقد زعم أصحاب هذه النظرية أن أهل ساحل البحر الأبيض إنما تعلموا الكتابة من أهل (كريت) أو (قبرس) . وذلك باحتكاكهم بهم ، وبهجرة الفلسطينيين Philistines ، من جزيرة (كريت) الى سواحل فلسطين التي عرفت باسمهم (فلسطية) Philistia ، ثم أطلقت على المنطقة التي قيل لها فلسطين كلها . ومن الفلسطينيين أخذ الفينيقيون الأبجدية[2] .

وقد عثر الباحثون على عدد من الكتابات القديمة في جزيرة (كريت) ، تبين من دراسة بعض منها أنها مكتوبة على طريقة الكتابة الهيروغليفية ويرجع عهدها الى ما بين (٢٠٠٠) الى (١٦٠٠) قبل الميلاد . كما عثروا على كتابة صورية يعود عهدها الى حوالى السنة (١٧٠٠) قبل الميلاد . وعثروا على كتابات أخرى حملتهم على القول بأن (كريت) كانت الموطن الأول للكتابة ، ومنها انتقلت الكتابة الى مواضع أخرى من البحر الأبيض[3] . كما بينت ذلك في الفقرة السابقة .

وقد عثر المستشرق (كلود شيفر) M. Claude Schaeffer ، المعروف بتنقيبه عن النصوص (اليغاريتية) Ugarit في شهر (نوفمبر) من عام ١٩٤٩ م على آجرة صغيرة من الصلصال المفخور بالنار حجمها (٥) سنتيمترات في ١٥ ملمتراً في موضع (رأس الشمرة) الواقع على مسافة عشرة أميال من شمال اللاذقية ، ظهر أنها على صغرها وتفاهتها البادية عليها من أهم ما عثر عليه من نصوص . فهذه الآجرة الصغيرة التي لا تلفت اليها الأنظار هي لوح في

---

١ الدراسات الادبية ، الجامعة اللبنانية ، السنة الثانية ، العدد الاول ، ١٩٦٠ م (ص ٤٤ وما بعدها) .
Ency. Brita., I, p. 680, A.H. Gardiner, The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet, in the Journal of Egyptian Archaeology, 1916, M. Dunand, Byblia Grammata, Beyrouth, 1945, p. 71.

٢ Ency. Brit. I, p. 680, Hastings, p. 672, Ency. Bibli., p. 3434.

٣ The Art of Writing, Unseco, p. 8.

غاية من الأهمية كتبت عليه الأبجدية (اليغاريتية) المؤلفة من ثلاثين حرفاً ، وهي على الرغم من صغر حروفها مكتوبة كتابة واضحة بخط قوي جلي . وقد كان العلماء يبحثون عن هذه الأبجدية بكل شوق ، والظاهر ان أحد الطلاب كتبها على هذا اللوح ، ويرجع عهده الى القرن الرابع قبل الميلاد[1] .

وهذه الأبجدية (اليغاريتية) مكتوبة كتابة اسفينية ، ولذلك رأى بعض الذين بحثوا في (اليغاريتية) انها وليدة الكتابة المسمارية . ورأى بعض آخر انها متأثرة بالهيروغليفية من حيث تكوين الحروف الصامتة . وأما من ناحية الرسم ، فإنها متأثرة بالكتابة المسمارية . وتتألف من ثلاثين حرفاً ، فهي تتضمن جميع الحروف في الأبجديات السامية الشمالية الغربية المكونة من اثنين وعشرين حرفاً صامتاً . ونجد انها أوردت هذه الحروف على ترتيب الأبجدية الإرمية والعبرانية ، خلا انها وضعت خمسة أحرف أخرى لم ترد في العبرانية بين هذه المجموعة ، فتكوّن منها سبعة وعشرون حرفاً تضاهي الأبجدية الكنعانية ، ثم أضاف اليها كتبة (اليغاريتية) أحرفاً أخرى ، فأصبح مجموع الحروف ثلاثين حرفاً تألفت منها الأبجدية (اليغاريتية)[2] .

نرى مما تقدم ان آراء علماء الخط تكاد تتفق على ان مخترعي الأبجديات هم أناس يجب أن يكونوا من أهل الشرق الأدنى أو من حوض البحر الأبيض ، من أهل جزيرة (كريت) أو (قبرس) . وآراؤهم هذه هي بالنسبة الى الأقلام المشهورة التي لا تزال مستعملة وحية معروفة مثل الخطوط المستعملة في اوروبة ، وفي اميركا ، ومثل الخط العربي والعبراني والسرياني وبالنسبة الى أقلام أخرى ماتت ، غير ان العلماء المتخصصين يعرفون عنها شيئاً ويقرأون نصوصها مثل الكتابات المسمارية وأمثالها . إلا ان هناك أقلاماً هي قديمة أيضاً،ولها أهمية كبيرة ،

---

١ راجع وصف هذه الاجرة الصغيرة والابجدية (اليغاريتية) في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : ح٤ مجلد ٢٥ (١٩٥٠ م) ، (٦٢ وما بعدها) ، The Glascow Herald, Saturday March 4, 1950, Manchester Guardian Weekly, March 23rd, 1950, p. 13, BOASOR, NUM : 118, April 1950, p. 12.

٢ The Glascow Herald, Saturday March, The 4th., 1950, BOASOR, NUM : 118, April 1950, p. 12, Le Muséon, LIX, (1946), 1-4, p. 95, C.H. Gordon, Ugaritic Grammer, Analecta Orientalia, 20, Roma, 1939, p. 69, Caude F. A. Schaeffer, The Cuniform Texts of Ras Schamra Ugari, London, 1939.

ونصوص وكتابات ، لذلك يجب البحث عنها ، لمعرفة تأريخها ودرجة صلتها بالأقلام التي تتحدث عنها . للوقوف على البواعث التي دفعت أصحابها على ايجادها والمراحل التي مرّت بها . فليس من الصواب إهمال تلك الأقلام وغض النظر عنها باعتبار انها أقلام بعيدة عن أقلامنا ، وهي تمثل ثقافة بعيدة عن ثقافتنا .

كذلك يجب البحث عن الرسوم والرموز والإشارات التي سجلها الإنسان البدائي للتعبير عن نفسه ولتخليد ما كان يدور بخلده . ومقارنة ذلك مع أمثاله في كل أنحاء العالم . فإذا فعلنا ذلك وجمعنا كل الأقلام القديمة مثل أقلام الصين والهند وبقية أقلام أقطار آسية وأقلام إفريقية وامبركا ، ودرسناها دراسة علمية . صار في إمكاننا تكوين رأي عام علمي تقريبي عن تأريخ ظهور الخط عند البشر : متى كان ذلك وأقدم من بدأ به ، مع بذل الجهد للبحث عن نماذج جديدة من الخطوط في كل مكان من العالم لتزيد بها على علمنا المتجمع من الكتابات التي وصلت الينا ولا نضيف عليه علماً جديداً وليكون حكماً قريباً من المنطق والعلم .

والرأي عندي أنه لأجل الإحاطة بتأريخ تطور الخط ، لا بد من الاستمرار في البحث عن كتابات أخرى جديدة ومن دراسة مظاهر أشكال الحروف وكيفية ترتيبها وكيفية النطق بها ، أي الإحاطة بأسماء الحروف . فإن هذه الأمور تساعدنا كثيراً على فهم تطور الخط عند البشر وعن صلته بعضه ببعض ومن التوصل الى نتائج علمية قويمة ، لا تقاس بالنتائج التي تبنى على مجرد الظن والتخمين والتصور .

والذي نلاحظه اليوم أن حروف الخطوط السامية المستعملة عند الغربيين ، تكاد تتفق في أسمائها وفي ترتيبها ، ويشير هذا التشابه الى وحدة الأصل ، والى أن الأبجديات المذكورة قد تفرعت كلها من شجرة واحدة ، ونبعت من منبع واحد . فكلها تبتدىء بحرف واحد ، هو (الألف) وكلها تجعل الباء حرفاً ثانياً ، ثم ان في وحدة تسمياتها مع اختلاف اللغات التي تدوّن بها دليلاً كافياً على إثبات أن هذه الأبجديات هي من أصل واحد . وعلى أن الأسماء الحروف علاقة وثيقة بالصور وبالكتابة الصورية للغة الأم التي اخترعت تلك الحروف وأوجدتها من مرحلة المقاطع . وإذا ثبتنا أسماء الحروف،وعرفنا من أين أخذت ، وإذا استطعنا العثور على أقدم نص للأبجدية،يكون في إمكاننا ابداء رأي علمي في منشأ الحروف وفي المكان الذي كان له شرف إيجادها ، أو الأماكن التي ساهمت بصور مستقلة

في إيجاد الحروف . وهذا ما أراه . لأني أعتقد أن الانسان فكّر في أول ما فكر به في إيجاد وسيلة يسجل بها أعماله وأفكاره ، وأن تفكيره هذا لم ينحصر في بقعة واحدة ، بل وجد في كل مكان . حتى في البيئات البدائية ،إذ نجد الشعوب البدائية تتخذ وسائل للتعبير عن آرائها وعن تدوين أفكارها بطرق تتفق مع مستواها العقلي ودرجتها في الثقافة .

والحرف الأول ،وهو الألف ، يعني (ثوراً) ، ولذلك مثل في الهيروغليفية وفي كتابة طور سيناء بشكل رأس ثور ،وأما الحرف الثاني ، وهو الباء أو Beth ، فإنه يعني (بيتاً) ،وقد صور في الهيروغليفية وفي كتابة طور سيناء بشكل يصور مقدمة بيت . وأما الحرف الثالث ، وهو الجيم ، فإنه (كمل) (كيمل) ، أي الجمل ،وصورته لا ترمز الى الجمل رمزاً تاماً . وأما حرف الدال ،فيقال (دالت) ،ومعناه باب . وأما حرف الهاء ، فإنه من He (هى) بمعنى شباك . وأما الواو ، فهو يشير الى وتد . وأما الزاي ،فإنه من زين بمعنى سلاح . وأما الحاء ، فإنه من (حيث) بمعنى حائط . وأما الياء ، فإنه من (يود) بمعنى يد أو يد مفتوحة . وأخذ حرف الكاف من (كاف) (كف) بمعنى كف اليد ، أو يد مقبوضة . وأما حرف اللام ، فإنه من (لمد) (لامد) ، ومعناه عصا لضرب الثور . وأما الميم ، فإنه من (ميم) بمعنى ماء . وأما النون ، فإنه من نون بمعنى سمكة . وأما حرف السين فهو سامخ ، بمعنى آلة يعتمد عليها كالعصا . وقد أخذ حرف العين من عين ، عين الانسان . وأخذ الفاء من فم (پم) Pe بمعنى فم ، وأخذ حرف الصاد من (صادى) ، بمعنى صياد . وحرف القاف من قوف Kof بمعنى الرأس الى الخلف ، وحرف الراء ، من ريش بمعنى رأس ، وحرف الشين من (شين) (شن) بمعنى سن . وأما التاء ، فمن كلمة (تاو) (تو) بمعنى علامة أو صليب ، وهكذا[1] .

ولمسألة ترتيب الحروف أهمية كبيرة لا تقل عن أهمية أسماء الحروف . ويظهر ان ترتيب (أبجد هوز حطي ... الخ) ، وهو ترتيب سار عليه العرب أيضاً ، هو ترتيب قديم . وقد عرف عند السريان وعند النبط والعبرانيين ،وعند (بني إرم) ويظن انهم أخذوه من الفينيقيين . وقد سار عليه الكنعانيون أيضاً ، غير انهم

١ The Universal Jewish Ency. I, p. 202.

زادوا عليه الأحرف التي اقتضى وجودها في طبيعة لغتهم . وقد وضع علماء العربية بعد (قرشت) التي يمثل حرف التاء فيها آخر حروف الأبجدية الحروف التي لم ترد في ترتيب (أبجد هوز) ، وهي موجودة في العربية ويقال لها (الروادف)[1]. أما الترتيب السائر اليوم في كتابة الحروف العربية مبتدئين بالألف ومنتهين بالياء، فهو ترتيب اسلامي ، وقد وضع على ما يخيل إلي لتيسير حفظ أشكال الحروف للطلاب ، لأنه راعى الجمع بين الحروف المتشابهة ، ولم يتجنب مع ذلك الترتيب الأصل المراعى في نظام (أبجد هوز) تجنباً تاماً . وضعه (نصر بن عاصم) في ايام الحجاج .

ومن الفينيقيين الذين كانوا يقطعون البحار والبراري للاتجار مع مختلف الشعوب، انتشرت الكتابة بالحروف الى حوض البحر الأبيض . فقد كان تجّارهم يسجلون ما يبيعون ويشترون ليضبطوا بذلك أعمالهم ، فظن من كان يتعامل معهم من اليونان وغيرهم انهم كانوا يقومون بأعمال سحرية . ولما عرفوا انهم انما يكتبون ذلك لضبط أعمالهم وتجارتهم تعلموا منهم سر الكتابة . ثم سرعان ما أخذوا يكتبون . وبذلك انتشرت الكتابة في اوروبة . ويظهر ان انتقال الخط الى اوروبة كان في القرن العاشر قبل الميلاد[2] . وقد حافظ اليونان القدامى على أشكال الحروف الفينيقية وعلى طريقتهم في التدوين من اليمين الى اليسار . وحافظوا على أسماء الحروف كذلك . ثم وجد اليونان ان الحروف الفينيقية هي حروف صامتة ولا توجد فيها حروف تعبر عن الحركات. فأكملوها بإضافة الحركات اليها. ثم طوروها بالتدريج. وكان في جملة التطورات الابتداء بالكتابة من اليسار نحو اليمين . وعن اليونان أخذ الرومان وغيرهم من الشعوب الأوروبية الكتابة ، وأخذ كل قوم منهم يوجد منها طرقاً جديدة في الخط حتى صارت على نحو ما هي عليه في هذا اليوم .

الخط العربي :

والعرب من الشعوب التي عرفت الكتابة ومارستها قبل الإسلام بزمان طويل كذلك . بل عرفوا الكتابة قبل الميلاد ببضع مئات من السنين . وقد عثر في مواضع

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ The Art of Writing, Unesco, 36.

من جزيرة العرب على كتابات دونت باليونانية وبلغات أخرى . وتبين من دراسة النصوص الجاهلية ، ان العرب كانوا يدونون قبل الاسلام بقلم ظهر في اليمن بصورة خاصة ، هو القلم الذي أطلق عليه أهل الأخبار (القلم المسند) أو (قلم حمير) . وهو قلم يباين القلم الذي نكتب به الآن . ثم تبين انهم صاروا يكتبون في الميلاد بقلم آخر ، أسهل وألين في الكتابة من القلم المسند ، أخذوه من القلم النبطي المتأخر وذلك قبيل الاسلام على ما يظهر . كما تبين ان النبط وعرب العراق وعرب بلاد الشأم كانوا يكتبون أمورهم بالإرمية وبالنبطية ، وذلك لشيوع هذين القلمين بين الناس ، حتى بين من لم يكن من (بني إرم) ولا من النبط ، كالعبرانيين الذين كتبوا بقلم إرمي الى جانب القلم العبراني ، ولاختلاط العرب الشماليين ببني إرم واحتكاكهم بهم ، مما جعلهم يتأثرون بهم ثقافياً ، فبان هذا الأثر في الكتابات القليلة التي وصلت الينا مدونة بنبطية متأثرة بالعربية .

ويظهر من عثور الباحثين على كتابات مدونة بالمسند في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، ومنها سواحل الخليج العربي ، بعض منها قديم وبعض منها قريب من الاسلام ، ان قلم المسند ، كان هو القلم العربي الأصيل والأول عند العرب . وقد كتب به كل أهل جزيرة العرب ، غير ان التبشير بالنصرانية الذي دخل جزيرة العرب ، وانتشر في مختلف الأماكن ، أدخل معه القلم الإرمي المتأخر ، قلم الكنائس الشرقية ، وأخذ ينشره بين الناس لأنه قلمه المقدس، الذي به كان يكتب رجال الدين . ولما كان هذا القلم أسهل في الكتابة من المسند ، وجد له أشياعاً وأتباعاً بين من دخل في النصرانية وبين الوثنيين أيضاً ، لسهولته في الكتابة، غير انه لم يتمكن مع ذلك من القضاء على المسند إذ بقي الناس يكتبون به . فلما جاء الاسلام ، وكتب كتبة الوحي بقلم أهل مكة لنزول الوحي بينهم . صار قلم مكة هو القلم الرسمي للمسلمين ، وحكم على المسند بالموت عندئذ، فمات ونسيه العرب ، الى أن بعثه المستشرقون ، فأعادوه الى الوجود مرة أخرى، ليترجم لنا الكتابات العادية التي دونت به .

وهناك أقلام عثر عليها المستشرقون في أعالي الحجاز ، تشبه القلم المسند شبهاً كبيراً ، لذلك رأى الباحثون انها من صلب ذلك القلم ومن فروعه للشبه المذكور، ولأنها متأخرة بالنسبة له ، فلا يمكن أن تكون هي الأم . وقد سمي قلم منها بالقلم الثمودي نسبة الى قوم ثمود ، وسمي قلم آخر بالقلم اللحياني ، نسبة الى

(الحيان) . وعرف القلم الثالث بـ (الكتابة الصفوية) ، نسبة الى أرض (الصفاة) الأرض التي عثر بها على أول كتابة مكتوبة بهذا القلم .

وقد عرف علماء العربية القلم المسند ، ومنهم حصل هذا القلم على اسمه . ولكنهم لم يعرفوا من أمره شيئاً يذكر . وكل ما عرفوه عنه أنه خط أهل اليمن القديم ، وأنه خط حمير. وأن قوماً من أهل اليمن بقوا أمداً يكتبون به في الإسلام ويقرأون نصوصه . كما عرفوا القلم الذي دوّن به القرآن الكريم . ودعوه (القلم العربي) او (الخط العربي) حيناً و (الكتاب العربي) أو (الكتابة العربية) حيناً آخر تمييزاً له عن المسند[1] . ولم يشيروا الى أسماء خطوط جاهلية أخرى .

وقد تكلم (الهمداني) ومشايخه من قبله عن المسند ، كما أشار اليه (ابن النديم) ، وذكر أن نماذج منه كانت في خزانة (المأمون) . غير أن علمهم به لم يكن متقناً على ما يظهر من نقولهم عنه . كما تحدثت عن ذلك في أثناء كلامي عن (الهمداني). ولم يكن لهم إدراك عن كيفية تطوره . وقد دعوه بالخط الحميري . وعرّفوه بأنه خط مخالف لخطنا هذا، كانوا يكتبونه أيام ملكهم فيما بينهم . قال (أبو حاتم) هو في أيديهم الى اليوم باليمن[2] . هذا ولم أجد في المؤلفات الإسلامية المعروفة في هذا اليوم ما يفيد بأن أحداً من العرب الإسلاميين كان له علم متقن بالعربيات الجنوبية ، أو كان له علم بتأريخ العربية الجنوبية القديم ، وفي الذي ذكروه عن الخط المسند وعن لغات العرب الجنوبيين وتأريخهم تأييد لما أقوله .

والعرب تسمي (الكتاب العربي) أي خطنا : (الجزم) ، وذكروا أنه إنما سمي جزماً لأنه جزم من المسند ، أي قطع منه ، وهو خط حمير في أيام ملكهم[3] ولا أستبعد احتمال كون كلمة (الجزم) تسمية ذلك القلم في الجاهلية ، وأما تفسير

---

١ الفهرست (ص ٦ فما بعدها) ، صبح الاعشى (٣/١١) ، الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس (ص ٧ وما بعدها) ، تأريخ الخط العربي وآدابه ، تأليف محمد بن طاهر بن عبد القادر الكردي الخطاط ، مكة ، ١٩٣٩ م ، البلاذري ، فتوح (٤٧٦ وما بعدها) ، الجهشياري ، الوزراء (١٢،١ وما بعدها) ، السجستاني ، كتاب المصاحف (٤ وما بعدها الصولي ، أدب الكتاب (٢٨ ـ ٣١) ، القاهرة ١٣٤١ هـ) ، الابحاث ، السنة ١٩٥٢ م ، الجزء الاول (ص ١١ وما بعدها) ، العقد الفريد (٤/٢٤٠ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢/٣٨٢) ، (سند) .

٣ اللسان (١٢/٩٧ وما بعدها) ، (جزم) ، تاج العروس (٨/٢٢٨) ، (جزم) .

أهل الأخبـــار لسبب التسمية ، فهو من نوع التفاسير المعروفة المألوفة عن أهل الأخبار ، يضعونها حينما يجابههم شخص يريد معرفة سبب تسمية شيء بالاسم الذي عرف به . ودليل ذلك ما ذكره (البطليوسي) من أن أهل الأنبار كانوا يكتبون المشق ، وأن أهل الحيرة كانوا يكتبون (خط الجزم) وهو خطهم ، وهو الذي صار خط المصاحف[1] . و (المشق) في تفسير علماء العربية مـد حروف الكتابة[2] ومعنى هذا أن خط أهل الأنبار ، كان متصل الحروف ممدودها ، بينما غلب على القلم الحيري ، الشكل التربيعي الجاف ذو الزوايا للحروف . وهـو شكل تكون الكتابة به أبطأ من الكتابة بالقلم المشق . ونظيره هو القلم الكوفي في الإسلام ، الذي اختص بأنواع معينة من أغراض الكتابة،ومنها الكتابة على الأحجار والخشب. ونظراً لبطء الكتابة به على الغالب لم يستعمل بكثرة في الكتابة .

ولعل سبب اختلاف قلم الأنبار عن قلم أهل الحيرة ، هو في المنبع الذي استقى كل من أهل المدينتين قلمه منه . فقد استعمل نصارى العراق في كتبهم الطقوسية القلم (السطرنجيلي) ، المشتق من القلم التدمري . وكتبوا بـه الأناجيل والكتب المقدسة وأحجار المباني ، مثل الأحجار التي توضع فوق أبواب المعابد كالكنائس أو البيوت أو القبور وما شاكل ذلك . وهو خط ثقيل يحتاج الى بذل وقت في نقشه والى جهـد في حفره على الخشب أو الحجر ، بل وفي الكتابة به أيضاً . واستعملوا قلماً آخر أسرع منه وأسهل وأطوع في الكتابة به من (السطرنجيلي) ، كتبت به الأعمال التجارية والمخابرات والرسائل والكتب ، كتبوا بـه بقلم القصب وبالحبر . فكان منه خط النسخ[3] .

هـذا وقد كتب النبط بقلمين كذلك:قلم قديم ، ثقيل في الكتابة تكثر فيه الخطوط المستقيمة والزوايا والتربيعات فهو على شاكلة (السطرنجيلي) ، والخـط الكوفي . كتبوا به على الأخشاب والحجارة والمعـادن والصخور ، حيث حفروا الكتابة حفراً ، كما استعملوه في ضرب نقودهم . وهو ثقيل في الكتابة لذلك لم يستعمل في الأغراض اليومية كتدوين المعـاملات التجارية والمراسلات وما شاكل

---

١ الاقتضاب (٨٩) .

٢ تاج العروس (٧/ ٧٠) ، (مشق) .

٣ الابحاث ، السنة ١٩٥٢ م ، الجزء الاول (ص ١٥) .

ذلك من أمور تستدعي السرعة ، بل استخدم الكتاب قلماً آخر لهذه الأغراض ، هو القلم المدوّر الـــذي يشبه النسخ ، والذي نستطيع أن نسميه (المشق) ، قلم أهل الأنبار . وهو قلم متأخر ظهر عندهم بعد القلم الأول[1] .

ونجد أكثر شعوب الشرق الأدنى على هذه العادة في اتخاذ قلم خاص يكتبون به الكتب المقدسة والأحجار التذكارية،التي توضع فوق أبواب المعابد وفي داخلها أو على القبور للذكرى والتـــأريخ . لذلك يجتهد فيه أن يكون مزوقاً ذا زوايا وتربيعات وزخرف ونقوش ، باعتبار أنه إنما يدوّن للتخليد ولتدوين شيء مقدس ثمين . ومن هـــذه النظرة تولدت طريقة رسم الحروف الأولى لكلمات الجمل أو عنـــوان الفصول بحروف بارزة مغايرة للحروف الأخرى التي تدوّن بها الكلمات التاليـــة . واتخذوا أقلاماً أخرى راعوا فيها السهولة والليونة في الكتابة . لتدوين الكتب الأخرى التي لا صلة لها بالدين ولتدوين الأعمال اليومية . جعلوا حروفها مدوّرة أو مقوسة ، ليمكن الكتابة بها بسهولة بدون حاجة الى بذل عناية في رسم خطوطها المستقيمة والمربعة والزوايا التي تكوّن الحروف .

وقد تحدث (الجاحظ) عن الخط ، فقال : « وليس في الأرض أمة بها طرق أو لها مسكة ، ولا جيل لهم قبض وبسط ، إلا ولهم خط . فأما أصحاب الملك والملكة والسلطان والجباية ، والديانة والعبادة ، فهناك الكتاب المتقن ، والحساب المحكم ، ولا يخرج الخط من الجزم والمسند المنمنم كذا كيف كان ، قال ذلك الهيثم بن عدي وابن الكلبي »[2] . فالخط العربي الجاهلي ، قلمان : جزم ومسند، ولا ثالث لهما . المسند خط العربية الجنوبية وخط من كتب بهذا القلم من بقيـــة أنحاء جزيرة العرب ، والجزم ، خط أهل مكة والمدينة وعرب العراق وغيرهم من العرب الشماليين .

ولما كان عرب العراق قد خالطوا بني إرم وأخذوا من ثقافتهم ، ومنهم من اعتنق دينهم ، فدخل في النصرانية . فلا أستبعد استعمالها قلمـــين ، أو أكثر في الكتابة . قلم رُوعي فيه ما رآه نصارى العراق في (السطرنجيلي) ، والمسمى أيضاً

---

١ الابحاث ، ١٩٥٢ ، (حـ ١ ص ١٤ وما بعدها) .
٢ الحيوان (١/٧١) ، البلاذري ، فتوح (٤٧٦ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (٤ وما بعدها) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، بجامعة القاهرة ، مايو ١٩٣٥ م .

بالخط الرهاوي ، وقلم آخر استعملوه للكتابات السريعة . ولا أستبعد احتمال كتابة أهل الأنبار أو أهل الحيرة أو غيرهم من عرب العراق بالقلمين معاً . القلم الذي دعاه البطليوسي بالمشق ، وهو على حد قوله قلم أهل الأنبار ، والقلم الحيري ، وهو الجزم على رأيه أيضاً . ويذكر ان القلم السطرنجيلي قد استنبط في مطلع القرن الثالث للميلاد . وقد استنبطه (بولس بن عرقا) أو (عتقا الرهاوي) . وشاع استعماله بين الناس[1] .

هذا وللعلماء المسلمين مؤلفات في تأريخ الخط العربي وتطوره ، ولهم نظريات وآراء في منشأ الخط ، منها آراء تنسب الى (ابن الكلبي) ، وهو في مقدمة علماء الأخبار في هذا الباب . واليه يرجع أكثر من جاء بعده في رواية أخباره عن منشأ الخط ، وعن كيفية تطوره حتى بلغ مبلغه هذا في الاسلام . ومنها آراء تنسب الى غيره كابن عباس[2] .

ونستطيع تلخيص وجهات نظرهم في منشأ الخط العربي في الملخصات الآتية :

١) كان منشأ الخط في اليمن ، ثم انتقل منه الى العراق حيث تعلمه أهل الحيرة ، ومنهم تعلمه أهل الأنبار ،ومنهم تعلمه جماعة نقلوه الى الحجاز . فالأصل ، على رأي هؤلاء ، هو القلم المسند وكان كما يقولون بالغاً مبلغ الاتقان والجودة في دولة التبابعة ، لما بلغت من الحضارة والترف[3] .

٢) أول من كتب الخط العربي حمير بن سبأ ، وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند ، سمي بذلك لأنهم كانوا يسندونه الى (هود)[4] .

٣) أول ما ظهرت الكتابة العربية بمكة من قبل (حرب بن أمية) وقد

---

١ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، (١٩٥٩ م) ، (ص ٤٢١) .

٢ راجع ادب الكتاب للصولي (٢٨ وما بعدها) ، والفهرست لابن النديم (وما بعدها) وحكمة الاشراق الى اختراق الافاق ، للسيد مرتضى الزبيدي ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة (ص ٥٠ وما بعدها) ، البلاذري فتوح البلدان (٤٧٦ وما بعدها) والجهشياري ، الوزراء (٢٥١ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٣/٩ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (٤ وما بعدها) ، العقد الفريد (٣/٢٠٣) المزهر (٢/٣٤٩) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .

٣ المزهر (٢/٣٤٩) ، مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .

٤ صبح الاعشى (٣/٩) .

أخذها من طارىء طرأ على مكة من اليمن. وقد أخذ ذلك الطارىء علمه بالكتابة من كاتب الوحي لهود[1].

٤) أول من كتب بالعربية اسماعيل[2]. كتب على لفظه ومنطقه موصولاً ؛ حتى فرق بينها ولده هميسع وقيذر[3].

٥) أول من وضع الكتاب العربي نفيس ، ونضر ، وتيماء ، ودومة. هؤلاء ولد اسماعيل ، وضعوه موصولاً ، وفرقه قادور بن هميسع بن قادور[4].

٦) إن نفيس ، ونضر ، وتيما ، ودومة ؛ بني إسماعيل ، وضعوا كتاباً واحداً وجعلوه سطراً واحداً غير متفرق ، موصول الحروف كلها ، ثم فرقه نبت ، وهميسع ، وقيذار ، وفرقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر[5].

٧) كان قلم (الجزم) في نظر بعض العلماء أساس القلم العربي وقد سمي بالجزم ، لأن مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، وهم من طيء من بولان ، سكنوا الأنبار واجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة. فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام. وقد اقتطع مرامر الخط من المسند فسمي الجزم ، لأنه جزم أي اقتطع ، ولذلك قيل له الجزم قبل وجود الكوفة ؛ فتعلمه منهم أهل الأنبار ، وتعلمه منهم أهل الحيرة وسائر عرب العراق ، وتعلمه من أهل الحيرة بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم في بلاد العراق ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر الى

---

١ صبح الاعشى (٣/١٠).

٢ صبح الاعشى (٣/١٠) ، المزهر (٢/٣٤٢) ، (وعنه عليه الصلاة والسلام ، انه أول من كتب بالعربية اسماعيل) ، الروض الانف (١/١٠) ، الجهشياري ، كتاب الوزراء والكتاب (أو ما بعدها).

٣ المزهر (٢/٣٤٢) ، (كان ابن عباس يقول : أول من وضع الكتاب العربي اسماعيل – عليه السلام – وضعه على لفظه ومنطقه) ، الصاحبي (٣٤).

٤ الفهرست (ص ١٣) ، (الكلام على القلم العربي).

٥ حكمة الاشراق ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة (ص ٦٤) ، صبح الاعشى (٣/٩).

مكة فتعلم منه جماعة من أهلها ، فلهذا أكثر الكتّاب من قريش[1] .

٨) أول من وضع الخـط العربي (أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت) ، وهم قوم من الجيلة الأخيرة ، وقيل : إنهم بنو المحصن بن جندل ابن يصعب بن مدين ، وكانوا نزولاً مع عدنان بن أد ، فكان (أبجد) ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمدين ، وقيل ببلاد مضر ، فوضعوا الكتاب عـلى أسمائهم ، ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم ، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين فسموها الروادف[2] .

٩) أول من وضع الخط العربي وألف حروفه ستة أشخـاص من طسم ، كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد ، وكانت أسماؤهم : أبجد هُوز حطي كلمن سعفص قرشت ، فوضعوا الكتابة والخط على أسمائهم ، فلما وجـدوا في الألفاظ حروفاً ليست في أسمائهم ألحقوها بها ، وسموها الروادف ، وهي ثخذ ضظغ[3] .

١٠) أول من خط هو : مرامر بن مرة من أهل الأنبار ، وقيل إنـه من بني مرة . ومن الأنبـار انتشرت الكتابة في الناس . ذكروا أن قريشاً سُئِلوا : من أين لكم الكتابة ؟ فقالوا : من الأنبار[4] .

(١١) تعلم بشر بن عبد الملك الكتابة من أهل الأنبار وخرج الى مكة وتزوج (الصهباء بنت حرب بن أمية) . وتعلم منه حرب ، ومنه ابنه سفيان ، ومنه ابن أخيه معاوية بن أبي سفيان ، ثم انتشر في قريش ، وهو الخط الكوفي الذي استنبطت منه الأقلام[5] .

---

١ الفهرست (ص ٦) منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم (ص ٩٨) ، المزهر (٣٤٦/٢) ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٥) ، صبح الاعشى (٤٢١/١) الجهشياري ، الـوزراء (١) ، تـاج العروس (٩٠/٣) ، (جدد) .

٢ المزهر (٣٤٨/٢) ، الفهرست (ص ١٢) ، (الكلام على القلم العربي) ، العقـد الفريد (٢٤٢/٤) ، نزهة الجليس (٦٣/٢) .

٣ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٤) ، صبح الاعشى (٩/٣) ، نزهة الجليس (٦٣/٢ وما بعدها) ، الفهرست (١٢) ، الكلام على القلم العربـي .

٤ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٥) ، ابن خلكان ، (٣٤٦/١) ، عيون الاخبار (٤٣/١) (الكتب والكتابة) .

٥ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٤ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١٠/٣) ، الجهشياري ، كتاب الوزراء والكتاب (٢ وما بعدها) .

١٢) كان الكتاب العربي قليلاً في الأوس والخزرج ، وكان يهودي من يهود ماسكة قد علّمها ، فكان يعلمها الصبيان ، فجاء الاسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، يكتب الكتابين جميعاً العربية والعبرانية ، ورافع بن مالك ، وأسيد ابن حضير ، ومعن بن عدي ، وأبو عبس بن كثيم ، وأوس بن خولي ، وبشير بن سعد[1] .

١٣) أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان ، وبولان قبيلة من طيء ، نزلوا مدينة الأنبار ، وهم مرامر بن مُرّة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة ، ثم قاسوها على هجاء السريانية . فأما مرامر ، فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام ، ثم نقل هذا العلم الى مكة وتعلمه من تعلمه وكثر في الناس وتداولوه[2] .

١٤) أول من كتب الكتاب العربي ، رجل من بني النضر بن كنانة ، فكتبته العرب حينئذ[3] .

١٥) رأى نفر من العلماء ان أهل مكة انما تعلموا الكتابة من إياد أهل العراق وكانوا يكتبون ، ورووا في ذلك شعراً زعموا ان (أمية بن أبي الصلت) قائله ، منه :

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم[4]

١٦) أول من وضع حروف ا ب ت ث نفر من أهل الأنبار من إياد القديمة ، وعنهم اخذت العرب[5] .

---

١ صبح الاعشى (٣/١١) .
٢ صبح الاعشى (٣/٨) ، العقد الفريد (٤/٢٤٢) .
٣ صبح الاعشى (٣/٩) ، (رجل من بني مخلد بن النضر بن كنانة) ، الفهرست (١٣) .
٤ بلوغ الارب (٣/٣٦٩) ، الروض الانف (١/٤٣) .
٥ الفهرست (ص ١٣) .

١٧) الذي حمل الكتابة الى قريش بمكة ، أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة، وقيل حرب بن أمية[١] .

١٨) من حمير تعلمت مضر الكتابة العربية[٢] .

١٩) أصل الخط العربي من الأنبار ، وانما سكن الأنبار والحيرة بقايا العرب العاربة وكثير من المستعربة فنقلوا ذلك[٣] .

٢٠) وضع الكتاب العربي عبد ضخم وبيض ولد أميم بالحجاز ، ولهم يقول حاجز الأزدي :

عبد بن ضخم إذا نسبتهم وبيض أهل العلو في النسب
ابتدعوا منطقاً لخطّهم فبين الخط لهجة العرب[٤]

٢١) أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها ، آدم — عليه السلام — قبل موته بثلاثماية سنة ، كتبها في طين وطبخه ، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه ، فأصاب إسماعيل — عليه السلام — الكتاب العربي[٥] .

٢٢) أول من كتب بالعربية مرامر بن مرة ، رجل من أهل الأنبار . ومن الأنبار انتشرت في الناس .

٢٣) تعلمت قريش الكتابة من الحيرة، وتعلم أهل الحيرة الكتابة من الأنبار[٦] .

وذكر بعض علماء العربية أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً[٧] .

وهذه هي آراء علماء العربية في أصل الخط عند العرب ، وفي كيفية منشئه وظهوره .

---

١ الفهرست (ص ١٣) .
٢ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٣ الاكليل (١/٧٨ فما بعدها) .
٤ الاكليل (٦/٧٨) .
٥ الصاحبي (٣٤) ، ، المزهر (٢/٣٤١) .
٦ ابن رستة ، الاعلاق (١٩٢) .
٧ الصاحبي (٣٥) .

وقد ذكر (ابن النديم) مختلف الروايات التي كانت شائعة في أيامه عن القلم العربي . وذكر منابعها أحياناً وأهمل ذكرها أحياناً أخرى . وفي جملة من أشار اليهم (ابن عباس) ، فنسب اليه قوله إن أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان على نحو ما ذكرت قبل قليل[1] . و (محمد بن إسحق) و (ابن الكلبي) ، و (ابن الكوفي) ، و (كعب الأحبار) و (مكحول) و (عمر بن شبة) في كتاب مكـــة ، و (ابن أبي سعد)[2] . وذكر أنه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم . فيه حق عبد المطلب على رجل من حمير ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة . وكان خطّه شبه خط النساء . وذكر أن من كتاب العرب أسيد بن أبي العيص . وأن الناس عثروا على حجر كان على قبره كتب عليه اسمه[3] .

ولدينا رأي آخر يقول : « كانت الكتّاب في العرب من أهـــل الطائف ، تعلموها من رجل من أهل الحيرة ، وأخذها أهل الحيرة عن أهل الأنبار »[4] . وهو رأي نبع من المنابع المتقدمة .

وقد جزم قوم من العلماء ان أول من كتب بالعربية (مُرامـر بن مرّ) ، (مُرامر بن مُرّة) ، وذهب قوم ان أول من كتب بخطنا (عامر بن جدرة) ، وتوقف قوم هل هو خلاف أو يمكن التوفيق. وذهب آخرون إلى ان أول من كتب بالخط العربي عامر بن جدرة ومرامر بن مرة الطائيان ، ثم (سعد بن سبل)[5] . وقال (شرقي بن القطامي) ان أول من وضع خطنا هذا رجال من طيء منهم مرامر بن مرة . قال الشاعر :

تعلمت باجاد وآل مرامر وسودت أثوابي ولست بكاتب

وانما قال وآل مرامر ، لأنه كان قد سمى كل واحد من أولاده بكلمة من أبجد ، وهي ثمانية . وأول من كتب بالعربية مرامر بن مرة من أهل الأنبار ،

---

١ الفهرست (ص ١٢) .
٢ الفهرست (ص ١٢ وما بعدها) .
٣ الفهرست (ص ١٣ وما بعدها) .
٤ اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .
٥ تاج العروس (٣/٩٠) ، (جدر) ، حكمة الاشراف (٦٥) ، ابن خلكان ، وفيات (١/٣٤٦) .

ويقال من أهل الحيرة . ويقال انه سئل المهاجرون من أين تعلمتم الخط؟ فقالوا: من الحيرة . وسئل أهل الحيرة من أين تعلمتم الخط ؟ فقالوا : من الأنبار[1] .

والذين يذكرون ان (بشر بن عبد الملك) أخو (أكيدر بن عبد الملك) الكندي صاحب (دومة الجندل) ، الذي تعلم الكتابة من أهل الأنبار ، وخرج الى مكة ، فتزوج (الصهباء بنت حرب بن أمية) أخت (أبي سفيان) ، وعلّم جماعة من أهل مكة الكتابة ، فلذلك كثر من يكتب بمكة من قريش ، يروون شعراً لرجل من أهل دومة الجندل ، زعموا انه قاله إظهاراً لمنة قومه على قريش ، هو :

لا تجحدوا نعماء بشر عليكمو فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو من المال ما قد كان شتى مبعثرا
واتقنتمو ما كان بالمال مهملاً وطامنتمو ما كان منه منفرا
فأجريتم الأقلام عوداً وبدأة وضاهيتمو كتّاب كسرى وقيصرا
وأغنيتمو عن مسند الحيّ حمير وما زبرت في الصحف أقيال حميرا[2]

فبشر بن عبد الملك ، هو الذي نقل (الجزم) الى (مكة) . والجزم هو الخط الذي دوّن به القرآن : أي القلم الذي نكتب به اليوم . فأغنى به أهل مكة عن الكتابة بقلم المسند قلم حمير الثقيل ، وصاروا يكتبون بالقلم وبالحبر ، على طريقة الفرس والروم يدوّنون به أموالهم . ويظهر من ذلك أن القلم المسند ، كان ثقيلاً في الكتابة ، ولهذا وجد أهل مكة صعوبة في تدوين أمورهم به ، فعدلوا عنه الى القلم الجزم .

ولو صح هذا الشعر ، فإن البيت الأخير منه يدل على أن أقيال حمير وغيرهم كانوا يكتبون بخطهم : المسند على الصحف ، وأنه قد كانت عندهم كتابات دوّنوها به بالحبر والقلم على الصحف والأدم ومواد الكتابة الأخرى ، ولم يكونوا يكتفون بالكتابة به على الأحجار فقط ، لأننا نجد أن كتاباتهم الواصلة الينا إنما

---

١ تاج العروس (٣/٥٤٠) ، (مرر) ، المزهر (٢/٣٤٧) .
٢ المزهر (٢/٣٤٧) .

قد كتبت بهذه الطريقة حسب . وسبب عدم وصول هذه الصحف الينا ، أنها من مادة سريعة العطب ، لذلك لم تتمكن من المحافظة على حياتها فذهبت مع أهلها ، وقد يعثر على شيء منها مدفون تحت الأرض بصورة يمكن أن يستفاد منها كما استفيد من المسند المنقوش على الحجر .

وورد ان رجلاً قال لابن عباس : « معاشرَ قريش ، من أين أخذتم هذا الكتاب العربي قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، تجمعون منه ما اجتمع، وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام ؟ قال : أخذناه من حرب بن أمية . قال : فمن أخذه حرب ؟ قال : من عبدالله بن جدعان ، قال : فمن أخذه ابن جدعان ؟ قال : من أهل الأنبار ، قال : فمن أخذه أهل الأنبار ؟ قال: من أهل الحيرة ، قال : فمن أخذه أهل الحيرة ؟ قال : من طارىء طرأ عليهم من اليمن من كندة . قال : فمن أخذه ذلك الطارىء ؟ قال : من الخفلجان بن الوهم كاتب الوحي لهود عليه السلام »[1] .

وذكر بعض العلماء ان أول من وضع الخط العربي وألّف حروفه وأقسامه ستة اشخاص من طسم ، كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد ، وكانت اسماؤهم : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، فوضعوا الكتابة والخط على اسمائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في اسمائهم ألحقوها بها ، وسمّوها الرّوادف ، وهي : ثخذ ضظغ[2] .

وذكر بعض اهل الأخبار ان (كلمن) كان رئيس ملوك مدين الذين وضعوا الكتابة العربية على عدد حروف اسمائهم ، وقد هلكوا يوم الظلة،فقالت ابنة كلمن ترثي اباها :

كلمن هدم ركني   هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه الحتف ناراً وسط ظله
جعلت نار عليهم   دارهم كالمضمحله[3]

---

١ المزهر (٣٤٩/٢) .
٢ حكمة الاشراق (٦٤) ، (ستة اشخاص من طفيم) ، نزهة الجليس (٦٣/٢) .
٣ نزهة الجليس (٦٣/٢) ، المزهر (٣٤٨/٢) .
كلمون هد ركني   هلكه وسط المحله

ويوم الظلة غيم تحته سموم ، او سحابة أظلتهم ، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالتهم من الحر ، فأطبقت عليهم[1] . وقد أشير الى عذاب يوم الظلة في القرآن الكريم[2] . وذكر أن هذا العذاب أصاب قوم (شعيب) لتكذيبهم رسالته ، فرفع الله غمامة فخرجوا اليها ليستظلوا بها فأصابهم بها عذاب عظيم . التهبت عليهم وأحرقتهم[3] . ولما كان أبجد هوز ملوك مدين ، وأهل مدين هم قوم شعيب ، ربط أهل الأخبار مصيرهم بمصير قوم شعيب ، وجعلوا نهايتهم يوم الظلة . فالكتابة على رأي هؤلاء تعود الى هؤلاء الملوك ، الذين هلكوا بذلك اليوم .

ورويت الأبيات على هذه الصورة :

كلمن هدّم ركني هُلكهُ وسط المحله
سيد القوم أتاه الـ حتف تحت ظلـه
كونت ناراً ، وأضحت دار قومي مضمحله[4]

ووردت على هذه الصورة :

كلمن هدّم ركني هلكه وسط المحله[5]
سيد القوم أتاه الحتف ناراً وسط ظله
جعلت ناراً عليهم دارهم كالمضمحله[6]

وقد تعرض (المسعودي) لموضوع الحروف ، فقال : « وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا في ممالك متصلة ومنفصلة ، فنهم المسمى بأبي جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ، وهم على ما ذكرنا بنو المحض بن جندل ، وأحرف

---

١ تاج العروس (٤٢٧/٧) ، (ضلل) .
٢ الشعراء ، ٢٦ ، الاية ١٨٩ .
٣ تفسير الطبري (١٩/٦٦ وما بعدها) .
٤ اليعقوبي ، مروج (١٢٩/٢) . (دار الاندلس) .
كلمون هد ركني هلكه وسط المحله
المزهر (٣٤٨/٢) .
٥ « ابن امي هد ركني » ، تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بجد) .
٦ تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بجد) .

الجمل على أسماء هؤلاء الملوك ، وهي التسعة والعشرون حرفاً التي يدور عليها حساب الجمل » . « وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكان هوز وحطي ملكين ببلاد وج ، وهي أرض الطائف ، وما اتصل بذلك من أرض نجد ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمدين ، وقيل : ببلاد مصر ، وكان كلمن على ملك مدين ، ومن الناس من رأى أنه كان ملكاً على جميع من سمينا مشاعاً متصلاً على ما ذكرنا ، وأن عذاب يوم الظلة كان في ملك كلمن منهم»[1].

وأورد (المسعودي) أبياتاً زعم أن (المنتصر بن المنذر المديني) قالها في هؤلاء الملوك ، هي :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة أتيت بها عمراً وحيّ بني عمرو
هُمُ ملكوا أرض الحجاز بأوجه كمثل شعاع الشمس في صورة البدر
ملوك بني حُطّي وسعفص ذي الندى وهوّز أرباب البنيّة والحجر
وهم قطنوا البيت الحرامَ ورتبوا خطوراً وساموا في المكارم والفخر[2]

وقد وردت في (تاج العروس) على هذا النحو ، وقد نسب قولها الى رجل من اهل مدين ، ذكر انه قالها يرثيهم :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة سبقت بها عمراً وحيّ بني عمرو
ملوك بني حطّي وهوّز منهم وسعفص اهل في المكارم والفخر
هم صبحوا اهل الحجاز بغارة كمثل شعاع الشمس او مطلع الفجر[3]

وروي ان (عمر بن الخطاب) لقي أعرابياً فسأله هل تحسن القراءة؟ فقال : نعم . قال : فاقرأ أم القرآن ؟ فقال الأعرابي والله ما أحسن البنات فكيف الأم ! فضربه عمر بالدرة وأسلمه الى الكتاب ليتعلم . فمكث حيناً ثم هرب ، ولما رجع لأهله أنشدهم :

---

١ مروج ، للمسعودي (١٢٨/٢) ، (دار الاندلس) .
٢ المسعودي ، مروج (١٢٩/٢) ، (دار الاندلس) ، حفني بك ناصف (٤٧) ، (أورد الابيات مع بعض الاختلاف) ، المزهر (٣٤٨/٢) .
٣ تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بجد) .

أتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أسطر متتابعات
كتاب الله في رقٍ صحيح وآيات القرآن مفصلات
فخطّوا لي أبا جاد وقالوا : تعلم سعفصاً وقريشات
وما أنا والكتابة والتهجي وما حظ البنين مع البنات[1]

ويرجع أهل الأخبار (الروادف) ، أي الحروف : الثاء ، والخاء ، والذال ، والضاد ، والظاء ، والغين الى أيام الملوك المذكورين في بعض الروايات . وهي حروف لم ترد في تركيب الأبجديات السامية القديمة ، لأنها غير واردة في أكثر لهجاتها ، لذلك وضعها أهل الأخبار في آخر الأبجدية ، فأكملوا بذلك الأبجدية العربية . وقد ألحقها الكتاب بها بعد أن تبين لهم بالطبع أن في العربية حروفاً غير موجودة في الأبجدية المذكورة ، فأوجدوها بوضع علامات على الحروف المذكورة التي لم تكن معلمة ، فعبرت عن أسماء الحروف الناقصة واستعملوها في الكتابة دون أن يعملوا على إيجاد حروف جديدة للتعبير عن الحروف الناقصة .

ولعلماء العربية مثل (سيبويه) والمبرد والسيرافي وغيرهم آراء في الأسماء المذكورة يفهم منها ان منهم من جعل بعض تلك الأسماء مثل (أبا جاد) و (هواز) و (حطيا) أسماءً عربية ، وبعضاً منها مثل : سعفص وكلمن وقرشنات أعجميات. ومنهم من جعلها أعجميات[2] . ويظهر من مراجعة آرائهم هذه انهم كانوا قد عرفوا ترتيب حروف الأبجدية على النحو المتقدم ، فلما قرأوها على انها كلمات ، كما كان يفعل (بني إرم) وغيرهم في تعليمهم الكتابة والقراءة للمبتدئين تولد عندهم هذا القصص ، الذي قد يكون مصدره قصص قديم . ثم تولد لديهم قصص كونهم ملوكاً من مدين ، أو رجالاً من أهل الأنبار الى آخر ما رأيناه من قصص عن منشأ الحروف ، ليجدوا بذلك مخرجاً في تعليل تلك التسميات .

وذكر بعض أهل الأخبار أن أول من أتى أهل مكة بكتابة العربية (سفيان ابن أمية بن عبد شمس) ، ثم انتشرت[3] .

---

١ تاج العروس (٢/٢٩٤) ، (بجد) .
٢ نزهة الجليس (٢/٦٤) ، المزهر (٢/٣٤٧) .
٣ نزهة الجليس (٢/٦٤) .

وترجع أسانيد الروايات المذكورة الى (عبدالله بن عباس) ، و (كعب الأحبار) ، و(الشعبي) و (أبي ذر) ، و (عوانة)، و (ابن الكلبي)، و (الشرقي بن القطامي) ، و (الأصمعي) و (الهيثم بن عدي)[1] .

ويظهر من هذه الروايات ومن روايات أخرى أن رأي علماء العربية أن الخط العربي لم يكن أصيلاً في الحجاز ، وإنما دخله من اليمن ، أو من العراق أو أرض مدين . وأن أهل مكة إنما تعلموه من الأماكن المذكورة ، في وقت غير بعيد عن الاسلام ، لا يمكن أن يرتقى عنه بأكثر من قرن ، إن لم يكن أقل من ذلك ، وفقاً لرواياتهم هذه . وأن أقدم من كتب به هم أهل مكة . ولذلك قدم أهل الأخبار خط أهل مكة على سائر الخطوط التي عرفت في الإسلام . وجعلوه أول الخطوط العربية وبعده المدني ، أي خط أهل المدينة[2] .

أما أن أصله من اليمن فدعوى لا يمكن الأخذ بها ، لأن أهل اليمن كانوا يكتبون بالمسند ، والمسند بعيد عن هذا القلم الذي يسميه أهل الأخبار : القلم العربي أو الكتاب العربي أو الخط العربي بعداً كبيراً . وقد بقوا يكتبون بقلمهم هذا زمناً في صدر الإسلام . ثم ان الروايات التي ترجع علم مكة بالخط الى اليمن، هي آحاد بالنسبة الى الروايات الأخرى التي تنسب أخذ الخط من العراق .

وأما دعوى مجيئه من مدين ، أي من أعالي الحجاز الى مكة ، فدعوى أراها غير مستبعدة . لأن أهل هذه المنطقة كانوا قبل الميلاد وبعده من النبط . والنبط هم عرب . وقد سبق ان تحدثت عنهم . وكانوا يكتبون بخط أخذ من قلم (بني إرم) ، حروفه منفصلة ومتصلة . وترتيب أبجديته هو ترتيب (بني إرم) أي (أبجد هوز) . وقد طوّروه بعض التطوير ، فصار الكاتب يكتب به بالحبر بسرعة ، وهو سريع وسهل أيضاً عند حفره على الحجر أو المعدن أو الخشب ، ويناسب التاجر والكاتب ورجل الفكر . وقد وصلتنا كتابات كثيرة كتبت به . وفي ضمنها الكتابات الخمسة التي اعتبرها العلماء النموذج الأول والأقدم للكتابات المدونة بلغة قوم كانوا يتكلمون بالعربية ، غير ان عربيتهم كانت متأثرة بالنبطية عند الكتابة . أو انهم كانوا يكتبون بالنبطية ، غير ان نبطيتهم لم تكن صافية

---

١ المزهر (٣٤١/٢) ، (النوع الثاني والاربعون : معرفة كتابة اللغة) .
٢ الفهرست (١٤) ، (الكلام على القلم الحميري) .

نقية ، بل كانت متأثرة بلغتهم اليومية العربية . وفي ضمنها كتابة (النمارة) التي يعود عهدها الى سنة (٣٢٨) للميلاد ، وكتابة (حرّان اللجا) التي هي أقرب هذه الكتابات الى عربيتنا . ونظراً الى ما نجده من تشابه في رسم الحروف بين أقدم الكتابات العربية وبين الخط النبطي ، وفي قواعد الإملاء وترتيب الأبجدية ، فلا يستبعد أن يكون أهل مكة قد أخذوا هذا الخط فكتبوا به . باحتكاكهم بأهل أعالي الحجاز وبلاد الشأم حيث كانوا يتاجرون معهم ، أو بمجيء النبط اليهم للإتجار تعلمه أهل مكة منهم .

وذهب الدكتور (خليل يحيى نامي) ،الى أن أصل الكتابة العربية من الحجاز ، لما كان للحجاز من مكانة روحية عند العرب ولاشتغالهم بالتجارة . والمكانة الروحية والتجارة تستدعيان القراءة والكتابة أخذوها من التجار النبط الذين كانوا يتوافدون عليهم للاتجار أو من اختلاطهم بالنبط أثناء ذهابهم الى بلاد الشأم . فهو يرى أن الخط النبطي هو والد الخط العربي ، ودليله أن ترتيب الحروف على طريقة أبجد هوز ، وترتيبها من حيث حساب الجمل ، أي جعل كل حرف من حروف أبجد هوز في مقابل رقم حسابي ، يردان في عربيتنا على نحو ما ورد عند النبط . مما يدل على أن الخط العربي أخذ من ذلك الخط ، أضف الى ذلك تشابه رسم الحروف المنفصلة والمتصلة في القلمين[1] .

وأما موضوع أخذ أهل مكة خطهم المذكور من العراق ، فرأيي لا أستبعده أيضاً ، فقد كان عرب العراق يكتبون ،ولهم مدارس لتعليم الكتابة ملحقة بالكنائس والأديرة ، وقد كان بين أهل مكة وبين عرب العراق ولا سيا الأنبار والحيرة اتصال تجاري وثيق ، وكان تجار مكة يأتون بتجاراتهم الى الحيرة ويقيمون بها ، فلا يستبعد تعلمهم أو تعلم بعضهم الخط من أهل الحيرة ومن أهل الأنبار . كما كان للتبشير يد في نقل هذا الخط الى الحجاز وربما إلى مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد كان هؤلاء المبشرون يكتبون بقلم نبطي أو بقلم إرمي متأخر ، وهو والد القلم العربي الذي نكتب به . وقد كان المبشرون من أهل العراق نشطون في التبشير في جزيرة العرب ، فلا يستبعد أن يكون من بينهم مبشرون حيريون

---

١ خليل يحيى نامي ، مجلة كلية الاداب ، الجامعة المصرية ، ١٩٣٥ م ، مجلد ٣ ، جزء ١ (ص ١٠٢ وما بعدها) .

نقلوا الكتابة الى (دومة الجندل) والحجاز ومواضع أخرى من جزيرة العرب .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان كتبة الوحي ؛ إنما كتبوا بخط أخذ من (الجزم) ، أي من خط أهل الحيرة . وذلك بحكم اتصال أهل مكة بالحيرة ، اتصالاً تجارياً ، فتعلموه منهم[1] . فهم يوافقون بذلك بعض الروايات العربية التي ترجع علم أهل مكة بالكتابة الى الحيرة .

وقد بقي أهل الحيرة يكتبون للولاة ، ويقرأون عليهم ما يرد اليهم من رسائل أهل العراق وبلاد الشام ،وذلك لحسن خطهم واتقانهم الكتابة . فكان لأبي موسى الأشعري كاتب ، ولما سأله (عمر) عن سبب اتخاذه كاتباً من النصارى أجابه : (له دينه ولي كتابته) . ولما أراد (عمر) اختيار كاتب حاذق حافظ ذكر له غلام نصراني من أهل الحيرة[2] .

ومما يلفت النظر ويسترعي الانتباه ، هو أن المنطقة التي يذكر أهل الأخبار أنها كانت الأرض التي نبت بها الخط العربي ، وهي الأنبار والحيرة ، لم تعط الباحثين حتى الآن أي نص مكتوب . كما أن مكة المدينة الآخذة للخط لم تعطنا أيضاً أي نص جاهلي مكتوب . مع أن نصوص هذه الأرضين تهمنا بصورة خاصة ، لما لها من علاقة بالخط العربي الذي نتكلم عنه ، وباللغة التي نزل بها القرآن الكريم ونظم بها الشعر الجاهلي ، وبالأدب الجاهلي . فلِمَ لم تصل نصوص الينا من العراق ولا من مكة مع أن أهل مكة كانوا يكتبون عند ظهور الإسلام ، وكذلك أهل الحيرة كانوا يكتبون ، ولهم دواوين في أخبارهم ، رجع اليها ابن الكلبي ، كما نص على ذلك . هل سبب عدم وصولها ، أن الذين كتبوا بهذا القلم إنما كتبوا على مواد سريعة التلف وبالحبر ، ولذلك ، تلفت ؛ ولم تتمكن من العيش طويلاً ، كما تلفت مخطوطات أهم منها شأناً مثل النسخ الأولى للقرآن الكريم،والنسخ الأصلية من رسائل وكتب الرسول الى الملوك والأمراء والى أصحابه. وكذلك خطوط الخلفاء الراشدين وسجلات دواوينهم وما شاكل ذلك من وثائق . قد يكون ما ذكرته هو السبب في عدم وصول نص من هذه الأرضين الينا ، وقد تكون هنالك أسباب أخرى . على كل ، علينا ألاّ نيأس من المستقبل، فلعل

---

1 Die Araber, II, S. 357.

2 عيون الاخبار (١/٤٣) .

الباحثين سينقبون في باطن الأرض وينبشون الأماكن الأثرية فيجدون أشياء ، هي تحت قشرة الأرض في الوقت الحاضر . فيكون من يأتي بعدنا سعداء بالطبع لوقوفهم على أشياء حرمنـــا من رؤيتها نحن فصرنا في جهل من أمرها ، وصاروا هم في نعيم من العلم .

وقد ذهب (جرجي زيدان) الى أن المضريين الذين تحضروا وأقاموا في العراق وفي بلاد الشأم ، اقتبسوا الكتابة من جيرانهم ، فكتب منهم من كتب بالعبرانية وكتب منهم من كتب بالسريانية ، ولكن القلمين النبطي والسرياني ظلا عنـدهم الى ما بعد الفتوح الإسلامية ، فتخلف عن الأول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة الى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الإسلام الحيري نسبة الى الحيرة ، وهي مدينة عرب العراق قبل الإسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها .

ومعنى ذلك أن السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة أقلام من الخط السرياني، في جملتها قلم يسمونه (السطرنجيلي) كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس ، فاقتبسه العرب في القرن الأول قبل الاسلام، وكان من أسباب تلك النهضة عندهم وعنه تخلف الخط الكوفي . وهما متشابهان الى الآن[1] .

ثم تعرض الى ناقل الخط الى مكة ، فقال : « واختلفوا فيمن نقله الى بلاد العرب ، والأشهر أن أهل الأنبار نقلوه ، وذلك أن رجـلاً منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هـــذا الخط من الأنبـــار وخرج الى مكة فتزوج الصهبـــاء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان والد معاوية ، فعلم جماعة من أهل مكة ، فكثر من يكتب بمكة من قريش عنـــد ظهور الإسلام ، ولذلك توهم بعضهم أن أول من نقل الخط الى العرب سفيان بن أمية[2] .

ولما أراد ابداء رأيه في أصل الخط العربي جمع بين الرأيين : الرأي القائـل أن أصل الخط العربي من العراق ، والرأي القائل أن أصله من حوران ، فقال: « والخلاصة على أي حال ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في أثنـــاء

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٥٨/٣) ، (الخط العربي) .
٢ تأريخ التمدن الاسلامي (٥٨/٣) ، السجستاني ، المصاحف (٤) .

تجاراتهم الى الشام ، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل ، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معاً: الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتابة الأسفار المقدسة النصرانية ، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية . ومما يدل على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي — فضلاً عن شكله — أن الألف اذا جاءت حرف مدّ في وسط الكلمة تحذف، وتلك قاعدة مطردة في الكتابة السريانية، وكان ذلك شائعاً في الإسلام ، وخصوصاً في القرآن، فيكتبون (الكتب) بدل (الكتاب) ، و (الظلمين) بدل (الظالمين)[1] .

والقلم الكوفي هو من أقدم الأقلام العربية الإسلامية . وهو كما ذكرت قبل صفحات ، قريب الشبه بالقلم السطرنجيلي ، قلم المصاحف عند نصارى العراق ، ومن أجلّ أقلامهم لاستخدامه في كتابة الكتابات الدينية ، ومنها الأناجيل . وقد أخذ من القلم الحيري على ما يظهر ، لأن أهل الحيرة كانوا يكتبون (الجزم)، والجزم وليد السطرنجيلي ، ذلك لأن الكوفة نشأت في خلافة (عمر) ، فانتقل اليها في جملة من انتقل اليها أهل الحيرة ، الكتاب بالقلم الجزم . ولهذا صار قلم الكوفة ثقيلاً في الكتابة ذا زوايا مربعة وحروفاً مستقيمة ، والكتابة تميل الى التربيع[2] . وقد أخذ من (الجزم)[3] ، ونسب الى الكوفة لظهوره لأول مرة بها في الإسلام .

ولا يستبعد أيضاً أخذ أهل مكة خطهم المدور المسمى (النسخ) من (حوران) أو من (البتراء) و (العلا) فبين مكة والمكانين المذكورين اللذين سكن بهما النبط اتصال وثيق . أو من الحيرة او الأنبار . فالخط المدور هو قلم النبط المتأخر ، وقلم كتبة العراق أيضاً ، وهو والد القلم (النسخ) . ومن الخطأ اعتبار (النسخ) وليد الخط الكوفي[4] . لأن الخط الكوفي هو الجزم أو قلم آخر مثله اشتق من القلم المربع الزوايا (السطرنجيلي) ، بينما النسخ وليد القلم المدور الذي أستطيع تسميته

---

١ تاريخ التمدن الاسلامي (٥٩/٣) .
٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م ، (حـ ١ ص ١٥) .
٣ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، ١٩٥٢ م ، (ص ٤٢١) .
٤ الابحاث ، ١٩٥٢ م (حـ ١ ص ١٥) .

بالمشق مجاراة للبطليوسي ، الذي شخصه بأنه قلم أهل الأنبار .

ويرى بعض الباحثين أن القلم العربي قد أخذ من قلم بني إرم . وذلك أن السريان الذين هم من (بني إرم) كانوا قد طوروا القلم الإرمي ، وكتبوا بقلمين : قلم قديم كتبت به الأناجيل والكتب المقدسة ، وهو المربع،ذو الحروف المستقيمة ذات الزوايا المربعة ، الذي هو الخط (الاسطرنجيلي) ، وقلم سهل ذو حروف مستديرة أي على شكل أقواس ، هو قلم النسخ . وقد عرف العرب القلمين وكتبوا بهما ، فسموا السهل النسخ والآخر الكوفي[1] .

وحجتهم في ذلك ان القلم العربي أخذ بترتيب (أبجد هوز حطي) ، وهو ترتيب وجد في لغة (بني إرم) ، كما أخذ بهذا الترتيب بحساب الجمل . وهو ترتيب موجود عند بني إرم أيضاً . كما أخذ بقواعد من قواعد رسم الحروف في الإملاء موجودة في خط (بني إرم) ، مثل قاعدة ربط أو فصل الحروف عند تدوين الكلمة ، وقاعدة حذف الألف عند وقوعه في وسط الكلمة ، في رحمان ومساكين ويتامى ومساجد وكتاب وابراهيم واسحاق واسماعيل ، فإنها كتبت في خط المصاحف بدون ألف . ومثل حذف ألف فاعل وتفاعل في السريانية وفي العربية أيضاً ، كما في بارك حيث كتبت (برك) في خط المصاحف ، ومثل حذف الألف من ضمير الجمع المتكلم (نا) ، كما في (أرسلنك) و (اصطفينه) و (بشرنه) ، في موضع (ارسلناك) و (اصطفيناه) و (بشرناه) ، وذلك في خط المصاحف ، وحذف ألف جمع المؤنث السالم في السريانية وفي العربية ، كما (صدقت) و (طيبت) ، بدلاً من صدقات وطيبات . ومن هذا القبيل أيضاً ، تدوين (شهد) و (كفرين) ، بدلاً من شاهد وكافرين . ومثل حذف ياء المتكلم في السريانية وفي القلم العربي القديم ، كما في كتابة يرب في موضع يا ربي[2] .

ورأيي ان القول الجزم في أصل قلم أهل مكة ، هل هو من العراق أو من بلاد الشأم ، يجب أن يكون للكتابات . فمتى عثرنا على كتابات مدونة بالعربية

---

١ الدراسات الادبية ، العدد الاول ، السنة الثانية ، ١٩٦٠ م (ص ٧٦ وما بعدها) ، (مقال للدكتور أنيس فريحة) .
٢ الدراسات الادبية ، السنة الثانية ، العدد الاول (ص ٧٦ وما بعدها) .

بالحيرة أو بالأنبار أو بالأماكن الأخرى من العراق تعود الى الجاهلية والى صدر الاسلام وعلى كتابات مثلها من حيث الزمن يعثر عليها في بلاد الشأم وفي الحجاز أو نجد أو أي مكان آخر من جزيرة العرب ، وقارناها بعضها ببعض ، وطابقنا فيما بين خطوطها ورسم حروفها وما شاكل ذلك ، جاز لنا حينئذ القول بأصل قلم مكة والأقلام الأخرى المشابهة له . وبأصل اللغة التي دونت به،ومزاياها والأماكن التي كانت تتكلم بها . وعندئذ نحل مشكلة أصل اللغة العربية الفصحى أيضاً ، وهي من أهم مشكلات تأريخ الأدب الجاهلي ولا شك .

وأما جمهرة المستشرقين المعاصرين الذين عنوا بدراسة تطور الخطوط السامية ، ومنشأ الخطوط العربية ، فقد رأوا ان الخط العربي الذي دوّن به القرآن أخذ من الخط النبطي المتأخر الذي كان يستعمله النبط ، وهو خط تولد من القلم الإرمي المتفرع من الفينيقية على رأي المستشرق (هومل)[1] . وقد استعمل في تيماء وبين النبط الذين كانوا يقيمون في أعالي الحجاز وفي سينا[2] . وقد عثر على كتابات دونت به في مواضع مختلفة من الحجاز واليمن .

وسند القائلين بهذا الرأي ودليلهم هو عدد من الكتابات عثر عليها السياح ، كتبت بلهجة غير بعيدة عن اللهجة العربية التي نزل بها القرآن، وبحروف مرتبطة، وبالقلم النبطي المتأخر الشبيه جداً بأقدم الخطوط العربية ولا سيما الكوفية منها . ومن مميزاته ارتباط بعض حروفه ببعض وكتابة بعض الحروف في نهاية الكلمة بشكل يختلف عن رسم الحروف التي من نوعها المستعملة في أوائل الكلمة أو أواسطها .

ولهذه الكتابات على قلة عددها أهمية كبيرة لدى العلماء ، لما لها من خصائص ومميزات لغوية تفيد في دراسة تطور اللهجات العربية ، وفي دراسة تطور القلم العربي . وقد تكون مقدمة لعدد آخر من الكتابات المكتوبة بهذا الخط .

---

١ Ency. Brita., I, p. 684, Grundriss, I, S. 154.
ناصر النقشبندي ، منشأ الخط العربي وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين ، مجلة سومر ، كانون الثاني ١٩٤٧ م ، (١٢٩ وما بعدها) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، المجلد الاول ، الجزء الاول ، مايو ١٩٣٥ م .

٢ Ency. Brita., I, p. 684.

وأقدم هذه الكتابات الكتابة التي يقال لها كتابة (أم الجمال) الأولى ويعود تأريخها الى سنة (٢٥٠) أو (٢٧٠) للميلاد . وقد وضعت شاهداً على قبر (فهر برسلي) (فهر بن سلي) مربي (جذيمت) (جدمت) (جذيمة) جذيمة ملك (تنوح) (تنوخ) ، وعثر عليها في موضع يقال له (أم الجمال) ، في جنوب حوران من أعمال شرق الأردن[1] . ويعتقد (ليتمان) ، أن تأريخ هذا النقش لا يبعد كثيراً عن تأريخ كتابة أخرى هي كتابة النمارة (ن م ر ت) . ونجد في هذه الكتابة حروفاً غير مرتبطة وحروفاً مرتبطة مشابهة لبعض حروف الخط الكوفي . وقد كتبت بالإرمية ، ومع ذلك فإن لها أهمية لوجود أسماء عربية فيها ، ولأن القبائل العربية الشمالية كانت تستعمل الإرمية في الكتابة[2] .

وقد عثر الباحثون على كتابات معدودة سبقت هذه الكتابة ، دُوِّنت بالقلم النبطي أيضاً ، هي كتابة عثر عليها في (وادي المكتب) في طور سيناء ، يعود تأريخها الى سنة (١٠٦) من سقوط (سلع) ، المقابلة لسنة (٢١٠) للميلاد، وكتابة ثانية يعود تأريخها الى سنة (١٢٦) من سقوط (سلع) أي سنة (٢٣٠) للميلاد . وقد وجدت في وادي فران بطور سيناء كذلك ، وكتابة ثالثة هي من كتابات (طور سيناء) أيضاً ، وقد أرخت بسنة (١٤٨) من سقوط (سلع) أي سنة (٢٥٣) للميلاد ، وكتابة رابعة عثر عليها في الحجر ، وتأريخها سنة (١٦٢) من سقوط (سلع) ، أي سنة (٢٦٧) للميلاد .

ولكن هذه الكتابات بعيدة بعض البعد عن القلم العربي ، وأما لغتها فنبطية ، ونجد نص (الحجر) (مدائن صالح) ، وقد حوى كلمات كتبت بقلم ثمودي . ولذلك فإن له ميزة من هذه الناحية على الكتابات الأخرى ، ومنطقة الحجر من

---

١ السامية (١٣٩) ، (سنة ٢٧٠) ، خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، مايو ١٩٣٥ ،
De Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémitique, PL. 15, 11.

٢ السامية (١٤٠) ، مجلة سومر (م ٣ ، حـ ١ ، كانون الثاني ١٩٤٧ ، ص ١٣٠) ، Nabia, 4, Littmann, Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, Princeton University Expeditions to Syria, in 1904-1905, and 1909, p. 37, Cantinean, Nabatéen et Arabe, pp. 72-79, Institut d'Etudes Orientales, Annales, I, 1934-1935.

المناطق التي عثر فيها على عدد من كتابات قوم ثمود . ونظراً الى أن خط نص (أم الجمال) أقرب الى الخط العربي من الكتابات المذكورة التي سبقته ، لذلك قدمته عليها .

وتلي كتابة أم الجمال الأولى في الزمن كتابة النمارة ، وقد عثر عليها المستشرق الفرنسي (دوسو) M. René Dussaud في النمارة في الحرة الشرقية من جبل الدروز، و (النمارة) قصر صغير كان للروم. وجدها على قبر امرىء القيس الأول ابن عمرو ملك العرب المتوفى في يوم ٧ بكسلول من سنة ٢٢٣ ، المقابلة لسنة ٣٢٨ للميلاد، وقد دونت سنة الوفاة ، وهي سنة تأريخ الكتابة كذلك وفقاً لتقويم (بصرى) وهو التقويم الذي كان يستعمله عرب هذه الأطراف ونبطها . وتعدُّ هذه الكتابة أول كتابة وأقدم كتابة عثر عليها حتى الآن مدونة باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن ، وإن كتبت بالقلم النبطي المتأخر وبأسلوب متأثر بالإرمية [١] .

وعثر على كتابة في خرائب (زبد) بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقي حلب ، كتبت بثلاث لغات : اليونانية والسريانيـة والعربيـة ، يرجع تأريخها الى سنة (٦١٢) للميلاد (٨٢٣) للتقويم السلوقي [٢] . والمهم عندنا هو النص العربـي ، ولا سيما قلمه العربـي . أما من حيث مادته اللغوية ، فإن أكثر ما ورد فيه أسماء الرجال الذين سعوا في بناء الكنيسة التي وضعت فيها الكتابة [٣] . وقد قــرأ العالم (ليدزبارسكي) الكلمة الأولى منه (بسم) . أما الكلمة الثانية ، فهي (الإلـه) فأصبح مطلع النص : (بسم الإلـه) ، فإذا كانت القراءة هذه صحيحة، تكون لكلمة (بسم الإلـه) أهمية كبيرة في موضوع الفكرة الدينية . أما العالم (ليتمن) فقد قرأ الكلمة الأولى منه (بنصر) ، فتكون فاتحة النص : (بنصر الإلـه) [٤] .

---

١ Fritz Hommel ,Grundriss der Geographie und Geschichte des alten Orients, München, 1904, BD., I, S. 155, Dussaud, Les Arabes en Syrie, p. 34, Nabia, p. 4, Revue Archéologique, 31 Série, XLI, (1911), p. 411.

٢ Grundriss, I ,S. 156, E. Sachau, Eine Dreisprachige Inschrift aus Zebed : Monatsberichte der Preussiche Akademi der Wissenschaften, Berlin, 10 Febr. 1881, S. 169, Zur Trilinguis Zebedaea, in ZDMG., 36, ,1882), S. 345 - 352.

٣ السامية (١٩١) .
Lidzbarsky, Handbuch der Nordsemit. Epigraphik, Weimar, 1898, S. 484, Ephemeris, Giessen, 1902, BD., 2, S. 35.

٤ السامية (١٩١) . A. Littmann, in Rivista degli Studi Orientali, 1911, p. 195.

وقد دوّن النص العربي على هذه الصورة :

١ – ..م الإلـه سرحو بر امت منفو وهنى برمر القيس .

٢ – وسرحو بر سعدو وسترو وشريحو بتميمى .

ومعناه : بسم الإلـه . سرحو بن أمت منفو ، وهنيء بن امرىء القيس ، وسرحو بن سعدو ، وستّر (ستار) (ساتر) وشريح . أتمّوا .

والنص العربي ، ليس ترجمة للنص السرياني أو اليوناني ، لذلك ذهب بعض الباحثين الى احتمال كونه متأخراً بالنسبة الى النصين المذكورين ، أي انـه كتب بعدهما . وهو يتناول تخليد عمل المذكورين في بناء الكنيسة .

وعثر المستشرقون في حرّان اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز على كتابة أخرى مدونة باليونانية والعربية قيل لها (نقش حرّان) ، وقـد وضعت فوق باب كنيسة ، وصاحبها (شرحيل بر ظلمو) (شراحيل بن ظالم) (شرحيل بن ظالم) ، ويعود تأريخ الكتابة الى عام (٤٦٣) من (الأندقطية الأولى) ، وتقابل سنة (٥٦٨) للميلاد[1] . أما النص العربي ، فقد أرخ بسنة (٤٦٣) أيضاً ، وأضيف الى هذا التأريخ عبارة (بعد مفسد خيبر بعم) أي (بعام) . ومعنى هذا ان حدثاً تأريخياً كان قد وقع قبل هذا التأريخ بسنة صار الناس هنالك يؤرخون به ، فأرخ النص به . ويرى (ليتمن) ان ذلك يعني وقوع غزو على خيبر ربما قام به أحد ملوك غسان[2] .

وهذا النص هو من أهم النصوص المتقدمة وأكثرها قيمة بالنسبة لمؤرخ اللغـة العربية ، لأنه نص دوّن بلهجة القرآن الكريم ، باستثناء أثر سهل للنبطيـة برز عليه . ولأهميته هذه أدوّنه على نحو ما جاء في النص العربي : (انا شرحيل بر (بن) ظلمو بنيت ذا المرطول (سنت) سنة ٤٦٣ بعـد مفسد خيبر (بعم) (بعام) . فأنت أمام نص عربي واضح ، تفهمه من دون صعوبة ولا مشقة .

---

١ السامية (١٩٢) .
Nabia p. 5, Dussaud, Mission, p. 324, Grundriss, S. 156, Schröder, in ZDMG. 38, (1884), p. 530.

٢ السامية (١٩٢) .
A. Littmann, In Revist, 1911, p. 195, Nabia, p. 5, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und verwandte, Gebiete, Leipzig, 1922, VII, S. 197.

على حين نجد النصوص الأخرى وقد كتبت بنبطية متأثرة بالعربيـــة الشمالية بعض التأثر . ولهذا فإني أفرّق بين هذا النص وبين النصوص السابقة له ، وأعدّه أول نص وصل الينا حتى هذا اليوم كتبَ بلهجة عربية القرآن الكريم .

وتعد الكتابة التي عثر عليها في موضع (أم الجمال) وقيل لها كتابة (أم الجمال الثانية) تفريقاً لها عن كتابة أم الجمال الأولى ، أحدث ما عثر عليه من كتابات بهذا القلم الذي نتحدث عنه ، وباللهجة النبطية المتأثرة بلهجة القرآن ، أو باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن . وهي لا تحمل تأريخاً . غير أن من عالج أمرها من المستشرقين يرى أنها تعود الى القرن السادس للميلاد[١] . ولغتها قريبـــة من اللغة العربية المعروفة ، كما أنها متحررة من النبطية والإرمية الى حد كبير .

وعثر في اليمن على بعض كتابات نبطية لعلها من آثار التجار النبط الذين كانوا يذهبون الى اليمن بقصد التجارة ، ولا سيما في القرنين الأولين للميلاد ، أو من آثار تجار أهل الحجاز أو من أهل اليمن ، كانوا قد تعلموا الكتابة بهذا القلم الذي أخذ ينتشر بعد الميلاد لأنه أسهل في الاستعمال من المسند الذي يحتـاج الى دقة في الرسم ، والى بطء في الكتابة . ولوحظ أن إحدى هذه الكتابات كتبت بالقـــلم النبطي المتأخر الذي يشبه القلم الذي استعمل في نقش (فهر بن سلي)[٢] .

ولكن العلماء لم يتمكنوا من العثور على عدد كاف من الكتابات المدونة بهـذا القلم، تكفي لإصدار حكم علمي عن وقت دخول القلم النبطي المتأخر الى الحجاز واليمن ومدى انتشاره بين الناس . ولما كان القلم النبطي المتأخر قد ظهر بعد الميلاد على رأي أكثر العلماء ، يكون هذا الخط قد وصل الحجاز واليمن بعـد الميلاد بالطبع بالاتصال التجاري والقوافل الـــتي كانت تقوم برحلاتها بين اليمن وبلاد الشأم ، وبواسطة النصرانية التي وجدت لها سبيلاً الى اليمن .

ويلاحظ أن الـــذين كتبوا بالقلم العربـي الشمالي ، الذي أخذ منه قلم مكة ، هم من العرب النصارى في الغالـب ، فأهل الأنبار ، والحيرة ، وعين الشمس ،

١ Nabia, p. 5, PL. 15, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, 1922, VII, 197-204.

٢ Nabia, p. 5, PL. 15, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, 1922, VII, S. 197-204.

ودومة الجندل ، وبلاد الشأم ، كانوا من النصارى ، فلا استبعد احتمال استعمال رجال الدين للقلم السرياني المتأخر ، الذي كوّن القلم النبطي في كتابة العربية ، لحاجتهم الى الكتابة في تعليم أولاد النصارى الكتابة ، وتثقيفهم ثقافة دينية ، فكانوا يعلمونها في المدارس الملحقة بالكنائس ، وربما نشروها في البحرين ، أي في سواحل الخليج حيث كانت هنالك جاليات نصرانية ، وفي الأماكن الأخرى من جزيرة العرب التي كانت النصرانية قد وجدت سبيلاً لها بينها ، ولا استبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على كتابات مطمورة كتبت بهذا القلم .

وتفيدنا دراسة شكل خط هذه النصوص فائدة كبيرة في الوقوف على تطور الخط العربي ، فبين رسم هذه الخطوط وبين رسم أقدم الخطوط العربية الاسلامية تقارب كبير ، يشير الى اشتقاق القلم الذي دوّن به الوحي من هذا القلم ، وهو القلم الذي كان يكتب به عرب العراق كذلك على ما أرى . وهو قلم وصل بين حروفه ، وفصل في مواضع أخرى . وهو يختلف بذلك عن القلم المسند الذي استعمل حروفاً منفصلة فقط ، ولم يعرف الحروف المتصلة ، كما ان شكل حروفه بعيد جداً عن شكل حروف هذا القلم ، وهو أسهل وأسرع في الكتابة على الكاتب من المسند .

ونرى في هذه الصورة التي تضم رسم الحروف في الخط النبطي المتأخر والقلم العربي القديم ، تشابهاً كبيراً في الشكل ، ينبئك بوجود نسب بين القلمين ، وان القلم العربي القديم ، قد تولد منه . ولا أستبعد ان يكون قلم أهل الحيرة هو هذا القلم نفسه ، استعملوه في تدوين العربية . وقد رأينا ان النصوص القليلة المكتوبة بنبطية متأثرة بالعربية ، قد كتبت بهذا القلم ، وبينها نص (النمارة) الذي هو شاخص قبر (امرىء القيس) أحد ملوك الحيرة .

وإني لا أستبعد احتمال عثور المنقبين والباحثين في المستقبل على كتابات عربية قديمة تعود الى الجاهلية الملاصقة للاسلام والى أيام الرسول بكثرة تمكن العلماء من وضع رأي واضح عن منشأ وتطور الخط العربي القرآني .

وقد استعملت جملة (الخط العربي القرآني) ، لأن القرآن هو في الواقع صاحب الفضل على هذا الخط في تخليده وتثبيته لأمر الرسول بتدوين الوحي به ، اي بهذا القلم العربي القديم الذي أتحدث عنه ، الذي أخذه اهل مكة عن اهل

(الحيرة) ، أو عن (بشر بن عبد الملك) السكوني ، من (دومة الجندل) على رواية أهل الأخبار . واني أرى ان للبحث عن الكتابات العربيــة القديمة في الحجاز وفي (دومة الجندل) و (الحيرة) و (الأنبار) و (عين التمر) ، وفي القرى العربية الأخرى التي أقيمت على الفرات وفي بلاد الشأم أهميــة كبيرة بالنسبة لبحثنا في تأريخ نشوء وتطور الخط العربـي القرآني ، لأني أكـره الطرق التي يأخذ بها بعض الباحثين من اللجوء الى الحدس والظن في وضع آراء علميــة قاطعة ومهمة ، مثل الخط ومنشئه وتطوره وما شابه ذلك ، لمجرد رأي ورد عند أهل الأخبار ، او ظن مال اليه عالم ، وعندي ان آراءاً مثل هذه يجب ألا تقال إلا باستناد على دليل مادي ملموس ، مثل أثر ، او مصدر تأريخي قديم محترم .

والصورة التي نراها في الصفحة المقابلة تمثل نماذج من القلمــين : القلم النبطي المتأخر ، والقلم العربـي القديم ، مأخوذة من مختلف الصور الأصلية التي عثر عليها العلماء في مختلف الأنحاء من العراق وبلاد الشأم وجزيرة العرب .

ويرى المستشرق (وايل) Weil أن الترتيب الذي يرد للحروف العربية على طريقة : (أبجد هوز حطي ... الخ) ، هو ترتيب أخذه العرب من النبط أو اليهود ، وقد أخذه النبط والعبرانيون من القلم الإرمي . وتشير هذه الطريقة بكل جلاء الى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرع عن الخط الإرمي[1] . أمـا الترتيب الذي عند الكنعانيين ، فهو هذا الترتيب مع زيادة الأحرف التي اقتضى وجودها في طبيعة لغتهم . ويرى بعض العلماء أن العبرانيين أخذوا ترتيبهم هـذا من الكنعانيين[2] . ونجد هذا الترتيب عند الفينيقيين أيضاً ، ولهذا يرى بعض الباحثين أن العبرانيين والآراميين أخذوا الكتابة من الفينيقيين،وأخذوا منهم استعمال الحروف للعدد أيضاً ، على نحو ما نجده في العربية من استعمالها في حساب الجمل[3] .

وقــد وضع علماء العربية بعد (قرشت) التي تمثل حرف (التاء) فيها آخر حروف الأبجدية التي بلغ عدد حروفها اثنان وعشرون حرفاً، الحروف التي لم ترد

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ السامية (١٠٢) .

٣ الابحاث ، (١٩٥٢ م) (ح ١ ص ٥ وما بعدها) .

القلم النبطى المتأخر   القلم العربى القديم

٤ ٣ ٢ ١

نماذج من القلمين النبطى المتأخر والقلم العربى القديم يمثل العمود « ١ » نماذج من الحروف العربية المستعملة فى القرن الأول للهجرة ويمثل العمود « ٢ » نماذج من حروف كتابتى زبد وحران . وأما العمودان « ٣ » و « ٤ » فيمثلان نماذج من كتابة النمارة وبطرا .

في هذه الأبجدية ، ولكنها ترد في العربية ، ودعوها بـ (الروادف)[1] . وضعوها بصورة ينفي عنها كل نشاز قد يظهر بين رسمها ورسم الحروف الأخرى ، وذلك باعتمادهم علي تكرار الحرف ، وبذلك أولدوا الروادف المذكورة[2] .

ويظهر من الروايات العربية القديمة أن كتّاب الجاهلية المتصلة بالإسلام وكتاب صدر الإسلام كانوا يسيرون في تعلم الكتابة على طريقة (أبجد هوز) أي على طريقة الآراميين والنبط والعبرانيين . وقد ورد في الأخبار أن الناس في أيام (عمر ابن الخطاب) ، كانوا يتعلمون الكتابة على طريقة (أبجد هوز) . قال (القلقشندي) : « وقد جاء أنها كانت تُعلم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويشهد لذلك قول الأعرابي في أبياته :

أتيت مهاجرين فعلّموني ثلاثة أسطرٍ متتابعات
وخطّوا لي أبا جاد وقالوا : تعلّم سعفصاً وقريشات »[3]

والترتيب الذي يعمل به الآن في البلاد العربية من الابتداء بالألف ثم بالباء ، فالتاء ، فالثاء ، فالجيم ، فالحاء ، فالخاء ... هو ترتيب وضع في زمن (عبد الملك بن مروان) ، عمل به (نصر بن عاصم) ، و (يحيي بن يعمر)العدواني . وقصد به ضم كل حرف الى ما يشبهه في الشكل ، وقد ساد هذا الترتيب ومشى. وجرى عليه أصحاب الصحاح ولسان العرب والقاموس ، وتاج العروس ،وأصحاب معاجم اللغة في هذا اليوم[4] .

أما ما ورد في بعض الروايات من ان (أبا ذر الغفاري) سأل رسول الله عن الحروف ، فقال له انها تسع وعشرون ، وانها نزلت على ترتيب : (ا ب ت ث ج) ، أي على الترتيب الذي نسير عليه في الوقت الحاضر ، وانه عجب من قول الرسول له انها تسع وعشرون ، لأن حروف العربية هي ثمان وعشرون،

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ١٩٥٩ م ، (ص ٥٧٦) .

٣ صبح الاعشى (٣/١٩) .

٤ حفني بك ناصف ، تأريخ الادب أو حياة اللغة العربية ، (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (الطبعة الثانية) ، (الكتاب الاول) ، (ص ٢٧) .

ومن تأكيد الرسول له انها تسع وعشرون ، نزلت كلها على آدم[1] . فخبر غير صحيح ولا يُعوّل عليه ، وهو موضوع ، لما ذكرته من ان الترتيب المذكور انما ظهر في الاسلام .

هذا وإن مما يؤسف له كثيراً اننا لا نملك اليوم كتابة واحـــدة من الكتابات المدونة في أيام الرسول ، ولا نملك اي نسخة من نسخ القرآن او من صحفــه المدونة في ايامه . فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم ، ولا نسخة (عثمان ابن عفان)[2] ولا النسخ التي دونت بأمره لتوزع على الأمصار ، ولا أيـــة نسخ أخرى من النسخ التي دوّنها الصحابة لأنفسهم. ولا نملك النسخ الأصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل الى الملوك او سادات القبائــل والأمراء . نعم يقال إن هناك نسخاً من المصاحف ترجع الى ايام الخلفاء ، وقد دوّن بعض منها بأقلام أجلّة الصحابة ، وان هناك بقية من رسائل الرسول وان هناك كتابات يرجع تأريخها الى أيام الرسول[3] ، ولكن المتبحرين في العلم العارفين بكيفية تثبيت أعمار الوثائق لم يتمكنوا من البت في صحة هذه الدعاوى ، ولم يقطعوا بصحـــة هذه الوثائق . لذلك فليس لنا أمام هذه الحجج التي أبديت عن هذه الآثار سوى التحفظ والتوقف عن ابداء رأي فيها ، فلعل الأيام تهيء للقادمين من بعدنا وثائق جديدة تعود الى الأيام التي نبحث فيها .

هذا وان من الممكن التثبت في الوقت الحاضر من صحة الوثائق المنسوبة الى أيام الرسول او أيام من جاء بعده ، بعرضها على الفحوص المختبرية الحديثة ، التي باستطاعتها تقدير أعمارها ، وتثبيت أسنانها ، ولكني لا أعلم ان أحداً عرض هذه الوثائق لمثل هذه الفحوص .

هذا وللمادة التي دونت عليها تلك الكتابات ولندرة الورق إذ ذاك ولغلاء ثمنه، ولعدم ادراك الناس في ذلك الوقت لأهمية حفظ الوثائق ، ولتعرض تلك الوثائق الى عوامل عديدة من عوامل التلف والبلى مثل الحريق والماء والأرضة وما شاكل

---

١ صبح الاعشى (٧/٣ وما بعدها) ، (المسلك الثاني في وضع الحروف العربية) .

٢ ليس فيما يقال عن وجود نسخة عثمان من مصحف عثمان في « استانبول » أو في اماكن أخرى أساس من الصحة ، وانما هو زعم من غير دليل .

٣ M. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah, Islamic Culture, Vol. 13, NUM : 4, 1939, p. 427.

ذلك ، دخل ولا شك في اختفاء الخطوط القديمة التي دونت في الجاهلية المتصلة بالاسلام وفي صدر الاسلام ، مما أضاع علينا فوائد كثيرة كنا سننتفع بها لو كنا نملك تلك الوثائق ، ولكن من يدري فلعل الأيام ستعطف على الباحثين المساكين المتعطشين دوماً الى الوقوف على أخبار الماضين ، فتقدم لهم وثيقة او جملة وثائق تكون خير هدية لهؤلاء ، لا يوازيها في نظرهم اي ثمن من الأثمان التي تقاس بالورق وبالجنيهات او الدولارات .

ولكني أود أن أبين ان هذه الحقبة من الجاهلية المتصلة بالاسلام وكذلك أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين هي حقبة شحيحة جداً بالكتابات ، فما عثر عليه من الكتابات فيها محدود ، مع انها من أهم الأزمنة بالنسبة لنا لأنهـا ذات صلة وعلاقة مباشرة بظهور الاسلام . وينطبق ما أقوله هنا على كتابات المسند كذلك وعلى الكتابات المدونة باللهجات الجاهلية الأخرى ، ولجميعها أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ الذي يريد شرح تأريخ تلك الأيام التي ظهر فيها الاسلام . وفي جملة هذا التأريخ تأريخ تطور الخطوط العربية .

واذا كان ما ذكره الدكتور (م . حميد الله) عن الكتابات التي وجدها على الطرف الجنوبي لجبل سلع في المدينة المنورة ، والتي يرى ان تأريخها يرجع الى غزوة الخندق ، اي الى السنة الخامسة من الهجرة ، صحيحاً من الوجهة العلمية، فإننا نكون أمام أقدم كتابات عثر عليها حتى الآن بعربية القرآن الكريم[١] . وهي ستفيد الباحثين ولا شك في التعرف على تأريخ تطور الخط العربي ، وعلى أساليبه. وربما يعثر الباحثون في المستقبل على كتابات قد تكون أقدم من هذه أو من أيامها، لأن البحث عن الكتابات والآثار بصورة منتظمة وعلمية لم يأخذ مجراه في الحجاز حتى الآن .

وأشار (عثمان رستم) Osman R. Rostem الى وجود كتابات بخط كوفي وبخطوط عربية أخرى في جبل سلع وفي وادي العقيق وعند جبل أحد وفي مواضع أخرى في مؤلفه عن الكتابات المدونة على الصخور في الحجاز ، لكنه لم يشر إلى تواريخ تلك الكتابات ولم ينشر صورها كلها[٢] هذا وقد أشار غيره الى وجود هذه

---

١ M.Hamidullah, In Islamic Culture, Vol. 13, Num : 4, October, 1939, p. 427.

٢ Rock Inscriptions in The Hijaz, Le Caire, MCMXLVIII.

الكتابات . إلا أن أكثر ما كتب عن هذا الموضوع ، لم يكتب بقلم أصحاب الاختصاص ولم يصور تصويراً جيداً أو يدرس دراسة علمية في مكان وجوده . ثم إن معظم الكتابات لا تزال مهملة غير مصورة ولا منقولة مستنسخة ، لذلك فإن إبداء رأي علمي عن أصلها وتطورها غير ممكن في الوقت الحاضر . ولعل الحكومة السعودية ستهتم بهذه الناحية المهمة ، فترسل الى الباحثين العرب والمسلمين أو المستشرقين تستفتيهم في أمر هذه الكتابات . بعد أن تطلب من المتخصصين دراستها في مكانها وأخذ صور جيدة لها ، وطبع نسخ بواسطة الجبس أو بوسائل أخرى لهذه الكتابات ، ليكون من الممكن دراستها دراسة علمية .

الإعجام والحركات :

ولا بد لي هنا من التعرض لناحيتين مهمتين من نواحي تطور الخطوط عند العرب . هما : الإعجام والحركات .

ويراد بالإعجام ، تنقيط الحروف المرسومة بشكل متقارب أو بشكل واحد ، لتمييزها بعضها عن بعض . وذلك لأن هذه الحروف مثل الباء والتاء والثاء،والجيم والحاء والخاء،والدال والذال،والراء والزاء،والسين والشين، والصاد والضاد،والطاء والظاء،والعين والغين،والفاء والقاف ، إذا كتبت من غير نقط صار من الصعب على الإنسان التمييز بينها لأنها تكتب بشكل واحد ، فيلزم على القارىء عندئذ الرجوع الى علمه في اللغة وسليقته في الفهم لإدراك المعنى ، لأنها بشكل وبرسم واحد . فالباء والتاء والثاء بل وحرفا النون والياء أيضاً ، إذا كتبت في الكلمة ولا سيما في الوسط ، بغير نقط ، صار من الصعب تمييز هذه الحروف بعضها عن بعض ، وإدراك المعاني الصحيحة والمراد من الكتابة نتيجة لذلك . فللتغلب على هذه المشكلة أعجم علماء الخطوط بعض هذه الحروف ، بوضع نقط فوقها أو تحتها لتمييزها بعضها عن بعض ، وعرف هذا التنقيط بالاعجام[1] .

وقد وقع الاعجام في الإسلام على رأي أكثر العلماء . بعمل أبو الأسود الدؤلي

---

١ اللسان (٣٨٨/١٢) ، (عجم) ، صبح الاعشى (١٥٥/٣) ، مفتاح السعادة (٨٠/١) .

والخليل بن أحمد الفراهيدي وآخرون في قصص لا علاقة لذكره في هذا المكان . وهو مكان خصص لأقلام الجاهلية . أما بالنسبة الى الجاهلية ، فإننا لا نملك وثيقة معجمة . ونقش (حرّان اللجا) المكتوب بعربية شمالية مشوبة بالنبطيـة ، خال من الاعجام أيضاً ، وكذلك النقوش الأخرى المكتوبـة بالنبطية المتأثرة بالعربية الشمالية . ولهـذا فإني لا أستطيع الادعاء بأن الإعجام كان معروفاً بالقلم العربـي المكي الجاهلي ولا بغيره من الأقلام العربية الجاهلية .

غير أن هناك رواية تنسب لابن عباس ، تزعم أن الثلاثة الذين هم من بولان من طيء ومن أهل الأنبار ، لما وضعوا الحروف وضعوها مقطعة وموصولة ، ثم وضع أحدهم وهو (عامر) الاعجام[1] . أي ان العرب وضعوا الاعجام في الوقت الذي اخترعوا فيه قلمهم العربـي ، وجـاء في كتاب النشر في القراءات العشر : « ثم إن الصحابة رضي الله عنهم ، لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين .. »[2] . وفي هذا الخبر دلالة على معرفة الصحابة بالنقط والشكل .

وهناك خبر يرفع سنده الى (ابن مسعود) ، يذكر أنه قـال : « جوّدوا القرآن ليربو فيه صغيركم ، ولا ينأى عنه كبيركم » . وقد شرح الزمخشري ذلك بقوله : « أراد تجريـده من النقط والفواتح والعشور لئـلا ينشأ نشءٌ فيرى أنها من القرآن »[3] . فيفهم من هذا الخبر أن التنقيط كان معروفاً ، وأن (ابن مسعود) عرفه ، وأنه رأى تجريد القرآن من النقط ليصرف الصغير همه في فهمه فهماً عميقاً وفي إدراكه إدراكاً صحيحاً عن دراسة ، لأن تجريده يحمل الطالب على بذل الجهد في فهم غامضه ومشكله ومعناه فيرسخ فهمه في عقله ، أمـا إذا كانت الحروف معجمة ومشكلة ، فلا يجد الطالب ما يحمله على بذل الجهد وإجهـاد نفسه لفهم القرآن . فتفتر همته عن فهمه ، ولا يبذل نفسه بذلاً مرضياً في تعلم كتاب الله .

---

١ الفهرست (ص ١٢ وما بعدها) ، (الكلام على القلم العربي) .

٢ ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر (٣٢ وما بعدها) ، مصادر الشعر الجاهلي (٣٥) ، للدكتور ناصر الدين الاسد .

٣ الزمخشري ، الفائق (١/١٨٦) ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (٩٣) .

وخبر آخر يدل على وجود الإعجام عند العرب ، رواه (سفيان بن عيينه)، يفيد ان (زيد بن ثابت) نقّط بعض الحروف[1] .

وورد ان بعض الباحثين عن الكتابات الاسلامية القديمة عثروا على آثار للنقط في بعض الوثائق القديمة . فقد ذكر الدكتور (جروهمن) انه وجد في وثيقة من وثائق البردي المدونة بالعربية واليونانية ويعود تأريخها الى سنة (٢٢) للهجرة حروفاً منقطة[2] . وهذا التنقيط إن صح وثبت ، فإنه يدل على وجود التنقيط في هـذا العهد . كذلك ذكر (مايس) G. C. Miles انه وجد حروفاً منقوطة في كتابة عثر عليها قرب الطائف يعود عهدها الى سنة (٥٨) للهجرة[3] . وإذا صح ان هـذه النقط قديمة قدم الخط ، فإن معنى هذا ان الكتابة على الحجر قد عرفت التنقيط أيضاً في هذا العهد وقبله ، إذ لا يعقل أن تكون أول كتابة على الحجر استخدمت التنقيط .

ونسب بعض أهل الأخبار الإعجام الى (أبي الأسود الدؤلي) ، كما نسبوا اليه النقط.وهو وَهْم وقعوا فيه من عدم ادراكهم للعمل الذي قام به (أبو الأسود) فظنوا انه استعمل النقط في الحالين: في النقط الذي هو الشكل،وفي النقط الذي هو الإعجام . والذي عليه الجمهور ان الإعجام كان من عمل (نصر بن عاصم) . فلما كثر الخطأ في قراءة القرآن بسبب عدم تمييزهم بين الحروف المتشابهة، وتفشي وباء الجهل بعدم التمييز في القراءة بين الحروف المتشاكلة (فزع الحجـاج الى كتابه،وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها ، بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف ، فغبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ، فكان التصحيف مع استعمال النقط أيضاً يقـع ، فأحدثوا الإعجام ، فكانوا يتبعون النقط بالإعجام[4] .

---

١ معاني القرآن ، للفراء ، (١٧٢/١ وما بعدها) .

٢ Grohmann, From the World of Islamic Papyri, PL. II, A, pp. 82, 113-114.

٣ G. C. Miles, Early Islamic Inscriptions Near Taif in the Hijaz, in JNES, 7, 1946.

٤ ابن خلكان (١٢٥/١) ، تاريخ التمدن الاسلامي (٦١/٣) اللسان العربي ، ١٩٦٩م (ص ٥٢) .

وذكر ان (نصر بن عاصم) و (يحيى بن يعمر) ، وكانا ممن أخذا العلم عن أبي الأسود الدؤلي[1] نقطا الإعجام بنفس المداد الذي كان يكتب به الكلام ، حتى لا يختلط بنقط استاذهما أبي الأسود ، التي كانت عداد يخالف المداد الذي كتب به الكلام . » وقد انتشرت تلك الطريقة وأضاف اليها الناس علامة التنوين فكانت نقطتين الواحدة فوق الأخرى ، وزاد أهل المدينة التشديد فجعلوها قوسين يجعلان فوق المشدد المفتوح ، وتحت المكسور ، وعن يسار المضموم ، ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس ، والكسرة تحت حدبته والضمة على شماله ، ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة ، وأبقوه على أصله مع الفتحة . وزاد أهل البصرة السكون فجعلوه جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه »[2] .

والمشكلة الثانية في العربية ، هي مشكلة الحركات ، أي كيفية النطق بحروف الكلمة وبأواخر الكلم ليظهر المعنى حسب موقع الكلم من الاعراب . والعربية من اللغات العالمية التي احتفظت بخاصية الاعراب بينما تركتها لغات أخرى كانت لغات معربة في الأصل . لأن اهمال الحركات فيها يؤدي الى وقوع أخطـــاء كبيرة في فهم معنى الكلام ، لذلك وجب التغلب على هذه المشكلة بوضع علامات تعبر عن الحركات .

وسبب وجود هذه المشكلة في العربية ، هو أن أقلام العربية القديمة هي مثل الأقلام السامية الأخرى مؤلفة من حروف صامتة فقط ، ولا توجد فيهـا حروف تمثل الحركات ، تكتب في الكلمة . كما هو الحال في اليونانية وفي اللاتينية وفي الأبجديات الغربية الأخرى المشتقة منها ، فيقرأ الإنسان الكلمة قراءة صحيحة بغير خطأ لوجـود حروف الحركات مع الحروف الصامتة ، ويكتب كتابة صحيحة ، لأنه حين يكتب الكلمة ويلفظها يكتبها بحروف صامتة وبحروف الحركات. ويذكر أهل الأخبار أن العرب كانوا يفهمون معنى الكتابة بحدة ذكائهم وبطبعهم وسليقتهم فلم يخطئوا في فهم المعنى ، فلم يجدوا حاجة الى الشكل ، فلما جاء الإسلام ،ودخل الأعاجم بكثرة فيه واختلطوا بالعرب واختلط العرب بهم، فشا اللحن في الكلام ،

---

١ الفهرست (ص ٦٨) ، (تسمية من أخذ النحو عن أبي الاسود الدؤلي) ، « ويقال : أول من نقط المصاحف ووضع العربية أبو الاسود الديلي ، من تلقين أمير المؤمنـين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه » ، حكمة الاشراق (٨١) .

٢ اللسـان العربي ، ١٩٦٩ م (ص ٥٢) .

وظهرت الحاجة الى تقويم الألسنة فوضع أبو الأسود الدؤلي مبادىء النحو والشكل. أي علامات الحركات. وسلك الناس طريقته ووسع من جاء بعده جادة هذا العلم، حتى صار من أهم العلوم عند العرب .

وعلينا أن نفرّق بين التنقيط أي الإعجام عند العرب وبين التنقيط عند غيرهم من الشعوب السامية . فالتنقيط عند العرب هو لتوضيح الحرف . بمعنى تعيينه وتثبيته لتمييزه عن الحرف الآخر المشابه له . أما في اللغات السامية الأخرى، فقد استعمل التنقيط فيها للتعبير عن الحركات . فالحركات في بعض اللغات السامية يعبر عنها بنقاط توضع فوق الحرف أو تحته . كما استعملت الخطوط المستقيمة وما يشبه الضمة للتعبير عن الحركات عند بعض لغات أخرى . ولم يستعمل الاعجام أي تنقيط الحرف لتمييزه عن حرف آخر مشابه له إلا في القليل ، وذلك بسبب أن الحروف عندها غير متشابهة كثيراً ، ولذلك فلا يلتبس أمر قراءتها على أحد، فلم تظهر الحاجة فيها الى إزالة اللبس بالتنقيط . ومن هنا اختلف مبدأ التنقيط في العربية عن مبدأ التنقيط في اللغات السامية الأخرى .

والتنقيط في كلتا الحالتين اي في حالة استخدامه للتعبير عن الحركات ، اي الشكل ، او في حالة استعماله للإعجام ، أي لتمييز الحروف المتشابهة ، هو عمل متأخر عن الكتابة عند العرب وعند غيرهم . وسبب ذلك ان الكتابة صنعة اختص بها رجال الدين والعلماء والمثقفون ثقافة عالية ، وهم طبقة خاصة كانت فوق مستوى الجماهير ، وكان من مصلحتهم حصرها بأنفسهم وبأولادهم وجعلها صنعة خاصة بهم جهد الامكان. وعدم السماح لغيرهم من سواد الناس بتعلمها وممارستها. بأن جعلوا لها أدباً وقواعد وشروطاً يجب أن تتوفر فيمن يمارس هذا الفن. جمعوها في (أدب الكاتب) أو (أدب الكتاب) . وكان في جملة قواعد هذا الأدب تصعيب الصنعة وتعقيدها حتى لا يطرقها إلا الذكي الأريب . واتخاذ أقلام خاصة، يكون لكل قلم قواعده وأصوله في رسم الحروف ، وإهمال التنقيط أو الشكل ، لأن من مستلزمات الكاتب أن يكون فطناً يستنبط المعنى بذكائه بربط الكلمات بعضها ببعض . وهو ما يعجز عنه القارىء الكاتب الاعتيادي . فتجريد الكتابة من النقط والشكل امتحان يميز الكاتب العالم عن غيره ممن تعلم كيف يقرأ ويكتب وكفى. حتى لقد وقر في ذهنهم ان من ينقط الكتابة ويشكلها ويرسلها الى كاتب، فكأنما أراد بذلك إهانته ورميه بالجهل والغباء ، إذ عنى بهذا التنقيط والتشكيل ان

المرسل اليه لا يفهم المعنى إلا إذا نقطت له الكلمات ، فكيف الحال اذن اذا كانت الرسالة ممن هو دون من أرسلت اليه في المنزلة والمكانة ، ومن رجل من طبقة سوية الى رجل أعلى طبقة منه . فكان من أدب الكتاب عندهم الترفع عن مستوى القراء الكاتبين ، بترك النقط والشكل . كانوا يقولون : « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » . نظر (عبدالله بن طاهر) خط كتاب وقع اليه ، فقال : « ما أحسنه لولا كثرة شونيزه أي نقطه »[1] .

غير ان الحاجات دفعت بالناس ولا سيما بذوي الأعمال منهم الى التماس أيسر الطرق وأبسطها في تدوين أمورهم . فاختزلوا الخطوط وبسطوها ودفعوا التعسير بالتيسير . وكان من التيسير ، وضع علامات للحركات ونقط للإعجام . أما اليونان فصاغوا من الحركات حروفاً كتبوها جنباً الى جنب مع الحروف الصامتة ، فحلّوا بذلك أهم مشكلة من مشكلات الكتابة . وأما الشعوب السامية ، فاتخذت التنقيط والعلامات فوق أو تحت الحرف أو في داخله لتميز بذلك حرفاً متشابهاً عن الحرف الذي يشابهه ، او لتعيين حركته . وأما الحبشية ، التي أخذت قلمها من المسند ، فاتبعت طريقة اليونان وتغلبت بذلك على المشكلتين وظهرت بذلك أقلام شعبية تنقط وتشكل ، استعملها السواد ، أما أرباب العلم من الكتاب ، فقد أبوا كتابة الكتب المقدسة وكتب العلم والتراث بخطوط السواد ، وأبوا إلا الكتابة بالقلم القديم ، والمحافظة على الضبط القديم ، لأنه في نظرهم جزء من النصوص فلا يمكن اجراء أي تغيير عليها . أما ما سوى ذلك فدوّن بالأقلام الشعبية التي أوجدتها ضرورات التيسير وتطور الزمن .

وأغلب روايات اهل الأخبار أن الخط العربي الأول لم يكن مشكلاً . وأن الشكل إنما وجد في الإسلام . وكان موجده (أبو الأسود الدؤلي) المتوفى سنة (٦٩) للهجرة ، فاستعمل النقط بدل الحركات ، ثم أبدل (الخليل بن أحمد الفراهيدي) ، النقط برموز أخرى هي الفتحة والكسرة والضمة . ويرى بعض الباحثين أن نقط (ابو الأسود الدؤلي) ، هو على نحو النقط في الخط النسطوري السرياني ، ويحتملون تعلمه قاعدة التنقيط منهم[2] . وكان عندهم نقط كبيرة

---

١ تاريخ التمدن الاسلامي (٣/٦٢) .
٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م ، (حـ ١ ص ١٩) .

توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه او تعيين الكلمة الواقع هو فيها: اسم هي أم فعل أم حرف . مثل قولهم : كتب ، فيمكن ان تكون اسماً جمع كتاب ، او فعلاً ماضياً معلوماً أو مجهولاً ، وكان عندهم ايضاً نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن . وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ، ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيد ذلك انه لما أراد التنقيط أتوه بكاتب فقال له أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت في بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ؛ وإذا ضممت في فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط ، والغالب ان يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية ، وجدوه في جامع عمر وبجوار القاهرة ، وهو من أقدم مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون ، فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحته كسرة ، وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها ابو الأسود[1] .

ويرى بعض المستشرقين أن ضبط الكتابة العربية قد بدىء به قبل الإسلام[2] . وذلك لأن عرب العراق وعرب بلاد الشأم كانوا يكتبون بالسريانية ، وقد عرفت السريانية مشكلة الشكل وعالجتها ، فلا بد وأن يكون العرب الذين أخذوا قلمهم من السريانية او النبطية المتأخرة قد وقفوا على المشكلتين فعالجوهما على نحو ما .

وأود ان أبين بهذه المناسبة ان تنقيط (ابو الأسود) للحروف لم يكن إعجاماً، بل كان شكلاً ، اي ضبط حركة الحرف من حيث الضم او الفتح او الكسر او السكون حسب تكوين الحروف للكلمة . فهذا كان تنقيط (ابو الأسود الدؤلي)[3] أما شكل الوقت الحاضر ، فهو من اختراع (الخليل بن احمد الفراهيدي) . ولذلك يجب علينا التفريق بين تنقيط (ابو الأسود) ، وبين الاعجام الذي هو

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٦٠ وما بعدها) ، الفهرست (ص ٦٦) ، الدراسات الادبية السنة الثانية ، العدد الاول ، ١٩٦٠ م ، (ص ٨٣) .

٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م (حـ ١ ص ٢٠) .

٣ الفهرست (٦٦) ، (في أخبار النحويين واللغويين وأسماء كتبهم) ، (الفن الاول) .

تنقيط الحروف المتشابهة لإزالة اللبس بينها ، ثم التفريق بين شكل (ابو الأسود) وبين شكل (الخليل بن أحمد) واضع الشكل المتبع الآن ، لموت طريقة (ابو الأسود) ، في الشكل ، وتخصيص النقط بالاعجام ، ومن هنا وقع البعض في لبس من أمر النقط والاعجام ، فلم يفرقوا بينها . والصحيح هو ما قلته من ان النقط هو الشكل في الأصل ، فبهذا المعنى كان في أيام (الدؤلي) الى أن قامت الحركات التي هي الضمة والفتحة والكسرة مقام نقط الدؤلي، فوجد الناس في الحركات سهولة مكنتهم من التفريق بين إعجام الحروف وتشكيلها ، فخصصوا النقط بالإعجام والحركات بالشكل ، وبذلك زال اللبس الذي أدى الى وقوع أخطاء في فهم المراد من الإعجام ومن الشكل الذي هو الحركات .

والتنقيط من الأمور التي كان يراعيها العبرانيون منذ القدم في قراءة التوراة . فقد كانوا ينقطون بعض حروف الكلمات لتنبيه القارىء الى أهمية الكلمة ولمكانتها المقدسة،وعرف هذا التنقيط بـ Puncta extraordinaria عند رجال الدين.فقد نقطوا لفظة (عانقه) في الآية : « فبادر عيسو وتلقاه وعانقه وألقى بنفسه على عنقه وقبّله وبكيا »[1] ، ونقطوا لفظة (فامحني) ، من الآيـة : « والآن إن غفرت خطيئتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت »[2] ، ولفظة (يمحوها) في الآية : « فيكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ويمحوها بالماء المرّ »[3] ، وقد فعل ذلك في الأناجيل أيضاً ، كما في لفظة (محا) الواردة في الآية : « ومحا الصك الذي كان علينا بموجب الأقضية الذي كان لهلاكنا وأخذه من الوسط وسمّره في الصليب»[4]. ثم زاد علماء التوراة وكتّابها زيادات أخرى في أصول التنقيط ووضع العلامات الخاصة على الحروف التي هي الإعجام ، وصيّروها علماً خاصاً بالتوراة أشير اليه في (السوفريم) وفي التلمود[5] .

ونجد في (انجيل متّى) اشارة الى التنقيط في الحروف ، جاء : « الحق أقول لكم : انه إلى أن تزول السماء والأرض ، لا تزول ياء أو نقطة واحدة من

---

١ سفر التكوين ، الاصحاح (٣٣) ، الاية ٤ .
٢ الخروج ، الاصحاح ٣٢ ، الاية ٣٢ .
٣ سفر العدد ، الاصحاح الخامس ، الاية ٢٣ .
٤ رسالة القديس بولس الى أهل كولتى ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٤ .
٥ Hastings, p. 979.

الناموس حتى يتم الكل »[1] . وفي هذه الآية إشارة الى تدقيقاتهم في الكتابة،وتمييزهم بين حرف وآخر بالنقط[2] .

وكان كتّاب الأناجيل والكتب المقدسة ، اذا أضافوا كلاماً من عندهم على النص ، أو فسروا لفظة من ألفاظه ، كتبوه بخط ثخين عريض ، ليتبين للقارى ان ما هو مدون ليس من صلب الكتاب المقدس ، وانمـــا هو إضافة لتفسير أو لشرح[3] .

وأود أن أبين ، ان موضوع النقط الذي هو الإعجام وموضوع الشكـل من الموضوعات التي لم تدرس دراسة كافية علمية حتى الآن . وهما مما لا يمكن البت فيها الآن ، إلا إذا عثر على كتابات جاهلية عربية وعلى كتابات تعود الى أيام الرسول وما بعده ، وإلا بعد نشر ما ألفه العلماء عن النقط والشكل . فقد ألف العلماء في ذلك كتباً ، أشار اليها (ابن النديم) ، فقال : « الكتب المؤلفة في النقط والشكل للقرآن : كتاب الخليل في النقط ، كتاب محمد بن عيسى في النقط ، كتاب اليزيدي في النقط ، كتاب ابن الأنباري في النقط والشكل، كتاب أبـي حاتم السجستاني في النقط والشكـل بجداول ودارات ، كتاب الدينوري في النقط والشكل »[4] .

وهناك مؤلفات أخرى دونت في (لامات القرآن)[5]، وفي هجاء المصاحف[6]، وفي اختلاف المصاحف وأمثال ذلك[7] ، تفيدنا كلهـــا في تكوين رأي عن تطور الخط العربـي في أوليات أيامه ولا سيا في صدر الاسلام .

وقد سار الخط العربـي الشمالي على نسق أغلبية الخطوط السامية مثل الخط النبطي والإرمي والعبراني فاتجه من اليمين الى اليسار . ونظـــراً لوجود حروف منفصلة

---

١ الاصحاح الخامس ، الاية ١٨ .

٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٤٣١) .

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٥٢) .

٤ الفهرست (ص ٥٩) ، (كتاب النقط والشكل) ، للخليل بن أحمد الفراهيدي ، الفهرست (ص ٧١) .

٥ الفهرست (٦٠) .

٦ الفهرست (٦١) .

٧ الفهرست (٦٠) .

وحروف متصلة فيه ، دونت كتابة الكلمات فيه بالجمع بين النوعين من الحروف ، وبذلك سهُل أمر الكتابة بهذا القلم ، وصار على غرار القلم النبطي في السرعة . وللتمييز بين الكلمات ، لم يستعمل الخطوط العمودية النازلة بين الكلمات للفصل بينها ، على نحو ما كان في المسند ، بل سار على طريقة النبط في وضع فراغ صغير مناسب بين كل كلمة وأخرى ، دلالة على انفصالها بعضها عن بعض .

أما المسند ، فقد اشتهر عند علماء العربية بأنه خط حمير ، ولذلك قال له بعضهم (الخط الحميري) ، و (القلم الحميري)[1] ، كما قال له المستشرقون فيما بعد . وهي تسمية مغلوطة على كل حال ، لأن الحميريين لم يكونوا أول من أوجد هذا الخط ، لقد سبقهم في استخدامه السبئيون والمعينيون وأقوام عربية اخرى ، وقد عرفه بعض علماء العربية بقوله : « المسند : خط لحمير مخالف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه ايام ملكهم فيما بينهم ، قال ابو حاتم : هو في أيديهم الى اليوم باليمن »[2] . وقد ذكر (ابن خلدون) أن حمير كانت تمنع من يريد ان يتعلم المسند إلا بإذنها[3] .

والأبحاث التي قام بها الباحثون عن الخط العربي قبل الإسلام ، لا تزال في مراحلها الأولى ، ولا يمكن في نظري نضج هذه البحوث والوصول الى نتائج علمية مرضية إلا إذا قام المتخصصون بالتنقيب تنقيباً علمياً في جزيرة العرب كلها ، وهذا ما يستغرق بالطبع وقتاً طويلاً . ولا يستبعد أن يتوصل المنقبون الى معرفة أبجديات واقلام قد تكون اقدم عهداً من هذه الأقلام التي تحدثت عنها ، وقد يجدون أقلاماً اخرى جديدة تسمى بأسماء جديدة ، قد تغير من هذه النظريات العلمية التي تلوكها ألسُنُ العلماء في هذا اليوم . فقد عثر على نصوص يظهر أنها بقلم ثمودي في موضع (ينبع النخل) الذي يبعد مسافة أربعين كيلومتراً عن (ينبع)[4] . كما وجدت كتابات بخطوط جاهلية وبخط عربي من صدر الإسلام في (جبل سلع) عند المدينة ، وفي (وادي العقيق) الذي لا يبعد كثيراً عن المدينة[5] . وكذلك في (وادي رانونا) الواقع جنوب المدينة على مسافة ثمانية

---

١ اللسان (٣/٢٢٤) ، (صادر) ، (حمر) .
٢ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٣ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٤ Rock Inscriptions in the Hijaz, A Report by Osman R. Rostem, p. 2.
٥ Rostem p. 4.

كيلومترات ، حيث وجدت نقوش صور حيوانات كذلك[1] . وفي (الصويدرة) ، و (بستان شهار) ، وهو موضع يقع على مسافة كيلومترين جنوب الطائف ، حيث يذكر من رآه انه وجد فيه كتابات تظهر وكأنها كتابات يونانية[2]. ووجدت كتابات بعضها بدائية او من شكل جديد في مواضع أخرى من الحجاز ،قد تكون أقلاماً جديدة ، كتبت بلهجات لا نعرف عنها اليوم شيئاً .

لقد كان من الشائع بين الباحثين ان المنطقة الواقعة فيما بين المدينة والطائف منطقة فقيرة بالكتابات ، ولكن عثور بعض الباحثين على كتابات ثمودية وعلى كتابات أخرى وفي ضمنها كتابات قديمة تمثل أقدم أنواع الخط الذي دوّن به القرآن الكريم ، قد مزّق حجب ذلك الشائع ، وسوف يقف الباحثون ولا شك على كتابات أخرى جديدة في مواضع أخرى من الحجاز ولا سيما في المواضع الواقعة على طرق القوافل القديمة . وعندئذ سيزيد علمهم عن الأقلام العربية الجاهلية وعن علم الناس بلهجات العرب قبل الاسلام، ولا سيما بلهجات أهل الحجاز لما في ذلك من فائدة في الوقوف على اللغة التي نزل بها الوحي .

هذا – وأعود فأقول – إن من الخطأ مجاراة أهل الأخبار رأيهم في أن الكتابة العربية كانت قد نقلت أول ما نقلت الى مكة ، ثم انتشرت منها الى (يثرب) والى الأماكن الأخرى . إذ يروي أهل الأخبار أنفسهم أنه كان بيثرب قبل الإسلام رجال كانوا يقرأون ويكتبون بهذا القلم ، ومنهم من كتب للرسول . وأما ما ذكروه من أن الرسول طلب من أسرى (بدر) ممن لم يكن يستطيع فداء نفسه ، تعليم عشرة أطفال من أهل يثرب القراءة والكتابة في مقابل فكّ أسرهم، فليس فيه دليل على عدم وجود قارئين كاتبين بها ، وإنما فعل النبي ذلك لتكثير الكتابة فيها ، ولنشر التعليم بين المسلمين .

وقد أخطأ (ريجس بلاشير) في رأيه القائل : « لدينا مصادر أكثر قدماً ، تدفعنا الى الاعتقاد بأنها كانت كثيرة الاستعمال في الطائف بعكس انتشارها في المدينة الذي لقي صعوبات » ، ثم قال في الملحوظة (٥) : « من الجائز أن يكون اليهود قد قاوموا انتشار الطريقة الكتابية العربية » ، واستدل على الحالتين باستعانة

---

١ المصدر السابق .
٢ المصدر السابق (ص ١١) .

الرسول بأسرى بدر لتعليم المسلمين القراءة والكتابة ، لأن المصادر المحلية كانت غير كافية[1] . ولا أعرف شيئاً عن المصادر القديمة التي ذكر أنها تشير الى كثرة الكتابة بالطائف ، عكس المدينة ، لأنه لم يشر اليها ، وإنما قال قولاً عاماً ، لم يؤيده بذكر اسم المورد الذي استقرى رأيه منه . ولعله قصد ما ورد في حديث تدوين القرآن من اجعلوا المملي من قريش ، أو من هذيل ، والكاتب من ثقيف ، وهو حديث لا صلة له بقلة أو بكثرة انتشار الكتابة في مكان ، ثم إنه يتناول مكة كذلك ، كما يتناول المدينة ، ونحن لو أحصينا عدد من كان يكتب من أهل يثرب من الصحافة لما وجدناه يقل عن عدد كتّاب الطائف قبل الإسلام ، بل هو فوقه بكثير ، كما رأينا فيما سلف . أما قوله : من الجائز أن يكون اليهود قد قاوموا انتشار الكتابة في يثرب ، فيخالفه ما ورد في الأخبار من أن احد يهود (بني ماسكة) كان يعلم أهل يثرب الكتابة ، وتعلم أهل يثرب الكتابة بالعربية ، لا يضر اليهود شيئاً ، حتى يقاوموا تعلمها ، بل ربما كان العكس هو الصحيح ، لأن في تعلمهم الكتابة والقراءة يجعلهم أقرب الى التفكير والتأمل والاستقرار والميل الى الهدوء والوقوف على الكتب من الجهلة الأميين ، الذين تتحكم العواطف والعنجهيات في عقولهم ، فتبعدهم عن حياة الهدوء والمسالمة .

ولم يصل الى علمي ان أحداً من الباحثين قد تمكن حتى الآن من الحصول على كتابات في العربية الجنوبية مدونة بهذا القلم الذي نكتب به ، ولكن هذا لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم استعمال أهل تلك البلاد له ، فقد يجوز أن يكونوا قد استعملوه في أمورهم التجارية وفي مراسلاتهم وأعمالهم الأخرى ، استعمال أهل مكة ويثرب له ، إلا انه لم تبق منه بقية بسبب كونه قد كتب على الأدم والمواد الأخرى السريعة التلف ، فلم تبق منه بقية ، شأن كتابات أهل مكة ويثرب المكتوبة على هذه المواد . إذ لا يعقل عدم وصول هذا القلم الى نجران والى صنعاء والى الأماكن التي وجدت النصرانية سبيلاً لها بينها ، وقد كان النصارى يكتبون به ، وهم من أهم العناصر التي أدخلته الى جزيرة العرب .

إن القلم الذي دوّن به الوحي ، والذي صار بفضله القلم الرسمي للعرب ولعدد كبير من الشعوب الاسلامية ، حمل في نفسه مثل أكثر الخطوط السامية وغيرها ،

---

١ تأريخ الادب العربي (٧٤) .

نقاط ضعف ، عولجت بعضها وتغلب عليها ، كما في موضوع تشابه الحروف مثل الباء والتاء والثاء ، حيث تغلب عليها بالتنقيط ، وكما في كيفية التلفظ بالحركات ، حيث عولج بوضع علامات لها فوق او تحت الحروف ، ومثل حرف (المد) والتنوين ، وأمثال ذلك ، مما جعل قارىء الكتاب يلاقي صعوبة كبيرة في قراءة الخط وفي فهم المراد منه ، تجلت في المحاولات التي ظهرت في صدر الاسلام لإصلاح هذا الخلل ، الذي ورد اليهم من نقلهم الخط نقلاً ،دون اجراء اصلاح عليه ، ومع ذلك فلا تزال هناك مواطن ضعف فيه يجب التغلب عليها ، نجدها مدونة في البحوث التي نقرأها بين الحين والحين في موضوع إصلاح الخط العربي ، لا مجال لسردها ولسرد حججها وأدلتها في هذا المكان .

أصل الخط :

ولقد اهتم المسلمون في موضوع أصل الخط عند البشر وفي منشئه وكيفية ظهوره. وذهبوا الى ان أول من وضع الخطوط آدم ، كتبها في طين وطبخه ، فلما أظل الأرض الغرق أصاب كل قوم كتابهم . وقيل (أخنوخ) ، وهو (ادريس)[1]. وقالوا : « كان ادريس النبي عليه السلام أول من خطّ بالقلم وأول من خاط الثياب ولبسها ، وكان من قبله يلبسون الجلود »[2] . وعرف عندهم بـ (هرمس الأول) ، « وهو المثلث النعم ، فإنه كان قبل الطوفان . ومعنى هرمس لقب ، كما يقال قيصر وكسرى . وتسميه الفرس في سيرها اللهجد ، وتفسيره ذو عدل . وهو الذي تذكر الحرانية نبوته . وتذكر الفرس أن جده كيومرث ، وهو آدم . ويذكر العبرانيون أنه أخنوخ . وهو بالعربية ادريس »[3] . وقالوا : « إن ادريس أول من درس الكتب ، ونظر في العلوم ، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو

---

١ صبح الاعشى (٣/٦ وما بعدها) ، حكمة الاشراق ، للزبيدي (٦٤) ، (نوادر المخطوطات) .

٢ عيون الاخبار (للدينوري ١/٤٣) ، (الكتاب والكتابة) .

٣ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٠ وما بعدها) ، (ابنجهبذ) ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٥ وما بعدها) .

أول من خاط الثياب ولبسها »[1] . وذكروا أنه عرف بـ (هرمس الهرامسة) ، تمييزاً له عن (هرمس الثاني) ، وهو (هرمس البابلي) ، وعن (هرمس الثالث)،وهو (هرمس المصري)[2] . وانه هو باليونانية أرميس وعرب بهرمس. ومعنى أرميس عطارد وانه بالعبرانية (خنوخ) وعُرب (أخنوخ) . وسماه الله في كتابه العربي المبين ادريس . وان معلمه اسمه (اغثاذيمون) المصري . الى غير ذلك من قصص[3] نجده في كتب أهل الأخبار .

وهو في زعم أهل الأخبار (أخنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش ابن شيث بن آدم) . ومولده بمصر في مدينة (منف) . ووصفوه وصفاً كأنهم كانوا معه وقد شاهدوه وجالسوه ، فقالوا : « كان عليه السلام رجلاً آدم اللون تام القامة ، أجلح ، حسن الوجه ، كث اللحية ، مليح التخاطيط ، تام الباع، عريض المنكبين ، ضخم العظام ، قليل اللحم ، براق العين أكحل ، متأنياً في كلامه ، كثير الصمت ، ساكن الأعضاء ، اذا مشى أكثر نظره الى الأرض ، كثير الفكرة ، به حدة وعبسة ، يحرك اذا تكلم سبابته »[4]. وكان كثير الأسفار : زار الهند ، وجاء الى فارس وبابل . وعرف بـ (ارمس) عند اليونان . وهو « اسم عطارد . ويسمى عند اليونان أطرسمين »[5] . « استخرج سائر الصنائع والفلسفة والطب »[6] . وهو الذي علم (اسقليبوس) الطب .. وهو أول من تكلم في شيء من الطب على طريق التجربة وامام الطب ، وأبو أكثر الفلاسفة[7] . « وأول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية ، وان جده كيومرث ، وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار ، وهو أول من بنى المياكل ومجّد الله فيها، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه . وانه ألّف لأهل زمانه كتباً كثيرة، وأشعاراً

---

١ . ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٢) ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٥ وما بعدها) .

٢ ابن جلجل ، طبقاء الاطباء والحكماء (ص ٨ وما بعدها) ، ابن القفطي ، تاريخ الحكماء (ص ٢ وما بعدها) .

٣ ابن القفطي ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٢) .

٤ ابن أبي أصيبعة ، عيون (٣١) .

٥ ابن ابي أصيبعة ، عيون (٣١) .

٦ المصدر نفسه (ص ١٢) .

٧ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٢٩ وما بعدها) .

موزونة وقوافٍ معلومة بلغة أهل زمانه في معرفة الأشياء الأرضية والعلوية . وهو أول من أنذر بالطوفان ، ورأى ان آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار ، وكان مسكنه صعيد مصر ، تخيّر ذلك فبنى هناك الأهرام ومدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي ، وهو الجبل المعروف بالبرابر بأخميم وصوّر فيها جميع الصناعات وصناعها نقشاً ، وصوّر جميع آلات الصناع ، وأشار الى صفات العلوم لمن بعده برسوم حرصاً منه على تخليد العلوم لمن بعده ، وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم »[1] .

ونسبوا له النبوة والقول بالتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحض على الزهد والعدل والصيام أياماً معروفة في كل شهر والجهاد على الأعداء وايتاء الزكاة معونة للضعفاء ، وغلظ عليهم في الطهارة من الجنابة والحمار والكلب . وحرّم المسكر من كل شيء من المشروبات ، وشدد فيه أعظم تشديد ، وجعل لهم أعياداً كثيرة ، وقربانات . ورتّب الناس ثلاث طبقات : كهنة وملوكاً ورعية . وجعل مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك ، لأن الكاهن أقرب الى الله من الملك والرعية[2] .

و (هرمس) من (أرمس) Ermis ، اسم إلـه من آلهة اليونان . ويقابل الإلـه (تحوت) Thot عند قدماء المصريين . وينسب المصريون اليه اختراع كل علم . ويقابل Mercurius عند الرومان . وهو (عطارد) عند العرب .وقد عرف عند المسلمين بـ (هرمس المثلث النعم) وبـ (المثلث النعم) ، وقد أخذ ذلك عن اليونانية ، إذ لقب فيها بـ (طريسميجيسطيس) Hermes Trismegistes ومعناه ثلاثي التعلم . وقد عرّبوه فجعلوه (اطرسمين)[3] . وقد وقف المسلمون على قصص قديم شاع بين البابليين والمصريين والعبرانيين واليونان والرومان والفرس عن أصل المعرفة وكيف ظهرت بين البشر ، فمزجوا بينها وجسّموها في قصص ادريس . وفي جملة ذلك اختراع الكتابة ، فنسبوها اليه .

ولأهل الأخبار آراء في كيفية ظهور الكتابة عند كل أمة من الأمم . أخذوها من أهل الكتاب أيضاً ومن القصص والأساطير . فذكروا مثلاً ان الله أرسل ملكاً

---

١ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٢) .
٢ ابن القفطي ، تاريخ الحكماء (٥ وما بعدها) .
٣ ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٦ وما بعدها) ، Shorter Ency. p. 158.

اسمه (سيمورس) ، علم آدم الكتابة السريانيـــة ، على ما في أيدي النصارى . وتفرعت منها ثلاثة أقلام ، وهي : المفتوح ويسمى اسطرنجالاً ، وهو أجلّهـــا وأحسنها ، ويقـــال له الخط الثقيل ونظيره قلم المصاحف . والتحرير المخفف ، ويسمى اسكوليثا ، ويقال له الشكل المدور ، ونظيره قلم الوراقين . والسرطا وبه يكتبون الترسل ، ونظيره في العربية الرقاع[1] . وذكروا ان أول من كتب بالفارسية (جم الشيد بن اونجهان) (جمشيد) (جم شيد) ، « وكان ينـــزل أسان من طساسيج تستر ، فزعمت الفرس انه لما ملك الأرض ودانت له الجن والانس وسخر له ابليس ، أمره ان يخرج مـــا في الضمير الى العيان فعلّمه الكتابة[2] . وزعموا ان أول من كتب بالعبرانية عابر بن شالخ ، وضع ذلك بين قومه فكتبوا به[3] . وزعموا ان اليونان لم يكونوا يعرفون الخط حتى ورد رجلان من مصر ، يسمى أحدهما قيمس والآخر أغنور ومعهما ستة عشر حرفاً ، فكتب بها اليونانيون ، ثم استنبط أحدهما أربعة أحرف ، فكتب بها . ثم استنبط آخر يسمى سمونيـــدس أربعة أخر ، فصارت أربعاً وعشرين[4] .

ترى مما تقدم أن أهل الأخبار أخذوا أخبارهم المتقدمة عن نشوء الخط ، من اهل الكتاب ومن الأساطير المترسبة من القصص الساذج القديم الذي كان شائعـــاً عند الشعوب القديمة ، ثم صاغوه صياغة اسلامية ، دون نقد ولا تمحيص ، ومراجعة لاستخراج عناصر السذاجة والخرافات منها ، وسبب ذلك أن ملكة النقـــد كانت هزيلة عندهم ، وقد تقبلت كل ما سمعته من (أهل العلم الأول) دون نقد ولا تمحيص ، تقبلت حتى الخرافات والأباطيل المخالفة لأبسط قواعد المنطق والعقل .

قلم النبط :

وقلم النبط هو على عكس الأقلام العربية الأخرى التي عرفناها ، وهي : المسند ، والقلم الثمودي ، والصفوي ، واللحياني ، قلم يرجع أصله الى القـلم الذي ينتمي اليه قلم بني إرم وقلم تدمر ، والى المجموعة السامية الشمالية للخطوط . وقد تطور

---

١ الفهرست (٢٤) .
٢ الفهرست (ص ٢٥) .
٣ الفهرست (ص ٢٨) .
٤ الفهرست (ص ٢٩) .

القلم النبطي ، كما تطور غيره من الخطوط ، فصار له قلم قديم وقلم متأخر ، امتاز بميله الى ربط حروفه بعضها ببعض ، حتى اكتسب شكلاً يمكن قراء القلم العربي الشمالي من التعرف عليه بسهولة ، وبعد استعراض قليل له . وقد عمل مهندسو هذا الخط في تمديد بعض الحروف نحو اليسار ، حتى ابتعدت عن سمياتها في الأبجدية الإرمية بعض البعد .

إن هذا التطور الذي مرّ به الخط النبطي،يظهر لنا أن النبط لم يكونوا يقنعون بالأخذ والاقتباس ، وإنما كانوا يكيفون ما يتلقونه من غيرهم ويطورونه حتى يكتسب شخصية خاصة مستقلة .

هذا ولا بد لي من الإشارة الى أن الألف في اللهجة النبطية قد تقوم مقام الهمزة في أبجديتنا في بعض الأحيان،وقد تقوم مقام المدة (آ) A عند وجودها في وسط اللفظة وفي نهايتها . وقد يحل محلها الحرفان الـ (و) والـ (ي) كما في (روفو) في موضع (رأفو) ، و (رُأف) و (اروس) في موضع (أرأس) . ولما كانت الألف من الحروف الساكنة في الأبجديات السامية في الغالب ، فاستعمالها في موضع الألف الممدودة وإحلال بعض حروف العلة في موضعها في النبطية وفي بعض الأبجديات السامية ، يدل على أن الأبجديات السامية المتأخرة نظرت اليها على أنها من حروف العلة المعبرة عن بعض الأصوات[1] .

وحرف الـ (ج) هو (كيمل) في الأبجديات السامية ، وهو قريب في النطق من الكاف (ك) (كاف) الفارسية . غير أن الكتابات النبطية المتأخرة استعملت هذا الحرف في مواضع كثيرة على نحو نطقنا بالجيم في عربيتنا[2] .

---

1 Nabataen Inscriptions, Leiden, 1914 ,p. 37 ff, in Publ. of the Princ. Univ. Archae. Expedi. to Syria, Section A ,Semitic Inscriptions, p. XXV.

2 المصدر نفسه .

الفصل الثاني والعشرون بعد المئة

المسند ومشتقاته

والمسند من الأقلام العتيقة ، وهو أعتق من القلم النبطي المتأخر ، وهو أقدم الأقلام التي عرفت في جزيرة العرب حتى الآن . وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة ان استعماله لم يكن قاصراً على اليمن حسب ، بل لقد كان القلم المستعمل في كل أنحاء بلاد العرب . وقد استعمله العرب في خارج بلادهم أيضاً،لأنه قلمهم الوطني الذي كانوا به يكتبون فعثر في موضع قصر البنات على طريق (قنا) على كتابات بهذا القلم[1] ، كما عثر على كتابة بهذا القلم كذلك بالجيزة كتبت « في السنة الثانية والعشرين من حكم بطلميوس بن بطلميوس » . وهي ليست بعد سنة (٢٦١) قبل الميلاد بأي حال من الأحوال[2] . وعثر على كتابات بالمسند في جزيرة (ديلوس) من جزر اليونان[3] .

---

١ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 56, M.A.S .Tritton. Nous Signale deux Graffites, Publiés par A. E. P., Weigall, Travels in the upper Egyptian Deserts, London and Edinbourg, 1909, PL. IV, Fig. 13, 14, H.A. Winckler, Rock Drawings of Southern upper Egypt. I, London, 1928, Site I, p. 4, Ryckmans, in Le Muséon, XLVIII, (1935) ,p. 228, J. Leibovich, Les Inscriptions Protosinaïtiques, Le Caire, 1934.

٢ F. V. Winnett, « The Place of the Minaeans in the History of Pre-Islamic Arabia », in BOASOOR, Num : 73, February, 1939.

٣ المصادر المذكورة .

وذكر السائح الانكليزي (وليم كنت لوفتس) William Kennett Loftus انه لاحظ فجوة في (وركاء) Uruk في العراق ، فبحث فيها ، فتبين له انها كانت قبراً وجد في داخله حجر مكتوب بالمسند ، فيه : ان هذا قبر (هنتسر بن عيسو بن هنتسر)[1] .

ولهذه الكتابة المدونة بالمسند ، أهمية كبيرة جداً ، لأنها أول كتابة وجدت بهذا الخط في العراق . وهي تشير الى الروابط الثقافية التي كانت بين اليمن والعراق ، والى وجود أشخاص في هذا المكان كانوا يستعملون المسند ، سواء أكانوا عراقيين أم يمانيين .

وقد عثر على كتابات بالمسند في مواضع من الحجاز ، ويظهر أنه كان قلم الحجازيين قبل الميلاد . وقد وصل هذا القلم الى بلاد الشأم . فقد عثرت بعثة علمية قامت بأعمال الحفر في ميناء (عصيون كبر) (عصيون جابر) Ezion Geber على جرار عليها كتابات بحروف المسند رأى بعض العلماء أنها معينية ، تفصح عن الأثر العربي في هذا الميناء المهم الذي حاول سليمان أن يجعله ميناء اسرائيل على البحر الأحمر[2] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن غير اهل اليمن ، لم يكونوا يستعملون المسند في كتابتهم ، ولا يتعاطونه ، كالذي يستفاد من قصة (قيسبة بن كلثوم السكوني) ، وكان ملكاً وقع في أسر بني عامر بن عقيل ، فذكر انه كتب بالسكين على مؤخرة رجل أبي الطمحان حنظلة بن الشرقي أحد بني القين بالمسند، يخبر قومه بوقوعه في الأسر . ولم يكن أحد من غير أهل اليمن يكتب بالمسند ،

---

١ Travels and Researches in Chaldaea and Susiana, by W. K. Loftus, London, MDCCCLVII, p. 233, Corpus Inscriptionum Semiticarum, IV, As NUM : 699.

٢ لم يعين موضع المكان بالضبط ولا يبعد كثيرا عن (أيلة) على خليج العقبة ومنهم من يظن أنه كان عند موضع (عين الغديان) الذي هو على بعد عشرة أميال من البحر في قعر (وادي العربة) . وكان (خليج العقبة) على ما يظن بعض العلماء يمتد قديما الى هذا الموضع ، قاموس الكتاب المقدس (١٠٦/٢) ، Ency. Bibli., p. 1472, BOASOOR, NUM : 75, p. 19 NUM : 71, p. 15, Revue Biblique, XLVIII, 1939, p. 247, Asia, May, 1939, p. 294.

فلما قرأه القوم ، ساروا الى بني عامر ، وفتكوا بهم ، وأنقذوا قيسبة منهم[1] .

ورواية أهل الأخبار هذه لا يمكن أن تكون دليلاً على عدم وقوف غير أهل اليمن على المسند في العهود البعيدة عن الإسلام . ولا على عدم استعمالهم لذلك القلم في حياتهم اليومية . لأن علم أهل الأخبار بأحوال الجاهليين لا يرتقى كما سبق أن قلت الى عهود بعيدة عن الإسلام ، ولأن في أكثر الذي ذكروه عنهم ، قصص ونسج خيال ، يستوي في ذلك حتى ما ذكروه عن الجاهلية الملاصقة للإسلام ، ثم إن في الذي عثر عليه السيّاح من كتابات مدوّنة بالثمودية أو بأقلام أخرى مشتقة من قلم المسند ما يفند الرواية المذكورة في عدم استعمال غير أهل اليمن للمسند وفي عدم وقوفهم عليه . ويمكن حمل كلامهم في عدم استعمال أهل الحجاز أو غيرهم للمسند على أيام الجاهلية القريبة من الإسلام . حيث ظهر القلم العربي الشمالي .

والرواية لا يمكن أن ترتقي الى زمن بعيد عن الاسلام . فنحن نعلم ان (حنظلة بن شرقي) المعروف بالطمحان ، وهو من (بني القين بن جسر)[2] كان شاعراً فاسقاً من المخضرمين . وكان نديماً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية، ثم أدرك الاسلام[3] ، ولو صدقنا الرواية المذكورة وأخذنا بها ، وجب ان تكون الكتابة قد وقعت قبيل الاسلام ، ومعنى ذلك ان (قيسبة) وهو من (بني السكون) كان يكتب بها ، أي ان المسند كان معروفاً ويكتب به خارج اليمن في هذا العهد ، ولهذا يكون قول (الاصبهاني) : « وليس يكتب به غير أهل اليمن » ، مغلوطاً ، لأن (قيسبة) لم يكن من أهل اليمن ، حتى يصح قوله .

وكشفت العروض ونجد وأماكن أخرى عن سر كان العلماء يبحثون عنه في شوق ، فقدّمت للعلماء عدداً من الكتابات المدونة بالمسند ، وبذلك ثبت علمياً ان (المسند) كان معروفاً قبل الاسلام في كل جزيرة العرب ، وربما كان القلم العام للعرب قبل المسيح ، اي قبل ظهور أقلام أخرى ولدت على ما يظن بعد الميلاد.

ففي سنة ١٩١١ للميلاد عثر (الكابتن شكسبير) Capt. W.H. Shakespear[4] على

---

١ (وليس يكتب به « أي بالمسند » غير أهل اليمن) ، الاغاني (١١/١٢٥) .
٢ الاشتقاق (٣١٧) .
٣ الخزانة (٣/٤٢٦) ، الشعر والشعراء (١/٣٠٤) ، المؤتلف (١٤٩) ، الاغاني (١١/١٢٥) ، السمط (٣٣٢) .
٤ BOASOOR, Nub. 102, (1946), p. 4.

كتابتين بالمسند في موضع (حنا) (الحنأة)[1] وفي خرائب (ثج) (ثأج) التي تبعد خمسين ميلاً تقريباً عن ساحل الخليج وزهاء مئة ميل من شمال غربي القطيف[2] . وقد نشر ترجمة الكتابتين (ماركليوث)[3] . وعثر بعد ذلك على كتابة أخرى في موضع (ثج) (ثأج) دخلت في ملك أمير الكويت ، وقد نشر ترجمتها (ركمنس)[4] . وهي حجر قبر لشخص من قبيلة (شذب) . وعثر على كتابة أخرى في هذا الموضع ، وقد بلغ عدد ما عثر عليه في هذا المكان أربع كتابات[5] .

وعثر عمال شركة البترول العربية السعودية الأمريكية (أرامكو) في أثناء الحفر على مقربة من (عين جوان) (جون) (جاوان)[6] عام ١٩٤٥ للميلاد على حجر مكتوب تكسرت بعض أطرافه بالمعاول قبل معرفته ، اتضح بعد أنه حجر قبر لامرأة يقال لها (جشم بنت عمرت) (عمرت) بن تحيو من أسرة (عور)

---

١ (حنا : لعل صوابها الحنأة ، واحدة الحنأة بتسهيل الهمزة كما هي عادة عرب هذا الزمان في الكلمات المهموزة • والحنأة : موضع يقع غرب بلدة الجبيل ـ المعروفة قديما باسم (عينين) الواقعة على البحر الشرقي (الخليج الفارسي) • وتبعد الحنأة عن الجبيل ٨٢ كيلومترا ، وتقع على ممر الطريق منه ومن الظهران والاحساء ولمن يقصد الكويت او العراق أو نجدا) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م ، (عينين) ، البلدان (٦/٢٥٨) •

٢ (ثاج بالجيم : قال الغوري : يهمز ولا يهمز عين من البحرين على ليال • وقال محمد ابن ادريس اليمامي : ثاج قرية بالبحرين) ، البلدان (٣/٢) ، (ثج) ، وهي التي وردت في الشعر العربي القديم • وفي ياقوت مهموزة • ولكن العرب في هذا العهد لا يهمزونها • وثاج : موضع فيه سكان وزروع قليلة ، يقع بقرب الحنأة في الجنوب الغربي منها بمسافة لا تتجاوز عشرة كيلومترات) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ ، البكري ، معجم (١/٣٣٣) •

٣ Douglas Crruthers ,« Captin Shakespear's Last Journy », in the Geographical Journal, LIX, (1922), 321-323, Corpus Inscriptionum Semiticarum, Nos. 984 - 985.

٤ Ryckmans, in Le Muséon, L, p. 239, Ryckmans 156.

٥ Le Muséon, L, p. 237, Ryckmans 155.

٦ (عين جوان ـ الصواب : جاوان) ، ويقع موضع جاوان في داخل الرأس المعروف حديثا باسم (رأس تنورة) في الجهة الشمالية منه على ساحل البحر ، بعد مدخل الرأس ببضعة كيلومترات • وكانت عينه تسقي نخيلا وزروعا ولكن ماءها قل ، حتى زالت مزروعاتها • كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م •

(آل عور) من قبيلة شذب[1] .

واستخرج (كورنول) P.B. Cornwall لوحاً مكتوباً بالمسند كان مدفوناً في أحد بساتين القطيف ، دفنه أصحاب البستان ، وقد ذكر أنه نقل من جزيرة (ثاروت) أو من موضع لا يبعد كثيراً عن القطيف ، وقد وجد أن هذا اللوح هو مثل الألواح التي عثر عليها قبلاً ، شاهد قبر ، وضع على قبر رجل يقال له (ايليا بن عبني بن شصر من أسرة سمم من عشيرة ذال من قبيلة شذب)[2] . ويرى بعض الباحثين أن صاحب القبر كان نصرانياً ، عـاش في القرن الخامس أو السادس للميلاد .

وعثر على شاهد قبر آخر مدوّن بالمسند ، هو شاهد قبر (شبام بنت صحار ابن عنهل بن صامت) من قبيلة (يدعب) ، وجد على مقربة مـن القطيف[3] . و (يدعب) بطن من بطون قبيلة (شذب) . ويظهر أن قبيلة (شذب) كانت من القبائل المعروفة في العروض ، وكانت ذات عدد من البطون ، ولا تحمل الكتابة تأريخاً ، ويرى الذين درسوها أنها تعود الى القرن السادس للميلاد . وأمـا الرقم الذي ذكر في نهاية النص وهو رقم (٩٠) ، فالظاهر أنه يشير الى عمـر صاحبة القبر[4] .

هذا ما عثر عليه من كتابات بالمسند في العروض . وأما في أواسط جزيرة العرب وفي باطنها وفي الأماكن التي لم يكن يتصور العثور فيها على أثر لحضارة ، فقد عثر فيها على كتابات بهذا القلم كذلك ، ولهذه الكتابات أهمية كبيرة ؛ لأنها أول وثيقة تأريخية لا يتطرق اليها الشك ، ترد الينا عن هذه المناطق التي لم يرد لها ذكر مفصل عند المؤرخين السابقين ، لأنها أول دليل عملي يثبت انتشار هذا الخط في أواسط جزيرة العرب . عثر (فلبي) في هذه المناطق على فخـار وآثار

---

١ BOASOOR, NUM : 102, April 1946, p. 4, « A Himjaritic Inscription from the Persian Gulf Region », by F.V. Winnett, BOASOOR, Supplementary Studies Nos. 7-9, « The Early Arabian Necropolis of Ain Jawan », by Richard Lebron, 1950.

٢ Geographical Journal, Vol. CVII, 1-2, 1946, « Ancient Arabia : Explorations in Hasa, 1940-1941 », by P.B. Cornwall, p. 44.

٣ المصدر نفسه (ص ٤٥) .

٤ المصدر نفسه .

أرسلها الى المتحف البريطاني ظهر انها تعود الى القرن الثاني قبل الميلاد . ويظن من فحصها انها من آثار السبئيين[1] . كما عثر على كتابات وصور ، وبقايا مقابر وعظام .

وقد صور (فلبي) بعض الكتابات ، وصور بعضاً آخر رجال شركة البترول العربية السعودية الذين وصلوا الى هذه المواضع للبحث عن البترول . وقد وصلت تصاوير عدد منها الى العلماء فنشروا نصوصها وترجماتها ، مثل كتابات (القرية) أو (قرية الفأو) التي سبق أن تحدثت عنها . وقد وجد اسم الصنم (ودّ) مكتوباً بحروف كبيرة بين تلك الكتابات[2] ، وحيث أن هذه الكنوز الثمينة إنما عثر عليها ظاهرة على سطح الأرض ، وحيث أن الباحثين لم يفحصوا الكهوف فحصاً دقيقاً ، ولم ينظفوها من الأتربة والرمال التي في داخلها ، فإننا نأمل العثور على أشياء ثمينة ذات بال بالنسبة للتأريخ الجاهلي إذا اهتمت الحكومة العربية السعودية بهذا الأمر ، وقامت بتجهيز بعثة علمية من المتخصصين بالأثريات العربية ، أو سهلت للعلماء وللبعثات سبل الوصول اليها ، وحافظت على تلك الآثار من التلف وعبث العابثين .

ووجد (فلبي) كهوفاً ومقابر في مواضع أخرى من (وادي الفأو) ، وقد وجدت حيطان بعض الكهوف (سردب) (سرداب) مكسوة بالكتابات (والوسم) والتصاوير المحفورة . ويظهر أن أبنية ضخمة كانت في هذه الأماكن[3] .

وعثرت شركة (أرامكو) على رأس نحت من الحجر في (القرية) كتب عليه بالمسند أنه (ثار ونفسي علزن بن قلزن غلونين)[4] ، أي (اثر وقبر علزان ابن قلزان الغلوني) . كما وجدت كتابات بهذا القلم عند جبل عبيد وفي حصن ناطق وفي شمال موضع (خشم كملة) على مسافة (١٠٠) كيلومتر من شمال قرية

---

١ « A Further Journey across the Empty Quarter », by W. Thesiger, in Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 21.

٢ Geographical Journal, CXIII, (149), p. 91.

٣ Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 90, Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 87.

٤ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 87, Qarlya, I, Philby 221a.

القأو في وادي الدواسر[1] ، وفي (وادي هـبن) (حبن)[2] على (١٢٠) ميلاً شمال شرقي عدن[3] . وفي (عين قرية) على (٣٠) ميلاً تقريباً من شمال (زفر) وفي (منخلي) في جنوب خشم العرض حيث يعتقد البدو أن هذا الموضع هو بئر من آبار عاد[4] .

لم يفسر علماء العربيـة سبب تسمية (المسند) مسنداً ، وقد قرأت لإسرائيل ولفنسون تعليلاً لتسمية هذا القلم مسنداً ، فقال : « والخط المسند يميل الى رسم الحروف رسماً دقيقاً مستقيماً على هيأة الأعمدة . فالحروف عندهم على شكل العمارة التي تستند الى أعمدة . وعلى العموم فإن لحضارة جنوب بلاد العرب عقلية تنحو نحو الأعمدة في عمارة القصور والمعابد والأسوار والسدود وأبواب المدن .

ومن أجل ذلك يوجد عندهم ميل شديد لإيجاد حروف عـلى هيأة الأعمدة ، أي ان الحروف كلها عبارة عن خطوط تستند الى أعمدة .

وقد تنبه علماء المسلمين الى شكل هذه الكتابات وأطلقوا عليها لفظة المسند ؛ لأن حروفها ترسم على هيأة خطوط مستندة الى أعمدة »[5] .

وهو رأي سبقه اليه (ليدزبارسكي) Lidzbarski إذ أشار الى أثر العـمارة والأعمدة في شكل هندسة حروف الخط المسند[6] وهو تفسير يشبه تفاسير الأخباريين واللغويين للأسماء والأعلام التي لا يعرفون من أمرها شيئاً ، فيلجأون الى الخيـال ليبتكر لهم سبباً وتعليلاً يناسب الكلمة،ويتصورون عندئذ أنهم قد أوجدوا السبب، وأن من يأتي بعدهم سيكتفي بذلك ويأخذ به .

وكذلك كوّنت كلمـة (المسند) في مخيلة (اسرائيل ولفنسون) ولـدى (ليدزبارسكي) فكرة استناد خطوط الحروف وقيامها بعضها الى بعض استناد المباني،

---

١ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 99, Philby, Wadi Dewasir, I.

٢ هكذا ورد في مجلة (Le Muséon) (هبـن) (Haban) بدون نقـطة أو عـلامة تحت حرف H تدل على أنه (حاء) . ولعل الكلمة (الحبن) ، وهو موضع ذكره الهمداني في صفة جزيرة العرب (ص ٦٨) .

٣ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 103.

٤ Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 31, 34.

٥ تأريخ اللغات السامية (٢٤٣ وما بعدها) .

٦ Lidzbarski, Ephemeris, I, S. 114, Hommel, Grundriss, Erste Halfte, S. 146.

وقد وجدا من مباني اليمن وقصورها ما قوى هذا الخيال عندهما ، مع ان كلمة (المسند) التي تطلق في المؤلفات العربية الاسلامية على خط أهل اليمن قبل الاسلام لا علاقة لها بالقصور والمباني،واستناد أجزاء الحرف الواحد بعضها الى بعض ، وانما تعني شيئاً آخر ، تعني خط أهل اليمن القديم لا أكثر ولا أقل . وكلمة (مسند) (مزند)[1] في العربية الجنوبية تعني (الكتابة) مطلقاً ، وقد وردت في مواضع متعددة من الكتابات والنقوش ، فورد في نص أبرهة مثلاً (سطرو ذن مزندن) ، وترجمتها : (سطروا هذه الكتابة) ، وتؤدي كلمة (سطرو) المعنى نفسه الذي يرد في لغتنا ، وهو : (سطروا) ، اي كتبوا ودوّنوا ، فكلمة (مزندن) التي صارت (المسند) في عربيتنا تعني في العربية الجنوبية ما تعنيه كلمة الخط او الكتابة في لغة القرآن ، ولم تكن مخصصة عند اليمانيين بخط حمير ، او غير حمير،وانما حدث هذا التخصيص في المؤلفات الاسلامية فصار فيها (المسند) اسم علم لخط حمير وحده . ولا ندري متى حدث ذلك : أحدث في الجاهلية المتصلة بالاسلام أم في الاسلام ؟

واذا كان هذا التخصيص قد وقع في الاسلام ، فإننا لا نستطيع أيضاً التكهن عن الوقت الذي ظهر فيه هذا التخصيص ، لأننا لا نملك مصادر اسلامية تشير الى هذا ولا مؤلفات من صدر الاسلام يمكن ان نجد فيها ما نبحث عنه .

ويتألف المسند من تسع وعشرين حرفاً،وأبجديته مثل الأبجديات السامية الأخرى من حيث انها تتألف من الحروف الصامتة ولا حركة في الكتابة فيها ولا ضبط في أواخر الكلمات ولا علاقة للسكون او للتشديد . ويفصل بين الكلمة والكلمة التي تليها فاصل هو خط مستقيم عمودي . وقد يكتب الحرف المشدّد مرتين كما في اللغات الأوروبية .

ومما يلاحظ على الكتابات المعينية انه لم يطرأ عليها تغيير كبير في العهود التي مرت بها . أما الكتابات السبئية ، فيمكن التمييز بين القديم منها والمتأخر في الأسلوب ، وفي شكل الكتابة[2] .

---

١ بحرف الزاي في لغة أهل اليمن لا السين .

٢ غويدي : المختصر في علوم اللغة العربية الجنوبية القديمة ، القاهرة ، ١٩٣٠ ، (ص ٣) ،

Höfner, Altsüdarabische Grammatik, Leipzig, 1943, Weber, S. 12, Pfannmuller, S. 86, Mordtmann, Beiträge zur Minäischen Epigraphik, Weimar, 1896.

وللمسند ميزات امتاز بها عن القلم العربي ، فحروفه منفصلة ، وهي بشكل واحد لا يتغير بتغير مكان الحرف من الكلمة . فإذا جاء الحرف في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها ، كتب بشكل واحد . وقد جعلت هذه الخاصية لهذا القلم ميزة أخرى ، هي ميزة الكتابة به من أي جهة شاء الكاتب ان يبدأ بها. فله ان يكتب من اليمين الى اليسار وله أن يكتب من اليسار الى اليمين ، وله ان يمزج بين الطريقتين ، بأن يكتب على الطريقة الحلزونية ، من اليمين الى اليسار، ثم من اليسار الى اليمين ، ثم من اليمين الى اليسار ، أو العكس، وله أن يكتب من أعلى الى أسفل أو العكس وهكذا ، ثم ان حروفه غير متشابهة لذلك لم يعرف المسند الإعجام ، ولو كتب له ان يكون قلم المسلمين ليسّر لنا اليوم وقتاً ومالاً في موضوع الطباعة به . ولكنه أبطأ في الكتابة نوعاً ما من الخط العربي لشكل حروفه الضخمة بالنسبة الى الحروف العربية المختزلة ، فالخط العربي يمتاز عليه بهذه الناحية فقط . أما موضوع الشكل ، فالمسند غير مشكول،بل يكتب بحروف صامتة فقط .

وفي القرن التاسع عشر وما بعده كشف المستشرقون النقاب عن أقلام أخرى لم يعرفها علماء العربية ، هي : القلم الثمودي ، والصفوي،واللحياني . وكتابات أخرى كتبت بلهجات محلية عثر عليها في الجوف ، وفي الحجر وفي العلا، وفي مناطق أخرى كجبل شيحان ، وكوكبان ، وجبل شمّر ، لها بعض الخصائص والمميزات اللغوية . والظاهر ان خط هذه الكتابات كان مستعملاً بين السواد في الأمور الشخصية[١] .

أما القلم الثمودي ، فقد عثر على كتاباته في العربية الغربية ، وفي الجمهورية العربية السورية وفي المملكة الأردنية الهاشمية وفي الحجاز ، فقد عثر على كتاباته في مواضع متعددة من الحجاز ، فيما بين المدينة ومكة وعلى مقربة من الوجه والطائف ، وفي (ريع الزلالة) عند السيل الكبير على طريق الطائف

١ Grundriss, I, S. 147, Transaction of the 9th Inter. Congr. of Orientalists, Vol. I, p. 86, (London), 1893, Uber die Protoarabischen Inschriften, in Aufs und Abh., S. 41, 161, Saudarabische Chrestom., S. 6, Lady A. Blunt, A Pilgrimage to Nejd, London, 1881, Vol. 2.

مكة[1] . وعثر على كتابات ثمودية في (حائل) وأماكن أخرى من نجد وفي اليمن. وفي هضبات شبه جزيرة سيناء[2] .

هذا وقد عثر على كتابات ثمودية كثيرة في (ريع الزلالة) (سيل الغربان)، الى الشمال من الطائف على مسافة أربعين كيلومتراً منها[3] . وفي وادي (الاب)[4] ، وفي مواضع أخرى من الحجاز ونجد ، مما يدل على انتشار الثموديين في مواضع واسعة من جزيرة العرب .

وأما القلم الصفوي ، فقد عثر عليه في منطقة الصفاة شرقي الشأم ، وفي بادية الشأم ، ولا يعني هذا ان هنالك قبائل كانت تسمى قبائل صفوية ، بل هو اصطلاح أطلقه المستشرقون على الخطوط التي وجدت في ناحية الصفاة ، وهي تشتمل على كتابات قريبة من كتابة لحيان وثمود . كما عثر على كتابات صفوية في مواضع من بادية العراق ، ويوجد عدد منها في ملك مديرية الآثار القديمة العامة في العراق[5] . كما عثر على عدد كبير منها في المملكة الأردنية الهاشمية. وقد نشرت نصوص بعض منها في جريدة الآثار للمملكة الأردنية الهاشمية[6] .

والموطن الرئيسي للكتابات اللحيانية هو منطقة العلا ، ولا سيما موضع(الخريبة) والصخور الواقعة الى شرقه ، حيث عثر فيها على مئات من الكتابات التي تعود

---

١ (عقبة الزلالة ، الواقعة بين مكة وبين الطائف ، وهي ثنية ينحدر منها القادم من الطائف على السيل الكبير) ، الموضع المعروف قديما باسم (قرن المنازل) وتبعد عن هذا الموضع خمسة كيلومترات تقريبا وتقع في شرقيه ، وتسمى الآن (الريع الصغير) . وقد شاهدت بقربها بينها وبين السيل الكبير جبلا فيه كتابات كوفية قديمة . وحدثت بأن (فلبي) رأى في تلك الجهة تمثالا من الصخر منحوتا في الجبل يمثل رجلا واقفا ، وانه اطلع على كتابات قديمة في تلك الجهة) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تأريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م .

٢ نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٤٣ م ، (ص ١٠٩) ، E. Littmann, Entzifferung der Thamudenischen Inschriften, 1904, Hubert Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems, Die Altthamudische Schrift, Münster, 1926.

٣ A. Grohmann, Arabic Inscriptions, Louvain, 1962, p. 2.

٤ كتابات من الادب ، للدكتور عبدالرحمن الانصاري ، مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض ، المجلد الاول ، السنة الاولى (١٩٧٠) ، (ص ١١٣ وما بعدها) .

٥ راجع نشرات مديرية الآثار القديمة في العراق ومجلة سومر .

٦ Annual of the Department of Antiquities of Jordan.

الى شعب لحيان[1] .

والأقلام الصفوية والثمودية واللحيانية ، مثل المسند ، ليس لها علامات لا للفتح ولا للكسر ولا للضم ولا للاشباع ولا لاتحاد الفتحة والواو والياء (أي الإمالة Diphthong) الخ ... كما ان حروفها تأخذ صوراً متعددة ، فيرد الحرف الواحد في كل قلم من الأقلام المذكورة بصور مختلفة ، ولذلك تجابهنا صعوبات كبيرة في محاولتنا قراءة الكلمات والجمل قراءة صحيحة. ويحتاج القارىء الى مران طويل ودراسات للهجات العربية الأخرى لضبط الكلمات في هذه اللهجات، ومعرفة معانيها .

وقد لاحظ المستشرقون مشابهة كبيرة بين الأقلام المذكورة وبين المسند ، كما وجدوا هذه المشابهة بين عدد من الأقلام التي استعملت في غير جزيرة العرب والمسند،وبعد مقابلات بينها ودراسات ذهبوا الى تفرعها من المسند . وهذه الأقلام المذكورة كلها متأخرة عن المسند ، وتعود تواريخ قسم منها الى ما قبل الميلاد ، ومنها ما يعود تأريخه الى ما بعد الميلاد .

ومما يلاحظ على هذه الأقلام اختلاف صور أكثر الحروف فيها ، فقد تكون للحرف صورتان ، وأحياناً ثلاث صور أو أكثر ، غير ان هذا الاختلاف ليس كبيراً في الغالب بحيث يتعذر معه تمييز أشكال الحرف الواحد ، ولا نجد فيها الوضوح والبساطة التي نجدها في المسند ، كما لا نجد فيها هذه الخطوط المستقيمة المنقوشة بدقة وعناية في الكتابات المعينية او السبئية او الحضرمية او القتبانية او الحميرية ، فكأن كتّابهم كانوا يرون العجلة في الكتابة والاسراع في التسطير لضيق الوقت ، لذلك لم تكن حروفهم دقيقة واضحة .

وأما الأقلام التي تشبه حروفها المسند . واستعملت عند أقوام عاشوا في أقطار لم تكن من جزيرة العرب ، فمنها القلم الحبشي القديم . وقد عثر على كتابات به في منطقة (يحا) (يها) Jeha ، وهي تمثل أقدم نماذج الكتابات الحبشية،وقلمها هو القلم السبئي القديم ، وفي (اكسوم) وتعود الى القرن الرابع للميلاد[2] ،

---

١ Ency. Vol. 3, p. 26, Müller, Epigraphic Denkmäler aus Arabien, XXXVII, 1889, Jaussen and Savignae ,Mission Archéologique en Arabie, I, Paris, 1909, p. 263, Vol. II, p. VIII-XIV, 27-77, 361-534, Lidzbarski, Ephemeris fur Semit. Epigraphic, II, 23-48, 345-361, III, 214-217, F.V. Winnet, A Study of Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Toronto, 1937.

٢ السامية (٢٥٧) . Grundriss, I, S. 148.

وكتابات نصرانية كتبت باللهجة (الجعزية) وتعود الى القرن الخامس للميلاد[1] . وقد استعملت في هذه الكتابات الجعزية الأصوات مع الحروف ، وبذلك اختلفت عن الأبجديات السامية التي استخدمت الحروف الصامتة حسب ، وذلك بإضافة شيء يشبه الحركات في صلب الحروف يقرأ معها ولا تفهم هي بدونها[2] . ومع ذلك احتفظت بالأشكال الأصليـة للحروف العربية الجنوبية ، ولم تبتعد عنها كثيراً . ويمكن إدراك أثر المسند في الكتابـة الحبشية المستعملة في الوقت الحاضر دون كبير عناء .

وذهب كثير من المستشرقين الى أثر المسند نفسه أو بالواسطة في عدد من الأقلام الأخرى ، منها كتابات عثر عليها في إفريقية Meroitische Schrift في إحدى اللهجات الكوشية أو النوبية[3] . والخط البربري القديم الذي يعود الى أيام قياصرة رومة . والقلم البراهمي (Brahma Script – Devanagari Alphbet) ،حيث نلاحظ شبهاً كبير بين حروف هذا القلم والمسند.ولا يستبعد أثر المسند فيه ؛ لأن العلاقات بين العربية الجنوبيـة والهند كانت قديمة جداً[4] .

يظهر أن المسند كان القلم الرئيسي في جزيرة العرب قبل الاسلام ، وأن جزيرة العرب كانت تكتب به قبل المسيح . وأن أقلاماً تفرعت منه قبل المسيح وبعـد المسيح ، لأسباب لا تزال غير واضحة ، وقد تكون لأشكال الحروف التي تتطلب دقة في الرسم علاقـة بذلك ، فمال الكتّاب الى ابتكار أشكال مرنة لا تحتـاج الى عناية في الرسم ، فاستخدموها في الكتابـة لسهولتها . فتولدت منه الكتابات المذكورة .

---

١ Grundriss, I, S. 148, D.H. Muller, Epigr. Denkmäler aus Abessinien, Wien, 1894, Tafel, II, IV.

٢ السامية (٢٥٦) ،
Grundriss, I, S. 148, Glaser, Die Altabess. Inschr. von Marib, in ZDMG., Bd., 50, (1896), S. 468, Die Abessinier in Arabien und Afrika, München, 1895, S. 168.

٣ R. Lepsius, Denkmaler aus Aegypten und Aethiopien, VI, Bd., I-II in Bd., XI, Grundriss, I, S. 149.

٤ Grundriss, I, S. 149, Isaac Taylor, The Alphabet, Vol. 2, p. 314, Georg Buhlets, Indian Brahma Alphabet, Wien, 1895, p. 2, Ency. Brit. I, p. 683.

أصل القلم المسند :

ذكرت أن أكثر المستشرقين رأوا أن القلم العربي الذي دوّن به القرآن الكريم، أخذ من القلم النبطي المتأخر . أما المسند ، فقد رأى كثير منهم أنه اشتق من الأبجديات السامية الشمالية كذلك[1] . وذهب بعضهم ان أنه تفرع من الأبجدية السينائية ومنهم من قال إن الأبجدية العربية الجنوبية تفرعت من نفس الأصل الذي أوجد الخط الفينيقي ، فهي لذلك من أقدم الأبجديات المعروفة[2] . ونحن إذا أنعمنا النظر في شكل الأبجدية الطورسينائية والمسند، نجدهما لا تتشابهان إلا في رسم حرفين أو ثلاثة[3] . وتتكون الأبجدية الطورسينائية من اثنين وعشرين حرفاً كالفينيقية والعبرانية . أما الأبجدية العربية الجنوبية ، فتتألف من تسعة وعشرين حرفاً ، أي بزيادة سبعة أحرف على أبجدية طور سيناء .

وحجة القائلين أن المسند قد أخذ من القلم الفينيقي ، وأن الأبجدية الفينيقية هي أقدم الأبجديات وأم الأبجديات[4].ولكننا إذا أنعمنا النظر في رسم حروف الأبجديتين، نجد التشابه بينهما في هيأة الحروف ورسمها ليس كبيراً ، كما أن الأبجدية العربية الجنوبية تزيد عليها في سبعة أحرف،وهذه الأحرف الزائدة لا تختلف عن الأحرف المشتركة بين الأبجديتين في هندسة الرسم والشكل . فلعل الأبجديتين قد تفرعتا من أصل واحد[5] ، فلا يعد المسند لذلك فرعاً نبت من الفينيقية .

وزعم نفر من الباحثين في تطور الخط أن المسند مشتق من القلم الكنعاني ، ولكن بعض علماء العربية الجنوبية ينكر هذا الرأي . إذ يرى أن المسند أقدم عهداً من الأبجدية الكنعانية ، وأن الكتابات العربية الجنوبية أقدم زمناً من أقدم الكتابات الكنعانية،فلا يصح إذن القول بأن المسند مشتق من القلم الكنعاني . ومما يلاحظ على الأبجديتين ان الأبجدية الكنعانية يعوزها من الحروف : ذ ، ض ، ظ ، س (سامخ) ، ث ، غ . ولكن الأبجديتين تشتركان اشتراكاً تاماً في الحروف : ج ، ط ، ل ، ن ، ع ، ش ، ق ، ت ، و . وتختلفان في بعض الحروف

---

١ BOASOOR, NUM : 118, April 1950, p. 13.

٢ Background, p. 11.

٣ Ency. Brita. I, p. 680.

٤ Lidzbarski, Ephemeris, I, S. 109, The Art of Writing, p. 11.

٥ Grundriss, I, S. 145.

اختلافاً كبيراً ، وليس بمستبعد أن تكون الأبجديتان قد تفرعتا من أصل واحد .

والرأي عندي ان من الصعب البت في الوقت الحاضر في موضوع أصل المسند، لأن صور الأبجديات القديمة الواصلة الينا لا تزال قليلة ، ولا نجد بين صورها وبين صور المسند تشابهاً كبيراً بحيث يمكن ان نستنبط من هذا التشابه حكماً يفيدنا في تعيين أصل المسند . والتشابه بين حروف قليلة لا يمكن ان يكون سبباً للحكم باشتقاق خط من خط . وعندي ان الأبجدية العربية الجنوبية تمثل مجموعة خاصة ، تفرعت من أصل لا نعرف من أمره اليوم شيئاً،لأن شكل حروف المسند لا يشبه شكل حروف الأبجديات المعروفة ، فلننتظر فلعل المستقبل يكشف للعلماء النقاب عن أبجديات مجهولة [1] .

ولا يعقل بالطبع ان يكون أهل العربية الجنوبية قد أوجدوا خطهم من العدم، من غير استعانة بعلم مسبق عن الحروف والأبجديات ، بل لا بد ان تكون أبجديتهم قد أخذت من أبجدية أخرى ، ومن فرع من فروع الخط الذي أوجدته البشرية، ودليل ذلك ان أسماء الحروف الأساسية التي ترد في كل أبجدية هي واحدة ، وفي وحدة الأسماء دلالة على وجود أصل واحد ، تفرعت منه الخطوط. والمسند بالنسبة لنا ، هو خط قائم بذاته ، يشابهه الخط الحبشي ، ومن فروعه الأبجدية اللحيانية والثمودية والصفوية . فكل هذه الأبجديات هي من فصيلة واحدة رأسها المسند ، أما ما فوق المسند ، فلا نعرف من أمره أي شيء .

وفي المسند حرف لا وجود له في أبجديتنا يكون على هذا الشكل :

وهـو بين الزاي والسين ، ولذلك يجعله البعض سيناً حين ينقلون نص كتابة عربية جنوبية الى عربيتنا ، او الى اللغات الأوروبية . كما يقرأ حرف الجيم (٦) « كيا » في المسند على نحو نطق المصريين بهذا الحرف في لسانهم .

ومن القلم المسند أخذ الأحباش قلمهم الذي يكتبون به ، نقله اليهم السبئيون

---

١ السامية (٢٤٢ فما بعدها) .

الذين هاجروا الى الحبشة قبل الميلاد وأقاموا لهم حكومة هناك وأثروا في الأحباش، فكان من تأثيرهم فيهم هذا القلم الحبشي .

وحروف المسند منفصلة غير متصلة ، أعني انها ليست كحروف الأبجدية التي نكتب بها ، بل الحروف فيها مستقل بعضها عن بعض غير متصل به . ولتمييز الكلمات بعضها عن بعض ، وضع الكتّاب خطوطاً مستقيمة عمودية تشير الى انتهاء الكلمة والى ابتداء كلمة جديدة . وتبدأ الكتابة عندهم من اليمين في العادة، وتنتهي في اليسار ، غير انهم قد يكتبون من اليسار أيضاً ، وينتهون بالسطر في اليمين . وقد يمزجون بين الطريقتين فيبتدئون في اليمين مثلاً وينتهون بالسطر في اليسار ، ثم يبدأون في السطر الذي يليه من اليسار ، وينتهون في اليمين ، ويبدأون بالسطر الذي يليه من اليمين لينتهي باليسار، ويبدأون في الثالث من اليسار وينتهون باليمين، وهكذا حتى تنتهي الكتابة . أما اذا ابتدأوا بالكتابة من اليسار ، فينتهون بالسطر في اليمين ، ثم يبدأون في السطر الثاني باليمين لينتهوا بـه في اليسار ، وليبدأوا بالسطر الثالث من اليسار ولينتهوا به في اليمين ، وهكذا يسيرون على هذا المنوال حتى تنتهي الكتابة . ويلاحظ ان لشكل حروفهم خاصية جعلتها تصلح لأن يكتب بها في أول الكلمة او في وسطها او في أواخرها من دون حاجة لاجراء اي تعديل على جسم الحرف العام ، لأنها حروف منفصلة غير مربوطة . وهي تمتاز من هذه الناحية عن حروف أبجديتنا ، التي ترتبط فيها الحروف ، فتستعمل حرف العين مثلاً في أول الكلمة بصورة تختلف عن صورة هذا الحرف اذا استعمل في الوسط، وتستعمل هذا الحرف في آخر الكلمة بصورة تختلف عن استعماله في أول اللفظة او في وسطها ، أي انها تحدث تغييراً على جسم الحرف . ولهذه الخاصية صار في الامكان الابتداء بحروف المسند من أية جهة أراد الكاتب أن يكتب بها من ناحية اليمين او من ناحية اليسار ، او بالجمع بين الطريقتين من غير أي تأثير في قابلية القارىء على القراءة ، كما صار من السهل على المبتدىء بالكتابة والقراءة تعلم الخط بالمسند بكل سهولة ، لوجود شكل واحد لا يتغير للحروف . فهو لهذا صار أسهل تعلماً من الخط الذي نكتب به الآن ذي الأشكال المتعددة الحروف، كما انه خال من التنقيط الموجود في عربيتنا لتمييز الحروف المتشابهة في هذا الشكل بعضها عن بعض ؛ وهو مما سبب لنا مشاكل خطيرة في كيفية ضبط الحروف والألفاظ ؛ عند وقوع التصحيف ، بسقوط نقطة من الكتابة سهواً ، او بوضع

النقطة في موضع يجب ألا توضع فيه ، او بوقوع سهو في عدد النقط .

وقد راعى الكتاب استعمال الخطوط العمودية للفصل بين الكلمات مراعاة تامة ، لأنها هي العلامة الوحيدة التي ترشد القارىء الى انتهاء لفظة وابتداء لفظة جديدة، ولم يخطر ببالهم وضع فراغ بين نهاية كلمة وابتداء كلمة جديدة ، أو لأنهم لأمر ما لم يستعملوا هذا الفراغ خشية حصول التباس قد يفسد على القارىء قراءته ، وقليلاً ما خالف كتابهم هـذه الطريقة فأغفلوا وضع هذه الأعمدة الفاصلة . ولم يستعمل كتّابهم علامةً ما دالة عـلى انتهاء جملة وابتداء جملة أخرى جديدة أو انتهاء فصل وابتداء فصل جديد ، كذلك لم يستعملوا ما نستعمله نحـن في الزمن الحاضر من علامات فواصل لأداء معاني خاصة يقتضيها الكلام وعلامات استفهام، لأن هذه الأشياء من الأمور المتأخرة التي أدخلت على الكتابات الغربية ، ولم تكن معروفة عند الأقدمين .

وحروف المسند حروف غير مشكلة ، فليس فوقها أو تحتها حركات كما هي الحال في عربيتنا حين نرغب في تحريك الحروف . وهي غير منقطة كـذلك فلا نقط فوق بعض الحروف أو تحتها لتمييزها عن غيرها من الحروف المشابهة لها كما هي الحال في أبجديتنا أيضاً ، ولم يرمز عن الحركات بحروف أو برموز تستعمل مع الحروف الصامتة داخل الكلمة ليتمكن بها القارىء من النطق بالكلمـة النطق الصحيح كما حدث ذلك في الأبجديات اللاتينية، وفي الأبجديات الأخرى التي سارت على نهجها وسبيلها،ولم يرمزوا عن حرف المدّ بشيء ولا عن السكون أو التشديد . وهذا مما جعلنا في حيرة من النطق بكلماتهم نطقاً صحيحاً مضبوطاً ، وجعل القارىء الحديث يذهب مذاهب مختلفة في كيفية ضبط الكلمة وفي كيفية النطق بها . فلفظة مؤلفة من حروف صامتة وحدها ، لا يمكن أن ينطق بها النطق الصحيح المضبوط ولا يمكن معرفة معانيها بسهولة ، وقد ولّدت هذه الطريقة مشكلات كثيرة لنـا من حيث التوصل الى معرفة نحو تلك اللهجات وصرفها [1] .

ولا توجد في المسند علامة لتشديد الحرف ، وقد يكتب الحرف مرتـين كما هي الحال في الأبجديات الأوروبية للدلالة على أن الحرف مشدد ، ويكـون ذلك في الكتابات المعينية [2] .

---

١ غويدي ، المختصر (ص ٣) .
٢ المصدر نفسه .

واقتصار الكتّاب على استعمال الحروف الصامتة وحدها ، جعل من العسير علينا البت في كيفية النطق بالكلمات والتعرف بسهولة على مواضع الكلم من الإعراب .

ولولا الاستعانة باللهجات العربية الباقية المستعملة في اليمن،وبلغة القرآن الكريم، وبالمعجمات ، وباللغـة الحبشية ، لكان من الصعب على القارئين للكتابات العربية الجنوبية التوصل الى فهم معانيها والى قراءتها قراءة مضبوطة أو قريبة من القراءة الصحيحة ، والتوصل الى استخراج القواعد منها . فبفضل هذه المواد المساعدة ، تمكنا من الوصول الى ما توصلنا اليه عن تلك اللهجات المكتوبة بالقلم المسند[1] .

ومن جملة المسائل التي جعلت فهم النصوص العربية الجنوبية أمراً صعباً عـلى الباحث في بعض الأحيان ، اشتمالها على اصطلاحات غير موجودة في العربية، وعلى كلمات غير موجودة في اللغات السامية الأخرى ثم إن بعضها قد كتب كتابة موجزة صيرتها غامضة غـير مفهومة ، ولهذا اضطر علماء العربيات الجنوبية الى تلخيص معناها على وجه التقريب[2] .

ومما يؤسف عليه كثيراً أن كتبة المسند لم يتركوا لنا كتابـة تشير الى ترتيب حروف الهجاء عندهم ، وأسمائها التي كانت تعرف بها عند قرّائهم وكتّابهم . وعدم وصول كتابة بهذا الموضوع منهم إلينا ، خسارة كبيرة ، إذ أصبح مـن الصعب التحدث عن كيفية ظهور الخط بين العرب الجنوبيين وعن صلاته بالخطوط الأخرى ، وبنا أشد الحاجة الى معرفة كيفية توصل الإنسان الى هـذا الاختراع العظيم الذي غيَّر تأريخ البشرية وأحدث فيها انقلاباً لا يدركه المرء إلا إذا تصور البشرية وهي جاهلة لا تحسن قراءة ولا كتابة ، فما الذي كان يمكن ان نعرفـه لولا وجود هذه العلامات الصغيرة المحدودة التي نسميها حروفاً والتي نكتب بها وندوّن بها كل ما يجول في خواطرنا من آراء دون أن نعرف عظم قيمة هـذه العلامات التي ميزت الانسان عن الحيوان ، ورفعته عنه الى أعلى الدرجات !

ولو قدر للعلماء الحصول على ألواح فيها الأبجديات مرتبة بحسب الطريقة التي كانت تسير عليها الشعوب القديمة في تعلمها ، وخاصة اذا كانت مقرونة بأسمائها التي كانت تعرف بها ، لصار في وسع العلماء التوصل الى نتيجة علميـة مقبولة

---

١ Hofner, S. 15.

٢ ونفنسون ، السامية (٢٤٦) .

بشأن نشأة الخط وتطوره . فإن في استطاعتهم عند ذاك الحكم – من نظرهم الى أقدم هذه الكتابات والى أصول كلمات المسميات – على أقدم مكان ظهرت فيه تلك الكتابة ، وعلى تعيين اسم الشعب الذي كان له شرف هذا الاختراع . وهو اختراع لم يظهر بالطبع فجأة الى العالم ، أي انه لم يكن من ابتكار رجل واحد فاجأ الناس به ، بل هو اختراع مرت عليه قرون حتى بلغ ما بلغه من شكل الحروف . مرّ في مراحل كثيرة بدائية في بادىء الأمر ، ثم انتقل من تلك الأشكال الى أشكال أرقى منها ، حتى اهتدى عقل الانسان الى معرفة الحروف . ولم يتوصل بالطبع الى هذه المرحلة بسهولة ، إذ يقتضي ذلك وجود علم عند الانسان عن تكون الكلمات من حروف ،وهو لم يتوصل الى هذا العلم إلا بعد تعب استمر قروناً ، وبتعاون كتّاب مختلف الشعوب لتحليل كلمات الانسان الى عناصرها الأولى ، وعناصرها الأولى هي هذه الحروف .

وقد كان من الضروري وضع أسماء للحروف ، ليميز بها حرف عن حرف آخر . وقد وضع مخترعو الحروف تلك الأسماء ، وهي أسماء لا تزال البشرية تعيدها مع شيء من الاختصار والتحريف ، وقد يمكن التوصل من تلك الأسماء الى أسماء تلك الشعوب القديمة التي ساهمت وعملت في ترقية ذلك الاختراع العظيم . فإن لتلك الأسماء علاقة وصلة بمسميات مادية ، وبالامكان تشخيص مواطن تلك المسميات بالرجوع الى الأماكن التي عرفت واشتهرت بها ، ومن ثم نتوصل الى تعيين تلك الشعوب على وجه التقريب .

وتختلف أشكال حروف المسند اختلافاً كبيراً عن حروفنا المألوفة التي نكتب بها . ولما كانت هذه الحروف حروفاً منفصلة غير متصلة كما هي الحال في حروفنا، فهي لذلك في أثناء كتابة الكلمات لا تتصل ببعضها ولا يلتقي فيها حرف بحرف آخر . ولهذا السبب كان شكل الحرف في المسند لا يتبدل ولا يتغير بتغير موضعه في الكلمة ، بل يحافظ على وضعه في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها ، إلا في بعض الأحيان حين يكتبون من اليسار نحو اليمين ، فيغيرون اتجاه الحرف بأن يجعلوه نحو اليمين .

وقد يتحد حرف النون الساكن مع الحرف الذي يليه ويسقط من الكتابة، ففي كلمة (بنت) أسقط الكتّاب حرف النون من الكلمة ، واكتفوا بهذا الشكل : (بت) أي بالحرفين الباء والتاء [1] .

---

[1] غويدي (ص ٤) .

والى القارىء أشكال حروف المسند مرتبةً على ترتيب حروف الهجاء التي نسير عليها في زمننا :

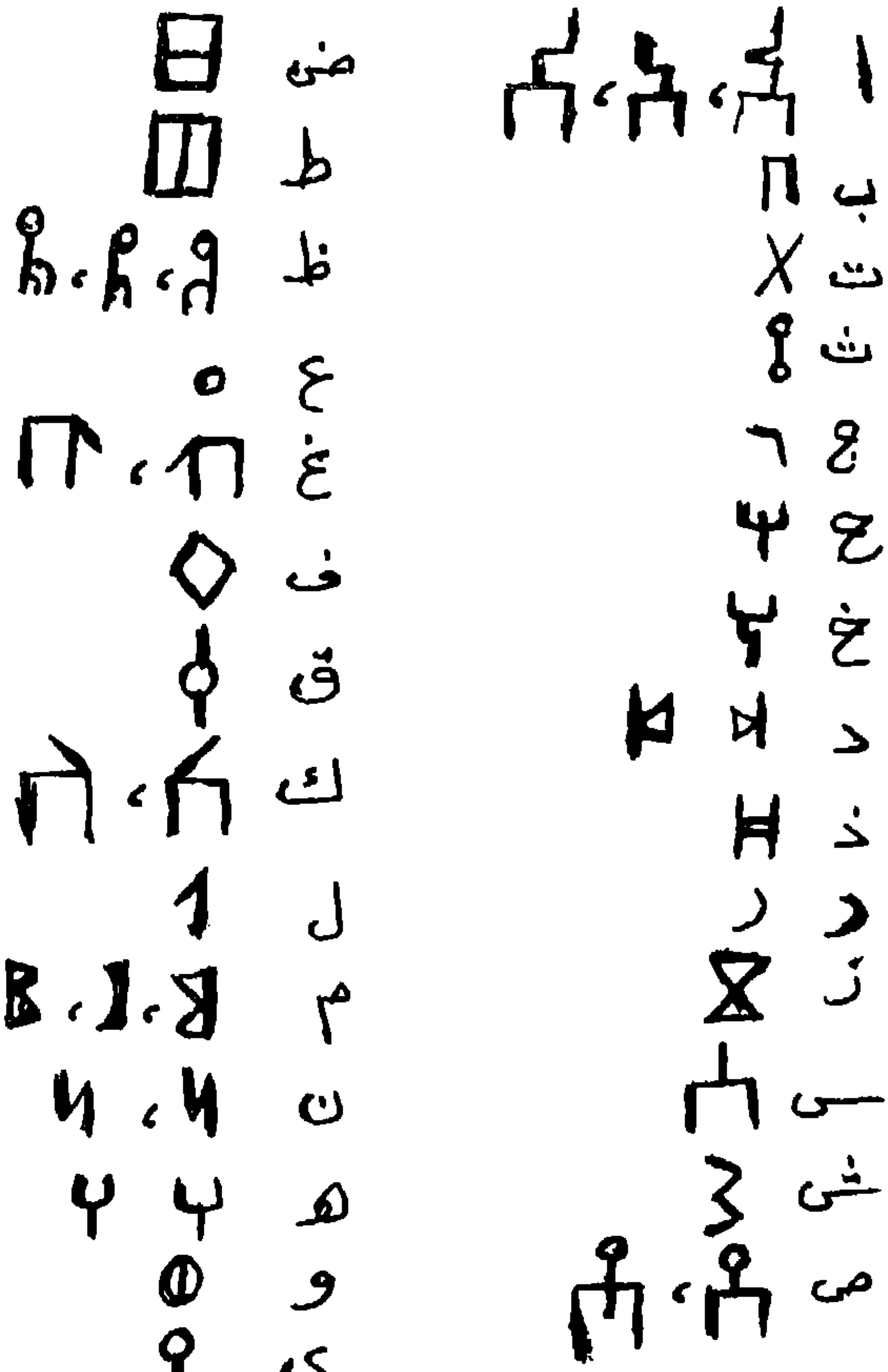

: وليس لهذا الحرف مقابل في عربيتنا وهو بين السين والزاي

ولا توجد في المسند تاء قصيرة ، أي التاء التي نكتبها تاء قصيرة في أواخر الكلم . فالتاء هي تاء طويلة أبداً ، وردت في أول الكلمة ، أو في وسطها ، أو في آخرها ، فلفظة (سنة) تكتب (سنت) ، و (عمرة) ، اسم امرأة ، يكتب (عمرت) ، وهكذا .

وهناك كتابات برزت حروفها ، وذلك ان كاتبها خطها على الحجر أولاً ، ثم حفر ما حولها وفي باطنها بمزبر صلد ، أو بسكين أو بآلة حادة ، فظهرت الكتابة بارزة ، وقد استخدمت مثل هذه الكتابات لتوضع على أبواب المعابد وعلى واجهات الدور وفي المناسبات التذكارية، كما فعل الاسلاميون في كتاباتهم التخليدية التي وضعوها على واجهات القصور والمساجد والأبنية المهمة،أما الكتابات المحفورة فقد استخدمت في الأعمال الاعتيادية في الغالب ، وهي أسهل في الكتابة من الكتابة البارزة ، ولا تحتاج الى وقت طويل يصرفه الكاتب على الحفر لابراز الحروف .

وأما الفاصل الذي يفصل بين الكلمات ، فهو على هذا الشكل :

ويعبر عن العدد من الواحد الى الأربعة بخطوط عمودية ، فيرمز الخط العمودي الواحد عن (الواحد) ، ويرمز الخطان العموديان المتوازيان عن الرقم (٢) ، وإذا أرادوا كتابة الرقم (٣) وضعوا ثلاثة خطوط عمودية متوازية للدلالة عليه . أما الرقم (٤) ، فيمثل بأربعة خطوط عمودية متوازية . وأما الرقم (٥) فيرمز عنه بالحرف (خ) الذي هو الحرف الأول من كلمة (خمس) . وإذا أرادوا الإشارة الى الرقم (٦) وضعوا خطاً عمودياً على الجانب الأيسر لحرف (الخاء) الذي يرمز عن الخمسة ، ومن هذا الحرف والخط العمودي الكائن مكانه في موضع العشرات بالقياس الى حسابنا يتكوّن الرقم (٦) . وإذا أرادوا الرقم (٧) وضعوا خطين عموديين على الجانب الأيسر للحرف خمسة ، فيعبر هذا المجموع المكون من الخاء ومن الخطين العموديين المستقيمين عن الرقم (٧) . وإذا أرادوا الرقم (٨) ، وضعوا على الجانب الأيسر من الحرف خاء ثلاثة خطوط تشير الى الرقم(٣) ، فيتكون بذلك من حرف الخاء الذي يرمز عن الخمسة ومن الثلاثة،المجموع ثمانية، وهو الرقم المطلوب . أما الرقم (٩) ، فيتكون من مجموع رقم (٥) الذي يرمز عنه الخاء ومن الرقم (٤) الذي تمثله خطوط عمودية أربعة . وأما الرقم عشرة ، فيرمز عنه بحرف العين الذي يمثل الحرف الأول من كلمة عشرة . وأما الرقم (١٠٠) فيرمز عنه بالحرف الأول من الكلمة مئة ، أي بحرف الميم . وأما الرقم (١٠٠٠) فرمز عنه بالحرف ألف ، أي بالحرف الأول من الكلمة أيضاً، فيلاحظ

من هنا أن العرب الجنوبيين استعملوا الحروف الأولى من أسماء بعض الأرقام عوضاً عن الأرقام نفسها،ولم يتبعوا الطرق التي نتبعها اليوم في كتابة أمثال هذه الأعداد.

والظاهر ان استعمالهم حرف الخاء مقام العدد (٥) ، جعلهم يحارون بعض الحيرة في التعبير عن العدد (٥٠) الذي يبدأ مثل العدد (٥) بحرف الخاء ، فتخصيص هذا الحرف بالعدد (٥) جعل من غير الممكن تخصيصه بالعدد (٥٠) كذلك . ولما كان من الصعب كتابة الـ (٥) عشر مرات للتعبير عن العدد (٥٠) الذي هو حاصل جمع عشر خمسات خاصة لأن هذا العدد يتضاعف ويتكـرر ، فكروا في حل آخر يحل لهم هذه المشكلة . مشكلة ايجاد حرف أو علامة ترمز عن الرقم (٥٠) . وقد وجدوا ذلك الحل من حقيقة العدد (٥٠) الرياضية . فالعدد (٥٠) هو نصف الـ (١٠٠) كما هو معلوم . ولما كان حرف الميم يرمز عن المئة ، والمئة هي حاصل جمع خمسين مع خمسين ، فيكون حرف المـيم هو حاصل جمع خمسين مع خمسين . ولما كان حرف الميم في المسنـد هو على شكل خط عمودي يرتكز عليه مثلثان قاعدتهما ملتصقة على ذلك العمود ، فإن كل مثلث من ذينك المثلثين يعبر في الواقع عن الرقم (٥٠) ، فهداهم تفكيرهم هذا الى رفع المثلث الأسفل ليبقى مثلث واحد هو المثلث الأعلى مرتكزاً على الخط العمودي، ليعبر عن قيمته المتبقية وهي خمسون ، وصار هذا الرمز الذي هو نصف حرف الميم رمزاً عندهم للعدد (٥٠) . وبذلك أوجدوا لهم حلاً لتلك المشكلة التي لا بد انها شغلت بال كتّابهم مدة من الزمن .

وأما الأعداد التي تلي العشرة فيبدأ بها بحرف العين أولاً ومعناه عشرة ، ثم تليه بقية الزيادة أي مقدار زيادة ذلك العدد عن العشرة. فإذا أرادوا الرقم (١١) مثلاً بدأوا بحرف العين ، ثم وضعوا بعده أي على يساره خطاً عمودياً واحداً بمعنى واحد ، ويكون المجموع أحد عشر . أما اذا أرادوا الرقـم (١٢) ، فإنهم يضعون مستقيمين عموديين على يسار حرف العين ليدل ذلك على عشرة زائد اثنين وهو اثنا عشر . واذا أرادوا (١٣) وضعوا ثلاثة خطوط عمودية مستقيمة لتدل عليه . أما اذا أرادوا (١٤) فإنهم يضعون أربعة خطوط عمودية ، ليكون مجموعها مع العشرة أربعة عشر . أما اذا أرادوا (١٥) ، فإنهم يكتبون حرف العين ثم يضعون من بعـده وعلى جهة يساره حرف الخاء الـذي هو بمعنى خمسة . واذا أرادوا (١٦) وضعوا بعد حرف العين ما يرمز عن الستة ، وهكذا بقية الأعداد

الى العدد (١٩) . أما العدد (٢٠) فإنهم يكنون عنه بكتابة حرف العين مرتين ، ومعنى ذلك عشرة مضافاً اليها عدد عشرة والجمع عشرون. وإذا أرادوا الرقم (٢١) كتبوا حرف العين مرتين ليرمز عن العشرين ثم وضعوا خطاً عمودياً واحداً على جهة يساره ليرمز عن الرقم (١) ، فيكون المجموع عشرين وواحداً ، وهكذا يكتبون بقية الأعداد ابتداء بالعشرين أي بحرفي العين مضافاً العدد المقصود حتى الرقم (٣٠) فيضعون له ثلاثة أحرف من حرف العين . أما الـ (٤٠) فيضعون له أربعة أحرف من حرف العين ، ثم يستمرون على طريقتهم في العدد بعد الأربعين على الطريقة المألوفة في الابتداء بالعدد العشرات ، ثم كتابة الرقم المقصود الذي هو دون العشرة من بعده الى الرقم التاسع والأربعين . فإذا أرادوا الرقم (٥٠) وضعوا الرمز الخاص الذي تحدثت عنه ، وهو نصف حرف الميم . أما الرقم (٦٠) فيرمز عنه بهذا الرمز ، أي نصف حرف الميم مضافاً اليه الحرف عين رمز العشرة ليشير الى مجموع العددين وهو ستون . أما الرقم (٧٠) فيتكون من هذا الرمز مضافاً اليه حرفان للعين . وأما الرقم (٨٠) فيكون بإضافة ثلاثة أحرف عين على الجهة اليسرى للرقم (٥٠) . وأما الرقم (٩٠) فيتكون من رمز (٥٠) مع إضافة أربعة أحرف عين اليه .

وتكتب الأرقام ما بعد المئة الى الألف على الترتيب الآتي : يكتب الحرف رمز المئة في الأول ، ثم يوضع الرقم الذي يلي المئة على جهة يساره على النحو الذي شرحته الى حد الرقم (١٩٩) فإذا أرادوا كتابة (٢٠٠) كتبوا حرفي ميم ، وإذا أرادوا (٣٠٠) وضعوا ثلاثة أحرف من حروف الميم ، وإذا أرادوا (٤٠٠) وضعوا أربعة أحرف من حروف الميم ، وإذا أرادوا (٥٠٠) وضعوا خمسة أحرف من حروف الميم، وهكذا تزاد كتابة الميم بزيادة عدد المئات حتى تصل الى تسع، ويكون الرقم عندئذ تسع مئة . أما الألف،فيرمز عنه بحرف الألف كما ذكرت .

وطريقة التعبير عن الأعداد في حالة الآحاد وفي العشرات وفي المئات هي طريقة واضحة مفهومة بعض الفهم كما رأينا ، إذ عبر عن الأرقام من واحد الى أربعة بخطوط مستقيمة ، وعبر عن الخمسة بحرف الخاء تزاد عليه خطوط بزيادة الأرقام المطلوبة،حتى تصل الى الرقم (١٠) ، فيعبر عنه بحرف عين . وفي باب العشرات يقدم حرف العين الذي هو عشرة على الأرقام المقصودة التي هي دون العشرة ، وتتبع هذه الطريقة الى المئة . أما في حالة المئات الى الألف فيبتدىء العدد بالمئات،

ثم تليه العشرات ، فالآحاد ، فهو في نفس المبدأ الذي وضعه علماء الرياضيات عندهم للعشرات ، أي على قاعدة تفضيل العدد الأكبر من ناحية العدّ على العدد الأصغر ، فقدموا العشرات على الآحاد ، وقدموا المئات على العشرات ، ثم الآحاد . أما في حالة الاعداد الالوف ، فلم يتقيد كتّاب حسابهم بهذه القاعدة ، بل ساروا على طرق أخرى ، فكتبوا حروف الالف بعد الاعداد الالوف التي أرادوا كتابتها . فللتعبير عن ألفين وضعوا حرفي ألف ، وهما مجموع ألف مع ألف أخرى،وللتعبير عن ثلاثة آلاف وضعوا ثلاثة أحرف ألف ، وهكذا ساروا في كتابة بقية الاعداد الآلاف . غير أنهم ساروا على طريقة أخرى في كتابة العدد ستة عشر ألفاً مثلاً . فوضعوا ستة أحرف ألف ، ووضعوا الى الجانب الأيسر من الحرف الألف الأخير الحرف عين رمز العشرة ، وقد رمزت العشرة هنا عن العدد (١٠٠٠٠) ، ورمزت الحروف الستة عن (٦٠٠٠) ، ومن مجموع الستة آلاف والعشرة آلاف يتكون العدد (١٦٠٠٠) . وفي كتابة العدد(٣١٠٠٠) كتبوا حرفاً واحداً من حروف الألف ليدل على الرقم ألف ، ووضعوا على الجهة اليسرى منه ثلاثة أحرف عين وتعني ثلاثين ألفاً . ومن الألف والثلاثين ألفاً يتكون العدد (٣١٠٠٠) . أما في حالة كتابة الرقم (٤٠٠٠٠) ، فقد اكتفوا بكتابة أربعة أحرف من حروف العين ، مع أن هذه الأحرف تعني مجموع أربع عشرات ، أي أربعين ، بينما أرادوا بهذه الأحرف العدد (٤٠٠٠٠) في هذا الموضع . أما في رقم مثل (٤٥٠٠٠) ، فقد كتبوا خمسة أحرف من حروف الألف أولاً ، ثم وضعوا أربعة أحرف من العين في أيسر آخر ألف ، والمجموع هو خمسة آلاف وأربعون ألفاً . وفي الرقم (٦٣٠٠٠) وضعوا ثلاثة أحرف من (الألف) لتعني ثلاثة آلاف ، ووضعوا نصف حرف ميم وهو رمز الخمسين ، وفي أيسره حرف العين رمز العشرة،وبذلك عبروا عن الستين . ولورود هذا الرقم بعد عدد آلاف قصدوا به ستين ألفاً . ومن مجموع ثلاثة آلاف والستين ألفاً ، يتكون العدد ثلاثة وستون ألفاً . وقد اكتفوا في كتابة الرقم (١٥٠٠٠٠) بكتابة الرمز الخمسين وهو نصف حرف ميم ، ووضعوا الى الأيسر منه حرف ميم رمز المئة ، وقصدوا بذلك خمسين ومئة ألف . ولو كانوا قد كتبوا حرف الميم أولاً ، ثم وضعوا نصف حرف الميم الى يساره ، لكان حاصل جمع العددين خمسين ومئة . وبتقديم نصف حرف الميم وبتغيير اتجاه مثلثي حرف الميم ومثلث نصف حرف الميم بجعله نحو اليمين،

عبروا عن الرقم (١٥٠٠٠٠) . أما في كتابتهم الرقم ٢٠٠٠٠٠ ، فقد كتبوا ميمين ، وقد عبر كل ميم في هذا الموضع عن مئة ألف .

ويرى بعض المتخصصين بقراءة النصوص العربية الجنوبية ان كتّاب المسند لم يتركوا كتابة حروف الألف التي تشير الى الأعداد الآلاف إلا إذا كان العدد مدوراً ، وآلافاً خالية من الأرقام الآحاد ، كما رأينا في الرقم (٤٠٠٠٠) ، و (١٥٠٠٠٠) ، و (٢٠٠٠٠٠)[١] .

وقد سار كتّاب المسند على قاعدة كتابة الرقم لفظاً ، أي كتابة مقداره بالكلمات ، وتدوين المقدار المكتوب بعد الرقم ، وقد حملهم على اتباع هذه الطريقة خوفهم من الوقوع في الخطأ في قراءة الأرقام والرموز التي خصصوها بالأرقام ، كما انهم اصطلحوا على رسم مستطيل تتخلله خطوط تجعله على هيأة شباك تقريباً ، يوضع في أيمن الرقم ، أي قبل ابتدائه ، ومستطيل آخر يوضع في يسراه أي في نهاية الرقم تماماً للدلالة على ان ما هو مكتوب بين هذين الرقمين هو عدد ، وبذلك تسهل قراءته .

ولم يصل الينا ان كتّاب المسند استخدموا علامات خاصة بكسور الأعداد ، كالأنصاف أو الأرباع أو الأثلاث أو الأخماس أو ما شاكل ذلك ، او انهم استعملوا علامات خاصة للجمع او الطرح او القسمة او الضرب او علامات للتربيع او للجذور وأمثال ذلك من العلامات المستعملة في علوم الرياضيات . وقد عبروا عن كسور الأعداد بذكر ألفاظها . واذا لم تصل الينا كتابات في موضوعات رياضية ، فلا نستطيع ان نجزم في موضوع أمثال هذه العلامات عند العرب الجنوبيين . فلعل الأيام تكشف لنا عن كتابات رياضية ترينا ان رياضيي العرب الجنوبيين كانوا أرقى كثيراً مما نظن الآن .

وللوقوف على صور الأعداد عند العرب الجنوبيين أدون نماذج من الأرقام ، مقرونة بما يقابلها من الأرقام التي نستعملها عندنا في الحساب :

---

١ Hofner S. 15.

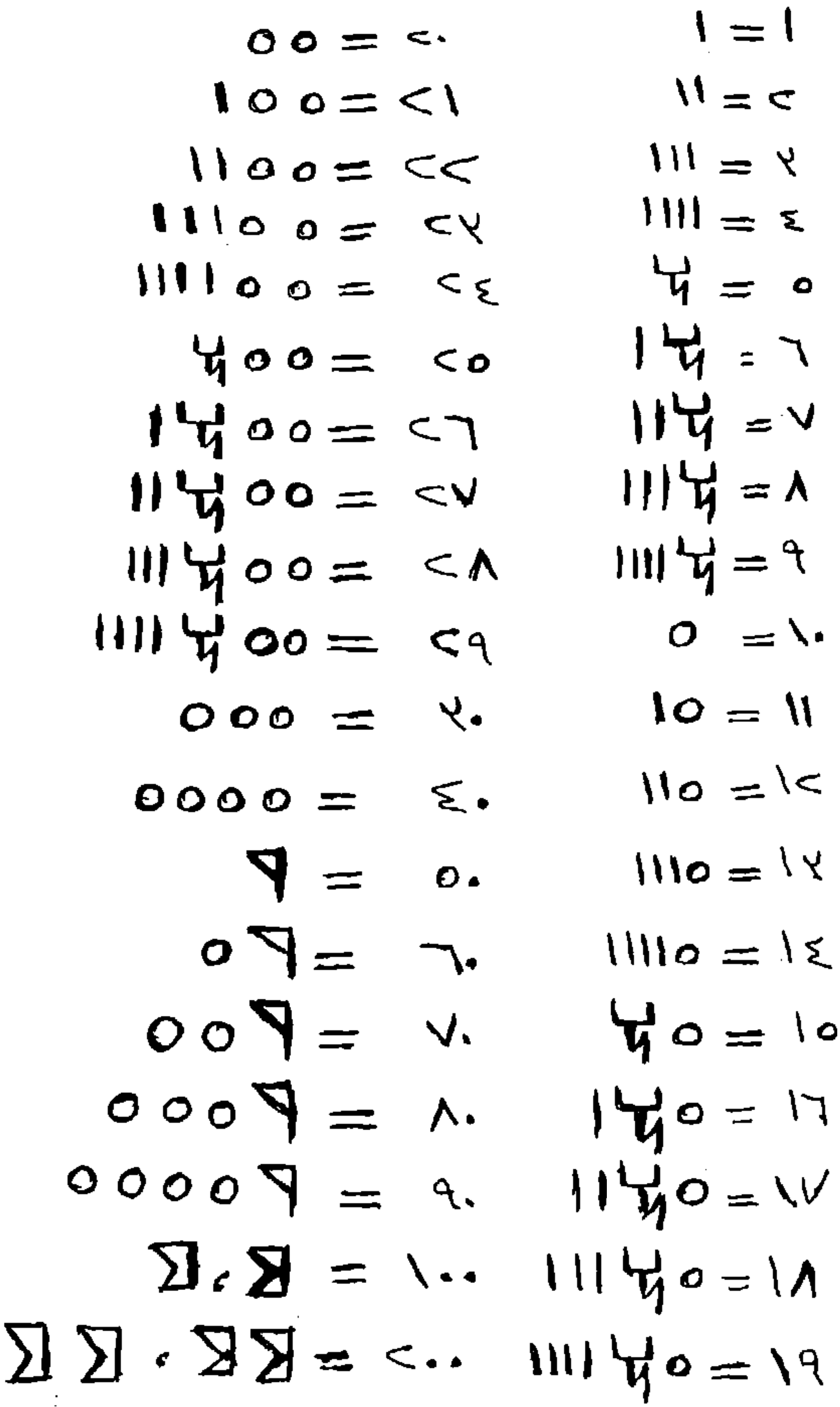
١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩
٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠ ٩٠ ١٠٠ ٢٠٠

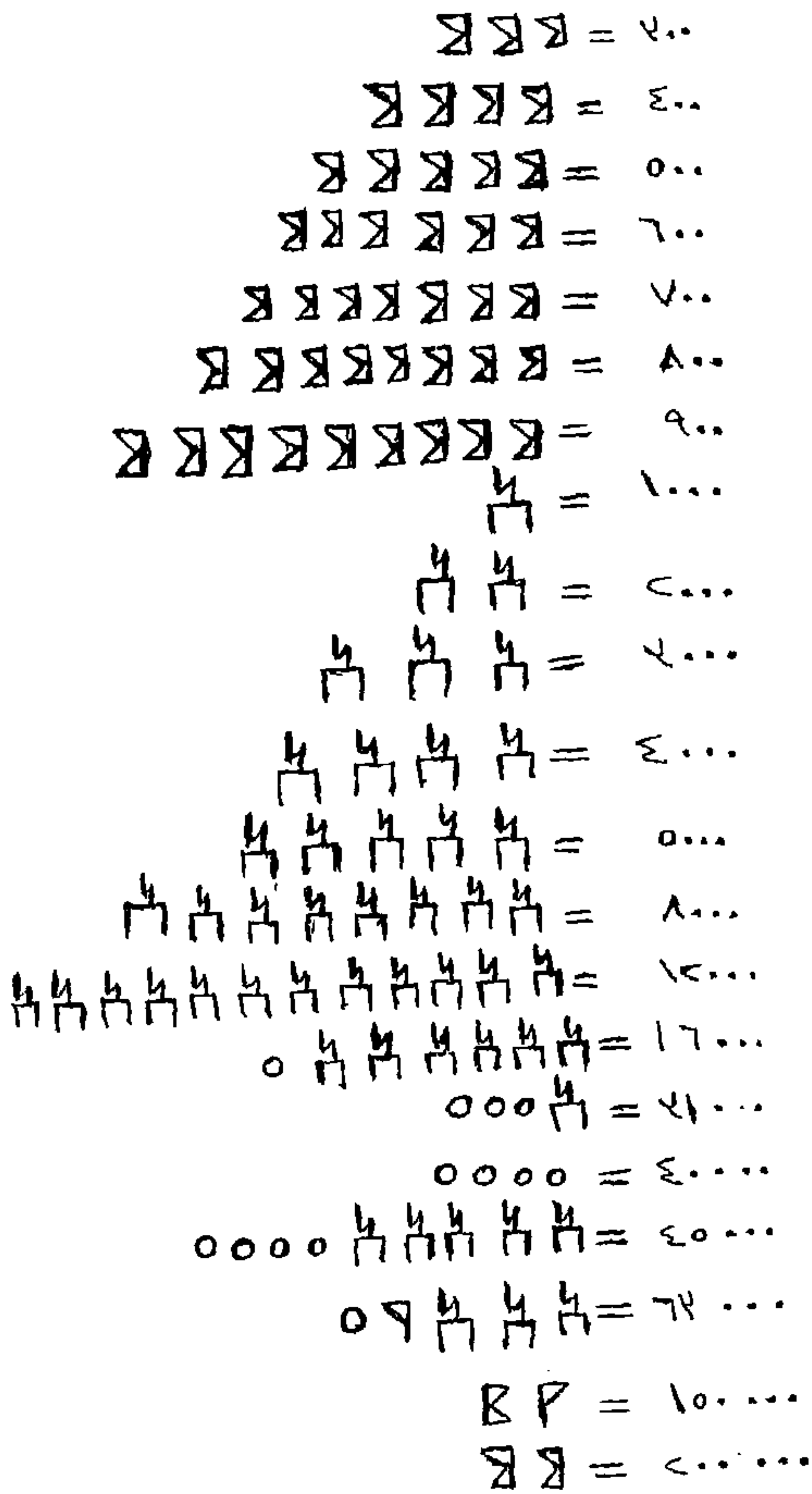
= ٣٠٠
= ٤٠٠
= ٥٠٠
= ٦٠٠
= ٧٠٠
= ٨٠٠
= ٩٠٠
= ١٠٠٠
= ٢٠٠٠
= ٣٠٠٠
= ٤٠٠٠
= ٥٠٠٠
= ٨٠٠٠
= ١٢٠٠٠
= ١٦٠٠٠
= ٣١٠٠٠
= ٤٠٠٠٠
= ٤٥٠٠٠
= ٦٣٠٠٠
= ١٥٠٠٠٠
= ٢٠٠٠٠٠

وأما الفواصل التي تشير الى الأرقام وتوضع في أول الرقم وعند منتهاه، فهي على هذا الشكل :

ومادة الكتابة عند العرب الجنوبيين ، هي الحجارة والصخر والخشب والمعادن، يكتبون عليها بالحفر ، ولم أسمع أن أحداً من الآثاريين حتى الآن عثر على كتابات بالمسند مدوّنة بالحبر على القراطيس والجلود والرق أو على ورق البردي على نحو ما كان يفعله المصريون وغيرهم . والظاهر أنهم لم يكونوا يتبعون طريقة كتّاب بابل في الكتابة على ألواح الطين التي تجفف بعد ذلك بالشمس أو بالنار ، فتكون كتابة ثابتة مدوّنة على مادة صلبة ، لأن الباحثين لم يعثروا علـى كتابات بالمسند مدونة على هذه الطريقة .

غير ان عدم وصول كتابات بالمسند مدونة على القراطيس او الجلود ، لا يعني ان العرب الجنوبيين لم يكونوا يعرفون الكتابة عليها وعلى مواد مشابهة لهـا ، إذ لا يعقل عدم وقوف العرب الجنوبيين على استعمال الجلود والقراطيس وعظام الحيوانات مادة للكتابة ، وقد كان استعمالها في العالم يومئذ شائعاً معروفاً . ومـرد السبب في عدم وصول شيء من الكتابات المدونة على تلك المواد ، الى قابلية هذه المواد للتلف ، وحاجتها الى العناية الشديدة ، بدليل عدم وصول شيء ما من الكتابات المدونة على الجلود وعلى جريد النخل وعلى اللخاف والعظام والقراطيس من صدر الاسلام ومن أيام الرسول خاصة مع أهميتها وقدسيتها . وليس في استطاعة أحد أن ينكر ان القرآن الكريم قد كتب على هذه المواد المذكورة ، وان الرسول قد أمر فكتبت له عدة كتب وعقود ومواثيق ، ولكن بادت أصولها .

والبحث في أصل المسند مثله في أصل الخط، ما زال موضع جدل بين العلماء الباحثين في العربيات الجنوبية . فمنهم من يرجع أصله الى الخط الفينيقي ، ومنهم من يرجعه الى كتابات سيناء حيث عثر فيها على كتابات قديمة جداً يعدّها الباحثون أقدم عهـداً من الكتابات العربية الجنوبية ، وقد وجد بين بعض حروف هـذه الكتابات وحروف المسند شبه جعلهم يذهبون الى اشتقاق المسند من خطوط سيناء [1].

---

١ Driver, Semitic writing from Pictograph to Alphabet, London, 1954, pp. 123.

ومنهم من يذهب الى اشتقاق المسند من الخط الكنعاني، للتشابه بين بعض حروف الخطين . وللتوصل الى معرفة منشأ الخط المسند ، لا بد من تعيين تأريخ لأقدم كتابة مدونة بالمسند ، ولم يتفق العلماء على تأريخ ثابت معين . انما رجع بعضهم تأريخ أقدم الكتابات الى سنة ١٥٠٠ أو ١٣٠٠ قبل الميلاد ، على حين لم يرتفع آخرون بتأريخ أقدم كتابة عثر عليها بالمسند الى أكثر من ٧٠٠ أو ٨٠٠ قبل الميلاد . ولضبط هذا التأريخ أهمية جد عظيمة في البحث عن أصل منشأ ذلك الخط . ثم انه لا بد في تعيين أصل الخط المسند من النص على أسماء الحروف نصاً ليس في أمره شك ، ثم لا بد أيضاً من النص على نظام ترتيب حروف المسند عند العرب الجنوبيين . وكل هذه الأمور غير متفق عليها ، واذن فليس من الممكن في مثل هذه الظروف التوصل الى حل علمي يوافق عليه جميع الباحثين في العربيات الجنوبية .

واذا كان أغلب الكتابات في موضوع واحد ، هو التقرب الى الآلهة بهدايا وبنذور ، كان أسلوبها يكاد يكون واحداً ، فهي تبدأ عادة باسم المهدي أو بأسماء المهدين ، ثم يعقب ذلك فعل يشير الى التقديم مثل استعمال فعل قدّم أو أهدى وما شاكل ذلك من أفعال مناسبة ، ثم اسم الإلـه أو أسماء الآلهة التي قدمت لها الهدايا ، يليها بيان السبب الذي من أجله قدمت ، مثل شفاء من مرض أو وفاء لنذر ، أو طلباً من الإلـه أو الآلهة ان تطيل عمر المهدي ، أو تشفيه من مرضه، أو لتحل له مشكلاً وقع فيه أو مشكلات تحيط به .

القلم اللحياني :

ومن القلم المسند اشتق القلم اللحياني ، والقلم الثمودي ، والقلم الصفوي، وذلك لأن القلم المسند متقدم في الوجود على هذه الأقلام ، فلا يمكن أن يكون قد أخذ منها . ثم إن المناطق التي وجدت فيها الكتابات اللحيانية والكتابات الثمودية ، كانت في حكم المعينيين والسبئيين ، بدليل عثور العلماء على كتابات معينية فيها . وهذه الكتابات أقدم عهداً من الكتابات اللحيانية والثمودية ، ولذلك ذهب الباحثون في اللحيانيات والثموديات الى اشتقاق خطها من الخط المسند .

ولم ينقل أهل أعالي الحجاز القلم المسند نقلاً تاماً ، بل عدّلوا بعض حروفه

وغيّروا فيها بعض التغيير . فظهر من ذلك القلمِ القلمُ اللحياني والقلم الثمودي ، غير أننا نجد أن كتابات القلم اللحياني تختلف بعض الاختلاف . وقد قسّمها (ورنر كاسكل) الى نوعين : كتابات لحيانية متقدمة ، وكتابات لحيانية متأخرة . وقد بني تقسيمه هذا على أساس قدم الكتابات وتأخرها في التأريخ . والواقع أننا نجد الكتّاب قد تحرروا في كتابة حروفهم في جميع العهود ، في العهـد المتقدم وفي العهد المتأخر ، بحيث لم يتركوا لنا مجالاً للأخذ بهذا التقسيم . فنراهم وقد كتبوا بعض الحروف بأوضاع قـد تزيد على الخمسة . غير أننا إذا ما تصفحنا هـذه الحروف المختلفة الأشكال،لا نجدها تختلف اختلافاً بيناً ، إنما يرجع هذا الاختلاف في الواقع الى ضعف وقوة يد الكاتب الذي حفر تلك الكتابات عـلى الحجارة أو الخشب أو المواد الأخرى التي حفر الكتابة فيها . فنهم من كـان قوياً في حفره للحروف ، ومنهم من كان ضعيفاً ، فبان هذا الاختلاف في هيئات رسم الحروف. ومن هنا أرى ان اختلاف صور الحروف ، لا يدل حتماً على تطور الخط ، بقدر ما يدل على مهارة أو ضعف الكاتب في الكتابة .

والقلم اللحياني مثل المسند خال من الشكل ، وخال من الرموز أو الحروف التي تشير الى المدّ أو التشديد أو الإشباع أو الإشمام أو الإمالة ومـا شابه ذلك . وقد أوجد هـذا النقص لقراء الكتابات اللحيانية مشكلات كثيرة في فهمها وفي ضبط الكلمات والأسماء فيها . فلفظة (زد) مثلاً المكتوبة بحرفين ، قد تقرأ على أشكال مختلفة ، قد تقرأ (زَد) و (زِد) و (زُد) و (زاد) و(زَيْد) و (زود) ، الى غير ذلك من أشكال . وهي قد تكون اسماً ، كما قد تكون فعـلاً أو مصدراً ، وعلى القارىء استخراج نوعها من موقعها في الجملة ومن مقتضى الحال . ومثل ذلك عن (شم) التي تعني (شيم) اسم رجل ، و(كتب) بمعنى (كاتب) اسم رجل أيضاً ، مع أن للكلمة عدة معان يفهمها الانسان من موقع اللفظة في النص .

ولم يتقيد كتّاب الكتابات اللحيانيـة تقيداً تاماً بكتابة الفواصل العمودية التي تستعمل للفصل بين الكتابات ، كما تقيد بها كتّاب المسند . غير أنهم لم يسيروا في كتاباتهم على وتيرة واحدة . فنراهم يخالفونها أحياناً فيفصلون الألفاظ بفواصل. وقد رفعت الفواصل عن الألفاظ المؤلفة من مقطع واحد ، مثـل مع ، وكتبت مع اللفظة التي تليها . أما إذا اجتمعت لفظتان ، كل واحـدة منها ذات مقطع

واحد مثل (و) حرف عطف و (لِ) فالكتاب يكتبونهما على طريقة كتّاب المسند أي ممزوجتين ، على هذا الشكل : (ول)[1] .

ونجد في هذه الصورة كتابة لحيانية متأخرة ، يظهر منها وكأن صاحبها قد كتبها على عجل ، فالخط فيها سريع ضعيف يدل على عجلة ، والحروف غير واضحة ، وقد كتبت بطريقة الحفر بقلم من حديد أو سكين أو آلة حادة أخرى على الحجر ، حفراً سريعاً ، كما نكتب بسرعة في القلم . ومن هنا يختلف القلم اللحياني عن القلم المسند ، يختلف عنه في عدم تمسك كتّابه بكتابة الحروف بصورة واضحة بينة وبخط قوي واضح يقرأ بسهولة . ولعل لموقع اللحيانيين ولموقع من كتب مثلهم بسرعة وبغير نظام ثابت وتقيد بهندسة الحروف وأشكالها ، فيما بين الأبجديات الشمالية ، والأبجدية العربية الجنوبية أثراً في هذا التغير ، إذ نكاد نلمس من قراءتنا لهذه الخطوط انها تحاول الهروب من نظام المسند ، المستند على الشكل الهندسي المرتب للحروف ، الذي يفصل بين الحروف ، والذي يحتاج الكاتب فيه الى التأني في كتابة الحرف ، فيضيع بعض الوقت بسبب ذلك ، كما يحتاج الى إشغال مكان واسع للحروف . بينما نرى الأبجديات الشمالية تقلص من حجم حروفها وتحاول جهد امكانها ربطها بعضها ببعض اختصاراً في الوقت وفي المكان وفي الجهد. وحروف هذه الأبجديات وإن بقيت محافظة على استقلالها وعلى أشكالها الدالة على انها من نبت المسند، إلا انها اتخذت صوراً متعددة، كما انها لم تتقيد بما تقيد به المسند في نظامه من السير على طريقة السطور ، وهو نظام يسهل على القارىء قراءة الكتابة من اليمين الى اليسار ، أو من اليسار نحو اليمين ، أو بطريقة (حلزونية)، بل خرجت على هذا النظام ، ولا سيما في حالة الكتابات الثمودية والصفوية ، فكتبت بصور غير منتظمة ، على صورة هلال ، أو كرة ، أو نسيج العنكبوت، مما جعل من الصعب على القارى فهم الكتابة ، ويظهر ان ذلك انما وقع بسبب ان الكتبة كانوا من الرعاة أو الفلاحين ، وان الكتابات التي عثر عليها هي من

---

١ W. Caskel, S. 60.

كتاباتهم ، وقد كتبوها تعبيراً عن خاطر عنّ لهم ، فهي لا تمثل اذن كتابات رسمية أو كتابات جماعة من المثقفين الذين يعتنون بحسن الخط ، وانما هي خواطر دونت على أي حجر وجده الكاتب ، ودونها بالشكل الذي وجده يناسب ذلك الحجر .

وهذه الكتابة التي تراها في هذه الصورة هي كتابة محفورة على لوح من الحجر، وهي من الكتابات اللحيانية المتأخرة ، المحافظة على نظام السطور . وخطها وإن كان ضعيفاً غير أنه واضح نوعاً ما ونجد الشبه كبيراً بينه وبين المسند .

كتابة لحيانية متأخرة (من كتاب : Caskel, Nr. 2)

كتابة لحيانية قديمة

من كتاب : Caskel, Nr. 1

أما هذه الصورة ، فتمثل كتابة لحيانية قديمة ، وقد تفنن في كتابتها كاتبها ، وحفر الحروف فيها حفراً جعلها بارزة ، وقد حافظ فيها على نظام السطور . ونرى الشبه بين أشكال هذه الحروف وأشكال المسند بيناً ، إذ لم تكن الكتابات اللحيانية القديمة قد ابتعدت بعد بعداً كبيراً عن الخط العربي الجنوبي .

الخط الثمودي :

والخط الثمودي مثل الخط المسند والخط اللحياني والخط الصفوي ، خالٍ من الشكل ومن التشديد ومن الإشباع ومن علامات للحركات تكتب مع الحروف في صلب الكلمة . ولهذا يلاقي قارئه من الصعوبات ما يلاقيه قارىء القلم المسند والقلم اللحياني . فكلمة (بت) يمكن أن تقرأ بأوجه متعددة كأن تقرأ (باتَ) فعلاً ماضياً ، و (بيت) اسماً . ولفظة (عف) ، تكتب بهذه الصورة ، ويقصد بها (عوف) إن كتبت مع الأسماء . ولفظة (زد) هي (زيد) ، ولفظة (تم) هي (تيم) ، ولفظة (منت) هي (مناة) ، وقد يراد بها (منيت)، أي المنية . وجملة (قنص اسد) تحتمل أن تكون على هذا النحو : (قَنَص أسدٌ) ، وقنص اسم رجل ، وهو مبتدأ خبره (أسدٌ) . ويحتمل أن تكون على هذه الصورة : (قنص أسداً) فتكون جملة فعلية (قنص) فيها فعل ماضٍ ، والفاعل مستتر تقديره هو ، وأسداً مفعول به .

غير أن بعض الكتابات قد استعملت حروف العلة : الواو والألف والياء ، في بعض الأحيان لسد النقص الحاصل من عدم وجود الحركات ، كما في (نور) ، و (اموت) (أموت) حيث قامت (الواو) بأداء واجب الـ (او) (ū) وكما في لفظة (دين) ، وعظيم ، حيث قامت الياء بأداء الحركة (إي) (i) (ي) ، وكما في (موت) (بيت) و (عليت) بمعنى كنت معتلاً ، و (رضو (اسم) الإلـه ، و (مو) بمعنى ماء ، و (لى) بمعنى (لي) ، و (ذى) بمعنى (هذا) ، و (اتا) بمعنى (أتى) ، وأمثال ذلك . غير أن هذا الاستعمال لم يكن عاماً ، وإنما كان خاصاً يرد في بعض الكتابات . ونجد هذه الكلمات التي ذكرتها ، خالية من الحروف المذكورة ، في نصوص أخرى ، مما يدل على أن هذه حالات كتابية خاصة ، ولم تكن قاعدة عامة متبعة في كل الكتابات .

ومن مميزات القلم الثمودي أنه لم يتقيد باستعمال الخطوط العمودية للفصل بين الكلمات ، ولهذا نجد الحروف والكلمات متصلة بعضها ببعض في كثير من الكتابات لا يفصل فاصل بينها . وقلما نجدها تستعمل بعض العلامات مثل النقط أو الخطوط الصغيرة لتحديد الجمل . ثم إنه أطلق لنفسه العنان في اتباع الجهة التي يسير عليها

الخط ، فتراه تارة يسير سيرنا في الخط ، أي من اليمين الى اليسار وباتجاه أفقي ، وتارة أخرى يتجه من اليسار الى اليمين . وأحياناً من أعلى الى أسفل ، ومن أسفل الى أعلى في أحيان أخرى ، كما تراه يتخذ شكل قوس في بعض الأحيان ، أو أشكالاً أخرى ، كأن يمزج بين هذه الطرق بحسب رغبة الكاتب وشكل المادة التي يكتب عليها . وعلى قارىء النص لذلك الانتباه الى هذه الاتجاهات ، لمعرفة مبدأ الكلام من منتهاه .

ونجد بعض الكتابات الثمودية ، وكأنها رموز أو طغراء ؛ إذ نجد حروفها وقد تداخل بعضها في بعض ، أو بعض حروف منها وقد تشابكت بحيث يصعب على القارىء حلها . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها نوع من (الوسم) ، غير أن من المهتمين بالثموديات من لا يوافقونهم على هذا الرأي ، وإنما يرون أنها تمثل رموزاً دينية ، أو الأحرف الأولى من أسماء كاتبيها ، أو أسماء بعض الآلهة ، أو ما شاكل ذلك مما كان له معنى معروف في نفوس أصحابه ، وقد خفي ذلك علينا ، لعدم وجود مفاتيح لدينا تحل لنا هذه الكتابات المتخذة طابع الرموز والإشارات .

ونجد الكتابات الثمودية تعاف بعض حروف الكلمات أحياناً وتختزلها ، كما في (ب) ، التي تعني (ابن) ، فقد تركت حرف النون واكتفت بالباء . ويستطيع القارىء ادراك معنى (ب) من القراءة . وكما في (ل) بمعنى (لنا) و (لي) ، و (ب) بمعنى (بي) ، أي انها تقطع الضمير اللاحق بحرف الجر في بعض الأحيان[1] .

الأبجدية الصفوية :

والأبجدية الصفوية مثل الأبجدية اللحيانية والأبجدية الثمودية ، أصلها من القلم العربي الجنوبي . وهي تتألف من ثمانية وعشرين حرفاً ، غير ان كتاب هذا القلم قد تلاعبوا به كما تلاعب كتاب القلم اللحياني والثمودي بحروف المسند ، وأوجدوا لهم منها أشكالاً أخرى ميزتها عن الأصل ، فأخذ الحرف الواحد أشكالاً

---

١ Grimme, S. 34. ff

متعددة ، تباعد أشكال بعضها تباعداً كثيراً عن الأصل ، حتى عسرت على القارىء قراءة النص ، وهذا مما أوجد مشاكل لقراء هذه النصوص في قراءتها قراءة صحيحة .

و (هاليفي) الذي هو أول من تمكن من تشخيص الأبجدية الصفوية ، وأول من سمّاها بهذه التسمية،لم يتوفق في الواقع إلا في معرفة (١٦) حرفاً من الحروف الثمانية والعشرين التي تتكون منها الأبجدية الصفوية . أما الحروف الباقية ، فقد أخطأ في تشخيصها ، حتى جاء (بريتوريوز) فتمكن من تشخيص خمسة أحرف أخرى ، كما تمكن الأستاذ (ليتمان) من تشخيص هوية سبعة أحرف ، فاكتمل العدد ثمانية وعشرين حرفاً[1] .

ومن الصعوبات التي تعترض قارىء الكتابات الصفوية في قراءة هذه الكتابات وفي فهمها أن للحروف فيها كما قلت آنفاً جملة رسوم ، وان بعض رسوم الحرف الواحد هي رسوم لحرف آخر . فبعض صور الباء هي أيضاً صور للظاء ، ولهذا قد تقرأ (باء) ، كما تقرأ (ظاءً) . ويتشابه كذلك رسم الخاء مع التاء ، واللام مع النون ، والهاء مع الصاد ، وكذلك رسوم حروف أخرى ، فكانت من هذا كله صعوبات كبيرة تعترض الباحث في قراءة هذه النصوص وفي تثبيت معناها ، ولا سيا ان هذه الأبجدية هي كالأبجديات الأخرى خالية من الشكل ومن التشديد ومن حروف العلة في أكثر الأحيان ومن المقاطع ، فلا فرق فيها في الكتابة بين الفعل والاسم والفاعل والمفعول به ، وفيها مصطلحات وتراكيب نحوية غير معروفة في عربيتنا أو في اللهجات السامية الأخرى . وعلى الباحث إعمال ذكائه في كشف المعاني ومواقع الكلم في هذه النصوص .

وهناك صعوبة أخرى تعترض الباحث في قراءة النصوص الصفوية تكمن في عدم وجود قاعدة معينة للابتداء في الخط . فالكاتب بهذا القلم حر كما يظهر من

---

١ Semitisk, Dritter Band, Zweiter und Dritter Abschnitt, 1945, S. 213.

رينه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ٦٥ وما بعدها) ، (تعريب عبد الحميد الدواخلي) .

الكتابات في اختيار الجهة التي يبدأ بها في الكتابة ، فله أن يبدأ بكتابته من اليمين الى اليسار ، أي على نحو ما نفعله نحن في كتابتنا وعلى نحو ما فعله أكثر كتّاب المسند ، وله أن يكتب من اليسار الى اليمين ، أي عـلى نحو ما يفعله الكاتبون بالأبجدية اللاتينية ، وله ان يمزج بين الطريقتين كما رأينا ذلك في بعض كتابات المسند ، كما ان له أن يبدأ بالكتابة من أعلى الى أسفل ، وله أن يعكس الوضع فيكتب من أسفل الى أعلى ، وله أن يبدأ بالكتابة من أيسر الجهة السفلى للحجر ويتجه الى اليمين ، ثم الى اليسار وفي أي اتجاه أحبّ واشتهى ، وله أن يختـار العكس ، أو أية جهـة شاء ، حتى انك لترى بعض الكتابات وكأنها خيوط متداخلة ، وعلى القارىء ان ينفق جهداً طويلاً في استخراج رأس الخيط واستلاله للوصول الى منتهاه .

والكتابات الصفوية مثل الكتابات الثمودية واللحيانية هي في أمور شخصية ،فهي إما في بيان ملكية شيء ، أو في تعيين قبر أي كتابات قبورية ، أو في رجـاء وتوسل الى الآلهة . وإما تسجيل خاطر ، مثل تذكر أهل أو صديق أو حبيبة أو نزول في مكان أو في تعليق على كتابة قديمة . وكتابات مثل هـذه تكون قصيرة في الغالب ، وقد تكون من كلمة واحدة في بعض الأحيان . ولما كان معظمها في هذه الأمور ، صارت أساليبها في الإنشاء متشابهة ، لا تختلف أحيـاناً إلا في أسماء أصحابها . وهي لذلك لا تفيدنا كثيراً من ناحية الدراسات اللغوية ، غـير أنها مع ذلك أفادتنا فائدة كبيرة في نواحي أخرى ، من مثل الكشف عن أسماء آلهة العرب الجاهليين،أو أسماء القبائل والأشخاص والنبات والحيوان وبعض العادات وغير ذلك مما يتصل بحياة العرب قبل الإسلام .

ونرى في هذه الصورة كتابة صفوية وقد كتبت على شكل ثعبان ، إذ لم يسر كاتبها على طريقة الكتابة بالسطور ،تكتب بعضها فوق بعض . وهي من الكتابات المؤرخة ، وترى بعض الحروف مشابهة لحروف المسند ، أما البعض الآخر ، فقد ابتعد كثيراً عن الأصل .

1198-1198a.

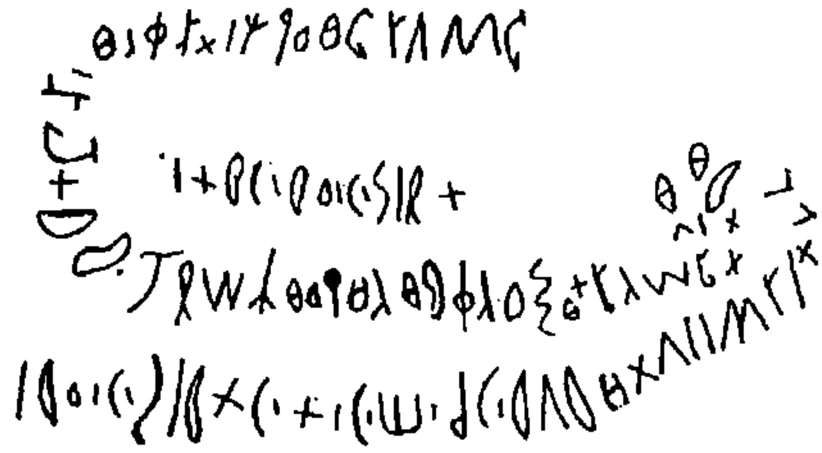

كتابة صفوية أرخت بسنة ٢٤ المقابلة لسنة ١٢٩ للميلاد ، ويرى الرقم على الجانب الأيمن من الكتابة . من كتاب : Safaitic

وفي هذه الصورة الثانية كتابة صفوية ، وقد كتبت على النحو الذي نراه في الصورة ، وقد تصرف كاتبها في الحروف ، تصرفاً تظهر عليه روح الاختزال وتصغير حجم الحرف وهي من الكتابات المؤرخة .

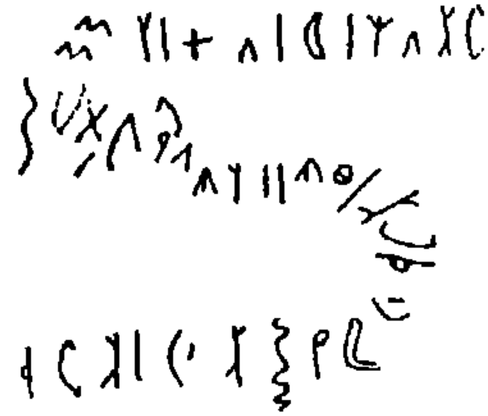

كتابة صفوية يعود تأريخها الى سنة ٤٢ . وقد رقمت برقم ١٦٢ في كتاب : Safaitic . (ص ٣٦) .

والصفوية مثل اللهجات العربية الأخرى في خلوّها من الشكل ، لذلك تجابه الباحث في قراءة كتاباتها ما يجابه قارىء اللهجات الأخرى من مشكلات في فهم الكتابات فهماً صحيحاً واضحاً، فلا بدّ من الاستعانة بعربية القرآن الكريم وباللهجات السامية لفهمها فهماً صحيحاً . ولم يحفل الكتاب بتثبيت الحروف في صلب الكتابة باعتبارها تعبيراً عن الحركات ، ولم يستعملوا المقاطع المعبرة عن الأصوات، لضبط النطق . وقد يكتب فيها الحرف مرتين في مواضع نستعمل لها الشدّة في عربيتنا :

ومادة الكتابات الصفوية ، هي الحجارة الطبيعية بأشكالها المختلفة ، يأخذها الكاتب فيحفر عليها بآلة ذات رأس حاد الكلمات التي يريد تدوينها . أما الورق أو المواد المشابهة الأخرى المستعملة في الكتابة ، فلم يعثر على شيء منها مكتوب بهذه الأبجدية .

ويجب ان أبين ان هذه الكتابات اللحيانية والثمودية ، والصفوية ، لا تعني انها خطوط (بني لحيان) ، و (قوم ثمود) بالضرورة ، فبين الكتابات المنسوبة الى مجموعة من هاتين المجموعتين ما لا يمكن عده من كتابة قوم من (بني لحيان) ولا من قوم ثمود ، وانما هي من كتابات قبائل أخرى ، وقد أدخلت في الخط اللياني او في القلم الثمودي ، لمجرد تشابه الخط . وقد ذكرت ان الكتابة الصفوية ، انما عرفت بهذه التسمية ، بسبب عثور العلماء عليها في (الصفاة) في الغالب ، فنسبوها الى هذه الأرض ، مع انها قبائل وعشائر مختلفة .

ويلاحظ ان التباين في أشكال الحروف داخل المجموعة الواحدة مثل اللحيانية، والثمودية والصفوية ، لا يقل عن التباين الذي نراه بين صور الحروف المكونة لهذه المجموعات . فأنت ترى في هذه الصورة وقد كتب حرف الألف في الصفوية بصور متباينة ، تكاد تجعل من الصعب التوصل الى انها تمثل كلها هذا الحرف ، ثم ترى الحرف نفسه في (الثمودية) ، وقد كتب بصور متباينة ، ويقال نفس الشيء بالنسبة لهذا الحرف في الكتابة اللحيانية . ونجد هذا التباين في كل الحروف الباقية كذلك . أما المسند ، فلا نجد فيه هذا التباين ، مما يحملنا على ارجاع سببه الى ضعف وقوة يد الكتاب ، والى تباين القلم الذي يكتب به . فالمسند قلم ، استعمل في تدوينه قلم حاد قوي ، حفر الكتابة على الحجر حفراً وبعناية ، بسبب انها وثائق وكتابات ذات أهمية بالنسبة لكاتبها ، أما الأقلام الأخرى، فقد استعملت في التعبير عن خواطر في الغالب ، لذلك سجلها كاتبها بأي أداة وجدها او

كانت عنده تؤدي الى إحداث خدش أو حفر على المادة التي وجدها أمامه صالحة للكتابة ، فنقش عليها رأيه بسرعة وبغير تأنق ، فظهرت الخطوط متباينة متغايرة لهذا السبب ، كما ترى في هذه الصورة :

الأقلام الصفوية والثمودية واللحيـانية والعربية الجنوبية والعبرانية

١ صفوي ٢ ثمودى ٣ لحيـاني ٤ مسند ٥ عبراني

الترقيم :

لقد تحدثت عن الترقيم عند الصفويين ، وذكرت أنهم ساروا فيه من الواحد الى الخمسة على أساس وضع خطوط عمودية ، يمثل كل خط منها العدد (١) . فإذا أرادوا كتابة الرقم (١) ، وضعوا خطاً واحداً يمثله . وإذا أرادوا كتابة (٢)، وضعوا خطين عمودين . وإذا أرادوا العدد (٣) ، وضعوا ثلاثة أعمدة . وإذا أرادوا العدد (٤) ، كتبوا أربعة خطوط عمودية . وأما إذا أرادوا الرقم (٥) وضعوا خمسة خطوط .

وكتابة الأرقام من المسائل العويصة التي جابهت الكتّاب في الأزمنة القديمة . وقد كان كتّابهم يكتبون بالحروف ، ولكنهم كانوا إذا أرادوا تدوين الأرقام تحيروا: هل يكتبونها كتابة بالحروف أو يجعلون لها رموزاً خاصة تشير الى الأعداد . وقد وجدنا أن العرب الجنوبيين كانوا قد اختاروا الخط العمودي لتمثيل الرقم (١) ، فإذا أرادوا الرقم (٢) ، وضعوا خطين ، وإذا أرادوا الرقم (٣) ، وضعوا ثلاثة خطوط . وإذا أرادوا الرقم (٤) ، وضعوا أربعة خطوط . ولصعوبة الاستمرار على هذه الطريقة ، بسبب كبر الأعداد ، اختاروا الحرف الأول من لفظة خمسة وهو الخاء لتمثيل العدد (٥) ، واختاروا الحرف (ع) وهو الحرف الأول من العدد عشرة لتمثيل هذا العدد ، واختاروا رموزاً أخرى كما رأينا لمعالجة مشكلة العدد عندهم ، فحلوا بذلك عقدة الترقيم بعض الحل، ولم يبلغوا منه التمام .

وقد اختارت بعض الشعوب النقط ، بدلاً من الخطوط . فالرقم (٧) مثلاً تمثله سبع نقط، والرقم (٣) تمثله ثلاث نقط . وسارت شعوب أخرى على طريقة الخطوط فرمزوا عن الرقم (٥) بخمسة خطوط ، وعن الرقم (١٠) بعشرة خطوط عمودية ، وعن الرقم (١٥) بخمسة عشر خطاً عمودياً . ودفعتهم صعوبة كتابة الأرقام الكبيرة بهذه الطريقة ، الى التفكير في طريقة أخرى تكون مختصرة بعض الاختصار وسهلة في التعبير عن قيم الأرقام ، فاختار بعضهم النقطة رمزاً عن العدد (١٠) ، واختار بعض آخر خطاً أفقياً ليكون ذلك الرمز ، وبذلك سهلت عليهم كتابة الأرقام الآحاد مع العشرات . فإذا أرادوا كتابة الرقم (١٠)، وضعوا نقطة واحدة (٠) أو خطاً أفقياً على هذا الشكل — ليشير الى الرقم (١٠) ، وإذا أرادوا الرقم (١١) ، كتبوه على هذه الصورة : (١٠) أو (— ١) .

وإذا أرادوا الرقم (١٥) ، كتبوه على هذا الشكل (١١١١٠ ١١) او على هـذا الشكل : (ــ ١١١ ١١) .

وغيّر الفينيقيون وبنو إرم وأهل تدمر بعض التغيير في شكـل الخط الأفقي الدال على العدد (١٠) ، بأن جعلوا في طرفه الأيمن خطاً ممتداً الى الأسفل قليلاً على شكل زاوية متجهة نحو اليسار . ثم أجرى النبط تعديلاً يسيراً في هذه العلامة الجديدة بأن جعلوا رأسها متجهاً الى أعلى اليمين ، اي نحو الزاوية اليمنى للمادة التي يكتب عليها . أما مؤخرتها ، فقد وجهوها نحو الجهة الجنوبية اليسرى[1] .

وقد سار الفينيقيون وبنو إرم على طريقـة الترقيم بالخطوط العموديـة للأعداد من (١) الى العدد (٩) . ولتسهيل قراءة الأعداد التي تزيد قيمتها العدديـة على ثلاثة ، جعلوا كل ثلاثة خطوط متقاربة،بحيث تظهر في شكل مجموعة واضحة ، وتمثل هذه المجموعة الرقم (٣) ، ووضعوا على يسار هذه المجموعة ما يكملها لتكوين العدد المطلوب . فكانوا اذا أرادوا مثلاً كتابة الرقم (٥) ، كتبوه على هذه الصورة : (١١١ ١١) اي الرقم (٣) الذي تمثله ثلاثة خطوط عموديـة منضمة بعضها الى بعض ، ثم الرقم (٢) الذي يمثله خطان منضمان ، وبين هذين الرقمين فراغ قليل يفصل بين العددين . واذا أرادوا الرقـم (٦) كتبوه مجموعتين متجاورتين ، كل مجموعة ذات ثلاثة خطوط منضمة ، وبين المجموعتـين فراغ صغير . غير ان بعض الكتابات كتبت الرقـم (٦) على هذا الشكـل : ١١١ / ١١١ أي انها وضعت الرقمين ثلاثة أحدهما فوق الآخر ، ليشير هذا الوضع الى حاصل جمع العددين ، وهو ستة[2] .

وقد اصطلح النبط على اتخاذ علامة خاصة بالعدد (٤) جعلوها على هيأة التاء في المسند ، أي على هذا الشكل : (X) ، كما اصطلحوا على اتخاذ علامة أخرى خاصة بالرقم (٥) ، شكلها قريب من شكل الرقم (٥) في الحروف اللاتينية ، اي على هذا الشكل تقريباً : (5) . على حين رمز غيرهم مثل أهـل تدمر عن الرقم (٥) برمز يشبه حرف الـ (Y) في الأبجدية اللاتينية . فإذا أرادوا كتابة

---

١ Mark Lidzbarski, Handbuch der Nordsemitischen Epigraphik, Weimer, 1898, S. 198.

٢ المصدر نفسه (ص ١٩٩) .

الرقم (٦) ، وضعوا الرقم الذي يرمز عن العدد (٥) ، ووضعوا خطاً على يساره ليشير بذلك الى العددين خمسة زائداً واحداً (٥ + ١) (Y ١) ومجموعهما ستة . واذا أرادوا الرقم (٧) ، كتبوا خمسة زائداً خطين يوضعان على يسار الرقم (٥)، ليتكون من العددين العدد (٧) ، (Y ١١) ، وهكذا الى العدد (٩) .

وقد سار الكتّاب في ترقيم الأعداد التي بعد العشرة على طريقتهم التي اتبعوها في السير أفقياً في الترقيم ، إلا في حالات قليلة ساروا على طريقة وضع الأرقام بعضها فوق بعض ، وجعلوا للرقم (٢٠) علامة تتألف من نقطتين إحداهما فوق الأخرى ، او من خطين أفقيين أحدهما فوق الآخر على شكل علامة مساو (=) في علم الحساب ، أو من علامة تشبه حرف الشين في المسند (3)، او من علامة تشبه حرف الـ (N) في اللاتينية . ووضع النبط للعشرين علامة تشبه الـ (3) اللاتيني في بعض الأحيان ، وتشبه الرقم (8) اللاتيني في أحيان أخرى، غير انهم فتحوا النهاية السفلى من الرقم (8) جعلوها مفتوحة في الغالب[1] .

وتكتب الأعداد الآحاد على الجهة اليسرى من العشرات ، فإذا أردنا كتابة الرقم (١١) ، كتبنا الرقم (١٠) أولاً ثم العدد (١) من بعده ويكتب الى يسار الرقم (١٠) . فإذا أردنا كتابته على الطريقة الفينيقية او الإرمية ، كتبناه على هذه الصورة : (— ١) . واذا أردنا كتابته على طريقة أهل تدمر او طريقة النبط ، وضعنا العلامة التي وصفتها الخاصة بالعشرة ، ووضعوا الى يسارها خطاً واحداً يمثل العدد (١) ، واذا أرادوا العدد (١٢)، وضعوا خطين بعد الرقم(١٠)، واذا أرادوا (١٣) وضعوا ثلاثة خطوط . واذا أرادوا (١٤) ، وضعوا أربعة خطوط . أما اذا أرادوا الرقم (١٥) ، فإن منهم من وضع خمسة خطوط بعد الرقم عشرة كما كان يفعل الفينيقيون ، ومنهم من اتبع هذه الطريقة وطريقة تمثيل العدد بخطوط ، فوضع خمسة عشر خطاً لهذا العدد . ومنهم من وضع بعد العلامة الخاصة بالرقم (١٠) العلامة الخاصة بالرقم (٥) كالنبط وأهل تدمر .

أما مكررات العشرة ، فتكتب على هذه الصورة . إن كان العدد العشرات من الأعداد الزوجية فيكتب العدد بقدر احتواء العدد المراد تسجيله على العدد عشرين . فإذا أردنا كتابة الرقم (٤٠) ، كتبنا الرقم (٢٠) مرتين . وإن كان

---

١ M. Lidzbarski, Handbuch, I, S. 199.

العدد (٦٠) ، كتبنا العدد (٢٠) ثلاث مرات . وإن كان العدد (٨٠) ، كتبناه أربع مرات . أما إذا كان العدد العشرات من غير الأعداد الزوجية كما في مثل ثلاثين ، فإننا نكتب العدد (٢٠) أولاً ثم نضع الرقم (١٠) على يساره، فيتكون من مجموع قيمة العددين (٣٠) . أما إذا أردنا الرقم (٧٠) مثلاً ، كتبنا العدد (٢٠) ثلاث مرات ، ثم العدد (١٠) على الجهة اليسرى من الأرقام الثلاثة . وقد كتب هذا العـــدد في بعض الكتابات الإرمية بست نُقط : ثلاث نقط في أعلا وثلاث نقط في أسفلها ، ونقطة على الجهة اليسرى من المجموعتين وفي مقابل الموضع الوسط الذي يكون الحد الفاصل بين المجموعتين وعلى هذا الشكل(∴ . ∵)[1]

أما العدد مئة ، فقد رمز عنه بعلامات متعددة ، منها هذه العلامات : (١°) و (ڡ) و (∓) . ونرى أن العلامة الأولى هي توسيع للرقم الذي رمز اليه عن العشرة . وقد اتخذ النبط علامة تشبه الرقم (٩) ، أو الحرف (p) في اللاتينية . وقـد سبق أن ذكرت ان العرب الجنوبيين كانوا قد اتفقوا على اعتبار الحرف الأول وهو الميم من لفظة مئة هو الرمز الذي يشير الى العدد ، واعتبروا نصف هذا الحرف رمزاً على العدد (٥٠) باعتبار ان الخمسين نصف المئة،فنصف الحرف ميم هو رمز عن هذا العدد .

أما العدد الألف ، فقد وجدت له في بعض الكتابات علامات خاصة . وقـد رمز عنه الفنيقيون وبنو إرم بعلامة هي عبارة عن خط مائل يتصل به ما يشبـه نصف القوس من جهة اليمين ، ورأس الخط مائل الى اليمين ، أما أسفله فتتجه نحو اليسار[2] .

ولم ترد في الكتابات الصفوية أرقام كثيرة ، لذلك لا نستطيع أن نحكم عـلى طريقتهم في الترقيم وفي العدّ . غير أن في استطاعتنا القول ، استناداً الى هـذه النماذج القليلة التي وصلت الينا ، انهم اتبعوا في الترقيم الطريقة النبطية وطريقة أهل تدمر ، ولم يتبعوا طريقة العرب الجنوبيين في تدوين العدد . ويمكن ارجاع سبب ذلك الى اتصالهم اتصالاً مباشراً بالنبط وبأهل تدمـر ، والى تأثرهم بثقافتهم .

---

١ راجع الالواح الخاصة الملحقة بكتاب : M. Lidzbarski والخاصة بالنصوص .
٢ راجع آخر المصور الملحق بكتاب M. Lidzbarski اللوح الخاص بالارقام .

جدول الأرقام

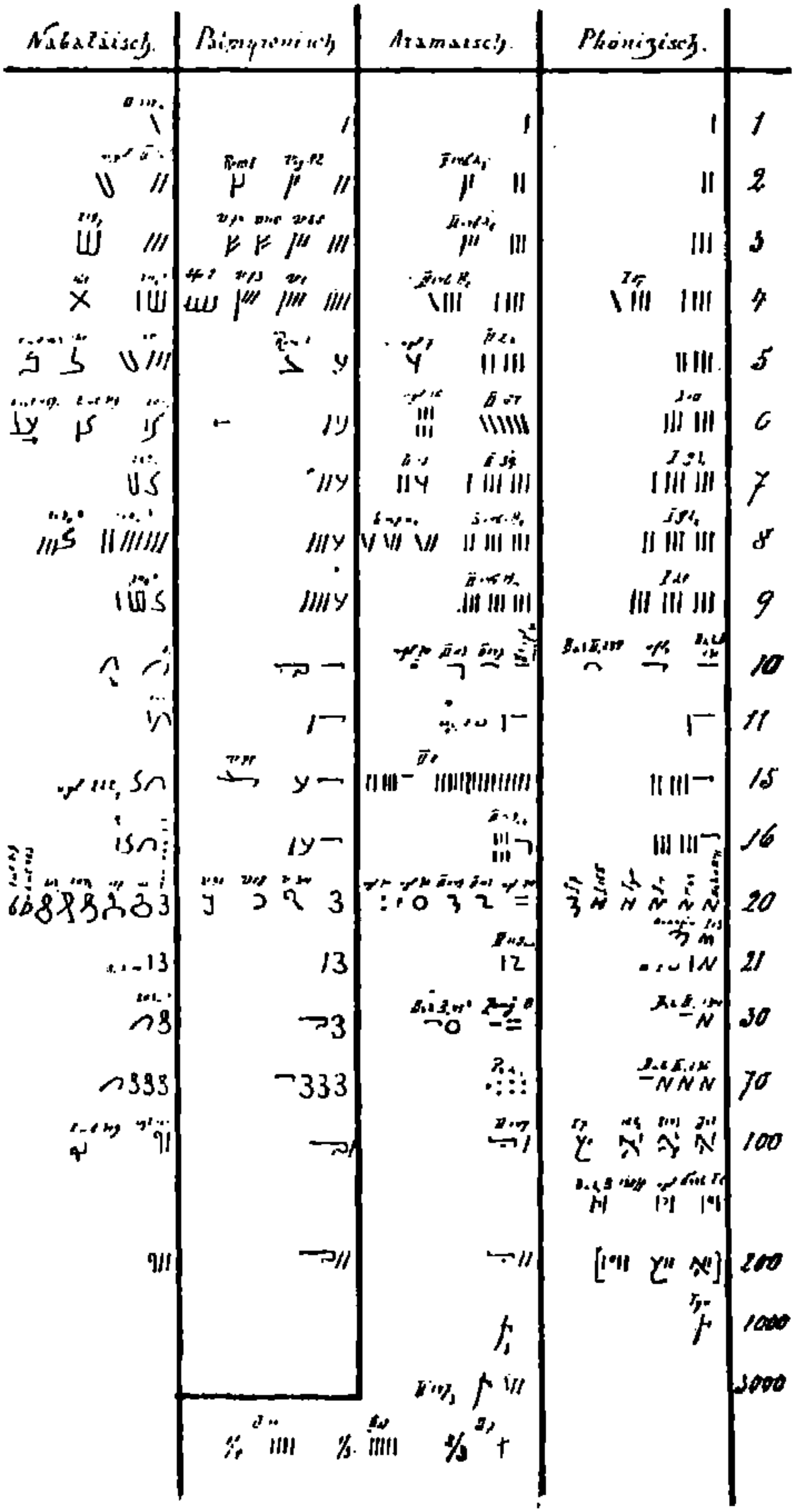

فينيقي إرمي تدمري نبطي

ولما كانوا محتاجين الى تدوين الأرقام اضطروا الى اقتباس طريقة النبط وأهل تدمر في كتابة الأعداد بالأرقام .

ونجد في الجدول المقابل كيفية تدوين الأرقام في الفينيقية والآرامية،والتدمرية ، والنبطية . وهي تختلف اختلافاً بيناً عن صور الأرقام التي نستخدمهـا اليوم في عربيتنا . ونلاحظ أن من بين الترقيم في المسند ، وبين الترقيم في هذه الأبجديات تشابه كبير الى حد الرقم (٤) ، ثم يختلف ، فقد أخذ العرب الجنوبيون الحرف الأول من لفظة (خمسة) ، وجعلوه رمزاً الى العدد (٥) ، بينما اتبع الباقون طريقة التخطيط بالرقم (١) الى العدد (٩) في الفينيقية ، ثم بـدلوا الطريقة . وسلكت هذا المسلك الأبجدية الآرامية ، أما الابجدية التدمرية والابجدية النبطية ، فقد اتبعتا سبيلاً آخر ، فيه اختلاف في بعض الأعداد ، ولكن بينهما تجانساً بوجه عام . مما يدل على أنهما أخذا الترقيم من منبع واحد .

الفصل الثالث والعشرون بعد المئة

الكتابة والتدوين

لا خلاف في أن التدوين كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام ، بدليل ما تحدثنا عنه من وجود الألوف من النصوص الجاهلية التي عثر عليها في العربية الجنوبية وفي العربية الغربية وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب . كتبت بلهجات عربية متنوعة ، تختلف عن عربية القرآن الكريم ، اختلافاً متبايناً ، أقربها الى عربيتنا الكتابة التي وسمت بـ (نص النمارة) أو كتابة النمارة ، التي هي شاهد قبر (امرىء القيس) ، المتوفى سنة (٣٢٨) للميلاد ، والكتابات الأخرى التي كتبت بعده[١] .

ولا خلاف بين العلماء في أنهم لم يتمكنوا حتى الآن من العثور على أي نص جاهلي مكتوب بهذه اللهجة التي نزل بها القرآن ، والتي ضبط بها الشعر الجاهلي، لا من الجاهلية البعيدة عن الإسلام ، ولا من الجاهلية القريبة منه ، مع أنهم تمكنوا من العثور على كتابات جاهلية مدونة بلهجة عربية أخرى ، تعود الى عهد لا يبعد كثيراً عن الإسلام ، مثل النص المعروف بنص (حران) المدوّن سنة (٥٦٨ م) .

وإذا صح أن الكتابة المعروفة بـ (أم الجمال) الثانية ، هي كتابة جاهلية

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٨٩ وما بعدها) .

أصيلة ، تكون أول نص يمكن أن نعتبره بحق وحقيقة من النصوص المدونة بلغة القرآن والشعر الجاهلي . ويرجع العلماء الذين درسوه تأريخه الى أواخر القرن السادس للميلاد . وقد جاء فيه :

١ — الله غفرا لاليه
٢ — بن عبيده كاتب
٣ — الخليدا على بنى
٤ — عمرى كتبه عنه من
٥ — يقروه[١]

ولكن عبارة واسلوب تدوين الكتابة ، يوحيان للمرء ، أنها من الكتابات المدوّنة في الإسلام . وأنا أشك في كونها من مدونات أواخر القرن السادس للميلاد، حتى إذا ذهبنا أن صاحبها كان نصرانياً ، وأن لفظة (غفرا) من الألفاظ الدينية التي كان يستعملها النصارى ، فلا غرابة من ورودها في نص جاهلي ، لأنها كتابة نصرانية . وحجتي أن أسلوبها يفصح عن اسلوب الكتابات الإسلامية القديمة التي دوّنت في صدر الاسلام . وقد تكون في القراءة بعض الهفوات والشطحات، على كلّ فإن الزمن بين العهدين غير بعيد ، ثم ان استعمال (التاء القصيرة) في (عبيدة) الاسم الوارد في السطر الثاني من النص لم يكن معروفاً في هذا العهد ولا في صدر الاسلام ، لذلك أرى أنها من الكتابات الاسلامية . وفيها هفوات .

وبناءً على ما تقدم نقول إننا لم نتمكن من الحصول على نص جاهلي مدوّن بلغة عربية قرآنية ، لا شك في أصالته ، ولا شبهة في كونه جاهلياً . وأن أقدم ما عثر عليه من كتابات بهذه العربية ، هي كتابات دوّنت في الاسلام . في رأسها الكتابات التي عثر عليها مدوّنة على جبل (سلع) قرب المدينة ، يرى (الدكتور حميد الله) أنها ترجع الى السنة الخامسة للهجرة[٢] .

ثم الكتابة التي كتبت على شاهد قبر رجل اسمه (عبدالله بن خير) ، أو (عبدالله بن جبر) الحجازي أو الحجري، المحفوظة في دار الآثار العربية بالقاهرة

---

١ ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربي (الشكل رقم ٥ مقابل الصفحة ٧٣) .

٢ H. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah, in Islamic Culture, Vol. 13, No. 4, 1939, p. 427.

ويعود عهدها الى (جمادى الآخرة) من سنة احدى وثلاثين[1] .

ولا خلاف بين الباحثين في أن كل ما وصل الينا من نصوص جاهلية إنما هو بلغة النثر ، إذ لم يعثر حتى الآن على نص مكتوب شعراً . ونظراً الى وجود التدوين عند أصحاب هذه النصوص ، ونظراً لأن الشعر ، شعور ، لا يختص بإنسان دون إنسان ، وبعرب دون عرب،فأنا لا استبعد احتمال ، تدوين الجاهليين الشعر أيضاً ، مثل تدوينهم لخواطرهم وأمورهم نثراً . دوّنوه بلهجاتهم التي كتبوا بها . وهي بالنسبة لهم لهجاتهم الفصيحة المرضية . أما سبب عدم وصول شيء مدوّن منه الينا ، فقد يعود حسب رأيي ، الى أن تدوين الشعر والنثر يكون في العادة على مواد قابلة للتلف ، مثل الجلود والخشب والعظام وما شاكل ذلك ، وهي لا تستطيع مقاومة الزمن ، لا سيما إذا طمرت تحت الأتربة ، ثم هي معرضة لالتهام النار لها عند حدوث حريق ، أو للتلف إن أصابها الماء ، أضف الى ذلك أنهم كانوا يغسلون الجلد المكتوب ، للكتابة عليه مرة أخرى ، لغلاء الجلود ، وهو ما حدث عند غير الجاهليين أيضاً . ونجد في المؤلفات الاسلامية أمثلة كثيرة على غسل الصحف المكتوبة للكتابة عليها من جديد. ورسائل النبي وكتبه وأوامره الى عماله ورسله على القبائل ، فقد فقدت وضاعت مع ما لها من أهمية في نظر المسلمين ، وقل مثل ذلك عن كتب الخلفاء ، فلا نستغرب إذن ضياع ما كان مدوّناً من شعر جاهلي،فقد نص مثلاً على ان الشاعر (عدي ابن زيد) العبادي ، وكان كاتباً مجوداً بالعربية وبالفارسية حاذقاً باللغتين قارئاً لكتب العرب والفرس ، كان يدوّن شعره وهو في سجن النعمان ويرسل به الى الملك ، يتوسل اليه فيه أن يرحم به ، وأن يعيد اليه حريته ، وكان الشعر يصل الى الملك ، فلما طال سجنه صار يكتب الى أخيه أبي بشعر[2] ، لم تبق من أصوله المكتوبة أية بقية ، وقد ضاعت أصول شعره المكتوب المرسل الى النعمان كذلك، حتى أننا لا نجد أحداً من رواة شعره يروى أنه رجع اليها فنقل منها ، مما يبعث على الظن أنها فقدت منذ عهد بعيد عن بداية عهد التدوين .

ويدفعنا موضوع التدوين الى البحث عن تدوين الأدب والعلم عند الجاهليين ،

---

١ ولفنسون ، السامية (٢٠٢) .

٢ الطبري (١٩٧/٢ وما بعدها) ، (ذكر خبر ذي قار) .

وعما إذا كان للجاهليين أدب منثور وعلم مدوّن ؟ لقد ذهب بعض الباحثين الى وجود هـذا الأدب عند أهل الجاهلية ، وتوقف بعض آخر ، فلم يبد رأياً في الموضوع ، وتوسط قوم ، فقالوا باحتمال وجود تدوين أو شيء منه عندهم ، إلا أنهم أحجموا عن الحكم على درجة تقدمه واتساعه في ذلك العهد . لعدم وجود أدله ملموسة يمكن اتخاذها سنداً لابداء رأي واضح علمي في هذا الموضوع .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أنه لو كانت هنالك مدوّنات في الأدب ، لما خفي ذكرها وطغى اسمها حتى من ذاكرة أهل الأخبار ، ومن أحاديث الرواة . إنه لو كان أهل الجاهلية قد زاولوا التأليف وتدوين العلم ، لما اقتصر علم أهـل الأخبار في الأدب عـلى ذكر قطع من الحكم ، يشك في صحتها ، وعلى إيراد الشعر رواية وعلى رواية بعض القصص والأمثال ، وسردهم كل شيء يتعلق بأمر الجاهلية رواية . وانه لو كان لديهم تأليف منظم ، لسار عـلى هديهم من جاء بعدهم في الاسلام ، ولسلكوا مسلكهم في التدوين : تدوين الكلام المنثور وتدوين الكلام الموزون المقفى ، وحيث أن أحداً لم يذكر اسم مدوّن من مدوّنات أهـل الجاهلية ، وحيث أن المسلمين لم يشرعوا بالتدوين إلا بعد حين ، فلا يمكن لأحد النص بكل تأكيد على وجود تدوين عند الجاهليين[1] .

ولم نعثر على خبر في كتب أهل الأخبار يفيد أن أحداً من الرواة والعلماء أخذ نص كلام حكيم من حكماء الجاهلية ، أو خبر أو شعر من صحف جاهليـة ، أو من كتب ورثوها من ذلك العهد . هذا (قس بن ساعدة) الايادي ، مع ما قيل عنه من أنه كان كاتباً قارئاً للكتب ، واقفاً على كتب أهـل الكتاب ، خطيباً عاقلاً حكيماً ، وان العرب كانت تعظمه وضربت به شعراؤها الأمثال ، وأنه كان خطيب العرب قاطبة ، نجدهم يختلفون في خطابه المعروف ، ويروونه بمختلف الروايات ، حتى ذكر أن الرسول كان قد سمعه ، وسمع خطابـه ، فلما جاء ذكره ، وأراد أن يتذكر خطابه ، وجد بين الصحابة اختلافاً في تلاوته ، لأنه لم يكن مدوّناً ، ولو كان مدوّناً لم يختلف فيه[2] .

١ هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام (٢٩٤ وما بعدها) ، (دار العـلم للملايين) .

٢ الاصابة (٣/٢٦٤) ، (رقم ٧٣٤٢) .

وليس في الأخبار عن الجاهلية خبر يفيد أن السدنة أو غيرهم من الساهرين على الأصنام والأوثان وبيوتها ، ألفوا كتباً في الوثنية وفي أحكامها وقواعدها . أما اليهود والنصارى ، فقد كان لهم علماء يشرحون للناس في معابدهم أحكام دينهم ، ويعلمونهم الكتابة والقراءة وما في كتبهم المقدسة من أوامر ونواه . فكان « أبو الشعثاء ، وهو رجل ذو قدر في اليهود ، رأس اليهود التي تلي بيت الدراسة للتوراة »[1] . وهو من يهود بني ماسكة . وكان آخرون بينهم يعلمونهم أحكام دينهم في بيت المدارس .

وفي لغة الجاهليين مفردات تستعمل في القراءة والكتابة ، مثل : قلم ، وقرطاس ، ودواة ، ومداد ، ولوح ، وصحف ، وكتاب ، ومجلة ، وغير ذلك لا يشك في استعمال الجاهليين لها ، لورودها في القرآن الكريم . وورودُها فيه ، دليل على استعمالهم لها . وورد بعضها أيضاً في الحديث النبوي وفي الشعر الجاهلي . ويفيدنا حصر هذه الألفاظ وضبطها في تكوين رأي علمي صحيح سديد في الكتابة والقراءة عند الجاهليين ، والمؤثرات الخارجية التي أثرت في العرب في هذا الباب ، وفي تكوين رأي قاطع في الجهة التي أمدت العرب كثيراً أو قليلاً بعلمهم في قلمهم العربي الشمالي الذي يكتب به الى هذا اليوم .

وأعتقد ان من واجب علماء العربية في هذا اليوم ، العمل على حصر ألفاظ العلوم والحضارة والثقافة التي ثبت لديهم استعمال الجاهليين لها ، وتعيين تأريخ استعمالها وأصولها التي وردت منها إن كانت أعجمية دخيلة ، والاستشهاد بالأماكن التي وردت فيها ، ففي هذا العمل العلمي ، مساعدة كبيرة للباحثين على تشعب علومهم وموضوعاتهم في الوقوف على تطور الفكر العربي قبل الإسلام . ولا أقصد الإحاطة بالمفردات الواردة في الشعر الجاهلي أو القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو معجمات اللغة وغيرها من الموارد الاسلامية وحدها ، بل لا بد من اضافة المفردات الواردة في الكتابات الجاهلية التي عثر والتي سيعثر عليها الى تلك المادة لأنها مادة العصر الجاهلي وجرثومة اللغة ، وبدونها لا تسعنا الاحاطة بلغة أهل الجاهلية وبتطور فكرهم أبداً .

ومن يراجع الموارد العربية وعلى رأسها المعجمات ، يدرك الصعوبات التي يلاقيها

---

١ الاغاني (١٦/١٥) .

المرء في الحصول على مادة ما، لعدم وجود الفهرسة للألفاظ والمواد في معظم هذه الموارد ، فعلى المراجع قراءة صفحات وأجزاء أحياناً للحصول على شيء زهيد . ولهذا زهد معظم المؤلفين في مراجعة ما هو مطبوع مع أهميته ودسم مادته ، لأن الصبر قاتل ، والاكثار من المراجعة عمل شاق مرهق ، والحياة تستلزم السرعة والانتاج بالجملة . وقد ماتت همم الماضين ، وحلت محلها عجلة المستعجلين الذين يريدون الانتاج السريع الخفيف الجالب للاسم والمال .

وبعض الألفاظ الخاصة بالكتابة والقراءة ، هي ألفاظ معربة ، وإن وردت عند الجاهليين واستعملت قبل الاسلام بزمن طويل ، عرّب بعضها عن اليونانية ، وعرّب بعض آخر عن الفارسية أو السريانية أو القبطية ، وذلك بحسب الجهة التي ورد منها المعرب ووجد سبيله الى العربية ، ويمكن التعرف عليه بمقابلة اللفظ العربي مع اللفظ المقابل له عند الأمم المذكورة ، وبضبط الزمن الذي استعمل فيه والظروف المحيطة به ، للتأكد من أصله ، فقد يكون عربياً أصيلاً انتقل من العرب الى تلك الأقوام ، وقد يكون العكس ، نتمكن من الحصول على دراسة علمية قيمة في باب المعربات والتبادل الفكري بين الجاهليين والأعاجم .

والقلم ، هو من أدوات الكتابة المذكورة عند الجاهليين . وقد ذكر في القرآن الكريم . أقسم به في سورة (ن والقلم) ، وعظم وفخم شأنه في سورة العلق[1] . يكتب به على الورق والرق والجلود والقراطيس والصحف ومواد الكتابة الأخرى، وكان يتخذ من القصب في الغالب ، فتقطع القصبة قطعاً يساعد على مسكه باليد، ثم يبرى أحد رأسيها ، ويشق في وسطه شقاً لطيفاً خفيفاً يسمح بدخول الحبر فيه، فإذا أريدت الكتابة به ، غمس في الحبر ، ثم كتب به . ويعرف هذا القلم بقلم القصب ، تمييزاً له عن الأقلام المستعملة من مواد أخرى .

ولفظة (القلم) من الألفاظ المعربة عن أصل يوناني ، فهو (قلاموس) في اليونانية ، ومعناها القصب ، لأن اليونان اتخذوا قلمهم منه[2] .

---

١ سورة العلق ، الاية ٤ ، سورة القلم ، الاية ١ ، لقمان ، الاية ٢٧ ، المفردات (ص ٤٢٢) ، شرح القاموس (٣١/٩) ، صبح الاعشى (٤٣٤/٢ وما بعدها) .

٢ الأب رفائيل نخلة اليسوعي (ص ٣٦٦) ، فرائد اللغة (ص ٢٩٣) ، Ency. II, p. 675.

وينبت القصب في مواضع من جزيرة العرب حيث تتوافر المياه . وقــد أشار (بلينيوس) Pliny ، في تأريخه الى قصب Kalamus عربي ، وقصب ينمو في الهند ، وذكر أنهم يستعملونه في عمل الأنسجة .

وهناك نوع من القصب قوي متين ، يطول فيستعمل في أغراض متعـــددة ، يقال له (قنا) ، ومنه (القنى) و (القناة) التي يستعملها المحاربون ، وتعرف بـ (قنة) في العبرانية . وكانوا يستوردونه من (صور)[1] .

وقد وردت لفظة (القلم) و (قلم) في شعر عدد من الشعراء الجـــاهليين في شعر لبيد وعديّ بن زيد العبادي والمرقش وأمية بن أبي الصلت وغـــيرهم ممن وقفوا على الكتابة وكانت لهم صلات بالحضارة وبأصحاب الديانات . وذكر أن الخط يكون بالقلم[٢] .

ويعرف القلم بـ (المِزْبَر) كذلك ، من أصل زبر بمعنى كتب . وقد ذكر في الحديث النبوي[٣] . ويعرف بـ (المِرقَمْ) أيضاً[٤] ، إذ هو أداة للرقم ، أي الكتابة .

ويقطّ القلم بمقطة[٥] ، وتستعمل السكين في بريه أيضاً . ويعتنى بـــذلك حتى يكون القلم جيداً سهلاً في الكتابة[٦] . ويقال للسكين : المدية عـــلى بعض لهجات العرب[٧] . والقلم قبل أن تبريه : أنبوبة ، فإذا بريته ، فهو قلم . وما يسقط منه

---

١ Smith, Dictionary of the Bible, I, p. 241.

٢ قال عدي :
ما تبـــين العـــين من آياتهـــا   غير نـــؤى مثـــل خط بالقـــلم
الاغاني (٢/١١٩) ، سمط اللآلي (٨٧٦) .
وورد في شعر لأمية بن أبي الصلت :
قوم لهم ســـاحة العـــراق اذا   ســـاروا جميعـــا والخـــط والقـــلم
سيرة ابن هشام (١/٤٨) ، بلوغ الارب (٣/٣٦٩) ، المرزباني ، معجم (٢٠١) ، الاغاني (٦/١٢٧) ، النقائض (١٠٦) ، شرح المعلقات ، للتبريزي (١٢٨) .

٣ صبح الاعشى (٢/٤٣٤) ، المفردات (ص ٢١٠) ، الفـــائق (١/٥٢٢) ، تاج العروس (٣/٢٣١) ، (زبر) .

٤ بلوغ الارب (٣/٣٧٢) ، تاج العروس (٨/٣١٦) ، (رقم) .

٥ شرح القاموس (٥/٢٠٧) .

٦ السمعاني ، أدب الاملاء والاستملاء (ص ١٦١) .

٧ صبح الاعشى (٢/٤٥٥ وما بعدها) .

عند البري: البُراية . والمِقط : ما يقط عليه . والقط : القطع عرضاً ، والقدّ: أن يقطع الشيء طولاً[1] .

وهناك أنواع أخرى من الأقلام غير قلم القصب ، صنعت من الحديد . وقد استعمل العبرانيون وغيرهم أقلاماً من حديد ذات رؤوس من الماس ، ليكتب بها على صفائح من الحجر أو من المعدن ، كما استعملوا القلم الحديد أو القلم الرصاص وأقلاماً من معادن أخرى للكتابة بها على صفائح من الخشب مغطاة بشمع . ولهذا القلم رأسان : رأس محدد للكتابة ، ورأس مفلطح لمحو الغلطات وتسوية سطح الشمع ثانية ، كما استعملت الفرشاة لرسم الحروف[2] . واستعمل أيضاً ريش الطيور . وقد عرف القلم المصنوع من الحديد بـ (عيت) ET عند العبرانيين[3] .

وذكر ان (زيد بن ثابت) دخل على رسول الله وهو يملي في بعض حوائجه، فقال : « ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للممل به »[4] .

وقد استعملوا السكين والآلات الحادة في الكتابة على الخشب أو الحجر ، كما استخدموا الفحم وكل ما يترك أثراً على شيء ، مادة للكتابة . وذلك حين يعنّ لهم خاطر أو حين يريدون ابلاغ رسالة أو تقييد أمر هام ، مثل وقوع اعتداء على شخص ، فيكتب ما وقع له ، وهو لا زال متمكناً من الكتابة ، على ما قد يكون عنده ، حتى يعلم بمصيره من قد يمر به ميتاً[5] . وقد حفر (قيسبة بن كلثوم السكوني) على رحل (أبي الطمحان القيني) رسالة ، دوّنها بسكين[6] . ودوّن أحدهم ، وهو يحتضر ، خبر قتله على راحلة قاتله ، بعد أن غافله ، ذكر فيها اسم قاتله[7] . وهناك أمثلة أخرى من هذا القبيل ، توسل فيها كاتبوها بمختلف الوسائل لايصال رسائلهم الى من يريدون وصولها لهم . وقد وصلت بعضها وجاءت بالنتائج التي كان يريدها أصحابها منها .

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٧٠ وما بعدها) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٢٣) ، HASTINGS, p. 981.
٣ Hastings, p. 981.
٤ عيون الاخبار (١/٤٢) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (٣/٣ ص ١٥١) ، المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .
٦ الاغاني (١١/١٣١) .
٧ المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .

وأما المادة التي يكتب بها ، فهي عديدة ، أهمها : الحبر ، ويعرف أيضاً بالمداد[1] . ويصنع من مواد متعددة تترك أثراً في المادة التي يكتب عليها . من ذلك الزاج وسخام المصابيح ، يمزج مع مادة لزجة مثل صمغ العفص أو صمغ آخر ، فيكتب به . ولما كان الحبر أسود ، قيل له (ديو) في العبرانية ، وقد عرف بهذا المعنى أي (سواد) في اليونانية كذلك[2] .وعرف بـ Atramentum في اللاتينية، وهي في المعنى نفسه[3] .

وقيل للمداد (نِقس) ، وقد وردت اللفظة في بيت شعر للشاعر (حميد بن ثور) حيث قيل إنه قال :

لمن الديار بجانب الحبس كخط ذي الحاجات بالنقس[4]

وأشير الى (المداد) في شعر لـ (عبدالله بن عنمة) ، حيث يقول :

فلم يبق إلا دمنة ومنازل كما رُدّ في خط الدواة مدادها[5]

وقد ذكر (المداد) في القرآن : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر ، قبل أن تنفد كلمات ربي »[6] ، « يقول عزّ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات ربي لنفد ماء البحر قبل أن تنفد كلمات ربي »[7] ، فالمداد إذن من الألفاظ التي كانت مستعملة قبل الإسلام .

وقد صُنع الحبر من مواد مختلفة ، صنعه العبرانيون من سخام المصابيح ، أما المصريون فصنعوه من مواد متعددة ، فصار اتقن من المداد العبراني ، ولذلك حافظ على بريقه ولونه ، كما أنه لا يمحى بسهولة ، بينما كان الحبر العبراني

---

١ شرح القاموس (٤٩٨/٢) ، (١١٧/٣) ، المفردات (ص ١٠٤) .
٢ بلوغ الارب (٣٧٢/٣) ، Smith, A Dict., III, p. 1802.
٣ Hastings, A Dictionary, II, p. 472.
٤ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، للدكتور ناصرالدين الاسد (ص ١٠٠) .
٥ المفضليات (٧٤٣) .
٦ الكهف ، الآية ١٠٩ .
٧ تفسير الطبري (٣١/١٦) ، صبح الاعشى (٤٧١/٢) .

قابلاً للغسل بكل سهولة[1] . ولا نجد بين العلماء اتفاقاً في أصل معنى (الحبر)، مما يدل على أن اللفظة[2] من المعربات . أما المداد ، فذكر علماء اللغة ، أنه ما مددت به السراج من زيت ونحوه ، ثم خص بالحبر . والظاهر أنها أخذت من سخام الزيت الذي يحترق في السراج ، وأنها تعني (سواد) ، على نحو ما نجده في لفظة Melan اللاتينية ، التي تعني السواد ، سواد السراج ، وخصصت بالحبر[3] .

وليست لدينا أخبار عن كيفية صنع الحبر عند الجاهليين ، ولم يصل الينا نص جاهلي مدون بالحبر نتمكن بتحليل مادته من الوقوف على تكوينه . ولكننا نستطيع أن نقول إن حبر الجاهليين لم يكن يختلف عن أنواع الحبر المستعملة عند الشعوب الأخرى في ذلك العهد وأبسطها الحبر المصنوع من الفحم المسحوق ، مضافاً اليه الماء وقليل من الصمغ في بعض الأحيان . والحبر المصنوع من بعض المواد المستخرجة من زيوت بعض الأشجار وعصاراتها ، أو من مسحوق عظام الحيوانات المحروقة أو من بعض الأوراق المؤكسدة بالحديد وببعض المعادن . ويراد بالحبر ،الحبر الأسود في الغالب ، غير ان القدماء كانوا يستعملون أصباغاً مثل الأحمر والأخضر ، في تدوين الشروح والملاحظات والأمور المهمـة التي تلفت النظر ، كما استعملت في التصوير وفي رسم بعض الرسوم التوضيحية ، كما يظهر ذلك من الأوراق القديمة التي عثر عليها في مصر وفي اليونان وغير ذلك من الأماكن . وقد ورد في كتب الحديث النبوي وموارد اسلامية أخرى ، ان الجاهليـين كانوا يستعملون الصور والنقوش . ويريدون بالنقش تلوين الشيء بلونين أو عدة ألوان . ويقولون له : النمنمة كذلك[4] . وكان منهم مصورون يصورون الانسان والحيوان والأشجار وغير ذلك . وقد نهى الرسول عن تصوير كل ما هو ذو روح . وهذا التحريم هو دليل شيوع التصوير واستعمال الصور عند الجاهليين .

ويحفظ الحبر في أداة ، يقال لها (الدواة) و (المحبرة)[5] ، يحملها الكاتب

---

١ Hastings, p. 383.

٢ تاج العروس (٢/٤٩٨) ، (مدد) .

٣ Hastings, p. 383.

٤ شرح القاموس (٤/٣٥٨ وما بعدها)

٥ تاج العروس (١٠/١٣٣) ، تفسير ابن عباس (٤٥١) .

٦ تاج العروس (٣/١١٧) .

معه ، فيعلقها بحزامه ، أو يضعها تحت ثيابه ، ويكون لها غطاء يمنع الحبر أن ينساب منها ، ويكون بها تجويف تخزن فيه الأقلام والمقطة . وقد تكون المحبرة كأساً صغيرة ذات غطاء يخزن الحبر فيها . وقد عرفت لذلك بـ (كست هسفر) (كاست هاسيفر) ، أي (كأس الكتاب) في العبرانية [1] . وقد بقي الكتّاب وطلاب العلم والعلماء يستعملون تلك المحابر القديمة الى عهد قريب ، إذ حلت محلها الأقلام الحديثة المحملة بالحبر ، وما زال بعض رجال الدين ومن يعنون بجمال الخط وتحسينه يستعملون أقلام القصب والحبر القديم على الطريقة القديمة المذكورة.

وقد عرفت المحبرة الكبيرة التي يحفظ فيها الحبر والأقلام والمقطة ومواد الكتابة الأخرى بـ (قلمارين) . (قلماريون) (ق ل م ر ي و ن) في (المشنا) أي المقلمة في العربية ، تمييزاً لها عن أداة أخرى عرفت بـ (ترنتوق) ، وهي مقلمة توضع فيها الأقلام والمبراة . وهناك لفظة أخرى ، هي (لبلرين) وتقابل Libelari في اللاتينية يطلقها المتأدبون على المقلمة [2] .

وقد أشير الى الدوي ، أي المحابر في بيت شعر ينسب لأبي ذؤيب :

عرفت الديار كخط الدويـ ي حبّره الكاتبُ الحميري [3]

وذكر أن من أسماء المحبرة (ن) وأن (ن والقلم) بمعنى الدواة والقلم [4] .

وقد كان من عادة الكتّاب ترميل الكتابة لتجف ، وكانوا يضعون الرمل في إناء خاص ثم يذرون منه شيئاً على الكتابة .

وأما المواد التي يكتب عليها ، فعديدة ، تتوقف على ظروف المكان ومقدرة أهله المالية ، منها الحجر والخشب ومختلف أنواع المعادن والطين وورق الشجر والجلود والقراطيس واكتاف الإبل واللخاف والعسب والقضم وغير ذلك [5] . والى الحجر المكتوب ، يعود الفضل الأكبر في حصولنا على معارفنا عن عرب اليمن

---

١ Smith, A Diction., I, p. 1802.

٢ Smith, A Dictio., III, p. 1789.

٣ اللسان (٢٧٩/١٤) .

٤ اللسان (٤٢٧/١٣) ، تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ، للفيروز آبادي (٤٥١) .

٥ الفهرست (ص ٣١ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٤٧٥/٢) ، الفائق (١٥٠/٢) .

قبل الإسلام ، وعرب بلاد الشأم وأعالي الحجاز . فلولاه لكان علمنا بهم نزراً يسيراً .

والعسب ، جريد النخل ، وهي السعفة مما لا ينبت عليه الخوص . ولوفرته في الحجاز استعمله كتاب الوحي وحفظة القرآن في تدوين الوحي عليه . وقد رجع اليه زيد بن ثابت في جملة مارجع اليه من مواد يوم كُلِّف جمع القرآن الكريم[1]. وقد ورد (عسيب يماني) في شعر لامرىء القيس ، هو قوله :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني[2]

وقد ورد عن (زيد بن ثابت) ، ان (أبا بكر) لما أمره بجمع القرآن ، أخذ يتتبعه من (الرقاع والعسب واللخاف) ، واللخاف : حجارة بيض. وورد في حديث (الزهري) : « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن في العسب والقضيم والكرانيف »[3] .

وذكر (لبيد) العسب في شعره حيث ورد :

متعود لحِنٌ يعيد بكفه قلماً على عسب ذبلن وبان[4]

والجريد من مادة التدوين عند أهل الحجاز . والجريدة السعفة ، بلغة أهل الحجاز ، وفي الحديث : كتب القرآن في جرائد ، جمع جريدة[5] .

واستعمل (الكرناف) (الكرانيف) و (الكرب) مادة للكتابة كذلك . وقد ورد أن كتبة القرآن استعملوا الكرانيف مادة لتدوين الوحي[6] . والكرانيف والكرب ، أصول السعف الغلاظ العراض التي تلاصق الجذع ، وتكون على هيأة الأكتاف[7] . قال الطبري قبض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « ولم يكن

---

١ صبح الاعشى (٢/٤٧٥) ، تاج العروس (١/٣٨١) ، (عسب) .
٢ ديوان امرىء القيس (١٢٠) ، تاج العروس (٥/١٢٩) .
٣ الفائق (٢/١٥٠) .
٤ الامالي (١/٥) .
٥ اللسان (٣/١١٨ وما بعدها) ، (جرد) .
٦ تفسير الطبري (١/٦٣) ، الفائق (٢/١٥٠) .
٧ تفسير الطبري (١/٦٣) .

القرآن جمع ، وإنما كان في الكرانيف والعسب »[1] .

واستعمل الجاهليون كتف الحيوان أيضاً ، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان للكتابة عليه ، وقد كتب عليه كتبة الوحي . وفي الحديث : ائتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده.أو ائتوني باللوح والدواة والكتف[2]. ولما كانت العظام مادة مبذولة ميسورة في استطاعة الكاتب الحصول عليها بغير ثمن ، وهي صالحة للكتابة بكل سهولة على شكلها الطبيعي أو بعد صقل وتشذيب قليلين ، لذلك استعملها الكتاب بكثرة . فكانت مادة مهمة استعملها كتبة الوحي في تدوين القرآن . وقد ذكر (ابن النديم) أن في جملة العظام التي كتب عليها العرب : أكتاف الإبل[3] .

وكانوا إذا كتبوا في الأكتاف حفظوا ما كتبوه في جرة أو في صندوق حتى يحفظ ، ويكون في الامكان الرجوع اليه . وقد كانت الأكتاف في جملة المواد المكتوبة التي استنسخ (زيد بن ثابت) منها ما دوّن من القرآن .

واستعملوا الجلود مادة من مواد الكتابة : الجلد المدبوغ والجلد الغير المدبوغ . وقد كانوا يدبغون الجلد أحياناً ويصقلونه ويرققونه حتى يكون صالحاً مناسباً للكتابة. وقد يدبغونه ويصبغونه،وقد ذكر علماء اللغة أنواعاً من أنواع الجلود التي استعملوها في كتابتهم،منها :

القضم ، جمع قضيم ، الجلد الأبيض يكتب فيه . وقيل الصحيفة البيضاء ، أو أي أديم كان . وقد أشير اليه في شعر للنابغة :

كأن مجرّ الرامسات ذيولها   عليه قضيم نمقته الصوانع[4]

وأشير الى (القضيم) و (القضيمة) في شعر (زهير بن أبي سلمى)[5] ، وفي شعر (امرىء القيس)[6] .

---

١ تفسير الطبري (١/٦٣) .
٢ تاج العروس (٦/٢٢٩) ، الطبري (٣/١٩٣) (حوادث السنة الحادية عشرة) .
٣ الفهرست (ص ٣١) .
٤ تاج العروس (٩/٢٩) ، (قضم) ، الفائق (٢/١٥٠) .
٥ ديوان زهير (٢٣١) .
٦ ديوانه (ص ٨٦) .

وبظهر من تفسير العلماء للكلمة ، ان (القضيم) الصحف البيضاء المستعملة من الجلد . وذلك بأن تقطع وتصقل حتى تكون صالحة للكتابة . وقد ورد ان كتبة الوحي استعملوا القضم في جملة ما استعملوه من مواد الكتابة[1] .

وأما الأدم ، وهي الجلود المدبوغة ، فقد كانت مثل القضم من مواد الكتابة الثمينة . وقد استعان بها كتبة الوحي في تدوين القرآن[2] . كما كانت مادة لتدوين المراسلات والعهود والمواثيق[3] . وقد أشير الى (الأديم) في شعر للمرقش الأكبر[4]. وذكر ان بعضه كان أديماً أحمر ، أي مدبوغ بمادة حمراء ، ومن أنواعه (الأديم الخولاني) . والظاهر انه كان من أوسع مواد الكتابة استعمالاً في أيام الجاهلية وصدر الاسلام،لوجوده عندهم ، ولرخص ثمنه بالنسبة الى الورق المستورد من مصر أو من بلاد الشأم[5] . وقد جاء في بعض الأخبار ان بعض مكاتبات الرسول كانت في الأدم[6] .

وكان الدباغون يدبغون الأهب ويصلحونها بصقلها ، فإذا دبغ الإهاب صار أديماً . وقد ذكر ان أهل مكة كانوا يشترون قطع الأديم،ويكتبون عليه عهودهم ومواثيقهم وكتبهم . ولما توفي (سعيد بن العاص) جاء فتى من قريش يذكر حقاً له في كراع من أديم بعشرين ألف درهم على (سعيد) ، بخط مولى لسعيد كان يقوم له على بعض نفقاته ، وبشهادة (سعيد) على نفسه بخطه . فأعطي حقه على ما كان مدوناً في قطعة الأديم[7] .

وذكر بعض علماء اللغة أن القرطاس : الكاغد ، يتخذ من بردي يكون بمصر. وذكر بعض آخر أن القرطاس الصحيفة من أي شيء كانت ، يكتب فيها ،

---

١ الفائق (٢/١٥٠) .

٢ تفسير الطبري (١/٥٩) ، السجستاني ، كتاب المصاحف (٢٣ وما بعدها) .

٣ نسب قريش ، للزبيري (١٧٧ وما بعدها) .

٤ الدار وحش والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم

المرزباني ، معجم (٢٠١) ، الاغاني (٦/١٢٧) . وورد : الدارقفر) ، عوضا عن (الدار وحش) ، المفضليات (ص ١١١) (بقلم السندوبي) (القاهرة ١٩٢٦ م) ، البيان والتبيين (٣٧٥) .

٥ تقييد العلم (٧٢/٢٥٢) ، مسند أحمد (٤/١٤١) ، الطبقات (٧/٥٤) ، نسب قريش (١٧٧ وما بعدها) ، المصاحف (٢٣ وما بعدها) .

٦ صبح الاعشى (٢/٤٧٥) .

٧ نسب قريش (١٧٧ وما بعدها) .

والجمع قراطيس[1] . وقد وردت لفظة (قرطاس) و (قراطيس) في القرآن الكريم[2]. وورود اللفظة في القرآن الكريم دليل على وقوف العرب عليها . وهي من الألفاظ التي دخلت الى العربية من مصر أو من بلاد الشأم ، حيث استورد أهل مكة والعربية الغربية مختلف التجارة منها ، ومنها القراطيس ، ويعرف القرطاس في اليونانية بـ Khartis [3] .

ويظهر أن أهل بلاد الشأم كانوا قد استعملوا اللفظة اليونانية ، فلما نقل الجاهليون القرطاس منهم وتعلموه عنهم ، استعملوا المصطلح اليوناني بشيء من التحريف والتحوير ليناسب النطق العربي . وقد نص بعض علماء اللغة على أن اللفظة من الألفاظ المعربة [4] .

وتقابل لفظة (قرطاس) لفظة Papyri في اللغة الانكليزية . وقد كان القدماء في مصر وفي حوض البحر المتوسط يكتبون على القراطيس . وهي على صورة لفّات تلف كالأسطوانة تحفظ في غلاف حذر تلفها وتمزقها . وأسفار اليهود هي على هذه الصورة[5] . ولا زالت معابدهم تستعمل توراتهم المكتوبة على هيئة (سفر) أي مكتوبة على هيأة صفحات متصلة بعضها ببعض على شكل اسطوانة ، يسحب أحد طرفيها الذي يوصل باسطوانة أخرى ، ثم يقرأ من السفر .

وذكر علماء اللغة أن (الرقاع) ، هي القرطاس[6] .

ووردت لفظة (رق) في القرآن الكريم : « والطور وكتاب مسطور في رق منشور »[7] . وقد فسّر العلماء الرق بأنه ما يكتب فيه شبه الكاغد ، أو جلد رقيق

---

١ المفردات (ص ٤٠٩) ، تاج العروس (٤/٢١٥) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٤) ، الجواليقي (ص ٢٧٦) ، شفاء الغليل (ص ١٥٩) ، ابن خلدون ، مقدمة (٤٧٠ وما بعدها) . Ency., II, p. 1036.

٢ (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم) ، الانعام ، الاية ٧ ، (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) ، الانعام ، الاية ٩ ، صبح الاعشى (٢/٤٨٥) .

٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٤) ، فرائد اللغة (ص ٢٧٧) .

٤ الجواليقي (٢٧٦) ، الخفاجي ، شفاء الغليل (ص ١٥٩) .

٥ Hastings, p. 676, 978.

٦ تاج العروس (٥/٣٦٠) .

٧ سورة الطور ، الاية ٢ وما بعدها .

يكتب فيه ، أو الصحيفة البيضاء[1] . وقد اشتهرت جملة مواضع في الحجاز وفي اليمن بترقيق الجلد ودباغته ، ليصلح للعمل ، وفي جملته الرق المستعمل في الكتابة. ويعرف الرق بـ (رقو) Raqo و (رق) Raq في الإرمية . وتؤدي اللفظة في هذه اللغة المعنى نفسه المفهوم منها في عربيتنا ، ولهذا ذهب بعض العلماء الى ان اللفظة من أصل إرمي[2] . ومن أجود أنواع الرق ، الرق المعمول من جلد الغزال. وذكر ان الصحابة أجمعوا على كتابة القرآن في الرق ، لتيسره عندهم ، ولطول بقاء الكتابة فيه[3] .

وقد كان الكتّاب يستعملون الرق في المراسلات وفي السجلات وفي الكتب الدينية . فقد استعمل الفرس جلود البقر المدبوغة لكتابة كتبهم الدينية عليها ، واستعمل العبرانيون جلود الغنم والمعز والغزال لكتابة التوراة والتلمود عليها . وقد اشترطوا في الجلود أن تكون من جلود الحيوانات الطاهرة . استعملوها صحائف منفصلة ، واستعملوها صفائح على هيأة الكتب ، كما استعملوها مدورة ملفوفة قطعة واحدة يتصل كل رأس منها بقضيب ، فتكون لفتين متصلتين ، وذلك بربط قطع الجلود بعضها ببعض وتثبيتها لتكون صحيفة واحدة طويلة مستطيلة ، يقال لها (مجلوت) (م ج ل و ت) ، أي المجلة ، من أصل (جلل) ، بمعنى لف وأدار[4] .

وفي الشعر الجاهلي إشارات الى استعمالهم (الرق) في كتاباتهم . وقد أشار بعضهم الى سطور الرق ، وكيف رقشها كاتبها ونمق الكتابة مسطرها . وكيف خط مملي الكتاب ما أريد إملاؤه في الرق . وقد عبر عن الخطاط الذي خط السطور على الرق بالمرقش وبالكاتب[5] . ومن أنواع الرق الجيد، الرق المصنوع بـ (خولان) والذي عرف بـ (الأديم الخولاني)[6] .

---

١ المفردات (ص ٢٠٠) ، شرح القاموس (٣٥٨/٦) ، صبح الاعشى (٤٧٤/٢) بلوغ الارب (٣٧٨/٣) .

٢ برصوم (ص ٧٣) ، غرائب اللغة (ص ١٨٣) .

٣ صبح الاعشى (٤٧٥/٢) .

٤ Smith, A Dictio., III, p. 1802.

٥ ديوان الهذليين (٧٠/٣) ، الآمدي ، المؤتلف والمختلف (٢٧) ، ديوان طرفة (٦٨) ، ديوان حاتم الطائي (٢٣) .

٦ تقييد العلم (٧٢) .

ونجد الشاعر المخضرم (معقل بن خويلد) الهذلي ، يشير الى (مملي كتاب) يملي على كاتب ، يخط على رق ، وذلك بقوله :

فإني كما قال مملي الكتاب في الرق إذ خطه الكاتب
يرى الشاهد الحاضر المطمئن من الأمر ما لا يرى الغائب[1]

ومعقل من سادات قومه ، ومن شعرائهم المعروفين ، وكان أبوه رفيق (عبد المطلب) الى (أبرهة)[2] .

وأما (القتب) ، فالإكاف الصغير الذي على قدر سنام البعير[3] . ويصنع من الخشب . وقد كتب الناس على (القتب) . وقد استخدم (الرحل) مادة للكتابة عليها ، عند الحاجة والضرورة[4] .

وقد استعملت الألواح مادة للكتابة ، ومن هذه الألواح ما صنع من الحجر ، بنشر الحجر وصقله ، ومنها ما صنع من الخشب ، ومنه من لوح الكتف أي العظم الأملس منه . واللوح كل صفيحة عريضة خشباً أو عظماً[5] . وأشير في القرآن الكريم الى اللوح ، فورد : « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ »[6] . وورد « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة »[7] وغير ذلك . فيظهر من ذلك أن الألواح كانت تكتب فيحفظ بها ما يراد حفظه من آراء وأفكار .

وقد كان بعض الصحابة والتابعين يستعملون الألواح لتقييد ما يريدون حفظه وتقييده من أقوال الرسول ومن سيرته أو غير ذلك . فذكر أن (ابن عباس) كان يأتي (أبا رافع) ويسأله : ما صنع رسول الله يوم كذا ؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها . وأن مجاهداً كان يسأل (ابن عباس) عن تفسير القرآن

---

١ ديوان الهذليين (٣/٧٠) .
٢ الاصابة (٣/٤٢٥) ، (رقم ٨١٣٧) .
٣ تاج العروس (١/٤٣٠ وما بعدها) ، (قتب) ، السجستاني ، المصاحف (٢٠) .
٤ ابن سعد ، الطبقات (٣/٢ ص ١٥١) ، تقييد العلم (١٠٢) .
٥ المفردات (ص ٤٧٢) ، تاج العروس (٢/٢١٨) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٢ وما بعدها) ، شمس العلوم (١/٣٤) .
٦ البروج ، الاية ٢١ وما بعدها .
٨ البروج ، الاية ٢١ وما بعدها .

ومعه ألواحه ، يكتب فيها ما يمليه عليه[1] . وعرف اللوح بـ (السبورجه) ، وهي لفظة فارسية الأصل[2] .

وقد ورد في حديث زيد بن ثابت عن جمع القرآن أنه جمعه من الرقاع واللخاف والعسب . وقصد باللخاف حجارة بيضاً رقاقاً ، واحدها لخفة[3] . كان يكتب عليها أهل مكة .

والحجارة هي المورد الرئيسي الذي استخرجنا منه علمنا بتأريخ العرب الجنوبيين وبتاريخ أعالي الحجاز وأماكن أخرى من جزيرة العرب.ويضاف الى ذلك الصخور الصغيرة والحصى الكبيرة،فقد نقش عليها الجاهليون أوامرهم وأحكامهم وخواطرهم ورسائلهم وذكرى نزولهم في مكان ، فالفضل يعود الى هذه الكتابات في حصولنا على أخبار الجاهليين المذكورين .

وقد كتبوا على الخزف ، وبقي الناس يكتبون على الحجارة والخزف الى الاسلام . فقد كان (أبو الطيب) اللغوي ، وهو (عبد الواحد بن علي) ، يعلق عن (أبي العباس) ثعلب على خزف ، ثم يجلس فيحفظ ما دوّنه عليه[4] .

ويقال لما يكتب في الحجارة وينقش عليها (الوحي) . والوحي الكتابة والخط . وبهذا المعنى ورد في شعر شعراء جاهليين واسلاميين ، مثل شعر (لبيد) ، حيث قال :

فمدافع الريّان عُرّي رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها[5]

وشعر (زهير) حيث يقول :

لمن الديار غشيتها بالفدفد كالوحي في حجر المسيل المخلد[6]

---

١ تفسير الطبري (٣١/١) ، البغدادي ، الخطيب ، تقييد العلم ، (تحقيق يوسف العش) ، (دمشق ١٩٤٩) (ص ٩١ وما بعدها) .

٢ تقييد العلم (٧٢) .

٣ تاج العروس (٢٤٤/٦) ، الفهرست (٣١) .

٤ رسالة الغفران (٦٣) .

٥ اللسان (٣٧٩/١٥) (صادر) ، البرقوقي (ص ١٤) .

٦ ديوان زهير (١٢٦ ، ١٥٠) .

وأما الورق ، فأريد به جلود رقاق يكتب فيها ، ومنها ورق المصحف[1] . ويظهر انهم أطلقوا اللفظة على القطع الرقيقة من الجلود أو من المواد الأخرى التي كانوا يكتبون عليها ، تشبيهاً بورق الشجر . ولذلك فإنها لا تعني نوعاً معيناً من الورق. كما يجوز ان يكون المراد من الورق المستورد من بلاد الشأم أو من مصر، أو المصنوع من صقل الكتان ونسيج القطن وغير ذلك .

ولقلة وجود القصب الصالح لصنع الورق في جزيرة العرب ، لا نستطيع أن نذهب الى وجود صناعة ورق من هذه المادة في هذه البلاد، بل كانوا يستوردونه من مصر مصدر الورق المصنوع من القصب ، والمعروف بـ (البابيروس) .

والصحيفة المبسوط من الشيء ، والتي يكتب فيها ، والكتاب ، وجمعها صحائف وصحف ، ومنها « إن هذا لفي الصُّحُف الأولى : صحف ابراهيم وموسى »[2] ، و « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة »[3] . وقد أشير الى الصحيفة في كتب السيرة حين اتفقت قريش على مقاطعة بني هاشم، وكتبت بذلك صحيفة ، كتبها (بغيض بن عامر بن هاشم) ، أو (منصور بن عبد شرحبيل) المعروف بأبي الروم على بعض الروايات[4] . والمصحف ما جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين . والتصحيف قراءة المصحف وروايته على غير ما هو لاشتباه حروفه[5] .

وقد قيل للقرآن : المصحف ، وإنما سُمي المصحف مصحفاً لأنه أصحف أي جُعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين[6] . ونقرأ في الأخبار أن بعضاً من الصحابة والتابعين كانوا يملكون صحيفة أو صحفاً دوّنوا فيها حديث الرسول أو أمراً من مور الشعر وأخبار العرب وأمثال ذلك . فكان (عبدالله بن عمرو بن العاص) قد كتب حديث الرسول في صحيفة؛وقد أذن الرسول له أن يكتب حديثه فيها[7] .

---

١ تاج العروس (٧/٨٦) ، المغرب (٢/٢٤٦) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٦) .
٢ سورة الأعلى ، الاية ١٨ وما بعدها .
٣ سورة البينة ، الاية ٢ وما بعدها .
٤ نسب قريش (ص ٢٥٤ وما بعدها) ، ابن هشام (١/٣٧٥ وما بعدها) .
٥ المفردات (ص ٢٧٦) ، المغرب (ص ٢٩٨) ، تاج العروس (٦/١٦١) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٤ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٣٧١) .
٦ اللسان (٩/١٨٦) وما بعدها .
٧ تذكرة الحفاظ (١/٥) .

وقد أشير الى الصحيفة في شعر (المتلمس)[1] ، ويظهر من الشعر الذي ذكرت اللفظة فيه ، أنه قصد بها رسالة ، أي كتاباً أمر ملك الحيرة (عمرو بن هند) بتدوينه ، وأعطاه اليه ، ليحمله الى عامله على البحرين على نحو ما ورد في خبره. كما أشير الى الصحيفة في شعر شعراء آخرين[2] .

ويقال للصحيفة طرس ، ويجمع على طروس[3] . ويقال إن الطرس الصحيفة المكتوبة[4] ، وقيل: الكتاب الممحو الذي يستطاع أن تعاد فيه الكتابة. والتطريس: فعلك به . وطرّس الباب سوّده ، والطِلس : كتاب لم ينعم محوه ، فيصير طرساً . والتطريس اعادة الكتابة على المكتوب الممحو[5] .

ورأى بعض العلماء أن الصحف ما كان من جلود[6] . وذهب بعض آخر ، الى أنها من جلد أو قرطاس . وأن القرطاس والصحيفة ، هما في معنى واحد ، وهو الكاغد[7] .

وذكرت (الصحيفة) في شعر للقيط بن يعمر الإيادي ، هو قوله :

سلام في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من إياد

وذلك في قصيدته التي كتبها اليهم ، يخبرهم فيها بمسير (كسرى) عليهم ، ويحذرهم من قدومه[8] .

---

١ أودى الذي علق الصحيفة منهما ونجا حذار حياته المتلمس
ألق الصحيفة ، لا أبا لك انه يخشى عليك من الحباء النقرس
...
ورهنتني هندا ، وعرضك في صحف تلوح كأنها خلل
الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (ص ١٣٢) ، الاغاني (٢١/١٣٥) .

٢ الشعر والشعراء (١/١٥٢) ، ديوان قيس بن الخطيم (١٩) ، ديوان الهذليين (١/٦٤) ، المرزباني ، معجم (٣٠٤) ، الاصمعيات (٦٣) .

٣ صبح الاعشى (٢/٤٧٦) .

٤ فرائد اللغة (ص ٢٧٧) ، وورد في شعر للبيد :
فاجازني منه بطرس ناطق وبكل أطلس جوبه في المنكب
شرح ديوان لبيد (ص ١٥٥) .

٥ بلوغ الارب (٣/٣٧١) ، الاقتضاب (٩٣) ، الفائق (٢/٨١) ، اللسان (٦/١٢١) ، تاج العروس (٤/١٧٧) (طرس) .

٦ بلوغ الارب (٣/٣٧١) ، مبادىء اللغة (ص ٩٠) ، (مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ) .

٧ صبح الاعشى (٢/٤٧٤) .

٨ الشعر والشعراء (١/١٢٩) ، الاغاني (٢٠/٢٣) .

كما ذكرت في شعر لعدي بن زيد العبادي ، وصف فيه قصة (الزبّاء) و (جذيمة) و (قصير) ، حيث يقول :

ودست في صحيفتها اليه ليملك بُضعها ولأن تدينا[1]

وكان من عادة أهل الجاهلية تدوين أحلافهم في صحف ، توكيداً للعهد ، وتثبيتاً له . وقد أشير الى ذلك في الشعر وفي الأخبار . ورد في شعر قيس بن الخطيم :

لما بدت غُدوة جباههم حنت الينا الأرحام والصحف[2]

وأشير اليها في شعر ينسب لدرهم بن زيد الأوسي ، يخاطب الخزرج بما كان بينهم من عهود ومواثيق ، إذ يقول :

وإن ما بيننا وبينكم حين يقال الأرحام والصحف[3]

ولما قاطعت قريش (بني هاشم وبني المطلب) ، كتبت بذلك كتاباً عرف بـ (صحيفة قريش) ، وختموا عليها ثلاثة خواتيم،وعلّقوها في سقف الكعبة ، وقيل : بل كانت عند أم الجلاّس مخربة الحنظلية ، خالة أبي جهل ، وقيل عند هشام بن عبد العزى[4] .

وترد الصحف بمعنى الوثائق ، وكل تسجيل يراد الاحتفاظ به للرجوع اليه عند الحاجة ، فالديون تسجل في صحف وكتب ، والأمور الهامة تسجل فيها كذلك ، هذا (علباء بن أرقم بن عوف) الشاعر اليشكري ، يذكر دَيناً دوّن في صحيفة ، فيقول :

أخذت لدين مطمئن صحيفة وخالفت فيها كل من جار أو ظلم[5]

---

١ الشعر والشعراء (١٥٢/١) ، الاغاني (١٠١/٢) .
٢ ديوان قيس (١٩) .
٣ مصادر الشعر الجاهلي (٦٦) .
٤ امتاع الاسماع (٢٥/١) .
٥ الاصمعيات (٦٣) ، الخزانة (٣٠٤/٢) ، (٣٦٥/٤ ، ٣٨٤) ، المرزباني ، معجم (١٦٩) ، (فراج) .

وقد ورد ذكر صحف الدين هذه في كتاب الرسول الى ثقيف، إذ جاء فيه : «وما كان لثقيف من دين في صحفهم اليوم الذي أسلموا عليه في الناس فإنه لهم»[1].

وذكر أن الناس كانوا يكتبون بالمهارق قبل القراطيس في العراق . وقد ذكر (المهرق) في شعر حسّان :

كم للمنازل من شهر وأحوال كما تقادم عهد المهرق البالي[2]

وكانوا يغسلون الصحف المكتوبة للاستفادة منها ، بكتابة شيء جديد يراد كتابته عليها ، وذلك لغلاء مادة الكتابة وصعوبة الحصول عليها ، فيطمسون معالم الكتابة السابقة بغسلها بالماء مثلاً ، فإذا جفت كتبوا عليها. وقد تسبب هذا الغسل الى وقوع خسارة كبيرة بالنسبة لتدوين العلم ، إذ غسل هذا الماء مادة علمية ثمينة كانت ستفيدنا كثيراً بالطبع لو بقيت مدونة على الصحف . فخسرنا نحن خسارة ثمينة ولا شك لا تعوض .

واستعمل الجاهليون السبورة في الكتابة . ويريدون بها جريدة من الألواح من ساج أو غيره ، يكتب عليها . فإذا استغنوا عنها محوها ، وهي معربة . وقد رواها جماعة من أهل الحديث (ستورة) . وبهذا المعنى وردت السفورة ، وهي معربة كذلك[3] .

والمهارق من الألفاظ المعربة ، يرى علماء اللغة انها من الفارسية ، وان أصلها (مهركُرده) (مهر كرد) ، أي صُقلت بالخرز . وقد عرفها بعض علماء اللغة بأنها ثياب بيض أو حرير أبيض ، تسقى بالصمغ وتصقل ، ثم يكتب عليها . وقيل : هي الصحائف ، الواحد مهرق . وذكر الجاحظ ان الكتب لا يقال لها مهارق ، حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود ، أو ميثاق وأمان[4] .

---

١ الدكتور محمد حميدالله ، مجموعة الوثائق السياسية (١٦٠) .

٢ تاج العروس (٧/٩٥) ، (هرق) .

٣ شرح القاموس (٣/٢٥٣ ، ٢٧٠) .

٤ قال الحارث بن حلزة اليشكري :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس

المعرب (ص ٣٠٣ وما بعدها ، الحيوان (١/٧٠) (تحقيق عبدالسلام هارون) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٦) ، المفضليات (ص ٥٣) (طبعة السندوبي) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٦) ، شرح ديوان الحماسة (٤/١٣٠) ، شرح القصائد العشر (٢٦٨) (الطبعة المنيرية) ، المخصص (٤/٣٤٠) ، (آياتها كمهارق الحبش) ، تاج العروس (٧/٩٥ وما بعدها) ، (هرق) ، الحيوان (١/٧٠) ، اللسان (١٠/٣٦٨) ، (هرق) .

ويظهر من الشعر المنسوب للحارث بن حلزة اليشكري ، ان أصل المهارق من الفرس ولهذا عبر عنها بقوله : (كمهارق الفرس) . ولعله قصد كتباً وصحفاً دينية من ديانتهم المجوسية . وقد وردت اللفظة في شعر ينسب للأعشى[1] وفي شعر آخر ينسب للحارث بن حلزة اليشكري المذكور[2] .

قال (الجاحظ) : « والمهارق ، ليس يراد بها الصحف والكتب ، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود ، وميثاق، وأمان». وقال قبل ذلك : « لولا الخطوطُ لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك، وكل إقطاع ، وكل انفاق ، وكل أمان . وكل عهد وعقد ، وكل حوار وحلف ، ولتعظيم ذلك ، والثقة به والاستناد اليه ، كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة ، تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان ، ولذلك قال الحارث بن حلزة ، في شأن بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدّم فيه ، العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي ، وهل ينقض ما في المهارق الأهواء »[3]

وقد أشار (الحارث بن حلزة) اليشكري الى (مهارق الفرس) ، وذلك في قوله :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس[4]

ونوع آخر من (المهارق) عمل من الكرابيس ، أي من الثياب المصنوعة من الكرباس وهو القطن الأبيض ، وذلك بسقي الكرباس ، بصمغ أو بإطلائه بشيء آخر يسد المسامات ، ثم يصقله بالخرز[5] . فهو إذن من النوع الجيد الغالي بالنسبة

---

١ ربي كريم لا يكدر نعمة وإذا يناشد بالمهارق أنشدا
ديوان الاعشى (٢٢٩) (القاهرة ١٩٥٠ م) ، أدب الكتاب (١٠٦) ، (وإذا تنوشد) ، اللسان (٣٦٨/١٠) ، (هرق) .
٢ حذر الجور والتعدي وهل ينقض ما في المهارق الاهواء ؟
شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٦٧) ، المفضليات (٢٥) ، شرح المعلقات، للتبريزي (٢٦٨ وما بعدها) .
٣ الحيوان (٦٩/١ وما بعدها) .
٤ المفضليات (١٣٢) .
٥ شرح المعلقات (٢٠٠ وما بعدها ، ٢٦٨ وما بعدها) .

الى مواد الكتابة ، ولذلك كانوا يستعملونه في الأمور الكتابية الجليلة .

وقد أشير في شعر (الأسود بن يعفر) الى سطور يهوديين في مهرقيهما مجيدين في الكتابة ، هما من أهل (تيماء) أو من (أهل مدين)[1] . ولم يشر الى نوع القلم الذي كتبا به ، وأغلب الظن أنه قلم عبراني .

وقد استعمل الجاهليون (الصكوك) في تعاملهم . وذكر علماء اللغة أن (الصك) الذي يكتب للعُهدة ، وكانت الأرزاق تسمى صكاكاً لأنها كانت تخرج مكتوبة . ومنه الحديث في النهي عن شراء الصكاك ، وذلك أن الأمراء كانوا يكتبون للناس بأرزاقهم وأعطياتهم كتباً ، فيبيعون ما فيها قبل أن يقبضوها معجلاً ، ويعطون المشتري الصك ليمضي ويقبضه ، فنهوا عن ذلك لأنه بيع ما لم يقبض . وذكروا أن اللفظة من الألفاظ المعربة ، أصلها فارسي[2] . واستعملت الصكوك في الدين . فورد (صك دين)[3] .

وقد أمدتنا جزيرة العرب بحجارة كثيرة مكتوبة،ولكنها لم تمدنا باللبن المكتوب أو الطين المكتوب المشوي بالنار إلا في النادر . مع أن الكتابة على الطين أسهل من الكتابة على الحجر . ولعل وجود الحجر بكثرة في العربية الغربية والجنوبية ومقاومة الحجر للبلى والتلف هما اللذان دفعا أهل هذه البلاد على تفضيل الحجر في الكتابة على الطين . ولا يستبعد عثور الآثاريين والمنقبين في المستقبل على كتابات جاهلية مسجلة على الطين ولا سيما في المناطق الماحلة أو التي يقل فيها وجود الحجر، هي الآن مطمورة في باطن الأرض .

وأعطوا للصحف أسماء اذا كانت قد كتبت في أغراض خاصة . فإذا كانت الصحيفة اعطاء أرض لشخص ، كإقطاعه أرضاً ، يعطى الشخص صحيفة مدونة بذلك ، تثبت له تسجيل الأرض المقطعة باسمه يقال لها (الوصر) و (الاصر) . وقد ذكر علماء اللغة ان الاصر : العهد والعقد . وقيل العهد الثقيل[4] . وان

---

١ سطور يهوديين في مهرقيهما مجيدين من تيماء أو أهل مدين
مصادر الشعر الجاهلي (٨٢) .

٢ اللسان (١٠/٤٥٧) ، (صكك) ، مفاتيح العلوم (ص ٣٨) .

٣ مجالس ثعلب (٢٧) .

٤ تاج العروس (٣/١٤) ، (أصر) .

(الوصر) الصك الذي تكتب فيه السجلات . والأصل اصر ، سمي به لأن الأصر العهد ويسمى كتاب الشروط كتاب العهد والوثائق،ويطلق غالباً على كتاب الشراء. قال عدي بن زيد :

فأيكم لم ينله عرف نائله دثراً سواما وفي الأرياف أوصارا[1]

أما اذا كانت الصحيفة صحيفة جوائز ، كان يعطي الملك جوائز لأصحابه وأتباعه ، قيل للصحف التي يدون قدر الجائزة أو نوعها عليها القطوط والمفرد : القط . وقد ذكرها الأعشى في شعره :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بإمته يعطي القطوط ويأفق[2]

وورد ذكرها في شعر المتلمس ، إذ قال :

وألقيتها بالثنى من جنب كافر كذلك ألقى كل قط مضلل[3]

وقد عرفت (القط) انها الصك بالجائزة ، وهي الصحيفة للانسان بصلة يوصل بها . وقيل القط الصحيفة المكتوبة وكتاب المحاسبة . قيل : سميت قطوط لأنها كانت تخرج مكتوبة في رقاع وصكاك مقطوعة[4] .

وقد كانت الحاجة تدفع الكتّاب الى تدوين ما يريدون تقييده وكتابته على ملابسهم وعلى راحة أيديهم ، بل على نعالهم أحياناً . روي عن (سعيد بن جبير) انه قال : « كان ابن عباس يملي علي في الصحيفة حتى أملأها وأكتب في نعلي حتى أملأها »[5] . وقد كانوا يكتبون على الهودج أو على أي شيء يجدونه أمامهم، مثل الرحل ، لندرة الورق عندهم ولحاجتهم الى تسجيل ما يسمعونه ، أو ابلاغ قومهم بسر أو برسالة ، فيغافل المرسل من يعرف أنه قاصد الجهة التي يريدها

---

١ تاج العروس (٦٠٢/٣) ، (الوصر) .
٢ تاج العروس (٢٠٩/٥) ، (قطط) .
٣ البطليوسي ، الإقتضاب (٩٣) ، مصادر الشعر (٧٠ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٢٠٩/٥) ، (قطط) .
٥ تقييد العلم (١٠٢) .

فيحفي بسكينه على الراحلة ما يريد تبليغه من سر[1] . وورد عن (سعيد بن جبير) قوله « كنت أكتب عند ابن عباس في صحيفتي حتى أملأها ، ثم أكتب في ظهر نعلي ، ثم أكتب في كفي » . وروى انهم كانوا يكتبون على أكفهم بالقصب عند البراء ، وان (الزهري) ربما كتب الحديث في ظهر نعله مخافة ان يفوته[2] .

ولفظة : (كتب) التي نستعملها اليوم ، ومن أصلها اشتقت لفظة (كتابة) و (كتاب) وكاتب وأمثالها ، هي من الألفاظ العربية الشمالية المعروفة المتداولة عند الجاهليين . وقد وردت لفظة (كتاب) بمعان متعددة ، منها هذا المعنى المعروف ، ومنها الصحيفة مع المكتوب فيها . وقد قصد بها التوراة في مواضع من القرآن الكريم . وأريد بـ (أهل الكتاب) اليهود والنصارى ، أهل التوراة والانجيل[3] .

وقد استعملت اللحيانية لفظة (كتب) أيضاً ، فوردت في عدد من الكتابات . وعبرت عن (الكتابة) و (الخط) بلفظة (هكتب)[4] . والهاء أداة للتعريف عندهم ، ويجوز انهم كانوا ينطقون بها على هذه الصورة : (هكتاب) ، أو (هاكتاب) ، أي : (الكتاب) و (الكتابة) .

ومتى فكر الإنسان في الكتابة تذكر (القراءة) . فالكتابة التدوين ، والقراءة قراءة الشيء المدوّن . ولهذا يقال : القراءة والكتابة ، كما يقال : قارىء كاتب، أي يحسن ويجيد الحالتين . فقد كان البعض يقرأون ولا يكتبون . روي أن (عائشة) كانت تقرأ المصحف ، ولا تكتب ، وأن (أم سلمة) كانت مثلها تقرأ ولا تكتب[5] .

ونجد لفظة (كتاب) في شعر عدد من الشعراء الجاهليين . وقد استعمل (عدي ابن زيد العبادي) (كتاب الله) في شعره[6] ، ولما كان هذا الشاعر نصرانياً ،

---

١ المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) ، الطبقات (٢/٣ ص ١٥١) ، تقييد العلم (١٠٢)، المصاحف (٢٠) .
٢ تقييد العلم ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ .
٣ المفردات (ص ٤٣٤ وما بعدها) .
٤ راجع النصين ٤٨ و ٤٩ من كتاب : Lihyanisch, S. 99.
٥ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٦ وناشدتنا بكتاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله ترتفع
شعراء النصرانية (ص ٤٧٢) .

يكون قصد بـ (كتاب الله) الإنجيل ولعله قصد التوراة والإنجيل معاً . وجاءت جملة : (آيات الكتاب) في شعر (تميم بن أبي بن مقبل العامري)[1] . أما زهير ، فقد استعمل لفظة (كتاب) أيضاً في معنى الشيء الذي يكتب ويدوّن عليه ليحفظ لوقت الحساب[2] .

وتؤدي لفظة (كتاب) معنى رسالة . فقد كانوا يطلقون على الرسالة لفظة (كتاب) ، والجمع (كتب) . ومن ذلك ما ورد في خبر (كتب رسول الله الى الملوك)[3] و (خبر كتاب مسيلمة الى رسول الله والجواب عنه)[4] .

ولفظة (دفتر) ، في معنى جماعة الصحف المضمومة ، وهي الكراريس[5] . وفي قول عمرة : « ولو انطبق عليكم الدفتر » ، يعني ولو أن تكتبوا آخر الناس[6]. ولا أظن أن اللفظة قد دخلت العربية في أيام عمر ، بل لا بد وأن تكون من الألفاظ المستعملة في الجاهلية . وذكر أن الدفتر جريدة الحساب والكراسة[7] .

والكراسة الجزء من الصحيفة والكتاب . يقال : « هذا الكتاب عدة كراريس » ، و (كرّاس أسفار)[8] . وترد اللفظة في لغة بني إرم ، بمعنى (كتيب) وجزء من كتاب يحتوي في الغالب ثماني ورقات[9] .

وكانوا يسجلون عقودهم وأخبارهم في كتب ، أي صحف ، من ذلك ما ورد في قصة النعمان مع (الحارث بن ظالم) ، فقد ورد انه كتب اليه كتاباً وكان يومئذ بمكة يؤمنه إن عاد اليه ، فلما جاء الى (النعمان) ، وقال له : أنعم صباحاً أبيت اللعن ، انتهره الملك بقوله : لا أنعم الله صباحك . فقال الحارث : هذا كتابك ! قال النعمان : كتابي والله ما أنكره أنا كتبته[10] . وكان (عبد الرحمن ابن عوف) ، قد كاتب (أمية بن خلف) في أن يحفظه في صاغيته بمكة ،

---

١ جمهرة اشعار العرب (٣١٨) .
٢ يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
ديوان زهير (١٨) .
٣ تأريخ الطبري (٢/٦٤٤ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/١٤٦ وما بعدها) .
٥ اللسان (٤/٢٨١) ، (دفتر) .
٦ تاج العروس (٣/٢٠٩) ، (دفتر) .
٧ تاج العروس (٣/٢٠٩) ، (دفتر) .
٨ تاج العروس (٤/٢٣٢) ، (كرس) .
٩ غرائب اللغة (٢٠٣) .
١٠ الاغاني (١١/١٢٠) .

وأن يحفظه في صاغيته بالمدينة ، وكتبا هذه المكاتبة في كتاب[1] .

وترد لفظة (كتاب) بمعنى اعلان واحقاق حق ، كالذي ورد في خبر (رؤيا) (عاتكة بنت عبد المطلب) ، عن مصير معركة (بدر) ، وقول قريش للعباس : « يا بني عبد المطلب ! أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم! قد زعمت عاتكة في رؤياها انه قال : انفروا من ثلاث ، فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتاباً انكم أكذب أهل بيت في العرب »[2] .

ويعبر عن الكتابة بالخط ، وتعني لفظة خطّ ، كتب . في القرآن الكريم : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك »[3] . وقد عبر عنها بالقلم كذلك ، فقيل : القلم العربي ، والقلم الحميري . ويراد بالقلم الحميري المسند ، ويقولون له الخط المسند كذلك . وقد بقي ناس من أهل اليمن يكتبون به في الإسلام[4] . وقد وردت لفظة (هخطط) ، أي الخط والرسم ، في النصوص الصفوية[5] . وهذا يدل على أن هذه اللفظة هي من الألفاظ التي كان يستعملها العرب الشماليون . والهاء في (هخطط) أداة التعريف (ال) في عربيتنا .

وتعبر كلمة (سطر) عن معنى خط وكتب . و (السطر) الخط والكتابة . ووردت لفظة (يسطرون) في القرآن الكريم في سورة (ن) بمعنى يكتبون[6] . ووردت لفظة (سطر) في نص (أبرهة) بهذا المعنى أيضاً . كما نجدها في نصوص عربية جنوبية أخرى ، مما يدل على ورودها في اللهجات العربية الجنوبية كذلك. وتقابلها لفظة (سرتو) Serto و (سورتو) Sourto من الفعل (سرت) Srat في الإرمية . ومن هنا ذهب بعض الباحثين في الإرمية الى أن (سطر) العربية هي

---

١ الزمخشري ، الفائق (٢/٢٦) .

٢ ابن هشام (٢/٦٢) ، (حاشية على الروض) .

٣ سورة العنكبوت ، الاية ٤٨ ، المفردات (ص ١٥٠) .

٤ تاج العروس (٢/٣٨٢) ، (سند) .

٥ CIH, Pars Quinta, I, p. 27, NU : 141, Dunand, 1249a, p. 385, NU : 3943, J. Ryckmans', Inscriptions Safaitiques, Louvain, 1951, p. 3, Littmann, Safa., p. 80, 82.

٦ سورة القلم ، الرقم ٦٨ ، الاية ١ وما بعدها .

(كلمة سريانية الأصل)[1] . وهو رأي يمثل وجهة نظر طائفة من الباحثين ترجع أصول أكثر المصطلحات الحضارية والثقافية الواردة في العربية الى أصل سرياني . وفيه تسرع وبعد عن العلم .

والسطر ، الصف من الشيء . والتسطير ، كتابة بسطور ، أي الخط والكتابة[2] . وقد كان معظم الجاهليين يجعلون كتابتهم سطوراً سطراً فوق سطر ، ليكون من الممكن تتبع الكتابة إلا بعض الكتابات الصفوية والثمودية واللحيانيــة التي اتخذت أشكالاً مختلفة ، تارة على هيأة هلال ، وتارة أخرى على شكل دائرة ، وحيناً على شكل غير منسق ولا منظم ، إذ كان أصحابها رعاة في الغــالب متنقلين ، فلم تكن كتابتهم متقنة ، كما أنهم لم يكونوا يملكون ورقاً وقرطاساً ، فكتبوا على أية حجارة وجدوها ، فاختلف شكل الخط لذلك .

والتسطير التخطيط . أي تدوين السطور وتخطيطها على شكـل خطوط . ومن المجاز خططت عليه ذنوبه ، أي سطرت[3] . ووردت لفظة (اسطرن) (الأسطر) بمعنى الوثيقة والسطور في كتابات المسند[4] .

ونجد في شعر للشاعر (الشماخ) ، وصفاً للخط ، كتبه حبر بتيماء من أسطر ، عرض فيها وأثبج . إذ يقول :

أتعرف رسماً دارساً قد تغيرا بذروة أقوى بعد ليلى وأقفرا
كما خط عبرانيــة بيمينه بتيماء حبر ثم عرض أسطرا

« والتعريض أن يثبج الكاتب ولا يبين الحروف ولا يقوم الخط »[5] .

وترد لفظة : (النقش) بمعنى الكتابـة والتدوين والتخطيط . ورد : رجّع النقش ، والوشم ، والكتابة : ردد خطوطها ، وترجيعها أن يعاد عليهـا السواد مرة بعد أخرى . ومنه رجع الواشمة . قال لبيد :

---

١ برصوم (ص ٨٣) ، الأب رفائيل نخلة اليسوعي ، غرائب اللغة العربية (بيروت ١٩٠٧) (ص ١٨٧) ، Smith, A Dictio, III, p. 1789.

٢ تاج العروس (٣/٢٩٦ وما بعدها) ، (سطر) .

٣ تاج العروس (٥/١٣١) ، (خط) .

٤ Le Muséon, 1953, 1-2, p. 114.

٥ تاج العروس (٥/٥٠) ، (عرض) .

أو رجع واشمة أسف تؤورها كففا ، تعرض فوقهن وشامها

وقول زهير :

مراجيع وشم في نواشر معصم[1] .

وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (زَبَر) . و (الزبر) الكتابة . ويذكر علماء اللغة انها تعبر عن معنى النقش في الحجارة كذلك . وأما (المِزبر) ، فهو (القلم). كما ذكرت ذلك قبل قليل . وقد ورد في حديث وفاة الرسول انه دعا بدواة ومزبر ، أي قلم[2] . وذكر ان الزبور الكتاب[3] . وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم . فلفظة (زبر) بالفتح اذن فعل ماضٍ بمعنى كتب ، وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (ذَمَرَ) . فنقول (ذمرتُ الكتابَ) ، أي زبرته وكتبته[4] . وقصد بـ (الزبور) في القرآن الكريم ، المزامير ، أي (مزامير داوود) . وتقابل لفظة (زمره) (زمراه) في العبرانية[5] .

ويظهر من البيت المنسوب الى لبيد :

فنعاف صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد يمان[6]

ومن البيت المنسوب الى (أبي ذؤيب) :

عرفت الديار كرقم الدوا ة يزبرها الكاتب الحميري[7]

ان أهل اليمن كانوا قد اشتهروا بالكتابة والقراءة بين الجاهليين وان ولدان أهل اليمن كانوا يرجعون أي يقرأون ويكررون ما هو مزبور أمامهم لحفظه . وأن (الكاتب الحميري) ، أي كاتب أهل اليمن كان معروفاً مشهوراً ، يحمل

١ اللسان (١١٥/٨) ، (رجع) .
٢ تاج العروس (٢٣١/٣) ، (زبر) .
٣ بلوغ الارب (٣٧١/٣) .
٤ الاشتقاق (ص ٣٠) .
٥ A Dictionary of Islam, p. 698.
٦ ديوان لبيد (١٣٨) .
٧ ديوان الهذليين (٦٤/١) .

الدواة ويكتب بها على مادة الكتابة . « قال أعرابي حميري : أنا أعرف تزبرتي أي كتابتي[1] .

وأشير الى (خط زبور) في شعر امرىء القيس :

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان[2]

وذكر علماء اللغة أن (الزبور) الكتاب ، وفي هذا المعنى ورد قول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

وذكروا أن الزبور قد غلب على كتاب (داوود) ، أي (المزامير) ، وكل كتاب زبور . وقيل : هو الكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية[3] .

واستعمل (الهمداني) جملة : (زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية) ، وقال إن (أبا نصر) الحنبصي ، كان قد قرأها وكان بحاثة عالماً بها . وقد فرّق بين (الزبر) وبين (المساند)[4] ، مما يدل على أنه قصد بالزبر شيئاً آخر يختلف عن المساند ، ربما أراد بالزبر صحفاً أو مجموعة صحف ، أو كتاب ، أما المساند ، فالكتابات المدوّنة على الحجر .

ومن المصطلحات المعبرة عن معنى كتب ونقش وختم لفظة (رقم) . و(كتاب مرقوم) ، بمعنى مكتوب ، وأما المِرقم فالقلم ، لأنه يرقم به[5] . وذكر بعض علماء اللغة أن الرقم : الخط الغليظ ، وقيل : تعجيم الكتاب . وقد ورد في القرآن الكريم : (كتاب مرقوم)[6] . وذكر أن : (الرقيم) ،الكتاب . والكتابة والختم[7] .

---

١ الامالي ، للقالي (٢/١٧٢) .
٢ ديوان امرىء القيس (١٢٥) .
٣ تاج العروس (٣/٢٣١) ، (زبر) ، راجع معلقة لبيد .
٤ الاكليل (١/١٣) .
٥ تاج العروس (٨/٣١٥ وما بعدها) ، (رقم) ، التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون (١/٦٥٢) .
٦ سورة المطففين ، الآية ٩ ، المفردات (٢٠١) .
٧ بلوغ الأرب (٣/٣٧١) ، اللسان (١٢/٢٤٨ وما بعدها) .

« وفي الحديث أنه كان يسوي الصفوف حتى يدعها مثل القدح أو الرقيم ، أي مثل السهم أو سطر الكتابة » . وليس بين الرقوم والخطوط فرق[1] .

يقول علماء العربيـــة : « ورقم الكتاب : أعجمه وبينّه ، أي نقطه وبين حروفه . وكتـــاب مرقوم : قد بُيِّنت حروفه بعلاماتها من التنقيط »[2] . وإن الإعجام التنقيط بالسواد ، مثل التاء عليها نقطتـــان[3] . وأن التنقيط بمعنى وضع النقط عـــلى الحروف ، أي إعجامها[4] . ويحملنا قولهم هذا على الذهاب الى أن الاعجام كان معروفاً بين الجاهليين .

وفي هذا المعنى ، أي الرقم والترقيم والرقيم ترد لفظة (الترقين) ، و(الرقن) ، و (المرقون) ، و (الرقين) . و (ترقين الكتاب : المقاربة بين السطور . وقيل نقط الخط واعجامه ليتبين ، وأيضاً تحسين الكتاب وتزيينه)[5] . « والترقين تسويد مواضع في الحسبانات لئلا يتوهم أنها بيضت كيلا يقع فيه حساب »[6] .

وقد وردت لفظة (المنمق) وجملة (الكتاب المنمق) في شعر ينسب لسلامة ابن جندل ، هو :

لمن طللٌ مثل الكتاب المنمق   خلا عهده بين الصُّليب فمطرق[7]

وذكر علماء اللغة ان معنى (نمق) كتَب . فيقال : نمق الكتاب ينمقه ، أي كتبه وحسّنه وزيّنه بالكتابة وجوده[8] . وفي هذا المعنى نبق ، فيقال : نبق الكتاب ونمقه اذا سطره[9] . أما لفظة ، دبج ، فتعني النقش والتزيين[10] .

---

١ اللسان (٢/٥٥٦) ، الحيوان (١/٧٠) .
٢ تاج العروس (٨/٣١٥) ، (رقم) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٤ تاج العروس (٥/٢٣٤) ، (نقط) .
٥ تاج العروس (٩/٢١٨) ، (رقن) .
٦ المصدر نفسه .
٧ الاصمعيات (١٤٦) ، (دار المعارف) .
٨ قال النابغه :
كأن مجر الرامسـات ذيولهـا   عليــه قضيم نمقتـــه الصوانع
تاج العروس (٧/٨١) ، (نمق) .
٩ تاج العروس (٧/٧٤) ، (نبق) .
١٠ تاج العروس (٢/٣٧) ، (دبج) .

وذكر علماء العربية ان (الرقش) الخط الحسن ، وان الرقش والترقيش : الكتابة والتنقيط ، وان (رقش) ، بمعنى نقط الخطوط والكتاب . وأن الترقيش: التسطير في الصحف[1] . ويظهر ان للكلمة علاقة بتنميق الخط وتحسينه وتجويده ، وان الخط المرقش ، هو الخط المنمنم المزوّق المنقط المعتنى به . قالوا : ومن هنا سمي الشاعر (المرقش) مرقشاً . وهو المرقش الأكبر عم (المرقش الأصغر) . ويدل هذا التفسير لمعنى (الترقيش) على ان التنقيط كان معروفاً عند الجاهليين . ورووا له قوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم[2]

وقد وردت لفظة (رقش) في شعر ينسب للأخنس بن شهاب التغلبي ، هو :

لابنة حطّان بن عوف منازل كما رقش العنوان في الرق كاتب[3]

كما وردت في شعر لطرفة ، هو :

كسطور الرق رقشه بالضحى مرقش يشمه[4]

و (اللمق) الكتابة في لغة (بني عقيـــل) ، وسائر (قيس) يقولون : اللمق : المحو . وقال بعضهم : « لمقه بعدما نمقه ، أي محاه بعدما كتبه » . فهو ضد . يقال لمقه اذا كتبه ولمقه اذا محاه[5] .

و (النبق) الكتابة ، مثل النمق . ونبق الكتاب ونمقه اذا سطره[6] .

و (القرمطة) في الخط دقة الكتابة وتداني الحروف والسطور، وقرمط الكاتب إذا قارب بين كتابته . وكان الامام (علي) ، يقول للكاتب : « فرج ما بين السطور وقرب بين الحروف »[7] .

---

١ اللسان (٦/٣٠٥) ، تاج العروس (٤/٣١٤) ، (رقش) .
٢ الاصمعيات (٢٣٧) ، (دار المعارف) ، تاج العروس (٤/٣١٤) ، (رقش) .
٣ الخزانة (٣/١٦٥) .
٤ الامالي ، لنقالي (٢/٢٤٦) .
٥ تاج العروس (٧/٦٣) ، (لمق) .
٦ تاج العروس (٧/٧٤) ، (نبق) .
٧ تاج العروس (٥/٢٠٤) ، (قرمط) .

و (النمنمة) ، خطوط متقاربة قصار ، وكتاب منمنم ، منقش ، ومرقش ومزخرف ، أي به زخرفــة . ولكل وشي نمنمة . فيظهر من ذلك أن بعض صحف وكتب أهل الجاهلية كانت منمنمة ذات رقوش ونقوش ووشي . وقــد نعت (الجاحظ) الخط المسند بـ (المنمنم)[1] .

ويعبر عن الكتابة بلفظة (النقر) على سبيل المجاز.وقد ورد (نقر في الحجر) بمعنى كتب[2] ، وذلك لأن الحجر المكتوب ، هو حجر منقور ، ظهرت الكتابة عليه بطريقة النقر . وكل ما ورد الينا من الكتابات الجاهلية قد كتب على الحجر أو الخشب بالنقر والحفر .

والمشق السرعة في الكتابة . وقيل مشق الخط يمشقــه مشقاً : مدّه . فالمشق الخط الممدود الذي كتب بسرعة وبعجلة . ولذلك عبّر عن القــلم السريع الجري في القرطاس بـ (قلم مشاق)[3] . وورد أن أهل الأنبار كـانوا يكتبون بالمشق . وهو خط فيه خفة[4] .

ويعبر عن الكتابة الفاسدة المكتوبــة بخط رديء فاسد بـ (كتابة مخربشة) وبـ (كتاب مخربش)[5] . وبهذا المعنى أيضاً (الخرمشة) . فالخربشة والخرمشة في معنى واحد[6] .

وقد كانوا يستنسخون الكتب والصحف والأسطر كما نفعل. فقد ورد ان منهم من استنسخ كتباً في الجاهلية والاسلام ، أي ينقلون الكتابة نقلاً بنصها وحروفها حرفاً حرفاً حتى تكون عند الناقل نسخة كاملة تامة للكتابة التي نقل عنها. والكاتب ناسخ ومنتسخ . والاستنساخ اكتتاب كتاب عن كتاب حرفاً حرفاً . وفي هذا المعنى ورد في القرآن : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » ، أي نستنسخ ما تكتب الحفظة[7] .

---

١ اللسان (٥٩٢/١٢ وما بعدها) ، (نم) ، تاج العـروس (٨٥/٩) ، (نم) ، الحيوان (٧١/١) .

٢ تاج العروس (٥٨٠/٣) ، (نقر) .

٣ اللسان (٣٤٤/١٠ وما بعدها) ، (مشق) ، تاج العروس (٧٠/٧) ، (دمشق) .

٤ الاقتضاب (٨٩) ، المصاحف ، للسجستاني (١٣٤) .

٥ اللسان (٢٩٥/٦) ، تاج العروس (٣٠٤/٤ وما بعدها) ، (خربش) ، (خرمش) .

٦ اللسان (٢٩٥/٦) .

٧ الجاثية ، الآية ٢٩ ، تفسير القرطبي (١٧٥/١٦) ، (قال ابن عباس : هل يكون النسخ الا من كتاب) ، تاج العروس (٢٨٢/٢) ، (نسخ) .

وترد لفظة (الترقين) ، بمعنى ترقين الكتاب وهو تزيينه ، وقيل (رقّن الكتاب) قارب بين سطوره ، والترقين في كتاب الحسبانات . والمرقين : الكاتب[1] . وقال بعضهم : « الترقين خط يخط في التأريخ أو العريضة اذا خلا باب من السطر ، لكي يكون الترتيب محفوظاً به . وهو بمنزلة الصفر في حساب الهند وحساب الجمل ، واشتقاقه من (رقان) وهو بالنبطية الفارغ »[2] . وقيل الترقين : نقط الخط وإعجامه ليتبين ، وتسويد مواضع في الحسبانات لئلا يتوهم انها بيضت كيلا يقع فيه حساب[3] .

ولفظة (قرأ) من الألفاظ الجاهلية المعروفة . وهي أصل لمعان عديدة ذوات صلة بالقراءة . وتعبر جملة (قارأه مقارأة وقراء) عن معنى دراسة . ومن الأصل المتقدم قارىء وقرّاء وقراءة[4] . ولفظة (اقرأ) ، هي أول لفظة نزل بها الوحي ، وأول كلمة من القرآن . كما ذكر ذلك أكثر المفسرين وأصحاب كتب السير والاخبار[5] . كما وردت لفظة (قارىء) في حديث أول نزول الوحي على الرسول . وفي تفسير سورة (اقرأ) . وأما (المقارىء) فبمعنى الذي قرأ الكتب[6] .

وتؤدي لفظة (تلا) معنى قرأ ، والتلاوة القراءة[7] . وترد لفظة مبروز بمعنى منشور ، استشهد على ذلك بشعر للبيد ، هو :

الناطق المبروز والمختوم[8] .

ومن أصل (درس) المدرس ودارس ومدارس ومدراس،وهي تقابل (درش) في العبرانية والسريانية . وقد ذكر علماء اللغة أن المِدْراس الموضع الذي يدرس فيه كتاب الله ، ومنه مدراس اليهود،وأن المدارسة والدارسة القِراءة ، وأن المدراس

---

١ اللسان (١٣/١٨٥) ، (صادر) ، (رقن) .
٢ مفاتيح العلوم (٣٩) .
٣ تاج العروس (٩/٢١٨) ، (رقن) .
٤ تاج العروس (١/١٠١) ، (قرأ) .
٥ راجع تفسير سورة : اقرأ باسم ربك .
٦ تاج العروس (٤/١٥٠) ، (درس) .
٧ تاج العروس (١٠/٥٢ وما بعدها) ، المفردات (ص ٧٤) .
٨ شمس العلوم (١/١٤٦) .

صاحب دراسة اليهود ، كما ذكروا أن الآية : « وليقولوا دارست » في قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، معناها « قرأت على اليهود وقرأوا عليك » ، وتعني دارس النبي اليهود . وقيل: دارست ذاكرتهم[1] . و (المِدْراس) ، من (مدراش) في العبرانية ، وتعني المدارسة بالمعنى العام . وخصصت بالشروح والتفاسير التي وضعها الأحبار على الأسفار[2] . وتؤدي لفظة (درس) و (درش) الدراسة العميقة للفهم والتعلم ، فهي أعمق غوراً من معنى قرأ . وقد كان العبرانيون يعبرون بها عن دراسة الشريعة والتوراة .

وقد كان (عمرو) من (بني ماسكة) ، وهو المعروف بـ (أبي الشعثاء) قد رأس اليهود التي تلي بيت الدراسة للتوراة . وكان ذا قدر فيهم[3] .

وقد أشار علماء اللغة الى كتب كانت عند الجاهليين ذكروا أنها عرفت عندهم بالرواسيم جمع روسم[4] ، ولم يذكروا محتوياتها ومضامينها . و (الراشوم) في السريانية لوح منقوش تختم به البيادر من (رشمو) Rouchmo بمعنى العلامة . والآلة (رشمه) Rshme كما أن (رشم) Rshme معناها رسم ، ومنها الراسم والمرسوم المستعملتان في النصرانية في رسم الأسقف[5] . ولا أستبعد أن يكون مراد تلك الكتب كتباً دينية مستعملة عند النصارى الجاهليين .

وعرفت لفظة (الوضائع) عند الجاهليين ، فذكر علماء اللغة أن الوضيعة كتاب فيه الحكمة . وقد ورد في الحديث: إنه نبي وإن اسمه وصورته في الوضائع[6] .

وقد ذكر علماء اللغة أن (السفر) الكتاب الذي يسفر عن الحقائق . وقيل الكتاب الكبير ، والجزء من أجزاء التوراة . وأما (السَفَرة) فبمعنى الكتبة ، وسفر الكتب كتبها . وقد ذكر علماء اللغة أن السفر ، يقابلها (سافرا) بالنبطية[7] .

---

١ تاج العروس (١٥٠/٤) (درس) ، أساس البلاغة (٢٦٨/١) ، برصوم (ص ٦١) .

٢ A Religious Ency. III, p. 1604.

٣ الاغاني (١٥/١٦) .

٤ تاج العروس (٣١٢/٨) .

٥ برصوم (ص ٧٣ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ١٨٣) .

٦ تاج العروس (٥٤٥/٥) ، اللسان (٣٩٩/٨) ، (صادر) ، (وضع) .

٧ تاج العروس (٢٧١/٣) ، (سفر) .

وقصد بـ (أسفار) الواردة في القرآن الكريم ، التوراة . وبـ (سفرة) كتبة[1] . وقد قال السيوطي : إن الأسفار الكتب ، والكتاب بالنبطية يسمى سفراً[2] .

وقد وردت لفظة (هسفر) أي (السفر) في اللهجة الصفوية بمعنى الكتابة . فورد في أحد النصوص (وعور لد يعور هسفر)[3] ، ومعناها (وعور للذي يُعَوِّرُ الكتابة) ، وبعبارة أوضح (وعور للذي يوذي هذه الكتابة) . والعور في اللهجة الصفوية بمعنى عوارة أي أذية وأذى . ولا بد أن يكون مدلول (سفر) عندهم كمدلول كتب في عربيتنا . وقد وردت لفظة (سِفر) بمعنى كتابة وخط في نصوص أخرى ، إذ ورد فيه : « ووجد سفر دده »[4] ، أي «ووجد كتابة أبيه » . و «ووجد خط أبيه » .

وترد اللفظة في العبرانيـــة أيضاً . فلفظة (س ف ر) (سافور) تعني يخط ويكتب ومن هـــذا الأصل (سيفير) Sepher ويراد بها كتاب . كتاب يلف فيكون عـــلى هيأة شيء ملفّف ، أو أوراق تجمع بعضها الى بعض وتربط[5] . ومن العبرانية أخذ السريان لفظة (سفرو) Sefro بمعنى سِفْر . ومن هـــذا الأصل (سفر) Sfar بمعنى درس وكتب وتفقـــه وتعلم . وأمـــا Sofro فبمعنى الكُتّاب ، أي المسجلون والفقهاء والأساتذة ورؤساء ، والجمع (سوفرة) Sofre . وأما Sofroutho فهي الكتابة ، أي حرفة الكاتب والفقه والعـــلم والحذاقة[6] . وعرف علماء اليهود حملـــة الشريعة بـ (سوفيريم) Sopherim ، لأنهم يكتبون الشريعة[7] .

---

١ المفردات (ص ٢٣٣) .

٢ المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية ، دمشق ١٣٤٨ (ص ١١) .

٣ CIS, Pars Quinta, Tome, I, p. 13, NUM : 58, p. 23, NUM : 105, Dunand, 1229.

٤ CIS, Pars Quinta, Tome, I, p. 19, NUM : 93, p. 19, NUM : 93, p. 1, NUM : 94, 95, Littmann, Saf. p. 27.

٥ Hastings p. 981.

٦ برصوم (ص ٨٤ وما بعدها) غرائب اللغة (ص ١٨٧) .

٧ Smith, A Dictio., III, p. 1162.

و (السفير) الكتاب ، و (السفاسرة) أصحاب الأسفار ، وهي الكتب . وبه فسر قول (أبي طالب) عم النبي :

فإني والسوابح كل يوم وما تتلو السفاسرة الشهود[1]

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (السجل)[2] ، وذهب بعض المفسرين الى انها بمعنى الصحيفة والكتاب[3] . وذهب بعض آخر الى انها حجر يكتب فيه ، أو كل ما يكتب فيه[4] . ولكنهم لم يذكروا شكل السجل وهيأته . وقد جعلها بعض العلماء من الألفاظ المعربة . ورجع السيوطي أصلها الى الحبشية ، فقال انها عندهم بمعنى الرجل[5] . وذهب بعض آخر الى انها من أصل فارسي[6] . ولا تزال اللفظة حية مستعملة في الدوائر ، وتطلق على الأضابير والأوراق المحفوظة بين دفتين في دوائر الحكومات والشركات والأعمال الأخرى ، كما تؤدي لفظة (مسجل) و (يسجل) معنى مكتوب ويكتب . فلفظة سجَّل اذن بمعنى كتب ودوّن . واللفظة من الألفاظ المعربة عن اللاتينية ، محرفة من Sigillum بمعنى ختّم ، أي ختم العقود والوثائق وأمثال ذلك[7] . ولا علاقة لها بالحبشية أو الفارسية . وقد تعني عند العرب كتاب العهد[8] . وذكر بعضهم ان (السجيل) ، اسم كاتب للنبي[9] .

وروي ان السجل : الكتاب يكتب للرسول أو المخبّر أو الرحّال أو غيرهم باطلاق نفقته حيث بلـغ فيقيمها له كل عامل يجتاز به . والسجل أيضاً المحضر يعقده القاضي بفصل القضاء[10] . وهذه المعاني ، هي من المعاني المتأخرة التي عرفت وشاعت في الاسلام . والظاهر ان أهل مكة لم يكونوا على علم تام بمعنى اللفظة ،

---

١ تاج العروس (٣/٢٧٢) ، (سفر) .
٢ الانبياء ، الآية ١٠٤ .
٣ الطبرسي (٧/٦٦) ، الاتقان (١/٢٣٦) ، تفسير الطبري (١٧/٧٨) .
٤ المفردات (ص ٢٢٣) ، الاب هنريكوس لامنس اليسوعي ، فرائد اللغة في الفروق المطبعية الكاثوليكية (بيروت ١٨٨٩) (ص ١٢٠) مادة ٤٦٢ .
٥ المتوكلي (ص ٥) ، الاتقان (١/٢٣٦) .
٦ الاتقان (١/٢٣٦) .
٧ غرائب (ص ٢٧٨) ، فرائد اللغة في الفروق (ص ١٣٠) ، Ency., IV, p. 403.
٨ بلوغ الارب (٣/٣٧١) .
٩ تاج العروس (٧/٣٧٠) ، (سجل) .
١٠ مفاتيح العلوم (٣٨ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١١/٣٤٧) ، سورة الانبياء (١٠٤) .

لذلك اختلفوا في تفسيرها اختلافاً يرد في كتب التفسير في تفسير معنى (السجل) .

ولا أستبعد استعمال الجاهليين للكتب التي تلف لفاً ، وذلك لسهولة المحافظة عليها ونقلها ، كالذي كان يفعله العبرانيون ولا يزالون يفعلونه في كتبهم المقدسة. ولا أستبعد أن يكون السجل المذكور في القرآن الكريم على هذا الشكل إذ يطوى ويلف لفاً ، وتوضع الكتب داخل غلاف للمحافظة عليها ، وقد زيّن أهل الكتاب أغلفة كتبهم المقدسة مبالغة في احترامها وتقديسها وتعظيمها . واذا أرادوا فتحها، أخذوها باحترام وتبجيل وقبلوها ، ثم تلوا منها على المتعبدين ما شاؤوا .

واذا ثبت ان لفظة (مصحف) ، هي من الألفاظ الجاهلية ، فإن ذلك يدل على ان المصاحف ، أي الكتب المؤلفة من صحائف منضدة ومجلدة بين دفتين ، كانت معروفة عند الجاهليين . وأنا لا شك لديّ في وجودها بهذا المعنى في أيام الرسول . غير اننا نلاحظ ان المسلمين خصصوا (المصحف) بالقرآن الكريم . و (المصاحف) بالقرائين جمع قرآن . وحين يقولون (خطوط المصاحف)[1]، فإنهم يقصدون كتابة القرائين .

ولفظة (القرآن) ، و (قرأان) ، نفسها تدل على وقوف الجاهليين على المعنى المفهوم من اللفظة ، وهو القراءة . ولا بد أن يكون منهم من سمع من اليهود لفظة (مقرا) التي تعني القراءة و (قرآن) ، أي تلاوة الكتاب المقدس وقد كانوا يتداولونها فيما بينهم ، ومنهم يهود اليمن والحجاز .

وترد لفظة (الفهرس) في العربية ، وهي من الألفاظ المعربة . ذكر بعضهم انها الكتاب الذي تجمع فيه الكتب[2] . وعرفت كلمة (الفهرست) ، بـ (ذكر الأعمال والدفاتر تكون في الديوان ، وقد يكون لسائر الأشياء)[3] . وهي من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، بمعنى جدول ، ومواد كتاب أو نحوه[4] . ولكننا لا نستطيع اثبات انها من الألفاظ التي عرفت بهذا المعنى عند الجاهليين .

وذكر ان (الديوان) ، مجتمع الصحف ، وانها لفظة فارسية معربة . وفي

---

١ الفهرست (ص ١٥) ، تاج العروس (٦/١٦١) ، (تصحف) .
٢ اللسان (٦/١٦٧) ، (فهرس) (صادر) ، تاج العروس (٤/٢١١) ، (فهرس) .
٣ مفاتيح العلوم (٣٩) .
٤ غرائب اللغة (٢٤٠) .

الحديث : « لا يجمعهم ديوان حافظ » . وقيل الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء . وأول من دوّن الدواوين عمر . وذكر بعض العلماء ان الديوان الدفتر ثم قيل لكل كتاب . وقد يخص بشعر شاعر معين وبمجموع الشعر[1] .

و (التأريخ) و (الإراجة) : شيء من كتب أصحاب الدواوين ، و(الأوارجة) من كتب أصحاب الدواوين في الخراج ونحوه[2] . وقيل : التأريخ لفظة فارسية ، معناها النظام ، لأن التاريخ يعمل للعقد لعدة أبواب يحتاج الى علم جملها ، لأن التأريخ يعمل للعقد شبيهاً بالأوراج ، فإن مـا يثبت تحت كل اسم من دفعات القبض يكون مصفوفاً ليسهل عقده بالحساب . وهكذا يعمل التأريخ[3] .

والدفتر جماعة الصحف المضمومة ، وواحد الدفاتر[4] . وهي من الألفاظ المعربة عن الفارسية . ومعناها في الفارسية كتاب وسجل وحساب . ومن هـذا الأصل لفظة (دفتر خانة) ، أي البيت الذي تحفظ فيه الدفاتر والوثائق ونحوها، ولفظة (دفتردار) ، بمعنى الخازن ، وخازن الدفاتر[5] . وهما مصطلحان استعملا في الإسلام .

والكراسة واحـدة الكراس والكراريس من الكتب[6] . فهي مجموعة صحف وجزء من كتاب . لأن الكراسة من الكتاب ، والكتاب مجموع كراريس[7] .

وقد ذكر علماء اللغة أن المجلـة ، الصحيفة يكتب فيها شيء من الحكمة . وقال أبو عبيدة : كل كتاب عند العرب ، فهو مجلة[8] . وقد وردت هذه اللفظة في شعر النابغة ، هو :

مجلتهم ذات الإلـه ودينهم   قويم فما يرجون غير العواقب[9]

---

١ اللسان (١٣/١٦٦) ، (دون) ، تاج العروس (٩/٢٠٤) ، (دون) .
٢ اللسان (٢/٢٠٨) ، (صادر) ، (أرج) .
٣ مفاتيح العلوم (٣٧) .
٤ اللسان (٤/٢٨٩) ، (صادر) (دفتر) .
٥ غرائب اللغة (٢٢٨) .
٦ اللسان (٦/١٩٣) ، (كرس) .
٧ تاج العروس (٤/٢٣٢) ، (كرس) .
٨ شمس العلوم (الجزء الاول ـ القسم الثاني) ، (ص ٢٨١) .
٩ برصوم (ص ١٦٣) ، بلوغ الارب (٣/٣٧١) ، (ويروى محلتهم بالحاء ، أي أنهم يحجون فيحلون مواضع مقدسة) ، تاج العروس (٧/٢٦١) ، (جلل) .

وقد قال النابغة ذلك في مدح الغساسنة . ولما كان الغساسنة نصارى ، فالمراد من المجلة إذن في هذا المكان ، الكتب المقدسة . وتخصيص علماء اللغة المجلة بالصحيفة التي يكتب فيها الحكمة ، هو تفسير نشأ عن عدم فهمهم للكلمة . وذلك أنها من الألفاظ المستعملة عند أهل الكتاب بمعنى كتاب ملفوف على طريقة تلك الأيام في استعمال الكتب الملفوفة ، فظنوا أنها نوع خاص من الكتب خصص بالحكمة ، لوجود مواعظ وحكم فيها ، يستعملها رجال الدين في مواعظهم ، ففسروها بهذا التفسير .

وقد أشير في كتب السير والأخبار الى (مجلة لقمان) ، وقيل : إنها حكمة لقمان . وأشير الى أمثال لقمان[1] . والمجلة هي (مكلوت) : و(مكلتو) Magaltho في العبرانية والسريانية[2] . ويراد بها كرّاس ملفوف وملف مخطوطات ، وكتاب من أصل Golo بمعنى لف[3] . وقد ذكر أن (سويد بن الصامت) كان يملك (مجلة لقمان) ، (حكمة لقمان) ، وأنه لقي الرسول يوماً ، فدعاه الرسول الى الإسلام فقال له سويد : لعل الذي معك مثل الذي معي . وكانت معه (مجلة لقمان) (حكمة لقمان) . فقال له الرسول : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أحسن منه وأفضل[4] .

و (سويد بن الصامت) المذكور ، رجل مثقف مهذب ، ذو علم وفهم في أيامه وبين قومه . وقد عرف عندهم بالكامل ، للخلال الحميدة التي كانت فيه . ولا يلقب بـ (الكامل) في الجاهلية إلا من كانت له صفات معينة . وصفه صاحب كتاب الأغاني ، فقال : « وكان يقال له الكامل في الجاهلية . وكان الرجل في الجاهلية اذا كان شاعراً شجاعاً كاتباً سابحاً رامياً سمّوه الكامل . وكان سويد أحد الكملة »[5] .

وكان كما يذكر أهل الأخبار حكيماً كثير الحكم في شعره ، حتى قيل إن قومه انما سمّوه (الكامل) لحكمة شعره وشرفه فيهم . وقد رووا له شعراً في ذلك .

---

١ Ency., II, p. 53.

٢ برصوم (ص ١٦٣) .

٣ غرائب اللغة (ص ١٧٧) .

٤ البلاذري (١/٢٣٨) ، الروض الانف (١/٢٦٥) .

٥ الاغاني (٢/١٦٤) (طبعة الساسي) .

هذا ويشك في اسلام (سويد بن الصامت بن خالد بن عقبة) الأوسي ، إذ ذكر انه لما انصرف من مقابلة الرسول له ، عاد الى قومه بيثرب فقتل[1] . قتله (المجذر) في الجاهلية[2] .

وأنا لا أستبعد احتمال قدوم يوم ، قد يعثر فيه الباحثون على وثائق تبين ان عرب العراق كانوا قد وضعوا أسساً لقواعد العربية ، وكانوا أصحاب رأي في أساليب الكتابة وصوغ الكلام بنوعيه : من نثر وشعر . إذ لا يعقل في نظري أن يكون ظهور علوم العربية في العراق قبل الأمصار الاسلامية الأخرى ، طفرة من غير سابقة ولا أساس . وأن يكون تفوق الكوفة والبصرة على المدن الاسلامية الأخرى وفي ضمنها مدن جزيرة العرب في علوم العربية صدفة وفجأة ومن غير علم سابق ولا بحث في هذه الموضوعات قبل الاسلام . انني أعتقد ان علم العروض وعلم النحو وعلم الصرف وسائر علوم العربية الأخرى لم تظهر في العراق إلا لوجود أسس لهذه العلوم فيه تعود الى أيام ما قبل الاسلام ، وهذه الأسس القديمة الجاهلية هي التي صيرت العراق الموطن الأول لهذه العلوم في الاسلام . وانني لا أستطيع أن أتصور ان في مقدور انسان مهما أوتي من العلم والذكاء ، استنباط أوزان الشعر وبحوره من نقرات مطارق النحاسين أو من التأمل والتبصر ، فشخص مثل هذا ، لا بد وأن يكون قد وقف على البحور وأوزان الشعر وعلى مقدمات وبحوث في موضوع الشعر ، منها استنبط علم العروض ، وقل هذا الشيء عن علم النحو وعن سائر علوم العربية الأخرى .

وقد كان العبرانيون يكتبون التوراة على جلود البقر، ثم يلفونها لفاً على قضيب أو قضيبين تكوّن لفة واحدة أو لفتين متصلتين بعضها ببعض ، ويطلقون عليها (مجلوت) (مكلوت) . وتعني لفظة (كلل) لفّ ودوّر[3] . وقد كانت كتب ذلك العهد تكتب وتلف بهذه الطريقة ، فلا يستبعد وجود هذه المجلات ، أي الكتب الملفوفة عند الجاهليين .

وقد أورد الأخباريون نصوص رسائل نسبوها الى بعض الملوك الجاهليين وسادات القبائل ، وهي رسائل مسجعة في الغالب موجزة . وفي اثناء حديثهم عن رسائل

---

١ الاصابة (٢/١٣٢) ، (٣٨١٨) .
٢ الاصابة (٣/٣٤٣ وما بعدها) ، (رقم ٧٧٢٨) .
٣ Smith, A Diction, I, p. 1802.

الرسول الى قيصر وكسرى ذكروا ان الصحابة أشاروا على الرسول ان يتخذ خاتماً يختم به كتبه ، لأن الروم لا يقرأون كتاباً غير مختوم . ويظهر من كلامهم هذا ان أهل مكة لم يكونوا يختمون رسائلهم بخاتم،وانما كانوا يكتفون بتدوين الاسم . والذي يتبين لي من ملاحظتهم هذه عن الروم انهم قصدوا بالخاتم الختمَ ، على الكتب ، اضافة الى الاسم ، وهو ما يقال له Sigillum عندهم، كما أشرت الى ذلك آنفاً . وهو يقابل ختم الدوائر في الزمن الحاضر ، وطبع شعار الدائرة على الورق ، ليكون ذلك تعبيراً عن صفة الورقة الحكومية . فالغاية من إشارة الصحابة على الرسول بختم كتابه ، هو اكسابه صفة رسمية ، ليكون ذلك متفقاً مع طريقة الروم . ولا بد أن يكون رؤساء مكة قد راعوا هذا الأسلوب في مراسلاتهم مع البيزنطيين .

وقد استعمل الخاتم في الغالب لتصديق الأوراق الشخصية والمعاملات الحكومية. فإذا أريد تصديق معاملة أو ارسال كتاب أو ختم صندوق ، ختم بالخاتم ، وعلى الخاتم شيء من الكتابة يأمر صاحب الخاتم بحفرها ، كي يظهر أثرها على الورق أو الشمع أو الطين . وكان منح الخاتم لموظف دليلاً على منحه الثقة وتعيينه في وظيفته التي اختير لها [1] .

وقد كان رجال التجارة والأعمال وأصحاب المصالح يثبتون أعمالهم وعقودهم في صحف وكتب . واذا أرادوا عقد عقد ، مثـــل اتفاق على شيء أو تدوين ميثاق ، دوّنوه على صحيفة وأشهدوا على ذلك ، ليكون أوثق وأثبت للعقد. وقد عرف كتاب الشراء بالعهدة [2] . وأما كتاب العهد ، فهو ما يعهد به. وقد وردت في القرآن الكريم إشارة الى الكاتب بالعدل . أي الكاتب الذي يتولى كتابة العهود والمواثيق بين الناس .

وقد ورد في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ : ان الرسول قال : « اذا كتب أحدكم فليترّب كتابه » [3] ، أي : ان الكاتب اذا انتهى من كتابة كتابه ، فليضع التراب عليه ، ليجفف حبره .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٤٠٥/١) ، Smith, A Diction., III, p. 1188.
٢ بلوغ الارب (٣٧١/٣) .
٣ البيـان (٢٠٤/٣) .

الفصل الرابع والعشرون بعد المئة

الدراسة والتدريس

الكتاتيب :

وفي العربية لفظة (الكتّاب) ، ويراد بها في عرف هذا اليوم المدرسة التي يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة . وهي من الألفاظ العربية المستعملة في العهود الأولى من الاسلام . وعندي انها من الألفاظ العربية التي كانت مستعملة في الجاهلية ،وهي في معنى بيت (ها سيفر) Beth Ha-Sepher أي (بيت الكتّاب) في العبرانية . وقد كان العبرانيون يطلقونها على المدارس التي تدرس القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة ، تمييزاً لها عن المدارس التي تعلم الديانة والعبرانية والمعارف التي لها علاقة بالديانة . ويطلقون عليها (بيت هامدراش) Beth Ha-Midrash أي (بيت المدراش) ، و (بيت ها تلمود) ، أي (بيت التلمود) في بعض الأحيان[1] .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار أسماء جماعة ذكروا انهم كانوا من المعلمين في الجاهلية وكانوا من أصحاب الوجاهة والمكانة ، منهم على سبيل المثال : (بشر ابن عبد الملك السكوني) ، أخو (أكيدر) صاحب (دومة الجندل) ، و (سفيان بن أمية بن عبد شمس) ، و (أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة)

---

١ Hastings, A Dictionary of Christ. and the Gospels, I, p. 222.

و(عمرو بن زرارة بن عدس بن زيد) ، وقد كان يسمى (الكاتب) ،و (غيلان ابن سلمة بن معتب الثقفي) وهو مخضرم[1] ، مما يدل على وجود المدارس والتعليم عند الجاهليين .

وقد ورد ان الرسول أمر (عبدالله) واسمه الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية، بأن يعلم في الكتاب بالمدينة[2] . كما ورد ان (جفينة) ، وهو من نصارى الحيرة ، جاء المدينة فصار يعلم الكتابة بها[3] . وورد في رواية ان (علي بن أبي طالب) اختلف الى الكتّاب ، فتعلم الكتابة به وله ذؤابة وهو ابن أربع عشرة سنة[4] . وورد ان رجلاً نزل بوادي القرى ، وعلّم الخط بها[5] . وورد ان غلاماً جاء « يبكي الى أبيه ، فقال : ما شأنك ؟ قال : ضربني معلمي ، قال : الخبيث !! يطلب بذحل بدر ، والله لا تأتيه أبداً »[6] . واذا صح هذا الخبر ، نكون قد عثرنا على كلمة (المعلم) بالمعنى المفهوم منها في الوقت الحاضر في الأيام الأولى من ظهور الاسلام .

وورد أن (عبدالله بن سعيد بن العاص بن أمية) ، كان ممن أسر يوم بدر ، فأمره الرسول أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة ، ويخليه لسبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار . وكان كاتباً محسناً[7] . غير أن الموارد الأخرى ، تذكر أنه كان قدم على رسول الله مهاجراً ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : الحكم . فقال : أنت عبدالله . فغير رسول الله اسمه[8] . وتذكر أنه أمره أن يعلم الكتاب بالمدينة وكان كاتباً . وتذكر أنه قتل يوم بدر شهيداً . أي إن اسلامه كان قبل يوم بدر . ولكن أكثر الروايات تذكر أن وفاته تأخرت[9].

وذكر بعض أهل الأخبار،أن المدينة كانت متأخرة بالنسبة الى مكة في الكتابة

---

١ المحبر (ص ٤٧٥) ، الاعلاق النفيسة ، لابن رستة (٢١٦) .
٢ ابن حزم ، جمهرة (٧٣) .
٣ الطبري (٥/٤٢) ، ابن سعد ، طبقات (٣ القسم الاول ص ٢٥٨) .
٤ الفصول المختارة من العيون والمحاسن ، للشيخ المفيد ، النجف (٢/٦٦) .
٥ فتوح البلدان (٤٧٧) .
٦ امتاع الاسماع (١/١٠١) .
٧ المشرق ، السنة العاشرة (٤٧٨) .
٨ الاستيعاب (١/٣١٢) ، (حاشية على الاصابة) .
٩ الاصابة (١/٣٤٣) ، (رقم ١٧٧٧) .

والقراءة . بـــل ذهب بعضهم الى أنه لم يكن في الأنصار من يحسن الكتابــة[1] . وكلامهم هذا يصطدم مع ما ذكروه أنفسهم من أن (سويد بن الصامت) الأوسي ، وسعد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وغيرهم ممن أشرت اليهم في مواضع أخرى من هذا الكتاب ، كانوا من الكتّاب .

ويفهم من قول (الشمّاخ) :

كما خــط عبرانيةً بيمينـــه بتيماء حَبْرٌ ثم عرض أسطرا

أن هذا الشاعر كان قد زار تيماء ، وقد وقف على خط اليهود ، ورأى أحدهم وقد عرض أسطر الكتابة ودونها بيمينه[2] . وقد وصف غيره كتابة اليهود وتعلمهم الخط في مدراسهم بالمستوطنات اليهودية .

وكانوا يستعينون بصبيان الكتاب في بعض الأحيان لكتابة جملة نسخ مما يراد نشره واذاعته أو حفظه . فورد أن النجاشي الشاعر ، لما هجا (بني النجار) من الأنصار شكوا ذلك الى حسان ، فقال قصيدة في هجائه وفي هجاء قومه ، ثم « قال اكتبوها صكوكاً وألقوها الى صبيان المكاتب ، فما مرّ بضع وخمسون ليلة حتى طرقت بنو عبد المدان حسّان بالنجاشي موثقاً معهم » ، وذلك للإعتذار اليه واسترضائه[3] .

وقد كان للديانتين اليهودية والنصرانية فضل كبير على أهلها في نشر الكتابــة والعلوم بينهم إذ صارت معابدهم مدارس يتعلم فيها الناس أصول ديانتهم ومبادىء المعرفة والكتابة والقراءة لمن يرغب من الأطفال ، كما أدت حاجــة الديانتين الى رجال دين يقومون بتثقيف الناس وتعليمهم أصول دينهم ونشر ديانتهم بين الوثنيين ، أو بين أصحاب الديانات الأخرى ، الى تكوين معاهد خاصة لتخريج هؤلاء الرجال ، ألحقت بالمعابد ، درسوا فيها الكتب المقدسة وما وضع عليها من تفاسير وشروح ، ومما يتعلق بشرحها من دراسة للغات وفلسفة وجدل وأمور أخرى لها علاقة وصلة بالديانات . وقد كان من بين هؤلاء الرجال أناس أذكياء ذوو نظر واسع ، فلم

---

١ امتاع الاسماع ، للمقريزي (١/١٠١) .
٢ ديوان الشماخ (٢٦) ، ديوان زهير (٥) .
٣ شرح ديوان حسان (ص ٢١٣ وما بعدها) (البرقوقي)

يكتفوا بحفظ ما ورد اليهم ، وبالتعصب لكل ما تلقنوه،بل تتبعوا ثقافات غيرهم وعلومهم ، ودرسوا اللغات والفلسفات الأخرى،وكوّنوا لهم آراء خاصة اعتمدت على استعمال العقل والمنطق ، فظهر النقد عندهم ، والنقد يخلق الرأي .

والبيت هو المدرسة عند الجاهليين وعند غيرهم من شعوب ذلك الزمن ، فيه يتعلم الطفل ، واليه يرد المعلم لتعليم أولاد الموسرين ما يحتاجون اليه من كتابة وعلم بأجرة تدفع اليه ، وفيه قد يتعلم الطفل الكتابة من الرقيق المجلوب الذي كان له حظ من العلم . وفيه تشرف أمه على تربيته وادارته ما دام صغيراً ، ثم يشرف عليه أبوه فيلقنه شؤون الصنعة وأمور الحياة متى تجاوز الخامسة أو السابعة من عمره.

وفي البيوت والطرقات والأزقة يلعب الأطفال ، أما الشبان،فقد كانوا يتبارون بالألعاب في الساحات العامة خارج المدن ، والقرى في الغالب . يتسابقون بركوب الخيل وبالمصارعة وبالجري وبرمي السهام . وقد يخرجون الى الصيد ولا يزال أطفال جزيرة العرب يلعبون بعض الألعاب التي كان أطفال الجاهلية وشبانهم يلعبونها قبل الاسلام .

وقد قامت المعابد بدور فعال ناشط في نشر القراءة والكتابة . واذا كنا نجهل اليوم موقف معابد الوثنيين من تعليم القراءة والكتابة بها ، فإننا لا نستطيع أن ننكر موقف (الكنيس) و (المدراش) (المدارس) عند اليهود ، و (الكنائس) عند النصارى من تنشيط التعليم وتهيئة الأطفال لتعلم القراءة والكتابة ، لخدمة الدين، أو للأغراض التثقيفية والشؤون الخاصة بالحياة . وقد قام (المدراش) وقامت الكنيسة بدور فعال في تعليم الناس أمور دينهم وشرح ما ورد في التوراة وفي الانجيل الى المؤمنين بهما . فقد كان أحبار يهود (يثرب) وقرى (وادي القرى) يجلسون في المعابد ليفسروا للناس أحكام شريعة يهود .

والمدراس ، لفظة عبرانية الأصل ، هي (مدرش) Midrash ، وتعني بحث وشرح نص[1] . وقد أطلقت على المكان الذي تدرس فيه التوراة . فصار بمثابة المدرسة ، يقصده اليهود للتفقه فيه والتعلم ، وقد قصده الجاهليون أيضاً ليسمعوا ما عند يهود . كما قصده المسلمون . وقد كانت لليهود جملة بيوت عبادة يجلس فيها أحبارهم للافتاء ولشرح الكتب المقدسة لتلامذتهم وللناس . فكانت بيوت عبادة ومدارس للتعلم .

---

١ Hastings, p. 149.

وقد كان الجاهليون يسألون اليهود عن تواريخ الماضين وقصص الأولين والأنبياء والمرسلين . وعن بعض المشكلات الدينية مثل الحياة بعد الموت وأمثال ذلك مما تعرضت له اليهودية . وقد لجأ اليهم أهل مكة الوثنيون يسألونهم عن أشياء عويصة لليهود علم بها ، ليمتحنوا بها الرسول[1] .

وقد ورد في الأخبار أن « بعض اليهود قد علم كتاب العربية . وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون »[2].

وقياساً على مـا نعرفه من تخصيص الكنائس مواضع خاصة ملحقة بالكنائس لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، فإننا نستطيع أن نقول إن الكنـائس التي كانت في جزيرة العرب في نجران مثلاً أو في صنعاء أو في عدن أو في قطر ، لم تكن مستثناة من هذه العادة . وإن كنا لا نملك دليلاً نستند اليه في إثبات قيام الكنائس في جزيرة العرب بتعليم الأطفال القراءة والكتابة .

أما بالنسبة لكنائس العرب في العراق، فإن لدينا شواهد بينة تثبت قيام الكنائس بتعليم الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء الدين . وتثبت وجود مكان خاص خصص بالأطفال ليتعلموا فيه . فقد جاء في أخبار (عين التمر) أن خالد بن الوليد لما دخل حصن عين التمر وغنم ما فيه وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم[3] . وذكر أن تلك البيعة كانت في النقيرة من أطراف عين التمر[4] .

وورد في الأخبار أن من أهل الحيرة من كان يتعلم العربية ، يقرأ بها ويكتب ويتفقه ويتأدب ، كالذي حدث لزيد والد (عدي بن زيد العبادي) ، ولابنه (عدي) ، وأن منهم من كان يتعلم الفارسية ، إذ فيها جماعة من الفرس ، ومنهم من يتعلم الإرمية ، لغة (بني إرم) ، ومنهم من تعلم العربية والفارسية وأجاد بها كتابة ونطقاً ، وتولى الكتابة بهما عند الفرس مثل (عدي بن زيد

---

١ ابن هشام (١/٢٧٤) .
٢ فتوح البلدان (٤٧٩) ، المعارف (١٩٢) ، الطبري (٣/٣٧٧) ، (دار المعارف) ، البلدان (٤/٨٠٧ وما بعدها) ، الاغاني (٢/١٠١) ، المجدل لعمرو بن متى (٣١ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٧١) .
٣ الطبري (٣/٣٧٧) (دار المعارف بمصر) .
٤ البلدان (٤/٨٠٧ وما بعدها) .

العبادي) وابنـه (زيد بن عدي) وغيرهما من آل (زيد) والعباديين نصارى الحيرة [1]

ولما فتح خالد (الأنبار) : « رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا الى قوم من العرب قبلنـا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ، فقـال : ممن تعلمتم الكتابة ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشده قول الشاعر :

قـــومي إيادٌ لو أنهم أممٌ أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم باحـــة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم» [2]

وهو شعر نسب قوله الى الشاعر (أمية بن أبي الصلت) ، ذكر أنه مدح به بني إياد [3] . ومعنى هـــذا ، أن (بني إياد) كانوا قد عُرفوا بالكتابة في العراق ، ولهـــذا وضعوا هذه القصة في كيفية نشوء الكتابة العربية ، وإياد من القبائل العربية القديمة التي نزحت من البحرين الى العراق .

وقد كان العرب في الأنبار ، والحيرة ، وعين التمر والمواضع الأخرى يحتمون بأبنية محصنة ، يقيم بها ساداتهم ، وتكون مواضع دفاعهم أيام الخطر ، يقولون لها (القصور) . وقد كانت الحيرة مؤلفة من جملة (قصور) ، ولا يزال عرب الفرات يطلقون لفظـــة (القصر) على المواضع الحصينة المقامة في البادية ، لصد غارات المهاجمين ، مثل (قصر الأخيضر) ، و (قصر العـين) ، في ناحية (عين التمر) . وتحتمي الكنائس وبيوت الناس بهذه القصـور ، ولما فتح (خالد ابن الوليد) (عين التمر) ، بعث الى (كنيسة اليهود ، فأخذ منهم عشرين غلاماً وصار الى الأنبار » [4] ، وهو خطأ ، لأن الذي نجده في الموارد الأخرى ، ان (خالد بن الوليد) ، لما فتح حصن (عين التمر) وجد في كنيسة جماعة يتعلمون سباهم ، فكان من ذلك السبي : (حمران بن أبان بن خالد) التمري،

---

١ الاغاني (٢/١٠١) .
٢ الطبري (٣/٣٧٥) ، (حديث الانبار) .
٣ ابن هشام ، سيرة (١/٤٨) .
٤ اليعقوبي (٢/١٢٣) ، (النجف ١٩٦٤) .

و (سيرين) أبو (محمد بن سيرين) المشهور بتفسير الأحلام ، و (أبو عمرة) جدّ (عبد الأعلى) الشاعر ، و (يسار) جدّ (محمد بن اسحاق) صاحب (السيرة) ، و (نصير) أبو (موسى بن نصير)[1] ، وذكر (الطبري) أن (خالد بن الوليد) وجد « في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل ، عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم ، وقال : ما أنتم ؟ قالوا : رهن ، فقسمهم في أهل البلاد[2] . وقد كان كل هؤلاء من الكتّاب القارئين للانجيل الدارسين لعلوم الدين ، فأسلموا وبرز أبناؤهم في المجتمع الاسلامي .

وفي خبر (وفد نجران) الذي قدم على الرسول ، إفادة بوجود مواضع لتعليم أمور الدين ، وتثقيف الناس بما يلزم من ثقافة ، فقد ورد أن أسقف نجران كان حبرهم ، وإمامهم ، وصاحب مدارسهم (صاحب مدراسهم)[3] ، أي الموضع الذي يتدارسون فيه ، والغالب أن يكون ذلك المكان في الكنيسة على الطريقة المتبعة في ذلك العهد ، كما صار المسجد موضعاً للتعليم .

وقد كان يهود الحجاز والمواضع الأخرى من جزيرة العرب يلحقون بكنيسهم كتّاباً يعلمون به أطفالهم أصول القراءة والكتابة ، كما كان أحبارهم يتخذون به مجلساً لتعليم اليهود أمور دينهم وللافتاء بينهم في أمور الشرع ، وفضّ ما قد يقع بينهم من خلاف . وكذلك كان شأن نصارى العرب اتخذوا من كنائسهم مواضع للتدريس ولتعليم القراءة والكتابة كالذي رأيناه بين نصارى العراق . ولا استبعد احتمال اتخاذهم مدارس في قرى البحرين ، التي كانت بها جاليات نصرانية كبيرة وكذلك في اليمامة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وأصول الدين .

مواد الدراسة :

لم نعثر على أي نص جاهلي فيه شيء عن التدريس وعن مواد الدراسة عند الجاهليين انستنبط منه مادة عن الدراسة عند عرب الجاهلية ، غير أننا اذا ما

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٤٨) .
٢ الطبري (٣/٣٧٧) .
٣ طبقات ابن سعد (١/٣٥٧) (طبعة صادر) .

أخذنا بما جاء في الموارد النصرانية الشرقية عن التربية والتعليم عند نصارى العراق وعن مواد المعرفة التي كانوا يعلمونها للتلاميذ ولطلاب المدارس العالية ، فإننا نستطيع أن نقول إن مدارس الأنبار والحيرة والقرى العربية الأخرى، لا بد وان تكون قد سارت وفقاً لمنهج أهل العراق في تعليم أبنائهم في ذلك الوقت . من تعليم مبادىء القراءة والكتابة وإجادة الخط وشيء من الحساب والأمثال والحكم ومبادىء الدين . وهي المواد الرئيسية التي كانت تعلم في الكتاتيب في بلاد الشرق الأوسط في ذلك الوقت ، والتي لا تزال تدرس في الكتاتيب القديمة حتى اليوم .

والعادة في الكتاتيب حتى الآن في تعليم الخط للأطفال ، أن يخط المعلم أو (خليفته) أو من يقوم مقامه من التلامذة المتقدمين ، سطراً من الحكم والأمثال أو من الكتب السماوية ، لينقش التلميذ سطوراً مثلها على لوح يحاول الاجادة جهد امكانه في كتابتها لتقوية يده على الخط . وقد كان العبرانيون يعلمون الآية : « رأس الحكمة مخافة الرب » ، « رأس الحكمة معرفة الله » ، « مخافة الرب رأس الحكمة »[1] ، في أول ما كانوا يعلمونه لتلامذتهم[2] . ويعلمونهم أمثال ذلك من الحكم والأمثال الواردة في التوراة . ولا يستبعد أن تكون هذه الأمثال والحكم في مقدمة ما كان يدرسه المعلمون اليهود في مستوطناتهم في بلاد العرب بتيماء ووادي القرى وقرى المدينة .

وورد ان نصارى العراق ، درسوا في مدارسهم لغة بني إرم ، لغة الثقافة والعلم آنذاك ، درّسوا مفردات اللغة وقواعدها وأصولها ، وعلّموا معها مبادىء العربية وقواعدها وآدابها في الأرضين التي كانت غالبية سكانها من العرب[3] . ونجد في الموارد النصرانية اشارات تشير الى تدريس العربية في الأنبار وفي الحيرة . ولا يعقل أن يكون المراد من العربية ، الكتابة والقراءة بها فقط ، بل لا بد وأن يُعلم معها شيء من أصول الكتابة من كيفية قط القلم ورسم الحروف ، وأنواع الخطوط ، ثم الأمثال والحكم ، وقواعد اللغة وآدابها ، أي منهج المدارس المقرر في الشرق الأدنى في ذلك العهد . وقد كان رجال الدين يسيرون عليه ويتبعونه في مدارسهم . وكان لهم علم بقواعد وبلغة بني إرم .

---

١ سفر الامثال ، الاصحاح الاول ، الآية ٧ .
٢ Hastings, p. 204.
٣ تأريخ كلدو وآثور (٢/٧) .

أما عن تعليم الأطفال في جزيرة العرب ، فلا نستطيع التحدث عنه بصورة جازمة لعدم ورود شيء عن ذلك في الكتابات الجاهلية أو في روايات أهل الأخبار. ويمكن أن نقول باحتمال تعليم الأطفال في المواضع التي وجدت النصرانية اليها سبيلاً ، مثل مدينة (نجران) وبعض مواضع من سواحل الخليج ، على النمط الذي كان متبعاً عند نصارى العراق وبلاد الشأم من تعليم مبادىء القراءة والكتابة وتحسين الخط ومبادىء أمور الدين . ثم المعارف العالية مثل اللغة والعلوم اللاهوتية والطب وما شاكل ذلك ، للمتفوقين من الطلاب من أصحاب المواهب والقابليات، وذلك لأن الكنيسة كانت تتبع نظاماً واحداً في التعليم ، ولأن الذين كانوا يبشرون بالنصرانية بين العرب ، كانوا من أهل العراق في الغالب ، وقد درّسوا عرب العراق وعرب مواضع أخرى في جزيرة العرب ، وقد درسوهم على طريقة تدريس الكنيسة الشرقية ، فيحتمل لذلك أن يكون التدريس على نمط واحد في مدارس الكنيسة ، ولا أستبعد احتمال تدريس السريانية لهؤلاء الطلاب ، باعتبار انها لغة الدين وتساعد في فهم الأناجيل والكتب النصرانية والعلوم .

وقد ورد أن : عمر بن الخطاب ، كان يقول في تربية الأولاد وتثقيفهم : « علموا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً ، ورووّهم ما يجمل من الشعر »[1] . وذكر أنه كتب الى الأمصار: « أما بعد ، فعلموا أولادكم العومَ والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل وحَسُنَ من الشعر »[2] ، وأن الرسول دعا لمعاوية ، فقال : « اللهم علمه الكتاب والحساب »[3] . ويظهر أن هذا التوجيه في تربية النشء كان معمولاً به عند الجاهليين .

ويظهر أن الحث على تعلم السباحة ، إنما ظهر في الاسلام ، بعد الفتوح ، وذلك بعد أن اتصل العرب بالأنهار الواسعة العميقة وبالبحار ، فأجبرهم الواقع على تعلم العوم . ونجد (الحجاج) يقول لمعلم ولده : « علّم ولدي السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم »[4] .

---

١ المبرد ، الكامل (١٥٥/١) .
٢ البيان (١٨٠/٢) ، (١١٦/٢) ، (القاهرة ١٩٣٢ م) .
٣ البيان (٢/ ١١٦) ، (١٩٣٢ م) .
٤ البيان (١٧٩/٢) .

وقد كان (عمر) يتهيب البحر ، فأوصى قواد جيشه بالتأني في ركوب البحر، خشية غرق المسلمين .

والمثل والشعر من أهم المواد التي كان يعتني بها الجاهليون . وكان أهل الكتاب يعتنون بالمثل وبما ورد في الكتب المقدسة من حكم ، وبالشعر كذلك في تعليم أطفالهم في الكتاتيب .

وذكر (الهمداني) ، أن (عمر بن الخطاب) ، قال : « تعلّموا من النجوم ما تهتدون به ، ومن الأنساب ما تعارفون به وتواصلون عليه ، ومن الأشعار ما تكون حِكَماً ، وتدلكم على مكارم الأخلاق »[1] .

ويقوم بالتعليم معلمون . امتهنوا التعليم واتخذوه حرفة لهم . ومنهم من اتخذه حرفة رئيسية له ، إذ كان يمارس حرفاً أخرى ، ليتمكن بذلك من إعاشة نفسه. ولما كان التعليم الابتدائي الذي يقوم على تعليم الخط والقراءة والكتابة وبعض المبادىء الأخرى شيئاً بسيطاً لا يحتاج الى علم وكبير ومعرفة ، لذلك لم يشترط في متعاطيه أن يكون من أصحاب العلم ، بل قام به من وجد في نفسه قابلية تعليم الأطفال من رجال الدين ومن غيرهم ، على نحو ما نجده في المدارس القديمة التي تقوم بتعليم الأطفال القراءة والكتابة لهذا اليوم .

ولم يرد في الكتابات الجاهلية شيء يتعلق بأسماء المعلمين الجاهليين . لذلك لا نستطيع أن نذكر اسم معلم من معلمي الجاهلية بالاستناد اليها . أما أهل الأخبار ، فقد تعرض نفر منهم لذكر بعض المعلمين الذين عاشوا قبل الإسلام ، والذين أدرك بعض منهم الإسلام . فذكر (محمد بن حبيب) في الفصل الذي سماه : (أشراف المعلمين وفقهاؤهم) ، اسم (بشر بن عبد الملك السكوني) أخو (أكيدر ابن عبد الملك) صاحب (دومة الجندل) ، فذكر أنه كان في جملة المعلمين[2]. واليه ينسب أهل الأخبار نشر الكتابة بمكة على نحو ما بينت ذلك في موضوع تأريخ الخط .

وأشار (ابن حبيب) الى (أبي قيس بن عبد مناف بن زهرة) ، وهو جاهلي ، على انه من أشراف المعلمين . كما أشار الى (عمرو بن زرارة بن عدس

---

١ الاكليل (١/ ٦ وما بعدها) .
٢ المحبر (٤٧٥) .

ابن زيد) ، وهو جاهلي كذلك في جملة من أشار اليهم من المعلمين . وذكر انه كان يسمى (الكاتب) . وأشار أيضاً الى (غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي) ، وهو من المخضرمين . على انه كان من أشراف المعلمين[1] . وهو من الشعراء الحكماء ، إذ كان أحد حكام (قيس) في الجاهلية . وكان أحد وجوه ثقيف، وقيل انه أحد من نزل فيه : « على رجل من القريتين عظيم » ، وانه كان صاحب تجارة،وقد سافر في قوم من تجار ثقيف وقريش وعلى رأسهم (أبو سفيان) الى العراق ، للتجارة ، فوصلوا الى (كسرى) فتكلم معه باسم التجار ، فأعجب به ، واشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها وبعث معه من بنى له اطماً بالطائف ، فكان أول اطم بني بها . وذكر ان كسرى لما كلمه ووقف على حكمته قال له: « هذا كلام الحكماء ، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم فما غذاؤك ؟ قال : خبز البر ، قال : هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر »[2] . في حديث يقصه أهل الأخبار وكأنهم كانوا شهود عيان .

ولا بد وأن يكون في ثقيف قوم كانوا مهرة في الكتابة ، لهم خط حسن وإملاء صحيح ، وذلك فيما اذا أخذنا بصحة الأخبار الواردة عن تدوين القرآن وجمعه من قولهم إن الخليفة (عمر) أو (عثمان) ، قال : « اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف » ، إذ لا يعقل النص على أن يكون الكاتب من ثقيف من غير سبب ، اللهم اذا اعتبرنا الخبر من الموضوعات التي صنعت في أيام الحجاج ، للتقرب اليه ، ولرفع شأن ثقيف ، بعد أن ظهرت أخبار في أيامه ، رجعت نسب ثقيف الى قوم ثمود ، وصيرت (أبا رغال) خائن العرب الى غير ذلك من أخبار تحدثت عنها في أثناء حديثي عن ثمود وعن قبيلة ثقيف .

وكان (جفينة) العبادي من أهل الحيرة ، وكان نصرانياً ، قدم المدينة ، وأخذ يعلم بها الكتابة في أيام الخليفة (عمر) . وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص. فاتهمه (عبدالله بن عمر) بمشايعة (أبي لؤلؤة) على قتل أبيه فقتله[3] .

---

١ المحبر (٤٧٥) .
٢ الاصابة (١٨٦/٣ وما بعدها) ، (رقم ٦٩٢٦) ، الاستيعاب (١٨٦/٣ وما بعدها)، (حاشية على الاصابة) .
٣ فتوح البلدان (٤٦٠) ، (أمر الخط) ، ابن سعد ، الطبقات (٣ القسم الاول ص ٢٥٨) ، الطبري (٤٢/٥) .

وورد في كتب الحديث « عن الأسود بن يزيد بن قيس النخعي ، أنه قال : أتانا معاذ بن جبل ، رضي الله عنه باليمن معلماً وأميراً »[1] . وقد أرسل الرسول معاذاً الى اليمن ليعلمهم الفرائض وأحكام الدين . وإذا صح النص ، صار دليلاً على شيوع لفظة (معلم) في ذلك العهد .

ووردت لفظة (المعلم) في رسائل (عمر) الى عماله ، ففي رسالة له (الى أهل الكوفة) : « إني قد بعثتُ اليكم عمّار بن ياسر أميراً ، وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً »[2] . وأراد بلفظة المعلم ، من يعلم الناس ويرشدهم ويفقههم في أمور الدين . وكانوا يطلقون على من يعلم الكتابة في (الكتاب) : معلم كتاب. والكتّاب والمكتب ، الموضع الذي يتعلم به .

ولست أعلم شيئاً عن مدى تقدم علم الحساب عند الجاهليين . وكل ما أستطيع أن أقوله ، هو انهم كانوا يعلّمون أولادهم مع الخط مبادىء الحساب المعروفة ، وهي الجمع والطرح والضرب والتقسيم ، وذلك لحاجتهم اليها في حياتهم اليومية ، ولا سيما بالنسبة الى التجار أصحاب المصالح الكبيرة ، إذ تدفعهم الحاجة الى ضبط أعمالهم وحسابهم . وقد ذكر أهل الأخبار أن الجاهليين استعملوا حساب عقود الأصابع في حسابهم ،فوضعوا كلاً منها بإزاء عدد مخصوص،ثم رتبوا لأوضاع الاصابع آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً ، ووضعوا قواعد يتعرف بها حساب الألوف فما فوقها بيد واحدة . وقد أشير الى حساب اليد في الحديث ، كما استعملوا العدّ بالحصى ، وبه يحسبون المعدود[3] . والعدّ برسم خطوط ، فيدل كل خط على عدد ، ومجموع الخطوط هو المعدود .

وورد في الأخبار ان الرسول دعا لمعاوية بقوله : « اللهم علّمه الكتاب والحساب »[4] ، وقد نعت بأنه كان من الكتبة الحسبة الفصحاء[5] ، والحديث المذكور من أحاديث أهل الشأم[6] ، ولهم أحاديث أخرى في الثناء على (معاوية) ، وهي

---

١ ارشاد الساري (٩/٤٢٩) .
٢ خورشيد احمد فاروق ، حضرت عمر (١١٦) ، (رقم ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩) .
٣ بلوغ الارب (٣/٣٧٩ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (٢/١١٦) .
٥ الاصابة (٣/٤١٢) (رقم ٨٠٧٠) .
٦ الاستيعاب (٣/٣٨١) (حاشية على الاصابة) .

من الأحاديث التي أوجدتها العصبية السياسية ، على نحو ما نجد من أحاديث في (عبدالله بن عباس) وفي العلويين . وقد روي الحديث المذكور في حق أشخاص آخرين . وقد وضعت أحاديث في مدح معاوية وبني أميـــة . وأرى أن الحديث المذكور وضع في مقابل حديث « اللهم علمه الحكمة » ، الذي روي أن الرسول قاله في (ابن عباس) ، وحديث : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » أو « اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب » ، و « اللهم بارك فيه وانشر منه » ، وأحاديث أخرى ذكر أنها قيلت فيه[1] .

وأما ما نسب الى الرسول من قوله : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا » فإنه حديث ضعيف ، وقد ورد أيضاً أن رجلاً قـــال : ما كنت أظن أن عدداً يزيد على ألف[2] ، وهو قول ينطبق عـــلى حالات فردية لأعراب ، ولا يمكن أن ينطبق بالنسبة للحضر ، ولا سيما لأهل مكة الذين كانت لهم تجارة ضخمة وقوافل تذهب الى مختلف الأنحاء ، تحمل تجارة تقدر أثمانهـــا بعشرات الألوف ، فهل يعقل صدور مثل هذا الحديث من الرسول ؟

وقد كان الجاهليون يتراسلون بينهم ، فيكتبون كتباً الى من يريدون مراسلته. والكتاب هو صحيفة قد تكون من جلد ، أو من مادة أخرى . وقـــد ذكر أن الرسول كتب كتاباً الى (بني حارثـــة بن عمرو بن قريظ) ، فأخذوا الكتاب وغسلوه،ثم رقعوا به دلوهم[3] . ويدل هذا على أن الكتاب كان صحيفة من جلد .

والرسائل من حقول التدوين المهمة عند الجاهليين . وهي رسائل قد تكون في أمور خاصة ، كرسائل أب الى ابنه أو العكس ورسائل أصدقاء وأقارب من ذوي الأرحام ، وهي تتناول مسائل شخصية خاصة تهم المتكاتبين . وقد تتناول الأحداث التي يكون لها شأن عند الناس وخطر ، فيكتب المتكاتبون عنها ، لمـــا فيها من أهمية ولذة بالنسبة لهم . وقد تكون الرسائل إخبارية ، كأخبار عن تجارة ومعاملة أو عن حدث وقع أو غزو أو قرب وقوع حرب أو اخبار بهجوم عدو ومقدار قوته وما شاكل ذلك من أمـــور ، ذات أهمية خاصة ، بالنسبة للمرسل اليهم.

---

١ الاصابة (٢/٠٠٠) .

٢ الاحكام السلطانية (١٩٢) .

٣ امتاع الاسماع (١/٤٤١) .

ونجد في كتب أهل الأخبار صور رسائل في أمور ذات طابع إخباري . منها رسائل دوّنت بعبارات واضحة صريحة ، يظهر أن أصحابها كانوا مطمئنين من عدم إمكان سقوطها في أيدٍ عدوة فتقف على ما جاء فيها ، لذلك كتبوها بعبارات مفهومة مكشوفة . ومنها ما كتبت شعراً كالذي روي من ارسال شعر كتبه (لقيط بن يعمر الإيادي) لقومه يحذرهم فيه من كسرى[1] . أو نثراً وقد كتبها أصحابها على شيء لا يلفت النظر . كحدوج الجمال المسافرة الى جهة معينة ، لتقرأ هناك ، أو رسائل لا تلفت النظر ولكنها ذات معانٍ مفهومة عندما ترسل اليه ، وقد تحمل الرسالة لرسول لينقلها شفاهاً الى من يراد اخبارهم خبراً، وذلك في الأمور الهامة بالطبع ، التي لا يمكن الإفصاح عنها ، لما لها علاقة بحروب أو غزو أو وضع أسير واقع في عذاب أسر آسريه، ويريد ابلاغ أهله بذلك ليخلصوه من وضعه السيء .

ومن رسائل الإخبار : الرسائل التي كتبها المسلمون المتخفون أو المشركون الميالين للمسلمين على قريش ، يخبرون فيها الرسول وأصدقاءهم المسلمين بأمر قريش وعورتهم واستعدادهم ليكونوا على حذر منها ، والرسائل التي كتبها بعض المسلمين الذين لم يكن الاسلام قد تمكن بعد من قلوبهم ، أو كتبوها شفقة لبعض أصدقائهم من المشركين عن الاسلام والمسلمين . ومنها كتاب (حاطب بن أبي بلتعة) الى صفوان بن أمية وسهل بن عمرو ، وعكرمة بن أبي جهل . يقول فيه : إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن يكون لي عندكم يد بكتابي اليكم » . وأعطى الكتاب الى امرأة من مزينة ، وجعل لها مبلغاً من الدنانير على أن تبلغه قريشاً ، وقال : أخفيه ما استطعت ، ولا تمري على الطريق فإن عليه حرساً . فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها وسلكت على غير نقب ، فبلغ الرسول أمرها ، فأرسل من قبض على الرسالة . وتوسل حاطب الى الرسول ، بأن يعفو عنه ، لأنه كان رجلاً ليس له في القوم أصل ولا عشيرة ، فصاروا له أهلاً واعتبروه ولداً فصانعهم فعفا عنه . ونزل الوحي في شأنه في سورة الممتحنة[2] .

---

١ ابن قتيبة ، الشعر (٩٧ وما بعدها) ، الاغاني (٢٣/٢٠ وما بعدها) .

٢ الآية ١ ، امتاع الاسماع (٣٦٣) .

وفي كتب السير والتواريخ إشارات الى مخابرات أرسلها مسلمون الى ذوي رحمهم ، يطلبون اليهم الدخول في الاسلام ، وبأن الرسول سيعفو عنهم ويغفر لهم ما بدر منهم من إساءة اليه إن جاءوا اليه مسلمين ، من ذلك ، ما كتبه (بجير) الى أخيه (كعب بن زهير بن أبي سلمى) ، يطلب منه الدخول في الاسلام ، والتوبة ، وإلا فصيره كمصير (ابن خطل) الذي كان يمعن في هجاء الرسول ، فقتل[1] . ومن ذلك كتاب (الوليد بن الوليد) الى أخيه (خالد بن الوليد) ، يدعوه الى الاسلام ، فجاء مسلماً[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا يستفتحون كتبهم بجملة : (باسمك اللهم) ، ويذكر بعضهم ان أمية بن أبي الصلت كان هو الذي ابتدع هذه البدعة . فشت بين الناس . وصارت سنّة لأهل مكة في تدوين رسائلهم. فجعلوها في أول كتبهم . فكانت قريش تكتب بها . وبها افتتح الرسول كتبه في بادىء أمره ، ثم أبدلت باسم الله بعد نزول سورة هود ، ثم باسم الرحمن ، بعد نزول سورة اسرائيل ، ثم بسم الله الرحمن الرحيم ، بعد نزول سورة النمل[3] .

وكان من رسم الجاهليين اذا كتبوا أن يبدأوا بأنفسهم من فلان الى فلان . ونجد هذا الأسلوب في كتب رسول الله[4] .

وتختم الرسالة بخاتم كاتبها أو بتدوين اسمه في نهايتها . كأن يقول : (وكتب فلان) أو (كتب فلان) . وقد ورد في كتب السير ، ان الرسول حين همّ بتوجيه الكتب الى قيصر وكسرى وغيرهما ، قيل له : إن الروم لا يقرأون كتاباً غير مختوم بختم صاحب الرسالة ، فأمر بصنع خاتم له ، ختم به كتبه . وورد ان قريشاً حين ائتمرت بمقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، وكتبت بذلك صحيفة ، ختمت عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة[5] .

---

١ الاصابة (٣/٢٧٩) ، (٧٤١٣) .
٢ نسب قريش (٣٢٤) .
٣ الجهشياري (١٢ وما بعدها) ، الاقتضاب ، للبطليوسي (١٠٣ وما بعدها) ، أدب الكتاب ، للصولي (٣١) ، الاغاني (٣/١٢٣) ، تفسير الطبري (١٩/٥٩ وما بعدها) ، تفسير الطبري (١٥/١٢١ وما بعدها) .
٤ القرطبي ، الجامع (١٣/١٩٢ وما بعدها) .
٥ امتاع الاسماع (١/٢٥) .

وأشير الى الخاتم في شعر لامرىء القيس . فورد فيه :

ترى أثر القَرْح في جلده كنقش الخواتم في الجرجس

والجرجس : الشمع ، وقيل هو الطين الذي يختم به ، وقيل هو الصحيفة. وبكل من ذلك فسر قول الشاعر المذكور[1] . ومن معاني (الجرجس) البعوض الصغير[2] . ويظهر ان اللفظة من المعربات ، عربت عن الإرمية . فهي تعني البعوض الصغير ، اذا قيل Gargso ، وهي تعني الصلصال والطين الذي يختم به اذا قيل Garguechto [3] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان أول من ختم رسائله (عمرو بن هند)[4] . وذكر علماء اللغة ان خاتم الملك الذي يكون في يده يسمى (الحلق) . وأنشدوا في ذلك :

وأعطى منا الحلق أبيض ماجد رديف ملوكٍ ما تغب نوافله

كما أنشدوا بيتاً للشاعر جرير ، ذكر فيه (الحلق) : حلق المنذر بن محرق إذ قال :

ففاز بحلق المنذر بن محرق فتى منهم رخو النجاد كريم[5]

وذكر أيضاً ان الحلق خاتم من فضة بلا فص[6] . ويظهر من ذلك ان الملوك، كانوا يصطنعون خاتماً لهم ، يكون دليلاً على صدق رسائلهم وأوامرهم ، يحملونه معه ، أو يودعونه عند كاتم أسرارهم ، وعلى ذلك جرى الأمر في الاسلام . فقد سار الخلفاء على سنّة الرسول من اتخاذه خاتماً يختم به الرسائل ، والكتب والأوامر ، وبقي الأمر كذلك عند من جاء بعده من الخلفاء .

---

١ ديوان امرؤ القيس (١٠٢) ، (سندوبي) ، الاقتضاب ، للبطليوسي (٩٧) برواية أخرى ، تاج العروس (١١٨/٤) ، (الجرجس) .

٢ تاج العروس (١١٨/٤) ، (الجرجس) .

٣ غرائب اللغة (١٧٦) .

٤ الاقتضاب ، للبطليوسي (١٠٤) .

٥ تاج العروس (٣٢٤/٦) ، (حلق) .

٦ تاج العروس (٣٢٤/٦) ، (حلق) .

والخاتم ما يوضع على الطينة وما يختم به . والختام الطين أو الشمع أو الحبر أو أي مادة أخرى تترك أثراً يختم بها على الشيء[1] . وختم الأوراق والرسائل من العادات القديمة المستعملة عند الشعوب . ويقوم الخاتم مقام التوقيع في وقتنا الحاضر. وختم رسالة معناه المصادقة عليها وتصديقها . واستعمل الخاتم في ختم الأوراق العامة والأوراق الشخصية والعقود والمعاملات . وكان الشخص اذا أراد ارسال رسالة ختمها ، ولذلك كانوا يحملون خواتمهم معهم ، إما في جيوبهم وإما في أصابعهم وقد يضعونها في سلسلة يعلقونها حول أعناقهم[2] . .

وقد صنع الخاتم من مواد مختلفة . صنع من ذهب ومن فضة ومن معدن آخر ومن الحجر . وقد كتب على بعض الخواتم اسم صاحبه ، ونقشت أمثلة وحكم وعبارات دينية أو أسماء الآلهة على بعض الخواتم . كما حفرت على بعض منها صور ترمز الى رموز مقدسة أو صور حيوانات . وعثر على خواتم في العربية الجنوبية ، وبها فصوص من أحجار ثمينة من أحجار اليمن الشهيرة . وقد كان يستعملها الناس إذ ذاك في التوقيع على رسائلهم ومخابراتهم ومعاملاتهم . ولا زال الناس يعثرون على خواتم جاهلية في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية ، فيستعملونها لتزين أصابعهم بها .

وبعد أن تختم الرسالة ، توضع داخل ظرف ، حتى لا يطلع عليها أحد ثم يغلق ، ثم يختم على موضع فتحه بالطين أو على المواضع التي يحتمل أن يفتح منها حتى تكون في مأمن تام . فلا يقف عليها إلا من أرسلت له . فإذا وصلته ، ووجد ان خاتمها سليم ، كسره ، ليستخرج الرسالة من ظرفها . وكانت الكتب على هيأة لفائف . وكان من عادة الشعوب القديمة أن المكتوب إذا أريد ارساله الى شخص من طبقة أدنى من طبقة الكاتب ، أي صاحب الرسالة،أرسل المكتوب اليه منشوراً ، أما اذا كان المكتوب الى شخص مكافىء لصاحب الكتاب أو أعلى منزلة منه ، أرسل مختوماً وموضوعاً في كيس[3] .

ولحماية الأشياء من التطاول والتجاوز عليها لجأوا الى طبعها وختمها ، فختموا

---

١ تاج العروس (٨/٢٦٦) ، (ختم) ، اللسان (١٢/١٦٣) ، (ختم) .
٢ Hastings, p. 833.
٣ نحميا ، الاصحاح السادس ، الاية ٥ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٥٣) .

الأكياس التي تملأ بالنقود أو بأي شيء آخر ، وختموا زق الخمرة حتى لا يتطاول عليه متطاول . قال الأعشى :

وصهباء طاف يهوديها وأبرزها وعليها ختم[1]

كما ختموا الطعام بالروسم ، وهو خشبة مكتوبة بالنقر . أو لويح فيه كتاب منقور ، تختم به الأكداس[2] . وقيل له (الروشم) أيضاً في لغة السواد[3] . وكلمة (رشم) ، تعني (كتب) في الإرمية . و (راشوم) ، بمعنى لوح منقوش تختم به البيادر في لغة بني إرم ، Rouchmo ، وتعني علامة[4] .

وكان من عادتهم ختم الأمور المهمة أيضاً خشية ضياعها أو التطاول عليها أو لحفظها . فلما كتب أهل مكة فيما بينهم كتاباً يتعاقدون فيه ألا يناكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يسلموا اليهم محمداً . كتبوا بذلك صحيفة ختموا عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة[5] . ويظهر انهم بعد أن كتبوا الصحيفة وضعوها في ظرف ثم سدّوه وختموا عليه ثلاثة خواتيم ، حتى لا يفتح الظرف . أو انهم طووها بعد أن كتبوها ثم ختموا عليها حتى لا تفتح ، فلما أرادوا فتحها وجدوا انها قد تهرأت وتلفت من فعل لعب الأرضة بها . ويجوز انهم ختموا عليها ثلاثة خواتيم ، بخواتيم الكتبة الثلاثة الذين نسبت كتابتها الى كل واحد منهم ، بحسب اختلاف الروايات . وهم : منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ، أو النضر بن الحارث ، أو بغيض بن عامر بن هاشم .

الكاتب :

والكاتب في اصطلاحنا هو الذي خصص نفسه بالكتابة ، أو من يقوم بعمل

---

١ مصادر الشعر الجاهلي (٧٦) .
٢ تاج العروس (٣١٢/٨) ، (رسم) .
٣ تاج العروس (٣١٣/٨) ، (رشم) .
٤ غرائب اللغة (١٨٣) .
٥ امتاع الاسماع (٢٥/١) .

كتابي،أو من اشتهر وعرف بحذقه في فن الكتابة . وذكر علماء اللغة أن الكاتبين، هم الكتبة وحرفتهم الكتابة . وذكروا أن الكاتب في أيام الجاهلية : العالم . «وفي كتابه الى أهل اليمن : قد بعثت اليكم كاتباً من أصحابي . أراد عالماً سُمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة »[1] . والواقع أن نسبة العلم للكتاب ، لم تكن نظرة أهل الجاهلية وحدهم بالنسبة الى كتابهم ، بل كانت وجهة نظر شعوب العالم كلها الى الكتبة في ذلك العهد . لأن أكثر كتاب تلك الأيام كانوا من أبناء العوائل المتمكنة ومن أبناء طبقة رجال الدين ، وكانوا يتعلمون الى جانب الكتابة في الغالب علم اللسان ، كالعربية بالنسبة الى العرب والإرمية بالنسبة الى بني إرم،وشيئاً من الأدب من منظوم ومنثور وحساب وأمثال وحكم ، لذلك يخرج المتعلم ، وقد تثقف بثقافة تجعله فوق مستوى أقرانه، فيكون بعلمه هذا أعلم من غيره وأدرك منهم بشؤون الحياة . ومن هنا صار أعلم من بقية الناس . ونظر اليه نظرة تقدير وتبجيل .

ومن هنا نجد أن الأحناف ، وهم الدعاة الى الاصلاح والى رفع مستوى الحياة في الجاهلية ، كانوا كلهم من الكتّاب بالعربية . وقد نسب إليهم أنهم كانوا يكتبون ويقرأون بالعبرانية أو بالسريانية أو باللغتين أيضاً ، كما عرف عن بعض الخطباء والشعراء أنهم كانوا يقرؤون ويكتبون،ومنهم من كان له اطلاع على الثقافات واللغات الأعجمية حتّى بان ذلك على كلامه المنظوم أو المنثور ، وخير مثال على هؤلاء : عدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصلت والأعشى ولبيد .

وقد عرفت حرفة احتراف الكتابة بين الجاهليين أيضاً ، كالذي كان من أمر (زيد) والد (عدي بن زيد العبادي) مع الفرس ، وكالذي كان من أمر ابنه عدي نفسه مع الفرس أيضاً ، ثم ما كان من أمر ابن عدي معهم. وكالذي كان من أمر (لقيط بن يعمر الإيادي) ، وغيرهم . وقد رأينا ان الناس أطلقوا على (حنظلة بن الربيع) ، كاتب الرسول (الكاتب) ، حتّى عرف بـ (حنظلة الكاتب) ، لأنه كان قد قضى معظم وقته في الكتابة للرسول ، فكان يكتب له اذا غاب كاتب من كتّابه عنه . فهؤلاء اذن ، هم كتّاب ، صارت الكتابة حرفتهم ، ولا بد وأن نتصور انهم كانوا قد أتقنوا حرفتهم لطول مرانهم بها

---

١ تاج العروس (٤٤٥/١) ، (كتب) .

وخبروها على خير وجه . ومن المؤسف ، اننا لا نملك نماذج من رسائلهم ولا من خطوطهم في هذا اليوم . كما لا نملك من خطوط غيرهم شيئاً ، وسبب ذلك هو ندرة مواد الكتابة وغلائها بالنسبة لذلك الوقت ، فكانوا يغسلون الصحيفة المكتوبة ويمحون ما كتب عليها ، ليكتبوا عليها من جديد ، ثم عدم ادراك الناس إذ ذاك لأهمية وقيمة الوثائق ، حتى بالنسبة الى الوثائق المهمة كرسائل الرسول وأوامره وأحاديثه وأمثال ذلك ، فضاعت الأصول بسبب هذا الإهمال ،وهي أصول سريعة التلف ، لأنها كتبت على الجلود وعلى مواد تبلى بسرعة ، وتحتاج الى عناية وحرص كي تحافظ على حياتها مدة طويلة .

وقد سار الكتاب الجاهليون على الجادة التي سلكها الكتاب الآخرون الكاتبون بالأقلام السامية من عدم وضع علامات للحروف المتشابهة مثل الباء والتاء والثاء ، بحيث أنهم كانوا اذا كتبوها ، لم يضعوا عليها نقاطاً لتمييز حرف منها عن حرف مشابه له أو علامة أخرى فارقة ، تفرق هذا الحرف عن الحرف الآخر . كما ساروا على الجادة التي سار عليها غيرهم من عدم وضع علامات خاصة بالحركات . فكتبوا ما كتبوا من غير إعجام ولا حركات . تاركين أمر القراءة الصحيحة وفهم المكتوب الى علم القارىء وفهمه وذكائه وحذقه باللغة وبالمهنة . ولعلهم فعلوا ذلك محاكاة لغيرهم مثل الكتبة النبط والآراميين والعبرانيين ، الذين تمسكوا بهذا الأسلوب ، على اعتبار أنه سنة قديمة ورثت عن الآباء ، وقد كتبت بها الكتب المقدسة . أو لأن القارىء يجب أن يكون عالماً بفنه بارعاً به ، فلا يكتب له بما يشعره أن مستواه في فهم المكتوب ، هو مثل مستوى سائر الكتبة، ممن تعلموا القراءة والكتابة وكفى . فكتبوا من غير اعجام ولا حركات . وقد جعلوا ذلك خاصة في مخاطبة ذوي المكانة والحكم ، أما إذا كان الانسان المكتوب اليه من سواد الكتاب القرّاء ، فكانوا يبيحون لأنفسهم حرية إعجام الكتابة وتحريكها . ومن هنا أيضاً ، ظهرت نماذج من الخطوط،خصصت بكتاب العامة .

وكانوا يميزون بين الخطوط ،ويرجحون الخط القوي السوي على الخط الضعيف . والخط الجيد هو الخط الذي يجود فيه . ولا يستبعد أن تكون لهم مدارس في كيفية تدوين الخط . فقد أطلقوا على خط أهل الأنبار المشق . وقد عرفوا هذا الخط ، بأنه فيه خفة . ولا يعقل بالضبط أن يكون هذا الخط خطاً رديئاً ولهذا سمي مشقاً ، بل هو طريقة خاصة من طرق رسوم الخطوط التي امتازت بمد

الحروف وخفتها في الكتابة أي سهولتها ، ولا تزال هذه الطريقة المعروفة بـ (خط المشق) معروفة . وهي تستعمل عند الخطاطين في كتابة بعض الأمور التي يناسبها هذا الخط . ذكر أن الخليفــة (عمر) ذكره فقال : « شرّ الكتابة المشق وشر القراءة الهــذرمة »[1] . لما في الاثنين من السرعة والتسرع . فالهذرمة السرعة . وذكر أيضاً أن (ابن سيرين) كره كتابة المصاحف بالمشق[2] .

والنوع الثاني الذي نعرفه من أنواع الخطوط ، هو الجزم . وهـو خط أهل الحيرة . وهو خط المصاحف[3] .

ويجب أن نضيف الى هذين القلمين قلم أهل مكة ، الذي دعاه (ابن النديم) بـ (الخط المكي) ، ثم الخط المدني . وقد ذكر ان ما بعدهما الخط البصري ثم الكوفي . وهما خطان اسلاميان ، وان كنت لا أستبعد من كونهما قد أخــذا من خط عرب العراق في الجاهلية ، ولعلهما قد طعما بشيء من قلم أهل مكة أو المدينة. وقد وصف (ابن النديم) بعض خصائص القــلم المكي والقلم المدني ، فقال : « فأما المكي والمدني ، ففي ألفاته تعويج الى يمنة اليد وأعلى الأصابع وفي شكله انضجاع يسير[4] . ويمكن استخراج بعض خواص رسم خطوط أهـل الحجاز في القرن الأول للهجرة من الكتابات التي عثر عليها بعض الباحثين في مواضع متعددة من الحجاز ، والتي قد يعثر عليها في المستقبل .

والصفة التي يذكرها (ابن النديم) عن ألفات أهل مكة وأهل المدينة ، تدل على ان أهل المدينتين قد أخــذوا خطهم من أهل العراق والنبط ، لأن الصورة المذكورة هي صورة كتابة الألف في الخط الشمالي ، ولم يعدل الألف،بحيث صير مستقيماً إلا في الاسلام.

وأنا لا استبعد احتمال تدريس مبادىء اللغات وبينهـــا مبادىء اللغة العربية في الحيرة وفي الأنبار وفي مواضع حضرية أخرى ؛ فليس يعقـــل اقتصار التعليم في هذه المواضع على تعليم الخط والقراءة ثم لا يتجاوزهما الى مراحـل أخرى ومراقي أرفع . خاصة وأن السريانيين كانوا قد اقتبسوا من اليونان اجرومية النحو وأصول

---

١ الصولي ، أدب الكتاب (٥٦) .
٢ تاج العروس (٩/١٠١) ، (هذرم) ، المصاحف ، للسجستاني (١٣٤) .
٣ الاقتضاب ، للبطليوسي (٨٩) .
٤ الفهرست (١٤) .

الشعر وفلسفة قواعد اللغات بترجماتهم الكتب اليونانية الى اللغة السريانية . وأن جماعة من النصارى العرب كانوا يزورون القسطنطينية وبلاد الشأم ويقرأون الكتب الدينية من آرامية ويونانية للتعلم والتثقف ، وهؤلاء هم الذين تولوا تثقيف أبنائهم العرب وتعليمهم . وأناس من هذا الطراز لا بد وأن يكونوا قد تأثروا بما تعلموه من اليونان ومن السريانية فطبقوه على العربية ، ووضعوا القواعد لصيانة الألسنة ولتقويمها ، وسلكوا سبلاً في البيان ترتفع فوق مستوى تفكير السواد والسوقة بدرجات . وترجموا الموضوعات الدينية ولا سيما الكتب الدينية الى الناس لتفقيههم بأمور دينهم .

ورجل مثل (عدي بن زيد العبادي) ، ولّي ديوان الرسائل والانشاء عند كسرى وهو ديوان مهم ، لم يكن الفرس يسلمون أمره إلا لرجل أديب حاذق، لا يعقل أن يكون مجرد قارىء خطاط ناقش للحروف ، لا بد وأن يكون صاحب فن وحذق له أسلوب في تنميق الكلام والتحبير ، قوي البيان ، يكتب وفق قواعد اللغة وأصولها . درس القواعد والأدب وأساليب العرب والعجم في التعبير والبيان، فصار من ثم كاتباً بالعربية وبالفارسية كما يذكر أهل الأخبار .

الفصل الخامس والعشرون بعد المئة

الكتاب والعلماء

والعلم المعرفة . ورجل عالم وعليم ، صاحب معرفة ، وأصحاب المعرفة والعلم هم العلماء . ويقال في جمع عالم : علاّم ، كجهّال في جاهل . قال يزيد بن الحكم :

ومسترق القصائد والمضاهي   سواء عند علام الرجال[1]

وذكر علماء اللغة ان (الناخع) العالم ، وقيل هو المبين للأمور ، وقيل هو الذي قتل الأمر علماً . قال شقران السلاماني :

إن الـذي ربضتما أمره   سراً وقد بين للناخع
لكالـتي يحسبها أهلهـا   عذراءبكراً وهي في التاسع[2]

والعلاّمة ، والعلاّم ، والتعلمة ، والتعلامة : العالم جداً ، وذلك للمبالغة في سعة علم العالم . وذكر علماء اللغة ان « العلامة والعلام : النسابة »[3] ، ويظهر انهم انما قالوا ذلك ، بسبب ان النسب كان عند الجاهليين من أهم علومهم التي

---

١ تاج العروس (٨/٤٠٥) ، (علم) .
٢ تاج العروس (٥/٥٢٠) .
٣ تاج العروس (٨/٤٠٦) ، (علم) .

برعوا وتخصصوا بها ، حتى صار النسب مرادفاً للعلم عندهم . وفي القرآن : « انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ »[1] ، و (علماء بني اسرائيل)[2] ، وألفاظ كثيرة لها صلة بالتعلم والعلم ، وفي ورودها فيه دلالة على وقوف الجاهليين على العلم والتعلم وعلى وجود العلماء عندهم .

وترد لفظة (الكاتب) بمعنى العالم . « قال الله تعالى : أم عندهمُ الغيب ، فهم يكتبون »[3]، « وفي كتابه الى أهل اليمن : قد بعثت اليكم كاتباً من أصحابي، أراد عالماً،سمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة»، والكاتب عندهم العالم . والاكتاب الإملاء . تقول : اكتبني هذه القصيدة ، أي املاها عليّ[4] ، و (الكاتب) عند الشعوب الأخرى ، بمعنى العالم كذلك ، وقد كانت للكتاب منزلة كبيرة في مجتمعهم ، إذ كانوا يعدون من الطبقات العالية الممتازة . وذلك لأن الكاتب لا يكون كاتباً إذ ذاك ، ولا ينال العلم ، إلا إذا كان من الطبقة العالية المتمكنة ومن أسرة عرفت بالعلم . والعلم إذ ذاك محصور في العوائل ، وفي رجال الدين وفي الطبقة التي تتولى الكتابة في قصور الملوك .

ونجد في القرآن لفظة : (كتب) و (كَتَبَتْ) و (كَتَبْتَ) و (كَتَبْنا)، و (كتبناها) ، و (فسأكتبها) ، و (تكتبوه) ، و (نكتب) ، و(يكتب) ، و (يكتبون) و (أكتب) ، و (فاكتبها) ، و (فاكتبوه) ، و (كُتِبَ) و (ستكتب) ، و (اكتتبها) ، و (فكاتبوهم) ، و (كاتب) ، و (كاتباً) و (كاتبون) ، و (كاتبين) ، و (الكتاب) ، و (كتاباً) ، و (كتابك)، و (بكتابهم) ، و (كتابنا) ، و (كتابه) ، و (كتابها) ، و (كتابي) ، و (كتابيه) ، و (كُتُبٌ) ، و (كُتُبِهِ) ، و (مكتوباً) . وفي ورود هذه الألفاظ فيه معبرة عن معان مختلفة لها صلة بالكتابة وبالعلم،دلالة على أن الجاهليين كانوا على علم ، وأنهم كانوا يكتبون في أغراض مختلفة من أغراض الحياة ، وأنهم لم يكونوا على نحو ما يقص عنهم أهل الأخبار من الجهل والأمية .

---

١ قاطر ، الاية ٢٨ ، تفسير الطبري (٨٦/٢٢) ، تفسير الالوسي (١٧٦/٢٢) .

٢ الشعراء ، الاية ١٩٧ .

٣ الطور ، الاية ٤١ ، القلم ، الاية ٤٧ .

٤ تاج العروس (٤٤٥/١) ، (كتب) .

وذكر علماء اللغة ان (الشهر) وجمعها (شهور) بمعنى العالم ، واستشهدوا على هذا المعنى ببيت شعر ينسب الى أبي طالب ، هو :

فإني والضوابح كل يوم وما يتلو السفاسرة الشهود[1]

قال الصاغاني : هكذا أنشده الأزهري لأبي طالب ، ولم أجده في شعره[2] . ولكن الرواة يروونه على هذا النحو :

فإني والسوابح كل يوم وما تتلو السفاسرة الشهود[3]

والسفاسرة أصحاب الأسفار ، وهي الكتب ، والشهود أنسب في تفسير الشعر من الشهور ، لأننا لا نعلم ان أحداً قال إن الشهر : العالم ، وأرى ان تصحيفاً قد وقع في البيت حوّل حرف (الدال) (راء) ، ففسرت لفظة الشهور بالعلماء ، لعدم تصادم هذا التفسير مع المعنى ، وفي العربية مئات الأمثلة على مثل هذا التصحيف .

وترد لفظة (الفقه) بمعنى العلم بالشيء والفهم له . ويظهر ان الجاهليين كانوا يستعملون لفظة (فقه) ومشتقاتها في معان لها صلة بالعلم . ودليل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من قوله « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين »[4] ، ومن ورود (تفقهون) ، و (تفقه) ، و (يفقهوا) ، و (يفقهون) ، و (يفقهوه) في مواضع منه . وورد في كتب اللغة والأدب والأخبار : « فقيه العرب : عالم العرب » ، و « فقهاء من العرب »[5] . وورد في الحديث : « أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون »[6] ، أي الثرثارون المدّعون العلم والفقه .

ويفهم أيضاً من روايات أهل الأخبار ، انه قد كان للجاهليين أئمة وفقهاء يقضون بينهم ، ويفتون في دينهم ، ويحافظون على دينهم . فهم عندهم سدنتهم وأمناؤهم . وقد ذكر (ابن حبيب) أسماء نفر من (تميم) تولوا الموسم والقضاء

---

١ تاج العروس (٣/٢٧٢ ، ٣٢٠) ، (سفر) ، (شهر) .
٢ تاج العروس (٣/٣٢٠) ، (شهر) .
٣ تاج العروس (٣/٣٧٢) ، (سفر) .
٤ التوبة الرقم ٩ ، الآية ١٢٢ .
٥ اللسان (١٣/٥٢٢) ، (فقه) .
٦ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٢٤٢) .

بعكاظ . فكانوا يجلسون في مكان من السوق ، بين المتخاصمين وللافتاء فيما يشكل عليهم من أمر دينهم . وكان منهم من تخصص بالإجــازة بالموسم . ومنهم من تخصص بالفتيا والقضاء . ومنهم من جمع بين الاثنين[1] .

وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن كتب ومؤلفـــات نقول إن الجاهليين كتبوها بالعربية على نمط اليونان واللاتين والفرس والسريان في الكتابــة والتأليف ، ذلك لقصور علمنا في الموضوع ، ولعدم وصول أي خبر الينا عنه حتّى الآن .

نعم ، لقد أشرت الى وجود ما يسمى (مجلة لقمان) و (حكمة لقمان) والى كتب امتلكها بعض الجاهليين ، إلا أن الاخباريين لم يصفوا كيف كانت مجلــة لقمان ، ولم يتطرقوا الى ما كان فيها ، كما أن الظواهر تشير الى أن تلك الكتب هي مؤلفات جيء بها من بلاد الشام والعراق واليمن ، أغلبها في موضوعات دينية وتأريخية وقصص . وأما لغتها ، فيظهر أن بعضها بعربية القرآن الكريم ، كمجلة لقمان ، وبعضها بلغة بني إرم .

أما ما قيل له (الأساطير) أو (كتب الأساطير) ، فهو كتب قصص وسمر وحكايات وتواريخ . وتدل التسمية على أنها من أصل يوناني ، هو : Historia و Storia في اللاتينية وتعني التأريخ ، عرّبت فصارت (أسطورة) وجمعت على أساطير ،واستعملها الجاهليون استعمال اليونان واللاتين ، أي أرادوا بها تواريخ الماضين وحكاياتهم وقصصهم .

وأما ما قيل له (السفاسرة) ، فالسفسير الحاذق بالشيء . والسفاسرة أصحاب الأسفار ، وهي الكتب . والكلمة من أصل (إرمي) على رأي علـــماء اللغة . و (سفسير) بمعنى (سمسار) في لغة (بني إرم) ، أي المساوم[2] . والظاهر ان (السفاسرة) ، من (سفر) ، و (سفر) (سيفير) بمعنى كتاب في عدد من اللغات السامية . وتقابل (سفرو) في لغة بني إرم ، بمعنى كتاب[3] . وقد كان بمكة وبغيرها رجال يتلون الكتب ويقرأون أسفار أهل الكتب من دينية وغيرها قبـــل الاسلام وفي الاسلام . « وفي الحديث : لا تعلموا أبكار أولادكم كتب

---

١ المحبر (أئمة العرب) ، (ص ١٨١ وما بعدها) .
٢ غرائب اللغة (ص ١٨٧) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٨٧) .

النصارى : يعني أحداثكم »[1] . وفي هذا الحديث إن صح دلالة على ان قراءة الكتب كانت منتشرة في ذلك العهد . ولا تعني جملة (كتب النصارى) الكتب الدينية بالضرورة ، إذ قد تعني كل ما كان يتداوله النصارى من كتب في ذلك العهد . وقد يكون من بينها مؤلفات في الفلسفة وفي الطب وفي فروع المعرفة الأخرى التي كان الناس يتدارسونها إذ ذاك .

وفي الآية : « وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً. قل : أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض . إنه كان غفوراً رحيماً »[2]، دلالة صريحة على وجود الكتب والأساطير عند الجاهليين . فلما نزل القرآن ، قال المشركون : « إن هـذا إلا افك افتراه محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين ، يعنون أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم. اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم ، من يهود ، فهي تملى عليه ، يعنون بقوله : فهي تملى عليه ، فهذه الأساطير ، تقرأ عليه ، من قولهم أمليت عليك الكتاب، وأمليت بكرة وأصيلاً ، يقول وتملى عليه غدوة وعشياً . وقوله : قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض . يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بآيات الله من مشركي قومك ما الأمر كما تقولون من أن هـذا القرآن أساطير الأولين ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ، افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، بل هو الحق أنزله الرب الذي يعلم سر من في السموات ومن في الأرض ولا يخفى عليه شيء »[3] . وزعموا ان الرسول اكتتب القرآن من (أساطير الأولين) ، وهي أحاديث سطرها المتقدمون كأخبار الأعاجم ، « فهي تقرأ عليه أو كتبت له »[4] ، وقالوا : « ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأولين وأحاديثهم »[5] . وكانوا يروون الأساطير وأحاديث الخلق ، وهي الخرافات من الأحاديث المفتعلة، فرمى المشركون الرسول بهذه الفرية[6] .

---

١ تاج العروس (٣/٥٧) ، (بكر) .
٢ الفرقان ، الآية ٥ .
٣ تفسير الطبري (١٨/١٣٧ وما بعدها) .
٤ تفسير النيسابوري (١٨/١٢٥ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير الالوسي (١٨/٢١٣) .
٥ تفسير الطبري (١٩/٦٠) ، تفسير الالوسي (١٩/١٠٠) .
٦ اللسان (١٠/٨٨) ، (خلق) .

وقد ذهب (شبرنكر) — وهو من الزاعمين أن الرسول كان يكتب ويقرأ — الى أن النبي قرأ كتاباً في العقائد والأديان وأخبار الماضين ، وقد زعم أن اسم هذا الكتاب هو : (أساطير الأولين)[١]. وقد أخذ رأيه هذا من الآية: « وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً »[٢] . وهذه السورة هي من السور المكية . فهي تشير الى زعم قريش في أن القرآن ، هو شيء اكتتبه الرسول ، وقد أملي عليه من الأساطير . وقد سبق أن قالوا إنه يتعلمه من أناس عاونوه وساعدوه عليه . قالوا إن هذا القرآن « إفك افتراه محمد صلى الله عليه وسلم ،هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين يعني أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم ، اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم ، من يهود ، فهي تملي عليه . يعنون بقوله : فهي تملى عليه ، فهذه الأساطير تقرأ عليه ، من قولهم أمليت عليك الكتاب وأمليت ، بكرة وأصيلاً . يقول وتملى عليه غدوة وعشياً » ، « وأعانه عليه قوم آخرون . يقول : وأعان محمداً على هذا الإفك الذي افتراه يهود »[٣] . وقد رد على هذا الرأي (نولدكه) في كتابه : (تأريخ القرآن) ، وعده قولاً لا أهمية له[٤] .

وقد ذكر علماء اللغة أن الأساطير هي الأباطيل والأكاذيب والأحاديث لا نظام لها ، وهي جمع (أسطار) و (أسطير) و (أسطور)[٥] . واللفظة من الألفاظ المعربة . وهي Istoriya (استوريا) في اليونانية ، و Historia في اللاتينية ، وقد أطلقت عندهم على كتب الأساطير والتأريخ . ويظهر أن الجاهليين قد أخذوها من الروم قبل الاسلام ، واستعملوها بالشكل المذكور وبالمعنى نفسه ، أي في معنى تأريخ وقصص .

ولا أستبعد وجود الكتب التأريخية باليونانية وباللاتينية في مكة ، فقد كان في مكة وفي غير مكة رقيق من الروم ، كانوا يتكلمون بلغتهم فيما بينهم وينطقون

---

١ Noldeke I, S. 16, Ency. of Islam vol. IV, p. 1016.

٢ الفرقان ، الآية ٥ .

٣ تفسير الطبري (١٣٧/١٨ وما بعدها) ، اسباب النزول ، للنيسابوري (١٦٠) .

٤ Noldeke, I, S. 17.

٥ تاج العروس (٢٩٧/٣) ، المفردات (٢٣١) ، البيضاوي ، تفسير (١٤٤/١) ، تفسير الطبرسي (٣٢/٧) ، (٦٦/١٤) .

بها إذا تلاقوا ، كما كانوا يحتفظون بكتبهم المقدسة،وبكتب أخرى مدوّنة بلغتهم. وقد ذكر علماء التفسير اسم رجل زعمت قريش أنـــه كان هو الذي يعلم الرسول ويلقنه القرآن . وإليه الإشارة في الآية : « لسان الذي يلحدون اليه أعجمي »[١]. وهي في سورة النحل ، وسورة النحل من السور المكية . « كانـــوا يزعمون أن الذي يعلم محمداً هذا القرآن عبد رومي » ، « وكان صاحب كتب ، عبد لابن الحضرمي » . « فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حـــين يدخل عليه وحين يخرج من عنده ، فقالوا : انما يعلمه »[٢] .

وقد ذهب (شبرنكر) الى وجود (صحف ابراهيم) عند الجاهليين ، زعم ان الرسول قرأها وأخذ منها . وقد رد على رأيه هذا (نولدكه) ، بقـوله : لو فرضنا أن محمداً أخذ من هذه الصحف ، ونسبه لنفسه وادعاه ، على أنه وحي أوحى الله به اليه ، لو فرضنا ذلك ، فإن من غير المعقول عندئذ ذكر محمـــد لتلك الصحف في القرآن . لأن ذكرها فيه معناه إرشاد الناس الى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه ، ولهذا فلا يعقل الأخذ بكلام (شبرنكر)[٣] .

وورد في كتب أهل الأخبار أن (الأحناف) كانوا يقرأون الكتب،وتبحروا في التوراة والانجيل ، ومنهم من وقف على لغة (بني إرم) وعلى العبرانيـــة . ومن هؤلاء (ورقة بن نوفل بن أسد) ، « الشاعر صاحب العلم في الجاهلية . وكان قـــد قرأ الكتب وتبحر في التوراة والانجيل ، وهو الذي لقيته خديجة في أمر النبي »[٤] .

وورد في بعض الأخبار في تفسير الآية: « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هُزُواً »[٥] ان هـــذه الآية إنما نزلت في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السمر والأحاديث القديمة ، ويضاهون بهـــا القرآن ، ويقولون إنها أفضل منه[٦] . وفي هذا الخبر دلالة على وقوف الجاهليين

---

١ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٢ تفسير الطبري (١١٩/١٤ وما بعدها) .
٣ Noldeke, I, S. 17, Sprenger, Lebens Muhammad, II, S. 367.
٤ الاشتقاق (١٠٢) .
٥ سورة لقمان ، الآية ٦ .
٦ العقد الفريد (٩/٦) .

على الكتب واستعمالهم لها ، وخاصة كتب السمر والأحاديث القديمة ، إذ لا يعقل أن يكون شراؤهم لها حادثاً طارئاً ، ظهر عندهم بنزول القرآن .

وذكر بعض المفسرين أن الآية المذكورة نزلت في حق « النضر بن الحرث وكان يتجر الى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم : رستم واسفنديار فيحدث بها قريشاً . وقيل كان يشتري المغنيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به الى قينته ، فيقول اطعميه واسقيه وغنّيه ، ويقول هذا خير مما يدعوك محمد اليه من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه »[1] .

وإذا صح ما ذهب اليه بعض المفسرين من أن هذه الآية قد نزلت بحق (النضر) لأنه كان يعاند الرسول ويعارضه وقت يكون مجتمعاً بنفر من الناس يلقي عليهم مبادىء الإسلام ، فيقرأ عليهم من كتب الأعاجم ومن قصص : رستم واسفنديار فإن ذلك يدل على أنه كان يتقن الفارسية ، وأنه كان يمتلك كتب الفرس ويقرأ بها وهو بمكة ، ويترجم ما جاء فيها لمن يتجمع حوله . وأنه اشترى جملة كتب خلال تجاراته مع العراق .

فنحن اذن أمام أقدم مترجم يصل الينا خبره من مترجمي العرب قبل الإسلام بمكة . يقوم بترجمة كتب من الأعجمية الى العربية . ويكون بذلك قد سبق المسلمين بزمن طويل في ترجمة كتاب رستم واسفنديار الى العربية . غير أننا يجب أن نتحفظ ونحترز كثيراً في قولنا هذا . فنحن لا نقصد أنه ترجم كتاب رستم واسفنديار ترجمة تدوين وتحبير ، وبالتمام والكمال . فقول مثل هذا يكون قولاً جزافاً ، لا يستند الى علم أو دليل إن قلته . وإنما أقصد ترجمة شفوية على نحو ما ذكره وأورده المفسرون وأصحاب السيرة . وقد ترجم هذا الكتاب في الإسلام ، ترجمه جبلة بن سالم[2] .

ولا أعتقد أن رجلاً مثل الحارث بن كَلَدة الثقفي ، أو ابنه النَّضر ، وهما من العلماء بالطب ، لم يرجعا الى مؤلفات في الطب مدوّنة بلغة من اللغات الأعجمية ، للحصول على علمهما في الطب . وكيف يمكن ذلك ، وقد درسا في مدرسة لم تكن

---

١ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبري (٢١/٥٢) ، سيرة ابن هشام (١/٣٨٣ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٤/٥٢) .
٢ الفهرست (٤٣٨) .

مدرسة عربية ، هي مدرسة (جنديسابور) ، عرفت واشتهرت في الطب . وقد كان عماد دراستها في الطب ما ألفه اليونان ، وما نقله منهـا علماء السريان . ولا أعتقد أنهما كانا في جهل بمؤلفات أبقراط وجالينوس وغيرهما ممن بنوا صنعة الطب، ووضعوا فيها المؤلفات. بل لا أعتقد أن رجالاً في مكة أو في يثرب أو الطائف كانوا على جهل بأسماء مشاهير حكماء اليونان ، وبينهم من كان له اتصال ببـلاد الثقافة والعلم وبالأجانب على نحو ما ذكرت ، وإن اغفل عن ذكرهم أهل الأخبار .

ويظهر من روايات أهل الأخبار – مثل رواية ابن الكلبي عن وجود دواوين فيها ما مدح به آل لخم وما قيل فيهم من شعر ومقدار ما حكم كل واحد منهم ، وروايات غيره عن تدوين الشعر قبل الاسلام – أن الجاهليين كانوا قد شرعوا في تدوين الأخبار والشعر وما لفت انتباههم قبل الاسلام ، وقد يكون ذلك قبيـــل الاسلام بعهد غير بعيد ، وأن التدوين كان بهذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، أو بلهجات قريبة منها . ومعنى هذا أن هذه اللهجة كانت قد اكتسبت قوة في هذا العهد ، حملت الناس على التدوين وعلى نظم الشعر بها . ولكن الذي رفعها وجعلها لغة للعرب أجمعين ، هو القرآن الكريم من غير شك ، فبفضله صارت هذه اللغة لغة للعرب كلهم ولغة المسلمين الدينية .

ويظهر من القرآن الكريم أن هذه اللغة كانت قد عرفت ألفاظ الحضارة والفكر في يوم نزوله ، لورودها فيه . ولورودها فيه أهمية كبيرة في إعطـــاء فكرة عن مستوى أهل الحجاز العقلي في ذلك اليوم ، ففيه ألفاظ مثل العلم والعلماء والحكمة والأساطير والأمثال الخ ... وألفاظ ذات صلة بالكتابة والتدوين تحدثت عنهـــا ومصطلحات أخرى ، ولا يمكن ورود مثل هذه الكلمات في لغة قوم ما ، مـــا لم يكن لهم أو لجماعة منهم على الأقل ، حظ من ثقافة وتفكير وعلم .

ولا أقصد أن الجاهليين استعملوا تلك الألفاظ بمدلولها المفهوم في الزمن الحاضر، أو بالمعاني المفهومة منها عند اليونان . فلفظة (علم) مثلاً ، لا تعني علماً بالمصطلح الحديث أي في مقابل Science في الانكليزيـــة ، وإنما تعني المعرفـــة عامة . ولفظة (علماء) ، لا تعني المشتغلين بالعلوم خاصـــة أي ما يقال لهم Scientist في الانكليزية ، وإنمـــا يراد بهم العارفون أصحاب المعرفة والفهم . وقد صار للفظتين مدلولان خاصان في العصر العباسي ، ولكن هذا لا يعني أن لفظة (علم) أو (علماء) ، لم تكن تعني معنى خاصاً عند الجاهليين ، وإلا ما استعملت للتعبير

عن معان معينة في القرآن الكريم ، وما ميز القرآن الكريم والحديث النبوي العارفين بلفظة علماء ، لتمييزهم عن السواد . وبهذا المعنى وردت لفظة (عالم) وعلم عند العبرانيين[1] .

ولا أستبعد تأثر المثقفين الجاهليين ومن كان على اتصال بالعجم وباليهود والنصارى بالآراء الفلسفية والدينية وبالجدل الذي وقع بين المذاهب النصرانية في أمور عديدة. فقد خالط الجاهليون ، ولا سيما في بلاد العراق وبلاد الشأم ، أقواماً عديدة ذات ثقافات متباينـــة ، واحتكوا بها ، وأخذوا منها ، فلا يعقل ألا يتأثروا ببعض آرائهم في الكون وفي الحياة وفي سائر نواحي التفكير . وقد وردت في شعر للأعشى وفي شعر لبيـــد ، فكرتان متناقضتان عن الجبر والاختيار ، فذهب الأعشى في هذا البيت :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى الملامـــة الرجلا

مذهب القائلين بالاختيار ، أي أن الانسان مختار قادر على أفعاله . أما الأعشى فذهب مذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مُجبَر ، مسير ، وذلك في قوله :

إن تقوى ربنـــا خير نفل وبـــإذن الله ريثي وعَجَل
من هداه سُبُل الخير اهتدى ناعم البال،ومن شاء أضل[2]

وقد سبق أن ذكرت في مواضع متعددة من هذا الكتاب أن اكثر من نُسِب الى التوحيد ، أي من ينعتهم أهل الأخبار بالحنفاء ، كانوا يقرأون ويكتبون ، وكانت عندهم كتب أهل الكتاب ، وان أكثرهم كانوا أصحاب رأي وفكر في الخلق وفي هذا العالم. ولكنهم لم يدخلوا في يهودية ولا في نصرانية،لأنهم لم يجدوا في الديانتين شيئاً يفرج ويرفه عما كان يجول في رؤوسهم من آراء ومقالات عن الخالق والكون . وقد جالس هؤلاء رجال اليهود والنصارى ، وتكلموا معهم في أمور عديدة من أمور الفكر والدين في جزيرة العرب وفي بلاد العراق وبلاد الشأم. وينسب لجندب بن عمرو بن حممة ، وهو من دوس ، أنه كان يقول في الجاهلية:

---

١ Hastings, Dict. of the Bible, p. 831.

٢ العقد الفريد (٣٧٨/٢) .

إن للخلق خالقاً لا أعلم ما هو . ثم جاء الى الرسول ، فأسلم . وقد ذكر أن ورقة بن نوفل،وهو واحد من المذكورين ، كان قد قرأ الكتب وكتب بالعبراني أو السرياني ، وإنه كتب بالسريانية (العبرانية) من الإنجيل ما شاء أن يكتب . وكان قد امتنع عن أكل ذبائح الأوثان[1] . وذكر أيضاً : أن زيد بن عمر بن نفيل ، وهو ممن كان على الحنيفية ، كان ينتقد قريشاً ، ولا يأكل ذبائحها ، لأنها ذبحت للأصنام والأوثان[2] ؛ وأن عبدالله بن عبد الملك بن عبدالله بن غفار المعروف بأبي اللحم الغفاري كان يأبى أن يأكل اللحم ، ولهذا سمي : (آبي اللحم) . وكان شريفاً شاعراً . وقد أسلم : وشهد حنيناً[3] . وكان لكل هؤلاء وقوف على كتب أهل الكتاب ، ولهم علم بأقلامهم .

وقد ذكر أهل الأخبار أن وهب بن منبه وأخاه كانا يستوردان الكتب القديمة من بلاد الشأم . ويرد مصطلح (الكتب القديمة) في كتب السير والأخبار[4] . ووهب بن منبه وأخوه من الاسلاميين ، ولكن استيرادهما للكتب ، لم يكن بدعاً واكتشافاً منهما ، بل لا بد أنه كان قديماً معروفاً عند الجاهليين .

وقد ذكر أهل الأخبار عبدعمرو بن صيفي النعمان المعروف بأبي عامر الراهب في جملة من كان يناظر أهل الكتاب،ويتتبع الرهبان ، ويألفهم ، ويكثر الشخوص الى الشأم . ومن هنا قيل له : الراهب[5] . وقد علم بذلك علم أهل الكتاب .

وورد أن أهل الكتاب ، وهم اليهود ، « كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم »[6] ، وورد جواز تفسير التوراة والإنجيل باللغة العربية[7] . وكان اليهود يجادلون رسول الله في أمور الدين ، وقد أشير الى جدالهم له في القرآن الكريم : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا

---

١ الاغاني (٣/١٤) ، (٣/١٢٠) ، (١٢/٥٢) .
٢ الاغاني (٣/١٥ وما بعدها) .
٣ الاصابة (١/١٣) ، الاستيعاب (١/١١١) (حاشية على الاصابة) .
٤ شرح القاموس (٥/٤٢١) .
٥ نسب قريش (ص ٢٨١) .
٦ ارشاد الساري (١٠/٤٦٦) .
٧ المصدر نفسه (ص ٤٦٥) .

منهم . وقولوا : آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »[1] ، وكانوا يستعينون في جدلهم بالتوراة ، يفسرونها بالعربية للمسلمين[2] . وقد فسر بعضهم الآية : « ليقولوا دارست » ، « بقوله : قرأت على اليهود وقرأوا عليك » ، وفسرها بعضهم بذاكرتهم ، أو قرأت كتب أهل الكتاب[3] ، فنحن إذن أمام أقدم أخبار تشير الى ترجمة العهد القديم الى العربية ،ليفهمها العرب المشركون . وقد كان جدال اليهود مع النبي على أمور واردة في التوراة ، فلا بد وأنهم كانوا يستعينون بالترجمة في هذا الجدال .

وفي أخبار أهل الأخبار هذه مواضع تثير التساؤل وتوجه الانتباه الى قضية وقوف أهل الجاهلية وصدر الإسلام على كتب أهل الكتاب ، ونقلهم عنها وشرحهم لبعض ما نقلوه باللغة العربية . فقد وقفنا توا على ما ورد عن بعض الأحناف من وقوفهم على كتب أهل الكتاب ومن معرفتهم بالعبرانية والسريانية ، وقد وقفنا من أخبارهم على أن (عبدالله بن عمرو بن العاص) كان قد قرأ (الكتاب الأول)[4] . وأنه كان يقرأ بالسريانية[5] ، وأنه استأذن رسول الله في أن يكتب ما سمعه منه ، فأذن له ، فدوّنه في صحيفة سماها : (الصادقة)[6] ، وروي أنه كان يقرأ الكتابين : التوراة والإنجيل[7] . وأنه « كان فاضلاً عالماً قرأ الكتاب واستأذن النبي في أن يكتب حديثه ، فأذن له ، فكتب عنه حديثه وحفظ عنه ألف مثل[8] . وروي أنه كان على علم بالمثناة ، و (المثناة) (المشنا) في تفسير التوراة ، وأنه جمع كتباً حصل عليها يوم (اليرموك) ، وكان له علم بها »[9] .

وروي أن (عمر) انتسخ كتاباً من كتب أهل الكتاب ووضعه في أديم ، وجاء به الى رسول الله ، فقال له : « ما هذا في يدك يا عمر ؟ قال : يا رسول

---

١ العنكبوت ، الآية ٤٦ .
٢ تفسير الطبري (٢/٢١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤/١٥٠) ، (درس) .
٤ الطبقات (٤/٢٦٧) (صادر) .
٥ الطبقات (٤/٢٦٦) (صادر) ، المعارف (٢٨٧) .
٦ الطبقات (٤/٢٦٢) (صادر) .
٧ الاصابة (٢/٣٤٣) ، (رقم ٤٨٤٧) .
٨ الاستيعاب (٢/٣٣٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٩ تاج العروس (١٠/٦١) ، (ثنى) .

الله كتاب استنسخته لنزداد به علماً الى علمنا . فغضب رسول الله حتى احمرّت وجنتاه » . وورد أيضاً أن رجلاً من (بني عبد القيس) سكنه بالسوس، كان قد نسخ (كتاب دانيال) ، وكان يقرأه ويفسره للناس ، وذلك في أيام عمر ، فنهاه عن ذلك ، وشدد عليه في وجوب محو ما كتبه[1] . وورد أن (عمر) كتب الى عامله (أبي موسى الأشعري) كتاباً نسخته : « إغسلوا دانيال بسدر وماء الريحان »[2] .

وورد أن (عمر بن الخطاب) ، قال للنبي : انا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها ؟ فنهى الرسول عن ذلك[3] .

ويرد اسم (كتاب دانيال) في خبر آخر ، فقد ورد عن (عمرو بن ميمون الأودي) ، أنه كان جالساً مع قوم ، فجاء رجل ومعه كتاب ، فقالوا له : ما هذا الكتاب : قال كتاب دانيال[4] .

ولم يرد اسم (دانيال) في القرآن ولا في الحديث ، ولكنه معروف جداً عند المسلمين ، بأنه نبي ، وله قصص في أخبار الرسل والأنبياء[5] . وقد وصلتهم قصصه ممن أسلم من يهود ومن اليهود الذين عاشوا بين الجاهليين وبين المسلمين . حيث اكتسبت رؤيا (دانيال) وتنبؤاته وتفسيره لحلم (نبوخذ نصر) شهرة خاصة عند يهود ، وانتقلت منهم الى المسلمين . ويعد (دانيال) أحد الأنبياء الأربعة الكبار ، وتولى مناصب عالية عند البابليين والميديين (الماديين) ، وقد اشتهر بتعبير الرؤيا وبالتنبؤ عن المستقبل[6] ، والظاهر أن شهرته هذه عند أهل الكتاب ، أكسبته منزلة خاصة عند المسلمين .

وورد أن (ابن قرة) جاء بكتاب من بلاد الشأم الى (عبدالله بن مسعود) ، وكان قد أعجب به ، فأمر (عبدالله بن مسعود) بطست فيه ماء ، محا به أثر الكتابة[7] .

---

١ الخطيب البغدادي ، تقييد العلم (٥١) .
٢ كنز العمال (٦/٣١٠) ، خورشيد أحمد (١٣٢) ، القسم العربي (رقم ٢٤١) .
٣ الفائق (٣/٢١٨) .
٤ تقييد العلم (٥٦ وما بعدها) .
٥ راجع قصص الانبياء (ص ٢٣١) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٣٢ وما بعدها) .
٧ سنن الدارمي (١/١٢٣) ، تقييد العلم (٥٣) .

وذكر أن (عمر بن الخطاب) قال: « أيها الناس ، إنه قد بلغني أنه ظهرت في أيديكم كتب ، فأحبّها الى الله أعدلها وأقومها ، فلا يبقين أحدٌ عنده كتاب إلا أتاني به ، فأرى فيه رأيي . فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ، ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف ؛ فأتوه بكتبهم . فأحرقها بالنار »[1] . ويظهر أن هذه الكتب هي من كتب أهل الكتاب ، فعندنا أخبار عديدة تذكر حصول الصحابة على كتب كثيرة وقعت اليهم في الغزوات والحروب التي جرت في بلاد الشأم .

وقد ورد في شعر بعض الشعراء الجاهليين ما يفيد وقوف أصحاب ذلك الشعر على كتب أهل الكتاب . كالزبور و (خط زبور) و (مصاحف الرهبان) و (التوراة) و (المجلة) أي الانجيل وأمثال ذلك ، مما يدل على أنهم كانوا قد وقفوا على خبرها وشأنها ، وأن اليهود والنصارى وهم عرب على اليهودية والنصرانية كانوا يتداولونها فيما بينهم ، باعتبار أنها كتبهم المقدسة[2] .

وقد وجد المسلمون مصاحف لليهود في مستوطناتهم فيها التوراة وفيها كتبهم الأخرى . فذكر ان المسلمين لما فتحوا (خيبر) « وجمعت مصاحف فيها التوراة، ثم ردت على اليهود »[3] .

وأنا لا أستبعد احتمال ترجمة الكتاب المقدس بقسميه ، كلاً أو جزءاً منه الى العربية ، فقد كان اليهود – كما سبق أن قلت – يفسرون ليهود يثرب ولعربها التوراة وكتبهم الدينية بالعربية، كما كان المبشرون يفسرونه بالعربية.وقد رأيت ان قريشاً اتهموا الرسول بأنه كان يستمع الى رجل نصراني ، ويأخذ منه . وانهم ذكروا ان الأحناف كانوا يقرأون التوراة والانجيل ، وان عرب العراق كانوا يدرسون في الكنائس والأديرة بالعربية ، فلا أستبعد احتمال وجود ترجمات عربية للكتب الدينية قبل الاسلام ، تلفت لأسباب عديدة ، منها انها لم تكن اسلامية، ولأسباب أخرى ، فلم تصل الينا لذلك .

وقد ورد في بيت شعر ينسب الى (بشر بن أبي خازم) ، ذكر كتاب كان عند بني تميم ، إذ جاء فيه :

---

١ تقييد العلم (٥٢) .
٢ خزانة الادب (٣/١١) ، ديوان السموأل (١٢) ، اللسان (١٢/١١٣) «صادر» .
٣ امتاع الاسماع (١/٣٢٣) .

وجدنا في كتاب بني تميم أحق الخليل بالركض المعار[1]

ولو أخذنا بظاهر العبارة ، دل البيت على وجود كتاب عند بني تميم ، قد يكون صحيفة وقد يكون كتاباً مؤلفاً من صفحات . ولو أخذنا بالتأويل وقلنا معناه : وجدنا هذه اللفظة مكتوباً ، ان أحق الخيل بالركض المعار، انتفى وجود كتاب لديهم[2] . وقد نسب هذا البيت الى (الطرماح بن حكيم) ، وهو شاعر اسلامي . واذا صح ان هذا البيت هو من شعر الطرماح ، جاز أخذ لفظة (كتاب) بالمعنى الحقيقي ، إذ كانت الكتب معروفة في هذا الوقت .

وجاء في كتاب (إمتاع الأسماع) ، أن الرسول « كتب هذه السنة المعاقل والديات ، وكانت معلقة بسيفه »[3] . وأشار الطبري الى هذه الصحيفة بقوله : « وقيل : ان هذه السنة كتب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المعاقل فكان معلّقاً بسيفه »[4] ، والسنة المشار اليها هي السنة الثانية من الهجرة . والخبر أشبه ما يكون بخبر (الصحيفة) المنسوبة الى (علي بن أبي طالب) ، فقد ورد في (صحيح البخاري) : « عن أبي جحيفة ، قال : قلت لعلي : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا ، إلاّ كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة . قال:قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر » . وورد أنها « كانت معلقة بقبضة سيفه . إمّا احتياطاً أو استحضاراً » ، وورد « فأخرج كتاباً من قراب سيفه »[5] . ويكاد يكون الخبر واحداً ، فالصحيفة صحيفة المعاقل والديات ، وموضعها في الخبرين السيف، معلقة به ، أو في قرابه.ويظهر من روايات أخرى أن فيها أحاديث عن الرسول: مثل : المدينة حرام ما بين عائر الى كذا ، فمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم،فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس

---

١ المفضليات (٩٨) ، الموشح (١٧٩) ، تاج العروس (٤٣٤/٣) ، (عير) .
٢ (فمعناه وجدنا هذه اللفظة مكتوبة) ، المرزباني ، الموشح (١٧٩) .
٣ المقريزي ، امتاع الاسماع (١٠٧/١) .
٤ الطبري (٤٨٦/٢) .
٥ ارشاد الساري (٢٠٣/١ وما بعدها) .

أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عـــدل » . وورد انه كان فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل[1] .

ولم نجد في الأخبار ما يفيد أن الصحابة كانوا على علم بصحيفة النبي ، ولو كانت للرسول صحيفة فيها أحكام المعاقل والديات ، كان الرسول قد علقها على سيفه ، دلالة على اهتمامه بها ، لما سكت عنها الصحابة ، مع ما لها من الأهمية بالنسبة لاصدار الأحكام ، ولأنها يجب أن تكون المرجع المطاع الثاني بعد القرآن. ولذلك فأنا أشك في أمر هذه الصحيفة ، وفي صحيفة الإمام كذلك المأخوذة من كلام الرسول ، ولو كانت صحيفة الإمام ، هي صحيفة الرسول نفسها، صارت اليه بعد وفاته ، لما سكتت الأخبار من الإشارة اليها وعن انتقالها الى (عليّ) لما لها من أهمية ، ولا سيما بالنسبة الى الشيعة الذين يفتشون عن هذه الأمور باعتبارها منقبة تضاف الى مناقب الامام،وحجة في اثبات إمامته واعتماد الرسول عليه وحده. ولو كانت الصحيفة صحيفة الامام ، دوّنها بنفسه ، معتمداً على حديث الرسول، وكانت عنده معلقـــة بسيفه ، حرصاً عليها ، لتكون معه وتحت متناول يده ، يراجعها متى شاء،فلا يعقل أن تكون مقتصرة على المعاقل والديات وأسنان الابل ، وهي أمور يعرفها الامام ، وهو فقيه ، ومرجع من مراجع الافتاء ، دون حاجة الى أن يكتبها في صحيفة يحرص على حملها معه معلقة بسيفه ، ثم إنها إذا كانت على هذه الأهمية بالنسبة للإمام ، لما تركها أصحابه ، فلم ينقلوها بالنص والحرف، وهي أخطر وثيقة ، مع أنهم رووا عنه أحاديث كثيرة ، حتى نسب النـاس له خطباً وأشياء لا يصح صدورها منه . ومنها صحيفة تسمى : (الصحيفة الكاملة، أو زبور آل محمد وإنجيل أهل البيت »[2] .

ورأيي ان ما ورد من ان الخليفة (أبو بكر) كان يملك صحيفة فيها حديث الرسول[3] ، هو خبر غير صحيح كذلك ، ولو كانت لديه صحيفة ، لما خفي أمرها عن الصحابة ، فلم يحفظوها ولم ينقلوا عنها . وأما ما ورد من أمر صحيفة

---

١ الكافي للكليني ، (٨٥) ، الارشاد (٢٥٨) ، أبورية ، أضواء على السنة المحمديـــة (٩٤ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١٨٣/١) .
٣ الذهبي ، تذكرة الحفاظ (٥/١) .

(عبدالله بن عمرو بن العاص) ، المسماة بالصحيفة الصادقة ، وما كتب فيها من حديث الرسول ، ومن انه قد جمع ألف مثل من أمثال الرسول[1] ، وما ورد من صحيفة (همام بن منبه) ، المسماة بالصحيفة الصحيحة ، فقد بحث في أمر هذه الصحف العلماء[2] .

وقد عدّ (الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان) التميمي المجاشعي ، في جملة علماء العرب وحكامهم . قال عنه بعض العلماء : « وكان عالم العرب في زمانه »[3] . كان عالماً بالنسب وبأخبار الناس ، ولهذا كانوا يتنافرون اليه . وكان شريفاً في الجاهلية والاسلام . وقد حكم في المنافرة التي وقعت بين (جرير بن عبدالله) البجلي ، وبين (خالد بن أرطاة) الكلبي . وكان (خالد) زعيم (قضاعة) يومئذ ، فنفر (الأقرع) جريراً على خالد ، بمضر وربيعة[4] . وكان من المؤلفة قلوبهم[5] .

والنسب هو من أهم المعارف التي عرف بها أهل الجاهلية . وهو علم يرتقي الى عهد بعيد عن الاسلام من دون شك، لما له من تماس مباشر بحياتهم الاجتماعية وبنظمهم السياسية ، ولأنه الحماية بالنسبة الى الجاهلي في تلك الأيام . وأستطيع أن أدخل في علم النسب ، العلم بأنساب الخيل ، فقد عنوا بالخيل عناية كبيرة ، وحفظوا أنسابها ، ووضعوا شجرات أنساب لها . كما عنوا بأنساب الإبل ، لما لهذا النسب من صلة بالاصالة وبسعر بيعها وشرائها . ونجد في الأخبار ما يشير الى وجود أناس تخصصوا بحفظ نسبها .

والنسّاب : العالم بالنسب ، وهو النسّابة . أدخلوا الهاء للمبالغة والمدح . « وفي حديث أبي بكر ، رضي الله عنه : وكان رجلاً نسابة ، النسابة : البليغ العالم بالأنساب »[6] .

---

١ الاصابة (٢/٣٤٣) ، (رقم ٤٨٤٧) ، الاستيعاب (٢/٣٣٨ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الثامن والعشرين (١٩٥٣) .
٣ الخزانة (٣/٢٩٦) ، (بولاق) .
٤ الخزانة (٣/٢٩٦ وما بعدها) ، (بولاق) .
٥ الاصابة (١/٧٢) ، (رقم ٢٣١) .
٦ اللسان (١/٧٥٦) ، (نسب) .

والنسب : نسب القرابات . يكون بالآباء ، ويكون بالقبائل ، ويكون الى البلاد ، ويكون في الحرف والصناعة [1] .

وقد نبغ بين القبائل والقرى أناس تخصصوا بحفظ النسب ، منهم من برع في حفظ نسب قبيلته ، ومنهم من برع في حفظ أنساب جملة قبائل ، وممن اشتهر وعرف من قريش بحفظ النسب وبالعلم به ، (أبو بكر) . وكان علمه بعلم الأنساب ، ثم بأمور الناس ، ثم الشعر . قيل إنه « كان أنسب قريش لقريش وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر » ، وقيل إنه كان أنسب العرب ، وأعلم قريش بأنسابها ، وأنسب هذه الأمة [2] . و « كانت قريش تألف منزل أبي بكر ، رضي الله عنه ، لخصلتين : العلم والطعام » [3] . ولما أمر الرسول حسان بن ثابت بالردّ على شعراء قريش قال له : « إئت أبا بكر ، فإنه أعلم بأنساب القوم منك . فكان يمضي الى أبي بكر ليقفه على أنسابهم » . فلما سمعت قريش شعر (حسان) ، قالت : « إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة » [4] . ولما مرّ بالناس في معسكرهم بالجرف ، جعل ينسب القبائل [5] .

وكان (جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف) ، وهو أحد أشراف قريش وحلمائها من علماء النسب في قريش ، وكان ممن أخذ النسب من أبي بكر . وكان ممن يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب عامة [6] .

وعرف (أبو جهم بن حذيفة) القرشي العدوي بعلمه بالنسب ، وكان من المعمرين في قريش . عاش في الجاهلية وأدرك الاسلام . وكان من مشيخة قريش وصحب النبي [7] . وكان أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسب [8] .

---

١ اللسان (١/٧٥٥) ، (نسب) ، تاج العروس (١/٤٨٣) ، (نسب) .
٢ الاصابة (٢/٣٣٤) ، (رقم ٤٨١٧) ، البيان والتبيين (١/٣١٨) .
٣ البيان والتبيين (٤/٧٦) .
٤ الاستيعاب (١/٣٣٥) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الفائق في غريب الحديث (١/١٨٤) .
٦ الاصابة (١/٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/٢٣٢) ، (حاشية على الاصابة) ، كتاب نسب قريش (٢٠١) ، البيان والتبيين (١/٣١٨) ، تاج العروس (٦/٤٤) ، (الف) .
٧ نسب قريش (٣٦٩) .
٨ الاصابة (٤/٣٥) ، (رقم ٢٠٧) .

ومنهم : (مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف) . وقد أخذ عنه النسب . وكان عالماً بأنصاب الحرم[1] . قال عنه (أبو عبدالله المصعب بن عبدالله الزبيري) « وكان له سر وعلم ، وكان يؤخذ عنه النسب »[2] ، وقد أرسله (عمر) مع (سعيد بن يربوع) ، و (أزهر بن عبد عوف) ، و (حويطب بن عبد العزى) لتجديد أنصاب الحرم ، فجددوها ، ويقال إن (عثمان) بعثهم كذلك . وهو راوي خبر قصة استسقاء (عبد المطلب) ، وما ورد فيه من الشعر[3] .

قال (الجاحظ) : « أربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار ، وعلماؤهم بالأنساب والأخبار : مخرمة بن نوفل بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبدالله بن عوف ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبي طالب . وكان عقيل أكثرهم ذكراً لمثالب الناس، فعادوه لذلك ، وقالوا فيه وحمقوه »[4] . و (حويطب) من مسلمة الفتح ومن المؤلفة قلوبهم[5] . ومات زمان معاوية ، وهو ابن عشرين ومائة سنة . وباع من معاوية داراً بالمدينة بأربعين ألف دينار[6] . وتوفي سنة (٥٤ هـ)[7] .

وروي ان غنائم الحيرة لما وصلت الحيرة وفيها سيف النعمان بن المنذر، استدعى (عمر) (جبيراً) ، فسأله عن نسب (النعمان) فقال له : انه أشلاء قنص بن معد . فأعطاه سيفه ، وذكر انه كان أنسب العرب، وعنه أخذ (سعيد بن المسيب) النسب[8] .

ومن نسابي قريش (عقيل بن أبي طالب) . ولما وضع (عمر) الديوان، استعان بعقيل ومخرمة ، وجبير في ترتيب عطاء الناس على منازلهم ، فبدأوا ببني هاشم[9] . وعقيل هو أخ (علي بن أبي طالب) ، ذكر أنه « كان عالماً بأنساب

---

١ الاصابة (٣/ ٣٧٠) ، (رقم ٧٨٤٢) .
٢ نسب قريش (٢٦٢) .
٣ الاصابة (٣/ ٣٧٠) ، نكت الهميان (٢٨٧) .
٤ البيان والتبيين (٢/ ٣٢٣) .
٥ البيان والتبيين (٢/ ٣٢٣) .
٦ نسب قريش (٤٢٥ وما بعدها) .
٧ الاصابة (١/ ٣٦٣) ، (رقم ١٨٨٢) .
٨ الاصابة (١/ ٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/ ٢٣٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الفائق (١/ ٦٠٨ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/ ٣٠٣) .
٩ ابن سعد ، المجلد الثالث ، الجزء الاول (٢١٢) .

قريش ومآثرها ومثالبها ، وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة » ، فهو من شيوخ العلم الذين نصبوا أنفسهم لتعليم الأنساب والمآثر والمثالب . قيل «كان في قريش أربعة يتحاكم الناس إليهم في المنافرات: عقيل ، ومخرمة ، وحويطب، وأبو جهم . وكان عقيل يعد المساوي ، فمن كانت مساويه أكثر يقر صاحبه عليه، ومن كانت محاسنه أكثر يقره على صاحبه »[1] ، ونظراً لتكلمه مع الناس وتحدثه عن مساويهم فقد عودي وحمق[2] .

وقد صار مسجد الرسول في المدينة موضع دراسة للمسلمين ، فقد رأينا (حسان ابن ثابت) ، وهو ينشد الشعر فيه ، وهذا (عقيل) يعلم الناس الأنساب فيه ، وهناك غيرهما من كان يعلم الناس في هذا المسجد .

وممن عرف واشتهر بعلم النسب،وأخذ النسب عن الجاهليين ، دغفل السدوسي من بني شيبان ، وعميرة أبو ضمضم ، وابن لسان الحمرة من بني تيم اللات ، وزيد بن الكيس النمري ، والنخار بن أوس القضاعي ، وصعصعة بن صوحان، وعبدالله بن عبد الحجر بن عبد المدان ، وعبيد بن شريه وغيرهم[3] .

وذكر عن (دغفل بن حنظلة) النسابة السدوسي الشيباني ، انه كان عالماً بالعربية والأنساب والنجوم ، وقد اغتلبه النسب . وقد أعجب به (معاوية) لما سأله أموراً كثيرة في هذه العلوم[4] . ولا بد وأن يكون قد أخذ علمه ممن أدرك الجاهلية من رجال ، وممن عاصر الرسول . وذكر انه و (زيد بن الكيس) النمري ، كانا ممن أثارا أحاديث عاد وجرهم ، ولذلك قال فيهما الشاعر :

أحاديث عن أبناء عادٍ وجرهم   يثورها العضان زيد ودغفل[5]

وروي ان معاوية « قال لدغفل بن حنظلة النسابة . بِمَ ضبطت ما أرى ؟

---

١ الاصابة (٤٨٧/٢) ، (رقم ٥٦٣٠) .
٢ البيان والتبيين (٣٢٤/٢) ، نكث الهميان (٢٠٠) .
٣ الاصابة (٤٦٤/١) ، (رقم ٢٣٩٩) ، البيان والتبيين (١١٨/١) ، بلوغ الارب (١٩٦/٣) ، التمدن الاسلامي (٤٠/٣ وما بعدها) ، الفهرست (١٣٧ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣٢٢/١ وما بعدها) .
٤ الاصابة (٤٦٤/١) ، (رقم ٢٣٩٩) ، الاستيعاب (٤٦٧/١) .
٥ العسكري ، جمهرة (١١٣/٢) ، (رقم ١٣٥٨) ، الميداني (٢٤/٢) .

قال : بمفاوضة العلماء . قال : وما مفاوضة العلماء ؟ قال : كنت اذا لقيت عالماً أخذت ما عنده ، وأعطيته ما عندي »[1] . وذكر ان (أبا بكر) ، سأل قوماً من (ربيعة) عن نسبهم ، وفيهم (دغفل) ، وكان غلاماً إذ ذاك ، فلما انتهى أبو بكر من استجوابهم ، سأله (دغفل) عن نسبه ، فأفحمه[2] .

وقد اشتهر (دغفل) في النسب ، حتى ضرب به المثـل في النثر وفي الشعر بسعة علمه به ، وقد ذكره (الفرزدق) بقوله :

أوصى عشية حين فارق رهطه عند الشهادة في الصحيفة دغفل
أن ابن ضبّة كان خير والداً وأتم في حسب الكرام وأفضل[3]

ونجد اسمه في شعر شعراء آخرين[4] .

وكان ممن أدرك النبي ، ولم يسمع منه . واسمه (الحجر بن الحارث) الكناني؛ ودغفل لقب له[5] .

وكان (صحار) العبدي من النسابين البلغاء ، وله مع (دغفل) محاورات . وكان من المقربين الى معاوية ومن المطالبين بدم (عثمان)[6] .

و (صعصعة) بن صوحان) العبدي ، وكان مسلماً في عهد رسول الله ولم يره . وشهد صفين مع (علي) ، وكان خطيباً فصيحاً ، له مع معاوية مواقف. « قال الشعبي : كنت أتعلم منه الخطب »[7] . وله اخوة ، منهم (سيحان بن صوحان) العبدي، كان أحد الأمراء في قتال في أهل الردة[8] ومنهم (زيد بن صوحان) وكان سيداً في قومه ، وقد شهد الجمل مع (عليّ)[9] .

---

١ الفائق (٣٠٤/٢) .
٢ الفائق (٨٤/٣) .
٣ النقائض (١٨٩/١) .
٤ ديوان القطامي (٣١) ، البيان والتبيين (٣٢٢/١ وما بعدها) .
٥ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) .
٦ الاصابة (١٧٠/١) ، (رقم ٤٠٤١) .
٧ الاصابة (١٩٢/٢) ، (رقم ٤١٣٠) .
٨ الاصابة (١٠٢/٢) ، (رقم ٣٦٣٠) .
٩ الاصابة (٥٦٥/١ وما بعدها) ، (رقم ٢٩٩٧) .

ومن نسابي (كلب) : (محمد بن السائب) الكلبي ، وابنه (هشام بن محمد بن السائب) ، و (شرقي بن القطامي)[1] ، و (الشرقي بن القطامي) ، اسمه (الوليد بن الحصين) ، وقد اتهم بالكذب[2] . وقد ذكر (الجاحظ) و (ابن النديم) أسماء عدد ممن عرفوا باشتغالهم بالأنساب .

وقد برز بعض النسابين في ذكر مثالب الناس ، وقد كان (عقيل بن أبي طالب) منهم ، كما ذكرت . ويذكر ان (زياد بن أبيه) كان أول من ألّف كتاباً في المثالب ، ودفعه الى ولده ، قائلاً لهم : استظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم[3] . ومن طلاب المثالب وناشرها بين الناس (أبو عبيدة معمر بن المثنى) التيمي ، من تيم قريش . وكان مكروهاً فلما مات لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يكن يسلم منه شريف ولا غيره[4] .

وعدّ الشعر عند أهل الجاهلية علماً من علومهم ، يقوم عندهم (مقام الحكمة وكثير العلم) ، « ولم يكن لهم شيء يرجعون اليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر . فيه كانوا يختصمون وبه يتمثلون ، وبه يتفاضلون ويتقاسمون ، وبه يتناضلون ، وبه يمدحون ويعابون »[5] . وقد أوردوا أسماء أشخاص عرفوا بسعة علمهم وبتبحرهم بالشعر .

الملاحن والألغاز :

ومما أثر عن أهل الجاهلية مما يتعلق باستعمال الذكاء والفطنة واختبار العلم ، الملاحن والألغاز . واللحن عند العرب الفطنة . وقد وضع (ابن دريد) كتاباً في الملاحن ، سماه : (كتاب الملاحن)[6] . وقد كانت العرب تتعمد الملاحن وتقصدها ، إذا أرادت التورية أو (التعمية)[7] . وقد ذكر أهل الأخبار أنهم

---

١ البيان والتبيين (١/٣٢٢) .
٢ الفهرست (١٣٨) .
٣ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) ، تهذيب الاسماء واللغات للنووي (١/٢٥٩) كتاب المعارف لابن قتيبة (١٧٦) ، بروكلمن (٢٥٠) .
٤ الفهرست (٨٥) .
٥ اليعقوبي (٢/٢٣٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) .
٦ المزهر (١/٥٦٧ وما بعدها) .
٧ المصدر نفسه .

استعملوها استعمال (الشفرة) ، أو الرسائل السرية المعماة في نقل الأخبار ، كالذي رووه من أن طيئاً أسرت رجلاً شاباً من العرب ، فقدم أبوه وعمه ليفدياه ، فاشتطوا عليهما في الفداء ، فأعطيا لهم به عطيّة لم يرضوها ، فقال أبوه: لا والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبلي طيء لا أزيدكم على ما أعطيتكم ، ثم انصرفا .

فقال الأب للعم : لقد ألقيتُ الى ابني كليمة ، لئن كان فيه خير لينجون. فما لبث أن نجا وأطرد قطعة من إبلهم ، فكأن أباه قال له : الزم الفرقدين على جبلي طيء فإنهما طالعان عليهما لا يغيبان عنه[1] .

ورووا قصصاً أخرى من هذا القبيل[2] ، تحلل تحايل الناس إذ ذاك في كيفية إبلاغ خبر ، أو ايصال رسالة من أسير وقع في أسر ، أو من شخص اعتدى عليه ، أو من رجل طعن ، فأراد ابلاغ قومه باسم طاعنه . فيعمد الشخص الى الكلام المعمى الدال على سذاجة ، لإيصاله الى أهله ، لعلمه بأن في وسع أهله استنباط ألغازه وحل معماه .

وأما الألغاز ، فهي لامتحان الذكاء في الغالب ، ولتمضية الوقت والتسلية . وتكون شعراً كما تكون نثراً[3] . و (الأُلغوزة) ما يعمى به من الكلام[4] .

---

١ المزهر (١/٥٦٧) .
٢ المزهر (١/٥٦٨ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٥٧٨ وما بعدها)
٤ تاج العروس (٤/٧٨) ، (اللغز) .

الفصل السادس والعشرون بعد المئة

الفلسفة والحكمة

أما مؤلفات في العلوم والفلسفة ، منقولة عن اليونانية أو اللاتينية الى العربية ، فلا أدري أن أحداً من أهل الأخبار ذكر وجودها عندهم بلغة بني إرم ، أو بلغة اليونان ، ذلك لأن المثقفين وأصحاب الرأي والعزم كانوا على اتصال بالعالم الخارجي ، وكانوا يدارسون الأعاجم ويأخذون عنهم ، وقد درس بعضهم في مدارس الفرس والعراق وبلاد الشأم،ولغة الدراسة في تلك البلاد السريانية واليونانية والفارسية ، فلا يستغرب أن يكون مِنْ هؤلاء مَنْ درس بلغة من هذه اللغات في الحجاز أو في اليمن . أما في بلاد العراق وبلاد الشأم ، فالأمر لا يحتاج فيها الى نظر ، فقد رأينا أن عربهما أسهموا في الحركة العلمية قبل الاسلام لكنهم أسهموا بلغة السريان ، لا باللغة العربية ؛ لأن العربية لم تكن عربية واحدة يومئذ ، وانما كانت جملة لهجات ، ثم إنها كلها ، لم تكن قد وصلت الى درجة من الاستعمال والانتشار تجعلها لغة للترجمة والتأليف .

الحكمة :

وأما (الحكمة) ، فقد ذكر أهل الأخبار أمثلة عديدة منها زعموا انها لحكماء جاهليين ، أوردوا أسماءهم ، ولكنهم لم يفيضوا في بيان سيرهم وتراجم حياتهم،

بعض ما نسب اليهم سجع قصير ، وبعضه كلام منظوم وبعضه مثلٌ زعم انهم ضربوه فسار بين الناس .

وقد اشتهر الشرق بالحكمة ، وهو ما زال على حبـه لهـا باعتبارها أداة للتعلم والتثقيف . والحكيم ، هو (حكيمو) Hakimo في الإرمية ، بمعنى عالم[1] . ونرى في التوراة اصحاحات مثل : الأمثال وأيوب ونشيد الأنشاد وغيرها ، ملئت حكمة . والحكيم هو (حكميم) عند العبرانيين . وأما الحكمة ، فهي : (حوكماه) (حوكمه) Hokhmah[2] .

و (الحكيم) في تعريف علماء اللغة العالم وصاحب الحكمة ، المصيب برأيه ، الذي يقضي على شيء بشيء ، فيقول : هو كذا وليس بكذا . وهو الذي يحسن دقائق الصناعات ويتقنها . وقد ورد في الحديث : إن من الشعر لحكماً ، أي إن في الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما ، قيل أراد به المواعظ والأمثال التي ينتفع بها الناس . ويروى إن من الشعر لحكمة . وقد سمّى الأعشى قصيدته المحكمة حكيمة ، أي ذات حكمة ، فقال :

وغريبة تأتي الملوك حكيمـة قد قلتها ليقال من ذا قالها[3]

وقالوا ان من معاني : الحكيم الحاكم ، وهو القاضي ، أو هو الذي يحـكم الأشيـاء ويتقنها ، وان الحكمة : العدل ورجـل حكيم ، عدل حكيم . وان (المُحكّم) هو الشيخ المجرب المنسوب الى الحكمة ، ولذلك يقال للرجل اذا كان حكيماً : قـد أحكمته التجارب . والحكـيم : المتقن للأمور[4] . وفي هذه التعاريف دلالة على انهم كانوا يسمون الحكمـة بالتبصر في الأمور ، وباستقراء الحوادث ودراستها لاستخراج التجارب منها ، والحكم بموجبها ، ومن هنا أدخلوا الحكم بين الناس ، والنظر في الأحكام في جملة أمور الحكمة .

وليس هذا الرأي ، هو رأي العرب وحدهم . فقد كان هـذا الرأي معروفاً

---

١ غرائب اللغة (ص ١٧٩) .

٢ Hastings, Diction., I, p. 648, A Dictionary of christ, and the Gospels, Vol., II, p. 825. ff., B.W. Anderson, understanding the old Testament, p. 467.

٣ تاج العروس (٨/٢٥٥) ، (حكم) .

٤ اللسان (١٢/١٤٠ وما بعدها) .

عند غيرهم أيضاً.فنجد الحكماء عندهم حكاماً يحكمون في الخصومات وفي المنازعات: بفضل ما أوتوا من فطنة وصبر وذكاء وعلم ، وهي من أهم صفات الحكم . ونجد في أدب الشرق الأدنى القديم أشخاصاً مثل (أحيقار) الشهير ، يجمعون بين الحكم والحكمة ، وقد ضرب بهم المثل في نجاحهم في اصدار الأحكام .

والحكيم في الشرق بمنزلة الفيلسوف عند اليونان . وما (ارسطو) الفيلسوف اليوناني الشهير وكذلك أفلاطون ، غير حكماء في نظر الشرقيين . ولذلك ادخلوا في (الحكماء) . والحكيم هو مؤدب ومرشد وواعظ يعظ الناس ويرشدهم في هذه الحياة ، وهو خير مستشار في كل شيء ، لأنه بفضل ما يملكه من عقل ومن تجربة يستطيع أن يفصل بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ . ولذلك كان الحكماء هداة قومهم واساتذتهم وفلاسفتهم ، أقوالهم حكمة للناس ودرس في كيفية السير في العالم .

ولكننا لا نستطيع أن نرادف بين (الحكمة) وبين (الفلسفة) . فبين الاثنين فرق كبير في المفهوم . ولا يمكن أن نقول إن الفلسفة بالمعنى اليوناني ، هي في مفهوم (الحكمة) عند شعوب الشرق الأدنى . لأن بين الفيلسوف وبين (الحكيم) تباين كبير في اسلوب البحث وفي كيفية التوصل الى النتائج والمعرفة وفي مفهوم كل واحد منهما لهدف الآخر ، وفي الغاية المقصودة من كل منهما . فالغاية من الحكمة العبرة والإتعاظ والأخذ بما جاء فيها من حكم ، أي غايات عملية وتأديبية، بينما الغاية من الفلسفة البحث عن معنى الحكمة وعما يكون وراء الطبيعة من خفايا غير مكتشفة وأسرار[1] .

وقد وردت لفظة (الحكمة) في القرآن الكريم[2] . وقد ذكر العلماء أن الحكمة اسم للعقل ، وإنما سمي حكمة لأنه يمنع صاحبه من الجهل[3] . فالحكمة إذن ، هي بمعنى العلم والتفقه . وهي بذلك ذات حدود واسعة ، بل لا نكاد نجد لها حدوداً معينة فاصلة ، فقد شملت أموراً كثيرة ، اطلقت على رجال اشتهروا بالحكم بين الناس ، أي بالبت فيما ينشأ بينهم من شجار وخصومة . وأطلقت على أناس ذكر

---

١ Hastings, p. 975.

٢ وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، راجع المعجم المفهرس (ص ٢١٣ وما بعدها) .

٣ غريب القرآن ، للسجستاني (ص ١١٨) ، (سنة ١٩٢٤) .

أنهم كانوا كهاناً ، وأطلقت على جماعة عرفت بأن لها رأياً في الدين ، وأطلقت على نفر كان لهم رأي في المعالجة والتطبيب ، وأطلقت على نفر عرفوا بقراءة الكتب القديمة ، أي الكتب السماوية وغيرها مما كان عند يهود والنصارى وعند الروم والفرس ، وأطلقت على غير ذلك ، فهي إذن كما ترى ذات معان واسعة شاملة .

ويلاحظ ان القرآن الكريم ، قد أورد لفظة (الحكمة) بعد لفظة (الكتاب) وفي حالة العطف ، أي على هذه الصورة : (الكتاب والحكمة) ، واستعملها بعد لفظة (الملك) في الآية : « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء »[1] . واستعملها مفردة كما في « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً »[2] ، وفي مواضع أخرى . وقد ذهب المفسرون الى ان المراد من الكتاب القرآن ، ثم اختلفوا في معنى الحكمة ، فمنهم من قال انها السنة ، ومنهم من قال المعرفة بالدين والفقه ، ومنهم من قال : الحكمة العقل في الدين ، أو الاصابة في القول والفعل ، الى غير ذلك من أقوال[3] ، تدل على ان تفسيرها بمعنى السنة والتفقه في الدين من التفسيرات التي ظهرت في الاسلام . أما معناها عند الجاهليين ، فكان بمعنى الخبرة المكتسبة من الملاحظات العميقة الى الأشياء ، أو المستخلصة من التجارب ، وبمعنى العلم والرأي الصائب. وبهذا المعنى جاءت الحكمة عند الساميين . فقد كان الحكيم عندهم العالم الذكي الفطن الذي ينظر بعين البصيرة الى أعماق الأمور بتؤدة وتبصر وأناة ، فيبدي رأيه في كل شيء في هذه الحياة ، من سياسة واقتصاد ، ومن أمور تخص السلم أو الحرب ، أو الخدع ، والحكم بين الناس . ولهذا كان الحكماء في أعلى الدرجات في مجتمعهم من ناحية الثقافة والرأي .

ويظهر من دراسة ما ورد في المؤلفات الإسلامية عن الحكمة والحكماء أن الجاهليين أرادوا بالحكمة حكايات وأمثلة فيها تعليم ووعظ للإنسان ، يقولونها ليتعظ بها في حياته وليسير على وفق هدى هذه الحكم . وهي حكم حصلت من تجارب عملية ، ومن ملاحظات وتأملات في هذه الحياة . ولهذا نسبوا الحكمة الى

---

١ البقرة ، الرقم ٢ ، الاية ٢٥١ .
٢ البقرة ، الاية ٢٦٩ .
٣ تفسير الطبري (١/٤٣٦) .

أناس مجربين أذكياء لهم صفاء ذهن وقوة ملاحظة مثل : (أكثم بن صيفي) و (قس بن ساعدة الإيادي) وغيرهما ممن سيأتي الكلام عليهم . روي أن (عمر ابن الخطاب) قال لكعب الأحبار وقد ذكر الشعر : « يا كعب ، هل تجد للشعراء ذكراً في التوراة ؟ فقال كعب : أجد في التوراة قوماً من ولد اسماعيل، أناجيلهم في صدورهم ، ينطقون بالحكمة ، ويضربون الأمثال ، لا نعلمهم إلا العرب »[1] . فالعرب هم أصحاب حكمة وأمثال على رأي (كعب الأحبار) ان صح ان هذا القول المنسوب اليه هو من أقواله حقاً ، والأمثال باب من أبواب الحكمة ، بل تكاد تؤدي معناها عند الجاهليين ، فالحكيم عندهم هو الذي ينطق بالحكم يقرنها بالأمثال ، وبالقصص والنوادر .

وإذا بحثت عن الحكمة في العهد القديم تجدها في الأمثال ، وفي سفر أيوب، وفي نشيد الانشاد ، وفي سفر الجامعة والحكمة وفي (سيراخ) ، وفي حكمة (سليمان) التي هي في المزامير[2] . وهي أمثال في الغالب نبعت من تجارب أخذ العبرانيون بعضها من غيرهم ، ونبع بعض آخر من تجاربهم الخاصة ، وظهرت عندهم أمثال إنسانية عامة تخطر على بال كل إنسان ، فهي عامة مشتركة ، لم يأخذها قوم من قوم ، وإنما هي خاطرات وتجارب تظهر لكل إنسان ، فضرب بها المثل في كل لسان .

ونحن لا نملك في هذا اليوم كتابة جاهلية ، فيها حكم من حكم الجاهليين . وكل ما ورد الينا من حكمهم مأخوذ من موارد اسلامية . ولذلك صار كلامنا على الحكمة في الجاهلية مثل كلامنا على سائر معارف الجاهليين ، ضيقاً محدوداً ، منبعه ما ورد عنها عند المسلمين .

ويظهر من بعض الحكم المنسوبة الى الجاهليين ، انها ترجع الى أصل يوناني ، حيث نجدها مدونة في كتب فلاسفتهم مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو ، مما يدل على انها دخلت الى العربية عن طريق الترجمة من اليونانية أو من السريانية، وعن طريق بلاد الشأم في الأغلب ، حيث كانت الثقافة اليونانية قد وجدت لها سبيلاً هناك ، بحكم خضوعها لليونانيين قبل الميلاد وبعد الميلاد ، وبحكم وجود جاليات يونانية كبيرة هناك .

---

١ العمدة (ص ٢٥) ، القاهرة ١٩٦٣ م .
٢ Hastings, p. 975.

ويظهر من دراسة بعض آخر من الحكم المنسوبة الى الجاهليين انها من أصل فارسي . ولا يستبعد أن تكون قد دخلت من الأدب الفارسي القديم الى عرب العراق ، وقد عاشوا قبل الاسلام في اتصال وثيق مع الفرس. وكان بعض العرب قد أتقنوا الفارسية وأجادوا فيها ، كما ان من الفرس من كان قد تعلم العربية وبرع فيها . ثم إن بين ذوقي العرب والفرس تشابه في نواح من الأدب ، ولهذا كان أثر الأدب الفارسي في الأدب العربي أكبر وأظهر من أثر الأدب اليوناني فيه.

ونجد في الحكم المنسوبة الى (أحيقار) ، شبهاً لها في الحكم العربية القديمة ، وترجمة أصيلة لبعض حكمه أحياناً . خذ قوله : « يا بني إذا أرسلت الحكيم في حاجة ، فلا توصه كثيراً ، لأنه يقضي حاجتك كما تريد . ولا ترسل الأحمق، بل امضِ أنت واقضِ حاجتك »[1] . ولو درست بقية حكمه ، وما ورد في الحكم المنسوبة الى الجاهلين ، ترى شبهاً كبيراً في المعنى بل وفي اللفظ في الغالب، مما يدل على أنها ترجمة أخذت من السريانية فعربت ونسبت الى الجاهليين ، أو أن الجاهليين وقفوا عليها فصاغوها بلسانهم ، فنسبت اليهم . وأكثر حكمه موجهة الى ابن اخته (نادان) ، حيث يعظه فيقول : « يا بني ... » .

غير أن علينا ألا ننسى ،بأن من الحكم ، ما هو عام ، يرد على خاطر أغلب الشعوب ، وعلى لب أكثر الناس ، حتى وان لم يكونوا من المثقفين الدارسين . لأنه مما يتشارك فيه العقل الإنساني ، فيكون عالمياً إنسانياً . ولهذا،فنحن لا نستطيع أن نردّه الى أحد ، ولا أن نرجعه الى مرجع معين . ولا نستطيع أن نقول ان العرب أخذوه من غيرهم ، أو أن الأعاجم أخذوه من العرب . بسبب ما ذكرته من كونه من نتاج عقل واحد ، هو القاسم المشترك بين عقول الإنسان .

واذا صح ما روي من أن (سويداً بن الصامت) المعروف بـ (الكامل)، كان يملك (مجلة لقمان) ، وقد أراها الرسول مقدمه عليه بمكة ، وما ذكر من انها كانت في الحكمة[2] . فتكون هذه المجلة ، أو الكتاب ، أقدم شيء يصل اسمه الينا من الكتب التي تداولها أهل الجاهلية . ولم يذكر الرواة ـ ويا للأسف ـ

---

١ اغناطيوس افرام الاول برصوم ، اللؤلؤ المنثور في تأريخ العلوم والاداب السريانية (٦٧) ، (حمص ١٩٤٣) ، تأريخ كلدو وآثور (١/١١٣ وما بعدها) ، (٢/٤٠).

٢ الروض الانف (١/٢٦٥) .

محتويات تلك المجلة ونوع الحكم التي احتوتها .

فقد روي « ان سويد بن صامت قدم مكة حاجاً أو معتمراً ، وكان سويد انما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشرفه ونسبه ... فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سمع به ، فدعاه الى الله والاسلام ، فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعرضها عليّ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله عليّ ، هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه . وقال : إن هذا لقول حسن . ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث ان قتلته الخزرج » وكان قتله قبل يوم بعاث[1] .

والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة ، وكل كتاب عند العرب مجلة[2] ، وقيل : « كل كتاب حكمة عند العرب مجلة » . قال النابغة :

مجلتهم ذات الإله ودينهم   قويم فما يرجون غير العواقب[3]

وبالنظر الى اشتهار لقمان في الأدب العربي بالحكمة عن طريق ضرب الأمثال . ونظراً لظهور أمثال كثيرة في الإسلام نسبت اليه ، فإن من المحتمل أن تكون تلك المجلة التي زعم أنها كانت عند (سويد) مجموعة من حكم وأمثال . لا ندري من جمعها فنسبها اليه ، لعدم اشارة أهل الأخبار الى ذلك ، ولا يستبعد أن تكون هذه الأمثال من الأمثال المنتزعة من التوراة أو من الإنجيل أو من كليهما ، فدوّنت في مجلة أي في كراسة أو كتاب فنسبها أهل الأخبار اليه . نظراً لما جاء في القرآن الكريم من نسبة الحكمة اليه . وقد تكون تلك المجلة من حكم الحكيم (أحيقار) ، الحكيم الشهير صاحب الأمثال الذي كان مقرباً الى الملك (سنحاريب) ومستشاراً له . فله في أدب (بني إرم) ذكر خاص ، وله أمثال في الإرمية طبعت وترجمت الى جملة لغات . وعرفت أمثاله في العربية كذلك ، في أيام

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٢٦٥ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الفائق (١/٢٠٦)

٢ تاج العروس (٧/٢٦١) ، (جلل) .

٣ الفائق (١/٢٠٦) .

الجاهلية ، فأشار (عدي بن زيد العبادي) اليه والى قصته [1] .

ولقمان : شخصية ذكرت في القرآن ، وفي القرآن الكريم سورة سميت باسمه . ووروده في كتاب الله ، دليل على وقوف الجاهليين بقصصه وشيوع خبره وأمره بينهم . ونجد في كتب التفسير والأدب والأخبار وكتب المعمرين قصصاً عنه [2] . وقد عرف بـ (لقمان الحكيم) . وقد بحث عنه المستشرقون ، وحاولوا تحليل القصص الوارد عنه وإرجاعه الى أصوله . وقد بحث في ذلك المحدثون في مصر وفي غير مصر من البلاد العربية [3] .

قال (الجاحظ) : « وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر لقيم بن لقمان في النباهة والقدر ، وفي العلم والحكم ، وفي اللسان والحلم . وهذان غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على ما يقوله المفسرون . ولارتفاع قدره وعظيم شأنه ، قال النمر بن تولب :

لُقيم بن لقمان من أخته　　فكان ابن أخت له وابنما
ليالي حمق فاستحصنت　　عليه فغُرَّ بها مظلما
فغرَّ بها رجل محكم　　فجاءت به رجلاً محكما [4]

وقد أشار (المسيب بن علس) الى (لقمان) في شعره [5] ، كما ذكره (لبيد ابن ربيعة) الجعفري في شعره كذلك [6] ، وأشار اليه (يزيد بن الصعق) الكلابي في شعر هو :

---

١ الحماسة ، للبحتري ، (٨٦) ، (بيروت ١٩١٠ م) .
٢ « لقمان بن عاد » ، مجمع الامثال (١/٣٠٣) .
٣ فجر الاسلام (١/٧٨ وما بعدها) ، الدكتور عبد المجيد عابدين ، الامثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها في الاداب السامية الاخرى (ص ٤٣ وما بعدها) ، مجمع الامثال ، للميداني (١/٣٧) .
٤ البيان والتبيين (١/١٨٤) .
٥ البيان والتبيين (١/١٨٨) .
٦ البيان والتبيين (١/١٨٩) .

اذا ما مات ميت من تميم   فسرّك أن يعيش فجيء بزادِ
بخبز أو بلحم أو بتمرٍ   أو الشيء الملفّف في البجادِ
تراه يطوف الآفاق حرصاً   ليأكل رأس لقمان بن عادِ

وقيل إن هذا الشعر هو لأبي مهوش الفقعسي[1] .

وورد ذكر (لقمان) في شعر (أفنون) التغلبي[2] ، وفي شعر (سا ربيعة بن دباب بن عامر بن ثعلبة)[3] ، وفي شعر شعراء آخرين .

وعرف لقمان عند الجاهليين كذلك بالنباهة والذكاء وبالعلم وبقوة اللسان وبخلال أخرى يرون أنها من سجايا الحكماء ، حتى زعم أن أختاً لـه ، مُحَمَّقة ، تحايلت عليه ، فاتصلت به اتصال الزوجات ، طمعاً في الحصو ولد ذكي حكيم منه يكون على شاكلته ، فأحبلها بولد عرف بـ (لقيم) في شعر ينسب الى النمر بن تولب.ولأهل الأخبار قصص عنه وعن أخت لـ

وذكر (الجاحظ) أن (لقمان) قتل ابنته ، وهي صحر أخت لقيم ، « حين قتلها : ألست امرأة ! وذلك أنه كان قد تزوّج عدة نساء ، كلهن في أنفسهن ، فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل ، كان أول من تلقاه صحر فوثب عليها فقتلها[5] وقال : وأنت أيضاً امرأة ! وللجاحظ قصص عنه[6] .

وفي سورة (لقمان) ، « ولقد آتينا لقمان الحكمة : أن اشكر لله ، و يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غني حميد . وإذ قال لابنه ، وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم »[7] . إذن حكيم من الحكماء ، وهب الحكمة وصواب الرأي . له ولد وعظه ونه

---

١ المرزباني ، معجم (٤٨٠) ، البيان والتبيين (١/١٩٠) ، الخزانة (٣/٢٩ الاقتضاب (٣٨٨) ، العقد الفريد (٣/١٤٢) .
٢ البيان والتبيين (١/١٩٠) .
٣ المصدر نفسه (١/١٩٠) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢١٢ وما بعدها) .
٥ الحيوان (١/٢١) .
٦ المحاسن والاضداد (١٣٣) .
٧ الاية ١٣ وما بعدها .

وفي كتب قصص الأنبياء وكتب الأخبار والأدب وصايا للقمان ، وعظ بها ابنه ، وأدبه ، هي قطع في التأديب وفي قواعد السلوك[1] .

وفي جملة ما رواه أهل الأخبار من حكمه ان مولاه قال له يوماً « اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها . قال : أخرج أطيب مضغتين فيها ،فأخرج اللسان والقلب . ثم مكث ما شاء الله ، ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها . فقال : اخرج أخبث مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب . فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرجتها ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتها. فقال له لقمان : انه ليس من شيء أطيب منهما اذا طابا ، ولا أخبث منهما اذا خبثا »[2] .

وقد ذكر أهل الأخبار امرأة يقال لها : (صحر بنت لقمان) ، قالوا : انها اشتهرت بالعقل والكمال والفصاحة والحكمة ، وان العرب كانت تتحاكم عندها فيما بينهم من المشاجرات في الأنساب وغيرها . وقالوا انها كانت ابنة لقمان ، ومنهم من زعم انها اخته لا ابنته[3].

وذكر أهل الأخبار أن (لقمان) هو ممن آمن بـ (هود) ، وأما لقمان المذكور في القرآن ، فهو غيره . وكان لقمان القرآن ابن أخت أيوب ، او ابن خالته ، وقيل كان من ولد (آزر) ، وأدرك داوود وأخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داوود ، فلما بُعث قطع الفتوى ، وكان قاضياً في بني اسرائيل ، وكان حكيماً ولم يكن نبياً . وورد أنه كان راعياً أسود ، فرزقه الله العتق ، وقيل : كان أسود من سودان مصر خياطاً ، وقيل كان نجاراً[4] . وذكر (الجاحظ) : أن (لقمان) من السودان ، وهو الذي يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك .

وقال لابنه : إذا أردت أن تخالط رجلاً فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك وإلا فاحذره .

---

١ العقد الفريد (٣/١٥٢) .
٢ تفسير الطبري (٢١/٤٣ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١/٣٤٢) .
٤ الخزانة (٢/٧٨) ، (بولاق) .

ولم يرووا ذلك عنه إلا وله أشياء كثيرة . وأكثر من هذا مدح الله إياه وتسميته الحكيم ، وما أوصى به ابنه »[1] .

ويشبه قصص (لقمان) وما يضرب على لسانه من أمثال ، قصص (ايسوب) عند الأوروبيين . وهو الباحث عن الحكمة عن طريق ضرب الأمثال وقول الألغاز والقصص[2] . وقد رأى بعض الباحثين أن لأمثال لقمان وحكمه صلة بـ (احيقار) . وذهب بعض المستشرقين الى وجود صلة بين لقمان وبين بعض الشخصيات القديمة التي يرد اسمها في الأدب القديم مثل Prometheus و Alkmaion و Lucian و (سليمان) ، وبلعام .

وقد ضرب (أبو الطمحان حنظلة بن الشرقي القيني) المثل بتشتت حي لقمان، وبتفوقهم أفراقاً اذ يقول :

أمست بنو القين أفراقاً موزعة كأنهم من بقايا حي لقمان[3]

وقد اشتهر (سليمان) عند العرب بالحكمة أيضاً ، فعرف عندهم بـ (سليمان الحكيم) ، وقد أشير اليه في القرآن الكريم . وكان اليهود والنصارى هم نقلة أخبار هذه الحكمة الى الوثنيين . وكان يهود المدينة مصدر هذه الأخبار بالدرجة الأولى ، فقد كانوا بحكم اختلاطهم بأهل يثرب قد أذاعوا بينهم قصصاً اسرائيلياً، ومنه قصص داوود وسليمان .

و (سليمان) أحكم الحكماء عند اليهود . يذكرون « ان حكمته فاقت حكمة جميع العلماء في عصره . وكان أحكم من جميع الناس »[4] . ويذكرون انه ألّف الأمثال . ونطق بثلاثة آلاف مثل ، وألف خمس نشائد[5] . ووضع نشيد الأنشاد والجامعة . وذاعت حكمة سليمان وانتشر خبرها في كل الأنحاء بحيث أتى أناس من الأباعد ليشاهدوها وكانوا يمتحنونه بمسائل عسرة[6] ، في جملتهم ملكة سبأ

---

١ رسائل الجاحظ (١٧٩/١) ، (فخر السودان على البيضان) .

٢ Shorter Ency., p. 290.

٣ البيان (٨٨٧/١ وما بعدها) ، الخزانة (٤٢٦/٣) .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٥٧٩/١) ، (سليمان) .

٥ الملوك الاول ، الاصحاح الرابع ، الاية ٣٢ .

٦ الايام الثاني ، الاصحاح التاسع ، الاية ٦ ، قاموس الكتاب المقدس (٥٧٩/١) ، (سليمان) .

التي سمعت بحكمته فجاءت تمتحنه كما جاء ذلك في التوراة .

وتقترن لفظة (مجلة) عادة بالحكمة . قال علماء العربية : « والمجلة ، بفتح الميم ، الصحيفة فيها الحكمة »[١] ، وقد تتألف من (صحف) . و (الصحيفة) الكتاب . وذكر علماء اللغة ان « الوضيعة : كتاب تكتب فيه الحكمة .. وفي الحديث انه نبي وان اسمه وصورته في الوضائع »[٢] .

وقد ذكر أهل الأخبار أن (قيس بن نشبة) ، كان منجماً متفلسفاً في الجاهلية . وهو ممن أدرك أيام الرسول[٣] . وذكر أنه من (بني سُلَيم) ، وانه كان يعرف الرومية والفارسية ويقول الشعر[٤] . وانه جاء الى الرسول « بعد الخندق فقال : إني رسول من ورائي من قومي ، وهم لي مطيعون وإني سائلك عن مسائل لا يعلمها إلا من يوحى اليه ! فسأله عن السموات السبع وسكانها وما طعامهم وما شرابهم ، فذكر له السموات السبع والملائكة وعبادتهم ، وذكر له الأرض وما فيها فأسلم ورجع الى قومه ، فقال : يا بني سليم ! قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأشعار العرب والكهان ومقاول حمير ، وما كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم فأطيعوني في محمد فإنكم أخواله فإن ظفر تنتفعوا به وتسعدوا وإن تكن الأخرى ، فإن العرب لا تقدم عليكم . فقد دخلت عليه وقلبي عليه أقسى من الحجر ، فما برحت حتى لان بكلامه . وقيل عنه إنه كان يتأله في الجاهلية وينظر في الكتب ، فجاء الى الرسول لما سمع به ، وسأله ، فآمن به . ولعلمه سماه رسول الله : (حبر بني سُلَيم) ، وكان إذا افتقده يقول : يا بني سليم أين حبركم . وهو عم الشاعر العباس بن مرداس ، أو ابن عمه . ولما أسلم قال قال هذه الأبيات :

تابعت دين محمد ورضيته   كل الرضا لأمانتي ولديني
ذاك امرؤ نازعته قول العدا   وعقدت فيه يمينه بيميني
قد كنت آمله وانظر دهره   فالله قدر أنه يهديني
أعني ابن آمنة الأمين ومن به   أرجو السلامة من عذاب الهون

---

١ تاج العروس (٢٦١/٧) ، (جلل) .
٢ تاج العروس (٥٤٥/٥) ، (وضع) .
٣ تاج العروس (٩٥/٨) ، (كحل) .
٤ البلدان (٢٥٠/٢) .

وذكر أنه كان قد قدم مكة في الجاهلية فباع إبلاً له فلواه المشتري حقه ، فكان يقوم فيقول :

يا آل فهر كنت في هذا الحرم في حرمة البيت وأخلاق الكرم
أظلم لا يمنع مني من ظلم

فسمع به عباس بن مرداس ، فكتب اليه أبياتاً منها :

وائت البيوت وكن من أهلها ودداً تلق ابن حرب وتلق المرء عباسا

فقام العباس بن عبد المطلب وأخذ له بحقه . وقال : أنا لك جار ما دخلت مكة ، فكانت بينه وبين بني هاشم مودة [1] .

وذكر ان (أبا العاصي بن أمية بن عبد شمس) ، كان حكيماً . وقد عدّ من حكماء قريش وشعرائهم [2] . كما ذكر ان (الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية) الأموي ، وكان من الكتّاب بمكة في الجاهلية ، والذي علم الكتابة بالمدينة بأمر الرسول ، كان يعلم الحكمة [3] . وذكر (ابن حبيب) ، ان (الحكم بن سعيد) كان من أمراء الرسول (على قرى عربية) [4] ، وذكر أيضاً ان الرسول سمّاه (عبدالله وجعله يعلّم الحكمة) ، وقد استشهد يوم مؤتة [5] .

ويظهر ان الحكمة المنسوبة الى (قيس بن نشبة) ، أو الى (الحكم بن سعيد) كانت نوعاً من العلوم التي يدرسها الفلاسفة والحكماء في ذلك الوقت ، أي علوماً يونانية ، وتأملات وملاحظات عن هذا العالم ، فهي دراسة منظمة تختلف في طرازها عن الحكمة القائمة على القصص وضرب الأمثال . وقد تكون قد أخذت من الكتب اليونانية أو السريانية ، أو الفارسية ، فقد رأينا أهل الأخبار يذكرون ان (قيس بن نشبة) كان يعرف الرومية والفارسية ، كما ذكروا مثل ذلك عن النضر بن حارث بن كلدة وعن الأحناف ، وأنا لا أستبعد احتمال ذلك ، لأن

---

١ الاصابة (٣/٢٤٩ وما بعدها) ، (رقم ٧٢٤٤) .
٢ كتاب نسب قريش (٩٩) ، المعارف (٧٣) .
٣ الاصابة (١/٣٤٣ وما بعدها) ، (رقم ١٧٧٧) .
٤ المحبر (١٢٦) .
٥ المحبر (٤٦٠) .

بعضهم كان قد وصل العراق وبلاد الشأم وخالط الأعاجم، كما كان من الأعاجم من سكن مكة والقرى العربية الأخرى لأغراض مختلفة ، ومنهم من كان على فقه بعلوم قومه ، ومعرفة علمية بلغتهم ، فلا يستبعد اذن تعلم من كان فيه ميل من العرب الى العلم والثقافة،العلم والفلسفة والنظر من تلك البلاد التي زاروها ، ومن هؤلاء .

وذكر ان (النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) العبدري القرشي كان من حكماء قريش . وقد استشهد يوم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة. وكان أخوه (النضر بن الحارث) ، شديد العداوة للرسول ، فقتله علي يوم بدر كافراً ، قتله بالصفراء[1] .

وروى (عُمران بن حصين) ، (عمران بن الحصين) ، حديثاً عن رسول الله ، هو : « الحياء لا يأتي إلا بخير » ، فقال « بشير بن كعب ، وكان قد قرأ الكتب : إن في الحكمة : أن منه ضعفاً . فغضب عمران ، وقال : أحدثك بما سمعت من النبي ، وتحدثني عن صحفك هذه الخبيثة »[2] . ويظهر ان (بشيراً) هذا كان ممن طالع كتب أهل الكتاب ووقف على الحكمة .

وقد ذكر الأخباريون أسماء أناس آخرين عرفوا بالحكمة كذلك ، مثل : أكثم بن صيفي التميمي ، من رؤساء تميم ومن (حكام العرب)[3] . ويلاحظ أن الأخباريين يخلطون في الغالب بين الحكيم والحاكم ، فيجعلون (حكّام العرب) من (حكماء العرب) ويذكرون أحكامهم في باب الحكم . كذلك نسبوا معظم خطباء الجاهلية الى الحكمة كذلك ، مما يدل على أن للحكمة عند الأخباريين معنى واسعاً ، يشمل كل ما فيه عظة وتعليم . وقد كان العبرانيون وبقية الساميين يجعلون الحكام من طبقة الحكماء ، لأن الحاكم لا بد وان يكون حكيماً ، أي مدركاً فطناً نافذاً الى بواطن الأمور ، يحكم عن عقل ناضج وعن رأي مصيب ، فهم أولى وأقدر على ابداء الأحكام الصحيحة من غيرهم ، ولهذا نجد ارتباطاً كبيراً في المعنى وفي اللفظ بين لفظتي حاكم وحكيم .

---

١ الاستيعاب (٣/٥٣٥ وما بعدها) ، الاصابة (٣/٥٢٥) ، (رقم ٨٧١٣) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (١٦٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٧٢ وما بعدها) .

ومن حكام العرب الذين ذكرهم أهل الأخبار ، ونسبوا اليهم الحكم والاصابة في الرأي وصدق الأحكام (عامر بن الظرب العدواني) حكيم قيس، وقد عدوه (من حكماء العرب ، لا تعدل بفهمه فهماً ولا بحكمه حكماً) . وقالوا : انه هو المراد في قول العرب : « إن العصا قُرعت لذي الحلم » . أما (ربيعة) ، فتقول : انه (قيس بن خالد بن ذي الجدّين) . وأما تميم ، فتنسب هذا الفخر الى رجل منها هو (ربيعة بن مخاشن أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم) . وأما اليمن ، فتقول : انه (عمرو بن حممة الدوسي) ، ويذكر بعض آخر انه (عمرو بن مالك بن ضبيعة ، أخو سعد بن مالك الكناني)[1] .

وفي كتاب (العقد الفريد) ، قصة اجتماع وقع بين عامر بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي وبين ملك من ملوك حمير ، ورد فيها : أن الملك قال لها : تساءلا ، حتى أسمع ما تقولان ؟ ودوّن رواة هذه القصة ما جرى في الاجتماع من أسئلة وأجوبة. ومدارها خاطرات عن الحياة وعن الناس وعن الأدب، بالسجع المألوف[2]. ومما جاء فيها ان أحكم الناس « من صمت فاذّكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر » ، وان أجهل الناس من رأى الخُرق مغنماً ، والتجاوز مغرماً »[3] .

وذكر أنه كان قد جمع قومه (عدوان) ، فنصحهم بقوله : « يا معشر عدوان : الخير ألوف عروف ، وإنه لن يفارق صاحبه حتى يفارقه ، واني لم أكن حكيماً حتى صاحبت الحكماء ، ولم أكن سيدكم حتى تعبدت لكم[4] . وكان كما يقول (ابن حبيب) ، آخر حكام العرب وقضاتهم وأئمتهم قبل انتقال الحكومة الى (بني تميم) بعكاظ[5] ، وروي له حكم في (الخنثى) ، وأيد الإسلام حكمه[6] . ورووا له شعراً في الخمر ، يقول فيه :

---

١ « ان العصا قرعت لذي الحلم » ، مجمع الامثال (١/٣٩ وما بعدها) ، الامدى ، المؤتلف (ص ١٥٤) .
٢ العقد الفريد (٢/٢٥٥ وما بعدها) .
٣ الامالي (٢/٢٧٦ وما بعدها) .
٤ الامالي (٢/١٥٧) ، البيان والتبيين (١/٤٠١) ، (٢/١٩٩) .
٥ المحبر (١٨١) .
٦ المحبر (٢٣٦) .

إن أشرب الخمر أشربها للذتها   وإن أدعهـا فإني ماقت قـال
لولا اللذاذة والفتيان لم أرهـا   ولا رأتني إلا من مدى الغسـال
سئالة للفتى مـا ليس يملكـه   ذهابة بعقول القوم والمـال
مورثـة القوم أضغاناً بلا احن   مزرية بالفتى ذي النجدة الحال
أقسمت بالله أسقيها وأشربهـا   حتى يفرق ترب القبر أوصالي[1]

وفيه يقول ذو الاصبع العدواني :

ومنّا حـكم يقضي   فلا ينقضي ما يقضى[2]

ومن حكمه: « الرأي نائم ، والهوى يقظان ، فمن هنالك يغلب الهوى الرأي»[3] . وله جواب على خطاب (صعدة بن معاوية) حين جاء اليه يخطب ابنته[4] .

وكانت له بنت عدت من حكيمات العرب ، حتى جاوزت في ذلك مقـدار (صحر بنت لقمان) ، و (هند بنت الخس) ، و (جمعة بنت حابس بن مُليل) الايادين[5] .

وذكر أهل الأخبار أن من حكام تميم في الجاهلية : أكثم بن صيفي،وحاجب ابن زرارة ، والأقرع بن حابس ، وربيعة بن مخاشن ، وضمرة بن ضمرة . ويذكرون أن (ضمرة) حكم ، فأخذ رشوة ، فغدر . والغدر عيب كبير ، ومن أذم الصفات عند الجاهليين[6] .

وقد نسب أهل الأخبار حكماً وأمثلة لأكثم بن صيفي ، منها المثل : « مقتل الرجل بين فكيه » يعني لسانه[7] ، ومن الأقوال المنسوبة اليه ، قوله : « تناءوا في الديار ، وتواصلوا في المزار »[8] ، وقوله : « تباعدوا في الديار تقاربوا في

---

١ المحبر (٢٣٩) .
٢ البيان والتبيين (٢٦٤/١) ، (حاشية ٣) .
٣ البيان والتبيين (٢٦٤/١) .
٤ البيان (٧٧/٢) .
٥ البيان والتبيين (٣٨/٣) .
٦ مجمع الامثال (٤١/١) .
٧ خلق الانسان (ص ١٩٥) .
٨ البيان والتبيين (٢٥٥/٣) .

المودة»[1]. وقد عدّ أسلوب كلامه من أرشق أساليب الفصحاء ، ومن أحكم كلام، فيه نصائح وحكم مع بلاغة متناهية وفصاحة . ونسبوا له خطباً منمقة[2] ، هو في نظري من هذا النثر المصنوع ، الذي وضع على لسانه في الاسلام .

وقد اشتهرت (تميم) بكثرة حكمائها[3] ، ونلاحظ ان هؤلاء الحكماء كانوا حكاماً كذلك ، يحكمون بين الناس فيما يقع بينهم من شجار . ومعنى هذا ان بين الحكمة والحُكم عند العرب الجاهليين صلة متينة . وقد رأيت ان تميماً كانت قد احتكرت لنفسها الحكومة في سوق عكاظ على ما يذكره أهل الأخبار . وهم من القبائل المتقدمة بالنسبة الى القبائل الأخرى التي كانت عند ظهور الاسلام، انتقلت اليها هذه الحكومة من (بني عدوان) ، الذين كان آخر حكامهم (عامر بن الظرب) العدواني .

وقد كان لاتصال أهل الأخبار بتميم ، دخل ولا شك في كثرة أسماء حكمائها التي وصلت الينا من خلال دراستنا لكتبهم ، فقد كان اتصالهم بها أكثر من اتصالهم بأية قبيلة أخرى ، لوجودها على مقربة من الكوفة والبصرة ، ولذلك أكثروا اللغة عنها ، حتى صرنا نعرف من أمور نحوها ولغتها ما لا نكاد نعرفه عن نحو ولغة أية قبيلة أخرى . ولرجال تميم خطب طويلة ، في الحكم ، هي تأملات وخاطرات وضعت على ألسنتهم في الاسلام ، إذ لا يعقل كما سبق أن قلت في مواضع متعددة من هذا الكتاب وصول نصوص نثر ، بهذا النوع من الضبط والتحري عن أهل الجاهلية حتى نحكم بصحة نصوص ما نسب الى حكماء تميم . نعم قد يقول قائل ، ان الشاعر (بشر بن أبي خازم) كان قد أشار الى (كتاب بني تميم)[4] ، فلا يستبعد أن يكون (بنو تميم) قد سجلوا خطب وأشعار سادتهم فيه ، ولكني أقول إن من العلماء من نسب هذا الشعر الى (الطرماح ابن حكيم) وهو شاعر إسلامي ، توفي في حوالى السنة (١٠٥) ، واننا حتى لو فرضنا أن ذلك الشعر هو للطرماح ، وأنه يدل على وجود كتاب قديم عند

---

١ البيان (٢/ ٧٠) .
٢ بلوغ الارب (٣/ ١٧٢) .
٣ Goldziher, History of classical Arabic Literature, p. 7.
٤ المفضليات (٩٨) ، الامثال ، للميداني (١/ ١٣٧) ، العسكري ، جمهرة الامثال (٢٨٩) .

(بني تميم) ، فإننا لا نستطيع ان نأخذ بالظن ، ونقول بصحة مثل هذه الخطب المنسوبة الى خطباء وحكماء تميم لمجرد وجود اشارة الى كتاب عندهم لا نعرف من أمره شيئاً ، غير اشارة الى اسمه وردت في شعر ، لا ندري مبلغ درجته من الصحة والاصالة .

وممن نسبت اليه الحكمة (الأفوه الأودي) ، وهو شاعر اسمه (صلاءة بن عمرو) من (أود) . وله قصيدة دالية ، فيها رأيه في الحكم وفي الناس وفي الخير والشر[1] . وذكر انه هو القائل :

ملكنا ملك لقاح أول وأبونا من بني أود خيار[2]

والعادة أن تنسب الحكم الى المسنين ، وقلما نجد حكماً صادرة من شبان وأحداث وذلك ان العقل لا يكتمل إلا بتكامل العمر وبتقدم الانسان في السن ، وبتقدمه في السن تزيد تجاربه واختباراته في هذه الحياة ، فيكون عندئذ أهلاً للنطق بالحكمة . ولم يكتف أهل الأخبار ببلوغ الحكماء سن الشيخوخة الطبيعية ، بل صيروا عمر معظم المعمرين فوق المئة ، بل جعلوها مئات . وعمر مثل هذا كفيل بأن يكون مصدراً للحكم والأمثال . ونجد في (كتاب المعمرين من العرب) للسجستاني أمثلة من عمر هؤلاء الحكماء .

---

١ الاغاني (٤٤/١١) ، الشعر والشعراء (١١٠) ، ديوانه ، الامالي ، للقالي (٢٢٨/٢) ، تاريخ آداب اللغة العربية ، لزيدان (١٣٤/١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٢٩٢/٢) ، (أود) .

الفصل السابع والعشرون بعد المئة

الامثال

و (المثل) لون من ألوان الحكمة . وهو يقابل (مشل) في العبرانية،ومعنى آخر هو الحكمة والأساطير والقصص ذو المغزى . ولا يشترط في المثل أن يكون نثراً ، فقد يكون شعراً . وفي الموارد الاسلامية أمثلة جاهلية كثيرة من النوعين، لم يصل أي مثل منه مدوناً في نص جاهلي[1] .

وللحكماء المذكورين أمثلة كثيرة ترد في كتب الأدب والمواعظ والأمثال . وقد شرح غرضها أصحاب الموارد التي ذكرتها، وتعرض الرواة للقصص المروي عنها . غير ان من الصعب التثبت من صحة نسبة تلك الأمثال الى أولئك الحكماء والتثبت من صحة هذا القصص المروي عنها .

وكلمة المثل من المماثلة . وهو الشيء المثيل لشيء يشابهه ، والشيء الذي يضرب لشيء مثلاً ، فيجعل مثله[2] ، والأصل فيه التشبيه . ويقابله (مشل) (مشال) Mashal في العبرانية ، و Parabole في اليونانية ، ومعناها المماثلة والمشابهة ، أي المعنى الوارد للفظة في العربية . والغاية من الإهتداء بما فيه من حكمة ومن

١ « والمثل : الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله » ، اللسان (١١/٦١٠ وما بعدها) « صادر » ، نهاية الارب (٣/٢ وما بعدها) ، كتاب جمهرة الامثال ، لابي هلال العسكري ، (القاهرة ١٩٦٤ م) ، (١/٧) .
٢ اللسان (١١/٦١٠ وما بعدها) ، (مثل) .

حسن توجيه ، ومثل أخلاقية للسير على هديها في الحياة[1] . وقد ضربت التوراة الأمثال للناس للاتعاظ بها والأخذ بما فيها من عبر . ورد في سفر (حزقيال) : « هوذا كل ضارب مثل يضرب مثلاً عليك قائلاً : مثل الأم بنتها »[2] ، وجاءت الأمثال في الأناجيل فورد : « في هذا يصدق القول : إن واحداً يزرع وآخر يحصده »[3] .

وقد لخص الاصحاح الأول من سفر (الأمثال) الغاية من ضرب الأمثال بقوله: « لمعرفة حكمة وأدب ، لادراك أقوال الفهم ، لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والاستقامة ، لتعطي الجهال ذكاءً والشاب معرفة وتدبراً ، لفهم المثل واللغز أقوال الحكماء وغوامضهم: مخافة الرب رأس المعرفة . أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب »[4] . فالأمور المذكورة ، تمثل الغاية التي يتوخاها ضراب الأمثال من الأمثال : وقد جعلت أسفار الأمثال المثل : مخافة الرب رأس المعرفة أول أمثالها : وهو في العربية : رأس الحكمة مخافة الله .

ونجد في سفر (أمثال) كلاماً للحكماء ، هو مزيج من أمثلة وحكم وألغاز ، دون أن يشير الى أسماء أصحابه[5] ، ونجد مثل ذلك في الأدب العربي . وقد اشتهر أبناء الشرق بالحكمة عند العبرانيين .

والمثل بعد ، هو عقل ضاربه ، وثقافة البيئة التي ظهر فيها . ولهذا نجد الأمثال متباينة مختلفة حسب تنوع القوم الذين ظهر بينهم . ففي البيئة التجارية يكون المثل من هذه البيئة في الأغلب، وفي البيئة الزراعية يكون المثل مشرباً بروح المزارعين، وفي البادية تكون الأمثال ذات طبيعة بدوية . ومن هنا اختلفت أمثال قريش عن أمثال الأعراب ، وأمثال عرب العراق عن أمثال أهل العربية الجنوبية ، وهكذا . ولهذا فإن للمثل في نظر المؤرخ قيمة كبيرة من حيث انه يرشده الى مظاهر تفكير من ضرب بينهم ، ويعرفه بمبلغ ثقافة قائليه .

ولما كانت الأمثال مرآة لعقلية زمانها ولعقلية من ينسب قول المثل اليه ، أو من

---

١ Hastings, p. 767.
٢ حزقيال ، الاصحاح السادس عشر ، الاية ٤٤ .
٣ انجيل يوحنا ٤ ، الاية ٣٧ .
٤ أمثال ، الاصحاح الاول ، الاية الاولى وما بعدها .
٥ أمثال ، الاصحاح الثاني والعشرون ، والاصحاح الرابع والعشرون .

ضرب به المثل . تباينت في البلاغة وفي قوة التعبير وعمق المعنى ، وفي الفكرة ، فصار بعضها آية في الحكمة وفي قوة البيان وفي عمق المغزى والمعنى ، وصار بعض منها بسيطاً تافهاً . ونجد هذه الحالة في أمثال كل الأمم . إذ ان المثل لا يصدر عن طبقة معينة ، بل قد يأتي من رجل جاهل بسيط ، وقد ينسب الى غبي بليد أو الى شخص من سواد الناس اتخذ رمزاً للتعبير عن ناحية من نواحي الحياة ، أو نموذجاً يعبر عن طبقة من الطبقات . وانما المهم في رواج المثل وفي بقائه، أن يكون منبعثاً عن واقع حال ، معبراً عن رأي سديد ، قصير قدر الامكان مركزاً له وقع حسن على السمع ، يصلح أن يكون مثلاً لكل زمان ومكان . فيروج ويدوم ، وقد يتخذ مثلاً من أمثلة الحكمة ، وهو كلما قصر ، سهل حفظه وطال عمره .

وأفضل المثل السائر ، أوجزه ، وأحكمه أصدقه ، وقولهم : مثل شرود ، وشارد ، أي سائر لا يرد كالجمل الصعب الشارد الذي لا يكاد يعرض له ولا يرد . وقد تأتي الأمثال محكمة إذا تولاها الفصحاء من الناس ، وإذا جاءت في الشعر ، سهل حفظها [1] .

والأمثال مادة مهمة غنية في الأدب الجاهلي والاسلامي . وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة ضربت للناس للتفكر والتعقل ، وهي تدل على ما لها من أهمية تعليمية في العقل العربي . والأمثال المضروبة مرجع لمن يريد الوقوف على بعض الأمثلة التي استعملها الجاهليون . وفي الحديث النبوي مادة مهمة تمدّ هذا الباحث بمادة غزيرة عن المثل عند الجاهليين [2] .

و « الأمثال من حكمة العرب في الجاهلية والاسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية بغير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن التشبيه » [3] . فالأمثال اذن عند الجاهليين نوع من أنواع الحكمة السائرة بين الناس . يقولها السيد والمسود ، البارز والخامل ، وهي تحفظ بسهولة ولا يحتاج المرء لتعلمها الى

---

١ العمدة (١/ ٢٨٠ وما بعدها) .
٢ المستطرف في كل فن مستظرف (٢٧/١ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/ ٢٣٤) .

مهارة وذكاء . وكان لحفّاظ الأمثال مقام عندهم ، لأنهم ممن وهبوا بياناً ناصعاً وقوة في اللسان، تمكن صاحبه من ضرب المثل في موضعه ، ومن قوله في مكانه . والعادة أن يكثر الحكيم من الأمثال في كلامه ، لأنها المادة التي يستعين بها في إظهار حكمته وعقله ، يضيف عليها أمثالاً من عنده ، هي من وحي تجاربه وقوة ملاحظته .

وقد وردت كلمة (مثل) و (أمثال) في مواضع كثيرة من القرآن ، وفي ورود الكلمتين بهذه الكثرة دلالة بالطبع على ما كان للمثل من أهمية كبيرة عند الجاهليين . وفيه أمثلة كثيرة ضربت للعبرة والتذكر ، لتكون درساً يتعظ به أولو الألباب . ويلاحظ ان العرب يضعون لفظة (ضرب) قبل كلمة المثل في الغالب ، ورد في القرآن الكريم « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً »[1] ، و « ضرب الله مثلاً »[2] ، وورد « وضربنا لكم الأمثال »[3] ، و « فلا تضربوا لله الأمثال »[4] ، و « تلك الأمثال نضربها للناس »[5] ، وفي مواضع أخرى منه . وضرب المثل ايراده ليتمثل به ويتصور ما أراد المتكلم بيانه للمخاطب . يقال : ضرب الشيء مثلاً وضرب به وتمثله وتمثل به . وضرب المثل اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به[6] .

وقد أشاد العلماء بما للأمثال من أهمية في الحث على إصلاح النفس ، فقال بعضهم : « انما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً » ، وقال بعض آخر : « ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة : التذكير ، والوعظ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب المراد من العقل ، وتصويره بصورة المحسوس ... الخ » . وروي ان الرسول قال : « إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال »[7] . وجعل (الماوردي) الأمثال من أعظم علم القرآن[8] .

١ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الاية ٢٤ .
٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الاية ٧٥ وما بعدها ، ومواضع أخرى .
٣ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الاية ٤٥ .
٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الاية ٧٤ .
٥ الحشر ، الرقم ٥٩ ، الاية ٢١ .
٦ تاج العروس (١/٣٤٧) ، (ضرب) .
٧ السيوطي ، الاتقان (٤/٣٨) .
٨ المصدر نفسه .

وللرسول أمثال كثيرة ، وذكر عن (عمرو بن العاص) ، أنه حفظ عن النبي ألف مثل[1] . ونجد في كتب الأمثال أمثالاً نسبت الى الرسول . منها : « إن من البيان لسحراً »[2] ، و « إن مما ينبت الربيعُ لما يقتل حبطاً أو يلم »[3] . و « إياكم وخضراء الدمن »[4] ، و « من كثر كلامه كثر سقطه »[5] ، و « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، ويروى أنه من أمثلة أهل الجاهلية[6] . وقد نسبت أمثلة جاهلية أخرى الى الرسول .

والأمثال أقوال مختصرة ، يراعى في وضعها الايجاز والبلاغة والتأثير . وقد يكون المثل كلمتين ، وقد يكون أكثر من ذلك . ولكن العادة ألا يكون طويلاً ، لأن طول المثل يفقده روعته وتأثيره ، فلا يكون مثلاً ، ولا يمكن حفظه عندئذ فيضيع . ويراعى أن يكون سجعاً أو طباقاً . وأن يرتب في جمل متوازية بسيطة العبارة ، أو مزدوجة أو أكثر من ذلك قليلاً . وأن تكون هنالك مناسبة بين الجمل حتى يبدو المثل جميلاً متناسقاً .

والقاعدة في الأمثال الاّ تغير ، بل تجري كما جاءت . وقد جاء الكلام بالمثل وأخذ به وإن كان ملحوناً . لأن العرب تجري الأمثال على ما جاءت ، ولا تستعمل فيها الإعراب[7] . والأمثال قد تخرج عن القياس ، فتحكى كما سُمِعت ، ولا يطرد فيها القياس ، فتخرج عن طريقة الأمثال . « قال المرزوقي : من شرط المثل ألاّ يغير عما يقع في الأصل عليه »[8] .

وقال المرزوقي « في شرح الفصيح : المثلُ جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه الى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها ، وعما يوجبه الظاهر الى

---

١ الاستيعاب (٢/٣٣٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ العسكري ، جمهرة الامثال (١/١٣) .
٣ المصدر نفسه (١/١٦) .
٤ العسكري ، جمهرة (١/١٧) ، الميداني (١/٢١) ، المستقصي (١٨٠) .
٥ العسكري ، جمهرة (١/١٩) .
٦ العسكري ، جمهرة (١/٥٨) ، الميداني (٢/١٩٤) ، الفاخر (١٤٧) ، السيوطي ، الجامع الصغير (١/١٨٨) .
٧ المزهر (١/٤٨٧) ، (النوع الخامس والثلاثون · معرفة الامثال) .
٨ المزهر (١/٤٨٧ وما بعدها) .

أشباهه من المعاني ، فلذلك تُضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها ، واستجيز من الحذف ومُضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام »[1] .

ويلاحظ ان العرب قد أجازت لضارب المثل الخروج فيه على قواعد اللغة ، كما أجازت ذلك للشاعر بدعوى ضرورات الشعر ،ليستقيم الشعر مع القوافي والوزن. أجازته في المثل لأنه قد يصدر شعراً ، وقد يصدر سجماً ، وقد يصدر من أفواه أناس جهلة لا يبالون بالقواعد ، أو ليس لهم علم بها ، وقد يصدر من قبيلة لا تتبع في لغتها قواعد الإعراب .

ونجد في كتب الأمثال وفي كتب الأدب أمثالاً وضعت لأغراض مختلفة، يغلب عليها الطابع التعليمي ، أي تعليم من يقرأها حكمة الحياة ، وتجارب الماضين حتى يُستفاد ويُتعظ . بعض منها نابع من محيط البداوة ومن الطبيعة الأعرابية ، وبعض منها تجارب عملية عامة تنطبق على كل الناس وتصلح لكل الأوقات[2] .

والأمثال عند بعض الشعوب صنف من أصناف الشعر ، لما فيها من الخصائص المتوفرة في الشعر عندهم . وقد روعي في المثل بصورة عامة أن يكون قصيراً موجزاً وبليغاً معبراً عن حكمة ، فيه نغمة وترنيم . ليؤثر في النفوس . ويحمل الطبع قائل المثل على مراعاة هذه الأمور من غير تفكير ولا تصنع ، وهو إذا كان صادراً من قلب وسجية ، ومعبراً عن نفس جياشة وعن حس بشري عام، يشعر به كل إنسان تقبله الناس بسرعة ، ووجد له مجالاً من الانتشار ، وعمر عمراً طويلاً .

والأمثال ، هي في صدر المؤلفات التي وضعها المسلمون ، فقد روي : أن عبيداً بن شَرْيَةَ الجُرْهمي ، وهو من أهل (صنعاء) باليمن ، من أوائل المؤلفين في الأخبار وملوك العرب والعجم ، ألف كتاب (الأمثال) وقد رآه (ابن النديم) في نحو خمسين ورقة . كذلك ألف صحار بن العباس العبدي ، وهو من بني عبد القيس ، وممن أدرك الرسول ، (كتاب الأمثال)[3] . وذكروا

---

١ المزهر (١/٤٨٦ وما بعدها) .
٢ الامالي (٢/١١ ، ٢٨ ، ٥١ ، ٧٧ ومواضع أخرى) ، المستطرف (١/٢٧ وما بعدها) ، المزهر (١/٤٨٨ وما بعدها) .
٣ الفهرست (ص ١٣٨) ، ابن الاثير (١/١٤٩) .

ان (عِلاّقة الكلابي) جمع الأمثال في عهد يزيد بن معاوية [1] ، وأن (المفضل الضبي) (١٦٨هـ) من مشاهير علماء الكوفة في الشعر واللغة ألف كتاباً في الأمثال دعاه : كتاب الأمثال [2] ، وأن أبا عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣هـ) (٢٢٤هـ) ، ألف كتاباً في الأمثال كذلك[3] .

وألّف (يونس بن حبيب) (١٨٣ هـ) كتاباً دعاه (كتاب الأمثال)[4]، وألّف (أبو المنهال) كتاباً في الأمثال ، عرف بـ (كتاب الأمثال السائرة) وقف عليه (ابن النديم)[5] ، ولأبي عبيدة (٢٠٩ هـ) (٢١٠ هـ) (٢١١ هـ) كتاب في الأمثال ، عرف بكتاب الأمثال[6] ، وللأصمعي (٢١٧ هـ) كتاب في الأمثال كذلك[7] ، وللشورى ، وهو ممن أخذ عن الأصمعي كتاب في الأمثال[8] ، ولأبي اسحاق ابراهيم بن سفيان ، من تلامذة الأصمعي ، كتاب في الأمثال[9] . وألّف غير هؤلاء من العلماء كتباً في هذا الموضوع طبع بعض منها فنال شهرة ، مثل كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) ، وكتاب مجمع الأمثال للميداني (٥١٨ هـ)[10] ، وقد أخذ (أبو هلال العسكري) أمثالاً وردت في كتاب لحمزة الأصبهاني في الأمثال ، وهو كتاب توجد نسخة خطية منه في القاهرة [11] .

وبين المؤلفات في الأمثال رسالة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي

---

١ الفهرست (٩٠) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٢٦١) ، فجر الاسلام (ص ٦١) « الامثال » ، « الطبعة العاشرة » .
Wüstenfeld, Geschichtschr., 11, Goldziher, Muh. Stud., II, 204.

٢ الفهرست (١٠٨) .

٣ الفهرست (١١٢) .

٤ الفهرست (٦٩) .

٥ الفهرست (٧٨) .

٦ الفهرست (٨٥) .

٧ الفهرست (٨٨) .

٨ الفهرست (٩١) .

٩ الفهرست (٩٢) .

١٠ كارلو نلينو ، تاريخ الاداب العربية (٩٦) .

١١ العسكري ، جمهرة (١/٦) ، (حاشية رقم ٥) .

(٣٩٥ هـ) ، طبعت بعنوان : (كتاب أبيات الاستشهاد)[1] ، دوّن فيها بعض الشعر الذي استشهد به الناس في أمثالهم . ورسالة أخرى ألفهـا (أبو العباس محمد بن يزيد المـبرد) الأزدي (٢٨٥ هـ) ، بعنوان : « رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها »[2] .

وهنالك مؤلفات عديدة أخرى ، وضعت في الأمثال . وفي إقبال المؤلفين على التأليف بها بهذه الكثرة ، دلالة على ما كان للمثل من أهمية ، وعلى ما كان له من قيمة في نظر أهل الجاهلية . حفظوه حفظهم للشعر ، بل أكثر من الشعر ، لأنه يرد على كل لسان ، يرد على لسان الحكيم البليغ كما يرد على لسان الغبي والجاهل ، ثم إنه توجيه وتربية وتعليم ، فلا نستغرب إذن إذا ما وجدنا كتب الأمثال في صدر الكتب التي ظهرت في الاسلام . وقد رأيت أنها ظهرت في عهد (معاوية) وبأمره ، فهي بحق من أوائل المؤلفات التي وصلت الينـا بالعربية . وكان معاوية مولعاً بسماع الأمثال والقصص وأخبار الماضين والشعر .

والأمثال ، هي أيضاً مادة مهمة لفهم التأريخ الجاهلي . فقد تعرض جامعوها لأصل المثل وللأسباب مضربه ، وجاؤوا بشروحهم هذه بمادة تأريخية استعنّا بها على فهم مواضع من ذلك التأريخ . ولكنا يجب أن نأخذ هـذه الأمثال وشروحها بحذر . ففي أكثر الشروح تكلف وضعف ، يدلان على عدم امكان الاعتماد عليها في تكوين حكم علمي .

ونجد في الأمثال الجاهلية أمثالاً ضربت بالناس ، مثل : أسخى من حاتم ، وأشجع من ربيعة بن مكدم ، وأدهى من قيس بن زهير ، وأعز من كليب وائل، وأوفى من السموأل ، وحجام ساباط ، وقوس حاجب ، وغيرها . ونجد أمثالاً تمثل فيها بالبهائم ، وغير ذلك . ولكل مثل قصة تروي منشأ ضرب ذلك المثل وما وراءه من خبر . وهي تعبر عن روح الزمان الـذي قيـل فيه وعن نفسية المتمثلين به . وكثير من الأمثال الجاهلية ما زالت دائرة على ألسنة الناس . وفي وجودها دلالة على ان الأحوال التي قيلت فيها لا تزال قائمة ، ودليل ذلك اعتبار الناس بها والاستشهاد بها في المناسبات .

---

١ سلسلة نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) ، (١٣٧ وما بعدها) ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، (القاهرة ١٩٥١ م) .
٢ نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) ، (١٦٣ وما بعدها) .

وبين أمثال العرب أشعار جاهلية الأصل صارت مثلاً ، ولا يزال بعض منها حي يضرب به مثل ، لما فيه من حكمة ومن ملاءمة لكل وقت وزمان[1]. وضرب المثل بعجز البيت أحياناً أو بجزء منه ، كما في المثل : « بعض الشر أهون من بعض » . فهو من بيت ينسب لطرفة هو :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا   حنانيك بعض الشر أهون من بعض[2]

ومن الأمثلة القديمة المشهورة حتى اليوم : (آخر الدواء الكي) ، و (آخر الطب الكي) ، زعم أنه من أمثلة (لقمان بن عاد) . وقد ذكر (الزمخشري) سبب ضرب (لقمان) له ، وأورد له كلاماً مع امرأة خانت زوجها ، وكلاماً مع زوجها وكيف عرفه فأرشده الى خيانتها له[3] . وأورد مثلاً ضرب بكثرة أكل (لقمان) ، هو: آكل من لقمان . وكانوا يزعمون أنه كان يتغدى بجزور، ويتعشى بأخرى ، ويتخلل بحوار . وانه ضاجع امرأته يوماً ، وقد أكل جزوراً ، وأكلت فصيلاً ، فما قدر على الإفضاء اليها ، فقال : كيف أفضي اليك وبيني وبينك بعيران[4] .

ويظهر من القصص المنسوب اليه ، أنه قد انتزع من قصص قديم ، كان معروفاً عند الجاهليين ، مروياً بينهم . فإذا أعدنا قصته المذكورة مع المرأة ، وقد رواها (ابن الكلبي) عن (عوانة)[5] نجدها وقد غصت بالأمثلة ، وبطريقة الجاهليين في التفسير والتعليل ، مما يجعل الإنسان يرى أنها من القصص الجاهلي القديم ، الذي احتفظ بمعناه ومضمونه ، وإن صيغ بلغة حاكيه .

ورووا لقس بن ساعدة الايادي ، أمثالاً ، منها : إذا خاصمت فاعدل ، وإذا قلت فاصدق ، ولا تستودعن سرك أحداً ، فإنك ان فعلت لم تزل وجلاً ، وكان بالخيار ، إن جنى عليك كنت أهلاً لذلك ، وان وفى لك كان الممدوح

---

١ المستطرف (١/ ٣٠ وما بعدها) .
٢ العسكري ، جمهرة (١/٦٧) .
٣ الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب (١/٣) ، (حيدر اباد الدكن ١٩٦٢ م) ، العسكري ، جمهرة (١/٩٧ ، ٤٢٦) .
٤ المصدر نفسه (ص ٧) .
٥ العسكري ، جمهرة (١/٤٢٤ وما بعدها) .

دونك . وكن عف العيلة ، مشترك الغنى تسد قومك . الى غير ذلك من أمثال نسبوها اليه[1] .

وفي (كتاب الجوهرة في الأمثال) من (العقد الفريد) ، باب خاص عنوانه: « أمثال أكثم بن صيفي وبزرجمهر الفارسي »[2] . وهي تستحق الدرس والنقد ، لمعرفة أصولها وعلاقة هذه الأمثال بالأدبين العربي والفارسي .

ونجد في كتب الأدب طائفة من الأمثال في الأدب والحكمة ، نسبت الى (أكثم بن صيفي) ، منها : ربّ عجلة تهب ريثاً ، وادرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل ، والمرء يعجز لا المحالة ، ولا جماعة لمن اختلف ، ولكل امرىء سلطان على أخيه حتى يأخذ السلاح فإنه كفى بالمشرفية واعظاً ، وأسرع العقوبات عقوبة البغي ، وشر النصرة التعدي ، ورب قول أنفذ من صول ، والحر حر وإن مسه الضر ، والعبد عبد وإن ساعده الجد ، واذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد ، وربّ كلامٍ ليس فيه اكتتام ، وحافظ على الصديق ولو في الحريق ، وليس من العدل سرعة العذل ، وليس بيسير تقويم العسير ، واذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة ، ولو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملوم[3] .

وليس في امكان أحد اثبات ان هذه الأمثال وغيرها هي لأكثم بن صيفي حقاً ، وبينها أمثال انسانية عامة نجدها عند مختلف الأمم ، وبينها أمثال قيلت في اليونانية وفي بعض اللغات الأخرى قبل أيام (أكثم) بزمان طويل . إلا ان نسبة هذه الأمثال اليه ، تشير الى انه كان من حكماء الجاهلية البارزين ومن ذوي الرأي والحكمة عند قومه .

والأمثال النابعة من صميم الحياة الانسانية ومن التجارب العملية ، والاختبارات الطويلة ، تكون ذات طبيعة حكيمة عامة ، فتظهر لذلك عند كل الناس ، وتخرج على كل لسان ، فلا يمكن أن يقال إنها من مخترعات الأمة الفلانية ، ومن مبتكرات العقل الفلاني ، لأنها كما قلت خواطر إنسانية ، تخطر على بال كل

---

١ العسكري ، جمهرة (٢٤٩/١) ، الميداني (٧٣/١) .

٢ العقد الفريد (٦٣/٣ وما بعدها) ، ومن أمثاله : « مقتل الرجل بين فكيه » و « ربما أعلم فأذر » ، يريد أنه يدع ذكر الشيء وهو به عالم لما يحذر من عاقبته ، العقد الفريد (٨١/٣) .

٣ المزهر (٥٠١/١ وما بعدها) .

شخص ، له رأي سديد ، وفكر صائب . وإن نسبت الى شخص معين ، لذلك يصعب علينا إرجاع الأمثال الانسانية العامة الى جماعة معينة . قال (الجاحظ) : وقد كان الرجلُ من العرب يقف الموقفَ فيرسل عدة أمثلة سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع ؛ ومدار العلم على الشاهد والمثل »[1] .

ومن أمثال أهل الجاهلية : إن من البيان لسحراً ، وإن الجواد قد يعثر، وان البلاء موكل بالمنطق ، وان أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك . وأنف في السماء وأنف في الماء . وأجع كلبك يتبعك ، واشتدي أزمة تنفرجي ، وربَّ رمية من غير رام ، وربَّ أكلة تمنع أكلات ، واستراح من لا عقل له ، وسبق السيف العذل ، الى غير ذلك من أمثلة[2] .

ومن الأمثال الجاهلية الباقية حتى اليوم المثل : مواعيد عرقوب ، مثل يضرب لمن يعد ولا يفي . فقد ورد في شعر المتلمس ، إذ قال :

الغـــدر والآفات شيمته فافهم فعرقوبٌ له مثل

وورد في شعر كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدهـــا إلا الأباطيـــل

قيل : عرقوب رجل من خيبر ، كان يهودياً وكان يعد ولا يفي ، فضربت به العرب المثل . وقيل : رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله فقـــال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها . فلما أطلعت أتاه للعدة ، فقال : دعها حتى تصير بلحاً ، فلما أبلحت قال : دعها حتى تصير زهواً ، فلما أزهت قال: دعها حتى تصير رُطباً ، فلما أرطبت قال : دعها حتى تصير تمراً ، فلما أتمرت عمـد اليها عرقوب من الليل فجذّها ، ولم يعطِ أخاه منه شيئاً ، فصار مثلاً ، وفيه يقول الأشجعي :

وعدتَ وكان الخُلف منك سجيةً مواعيـــد عُرقُوب أخـــاه بيثرب

---

١ البيان والتبيين (١/٢٧١) .
٢ المستطرف (١/٢٨ وما بعدها) .

وقال آخر :

وأكذب من عرقوب يثرب لهجةً   وأبين شؤماً في الحوائج من زُحل[1]

وذكر ان اسمه (عرقوب بن صخر) ، أو (عرقوب بن معبد (معيد) بن أسد) ، رجل من العمالقة على القول الأول . قاله ابن الكلبي ، وعلى القول الثاني ، فهو رجل من (بني عبد شمس بن سعد) ، وقيل انه كان من الأوس . كان أكذب أهل زمانه ، ضربت به العرب المثل في الخلف ، فقالوا : مواعيد عرقوب[2] .

ومن الأمثال القديمة : صحيفة المتلمس ، روى ان الرسول كتب كتاباً لعيينة بن حصن ، فلما أخذه ، قال : « يا محمد أتراني حاملاً الى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس ». هي احدى الصحيفتين اللتين كتبها (عمرو بن هند) لطرفة والمتلمس ، الى عامله بالبحرين في إهلاكهما ، وخيّلهما انهما كتابا جائزة ، فنجّى المتلمس عمله على الحزم وهربه الى الشأم ، وسارت صحيفته مثلاً في كل كتاب يحمله صاحبه يرجو منه خيراً وفيه ما يسوءه[3] .

ومن الأمثلة القديمة (عنقاء مغرب) ، والمثل به « طارت به عنقاء مُغربٌ » زعموا انه طائر كان على عهد (حنظلة بن صفوان الحميري) نبي أهل الرس عظيم العنق ، وقيل كان في عنقه بياض ولذلك سمي عنقاء، اختطف غلاماً فأغرب به ، ولذلك سمي المغرب ، فدعا عليه حنظلة فرمى بصاعقة . وقد ذكر المثل في الشعر[4] .

ومن الأمثال الجاهلية الحية التي لا تزال ترزق ، المثل : « تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه » . يضرب مثلاً لمن خبره خير من مرآه . ذكر (ابن الكلبي) ان هذا المثل ضُرب (للصقعب بن عمرو) النهدي . قاله له النعمان بن المنذر . وقال (المفضل) : المثل للمنذر بن ماء السماء ، قاله لشقة بن ضمرة سمع بذكره، فلما رآه اقتحمته عينه فقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، فأرسلها مثلاً

---

١ المزهر (١/٤٩٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١/٣٧٨) ، (عرقب) .
٣ الفائق (٢/١٣) .
٤ الزمخشري ، المستقصى (٢/١٥٠) .

فقال : له شقة : أبيت اللعن ! إن الرجال ليسوا بجُزر يراد منهم الأجسام ، وانما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فذهب مثلاً ، وأعجب المنذر بما رأى من عقله وبيانه ، ثم سمّاه باسم أبيه فقال: أنت ضمرة بن ضمرة . وقيل إن المثل للنعمان ابن المنذر ، قاله لشقة بن ضمرة[1] .

وقد أورد (ابن الكلبي) قصة تأريخ المثل على هـذا النحو : قال : وفد (الصقعب بن عمرو) النهدي في عشرة من (بني نهد) على (النعمان بن المنذر) وكان (الصقعب) رجلاً قصيراً دميماً تقتحمه العين ، شريفاً بعيد الصوت ، وكان قد بلغ النعمان حديثه ، فلما أخبر النعمان بهم قال للآذن : إئذن للصقعب ، فنظر الآذن الى أعظمهم وأجملهم ، فقال : أنت أنت الصقعب؟ قال : لا . فقال : الذي يليه في العظم والهيئة : أأنت هو : فقال : لا . فاستحيا فقال : أيكم الصقعب ؟ فقال الصقعب : هأنذا ! فأدخله الى النعـمان ، فلما رآه قال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ! فقال الصقعب : أبيت اللعـن ! إن الرجال ليسوا بالمسوك يستقى فيها ، انما الرجل بأصغريه بلسانه وقلبه ، إن قاتل قاتـل بجنان ، وإن نطق نطق ببيان . فقال له النعمان : فلله أبوك ! ثم سأله أسئلة امتحنه بها ، ليرى عقله ، فكان يجيبه أحسن جواب . فقال له النعمان : أنت أنت ! فأحسن صلته وصلة أصحابه[2] .

وينسب المثل : « ألوى بعيد المستمر » ، الى (النعمان بن المنذر) ، وأخوه (طُفيل الغنوي) فأدخله شعره[3] . ومن الأمثلة الشهيرة القديمة قولهم : « على أهلها جنت براقش » ، يضرب مثلاً للرجل يهلك قومه بسببه[4] .

وينسب المثل : « إن الشقي وافد البراجم » لعمرو بن هند ، ملك الحيرة ، حلف ليقتلن مائة من تميم ، فقتل تسعة وتسعين رجلاً منهم إحراقاً بالنار ، وبقي واحد ، فلما دنا رجل من البراجم من الملك ، وسأله عن أهله ، فقـال : من

---

١ الخزانة (١٥١/١) ، (بولاق) .
٢ المزهر (٤٩٥/١ وما بعدها) ، العمدة (٢٨٥/١) .
٣ ألفيتني ألوى بعيد المستمر أحمل ما حملت من خير وشر
العسكري ، جمهرة (٣٢/١ وما بعدها) .
٤ العمدة (٢٨٥/١) .

البراجم ، قال : إن الشقي وافد البراجم ، وأمر به فألقي في النار[1] .

ومن الأمثال المشهورة قولهم : « عند جهينة الخبر اليقين » . وقيل : « عند جفينة الخبر اليقين » (حُفينة) . وكان من حديثه أن (حصين بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن كلاب) خرج،ومعه رجل من (جهينة) يقال له (الأخنس) فنزلا منزلاً ، فقام الجهني الى الكلابي فقتله ، وأخذ ماله ، وكانت أخته (صخرة) بنت (عمرو) تبكيه في المواسم ، وتسأل عنه فلا تجد من يُخبرها، فقال الأخنس فيها :

كصخرة إذ تسائل في مِراح وفي جَرْمٍ وعلمها ظنونُ
تسائل عن حصينٍ كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين[2]

ومن أمثالهم المشهورة قولهم : بمثل جارية فلتزن الزانية ، وذلك أن (جارية بنت سليط بن الحرث بن يربوع بن حنظلة) كان أحسن الناس وجهاً وأمدهم قامة ، وأتى سوق عُكاظ فأبصرته فتاةٌ من خثعم فأعجبها فتلطفت له ، حتى وقع عليها ، فعلقت منه ، فلما ولدت أقبلت هي وأمها وخالتها تلتمسه بعكاظ ، فلما رأته الفتاةُ قالت : هذا جارية ! فقالت أمها : بمثل جارية فلتزن الزانية سراً أو علانية ، فذهب مثلاً[3] .

ونسب المثل : « أرسل حكيماً ولا توصه » الى (الزبير بن عبد المطلب)[4]، ونسب المثل « استنوق الجمل » لطرفة بن العبد[5] . ومن الأمثلة القديمة : « على أهلها دلت براقش » ، و « عش رجباً تر عجباً »[6] ، و « العصا من العصية» و « أعز من كليب وائـل » ، و « أعزّ من بيض الأنوق » و « أعز من

---

١ العسكري ، جمهرة (١/ ١٢١) ، (يذكر ٩٨ شخصا ، ثم يتم العدد ، بذكر هذا الرجل ، ثم اكمله بالحمراء بنت خمرة ، حيث أحرقها ، وتحلل من يمينه ، وتذكر الموارد الاخرى خلافه . وقد تحدثت عن هذا المثل) .
٢ المزهر (١/٤٩٨ وما بعدها) ، العسكري ، جمهرة (٢/ ٤٤) .
٣ المزهر (١/ ٤٩٩) .
٤ العسكري ، جمهرة (١/ ٩٨) .
٥ العسكري ، جمهرة (١/ ٥٤) ، الاغاني (١/ ١٣٢) ، الشعر والشعراء (١/ ١٣٥)
٦ العسكري ، جمهرة (٢/ ٥٢ وما بعدها) ، الميداني (١/ ٣١٠) ، الحيوان (١/ ٢٦٠) ، العقد الفريد (٣/ ٥٤) .

الغراب الأعصم » ، و « أنصف القارة من راماها » . والمثل : « أرسل حكيماً ولا توصه » ، هو في الواقع مثل قديم ، لا بد وأن يكون قد وضع في العربية، قبل أيام (الزبير) ، إذ ينسب الى الحكيم (أحيقار) ، وربما نقل من السريان الى العرب .

وقد ضرب المثل بشخصيات جاهلية ، تركت أثراً في أيامها ، فضرب بها المثل . مثل : « أبلغ من قس » ، ويراد به قس بن ساعدة الخطيب الشهير ، وأعيا من باقل . وهو رجل من إياد ، وقيل من ربيعة . اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً ، فمرّ بقوم فقالوا له : بكم اشتريت الظبي ؟ فمدّ يديه وأخرج لسانه يريد أحد عشر ، فشرد الظبي حين مد يديه ، وكان تحت ابطيه[1] . وضرب المثل ببخل مادر ، فقيل : أبخل من مادر ، وبفصاحة سحبان ، فقيل : أخطب من سحبان ، وهو القائل :

لقد علم الحي اليمانون أنني   اذا قلت أما بعد أني خطيبها[2]

وضرب الجاهليون الأمثال بكل ما وجدوه حولهم من حيوان ومن نبات وصخور. ولذا نجد على أمثالهم طابع محيطهم ، فالحيوان الذي ضربوا به المثل ، هو من حيوان جزيرة العرب ، ومن النوع المألوف عندهم ، مثل الضب والحية والعنز والإبل وما الى ذلك . ومن هنا اختلفت أمثلة الأعراب أهل البادية عن أمثلة الحضر ، أهل المدر ، لاختلاف طبيعة البادية عن طبيعة الريف ، ولوجود أشياء في أحدهما يندر وجودها في المحيط الآخر .

وفي شعر (عدي بن زيد) العبادي أمثلة كثيرة ، تميز شعره عن شعر بقية الشعراء الجاهليين . ولو درسنا شعره ، نجد أن فيه ما يشير الى مواعظ ترد في النصرانية كما ترد على خاطر كل إنسان يصاب بنكبة ، فتهز مشاعره فتجعله ينظر الى الدنيا نظرة زاهد فيها ، ولا استبعد احتمال تأثره بالكتب التي كان قد وقف عليها ، فقد كان نصرانياً « وقد قرأ كتب العرب والفرس »[3] . ولم يذكر أهل

---

١ المزهر (١/٥٠٣) .
٢ المزهر (١/٥٠٤) .
٣ الطبري (٢/١٩٣) ، (دار المعارف) .

الأخبار شيئاً عن (كتب العرب) ، هل أريد بها كتب دينية وضعت في العربية ، أم قصد بها كتب في القصص والأمثال وفي الشعر والأخبار وما شابه ذلك ، ولعلهم أرادوا بكتب الفرس ، الكتب التي تبحث عن قصص ملوكهم . وقد ترجم قسم منها في الاسلام ، وقصص الأساطير . وقد رأينا أنها كانت معروفة عند العرب وان (النضر) كان يقص منها لأهل مكة ، وكانوا يسمونها الأساطير.

ونجد في شعر الشعراء الآخرين أمثلة عديدة دخلت شعرهم ، أخذوها من المثل السائر ، ومن الحكم التي كانت شائعة في أيامهم ، أو من القصص ، أو من مبتكراتهم ومخترعاتهم ، ولا تزال بعض الأمثال الشعرية حية ترزق ، يضرب بها الناس المثل فيما يريدون التمثيل به .

ومن الموارد التي أمدّت الأدب الجاهلي بالمثل ، الكهان ، وكلام الكهان قصير مسجع يميل الى الرمز والألغاز ، يتجنب الصراحة ، لتكون فيه قابلية التفسير والتأويل واعطاء كثير من الاحتمالات ، وذلك لما تقتضيه طبيعة الكهانة من تأويل التكهن حسب الأحوال والمناسبات . ونجد في كتب الأدب أمثلة عديدة منسوبة الى هؤلاء الكهان . ولما كان كلامهم مسجوعاً ، قيل له : « سجع الكهان » . وقد جاء في الحديث النبوي : « هذا من سجع الكهان »[1] . وفي الكهان جماعة من الكاهنات ، عرفن بالتكهن ، مثل : الشعثاء الكاهنة ، وطريفة ، ويذكرون انها هي التي أنذرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه ، وأخبرته بخراب سد مأرب[2] ، وزبراء الكاهنة[3] ، وسلمى الهمدانية الحميرية[4] ، وعفيراء الكاهنة الحميرية[5] ، وفاطمة بنت مر الخثعمية ، وقد ذكروا انها كانت قد قرأت الكتب[6] .

ومن الأمثلة الواردة في كتب الأدب : « إن العصا من العُصية » ، وهو مثل ينسب الى (الأفعى الجرهمي) ، وهو من الكهّان . قاله لما احتكم اليه أولاد (نزار) بمدينة النجران[7] . و « الصيف ضيعت اللبن » ، وأول من قاله (عمرو

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٧٢) .
٢ بلوغ الارب (٣/٢٨٣ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/٢٨٨ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢٩٥ وما بعدها) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢٩٦ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (٣/٣٠٥ وما بعدها) .
٧ نهاية الارب (٣/٧ وما بعدها) .

ابن عدس)[1] ، والمثل « أوسعتهم سبآ وأودوا بالابل » وينسب الى (كعب بن زهير بن أبـي سلمى)[2] ، والمثل « ان الشقي وافد البراجم »[3] . الى غير ذلك من أمثلة تجدها في كتب الأمثال والأدب . ولا يزال بعضها حياً يتمثل الناس به. وبعض منه يرد على لسان كل إنسان . أي أمثلة تنطبق على كل البشر ، لأنهـا صادرة من نفس انسانية عامة،فلا تعدّ من الأمثلة المحلية أو القومية ، أي أمثلة نبعت من محيط أمة معينة . لذلك نجد لها شبهاً عند أمم أخرى . ولا نستطيع أن نقول إن الأمة أخذتها من تلك .

---

١ نهاية الارب (١٣/٣ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (١٧/٣) .
٣ نهاية الارب (١٨/٣) .

الفصل الثامن والعشرون بعد المئة

القصص

والقصص ، مظهر من مظاهر الفكر الجاهلي ، أشير اليه في القرآن الكريم ، وكان شائعاً عند الجاهليين . ودراسته تمكن الدارس من تحليل عقلية صاحب القصص ، وفهم عقلية الزمن الذي شاع فيه . وقد ورد في المؤلفات الاسلامية شيء منه ، وفي بعضه ملامح يمكن ارجاعها الى عناصر أعجمية : دينية ، وغير دينية ، تسرب الى الجاهليين من اتصالهم بالأعاجم ، واتصال الأعاجم بهم .

والقص البيان ، والقاص من يأتي بالقصة على وجهها ، كأنه يتتبع معانيها وألفاظها . وقيل : القاص يقص القصص لأتباعه ، خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً . وقد كان القص شائعاً متفشياً بين الجاهليين والاسلاميين ، وكانوا يقبلون عليه اقبالاً شديداً ، ومن هنا ورد في الحديث « ان بني اسرائيل لما قصوا هلكوا . وفي رواية لما هلكوا قصوا ، أي اتكلوا على القول وتركوا العمل ، فكان ذلك سبب هلاكهم ، أو بالعكس ، لما هلكوا بترك العمل أخلدوا الى القصص »[1] . ولما نزل القرآن : « قالوا : يا رسول الله : لو قصصت علينا ، قال : فنزلت : نحن نقص عليك أحسن القصص »[2] . وذكر ان أصحاب رسول الله سألوه أن يقص عليهم ، فنزل : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ،

١ تاج العروس (٤/٤٢٢) ، (قصص) .
٢ سورة يوسف ، الاية ٣ ، تفسير الطبري (١٢/٩٠) .

« من الكتب الماضية وأمور الله السالفـة في الأمم » . وورد انهـم قالوا له : « يا رسول الله ! حدثنا فوق الحديث ودون القـرآن ، يعنون القصص » فأنزل الله الآية المذكورة[1] . وفي هذا الالحاح على الرسول بأن يقص عليهم ، دلالة على مدى حب الجاهليين واعجابهم بالقصص .

وللجاهليين غايات من الاستماع الى القصص ، منها : العبرة والاتعاظ . والى ذلك أشير في القرآن الكريم : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب »[2] . وقد كان في مكة وفي غيرها قوم يقصون على الناس ويعظونهم ، ولما جاء الاسلام كانوا على عادتهم يقصون لإثارة العقول الى أنباء الماضين وأخبار السالفين، ولإثارة تفكيرهم في الكون وفي الخلق وفي شؤون الحياة، كالذي يظهر من القرآن الكريم: « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »[3] و « نحن نقص عليك أحسن القصص »[4] و « تلك القرى نقص عليك من أنبائها »[5] . ويدخل في هذا النوع القصص الذي يدخلونه في باب (الحكمة) ، ومعناه القصص التعليمي ، الذي يتعظ بـه ، ويستفاد منه ، إذ يعد دروساً تعلم الانسان في حياته وترشده الى النجاح ، ويشمل قصص الماضين ، ما قاموا به من خير ، وما عملوا في أيامهم من شر ، فأصابهم من أجله الهلاك وسوء المصير ، وقصص الأشخاص ، أما القصص المروي عـلى ألسنة الحيوانات على نمط قصص (كليلة ودمنة) ؛ فإننا لا نجد منه مادة غزيرة في القصص المروي عن الجاهليين ، وهو قليـل المادة أيضاً في الأدب الاسلامي ولا سيما في القصص الطويل . وقد نجد بقايا قصص على ألسنـة الحيوانات مروياً في كتب الأدب ، لكنه من النوع القصير الذي لا يمثل نفساً طويلاً في القص . وأغلب الظن انه منتزع من قصص قديم ، فقد طوله ، بسبب قدمه ، فبقيت منه هذه البقايا .

ومن أبواب القصص ، المقال عـلى ألسنة الحيوانات ، كالقصص المقال على لسان (النعامة) ، من انها ذهبت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين . والقصص

---

١ تفسير الطبري (١٢/ ٩٠) .
٢ يوسف ، الاية ١١١ .
٣ الاعراف ، الاية ١٧٦ .
٤ يوسف ، الاية ٣ .
٥ الاعراف ، الاية ١٠١ .

الذي وضعوه عن الغراب ، وعن الضفدع ، والهدهد ، والهديل ، وغير ذلك مما يميل اليه العامة بصورة خاصة ، لما يتركه من أثر في نفوسهم[1] .

ومن القصص ، قصص الملوك والأبطال وسادات القبائل والأيام ، ويلعب قصص الأيام الدور الأول في هذا القصص ، لما له من أثر في العصبية . وكان هذا القصص من أحب القصص الى نفوسهم ، وقد زوّق ونمق ، وتولى قصه قصاصون كانت لهم مواهب خاصة وقابلية على القص والتأثير في النفوس ، وكان أصحاب الرسول حين يتسامرون يتناشدون الشعر ويتذاكرون الأيام ، جرياً على سنتهم في الجاهلية ، وقد استمر هذا القصص الى عهد قريب ، ولا زال معروفاً في القرى وفي بعض الأقطار العربية ، لا سيما في أيام رمضان ، حيث تقرأ قصص أبو زيد الهلالي وقصة عنترة وغيرها في المقاهي ، يقرأها قصاصون متخصصون بأسلوب مؤثر جذاب ، يتلاعبون به في عقول السامعين ، ويثيرون فيهم الحماس ، ينصتون بكل خشوع الى صوت القاص ، يريدون منه سماع المزيد من الأخبار .

وفي قصص أهل الأخبار المنسوب الى الجاهلية ، قصص عن الأسفار وعن مشقات السفر وعن الأهوال التي كان يلاقيها المسافرون في ذلك العهد من الجن والسعالى والغيلان ، وقد رصع بأبيات من الشعر وبقصائد أحياناً ، في وصف تلك المخلوقات الرهيبة المفزعة ، ولم ينس بعض هذا القصص من ايراد شعر لها في محاورة الأشخاص الذين تعرضوا لها ، تجد فيه الجن والسعالى والغيلان، تنظم الشعر بلسان عربي مبين ، وتجيب فيه الشعراء بشعر مثل شعرهم ، قد تظهر رقة وأدباً فيه ، مع ما عرف عن هذه القوى من الميل الى الأذى والشر .

وفي قصصهم قصص له أصل تأريخي ، لكنه لم يحافظ على نقاوته وأصله ، وانما غلب عليه عنصر الخيال فحوّله الى أسطورة ، رصعت بالشعر في الغالب ، وبالجنس ، لتثير الغرائز ، فتقبل الأنفس على سماعها ، ومن هذا القبيل قصص طسم وجديس[2] ، وقصص الزباء ، والتبابعة ، والأقوام الغابرة ، حيث تجد قصصهم في كتب الأخبار والأدب .

وفي أبواب القصص ، باب للمجون والخلاعة ، وأحاديث الهوى والتشبب .

---

١ فجر الاسلام (٦٦) ، (١٩٦٥ م) .
٢ المحاسن والاضداد (١٣٨) .

وهو باب يقدم على سماعه الشبان ، طلاب هذا الفن في هـذا الدور من أدوار الحياة ، أما الشبيبة ومن تقدمت بهم السن ، فإن الجنس ، يكون قد ابتعد عنهم وتركهم في الغالب ، وما تمسكهم به وهم في أرذل العمر ، إلا من باب التذكر بأيام الزمان ، وذكريات الشباب ، لتطرية العمر ، والترويح عن كربة التقدم في السن .

والقاص من الشخصيات المحببة الى نفوس الجاهليين ، يقص على أبناء حيّه القصص المسلية ، مستمداً مادته من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية والتأريخية المأثورة عن العرب،أو عمن جاورهم . ومن ذلك قصص الأقوام القديمة التي بقيت ذكرياتها في أذهان الجاهليين، وقصص الملوك مثل الزباء ، التي كيفت قصتها ، وابتعدت عن التأريخ وقصص جذيمة الأبرش ، وقصير ، وعمرو بن عدي ، والتبابعة وغير ذلك من قصص،له أصل تأريخي ، لكنه تغير وتبدل حتى صار من الأساطير . وهو يصلح أن يكون اليوم موضع دراسة خاصة للوقوف على مقدار عناصر الابتكار والخيال فيه ، ومقدار التحوير الذي ألمّ به ، وسببه ومن أدخله عليه من جاهليين أو مسلمين .

وقصص النوادر والنكات من القصص المعروف عند أهل الجاهلية . وقد اتخذ الملوك والأشراف لهم ندماء عرفوا بإغراقهم في قول الملح والنوادر والأمور الغريبة المضحكة ، حتى اشتهر أمرهم بين الناس ، وحتى بالغ الناس في نسبة النوادر اليهم ، وحوّلوا بعضهم الى شخصيات أسطورية ، من كثرة ما تقولوا عليهم وما نسبوه اليهم . ومنهم من سجلت كتب أهل الأخبار والأدب أسماءهم ، لما حصلوا عليه من شهرة بين الناس في أيامهم . منهم (سعد) المعروف بـ (سعد القرقرة) هازل (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، كان يضحك منه[1] . ذكر أنه كان من أهل (هجر) ، فدعا النعمان بفرسه اليحموم ، وقال له : اركبه واطلب الوحش ، فقال سعد اذن والله أصرع . فأبى النعمان إلا أن يركبه . فلما ركبه سعد نظر الى بعض ولده قال : وا بأبي وجوه اليتامى ، ثم قال :

نحن بغرس الوديّ أعلمنا منّا بركض الجياد في السدف[2]

---

١ تاج العروس (٤٨٩/٣) ، (قرر) .
٢ تاج العروس (١٣٦/٦) ، (سدف) .

وفيه قال الشاعر (أبو قُردُودة) ، وكان (سعد القرقرة) قد أكل عند النعمان بن المنذر مسلوخاً بعظامه :

بين النعامِ وبين الكلب منبته   وفي الذئب لـه ظئر وأخوال[1]

ومنهم (النعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحرث) من (بني النجار) مـن يثرب ، المتوفى في أيام (معاوية) . كان هازلاً ومازحاً لطيفاً . ذكر أنه كان لا يدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها ثم جاء بها الى النبي ، فيقول ها أهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمان بثمنها أحضره الى النبي ، وقـال : اعطِ هذا ثمن متاعه ، فيقول : أولم تهده لي ! فيقول : إنه واللهِ لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه . ودخل أعرابي عـلى النبي ، وأناخ ناقته بفنائه ، فقال بعض الصحابة للنعيمان لو عقرتها فأكلناها ، فإنا قد قرمنا الى اللحم . ففعل . فخرج الأعرابي وصاح واعقراه يا محمد ! فخرج النبي ، فقال : من فعل هذا ؟ فقالوا النعيمان فاتبعه يسأل عنه حتى وجده قـد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد. فأشار رجل الى النبي حيث هو فأخرجه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلوك عليّ يا رسول الله ، هم الذين أمروني بذلك . فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك ، ثم غرمها للأعربي . وروي أن (مخرمة بن نوفل) كان قد كبر وقد عمي،فقام في المسجد يريد أن يبول ، فصاح به الناس المسجد المسجد ! فأخذه نعيمان بيده وتنحى به ، ثم أجلسه في ناحية أخرى من المسجـد فقال له : بل ههنا . فصاح به الناس . فقال : ويحكم فمن أتى بـي الى هـذا الموضع ! قالوا : نعيمان . قال : أما إن لله عليّ إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت . فبلغ ذلك نعيمان . فمكث مـا شاء الله ، ثم أتاه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحيـة المسجد . فقال لمخرمة : هل لك في نعيمان . قال : نعم . فأخذ بيده حتى أوقفه على عثمان ، وكان إذا صـلى لا يلتفت . فقال : دونك هذا نعيمان فجمع يده بعصاه فضرب عثمان فشجه ، فصاحوا بـه ضربت أمير المؤمنين[2] .

---

١ الحيوان (١٤٧/١) .
٢ الاصابة (٥٤٠/٣) ، (رقم ٨٧٩٠) .

وروي ان (أبا بكر) خرج تاجراً الى (بصرى) ومعه (نعيمان) و (سويبط ابن حرملة) ، وكان (سويبط) على الزاد ، فجاءه (نعيمان) ، فقال : أطعمني . فقال : لا،حتى يجيء (أبو بكر) ، فقال : لأغيظنك ، فذهب الى ناس جلبوا ظهراً . فقال : ابتاعوا مني غلاماً عربياً فارهاً ،وهو ذو لسان ولعله يقول أنا حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تفسدوا عليّ غلامي. فقالوا : بلى نبتاعه منك بعشر قلائص ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم هو هذا . فجاء القوم . فقالوا : قد اشتريناك ، فقال سويبط: هو كاذب أنا رجل حر . قالوا : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل في رقبته فذهبوا به . وجاء أبو بكر ، فأخبر . فذهب هو وأصحاب له فردّوا القلائص وأخذوه . فضحك النبي وأصحابه من ذلك حولاً[1] .

وبعض القصص الشائع المتواتر عن الجاهليين ، مثل قصة يومي البؤس والنعيم، وقصة (شريك) مع الملك (المنذر) ، وقصة (سنمار) وأمثال ذلك ، قصص وان اقترن بأسماء جاهلية ، إلا ان أصوله غير عربية ، دخلت العرب من منابع خارجية ، من منابع يونانية وفارسية ، ونصرانية ، وهو أيضاً من القصص الوارد عند شعوب أخرى ، بدليل وجود شبه ومثيل له في أساطير الأعاجم ، وفي حكايات النصارى[2] .

وقاص ذلك اليوم ، هو أديب الحي ، وأديب القوم ، وهو لا بد أن يكون من أصحاب المواهب والفطنة،وممن رزق موهبة التأثير على القلوب بفضل ما رزق من حسن عرض الكلام وتخريج القصص ، وتنسيقها . واظهار الأدوار البارزة للأبطال ، وعرضها بأسلوب مشوق مرغب ، تنسي السامع كل شيء إلا تتبع الحكاية . ولا بد وأن يملّح القاص قصصه بادخال شيء من الشعر فيها ، لا سيما شعر الفرسان والحروب والمغامرات .

ولا نعرف من أسماء قصاص الجاهلية أسماء كثيرة،وأشهر اسم نعرفه هو اسم (النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) . (النضر بن الحارث

---

١ الاستيعاب (٥٤٣/٣ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ فجر الاسلام (٦٧) ، (١٩٦٥ م) .

ابن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي)[1] ، وكان من (شياطين قريش) ، أي أذكيائهم ، وممن يؤذون الرسول ، وكان يحدث قريشاً بأحاديث رستم واسفنديار وما تعلم في بلاد فارس من أخبارهم[2] ، ويزعم ان في استطاعته ان يأتي بمثل ما أتى به الرسول من أمر القرآن ، فأشير اليه في الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إليّ ولم يوح اليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »[3] ، وذكر ان كل ما ذكر في القرآن من (الأساطير) ، فإنما قصد به (النضر) ، وقد نزلت في حقه ثماني آيات[4] ، تدل على انه كان يتحدى الرسول ويخاصمه ويقول في القرآن انه من صنع محمد ، وكان يأتي بقصص يزعم انه يضاهي بها كتاب الله . وقد أرسلته قريش مع (عقبة بن أبي معيط) الى يهود (يثرب) ليأخذا منهم من أمور التوراة والدين ما يجادلا به الرسول ، فعلموهما ما يجب أن يسألا به ، فجاءا وسألا الرسول وحاججاه ، وقد أشير الى هذه المحاججة في القرآن[5] .

وقد أمر الرسول بقتل (النضر) ، فقتله (عليّ) وهو بالصفراء ، فقالت فيه (ليلى) ابنته ، أو (قتيلة) ابنته ، وهي ابنته في رواية ، أو أخته في رواية أخرى ، شعراً تبكيه وتتوجع فيه على قتله . أوله :

يا راكباً ان الأثيل مظنّة من صُبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميّتاً بأن قصيدة ما ان تزال بها الركائب تخفق
فليسمعن النضر ان ناديته إن كان يسمع ميت لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق
قسراً يقاد الى المنيّة متعباً رَسْفَ المقيد وهو عان موثق
أمحمد ها أنت ضَنْءُ نجيبةٍ في قومها والفحل فحل معرق

---

1 الاشتقاق (٩٩) ، كتاب نسب قريش (٢٥٥) ، ابن هشام (١/١٨٨ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .
2 الروض الانف (١/١٨٨) .
3 الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٣ ، الروض الانف (١/١٨٩) ، ابن هشام (١/١٨٩ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .
4 ابن هشام (١/١٩٠) ، (حاشية على الروض) .
5 ابن هشام (١/١٩٠) ، (حاشية على الروض) .

ما كان ضرك لو مننت وربما   منّ الفتى وهو المغيظ المُحنق
فالنضر أقربُ من تركت قرابة   وأحقهم إن كان عتق يعتق[1]

وورد اسم رجل أدخل للمسلمين القصص الديني ، هو (تميم بن أوس بن خارجة) الداري[2] ، ذكر أنه أسلم سنة تسع من الهجرة ، وأنه كان نصرانياً ، وانه لقي النبي ، فقص عليه قصة الجسّاسة والدجّال . وذكر انه كان يترهب ويسلك مسلك رجال الرهبانية حتى بعد إسلامه ، وانه استأذن الخليفة (عمر) أو الخليفة (عثمان) في أن يذكر الناس في يوم الجمعة ، فأذن له ، فكان يقص في مسجد الرسول . وكان بذلك أول من قص في الإسلام . وروي أنه أول من أسرج السراج في المسجد[3] . وكان قد قدم مع أخيه (نعيم) الداري في وفد الداريين على الرسول منصرفه من تبوك[4] . وكان مقامه في الشام ، وربما وضع القصص على اسمه[5] .

وهذا النوع من التذكير والوعظ والارشاد القائم على الترغيب والترهيب بذكر أساطير الأولين والقصص والحكايات والغرائب والعجائب والقصص المتعلق بالحيوانات أو المدون على ألسنتها،هو نوع من الوعظ الذي كان يقوم به رجال الدين اليهود والنصارى في تهذيب أبناء دينهم وفي ارشادهم الى سواء السبيل،على نحو ما كانوا يتخيلونه ويتصورونه . ومن مدرستهم في الوعظ ، تعلم صاحبنا تميم علمه هذا على ما يظهر .

ويمكن الوقوف على طبيعة قصص (تميم) ونوعيته وعلى درجة ثقافته ومقدار عقليته بالرجوع الى ما نسب اليه من قصص ، وما ورد على لسانه من وعظ . ولكننا لا نجد في الكتب مادة من قصصه تكفي للحكم بموجبها على نوعيته . ولكننا

١ البيان (٤/٤٣ وما بعدها) ، الحصري ، زهر الاداب (١/٢٧) ، الاغاني (١/٩) ، العمدة (١/٣٠) .
٢ « تميم بن أوس بن حارثة ، وقيل خارجة بن سود ، وقيل سواد بن جذيمة بن دراع ابن عدى بن الدار ، أبو رقية الداري » ، الاصابة (١/١٨٦) ، (رقم ٨٣٧) .
٣ الاصابة (١/١٩١) ، أسد الغابة (٢/٢١٥) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٧٥) .
٤ الاصابة (٣/٥٣٦) ، (رقم ٨٧٧٠) ، صحيح مسلم ، شرح النووي ، (٥/٤٢٠ وما بعدها) .
٥ مسالك الابصار (١/١٧٢) ، البخلاء (٣١٣) .

لا نستبعد أن يكون قد خلط بين القصص النصراني وبين الأساطير العربية . فقد كان نصرانياً ، يسمع أقوال وعّاظ الكنائس ، فتعلم منهم ، وطبق ما تعلمه في الاسلام .

وذكروا ان (الأسود بن سريع بن حمير (خمير) بن عبادة بن النزال) التميمي السعدي ، كان قاصاً ، وكان شاعراً مشهوراً ، وهو من الصحابة ، وكان أول من قص في مسجد البصرة . قيل انه مات سنة اثنتين وأربعين[1] . ولعله كان من النصارى كذلك .

ويجب أن نشير الى قاص آخر هو (عبيد بن شرية الجرهمي) ، وان كان من المتأخرين . فقد كان في أيام (معاوية) ، وقد كان من الملازمين له . وكان الخليفة يحن اليه ، ويتلذذ بسماع قصصه عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة ، وأمر افتراق الناس في البلاد . وهو شخص لا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وذكر (ابن النديم) أنه عاش الى أيام (عبد الملك بن مروان) ، وأن معاوية أمر غلمانه بتدوين ما كان يقصه وينسب اليه . وله من الكتب : كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين[2] .

١ الاصابة (١/٥٩ وما بعدها) ، (رقم ١٦١) ، الاستيعاب (١/٧٢) ، البيان والتبيين (١/٦٧) .
٢ الفهرست (ص ١٣٨) .

الفصل التاسع والعشرون بعد المئة

الطب والبيطرة

والطب من العلوم المطلوبة في كل زمان ومكان ، لما له من صلة بحياة الانسان. ولعلماء اللغة آراء في معنى (الطب) وقد ذكروا أن من المجاز : الطب بمعنى السحر ، قال ابن الأسلت :

ألا من مبلغ حسان عني   أطب كان داؤك أم جنون[1]

فوجدوا أن بين الطب والسحر صلة . وهو تعبير عن مداواة الأمراض في السابق بالسحر ، فقد كان الساحر طبيباً ، يداوي المرض ويشفي المريض بسحره، وكذلك كان الكهان يداوون المرضى ، ولا زال الناس يعتقدون بأثر السحر في مداواة المرض ، فيراجعون من يدعي العلم بالسحر لنيل الشفاء[2] .

وكان الطب ، في ذلك الزمان ، شرف ، فللطبيب مكانة كبيرة عند الجاهليين. قال (المرتضى) في حديثه عن زهير بن جناب : « كان سيد قومه ، وشريفهم، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم الى الملوك ، وطبيبهم . والطب في ذلك الزمان

---

١ وورد : « اسحر كان طبك » ، تاج العروس (١/٣٥١) ، (طب) .

٢ ارشاد الساري (٨/٣٦٠) .

شرف ، وحازي قومه ، والحُزاة الكهان »[1] . فهو قد جمع خلالاً كثيرة وفي جملتها الطب والكهانة . وقد كان الكهان يداوون المرضى ، فكان كهنة مصر يعالجون المرضى ويطببونهم ، لاعتقادهم ان الأمراض هي من الآلهة ، تصيب الانسان فلا تشفيه منها إلا التوسلات اليها باشفائه ، وحيث ان المقربين اليها هم الكهنة ، لذلك لجأ المرضى اليهم لاشفائهم . ونجد في النصوص العربية الجنوبية توسلات كثيرة وتضرعات الى الآلهة ، لأن تمنّ على المتوسلين اليها بالصحة والعافية ، وبالشفاء من الأمراض التي نزلت بهم ، وأن تحميهم من الأوبئة التي تفشت بين الناس ، فأخذت تميتهم .

ولا بد وأن يكون السحرة والحزاة والكهنة في الجاهلية ، هم الذين مارسوا الطب ، وعالجوا المرضى ، بالسحر وبالأدعية ، أو بالأدوية التي أخذوها عمن سبقهم ومن تجاربهم الخاصة . ونحن نأسف لأن نقول إن النصوص الجاهلية لم تعطنا حتى الآن نصوصاً طبية ، أو نصوصاً فيها وصفات أدوية الشفاء من الأمراض .

والطب ، هو من فروع العلم المحظوظة بالنسبة الى فروع العلم الأخرى عند الجاهليين . فقد أشير اليه ، وأشير الى اسم نفر من الأطباء ، هم : الحارث بن كَلَدة الثقفي ، والنَّضْر بن الحارث ، و (ابن أبي رمثة التميمي) و (ضماد) وكلهم ممن عاصر الرسول وأدرك زمانه ، وبفضل هذه المعاصرة ، ذكرت أسماؤهم في كتب الحديث والسير والأخبار ، ولولاها لكان شأنهم شأن غيرهم ممن لم يصل اسمهم الي أحد ، فصاروا نسياً منسياً .

وذكر ان رجلاء جاء الى النبي ، فرأى بين كتفيه خاتم النبوة . فقال : إن أذنت لي عالجتها فإني طبيب . فقال له النبي ، طبيبها الذي خلقها ، معناه العالم بها خالقها الذي خلقها لا أنت[2] .

أما الحارث بن كلدة الثقفي ، فإنه من ثقيف ومن أهل الطائف . ذكر أنه سافر إلى البلاد ، وتعلم الطب بناحية فارس على رجل من أهل جُنْدَيْسابور ، وغيرها .

---

١ أمالي (١/٢٣٨) .
٢ اللسان (١/٥٥٣) ، (طبب) ، تاج العروس (١/٣٥٢) ، (طبب) ، « فان يك بك طب داويتك ، فاني أطب العرب » ، الطبري (٢/٢٩٧) .

وتمرن هناك ، وطب بأرض فارس ، وعالج وحصل له بذلك مـال ، وعرف الداء والدواء . وكان صاحب حسّ مرهف ، وموسيقياً يضرب بالعود . تعـلم ذلك بفارس واليمن .

قيل إن سعد بن أبي وقّاص مرض بمكة ، فعاده رسول الله ، فقال له : أُدْعُ الحارث ، فإنه يتطبب . فعاده الحارث وداواه فشفاه . ونسبوا له كلامـاً مع كسرى أنو شروان . وقيل : إنه هو القائل : « الطب : الأزم ، والبطنة بيت الداء ، والحِميّةُ رأس الدواء ، وعوّدوا كل بدن ما اعتاد » ، وأشياء أخرى تنسب الى فلاسفة متقدمين ، ولحكماء من العرب غير الحارث[1] .

وقيل إن من حكمه : « خير الدواء الأزم ، وشرّ الدواء إدخال الطعام على الطعام » . وقيل إنه وصى ولده بقوله : « يا بني عوّد نفسك الأثرة ومجاهدة الشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ، ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال . إن الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة، واحذر سرعة الكظة وسرف البطنة ، فقد قال بعض الحكماء : إذا كنت بطيناً فعد نفسك مع الزمنى »[2] . ومن حكمه قوله: « لا تنكحوا من النساء إلا الشابة، ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتي ، ولا من الفاكهة إلا النضيج »[3] .

وقد نسبوا الى الحارث كتاباً ، هو كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنو شروان[4]،ولم يشيروا الى مضمونه ومحتوياته وحجمه . والظاهر أنه هذه المحاورة التي دبجوها في ترجمته ، ونسبوها اليه ، وزعموا أن كسرى أمر بتدوين مـا نطق به[5] .

---

١ عيون الانباء لابن أبي اصيبعة (١٠٩/١ وما بعدها) ، أخبار الحكماء (ص ١١١ وما بعدها) ، ابن صاعد (ص ٤٧) ، ابن جلجل (ص ٥٤ وما بعدها) ، ابن القفطي تاريخ الحكماء (ص ١٦١ وما بعدها) ، ابن العبري (ص ١٥٦ وما بعدها) ، ابن حجر ، الاصابة (٢٨٨/١) ، بلوغ الارب (٣٢٨/٣ وما بعدها) ، شرح ديـوان لبيد (ص ١٠٢) .

٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٥٦) .

٣ المحاسن والاضداد (١١٠) .

٤ عيون الانباء (١١٠/١ وما بعدها) .

٥ ابن أبي أصيبعة (١١٢/١) ، بلوغ الارب (٣٢٨/٣ وما بعدها) ، العقد الفريـد (٣٧٣/٦) .

وقد ذكر أن الحارث بن كلدة كان شاعراً ذا حكمة في شعره ، وقد أورد الآحدي له أبياتاً في أثناء ترجمته له[1] . وذكره (أبو العلاء المعري) في (رسالة الغفران) ، ونسب له قوله :

فما عسل ببارد ماء مزن   على ظمأ ، لشاربه يُشاب
بأشهى من لقيكم الينـا   فكيف لنا به ومتى الإياب[2]

وذكر الأخباريون ، ان (الحارث) هذا ، كان قد داوى الملك (أبا جبر) الكندي ، وكان ملكاً شديد البأس ، فخرج الى كسرى يستجيشه على قومه فأعطاه جيشاً من الأساورة ، فلما بلغوا (كاظمة) سمّوه ، ثم تركوه وعادوا ، فسار (أبو جبر) الى (الطائف) ، ليداويه (الحارث بن كلدة) ويشفيه ، فداواه فبرىء وارتحل يريد اليمن فنكس ومات . فرثته عمته (كبشة)[3] .

وقد عاصر رسول الله ، وفي بعض الروايات أنه أسلم ومات مسلماً في خلافة (عمر) ، وأنه أكل مع (أبي بكر) وانه شهد ان (ابا بكر) مات مسموماً[4] وأنه خرج مع النساء حينما حاصر المسلمون الطائف سنة تسع للهجرة . وأنه عاش الى أيام معاوية في رواية . وان (آل نافع) و (آل أبي بكرة) كانوا يزعمون أنهم من نسله[5] .

وأما النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي فهو ابن خالة الرسول . وكان النضر قد سافر البلاد أيضاً كأبيه ، واجتمع بالأفاضل والعلماء بمكة وغيرها ، وعاشر الأخبار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه ما كان يعلمه من الطب وغيره وكان يؤاتي أبا سفيان في عداوة النبي ، ويحسده ، ويكثر الأذى له ، ويتكلم فيه بأشياء كثيرة ، ويحط من قدره عند أهل مكة . فلما كانت وقعة بدر ، كان على رأس

---

١ المؤتلف والمختلف (ص ١٧٢) .
٢ (١٦٦) ، (تحقيق بنت الشاطىء) .
٣ نزهة الجليس (١/٤٨٤) .
٤ الطبري (٣/٤١٩) « ذكر مرض أبي بكر ووفاته » .
٥ الاشتقاق (ص ١٨٥) ، مختصر ابن العبري (ص ١٥٦) ، أخبار الحكماء ، لابن القفطي (١٦١) ، Die Araber IV, S. 33.

المشركين ، فوقع أسيراً ، ولما كان الرسول بالصفراء أو الأثيل ، أمر بقتله ، فقتل[1] .

وقد نسب بعض أهل الأخبار (النضر بن الحارث) على هذه الصورة : (النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار)[2] ، وقالوا إنه من أشراف قريش وأسيادها ، وكان من مطعمي (بني عبد الدار)[3] ، ونصوا أنه « كان من كفّار قريش شديد العداوة لرسول الله »[4] ، وانه كان ابن خالة الرسول ، ولهذا فلا يمكن أن يكون هذا النضر ابناً للحارث بن كلدة الثقفي ، الذي هو (الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج) على رواية من ضبط نسبه من أهل الأخبار[5] . ثم إن (الحارث بن كلدة الثقفي) ، لم يخلف إلا ابنة يقال لها أزدة ، على ما ذكره (أبو عبيدة)[6] ، لذلك فلا يمكن أن يكون (النضر بن الحارث) ابناً له ، كما ذهب الى ذلك (ابن أبي أصيبعة) وغيره[7] ، لا سيما وان (ابن أبي أصيبعة) نفسه قد جعله في عداد المشركين من قريش الذين آذوا الرسول ، وذكر انه ابن خالة النبي ، وأنه آذاه وساهم مع المشركين في معركة بدر ، فأسر . وأن أخته (قتيلة) قد رثته بشعر دوّنه، كما دوّنه غيره[8]. وما دوّنه عنه ، دوّنه غيره من ترجمة (النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف بن عبدار) القرشي ،وتجده مذكوراً مع شعر الرثاء في كتاب (نسب قريش)

---

١ عيون الانباء (١/١١٣ وما بعدها) ، البلاذري (١/١٤١) ، شمس العلوم (١/٧٩) بلوغ الارب (٣/٣٣٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٩٩) ، شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (٣/٣٤٨) ، البيان والتبيين (٢/٢٣٦) ، (٤/٤٣) ، (عبد السلام هارون) ، البلدان (١/١١٢) ، شرح ديوان الحماسة ، للتبريزي ، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٤/٤١) .

٢ نسب قريش ، للزبيري (٢٥٥) ، ابن هشام ، سيرة (١/٣٢٠) ، (النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) .

٣ سيرة ابن هشام (١/٣٢٠) ، (٢/٣٢٠) .

٤ الاشتقاق (٩٩) .

٥ الاشتقاق (١٨٥) .

٦ الاشتقاق (١٨٥) .

٧ عيون الانباء (١٦٧) ، (النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي) .

٨ عيون الانباء (١٦٧ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (٢/٢٩٧ وما بعدها) .

للزبيري[1]. وهو من العلماء بنسب قريش ومن المتقدمين على (ابن أبي أصبيعة)[2].

وفي رواية يرجع سندها الى (الكلبي) و (مقاتل) ، أن في حق (النضر ابن الحارث) ، نزلت الآية « ومن الناس من يشتري لهو الحديث »[3] . فقد قيل : « إنه كان يخرج تاجراً الى فارس،فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ، ويقول لهم : إن محمداً ، عليه السلام ، يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة،فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن »[4] . وقد نزلت في حقه ثماني آيات[5]، يفهم من تفسير علماء التفسير لها ، أنه كان ذكياً لبقاً و (شيطاناً) من شياطين قريش ، له علم بالشعر وبأخبار الأمم ، يراجع أحبار اليهود وعلماء النصرانية ، ليزيد بذلك علماً على علمه، وكان يعتقد لذكائه وعلمه أنه أحق بالدعوة من النبي ، وحسده وصار يعاكسه في كل مكان .

ووصف بأنه صاحب أحاديث ونظر في كتب الفرس . كان يحدث ، ثم يقول : أينا أحسن حديثاً : أنا أم محمد ؟ ويقول : إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين . وقيل : إنه كان يقول إنما يعينه على ما يأتي به في كتابه هذا جبر ، غلام الأسود بن المطلب ، وعداس غلام شيبة بن ربيعة ، ويقال : غلام عتبة ابن ربيعة ، وغيرهما . فأنزل الله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسانُ الذي يُلحِدون اليه أعجميٌ وهذا لسان عربي مبين »[6] . وكذلك « قال الذين كفروا إن هذا الا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا : أساطير الأولين ، اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً »[7]، وروي أنه كان يحدث قومه أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار[8] . وعلى هذا ، فلم يكن النضر ، في عداد الأطباء ، وإنما كان في عداد الواقفين

---

1 (ص ٢٥٥) .
2 (١٥٦ ـ ٢٣٦ هـ) .
3 سورة لقمان ، الاية ٦ .
4 أسباب النزول (٢٥٩) ، (سورة لقمان) .
5 سيرة ابن هشام (١/٣٢٠ وما بعدها) .
6 النحل ، الاية ١٠٣ .
7 الفرقان ، الاية ٤ وما بعدها ، البلاذري (١/١٤١) .
8 ابن هشام (١/٣٢٠) .

على أساطير الفرس ولغتهم ، ولا تستبعد مع ذلك عنه مزاولة الطب ، لأن المثقفين في ذلك الوقت ، كانوا يعالجون ويدرسون مختلف العلوم والمعرفة .

وأما ابن أبي رمثة التميمي ، فكان طبيباً على عهد الرسول مزاولاً لأعمال اليد وصناعة الجراح[1] . ولم يذكروا عنه شيئاً غير هذا المذكور . وذكر من الأطباء طبيب يقال له ابن حِذْيم ، من تيم الرباب . قيل : إنه حاز على شهرة واسعة بين الجاهليين ، وانه ذكر في شعر لأوس بن حجر ، هو :

فهل لكم فيهــا إليّ ، فإنني طبيب بما أعيا النطاسي حِذيما[2]

وزعم انه كان أطب العرب ، وانه كان أطب من الحارث بن كلدة ، حتى ضرب بطبّه المثل ، فقيل : أطبّ من حِذْيم . وذكر أنه كان بارعاً في الكي ، فقيل : أطبّ في الكي من ابن حِذيم[3] . وقيل هو انه كان من (تيم الرباب) وكان متطبياً عالماً ، وهو أقدم من الحارث بن كلدة . وقد جعله بعضهم (ابن حذام) (ابن حمام) الشاعر المذكور في شعر (امرىء القيس) ، وهو خطأ ورد من باب التصحيف[4] .

ويظهر من كتب الحديث والأخبار والتراجم ، ان هناك نفراً آخرين مارسوا التطبيب في أيام النبي . فقد أشير الى نفر من قبيلــة أنمار زاولوا الطب في أيام الرسول[5] . وذكر ان النبي بعث الى أبيّ بن كعب طبيباً ، فقطع له عرقاً ، وكواه عليه[6] .

وأشير الى اسم طبيب آخر ، عرف بـ (ضماد بن ثعلبة الأزدي) ، ذكر أنه كان يداوي ، وانه جاء الى رسول الله[7] . وانه كان صديقاً للنبي في الجاهلية ،

---

١ عيون الاطباء لابن أبي اصيبعة (١/١١٦) ، ابن جلجل (ص ٥٧) ، ابن صاعد (ص ٤٧) ، ابن القفطي (٤٣٦) ، تهذيب التهذيب (١٢/٩٧) ، مسند ابن حنبل (٤/١٦٣) ، اللسان (٦/٢٣٢) .
٢ تاج العروس (٨/٢٣٨) ، (حذم) .
٣ بلوغ الارب (٣/٣٣٧) .
٤ الخزانة (٢/٢٣٢) ، (بولاق) .
٥ ابن جلجل (ص ٥٤) .
٦ ابن جلجل (ص ٥٨) ، زاد المعاد (٣/٨٤) .
٧ نهاية الارب (١٨/٧ وما بعدها) ، (١٧/٣٥٠) .

وكان من أزد شنوءة . وكان رجلاً يتطبب ويرقي ويطلب العلم ، ويداوي من الريح . وقد أسلم . وكان محترماً مقدراً . ذكر أن بعثاً بعثه رسول الله أو ابو بكر ، مرّ ببلاد ضماد ، فلما جاوزوا تلك الأرض . وقف أميرهم ، فقال : أعزم على كل رجل أصاب شيئاً من أهل هذه الأرض إلا ردّه ، لمكانة هذا الرجل ولشرفه ولصداقته للرسول [١] . « وروي انه قدم مكة معتمراً ، فسمع كفار قريش يقولون: محمد مجنون ، فقال : لو أتيت هذا الرجل فداويته . فجاءه فقال له : يا محمد إني أداوي من الريح فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك . فتشهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً ، فقال : أعِدها عليّ ، فأعادها عليه فقال : لم أسمع مثل هذا الكلام قط ، لقد سمعت الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط »[٢] .

ولا يستبعد تعلم هؤلاء الأطباء في جنديسابور مركز الطب والعلوم في الانبراطورية الساسانية ، او في أماكن من بلاد الشأم ، فقد كان الطبيب الحاذق محتاجاً في هذا اليوم الى تعلم هذا العلم في أماكن متعددة للاستفادة من تجارب الأطباء . وقد كان السفر متصلاً غير منقطع،فلا يستبعد قدوم الأطباء وطلاب الطب من جزيرة العرب الى هذه الأماكن للتعلم فيها .

واشتغلت النساء بالمعالجة والتطبيب أيضاً . فقد قامت (رفيدة) تداوي جرحى المسلمين يوم ذهابهم الى (بني قريظة)[٣] . وكانت امرأة تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وكانت لها خيمة في المسجد، مسجد الرسول بيثرب تداوي بها الجرحى . ولما جرح (سعد بن معاذ) يوم الخندق ، قال رسول الله : « اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد حتى أعوده من قريب » ، وكان الرسول يزوره في خيمتها في الصباح وفي المساء[٤] .

واشتهرت (زينب) ، وهي من (بني أود) بالطب . كانت تطبب وتعالج العين والجراح[٥] .

---

١ الاصابة (٢٠٢/٢) ، (رقم ٤١٧٧) ، الاستيعاب (٢٠٩/٢) ، حاشية على الاصابة .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٤١/٤) .
٣ نهاية الارب (١٩١/١٧) .
٤ الاصابة (٢٩٥/٤) ، (رقم ٤٢٤) .
٥ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٤٠/١) ، (١٩٥٧ م) .

والوجع المرض المؤلم[١] ، والعرب تسمي كل مرض وجعاً[٢] ، ويعبر عنه بالسقام كذلك[٣] . وذكر أن (الوعك) الحمّى او ألمها وأذاها ومغثها في البدن ، وذكر ان الوعك لا يكون إلا من الحمّى دون سائر الأمراض[٤] .

وقد عالج الأطباء الجروح بوضع الخرق بعضها فوق بعض على الجرح ، أي بتضميده بها ، ويقال لذلك (الغميل) . وكانوا إذا ارادوا تعريق المريض،غملوه[٥]، اي غطوه بالثياب ليعرق ، فيشفى من البرد والزكام . والضماد العصابة او الخرقة تشد فوق الجرح او الرأس ، او اي موضع من الجسم يشتكي من وجود ألم به، فكانوا يضمدون الرأس للصداع ، كما كانوا يضمدون العين ، بوضع الدواء في العين ، أو على الخرقة ثم تضميد العين بها ، ورد ان (طلحة) ضمد عينيه بالصبر ، كذلك كانوا يضعون الأدهان على الضماد،لتضميد الجروح ، أو الأورام او موضع الألم[٦] .

ويذكر علماء اللغة أن (النطاسي) ، العالم الشديد النظر في الأمور[٧] ، فهي بمعنى الحاذق . ويقال : طبيب نطّيس ونطاسي ، وورد : نطس الاطباء . وهي أكثر ما ترد مع الاطباء ، للدلالة على الحذق والفهم في هذه الصناعة . وذكر علماء اللغة ان اللفظة من المعربات ، عربت من أصل (نسطاس) ، وهي من لغة الروم . والنُطس الاطباء الحذاق ، والعالم بالطب بالرومية[٨] .

ولعدم وصول كتب او صحف او أحجار لها علاقة بالطب عند الجاهليين ، اضطررنا الى أخذ معارفنا في الطب من الموارد الاسلامية ، مثل كتب التفسير والحديث والادب ، ففيها إشارات الى بعض الامراض ، وفي بعضها اشارات الى معالجة بعض منها . هذا ، وتفيدنا الموارد الاعجمية في هذا الباب كثيراً ،

---

١ تاج العروس (٥/٥٣٣) ، (وجع) .
٢ ارشاد الساري (٨/٣٤٣) .
٣ تاج العروس (٨/٣٣٦) ، (سقم) .
٤ ارشاد الساري (٨/٣٤٣) ، تاج العروس (٧/١٩٢) ، (وعك) .
٥ تاج العروس (٨/٥٠) ، (غمل) .
٦ تاج العروس (٢/٤٠٥ وما بعدها) ، (ضمد) .
٧ بلوغ الارب (٣/٣٣٨) .
٨ تاج العروس (٤/٢٥٨) ، (نسطاس) ، (نطس) ، (٦/٣١٠) .

لورود أمراض فيها وطرق معالجة ، كانت معروفة وشائعة في الشرق الأوسط قبل الإسلام . ونجد في المعجمات الخاصة بالعهدين القديم والجديد وفي تواريخ الطب القديم معلومات ذات أهمية كبيرة بالنسبة الينا ، لأنها تعيننا على تكوين رأي في الطب عند الجاهليين .

والمذكورون ، هم أطباء نشأوا في المدن ، وأقاموا في الحضر ، وتعلموا من أطباء محترفين . أما الأعراب ، فقد كان لهم أطباء ، ولكن طبهم ، هو طب العرف والعادة . طبّ موروث ،يداوي بالوصفات التي داوى بها الآباء والأجداد، دون تغيير وتبديل وجدل ونقاش . ولهذا ، فهو طب بدائي تقليدي موروث ، يعتمد في مداواته على قدرة القبيلة،وعلى ما يجده الطبيب حوله من نبات وأعشاب وحيوان ونار فيداوى بها . وما زال الأعراب على طبّهم هذا ، يداوون به على نحو ما داوى أجدادهم وأجداد أجدادهم في الاسلام وقبل الاسلام .

وليس لطب البادية اتصال بالطب الخارجي ، إلا ما كان من طب القبائل القاطنة على مقربة من الحواضر ، أو القبائل التي كان لها اتصال مباشر منتظم أو غير منتظم بالعالم الخارجي . فقد تسرب الى علم (العوارف) فيها نفح من الطب الغريب ، عالج به (عوارف) القبيلة ، واستمروا على المعالجة به ، حتى صار سنّة لهم وطباً قبلياً . ومن أهم صفات الطب القبلي ، انه طب لا يثق إلا بنفسه ، ولا يرى الشفاء إلا من أطبائه وبأدويته المتعارفة عنده . والمريض الأعرابي لا يعمل إلا بطب أصحاب الخبرة من الشيبة والعجائز الذين عرفوا بممارستهم معالجة المرضى. وللسن عندهم قيمة في نجاح المعالجة والحصول على الشفاء ، فالسن تجربة وعلم . ولذلك فللمسن المعالج الذي يرجع اليه عند الشكاية من الألم والمرض ، تأثير كبير على المريض من الناحية النفسية،لاعتقاده بأن السنين تزيد في خبرة الانسان وتضيف الى علمه القديم علماً جديداً . لذلك يثق المرضى به ، مع ان طب الأعراب ، لا يعرف البحث والمطالعة لزيادة العلم ، ولا يركن الى التجديد بالحصول على معارف طبية جديدة ، بدراسة أثر أعشاب البادية بصورة مستمرة في شفاء المرضى واستخلاص النتائج من مراقبة تأثير الدواء على حالة المريض .

وقد عرف طب البادية بـ (طب الأعراب) وبطب البادية ، وعرف دواء الأعراب بدواء أهل البادية . وهو دواء نابت من محيطهم يستند على المعالجة بالأعشاب وبالرماد وبالألبان وبأبوال الإبل وبالحرز . ومن أدويتهم (النهاء) دواء

يكون بالبادية يتعالجون به ويشربونه . ويظهر انه من حجر يقول له (النهاء) ، وهو حجر أبيض أرخى من الرخام ، يكون بالبادية ، ويجاء بـه من البحر . وضرب من الخرز[1] .

و (العقار) و (العقاقير) الأدوية . وقيل ما يتداوى به من النبات أو أصولها والشجر[2] . و (العُقار) في الآرامية ما يتداوى به من النبات ، أي دواء[3] .

وطب مثل هذا ، لا يمكن أن يأتي بنتائج ايجابية في معالجة الأمراض الصعبة العسيرة ، وفي حالات مرضية مهمة جداً في نظر بعض الناس ، ولا سيما مشايخ القبائل ، كالعقم وتقوية الشهوة الجنسية ، ولهذا كانوا يلجأون الى أطباء الحضر . وقد أدرك الرهبان والمبشرون أثر هذه الحالات المرضية، ولا سيما الأمراض النفسية منها في نفوس أولئك الرؤساء ، وجلهم ممن درس الطب وقرأ الكتب المؤلفة فيه ومارسه عملياً ، فذهبوا بأنفسهم إلى القبائل للتبشير،وعالجوا الرؤساء معالجة نفسانية في الغالب ، وأثروا فيهم ، ونجحوا في مثل هذه الحالات في كسب عطفهم عليهم وتأييدهم لهم ، وفي الدخول في جوارهم ، للقيام بالتبشير . ونجد في النتف الباقية عن حياة المبشرين الذين بشروا بين العرب قصصاً من هذا النوع روي في معالجة بعض الرؤساء،يذكر أنهم نجحوا في معالجتهم وأن نجاحهم هذا هو كرامة ومعاجز قد تمت بفضل الله ومنّة المسيح .

ويكون الشفاء عند العرب في ثلاثة : شربة عسل وشرطة محجم وكيّة نار . واذا عجز الطبيب من اشفاء مريضه بما عنده من وسائل لجـأ الى (الكيّ) ، ولذلك جاء : « آخر الدواء الكي » . وكان أهل الجاهلية يرون انه يحسم الداء بطبعه فيبادرون اليه قبل حصول الاضطرار اليـه ويعالجون بـه أكثر الأمراض . وروى في الحديث قوله : « الشفاء في ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكيّة نار ، وأنهى أمتي عن الكيّ »[4] .

والعسل من الأدوية والوصفات التي أمر بها الأطباء في معالجة بعض الأمراض، ولا سيما أمراض المعدة ، عولج به وحده ، وعولج به ممزوجاً بمواد أخـرى ،

---

١ تاج العروس (٣٨٢/١٠) ، (نهى) .
٢ تاج العروس (٤١٧/٣) ، (عقر) .
٣ غرائب اللغة (١٩٦) .
٤ ارشاد الساري (٣٦١/٨) « كتاب الطب » .

لتكوين عجائن ولصقات منه[1] . واستعملت العجائن المكونة من الدقيق والتمر والسمن في معالجة أمراض الجلد وآلام المفاصل ، والنزلات . كذلك استعملت لصقات كونت من مواد أخرى في معالجة مثل هذه الأمراض . والمناقع هي من طرق المعالجة أيضاً ، ومنها مناقيع الخل والزيوت .

وقد ورد في رواية : ان الرسول أرسل عكّة عسل الى لبيد الشاعر الشهير حين علم بمرضه ، فشرب منها ، وبرىء[2] ، وفي هذا الخبر دلالة على تداويهم بالعسل .

وقد أقام أهل مكة والحجاز وزناً كبيراً للمداواة بالعسل . ونجد في كتب الحديث وفي كتب الأدب والأخبار إشارات الى هذه المداواة . وقد استعملوا العسل في مداواة « المبطون » الذي يشتكي بطنه من الاسهال المفرط ، ومن سوء الهضم ، لاخراج الفضول المجتمعة في المعدة وفي الأمعاء[3] .

وفي جملة معالجات الأطباء ووصفاتهم للمرضى ، استعمال الحجامة ، أي استخراج مقدار من الدم بكأس يسحب هواؤها بالمص ، فيخرج الدم من الشروط التي عملت في ظهر الرقبة . وقد استخدموها في معالجة الرأس والشقيقة والصداع[4] . والفصد . واستعمال ديدان خاصة لامتصاص الدم[5] . والشقيقة صداع يصيب شقي الرأس ، وان أصاب الصداع قنة الرأس أحدث داء البيضة . وأما الصداع فهو عام[6] .

والفصد ، هو شق العرق لإخراج مقدار من الدم للمعالجة من بعض الأمراض.

---

١ عمدة القارىء (٢٣٢/٢١) ، « عليكم بالشفاءين : القرآن والعسل » العقد الفريد (٢٧٣/٦) .
٢ شرح ديوان لبيد (ص ٢٥ مقدمة) .
٣ ارشاد الساري (٣٧٨/٨ ، ٣٦٣) .
٤ عمدة القارىء (٢٤٢/٢١ وما بعدها) ، « أن عيينة بن حصن دخل على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يحجم في نأس رأسه » فقال : ما هذا ؟ قال : هذا خير ما تداويتم به ، « الحجامة والكي » ، العقد الفريد (٢٧٥/٦ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٣٧٠/٨) .
٥ عمدة القارىء (٢٣٠/٢١ وما بعدها) .
٦ ارشاد الساري (٣٧٠/٨) .

وقد عرف عند العرب كما عرف عند غيرهم[1]. وقد داووا الصبيان بـ (الفصيدة) تمر يعجن ويُشاب،أي يخلط بدم[2] . والظاهر أن هذا الدم ، هو من دم الفصد. وقد كان الجاهليون يأكلون دم الحيوان ، يجففونه بعد خلطه مع مادة أخرى ، أو وضعه في أمعاء ليجف فيؤكل ، أو مع الشعر ثم يأكلونه ، ومنهم من كان يشرب الدم ، للقوة . و « وفي حديث عكرمة : كان طعام أهل الجاهلية العلهز. قال ابن الأثير : هو طعام من الدم والوبر » ، وذلك أن يخلط الدم بالوبر ، أو الصوف ينفش ويشرب بالدماء ويشوى ويؤكل . وقد نسب أكله الى الفقراء وإلى أيام المجاعة ، وزعم أنهم كانوا يخلطون فيه القردان. أو دم الحلم . ونسب أكله الى القحطانيين ، وذلك في شعر هجاء ، هو :

وإن قرى قحطان قرف وعلهز   فأقبح بهذا ويح نفسك من فعل[3]

وهو من الشعر المنبعث عن عاطفة العصبية ولا شك .

وكان الفصد عند العرب من جملة وسائل القتل التي تستعمل في قتل الملوك والأشراف . تمييزاً لهم عن السوقة وسواد الناس الذين يقتلون بحدّ السيف . فقد كان الشريف إذا سقط في أيدي عدوّه ووجد نفسه أنه مقتول لا محالة ، أوصى بإسقائه الخمر ، حتى يسكر ، فيخف بذلك ألمه ثم يفصد عرق اليد فيخرج منه الدم حتى يموت ميتة الأشراف .

واستعمل الكيّ في معالجة أمراض المفاصل ، مثل الرَّثْيَة «الروماتزم» ، وقد برع في ذلك الأعراب بصورة خاصة. وهو معالجة أخذ بها أطباء أهل الوبر أيضاً، وطريقتهم هي كي الجزء المريض بحديدة محماة ، أو بحجر محمى . وقد استعمل الكي أيضاً في معالجة الجروح والقروح ووجع الرأس . وفي العربية مثل قديم . له علاقة به ، هو : آخر الدواء الكي . فالكي اذن معالجة يلجأ اليها حينما يعيا الدواء عن الشفاء . واستعمل في معالجة الاستسقاء - بالكي على البطن[4] . وينسب أهل الأخبار المثل المذكور الى (لقمان بن عاد)[5] . وفي نسبتهم هذه المعالجة اليه

---

١ اللسان (٣/٣٣٦) ، (فصد) .
٢ اللسان (٣/٣٣٦) ، (فصد) ، تاج العروس (٢/٤٥٣) ، (فصد) .
٣ تاج العروس (٤/٦١) ، (العلهز) .
٤ الفاخر (ص ٥٨ ، ١٢٦) .
٥ الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب (١/٣) ، (حيدر آباد الدكن ١٩٦٢ م) .

دلالة على قدمها عند العرب . وهي معالجة لا زال الأعراب يستعملونها في مداواة أمراض عديدة عندهم ، لا سيما في معالجـــة أمراض الروماتزم . وقــد ورد أن (خباب بن الأرت) اكتوى في بطنه سبع كيّات[1] .

و (الرثية) وجع المفاصل واليدين والرجلين ، وقيل وجع الركبتين والمفاصل ، أو ورم وظلاع في القوائم ، أو هو كل ما منعك من الالتفات أو الانبعاث من كبر أو وجع[2] .

وقد استعملوا (الكي) للشوكة . والشوكة حمرة تظهر في الوجه وغيره من الجسد . وقــد كوى (أسعد بن زرارة) من الشوكة[3] . وقيـــل الشوكة داء كالطاعون ، وكانوا يسكنون الشوكة بالرقي كذلك[4] .

والبصل والثوم والكمون والكرفس والخردل هي من النباتات التي عولج بها ، فاستعمل البصل لمعالجة النزلات الصدرية وبعض أنواع الحميات وللقضاء على الديدان في داخل الجسم . واستعمل الثوم لمعالجة أمراض المعدة والديدان أيضاً، وفي معالجة أمراض القلب[5] . واستعمل الكمون في معالجة النزلات الصدرية كذلك . وهو من الأدوية المعروفة عند غير العرب أيضاً ، فقــد كان العبرانيون يستطبون بــه[6] ، وكانوا يحصلون عليه بواسطة الفينيقيين والعرب . وأحسنه هو الكمون المستورد من (سيلان)[7] . وعالجوا به في الادرار ، وفي مطاردة الريح في المعدة وللهضم[8] .

وعولج بالسنا وبالشبرم وبالزبيب ، ويرون أن الزبيب يُذهب النّصب، ويشد العصب ، ويطفىء الغضب ، ويصفي اللون ، وبالسفرجل ويرون أنه يشد القلب، ويطيب النفس ويذهب بطخاء الصدر[9] . وعالجوا بالتين ، استعملوه لمعالجة الإمساك والكبد والطحال[10] ، وعالجوا بالرمان[11] .

---

١ ارشاد الساري (٨/٣٥٦) .
٢ تاج العروس (١٠/١٤٤) ، (رثى) .
٣ الطبري (٢/٣٩٨) ، النهاية لابن الاثير (٤/٢٤٠ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٧/١٥٢) ، (شوك) ، اللسان (١٠/٤٥٥) ، (شوك) .
٥ « الثوم : ويسمى ترياق البدو » ، شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٢٧٠) .
٦ The Bible Dictionary, I, p. 275.
٧ تاج العروس (٩/٣٢٢) ، (كمن) .
W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 330.
٨ تاج العروس (٩/٣٢٢) ، (كمن) .
٩ العقد الفريد (٦/٢٧١ وما بعدها) .
١٠ تاج العروس (٩/١٥٤) ، (التين) .
١١ تاج العروس (٩/٢١٩) ، (رمان) .

و (الحُلْبَةُ) من النبات اللذي عولج به في أمراض كثيرة ، فعولج به أمراض الصدر مثل الربو والسعال والبلغم،وعولج به الكبد والمثانة والبواسير وآلام الظهر . وذكر أن (الحلبة) طعام أهل اليمن عامة ، وبالغوا في فوائدهـا حتى رووا أن حديثاً ورد فيها : « لو يعلم الناس ما في الحلبة لاشتروها ولو بوزنها ذهباً »[1] .

وتطيب بالسعوط والنشوق . وقد استعملوا لذلك جملة مواد ، منهـا : دهن الخردل ، ودهن البان ، والقسط الهندي والبحري ، وبالعود الهندي والكافور . وقد استخدم العـــود الهندي في معالجة ذات الجنب[2] . ويرى بعض البـــاحثين أن النشوق من أصـــل آرامي هو (نسكو Nosko) من Nsk بمعنى أسال في شيء ، أي دواء يسكب في الأنف[3] . واستخدم (السُنبل) ، وهو نبات طيب الرائحة في التداوي كذلك ، ويعرف بـ (سنبل) في السريانية أيضاً[4] .

وذكر أن (السعوط) اسم الدواء يصب في الأنف . وذلك بأن يوضع الدواء في إناء يجعل فيه السعوط ويصب منـــه في الأنف ويقال للإناء المِسعط والسعيط والمُسعط[5] . ويستعمل السعوط من مختلف الـــدهون . وقد استعمل في مـــداواة (العذرة) ، وهو وجع يأخذ الطفل في حلقه ، يهيج من الـــدم أو في (الخرم) الذي هو بين الأنف والحلق ، وهو سقوط اللهاة . وقيل قرحة تخرج بين الأنف والحلق تعرض للصبيان غالباً عند طلوع العذرة.وهي خمس كواكب تحت الشعرى، أي العبور وتطلع وسط الحر[6] .

و (القسـط) عود يجاء به من الهند ، فعرف لذلك بالقسـط الهندي ، وعود يؤتى به من اليمن ، ويعرف بالقسط البحري . وعود عرف بـ (قسط أظفار) وقسط عرف بـ (القسط المر) وهو كثير ببلاد الشأم . ويقال للقسط (الكست) و (كشط) . وذكر ان الرسول أشار الى (القسط) فقال : « عليـــكم بهذا العود الهندي ، فإن فيه سبعة أشفية : يستعط بـــه من العذرة ويلدّ به من ذات

---

١ تاج العروس (٣١٢/٢) ، (طبعة الكويت) ، (٢٢٢/١) ، (حلب) .
٢ عمدة القاريء (٢٣٨/٢١ وما بعدها) ، العقد الفريد (٢٧٥/٦) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٠٧) .
٤ غرائب اللغة (ص ١٨٩) .
٥ اللسان (٣١٤/٧ وما بعدها) ، (سعط) .
٦ ارشاد الساري (٣٦٧/٨) .

الجنب[1] . وقد استعمل القسط بخوراً ودواء . وهو من نبات أصله من الهند ، يقال له (قسطس) ، وهو معروف عند غير العرب أيضاً ويداوى به[2] .

وعالجوا بـ (العيد) ، شجر جبلي ضمدوا بلحائه الجرح الطري فيلتئم[3] . وبـ (السنى) ، نبت يتداوى بـه . وقد جاء ذكره في الحديث . وقد خلطوه بالحنّاء لتقوية اللون وتسويده[4] . وداووا بـ (السعتر) (الصعتر)[5] ، وبالقرطم ، في معالجة أمراض عديدة[6] .

وقد كانت النساء تعالج الصبيان من العذرة بالغمز ، وذلك أن المرأة كانت تأخذ خرقة فتفتلها فتلاً شديداً وتدخلها في حلق الصبي وتعصر عليه ، فينفجر منه دم أسود وربما أقرحته[7] .

وعرف (الدرياق) (الترياق) في التطبيب به . استعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين ، والعرب تسمي الخمر (ترياقاً) و (درياقاً) لأنها تذهب بالهم . و (الترياق) ، فارسي معرب . ويقال درياق . بالدال أيضاً . « وفي الحديث إن في عجوة العالية ترياقاً . الترياق ما يستعمل لدفع السمّ من الأدوية والمعاجين»[8].

والبلسم ، من المواد المهمة في المعالجات الطبية ، وقد اشتهر كثيراً في الطب القديم ، ليس عند العرب فقط ، ولكن عند أكثر الأمم الأخرى . اشتهر في معالجة الجروح خاصة ، اذ هو مادة صمغية تضمد بها الجراحات . ووطنه بلاد الحبشة ، واشتهر من أنواعه الجيدة (بلسم جلعاد) عند العبرانيين ، وهو ذو رائحة عطرة . وقد مدحه الأطباء وأثنوا عليه في معالجة الأمراض والجروح[9] .

وذكر علماء اللغة أن (البلسم) ، هو (البلسام) وهو البرسام ، والموم .

---

١ ارشاد الساري (٣٦٧/٨) ، اللسان (٣٧٩/٧) .
٢ غرائب اللغة (٢٦٥) .
٣ تاج العروس (٤٣٨/٢) ، (عود) .
٤ تاج العروس (١٨٥/١٠) ، (سنى) .
٥ تاج العروس (٢٦٩/٣) ، (السعتر) .
٦ تاج العروس (٢٤/٩) ، (قرطم) .
٧ ارشاد الساري (٣٦٩/٨) .
٨ اللسان (٣٢/١٠) ، (ترق) .
٩ قاموس الكتاب المقدس (٢٤٥/١) . Hastings, p. 872. f.

والبلنسم: القطران[1] . و (البلسم) هو (بلسمون) ، و (بلسان) Valsamon [2].

وقد استعمل الحاء (العقد) لتضميد الجرح الطري ، فيلتحم لخاصية فيه[3] ؛ وعالجوا بـ (البان) ، وهو شجر معروف ، ذكر في شعر (امرىء القيس)، ولحب ثمره دهن ، وحبه نافـع للبرش ، والنمش ، والكلف ، والحصف ، والبهق ، والسعفة ، والجرب ، وتقشر الجلد ، واستعمل في الاسلام لمداواة أمراض عديدة [4] .

و (السفوف) كل دواء يؤخذ غير معجون ، مثل سفوف حب الرمان وغيره[5] . وترد اللفظة في الآرامية بالمعنى نفسه ، وهي من المعربات عنها [6] .

واستعملت الزيوت في معالجة عدد من الأمراض والجروح،فاستعملت في معالجة البطنة مثلاً . وقد تخلط بغيرها،كالخمر أو الخل أو الملح،وقد تغلى ثم توضع على الجرح لقطع التزيف منه ولتعقيمه . والمعالجة بالزيوت ، قديمة معروفة عند المصريين والعبرانيين واليونان وغيرهم ، أشير اليها في كثير من الموارد القديمة [7] . وعولج (الباسور) بدهنه بزيت الزيتون[8] .

وعالجوا باستعمال (الحبّة السوداء) . استعملوها قليلاً ، وأكلاً ولطوخاً ، كما سحقوها وخلطوها بالزيت لاستعمالها قطرات في معالجة أمراض الأنف . وقد كانوا يبالغون في منافعها ، فاستعملوها في معالجة أمراض كثيرة باطنية وخارجية[9] وذكروا أن الرسول قال : « إن هذه الحبّة السوداء شفـاء من كل داء ، إلاّ السام » ، والسام الموت[10] .

وعولج بالألبان ، ولا سيما ألبان الإبل . وهم يفضلون لبن الإبـل على سائر

---

١ تاج العروس (٢٠٦/٨) ، (بلسم) .
٢ غرائب اللغة (٢٥٥) .
٣ تاج العروس (٤٢٧/٢) ، (عقد) ، (٤٣٨/٢) ، (عود) .
٤ تاج العروس (١٤٧/٨) ، (بون) .
٥ تاج العروس (١٣٩/٦) ، (سف) .
٦ غرائب اللغة (١٨٧) .
٧ The Bible dictl., vol., II, p. 154.
٨ العقد الفريد (٢٧٤/٦) .
٩ عمدة القارىء (٢٣٥/٢١ وما بعدها) .
١٠ ارشاد الساري (٣٦٥/٨ وما بعدها) .

الألبان[1] . وقد عولج به مختلف الأمراض ، ومن ذلك (السقم)[2] .

وعالجوا بأبوال الإبل أيضاً . وورد في شعر (لبيد بن ربيعة العامري) أنهم عالجوا ببول الإبل ، وكانوا يغلونها أحياناً ليشربها المريض[3] .

وعولج بـ (التلبينة) ، حساء من نخالة ولبن وعسل ، وقيل حساء يتخذ من ماء النخالة فيه لبن . وذكر أنها تُجم فؤاد المريض وتذهب ببعض الحزن وتنظف المعدة[4] . وعالجوا بالحساء لغسل البطن وتنظيفها من سوء الهضم[5] .

وعولج بإهراق الماء على المريض ، وذلك في أمراض الحمى ، وفي الأمراض التي يشعر المريض بأن في جسمه حرارة والتهاباً ، فيجلس على كرسي ويصب الماء عليه ، حتى يخفف من شدة حرارة المريض[6] . كما عولجت الحمى بنصح المريض بالاكثار من شرب الماء البارد وغسل الأطراف[7] .

وللمحافظة على الأسنان ولظهورها بيضاء نظيفة ، استعملوا السواك وبعض الأعواد لاستخراج الفضلات التي تتخلل الأسنان ، وما زال الحجاج يستوردون المساويك من مكة . وقد اشتهرت مكة منذ الجاهلية بالسواك ، يستخرج من أغصان أشجار تنبت هناك ، لأغصانها رائحة طيبة ، وتساعد على تبييض الأسنان . ومن المواد التي عملت منها المساويك : البشام ، والضرو ، والعتم ، والأراك ، والعرُجون ، والجريد ، والإسحل[8] .

وقد حث الاسلام على تنظيف الأسنان بالمسواك . ورد في الحديث : « السواك مطهرة للفم » أي يطهر الفم . وأشير الى المسواك في الشعر ، إذ ورد :

وكأن طعم الزنجبيل ولذة صهباء ساك بها المسحر فاها

---

١ عمدة القاري (٢١/٢٣٤ وما بعدها) .
٢ ارشاد الساري (٨/٣٦٤) .
٣ شرح ديوان لبيد (ص ١١٦) ، عمدة القاري (٢١/٢٣٤ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٨/٣٦٤ وما بعدها) .
٤ ارشاد الساري (٨/٣٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١٣/٣٧٦) ، (لبن) .
٥ ارشاد الساري (٨/٣٦٦ وما بعدها) .
٦ ارشاد الساري (٨/٣٧٧) .
٧ ارشاد الساري (٨/٣٨١) .
٨ البيان (٣/١١٤) .

وهو للشاعر (عدي بن الرقاع) ، وورد في شعر آخر :

إذا أخذت مسواكها ميحت به رضاباً كطعم الزنجبيل المعسل[1]

واستعمل الإثمد والكحل في معالجة الرمد[2] ، كما استعملوا قطرات من أدوية استحضروها مثل ماء الكمأة في معالجة أمراض العين[3] . وذكر ان الإثمد يحد البصر ، ويقوي النظر[4] .

والكحل ، من جملة مواد تطبيب العيون ، ومن جملة وسائل الزينة كذلك . يستعمله الرجال والنساء . وقد كان معروفاً عند الشعوب الأخرى ، يصنع من حرق اللبان أو قشور اللوز ،ومن السخام المتبقي من حرق بعض الدهون والزيوت[5]. وقد عرفت مكة بصنع الكحل قبل الإسلام ، ولا تزال مشهورة به . وقد كان الناس يحملون المكاحل في جيوبهم ويحتفظون بها في بيوتهم ، يعملونها من القرون أو المعادن ، ويبالغ الأغنياء منهم في زخرفتها وفي تزيينها للتبجح بها عند اخراجها أمام الناس[6] .

ونصحوا بتنقيط نقط من ماء بارد في العين عند النهوض من النوم ، لجلائها وإزالة الغشاوة عنها ، كما نصحوا بوضع القدمين واليدين في ماء بارد أو حار ، وذلك لمعالجة العين ، ولمعالجة القدمين واليدين أيضاً . وقد عرف العبرانيون هذه المعالجة كذلك[7] .

وكانوا يعالجون الماء الأسود الذي يحدث في العين بالنقب ، أي القدح . وقد ورد في حديث (أبي بكر) أنه اشتكى عينه فكره أن ينقبها[8] . و (الناقب)

---

١ تاج العروس (٧/١٤٦) ، (سوك) .

٢ عمدة القاريء (٢١/٢٤٥) ، ارشاد الساري (٨/٣٧٣) .

٣ عمدة القاريء (٢١/٢٤٨) ، « ان الكمأة من اكمن ، وماؤها شفاء للعين ، وهي شفاء من السم » ، العقد الفريد (٦/٢٧٢) .

٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول ، (ص ٢٦١) ، « عليكم بالاثمد عند النوم ، فانه يحد البصر ، وينبت الشعر » العقد الفريد (٦/٢٧٣) .

٥ The Bible dictio., vol., II, p. 234.

٦ Hastings, Dict., vol., I, p. 814.

٧ Ency. of Relig. knowledge, vol., III, p. 1456.

٨ تاج العروس (١/٤٩٣) (نقب) .

و (الناقبة) داء يعرض للإنسان من طول الضجعة ، وقيل هي القرحة التي تخرج بالجنب[1] . وعالجوا المــاء الأبيض باستعمال الأشياء الرفيعة الحادة مثل السكين أو العاقول ، لرفع الغشاء الرقيق وسحبه عن للعين ، بعد اكمال نزول الماء بها .

ولقطع نزيف الدم المنبعث من الجروح ، استعملوا الرماد[2] ، والزيوت المغلية تسكب على الجرح ، لقطع نزيف الدم . أما النزيف النـازل من الأنف ، وهو الرعاف ، فقد استخدموا الماء البارد لقطعه . وقــد عرفوا كذلك ربط الجروح بشدة حتى يقف الدم فينقطع ، واستعملوا الضماد والمناديل لمنع الدم من الخروج ، ومن ذلك قولهم : ضمد الجرح ، أي شده[3] . واستعملوا حرق الحصير والمواد القابلة للاشتعال لاستعمال رمادها لقطع النزيف[4] ، أو وضع الملح على الجرح لايقاف نزيف الدم منه . ولمعرفة عمق الجروح ومقدار غورها ، استعملوا آلة يسمونهـا المِسبار[5] . والسِّبار[6] ، فتيل يجعل في الجرح[7] . ويعبرون عن مداواة الجرح بقولهم أسا الجُرحَ ، أي داواه وشفاه[8] .

وقد عولج الإمساك بالحقن ، أي حقن المريض ، وباستعمال المسهلات لتليين المعدة[9] .

والباسور من الأمراض المعروفة عند الجاهليين ، وقد أشير اليه في كتب الحديث[10] . « وفي حديث عمران بن حصين ، وكان مبسوراً ، أي به بواسير » . واللفظة معربة . والبواسير جمع (باسور)[11] . والناسور علة تحدث في حوالى المقعدة ، وعلة تحدث في المآقي ، وفي اللثة[12] .

---

١ تاج العروس (١/٤٩٣) ، (نقب) .
٢ عمدة القاريء (٢١/٢٥٣) ، صحيح مسلم (٥/١٧٨) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٩٣) .
٤ ارشاد الساري (٨/٣٨٠) .
٥ المغرب (٢٤٠) .
٦ ككتاب ، المعاني الكبير (٢/٩٨٣) .
٧ شرح القاموس (٣/٢٥٣) .
٨ غرائب اللغة (ص ١٧٢) .
٩ المغرب (١٣٣) ، تاج العروس (٩/١٨٢) ، (حقن) .
١٠ صحيح البخاري (٢/٤٨١) ، الجمهرة (١/٢٥٥) ، المعرب للجواليقي (٥٨) .
١١ تاج العروس (٣/٤٢) ، (بسر) .
١٢ تاج العروس (٣/٥٦٤) ، (نسر) .

وعولجت الأورام التي تصيب الجلد بالمناقيع واللصقات ، ولا سيا اللصقات الحارة ، كي تعجل في اخراج الصديد من العضو المتورم. واستعملت هذه اللصقات من سحق بعض الحبوب ذات المادة الدهنية ، مثل حب الكتان أو حب البخور، وبعد سحقها توضع على النار ثم تفرغ في قماش لتوضع فوق الورم لازالته، وتحويله الى صديد . واستعملت من مواد أخرى مثل التمر مع الزبد وأمثالها ، وكلها على أساس ان الدفء الذي يكون فيها يسبب زوال الورم وتحوّل الدم الفاسد الى صديد يخرج أو يجف .

واستعمل (الزقوم) في معالجة الجروح . وهو مرّ شديد المرارة ، وأشير الى (شجرة الزقوم) و (شجر من زقوم) في القرآن الكريم[1] ، ولما نزلت الآية لم تعرف قريش معنى الكلمة ، « فقال أبو جهل : إن هذا الشجر ما ينبت في بلادنا ، فمن منكم يعرف الزقوم ؟ فقال رجل قدم عليهم من أفريقية : الزقوم بلغة أفريقية : الزبد بالتمر . فقال أبو جهل : يا جارية هاتي لنا زبداً وتمراً نزدقه ، فجعلوا يأكلون منه ويقولون : أفبهذا يخوفنا محمد في الآخرة ! »[2] . والزقوم نبات بالبادية له زهر ياسميني الشكل . وقيل شجرة غبراء صغيرة الورق مدورتها لا شوك لها ذفرة مرة لها كعابر في سوقها كثيرة ولها وريد ضعيف جداً يجرسه النحل ونورتها بيضاء ورأس ورقها قبيح جداً . وفي أريحا شجرة يقال لها الزقوم لها ثمر كالتمر حلو عفص، ولنواه دهن عظيم المنافع في تحليل الرياح الباردة وأمراض البلغم وأوجاع المفاصل والنقرس وعرق النسا ، وذكر أن أصلها من الهند ، جاءت به بنو أميّة من أرض الهند وزرعته بأريحا[3] .

وعولجت كسور العظام بالجبائر، وبالدلك ، ووضع المناقيع فوق العضو المصاب عظمه بالكسر ، والجبيرة : العيدان التي تجبر بها العظام ، وذلك بعد جبر المجبر لها[4] .

ومن المصطلحات الطبية المتعارفة عند الجاهليين : (البطنة) ، وهي التخمة .

---

١ الصافات ، الآية ٦٢ ، الدخان ، الآية ٤٣ ، الواقعة ، الآية ٥٢ .
٢ تاج العروس (٣٢٦/٨) ، (زقم) .
٣ تاج العروس (٣٢٦/٨) ، (زقم) .
٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٩٧) .

وتعالج بالحمية وبالمنتقعات والحقن . وقد عرف الجاهليون أثر المعدة في الصحة العامة ، فعُدّت بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء .

والأمراض التي تعرض لها الجاهليون عديدة ، منها : العمى ، والعوَر ، والتهاب العيون ، والرمد ، ومنها : ما يصيب الجلد ، مثل البرص والوضح ، والبهق ، والحكة ، والدمامل ، والبثور ، والجرب ، والقرح ، ومنها أمراض داخلية ، مثل أوجاع المعدة والكبد واليرَقان والصداع والشقيقة ، وذات الجنب وأوجاع المفاصل والعظام ، والفالج ، والسل ، والحمى ، وأمراض أجهزة البول والحمى والبُرَداء . وأمراض القلب والرعشة والجنون والأمراض العصبية الأخرى وغير ذلك من أمراض لا تزال معروفة .

ومن الأمراض المعروفة عند الجاهليين البرص ، وهو مرض يصيب الجلد ، وهو غير الجذام ويطلقون عليه (الوضح) كذلك ، لبياض يظهر في ظاهر البدن [1] ومنه قيل لجذيمة الأبرش جذيمة الوضاح[2] . وقد كان معروفاً في الشرق الأدنى ، وأشير اليه في التوراة ، وهو نوع من (البسورياس) Psoriasis أو (اللبرا) Lepra, Leprosy[3] . ويظهر انه كان كثير الانتشار ، وممن أصيب به (الحرث ابن حلزة اليشكري)[4] ، وجماعة آخرون من الأشراف والمعروفين ذكرهم أهل الأخبار[5] .

وقد نعت البرص ببعض النعوت ،فقيل لمن به برص (المحجل)[6] ،و (الوضاح)، و (الوضح) البرص . وقد كان الناس يكرهون مجالسة البُرْص خشية العدوى ، فكان الملك (عمرو بن هند) يتجنب مؤاكلة البُرص ، ويأمر بنضح الأمكنة التي يجلسون عليها حذر العدوى[7] . وكانت قريش قد أخرجت (أبا عزة ، عمرو

---

١ تاج العروس (٣٧٣/٤) .
٢ « ويكنى به عن البرص ، ومنه قيل لجذيمة الابرش : الوضاح. وسيأتي الكلام عليه وفي الحديث : رجل بكفه وضح ، أي برص » تاج العروس (٢٤٧/٢) .
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٢٠/١ وما بعدها) ،
The Univer. Jewish Ency., 7, p. 434.
٤ شرح المعلقات السبع ، للزوزني « دار صادر » (ص ١٥٤) .
٥ المحبر (ص ٢٩٩ وما بعدها) .
٦ المحبر (ص ٣٠١) .
٧ شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٥٤) .

ابن عبدالله بن عمـــر بن وهيب بن حذافة) ، وهو من البُرص ، من مكة مخافة العدوى ، فكان يكون بالليل في شُعَف الجبال ، وبالنهار يستظل بالشجر [1] .

وأما الجذام ، فإنه من الأمراض المعدية ، وقد كان معروفاً بين الجاهليين ، وقد ورد النهي عن الاختلاط بالمجذومين في حديث : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » مما يدل عـــلى شدة عدواه واختلاط المجذومين بين الناس في ذلك العهد . وذكر علماء اللغة أن الجذام علة تحدث من انتشار السوداء في البدن كله ، فيفسد مزاج الأعضاء وهيأتها ، وربمـــا انتهى الى تقطع الأعضاء وسقوطها عن تقرح [2] .

و (البهق) ، هو مرض جلدي أيضاً ، يترك بياضاً في الموضع المصـاب من الجسد ، وهو (زرعة) في العبرانية . ويدعى Laprosy [3] .

وقد كانت أمراض الجلد من الأمراض المتفشية بالنسبة الى تلك الأزمنة ، لقلة العناية الطبية وللفقر وعدم توفر وسائل النظافة والتنظيف بين معظم الناس . ولسوء تغذيتهم بسبب فقرهم العام .

و (السفعة) من أمراض الجلد ، وهي سواد أو حمرة يعلوها سواد أو صفرة ، تظهر في الوجه . وقد علل حدوثها بإصابة العين [4] . والثؤلول ، بثر صغير صلب على صور شتى تصيب الجسد [5] . وقد مات (أبو سفيان بن الحارث بن عبـــد المطلب) من ثؤلول كان برأسه ، حلقه حلاق فقطعه فمات منه [6] .

ومن الأمراض الخطيرة التي أشير اليها في كتب الحديث والأخبار : الحمى ، وقد كانت شديدة الانتشار في المدينة [7] ، حتى أضعفت أجسام معظم أهل المدينة والمهاجرين . وهي علة يستحر بها الجسم . وقد أهلكت كثيراً من الناس، ولذلك

---

١ المحبر (ص ٣٠٠ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٢٢٣) ، تفسير الطبري (٣٠/٢٠٠) .
٣ Hastings, A Dictionary of Chirst and The Gospels, II, p. 24.
٤ ارشاد الساري (٨/٣٩٠) .
٥ تاج العروس (٧/٢٤٣) ، (ثئالل) .
٦ الاصابة (٤/٩٠) ، (رقم ٥٣٨) .
٧ « والحمى والحمة : علة يستحر بها الجسم من الحمم ، قيـــل سميت لما فيهـا من الحرارة المفرطة ، ومنه الحديث : الحمى من فيح جهنم » ، تاج العروس (٨/٢٦١) (حمـــم) .

قيل : الحُمى رائد الموت ، أو بريد الموت ، وقيل : باب الموت[1] . وقد اشتهرت خيبر بنوع خاص من الحمى عرف باسمها ، فقيل : حمى خيبرية وحمى خيبر وحمى خيبري[2] . وذكر علماء اللغة أسماء للحمى تحكي صفاتها وكيفية ظهورها وتحكمها في البدن ، فقالوا : حمى الغب ، وذلك اذا أخذت المريض يوماً وتركته يوماً[3] ، وحمى الربع ، وحمى الصالب ، وهي الحمى التي يكون معها صداع ، والنافض ، والراجف التي تكون معها رعدة ونفضة ، وحمى مغبطة ومردمة ، أي دائمة عليه لا تقلع ، وتسمى الحمى المطبقة أيضاً ، والوعك الحمى ، وحمى الروح ، وحمى الدِقّ أن يغمى عليه في الحمى ، والورد هو يوم الحمى . ويقال للعرق الذي يتصبب من الحمى : الرُحَضاء ، ولأول ما يحس بالحمى : المسّى[4] . ويقال في السريانية للحمى (حمتو Hemto) بمعنى حرارة[5] .

وذكر أن (حمى صالب) ، أو (الصالب) حمى معها حرّ شديد وليس معها برد . وقال بعض علماء اللغة : الصالب من الحمى الحارة خلاف النافض . وقيل هي التي فيها رعدة وقشعريرة[6] . و (الحمة) في تعريف العلماء علة يستحر بها الجسم ، سميت لما فيها من الحرارة المفرطة ، وإما لما يعرض فيها من الحميم ، وهو العرق . وورد في الحديث : الحمى من فيح جهنم[7] .

وقد لاقى الرسول[8] والصحابة شدة من (حمى) المدينة ، وقد ذكر أن (أبا بكر) كان إذا أصابته الحمى — وكانت تزوره مناوبة — قال :

كل امرىء مصبح في أهلـه   والموت أدنى من شراك نعله

---

١ تاج العروس (٨/٢٦١) ، (حمم) .
٢ « قال الشاعر الاخنس بن شهاب :
كما اعتاد محموما بخيبر صالب » تاج العروس (٣/١٦٩) .
٣ تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .
٤ بلوغ الارب (٣/٣٣٩ وما بعدها) .
٥ غرائب اللغة (ص ١٧٩) .
٦ تاج العروس (١/٣٣٨) ، (صلب) .
٧ تاج العروس (٨/٢٦١) ، (حمم) .
٨ ارشاد الساري (٨/٣٤٩ وما بعدها) .

وكان بلال ، إذا أقلعت عنه الحمى ، يقول :

ألا ليتَ شعري هل أبيتن ليلة   بوادٍ وحولي اذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة   وهل تبدون لي شامة وطفيل

وكان عامر بن فهيرة ، يقول :

قد وجدت الموت قبل ذوقه   كل امرىء مجاهد بطوقه
كالثور يحمي جسمه بروقه[1]

الى غير ذلك مما يخبر عن شدة وقع تلك الحمى في أجساد المهاجرين ، ولما رأى الرسول ما حلّ بصحابته من هذه الحمى ومن ضجرهم من الإقامة بيثرب بسببها توسل الى الله أن يخفف عنهم أذاها وأن يزيل عنها هذا المرض و يبرأها منه[2] .

ويقسم العرب الحمى الى نوعين : حمى يشعر الانسان فيها بحرارة شديدة تصيب الجسم ، قد تجعله يتصبب عرقاً من شدة وقع الحمى على الجسم ، ولا يكون معها برد ، وقد يصاب المريض بها بصداع ووجع شديد في الرأس ، وحمى يشعر الانسان فيها بنفضة ورعدة وقشعريرة ، يقال لها (نافض) و (النافض) و (حمى نافض)[3] ، وهي حمى الرعدة ، لوجود رعدة وقشعريرة بها تصيب الجسم[4] . ويقول العرب لقرة الحمى ومسها في أول ،عدّها (العرواء) ، وقيل أول ما تأخذ من الرعدة[5] . ويقال لهذه الحمى (الراجف) ، لأنها ذات رعدة ترجف مفاصل من هي به[6] . و (القعقاع) ، وهي حمى نافض تقعقع الأضراس[7] و (القفة)[8] .

---

١ ارشاد الساري (٣٤٧/٨) .
٢ « اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة » ارشاد الساري (٣٤٧/٨) .
٣ تاج العروس (٩٢/٥) ، (نفض) .
٤ تاج العروس (٣٥٤/٢) ، (رعد) .
٥ تاج العروس (٢٣٩/١٠) ، (عرى) .
٦ تاج العروس (١١٣/٦) ، (رجف) .
٧ تاج العروس (٤٧٧/٥) ، (قع) .
٨ تاج العروس (٢٢٥/٦) ، (قف) .

وقد كانت الحمى منتشرة في المواضع التي تكون فيها الينابيع والمستنقعات والمياه الآسنة الواقفة وما شاكل ذلك من أمكنة ، ولما كان العرب في حاجة شديدة الى الماء ، كانوا يشربون منها اضطراراً ، فأصيبوا بسبب ذلك بأنواع من الأمراض : وقد كانت وسائل مقاومة البعوض الناقل للحمى غير معروفة ، كما ان وسائل العناية بالصحة وتنظيف الجسم لم تكن متوفرة عندهم بسبب فقر أكثرهم ، لذلك صارت أجسامهم معرضة لمختلف الأمراض ، ولا سيما بين أهل المدر الذين لم تكن بيوتهم صحية ، ولا مياههم نقية ، وكانت بيوتهم ضيقة غير صحية ، فكانوا يصابون بالسل وبالأمراض الأخرى ، أكثر من الأعراب المتباعدين في السكن ، والذين لا يعرفون البعوض ، ويستنشقون الهواء النقي ، وتقيهم الشمس من شر الجراثيم .

والذبحة ، وهي داء يأخذ بالحلق ، وقد كان معروفاً بين الجاهليين ، وكانوا يعالجونها بالكي . ذكر أن الرسول كوى (أسعد بن زرارة) في حلقه من (الذبحة) ، وقيل (الشوكة)[1] . وأنه عاد (البراء بن معرور) ، وأخذته الذبحة ، فأمر من لعطه بالنار[2] .

وقد أشير الى مرض عرف بـ (خبط) في نصوص المسند ، وقد فسر أنه برد شديد في الرأس[3] .

وقد كانت الأوبئة تفتك بالناس فتكاً ، فكان الأغنياء والموسرون يفرون من الأماكن المزدحمة الى أماكن بعيدة ، ويلجأون إلى الصحارى ابتعاداً عن المصابين بها . وكانوا يرجعون أسبابها وأسباب الأمراض عموماً الى غضب الآلهة على الناس ، والى أرواح شريرة تصيب الجسم من الأكل والشرب ، والى أنواع من الهوام والحشرات . ومن أشهر أنواع هذه الأوبئة الطاعون والجدري والهيضة .

والطاعون المرض العام والوباء ، وقد أشير اليه في كتب الحديث . ويظهر انه كان منتشراً معروفاً في الحجاز وفي سائر أنحاء جزيرة العرب آنئذ[4] . وقد جعل

---

١ اللسان (٢/٤٣٨) ، (ذبح) ، الاصابة (١/٥٠) ، (رقم ١١١) .
٢ اللسان (٢/٤٣٨) ، (ذبح) .
٣ Mahram, p. 437.
٤ تاج العروس (٩/٢٦٩) ، « طاعون عمواس » في أيام عمر ، ارشاد الساري (٨/٤٨٣ وما بعدها) .

بعض العلماء الطاعون نوعاً من أنواع الوباء ، وفرّق بينهما بعض علماء اللغة ، وجعلوا الوباء المرض العام عامة ، مهما كان ، مثل انتشار الحمى والجُدَري والطاعون والنزلات والحكه والأورام . وقد ذُكرت الأوبئة في كتب الحديث[1] . و (الدبل) الطاعون[2] .

ونسب الجاهليون حدوث الطاعون الى (وخز الجن) ، فهو يقع لأن الجن تطعن الشخص وتخزه فيصاب بالطاعون . وقد أشار الى هذا الرأي (حسان بن ثابت) ، أشار اليه في أثناء حديثه عن أعاصير نزلت بـ (بصرى) وبـ (رمح) وعن (دخان نار) ، حتى أثرت في كل قصر ومنزل في ذينك المكانين ، ثم أعقب ذلك (وخز جن بأرض الروم)[3] ، أي بلاد الشأم وفيها المكانان المذكوران إذ كانت تحت حكم الروم ، كما أشار الى هذه الفكرة شاعر آخر اسمه (الغساني)[4].

ونجد في كتابات المسند إشارات الى أوبئة تكتسح البلاد فتفني عدداً كبيراً من الناس . فنجد فيها أن فلاناً يحمد آلهته لأنها منت عليه بالعافية وأنقذته من الوباء الذي تفشى في أيامه فأهلك الناس.وقد كان القدراء من الناس يهربون من الأرضين الموبوءة إلى أرضين أخرى بعيدة سالمة ليتخلصوا من الوباء . ونجد في الكتابة الموسومة بـ (CIH 343) رجلاً اسمه (يحمد) يشكر إلهه (تألب ريام)، لأنه منّ عليه بالعافية وشفاه من المرض الذي نزل به في وباء انتشر فيما بين (هوزن) (هوازن) (هوزان) و (سهرتن) (سهرت) . وقد كانت الأوبئة تكتسح المناطق الواقعة عند قواعد الجبال وفي المناطق الحارة الرطبة ، ولا سيما التهائم . وتقع (هوزن) (هرزان) (هوازن) عند مرتفعات (حراز)[5] .

وقد كانت الحروب من المصادر التي غذت العربية الجنوبية بمادة دسمة من الأوبئة . فقد كانت تأتي على عدد كبير من الناس ، فتتركهم جثثاً تتعفن على ظاهر الأرض ، كما كانت تأتي على مواطن السكن ومواضع المياه وتأتي على كل

---

١ شرح القاموس (١٣٠/١) .

٢ تاج العروس (٣١٧/٧) ، (دبل) .

٣ فأعجل القوم عن حاجاتهم شغل من وخز جن بأرض الروم منكور
البرقوقي (ص ٢١٩) .

٤ البرقوقي (ص ٢١٩) ، ديوان حسان (ص ٧٩) « هرشفلد » .

٥ Beiträge, S. 119.

ما يملكه الناس ، وتزيد في مشكلة الفقر مشكلة ، وتبعد النـــاس عن النظافة ، فتهيء بذلك للأوبئة أمكنة جيدة ، لتلعب بها كيف تشاء . ودليل ذلك ما نجده في كتابات المسند من اشارات الى أمراض وأوبئة تعم المناطق المنكوبة بالحروب ، حيث تكتسح من الأحياء ، ما لم يتمكن السيف من اكتساحه منهم .

وذكر الأخباريون نوعاً من البثور يخرج بالبدن ، دعوه : العـدسة ، عرفوه أنه : بثرة صغيرة شبيهة بالعدسة ، تخرج بالبدن مفرقة ، كالطاعون ، فتقتـــل غالباً ، وقلما يسلم منها . وقد رمي بها أبو لهب فمات . والظاهر أن هذا المرض كان منتشراً بمكة ، فقد روي أن قريشاً كانت تتقي العدسة ، وتخاف عدواها [1] .

وقد كان الجاهليـــون يعرفون عدوى بعض الأمراض ، فكانوا يتجنبونها ولا يقتربون من المريض المصاب بها ، ويطلقون عليها العدوى [2] ، فكانوا إذا أصيبوا بأوبئة ، فرّوا الى أماكن بعيدة سليمة تهرباً منها ، وحجروا على المريض ، لئلا يقرب منهم ، فينتقل المرض اليهم . وذلك لما كانت الجاهلية تعتقـــده في بعض الأمراض من أنها تعدي بطبعها ، مثل الجذام [3] .

والحصبة ، من الأمراض المعروفة عند الجاهليين [4] . وكذلك الجُدَري . وقد ذكر بعض الأخباريين أن أول جدري ظهر هو ما أصيب به أبرهة [5] . وهو قول من هذه الأقوال المعروفة عند الأخباريين ، فالجدري من الأمراض القديمة المعروفة عند الجاهليين قبل أبرهة بزمان .

وذكر ان العرب عالجت الحصبة والجدري بمَرار الشجر ، وبالحنظل والحرمل [6] .

و (السل) من الأمراض المعروفة بين الجاهليين . ذكر بعض أهل الأخبار انه عرف بـ (داء الياس) ، لأن (الياس بن مضر) أول من مات من السل ، فسمي بذلك ، وسمي بـ (ياس) [7] .

---

١ تاج العروس (١٨٦/٤) ، الاشتقاق (ص ١٤٣) .
٢ شرح القاموس (٢٣٤/١٠) .
٣ ارشاد الساري (٣٧٣/٨) .
٤ شرح القاموس (٢١٤/١) .
٥ شرح القاموس (٨٩/٣) .
٦ الاشتقاق (ص ١٠١) .
٧ الروض الانف (٧/١) ، تاج العروس (٣٧٨/٧) ، (سلل) .

ومن العلل : البرقان ، والصداع ، و (الشقيقة) ، وهو وجع يكون في شق الرأس ، و (السعال) وجع في الصدر ، والزكام ، والزحير ، والحصر وهو انقباض البطن ، والأسر وهو احتباس البول والحصى في مجرى البول، والحكة ، والحصف ، والحمرة ، والشرى ، والحماق ، والقُوَباء ، والثؤلول ، والعُرّ وهو الجرب الأبيض ، وداء الثعلب ويصيب الشعر ، وداء الفيل ويعتري الرجلين، والدوّار ، والهيفة ، وتسمى الفضجة ، والنملة ، وهي بثور صغار مع ورم يسير ثم تتقرح فتسعى وتتسع ، وتسمى أيضاً الذباب ، والجنون والخدر ، والفالج، والحزاز وهي القشرة التي تصيب الرأس ، والحدبة ، والطرش ، والطلق ، والجشاء ، والباسور ، والناسور ، والبهق ، والكلف ، والمغس ، والمغص ، والاستسقاء ، والإغماء ، والاختلاج ، والبخر ، والفواق ، والجشاءة ، والقلس[1] .

وعرفت القُوَباء بأنها الحزازة ، وذكر أنه كانت بوجه أبيض بن حمال بن مرثد بن ذي لحيان المأربي السَّبَئي حزازة ، توسعت فالتقمت أنفه[2] . والقوباء هو الذي يظهر في الجسد ويخرج عليه ، يتقشر ويتسع ، يزعمون أنه يعالج بالريق . وقالوا :

يا عجباً لهذه الفليقة هل تغلبن القوباء بالريقة [3]

ودم الملوك ، دواء ينفع ويفيد في معالجة من يعضه كلب كَلِب في نظر الجاهليين . فإذا أصيب إنسان بداء الكلب ، فشفاؤه بمعالجته بدم الملوك . وقد عرفه (ابن دريد) بقوله : « والكَلَب داء يصيب الناس والإبل شبيه بالجنون. وكانت العرب في الجاهلية إذا أصاب الرجلَ الكَلَبُ ، قطروا له دم رجل من بني ماء السماء ، وهو عامر بن ثعلبة الأزدي ، فيسقى ، فكان يشفى منه . قال الشاعر : دماؤهُمُ من الكلب الشفاء »[4] .

وكانوا إذا خافوا على المرأة الحامل ، ووجدوا أن ولدها ميّت في بطنها ،

١ بلوغ الارب (٣/٣٣٩ وما بعدها) .

٢ الاصابة (١/١٧) .

٣ تاج العروس (١/٤٤١) ، (قوب) .

٤ الاشتقاق (ص ١٤) .

استخرجوه منها . وجوّزوا قيام الرجل بذلك . وعبّروا عن ذلك بـ (السطو)[1] .

ويلعب التطبيب بالسحر والرقي والتعويذ دوراً خطيراً في حياة الجاهليين ، كما يظهر ذلك من الأخبار الواردة في كتب الحديث والأدب ، حتى عدّ السحر نوعاً من الطب[2] . وقد منع الاسلام أكثرها وحرمها ، ومع ذلك بقيت حية مستعملة بين الأعراب والجهلة من أهل القرى الذين لا تساعدهم أحوالهم المعاشية على مراجعة الأطباء . ويقوم هذا التطبيب على التأثير في المريض ، واستعمال بعض الحرز أو عظام بعض الحيوانات والسحر ، بحجة وجود علاقة بين المرض والأرواح ، وأن هذا النوع من التطبيب يطرد الروح الخبيثة التي تدخل الجسم فتصيبه بالمرض من ذلك الجسم . وهذا الرأي في المرض ، رأي شرقي قديم ، سيطر على كل الشعوب القديمة . فقد كان في رأي الأطباء ، أن المرض روح شريرة تستولي على الجسم المريض بدخولها فيه ، وان واجب الطبيب العمل بعلمه وبفنه لاخراج الروح الشريرة من الجسم[3] .

وفي جملة الوسائل التي استعملت لمكافحة المرض والتغلب على الأرواح الشريرة أو النظر ، أي إصابة الانسان بالعين من حاسد تصيب عينه إصابة مؤذية، الاستعانة بالرقي والتعاويذ . وقد كان العبرانيون يطلقون على التعاويذ لفظة (حرط)[4] ، وهي أنواع ، بعضها على هيأة قلب يعلق بسلسلة في العنق ، ويتهدل القلب الى الصدر ، فيكون من جملة وسائل الزينة ، وبعضها يربط بالعضد وفي مواضع أخرى من الجسم .

ولم يقتصر الجاهليون في اتخاذ هذه الوسائل على حماية أنفسهم فقط،بل اتخذوها لحماية ما يملكونه أيضاً من حيوان وزرع وملك ، فعلقوا العظام أو المعادن أو نعل الحيوان مثل نعل الفرس ، ورسموا العين واليد على الجدر وفوق الأبواب، لحمايتها من العيون المؤذية ومن حسد الحاسدين ، ولا يزال الناس يستعملونها لحماية أنفسهم ومقتنياتهم من الاصابة بأذى العين وبحسد الحاسدين .

---

١ تاج العروس (١٠/١٧٧) ، (سطا) .

٢ عمدة القارىء (٢١/٢٦٣ وما بعدها) شرح القاموس (١/٣٥١) .

٣ A. Jeremias, Altorientalische Geisteskultur, S. 55. ff., The Universal Jewish Ency., Vol., 7 pp. 434.

٤ Hastings Dict., Vol. I, p.88.

والجنون وسائر الأمراض العصبية معروفة بين الجاهليين أيضاً ، وهم يعدونها من الأمراض التي تحدث للإنسان بسبب دخول الجنون والشياطين في جسد الانسان فتتملكه ، ولا يمكن شفاء من أصابه مس من الجنون أو لوثة في العقل ، إلا بإخراج الأرواح المسيطرة على المريض من جسده. ولذلك كان علاج هذه الأمراض من واجب الكهان والسحرة في الغالب ، بسبب كونها أمراضاً لم تقع من آفة في الجسد ، وإنما وقعت من عارض خارجي ، هو دخول الأرواح الى الأجساد ، ومهمة اخراج تلك الأرواح من وظائف المذكورين .

وقد عالج العرب الجنون والخبل بشرب دماء من دماء الملوك . ومن أقوالهم: دماء الملوك شفاء من عضة الكلب الكلِب والجنون والخبل . ومعالجة داء الكلب، بلعق دم الملوك أو الأشراف من الأدوية المشهورة عند الجاهليين في مداواة هذا المرض . ونسب الى (الخليل بن أحمد) « أنه قال : دواء عضة الكَلْب الكَلِب الذراريح والعدس والشراب العتيق . وقد ذكر كيف صَنعته وكم يُشرب منه وكيف يتعالج به »[1] . وذكر أهل الأخبار أن (الأسود بن أوس بن الحُمرة) أتى (النجاشي) فعلّمه دواء الكَلَب ، وقد ورث ولده هذا الدواء . ومن ولده (المحل) . وقد داوى (عتيبة بن مِرداس) فأخرج منه مثل جراء الكلب[2] . و (الأسود بن أوس) ، هو من (بني الحمرة) ، وهم من (ثعلبة بن يربوع) . وقد ذكر (ابن دريد) ، أن (الأسود بن أوس) تعلم من (النجاشي) ، دواء الكلب ، وأن نسله يداوون به العرب الى اليوم ، أي الى يومه ، وقد صار منهم اليوم الى (بني المحل) ، فهو فيهم أيضاً[3] .

وقد ظن الجاهليون ان النوم يؤدي الى امتداد السم في جسد اللديغ ، فكانوا يعلقون الجلاجل والحلى على اللديغ ثم تحرك لئلا ينام فيدب السم في جسده[4] . ويقولون انه اذا علق عليه أفاق ، فيلقون عليه الأسورة والرُعاث ، ويتركونها عليه سبعة أيام ويمنع من النوم . قال النابغة :

---

١ عيون الاخبار (٧٩/٢) .

٢ عيون الاخبار (٨٠/٢) .

٣ الاشتقاق (١٣٨) .

٤ المعاني الكبير (١٠٠٨/٢) .

يسهد في وقت العشاء سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع[1]

وفي جملة ما داووا به الخدر الذي يصيب الرجل ، انهم كانوا يذكرون أحب الناس الى الشخص ، فيذهب الخدر عنه[2] .

وزعموا انه اذا ظهرت بشفة الغلام بثور ، يأخذ منخلاً على رأسه ويمر بين بيوت الحي ، وينادي : الحلأ الحلأ ، فيلقى في منخله من ها هنا تمرة ، ومن ها هنا كسرة ، ومن ثم بضعة لحم ، فإذا امتلأ ، نثره بين الكلاب ، فيذهب عنه البثر ، وذلك البثر يسمى : الحلأ[3] .

وإذا أراد أحدهم دخول قرية ، فخاف وباءها ، أو جنها ، فله سبيل سهل يحميه ويقيه ، هو أن يقف على باب القرية والموضع الذي يريد دخوله ، ثم ينهق نهيق الحمار، ثم يعلق عليه كعب أرنب ، فيدخل عندئذ الموضع دون خوف . فقد فعل ما يتقي به الأذى والسوء . ويسمون ذلك التعشير . قال عروة بن الورد:

لعمري لئن عشرت من خشية الردى نهاق الحمير إنني لجزوع[4]

واذا أردت المرأة المقلاة أن يعيش ولدها ، ففي إمكانها ذلك اذا تخطت القتيل الشريف سبع مرات، وعندئذ يعيش ولدها . وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم :

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن ألا يُلقى على المرء مئزر[5]

والجاهليون ، مثل غيرهم من شعوب ذلك الزمن ، وفي جملتهم العبرانيون ، كانوا يرون أن الأمراض هي غضب يسلطه الآلهة على الانسان لتنتقم منه ، لسبب ما ، مثل عدم قيام المريض بواجباته تجاهها ، ولهذا كانوا يسرعون بتقديم النذور والقرابين اليها ترضية لها . ويرد المرض اليهم ، بتسلط الهوام وبعض الديدان والأرواح الشريرة على الانسان ، فتصيبه بالمرض . ولهذا كان الطب من واجب

---

١ نهاية الارب (٣/١٢٤) .
٢ نهاية الارب (٣/١٢٥) .
٣ نهاية الارب (٣/١٢٥) .
٤ نهاية الارب (٣/١٢٥) ، بلوغ الارب (٢/٣١٥) .
٥ نهاية الارب (٣/١٢٤) .

الكهان ورجال الدين بالدرجة الأولى ، هم يداوون المريض ويعطونـه الوصفات التي يعتقدون أن فيها الشفاء للمريض ، كما كانوا يعتقدون بالنظر ، أي بإصابة الإنسان ، فيلحقه المرض[1] .

وقد مارس التطبيب بين العرب المبشرون ، وذلك بعد الميلاد بالطبع،وأكثرهم من الأعاجم ، وكانوا قد درسوا الطب وتعلموه على الطريقة اليونانية في الغالب ، فلما أرسلوا الى بلاد العرب أو جاءوا هم أنفسهم للتبشير ، مارسوا تطبيب المرضى ، وقد شفوا جماعة من سادات القبائل ، وأثر شفاؤهم هذا عليهم فاعتنقوا النصرانية. واشتهر (العباديون) بالتطبيب كذلك[2] ، ولعل ذلك بعامل تنصرهم ، فقد كان أكثر رجال الدين النصارى يدرسون مختلف العلوم ، وفي جملـة ذلك الطب ، ومنهم من ترجم كتب العلوم اليونانية إلى السريانية ، فدرس العباديون هذه العلوم . وكان طبهم مبنياً على العلوم والتجارب السابقة ، ومتقدماً جداً بالنسبة إلى طب أهل البادية ، لذلك نجح المبشرون والنصارى في معالجة أمراض الأعراب ، ولا سيما ساداتهم ، الذين صاروا يقصدونهم لنيل الشفاء على أيديهم . ومن ثم اشتهر النصارى بالطب ، ولما جاء الاسلام ، كان أكثر الأطباء من النصارى ، وعلى أيديهم تخرج الأطباء المسلمون .

وقد استخدم الجاهليون النساء لتمريض الجرحى في غزوهم وغاراتهم ، وقد فعل المسلمون فعلهم . قالت (بنت معوذ بن عفراء) : « كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نسقي القوم ونخدمهم ونردّ القتلى والجرحى الى المدينة »[3]. وقد كان في مسجد الرسول موضع يعالج فيه المرضى والجرحى ، وكان الرسول والصحابة يتفقدون المرضى النازلين به[4] .

وليس في الموارد المتوفرة لدينا ما يدل على إقدام الأطباء الجاهليين على التشريح، للاستفادة منه في زيادة علمهم بالطب . وقـد كانت شعوب الشرق الأدنى تنفر من تشريح الإنسان ، وتعدّه مثلة واهانة للمتوفى ، وعملاً مخالفاً لأحكام الدين،

---

١ Hastings. Dict. of the Bible, p. 597. ff.

٢ الفاخر (ص ٥٨) .

٣ ارشاد الساري (٨/٣٦١) .

٤ كتاب الجهاد .

والملك نهت عنه[1]. والجاهليون لا يختلفون من هذه الناحية عن غيرهم إن لم يزيدوا عليهم في هذه الأمور التي يعدّونها حرمة وكرامة للإنسان . وتشريح الميت وتقطيع بعض أجزاء جسمه ، اعتداء على حرمة الميت ، واهانة له ولأهله الأحياء، ولهذا لا نطمع في الحصول على موارد قد تفيد بوجود خبرة علمية عند الأطباء الجاهليين ناتجة من تجاربهم وبحوثهم التي حصلوا عليها من التشريح .

ولم يرد الينا أي شيء مفيد في الكتابات الجاهلية عن الطب والأطباء ، وإن أملنا الوحيد في الحصول على معارف عن الطب ، متوقف على المستقبل يوم يقوم علماء الآثار بالتنقيب تنقيباً علمياً عميقاً في باطن الأطلال الأثرية ، للكشف عن تأريخ الماضين . وعندئذ يكون من الممكن العثور على نصوص قد تكشف النقاب عن الطب الجاهلي وعن العلوم الأخرى وعن مختلف نواحي الثقافة عند الجاهليين .

ويقال للمرض (مرضم) أي مرض في الكتابات الجاهلية[2] . وتؤدي لفظة (حلصم) (حلظم) (حلظ) معنى مرض ووباء[3]. ويتبين من بعض الكتابات ان أوبئة شديدة وأمراضاً مهلكة كانت تقع في بعض الأحيان ، فتفتك بالناس . وقد كانوا يتجنبونها بالتضرع الى الآلهة للرحمة بهم وتخليصهم من الضر ، كما كانوا يتركون المدن والأماكن المزدحمة إلى محلات بعيدة مكشوفة غير موبوءة حتى ينكشف الوباء . وفي جملة هذه الأوبئة الطاعون .

ويعبر عن المرض في المسند بلفظة أخرى هي (شين) ، وهي في معنى (شعين) Sha'en في الأثيوبية و (سيعون) Se'on في العبرانية و (شينو) Shenu في البابلية[4] ، وذلك كما في هذا النص السبئي : « تشين شين ارجلهو »[5] ، أي

---

١ Hastings, Dict., p. 598.

٢ Rhodokanakis, Katab. Texte, II, S. 33, Jamme, Sabaen Inscriptions, p. 441.

٣ خليل يحيى نامي ، نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرقها ، (ص ٣٦) ، السطر السادس من النص رقم ٢٢ .
Rhodokanakis, Kata. Texte, II, S. 33, CIH, 407, Mardtmann und mittwoch, alt. Inscri., S. 47.

٤ Repe. Epi. Semi., Tome VII, Prim. Livr., p. 30. f. Num. 3991.

٥ المصدر نفسه ، الفقرة : ٧ .

المرض الذي مرض أرجله ، و (تشين) بمعنى المرض . وكما في هذه الجملة : « بن هوت تشين »[1] ، أي « في هـذا المرض » و « من هـذا المرض » . وتعني (شين) أذى ومكروه ومعنى سوء كذلك ، وهي في عربيتنا العراقية ضد (الزين) أي الحسن ، فنقول : زين وشين ، أي حسن وقبيح ، أو جيد ومكروه .

ووردت لفظة (عوس) بمعنى وباء أو طاعون . وأما (خوم) ، فتؤدي معنى (وخم) و (خامة) ، ويراد بها انتشار الأمراض والأوبئة ، أي وباء . جاء في بعض النصوص (عـوس ذكون بأرضن) ، أي (الأوبئة التي انتشرت بالأرضين)[2] . وورد (خوم وعوس وموت كون بأرضن)[3] ، أي (الوخامة) (الوخم) والأوبئة والوفيات التي تفشت في الأرض . ورد « كن ضلم وعوسم باشعبن وهكرن » ، أي « وكانت أو وتفشت أمراض وأوبئة بالقبائل والمدن »[4]. وورد « خوم ذكين بكل ارضن) ، أي « الوخامة (أوبئة) تفشت في كل أرض »[5] . ويفهم من هذه النصوص أن العربية الجنوبية ، كانت معرضة لأوبئة عامة ، تأتي فتكتسح البلاد اكتساحاً ، تميت الأعراب ، أبناء القبائل ، كما تميت أهل المدن،فتشمل مناطق واسعة من البلاد . وقد كانت تظهر خاصة بعد الحروب التي كانت تفني القرى والمدن ، وتدمر مواضع المياه ، وتترك الجثث ملقاة على سطح الأرض حتى تنتن وتجيف ، فتتفشى منهـا الأمراض ، وتظهر الأوبئة ، وتتسرب الى مواضع نائية لتضيف الى خسائر الحرب خسائر أخرى فادحـة في الأرواح .

وقد وردت في نصوص ثمودية اشارات إلى أمراض كانت معروفة في ذلك الوقت[6] .

---

١ المصدر نفسه ، الفقرة : ١٢ .
٢ خليل يحيى نامي ، نقوش عربية جنوبية ، مجلة كلية الآداب، القاهرة ١٩٣٧، (ص ١ ، ١٣ قسم ٢ ، ١٦) ، (١٩٥٤) (ص ٢١ وما بعدها) .
CIH 81, 4, Jamme 645, Ma. Mb. 275.
٣ Ja. 645, 13-14.
٤ CIH 541, 72-73.
٥ Rep. Epig., 4138, 4-5.
٦ Grimme, S. 40.

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبر عن الأوجاع والآلام والأمراض والأسقام التي تصيب الانسان ، وتستعمل للتعبير عن منزلة ودرجة من درجات الأمراض التي تصيبه ، من نفسية وغير نفسية . وتحديد مدلولاتها وحدودها ، يفيدنا كثيراً في تكوين رأي في مدى تأثر الجاهليين بالنواحي الطبية والنفسية في ذلك العهد .

وقد كان الختان شائعاً بين العرب ، ويستعمل (الموسى) للختان ، ولوقف الدم تستعمل أدوية خاصة من مراهم ومواد ، كما يستعمل الضماد أيضاً . ولم يكن الختان من أعمال الطبيب ، انما يقوم به الختان ، والحلاقون والحجامون .

وقد عرف الجاهليون طريقة تغطية بعض العيوب أو الاصابات التي تلحق بأعضاء الجسم ، بالاستعانة بالوسائل الصناعية ، فشدوا الأسنان وقووها بالذهب ، وذلك بصنع أسلاك منه تربط الأسنان ، أو بوضع لوح منه في محل الأسنان الساقطة [1] . واتخذوا أنوفاً من ذهب ، لتغطية الأنف المقطوع ، كالذي روي عن عرفجة بن أسعد من انه اتخذ أنفاً من ذهب ، وكان قد أصيب أنفه (يوم الطلاب) في الجاهلية [2] .

وتخصص نفر من الجاهليين بمعالجة الحيوان ، وهم البياطرة ، يعالجون أمراضها فيصفون الأدوية ، يقال للواحد منهم البطير والبيطر والبيطار ، وقد أشير اليهم في أشعار الجاهليين [3] . ويعالجون الجروح التي تصيبها . وفي جملة ما كانوا يعالجون به الكي . والمعالجة باستعمال القطران ، وذلك بطلي الحيوان المريض به [4] . ومن هذه الأمراض الجرب . ويقال للحيوان المطلي بالقطران (المقطور) أما اذا كان أنثى ، مثل ناقة ، فيقال : «مقطورة» [5] . ويقال إن الجرب ، هو العُرّ . والعُرّ بثر في الإبل ، ويعالج بالقطران . قال علقمة الفحل :

قد أدبر العُرّ عنها وهي شاملها من ناصع القطران الصرف تدسيم [6]

---

١ المعارف (ص ٨٢) .
٢ العقد الفريد (٦/٣٥٤) ، الطبقات ، لابن سعد (٧/٤٥) .
٣ تاج العروس (٣/٥١) ، (بطر) .
٤ تاج العروس (٣/٥٠٠) ، (قطر) .
٥ شرح ديوان لبيد (ص ١٢٢) .
٦ الفاخر (ص ٦٦) .

وكان بعضهم إذا وقع العُرّ في إبلهم ، « اعترضوا بعيراً صحيحاً من تلك الإبل ، فكووا مشفره وعضده وفخذه ، يرون أنهم اذا فعلوا ذلك ذهب العُرّ عن إبلهم » . ويقال إنهم كانوا يفعلون ذلك ، ويقولون : تؤمن معه العدوى . قال النابغة :

وكلفني ذنب امرىء وتركته كذي العُرّ يكوى غيره وهو راتع[1]

والهناء : ضرب من القطران تطلى به الإبل ، لمعالجة الجرب وغير ذلك . ويقال للجرب عند أول ظهوره : النقب[2] . ويقال للبعير المهنوء بالقطران (المشوف)[3] .

وعالجوا أمراض الجلد التي تصاب بها الإبل بطليها بالنفط . ويقال لذلك : (الكحيل)[4] .

ومن الأمراض التي تصيب (الإبل) مرض (الدبرة) ، يظهر في سنام الإبل فلا يزال يأكل سنامه حتى يُجَبّ ، أي يقطع ، وإلا نزل على السناسن فيصيبها ويموت الحيوان . واذا كان السنام مكشوفاً ، فإن الطيور تنقره فيتأذى الحيوان ويتألم وقد يموت ، ولعل ذلك هو الذي حمل الجاهليين على التشاؤم من (الأخيل) وبعض الطيور الأخرى التي كانت تحط على ظهور الإبل فتنقر سنامها . ويقال للجمل الذي يقطع سنامه (الأجبّ)[5] .

ومن الأمراض التي كانت تصيب الإبل (السوّاف) ، وقد عرف بأنه داء يصيب الإبل فتهلك[6] . و (الجارود) ، وهو مرض معدٍ ، إذا فشا أهلك الإبل . وقد ظهر في (بكر بن وائل) ، فأهلك إبلها . وهم يعلمون انه من

---

١ نهاية الارب (٣/١٢٣) ، اللسان (٦/٢٣٠ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٣٩٨ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٦) .
٢ البيان (١/١٠٧) .
٣ شرح ديوان لبيد (ص ١١٥) .
٤ تاج العروس (١/٣٣٢) ، (صبب) .
٥ شرح ديوان لبيد (ص ١) .
٦ الاشتقاق (٢/٣١١) .

الأمراض التي تعدي ، وتنتقل بالعدوى[1] . وذكـــر أهل الأخبار ان (الجارود العبدي) ، وهو رجل من الصحابة من عبد القيس ، إنما سمي (جاروداً) لأنه فرّ بإبله إلى أخواله من (بني شيبان) وبإبلـه داء ، ففشا ذلك الداء في إبـــل أخواله فأهلكها ، وفيه يقول الشاعر :

لقد جرّد الجارودُ بكر بن وائل

ولذلك سمي المشؤوم جاروداً[2] .

ومن أمراض الدواب مرض يقال له (العقل) ، يصيب رِجل الدابـــة ، إذا مشت ظلعت ، وأكثر ما يعتري في الشاء[3] . ومرض (الحلمـــة) ، دودة تقع في جلد الشاة الأعـــلى وجلدها الأسفل ، وقيل : دودة تقع في الجلد فتأكله ، فإذا دبغ وهى موضع الأكل وبقي رقيقاً . وقيل : القراد أول ما يكون صغيراً قمقامة ، ثم يصير حمنانة ، ثم يصير قراداً ، ثم حلمة[4] .

وكانوا ينقون رحم الفرس أو الناقة من النطف ، ويخرجون الولـــد من بطن الفرس أو الناقة ويعبر عن ذلك بلفظة (مسى)[5] .

ويذهب بعض الباحثين الى أن لفظة (بيطار) ، هي من أصل يوناني ، هو Ippiyatros[6] .

ومن الذين عرفوا بـــين الجاهليين بمعرفتهم بالبيطرة (العاص بن وائل) ، وكان يعالج الخيل والإبل[7] . وقد برع البياطرة بمعرفتهم خاصة بالخيل والإبل ، لأنها أثمن أموال العرب . وعناية العرب بالخيل ، هي التي حملت الإسلاميين على وضع مؤلفات خاصة فيهـــا . ومن جملة من ألف في الخيـــل (أبو عبيدة)

---

١ الاشتقاق (ص ١٩٨) .
٢ اللسان (٣/١١٦) ، (صادر) ، (جرد) .
٣ اللسان (١١/٤٦٣) ، تاج العروس (٨/٢٨) ، (عقل) .
٤ تاج العروس (٨/٢٥٦) ، (حلم) .
٥ تاج العروس (١٠/٣٤٢) ، (مسى) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢٥٦) .
٧ المعارف (٥٧٦) ، (اخراج ثروت عكاشة) .

و (أبو زيد الأنصاري) و (الأصمعي) وآخرون[1] . وللأصمعي كتاب في الإبل[2] ، ولأبي عبيدة كتاب في الابل كذلك[3] . ولأبي زيد الأنصاري كتاب في هـذا الموضوع أيضاً . ولأحمد بن حاتم مثله ، وقد ألف غيرهم في الابل وفي حيوانات أخرى[4] . وقد طبعت بعض هذه الكتب .

---

١ الفهرست (ص ٨٥ وما بعدها) .
٢ الفهرست (ص ٨٨) .
٣ الفهرست (ص ٨٦) .
٤ الفهرست (ص ٨٧ وما بعدها) .

الفصل الثلاثون بعد المئة

الهندسة والنوء

ولا بد أن يكون للجاهليين علم بطرق السيطرة على المياه ، وبطرق استنباطها والاستفادة منها . ففي مواضع من اليمن والحجاز والعربية الجنوبية آثار سدود مثل سد مأرب ، لا يمكن أن تكون قد أنشئت بغير علم ودراية وخبرة . ففيها فن في كيفية جمع المياه في خزاناتها ، وفن في كيفية تصريفها وتوزيعها وقت الحاجة بقدر ، وفيها أبواب تتحكم في سير الماء . كذلك كان لهم علم في حفر الآبار وإنشاء الصهاريج لجر المياه الى الأماكن التي تحتاج اليها . وقد اشتهرت ثقيف بعلمها بطرق استنباط المياه . واشتهرت قبائل أخرى بهذا العلم أيضاً ، وذكر أن بعضها كانت تتفرس وتحدس بوجود الماء من نظرها الى لون التربة ومن شمها ومن علامات أخرى عرفوها وأدركوها بالتجربة .

ونجد اليوم بقايا سدود استخدمت لحبس (السيول) للاستفادة منها في الشرب وفي الزراعة . وتقع أكثر هذه السدود في الأودية التي تكون مسايل تسيل منها الأمطار المتساقطة في موسمي المطر في العربية الجنوبية . فتعمل الأحباس بين طرفي الوادي لتحبس الماء ، فلا يندفع إلى المواضع المنخفضة فيذهب عبثاً ، وبذلك يرتفع مستواه ، فيسقي الزرع على جانبيه ، وتعمل سواقي لتسيل منها المياه إلى الأماكن المنخفضة التي تقع تحت هذه الأحباس وهكذا تسقى بقية المزارع. وتختلف هذه الأحباس من حيث جودة العمل والاتقان ، فبعضها أحباس بدائية بسيطة ،

عملت من الأتربة ، أو من الأحجار والصخور ، على شكل (سكر) ، يمنع الماء من المرور ، وبعضها عملت بصورة فنية متقنة من الحجر الموضوع بعضه فوق بعض ، مع استخدام مواد ماسكة لشد الحجر بعضه إلى بعض ، وقد يطلى السد بمادة تمنع الماء من اللعب به . وتعمل به منافذ ذات أبواب ، تسد وتفتح حسب الحاجة للتحكم بالماء . وتلاحظ بقايا هذه السدود اليوم في وادي مبلقه ، وفي وادي بيحان ، وفي وادي حريب ، وفي أودية أخرى عديدة .

أما أهل المواضع المرتفعة مثل الهضاب والجبال ، فقد عمدوا الى عمل حواجز وحوائط منخفضة ، لمنع المطر من الانحدار ، إذ تحصره هـذه الحواجز ، فيسيل الى المزارع ليسقيها ، وقد تعمل له مجارٍ ليسيـل الزائد منه والذي لا يحتاج اليه الى أسفل ، فلا يغرق الزرع . وقد يوجه الى كهوف وآبار محفورة وكهاريس ، لتمتلىء بالماء ، للاستفادة منه في مواسم انحباس الأمطار .

وتوجد في المعـــابد فوهات تدفع مياه الأمطار حين سقوطها الى مجاري بنيت تحت الأرض تؤدي الى صهاريج تخزن فيها مياه الأمطار . وقد عثرت بعثة (وندل فيلبس) الأميركية على مواضع خزن الماء في معبد مأرب المعروف في الكتـابات بمعبد (اوم) ، (اوام) المخصص لعبادة (المقه) إلـه سبأ الرئيس . ونجـد مثل هذه المخازن في المعابد الأخرى أيضاً . وخزن الماء على هذه الطريقة،أسلوب متبع في فلسطين وفي المواضع الأخرى ذات الأرض الصلدة الحجرية ، حيث تنقر الأرض وتعمل بها كهوف كبيرة تخزن فيها المياه [1] .

وقد تخصص قوم وتفرسوا بمعرفة مواطن المياه واستنباطها وساعدوا في حفـــر الآبار وفي حفر القنى وإنشائها . وفي كتب اللغة ألفاظ أطلقت على الأدلاء الخبراء أصحاب العلم بمواضع وجود الماء في باطن الأرض ، مثل جوّاب الفلاة ، وذلك لأنه كان لا يحفر صخرة إلا أماهها ، والقناقن ، وهو الدليل الهادي البصير بالماء تحت الأرض في حفر القنى ، والعيّاف ، وقد تحدثت عنها وتطلق أيضاً على الدليل الذي يعرف موضع الماء من الأرض [2] .

والماء في الأرضين الجافة القاحلة ، نعمة كبرى وحياة لأهلها ، فكانوا يفرحون

---

1 Archaeological Discoveries in South Arabia. p. 226.

٢ المخصص (١٢/٣٥ وما بعدها) .

ويشكرون آلهتهم ويتقربون اليها بالذبائح والنذور عند عثورهم على الماء في الأرضين التي يحفرون فيها الآبار . ولهذا قدسوا الآبار وأسبغوا عليها القدسية ، وتقربوا لها بالنذور والهدايا،وعدُّوا مياهها شافية نافعة مقدسة . والبئر ثروة تدر على أصحابها المال . وقد يبارك الكهان والرؤساء تلك الآبار ، لتنعم على أصحابها بالماء الغزير. وقد كان (المحققون) (محققيم) ، وهم الرؤساء عنـد العبرانيين ، يحضرون الاحتفالات ، ويشكرون إلّه اسرائيل عند ظهور الماء في الآبار،على نحو ما يفعله العرب في مثل هذه الأحوال[1] .

وقد لجأ الجاهليون الى التحايل في استصلاح الماء الأجاج أو الكدر ، للاستفادة منه في الشرب ، فذكر إذا كانت بهم حاجة ماسة الى الماء ، ولم يجدوا إلا ماء البحر أو المـاء الأجاج الملح ، وضعوه في قدر ، ووضعوا فوق القدر قصبات وعليها صوف منفوش ، ثم يوقـد تحت القدر ، حتى يرتفع البخار ، فيدخل مسامات الصوف ، ويمتلىء به . فإذا كثر ، عصر في إناء ، ولا يزال على هذا الفعل حتى تتجمع كمية من الماء العذب ، وتترسب الأملاح في القدر . وذكر أيضاً أنهم كانوا يحفرون في الشاطىء حفرة واسعة ، ليترشح اليها ماء البحر ، ثم الى جانبها وقريب منها حفرة أخرى يترشح اليها الماء من الثانية ، ثم تحفر حفرة ثالثة ، وهكذا حتى يعذب الماء .

أما الماء الكدر ، فقـد كانوا يتخلصون من كدرته بإلقاء مواد فيها لتعلق الكدرة بها ، فإذا رسبت ، رسبت الكدرة معها ؛ وبذلك يتنقى الماء . وفي جملة المواد التي استعملوها الجمر الملتهب ، يلقى به في الماء ، فإذا انطفأ وتحول الى فحم ، أخذ معه ما يجده من الكدرة ، فيصفو بذلك الماء ، واستعملوا نوعاً من الطين وسويق الحنطة[2] .

وقد عرفت هذه الفراسة : فراسة استنباط الماء من الأرض ، بالأمارات الدالة على وجوده ، على نحو ما ذكرت من شم التربة ، أو برائحة بعض النباتات فيه، أو بمراقبة حركات الحيوان : ويقال لها : الريافة[3] .

---

١ Ency. Bibl., vol., I, p. 515.

٢ بلوغ الارب (٣٩٦/١) .

٣ بلوغ الارب (٣٤٣/٣) .

وتوجد اليوم آبار قديمة في مواضع مختلفة من جزيرة العرب عميقة جداً ، ولا زال الناس يستقون منها الماء . وهي عادية ، أي قديمة تعود إلى ما قبل الاسلام. وكانت عليها مستوطنات تعيش على ماء هذه الآبار . ولهذا فلا غرابة إذا ما وجدنا القدماء يقدسون الآبار ويعتبرونها من مصادر الحياة بالنسبة لهم ، لأنها تمدهم وتمد إبلهم وكل ماشيتهم بعرق الحيـــاة وروحها . ويدل عمقهـــا على مقدار ما بذله الحفارون من جهد حتى توصلوا إلى تلك الأعماق بوسائلهـــم البدائية التي كانت متوفرة عندهم في ذلك العهد .

والآبار هي من مصادر الحضارة والتحضر في جزيرة العرب ، فلولاها ولولا موارد الماء الأخرى ، لما ظهرت المستوطنات ، ولما ظهر زرع ، ولما عاش ضرع . ولهذا صارت البوادي أرضين قفراً لا يسكنها ساكن إلا إذا استنبط ماء فيها ، أو سقط غيث عليها . ولقيمة الماء في حياة جزيرة العرب ، نجد نصوص المسند تذكرها وتشير إلى الأرضين التي تسقى منها ، وتعتبرها من مصادر النعمة والثراء.

ولأهمية الماء ، كانوا يتقربون إلى آلهتهم بالقرابين وبالأدعية والتوسلات ، لأن تمنحهم المطر ، وتسقي أرضهم على أحسن وجه ، وقد كان من واجب رجال الدين الإستسقاء ، وذلك بأن يتوسلوا إلى آلهتهم بأن تمنّ عـــلى عبيدها بالمطر ، يقومون به بإجراء طقوس دينية خاصة ، وربما استعانوا بالسحر في هذا الاستسقاء. وقد كانت الشعوب الأخرى تستسقي كذلك ، وتستعين بالسحر في إرضاء الآلهة لكي تنزل الغيث على المحتاجين اليه . وقد عرف الاستسقاء بمكة وعند سائر العرب، كما تحدثت عن ذلك في مواضع من هذا الكتاب . والأغلب أن الكهنة كانوا هم الذين يقومون بالاستسقاء ، لأنه من صميم أعمالهم وواجباتهم[1] .

وقد سبق أن تحدثت عن شق الطرق في الهضاب وفي جبال اليمن ، لايصال القرى والمدن بعضها ببعض . وقد أبدع المهندسون في ذلك الوقت في شق الطرق في المناطق الجبلية ، ويسمونها (مسبا)[2] ، ولا تزال آثار بعض منها موجودة حتى اليوم . ووردت لفظة (مذهب) في نصوص المسند ، بمعنى الممر والطريق والمعبر[3] .

---

١ Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 53, amm. 2, 5, R. Smith, Religion der Semiten, S. 59, Goldziher, im Festschrift für Th. Nöldeke, S. 309.

٢ راجع النص رقم ٤٦٢٤ المنشور في الصفحة ٢٧٦ من كتاب :
REP. EPIG., VII, II.

٣ Jamme 618, 16, Mahram, p. 119.

وقد قام المهندسون بإصلاح الطرق ، ونجد لفظة (درك) Derek في العبرانية بمعنى (الطريق)[1] . والدرك في العربية أسفل كل شيء ، ومراتب الهبوط[2] ، ولعلها في الأصل الطريق المنحدر إلى أسفل . وأما السبيل ، فالطريق . وتقابل هذه اللفظة لفظة (شبيل) في العبرانية[3] . و (السراط) (الصراط) الطريق الممهد المعبد ، واللفظة من الألفاظ المعربة عن اللاتينية ، من أصل Strata ، بمعنى طريق مبلط ، وطريق كبير واضح[4] .

النوء والتوقيت :

ومعارفنا بالأنواء والتوقيت عند الجاهليين قليلة ضحلة . وهي مبعثرة في كتب اللغة والأدب وفروع المعرفة الأخرى ، مثل كتب الجغرافيا والأنواء . ولم يصل الينا شيء منها في نصوص المسند . غير ان ما نجده في المؤلفات المذكورة على قلّته وضآلته يدل على ان الجاهليين كانوا أصحاب عناية ودراية بالأنواء والتوقيت وانهم كانوا على علم أو شيء من العلم بالأنواء عند غيرهم ، مثل أهل العراق أو أهل بلاد الشأم . ولعلهم كانوا على اتصال مباشر أو بالواسطة بعلم اليونان واللاتين بالأنواء .

وعدم وصول شيء – في كتابات المسند – من علم النجوم والأنواء وما يتعلق بعلم الفلك ، لا يمكن أن يكون دليلاً بالطبع على عدم وجود علم لأهل العربية الجنوبية الجاهليين بالفلك ، ولا يعقل ألاّ يكون لهم علم به . فقد كان العرب الجنوبيون أصحاب زراعة وتجارة ، وكانوا يركبون البحر . وركوب البحر يحتاج الى علم بالنجوم وبتقلبات الجوّ كما كانت ديانتهم تقوم على أساس تقديس النجوم. ولهذه الملاحظات لا بد أن يكون لأهل اليمن وغيرهم من أهل العربية الجنوبية علم بالأنواء . وقد يعثر في يوم ما على نصوص مدوّنة بلهجاتهم فيها شيء ما من أمر هذا العلم .

---

١ Hastings, extra volume, p. 368.

٢ تاج العروس (٧/١٢٧) ، (درك) .

٣ Hastings, extra volume, p. 368.

٤ غرائب اللغة (٢٧٨) .

والنوء عند الجاهليين هو النجم إذا مال للغروب ، أو هو سقوط النجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه ، وهو نجم آخر يقابله من ساعته في المشرق . وانما سُمي نوءاً لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع ، وذلك الطلوع هو النوء . وبعضهم يجعل النوء هو السقوط . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحرّ والبرد الى الساقط منها ، فتقول : مطرنا بنوء كذا [1] . قال الشاعر :

ينعى امرءاً لا تغب الحيّ جفنته   إذا الكواكب أخطا نوءها المطر[2]

وذكر أن من طلوع كل نجم الى طلوع رقيبه ، وهو النجم الآخر الذي يليه ثلاثة عشر يوماً ، وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنة ، ما خلا الجبهة ، فإن لها أربعة عشر يوماً ، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة . وذلك لتكمل السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . وذكر بعض العلماء أن العرب لا تستنيء بالنجوم كلها ، إنما يذكر في الأنواء بعضها . وقال (ابن الأعرابي) : « لا يكون نوء حتى يكون مطر معه ، وإلا فلا نوء »[3] .

وقد زعموا ان لكل نوء أثر في هذا الكون وفي الانسان . فإذا حدث شيء ووقع أمر نسبوه إلى نوئه . وفي جملة ما نسبوا أثره إلى الأنواء : حدوث المطر ، فإذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى أثر النجم الطالع في ذلك الوقت . فيقولون مطرنا بنوء كذا . وقد ذهبوا إلى أن الأنواء (٢٨) نوءاً أو نجماً اعتقدوا انها علة الأمطار والرياح والحر والبرد[4] . وقد ذكروا الأنواء الممطرة ومواسم المطر[5] . ونظراً إلى أن السنة أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنواء ، لكل نوء ثلاثة عشر يوماً ، إلا نوء الجبهة فإنه أربعة عشر يوماً ، فيكون مجموع أيام السنة (٣٦٥) يوماً ، وهو المقدار الذي تقطع الشمس فيه بروج الفلك الاثني عشر[6] .

ونظراً لأهمية المطر في حياة جزيرة العرب ، اهتموا بمراقبة مظاهر الأنواء

---

١ تاج العروس (٤٧٢/١ وما بعدها) ، المخصص (١٣/٩ وما بعدها) ، العمدة (٢٥٣/٢) .
٢ الخزانة (٩٣/١) ، (بولاق) .
٣ تاج العروس (٤٧٣/١) « الكويت » ، العمدة (٢٥٣/٢) .
٤ زيدان : تأريخ اداب اللغة العربية (٢٠٢/١) .
٥ تاج العروس (٤٧٣/٢) .
٦ العمدة (٢٥٣/٢) .

وألوان السحب ، وقد علمتهم تجاربهم ان السحب البيضاء ، لا تكون ممطرة ، وأن السحب السوداء تكون هطلة ، تهطل الأمراض وتغيث الناس[1] .

هذا وتجد للسحب أسماء كثيرة من حيث ترتيبها وأوصافها وقربها أو بعدها عن الأرض ومن حيث لونها واحتمال وجود الغيث فيها[2] . وفي كثرة هذه الأسماء دلالة على شدة اهتمام العرب بالسحاب لما له من أثر في حياتهم ، لا سيا بالنسبة الى نزول الغيث . فقد كانوا يستسقون بالنوء،ويرجعون سبب سقوط المطر إليه .

ولتعارض عقيدة الجاهليين هذه مع عقيدة الإسلام في الخلق والأسباب ، جاء النهي عنها في الإسلام . ورد في الحديث : « من قال سقينا بالنجم ، فقد آمن بالنجم وكفر بالله »[3] . وجعلت الأنواء من الأمور الثلاثة التي عرفت بالجاهلية والتي نهى عنها الإسلام : الطعن في الأنساب والنياحة والأنواء[4] .

وكانوا يكرهون نوء السماك ، ويقولون فيه داء الإبل ، قال الشاعر :

ليت السماك ونوءه لم يخلقا ومشى الأفيرق في البلاد سلما[5]

والسماك ، سماكان : الأعزل والرامح وهما نجمان نيران : وسمي أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب ، كالأعزل الذي لا رمح معه . ويقال لأنه إذا طلع لا يكون في أيامه ريح ولا برد ، وهو أعزل منها . وهو من منازل القمر ، والرامح ليس من منازله ولا نوء له ، وهو إلى جهة الشمال . والأعزل من كواكب الأنواء وهو الى جهة الجنوب . وهما في برج الميزان . ويقول الساجع : إذا طلع السماك ، ذهب العكاك ، فأصلح قتاك ، وأجد حذاك ، فإن الشتاء قد أتاك[6] .

وقد تخصص قوم بالنوء ، ورد أن (عمر بن الخطاب) « نادى العباس : كم بقي من نوء الثريا ؟ فقال : إن العلماء بها يزعمون انها تعترض في الأفق سبعاً

---

١ الميداني (١٠٩/٧) .
٢ نهاية الارب (٧٢/١٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤٧٤/١) « الكويت » .
٤ الانواء (ص ١٣ وما بعدها) .
٥ نهاية الارب (١٢٦/٣) .
٦ تاج العروس (١٤٤/٧ وما بعدها) .

بعد وقوعها . فوالله ما مضت تلك السبعُ حتى غيث النـاس »[1] . وكانوا إذا أرادوا الوقوف على ظواهر الجو لجأوا إلى العالمـين بالأنواء ، وكانوا إذا أرادوا التعبير عن خبير بها ، قالوا مثلاً : « ما بالبادية أنوأ منه ، أي أعـلم بالأنواء منه »[2] . وذكر أهل الأخبار أن (الحارث بن زياد بن ربيع) ، لم يكن في الأرض عربي أبصر منه بنجم[3] .

واعتقاد راسخ مثل هذا في الكواكب والنجوم ، لا بد أن يحمل الجاهليين على تتبع ما ورد عند الأمم الأخرى من علم الأنواء ، للاستفادة منه في حياتهم العملية، وقد عاش بينهم عدد كبير من اليهود ، ولهؤلاء علم أيضاً بالأنواء ، ولهم اهتمام بهذا العلم ، لما له من علاقة بشؤونهم الدينية . ثم كان بينهم نصارى وقفوا على هذا العلم أيضاً ، وكان هؤلاء قد هضموا علم الشرقيين به وطعّموا علمهم وعلم الشرقيين بما ورد في كتب اليونان واللاتين من علم به .

وقد اتخذ الجاهليون النجوم دليلاً لهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر . وقد أشير إلى ذلك في سورة الأنعام : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلماتِ البر والبحر »[4] . ولا بد للاهتداء بها من الوقوف عليها ، ووضع أسماء لها ، وتعيين البارز منها ، ووضع معالم لها ، ليكون في الامكان معرفتها ومعرفة اتجاهات السير بها ، والاستعانة بها وبالجهات الأربع في معرفة الاتجاه المؤدي إلى المكان المراد . فكانوا إذا سألهم سائل عن طريق قالوا : « عليك بنجم كـذا وكذا » ، أو « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها .. »[5] إلى آخر ذلك من إشارات تفيد استدلالهم بالنجوم والكواكب وبالمطالع لمعرفة الطرق .

وفي الشعر الجاهلي أبيات تشير الى اهتداء الناس في سيرهم بالنجوم فورد في شعر لسلامة بن جندل في المسير ليلاً :

ونحن نعشو لـكم تحت المصابيح

١ تاج العروس (٤٧٤/١) .
٢ تاج العروس (٤٧٤/١) .
٣ الاشتقاق (٢٣٩) .
٤ الانعام ، سورة رقم ٩٧ .
٥ البيروني ، الآثار الباقية (٢٣٨) ، تاريخ التمدن الاسلامي (١٥/٣) .

ويقصد بالمصابيح الكواكب[1]

وقد سار أهل الجاهلية مثل غيرهم من الأمم القديمة على فكرة تقسيم السماء الى (بروج) . وقد أشير إلى البروج في القرآن في سورة الحجر : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً »[2] ، وفي سورة البروج : « والسماء ذات البروج »[3] . وقد قسم اليونان واللاتين السماء الى (بروج) . وعرف كل برج عندهم بلفظة : (بركس) ، Burgus . ومن هذا الأصل أخذت لفظة (البرج) و (البروج). أخذت إما من اللاتينية أو اليونانية مباشرة ، وإما من السريانية بالواسطة[4]، وذلك قبل الإسلام بأمد ، فتعربت وصارت من الألفاظ العربية الأعجمية الأصل ، مثل ألفاظ أخرى دخلت العربية من أصل يوناني ولاتيني قبل الاسلام بسنين .

وللكواكب أفلاك تدور فيها ، وقد أشير اليها في القرآن ، فورد : « وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون »[5] . وهي عندهم مدارات دائرية على هيأة حجر الرحى ، تدور الشمس والقمر والكواكب بها ، كل في فلك مقدر له[6] .

ويرى (نالينو) ، ان ما ورد في القرآن الكريم عن (البروج) ، وكذلك ما ورد في الخطبة المنسوبة إلى قُس بن ساعدة الإيادي من قوله : « وسماء ذات أبراج » لا يعني بالضرورة وقوف الجاهليين على البروج الاثني عشر ، وأخذهم بهذه النظرية الفلكية ، وذلك لأمور ذكرها ، وحجج أوردها . وفي جملتها أن أسماء كل البروج ، ما عدا الجوزاء مترجمة من أسمائها اليونانية والسريانية . ثم إن هذه البروج لم تكن ذات فائدة عملية للجاهليين ، ولهذا لا يحتمل اهتمامهم بها، وأخذهم بها ، ولا سيما ان معارفهم الفلكية لم تكن واسعة عميقة . ولهذا ذهب إلى أن ما ورد في القرآن عن البروج ، لا يراد به الصور المعروفة الموجودة عند

١ الانواء (ص ١٨٦) .
٢ السورة رقم ١٦ .
٣ سورة البروج .
٤ كتاب صور الكواكب الثمانية والاربعين ، تأليف عبد الرحمن بن عمر الرازي الصوفي ، المطبعة العثمانية ١٩٥٤ م ، كتاب الانواء (ص ط) ، المخصص (١٢/٩)
Ency., I, p. 796, Fränkel, Die Aramaische Fremdwörter in Arabisch, S. 235.
٥ الانبياء ، الاية ٣٣ ، تفسير الطبري (١٦/١٧ وما بعدها) .
٦ تفسير الطبري (١٦/١٧ وما بعدها) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٢) .

اليونانيين والتي وقف عليها العرب في عصور الترجمة ، وإنما هي مجرد نجوم . وقد استشهد ببعض مقطفات من كتب التفسير ، في تفسير لفظة (البروج)[1] .

وقد ذكر (الطبري) أن (البروج) الواردة في (سورة البروج)[2] الكواكب، والنجوم ، والأصوب : منازل الشمس والقمر ، « وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة ، ومن ذلك قـــول الله : ولو كنتم في بروج مشيدة . وهي منازل مرتفعة عالية في السماء . وهي اثنا عشر برجاً ، فسير القمر في كل برج منها يومان وثلث ، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ، ثم ثم يستسر ليلتين . ومسير الشمس في كل برج منها شهر »[3] .

ونسب الى أميـــة بن أبـي الصلت علم بالبروج والكواكب ، وقد ورد في الأخبار : أن الرسول أنشد قوله :

زُحَلٌ وثور تحت رجـل يمينه والنّسر للأخرى وليث يرصد[4]

وفي هذا البيت ، إن صح قول الرواة ، أن الرسول أنشده دلالة على وقوفه على شيء من هذا بالفلك .

ويذكر العرب ان القمر يأخذ كل ليلة في منزل من المنازل حتى يصير هلالاً ، وقد أشير إلى المنازل في القرآن : « والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »[5] . والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً في كل شهر ينزلها القمر[6] . وكل من الشمس والقمر يجريان في فلكها ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس ، وكل في فلك يسبحون»[7] . والعرب تزعم أن الأنواء المنازل ، وتسميها نجوم الأخذ ، لأن القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها حتى يصير هلالاً ، وهي منسوبة إلى البروج الاثني عشر . وفي كل برج من

---

١ نالينو (ص ١٠٨ وما بعدها) .
٢ البروج ، الرقم ٨٥ .
٣ تفسير الطبري (٣٠/٨١) ، تفسير النيسابوري (٣٠/٥٩) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير ابن كثير (٤/٤٩١) .
٤ الاصابة (١/١٢٩) .
٥ سورة يس ، الآية ٣٩ .
٦ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠١) .
٧ تفسير الطبري (٢٣/٥ وما بعدها) .

البروج منزلان وثلث من منازل القمر ، وهي نطاق الفلك ، والفلك مدار لها . وإنما سُمي فلكاً لاستدارته[1] .

وأول ما يعد العرب من (المنازل) (الشَّرطان) ، وهما كوكبان يقال هما قرنا الحمل ، ويسمّيان النطح والناطح ، وبينهما في رأي العين قاب قوس ، وأحدهما في جهة الشمال والآخر في جهة الجنوب والى جانب الشمال كوكب صغير يعد معهما أحياناً فيقال الأشراط ، وقد يعرف بـ (الأشرط) . و (الشرطان) نجمان من الحمل ، وهما قرناه ، والى جانب الشمالي منهما كوكب صغير[2] . ومن العرب من يسمي هذه النجوم الثلاثة الأشراط . وقيل هما أول نجم الربيع ، ومن ذلك صار أوائل كل أمر يقع أشراطه[3] ، والربيع أول الأزمنة للعرب ، فيه الخير والبركة لهم . وإذا نزلت الشمس بهذا المنزل فقد حلت برأس الحمل ، وهو أول نجوم فصل الربيع ، وعند ذلك يعتدل الزمان ، ويستوى الليل والنهار فإذا استوى الزمان ، يليه نهاية الربيع ، وعودة العرب الى الأوطان . « يقول ساجع العرب : إذا طلع الشرطان استوى الزمان وحُضرت الأوطان ، وتهادت الجيران . أي : رجع الناس الى أوطانهم من البوادي بعد ما كانوا متفرقين في النجع »[4] .

ثم (البطين) ، وهو ثلاثة كواكب خفية ، ويقال : هي بطن الحمل ، ثم (الثريا) ، وهي أشهر منازل القمر ، ويسمونها : النجم . وقد أكثر الشعراء من التشبيه بها[5] . ولهم في فعلها أسجاع . منها : « إذا طلع النجم ، فالحر في حدم ، والعشب في حطم ، والعانة في كدم » ، و « إذا طلع النجم عشاء ، ابتغى الراعي كساء » ، و « إذا طلع النجم غدية ابتغى الراعي شكية »[6] .

وعرفت (الثريا) بـ (كيمه) Kimah عند العبرانيين وعند السريان ، وعرفت

---

١ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠١) .
٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٢) .
٣ تاج العروس (١٦٦/٥ وما بعدها) ، (شرط) .
٤ الجمان (٢٠٢ وما بعدها) .
٥ المصدر نفسه (٢٠٣ وما بعدها) .
٦ الجمان (٢٠٦ وما بعدها) .

بـ (النجم) كذلك[1] . وقد ذكرت بـ (النجـم) وبـ (النجم الثاقب) في القرآن الكريم . وقد ذكرت الثريا في شعر امرىء القيس[2] ، وفي شعر (قيس بن الأسلت) ، و (قيس بن الحطيم) ، و (أحيحة بن الجلاح)[3] ، كما ذكرت في شعر شعراء آخرين من جاهليين وإسلاميين .

ويرى العرب أن لها أثراً في الصحة وفي وقوع الأوبئة . وأوبأ أوقات السنـة عندهم ما بين مغيبها إلى طلوعها . « قال طبيب العرب : اضمنوا ما بين مغيب الثريا إلى طلوعها ، وأضمن لكم سائر السنة . ويقـال : ما طلعت ولا نأت إلا بعاهة في الناس والإبل وغروبها أعوه من شروقها » . وفي الحديث : « إذا طلع النجم لم يبق في الأرض من العاهة شيء إلا رُفع . فإنه يريد بذلك عامة الثمار ، لأنها تطلع بالحجاز وقد أزهى البسر ، وأمنت عليه الآفة وحلّ بيع النخل »[4] .

ثم الدبران ، وهو كوكب أحمر منير يتلو الثريا ويسمى تابع الثريا ، ثم المقعة ، وهي ثلاث كواكب صغار ، يقال انها رأس الجوزاء ، ثم الهنعة ، وهي كوكبان أبيضان ، ومنها الشعرى العبور ، التي ذكرت في القرآن : « وانه هو رب الشعرى »[5] ، وكان من العرب من يتعبد لها ، وأول من عبدهـا (أبو كبشة) ، الذي كان المشركون ينسبون الرسول اليه . والغميصاء ، والنثرة[6] ، ثم الطرف ، ثم الجبهة ، ثم الزبرة ، ثم الصرفة ، ثم العوّاء ، ثم السماك الأعزل ، ثم الغفر ، ثم الزباني ، ثم الإكليل ، ثم القلب ، ثم الشولة ، ثم العولة ، ثم النعائم ، ثم البلدة ، ثم سعد الذابح ، ثم سعد بُلَع ، ثم المرع ، ثم سعد السعود ، ثم سعد الأخبية ، ثم الحواء ، ثم الفرغ المقدم ، ثم الفرغ المؤخر ، ثم بطن الحوت[7] .

وقد جعلوا لكل منزل من المنازل المذكورة أثراً في حياة النـاس ، يتمثل في أسجاعهم المروية في كتب الأدب وفي كتب الأنواء . أخذوها من الظروف والأحوال

---

١ Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.

٢ اذا ما الثريا في السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل
الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٤) .

٣ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٤) .

٤ الجمان (٢٠٧) .

٥ النجم ، الاية ٤٩ .

٦ الجمان (٢١١ وما بعدها) .

٧ الجمان (٢١١ وما بعدها) .

والتجارب العملية التي كانت تقع لهم عند طلوع الكواكب المذكورة. فنسبوا الفعل اليها ، من جفاف ورطوبة وحرّ وبرد ، وهطول مطر أو انحباسه ومن حصول أوبئة إلى غير ذلك من أثر .

ويظهر من دراسة ما ورد عن أنواء أرباع السنة وعن عدة المنازل وصفاتها ومن الأسماء التي أطلقت عليها على أن الجاهليين كانوا على علم بها وبالبروج[1] . فالمصطلحات المستعملة في هذه الأنواء وكذلك الأسماء هي مصطلحات أخذها المسلمون من لغة أهل الجاهلية ، وأخذهم لها عنهم ، كلاً أو بعضاً ، هو دليل على وجود علم للجاهليين بالأنواء والفلك . ولا يستبعد ذلك عنهم ، لأن الجاهليين كانوا في حاجة شديدة الى معرفة الأنواء وعلم الفلك ، وقد كان لأهل العراق ولأهل بلاد الشأم علم بها ، يعود بعضه الى البابليين ويعود بعض آخر الى اليونان ، وقد كان السريان يدرسون الفلك ، والعرب على اتصال بهم ، ولا سيما عرب النصارى مثل أهل الحيرة ، حيث درسوا علوم تلك الأيام ، ولما كانت معارف الأنواء والفلك ضرورة لهم ، فلا يستبعد أخذ الجاهليين معرفتهم بها من المكانين .

والأجرام السماوية هي كواكب ونجوم ، وقد أشير اليها في القرآن الكريم . و (الكوكب) من التسميات التي ترد في اللهجات السامية الأخرى. فهي (كوكب) (كوكاب) في العبرانية ، و (كوكبا) في السريانية ، و (كوكب) في الحبشية ، و (ككبو) Kakkabu في الأشورية[2] . ويراد بالكوكب النجوم المتحركة التي تتغير مواضعها . أما الأجرام التي تبدو ثابتة لا تترك محلاتها ، فهي النجوم.

وقد اشتهرت مجموعة من النجوم باسم (بنات نعش) عند العرب. ولا تزال هذه التسمية دائرة على ألسنة الناس يطلقونها على المجموعة نفسها المعروفة بهذه التسمية عند الجاهليين ، وللأخباريين قصص أوردوه عن هذه التسمية يرجع إلى ما قبل الاسلام . وتعرف بنات نعش بـ (عش) (عاش) و (عيش) عند العبرانيين[3] .

وعرفت مجموعة أخرى من النجوم باسم (جبار) . وتسمى (جبارا) Gabbara

---

١ العمدة (٢٥٢) « باب ذكر منازل القمر » .
٢ Hastings, Dict., Vol. I, p. 191.
٣ Hastings, Dict., Vol. I, p. 191.

في السريانية ، وبـ (نفله) Niphla في الكلدانية ، و (فسيل) في العبرانية . ويظهر انها من الأبراج السماوية القديمة المعروفة عند الساميين[1] .

وعرفت (زُحَل) و (سهيل) عند الجاهليين كذلك. وكذلك (عثتار) معبودة العرب الجنوبيين . و (العقرب) أحد البروج .

وقد وردت في سفر (أيوب)[2] جملة (حدرى تيمان) ، ومعناها (الخادر الجنوب) أو (مخادع الجنوب)[3] ، مما يدل على أن المراد بها نجوم تقع في الجنوب ، أي في جنوب فلسطين . وقد ورد في العربية (وسهيل يمان) ، أي جنوبية ، وذلك بالنسبة الى أهل الحجاز .

و (الزُّهَرَةُ) ، هي من الكواكب الظاهرة البارزة التي تعرف بسهولة . وهي (هيلل) عند العبرانيين .

وهناك كوكب اسمه Kaawanu عند الأشوريين . ويراد به (كيون) Kiyyun عند العبرانيين . ويقابل (كيوان) في العربيـة . وهو معروف عند المنجمين . ومن المعربات[4] . والساطرون ، من الكواكب المعبودة عند بعض الشعوب السامية[5].

أما الشمس ، فهي أعرف الأجرام السماوية ، وبها استدل على الوقت على الساعات والأيام والسنين والمواسم . وفي القرآن الكريم آيات توضح لنا رأي الجاهليين في الشمس .

وأما القمر ، فمن آلهة العرب الجنوبيين البارزة . ويعرف عندهم بـ (هلل) أي (هلال) . والقمر من التسميات العربية الشمالية . وأما الهلال ، فإنه القمر في أيامه الأولى عنـد أهل الحجاز . وللقمر أسماء نطقت بها العرب . فنهـا : الطوس والباهر والغاسق والزبرقان والواضح والزمهرير والسنّار والساهور[6] . والساهور هو القمر في الآرامية ، من Sahro[7] .

---

١ Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.

٢ أيوب ، الاصحاح التاسع ، الاية التاسعة .

٣ Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.

٤ Hastings, Dict., Vol., I, p. 193.

٥ Hastings, Dict., Vol., I, p. 193.

٦ نهاية الارب (١/ ٥١ وما بعدها) .

٧ غرائب اللغة (١٨٩) .

وقد اشتهر بعض الجاهليين بعلمهم بمواقع النجوم ، منهم : (بنو مُرّة بن همام الشيباني) و (بنو مارية بن كلب)[1] .

الكسوف والخسوف :

والكسوف والخسوف من الظواهر المعروفة عند الجاهليين . وقد عُدّ وقوعهما من الأمارات التي تشير إلى وقوع حوادث جسيمة في العالم . شأنهم في ذلك شأن شعوب العالم الأخرى في ذلك العهد .

فقد كان بعض الجاهليين يرى أن كسوف الشمس آية دالة على موت رجل عظيم . فقد ورد أن الشمس كسفت في عهد رسول الله ، ووافق ذلك موتَ ابراهيم بن رسول الله ، فقال الناس : انما كسفت الشمس لأجله . فقال النبي : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى يخوّف بهما عباده،وانهما لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته »[2] . وقد حدث ذلك في المدينة . وورد في الاخبار أن الانصار كانوا يقولون في النجم الذي يرمى به ، مات ملك ، ولد مولود[3] . وكانوا يتصورون أن الكهان كانوا يستعينون على معرفة المغيبات والخفايا بواسطة شياطينهم الذين كانوا يصعدون إلى السماء فيأخذون أخبارهم . وأن الرعد صوت الموكل بالسحاب يزجر السحب من أن تخالف أمره ، حيث يسوقها من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله[4] .

ويظهر من الموارد الإسلامية أن الجاهليين كانوا يثبتون الوقت بموقع ظل الشمس. ويستعين أهل البادية بالظل ، ظل إنسان أو عصا أو ظل خيمة ، ويدركون من هذا الظل مقدار الوقت بصورة تقريبية . وعلى هذا المبدأ قدر الفقهاء أوقات الصلاة . ولا يستبعد استعانة أهل القرى والمدن بمزاول ثابتة في تقدير الوقت . وذلك بأن تخطط درجات على جدار ثابت أو على أرض ، أو تعمل فتحات في

---

١ البيروني (٢٤١) ، زيدان : اداب اللغة (١/٢٠٦) .
٢ نهاية الارب (١/٤٨) .
٣ نهاية الارب (١/٨٧) .
٤ نهاية الارب (١/٨٨ وما بعدها) .

جدار ، ويعين الوقت برؤية ظل قضيب أو عمود مثبت على الدرجة المرسومة أو الفتحة ، ويستدل من الظل على منزلة الساعة من النهار .

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب يلجأون الى المتفرسين في دراسة الأجرام السماوية لمعرفة الأمور الخافية عليهم من حاضر ومستقبل،وذلك بالاستدلال عليها من ظواهر الكواكب والنجوم . والكهان ، هم المتخصصون بهذه المعرفة عند الجاهليين ، فكانوا يتنبأون لهم بما سيقع من أمور وأحداث بالاستدلال بحركات تلك الأجرام ، وبما تجمع عندهم من فراسات وتجارب ورثوها في هذا الشأن . وقد كان الجاهليون يبالغون في ذلك كثيراً ويؤمنون بالتنجيم وبتأثير الطالع في حياة الانسان،ولهذا ذم الاسلام المنجمين وكذبهم ومنع المسلمين من التصديق بهم .

وكان لأهل الجاهلية رأي في تساقط الشهب والنيازك ، ويرون ان لتساقط النجوم أثر في الإنسان وفي العالم . ذكر أنهم كانوا يرون أنه إذا انقض شيء من البروج الاثني عشر ، فهو ذهاب الدنيا ، وإن لم ينقض منها شيء ، بل رأوا انقضاض النجوم وسقوطها ، فإن ذلك يدل على حدوث أمر عظيم في الدنيا [1] .

التوقيت :

وقد اهتم الجاهليون بأمر التوقيت ، أي تعيين الأوقات وضبط الأزمنة، لعوامل ضرورية عديدة . فالزراعة خاضعة لتقلبات الجو وتبدل المواسم ، والاعياد وكثير من الشعائر الدينية وأمور العبادة لها علاقة بالتوقيت كذلك ، كما أن للتجارة وللسير في البر وفي البحر صلة كبيرة بمعرفة الأنواء . ولهذا عنوا بتتبع سير الكواكب ودراسة ملامح السماء وظواهر الطبيعة التي لها علاقة بالرياح والامطار وبأمثال ذلك للاستفادة منها في الحياة العملية .

ويحدثنا الجاحظ في كتاب الحيوان عن حاجة الأعرابي إلى معرفة حال السماء وتقلبات الجو ، فيقول : « عرفوا الآثار في الارض والرمل ، وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء ، لأن كل من كان بالصحاصح الأماليس ، حيث لا أمارة ولا هاوي مع حاجته إلى بعد الشقة ، مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه . ولحاجته

---

١ تفسير القرطبي ، الجامع (٨٢/١٧ وما بعدها) ، (سورة والنجم) .

إلى الغيث ، وفراره من الجدب وضنه بالحياة ، اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من الكواكب ، ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها ، وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً »[1] . وفي هذا وفي غيره تفسير لسبب اهتمام الجاهليين بالتوقيت ودراسة الأنواء[2] .

وقد اعتبر القدماء أمر التوقيت من واجبات رجال الدين ، فكان رجال المعابد والكهّان هم الذين يقومون بضبط الوقت وتثبيت الأعياد وأوقات العبادة . ظلّوا على ذلك أمداً طويلاً ، ولا تزال آثار ذلك باقية حتى اليوم . وكان هؤلاء الرجال قد احتكروا المعرفة والعلم لاعتقاد الناس أنهم أقرب البشر الى الآلهة ، وأن ما يتكلمون به إنما هو وحي منها ، يوحي الى هؤلاء ، فعلمهم اذن نابع من مصدر صادق لا يتطرق اليه الشك .

وإذا كانت كتابات المسند لم تتحدث عن الموقتين ضبّاط الزمن في العربية الجنوبية ، فإننا لا نعتقد بشذوذ العرب الجنوبيين عن غيرهم في هذا الباب ، خاصة وأننا نرى أن الكهان وسدنة الكعبة ومن لهم صلة بالأصنام ، كانوا هم الذين يقومون في الحجاز بضبط المواقيت والنسيء ، فليس بمستبعد أن يختص رجال الدين في العربية الجنوبية بالتوقيت .

١ مقدمة كتاب الانواء في مواسم العرب ، لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ، سنة ١٩٥٦ م (ص ١ وما بعدها) ، وسيكون رمزه : الانواء .

٢ العمدة ، لابن رشيق (٢/٢٥٢) ، « القاهرة ١٩٦٤ م » .

الفصل الحادي والثلاثون بعد المئة

الوقت والزمان

يقول علماء العربية : الوقت مقدار من الزمان ، وكل شيء قدرت له حيناً، فهو موقت . والوقت تحديد الاوقات كالتوقيت[1] . واختلفوا في الزمان ، فقالوا: الزمان الدهر ، وعارضه آخرون . إذ قالوا : يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر والدهر لا ينقطع. والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه[2] ، ويظهر أن بين العلماء خلافاً في تحديد المراد من اللفظتين ثم في تحديد معنى كل لفظة منهما ، وفي معنى (الدهر) ، وذلك بسبب مسألة القدم والحدوث، وما للتفاسير من صلة بهما ، وأثر ذلك في مسائل ذات صلة بعلم الكلام .

وروي عن الرسول قوله : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » ، وفي رواية أخرى : « فإن الله هو الدهر » ، وورد في الحديث عن (أبي هريرة) ، « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وإنما أنا الدهر . أقلب الليل والنهار »[3] . فالدهر الزمان الطويل ، أو الدائم . وقد عبر عنه في الاسلام بالأبدية، التي هي الله .

ويقاس الوقت بالسنين . والسنة أطول وحدة قياسية له . وتنقسم الى أجزاء .

---

١ تاج العروس (١/٥٩٤) ، (وقت) .
٢ تاج العروس (٩/٢٢٧) ، (زمن) .
٣ تاج العروس (٣/٢١٨) ، (دهر) .

ولفظة (سنة) من الألفاظ العربية القديمة ، وترد في جميع لهجات الجاهليين ، وهي من الألفاظ السامية التي ترد في كل لغاتها ، مما يدل على أنها من الكلمات السامية القديمة . ويعبر عن كثرة السنين بمصطلحات ، مثل : (عصر) ، وهو كل مدة ممتدة غير محدودة تحتوي على أمم تنقرض بانقراضهم ، وفي القرآن الكريم: « والعصر إن الإنسان لفي خسر »[1] . وقد ذهب بعض المفسرين الى أن (العصر) الدهر[2] . وتقابل لفظة (العصر) لفظة (دور) Dor في العبرانية . ومنها جملة (دور وآدهور) Dor Wadhor ، بمعنى الدهر والدهور ، أي الزمان الدائم . وذلك بالنسبة لله[3] . لأن الزمن لا شيء بالنسبة له . « لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعد ما عبر وكهزيع من الليل »[4] ، و « أن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة ، وألف سنة كيوم واحد »[5] . وقد أيد القرآن الكريم هذا المعنى ، فذكر أن الوقت لا شيء بالنسبة الى أبديته : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون »[6] .

ولفظة سنة لفظة عربية شمالية ، ترد في عربية القرآن الكريم ، كما ترد في النصوص العربية الشمالية ، مثل نص النمارة الذي يعود عهده إلى سنة (٣٢٨) للميلاد ، ونص (حرّان) الذي يعود تأريخه إلى سنة (٥٦٨) للميلاد ، أي إلى عهد لا يبعد كثيراً عن أيام مولد الرسول . وقد كتبت لفظة (سنة) على هذه الصورة (سنت) ، أي بالتاء المبسوطة . وقد وردت هذه اللفظة في الكتابات الصفوية وفي اللهجات العربية الشمالية الاخرى أيضاً[7] .

ولدينا لفظة أخرى مرادفة للسنة هي العام ، فيقال لعامنا هذا ، أي لسنتنا .

---

١ سورة والعصر ، تاج العروس (٣/٤٠٤) ، (عصر) .

٢ تفسير الطبري (٣٠/١٨٧) .

٣ « من دور الى دور » ، Hastings, p. 288. المزمور العاشر ، الاية ٦ ، « وخلاصي الى دور الادوار » ، اشعياء ، الاصحاح ٥١ ، الاية ٨ ، المزمور التسعون ، الاية ١ .

٤ المزمور التسعون ، الاية ٤ .

٥ رسالة القديس بطرس الثانية ، الاصحاح الثالث ، الاية ٦ .

٦ سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الاية ٤٧ .

٧ « سنت حرب نبط » ، « سنة حرب النبط » « سنة محاربة النبط » ، تاريخ اللغات السامية (ص ١٨٠) .

وذكر علماء اللغة ان العام أخص مطلقاً من السنة ، فتقول كل عام سنة ، وليس كل سنة عاماً . وذكر بعض العلماء أن العام كالسنة ، لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الجدب والشدة ، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة ، والعام فيما فيه الرخاء والخصب . وقال بعض آخر : السنة أطول من العام ، وهي دورة من دورات الشمس ، والعام يطلق على الشهور العربية بخلاف السنة . وذكر بعضهم أن العام لا يكون إلا شتاءً وصيفاً ، وانك إذا عددت اليوم إلى مثله فهو سنة [1] .

وقد وردت لفظة (عوم) في نص واحد من نصوص المسند ، بمعنى سنة ، أي في معنى (عام) في لساننا [2] . ولكن الغالب أن يعبر عن السنة بلفظة (خرف) ، أي (الخريف) ، ويظهر أنهم أطلقوا على السنة (الخريف) ، لأن الخريف هو من أبرز المواسم في العربية الجنوبية وله أهمية خاصة بالنسبة لهم ، ولذلك غلّبوا التسمية على كل العام .

و (الحول) السنة اعتباراً بانقلاب الشمس ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها. وقد وردت في القرآن الكريم . ويظهر انها من الألفاظ الجاهلية القديمة . والحولي: ما أتى عليه حول من ذي حافر وغيره ، ويقال جمل حولي ونبات حولي [3] .

وذكر علماء اللغة أن (الخريف) السنة والعام ، أي بالمعنى المفهوم من اللفظة في كتابات المسند . وذهب بعض العلماء الى أن الخريف هو الفصل المعروف . وأما ورود اللفظة بمعنى السنة والعام في أحاديث الرسول ، فلأن الخريف لا يكون في السنة إلا مرة واحدة ، ولذلك قصد باللفظة المسافة تقطع من الخريف الى الخريف ، وهو السنة [4] .

ويستعمل العرب الجنوبيون لفظة (خرف) (خريف) في مكان سنة في لغتهم . وترد في النصوص المؤرخة ، حيث تفيد توريخ حادث ما وتثبيته بذكر السنة التي وقع بها من سني الملك أو الرئيس الذي أرخ الحادث به . فيكتب :

---

١ تاج العروس (٤١٢/٨) .

٢ Le Muséon, 66, p. 119, Beeston, p. 20, 44, CIH. 575, 8, Rep. Epig. 2958 A.

٣ تاج العروس (٢٩٣/٧) .

٤ تاج العروس (٨٣/٦) .

(بـ خرف ..) (بخرف ..) ، أي (بسنة ...) ، ثم يذكـــر بعدها اسم المؤرخ به . كما ترد بمعنى الخريف ، الفصل المعلوم من السنة .

وتؤدي لفظة (كبر) معنى سنة في بعض الأحيان ، وقد رأينا أن اللفظة تعني (كبير) ، وهي كناية عن وظيفة كبيرة في الحكومة ، والظاهر أن الناس قد تجوّزوا في الاصطلاح ، فأطلقوه بمعنى السنة ، لأنهم كانوا يؤرخون بسني حكم الكبراء ، فصاروا يطلقونها على السنة أيضاً ، ويفهم معناهـا عندئذ من الجملة . كما في جملة : « عد ورخ وكبر نجو ذت هقنينّن »[1] ، ومعناها : « إلى شهر وسنة إعلان ذلك التمليك »[2] .

وتؤدي لفظة (الحِقبة) معنى السنة عند بعض علماء اللغة ، وتجمع على حقب، وذكر أن الحقب ثمانون سنة ، وقيل أكثر ، والجمـــع أحقاب . وتؤدي لفظة (الحجة) معنى السنة كذلك[3] .

وتتألف السنة عند العرب وسائر العجم من اثني عشر شهـراً[4] ، وأيام السنة ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً ، تنقص عن السرياني أحد عشر يوماً وربع يوم ، لأن أيام السنة عند السريان ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربـع يوم . وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وهو التأخير[5] .

الفصول الأربعة :

وتقسم السنة إلى فصول أربعة بحيث يتكون كل فصل من هـذه الفصول من ثلاثة أشهر ، تكون ربـــع السنة . وهـذه الفصول هي : الشتاء ، والربيـــع ، والصيف ، والخريف . ويقال للصيف القيظ أيضاً[6] . ويظهر من هذه التسميات ومن هذا النوع من التقسيم أنه تقسيم بني على أساس التقويم الشمسي ، لا التقويم

---

١ M. Tawfik, Les Monuments de Main, Plate, 32, fig. 65. (Cairo 1951).
٢ Beeston, p. 20.
٣ المخصص (٩/٦٦ وما بعدها) .
٤ مروج الذهب (٢/١٧٧) .
٥ مروج الذهب (٢/١٨٨) ، (ذكر سني العرب وشهورها) .
٦ Reste, S. 95.

القمري . وهو تقسيم بقي مستعملاً في الاسلام ، مع أن التقويم الرسمي الاسلامي هو تقويم قمري ، لأنه تقسيم طبيعي مبني على طبيعة التغير الذي يطرأ على شهور السنة . ولو بني تقسيم الفصول على الشهور القمرية ، لما كان في الامكان السير عليه بالقياس إلى الحياة العملية المبنية على الزرع والتجارة والتنقل في المراعي،وكل هذه لها علاقة بتبدل طبيعة الشهور .

والتقسيم المذكور قائم على أساس ملاحظات الانسان للطبيعة ودراسته لها،وعلاقة البرد والحر بحياته وبزرعه وحيوانه . فقسم السنة إلى موسمين : موسم زرع يبذر فيه ويزرع ، وموسم حصاد يحصد فيه زرعه ويجني ثمره . وهو موسم يبدأ فيه الزرع بالأفول وبالذبول ، حتى إذا ما جاء البرد ، تساقط فيه الورق ، وتعرت الأشجار من الخضرة ويقابل هذا البرد الحر ، وهو موسم واضح ظاهر في جزيرة العرب حياته فيها أطول من بقية الفصول . فأدرك الانسان من تأثير الطبيعة عليه وجود أربعة فصول . وقد عبرت التوراة عن هذه الفصول بقولها : « مدة كل أيام الارض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل »[1] .

ولكن الواضح من الفصول في بلاد العرب : الصيف . ويستأثر بالنصيب الاكبر من السنة،لامتداد حره ، ثم الشتاء . ولذلك نجد الناس يقسمون السنة إلى نصفين : صيف وشتاء .

ونجد هذه الفكرة عند العبرانيين كذلك،فالصيف والشتاء هما الفصلان الواضحان البارزان عندهما . ويسمى الصيف بـ (قيز) (قيض) عندهم ، أي بالتسمية الواردة عند العرب ، أما الشتاء ، فهو (خرف) في العبرانية[2] .

وبعض العرب يقسم السنة نصفين : شتاءً وصيفاً ؛ ويقسم الشتاء نصفين ، فيكون الشتاء أوله ، والربيع آخره . ويقسم الصيف نصفين ، فيجعل الصيف أوله ، والقيظ آخره[3] .

وذكر أهل الاخبار وعلماء اللغة أن العرب تبتدىء بفصل الخريف وتسميه

---

١ التكوين ، الاصحاح الاول ، الاية ١٤ ، الاصحاح الثامن ، الاية ٢٢ ، قاموس الكتاب المقدس (٤٧٨/٢) .

٢ W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 315.

٣ الانواء (ص ١٠٤) ، بلوغ الارب (٢٤٤/٣) .

الربيع ، لأن أول الربيع ، وهو المطر ، يكون فيه ، ثم يكون بعده فصل الشتاء ثم يكون بعد الشتاء فصل الصيف ، وهو الذي يسميه الناس الربيع ، وقد يسميه بعضهم الربيع الثاني ، ثم يكون بعد فصل الصيف فصل القيظ ، وهو الذي يسميه الناس الصيف[1] . وذكر (اليعقوبي) أن العرب اختلفت « في أسماء الأزمنة الأربعة : فزعمت طائفة منها أن أولها الوسمي ، وهو الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف ، ثم القيظ ، ومنهم من يعد الاول من فصول السنة الربيع ، وهو الاشهر والأعم ، والعرب تقول : خرفنا في بلد كذا ، وشتونا في بلد كذا ، وتربعنا في بلد كذا ، وصِفنا في بلد كذا »[2] .

وأول وقت الربيع عندهم ، وهو الخريف ، ثلاثة أيام تخلو من أيلول . وأول الشتاء عندهم ثلاثة أيام تخلو من كانون الاول . وأول الصيف عندهم ، وهو الربيع الثاني ، خمسة أيام تخلو من آذار . وأول وقت القيظ عندهم أربعة أيام تخلو من حزيران . والخريف عندهم المطر الذي يأتي في آخر القيظ ، ولا يكادون يجعلونه اسماً للزمان[3] .

وهناك أسماء أخرى لهذه الفصول ، فـ (الصفرية) هو الجزء الاول من السنة وسمي مطره الوسمي،والشتاء هو الجزء الثاني منها . أما الصيف فهو الجزء الثالث . وأما الجزء الرابع ، فهو القيظ ، وسمّوا مطره الخريف . وقد حددوا مبدأ كل فصل ومنتهاه بالفصول .

وهناك كما يتبين من روايات علماء اللغة اختلاف في تشخيص الربيع ، منهم من يذهب إلى أنه الفصل الذي يتبع فيه الشتاء ، ويأتي فيه الورد والنَّور ، « ومنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف وفصل الشتاء بعده . ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الوقت الذي تدعوه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ بعده وهو الذي تدعوه العامة الصيف . ومن العرب من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيع الاول ، ويسمي الفصل الذي يتلو الشتاء ويأتي فيه الكمأة والنور الربيع الثاني . وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع »[4] .

---

١ الانواء (ص ١٠٤ وما بعدها) ، المخصص (٩/٧٩ وما بعدها) .
٢ مروج (٢/١٩٢) .
٣ الانواء (ص ١٠٤ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢٤٣ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٢/٤١٤ وما بعدها) .

وهناك من يجعل السنة ستة أزمنة : الوسمي ، والشتاء ، والربيع ، والصيف، والحميم ، والخريف[1] . وحصة كل زمن من هذه الأزمنة شهران .

وذكر بعض العلماء أن السنة عند العرب ستة أزمنة : شهران منها الربيع الأول وشهران صيف وشهران قيظ وشهران الربيع الثاني ، وشهران خريف وشهران شتاء . وذكر بعضهم أن السنة أربعة أزمنة: الربيع الأول وهو عند العامة الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف وهو الربيع الآخر ، ثم القيظ . وهذا هو قول العرب في البادية . والربيع جزء من أجزاء السنة ، وهو عند العرب ربيعان : ربيع الشهور وربيع الأزمنة . فربيع الشهور شهران بعد صفر . سمّيا بذلك لأنهما حدّا في هذا الزمن فلزمهما في غيره . ولا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر . وأما ربيع الأزمنة . فربيعان : الربيع الأول وهو الفصل الذي يأتي فيه النور والكمأة ، وهو ربيع الكلأ . والربيع الثاني ، وهو الفصل الذي تدرك فيه الثمار . ومن العرب من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار ، وهو الخريف : الربيع الأول ، ويسمى الفصل الذي يتلو الشتاء ويأتي فيه الكمأة والنور الربيع الثاني . وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع[2] .

وقسم بعضهم الشتاء الى ربيعين : ربيع الماء والأمطار وربيع النبات لأن فيه ينتهي النبات منتهاه . والشتاء كله ربيع عند العرب لأجل الندى[3] .

ويظهر من المسند أن العرب الجنوبيين كانوا يقسّمون السنة الى فصول كذلك، وأنهم كانوا مثل غيرهم يقسمونها الى فصول أربعة : الشتاء والربيع والصيف والخريف . ولا يعني هذا التقسيم الرباعي أن الجو في العربية الجنوبية أو في أي مكان آخر في جزيرة العرب كان يختلف اختلافاً واضحاً بيّناً من حيث التطرف أو الاعتدال باختلاف هذه الفصول الأربعة ، وأن شهور الفصول هي متساوية بالفعل ، وأن عدة كل فصل ثلاثة أشهر ، بل هو في الواقع تقسيم علمي نظري. أما من الناحية العلمية ، فإن فصلي الصيف والشتاء هما أبرز الفصول وأوضحهما

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٤٤) ، صبح الاعشى (٢/٤٠٥) .

٢ تاج العروس (٥/٣٤٠ وما بعدها) ، (ربع) ، صبح الاعشى (٢/٤١٥ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٥/٣٤٠) ، (ربع) .

في جزيرة العرب كلها . ولا سيما فصل الصيف الذي يعدّ أطول الفصول وأوضحها فيها . وهذا هو الذي دفع العرب ولا شك الى تقسيم السنة الى نصفين ، شتاء وصيف . يبتدئون بالشتاء ويجعلونه النصف الأول ، ويبتدىء عندهم بابتداء النهار في القصر وابتدائه في الزيادة . وأما الصيف ، فيبدأ عند انتهاء النهار بالطول وابتدائه بالنقصان[١] .

والشتاء هو (صربن) في المسند . أما الربيع ، فهو (دثا) . وأما الصيف، فـ (قيضن) ، أي القيظ ، وأما الخريف ، فـ (خرفن) ، أي الخريف[٢] . ويذكر علماء اللغة أن القيظ هو أشد الحرّ ، وأن الخريف ليس في الأصل باسم للفصل ، إنما هو اسم لمطر القيظ ، ثم سمّي الزمان به فجرى[٣] .

وترتبط مسميات الفصول ارتباطاً متيناً مع مواسم الحصاد . ففي أحد النصوص: (صربم وقيضم)[٤] ، ومعناه (شتاء وصيف) ، ويظهر أن صاحبه قصد من لفظة (صربم) الحصاد الذي يتم في أول موسم الشتاء[٥] . وأما (قيض) ، فهو الصيف ، حيث تشتد الحرارة فيه . وفي نص آخر: (قيض ودثا وصرب وميلم)[٦] وكلمة (ميلم) يجب أن تؤدي معنى الخريف، إذ القيض ، هو الصيف و(دثا) الربيع و (صرب) الشتاء ، فتكون لفظة (ميلم) بمعنى الخريف إذن ، وربما الحصاد ، أي الحصاد الذي يجمع في آخر الشتاء ، قبل هطول أمطار الربيع[٧] .

وفي الربيع والخريف تتساقط الأمطار الفصلية في العربية الجنوبية ، تتساقط الأمطار الربيعية في شهري آذار ونيسان. وأما أمطار الخريف القوية الثقيلة ، فتهطل في تموز (جولاي) وآب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) . وتعرف أمطار الخريف فتسمى بـ (خرف) (خريف) . دعيا بذلك لنزولها في هذين الموسمين . والى هذين الفصلين أشار (بلينيوس) Pliny حين قال إن العرب الجنوبيين

١ المخصص (٩/٧٩) ، الانواء (ص ١٠٤ وما بعدها) .

٢ Mitt., S. 62, 65, 71, Rep. Epi., 4250.

٣ المخصص (٩/٨٠) .

٤ Rep. Epig. 4230/8.

٥ Beeston, p. 20.

٦ CIH 174/4.

٧ Beeston, p. 20.

يسمّون غلة البخور التي يجمعونها في فصل الخريف باسم Dathiathum ، ويسمون الغلة التي تجمع من هذه المادة في فصل الصيف بـ Carfiathum . والكلمة الأولى هي تحريف للفظة (خريف) . وأما الثانية ، فتحريف للفظة (دثا) ، أي الربيع[1].

وقد دخلت التسميتان بواسطة التجارة والتجار الى اليونان ، ولا شك . وهما تسميتان واضحتان صحيحتان .

وتؤدي لفظتا (دثا) و (خرفن) معنى الأمطار الموسمية في الغالب، أي أمطار الربيع وأمطار الخريف في بعض الكتابات[2] . وقد تؤديا معنى (الغلات) أي (فرع) ، التي تجمع في موسمي الربيع والخريف[3] .

ولدينا نص طريف يفيد أن أصحابه قد أذنبوا بعدم ايفائهم بما نذروه لآلهتهم وكان عليهم الوفاء به في (ذ موصبم) كما عاهدوا آلهتهم . ولمخالفتهم عهدهم هذا ، أرسلت الآلهة عليهم سيلاً جارفاً من أمطار شديدة سقطت في موسمي الربيع والخريف ، فأتلفت زرعهم وأصابتهم بضرر كبير، واعترافاً منهم بتقصيرهم هذا وبذنبهم ، كتبوا النص المذكور ، وقدموا نذرهم كاملاً ، راجين من الآلهة الصفح عن ذنبهم والعفو عنهم ، وأن تبارك في زرعهم ، وأن تعوضهم عن خسارتهم التي أصابتهم بغلة وافرة وحاصل غزير[4] .

الشهور :

وتتألف السنة عند العرب الشماليين من اثني عشر شهراً ، وقد أشير الى ذلك في القرآن : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله . يوم خلق السماوات والأرض ، منها أربعة حرم »[5] . وهو التقسيم الشائع المعروف عند بقية الساميين واليونان وغيرهم . والمعمول به حتى اليوم . ولم ترد إشارة الى هذا التقسيم في نصوص المسند ، ولكن ورود ذكر السنين والشهور في كتابات

١ Pliny, Hist. Nat., XII, 60, Beesten, p. 19, CIH 540, 547.
٢ CIH 547, 540.
٣ CIH 2.
٤ CIH 547, Beeston, p. 20 f.
٥ التوبة ، رقم ٩ ، الاية ٣٧ ، ابن الاجدابي (٣٠) .

المسند ، واستعمال العرب الشماليين وغيرهم التقسيم الاثني عشري للسنة ، يحملنا على القول إن العرب الجنوبيين كانوا يقسمون السنة الى اثني عشر شهراً أيضاً ، وان لم ينص على ذلك في النصوص .

وقد لاحظ (رودوكناكس) أن المزارعين المحدثين في العربية الجنوبية يسيرون بموجب تقويم فلكي Sidereal Calender ، يقسم السنة الى ثمانية وعشرين شهراً ، مدة كل شهر ثلاثة عشر يوماً ، فاستنتج من ذلك احتمال كون هذا التقويم من بقايا تقويم عربي جنوبي كان العرب الجنوبيون يسيرون عليه قبل الإسلام . ولهذا رأى أن (ذ فرع) و (ذا جبي) (ذا جبو) ، لا يمثلان شهرين من شهور السنة ، وإنما يمثلان وقتاً من أوقات العمل والزرع ، بالمصطلح المستعمل الآن في العربية الجنوبية ، أي جزءين من (٢٨) جزءاً من أجزاء السنة[1] . وذهب (بيستن) الى احتمال تقسيم العرب الجنوبيين للشهر الى ثلاثة أقسام ، يتكون كل قسم منها من عشرة أيام[2] .

ويرى (رودوكناكس) أن سنة العمل عند القبائل تبدأ باليوم الأول من شهر (ذ فرعم) (ذو فرعم) (ذو الفرع) ، وتمتد الى اليوم السادس من (ذ فقحو) ، ويرى أن السنة عند الفلاحين ، تتكون من (٣٦٠) يوماً ، أما الأيام الباقية وهي ما بين (٥) و (٦) ، فتضاف الى أحد الأشهر وتأخذ اسمه ، فتكون السنة بهذا العمل سنة شمسية كاملة . ويحتفل الفلاحون عند انتهاء تقويمهم الزراعي بانتهاء السنة ، حيث يعيدون عيداً يسمونه (مصب) ، (مصوب) ، ويعد شهر (فرعم) الشهر الأول من السنة الزراعية ، حيث تزهر الأشجار ، وتظهر الأوراق . وتختلف هذه السنة عن سني التقويم الرسمي الذي تسير عليه الحكومة في جباية استحقاقها من حاصل الزرع[3] .

والإهلال هو المبدأ الذي سار عليه الجاهليون في تعيين أوائل الشهور[4] . فإذا اختفى القمر في آخر الشهر ولم يظهر ، خرجوا لمراقبة الهلال وتثبيت مبدأ الشهر .

---

١ Beeston, p. 4, R.B. Serjeant, Star Calendero and an Almanac from South West Arabia, in Anthropos, Bd. 49, 1954, S. 433.

٢ Beeston, p. 5.

٣ Rhodokanakis, Katab. Texte II, S. 19 ff.

٤ صبح الاعشى (٣٦٩/٢) ، نهاية الارب (١٥٦/٣) .

وقد كانوا يعدون الرؤية من الحوادث المؤثرة في حياة الشخص . من حيث جلب النحس والسعادة للمستهل . ولهذا كانوا ينظرون الى المناظر الجميلة حين الاستهلال، لاعتقادهم أن ذلك يجلب لهم البركة والخير . والشهر كما جاء في الحديث : «مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »[١] ، أي يوماً .

ويعبر عن الشهر بلفظة (ورخ) في العربيات الجنوبية . والجمع (اورخم) (اورخ) . ولفظة (ورخ) تعني القمر في عربية القرآن الكريم . وهي من الألفاظ السامية القديمة ، وتؤدي معنى (ارخ) وتأريخ أيضاً[٢] . فكان العرب الجنوبيون إذا أرادوا التأريخ بالأشهر ، قالوا : « ورخ كذا ... » ، أي « شهر كذا ... » . والتوريخ بالشهور لا يعني أن العرب الجنوبيين أو غيرهم من العرب ، كانوا لا يؤرخون إلا بالتقويم القمري ، وأنهم لم يكونوا يستعملون غير هذا التقويم . فقد كان غيرهم يؤرخون بالشهور القمرية كذلك ، وكانوا مع ذلك يؤرخون بالتقويم الشمسي ، أو بالتقويمين .

ولا تعني لفظة (ورخ) التي هي (الشهر) أن العرب الجنوبيين كانوا يتبعون تقويماً قمرياً ، بسبب أن لفظة (ورخ) تعني (قمر) في الأصل ، فالانكليز يستعلمون لفظة Month بمعنى الشهر ، وهي من أصل Moon أي القمر ، ومع ذلك فإن شهورهم شمسية ، ولفظة (الشهر) نستعملها في عربيتنا ، هي في معنى (ورخ) في الأصل . فالشهر : القمر ، والهلال[٣] . أي مرادف (ورخ) تماماً . وقد سمي الشهر به ، لأنهم كانوا يوقتون به ، فالمدة التي تمضي بين هلال وهلال جديد ، هي شهر . نسي المعنى الأصلي للكلمة ، وبقي الاصطلاح ومن ذلك قولهم : أشهروا ، بمعنى أتى عليهم شهر ، وشاهره مشاهرة وشهاراً ، استأجره للشهر[٤] .

ووردت لفظة (شهر) بمعنى هلال في العربيات الجنوبية ، وذلك كما في هذه الجملة : « بيوم شهرم ويوم ثنيم ذنم »[٥] ، أي « بيوم الهلال ، وبيوم

---

١ ارشاد الساري (٣٥٩/٣) .
٢ نص ابنة Rhodokanakis, Stud. II, S. 48, Bruno Meissner Supplement nyu den Assyrischen Worterbüchern, Leiden, 1891, S. 16.
٣ تاج العروس (٣٢١/٣) ، (شهر) .
٤ تاج العروس (٣٢١/٣) ، (شهر) .
٥ Jamme 651, 19.

المطر الثاني » ، أو بعبارة أخرى « يوم الاهلال ، وزمان سقوط المطر الثاني ».

وقد وردت في كتابات المسند أسماء عدد من الأشهر ، يتبين من دراستها أن بعضها وارد في نصوص لهجتين مثل لهجة معين وسبأ ، ولهجة سبأ وقتبان ، مما يدل على أنها كانت مشتركة ومستعملة عند المعينيين والسبئيين ، أو عند السبئيين والقتبانيين . ولكن الأغلب انفراد كل لهجة بتسمية شهر ، بدليل ما نجده في كتابات كل لهجة من اللهجات التي نعرفها من أسماء أشهر لا ترد في الكتابات الأخرى . ومن الأشهر المشتركة التي ورد اسمها في كتابات سبئية ومعينية ، شهر (ذ دثا) وشهر (ذ سحر) ، وقد ورد اسمه في كتابات سبئية وقتبانية ، و (ذ ابهى) (ذ ابهو) ، وقد ورد في كتابات معينية وسبئية وقتبانية كذلك[1].

وعثر على أسماء هذه الشهور في النصوص المعينية : (ذ ابهى) (ذو أبهى)، و (ذ ابرهن) ، و (ذ اثرت) ، (ذو عثيرة) ، و (دثا)، و (ذ حضر)، و (ذ طنفت) ، و (ذ نور) ، و (ذ سمع) ، و (ذ شمس)[2] .

ومن الشهور الواردة في كتابات السبئيين المتقدمة : (ورخ ذا بهي) ، أي شهر ذو أبهى ، و (ورخ ذ دنم)[3] ، و (ورخ دثا) ، (ذ دثا) ، و (ورخ ذ نيلم) ، و (ورخ ذ نسور) ، و (ورخ ذ سحر)، و(ورخ ذ فلسم) ، و (ورخ ذ قيضن) ، و (ورخ صربن) ، و (ورخ صر)، و (ورخ ذ الالت) ، و (ملت)[4] ، و (ذ عثتر) ، و (ذ موصبم)، و (ذ مخضدم)[5] . وشهور أخرى .

أما الشهور : (ورخن ذ الالت) ، و (ورخ ذ داون) و (ورخو ذ حجتن) و (ورخ ذ خرف) و (ورخو ذو مذران) و (ورخن ذ مهلتن) و (ورخن ذ محجتن) و (ورخ ذ معن) و (ورخ ذ صربن) و (ورخو

---

١ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي (٥/٢٣٤ وما بعدها) ،
Rhodokanakis, Kataba. I, S. 133, Beeston, p. 10,
Rhodokanakis, Studi. II, S. 141, Sab. Denkm. 21, CIH 380.
٢ Beeston, p. 10.
٣ « بو رخ ذ دونم » ، Rhodokanakis, Studi. II, S. 75 ZDMG. 29.
٤ Beeston, p. 12 f.
٥ CIH 547.

ذ قيضن) و (ورخ ذ ثبتن) ، فإنها من الشهور الواردة في الكتابات السبئية المتأخرة[١] .

ويظهر من اسم الشهر (ورخن ذ الالت) (ذ ا ل ا ل ت)[٢] ، و (ورخن ذ حجتن) ، أن لها صلة بالحياة الدينية عندهم . فورخن ذ الالت معناه شهر الآلهة . فالظاهر أنه شهر خصص بالآلهة ، كانوا يتقربون فيه اليها بالنذور مثلاً أو العبادة . فهو شهر مقدس ، ربما يكون مثل شهر (رمضان) في الإسلام . وأما (ورخن ذ حجتن) ، فعناه (شهر الحج) ، فهو شهر يحج فيه الى الأصنام ، على نحو (شهر ذي الحجة) في الإسلام .

أما الشهور القتبانية التي وردت أسماؤها في كتاباتهم ، فهي : (ورخس ذ ابهو) و (ورخس ذ برم) و (ورخس ذ بشمم) و (ورخس ذ مسلعت) و (ورخس ذ سحر) و (ورخس ذ عم) و (ورخس ذ تمنع) و(ورخس ذ فرعم) ، و (ورخ ذ فقهو)[٣] . ويلاحظ أن اللهجة القتبانية تضع حرف (و) في نهاية (ابهى) (فقهى) ، فتقول : (ذ ابهو) ، و (ذ فقهو) بدلاً من (ذ ابهى) و (ذ فقهى) كما هو الحال في اللهجات الأخرى ، مما يدل على ان هذا الحرف ، هو من خصائص هذه اللهجة[٤] .

وذكر (بيستن) أن الكتابات الحضرمية لم تذكر من أسماء الشهور إلا اسم شهر واحد ، هو (ورخس ذ صيد)[٥] .

ويلاحظ ورود لفظتي (قد من) و (اخرن) مع أسماء بعض الأشهر كما في هذه الجمل : (ورخ ذ نسور قد من) و (ورخ ذ نسور اخرن) ، و (ورخس ذ برم قد من) ، و (ذ برم اخرن)[٦] . ومعناها : (شهر

---

١ Beeston, p. 13 f.

٢ Jamme 642, 6, Mahram, p. 141.

٣ Rhodokanakis, Katab. I, S. 96, II, S. 5, Glaser, 1396, 1310, Die Inschri. an der Mauer von Kohlan — Tamna' 1924, S. 15, SE80, Beeston, p. 11 f.

٤ Beeston, p. 41, note : 4.

٥ Beeston, p. 15.

٦ Rhodokanakis, Die Inschri. an der Maner von Koblan — Timna' 1924, S. 52 ff., Glaser 1609, Beeston, pp. 11, 13, REP. EPIG. 3688, 3879.

ذو نسور الأول) و (شهر ذو نسور الثـاني) و (ذو نسور الآخـر) ، و (شهر ذو برم الأول) و (شهـر ذو برم الآخر) . وذلك أن لفظة : (قد من) تعني (الأقدم) و (الأول) . وأما (اخرن) ، فتعني «المتأخر والثـاني والآخر » . وذلك كما نفعل نحن اليوم إذ نقول (شهر ربيع الأول) و (شهر ربيع الآخر) و (جمادى الأولى) و (جمادى الآخـرة) في التقويم الهجري ، و (كانون الأول) و (كانون الثاني) في التقويم الميلادي .

ويتبين من استعمال اللفظتين المذكورتين أن بعض العرب الجنوبيين ، ويجـوز أن يكونوا كلهم ، كانوا كالعرب الشماليين ومثل بعض الساميين ، قد استعملوا اسماً واحداً لشهرين ، وللتفريق بينهما أطلقوا لفظة (قد من) بعـد اسم الشهر الأول ، لتمييزه عن سميّه الشهر التالي له ، ولفظة (اخرن) أي المتأخر والتالي أو الثاني بعد اسم الشهر الثاني لتمييزه عن الأول المتقدم عليه .

ويظن أن شهر (ذ برم اخرن) ، (ذ برم الآخر) (ذ برم التـالي) أو (الثاني) إنما هو من شهور (الكبس) ، ولهذا فهو لا يكون في كل سنة، بل في السنين المكبوسة فقط[1] .

ويظهر من دراسة بعض الأسماء أن لبعضها معاني ذات علاقة بالجو ، ولبعض آخر علاقة بالحياة الدينية أو بالناحية الزراعية . ومن النوع الأول : (ذ دثا)، (ذو دثا) وله معنى الربيع ، وهو مثل شهر (ربيع الأول) أو (ربيع الآخر) في التقويم الهجري . فـ (دثا) هو الربيع في المسند[2] . وأما شهر (ذ خرف) فإن له صلة بموسم الخريف ، وقد يكون من شهور هذا الموسم . و (خرف) بمعنى (الخريف) الموسم المعروف بلغتنا ، وبمعنى سنة[3] . وأما شهر (ذ قيضن) فإنـه من أشهر القيظ ، والقيظ هـو الحرّ ، فهو شهر من أشهر الصيف . و (القيض) ، بمعنى الصيف كذلك ، والموسم الذي تنضج اثمار الصيف فيه[4] .

ومن الشهور التي لها علاقة بالزراعة ، شهر (ذ مذرن) ، (ذ مذران)

---

١ Beeston, p. 12.

٢ Jamme 610, 615, 618, 623, 627, 628, 650, 661, 666, 704.

٣ Mahram, p. 437.

٤ Mahram, p. 447.

(ذو مذران) ، ومعناه شهر البذر ، ولعله دعي بذلك لأن الزرّاع كانوا يبذرون بذورهم للزرع فيه . وشهر (ذ صربن) ، (ذو صربن) . وهو من أشهر الخريف ، قد يكون في أوله وقد يكون في أواخره ، أي في ابتداء الشتاء، وهو يقابل شهر (صراب) من الأشهر المستعملة في العربية الجنوبية في أيامنا هذه . و (صربن) (صراب) ، بمعنى أثمار الخريف وحاصل الخريف ، أي غلة الخريف[1] .

ويرى بعض الباحثين أن لشهر (ذ ثبتن) علاقة بالزراعة كذلك ، وأنه يعني الشهر الذي تتهاطل فيه الأمطار ، وتجمع فيه السيول لخزنها في السدود ، وأن لشهر (ذ مهلتن) علاقة بالزراعة كذلك ، وأن في معناه (المهلة) أي التأخير في عمليات الزرع أو جمع الحاصل[2] .

ويظن أن للشهرين (ذ دونم) (ذ دنم)[3] و (ذ نيلم) علاقة بالزراعة كذلك . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن معنى (دونم) (دينم) الدين ، وأن المراد بها الشهر الذي تجمع فيه ديوان المعبد . أي ضرائب المعبد . وذهب بعض آخر الى أن اللفظة من أصل (دون) ، ومعناها الإرواء والإسقاء ، وأن لهذا الشهر علاقة اذن بشؤون الري . وأما (ذ نيلم) ، فإنه شهر حصاد الغلات وجمع الحبوب[4] .

ومن الشهور التي لها علاقة بالحياة الدينية ، (ذ عثتر) و (ذ الالت) و (ذ حجتن) و (ذ محجتن) و (ذ شمسى) وغيرها . وشهر (ذو عثتر) منسوب الى الإله (عثتر)[5] . وأما (ذ الالت) ، فبيّن الدلالة على المعنى الديني كذلك . فإنه يعني شهر الآلهة . وأما (ذ حجتن) و (ذ محجتن) ، فهو مثل شهر (ذي الحجة في التقويم الهجري وفي معناه . وأما (ذ شمسى) (ذو شمس) فيجوز أن يكون نسبة الى الآلهة الشمس من الناحية الدينية ، ويجوز أن يكون نسبة الى الشمس من ناحية تأثيرها في الجو ، أي من ناحية تأثير حرارة

---

١ Jamme 594, 617, 631, 651, 655, 719.

٢ Beeston, p. 17.

٣ « ورخ ذ دنم » Jamme 633, 16'.

٤ Beeston, p. 17.

٥ Jamme 611, 7-8, Mahram, p. 108.

أشعتها في الناس وفي المزروعات . وذلك بكونه من أشد الشهور حراً ، فيكون هذا الشهر بذلك من أشهر الصيف .

ويفهم من جملة : « ورخ ذ هبس وعثتر » ، أن هنالك شهراً اسمه شهر (هوبس وعثتر) ، أو شهراً اسمه (هوبس) ، نسبة إلى الإلـه (هوبس) وشهراً آخر اسمه (عثتر) ، نسبة إلى الإلـه (عثتر)[1] . وورد اسم الشهر (ورخ ذ عثتر) في جملة نصوص[2] .

والأشهر التي لها صلة بالحياة الدينية ، هي : (شهر الآلهة) (ورخ ذ ال اا ت) (ذ الالت) ، و (شهر ذ حجتن) ، (ورخ ذ حجتن) ، و (شهر ذ محجتن) ، (ورخ دمحجتن) ، أي شهر المحجة . ويصعب في الوقت الحاضر علينا تثبيت أوقات هذه الأشهر المقدسة بالنسبة للمواسم ولترتيب الشهور ، لعدم وجود أدلة يمكن أن نستخرجها من النصوص لتثبيت زمن الحج عندهم مثلاً ، أو زمن الشهر المخصص للآلهة .

ونجد أسماء بعض الشهور مثل : (ذ سمع) ، تمثل صفة من صفات الآلهة . فـ (ذ سمع) يعني (ذو السمع) ، فالآلهة تسمع الناس وتجيب دعواتهم . كما نجد أسماء شهور أخرى تشير الى أمور دينية وطقوس . مثل شهر (ذ حضر) ، فإنه شهر الأضاحي ، من (حضر) بمعنى ضحى ، أي ذبح ذبيحة للآلهة ، ومثل شهر (ابر) ، ومعناه (شهر حرق البخور) ، أو تقديم النذور ، أو النذور التي تقدم لمحارق الآلهة . وربما أدى اسم شهر (ذ نور) هذا المعنى أيضاً ، فـ (نور) بمعنى نار . فيكون المعنى شهر النيران .

وقد ورد اسم الشهر (ورخ ذ ملت) ، (ورخ ذ مليت) في عدد من النصوص[3] . وهو من الأشهر التي لها صلة بموسم الزرع والمواسم . وهذه الأشهر هي : (ذ دثا) ، و (ذ ملت) (ذ مليت) ، و (ذ قيضن) ، و (ذ دنم) (ذ دونم) ، و (ذ نيلم) .

ومن الشهور الواردة في نصوص (هرم) ، شهر (ذ سلام) (ورخ ذ س ل ا م).

---

١ راجع السطر ٧ ـ ٨ من النص : Jamme 611, MaMB 277.

٢ Jamme 567, 6-7, 607.

٣ Jamme 613, 10, 653, 10, 14.

وهناك احتمال بأن : (ذ موص ب م) ، و (ذ عثر) ، و (ذ مخضدم) ، هي أسماء شهور كذلك . وقد ورد : (حين ذ مخضدم قد متن) ، مما يدل على أن اسم هذا الشهر هو مؤنث ، وهو الشهر الأول ، لوجود لفظة (قد متن) وأن هنالك شهراً آخر ، يمكن تسميته بـ (حين مخضدم الثاني)[1] .

ويظهر من أسماء هذه الشهور المتقدمة ، أن العرب الجنوبيين ، كانوا يسمون بعض أشهرهم بما يقع فيها من حوادث مهمة ، مثل موسم جمع الديون أو التعبد للآلهة أو لإله معين ، أو للحج إلى المعابد ، أو بالظواهر الطبيعية التي تمتاز بها مثل الحر أو البرد ، أو بموسم الصيد .

وقد حاول (بيستن) تثبيت بعض شهور العرب الجنوبيين بالنسبة إلى المواسم وإلى الأشهر المستعملة في الوقت الحاضر ، فذهب إلى أن شهر (ذ ثبتن) قد يكون هو شهر آذار أو شهر نيسان ، وأن شهر (ذ قيضن) ، أي شهر القيظ ، بمعنى الحر ، الذي يقابل (رمضان) قد يكون شهر (مايس) أو حزيران ، وأن شهري (ذ خرف) ، و (ذ مذرن) قد يكونا تموز إلى ايلول ، وأن شهر (ذ داون) ، قد يكون شهر (اكتوبر) (تشرين الأول) ، وأن شهر (ذ صربن) قد يكون شهر (نوفمبر) (تشرين الثاني) ، وأن شهر (ذ معن) قد يقابل شهر (دسمبر) ، أي (كانون الأول)[2] .

وليس في امكاننا في الزمن الحاضر وضع تقاويم ثابتة كاملة للشهور في العربية الجنوبية . نعم ، يمكننا تثبيت بعضها استناداً الى معاني أسمائها كما رأينا ذلك فيما تقدم ، وذلك بأن نجعل الشهر الفلاني في الفصل الفلاني من فصول السنة مثلاً . ولكننا عاجزون عن ترتيب كل الشهور الإثني عشر ترتيباً زمنياً صحيحاً لنقص في علمنا بالشهور . ومن أجل الوصول الى ذلك ، لا بد من أن نتريث حتى تتهيأ لنا نصوص كثيرة جديدة ، قد تكون من بينها نصوص فلكية ، أو نصوص أخرى ترد فيها أسماء شهور جديدة ، وأسماء شهور مرتبة ترتيباً زمنياً يساعدنا على ترتيبها وتنظيمها في تقاويم منتظمة لمختلف القبائل العربية الجنوبية ودويلاتها . ولا بد لي هنا من الإشارة الى وجوب الاستعانة بالتقاويم المستعملة عند بقية الساميين

١ Beeston, p. 12.
٢ Beeston, p. 24.

وعند القبائل العربية الشمالية وعند القبائل الإفريقية التي كانت لها صلات بالعرب الجنوبيين ، لمطابقة شهورها على شهور التقاويم العربية الجنوبية وتثبيتها عندئذ على هذا الأساس .

ولم ترد في كتابات المسند أسماء الشهور المستعملة عند الشعوب السامية الشمالية، وهي : نيسان ومايس وحزيران وتموز وآب وايلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني وشباط وآذار .

ويظهر أن سنة العرب الجنوبيين ، كانت تتكون من (٣٦٠) يوماً ، مقسمة على اثني عشر شهراً ، ولأجل جعل هـذه السنة سنة طبيعية كاملة ، متفقة مع الدورة السنوية الحقيقيـة للأرض ، كانوا يعالجون ذلك بالكبس . إما بكبس بقية الأيام على السنة نفسها ، ويتم ذلك في كل سنة ، وإما بإضافة شهر إضافي على التقويم في نهاية كل ثلاث سنين[١] .

وربما يدل اسم الشهر (ذ برم اخرن) ، (ذو برم الآخـر) ، وهو من شهور قتبان ، على انه شهر كبس ، يضاف إلى سنـة الكبس لتكون سنة شمسية تامة . وربما أدى اسم الشهر : (ذ نسور اخـرن) ، وهو من شهور السبئيين هذا المعنى كذلك . وهناك شهر اسمه (بين خرفنهن) أي (بين الشهرين) ، ربما يدل على الكبس ، واضافة شهر بين الشهرين ، لتكون السنـة كاملة ، أي كبس شهر على السنة الاعتيادية ، فتكون عدتها ثلاثة عشر شهراً ، وذلك بعـد السنين اللازمة ، لإصلاح التقويم ، حتى يكون مطابقاً لدورة الأرض حول الشمس[٢] . وقد كان العبرانيون يضيفون شهراً عـلى تقويمهم بسبب أن الشهور الاثني عشر القمرية لم تكن إلا (٣٥٤) يوماً وست ساعات ، فنقصت بذلك السنة اليهودية أحد عشر يوماً عن الرومانية ، ولسبب ذلك أدخل اليهود شهراً ثالث عشر كل ثلاث سنوات ، سموه (فيادارا) ، أي (آذار الثاني) ، وهكذا جعلوا طول السنة القمرية يعادل الشمسية تقريباً[٣] .

وقد ورد في النصوص اللحيانية اسم (منر) ، يظهر أنه اسم شهر ، يقـال

---

١ Beeston, p. 18.

٢ Beeston, p. 18.

٣ قاموس الكتاب المقدس (٦٣٩/١ وما بعدها) .

له (مسنر) ، أي (منير)[1] . واسم آخر هو (سمر) ، يظهر انه اسم شهر كذلك .

أما النصوص العربية الشمالية ، فهي بخيلة كل البخل في ايراد أسماء الشهور ، فلم يرد في النصوص العربية الخمسة المدوّنة بعربية قريبة من عربية القرآن الكريم من أسماء الشهور ، إلا اسم شهر واحد ، هو (كسلول) . وقد ورد اسمه في (نص النمارة) . ويقابل هذا الشهر ، كانون الأول . ويدل استعمال النص لهذه التسمية على أن العرب الشماليين ، كانوا يستعملون التقويم البابلي في التأريخ .

و (كسلول) ، هو الشهر التاسع من الشهور المتداولة في العراق وفي بلاد الشأم . وأصله (كسلو) ، وهو بابلي . وهذه الشهور هي : نيسان ، وزيو ، وسيوان ، وتموز ، وآب ، وايلول ، وايثانيم ، وبول ، وكسلو ، وطيبيت ، وشباط ، وآذار . وهي الشهور المقدسة عند العبرانيين[2] . ويقال لشهر نيسان شهر (أبيب) ، ولشهر (زيف) (أيارا) ، وأما (سيوان) فهو (سيوان) وتموز هو تموز ، وآب هو آب ، وأما أيلول فهو أيلول ، وأما ايثانيم فهو تشرى (تسرى) و (تشريتو) ، وأما (بول) فهو مرشوان ، وكسلو هو (كسلو) ، و (طيبت) هو (تبت) ، ويسمى بـ (تمطرو) أيضاً . وأما (شباط) فهو (سبت) (شبات) ، وأما (اذار) فهو آذار[3] .

وقد ذكر الأخباريون أسماء أشهر ترك استعمالها في الاسلام ، ذكروا انها كانت مستعملة عند قدماء الجاهلية ، وهم العرب العاربة ، كما ذكروا أسماء شهور قالوا انها كانت أسماء الشهور عند ثمود ، وأسماء شهور قالوا انها الشهور التي كان يستعملها العرب عند ظهور الاسلام .

أما الشهور التي زعموا انها كانت شهور العرب العاربة ، فهي : المؤتمر، وقد زعموا انه في مقابل المحرم ، وناجر ، وهو في موضع صفر ، وخوّان (وروي حوّان) ويقابل ربيعاً الأول ، ووبصان (ويقال صوان وبصان) ، وهو في مقابل ربيع الآخر ، والحنين أو شيبان ، وهو جمادى الأولى ، وملحان وهو

---

١ Caskel, Lihyan, S. 129, 127.

٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٦٣٩) ، (شهر) ، Hastings, p. 936.

٣ The Bible Dictionary, vol. II, p. 182.

جمادى الآخرة ، والأصم ، وهو شهر رجب ، وعاذل (عادل) ، وهو شعبان ، وناتق ، وهو شهر رمضان ، ووعل وهو شوّال ، ورنة ، وهو ذو القعدة ، وبرك وهو ذو الحجة . وذكر بعضهم أن خوّاناً اسم يوم من أيام الأسبوع ، وأن شيبان اسم كانون الأول ، وأن ملحاناً هو كانون الثاني . وهذا الترتيب الذي ذكرته هو كما جاء في رواية ابن سيدة[١] .

وذكر الفرّاء أن من العرب من سمّى المحرم المؤتمر ، وصفر ناجراً ، وربيع الأول خواناً ، وربيع الآخر بصان أو وبصان أو بوصان ، وجمادى الأولى الحنين[٢] ، وجمادى الآخرة ورنة (ورنى) ، ورجب الأصم ، وشعبان وعلاً ، ورمضان ناتقاً ، وشوّال عاذلاً ، وذو القعدة هُواعاً ، وذ الحجة بركاً[٣] . وذكرها غيره على هذا النحو : المؤتمر وهو المحرم ، وناجر وهو صفر . وخوّان ، وهو ربيع الأول ، ووبصان وهو ربيع الآخر ، وحنين وهو جمادى الأولى . وربي وربة لجمادى الآخرة . والأصم وهو رجب . وعاذل وهو شعبان وناتق وهو رمضان . ووعل وهو شوال ، وورنة وهو ذو القعدة ، وبرك وهو ذو الحجة[٤] .

ورتب المسعودي أسماء الشهور الجاهلية على هذا النحو : ناتق ، وثقيل ، وطليق ، وناجر ، وسماح (أسلخ) ، وأمنح (أميح) ، وأحلك ، وكسع ، وزاهر ، وبرط ، وحرف ، ونعس . وجعلها في مقابل المحرم ، وصفر ، فبقية الشهور . وذكر أن (نعساً) هو ذو الحجة[٥] .

ورتبها البيروني على هذا النحو : المؤتمر ، وناجر ، وخوّان (حوّان) ، وصوان ، وحنّم أو حنين ، وزبّاء ، والأصم ، وعادل ، ونافق ، وواغل ، وهواع أو رنة ، وبُرَك[٦] .

---

١ المخصص (٩/ ٤٣) ، الايام والليالي والشهور ، للفراء ، القاهرة ، ١٩٥٦ م (ص ١٨) ، المزهر (١/ ٢١٩) .
٢ بالفتح وبالضم ، المرزوقي (١/ ٢٧٩ وما بعدها) ، المزهر (١/ ٢٢٠) ، نزهة الجليس (١/ ٢١٨) .
٣ الايام والليالي والشهور ، للفراء ، (ص ١٧ وما بعدها) .
٤ صبح الاعشى (٢/ ٣٧٨ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/ ٢٠) ، (أمر) .
٥ مروج الذهب (٢/ ١١٠) ، (٢/ ١٩١) ، (دار الاندلس) .
٦ الاثار الباقية (١/ ٦٠) « طبعة سخاو » ، « لايبزك ١٨٧٦ م » ، التقاويم (ص ١٦٧) .

ورتبها آخرون على هذا النحو : مؤتمر ، وناجر ، وحوّان (بالحاء المهملة والخاء المعجمة) ، وصوان ويقال فيه وبصان ، ورُبى ، وأيدة ، والأصم ، وعادل ، وناطل ، وواغل ، وورنة ، وبرك[1] . أو على هذا النحو : ناتق ، ونقيل ، وطليق ، واسنح ، وانخ ، وحلك ، وكسح ، وزاهـر ، ونوط ، وحرف ، وبغش .

وذكرها بعض آخر على هذا النحو : مؤتمر ، وناجر ، وخوّان ، وصوان، أو (وبصان) ، و (حنين) ورُبيّ ، وأيدة ، والأم ، وعادل ، وناطل، وواغل ، وورنـة ، وبرك . أو هي : ناتق ، ونقيل ، وطليق ، وأسنح ، وأنخ ، وحلك ، وكسح ، وزاهر ، ونوط ، وحرف ، وبغش . وهناك من يقول : مؤتمر ، وناجر ، وخـوان ، وصوان ، وحنتم ، وزبا ، والأصم ، وعادل ، وناقق ، وواغل ، وهواع ، وبرك ، وما شاكل ذلك . وهناك آراء أخرى في ترتيب هذه الشهور وفي ضبط هذه الأسماء[2] .

وذكر علماء اللغة أن الخالص من الشتاء عند العرب شهران ، يطلقون عليها (قماحاً) ، ويقال للشهرين : ملحان وشيبان[3] .

ويسمّون شهري القيظ الذي يخلص فيها حرّه، شهري ناجر ، وذكر أنهما: وقدة وعكّان . وهذان الشهران هما بيضة الصيف[4] .

وذكر علماء اللغـة كذلك ، أن شهرا (قماح) شهرا الكانون لأنهما يكره فيها شرب الماء الا على ثقل . قال مالك بن خالد الهذلي :

فتى ما ابن الأغرّ إذا شتونا   وحب الزاد في شهري قماح[5]

و (ملحان) اسم شهر جمادى الآخرة ، سمي بذلك لابيضاضه ، قال الكميت:

---

١ نهاية الارب (١٥٧/١) .

٢ وسيان وبصان اذا ما عددته   وبرك لعمري في الحساب سواء
صبـح الاعشى (٣٦٨/٢ وما بعدها) ، تـاج العروس (٤٤٤/٤) ، اللسـان (٣٧٤/٨) .

٣ الانواء (ص ١٠٥ وما بعدها) ، المرزوقي (٢٧٩/١) .

٤ الانواء (ص ١٠٦ وما بعدها) .

٥ تاج العروس (٢٠٩/٢) .

إذا أمست الآفاق حمراً جنوبها لشيبان أو ملحان واليوم أشهب

شيبان جمادى الأولى ، وقيل كانون الأول ، وملحان كانون الثاني[1] . وورد أن (شيبان) ، شهر فيه برد وغيم وصراد ، و (قماح) أشد الشهور برداً . وهما اللذان يقول من لا يعرفهما كانون الأول وكانون الثاني[2] .

ويتبين من البيت المنسوب الى (الكميت) انهما كانا معروفين في أيامه .

وأما شهور ثمود على حد زعم الأخباريين ، فهي : موجب ، وموجر ، ومور (مورد) ، وملزم ، ومصدر ، وهوبر ، وهوبل ، وموها ، وديمر (ديمر) ، ودابر (دابل) ، وحيقل ، ومسيل (مسل)[3] . وضبطها بعض آخر على هذا النحو : موجب ، وموجز ، ومورد ، وملزج ، ومصدر ، وهوبر ، ومويل ، وموهب ، وديمر ، وجيقل ، ومحلس ، ومسبل[4] . وموجب هو المحرم ، وموجر هو صفر . ويذكرون انهم كانوا يبدأون في تقويمهم بديمر ، وهو شهر رمضان ، فيكون أول شهور السنة عندهم[5] .

وذكر أن (مُصَدِّر) من أسماء جمادى الأولى[6] .

ونحن لا نستطيع في الوقت الحاضر التأكيد على أن هذه الشهور ، هي شهور (ثمود) ، كما لا نريد أن نقف منها موقفاً سلبياً ، فنقول إنها من مخترعات أهل الأخبار ، وضعوها على لسانهم وضعاً . وعندي أن من الخير لنا في الوقت الحاضر وجوب البحث عن كتابات ثمودية علنا نجد فيها أسماء أشهرهم .

أما الشهور التي ذكر الأخباريون أنها كانت مستعملة عند العرب حين ظهور الإسلام ، فهي : المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الثاني ، وجمادى

---

١ تاج العروس (٢٣٠/٢) ، (ملح) .

٢ وقد اعاد ذكر بيت الكميت ولكن على هذه الصورة :

اذا أمست الافاق غبرا جنوبها بشيبان أو ملحان واليوم اشيب

تاج العروس (٣٢٨/١) ، (شاب) .

٣ بلوغ الارب (٧٦/٣ وما بعدها) ، الاثار الباقية (٦٣/١) ، صبح الاعشى (٣٦٨/٢) .

٤ المرزوقي (٢٨٣/١) .

٥ بلوغ الارب (٧٦/٣ وما بعدها) .

٦ اللسان (٤٥٠/٤) ، (صدر) .

الأولى،وجمادى الآخرة ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة . زعموا أن أسماءها وضعت على هذه الصورة باتفاق حال وقعت في كل شهر منها ، فسمي الشهر بها عند ابتداء الوضع . وذكروا التعليل الذي رووه عن كل تسمية . وذكروا أيضاً أن أول من سماها بهذه الأسماء هو كلاب بن مرة. ومن هذه الشهور أربعة حرم لا يجوز فيها غزو ولا قتال[1]. وقال (الطبري) : « وكان المشركون يسمون الأشهر : ذو الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع ، وربيع ، وجمادى ، وجمادى ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة[2] .

ويذكر الأخباريون ان الاسم القديم للمحرم هو صفر،وانه كان يعرف عندهم بـ (صفر الأول) ، ثم قيل له (المحرم) . وقد عرف الشهران : المحرم وصفر لذلك بـ (الصفرين)[3] . ويظن ان هذه التسمية الجديدة : أي المحرم لصفر الأول انما ظهرت في الاسلام[4] . وذهب بعض علماء اللغة إلى أن لفظة (موجب) هي الاسم العادي للمحرم . أي التسمية القديمة لهذا الشهر عند قدماء العرب[5] . فلفظة (محرم) اذن ، لم تكن تسمية لذلك الشهر ، وانما كانت صفة له ، لحرمته ، ثم غلبت عليه ، فصارت بمنزلة الاسم العلم عليه . وأما اسمه عند الجاهليين ، فهو : صفر ، أي صفر الأول ، تمييزاً له عن صفر الثاني ، الذي اختص بهذه التسمية أي (صفر) بعد تغلب لفظة (المحرم) على صفر الأول . بحيث صار لا يعرف إلا به ، فصار صفر لا يعرف بعد ذلك إلا بـ (صفر) . وقد تغلبت لفظة (محرم) عليه ، لأنه شهر من الأشهر الحرم ، فهو (صفر)

---

١ بلوغ الارب (٣/٧٨) ، صبح الاعشى (٢/٣٦٤ وما بعدها) ، نهاية الارب (١/١٥٨) .

٢ تفسير الطبري (١٠/٩٢) ، صبح الاعشى (٢/٣٧٤ وما بعدها) .

٣ « اللهم اني قد أحللت لهم أحد الصفرين . الصفر الاول ، ونسأت الاخر العام المقبل » ابن هشام (١/٤٥) ، « أول من نسأ الشهور » ، اللسان (٦/١٣٣) ، البخاري (٢/٢٥٧) ، تاج العروس (٣/٣٣٦) .

٤ تاج العروس (٣/٣٣٦) .

Reste, S. Raccolta, vol. V, p. 169, Winckler, Zur Altarabischen Zeitrechnaung, in Altorientalische Farschungen, II, Reihe, Bd. 2, S. 324, 1900, Arabisch — Orientalish, Berlin, 1901, S. 81, in MVG., VI, 4-5, 1901.

٥ تاج العروس (١/٥٠٢) .

المحرم ، تمييزاً له عن (صفر) الثاني ، الذي لم يكن من الأشهر الحرم. ثم غلب المحرم عليه ، وماتت لفظة صفر منه . قال (السخاوي) : « إن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً ، وعندي انه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه ، لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاماً وتحرمه عاماً »[1] .

وذكر أن المحرم لم يكن معروفاً في الجاهلية ، « وإنما كان يقال له ولصفر الصفرين ، وكان أول الصفرين من أشهر الحرم ، فكانت العربُ تارة تحرّمه ، وتارة تقاتل فيه ، وتحرم صفر الثاني مكانه » ، « فلما جاء الإسلام ، وأبطل ما كانوا يفعلونه من النسيء ، سماه النبي صلى الله عليه وسلم ، شهر الله المحرم»[2].

ويتبين من دراسة أسماء هذه الشهور أن منها ما هو تكرار للاسم الواحد،وهي ربيع الأول وربيع الثاني وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ، ومجموعها أربعة أشهر، فهي ثلث السنة إذن . وتقع في النصف الأول من السنة وعلى التوالي ، تليها أشهر مفردة ، ثم شهران يبتدىء اسماها المركبان بكلمة (ذو) ، وهما : ذو العقدة وذو الحجة ، وهما آخر شهور السنة . وإذا صحت رواية من قال ان الاسم القديم للمحرم هو صفر الأول ، كانت الأشهر المكونة للنصف الأول من السنة أشهراً مزدوجة تتألف من ثلاثة أزواج ، هي : صَفَرَان ورَبيعان وجماديان[3] .

وإذا درسنا أسماء هذه الشهور الجاهلية التي ذكرها أهل الأخبار ، وجدنا أنها لا تشبه أسماء الشهور البابلية ولا الشهور السريانية والعبرانية . وهي لا تشبه كذلك أسماء الشهور الواردة في المسند. فليس في الذي بين أيدينا من أسماء للشهور العربية الجنوبية على اختلافها ما يشبه هذه الشهور .

وقد انتبه علماء العربية الى أن أسماء بعض الأشهر التي استعملت في الاسلام ، مثل رمضان ، لا تنطبق مع المعاني التي يفهم منها ، فرمضان من الرمض، وهو الحر الشديد ، مما يدل على انه من أشهر الصيف ، بينما هو شهر متنقل ، يأتي في كل المواسم ، فلجأوا الى تعليل مصطنع ، على عادتهم عند وقوفهم على اسم لا يعرفون عن أصله شيئاً ، فقالوا : « يقال انهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة

---

١ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .
٢ المزهر (١/٣٠٠) .
٣ Reste, S. 95, Shorter, p. 409.

القديمة سمّوها بالأزمنة التي وقعت فيها ، فوافق شهر رمضان أيام رمض الحر ، فسمي بذلك »[1] ، ولم يعرفوا أن ذلك بسبب اتباع الاسلام التقويم القمري ، مما دعا الى تحرك الشهور وتنقلها في الفصول ، لكون الشهور القمرية غير ثابتة على نمط الشهور الشمسية .

ويبدأ الجاهليون بالمحرم ، فهو أول السنة عندهم[2] ، وهو أيضاً الشهر الأول من شهور السنة الهجرية في الاسلام . وأرى ان اتخاذ المسلمين للمحرم ، مبدءاً للسنة الأولى من الهجرة ، وجعله الشهر الأول من التقويم الهجري ، هو من الأمور التي أبقاها الاسلام من أمور الجاهلية ، لأن هجرة الرسول الى المدينة لم تكن في شهر (محرم) حتى نقول إن المسلمين جعلوا (المحرم) الشهر الأول من السنة الهجرية ، لهذه المناسبة ، إذ كانت الهجرة في شهر ربيع الاول ، وأرخ بها[3] ، لذلك يكون الابتداء بشهر محرم ، هو اقرار لما كان عليه الجاهليون من ابتدائهم بـ (محرم) ، مبدءاً لشهور السنة . وقد قيل إن وصوله المدينة كان يوم الاثنين الثامن من ربيع الاول ، وقيل لثنتي عشرة منه ، وقيل دخل لهلال ربيع الاول ، وقيل غير ذلك[4] .

وقد أورد العلماء شروحاً وتفسيرات لمعاني الشهور المتقدمة الجاهلية ، والشهور التي استعملت في الإسلام واقترنت بالتقويم الهجري . فذكروا مثلاً أن المؤتمر معناه أن يأتمر بكل شيء مما تأتي به السنة من أقضيتها . وناجر من النجر ، وهو شدة الحر ، وخوان من الخيانة ، وصوان من الصيانة ، والزباء بمعنى الداهية العظيمة المتكاثفة سمي بذلك لكثرة القتال فيه وتكاثفه ، والبائد سمي لأنه كان يبيد فيه كثير من الناس ، وكانوا يستعجلون فيه ويتوخون بلوغ ما كان لهم من الثأر والغارات قبل دخول شهر رجب وهو شهر حرام ، والأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح . والواغل الداخل على شراب ولم يدعوه ، وذلك لهجومه على شهر رمضان ، وكان يكثر في رمضان شربهم

---

١ المزهر (١/٢٢٠) .
٢ مروج الذهب (٢/١٨٨) ، (ذكر سني العرب وشهورها وتسمية أيامها ولياليها) .
٣ تاريخ الطبري (٤/٣٨) ، اليعقوبي (١/١٣٥) ، « أيام عمر بن الخطاب » ، ابن هشام ، سيرة (٢/١٥) ، (حاشية على الروض) .
٤ امتاع الاسماع (١/٤٤) .

للخمر ، لأن ما يتلوه شهور الحج ، وناطل مكيال للخمر ، سمي لإفراطهم في الشرب وكثرة استعمالهم لذلك المكيال ، والعادل من العدل ، لأنه من أشهر الحج، وكانوا يشتغلون فيه عن الناطل ، والرنة كانت الأنعام ترن فيه لقرب النحر ، وبرك سمي لبروك الإبل إذا أحضرت المنحر[1] .

وعللوا تسمية المحرم بهذا الاسم ، لكونه من جملة الحرم ، وصفر بالأسواق التي كانت باليمن تسمى الصفرية ، وشهري الربيع للزهر والأنوار وتواتر الأندية والأمطار ، وهو نسبة الى طبع الفصل الذي نسميه نحن الخريف ، وكانوا يسمونه ربيعاً ، وشهري جمادى لجمود الماء فيها ، ورجب لاعتمادهم الحركة فيه ، لا من جهة القتال ، أو لخوفهم إياه ، يقال : رجبت الشيء ، اذا خفته ، وشعبان لتشعب القبائل فيه ، ورمضان للحجارة ترمض فيه من شدة الحر ، وشوال لارتفاع الحر وادباره ، وذي القعدة للزومهم منازلهم ، وذي الحجة لحجهم فيه[2] .

وعلل بعضهم تسمية الاشهر بقوله : سمي المحرم محرماً تأكيداً لتحريمه ، لأن العرب كانت تتقلب به ، فتحله عاماً وتحرمه عاماً ، وسمي صفر بذلك ، لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار . وشهر ربيع الاول ، سمي بذلك ، لارتباعهم فيه ، والارتباع الاقامة في عمارة الربع ، وربيع الآخر كالاول . وجمادى : سمي بذلك لجمود الماء فيه . ورجب من الترجيب ، وهو التعظيم . وشعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة . ورمضان من شدة الرمضاء ، وهو الحر . وشوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق ، وذو القعدة ، لقعودهم فيه عن القتال والترحال ، وذو الحجة : لايقاعهم الحج فيه[3] .

ويظهر من تفسير أسماء بعض الاشهر وتعليلها أن لتسمياتها علاقة بالمواسم وبالعوارض الطبيعية الجوية مثل البرد والحر والاعتدال في الجو ، وأن مسمياتها ، أي الشهور المسماة بها ، كانت شهوراً ثابتة في الاصل ، وإلا فلا يعقل تفسيرها

---

١ الاثار الباقية (١/٦١) ، المرزوقي (١/٢٧٥ وما بعدها) .

٢ الاثار الباقية (١/٦٠) ، الفراء (ص ٩ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٧٨) ، المسعودي ، مروج (٢/١٨٨ وما بعدها) ، (ذكر سنى العرب وشهورها وتسمية ايامها ولياليها) ، وتجد تفسيرات عديدة أخرى في تعليل تسمية هذه الاشهر، تدل على أنها مما وضعه الرواة فيما بعد ، حينما احتاج الناس الى التعرف على سبب التسميات ، صبح الاعشى (٢/٣٧٥ وما بعدها) .

٣ ابن كثير (٢/٣٥٤) ، المسعودي ، مروج الذهب (٢/١٨٨ وما بعدها) .

بغير هذا التفسير . فكيف يسمى رمضان رمضان مثلاً لرمض الحجارة من شدة الحر فيه ، إن لم يكن ثابتاً وشهراً من أشهر الصيف الحارة ؟ وكيف يسمى جمادى بجمادى لجمود الماء فيه ، إن لم يكن هو والشهر التالي له والمسمى بجمادى الآخرة ثابتين ، ومن أشهر الشتاء ؟ وهكذا يجب أن يقال عن بقية الشهور ، وإلا لم يصح ما قيل فيها من التفاسير[1] . وقد فطن (المسعودي) إلى ذلك فقال: « وجمادى ، لجمود الماء فيها في الزمان الذي سميت به هذه الشهور ، لأنهم لم يعلموا أن الحر والبرد يدوران فتنتقل أوقات ذلك »[2] . فأدرك ان شهور العرب في الجاهلية كانت أشهراً تمثل ظواهر طبيعية مثل الحرارة والبرودة في الاصل ، لكنه لما وجد – كما وجد غيره أيضاً – أن أوقات الشهور هي متغيرة ، بحيث لا تستقر على قرار في المواسم ، ذهب إلى أن الجاهليين لم يكن لهم علم بأن الحر والبرد يدوران ، مع انهم كانوا على علم تام بذلك ، فكانت أشهرهم ثابتة ، ولم يفطن المسعودي إلى ذلك ، لأنه أخذ حكمه من الوضع الذي كانت عليه الاشهر في الاسلام ، ولم يفطن إلى أن إبطال النسيء في الاسلام ، هو الذي أطلق هذه الحرية للأشهر فصارت تدور بحرية وتدخل في كل المواسم ، ولم تتقيد بالوقت الذي خصصت به . ولما تكلم (المسعودي) عن الشهور قال : « شهور الروم مرسومة على فصول السنة دون شهور العرب : وشهور العرب ليست مرتبة على فصول السنة ولا على حساب سنة الشمس ، بل المحرم وغيره من الشهور العربية قد يقع تارة في الربيع وتارة في غيره من فصول السنة »[3] .

ويعد شهر شوال أول شهر من أشهر الحج ، وكانت العرب تتطير من عقد المناكح فيه ، وتقول : إن المنكوحة تمتنع من ناكحها ، ولذلك كانت الجاهلية تكره التزويج فيه لما فيه من معنى الاشالة والرفع الى أن جاء الاسلام بهدم ذلك[4] .

الاسبوع :

ويقسم الشهر الى أربعة أقسام ، كل قسم منها هو اسبوع ، ويتكون من

---

١ الاثار الباقية (١/٦٢) .
٢ المسعودي ، مروج (٢/١٨٩) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤ وما بعدها) .
٣ مروج (٢/١٩٢) .
٤ تاج العروس (٧/٤٠١) ، (شول) ، صبح الاعشى (٢/٣٧٦) .

سبعة أيام . وتعزى فكرة هذا التقسيم الى البابليين . ولكن ضبط الأسابيع وتتابعها على النحو المعروف حتى اليوم هو نظام ظهر بعدهم بأمد[1] . وقد ذكر الاسبوع (شبوعة) Shabu'a في التوراة ، في سفر التكوين[2] . وعلى أساس الجمع بين السبت اليهودي وقصة الخلق ، نظم الاسبوع بحسب العرف الشائع اليوم[3].

ولا أعرف للاسبوع اسماً في المسند ، إذ لم ترد لفظة (اسبوع) أو أية لفظة أخرى مرادفة لها في تلك النصوص[4] . غير أن هناك نصاً من نصوص قوانين البيع والشراء ، ذكر أن إنساناً إذا اشترى حيواناً ، ثم مات ذلك الحيوان بعد سبعة أيام من يوم البيع ، فلا يكون البائع مسؤولاً عن وفاته ، ولا يتحمل أي ضرر عنها [5] . فلعل النص على هذه الأيام السبعة ، يشير الى وجود فكرة الاسبوع عند العرب الجنوبيين .

وقسم الجاهليون الشهر الى عشرة أقسام . يتألف كل قسم منها من ثلاث ليال . هي : غرر . والغُرر : ثلاث ليال من أول كل شهر . وغرة الشهر ليلة استلال القمر[6] . ونفل أو شهب وتسع أو بهر . وهي الليلة السابعة والثامنة والتاسعة[7] وعشر وبيض ودرع وظلم وحنادس أودهم ودادىء (داداً) ومحاق[8] . ويذكر أهل الأخبار « أن العرب في الجاهلية إذا كان يوم المحاق من الشهر بدر الرجل الى ماء الرجل اذا غاب عنه فينزل عليه ويسقي به ماله ، فلا يزال قيم الماء ذلك الشهر وربه حتى ينسلخ ، فإذا انسلخ كان ربه الاول أحق به . وكانت العرب تدعو ذلك المحيق »[9] .

---

١ Universal Jewish Encyclopaedia, vol. 10, p. 482.

٢ التكوين الاصحاح السابع ، الاية ٤ وما بعدها ، والاصحاح الثامن الاية ١٠ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (٧٩/١) .

٣ Universal Jewish Encylopaedia, 10, p. 482.

٤ Beeston, p. 3.

٥ Rep. Epigr. 3910.

٦ اللسان (١٥/٥) ، (غرر) .

٧ اللسان (٨١/٤) ، (بهر) .

٨ اللسان (٥٨/٦) ، (حندس) ، اللسان (٣٣٩/١٠) ، (محق) ، (أسماء أيام الاسبوع واسماء العدد وتفسير معانيها) ، لانيس فريحة ، الابحاث ، السنة (١١) الجزء الاول (١٩٥٨ م) (ص ٣٢) .

٩ اللسان (٣٣٩/١٠) ، (محق) .

وذكر بعض أهل الاخبار ، أن العرب كانت «تسمي الثلاث الاولى من ليالي الشهر ، فتقول : ثلاث غرر ، والثلاث التي تليها ثلاث سُمَر ، والثلاث التي تليها ثلاث زهر ، والثلاث التي تليها ثلاث درر ، والثلاث التي تليها ثلاث قمر ، وثلاث بيض ، وتقول في النصف الثاني من الشهر في الثلاث الأول ثلاث درع، وفي الثلاث التي تليها ثلاث ظلم ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث حناديس ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث دواري ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث محاق . وقيل انه يقال لليالي الشهر : ثلاث هلل ، وثلاث قمر ، وست نفل ، وثلاث بيض ، وثلاث درع ، وثلاث بهم ، وست حناديس ، وليلتان داريتان ، وليلة محاق[1] .

الأيام :

واليوم في عرف علماء اللغة من طلوع الشمس الى غروبها[2] . ولكنهم يتوسعون في معناه أيضاً ، فيقصدون به معاني أخرى ، مثل الدهر . أما في الاصطلاح فإنه جزء من أيام الاسبوع والشهر والسنة . وهو ليل ونهار،وهما مجتمعان يكونان اليوم . فاستعمل اليوم على وجهين : أحدهما أن يجعل اسماً للنهار خاصة . والوجه الآخر أن يكون اليوم اسماً للمدة الجامعة للزمانين جميعاً ، أعني الليل والنهار[3] .

واعتبر الجاهليون مبدأ اليوم من وقت غروب الشمس . وأما انتهاؤه فبابتداء الغروب التالي له . فصار اليوم عندهم بليلته من لدن غروب الشمس عن الأفق الى غروبها من الغد ، فصارت الليلة عندهم قبل النهار[4] .

ولهذا السبب غلبت العرب الليالي على الايام في التأريخ ؛ « لأن ليلة الشهر سبقت يومه ، ولم يلدها ، وولدته ، ولأن الاهلة لليالي دون الايام ، وفيها دخول الشهر »[5] . والعرب تستعمل الليل في الاشياء التي يشاركه فيها النهار ، فيقولون :

---

١ مروج (٢/١٩٥) ، وتختلف هذه التسميات باختلاف روايات أهل الاخبار ، صبح الاعشى (٢/٣٧٠ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٢/٦٤٩) « صادر » « يوم » ، صبح الاعشى (٢/٣٣٩) .
٣ الازمنة والانواء ، لابن الاجدابي (ص ٢٨) ، (الدكتور عزة حسن) ، (دمشق ١٩٦٤ م) .
٤ الاثار الباقية (١/٥ وما بعدها) ، ابن الاجدابي (٢٨) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢١٦) .

أدركني الليل بموضع كذا ، وصمنا عشراً من شهر رمضان ، وإنما الصوم للأيام، ولكنهم أجازوه إذ كان الليل أول شهر رمضان[1] .

أما اليونان ، فقد عدّوا مبدأ اليوم عند شروق الشمس ، وأما منتهاه فابتداء شروق آخر ، وذلك بخلاف الرومان الذين عدّوا منتصف الليل هو ابتداء اليوم. ومنتهاه عند منتصف ليلٍ تالٍ له[2] . وقد عدّ التقويم العبراني (لوح) ، مبدأ اليوم من وقت غروب الشمس . وأما انتهاؤه فابتداء الغروب التالي له[3] .

وذكر أن العرب خصصوا من الشهر ليالي بأسماء مفردة كآخر ليلة منه ، فإنها تسمى (السرار) لاستسرار القمر فيها ، وتسمى (الفحمة) أيضاً لعدم الضوء فيها ، ويقال لها البراء ، وكآخر يوم من الشهر ، فإنهم يسمونه النحير ، وكالليلة الثالثة عشرة ، فإنها تسمى السواء ، والرابعة عشرة ليلة البدر[4] .

وقد عرف اليوم بـ (يوم) في نصوص المسند كذلك. كما وردت فيها لفظة (ليلم) ، أي (ليل) للتعبير عن الليل ، أي اللفظة ذاتها التي تستعملها عربية القرآن الكريم . ووردت فيها لفظة (صبحم) بمعنى صبح وصباح . ولا بد أن تكون في لهجات العرب الجنوبيين مسميات لأقسام الليـل والنهار على نحو ما نجده في عربية القرآن الكريم. ولا يستبعد أن يظفر بها الباحثون بعد قيام العلماء بحفريات علمية منظمة في العربية الجنوبية .

وقد أوردت كتب اللغة والاخبار أسماء الايام التي كان يستعملها بعض الجاهليين، ويتبين منها أن الجاهليـين كانوا يسمون الأيام بأسماء مختلفة متباينة بحسب تباين الأماكن والقبائل . وقد ماتت تلك الاسماء الجاهلية ، وحلت محلها أسماء متأخرة لم تكن معروفة عند قدماء الجاهليين . فأسماء الايام عند بعض الجاهليين ممن أخذ علماء اللغة عنهم ، هي كما زعموا : (شيار) ويراد به السبت ، وأول ويراد به الاحد ، وأهون ، وأوهد ويراد بها يوم الاثنين ، وجُبار ويراد بـه الثلاثاء ، ودبار ويراد به الأربعاء ، ومؤنس ويراد به الخميس ، وعَرُوبة أو العَرُوبـة

---

١ بلوغ الارب (٣/٢١٦) .

٢ Dictionary of Classical Antiquities, p. 110.

٣ The Jewish Encyclopaedia, III, p. 501.

٤ الاثار الباقية (١/٦٤) .

أي بالتعريف ويراد به الجمعة[1] .

وقد جمعت أسماء الايام القديمة المذكورة في هذين البيتين :

أؤمل أن أعيش ، وأن يومي بأول أو بأهون أو جبار
أو التالي دبار ، فإن أفتـه فؤنس فالعروبة أو شيار

وهي أبيات ، يرى بعض علماء اللغة انها موضوعة[2] . وقد زعم (ابن كثير) أن البيتين المذكورين من شعر العرب العرباء المتقدمين[3] .

وقد نسب بعض هذه الأخبار هذه الأيام إلى العرب العاربـة من بني قحطان وجرهم الأول[4] .

ويذكر علماء اللغة أن أيام الاسبوع المعروفة والمتداولة عندنا في الزمن الحاضر ، وهي : الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة والسبت ، هي أسماء إنما عرفت وظهرت في الإسلام[5] . ولكنهم لم يذكروا ، ويا للأسف ، متى كان ظهورها ولا في أية سنة كان ذلك ، أكان ذلك في مكة أي قبل الهجرة أم بعد الهجرة الى المدينة ؟ وقد ذكر (المسعودي) هذه الايام ، ثم قال : « وكانت العرب تسميها في الجاهلية : الاحـد أول ، والاثنين أهون ، والثلاثاء جبار ، والاربعاء دبار ، والخميس مؤنس ، والجمعة عروبة ، والسبت شيار »[6] .

---

١ المخصص (٤٢/٩) ، « أسماء الايام في الجاهلية » ، نهايـة الارب ، للنويـري (١٤٢/١) ، مروج الذهب (١١٠/٢) ، الاثار الباقية (٦٤/١) ، الايام والليالي والشهور للفراء (ص ٦) ، شرح القاموس (٥٤٩/٢) ، (٣٠٦/٥) ، صبـح الاعشى (٣٥٤/٢) ، نهاية الارب (١٤٨/١) ، بلوغ الارب (٢٧٣/١) ، المزهر (٢١٩/١) ، Ency. IV, p. 1210.

٢ اللسان (٥٩٣/١) ، (عرب) ، المسعودي ، مروج (١٩١/٢) ، تفسير ابن كثير (٣٥٥/٢) ، صبح الاعشى (٣٦٥/٢) ، اللسان (٢٧٥/٤) ، (دبر) ، نزهة الجليس (٢٩١/١) ، وتجد بعض الاختلاف في النص .

٣ تفسير ابن كثير (٣٥٥/٢) .

٤ صبح الاعشى (٣٦٤/٢) .

٥ الاثار الباقية (٦٣/١ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢٧٣/١ وما بعدها) ، الابحاث (١٩٥٨ م) (حـ ١ ص ٣٣) ، نهاية الارب ، للنويري (١٤٢/١) .

٦ المسعودي ، مروج (١٩١/٢) .

وهناك من اللغويين والأخباريين من يرى أن هذه الأسماء المتداولة مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن العرب العاربة لم تكن تعرف هذه الأسماء[1] .

وذكر بعض أهل الأخبار ، أن الايام المذكورة ، هي ما نطقت به العرب المستعربة من ولد اسماعيل ، وهي مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرفون إلا الأسماء التي وضعتها العرب العاربة ، وهي أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت[2] .

ولا يملك الاخباريون دليلاً مقنعاً يثبت لنا بجلاء أن أيام الاسبوع المعروفة اليوم إنما وضعت في الاسلام . وفي رواياتهم عن يوم الجمعة ما يخالف زعمهم هذا . ثم إن كلمة (السبت) وردت في آية مكيّة[3] . وورودها في آية مكية دليل على وقوف أهل مكة عليها ومعرفتهم بها . أما لفظة (الجمعة) ، فقد وردت في سورة مدنية ، أي أنها نزلت بعد الهجرة[4] .

وعندي أن أسماء أيام الاسبوع المستعملة عندنا كانت معروفة في يثرب وفي مكة قبل الاسلام . وقد تعلمها أهل يثرب من اليهود ، من اختلاطهم بهم . فإن هذا الترتيب للأسبوع مبني على قصة الخلق الواردة في التوراة . ولا بد لذلك لمستعملي هذا الترتيب من أن يكونوا قد تعلّموه من مصدر يهودي أو من مصدر له صلة باليهود ، أو من النصارى الساكنين بيثرب أو بمكة . فإننا نعرف أن العبرانيين كانوا لا يسمون أيام الاسبوع بأسماء خصوصية ، ولكنهم كانوا يعدّونها بحسب ترتيبها ، فيقولون اليوم الأول والثاني والثالث كما هو في العربية ، إلا يوم الجمعة والسبت، فقد كانوا يسمون الجمعة (عريب شبات) Ereb Shabat ، ومعناه (مساء السبت) و (عشية السبت) . وأما السبت ، فهو (شبت) (شبات) ومعناه الراحة Rest ، وذلك لاعتقادهم ولما ورد في سفر التكوين: أن الله خلق العالم في ستة أيام ، واستراح في اليوم السابع . فسموا هذا اليوم :

---

١ بلوغ الارب (١/٢٧٥) .
٢ صبح الاعشى (٢/٣٦٥) .
٣ النحل : الاية ١٢٤ .
٤ الجمعة : الاية ٩ .

(يوم الراحة) (يوم ها — شبات) yom ha-shabbat . واختصرت بـ (شبات) أي السبت[1] .

ولست أعرف نصاً من نصوص المسند ، ورد فيه اسم معين ليوم من أيام الاسبوع، مثل الجمعة أو السبت أو الاحد وغير ذلك . وكل ما نعرفه من النصوص أن العرب الجنوبيين كانوا يذكرون موقع اليوم من الشهر ، فيكتبون في اليوم السابع من الشهر الفلاني ، أو في اليوم الخامس عشر منه ، أو في اليوم العشرين منه ، وهكذا . وذلك لتعيين مكان اليوم من الشهر . وطريقتهم هذه طريقة معروفة عند الساميين وعند غيرهم ، وهي لا تزال مستعملة حتى في هذه الأيام كتابة وفي الاستعمال الاعتيادي وفي التوريخ ، وذلك للسهولة والاختصار .

ولا نستطيع أن نتحدث عن اليوم المهم في الاسبوع مثل يوم السبت عند اليهود أو يوم الأحد عند النصارى وعند الوثنيين ، وإن كان في بعض الروايات ما يفيد أن يوم الجمعة كان من الايام المعظمة في نظر قريش ، وقد عرف عندها بـ (يوم العروبة) ، وكانت تجتمع في كل جمعة الى كعب بن لؤي بن غالب فيخطب فيها ، وأنه هو الذي سمى يوم العروبة يوم الجمعة ، وذلك لتجمع الناس حوله في ذلك اليوم[2] .

وقيل : إن يوم الجمعة لم يعرف بهذا الاسم إلا في الاسلام[3] . وأن الانصار هم الذين بدلوا اسم (يوم العروبة) فجعلوه (الجمعة) ، ذلك أنهم نظروا فإذا لليهود يوم في الاسبوع يجتمعون فيه ، وللنصارى يوم يجتمعون فيه هو الاحد، فقالوا : مالنا لا يكون لنا يوم كيوم اليهود أو النصارى ، فاجتمعوا الى سعد ابن زُرارة ، فصلى بهم ركعتين وذكرهم، فسموا ذلك اليوم يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، وأنزل الله سورة الجمعة ، فهي على حد قول أصحاب هذه الرواية أول جمعة في الإسلام[4] . وقد انتبه بعضهم الى خطل رأي من ذهب الى أن يوم الجمعة انما سمي بهذه التسمية في الاسلام ، فقال إن يوم الجمعة كان يسمى بهذا

---

١ The Jewish Encyclopedia, Vol., III, p. 502, Art : Calender.

٢ تاج العروس (٣٠٦/٥) ، بلوغ الارب (٢٧٣/١) .

٣ الايام والليالي (ص ٦) .

٤ صبح الاعشى (٣٦٣/٢) ، بلوغ الارب (٢٧٤/١) .

الاسم قبل أن يصلي الأنصار الجمعة [1] .

وقد انتبه علماء العربية الى اسم (يوم عروبة) ، فقالوا : هو اسم قديم للجمعة. (وكأنه ليس بعربي)[2]. و (عروبة) بمعنى غروب في السريانية وفي العبرانية، وقد سمي اليوم السابق للسبت (عروبة) ، لأنه غروب ، أي مساء نهار مقدس[3].

وذكر أهل الأخبار ، أن كل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر ، مثل أربع خلون ، وأربع عشرة خلت ، وأربع عشرة بقيت ، وأربع وعشرين ، وأربع بقين ، فهي : (أيام نحسات)[4] . ونظراً لورود الاشارة الى هذه الأيام في كتب أهل الأخبار ، ولاعتقاد الجاهليين بالنحس ، وبوجود نجمين للسعد وللنحس، كما في قول الشاعر :

يومين غيمين ويوماً شمسا نجمين بالسعد ونجماً نحسا [5]

فإن في استطاعتنا القول بوجود الأيام النحسات عند الجاهليين .

ويقسم النهار والليل الى اثني عشر قسماً ، كل قسم منها ساعة ، فيكون مجموع ساعات اليوم أربعاً وعشرين ساعة . وساعتنا المعروفة مأخوذة من الساعة السومرية البابلية ، فقد قسّم البابليون الليل والنهار الى ساعات متساوية هي اثنتا عشرة ساعة لكل من الليل والنهار ، وجرى الناس على هذا التقسيم حتى اليوم[6] .

وذكر بعض علماء اللغة أن (الآناء) الساعات . وكان الجاهليون اذا شغلوا انساناً بالساعات ، قالوا لذلك (المساوعة)[7] .

ويروي الأخباريون أن العرب وضعت لساعات النهار والليل أسماء غير مستعملة عندنا ، فأما ساعات النهار ، فهي : (الذرور) (الدرور) ثم البزوع (البزاغ) ، ثم الضحى ، ثم الغزالة ، ثم الهاجرة ، ثم الزوال ، ثم الدلوك ، ثم العصر ، ثم الأصيل ، ثم الصبوب : ثم الحدود ، ثم الغروب . ويقال فيها أيضاً : البكور

---

١ صبح الاعشى (٢/٣٦٣) .
٢ اللسان (١/٥٩٣) ، (عرب) .
٣ الابحاث ، السنة (١٩٥٨م) ، (حـ ١ ص ٤٨) .
٤ المسعودي ، مروج (٢/١٩١) .
٥ تفسير الطبري (٤/٦٧) .
٦ Alfred Jeremias, Handbuch der Altorientalischen Geisteskultur, Leipzig, 1929, S. 29.
٧ المخصص (٩/٤٤) .

ثم الشروق ، ثم الاشراق ، ثم الرأد ، ثم الضحى ، ثم المتوع ، ثم الهاجرة ، ثم الأصيل ، ثم العصر ، ثم الطَّفل ، ثم العشي ، ثم الغروب[١] .

وأما ساعات الليل ، فهي على حد قولهم : الشاهد[٢] ، ثم الغسق ، ثم العتمة ، ثم الفحمة ، ثم الموهن ، ثم القطع ، ثم الجوسر (الجوس) (الجوشن) ، ثم العبكة ، ثم التباشير ، ثم الفجر الأول ، ثم المعترض ، ثم الإسفار . وأسماء أخرى يذكرها اللغويون[٣] ، حيث يروون أن الجاهليين كانوا يقسمون اليوم الى أربع وعشرين ساعة . غير ان من الصعب العثور على دليل يفيد وجود هذا التقسيم عندهم[٤] .

ويقول أهل مكة بوجود فجرين ، أحدهما قبل الآخر . فالفجر الأول هو الفجر الكاذب ، ويسمى (ذنب السرحان) لدقته . والفجر الثاني هو الفجر الصادق ، ويقال له (المستطير) ، ومنه الحديث : « ليس بالمستطيل ، يعني الفجر الأول ، ولكن المستطير » ، يريد المنتشر الضوء . ومع طلوعه يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود[٥] .

وهناك شفقان ، أحدهما قبل الآخر : الشفق الأحمر ، والشفق الأبيض . وهو يغرب في نصف الليل[٦] .

ويقال لليوم الذي يسبق اليوم الذي نحن فيه . يوم أمس ، أو الأمس ، ونهار أمس . أما البارحة ، فيراد بها أقرب ليلة مضت ، أي الليلة الماضية . وأما اليوم الذي يلي اليوم الذي نحن فيه ، فهو نهار الغد ، والغد ، وبكرة .

---

١ بلوغ الارب (١/٢٧٤) ، صبح الاعشى (٢/٣٤٨) ، نهاية الارب (١/١٤٧) .

٢ « الشاهد يوم الجمعة ... وصلاة الشاهد صلاة المغرب ... » ، تاج العروس (٢/٣٩٢) .

٣ بلوغ الارب (١/٢٧٤) ، « الهتكة » ، صبح الاعشى (٢/٣٤٨) .

٤ Ency., IV, p. 1210.

٥ الانواء (ص ١٤٣) .

٦ الانواء (ص ١٤٣ وما بعدها) .

الفصل الثاني والثلاثون بعد المئة

الاشهر الحرم

قسّم الجاهليون شهور السنة الى قسمين : أشهر اعتيادية هي ثمانيـــة شهور . وأشهر أربعة حرم مقدسة خصت بآلهتهم ، لا يجوز فيها قتال ولا بغي ولا انتهاك لحرمات . وكانوا يقاتلون في الشهور الثمانية يغزون بعضهم بعضاً ، ويغيرون بعضهم على بعض . ثم يتوقفون عن القتال في الشهر الحرم الباقية .

والأشهر الحرم هي أربعة : ثلاث متواليات سرد ، وهي : ذو القعـدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر منفرد هو شهـــر (رجب)[1] . فهي ثلث السنة اذن . وكان الجاهليون يعظمونها ، ولا يستبيحون القتال فيها ، حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه ، استعظاماً لحرمة هذه الأشهر التي هي هدنة تستريح فيها القبائل فتنصرف الى الكيل والامتيار والذهاب الى الأسواق،وهي آمنة مستقرة لا تخشى اعتداءً ولا هجوماً مفاجئاً . وتحريم هذه الأشهر ضرورة من الضرورات استوجبتها طبيعة الحياة في البادية ، فأهل البادية بما هم فيه من فقر وضنك عيش يتنافسون فيما بينهم ويتقاتلون على الكلأ والماء وعلى أخذ حق المرور من القوافـل وعلى الغزو والغارات يعيشون . وحياة عاصفة هذا شأنها لا بد لها من فترة تستريح

١ بلوغ الارب (٨٢/٣) ، روح المعاني (٩٠/١٠) ، كتاب الازمنة والامكنة للمرزوقي (٢٢١/١ وما بعدها) ، (طبع حيدرآباد الـدكن ١٣٣٢ هـ) ، تفسير الطبـــري (٨٨/١٠) ، تفسير ابن كثير (٣٥٥/٢) .

فيها ، وتمتار فيها ، وتصفّي فيها حسابها بدفــع أثمان الديات بهدوء وبتسويــة المشكلات بالمساومة والمفاوضة ، وتلك الفترة هي الأشهر الحرم .

هذا ما يذكره ويرويه العلماء عن الشهور بصورة عامة . ويجب حمل كلامهم هذا على قريش ومن والاها،وعلى القبائل التي كان للعلماء اتصال بها وعلم بأخبارها أما القبائل البعيــدة عنهم ، والقبائل التي لم يتصلوا بها اتصالاً وثيقاً ، فنحــن لا نستطيع أن ندخلهم في هذا الكلام فنقول انهم كانوا يحرمون أشهراً ويحرمون أخرى ، لعدم وجود دليل لدينا يثبت ذلك ، وسنبقى على رأينا هذا حتى يظهر لنا دليل يؤيده أو ينفيه .

والمذكورون قوم يحرمون إذن شهوراً ويحلّون أخرى ، لا يقاتلون ولا يغزون في شهور ، حرمة وتقديساً لها ، إلا عن ضرورة ولحاجة ، ويقاتلون ويغزون في الأشهر الأخرى المتبقية من السنة ، فيقصرون نشاطهم في الغزو وفي الأخذ بالثأر على أشهر الحل فقط .

قال (الطبري) في تفسيره الآية : « فــإذا انسلخ الأشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد »[1] : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم ، وهي الأربعة التي عددت لك ، يعني عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيعاً الاول ، وعشراً من شهر ربيع الآخر . وقال قائلو هذه المقالة : قيل لهذه الأشهر الحرم ، لأن الله عزّ وجل حرم على المؤمنين فيها دماء المشركين والعرض لهم إلا بسبيل خير »[2] . وقــال (النيسابوري) في تفسيرها : « واختلفوا في الأشهر الأربعــة ، فعن الزهري أن براءة نزلت في شوال ، والمراد : شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وقيل : هي عشرون من ذي الحجــة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر . وكانت حرماً لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم ، أو سميت حرماً على التغليب لأن ذا الحجة والمحرم منها . وقيل : ابتداء المدة من عشر ذي القعدة الى عشر من ربيع الأول ، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان .

---

١ التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٥ .

٢ تفسير الطبري (١٠/٥٦) .

ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة »[1]. فدخل صفر وربيع الأول وربيع الآخر في الأشهر الحرم،حسب هذه الروايات . مع أنها ليست من الأشهر الحرم المقررة المعروفة عند الجاهليين . وقد رأيت تعليل ذلك في تفسير (النيسابوري) لها، وهو فعل عامل النسيء .

ولما وصل (الطبري) الى الآية : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض . منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم »[2] ، قال : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم متواليات : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . وهو قول عامة أهل التأويل »[3]. وقال (النيسابوري) : « منها أربعة حرم : ثلاثة سرد ، أي مسرودة : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، وواحد فرد هو رجب »[4] . وورد في خطبة الوداع : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان »[5] . فهذه هي الشهور الحرم . أما ما تقدم ، فقد كانت محرمة بموجب ما كان قد وقع عليها بفعل النسيء . فقد كانت العرب قد نسأت النسيء، فكانوا يحجون في كثير من السنين ، بل أكثرها في غير ذي الحجة[6] .

وعرف المحرمون للأشهر الحرم بـ (المحرمين) ، وبـ (البسل) أيضاً . ذكر ان من معاني (البسل) : الحرام والشجاعة ، وهي معاني نجدها في لفظتي (حمس) و (حرم) . وذكر علماء اللغة ، أن « البسل ثمانية أشهر حرم كانت لقوم لهم صيت . وذكر انهم من غطفان وقيس . يقال لهم : الهباآت »[7] . وذكر أن البسل : (بني عامر بن لؤي)[8] ، أو (عوف بن لؤي) ، أو (مرة بن

---

١ تفسير النيسابوري (١٠/٣٧) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٢ التوبة ، رقم ٩ ، الاية ٣٦ .
٣ تفسير الطبري (١٠/٨٨) .
٤ تفسير النيسابوري (١٠/٧٩) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٥ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٣) .
٦ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .
٧ تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (بسل) .
٨ تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (بسل) .

عوف بن لوى) . وكانوا يحرمون ثمانية أشهر من السنة . وقد امتنعت بعض القبائل من الاغارة عليهم في هذه الأشهر[1] . فالبسل اذن جماعة تعظم ثمانية أشهر من السنة ، وتحرمها فلا تقاتل فيهما . فهم يختلفون اذن عن (المحرمين) من قريش ومن دان بدينهم في انهم يحرمون ثمانية أشهر من أشهر السنة ويحلون الأربعة الباقية ، أي على العكس منهم ، يفعلون ذلك تعمقاً وتشديداً[2] .

والبسل كما يتبين من تفسير علماء اللغة لها : الحرام . ولهذا قالوا : الإبسال : التحريم . ومن ذلك قيل للأشهر الحرم (البسل) . وهي الأشهر الثمانية التي حرمها قوم من (غطفان) و (قيس) . وبهذا المعنى وردت في قول الأعشى :

أجارتكم بسل علينـا محرم وجارتنا حلّ لكم وحليلها[3]

وذكر أنها تعني الحرام وأيضاً الحلال . وهي من الأضداد[4]

فنحن اذن أمام طائفتين من العرب المحرمين للشهور . طائفة اقتصرت على تحريم أربعة أشهر من السنة ، جعلتها أشهراً حرماً . وطائفة جعلت عدة الشهور الحرم ثمانية ، وعدة الشهور الحل أربعة ، وهم أقل عدداً من الطائفة الأولى .

ولكننا نجد طائفة أخرى من الجاهليين ، استهترت بحرمة كل الأشهر ، فلم تحرم أي شهر من شهور السنة ، ولم تعترف لها بقدسيته ، وساوت بين جميع أشهر السنة ، بأن أحلتها كلها ، فعرفوا بالمحلين وهم عكس (المحرمين) . فقد نص أهل الأخبار على وجود قوم من العرب هم : خثعم وطيء ، ذكروا أنهم كانوا يستحلون الأشهر الحرم فيقاتلون فيها ، ولا يقدسونها ولا يرعون للحرم ولا للأشهر الحرام حرمة . وذكر بعضهم أن أحياء من قضاعة ويشكر والحارث بن كعب كانوا على مذهب هؤلاء[5] . فهم لا يفرقون بين الأشهر ، ولا يميزون

---

١ أبو ذر ، شرح السيرة (١/٧٨) ، ابن كثير ، البداية (٢/٢٠٤) ، القلاعي ، الاكتفاء (١/٧٨) ، Kister, p. 141.

٢ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) .

٣ تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (بسل) .

٤ المصدر نفسه .

٥ تاج العروس (٨/٢٤١) ، (حرم) ، الجاحظ ، الحيوان (٧/٢١٦ وما بعدها) ، النجيرمي (١٢) ، المحبر (٣١٩) ، الازرقي (١/٣٤١) .

بينها ، وهي كلها في نظرهم سواء . فلا يؤمنون بوجود أشهر حرم مقدسة ، ولا بوجود أشهر حل ، بل الأشهر عندهم كلها حلال . ولا يمتنعون من القتال في أي يوم أو شهر من السنة . فهم اذن على نقيض (المحرمين) للأشهر المعظمين للحرم وللأشهر الحرم ، قوم لا عهد لهم ولا ذمة بالنسبة الى شهور السنة .

والظاهر ان (المحلّين) كانوا يتحارشون بالمحرمين وبغيرهم في الأشهر الحرم ، ولما كان من شرع (المحرمين) الامتناع عن القتال في تلك الأشهر ، فللدفاع عن النفس أباح النسأة لمقلديهم المحرمين مقاتلة المحلّين اذا تعرضوا لهم . إذ جاء: « كان الذين ينسأون الشهور أيام الموسم يقولون : حرمنا عليكم القتال في هذه الشهور إلا دماء المحلين . فكانت العرب تستحل دماءهم في هذه الشهور »[١] . وجاء : « وإني قد أحللتُ دماء المحلين من طيء وخثعم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم اذا عرضوا لكم »[٢] .

ويجب أن نضيف على هؤلاء طائفة من العرب من ذي البانة والصعاليك وأصحاب التطاول ، وأمثالهم ممن كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للأشهر الحرام قدراً[٣] . فكانوا يغيرون في هذه الأشهر ويحلون القتال فيها وفي كل وقت ، كما كانوا لا يؤمنون على الحرم . فإذا وجدوا فرصة سرقوا في الحرم وأخذوا ما يقع في أيديهم دون استحياء ولا مبالاة بحرام وحلال ، نظراً لما هم فيه من جوع وفاقة وحاجة ، دفعتهم إلى الكفر بكل قانون وعقيدة وعرف .

ويجب أن نضيف الى المحلين العرب الذين لم يكونوا على دين أهل الشرك ، مثل النصارى واليهود . فقد كانت النصرانية قد وجدت سبيلها بين تغلب، وشيبان، وعبد القيس ، وقضاعة ، وغسان ، وسليح ، والعباد ، وتنوخ ، وعاملة ، ولخم ، وجُذام . وكثير من بلحارث بن كعب[٤] ، وبعض طيء وتميم . فهؤلاء لم يكونوا على شرك ، لذلك لم يراعوا حرمة تلك الأشهر ، ولم يحجوا الى محجات المشركين ، وإنما كانوا يتقربون الى قبور شهداء الكنيسة والى أضرحة القديسين ،

---

١ تاج العروس (٨/٢٤٤) ، (حرم) .
٢ نقلا عن مخطوطة أنساب الاشراف على رواية : Kister, p. 142.
٣ ثمار القلوب (٨٨) ، Kister, p. 143.
٤ الحيوان (٧/٢١٦) ،

ولهم أعيادهم الخاصة بهم لا يقاتلون فيها إلا دفاعاً عن نفس ، ولم يقم اليهود كذلك لتلك الأشهر المقدسة حرمة ، إذ كان السبت ، يوم راحة بالنسبة لهم ، لا يحل فيه قتال ، وكذلك كانت أعيادهم أيام حرمة ، لا يجيزون فيها قتال ، أي مهاجمة أحد ، إلا إذا هوجموا ، فيحل عندئذ لهم القتال دفاعاً عن نفس ، ولما وقعت المناوشات بينهم وبين المسلمين كانوا يتجنبون فيها القتال أيام السبت والأعياد .

وذكر أن قريشاً،كانت لا تتاجر إلا من ورد اليها في مكة في الأشهر الحرم . لا تبرح دارها ولا تتجاوز حرمها . وذلك لتحمسها في دينها والحب لحرمها . وكانت تخاف على تجارتها من لصوص الطرق وصعاليك الأعراب وطلاب الطلائب وذؤبان العرب ، لأنهم كانوا يرون للشهور الحرم حرمة،ولا للشهر الحرم قدراً ، ولا للحرم حرمة ، فأعطت الإيلاف ، والفت القبائل ، وقاومت بذلك المحلين .

وقد قسّم (المرزوقي) العرب الى ثلاثة أهواء بالنسبة الى أشهر الحج . منهم المحلّون ، الذين كانوا يستحلون الكعبة والأشهر الحرم ويسرقون ويقتلون في (الحرم) ، ومنهم من يحرم الشهور الحرم ، ومنهم (أهل هوى) على شرع (صلصل) . وهو (صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف) من بني عمرو بن تميم)[1] . وهو الذي أحلّ للعرب قتال المحلين في الأشهر الحرم[2] . وكان من حكام العرب ومفتوهم وممن اجتمع له الموسم والقضاء في عكاظ .

والمحرمون هم : الحمس والحلة . أما (المحلّون) ، فالقبائل التي لم تحترم حرمة الكعبة ولا الاشهر الحرم ، أي أولئك الذين أباح النسأة دمهم ، وجوّزوا قتالهم في الأشهر الحرم . وأما اولئك الدين كانوا على شرع (صلصل) ، فلا ندري مذهبهم وهواهم ، فلم يتحدث (المرزوقي) عنهم[3] . وقد كان (صلصل) ممن اجتمع له الموسم وقضاء عكاظ من بني تميم[4] . ولم يذكر (ابن حبيب) الأمور التي أوجدها وأحدثها ، حتى كوّن له طائفة خاصة لها رأي في الحرم وفي الأشهر الحرم .

---

١ المرزوقي ، الامكنة (٢/١٦٦) ، المحبر (١٨٢ وما بعدها) ، .Kister, p. 143

٢ Kister, p. 143.

٣ Kister, p. 144.

٤ المحبر (١٨٢ وما بعدها) .

وتجويز مقاتلة (المحلين) في الأشهر الحرم ، هو دفاع عن النفس ، وضرورة واجبة . لذلك نص عليه النسأة في أمرهم السنوي الذي يعينون فيه (النسيء) في الموسم ، ليقف الناس على موعد الأشهر الحرم ومكانها من السنة في السنة المقبلة . إذ لا يعقل بالنسبة للمحرمين الامتناع من قتال مقاتل في الأشهر المذكورة ، لأنها أشهر حرم مقدسة . وإلا عرّضوا أنفسهم وأهلهم وأموالهم الى التهلكة ، خاصة وان المقاتلين هم من أهل عقيدة مخالفة لعقيدتهم تمام المخالفة ، فشرعة الدفاع عن النفس أباحت لهم حق قتال المحلين .

ويلاحظ ان شهري ذي القعدة وذي الحجة هما الشهران الأخيران من السنة ، يليها في الحرمة الشهر الأول من السنة الجديدة وهو المحرم ، فهذه الأشهر الثلاثة هي في الواقع زمن واحد متصل . أما (رجب) ، فهو الشهر الوحيد المنفرد بالحرمة . ولذلك عرف بـ (رجب الفرد) ، و (بالفرد) . وقد علل أهل الأخبار سبب ذلك بقولهم : « وانما كانت الأشهر المحرمة : أربعة . ثلاثة سرد وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة ، فحرم قبل أشهر الحج شهراً ، وهو ذو القعدة ، لأنهم يقعدون فيه عن القتال . وحرم شهر ذي الحجة ، لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك . وحرم بعده شهراً آخر ، وهو المحرم ، ليرجعوا فيه الى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول ، لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم اليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ، ثم يعود الى وطنه فيه آمناً »[1] .

ولكن تعليل أهل الأخبار لحرمة (رجب) التعليل المذكور لا يتناسب مع تعليلهم لحرمة الأشهر الثلاثة المحرمة ، فإذا كانوا قد حرموا ذا القعدة والمحرم بسبب الاستعداد للحج ، وبسبب العودة منه الى ديارهم كما زعموا ، فإن تحريم (رجب) بسبب مجيء العرب فيه من أقصى جزيرة العرب للعمرة فيه ، يستوجب أيضاً اعطاء المعتمرين مدة مناسبة قبله وبعده للاعتمار فيه ، حتى يضمنوا ذهابهم الى مكة وعودتهم منها بأمان ، فالسفر سفر واحد لا يتغير من حيث الطول أو القصر في موسم الحج أو في موسم العمرة ، لأن المسافات لا تتبدل بتبدل الطقوس الدينية ، ولو عللنا سبب اطالة تحريم الأشهر الثلاثة بسبب الحج ووجود الأسواق،

---

١ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) .

أي لعوامل اقتصادية ومنافع مادية ، جاز قبول هذا التعليل ، ولكن لِمَ لم يفعلوا هذا الفعل بالنسبة لرجب ، الذي تحتاج العمرة فيه الى مدة أطول من الشهر للوصول في خلالها من أقصى مكان في جزيرة العرب الى مكة ، وللعودة منها إلى مواطنهم ، إذ لا يعقل أبداً بلوغ مكة والعودة اليها سالمين الى مواطنهم في العربية الجنوبية أو الخليج أو العراق في خلال شهر واحد ، بل هو في نظري زعم من مزاعم أهل الأخبار . وما كان الحج الى مكة إلا من القبائل القريبة منها ، وإنما صار الحج اليها عاماً ومن كل مكان في الاسلام وبفضله وحده . وعندي أن شهر رجب ، كان شهراً مقدساً محرماً ، تعتر فيه العتائر ، عند قبائل مضر وقبائل ربيعة ، وهما حلفان في الأصل ، وقد تناول قبائل متجاورة ، ثم انفصل،فصار ربيعة ومضر . وفي هذا الشهر كانوا يتقربون الى (الله) بالعتائر ، ومنهم من يعتمر ، فيبقى بمكة ما يشاء ، ولم تكن العمرة على شاكلة الحج من حيث العدد والكثرة ، بل كانت قاصرة على المتمكنين الذين لهم عهود ومواثيق مع أهل مكة وغيرها من سادات قبائل مضر وربيعة ، فلا خوف على أمثال هؤلاء من الرجوع الى وطنهم في أي وقت شاؤوا ، إذ لا يطمع فيهم طامع بسبب ما كانوا يحملونه من تجارة ، كالذي كان يفعله التجار الذين يذهبون الى الاتجار بالأسواق وفي جملتها سوق مكة في موسم الحج الذي هو تجارة وحج ، لأنهم كانوا من عامة القبائل ومعهم تجارة ، فكان من الضروري تطويل الموسم ليكون أمناً لهم يحميهم من الأذى الى عودتهم الى مواطنهم .

وفي هذه الأشهر الحرم تعقد الأسواق مثل سوق عكاظ وذي المجاز وذي المجنة ودومة الجندل وغيرها ، فيقصدها الناس من مواضع بعيدة،وتكتظ أرضها بجموع غفيرة لم تكن تقصدها في غير هذه (المواسم) .

وقد عرف شهر (ذو القعدة) بهذا الاسم ، لأن الناس – كما يقول علماء اللغة – كانوا يقعدون فيه عن الأسفار والغزو والميرة وطلب الكلأ ويحجون في ذي الحجة [1] . وهو تفسير أخذ من ظاهر التسمية ، ودليل ذلك قولهم : « لقعودهم فيه عن القتال والترحال » [2] . فالقعود فيه عن القتال جائز بالنسبة للمحرمين ،

---

١ تاج العروس (٤٦٩/٢) ، (قعد) ، تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢) .
٢ تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢) .

ولكن قعودهم عن الترحال خطأ ، إذ كانوا على العكس يتهيأون فيه للأسفار الى الاتجار والحج ، فهو شهر ترحال لا شهر قعود وجلوس .

وأما (ذو الحجة) ، فقد عرف بذلك لايقاعهم الحج فيه . وقد رأينا ان في نصوص المسند اسم شهر عرف بـ (ذ حجتن) ، أي (ذي الحجة) ، وبـ (ذ محجتن) ، أي (ذي المحجة) ، مما يدل على أن له صلة بالحج[1] . ولم تعين نصوص المسند موسم حج العرب الجنوبيين ، ولم تذكر اسم محجتهم ، ولكننا نستطيع أن نقول انها كانت الى محجات آلهتهم المعروفة المنصوص عليها في نصوصهم ، وهي غير آلهة أهل مكة من غير شك .

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن العرب كانت تسمي شهر رجب (رجب الأصم) و (المحرم) ، وذكر بعض آخر أن المحرم لم يكن يعرف بهـذا الاسم إلا في الاسلام ، فقد كان الجاهليون يسمونه صفراً . ولذلك كان في تقويمهم صفران، كما كان عندهم شهران باسم ربيع الأول وربيع الآخر ، وشهران باسم جمادى الاولى وجمادى الآخرة . وصفر الأول هو المحرم في عرفنا ، وصفر الآخر هو صفر في اصطلاحنـا اليوم . وقد كان الجاهليون يؤخرون المحرم الى صفر في تحريمه ، فيكون شهراً حراماً[2] .

ويظهر أن لدخول (ال) أداة التعريف على (المحرم) أهمية في تثبيت هـذا الشهر ، فإن للفظة (محرم) دلالة دينية ، يراد بها كل شهر من الأشهر الحرم . فكل شهر من هذه الشهور الحرم هي محرم وحرام ، ومن ضمنهـا (المحرم) . وقد دخلت (ال) على هذه اللفظة لتخصيصها وجعلها علمية خاصة بهذا الشهر . وإلا دخلت على الشهور الأخرى العلمية ، مثل رجب وشعبان ورمضان وصفر ، فلا يقال فيها الرجب والشعبان والرمضان والصفر ، بل يقال قدم شهر رجب . وقدم شعبان وشهر رمضان وصفر . وهذا يفسر قول (ابن كثير) : «وعندي

---

١ REP. EPIG. 4176/7.

٢ تاج العروس (٣/٢٣٦) ، (٨/٢٤٠ وما بعدها) ، (حرم) ، قال حميد بن ثور :

رعين المرار الجون من كل مذنب   شـهور جمـادى كلها والمحـرما

وقال آخر :

اقمنا بها شهـري ربيع كـلاهما   وشهري جمادى واستحلوا المحرما

تاج العروس (٨/٢٤١) (حرم) .

أنه سُمي بذلك ، تأكيداً لتحريمه،لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاماً وتح
عاماً »[1] أي انه كان قلقاً متنقلاً ، ولم يكن ثابتاً ، ثم ثبت في الإسلام .

وقد ورد في كتب الحديث أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء ، كما
اليهود يصومون ذلك اليوم . ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من المحـــرم .
الرسول حين قدم المدينة وجـــد اليهود يصومونه . وأن الرسول كان يصومه
الجاهلية أيضاً . ولما قدم المدينـة ، كان يصومه ، وأمـــر بصيامه . فلما فر
رمضان ، ترك عاشوراء ، فمن شاء صامه ، ومن شاء تركه[2] . وورد «أن قر
كانت تعظم هذا اليوم ، وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيم
ولكن انما كانوا يعدّون بالأهلة ، فكان عندهم عاش المحرم . فلما قدم المدين
وجدهم يعظمون ذلك اليوم ويصومونه ، فسألهم عنه ، فقالوا : هو اليوم ا
نجّى الله فيه موسى وقومه من فرعون »[3] .

وذكر أيضاً : أن رسول الله ، كان يتحرى يوم عاشوراء على سائر الأيا
وكان يصومه قبل فرض رمضان . فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صام
ومن شاء تركه ، وبقي هو يصومه تطوعاً ، فقيل له : « يا رسول الله انه
تعظمه اليهود والنصارى ، فقال ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان العام المقبل
شاء الله صمنا اليوم التاسع ، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله »[4] .

ويرجع حديث صيـام قريش يوم عاشوراء الى (عائشة) ، وقد رواه ع
(عروة بن الزبير بن العوّام) . فقد روى انهـا « قالـت : كان يوم عاشو
تصومه قريش في الجاهلية ، وكان رسول الله يصومه . فلما قدم المدينة صامه و
الناس بصيامه ، فلما فرض رمضان ، ترك يوم عاشوراء ، فـمن شاء صامه و
شاء تركه »[5] . ويروى أيضاً عن معاوية ، فقد ورد عن (حميد بن عبد الر
ابن عوف انه سمع معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنهما ، يوم عاشوراء

١ ابن كثير ، تفسير (٢/٣٥٤) .
٢ جامع الاصول (٧/١٩٩ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٤٠٠) ، الازمنة والامك
للمرزوقي (١/٧٢٦ وما بعدها) .
٣ زاد المعاد (١/١٦٤ وما بعدها) .
٤ الطبري (٢/٤١٧ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (١/٦٠) ، زاد المعاد (١/١٦٤
٥ ارشاد الساري (٣/٤٢١) .

عام حج على المنبر ، يقول : يا أهل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : هذا يوم عاشوراء ولم يكتب عليكم صيامه ، وأنا صائم فمن شاء فليصم ، ومن شاء فليفطر »[1] .

وقد حاول شراح حديث (عائشة) إيجاد مخرج له ، فقالوا في شرح: « كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية » ، « يحتمل أنهم اقتدوا في صيامه بشرع سالف ، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه » . وقد وضع بعضهم بعد « وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يصومه » جملة (في الجاهلية). وحاولوا إيجاد مخرج آخر لحديث (معاوية) ، بقولهم : « والظاهر أن معاوية قاله لما سمع من يوجبه أو يحرمه ، أو يكرهه ، فأراد إعلامهم بنفي الثلاثة ، فاستدعاؤه لهم تنبيهاً لهم على الحكم أو استعانة بما عندهم على ما عنده ». وقالوا: « ان معاوية من مسلمة الفتح ، فإن كان سمع هذا بعد اسلامه ، فإنما يكون سمعه سنة تسع أو عشر ، فيكون ذلك بعد نسخه بإيجاب رمضان ، ويكون المعنى لم يفرض بعد ايجاب رمضان ، جمعاً بينه وبين الأدلة الصريحة في وجوبه ، وان كان سمعه قبله فيجوز كونه قبل افتراضه »[2] . ثم ذكروا بعد هذين الحديثين ، حديثاً يناقضهما تماماً، وهو أن النبي حين قدم المدينة فرأى اليهود تصوم ، فقال: ما هذا الصوم ، قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجّى الله بني اسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى . قال النبي : فأنا أحق بموسى منكم فصامه ، وأمر بصيامه »[3] . وهو حديث للعلماء عليه كلام .

وحديث معاوية لا يدل على صوم قريش ليوم عاشوراء في الجاهلية ؛ وقد استدل به (ابن الجوزي) على أن صوم عاشوراء لم يكن واجباً ، ولا يفهم منه أبداً أن قريشاً كانوا يصومونه قبل الاسلام . ولو كان معروفاً لما خفي أمره عليه وعلى غيره من قريش ، وحديث (عائشة) حديث مفرد ، ويجوز أن يكون قد وضع على لسانها ، ولا يعقل انفرادها به وعلمها وحدها بصيام قريش في ذلك اليوم ، وخفاء أمره على غيرها من الرجال والنساء ممن عاش معظم حياته في الجاهلية .

---

١ ارشاد الساري (٣/٤٢٢) .
٢ ارشاد الساري (٣/٤٢٢) .
٣ ارشاد الساري (٣/٤٢٢) .

ويوم (عاشوراء) هو يوم (ع ش و ر) Ashura' (عشور) (عشورا) عند العبرانيين ، ويقع في اليوم العاشر من شهر (تشرى)[1] . وهو يوم خاص بيهود . وأنا أشك في صحة رواية أهل الأخبار القائلة ان قريشاً كانوا يصومونه في الجاهلية ، إذ ما هي صلة قريش الوثنيين الذين لم يكونوا من أهل الكتاب بصيام يوم هو من صميم أحكام ديانة يهود . ومما يؤيد رأيي ، هو ان أهل الأخبار أنفسهم يذكرون ان الرسول « حين قدم المدينة ، رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فسألهم ، فأخبروه انه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون ، ونجّى موسى ومن معه منهم ، فقال : نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه . فلما فُرض صوم شهر رمضان ، لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه »[2] . فلو كان الصيام معروفاً عند قريش ، لما سأل الرسول يهود يثرب عن صومهم صيام عاشوراء ، وما جاء من قوله : « نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه » الى أن فرض رمضان ، فرفع عنهم صومه ، وجعلهم أحراراً إن شاءوا صاموه وإن شاءوا أفطروا ، أي صار تطوعاً ، وهو حديث يشك فيه العلماء كذلك . وهذه الرواية تناقض تماماً رواية صيام قريش يوم عاشوراء. ثم اننا لا نجد في القرآن ولا في الحديث — غير حديث عائشة — ما يشير الى وجود ذلك الصوم بمكة قبل الهجرة ، ولو كان معروفاً لما سُكت عنه . ويرجع بعض المستشرقين دعوى صيام قريش لذلك اليوم الى محاولة ارجاع الأصول الاسلامية الى الحنيفية القديمة والى قدماء العرب ثم الى ابراهيم، فصيروا قريشاً تصوم عاشوراء لارجاع الصيام الى أصل قديم[3] .

ولا يعقل وجود الصيام عند المشركين ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، وانما كان الصيام معروفاً عند الاحناف لاتصالهم بهم ، وتأثرهم بكتبهم وبما كان عندهم من أحكام ، ومن ذلك ترهبهم وزهدهم ، وقد كان الرهبان يكثرون من الصوم والاعتكاف .

وأنا لا استبعد أن لفظة (محرم) هي نعت لهذا الشهر لا اسماً له ، عرف بها لكونه شهراً حراماً . تقع عليه الحرمة ، ومن حرمته أن الجاهليين كانوا يبتدئون

---

١ Shorter Ency., p. 47.
٢ الطبري (٢/٤١٧) .
٣ Shorter Ency. p. 48.

سنتهم به . فالمحرم ، هو أول شهر من شهور السنة في حسابهم، ولابتدائهم به، فقد تكون له حرمة خاصة عندهم .

وقد نسب أهل الأخبار شهر رجب الى مضر، فقالوا رجب مضر ، وقد أشير الى ذلك في الحديث أيضاً ، مما يدل على أن هذا الشهر هو شهر مضر خاصة . وقد ذكر العلماء أنه إنما عرف بذلك لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم ، وكأنهم اختصوا به[1] . وذكروا أيضاً أنهم كانوا يرجبون فيه ، فيقدمون الرجبية، وتعرف عندهم بالعتيرة ، وهي ذبيحة تنحر في هذا الشهر . ويقال عن أيامه هذه أيام ترجيب وتعتير[2] .

ويذكر علماء الأخبار أن تأكيد الرسول على « رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» في خطبة حجة الوداع،هو أن ربيعة كانت تحرم في رمضان وتسميه رجباً ، فعرف من ثم بـ (رجب ربيعة) ، فوصفه بكونه بين جمادى وشعبان تأكيد على أنه غير رجب ربيعة المذكور الذي هو بين شعبان وشوّال . وهو رمضان اليوم[3] . فرجب اذاً عند الجاهليين رجبان : رجب مضر ورجب ربيعة ، وبين الطائفتين اختلاف في مسائل أخرى كذلك .

ومما يؤيد ان شهر (رجب) كان شهر مضر المحرم عندهم بصورة خاصة ، ما ورد في أقوال علماء التفسير من ان (الشهر الحرام) الوارد في الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، ولا الهدي ولا القلائد »[4] ، هو شهر (رجب) ، وهو شهر كانت مضر تحرم فيه القتال[5] . وما ورد في الآية:

---

١ « رجب مضر : انما أضيف رجب الى هذه القبيلة ، لانهم كانوا يحافظون على تحريمه، أشد من سائر العرب » ، عمدة القاري (١٨/٤٢) ، تاج العروس (١/٢٦٦ وما بعدها) ، روح المعاني (١٠/٩٠) .

٢ تاج العروس (٣/٧٢) .

٣ الروض الانف (٢/٣٥١) (حجة الوداع) ، بلوغ الارب (٣/٧٢) ، تفسير الطبري (١٠/٨٨ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) ، « وان عدة الشهور عندالله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » ، ابن هشام ، سيرة (٢/٣٥١) ، (حاشية على الروض) .

٤ المائدة ، الرقم ٥ ، الاية ٢ .

٥ تفسير الطبري (٦/٣٦ وما بعدها) ، روح المعاني (٦/٤٧) .

« يسألونك عن الشهر الحرام . قتال فيه ؟ »[١] ، واجماع علماء التفسير والأخبار على انه شهر (رجب) ، وان الآية نزلت في أمر قتل (ابن الحضرمي) في آخر يوم من جمادى الآخرة ، وأول ليلة أو يوم من رجب . وقد كان المسلمون يهابونه ويعظمونه ، وكان النبي يحرم القتال في الشهر الحرام ، حتى نزلت الآية في حق القتال فيه وفي بقية الشهور . وقد ذهب المفسرون أيضاً الى ان (الشهر الحرام) ، هو كل شهر حرام من هذه الأشهر الأربعة ، وان الآية لا يراد بها التخصيص ، وان ما ذكر من انه شهر رجب ، فلأجل وقوع الحادث المذكور فيه[٢].

وعرف (رجب) بـ (منصل الألّ) والألة والألال في الجاهليـة . أي مخرج الاسنة من أماكنها . كانوا إذا دخل رجب نزعوا أسنة الرماح ونصال السهام ابطالاً للقتال فيه ، وقطعاً لأسباب الفتن بحرمته ، فلما كان سبباً لذلك سمي به ، اعظاماً له ، فلا يغزون ولا يغير بعضهم على بعض[٣] . وعرف أيضاً بـ (منزع الأسنة) للسبب المذكور .

ومن دلائل حرمة شهر (رجب) ومكانته العظيمة عند أهل الجاهلية ، تقديمهم العتائر فيه والاضاحي التي عرفت عندهم بـ (الرجبية) ، ووقوع أكثر المناسبات الدينية فيه . وقد نعت هذا الشهر بـ (الاصم) ، فقيل له (رجب الاصم) ، لعدم سماع استغاثة أو قعقعة سلاح فيه[٤] ، لان العرب كانت لا تقرع فيه الاسنة ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فيه ، فلا يهيجه ، تعظيماً له[٥] . وعرف بـ(رجب الفرد) وبـ (الفرد) ، لانفراده وحده من بين الاشهر الحرم الاخرى[٦] .

ويرى (ولهوزن) ، استناداً الى بعض الموارد اليونانية وغيرها ان العرب كانوا يحرمون شهراً واحداً منفرداً ، هو (رجب الفرد) ، وهو من شهور الربيع ، وشهرين آخرين متصلين يقعان في القيظ ، أي في أوج الصيف . أما الشهر الثالث

---

١ البقرة ، الرقم ٢ ، الاية ٢١٧ .
٢ تفسير الطبري (٢/٢٠١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٨/١٣٧) ، (نصل) .
٤ تاج العروس (٣/٣٨٠) ، (عتر) ، اللسان (٤/٥٣٧) ، المعاني الكبير (٢/١١٣) .
٥ تفسير الطبري (٢/٢٠١) .
٦ تاج العروس (٨/٢٤١) ، (حرم) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (١/٨٥) .

الذي ألحق بالشهرين ، فصارت به ثلاثة أشهر حرم متسلسلة متداخلة ، فقد حرم في عهد متأخر لا يبعد كثيراً عن الاسلام ، وهو المحرم[1] .

ويلاحظ ان الموارد الاسلامية قد وضعت بعض الأحداث المهمة في شهر محرم مثل صوم يوم عاشوراء ، ومثل اختيار القدس قبلة للمسلمين ، فقد ذكروا ان ذلك كان في اليوم السادس عشر من المحرم ، ومثل ذكرهم ان وصول حملة الفيل الى مكة كان في اليوم السابع عشر منه ، وان ابتداء السنة الهجرية، كان في أول المحرم[2] ، مع اننا لو دققنا ذلك تدقيقاً عميقاً ، وجدنا ان أكثر هـذا المروي لم يثبت وقوعه في هذا الشهر .

ونجد في كتب الحديث والأخبار ما يفيد بأن الجاهليين كانوا يعظمون شهري شعبان ورمضان تعظيماً يكاد يضاهي تعظيمهم للأشهر الحرم . وسبب ذلك في نظري ، هو بفعل النسيء في الشهرين ، وتلاعبهم بالأشهر وتسميتهم لها تسميات كيفية ، ووقوع ذلك التلاعب على الشهرين المذكورين دون بقية الشهور . وقد يكون بسبب أن العرب كانوا يقدسون الشهرين ويحرمونهما أيضاً ، وأن قريشاً كانت تحترمها أيضاً ، ومن هنا فضل شعبان ورمضان على بقية الأشهر الثمانية مع انهما من الأشهر الاعتيادية على حسب رواية أهل الأخبار . ولم يدخلوهما في جملة الأشهر الحرم . ونجد للشهرين حرمة كبيرة في الاسلام .

وقد كان عرب العراق وبادية الشأم يتجنبون أيضاً مثل عرب الحجاز القتال في أشهر معينة ، لأنها أشهر مقدسة حرم عندهم ، كما يفهم ذلك من مؤلفات الروم والسريان . فقد أشار المؤرخ (افيفانوس) Epiphanius الى وجود شهر عند العرب ، قال إن العرب تحتفل فيه ، وهو عندهم شهر مقدس ، ويقع في شهر تشرين الثاني ، ويريد به شهر (ذي الحجة) على ما يظن . وقد دعي بـ (حجت) في بعض الموارد اليهودية[3] . كما ذكر (بروكوبيوس) Procopius أن عرب المناذرة لم يكونوا ليحاربوا في شهورهم المقدسة ، وقال إنهم كانوا قد جعلوا شهرين في السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيهما ولا يقاتلون

---

١ Reste, S. 100.

٢ Shorter, p. 410.

٣ Aboda Zara, II b., Epiphanius, Haer., 51, 24.

بعضهم بعضاً ، ويقعان في تموز وآب[1] . وذكر (فوتيوس) أن العرب يحجون الى معبدهم مرتين في السنة: مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف ، وذلك لمدة شهرين[2] .

وفي هذه الإشارات معلومات قيمة ، تشير الى وجود الاشهر الحرم عند العرب الشماليين . ويفهم منها أن الاشهر الحرم كانت ثابتة لا تتغير ، فلا يقع حجهم مرة في شتاء ومرة في صيف ، وأخرى في ربيع ، ومرة في خريف. فحجهم ثابت ، وأشهرهم ثابتة. ومما يؤسف له أن أولئك المؤرخين لم يشيروا الى أسماء المواضع التي كانوا يحجون اليها .

الشهور الحل :

وأما الشهور الثمانية الاخرى ، غير الحرم ، فهي : صفر ، وشهر ربيع الأول ، وشهر ربيع الآخر ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، وشعبان ، وشهر رمضان ، وشوال . وقد استحل فيها القتال والغزو .

وقد عرفت هذه الشهور : الحرم منها والشهور الحل بشهور معدّ[3] . وكان أهل مكة يستعملونها عند ظهور الاسلام . والظاهر ان القبائل المجاورة لمكة كانت تستعملها أيضاً . وبهذه الأشهر أرخت رسائل الرسول وأوامره ، وصارت باستعمال الرسول لها الشهور الرسمية في الاسلام ، عليها يسير كل المسلمين على اختلاف ألوانهم حتى اليوم لما لها من صلات بأمور دينهم في مثل الصوم والحج .

وصفر ، هو الشهر الذي يلي المحرم . « قال بعضهم : انما سمي لأنهم كانوا يمتارون الطعام فيه من المواضع ، وقيل لاصفار مكة من أهلها اذا سافروا، وروي عن رؤبة انه قال : سمّوا الشهر صفراً لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل فيتركون من لقوا صفراً من المتاع ، وذلك ان صفراً بعد المحرم ، فقالوا صفر الناس منا

---

1 Reste, S. 100. f., De Bello Persi., 11, 16, Photius, Bibl. Cod., 3.

2 Reste, S. 101, Winckler, Alt. Orient. Forsch., II, Reihe, I Band, S. 336.

3 قال قائل من بني كنانة :

السنا الناسئين على معد ... شهور الحل نجعلها حراما

تاج العروس (٤/٢٢) .

صفراً »[1] . وكانوا اذا جمعوا المحرم مع صفر ، قالوا : صفران . وفي ذلك قول أبي ذؤيب :

أقامت به كمقام الحنيف شهري جمادى وشهري صفر[2]

وكان أهل مكة يفتتحون سنتهم بالمحرم . فهو أول شهر عندهم من أشهر السنة . وقد أقر الإسلام هذا المبدأ ، فجعل المحرم أول شهر من شهور السنة الهجرية[3] .

ويذكر أهل الأخبار أن أول من سمى الشهور المحرم وما بعده بأسمائها هذه هو (كِلاب بن مرّة)[4] .

---

١ تاج العروس (٣/٣٣٦) ، (صفر) .

٢ المصدر نفسه .

٣ « قال ابو جعفر : فاذا كان الامر في تأريخ المسلمين كالذي وصفت ، فانه وان كان من الهجرة ، فان ابتداءهم اياه قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بشهرين وايام ، هي اثنا عشر ، وذلك ان أول السنة المحرم ، وكان قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، بعد مضي ما ذكرت من السنة ، ولم يؤرخ التأريخ من وقت قدومه ، بل من أول تلك السنة » ، الطبري (٢/٣٨٨ وما بعدها) ، « ذكر الوقت الذي عمل فيه التأريخ » ، روح المعاني (١٠/٩٠ وما بعدها) ، الايام والليالي والشهور (ص ٩) ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، المرزوقي (١/٢٨٣) ، Reste, S. 97.

٤ بلوغ الارب (٣/٧٨) .

الفصل الثالث والثلاثون بعد المئة

النسيء

عرف علماء العربية النسيء بقولهم : « والنسيء المذكور في قول الله تعالى : انما النسيء زيادة في الكفر[1] . شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية ، فنهى الله عز وجل عنه في كتابه العزيز حيث قال : انما النسيء زيادة في الكفر ، الآية، وذلك انهم كانوا اذا صدروا عن منى يقوم رجل من كنانة ، فيقول : أنا الذي لا يرد لي قضاء ، فيقولون : أنسئنا شهراً ، أي أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم »[2] . وعرف النسيء بأنه تأخير بعض الأشهر الحرم الى شهر آخر . وذلك من (نسأ) . والنسء تأخير الوقت[3] . وجعله بعضهم بمعنى (الكبس) ، المعروف[4] . وقد ذهب العلماء الى أن النسيء كل زيادة حدثت في شيء ، فالشيء الحادث فيه تلك الزيادة بسبب ما حدث فيه نسيء[5] . فالنسيء تأخير حرمة المحرم الى صفر ، وجعل المحرم شهراً حلالاً ، يجوز لهم القتال فيه ، لأنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم ، لا يغيرون فيها

---

١ التوبة ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (٩١/١٠) ، روح المعاني (٣٨/١٠) ، تاج العروس (٤٥٦/١) ، (طبعة الكويت) ، اللسان (١٦٧/١) ، الكشاف (٢٣/٢)، صبح الاعشى (٣٦٦/٢) ، (صادر) ، المختار من صحاح اللغة (٥٢٠) .

٢ اللسان (١٦٧/١) ، (صادر) ، (تاج العروس (٤٥٦/١) ، (الكويت) .

٣ المفردات (٥١١) ،الروض الانف (٤١/١ ، ٨٥) .

٤ ابن الاجدابي (٣٠) .

٥ تفسير الطبري (٩١/١٠) ، القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (١٣٧/٨) .

ولا يغزون ، ومعاشهم على الغارات والغزو . ففعلوا النسيء ، لإحلال ذمتهم من حرمة محرم ، ولتجويز القتال فيه،فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم فيمكثون بذلك زماناً ، ثم يزول التحريم الى المحرم،ولا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة[1] . وقد عرف بعض العلماء النسيء بأنه تأخير حرمة شهر الى شهر آخر[2] . و « العرب تقول : نسأ الله في أجلك ، وأنسأ الله أجلك ، أي أخر الله أجلك »[3] .

فهم كانوا يستحلون ترك الحج في الوقت الذي هو واجب فيه ، ويوجبونه في الوقت الذي لا يجب فيه،وجوّزوا ذلك عليهم حتى ضلّوا باتباعهم هذا التجويز . بأن جعلوا الشهر الحرام حــلالاً ، إذا احتاجوا الى القتال فيه ، وجعلوا الشهر الحلال حراماً ، ويقولون شهراً بشهر ، وإذا لم يحتــاجوا الى ذلك لم يفعلوه[4] . فكانوا « يحجون في كثير من السنين ، بل أكثرها في غير ذي الحجة »[5] ، ومن هنا تلاعبــوا بالأشهر وأخرجوها عن حقيقتها ، بأن جعلوا الشهر الحرام حلالاً والشهر الحلال حراماً ، فخالفوا بذلك ما اتفق عليه من تحريم أشهر بعينهــا هي من الأشهر الحل ، ومن تحليل أشهر هي الاشهر الحرم .

واذا أخذنا بما جاء على لسان بعض الشعراء عن النسيء ، مثل قولهم :

ألسنا الناسئين على معدّ ... شهور الحل نجعلها حراما

وقول أحدهم :

وكنا الناسئين على معدّ ... شهورهم الحرام الى[6] الحليل

---

١ تفسير الطبرسي (٥/٩) ، (طبعة طهران) ، الامالي ، للقالي (١/٤) .

٢ تفسير الرازي (١٦/٥٥) ، تفسير البيضاوي (١/٢٥٣ وما بعدها) ، الكشاف (٢/٣٨) ، التسهيل لعلوم التنزيل ، لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي (٢/٧٥) ، تفسير القاسمي (٨/٣١٤٣) .

٣ الامالي ، لنقالي (١/٤) .

٤ تفسير الطبرسي (٥/٢٩) ، (طهران) .

٥ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .

وقول الآخر :

نسئوا الشهورَ بها[1] وكانوا أهلها من قبلكم والعز لم يتحول[2]

واعتبرناه صحيحاً ، نستنتج منه أن النسيء كان خاصاً بحج (مكة) ، وبالقبائل التي عرفت بقبائل (معد) . وقد عرفنا قبائل وعشائرها وفي جملتها قريش .

واذا أخذنا النسيء بهذا المعنى ، صار معناه مجرد تبديل شهر بشهر ، وتأخير حرمة شهر الى الشهر الذي يليه . وليس هذا بزيادة ، أي زيادة أيام أو شهر على شهور السنة ، وهي الأيام التي تتخلف فيها السنة القمرية عن السنة الشمسية، لتتساوى بها ، فتثبت الأشهر في مواضعها من الفصول ، وهو ما يعبر عنه بالكبس فليس هذا النسيء كبساً اذاً .

وقد تعرض (البيروني) لموضوع النسيء عند العرب ، فقال : « وكانوا في الجاهلية يستعملونها على نحو ما يستعمله أهـــل الاسلام . وكان يدور حجهم في الأزمنة الأربعة . ثم أرادوا أن يحجوا في وقت ادراك سلعهم من الادم والجلود والثمار وغير ذلك ، وأن يثبت ذلك على حالة واحدة ، وفي أطيب الأزمنة وأخصبها. فتعلموا الكبس من اليهود المجاورين لهم . وذلك قبل الهجـــرة بقريب من مئتي سنة . فأخذوا يعملون بها ما يشاكل فعل اليهود من إلحاق فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس شهراً بشهورها اذا تم ... ويسمون هذا من فعلهم النسيء ، لأنهم كانوا ينسأون أول السنة في كل سنتين أو ثلاث شهراً ، على حسب ما يستحقه التقدم »[3] .

وتعرض (ابن الأجدابي) لموضوع (الكبس) والسنة (الكبيسة) عند العبرانيين واليونانيين كذلك ، فقال : « وقد كانت العرب في الجاهلية تفعل مثل هذا ، وتزيد في كل ثالثة من سنيها شهراً ، على نحو ما ذكرناه عن العبرانيين واليونانيين. وكانوا يسمون ذلك النسيء . وكانت سنة النسيء ثلاثة عشر شهراً قمرية . وكانت

---

١ مرجع الضمير فيه « مكة » .
٢ الامالي ، للقالي (١/٤) .
٣ الآثار الباقية (١١ ، ١٢ ، ٦٢ ، ٣٢٥) ، ابن الاجدابي (٣٢) ، القانون المسعودي (٩٢ ، ١٣١) ،التفسير الكبير ، للرازي (٤/٤٤٧) ، روح المعاني (١٠/ ٩١ وما بعدها) .

شهورهم حينئذ غير دائرة في الأزمنة ، كان لكل شهر منها زمن لا يعدوه . فهذا كان فعل الجاهلية حين أحدثوا النسيء ، وعملوا به . فلما جاء الله تعالى بالإسلام بطل ذلك ، وحرم العمل به . فقال : إنما النسيء زيادة في الكفر[1] . وقال عزّ وجلّ : إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله[2] . فسنة العرب اليوم اثنا عشر شهراً قمرية دائرة في الأزمنة الأربعة »[3] .

والنسيء الذي ذكره (البيروني) و (ابن الأجدابي) ، هو كبس صحيح، وليس مجرد تقديم شهر وتأخير آخر على نحو ما رأيت . غايته تثبيت الأزمنة ، وجعل الحج في موسم ثابت معين ، فلا يكون في شتاء مرة ، وفي صيف مرة أخرى ، وفي ربيع مرة ، وفي خريف مرة أخرى ، بجعل السنة سنة قمرية شمسية على نحو فعل يهود بسنتهم . وهو بهذا المعنى في رواية (المسعودي) . فقد قال: « وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وهو التأخير ، وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله : « إنما النسيء زيادة في الكفر »[4] .

وكان النسيء الأول للمحرم ، فسمي صفر به . وشهر ربيع الأول باسم صفر ثم والوا بين أسماء الشهور . وكان النسيء الثاني لصفر ، فسمي الذي كان يتلوه بصفر أيضاً . وكذلك حتى دار النسيء في الشهور الاثني عشر،وعاد الى المحرم ، فأعادوا بها فعلهم الأول . وكانوا يعدون أدوار النسيء ، ويحدّون بها الأزمنة ، فيقولون : قد دارت السنون من زمان كذا الى زمان كذا دورة . فإن ظهر لهم مع تقدم شهر عن فصله من الفصول الأربعة لما يجتمع من كسور سنة الشمس وبقية فضل ما بينها وبين سنة القمر الذي ألحقوه بها ، كبسوه كبساً ثانياً . وكان يبين لهم ذلك بطلوع منازل القمر وسقوطها حتى هاجر النبي عليه السلام، وكانت نوبة النسيء كما ذكرت بلغت شعبان ، فسمي محرماً ، وشهر رمضان صفراً ، فانتظر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حينئذ حجة الوداع ، وخطب بالناس ، وقال فيها : « ألا ، وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات

---

١ سورة التوبة ، الآية ٣٧ .
٢ التوبة ، الآية ٣٦ .
٣ ابن الاجدابي (٣٣) .
٤ مروج الذهب (٢/١٨٨) ، (ذكر سني العرب وشهورها) .

والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي يدعى شهر مضر الذي جاء بين جمادى الآخرة وشعبان ، والشهر تسعة وعشرون وثلاثون»[1]. ومنذ ذلك الحين ترك النسيء . « وعنى بذلك ان الشهور عادت الى مواضعها ، وزال عنها فعل العرب بها . ولذلك سميت حجة الوداع الحج الأقوم . ثم حرم ذلك ، وأهمل أصلاً »[2] . وقد ذكر (المسعودي) ان عدة الشهور عند العرب وسائر العجم اثنا عشر شهراً[3] . وتقسيم السنة الى اثني عشر شهراً ، هو تقسيم قديم يعود الى ما قبل الميلاد .

وذُكر أن نسيء العرب كان على ضربين : أحدهما تأخير شهر المحرم الى صفر . لحاجتهم الى شن الغارات وطلب الثارات ، والآخر تأخير الحج عن وقته تحرّياً منهم للسنة الشمسية ، فكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوماً ، حتى يدور الدور فيه الى ثلاث وثلاثين سنة ، فيعود الى وقته[4] . وهذا الرأي يلخص ما أورده أهل الأخبار في النسيء . ويتلخص في شيئين : النسيء تأخير الشهور ، وذلك بإحلال شهر في مكان شهر آخر ، للإستفادة من ذلك في التحليل والتحريم ، والنسيء بمعنى الكبس ، وهو إضافة الفرق الذي يقع بين السنة الشمسية والسنة القمرية الى الشهور القمرية لتلافي النقص الكائن بين السنتين ، ولتكون الشهور القمرية بذلك ثابتة لا تتغير ، تكون في مواسمها المعينة ، فلا يقع حادث في شهر من شهورها في الشتاء ، ثم يتحول بمرور السنين ، فيقع بعد أمد في الصيف أو في الربيع ، كما يقع ذلك في الشهور القمرية الصرفة المستعملة في الاسلام .

وتسمى الطريقة الثانية ، وهي إضافة فرق الأيام بين السنتين الشمسية والقمرية الى السنة القمرية . (الكبس) في اصطلاح العلماء . وقد كانت شهور اليهود ، وهي شهور قمرية . تساوي (٣٥٤) يوماً وست ساعات ، فهي لذلك أنقص بأحد

---

١ امتاع الاسماع (١/٥٣١) ، ويختلف هذا النص في مختلف الموارد ، راجع عمدة القارىء (١٨/٤١) ، مجالس ثعلب (١٢١) ، سيرة ابن هشام (٢/٣٥١) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (٢/٣٥١) .

٢ الآثار الباقية (١/٦٢ وما بعدها) ، روح المعاني (١٠/٩١ وما بعدها) .

٣ مروج الذهب (٢/١٧٧) ، (ذكر سني العرب والعجم وشهورها) .

٤ بلوغ الارب (٣/٧١) ، نهاية الارب (١/١٦٦ وما بعدها) .

عشر يوماً عن السنة الرومانية ، فأدخلوا شهراً ثالث عشر في كل ثلاث سنوات، سموه (فيادار) أو (آذار الثاني) ، وبهذه الطريقة جعلوا السنــة القمرية مساوية للسنة الشمسية[1] . وقد ذكر (المسعودي) ، أن أيام السنة « ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً ، تنقص عن السرياني أحــد عشر يوماً وربع يوم ، فتفرق في كل ثلاث وثلاثين سنة ، فتنسلخ تلك السنة العربية ولا يكون فيها نيروز ، وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً ، وتسميه النسيء وهو التأخير »[2] . وذكر (القلقشندي) ، أنهم كانوا يؤخرون في كل عام أحد عشر يوماً ، حتى يدور الدور الى ثلاث وثلاثين سنة، فيعود الى وقته،فلما كانت سنة حجة الوداع، وهي تسع من الهجرة ، عاد الحج الى وقته اتفاقاً في ذي الحجة كما وضع أولاً، فأقام رسول الله،صلى الله عليه وسلم ، فيه الحج ، ثم قال في خطبته التي خطبها يومئذ : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، بمعنى أن الحج قد عاد في ذي الحجة »[3] . وذكروا ان المشركين كـانوا « يحجون في كل شهر عامين ، فحجّوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين ، وكذلك في الشهور كلها حتى وافقت حجة أبي بكر التي حجها قبل حجة الوداع ذا القعدة من السنة التاسعة ، ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم ، في العــام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة ، فذلك قوله في خطبته : ان الزمان قد استدار ... الحديث . أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت الى مواضعها ، وعاد الحج الى ذي الحجة وبطل النسيء[4] .

وورد في خبر يرجع سنده الى (إياس بن معاويــة) ، أن المشركين كانوا « يحسبون السنة اثني عشر شهراً وخمسة عشر يوماً ، فكان الحج يكون في رمضان وفي ذي القعدة ، وفي كل شهر من السنة بحكم استدارة الشهر بزيادة الخمسة عشر يوماً ، فحج أبو بكر سنة تسع في ذي القعدة بحكم الاستدارة ، ولم يحج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فلما كان في العام المقبل وافق الحج ذا الحجة في العشر ، ووافق ذلك الأهلة »[5] . وقد ورد في الحديث : « الشهر هكذا وهكذا ، يعني

١ قاموس الكتاب المقدس (٦٣٩/١ وما بعدها) .
٢ مروج (١٨٨/٢) ، (ذكر سني العرب وشهورها وتسمية ايامها ولياليها) .
٣ صبح الاعشى (٣٩٧/٢) .
٤ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (١٣٧/٨) .
٥ المصدر نفسه (١٣٨/٨) .

مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »[1] ، كما ورد : « شهران لا ينقصان شهراً رمضان وذو الحجة »[2] . فإذا أخذنا بذلك ، كان الفرق بين أيام السنة القـ وأيام السنة الشمسية ، هو ما يجب اضافته على السنة القمرية لتكون سنة شمسي ذات أشهر ثابتة .

واذا صحت رواية بعض الأخباريين عن إضافة الجاهليين أحد عشر يوماً، السنة القمرية ، ليضمنوا بذلك ثبات الأشهر ، وعدم تغير أوقاتها . فإن يكون كبساً صحيحاً بالمعنى المفهوم من الكبس ، مؤدياً للغاية المتوخاة منه . وع تكون سنة أولئك الجاهليين المستعملين للكبس سنة قمرية شمسية . وأنا لا أستبع شيوعها عند أهل المدينة ، بسبب اختلاطهم باليهود ، ولا أستبعد كذلك اتفا مع يهود يثرب في استعمال السنة المستعملة عند اليهود نفسها ، وابتدائهم بالش الذي كان يبدأ به أولئك اليهود .

ويؤيد هذه الرواية ما ذكره أهل الأخبار كلهم من ان الغاية التي حملت العا بالنسيء على استعمالهم له « انهم كانوا يحبون ان يكون يوم صدرهم عن ا في وقت واحد من السنة » فكانوا ينسئونه . والنسيء التأخير ، فيؤخرونه في سنة أحد عشر يوماً ، فإذا وقع في عدة أيام من ذي الحجة ، جعلوه في ا المقبل لزيادة أحد عشر يوماً من ذي الحجة ، ثم على تلك الأيام يفعلون كذ في أيام السنة كلها . وكانوا يحرمون الشهرين اللذين يقع فيهما الحج، والشهر الـ بعدهما ، ليواطئوا في النسيء بذلك عدة ما حرم الله . وكانوا يحرمون رجباً كـ وقع الأمر . فيكون في السنة أربعة أشهر حرم »[3] .

أما التفسير الأول للنسيء ، وهو تفسيره بمعنى تحليل شهر محرم ، وتحريم شـ حلال ، وتأخير شهر وتقديم شهر ، فإنه لا يحقق ما ذكر من رغبة الناس بـ في حجهم في وقت ثابت لا يتغير ولا يتبدل ، لأن الحج يتغير فيه ، فيكـ أحياناً في الصيف ، وأحياناً في الشتاء ، وأحياناً في الربيع ، وأحياناً في الخريـ وهذا لا يتفق مع زعم أهل الأخبار في السبب الذي دعا الى الأخذ بالنسيء .

والنسيء بهذا التفسير ، لا يفيد إلا من ناحية التحايل والتلاعب في ايجاد حـ

---

١ ارشاد الساري (٣/٣٥٩) .
٢ المصدر نفسه .
٣ تاج العروس (١/١٢٥) ، (نسأ) .

مشروعة في تجويز القتال في بعض الأشهر الحرم ، وذلك كأن تكون قبيلة قوية تريد القتال في شهر محرم ، لاستعدادها له فيه فتعمد الى هذا الحل ، والتحايل على العرف بالتوسل الى (القلمس) لتغيير الشهور ، فيصير الشهر الحرام حلالاً ، وبذلك يتاح لها القتال فيه .

وإني أرى في هذا التفسير تكلفاً ظاهراً ، وهو يعارض مع ما ذكر من الغاية من النسيء . واذا جاز إحداثه في سنة ما للغايات المذكورة ، فلا يعقل إحداثه في كل سنة بانتظام . وإلا لم يبق له معنى ما ولا فائدة ترجى عندئذ منه .

وقد جاء معنى النسيء في الآية : « إنما النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً . ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله . زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين »[1] . فقال بعض علماء التفسير : كانوا يجعلون السنه ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرم صفراً، فيستحلون فيه الحرمات ، فأنزل الله إنما النسيء زيادة في الكفر[2] . « وكان المشركون يسمّون الأشهر : ذو الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع ، وربيع، وجمادى ، وجمادى ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، يحجون فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ، ثم يعودون فيسمون صفر صفر . ثم يسمون رجب جمادى الآخر ، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون رمضان شوالاً ، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً ، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ،ثم يسمون المحرم ذا الحجة ، فيحجون فيه ، واسمه عندهم ذو الحجة. ثم عادوا بمثل هـذه القصة ، فكانوا يحجون في كل شهر عامين ، حتى وافق حجة أبي بكر ، رضي الله عنه ، الآخر من العامين في ذي العقدة ، ثم حج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حجته التي حج ، فوافق ذا الحجة ، فذلك حين يقول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في خطبته إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض »[3]. فالنسيء هو المحرم ، وكان يحرم المحرم عاماً، ويحرم صفر عاماً ، وزيد صفراً في آخر الأشهر الحرم ، وكانوا يؤخرون الشهور

---

١ التوبة ، الآية ٣٧ .
٢ تفسير الطبري (١٠/٩٣) .
٣ تفسير الطبري (١٠/٩٢ وما بعدها) ، تفسير النسفي (٢/١٢٥ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٣ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٨/١٣٧ وما بعدها) .

حتى يجعلوا صفر المحرم ، فيحلوا ما حرم الله . وكانت هوازن ، وغطفان ، وبنو سليم ، يعظمونه ، وهم الذين كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية [1] . وهكـــذا كانوا يجعلون سنة المحرم صفراً ، فيغزون فيه ، فيغنمون فيه ويصيبون ويحرمونه سنة[2] . وذكر أنهم كانوا يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ، ثم يعودون فيسمون صفراً [3] .

وقد تحدث (الطبرسي) عن النسيء فقال : « قال مجاهـــد : كان المشركون يحجّون في كل شهر عامين ، فحجوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين ، وكذلك في الشهور حتى وافقت الحجة التي قبل حجة الوداع في ذي القعدة ، ثم حج النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، في العام القابل حجة الوداع ، فوافقت في ذي الحجة ، فذلك حين قال النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وذكر في خطبته ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلاث متواليات: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . أراد عليه السلام الأشهر الحرم رجعت الى مواضعها وعاد الحج الى ذي الحجـــة وبطل النسيء »[4] .

وهذا الفعل الذي هو النسيء ، هو الذي جعل العلماء يقولون : إن الصفـــر النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو تأخيرهم المحرم الى صفر في تحريمه ويجعلون صفراً هو الشهر الحـرام[5] . فهم يدخلون شهـراً جديداً على السنة بعـــد ذي الحجة ، يكون مقامه بين هذا الشهـر وبين شهر صفـــر الأول ، الذي هو المحرم من الأشهر الحرم . وبذلك يكونون قد فصلوا بين الأشهر الحرم الثلاثة ، بأن جعلوا شهراً حلالاً جديداً بين الشهرين المحرمين : ذو القعدة وذو الحجة ، وبين الشهر الثالث المتصل بهما ، وهو المحـــرم ، ففصل عن الشهرين ، وصار وحيداً . فعلوا ذلك ليحافظوا على وقت الحج ، بجعله ثابتاً . ولما كان ذلك معناه

---

١ تفسير الطبري (٩٢/١٠ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (٩٢/١٠) .
٣ تفسير ابن كثير (٣٥٧/٢) .
٤ تفسير الطبرسي (٢٩/٥) .
٥ تاج العروس (٣٣٦/٣) ، (صفر) .

تغيير حرمة الأشهر الحرم الثلاثة بجعل الشهر الحلال شهراً حراماً ، والشهر الحرام حلالاً ، حرم النسيء في الاسلام . فابتعدت السنة بذلك عن السنة الشمسية،وصار الحج يدور باختلاف المواسم ، لأن السنة صارت سنة قمرية . وبذلك تغير وقت الحج عما كان عليه في الجاهلية ، فلم يعد ثابتاً على نحو ما كان عليه عند الجاهليين.

وفراراً من اسم النسيء ، الذي هو زيادة في الكفر ، كانوا في صدر الاسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة عربية ، سنة ويسمونها : سنة الازدلاق لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية تساوي اثنتين وثلاثين سنة شمسية تقريباً [1] .

مبدأ النسيء :

ويرجع أهل الأخبار مبدأ ادخال النسيء الى الجاهليين الى (عمرو بن لحي) أو الى (القلمس) ، وهو (حذيفة بن فقيم بن عامر بن الحارث) ، أو (حذيفة بن عبد بن فقيم)[2] ، أو (نعيم بن ثعلبة)[3]، أو (قلع بن حذيفة بن عبد بن فقيم) ، أو آخرون[4] . وذلك ان العرب كانوا لا يكبسون ، الى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادوا « أن يكون حجهم في أخصب وقت من السنة وأسهلها للتردد في التجارة ، ولا يزول عن مكانه ، فتعلموا الكبس من اليهود »[5] . فصار النسيء عادة من عادات العرب منذ ذلك الحين الى منعه في الاسلام .

وكانت النَّسَأة في بني مالك بن كنانة ، وكان أولهم القلمس حذيفة بن عبد ابن فُقَيم بن عديّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، ثم ابنه قلع بن حذيفة ، ثم عباد بن قلع ، ثم (قلع بن عبّاد قلع) ثم أمية بن قلع

---

١ صبح الاعشى (٣٩٨/٢) .
٢ بلوغ الارب (٧١/٣) ، نهاية الارب (١٦٥/١) ، (حذيفة بن عبد بن نهم بن عدي ابن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، المحبر (١٥٧) ، تاج العروس (٢٢٢/٤) ، تفسير الطبرسي (٢٩/٥) ، (طبعة طهران) .
٣ الروض الانف (٤١/١) ، تفسير الطبرسي (٢٩/٥) ، (طهران) ، تفسير الخازن (٢٢١/٢) ، تفسير القاسمي (٣١٤٣/٨) ، البحر المحيط (٣٩/٥) .
٤ تاج العروس (٤٥٦/١ وما بعدها) ، (الكويت) .
٥ بلوغ الارب (٧١/٣) .

ثم عوف بن أمية ، ثم جنادة بن أمية بن عوف بن قلع[1] . وذكر أن أول من نسيء قلع ، نسأ سبع سنين ، ونسأ أمية إحدى عشرة سنة[2] . وذكر عن (ابن اسحاق) أن أول من نسأ عند العرب (القلمس) ، وهو (حذيفة بن عبد فقيم ابن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، ثم قام بعده على ذلك ابنه (عباد) ، ثم من بعد عبّاد ابنه (قلع بن عبّاد) ، ثم ابنه (أمية ابن قلع) ، ثم ابنه (عوف بن أمية) ثم ابنه (أبو ثمامة) (جنادة بن عوف)، وكان آخرهم وعليه قام الإسلام[3] . وذكر (القرطبي) عن (ابن الكلبي) أن « أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة ، يقال له : نعيم بن ثعلبة ، ثم كان بعده رجل يقال له : جنادة بن عوف ، وهو الذي أدركه رسول الله، صلى الله عليه وسلم . وقال الزهري : حيّ من بني كنانة ثم من بني فُقيم منهم رجل يقال له القلمس ، واسمه حذيفة بن عبيد . وفي رواية مالك بن كنانة . وكان الذي يلي النسيء يظفر بالرياسة لتربس العرب إياه . وفي ذلك يقول شاعرهم :

ومنّا ناسيء الشهر القلمس

وقال الكميت :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحلّ نجعلها حراما »[4]

وذكر (اليعقوبي) ، ان أول من نسأ الشهور : (سرير بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة) . وهو والد (هند) التي تزوجها (مرة بن كعب) ، فولدت له (كلاباً) . وشرف (كلاب بن مرة) وجلّ قدره واجتمع له شرف الأب ، وهو (كعب بن لؤي) ، الذي كان أول من سمى يوم الجمعة بالجمعة، وكانت العرب تسميه (عروبة) ، وشرف الجد من قبل الأم ، لأنهم كانوا

---

١ تاج العروس (٤٥٧/١) (١٢٥/١) ، (نسأ) ، مروج الذهب (٣٦٧/١ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٧٢/٣) ، نهاية الارب (١٦٦/١) ، (حذيفة بن عبد بن نهم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، المحبر (١٥٧) .

٢ تاج العروس (٤٥٦/١) ، تفسير الطبرسي (٢٩/٥ وما بعدها) ، تفسير سورة التوبة ، الآية ٣٦ وما بعدها ، تاج العروس (١٢٤/١) ، (نسأ) .

٣ تفسير ابن كثير (٣٥٧/٢) .

٤ تفسير القرطبي (١٣٨/٨) .

يجيزون الحج ويحرمون الشهور ويحللونها ، فكانوا يسمون النسأة والقلامس[1] .

وذكر (الزبيري) ، ان (سريراً) أول من نسأ الشهور ، وقد انقرض سرير، ونسأ الشهور بعده ابن أخيه القلمس ، واسمه عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث ابن كنانة . ثم صار النسيء في ولده . وكان آخرهم جنادة بن عوف[2] ، وهو (أبو ثمامة) . وورد في رواية أخرى ، ان آخرهم هو (فقيم بن ثعلبة) ، أو هو غيره . وقد ذكروا أن (أبا ثمامة) ، وهو (جنادة بن أمية) من بني (المطلب بن حدثان بن مالك بن كنانة) ، من نسأة الشهور على معد ، كان يقف عند (جمرة العقبة ، ويقول : اللهم اني ناسيء الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا (أحاب) أجاب : اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر ، وكذلك في الرجبين ، يعني : رجباً وشعبان . ثم يقول : انفروا على اسم الله تعالى . وفيه يقول قائلهم :

ألسنا الناسئين على معدٍّ شهور الحل نجعلها حراما[3]

وذكر أن أول من نسأ بعد (القلمين) القلمسين : (حذيفة بن عبد نعيم ابن عدي) ، و (زيد بن عامر بن ثعلبة) (وهو القلمين بن عامر بن ثعلبة) (عياد بن حذيفة) ، ثم (قلع بن عياد) ، ثم (أمية بن قلع) ، ثم (عوف ابن أمية) ، ثم (جنادة) فأدركه الإسلام[4] .

وذكر (الطبري) ، « أن جنادة بن عوف بن أميـة الكناني ، كان يوافي الموسم كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة ، فينـادي : ألا ان أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ، ألا وان صفر العام الأول حلال ، فيحله الناس ، فيحرم صفر عاماً ويحرم المحرم عاماً »[5] . ودعاه بـ (أبـي ثمامة صفوان بن أمية)،أحد (بني فقيم

---

١ اليعقوبي (٢٠٧/١) ، (طبعة النجف) .
٢ نسب قريش (ص ١٣) .
٣ تاج العروس (٢٢٢/٤) ، (القلمس) ، تاج العروس (١٢٥/١) ، (نسأ) ، ينسب هذا البيت الى « عمير بن قيس بن جذل الطعان » ، اللسان (١٦٧/١) ، (صادر) ، نهاية الارب (١٦٦/١) .
٤ الاصابة (٢٤٨/١) ، (رقم ١٢٠٧) .
٥ تفسير الطبري (٩١/١٠) .

ابن الحارث ، ثم أحد بني كنانة)[1] . وذكر أنه « كان رجل من بني كنانة، يأتي كل عام في الموسم على حمار له ، فيقول : أيها الناس : اني لا أعاب ولا أجاب ، ولا مردّ لما أقول . انا قد حرمنـــا المحرم ، وأخرنا صفر . ثم يجيء العام المقبل بعده ، فيقول مثل مقالته . ويقول إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : ليواطئوا عدة ما حرم الله[2] » . وكان هذا الرجل يقال له:القلمس[3] .

وكان آخر النسأة ، (جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عبّاد (عباد) بن حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن زيد بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك ابن كنانة) ، أبو (ثمامة)[4] (أبو أمامة) الكناني . نسأ الشهور أربعين سنة ، وأدرك الاسلام . وكان أبعد النسأة ذكـــراً ، وأطولهم أمداً . وذكـــر ان اسمه (أمية بن عوف بن جنادة بن عوف بن عياد بن قلع بن فقيم بن عدي بن عامر ابن الحارث بن ثعلبة)[5] ، وذكر أيضاً انه (القلمس بن أمية بن عوف بن قلع ابن حذيفة بن عبد بن فقيم)[6] .

وورد في خبر ينسب الى (ابن عباس) ، انه قال : النسأة في كنـدة[7] . وانهم كانوا النسأة الأول ، قبل المذكورين[8] . وذهب (الجاحظ) الى ان النسيء كان في كنانة ، وأما السدانة ، فكانت في (مرّ بن أدّ) « من رهط صوفة والرُبيط منها أصحاب المزدلفة ، وكانت عدوان وأبو سيّارة عميلة بن أعزل ، تدفع الناس »[9] . ويكاد يكون الاجماع على أن النسيء كان من حق (كنانة) ، لم يتولّه غيرهم .

وذكر أن الناسيء ، كان يحل للمحرمين قتال (خثعم) و (طيء) ، « لأنهم كانوا لا يحرمون الأشهر الحرم ، فيغيرون فيها ويقاتلون . فكان من نسأ الشهور

---

١ تفسير الطبري (٩٢/١٠) .
٢ تفسير الطبري (٩٢/١٠) .
٣ تفسير الطبري (٩٣/١٠) ، تفسير ابن كثير (٣٥٦/٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١٢٤/١) ، (نسا) ، (٤٥٦/١) ، « طبعة الكويت » ، نهاية الارب (١٦٦/١) ، الروض الانف (٤٢/١) .
٥ الاصابة (٢٤٨/١) ، (رقم ١٢٠٧) .
٦ نهاية الارب (١٦٦/١) ، تاج العروس (١٢٤/١) ، (نسا) .
٧ اللسان (١٦٧/١) ، (صادر) .
٨ الازرقي (١١٨/١).
٩ الحيوان (٢١٥/٧) .

من الناسئين يقوم « فيقول : إني لا أحاب ولا أعاب ، ولا يرد ما قضيت به، وإني قد أحللت دماء المحلين من طيء وخثعم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم إذا عرضوا لكم »[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن أولئك الناسئين كانوا نابهين في قومهم ، لهم مركز عظيم وشأن . فكان (القلمس) ، مثلاً ملكاً في قومه ، وهو من بني كنانة[2] ، وكان عالم قومه وفقيههم في الدين ، وكان الذي يلي النسيء يظفر بالرياسة لتريس العرب إياه[3] . ويظهر أنهم كانوا أصحاب علم ونظر ومكانة محترمة ، في أمور الدين ، في قومهم وفي القبائل التي تحج الى مكة .

وكلمة (قَلَمَّس) على ما يتبين من روايات الأخباريين ، لم تكن اسم علم، وإنما هي لفظة يراد بها عند الجاهليين ما يراد من معنى الفقيه والمفتي في الاسلام[4]. وقد ذكر علماء اللغة أن من معاني القلمس : السيد العظيم ، والرجل الخيّر المعطاء والمفكر البعيد الغور ، والداهية من الرجال ، ونحو ذلك من معان تشير الى صفات عالية في الرجل الذي أطلقت عليه ، وقد تكون بمعنى العالم العارف، وقد أطلقت بصورة خاصة على هذه الجماعة ، لسعة علمها بهذا الموضوع وغيره ، ولوقوفها على التوقيت وعلم الفلك في تلك الأيام[5] . وقد تكون لفظة من جملة الألفاظ المعربة التي دخلت العربية قبل الإسلام .

وطريقة الناسيء في اعلانه النسيء على الناس في الحج ، أن يقوم رجل من كنانة فيقول : أنا الذي لا يردّ لي قضاء ، فيقولون : أنسئنا شهراً ، أي أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم »[6] . وهذا الرجل هو الناسيء، أو أن يدعو الناسيء الناس في آخر موسم الحج الى الاجتماع حوله ، فإذا اجتمعوا ارتقى موضعاً مرتفعاً ظاهراً ، أو قام على ظهر جمله ليراه الناس ثم يقول بأعلى

---

١ تاج العروس (١/١٢٥) ، (نسأ) .
٢ المعاني الكبير (٣/١١٧١) ، المحبر (١٥٦ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٧٢) .
٣ تفسير القرطبي (٨/١٣٨) .
٤ المحبر (ص ١٥٦) ، تاج العروس (٤/٢٢٢) ، (القلمس) ، تفسير الطبري (١٠/٩٣) .
٥ راجع معنى « القلمس » في اللسان (٦/١٨٢) .
٦ تاج العروس (١/٤٥٦) (الكويت) .

صوته : « اللهم إني لا أعاب ولا أحاب ، ولا مردّ لما قضيت . اللهم ، إني أحللت شهر كذا (ويذكر شهراً من الأشهر الحرم ، وقع اتفاقهم على شن الغارة فيه) ، وأنسأته الى العام القابل ، أي أخرت تحريمه ، وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي ، فكانوا يحلّون ما أحل ويحرمون ما حرم » . فإذا انتهى من هذا الخطاب وأمثاله ، أباحوا لأنفسهم الغارة في ذلك الشهر ، وغزوا من نووا غزوه . فإذا جاء العام القابل ، نهض الناسيء ليقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم الشهر الفلاني ، وهو الشهر الذي أحله في العام الماضي فحرّموه، فيحرمونه[1] .

وورد في بعض الروايات ، انه كان يقوم فيقول : « إني لا أحاب ولا أعاب ولا يرد ما قضيت به ، وإني قد أحللت دماء المحللين من طيء وخثعم، فاقتلوهم حيث وجدتموهم اذا عرضوا لكم » . وذلك لما ذكر من عدم تحريم طيء وخثعم للشهور الحرم ، فكانوا يغيرون ويقاتلون فيها ، ولذلك استثناهم القلامسة من عدم مقاتلتهم في تلك الشهور ، وذلك لضرورات الدفاع عن النفس[2] .

وقد نسب الى بعض القلامسة شعر ، قيل انهم قالوه يفتخرون فيه باحتكارهم النسيء ، وبارشادهم الناس الى مناسك دينهم ، وقيادتهم الحجاج ، يسيرون تحت لوائهم ، يبينون لهم شهور الحل والأشهر الحرم ، كما ورد شعر منسوب الى بعض كنانة يفتخر فيه بأن قومه ينسئون الشهور على معدّ ، فيجعلون شهور الحل حراماً والشهور الحرام حلالاً[3] .

وقد قال (عمير بن قيس بن جذل الطعان) ، شعراً افتخر فيه وتعرض لأمر النسيء ، فكان مما جاء فيه قوله :

ألسنا الناسئين على معدّ   شهور الحلّ ، نجعلها حراما[4]

---

١ المعاني الكبير (٣/١١٧١) ، بلوغ الارب (٣/٧٣) ، نهاية الارب (١/١٦٦) ، « أنا الذي لا أعاب ولا أخاب ؟ ولا يرد لي قضاء ، فيقولون : نعم . صدقت أنسئنا شهرا ، أو أخر عنا حرمة المحرم ، واجعلها في صفر وأحل المحرم ، فيفعل ذلك » ، تفسير الطبرسي (٥/٢٩) ، (طهران) .
٢ تاج العروس (١/٤٥٧) ، (الكويت) ، مادة : « نسأ » .
٣ تاج العروس (١/٤٥٧) .
٤ اللسان (١/١٦٧) ، ونسبه (الطبرسي) الى الكميت ، تفسير الطبرسي (٥/٢٩)، (طهران) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦) ، سنن ابن ماجة (٥/١٨٠) ، السنن الكبرى (٥/١٦٥) ،

وقال بعض بني أسد :

لهم ناسىءٌ يمشون تحت لوائه يحل إذا شاء الشهورَ ويُحرِّمُ[1]

وقال آخر :

نسوء الشهور بها وكانوا أهلها من قبلكم والعزّ لم يتحول[2]

وقد نسب (القرطبي) البيت :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحلّ ، نجعلها حراما

الى الكميت[3] .

وقد استمرت طريقة النسيء هذه الى أيام الإسلام ، فحجّ أبو بكر في السنة التاسعة من الهجرة ، فوافق حجه ذا القعدة ، ثم حج رسول الله في العام القابل الموافق للسنة العاشرة للهجرة ، المصادفة لسنة (٦٣١) للميلاد ، فوافق عود الحجّ في ذي الحجة . ثم نزل الحكم بإبطال النسيء في الآيات : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم . وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين . إنما النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤوا عدة ما حرم الله، فيحلّوا ما حرم الله . زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين »[4] . وخطب الرسول في جموع الحجاج خطبته الشهيرة التي بيّن فيها مناسك الحج وسننه وأموراً أخرى أوضحها لهم ، فكان مما قاله لهم : « أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر ، وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض ، وان

---

١ تاج العروس (٤٥٧/١) ، (الكويت) .
٢ تفسير بحر المحيط (٣٩/٥) .
٣ تفسير القرطبي (١٣٨/٨) .
٤ سورة التوبة : الاية ٣٦ وما بعدها ، راجع تفسير الطبري (٩١/١٠ وما بعدها) ، تفسير الرازي (٤٤٦/٤ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٢٣/٣ وما بعدها) ، الكشاف (١٥٠/٢ وما بعدها) .

عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً »[1]. فألغى الإسلام منذ ذلك الحين النسيء، وثبت شهور السنة وجعل التقويم القمري هو التقويم الرسمي للمسلمين .

وروي كلام الرسول عنه على هذه الصورة : « أيها الناس. ان النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلّونه عامــاً ويحرمونه عاماً ، ليواطأوا عدة ما حرم الله ، فيحلّوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض . وان عــدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم . ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»[2]. فألغى الاسلام منذ ذلك الحين النسيء ، وجعل التقويم القمري الخالص هو التقويم الرسمي للمسلمين .

ويظهر من القرآن الكريم ان سبب تحريم النسيء في الاسلام هو تلاعب القلامسة بالشهور ، بتحريمهم شهراً حلالاً في عام ، ثم تحليلهم له في العام القابل . فأزال الاسلام ذلك التلاعب بتحريم النسيء ، واتخاذ السنة سنة قمرية ذات اثني عشر شهراً لا غير . كما صيرها الجاهليون ثلاثة عشر أو أربعة عشر شهراً[3]. ولما كان الزرع يعتمد على المواسم الطبيعية ، وعلى الأشهر الشمسية ، لذلك صار اعتماد المزارعين في الزرع وفي الحصاد على الشهور الشمسية ، أي على السنة الشمسية . أما الأمور الدينية ، مثل الحج والصيام ، فالاعتماد بالطبع على الشهور القمرية[4] .

واتخاذ التقويم القمري تقويماً رسمياً للاسلام ، هو من السمات التي امتاز بهــا الاسلام عن الجاهلية،واعتبر من النقاط الفاصلة التي فصلت بين الجاهلية والاسلام . وهكذا زال الكبس كما زال النسيء عن السنة القمرية وعن الشهور لتحويلها الى سنة شمسية على نحو ما رأيناه من فعل الجاهليين .

ويرى بعض المستشرقين أن النسيء والناسيء من الألفاظ المعربة عن العبرانية .

---

١ ابن الاثير (٢/١٢٦) ، الواقدي (٤٣١) (طبعة ولهوزن) ، ابن كثير (٢/٣٥٣ وما بعدها) ، وقد رويت خطبة الرسول بصور مختلفة ، اختلافا يدل على أن الرواة لم يكونوا قد دونوا النص ، وانما رووا عن ذاكرة وحفــظ ، فاختلفوا من ثم في رواية النص .

٢ ابن هشام (١/٣٥١) ، (حاشية على الروض الانف) .

٣ بلوغ الارب (٣/٧١) ، روح المعاني (١٠/٩٣ وما بعدها) .

٤ Caetani, I, 356, Buhl, Muhammed, S. 350, H. Winckler, in Arabisch — Semitisch Orientalish, 85. ff., Berlin, 1901.

وقد دخلت الى العربية بتأثير يهود يثرب . والناسيء عند اليهود هو الرئيس الديني. وكان يقوم عندهم بتقديم وتأخير الشهور ، ويعين مواعيد الأعياد والصيام، ويذيع النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة[1] . والناسيء يقابل رئيس قبيلة عند بني اسرائيل[2] ، وهذا التعريف ينطبق تماماً مع ما ذكره أهـل الأخبار عن (الناسيء) عند الجاهليين .

وقد بحث عدد من المستشرقين في حساب السنين عند الجاهليين وفي النسيء ، فجاؤوا بآراء متباعدة غير متفقة ، لكل واحد منهم رأي ومذهب في طريقة العرب قبل الإسلام في حساب الشهور وفي السنين القمرية والشمسية والكبس والنسيء . وقـد ناقشها ولخصها (نالينو) في كتابه : « علم الفلك تأريخه عند العرب في القرون الوسطى » . وهو ممن يرون أن البحث في هذا الموضوع صعب عسر ، وأن البت فيه غـير ممكن في الزمن الحاضر ، لقلة الموارد وعدم وجود أخبار وروايات واضحة صريحة يمكن أن يستند اليها في ابـداء رأي علمي ناضج في الموضوع[3] .

والذي أراه ان أهل الحجاز كانوا يتبعون التقويم الشمسي مع مراعاة الإهلال، أي تقويماً شمسياً قمرياً ، بدليل ان لأسماء الأشهر علاقـة بالجو من برد وحر ، وربيع وخريف . فقد ذكر علماء اللغة ان الربيع انما سمي ربيعاً ، لارتباعهم فيه والارتباع الاقامة في عمارة الربع ، وأن (جمادى) سمي بذلك لجمود الماء فيه ، أي انهما من أشهر الشتاء . قال الشاعر :

وليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر العبد في ظلمائها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خرطومه الذنبا[4]

وأن رمضان من شدة الرمضاء ، وهو الحر . ولا يعقل أن تكون هذه التسميات قد جاءت عفواً ومن غير ارتباط بحالة من حالات الطبيعة . وقـد انتبه المتقدمون

---

١ ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب (ص ٨١) .
٢ الخروج ، الاصحاح ٣٤ ، الآية ٣١ ، العدد ، الاصحاح ٧ ، الاية ٣٢ ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (ص ٨١) .
٣ (ص ٩٤ وما بعدها) .
٤ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .

اليها ، فقال بعضهم « وكانت الشهور في حسابهم لا تدور » ، ولكن بعضهم لم يقبل بذلك إذ قال : « وفي هذا نظر ، إذ كانت شهورهم بالأهلة ، فلا بد من دورانها » ، وقال في تفسير اسم جمادى « فلعلهم سمّوه أول ما سمي عند جمود الماء في البرد »[1] .

والذي أراه ان تلك الأشهر كانت ثابتة لا تدور ، بمعنى انها كانت ثابتة في مواسمها ، يسيرون بموجبها في زراعتهم وفي أسفارهم ، ولكنهم كانوا يسيرون على الإهلال ، أي الشهور القمرية في أمورهم الاعتيادية وفي الأعمال المالية ، مثل الديون ، حيث يسهل تثبيت المدة بعدد الأهلة ، ومن هنا اختلط الأمر على أهل الأخبار فخلطوا بين التقويمين ، بسبب عدم وضوح الروايات . وكان شأنهم في ذلك شأن العرب الشماليين الذين كانوا يحجون في وقت واحد ثابت ، هو في شهر (ذي الحجة) ، الذي تحدثت عنه في مكان آخر ، وشأن العرب الجنوبيين الذين كانوا يحجون في شهر (ذي الحجة) الذي كان وقته ثابتاً أيضاً ، فلا يكون في صيف ، ثم يكون في ربيع أو في خريف أو في شتاء ، ولا يعقل خروجهم على هذا الاجماع الذي نراه عند العرب الشماليين ، أي عرب بلاد العراق وعرب بلاد الشأم ، وينفردون وحدهم باتخاذ تقويم قمري بحت .

ما ذكرناه عن النسيء وعن الكبس يخص عرب الحجاز ، وأهل مكة بصورة خاصة ، ولا يتناول العرب الجنوبيين . ولا عرب بقيـة أنحاء جزيرة العرب ، لعدم وجود أخبار لدينا عنها تتناول المواضع الأخرى ، لا في النصوص الجاهلية ولا في أخبار أهل الأخبار . ولكن الذي يظهر من النصوص العربية الجنوبية المتعلقة بالزراعة ومن أسماء الشهور ، أنها كانت شهوراً ثابتة ، أي شهوراً شمسية لا قمرية ، وأن السنة التي كانوا يسيرون عليها سنة شمسية ، غير أن هـذا لا يمنع مع ذلك من سيرهم على مبدأ الإهلال في حياتهم الاعتيادية ، أي على الشهور القمرية ، بحيث تكون الرؤية مبدءاً للشهور . وذلك لوضوح الأهلة وإمكان رؤيتها بسهولة وتثبيت الأوقات بموجبهـا ؛ بمعنى أنهم كانوا يسيرون على التقويمين : التقويم الشمسي في الزراعة وفي دفع الغلات ، والتقويم القمري في الأمور الاعتياديـة .

---

١ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .

ولا نستطيع أن نتحدث عن كيفية احتساب العرب الجنوبيين للسنة الشمسية ، ولا عن الكبس عندهم ، لعدم ورود شيء عنها في النصوص .

ويظن أن سنة العرب الجنوبيين كانت من (٣٦٠) يوماً ، مقسمة الى اثني عشر قسماً ، أي شهراً ، نصيب كل شهر منها (٣٠) يوماً . وحيث أن هذا المقدار من الأيام ، وهو (٣٦٠) يوماً هو دون الآيام التي تمضيها الأرض في دورانها الحقيقي حول الشمس ، لذلك كانوا يعوضون عن الفرق إما بإضافة الأيام اللازمة على أيام السنة لتكبسها فتجعلها مساوية للسنة الطبيعية ، وذلك في كل سنة ، وإما بإضافة شهر كبيسة مرة واحدة في نهاية كل ست سنوات[1] .

ويظن (بيستن) ، أن القتبانيين قد أخذوا بالطريقة الثانية : طريقة إضافة شهر زائد كامل على التقويم في كل ست سنوات ، لتتعادل السنة بذلك مع السنة الطبيعية ، وان ذلك الشهر المضاف هو الشهر المسمى بـ (ذ برم اخرن) ، أي بـ (ذى برم الآخر) ، أو (ذى برم الثاني) ، عند القتبانيين وبشهر (ذ نسور اخرن) ، أي (ذى نسور الآخر) ، أو (ذى نسور الثاني) عند السبئيين .

ووردت في احدى الكتابات جملة (بين خرفهن) ، أي بين السنتين . وقد رأى (ونكلر) ، انها تعني الأيام التي تضاف الى نهاية السنة لكبسها حتى تكون سنة طبيعية كاملة . أي سنة شمسية ، ولذلك عُبر عنها بـ (بين السنتين) ، أي الاضافة التي توضع فيما بين السنتين . السنة المتقدمة والسنة التالية لها[2] . وذهب (كريمه) الى انها تعني شهراً ، هو الشهر الذي يضاف على التقويم لكبس السنتين ، ويرى (بيستن) ، ان هذا الرأي يصعب قبوله ، لأنه لو كان شهراً كاملاً ، لسموه باسم معين ، أو لرمزوا اليه برمز يميزه عن شهور السنة الأخرى ، كأن يقولوا له (اخرن) ، أي الآخر ، أو الثاني[3] .

أما اليهود ، يهود جزيرة العرب ، فقد كانوا يسلكون طريقتهم الخاصة في

---

١ Beeston, p. 18.

٢ Winckler, Altorientalische Forschungen, II, (1900), S. 351.

٣ Beeston, p. 43.

التوقيت ، ويسلكون منهجهم في تعيين الشهور ، كما يتأيد ذلك من الأخبار التي نجدها عنهم في كتب الأخباريين .

وأما النصارى العرب ، فقد كانوا يتبعون التقاويم الشرقية ، ويسيرون عـلى الشهور السريانية المعروفة ، وعلى وفق شعائر الكنيسة ، ويحتفلون بأعيادهم على وفق ما ثبت عندهم في كنيستهم . وقد أشير اليها في بعض الشعر الجـاهلي وفي كتب الأخباريين .

الفصل الرابع والثلاثون بعد المئة

التقاويم والتواريخ

التقاويم :

هناك نوعان من السنين : سنين بنيت على أساس الشهور القمرية التي تثبت بمراقبة القمر ، وسنتها سنة قمرية Lunar Year . والتقويم الذي يقوم عليه تقويم قمري . وسنون بنيت على أساس شمسي Solar Year . والتقويم القائم عليها ، تقويم شمسي ، شهوره ثابتة لا تتغير . وعدة الشهور عند العرب اثنا عشر شهراً ، سواء كانت السنة شمسية أم قمرية [1] .

ولقد قلت فيما سبق : يظهر من النصوص الجاهلية ، أن أهل العربية الجنوبية كانوا يعملون بالتقويم الشمسي ، وفقاً للمواسم الزراعية ، لأننا نراهم في هذه النصوص يزرعون ويبذرون ويحصدون في شهور معينة ، ويدفعون الضرائب في مواسم ثابتة ، كما نرى أن أسماء الشهور ، عندهم ذات معان متصلة بالطبيعة ، مثل الجفاف ، والمطر ، والحر ، والبرد ، والربيع ، والخريف ، ولو كانت سنتهم سنة قمرية محضة ، لما سمّوا أشهرهم بأسماء اشتقت من الحر والبرد واعتدال الجو وحلول الخريف ، إذ لا يعقل وقوع المعاني المذكورة مع تغير الشهور وعدم استقرارها على حال من الأحوال . إلا أن تواريخهم بالسنة الشمسية ،

---

١ اليعقوبي (١/١٧٧) .

لم يمنعهم من التوريخ بالتقويم القمري في أمورهم الاعتيادية ، كما في وفاء الديون، وأخذ الديات ، والبيع والشراء ، والأسفار ، لوضوح الشهر القمري ، وامكان حساب الأهلة وضبط عددها بسهولة ويسر ، فيسهل على المتعاقدين التعاقد بموجب عدد الأهلة ، أما الزراعة ، وتربية الحيوان ودفع الضرائب وما شابه ذلك ، فلا صلة لها بالأهلة،وإنما صلتها بالمواسم والفصول ، وهي من مكونات السنة الشمسية. إذن كان العرب الجنوبيــون يؤرخون ويعملون بتقويمين : تقويم قمري ، وآخر شمسي .

استعمل العرب الجنوبيون التقويم الشمسي في الزراعة ، واستعملوا التقويم القمري للأغراض التي ذكرتها ، والتقويم النجمي ، أي التقويم الذي يقوم عـلى رصد النجوم لأغراض دينية وللوقوف على الأنواء الجوية لما لها من صلة بالزراعة وبالحياة العامة [١] .

ويتبين من النصوص الثمودية واللحيانية والصفويـة ، ومن النصوص النبطية ، ومن نص النمارة ، ان أصحابها كانوا يتعاملون وفقــاً للتقويم الشمسي في الأمور التي لها اتصال مباشر بالطبيعة ، ووفقاً للتقويم القمري في الأمور الأخرى، لسهولة ضبط الأهلة ، وتحقيق العقود بموجبها . واذا كان الحال على هذا المنوال عنــد هؤلاء وعند العرب الجنوبيين ، فبامكاننا القول ان بقية الجاهليين ، ممن لم يتركوا لنا نصوصاً ، كانوا يتبعون التقويمين كذلك ، جرياً على سنة الناس في ذلك العهد ، ومنهم الأعاجم ، من اتباعهم التقويمين المذكورين في تنفيذ العقود والالتزامات وفي ضبط الأزمنة .

ومما يؤيد اتباع العرب الشماليين للتقويم الشمسي ، ما ذكـره الكتّاب اليونان واللاتين ، من أن العرب كانوا يقيمون طقوسهم الدينية ويؤدون شعائرهم المقدسة كالحج الى المحجات في أوقات ثابتة ، فقد ذكر (أفيفانيوس) ، ان للعــرب شهراً يحجون فيه الى محجاتهم ، ويقع ذلك في شهــر (تشرين الثاني)[٢] ، كما

---

١ Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsüdarabischen, Band., 2 S. 145, Sab. Denkm., S. 21, Glaser, Zwei Inschriften, S. 47, Note 7, ZDMG., 46, 322, Glasser, Die Sternkunde der Südarabischen Qabylen in SBWA., Winckler, AOF., 2, S., 351.

٢ Epiphanius, Haer., 51, 24, Reste, S. 85, 100, Ency. Religi., 10, p. 10.

ذكر (بروكوبيوس) ، ان العرب كانوا قد جعلوا شهرين في السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيها ولا يهاجم بعضهم بعضاً ، ويقعان في تموز وآب[1] ، وذكر (فوثيوس) ، أن العرب كانوا يحتفلون مرتين في السنة بالحج الى معبدهم المقدس: مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف ، وذلك لمدة شهرين[2] . وفي هذه الاشارات الى الأشهر المقدسة ، والى كونها ثابتة لا تتغير بتغير المواسم ، دلالة على سير العرب في تقويمهم ، وفقاً للتقويم الشمسي .

وقد عرف التأريخ عند الجاهليين ، بدليل عثور الباحثين على نصوص كثيرة مؤرخة . وقد زعم علماء اللغة « أن التأريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض ، وأن المسلمين أخذوه من أهل الكتاب »[3] ، وفي كلامهم صحة ، إذا كان قصدهم التأريخ العام للعالم ، الذي يبدأ وفقاً لما جاء عند أهل الكتاب من الخلق وظهور آدم فالأنبياء والرسل والملوك الى أيامهم ، وفيه خطأ ، إذا قصدوا به ، التأريخ مطلقاً ، أي تثبيت الوقت ، على نحو ما نفهم من قولنا أرخت الحادث ، وأرخت الكتاب ، فقد عرف التأريخ عند الجاهليين ، بدليل وروده في نصوصهم . واستعمالهم لفظة (بورخ) ، للتأريخ . وكلمة (ورخ) ، من الكلمات الواردة بكثرة في النصوص ، ومنها لفظة (توريخ) و (ورّخ) بمعنى أرخ في عربيتنا . ولفظة (أرخ) نفسها هي من هذا الأصل .

وقد عرف (الجاحظ) أن الجاهليين كانوا يؤرخون إذ قال : « وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور ، ونقشاً في الحجارة ، وخلقة مركبة في البنيان ؛ فربما كان الكتاب هو الناتىء ، وربما كان الكتاب هو الحفر ، إذا كان تأريخاً لأمر جسيم ، أو عهداً لأمر عظيم ، أو موعظة يرتجى نفعها ، أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره ، أو تطويل مدته ، كما كتبوا على قبة غمدان ... وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشقر ، وعلى الأبلق الفرد ... يعمدون الى الأماكن المشهورة ، والمواضع المذكورة ، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من الدروس ،

---

١ Procopius, II, p. 16.

٢ Reste, 101, Winckler, Alt. Orient. Farsch., II, Reihe, 1 Band, S. 336.

٣ تاج العروس (٢/٢٥٠) ، (ارخ) .

وأجدر أن يراها من مرّ بها ، ولا تنسى على وجه الدهر »[1] .

ثم قال : « وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها ... ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم في البناء ، وتنفرد بالشعر ، فبنوا غمدان ، وكعبة نجران وقصر مارد ، وقصر مأرب ، وقصر شعوب ، والأبلق الفرد ، وفيه وفي مارد ، قالوا : تمرد مارد وعز الأبلق ، وغير ذلك من البنيان »[2] . ثم تعرض لأهمية الكتب ولشأنها في تخليد الذكرى ، فقال : « والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر ، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم ، وأن يميتوا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون ، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في أيام الاسلام ، كما هدم عثمان صومعة غمدان ، وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان »[3] .

وتتناسب أساليب التأريخ مع درجة عقلية المؤرخ ومستواه العقلي ، لذلك نجد التواريخ بالأمور العادية البسيطة بين الرعاة والأعراب والسوقة من الناس ، بينما نجد غيرهم ممن هم فوقهم درجة في العقل والثقافة يؤرخون بمناسبات لها شأن وأهمية ، مثل التقاويم العامة المهمة ، المثبتة بمبدأ ، حيث يؤرخ بموجبها .

وقد تبين لنا من دراسات نصوص المسند ، أن أصحابها استعملوا جملة طرق في تأريخهم للحوادث ، وتثبيت زمانها ، فأرخوا بحكم الملوك ، فكانوا يشيرون الى الحادث بأنه حدث في أيام الملك فلان ، من غير تعيينه بسنين ، وذلك كما في هذا المثل : « بيوم اليفع يشر ملك معنم »[4] ، أي « بيوم اليفع يشر ملك معين » ، و « بيوم يذمر ملك وترال »[5] . ومعناهما في « أيام حكم اليفع يشر ملك معين » ، أو « وكان ذلك في حكم اليفع يشر ملك معين » بالنسبة للفقرة الأولى و « في أيام يذمر ملك وترابل » ، أو « في حكم يذمر ملك وتر ايل » ،

---

١ الحيوان (١/٦٨ وما بعدها) ، المحاسن والاضداد (٣) ، (مجلس الكتابة والكتب) .
٢ الحيوان (١/٧٢) .
٣ الحيوان (١/٧٣) .
٤ REP. EPI. 2869.
٥ المصدر نفسه الرقم ٢٧٤٠ ، Beeston, p. 26

أو « وكان ذلك في أيام حكم يذمر ملك وترايل » بالنسبة للجملة الثانية . فلم يذكر النص السنة التي دوّن فيها النص ، أو أرخ فيها النص من سني حكم الملك المذكور . وهي سنون قد تكون قصيرة ، وقد تكون طويلة . ولفظة (يوم) هي بمعنى : (حكم) و (أيام) .

وقد يؤرخ بحكم موظف من كبار موظفي الحكومة من حملة درجة (كبر) (كبير) ، مثلاً ، أو غيرها من الدرجات العالية في الحكومة أو في المجتمع . كما أرخوا بأيام الرؤساء والسادات وأرباب الأسر . وليس العرب الجنوبيون بدعاً في هذا الباب ، فقد كان غيرهم يؤرخ بهذه الطرق ، وذلك قبل توصلهم الى اتخاذ تقويم واحد ثابت له بداية معينة تؤرخ به .

والغالب ذكر اسم الشهر مع حكم الكبير أو الرئيس أو أي انسان آخر ، كما في هذا المثال : « بورخ ذ طنفت ذ كبر ايتم ذ عرقن »[1] ، ومعناها « بشهر ذو طنفت من كبارة أيتم ذو عرقن » ، وبعبارة أوضح « بشهر ذو طنفت من حكم الكبير أيتم ذو عرقن » ، و (ذو طنفت) ، اسم شهر من الشهور .

والكتابات المؤرخة بهذه الطريقة ، على انها أحسن حالاً في نظرنا من الكتابات المهملة التي لم يؤرخها أصحابها بتأريخ ، إلا اننا قلما نستفيد منها فائدة تذكر . إذ كيف يستطيع مؤرخ أن يعرف زمانها بالضبط ، وهو لا يعرف شيئاً عن حياة الملك الذي أرخت به الكتابة ، أو حكمه ، أو زمانه ، أو زمان الرجال الذين أرخ بهم ؟ لقد فات أصحاب هذه الكتابات ان شهرة الانسان لا تدوم ، وأن الملك فلاناً ، أو رب الأسرة فلاناً ، أو الزعيم فلاناً سينسى بعد أجيال ، وقد يصبح نسياً منسياً ، لذلك لا يجدي التأريخ به شيئاً ، وذاكرة الانسان لا تعي إلا الحوادث الجسام . لهذا السبب لم نستفد من كثير من هذه الكتابات المؤرخة على وفق هذه الطريقة ، وإن استفدنا منها في أمور أخرى لا صلة لها بتثبيت تواريخها .

وقد تجمعت لدينا أسماء أشخاص أرخ الناس بأيامهم لأنهم كانوا أصحاب جاه ونفوذ ، لكننا لا نعرف اليوم من أمرهم شيئاً ، لأن النصوص لم تذكر شيئاً

---

١ REP. EPI. 3608, 3, Beeston, p. 26.

عنهم ، وعن أيامهم،منهم : (عم على) من (آل رشم) من عشيرة (قفعن)[١]، و (موهبم ذ ذرحن) ، أي (موهب ذو ذرحان)[٢] . و (غوث ايـــل) من (آل بيحان) (بيحن)[٣]. و (شهر يجر)[٤] ، و (ذران) (ذرءان)[٥]، و (اب على بن شحز) ، أي (أبو على) من قبيلة (شحر)[٦] . وكل هؤلاء الذين أرخ بهم هم من قتبان .

ومن الأسر التي أرخ بأيامها أسرة (نبط) و (مبحظ)[٧] و (حزفرم كـــبر خلل) (حزفر كبير خليل) و (حذمت) و (فضحم)[٨] .

كما تجمعت لدينا أسماء عدد من الأشهر في اللهجات العربية الجنوبية المختلفة ، تحتاج الى دراسة لمعرفة ترتيبها بالنسبة للمواسم والسنة. ويظهر انهم كانوا يستعملون احياناً مع التقويم الذي يؤرخ بحكم الرجال ، تقويماً آخـــر هو التقويم الحكومي ، وتختلف أسماء شهور هذا التقويم عن أسماء شهور التقاويم التي تؤرخ بالرجال[٩] .

وقد تغير الحال في كتابات المسند منذ سنة (١١٥) قبل الميلاد ، على رأي غالبية الباحثين ، أو السنة (١٠٩) على رأي (ريكمنس) ، إذ أرخت بتقويم ثابت أرخت بموجبه الى قبيل الاسلام . مبدأه سنة سقوط حكومـــة سبأ وتكوين حكومة (سبأ وذي ريدان) ، على رأي بعض علماء العربيات الجنوبية ، فأرخ

---

١ السطر الثاني والعشرون من النص المنشور في :
Rep. Epig., VI, I, p. 218, Glaser, Alt. Nachr., S. 162. ff. ,Grundriss, S. 33, Glaser 2566.

٢ راجع نهاية الفقرة ٦ وأول الفقرة ٧ من النص Glaser 1601.
Rhodokanakis, K.T.B., I, S. 8. ff.

٣ Rep. Epig., 3693, Tome VI, II, p. 275.

٤ Rhodokanakis, K.T.B. I, S. 122. f., Rip. Epig. 3663, Tome VI, II ,p. 259.

٥ SE. 80a, Glaser 1398, 1609, Rep. Epig. 3879, Vol., VI, II, p. 334.

٦ Halevy 504, Rhodokanakis, K. T.B., I, S. 34, II, S. 7.

٧ A.F.L. Beeston, Epigraphic South Arabian Calenders and Datings, London, 1956, A.G. Lundin, Eponymat Sabéen et Chronologie Sabéene, 26, Congr. Intern. des Orientalistes, Conf. Prés. par la délégation de l'URSS, Moscou, 1963, Le Muséon, 1964, 3-4, p. 429.

٨ Le Muséon, 1964, 3-4, p. 496.

٩ Rhodokanakis, KTB., I, S. 81. f.

بهذا الحادث ، ولا سيما في الكتابات الرسمية المتأخرة [1] . ويرى (بيستن) ان مبدأ هذا التقويم غير مضبوط ، وأن مبدأه فيما بين السنة ١١٨ — ١١٠ قبل الميلاد . ويرى أيضاً ان العرب الجنوبيين لم يؤرخوا به في هذا العهد ، لأن النصوص التي تعود الى القرن الأول قبل الميلاد كانت لا تزال تؤرخ بالتأريخ القديم ، أي بالتواريخ الغير الثابتة ، مثل التأريخ بأيام الملوك والكبراء والكهنة وأمثالهم ، فلو كانوا يؤرخون به لما أهملوه . ويرى انهم انما أرخوا بـه بعد ذلك ، في حوالي القرن الثالث للميلاد .

وقد ساعدنا هذا التقويم على تثبيت تواريخ عدد من النصوص أرخت بموجبه، وعلى معرفة تأريخ هذه الحقبة التي أرخت بها . ولكن النصوص المؤرخة قليلة العدد ، ثم إننا لا نملك نصاً واحداً منها من ابتداء العهد بالتأريخ بـه ، كذلك لا نملك نصوصاً مؤرخة يعود عهدها الى قبيل الميلاد ، أو الى القرن الأول أو الثاني منه .

وأقدم نص مؤرخ بهذا التقويم ، هو النص الموسوم بـ CIH 46 ، وتأريخه سنة (٣٨٥) من هذا التقويم ، وهو يساوي السنة (٢٧٠) أو (٢٧٦) للميلاد . وهو من أيام الملك (يسرم يهنعم) (ياسر يهنعم) ملك سبأ وذي ريدان وابنه (شمر يهرعش) . ويراد بهما (ياسر يهنعم) الثاني و (شمر يهرعش) الثالث على رأي (فون وزمن) [2] . ونص آخر للملك (ياسر يهنعم) ، تأريخه سنة (٢٧٤) أو (٢٨٠) للميلاد . والنص الموسوم بـ MM 150 = CIH 448 ، وهو يساوي سنة (٢٨١) أو (٢٨٧) بعد الميلاد .

وهناك نصوص مؤرخة أخرى من أيام الملك (شمر يهرعش) ، ونصوص من بعد أيامه حتى أيام تملك الحبشة لليمن . أما ما بعد أيام الحبشة في اليمن ، أي أيام استيلاء الفرس عليها ثم أيام دخولها في الإسلام ، فلم يصل الينا منها نص ، لا مؤرخ ولا غير مؤرخ [3] .

---

١ Mordtmann und Eugen Mitwoch, Sabaische Inschriften, Hamburg, 1931, S. I.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, p. 484, Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 353.

٣ Mordtmann und Eugen Mittwoch, Sabäische Inschriften, Hamburg, 1931, S. I.

وآخر هذه النصوص المؤرخة ، هو النص الموسوم بـ CIH 525 ، وتاريخه سنة (٦٦٩) من التأريخ الحميري ، وهو يقابل سنة (٥٥٤) للميلاد . ويمكن أن نقول إن هذا النص هو آخر نص مؤرخ عثر عليه لا في المسند وحده ، بل في كل اللهجات العربية الأخرى ، وهو أقرب تلك الكتابات عهداً بالاسلام .

ويلاحظ ان بعض الكتابات المؤرخة تذكر لفظة (بورخ) أو (ورخس) (ورخ) ، ثم تذكر بعدها اسم الشهر الذي أرخ النص به ، ثم عـدد السنين بالنسبة للتقويم . ويراد بها معنى (شهر) ، وذلك كما في هذه العبارة : « ورخس ذو سحر .. » ، أي « في شهر ذو سحر .. » ، و « بورخ ذو خرف .. » ، أي « بشهر ذو الخريف .. » ، أو « بورخ ذ معن » ، أي « بشهر ذي معان .. » « بشهر ذي معين » ، « بشهر ذي معون » ، وهناك كتابات مؤرخة استعملت لفظة « (ورخهو) بمعنى (وتأريخه) . كما في هذه الجملة : « ورخهو ذ لثني وسني وست ماتم »[1] ، أي « وتأريخه لاثني وستين وست مئة » ، وبعبارة أوضح: « وتأريخه لسنة اثنين وستين وست مئة » . فاستعملت لفظة (ورخهو) اذن ، بالمعنى العلمي الـذي نستعمله اليوم حـين نؤرخ عهودنا ووثائقنا ، فنقول : (أرخت بـ ..) أو (تأريخها ..) .

وترد لفظة (خرفن) ، أي سنة قبل عدد السنين في بعض النصوص ، مثل: « خرفن ذ لثلثت واربعي وخمس ماتم »[2] ، ومعناها : « السنة الثالثة والأربعين بعد الخمس مئة » ، وقد تلحق لفظة (خرفتم) ، بعد عـدد السنين . كما في هذا المثال : « ورخهو ذ حجتن ذل اربعي وست ماتم خرفتم »[3] . ومعناه : « تأريخه أو شهره ذو الحجة لأربع وستمائة سنة» . وتقابل هذه السنة سنة (٤٨٩) أو (٤٩٥) للميلاد .

ويلاحظ أن النصوص السبئيـة المؤرخة قد أرخت بتقويمين : تقـويم عرف بـ (خريفتم بن خريف نبط) ، (خرفتم بن خرف نبط)[4] ، أي بـ (سنين

---

١ CIH 541, Glaser 618.

٢ Ryckmans 534, Beeston, p. 57.

٣ CIH 621, Beeston, p. 37, Glasr, Die Abessinier in Arabien und Afrika, 1896, S. 152 ,Zwei Inschriften, S. 86.

٤ REP. EPIGR. 4196.

من سنة نبط) ، ومعناه أن هذه السنين المذكورة ، هي وفقاً للتقويم الجاري على سني (نبط) ، أو تقويم (نبط) ، وتقويم آخر قدّرت السنين فيه وفقاً لسني (مبحض بن ابحض) ، (ذ بخرفن ذل بن خرف مبحض بن ابحظ)[1]. ويشير ذلك الى وجود مبدأين للتأريخ عن السبئيين : التأريخ بتقويم (نبط) ، والتأريخ بتقويم (مبحض بن أبحض) . وذلك في الكتابات التي تعود الى القرن الثـالث ونهايته لما بعد الميلاد . كالكتابات التي تعـود إلى أيام (ياسر يهنعم) و (شمر يهرعش) ، أما الكتابات المتأخرة ، فقد اختفت منها هاتـين التسميتين ، ويظن أنهم أخذوا بالتـأريخ بتقويم (مبحض) ولذلك اهملوا الاشارة الى الاسم ، لأنه كان معلوماً عندهم . ويرى (بيستن) أن الفرق بـين التقويمين هو قرابة نصف قرن أو ثلاثة أرباع قرن[2] .

وأسلوب التوريخ في النصوص السبئية المتأخرة هو أن تذكر لفظة (ورخن) أولاً ، ثم اسم الشهر من بعده ، ثم السنة ، كأن تقول : « ورخهن ذ مذرن ذ ل ٣١٦ خرفتم بن خرف نبط »[3] ، أي « وبشهر ذ مذران لـ ٣١٦ سنة من سنة نبط » ، أو « وبتأريخ ذ مذران من سنة ٣١٦ من سني نبط » ، أو مثل « ورخهو ذ داون ذ لخرفـين ذل اربعت وسبعى وخمس ماتم » ، أي « وشهره ذ داوان للسنين التي هي ٥٧٤ »[4] ، أو « وتأريخه ذ داوان للسنـة ٥٧٤ » ، ومثل : « خرفن ذل ثلثت واربعى وخمسس ماتم » ، أي « سنة ٥٤٣ »[5] ، ومثل : « وخرفهو ذ حجتن ذل اربعى وست ماتم خرفتم »[6] ، أي « وشهره ذو الحجـة لأربعين وستمائة سنة » ، أو « وتأريخـه ذو الحجـة الموافق لـ ٦٤٠ سنة مضت » ، ومثل : « وخرفهو ذل ثنى وستى وست ماتم »[7] ، أي « وتأريخه لاثنين وستين ومائة »[8] .

---

١ CIH 46, 448, REP. EPIGR. 3866, Beeston, p. 36.

٢ Beeston, p. 36.

٣ REP. EPIG. 4196.

٤ Ryckmans 520.

٥ Ryckmans 534.

٦ CIH 621.

٧ Ryckmans 506.

٨ Beeston, p. 73.

ومن الغريب ان أهل الأخبار قد أغفلوا الاشارة الى هذا التقويم فلم يذكروا عنه شيئاً ، ولم يشيروا الى أن العرب الجنوبيين كانوا يؤرخون بـــه ، مع أهميته وكونه تقويماً رسمياً .

هذا ، وان في استطاعتنا القول بأن اليمن لم تسر رسمياً عـلى التقويم العبراني أو التقويم النصراني ، حتى في أيام احتلال الحبش الأخـير لليمن ، أو في أيام استيلاء الفرس عليها ، وذلك بدليل تورويخ أبرهة عامل الحبشة على اليمن ، وهو نصراني ، نصوصه بالتقويم اليماني المستعمل في اليمن الذي تحدثت فيما سلف عن مبدئه ، مع أنه حاكم اليمن وممثل الحبش فيها وهو نصراني . وبدليل تورويخ عدد من كتابات المسند المتـأخرة من عهد لا يبعد كثيراً عن الاسلام بهذا التقويم . وليس بالتقويمين المذكورين،أو بأي تقويم آخر من التقاويم المستعملة عند الشرقيين .

ولكن ما أذكره لا يعني بالطبع عدم احتمال تورويخ يهود اليمن أو نصاراهـا أو غيرهم بتقاويم أخرى ، مثل التقويم العبراني أو الميلادي ، أو غيرهما . ومـا أقوله هو عن التقويم الرسمي المدون في المسند ، وربما سيعثر في المستقبل عـلى نصوص تعود الى عهد احتلال الحبش لليمن ، يرد فيها التأريخ بأيام الحبش فيها، أو بالتأريخ الرسمي الذي كان يتبعه الأحباش في مملكتهم .

أما العرب الشماليون ، عرب العراق وبادية الشأم وبلاد الشأم ، فلم يرد الينا من نصوصهم المؤرخـــة إلا عدد محدود ، منها نص النمارة الذي يعود عهده الى السنة (٣٢٨) للميلاد . وهو مؤرخ بتقويم بصرى ، وبصرى مركز مهم ، كان يقصده عرب الحجاز للاتجار وقد وصل اليه النبي . وكان عرب هذه المنطقـــة يؤرخون به . ويبدأ هذا التقويم بدخول بصرى في حوزة الروم سنة (١٠٥) أو (١٠٦) للميلاد ، أي السنة التي تم فيها القضاء على حكومة النبط والحاق (بترا) بـ (الكورة العربية)[1] .

ولهذا فإذا أردنا تحويل سنة من السنين التي أرخ بها وفقـــاً لتقويم بصرى ، فعلينا اضافة الرقم (١٠٥) أو (١٠٦) على سني تقويم بصرى ، فيكون حاصل

1 Die Araber, II, S. 319.

الجمع السنة وفقاً للتقويم الميلادي تقريباً . فتأريخ نص النمارة هو سنة (٢٢٣) من تقويم بصرى ، وقد أضفنا اليه الفرق وهو (١٠٥) ، فصار الحاصل (٣٢٨) ، وهو ما يقابلها من سني الميلاد .

وقد أرخت كتابة (حرّان) اليونانية بسنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقطيّة الأولى ، وهي تقابل سنة ٥٦٨ للميلاد ، والأندقطية هي دائرة ثماني سنين عند الرومانيين ، وكانت تستعمل في تصحيح تقويم السنة . أما النص العربي فقد أرخ بسنة (٤٦٣) ، بعد مفسد خيبر بعام . ويراد بجملة : « بعد مفسد خيبر بعم » ، غزوة قام بها أحد أمراء غسان أو غيره لخيبر ، وذلك في رأي الأستاذ (ليتمان)[1] . وعندي ان السنة (٤٦٣) ، التي أرخ بها النص العربي ، هي من سني تقويم بصرى ، بدليل اننا لو أضفنا اليها الرقم (١٠٥) المذكور ، صار الحاصل (٥٦٨) ، وهو كناية عن سني الميلاد ، المقابلة لسني بصرى . وعلى ذلك يكون تدوين هذا النص قد تم بعد غزو خيبر بعام ، أي ان هذا الغزو قد وقع سنة (٥٦٧) للميلاد . وقد كان (الحارث بن جبلة) يحكم (غسان) آنذاك ، فتصدق رواية (ابن قتيبة) حينئذ التي تذكر انه غزا خيبر ، وسبا أهلها ثم أعتقهم بعدما قدم الشام[2] .

وقد استعمل التقويم الذي يؤرخ بحكم (الاسكندر) تقويماً عند اليونان وفي بلاد الشأم ، وعند عرب بلاد الشأم أيضاً . ومبدأه الأول من شهر نيسان لسنة (٣١١) قبل الميلاد[3] ، ونجد أثر التأريخ بهذا التقويم في الروايات التي يرويها أهل الأخبار عن عرب بلاد الشأم والعراق . وقد بقي الناس يؤرخون به الى أن حل التقويم الميلادي محله ، فنسي ذلك التقويم . وذكر (المسعودي) أن ما بين الاسكندر الى المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون[4] .

وقد كان الصفويون مثل غيرهم يؤرخون بالحوادث التي يكون لها شأن عندهم ،

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٨) ، السامية (١٩٢) ،
Rivista degli stud. Orientali, 1911, p. 195.

٢ المعارف (٦٤٢) .

٣ Die Araber, II, S. 236, Hastings, extra Volume, (1904), p. 483.

٤ مروج الذهب (٢/١٨٣ وما بعدها) ، (ذكر شهور السريانيين) .

مثل حروبهم بعضهم مع بعض ، أو حروبهم مع غيرهم مثل النبط أو الروم . وقد أرخ بعضها بحوادث ذات صفة خاصة وعائلية ، مثل (سنة قتله خاله) ، أو (سنة وفاة والده) . وهي حوادث لا يمكننا الاستفادة منها في استنباط تأريخ منها ؛ لأننا لا نعرف من أمرها شيئاً . غير أن هنالك نصوصاً مؤرخة أفادتنا بعض الإفادة في الوقوف على التوقيت عند الصفويين . ففي نص لرجل اسمه (انعم بن فخش) ، ما يفيد أنه استولى على غنائم (سنة الحرب مع النبط). ويقصد بسنة الحرب مع النبط ، السنة التي قضى فيها الرومان على مملكة النبط ، وهي سنة (١٠٥) أو (١٠٦) للميلاد . وقد صارت هذه السنة مبدءاً للتأريخ في (بصرى) ، وعند العرب الصفويين[١] .

ولدينا نص صفوي آخر ، أرخ بـ « سنت حرب همدى ال روم » ، أي « سنة محاربة الميديين الروم » ، أو « سنة حرب الميديين الروم » . ويرى (ليتمان) انه قد توصل الى ضبط تأريخ هذه الحرب . وهنالك نص أرخ بـ « سنت قتل ال حمد » ، ويظن انه يشير الى معركة دارت على قبيلة تسمى (آل حمد) . وصاحب النص رجل من قبيلة تسمى (الرحبة)[٢] ، ولا زال الأعراب يؤرخون بأيام قتالهم بعضهم مع بعض .

ونحن لا نعلم اليوم كيف كان يؤرخ أهل الحيرة أو الغساسنة ، لعدم ورود نصوص مدونة عن ذلك سوى ما ذكرته من نص النمارة المؤرخ بموجب تقويم بصرى . ولا أستبعد احتمال استعمال أهل الحيرة التقاويم العراقية أو الفارسية التي كانت شائعة عندهم في ذلك العهد أساساً للتأريخ . وقد يكون من بينها التقويم النصراني بالنسبة للنصارى ، وينطبق ذلك على نصارى الغساسنة أيضاً ، كما لا أستبعد استعمال الغساسنة لتقويم الروم . وللتقاويم العربية المألوفة التي تستعمل الأساليب المحلية في تثبيت التواريخ . ويظهر من تأريخ (ابن الكلبي) لحوادث الحيرة وعرب العراق بتقويم الساسانيين لتواريخ ملوكهم ، ان أهل الحيرة كانوا قد دوّنوا تواريخهم بموجبها ، ولكن هذا لا يمنع من احتمال أخذ ابن الكلبي أقواله في تواريخهم من تواريخ الفرس ومن رواتهم رأساً ، فلا يكون عندئذ ذكره

١ رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٠٣) .

٢ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٠٥) .

لتواريخهم دليلاً على تأريخ أهل الحيرة بتقويم الفرس .

ويروي أهل الأخبار أن العرب كانوا يؤرخون بالحوادث العظام التي تحدث لهم ، من ذلك عام الخُنان . وهو عام وقع فيه كما يقولون مرض خطير عضال فتك بالناس وبالإبل ، فأرخوا به ، ورووا في ذلك شعراً للنابغة الجعدي[1] . وقد وقع زمن الخنان في عهد المنذر بن ماء السماء ، وماتت الإبل منه . فصار ذلك تأريخاً لهم[2] . ويظهر أنه كان وباء فتك بالناس وبالإبل ، وانتشر في العراق وفي نجد ، فأرخ به لأهميته بالنسبة لهم، والتأريخ بالأوبئة شيء مألوف ، وأهل بغداد كانوا يؤرخون بطاعون وقع عندهم في عهد العثمانيين وقبل الحرب العالمية بسنوات ولا زال الشيبة يؤرخون به .

وكان أهل مكة يؤرخون بما يقع عندهم من أحداث جسيمة ، فإذا أرخوا بحادث ومضى عهد عليه ، ووقع لهم حادث آخر أكثر أهمية وشعبية منه ، أرخوا به . فتوالت لهم عدة تواريخ ، نسخت بعضها بعضاً ، فأرخوا كما يذكر أهل الأخبار بعام رئاسة عمرو بن ربيعة المعروف بعمرو بن لحي ، وهو الذي يقال انه بدّل دين ابراهيم ، وحمل من مدينة البلقاء صنم هُبَل ، وعمل إسافاً ونائلة، وذلك كما يقال في زمن (سابور ذي الأكتاف) . وأرخوا بعام موت كعب بن لؤي الى عام الغدر ، وهو الذي نهب فيه بنو يربوع ما أنفذه بعض ملوك حمير الى الكعبة من الكسوة ، ووثب بعض الناس على بعض في الموسم . ثم أرخوا بعام الغدر الى عام الفيل الذي أرخوا به[3] . قال (الجاحظ) : « ومن الخطباء القدماء كعب بن لؤي ، وكان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة على البر ، فلما مات أكبروا موته ، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل »[4] .

---

١ فمن يحرص على كبري فاني   من الشبان أيام الخنان
بلوغ الارب (٣/٢١٤ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٩/١٩٣) (خنن) ، بلوغ الارب (٣/٢١٤) ، اللسان (١٣/١٤٣) « صادر » ، (خنن) .

٣ الآثار الباقية (١/٣٤) .

٤ البيان والتبيين (١/٣٥١) .

وذكر (اليعقوبي) ، أن قريشاً كانوا يؤرخون بالسنين ، يؤرخون بموت (قصي) لجلالة قصي عندهم ، فسنة وفاته هي مبدأ تأريخهم الى أن كان عام الفيل ، فأرخوا به لاشتهار ذلك العام[1] .

وذكروا أنهم أرخوا بعام وفاة هشام بن المغيرة المخزومي،وهو والد أبي جهل، وكان من رؤساء بني مخزوم ، وله صيت عظيم بمكة ، كما كان سيد قريش في زمانه[2] . وقد مات بالرعاف ، ذكر أنه كان آخر من مات به من سادة قريش . وزعموا أن الرعاف من منايا (جرهم) أيام جرهم ، وأنه أهلكهم ، فأرخوا به . قال بشير بن الحجير الإيادي :

ونحن إياد عبادُ الإلَه ورهط مناجيه في سُلَّم
ونحن ولاة حجاب العتيق زمانَ الرعاف على جرهم[3]

وورد (زمان النخاع) في موضع (زمان الرعاف) ، وهو داء أيضاً ، زعم أنه فتك بجرهم ، فهلك منهم ثمانون كهلاً في ليلة واحدة سوى الشبان[4] . فهو وباء أيضاً زعم أن الناس أرخوا به .

وأرخوا بعام الفيل ، بقوا يؤرخون به الى أن أرخ بالهجرة[5] . وقد ترك الحادث أثراً مهماً في ذاكرة قريش ، ولهذا ذكروا به في القرآن ، حتى يتعظوا به . ويجعلون عام الفيل في الثانية والأربعين من ملك كسرى أنو شروان ، وقبل ولاية النعمان بن المنذر المعروف بـ (أبي قابوس) بنحوٍ من سبع عشرة سنة ،

---

١ اليعقوبي (٢/٤) ، (مولد رسول الله) .
٢ بلوغ الارب (٣/٢١٥) ، (واتخذت قريش موته تأريخا . وله يقول بجير بن عبد الله بن عامر بن سلمة بن قشير :
فأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الارض ليس بها هشام) ،
المحبر (١٣٩) .
٣ الحيوان (٦/١٥١) .
٤ الحيوان (٦/١٥١) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢١٥) .

وهي احدى وثمانين وثمانمائة لغلبة الاسكندر على دارا ، وهي سنة ألف وثلاثمائة وستة عشر لابتداء ملك بخت نصر[1] . وهو العام الذي ولد فيه الرسول على أغلب الروايات .

وأرخت قريش بيوم الفجار وبحلف الفضول .

وكانوا يسمون السنين بالحوادث الخطيرة الجليلة التي تقع فيها . وقد فعل ذلك المسلمون أيضاً في صدر الإسلام ، فسموا كل سنة مما بين الهجرة والوفاة باسم مخصوص بها مشتق مما اتفق فيها للنبي . فسموا السنة الأولى للهجرة سنة الأذن ، والثانية سنة الأمر بالقتال ، والثالثة سنة التمحيص ، والرابعة سنة الترفئة ، والخامسة سنة الزلزال ، والسادسة سنة الاستئناس ، والسابعة سنة الاستغلاب ، والثامنة سنة الاستواء ، والتاسعة سنة البراءة ، والعاشرة سنة الوداع ، فكانوا يستغنون بذكرها عن عددها من لدن الهجرة[2] .

وأما الأعراب ، فتواريخهم برئاسة ساداتهم ، وبالأحداث التي تقع لهم من أفراح وأتراح ، ومن غزو أو نكبة ، وبالعوارض الطبيعية ، مثل سقوط مطر غزير ، أو انحباسه مدة طويلة ، أو هزة أرضية ، أو ظهور جراد ، أو وقوع وباء ، وما أشبه ذلك من أمور . وهم على هذا النوع من التأريخ حتى اليوم .

وليس في الذي رواه أهل الأخبار عن أهل الجاهلية ما يشير الى وقوف العرب على كتب في التأريخ يونانية أو لاتينية أو سريانية أو عبرانية ، أو على معربات لها . وليس في كل الذي ذكروه اسم مؤرخ من المؤرخين الذين نجلتهم الشعوب المذكورة . غير ان هذا لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم وقوفهم على تواريخ تلك الأمم وأخبارهم ، ففي القصص المنسوب الى الجاهليين ، قصص يدل على انه مأخوذ عن تلك الأمم مستورد منها . ثم ان أهل الأخبار أنفسهم أشاروا الى نفر ذكروا عنهم انهم نظروا في كتب الأساطير ورووا منها أخبار العجم ، والى نفر ذكروا عنهم انهم نظروا في الكتب القديمة وحذقوا لغات أهل الكتاب ، ورووا في شعرهم أو في كلامهم شيئاً مقتبساً من قصص أهل الكتاب ، يضاف

---

١ امتاع الاسماع (١/٤) .

٢ الآثار الباقية (١/٣٤) .

الى ذلك وجود الكنائس والنصرانية في بلاد العرب . والتأريخ ، ولا سيما تأريخ الكنيسة موضوع مهم من الموضوعات التي استعان بها المبشرون ورجال الدين في الوعظ والارشاد . ولا يستبعد أن تكون كتب التأريخ التي كتبها آباء الكنيسة ، مثل (أوسبيوس القيصري) وأمثاله ، في جملة الكتب التي استعانت بها الكنيسة لافهام الناس تأريخها وتطورها وتطور العالم على نحو ما دوّنوه بالاستناد الى التوراة والانجيل .

الفصل الخامس والثلاثون بعد المئة

اللغات السامية

اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، وهي التي يقال لها اللغة العربية الفصحى وكذلك سائر لهجات العرب الأخرى ، هي فروع من مجموعة لغات عرفت عند المستشرقين بـ (اللغات السامية). وقد أولع بعض المستشرقين بدرس هذه اللغات، فألفوا فيها كتباً وأبحاثاً ، وأنشأوا مجلات عدة تفرغت لها ، وما زالوا يسعون في توسيعها وتنظيمها وتبويبها ،وقد عرفت دراساتهم هذه عندهم بالساميات « Semitistik » . وهي تتناول بالدرس كل اللغات التي يحشرها علماء الساميات في مجموعة اللغات السامية : تتناولها بغض النظر عن وجود اللغة أو عدمه في هذا اليوم ، فالبحث علم ، والعلوم تبتغي المعرفة دون قيد بزمان أو مكان .

وينفق علماء الساميات مجهوداً كبيراً في المقارنة بين اللغات السامية وفي معرفة مميزات كل لغة ، وما بينها وبين اللغات الأخرى من فروق أو تطابق أو تشابه ، ومجال بحثهم في تقدم وتوسع ، خاصة بعد أن أخذ هؤلاء العلماء بأساليب البحث الحديثة التي تعتمد على الفحوص والاختبارات والملاحظات والنقد[1] .

وقد جاءت نظرية (اللغات السامية) من التسمية التي أطلقها (شلوتسر) « Schlözer » على العبرانيين والفينيقيين ، والعرب والشعوب المذكورة في التوراة على أنها من نسل (سام بن نوح)[2] . ولم تقم نظرية التوراة في حصر اولاد

---

١ Theodore Nöldeke, Sketches from Eastern History, Beirut, 1963, p. 1.

٢ الاصحاح العاشر من سفر التكوين .

سام على أساس عرقي ، بل بنيت على عوامل جغرافية وسياسية ، ولهذا أدخلت العيلاميين واللوديين « Lud » في أبناء (سام) ، مع أنهما ليسا من الساميين ، ولا تشابه لغتهما لغة العبرانيين[1] .

والقرابة بين اللغات السامية واضحة وضوحاً بيناً ، وهي أوضح وأمتن وأوثق من الروابط التي تربط بين فروع طائفة اللغات المسماة باللغات الهندوأوروبية « Indoeurpaichen Sprachen » أو الهندوجرمانية « Indogermanischen Spraden » على حد تعبير بعض العلماء[2] . وقد أدرك مستشرقو القرن السابع عشر بسهولة الوشائج التي تربط بروابط متينة ما بين اللغات السامية ، وأشاروا اليها ، ونوهوا بصلة القربى التي تجمع شملها . بل لقد سبقهم الى ذلك علماء عاشوا قبلهم بمئات السنين هداهم ذكاؤهم وعلمهم الى اكتشاف تلك الوشائج والى التنويه بها . فقد تحدث عالم يهودي اسمه : (يهودا بن قريش) « Jehuda ben Koraish » ، وهو ممن عاشوا في أوائل القرن العاشر ، عن القرابة التي تجمع بين اللغات السامية ، وعن الخصائص اللغوية العديدة المشتركة بين تلك الألسن ، كما أبدى ملاحظات قيمة عن الأسس اللغوية التي تجمع شمل تلك اللغات[3] .

والأساس الذي بني عليه رأي العلماء في حشر من يرون حشره في عائلة الساميات ، أو إخراج من يرون اخراجه منها ، هو قرب لغة من يرون فحصه لترشيحه لعضوية تلك العائلة من اللغات السامية ، أو بُعد لغته عنها ، ثم قرب عقلية من يرون إدخاله في السامية من العقلية العامة التي رسمت حدودها لعقلية الساميين ، من دين وأساطير وحياة اجتماعية وأدب ونحو ذلك مما يحدد عقليات الناس . وبهذه الطريقة يبحث العلماء اليوم موضوع الساميات[4] .

---

١ Theodore Nöldeke, Die Semitischen Sprachen, Leipzig, 1899, S. I, Richard J.H. Gottheil, Semitci Literatures, p. 1, The Columbia University Press, 1911.

٢ Theodore Nöldeke, Die Semitischen Sprachen, S. II.

وسيكون رمزه : 'Sprachen

Carl Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, Bd. I, S. I.

٣ Sprachen, S. 2, Grűndriss, I.., S. I, Geiger, Ursprung der Sprache, 1869, 22.

٤ Richard Hartmann und Helmuth Schell, Beiträge Zur Arabistik, Semitistik und Ielamwissenschafts, Leipzig, 1944, S. 3 ff.

وقد حملت الخصائص المشتركة والألفاظ المهمة الضرورية لشؤون الحياة التي ترد في كل اللهجات السامية بعض العلماء على تصور وجود لغة أم ، في الأيام القديمة، تولدت منها بعوامل مختلفة متعددة مجموعة (اللغات السامية) . ويؤدي تخيل وجود هذه الأم الى تخيل وجود موطن قديم للساميين كان يجمع شملهم ، ويوحّد بين صفوفهم ، الى أن أدركتهم الفرقة لعوامل عديدة ، فاضطروا الى الهجرة منه الى مواطن جديدة ، والى التفرق،فكانت هذه الفرقة إيذاناً بتبلبل ألسنة البابليين ، وسبباً الى تفرق ألسنتهم وظهور هذه اللغات .

ولا يعني تصور وجود لغة ساميّة أم « Ursemitish » على رأي بعض العلماء ضرورة وجود لغة واحدة بالمعنى المفهوم من اللغة الواحدة ، كانت أماً حقيقية لجميع هذه اللغات البنات . بل الفكرة في نظرهم مجرد تعبير قصد به شيء مجازي هو الإفصاح عن فكرة تقارب تلك اللغات وتشابهها ، واشتراكها في أصول كثيرة اشتراكاً يكاد يجمعها في أصل واحد ، ويرجعها إلى شجرة واحدة هي الشجرة الأم . فالسامية الأولى أو السامية الأم ، أو السامية الأصلية ، هي بهذا المعنى تعبير مجازي عن أقدم الأصول المشتركة التي جمعت بين اللهجات السامية القديمة في الأيام القديمة ، أيام كان المتكلمون بها يعيشون في أمكنة متجاورة وفي اتصال وتقارب عبر عنه بفكرة النسب المذكور في التوراة[1] .

وليس من السهل علينا أن نتصور كيف كانت اللغة السامية الأولى . ولكننا لا نستطيع – بسبب قدم زمان هذه اللغة إن كانت هناك لغة سامية أولى وبسبب الأحوال البدائية التي كانت تحيط بالمتكلمين بها شأن البشرية جمعاء في ذلك العهد ولقلة مستلزمات المعيشة يومئذ وانخفاضها – أن نتصور أن هذه اللغة كانت واسعة جداً بمفرداتها غنية بمسمياتها ، وفي قواعد صرفها ونحوها وفي أساليب بيانها ، لأن ما نذكره لا يمكن أن يتوفر إلا في مجتمع متطور متقدم ، وإلا بعد تطور استمر أمداً طويلاً ، ولم يكن الساميون الأولون في ذلك العهد على درجة كبيرة من التطور والتقدم،حتى تكون لغتهم الأولى على نحو ما نذكره من اتساع وارتقاء .

وتسوقنا إشارتنا العابرة هذه الى السامية الأم الى الإشارة الى الوطن السامي الأول الذي عاش فيه الساميون . أيام اجتماعهم وتكتلهم في وطن واحد ، وأيام

---

١ جواد علي تأريخ العرب قبل الاسلام (١٦٦/١ وما بعدها) ، (١٠/٧ وما بعدها) .

تكلمهم بلسان واحد أو بألسنة متقاربة متشابهة ، يفهم أحدهم الآخر بيسر وسهولة. ثم عن الأيام التي نزلت فيها المكاره على أولئك الساميين القدماء فأجبرتهم على ترك ذلك الوطن في دفعات وفي هجرات متعددة والارتحال عنه الى مواطن أخرى جديدة .

وقد اختلف العلماء في تعيين الموطن الأصلي للساميين ، وذهبوا في ذلك مذاهب ، يخرجنا الحديث عنها عن صلب موضوعنا هذا . والمفروض في هذا الوطن أن يكون المهد الأول الذي ضم الشعوب السامية ، والمكان الذي اتصلت فيه تلك الشعوب بعضها ببعض ، الأثر الذي نراه في اللغة وفي الدين وفي النواحي العقلية وما شاكل ذلك .

وبما أن من غير الممكن التعرف على اللغة السامية الأم ، لأن الكتابة لم تكن معروفة في ذلك العهد ، فكّر المستشرقون في دراسة أقرب اللغات السامية الى الأصل ، فذهب بعضهم الى أن العبرانية هي أكثر تلك اللغات شبهاً بالسامية الأولى ، وهي لذلك أقرب بنات سام اليها . وذهب آخرون الى تقديم لغة بني إرم على غيرها جاعلين إياها البنت الأولى التي اجتمعت فيها الخصائص السامية الأصلية أكثر من اجتماعها في أية لغة أخرى ، ولهذا استحقت في رأيهم هذا التكريم والتقديم . وذهب آخرون الى تقديم العربية على سائر اللغات الأخرى ، لمحافظتها أكثر من بقية اللغات السامية على الخصائص السامية الأولى وعدم تنصلها منها وتركها لها . كالذي نراه من استعمالها للمقاطع القصيرة الصامتة ومن كثرة تعدد قواعدها التي زالت من قواعد بقية اللغات . غير ان هذه الامتيازات والحصانات التي تتمتع بها هذه اللغة ، يقابلها من جهة أخرى مميزات في العربية لا نجدها في اللهجات السامية الباقية ، مما يبعث على الظن انها طرأت عليها فيما بعد ، وأن اللغة العربية قد مرت بأدوار تطورت فيها كثيراً ، والتطور هذا معناه ابتعاد هذه اللغة عن الأصل . ثم اننا نجد في العبرانية وفي لغة بني إرم قطعاً من الكلام قديماً جداً لا نجد له مثيلاً في العربية ، وهذا مما يدعو الى حسبان اللغتين المذكورتين أقدم عهداً من اللغة العربية . غير اننا لا نستطيع مع كل ذلك أن ننكر أن معرفتنا وإحاطتنا باللغة العربية لا تكاد تدانيها معرفتنا وإحاطتنا ببقية اللغات السامية . ومن هنا صارت اللغة العربية بلهجاتها المتعددة حقلاً مهماً لإجراء التجارب والاختبارات في ميدان

مقارنات اللغات السامية ودراستها ، فيه من الامكانيات والقابليات ما لا نجده في بقية الحقول[1] .

وقد ذهب (نولدكه) الى أن من الضروري في دراسة مقارنات اللغات السامية البدء باللغة العربية ، وذلك بأن نأخذ في تسجيل خصائصها ومميزاتها وقواعدها وكيفية النطق بألفاظها وما الى ذلك، ثم نقارن ما سجلناه بما يقابله في بقية اللغات السامية ، لنقف بذلك على ما بين هذه اللغات من مفارقات ومطابقات. ولا بأس في رأيه من الاستعانة باللهجات الحالية أيضاً ، لأنها مادة مساعدة جداً ومفيدة كثيراً في الكشف عن خصائص اللغات السامية وعن مميزاتها وتطورها في مختلف العصور . وفي رأيه ان دراسة من هذا النحو ليست بالأمر اليسير ، فإنها تتطلب جلداً وعلماً وإحاطة باللغات السامية كلها وبآثارها القديمة ، وأن يقوم بها علماء لغويون متخصصون ، على جانب كبير من العلم والذكاء والإحاطة بالساميات[2] .

وليس بين اللغات السامية لغة واحدة تستطيع أن تدعي انها سامية صافية نقية ، وانها لم تتأثر قط باللغات الأخرى التي تنتمي الى مجموعات لغوية غير سامية ، وقضية صفاء لغة ما من لغات العالم وخلوّها من الألفاظ والكلمات الغريبة ، قضية لا يمكن أن يقولها رجل له إلمام بعلوم اللغات ولو يسيراً جداً . واذا كانت اللغات السامية قد تأثرت باللغات الأخرى بسبب اختلاط الشعوب واتصال ألسنتها بعضها ببعض نتيجة ذلك الاختلاط ، فإن من الطبيعي أن تكون اللغات السامية قد أثرت بعضها في بعض ، ولهذا نجد في كل لغة من اللغات السامية ألفاظاً أخذتها من لغة ما من لغات أبناء سام .

وخير ما يمكن أن نفعله الآن في موضوع اللغة السامية وأقرب اللغات السامية اليها ، هو ان نقوم باستخلاص القديم المشترك من كل اللغات السامية ، ثم نكوّن من هذا المجتمع لغة نعدّها أقرب اللغات السامية صورة الى اللغة السامية الأولى . وتعدّ للضمائر وأسماء العدد وأسماء أعضاء الجسم الأساسية المهمة وجملة الفاظ تخص الحياة الانسانية الأساسية ، مثل بيت وسماء وأرض وجمل وكلب وحمار وعدد

١ Sprachen, S. 5 ff.

٢ Sprachen, S. 7.

من حروف الجـر ، من جملة القديم المشترك في جميع اللغـات السامية أو في أكثرها ، وهو لذلك يفيدنا من هذه الناحية كثيراً في تكوين فكرة عن اللغة السامية القديمة وعن أقرب اللغات السامية الى الأصل .

ويقسم علماء الساميات اللغات السامية الى قسمين : لغات سامية شمالية ، ولغات سامية جنوبية . ويقسم بعض العلماء اللغات السامية الشمالية الى مجموعتين : مجموعة شرقية ، ومجموعة غربية . ويقصدون بالمجموعة الشرقية اللغات الساميـة المتركزة في العراق ، ويقصدون بالمجموعة الغربية اللغات السامية المتركزة في بلاد الشأم . وقد تأثرت كل مجموعة من المجموعتين بالمؤثرات اللغوية والحضارية للمكان الـتي عاشت فيه ، ومن هنا حدث بعض الاختلاف بين الجماعتين .

ومن أهم الخصائص التي امتازت بها اللغات السامية من غيرها من اللغات :

اعتمادها على الحروف الصامتة « Konsonant » = « Consonant » أكثر من اعتمادها على الأصوات « Vokale » = « Vocal » ، فنرى أن أغلب كلماتها تتألف من اجتماع ثلاثة أحرف صامتة . أما الأصوات ، فلا نجد لها حروفاً تمثلهـا في اللغات السامية . وهي بذلك على عكس اللغات الآرية الـتي اهتمت بالأصوات ، فدونتها مع الحروف الصامتة.وقد اضطرت اللغات السامية نتيجة لذلك الى الاستزادة من الحروف ، فزادت في عددها عن العدد المألوف في اللغات الآرية ، وأوجدت لها حروفاً للتفخيم والترقيق وإبراز الأسنان والضغط على الحلق[1] .

ويتولد في اللغات السامية من تغيير حركات الأحرف الثلاثية الصامتة وتبديلها، معان جديدة . ولهذا كان من أهم واجبات الأصوات في اللغات السامية تغييـر حركات الحروف لتوليد معان جديدة . فالأحرف الثلاثة الصامتة إذن هي الـتي تكون مفهوم الكلمة وهيكلها ، ولكن مفاهيم هذه الأصول الثلاثية لا تبقى على حالها متى تغيرت حركات هذه الحروف . فكلمة (فعل) المؤلفة من ثلاثة أحرف صامتة ، هي حروف الفاء والعين واللام ، هي أصل ، غير أن هذا الأصل غير ثابت . بل هو عرضة للتغيير ،ويكون تغيره بتغيير حركات أحرفه ، فإذا تغيرت

---

١ ولفنسون ، تأريخ اللغات السامية (ص ١٤) ،
Brockelmann, Grundriss, I, S. 5.

حركات هذه الأحرف تغيرت معانيها حتماً . فكل تغيير إذن في حركات أحرف الأصل يعقبه تغير في معنى ذلك الأصل . فلفظة (فَعَلَ) ، تختلف في المعنى عن لفظة (فعِل) ، واللفظتان (فَعَلَ) و (فعِل) تختلفان أيضاً في المعنى عن معنى لفظة (فُعِلَ) . وقد تولد هذا الاختلاف من تغير حركات حروف الأصل وتبدلها .

ومن الممكن إحداث معان جديدة في اللغات السامية ، وذلك بإضافة زوائد تتألف من حرف أو أكثر الى الأصول الثلاثية ، فيتبدل بذلك معنى الأصل . فإذا أضفنا حرف الألف بين حرفي الفاء والعين من (فعل) ، تغير المعنى ، وصارت اللفظة (فاعل) ، وإذا وضعنا حرف الواو بين حرفي العين واللام من فعل ، تغير المعنى ، وصارت اللفظة (فعول) ، وهكذا .

فنرى مما تقدم ان المعاني المشتقة من الكلمات ذات الأصل الثلاثي مهما تغيرت وتولدت نتيجة لتغيير حركات تلك الحروف الثلاثة الصامتة ، فإنها لا تتنصل من هذه الحروف ولا تتركها ، بل تبقى في صلب كل كلمة ، مهما صار معناها . فكلمة (قتل) العربية مثلاً المؤلفة من ثلاثة أحرف صامتة ، يمكن أن نولد منها معاني جديدة ، أي كلمات جديدة ، بتغيير هذه الأحرف الثلاثة ، أو بادخال زوائد عليها ، أو بتشديد بعض حروفها كما ذكرت ، غير اننا لا نستطيع أن نترك حرفاً من هذه الأحرف الثلاثة التي هي الأصل .

فألفاظ مثل قاتل،وقتيل،وقتال،ومقتول ، وقتْل ، وقتَّلَ ، وقُتِلَ ، وكلها مشتقة من الأحرف الصامتة الثلاثة : القاف والتاء واللام ، لم نتمكن من الاستغناء عن حرف من هذه الأحرف الثلاثة ، بل اضطررنا الى ابقائها كلها فيها . إلا أننا أجبرنا على التفريق بينها بسبب دخول الزيادات[1] .

وليس في اللغات السامية ادغام للكلمات ، أي وصل كلمة بأخرى ، لتكون من الكلمتين كلمة واحدة يكون لها معنى مركب من معنى الكلمتين المستقلتين كما في اللغات الآرية . وأما ما نراه من عدّ كلمتين مضافتين كلمة واحدة تؤدي معنى واحداً ، فإن هذا النوع من التركيب بين الكلمتين شيء جديد في اللغات

---

١ Semitistik, Dritter Band, Erster Abschnitt, 1953, S. 10 ff.

السامية ، لم يكن معروفاً عند أجدادهم القدماء[1] . وهو معروف في اللغات الآرية، كما في حالة الـ « Genitive » في اللاتينية حيث تتولد معان جديدة باضافة لفظة الى لفظة أخرى ، فتتولد من هذا التعاقب دلالة جديدة لمعنى جديد .

هذا ، ونجد أن بين اللغات السامية وبين اللغات الآرية اختلافات في كثير من الأمور ، فاللفظة في اللغات السامية ذات مدلول عام ، وقد يكون لها جملة مدلولات تدل على معان عامة مطلقة ، أما اللغات الآرية ، مثل السنسكريتية ، واليونانية ، والألمانية ، فكل جذر فيها هو كلمة ذات معنى مقيد محدود ، أخذت منه المصادر والنعوت. وهناك اختلافات أخرى في موضوع الـ « Conjuctions » والـ « Substansive » والـ « Syntax » ، والـ « Interdependence of sentences » وغير ذلك من أمور يعرفها علماء اللغات والنحو والصرف .

ويرى العلماء أن الفعل قد تطور في اللغات السامية تطوراً خطيراً ، استغرق قروناً طويلة ، وأن ما نعرفه من تقسيم الأفعال الى ماضٍ ومضارع وأمر،لم يكن معروفاً على هذا النحو عند قدماء الساميين . ويرى بعضهم أن الصيغة الأصلية للفعل إنما كانت صيغة الأمر ، فهذه الصيغة هي أقدم صيغ الأفعال عند الساميين. وقد كانت هذه الصيغة تستعمل للدلالة على جميع صيغ الفعل من الماضي والمضارع والأمر ، ثم تخصصت فصارت تشير الى حدوث الفعل في صيغة الأمر ، وذلك بعد ظهور صيغتي المضارع والماضي .

ومن صيغة فعل الأمر ، اشتق فعل المضارع . وذلك بزيادة حرف على أول لفظة فعل الأمر ، لتدل على حالة الإسناد الى الفاعل أو الضمير مثلاً . وقد سبقت هذه الزيادةُ الزيادةَ التي لحقت آخر الفعل ، فمن فعل (قم) مثلاً تولد الفعل (أقوم) و (يقوم) و (نقوم) و (تقوم) ثم يقومون وتقومون[2] .

ومن علماء اللغات من يرى أن صيغة المضارع كانت أمداً تدل على جميع الأزمنة ، وأن هذا الأداء كان مستعملاً عند قدماء الساميين استعمال اللغة الصينية

---

١ Brockelmann, Grundriss, I, S. 5.

٢ ولفنسون ، السامية (ص ١٥) ، The Bible Dictionary, Vol. II, p. 429.

واللغة الهندوجرمانية الأصلية له[1] .

ونجد اليونانية تغير معاني الفعل بإدخال حرف الجر عليه ، فإذا دخل حرف جرّ على الفعل تغير معناه .

ويظن ان الكلمات المؤلفة من حرفين صامتين ، أي الألفاظ الثنائية الأصل مثل أب وأم وأخ ويد، كانت أقدم من الأفعال المشتقة من ثلاثة أحرف مثل فعل، صنع ، أكل ، ذهب ، وأن الأفعال الثلاثية أقدم من الأفعال الرباعية . وقد ذهب بعض الباحثين إلى ان الأفعال الرباعية المؤلفة من أربعة أحرف كانت مؤلفة في الأصل من حرفين اثنين ، ثم تطورت بالاستعمال في خلال العصور الطويلة حتى صارت رباعية الأصل[2] .

وفي العبرانية صيغتان للفعل الماضي : الصيغة المألوفة للماضي ، وصيغة ثانية مشتقة من المضارع مع إضافة واو العطف ، وهي صيغة قديمة جداً . وهي موجودة في البابلية القديمة وفي الكنعانية العتيقة . ولعلها كانت صلة بين المضارع وبين الماضي. وليس لهذه الصيغة وجود في العربية الشمالية وفي العربية الجنوبية والحبشية وفي لغة بني إرم[3] .

ويلاحظ ان العبرانية تشارك اللهجات العربية الجنوبية في أمور عديدة غير معروفة في عربية القرآن الكريم ، كما توجد أوجه شبه بين ألفاظ حبشية وعبرانية[4] .

وللدلالة على الجمع استعملت العبرانية حرفا (يم) للمذكر ، و (واو وتاء) للمؤنث . أما الآرامية ، فاستعملت حرفا (ين) علامة للجمع ، وأما العربية فاستعملت (الواو والنون) للجمع المذكر السالم ، و (الألف والتاء) في الجمع المؤنث السالم ، وهناك جموع تكسير كثيرة كثرة لا نكاد نرى لها مثيلاً في اللغات السامية الأخرى[5] . وذلك بسبب أن هذه الجموع هي في الواقع جموع وردت في لهجات عربية متعددة ، وردت سماعاً ، فلما جمعها علماء العربية ودونوها

---

١ المصدر السابق (ص ١٦) .
٢ ولفنسون ، السامية (١٧) .
٣ ولفنسون ، السامية (١٦) .
٤ ولفنسون ، السامية (١٩) .
٥ ولفنسون ، السامية (١٩) .

في كتب اللغة والمعاجم ، لم يشيروا الى أسماء من كان ينطق بها، فظن انها جموع استعملت في هذه العربية التي نزل بها الوحي .

ومن أهم الإختلافات التي نراها بين اللغات السامية . اختلافها في التعريف . فبينما نرى بعض اللغات كالآشورية والبابلية والحبشية لا أداة للتعريف فيها ، نرى العبرانية وبعض اللهجات العربية مثل الثمودية واللحيانية تستعمل حرف الـ (ه) أداة له ، تضعه في أول الكلمة ، وبينما نرى السبئية واللهجات العربية الجنوبية الأخرى تستعمل أداة أخرى للتعريف هي حرف (النون) ، تضعها في آخر الكلمة المراد تعريفها ، نجد العربية الفصحى تستعمل (ال) أداة للتعريف ، تضعها في أول الكلمة . وتشارك السريانية العربيات الجنوبية في مكان أداة التعريف ، فكانها عندها في نهاية الكلمة أيضاً ، غير أنها تختلف عنها في استعمالها أداة أخرى هي حرف الـ (ه) أي الواو .

وقد درس بعض المستشرقين أوزان الأسماء في اللغات السامية ، كما درسوا اشتقاقها وأصولها التي أخذت منها ، وبحثوا في حالات التصغير أي في الأسماء المصغرة وطرق التصغير عند جميع الساميين ، والأسماء البسيطة والأسماء المركبة ، ليستخرجوا منها قواعد قدماء الساميين في كيفية تكوين الأسماء ، ولا سيما تلك الأسماء التي ترد في جميع اللغات السامية . ففي اللغات السامية أسماء مشتركة ترد في كل اللغات ، منها ما هو بسيط مؤلف من كلمة واحدة ، ومنها ما هو مركب ، أي أسماء مؤلفة من أكثر من كلمة بطريقة الإضافة . ودراسة هذه الأسماء بأنواعها ، تفيدنا كثيراً في الوقوف على العقلية السامية وعلى الخواص المشتركة التي كانت تربط بين الساميين .

ونجد الإعراب في اللغة العربية الفصحى ، ويذهب العلماء الى أن الإعراب كان موجوداً في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من أكثر تلك اللغات . ونرى له أثراً يدل عليه في العبرانية في حالتي المفعول به وفي ضمير التبعية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التبعية ، فإن هاتين الحالتين تدلان على وجود الإعراب في أصولها القديمة[1] .

---

١ ولفنسون ، السامية (ص ١٥) .

ونجد العربية ذات حروف يزيد عددها على حروف اللغات السامية الأخرى . ولعلّ اللغات الأخرى كانت تملك حروفاً أخرى ، ثم قلّ استعمالهـــا فزالت من أبجديتها ، ولم تبق لها حاجة بها . فالعبرانية لا تمتلك الحروف : (ذ)، و(ع)، و (ظ) ، و (ض) . والبابلية لا تمتلك أيضاً الحروف : العين والحاء والغين والهاء وهي من أحرف الحلق ، ولا الأحرف : الطاء والظـــاء والصاد ، وهي من أحرف التضخيم والتفخيم ، ولا القـــاف . ونجد يهود السامرة لا يستعملون حرف السين[1] . وهنـــاك أمثلة أخرى تثبت حدوث تطور في عدد الحروف في اللغات السامية ، مما سبب حدوث اختلاف في عددها،ولهذا حدث هذا الاختلاف الذي نراه ونلاحظه بين أبجديات تلك اللغات .

ونجد العربية الجنوبية تمتلك حروفاً لا تمتلكها العربية الفصحى ، وذلك بسبب اختلاف طبيعتي اللهجتين .

ولا بد أن تكون هنالك عوامل عديدة دعت الى حدوث تغيير في عدد الحروف في لغات الساميين . وقد عزا بعض الباحثـــين سقوط الأحرف التي ذكرتها من الكتابة البابلية الى استعمال البابليين للكتابة المسمارية[2] . غـير أن هذا رأي يجب أن يدرس بعناية ، وأن يكون مبنياً على دراسات عديدة أصيلة ، ليكون في الامكان تكوين رأي صحيح في هذا الموضوع .

واللغة العربية اليوم ، هي من أعظم اللغات السامية الباقية ، بكثرة من يتكلم ويكتب بها ، وبكثرة ما ألّف ودوّن بها . وهي تستعمل اليوم قلماً اشتق من قلم سامي شمالي ، وكان لها في الماضي قلم قديم كان مستعمـــلاً عند العرب من أيام ما قبل الميلاد الى ظهور الاسلام ، مات بسبب اتخاذ الاسلام القلم الجزم قلماً للوحي ، دوّن به القرآن الكريم ، فصار بذلك القـــلم الشرعي الرسمي ، وأمات بذلك الأقلام الجاهلية الأخرى المشتقة من القلم (المسند) . ونجد في المعاجم اللغوية مئات الألوف من الألفاظ المعبرة عن معان ، وقد قدّر بعض العلماء عدد ألفاظ العربية بنحو من (١٢٣٠٥٠٥٢) كلمة[3] . ويعود سبب غناها في الألفاظ الى

١ ولفنسون ، السامية (١٩ وما بعدها ، ٣٩) .

٢ ولفنسون ، السامية (٣٩) .

٣ The Bible Dictionary, Vol. I, p. 101.

كثرة وجود المترادفات فيها ، التي هي من بقايا لغـات قبائل ، والى خاصية جذور الكلم فيها في توليد الألفاظ الجديدة بتحريك هذه الجذور .

وهناك لهجات تستحق الدراسة ، فهي من اللهجات السامية المتفرعة عن لهجات قديمة ، وهي لهجات منبوذة لم يحفل بها علماء اللغة ، مثل اللهجـة (الأمهرية) واللهجة (الهررية) لغة أهل (هرر) . وهي من بقايا لهجات لم يعنَ بها العلماء إلا منذ احتكاك الغربيين بالمتكلمين بها . ومع ذلك فلا تزال البحوث العلمية عنها قليلة .

الفصل السادس والثلاثون بعد المئة

العربية لسان آدم في الجنة

رأى علماء العربية أن العربية قديمة ، وهي في نظرهم أقدم من العرب أنفسهم ، فلما كان آدم في الجنة كان لسانه العربيــة ، ولما عصى سلبه الله العربية فتكــلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه وعلى بعض أحفاده العربية . ونظرية ان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة كان عربياً ، فلما بعد العهـد وطال ، حرّف وصار سريانياً ، وكان يشاكل اللسان العربـي ، إلا انه محرف ، وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح إلا رجلاً واحداً يقال له جرهــم ، فكان لسانه لسان العرب الأول ، فلما خرجوا من السفينـة تزوج إرم بن سام بعض بناته ، فنهم صار اللسان العربـي في ولده عَوْص أبـي عاد وعبيل ،وجاثر أبـي ثمود وجديس، وسميت عاد باسم جرهم ؛ لأنه كان جدّهم من الأم ، وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشذ بن سام ، الى أن وصل الى يشجب بن قحطــان من ذريته وكان باليمن ، فنزل هناك بنو اسماعيل ، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربـي[1] .

وقد تحدث (المعري) على لسان (آدم) في موضوع لسانه ، وما روى من شعر نسب اليه ، فجعله يقول : « أبيتم إلا عقوقاً وأذية ، إنمــا كنتُ أتكلم

---

١ « عن ابن عباس ، ان آدم عليه السلام ، كان لغته في الجنة العربية ، فلما عصــى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه العربية » المزهــر (٣٠/١) .

بالعربية وأنا في الجنة ، فلما هبطت الى الأرض ، نقل لساني الى السريانية ، فلم أنطق بغيرهـــا الى أن هلكت ، فلما ردني الله – سبحانه وتعالى – الى الجنة ، عادت على العربية ، فأيّ حين نظمت هذا الشعر : في العاجلة أم الآجلة ؟»[1] . وذلك ردّاً على من زعم أن آدم كان يعرف الشعر العربي ، وقـــد نظم شعره بالعربية ، ورووا له شعراً زعموا أنه قاله لتأييد صحة دعواهم .

وقد ذهب قوم من العلماء الى أن لغة العرب ، هي أول اللغات ، وكل لغة سواها حدثت بعدها إما توقيفاً أو اصطلاحاً ، واستدلوا بأن القرآن كلام الله هو عربيّ ، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات[2] .

ومنهم من قال : لغة العرب نوعان :

أحدهما : عربية حمير ، وهي التي تكلموا بها من عهد هـــود ومن قَبْله ، وكانت قبل اسماعيل .

والثانية : العربية المحضة التي نزل بها القرآن ، وأول من أنطق لسانه بهـــا إسماعيل ، فعلى هذا القول يكون توقيف اسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين: إما أن يكون اصطلاحاً بينـــه وبين جرهم النازلين عليه بمكة ، وإما أن يكون توقيفاً من الله[3] .

والعربية المحضة هي العربية الخالصة ، وهي العربية الأصيلة عربية اسماعيل ، وقد نعتت بالعربية المتينة . قالوا : أول من فُتق لسانه بالعربية المتينة اسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة[4] . روي «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا: قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، ثم قال : ألهم اسماعيل هذا اللسان إلهاماً»[5] . والعربية التي تكلم بها (اسماعيل) والتي نزل بها القرآن وما تكلمت به العرب على عهـــد النبي ، تختلف عن عربية حمير وبقايا جرهم[6] ، وذكر أن (عمر بن الخطاب) ،

---

١ رسالة الغفران (٣٦١ وما بعدها) .
٢ المزهر (١/٢٨) .
٣ المزهر (١/٢٨) .
٤ المزهر (١/٣٤) .
٥ المزهر (١/٣٣) .
٦ المزهر (١/٣٣) .

قال للرسول : يا رسول الله ، مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ فقال رسول الله : كانت لغــة بني اسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها ، فحفظتها [1] .

والعربية بعد ، في اصطلاح أئمة العربية : العربية المتينة . أما عربية أهــل اليمن : عربية أبناء قحطان فعربية أخرى . وعلى هذا فنحن أمام عربيتين : عربية قحطانية ، وعربية عدنانية اسماعيلية . وبالعربية المتينة تكــلم عرب الحيرة ، كما يظهر ذلك من خبر دوّنه (الجاحظ) في كتابه (البيان والتبيين) ، والطبري في تأريخه ، فقد ذكر (الجاحظ) ان (خالد بن الوليد) سأل (عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيان بن بقيلة) : « أعرب أنتم أم نبط ؟ قال : عرب استنبطنا ، ونبط استعربنا . قال : فحرب أنتم أم سلم ؟ قال : سلم » [2] ، أو انه قال لهم: « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة، فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عــدي : ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان إلا بالعربية » [3] . فلسان أهـل الحيرة عربي ، ليس لهم لسان سواه . بها كانوا ينظمون الشعر وبها كتبوا . فهذه العربية هي عربيــة الحيرة وعرب العراق .

وساير كثير من المستشرقين علماء العربية في تقسيم اللهجات العربية الى عربيتين: عربية جنوبية ، هي العربية القحطانية . وعربية شمالية ، هي عربية القبائل العدنانية . ولكل مجموعة لهجات محلية ، لم تكن تختلف فيما بينها اختلافــاً كبيراً ، وتتباين بوناً شاسعاً ، وانما اختلفت في أمور بسيطة من الفروق اللسانية ، بحيث لا نستطيع أن نضعها في مجاميع لغوية جديدة [4] .

ومن الكتابات الجاهلية التي يعود عهد بعض منها الى ما قبل الميلاد ، حصل الباحثون على علمهم بلغة العرب الجنوبيين وبحضارتهم ، وقد تبــين لهم منها أن تلك الكتابات تمثل لغة متطورة ذات قواعد نحوية وصرفية، وانها كانت لغة التدوين

---

١ المزهر (١/٣٥) .
٢ البيان والتبيين (٢/١٤٨) ، أمالي المرتضى (١/٢٦١) .
٣ الطبري (٣/٣٦١ وما بعدها) .
٤ Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, P. 2, (1966).

عندهم ، وقد استعملت مصطلحات فنية تدل على وجود حضارة لدى الكاتبين بها ، وقد دام التدوين بها الى ظهور الاسلام[1] .

أما علمنا بقواعد نحو وصرف اللغة العربية الشمالية ، التي نسميها اللغة الفصحى ، فستمد من الموارد الإسلامية فقط ، لعدم ورود نصوص جاهلية مدوّنة بها . ولهذا اقتصر علمنا بها على ما جاء عنها في الموارد الاسلامية ليس غير . أما النصوص المعدودة القصيرة ، التي تبدأ بنص النمارة ، وتنتهي بكتابة (حران اللجا) التي يعود عهدها الى سنة (٤٦٣) من سقوط (خبر) (خيبر) ، المقابلة لسنة (٥٦٨) للميلاد ، فإنها وان كانت قد كتبت بعربية قريبة من العربية المحضة ، إلا أنها تمثل في الواقع لهجة من اللهجات العربية الشمالية ، متأثرة بالإرمية (النبطية) ولذلك لا أستطيع اعتبارها نصوصاً من نصوص العربية الفصحى الخالصة ، ثم إنها قصيرة أطولها نص النمارة ، المدوّن بخمسة سطور فقط . ويعود عهده الى سنة (٣٢٨) للميلاد . ولهذا لم نتمكن من استنباط شيء مهم منها ، يفيدنا في تعيين صرف ونحو العربية الفصحى ، أو هذه العربية التي دوّنت بها . ولهذه الأسباب صار علمنا اليوم بقواعد وبنحو كتابات المسند ، والكتابات الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية ، مستمد من موارد هي أقدم جداً من الموارد الاسلامية ، يعود تأريخ بعض منها الى ما قبل الميلاد . ووثائق هذه العربيات جاهلية أصيلة ، لا يشك أحد في أصالتها ، أما العربية الفصحى فنصها الوحيد ، الذي لا يشك أحد في أصالته هو القرآن الكريم ، فلا نص بها قبله ، وهو أطول نص ورد الينا بهذه العربية وبسائر العربيات الأخرى بغير استثناء .

هذا وقد سبق لي أن تحدثت في الفصل الأول من هذا الكتاب عن تحديد لفظة العرب ، وعن معانيها ، وعن ورودها في مواضع من القرآن ، مثل : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »[2] . وفيه « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »[3] . وفيه : « أأعجمي وعربي

---

1 Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, P. 2.

٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .

٣ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٣ وما بعدها .

قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء »[1] . وفيه : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[2] . و « كذلك أنزلناه حكماً عربياً »[3] . و « كذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد »[4]. و « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون»[5]. و « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون »[6] . وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً »[7] . و « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[8] . و « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا »[9] .

فاللسان الذي نزل به القرآن ، هو اللسان العربي « الفصيح الكامل الشامل ليكون بيناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة دليلاً الى المحجة »[10] . وقد نزل « محكماً معرباً »[11] . وذلك تمييزاً لهذا اللسان عن ألسنة الأمم الأخرى التي نسبت الى العجمة ، فصارت ألسنتها ألسنة أعجمية[12] .

فاللغة العربية إذن ، هي لغة (العرب) ، وبهم سميت وعرفت فأخذت تسميتها من اسمهم . وقد عرفنا أن المدلول الأول للفظة (العرب) هو البداوة والأعرابية، ثم توسع في مدلولها ، حتى شمل كل سكنة جزيرة العرب من بدو وحضر ، فأهل المدر عرب ، وأهل الوبر عرب كذلك ، وعرف أهل البوادي بالأعراب، تمييزاً لهم عن أهل القرى ، أي الحضر ، وصارت اللفظة سمة خاصة بهم . أما لسانهم ولسان الحضر ، فهو اللسان العربي وكفى .

ووسمت هذه العربية بسمة أخرى ، صارت ترادفها حتى اليوم ، هي (العربية الفصحى) و (اللغة الفصحى) ، يريدون بها هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم.

---

١ فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٤٤ .
٢ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .
٣ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٧ .
٤ طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ١١٣ .
٥ الزمر ، الرقم ٣٩ ، الآية ٢٨ .
٦ فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣ .
٧ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٧ .
٨ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٣ .
٩ الاحقاف ، الرقم ٤٦ ، الآية ١٢ .
١٠ تفسير ابن كثير (٣٤٧/٣) ، (تفسير سورة الشعراء) .
١١ تفسير ابن كثير (٥١٨/٢) ، (تفسير سورة الرعد) .
١٢ الجزء الاول (ص ١٣ وما بعدها) من هذا الكتاب ، والجزء الاول من كتابي القديم : تاريخ العرب قبل الاسلام .

تمييزاً لها عن بقية اللغات واللهجات . والفصح والفصاحة البيان[1] . وبما أن اللغة العربية بينة بليغة قيل لها ذلك . وهي في معنى (لسان عربي مبين) ، أي لسان عربي فصيح أو بين . وبذلك لا ينصرف الذهن الى لغات العوام ولا الى لهجات القبائل في الجاهلية أو لغات أهل العربية الجنوبية ، لأنها لا تتصف بصفة الفصاحة في نظر علماء اللغة .

واللغة العربية التي نكتب بها ، لغة واسعة ، ما في سعتها من شك : ألفاظها كثيرة ، حتى لتجد فيها مئات وعشرات من المسميات وضعت كلها لمسمى واحد على ما يذكره أهل اللغة . فللأسد وللفرس وللجمل وللسيف وما يتعلق بها ألفاظ كثيرة ، تجدها في كتب اللغة والمعجمات . ونحن لا نريد الشك في ذلك ، ولكننا إذا أردنا أن نبحث بأسلوب علمي حديث مستند الى لهجات القبائل ، والى ما ورد في النصوص الجاهلية ، فإننا سنضطر الى القول بأن هذه الكثرة من الألفاظ ليست مسميات لشيء واحد في لغة واحدة ، هي لغة القرآن الكريم ، وإنما هي مسميات لذلك الشيء في لهجات عربية أخرى ، جمعها علماء اللغة في الاسلام من أفواه أناس ينتمون الى قبائل متعددة ، أشاروا الى أسماء القبائل التي تكلمت بها أحياناً ، ولم يشيروا اليها في أغلب الأحيان . فذهبت بين الناس على أنها مسميات لمسمى واحد في لغة واحدة ، هي هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، أي انهم جعلوها من الألفاظ المترادفة .

ولم تعين الموارد الأعجمية شكل اللغة العربية ، ولم تنص على لسان واحد من ألسنة العرب ، على انه اللسان العربي الفصيح العام الذي كان يتكلم به كل العرب. ولم يعين القرآن هوية اللسان العربي ، ولم يخصصه بلسان معين من ألسنة العرب المتعددة ، وانما جاءت التسمية فيه عامة شاملة ، لا تخص لساناً واحداً ، ولا لغة معينة محددة . قال المفسرون في تفسير الآية : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً » ، « فأنزلنا هذا القرآن عربياً اذ كانوا عرباً »[2] ، وقالوا في تفسير الآية: « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً » ، « كذلك أيضاً أنزلنا الحكم والدين حكماً عربياً » وجعل ذلك عربياً ووصفه به لأنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربي

---

١ تاج العروس (١٩٧/٢) ، (فصح) .
٢ تفسير الطبري (١٥٩/١٦) .

فنسب الدين اليه ، اذ كان عليه نزل فكذب به الأحزاب »[1] ، وقالوا في تفسير الآية : « وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها » : « يقول تعالى ذكره وهكذا أوحينا اليك يا محمد قرآناً عربياً بلسان العرب لأن الذين أرسلتك اليهم قوم عرب فأوحينا اليك هذا القرآن بألسنتهم ليفهموا ما فيه من حجج الله وذكره لأنا لا نرسل رسولاً إلا بلسان قومه ليبين لهم،لتنذر أم القرى وهي مكة وما حولها »[2] .

وقال (الطبري) في مقدمة تفسيره « فإن كان ذلك كذلك ، وكان غير مبين منّا عن نفسه من خاطب غيره بما لا يفهمه عنه المخاطب ، كان معلوماً انه غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطب ، ولا يرسل الى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل اليه ، لأن المخاطب والمرسل اليه إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به اليه فحاله قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة اليه وبعده سواء ، إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً . والله جل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطاباً أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت اليه ، لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث والله تعالى عن ذلك متعال . ولذلك قال جل ثناؤه في محكم تنزيله : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . فغير جائز أن يكون به مهتدياً من كان بما يهدى اليه جاهلاً . فقد تبين اذن بما عليه دللنا من الدلالة ان كل رسول لله جل ثناؤه أرسله الى قوم ، فإنما أرسله بلسان من أرسله اليه ، وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها الى أمة ، فإنما أنزله بلسان من أرسله اليه،وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها الى أمة فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله اليه . واتضح بما قلنا ووصفنا ان كتاب الله الذي أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، بلسان محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذ كان لسان محمد صلى الله عليه وسلم عربياً ، فبيّن ان القرآن عربي . وبذلك نطق محكم تنزيل ربنا ، فقال جل ذكره : إنا أنزلناه قرآناً عربياً

---

١ تفسير الطبري (١٣/١١٠) .

٢ تفسير الطبري (٢٥/٦ وما بعدها) .

لعلكم تعقلون ، وقال : وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »[1] .

وقد تعرض علماء العربية لمعنى (العجم) والعرب ، فقالوا : (العجم) خلاف العرب ، والأعجم من لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان من العرب ، ومن في لسانه عجمة وإن أفصح بالعربية ، « وفي التنزيل : ولو نزلناه على بعض الأعجمين »[2] . وكل من لم يفصح بشيء فقد أعجمه ، وأعجم الكتاب خلاف أعربه ، أي نقطه بالنقط ، وورد في شعر قيل هو لرؤبة ويقال للحطيئة :

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه

ومنه :

والشعر لا يطيعه من يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه

أي يأتي به أعجمياً ، يعني يلحن فيه ، وقيل يريد أن يبينه فيجعله مشكلاً لا بيان له[3] .

وقالوا : العرب خلاف العجم ، ورجل معرب ، إذا كان فصيحاً وان كان عجمي النسب . والإعراب الإبانة والإفصاح عن الشيء . وأن يعرب بن قحطان هو أول من تكلّم بالعربية ، وأول من انعدل لسانه عن السريانية الى العربية ، وبه سمي العرب عرباً . وقيل : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا قرآناً عربياً لقوم يعلمون ثم قال : ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً » ، وقيل إن يعرب أول من نطق بمنطق العربية ، واسماعيل هو أول من نطق بالعربية الخالصة الحجازية التي أنزل عليها القرآن[4] . الى غير ذلك من أقوال تحاول ربط لفظة (العرب) بالإعراب والافصاح والإبانة ، وربط العربية ، أي لسان العرب بقحطان ، وباسماعيل ، ووراء كل هذه الأقوال المصطنعة عصبية تتحزب لقحطانية

١ تفسير الطبري (١/٥ وما بعدها) .
٢ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٨ ، تفسير الطبري (١٩/٦٩ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٤ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .

أو لعدنانية ، التي هي اصطنعت هذه الأقوال في الاسلام ، وحذلقة مصطنعة باردة استغلت المجانسة اللفظية بين عرب ويعرب وأعرب ، لإيجاد صلة بين معاني هذه الألفاظ وفي جذورها .

وتشمل لفظة (العجم) كل من ليس بعربي ، وهي في مقابل لفظة : « Barbarian » في اللغة الانكليزية المأخوذة من أصل يوناني،وهي لا تعني المتوحشين وإنما (أعاجم) و (غرباء) بتعبير أصح ، الذين كانوا لا يحسنون التكلم بلغة المهذبين ، بل كانوا يرطنون في كلامهم ، ويتكلمون بلهجات رديئة ، ثم أطلقها اليونان على كل من لا يحسن التكلم باليونانية وعلى كل من يتكلم بلغة غير يونانية. ولما دخل اليونان في حكم الرومان ، صارت الكلمة تطلق على كل الشعوب الأخرى التي لا تتكلم باليونانية ، أو اللاتينية[1] . ولا استبعد احتمال مجيء هذه النظرية عند العرب من اليونان ، وإن كان اليونان ، لم ينفردوا بها وحدهم ، فقد كانت الشعوب القديمة تعرف مثل هذه المصطلحات ، ومصطلح : (كوييم) « Goim » العبري ، الذي يعني « Gentiles » في الانكليزية ، وغرباء ، وشعوب،ومشركين عبدة أصنام[2] ، يعبر عن هذه النظرة . فكل الشعوب باستثناء (العبرانيين) هم (كوييم)،والعبرانيون هم المتكلمون بالعبرانية،وغيرهم هم الذين لا يتكلمون بها .

ولفظة (العجم) ، وإن كانت لفظة عامة ، قصد بها كل من هو ليس بعربي ، لكنها أطلقت في الغالب على الفرس واليونان ، وهم أرقى الشعوب التي احتك بها العرب في ذلك الوقت . وأطلقت على الفرس بصورة خاصة ، لما كان للساسانيين من اتصال خاص بالعرب قبيل الاسلام . أما سكان إفريقية ، فلم تطلق عليهم هذه اللفظة إلا قليلاً ، لأن العرب لم ينظروا اليهم نظرة احترام ، ولهذا عرفوا عندهم بالعبيد ، وبالحبش ، وبالسودان . وقد نعتوا بالطمطمانية ، فورد (طمطمٌ حبشيون) ، بالنظر الى لغتهم ، وعدم تمكنهم من الافصاح بالعربية . وقد ورد في معلقة (عنترة) : (أعظم طمطم) ، في هذا البيت:

تأوي له قلص النعام كما أوت   حزق يمانيةٌ لأعجم طمطم[3]

---

[1] Hastings, P. 84.
[2] Hastings, P. 303.
[3] البيت الـ (٢٥) من المعلقة .

ومن القرآن واللغة استنبط علماء اللغة قولهم في أن العربية من الإبانة والإفصاح ، وانها انما دعيت بذلك لأن (يعرب بن قحطـــان) كان أول من أعرب بلسانه فنسب هذا اللسان اليه . فقد رأينا ان الآيات المتقدمة التي أشرت اليها ، ذكرت ان القرآن نزل بلسان عربـي مبين ، وقد جعلته في مقابـــل اللسان الأعجمي ، فاستنتجوا منها ان العربية بمعنى الافصاح والإبانة ، وان التسميـة انما جاءت من هذا القبيل ، مع ان الوصف راجع للغة القرآن ، لا للعربية نفسها ، ثم وجدوا أن الإعراب في اللغة بمعنى الإفصاح والإبانة ، فربطوا بين هذه اللفظة وبين لفظة (العرب) ، وقالوا ان (عرب) بمعنى فصح ، وأن (العرب) من هذاالأصل، مع انهم يذكرون أيضاً ان تعرب معناهـــا أقام بالبادية ، وأن تعرب واستعرب ، بمعنى رجع الى البادية بعد ما كان مقيماً بالحضر فلحق بالأعـراب . وأن تعرب بمعنى تشبّه بالعرب وتعرب بعد هجرته ، أي صار أعرابياً ، وأن في الحديث : ثلاث من الكبائر ، منها التعرب بعد الهجرة ، وهو أن يعود الى البادية ويقيم مع الأعراب ، بعد أن كان مهاجراً ، وكان من رجع بعد الهجـرة الى موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد[1] ، ومعنى هذا ان صلتها بالأعرابية وبـ (العرب) بمعنى البدو أهل البادية ، أقرب الى المنطق والمعقول من صلتها بالإبانة والفصاحة ، أي الإعراب . وقد سبق أن ذكرت ان معنى اللفظة في النصوص الأشورية وفي كتب اليونان واللاتين والعبرانيين والسريان ، وفي المسنـد ، هو (البداوة) والأعرابية لا غير ، ثم أطلقت على جميع سكنة جزيرة العرب ، لغلبة الحياة الأعرابية عليها حتى صارت لفظة (العربية) بمعنى بلاد العرب ، تدخل فيها مواطن أهل المدر وأهل الوبر ، وصارت لفظة (العرب) علماً على جنس وقوم .

وإذا أخذنا بهذا التفسير التأريخي المستمد من النصوص ، لزم علينـا القول إن العربية من (عرب) (العرب) ، أهل العربية ، وهم (الأعراب) ، وقد أطلقت على ألسنتهم جميعاً من غير تمييز ، فكل لهجات العرب : لهجات بدو أو لهجات حضر ، هي لهجات عربية ، لأنهم عرب ومن سكنة بلاذ العرب ، ولهذا عرفت (جزيرة العرب) كلها (بالعربية) في كتب اليونان واللاتين على نحو ما تحدثت عن ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب ، لا نستثني منها لهجة من اللهجات ، مهما كان قربها أو بعدها من العربية التي نزل بها الوحي .

---

١ تاج العروس (١/٣٧٧) ، (عرب) .

فما ذكره علماء اللغة من تخريج في وجه تسمية العرب بهذا الاسم ، من اشتقاق اللفظة من (عربة) التي قالوا إنها باحة العرب ، أو من (يعرب) ، أو من اعراب لسانهم ، أي ايضاحه وبيانه ، لأنه أوضح الألسنة وأعربها عن المراد بوجوه من الاختصار ، أو بما شاكل ذلك ، هو كله تخريج متكلف ، يمثل تخبطهم فيه ، كتخبطهم في تفسير الأسماء التي لم يعرفوا من أصلها شيئاً، فوضعوا لها تخريجات أوجدوها لإظهار علمهم بها ، ووقوفهم عليها ، وعلى كل شيء قديم [١] .

وفي العربية الحالية : الإعراب . وهو تغير أواخر الكلمات بتغير العوامل الداخلة عليها بالرفع والنصب والجر والسكون . احتفظت العربية به على حين فقدته معظم اللغات السامية ، باستثناء البابلية القديمة [٢] . ويظهر من القرآن ومن الشعر الجاهلي، أن الإعراب كان من سمة هذه اللغة التي نزل بها الوحي .

ويرى بعض المستشرقين أن الإعراب كان موجوداً في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من أكثر تلك اللغات . ونرى له أثراً يدل عليه في العبرانية في حالتي المفعول به وفي ضمير التبعية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التبعية ، فإن هاتين الحالتين تدلان على وجود الإعراب في أصولها القديمة [٣] .

ولعلماء العربية بحوث مستفيضة في (الإعراب) [٤] ، كما أن للمستشرقين بحوثاً فيه . وقد ذهب بعض منهم الى أن بعض اللهجات العربية القديمة ، مثل لهجة قريش لم تكن معربة ، أو انها لم تكن على هذا النحو من الإعراب الذي ثبته وضبطه علماء العربية في الاسلام ، حتى ذهب (كارل فولرس) الى أن القرآن لم يكن معرباً في أول أمر نزوله ، لأنه نزل بلسان قريش ، وهو لسان غير معرب ، وانما أعرب حين وضع علماء اللغة والنحو قواعد العربية على وفق لغة

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٤٣) .

٢ العربية ، ليوهان فك (ص ٣) ، السيوطي ، الاشباه والنظائر (١/٧٢ وما بعدها)، الخصائص (١/٣٤) ، السيوطي ، الحاوي للفتاوي ، (٢/٢٦٩ وما بعدها) .

٣ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي (٧/٣١) .

٤ راجع الفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون (١/١٢١) ، حيث تقف على اسماء بعض المؤلفات التي ألفت في اعراب القرآن .

الأعراب المعربة ، التي أخذوها من تتبعهم الشعر الجاهلي وكلام الأعراب[1] .

وقد لمس (كاله) هذا الموضوع كذلك ، وتطرق الى ما ورد في الرواية من أخبار تحث المسلم على وجوب مراعاة قواعد الإعراب عند قراءته القرآن . فاستنتج منها ان كتاب الله لم يكن عند نزوله معرباً ، فلما جعل الإعراب من سمات العربية ، أعرب وفقاً لقواعده . وساق دليلاً على رأيه هذا ما ورد من آراء بهذا الموضوع للفرّاء (٢٠٧ هـ) . وهو يرى ان علماء العربية استنبطوا قواعد الإعراب من الشعر ومن لغات الأعراب ، ثم ضبطوا بها النص القرآني بموجبها، وبذلك سعوا لخدمة القرآن[2] .

وقد خالف (كاير) « R. Geyer » و (نولدكه) « Th. Nöldeke » رأي (فولرس) ، وذهبا الى أن ما ذهب اليه من أن القرآن لم يكن معرباً ، ثم أعرب ، رأي لا يؤيده دليل ، لا من حديث ولا من خبر أو لغة ، وذهبا الى احتمال حدوث اختلاف في القراءات ، بسبب كون الحروف صامتة ، فلما كان الرسول يتلو القرآن ، وكان الصحابة يدوّنونه بحروف صامتة ، لا حركات فيها ولا علامات تميز الحروف المتشابهة بعضها من بعض ، وقع الاختلاف في التلفظ بسبب عدم وجود الحركات ، ووقع اللحن من بعضهم في القراءة ، ولكن القرآن معرب ، وآية ذلك وجود آيات عديدة لا يمكن فهم معانيها إلا بقراءتها معربة[3].

ففي القرآن آيات لا تترك مجالاً للشك في أنه نزل معرباً ، ففي آية « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ »[4] ، وفي آية « أن اللهَ بريء من المشركين ورسولُه »[5] ، وآية « وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّهُ »[6]، وآية « وإذا حضر القسمةَ أولوا القربى »[7] ، وغيرها ، براهين واضحة تفيد أن موقع الكلم فيها كان معرباً ، وأن هذا التركيب الذي تختلف معانيه باختلاف تحريك أواخر كلمه ، لا بد وأن يكون كلاماً معرباً

---

١ K. Vollers, Volkssprache und Schriftsschprache in alten Arabien. Strassburg, 1906, Shorter Ency., p. 276.

٢ يوهان فك ، العربية (٥ حاشية) .

٣ Shorter Ency., p. 276.

٤ سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

٥ التوبة ، الآية ٣ .

٦ البقرة ، الآية ١٢٤ .

٧ النساء ، الآية ٨ .

في أصله ، وليس من التراكيب التي أصلحت فيما بعد وفقاً لقواعد الإعراب[1] .

وروي ان أعرابياً سمع إماماً يقرأ : « ولا (تَنْكِحوا) المشركين حتى يؤمنوا » ، بفتح تنكحوا ، فقال : سبحان الله هذا قبل الإسلام قبيح فكيف بعده ! فقيل له : إنه لحن والقراءة : « ولا تُنْكِحوا » ، فقال : قبحه الله ، لا تجعلوه بعدها إماماً ، فإنه يحل ما حرم الله[2] .

والعربية المحضة ، هي عربية معربة ، فيها كل خصائص الإعراب ، غير ان الإعراب يتباين فيها بعض التباين بحسب تباين اللهجات ، نقول ذلك استناداً الى ما ضبطه علماء اللغة من وجوه الاختلاف بين لغات العرب . ونرى أثر الإعراب في النص المعروف بنص (حران) لصاحبه (شرحيل بن ظلمو) (شراحيل بن ظالم) ، ففي جملة (بنيت ذا المرطول) الواردة فيه ، والمكتوبة بصيغة المفعولية بنصب لفظة (ذا) لوقوع الفعل عليها ، دلالة على وجود الإعراب في لغة هذا النص . أما جملة (انا شرحيل بر ظلمو) ، فقد دونت وفقاً لقواعد النبطية لا العربية الفصيحة ، مما يدل على تأثر الكاتب باللهجة النبطية .

أما بالنسبة الى عربية المسند ، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن وجود من يتكلم بها على نحو ما كانت في الجاهلية من الصفاء والأصالة ، ولأن المسند لا يستعمل الحركات في الكتابة ولا أية علامة تدل على تغير أواخر الكلمات ، فلا ندري كيف كانوا يحركون أواخر الكلم ، وعلى معرفة هذه الحركات يتوقف بالطبع معرفة وجود الاعراب من عدم وجوده في لهجة من اللهجات .

وأما بالنسبة الى النبطية ، وهي لهجة عربية شمالية ، أقرب الى العربية الفصحى من العربيات الجنوبية ، فقد ذهب الباحثون في قواعدها ، الى أن أواخر الكلمات فيها ، تتغير فيها بحسب مواقعها من الإعراب ، حتى ذهب بعضهم الى وجود الحركات فيها ، وهي الضمة في حالة الرفع ، والفتحة في حالة النصب ، والكسرة في حالة الجر ، غير انهم لم يكونوا يعقبون هذه الحركات بالنون .

والإعراب وإن سقط اليوم من لغاتنا الدارجة ، ومن لهجات الأعراب ، غير أن هنالك قبائل في جزيرة العرب ، لا تزال تتكلم بلهجة عربية معربة ، إعرابها

١ يوهان فك ، العربية (٣ وما بعدها) .
٢ عيون الاخبار (٢/١٦٠) .

موافق لإعراب هذه العربية الفصحى. ونحن نأسف لأن علماء العربية في هذا اليوم، لم يهتموا حتى الآن بدراسة لهجات هذه القبائل ، ودراسة أصولها وأنسابها ، ولم يعتنوا بوضع خريطة بمواضع القبائل موزّعة على حسب لهجاتها وخصائص ألسنتها، في الماضي وفي الحاضر ، مع ان في وضع هذه الخرائط أهمية كبيرة في تعيين لغات العرب ، وفي كيفية تثبيت المناطق التي انتشرت فيها العربية الفصحى ، والمناطق التي لا تزال تتحدث بها بطبيعتها ، لا عن دراسة وتمرين .

والعربية لغة واسعة ، « قال بعض الفقهاء : كلامُ العرب لا يحيط به إلا نبي »[1] . و « أن الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الأقل، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير »[2] . وفي كلام علماء اللغة هذا حق ، فالألفاظ وهي مادة اللغة وسداها ولحمتها لا يمكن أن يساير عمرها عمر اللغة ، فمنها ما يموت ، لذهاب الحاجة اليه ، ومنها ما يقل استعماله فيهمل ، ومنها ما يولد ، لظهور الحاجة اليه ، وقد تتبدل معاني الألفاظ وتتغير ، الى غير ذلك من أمور تطرأ على الألفاظ بحث عنها علماء اللغة ، وهي لا تدخل في موضوعنا هذا ، في هذا المكان .

هذا وليس من السهل على أحد التحدث في هذا الوقت عن مبدأ نشوء العربية الفصحى ، وعن الأدوار التي مرت عليها حتى بلغت المرحلة التي وصلت اليها بتثبيتها في القرآن الكريم . وذلك بسبب عدم وجود نصوص جاهلية مدونة بهذه اللهجة . فالقرآن الكريم هو الذي ثبتها وعرّفنا عليها ، وبفضل كونه كتاباً مقدساً أقبل العلماء على دراسة لغته،واضطروا على جمع قواعدها،فصارت لغتنا الفصحى ، أما الشعر الجاهلي ، فمع انه أقدم عهداً من القرآن ، لكنه ثبت ودّون بعده ، إذ لم يصل الينا حتى الآن أي أثر منه مدون تدويناً جاهلياً ، ولهذا فالقرآن والشعر هما أقدم ما عندنا من نصوص بهذه العربية في النثر وفي النظم ، ولولاهما لما كان في وسعنا الوقوف عليها .

ولعربيتنا بعد ، في نظر علماء العربية خصائص ومميزات ، ميزتها كما يقولون عن بقية اللغات منها : اتساعها من حيث المفردات ، ومنها تخصصها دون غيرها

---

١ المزهر (١/٦٤) ، الصاحبي (٤٧) .
٢ المزهر (١/٦٦) .

على حدّ قولهم بالاعراب ، ومنها ، تفردها بالمترادفات ، وبالأضداد ، أضف الى كل ذلك اتساع حجم قواعد نحوها وصرفها . قال (ابن فارس) : « فلما خصّ – جل ثناؤه – اللسان العربي بالبيان علُم ان سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه . فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربي ، لأن كل من افهم بكلامه على شرط لغته فقد بين ، قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يُعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان،لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ، ثم لا يُسمى متكلماً ، فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً .

وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذ غلط ، لأنّا لو احتجنا الى أن نعبر عن السيف وأوصافه بالفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك ؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟ »[1] .

المترادفات :

وفي العربية ألفاظ عديدة يراد بها معنى واحد ، فللعسل (٨٠) اسماً ، وللأسد (٣٥٠) ، وقيل (٥٠٠) ، وقيل (٦٧٠) ، وللحيّة (٢٠٠) ، وقيل (٥٠٠) ، وللداهية (٤٠٠) ، وقيل أربعة آلاف ، وللحجر (٧٠) ، وللكلب (٧٠) ، وللسيف (٣٠) ، وقيل (١٠٠٠) ، وللناقة (٢٥٥) ، وللبعير (١٠٠٠) ، وللشمس (٥٢) ، وللخمر (١١٠) ، وقيل (٢٠٠) ، وللبئر (٨٨) ، وللماء (١٧٠) وغير ذلك ، وخاصة ما يدخل في باب الصفة ، وما يدخل في باب الميل الجنسي ، فلا تكاد تتصفح مادة في معجم ، حتى تصيب من مترادفاته لفظاً أو أكثر[2] .

ويقال لهذه الألفاظ التي تدل على شيء واحد : (المترادفات) . والمترادف

---

١ الصاحبي (٤٠ وما بعدها) .

٢ الرافعي (١٩٣/١) ، المزهر (٤٠٧/١) ، « جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحية مائتين » ، « حفظت للحجر سبعين اسما » ، الصاحبي (٤٤) .

أن تكون أسماء لشيء واحد ، وهي مولدة ومشتقة من تراكب الأشياء[1]. وعرف بعض العلماء المترادف ، بأنه الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد[2] . ولعلماء اللغة كلام في المترادفات . منهم من يقول بالمترادفات ، وبأن الألفاظ وإن اختلفت فإنها ترجع الى معنى واحد ، ومنهم من أنكر الترادف ، وزعم ان كل ما يُظن من المترادفات ، فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات[3] ، وان في كل واحدة معنى منها معنى ليس في الأخرى[4] . ومن قال بالترادف ، نظر الى اتحاد دلالتها على الذات ، ومن يمنع نظر الى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهي تشبه المترادفة في الذات والمتباينة في الصفات . وجعل بعضهم هذا قسماً آخر ، سمّاه المتكافئة[5] .

والذين ينكرون الترادف ، يقولون : إن كثرة الألفاظ للمعنى الواحد إذا لم تكثر بها صفات هذا المعنى كانت نوعاً من العبث تجل عنه هذه اللغة . ويرون أن كل لفظ من المترادفات فيه ما ليس في الآخر من معنى وفائدة ، وان كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ففي كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه[6].

وهم يعتبرون المترادفات أسماءً تزيد معنى الصفة ، ويختلفون بذلك عن غيرهم ممن أنكر الترادف وقالوا إن الموضوع للمعنى الأصلي اسماً واحداً والباقي صفات له لا أسماء ، فأسماء السيف كلها أصلها السيف وسائرها صفات له ، كالمهند ، والصارم والعضب وغيرها[7] ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج،وكادت تتجرّد هذه الألفاظ من تلك الفروق والأوصاف بالاستعمال ، وغلبت عليها الإسمية[8] .

ومذهب آخر يرى إثبات الترادف ، لكنه يخصه بإقامة لفظ مقام لفظ آخر لمعانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد . كما يقال أصلح الفاسد ، ولمّ الشعث ، ورتق

---

١ تاج العروس (١١٦/٦) ، (ردف) ٠
٢ المزهر (٤٠٢/١) ٠
٣ المزهر (٤٠٣/١) ٠
٤ المزهر (٤٠٥/١) ٠
٥ المزهر (٤٠٥/١) ٠
٦ الرافعي (١٩٠/١) ٠
٧ الرافعي (١٩٠/١) ٠
٨ محمد هاشم عطية ، الأدب العربي (٣٧) ٠

الفتق ، وشَعَب الصدع ، ونحوها . أما اطلاق الأسماء على المسمى الواحد ، فيسمونه المتوارد : كالخمر ، والعقار ، والليث ، والأسد .

ومنهم من أثبت الترادف مطلقاً بدون قيد ولا اعتبار ، ولا تقسيم ؛ وعليه أكثر اللغويين والنحاة[1] .

ومن أهم أسباب الترادف في العربية ، ان العرب كانوا قبائل لها لهجات وألسنة مختلفة ، فتباينت بتباين ألسنتها أسماء الأشياء . فالسكين لغة في المدية ، والمدية لغة في السكين عند دوس . وفي حديث أبي هريرة : « والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ » ، وذلك حين قدم من دوس ولقي الرسول ، وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : ناولني السكين ، فلم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، فقال : آلمدية تريد ؟ وأشار اليها فقيل له : نعم ، فقال: أو تسمى عندكم السكين ، والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ[2] . فقد تكون قبيلة استعملت كلمة لم تستعملها الأخرى ، أو استعملت غيرها ، خصوصاً وان بعض البيئات الطبيعية والاجتماعية لقبيلة قد تخالف ما للقبيلة الأخرى ، فقبيلة على الساحل وأخرى في جبل ، وثالثة في بادية ، وقد تأخذ قبيلة اسماً من الأعاجم لشيء لم يعرف اسمه عندها فتعربه ، فيكون اسماً له ، وقد تأخذ قبيلة اسماً أو أسماء توجد في لسانها من لسان قبيلة أو ألسنة قبائل أخرى ، فلما جمع علماء اللغة ألفاظ العربية ودونوها ، ولم يفطنوا الى أصلها ولا الى القبائل التي استعملتها ، ولا الى تأريخها ، لعدم وجود هذا النحو من البحث عندهم في ذلك الوقت ، فدونت على انها مترادفات ، وهم في ذلك على صواب ، ولكنهم كانوا على خطأ ، من حيث انهم لم يدركوا انها كانت لغات قبائل ، وان جمعهم للألفاظ ، وإهمالهم الاشارة الى أسماء القبائل المتكلمة بها ، جعلها مترادفات بالمعنى الذي ذهبوا هم اليه . وبذلك اتسعت مادة مفردات المعجم العربي اتساعاً كبيراً ، وهو في حقيقته حاصل جمع لهجات ، أخذ من اختلاف الألسنة ومن مختلف اللهجات ، فضم كله الى معجم العربية ، وظهر على انه مفردات هذه العربية ، لعدم إفصاح علماء اللغة

---

١ الرافعي (١/١٩١) .
٢ تاج العروس (٩/٢٣٨) ، (سكن) ، الاصابة (٤/٢٠٠ وما بعدها) ، (رقم ١١٩٠) ، الاستيعاب (٤/٢٠٠ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، فجر الاسلام (٥٢) ، جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/٢١٤) .

عن أصل كل مترادف وعن اللسان الذي نطق به في الغالب،فعمي الأمر علينا ، وصرنا نعتبر هذه الألفاظ التي تقصد مسمى واحداً من المترادفات .

ويرى بعض علماء اللغة أن من أسباب وقوع الترادف أن الصفات قد تتحول بتفشي الاستعمال وبكثرة ورودها على الألسنة فتنزل هذه الصفات منزلة الحقائق العُرفية [1] . وقد تضخمت كتب اللغة كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لأشياء، فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء ، « فمثلاً إذا أطلق شاعر كلمة الهَيْصم على الأسد من الهصم وهو الكسر، وأطلق عليه آخر الهرّاس من الهرس، وهو الدق ، وضع أصحاب المعاجم الكلمتين على أنهما اسمان مرادفان للأسد » [2].

ولا يعدّ ثراء لغة بكثرة مفرداتها ومترادفاتها دليلاً على ثراء تلك اللغة ، ولا امارة على تقدمها من الناحية العقلية ، فإن اللغة تستمد مادتها من جميع محصولات اللغة الخاصة بالحرف ، والمهن ، وبالحياة الروحية ، كما تستمدها من جميع لهجات القبائل ، وما نجده من كثرة مفردات ومترادفات في العربية ، لا يعود الى كون هذه العربية لغة قبيلة واحدة ، أو عرب من العرب ، وإنما بسبب كونه حاصل جمع لغات ، جمعه العلماء من ألسنة متعددة فدوّنوه ، فظهر الشيء الواحد وقد يكون له عشرة أسماء أو أكثر من ذلك أو أقل حسب كثرة أو ندرة استعماله بين العرب ، فما كان مألوفاً عندهم ، وكانوا في حاجة ماسة اليه ، وكان استعمالهم له كثيراً ، وفوائده بالنسبة لهم عديدة ، كثرت مسمياته ، بل مسميات أجزائه كما كثرت عندهم صفاته ، التي تتحول بمرور الزمن الى أسماء ، ولهذا نجد في العربية كثرة من الأسماء والألفاظ ، هي في الأصل صفات ونعوت لخصائص أشياء [3] .

ومن أمثلة المترادفات في العربية : القمح ، والبُر ، والحنطة ، قال علماء اللغة : القمح : البر ، لغة شامية ، « وأهل الحجاز قد تكلموا بها ، وقد تكرر ذكره في الحديث . وقيل لغة قبطية » [4] ، والبر بالضم الحنطة ... قال المتنخل الهذلي :

---

١ المزهر (١/٤٠٢ وما بعدها) ، الرافعي (١/١٩٢) .
٢ فجر الاسلام (٥٤) .
٣ بروكلمن (١/٤٣) .
٤ تاج العروس (٢/٢٠٨) ، (قمح) .

لا درّ درّي إن أطعمت نازلكم   قرف الحَتي وعندي البر مكنوز

قال ابن دريد : « البُر أفصح من قولهم الحنطة واحدته بُرة »[1] ، «والحنطة بالكسر البُر الحب المعروف »[2] . وهي في الواقع ألفاظ وردت في لغات ، حين ضبطها علماء اللغة ، فات عليهم انها لم تكن مستعملة في كل لغات العرب ، وانما هي في لغات بعض منهم . فالقمح مثلاً ، لفظــة وردت في لغات عرب الشأم والحجاز ، لأنها من أصل آرامي ، هو (قمحو)[3] ، وقد كان أهل الحجاز في الجاهلية يستوردون القمح من بلاد الشأم ، فأبقوا التسمية الآرامية على حالها ، بعد أن أجروا عليها بعض التعديل . وأما (الحنطة) ، فنجد لها مقابلاً في العبرانية هو « Chittah » في العبرانية[4] ، مما يدل على ان اللفظة كانت مستعملة في العربية الغربية . وأما لفظة (بُر) ، فهي من الألفاظ التي وردت في نص (أبرهة) ، فهي لغة يمانية وحجازية ، وقد نص علماء اللغة على ورودها في لغة أهل الحجاز ، وربما أخذوها من أهل اليمن ، الذين عرفوا بزراعتهم للبر قبل الاسلام . ووردت لفظة (بُر) بمعنى حنطة في النص الموسوم بـ « Jamme 670 » إذ ورد فيه : (برم وشعرم على ارضهمو)[5] ، أي (حنطة وشعير في أرضهم) (حنطة وشعير من أرضهم).

ومما يكثر في هــذه العربية (المشترك) ، وحده : اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة . ولعلماء اللغــة بحوث فيه ، فمنهم من يؤيد وقوعــه ومنهم من ينكر . ومن المشترك : العم ، فالعم أخو الأب ، والعم : الجمع الكثير ، ومشى ، فشى يمشي من المشي ، ومشى إذا كثرت ماشيته ، وللنوى مواضع ، وللروبة والرؤبة معان ، وللأرض معان ، وللفظة الهلال معان ، وللفظ العين معان كثيرة ومواضع عديدة ، الى غــير ذلك من ألفاظ تجدها في كتب اللغة[6] .

---

١ تاج العروس (٣/٣٨) ، (برر) .

٢ تاج العروس (٥/١٢١) ، (حنط) .

٣ غرائب اللغة (٢٠٢) .

٤ راجع سفر التكوين ، الاصحاح ٣٠ ، الآية ١٤ ، سفر الخروج ، الاصحاح ٣٤ ، الآية ٢٢ ، الأصل « العبري » .

٥ السطر ٢٦ ــ ٢٧ من النص .

٦ المزهر (١/٣٦٩) ، (النوع الخامس والعشرون) .

وفي العربية : الأضداد . وهو أن يكون للكلمة معنى ، ثم يكون لها معنى آخر مضاد له . وهو ما اتفق لفظه واختلف معناه ، مثل جلل للكبير والصغير ، وللعظيم وللحقير . ومثل الجون ، للأسود والأبيض . والقوي ، للقوي والضعيف، والرجاء للرغبة والخوف . والبسل للحلال وللحرام . والناهل للعطشان ، والناهل، الذي قد شرب حتى روي . والسدفة في لغة تميم : الظلمة ، والسدفة في لغة قيس : الضوء . واللمق : الكتابة في لغة بني عقيل ، والمحو في سائر قيس . والجادي : السائل ، والمعطي . والرس : الإصلاح بين الناس ، والإفساد أيضاً . والشرى : رُذال المال ، وأيضاً خياره . الى غير ذلك من أمثلة ذكرها علماء العربية [1] .

ولبعض علماء العربية قصة يضربونها مثلاً على الأضداد ، فيقولون : « خرج رجل من بني كلاب ، أو من سائر بني عامر بن صعصعة ، الى ذي جدن ، فأطلع على سطح ، والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثِبْ أي اقعد . فقال : ليعلم الملك إني سامع مطيع ، ثم وثب من السطح : فقال الملك: ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب في كلام نزار الطّمر . فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ؛ من ظفر حمر . أي من أراد أن يقيم بظفار فليتكلم العربية » [2] . ورواها (السيوطي) في كتابه (المزهر) الذي أخذت منه القصة بهذا الشكل أيضاً : « وروي أن زيد بن عبدالله بن دارم ، وفد على بعض ملوك حمير ، فألفاه في مُتصيد له على جبل مشرف ، فسلّم عليه وانتسب له ، فقال له الملك : ثِبْ ، أي اجلس ، وظن الرجل أنه أمر بالوثوب من الجبل ، فقال : ستجدني أيها الملك مطواعاً ؛ ثم وثب من الجبل فهلك . فقال الملك : ما شأنه ؟ فخبروه بقصته وغلطه في الكلمة . فقال : أما إنه ليست عندنا عربيَّت ، من دخل ظفار حمّر . أي فليتعلم الحميرية » [3] . وذكر أن « عامر ابن الطفيل » قدم على الرسول ، فوثبه وسادة ، والوثاب الفراش بلغة حمير .

---

١ المزهر (١/٣٨٧) ، (النوع السادس والعشرون : معرفة الأضداد) .

٢ المزهر (١/٣٩٦ وما بعدها) .

٣ المزهر (١/٢٥٦ وما بعدها) ، تاج العروس (١/٤٩٩) ، (وثب) ، الصاحبي (٥١) ، الفائق (٣/١٤٤) .

وهم يسمون الملك إذا كان لا يغزو موثبان، يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو[1] .

ومن الأضداد ألفاظ قليلة ، واضحة الضدية يطلقها الناس على الضد لاعتبارات لديهم ، مثل اطلاق لفظة (البصير) على الأعمى ، و (السليم) على اللديغ .

ولعلماء العربية بحوث وآراء في علة ظهور الأضداد . منهم من يرى ان الحرف اذا وقع على معنيين متضادين ، فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع ، فمن ذلك الصريمُ ، يقال لليل صريم ، وللنهار صريم ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع. وقال آخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحيٍ من العرب والمعنى الآخر لحي غيره[2] ، فلما سجل علماء اللغة مفردات الألفاظ لم يسجلوا في الأكثر اسم القبيلة أو القبائل التي كانت تنطق بها ، فظن أن هذا التضاد هو مما وقع هذه العربية ، وانما هو في الأكثر حاصل جمع لغات .

وقد أنكر ناس مذهب الأضداد ، ومذهبهم ان الشيء لا يمكن أن يدل على الشيء وضده ، وأن النقيضين لا يوضع لهما لفظ واحد ، ومن هؤلاء :(أبو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه) ، (توفي نيف وثلاثين وثلاثمائة) ، وهو من علماء البصرة ومن المتعصبين لأهل البصرة ، وهو صاحب مؤلف في الأضداد ، ذكره (ابن النديم)[3] ، فهو ممن ذهب الى انكار الأضداد[4] ، وأثبته آخرون قائلين : يجوز أن يوضع لهما لفظ واحد من قبيلتين . وأن المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين[5] . ومن المثبتين له : قطرب ، وابن الأنباري، و (ابن فارس) ، وغيرهم[6] .

وقد ألف في الأضداد قوم من العلماء ، منهم : أبو علي محمد بن المستنير ، ويقال أحمد بن محمد ، ويقال الحسن بن محمد ، المعروف بقطرب المتوفى سنة

---

١ الصاحبي (٥١) .
٢ المزهر (١/٤٠٠ وما بعدها) .
٣ الفهرست (٩٩ وما بعدها) ، المزهر (١/٣٨٧) .
٤ المزهر (١/٣٩٦) .
٥ المزهر (١/٣٨٧) .
٦ المزهر (١/٣٨٧ وما بعدها) .

(٢٠٦) للهجرة ، فله كتاب في هذا الموضوع ، يسمى : كتاب الأضداد ، كما أن له كتاباً مهماً في علل النحو ، اسمه كتاب العلل في النحو ، ولـه مؤلفات أخرى ذكرها (ابن النديم)[1] . ومنهم (الأصمعي)[2] ، و(التوزي) ، وهو (أبو محمد عبدالله بن محمـد بن هارون) المتوفى سنة (٢٤٠ هـ)[3] ، و (ابن السكيت)[4] ، و (السجستاني)[5] ، وابن الأنباري ، أبو بكر محمـد بن القاسم المتوفى سنة (٣٢٨ هـ) ، صاحب مؤلف في الأضداد دعاه (ابن النديم) كتاب الأضداد في النحو . وهو ممن اشتغل بجمع دواوين من أشعار العرب الفحول[6] ، وغيرهم .

وعدّ علماء اللغة القلب ، والإدغام ، والابدال من خصائص العربية التي امتازت بها على اللغات الأخرى[7] . وهي أمور تحتاج الى دراسة عميقة ، لأن دراسة علماء اللغة لها ، لم تنبعث عن دراسات علمية لبقية اللهجات ، ثم انها ملاحظات سطحية أخذت من أشخاص ، وليس من دراسة لقبيلة كلها ، إذ كان ذلك إذاك أمراً غير ميسور ولا ممكن . ولو درسنا الأمور المذكورة ، نجد انها حاصل لهجات ، لا من تبديل شخص لحرف أو قلبه حرفاً أو ما شاكل ذلك ، واتباع الناس بعد ذلك له .

ومما يلاحظ في هذه العربية هو كثرة ما فيها من جموع التكسير . وقد نجد فيها لفظة واحدة ، وقد جمعت في عدة جموع ، وهو دليل في نظري على انه من بقايا اللهجات . فلما شرع العلماء بالتدوين، وراجعوا الشعر والأخبار، والأعراب، وجدوا أمامهم جموعاً لكلمة واحدة ، فسجلوها دون أن يشيروا الى الجهة التي أخذوا الجمع منه ، والى قبيلة الأعرابي الذي نطق لهم به ، فظن انها جموع هذه العربية ، ولا يعقل أن تكون كل هذه الجموع حاصل لغة واحدة . وهي

---

١ الفهرست (٨٤) ، المزهر (١/٣٩٧) .
٢ الفهرست (٨٨) ، المزهر (١/٣٩٧) .
٣ المزهر (١/٣٩٧) .
٤ الفهرست (١١٤) ، المزهر (١/٣٩٧) .
٥ الفهرست (٩٣) ، المزهر (١/٣٩٧) .
٦ الفهرست (١١٨) ، المزهر (١/٣٩٧) .
٧ الصاحبي (٤٠ وما بعدها) .

سماعية سمعت من أبناء القبائل فجمعت ، وهي لم تخضع لذلك لأحكام القياس والقواعد المألوفة .

ومن هذا القبيل بعض الجموع الملحقة بجمع المذكر السالم ، مثل : أرضون ، وأهلون ، وعالمون ، وسنون ، ومئون ، وعضون ، وعزون ، فهذه من بقايا قواعد قديمة ، ترجع الى لهجات ، حين شرع علماء اللغة في تدوينها لم يفطنوا الى تدوين اسم اللسان الذي نطق بها .

وطبيعي أن تكون العربية فقيرة في الألفاظ التي لا تدخل معانيها في ضمن حياة أهلها ، كألفاظ الترف التي ينعم بها المنغمسون في الحضارة ، والألفاظ المستعملة في الحكومات وفي أنواع الدواوين والصناعات وما شاكل ذلك مما يكون عند الحضر ، ولا يألفه أهل الوبر ، لعدم وجوده عندهم ، ولكن العربية ، إذا شعرت بالحاجة اليها ، أو اضطرت الى استعمالها ، أخذ أهلها أسماءها عمن يعرفها ، واستعملوها معربة أو بأصولها في لغتهم ، ومن هنا كثر الدخيل في العربية في الإسلام[1] .

وحيث أن للغة دلالة على طراز حياة الأمة وعلى مقدار درجة حياتها العقلية ، نجد العربية غنية غنى مفرطاً في الحدود التي رسمتها لهم بيئتهم ، فهم أغنياء في الجمل ، يعرفون كل جزء منه ، وقد وضعوا ألفاظاً لكل عضو من أعضائه مهما دق فيه . وهم أغنياء فيما يتعلق بالصحراء وفي المطر ، وفي كل شيء يتصل بحياتهم ، فهي من هنا لغة تمثل عقلية المتكلمين بها ، غلبت مصطلحات البداوة فيها على مصطلحات الحضارة ، سنة كل أمة تكون حياتها على هذا النمط من المعيشة .

وليست اللغة العربية غنية بمفرداتها فحسب ، بل بقواعد نحوها وصرفها أيضاً، فجموع التكسير وأحياناً الأفعال كثيرة كثرة زائدة عن الحاجة[2] . وهي « غنية باشتقاقها وتصريف كلماتها ، فوضع صيغة فعلية لكل زمن ، والمشتقات العديدة للدلالة على أنواع مختلفة من المعاني والأشخاص ، كل هذا يشعرنا شعوراً تاماً بغنى اللغة وصلاحيتها للبقاء »[3] .

---

١ فجر الاسلام (٥٥) .
٢ فجر الاسلام (٥٤) .
٣ فجر الاسلام (٥٥) .

وليس غنى العربية بالمفردات بدليل حتمي على سعة هذه اللغة . وانما هو غنى نتج من حاصل لغات العرب ومن كثرة تعدد لهجاتهم . فلما كانت القبائل تتصل بعضها ببعض وتكوّن مجموعات وكتل وأحلاف سياسية ، للدفاع عن نفسها وللغزو ، ولما كان الشعراء وسادات القبائل وغيرهم ، يزورون غيرهم ويتنقلون من مكان الى مكان ، وقد يقيمون اقامة طويلة في مكان ما ، يجاورون ويوالون، اشتبكت ألسنتهم ، فأخذت وأعطت ، وزاد هذا الاشتباك حدة ، تنافس المناذرة والغساسنة على الزعامة ، وتدخل الروم والفرس والحبش في شؤون جزيرة العرب، ومجيء المبشرين النصارى الى القبائل للتبشير بينها ، واختلاط اليهود بالعرب ، وهم أصحاب دين ، واختلاط التجار الأعاجم بالعرب في السواحل وفي البواطن، وسفر أهل القرى وسادات القبائل الى الشأم والعراق للتجارة وللزيارة وللترويح عن النفس ، وأمثال ذلك ، فكان أن أوجد كل هذا المذكور وغيره وعياً وحساً وشعوراً بوجوب التكتل والتجمع وبأنهم من أمة واحدة ، وبأن في حياتهم التي يحيونها من جميع نواحيها ما يحتاج الى اصلاح وتغيير ونظر . وقد تجسد هذا الوعي في لغاتهم التي تقاربت ، وفي آراء الأحناف وأصحاب الرأي ، وفي أقوال الحكماء ولا سيما المتألهين والمتعقلين منهم ، وفي الشعر الجاهلي ، ولا سيما في شعر أولئك الشعراء الذين زاروا الحضر واتصلوا بأهل الحضارة ، وجالسوا أهل الديانات واطلعوا على مقالاتهم وآرائهم وكتبهم ، فنجد فيه أثر الأخذ والتأثر ، حتى في استعمال الألفاظ ، إذ سمحوا لأنفسهم باستعمال الألفاظ الأعجمية، كما في شعر الأعشى وأمية بن أبي الصلت ، الذي أدخل ألفاظاً في شعره غير مألوفة عند العرب .

ثم جاء الإسلام ، بكتاب سماوي ، صار لسانه لسان المسلمين ، فظهرت الحاجة الى التدوين والبحث والتنقيب لشرح كتاب الله وحديث رسوله وتفسير أحكام الله . فكان حاصل ذلك علوم اللسان . من مفردات جمعت من القرآن ومن الحديث ومن الشعر ومن ألسنة العرب ، ضبطت في كتب اللغة والمعاجم،وكوّنت بذلك هيكل العربية الفصيحة . وهو بناء عملاق لم يعمل من مادة واحدة ، وإنما من مواد أساسية عديدة ، هي لهجات القرآن والشعر ولغات القبائل التي رجع علماء اللغة الى أفرادها واليها للأخذ منها ، فهذا الغنى الملحوظ في مفردات العربية الفصحى ، إذن هو غنى سببه كونه حاصل لغات قبائل ، لا حاصل لغة واحدة أو لسان عربي معين .

وتولدت في الاسلام معان خاصة لألفاظ جاهلية غلبت عليها واختصت بها ، والى معانيها الجديدة قصد في الاسلام ، كما ماتت ألفاظ جاهلية أماتها الاسلام ، بسبب انها كانت تؤدي معاني خاصة بالنسبة لذلك الوقت ، فقد روي ان النبي قال : « لا تقولوا دعدع ولا لعلع ، ولكن قولوا : اللهم ارفع وانفع . فلولا أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كرههما النبي »[1] ، وروي انه نهى عن قول : خبثت نفسي ، واستأثر الله بفلان[2] .

ومن الألفاظ الاسلامية : المؤمن ، والمسلم ، والكافر ، والمنافق[3] ، ومخضرم، وصلاة ، وصوم،وغير ذلك . ومن الألفاظ التي كانت فزالت بزوال معانيها : المرباع ، والنشيطة ، والفضول ، والإتاوة ، والحلوان ، وأبيت اللعن،والنوافج، للإبل تساق في الصداق ، وحجراً محجوراً ، لمعنيين : الحرمان ، اذا سئل الانسان قال : حجراً محجوراً ، والوجه الآخر الاستعاذة[4] ، وأنعم صباحاً ، وأنعم مساء ، وأنعم ظلاماً ، وعموا صباحاً ، وعموا ظلاماً ، اذ حل السلام محلها في الاسلام[5].

وظهرت الحاجة في الوقت نفسه الى وضع قواعد في نحو وصرف هذه اللغة ، لصيانة اللسان من الخطأ ، وليتعلم الأعاجم بها كيفية النطق بفصاحة وسلامة بهذا اللسان الجديد عليهم . فكان ما كان من وضع النحو مستعينين بالأسس النحوية (الغراماطيقية) ، التي كانت قد وجدت سبيلها الى العراق من أصول قديمة ، ثم بتتبع كلام العرب وبالاستقراء ، وقياس القواعد بعضها على بعض وبالتعليل ، يعللون النحو ويعتبرون به كلام العرب ، ثم لم يكتفوا بذلك كله،فأخذوا دروب البادية ، للأخذ عن القبائل التي اشتهرت بالفصاحة وبالمحافظة على سلامة لسانها ، وتلقوا الأعراب الذين يطرأون من البادية على الحضر ، فأخذوا من هؤلاء ومن هؤلاء علماً كثيراً باللغة وبالشعر وبالغريب وبالنوادر وبكل ما يتصل بالعربية من أسباب حتى جمعوا ما جمعوه من تراث هذه اللغة الخالد في بطون الكتب .

---

١ الصاحبي (٧٠) .
٢ الصاحبي (٩٢ وما بعدها) .
٣ الصاحبي (٧٩) .
٤ الصاحبي (٨٩ وما بعدها) .
٥ المزهر (١/٢٩٤ وما بعدها) ، (النوع العشرون : معرفة الألفاظ الاسلامية) .

الفصل السابع والثلاثون بعد المئة

لغات العرب

قال (الطبري) في تفسيره : « كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن بالبيان متباينو المنطق والكلام »[1] . وأن ألسنتهم كانت كثيرة كثرة يُعجز عن احصائها[2] . وقد ذكر غيره مثل ذلك ، ذكر أن لغات العرب كانت متباينة ، وأن بعضها كانت بعيدة بُعداً كبيراً عن عربيتنا، كالألسنة العربية الجنوبية ومنها الحميرية . قال (ابن جني) : « وبعد فلسنا نشك في بُعد لغة حمير ونحوها عن لغة بن نزار »[3] ، وقال (أبو عمرو بن العلاء) : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » . وذكر (ابن فارس) ، أن ولد (اسماعيل) ، يريد بهم العدنانية « يعيرون ولد قحطان أنهم ليسوا عرباً ويحتجون عليهم بأن لسانهم الحميرية ، وأنهم يسمّون اللحية بغير اسمها مع قول الله – جل ثناؤه – في قصة من قال : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، وأنهم يسمون الذئب القلوب مع قوله : وأخاف أن يأكله الذئب ... وما أشبه ذلك»[4].

وقد عرف ذلك الكتبة (الكلاسيكيون) وغيرهم . فذكر مؤلف كتاب

---

١ تفسير الطبري (٩/١) ، (بولاق) .

٢ تفسير الطبري (١٥/١) .

٣ الخصائص (٣٩٢/١) ، « وقال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » ، ابن سلام ، طبقات (٤ وما بعدها) .

٤ الصاحبي (٥٥) .

(الطواف حول البحر الأريتري) « Periplus mare Erythrae » أن سكان سواحل البحر الأحمر الذين كانـوا يقيمون بين مدينة « Leuke Kome » ، وميناء « Muza » يتكلمون بلهجـات مختلفة ولغات متباينة ، قلّ منهم من يفهمها عن الثاني ، وبعضها بعيد عن بعض بعداً كبيراً[1] . وقد عاش مؤلف هـذا الكتاب في القرن الأول للميلاد ، والساحل الذي ذكره هو ساحل الحجاز .

وأصبح اليوم من الأمور المعروفة أن أهل العربية الجنوبية كانوا يتكلمون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم ، بدليل هذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها في تلك الأرضين ، وهي بلسان مباين لعربيتنا ، حيث تبين من دراستهـا وفحصها أنها كتبت بعربية تختلف عن عربية الشعر الجاهلي ، وبقواعد تختلف عن قواعـد هذه اللغة[2] . وهي لو قرئت على عربي من عرب هذا اليوم ، حتى إن كان من العربية الجنوبية ، فإنه لن يفهم منها شيئاً ، لأنهـا كتبت بعربية بعيدة عن عربية هذا اليوم ، وقد ماتت تلك العربية ، بسبب تغلب عربية القرآن عليها .

كما عثر في العربية الغربية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب على نصوص معينية ولحيانية وثمودية وغيرها ، وهي مختلفة بعضها عن بعض ، ومختلفـة أيضاً عن (العربية) لغة القرآن الكريم .

ومع إدراك الرواة وعلماء اللغة وجود الخلاف في ألسنة العرب ، فإنهم لم يدوّنوا اللهجات على أنهـا لهجات مستقلة ذات طابع لغوي خاص ، لها قواعد نحويـة وصرفية ، تختلف اختلافاً متبايناً عن نحو وصرف عربية القرآن الكريم ، وإنمـا « تناقلوا من ذلك أشياء كانت لعهد الإسلام ، وأشياء أصابوها في أشعار العرب مما صحت روايته قُبيل ذلك . أما سواد ما كتبوه ، فقد شافهوا به العرب في بواديها وسمعوه منهم ، وهو بلا ريب من بقايا اللهجات التي كانت لعهد الجاهلية »[3].

على انهم لم يدونوا من كل ذلك إلا كفاية الحاجة القليلة في تصاريف الكلام أو ما تنهض به أدلة الاختلاف بين العلماء المتناظرين من شواهد في الغريب والنادر وفي القواعد . أما تدوين اللهجات على انها أصل من أصول اللغة ، وأما تسجيل

---

١ The Periplus of the Erythrean Sea, 24.

٢ الصفة (١٣٤) .

٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٢٣ وما بعدها) .

قواعد صرف ونحو تلك اللهجات ، فهذا ما لم يحفل به أحد ، ولم يقدم عليه عالم فيما نعلم من أخبار الكتب التي وصلت الينا ، لأن أكبر غرضهم من جمع اللغة وتدوينها يرجع الى علوم القرآن والحديث ، ولغتهما اللغة الفصحى ، اللغة التي تعلو على اللغات ، أما ما دونها فلغات دونها في المنزلة والفصاحة ، وألسنة شاذة غير فصيحة ، ليس من اللائق بالعالم إضاعة وقته في البحث عنها ، وفي التنقيب في قواعد نحوها وصرفها ، وهي فوق ذلك لغات بطون وعشائر وقبائل ومواضع ، ليس لها أتباع كثيرون ، وقد أقبلوا على استعمال عربية الاسلام ، وفي إحياء العربيات الأخرى إحياء للجاهلية [1] .

« رأينا علماء اللغة وأهل العربية قد طرحوا أمثلة اختلاف اللغات في كتبهم ، فلا قيمة لها عندهم إلا حيث يطلبها الشاهد وتقتضيها النادرة في عُرض كلامهم، لأنهم لم يعتبروها اعتباراً تأريخياً ، فقد عاصروا أهلها ، واستغنوا بهذه المعاصرة عن توريث تأريخها لمن بعدهم ، ولو ان منهم من نصب نفسه لجمع هذه الاختلافات وإفرادها بالتدوين بعد استقصائها من لهجات العرب ، وتمييز أنواعها بحسب المقاربة والمباعدة ، والنظر في أنساب القبائل التي تتقارب في لهجاتها والتي تتباعد،وتعيين منازل كل طائفة من جزيرة العرب والرجوع مع تأريخها الى عهدها الأول الذي يتوارث علمه شيوخ القبيلة وأهل أنسابها،لخرج من ذلك علم صحيح في تأريخ اللغة وأدوار نشأتها الاجتماعية ، يُرجع اليه على تطاول الأيام وتقادم الأزمنة ، ولكان هذا يعد أصلاً فيما يمكن أن يسمى تأريخ آداب العرب ، يفرعون منه ويحتذون مثاله في الشعر وغيره من ضروب الأدب .

ولكن القوم انصرفوا عن هذا وأمثاله لاعتقادهم أصالة اللغة ، وانها خلقت كاملة بالوحي والتوقيف ، وان أفصح اللهجات انما هي لهجة اسماعيل عليه السلام، وهي العربية القديمة الجيدة كما قال سيبويه » [2] .

« وعلى هذا اعتبروا لهجات العرب لعهدهم كأنها أنواع منحطة خرجت عن أصلها القرشي بما طرأ عليها من تقادم العهد وعبث التأريخ ، فلم يجيئوا ببعضها إلا شاهداً على الفصاحة الأصلية في العربية وخلوّها من التنافر والشذوذ ، وتماماً

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٢٣ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١/١٣٣ وما بعدها) .

على الذي جمعوه من أصول العربية ، وتفصيلاً لكل شيء إلا التأريخ »[1] .

« ومع أن الرواة قد وضعوا كتباً كثيرة ومصنفات ممتعة في قبائل العرب ومنازلها وأنسابها وأسمائها واشتقاق الأسماء وألقابها ومدحها وأشعارها وفرسانها وأيامها ، ونحو ذلك مما يرجع الى التأريخ المتحدد ، فلو أنهم اعتقدوا اللغات بسبب من ذلك ولم يعرفوها بالوصف الديني الثابت الذي لا يتغير في حقيقته ، لأجروها مجرى غيرها من آثار التاريخ ، ولكن ذلك الزمن قد طُوي بأهله ، ولحق فرعه بأصله ، فبقي ذلك الخطأ التاريخي كأن صوابه من بعض التأريخ الذي هو حديثُ الغيب ! »[2] .

ويستمر (الرافعي) في حديثه هذا ، فيقول : « نقول هذا وقد قرأنا ما بين أيدينا من كتب الفهرست والتراجم والطبقات على كثرتها ، وتبينّا ما يسرد فيها من أسماء الكتب والأصناف ، عسى أن نجد من آثار أحد الرواة أو العلماء ما يدل على وضع كتاب في تأريخ لهجات العرب وتمييز لغاتها على الوجه الذي أومأنا اليه ، أو ما عسى أن نستدل به على أنهم كانوا يعتبرون ذلك اعتباراً تأريخياً ؛ ولكنّا خرجنا منها على حساب ما دخلنا فيها : صفر في صفر ؛ ولم يزدنا تعدادُ أسماء الكتب علماً بموت هذا العلم وأنه لا كتب لـه ، للسبب الذي شرحناه من اعتبارهم أصالة العربية »[3] .

وفي كتاب (الفهرست) لابن النديم ، وفي المؤلفات الأخرى أسماء كتب وضعها علماء اللغة في اللغات ، من ذلك (كتاب اللغات) ليونس بن حبيب (١٨٣ هـ) من علماء العربية ، وكان أعلم الناس بتصاريف النحو[4] ، و (كتاب اللغات) لأبي زيد الأنصاري (٢١٥ هـ)[5] ، و (كتاب اللغات) للأصمعي (٢١٣ هـ) ، (٢١٧ هـ)[6] ، و (كتاب اللغات) لابن دريد (٣٢١ هـ)[7] ، و (كتاب

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٣٤) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/١٣٤) .
٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/١٣٤ وما بعدها) .
٤ الفهرست (ص ٦٩) .
٥ الفهرست (٨٧) .
٦ الفهرست (٨٨) .
٧ الفهرست (٩٧) .

اللغات) لأبي عمرو الشيباني (٢١٣ هـ)[١] ، و (كتاب مجرد الغريب) على مثال العين وعلى غير ترتيبه ، « وأوله هذا كتاب ألفه في غريب كلام العرب ولغاتها على عدد حروف الهجاء الثمانية والعشرين » ، وهو لعلي بن الحسن ، ويكنى أبا الحسن الهنائي[٢] ، و (كتاب الاستعانة بالشعر وما جاء في اللغات) لعمر بن شبة (٢٦٢ هـ)[٣] ، الى غير ذلك من مؤلفات دونت في هذا الباب .

لكننا لا نستطيع أن نتحدث عما عالجته من موضوعات وعما ورد فيها من بحوث ، بسبب اننا لا نملك نسخاً منها ، فلا ندري إذا كانت قد وضعت في خصائص لغات العرب من نحو وصرف ومفردات ، أم أنها ألفت في الشواذ والنوادر وفي الأضداد واختلاف الألفاظ،وما يتعاور الأبنية من الاختلاف الصرفي والنحوي،لأن كل وجه من ذلك إنما هو أثر من لغة . والأصح ، أنها لم توضع في خصائص لغات الجاهليين وفي قواعد نحوها وصرفها لضبطها ، كالذي فعلوه في دراسة عربية القرآن الكريم ، فهذا عمل كبير ، يحتاج الى استقراء وتتبع لألسنة العرب في الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، وإنما كانت قد ألفت فيما جاء في الشعر الجاهلي وفي نوادر الأعراب وكلامهم من اختلاف وتغاير وشواذ ، مما يغاير لغة القرآن الكريم . ودليل ذلك ، أننا نرى أن المؤلفات التي نقلت من تلك الكتب في باب لغات العرب ، لم تتحدث بشيء عن أصول نحو وصرف تلك اللغات ، وإنما تحدثت عن أمور ذكرت أنها خرجت فيها على قواعد العربية الفصحى ، وشذت بها عنها ، مما يدل على أن علماء اللغة لم يوجهوا عنايتهم نحو تلك اللغات لدرسها بذاتها دراسة مستقلة ، كما فعلوا بالنسبة للعربية الفصحى وإنما أرادوا إظهار بعض مواضع خلافها مع العربية ، أو مواضع الاتفاق معها لإثبات قاعدة نحوية أو صرفية ، أو لإظهار سمو هذه العربية وعلوها على العربيات الأخرى من حيث السليقة والذوق والسلامة .

وقد بني سبب اهمالهم اللهجات الأخرى ، على اعتقادهم انها لهجات رديئة فاسدة ، وأن اللغة الفصحى هي اللغة الوحيدة التي يجب حفظ قواعدها والعناية بها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، وأن البحث في اللهجات الأخرى يؤدي الى تثبيت

١ الفهرست (١٠٧) .
٢ الفهرست (١٣٠) .
٣ الفهرست (١٦٩) .

لغات فاسدة الى جانب لغة الوحي ، ولم يكن هذا عملاً مطاقاً ولا مقبولاً بالنسبة الى ذلك الوقت . ولذلك انحصر عملهم في المجال اللغوي على التوسع والتبسط في هذه اللغة التي أسموها اللغة العالية أو الفصحى ، وعلى ما تحتها من لهجات ، وما اختلفت فيه بعضها عن بعض ، وهي لهجات كانت قريبة من مواطن علماء اللغة، أما اللهجات البعيدة عنهم ، فلم تنل منهم أية رعاية أو عنايـــة ، وتجد مواضع الاختلاف مسجلة في كتب اللغات والنحو وشواهده وفي كتب النوادر والغريب ، ومجالس العلماء ، حيث كانوا يتباحثون في أمور اللغة والشعر وأيام العرب وما كان يتلذذ بسماعه الخلفاء والحكام الذين كانوا يثيبون من يستمعون اليه ، مما حمل العلماء وأهل الأخبار على تطلب الغريب والتنقـــير عن الشارد والهارب للتفوق بـــه على أصحاب الحرفة المتنافسين فيما بينهم في عرض بضاعتهم على أصحاب الحكم والمال .

وأجمل ما ذكره هنا علماء العربية من مواضع اختلاف العربيات الأخرى عن العربية المحضة في الأمور الآتية :

أحدها الإختلاف في الحركات ، نحو نَستَعين ونِستعين بفتح النون وكسرها. فهي مفتوحة في لغة قريش ، وأسد وغيرهم يكسرها ، ونحو الحَصاد والحِصاد .

والوجه الآخر ، الإختلاف في الحركة والسكون نحو مَعَكم ومَعْكم .

ووجه آخر هـــو الإختلاف في إبدال الحروف ، نحو : أولئك وأولالك . ومنها قولهم : أن زيداً وعنَّ زيداً .

ومن ذلك : الإختلاف في الهمز والتليين نحو مستهزئون ومُستهزُوْن .

ومنه : الاختلاف في التقديم والتأخير ، نحو صاعقة وصاقعة .

ومنها : الإختلاف في الحذف والاثبات ، نحو استحييت واستحيت ، وصددت وأصددتُ .

ومنها : الاختلاف في الحرف الصحيح يبدل حرفاً مُعْتلاً ، نحو أمّا زيد ، وأيما زيد .

ومنها : الإختلاف في الإمالة والتفخيم مثـــل قضى ورمى ، فبعضهم يفخّم وبعضهم يميل .

ومنها : الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله فمنهم من يكسر الأول ، ومنهم من يضم ، نحو اشتَروا الضلالة .

ومنها : الاختلاف في التذكير والتأنيث ؛ فإن من العرب من يقول : هذه البقر ، وهذه النخل ، ومنهم من يقول : هذا البقر ، وهذا النخل .

ومنها : الاختلاف في الإدغام نحو : مهتدون ومُهَدّون .

ومنها : الاختلاف في الإعراب نحو : ما زيدٌ قائماً ، وما زيد قائم ، وإن هذين ، وإن هذان . وهي بالألف لغة لبني الحارث بن كعب .

ومنها : الاختلاف في التحقيق والإختلاس نحو : يأمرُكم ويأمرْكم، وعُفِيَ له ، وعُفْي له .

ومنها : الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل : هذه أمّهْ وهذه أمّت .

ومنها : الاختلاف في الزيادة نحو : أنظُرُ ، وأنْظُورُ .

ومن الاختلاف اختلاف التضادّ ، وذلك كقول حمير للقائم : ثب ، أي اقعد ، وثب بمعنى اقفز [1] .

ومنها الاختلاف في الكلمة ، فقد يقع فيها ثلاث لغات ، نحو : الزُّجاج ، والزَّجاج،والزِّجاج . وقد يقع في الكلمة أربع لغات ، نحو الصَّداقِ ،والصِّداق، والصُّدقة،والصَّدقة . ويكون فيها خمس لغات ، نحو:الشَّمال،والشَّمْل،والشَّمْأل ، والشَّيْمَل ، والشَّمَل . ويكون فيها ستُّ لغات ، نحو : قُسْطاس،وقِسْطاس، وقَسْطاس ، وقستاط ، وقِسّاط ، وقُستاط ، وقِسَّاط ، ولا يكون أكثر من هذا [2] .

ومنها الاختلاف في صورة الجمع ، نحو أسرى وأسارى ، ومنها الاختلاف في التحقيق والاختلاس ، نحو يأمرُكم ويأمرْكم ، وعُفي وعفى له . ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل : هذه أمه وهذه أمت . ومنها الاختلاف في الزيادة نحو : أنظر وأنظور [3] .

وقد أشار (أبو العلاء) المعري في رسالة الغفران الى أن (عدي بن زيد) العبادي ، كان يجعل (الجيم) (كافاً) ، فيقول : (يا مكبور) يريد (يا مجبور) ، « وهي لغة رديئة يستعملها أهل اليمن . وجاء في بعض الأحاديث

---

١ المزهر (١/٢٥٥ وما بعدها) ، الصاحبي (٤٣ ، ٤٨ وما بعدها) .
٢ المزهر (١/٢٦٠) .
٣ الصاحبي (٥٠) ، المزهر (١/٢٥٦) .

ان الحارث بن هانىء بن أبي شمر بن جبلة الكنـدي ، استلحم يوم ساباط ، فنادى : يا حُكْر يا حُكْر ، يريد يا حجر بن عـدي الأدبر ، فعطف عليه فاستنقذه ، ويكب في موضع يجب »[1] . و(الحارث بن هانىء) من كندة ،وهو من الصحابة ، وكندة من العربية الجنوبية في الأصل[2] ، فلا يستبعد منه نطق الجيم كافاً على الطريقة المصرية في الوقت الحاضر ، إذ يقول العرب الجنوبيون (هكر) في موضع (هجر) ، ولكن (عدي بن زيد) من (تميم) ، وليست (تميم) من العربية الجنوبية ، ثم إن (المعري) ، يقول عنه : « فيقول عدي بعباديته يا مكبور لقد رزقت ما يكب أن يشغلك عن القريض »[3] ، أي : « يا مجبور لقد رزقت ما يجب أن يشغلك عن القريض » فجعل قلب الجيم كافاً من سمات لغة العباديين .

ولخص بعض العلماء الوجوه التي تتخالف بها لغات العرب ، في سبعة أنحـاء لا تزيد ولا تنقص : الوجه الأول ابدال لفظ بلفظ كالحوت بالسمك وبالعكس، وكالعهن المنفوش ، قرأها (ابن مسعود) كالصوف المنفوش . الثاني : إبدال حرف بحرف كالتابوت والتابوه . الثالث : تقديم وتأخير ما في الكلمة ، نحو : سلب زيد ثوبه ، وسلب ثوب زيد . وأما في الحروف نحو : أفلم ييأس الذين ، وأفلم يايس . الرابع زيادة حرف أو نقصانه نحو : ماليه وسلطانيه ، وفلا تَكُ في مِرْية . الخامس : اختلاف حركات البناء نحو تحسبن بفتح السين وكسرها . السادس : اختلاف الأعراب نحو ما هذا بشر بالرفع . السابع : التفخيم والإمالة . وهذا اختلاف في اللحن والتزيين لا في نفس اللغة . والتفخيم أعلى وأشهر عنـد فصحاء العرب . فهذه الوجوه السبعة التي بها اختلفت لغات العرب[4] .

وجمع (مصطفى صادق الرافعي) أنواع الاختلاف الواردة في كتب اللغـة ، فحصرها في خمسة أقسام :

---

١ رسالة الغفران (٢٠١) .

٢ الاصابة (١/٢٩٢) ، (رقم ١٥٠٢) .

٣ رسالة الغفران (١/٢٠٠) .

٤ تفسير النيسابوري (١/٢٢) ، (حاشية على تفسير الطبري . بولاق) .

١ – لغات منسوبة ملقبة .
٢ – لغات منسوبة غير ملقبة تجري في إبدال الحروف .
٣ – لغات من ذلك في تغير الحركات .
٤ – لغات غير منسوبة ولا ملقبة .
٥ – لغة أو لثغة في منطق العرب[1] .

النوع الأول :

وقد عدّه علماء اللغة من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ ، ولذلك أطلقوا على اللغات التي تمارسها : اللغات المذمومة[2] ، من ذلك :

(الكشكشة) وهي ابدال الشين من كاف المخاطب للمؤنث خاصة ، كعليش ومنش وبش ، في عليكِ ، ومنكِ ، وبكِ ، في موضع التـأنيث ، أو زيادة شين بعد الكاف المجرورة . تقـول عليكش ، واليكش ، وبكش ، ومنكش ، وذلك في الوقف خاصـة . ولا تقول عليكش بالنصب . وقد حكى كذا كش بالنصب . وإنمـا زادوا الشين بعد الكاف المجرورة لتبين كسرة الكاف فتؤكد التأنيث ، وذلك لأن الكسرة الدالة على التأنيث فيها تخفى في الوقت فاحتاطوا للبيان أن أبدلوها شيناً ، فإذا وصلوا حذفوا لبيان الحركة ، ومنهم من يجري الوصـل مجرى الوقف فيبدل فيه أيضاً . وربما زادوا على الواو في الوقف شيناً حرصاً على البيان أيضاً ، فـإذا وصلوا حذفوا الجميع وربما ألحقوا الشين فيه . وذكر أن (الكشكشة) في بني أسد وفي ربيعة . « وفي حديث معاوية تياسروا عن كشكشة تميم ، أي ابدالهم الشين من كاف الخطاب مع المؤنث »[3] .

« و الكشكشة في ربيعة ومضر . يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً . فيقولون رأيتكش ومررت بكش . والكسكسة فيهم أيضاً ، يجعلون بعـد الكاف أو مكانها سيناً في المذكر »[4] . وورد : « والكسكسة لغة لتميم لا لبكر ، كما

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٣٧ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (٥٣) ، المزهر (١/٢٢٢ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤/٣٤٥) ، (كشش) ، الصاحبي (٥٣) ، المزهر (١/٢٢٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) ، تاريخ آداب العرب (١/١٣٨) ، (لمصطفى صادق الرافعي) ، المزهر (١/٢٢١) .

زعمه ابن عباد ، وإنما لهم الكشكشة بإعجام الشين . هو إلحاقهم بكاف المؤنث سيناً عند الوقف دون الوصل . يقال : اكرمتكس ومررت بكس ، أي أكرمتك ومررت بك . ومنهم من يبدل السين من كاف الخطاب ، فيقول أبوس وأمس ، أي أبوك وأمك . وبه فسر حديث معاوية رضي الله عنه تياسروا عن كسكسة بكر . وقيل : الكسكسة لهوازن »[1] . « ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها في الوصل ويسكنها في الوقف ؛ فيقول : مِنْش وعَلَيْش »[2] .

والديش بالكسر : الديك ، لغة فيه عند من يقلب الكاف شيناً ، شبه كافه بكاف المؤنث لكسرتها[3] .

وذكر (السيوطي) أن الكسكسة في ربيعة ومضر ، يجعلون بعد الكاف أو مكانها في خطاب المذكر سيناً[4] . وذكر بعضهم ان الكشكشة في لغة تميم ، والكسكسة في لغة بكر . وذكر بعضهم أن الكسكسة لبكر لا لربيعة ومضر ، وهي زيادة سين بعد كاف الخطاب في المؤنث لا في المذكر[5] .

« والوتم في لغة اليمن ، يجعل الكاف شيناً مطلقاً . كلبيش اللهم لبيش . ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعبة يريد الكعبة »[6] . وقيل : « الوتم في لغة اليمن ، تجعل السين تاءً كالنات في الناس »[7] . « والشنشنة في لغة اليمن ، تجعل الكاف شيناً مطلقاً كلبيش اللهم لبيش ، أي لبيك »[8] .

وقد استشهد علماء اللغة على الوتم بشعر نسبوه الى (علباء بن أرقم) هو :

يا قبح الله بني السعلات عمرو بن يربوعٍ شرار الناتِ
ليسوا أعفاء ولا أكيات

١ تاج العروس (٤/٢٣٤) ، (كس) ، الصاحبي (٥٣) .
٢ المزهر (١/٢٢١) ، (النوع الحادي عشر) .
٣ تاج العروس (٤/٣١٢) ، (الديش) .
٤ المزهر (١/٢٢١) .
٥ الرافعي (١/١٣٨) .
٦ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) .
٧ المزهر (١/٢٢٢) .
٨ المزهر (١/٢٢٢) .

فاستعمل النات بدل الناس ، والأكيات بدل الأكياس . ولكن الشاعر من (بكر) لا من حمير[1] .

و « الفحفحة في لغة هذيل ، يجعلون الحاء عيناً . والوكم والوهم كلاهما في لغة بني كلب . من الأول يقولون : عليكِم وبكِم حيث كان قبل الكاف ياء أو كسرة في موضع عليكم وبكم ، ومن الثاني يقولون : منهِم وعنهِم وبينهِم ، وإن لم يكن قبل الهاء ياء ولا كسرة »[2] . « وهم يكمون الكلام بكسر الكاف من يكمون ، أي يقولون السلام عليكِم بكسر الكاف »[3] . ومن أمثلة الفحفحة قولهم عياة في موضع حياة ، وعلى لغتهم قرأ (ابن مسعود) عتّى عين في قوله تعالى : حتى حين . فكتب اليه (عمر) إن القرآن لم ينزل على لغة هذيل ، فأقرىء الناس بلغة قريش[4] . ومن الفحفحة قولهم : العسن في الحسن ، واللعم في اللحم . وذكر ان ثقيفاً كانت تفحفح في كلامها ، فتقول عتى في موضع حتى . وقد ورد في (تاج العروس) ، أن (الوكم) « لغة أهل الروم الآن »[5] ، ولعل هذه اللغة انما جاءتهم من (كلب) ، وهم من عرب بلاد الشأم القدماء .

« قال الفرّاء : حتى لغة قريش وجميع العرب إلا هذيلاً وثقيفاً ، فإنهم يقولون : عتى . قال : وأنشدني بعض أهل اليمامة :

لا أضع الدلو ولا أصلّي عتى أرى جلّتها تولي
صوادراً مثل قباب التلّ

قال أبو عبيدة : من العرب من يقول : أقم عنّي عتى آتيك ، وأتى آتيك ؛ بمعنى حتى آتيك ، وهي لغة هذيل »[6] .

و (العجعجة) في قضاعة كالعنعنة في تميم . يحوّلون الياء جيماً مع العين .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٢٣) .
٢ تاج العروس (٨/١) ، (المقصد الخامس) ، المزهر (٢٢٢/١) .
٣ تاج العروس (٦٩/٩) ، (وكم) .
٤ الفائق (١١٣/٢) .
٥ تاج العروس (٦٩/٩) ، (وكم) .
٦ الفائق (١١٤/٢) .

يقولون : هذا راعج خرج معج ، أي راعي خرج معي[1] . وقيل : « العجعجة في قضاعة . يجعلون الياء المشددة جيماً . يقولون في تميمي تميمج »[2].وكانت قضاعة إذا تكلموا غمغموا ، فلا تكاد تظهر حروفهم . وقد سمى العلماء ذلك غمغمة قضاعة[3] .

والاستنطاء ، قول أنطى بدل أعطى . « قال الجوهري : هي لغة اليمن : وقال غيره : هي لغة سعد بن بكر . والجمع بينهما أنه يجوز كونها لهما » ، وقيل : « هي لغة سعد بن بكر ، وهذيل ، والأزد ، وقيس ، والأنصار يجعلون للعين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء ... وهؤلاء من قبائل اليمن ، ما عدا هذيل . وقد شرفها النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما روى الشعبي أنه صلى الله عليه وسلم ، قال لرجل : أنطه كذا وكذا ، أي اعطه . وفي حديث آخر أن مال الله مسؤول ومنطى،أي معطى . وفي حديث الدعاء : لا مانع لما أنطيت. وفي حديث آخر : اليد المنطية خير من اليد السفلى . وفي كتابه لوائل : وأنطوا الثبجة . وفي كتابه لتميم الداري : هذا ما أنطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى آخره . ويسمون هذا الانطاء الشريف . وهو محفوظ عند أولاده . وقرىء بها شاذاً إنّا انطيناك الكوثر »[4] .

وعرفت لغة (بهراء) بوجود (التلتلة) بها . وتلتلة بهراء كسرهم تاء تفعلون : مثل كسر تاء تعلم ، في موضع الفتح . وكسر التاء من (تكتب)[5] . وذلك انهم يكسرون أحرف المضارعة مطلقاً . « ونسب ابن فارس في فقه اللغة هذا الكسر لأسد وقيس ، إلا انه جعله عاماً في أوائل الألفاظ ، فمثل له بقوله : مثل تِعلمون وتِعلم وشِعير وبِعير »[6] .

وعرفت « القطعة في لغة طيء : وهي قطع اللفظ قبل تمامه ، فيقولون في

---

١ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) ، (٢/٧١) ، (عج) ، المزهر (١/٢٢٢) .
٢ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) ، المزهر (١/٢٢٢) .
٣ الرافعي (١/١٣٩) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٧٢) ، (نطا) ، المزهر (١/٢٢٢) .
٥ تاج العروس (٧/٢٤١) ، (تل) .
٦ الرافعي (١/١٤٠) .

مثل يا أبا الحكم : يا أبا الحكا . وهي غير الترخيم المعروف في كتب النحو ، لأن هذا مقصور على حذف آخر الاسم المنادى ، أما القطعة فتتناول سائر أبنية الكلام »[1] .

ومن لغة تميم كسر الشين في شهيد ، وكذا كل فعيل حلقي العين سواء كان وصفاً كهذا ، واسماً جامداً كرغيف وبعير . « قال الهمداني في اعراب القرآن: أهل الحجاز وبنو أسد يقولون رحيم ورغيف وبعير بفتح أوائلهن . وقيس وربيعة وتميم يقولون : رحيم ورغيف وبعير بكسر أوائلهن . وقال السهيلي في الروض : الكسر لغة تميم في كل فعيل عين فعله همزة أو غيرها من حروف الحلق،فيكسرون أوله كرحيم وشهيد . وفي شرح الدريدية لابن خالويه : كل اسم على فعيل ثانيه حرف حلق يجوز فيه اتباع الفاء العين كبعير وشعير ورغيف ورحيم . وحكى الشيخ النووي في تحريره عن الليث أن قوماً من العرب يقولون ذلك وإن لم يكن عينه حرف حلق ككبير وكريم وجليل ونحوه . قلت : وهم بنو تميم كما تقدم »[2].

ومما اختلفت بــه تميم عن قريش أنها تذكر السوق والسبيل والطريق والزقاق والصراط والكلاء ، وهو سوق البصرة ، أما أهل الحجاز فذكرون الكل[3] .

ومن ميزات لهجة تميم ، أنها تنطق بالهمزة إذ وقعت في أول الكلمــة عيناً . فيقولون في أسلم عسلم ويسمي العلماء ذلك (العنعنة) . « وعنعنة تميم ابدالهم العين من الهمزة . يقولون : عن موضع أن » . « قـــال الفراء : لغة قريش ومن جاورهم أن،وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف أن إذا كانت مفتوحة عيناً . يقولون أشهد عنك رسول الله ، فإذا كسروا رجعــوا الى الألف . وفي حديث قيلة : تحسب عن نائمة ، وفي حديث حصين بن مشمت أخبرنا فــلان عن فلاناً حدثه . أي أن فلاناً حدثه . قال ابن الأثير رحمه الله تعالى : كأنهم يفعلونه لبحح في أصواتهم . والعرب تقول : لأنك ولعنك ، بمعنى لعلك . قال ابن الأعرابي لعنك لبني تميم ، وبنـــو تيم الله بن ثعلبة يقولون رعنك . ومن

---

١ الرافعي (١/١٤٠) .

٢ تاج العروس (٢/٣٩١) ، (شهد) .

٣ تاج العروس (٦/٣٧١ ، ٣٨٧) ، (زق) ، (ساق) .

العرب من يقول رغنك بمعنى لعلك »[1] . « قال الفرّاء : العنعنة في قيس وتميم. تجعل الهمزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون في انك عنك وفي أسلم عسلم »[2] .

وذكر ان العنعنة في كثير من العرب ، في لغة قيس وتميم ، وقيل في لغة قضاعة أيضاً ، وفي لغة أسد ومن جاورهم ، يجعلون الهمزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون في انك عنك ، وفي أسلم عسلم ، وفي أُذُن عُلُن ، وفي ظننت أنك ذاهب ، ظننت عنك ذاهب[3] .

ومن مواضع الاختلاف بين لغة أهل الحجاز ، ولغة تميم ، الاختلاف في عمل ما وليس النافيتين . وتردد الكلمة بين الإدغام والفك ، وبين الإتمام والنقص ، أو بين الصحة والإعلال والإعراب والبناء ، فمثلاً أهل الحجاز يفكون المثلين من المضارع المجزوم بالسكون وأمره ، وتميم تقولها بالإدغام ، وخثعم وزبيد تنقص نون من الجارة ، فيقولون : خرجت مليبت في قولهم : خرجت من البيت وغيرهم يتمها[4] .

و (ضللت) بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع . وهذه هي اللغة الفصيحة ، وهي لغة نجد . و « ضللت تضل مثل مللت تمل ، أي بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع ، وهي لغة الحجاز والعالية . وروى كراع عن (بني تميم) كسر الضاد في الأخيرة أيضاً . قال اللحياني : وبهما قرىء قوله تعالى : قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي . الأخيرة قراءة أبي حيوة ، وقرأ يحي بن وثاب اضل بكسر الهمزة وفتح الضاد . وهي لغة تميم . قال ابن سيده: وكان يحي بن وثاب يقرأ كل شيء في القرآن ضللت وضللنا بكسر اللام. ورجل ضال تال »[5] . و (الضلالة والتلالة)[6] .

واللخلخانية العجمة في المنطق ، وهو العجز عن ارداف الكلام بعضه ببعض . ورجل لخلخاني غير فصيح . ويعرض ذلك في لغة أعراب الشحر وعمان . كقولهم

---

١ تاج العروس (٢٨٣/٩) ، (عنن) .
٢ تاج العروس (٨/١) ، (المقصد الخامس في بيان الافصح) .
٣ المزهر (٢٢١/١) ، الصاحبي (٥٣) .
٤ محمد هاشم عطية ، الأدب العربي وتأريخه (٣٩) .
٥ تاج العروس (٤١١/٧) ، (ضلل) .
٦ تاج العروس (٢٤١/٧) ، (تل) .

في ما شاء الله مشا الله[1] . والطمطمانية تعرض في لغة حمير ، كقولهم طاب هوا ، أي طاب الهواء[2] . « وطمطمانية حمير بالضم ما في لغتهـا من الكلمات المنكرة ، تشبيهاً لها بكلام العجم . وفي صفة قريش ليس فيهم طمطمانية حمير ، أي الألفاظ المنكرة المشبهة بكـلام العجم »[3] . وذكر أن الطمطمانية كانت أيضاً عند بعض عشائر طيء ، « وهي ابدال لام التعريف ميماً . فيقولون في السهم والبر والصيام: امسهم ، وامبر ، وامصيام ، وهذا ليس ابدالاً ، وإنما هي لهجة يمنيـة ، إذ كانوا يُعرّفون بالألف والمـيم ، ولعل في ذلك ما يدل على صحة ما ذهب اليـه النسّابون من أن طيء قبيلة يمنية »[4] . ولكن حمير لا تعرف بالألف والميم ، وانما تعرف بـ (ان) (ن) ، تضع هذه الأداة في آخر الكلمة التي يراد تعريفهـا . ولهذا ، أخطأ من ذهب الى أن هذه الطمطمانية ابـدالاً ، أو « ليس ابدالاً ، وإنما هي لهجة يمنية ، إذ كانوا يعرفون بالألف والميم »[5] ، لما ذكرته مـن أن التعريف يلحق في الحميرية أواخر الكلم ، ولا يكون في أولهـا ، ويكون بالأداة (ن) (ان) ، لا بالألف واللام، كما هو الحال في عربيتنا ، وان التنكير عندهم يكون بإلحاق حرف (الميم) أواخر الألفاظ التي يراد تنكيرهـا ، ولم يصل الى علمي أن أحداً من الباحثين عثر على نص جاهلي في العربية الجنوبية عرف بـ (ال) أداة التعريف في عربية القرآن الكريم .

ومن الشائع بين الناس ، أن الرسول قال : « ليس ممبرم صيامم فم سفر » ، أي « ليس من البر الصيام في السفر »[6] ، وعندي ان هذا الحديث من الأحاديث الضعيفة أو المكذوبة ، وقد وضع ليكون شاهداً على (الطمطمانية) المذكورة ، جاءوا به شاهداً على تكلم الرسول بلسان حمير ، ولكن لسان حمير لم يكن يعرّف الغير معرف بهذه الأداة من التعريف ، وقد يكون لهجة من لهجات بعض القبائل على نحو ما نسب الى بعض عشائر طيء ، كما ذكرت ذلك قبل قليل .

---

١ تاج العروس (٢/٢٧٧) ، (لغ) ، المزهر (١/٢٢٣) .
٢ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) ، « طاب امهواء : أي طاب الهواء » ، المزهر (١/٢٢٣) ، (معرفة الرديء المذموم من اللغات) .
٣ تاج العروس (٨/٣٨١) ، (طم) .
٤ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٢٣) .
٥ شوقي ضيف (١٢٣) .
٦ تاج العروس (٣/٣٧) ، (برر) .

ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعبة يريد الكعبة . ومنهم من يستعمل الحرف الذي بين القاف والكاف كما في لغة تميم ، والذي بين الجيم والكاف في لغة اليمن ، وإبدال الياء جيماً في الاضافة نحو غلامج ، وفي النسب نحو بصَرج وكوفج[1] . ومن ذلك الحرف الذي بين الباء والفاء ، مثل بور اذا اضطروا قالوا : فور[2] .

ومن النوع الثاني ، وهو الخاص بلغات منسوبة غير ملقبة عند العلماء :

إبدال (فقيم) الياء جيماً ، ولغتهم في ذلك أعم من لغة قضاعة التي مرت في النوع الأول ، لأنها غير مقيدة ، فيقولون في مُحتى وعليّ ؟ مُحتج وعلج . وحجتج في حجتى ، وبج في موضع بي . » وقال ابن فارس في فقه اللغة : إن الياء تجعل جيماً في النسب عند بني تميم ، يقولون غلامج ، أي غلامي ، وكذلك الياء المشددة تحول جيماً في النسب ، يقولون بصرجٍ وكوفجٍ في بصريّ وكوفي . وعكس هذه اللغة في تميم – على ما نقله صاحب المخصص – وذلك انهم يقولون : صيهْرِيٌ والصهاري ، في صهريج والصهاريج «[3] .

في لغة مازن يبدلون الميم باءً والباءَ ميماً ، فيقولون في بكر : مكر ، وفي اطمش اطيش ، ويقولون بااسمك ؟ مكان مااسمك ؟

وفي لغة طيء يبدلون تاء الجمع هاءً إذا وقفوا عليها ، إلحاقاً لها بتاء المفرد؛ وقد سمع من بعضهم : دفن البناه من المكرماه ، يريد : دفن البنات من المكرمات. وحكي قول بعضهم : كيف البنون والبناه ، وكيف الإخوه والأخواه ؟

وفي لغة طيء أيضاً يقلبون الياء ألفاً بعد إبدال الكسرة التي قبلها فتحة،وذلك من كل ماضٍ ثلاثي مكسور العين ، ولو كانت الكسرة عارضة كما لو كان الفعل مبنياً للمجهول ، فيقولون في رضي وهُدي : رَضا وهُدى ، بل ينطقون بها قول العرب : فرس حَظِيّة بظيّة فيقولون : حظاة بظاة ، وكذلك الناصاة، في الناصية .

ومن لغتهم أنهم يحذفون الياء من الفعل المعتل بها إذا أُكِّد بالنون ، فيقولون

---

١ المزهر (١/٢٢٢ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (٥٤) .
٣ الرافعي (١/١٤١ وما بعدها) .

في اخشَيِنَّ وارمينَّ : اخشِنّ وارمِنّ . وجاء في الحديث على لغتهم : « لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء تنطحها ». وتنسب هذه اللغة الى فزارة أيضاً .

وورد في بعض الروايات انهم يبدلون الهمزة في بعض المواضع هاءً ، فيقولون هِنْ فعلت ، يريدون إن فعلت[1] .

وورد أن بعض (طيء) كان يقلب (العين) همزة ، فيقول : دأني بدلاً من دعني .

وفي لغة تميم أنهم يجيئون باسم المفعول من الفعل الثلاثي إذا كانت عينه ياءً على أصل الوزن بدون حذف ، فيقولون في نحو مَبِيع : مبيوع ، ولكنهم لا يفعلون ذلك إذا كانت عين الفعل واواً إلا ما ندر ، بل يتبعون فيه لغة الحجازيين ، نحو : مقول ، ومصوغ .

وفي لغة هذيل لا يبقون ألف المقصور على حالها عند الاضافة الى ياء المتكلم، بل يقلبونها ياءً ثم يدغمونها ، توصلاً الى كسر ما قبل الياء ، فيقولون في عصاي وهواي : عَصِيَّ وهَوَيَّ . ولا يفعلون ذلك إذا كانت الألف في آخر الاسم للتثنية ، كما في نحو (فَتَيَاي) ، بل يوافقون اللغات الأخرى .

وفي لغة فزارة وبعض قيس ، أنهم يقلبون الألف في الوقف ياءً ، فيقولون: الهُدَيْ وأفعيْ وحبليْ ، في مكان الهدى وأفعى وحبلى .

ومن تميم من يقلب هذه الألف واواً ، فيقول : الهُدَوْ ، وأفعو ، وحُبلَو. ومنهم من يقلبها همزة ، فيقول : الهُدأ وأفعأ وحُبلأ .

في لغة خثعم وزَبيد يحذفون نون (مِنْ) الجارة إذا وليها ساكن . وقد شاعت هذه اللغة في الشعر واستخفها كثير من الشعراء فتعاوروها[2] .

في لغة (بلحرث) (بلحارث) يحذفون الألف من (على) الجارة واللام الساكنة التي تليها ، فيقولون في على الأرض علأرض .

في لغة قيس وربيعة وأسد ، وأهل نجد من بني تميم ، يقصرون (أولاء) التي يشار بها للجمع ويلحقون بها (لاماً) ، فيقولون : أولالِك .

---

١ الرافعي (١/١٤٢) .
٢ الرافعي (١/١٤٣ وما بعدها) .

في لغات أسماء الموصول :

بلحرث بن كعب وبعض ربيعة يحذفون نون اللذين واللتين في حالة الرفع . وتميم وقيس يثبتون هذه النون ولكنهم يشددونها ، فيقولون : اللذانّ واللتانّ ، وذلك في أحوال الإعراب الثلاث .

وطيء تقول في الذي : ذو ، وفي التي ذات ، ولا يغيرونهما في أحوال الإعراب الثلاث رفعاً ونصباً وجراً [1] . وقد عرفت بـ (ذي) الطائية . وترد (ذ) (ذو) هذه بهذا المعنى في الصفوية واللحيانية والثمودية .

في لغة ربيعة يقفون على الاسم المنوّن بالسكون في كل أحوال الإعراب ، فيقولون : رأيت خالدْ ، ومررت بخالدْ ، وهذا خالدْ ، وغيرهم يشاركهم إلا في النصب .

وفي لغة الأزد يبدلون التنوين في الوقف من جنس حركة آخر الكلمة،فيقولون: جاء خالدو ، ومررت بخالدي .

وفي لغة سعد يضعفون الحرف الأخير من الكلمة الموقوف عليها إلا اذا كان هذا الحرف همزة أو كان ما قبله ساكناً ، فيقولون : هذا خالدّ ، ولا يضعفون في مثل رشأ وبكر .

في لغة بلحرث وخثعم وكنانة ، يقلبون الياء بعد الفتحة ألفاً ، فيقولون في اليك وعليك ولديه : إلاكَ ، وعلاك ، ولداه ، ومن لغتهم أيضاً إعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً ، وذلك لقلبهم كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها ألفاً ، فيقولون : جاء الرجلان ، ورأيت الرجلان ، ومررت بالرجلان .

وورد في بعض الروايات أن بني سعد بن زيد مناة ، ولخم ومن قاربها ، يبدلون الحاء هاءً ، فيقولون في مدحته ، مدهته . وأن بني أسعد بن زيد مناة ومن وليهم يبدلون من الهاء فاءً ، فيقولون فودج في موضع هودج .

وورد أن أزد شنوءة تقول : تفكهون ، وتميم يقولون : تفكنون ، بمعنى تعجبون [2] .

وورد أن (الكلابيين) يلحقون علامة الإنكار في آخر الكلمة ، وذلك في

---

١ الرافعي (١٤٤/١) .
٢ الرافعي (١٤٥/١ وما بعدها) .

الاستفهام إذا أنكروا أن يكون رأي المتكلم على ما ذكر في كلامه أو يكون على خلاف ما ذكر .

فإذا قلتَ : رأيت زيداً ، وأنكر السامع أن تكونَ رأيته ، قال : زيداً إنيه ! بقطع الألف وتبيين النون ، وبعضهم يقول : زيد نيه ! كأنه ينكر أن يكون رأيك على ما ذكرت[1] .

وذكر (الرافعي) الأمور التالية على النوع الثالث ، من تغيير الحركات في الكلمة الواحدة حسب اختلاف اللهجات :

هَلُمَّ في لغة أهل الحجاز تلزم حالة واحدة بمنزلة رويد ، على اختلاف ما تسند اليه مفرداً أو مثنى أو جمعاً ، مذكراً أو مؤنثاً ؛ وتلزم في كل ذلك الفتح؛ وفي لغة نجد من بني تميم تتغير بحسب الإسناد ، فيقولون : هلمَّ يا رجل، وهلمي، وهلما ، وهلمّوا ، وهلمُمْنَ ؛ واذا اسندت لمفرد لا يكسرونها . فلا يقولون : هَلِمِّ يا رجل ، ولكنها تكثر في لغة كعب وغني.

وفي لغة تميم يكسرون أول فَعِيل وفَعِل إذا كان ثانيها حرفاً من حروف الحلق الستة ، فيقولون في لئيم ونحيف ورغيف وبخيل : لِئيم ، ونِحيف بكسر الأول ، ويقولون : هذا رجل لِعِبٌ ، ورجل مِحِكٌ ، كل ذلك بالكسر وغيرهم بفتحه .

في لغة خزاعة يكسرون لام الجر مطلقاً مع الظاهر والضمير ، وغيرهم يكسرها مع الظاهر ويفتحها مع الضمير غير ياء المتكلم ؛ فيقولون : المال لِكَ ولِهُ .

هاء الغائب مضمومة في لغة أهل الحجاز مطلقاً إذا وقعت بعد ياء ساكنة ، فيقولون : لَدَيْهُ وعَلَيْهُ ؛ ولغة غيرهم كسرها .

في لغة الحجازيين يحكون الاسم المعرفة في الاستفهام اذا كان علماً كما نُطق به ، فإذا قيل : جاء زيد ، ورأيت زيداً ، ومررت بزيدٍ ، يقولون : من زيدُ ؟ ومن زيداً ؟ ومن زيدٍ ؟ أما اذا كان غير علم : كجاءني الرجل ، أو كان علماً موصوفاً : كزيد الفاضل ، فلا يستفهمون إلا بالرفع ، يقولون : من الرجلُ ؟ ومن زيدٌ الفاضلُ ؟ في الأحوال الثلاث .

---

١ الرافعي (١٤٦/١ وما بعدها) .

واذا استفهموا عن النكرة المعربة ووقفوا على أداة الاستفهام ، جاءوا في السؤال بلفظة (مَن) ولكنهم في حالة الرفع يُلحقون بها واواً لمجانسة الضمة في النكرة المستفهم عنها ، ويلحقون بها ألفاً في حالة النصب ، وياءً في حالة الجر، فإذا قلتَ : جاءني رجل ، ونظرت رجلاً ، ومررت برجل ، يقولون في الاستفهام عنه : منُو ؟ ومنَا ؟ ومني ؟ وكذلك يلحقون بها علامة التأنيث والتثنية والجمع . فيقولون : منَه ؟ في الاستفهام عن المؤنثة ، ومنان ؟ ومنين ؟ للمثنى المذكر ، ومنَتان ؟ ومنَتين ؟ للمثنى المؤنث : ومنون ؟ ومنين ؟ للجمع المذكر ، ومنات ؟ للجمع المؤنث . وهذا كله اذا كان المستفهم واقفاً ، فإذا وصل أداة الاستفهام جردها عن العلامة ، فيقول : مَن يا فتى ؟ في كل الأحوال .

وبعض الحجازيين لا يفرق بين المفرد وغيره في الاستفهام ، فيقول : منو ، ومنا ، ومني ، إفراداً وتثنية وجمعاً في التذكير والتأنيث .

وحفظ عن أهل الحجاز انهم يعاقبون أحياناً بين الواو والياء، فيجعلون احداهما مكان الأخرى ، فيقولون في الصوّاغ : الصياغ ، وقد دوّخوا الرجل وديّخوه. وسمع عن بعض أهل العالية قولهم ، لا ينفعني ذلك ولا يضورني ، أي يضيرني، وسمع عن قوم قولهم : في سريع الأوبة : سريع الأيبة . ومنهم من يقول في المصايب : مصاوب ، ويقول حكوت الكلام ، أي حكيته . وأهل العالية يقولون : القصوى ، ويقول أهل نجد : القصيا .

وقد وردت أفعال ثلاثية تُحكى لاماتها بالواو والياء ، مثل عزوت وعزيت ، وكنوت وكنيت . وهي قريب من مائة لفظة .

في لغة بكر بن وائل وأناس كثير من بني تميم ، يسكنون المتحرك استخفافاً، فيقولون في فَخِذ ، والرَّجُل ، وكَرُمَ ، وعَلِمَ : فَخْذ ، وكَرْم ، والرَّجْل ، وعَلْمَ . وهذه اللغة هي في كثير من تغلب . ثم اذا تناسبت الضمتان أو الكسرتان في كلمة خففوا أيضاً ، فيقولون في العُنُق والإبِل ، العُنْق ، والإبْل .

وحكى أن في لغة أزد السراة تسكين ضمير النصب المتصل[1] .

---

١ الرافعي (١/١٥٦ وما بعدها) .

ولبعض القبائل لغات في كلمات : فتميم نجد يقولون نِهرٌ ، للغدير ، وغيرهم يفتحها . والوَتر في العدد حجازية ، والوِتر بالكسر في الذَّحل : الثأر ، وتميم تكسرهما جميعاً ، وأهل العالية يفتحون في العدد فقط .

ويقال وَتِدٌ ، ووتَدٌ ، وأهل نجد يدغمونها فيقولون . وَدٌّ . وبعض الكلابيين يقولون : الدِّواء ، وغيرهم يفتحها . والعرب يقولون شُواظٌ من نار ، والكلابيون يكسرون الشين .

والحجازيون يقولون لعمري ، وتميم تقول : وعملي . واللص في لغة طيء ، وغيرهم يقول : اللَّصت[1] .

وهناك لغات في الإعراب :

فتستعمل (هذيل) (متى) بمعنى (مِنْ) ويجرون بها ، سمع من بعضهم قوله : أخرَجها متى كُمِّه ، أي من كُمه .

وفي لغة تميم ينصبون تمييز (كم) الخبرية مفرداً ، ولغة غيرهم وجوب جرّه وجواز افراده وجمعه ، فيقال : كم درهمٍ عندك ، وكم عبيدٍ ملكت ! وتميم يقولون : كم درهماً ، وكم عبداً !

في لغة الحجازيين ينصب الخبر بعد (ما) النافية نحو : ما هذا بشراً ، وتميم يرفعونه .

في لغة أهل العالية ينصبون الخبر بعد إن النافية ، سمع من بعضهم قوله : إن أحدٌ خيراً من أحدٍ إلا بالعافية .

الحجازيون ينصبون خبر ليس مطلقاً ، وبنو تميم يرفعونه إذا اقترن بإلا ، فيقول الحجازيون : ليس الطيب إلا المسكَ ، وبنو تميم : إلا المسكُ .

في لغة بني أسد يصرفون ما لا ينصرف فيما علّة منعه الوصفية وزيادة النون، فيقولون : لست بسكرانٍ ، ويلحقون مؤنثه التاء ، فيقولون : سكرانة .

في لغة ربيعة وغنم يبنون (مع) الظرفية على السكون ، فيقولون : ذهبتُ معْهُ ، وإذا وليها ساكن يكوسرنها للتخلص من التقاء الساكنين ، فيقولون ذهبت معِ الرجلِ .

---

١ الرافعي (١/١٥٢) .

في لغــة (بني قيس بن ثعلبة) يعربون (لَدُنْ) الظرفية ، وعلى لغتهم قرىء (من لدنه علماً) ، وغيرهم يبنيها .

الحجازيون يبنون الأعلام التي على وزن فعَال : كحذام ، وقطام ، عــلى الكسر في كل حالات الإعراب ، وتميم تعربها ما لم يكن آخرها راءً وتمنعهــا من الصرف للعَلَميــة والعدل ، فإذا كان آخرها راء كوبار ، اسم قبيلة وظفار اسم مدينة فهم فيها كالحجازيين .

وتعرب هذيل (الذين) اسم الموصول إعراب جمع المذكر السالم ، فيقولون :

نحن الّذون صبحوا الصّباحا   يوم النخيـل غارة ملحاحــا

ومن لغة هذيل أيضاً،فتح الياء والواو في مثل بَيْضات ، وهيآت ، وعَورات، فيقولون : بَيَضات ، وهيَآت ، وعَوَرات ، وبقية العرب على إسكانها [1] .

وذكر (الرافعي) بعض الأمثلة على المثال الرابع من قبيل : إبدالهم أواخر بعض الكلمات المجرورة ياء ، كقولهم في الثعالب والأرانب والضفادع : الثعالي والأراني والضفادي . وقد يبدلون بعض الحروف ياء كقولهــم في سادس : سادي ، وفي خامس : خامي[2] .

ومن العرب من يجعل الكاف جيماً ، فيقول مثلاً : الجعبة ، في الكعبة ، وبعضهم ينطق بالتاء طاء : كأفلطني ، في أفلتني ، وهي لغة تميمية .

وتقول بعض العرب أردت عَنْ تفعل كذا ، وبعضهم يقول : لألّني ، في (لعلّني) . وفي لعل لغات يقولها بعض العرب دون بعض ، وهي : لعلّي ، ولعلي ، وعلّي ، وعلّني ، ولعنّي ، ولغني . ورَعَنَ ، ورعنَ ، وعنَ ، وأن ، ولعاء .

وورد تلعثم وتلعزم في لغة بعض الناس ، وتضيفت الشمسُ للغروب ، وتصيفت[3] .

وفي (عند) لغات ، هي : عِندي ، وعُندي ، وعَندي ، وفي لدن ثماني

---

١ الرافعي (١٥٣/١ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١٥٥/١) .
٣ الرافعي (١٥٧/١) .

لغات ، وهي لَدُن ، ولُدُن ، ولَدَى ، ولَدُ ، ولَدْن ، ولُدْن ، ولَدْ ، ولَدَى ؛ وفي (الذي) : الذي ، والذِ ، واللّذ ، واللذيّ ، وفي التثنية اللذانِ ، واللذانّ ، واللذا ، وفي الجمع : الذين ، والذون ، والملاءون ، واللاءو ، واللائي ، - باثبات الياء في كل حال - والألى ؛ وللمؤنث اللائي ، واللاء ، واللاتي : واللتِ ، واللتْ ، واللتان ، واللتا ، واللتانّ ، وجمع التي اللاتي ، واللات ، واللواتي ، واللوات ، واللوا ، واللاء ، واللاتِ[1] .

ومن لغات (هو) و (هي) : هُوْ ، وهِيْ ، وهُوّ ، وهِيّ و هُ ، هِ .

ومن لغات لاجرم : لاجرّ ، ولا ذا جرم ، ولا ذا جر ، ولا إن ذا جرم ، ولا عِنْ ذا جرم .

ومن لغات نعم ، حرف الايجاب : نَعِمْ ، ونِعِم ، ونَحَم .

وبعض العرب يبدل هاء التأنيث تاءً في الوقف ، فيقول : هذه أمت ، في أمة ، وبقرت في بقرة ، وآيت في آية[2] .

وذكر (الرافعي) ان النوع الخامس ، هو النوع الخاص باللثغة من المتكلم . كالألفاظ التي وردت بالراء والغين وبحروف أخرى[3] .

ومن مواضع الاختلاف التي ذكرها (الرافعي) ، والتي وقعت في القرآن بسبب القراءات : تحقيق الهمز وتخفيفه ، والمد والقصر ، والفتح والإمالة وما بينها ، والاظهار والادغام ، وضم الهاء وكسرها من عليهم وإليهم وإلحاق الواو فيها وفي لفظي منهُمُو وعنهُمُو ، وإلحاق الياء في اليه وعليه وفيه ، ونحو ذلك ، فكان كل أهل لحن يقرءونه بلحونهم[4] .

والتضجيع : الإمالة ، وكانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف ، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُميلون ، ويظهر أن ذلك لم يكن عاماً في القبيلة الواحدة ، فقد كان بعض منها يميل وبعض منها لا يميل ، وفي ذلك قول سيبويه :

---

١ الرافعي (١/١٥٧ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١/١٥٩) .
٣ الرافعي (١/١٥٩ وما بعدها) .
٤ الرافعي (٢/٤٩) .

« اعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه ، فينصب بعضٌ ما يميل صاحبه ، ويميل بعضٌ ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب في لغته لا يوافق غيره ممن ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسر (الإمالة) فإذا رأيت عربياً كذلك فلا ترينه خلط في لغته ولكن هذا من أمرهم »[1] .

وذكر (ابن فارس) ، ان من اختلاف العرب في لغاتهم ، اختلافهم « في التذكير والتأنيث ، فإن من العرب من يقول : هذه البقر ، ومنهم من يقول : هذا البقر ، وهذه النخيل ، وهذا النخيل » ، واختلافهم « في الإعراب، نحو : ما زيد قائماً ، وما زيد قائم ، وإن هذين ، وإن هذان ، وهي بالألف لغة لبني الحارث بن كعب » ،واختلافهم « في صورة الجمع ، نحو أسرى وأسارى»[2]. وفي هذه اللغة فسر المفسرون الآية : « إن هذان لساحران » ، اذ قالوا إنهما نزلت على لغة بني الحارث بن كعب ومن جاورهم ، « وهم يجعلون الاثنين في رفعها ونصبها وخفضها بالألف.وقد أنشدني رجل من الأسد عن بعض بني الحارث ابن كعب :

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى مساغاً لناباه الشجاع لصمما[3]

ويظهر من اختلاف العلماء — الذي رأيناه — في نسبة الأمور المذكورة الى ألسنة القبائل وفي عدم اتفاقهم في كثير من الحالات في تثبيت اللغات المذكورة الى قبيلة معينة أو حصرها في قبائل وترددهم في أقوالهم ، ان ما ذكروه من اختلاف لم يكن حاصل دراسة استقرائية عميقة ، وانما هو حاصل اتصال بأفراد أو بعدد قليل من الأعراب ومن المدعين بالعلم في ألسنة العرب ، ولهذا نجد التناقض بادياً في أقوالهم ، وصارت دراساتهم المتقدمة ناقصة غير كاملة ، لا تتناول إلا أموراً جانبية لا تمس صلب اللغة ولا تنال قواعدها في الصميم . وعلى علماء اللغة في الوقت الحاضر واجب الخروج على الجادة القديمة التي يسيرون عليها اليوم في دراسة

---

١ العصر الجاهلي ، دكتور شوقي ضيف (١٢٢) .
٢ الصاحبي (٤٩ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (١٦/١٣٦) .

اللغة ، بالذهاب بأنفسهم من جديد الى مواطن اللغة، للأخذ من أحجارها المكتوبة إن وجدت ومن ألسنة الأحياء الباقين ، أخذاً علمياً مقروناً بدراسات حديثة مبنية على تسجيل الأصوات ، للاستعانة بها في الكشف عن لغات العرب بأسلوب علمي حديث .

ويلاحظ أيضاً أن علماء اللغة ، قد جمعوا بعض الملاحظات التي ظهرت لهم، من دراساتهم للغة أهل الحجاز ، وللغة تميم . فسجلوها في كتب اللغة والقواعد ، وقد أشرت اليها فيما تقدم بايجاز . واذا قلت أهل الحجاز ، فلا أعني لغة قريش وحدها ، وانما لغات القبائل الحجازية ، التي تكوّن مجموعة القبائل الساكنة في الحجاز . فإن العلماء حين شرعوا بتدوين اللغة ، وجدوا ان لغة أهل مكة لم تعد صافية نقية بسبب اختلاط أهلها بالأعاجم ، وظهور الفساد على لسانهم ، لذلك ، لا نجد لهم ذكراً بارزاً عند علماء اللغة ، وانما حل محلهم مصطلح : أهل الحجاز. ويظهر ان عرب (تميم) من علماء اللغة ، ووجود عدد من عشائرها في العراق على مقربة من المصريين ، ونزول رجال منها البصرة والكوفة ، ثم اشتهار رجال من تميم بالفصاحة والبلاغة والخطابة قبل الاسلام ، كل هذه وأمور أخرى مكّنت العلماء من تسجيل ملاحظات كثيرة عن لغة تميم ، زادت بكثير عن الملاحظات التي دونتها عن القبائل الأخرى ، وقد ذكر العلماء في مقابلها ما كان يختلف فيه أهل الحجاز عنهم ، فتجمعت لدينا بذلك ملاحظات لغوية ونحوية ميزت لهجات تميم عن لهجات (أهل الحجاز) ، وبعض القبائل الأخرى . وقد دخلت هذه الفروق في قراءة القرآن ، فقرأ بعض القراء على لغة الحجازيين ، وقرأ بعض آخر الآيات نفسها على لهجة تميم . كل قرأ على لسانه وتمسك بقراءته ، وقد ساعد ذلك عدم وجود الحركات الضابطة للحروف ، ولو كانت هناك حركات في مبدأ التدوين تضم الحرف أو تكسره أو تفتحه ، لضاق نطاق هذا الاختلاف إذ كان على الناس القراءة وفقاً للمصحف المحرك المشكل الذي اتخذ إماماً لهم ، ولكن عدم وجود مصحف إمام استعمل الشكل والإعجام ، سهّل ظهور القراءات .

والخلاف بين (أهل الحجاز) (لغة أهل الحجاز) وبين (تميم) ، هو خلاف في إطار مجموعة واحدة من القبائل ، هي مجموعة (مضر) . فالقبائل الحجازية التي ذكروها هي قبائل مضرية ، و (تميم) من قبائل مضر كذلك ،

في عرف أهل الأنساب . وكان بين أهل مكة ، أي (قريشاً) وبين (تميم) اتصال وثيق قبل الاسلام ، وكانت بينهم مصاهرة . وقد عرفت (تميم) واشتهرت بالفصاحة ، ولو أخذنا برأي أهل الأخبار ، وبما ذكروه عن فصاحة (تميم) وعن كثرة وجود الخطباء والشعراء فيهم ، وعن حكومتهم في (عكاظ) ، وبما ذكروه عن (قريش) فإننا نخرج بنتيجة هي أن (تميماً) ، كانت أكثر شهرة في بضاعة الكلام من (قريش) ، وهي نتيجة تناقض زعمهم أن قريشاً كانت أصفى العرب لغة ، وأن لسانها هو اللسان العربي الفصيح الذي نزل به القرآن ، وأنها كانت تجتبي أحسن الألفاظ وأعذبها من بين سائر لغات العرب حتى صار لسانها أفصح الألسنة ، وذلك بدليل استشهاد علماء اللغة بلغة تميم من نثر وشعر في شواهدهم وأدلتهم على قواعد اللغة ، كثرة لا تقاس بها الشواهد التي استشهد بها العلماء على ضبط اللغة والقواعد ، المنتزعة من لسان قريش .

ولو استقصينا ما دوّنه علماء اللغة عن مواطن الاختلاف بين لغات العرب ، نصل الى نتيجة أخرى ، هي ان لغات كثير من القبائل تميل الى ترجيح كفة (لغة تميم) على لغة أهل الحجاز ، ففي الفتح والكسر ، كما في (الوتر) و (الوِتر) ، نجد الفتح لغة أهل الحجاز ، والكسر لغة تميم وأسد وقيس[1] : وقد قرأ بالقراءتين في سورة : « والفجر . وليالٍ عشرٍ . والشفع والوتر »[2] . قال (الطبري) : « واختلف القراء في قراءة قوله والوتر ، فقرأته عامة قراء المدينة ومكة والبصرة وبعض قراء الكوفة بكسر الواو . والصواب من القول في ذلك ، أنهما قراءتان مستفيضتان معروفتان في قراءة الأمصار ، ولغتان مشهورتان في العرب فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب »[3] . فنرى من رواية (الطبري) المذكورة أن غالبية القراء ، انما قرأت بقراءة تميم وأسد وقيس ، وان كانت القراءة الثانية التي هي بالفتح لغة مكة صحيحة .

والقبائل : (تميم) و (قيس) و (أسد) ، هي من القبائل التي أكثر علماء العربية أخذ اللغة عنها ، ونصوا على اسمها بالذات ، فقالوا : « والذين

---

١ الامالي ، للقالي (١/١٣) .
٢ سورة الفجر ، الرقم ٨٩ ، الآية ٣ .
٣ تفسير الطبري (٣٠/١١٠) .

عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[1] . فهي في مقدمة القبائل التي ركن اليها علماء اللغة في أخذ اللغة عنهم ، يليهم هذيل ، فكنانة ، وبعض الطائيين .

ومعنى هذا أن بناء العربية ، الذي قام به علماء اللغة ، انما أخذ معظم مادته من لغات القبائل الثلاث المذكورة ، وهي قبائل أقامت في مواضع متجاورة منذ القدم،وكانت بطونها قد توغلت في بوادي العراق في الجاهلية القريبة من الاسلام وفي الاسلام ، وفي البحرين ونجد وبعض مناطق اليمامة . فهي تكوّن جزءاً كبيراً من جزيرة العرب والعراق .

ولتجاور القبائل الثلاث المذكورة في القديم ، أثر كبير في تشابك اللغات وفي تقاربها ، لأن للجوار أثراً خطيراً في تطور اللغة ونموها . ونحن في حاجة اليوم الى وضع صورة مضبوطة لتوزع القبائل في الجاهلية في جزيرة العرب وبادية الشام على مرّ الأدوار ، لنتمكن بواسطتها من تتبع الأثر السياسي والثقافي لهذه القبائل وذلك فيما قبل الاسلام ، ومن دراسة ما ذكره علماء اللغة من فروق بين اللغات بصورة علمية دقيقة مضبوطة ، بتسجيل كل ما ذكروه واحصائه بالضبط ، ثم تطبيق ما ذكروه على مواطن هذه القبائل التي ضبطت ضبطاً صحيحاً على هذه الصورة .

ونجد في كتب اللغة والمعاجم أموراً لغوية كثيرة ، مبعثرة لم يشر اليها العلماء إلا عرضاً ، مثل قول بني أسد (ييجع) بكسر أوله ، مع عدم قولهم (يِعلم) استثقالاً للكسرة على الياء وأمثال ذلك[2] ، مما يحتاج الى جمع وتصفية للوقوف على قديم اللغات .

وقد عرفت (بنو أسد) ببروزها في شقي الكلام : الشعر والنثر . « قال يونس بن حبيب : ليس في بني أسد إلا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل إلا شاعر أو رام ،

---

١ المزهر (٢١١/١) .
٢ تاج العروس (٥٣٣/٥) ، (وجع) .

أو شديد العدو »[1] . وهي قبيلة شهيرة . أرى أنها قبيلة « Asateni » المذكورة في جغرافية (بطلميوس)، بين « Iodistae » التي تقع أرضها شمال « Asateni »، وهي (جديس) ، وقبيلة « Mnasemanes » التي تقع منازلها في شمال غربها في خريطة بطلميوس ، وبين « Laeeni » و « Thaemae » الواقعتين الى الشرق منها ، وموضع « Baeti fl. Fontes » الواقع الى الجنوب وقبيلة « Thanuitae » التي تقع منازلها جنوبي هذا الموضع ، ثم موضع « Salma » ، وهو في الخريطة موضعان : موضع يقع شمالي « Mnasaemanes » ، وموضع يقع جنوب غربي « Baeti fl. Fontes »[2] .

وأما (هذيل) ، فمواطنهم (جبال هذيل)[3] ، وهم جيران (سعد بن بكر)[4] وجيران (كنانة)[5] ، و (هوازن) ، وهي كلها من القبائل التي أثنى العلماء على لغتها . وهذيل من قبائل مضر ، ومن القبائل التي اعرقت في الشعر[6] ، وقد استشهد العلماء بشعر شعرائها في اللغة وفي القواعد ، ومن هنا عدّت في القبائل التي أخذ علماء العربية اللغة منها . وأما (سعد بن بكر) ، و (كنانة) ، و (هوازن) فهي مثل (قريش) و (هذيل) من مجموعة (خندف) من (مضر) .

وأما (بعض الطائيين) الذين أخذ عنهم علماء العربية العربيةَ، فقد نص العلماء على أسمائهم حين استشهدوا بشعر شعرائها . وطيء ، من القبائل اليمانية في عرف النسابين . وهم من القبائل القديمة التي كان لها شأن يذكر قبل الاسلام ، بدليل أن (بني إرم) والفرس ، أطلقوا على العرب عموماً كلمة (طيايه) (طيايو) من أصل (طيء) اسم هذه القبيلة . وأن العبرانيين أطلقوا (طيعا) (ط ي ي ع ا)، (طيايا) (طياية) في مرادف (عرب) مما يدل على انها كانت أقوى قبائل العرب

---

١ البيان والتبيين (١/١٧٤) .
٢ راجع خريطة « بطلميوس » ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٣٧١) .
٣ بلاد العرب ، للاصفهاني (١٤ وما بعدها ، ٢٠ وما بعدها ، ٢٣ وما بعدها ، ٢٥ وما بعدها ، ٣٢) .
٤ المصدر نفسه (ص ١٣ وما بعدها) .
٥ كذلك (ص ١٩ وما بعدها ، ٢١ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٨/١٦٦) .

قبل الاسلام بزمن طويل[1] ، وربما كان هذا شأنهم قبل الميلاد .

ولا يفهم من أقوال علماء اللغة عن لغتهم ، انها كانت ذات صلة بالعربيات الجنوبية ، وأما ما ذكروه من (ذي) التي نعتوها بـ (ذي) الطائية ، فليس لها صلة بـ (ذ) الواردة في العربيات الجنوبية ، وانما هي سمة خاصة بلهجة (طيء) التي هي من العربية الشمالية ، أو من مجموعة عربية (ال) في اصطلاحي الذي أطلقته على العربية الشمالية ، لامتيازها بأداة التعريف هذه عن بقية اللهجات العربية التي استعملت أداة أخرى للتعريف . ولهذا فإن قبيلة (طيء) هي قبيلة عربية من القبائل المتكلمة بعربية (ال) ، وإن عدّ النسابون نسبها من الجنوب .

وما ذكرته من فروق واختلاف ، فإنما هو مما يتناول الاختلاف الكائن بين اللهجات العربية الشمالية ، وأكثره مما يتناول لهجات القبائل في عهد التدوين ، في الأيام التي ظهر فيها الوعي بوجوب تسجيل علوم اللغة وضبطها ، فكان أن أخذ علماء اللغة من الفصحاء وممن اشتهر بالعلم باللغة من الصحابة والتابعين ، كما أخذوا من الأعراب الذين كانوا يفدون على البصرة والكوفة ، وهم من قبائل مختلفة ، لكنهم على الأكثر من أعراب البوادي القريبة من العراق ، ومن القبائل الضاربة في البادية ، فقد ذهب قوم من علماء اللغة الى البادية معدن اللغة للأخذ من ألسنة أهلها مباشرة ، ولاستقراء لهجاتها للتوصل بذلك الى معرفة اللغة والقواعد . فكان من هذا الجمع ومن مراجعة القرآن والشعر والحديث ، هذا المدوّن في الكتب من علوم العربية . فهو كله إذن تدوين ظهر في الاسلام .

ولكننا لا نستطيع أن نتحدث عن ذهاب عــدد كبير من العلماء الى البوادي لدراسة لهجات القبائل ،كما لا نستطيع التحدث عن الطرق والأساليب التي سلكوها في جمع اللغة وفي البحث عنها وأخذها من أفواه أصحابها ، لعدم وجـود شيء من ذلك في الموارد الموجودة لدينا الآن . نعم لقد ذكروا أن أقدم من ذهب الى البادية : يونس بن حبيب (١٨٣ هـ) ، و (خلف الأحمر) (١٨٠) ، و(الخليل ابن أحمد) (١٧٥ هـ) ، و (أبو زيد) الأنصاري (٢١٥ هـ) ، و (الكسائي) (١٨٩ هـ) الذي ذهب الى وادي الحجاز ونجـد وتهامة ، ورجع وقد أنفد خمس

---

١ الجزء الاول من هذا الكتاب (ص ٣١) .

عشرة قنينة من الحبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ[1] ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن بحوثهم وعن استقراءاتهم ولا عن طرقهم التي اتبعوها في بحثهم وتنقيرهم عن اللغة ، والأغلب أنها تناولت الغريب والشعر ، ثم إننا لا نستطيع التحدث عن هذه الرحلات بشيء من الاطمئنان والثقة ، لما قد يكون في كلام رواتها من المبالغة والاضافة والافتعال بسبب العصبية الى المدينة والى العلماء .

ويلاحظ ان معظم الملاحظات المدونة عن اللغات تناولت قبائل ألِف علماء العربية الأخذ عنها والاستشهاد بكلامها ، وهي قبائل يرجع النسابون نسبها على طريقتهم الى (معد) ، ويظهر من ملاحظات العلماء عن لهجاتها انها كانت تتكلم بلهجات متقاربة ، ترجع الى المجموعة التي تستعمل (ال) أداة للتعريف . أما القبائل التي رجع أهل النسب نسبها الى قحطان ، والتي استشهد بشعرها فهي : الأزد ، وحمير ، وبعض طيء ، وخثعم . أما كندة ، ومنها الشاعر (امرؤ القيس) ، فلا نجد لها ذكراً في هذه اللغات ، وإن استشهد بشعر شاعرها وبشعر غيره من شعراء هذه القبيلة ، وقد أشير الى اليمن ، ولكنهم لم يذكروا قصدهم منها ، ويظهر انهم أرادوا بهم أعراب اليمن ، وهم مهاجرون في الأصل هاجروا من باطن الجزيرة الى اليمن بعد أن ضعف الحكم فيها على أثر تدخل الحبش في شؤون اليمن وتقاتل الملوك بعضهم مع بعض ، مما أفسح المجال للأعراب بدخول العربية الجنوبية ، فكوّنوا قوة خطيرة فيها ، أشير اليها في كتابات المسند بـ (واعربهم) . (واعربهمو) كما أشرت الى ذلك في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب .

ولا تزال بعض اللهجات باقية ، تتكلم بها القبائل على سليقتها الأولى ، وآسف لأن أقول ان علماء العربية في الوقت الحاضر ، لم يوجهوا عنايتهم نحوها لدراستها قبل انقراضها وزوالها ، مع ان دراستها من الأمور الضرورية بالنسبة لهم ، لأنها تساعد في تعين أصول العربيات وفي تثبيت المجموعات اللغوية العربية ، وقد نستنبط منها أموراً علمية كثيرة فات على علماء العربية القدامى يومئذ تسجيلها ، لأنها لا تزال باقية ، فبواسطة الطرق الحديثة في البحث يمكن العثور على ما فات على أولئك العلماء من أمور .

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٤٤ وما بعدها) .

وقد لاحظ (فؤاد حمزة) ، ان أهل نجد أصرح في الوقت الحاضر لغة من أهل الحجاز ، لقرب هؤلاء من الحرمين واختلاطهم بالأجانب ، وبعد أولئك عن كل تلك العوامل . ولكن أفصح اللهجات وأقربها الى الفصحى هي اللهجات اليمانية الواقعة ما بين جنوبي الحجاز واليمن . وقد ذكر انهم يتكلمون الألفاظ من مخارجها الصحيحة ، ويتكلمون بما هو أقرب الى الفصيح من سواه . ويتكلم بعض البداة منهم بكلم معرب فصيح[1] .

ولاحظ أن لغات القبائل لا تزال مختلفة ، فمنهم من يقلب (الجيم) ياء فيقول: (المسيد) ، بدلاً من (المسجد) ، وهم قوم من اليمن والنمور في وادي محرم ، ومنهم من يقلب القاف والكاف (تس) ، فيقول (حكى) (حتسى) ، وهم من أهل نجد ، ومنهم من يقلب (الكاف) (تش) ، فيقول : (بكى) (بتش) ، ومنهم من يقلب (القاف) (گافاً) مفخمة ، فيقول (گال) في موضع (قال) ، وهي من لغات أهل نجد ، ومنهم من يقلب (الكاف) (سيناً)، فيقول (عبيسي) ، في موضع (عبيكي) ومنهم من يقلب (القاف) (جيماً) ، فيقول (العجير) في موضع (العقير) ، ومنهم من يقلب (الظاء) (لاماً)، فيقول (اللهر) في موضع (الظهر) ، ومنهم من يقلب (الضاد) (لاماً)، فيقول (الليف) في موضع (الضيف) ، ومنهم من يجعل (الياء) بين الألف والياء ، فيقول (امطاير) في موضع (مطير)[2] .

ويلاحظ أن قبائل العراق لا تزال تستعمل مثل هذه اللجهات وغيرها، فيستعمل بعضها حرف العين في موضع الهمزة ، فيقولون (سعال) في موضع (سؤال) وتستعمل بعض القبائل حرف (الياء) في موضع (الميم) ، فتقول (يومن) ، في موضع (مومن) ، أي (مؤمن) ، وغير ذلك ، وتستعمل بعضها الياء في موضع (الجيم) ، فتقول : (ريال) في موضع (رجّال) ، أي (رجل) .

وذكر ان أهل اليمن يستعملون (الميم) في موضع (ال) أداة التعريف ، فيقولون (أم بيت) في موضع (البيت)[3] . وقد أشير في الحديث الى هذه

---

١ قلب جزيرة العرب (٩٩) .
٢ قلب جزيرة العرب (١٠٠) .
٣ قلب جزيرة العرب (١٠٠) .

اللغة ، ويظهر أنها لغة خاصة ، ربما كانت حاصل ادغام حرف الجر (من) في الكلمة التي دخلت عليها ، ف (أم بيت) ، هي (من البيت) أو أنها لهجة من اللهجات التي تكلم بها أهل اليمن الشماليون ، جعلت (الميم) أداة للتعريف. لأننا نعلم — كما سبق أن ذكرت — أن حرف (الميم) أداة للتنكير في اللهجات العربية الجنوبية ، فيقال (بيتم) في موضع (بيت) ، وتلحق آخر الاسم . أما أداة التعريف فحرف (ن) يلحق آخر الكلمة كذلك ، ولا يدخل على أولها كما في (ال) ، يقال (بيتن) في موضع (البيت) ، و (ملكن) في مقابل (الملك) .

وذكر (فؤاد حمزة) أن قبيلة (فهم) ، وتقع منازلها اليوم بين بني ثقيف شمالاً والجحادلة غرباً ، تتكلم بعربية قريبة جداً من العربية الفصحى ، وهي مشهورة بالفصاحة [1] .

وفي العربية الجنوبية قبائل تتكلم اليوم بلهجات يرجع نسبها الى اللهجات العربية الجنوبية القديمة ، لأن في ألفاظها وفي تراكيب جملها ، ودراستها في هذا اليوم، ضرورة لازمة لمن يريد الوقوف على تأريخ اللغة العربية قبل الإسلام، ومن الضروري كذلك وجوب دراسة اللهجات (الشحرية) و (المهرية) و (السواحلية) و (السقطرية) ، ولهجات السواحل الافريقية المقابلة لجزيرة العرب للوقوف على تطور اللغات العربية الجنوبية ، وعلى حل رموزها التي لا تزال مغلقة غير معروفة عند علماء هذا اليوم . لما لهذه اللهجات من صلات بالعربيات المذكورة .

وأرى من الضروري دراسة اللهجات العربية الحالية في كل مكان من أمكنة جزيرة العرب ، ولا سيما في المواضع التي استخرج العلماء من باطنها نصوصاً مدوّنة بلهجات عربية قديمة ، مثل أعالي الحجاز لنتمكن بهذه الدراسة من حلّ معضلات تلك الكتابات ومن تكوين رأي علمي واضح عن تطوّر تلك اللهجات فيما قبل الاسلام .

وأرى من الضروري في هذا اليوم وجوب تأليف معجم لغوي ، يضم اللهجات العربية القديمة ، أي اللهجات الجاهلية التي وردت في النصوص الجاهلية، للوقوف عليها ، ولا سيما على اللفظ الغريب منها ، ومقارنتها بالألفاظ التي ترد في اللهجات

---

١ قلب جزيرة العرب (١٧٨) .

العربية الأخرى لإحياء ما يمكن احياؤه من الميت منها ، واستعماله في هذا اليوم ، للأشياء التي قصرت العربية الفصحى عن وضع مسميات لها،أو أن مسمياتها حوشية، لا تنسجم مع الذوق ، وادخال الألفاظ الواردة في النصوص في المعاجم الموسعة العلمية التي تؤرخ الألفاظ ، بأن تشير الى ورودها لأول مرة في الشعر أو في النصوص الجاهلية . كما أرى من الضروري وجوب العناية بدراسة ما ذكره العلماء عن اللهجات دراسة علمية نقدية تقوم على المقابلة والمطابقة والمقارنة باللغات الأخرى مع تسجيل قواعدها حسبما أمكن .

الفصل الثامن والثلاثون بعد المئة

لغة القرآن

ولتشخيص لغة القرآن صلة كبيرة في تعيين وتثبيت المراد من العربية الفصيحة أي العربية المبينة . ولهذا فأنا مضطر الى التعرض لها ، وإن كان الموضوع بحثنا إسلامياً ، فأقول نزل القرآن منجماً (بلسان عربي مبين) . ولكن العرب كانوا ولا زالوا يتكلمون بلهجات ، فبأية لهجة من لهجاتها نزل القرآن الكريم ؟

لقد تطرق (الطبري) في مقدمة تفسيره الى هذا الموضوع بعد أن تعرض لرأي من زعم أن في القرآن كلماً أعجمياً ، وأن فيه من كل لسان شيئاً ، فقال : « قال أبو جعفر : قد دللنا على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه ، على أن الله جلّ ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم ، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغتها . فنقول الآن : إذا كان ذلك صحيحاً في الدلالة عليه ، فبأي ألسن العرب أنزل ؟ أبألسن جميعها أم بألسن بعضها ؟ إذ كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن بالبيان ، متباينو المنطق والكلام . وإذ كان ذلك كذلك ، وكان الله جلّ ذكره قد أخبر عباده أنه قد جعل القرآن عربياً ، وأنه أنزل بلسان عربي مبين ، ثم كان ظاهره محتملاً خصوصاً وعموماً ، لم يكن السبيل الى العلم بما عنى الله تعالى ذكره من خصوصه وعمومه إلاّ ببيان من جعل اليه بيان القرآن ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا كان ذلك كذلك ،

وكانت الأخبار قد تظاهرت عنه،صلى الله عليه وسلم ، بما حدثنا خلاد بن أسلم، قال : حدثنا أنس بن عياض عن أبي حازم عن أبي سلمة ، قال : لا أعلمه إلا عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف، فالمراء في القرآن كفر ، ثلاث مرات . فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه الى عالمه »[1] .

واستمر الطبري بعد ذلك في تعداد الطرق التي ورد فيها هذا الحديث: حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، ورواية بعض الأخبار الواردة في حدوث اختلاف بين الصحابة في حفظ بعض الآيات وقراءتها . ثم خلص بعد هذا السرد الى نتيجة ، هي أن القرآن « نزل بألسن بعض العرب دون ألسن جميعها ، وأن قراءة المسلمين اليوم ومصاحفهم التي بين أظهرهم هي ببعض الألسن التي نزل بها القرآن دون جميعها »[2] ، فلم يجزم بتعيين اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم .

وحديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » حديث معروف مشهور ، يرد في كتب التفاسير وفي كتب المصاحف والقراءات . ورد بطرق متعددة ، وبأوجه مختلفة . وهذه الطرق والأوجه ، وان اختلفت في سرد متن الحديث وفي ضبط عباراته ، قد اتفقت في الفكرة ، وخلاصتها نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف. ويقصدون بالحرف وجهاً من أوجه الألسنة ، أي لهجة من اللهجات[3] .

أما رجال سند هذا الحديث ، فعديدون ، وفي حال بعضهم كابن الكلبي وأبي صالح مغمز[4] . وهم جميعاً يرجعون سندهم الى جماعة من الصحابة ، هم نهاية سلسلة السند ، قالوا : إنهم سمعوا الحديث من الرسول ، ويعنون بهم : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأنساً ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسليمان بن صرد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمرو بن أبي سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبا بكرة ، وأبا جهم ، وأبا سعيد

---

١ تفسير الطبري (١/٩ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (١/٢٥) .
٣ تفسير الطبري (١/٩) ، تاج العروس (٦/٦٨) ، (حرف) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٣ وما بعدها) ، الصاحبي (٥٧) .
٤ تفسير الطبري (١/٢٣) .

الخدري ، وأبا طلحة الأنصاري ، وأبا هريرة ، وأبا أيوب ، وجملتهم واحد وعشرون صحابياً على بعض الروايات[1] .

وورد في الحديث ، حديث آخر يرجع سنده الى (ابن عباس) فيه تأييد له ، نصه أن رسول الله قال : « أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف » ، وحديث آخر ، نصه : «إن ربي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ،فرددتُ إليه : أن هوّن على أمتي ، فأرسل اليّ : أن اقرأ على حرفين ، فرددت إليه : أن هون على أمتي ، فأرسل إليّ أن أقرأه على سبعة أحرف » ، وحديث ثالث نصه : « إن جبريل وميكائيل أتياني ، فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري ؛ فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ... حتى بلغ سبعة أحرف » ، « وفي حديث أبي بكرة عنه : فنظرت الى ميكائيل فسكت . فعلمت أنه قد انتهت العدة »[2] . وهناك أحاديث أخرى بهذا المعنى[3] .

ونجد في كتب التفسير والحديث والأخبار أحاديث وأقوالاً تشير الى أن بعض الصحابة كانوا يقرأون قراءات متباينة وكانوا يتعززون بقراءتهم ويتمسكون بها ، ومنهم من كان يقرأها على الرسول فلم يعترض عليها ، بل روى أنه قال : « اقرأوا كما علمتم »[4] . وروى أنه « جاء رجل الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : أقرأني عبدالله بن مسعود سورة أقرأنيها زيد وأقرأنيها أُبيّ بن كعب ، فاختلفت قراءتهم ، فبقراءة أيهم آخذ ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وعليٌ الى جنبه ، فقال عليّ : ليقرأ كل إنسان بما عَلِمَ كلّ حسن جميل » . ورووا على لسان عمر بن الخطاب قوله : « سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقْرِئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى سلّم . فلما سلّم ، لببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها

١ السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن (١/١٣١) .
٢ السيوطي ، الاتقان (١/١٣١ وما بعدها) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٤) .
٣ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٣٢ وما بعدها) .
٤ تفسير الطبري (١/٩) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهو أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها . فانطلقت به أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، إني سمعت هـذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتني سورة الفرقان ! قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر . اقرأ يا هشام . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ يا عمر . فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسر منها »[1] . وكالذي ذكروه من أن رجلاً قرأ عند (عمر) فغير عليه ، « فقال : لقد قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يغير عليّ . فاختصما عند النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ألم تقرئني آية كذا وكذا ؟ قال : بلى .. فوقع في صدر عمر شيء . فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ، ذلك في وجهه .. فضرب صدره. وقال : أبعد شيطاناً ! قالها ثلاثاً . ثم قال : يا عمر : إن القرآن كله صواب، ما لم تجعل رحمة عذاباً ، أو عذاباً رحمة »[2] .

وروي « أن رجلين اختصما في آية من القرآن وكلّ يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأه ، فتقارآ الى أبيّ فخالفهما أبيّ فتقارأوا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبي الله اختلفنا في آية من القرآن وكلنا يزعم أنك أقرأته! فقال لأحدهما : اقرأ ، قال : فقرأ ، فقال : أصبت . وقال للآخر : اقرأ ، فقرأ خلاف ما قرأ صاحبه ، فقال : أصبت . وقال لأبيّ : اقرأ ، فخالفهما. فقال : أصبت . قال أبيّ : فدخلني من الشك في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دخل فيّ من أمر الجاهلية . قال : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي في وجهي ، فرفع يده فضرب صدري ، وقال : استعذ بالله من الشيطان الرجيم . قال : ففضت عرقاً ، وكأني أنظر الى الله فرَقاً ،وقال:

---

١ تفسير الطبري (١٠/١) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٢ وما بعدها) ، الاصابة (٥٧١/٣) ،(٥٧١/٣) ، (رقم ٨٩٦٥) .

٢ تفسير الطبري (١٠/١) .

إنه أتاني آت من ربّي ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : ربّ ، خفف عن أمّتي . قال : ثم جاء ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلتُ : رب خفف عن أمّتي . قال : ثم جاء الثالثة ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد.فقلت : رب خفف عن أمتي . قال : ثم جاءني الرابعة ، فقال إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة مسألة الخ »[١] .

ورُوي عن زيد بن وهب ، قال : أتيت ابن مسعود استقرئه آية من كتاب الله ، فأقرأنيها كذا وكذا . فقلت : إن عمر أقرأني كذا وكذا خلاف ما قرأها عبدالله . قال : فبكى حتى رأيت دموعه خلال الحصى ، ثم قال : إقرأها كما أقرأك عمر ، فوالله لهي أبين من طريق السيلحين[٢] .

وأورد العلماء أحاديث أخرى بهـذا المعنى ، تظهر كلها وقوع الخلاف بين الصحابة في قراءة القرآن ، وعلم الرسول به ، وتجويزه لهم القراءة بقراءتهم كل إنسان بما علم[٣] .

وقد اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال . جمعها القرطبي على خمسة وثلاثين قولاً[٤] ، وجعلها (السيوطي) على نحو أربعين قولاً[٥] ، تحدث هو وغيره عنها ، والحديث عنها في هذا الكتاب يخرجنا من حدود بحثنا المرسومة ، وهو التأريخ الجاهلي ، لذلك فسوف لا أتكلم في هـذا المكان إلاّ عن الأقوال التي عينت تلك الأحرف ونصت على أسمائها بالنص والتعيين، فأقول :

قد رأينا الأحاديث المذكورة والأخبار المروية ، وهي عامة ، لم تنص على أن المراد من الأحرف السبعة حرفاً معيناً ، ولساناً خاصاً من ألسنة العرب ، غير أننا نجد أخباراً ، نصت على تلك الأحرف وعينتها وشخصتها ، إذا تتبعنا سندها

---

١ تفسير الطبري (١/١٤) .
٢ ابن سعد (١/٢٧٠) .
٣ تفسير الطبري (١/٩ وما بعدها) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٥ وما بعدها) .
٤ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٤ وما بعدها) ، السيوطي ، الاتقان (١/١٣٨) .
٥ السيوطي ، الاتقان (١/١٣١) .

ورجالها نجدها تنتهي بـ (ابن عباس) . وأكثر القائلين بها هم من علماء العربية مثل (أبو عبيد) و (أبو عمرو بن العلاء) وثعلب ، والأزهري ، وسند هذه الأخبار (الكلبي) عن (أبي صالح) عن (ابن عباس) ، أو عن (قتادة) عن ابن عباس ، وأمثال ذلك من طرق . فقد ورد عن (ابن عباس) قوله : نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة العجز من هوازن ، قال أبو عبيد : والعجز ، هم بنو سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وهؤلاء كلهم من هوازن . ويقال لهم : عليا هوازن . ولهذا قال أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم ، يعني بني دارم[1] ، « وأخرج أبو عبيد من وجه آخر ، عن ابن عباس ، قال : نزل القرآن بلغة الكعبين : كعب قريش وكعب خُزاعة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة ، يعني أن خزاعة كانوا جيران قريش ، فسهلت عليهم لغتهم »[2] .

« وقال أبو حاتم السجستاني : نزل بلغة قريش وهُذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر »[3] . وذكر بعض آخر أنه نزل بلغة قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن[4] وسعد بن بكر ، هم من عليا هوازن[5] . ومعنى هذا أنه نزل بلغات عدنانية ولغات قحطانية ، أي بجميع ألسن العرب .

وقد تعرض (الطبري) للأقوال المذكورة ، فقال : « وروى جميع ذلك عن ابن عباس ، وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله ، وذلك أن الذي روي عنه أن خمسة منها من لسان العجز من هوازن : الكلبي عن أبي صالح ، وأن الذي روي عنه أن اللسانين الآخرين لسان قريش وخزاعة : قتادة ، وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه »[6] . وقد ضعف (ابن الكلبي) ، ورفض علماء

---

١ تفسير الطبري (١/٢٣) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٦٧) ، السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) ، الصاحبي (٥٧) .

٢ تفسير الطبري (١/٢٣) ، السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .

٣ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .

٤ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٧٣) .

٥ المزهر (١/٢١٠ وما بعدها) .

٦ تفسير الطبري (١/٢٣) .

الفقه والحديث الأخــذ عنه[1] .. وضعف (أبو صالح) كذلك واتهم بالكذب : « قال ابن معين : إذا روى عنه الكلبي فليس بشيء[2] » .

وأما (قتادة) ، فذكر (الطبري) عنه أنه لم يلق (ابن عباس) ، ولم يسمع منه[3] فحديثه عن ابن عباس إذن مما لا يجوز الأخذ به . فروايته : « نزل القرآن بلسان قريش ولسان خزاعة » ، رواية لا يعتمد عليها لهذا السبب . ولقتادة رواية أخرى بهذا المعنى نسبها الى (أبـي الأسود الدؤلي) ، زعم أنه قال : « نزل القرآن بلسان الكعبين : كعب بن عمرو ، وكعب بن لُؤي » . وقد علق (خالد ابن سلمة) على هذا الكلام فقال : « ألا تعجب من هذا الأعمى يزعم أن القرآن نزل بلسان الكعبين؟وإنما نزل بلسان قريش » . قال مخاطباً به (سعد بن ابراهيم)[4]. وقد رمي قتادة بالتدليس[5] .

وينتهي سند هذا الحديث: « أنزل القرآن على سبعة أحرف » الى (أبـي هريرة)[6]، وقد كثر القول عن أبي هريرة ، وأكــثر (أبو هريرة) الحديث عن رسول الله ، حتى قال الناس أكثر أبو هريرة الحديث عن رسول الله ، وكان يقـول لهم : « اني كنت امرءاً مسكيناً ، أصحب رسول الله صلى الله عليـه وسلم على ملء بطني . وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام عــلى أموالهم » ، وذكر أن مسند « تقي بن مخلد ، احتوى من حديث أبـي هريرة على خمسة آلاف وثلثمائة حديث وكسر »[7] ؛ وقد يكون بعض مــا أسند اليه مما أكثر عليه ، أكثره عليه من جاء بعده ، ثم إن علينا نقد حديثه ، فليس هو بمشرع ولا معصوم ، حتى نقبل منه كل ما روي عنـه[8] . بل روي أن (عمر بن الخطاب) قال له : « أكثرت يا أبا هريرة من الرواية ، وأحر

---

١ ميزان الاعتدال (٣/٢٥٦) ، لسان الميزان (٦/١٩٦) .

٢ ميزان الاعتدال (١/١٣٧ وما بعدها) .

٣ وقد تحدثت عنه بالمناسبة في بحث « موارد تأريخ الطبري » المنشور في مجلدات مجلة المجمع العلمي العراقي ، تفسير الطبري (١/٢٣) .

٤ تفسير الطبري (١/٢٣) .

٥ ميزان الاعتدال (٢/٣٤٥) .

٦ تفسير الطبري (١/٩ وما بعدها) .

٧ الاصابة (٤/٢٠٢) ، (رقم ١١٩٠) .

٨ محمود أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية ، وكتابه شيخ المضيرة .

بك أن تكون كاذباً على رسول الله . ثم هدده وأوعده إن لم يترك الحديث عن رسول الله فإنه ينفيه الى بلاده .

وقد أخرج ابن عساكر من حديث السائب بن يزيد : لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس »[1] .

وهناك رأي ثالث يقول إنه نزل بلغة مضر ، لقول (عمر) : نزل القرآن بلغة مضر وعيّن بعضهم – فيما حكاه – ابن عبد البرّ السبع من مضر ، أنهم هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبّة ، وتيم الرباب ، وأسد بن خزيمة،وقريش. فهذه قبائل مضر ، تستوعب سبع لغات »[2] . وذكر أن (عمر) لما أراد « أن يكتب الإمام ، أقعد له نفراً من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر ، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر »[3] . ولما كانت القبائل المذكورة من مجموعة (مضر) ، تكون لغة القرآن ، وفقاً لهذا الرأي لغة مضر ، لا لغة قريش ، وروي عن (عبدالله بن مسعود) ، أنه كان يستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر[4] .

وعندنا أخبار أخرى تفيد أن القرآن إنما أنزل بلغة قريش . من ذلك ما روي من قول عمر : « لا يملين في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش ، أو غلمان ثقيف»[5] وفسروا ذلك بأنــه يعني أن القرآن إنما نزل بلغة قريش . وما روي من قول (عثمان) للرهط القرشيين الذين أوكل اليهم جمع القرآن وكتابته : « إذا اختلفتم أنتم وزيــد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما أنزل بلسانهم . ففعلوا »[6] ، ومــا روي عنه أيضاً ، من أنه لما استفتي في اختلاف

---

١ أضواء على السنة المحمدية (٢٠٠ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٦) .
٣ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) .
٤ الصاحبي (٥٧) .
٥ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) ، « وقال عمر : لا يملين في مصاحفنا الا غلمــان قريش وثقيف » ، الصاحبي (٥٧ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (١١) ، السيوطي ، اتقان (١/٥٩) .
٦ ابن كثير ، فضائل القرآن (٣١) ، (اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ، فان القرآن أنزل بلسانهم » ، المصاحف (٢٠) .

(زيد) مع الرهط في كتابة (التابوت) أيكتبونه بالتاء أو الهاء ، وقال الثلاثة القرشيون إنما هو التابوت ، وقال زيد إنما هو التابوه ، قال : « اكتبوه بلغة قريش ، فإن القرآن نزل بلغتهم »[1] ، وما روي عنه أيضاً من قوله للرهط الذين أمرهم بكتابة القرآن : « إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ، فإن القرآن نزل بلسانهم ففعلوا »[2] .

واستنكر (ابن قتيبة) قول من قال إن القرآن نزل بلغات أخرى ، فقال : « لم ينزل القرآن إلاّ بلغة قريش » ، واحتج بالآية : « وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه »[3] . واحتج آخرون بقول (عمر) لعبدالله بن مسعود : « إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرىء الناس بلغة قريش »[4] .

وروي في (البخاري) ، أن القرآن نزل بلسان قريش والعرب . وقريش خلاصة العرب[5] . وذكر بعض العلماء أنه نزل « بلغة الحجازيين إلاّ قليلاً ، فإنه نزل بلغة التميميين كالإدغام في : ومن يشاقّ الله ، وفي : ومن يرتد منكم عن دينه ؛ فإن ادغام المجزوم لغة تميم،ولهذا قل ، والفك لغة الحجاز ولهذا كثر »[6].

وذكر بعض العلماء « إن في القرآن من أربعين لغة عربية وهي : قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وخثعم ، والخزرج ، وأشعر ، ونمير ، وقيس عيلان ، وجرهم ، واليمن ، وأزد شنوءة ، وكندة ، وتميم ، وحمير ، ومدين ، ولخم ، وسعد العشيرة ، وحضرموت ، وسدوس ، والعمالقة ، وأنمار ، وغسان ، ومذحج ، وخُزاعة ، وغطفان ، وسبأ ، وعمان ، وبنو حنيفة ، وثعلب ، وطيء ، وعامر ابن صعصعة ، وأوس ، ومزينة ، وثقيف ، وجذام ، وبليّ ، وعذرة ، وهوازن ، والنمر ، واليمامة[7] .

---

١ ابن كثير ، فضائل القرآن (٣٥) ، تفسير النيسابوري ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢٤/١) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٢ ابن كثير ، فضائل القرآن (١٩) ، ارشاد الساري (٨/٦ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، الاتقان (١٣٥/١) .
٤ الفائق (١١٣/٢) .
٥ ابن كثير ، فضائل القرآن (١٩/١ وما بعدها) .
٦ السيوطي ، الاتقان (١٠٣/٢) .
٧ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٧٤) ، السيوطي ، الاتقان (١٠٢/٢) ، الصاحبي (٥٨ وما بعدها) .

وذكروا أن مما وقع في القرآن من غير العربية : الفرس ، والروم ، والنبط، والحبشة ، والبربر ، والسريانية ، والعبرانية ، والقبط[1] .

وقال بعض العلماء : « انزل القرآن أولاً بلسان قريش ومـــن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن يقرأوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب ، ولم يكلف أحد منهم الإنتقال عن لغته الى لغة أخرى للمشقة ، ولما كان فيهم من الحمية ، ولطلب تسهيل فهم المراد »[2].

وذهب (الباقلاني) الى أن « معنى قول عثمان إنه نزل بلسان قريش ، أي معظمه ، ولم يقم دليل على أن جميعه بلغة قريش كله ، قال الله تعالى : قرآناً عربياً ، ولم يقل قرشياً ، قال : واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً يعني حجازها ويمنها ، وكذا قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، قال : لأن لغة غير قريش موجودة في صحيح القراءات كتحقيق الهمزات فإن قريشاً لا تهمز ، وقال ابن عطية : قال ابن عباس : ما كنت أدري معنى فاطر السماوات والأرض، حتى سمعت أعرابياً يقول لبئر ابتدأ حفرها : أنا فطرتها »[3] .

وسند القائلين : ان القرآن نزل بلسان قريش ، كون الرسول من مكة،ومكة موطن قريش . فلا بد من نزول كتاب الله بلسانهم ، ليكون حجة عليهم واعجازاً لفصحائهم ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[4] ، فعلى هذا تكون لغة القرآن لغة قريش[5] ، ولمـــا جاء في الأخبار التي رويت عن (عمر) و (عثمان) من أنه نزل بلسان قريش .

ومن حججهم أيضاً مـــا رووه عن (أبـي عبيد الله) من قوله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة . وذلك أن الله ـــ جل ثناؤه ـــ اختـارهم من جميع العرب واصطفاهم واختـــار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته . فكانت وفود العرب مـن

---

١ السيوطي ، الاتقان (١/١٠٢) ، الصاحبي (٦١) .
٢ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٦) .
٣ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .
٤ سورة ابراهيم ، الآية ٤ .
٥ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .

حجّاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ويتحاكمون الى قريش في أمورهم. وكانت قريش تعلّمهم مناسكهم وتحكم بينهم. ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم، وتسميها أهل الله، لأنهم الصريح من ولد اسماعيل عليه السلام ، ولم تشبهم شائبة ، ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة ، فضيلة من الله جل ثناؤه ، لهم وتشريفاً ، إذ جعلهم رهط نبيّه الأدنين وعترته الصالحين . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم . فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طُبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب . ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس »[1] .

وروي عن (قتادة) قوله : « كانت قريش تجتبي ، أي تختار ، أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاتهم لغتهم ، فنزل القرآن بها »[2] .

ثم إنها كانت بعيدة عن الأعاجم ، فصان بعدها عنهم لسانها عن الفساد ، وحفظها من التأثر بأساليب العجم ، حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية[3] .

ولكننا نجد خبراً يذكر أن (عثمان) قال للرهط الذين أمرهم بجمع القرآن وكتابته : « اجعلوا المملي من هذيل ، والكاتب من ثقيف »[4] ، وليست هذيل ولا ثقيف من قريش . ونجد خبراً آخر يذكر أنه كانت غمغمة في لغة قريش ، والغمغمة من اللغات الرديئة التي أخذها علماء اللغة على اللغات العربية الأخرى[5] ، فكيف تتفق الغمغمة مع ما ذكروه من صفاء ونقاء وسهولة وبيان لغة قريش ! ثم نجد خبراً يذكر أن الخليفة (أبو بكر) ، لما همّ بجمع القرآن ، بعد إلحاح

١ الصاحبي (٥٢ وما بعدها) ، (باب القول في أفصح العرب) ، المزهر (١/ ٢١٠) ، غريب القرآن (١/ ١٠) .
٢ اللسان (٢/ ٧٧) ، (١/ ٥٨٨) ، (صادر) ، (عرب) .
٣ مقدمة ابن خلدون ، الفصل الثامن والثلاثون من القسم السادس ، الهلال ، السنة ٢٦ ، (اكتوبر ١٩١٧ م) ، (١/ ٤٣) .
٤ الصاحبي (٥٨) .
٥ تاج العروس (٩/ ٦) ، (غمم) .

(عمر) عليه بذلك ، « أجلس خمسة وعشرين رجلاً من قريش ، وخمسين رجلا من الأنصار ، وقال : اكتبوا القرآن ، واعرضوا على سعيد بن العاص ، فإنه رجل فصيح »[1] ، ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش ، لما اختار هذا العدد الكثير من الأنصار ، وهم من غير قريش،ومن منافسي مكة في الجاهلية والاسلام، إن صح هذا الخبر ، الذي أشك في صحته .

ثم نجد خبراً آخر يناقض الخبر المتقدم،يقول : « لما كُتبت المصاحف عُرضت على عثمان ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيّروها ؛ فإن العرب ستغيرها – أو قال ستعربها – بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل ، لم توجد فيه هذه الحروف »[2] . وهو خبر أشك في صحته ، وللعلماء فيه آراء .

وأما ما قالوه من اختلاف (زيد) مع النفر القرشيين الذين أشركوا معه في جمع القرآن من كتابة (التابوت) بالتاء أو بالهاء ، وكان من رأيه كتابتها (التابوه) ، ومن رأي (عثمان) (التابوت)[3] ، فقد ذكر العلماء أن (التابوه) لغة في التابوت أنصارية[4] . واللفظة هي من المعربات،أخذها الأنصار من العبرانية، فهي عندهم (ت ب ه) (ط ب ه) « Tebh » « Teba » بمعنى صندوق[5] . وقد كتبت في القرآن بالتاء . وقد وردت اللفظة في سورة (طه) ، وهي مكية[6]، ووردت في سورة البقرة وهي مدنية[7] .

وأقرب الأقوال المذكورة الى المنطق ، هو قول من قال إنه نزل بلسان عربي وكفى . فاسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً ، يعني حجازها وعنها وكل مكان آخر من جزيرة العرب[8] ، ثم ما بالنا نفسر ونؤول ، ونلف وندور في تفسير : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، وهو حديث ، روي بروايات

---

١ اليعقوبي (١/١٢٥) ، (خلافة أبي بكر) .
٢ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٠) .
٣ الزينة (١/١٤٦) .
٤ تاج العروس (١/٥٣٢) ، (تبت) .
٥ غرائب اللغة (٢١١) .
٦ السورة رقم ٢٠ ، الآية ٣٩ .
٧ السورة رقم ٢ ، الآية ٢٤٨ .
٨ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .

تحتاج الى نقد ، وفيها ضعف ، وأخبار ضعيفة ، لا تقف على قدميها ، ثم نترك كتاب الله القائل : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »[1] ، و « هذا لسان عربي مبين »[2] و « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[3] ، و « كذلك أنزلناه حكماً عربياً »[4] ، و « كذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد »[5] ، و « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون »[6] ، و « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون »[7] ، و « كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً »[8] ، و « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[9] ، « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا »[10] ، ولم يقل قرشياً[11] ، ولو نزل بلغة قريش لما سكت الله تعالى عن ذلك ، لما في التنويه بلسانهم إن كان أفصح ألسنة العرب من حجة على العرب في فصاحته وبيانه وكونه معجزة بالنسبة لقريش ، أفصح الناس وألسنهم ، وليس بكلام العرب عامة الذين هم على حدّ قول أهل الأخبار دون قريش في اللغة والكلام .

وما آية : « وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبين لهم »[12] ، إلا دليلاً وحجة على نزول القرآن بلسان العرب ، لا بلسان قريش ، أو بلسان قبيلة معينة ، أو قبائل خاصة . فالآية تقول : « ما أرسلنا الى أمة من الأمم يا محمد من قبلك ومن قبل قومك رسولاً إلا بلسان الأمة التي أرسلناه اليه ولغتهم ، ليبين لهم . يقول : ليفهمهم ما أرسله الله اليهم من أمره ونهيه وليثبت حجة الله عليهم

---

١ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٥ .
٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٣ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .
٤ الرعد ، الرقم ١٣ ، الاية ٣٧ .
٥ طه ، الرقم ٢٠ ، الاية ١١٣ .
٦ الزمر ، الاية ٢٨ .
٧ فصلت ، الرقم ٤١ ، الاية ٣ .
٨ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الاية ٧ .
٩ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الاية ٣ .
١٠ الاحقاف ، الرقم ٤٦ ، الاية ١٢ .
١١ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .
١٢ سورة ابراهيم ، الاية ٤ .

ثم التوفيق والخذلان بيد الله »[1] . ولما كان النبي عربياً ، وقد نعت في القرآن بأنه « النبي الأمي »[2] ، الذي أرسله الله الى الأميين ، « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم »[3] ، والأميون هم العرب ، العرب كلهم ، ولما كان الله قد أرسله الى قومه العرب ، وجب أن يكون الوحي بلسانهم المفهوم بينهم ، بلسان طائفة منهم ، يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم نفسه من أنه نزل بلسان عربي مبين . « قال الأزهري : وجعل الله ، عز وجل ، القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبه الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقراها ، العربية ، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً لأنه من صريح العرب »[4] . وقال (ابن خلدون) : « إن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه »[5] . وقال (الطبري) في تفسيره للآية : « انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[6] ، « يقول تعالى ذكره : انا أنزلنا هذا الكتاب المبين قرآناً عربياً على العرب ، لأن لسانهم وكلامهم عربي ، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوا منه . وذلك قوله عزّ وجلّ لعلكم تعقلون »[7] .

« قال ابن أبي داود في المصاحف : حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز : أن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص ، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ولهذا ندبه عثمان فيمن ندب لكتابة القرآن[8] . ونعت أنه كان أحد أشراف قريش ممن جمع السخاء والفصاحة ، وفي هذه الاشارة دلالة على أن لهجة الرسول ، لم تكن لهجة عامة قريش ، وإنما كانت بالعربية التي نزل بها القرآن ، ولهذا نص على أن لهجة (سعيد) كانت

١ تفسير الطبري (١٣/ ١٢١) .
٢ الأعراف ، الآية ١٥٧ وما بعدها .
٣ الجمعة ، الرقم ٦٢ ، الآية ٢ .
٤ اللسان (١/ ٥٨٨) ، (عرب) .
٥ المقدمة (٣٦٧) ، (١٩٣٠ م) .
٦ سورة يوسف ، الآية ٢ .
٧ تفسير الطبري (١٢/ ٨٩) .
٨ الاصابة (٢/ ٤٥) ، (رقم ٣٢٦٨) .

مشابهة للهجة الرسول ، وكان من أفصح رجال قريش ، ولو كانت عربية القرآن عربية قريش ، لما كان هنالك معنى لقولهم : إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد ، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ، إذ لو كانت عربية القرآن عربية قريش ، انص عليها ، ثم لكان في وسع أي رجل كاتب من قريش ، تدوينه ، لفصاحة قريش ، ولكن سعيداً كان من فصحاء قريش ، لأنه كان يتكلم بعربية فصيحة ، هي العربية التي نزل بها القرآن ، والتي عرف فصحاء قريش فصاحتها ، فاعترفوا لذلك بنزوله بأفصح لغة وأبين بيان .

وقد ذهب (نولدكه) الى أن القول بنزول القرآن بلسان قريش ، إنما ظهر في العصر الأموي ، لإظهار عصبيته منها على الأنصار . ونظراً لكون القرآن كتاب الله فلادعاء نزوله بلغة قريش أهمية كبيرة بالنسبة لهم ، ولتأييد سياستهم المناهضة للأنصار وللقحطانيين[١] .

ويلفت حديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » النظر إليه حقاً ، فقد حصر القراءات في (سبعة أحرف) . والأحرف الألسنة ، مع أن العلماء يذكرون أن في القرآن من كل لغة ، وأن فيه خمسين لغة[٢] . فإذا كان فيه هذا العدد أو نحوه ، فما بال هذا الحديث يحصرها في سبعة فقط لا تزيد ولا تنقص وهي أحرف ثبتها العلماء ونصوا على أسمائها نصاً . هل أخذوا هذا الحديث من (السبع المثاني) في القرآن الكريم ، من قوله : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم »[٣] . أو أخذوه من عدد سبعة الذي يرد في مواضع عديدة من القرآن الكريم ؟ مثل سبع سماوات[٤] ، وسبع سنابل[٥] ، وسبع سنبلات[٦] ، وسبع بقرات[٧] ، وسبع سنين[٨] ،

---

١ ولفنسون ، السامية (٢٠٧) .

٢ « وقال أبو بكر الواسطي في كتابه : الارشاد في القراءات العشر : في القرآن من اللغات خمسون لغة : لغة قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وخثعم ، والخزرج ... الخ » ، السيوطي ، الاتقان (١٠٢/٢) .

٣ الحجر ، الرقم ١٥ ، الآية ٨٧ ، تفسير الطبري (٣٥/١٤ وما بعدها) .

٤ البقرة ، الآية ٢٩ .

٥ البقرة ، الآية ٢٦١ .

٦ يوسف ، الآية ٤٣ .

٧ يوسف ، الآية ٤٣ .

٨ يوسف ، الآية ٤٧ .

وسبع شداد[1] ، والسماوات السبع[2] ، وسبع ليـــال[3] ، وسبعاً شداداً[4] ، وسبعة أبواب[5] ، وسبعــة أبحر[6] ، والعدد سبعة هو عدد الأيام التي أتم الله فيها الخلق كله ، وعدد أيام الاسبوع ، ونحو ذلك . والعدد سبعة عدد لعب دوراً خطـيراً عند الشعوب القديمة ، فالأرض سبع طبقات ، والسموات سبع طبـــاق ، وأنغام الموسيقى سبعة ، والعدد سبعة عدد مقدس ، لعب دوراً في الرياضيات القديمة وفي نظريات (فيثاغورس) ، وعيون الشعر الجاهلي هي سبعة ، هي القصائــد السبع الطوال ، أو المعلقات السبع ، فهل اقتصر الحديث على هذا العدد لسبب من هذه الأسباب أو ما شابهها ، من أسباب ؟

وقد ذهب بعض العلماء الى أن العدد سبعة لا يمثل حقيقة العـــدد ، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة . ولفظ (السبعة) يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد، كما يطلق السبعون في العشرات والسبعمائة في المئين ، ولا يراد العدد المعين . ويرده ما في كتب الحديث والأخبار من النص على العدد سبعة بصورة لا تقبـــل الشك في أن المراد منه حقيقــة العدد وانحصاره ، ثم تعيين هذه الكتب اللهجات السبـــع بالأسماء[7] ، وقد ألف (الصفدي) كتاباً في عدد السبعة ، سماه (عين النبع على طرد السبع) قال فيه إن السبعة جمعت العدد كله ، وهذا العدد يمثـل الكمال ، فأنا لا استبعد أن يكون هذا الحديث قد جاء من هذه الفكرة[8] .

القراءات السبع :

ومن الأحرف السبعة ظهرت نظرية القراءات السبع ، القراءات المعتبرة المعتمدة عند القراء ، وهي ترجع الى أئمة ارتبطت القراءات بأسمائهم ، وعليها يقتصر في

---

١ يوسف ، الآية ٤٨ .
٢ الاسراء ، الآية ٤٤ ، المؤمنون الآية ٨٦ ، فصلت ، الآية ١٢ ، الملك ، الآية ٣ ، نوح ، الآية ١٥ .
٣ الحاقة ، الآية ٧ .
٤ النبأ ، الآية ١٢ .
٥ الحجر ، الآية ٤٤ .
٦ لقمان ، الآية ٢٧ .
٧ السيوطي ، الاتقان (١/١٣١ وما بعدها) .
٨ الرافعي (٢/٥٤) .

القراءات . وهي نتيجة تطور سابق لقرّاء سبقوا هؤلاء الأئمة الذين اعتمد عليهم في القراءات[1] ، وعلى قراءاتهم يقرأ من يستحق لقب (مقرىء) أو (قارىء)[2] ، وإن كانت هنالك روايات تزيد بعض الزيادات على هذه القراءات .

ولأجل تكوين فكرة علمية صحيحة عن هذه الأخبار وعن درجة سعة هذا الاختلاف ومقدارها وما يجب أن يقال فيها ، لا بد من نقد كل ما ورد في هذا الباب من حديث وروايات ، وغربلته غربلة دقيقة . وتكون أول هذه الغربلة في نظري بنقد سلسلة رجال السند ، أي الرواة ، لمعرفة الروابط التي كانت تربط بينهم وصلة بعضهم ببعض وملاقاتهم ، وما قيل وورد فيهم ؛ إذ نسبت أحاديث الى أشخاص قيل إنهم رووها عن أناس ثقات ، ثبت من النقد أن بعض رجال السند لم يلتقوا في حياتهم بمن حدثوا عنهم كما في حديث قتادة عن ابن عباس ، أو أنهم رووا ما رووه تسرعاً وبدون سند أو إجازة لمجرد سماعهم برواية أولئك الأشخاص لتلك الروايات[3] .

ثم إن هذا النقد لا يكفي وحده ، بل لا بد من نقد متن الحديث من حيث لغته وأسلوبه ومضمونه وروحه ، ومن حيث انطباق بعض الروايات على جوهر القرآن الكريم وما عرف عن الرسول . فبهذا النقد للمتن ، نتمكن من الحكم على إمكان صدور الحديث عن الرسول أو عدمه .

وبعد كلّ ما تقدم ، علينا حصر أمثلة الاختلاف التي ذكرها العلماء ، وضبط كل ما ورد في الأخبار من هذا القبيل ، لنتمكن من الحكم على مقدار ما اختلف فيه وسعته ودرجة موافقته لما جاء في ذلك الحديث وفي تلك الأخبار ، ثم دراسة هذه الكلمات التي قيل انها تمثل لهجات قبائل وانها حرف من هذه الأحرف السبعة المذكورة في الحديث .

لقد لخص (ابن قتيبة) الأحرف السبعة بالأوجه التي يقع بها التغاير :

فأولها : ما تتغير حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته ، مثل : ولا يضارّ كاتبٌ بفتح الراء وضمها .

---

١ ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله (١٢١) ، النشر (٣١/١ وما بعدها) .
٢ كولدزيهر ، المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن (٣٧) .
٣ تفسير الطبري (٢٣/١) ، (٧٢/٢٥) ، المذاهب الاسلامية (٨١ وما بعدها) .

وثانيها : ما يتغير بالفعل مثل بَعِّدَ وباعد ، بلفظ الطلب والماضي .
وثالثها : ما يتغير باللفظ مثل : نُنشزها ونُنْشرها بالراء المهملة .
رابعها : ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل طلح منضود وطلع منضود .
خامسها : ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل:وجاءت سكرة الموت بالحق، وجاءت سكرة الحق بالموت .
وسادسها : ما يتغير بالزيادة والنقصان ، مثل : وما خلق الذكر والأنثى ، والذكر والأنثى ، بنقص لفظ ما خلق .
سابعها : ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى ، مثل : كالعهن المنفوش،وكالصوف المنفوش[1].
وأجمل (ابن الجزري) الأوجه السبعة بـ :
١ ـ وذلك إما في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو : البخل بأربعة أوجه ، ويحسب بوجهين .
٢ ـ أو بتغير في المعنى فقط نحو : فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ ، برفع آدم ونصب لفظ كلمات وبالعكس .
٣ ـ واما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو : تبلو ، وتتلو .
٤ ـ وعكس ذلك ، نحو بصطة وبسطة ، ونحو الصراط والسراط .
٥ ـ أو بتغيرهما نحو فامضوا ، فاسعوا .
٦ ـ وإما في التقديم والتأخير ، نحو فيقتلون ، ويقتلون ، بفتح ياء المضارعة مع بناء الفعل للفاعل في إحدى الكلمتين،وبضمها مع بناء الفعل للمفعول في الكلمة الأخرى .
٧ ـ أو في الزيادة والنقصان .
وقد أوجز (أبو الفضل) الرازي ، الحروف السبعة في :
١ ـ اختلاف الأسماء من إفراد ، وتثنية ، وجمع ، وتذكير ، وتأنيث . مثل : والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، قرىء هكـذا جمعاً ، وقرىء لأمانتهم بالإفراد .

---
١ الزرقاني ، مناهل (١٥٢) .

٢ – اختلاف تصريف الأفعال من ماض ، ومضارع ، وأمر . مثل: فقالوا : ربَّنا باعد بين أسفارنا ، قرىء هكذا بنصب لفظ ربنا على أنه منادى ، وبلفظ باعد فعل أمر ، وبعبارة أنسب بالمقام فعل دعاء . وقرىء هكذا: ربُّنا بَعَّد برفع رب على أنه مبتدأ وبلفظ بعَّد ، فعلاً ماضياً مضعف العين جملته خبر .

٣ – اختلاف وجوه الإعراب . مثل : ولا يُضارَّ كاتب ولا شهيدٌ . قرىء بفتح الراء وضمها ، فالفتح على أن لا ناهية ، فالفعل مجزوم بعدها ، والفتحة الملحوظة في الراء هي إدغام المثلين . أما الضمّ فعلى أنّ لا نافية ، فالفعل مرفوع بعدها .

٤ – الاختلاف بالنقص والزيادة . مثل : وما خلقَ الذكَرَ والأنثى ، قرىء بهذا اللفظ . وقرىء أيضاً والذكَرِ والأنثى ، بنقص كلمة ما خلق .

٥ – الاختلاف بالتقديم والتأخير . مثل : وجاءت سكرة الموت بالحق ، وقرىء : وجاءت سكرة الحق بالموت .

٦ – الاختلاف بالإبدال . مثل : وانظر الى العظام كيف ننشزها ، بالزاي، وقرىء ننشرها بالراء . ومثل : وطلح منضود ، بالحاء ، وقرىء طلع بالعين . فلا فرق في هذا الوجه أيضاً بين الاسم والفعل .

٧ – اختلاف اللغات ، أي اللهجات ، كالفتح والإمالة ، والترقيق والتفخيم، والإظهار ، والإدغام ونحو ذلك[1] .

ونحن إذا تعمقنا في درس مواضع الاختلاف ، وهي أهم ما يتصل بلهجة القرآن الكريم ، وسجلناها تسجيلاً دقيقاً شاملاً ، نجد أنها ليست في الواقع اختلافاً في أمور جوهرية تتعلق بالوحي ذاته ، وإنما هي في الغالب مسائل ظهرت بعد نزول الوحي من خاصية القلم الذي دوّن به القرآن الكريم . فرسم أكثر حروف هذا القلم متشابه ، والمميز بين الحروف المتشابهة هو النقط ، وقد ظهر النقط بعد نزول الوحي بأمد كما يقول العلماء ، ثم إنّ هذا القلم كان خالياً في بادىء

---

١ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٤٨ وما بعدها) .

أمره من الحركات ، وخلوّ الكلم من الحركات يحدث مشكلات عديدة في الضبط من حيث إخراج الكلمة ، أي كيفية النطق بها ، ومن حيث مواقع الكلم من الإعراب[1] .

كل هذه الأمور وأمور أخرى تعرض لها العلماء ، أحدثت في الغالب القسم الأعظم مما يعدّ اختلافاً في القراءات .

ويعود القسم الباقي من مواضع الاختلاف الى سبب أراه لا يتعلق أيضاً بمتن النص ، وإنما هو ، كما يتبين من الإمعان في دراسته ومن تحليل الآيات المختلف فيها ، زيادات وتعليقات من ذهن الحفّاظ والكتّاب على ما أتصور ،لعدم وضوح المعنى لديهم ، لعلها كانت تفسيراً أو شرحاً لبعض الكلم دوّنت مع الأصل ، فظنت فيما بعد من الأصل . واثبات التفسير مع المتن ، جائز على بعض الروايات[2].

ويعود قسم آخر منه الى استعمال كلمات قد تكون مخالفة لكلمة من حيث شكلها ، ولكنها متفقة معها في معناها ، والى استعمال كلمات متباينة في الشكل وفي المعنى . وهذا القسم هو ، ولا شك ، أهم أقسام الاختلاف ، واليه يجب أن توجه الدراسة .

هذه الأمور المذكورة ، تحصر جميع ما ورد من اختلاف في كلمات أو آيات من القرآن الكريم . أما ما ذكره العلماء من الأوجه التفسيرية للحديث : حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف ، ومن جعلها خمسة وثلاثين وجهاً أو سبعة أوجه أو أقل من ذلك أو أكثر[3] ، فإنها تفاسير متأخرة ، وأوجه نظر قيلت لإيجاد مخارج مسوّغة لتفسير هذا الحديث .

ويصعب في هذا الموضع ذكر أمثلة لهذه الأمور ، فهي عديدة كثيرة، ذكرت في كتب المصاحف وفي كتب التفسير ، وأورد شواهد منها (كولدتزيهر) في كتابه عن (المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن)، يمكن الاطلاع عليها في الصورة

---

١ الهمداني ، الاكليل (١٢٢/٨) ، المذاهب الاسلامية (٤ وما بعدها) .

٢ « جواز اثبات بعض التفسير على المصحف ، وان لم يعتقده قرآنا » ، المذاهب الاسلامية (١١ وما بعدها) ، الزرقاني على الموطأ (٢٥٥/١) .

٣ النشر (٢١/١ وما بعدها) ، السيوطي ، اتقان (٧٨/١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٦/١) .

العربية له المطبوعة بمصر[1] . فمن أمثلة الاختلاف الحادث من الخط (تستكبرون) بالباء الموحدة و (تستكثرون) بالثاء المثلثة في الآية : « ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم ما كنتم تستكبرون»[2]. و (بشراً) أو (نشراً) في الآيــة : « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته »[3] . وكلمة (إياه) في الآية : « وما كان استغفارُ ابراهيم لأبيــه إلا عن موعدة وعدها إيــاه » ، إذ وردت أيضاً (أباه) بالباء الموحدة[4] . وأمثال ذلك مما كان سببه النقط .

وبعد ملاحظة ما تقدم ، وحصر كل ما ورد في المصاحف ومــا قرأه القراء من قراءات ، نجد أن ما يختص منه باللهجات وباللغات قليل يمكن تعيينه،ومعظمه مترادفات في مثل : أرشدنا واهدنا ، والعهن والصوف ، وزقية وصيحة ، وهلم وتعال وأقبل ، وعجل وأسرع[5] ، والظالم والفاجر ، وعتى وحتى[6] ، وأمثال ذلك. وهذه الأمثلة هي كلمات مختلفة لفظاً ، ولكنها في معنى واحــد . وهي كما ترى مفردات لا دخل لها في قواعد اللهجات .

وأما الاختلاف في الاظهار ، والإدغام ، والإشمام ، والتفخيم ، والترقيق ، والمدّ ، والقصر ، والإمالة ، والفتح ، والتحقيق ، والتسهيل ، والإبدال . فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى ؛ لأن هذه الصفات المتنوعــة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً[7] ، وليس هو من قبيل الإختلاف المؤثر في قواعد اللهجة ، إنمــا هو اختلاف في الصور الظاهرة لمخارج حروف الكلمات، فلا يصح أن يعد فارقاً كبيراً يمكن أن يكون حداً يفصل بين اللهجات، بحيث يصيّرها لغة من اللغات،ثم إن بعضه يعود الى الخط ، وبعضه الى التجويد،

---

١ (القاهرة ١٩٤٤ م) ، (علي حسن عبدالقادر) .

٢ الأعراف ، آية ٤٨ .

٣ الأعراف ، آية ٥٧ .

٤ التوبة ، آية ١١٤ .

٥ النشر (١/٢٩ وما بعدها) ، القرطبي (١/١٦) ، السيوطي ، اتقان (١/٧٩ وما بعدها) .

٦ مباني (٩) ، Noldeke, Geschichte, I, 51.

٧ النشر (١/٢٦ وما بعدها) .

أي طريقة التلاوة والأداء[1] .

وللحكم على أصل المترادفات ، تجب مراجعة سلسلة السند للوصول الى صحة تسلسل الأخبار من جهة ، والى معرفة راوي الخبر والقبيلة التي هو منهـا لمعرفة القراءة التي قرأها ، وهل هي من لهجة قبيلته ، أم هي مجرد كلمة من اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم نفسها ، تلقّاها القارىء عـلى الشكل الذي رواها في قراءته .

لقد أشار العلماء الى أمثلـة من كلمات غير قرشية وردت في القرآن الكريم ، ذكروا أنها من لهجات أخرى ، ومنها : الأرائك ، ولا وَزَرَ ، و (حور) ، وأمثال ذلك رجع بعضهم أصولها الى خمسين لهجة من لهجات القبائل ، كما أشاروا الى وجود كلمات معربـة أخذت من لغات أعجمية مثل الرومية ، والفارسية ، والنبطية ، والحبشية ، والسريانية ، والعبرانية وأمثـال ذلك[2] ، وألّفوا في ذلك كتباً ، منها : كتاب لأبـي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة (٢٢٣ هـ) (٨٣٨ م) ، واسمه : « رسالة في مـا ورد في القرآن من لغات القبائل »[3] ، وكتاب لغات القرآن ، لأبـي زيد الأنصاري المتوفى سنة (٢١٤ هـ) (٨٢٩ م)[4] ، وغيرهما . ولكن بحوث هؤلاء العلماء انحصرت في دراسة المفردات ، أي الكلمات لا غير . ثم إن الذين تناولوها لم يكن لهم علم بأكثر اللغات التي رجعوا أصولها اليها ، ولا سيما اللغات الأعجمية مثل الرومية ، والسريانية ، والنبطية، والحبشية . غير أن من الجائز أن يكون هؤلاء قد سمعوا عنها من الأعاجم الذين دخلوا في الاسلام . ولكن طريقة السماع هذه لا تكفي لإعطاء حكم على أصل لغة ، بـل لا بد من وجود عـلم ومعرفة بقواعد تلك اللغة وتأريخها وتطورها ، والإحاطة بالعلاقات التأريخية بين العرب وغيرهم قبل الإسلام لمعرفة كيفية دخول تلك الكلمات الى العرب ، وإيجاد وجـه صحيح للمقارنة بين اللغتين . وهذا ما لم يحدث في تلك الأيام .

---

١ راجع بعض الامثلة في (ص ٧) من كتاب المصاحف : للسجستاني « تحقيق آرثر جفري » ، (القاهرة ١٩٣٦ م) .

٢ السيوطي ، اتقان (١/٢٢٩ وما بعدها) .

٣ طبع مع كتاب الديريني المسمى (التيسـير في علم التفسـير) ، في القاهرة سنة ١٩١٠ هـ ، ومع تفسير الجلالين المطبوع في القاهرة كذلك سنة ١٣٥٦ هـ .

٤ الفهرست (٥٥) .

ولمّا كانت قراءة عبدالله بن مسعود من القراءات المشهورة المعروفة ، وكان عبدالله بن مسعود من قبيلة هُذيل[1] ، وجب علينا البحث في لهجة هذيل لمعرفة خصائصها ومميزاتها وما انفردت به عن غيرها من اللهجات . وهذيل من القبائل التي عرفت بجودة لهجتها ، في تدوين القرآن الكريم[2] . ولذلك رأى الخليفة عثمان أن يكون المملي من هذيل والكاتب من ثقيف . وقد ذكرت لهجتها في جملة اللهجات التي نص عليها في الحديث المذكور على نحو ما أشرت اليه ، كما أخرجت عدداً من الشعراء جمع بعض العلماء أشعارهم في ديوان ، وقد طبع في القاهرة ديوان شعراء هذيل[3] . ويفيدنا شعر هؤلاء الشعراء بالطبع في الوقوف على لهجة هذه القبيلة . ولكن هذا الشعر هو مثل شعر سائر الشعراء الجاهليين الآخرين ، مصقول مهذب ، هذّب على وفق قواعد اللغة العربية التي ضبطت في الإسلام ، ثم هو مضبوط برواية رواة هم في الأغلب من غير هذيل . ولهذا قلما نجد في شعر هؤلاء الشعراء وغيرهم ما يختلف عن قواعد اللهجة العربية ، حتى أننا لا نستطيع في هذه الحالة أن ندعي ان هذا الشعر هو بلهجة هذيل . وقد حرمنا العقلُ الوقوفَ على لهجات القبائل التي أخرجت أولئك الشعراء ومعرفة مؤثراتها في شعر أولئك الشعراء .

ومن أهم الأمثلة التي أوردها العلماء في قراءة (ابن عباس) مما له علاقة باللهجات ، قراءته كلمة (حتّى) (عتّى) في الآية : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حين »[4] . وقد ذكر المفسرون وعلماء اللغة أن هذه القراءة هي بلهجة هذيل[5] ، وأن (عتّى) هي (حتّى) عند هذه القبيلة ؛ ذلك لأن هذه القبيلة تستعمل حرف العين بدلاً من الحاء في لهجتها[6] . ولم يشر

1 طبقات ابن سعد (١/١٥) ، (٣/١٠٥) ، عيون الاخبار (٣٧٣) .
Ency., 2, 403, Goldziher, Vorlessungen, S., 65.

2 الصاحبي (٢٨) ، « وقال عمر : لا يملين في مصاحفنا الا غلمان قريش وثقيف . وقال عثمان : اجعلوا المملي من هذيل ، والكاتب من ثقيف » ، Rabin, p. 79.

3 الخصائص (١/١٣٠) ، ديوان الهذليين : القاهرة ١٩٤٥ ، مطبعة دار الكتب المصرية .

4 سورة يوسف الرقم ١٢ ، آية ٣٥ .

5 البيضاوي (١/٤٦٠) ، ابن مالك ، التسهيل (٥٧) .

6 المزهر (١/١٣٣) ، (١/٢٢٢) ، (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (الباب الحادي عشر) ، Rabin, p. 84.

العلماء الى موضع أخرى استعمل (ابن مسعود) فيها كلمة (عتّى) في موضع (حتّى) الواردة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، كما أننا لم نجد في كتب اللغة المتقدمة إشارة الى استبدال هذيل حرف العين بحرف الحاء . ونظرية (فحفحة) هذيل ، رأي متأخر لم يقرن بأدلة وأمثلة ، فهو رأي لا يمكن الأخذ به[1] . وأظن أن هذه القراءة المنسوبة الى (ابن مسعود) ، هي من القراءات المتولدة من حدوث اشتباه في القراءة ، من جراء عدم حصول التمييز بين (العين) و(الحاء) في (حتّى) . ووقوع الاشتباه بين الحرفين في ابتداء الكلمات ، أمر ليس بصعب، وإلا فلمَ انفرد ابن مسعود في هذا الموضع فقط ، باستعمال (عتّى) ، ولم يستعملها في المواضع الأخرى وهي كثيرة في القرآن الكريم ؟

نعم ، لقد ورد في روايات ان ابن مسعود قرأ (نحم) بدلاً من (نعم) في القرآن الكريم[2] ، وأنه قرأ (بُحثِرَ) عوضاً عن (بُعثِرَ)[3] . وهذه الروايات تناقض الروايات السابقة التي تزعم أنه قرأ (عتّى) في موضع (حتّى) في الآية المذكورة،إذ نجده في هذه الروايات يقرأ (العين) حاءً ، أي عكس تلك القراءة المنسوبة اليه . ثم إنّ المفسرين وعلماء القراءات ، لم يشيروا الى قراءات أخرى له من هذا النوع قلب فيها حرف العين حاءً مع تعدّد ورود حرف العين في القرآن الكريم .

وهناك روايات تفيد أن أسداً وتميماً استعملوا حرف الحاء في موضع العين في بعض الحالات ، فقالوا : (مَحَهُمْ) بدلاً (معَهُم) و (ألحهد) في موضع (ألعهد)[4] . ولكنها لم تشر الى أمثلة أخرى من هذا القبيل . وهذان المثالان لا يكفيان بالطبع لإعطاء حكم في هذا الإبدال عند القبيلتين . ولكن هنالك رواية متأخرة لا نعرف مرجعها تفيد أن هذا الإبدال واقع في لهجة سعد بن بكر، وهي قبيلة تقع مواطنها في شمالي المدينة[5] . ولكن ما صلة ابن مسعود بهذه القبيلة وهو

---

1 Rabin, p. 85.

2 المغني (٢/٢٥) .

3 « أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور » ، العاديات ، الرقم ١٠٠ ، الآية ٩ ، Rabin, p. 85. Beck, in Orientalia, vol., XV, 182.

4 Rabin, p. 85.

5 المصدر نفسه .

من هذيل ؟ هل نفترض أنه أخذ قراءته تلك من أفواه رجال هذه القبيلة ؟ إذا أخذنا بهذا الظنّ ، وجب علينا اثبات ذلك بدليل ، وذكر أسماء الصحابة الذين أخذ ابن مسعود منهم قراءته . ويجب حينئذ رَجعُ تلك القراءة الى أولئك الصحابة لا الى ابن مسعود . والواقع أننا لا نستطيع أبداً الاتيان بدليل ما يثبت استعمال هذيل حرف العين في كلامها في موضع الحاء وبالعكس .

ورأيي أن ما نسب الى ابن مسعود في هذه القراءة أو القراءات الثلاث، سببه وهمٌ وقع فيه مَنْ نسب تلك القراءة إليه، وهو ناتج من كتابة المصحف المنسوب إليه . وإلا ، فلا يعقل أن يقتصر ابن مسعود على هذه القراءة أو القراءات التي هي ليست من لهجة أهل مكة ولا أهل يثرب ولا هذيل ، ثم يترك سائر المواضع. ولا يعقل كذلك تلفظ الرسول بهذه اللهجة الشاذة التي لا نعرف من كان يستعملها على وجه ثابت ، وقد نزل القرآن بأفصح اللهجات .

والى أمثال هذه القراءات الشاذة ، التي يجب نقدها وتمحيصها بعناية ، استند (كارل فولرس) في نظريته القائلة بحدوث تغيير في نص القرآن الكريم . وهي نظرية لم يُقرّها عليه بعض كبار المستشرقين . ولو فحصت ودققت ، لتبين أنها بنيت على روايات لا تثبت أمام التمحيص ، أخذها لمجرد ورودها في الكتب . ولكن ليس كل ما يرد في الكتب بأمر مسلم به .

وقد بحث العلماء في اللغات التي وقعت في القرآن بغير لغة قريش ، وفي جملتها لغة حمير ، ورجعت الى بحوثهم ، فوجدت أن ما نسب الى الحميرية من كلمات، لا يحمل طابع الحميرية ، وليس من لغة العرب الجنوبيين بشيء . وقل مثل ذلك عن لغة (جرهم) ، فقد دوّنوا ألفاظاً زعموا أنها وردت بلغة (جرهم)، ونحن نعلم من أقوال أهل الأخبار أنفسهم أن (جرهماً) كانوا من الشعوب العربية البائدة التي هلكت قبل الاسلام بزمن طويل . وقد ماتت لغتهم معهم بالطبع ، فكيف تمكن العلماء من تشخيص هذه الألفاظ ومن إرجاعها الى جرهم ؟ وقد وجدت أيضاً ان ما ذكروه من أمثلة أخرى على لغات القبائل التي وردت ألسنتها في القرآن هو من هذا القبيل ، ولا سيما القبائل الهالكة مثل (مدين) ، فالعلماء الذين شخصوا تلك اللهجات التي زعموا أنها وردت في القرآن، يذكرون أن بعض أصحاب هذه اللهجات هم من العرب البائدة ، فهم ممن ماتوا وبادوا ، وماتت

لغتهم بموتهم ، فما يذكرونه من ألفاظ لغاتهم الواردة في القرآن ، هو مما لا أصل له إذن . ثم إنهم نسبوا ألفاظاً الى (حمير) ، وجدنا أنها ليست حميرية أبداً ، أضف الى ذلك أنهم لم يدرسوا العربيات الجاهلية دراسة علمية ، ولم يكن لهم علم بها ، ولهذا فما ثبتوه ودوّنوه عن اللغات العربية في القرآن ، لا يمكن الأخذ به ، لأنه لا يستند على علم بالموضوع ، ولا على دراسات لتلك اللهجات .

ومن أمثلة ما ذكروه على أنه من لسان (حمير) ، الأرائك ، ولا وزر ، بمعنى لا جبل ، وحور ، ولهو ، بمعنى المرأة ، ولا تفشلا ، وعثر ، وسفاهة ، وزيلنا ، ومرجواً ، وإمام وغير ذلك[1] ، وذكروا أن (باءوا) ، وشقاق ، وخيراً وكدأب ، وأراذلنا ، ولقيفاً ، وغير ذلك من لغة جرهم[2] ، وهي كلها من تخرصات من نسبها الى جرهم ، لما قالوه أنفسهم من هلاك جرهم قبل الاسلام بزمان طويل ، فمن أبلغهم اذن أن هذه الألفاظ من ألفاظ جرهم ، ولمَ نزلت في القرآن ، وقد نزل الوحي للأحياء وليس للأموات !

وقد ذهب البعض مذهباً بعيداً في اللغات الواردة في القرآن ، فذهب الى أن (غساق) ، بمعنى المنتن بلسان الترك ، وهو بالطخارية[3] ، وأن (سيدها) زوجها بلسان القبط ، وأن (الأرائك) بالحبشية ، وأن (سبحى) بلسان الحبشة، وأن (الجبت) الشيطان بلغة الحبش ، وأن (حرم) بمعنى وجب بالحبشية ، وأن (سكر) ، بمعنى الخلّ بلغة الأحباش ، وأن (سينين) بمعنى الحسن بلسان الحبشة ، وأن (شطر) حبشية ، وان (العرم) حبشية ، وأن قنطار بلسان أهل إفريقية ، الى غير ذلك من ألفاظ[4] .

ونجد رواية تذكر أن الصحابة لما تشاوروا في أمر تسمية القرآن ، ما يسمونه؟ «فقال بعضهم : سموه السفر ، قال ذلك اسم تسميه اليهود ، فكرهوه ، فقال رأيت مثله بالحبشة يسمى المصحف ، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف»[5] ، فجعلوا اللفظة حبشية .

---

١ المزهر (٢/٩٣ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٩٥ وما بعدها) .
٣ الاتقان (٢/١١٥) .
٤ الاتقان (٢/١٠٩ وما بعدها) .
٥ السيوطي ، الاتقان (١/١٦٦) .

ولو درسنا الألفاظ المعربة المذكورة ، نجد أن العلماء قد أخطأوا في تشخيصها وخلطوا في الغالب بين أصولها ، بسبب أنهم لم يكونوا يحسنون اللغات الأعجمية، ما عدا الفارسية ، وأنهم لم يراجعوا أهل العلم والتخصص في اللغات الأعجمية ، من رجال الدين من أهل الكتاب ، أو المتبحرين بالأدب من الروم والسريان ، بل اكتفوا بمراجعة أياً كان ممن كانوا يعرفونهم من نصارى ويهود ، وحيث أنه لم يكن لدى هؤلاء علم المتبحرين في الدين والأدب ، جاءت أجوبتهم فجّة أو مغلوطة ، ودوّنت على هذه الصورة .

ونظراً لعدم وقوف العلماء على اللغات العربية الجنوبية ، جعلوا ألفاظاً عربية واردة في القرآن مثل (العرم) لفظة حبشية[1] ، مع أنها لفظة عربية جنوبية ، مدوّنة في النصوص ، وجعلوا ألفاظاً أخرى من هذا القبيل ، من الألفاظ المعربة عن لغات أعجمية .

وقد اتخذ بعض العلماء حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف دليلاً على نزول القرآن بلغة قريش ، فقد قالوا : إن الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن واقعة كلها في لغة قريش ، ذلك أن قريشاً كان قد داوروا بينهم لغات العرب جميعاً وتداولوها ، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسمها، وأيامها ووقائعها ، وحجها وعمرتها ، ثم استعملوه وأذاعوه ، بعد أن هذبوه وصقلوه . وبهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة منتقاة من بين لغات القبائل كافة ، وكان هذا سبباً من أسباب انتهاء الزعامة اليهم ، واجتماع أوزاع العرب عليهم ، ومن هنا شاءت الحكمة أن يطلع عليهم القرآن من هذا الأفق ، وأن يطل عليهم من سماء قريش[2] .

وهو استنتاج غير مقنع ، لما أورده العلماء أنفسهم من أقوال وتفسير للحديث المذكور ، ولما أوردوه من أن الصحابة من قريش ، كان يشكل عليهم اللفظ من القرآن مثل (أبا) فيسألون عنه ، لأنه لم يكن من لغة قريش . فقد ذكروا أن (عمر) ، قرأ (عبس وتولى) حتى أتى على هذه الآية : وفاكهة وأبّا، فقال : قد علمنا الفاكهة فما الأب[3] . ثم قال : لعمرك يا ابن الخطّاب ان هذا

---

١ الاتقان (٢/١٠٩) .

٢ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٨٣) .

لهو التكلف . وذهب البعض الى أن المراد من اللفظة ما أنبتت الأرض للأنعام ، وذكر بعض العلماء أنها بلغة الحبش[1] . وذكروا أشياء أخرى من هـذا القبيل ، تعارض قبول هذا الاستنتاج .

والذي أراه أن نص القرآن يعارض حديث الأحرف السبعة ، ففيه : « بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ »[2] ، وفيه : « قل : ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي ، إن اتبع إلا ما يوحى إليّ ، اني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم »[3] وفيه « إنّا نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » . فليس للرسول أن يغير أو يبدل ما نزل به الوحي عليه ، ثم إنه كان لا ينتهي من الوحي ، حتى يأمر من يكون عنده بتدوينه بلسانه حال نزوله عليه ، وإذا لم يكن هناك كاتب أمر من يستدعي له كاتباً ليدونه ، فكيف يتفق ذلك مع هذا الحديث ، ومع الأمثلة التي ذكروها في القراءات ؟ ورد أن الرسول علم (البراء بن عازب) دُعاء فيه : « ونبيك الذي أرسلت » ، فلما أراد البرّاء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله قال : « ورسولك الذي أرسلت » ، فلم يوافقه النبي على ذلك، بل قال له: « لا ، ونبيك الذي أرسلت » . وهكذا نهاه أن يضع لفظة رسول، موضع لفظة نبيّ ، مع أن كليهما حق لا يحيل معنى ، إذ هو رسول ونبي معاً، فكيف كان يُجيز أن يوضع في القرآن مكان عزيز حكيم ، غفور رحيم ، أو سميع عليم ، وكيف تقبل هذه الرواية التي تذكر أن (عبدالله بن مسعود) أقرأ رجلاً كلمة (الفاجر) بدلاً من كلمة الأثيم في الآية : إن شجرة الزقوم طعام الأثيم[4] ، مع ورود المنع عن تغيير أي حرف من حروف القرآن ، وهل يعقل قيام (ابن مسعود) بذلك ، وسكوت الصحابة عن عمله ، لو صحّ أنه فعل ذلك .

ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش وحدها ، فلمَ كان الصحابة من قريش مثل (أبو بكر) و (عمر) وغيرهما ، يتحيرون في تفسير ألفاظ وردت فيه، أو يلجأون الى الشعر يستعينون به في تفسير القرآن ، والشعر هو شعر العرب ، لا شعر قريش وحدها . قال (ابن عباس) « إن الشعر ديوان العرب »،وكان

---

١ عبس ، الآية ٣١ ، تفسير الطبري (٣٠/٣٨) ، الاتقان (٢/١٠٨) .
٢ البروج ، ٨٥ ، الآية ٢٢ .
٣ يونس ، ١٠ ، الآية ١٥ .
٤ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٨١ وما بعدها) .

إذا سئل عن عربية القرآن أنشد الشعر[1] ، وقال : « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله ، فلم تعرفوه ، فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب ، وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً »[2] .

قال (ابن قتيبة) : « العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض ، والدليل عليه قول الله عزّ وجلّ : وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم[3] ... ويدل عليه قول بعضهم : يا رسول الله : إنك اتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقاً . فقال : إن ربي علمني فتعلمت » .

---

١ مقدمتان في علوم القرآن (١٩٨ وما بعدها) .

٢ العمدة (١/٣٠) .

٣ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية .

الفصل التاسع والثلاثون بعد المئة

العربية الفصحى

نطلق اليوم على العربية التي ندوّن بها أفكارنا : (العربية الفصحى) ، وهي كما نعلم لغة الفكر والإدارة في العالم العربي . والعربية الفصحى ، هي لغة الفصاحة والبيان ، ومدار تركيب الفصاحة على الظهور والإبانة . يقال : أفصح إذا تكلم بالفصاحة . وفصح الأعجمي فصاحة ، إذا تكلم العربية وفهم منه[1] . وهي اللغة العربية العالية التي لا تدانيها لغة عربية أخرى من اللغات العربية الباقية ، واللسان الذي يحاول أن ينطق به كل مثقف مهذب ، وأن يؤلف ويعبر عن مراده به .

وعرفت العربية الفصيحة بالعربية العالية ، وكان علماء اللغة إذا وسموا كلمة بسمة الفصاحة ، قالوا : كلمة فصيحة ، وكلمة عالية ، وإذا وسموها بالضعف وبالركاكة، قالوا : ليست بعربية فصيحة ، أو ليست بالعالية . «قال ابن سيده: أشكد لغة ليست بالعالية»[2] . وقالوا في (لغة رديئة) ، وقالوا : « وهي لغة أهل العالية »[3] . « والعالية ما فوق أرض نجد الى تهامة والى ما وراء مكة ، وهي الحجاز وما والاها .. وقيل عالية الحجاز ، أعلاها بلداً وأشرفها موضعاً وهي بلاد واسعة ، والمسمى بالعالية : قرى بظاهر المدينة المشرفة ، وهي العوالي ،

---

١ تاج العروس (٢/١٩٧) ، (فصح) .
٢ تاج العروس (٢/٣٩٠) ، (شكد) .
٣ تاج العروس (٢/٢٢٨) ، (ملح) .

وأدناها من المدينة على أربعة أميال وأبعدها من جهة نجد ثمانية ، والنسبة اليها عالي على القياس ، ويقال أيضاً علوي بالضم ، وهي نادرة على غير قياس »[1] .

وعرفت هذه العربية العالية بالعربية المبينة ، دعيت بذلك ، لأن (اسماعيل) أول من فتق لسانه بها ، فأبان وأفصح[2] ، وأرى أنها إنما نعتت بذلك ، من القرآن الكريم ، ففيه « بلسان عربي مبين »[3] ، و « هذا لسان عربي مبين »[4] .

وقصد العلماء من قولهم : « ليست بالعالية » ، بمعنى ليست بفصيحة ، ولم يقصدوا النسبة الى (العالية) التي هي الأرض المذكورة . غير أننا نجدهم أحياناً يقصدون بها أهل العالية ، فنرى (الطبري) يذكر في تفسيره في قراءة « فيسحتكم » : « والقول في ذلك عندنا أنهما قراءتان مشهورتان ولغتان معروفتان بمعنى واحد ، فبأيتهما قرأ القارىء فصيب . غير أن الفتح فيها أعجب إليّ ، لأنها لغة أهل العالية . وهي أفصح ، والأخرى وهي الضم في نجد »[5] . والعالية ما فوق أرض نجد الى أرض تهامة والى ما وراء مكة . وهي الحجاز وما والاها « وقيل : عالية الحجاز أعلاها بلداً وأشرفها موضعاً ، وهي بلاد واسعة ، والمسمى بالعالية قرى بظاهر المدينة المشرفة ، وهي العوالي » . « وعليا مضر بالضم أعلاها ، وقيل قريش وقيس ، وما عداهم سفلى مضر »[6] .

ونجد علماء العربية يستعملون مصطلح : « وليس بالعالي » ، أو « ليس في اللغة العالية » ، و « الفصيح ... » ، أو « والفصحاء يقولون »[7] ، في تقييم الكلم ، كما استعملوا : « وليس بالمعروف » ، أو « والأول أعلى » ، و « لغة مجهولة » ، أو « متروكة » ، أو و « يحتمل أن يكون من أمثلة المنكر » ، و « كلام قديم قد ترك » ، و « وهذا لا يعرف في أصل اللغة » ، أو و « المعروف »[8] ، وأمثال ذلك من مصطلحات للتعبير عن درجة الكلمة ومكانتها

---

١ تاج العروس (١٠ / ٢٥٠) ، (علا) .
٢ المزهر (١/٨١) .
٣ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٥ .
٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٥ تفسير الطبري (١٦/١٣٦) .
٦ تاج العروس (١٠/٢٥٠ وما بعدها) ، (علو) .
٧ المزهر (١/٢١٥ وما بعدها) .
٨ المزهر (١/٢١٤ وما بعدها) .

في مقاييس علماء اللغة من حيث الفصاحة والركاكة وما بينهما من درجات . والفصيح في نظر علماء العربية « ما كثر استعماله في ألسنة العرب ودار في أكثر لغاتهم ، لأن تكراره على الألسنة المستقلة بطبيعتها في سياسة المنطق دليلٌ على تحقيق المناسبة الفطرية فيه »[1] .

ويسوقنا البحث في موضوع اللغة العربية الفصحى الى التفكير في موضوع له صلة وثيقة بهذا الموضوع ، بل هو في الواقع جزء منه ، هو : لغة الأدب عند الجاهليين ، وهل كان لأهل الجاهلية لسان عربي واحد مبين ، استعملوه في التعبير عن عواطفهم شعراً أو نثراً ؟ وإذا كان لهم ذلك اللسان ، فهل كان فوق سائر لهجاتهم المحلية أو لهجات القبائل المتعددة ؟ أو أنه كان لهجة خاصة ؟ واذا كان لهجة عالية خاصة ، فلهجة من يا ترى كانت هذه اللهجة ؟ وبأي موطن ولدت ؟ وهل كانت لهجة عامة مستعملة عند العرب عامة ، من عرب جنوبيين وعرب شماليين ، أو أنهـا كانت لهجة خاصة بالعرب الشماليين ؟ ثم هل كانت هذه اللهجة هي العربية التي نزل بها القرآن ، أم كانت عربية أخرى لا صلة لها بها ؟ أماتها الإسلام كما أمات أموراً من أمور الجاهلية ، لصلتها بالوثنية، وأحلّ محلها لغة القرآن ، لغة قريش ؟ ثم هل كانت هذه العربية ، هي عربية الشعر ، بمعنى أن الشعراء كانوا إذا أرادوا النظم ، نظموا شعرهم بهذه اللغة العالية ، متجاهلين لغتهم القبلية ، لأنها لغة الأدب الرفيع ، وبها كان يخطب الخطباء ؟

لقد عُني عدد من المستشرقين بالإجابة عن أمثال هذه الأسئلة،فكتب (نولدكه)، رأيه في الموضوع في كتابه : تأريخ القرآن في باب القراءات واللهجات التي نزل بها القرآن الكريم ، كما تطرق اليه أيضاً في أثناء كلامه على الشعر الجاهلي ولغة الأدب عند الجاهليين ، وخلاصة رأيه أن الفروق بين اللهجات في الحجاز ونجد ومناطق البادية المتاخمة للفرات لم تكن كبيرة ، وأن اللهجة الفصيحة شملت جميع هذه اللهجات[2] . وذهب (غويدي) الى أن اللغة الفصحى هي مزيج من لهجات تكلم بها أهل نجد والمناطق المجاورة لها ، ولكنها لم تكن لهجة معينة لقبيلة معينة[3].

---

١ المزهر (١/١٢٦) .

٢ Nöldeke, Geschichte des Korans, Zweite Auflage, Erste Teil, S., 42, Neue Beiträge zur Semitischen sprachwissenschaft, Strassburg, 1910, S. I - 14.

٣ Guidi, Mix. Ling., Torino, 1901, p. 323.

ورأى (نلينو) ، أن العربيـــة الفصحى تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهذبت في مملكة كندة وفي أيامها ، فأصبحت اللغة الأدبية السائدة . وعزا سبب ذلك الى ملوك هذه المملكة الذين أغدقوا على الشعراء وشجعوهم مما كان له وقع في نفوسهم ، ثم الى توسع رقعة هذه المملكة التي ضمت أكثر قبائل معدّ،وكان لها فضل توحيـــد تلك القبائل وجمع شتاتها ، فشاعت هذه اللهجة على رأيه في منتصف القرن السادس للميـــلاد ، وخرجت خارج نجد ، وعمّت معظم أنحاء الجزيرة ولا سيا القسم الجنوبي من الحجاز الذي فيه يثرب ومكة والطائف ، مع بقاء اللهجات العامية في منطق الناس المعتاد ، وكان للعواصم المشهورة وللملوك الحيرة وغسان شأن لا ينكر في هذا الانتشار السريع العجيب[1] .

وذهب (هـــارتمن) « Hartmann » و (فولرس) « Vollers » الى أن العربية الفصحى هي لهجة أعراب نجد واليامة ، غير أن الشعراء أدخلوا عليهـــا تغييرات متعددة[2] . وذهب (لندبرك) « Landburg » الى أن الشعراء هم الذين وضعوا قواعد هـــذه اللهجة ، وعلى قواعدهم سار المتأخرون ، ومـــن شعرهم استخرجت القواعد ، ومن قصائدهم تلك استنبط العلماء أصول النحو .

وزعم (فولرس) ، أن القرآن لم ينزل بلغة أعراب نجد واليامة ، وإنما نزل بلغة أهل مكة ، أي لغة قريش ، وهي لغة لم تكن معربة ، وإنما كانت لغـــة محليـــة ، فلما دوّنت قواعد العربية وثبتت طبق الاعراب على القرآن ، وصقلت لغة قريش وفقاً لهذه القواعد .

ولم يعين (فيشر) اللهجة التي نبعت منها العربية الفصحى ، غـــير أنه رأى أنها لهجة خاصة[3] . ولـ (بروكلمن) و (ويتزشتاين) آراء في نشوء هذه اللغة وتطورها ، ولكنهما لم يتحدثا عن علاقتها ببقية اللهجات[4] .

ذهب (بروكلمن) الى أن لغة الشعر الجاهلي لا يمكن أن يكون الرواة والأدباء

---

١ الهلال ، السنة السادسة والعشرون ، اكتوبر ١٩١٧ ، (ص ٤٧ وما بعدها) ، جواد علي ، في كتاب الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة .

٢ Völlers, Völkssprache, S., 184.

٣ Rabin, p. 17.

٤ Rabin, p. 17.

اخترعوها على أساس كثرة من اللهجات الدارجة ، ولكن هذه اللغة لم تكد تكون لغة جارية في الاستعمال العام ، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات ، وإن غذتها جميع اللهجات[1] .

وذهب (برجيه) الى أن العربية كانت لهجة قبلية صغيرة وصلت في وقت من الأوقات بفضل ظروف محلية الى درجة من الكمال خارقة للعادة ، وهي مدينة بانتشارها الى الاسلام[2] .

و (ريجيس بلاشير) من المستشرقين الذين أيدوا رأي من ذهب الى وجود لغة عالية عند أهل الجاهلية ، فقال : « إن وجود لهجات ولغة عليا ليس فيه شيء مخالف للعادة ، كما أن نمو لهجة شعرية ليس فيه أيضاً شيء خارق»[3] . واللغة المذكورة لهجة شعرية تنطبق على اللهجات المحلية ، بل هي امتداد لها ، «وهي في الجملة موضوعة للأغراض النبيلة والتعبير الفني عن بعض أنواع التفكير» ، لها خصائص اللهجات في وسط الجزيرة وشرقيها ، ولم تكن هذه اللهجة العالية قاصرة في الاستعمال على أهل جزيرة العرب ، بل كانت لغة الشعر أيضاً عند عرب العراق وعرب بلاد الشأم . ولهذا كان الشعر مفهوماً عند جميع الجاهليين ، أينما كانوا : سواء كانوا في جزيرة العرب ، أم في العراق وفي بلاد الشأم . وكانت الفوارق بين هذه اللهجة وبقية اللهجات تختلف تبعاً للمجموعات اللغوية . فالفارق ضئيل بينها وبين لهجات أواسط جزيرة العرب وشرقيها ، ولها خصائص الأقسام الشرقية والوسطى من جزيرة العرب . وكان الشاعر ، ينزع دوماً الى الابتعاد عن مؤثرات لهجته القبلية ، والارتفاع عنها ، الى لغة الشعر المتعارفة بين الجاهليين آنذاك ، لكونها اللغة الرفيعة في نظر أهل الجاهلية ، وكانت تدل على تهذيب الشاعر وسمو مداركه وثقافته[4] .

ويرى (بلاشير) أن علماء اللغة والنحو حين أخذوا بضبط قواعد اللغة ، غربلوا اللهجات ، وتوغلوا بين الأعراب مدفوعين بعقلية تنهج وتنقية اللغة مما أدى بهم

---

١ بروكلمن ، تاريخ الأدب العربي (١/٤٢) .

٢ ريجيس بلاشير ، تاريخ الأدب العربي (٨٦) .

٣ تاريخ الأدب العربي (٨٨) ، (تعريب ابراهيم كيلاني) .

٤ ريجيس بلاشير ، تاريخ الأدب العربي (٨٧ وما بعدها) .

الى توحيد لغتي القرآن والشعر الجاهلي ، في الوقت الذي نظموا فيه واستخرجوا قواعد العربية الفصحى ، مما أدى الى إضاعة أشياء قليلة من اللهجة الشعرية الجاهلية في سبيل التوفيق بينها وبين لغة القرآن . وما العربيـة الفصحى الحالية إلا لهجـة ولدت من لغة الشعر ولغـة القرآن ، والقــرآن والشعر الجاهلي المضبوط في شكله الحاضر لا يمثلان اللغة الشعرية في شكلها القديم ، وانما يبتعدان بعض الابتعاد عن تلك اللهجة ، بسبب ما فعله علماء النحو والصرف ، في تلك اللهجة من تشذيب وتهذيب لتلتئم مع لغة القرآن ومع قواعدها وقواعد لغة الشعر التي رسخها علماء اللغة .

وأما رأي علماء العربية ، فخلاصته أن لغة قريش هي الأصل ، «وانما صارت لغتهم الأصل ، لأن العربية أصلها اسماعيل عليه السلام ، وكان مسكنه مكة »[١]. وعندهم ان العربية قحطانية وحميرية وعربية محضة ، وبهذه الأخيرة نزل القرآن ، وقد انفتق بها لسان اسماعيل[٢] ، وهي العربية الفصحى ، لسان اسماعيل ، ألهم بها اسماعيل إلهاماً[٣] . رووا عن (عمر) انه قال : « يا رسول الله ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ قال : كانت لغـةُ اسماعيل قد دَرست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها ، فحفظتهـا »[٤] . وهم يقولون إن : « أول من تكلم بالعربية اسماعيل بن ابراهيم » ، أو ان « أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه اسماعيل بن ابراهيم » ، بل تجاوز بعض منهم ، وبالغ حتى زعم أن «العرب كلها ولد اسماعيل ، إلا حمير وبقايا جرهم » ، وأن العربية الصحيحة الفصيحة هي العربية التي نزل بها القرآن ، أما لسان حمير وأقاصي اليمن ، فليس « بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[٥] .

ورأيهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنـة ، وأصفاهم لغة ، وأنقاهم لساناً ، « وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطّان حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٨٠) .
٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٨٠) .
٣ المزهر (١/٣٢ وما بعدها) .
٤ المزهر (١/٣٤ وما بعدها) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٤ وما بعدها) .

حُجّاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش في أمورهم ، وكانت قريش ، مع فصاحتها وحسن لُغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم؛فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها ؛ فصاروا بذلك أفصح العرب .

ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عَنعَنة تميم،ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا كَسْر أسد وقيس »[1] .

« وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عمّا في النفس »[2] . وقال ابن خلدون : كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم ، حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية[3] .

وروي أن (معاوية) قال يوماً : « من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيامنوا عن عنعنة تميم ؛ وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قريش »[4] . وقال (ثعلب) : « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبّة ، وتلتلة بهراء »[5] . وورد كلام (معاوية) مع الأعرابي على هذه الصورة : أن (معاوية) « قال : أي الناس أفصح ؟ فقام رجل فقال : قوم ارتفعوا عن فراتية العراق،

---

١ المزهر (١/٢٠٩ وما بعدها) ، (الفصل الثاني في معرفة الفصيح من العرب) ، الصاحبي في فقه اللغة (٥٢) ، (تحقيق مصطفى الشويمي) .
٢ المزهر (١/٢١١) .
٣ ابن خلدون ، مقدمة (٤٠٩) ، « الفصل الثاني والثلاثون من الفصل السادس » .
٤ البيان والتبيين (٣/٢١٣) .
٥ مجالس ثعلب (٨١) ، المزهر (١/٢١١) ، ابن جني ، الخصائص (٤١١) ، الصاحبي (٤٤) ، الخزانة (٤/٥٩٥ وما بعدها) .

وروي : لخلخانية العراق ، وتياسروا عن كشكشة بكر ، وتيامنوا عن كسكسة تميم ، ليست فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قومك قريش . قال : صدقت . ممن أنت ؟ قال : من جرم »[1] . واللخلخانية اللكنة في الكلام ، والغمغمة : ألا يبين الكلام ، والطمطمانية : العجمة . « قال الأصمعي : وجرم : فصحاء العرب . قيل : وكيف وهم من اليمن ؟ فقال : لجوارهم مضر »[2] فمضر هم أهل الفصاحة على رأيه .

ورووا « عن أبي بكر الصدّيق ، رضي الله عنه ، انه قال : قريش هم أوسط العرب في العرب داراً ، وأحسنه جواراً ، وأعربه ألسنة . وقال قتادة : كانت قريش تجتبي ، أي تختار أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاتهـا لغتها ، فنزل القرآن بها »[3] .

وقد استدلوا نزول القرآن بلغة قريش بأدلة أخرى ، منها قول عمر : «لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف »[4] .

وزعموا ان العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردّوه منها كان مردوداً ، فقدم علقمة بن عبدة التميمي،فأنشدهم قصيدته : هل ما علمت وما استودعت مكتوم . فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدتـه : طحا بك قلبٌ في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سمط الدهر »[5] . فما كان علقمة ولا غـيره ليكلف نفسه مشقة الذهاب الى قريش ، والى سوق عكاظ ، لو لم تكن لغتها أفصح لغات العرب وأعلىها وأسلسها ، ولو لم يكن لها علم بالشعر يفوق علم غيرها به .

وزعموا أيضاً أن العرب كانوا في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج ، فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى ، وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى

---

١ الفائق (٢/٤٥٩) .
٢ المصدر نفسه .
٣ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) ، (طبعة دار صادر) ، تاج العروس (١/٣٧٤) ، (عرب) .
٤ الصاحبي (٥٧ وما بعدها) .
٥ الأغاني (١٢/١١٢) .

ينظر اليه ، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب. وقال « أبو عمرو بن العلاء: كانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش[1]. وكان العرب يعلقون أشعارهم بأركان الكعبة ، كما فعل أصحاب المعلقات السبع، وانما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وبعصبيته ومكانه في مضر[2] .

فقريش أفصح العرب ، ومعدن الفصاحة ومركزها وينبوعها ، ثم من جاورهم وقاربهم ، ثم من جاء بعد هؤلاء ، فكلما بعد قوم عن قريش ، بعدت لغتهم عن الفصاحة ، ولهذا كان احتجاج علماء اللغة بلغات العرب على نسبة بعدهم عن قريش ، « فاعتبروا لغة قريش أفصح اللغات وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف ، وهذيل ، وخزاعة ، وبني كنانة ، وغطفان ، وبني أسد ، وبني تميم . ثم تركوا الأخذ عمن بعُد عنهم من ربيعة، ولخم ، وجذام ، وغسان ، وإياد ، وقضاعة ، وعرب اليمن ، لمجاورتهم الفرس ، والروم ، والحبشة »[3] .

وأما رأي المحدثين من علماء العربية عندنا ، فهو رأي الموافق المؤيد . هذا الدكتور (طه حسين) يقول في كتابه : (في الأدب الجاهلي) : « أما أن هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدها في القرآن والحديث وما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبي وأصحابه لغة قريش ، فما نرى أنه يحتمل شكاً أو جدلاً ؛ فقد أجمع العرب على ذلك بعد الإسلام ، واتفقت كلمة علمائهم ورواتهم ومحدثيهم ومفسريهم على أن القرآن نزل بلغة قريش ، أو قل على ان هذا الحرف الذي بقي لنا من الأحرف السبعة إنما هو حرف قريش.وقد يكون من التكلف والتحذلق أن يجمع العرب كافة على أن لغة القرآن هي لغة قريش . وألاّ يظهر في العصر الاسلامي الأول ولا في أيام بني أمية ولا في أيام بني العباس من ينكر هذا أو يجادل فيه رغم ما كان من الشعوبية الأعجمية ومن الشعوبية الحميرية ومن الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائل مضر ، ثم يزعم زاعم أن هذه

---

١ خزانة الأدب (١/٨٧) .

٢ مقدمة ابن خلدون (١/٥٠٩) ، (١١٥) .

٣ الرافعي (١/٢٥٩) .

اللغة ليست لغة قريش ، وإنما هي لغة قبيلة أخرى مهما تكن هذه القبيلة »[1] .

ثم يمضي قائلاً : « فنحن مضطرون أمام هذا الاجماع من جهة ، وأمام قرشية النبي من جهة أخرى ، وأمام نزول القرآن في قريش من جهة ثالثة، وأمام فهم قريش للفظ القرآن في غير مشقة ولا عنف من جهة رابعة ، وأمام اتفاق القرآن في اللغة واللهجة مع ما صح من حديث النبي القرشي ومن الرواية عن أصحابه القرشيين من جهة خامسة ، الى أن نسلم بأن لغة القرآن انما هي لغة قريش .

ستقول : ولكن هذه اللغة قد كانت تفهم في غير قريش من قبائل الحجاز ونجد ، ومن هذه القبائل المضري كقيس وتميم ، ومنها اليمني كخزاعة والأوس والخزرج ، بل منها قبائل لم تكن عربية بوجه من الوجوه وهي هذه اليهودية التي كانت تستعمر شمال الحجاز . ولكنك تعرف رأينا في النسب وفي انتماء هذه القبائل الى اليمن أو الى مضر . ومع هذا فقد قلنا إن لغة قريش سادت قبيل الاسلام . ونحن إن فكرنا عرفنا ان سيادة اللغات انما تتصل عادة بالسيادة السياسية والاقتصادية . فلنبحث عن البيئات الممتازة من الوجهة السياسية والاقتصادية في شمال البلاد العربية قبيل الاسلام .

الحق اننا لا نستطيع أن نفكر في هذه السيادة الفارسية في الحيرة أو هذه السيادة الرومية في أطراف الشأم ، فقد كانت هناك أسر عربية تمثل هذه السيادة، وكانت لهذه الأسر ضروب من السلطان ، ولكن هذه الأسر لم تكن فيما يظهر حجازية ، ولم تكن بيئاتها بيئات عربية خالصة ، انما كانت بيئات مختلطة أقرب الى الأعجمية منها الى أي شيء آخر . فلم تبق إلا بيئات أربع : بيئة كندية في نجد ، ولكن هذه البيئة كانت يمنية إن صح ما زعم الرواة والمؤرخون . وسيادتهم لم تطل ولم يكن لها من الضخامة ما يمكنها من أن تسلط سلطانها السياسي والاقتصادي والديني على شمال البلاد العربية . وبيئة أخرى قرشية في مكة ، كان لها سلطان سياسي حقيقي ، ولكنه قوي في مكة وما حولها ، وهذا السلطان السياسي كان يعتز بسلطان اقتصادي عظيم ، فقد كان مقدار عظيم جداً من التجارة في يد قريش ، وكان هذا السلطان يعتز بسلطان ديني قوي مصدره الكعبة التي كان يحج اليها أهل

---

[1] طه حسين ، في الأدب الجاهلي (١٠٥) .

الحجاز وغير أهل الحجاز من عرب الشمال . فقد اجتمع لقريش اذن سلطان سياسي واقتصادي وديني . وأخلق بمن تجتمع له هذه السلطات أن يفرض لغته على من حوله من أهل الباديــة . وبيئة ثالثة هي بيئــة الطائف ، كان لها شيء من السلطان الاقتصادي ولكنها لم تكن تداني البيئة المكية . وبيئة رابعة في شمال الحجاز ، هذه هي البيئة العربية في يثرب وما حولها . ولكنا نظن ان أحداً لا يفكر في أن يقول ان هذه العربية الفصحى كانت لغة هؤلاء الناس من اليهود أو من الأوس والخزرج فضلاً عن أن هذه البيئة على ثروتها وقوتها لم تكن تداني قريشاً فيما كان لها من سلطان .

لغة قريش إذن هي هذه اللغة العربية الفصحى ، فرضت على قبـائل الحجاز فرضاً لا يعتمد على السيف وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية . وكانت هذه الأسواق التي يشار اليها في كتب الأدب ، كما كان الحج ، وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش »[1] .

وبعد أن انتهى (الدكتور طه حسين) من إصدار قراره ، قـال : « ولكن ما أصل لغة قريش ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف تطورت في لفظها ومادتها وآدابها حتى انتهت الى هذا الشكل الذي نراه في القرآن ؟ » . وكان جوابه عــلى هذه الأسئلة قوله : « كل هذه مسائل لا سبيل الى الإجابــة عليها الآن ، فنحن لا نعرف أكثر من أن هذه اللغة لغة سامية تتصل بهذه اللغات الكثيرة الــتي كانت شائعة في هذا القسم من آسيا . ونحن نكاد نيأس من الوصول في يوم من الأيام الى تأريخ علمي محقق لهذه اللغة قبل ظهور الإسلام . وكيف والقرآن أقـدم نص صحيح وصل الينا في هذه اللغة ، ونحن نرى اللغة فيه كاملة متقنة تامـة التكوين قد تجاوزت الوجود الطبيعي الى هذا الوجود الفني الراقي الذي يظهر في الآداب »[2] .

وخلاصة رأي (الدكتور طه حسين) أن عربية قريش هذه ، التي نزل بها القرآن الكريم ، إنما سادت قبيل الاسلام ، ولم تكن سيادتهــا تتجاوز الحجاز . إذ يقول : « فالمسألة إذن هي أن نعلم : أسادت لغة قريش ولهجتها في البــلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ أما نحن

١ في الأدب الجاهلي (١٠٦ وما بعدها) .
٢ في الأدب الجاهلي (١٠٧) .

فنتوسط ونقول : انها سادت قبل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل الى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية . ولكن سيادة لغـة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئاً يذكر ولم تكد تتجاوز الحجاز . فلما جاء الإسلام عمت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنباً الى جنب »[1] .

وكان المرحوم (مصطفى صادق الرافعي) ، قد تعرض لهذا الموضوع وبحث فيه قبل (الدكتور طه حسين) ، في كتابه : « تأريخ آداب العرب » ، الذي طبعه سنة (١٩١١ م) ، فذهب مذهب الأسلاف في أن العربية بدأت بـ (اسماعيل) فلما خرج أولاده من ديارهم وانشعبت قبـائلهم ، تنوعت لهجاتهم ، وتباينت ألسنتهم ، حتى ظهرت قريش من بينهم ، فأخذت وأعطت ، وهذبت الألسنة واستخلصت منها أعذبها وأسماها ، ثم لا تزال تهذب في اللغة وتشذب حتى بلغت بها الكمال عند ظهور الإسلام ، بنزول الوحي بها . وكانت القبائل : « بطبائعها متباينة اللهجات،مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها ، فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه ؛ ولو كانوا بادين كسائر القبائل مـا فعلوه ، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تأريخهم ألان من طباعهم وكسر من صلابتهم ، فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس . فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مُستبشع اللغات ومستقبحها ، وبذلك مرنوا على الانتقاد حتى رقت أذواقهم ، وسمت طبائعهم ، وقويت سلائقهم ، وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس »[2] .

فهذا دور من أدوار تهذيب اللغة وتنقيتها ، قامت به قريش ، قامت به في مسكنها وموطنها مكة ، وقامت بدور آخر ، كان آخر الأدوار التي قامت فيها قريش في تهذيب العربية،هو الدور العُكاظي ، وهو « حالة من أحوال الحضارة، والملك اقتضى الصناعة اللسانية ، فكان العرب يرجعون الى منطق قريش ، كما

---

١ في الأدب الجاهلي (١٠٥) .

٢ الرافعي تاريخ آداب العرب (١/٨٥ وما بعدها) .

كان هؤلاء يبالغون في انتقاد اللهجات وانتقاء الأفصح منها . وهــذا هو الدور الأخير من أدوار التهذيب اللغوي إذ يدخل في حالة عامة يشيع فيها المنطق الفصيح وتبلغ بها اللغة درجة عالية من النشوء ليس بعدها إلا موت الضعيف وتحوله الى شكل أثري لا منفعة منه للمجموع المكوّن على هذه الطريقة ، ولكنه يدل على أصل التكوين »[1] .

ثم توّج عمل قريش في تهذيب اللغة بنزول القرآن بلسانها « فإن هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب البتة ولو كانت بلاغته ممــا يعيت ويحيي ، ثم كانوا لا يعدون في اعتبارهم اياه انه ضرب من تلك الضروب التي كانت لهم من خوارق العادات : كالسحر والكهانة وما اليها ، وهو الذي افترته قريشٌ ليصرفوا به وجوه العرب ويميلوا رؤوسهم عن الإصغاء الى النبي »[2] . ثم « ان القرآن لو نزل بغير ما ألفه النبي صلى الله عليه وسلم ، من اللغة القرشية وما اتصل بها ، كان ذلك مغمزاً فيه ، إذ لا تستقيم لهم المقابلة حينئذ بين القرآن وأساليبه ، وبين ما يأثرونه من كلام النبي صلى الله عليــه وسلم ، فيهوّن ذلك على قريش ، ثم على العرب ، فيجدون لكل قبيلة مذهباً من القول فيه ، فتنشق الكلمة ، ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء ، الى حال لا يلتئم عليه أبداً ، ولو أن شاعراً من شعرائهم ظهر فيهم بدين خيالي وأقامهم عليه ، لكان في الرجاء والاحتمال أن يستجيبوا له دون صاحب القرآن الذي ينزل عليه بلغة غير لغة قبيلته »[3] .

ومجمل حجج الباقين القائلين ان العربية الفصحى هي عربية قريش ، ان قريشاً « كانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية ، وكان لهــا عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادي، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية،وكان العرب يجتمعون اليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة .

ومعنى ذلك ان هنالك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات

---

١ تأريخ آداب العرب (١/٨٧ وما بعدها) ، (أسواق العرب) .
٢ تأريخ آداب العرب (١/٤٦) .
٣ المصدر نفسه (١/٤٧) .

القبلية في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثني ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها اليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وقد تدل على ذلك بعض الدلالة سوق عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ، ولم يُروَ ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردّوه منها كان مردوداً فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي،فأنشدهم قصيدته: هل ما علمت وما استودعت مكتوم . فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : طحا بك قلبٌ في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سمطا الدهر .

واذن فنحن لا نعدو الواقع اذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت الى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران . ومما يؤكد ذلك ان الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يحدثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية انها كانت تجد صعوبة في التفاهم معه،وأيضاً فإنه كان يرسل اليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الاسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو انهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان ارسال هؤلاء الدعاة عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الاسلام .

أما في الشمال فقد كانت الفصحى معروفة في كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتّم أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة »[1] .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٣٣ وما بعدها) .

وبعد ، فلقد عرضت عليك رأي المستشرقين في العربية العالية : عربية القرآن الكريم ، وعربية الشعر الجاهلي . ثم عرضت عليك رأي علماء العربية فيهما من متقدمين ومن معاصرين ، وقد رأينا أن المستشرقين وعلماء العربية معاً ، لم يستندوا كلهم على سند جاهلي مكتوب ، ولا على نص مدوّن بهذه العربية ، لسبب واحد مفهوم معقول ، هو عدم ورود نصوص جاهلية مدوّنة بهذه اللغة فلم يكن أمامهم من سبيل سوى اللجوء الى الموارد الإسلامية للاستعانة بهديها في استنباط رأي علمي بهذا الموضوع ، وهذا ما فعلوه .

أما قول علماء العربية إن عربية القرآن الكريم عربية (اسماعيلية) ، بمعنى أنها عربية أخرى تختلف عن عربية العرب الجنوبيين ، فرأي مقبول ، على شرط أنه اصطلاح يعبر عن معنى اصطلح عليه . فقد أشير الى (الاسماعيليين) في التوراة . وهم – كما سبق أن قلت – قبائل عربية شمالية كانت تقطن في القسم الشمالي الغربي من جزيرة العرب ،وكانت حدودهم الغربية على اتصال بالعبرانيين. ولا أعتقد أن أحداً من أصحاب الفقه في العربية ، يركبه الشطط فيقول إنه نزل بلغة عربية جنوبية ، أو بلغة ثمود أو لحيان أو الصفويين ، أو يقول إن الشعر الجاهلي ، قد نظم بلهجة من هذه اللهجات ، فكلام مثل هذا ، حتى لو صدر من أحد ، فإنه هراء يدل على جهل قائله بأبسط الأشياء .

وأما دعوى أن هذه العربية وحدها هي العربية الفصيحة الصحيحة،وأن ما عداها من عربيات ، فلغات فاسدة رديئة ، فدعوى يمكن قبولها والتسليم بصحتها ، لو ان في وسع القائلين بها اثباتها بالأدلة المادية الملموسة ، أي بأدلة النصوص الجاهلية المكتوبة ، مع اثبات ان هذه اللغة الفصيحة كانت وحدها لغة الأدب والتدوين عند جميع العرب ، وان الجاهليين كانوا لا يكتبون إلا بها ، وأن ما سواها من اللهجات ، كانت لهجات كلام ، أي لغات العامة والسواد ، تكلموا بها كما نتكلم نحن اليوم فيما بيننا بلهجات محلية ، نسميها لهجات عامية ، فإذا كتبوا كتبوا بالعربية الفصيحة . ولكنهم عاجزون عن اثبات ذلك ، ثم ان النصوص الجاهلية تناهض دعواهم هذه ، فكل ما لدينا من نصوص جاهلية ، مكتوب بلهجات عربية أخرى ، خلا خمسة نصوص كتبت بعربية نبطية ، أي بعربية فيها ألفاظ واردة في العربية الفصحى ، ولكن الإرمية أو النبطية متحكمة في أسلوبها وفي قواعدها وفي الكثرة الغالبة من كلماتها بحيث تمنعها من أن تعدّ في عداد العربية

الفصيحة . لذا ، فنحن لا نخالف المنطق والعلم ، إن أظهرنا اعتراضنا عليها ورفضناها ، وما كان لنا لنعترض عليها ، لو ان الأمر كان على العكس ، لو ان غالبية النصوص الجاهلية كانت بهذه اللغة ، أو ان بعضاً منها على الأقل ، ولو بعضاً قليلاً ، كان بهذه العربية الخالصة ، أو اننا لا نملك نصاً جاهلياً بتاتاً، بأية عربية كانت ، لا بهذه العربية ، ولا بالعربيات الأخرى ، أما وأن لدينا اليوم الألوف من النصوص الجاهلية ، وهي كلها بلهجات عربية أخرى ، ولا نملك نصاً واحداً مدوناً بهذه العربية الخالصة ، لذا ، فنحن لا نظلم أنفسنا ، ولا نظلم غيرنا ، ان رفضنا دعواهم المذكورة، وقلنا ان اللغات التي موّنتنا بالنصوص المذكورة ، هي لغات فصيحة بالنسبة للناطقين بها ، وفي نظرنا أيضاً ، وهي لغة أدب بالنسبة لأصحابها الكاتبين بها .

والقول بأن العربية الفصيحة هي وحدها العربية الصحيحة السليمة الفصيحة ، وأن ما عداها من لغات عربية فلغات رديئة فاسدة ، أو أنها دونها في الفصاحة، قول يمكن قبوله بالنسبة لأيام الإسلام،حيث صارت هذه العربية لغة الدين والحكم والفكر ، بها تُقوّم الألسنة ، وبها يدوّن الناس آراءهم . أما بالنسبة الى أيام الجاهلية ، فإننا لا نستطيع التسليم به ، لسبب بسيط ، هو أن أهل العربية الجنوبية مثلاً ،كانوا يكتبون وينطقون بلغاتهم ، فلغاتهم هي لغة التدوين والأدب عندهم، بقوا يكتبون بها ، الى أن دخلوا في الاسلام ، فأبدلوها عندئذ بهذه العربية ، بحكم الدين . ودليل ذلك ، هذه النصوص المتأخرة المكتوبة بالمسند ، والتي لا يبعد تأريخها عن الاسلام كثيراً . فلو كانوا يرون أن هناك عربية أفصح منها ، أو أنهم كانوا يعلمون أن هناك عربية أرفع من عربيتهم شأناً ، يدوّن ويكتب بها بقية عرب الجزيرة وأنها لغة الثقافة والعلم ، لما نبذوها وعدلوا عنها الى عربيتهم، وشذوا عن بقية اخوانهم العرب ، بتمسكهم بالكتابة بها وحدها . وينطبق هذا القول على قوم ثمود والصفويين واللحيانيين والنبط ، فقد كتب كل قوم منهم بلغتهم ، ولم يكتبوا بهذه العربية ، وتدوينهم بلغاتهم ، دليل على ثبوت فصاحتها عندهم ، وليس في قول (ابو عمرو بن العلاء) : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[1] ، ما يدل على ازدراء شأن الحميرية : أو

١ طبقات ابن سلام (٤ وما بعدها) .

الغض منها ، وإنما هو تعبير عن حقيقة تأريخية ، هي أن الحميرية عربية أخرى، وهي حقيقة لا يجادل على صحتها أحد ، كما أن الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية عربيات أخرى . وكل هذه العربيات ، هي عربيات فصيحة بالنسبة لأصحابها ، لأنها لغة التدوين عندهم ، حيث لم يكن لأهل جزيرة العرب ، لغة أدب واحدة ، دوّن بها جميع الجاهليين ، حتى نقول إن النصوص الخارجة عليها، أي النصوص المدوّنة بلهجات أخرى ، هي نصوص عوام وسواد ، كتبوا بلغاتهم كما يكتب العامة بلغاتهم هذا اليوم ، مع وجود العربية الفصيحة .

وأما قولهم ان هذه اللغة العربية الفصحى هي لغة قريش ، لاجماع العرب كافة على ان لغة القرآن هي لغة قريش ، وعدم ظهور أحد أنكر هذا الاجماع ، أو جادل فيه ، رغم ما كان من الشعوبية الأعجمية ومن الشعوبية الحميرية ، ومن الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائل مضر[1] ، فقول لا يستند الى حجج تأريخية جاهلية ، بل هو يصطدم مع واقع النصوص الجاهلية الواصلة الينا ، وبعضها نصوص لا تبعد عن الاسلام بكثير ، وقد كتبت كلها بلهجات تختلف عن هذه اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن ، وفي اختلافها عنها دلالة على أن الشعوب التي تثبت تلك النصوص لم تكن تكتب بعربية القرآن . وفي هذه الدلالة تفنيد لقول من قال « إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت الى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن ، وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران »[2] ، ثم اني لم أتمكن من العثور على هذا الاجماع الذي أجمع العرب كافة عليه ، والذي لم يعارضه أحد حتى من الشعوبيين والحاقدين على قريش ، وانما وجدت القرآن ، وهو خير الشاهدين يقول : « وهذا لسان عربي مبين »[3] . و « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[4] .

---

١ طه حسين : في الأدب الجاهلي (١٠٥) .

٢ العصر الجاهلي ، شوقي ضيف (١٣٤) .

٣ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .

٤ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .

« وكذلك أنزلناه حكماً عربياً »[1] . « وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربيـاً »[2] الى غير ذلك من آيات نصت نصاً صريحاً على أن لسان القرآن هو اللسان العربي ، فعينته بذلك وثبتته ، ولم أجد في القرآن آية واحدة ذكرت انه نزل بلسان قريش ولو كان قد نزل بلسانهم وكان لسانهم خير الألسنة وأفصحها ، لما سكت عن ذلك ، لما في النص عليه من أهمية ، بالنسبة الى العـــرب والى قريش المكابرين المناهضين للرسول ، ثم اني وجدت أن العلماء يذكرون أن في القرآن لغات أخرى ليست من لغة قريش ، وأن فيه ألفاظاً هي بلغة تميم ، أو بلغات أخرى مخالفة للغة قريش وأهل الحجاز ، وان لهم آراءً في الأخبار الواردة في انه نزل بلغـــة قريش ، مثل أخبار تنسب الى (عمر) تارة ، وتنسب الى (عثمان) والى غيره تارة أخرى ، وهي أخبار لا ندري مبلغ درجتها من الصحة أو الباطل ، يظهر انها وضعت تحت تأثير من العصبية السياسية التي ظهرت منذ أيام الرسول فيما بين الأنصار والمهاجرين ، ثم صارت عصبية قحطانية يمانية ، جعلت العرب عربين : فإما الى قحطان وإما الى عدنان ، وليس بينهما جد ثالث .

ثم إنه لو كان قد نزل بلسان قريش ، وكان لسان قريش أفصح ألسنة العرب وأبينها وأبلغها وأكملها ، ولذلك كان نزوله بها حجة للخصوم وإفحاماً للمشركين واحراجاً لهم واعجازاً لهم ، فلِمَ لم يذكر القرآن ذلك ، ولم يبين أنه نزل بلسان قريش أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء ، وإنه انما نزل بلسانهم ليكون حجة عليهم واعجازاً لهم في أن يأتي أبلغهم بآية مثـــل آياته ، وفي ذكر قريش اذن إفحام لكل العرب . ولكنا نجـــده على العكس يخاطب قريشاً والعرب بقوله : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله »[3] ، و « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله »[4] ، فهو يحاججهم على أن يأتوا بمثله ، وباللسان الذي نزل به ، وهو لسان عربي مبين ، لا لسان بعض منهم ، أي بلسان قريش . ولو كان لسان هذا البعض هو أكمل الألسنة وأبلغها وأعلبها وأسلسها وأنقاها كان من الضروري ذكر ذلك إفحاماً للخصوم ،

---

١ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٧ .
٢ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٧ .
٣ البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٣ .
٤ الاسراء ، الآية ٨٨ .

فعدم النص على ذلك اللسان ، هو أبلغ جواب على أنه لم ينزل بـه ، وعلى أن لسانهم المذكور لم يكن أكمل لسان عربي .

وأما العوامل التي أوجدها المحدثون في تفسير سبب سيادة لغة قريش على غيرها من اللغات عند ظهور الاسلام ، وهي: السيادة السياسية ، والسيادة الاقتصادية والسيادة الدينية ، وهي عوامل تتصل بها عادة سيادة اللغات [1] ، فهي عوامل وضعوها وضعاً وتخيلوها من غير سند أو دليل ، أقاموها على تصورات أخذوها من أقوال لأهل الأخبار، لا يركن اليها ، ولا يعتمد عليها . وقد حاولت جهدي أن أعثر في مؤلفات القائلين بها على سند واحد يثبت سيادة قريش السياسية على غيرها من القبائل عند ظهور الاسلام ، سيادة قوة وفتح ، أو سيادة نفوذ واعتبار فلم أجد فيها دليلاً واحداً يمكن أن يكون حجة لإثبات تلك السيادة . وكل ما وجدته فيها أحكاماً عامة مطلقة لم تقم على حجة ولا دليل [2] . ثم راجعت الموارد القديمة علني أجد فيها شيئاً ، يثبت هذا التفوق ، فلم أجد فيها أي شيء أيضاً يدل عليه ، بل وجدت العكس ، وجدت أن سادات مكة مثل عبد المطلب وغيره كانوا يراجعون حكام اليمن ويتقربون اليهم ، لينالوا منهم العطف والرعاية، والهبات والألطاف ، وكانوا إذا سمعوا بتبوء ملك منهم كرسي الحكم ، ركضوا اليه يهنئونه ، داعين له بالعمر الطويل ، وبالتوفيق في الحكم ، ثم وجدت فيها أن سادتها كانوا يراجعون حكام العراق وبلاد الشأم واليمن والحبشة ، ويتوددون اليهم بالهدايا ، لكسب عطفهم ، وللحصول على مساعدات منهم ، لتيسير سبل الاتجار مع الأرضين التي كانوا يحكمونها ، وأنهم كانوا يصانعون سادات القبائل ويؤالفونهم ، لضمان حق مرور تجارتهم بأرضهم بأمن وسلام ، في مقابل اتاوات تدفع لهم ، أو هدايا تحمل اليهم ، ثم رأيت ما كان من أمر (هاشم) واخوته من عقدهم الإيلاف الذي أشير اليه في القرآن [3] . ثم وجدت ان أهل الأخبار يقولون ان (قيصر) أعان قصياً على خزاعة [4] ، وأن (عثمان بن الحويرث)

---

١ في الأدب الجاهلي (١٠٦ وما بعدها) .

٢ في الأدب الجاهلي (١٠٥ وما بعدها) ، شوقي ضيف (١٣١ وما بعدها) .

٣ سورة قريش ، الرقم ١٠٦ .

٤ المعارف (٦٤٠) ، جواد علي ، المفصل (٣٩/٤) .

قد توسط لدى البيزنطيين لتنصيب نفسه ملكاً على مكة [1]. ورأيت أن أهل الجاهلية، كانوا يعيرون قريشاً بأنها لا تحسن القتال ، وانها تجاري وتساير من غلب ، وانها لا تخرج إلاّ بخفارة خفير ، وبحلف حليف ، وبحبل من هذه الحبال التي عقدتها مع سادات القبائـــل . فلما سمع (النعمان بن قبيصة بن حيّة الطائي) ابن عم (قبيصة بن إياس بن حيّة الطائي) صاحب الحيرة ، بـ (سعد بن أبي وقاص)، سأل عنه ، فقيل : « رجل من قريش ، فقال : أمـــا إذا كان قرشياً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتـــال . إنما قريش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفيراً ، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير » [2] ، فهل في هذا الكلام بعد – إن صح بالطبع – ما يشير الى نفوذ سياسي .

بل وجدت أن أهل الأخبار يذكرون أن (قصي بن كلاب) ، وهو مجمع قريش وموطد حكمها على مكة إنما بسط نفوذه عليها بمساعدة الروم لـه ؛ حيث يقولون : « وجـــاء قصي بن كلاب ، فجمع معداً – وبذلك سُمّي مجمعاً – واستعان ملكَ الروم فأعانه ، وحارب الأزدَ فغلبهم واستولى على مكة » [3] . وكان الأزد على حدّ قول هذه الرواية قد طردوا جرهم عن مكة واستولوا عليهـــا ، فجاء (قصي) وأزاحهم عنهـــا ، بمعونة (ملك الروم) ، فما كانت قريش لتزيحهم عنها لولا هـــذه المعونة ، وقوم يستعينون بالأجانب للاستيلاء على قرية فقيرة هي كل ما ملكوا هل يعقل بعد أن يكون لهم نفوذ سياسي على النحو الذي تصوروه وذكروه !

وقد وجدت انهم كانوا يصطنعون الأحابيش والقبائل ، للدفاع عن مدينتهم ، وانهم استعانوا بالقبائـــل يوم (الأحزاب) في قتالهم المسلمين . وليس في هذا الاصطناع دلالة على سيادة سياسية ، وانما هو دليل الضعف وشراء القلوب وتأليفها بالمال . فإذا كان في هذا الشراء معنى السيادة السياسية ، فهو اذن أمر آخر .

وقد رأينا انهم كانوا يصانعون الصعاليك والخلعاء ، للاستفادة منهم ، وللاستعانة بهم في حماية أنفسهم [4] ، ورأينا ان قريش الظواهر كانوا يفخرون على قريش مكة

---

١ المفصل (٤/٣٩) .
٢ الطبري (٣/٥٧٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، المفصل (٤/٣٧) .
٣ الخزانة (٢/٣٢٤) ، (هارون) .
٤ رسائل الجاحظ (٧٠) ، (السندوبي) ، جواد علي ، المفصل (٤/٦٨) .

بأنهم أصحاب قتال ، وانهم يقاتلون عنهم عن البيت[1] ، ثم رأينا أشياء أخرى من هذا القبيل ، تدل كلها على ان قريشاً كانوا ضعفاء غير محاربين ، شأن كل الحضر ، بالنسبة الى الأعراب ، وانهم عمدوا لضعفهم هذا الى رشوة سادات القبائل بالهدايا وبالمال وبإشراكهم برأسمال قوافلهم ، لتأمين مرور أموالهم وتجاراتهم بأرضهم بأمن وسلام . فهل يقال بعد كل هذا انه قد اجتمع لقريش سلطان سياسي ،صار في جملة عوامل سيادة لغة قريش في جزيرة العرب قبيل الاسلام ؟[2] ونحن نعلم ، ان من أهم مقومات السيادة السياسية،ضرورة وجود القوة العسكرية، فالقوة العسكرية ، هي التي بسطت اللغة اليونانية في العالم القديم ، وهي التي نشرت اللغة اللاتينية في أنحاء الانبراطورية الرومانية ، وهي التي أوصلت اللغة العربية في آسية الى حدود الصين ، وفي اوروبا الى الأندلس وسواحل المحيط ، وهي التي جعلت الانكليزية اليوم لغة عالمية ، فكيف نتصور اذن خضوع العرب الشماليين قبل الاسلام أو قبيله ، للغة قريش ، مع ما نعرفه من ضعف قريش في قدرتها على القتال ، ولا سيما في ذلك العالم الذي كان القتال فيه شيئاً مألوفاً ، بل هو عنده من مستلزمات الحياة ، لأنه من وسائل الرزق بالنسبة للأعراب المساكين الذين حرمتهم الطبيعة من خيراتها ، بل حتى من ضروريات الحياة ، عالم لا يحترم فيه إلا القوي الجبار .

ونحن إذا أخذنا بأثر السلطان السياسي في سيادة اللغات ، وجب علينا حينئذ البحث عن البيئات التي جمعت بين القوة والرهبة العسكرية والنفوذ السياسي ،وهي بيئات توفرت في اليمن ، وفي مملكة الحيرة ، التي بلغت حدودها في أيام (امرىء القيس) صاحب نص النمارة ، المتوفى سنة (٣٢٨ م) حدود نجران ، والتي هيمنت على اليمامة والبحرين . وملوك الحيرة،عرب ، لغتهم ولغة أتباعهم العربية . ففي مثل هؤلاء ، الذين كان لهم سلطان سياسي وسلطان عسكري ، يجب التفكير لا في أناس حضر مسالمين قليلين مثل قريش ، ونحن نعلم أن قريشاً كانوا يتوددون الى ملوك الحيرة ، والى ساداتها ، وأن شعراء جزيرة العرب كانوا يقصدونهم من مختلف أنحائها ، باستثناء العربية الجنوبية ، لإنشادهم شعرهم في مدحهم ،

---

١ جواد علي ، المفصل (٤/ ٢٨) .

٢ طه حسين ، في الأدب الجاهلي (١٠٦) .

رجاء تحقيق مطلب ، أو نيل جائزة ، كما كانت الوفود تقدم اليهم ، وتخطب أمامهم ، وكان لهم ديوان بالعربية وبالفارسية ، لكتابة الرسائل الى عمالهم على الأمصار والى سادات القبائل بالعربية ، والى الفرس بالفارسية ، كما كان الفرس يكتبون اليهم بالعربية ، كما أجمعت على ذلك الموارد العربية والموارد الفارسية التي نقل منها المؤرخون أخبار الحيرة الى العربية. وكان لهم – كما يقول أهل الأخبار – ديوان شعر فيه أشعار الفحول وما مدح به النعمان بن المنذر وأهل بيته[1]، وكانت لهم مدارس تدرس الأطفال العربية ، وكذلك كانت لأهل الأنبار ولأهل عين التمر مدارس تدرس العربية، كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب، ولما جاء (خالد بن الوليد) الى الحيرة وسأل سادتها : « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ! فقالوا له : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقالوا له : ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال : صدقتم[2] . فقال تكلم (خالد) معهم بالعربية ، وتفاهم معهم وأيدهم في أن لسانهم هو اللسان العربي الذي لا لسان لهم غيره ، كما أن لسانه هو اللسان العربي . وبهذا اللسان كان يتكلم ملوك الحيرة ويسمعون الشعر ، ويخاطبون الوفود وأتباعهم ، وبه كانوا أنفسهم ينظمون أشعارهم ، لم يجدوا صعوبة في التفاهم مع أحد ، ولم يجد أهل مكة ولا غيرهم ممن كان يأتي الحيرة، صعوبة في التخاطب والتفاهم مع أهلها ، فهل يعني هذا أن أهل الحيرة ، كانوا يتكلمون بلغة قريش وأنهم بفضل تكلمهم بهذه اللغة كانوا يتفاهمون مع الوافدين اليهم من مكة وغيرها من أنحاء جزيرة العرب ! وأنهم لو لم يكونوا يعرفون عربية قريش ، لكان أمر التفاهم معهم صعباً ! اذن فعربية أهل الحيرة ، هي عربية قريش ، أخذوها منهم بسبب نفوذهم السياسي ، وغلبة لسانهم على ألسنة العرب ! ولكن لو كان الأمر كذلك ، فلِمَ كان جواب أهل الحيرة لخالد حين سألهم : ويحكم ما أنتم ! أعرب ؟ نحن عرب عاربة وأخرى متعربة ، وليدلك على ما نقول ، إنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، ولم يقولوا له ، إنه ليس لنا لسان إلا

١ ابن جني ، الخصائص (٣٩٢/١ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣) .

٢ الطبري (٣٦١/٣) ، (حديث يوم المقر وفم فرات بادقلي) .

بالقرشية ، أو بعربية قريش أو بعربية قومك ، وأمثال ذلك من عبارات يقتضيها الموقف للتقرب من القائد المنتصر ، ولإثبات أنهم مثله ، وهو قرشي يتكلمون بعربيته القرشية المبينة ! فهل يعتزون بتكلمهم بلسان قريش ، أفصح ألسنة العرب ويتباهون به ! ولو كان ذلك اللسان لسان الأدب الرفيع عندهم لما سكتوا من تسميته بلسان قريش أبداً !

ثم خذ ما ذكره أهل الأخبار عن فتح (الأنبار) تراهم يقولون : « ولمّا اطمأن خالد بالأنبار والمسلمون ، وأمن أهل الأنبار وظهروا ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا الى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ، فقال : ممن تعلمتم الكتاب ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشدوه قول الشاعر :

قومي إياد لو انهم أمم أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم باحة العراق اذا ساروا جميعاً والخط والقلم[1]

ولو كان أهل الأنبار يكتبون بلغة قريش ، لما قال أهل الأخبار ان (خالد) وجدهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها،ولقالوا حتماً انهم كانوا يكتبون بلسان قريش. ثم ان نصهم دوماً على ان لسانهم كان عربياً ، وديوان أهل الحيرة انما كان بالعربية ، وان كتابتهم انما كانت بالعربية ، دليل في حد ذاته على ان المراد بالعربية ، العربية المطلقة ، لا المقيدة ، أعني عربية قريش .

الحق أقول : انني اذا فكرت تفكير علماء العربية المحدثين ، الذين نسبوا تفوق اللغات على اللهجات الى السيادة السياسية والسيادة الاقتصادية وأمثال ذلك من سيادات ، فإني لن أفكر في موطن أينعت فيه العربية في تلك الأيام سوى بلاد الشأم والعراق ، فقد أمدتنا بلاد الشأم بنصوص وإن كانت — كما سبق أن قلت — قد دونت بلهجة نبطية ، لكنها لم تتمكن مع ذلك من التستر على لهجة أصحابها الأصلية . ففي نص (النمارة) مثلاً الذي يعود تأريخه الى سنة (٣٢٨ م) ، عبارات مثل (ملك العرب كله) ، و (ملك الاسدين ونزرا وملوكهم) ،

---

١ الطبري (٣/٣٧٥) ، (حديث الأنبار) .

و (هرب مذحجو) ، و (مدينة شمر) ، و (ملك معدو) ، و (نزل بنيه الشعوب) ، و (فلم يبلغ ملك مبلغه) ، و (هلك سنة) ، يفهم منها بكل جلاء ووضوح ان أصحابها كانوا يتكلمون بلهجة عربية شمالية ، هي هذه اللهجة التي نسميها العربية الفصيحة ، والتي تستخدم (ال) أداة للتعريف . وفي نص (شرحيل بن ظالم) ، الذي يعود تأريخه الى سنة (٥٦٨) للميلاد الذي هو : « انا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعام » ، وهو نص لا يبعد عن ميلاد الرسول إلا بسنتين ، نرى عربية (ال) واضحة ظاهرة طاغية على هذا النص ، بحيث تشعرك ان النص وان كان كالنص السابق قد دوّن بلهجة متأثرة بالنحو النبطي ، غير ان أصحابه كانوا يتكلمون بعربية شمالية ، فهم اذن ممن كانوا يتكلمون بعربية (ال) بكل تأكيد ، بدلالة هذه النصوص . وعربية (ال) هي عربية الشعر الجاهلي .

وحيث ان صاحب نص (النمارة) هو الملك (امرؤ القيس) ، من ملوك الحيرة ، وقد كتب أصحابه شاهد قبره ، باللغة التي بينتها ، ووضعوه على قبره ، فلغة أصحابه اذن ، هي لغة (ال) ، أي العربية الفصيحة . فنحن نستطيع أن نستنبط من ذلك ، ان عرب الفرات في العراق كانوا يتكلمون بهذه اللغة في القرن الرابع للميلاد ، أي قبل أن تظهر سوق (عكاظ) ، وقبل أن يولد (النابغة) الذبياني ، حاكم هذه السوق على زعم أهل الأخبار ، وقبل أن تقوم قريش بالغربلة المزعومة للغة ، وقبل بروز قريش وولادة (قصي) بزمن طويل .

ثم إن ملوك الحيرة على الأخص ثم ملوك الغساسنة كانوا كعبة الشعر والشعراء ، اليهم كان يذهب الشعراء ، يقفون على أبوابهم ساعات وأياماً ليسمح لهم (الحاجب) بالدخول على الملك لإنشادهم أشعارهم أمامهم ، وقد كانوا قد اتخذوا — كما يقول أهل الأخبار — أياماً يسمح فيها للشعراء بالتباري في انشاد أشعارهم أمامهم ، وعرض ما عندهم من بضاعة نفيسة في الشعر ليراها الشعراء المجتمعون عنده ، ولم نسمع أن الشعراء كانوا يقصدون تجار قريش للتباري أمامهم بإنشاد الشعر ، أو أنهم كانوا قد اتخذوا موسماً يقصده الشعراء من سائر أنحاء جزيرة العرب للتباري بقول الشعر ، لا في موسم الحج ولا في غيره . إن سادة مكة تجار ، والتاجر لا يعرف إلا الكسب وجمع المال ، وما شأنه وبضاعة الشعر ! لقد كان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة قدوة لملوك بني أمية ولبني العباس في تبنيهم الشعر والشعراء ،

وفي ترويج سوقه وتنشيطه ، وإعطائه قوة وصولة ، قد يكون عن طبيعة فيهم وطبع ، وقد يكون عن سياسة وغرض ، لاتخاذ الشعراء محطات اذاعة أو صحف للترويج بسياسة ملك ، وللحط من شأن خصمه ومنافسيه ، وللرد على الشعراء المعارضين . على كل فقد كانوا يستذوقون الشعر ويميزون الجيد منه من الفاسد ، ويظهرون عيوبه أمام الشعراء، ويحسنون الى الشعراء من أجاد منهم ، ومن لم يجد، فكان هذا التشجيع في جملة العوامل المشجعة على نظم الشعر . وإذا كان لبني أمية فضل على الشعر الجاهلي بالاستماع إليه من أفواه الرواة ، وبالحث على حفظه وتدوينه . وإذا كان لبني العباس فضل على الشعر والعربية والعلوم بتشجيعهم العلماء واستدعائهم الى مجالسهم للاستماع اليهم ، فصاروا بذلك جميعاً حماة العربية ، فإن ملوك الحيرة وملوك عرب الشأم ، كانوا قد مهدوا الجادة قبلهم لمن ذكرت ، ورفعوا بعملهم المذكور من مستوى العربية ، وعملوا عملهم في صقلها وفي توحيدها، وفي تقريب الألسنة بعضها من بعض والناس على دين ملوكهم ، وأكثر شعراء الجاهلية كانوا على اتصال إما بهؤلاء الملوك ، وإما بأولئك .

وإذا أضفنا الى هذا التشجيع ، والسيادة السياسية التي كانت لملوك الحيرة على نجد والبحرين ، عامل التقدم الثقافي الذي كان لعرب الحيرة والأنبار والقرى العربية في العراق وفي بلاد الشأم على أهل البوادي ، بل وعلى أهل مكة كذلك ، الذين تعلموا خطهم من أهل الحيرة ، لزم علينا القول ان العربية المبينة التي درست في مدارس عرب العراق ، كانت قد تقدمت في العراق أكثر من أي مكان آخر في جزيرة العرب بالنسبة لأيام الجاهلية ، ولعلّ هذا التقدم هو الذي أكسب العراق شرف وضع علوم العربية ، وتفرده من بين سائر الأقطار الإسلامية ، بجمع الشعر الجاهلي وقواعد العربية وعلوم الشعر واللغة ، وإلا فلا يعقل ظهور هذه العلوم في هذه الأرضين من غير ماضٍ ولا علم سابق، ولا أسس بنى عليها المسلمون بناءهم الجديد .

وأما ان تلك السيادة السياسية ، كانت في حدود ضيقة ، في حدود القبائل القريبة من قريش ، والمواضع التي كانت لها مصالح بها ، فذلك موضوع آخر ، له ما يبرره ، فقد كان لسادات مكة مصالح اقتصادية في الطائف ، وكان لهم أملاك وبساتين ، ولهم بيوت يقضون بها صيفهم ، كما كانت لهم مصالح مشابهة مع المواضع الأخرى ومع القبائل ، لا مجال لنكرانها أبداً . ولكن ما صلة هذه

الأمور باللغة ، ومن قال من القدماء إن قريشاً فرضت لغتها على أهل تلك المواضع والقبائل فرضاً ، أو ان أدباء تلك المواضع أو تلك القبائل ، أخذوا لغة أدبهم من قريش ؟ أو ان سياسة قريش كانت ذات نفوذ واسع عميق ، تركت أثراً كبيراً في النفوس جعلت العرب من أجل ذلك يمجدون لغة أهل مكة ، ويعتبرونها اللغة العالية ، أما لغاتهم فلغات رديئة دونها في المنزلة والمكانة، مع اننا نعلم ما للعصبيات القبلية من أثر في التعصب الى اللهجات ، ثم اننا نرى ان كتب أهــل الأخبار واللغة ، تذكر ان القبائل التي كانت تجاور مكة ، كانت تتكلم بلهجاتها الخاصة بها ، وان أهل الطائف ، أي ثقيف ، كان لهم لسانهم الخاص ، وان (أهل الحجاز) ، أي قريش وغيرهم ، كانوا يتكلمون بلهجات خاصة ، سمّاها علماء اللغة لغات (حجازية) ، ولم يسموها (قرشية) ، ولو كانت تلك اللهجات، لغة قريش ، لما دعاها العلماء (لغة أهل الحجاز) ، أو (حجازية) ، وقالوا : (ما الحجازية) ، وعلى (لغة أهل الحجاز) ، ولقالوا : (.لغــة قريش) وعلى (لغة قريش) ، وهكذا، أضف الى ذلك اننا قلما نقرأ أمثلة على اختلاف لغة قريش عن بقية لغات العرب ، وانما نقرأ أمثلة على اختلاف لغة أهل الحجاز مما يدل على وجود فرق بين اللغتين ، وان لغة قريش ، لهجة من لهجات أهل الحجاز ، لا انها الأصل . وقد رأينا وجود (الغمغمة) في لغة قريش ، وقد نص علماء اللغة أنفسهم على وجودها في تلك اللغة[1] .

ثم من في استطاعته اليوم اثبات ان عرب اليمامة أو عرب نجــد ، أو عرب البوادي ، كانوا تحت تأثير لغــة قريش ، أو تحت تأثيرها السياسي ، ولذلك كانوا ينظمون شعرهم بها ، ويخطبون بها ، والنصوص التي عثر عليها في اليمامة وفي مواضع من نجد تثبت خلاف ذلك ، تثبت بالدليل القاطع ان لهجة نصوصهم لم تكن على شاكلة لغة قريش ، فكيف نصدق رأي من يرى ان أعراب باطن جزيرة العرب ، كانوا ينظمون الشعر بلسان قريش ! مع وجود هــذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها ، والتي لا يزال العلماء يعثرون عليها الى يومنا هــذا ، لا في نجد واليمامة والبحرين فقط ، وانما في أرض الحجاز نفسها ، وعلى مسافات غير بعيدة من يثرب ومن مكة ، ومن الطائف ، وهي بلهجات تختلف عن لهجة

١ « الغمغمة : الكلام الذي لا يبين ، ومنه صفة قريش فيهم غمغمة » ، تاج العروس (٦/٩) ، (غمم) .

القرآن الكريم ، وبخط يختلف عن الخط الذي دوّن الوحي به ! وليست هذه النصوص مغرقة في القدم ، حتى يعترض معترض ، فيقول اننا نقول : إن لغة قريش ، صارت لغة الشعر ، ولغة الأدب ، مع ظهور الشعر الجاهلي ، أو قبله بزمن غير بعيد ، لأن بين هذه النصوص ، نصوص لا يرتقي عهدها عن الاسلام إلا بزمن يسير !

وأما ما يقصونه علينا من نفوذ السلطان الاقتصادي الذي كان لقريش وعن أثره في سيادة لهجة قريش على لهجات العرب ، فأنا أقرأ أن مكة كانت مدينة تجار وتجارة ، وبيع وشراء ، واستيراد وتصدير ، وليس من حق أحد أن ينكر ذلك ، بعد أن نص القرآن على اتجارهم ، وعلى وجود رحلتين لهم : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف . وبعد أن زخرت كتب الأخبار والتأريخ بأخبار تجارة رجالها . ولكن هل كانت مكة ، المدينة المتاجرة الوحيدة في جزيرة العرب ؟ والجواب : كلاّ ، فقد كانت لأهل اليمن تجارة مع مختلف أنحاء جزيرة العرب، وكان سادات اليمامة والبحرين من الأثرياء الثقال في بلادهم ، وكانوا أصحاب تجارات ، وكانت اليمامة خاصة ، ريف مكة تمونها بالميرة والمنافع ، وكان ساداتها إذا غضبوا عليها قطعوا الميرة عنها ، فيصيبها من ذلك غم كبير ، وتضطر عندئذ الى مصالحتهم . فلما جاءهم ثمامة بن أثال الحنفي ، سيد أهل اليمامة ، وقالوا له: « يا ثمامة صبوت وتركت دين آبائك ، قال : لا أدري ما تقولون ، إلا أني أقسمت بربّ هذه البنية لا يصل اليكم من اليمامة شيء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمداً من آخركم . وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة ، ثم خرج فحبس عنهم ما كان يأتيهم منها من ميرتهم ومنافعهم ، فلما أضرّ بهم ، كتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحض عليها ، وان ثمامة قد قطع عنّا ميرتنا وأضرّ بنا ، فإن رأيت أن تكتب اليه أن يخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل ، فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن خل بين قومي وميرتهم »[1] . وكان تجار البحرين يحملون تجارتهم من أقمشة ومن تجارة البحر الى مكة ، كما كان ملوك الحيرة يبعثون بلطائمهم الى الأسواق ومنها سوق عكاظ ، وكان الحضر وأهل القرار في كل جزيرة العرب تجاراً ، ومنهم أهل

---

١ الاستيعاب (٢٠٦/١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

يثرب ، ويهودها ويهود وادي القرى ، ويعود سبب اشتهار مكة بالتجارة دون غيرها من قرى ومدن جزيرة العرب ، الى القرآن الكريم ، فإليه وحده يعود فضل اشتهارها بالتجارة ، لما جاء فيه من ذكر عن قساوة تجار قريش وغلظهم تجاه الفقراء ، ومن أكلهم أموال اليتامى والأرامل والبنات ، ومن تعاطيهم الربا، ومن اتجارهم برحلتي الشتاء والصيف الى غير ذلك من أمور حملت علماء التفسير والأخبار على التنقير عن أخبار تجارة مكة وعلى جمع ما حصلوا عليه في كتبهم، ولو نزل في القرآن الكريم شيء عن تجارة وتجار مواضع أخرى مسماة باسمها لخصت تلك المواضع بعنايتهم من دون شك ولا ريبة،ثم إن مدينة الرسول ، وقد اشتغل الرسول نفسه بالتجارة ، وكان والده وبقية عشيرته تجاراً ، وكانت زوجه خديجة تاجرة ، فحمل كل هذا علماء السيرة على البحث عن تجار مكة وعن تجارتها قبل الإسلام ، وعن المواضع التي تاجروا معها . فظهرت مكة من ثمّ وكأنها المدينة الوحيدة التاجرة في جزيرة العرب !

وأما ما يذكرونه عن النفوذ الديني الذي كان لقريش على العرب ، فالذي أعرفه من أمر الدين عند أهل الجاهلية ، انهم كانوا بين مشرك ، وهم الكثرة الكاثرة ، وبين يهود ، وهم قلة ، وبين نصارى ، وهم أكثر من اليهود عدداً، وبين جالية مجوسية ، قلدها في دينها نفر من العرب لا يعبأ بعددهم . أما الشرك، فقد تتبعناه في الجزء السادس من هذا الكتاب ، فوجدنا ان لكل قبيلة صنماً ، كانت تتقرب اليه وتنذر له وتستعين به في حربها وغزوها ، ولم تكن العرب تحج الى صنم واحد ، هو صنم قريش ، بل كانت تحج الى أصنامها ، ووجدنا ان (هبل) هو صنم أهل مكة وكفى . ثم رأينا ان لأهل نجران كعبة ، ولأهل يثرب محجة ، ولإياد كعبة ، ولثقيف محجة ، وللقبائل الأخرى محجات ، وللنبط محجة، ولأهل العربية الجنوبية معابدهم ، ولم نقرأ في أي نص من نصوص أهل الجاهلية انهم حجوا الى مكة ، أو ان أحداً منهم ذهب اليها لغرض من الأغراض الدينية أو أي غرض آخر ، ولم يرد اسم مكة في أي نص من هذه النصوص . ولم نسمع في أخبار أهل الأخبار ، ان قوافل من عرب العراق أو عرب بلاد الشأم أو نجد أو العروض ، كانت ترحل في موسم الحج الى مكة لغرض تأدية الحج ، أو أداء العمرة في رجب ، ولم أقف على اسم ملك من ملوك الحيرة قيل انه حج الى مكة ، ولم أقف على اسم ملك من ملوك كندة أو بقية العرب ذكر انه حج

في جاهلية الى مكة . اللهم إلا ما زعموه من حج التبابعة اليهـا ، وقد تعرضنا لطبيعة أمثال هذه الدعاوى القحطانية التي وضعتها العصبية الى اليمن في الاسلام ، وكلها أساطير وخرافات . ولو كان الحج الى مكة عاماً عند كل مشركي جزيرة العرب ، لما سكتت الأخبار عن ذكر من كان يفد الى الحج من الأماكن البعيدة ، ولظهر أثره في الشعر على الأقل .

وأما اليهود والنصارى والمجوس ، فقد كانوا على دينهم ، لا يحجون البيت ولا يتقربون اليه . فلهم عبادتهم الخاصة بهم . فلا نفوذ لقريش اذن عليهم من ناحية الدين .

نعم ، قد يقال لي : ولكن ما قولك في هـذا الاجمـاع الذي نراه في كتب التواريخ والأخبار من حـج التبابعـة الى مكة ومن تقربهم الى الكعبـة بالكسوة والألطاف ، وقد كانوا أول من كساها من العرب ؟ ثم ما قولك في هذا الشعر الذي قالوه في مدح البيت وفي التقرب اليه وفي الايمان بالله وبرسوله قبل ظهوره بل قبل مولده بمئات من السنين ؟ ثم ماذا تقول من اشادة (عـدي بن زيد) العبادي بالبيت وقسمه به في شعره ، وهو يخاطب النعمان بن المنذر، الملك الغاضب عليه[1] ؟ وماذا تقول في قول القائلين ، من الشعراء الجاهليـين الآخرين في تعظيم البيت وفي التقرب اليه ، وقسمهم به[2]؟ ومن مجيء العرب الى مكة من كل حدب وصوب للعمرة أو للحج ؟ ثم ماذا ستقول في أشياء أخرى من هذا القبيل تفنـد كلها قولك ، وتثبت وجود نفوذ قريش على القبائل وخضوع القبائل لها في أمور الدين ؟

أما حج التبابعة البيت ، فهو حج ولد في الاسلام ، أولدته العصبية القحطانية العدنانية ، التي تحدثت عنها ، وأما الكسوة ، فهي من مولدات ومخترعات هذه العصبية أيضاً . وأما الشعر الذي نسب الى التبابعة ، فهو من فصيلة الشعـر الذي روي على لسان آدم وهابيل وقابيل والجن ، وأما المحجات ، فقد بحثت عنها في الجزء السادس من هذا الكتاب[3] . وقد سبق لي أن تحدثت عن مخترعات أخرى

١ تاج العروس (٥/٥٣٤) ، (ودع) .
٢ مثل زهير ، والنابغة ، وعوف بن الاحوص ، جواد علي ، المفصل (٦/٤٣٠) .
٣ (ص ٤٤٤ وما بعدها) .

كثيرة غير هذه ، أوجدتها العصبية القحطانية العدنانية ، منها خلق أنبياء قحطانيين ، وجعل العربية الأولى ، عربية قحطانية ، وجعل العرب العدنانيين عرباً مستعربة ، الى غير ذلك من ابتكارات أوجدها القحطانيون ، بعد أن ذهب الحكم منهم ، وصاروا تبعاً لقريش في الاسلام ، فأخذوا ينبشون الماضي ويبحثون في الدفاتر العتيقة ، ويضعون ويفتعلون ، للغض من خصومهم ، ولإظهار انهم كانوا هم اللب والأصل ، وان خصومهم جاء اليهم الحكم عفواً ، من غير أصالة ولا مجد تليد ، فهم أصل كل مجد وفخار .

وقد تعرض العلماء لهذا الموضوع القائم على العصبية ، فقال (ابن فارس) : « فأما من زعم أن ولد اسماعيل — عليه السلام — يعيرون ولد قحطان أنهم ليسوا عرباً ويحتجون عليهم بأن لسانهم الحميرية ... فليس اختلاف اللغات قادحاً في الأنساب . ونحن وإن كنا نعلم أن القرآن نزل بأفصح اللغات فلسنا ننكر أن تكون لكل قوم لغة . مع أن قحطان تذكر أنهم العرب العاربة وأن مَنْ سواهم العرب المتعربة ، وأن اسماعيل — عليه السلام — بلسانهم نطق ، ومن لغتهم أخذ ، وإنما كانت لغة أبيه صلى الله عليه وسلم ، العبرية »[1] . فأنت أمام رأيين متناقضين ، يدعي أصحاب كل رأي منها أنهم هم العرب ، وأن لسانهم هو اللسان العربي الفصيح المبين ، وأن من سواهم فغتم ، وأصحاب ألسنة فاسدة رديئة .

وأما ما زعموه وحكوه عن أدوار تهذيب اللغة ، ومن انفتاق العربيــة بلسان اسماعيل الى اختتامها بالدور العكاظي ، وهو آخر أدوار التهذيب اللغوي ، فأقول انها أقوال بنيت على أخبار صنعتها العواطف والمشاعر العصبية الضيقة التي ظهرت بأجلى مظاهرها في صدر الإسلام ، عصبية قبلية قديمة كانت بين يثرب ومكة ، أو بين اليمن ومكة ، إزدادت شدة وقوة في الإسلام ، بسبب استيــلاء قريش على الحكم ، فاستغلت العواطف الدينية لتأييد هذه العصبية السياسية . بجعل قريش تاجرة جزيرة العرب ، وزعيمتها في اللغة ، وموطن الفصاحة والبلاغة ، ومجمع علماء اللغة الذين كانوا يأخذون ويعطون ويقررون كل ما هو سلس من الكلم وما هو بليغ وفصيح ، حتى جعلــوا كلام الله المنزل على رسوله بلسان عربي مبين ، لسانَ قريش ، والله تعالى يقول : « قرآناً عربياً ، ولم يقل قرشياً »[2] .

---

١ الصاحبي (٥٦) .

٢ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .

والعربية عربية العرب جميعاً من أنصار ومهاجرين ، أهل باديـة وقرى . » قال الأزهري : وجعل الله عز وجلّ ، القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبة الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقراها العربية، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً لأنـه من صريح العرب »[1] . فلسان القرآن ، لسان العرب جميعاً من مهاجرين وأنصار ، لا لسان قريش خاصة ، والنبي وان كان من قريش ، لكنه كان عربياً من صريح العرب ، ودعوتـه ، لم تكن دعوة ضيقة خاصة بقريش ، إنما كانت دعوة عامة جاءت الى كل العرب، قوم النبي ، ولهذا نزل بلسانهم وبهذا جاءت الآية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »[2] ، ثم الى الناس عامة لحديث : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحـد من الأنبياء قبـلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهـوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس عامة »[3] .

وأما ما زعموه من تخير قريش وانتقائها أفضل لغات العرب ، حتى صار لسانها أعرب الألسنة ، فزعم بني على خبر « روي عن أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، انه قال : قريشٌ هم أوسط العرب في العرب داراً ، وأحسنه جواراً ، وأعربه ألسنة »[4] ، وعلى خبر ينسب الى قتادة نصه : « كانت قريش تجتبي ، أي تختار ، أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاتها لغتها ، فنزل القرآن بها »[5] . وهو خبر لا زال يردد ويكرر يوضع بين أقواس تارة وبغـير أقواس تارة أخرى ، استشهاداً به حتى وكأنه صار آية نزلت من السماء ، مـع كون (قتادة) من الضعفاء ، وقد تحدث عن (ابن عباس) مع انه لم يلتق بـه ، ونسب له أقوالاً شاعت بين الناس ، مع انه لم يره ولم يسمع منه ، فهل يؤخذ بعد بقوله على انه حجة ، أو كأنه آية نزلت من السماء ! وهل نقبل خبره عن

---

١ اللسان (٥٨٨/١) ، (عرب) .
٢ سورة ابراهيم ، الآية ٤ ، تفسير الطبري (١٢١/١٣) ، تفسـير الالوسـي (١٦٦/١٣) .
٣ تفسير ابن كثير (٥٢٣/٢) ، (سورة ابراهيم) .
٤ اللسان (٥٨٨/١) ، (عرب) .
٥ اللسان (٥٨٨/١) ، (عرب) .

اجتباء قريش أفضل لغات العرب ، على انه حجة يستدل بها على أدوار التهذيب!

وأنت لو رجعت الى خبر : « أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم ان قريشاً أفصح العرب وأصفاهم لغة . وذلك ان الله – جل ثناؤه – اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته. فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش في أمورهم . وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم .. الخ »[١]، تجده منقولاً نقلاً حرفياً في كل موضع تعرض الى أفصح العرب ، أو العربية الفصحى ، أو اللغة التي نزل بها القرآن ، بسند أحياناً وبغير سند أحياناً أخرى، حتى ظهر وكأنه خبر متواتر ، وإجماع لم يخرج عليه عالم من العلماء ، فأخذ به المحدثون ، وقالوا قولهم المذكور ، ولكنك لو تتبعت الخبر ، وعملت رأيك في حرفية نصه في كل الموارد ، ثم وقفت على آخر مورد قديم ذكره ، ترى انه خبر آحاد ، ورواية واحدة ليس غير ، اكتسب هذا الاجماع بسبب وروده بالحرف في تلك المؤلفات ، فهو لا يفيد قطعاً ، وانما حكمه حكم الأخبار الآحاد.

ثم ان ما ذكروه من صفاء لهجة قريش ومن فصاحتها ، يعارضه قولهم بوجود (غمغمة) في لغتها . فقد قالوا : الغمغمة : « الكلام الذي لا يبين ، ومنه صفة قريش فيهم غمغمة »[٢] ، كما يعارضه قولهم بوجود التضجع في لغة قريش ، فلما تحدث (ثعلب) عن معايب اللغة ، قال : « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وتلتلة بهراء ، وكسكسة ربيعة ، وكشكشة هوازن ، وتضجع قريش ، وعجرفية ضبّة »[٣] ، مما يدل على انه قصد بـ (تضجع قريش) ، عيباً من العيوب في الفصاحة . وفي وصف لغة قريش بالتضجع مناقضة لابتداء كلامه بـ « ارتفعت قريش في الفصاحة عن .. » ، كما لا يخفى . وعلماء العربية والأخبار يناقضون أنفسهم بأنفسهم ، وهو شيء مألوف عنهم ، لأنهم كانوا يعمدون الى الرواية والاملاء عن ظهر قلب في الغالب ، لا عن كتاب مدوّن وصحف مكتوبة ، فلا غرابة إن ظهر هذا التباين في كلامه في هذا المكان .

---

١ الصاحبي (٥٢) .
٢ تاج العروس (٦/٩) ، (غمم) .
٣ المزهر (٢١١/١) .

ثم ان علماء العربية ، حين يبحثون في النحو أو في الصرف ، أو في مفردات اللغة عن الغريب والشاذ ، يذكرون فيما يذكرون لغة قريش ، ولغة أهل الحجاز ، فيقولون : « ... لغة قريش »[١] ، و « بلغة قريش » . كما يقولون: « لغة تميم » ، ولغة طيء ، ولغة يمانية ، ولغة أسد ، وغير ذلك . ولكنهم يقولون أيضاً : « يقول أهل الحجاز : قَتَرَ يَقْتِر ، ولغة فيها أخرى يقتُر بضم التاء ، وهي أقل اللغات »[٢] ، وجاء : « وفي أمالي القالي : لغة الحجاز ذأى البقل يذأى ، وأهل نجد يقولون : ذوى يذوي »[٣] الى غير ذلك ، وفي ذكرهم لغة قريش ولغة أهل الحجاز ، مع اللغات الأخرى في مثل هذه المواضع دلالة بينة على ان العربية الفصحى ليست عربية قريش ، وإنما عربية أخرى ، هي العربية التي نص عليها في القرآن ، أي العربية التي نزل بها الوحي ، وإلا كان من السخف ذكر لغة قريش ، حين الإشارة الى الغريب والشاذ ومواضع الاختلاف .

وأما استشهادهم بحديث : « أنا أفصح العرب ، بيد اني من قريش » أو « أنا أفصح العرب ، بيد اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد » ، أو « أنا أفصح من نطق بالضاد ، بيد اني من قريش »[٤] ، لإثبات أن قريشاً كانوا أفصح العرب ، بل أصل الفصاحة ، فالحديث من الأحاديث الغريبة الضعيفة ، رواه أصحاب الغريب ، كما نص على ذلك العلماء[٥] ، فهو لا يفيد حكماً علمياً لضعفه هذا ، ولا يصلح أن يكون أساساً لاستشهاد . وقد يكون من موضوعات العصبية العدنانية القحطانية، وقد يكون من الأحاديث التي رويت من باب الاشادة بقريش لكونهم قوم الرسول ، وبالإشادة بذكرهم وتعظيمهم في كل شيء وجعل لسانهم أفصح الألسنة خدمة في رأيهم للإسلام وللرسول وللقرآن الكريم . وليس هذا بشيء غريب ، فقد عهدنا أهل الأخبار يروون شعراً ونثراً على ألسنة التبابعة والأقوام الماضية بل والجن والكهان في الحث على الايمان بالرسول ، قبل ميلاد

١ تاج العروس (٩/١٧٤) ، (حزن) ، المزهر (١/٢١٥) .
٢ المزهر (١/٢١٥ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٢١٥) .
٤ المزهر (١/٢٠٩ وما بعدها) ، مجالس ثعلب (١١) ، (عبدالسلام محمد هارون) ، وورد « ميداني » ، (من أجل اني) ، أنا أفصح العرب ، تربيت في أخوالي بني سعد ، بيد أني من قريش) .
٥ المزهر (١/٢٠٩ وما بعدها) .

الرسول بزمن ، وقبل ظهور الاسلام . وهو مقبول عندهم ، ودليل ذلك تسطيره في كتبهم وروايتهم له .

ولو تجوزنا وقبلنا بالحديث ، واعتبرناه حديثاً صحيحاً ، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نفهم منه ما فهموه هم من انه عنى ان قريشاً أفصح العرب ، وانه صار أفصح العرب ، من أجل انه من قريش ، لأن معنى (بَيْد) على تفسير علماء العربية هو : (غير) و (على) ، والأول أعلى . « يقال رجل كثير المال، بيد انه بخيل . معناه غير انه بخيل »[1] ، ولو أخذنا بالتفسيرين المذكورين قلنا يجب أن يكون معنى الحديث على هذا النحو : « أنا أفصح العرب ، غير اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد » ، أو « أنا أفصح العرب ، على اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد » ، ومعناه بعبارة مبسطة أنا أفصح العرب ، وان كنت من قوم منهم ، هم قريش ، لهم لسانهم ، وقد نشأت في بني سعد . وقريش كما نعلم بعض العرب ، لا كل العرب . وليس في هذا المعنى أية دلالة على تخصيص قريش بالفصاحة ، وعلى ان لسانها أفصح الألسنة . وكل ما فيه إشادة بفصاحة الرسول وحده ، وإفادة بأنه أفصح العرب، فلا أحد أفصح وأنطق منه ، فهو حديث يفيد التخصيص لا التعميم،وهو خاص بفصاحة الرسول . وهو لذلك لا يمكن أن يكون حجة على تفضيل لسان قريش على الألسنة الأخرى، ولأجل تحويله الى حجة فسّروا لفظة (بيد) تفسيراً جعل الفصاحة للرسول ولقومه فقالوا : « ويأتي بيد بمعنى : من أجل . ذكره ابن هشام »[2] ، فصار معنى الحديث : « أنا أفصح العرب ، من أجل اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد بن بكر » . فالرسول وفق تفسيرهم هذا ، أفصح العرب من أجل انه من قريش ، ففصاحته مستمدة منهم ومن (بني سعد بن بكر) ، وصارت قريش في نظرهم أفصح العرب لساناً ، وأصفاهم لغة . مع انهم يذكرون فيما يذكرون عن كلام الرسول ، ان (عمر بن الخطاب) قال للرسول يوماً : « يا رسول الله ما لك أفصحنا ولم تخرج من ظهورنا .. »[3] ، وان رجلاً آخر سأله بقوله : « يا رسول الله ما أفصحك ! فما رأينا الذي هو أعرب منك .

---

١ تاج العروس (٢/٣٠٨) ، (باد) .
٢ تاج العروس (٢/٣٠٨) ، (باد) .
٣ المزهر (١/٢٠٩) .

قال : حق لي ، فإنما أنزل القرآن عليّ بلسان عربي مبين . وقال الخطابي : اعلم ان الله لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه ، ونصبه منصب البيان لدينه ، اختار له من اللغات أعربها ، ومن الألسن أفصحها وأبينها ، ثم أمده بجوامع الكلم . قال : ومن فصاحته أنه تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدم كلامها ، كقوله : مات حتف أنفه ، وحمي الوطيس ... الخ »[1] . وفي حديث (عمر) إن صح : « ولم تخرج من بين أظهرنا »[2] صراحة بتعجب عمر من هذه الفصاحة التي كانت للرسول مع أنه لم يخرج من بين أظهرهم ، أي من مكة ، ولو كان لسان قريش أفصح الألسنة لما قال عمر للرسول قوله المذكور ، الذي يدل على أن الفصاحة في خارج قريش ، وعند الأعراب . وفي جواب الرسول على الرجل من قوله : « حقّ لي ، فإنما أنزل القرآن عليّ بلسان عربي مبين »[3] ، — إن صح هذا الحديث — تفنيداً لقول القائلين بنزوله بلغة قريش ، ولو كان قد نزل بلغتهم لقال : « بلسان قرشي مبين » ولم يقل أحد من العلماء إن اللسان العربي ، هو لسان قريش ، بل نجدهم يقولون دائماً : لسان قريش ، ولغة قريش ، ونزل بلسان قريش ، ويذكرون هذا اللسان مع الألسنة الأخرى ، مثل لسان تميم ، وهذيل ، وبني سعد بن بكر .

وأما ما قالوه من أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول ، لم تجد صعوبة في التفاهم معه ،وان الرسول حين أرسل معاذ بن جبل الى اليمن ليعظهم ويعلمهم ما وجد صعوبة في التفاهم معهم ، وأنهم لو لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى ، لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً ، « وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الاسلام »[4] ، فيعارضه ما ذكروه من أنه « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين ان أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من

---

١ المزهر (٢٠٩/١) .

٢ المزهر (٣٥/١) .

٣ المزهر (٣٥/١) .

٤ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٢٢ وما بعدها) .

وفود العرب الذين لا يوجه اليهم الخطاب ، كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة، حتى قال له علي بن أبي طالب ، كرّم الله وجهه ، وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ! فكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوضح لهم ما يسألونه عنه عما يجهلون معناه من تلك الكلمات ، ولكنهم كانوا يرون هذا الاختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا اليه »[1] . وفي هذا الخبر – إن صح – دلالة على الضد ، دلالة على ان العرب كانت على سجيتها ولسانها في كلامها ، وانها لم تكن تنطق بلسان قريش بل بألسنتها ، وإلا لما تعجب عليّ وغيره من كيفية تفاهم الرسول مع القبائل وعدم تمكنهم هم من فهم كلامهم ، مع انه واياهم من أب واحد ، أي من قريش . ثم من أكد لنا ان معاذ بن جبل ، وهو من الأنصار لم يجد صعوبة في تفاهمه مع أهل اليمن ، وان وفود اليمن لم تجد صعوبة في تفاهمها مع الرسول ، ومن أين جاء هذا التأكيد ؟ والذي نعلمه ان الموارد لم تتحدث عن ذلك ، بل الذي رأيناه هو العكس ، وهو ما ذكرته في خبر عليّ مع النبي. أما لو أخذنا بما نجده في الموارد من كلام الوفود مع الرسول وجواب الرسول على كلامهم ، وكله بهذه العربية المبينة ، فقد قلت مراراً إن الصحابة في ذلك الوقت لم يكونوا يدونون محاضر جلسات الرسول مع الوفود ، ولا كلام الوفود مع الرسول ، بل ولا كلام الرسول وحده ، أي حديثه ، وان ما نقرأه من نصوص لا يمثل الأصل ، وربما مثل المعنى ، وقد يكون لا هذا ولا ذاك ، وانما روايات موضوعة ، قد يحتمل أن يكون مع الوفود أناس يحسنون التكلم بالعربية المبينة ، وان بين أصحاب النبي من كان من العربية الجنوبية ومن القبائل التي كانت تتكلم بلهجات متباينة ، فكانوا يقومون له بدور التفاهم والتقريب بين كلام الرسول وكلام الوفود .

وأما ما زعموه من دور (عكاظ) في تهذيب اللغة ، وأثر قريش فيه ، فلئن كان لعكاظ أثر في تباري العرب في النثر وفي الشعر ، فإنك لا تستطيع إرجاع هذا الأثر الى عمل وفعل جماعة معينة ، وليس في الذي تحدث به الرواة من أخبار عن (عكاظ) ما يحصر فعل هذا التهذيب بقريش ، وما قريش إلا كغيرهم من

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٣٣٥/١) ، (رواية اللغة) .

قصاد هذا المكان من حيث المجيء للبيع والشراء والإتجار . لم تكن الحكومة لهم بعكاظ ، وإنما كانت لتميم ، وتميم من أشهر الناس في فنون الخطابة والكلام . ودليل ذلك ، ما يورده أهل الأخبار عن خطبائهم وحكمائهم من كلام ، وما ينسبونه اليهم من حكم وخطب بليغة ، ثم إن هذه السوق لم تظهر إلا في أيام الرسول وقبل خمس عشرة سنة من الإسلام . وقيل إنها اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، وتركت عام خرجت الحرورية بمكة مع (المختار بن عوف) سنة تسع وعشرين ومائة[1] . وقد ذكر أهل الأخبار أن (عكاظ) سوق «كانت تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون» ، وأنهم كانوا «يقيمون شهراً يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون شعراً ، فلما جاء الاسلام هدم ذلك»[2] ، وذكروا ان الشاعر النابغة الذبياني كان يأتيها فينشد الناس من شعره ، «وكان النابغة تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى أبو بصير ، ثم أنشده حسان بن ثابت ، ثم الشعراء ، ثم جاءت الخنساء السلمية[2] فأنشدته»[3] ، وذكروا أن في شعر (أمية بن خلف) الخزاعي ، اشارة الى مكانة هذه السوق عند الشعراء ، حيث يقول :

ألا من مبلغ حسان عني   مغلغلة تدب الى عكاظ

فأجابه (حسان) في أبيات تشير أيضاً الى هذه الأهمية ، وذلك بقوله :

أتاني عن أمية زور قول   وما هو في المغيب بذي حفاظ
سأنشر ان بقيت لكم كلاماً   ينشر في المجنة مع عكاظ
قوافي كالسلاح إذا استمرت   من الصم المعجرفة الغلاظ[4]

فلم يشر حسان الى أثر قريش في هذه السوق ، ولم يشر أمية الى قريش كذلك ، والذي يفهم من الشعرين أن ذكر عكاظ فيهما ، هو بسبب تجمع الناس في هذه

---

١ الخزانة (٢/٥٠٣ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) ، اللسان (٧/٤٤٨) ، (عكظ) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٦١) ، (خنساء بنت عمرو) .
٤ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) .

السوق ، فما يقال فيها ويصرخ على رؤوس الأشهاد ينتشر في كل مكان ، ويأخذ صداه بين الحاضرين ، ثم يذهب الى الغائبين ، ولهذا كانت أيضاً الموضع الذي يعلن فيه الناس خلع من يريدون خلعه للتبرؤ من جرائره ، شأنها في ذلك شأن (سوق مجنة) ، وهي أيضاً من أسواق الجاهلية وكانت على أميال من مكة[1] ، وأنت ترى ان (حسان) قد ذكر أنه سينشر شعره فيها وفي عكاظ . مما يدل على أنها كانت ذات أهمية أيضاً من حيث النشر والاعلان ، وأنها مثل عكاظ ، ومثل أي سوق أخرى كبيرة من حيث تجمع الناس فيها والاعلان عمّا يقع لهم من أحداث .

وأما ما ذكروه من انشاد حسان للنابغة شعره :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ومن رد النابغة عليه بقوله : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفناتك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك . فحكاية شك فيها العلماء ، وإن كان هذا الشاهد من شواهد سيبويه . لأن الاعتراض لا يدور على الشاهد ، وانما على القصة . وقد ذهب بعض العلماء الى انهـا خبر مجهول لا أصل له . وهناك قوم أنكروا هذا البيت أصلاً ، ومنهم من روى ملاحظة النابغة المزعومة بشكل آخر[2] ، وفي الشكلين ما يوحي الى ان القصة مفتعلة ، وضعها الرواة لإيجاد مخرج للبيت .

ولم أجد في المراجع المعتبرة القديمة نصاً ، يفيد ان الأمر كان لقريش في الحكم بين الشعراء أو الخطباء في سوق عكاظ . والنابغة الذي جعلوه حكماً يحكم في أمر الشعر لم يكن من قريش ، بل هو من (بني ذبيان) ، وهو الحكم الوحيد الذي نص أهل الأخبار على اسمه . وزعموا انه كانت له قبة حمراء من أدم ، وكان ينشد شعره ، واليه تتحاكم الشعراء في أيهم أشعر ، وكل الشعراء الذين ذكروهم هم : الأعشى ، والخنساء ، وحسان في قصة منمقة طريفة[3] . ولم أعثر حتى الآن على اسم حاكم آخر ، آلت اليه حكومة الشعر في عكاظ ، لا من قريش ولا من غير قريش . فأين اذن موقع قريش في هذه السوق من الإعراب .

---

١ تاج العروس (٩/١٦٤) ، (جنن) .
٢ خزانة (٣/٤٣٠ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٨٩) .

وأما ما زعمه بعض أهل الأخبار من ان العرب في الجاهلية كان يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فلا يُعبأ به حتى يأتي مكة فيعرضه على قريش ، فإن استحسنوه روي وكان فخراً لقائله ، وإن لم يستحسنوه طُرح وذهب فيما ذهب ، وما روي عن (أبي عمرو بن العلاء) من قوله : كانت العرب تجتمع في كل عام بمكة ، وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش »[1] . فروايات من نوع الروايات التي لا تتمكن من الوقوف على أرجلها ، ولم نجد في كتب التأريخ والأخبار ما يؤيدها ،وضعت لتبرير القصص التي نسجوه عن أسطورة تعليق المعلّقات . ثم إننا لم نسمع بخبر الشعر الذي استحسنوه وأجازوه ، غير شعر المعلقات ، ولو كان ما نسب الى (أبي عمرو بن العلاء) أو غيره حقاً ، من استحسان شعر وطرح شعر ، لما سكت رواة الشعر من الإشارة الى الشعر الذي استحسنه أهل مكة فنال بذلك شرف الاختيار والسيادة والرفعة ، ولما غضوا النظر غضاً تاماً عن الاشارة الى الشعر الذي لم يستحسنوه فسقط وذل ، وفي ذكر الشعر الفاشل أهمية كبيرة في نظر الشعراء الخصوم ، وفي نظر القبائل التي كانت تبحث وتتجسس على الهفوات والسقطات لاتخاذها مغمزاً تنال بها القبائل بعضها بعضاً ! ثم كيف سكتت قريش عن هذا الشرف الذي كان لها قبل الاسلام ، وقد رووا أنها نظرت فإذا حظها في الشعر أيام الجاهلية قليل ، فاستكثرت منه في الاسلام ، وأنها أضافت كثيراً الى شعر (حسان) للإساءة اليه ، ولو كان هذا الشرف المزعوم ، لما سكتوا عنه ، ولما سكت من تبسط في تأريخ مكة ، أو كتب في السيرة عن الاشارة اليه ، لما فيه من أهمية كبيرة بالنسبة للتأريخ، ثم اننا لا نجد في القرآن الكريم شيئاً يشير الى ذلك ، مع تعرضه للشعراء ، كما لا نجد في كتب الحديث أي شيء يدل على وجوده ، مع أنها تعرضت للشعر ، ولسماع الرسول له ، وقد ذكرت أنه كان يسأل الصحابة أن ينشدوا شعر الشعراء له ، الى غير ذلك مما هو مدوّن في بطون هذه الكتب .

وأما ما زعموه من ان العرب كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي ، فأنشدهم قصيدته : هل ما علمت وما استودعت مكتوم ، فقالوا :

---

[1] الرافعي ، تأريخ آداب اللغة (١٨٦/١) .

هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل ، فأنشدهم قصيدته : طحا قلب في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سمطا الدهر »[1] . فخبر آحاد ، وان تواتر في الكتب ، لم يروه (ابن سلام) ولا (ابن قتيبة) ، وهو من نوع خبر تعليق المعلقات من الموضوعات التي أولدها أهل الأخبار .

وفي الجدل الذي وقع بين علماء النحو وغيرهم في جواز أو عدم جواز الاحتجاج بالشعر على غريب القرآن ومشكله ، دلالة بينة على اجماع الطرفين على ان كتاب الله انما نزل بلسان عربي مبين ، ولم ينزل بلسان قريش ، الذي هو حرف من اللسان العربي . فقد قال المنكرون للاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر ، إن معنى ذلك جعل الشعر أصلاً للقرآن،مع ان الشعر مذموم في القرآن والحديث ، فردّ عليهم القائلون به بقولهم : « ليس الأمر كما تزعمون من انا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن ، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى قال : إنا جعلناه قرآناً عربياً[2] ، وقال : بلسان عربي مبين[3] .

وقال ابن عباس : «الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه[4] » .

ولو كان القرآن قد نزل بلسان قريش ، لما احتاج الناس الى الشعر للاستشهاد به على فهم المشكل والغريب ، وكان عليهم الرجوع الى شعر قريش ونثرهم للاستشهاد به في توضيح ما فيه من مشكل وغريب ، لا الى شعر العرب وكلامهم من غير قريش ، ثم إن في قولهم بوجود مشكل وغريب فيه ، وحروف خفي أمر فهمها على العلماء ، هو دليل في حد ذاته على انه لم ينزل بلسان قريش ، وانما بلسان عربي مبين ، فلو كان قد نزل بلسانهم لما خفي أمره على رجالهم ، من مثل أبي بكر وعمر وغيرهما من رجال قريش .

ونجد في المسائل المنسوبة الى (نافع بن الأزرق) ، التي سألها على ما يذكر الرواة (ابن عباس) في تفسير القرآن بالشعر ، دلالة على أنه كان يرى أن

---

١ الاغاني (١١٢/٢١) .
٢ الزخرف ، الاية ٢ .
٣ النحل ، الاية ١٠٣ .
٤ السيوطي ، الاتقان (٥٥/٢) .

القرآن إنما نزل بلسان عربي ، لا بلسان قريش،فقد روي ان (نافع بن الأزرق) قال لـ (نجدة بن عويمر) : « قم بنا الى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما اليه فقالا : إنّا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فقال : ابن عباس : سَلاني عما بدا لكما ، فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : عن اليمين وعن الشمال عزين[1] ، قال : العزون : الحلق الرقاق ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون اليه حتّى   يكونوا حول منبره عزينا »[2]

وهي أسئلة مهمة اقترن جواب كل سؤال منها بشعر ، من شعر شعراء الجاهلية والمخضرمين مثل : (عبيد بن الأبرص) ، و (عنترة) ، و (أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب) ، و(لبيد) ، و (طرفة بن العبد) ، و (مالك ابن عوف) ، و (عبدالله بن الزبعرى) ، و (حسان بن ثابت) ، و (عدي ابن زيد) العبادي ، و (أمية بن أبي الصلت) ، و (أبو ذؤيب) ، و (أبو محجن الثقفي) ، و (امرؤ القيس) ، و (الأعشى) ،و(النابغة) ، و (حمزة بن عبد المطلب) ، و (زيد بن عمرو) ، و (عبدالله بن رواحة) ، و (زهير بن أبي سلمى) ،و (عمرو بن كلثوم) ، و (عبيد بن الأبرص) ، و (كعب بن مالك) ، و (أحيحة الأنصاري) ، و (بشر بن أبي خازم) ، و (مالك بن كنانة) ، و (أبو طالب) و (مهلهل) ، و (الحطيئة) ، و (أوس بن حجر) ، وشعر آخر لشعراء لم يشر الى أسمائهم ، وإنما كان يقول : « أما سمعت قول الشاعر » ، وقد أمكن تشخيص بعضه ، ولم يهتد الى قائل البعض الآخر ، كما استشهد بشعر نسبه الى التبابعة[3] . وهي أجوبة مهمة ، ان صح بالطبع انها صحيحة ، وأنها من أسئلة (نافع) وأجوبة (ابن عباس) ، تفيد في تشخيص ذلك الشعر : وفي تثبيته ، وإن كان من الصعب علينا التصديق

---

١ المعارج ، الاية ٣٧ .
٢ السيوطي ، الاتقان (٢/٥٥ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٢/٥٦ ـ ٩٠) .

بصحة هذه الأسئلة والأجوبة ، التي أرى أنها وضعت في أيام العباسيين ، ويمكن بالطبع التوصل الى تثبيت زمان وضعها ، بالبحث عن أقدم مورد وردت إشارة فيه اليها ، فحينئذ يمكن تعين الزمان الذي وضعت فيه بوجه تقريبي .

وفي تفسير الغريب والمشكل من القرآن بالشعر ، وقول علماء التفسير إن اللفظة من ألفاظ قبائل أخرى غير قرشية ، وفي استفهام رجال قريش ، وفي جملتهم رجال كانوا من أقرب الناس الى الرسول ، مثل (أبي بكر) و (عمر) عن ألفاظ وردت في القرآن لم يعرفوا معناها ، مثل (أبّاً)[1] ، وفي رجوع (ابن عباس) الى الأعراب ، يسألهم عن ألفاظ وردت في القرآن أشكل عليه فهم معناها ، وفي اعتماده في تفسيره للقرآن على الشعر ، أقول في كل هذا وأمثاله دلالة واضحة على ان القرآن لم ينزل بلسان قريش ، وانما نزل بلسان العرب ، ولو كان قد نزل بلغة قريش ، كان استشهاد العلماء بالشعر وبلغات العرب في تفسير القرآن شيئاً عبثاً زائداً،وكان عليهم تفسيره وتبيين معناه وتوضيحه بالاستشهاد بلغة قريش وحدها ، لا بالشعر الجاهلي الذي هو شعر العرب ، وبكلام العرب .

ولو رجعنا الى كتب التفسير والسير ، نجد انها قد فسرت الغامض من ألفاظ القرآن بالشعر . فقد استعان قدماء المفسرين في تفسير لفظة (سجى) بالشعر ، فأورد (الطبري) مثلاً بيتاً من شعر (أعشى بني ثعلبة) في تفسير معناها ، هو قوله :

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم   وبحرك ساج ما يوارى الدعامصا

وبقول أحد الرجاز :

يا حبذا القمراء والليل الساج   وطرق مثل ملاء النساج[2]

واستعان (ابن هشام) ببيت شعر لأمية بن الصلت ، في تفسيرها ، وهو قوله :

إذ أتى موهنا وقد نام صحبي   وسجا الليل بالظلام البهيم[3]

١ « وفاكهة وأبا » سورة عبس ، الاية ٣١ ، الاتقان (٢/٤) .
٢ تفسير الطبري (٣٠/١٤٥) .
٣ سيرة (١/١٦١) ، (حاشية على الروض) .

وفسّر (الطبري) (عائلا) بقول الشاعر :

فما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل[1]

ونجد في تفسير الطبري ، وفي كتب التفسير الأخرى أمثلة لا تعد ولا تحصى من هذا القبيل، فسر فيها العلماء غريب ألفاظ القرآن وما صعب فهمه من الألفاظ بالشعر ، حتى لا تكاد تقرأ صفحة أو جملة صفحات من كتب التفسير ، إلا وتجد فيها شعراً ، استشهد به في تفسير كلمة أشكل فهمها على العلماء ، فاستعانوا بالشعر لتوضيح معناها[2] .

ولم يقف الاستشهاد بالشعر الجاهلي على الناحية المذكورة وحدها ، بل استعين به في تفسير وتعليل أمور أخرى وردت في القرآن أشكل فهمها على العلماء ، من ذلك أوجه العربية وقواعد النحو ، فلما استقرى علماء العربية الشعر الجاهلي ولغات العرب ، واستنبطوا منها القواعد ، وجدوا ان بعضها لا يتماشى مع ما جاء في كتاب الله ، فعمدوا الى التأويل والبحث عن مخرج يوجهون ما جاء فيه وفق قواعد النحو التي قرروها ، ولا سيما المواضع التي اختلف علماء النحو فيها ، وجاءوا فيها بآراء مختلفة ، في التوفيق بين القراءات في القرآن مثلاً ، أو في الأمور المعضلة منه بالشعر ، فقد اختلف قراء مكة ، وقراء البصرة ، والكوفة والشأم في الآية : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة . فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة »[3] . وأورد (الطبري) آراء علماء اللغة والنحو ، ثم استشهد بقول طرفة بن العبد :

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي[4]

وأورد (الطبري) بيتين من الشعر للنابغة في تأويل الآية : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف ترضى » ، اختلف

---

١ تفسير الطبري (١٤٩/٣٠) .

٢ أورد « الطبري » آراء المفسرين المختلفة في تفسير لفظة : « عضين » ، وللتوكيد على المعنى جاء بالشعر في تفسيرها ، راجع تفسيره (٤٥/١٤) ، (بولاق) .

٣ سورة البلد ، رقم ٩٠ ، الاية ١١ وما بعدها .

٤ تفسير الطبري (١٣٠/٣٠) ، بولاق .

في تأويلها علماء النحو[1] . وأورد بيتاً شاهداً على جواز وضع (افعل) في موضع (فعيل) الوارد في تفسير كلمة واردة في سورة « والليل اذا يغشى »[2] . وهناك مواضع كثيرة اختلف علماء النحو في تأويلها بالنسبة لمذاهبهم في أوجه النحو ، فاستشهد كل عالم منهم بشاهد من الشعر ، لتأييد رأيه في صحة ما ذهب اليه على زعمه ، وقلما استشهد المفسرون والعلماء بشعر من شعراء قريش ، أو بكلام من كلامهم ، في تفسير القرآن ، فلو كان كتاب الله قد نزل بلغتهم لكان من اللازم ، ايجاد مخارجه بالاستشهاد بلغة قريش ، لا بالشعر الجاهلي وبكلام القبائل الأخرى .

وأنا لا ابتعد عن الصواب ، إذا ما قلت إن القرآن قد ساعد في جمع الشعر الجاهلي وفي حفظه ، بسبب اضطرار العلماء على الاستعانة به ، في دراسة كتاب الله وفهمه ، وفي تثبيت قواعد اللغة التي وضعت لتحصين العربية ، وجعلها في متناول يد مَن لا علم له بها ، يستعين بها على النطق بها ، وفقاً لمنطق العرب،وربما حمل ذلك البعض على انتحال الشعر للاستشهاد به في ايجاد مخرج في تأويل آية أو تفسير كلمة وردت في كتاب الله .

إذن فقول من يقول ان لغة القرآن هي لغة قريش ، وإن لغة قريش هي العربية الفصحى ، وانها لغة الأدب عند الجاهليين ، قول بعيد عن الصواب ، ولا يمكن أن يأخذ به من له أي إلمام بتأريخ الجاهلية ووقوف على نصوص الجاهليين ، أخذ من روايات آحاد ، وجدت لها انتشاراً في الكتب القديمة بنقلها بعضها عن بعض من غير نص على اسم السند والمرجع ، فصارت وكأنها أخبار متواترة صحيحة أضاف المحدثون عليها عامل النفوذ السياسي والاقتصادي،والديني ، لإكساء الفكرة القديمة ثوباً جديداً يناسب العصر الحديث ، لتأخذ شكلاً مقبولاً. أما لو سألتني عن لغة القرآن الكريم ، فأقول إن القرآن قد ضبطها وعينها ، إذ سمّاها (لساناً عربياً) ، واللسان العربي ، هو لسان كل العرب ، لا لسان بعض منهم ، أو لسان خاصة منهم ، هم قريش ، ولو كان هذا اللسان ، هو لسان قريش لنزل النص عليه في كتاب الله .

---

١ والليل ، الرقم ٩٢ ، الاية (١٩ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣٠/١٤٦) ، (بولاق) .

٢ تفسير الطبري (٣٠/١٤٥) .

إن قريشاً قوم من مضر في رأي علماء الأنساب ، فلسانهم على هذا لسان من ألسنة مضر . وقد ورد « عن ابن مسعود : أنه كان يُستحب أن يكــون الذين يكتبون المصاحف من مضر »[1] ، وورد عن (الأصمعي) قــوله : « جرم : فصحاء العرب . قيل : وكيف وهم اليمن ؟ فقال : لجوارهم مضر »[2] . فإذا كانت الفصاحة والعربية في مضر،فحري إذن نزول القرآن بلغة مضر ، لا بلسان قريش .

لقد تمسك علماء اللغة بقول بعضهم : « أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهــم أن قريشاً أفصحُ العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك ان الله تعالى اختارهم من جميــع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قُطّان حرمه ، وولاة بيتـه ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج،ويتحاكمون الى قريش ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب »[3] . كما تمسكوا بقولهم : « كانت قريشٌ أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس ، والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخــذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخــذ من غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ من حضري قط ، ولا عن سكـان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخــذ لا من لخم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة ، وغسان ، وإياد ، لمجاورتهم أهل الشأم ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكــر

---

١ المزهر (١/٢١١) .
٢ الفائق (٢/٤٥٩) .
٣ المزهر (١/٢١٠) .

لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب »[1] . وعلــة ذلك « ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطـل ، ولو علم ان أهــل المدينة باقون على فصاحتهم ، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخـذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر ، وكذا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغــة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاص عادة الفصاحـة وانتشارها ، لوجب رفض لغتها ، ترك تلقّي ما يرد عنها »[2] .

« وقد شك بعضهم في هذا القول ، لأن قريشاً كانت تسكن مكة وما حولها وهم من أهل المدر ، وقريش تجار ، والتجارة تفسد اللغة ، وكان هذا مما عيب على اليمن من ناحية لغتهم ، لأن رسول الله نشأ في بني سعد بن بكر بن هوازن واسترضع فيهم ، فتعلم الفصاحة منهم ، وأن كثيراً من غلمان قريش في عهــد محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يُرسل الى بني سعد لتعلم اللغة والفصاحة ، ومن أجل هذا ظنوا أن هذا الرأي موضوع لإعلاء شأن قريش في اللغة ، لأن رسول الله منهم .

والذي يظهر لي أن سلامة اللغة من دخول الدخيل فيهـا أمر غير الفصاحة ، وأن سلامة اللغة كانت في بني سعد خيراً مما هي في قريش لأنهم أهــل وبر ، وأبعد عن التجارة وعن الاختلاط بالناس ، وعــلى العكس من ذلك قريش فهم أهل مدر ، وكثير منهم كان يرحل الى الشأم ومصر وغيرهما ويتاجر مع أهلها ، ويسمع لغتهم ، فهم من ناحية سلامة اللغة ينطبق عليهم ما انطبق على غيرهم ممن خالط الأمم الأخرى »[3] .

---

١ المزهر (٢١١/١ وما بعدها ، ٣٤٣) .
٢ الخصائص (٤٠٥/١) .
٣ ضحى الاسلام (٢٤٧/٢) .

فما قالوه من ان الاتصال والاختلاط بالأعاجم ، يولد الفساد في اللغة ، يتناول قريشاً قبل غيرهم من العرب نظراً لما كان لهم في الجاهلية من اتصال ببلاد الشأم واليمن ، وبالعراق وبالحبشة ، ولوجود جاليات أعجمية ، وعدد كبير من الرقيق بينهم ، وما وجود المعربات في لغتهم إلا حجة على تأثر لسانهم بالأعاجم وأخذهم منهم ، فهل يمكن أن يكون لسان قريش اذن أصفى ألسنة العرب وأنقاها مع وجود هذه الأمور التي أخذناها من ألسنة أهل الأخبار ؟

الفصل الاربعون بعد المئة

اللسان العربي

والآن فلسان من ، هو هذا اللسان العربي ، لقد علمنا انه لم يكن لسان العرب الجنوبيين ، ولا لسان قوم ثمود أو اللحيانيين،أو الصفويين ، لأن نصوصهم تثبت انه قد كان لهم لسان آخر ، يختلف عن هذا اللسان . وذكرنا انه ليس بلسان قريش ، وانما قريش كغيرهم عرب من العرب ، فهل هو لسان العدنانيين؟ وجوابنا : كلا ، فقد علمنا ان العدنانية عصبية ظهرت في الاسلام، وانها مضرية سميت عدنانية ، وقلنا ان الثقات من الرواة وقفوا في ذكر النسب عند (عدنان) ورووا ان النبي نهى عن الانتساب الى ما بعده ، وقلنا ان اسمه لم يرد في شعر شاعر جاهلي ، خلا ما نسب الى الشاعر (العباس بن مرداس) ، من قوله :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا بمذحج حتى طردوا كل مطرد[1]

وما نسب الى لبيد ، وهو من المخضرمين ، من قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان والدا [2]

وقلنا أشياء أخرى تثبت ان (العدنانية) لم تظهر إلا في الإسلام ، وان اسم

---

١ وفي رواية بغسان ، مكان « بمذحج » ، ابن هشام (١/٦) ، ابن سلام ، طبقات (٥)
٢ طبقات ابن سلام (٥) .

(عدنان) لم يكن معروفاً في الجاهلية ، وربما ظهر قبيل الاسلام ، ولهـذا فلا يعقل أن تكون العربية ، عربية العدنانيين .

إذن ، فهل هي عربية مضر ؟ فقد ورد في الأخبار أن (عمر بن الخطاب)، « لما أراد أن يكتب الامام ، أقعد له نفراً من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر ، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر »[1] ، ونجد أهل الأخبار يذكرون أنه قال : « لا يملينّ في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش ، أو غلمان ثقيف »[2] . وليس بين الخبرين تناقض ، لأن قريشاً من مضر ، فيمكن حمل الخبرين على أنهما قصدا شيئاً واحداً ، هـو أن القرآن نزل بلسان قريش ، وقريش من مضر ، ولكن مضر قبائل عديدة ، سبق أن تحدثت عنهـا في الجزء الأول من هذا الكتاب ، فيجب أن يكون نزول القرآن إذن بلغات هذه القبائـل على هذا التفسير ،وتكون العربية الفصحى اذن عربية (مضر) ، أي عربية القبائل التي يرجع أهل الأخبار نسبها الى (مضر) ، أو حلف مضر بتعبير علمي أصح، وليست عربية جماعة معينة منها ، مثل قريش .

ولكن أهل الأنساب ، يجعلون لمضر أخاً هو (ربيعة) ، وأخوين آخرين ، هما (إياد) و (أنمار) على رأي من جعل (أنماراً) ابناً من أبنـاء نزار ، فما هو حال لسانهم ؟ هل يعدّ لسانهم لسان مضر ، أم كانت لهم ألسنة أخرى؟ أما النصوص الجاهلية ، فلا جواب فيها على هذا السؤال ، لأنها لا تعرف عن لسان هؤلاء الأخوة شيئاً ، ولم يرد فيها أي شيء من أسمائهم وأسماء قبـائلهم ، ثم ان هذه القبائل لم تترك لنا كتابة نستنبط منها شيئاً عنهم ، اذن فنحن لا نستطيع أن نتحدث عنهم ولا عن لسانهم بأي شيء يستند الى دليل جاهلي مكتوب . وأما الموارد الاسلامية ، فتجعل لسانهم لسان مضر ، وكيف لا تجعل لسانهم مثل لسان مضر ، وهم اخوة من أب واحد . فإذا قلنا إن لسان مضر ، هو اللسان العربـي الفصيح ، وجب علينـا القول بأن لسان إخوته كان مثل لسانه ، وإذن فاللسان العربـي الفصيح ، هو لسان هذه المجموعة المكونة من ولد (نزار) وهي من ولد اسماعيل في النهاية على رأي أهل النسب والأخبار .

---

١ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) .

٢ ابن كثير ، فضائل (٢٠) ، المزهر (١/ ٢١١) .

اذن فنحن أمام مجموعتين من العربيات ، مجموعة تكوّن العربية الجنوبية ، ومجموعة تكوّن العربية الشمالية ، وهي عربية الاسماعيليين ، وذلك على مذهب أهل الأخبار .

أما أنا ، فأسمي هذه العربية ، عربية (ال) ، من سمة (ال) أداة التعريف التي تنفرد وتتميز بها عن بقية المجموعات اللغوية العربية : مجموعة (ن) (ان) ، أي المجموعة العربية الجنوبية ، ومجموعة (ه) (ها) ، أي المجموعة التي تعرّف الأشياء بهذه الأداة : (ه) (ها) ، وتشمل اللحيانية ، والثمودية ، والصفوية . فكل منا استعمل (ال) أداة للتعريف ، هو في نظري من الناطقين بهذه اللغة مهما كان نسبه وفي أي مكان كانت اقامته ، ولذلك فالعربية الفصحى هي عربية مضر وعربية ربيعة ، وعربية إياد وعربية أنمار وعربية كلب وكندة والأزد وكل المستعملين لهذه الأداة ، حتى يظهر المستقبل نصوصاً جديدة، قد تأتي بأداة أخرى لتكوّن مجموعة جديدة من المجموعات اللغوية .

نعم إن عربية (ال) لهجات ، لها خصائص ومميزات ، تحدثت عن بعضها في فصل (لغات العرب) ، ولكن الفروق بينها لا تختلف عن الفروق التي نجدها بين لهجات مجموعة (ن) ، أو بين لهجات مجموعة (ه) ، لأنها فروق ليست كبيرة بحيث ترتفع الى مستوى الاستقلال عن بقية اللهجات .

العربية الشمالية والعربية الجنوبية :

وقد اصطلح المستشرقون على رجع اللغات التي ظهرت في جزيرة العرب الى أصلين : أصل شمالي يقال للغات التي تعود اليه : اللغات أو اللغة العربية الشمالية، وأصل جنوبي يقال للغات التي ترجع اليه: اللغات أو اللغة العربية الجنوبية [1] .

وهذا التقسيم التقليدي للهجات العرب انما خطر ببال المستشرقين من النظرية العربية الاسلامية التي ترجع العرب الى أصلين : أصل عدناني ، وأصل قحطاني. ونظراً الى عثورهم على كتابات عربية جنوبية تختلف في لغتها وفي خطها عن العربية القرآنية ، رسخ في أذهانهم هذا التقسيم، وقسموا لغات العرب الى مجموعتين لسهولة البحث حين النظر في اللغات واللهجات .

---

[1] Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 2.

وبين العربيتين تباين واختلاف ، ما في ذلك من شك . من ذلك ان الفعل في العربيات الجنوبية وليد المصدر ، وان أداة التعريف فيها تكون في أواخر الكلم ، لا في أوائلها كما هو الحال في عربيتنا ، وان حرف (الميم) هو أداة التنكير في العربيات الجنوبية ، الى فروق أخرى ، تحدثت عنها في الجزء السابع من كتابي القديم (تأريخ العرب في الاسلام) .

وإذا كنا لا نزال في جهل عن حقيقة اسم (عدنان) ، الذي لم نعثر عليه حتى اليوم في نص من نصوص المسند ، فإن في وسعنا التحدث عن (قحطان) ، الذي سبق أن أشرت الى أن أهل الأنساب أخذوه من التوراة . فهو اسم مهما قيل فيه ، فقد أخذ من مصدر قديم يعود الى ما قبل الميلاد . ثم انه أورد في النص العربي الجنوبي الذي وسم بـ (Jamme 635) ، الذي دونه قائد الجيش (ابكرب احرس بن ابلم) ، (أبكرب أحرس بن ابل) ، أو (أبكرب أحرس) من (آل ابل) (آل ابال) ، وذلك لمناسبة عودته سالماً من حرب قادها بأمر ملكه وسيده الملك (شعر أوتر) ملك سبأ وذي ريدان ، ابن الملك (علهان نهفان) ملك سبأ وذو ريدان . وقد شمل القتال أرضاً واسعة ، هي (أشعران) ، أرض الأشعريين و (بحر) ، والقبائل القاطنة حول مدينة (نجران) ، ثم الأحباش الذين كانوا يحاربون معهم ويؤازرونهم في قتالهم ضد السبئيين ، ثم سكان مدينة (قريتم) (قرية) الذين كانوا من (كاهل) (كهلم) ، ثم في الصدامين اللذين وقعا مع (ربعت) (ربيعة) (ذ آل ثور) ، (ربيعة) من (آل ثور) ، ملك (كدت) (كندة) وقحطان (قحطن) ، وكذلك ضد (أبعل) أي سادة مدينة (قريتم)[1] .

ويفهم من النص ان (ربعت ذ الثورم) ، هو اسم رجل ، اسمه (ربيعة) من (آل ثور) . وكان كما يقول النص ملكاً على (كندة) و (قحطان)[2] . ويذكر أهل الأخبار ، ان (كندة) اسم قبيلة وأبو حي من اليمن ، وهم من نسل (ثور بن مرة بن أدد بن زيد) ، وقيل (بنو مرتع بن ثور) ، أو

١ الاسطر ٢٢ ـ ٢٩ من النص .

٢ السطر ٢٦ ـ ٢٧ من النص ، (ربعت ذ الثورم ملك كدت وقحطن) ، REP. EPIG. 4304.

(كندة بن ثور) ، وقيل ان ثوراً هو مرتع ، وكندة هو أبوه ، الى غير ذلك من آراء[1] ، تريك ان شيئاً من الواقع كان عند أهل الأخبار عن هذه القبيلة ، غير انهم لم يكونوا يعرفون شيئاً واضحاً عنه . وترى من هذا النص ان (آل ثور) اسم أسرة كانت تحكم قبيلتي (كدت) (كندة) و (قحطان) ، وان رئيسها إذ ذاك هو (ربيعة) الذي لم يرد اسم والده . وقد جعل أهـل الأخبار من (آل ثور) رجلاً جعلوه أباً لقبيلة كندة ، ثم حاروا في نسبه . ويتبـين من هذا النص ان (قحطان) كانوا في هذا العهد تحت حكم (ربيعة) الذي هو من (آل ثور) .

وقد جعل (جامة) حكم (شعر أوتر) الذي سبق أن تحدثت عنه بتفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب[2] في حوالى السنة (٦٥) قبل الميلاد[3] ، وقد بنيت آراء بقية الباحثين في وقت حكمه ، فنكون بذلك قد وقفنا على اسم قحطان وكندة في نص يعود عهده الى حوالى القرن الأول قبل الميلاد . وقد كانتا مثل أهـل (قرية) وأهل (نجران) في حرب مع السبئيين . وهذا النص هو أقدم نص عربي جنوبي وصل فيه اسم (قحطان) و (كدت) (كندة) الينا حتى الآن .

ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن لهجة (قحطان) و (كدت) (كنـدة) ، وذلك بسبب عدم وصول كتابات منها الينا ، ولكننا لا نستبعد احتمال كون لغتها من مجموعة اللغات العربية الجنوبية ، لأن مواطنها كانت في العربية الجنوبيـة في هذا العهد ، أمـا بطون (كندة) التي نزلت (نجداً) والتي ذهب بعضها الى العراق ، فنحن لا ندري إذا كانت لهجتها قد تغيرت ، فصارت عربية شمالية ، بدليل نظم (امرىء القيس) الكندي وبقية شعراء الكندة الشعر بهـذه العربية ، أم أنهـا كانت تتكلم بالعربيتين ، إلا أن شعراءها كانوا ينظمون الشعر بالعربية المعهودة مجاراة للقبائل الشمالية التي كانت تجاورها والتي احتكت بها ، وقد تكون هذه البطون قد هاجرت من العربية الجنوبية قبل الميلاد ، فأقامت بنجد ، وتعربت من ثم بالعربية الشمالية ، وقد تكون (كدت) قبيلة عربية جنوبية غير (كندة) ،

---

١ تاج العروس (٤٨٧/٢) ، (كند) .
٢ (ص ٣٦٩ وما بعدها) .
٣ JAMME, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis, p. 391.

بقيت في اليمن الى الاسلام ، إذ ورد اسمها في نص (أبرهة) أيضاً ، ونظراً الى التشابه فيما بين (كدت) (كدة) و (كندة) ربط النسابون بين الإثنين، وجعلوا نسب كندة (كدت) . فتكون (كندة) بذلك من القبائل العربية الشمالية، و (كدت) من القبائل العربية الجنوبية ، أقول هذه الآراء على سبيل الاحتمالات لأني من الأشخاص الذين يكرهون البت في الأمور العلمية لمجرد حدس أو ظن، ومن غير دليل علمي مقنع . والبت في مثل هذه الأمور لا يكون مقبولاً عندي إلا إذا استند على نص جاهلي ، أو بدليل معقول مقبول ، وحيث أننا لا نملكه الآن ، فأترك هذه الاحتمالات الى المستقبل علّه يتمكن من العثور على نصوص جاهلية تكشف القناع عنها ، وتأتي الينا بالجواب الواضح الصحيح .

ولكننا نجد في الوقت نفسه – وكما سبق أن ذكرت – ان هنالك لهجات عربية مثل الثمودية والصفوية ، تستعمل (الهاء) أداة تعريف بدلاً من الألف واللام في عربيتنا ، فيقال (هملك) ، و (هدار) بمعنى (الملك) و (الدار) . وذلك كما في العبرانية ، إذ تستعمل الهاء فيها أداة للتعريف ، ويقوم (ذ) فيها مقام الاسم الموصول كما عند طيء في قديم الزمان ، الى خصائص أخرى تجعلها مجموعة أخرى لا هي عربية جنوبية ولا هي عربية شمالية .

كما تبين من دراسة بعض الكتابات الجاهلية ، مثل الكتابات التي عثر عليها في (القرية) وفي جبل (عبيد) ، وفي شمال خشم كمدة ان لها خصائص انفردت بها عن المجموعتين ، وقد وردت فيها أسماء كثيرة لم ترد في الكتابات العربية الجنوبية وفي عربية (هـ) ، مما يجعلها أهلاً لأن تكون موضع دراسة خاصة في المستقبل ، لعلها تكون مجموعة لغوية جديدة قائمة بذاتها ، أو حلقة مفقودة بين اللغات الجاهلية المندثرة .

ووجود مثل هذا التباين الذي اكتشف من الكتابات ، هو الذي دفعني إلى التفكير في اعادة النظر في تقسيم اللغات العربية الى مجموعتين،وعلى التفكير بتقسيمها الى مجموعات ذات خصائص لغوية متشابهة،تستنبط بالدرجة الأولى من أداة التعريف التي هي المميز الوحيد الذي يميز بين لهجات الجاهليين .

ونلاحظ ان عربية الـ (ن) (ان) مصطلحات غير موجودة في العربية الفصيحة لكنها موجودة في العبرانية . وفيها عدد غير قليل من الكلمات المجهولة في اللغات

السامية الأخرى ، صعب على العلماء إدراكهـا بسبب ذلك ، فاكتفوا باستخلاص معناها من وضعها في الجمل ، وذلك بصورة تقريبية[1] . كما نلاحظ ان الأسمـاء فيها ، تختلف عن الأسماء المعروفة عند العرب الشماليين ، وان الأسماء الواردة في كتابات المسند المتأخرة ، تختلف بعض الاختلاف عن الأسماء الواردة في النصوص القديمة ، فقد تغلبت البساطة على الأسماء المتأخرة ، حتى صارت تشاكل أسمـاء العرب الشماليين المألوفة عند ظهور الاسلام . وقد لاحظ (الهمداني) هذه الظاهرة، فعبر عنها بقوله : « فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل فخففتها العرب وأبدلت فيها الحروف الذلقية ، وسمع بها الناس مخففة مبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفر ، خال الجاهل انه غير ذلك الاسم وهو هو[2].

وخير ما يمكن أن نفعله في نظري لمعرفة المتكلمين بالعربية الفصحى ، هو أن نقوم بالبحث عن الخصائص النحوية والصرفية واللفظية التي تميزها عن بقية العربيات، فإذا ضبطناها استطعنا تعيين من كان يتكلم بها . ولما كنّا لا نملك نصوصاً جاهلية مدوّنة بها ، صار من الصعب علينا التوصل الى نتائج علمية ايجابية مرضية، تحدد القبائل والأماكن التي تكلمت بها تحديداً صحيحاً مضبوطاً ، غير أن المثل العربي يقول : ما لا يدرك كله لا يترك جله ، فإذا عسر علينا الحصول عـلى نتائج كلية مقنعة ، فلا بأس من الرضا بالحصول على جزء أو بعض من نتائج قـد تقدم لنا معرفة وعلماً . ونحن إذا سرنا وفق حكمة هذا المثل ، ودرسنا خصائص هذه العربية ، نجد أن من أولى ميزاتها استعمالها (ال) أداة للتعريف ، تدخلهـا على أول الأسماء النكرة ، فتحيلها الى أسماء معرفة ، بينما نجد العربيات الأخرى التي عثر على نصوص جاهلية مدوّنة بها تستعمل أدوات تعريف أخرى . ولمـا كنّا نعرف المواضع التي عثر فيها على هذه النصوص ، صار في إمكاننا حصرها، وبذلك نستطيع التكهن عـن المواضع التي كان يتكلم أهلها بالعربية التي تستعمل (ال) أداة للتعريف ، أي هذه العربية الفصحى . ولما كانت العربية الجنوبية قد استعملت الـ (ن) (ان) أداة للتعريف ، تلحقهـا في أواخر الأسماء المنكرة ، وحيث أننا لم نتمكن حتى الآن من الحصول على نص في هـذه الأرضين استعمل (ال) أداة للتعريف فباستطاعتنا القول : إن سكانها لم يدوّنوا بالعربية القرآنية ،

---

١ ولفنسون ، السامية (٤٦ ٢وما بعدها) .
٢ الاكليل (١٣/١) .

بل كان تدوينهم وكلامهم بالعربية الجنوبية الّتي كانت تضم جملة لهجات . ولما كان آخر نص عثر عليه مدوّن بالمسند ، يعود تأريخه الى سنة (٥٥٤) للميلاد[١] ، صار في إمكاننا القول بأن العربية الجنوبيـــة كانت وبقيت لساناً للعرب الجنوبيين الى ظهور الاسلام .

ونظراً لعثور الباحثين على كتابات مدوّنة بالمسند ، في (القريـة) أو (قرية الفأو) وفي مواضع أخرى من (وادي الفأو) ، وفي مواضع من (وادي الدواسر)، وفي مواضع تقع جنوبي خشم العرض ، فإن في استطاعتنا القول إن أهل هـــذه الأرضين كانوا يكتبون بالمسند[٢] ، ويتكلمون بلغات عربية جنوبية ، اختلفت بعض الاختلاف عن العربيات الجنوبية المستعملة في العربية الجنوبية . فهي إذن من المناطق التي لم يتكلم أهلها بالعربية القرآنية . ونظراً لما نجـده من وجود بعض الاختلاف بين عربية هذه المنطقة وعربية العربية الجنوبية ، فإننا نستطيع القول بأنهـــا تكون مرحلة وسطى بين العربيات الجنوبية والعربية القرآنية ، وحيث أن كثيراً من هذه الكتابات لم يكتب لهـــا النشر ، ولوجود كتابات أخرى لم يتمكن الباحثون من نقشها أو تصويرها ، فن المحتمل في رأيي مجيء يوم قد يعثر فيه عـــلى لهجات جديدة ، قد تزيح الستار عن أسرار اللغات عند الجاهليين ، وقد تكون مجموعات لغوية جديدة من مجموعات اللغات العربية عند أهل الجاهلية .

وقد عثر في العربية الشرقية على كتابات جاهلية مدوّنة بالمسند هي وإن كانت قليلة ، إلا أنها ذات أهمية كبيرة بالنسبة للبـــاحث في تأريخ تطور الكتابة عنـــد العرب ، وللباحث في اللهجات العربية الجاهلية . فقد ثبت منها أن أصحاب هذه الكتابات كـــانوا يتكلمون بلهجات غير بعيدة عن اللهجة العربية القرآنية ، وإن كتبوا بالمسند . ويلاحظ من النص الذي هو شاهد قبر رجل اسمه (ايليا بن عين ابن شصر) أنه استعمل لفظة (ذ) بمعنى (من) ونأسف لأن هـذه النصوص القليلة قصيرة،وفي أمور شخصية ، قد خلت من أداة التعريف ، لذلك لا نستطيع تثبيت لهجتها بصورة أكيدة[٣] .

---

١ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/٢٢) .

٢ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/١٩٥ وما بعدها) .

٣ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/١٩٣ وما بعدها) .

واستناداً الى النصوص الثمودية واللحيانية والصفوية ، التي استعملت الـ (هـ) (ها) أداة للتعريف ، نستطيع أن نقول إن أصحاب هـــذه اللهجات يكوّنون مجموعة من اللغات قائمة بذاتها ، تختلف عن العربية الجنوبية وعن العربية القرآنية. وهي تشارك العبرانية في استعمال الأداة المذكورة في التعريف،ولكنها تقارب عربية (ال) في استعمال المفردات .

وأما النبط ، وهم عرب من العرب الشماليين ، فقد استعملوا أداتين للتعريف، أداة هي حرف الألف الممدود اللاحق بآخر الاسم ، مثل (ملكا) بمعنى (الملك) ، و (مسجدا) ، بمعنى (المسجد) ، وأداة أخـــرى ، هي أداة (ال) التي نستعملها في عربيتنا . وفي استعمال النبط لأداتـــين للتعريف ، دلالة على تأثرهم بالآراميين وبالعرب المتكلمين باللغة العربية القرآنية ، أو العرب المستعملين لأداة التعريف (ال) بتعبير أصح . والنبطية نفسها ، لغة وسط ، جمعت بين الآرامية والعربية ، فبينما نجدها تستعمل الآرامية ، اذا بها تخلط معها ألفاظاً وتراكيب عربية فصيحة . وذلك بسبب اختلاط النبط بالآراميين وتأثرهم بثقافتهم ، واحتكاكهم بالأعراب،وكونهم عرباً في الأصل[1] . ومعنى هذا ان العرب الذين كانوا يجاورون النبط ، وهم عرب البوادي كانوا من المتكلمين بأداة التعريف (ال) ، سمـــة العربية الفصيحة .

وأما النصوص المدونة بنبطية مشوبة بمصطلحات عربية ، وأهمها نص (حرّان) الذي يعود تأريخه الى سنة (٣٢٨) للميلاد ، فإنه يفصح عن قوم عرب أو نبط لاستعمالهم (ال) أداة للتعريف في الألفاظ : (النج) بمعنى (التاج) ، وفي (الأسدين) ، بمعنى (أسد) ، وفي (الشعوب) . وأرجح كونهم عرباً ، لاستعمالهم جملاً عربية فصيحة بينة في هذا النص ، مثـل : (ملك العرب) ، و (مدينة شمر) ، و (نزل بنيه الشعوب) ، و (فلم يبلغ ملك مبلغه) ، فهذه جمل عربية ، أصحابها عرب ، وإن كتبوا بالنبطية ، وقد تفصح عن عربية أهل الحيرة في ذلك الوقت ، لأن الملك المتوفى ، وهو (امرؤ القيس) ، هو من ملوك الحيرة ، والنص المكتوب ، هو شاخص قبره ، فمن المعقول تصور أن الكتابة كتبت بلغة أهل الحيرة في ذلك العهد[2] .

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٠٥/٧ وما بعدها) .
٢ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٢٧٣/٧ وما بعدها) .

ويظهر من استعمال كتابة (زبد) التي يعود عهدها الى سنة (٥١٢) للميلاد ، لجملة « بسم الإلـه » ، أن صاحبها وان كتب بالنبطية ، غير أنه كان من النبط المستعملين لـ (ال) أداة للتعريف . وأما الكتابة المعروفة بكتابة (حران) ، فإنها أقرب هذه النصوص الى العربية القرآنية . كما يتبين ذلك من نصها العربي ، وهو:

انا شرحيل بر ظلمو ، بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ ، بعد مفسد خيبر بعم .

أي : (أنا شرحيل) (شراحيل) بن ظالم ، بنيت هذا المرطول سنة ٤٦٣ ، بعد خراب (غزو) خيبر بعام . ويقابل تأريخ هذا النص سنة (٥٦٨) للميلاد [1] .

وعربية هذا النص ، عربية واضحة ، ليس فيها ما يحاسب عليه بالقياس الى عربيتنا ، إلا جملة (بر ظلمو) المكتوبة على وفق القواعد النبطية . ويلاحظ أنها استعملت (ال) أداة للتعريف ، ولاحظت قواعد النحو في جملة : « بنيت ذا المرطول » المستعملة في عربيتنا ، مما يدل على أن صاحبها كان يراعي الإعراب في لسانه . وأنه من قوم كانوا يراعون قواعد الإعراب في كلامهم .

إذن فنحن أمام قوم عرب ، نبط ، لسانهم العربي من مجموعة (ال)، أي من العربية المستخدمة لـ (ال) أداة للتعريف ، منازلهم أطراف بلاد الشأم ، وشواطىء الفرات العربية . واذا تذكرنا أن السريان كانوا على الحيرة (حيرتا دي طياية) ، وأنهم كانوا يطلقون لفظة (طياية) في مرادف (عرب) ، عرفنا إذن ، أن أهلها كانوا من العرب [2] ، ولما كان نص (النمارة) قد كتب بنبطية متأثرة بعربية (ال) ، نستطيع أن نقول ان عرب الحيرة كانوا من المتكلمين بهذه العربية .

يتبين لنا مما تقدم ، ان العرب الذين كانوا يقطنون الحيرة والأنبار، أو عرب العراق بتعبير أصح ، ثم عرب بلاد الشأم ، وعرب البوادي ، وجزيرة العرب باستثناء المواضع التي أمدتنا بالكتابات ، كانوا يتكلمون بعربية (ال) أي العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، ودوّن بها الشعر الجاهلي . وهي عربية أساسية ، جمعت شمل لغات ولهجات ، على نحو ما وجدنا في العربية الجنوبية من اشتمالها على جملة لهجات ، وما وجدناه في اللهجة العربية الشمالية الغربية ، المستعملة لـ (ﻫ) (ها) أداة للتعريف .

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٧/ ٢٨٠) .
٢ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/ ١٥٦) .

فأهل نجد وبادية الشأم ، وعرب العراق وبلاد الشأم والحجـاز ، كانوا هم المتكلمين بهذه العربية التي تعرّف النكرة بأداة التعريف (ال) ، وذلك قبـل الاسلام ، أما المواطن الأخرى ، فلها لهجاتهـا الخاصة ، وبينها لهجات تأثرت بخصائص مجموعة (ال) . وقد غلب الاسلام هذه العربية على اللهجات الأخرى ، فصارت الأكثرية تتكلم بها ، إلا في المواضع المنعزلة ، التي بقيت شبه مستقلة ، حيث احتفظت ببعض خصائص لهجاتها القديمة ، كالذي نراه اليوم في مهرة وفي الشحر وفي مواضع أخرى من العربية الجنوبية التي تتكلم بلهجات لا نفهمها عنهم هي من بقايا اللهجات الجاهلية .

وللوقوف على خصائص اللهجات المكونة لعربية الـ (ن) (ان) ، أرى ان من الضروري وجوب ارسال بعثات علمية الى العربية الجنوبيـة لدراسة اللهجات المحلية ، وهي عديدة وتسجيلها على الأشرطة من أفواه المتكلمين بها ، ولدراسة قواعدها النحوية والصرفية وأصول نظم الشعر عند المتكلمين بها ، وتفيدنا دراسة نظم الشعر ــ خاصة ــ عند العرب الجنوبيين الحاليين فائدة كبيرة في الوقوف على أسس نظم الشعر عندهم أيام الجاهلية ، وعلى الفروق الكائنة بين نظمهم قبـل الاسلام ، ونظم بقية العرب الجاهليين . ولا بد أيضاً من مقارنة نظمهم في الوقت الحاضر ، بنظم الأعراب في المملكة العربية السعودية ، للوقوف على الفروق بين النظمين ، وستكون هذه الفروق هادياً لنا في الوقوف على الفروق التي كانت بين النظم عند شعراء الجاهلية في بلاد الشأم والعراق ونجد والبحرين واليمامة والحجـاز والعربية الجنوبية .

وسوف تساعدنا دراسة لهجات المملكة الأردنية الهاشمية ، المملكة الـتي كانت تعرف بـ (ادوم) في التأريخ ، وكذلك لهجات أعالي الحجاز في الوقت الحاضر ، فائدة كبيرة في الوقوف على خصائص لهجة عربية الـ (هـ) (ها) ، وفي استنباط قواعدها منها . فلا بد وأن تكون في اللهجة (البلقاوية)[١] ، وفي اللهجات المحلية الأخرى بقايا من تلك اللغة ، مندمجة مع عربيـة (ال) التي تغلبت على لسانهم منذ الفتح الاسلامي الذي بدأ لتلك البلاد عام (٦٣٣) للميلاد[٢] . ولا بد من دراسة

---

١ نسبة الى البلقاء

٢ Andrzej Czapkiewicz, Sprachproben Aus Madaba, Polska Akademia Nauk, Krakow, 1960.

أصول نظمهم في لغاتهم الدارجة هذه للإهتداء بها على أصول النظم عندهم قبل الاسلام ، وعلى المؤثرات التي أثرت على نظمهم في الوقت الحاضر ، مع دراسة خصائص نظمهم وما يمتاز به عن أصول النظم عند بقية العرب في الوقت الحاضر أيضاً .

ولما كنا لا نملك نصوصاً جاهلية بعربية (ال) غير ما ذكرته من النصوص النبطية المشوبة بعربية (ال) . ولما كانت هذه العربية ذات لهجات ولغات،عرفت أسماؤها وضبطت في الاسلام،وبينها فروق ومميزات ، كما بينت ذلك في الملاحظات البسيطة السطحية التي جمعها عنها علماء العربية،ولما كنا لا نملك عن هذه اللهجات غير تلك الملاحظات التي أوجزتها في فصل : لغات العرب ، فإن من اللازم ضم دراسة ما سيقوم به علماؤنا في المستقبل عن اللهجات الحالية في مختلف أنحاء جزيرة العرب الى دراسة العلماء المتقدمين ، لتكمل احداهما الأخرى ، وستتولد منهما ولا شك دراسة علمية قيمة ، تفيدنا في الإهتداء الى معرفة خصائص اللغات العربية قبل الإسلام .

لقد توصلت من دراسة ملاحظات أولئك العلماء ، الى أن هذه اللهجات لم تكن تختلف في كيفية النطق بالحروف ، وفي القواعد الصرفية فقط ، لكنها كانت تختلف فيما بينها في القواعد النحوية أيضاً ، مثل حذف الياء من الفعل المعتل بها إذا أكد بنون في لغة طيء وفزارة[1] ، ومثل (ذو) الطائية التي يلازم اعرابها بالواو في كل موضع[2] ، ومثل إعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً، في لغة بلحرث ، وخثعم ، وكنانة[3] ، ومثل (هَلُمَّ) في لغة أهل الحجاز التي تلزم حالة واحدة على اختلاف ما تسند اليه مفرداً أو مثنى أو جمعاً، مذكراً أو مؤنثاً ، وتلزم في كل ذلك الفتح ، بينما تتغير بحسب الإسناد في لغة نجد من بني تميم[4] ، الى غير ذلك من أمور تحدثت عنها في فصل : لغات العرب ، وهي لو جمعت في مكان واحد ودرست بعناية ودقة ، دلت على أن الفروق بين هذه اللهجات في القواعد هي أعمق بكثير مما يظن .

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٤٢) .
٢ المصدر نفسه (١/١٤٤) .
٣ كذلك (١/١٤٥) .
٤ أيضا (١/١٤٨) .

ومع وجود هذه الاختلافات والفروق ، كان بإمكان المتكلمين بهـذه اللغات الثانوية المتفرعة من المجموعات اللغوية ، التفاهم فيما بينهم ، كما يتفاهم العراقيون والمصريون وأهل المغرب بعضهم مع بعض مع تكلمهم بألسنة ذات لهجات مختلفة. فكان في استطاعة أهل نجد التفاهم مع عرب الحيرة ، وفي استطاعة أهـل مكة التفاهم مع أهل الحيرة ، والعكس بالعكس ، مع وجود صعوبات بالطبع في فهم النطق باللهجة ، وفي إدراك مخارج بعض الحروف واختلاف القبائل في النطق بها ، ووجود كلمات غريبة في لغة ، قد لا توجد في لغة أخرى . إلا ان هذه الفروق لم تكن شديدة عميقة ، بحيث جعلت فهم العرب بعضهم بعضاً أمراً صعباً ، أو صيرت اللغات وكأنها لغات أعجمية ، لا يفهم المتخاطبون بها أحدهم الآخر . ودليل ذلك اننا نجد الوفود التي وفدت الى المدينة ، لمبايعة الرسول على الاسلام ، تكلم الرسول وتتفاهم معه ومع أصحابه ، وتخطب أو تنشد الشعر أمامه ، وهو يفهمهم ، وهم يفهمونه من دون صعوبة ولا كلفة كبيرة ، لأن أمر هذه اللغات لم يكن على نحو ما تصوره بعضهم من التباين والاختلاف ، والبعد بين الألسنة . اللهم إلا ما كان من أمر أهل العربية الجنوبية ، فقد كانوا يرطنون ، بدليـل ما جاء في كتاب رسول الله الى (عياش بن أبي ربيعة المخزومي) حين أرسله برسالة الى أبناء (عبد كلال) الحميري ، فقد قال له فيها : « وهم قارئون عليك ، فإذا رطنوا ، فقل : ترجموا »[1] . وربما كان منهم من لا يفقه عربية المسلمين ، الناطقين بعربية (ال) ، فكان يترجم لهم بعض من لهم علم وفقه بالعربيات الجنوبية وبعربية القرآن .

وبدليل ثانٍ ، هو أن المسلمين لما حاصروا القصر الأبيض من قصور الحيرة ، سمعوا أهل القصر ، يصرخون : « عليكم الخزازيف » ، « فقال ضرار : تنحوا لا ينالكم الرمي ، حتى ننظر في الذي هتفوا به ، فلم يلبث أن امتلأ رأسُ القصر من رجـال متعلقي المخالي ، يرمون المسلمين بالخزازيف – وهي المـداحي من من الخزف »[2] ، فلم يفهم المسلمون معنى (الخزازيف) في بادىء الأمر لكنهم عرفوا أنهم يعنون شيئاً له صلة بالدفاع عن القصر ، ثم عرفوه ، بعد نزول سيل من (الخزف) عليهم . وكان أهـل (الحيرة) ينطقون بالعربية ، فلما قال

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٢) ، (بيروت ١٩٥٧ م) .
٢ الطبري (٣/٣٦٠ وما بعدها) .

(خالد بن الوليد) لأصحاب عدي بن العبادي : « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الانصاف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عديّ : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال : صدقت »[1] . وقد كانت لهم مدارس تدرس العربية ، كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، ومنهم أخذ أهل مكة كتابتهم ، كما يذكر ذلك أهل الأخبار . فنحن نجد أن العرب كانوا يتكلمون على مقتضى سجيتهم التي فطروا عليها ، ومع ذلك فقد كانوا يتفاهمون ويدركون المعاني ، ولو كانوا من قبائل متباعدة ، ومن أماكن متنائية . « قال ابن هشام في شرح الشواهد : كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات »[2] .

ولما حاصر (خالد بن الوليد) الأنبار ، « تصايح عرب الأنبار يومئذ من السور ، وقالوا : صبح الأنبار شرّ »[3] . ولما اطمأن بالأنبار « وأمن أهل الأنبار وظهروا ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب . نزلنا الى قوم من العرب قبلنا »[4] . فأهل الأنبار مثل أهل الحيرة عرب ، كانوا يتكلمون العربية ، وهي عربية فهمها خالد ومن كان معه من رجال قبائل ، ولو كانت عربيتهم عربية قريش ، لما سكتوا من النص عليها ، لما في ذلك من تقرب الى قريش . قال الأزهري : « وجعل الله ، عزّ وجل القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبه الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقراها العربية ، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم عربياً ، لأنه من صريح العرب ، ولو أن قوماً من الأعراب الذين يسكنون البادية حضروا القرى العربية وغيرها ، وتناءوا معهم فيها ، سمّوا عرباً ولم يسمّوا

---

١ الطبري (٣/٣٦١) ، (حديث يوم المقر وفم فرات بادقلي) .

٢ المزهر (١/٢٦١) .

٣ الطبري (٣/٣٧٤) .

٤ الطبري (٣/٣٧٥) .

أعراباً » . « والعربية هي هذه اللغة » . « والعرب : هذا الجيل »[1] .

أما لو سألتني رأيي في هذه الخطب التي دوّنها أهل السير والتواريخ والأخبار للوفود التي وفدت على الرسول لمبايعته ، أو عن حديث الصحابة معه قبل الهجرة أو بعدها ، فأقول لك بكل صراحة ، إن هذه النصوص : نصوص كلام الرسول مع الصحابة ، ونصوص كلام الصحابة معه ، هي نصوص وردت الينا بأفواه الرواة ، كلامها كلامهم ، وعباراتها عباراتهم ، أما المعاني ، أي المضامين ، فهي التي أخذت بالرواية ، وفي بعضها زيادات أو نقصان ، ظهرت بسبب طبيعة الاعتماد على الذاكرة لا الكتابة والتدوين . فنحن اذن أمام نصوص ، لا يمكن أن نقول انها أصيلة ، لأنها لم تؤخذ من محاضر جلسات ، ولا من كتّاب كانوا يكتبون كل ما كان يقع ويحدث ، وينقلون الكلام نقلاً أميناً صادقاً ، كما ينقل الشريط المسجل للأصوات ، أصوات المتكلمين ، وانما رويت بعد الحادث بأمد، قد يكون قصيراً وقد يكون طويلاً ، وبعضها أحاديث شخصية ، ليست مهمة ، وقد تكون من الموضوعات ، ولا غرابة في ذلك فكتب التراجم والحديث والسير، مليئة بتكذيب كثير من هذه الأمور ، التي افتعلت ، إما من الرواة أنفسهم ، وإما من آلهم ، وإما عصبية ، أو عن مذهب وعقيدة .

أفصح العرب :

وموضوع أفصح العرب موضوع لا أرى انه قد كان لأهل الجاهلية علم به ، إذ كان لكل قوم منهم لسان يستعزون به ويتعصبون له ، يرون انه لسانهم العزيز. ولا يكون فصاحة إلا اذا كان هنالك لسان أدب رفيع ، يكوّنه رجال الأدب من ناثرين وشعراء ، يكون لساناً مقرراً محترماً يتبعه الجميع ، تعقده وحدة شاملة وشعور بوجود أواصر دم وتأريخ واحد وثقافة واحدة ، وقلم يكتب به ، فإذا اجتمعت كل هذه وأمثالها وأضيفت اليها وجود حكومة كبيرة تتخذ ذلك اللسان لساناً عاماً لها ، ثم تقوم بتشجيع الأدباء والعلماء وتحسن اليهم ، صار ذلك اللسان اللسان المحظوظ المأثور المقدم على سائر الألسنة ، وصارت اللهجات الأخرى ،

---

١ اللسان (٥٨٦/١ وما بعدها) ، (عرب) .

ألسنة ثانوية بعده ، تعدّ دون اللغة المذكورة في الرتبة والمنزلة والفصاحة ، كما حدث في الاسلام ، حيث اعتبر اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم،لسان الاسلام والمسلمين ، لسان الدين والدولة ، به تكتب دواوين الدولة ، وبه يؤلف العلماء ويكتب الأدباء ، وينظم الشعراء ، وبموجب قواعده المقررة يتعلم اللسان كيفية الكتابة والنطق،من خالفها أو أخذ بألفاظ خارجة على قواعد نحوها وصرفها عدّ عامياً جلفاً من سواد الناس وسوقتهم .

ومدار الفصاحة في نظر علماء العربية كثرة استعمال العرب للكلمة ، سئل (أبا عمرو بن العلاء) : « كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : أحملُ على الأكثر ، وأسمي ما خالفني لغات . فما أكثرت العرب من استعماله من غيره ، فهو فصيح . وأما الفصاحة في المفرد : فخلوصه من تنافر الحروف ، ومن الغرابة ، ومن مخالفة القياس اللغوي . والتنافر ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعُسر النطق بها ، مثل (الهعخ) و (مستشزر)[1] . والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفتها الى أن ينقر عنها في كتب اللغة ، أو أن تكون قليلة الاستعمال ، وأضاف بعضهم الى ما تقدم : ألا تكون الكلمة مبتذلة[2] . وآراء أخرى لا مجال للبحث عنها في هذا الكتاب ، لعدم وجود مكان في حدوده .

وقد وضعت هذه الحدود في الاسلام ، أما ما قبله فلا علم لنا برأي الجاهليين في الفصاحة وفي الفصيح ، ولكننا نستطيع بالقياس الى ما عندنا من كتابات ، أن نقول : إن العرب الجنوبيين كانوا يدونون بلهجاتهم المعروفة ، وهي : المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية ، وفقاً لقواعد لهجاتهم وبألفاظهم ، فهي بالنسبة لهم لغاتهم الفصيحة ، لغة التدوين والكلام،ولما قضى السبئيون على استقلال حكومات معين وحضرموت وقتبان وأوسان ، وتكونت منها حكومة واحدة ، ضعفت الخصائص اللغوية التي ميزت لهجات هذه القبائل بعضها عن بعض ، واندمجت

---

١ من قول امرىء القيس :
غدائره مستشزرات الى العلا
المزهر (١/١٨٥) .
٢ المزهر (١/١٨٤ وما بعدها) .

بلغة السبئيين التي صارت لغة الحكومة ، وصار العرب الجنوبيون يكتبون بها الى ظهور الاسلام . فهذه اللغة ، هي اللغة الفصحى عندهم وقلمها هو المسند .

أما بالنسبة الى العرب الآخرين ، فالظاهر أن عربية (ال) ، كانت قد تغلبت عند ظهور الاسلام على العربيات الأخرى ، وفي ضمنها عربية الـ (ه) (ها) ، وذلك بقوة وضخامة القبائل المتكلمة بها ، وباستعمال حكومة الحيرة وحكومة الغساسنة وحكومة كندة لها ، مما حمل الخطباء والشعراء والكهنة والسحرة على النطق بها ، وبلهجاتهم الخاصة بهم ، وهي لهجات كانت متقاربة لكنها تختلف فيما بينها في استعمال بعض الألفاظ وفي كيفية النطق بالكلم ، أي في مخارج الحروف ، وفي خصائص نحوية وصرفية ، إلا أن هذه الفروق والاختلافات لم تخرجها مع ذلك عن وحدة اللغة ، وهي كلها في نظر أصحابها عربية فصيحة ، وقد كانت تتقارب باحتكاك القبائل بعضها ببعض ، وبتوسع نفوذ ملوك الحيرة في جزيرة العرب ، وبتنقل الشعراء والخطباء بين القبائل ، وبتأثر العرب بالأحداث السياسية العالمية ، وبظهور النزعة الى تكوين حكومات مدنية تحل محل الحكومات القبلية الضيقة ، وبتوغل المبشرين والمثقفين العرب بين القبائل ، يدعونهم الى النصرانية التي كانت قد جاءت من الحيرة ، بنصرانية شرقية عربية ، متأثرة بالإرمية ، لكنها اضطرت الى التعرب بالتدريج ، وبقي الحال على هذا المنوال إلى أن ظهرت كلمة الاسلام بلغة (ال) ، فصارت بنزول الوحي بها أفصح ألسنة العرب ، وصار قلمها قلم الاسلام المقرر . وبذلك نبذ المسند ، وماتت الكتابة به منذ ذلك الحين،ومات التراث العربي الجنوبي بموت لسانه وقلمه .

وبانتصار الاسلام على الشرك ، والاسلام دين ودولة ، دعوته الى (أمة) ، المواطنون فيها اخوة ، وله لسان ، هو اللسان الذي نزل به القرآن ، صار هذا اللسان أفصح الألسنة منذ ذلك الحين ، بل لسان أهل الجنة ، وصار من الواجب على المسلمين تثبيت قواعده ودراسته لفهم كتاب الله المنزل به ، خدمة لدين الله الذي شرف هذا اللسان باتخاذه لساناً له . ورعاية قلمه الذي ثبت كتاب الله ، وقام العلماء بضبط قواعده وجمع مفرداته ، والبحث في كل ما يتعلق باللسان من علم . قام بهذه المهمة علماء المصرين : البصرة والكوفة ، وكان لا بد لهم من رسم حدود ، ومن وضع قواعد في كيفية تثبيت العربية ، وفيمن يصح أخذ هذه القواعد من ألسنتهم ، الى غير ذلك من أمور اتبعوها في جمع علوم العربية .

وحين شُرع بوضع قواعد العربية ، كان الاسلام قد حطم حدود جزيرة العرب ، وتخطاها ، قد غلب الساسانيين ، وأبعد الروم عن بلاد الشأم ومصر وما وراءها ، وقد جمع العرب بالأعاجم ، والعجم بالعرب،وشبك ألسنة الأعاجم بلسان العرب ، ولسان العرب بألسنة العجم ، واضطر العلماء الى وضع قواعد فيمن يجب أخذ لسان العرب منهم من العرب ، وفيمن لا يجوز الأخذ منهم ، بسبب اتصالهم بالعجم ، وما طرأ على لسان بعضهم من خبث نتيجة لهذا الاتصال. فكانت تعاليمهم ألا تؤخذ العربية إلا من عرب بقوا بمعزل عن الأعاجم ، فلا « يؤخذ عن حضري قط،ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل الشأم ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم ، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب »[1] .

وذكر أن قريشاً كانوا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وأجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، أما الذين نقل عنهم اللسان العربي من « قبائل العرب ، هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[2] . وروي أن أفصح العرب عُليا هوازن ، وسفلى تميم[3] .

وروى (الجاحظ) أن (معاوية) قال يوماً : « من أفصح العرب ؟ فقال

١ المزهر (١/٢١٢) .
٢ المزهر (١/٢١١) .
٣ المصدر نفسه .

قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفُرات ، وتيامنوا عن عنعنة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير . قال : من هم؟ قال قريش »[1] .

وقد تحدث (الجاحظ) عن أثر المحيط في تكوين اللغة ، فقال : «وكاختلاف ما بين المكّي والمدني ، والبدويّ والحضري ، والسهلي والجبلي ، وكاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، وكما يقال: ان هذيلاً أكراد العرب، وكاختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحُزون ، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار .

وزعمت أن هؤلاء وان اختلفوا في بعض اللغة ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصور ، فقد تخالفت عُليا تميم ، وسفلى قيس ، وعجز هوازن وفصحاء الحجاز ، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وسكان مخاليف اليمن ، وكذلك في الشمائل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربيٌّ خالص ، غير مشوب ولا معلهج ولا مذرّع ولا مزلج . ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قبل ما طبع الله عليه تلك البرّية من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كلّ جبزة من الشكل والصورة ومن الأخلاق واللغة »[2] .

فرأى (الجاحظ) ان بين العدنانيين والقحطانيين فروقاً كبيرة في اللغة ، غير ان بين كل مجموعة من هاتين المجموعتين فروقاً لغوية ، كالذي أورده من أمثلة على الفروق التي تكون بين من ينزل الجبال ، أو من ينزل السهول ، وبين من ينزل النجود ، ومن ينزل الأغوار ، ثم الخلافات التي تقع بين بطون القبائل عند تشتتها وتفرقها . ثم تحدث عن لغة عليا تميم ، وسفلى قيس ، وعجز هوازن ، ولغات أهل الحجاز . وهي قبائل تحدث عنها علماء اللغة .

وقد ذكر (الرافعي) ان « الفصاحة اشتهرت في مضر ، حتى عُرفت اللغة بالمضرية ، ومن أشهر قبائلها كنانة — ومن بطونها قريش — ثم تميم ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وضبّة ، ومزينة »[3] . وقال أيضاً : « وأفصح القبائل الذين

---

١ الجاحظ (٢١٣/٣) .
٢ رسائل الجاحظ (١٠/١ وما بعدها) ، (مناقب الترك) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٢٥/١) .

هم مادة اللغة فيا نص عليه الرواة : قيس ، وتميم ، وأسد ، والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجُشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف . قال أبو عبيدة : وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر ، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أفصح العربَ بيد اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد بن بكر – وكان مسترضعاً فيهم – وهم أيضاً الذين يقول فيهم أبو عمرو بن العلاء؛ أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم »[1] .

« وتلك القبائل كلها كانت تسكن في بوادي نجد والحجاز وتّهامة ،وقد بقيت معادن الفصاحة زمناً بعد الاسلام ، واليها كان يرحل الرواة ، حتّى إن الكسائي لما خرج الى البصرة فلقي الخليل بن أحمد ، وجلس في حلقته ، قال له رجل من الأعراب : تركت أسداً وتميماً وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة ! فقال للخليل : من أين أخذت علمك ؟ قال : من بوادي الحجاز ونجد وتّهامة . فخرج اليهم ولم يرجع حتّى أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب .

ولم تزل هوازن وتميم وأسد متميزة بخلوص النية وفصاحة اللغة الى آخر القرن الرابع للهجرة »[2] .

وقد ترك الأخذ عن (حاضرة الحجاز) أي مكة « لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم »[3] ، فلم يأخذوا منهم . وقد قرأنا قبل قليل أسماء القبائل التي أدخلها علماء اللغة في القائمة السوداء المقاطعة التي لم يجوّزوا الأخذ منها ، وذلك حين شروعهم بتدوين اللغة أيضاً للسبب المذكور وهو اتصالها بالأعاجم ، وتأثر ألسنتها بلغات من اتصلت بهم من عجم .

واللغات في نظر (ابن جني) على اختلافها كلها حجة « ألا ترى أن لغة الحجاز في إعمال ما ، ولغة تميم في تركه ، كلّ منها يقبله القياس ، فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها ، لأنها ليست أحق بذلك من الأخرى ، لكن

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٢٧ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (١/١٢٨) .
٣ المزهر (١/٢١٢) .

غاية مالك في ذلك أن تتخير إحداهما فتقويها على أختها، وتعتقد ان أقوى القياسين أقبل لها ، وأشد نسباً بها ، فأما رد إحداهما بالأخرى فلا »[1] .

أعود الآن فأكرر ما سبق أن قلته من اننا اليوم في حاجة ماسة ، الى وجوب تسجيل كل ما أورده علماء اللغة عن لغات العرب ولهجاتها ، فصيحة كانت تلك اللغة أو رديئة ، ولا سيما في الأمور التي شذت فيها هذه اللهجات بعضها عن بعض ، في الشعر أو في النثر ، تسجيل كل الأسماء الجاهلية التي عرف بها العرب قبل الاسلام ، مع بيان أسماء الرجال الذين تسمّوا بها وأسماء القبائل التي هم منها ، والمواضع التي كانوا بها ، لنتعرف بذلك على أصول هذه القبائل ، والأماكن التي جاءت منها ، والأثر الذي تأثرت به من القبائل المجاورة لها ، فنحن نعرف اليوم ، ان أهل العربية الجنوبية ، كانت لهم أسماء وردت في المسند لم تكن شائعة بين العرب الشماليين ، وقد كانت خاصة بهم ، ثم نعرف اليوم ان الأسماء الواردة في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة المقاربة للاسلام ، اختلفت بعض الاختلاف عن الأسماء القديمة المركبة المضافة ، مما يدل على وقوع تغير في الذوق اللغوي عند العرب الجنوبيين قبيل الاسلام ، وعلى الميل الى اختزال الأسماء وتبسيطها ، على نحو ما كان عند العرب الشماليين ، ومثل هذه الدراسة ، تكون ذات قيمة كبيرة في الوقوف على التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية التي مرت على جزيرة العرب قبيل ظهور الاسلام . وهذا التغير الذي أشير اليه هو شيء طبيعي ، وقع قبل الاسلام ، كما وقع في الاسلام ، فقد ماتت الأسماء الجاهلية ، مثل (امرؤ القيس) ، و (معدي كرب) ، و (شرحبيل) ، و (شرحثيل) ، و (عبد عوف) ، و (عبد مناة) ، و (عبد أسد) ، في الاسلام ، وحلت محلها أسماء إسلامية ، وماتت ألفاظ جاهلية ، بسبب إماتة الاسلام لها ، أو إعراضه عن استعمالها ، أو بسبب تغير الذوق ، فلم تعد تصلح للاستعمال ، وولدت ألفاظ إسلامية لم تكن معروفة عند الجاهليين ، ونشأت معان جديدة لألفاظ جاهلية قديمة لم تكن تعبر عن هذه المعاني قبل الاسلام .

كذلك ، نحن في حاجة الى تدوين شعر الشعراء على حسب القبائل التي ينتمي اليها قالة الشعر ، لنتمكن بذلك من دراسة خصائص شعر كل قبيلة ، وما ورد

---

١ المزهر (٢٥٧/١) .

فيه من لغتها ، على أن نهتم بصورة خاصة ، بالأصول الأولى لهذا الشعر ، أي بأقدم الروايات التي ورد فيها ، ثم ندون الى جانبها الروايات المختلفة التي ورد فيها على ألسنة علماء الشعر واللغة ، والتعديلات التي أدخلها العلماء عليه ، لنرى ما فعله العلماء في الشعر الجاهلي،وطبيعة ذلك الشعر بالنسبة الى اللغات ، وخصائص كل شعر .

ونجد في كتاب (الإكليل) ملاحظات ثمينة تفيدنا كثيراً في دراسة اللهجات العربية الجنوبية ، وقد أخذها من كلام الناس في أيامه . من ذلك ما ذكره في كتابه (الإكليل) من قوله نقلاً عن كلام (أبي نصر) : إن «حمير تطرح مثل هذه الألف في كلامها ، فتقول : إذا أردت أن تقول للرجل : اسمع واذهب: سِمَع وذِهَب ، وغِضَب في اغضب وشرب في اشرب»[1] . وهي لغة لا تزال تستعمل في بعض القبائل اليمانية[2] . ومن ذلك استعماله لفظة (القدمان) في قوله : «وقرأ زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية ، فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل فخففتها العرب وأبدلت فيها الحروف الذلقية، وسمع بها الناسُ مخففة مُبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفر ، خال الجاهل أنه غير ذلك الإسم ، وهو هو»[3] . ولفظة (القدمان) من الألفاظ العربية الجنوبية التي ترد بكثرة في كتابات المسند ، ترد مع أسماء بعض الأشهر التي يتكرر اسمها، على نحو قولنا في العربية : (ربيع الأول) و (ربيع الثاني) ، و (جمادى الأولى) و (جمادى الآخرة) ، فيستعملون (قدمن) (قدمان) للأول ، أي الأقدم والمتقدم ، ويستعملون (اخرن) (اخران) للثاني ، أي الآخر والمتأخر ، وتعني (قدمان) القدامى والقدماء كذلك .

ونجد في ثنايا كتابه مصطلحات وألفاظاً أخرى من هذا القبيل استعملها هو ، أو نقلها عن غيره ، أو من الكتب ، وهي ترجع الى اللهجات العربية القديمة ، وقد لا نجد لها وجوداً في معاجم اللغة . كذلك يجب البحث في كتب (سعيد ابن نشوان) الحميري وفي كتب غيره من المؤلفين من أهل العربية الجنوبية الى يومنا هذا ، لنلتقط ما قد يكون في ثناياها من كلم عربي جنوبي قديم ، ومن

---

١ الاكليل (٢/٤٨) .
٢ المصدر نفسه (هامش رقم ٤) .
٣ الاكليل (١/١٣) .

أمثلة وجمل ، وأسماء أشهر وغير ذلك ، إضافة الى دراسة لهجات الأحياء منهم، ووجوب الحفر حفراً علمياً في مواضع الآثار لاستخراج ما فيها من نفائس مكتوبة أو غير مكتوبة لتعيننا في الوقوف على أصول لغة العرب الجنوبيين قبل الإسلام .

ولا بد لنا اليوم من وجوب القيام بمسح لغوي جغرافي ، للغات جزيرة العرب ولقبائل العراق وبلاد الشأم ، لمعرفة ما تبقى عندها من أثر للهجاتها القديمة . مسح عام لكلامها الذي تنطق به ، ولشعرها الذي تنظمه في الوقت الحاضر ، وللأسماء الغريبة التي تتسمى بها ، ومسح مثل هذا سيعين الباحثين كثيراً في الوقوف على أسرار اللهجات العربية قبل الإسلام .

الفصل الحادي والاربعون بعد المئة

المعربات

والاختلاط بين الأمم ، بمختلف وسائله ، ومن ذلك الاتصال التجاري، يؤدي الى حدوث تفاعل في اللغة ، فقد يولد هذا الاحتكاك ألفاظاً جديدة يطلقونها على أشياء لم يكن لأهل تلك اللغة علم بها ، وقد يضطر أصحابها الى استعمال المسميات الأجنبية كما هي ، أو بشيء من التبديل والتغيير ليناسب النطق بتلك اللغة . وقد وقع ما أقوله في كل اللغات ، ويقع الآن أيضاً ، وسيقع في المستقبل الى ما شاء الله ، لا استثناء في ذلك ، ولا تفاضل ، ولا امتياز . فاللغـات كلها ، ومنها اللغة العربية في جاهليتها واسلاميتها ، تخضع لهذا الحكم والقانون .

وليس الأخذ والعطاء دليلاً على وجود نقص في لغة ما ، أو وجود ضعف في تفكير المتكلمين بها . فكل اللغات مهما بلغت من النمو والكمال والسعة ، لا بد لها من أن تأخذ وأن تطور مدلول مفرداتها أو تضع مفردات جديدة لأمور لم تكن معروفة وموجودة عندها . ولا نعرف لغة ما من اللغات الميتة أو الحية ، انفردت بنفسها انفراداً تاماً ، فلم تأخذ شيئاً ولم تعط شيئاً .

والعربية بجميع لهجاتها وألسنتها مثل اللغات الأخرى، وفي جملتها اللغات السامية أخذت وأعطت ، قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ولا تزال تأخـذ وتعطي ما دام أصحاب اللسان العربي باقين في هذا الكون . والأخذ والعطـاء ووضع مفردات جديدة في لغة ما ، هما من دلائل الحيوية ومن أمارات القوة والتكامل في تلك

اللغة . ومن دلائل هذا الأخذ والعطاء ، ما حدث في العصور الاسلاميـة : من أخذ وعطاء بين العربية واللغات الأعجمية ، فطعمت العربيةُ الفارسيةَ والتركيـة والرومية وغيرها بمادة غزيرة من الكلمات ، كما أخذت هي حاجتها منها . ومن دلائله أيضاً ما يقع اليوم من وضع المصطلحات لمعاني لا عهد للعربية بها من قبل كمخترعات تظهر دوماً ومعاني علمية ليس للعلماء عهـد بها ، ولا بد من وضع ما يقابلها في العربية ، بوضع لفظ عربي ، أو تعريب المصطلـح وتكييفه وفق النطق العربي إن كان من غير الممكن إخضاعه للمفردات العربية .

وقد يزعج هذا الرأي فريقاً من الناس يذهبون الى أن العربية لغـة نقية صافية لم تتأثر بغيرها من اللغات ، فلم تأخذ من اللغات شيئاً ، ولم يدخل اليهـا لفظ أجنبي ، أو ان ما دخل اليهـا من دخيل معرب هو قليل ، وهم في منطقهم هـذا محافظون متزمتون لا يعترفون بنظرية الأخذ والعطاء في اللغات . فإذا قلت لهم إن اللفظة الفلانية لفظة معربة وأصلها أعجمي ، أجابوك : ولكنها وردت في القرآن الكريم ، ووردت في شعر فلان ، وفـلان من الشعراء الجاهليين . واذا قلت لهم : ولكن دخولها العربية كان قبل الاسلام بزمن ، وقبل ذلك الشاعر بزمن طويل ، وأن الجاهليين نسوا أصلها واستعملوها استعمال الألفاظ العربية ، فحكمها اذن حكم الألفـاظ العربية في أيام ذلك الشاعر ، وعند نزول الوحي ، أجابوك أيضاً : وكيف نؤمن أنها معربة ، أفلا يجوز أن تكون عربية في الأصل ، وقد أخذها الأعاجم أنفسهم من العربية ، ومن أين لك الدليل عـلى العكس ؟ واذا ذكرت لهم أن اللفظة الفلانية عبرانية في الأصل أو سريانية أو كلدانية ، قالوا : وكيف تثبت ذلك ، وهذه اللغات والعربية كلها من أصل واحد ودوحة واحدة ، فلمَ تحكم بأنها من أصل سرياني أو عبراني أو كلداني أو غير ذلك ، ولا تحـكم بأنها عربية أصيلة ، وان وجودها في تلك اللغات ، هو بسبب اشتراكها والعربية في الأصل السامي . فهي في العربية أصيلة اذن ، وهي في تلك اللغات أصيلة أيضاً وقديمة بسبب مشاركتها للعربية في الأصل السامي .

وقد فات مثل هؤلاء ان القدامى من العلماء لم يفتهم أمر هذه المعربات ، فأشاروا اليها ، ومنهم جمهور أصحاب كتب التفاسير والحديث والمعجمات ، وأن من العلماء من ألّف في هذا الموضوع ، فألّف أبو منصور المعروف بالجواليقي كتاباً في هذا

الباب دعاه : (المعرب من الكلام الأعجمي)[1] . ولم ينتقده مع ذلك علماء يومه، ولا من جاء بعده لإقدامه على تأليف كتابه هذا ، ولم يقل أحد انه كان جاهلاً أو متحاملاً على العربية ، مسيئاً اليها ، لأنه أنكر أصول الألفاظ المذكورة في مؤلفه ، فعدّها أعجمية معربة مع انها عربية أصيلة ، لا شك في عربيتها ولا شبهة . قال (الجاحظ) : « ألا ترى ان أهل المدينة لمّا نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمّون البطيخ الخربز، ويسمّون السميط الرزدق ، ويسمّون المصوص المزور ، ويسمّون الشطرنج الاشترنج ، في غير ذلك من الأسماء »[2] . ونجد في تفسير (الطبري) ، وهو من العلماء الثقات المحققين وفي تفاسير غيره من العلماء المدققين إشارات الى أصول ألفاظ وردت في كتاب الله ذكروا انها من المعربات،وقد نصوا على أصولها التي أخذت منها ، حسب علمهم واجتهادهم في ذلك الوقت ، لم يجدوا في ذلك بأساً ولا انتقاصاً لحرمة القرآن ، أو مساً به .

وفي القرآن – كما يذكر العلماء – أكثر من مائة لفظة معربة ، نصوا على أصولها حسب علمهم واجتهادهم واستفسارهم من الأعاجم ، وهي كلمات دخل بعضها العربية قبل الاسلام بعهد طويل لعدم وجود مثيل لها في لغة العرب،فأخرجتها العرب على أوزان لغتها وأجرتها في فصيحها ، فصارت بذلك عربية،وانما وردت في القرآن لأنها كانت قد تعربت وجرت عند العرب مجرى الفصيح ، ولم تكن لديهم ألفاظ غيرها[3] . وفي بعض هذه المعربات ألفاظ لم تكن مألوفة أو معروفة عند الوثنيين ، لأنها من ألفاظ أهل الديانات ، ونظراً لكونها تعبر عن أمور دينية ضرورية لا مثيل لها في العربية ، وكان من اللازم تعليم الناس اياها،لذلك وردت في القرآن .

وقد رجع العلماء أصول المعربات الواردة في القرآن الى لغات كانت شائعة آنذاك ومعروفة للعرب ، أخذها العرب منها باحتكاكهم بأهلها ، مثل اليونانية ، والفارسية ، والسريانية ، والعبرانية ، والحبشية ، والهندية ، والقبطية ، والنبطية،

---

١ المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، لابي منصور موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر الجواليقي ، تحقيق احمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦١ .
٢ البيان والتبيين (١٩/١) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٥٨/٢) .

حتى ذهب (أبو ميسرة) ، وهو من العلماء التابعين الى أن « في القرآن كل لسان » ، وروى مثله عن (سعيد بن جبير) ، و (وهب بن منبه)[1] . ولو راجعنا أقوال العلماء في هذه المعربات التي درسوها وتحدثوا عنها لوجدنا أنهم قد أخطأوا في تشخيص الكثير منها ، فلم يتمكنوا من الوقوف على أصولها ، لعدم معرفة أكثر علماء العربية اللغات الأعجمية . نعم تمكن العارفون منهم بالفارسية من تشخيص المعربات عن الفارسية ، غير أن منهم من زاد عليها وبالغ فيها، فأدخل في المعرب عن الفارسية ما ليس من الفارسية بشيء . وأدخل ألفاظاً عربية أصيلة في طائفة المعربات،مع أنها عربية جاهلية ، وردت في نصوص المسند وفي النصوص الأخرى[2] ،وسبب ادخالهم لها ضمن المعربات ، هو عدم احاطتهم باللهجات العربية الجنوبية ، وباللهجات الجاهلية الأخرى . فتخبطوا في تعيين الأصول ، فترى بعض منهم يرجع معرباً الى أصل عبراني ، وتجد آخر يرجعه الى أصل يوناني ، بينما يرجعه ثالث الى أصل حبشي ، وقع ذلك بسبب عدم وقوف العلماء على اللغات الأجنبية واكتفائهم بالاستفسار من الأعاجم ، ممن لم يكن لهم علم بعلوم اللغات ، وإنما كانوا يعرفون الكلام بها ، إذ لم يكونوا من أصحاب التضلع والتخصص ، كما أن عصبية البعض منهم للسانهم دفعتهم أحياناً إلى الاختراع وصنع الأجوبة الكاذبة ، يضاف الى ذلك عامل الادعاء بالعلم والفهم ، مما يحمل صاحبه على الوضع والكذب .

وبين الباحثين في المعربات الواردة في القرآن جدل في وجود المعرب فيه، منهم من قال بوجوده ، ومنهم من رد القول به ومنعه ، فقال : « انما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم ان فيه غير العربية ، فقد أعظم القول ، ومن زعم ان كذا بالنبطية ، فقد أكبر القول » ، وقالوا : « ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن انها بالفارسية أو الحبشية أو النبطية أو نحو ذلك ، انما اتفق فيها توارد اللغات ، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد » . وبالغ بعضهم في نفي المعربات ، حتى قال : « كل هذه الألفاظ عربية صرفة ، ولكن لغة العرب متسعة جداً ، ولا يبعد أن تخفى على الأكابر

---

١ السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن (٢/١٠٦) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) .
٢ راجع الاتقان (٢/١٠٨ وما بعدها) ، حيث تجد أمثلة عديدة على ما أقول .

الجلة ، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر وفاتح »[1] .

والذين ذهبوا الى وقوعه فيه ، يرون بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً . وعلل بعضهم سبب وقوعه في القرآن بقوله : « إن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن ، انه حوى علوم الأولين والآخرين ، ونبأ كل شيء ، فلا بد أن تقع فيه الاشارة الى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء ، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب » ، « وأيضاً النبي صلى الله عليه وسلم ، مرسلٌ الى كل أمة ، وقد قال تعالى : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم ، وإن كان أصله بلغة قومه هو »[2] . وقال (ابن سلام) : « والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك ان هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، لكنها وقعت للعرب ، فعربتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال أعجمية فصادق . ومال الى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون »[3] .

وقال (ابن النقيب) : « من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المُنزلة ، انها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ، ولم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب ، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير »[4] . فهو من الذين يرون ان في القرآن كل لسان .

ولا يقوم جدل المانعين من وقوع المعرب في القرآن ، أو القائلين به على أساس اختلافهم في وقوع المعرب في العربية ، وانما انصب كل اختلافهم على وقوع المعرب في كتاب الله . فالمانعون يقولون – كما رأينا – ان الله يقول : « قرآناً عربياً »[5] و « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته أأعجمي

---

١ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٥ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٦ وما بعدها) .
٣ المصدر نفسه (٢/١٠٨) .
٤ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٦) .
٥ يوسف ، الاية ٢ .

وعربي »[1] ، فكل ما فيه هو عربي اذن ، والذين يجيزونه ، يقولون إن هذه الأحرف أصولها أعجمية ، لكنها وقعت للعرب ، فعربتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال أعجمية صادق[2] . فالخلاف اذن خلاف عقائدي لا صلة له باللغة ، وبوقوع المعرب أو عدم وقوعه في العربية .

وهناك فريق آخر جماعته من المحدثين في الغالب ومن غير العرب ، ذهب مذهباً معاكساً لمذهب من ذكرت تماماً . تطرف في رأيه تطرفاً مسرفاً وبالغ في أحكامه مبالغة منكرة . رَجّع ألفاظاً عربية استعملها الجاهليون الى أصول أعجمية ، وادعى انها من الألفاظ المعربة عن السريانية أو اليونانية أو اللاتينية أو العبرانية أو الفارسية ، لمجرد ورودها أو ورود مشابه لها في تلك اللغات ، وحجته في ذلك أن الجاهليين أميون أعراب وثنيّون ، وأن الألفاظ التي رأوا عجمتها هي ألفاظ حضارة لها مدلولات دينية أو سياسية أو اجتماعية أو حرفية أو غير ذلك ، ولهذا لا يمكن أن تكون من صميم العربية ، بل لا بد أن تكون طارئة عليها دخيلة في الأصل ، ثم عربت . وفي هؤلاء المتعصب لجنسيته ، مثل أن يكون سريانياً أو يهودياً ، لهذا رجع تلك الألفاظ الى لغته لتعصبه لها،والمتأثر بنظرية جهل الجاهليين وعدم وجود أي علم أو ثقافة لديهم ، والمتعصب على الاسلام ، لهذا رجع أكثر الألفاظ الحضارية الى النصرانية أو اليهودية أو الفارسية ، لإثبات أخذ الاسلام منها، وتعلم الرسول ديانته من تلك الديانات .

أما البحث العلمي الخالص ، فهو ما كان بعيداً عن كل الميول والاتجاهات والنزعات ودوافع التعصب ، قائماً على الحقائق والوقائع وفكرة البحث عن الحق للتوصل اليه . فالرأيان في نظري باطلان ، بعيدان عن جادة العلم . وواجب الباحث في مثل هذه الأمور أن يتريث أولاً ، وألاّ يبت في قرار إلا اذا كان متأكداً من سلامة السبل التي سار عليها في الوصول الى قراره ، ولا سيما أن العربية والعبرانية والسريانية كلها من هذا الأصل الذي يطلق علماء الأجناس واللغات عليه:

---

١ فصلت ، ٤٤ .

٢ السيوطي ، الاتقان (١٠٨/٢) .

الأصل السامي ، وتشترك كلها أو أكثرها في كثير من الألفاظ ، والحكم بأن هذه أخذت من هذه أو تلك ، حكم فج ناقص إذ لم يستند الى موارد ونصوص مرتبة ترتيباً تأريخياً . ثم ان العربية ليست عربية واحدة ؛ فإن هناك ألسنة عربية أخرى، مثل عربيات اليمن ، وهي لهجات عربية قديمة ذات نصوص يعود تأريخ بعضها الى ما قبل الميلاد ، فلا يجوز التعميم بالاستناد الى لغة القرآن الكريم وحدها ، بل لا بد من تتبع ما جاء في اللغات العربية الأخرى . أضف الى ذلك أن أهل اليمن كانوا أصحاب حضارة وحضارتهم أرقى وأعلى درجة من حضارة بعض الساميين. ولذلك يدفعنا الواجب الى دراسة ما جاء في نصوصهم من ألفاظ ومسمّيات وآراء ومقارنتها بما جاء في النصوص الواردة في اللغات السامية الأخرى ، للحصول على رأي علمي في هذه الأمور . ولكننا مع ذلك نحن في وضع لا نتمكن فيه من البت في هذه الأمور ، لأن ما لدينا من نصوص جاهلية أغلبه من النوع الذي عثر عليه على ظاهر الأرض ، لأن الظروف لم تمكن العلماء حتى الآن من التنقيب تنقيباً علمياً عميقاً في باطن مواطن الآثار، لاستخراج المطمور من الكتابات والآثار الأخرى ، والغالب أن يكون المطمور ذا أهمية كبيرة ، وسيعين المؤرخين في كتابة الأجزاء المفقودة من تأريخ العرب قبل الاسلام . وقد يكون من بين ما يعثر عليه ما هو أقدم من النصوص التي بين أيدينا . وعلى هذه النصوص ان رتبت ترتيباً زمنياً يوثق به ، يمكن أن يكون اعتمادنا في تثبيت المفردات، وفي تعيين زمن استعمالها في العربية وفي كونها عربية أصيلة أو معربة .

إن وجود المعربات دليل على اتصال الجاهليين بغيرهم ، واتصال غيرهم بهم. وعلى الروابط الفكرية التي كانت بين العرب وبقية الساميين،وبين العرب والشعوب الأخرى وجمعها وتصنيفها لذلك في مجموعات حسب الموضوعات يعطينا رأياً عن النواحي التي تأثر بها الجاهليون في أمور الحياة . غير ان هذا العمل عمل شاق ، ويجب أن يستند الى معجمات جامعة مرتبة ترتيباً تأريخياً ، تذكر الكلمة، ثم تذكر أصلها ومن أي أصل أخذت وفي أي زمن كان ذلك ، وأول من استعملها أو أقدم نص عربي وردت فيه ، وفي أي معنى استخدمت ، وهكذا . ولكننا لا نملك ، ويا للأسف ، مثل هذه المعجمات . وكل ما لدينا معجمات قديمة ، لم تنتبه لهذه الأمور ، ولم تميز الجاهلي من الاسلامي ، ولا اللفظ الوارد في عربية القرآن الكريم من اللفظ الوارد في اللهجات العربية الأخرى . فذكرت الألفاظ

الواردة في اللهجات العربية الأخرى على انها مرادفات ، ترد في عربيتنا على حين انها مسميات للشيء ذاته في اللغات العربية الأخرى .

والذين يقولون بعدم وقوع المعرب في كلام العرب ، كأنهم يتصورون ان العرب كانوا بمعزل عن العالم وانقطاع عن الناس . ولهذا لم يتأثروا بغيرهم ، ولم يؤثروا في غيرهم ، وأن عرقهم لذلك بقي صافياً نقياً سليماً ، لم تدنسه أعراق أعجمية ، ولم يمازج دمهم دمٌ غريب ، ولم تدخل لغتهم لفظة غريبة، بل بقيت نقية صافية على ما خلقها الله يوم خلق اللغات . وقد تكون في اللغات الأخرى ، كلمات دخيلة ، أما العربية فحاشاها من ذلك !

وهؤلاء لا يدرون انه قد كانت في سواحل جزيرة العرب قبل الاسلام مستوطنات يونانية ، نشأت في مواضع عديدة من سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر العربي والخليج العربي ، وقد بقي أصحاب تلك المستوطنات في مستوطناتهم فلم يعودوا الى ديارهم ، ونسوا أصولهم وعاداتهم ، وصاروا عرباً مثل سائر العرب،يرجعون أنسابهم الى أصول عربية على عرف العرب والأعراب . وأن منهم من بقي عرقه الدساس يحنّ الى أصله،فقد ذكر المؤلفون اليونان ان بعض القبائل العربية الساكنة على السواحل ، كانوا يرحبون ببعض اليونان ، لاعتقادهم انهم يجمعهم واياهم صلب واحد .

يضاف الى ذلك الرقيق من الجنسين ، وقد كانت بلاد العرب تجلب عدداً كبيراً منه في كل عام ، تشتريه من أسواق العراق ومن أسواق بلاد الشأم ، وتوكل اليه القيام بأعمال مختلفة ، ولا سيما الأعمال التي تحتاج الى خبرة ومهارة فنية ودراية . ونحن نعلم أن العربي الصريح يأنف من الاشتغال بالحرف وزراعة الخضر ، ولذلك وُكِلَ الى هذا الرقيق أمر القيام بها ، فأدخل الى العربية كثيراً من الألفاظ الخاصة بالزراعة وبالحرف ، لم تكن معروفة في العربية ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد .

يضاف الى ذلك أيضاً، التجارة . فقد كان التجار من عرب وغرباء يتعاطونها في جزيرة العرب وفي خارجها ، يصدرون منها حاصلاتها وما تجمع فيها من سلع مستوردة من سواحل افريقية الشرقية والهند ، ويأتون اليها بما تحتاج اليه قبائلها وأهل مدرها وأهل إفريقية من بضائع مصنوعة أو منسوجة من حاصل الانبراطوريتين

الساسانية والرومية والأرضين المصاقبة لها . ومن الطبيعي أن يؤدي ذهاب التجار العرب الى أسواق العراق وبلاد الشأم ، واحتكاكهم بالفرس والروم ، الى الوقوف على أحوالهم والاتصال بهم والأخذ منهم والتأثر بثقافتهم وحضارتهم واقتباس ما يلائمهم منهم ؛ ومن الطبيعي أن يؤثر التجار الروم والفرس بعض التأثير في نفوس زملائهم العرب في الأماكن التي ولجوها من جزيرة العرب ، وأن ينقلوا اليهم شيئاً من آرائهم وأفكارهم وتجاربهم في الحياة،وأن يعطوهم شيئاً من مصطلحات لغتهم التي لا تعرفها العربية ، ومن الأسماء الخاصة بالتجارة وبالبضائع التي يأتون بها الى جزيرة العرب لبيعها في أسواقها .

وكان للمبشرين شأن مهم في نقل التراث اليوناني والإرمي الى جزيرة العرب في أيام الجاهلية ، وبجهادهم المضني المتواصل وعملهم المتوالي، دخلت النصرانية في أماكن متعددة قاصية من بلاد العرب،حتى تمكنوا من تنصير قبائل وأمراء ورؤساء قبائل ، بطريقتهم الخاصة في الاقناع والتأثير ، وبالتطبيب ، وبالتقرب الى ضعاف الحال من الناس.وقد اتبعوا في التبشير وفي إدارة المؤسسات التبشيرية النظم الإدارية والدينية المتبعة في الكنيسة ، فجعلوا (بيث قطرايا) ، أي (قَطَراً) الموضع المعروف اليوم على ساحل الخليج ، كرسياً لـ (مطرابوليطي) ، يقيم فيه ، ويشرف على إدارة خمسة أساقفة ، يقيمون في (ديرين) و (مشمهيغ) أي (سماهيج) وهجر وبلاد (مازون) و (حطا) المسماة (يبط أردشير)[1] ، وهي الخط .

وفي موضع مثل نجران غلبت النصرانية على أهله،نظمت الكنيسة شؤون المدينة، فتولى رئيسها الديني ، وهو بدرجة (أسقف) ، الأمور الدينية ، وتولى (السيد) أمور الحرب وادارة المسائل الخارجية المتعلقة بعلاقة نجران بغيرها، وتولى (العاقب) الأمور الداخلية ، وهم جميعاً يؤلفون معاً مجلس المدينة فيديرون معاً أمور الناس، وينظرون في كل ما يحدث بينهم من نزاع وخصومات . وهكذا نظمت العلاقات بين كنيسة المدينة وحكامها ، وانسجم الحكم بين الجماعتين .

وقد أدخل التبشير ألفاظاً يونانية وسريانية ترد في الديانة وفي الحياة اليومية الى

---

١ ادي شير ، تاريخ كلدو وآثور ، المجلد الثاني ، (المقدمة) .

اللغة العربية ، ولا سيما المصطلحات الخاصة بتنظيم الكنيسة وبالحياة النصرانية ، كما كان لبعض الشعراء الجاهليين يد في إدخال بعض المصطلحات النصرانية الى العربية، كالذي تجده في شعر (امرىء القيس) والأعشى وعدي بن زيد العبادي وغيرهم من كلمات ترد بكثرة عند النصارى ، نتيجة اتصالهم واحتكاكهم بهم ، فصارت بذلك تلك الكلمات من المعربات .

ويضاف الى من ذكرنا اليهود ، فقد كان لهم أثر في الجاهليين ، في يهود العربية الغربية خاصة ، أي في الحجاز ، في البقعة الممتدة من (يثرب) حتى بلاد الشأم ، وفي اليمن . فقد سكن اليهود في هذه المواضع ، وبنوا لهم مستوطنات فيها ، واختلطوا بعربها ، واحترفوا الحرف كما ذكرت ذلك في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

وقد كانت (مدراشات) اليهود في يثرب وفي المستوطنات اليهودية الأخرى تلقن اليهود أحكام دينهم ، وتعلم أطفالهم القراءة والكتابة . وقد قصدها العرب وجلسوا فيها يستمعون الى يهود . وقد شاهدها الرسول بعد هجرته الى المدينة ، وحضر جدلاً كان قد وقع بين جماعة من يهود ، كما حضرها أبو بكر ونفر آخرون من الصحابة . وكان أحبارهم يدرسون فيها ويفتون ، كما كانوا يقيمون الصلوات واحتفالات الأعياد في (الكنيس) . ومن هؤلاء اليهود ومن (مدراشاتهم) انتقلت الألفاظ العبرانية الى العربية فعربت ، وفي جملة ذلك لفظة (مدراس) ، و (سفر) ، و (توراة) ، و (تابوت) ، و (حبر) ، و (كاهن) وغير ذلك من مصطلحات ، لأكثرها صلة بشؤون الدين .

ان الحاجة ، هي التي تحمل الناس على الأخذ والعطاء ، وبها نفسر اقتباس العرب للمعربات . فأسماء بعض الآلات والأدوات والطرق الفنية والأنسجة الدقيقة المصنوعة من الحرير وأسماء المأكولات النفيسة وأسماء النبات التي هي من أصل شمالي وبعض المشروبات وما شابه ذلك ، إنما دخلت العربية وعربت لأسباب عديدة ، أهمها أن الحياة في جزيرة العرب حياة عادية ، تكاد تجري على وتيرة واحدة ، فلم تساعد على ظهور الأمور المذكورة ، فاضطر الناس بحكم الحاجة الى أخذها من غيرهم واستيراد أشياء مادية وغير مادية من جيرانهم ، حتى في الأمور الفكرية والروحية ، مثل المعربات الدينية ، فإنها خضعت لحكم الحاجة ، فالنصارى

العرب استعملوا معربات من أصل سرياني ، لأنهم اضطروا الى استعمالها ، لأنها تعابير دينية لا وجود لها عند العرب الوثنيين أولاً ، ثم هي مصطلحات رسمية كنسية ، لم تتساهل الكنيسة في تغيير أسمائها ، ولهذا استعملها العرب على النحو المرسوم ، كما يستعمل الأعاجم المسلمون المصطلحات العربية ، لأنها مصطلحات اسلامية ليس لها مقابل في لغتهم ، أو لأنها مصطلحات دينية نحب المحافظة على تسميتها وان وجد لها مقابل في لغات الأعاجم .

وأكثر المعربات الجاهلية ، هي من أصل يرجع الى لغة بني إرم أو الى لغة الفرس ، ثم تليها المعربات المأخوذة من لغات أخرى مثل اليونانية والعبرانية واللاتينية والحبشية والقبطية ، وكثير من الألفاظ اليونانية إنما دخل الى العربية عن طريق السريانية ، فقد كان السريان قد أدخلوها في لغتهم ، لأنها لم تكن معروفة عندهم ، ومن لغتهم هذه تعلمها الجاهليون .

والمعربات السريانية الأصل ، هي في الزراعة في الغالب ، وفي التوقيت ، ثم في موضوعات دينية وصناعية وتجارية وفي أمور أخرى. أما المعربات عن الفارسية فهي في موضوعات زراعية كذلك وفي أسماء المأكول والملبوس وأمور اجتماعية . وأما المعربات عن العبرانية ، ففي أمور خاصة بسكناهم بين العرب وبأمور دينهم وشؤونهم . وأما المقتبس عن اليونانية فهو في أمور حِرْفية ، وفي مصطلحات دينية ومصطلحات زراعية ومصطلحات تستعمل في شؤون البحر وما شاكل ذلك .

وتفسير وجود المعربات السريانية والفارسية بنسبة تزيد على نسبة وجود المعربات الأخرى ، هو ان المتكلمين بلغة بني إرم كانوا مزارعين في الغالب، وكانوا على اتصال بالعرب ، وقد خالطهم العرب وعاشوا بينهم ، واقتبسوا منهم ، حتى أنهم كتبوا بلسانهم ، ودخل الكثير منهم في دينهم ، دين النصرانية ، ولا سيما قبيل الاسلام . وقد كانت أحوالهم الاجتماعية مشابهة للأحوال الاجتماعية عند العرب ، ولا سيما عرب بلاد الشأم والعراق . ووضع مثل هذا يؤدي بالطبع الى الاقتباس والأخذ والعطاء . وأما الفارسية ، فقد كان الفرس يحتلون بلاد العراق وكان لهم نفوذ على العربية الشرقية ، وقد استولوا على اليمن قبيل الاسلام، ولهم تجارة مع أهل مكة وأماكن أخرى ، وبحكم هذه الصلات دخلت في العربية ألفاظ فارسية وصارت في عداد المعربات .

ونحن اذا تتبعنا صورة توزع المعربات بين العرب ، نجد ان توزيعها يختلف باختلاف الأمكنة ، فهناك أمكنة تأثرت بالمعربات الفارسية بالدرجة الأولى، وهناك مواضع تأثرت بالمعربات السريانية في الأكثر ، وهناك أقاليم تأثرت بالمعربات عن اليونانية أو الحبشية بالدرجة الأولى. ثم نجد ظاهرة أخرى في كيفية توزع المعربات وظهورها ، هي ظاهرة الحاجة والظروف السائدة في مكان ما. فيمكننا اذن ارجاع تأثر لهجات العرب الجاهليين بالمؤثرات اللغوية الأعجمية اذن الى عاملين : عامل الاختلاط بالأعاجم عن طريق الجوار أو السكن معهم في موضع واحد ، واستخدامهم لهم ومجيء الأجانب من تجار ومبشرين اليهم ، وعامل الحاجة التي كانت تدفع الى أخذ أشياء غير معروفة في بلاد العرب ، فتدخل العربية بأسمائها الأعجمية ، فإذا انقضى زمن عليها ، تدخل في ضمن اللسان العربي وتعرب ، حتى ليخيل الى من لا يعرف أصلها انها عربية الأصل والنجار .

ولما تقدم نرى ان المعربات عن السريانية والفارسية هي أظهر وأبرز في لهجات عرب العراق من المعربات الأخرى،وان المعربات عن السريانية واليونانية – اللاتينية أبرز وأوضح في لغة عرب بلاد الشأم من المعربات المنقولة عن الفارسية أو الحبشية. وان المعربات عن الحبشية واللهجات الافريقية ، هي أوضح وأكثر ظهوراً في لهجات العرب الجنوبيين من المعربات الأخرى ، وذلك بسبب اختلاط العرب الجنوبيين بأهل الساحل الافريقي الشرقي ووجود جاليات افريقية في العربية الجنوبية وجاليات عربية جنوبية في السواحل الافريقية المقابلة منذ أيام ما قبل الميلاد ، فأدى هذا الاختلاط والتجاور الى الأخذ والعطاء في اللغة . كما نجد المعربات عن الهندية والفارسية والإرمية ظاهرة بارزة على ألسنة أهل الخليج ، لاتصالهم بالهند وبفارس وبالعراق .

وأما مثال ظهور المعربات بسبب الحاجة ، فهو ما نجده في لهجة أهل يثرب وما حولها من مؤثرات فارسية وسريانية في الزراعة بصورة خاصة وفي نواح أخرى من نواحي الحياة الاجتماعية ، فقد استعمل أهل المدينة ألفاظاً فارسية في لهجتهم ، بسبب حاجتهم وظروفهم . فأرضهم أرض خصبة ذات آبار ومياه ، ولما كانوا في حاجة الى أيدي عاملة لتشغيلها لاستغلال مواردها استعانوا بالرقيق،وكان معظم الرقيق الذي جيء به ، من رقيق العراق الذي يرجع الى أصل فارسي ، أو نبطي متأثر بالفارسية ، لرخص ثمنه بالنسبة الى رقيق الروم،ولفطنته ولمهارته في الحرف

بالنسبة لرقيق افريقية ، وعن طريق هذا الرقيق دخلت المعربات الفارسية والنبطية المستعملة في الزراعة وفي أمور أخرى عرف بها الفرس والنبط الى (يثرب)[1] .

أما أهل مكة ، فلم تظهر المعربات الزراعية عندهم ، لعدم وجود حاجة لهم اليها ، بل استخدموا معربات أخرى في الأمور التي كانوا بحاجة اليها ، والتي لم يكن لها وجود عندهم ، وقد دخلت اليهم من أماكن مختلفة ، كان لهم تعامل معها ، ومن الرقيق والتجار الغرباء الذين كانوا يعيشون بها .

ولبعض المحدثين بحوث في الدخيل من السريانية على العربية ، من جملتها بحث للمستشرق (فرنكل) Fränkel ، دعاه (الألفاظ الآرامية الدخيلة على العربية) Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen . وكتابه هذا هو أشهر كتاب ألّفه المستشرقون في هذا الباب . كما ان لآباء الكنيسة الشرقيين مؤلفات وبحوثاً في الألفاظ السريانية في العربية ، وضعوها بالعربية ، نشر بعضها في مجلّة المشرق ، ونشر بعض آخر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ونشر بعضه في كتب ، مثل كتاب : (غرائب اللغة العربية) ، تأليف الأب رفائيل نخلة اليسوعي ، وفيه باب خاص بالكلمات الدخيلة في العربية الداخلة فيها من الآرامية والعبرانية والفارسية واليونانية ومن التركية واللاتينية والايطالية والفرنسية ومن لغات أخرى[2] . وفي بعض هذه البحوث تسرع في الأحكام ، إذ فيها ألفاظ نسبت الى أصل سرياني ، وهي من الألفاظ الواردة في اللهجات العربية القديمة ، وفيها مما يرد في العربية وفي اللغات السامية الأخرى ، لأنه من المشترك الذي يرد في أصول الساميات .

وقد رأيت اختيار ألفاظ في الزراعة أو ألفاظ لها علاقة بها ، من القائمة التي أوردها (الأب رفائيل نخله اليسوعي) ، للألفاظ الآرامية الداخلة في العربية ، وذلك للوقوف عليها ، ولتكوين فكرة عنها ، وبعض هذه الألفاظ هو في رأيي مما استعمله العرب قبل الإسلام ، ووارد في النصوص الجاهلية ، فمن الصعب ارجاعه الى أصل آرامي من غير نص أو دليل منطقي مقبول ، وبعضه من النوع الوارد في العربية وله أصل عربي ، فلا يمكن أن يقال إنه من أصل آرامي ،

---

١ البيان والتبيين (١/ ١٠) .
٢ المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠ .

لمجرد وجود مرادف له أو لفظ مقارب له ، وبعض آخر هو من الألفاظ التي ترد في كثير من اللغات السامية فلا يجوز تخصيصه بالسرياني ، وارجاع أخذ العرب له من هذا الأصل .

ومن اللهجات في الزراعة وما يتعلق بها وبالفواكه والحبوب والأزهار وما شاكل ذلك : (آس) وهو من أصل سرياني هو (اسو) ، و (أب) بمعنى ثمرة من (أبو) ، و (ارف) و (أرفى) من أصل سرياني كذلك بمعنى قسم الأرض وحددها ، ومن يمسح الأرض ويحددها . و (أكّار) بمعنى حرّاث ، أي من يحرث الأرض من أصل Akoro ، و (أنبوب) ، من (أبوبو) Aboubo بمعنى قصبة وأنبوب أجوف وما بين عقدتين من القصب ، و (اندر) بمعنى بيدر ، من (ادرو) Edro و (باسور) بمعنى عنب غير ناضج ، و (باكورة) ويراد بها أول الثمر من Bakorto و (بطيخ) ، أي البطيخ من fatiho ، و (بور) صفة للأرض من (بورو) bouro و (بيب)، بمعنى قناة ومجرى الماء الى الحوض من أصل (بيبو) bibo ، و (بيدر) من bayt-edro و (تبن) من (تبنو) ، و (تخم) بمعنى حدّ من أصل (تحومو) thoumo و (ترعة) ، بمعنى قناة عميقة من (ترعتو) و (توت) من (توتو) touto و (ثوم) من toumo و (جبن) من أصل goubno والجريب من gribo ، و (جرام) بمعنى نواة من أصل garmo ، و (الجرن) ويراد به حجر منقور للماء وغيره من Gourno ، و (الحب) بمعنى الجرة الكبيرة من (حبو) Houbo و (حمص) من (حمصو) Hemso و (حندقوق) من Handqouqo ، و (خبيص) ، بمعنى حلوى مخبوصة ، من طحين وسمن وعسل وأصلها (حبيصو) Habiso ، و (الخردل) من (حردلو) Hardlo ، و (خس) من (خسو) Haco ، و (الخوص) الذي يكون على السعف من (حوصو) Houso ، والخوخ من Houho و (الدبرة) البقعة المزروعة أي الحقل من (دبرو) dabro و (دبس) أي الدبس من debcho و(دبق) من debeq و (درس) ، كأن نقول درس الحنطة من drach و (دقلة) أي نخلة من deqlo و (رُب) وهو ما يخثر من عصير الثمار من أصل Raubo و (رحى) من Rahyo و (رمّان) من أصل Roumono و (ريحان) من Rihno و (زبن) بمعنى باع الثمر على شجره من Zaban بمعنى باع

و (زبون) بمعنى مشتري من Zobouno و (زفت) من أصل Zefto و (زق) من Zeqo و (زمـــارة) ، قصبة يزمر بها من Zamorto و (زيت) من Zayto و (زيتون) من Zaytouno و (سكة) مثل سكة المحراث من Sekto و (سكر) ما يسد به النهر ، من Chakro و (سلاء) أي شوك النخل من Salwo و (سمّاق) من أصل Sawmoqo ، وسنبل الحنطة من Seblo و(سنبل) بمعنى نبات طيب الرائحة من Sanboul و (شتلة) ما قلع من النبات ليغرس في مكان آخر من أصـــل Chetlo ، و (شرعوف) نبات وثمر من أصـــل Sour'afo و (شالم) و (شولم) و (شيلم) مـــن Chaylmo و (صعتر) من Setro و (صفصاف) من Safsofo و (مطمورة) ، وهي حفرة تحفر في الأرض يوسع أسفلها لحفظ الحبوب من matmourto و (عذق) أي عنقود عنب أو نخل من (عدق) 'daq و (عفص) من 'afso ، و (عقـــار) خمر ونبات يتداوى به ، وقد سمى العرب الخمر دواء من أصل 'egro ، و (عنب) من 'enbo ، و (عنقر) جذر القصب من 'eqoro بمعنى جـذر و (عود) وهو العود الذي يتبخر به من 'ouda و (غابة) من أصل 'obto بمعنى غابة كثيرة الأشجار ، وغدير بمعنى نهر وبركة يتركها السيل من gadiro ،و(غرب) نوع من الحور من أصل 'arbo ، و (فجل) من fouglo ، وفدان من أصل fadno ، و (فرث) ، من ferto و (الفروج) من Farougo ، و(الفرخ) من farahto و (فرع) بمعنى غصن من (فرعو) Fer'o ، و (فقح) مثل (فقح النبات) بمعنى أزهر من أصل (فقح) fqah ، و (فقاح النبات) أي زهره من أصل (فقحو) fagho ، و (فقد) ، بمعنى شراب من زبيب أو عسل من (فقودو) fqodo ، و (فُل) وهو زهر يشبه الياسمين من (فلو) Falo ، و (قثاء) من qtouto ، و (قش) من qecho ، و (قصر) وهو ما يبقى في الغربال من النفاية ، من أصل (قصرو) qisro أي قشرة الحنطة ، و (القطران) وهو سائل زيتي يستخرج من بعض الأشجار من أصل (قطرون) qotron ، و (القفيز) وهو مكيال من (قفيزو) qfizo ، و (قفص) من (قفسو) qafso ، و (قلة) بمعنى جرة كبيرة من (قلتو) qoulto ، و (قمح) أي حنطة ، من (قمحو) qamho ، و (كاث) وهو ما ينبت ممـــا انتثر من الـزرع المحصود من koto ، و (كدّاس) الحب المحصود المجمـوع من

(كدنحو) qdicho ، و (كرّ) بمعنى حمل ستة أوقار حمار ، أو ستون قفيزاً من (كورو) Kouro ، و (كرب) من أصل (كرب) Krab ، و (كُراث) من Karoto ، و (كرخ) بمعنى أجــرى وحول من (كرخ) Krak ، و (كرفس) من (كرفسو) Krafso ، و (كزبــرة) من (كوزبرتو) Kouzbarto ، و (كمثرى) من (كومترو) Komatro ، و (معين) نعت للماء الجاري على وجه الأرض من (مينو) m'ino ، و (نجر) من (نجر) Nagar ومنها النجار ، و (نشوق) من (نسكو) Nosko و (نطر) بمعنى حرس من (نطر) Ntar ومنهــا الناطور أي الحارس ، و (نُطّار) وهو ما يكون على هيأة رجل ينصب بين الزرع لإخافة الطيور وإبعاد الحيوانات المضرة به من (نوطورو) notoro ، و (نيطل) بمعنى دلو من (نطلو) notlo ، ونعناع من mon'o ، و (نورج) سكة المحراث من (نورجو) Norgo ، و (نير) وهي خشبة معترضة في عنقي ثورين يجرأن محراثاً من (نيرو) Niro ، و (هرطمان) من qourtomo ، وبل ووابل بمعنى المطر الشديد من (يبــل) Yibal ، و (ورد) من (وردو) Wardo ، و (وسق) بمعنى حمل بعير من (وسقو) Wasqo ، و (يتوع) ، كل نبات له لبن ، أي سائل أبيض في داخله يشبه اللبن من (يتوعو) Yatou'o [1] .

وقد وردت لفظة (الأبّ) في القرآن الكريم: « وفاكهة وأبّا . متاعاً لكم»[2]. وقد ذكر ان (عمر) قال : « قد عرفنا الفاكهة فما الأبّ ؟ قال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف »[3] ، وقد اختلف المفسرون في المراد منها ، مما يدل على أن اللفظة لم تكن معروفــة عندهم معرفة واضحة ، وفي كلام عمر : « إن هذا لهو التكلف » ، أو قوله : « ما كلفنا أو ما أمرنا بهذا »[4] دلالــة على عدم وضوح معناها عنده وعند الناس . وهي بمعنى (ثمرة) في الإرمية من

---

١ غرائب اللغة (من الصفحة ١٧٢ الى الصفحة ٢١٠) .

٢ عبس ، الاية ٣١ ،

٣ تفسير الطبري (٣٠/٣٨) ، تفسير الالوسي (٣٠/٤٧)، تفسير ابن كثير (٤/٤٧٢ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (١/١٤٢) ، (أب) .

Ebo ، وقد ذهب العلماء الى أن (الأبّ) ما تنبت الأرض للأنعام والماشية[1]، فهي في معنى آخر ، يخص العشب والكلأ وما تنبته الأرض ليعلفه الحيوان في رأي غالبية العلماء ، غير المعنى الوارد لها في السريانية .

وأما (الأرف) ، فبمعنى تقسيم الأرض وتحديدها ، ويقال لمن يمسح الأرض ويعين حدودها (ارفو) Arfo في الارمية[2] ، وقد ذكر علماء اللغة أن الارف الحدود بين الأرضين ، أو معالم الحدود بين الأرضين . « وفي حديث عثمان رضي الله عنه ، الارف تقطع الشفعة ، وهي المعالم والحدود . هذا كلام أهل الحجاز ، وكانوا لا يرون الشفعة للجار »[3] .

وأما (الأكار) فيذكر علماء اللغة أنها من أصل (أكر) ، بمعنى (حفر)، والأكار بمعنى الحفّار والحرّاث والزارع . ومن ذلك حديث « أبي جهل : فلو غير أكار قتلني » ، أراد به احتقاره وانتقاصه[4] . وتقابل هذه اللفظة لفظة (اكورو) Akoro في الأرمية التي هي « اكار »[5] .

وبين الألفاظ التي ذكرتها ألفاظ لا يوجد دليل على انها معربة من أصل ارمي لأننا نجد ان لها جذراً عربياً ، وهي ليست من المسميات التي لم يعرفها العرب حتى نقول انها استوردت من الخارج ، أو ان الحاجة حملت العرب على تعلمها من الرقيق الذي كان عندهم أو من المبشرين أو التجار الغرباء .

وأما المعرب عن الفارسية مما يخص الزراعه ، فأكثره في أسماء أثمار أو أزهار أو روائح وعطور ، مثل (الخربز) بمعنى البطيخ ، من أصل (خربوزة) . وفي الحديث عن أنس قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الخربز والرطب » . وفي حديث عن عائشة : « يأكل البطيخ بالرطب »[6] . و (السيسنبر)

---

١ الموارد المذكورة .
٢ غرائب اللغة (١٧٢) .
٣ تاج العروس (٣٩/٦) ، (أرف) .
٤ تاجر العروس (١٧/٣) ، (اكر) .
٥ غرائب اللغة (١٧٣) .
٦ الجواليقي : المعرب (ص ١٣٧) ، فتح الباري (٤٩٦/٩) ، عون المعبود (٤٢٧/٣ وما بعدها) .

نوع من الريحان[1] ، و (الجل) بمعنى الورد[2] ، و (الجلاب) أي ماء الورد . وقد وردت اللفظة في حديث عائشة عن الرسول[3] . وذلك دليل على ان اللفظة كانت معروفة قبل أيام الرسول . ويلاحظ ان لفظة (بطيخ) هي من الألفاظ المعربة كذلك ، عربت من أصل (فطيخو) بلغة بني إرم[4] .

وقليل منه ما يخص آلات الزراعة أو الأرض ، مثل (بستان) والجمع (بساتين)[5] ، وذلك لأن غالبية الذين كانوا يفلحون الأرض ويزرعونها في العراق وفي بلاد الشأم ، هم من بني إرم أو من المتكلمين بلغتهم ، وباحتكاك العرب بهم تعلموا أسماء الآلات والأدوات وطرق حرث الأرض وزرعها ، وأسماء كثير من الزروع ومقاييس الأرض وطرق الاستفادة من الأرض ، فدخلت الى العربية . أما الفرس في العراق ، فلم يكونوا يباشرون زراعة الأرض وفلاحتها في العراق،وانما كان (مرازبتهم) وأثرياؤهم يمتلكون الأرضين الواسعة ، ويسخرون أهل البلاد في استغلالها لهم ، ولهذا لم تترك لغتهم أثراً كبيراً يشبه الأثر (الإرمي) من ناحية الزراعة في العربية .

أما المعربات في الزراعة عن اليونانية ، فأقل عدداً ، إذ لم يكن العرب على اتصال مباشر بالمزارعين اليونان ، لهذا لم يأخذوا عنهم كثيراً . والمعروف من المعربات في هذا الباب هو في أسماء ثمر نبات أو بذور ، أو ما يتعلق بحاصل عنب ، مثل الخمور ، فقد كان أهل الحجاز يستوردون الخمور من بلاد الشأم، وقد تعلمها أهل هذه البلاد من الروم بأسمائها اليونانية . ولما أخذها العرب من بلاد الشأم ، حرفوا الأسماء بعض التحريف لتلائم المنطق العربي .

ومن هذه المعربات : (الاسفنط) : وهي أجود الخمر المطيب من عصير العنب ، من أصل (افسنتين) Apsinthion ، كان الخمر يطيب به[6] . و (خندروس) ، ويراد بها نوع حنطة ، أو حنطة مجروشة من أصل Khandhros[7] ، و (خندريس) ويراد بها خمر معتقة ، ونعت لخمر مصنوعة من

---

١ الجواليقي (ص ٨٠ ، ١٠٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٥) .
٢ الجواليقي (ص ١١٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .
٣ الجواليقي (ص ١٠٦) فتح الباري ، لابن حجر (٣١٧/١) ، المزهر (٢٧٦/١) .
٤ غرائب اللغة (١٧٤) .
٥ الجواليقي (ص ٥٣) .
٦ الجواليقي (ص ١٨) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٥٧) ، « وأخبرنا عن يعقوب أن « الخندرس » : القديمة . يقال : حنطة خندريس ، أي قديمة » ، الجواليقي (ص ١٢٥) .

الكرم اسمه Kantharios [1] . و (زنجبيل) ، وهي من أصل zinguiveri . ومن الألفاظ الواردة في القرآن الكريم . وقد ذكرت في شعر منسوب الى الأعشى [2] . و (القرنفل) ، من أصل Kariofillon [3] . و (كافور) من Kafoura . وفي السريانية qafouro [4] . و (المسطار) ، ويراد بها الخمر التي اعتصرت من أبكار العنب حديثاً [5] ، وأصلها (مسطس) Moustos [6] . و (نرجس) من أصل Narkisos [7] .

وبلاد الشأم أكثر شهرة من العراق في الأعناب ، وهي مادة صالحة لصنع أنواع متعددة من الخمور . أما أهل العراق ، فقد استخرجوا خمرهم من التمر، فلم يعرف لهذا السبب بتنويع الخمور . وقد استغل سكان جزيرة العرب التمور أيضاً لاستخراج الخمور منها ، وذلك في الأماكن التي تكثر فيها النخيل ، وتقل أشجار الكروم . ولاتصال الحجاز ببلاد الشأم بالقوافل الكبيرة ، كانت الخمور من أهم السلع التي تستوردها القوافل من تلك البلاد .

ومن الألفاظ الآرامية التي دخلت في العربية ، ولها معان دينية لفظة (ابل) بمعنى تنسك من «ébal» ، و (تأبل) بمعنى (حزن) من «étébal» ، و (أبيل) بمعنى راهب من (أبيلو) «abilo» الإرمي بمعنى ناسك وراهب [8] . وقد جعلها (الجواليقي) فارسية الأصل [9] ، وهو خطأ منه . و (الباعوث) ، صلاة لثاني عيد الفصح في بعض الطوائف من أصل «bo'outo» بمعنى صلاة وطلب [10] ؛ و (برخ) بمعنى زيادة ونماء من (برختو) bourhto بمعنى بركة وعطية [11] . و (البيعة) من (بيعتو) Bi'to [12] . و (الدنح) ، ويراد بها عيد الغطاس ،

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٥٧) .
٢ الجواليقي (ص ١٧٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٩) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٥) .
٤ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) ، الجواليقي (ص ٢٨٥ وما بعدها) .
٥ الجواليقي (ص ٣٢١) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢٦٩) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٧١) .
٨ غرائب اللغة (ص ١٧٢) .
٩ الجواليقي (ص ٣٠) .
١٠ الجواليقي (ص ٥٧) ، غرائب اللغة (ص ١٧٣) .
١١ الجواليقي (ص ٨١ وما بعدها) ، وغرائب اللغة (ص ١٧٤) .
١٢ الجواليقي (٨١) ، غرائب اللغة (ص ١٧٥) .

من أصل (دنحو) denho [1] . و (دير) أي بيت الرهبان ، من أصل دار[2] . و (ديراني) نسبة الى (دير) ، من أصل Dayronoyo [3] . و (ربّاني) ، بمعنى عالم بشريعة اليهود ، وحاخام أي معلم من أصل (ربونو) Rabono [4] . و (روح القدس) من (روح قدشو) Rouhqoudcho [5] . و (مزمور) من (مزمورو) Mazmouro [6] . و (سُلاّق) عيد صعود السيد المسيح،من Souloqo أي صعود[7] . و (صلاة) من (صلوتو) Slouto [8] . و (قس) (قسيس) من (قشيشو) Qachicho [9] . و (القوس) ويراد بها الصومعة ، من أصل Kaucho ، بمعنى عزلة [10] . و (ناقوس) من أصل noqoucho [11] .

وهناك ألفاظ أخرى لها معان دينية ، لم تكن شائعة معروفة إلا بين النصارى، لذلك لم أرَ حاجة الى الاشارة اليها ، ثم إن من الصعب البرهنة على انها كانت مستعملة عند النصارى الجاهليين .

وبعض الألفاظ المذكورة معروف ، وقد ذكر في الحديث ، وهذا مما يدل على شيوعه عند أهل الحجاز عند ظهور الاسلام ، وبعضه مما ورد في القرآن الكريم من آيات تعرضت للنصرانية في ذلك العهد .

وباتصال العرب باليهود في الحجاز ، دخلت في العربية ألفاظ ومصطلحات دينية ، عُربت ، مثل : (آمين) من أصل (امن)[12] ، و (اسرائيل) و (اسرائين) من (يسرائيل) (ي س ر ا ل)[13] ، و(تابوت) (ت ب ه)[14]

---

١ الجواليقي (ص ١٤٤) ، الاثار الباقية (ص ٢٩٢ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ١٨١) .
٢ الجواليقي (ص ١٨٧) ، غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
٤ غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
٥ غرائب اللغة (ص ١٨٤) .
٦ غرائب اللغة (ص ١٨٥) .
٧ الجواليقي (ص ١٩٦) ، غرائب اللغة (ص ١٨٨) .
٨ غرائب اللغة (ص ١٩٣) .
٩ غرائب اللغة (ص ٢٠١) .
١٠ الجواليقي (ص ٢٧٨) ، غرائب اللغة (ص ٢٠٢) .
١١ الجواليقي (ص ٣٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٠٨) .
١٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
١٣ الجواليقي (ص ١٣ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢١١) .
١٤ غرائب اللغة (ص ٢١١) .

بمعنى صندوق خشب و (تلمود)[1] و (توراة) من (تورا) بمعنى تعليم وشريعة[2] ، و (جهنم) من (جي هنم) ، بمعنى وادي هنم ، وهو جنوب أورشليم ، أي القدس ، وقد كثر فيه قبل الميلاد إحراق الأطفال تضحية لإله العمونيين[3] . و (حبر) من (حبر) (ح ب ر) بمعنى (الرفيق) في الأصل، ثم خصصت[4] بعالم . و (اسرافيل) من (سرافيم) (س ر ف ي م) ، ملك من الملائكة الكبار[5] . و (سبت) اسم يوم ، من (شبث) بمعنى يوم الراحة، واستراح[6] . و (سبط) ، قبيلة من قبائل اليهود الاثني عشر ، من (شبط)[7]، و (مِدراس) ، بمعنى معهد تدرس فيه التوراة ، من (مدرش)، (مدراش)، أي بحث وشرح نص[8] .

ولفظة (نبي) (نابي) Nabi المستعملة في عربيتنا من الألفاظ الواردة في التوراة ، وردت (٣٠٠) مرة في مواضع مختلفة منها[9] . وترد في لغة بني إرم أيضاً ، حيث وردت على هذه الصورة : Nbiyo [10] . وقد ذكر علماء اللغة انها من المعربات[11] .

وأخذت العربية من العبرانية ألفاظاً قليلة ذات صلة بالحرف ، مثل (تابوت) بمعنى صندوق من (تبا) Teba ، ويراد بها معنى صندوق في العبرانية[12] . و (فطيس) من (بطيش) Pattich بمعنى مطرقة[13] . و (قدوم) من (قردم) (قردوم) qardom بمعنى فأس ، و (كرزن) من (كرزن) بمعنى فأس كبيرة[14] .

---

١ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
٣ الجواليقي (ص ١٠٧) ، غرائب اللغة (ص ٢١١) .
٤ ولفنسون ، اليهود في جزيرة العرب (ص ٢٠) .
٥ الجواليقي (ص ٨) ، غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢١٣) .
٩ Hastings, p. 767.
١٠ غرائب اللغة (٢٠٦) .
١١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٢٠٥/١) .
١٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
١٣ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
١٤ المصدر نفسه .

وقد احترف اليهود الحدادة والصياغة والنجارة في الحجاز ، وتكسبوا منها ، ورآهم الجاهليون ، وهم يعملون بآلاتهم ، فتعلموا منهم أسماء الآلات المذكورة وغيرها ، واستعملوها على النحو المذكور .

ويلاحظ ان الباحثين في المعربات من المستشرقين والشرقيين ، رجعوا أصول ألفاظ يهودية الى السريانية ، وهي يهودية في الأصل ، وقد أخذتها السريانية من العبرانية بواسطة النصرانية ، بدليل ورودها في اليهودية قبل ظهور النصرانية بزمن.

أما المجوسية ، ديانة الفرس ، فلم تترك أثراً يذكر في العربية من ناحية المعربات ذات المعاني الدينية ، لقلة اتصال العرب بها، وعدم اهتمام المجوس بنشر دينهم ، وقلة عددهم في جزيرة العرب . ولهذا كانت أكثر الألفاظ الدينية التي عرفها الجاهليون ، قد دخلت فيهم من اليهودية والنصرانية،بسبب اتصال اليهودية والنصرانية بالجاهليين اتصالاً مباشراً .

ولفظة (المجوسية) نفسها هي من الألفاظ المعربة ، فهي من أصل Magush في الفارسية القديمة ، و Mugh في الفارسية الحديثة ، و Maghos في اليونانية ، وقد انتقلت من الإرمية الى العربية [1] . وفي الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يمجسانه ، أي يعلمانه دين المجوسية »[2]. وذكر أن اللفظة قد وردت في بيت شعر جاهلي هو :

أحار أريكَ برقاً هبَّ وهناً كنار مجوس تستعر استعارا

يقال إن صدر البيت لامرىء القيس وعجزه للتوأم اليشكري ، « قال أبو عمرو ابن العلاء : كان امرؤ القيس معنتاً عريضاً ينازع كل من قال إنه شاعر،فنازع التوأم اليشكري ، فقال له : إن كنت شاعراً فلمّط أنصاف ما أقول وأجزها ، فقال : نعم ، فقال امرؤ القيس :

أصاح أريك برقاً هب وهناً

فقال التوأم :

كنار مجوس تستعر استعارا

---

١ Shorter Ency., p. 298. غرائب اللغة (٢٦٩) .

٢ تاج العروس (٤/٢٤٥) ، (مجس) .

فقال أمرؤ القيس :

أرقت له ونام أبو شريح

فقال التوأم :

إذا ما قلتُ قد هدأ استطارا ،

الى آخر الشعر[1] . وإذا صح هـذا التمليط ، تكون هذه اللفظة قد وردت فيه لأول مرة في شعر جاهلي .

ومن الألفاظ التي لها صلة بالمجوسية لفظة (موبذ) و (موبذان) ، بمعنى الرئيس الديني للمجوس . من أصل (موبد) ، بمعنى كاهن ورجل دين عند الفرس القدماء[2] .

وفي باب المأكولات والمشروبات وما يتعلق بها ، نجد المعربات عن الفارسية أبرز وأظهر من المعربات المأخوذة من لغة بني إرم ، او من لغة الروم واللغات الأعجمية الأخرى . فـ (الباذق) ، وهو ضرب من الأشربة ، من أصل فارسي ، هو (باذه) (باده) بمعنى خمر ، أي شراب مسكر[3] . ولفظة (باطية) ويراد بها إناء زجاج للشراب ، من أصل (باديه) أي جرة[4] . و (البالغاء) ، بمعنى الأكارع من أصل (پايها) بمعنى أرجل[5] . و (الجلاب) أي مـاء الورد ، من أصل (كُلْ آب) ، و (كُلْ) بمعنى ورد،و(آب) بمعنى ماء[6] . و(الجوزينج) (الجوزينق) من الحـلاوات ، وتعمل من الجوز . من أصل (كوزينة)[7] . و (الخربز) البطيخ ، من أصل (خربوزة)[8] و (الخشكنان)[9] ، و(الخشكار) ،

---

١ اللسان (٢١٣/٦ وما بعدها) ، (مجس) .

٢ غرائب اللغة (٢٤٦) .

٣ المعرب ، للجواليقي (ص ٨١) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) ، الخفاجي ، شفـاء الغليل وما دخل في كلام العرب من الدخيل .

٤ المعرب (ص ٨٣) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) ، الدراسات الادبية ، ١٩٥٣ ، الجزء (٢ و٣) ، (ص ٩) ، التبادل اللغوي بين العربية والفارسية ، لجلال الديـن همايوني ، السنة الثانية ١٩٦١ م ، (ص ٣٧٥) ، (صور من التعريب ونقـل المعاني من الفارسية الى العربية) .

٥ المعرب (ص ٥١) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) .

٦ المعرب (ص ١٠٦) ، ابن حجر ، الفتح (٣١٧/١) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .

٧ المعرب (ص ٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٤) .

٨ المعرب (ص ١٣٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٥) .

٩ المعرب (ص ١٣٤) .

أي خبز مصنوع من قشر الحنطة والشعير ، من أصل (خشك) ، بمعنى يابس وآرد ، بمعنى طحين[1] . و (خوان) بمعنى مائدة[2] ، و (دوق) بمعنى لبن استخرج زبده ، من أصل (دوغ) ، بمعنى لبن حامض[3] . و (فالوذج) (الفالوذ) (الفالوذة) ، نوع من الحلواء ، من أصل (فالوده) (پولاد)[4] . ويذكر أهل الأخبار : أن عبدالله بن جدعان كان يطعم العرب هذا الطعام ، قدح[5] . و (القند) ، السكر[6] ، و (الكعك) ، من أصل (كاك)[7] . و (اللوزينج) نوع من الحلواء ، من أصل (لوزينه)[8] ، و (الأنبار) أهراء الطعام ، واحدها (نَبْرٌ) ، و (أنابير) جمع الجمع[9] ، من أصل (انباشتن) بمعنى خزن[10] . و (الدّرمك) ، وهو الدقيق الأبيض ، أي لباب الدقيق ، و (الجردق) ، و (السميذ)[11] .

و (السكباج) ، وهو لحم يطبخ بخل ، من أصل (سركه باجة) ، و (السكبينج) دواء ، وصمغ شجرة بفارس ، و (السكرجة) قصاع يؤكل فيها صغار[12] ، و (الزيرباج) ، و (الاسفيداج) ، و (الطباهج) ، و (النفرينج) من ألوان الطبيخ[13] .

وسبب ذلك ان الفرس كانوا أرفع مستوى من بني إرم في الحياة الاجتماعية ، وأكثر تقدماً في الحياة البيتية منهم ، فتفننوا في المأكل والملبس،وتنوعوا في المطبخ وافتنّوا في تنويع الأكل ، وأوجدوا لكل طعام اسماً ، لم تعرفه لغة بني إرم ،

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٢٦) .
٢ المعرب (ص ١٢٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٦) ، الخفاجي (ص ٨٧ وما بعدها) .
٣ المعرب (ص ١٥٥) ،غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
٤ المعرب (ص ٢٤٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩) .
٥ مجمع الامثال (٢/٧٣) .
٦ المعرب (ص ٢٦١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤١) .
٧ المعرب (ص ٢٩٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٣) .
٨ المعرب (ص ٢٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٤) .
٩ المعرب (ص ٢٠) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
١٠ غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
١١ المزهر (١/٢٧٥) .
١٢ تاج العروس (٢/٥٩) ، (سكبج) .
١٣ المزهر (١/٢٧٦) .

لأنهم لم يكونوا يعرفون تلك الأطعمة ، وباحتكاك العرب بالفرس وبني إرم الذين اقتبسوا من الفرس بعض تلك المأكولات تعلموا منهم أنواع الأطعمة ، وأخذوا منهم أسماءها أيضاً ، ودخلت على بعضها الصنعة ، لتحويلها وفق قواعد النطق العربي .

وينطبق ما قلته عن المعربات الفارسية في الأكل والمشروبات وما يتعلق بهما ، على المعربات من الفارسية في العطور والروائح والطيب وما يتعلق بها، وعلى بعض العوائد الاجتماعية ، ولا سيما بين العرب الذين كانوا على اتصال مباشر بالفرس . فقد تأثروا بحكم هذا الاتصال بهم ، واقتبسوا منهم بعض عوائدهم، مثل استخراج ماء الورد المسمى (جلاب) ، وهو (ماء الورد) للتطيب به[1] . وقد وردت لفظة (الجل) ، ومعناها الورد في بيت شعر للأعشى[2] . وكذلك (الجلسان) ، وقد ذكر ان (الجلسان) من (كلشان) (كلشن) ، أي ما ينثر من الورد على الحاضرين في العرس ، وذكر انها الورد ، أو قبة يجعلون عليها الورد[3] . و (القمقم) ، قنينة لماء الزهر أو نحوه (قمقمة)[4] . وتعني لفظة كوكوميون Koukkoumion ، وهي (قمقم) وعاء من نحاس لتسخين الماء في اليونانية[5] . ولعل احدى اللغتين قد استعارتها من الأخرى . وقد رجع بعض علماء اللغة اللفظة الى الرومية ، أي اليونانية ، وذكر ان اللفظة وردت في بيت شعر لعنترة[6] . و (مسك) من (مشك)[7] . و (نافجة) وعاء المسك ، من أصل (نافه) من (ناف) بمعنى سرة[8] .

واستعارت العربية من الفارسية ألفاظاً من الألبسة والأنسجة والخياطة ، وذلك

---

١ المعرب (ص ١٠٦) .

٢ وشاهدنا الجل والياسمين والمسمعات بقصابها .
المعرب (ص ١١٥) .

٣ المعرب (ص ١٠٥ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .

٤ المعرب (ص ٢٦٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٤١) .

٥ غرائب اللغة (ص ٢٦٦) .

٦ وكأن ربا أو كحيلا معقدا   حش الوقود به جوانب قمقم
المعرب (ص ٢٦٠) .

٧ المعرب (ص ٣٢٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٥) .

٨ المعرب (ص ٣٤١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

مثل (ابريسم) وهي من أصل (أبريشم)[1] و (استبرق) من أصل (استبرك) ، أي ثوب حرير مطرز بالذهب[2] . وقد ذكر علماء اللغة أنها من (استفره) و (استروه)[3] . و (بركان) (برنكان) ، كساء ، من (برنيان)[4] . و (تخريص) (دخريص) من أصل (تيريز)[5] ، وورد أن (البنيقة) معربة كذلك من أصل (بنيك) في معنى (التخريص) و(الدخريص)[6] . و (جربان) ويراد بها جيب القميص من أصل (كريبان)[7] ، و (الجوالق) ، من أصل (كوال) (جوال) ، ومعناها عدل كبير منسوج من صوف أو شعر[8] . و (الخسرواني) ، وهو الحرير الرقيق الحسن الصنعة ، وهو منسوب الى الأكاسرة أي الملوك[9] . و (الدخدار) وهو الثوب ، من أصل (تخت دار)[10] . و (الديباج) من أصل (ديوباف) أي نساجة الجن[11] ، و (السبيج) ، وهو قميص بلا كمين ولا جيب ، من أصل (شبي) ، أي ليلي[12] . و(سربال) ، من أصل (سر بال)[13] . و (سروال)[14] . و (الشوذر) الملحفة والإزار ، من أصل (جادر)[15] . و (الطيلسان) من (طيلسان) (تالسان)[16] . و (الفرند) ، الحرير من (برند)[17] . و (الكرباس) ، ثوب خشن من (كرباس)[18] .

---

١ غرائب اللغة (ص ٢١٦) ، المعرب (ص ٢٧) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
٣ المعرب (ص ١٥) .
٤ المعرب (ص ٥٦) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) .
٥ المعرب (ص ٨٧ ، ١٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٢١) .
٦ المعرب (١٤٣) .
٧ المعرب (ص ٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٢) .
٨ المعرب (ص ١١٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٤) .
٩ المعرب (ص ١٣٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٥) .
١٠ المعرب (ص ١٤١) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .
١١ المعرب (ص ١٤٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
١٢ المعرب (ص ١٨٢ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٣) .
١٣ غرائب اللغة (ص ٢٣٣) .
١٤ المعرب (ص ١٩٦) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٤) .
١٥ المعرب (ص ٢٠٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٧) .
١٦ المعرب (ص ٢٢٧) ، الجمهرة ، لابن دريد (٤١٣/٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩)
١٧ المعرب (ص ٢٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩ وما بعدها) .
١٨ المعرب (ص ٢٩٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٢) .

وقد عرف الجاهليون ألقاب بعض القادة العسكريين والاداريين في الانبراطوريتين اليونانية والفارسية ، فأدخلوها في العربية ، لأنها ألقاب رسمية نعت بها أولئك الموظفون الكبار ، وعرفوا بعض الرتب الكنسية كذلك . فما دخل الى العربية من اليونانية واستعمل عند الجاهليين لفظة (بطريق) ، من أصل Patrikios [1] . وقد وردت في بعض الرسائل المنسوبة الى الغساسنة، ويراد بها درجة قائد في الانبراطورية البيزنطية . ولفظة (أسقف) ، وقد ورد في كتب السير : ان وفد نجران حين قدم على الرسول ، كان يتألف من رؤساء المدينة أصحاب الحل والعقد ، ويلقبون بـ (السيد) و (العاقب) و (الأسقف) . والسيد عندهم صاحب رحلتهم ، والعاقب أميرهم وصاحب مشورتهم الذي يصدرون عن رأيه ، والأسقف حبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم[2] . ولفظة (أسقف) هذه من أصل يوناني هو Episkopos[3] .

وأما (قيصر) التي يراد بها في العربية (انبراطور) الروم ، أي ملكهم ، فإنها من أصل لاتيني هو (سيصر) Caesar . وترد في كتب السير في معرض الكلام على الكتب التي أرسلها الرسول الى الروم والفرس والحبشة وبعض الأمراء[4] .

ومن المصطلحات المأخوذة من الفارسية في هذا الباب ، (الأسوار) ، وهو الرامي ، وقيل الفارس، وقائد الفرسان[5] ، من أصل (أسب سوار) ، و (اسب) الحصان ، و (سوار) على ظهر أي راكب ، ومعناها راكب الحصان أي فارس[6] ، وتجمع (أسوار) على (أساورة) . وترد في الكتب أحياناً مضافة (أساورة الفرس) ، وتجمع على (أساور) و (أساورة) أيضاً ، وقد وردا جميعاً في الشعر[7] .

وأما (الأشائب) ، ومفردها (أشابة) ، فمعناها الأخلاط من الناس من

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٥٥) .
٢ طبقات ابن سعد (١/٢٥٧) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .
٤ طبقات ابن سعد (١/٢٥٩) .
٥ الجواليقي (ص ٢٠ وما بعدها) ، الجمهرة (٢/٢١٥) ، اللسان (٧/٥١) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
٧ الجواليقي (ص ٢٠ وما بعدها) .

أصل (آشوب) . وذكر أنها عربية خالصة، من (أشب الشيء) بمعنى خلطه[1]. وترد لفظة (أنبار) و (الأنبار) ، وتعني أهراء الطعام ويقال للواحد (نبر) أيضاً وأمـا (الأنابير) جمع الجمع . وقد اشتهر موضع (الأنبار) على نهر الفرات على مقربة من الفلوجة ، وكان مأهولاً بالعرب عنـد ظهور الإسلام ، وقد ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب أن بعض أهل الحجاز ينسب أخذ أهل مكة الكتابة الى قوم منهم ذكروا أنهم تعلموها من أهل الأنبار[2] .

و (الإيوان) في العربية ، الرواق . وهو مكان متسع من بيت تحيط بـه ثلاثة حيطان ، من أصل (أيوان) eyvan[3] . وأما (الدهقـان) ، فحاكم اقليم ، من (ده) بمعنى ضيعـة و (خان) بمعنى رئيس قبيلة ، وذلك في الفارسية القديمة . وقد وردت اللفظة في بيت شعر للأعشى . وتجمع على (دهاقين)[4]. وأما (كسرى) ، فلك من ملوك الفرس ، وهو (خسرو) Khosrow في الفارسية . ولكن الجاهليين جعلوا اللفظة لقباً لملوك إيران ، يقابـل (شاه) أي الملك ، وصارت عندهم مثـل : (قيصر) للروم ، وتُبَّع لليمن ، والنجاشي للحبشة[5] . واما (المرزبان) ، فالرئيس من الفرس ، وتفسيرها (حافظ الحدّ) في مقابل حاكم ووالي ولاية ، وتجمع على (المرازبة)[6] .

وأما لفظة (الهربذ) وتجمع على (الهرابذة) ، فخادم النار عند المجوس. وقيل: رئيس خدام النار الذين يصلون بالمجوس ، وقد تكلمت بها العرب قديماً . وقد وردت هذه اللفظة في بيت شعر لامرىء القيس[7] . وأما (موبذ) و (موبذان) فحاكم المجوس ، بمثابة القاضي عند المسلمين ، من (موبد) وهو الكاهن ورجل دين عند المجوس[8] .

---

١ الجواليقي (ص ٢٧) . غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
٢ الجواليقي (ص ٢٠ ، ٢٩) . غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
٣ الجواليقي (ص ١٩) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
٤ الجواليقي (ص ١٤٦) ، اللسان (٢١/١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
٥ الجواليقي (٢٧١ ، ٢٨٢) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٢) .
٦ الجواليقي (ص ٣١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٥) .
٧ الجواليقي (ص ٣٥١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٨) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

أما أسماء النقود ، فإنها معربات يرجع أصلها الى الفارسية أو اليونانية أو اللاتينية . فقد كان الجاهليون يتعاملون مع الفرس والأرضين الخاضعة للانبراطورية الرومية ، ولهذا تعاملوا بنقود هاتين الانبراطوريتين . وهي نقود مضروبة من المعادن . وتعاملوا بها في بلادهم أيضاً كما نتعامل نحن بالنقود الأجنبية. فـ (النّمّيّ) مثلاً ، هي فلوس رصاص كانت تتخذ أيام ملك بني المنذر ، يتعاملون بها في الحيرة ، هي من أصل رومي ، أي يوناني ، هو noummiyon . وقد وردت في بيت للنابغة :

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنّمّيّ سفسير[1]

وقد نسب هذا البيت لأوس بن حجر أيضاً[2] .

فيظهر من ذلك ان (بني المنذر) كانوا قد أخذوا اللفظة من اليونانية ، أي من نقود نحاس ضربها الروم ، فضربوها هم في الحيرة ، وتعامل بها الناس .

وأما (الدينار) ، وهو نقد كان معروفاً متداولاً بين الجاهليين ، مستعملاً في أسواق مكة وبقية مواضع الحجاز وجزيرة العرب عند ظهور الاسلام . وقد ذكر في القرآن الكريم[3] ، فإنه نقد روماني يساوي عشرة دراهم ، ويعرف بـ denarius في اللاتينية[4] .

وأما (الدرهم) فاسم نقد يوناني ، يسمى دراخمي dhrakhmi في اليونانية، وقد شاع استعماله إذ ذاك . وقد وردت التسمية في بيت شعر هو :

وفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[5]

ويفيد هذا البيت أن الحكومة كانت تأخذ إتاوة من الأسواق من التجار والباعة، وأن ما يباع يدفع عنه مكس ، قدره درهم[6] .

---

١ الجواليقي (ص ١٨٥) ، اللسان (١٥/٣٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٧١) .
٢ الجواليقي (ص ١٨٥ ، ٣٣٠) .
٣ آل عمران ، الاية ٧٥ « ومنهم من ان تأمنه بدينار » .
٤ الجواليقي (ص ١٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) ، « وقيل : أصله بالفارسية دين آراي : الشريعة جاءت به » ، المفردات في غريب القرآن (ص ١٧١) .
٥ الجواليقي (ص ١٤٨) .
٦ « الدرهم الفضة المطبوعة المتعامل بها » ، المفردات في غريب القرآن (ص ١٦٨) .

ولفظة (مكس) ، هـي أيضاً من الألفاظ المعربـة ، عربت من أصل (مكسو) Makso في لغة بني إرم[1] .

و (الدانق) نقد أخذت تسميته من الفارسية ، من (دانك)[2] . وقد بقي مستعملاً في الاسلام . وقد عرف الخليفة (أبو جعفر المنصور) بـ (الدوانيقي) نسبة الى هذا النقد .

وأما (الفلس) وتجمع على (فلوس) ، فإنه نقد من نحاس ، وأصله في اليونانية (فولس) follis[3] . وقد عبر عنه بمعنى نقود أيضاً ، فقيل في العامية (فلوس) ، وقصد بها نقود .

ومن المعربات المستعملة في تقويم النقد وفحصه ، لفظة (شقل) بمعنى الوزن[4]، أي وزن النقد لمعرفة مقدار معدنه المؤلف منه . ولفظة (قسطار) ،ومعناها ناقد الدراهم ، أي الناقد الماهر العارف بالنقد ، من أصل لاتيني هو quaestor[5] .

وتظهر هذه المعربات ان أهل الحجاز ونجد والعرب الشماليين كانوا قد استعملوا النقد البيزنطي والساساني في أسواقهم وفي تجارتهم ، وكانوا عالة على الأعاجم في استعمال النقد . وذلك مما يدل على ان تعاملهم التجـاري مع الانبراطوريتين كان وثيقاً . وقد بقيت هذه النقود الأعجمية مستعملة في الاسلام كذلك،وبقيت أسماؤها حية حتى بعد تعريب النقد ، ولا يزال اسم الدينار والدرهم والفلس الى هذا اليوم .

أما العرب الجنوبيون ، فكان لهم نقد خاص بهم . تحدثت عنه في الجزء الثامن من كتابي : تأريخ العرب قبل الإسلام . وقـد ذكرت أن بعض العلماء رجع تأريخ أقدم نقد عربي جنوبي عثر عليه سنة (٤٠٠) قبل الميلاد[6] . ويظهر أن أهل الحجاز لم يتعاملوا به كثيراً،بدليل عدم وجود ذكر له في المؤلفات الاسلامية، وفي الأخبار الواردة عن أيام الرسول . وقد ذكرت أن أسمـاء تلك النقود أسماء

١ غرائب اللغة (ص ٢٠٦) .
٢ الجواليقي (ص ١٤٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٣) .
٤ غرائب اللغة (ص ١٩١) .
٥ الجواليقي (ص ٢٦٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٩) .
٦ الجزء الثامن (ص ٢٠٠ وما بعدها) .

عربية جنوبية لا صلة لها بأسماء النقود التي تحدثت عنهـا ، ومن تلك الأسماء : (بلط) ويجمع على (بلطات) ، وهو اسم نقـد من ذهب . و (خبصت) (خبصة) ، نقد من نحاس ، و (رضى) ، قيل إنها اسم نقد ، وقيل إنهـا صفة للنقد . بمعنى رضية وصحيحة غير مزيفة ولا منقوصة ، لأن النقد كان على أساس الوزن والنوع في ذلك العهد . وذكرت أيضاً بعض الألفاظ التي استعملوها في الصيرفة وفي نقد النقود .

ومن الألفاظ اللاتينية التي دخلت الى العربية (لبرجد) ، وهو ثوب مزدان بالذهب ، وثوب غليظ مخطط من أصل Paragauda [1] . و (برذون) من أصل burdo و Burdonis [2] ، و (دينـار) من أصل denarius ، وهو نقد من المعدن[3] ، و (سجل) وقد تحدثت عنها[4] و (سجلاّط) من أصل (سجلاّطس) Sigillatum ، ثياب كتّان موشاة ، وكأن وشيها خاتم وتزدان بصور صغيرة[5] . و (سجنجل) ، وتعني المـرآة ، أو سبيكـة فضة مصقولة ، استعملت استعمال المرآة ، من أصل Sexaangulus التي تعني (المسدس الزوايا) في اللاتينية . وقد وردت في بيت لامرىء القيس[6] . و (الصراط) ، بمعنى الطريق ، من أصل لاتيني هو Strata بمعنى طريق كبير مبلط[7] . وقد عرف الرومان ببراعتهم في شق الطرق العسكرية لاستعمالها في التجـارة وفي الأغراض العسكريـة . و (الصاقور) الفأس لكسر الحجارة ، من أصل لاتيني هو Securis [8] .

ويظهر أثر الأخذ من اليونانية واللاتينية والفارسية والارمية في المكاييل والموازين كذلك ، وذلك عند عرب الحجاز ونجد والعراق وبلاد الشأم . أما عرب الجنوب فقد كانت لهم أسماء للمكاييل والموازين خاصة بهم ، اختلفت عن الأسماء المستعملة عند العرب الشماليين المذكورين وذلك كما تحدثت عنها في الموضوع الخاص بالمكاييل

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
٣ الجواليقي (ص ١٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٤ « والسجيل ، حجر وطين مختلط ، وأصله فيما قيل فارسي » ، المفردات في غريب القرآن (ص ٢٢٣) .
٥ الجواليقي (ص ١٨٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٦ الجواليقي (ص ١٧٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .

والموازين عند الجاهليين في الجزء الثامن من كتابي : تأريخ العرب قبل الإسلام[١].

ومن هذه المعربات (المُدّ) ، وهو نوع مكيال للحبوب ، وهو من أصل لاتيني هو Modius [٢] و (الجريب) ، من أصل إرمي هو (جريبو) Gribo [٣]. و (الرطل) من أصل يوناني هو : Litra [٤] ، و (الأوقية) من أصل يوناني هو uncia, ounguiya [٥] ، و (مثقال) من أصل matqolo ، وهو وزن في الإرمية[٦] . و (قيراط) ، وهو جزء من أربعة وعشرين من أجزاء شيء ، أو حبة واحدة من أربعة وعشرين حبة . وكان القدماء يزنون بالحب . واللفظة من أصل يوناني هو Keration [٧] . و (قنطار) ، وهو مئة رطل ، من أصل لاتيني هو Centenarium Pondus [٨] . و (الكر) ، وهو ستة أوقار حمار ، وهو مكيال لأهل العراق ، وقد ورد ذكره في الحديث ، هو (كرو) Kouro في لغة بني إرم[٩] . وغير ذلك من أسماء ذكرتها في الجزء الثامن من هذا الكتاب . ولا حاجة بنا الى اعادة ذكرها .

وأخذت العربية من اللغة (السنسكريتية) بعض الألفاظ الخاصة بالمحاصيل الخاصة بالهند ، مثل الفلفل وبعض الأسماء المتعلقة بالتوابل والعقاقير والأطياب والجواهر[١٠] .

وقد أشار علماء اللغة الى ألفاظ شائعة على الألسنة ، لكنها أعجمية الأصل تأتي في نوع المعرب . ذكر (الثعالبي) أمثلة منها في كتابه (فقه اللغة) ، وقال عنها انها : « أسماء فارسيتها منسية وعربيتها محكية مستعملة ، هي : الكف ،

---

١ (الصفحة ٤١٠ وما بعدها) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢٨٠) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٧٦) .
٤ غرائب اللغة (ص ٢٥٨) .
٥ العرب قبل الاسلام (٨/٤١٤) ، Ency. Islam, II, p. 1025
غرائب اللغة (ص ٢٥٤) .
٦ غرائب اللغة (ص ١٧٦) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٧٩) .
٩ العرب قبل الاسلام (٨/٤١٩) .
غرائب اللغة (ص ٢٠٣) .
١٠ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٢٠٥) .

الساق ، الفرش ، البزّاز ، الوزّان ، الكيّال ، المسّاح ، البيّاع ، الدلاّل ، الصرّاف ، البقال ، الجمّال ، الحمّال ، القصاب ، البيطار ، الرائض ، الطرّاز ، الخراط ، الخياط ، القزّاز ، الأمير ، الخليفة ، الوزير ، الحاجب ، القاضي ، صاحب البريد ، صاحب الخبر ، السقّاء ، الساقي ، الشرّاب ، الدخل ، الخرج ، الحلال ، الحرام ، الى غير ذلك من ألفاظ تجدها في كتابه وفي كتب اللغة التي نقلت منه[1] .

وفي بعض الذي ذكره ، ما هو فارسي حقاً ، أو من مصدر أعجمي آخر ، لم يعرفه (الثعالبي) ، لأنه لم يعرف من اللغات الأعجمية غير الفارسية ، فنسب أصل تلك الألفاظ اليها ، ولكن البعض الباقي هو عربي ، ما في أصله العربي من شك ، ولا يمكن أن يكون من المعربات .

ونجد في المعاجم وفي كتب اللغة كلاماً عن هذه المعربات، ففي كتاب (المزهر) وكتب اللغة المعتبرة صفحات نص فيها على الألفاظ المعربة من مختلف اللغات[2] . فلا أرى بي حاجة هنا الى ذكر تفاصيل أخرى عن الألفاظ المعربة بتفصيل كل ما نص عليه العلماء من المعربات . ولكني أود أن أبين ان علماء اللغة لم يكونوا على علم باللغات الأعجمية ، ولذلك لم يتمكنوا من رجع المعربات الى أصولها الحقيقية ، فأخطأوا في ذكر الأصول . ونظراً الى ان فيهم من كان يتقن الفارسية فقد رجع أصول كثير من الألفاظ الى أصل فارسي ، لأنه وجد أن الفرس نطقوا بها ، ولم يعلموا انهم أخذوها هم بدورهم من غيرهم ، فصارت من لغة الفرس ، أو انهم وجدوا بعض الألفاظ قريبة من أوزان الفارسية للكلمات ، فظنوا انها فارسية ، مع انها من أصل آخر . وفعل بعض منهم ذلك عصبية منهم الى الفارسية لأنهم من أصل فارسي ، فتمحلوا لذلك تكثيراً لسواد المعربات من لغة الفرس وتعصباً لهم[3] .

وفي شعر الأعشى معربات عديدة مقتبسة من الفارسية ، قد يكون أخذها من عرب الحيرة وبقية عرب العراق ، وقد يكون أخذها من الفرس مباشرة لاتصاله

---

١ المزهر (١/١٢٣) .
٢ المزهر (١/٢٧٥ وما بعدها) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٢٠٦) .

واختلاطه بهم في العراق . واقتبسها إما ليحكي عما شاهده ورآه في العراق، فاستعمل الألفاظ الفارسية الشائعة هناك ، وإما أن يكون قد تعمد إدخالها في شعره لُيري الناسَ أنه حاذق بثقافة الفرس واقف على حضارتهم ولغتهم ، كالذي يفعله بعض من يدرس في بلاد الغرب من استعماله ألفاظاً أعجمية في لغته ليلمح للناس بأنه قد تثقف بثقافة الأجانب ، وتلك في نظره ميزة يفتخر بها على الناس .

وقد زعم أن الأعشى رحل الى بلاد بعيدة ، فبلغ عمان وحمص وأورشليم وزار الحبشة وأرض النبيط وأرض العجم ، وقد ذكر ذلك في بيتين من الشعر[1] . والى زيارته هذه للعراق ولأرض العجم ينسب أهل الأخبار ورود الألفاظ الفارسية في شعره .

وفي بعض المعجمات وكتب اللغة مثل لسان العرب والمعرب للجواليقي ، أبيات للأعشى يرد فيها وصف لأحوال الفرس وعرب العراق ، وقد استعمل فيها ألفاظاً فارسية لها مناسبة وصلة بذلك الوصف . منها ما يتعلق بالملابس ، ومنها ما يتعلق بالأشربة والخمور والأفراح ، ومنها ما يتعلق بالمناسبات مثل الغناء والأعياد[2] .

وشاعر آخر نجد في شعره معربات فارسية ، هو (عدي بن زيد العبادي) . وهو من أهل الحيرة ، المقربين الى ملوكها والى الفرس ، الحاذقين بالعربية وبلغة الفرس . وقد كان كاتباً باللغتين ، كما كان أبوه بليغاً باللسانين ، وتولى رئاسة ديوان العرب عند الأكاسرة . وهو نصراني ، ولهذا استعمل في شعره ألفاظاً نصرانية اقتبست من السريانية ، وأشار بحكم نصرانيته الى عادات نصرانية ، كما كان حضرياً مترفاً غنياً أدخل الى بيته وسائل الترف والراحة المعروفة في ذلك اليوم ، ولهذا فإن لجمع شعره جمعاً تاماً ونقده وتحليله واستخراج صحيحه من منحوله أهمية كبيرة في اعطاء رأي عن الحياة الفكرية والثقافية لعرب العراق قبيل الاسلام .

وبعد ، فإن اللغة التي بحثت عن وجود المعربات فيها ، هي اللغة العربية التي

---

١ وطوفت للمال آفاقه عمان فحمص فاوريشلم
أتيت النجاشي في داره وأرض النبيط وأرض العجم
راجع ديوان الاعشى ، المعرب (ص ٣٢) .

٢ المعرب (ص ١٦ ، ١٨ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٧٩) ومواضع أخرى .

نزل القرآن بها . أما اللهجات والألسنة العربية الجنوبية ، فإن أثر هذه المعربات فيها كان قليلاً ، ونجد في كتاباتها ألفاظاً عربية جنوبية ، مكان تلك المعربات . ومعنى هذا بُعد تلك اللهجات عن المؤثرات الأعجمية الشمالية . وسبب ذلك رقي المتكلمين بها ، وتقدمهم في الحضارة بالقياس الى بقية سكان جزيرة العرب والى ابتكارهم أنفسهم لكثير من الأشياء ، فكان من الطبيعي أن تكون أسماؤها بلغة الصانعين لها .

ولدي ملاحظة ، هي ان وجود المعربات في العربية الحجازية ، يدل دلالة صريحة واضحة ، على ان المتكلمين بها كانوا قد تأثروا بالحضارات الشمالية أكثر من تأثرهم باخوانهم العرب الجنوبيين ، وان اتصالهم الفكري كان بالشمال أكثر منه بالجنوب ، ولا يقتصر هذا التأثر على المعربات فقط،بل يشمل كل المؤثرات الثقافية الأخرى ، كالذي رأيناه في مواضع متعددة من الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب . فكأننا أمام ثقافتين مختلفتين وشعبين متباينين ،بالرغم من اتصال حدود الحجاز باليمن ، وقرب المسافة بينهما ، حتى اللغة نجد بوناً شاسعاً بينها وبين اللغات العربية الجنوبية ، وهذا ما حمل بعض العلماء على القول : ما لغة حمير بلغتنا ، ولا لسانهم بلساننا ، ففرق بين اللسانين .

أما (أمية بن أبي الصلت) فقد وردت في شعره معربات من أصل سرياني في الغالب ، يظهر أنه أخذها من المنابع النصرانية التي قيل إنه وقف عليها . فقد ذكر أنه كان قد قرأ كتب أهل الكتاب ، ووقف على أخبارهم وعقائدهم ، وإن اتصاله بهم أثر في رأيه الذي كونه لنفسه في الأديان . وأرى أن من اللازم توجيه العناية لدراسة ما تبقى من شعره للوقوف على أصوله ، وعلى درجة تأثره بالتيارات الفكرية والآراء الدينية لأهل الكتاب ، وعلى الألفاظ المعربة عن السريانية أو غيرها التي ترد في شعر هذا الشاعر ، وذلك بعد التأكد من صحة الشعر .

ومن المعربات الواردة في شعر (أمية) لفظة (تلاميذ) جمع تلميذ ، وذلك في هذا الشعر المنسوب اليه :

والأرض معقلنا وكانت أمّنا فيها مقامتنا وفيها نولد
وبها تلاميذ على قذفاتها حُبسوا قياماً فالفرائص ترعد

وفي هذا الشعر :

صاغ السماء فلم يخفض مواضعها　لم ينتقص علمه جهل ولا هرم
لا كشفت مرة عنّا ولا بليت　فيهــا تلاميذ في أقفائهم دغم

وذكر أن (المتلمـــد) الواردة في شعر ينسب له أيضاً ، بمعنى متلمذ ، وأن لفظة (التلاميذ) قد ترخم في الشعر على (تلام) ، كما جاء في شعر (الطرماح)، و (غيلان بن سلمة) الثقفي ، وهو من الشعراء المخضرمين[1] . ووردت لفظــة (التلاميذ) في شعر لبيد ، في هذا البيت :

فالمــاء يجلو متونهن كما　يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشبا[2]

وقد ذكر علماء اللغة أن التلاميذ : غلمان الصاغة ، وهي فارسية[3] .

معرفة المعرب :

قال علماء العربية : تعرف عجمة الإسم بوجوه :

١) النقل بأن ينقل ذلك أحد أئمة العربية .

٢) خروجه عن أوزان الأسماء العربية نحو إبريسم ، فإن مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء في اللسان العربـي .

٣) أن يكون أوله نون ثم راء نحو نرجس ، فإن ذلك لا يكون في كلمــة عربية .

٤) أن يكون آخره زاي بعد الدال ، نحو مهندز ، فإن ذلك لا يكــون في كلمة عربية .

٥) أن يجتمع فيه الصاد والجيم ، نحو الصولجان والجص .

---

١ رسالة التلميذ ، للبغدادي ، نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) (ص ٢٢٢ وما بعدها) .
٢ شرح ديوان لبيد (ص ٣١) ، القصيدة رقم ٤ ، البيت ٢٠ .
٣ شرح ديوان لبيد (٣١) ، رسالة التلميذ (٢٢١) .

٦) أن يجتمع فيه الجيم والقاف نحو المنجنيق، والجردقة، والجرموق ، والجوسق، والجلاهق ، وجلنبق .

٧) أن يكون خماسياً أو رباعياً عارياً عن حروف الذلاقة ، وهي : البـاء ، والراء ، والفاء ، واللام ، والميم ، والنون . فإنه متى كان عربياً ، فلا بد أن يكون فيه شيء منها . نحو سفرجل ، وقِرطَعْب ، وجحمرش .

هذا وقد تتبع بعض علماء العربية كلام العرب ، فوجدوا بعض حـالات إذا اجتمعت فيها حروف معينة دلت على أصل أعجمي ، من ذلك قولهم :

١) الجيم والتاء لا تجتمعان في كلمـة من غير حرف ذي لقيّ ، ولهـذا ليس الجبت من صميم العربية .

٢) الجيم والطاء لا تجتمعان في كلمة عربية ، ولهـذا كان الطاجن والطيجن مولدين ، لأن ذلك لا يكون في كلامهم الأصلي .

٣) لا تجتمع الصاد والطاء في كلمـة من لغتهـم ، أما الصراط ، فصاده من السين .

٤) يندر اجتماع الراء مع اللام إلا في ألفاظ محصورة : كورَل ونحوه .

٥) قال (البطليوسي) : لا يوجد في كلام العرب دال بعدها ذال إلا قليل، ولذلك أبى البصريون أن يقولوا بغداذ .

٦) ليس في كلام العرب شين بعد لام في كلمة عربية محضة ، الشينات كلها في كلام العرب قبل اللامات[١] .

أقسام الأسماء الأعجمية :

• قال أبو حيان في الارتشاف : الأسماء الأعجمية عـلى ثلاثة أقسام : قسم غيرته العربُ وألحقته بكلامها فحكم أبنيته في اعتبار الأصل والزائد والوزن حكم

---

١ المزهر (٢/٢٦٨ وما بعدها) ، الرافعي ، تاريخ آداب العـرب (١/٢٠٢ ومـا بعدها) .

أبنية الأسماء العربية الوضع ، نحو درهم وبهرج . وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها ، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الذي قبله ، نحو آجر وسفسير . وقسم تركوه غير مغير ، فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يعد منها ، وما ألحقوه بها عدّ منها ؛ مثال الأول خراسان ، لا يثبت به فُعالان ، ومثال الثاني : خُرَّم ألحق بسُلّم ، وكُركُم ألحق بقُمقُم[1] .

إبدال الحروف :

وهناك حروف لا تتكلم بها العرب إلاّ ضرورة ، فإذا اضطروا اليها حوّلوها عند التكلم بها الى أقرب الحروف الى مخارجها ، وذلك كالحرف الذي بين الباء والفاء مثل (بور) إذا اضطروا قالوا (فور) . لأن (بور) ليس من كلام العرب . وحرف (ب) حرف غير عربي . وقد يحولون الـ (پ) الى (ب) ، كما في (سابور) ، وأصله (شاپور) .

وقد يحول حرف الـ (پ) الى(P) الى (ف) عند تحويل الأعلام الأجنبية الى عربية . مثل Platon ، اسم الفيلسوف اليوناني ، (٤٢٧ – ٣٤٧ ق . م) الذي حول الى (افلاطون) . وذلك بتحويل حرف (الباء) الى (ف) ، وبتحويل حرف (التاء) الى (طاء) . وقد اتبع المعربون قاعدة تحويل (التاء) الواردة في الأعلام الأعجمية الى حرف (طاء) في الغالب ، فحول Aristotelès (٣٨٤ – ٣٢٢ ق. م) الى (أرسطوطاليس) . و Plotinos الاسكندري (٢٠٥ – ٢٧٠م) ، الى (فلوطين) . ولو زالت هذه الطريقة معروفة فـ (تهران) عاصمة ايران ، هي (طهران) .

والعرب يعربون الشين سيناً ، فيقولون : نيسابور ، وهي نيشابور . وقد أبدلوا بالإضافة الى حرف (الشين) حرف (الپاء) (باءً) . فالأصل (نيشاپور) ، ومثل ذلك : (سابور) ، فالأصل هو (شاپور) .

« وقال بعضهم : الحروف التي يكون فيها البدل في المعرب عشرة : خمسة يُطرد إبدالها ، وهي : الكاف ، والجيم ، والقاف ، والباء ، والفاء . وخمسة

---

١ المزهر (١/٢٦٩ وما بعدها) .

لا يطرد إبدالها : وهي : السين ، والشين ، والعين ، واللام ، والزاي . فالبدل المطرد : هو في كل حرف ليس من حروفهم كقولهم : كُرْبج ، الكاف فيه بدل من حرف بين الكاف والجيم ، فأبدلوا فيه الكاف ، أو القاف نحو قربق . أو الجيم نحو جَوْرب ، وكذلك فِرند هو بين الباء والفاء فمرّة تبدل منها الباء ومرّة تبدل منها الفاء . وأما ما لا يطرد فيه الإبدال ، فكل حرف وافق الحروف العربية كقولهم اسماعيل أبدلوا السين من الشين ، والعين من الهمزة ، وأصله إشمائيل . وكذلك قفشليل أبدلوا الشين من الجيم واللام من الزاي ، والأصل قفجليز . وأما القاف في أوله فتبدل من الحرف الذي بين الكاف والجيم »[1] .

---

١ المزهر (١/٢٧٤) .

الفصل الثاني والاربعون بعد المئة

النثر

النثر هو الكلام المرسل الذي لا يتقيد بالوزن والقافية ، وهو الجزء المقابل للشعر ، من أجزاء الكلام . وهو أقدر من الشعر على إظهار الأفكار وعلى التعبير عن الرأي ، وعلى الإفصاح عن علم ومعرفة ، لكونه كلاماً مرسلاً حراً لا يتقيد بقيود ، خالياً من الوزن والقافية ومن المحافظة على القوالب ، إلا انه دون الشعر في التأثير في النفوس وفي اللعب بالعواطف ، لما في الشعر من سحر الوزن والقافية، والإنشاد بأنغام متباينة مؤثرة ، لا سيما اذا ما اقترن بعزف على آلات طرب . ولوجود القافية والوزن في الشعر ، ولكونه أبياتاً ، سهل حفظه،وصار من الممكن خزنه في الذاكرة أمداً طويلاً ، ومن هنا امتاز على النثر ، الذي لا يمكن حفظه بسهولة ، ولا خزنه في الذاكرة ، لعدم وجود مقومات الخزن المذكورة فيه .

والنثر الذي نقصده ونعنيه ، هو النثر الذي يبحث عنه مؤرخ الآداب، لكونه قطعة فنية ، تعبر عن عاطفة انسانية ، وعن مظاهر الجمال والذوق والتأثير في النفوس ، فيه صياغة وفن في حبك القول ، وتفنن في طرق العرض ، وإغراء في تنميق الكلم ودبج الكلمات ، وحلاوة وطراوة وسحر وبيان ، فهو كلام عالٍ لا يشبه كلام العامة ، ولا مما يتخاطب به الناس ، ولا مما يتعامل به في التجارة والمكسب أو في الدوائر ، وانما هو من قبيل كتب الأدب ، ومن قبيل الأمثال والخطابة والمراسلات الأدبية وما شاكل ذلك من وجوه . ولهذا ، نستبعد من هذا النثر ، ما وصل الينا من نصوص جاهلية ، لأنها كتبت في أغراض أخرى ،

كتبت في تقديم نـذور ، وفي معاملات : من بيع وشراء ، وتثبيت ملك ، أو تحديد حدود ، أو في قوانين وأوامر ، ولم تكتب في أغراض أدبية خالصة .

وبين أيدينا خطب طويلة ومتوسطة وقصيرة ، نسبها الرواة الى خطباء جاهليين، زعموا أنهم كانوا في أيامهم آية في الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأساطير وقصص زعم أهل الأخبار أنها أخبار صحيحة وروايات مروية،وأصول منافرات ومفاخرات ومعاتبــات ومشاتمات ، زعموا أنها جرت في الجاهلية ، وانتقلت أصولها بنصها وفصها وحروفها وكلمها من رواتها الى الإسلاميين ، فـدوّنت في كتبهم ، كما رووا حكماً وأمثالاً وأقوالاً ، زعموا أنها لحكماء من أهل الجاهلية حفظهــا الناس حفظاً ، ورووها رواية رجــلاً عن رجل ، وجيلاً عن جيل ، حتى وصلت مرحلة التدوين . وكل هذا المسجل الذي نتحدث عنه ، هو من مدوّنات أهـل الإسلام ، ليس فيه من مدوّنات أهل الجاهلية أي شيء .

وبين هذا النثر ، خطب منمقة مزوّقة ، نسبت الى ملــوك وسادات العرب البائدة ، الذين بادوا قبل الإسلام بعهد طويل ، ومــات معهم أدبهم بالطبع ، وخطب نسبت الى التبابعة ، وقد هلكوا أيضاً قبل الاسلام ، وكــلام نسب الى أنبياء جاهليين ، والى الجن أيضاً ، رواه أهل الأخبار ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الإفصاح عــن كيفية وصول تلك الخطب وذلك الكلام اليهم ، مع أنهم كرّروا القول بأن كلام بعضهم كان كلاماً آخر يخالف كلامنـا ، وأن عربيتهم لا تشاكل عربيتنا ، فكيف نقلوها ودوّنوها إذن في الاسلام ؟ ان نثراً من هذا النوع هو نثر مصطنع بالطبع صنع على لسان أولئك الماضين ، من غير شك ولا شبهة ، فهو من هذه الناحية مكذوب مرفوض .

وأما النثر المنسوب الى العرب الذين عاشوا قبيل الاسلام ، أو أدركوا الاسلام، فالصحيح فيه أقــل من المصنوع ، خاصة نصوص الخطب والحكم والمواعظ ، والقصص والأيام ، والوفادات والخطب الطويلة ، لأن من المستحيل على الذاكرة، حفظ الكلام المنثور بالحروف والكلمات حفظ أشرطة التسجيل له أو للغناء أو الموسيقى، مهما وهب الله تلك الذاكرة من قوة في قدرة الأخذ والحفظ . ثم هي إذا حفظته اليوم ، فلا بد وأن تتعثر به غداً ، ثم يزداد تعثرها به بعد ذلك . هذا رسول الله يذكر (قس بن ساعدة الإيادي) ، فيقول : « رحم الله قساً كأني أنظر

اليه على جمل أورق ، تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه »[1] ، وإذا راجعت نص خطبة (قس) في الموارد ، تجد الرواة على اختلاف شديد فيما بينهم في ضبط نصّها[2] ، وهذا حديث رسول الله التام ، أي المروي بالنص ، وبالطرق الصحيحة تراه يرد أحياناً بعبارات مختلفة مع اتحاد المعنى ، مما يدل على أن رواته قد أجهدوا أنفسهم جهد طاقتهم في حفظه ، لكنهم عجزوا عن حفظه حفظ الكتاب للمكتوب. خذ صيغ التشهدات في الصلاة مثلاً ، وهي قصيرة العبارة ، لا طول فيها ، تجد الصحابة والفقهاء يختلفون مع ذلك في ضبطها ، فترى نص تشهد (ابن مسعود) يختلف بعض الاختلاف عن نص تشهد (ابن عباس) ، وعن نص تشهد (عمر) ، وعن نص تشهد (أبي سعيد الخدري) ، وعن تشهد (جابر) ، مع قول (ابن مسعود) : « علمني رسول الله التشهد وكفّي بكفّه ، كما يعلمني السورة من القرآن » ، وقول (أبي سعيد الخدري) : « وكنّا لا نكتب إلا القرآن والتشهد » ، وقول (جابر) : « كان رسول الله يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن »[3] ، بل خذ القرآن ، وهو كتاب الله المحفوظ المدوّن ، الذي حفظه بعض الصحابة ، وتلوه على الرسول ، وحرصوا على المحافظة على نصه حرصهم على حياتهم ، بل أشدّ منها ، ودوّنوه ساعة الوحي ، وأمام الرسول ، ظهرت مع ذلك فيه قراءات ، بسبب اختلاف مدارك الصحابة في فهمه وفي حفظه ، وبسبب اللهجات وعيوب الخط ، فإذا كان هذا ما حدث في أيام الرسول وبعد وفاته بقليل ، وقد وقع في أعز كلام بالنسبة للمسلمين ، فهل يعقل بعد،التصديق بصحة النصوص المروية لخطب طويلة ، زعم أنها قيلت في قصور كسرى ، أو بحضرة ملوك الحيرة ، أو الغساسنة ، أو تبابعة اليمن ، أو الكلام المروي عن قوم عاد وثمود ، وقوم لوط ، وغيرهم وغيرهم ممن هلكوا وبادوا قبل الاسلام بزمن طويل .

ثم كيف نصدق بخطب زعم انها قيلت في الجاهلية ، مثل خطبة (النعمان بن المنذر) أمام كسرى ، أو خطب الوفد الذي أرسله هذا الملك الى (كسرى) ليكلمه في أمر العرب[4] ، وهي خطب طويلة منمقة ، على حين يذكر العلماء ان

---

١ الاصابة (٣/٢٦٥) ، (رقم ٧٣٤٣) .
٢ الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٤٦٤ وما بعدها) .
٣ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨٢ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (١/١٤٧ وما بعدها) .

« الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم،وانما رويت بالمعنى». وسبب ذلك ، انهم وجدوا ان من غير الممكن اثبات النص بالرواية من غير تبديل ولا تغيير قد يقع عليه ، وخشية وقوع هذا الخطأ في كلام الرسول ، وهو أعز كلام ، وعليه تترتب الأحكام في الحلال والحرام ، جوّزوا الرواية بالمعنى. ولهذا تركوا الاستشهاد بالحديث « على إثبات القواعد الكلية في لسان العرب »[1] ، ولو وثق العلماء من أن لفظ الحديث ، هو لفظ الرسول حقاً « لجرى مجرى القرآن الكريم في إثبات القواعد الكلية . وانما كان ذلك لأمرين : أحدهما ان الرواة جوّزوا النقل بالمعنى ، فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يقل بتلك الألفاظ جميعها ، نحو ما روى من قوله : زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك من القرآن ، خذها بما معك من القرآن ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة ، فتعلم يقيناً انه صلى الله عليه وسلم ، لم يتلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لا يجزم بأنه قال بعضها ، إذ يحتمل انه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ ، فأتت الرواة بالمرادف ، ولم تأت بلفظه إذ المعنى هو المطلوب،ولا سيما تقادم السماع وعدم ضبطها بالكتابة والاتكال على الحفظ . والضابط منهم من ضبط المعنى . وأما من ضبط اللفظ فبعيد جداً ، لا سيما في الأحاديث الطوال . وقد قال سفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقوني ، انما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى »[2] .
« وفي سنن الترمذي ، عن مكحول عن واثلة بن الأسقع قال : اذا حدثناكم على المعنى فحسبكم ، ورواية الذهبي في سير أعلام النبلاء : اذا حدثتكم بالحديث على معناه فحسبكم »[3] .

لقد وجد الصحابة ان من الصعب عليهم حفظ كلام الرسول بالنص والحرف، وهم معه في كل وقت ، يحدثهم ويحدثونه ، فيشق عليهم ضبط كلامه ، وهم لا يكتبونه ولا يكررونه عليه ، وليس من الممكن أن يجلس رسول الله ، ثم يطلب من أصحابه إعادة كل كلام كلمهم به ، فسأله أحدهم : « يا رسول الله ني أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أؤديه كما أسمعه منك ، يزيد حرفاً أو ينقص

---

١ خزانة الادب (١/٥) ، (طبعة بولاق) .
٢ خزانة الادب (١/٥ وما بعدها) ، (بولاق) ، أعلام النبلاء ، للذهبي (٣/٢٥٩) .
٣ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨١) .

حرفاً . فقال : اذا لم تحلّوا حراماً ولم تحرموا حلالاً وأصبتم المعنى فلا بأس »[1].

وكان من الصحابة من يروي حديثه تاماً ، ومنهم من يأتي بالمعنى ، ومنهم من يورده مختصراً ، وبعضهم يغاير بين اللفظين ويراه واسعاً اذا لم يخالف المعنى . وروي عن (مكحول) ، « قال دخلت أنا وأبو الأزهر على واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا بحديث سمعته من رسول الله ليس فيه ولا تزيد ولا نسيان ! فقال : هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئاً ؟ فقلنا : نعم وما نحن له بحافظين جداً . إنا نزيد الواو والألف وننقص ، فقال : هذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألونه حفظاً ، وانكم تزعمون انكم تزيدون وتنقصون ، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عسى ألا يكون سمعنا لها منه إلا مرة واحدة؟ حسبكم اذا حدثناكم بالحديث على المعنى .

وكان ابن أبي ليلى يروي الشيء مرة هكذا ومرة هكذا بغير إسناد ، وانما جاء هذا من جهة حفظه ، لأن أكثر من مضى من أهل العلم كانوا لا يكتبون، ومن كتب منهم فإنما كان يُكتب لهم بعد السماع،وكان كثير منهم يروي بالمعنى فكثيراً ما يعبر عنه بلفظ من عنده فيأتي قاصراً عن أداء المعنى بتمامه ، وكثيراً ما يكون أدنى تغيير له محيلاً له وموجباً لوقوع الإشكال فيه ، وقد أجاز الجمهور الرواية بالمعنى »[2] .

ولتجويزهم رواية الحديث بالمعنى ، لم يحتج أئمة النحو المتقدمين من المصرين بشيء من الحديث في النحو ، واعتمدوا في ذلك على القرآن وصريح النقل عن العرب « ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث ، لكان الأولى في اثباته فصيح اللغة كلام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لأنه أفصح العرب »[3] . جرى على ذلك الواضعون الأولون لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ، والخليل ، وسيبويه من أئمة البصرة، والكسائي ، والفراء ، وعلي بن المبارك الأحمر ، وهشام الضرير من أئمة الكوفة . فعلوا ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى

---

١ العراقي ، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (٣/٥٠) ، أبورية (٧٨) .

٢ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨١) .

٣ الخزانة (١/٤ وما بعدها) .

القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية[1] .

وإذا كان هذا موقف ذاكرة الصحابة من كتاب الله ومن حديث رسوله ، فهل يعقل أن تكون حافظتهم أقوى وأشد حفظاً واكثر دقة في رواية كلام هو دون كلام الله وكلام رسوله ، فنصدق قول من قال إن (سلمة بن غيلان) الثقفي مثلاً دخل في ناس من العرب على كسرى ، فطُرح لهم مخادُ عليها صورته ، فوضعوها تحتهم ، إلا سلمة بن غيلان فإنه وضعها على رأسه ، فقال له : ما صنعت ؟ قال : ليس حق ما عليه صورة الملك أن يبتذل ، وما أجد في جسدي عضواً لا أكرم ولا أرفع من رأسي فجعلتها فوقه . فقال له : ما أكلك ؟ فقال : الحِنطة . فقال : هذا عقل الحنطة[2] . أو أن نصدق بكلام وفد (طي) إلى (سواد بن قارب) الدوسي ، وامتحانهم إياه ، ثم جوابه المسجع على سجعهم[3] ، أو كلام الكاهنة (عفيراء) الحميرية[4] ، أو كلام (ابنة الخس)[5] ، أو كلام (عبد المطلب) ، وغيره من سادات قريش مع تابعة اليمن وحكامها الحبش ، وهو كلام مضبوط بالحروف والكلمات ، ترويه كتب أهل الأخبار على أنه كلام صحيح صادق ، لم ينله تغير ولا اعتراه تبديل ، وكأنه قد سجل على شريط (تسجيل) ، أو على اسطوانة ، لم تلعب بها يد إنسان .

جاء في (لسان العرب) : « قيل لسيدنا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الأمي لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب،وبعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة احدى آياته المعجزة ، لأنه ، صلى الله عليه وسلم ، تلا عليهم كتاب الله منظوماً ، تارة بعد أخرى ، بالنظم الذي أنزل عليه فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، وكان الخطيب من العرب ، اذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص »[6] ، فإذا كان هذا شأن الخطيب ،

---

١ الخزانة (١/٥) .
٢ المصون (١٩٨) .
٣ بلوغ الارب (٣/٢٩٩ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢٩٦) .
٥ في جملة كتب « ثعلب » : كتاب : تفسير كلام ابنة الخس ، الفهرست (١١٧) ، (الفن الثاني من المقالة الثانية من كتاب الفهرست في اخبار العلماء) .
٦ اللسان (١٢/٣٤) .

وهو مرتجل الخطبة ، وصاحبها لا يستطيع إعادة نصها ، فكيف يكون حال السامع الذي يسمعها سماعاً ولا يكتبها على صحيفة ، فهل يجوز اذن لنا التصديق بصحة نصوص هذه الخطب الجاهلية وما يروونه عن الجاهليين من أدب منثور !

السجع :

وقد جعل (الجاحظ) كلام العرب أنماطاً ، جعله « في الأشعار ، والأسجاع، والمزدوج ، والمنثور »[1] .

والسجع في تعريف العلماء له : الكلام المقفى ، أو موالاة الكلام على روي واحد . وقيل : السجع أن يأتلف أواخر الكلم على نسق كما تأتلف القوافي . وسجع يسجع سجعاً : نطق بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن[2] . وقد أليف (الكهان) النطق بالسجع ، حتى غلب على كلامهم ، واختص بهم ، كما اختص الشعر بالشعراء ، فعرف لذلك بـ (سجع الكهان) . « ولما قضى النبي صلى الله عليه وسلم ، في جنين امرأة ضربتها الأخرى ، فسقط ميتاً بغرة على عاقلة الضاربة ، قال رجل منهم : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ، فاستهل . ومثل دمه يطل . قال صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الكهان . وفي رواية : إياكم وسجع الكهان . وفي الحديث انه ، صلى الله عليه وسلم ، نهى عن السجع في الدعاء . قال الأزهري : انما كره السجع في الكلام والدعاء لمشاكلة كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنونه ، فأما فواصل الكلام المنظوم الذي لا يشاكل السجع ، فهو مباح في الخطب والرسائل »[3] . وروي الحديث على هذه الصورة : « اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت احداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسول الله ان دية جنينها غُرّة ، عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها. وورثها ولدها ومن معهم . فقال حمل بن النابغة الهذلي : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطل ، فقال رسول

---

١ الحيوان (٢١٦/٧ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٢ تاج العروس (٣٧٦/٥) ، (سجع) .

٣ تاج العروس (٣٧٦/٥) ، (سجع) .

الله ، صلى الله عليه وسلم : انما هذا من اخوان الكهان ، من أجل سجعه الذي سجع »[1] .

قال الجاحظ في معرض كلامه على السجع وقول الرسول : أسجع كسجع الجاهلية[2] . « وكان الذي كره الأسجاعَ بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رئياً من الجن ، مثل حازي جهينة ، ومثل شقّ وسطيح ، وعُزّى سَلِمة ، وأشباههم : كانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع ، كقول بعضهم : والأرض والسماء والعُقاب الصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بني العُشراء ، للمجد والسناء .

وهذا الباب كثير . ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قطبة ، والأقرع ابن حابس ، ونفيل بن عبد العزى ، كانوا يحكمون ، وينفرون بالأسجاع ؟ وكذلك ربيعة بن حذار .

قالوا : فوقع النهيُ في ذلك الدهرِ ، لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها في صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة ، زال التحريم .

وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في تلك الخُطب أسجاع كثيرة فلا ينهونهم[3] .

وقد كان الكهّان حكّاماً كذلك ، يفصلون في الخصومات بين الناس . يأتي اليهم المتخاصمون ، وبعد أن يؤكدوا لهم رضاهم وقناعتهم بحكمهم ، يحكمون بينهم فيما يرونه . وينسب الناس الى الكهان إدراك الغيب برئي يأتي اليهم فيلقي لهم بما يراه ويعلمهم من المغيبات عما يسألون ، ولذلك ورد : أن الكهانة هي ادعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع ، وورد : الكاهن القاضي بالغيب ، وكل من أدل بشيء قبل وقوعه[4] .

---

١ شرح الامام النووي على صحيح مسلم (١٩٦/٧) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، صحيح مسلم (١١٠/٥) .
٢ البيان والتبيين (٢٨٧/١) ، (لجنة) .
٣ البيان (٢٨٩/١ وما بعدها) « لجنة » ، (٢٢٩/١) ، (عبد السلام هارون) .
٤ بلوغ الارب (٢٦٩/٣) .

ويفهم من روايات أهل الأخبار ومن كتب الحديث والموارد الأخرى ، أن الكهانة كانت شائعة في الناس،فكانوا يقصدونهم في كل شيء لاستشارتهم وللأخذ برأيهم وللفصل في الخصومات والمنازعات . وقد منعها الاسلام ، حتى ورد في كتب الحديث : إن من أتى كاهناً أو عرّافاً فقد كفر[1] .

ونجد في بطون الكتب أمثلة من سجع الكهان . وهو يستحق الدرس والبحث، لتحليل عناصره ، وبيان صدقه من كذبه ، وصحيحه من فاسده . وفي بعضه مثل ما نسب الى (زبراء الكاهنة) ، محاكاة لأسلوب السور القصيرة من القرآن الكريم[2] . وهو مرحلة مهمة من مراحل تطور أسلوب الكلام عند العرب ، وهو حري اذن بالدراسة وبالبحث .

وقد أشير الى قول الكهان في القرآن الكريم في آية : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون »[3] ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »[4] . فقد زعموا انه كاهن ، وزعموا انه مجنون[5] ، فوبخوا لزعمهم هذا ، وقيل لهم ان « محمداً ليس بكاهن فتقولوا هو من سجع الكهان »[6] . « وكانت قريش يدعون انهم أهل النهي والأحلام »[7] ، « فقال الله أم تأمرهم أحلامهم بهذا أن يعبدوا أصناماً بكماً صماً ، ويتركوا عبادة الله ، فلم تنفعهم أحلامهم حين كانت لدنياهم »[8] ، فانزعجوا منه وقالوا عنه انه كاهن ، وانه شاعر ، وانه مجنون . وفي اتهامهم الرسول بأنه كاهن ، وبأن القرآن « هو من سجع الكهان »[9] ، دلالة على وجود السجع عند الجاهليين ، وانه كان من نمط الكلام الذي اختصوا به . فلا مجال اذن للشك في وجود السجع عندهم ، وان كنا نشك في صحة نصوص السجع المنسوب اليهم .

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٧٠) .
٢ راجع كلامها لجماعة من قضاعة في بلوغ الارب (٣/٢٨٨ وما بعدها) .
٣ الطور ، الرقم ٥٢ ، الاية ٢٩ .
٤ الحاقة ، الرقم ٦٩ ، الاية ٤٢ ، تفسير الطبري (٢٩/٤١) .
٥ تفسير الطبري (٢٧/١٩) .
٦ تفسير الطبري (٢٩/٤١ وما بعدها) .
٧ تفسير النيسابوري (٢٧/٢٥) ، (حاشية على الطبري) .
٨ تفسير الطبري (٢٧/١٩) .
٩ تفسير الطبري (٢٩/٤١) .

ويذكر أهل الأخبار ، أن (ضماداً) لما قدم مكـة معتمراً ، « سمع كفار قريش يقولون : محمد مجنون . فقال : لو أتيت هذا الرجل فداويته ، فجـاءه فقال له : يا محمد إني أداوي من الريح ، فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك . فتشهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً فقال : أعدها عليّ ، فأعادها عليه ، فقال : لم أسمع مثل هذا الكلام قط ، لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هـذا قط »[1] . فالكهنة والسحرة والشعراء هم طبقة خاصة ، كانوا يؤثرون في عواطف السامعين باستعمالهم أسلوباً خاصاً من الكلام ، هو أسلوب السجع ، بالنسبة الى الكهنـة والسحرة ، والشعر بالنسبة الى الشعراء . أما الخطباء ، فقد كانوا سجاعاً في الغالب ، لكنهم كانوا يستعملون المرسل من النثر أيضاً بأساليبه المختلفة .

وقد ذكر (الجاحظ) أن (الكهان) كانوا « يتكهنون ويحكمون بالأسجاع »[2] ، هذه (زبراء) تنذر (بني رئام) ، عن أنباء ستقع ، فتقول « واللوح الخافق والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو ختْلا ، ويحرق أنياباً عُصلا ، وإن صخر الطود لينـذر ثُكلا ، لا تجدون معه معلا ، فوافقت قوماً أشارى سكارى ، فقالوا : ريح خجوج ، بعيدة مـا بين الفُرُوج ، أتت زبراء بالأبلق النتوج . فقالت زبراء : مهـلاً يا بني الأعزة ، والله إني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد ، فقال لها فتى منهم يقال له هُذيل بن منقذ: يا خذاقِ ، والله ما تشمين إلا ذَفَر إبطيك، فانصرفت عنهم وارتاب قوم من ذوي أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثون فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعم فقتلوهم أجمعين »[3] .

وهذا كاهن (بني أسد) (عوف بن ربيعة) ، يأتيه (رئيه) ، فيتكهن لقومه قائلاً : « يا عبادي ! قالوا : لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاّب غير المغلّب ، في الإبل كأنها الربرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمه ينثعب ، وهذا غداً أول من يُسلب ، قالوا : من هو يا ربنـا ؟ قال :

---

١ ابن سعد ، طبقات (٤/٢٤١) ، (الطبقة الثانية من المهاجرين والانصار) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٨٩ وما بعدها) .
٣ الامالي للقالي (١/١٢٦ وما بعدها) .

لولا : أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم انه حجر ضاحية . فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجر فهجموا على قبته »[1] .

وهذا (خنافر بن التوءم) الحميري الكاهن ، وكان قد أوتي بسطة في الجسم ، وسعة في المال ، وكان عاتياً ، يأتيه (رئيه) بعد غيبة طويلة ، فيقول : (خُنافر) فيجيبه : (شصار ؟) ، فقال : « اسمع أقل » ، قال خنافر : قل اسمع ، فقال : عه تغنم ، لكل مدة نهاية ، وكل ذي أمد الى غاية . قال خنافر : أجل ، فقال : كل دولة الى أجل ، ثم يتاح لها حول ، انتسخت النِّحَل ، ورجعت الى حقائقها الملل ، انك سجير موصول ، والنصح لك مبذول ، وإني آنست بأرض الشأم ، نفراً من آل العُذام ، حكاماً على الحكام ، يذبرون ذا رونق من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف ، فأصغيت فزجرت ، فعاودت فظلفت ، فقلت بم تهيمنون ، وإلام تعترون ؟ قالوا : خطابٌ كبار ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار ، عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار ، تنج من أوار النار ، فقلت : وما هذا الكلام ؟ فقالوا : فرقان بين الكفر والايمان ، رسول من مضر ، من أهل المدر ، ابتُعث فظهر ، فجاء بقول قد بهر ، وأوضح نهجاً قد دثّر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر ، ألف بالآي الكبر ، قلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟ قال : أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشبر ، وان خالفت أصليت سقر ، فآمنت يا خنافر ، وأقبلت اليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراق ، لا عن تلاق ، قلت : من أين أبغي هذا الدين ؟ قال : من ذات الإحرّين ، والنفر اليمانين ، أهل الماء والطين ، قلت : أوضح ، قال : الحق بيثرب ذات النخل ، والحرة ذات النعل ، فهناك أهل الطول والفضل ، والمواساة والبذل ، ثم املس عني . فبت مذعوراً أراعي الصباح ، فلما برق لي النور امتطيت راحلتي ، وآذنت أعبدي ، واحتملت بأهلي حتى وردت الجوف ، فرددت الإبل على أربابها بحولها وسقابها ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصبت بها معاذ بن جبل أميراً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فبايعته على الاسلام وعلّمني سوراً من القرآن ، فمنّ الله عليّ بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة» .

---

١ الاغاني (٩/٨٤) .

وهكذا أسلم – على حد قول أهل الأخبار – والفضل يعود في ذلك الى (رئيه) (شصار) الذي أسلم قبله ، وهو من الجن ، والجن مثل البشر ، منذ ظهور الاسلام بين مسلم وكافر . ولما أسلم (خنافر) ، قال شعراً يحمد الله فيه على أن منّ عليه بالاسلام ، ويذكر (رئيه) (شصار) بالخير ، إذ لولاه لكان في نار جهنم[1] .

وأسندوا له قوله :

ألم ترَ أن الله عاد بفضله   وأنقذ من لفح الجحيم خنافرا
دعاني شصار للتي لو رفضتها   لأصليت جمراً من لظى الهون جائرا

وهو خبر يرجع سنده الى (ابن الكلبي) . وقد ذكر في الأخبار المنثورة لابن دريد . وقد ذكر انه أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن[2] . لا أدري كيف حفظه (ابن الكلبي) ورواه عن والده ، الذي صنعه ووضعه ، إلا أن يكون والده قد حضر المحاورة فكان يسجلها ، وهو ما يعد من المستحيلات .

وقد أمات الاسلام (الكهانة) ، فقد اجتثها وحاربها ، وحث على نبذ سجع الكهان وأساليب الكهان في الملبس ، فكان منهم من قاوم ، ثم انخذل ، بدخول قومه في دين الله ، فدخل معهم فيه . وفي كتب أهل الأخبار قصص على نمط قصة اسلام (خنافر) ، وكلام دار بينهم وبين (رئيهم) ، دوّنه أهل الأخبار بالحروف والكلم ، لم يتركوا منه حرفاً ، وكأنهم كانوا كتاب ضبط محضر جلسات أمروا بتدوين كل محضر ساعة وقوعه . وتجد أخبار الكهان ، وما لاقوه من عنت من (رئيهم) حين أدركوا الاسلام ، وما أخبروا به من قرب ظهور الرسول كأخبار العراف اللهبي (العائف)[3] ، و (الغيطلة) الكاهنة[4] ، والكاهن (خطر)[5] ،

---

١ الامالي (١/١٣٤ وما بعدها) .
٢ الاصابة (١/٤٥٧) ، (٢٣٤٢) ، الاستيعاب (١/٤٥٩ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ ابن هشام ، سيرة (١/١١٨) ، (حاشية على الروض) ، (١/١٣٥ وما بعدها) ، (أخبار الكهان) .
٤ ابن هشام (١/١٣٧) ، الروض الانف (١/١٣٧) .
٥ ابن هشام (١/١٣٨) .

والكاهن (سواد بن قارب) الدوسي[1] ، و (ابن الهيبان)[2] ، والمأمور الحارثي[3]، وغيرهم وغيرهم .

ولسجع الكهان ، طريقة خاصة به ، ميزته عن سجع غيرهم ، فهـو قصير الفقرات ، يلتزم التقفية وتساوي الفواصل من كل فقرتين أو أكثر ، يعمد الى الألفاظ العامة المبهمة المعماة ، والى تكوين الجمل الغامضة، ليمكن تأويلها تأويلات متعددة ، وتفسيرها بتفاسير كثيرة ، لا تلزم الكاهن ، فيقع في حرج ، كالذي يقع لو تكلم بكلام واضح صريح . فيظهر بمظهر الجـاهل الكاذب . أما السجع المنسوب الى الخطباء ، ففقره أطول ، وكلمه أوضح ، طويل النفس ، متحرر نوعاً ما من قيود سجع الكهان ، بين الفقر تطابق في الطول ، وفي فقره بيـان مشرق ، فواصله كفواصل الشعر من دون وزن. جهد صاحبه أن يجعل الفواصل واضحة صافية ، ذات مقاطع مستقلة في الغالب بمعناها ، وينتهي الكلام بانتهائها من غـير التزام قافية ، وقد يكون مرسلاً ، خالصاً من تساوي الجمل والتزام القافية ، فهو بين سجع وازدواج وترسل . وقد يكون مزدوجاً ، فهو سجـع خفيف مقبول .

وبالاضافة الى السجع ، واستعمال الألفاظ الغامضة المبهمة ، والإيمـاءة والرموز والتكنية عن الأشياء ، تهرباً من التصريح ، وحذر افتضاح الأمر ، كان الكاهن يلحف في الأسئلة ويمعن في الاستفسار ، حتى يستنبط من ذلك بفطنته وذكائـه ما يريد السائل ، فيعطيه جواباً مائعاً ، شأن جواب السحرة والعرافين ، كما كان يعمد الى القسم بظواهر الطبيعة من كواكب ونجوم،وشمس وقمر،ورياح وعواصف وسحب ، وليل ونهار ، وشجر وحجر،وأمثال ذلك مما نجده في خطبهم وأقوالهم، وهو شيء يلفت النظر ، ويبعث على التعجب من قسم القوم بهذه الأمور. ولكن المتتبع الدارس لعقائد القوم في الجاهلية ، ولحياتهم الاجتماعية لا يعجب من ذلك ، كما لا يعجب من قسمهم بالخبز ، والملح ، واللبن ، والقوس ، والعصا ، فإن لهذه الأمور وأمثالها معاني عميقة عند أهل الجاهلية ، فقدت أكثريتها معانيهـا في

---

١ ابن هشام (١/١٤٠) .
٢ ابن هشام (١/١٤١) .
٣ الامالي (١/٢٧٦) ، الاغاني (١٥/٧٠) .

الاسلام ، بسبب إبطاله لتلك العقائد ، وان بقي حشد منها في نفوس الناس الى هذا اليوم ، بسبب رسوخه في العقل والدم .

وفي القرآن قسم بالسماء ، وبالعاديات ، وبالتين والزيتون ، وبغير ذلك[1] ، ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب ، ففسروا وتأولوا ، ولو فكروا ان هذا النوع من القسم ، هو أسلوب من أساليب العرب في القسم قبل الاسلام ، وأن القرآن انما نزل بلسان العرب ، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم ، لأنه خاطبهم على قدر عقولهم وبلغتهم ، عرفوا السبب ، ولا زال الأعراب على سجيتهم القديمة في القسم بهذه الأشياء ، يقسمون بها كما يقسم المتحضر بأعز شيء عنده .

والسجع في الواقع باب من أبواب الشعر ، والمرحلة الأولى من مراحله ، والبذرة التي أنبتت الشعر العربي . ويتكون من فقرات . واذا أخذنا الشعر البدائي الذي يكون المرحلة الأولى من الشعر ، نرى انه لا يختلف اختلافاً كبيراً عن السجع . و (الكلام المسجع) ، هو ضرب من ضروب الشعر عند غير العرب . وقد طوّر الشعراء السجع ، وأوجدوا منه الشعر ، واذا درسنا أول الشعر العبراني ، أو أوليات الشعر عند الشعوب السامية ، وعند الشعوب الآرية ، نجد انه نمط من أنماط هذا الكلام الذي نسميه (السجع)[2] . وهو لا زال يعد شعراً عند كثير من شعوب هذا اليوم .

والمزاوجة والازدواج بمعنى واحد . وازدوج الكلام وتزاوج أشبه بعضه بعضاً في السجع أو الوزن[3] ، والازدواج لون من ألوان الإفصاح عن الشعور بأسلوب من أساليب الأدب المنثور ، أخف على النفس من السجع ، وأسهل انقياداً لأنامل الكتاب منه . وهو على كل حال لون من ألوانه ، خففت قيود قوافيه ، حتى صار على هذا الشكل . ومن الازدواج قول أحد بني أسد يخاطب رجلاً شيخاً مات ابن له : « اصبر أبا أمامة ، فإنه فرط افترطته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته » . فقال مجيباً له : « ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وُعِدته ، والله لئن لم أجزع النفس ، لا أفرح بالمزيد »[4] .

---

١ تفسير الطبري (٣٠/١٥٣ وما بعدها) .

٢ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 8.

٣ تاج العروس (٢/٥٥) ، (زوج) .

٤ البيان والتبيين (٢/١١٦) .

وقد تحدث (الجاحظ) في أثناء حديثه عن الشعوبية ومطاعنها على خطباء العرب عن أساليب الجاهليين في الكلام في أمورهم الجليلة مثل المنافرة والمفاخرة ، وعند المعاقدة والمعاهدة وأمثال ذلك ، ثم عن أخذهم المخصرة ، عند مناقلة الكلام ، فقال : « وبمطاعنهم على خطباء العرب : بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى ، والمنثور الذي لم يُقفّ ، وبالأرجاز عند المتح ، وعند مُجاثاة الخصم ، وساعة المشاولة ، وفي نفس المجادة والمحاورة . وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعمال المنثور في خطب الحمالة ، وفي مقامات الصلح ، وسلّ السخيمة ، والقول عند المعاقدة والمعاهدة ، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته ، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف ، ولا التماس قافية ، ولا تكلف لوزن . مع الذين عابوا من الاشارة بالعصي ، والاتكاء على أطراف القسي ، وخدّ وجه الأرض بها ، واعتمادها عليها إذا اسحنفرت في كلامها ، وافتنّت يومَ الحفل في مذاهبها ، ولزومهم العمائم في أيام الجمُوع ، وأخذ المخاصر في كل حال ، وجلوسها في خطب النكاح ، وقيامها في خطب الصلح وكل ما دخل في باب الحمالة ، وأكد شأن المحالفة ، وحقق حُرمة المجاورة ، وخطبهم على رواحلهم في المواسم العظام ، والمجامع الكبار ، والتماسح بالأكف ، والتحالف على النار ، والتعاقد على المِلح ، وأخذ العهد المؤكّد واليمين الغموس ، مثل قولهم ما سرى نجم وهبت ريح ، وبل بحر صوفة ، وخالفت جرةٌ درة »[1] . فنحن إذن أمام طرق من الكلام ، كل طريق منها يؤدي الى نوع من الكلام ، يستخدم في حالة من الحالات ، فساجلة الخصوم ، تكون بالموزون والمقفى ، والمنثور الذي لا يقفى ، أي المرسل ، أما في حالة الشدة والعمل ، مثل المتح ، أي الاستقاء من البئر ، وفي حالات البناء ورفع الحجر ، وفي القتال ، فتستعمل الأرجاز ، لتنشيط المهمة . وأما السجع ، فيستعمله الكهان ، ويستخدم في المنافرة والمفاخرة ، وأما المنثور ، أي الكلام المرسل ، الخالي من السجع والازدواج ، فيستعمل في الحمالة ، أي تحمل ديات قوم لا مال لهم ، فيقوم غيرهم بتحمل مبلغ الدية ، وفي مقامات الصلح ، ودفن الأحقاد والضغائن ، الى غير ذلك من حالات . فالسجع ، إذن غير النثر ، وغير

---

١ البيان والتبيين (٣/٥ وما بعدها) .

المزاوجة ، وغير الرجز . وقد جعل (الجاحظ) الكلام المنثور : أسجاعاً ، وازواجاً ، ومنثوراً[1] . فهذه في نظره أساليب النثر .

وأنا إذ أصف أسلوب النثر عند الجاهليين ، لا أعني اني أثق بصحة هذا النثر المنسوب اليهم ، وأثبت صحة نصه ، وانما أنا أصفه مستنداً في وصفي هذا على المدون المعمول عليهم ، الوارد الينا في بطون الكتب ، لأنه وإن كان في نظرنا مصنوعاً موضوعاً ، لكنه صيغ على كل حال وفق أسلوب الجاهليين ، وعلى نمط كلامهم ، إذ لا يعقل أن يكون الرواة قد اخترعوا تلك الأنماط من الكلام اختراعاً ، وأوجدوها من العدم ايجاداً ، فهم إذ وضعوا على ألسنة أهل الألسنة من العرب ، فإنما وضعوا عن تقليد ومحاكاة، وعلى نمط كلام سابق كان مألوفاً عند أهل الجاهلية الذين أدركوا الاسلام. ودليل ذلك أثره في خطب الخطباء الذين خطبوا أمام الرسول ، وفي خطب الخطباء الذين عاشوا في صدر الاسلام . فأنا حين أرفض النصوص ، لا أزعم انه لم يكن لهم نثر ، وان النثر انما ظهر وعرف في الاسلام ، بل أقر انه قد كان لهم نثر ، وكانت لهم خطب وكان لهم كلام ، ولكن أقول إن هذه النصوص المثبتة المدوّنة ، هي نصوص لا يجوّز العقل أن تكون صحيحة أصيلة مضبوطة ، لما قلته من عدم قدرة الذاكرة على المحافظة على أصالة النثر .

وأود أن أستثني الأمثال الجاهلية من هذا التعميم الذي عممته على نصوص النثر الجاهلي ، فالأمثال بحكم ايجازها وكثرة انتشارها على الألسنة ، ولكونها أداة تعليمية تحفظها الذاكرة ، ولا تخطىء فيها كثيراً ، حافظت لذلك على أصلها ونصها ، ودليل ذلك اننا لا نزال نضرب الأمثال بها حتى اليوم ، ثم إن منها ما قد ضرب به مثلاً في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، وفي خطب الخلفاء الراشدين وكتبهم ، ولهذا فنحن لا نبتعد عن العلم إن قلنا بصحتها من حيث النص والمعنى ، أي من حيث الضبط بالكلم ومن حيث المحافظة على المعنى[2] . أما بقية النثر ، فأنا على رأيي من عدم إمكان القول بصحة نصوصه،وإن كنت أوافق على جواز بناء بعض النصوص على معان جاهلية ، فيكون النص في هذه الحالات من وضع

---

١ البيان والتبيين (٤/٢٨) .

٢ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١٢٩) .

االروة ، أما المضمون فجاهلي ، تطور وتزوق حسب الأفواه التي روته ودبجته ، بحيث ظهر على الصورة التي وصلت الينا .

وإذا كان الحال على هذا المنوال ، فأين يا ترى نجد النثر ؟ وجوابي أنك لا تجد النثر الصحيح المنثور بهذه العربية البينة الفصيحة إلا في القرآن الكريم . فالقرآن الكريم ، لكونه كتاب الله وقد دوّن ساعة نزوله ، دوّنه كتبة عند نزول الوحي ، وأخذه عنهم كتبة آخرون وحفظه الحفاظ ، وقرأ الكثير منهم ما كتبه من آي أو ما حفظه منها ومن السور على الرسول ، فأيد قراءتهم،وثبت كتابتهم ، فهو لهذا الكتاب الوحيد المنزل بلسان عربي مبين . لا شبهة في ذلك ولا شك . أرشدنا الى أساليب الجاهليين في فنون القول ، بمخاطبته لهم بلسانهم وبطرق بيانهم ، وبأسلوب محاججتهم ، وضرب لهم الأمثال بأمثالهم ، كي تكون عبرة مقبولة عندهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ، بلسان عربي مبين ، يفهمه كل العرب ، ففيه إذن نجد نثر العرب ، وإن كان هو أبلغ النثر ، وفيه نجد حياة الجاهليين وعقليتهم .

وقد وصف (الجاحظ) أسلوب القرآن بقوله : « خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان ، وتأليفه من أكبر الحجج »[1] .

ثم نجد هذا النثر في الحديث ، في الحديث النبوي ، وفي الحديث موضوع وضعيف ، إلا ان فيه ما لا يشك في صحته . وفيه ما روي بالمعنى ، لتجويزهم الرواية عن الرسول بالمعنى ، خشية الخطأ في النص ، والتقول عليه ، ومن تقوّل على رسول الله متعمداً ، تبوأ مقعده في النار . وقد روي الحديث رواية ، أي مشافهة ، غير ان من العلماء من ذكر ان (عبدالله بن عمرو بن العاص) ، كان قد كتب حديث الرسول ، وذلك انه استأذنه في أن يكتب حديثه فأذن له . وروي عنه انه قال حفظت عنه ألف مثَل ، وروي عن (ابي هريرة) قوله: « ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكثر حديثاً مني ، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو ، فإنه كان يكتب »[2] . ولكننا لم نسمع بما حل

---

١ البيان والتبيين (٣٢) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ١٩٥٩ م) .
٢ الاستيعاب (٣٣٩/٢) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣٤٣/٢) ، (رقم ٤٨٤٧) .

بالصحف التي دوّن بها (عبدالله) حديث الرسول ، ولا أدري اذا كان ما روي عنه في المسانيد ، مثل مسند (أحمد بن حنبل) قد نقل من تلك الصحيفة نقلاً أم رواية[1] .

وهناك روايات تذكر ان (همام بن منبه) ، أخذ عن (أبي هريرة) ، حديث رسول الله ، وكتب ما أخذه في صحيفة عرفت بـ (الصحيفة الصحيحة) في مقابل (الصحيفة الصادقة) المنسوبة لعبدالله بن العاص ، ونجد نقولاً منها في البخاري ، وفي مسند (أحمد بن حنبل)[2] . وقد نشرت هذه الصحيفة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[3] . وهذه الصحيفة ، إن صح انها من وضع (همام بن منبه) وانها أصيلة ، ذات أهمية كبيرة بالطبع ، لأنها أقدم صحيفة نعرفها في الحديث بعد صحيفة (عبدالله بن عمرو بن العاص) ، وان كانت دونها في المنزلة ، لأنها أخذت عن لسان (أبي هريرة) ، وأخذ (عبدالله) حديثه من فم الرسول ، ومن الجائز أن يكون حديث أبي هريرة بلسانه ، أما حديث (عبدالله) ، فربما كان بلسانه أيضاً ، غير انه كان ينقله من فم الرسول فيحفظه ثم يدونه ، فهو أقرب الى الصحة من صحيفة (همام) . وربما كان (عبدالله) ، قد دوّن حديثه بحضرة الرسول ، فإن هذا الموضوع ، لا زال مجهولاً ، لم يبحث بحثاً علمياً صحيحاً ، وهو ينتظر من الباحثين من يقوم بالبحث عنه .

ويظهر من أحاديث تنسب الى الرسول مثل حديث : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه »[4] ، ومن أخبار تنسب الى (أبي بكر) و (عمر) في النهي عن كتابة الحديث ، مثل ما نسبوا الى (عمر) من انه كتب الى الأمصار من كان عنده شيء من الحديث فليمحه ، ومن انه أنشد الناس أن يأتوه بصحف الحديث ، فلما أتوه بها أمر بتخريقها ، ثم قال :

---

١ راجع في موضوع الحديث : أبورية ، أضواء على السنة المحمدية .

٢ مسند الامام احمد بن حنبل (٢/٣١٢ وما بعدها) ، لقد تحدثت عن « همام بن منبه » في أثناء حديثي عن « موارد تاريخ الطبري » ، المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الاول فما بعده .

٣ المجلد الثامن والعشرين (١٩٥٣) ، (الجزء الثاني والثالث) ، مصادر الشعر الجاهلي (١٤٦) .

٤ أبورية ، أضواء (٤٦) .

مثناة كمثناة أهل الكتاب ! ومثل ما نسب الى (علي) من قوله : « اعزم على كل من عنده كتاب إلا رجع فمحاه ، فإنما هلك النـــاس حيث تتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم »[1] ، وأمثال ذلك مما نسب الى الصحابـــة في النهي عن كتابة الحديث ، وفي الحث على تحريق ما قد كان عندهم من صحف وكتب أو إمحائه ، انه قد كان عند الصحابة صحف فيها حديث رسول الله كتبت في أيام الرسول وبعده ، كانوا يراجعونها ويستعزون بها ، وكان في بعضها ما يشك في صحته وفي صدوره من الرسول ، ولخوف الرسول وصحابته من أن يأتي يوم تكون فيه تلك الصحف مرجعاً للناس مثل رجوعهم للقرآن ، يتخذونها سنداً لهم، اتخاذ اليهود للمثناة ، أي (المشنا) ، أمروا باتلافها وبالنهـــي عن التدوين . والاكتفاء بالحديث مشافهة ، وبنشره بالرواية . وهي طريقة غير مأمونة أيضاً ، فالتدوين أضمن منها وأسلم ، ولكنها طريقة كانت متبعة في ذلك الحين ، لأسباب لا أستطيع أن أتحدث عنها في هذا المكان ، لأن الحديث عن تدوين حديث رسول الله وعن ورود النهي عن تدوينه يخرجنا عن الحدود المرسومة لهذا الكتاب . على كل فإن أخذ المحدثين بمبدأ رواية حديث الرسول بالمعنى ، كان هو السبب الذي حمل علماء النحو واللغة على عدم الاستشهاد به في شواهد القواعد واللغة ، كما بينت ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

وفي رسائل الرسول وكتبه ووصاياه وخطبه وأوامره ، وفي خطب الوفود التي كانت تفد عليه ، وفي خطب الصحابة ، أمثلة على طبيعة وأسلوب الخطب عند الجاهليين ، ولا سيما القديم من تلك الخطب الذي ألقاه الخطباء أمام الرسول قبل دخولهم في الاسلام ، فهو في الواقع استمرار لأسلوب الخطاب في الجاهلية ، ألقي بالطريقة المألوفة عندهم التي تمثل التفكير الجاهلي ، والعقلية الجاهليـــة أيام ظهور الاسلام . وإن كنت أشك في صحة كثير من الخطب والرسائل المنسوبة الى الرسول ذلك لأننا إذا درسنا نصوص هذه الرسائل ، نجد أصحاب السير والتواريخ يروونها بصور مختلفة ، وفي اختلافهم هذا ، دلالة على أن الرواة لم ينقلوها من أصـــل مكتوب، وإنما أخذوا النص بطريق المعنى والرواية ، فوقع من ثمّ هذا الاختلاف. أضف الى ذلك فعل التزوير ، فقد نص المؤرخون وأرباب السير عـلى أن بعض

---

[1] المصدر نفسه (٤٦ وما بعدها) .

أهل الكتاب وسادات القبائل والرجال ، قدموا للخلفاء كتباً مزورة فيها إقرار قرار وإحقاق حق ، للمطالبة بتنفيذ ما جاء فيها ، وفي حديث : « من كذب على متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار »[1] ، وحديث آخر يشبهه هو : « إن الذي يكذب عليّ يبني له بيتاً من النار » ، وأحاديث أخرى من هذا القبيل[2] ، دلالة على وقوع الكذب على الرسول في حياته وبعد وفاته .

وقد ورد أن الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين أن أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يُوجّه اليهم الخطاب كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة : حتى قال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره؟فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوضّح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات ، ولكنهم كانوا يرون هذا الإختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا اليه »[3] .

فإذا كان الأمر من اختلاف لغات العرب على هذا النحو ، وإذا كان الصحابة ومنهم الخلفاء ، وهم على ما هم عليه من فصاحة وبلاغة ، لم يفهموا كلام الوفود ، فهماً صحيحاً ، حتى كان الرسول يفسر لهم ما كان يقوله للوفود ، وما كانت الوفود تقوله له ، فكيف نصدق بصحة نصوص خطبهم وكلامهم ، وقد ألقيت بلهجاتهم الخاصة ، ولم يكن هناك كتبة ولا مدوّنون ، يدونون محاضر جلسات الرسول مع الوفود ، ومحاضر كلامه معهم ، وما كان يقع بحضرته من نقاش وكلام ؟

وأنت إذا راجعت خطب الرسول التي خطبها في (حجة الوداع) تجدها وقد

---

١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (١٢٢) ، (تحقيق اكرم ضياء العمري) ، (من كذب علي ، فليتبوأ مقعده من النار) ، « والله ما قال متعمدا ، وأنتم تقولون متعمدا » ، أبورية ، أضواء (٦٢) .

٢ أبورية ، اضواء (٥٩ وما بعدها) .

٣ الرافعي (١/٣٢٥) .

رويت بصور مختلفة[1] ، وفي هذا الاختلاف دلالة بينة على أنها لم تنقل من أصول مكتوبة ، وإنما أخذت من الأفواه ، وإلا لما جاز عقلاً وقوعــه أبداً . وسبب ذلك ، أن الناس في ذلك الوقت ، لم يكونوا قــد تعودوا لا في الجاهلية ولا في الاسلام اتخاذ كتّاب لتدوين مـــا كان يقع لهم من أحداث ، ولم يكن عندهم مراسلون يرافقون الملوك والحكّام وسادة القبائل والوفود ، لوصف مواكب الملوك ومشاهدهم وحروبهم ، وخطبهم ومفاوضاتهم مع سادات القبـائل . وكذلك كان الحال في الاسلام ، بـــل ولا رواة لهم ذاكرة قوية ، لحفظ أحاديث المجالس والأحداث ، واذاعتها بين الناس ، لأن العناية بحفظ الأحداث والتواريخ وتخليدها تقتضي وجود وعي بأهمية تدوين التأريخ ، ولم يكن هذا الوعي معروفاً آنذاك . ولهذا جاءت أخبار الحوادث عن طريق شهود عيان رووا ما شاهدوه لأصحابهم، كما يروي أي إنسان ما قد يقع له من أمور لأصدقائه،وهؤلاء قصوا تلك المرويات على أصحابهم وعلى من جاء بعدهم بلغتهم ، وبهذه الطريقـة وصلت الأخبار الى المدوّنين عندما بُدىء بالتدوين.وليس من المعقول بالطبع محافظة الذاكرة على النصوص الأصلية للخطب وللكلام ، ولقول الراوي الأول للأحداث . وليس من المعقول أيضاً وصولها سالمة نقية من كل تغيير أو تبديل أو تحريف ، ولا سيما في الأمور العاطفية التي تضرب على أوتار العصبية . ولهذه الأسباب وغيرها فنحن لا نستطيع الاطمئنان إلى صحة هذه الأخبار المروية من الأفواه ، لما يحتمل أن يكون قــد وقع فيها من زيف أو من تحريف عن عمد أو من غير عمد . ولو كانت الذاكرة تعي كل كلام وتحفظ كل حديث بالحرف والكلمة ، لما أجاز العلماء رواية حديث الرسول بالمعنى ، إذ كان من الصعب حفظه بالحرف . ولا أظن أن أحداً يقول إن حفظ أخبار الجاهلية ونصوص كلام رجالها،أهم عند العرب من حفظ حديث الرسول .

وأنا أشك في صحة أكــثر ما نسب الى (مسيلمة) من كـــلام وقرآن . وهو (مسيلمة بن حبيب الحنفي) ، المكنى بـ (أبـي ثمامة) ، والمنعوت بين

---

١ راجع كتب السير والتواريخ في خطبة الوداع ، الطبري (٣/١٤٩ وما بعدهـــا) ، البيان والتبيين (٢/٣١) ، ابن الاثير (٢/١٤٦) .

المسلمين بـ (الكذاب)[1] . واسمه الصحيح (مسلمة) ، وقد صغر في الاسلام، ازدراءً بشأنه . فقد روي انه صنع قرآناً مضاهاة للقرآن ، غير انهم لم يتحدثوا بشيء عن قرآنه . واذا صح ما ذكره أهل الأخبار من انه ادعى الوحي بمكة أو باليمامة قبل الاسلام ، وانه نزّل على نفسه آيات زعم انها تنزيل من الرحمان ، فيكون قد باشر بتأليف قرآنه قبل الوحي[2] .

وذكر ان في حقه نزلت الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إليّ ، ولم يوح اليه بشيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »[3] . فقد ذكر علماء التفسير ان عبارة : « أو قال أوحي إليّ ولم يوح اليه بشيء »، نزلت في مسيلمة أخي بني عدي بن حنيفة ، فيما كان يسجع ويتكهن به . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أخي بني عامر بن لؤي ، كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فيما يملي : عزيز حكيم ، فيكتب : غفور رحيم فيغيره ، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوّل، فيقول : نعم سواء ، فرجع عن الاسلام ، ولحق بقريش . وقال لهم : لقد كان ينزل عليه عزيز حكيم ، فأحوله ثم أقول لما أكتب،فيقول : نعم سواء »[4].

وكان من حديث (مسيلمة) ان قريشاً قالت للرسول : « بلغنا انه انما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له الرحمان ، وإنا والله ما نؤمن بالرحمان أبداً »[5] ، وذكر أهل الأخبار ان قريشاً « حين سمعت : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال قائلهم : دق فوك ، انما تذكر مسيلمة رحمان اليمامة »[6] ، لأنهم كانوا قد سمعوا بدعوته الى عبادة الرحمان ، قبل نزول الوحي على الرسول . وورد « انهم لما

---

١ « وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هفان ابن ذهل ، بن الدول بن حنيفة • يكنى أبا أمامة ، قيل أبا هارون ، وكان يسمى بالرحمان فيما روى عن الزهرى قبل مولد عبدالله والد النبي » ، الروض الانف (٢/٣٤٠) ، الاشتقاق (٢٠٩) ، (كذاب اليمامة) ، مروج الذهب (٢/٣٠٣) ، المعارف (٩٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٤٠٥ ، ٤٢٤ ، ٤٥٤) ، اليعقوبي (٢/١٢٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) •

٢ تحدثت عنه بتفصيل في الجزء السادس من هذا الكتاب في فصل : أنبياء جاهليون •

٣ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٣ •

٤ تفسير الطبري (٧/١٨١) •

٥ تفسير الطبري (١٥/١١١) •

٦ اليعقوبي (١/١٢٠) ، الروض الانف (٢/٣٤٠) •

سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن قالت قريش : أتدرون ما الرحمن ؟ هو كاهن اليمامة ! » . وقد قالوا لمسيلمة : رحمان ، وقالوا أيضاً فيه : رحمان اليمامة [1] .

وأنا لا أستبعد احتمال مجيئه الى مكة قبل الاسلام . فقد ذكر انه تزوج (كبشة) (كيسة بنت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس)[2] ، وهي من مكة ، فلا يعقل عدم مجيئه الى مكة وإقامته بها بعض الوقت ، ومجيئه اليها بين الحين والحين . ومن هنا كان لأهل مكة علم بدعوة مسيلمة الى عبادة (الرحمان) .

وقد زعم أنه « كان يقول : أنا شريك محمد في النبوة ، وجبريل عليه السلام ينزل عليّ كما ينزل عليه ، وكان رجّال بن عنفوة من رائشي نبله ، والحاطبين في حبله ، والساعين في نصرته . وكان مسيلمة يقول : يا بني حنيفة ، ما جعل الله قريشاً بأحق بالنبوة منكم ، وبلادكم أوسع من بلادهم ، وسوادكم أكثر من سوادهم ، وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم . ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وجد الناس يتذاكرونه وما يبلغهم عنه من قوله وقول بني حنيفة فيه ، فقام يوماً خطيباً ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه . أما بعد ، فإن هذا الرجل الذي تكثرون في شأنه كذّاب في ثلاثين كذّاباً قبل الدجال ، فسماه المسلمون مسيلمة الكذاب ، وأظهروا شتمه وغيبه وتصغيره ، وهو باليمامة يركب الصعب والذّلول في تقوية أمره ، ويعتضد برجال بن عنفوة ، وهو ينصره ويذب عنّه ويصدق أكاذيبه ، ويقرأ أقاويله التي منها : والشمس وضحاها ، في ضوئها ومنجلاها . والليل إذا عداها ، يطلبها ليغشاها ، فأدركها حتى أتاها وأطفأ نورها فمحاها »[3] .

« ومنها : سبح اسم ربك الأعلى ، الذي يسّر على الحُبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين أحشاء ومعى ، فنهم من يموت ويدس في الثرى ، ومنهم

---

١ الخزانة (٢/٢٨٥) ، (هارون) .
٢ كتاب نسب قريش (٢٠) ، الروض الانف (٢/١٩٨ ، ٣٤١) ، المحبر (٤٤٠) ، امتاع الاسماع (١/٢٤٧) ، كتاب نسب قريش (١٤٧) ، الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٩٦) .
٣ ثمار القلوب (١٤٦ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٥٩) ، المعارف (١٧٨) ، التنبيه ، للمسعودي (٢٤٧) .

من يعيش ويبقى الى أجل ومنتهى ، والله يعلم السرّ وأخفى ، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى .

ومنها : اذكروا نعمة الله عليكم واشكروها ، إذ جعل لكم الشمس سراجاً، والغيث ثجاجاً ، وجعل لكم كباشاً ونعاجاً ، وفضة وزجاجاً ، وذهباً وديباجاً ، ومن نعمته عليكم أن أخرج لكم من الأرض رمّاناً ، وعنباً ، وريحاناً ، وحنطة وزؤاناً .

وكان أبو بكر إذا قرع سمعه هذه الترهات يقول : أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من إلّه »[1] .

« وكان رجّال بن عنفوة صاحب مسيلمة قدم المدينة مراراً ، وقرأ القرآن وأظهر الايمان ، وأسرّ الكفر . ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم ، بينما هو جالس في أصحابه ، إذ سمع وطئاً من خلفه ، فقال : هذا وطء رجل من أهل النار ، فإذا هو رجّال بن عنفوة . فلما قدم وفد حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم – وفيهم مسيلمة إلا انه لم يلقه – وأظهروا الاسلام وأرادوا الانصراف ، أمر لهم عليه الصلاة والسلام بجوائز كعادته في الوفود ، وقال : هل بقي منكم أحد ؟ قالوا : لا ، إلا رجل منا يحفظ رحالنا – يعنون مسيلمة – فقال صلى الله عليه وسلم : ليس بشرّكم مكاناً . فلما رجع الوفد الى مسيلمة وقد بلغه كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : قد سمعتم قول محمد فيّ : ليس بشرّكم مكاناً ، وقد أشركني في الأمر بعده ، فعليكم به . ولما انصرفوا الى اليمامة أعلن مسيلمة النبوة ، وادعى الشركة ، وفتن أهل اليمامة ، وانقسموا بين مصدّق ومكذّب ، وراضٍ وساخط . وكتب مسيلمة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، كتاباً قال فيه : الى النبي محمد رسول الله من مسيلمة رسول الله ، أما بعد ، فإني قد أشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قومٌ يعتدون ولا يعدلون . وختم الكتاب وأنفذه مع رسولين ، فلما قرىء الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهما : ما تقولان ؟ قالا : نقول ما قال أبو ثمامة ، فقال : أما والله لولا ان الرسل لا يقتلون لقتلتكما .

---

١ ثمار القلوب (١٤٧ وما بعدها) .

وأملى في الجواب : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

ولما صدر الرسولان الى مسيلمة الكذاب افتعل كتاباً يذكر فيه انه جعل له الأمر من بعده ، فصدّقه أكثر بني حنيفة .

وبلغ من تبركهم به انهم كانوا يسألونه أن يدعو لمريضهم،ويبارك لمولودهم، وجاءه قوم بمولود لهم فمسح رأسه فقرع . وجاءه رجل يسأله أن يدعو لمولود له بطول العمر ، فمات من يومه .

وكان ثمامة بن أثال الحنفي يقشعر جلده من ذكر مسيلمة ، وقال يوماً لأصحابه : إن محمداً لا نبي معه ولا بعده ، كما ان الله تعالى لا شريك له في ألوهيته ، فلا شريك لمحمد في نبوته . ثم قال : أين قول مسيلمة : يا ضفدع نِقي نقي ، كم تنقين ! لا الماء تكدرين ، ولا الشربَ تمنعين،من قول الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إلّه إلا هو اليه المصير . فقالوا : أوقح بمن يقول مثل ذلك مع مثل هذا ! »[1] .

وقد روي قول (مسيلمة) في الضفدع على هذا النحو : « يا ضفدع بنت ضفدعين : نقي ما تنقين . نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين »[2] . وروي أن وفد اليمامة لما قدم على (أبي بكر) بعد مقتل مسيلمة ، « قال لهم : ما كان صاحبكم يقول ؟ فاستعفوه من ذلك ، فقال: لتقولنّ . فقالوا : يا ضفدع نقي كم تنقين ، لا الشارب[3] تمنعين ، ولا الماء تكدرين ... في كلام من هذا كثير . فقال أبو بكر : ويحكم ! إنّ هذا الكلام لم يخرج من إلّ ولا بر ، فأين ذهب بكم »[4] ؟ ، أو أنه قال : « هذا كلام ما أتى من عند إلّ ، أي من عند الله . وهو في الأسماء الأعجمية إيل ، مثل إسرافيل ، وجبريل ، وميكائيل ، وإسرائيل ، واسماعيل »[5] . وقيل الإلّ

---

١ ثمار القلوب (١٤٨ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٢/١٨٠) .
٣ في الاصل « الشراب » ، وفي الموارد الاخرى الشارب .
٤ الفائق (٣/١٢٢) .
٥ الاكليل (٢/٧) .

الربوبية ، والأصل الجيد والمعدن الصحيح ، أي لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن . ويجوز أن يكون بمعنى النسب والقرابة ، من قوله تعالى : « لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة » . وقول حسّان :

لعمرك إن إلّك من قريش   كإلّ السقب من رأل النعام[1]

وقد ذكر (الطبري) في مقدمة تفسيره ، أن القرآن لما نزل على الرسول « أقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق ، وشهدوا على أنفسهم بالنقص ، إلا من تجاهل منهم وتعامى ، واستكبر وتعاشى ، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز ، ورام ما قد تيقن أنه غير قادر عليه ، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستوراً ومن عيّ لسانه ما كان مصوناً ، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق ، والجاهل الأحمق ، فقال : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ... ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة »[2] . والطبري وإن لم يصرح باسم قائل هذه الحماقات ، لكنه قصد به مسيلمة من غير شك .

أما أن تلك الآيات آيات قالها (مسيلمة) حقاً ، فتلك قضية لا يمكن إثباتها، فلما قتل ، وضع أصحابه عليه أموراً كثيرة ، قد يكون في جملتها هذه الآيات . أما قرآنه الذي قيل إنه وضعه يضاهي به القرآن ، فقد هلك بهلاكه ، ولم أجد أحداً ذكر أنه وقف عليه ، ونقل منه ، ولعلّه كان كلاماً لم يسجل في حياة مسيلمة ، وإنما كان محفوظاً في صدر صاحبه وفي صدور أتباعه ، ودخل من دخل من أصحابه في الاسلام طمس أثر ذلك القرآن .

وقد دوّن (الرافعي) الآيات التي أخذتها من تفسير الطبري ، على هذه الصورة: « والمُبذرات زَرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لَقماً ، إهالة وسمناً ... لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه،

---

١ الفائق (٣/١٢٣) .

٢ تفسير الطبري (١/٥) .

والمُعتر فآووه ، والباغي فناوئوه »[1] ..

ونسب (الرافعي) له قوله : « والشاءِ وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، انه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون .

وقوله : « الفيلُ ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » . وروي انه « جعل يسجع لهم الأساجيع ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا »[2] ، أو انه قال : « ألم ترَ الى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى »[3] . روي انه قال هذه الآيات لسجاح لما أراد الدخول بها ، فقالت : « وماذا أيضاً ؟ قال : أوحى إليَّ : ان الله خلق النساء أفراجاً ، وجعل الرجال لهن أزواجاً ، فنولج فيهن قُعساً إيلاجاً ، ثم نخرجها اذا نشاء إخراجاً ، فينتجن لنا سخالاً انتاجاً . قالت أشهد انك نبي ، قال : هل لك أن أتزوجك فآكل بقومي وبقومك العرب ! قالت : نعم ، قال :

ألا قومي الى النيك فقد هُيي لك المضجع
وإن شئتِ ففي البيت وإن شئت ففي المخدع
وإن شئت سلقناكِ وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع

قالت : بل به أجمع . قال بذلك أوحى إليَّ . فأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت الى قومها ، فقالوا : ما عندك ؟ قالت : كان على الحق فاتبعته فتزوجته ، قالوا : فهل أصدقك شيئاً ؟ قالت : لا ، قالوا : ارجعي اليه ، فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق ! فرجعت ، فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن ، وقال : ما لك ؟ قالت أصدقني صداقاً ، قال : من مؤذنك ؟ قالت : شبث بن ربعي

١ تاريخ آداب العرب (٢/١٧٩) .
٢ سيرة ابن هشام (٢/٣٤١) ، (حاشية على الروض) ، ابن كثير ، البداية (٦/٣٢٦) ، الباقلاني ، اعجاز (٢٤٠) .
٣ الباقلاني ، اعجاز (٢٤٠) .

الرياحي ، قال : عليَّ به ، فجاء ، فقال : نادِ في أصحابك ان مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر »[1] . وأما (سيف) فذكر انه صالحها « على أن يحمل اليها النصف من غلاّت اليمامة ، وأبت إلا السنة المقبلة يسلفها ، فباح لها بذلك ، وقال : خلفي على السلف من يجمعه لكِ ، وانصرفي أنت بنصف العام ، فرجع فحمل اليها النصف ، فاحتملته وانصرفت به الى الجزيرة »[2] .

وذكر أن (سجاح) لما دخلت قبة (مسيلمة) ، « قالت له : اخبرني بما يأتيك به جبريل ؟ فقال لها : اسمعي هذه السورة : انكن معشر النساء خلقن أمواجاً ، وجعل الرجال لكن أزواجاً ، يولجن فيكن إيلاجاً ، لا ترون فيه فتوراً ولا إعوجاجاً ، ثم يخرجونه منكن إخراجاً ، فقالت له : صدقت ، والله إنك لنبيّ مرسل » ، وهي قصة أخذت من موارد سابقة ، مثل الطبري ، غير أنها غيرت فيها بعض التغيير ، تنتهي بأنه رفع عن قومها صلاة العشاء والصبح لأجل المهر[3] .

وزعم أن « من قرآن مسيلمة الذي يزعم أنه نزل عليه ، لعنة الله عليه : والنازعات نزعاً ، والزارعات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات ذرواً ، فالطاحنات طحناً ، والنازلات نزلاً ، فالجامعات جمعاً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، فالآكلات أكلاً ، والماضغات مضغاً ، فالبالعات بلعاً »[4] .

وقد اتخذ قتل (مسيلمة) فخراً ، فادعى قتله بنو عامر بن لؤي ؛ وادعى بعض الخزرج قتله ، وادعى (بنو النجار) قتله ، وادعى (حبشي) قاتل حمزة قتله ، وكان (معاوية يدعي قتله) ويدعي ذلك له (بنو أمية) . وذكر أن (عبد الملك بن مروان) قضى لمعاوية بقتل مسيلمة[5] ، وهو قضاء سياسي لا أصل له بالطبع .

---

١ الطبري (٣/٢٧٣ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٢٧٥) .
٣ نزهة الجليس (١/٤٧٣ وما بعدها) .
٤ نزهة الجليس (١/٤٧٤) .
٥ البلاذري ، فتوح (٩٩) .

ويظهر ان بني حنيفة بقوا على تعلقهم بمسيلمة ، حتى بعد مقتله وذهاب أمره. ففي خبر ينسب الى (ابن مُعَيْز) السعدي انه مر على مسجد بني حنيفة ، فسمعهم يذكرون (مسيلمة) ، ويزعمون انه نبي ، فأتى (ابن مسعود) فأخبره ، فبعث اليهم الشرط ، فجاءوا بهم فاستتابوا فخلي عنهم ، وقدم (ابن النواحة) فضرب عنقه[1] . هذا ، ويدل تعلق (بني حنيفة) وغيرهم من عرب اليمامة بمسيلمة ، واستماتتهم في الدفاع عنه ، وتذكرهم له حتى بعد هلاكه ، على انه كان شخصية مؤثرة قوية ، سحرت أتباعها ، حتى انقادوا له هذا الانقياد. وقد نص (ابن حجر) على قتل (ابن مسعود) لابن النواحة ، إلا انه لم يذكر ان ذلك كان بسبب اعتقاده بنبوة (مسيلمة) ، وانما ذكر انه « كان قد أسلم ثم ارتد فاستتابه عبدالله بن مسعود ، فلم يتب فقتله على كفره وردته »[2]. واسم (ابن النواحة) (عبادة بن الحارث) أحد بني عامر بن حنيفة[3] .

ويروى ان (الأخطل) الضبعي ، قال في مسيلمة :

لهفاً عليك أبا ثمامة لهفاً على رُكْنَيْ شمامه
كم آيةٍ لك فيهمُ كالبرق يلمع في غمامه

وكان (الضبعي) شاعراً ، زعم انه ادعى النبوة ، وكان يقول : لمضر صدر النبوة ، ولنا عجزها ، وقد ضرب عنقه (عمر بن هبيرة) ، ومن شعره:

لنا شطر هذا الأمر قسمة عادل متى جعل الله الرسالة تُرتبا[4]

أي راتبة في واحد .

وسئل (الأحنف بن قيس) رأيه في مسيلمة ، فقال : « ما هو بنبي صادق ولا بمتنبيء حاذق »[5] .

١ الفائق (٦٠٣/١) ، الاصابة (١٤٣/٣) ، (رقم ٦٦٥١) .
٢ الاصابة (١٤٣/٣) ، (رقم ٦٦٥١) .
٣ البلاذري ، فتوح (٩٧) .
٤ المؤتلف (٢٢) .
٥ امالي المرتضى (٢٩٢/١) .

وأنا لا استبعد ما نسب الى (مسيلمة) من دعوى نزول الوحي عليه ، وتسمية ذلك الوحي (قرآناً) أو كتاباً أو سفراً ، أو شيئاً آخر ، ولكني استبعد صحة هذه الآيات التي نسبتها الكتب اليه ، وأرى أن أكثرها ورد بطريق آحاد ، فلما نقلها الخلف عن السلف ، وكثر ورودها في الكتب ظهرت وكأنها أخبار متواترة ، وصارت في حكم ما أجمع عليه . وقد رويت بعض الآيات مثل : آية الضفدع ، بصور متعددة مختلفة ، مع أنها أشهر وأعرف آية أو آيات نسبت اليه ، فما بالك بالآيات الأخرى ، ثم إننا نجد الرواة يناقضون أنفسهم كثيراً فيما نسبوه اليه ، وبعضه مما لا يعقل صدوره من مسيلمة ، مثل شعره الذي قاله لسجاح ، حين أراد الدخول بها . وهل يعقل أن يقول إنسان يدعي النبوة مثل هذا الكلام الفاحش أمام الناس ، ليدون ويسجل عليه !

وقد ذكر (ابن النديم) أن لابن الكلبي مؤلفاً خاصاً ألفه في مسيلمة دعاه : « كتاب مسيلمة الكذاب » ، لم يصل الينا ، وله كتاب آخر في بني حنيفة اسمه : « كتاب أيام بني حنيفة » ، وهم قوم مسيلمة ، وكتاب دعاه : « كتاب أيام قيس بن ثعلبة »[1] .

وزعم أن من كلام (طليحة) الأسدي الذي قاله لأصحابه : « والحمام واليمام ، والصرد والصوّام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام »[2] .

وروى (الطبري) سجعاً من سجع (سجاح) ، وكانت نصرانية راسخة في النصرانية ، قد علمت من علم تغلب ، هو قولها لأتباعها : « عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة » ، فلما جاءت مع قومها اليمامة ، قال لها مسيلمة : « لنا نصف الأرض ، وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش ، فحباك به ، وكان لها لو قبلت . فقالت : لا يرد النصف إلا من حنف ، فاحمل النصف الى خيل تراها كالسهف . فقال مسيلمة : سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذ طمع ، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع . رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة

---

١ الفهرست (ص ١٤٨) .

٢ الطبري (٣/٢٦٠) ، (دار المعارف) .

خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجّار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكبـار ، رب الغيوم والأمطار .

وقال أيضاً : لمّا رأيت وجوههـم حسُنت ، وأبشارهم صفت ، وأيديهم طفلت ، قلت لهم : لا النساء تأتون ، ولا الخمر تشربون ، ولكنكم معشر أبرار تصومون يوماً ، وتكلفون يوماً ، فسبحان الله ! اذا جاءت الحياة تحيون ، والى ملك السماء ترقون ! فلو انها حبة خردلة ، لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور ، ولأكثر الناس فيها الثبور .

وكان مما شرع لهم مسيلمة ان من أصاب ولداً واحداً عقباً لا يأتي امرأة الى أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد ، حتى يصيب ابناً ثم يمسك ، فكان قد حرّم النساء على من له ولد ذكر »[1] .

وبلاغة الكلام معروفة عند الجاهليين ، فقد كانوا ينعتون المتكلم الجيد بالبليغ ، وفي القرآن الكريم : « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً »[2] . والبليغ الفصيح الذي يبلغ بعبارته كنه ضميره ونهاية مرامه[3] . سأل (معاوية) (صحار بن عياش) العبدي[4] ، ما البلاغة ؟ فقال : لا تخطيء ولا تبطيء . أو أنه قال له : مـا البلاغة ؟ قال : الإيجاز . قال : ما الايجاز ؟ قال : أن لا تبطيء ولا تخطيء . وكان قد دهش من فصاحته وبلاغته ، فقال له : ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال : شيء يختلج في صدورنا فنقذفه كما يقذف البحر بزبده[5] .

وقد ميز (الطبري) وغيره من العلماء بين الخطباء وبين الفصحاء والبلغاء ، فالخطباء هم من جماعة صناع الكلام ، وصناعتهم صناعة الخطب ، وذكر بعدهم (البلغاء) ، صناع البلاغة ، ثم (الشعر) والفصاحة ، فجعل للشعر في مقابل الفصاحة، ثم السجع والكهانة ، وقال : « كل خطيب منهم وبليغ ، وشاعر منهم

---

١ الطبري (٣/٢٧١ وما بعدها) .
٢ النساء ، الرقم ٤ ، الاية ٦٢ .
٣ تاج العروس (٦/٤) ، (بلغ) .
٤ « صحار بن عباس ؟ » .
٥ تاج العروس (٦/٥) ، (بلغ) ، الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .

وفصيح »[1]، فالخطيب هو الذي يخطب باسم الوفد أو القوم ، وله لذلك عندهم مقام جليل ، لأنه عقل من يتكلم باسمهم ولسانهم ، والبليغ من يتحدث ويتكلم في المجالس والأندية ، بكلام بليغ رصين ، والفصيح من يفصح ويعرب بلسانه، ونجدهم يقولون أحياناً خطيب فصيح ، وشاعر فصيح ، فالفصاحة صفة تلحق بالمتكلم ناثراً كان أو كان شاعراً .

وللبيان عند العرب مقام كبير . وقد أشاد القرآن بالبيان ، فقال : « الرحمن علّم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان »[2] . فجعل البيان في جملة ما علمه الله الانسان . ونعت القرآن بأنه نزل « بلسان عربي مبين »[3] ، ووصف القرآن بقوله : « طس،تلك آيات القرآن وكتاب مبين »[4] . وينسب الى الرسول قوله: « إن من البيان لسحراً »[5] . وورد في المثل : « جرح اللسان كجرح اليد . هو في شعر امرىء القيس » . يضرب في تأثير الوقيعة[6] ، وفي أثر القول في فعل الناس .

وروي أن ذوي الفهم والعلم من قريش تأثروا ببلاغة القرآن وفصاحته، فروي أن (الوليد بن المغيرة) ، وكان من بلغاء قريش وفصحائهم ومن علمائهم بالشعر، لما دخل على (أبي بكر) يسأله عن القرآن « فلما أخبره خرج على قريش . فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهذي من الجنون » ، أو أنه قال لما سمع القرآن : « والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وان له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وانه ليعلو وما يعلى،وما أشك أنه سحر » ، أو أنه قال: « سمعت قولاً حلواً أخضر مثمراً ، يأخذ بالقلوب . فقالوا : هو شعر . فقال : لا والله ما هو بالشعر ، ليس أحد أعلم بالشعر مني ، أليس قد عرضت عليّ الشعراء شعرهم ! نابغة وفلان وفلان . قالوا : فهو كاهن . فقال : لا والله ما هو بكاهن ، قدعرضت

---

١ تفسير الطبري (١/٥) .
٢ سورة الرحمن ، تفسير الطبري (٢٧/٦٧) .
٣ النحل ، الاية ١٠٣ ، الشعراء ، الاية ١٩٥ .
٤ النمل ، الاية ١ .
٥ البيان والتبيين (١/٣٤٩) ، العسكري ، جمهرة (١/١٣) .
٦ الزمخشري ، المستقصى (٢٠/٥٠) ، (رقم ١٨٧) .

عليّ الكهانة . قالوا : فهذ سحر الأولين اكتتبه . قال : لا أدري إن كان شيئاً فعسى هو اذا سحر يؤثر »[1]، او أنه قال أشياء اخرى من هذا القبيل، اتفقت في المعنى والمقصد ، واختلفت في العبارات .

كما روي أن قوماً من قريش ومن غيرهم ، أسلموا بتأثير بيان القرآن عليهم، فقد روي ان (عمر بن الخطاب) أسلم على ما يقال حين سمع القرآن . روي عنه انه قال : « خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قد سبقني الى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح بسورة الحاقة ، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن . فقلت هذا والله شاعر ، كما قالت قريش . فقرأ : انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون . فقلت كاهن . قال : ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون حتى ختم السورة . قال : فوقع الاسلام في قلبي كل موقع »[2] . وهي رواية تخالف ما جاء في خبر اسلامه ، من انه كان قد خرج يريد قتل الرسول ، فتلقاه (نعيم بن عبدالله) النحّام ، وكان من المسلمين ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال له : « اريد محمداً هذا الصابيء الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها ، وعاب دينها وسب آلهتها ، فاقتله » ، فقال له (نعيم) : « أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأي أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطّاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما » ، فرجع عمر عامداً الى اخته وختنه وعندهما (خباب بن الأرت) معه صحيفة فيها (طه) يقرئها اياها ، فلما سمعوا حس عمر ، أخذت (فاطمة) الصحيفة . فلما دخل (عمر) ، قال : ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا : ما سمعت شيئاً ، ثم قال لأخته : اعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأونها أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . فأبت أخته اعطاءها إلا أن يغتسل ، فاغتسل عمر ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها وتأثر بها فأسلم[3] .

---

١ تفسير الطبري (٢٩/٩٨ وما بعدها) ، سورة المدثر .

٢ الاصابة (٢/٥١٢) ، (رقم ٥٧٣٨) ، الروض الانف (١/٢١٨) ، ورووا له شعرا ، ذكروا أنه قال بعد اسلامه ، رواه « ابن اسحاق » الروض الانف (١/٢١٨) .

٣ ابن هشام (١/٢١٦ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (١/٢١٦) .

ورووا أن (سويد بن الصامت) ، صاحب صحيفة لقمان ، كان ممن أعجب بالقرآن ، ورووا أن (جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل) ، وكان من أكابر قريش ومن علماء النسب ، قدم على النبيّ ، فسمعه يقرأ (الطور) ، فأثرت القراءة فيه ، وقد أسلم فيما بعد ، بين الحديبية والفتح ، وقيل في الفتح[1] .

والفصاحة في معنى البلاغة ، فهي مرادف لها في الاستعمال . والفصيح هو البين في اللسان والبلاغة ، ولسان فصيح ، أي طلق[2] . وقد اشتهر (قس بن ساعدة الايادي) في الفصاحة حتى ضرب به المثل فيها ، فقيل : أفصح من قس، وأنطق من قس[3] ، وأبين من قس ، أي أفصح[4] ، وأبلغ من قس . وقد ذكره (الأعشى) بقوله :

وأبلغ من قسّ وأجرأ من الذي   بذي الغيل من خفان أصبح خادرا

كما ذكره الحطيئة بقوله :

وأبلغ من قس وأمضى إذا مضى   من الريح إذ مسّ النفوس نكالها[5]

ونسبوا الى (قس) قوله ينصح ولده : «إنّ المعا تكفيه البقلة . وترويه المذقة، ومن عيّرك شيئاً ففيه مثله ، ومن ظلمك وجد من يظلمه ، ومتى عدلت على نفسك عدّل عليك من فوقك ، وإذا نَهَيْتَ عن شيء فانْهَ نفسك ، ولا تجمع ما لا تأكل ، ولا تأكل ما لا تحتاج اليه ، وإذا ادخرت فلا يكوننّ كنزك إلا فعلك . وكن عف العيلة،مشترك الغنى ، تسد قومك . ولا تشاورن مشغولاً وإن كان حازماً ، ولا جائعاً ، وإن كان فهماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً ولا تضعنّ في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعه إلا بشق نفسك . وإذا خاصمت فاعدل،

---

١ الاصابة (١/٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/٢٣٢ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢/١٩٧) ، (فصح) .

٣ الزمخشري ، المستقصى (١/٣٩٣) ، (رقم ١٦٧٧) .

٤ المصدر نفسه (١/٣٢) ، (رقم ٩٩) ، العسكري ، جمهرة (١/٢٤٩) ، (رقم ٣٣٦) .

٥ المستقصى (١/٢٩) ، (رقم ٨٨) .

وإذا قلت فاقتصد . ولا تستودعن أحداً دينك وإن قربت قرابته ، فإنك اذا فعلت ذلك لم تزل وجلاً ، وكان المستودَع بالخيار في الوفاء والغدر ، وكنت له عبداً ما بقيت . وإن جنى عليك كنت أولى بذلك ، وان وفّى كان الممدوح دونك»[1].

وقد اشتهرت (إياد) بالفصاحة والبيان ، وبقدرة في اللسان . وقد ظهر منهم جملة خطباء[2] . واشهرت (بنو أسد) بالخطابة كذلك ، قال (يونس بن حبيب) : « ليس في بني أسد إلا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل إلا شاعر أو رام ، أو شديد العدو »[3] .

والآن ، وبعد أن انتهينا من الكلام على النثر ، نقول هل كان للجاهليين أدب منثور ؟ أي مدونات من الأدب المنثور . لقد ذهب البعض الى انه لو كان للجاهليين أدب منثور مدون ، لعدّ عجيباً اختفاء آثاره هذا الاختفاء الكلي، حتى من أحاديث العرب المنقولة[4] . والواقع ان من غير الممكن في الوقت الحاضر البت علمياً في هذا الموضوع ، لأننا لا نملك أدلة علمية ، لنستنبط منها أحكاماً تؤيد أو تنفي وجود التدوين في الجاهلية . أما مسألة عدم ورود نصوص أدبية منثورة الينا ، أو عدم ورود إشارات الى وجودها في الجاهلية ، فإنها أمور لا يمكن أن تكون حجة على اثبات عدم وجود التدوين عند الجاهليين ، إذ لا يجوز انها كانت ، ولكنها تلفت ، بسبب كونها كانت مكتوبة على مواد سريعة التلف ، فهلكت ، كما هلكت مدونات صدر الاسلام ، حيث لم يصل من أصولها إلا النزر اليسير ، وهو نزر يشك في أصالته وصحته .

وذهب بعض الى وجود أدب منثور ، إذ لا يعقل وجود أدب منظوم ، ثم لا يكون للعرب أدب منثور . ويتجلى طراز هذا الأدب في الأمثلة والحكم المنسوبة

---

١ أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري ، المصون في الادب (الكويت ١٩٦٠) ، (ص ١٧٩ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (١/٤٢ وما بعدها) .

٣ البيان والتبيين (١/١٧٤) .

٤ هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام (ص ٢٩٤ وما بعدها) ، (دار العلم للملايين) ، (بيروت ١٩٦٤) .

الى الجاهليين . أما مؤلفات وكتب، وصحف مدونة فلم يصل منها الينا أي شيء. ولكن ذلك لا ينفي عدم وجودها عند أهل الجاهلية . وقد تحدثت عن موضوع التدوين عند الجاهليين في موضع آخر من هذا الكتاب .

وللجاحظ رأي في كلام العرب ، فهو يرى أن « كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه الى الكلام « فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده» ، على حين يكون كلام العجم «عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتُب »[1] . وقد حصر أصناف البلاغة عند العرب بالقصيد والرجز ، وهما من الشعر ، وبالمنثور ، وهو الكلام المرسل ، وبالأسجاع ، وبالمزدوج وما لا يزدوج من الكلام[2] .

أما موضوع وجود ترجمات جاهلية عربية للتوراة والانجيل والكتب الشرعية الأخرى المعتبرة عند أهل الكتاب ، فموضوع لم يتفق عليه الباحثون حتى الآن . نعم ورد في الأخبار أن الأحناف كانوا قد وقفوا على كتب الله، وقرأوها بالعبرانية وبالسريانية ، وأنهم كتبوا بهما وبالعربية[3] ، ولكن هذه الأخبار غامضة غير واضحة ، يجب أخذها بحذر ، كما ورد أن بعض الرقيق من أهل الكتاب ممن كان بمكة كان يقرأ كتاب الله، وكانت قريش ترى رسول الله يمرّ عليه ويجلس عنده ويستمع اليه ، فقالت إنما يتعلم (محمد) منه[4] ، ولكن الأخبار الواردة عن هذا الموضوع لا تشير الى أن هذا الذي زعم أنه كان يعلم الرسول ، كان قد دوّن ترجمة كتب الله ، أو تفاسيرها بالعربية ، وأن الناس قد وقفوا عليها .

وأما ما ورد من أمر (عمرو بن سعد بن أبي وقاص) (عمرو بر سعد

---

١ البيان والتبيين (٢٨/٣ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (٢٩/٣) .

٣ Georg Graf, Geschichte der Christlischen Arabischen Literatur, I, S. 34

٤ النحل ، الاية ١٠٣ ، تفسير الطبري (١١٩/١٤ وما بعدها) .

بر أبي وقاص) المذكور في تأريخ (ميخائيل السوري) (المتوفى سنة ١١٦٩ للميلاد) البطريق (البطريارك يوحنا) بطريق اليعاقبة ، ترجمة (الانجيل) من السريانية الى العربية ثم ما جاء من وقوع خلاف بين (عمرو) وبين (البطريارك) بشأن الترجمة ، ثم من استعانة (البطريارك) بعد ذلك برجال من (تنوخ) ، و (عاقولا) ، و (طيء) ، كانوا يتقنون العربية والسريانية للقيام بالترجمة . ولترجمة التوراة ، مع رجل يهودي ، فإنه خبر غير مؤكد ، وقد شك فيه بعض الباحثين ، وربما وضع للطعن في (البطريارك) ، وضعه خصومه عليه[1] .

ولم تأت جهود (بومشتارك) وتلامذته بنتائج مؤكدة مقبولة عن اثبات وجود كتب للصلاة بالعربية ، ترجمت من السريانية اليها قبل الاسلام[2] . ومن المحتمل أن رجال الدين كانوا يعظون نصارى العرب في الجاهلية بالعربية ، أما نصوص الصلاة ، فكانوا يلقونها عليهم بالسريانية . وربما كان الحال على هذا المنوال بالنسبة الى رجال الدين المتنقلين مع الأعراب ، فقد كانوا يتنقلون معهم ، يعلمونهم ويرشدونهم بالعربية ، ولكنهم لم يكونوا قد ترجموا كتب الصلوات ترجمة مدونة بلغتهم . وقد ورد ان رجال الدين كانوا يحملون (الدفة) معهم ، حيث تحل القبائل ، لترتيل الصلوات على المذابح المتنقلة ، فعل ذلك رجال الدين مع (بني ثعلب) وقبائل من اليمن وغيرها[3] . وينطبق ما أقوله على العرب الجنوبيين أيضاً ، فلم يعثر حتى الآن على دليل يثبت وجود ترجمات بعربيات جنوبية للتوراة أو الإنجيل أو الكتب الدينية الأخرى . ولكن هناك أخباراً يذكرها أهل الأخبار تشير الى وجود مثل هذه الترجمات ، غير اننا لا نتمكن من التسليم بها ، لما فيها من عناصر تدعو الى الشك في أمرها وعدم إمكان الأخذ بها في الوقت الحاضر .

---

١ Michael der Syrer, chronique de Michel le Syrien, II, p. 326, Paris, 1855, Georg Graf, I, 35, F. Nau, un Colloque du Patriarche Jean avec l'emir des Agaréene in Journal Asiatique, II, Ser., 5, (1915), 225 - 279.

وقد جعله « عمرو بن العاص » ، وجعله « لامانس » « سعيد بن عامر » .

٢ Islamic, 4 (1931), 562. ff.

٣ Georg Graf, I, S. 38.

وقد ورد ان عرب بلاد الشأم من لخم وجذام وغسان وقضاعة وتغلب وكلب وغيرهم ، « وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية »[1] ، وقُصد بالعبرانية السريانية، ولهذا لم يأخذ علماء اللغة عنهم . غير انهم لم يشيروا الى ما كانوا يقرأون، ويظهر انهم قصدوا بذلك الصلوات والكتب المقدسة ، يقرأونها عليهم بالسريانية وربما ترجموا ما قرأوه عليهم الى العربية .

١ المزهر (٢١٢/١) .

الفصل الثالث والاربعون بعد المئة

الخطابة

والخطابة وجه آخر من أوجه النشاط الفكري عند الجاهليين. وقد كان للخطيب عندهم ، كما يقول أهل الأخبار ، مقام كبير للسانه وفصاحته وبيانه وقدرته في الدفاع عن قومه والذبّ عنهم والتكلم باسمهم ، فهو في هذه الأمور مثل الشاعر، لسان القبيلة ووجهها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من الخطباء ، اشتهروا بقوة بيانهم وبسحر كلامهم ، وأوردوا نماذج من خطبهم . ومنهم من اشتهر بنظم الشعر ، وعدّ من الفحول ، مثل عمرو بن كلثوم[1] .

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم اليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر »[2] . وذكروا ان الشعراء كانوا في أرفع منزلة عند العرب،وما زال الأمر كذلك حتى أفضى الشعر الى قوم اتخذوه أداة للتكسب وسعوا به في كل مكان ، فوضعوه أمام الملوك والسوقة ، سلعة في مقابل ثمن ، واستجداءً لأكف الناس ، فأنف منه الأشراف وتجنبه السادة ، ونبهت الخطابة . وصار للخطيب شأن كبير ، ارتفع على شأن الشاعر . ولخص (الجاحظ) ذلك بقوله : « كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر

---

١ بلوغ الارب (٣/١٧٤) .
٢ البيان والتبيين (١١٤) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم ، ويهيّب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة ، وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر »[1] .

وكانوا يحبّون في الخطيب أن يكون جهير الصوت ، ويذمون الضئيل الصوت. وأن يكون مؤثراً شديد التأثير في نفوس سامعيه حتّى يسحرهم ويأخذ بألبابهم . وكانوا يجعلون مثل هؤلاء الخطباء ألسنتهم الناطقة إذا تفاخروا أو حضروا المجالس أو تفاوضوا في أمر ، أو أرادوا تأجيج نيران الحروب ، أو عقد صلح ، أو البت في أي أمر جلل . ولذلك صارت الخطابة من امارات المنزلة والمكانة ، فصارت في ساداتهم وأشرافهم الذين يتكلمون باسمهم في المحافل والمجامع العظام .

وقد ذكر (الجاحظ) ، أن حمل العصا المخصرة دليل على التأهب للخطبة . والتهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ، ومقصور عليهم، ومنسوب اليهم . حتّى انهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر بأيديهم ، إلفاً لها ، وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها : والإشارة بها »[2] . ولا يخطب أحدهم إلا وعنده عصاً أو مخصرة ، جرى على ذلك عرفهم حتّى في الاسلام . « قال عبد الملك ابن مروان : لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي » ، وأراد معاوية سحبان وائل على الكلام ، فلم ينطق حتّى أتوه بمخصرة[3] . وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسيّ ، ويشيرون بالعصا والقنا ، ومنهم من يأخذ المخصرة في خطب السلم ، والقسي في الخطب عند الخطوب والحروب . وذكر أن من عوائدهم أن يكون الخطيب على زيّ مخصوص في العمامة واللباس[4] . وأن يخطب الخطيب وعلى رأسه عمامة ، علامة المكانة والمنزلة عند الجاهليين . وذكر أيضاً أن من عوائدهم ألا يخطب الخطيب وهو قائد إلا في خطبة النكاح . كما ذكر أن منهم من كان

---

١ البيان والتبيين (٢٤١/١) ٠

٢ البيان والتبيين (٦١) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ،المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (١١٧/٣) ، (هارون) ٠

٣ البيان والتبيين (١١٩/٣ وما بعدها) ٠

٤ بلوغ الارب (١٥٢/٣ وما بعدها) ، البيان (٣٧٠/١ وما بعدها) ٠

يخطب وهو على راحلته[1] . وذكر (الجاحظ) أن الشعوبية طعنت على « أخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيب ، والاتكاء والاعتماد علـى القوس ، والخدّ من الأرض ، والإشارة بالقضيب » . وذكر أن من المستحسن في الخطيب أن يكون جهوري الصوت ، قليل التلفت ، نظيف البزة ، وأن يخطب قائماً على نشز من الأرض ، أو على راحلته ، وأن يحتجز عمامته ، ويكمل هذه الخصال شرف الأصل وصدق اللهجة[2] .

وقد كان بين الخطباء من كان يقول الشعر بالإضافة الى علو شأنه بالنثر. غير ان العادة ، ان الشعراء لم يبلغوا في الخطابة مبلغ الخطباء ، وأن الخطبـاء دون الشعراء في الشعر . « ومن يجمع الشعر والخطابة قليل »[3] . ومن الشعراء الخطباء: (عمرو بن كلثوم) التغلبي ، و (زهير بن جناب) ، و (لبيد)[4] ، و (عامر ابن الظرب العدواني)[5] .

وذكر (الجاحظ) ان العرب استعملت الموزون ، والمقفى ، والمنثور في مساجلة الخصوم ، والرجز ، في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط وبعث همة ، وعند مجاثاة الخصم ، وساعة المشاولة ، وفي نفس المجادلة والمحـاورة ، واستعملت الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعملت المنثور في الأغراض الأخرى[6] ، وقال أيضاً: « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ،وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحـد من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ،

---

١ البيان (١/١١٨) ، (٢/٢٠) .
٢ البيان والتبيين (٢٢) ، (بيروت ١٩٥٩ م) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر ، المطبعة الكاثوليكية) ، البيان والتبيين (٣/٦ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١/٤٥) .
٤ . ومن شعر لبيد ، قوله :
وأخلف قسا ليتني ولـو أنني وأعيا على لقمان حكـم التدبر
البيان والتبيين (١/١٨٩ ، ٣٦٥) .
٥ البيان والتبيين (١/٣٦٥) .
٦ البيان والتبيين (٣/٦ وما بعدها ، ٢٨) .

وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، ويحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب»[1].

ويظهر ان من الخطباء من استعمل السجع في خطبه ، ولا سيا في المفاخرات والمنافرات وأمور التحكيم[2] ، وهو في الغالب . ومنهم من كان يستعمل الكلام المرسل وذلك في الأمور الأخرى . ولغلبة السجع على الخطب ، قال بعض علماء اللغة : « الخطبة عند العرب : الكلام المنثور المسجع ونحوه »[3] .

وقسم (الجاحظ) الخطب على ضربين ، فقال: « اعلم ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين ، منها الطوال ، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة ، ومتشاكلاً في استواء الصنعة ، ومنها ذات الفقر الحسان والنتف الجياد . وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ ، وإنما حفظه التخليد في بطون الصحف . ووجدنا عدد القصار أكثر ، ورواة العلم الى حفظها أسرع »[4] .

وقد اقتضى النظام الاجتماعي والسياسي في الجاهلية أن يقيم العرب للخطابة وزناً خاصاً في المفاوضات التي تكون في داخل القبيلة للنظر في أمورها وفي شؤونها الخاصة بها في أيام السلم وفي أوقات الغزو والغارات ، في حالتي الهجوم والدفاع . وأقاموا لها وزناً خاصاً بالمناسبة للمفاوضات التي جرت بين القبائل ، أو بين القبائل والملوك . ثم في المفاخرات وفي المنافرات . فكل هذه الأمور وأشباهها استدعت ظهور أناس بلغاء اعتمدوا على حسن تصرفهم في تنظيم الكلم وفي تنسيق الجمل وفي التلاعب بالألفاظ للتأثير على القلوب والأخذ بمجامع الألباب . فربّ كلمة كانت تقيم قبيلة وتقعدها لتلاعب الخطيب بقلبها بسحر بيانه وفي كيفية اختيار ألفاظه واستخدامه مواضع الإثارة التي يعرف أنها ستثير النار الدفينة في أفئدة سامعيه.

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٨ وما بعدها) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٩٠) .
٣ تاج العروس (١/٢٣٨) ، (خطب) .
٤ البيان والتبيين (٢/٧) .

وهذا كانوا لا يختارون لمن يتكلم باسم قومه إلاّ من عرف بسحر لسانه وقوة بيانه،ليتمكن بما وهب من مرونة وتفنن في كلامه من التغلب على خصمه وافحامه، ولما مات (أبو دليجة) (فضالة بن كلدة) رثاه (أوس بن حجر) بكلمة مؤثرة تعبر عن مبلغ شعوره وشعور قومه للفاجعة الأليمة التي جعلت قوم الخطيب في لبس وبلبال ، لعدم وجود من سيحل محله في الدفاع عنهم ، اذ حفلوا لدى الملوك ، فيقول :

أبا دليجة من يكفي العشيرة إذْ أمسوا من الخطب في لبس وبلبال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذوي أيد وافضال[1]

وندخل في الخطباء جماعة عرفت بإلقاء المواعظ والنصائح في أمور الدين والأخلاق والسلوك وفي التفكير ، وهم قوم تأثروا بالمؤثرات الثقافية التي كانت في أيامهم بسبب وجود اليهود والنصارى بينهم،وبسبب اتصالهم بالرهبان والمبشرين في داخل جزيرة العرب وفي خارجها ، فأخذوا يحثون قومهم علي التعقل والتأمل والتفكر في أمور دينهم ودنياهم ، وترك ما هم عليه من عبادة الأصنام والتقرب الى الأوثان ، وهي حجارة صلبة ، أو من خشب أو معدن لا يسمع ولا يجيب. وينسب اليهم ، انهم كانوا على دين ابراهيم،على ألسنة العربية الأولى دين الفطرة دين التوحيد . وينسب اليهم أيضاً ، انهم كانوا يقرأون ويكتبون ، لا بالعربية وحدها ، بل بالعبرانية والسريانية أيضاً ، وانهم كانوا يتدارسون التوراة والانجيل وكتب الأنبياء ، الى غير ذلك من دعاوى قد تكون وضعت عليهم . وهم قوم سبق أن تحدثت عنهم ، وقلت عنهم انهم الأحناف .

واذا درسنا الأغراض التي توخاها أهل الجاهلية من الخطابة ، نجدها تكاد تتجمع في الأمور الآتية : التحريض على القتال،وإصلاح ذات البين ، ولمّ شعث ، لكثرة ما كان يقع بينهم من تنافر وتشاحن ، ثم السفارات الى القبائل أو الملوك، لأغراض مختلفة ، مثل التهنئة والتعزية ، أو طلب حاجة ، وحلّ معضل ، أو انهاء خصومة ، ثم الجلوس لحل الديات وانهاء نيران الثأر ، ثم التفاخر والتنافر والتباهي بالأحساب والأنساب والمآثر والجاه والمال ، ثم في الوفادات حيث تقتضي

---

١ كارلو نالينو (٩٨) ، ديوان أوس (١٠٣) ، نقد الشعر لقدامة (٣٥) .

المناسبة إلقاء الخطب ، أو في الحث على التعقل والتفكر وتغيير رأي فاسد ، كما في خطب قس بن ساعدة الإيادي وفي خطب الأحناف ، ثم في المناسبات الأخرى مثل تعداد مناقب ميت ، أو خطب الإملاك وما الى ذلك .

ومن أشهر الخطب المنسوبة الى الجاهليين ، الخطب التي زعم ان (أكثم بن صيفي) ، و (حاجب بن زرارة) ، وهما من (تميم) ، و (الحارث بن ظالم)، و (قيس بن مسعود) ، وهما من (بكــر) ، و (خالد بن جعفر) ، و (علقمة بن علاثة) ، و (عامر بن الطفيل) من (بني عامر) ، قالوها في مجلس كسرى ، يوم أرسلهم (النعمان بن المنذر) اليه ، ليريه درجة فصاحة العرب ومبلغ بيانهم وعقلهم ، مما أثار إعجاب (كسرى) بهم ، حتى عجز عن تفضيل أحدهم على الآخر ، مما جعله يقـر ويعترف بذكاء العـرب وبقوة بيانهم وبقوة عقلهم ، فقدرهـــم لذلك حق قدرهم وأكرمهم . وهـــي خطب مصنوعة موضوعة ، قد تكون من وضع جماعة أرادت بها الرد على الشعوبيين الذين كانوا ينتقصون من قدر العرب ، ومن لسان العرب ، ومن دعوى الإعجاز في لغتهم، فصنعت هذا المجلس ، وعملت تلك المحاورة والخطب في الرد عليهم،وهي تتناول صميم ذلك الجدل .

وأكثر ما نسب الى زيد وأمثاله من الأحناف مختلق ، وضع عليهم فيما بعد . وأكثر ما ورد عنهم في شرح حياتهم هو من هذا النوع الذي يحتاج الى إثبات .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر من الجاهليين قالوا عنهم إنهم كانوا مـــن خطباء الجاهلية المشهورين المعروفين ، وقد أدخلوا بعضهم في المُعَمرين . والمُعَمَّر في عرفهم من بلغ عشرين ومئة سنة فصاعداً ، وإلا ، لم يعدوه من المعمرين[1] . وعلى رأس من ذكروا : (دويد بن زيد بن نهــد بن ليث بن أسود بن أسلم الحميري)، فهو إذن من حمير . وقد ذكر أنه عاش أربع مئة سنة وستاً وخمسين سنة ، ونسبوا اليه وصية أوصى بها بنيه[2] . ولكنهم لم يذكروا متى عاش ، وفي أي زمان مات ، وكيف أوصى بنيه بهذه اللهجة الحجازية ، لهجة القرآن الكريم، وهو من حمير ، وحمير لها لسانها وكتابتها .

---

١ بلوغ الارب (١٥٧/٣ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (١٥٧/٣ وما بعدها) .

وذكر أهل الأخبار اسم (زهير بن جناب بن هبل) في ضمن المشهورين في قوة البيان والفصاحة والمنطق عند الجاهليين ، ويذكرون أنه كان على عهد (كليب ابن وائل) ، وانه كان لسداد رأيه كاهناً ، ولم تجتمع قضاعة إلا عليه وعلى (رزاح بن ربيعة) ، وقالوا إنه : « كان سيد قومه وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وأوفدهم الى الملوك ، وطبيبهم ، وحازي قومه ، وفارس قومه ، وله البيت فيهم والعدد منهم »[1] . وقد ذكروا له وصية أوصى بها بنيه، وأبيات شعر ، زعموا أنه نظمها .

وذكروا أيضاً (مرثد الخير بن ينكف بن نوف بن معديكرب بن مضحى)، زعموا أنه كان قيلاً حدباً على عشيرته،محباً لصلاحهم . وكان من أفصح الفصحاء وأخطب الخطباء ، وزعموا أيضاً أنه أصلح بين القيلين : (سبيع بن الحرث) و (ميثم بن مثوب بن ذي رعين) ، وأوردوا ما دار بينهم من نقاش وحوار[2] ضبطوه وسجلوه ، حتى لكأن كاتب ضبط كان حاضراً بينهم كُلّف تسجيل محضر ذلك الحديث .

وعدّ (الحارث بن كعب المذحجي) من هذه الطبقة البليغة التي اشتهرت بسحر البيان . وقد زعم أهل الأخبار أنه كان على دين (شعيب) النبيّ ، وهو دين لم يكن قد دخل فيه غيره وغير (أسد بن خزيمة) و (تميم بن مرّ) . وقد ذكروا له وصيّة لأبنائه ، أوصاهم بها حين شعر بدنو أجله ، بعد أن عاش على زعمهم ستين ومئة سنة[3] .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن هذا الدين ، دين شعيب . وليس في الوصية المنسوبة اليه ما يميزه عن غيره من الخطباء ، مثل قس بن ساعدة الايادي أو غيره من المتألهين الرافضين لعبادة الأوثان .

وعدّ علماء الأخبار كعب بن لؤي في جملة الخطباء القدماء ، وذكروا انه كان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة على البر . وكان رجلاً طيباً خيراً ،

---

١ الاغاني (٢١/٩٣ وما بعدها) . بلوغ الارب (٣/١٥٩) .

٢ بلوغ الارب (٣/١٦١ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (٣/١٦٤) .

فلما مات ، أكبروا موته ، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل[1] .

وكان ابن عمار عمرو بن عمار الطائي خطيب مذحج كلها ، وكان شاعراً كذلك ، فبلغ النعمان حسن حديثه ، فاستدعاه ، وحمله على منادمته . وكان النعمان أحمر العينين والجلد والشعر ، وكان شديد العربدة ، قتالاً للندماء ، فنهاه أبو قردودة الطائي عن منادمته ، ولكنه لم ينته ، فلما قتله النعمان ، رثاه أبو قردودة ، وهجا النعمان[2] .

وعدّوا (عبد المطلب) في جملة خطباء قريش ،. الذين كانوا يخطبون في الملمات وفي الأمور العظيمة ، وكان وافد أهل مكه على ملوك اليمن ، فإذا مات ملك منهم ، أو تولى ملك منهم العرش ، ذهب الى اليمن معزياً ومهنئاً . فهو خطيب القوم اذن[3] .

ومن خطباء (غطفان) في الجاهلية : (خويلد بن عمرو) ، و (العُشَراء بن جابر) من (بني فزارة) ، وخويلد خطيب يوم الفجار[4] .

وأما بقية من ذكر أهل الأخبار من خطباء الجاهلية ، فهم : (أبو الطَّمَحان القيني) ، واسمه حنظلة بن الشرقي من (بني كنانة بن القين)[5] ، و (ذو الاصبع العدواني) وهو من حكام العرب كذلك[6] ، و (أوس بن حارثة)[7] ، و (أكثم ابن صيفي التميمي) ، وهو من حكام العرب أيضاً . وقد ذكر ان (يزيد بن المهلب) كان يسلك طريقته في خطبه ووصاياه[8] ، و (عمرو بن كلثوم) ، وهو من الخطباء الشعراء البارزين في الفنين . وقد ذكروا له خطبة نصح ووصية ذكروا انه أوصى بها بنيه ، في الأدب والسلوك[9] ، و (نعيم بن ثعلبة الكناني) ،

---

١ البيان (١/٣٥١) ، (هارون) .
٢ البيان (١/٢٢٢ وما بعدها ، ٣٤٩) ، البيان والتبيين (١/٣٤٩) ، (هارون) .
٣ الاشتقاق (٤٣) .
٤ البيان والتبيين (١/٣٥١) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٦٨ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (٣/١٦٩ وما بعدها) .
٧ بلوغ الارب (٣/١٧٠ وما بعدها) .
٨ بلوغ الارب (٣/١٧٢ وما بعدها) .
٩ بلوغ الارب (٣/١٧٤) .

وكان ناسئاً ، ينسيء الشهور ، وقيل : انه أول من نسأها . وكان يخطب في الموسم[1] ، و (أبو سيّارة العدواني) ، واسمه (عميلة بن خالد الأعزل)[2] ، و (الحارث بن ذبيان بن لجأ بن منهب اليماني)[3] .

وفي الملمات والأوقات العصيبة وفي الوفدات على الملوك يُختار خيرة الخطباء المتكلمين المعروفين بأصالة الرأي وبسرعة البديهة والجواب ، ليبيضوا الأوجه ، ويؤدوا المهمة على أحسن وجه . ولما قدم النعمان بن المنذر الحيرة ، بعد زيارته لكسرى،وتفاخره عنده بقومه العرب،وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم ، بعث الى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين ، والى الحارث بن عباد (الحارث بن ظالم) ، وقيس بن مسعود البكريين ، والى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، والى عمرو بن الشريد السلمي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المريّ ، وهم خيرة من عرفهم في أيامه بالأصالة في الرأي وبقوة البيان ، وطلب منهم الذهاب الى كسرى والتكلم معه ، ليعرف عقل العرب وصفاء ذهنها . فذهبوا وتكلموا ، فأعجب بهم ، وقدرهم حق تقدير[4] .

وذكر عن حاجب بن زرارة : أنه وفد على كسرى لما منع تميماً من ريف العراق ، فاستأذن عليه ، وتحدث معه ، فأرضاه ، وأذن عندئذ لتميم أن يدخلوا الريف . وقد وفد ابنه عُطارد على كسرى أيضاً بعد وفاة والده[5] .

وأدرك (الربيع بن ضبيع الفزاري) الاسلام كذلك ، ويذكر أهل الأخبار أنه أدرك أيام عبد الملك بن مروان[6] . وإذا كان هذا صحيحاً ، فيجب أن يكون قد عاش معظم أيامه في الاسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان طفلاً ، أو شاباً، وإن ذكر أهل الأخبار أنه كان من المعمرين .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٧٥ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٧٦) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٧٧ وما بعدها) .
٤ العقد الفريد (٢/٤ وما بعدها) « وفود العرب على كسرى » .
٥ العقد الفريد (٢/٢٠) .
٦ بلوغ الارب (٣/١٦٦) ، أمالي المرتضى (١/١٨٣) ، الاقتضاب (٣٦٩) ، الدرر اللوامع (١/٢١٠) .

ومن الخطباء عطارد بن حاجب بن زرارة ، وقد خطب أمام الرسول[1] . ومن خطباء غطفان في الجاهلية : خويلد بن عمرو ، والعشراء بن جابر بن عقيل[2]. وكان الأسود بن كعب ، المعروف بالكذاب العنسي ، الذي ادعى النبوة من الخطباء كذلك[3] .

وذكر أهل الأخبار اسم : (قيس بن عامر بن الظرب) ، و (غيلان بن سلمة الثقفي) في جملة حكام العرب . وذكروا انه كان قد خصص يوماً له يحكم فيه بين الناس ، ويوماً ينشد فيه شعره . وذكروا من حكام قريش عبد المطلب ، وهاشم بن عبد مناف ، وأبا طالب والعاص بن وائل[4] .

وعدّوا (قيس بن زهير العبسي) من خطباء الجاهلية المعروفين ، وقد ذكروا عنه انه جاور (النمرَ بن قاسط) بعد (يوم الهباءة) ، وتزوج منهم . ثم رحل عنهم الى (عُمان) ، فتنصر بها ، وعف عن المآكل ، حتى أكل الحنظل الى ان مات[5] . وله أمثلة مذكورة في كتب الأمثال[6] . وقيل فيه : « أدهى من قيس بن زهير » ، ومن أقواله : « أربعة لا يطاقون : عبد ملك ، ونذل شبع ، وأمة ورثت ، وقبيحة تزوجت » ، وله أمثال عديدة[7] . وذكر انه طرد إبلاً لبني زياد ، وباعها من عبدالله بن جدعان ، وقال في ذلك شعراً[8] .

وأما (سحبان بن زفر بن إياس) المعروف بـ (سحبان بن وائل الباهلي) ، فإنه خطيب ضرب به المثل في الفصاحة فيقال : (أخطب من سحبان وائل) ، و (أفصح من سحبان وائل) ، و (أنطق من سحبان) ، و (أبلغ من سحبان) ، لمن يريدون مدحه واعطاءه صفة البيان . وذكر أنه عاش في الجاهلية

---

١ البيان (١/٣٢٨) .
٢ البيان (١/٣٥٠ وما بعدها) .
٣ البيان (١/٣٥٩) .
٤ مجمع الامثال (١/٤١) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٦٥ وما بعدها) .
٦ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال (١/٢٦٨ ، ٢٩٩) .
٧ جمهرة الامثال (١/٤٥٧) .
٨ جمهرة الامثال (١/٣٤٤) .

وعاش في الاسلام حتى أدرك أيام معاوية [1] . وقد عرف بخطبته (الشوهاء) ، قيل لها ذلك لحسنها . وذلك انه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب [2] . « وكان اذا خطب لم يعد حرفاً ولم يتلعثم ، ولم يتوقف ، ولم يتفكر بل كان يسيل سيلاً » [3] . وقد ورد انه توفي سنة (٥٤ هـ) [4] .

ذكر انه دخل على معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلما رأوه خرجوا ، لعلمهم بقصورهم عنه ، فقال :

لقد علم الحي اليمانون انني اذا قلت أما بعد اني خطيبها

فقال له معاوية : أخطب ، فطلب عصا ، فلما أحضرت له خطب جملة ساعات ، فقال له معاوية : أنتَ أخطب العرب ، قال : أو العرب وحدها ، بل أخطبُ الجن والانس [5] .

وقد اشتهرت إياد وتميم بالخطابة وبشدة عارضة خطبائها وبقوة بيانهم [6] . وقد ذكر ان معاوية ذكر تميماً ، فقال : « لقد أوتيت تميم الحكمة ، مع رقة حواشي الكلم » [7] . وهناك قبائل أخرى أخرجت خطباء مشهورين ، نسبت اليهم خطب بليغة . وقد يكون من الأعمال المفيدة النافعة ، وضع دراسة خاصة بعدد الخطباء الذين نبغوا في القبائل ، وبدراسة خطبهم ، وبمساكن أولئك الخطباء ومهاجر قبائلهم ، فإن دراسة علمية مثل هذه تعيننا كثيراً على الوقوف على تطور هذه اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، والقبائل التي تكلمت بها سليقةً وطبعاً .

وذكر (الجاحظ) أن شأن (عبد القيس) عجب ، « وذلك أنهم بعد

---

١ بلوغ الارب (١٥٦/٣) ، تاج العروس (٢٩٤/١) ، (سحب) ، ثمار القلوب (١٠٢ وما بعدها) .

٢ البيان (٣٤٨/١) ، (لجنة) ، وعرفت خطبة قيس بن خارجة بالعذراء .

٣ الاصابة (١٠٨/٢) ، (رقم ٣٦٦٣) .

٤ كارلو نالينو (١١٨) .

٥ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال (٢٤٨/١ وما بعدها) .

٦ البيان والتبيين (٥٣/١) .

٧ البيان والتبيين (٥٤/١) .

محاربة إياد تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين ، وهم من أشعر قبيل في العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة . وهذا عجب »[1] . وذكر (الجاحظ) أن (معاوية) كان يعجب من فصاحة (عبد القيس) ، ولما اجتمع بـ (صحار ابن العباس) (صحار بن العياش) ، المعروف بـ (صحار العبدي) ، عجب من بلاغته وفصاحته ، فقال له ، ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال : شيء يختلج في صدورنا ، فتقذفه كما يقذف البحر بزبده . قال : فما البلاغة ؟ قال : أن تقول فلا تبطيء ، وتصيب فلا تخطيء[2] . وورد في (كتاب الحيوان) ، للجاحظ ، أنه قال له : « ما الإيجاز ؟ قال : أن تجيب فلا تبطيء ، وتقول فلا تخطيء »[3]. وله كلام فيما يجب أن يقال عند تذكر الاحسان[4] .

وكان نسابة ، وله مع (دغفل) النسابة محاورات[5] . وقد ذكر (ابن النديم) ، أن له من الكتب : (كتاب الأمثال)[6] ، وقد أشاد (الجاحظ) بعلمه في الأنساب ، وذكره فيمن ذكر ممن ألف في كتب النسب ، من أمثال (ابن الكلبي) ، و (الشرقي بن القطامي) ، و (أبي اليقظان) ، و (أبي عبيدة) ، و (دغفل بن حنظلة) النسابة ، و (ابن لسان الحمرة) ، و (ابن النطاح) اللخمي[7] .

وكان لبني عبد القيس ، اتصال بمكة قبل الاسلام ، لهم معها تجارة . يرسلون اليها التمر والملاحف والثياب والتجارة المستوردة من الهند . وقد أشير اليها في خبر إسلام (الأشج) : (أشج) عبد القيس ، واسمه (المنذر بن عائذ بن الحارث بن المنذر بن النعمان) العبدي . فقد أرسل ابن أخته (عمرو بن عبد القيس).

---

١ البيان والتبيين وأهم الرسائل ، انتقاء الدكتور جميل جبر ، (بيروت ١٩٥٩ م) ، (المطبعة الكاثوليكية) ، (ص ٢٤) .
٢ الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) ، البيان والتبيين (١/٩٦) ، المصون (١٣٩).
٣ الحيوان (١/٩٠ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٣/٣٦٧) .
٥ الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .
٦ الفهرست (١٢٨) ، (المقالة الثالثة) .
٧ الحيوان (٣/٢٠٩) .

الى مكة عام الهجرة ، ومعه تجارة من تمر وملاحف ، فلقيه النبي ، وهداه الى الاسلام ، وكان مثل قومه نصرانياً ، فأسلم ، وتعلم سورة الحمد واقرأ باسم ربك ، فلما باع تجارته وعاد، أخبر خاله (الأشج) بإسلامه ، فأسلم وكتم إسلامه حيناً ، فلما كان عام الفتح ، خرج مع وفد من أهل (هجر) وعبد القيس ، وصل المدينة ، وقابل الرسول ، وأعلنوا إسلامهم ، فقدموا بلادهم،وحوّلوا (البيعة) مسجداً[1] .

ومن اشتهر من (بني عبد القيس) بالخطابة والفصاحة : (صعصعة بن صوحان) العبدي ، وأخواه : (سيحان) و (زيد) . وقد شهد (صفّين) مع (علي) ، وكانت له مواقف مع معاوية ، وقد مات في خلافته . « وقال الشعبي كنت أتعلم منه الخطب » ، وله شعر[2] .

وذكر في أثناء تحدث أهل الأخبار عن (الردة) وادعاء (لقيط بن مالك) الأزدي النبوة ، ان (الحارث بن راشد) ، و (صيحان بن صوحان) العبدي جاءا على رأس مدد من (بني ناجية) و (عبد القيس) ، لمساعدة (عكرمة) و (عرفجة) ، و (جبير) ، و (عبيد) ، فاستعلاهم ، فلما وصل المدد انهزم (لقيط) ، وقتل ممن كان معه عشرة آلاف[3] . ولعل (صيحان) هذا هو أخ (صعصعة بن صوحان) .

ومن منازل (عبد القيس) (دارين) و (الزارة) ، وكان بها رهبان وبيع[4] ، ويظهر ان النصرانية كانت متفشية بين (عبد القيس) ، وردت اليها من العراق . وكان (بنو عبد القيس) من العرب المتحضرين بالنسبة الى أعراب البوادي ، ولهم اتصال بالعالم الخارجي ، وقد قام المبشرون بنشر الكتابة بينهم ، ولا بد وأن تكون كتابتهم بالقلم العربي الشمالي ، الذي كان يكتب به النصارى العرب . ونجد في قرى البحرين أناساً من مختلف الأجناس ، بسبب اتصالها بالبحر

---

١ الاصابة (٢/١٧١) ، (رقم ٤٠٤١) ، (٣/٥) ، (رقم ٥٩٠٣) .
٢ الاصابة (٢/١٩٢) ، (رقم ٤١٣٠) ، البيان (١/٩٦) ، جمهرة الامثال (٢/١٤٤) .
٣ الاصابة (٢/١٩٣) ، (٤١٣٣) .
٤ الاصابة (٢/١٧١) ، (رقم ٤٠٤١) .

ومجيء الأقوام اليها من الهند وايران والعراق ، فظهرت فيها ثقافة ، امتصت غذاءها من مختلف الثقافات .

وهناك من اشتهر بالخطابة وكان قريب عهد من الاسلام ، أو أدركه وأسلم، منهم : (قس بن ساعدة الإيادي) . وقد رآه الرسول ، وسمعه يتكلم ، وهو راكب على جمل أورق . ويذكر أن الرسول قال : « يرحم الله قساً ، إني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده »[1] . وقد عدّه بعض الباحثين من النصارى، ولكن معظم أهل الأخبار يرى أنه كان على الحنيفية ، أي على التوحيد ، لا هو من يهود ، ولا هو من النصارى[2] .

وقد ذكر أهل الأخبار أنه « كان من حكماء العرب وأعقل من سمع به منهم وهو أول من كتب من فلان الى فلان ، وأول من أقر بالبعث من غير علم ، وأول من قال : أما بعد ، وأول من قال : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر »[3] . وأنه أول من خطب على شرف ، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا[4] . وكان أحكم حكماء العرب ، وأبلغ وأعقل من سمع به من إياد . وبه ضرب المثل في الخطابة والبلاغة[5] . روي أن الرسول سمع كلام (قس ابن ساعدة) الإيادي ورواه ، ذكر (الجاحظ) أن رسول الله « هو الذي روى كلام (قس بن ساعدة) وموقفه على جمله بعُكاظ وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه »[6] . وذكر في موضع آخر من كتابه (البيان والتبيين) أن الرسول قال : « رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعُوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٥٥) ، نزهة الجليس (١/٤٢٩) .

٢ المصدر نفسه .

٣ مجمع الامثال (١/١١٧) ، جمهرة الامثال (١/٢٤٩) .

٤ الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) ، الخزانة (٢/٩٠) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٥ ثمار القلوب (١٢١ وما بعدها ، ١٢٧) .

٦ البيان والتبيين (١/٥٢) .

وهو القائل في هذه : آياتٌ محكمات ، مطرٌ ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبر وأثام ، ولباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج . ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم حبسوا فناموا .

وهو القائل : يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد . أين المعروف الذي لا يشكر ، والظلم الذي لم يذكر ، أقسم قس قسماً بالله ، إن لله ديناً هو أرضى له من دينكم هذا .

وأنشدوا له :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنّي لا محالة حيث صار القوم صائر[1]

وقد اشتهر قس بخطبته التي خطبها بسوق عكاظ ، وبأبيات من الشعر رويت عن (أبي بكر الصديق) . وبفصاحته وبلاغته ضرب المثل ، فقيل: « أبلغ من قس »[2] . وقد استشهد ببعض شعر (قس) في كتب الشواهد[3] . وذكر انه أول من قال : أما بعد في العرب .

وفي رواية من روايات أهل الأخبار : ان أول من قال : « أما بعد » ، هو كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة[4] . زعيم قريش ، وأحد خطبائها المشهورين .

---

١ البيان والتبيين (٣٠٨/١) .
٢ مجمع الامثال (١١٧/١) ، البيان والتبيين (٣٠٩/١) .
٣ الخزانة (٢٦٣/١) ، (بولاق) .
٤ المرزباني ، معجم الشعراء (ص ٣٤١) ، الخزانة (٣٤٧/٤) ، (بولاق) ، (الشاهد السابع والستون بعد الثمانمائة) .

وذكر بعض أهل الأخبار : أنه قيل لقُس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة : قال : معرفة الرجل نفسه ، قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قيل له : فما أفضلُ المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجه[1] .

وقد وردت في الخطبة المنسوبة الى قس بن ساعدة الإيادي هذه الجملة : « إن في السماء لخبراً » . ويلاحظ أن العبرانيين كانوا يراقبون السماء لأخذ الأخبار عما سيقع لهم من أحداث منها . وقد تخصص بذلك نفر منهم ، عرفوا بـ (خبرى شمايم) ، أي المخبرون عما يقع في السماء ، و (قـرى شمايم) ، أي قراء السماء[2] . وكان العرب يراقبون السماء كذلك ، استطلاعاً للأخبار ، وفي الجملة المنسوبة الى (قس) تعبير عن ارتقابه وقوع أمر مهم .

و (قس) من المعمرين ، زعم بعض أهل الأخبار أنه عمر سبعمائة سنة ، وزعم بعض آخر أنه عاش ثلثمائة وثمانين سنة ، « وقال المرزباني : ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة » . وقال بعضهم انه أدرك نبيّنا ، وسمعه ، وجعلـه بعضهم في الصحابة ، وأماته بعضهم قبل البعثة . وقـال قوم إنه أول من آمن بالبعث من أصل الجاهلية[3] . وفي الذي يرويه أهل الأخبار عـن خطبة قس ورواية النبي لها تصادم في الروايات . وقد ذكر ذلك العلماء[4] ، وإني أرى أن القصة موضوعة ، وهي من هذا النوع الذي وضع للتبشير بقرب ظهور دين جديد .

وقد أشير الى قس في أبيات نسبت الى الحطيئة والأعشى ولبيد . وقد ضرب الحطيئة به المثل في البيان ، وبقوة تأثيره في نفوس السامعين . أما الأعشى فقـد وصفه بالحلم ، وأما لبيد فقد قال فيه :

وأخلفن قساً ليتني ولعلني وأعيا على لقمان حكم التدبر

---

١ العقد الفريد (٢/٢٥٤) .

٢ Hastings, Dict., Vol. I, p. 194.

٣ الخزانة (٢/٨٩ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) ، البيان والتبيين (١/٥٢) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الخزانة (١/٢٦٣) ، (بولاق) .

٤ السيرة الحلبية (١/٢١٠) ، اللآلىء (١/٩٥) .

ويقولون : وانما قال ذلك لبيد ، لقول قس :

هل الغيب معطى الأمن عند نزوله   بحال مسيء في الأمور ومحسن
وما قد تولى فهو لا شك فائت   فهل ينفعني ليتني ولعلني ؟

ونسبوا اليه أبياتاً من الشعر[1] .

وورد ان (الجارود بن عبدالله) من (بني عبد القيس) ، وكان سيداً في قومه لما قدم على رسول الله ، وأسلم مع قومه ، قال له الرسول : « يا جارود هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قساً ؟ قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله ، وأنا من بين يـدي القوم كنت أقفو أثره . كان من أسباط العرب فصيحاً ، عمّر سبعمائة سنة ، أدرك من الحواريين سمعان ، فهو أول من تأله من العرب ، كأني أنظر اليه يقسم بالرب الذي هو له ليبلغن الكتاب أجله وليوفين كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلبَ من جواه ادّكار   وليالٍ خلا لهنّ نهارُ

في أبيات آخرها :

والذي قد ذكرتُ دلّ على الله   نفوساً لها هدى واعتبار

فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : عـلى رسلك يا جارود ، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق ، وهو يتكلم بكلام ما أظن اني أحفظه . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، فإني أحفظـه : كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته : يا أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، الى آخر ما أورده من الوعظ »[2] .

و (الجارود) ، هو (بشر بن عمرو بن حنش بن النعمان) ، وقيل هـو

---

١ المرزباني ، معجم (ص ٣٣٨) .
٢ الخزانة (٨٩/٢) ، سيرة ابن سيد الناس (٦٩/١) .

(أبو المُعلى) ، (الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة)[1] ، وقيل: (الجارود بن المعلى) ، ويقال ابن عمرو بن المعلى ، وقيل الجارود بن العلاء ، وقيل الجارود بن عمرو بن حنش ، وقيل اسمه بشر بن حنش ، الى غير ذلك من أقوال تدل على اضطراب أهل الأخبار في معرفته ، وكان نصرانياً ، وكان شاعراً ، وأوردوا له شعراً يعلن إيمانه بالرسول ، وبأنــه حنيف حيث كان من الأرض . قيل إنه قتــل بفارس في أيام عمر سنة (٢١) ، وقيل بقي الى خلافة عثمان[2] .

وذكر (الجاحظ) أن من خطباء العرب : (الصباح بن شفي) الحميري، زعم أنــه كان من أخطب العرب ، وقيس بن شمّاس ، وثابت بن قيس بن شماس ، خطيب النبي ، فقد أوكله الرسول بالردّ على خطاب من كان يخطب أمامه من الوفود ، فهو النــاطق باسمه بالنثر ، كما كان (حسان) الناطق باسم الرسول شعراً . وذكر أن من خطباء العرب (الأسود العنسي) ، و (طليحة ابن خويلد) الأسدي،تنبأ في خلافة أبي بكر في بني أسد بن خزيمة ، وعاضده (عيينة بن حصن) الفزاري ، فوجه (أبو بكر) اليه خالد بن الوليد،فهزمه، وأسر (عيينة) سنة (١١) للهجرة ، وقد أسلم (طليحة) ، واستشهد بنهاوند سنة (١١) من الهجرة[3] . وذكر (الجاحظ) : (مسيلمة) بعد (طليحة) ، فقال : « وكان مسيلمة الكــذّاب ، بعيداً عن ذلك كله »[4] ، أي انــه نفى الخطابة عنه .

ومن الخطباء النابهين أصحاب الرأي والبيان ، خطيب عاش في الجاهلية والاسلام وقد أسلم وحسن إسلامه ، هو : سهيل بن عمرو الأعلم ، أحد بني حِسْل بن معيص . يقال انه كان مؤثراً جداً ، أخاذاً يأخذ بعقول الناس ، حتى ذكر ان عمر قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم:

---

١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (٦١) .

٢ الاصابة (٢١٨/١) ، (رقم ١٠٤٢) .

٣ البيان والتبيين (٣٥٩/١) .

٤ البيان والتبيين (٣٥٩/١) .

لا أمثل ، فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً . دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده . فلما هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، قام خطيباً ، فقال : « أيها الناس ، إن يكن محمد قد مات ، فالله حي لم يمت ، وقد علمتم أني أكثركم قتباً في برّ ، وجاريةً في بحر ، فأقروا أميركم وأنا ضامن ، إن لم يتم الأمر ، أن أردها عليكم » . فسكن الناس[1] .

وهو الذي قال يوم خرج آذن عمر ، وبالباب عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وفلان ، وفلان ، فقال الآذن : أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين سلمان ؟ أين عمار ؟ فتمعرت وجوه القوم ، فقال سهيل : لمَ تتمعر وجوهكم ؟ دُعُوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر ، لما أعدّ الله لهم في الجنة أكثر[2] . وفي هذا الجواب دلالة على عقل فاهم للواجب مدرك لمهمات رئيس الدولة، ولما يجب أن تقوم الحكومة عليه ، لا يبالي بالعنعنات القديمة وبالعرف القبيلي الجاهلي .

وروي « أنه لما ماج أهل مكة عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وارتد من ارتد من العرب ، قام سهيل بن عمرو خطيباً . فقال : والله إني لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها الى غروبها ، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم – يعني أبا سفيان – ، فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم ، ولكنه قد جثم على صدره حسد بني هاشم . وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمدينة »[3] . وقد كان مخلصاً في عقيدته مطيعاً لأمر الحاكم، ذكر أنه حضر « الناس باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفيهم سهيل بن عمرو

---

١ البيان (٣١٧/١) ، (من كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) ،الاصابة (٢٩/٢) ، (رقم ٣٥٧٣) ، الاستيعاب (١٠٧/٢ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٥٨/١) ، (عبد السلام محمد هارون)٠

٢ البيان (٣١٧/١) « لجنة » ٠

٣ الاستيعاب (١٠٩/٢) ، (حاشية على الاصابة) ، البيان والتبيين (٣١٧/١) ٠

وأبو سفيان بن حرب ، وأولئك الشيوخ من قريش ، فخرج آذنه . فجعل يأذن لأهل بدر ، لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم . وكان قد أوصى بهم . فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ! انه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس، لا يلتفت الينا ! فقال سهيل بن عمرو ، وقال الحسن : ويا له من رجل ، ما كان أعقله ، أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً، فاغضبوا على أنفسكم ، دُعي القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم . أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه . ثم قال : أيها القوم ! إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون ، ولا سبيل لكم والله الى ما سبقوكم اليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم شهادة ، ثم نفض ثوبه وقام ولحق بالشام »[1] . فالرجل مؤمن ، صاحب مبدأ ، يرى الفضل لأصحابه بأعمالهم ، لا بالرئاسة والنسب والجاه ، كما كان يريد أبو سفيان وقومه .

وقد نعت بـ (خطيب قريش)[2] ، لفصاحته وقوة بيانه ، ولهذا اختارته قريش ليكون لسانها حين فاوضت الرسول على الصلح في الحديبية . وقد تكلم فأطال الكلام وتراجع مع الرسول حتى وافق على تدوين كتاب الصلح[3] . وكان هو لسان قريش يوم وضع الرسول يده على عضادتي باب الكعبة ، فقال : « ما تقولون » ؟ فقال سهيل : « نقول خيراً ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت »[4] .

وتعد (ابنة الخس هند الإيادية) ، وهي بنت (الخس بن حابس) ، رجل من إياد ، من النساء المعروفات بالفصاحة . وقد رووا عنها الأمثال . وذكر ان والدها هو (خس بن حابس بن قريط) الإيادي . وقال بعض أهل الأخبار ان ابنة الخس من (العماليق) . والإيادية هي (جمعة بنت حابس) الإيادي ،

---

١ الاستيعاب (٢/١٠٩ وما بعدها) .
٢ الاصابة (٢/٩٢) ، (رقم ٣٥٧٣) .
٣ الطبري (٢/٦٣٣ وما بعدها) .
٤ الاصابة (٢/٩٢) ، (رقم ٣٥٧٣) .

وكلتاهما من الفصاح . وذكر بعض آخر ، ان الصواب ان ابنة الخس المشهورة بالفصاحة واحدة ، وهي من (بني إياد) . واختلف في اسمها ، فقيل هند وقيل جمعة . ومن قال انها بنت حابس ، فقد نسبها الى جدها[1] .

وممن ضرب به المثل في الفصاحه (سحبان بن زفر بن إياس) الوائلي ، وائل باهلة . خطيب مفصح يضرب به المثل في البيان ، أدرك الجاهلية وأسلم ، ومات سنة (٥٤ هـ)[2] . شهرته في الاسلام ، كشهرة (قس) في الجاهلية . واشتهر (هيدان بن شيخ) (هيدان بن سنح) ، بكونه خطيب (عبس) ، وذكر أن النبي قال للنابغة الجعدي : لا يفضض الله فاك ، وقال لهيذان : رب خطيب من عبس[3] .

والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها ، ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول ، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن اسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء . ثم إن خطب الرسول في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء ، هي دليل أيضاً على وجود الخطابة بهذا الاسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين . بل نجد أن الخطابة كان لها شأن في الحياة العربية في الجاهلية وفي الاسلام . ففي المناسبات مثل عقد زواج ، لا بد للخاطب من خطبة يخطبها أمام العروس والحاضرين ، يذكر فيها مناقب موكله ومناقب الأسرة التي رغب العروس في مصاهرتها ولعلها هي التي حملت الناس على نعت هذه المناسبة بـ (الخِطْبة) و (بخطبة العروس) ، حتى قيل : « جاء يَخْطِبُ فلانة لفلان » ، وان فرق العلماء بين (الخُطبة) التي هي الموعظة والكلام ، وبين (الخِطبة) التي هي طلب المرأة ، بالحركة ، فذكروا أن الأولى هي بضم الخاء والثانية بكسرها[4] .

---

١ تاج العروس (١٣٧/٤) ، (خس) .

٢ الخزانة (٣٤٦/٤ وما بعدها) ، (بولاق) .

٣ البيان والتبيين (٢٧٣/١) ، الاصابة (٥٨١/٣) ، (رقم ٩٠٢٨) .

٤ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ١٥٠) .

ونجد في كتب الأدب والأخبار نصوص خطب نسبت الى خطباء جاهلين ، يخرج المرء من قراءتها ومن قراءة ما ذكره أهل الأخبار عنهـا ، بأنها نصوص دقيقة تمثل الأصل تمام التمثيل ، أو كأنها نسخ استنسخت عن نسخ أصلية كتبها الخطباء بأنفسهم ، أو دوّنها كتاب شهود كانوا حضوراً وقت القاء الخطب. ونحن وإن تعودنا على اعتبار هـذه الخطب ، وكأنها خطب أصيلة لا شك عندنا في أصالتها ولا شبهة . لكننا لا نستطيع اقناع أنفسنا ولا غيرنا بصحة رأينا هذا. واذا كنا قد قبلنا ما قيل لنا عن الشعر الجاهلي، فإننا لا نتمكن من قبول ما يذهب اليه الأدباء المقلدون من أن الخطب المنسوبة الى خطباء الجاهليـة ، هي نصوص دقيقة صحيحة ، أو ان أكثرها صحيح لا شك لأحد في صحته ، وذلك لأسباب: منها ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم من قولهم « وكان الخطيبُ من العـرب اذا ارتجل خطبةً ثم أعادها زاد فيها ونقص »[1] ، ثم ما نجده من اختلاف في رواية خطبة (قس بن ساعدة) ، ومنهم أناس حضروا خطابه ، فكيف نصدق صحة نصوص خطب لأناس جاهلين تبلغ عدة صفحات .

وكيف يصدق انسان بصحة ما ينسب الى الجاهلين من خطب وأقوال ، وهو يعلم ان خطبة (حجة الوداع) ، قد اختلف الـرواة في رواية نصها اختلافـاً كبيراً[2] ، واذا كانوا قـد اختلفوا في ضبط نص خطبة تعـد من أهم خطب الرسول ، لما جاء فيها من بيان وأحكام ، وكلام الرسول أفضل كلام للمسلم ، فهل يعقل أخذ موضوع صحة نصوص خطب الجاهلين ، على انه كلام صحيح بالنص والحرف والمعنى ! واذا كان المسلمون قد جوزوا رواية حديث رسول الله بالمعنى ، لصعوبة الرواية بالحرف والكلم والنص ، فهل يعقل ضبط الناس لخطب الجاهلين ، ضبطاً تاماً كاملاً بالحرف والمعنى ،مع ان كلام أهل الجاهلية لا يقاس بكلام الرسول في نظر المسلمين من دون شك .

---

١ اللسان (٣٤/١٢) ، (أمم) .

٢ راجع نصها في تاريخ اليعقوبي (٩٩/٢ وما بعدها) ، (طبعة النجف) .

والأمر بالنسبة للشعر الجاهلي من حيث الصنعة والافتعال أهون أمراً في نظري من موضوع الخطب الجاهلية ، فالشعر كلام موزون مقفى وهو غير طويل ، يمكن حفظه بسهولة ، ويمكن خزنه في الذهن أمداً طويلاً ، أما النثر ، فليس من السهل حفظه حرفياً ؛ واذا حفظ ، فلا يمكن للذاكرة مهما كانت قوية أن تحافظ على صفائه الى أجل طويل ، لا سيما اذا كانت الخطب طويلة ، لا تعاد قراءتها إلا في المناسبات. وللسبب المذكور ولخوف المسلمين من التقول على الرسول بما لم يقله من حروف وألفاظ وجمل ، جوّزوا رواية حديثه بالمعنى ، لصعوبة حفظ النص ، فهل تعد خطب الجاهليين أكثر أهمية من حديث الرسول ، حتى نقول انها نصوص مضبوطة صحيحة ، لا غبار على صحتها ، ولا شك من نصها !

وطابع الخطب ، السجع وقصر الجمل والإكثار من الحكم والأمثال ، والتفصيل والإزدواج . ويرد غالب السجع في كلام الكهان لذلك وسم بهم ، فقيل (سجع الكهان) . والسجع في كلام العرب أن يأتلف أواخر الكلم على نسق كما تأتلف القوافي ، وأن يكون في الكلام فواصل كفواصل الشعر من غير وزن . وذكر أن الرسول قال لأحدهم وكان يتكلم سجعاً : أسجع كسجع الكهان ! وفي رواية إياكم وسجع الكهان ، وفي الحديث أنه نهى عن السجع في الدعاء . وإنما كره السجع في الكلام لمشاكلته كلام الكهنة[1] . قال (الجاحظ) : « وكان الذي كرّه الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيّاً من الجنّ ، مثل حازي جُهينة ، ومثل شق وسطيح ، وعزى سلمة وأشباههم ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ؛ كقوله : والأرض والسماء ، والعقاب الصقعاء ، واقعة يبقعاء ، لقد نفر المجدُ بني العشراء، للمجد والسّناء » . « فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم

١ تاج العروس (٥/٣٧٦) ، (سجع) .

وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلّة زال التحريم » . وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في ذلك الخطب أسجاع كثيرة ، فلا ينهونهم[1] . واتبع الخطباء في الاسلام وبعض الكتاب اسلوب السجع في خطبهم وفي كتبهم ، ولا زال السجع محبوباً عند كثير من الناس ، ولهذا فهم يكتبون به .

وأغلب الخطباء هم سادات قبائل وأشراف من أهل القرى ومن أصحاب المكانة والجاه والكهنة والحكام . ومنازلهم تحتم عليهم الخطابة في المناسبات ، لأنهم ألسنة قومهم ، فللكلام أثر في نفوس العرب ، يثير الحرب ويهدىء الأعصاب ويعقد السلم ، ويفض المشكل ، فصار من ثم للخطيب أثر كبير في الجاهلية . وكانت القبائل تفتخر بكثرة ما عندها من خطباء . وذكر (الجاحظ) أن رجلاً من حمير قام في مجلس لمعاوية اجتمع فيه الخطباء ، فقال : إنا لا نطيق أفواه الكمال ، عليهم المقال ، وعلينا الفعال[2] . ومعناه : إنا لا نستطيع الكلام كما يفعل غيرنا ، ولذلك فأنا لا أريد أن أتسابق معهم ، ثم اننا معشر عمل لا قول. و (الكمال) ، بمعنى الجمال ، جمع جمل، نطق بها بالكاف على لغة أهل اليمن القديمة ، لأن لسان حمير ينطق الجيم كافاً مفخمة .

ويلاحظ أن اكثر الذي ذكره أهل الأخبار من كلام الخطباء ، هو وصايا زعم أهل الأخبار أن أولئك الخطباء أوصوا بها أبناءهم ، وذلك حين تقدمت بهم السن ، وحين شعروا بدنو أجلهم . وهي تمثل خلاصة تجارب الموصي ومجمل ما حصل عليه من اختبارات في هذه الحياة . وهي على الجملة حكم ، وآراء في الدنيا ، ومواعظ ، لا تخطر إلا على بال رجل سئم من الحياة ويئس منها ، أو من زاهد متصوف متدين يؤمن بإله وبحساب وكتاب ، وجد ان الحياة مدبرة ، وانها زائلة فانية ، لا تدوم لأحد ، لذلك يريد أن يوصي أبناءه بما وجده فيها وخبره ورآه .

ولم يهمل أهل الأخبار ذكر أهل العيّ والبلادة ، وهم على قلتهم وضآلة

---

١ البيان والتبيين (١/٢٩٠) .
٢ البيان والتبيين (١/٣٩٨) .

عددهم مجتمع خاص قائم بذاته ، فأشاروا الى نوادرهم وبعض قصصهم، وجعلوا رأسهم وحامل لوائهم في الجاهلية شخصاً ضربوا به المثل في العيّ ، دعوه (باقلاّ) وجعلوه من قيس بن ثعلبة . وقالوا : إن من حماقته وعيّه أنه اشترى عنزاً من الظباء بأحد عشر درهماً ، فقيل : بكم اشتريتها ؟ فأطلق كفّيه ومدّ أصابعه وأخرج لسانه ، أي يعده بلسانه وأصابعه ، فنفرت العنز ، فعُيِّر بذلك . وفيه يقول الشاعر :

يلومون في حمقه باقلاّ   كأن الحماقة لم تخلق[1]

---

١ شمس العلوم (الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٧٩) .

فهرست

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

الجزء التاسع

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

المفصّل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء التاسع

○ الطبعة الثانية ○

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الرابع والاربعون بعد المئة

الاعراب والعربية واللحن

ولا بد لنا وقد تحدثنا عن لغات العرب وعن العربية الفصحى من التحدث عن (الإعراب) لما له من صلة بها . فأقول الإعراب في تعريف علماء اللغة : الإبانة والافصاح عن الشيء . يقال للعربي : أعرب لي أي بين لي كلامك . وأعرب الكلام وأعرب به بيّنه . روي عن النبي أنه قال : « الثيب تعرب عن نفسها » ، أي تفصح . وفي رواية أخرى : الثيب يعرب عنها لسانها ، والبكر تستأمر في نفسها . وإنما سُمّي الإعراب إعراباً لتبيينه وايضاحه . ومن هنا يقال للرجل الذي أفصح بالكلام : أعرب . ويقال أعرب الأعجمي إعراباً ، أي أفصح وأبان . وعرّبه : علّمه العربية . « وفي حديث الحسن أنه قال له البتّي : ما تقول في رجل رُعِفَ في الصلاة ؟ فقال الحسن : إن هذا يُعرّب الناس ، وهو يقول رُعِفَ ، أي يعلمهم العربية ، إنما هو رَعُفَ » . وتعرب واستعرب أفصح ، قال الشاعر :

ماذا لقينا من المُستعربين ومن قياسِ نحوِهِمُ هذا الذي ابتدعوا [1]

وعرف الإعراب ، بأنه أن لا تلحن في الكلام . يقال أعرب كلامه اذا لم

---

١ اللسان (٥٨٨/١ وما بعدها) ، (عرب) ، تاج العروس (٣٧٠/١ وما بعدها) ، (عرب) .

يلحن في الإعراب[1] . فربطوا هنا بين الإعراب واللحن . وذكـــروا أيضاً « أن الإعراب الذي هو النحو ، انما هو الإبانة عن المعاني والألفـــاظ »[2] ، « وانما سمي الإعراب إعراباً ، لتبيينــه وإيضاحه »[3] ، « وعرب منطقـــه أي هذبه من اللحـــن »[4] . وروي عن (أبي هريرة) قولــه : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » ، والمراد بالغريب أن تكون اللفظة حسنة مستغربة في التأويل،لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس . وقد عدّوا من ذلك في القرآن كله سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً[5] .

ورد في تاريـــخ (الطبري) ان رجلاً من العباديين مرّ بجمع من المسلمين أصابوا جراباً من (كافور) فحسبوه ملحاً ، فأخذوا يلقون منه في طعامهـــم ، فقال لهم : « يا معشر المعربين ، لا تفسدوا طعامكم ، فإن ملـــح هذه الأرض لا خير فيه »[6] ، فاستعمل المعربين في معنى العرب ، ولعـــل العباديين ، وهم نصارى الحيرة كانوا يطلقون على العرب الخلص معربين ، لوضوح لسانهم بالنسبة لغيرهم ممن كان لا يعرب على طريقة العرب الخلص من أهل البوادي .

وقد ذهب (ابن فارس) الى وجود (الإعراب) عند العرب العاربـــة ، إذ يقول : « وزعم قومٌ أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا نصباً ولا همزاً »[7] . وقد رد على من أنكر وجود الإعراب عند العرب قبل الاسلام[8] ، وأورد حديثاً في ذلك ، إذ قال : « وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه قال : اعربوا القرآن »[9] . وقد ورد ان (عمر بن الخطاب) ، وجه كتابـــاً الى (أبي موسى) الأشعري ، عامله على البصرة فيه : « أما بعد ، فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربيـــة ،

---

١ تاج العروس (١/٣٧٢) ، (عرب) .
٢ تاج العروس (١/٣٧١) ، (عرب) ، اللسان (١/٥٨٩) ، (صادر) ، (عرب) .
٣ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) .
٤ المصدر نفسه (١/٥٨٩) ، (عرب) .
٥ الرافعي (٢/٥٧) .
٦ الطبري (٣/٤٩٧) .
٧ الصاحبي (٣٥) .
٨ الصاحبي (٣٧ وما بعدها) .
٩ الصاحبي (٦٦) ، (اعربوا القرآن ، فاني عربي) ، الزينة (١١٧ وما بعدها) .

وأعربوا القرآن ، فإنه عربي ، وتمعددوا فإنكم معديون »[1] ، ووجه اليه كتاباً آخر فيه « أما بعد ، فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة ، وتفقهوا في العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[2]. غير ان من العلماء من فسّر الإعراب في القرآن بأن المراد به معرفة معاني ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن[3] .

وعرف الإعراب ، بأنه : « الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد. وذكر بعض أصحابنا أن الاعراب يختص بالإخبار . وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً ، لأنّا نقول : أزيدٌ عندك ؟ وأزيداً ضربت ؟ فقد عمل الإعرابُ وليس هو من باب الخبر »[4] ، فبالإعراب تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين[5] . وأنواع الإعراب رفع ، ونصب ، وجر ، وجزم ، فالإعراب عبارة عن الحركات[6] . وقد جعل الإعراب من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب[7] . والإعراب في الواقع ، هو التعرب ، أي التكلم بالعربية وفق طريقة العرب الخلص في مراعاة أواخر الكلم ، ومراعاة التصرف الإعرابي .

والإعراب في نظري ، أن يتكلم الانسان بطريقة العرب في كلامهم ، وذلك بأن يبين وفقاً لقواعد لسانهم ، وقد عرفنا ورود لفظة (عرب) و (عربية) في النصوص الآشورية واليونانية والسريانية ، فالإعراب إذن من هذا الأصل ، أي من العربية ، ثم اطلق على النطق وفقاً لأساليب العرب في كلامهم ووفقاً لقواعد لسانهم .

---

١ كنز العمال (٥/٢٢٨) ، خورشيد أحمد فارق ، حضرت عمر (١٣٥) ، (القسم العربي) .
٢ حضرت عمر (١٣٩ وما بعدها) ، (القسم العربي) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٢/٣) .
٤ ابن فارس ، الصاحبي (٦٦ ، ٧٧) .
٥ الصاحبي (١٩٠ وما بعدها)
٦ السيوطي ، الاشباه والنظائر (١/٧٢ وما بعدها) .
٧ المزهر (١/٣٢٧) .

والوقوف على معنى : (العربية) ، يجب الرجوع الى ما ورد عنها في الأخبار. فقد ورد أن الرسول « دخل المسجد فرأى جمعاً من الناس على رجل ، فقال: ما هذا ؟ قالوا : يا رسول الله ، رجل علاّمة ، قال : وما العلاّمة ؟ قالوا : أعلم النـاس بأنساب العرب ، وأعلم الناس بعربية ، وأعلم الناس بشعر ، وأعلم الناس بما اختلف فيه العرب ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : هذا علم لا ينفع وجهـل لا يضر »[1] . وهو خبر يرجع سنـده الى (أبي هريرة) .

ووردت اللفظة في روايات أخرى يرجع الرواة زمانها الى أيام الخليفة (عمر بن الخطاب) . فقد روي عن (عثمان المهـري) ، انه قال : « أتانا كتاب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء ، ويذكـر فيها : تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيـد في المروءة »[2] . « وقد روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : إن الله بريءٌ من المشركين ورسولِه ، بجرّ رسوله ، فتوهم عطفه على المشركين . فقال : أوَ بريء الله من رسوله ؟ فبلغ ذلك عمـر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية »[3] . وروي أن الخليفة المذكور ، كتب الى (أبي موسى الأشعري) ، يوصيه ، فكـان مما قاله له : « خذ الناس بالعربية ، فإنه يزيد في العقـل ويثبت المروءة »[4] . ونسبت الى (عمر) رسائل أخرى ، ذكر انه وجهها الى عامله المذكور فيها : « أما بعد : فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربية ، واعربوا القرآن فإنه عربي وتمعددوا فإنكم معديون »[5] ، و « أما بعد : فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[6] ، أو انه قال : « تفقهوا في الدين ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وتعلموا العربية »[7] . وفسّر (الحسن) العربية ، بأنهـا التنقيط ، أي

---

١ ابن قيم الجوزية ، اعلام الموقعين (٨٧/١) .

٢ صبح الأعشى (١٦٨/١) .

٣ صبح الأعشى (١٦٩/١) .

٤ اللسان (١٥٥/١) ، (مرأ) ، تاج العروس (١١٧/١) ، (مرأ) ، خورشيد أحمد فارق (١٤١) ، (النص العربي) .

٥ كنز العمال (٢٢٨/٥) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) ، (النص العربي) .

٦ القفطي ، انباه (١٦/١) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) .

٧ السجستاني ، المصاحف (١٤٢) .

ان ينقط المصحف بالنحو[1] . وذكر ان النبي قال : « عليكم بتعلم العربية ، فإنها تدل على المروءة وتزيد في المودة[2] . وروي أن عمر كتب : « أما بعد : فإني آمركم بما أمركم به القرآن ، وأنهاكم عما نهاكم عنه محمد ، وآمركم باتباع الفقــه والسنة والتفهم في العربية »[3] ، و « مُر من قبلك بتعلم العربية ، فإنها تدل على صواب الكلام ، ومرهم برواية الشعر ، فإنه يدل على معالم الأخلاق »[4] .

وورد أن (عبدالله بن مسعود) كان يتعاطى العربية والشعر ، وقد كان يسأل في ذلك (زر بن حُبيش) ، وكان من أعرب الناس[5] . « قال عاصم : كان من أعرب الناس . وكان ابن مسعود يسأله عن العربيــة »[6] . وورد : « كان بعض اليهود قد علم كتاب بالعربية،وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول»[7].

وورد أن أهل الحيرة كانوا يتعلمون (العربية) في الكتاتيب ، وان لهم ديواناً يكتب بالعربية ، كما كان للفرس ديوان يدون الرسائل الى العرب بالعربية ، وأن أهل الأنبار كانوا يكتبون بالعربية ويتعلمونها .

وبعد ، فما هي تلك العربية التي كان (العلامة ؟) المزعوم يعلمها في المسجد وكان من أعلم الناس بها ؟ وما هي تلك العربية التي كان الخليفة يوصي حكّامه وأصحابه بأخذ الناس بها ؟ أو العربية التي علمها اليهود بيثرب ؟ عربيــة بمعنى الإبانة والافصاح وتحريك الفم تحريكاً كفيلاً بإخراج الحروف من مخارجها إخراجاً واضحاً ؟ أم عربيــة أخرى ؟ أم عربية الكتابة . أي تقليم الخط ، أم بالمعنى الذي دفع (أبا الأسود) على وضع العلامات لضبط الحركات ولصيانة الألسنــة من الوقوع في اللحن . ولو سألتني رأيي ، لقلت لك حالاً : انها العربية الثانية. العربية الكفيلة بضبط الألسنة وتعليمها كيفية النطق الصحيح وفقاً لقواعد العربية ، أي الإعراب وتفسير معاني الألفاظ ، أي اللغة ، وأوضح دليل على ما أقوله ، ما جاء في الرواية المتقدمة من أن (عمر بن الخطاب) لما سمع خطأ الأعرابي

---

١ السجستاني ، المصاحف (١٤٢) .
٢ الفائق (١٥٣/٣) .
٣ خورشيد أحمد فارق (١٤٠) ، (النص العربي) .
٤ كنز العمال (٢٤١/٥) ، خورشيد أحمد فارق (١٤٠) .
٥ ابن سعد (٧١/٦) .
٦ الاصابة (٥٦٠/١) ، (رقم ٢٩٧١) .
٧ فتوح البلدان ، للبلاذري (٤٥٩) ، المعارف لابن قتيبة (١٩٢) .

الفاحش في قراءة الآية أمر « أن لا يقرأ القرآن إلاّ من يحسن العربية » ، ومن وصيته بأخذ الناس بالعربية،ومن قوله أيضاً : « تعلموا الفرائض والسنن واللّحن كما تعلمون القرآن » ، و « تعلموا اللحن في القرآن كما تتعلمونه » ، يريد تعلموا لغة العرب في القرآن » ، أو : « تعلموا اللحن والفرائض فإنه من دينكم »[1] . فلم يكن خطأ (الاعرابي) هو خطأ في كيفية اخراج الحروف من مخارجها ، ولا في كيفية الافصاح وإبانة الكلم ، وإنما في جره رسوله ، وتوهمه عطفها على المشركين ، مما أخرج الآية الى عكس ما أراده الله منها . أي غلطه في اللغة ، ولهذا فزع الخليفة فحث الناس على تعلم العربية ، لتكون دليلاً لمن يتعلمها وهادياً له في صون لسانه من الوقوع في الخطأ ، وفي هذا الحث دلالة على وجود علم سابق عند العرب بكيفية حفظ الألسنة من الوقوع في الخطأ ومجانبة القواعد العامة. ويعود هذا العلم الى ما قبل الإسلام .

أضف الى ذلك ما ذكرته سابقاً من قول عمر : « أما بعــد : فتفقهوا في الدين ، وتعلّموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[2] . فإذا صح هــذا الخبر دل على وجود الإعراب في زمن عمر ، وعلى ان المراد من الإعــراب الذي كلّف (أبا الأسود) أن يعلّم أهل البصرة به ، هو النحو ، أي قواعد صيانة اللسان من الوقوع في الخطأ في الكلام .

ولو تساهلنا فأخذنا (العربية) الواردة في قول (عمر) وغيره بالمعنى اللغوي الظاهر من اللفظة ، وهو الإفصاح والإبانة وإخراج الكلم حسب أصول النطق عند العرب ، فإن هذا المحمل يحملنا على الذهاب الى وجود علم سابق ، كان الناس يراعونه ويسيرون بمقتضى اعتباراته وقواعده في كيفية النطق بالكلم ، ويسمونه : العربية .

ويتبين مما ذكره أهل الأخبار من أن (أبا الأسود) « كان أول من وضع العربية »[3] ، أن مرادهم من العربية المذكورة هذه العلامات التي تدل على الرفع

---

١ اللسان (٣٨١/١٣) ، (لحن) ، صبح الاعشى (١٤٨/١) .
٢ القفطي ، انباه (١٦/١) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) .
٣ المعارف (٤٣٤) ، الصاحبي (٣٧) .

والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون، تلك العلامات التي استعملها في المصحف ، وأن هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعدُ وسمّوا كلامهم نحواً سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود[1] . وبهذا المعنى نستطيع فهم ما ورد في الحديث والأخبار من وجوب الإعراب في القرآن . أي إظهار حركات الكلم عند القراءة . فالعربية ، تعني النحو. « ولما وضع أبو الأسود النحوَ وأطلق عليه لفظ العربية ... »[2] ، كان يقصد منه صيانة اللسان من الخطأ ، والنطق بصحة . فقد ورد ان الرسول قال : اعربوا القرآن ، أو اعربوا القرآن فإنه عربي ، وأن (عمر بن الخطاب) « قال : تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه[3] » ، وروي انه قال : « تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض »[4] .

وبهذا المعنى وردت (العربية) في حديثهم عن الشاعر (علي بن زيد) العبادي ، فقد ذكروا انه تعلم (العربية) في كتاب بالحيرة حتى غدا من أكتب الناس بها ، فلما حذق ومهر فنه بالعربية ، أرسل الى كتّاب الفارسية ، فتعلم مع أولاد المرازبة[5] . وذكروا انه « قرأ كتب العرب والفرس »[6] ، إذ لا يعقل أن يكون مرادهم تعلم حروف الهجاء وحدها ، أو الخط ، أو مجرد معاني الألفاظ .

وقد تحدثت عن التنقيط عند أهل الكتاب في أثناء حديثي عن نشأة الخط العربي . ويظهر أن كتاب المصاحف ، لم يكونوا على اتفاق في موضوع العواشر ، أي تعشير القرآن ، والتنقيط والخواتم ، والفواتح ، والألفاظ المفسرة في المصحف ، بدليل ما ورد عنهم من اختلاف رأي في هذا الموضوع ، فمنهم من كان يأمر بتجريد القرآن من كل ذلك ومنهم من جوّز ، ومنهم من كره نقط القرآن بالنحو[7] .

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧) .
٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٢٦) .
٣ الزينة (١١٧ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (٢/٢١٩) .
٥ الاغاني (٢/٩٦ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) ، شعراء النصرانية (١/٤٤١).
٦ الطبري (٢/١٩٣) ، (دار المعارف) .
٧ السجستاني ، المصاحف (١٣٨ وما بعدها) .

وقد اختلف العلماء في تفسير معنى جملة « يريد أن يعربه فيعجمه » الواردة في شعر ينسب لرؤبة ويقال للحطيئة ، هو :

الشعر صعب وطويـل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمـه

وقوله :

والشعر لا يسطيعه من يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه

فذهب بعضهم الى أن مراد الشاعر أنه يأتي به أعجمياً ، يعني يلحن فيه ، وقيل يريد أن يبيّنه فيجعله مشكلاً لا بيان له ، وقيل أزال عجمته بالنقط [1] .

والذي أراه أن قول العلماء : « العجم النقط بالسواد مثل التاء عليها نقطتان، يقال : أعجمت الحرف والتعجيم مثله » ، وقولهم : « معجم الخط هو الذي أعجمه كاتبه بالنقط ، تقول : أعجمت الكتاب أعجمه إعجاماً » [2] ، هو تعريف يجب أن يكون قد وضع بعد وضع الإعجام ، أي التنقيط ، فإذا كان الإعجام من وضع (أبي الأسود) الدؤلي ، فيجب أن يكون ظهوره منذ أيامه فما بعد، أما إذا كان قبله فيجب أن يكون من مصطلحات الجاهليين .

ويذكر علماء اللغة أن « أعجم الكتاب خلاف أعربه ، أي نقطه » فأزال الكاتب عجمة الكتاب بالنقط [3] . ومعنى هذا أن النقط قد أزال الغشاوة عن الحروف المعجمة ، أي المتشابهة في الشكل ، بوضع النقط فوقها ، فصارت حروفاً معربة واضحة . ولولا الإعجام لما استبان الكلام ، ولوقع سوء الفهم واللبس في كثير من الألفاظ التي ترد فيها الحروف المعجمة ، ففي الإعجام لبس ووقوع في خطأ، وفي اللحن مثل ذلك أيضاً ، ولهذا أرى وجود صلة كبيرة بين اللحن ، الذي هو الخطأ في الكلام ، بسبب الجهل بالاعراب . وقد رأيت قول العلماء : «أعجم الكتاب خلاف أعربه » ، أي وضحه وصححه بالنقط . فبين الاثنين ترابط في الأصل ، فالاعجام خلاف الاعراب ، واللحن خلاف الإعراب كذلك .

---

١ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٢ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .

وقد صار النقط ، أو وضع الحركات على الحروف لإرشاد القارىء الى القراءة الفصيحة الصحيحة ، ضرورة لازمة ، بدونها قد يخطىء الانسان فهم المعنى ، وقد يقع في أخطاء جسيمة لو أخليت الكتابة من النقط والإعجام . وقد ضرب العلماء الأمثال على أخطاء وقع بها الناس بسبب طريقة الكتابة القديمة التي لم تكن تنقط الحروف ولا تعجمها ، فكان القارىء يقع في أخطاء .

والإعراب بعد ، لا يختص بالعربية وحدها ، بل نجد آثاره في لغات سامية أخرى ، وانما ظهر وعرف في عربيتنا ، لأن اللغات الأخرى قد ماتت في الغالب ، فلم يبق أحد من الناطقين بها ، لنتبين كلامه ، ولأن نصوصها غير مشكلة ، وهي خالية من الحروف التي تدل على الشكل والحركات ، لذلك لا نستطيع التحدث عن وجود الإعراب بها . ولكن بعض النصوص البابلية تشير الى وجود الإعراب بها . واللاتينية مع انها من اللغات الآرية فهي لغة معربة ، يراعي الكاتبون والمتكلمون بها خصائص الإعراب ، واليونانية القديمة هي معربة كذلك . ويخيل لي ان معظم لغات الأدب في العالم القديم كانت تراعي الإعراب ، لترتفع بذلك عن ألسنة العامة ، ولتكون اللسان الرفيع الذي يخاطب الانسان به أربابه ، ثم خفت حدة الإعراب فيما بعد ، مجاراة لتطور العقل الانساني . ونجد معظم الشعوب في الوقت الحاضر ، تبسط لغتها وتختزل قواعدها وجمل كلامها ليتناسب الكلام مع عقلية السرعة التي أخذت تسيطر على الانسان الحاضر .

وما قلته عن اللغات الأخرى من صعوبة التكلم عن إعرابها ، بسبب عدم وجود نصوص مشكلة عندنا تشير الى طرق الإعراب بها ، ينطبق كذلك على اللغات العربية الجنوبية ، وعلى اللغات الأخرى ، مثل الصفوية ، والثمودية واللحيانية ، لعدم وجود الحركات بها أو العلامات الدالة على الإعراب . وخلو هذه اللغات من العلامات التي تقوم الإعراب ، لا يمكن أن يتخذ دليلاً على عدم وجوده في تلك اللغات ، لأن العماد في الإعراب ، هو بالنطق في اللسان ، وهو ما لا يمكن استخراجه من الكتابة العربية الجنوبية ، فاللسان هو الذي يشكل ويحرك الألفاظ وفق مقتضيات قواعد الألسنة . أما النبطية ، وهي من اللهجات العربية الشمالية ، ففيها ظواهر بارزة تشير الى انها كانت لغة معربة ، وهي في نظري أقرب اللغات العربية الجاهلية الى عربية القرآن الكريم ، فالأسماء في النبطية ، معروفة في عربيتنا قليلة في العربيات الأخرى ، وهي قريبة من هذه العربية في أمور أخرى نحوية وصرفية.

اللحن :

من معاني اللحن : اللغة . « روي أن القرآن نزل بلحن قريش،أي بلغتهم . وفي حديث عمر رضي الله عنه : تعلموا الفرائض والسنة واللحن ، بالتحريك ، أي اللغة »[1] ، ومنه قول (عمر) : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن ، كما تعلّمون القرآن »[2]. ومن معانيه الخطأ في الكلام . « قال أبو عبيد في قول عمر رضي الله تعالى عنه : تعلّموا اللحن ، أي الخطأ في الكلام لتحترزوا منه » ، وورد : « وأما قول عمر رضي الله عنه : تعلّموا اللحن والفرائض،فهو بتسكين الحاء ، وهو الخطأ في الكلام ... قال أبو عدنان : سألت الكلابيين عن قول عمر : تعلّموا اللحن في القرآن كما تعلمونه ، فقالوا : كُتب هذا عن قوم ليس لهم لغو كلغونا ، قلت : ما اللغو ؟ فقال : الفاسد من الكلام . وقال الكلابيون: اللحن : اللغة . فالمعنى في قول عمر : تعلموا اللحن فيه ، يقول : تعلموا كيف لغة العرب فيه الذين نزل القرآن بلغتهم »[3] ، « وجاء في رواية تعلموا اللحنَ في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلّموا لغة العرب بإعرابها »[4] ، ووردت اللفظة بمعان أخرى . وقد أجمل العلماء ما جاء فيها من معان بستة معان : الخطأ في الإعراب ، واللغة ، والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى[5] .

وقد ذكر أن الرسول لما أرسل (سعد بن معاذ) ، وهو يومئذ سيد الأوس و (سعد بن عبادة) ، وهو يومئذ سيد الخزرج الى (كعب بن أسد)،وكان قد نقض عهده الذي عهده للرسول وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ، قال لهما : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً فالحنوا إليّ لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » ، فلما أتياهم وجداهم على أخبث ما بلغهما

---

١ اللسان (١٣/٣٨٠ وما بعدها) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) ، الفائق (٢/٩٩) ، (٢/٤٥٧) .
٢ الأمالي ، للقالي (١/٥) ، السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٠) .
٣ اللسان (١٣/٣٨٠ وما بعدها) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .
٤ اللسان (١٣/٣٨١) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .
٥ اللسان (١٣/٣٨١) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .

عنهم ، نالوا من رسول الله ، » وقالوا : من رسول الله ! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد » ، فلما عادا الى رسول الله قالا : « عضل والقارة . أي كغدر عضل والقارة » ، فاللحن هنا بمعنى الإيماءة والاشارة والرمز[1] ، فاللحن هنا أن تريد الشيء فتورى عنه[2] .

والذي أريده من اللحن ، الخطأ في الكلام ، والزيغ عن الإعراب ، وهو معنى لا نستطيع فهمه من النصوص الجاهلية ، لخلو تلك النصوص من الحركات ، ومن الاشارة الى قواعد لغاتها . ولذلك فلا مناص لنا لفهمه إلا بالرجوع الى الموارد الإسلامية . وهي تذكر أن اللحن بهذا المعنى ، لم يظهر إلا في الاسلام ، ظهر بسبب دخول الأعاجم في دين الله ، واختلاطهم بالعرب ، وأخذهم لغتهم واتصال العرب بهم : فقسدت الألسنة ، وظهر اللحن بين الموالي وبين العرب . وقد عيب ظهوره في العربي ، حتى عير من ظهر اللحن على لسانه ، فلما فشا وكثر ، صار شيئاً مألوفاً حتى غلب على ألسنة الناس . وهم يذكرون ان العربي القح الأصيل ، لم يكن يخطىء في كلامه ، لأنه يتكلم عن طبع وسجية ، ومن كان هذا شأنه ، لا يقع اللحن في كلامه ، أو لأنهم كانوا يتأملون مواقع الكلام ويعطونه في كل موقع حقه وحصته من الإعراب عن ميزة وعلى بصيرة[3] .

يقول العلماء : وكان أول لحن ظهر بين العرب على عهد النبي ، فقد رووا أن الرسول سمع رجلاً يقرأ فلحن ، فقال : ارشدوا أخاكم[4] ، أو ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل[5] ، ثم فشا وانتشر في مواضع الإختلاط خاصة ، حيث اختلط العجم بالعرب ، كالعراق وبلاد الشأم ومصر ، حتى دخل أعمال الحكومة ، فأخطأ الكتاب في النحو ، وأفحشوا في الإعراب ، فكتب كاتب من كتاب (أبي موسى) الأشعري كتاباً فيه ، (من أبو موسى ...) أو ما شابه ذلك من خطأ في القول ، فكتب (عمر) الى عامله : « سلام عليك . أما بعد ،

---

١ الروض الأنف (١٩٠/٢) ، ابن هشام ، سيرة (١٩٠/٢) ، (حاشية على الروض).
٢ الأمالي ، للقالي (٦/١) .
٣ الرافعي (٢٤٠/١) ، « وبهذا الاعتبار نقطع بأن اللحن لم يكن في الجاهلية البتة » ، الرافعي (٢٤٢/١) .
٤ كنز العمال (١٥١/١) .
٥ ابن جني ، الخصائص (٨/٢) ، (دار الكتب) .

فاضرب كاتبك سوطاً واحداً ، وأخر عطاءه سنة »[1] : أو : « إذا أتاك كتابي هذا ، فاجلده سوطاً واعزله عن عملك »[2] ، أو « قنع كاتبك سوطاً »[3] ، أو: « ان كاتبك الذي كتب إليّ لحن ، فاضربه سوطاً »[4] ، وذكر (الجاحظ) ، أن (الحصين بن أبي الحرّ) كتب الى (عُمر) كتاباً « فلحن في حرف منه، فكتب اليه عمر : أن قنع كاتبك سوطاً » .

وسبب ذلك انهم كانوا يرون ان اللحن عيب مشين . قال « عبد الملك بن مروان : اللحن هجنة على الشريف ، والعجب آفة الرأي . وكان يقال : اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه »[5] .

ولا يمكن تفسير قول القائل ان « اللحن بمعنى الخطأ محدث ، لم يكن في العرب العاربة الذين تكلّموا بطباعهم السليمة »[6]،الا أن يكون مراده أن الجاهليين كانوا يتكلمون بطباعهم السليمة بلغاتهم ، كل يتكلم بلغته ، ووفق سجيته ولسانه الذي أخذه من بيته ، فهو ينطق وفق ما سمع وحفظ ، فلا يلحن في الكلام بلسانه الذي أخذه من أهله ، وهو رأي أقول انه على الجملة مقبول معقول . أما اذ أريد به ، أن العرب كانوا جميعاً يتكلمون بلسان واحد ، فلا يخطىء أحدهم فيه ولا يلحن ، فإن ذلك يتعارض مع قولهم بوجود اللغات ، وبأن تلك اللغات كانت تتباين في أمور كثيرة في جملتها قواعد في النحو والإعراب ، كما في (ذي) الطائية ، وفي اعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً وذلك في لغة (بلحرث) و (خثعم) و(كنانة) ، فيقولون : جاء الرجلان ، ورأيت الرجلان ، ومررت بالرجلان[7] ، وكما في (كم) الخبرية ، حيث ينصب (بنو تميم) تميز (كم) ، ولغة غيرهم وجوب جره وجواز إفراده وجمعه ، وكما في إعراب (الذين) من أسماء الموصول إعراب جمع المذكر السالم في لغة

---

١ مراتب النحويين (٦) ، الرافعي (٢٤٣/١) .
٢ كنز العمال (٢٢٤/٥) ، حضرت عمر (١٣٧) ، (القسم العربي) .
٣ أدب الكتاب ، للصولي (١٢٩) ، حضرة عمر (١٣٨) .
٤ حضرت عمر (١٣٨) .
٥ البيان والتبيين (٢١٦/٢) .
٦ ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة (٢٣٩/٥) .
٧ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٤٤/١ وما بعدها) .

(هذيل) ، أو (عقيل) وفي قول بعضهم هذه النخيل وقول بعض آخر هذا النخيل الى غير ذلك من مواطن خلاف وتباين بحث فيها العلماء[1] ، لا مجال للبحث فيها في هذا المكان ، ووجود هذا الاختلاف ، هو دليل في حد ذاته على خروج القبائل على قواعد اللغة ، والخروج على القواعد هو اللحن .

لقد أقر علماء العربية بوجود خلاف بين القبائل المتكلمة بلهجات عربية شمالية، وقد أشرت الى مواضع ذكروها في هذا الباب ، وكشف علماء النحو عن خلاف في قواعد النحو ، في مثل اختلاف القبائل في التذكير والتأنيث ، كما في مثل الطريق والسوق والسبيل والتمر ، فهي ألفاظ مؤنثة عند أهل الحجاز ، وهي مذكرة عند قبائل أخرى ، وكشفوا عن أمور أخرى ، إن تكلم المتكلم أو كتب بها عدّ صدور ذلك لحناً منه ، فهل يعدّ العربي المتكلم بلهجة من هذه اللهجات المخالفة مخالفاً لقواعد العربية ، أي لحّاناً ، كما نعدّ الأعجمي الذي يقع في الخطأ نفسه ، أم نعدّه فصيحاً ، عربي اللسان والسليقة ؟ أما الأعجمي الذي يقع في الخطأ ذاته فنعده لحّاناً لحنة !

لقد ذكروا ان الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين ان أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يوجّه اليهم الخطاب، كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة ، حتى قال له علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ؟ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوضح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات »[2] ، فهل يعقل بعد ، أن يقال إن العربي كان لا يلحن ولا يخطىء في كلامه ولا يزيغ عن العربية المبينة ، والعرب هم على ما هم عليه من اختلاف اللهجات ، الذي يدفع حتماً على وقوع اللحن ، لو تكلموا بالعربية القرآنية ، أي هذه العربية التي يسميها علماء اللغة لغة قريش ، والتي هي اللسان العربي المبين على تسمية القرآن لها .

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٢٠ وما بعدها) .
٢ المزهر (١/٣٢٥) .

ثم كيف نفسر حديث : « ارشدوا أخاكم » ، أو « ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل » مع قولهم إن العربي لا يخطىء في كلامه ولا يلحن ، لأنه يتكلم عن طبع وسليقة ، ولم يكن هذا الذي لحن أمام الرسول ، أعجمياً ، وانما كان عربياً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف وقع اللحن إذن ؟ ثم كيف نفسر خبر سماع الإمام (علي) أعرابياً ، وهو يلحن في القرآن ويقرأ : « لا يأكله إلا الخاطئين»[1]، أو خبر ذلك الأعرابي الذي قرأ « إن الله بريء من المشركين ورسولِه» بالجرّ، لأن رجلاً من أهل المدينة أقرأه إياها على هذا النحو ، فبلغ ذلك (عمر) ، فأمر ألاّ يقرىء القرآن إلا عالم باللغة،وأمر أبا الأسود أن يضع النحو[2]، والأعراب هم لبّ العرب ، وصفوتهم في الكلام ، فكيف وقع هذا الأعرابي في اللحن يا ترى ؟ ثم كيف نفسر قول من زعم أن في القرآن آيات فيها لحن ، مثل : إن هذان لساحران[3] ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة[4] ، وان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون »[5] ، ومواضع أخرى تحتاج الى تأويل ليستقيم إعرابها[6] ، أو الى اصلاح املائها لتنجو من اللحن[7] .

ثم كيف اختلف قراء القرآن في نصب (الطير) في الآية : « يا جبال أوبي معه والطير » أو رفعها[8] ، واختلافهم في ضم الفاء أو فتحها في الآية : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم »[9] ، واختلافهم في بناء الفعل للمجهول أو للمعلوم في الآية : « الم . غلبت الروم »[10] ، وغير ذلك من مواضع الاختلاف ، اختلف فيها القرّاء ، مع كونهم من العرب الأقحاح .

ثم كيف نفسر اضطراب العلماء وذهابهم مذاهب في قراءة الآية : « قالوا :

---

١ نزهة الألباء (٨) ، (محمد أبو الفضل ابراهيم) .
٢ المصدر نفسه .
٣ طه ، الآية ٦٣ .
٤ النساء ، الآية ١٦٢ .
٥ المائدة ، الآية ٦٩ .
٦ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٩) .
٧ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧١) .
٨ سبأ ، ٣٤ ، الآية ١٠ ، تفسير الطبري (٢٢/٤٦ وما بعدها) .
٩ التوبة ، الآية ١٢٨ ، تفسير الطبري (١١/٥٥) ، تفسير الألوسي (١١/٤٧) .
١٠ سورة الروم ، الرقم ٣٠ ، الآية ١ وما بعدها .

إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ويذهبا بطريقتكم المثلى »[1] ، وتأويلهم القراءة جملة تأويلات ، لأن القاعدة النحوية تقول : « ان هذين » بينا القراءة : « إن هذان » ، فعللوها جملة تعليلات ، منها أن هذه القراءة نزلت بلغة (بني الحارث بن كعب) ومن جاورهم يجعلون الاثنين ، أي المثنى في رفعها ونصبها وخفضها بالألف ، كما في قول بعض (بني الحارث بن كعب):

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى   مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وقيل إن هذه القراءة ، هي قراءة بلحارث بن كعب ، وخثعم، وزبيد ومن وليهم من اليمن[2] . ونسبها (الزجاج) الى كنانة ، وابن جني الى بعض بني ربيعة[3] .

ثم ما ورد في خبر آخر عن سعيد بن جبير ، من قوله : « في القرآن أربعة أحرف لحن : الصابئون[4] ، والمقيمين[5] ، وفأصدّقَ وأكن من الصالحين[6] ، وإن هذان لساحران »[7] الى غير ذلك من أخبار . ثم ما ورد من قول (عثمان) : « إن في القرآن لحناً ، وستقيمه العرب بألسنتها » ، وأمثال ذلك[8] ، وما ذكر من أن (أبا بكر) ، كان يستحب أن يُسقط القارىء الكلمة من قراءته على أن يلحن فيها[9] ، أفلا يدل هذا الخبر ، على أن اللحن كان معروفاً ومتفشياً في عهد (أبي بكر) ، وما روي في رواية تقول : « لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان رضي الله عنه ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيروها فإن العرب ستغيرها ، أو قال ستعربها بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف

---

١ سورة طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ٦٣ .
٢ تفسير الطبري (١٦/١٣٦ وما بعدها) .
٣ تفسير النيسابوري (٦/١١٨) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٣) .
٤ المائدة ، الرقم ٥ ، الآية ٧٢ .
٥ النساء ، الرقم ٤ ، الآية ١٦١ .
٦ المنافقون ، الرقم ٦٣ ، الآية ١٠ .
٧ سورة طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ٦٣ ، السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٣) .
٨ المصاحف (٣٣) ، السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٢ وما بعدها) .
٩ الرافعي (١/٢٤٠) .

والملي من هذيل لم يوجد فيه هذه »[1] ، ثم ما ورد من وقوع اللحن من عرب أقحاح ، ومنهم من ولي الحكم وادارة أمور المسلمين[2] ، ومنهم ابنة (أبي الأسود الدؤلي) التي لحنت أمامه ، فعمل باب التعجب على ما يزعمه الرواة[3] .

وتوحي الأحاديث الواردة في الحث على إعراب القرآن ، والكتب التي ألفها العلماء في إعرابه ، أن من العرب : من أهل مدر وأهل وبر ، من كان يقرأ القرآن بغير إعراب ، إما لأن لغته لم تكن معربة ، وإما لأن إعرابها كان لا يتجانس مع إعراب القرآن ، وسببه أن الجاهليين لم يكونوا يتقيدون جميعاً بقواعد الإعراب ، فنهم من كان يتحلل منه ، ومنهم من يعمل به وفق قواعد لغته ولهجته ، ودليل ذلك قراءة الصحابة القرآن بألسنتهم ، مما سبب في ظهور مشكلة القراءات ، وهذا ما أخاف الصحابة ، وجعلها تخشى من احتمال ظهور قرائن مختلفة ، مما حمل (عثمان) على توحيد لغة القرآن ، وتدوين كتاب الله حسب التوصيات التي أعطاها الى اللجنة التي كلفها بتدوينه .

أضف الى ذلك ما نجده في الكتب من إجازة اصلاح اللحن والخطأ في الحديث. من مثل ما نسب الى الأوزاعي من قوله : « لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث » ، وقوله : « اعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » ، ومثل ما نسب الى (يحيى بن معين) من قوله : « لا بأس أن يقوم الرجل حديثه على العربية » والى (ابن أبي رباح) حين سئل عن الرجل يحدث بالحديث فيلحن، هل يحدث به كما سمع منه أم يعرب ، فقال لسائله : لا ، بل اعربه . وما ورد في أقوال العلماء في جواز أو عدم جواز اصلاح اللحن في الحديث ، واختلافهم فيه[4] ، هو دليل على أن من العرب من كان يقع في اللحن أيضاً ، وان اللحن لم يقع من الأعاجم وحدهم .

---

١ مفتاح السعادة (٢/٢٧٧) .

٢ « وزعم المدائني أن خالد بن عبدالله قال : ان كنتم رجبيون فانا رمضانيون . ولو لا أن تلك العجائب قد صحت عن الوليد ما جوزت هذا على خالد » ، البيان والتبيين (٢/٢١٦) .

٣ « كان الذي حداه على ذلك أن ابنته قالت له : يا أبت ما أشد الحر ، وكان في شدة القيظ . فقال ما نحن فيه ! فقالت : انما أردت أنه شديد . فقال : قولي : ما أشد ، فعمل باب التعجب » ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .

٤ محمود أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (١٠٨ وما بعدها) .

ثم ان من غير المعقول ألاّ يقع اللحن من أهل اليمن ومن بقية عرب العربية الجنوبية ، الــذين كانوا يتكلمون بألسنة عربية جنوبية ، رأينا أنها تختلف عن عربيتنا في مفردات الألفاظ وفي قواعد النحو والصرف .

إن كل من صدر منهم اللحن ، ممن أشرت اليهم وممن لم أشر ، كانوا من العرب ، منهم من كان من أهل المدر ، ومنهم من كان من أهل الوبر ، بهم بدأ اللحن ، أما لحن العجم ، فقد بدأ بعد اللحن الذي ظهر في أيام الرسول ، وفي أيام (عمر) بدأ بالطبع بالفتوح ، فلحن العرب اذن أقدم عهداً من لحن العجم ، يؤيد ذلك ما يرويه العلماء من وقوع الشعراء الجاهليين في أخطاء نحوية ، هي لحن وخروج على القواعد في نظرهـم . والشعــراء الجاهليون عرب ، ومن لسانهم استمد علماء النحو نحوهم وصرفهم . فقد زعموا ان (النابغة) أخطأ في قوله : « في أنيابها السم ناقع » ، ولحن لحناً شنيعاً ، وكان عليـه أن يقول : « في أنيابها السم ناقعاً »[1] ، أخطأ ولحن على زعمهم ، مع ان كلامه حجة عندهم ، واستشهدوا به في قواعد النحو والصرف .

وأخذ (حفص بن ابي بردة) ، وهو من أهل الكوفة ومن أصحاب (حمّاد) الراوية على (المرقش) ، انه كان يلحن ، زعم انه لحن في شعره ، وقد أشير الى زعمه هذا في شعر هجاء هجوه به ، هو :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل   وأنف كثيل العود عما تتبع
تتبعت لحنــاً في كــلام مرقش   وخلقك مبنيٌّ على اللحن أجمع
فعيناك إقواءٌ وأنفك مُكفــأٌ   ووجهك إيطاءٌ فأنت المرقع[2]

وزعم علماء الشعر ، أن (امرأ القيس) حامل لواء الشعر ، ومن جاء بعده من الشعراء ، مثل (النابغة) ، و (بشر بن أبي خازم) ، و (الأعشى) ، أقووا في شعرهم ، والإقواء : هو اختلاف إعراب القوافي ، وهــو أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور . ويكثر وروده في

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٨) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦٠١) ، المرزباني ، معجم (٢٨٠) ، السمط (٣/٣٩) ، يوهان فك (٦٤) ، (فعينك اقواء) ، البيان والتبيين (٢/٢١٥) ، الشعر للشاعر « البردخت » ، وهو « علي بن خالد الضبي العكلي » ، العقد الفريد (٢/٤٨١) .

اجتماع الرفع مع الجر ، واما الإقواء بالنصب فقليـل . وهو في نظرهم عيب[1] . وزعموا أن بعضاً من شعراء الجاهلية أكفأوا في شعرهم . والإكفاء ، المخالفة بين حركات الروي رفعاً ونصباً وجراً ، أو المخالفة بين هجائها ، أي القوافي ، فلا يلزم حرفاً واحداً تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت ، ومثله أن يجعل بعضهـا ميماً وبعضها طاء ، وقال بعضهم : الإكفاء في الشعر هو التعاقب بين الراء واللام والنون . وهو أحد عيوب القافية الستة التي هي : الإيطاء ، والتضمين، والإقواء، والإصراف ، والإكفاء ، والسناد[2] .

وقد روى أهل الأخبار قصة زعموا انها وقعت للنابغة ، وكان لا يعرف شيئاً عن إقوائه بشعره ، فلما وقعت له عرف به فعافه ، ذكروا ان الناس خافوا تنبيه الشاعر إلى إقوائه ، وبقي هو عليه ، حتى دخل يثرب ، فأرادوا إظهار عيبه له فأمروا قينة لهم ان تغنيه شعره ، فغنته :

أمن آل ميّة رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك حدثنا الغراب الأسود[3]

ففطن اليه ولم يعد الى إقواء . « قال أبو عمرو بن العلاء: فحلان من الشعراء كانا يقويان ، النابغة وبشر بن أبي خازم ، فأما النابغة فدخل يثرب فغنى بشعره ففطن فلم يعد للإقواء ، وأما بشر ، فقال له أخوه سوادة : انك تقوي ، قال: وما الإقواء ؟ قال : قولك :

ألم ترَ أنّ طول الدهر يُسلي ويُنسى مثل ما نسيت جذامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنـا فبغوا علينا فسقناهم الى البلد الشآمِ

فلم يعد للإقواء »[4] .

---

١ تاج العروس (٣٠٧/١٠) ، (قوى) .
٢ تاج العروس (١٠٨/١) ، (كفا) .
٣ الشعر والشعراء (١٠٦/١) ، (دار الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (١٩٠/١) ، (دار الثقافة) ، الخزانة (٢٦٢/٢) .

ورويت قصة إقواء (بشر بن أبي خازم) بشكل آخر ، فقد زعم ان أخاه (سوادة) قال له : إنك تقوي ، قال : وما الإقواء ؟ قال : قولك :

ألم ترَ أنّ طولَ الدهر يُسلي ويُنسي مثل ما نسيت جُذامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنا فبغـوا علينا فسقناهم الى البلـد الشآمِ

فلم يعد للاقواء »[1] ، أو أن أخاه (سمير) ، قال له : « أكفأت وأسأت . فقال : وما ذاك ؟ »[2] .

وقد ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن المصاحف لما كتبت « عرضت على عثمان ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيّروها ، فإن العرب ستغيرها — أو قال ستعربها — بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف والممـلي من هُذيل لم توجد هذه الحروف »[3] ، وقد كان كل من اختارهم الخليفة لكتابه القرآن من خالص العرب ، ولم يكن من بينهم من هو من المولدين أو الموالي ، وقد كانوا من الفصحاء الألباء ، فكيف وقع منهم اللحن إذن ؟

بل زعموا أن (عمر) ضرب أولاده لما لحنوا ، وأن (معاوية) كلم (عبيد الله ابن زياد) ، فوجده كيساً عاقلاً على انه يلحن فكتب الى والده بذلك[4]،وزعموا ان (الحجاج) كان يلحن ، زعموا انه لحن في القـرآن ، فقرأ : « إنا من المجرمون منتقمون »[5] ، وزعموا انه لحن في آيات أخرى[6] ، والحجاج من ثقيف، ولم يكن أعجمياً ، حتى يظهر اللحن منه ، مع انهم جعلوه أحيانـاً من أفصح العرب ، وممن لم يلحن في حياته في جدّ ولا هزل . قال (الأصمعي) : « أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي ، وعبـد الملك بن مروان ، والحجاج بن

---

١ الشعر والشعراء (١/١٩٠) ، الموشح ٥٩ ، الخزانة (٢/٢٦٢ وما بعدها) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (٤٩) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٠) .
٤ الفائق (٢/٩٩) ، البيان والتبيين (٢/٢١٠) ، الخزانة (٣/١٤) ، (بولاق) .
٥ البيان والتبيين (٢/٢١٨) ، (عبد السلام هارون) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٦) ، نزهة الالباء (١٦ وما بعدها) .

يوسف ، وابن القرية . والحجاج أفصحهم »[1] . وزعموا ان (الوليد بن عبد الملك) ، وأخاه (محمد بن عبد الملك) كانا لحّانين[2] . ذكر ان (الوليد) خطب الناس يوم عيد ، فقرأ في خطبته « يا ليتُها كانت القاضية » بضم التاء . فقال عمر بن عبد العزيز : عليكَ وأراحتنا منك[3] . ورووا قصصاً عن لحنه . وذكر أن (عبد الملك) قال : « أضر بالوليد حبنا له ، فلم نوجهه الى البادية » يقصد انه كان يلحن بسبب عدم ارساله الى الأعراب ليأخذ عنهم اللسان الفصيح. وقد كان أخوه محمد لحاناً كذلك ، وذكر انه لم يكن في ولد عبد الملك أفصح من هشام ومسلمة[4] . قال (الجاحظ) : « وكان الوليد بن عبد الملك لحنة ، فدخل عليه أعرابي يوماً ، فقال : أنصفني من ختني يا أمير المؤمنين . فقال : ومن ختنك ؟ قال : رجل من الحي لا أعرف اسمه . فقال عمر بن عبد العزيز : ان أمير المؤمنين يقول لك : من ختنك ؟ فقال : هوذا بالباب . فقال الوليد لعمر : ما هذا ؟ قال : النحو الذي كنتُ أخبرتك عنه . قال : لا جرم : فإني لا أصلي بالناس حتى أتعلمه »[5] . وذكر (الجاحظ) أمثلة على اللحن[6] . وروى أن كتب (الوليد) كانت تخرج ملحونة . فسأل (اسحاق بن قبيصة) أحد موالي (الوليد) ما بال كتبكم تأتينا ملحونة وأنتم أهل الخلافة ؟ فأخبره المولى بقولي ، فإذا كتابٌ قد ورد عليَّ : أما بعدُ فقد أخبرني فلان عما قلتَ ، وما أحسبك تشك أن قريشاً أفصح من الأشعرين ، والسلام »[7] .

وقد ورد في شعر (مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري) قوله :

وحديثُ الذّهُ هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نأ وخيرُ الحديث ما كان لحنا

وقد ذكر أنه لم يرد اللحن في الإعراب الذي هو ضد الصواب ، وإنما أراد

١ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٨) .
٢ البيان والتبيين (٢/٢٠٥) .
٣ الرافعي (١/٢٤٦) .
٤ البيان والتبيين (٢/٢٠٤ وما بعدها ، ٢١٦) .
٥ المحاسن والاضداد (٦) .
٦ المصدر نفسه .
٧ البيان والتبيين (٢/٢٠٥) .

الكنايـة عن الشيء والتعريض بذكره ، والعدول عن الافصاح عنـه . قيل : تكلمت (هند بنت أسماء بن خارجة) ، أخت الشاعر المذكور فلحنت ، وهي عند الحجاج ، فقال لها : أتلحنين وأنت شريفة في بيت قيس ؟! فقالت : أما سمعت قول أخي مالك لامرأته الأنصارية ؟ قال : وما هو ؟ قالت : قال :

منطق صائب وتلحن أحيـا نا وخير الحديث ما كان لحْنا

فقال لها الحجاج : إنما عنى أخوك اللحن في القول ، إذا كنّى المحدث عما يريد ، ولم يَعْنِ اللحن في العربية ، فأصلحي لسانك . غير أن منهم من رأى أن المراد بهذا اللحن ، اللحن المخالف لصواب الاعراب[1] .

وقد ذكر (السهيلي) ، أن الجاحظ قد أخطأ حين قال في كتابـه (البيان والتبيين) ، ان الشاعر لم يقصد اللحن الذي هو الخطـأ في الكلام وانما أراد استملاح اللحن من بعض نسائه ، وخطأه في هذا التأويل[2] ، قال : فلما حدث الجاحظ بحديث (الحجاج) ، « قال : لو كان بلغني هذا قبل أن أألف كتاب البيان ، ما قلت في ذلك ما قلت ! فقال له : أفلا تغيره ؟ فقال : كيف وقد سارت به البغال الشهب ، وانجد في البلاد وغار » . و « قال السيرافي : مـا عرفت حقيقة معنى النحو إلا من معنى اللحن الذي هو ضده ، فان اللحن عدول عن طريق الصواب ، والنحو قصد الى الصواب »[3] .

وذكروا أن بعض شعراء الدولة الأموية كان يلحن ، وممن وقع منـه اللحن (الفرزدق) . رووا أن (عبدالله بن يزيد الحضرمي) البصري ، كان ينتقـده ويتعقب لحنه ، فهجاه الفرزدق ، بقوله :

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى مواليا

فقال له الحضرمي : لحنت . ينبغي أن تقول مولى موالٍ[4] .

---

١ أمالي المرتضى (١٥/١) ، الامالي ، للقالي (٥/١) .
٢ البيان والتبيين (١٤٧/١) .
٣ الروض الانف (١٩٠/٢) .
٤ الرافعي (٢٥٦/١) .

« وقالوا : تربيع ابن جؤية في اللحن ، حين قرأ : هؤلاء بناتي هنَّ أطهرَ لكم » ، وجعلوه حالاً ، يعني : أطهر . وليس هو كما قالوا ... »[1] ، و « تكلم معاوية بن صعصعة بن معاوية يوماً ، فقال له صالح بن عبدالرحمن : لحنتَ . فقال له معاوية : أنا ألحن يا أبا الوليد ، والله لنزل بها جبريلُ من الجنة »[2] .

وقد فشا اللحن وانتشر حتى بين العلماء ، وبين علماء النحو واللغة أيضاً، حتى غلط بعضهم بعضاً ، ونسب بعضهم اللحن الى البعض الآخر ، قال (ابن فارس) : « وقد كان الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرأونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن ، فقد تجوزوا حتى إن المحدّث يحدث فيلحن،والفقيه يؤلف فيلحن ، فإذا نُبّها قالا : ما ندري ما الإعراب ! وانما نحن محدثون وفقهاء »[3] . ولما كثر اللحن في الحديث ، جوزوا إعرابه . قال (الأوزاعي) : « لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث » ، وقال أيضاً : « اعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » . وقال (النضر بن شميل) : « كان هشيم لحاناً ، فكسوت لكم حديثه كسوة حسنة، يعني بالإعراب »[4] .

وبعد ، فقد رأيت من روايات أهل الأخبار أنفسهم ، أن اللحن لم يكن قاصراً على العجم ، بل كان قد عرف بين العرب كذلك ، وعلى هذا يجب ألا نلقي مسؤولية ظهوره على الأعاجم ، بل على العرب أولاً ، لأنهم هم الذين بدأوا باللحن ، بدأوا به قبلهم بأمد طويل ، لحنوا في الجاهلية ، أي قبل دخول العجم في الاسلام . فنحن نظلم الأعاجم اذن ، إن ألقينا على عاتقهم مسؤولية إشاعة اللحن بين العرب . ولكن هل يعقل وقوع اللحن من عرب كالجاهليين ، ومن شعراء فحول ، استمد علماء اللغة قواعد النحو والصرف من شعرهم مثل (النابغة) الشاعر المعظم ، أو من غيره ؟ لقد سبق أن ذكر علماء اللغة أن العربي ، لا يزال في كلامه وحاشا له أن يلحن أو يخطىء في لسانه ، لأنه إذا تكلم تكلم عن سليقة وطبع،وقد حماه الله من الوقوع في زلل الكلام ! إذن فكيف

---

١ مجالس ثعلب (٤٣) .
٢ مجالس ثعلب (٤٧) .
٣ الصاحبي (٦٦) .
٤ أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (١٠٨ وما بعدها) .

نفسر ما ذكروه من وقوع النابغة في اللحن ، ومن وجود الإقواء في شعره وفي شعر غيره ، ومن ظهور اللحن في أيام الرسول ؟ هل نرجع ذلك الى خطأ الرواة في رواية شعر النابغة وأمثاله ، أو نرجع ذلك الى التزوير ، فنقول إن ذلك الشعر مفتعل ، وإنه ليس من شعر النابغة ، وإنما هو شعر منحول وضع عليه ، ومن ثم وقع الخطأ . ولكن الذي نعرفه أن من كان ينحل العرب الشعر وينسبه للجاهليين ، كان من أتقن الناس لشعر الجاهلية ومن أعرف الناس بالعربية ، ومن البارعين الحاذقين بقواعدها ، وأناس على هذا الطراز من الفهم والعلم ، هل يعقل وقوع مثل هذا الغلط منهم ؟ أو هل نرجع ذلك الى الخطأ في التدوين والاستنساخ ، ولكن كيف غفل العلماء من النص على ذلك ؟

وجوابي أن القول بأن اللحن بمعنى الخطأ في الكلام ، يستوجب وجود لغة فصيحة ذات قواعد نحوية وصرفية مقدّرة ومقننة وثابتة تعدّ اللغة الفصيحة العالية في نظر أصحابها ، من يخالف قواعدها يعدّ لحاناً لا يحسن القول ولا الكلام . وهو قول لا يعارضه أحد بالنسبة الى وجوده في الاسلام ، بعد أن فرض الاسلام دين الله على المؤمنين به كتاباً سماوياً ولساناً عربياً مبيناً ، تثبتت قواعد نحوه وصرفه في الاسلام . فمن سار عليها عدّ فصيحاً ، ومن خالفها عد لحاناً عامياً . أما بالنسبة لأهل الجاهلية ، فالقول بوجود اللحن عندهم ، يقتضي التسليم بوجود لغة فصيحة عليا لديهم ، لها قواعد مقررة ، من تكلم وفقها عد فصيحاً، حسب درجة إعرابه وملكته في اللغة ، ومن خالفها عد عامياً جلفاً . وقد أكد علماء اللغة ، وجود هذه العربية الفصيحة ، التي هي عندهم عربية قريش ، عند ظهور الاسلام ، وقالوا : إن بها كان نزول عربية القرآن ، وبها نظم الشعر الجاهلي ، وبها نثر الكلام الجاهلي المنثور . أما اللحن ، فقد أنكروا وجوده ، ولم يسلموا بوقوعه ، وحجتهم ما ذكرته من أن العربي فصيح بطبعه ، اذا تكلم تكلم عن سجية فيه وسليقة ، لم يلحن ولم يخطىء في كلامه في الجاهلية ، الى أن كان الاسلام ، فاختلط العرب بالأعاجم ، ودخل الغرباء بين العرب ، ففسد الطبع وظهر الخطأ في اللسان ، وفشا اللحن .

وقد يعقل تصور وجود هذه العربية الفصحى ، اذا افترضنا — مع المفترضين الأخباريين — ان تلك العربية ، هي عربية أهل مكة ومن عاش حولهم ، وانها كانت عربية قريش ، وأن المتكلمين بها كانوا بشراً عصموا عن الخطأ في اللسان

وجبلوا على التكلم بها على الفطرة ، ولكننا لا نستطيع القول انها كانت عربية كل عرب جزيرة العرب ، إذ رأينا العرب الجنوبيين ، وقد كانوا يتكلمون بلغات أخرى ، ووجدنا عرب أعالي الحجاز ، ولهم ألسنة تباين عربية القرآن ، ورأينا للقبائل لهجات ، تختلف بدرجات عن هذه العربية . فكيف يتصور اذن اتفاق العرب كلهم على التكلم بلسان قريش ، وبغير خطأ أو زلل في اللسان .

وفي نفي علماء اللغة وجود اللحن عند الجاهليين تعارض مع رواياتهم القائلة بوجود الإقواء والإكفاء في شعر بعض الشعراء الجاهليين ، وبلحن (النابغة) في قوله : « في أنيابها السم ناقع » ، وبلحن الأعرابي في حضرة الرسول ، وبتباين لغات العرب ، تبايناً تحدثت عنه في فصل (لغات العرب) وقد وقع في كثير من صميم خصائص اللغات ، ومن بينها أمور تخص قواعد الإعراب ، وفيه تعارض أيضاً مع القرارات الشهيرة والشاذة للقرآن ، وبينهما أمور تخص قواعد النحو والصرف والإعراب ، وفيه تعارض مع ما ذكروه من أن « أطراف الجزيرة لم تكن خالصة العروبة في القديم ، بل كان أهلها مغلوبين على أمرهم ؛ فلم يكن لهم من معنى اللغة إلا تعاور المنطق والاستبداد بالكلمات يتلقفونها ممن حولهم ، لأن ملكات الوضع العربي فيهم غير صحيحة ، وشروطه غير تامة،وليس كل عربي الجنس عربي اللسان ، وإلا فما بال الحميريين ومن قبلهم من الأمم السالفة ؟»[1].

وكيف يعقل نفي اللحن عن العرب مع وجود اللغات ، ووجود التعارض والإختلاف البين بين قواعد هذه اللهجات ، هل يعقل أن يتكلم العربي الجنوبي، باللغة العربية الفصيحة من غير خطأ ولا لحن ، ولسانه غير لساننا ، وعربيته غير عربيتنا ، وقواعده على خلاف قواعدنا ، وإعرابه على خلاف إعرابنا ، كما أثبت ذلك بالبرهان القاطع من الكتابات الجاهلية ، وبأقوال علماء العربية أنفسهم ، وفي مقدمتهم (أبو عمرو بن العلاء) ، القائل : « ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا » . ثم اننا إذا أخذنا القراءات المتنوعة التي قرىء بها القرآن ، والشواهد الشعرية الكثيرة التي أوردها علماء العربية والنحو على الشواذ ، وما يذكره العلماء من خلاف في النحو ، فإننا لا يمكن تفسير خروجها على القواعد إلا بأنها أثر من أثر بقايا اللهجات . وخروجها على القواعد ، هو لحن . ومن خرج على

---

١ الرافعي (١/٢٥٨) .

القواعد عدّ لحاناً ، مهما كان عصره أو جنسه ، جاهلياً كان أم مسلماً ، عربياً كان أم أعجمياً ، لأن اللحن لا يختص بعصر أو جنس .

ان ما دعوه باللحن ، وما أخذوا الأعاجم عليه ، من عدم تمكنهم من النطق ببعض الحروف ، أو من وقوعهم في أخطاء نحوية ، نراه قد وقع للعرب الفصحاء في الجاهلية وفي الإسلام ، فما كان ينطقه بعض العرب من اشمام الضاد صوت الزاي ، أو من النطق بالجيم (كافاً) على اللهجة المصرية ، يعدّ لحناً ، إذا صدر من أعجمي ، اما ان صدر من عربي ، فلا يقال لذلك لحناً ، بل يقال انه لغة من لغات العرب . واذا تصورنا ان عربية الجاهليين ، كانت عربية عالية واحدة ، على نحو ما يراه أهل الأخبار وعلماء اللغة ، وجب اعتبار هذه اللغات لغات عامية ، المتكلم بها خارج على قواعد اللغة ، فهو ممن يلحن ويخطىء سواء كان عربياً ، أم أعجمياً ، جاهلياً أم اسلامياً ، فنحن نتكلم هنا عن اسلوب كلام ، لا عن رس وأصل .

اننا حين نقول ان اللحن لم يكن معروفاً بين أهل الجاهلية ، نكون قد حصّناهم بالعصمة : بعصمة اللسان ، ونكون قد جعلناهم بذلك شعباً مختاراً ، فضل بعصمة لسانه على ألسنة سائر البشر،ولكن العلم لا يعرف عصمة ولا حصانة في لسان ، وهو يرى ان اللحن لا بد وأن يقع عند أي شعب ، أو قوم ، أو قبيلة ، حتى ان كانت القبيلة في سرة البادية ، وفي معزل ناء ، لأن الطبيعة توجد من اختلاف قابليات أفراد القبيلة ومن اختلاف مستوى عقلياتهم وثقافاتهم وتباعد سكنهم بعضهم عن بعض ، خروجاً على اللسان ، فيظهر اللحن الشاذ ، ويبرز النشاز في اللغة ، مهما كان موطن هذه القبائل ، في جزيرة العرب أو في أي موضع آخر من العالم ، فاللحن ، أي التبلبل في الألسنة من الأمور الطبيعية ، التي توجدها طبيعة البشر وطبيعة الاقليم ، وأمور أخرى بحث فيها علماء اللغة والاجتماع ، ولا يمكن أن يكون العرب بمنجاة منها !

لقد تحير (السيوطي) وغيره في تفسير خبر ورد عن (سعيد بن جبير) من انه « كان يقرأ : والمقيمين الصلاة ، ويقول : هو لحن من الكاتب » . فقال: « وهذه الآثار مشكلة جداً ، وكيف يظن بالصحابة أولاً انهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن ، وهم الفصحاء اللد ! ثم كيف يظن بهم ثانياً في القرآن الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أنزل ، وحفظوه ، وضبطوه ، وأتقنوه،

ثم كيف يظن بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته ! ... الخ »[1] ، وفي بعض هذه القراءات خطأ حصل من الكتابة ، قال « هشام بن عروة عن أبيه ، قال : سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى : إن هـذان لساحران[2] ، وعن قوله تعالى : والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة[3] . وعن قوله تعالى : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون[4] ، فقالت : يا ابن أخي، هذا عمل الكتّاب اخطئوا في الكتاب »[5] ، أي من الرسم ، وهو في الأكثر ، فهذا الخطأ في الرسم القديم للكتابة ، هو الذي جعل العلماء يسمونه لحناً ، وهو ليس بلحن في الأصل، وانما جاء اللحن من قراءة القراء بألحانهم ، أي على حسب لغاتهم،وإلا فلا يعقل تطاولهم على القرآن بقراءتهم له قراءة مخالفة للإعراب ولما نزل به الوحي. وهكذا كان الأمر بالنسبة للمواضع الأخرى مثل : « اثنتا عشرة عيناً »[6] ، فقد قرىء بسكون الشين وهي لغة تميم » ، وكسرها وهي لغة الحجاز ، وفتحها وهي لغة[7]، ومثل (الصراط) ، فقد قرأت بالسين وبالصاد ، والقراءتان لهجتا قبائل ، ومثل (حتّى) ، فقد قرئت (عتّى) ، قرأها (ابن مسعود) على لسانه ، إذ كان من هذيل .

وقد ذكر (المعري) أمثلة على قراءات في القرآن قرأها علماء مشهورون مثل (حمزة بن حبيب)،هي منكرة في نظر غيره من العلماء ، « ينكرها عليه أصحاب العربية، كخفض الأرحام في قوله تعالى : واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، وكسر الياء في قوله تعالى : وما أنتم بمصرخيِ ، وكذلك سكون الهمزة في قوله تعالى : استكباراً في الأرض ومكر السيْء »،وجاء بأمثلة أخرى من قراءات غيره للقرآن[8].

والخلاف الذي نلاحظه في أمور النحو بين علماء أهل البصرة وعلماء أهل الكوفة، في مثل عمل الأسماء والأدوات : أدوات الجرّ ، أو الخفض ، وأدوات النصب، وأدوات الجزم ، وأمثال ذلك ، هو في حدّ ذاته دليل على وجود إعراب متعدد

---

١ السيوطي ، الاتقان (٢/ ٢٧٠) .
٢ طه ، ٦٣ .
٣ النساء ، الآية ١٦٢ .
٤ المائدة ، الآية ٦٩ .
٥ السيوطي ، الاتقان (٢/ ٢٦٩) .
٦ البقرة ، الآية ٦٠ .
٧ السيوطي ، الاتقان (٢/ ٢٧٧) .
٨ رسالة الغفران (٣٦٧ وما بعدها) .

للعرب ، وقف العلماء على شيء يسير منه ، فوقعوا من ثم في بلبلة من أمره ، بسبب عدم اهتمامهم بأمر تلك اللغات ، واقتصارهم في جمعهم قواعد النحو على لهجات الأعراب الذين اتصلوا بهم ، فظهر لهم وكأنه نشاز ، ولو فطنوا يومئذ الى أنه من إعراب لغـات ، لكان حكمهم حكماً آخر ولا شك . ومن هؤلاء الأعراب الذين أخذ عنهم البصريون : قيس ، وتميم ، وأسد ، « فـإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكـل في الغريب ، وفي الإعراب ، والتصريف . ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[1] ، والقبائل المذكورة باستثناء الطائيين ، هم من مجموعة (مضر) ، وليس فيها قبيلة من (ربيعة) ، لـذلك نستطيع القول ان العربية قد بنيت على لهجات مضر ، وحيث أن علماء اللغة أهملوا لغات القبائـل الأخرى وبينها قبائل من مضر كذلك ، فلم يأخذوا منها إلا عرضاً ، تـولد من عملهم هذا بناء العربية على تلك اللهجات وبموجب اجتهاد واستقصاء أولئك العلماء، فظهر من أجل ذلك الغريب والنشاز ، والاختلاف في الإعراب ، الذي أشار الى قسم منه العلماء ، وهو الذي احتاجوا اليه للاستشهاد به في الشواهد والمناظرات ، وأكثره من لغات مضر ، وأهملوا البـاقي ، ولو هم سجلوا كل ما عرفوه من نشاز لتجمع من ذلك تراث كبير كثير من تراث اللغات الجاهلية من اختلاف في لغة وقواعد اعراب وصرف .

لقد تمسكت القبائل بقواعد ألسنتها حتى في الاسلام ، فكان أفرادها ينطقون بلهجتهم ، من ذلك ما ذكـره (الزجاجي) من اختلاف (عيسى بن عمر) الثقفي ، و (أبو عمرو بن العلاء) في رفـع أو نصب : « ليس الطيب إلا المسك » ، ومن احتكامها الى (أبي المهدي) ، فلما ذهبا اليه وجداه لا يرفع ، فلما حاولا اقناعه بالرفع ، أبى عليها ذلك وقال : « لا ، ليس هذا من لحني ولا من لحن قومي » ، فلما ذهبا الى (المنتجـع) التميمي ، وجداه لا ينصب وأبى إلا الرفع ، وذكر (الزجاجي) : « ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع »[2] . وقـع ذلك في الاسلام وبعد تثبيت القواعد ، وكان هذا حال قبائل الحجاز ، وحال تميم في الجاهلية ولا شك،

---

١ السيوطي ، الاقتراح (١٩) .
٢ مجالس العلماء (١ وما بعدها) .

فهل يعد هذا الاختلاف دلالة على عدم وجود اللحن عند أهل الجاهلية ، أم يعدّ دليلاً على وجوده عندهم ؟

لقد أدى اقتصار العلماء في أخذهم العربية عن القبائل التي ذكروها وفي تمسكهم برأيهم في أن تلك القبائل ، هي صاحبة اللغة الفصيحة ، الى نبذ اللهجات العربية الأخرى ، لاعتبارهم اياها لهجات مستقبحة ، ولغات حشوية ، فخسرت العربية بذلك خسارة كبرى ، وظهر بسبب ذلك التنابذ في مذاهب علماء العربية ، بسبب اعتمادهم على لغات معينة محدودة ، وليس على كل اللغات العربية القريبة من لغة القرآن ، ليتمكنوا بذلك من استقرائها كلها واستنباط القواعد الكلية منها :

ومن جملة الأمور التي يجب أن نشير اليها ونتنبه اليها ، هو أن علماء العربية حين كانوا يشيرون الى لهجة من اللهجات ، مثل لهجة أهل الحجاز ، أو لهجة هذيل ، أو تميم ، وأمثالها ، كانوا يشيرون اليها بالتعميم ، مثل : جاء هذا على لغة أهل العالية : أو على لغة أهل الحجاز ، أو على لغة تميم ، مع ان حكمهم هذا لم يؤخذ من دراسة لغة القبيلة المشار اليها ، وانما أخذ من لسان أعرابي أو أكثر ، بينما الحكم على منطق إنسان واحد أو اثنين أو ثلاثة ، لا يمكن أن يتخذ حجة للحكم على منطق قبيلة بأكملها ، أضف الى ذلك أن القبائل الكبيرة ، كانت موزعة منتشرة ، والحجاز ، وحده ذو قبائل كثيرة ، متعارضة اللغات ، فكيف يقال : جاء هذا على لغة أهل الحجاز ، وكانت أسد وتميم متجزئة منتشرة في مناطق واسعة ، وهـذا مما جعل لهجاتها تتأثر بالاقليمية وبالجوار ، فلم يكن لها لسان واحد ، غير أن علماء العربية لم يفطنوا الى هـذه الأمور ، فوقعوا من ثم في أخطاء ، فأخذوا من بعض تميم ، ونسبوا ما أخذوه على كل تميم مثلاً .

ثم إنهم لم يستخلصوا النحو من القرآن رأساً ، وقد كان عليهم الاعتماد عليه أو لأنهم انما اتخذوا النحو لصيانة اللسان من الخطأ في القرآن وفي لغة التنزيل ، وإنما مالوا عنه الى الشعر ، والى كلام أعراب من قبائل معينة وثقوا بصحة كلامهم وزاد ابتعادهم عن الاسلوب العلمي ، بأخذهم بالعصبية العلمية ، فظهرت الآراء المتعصبة للمدن وللعلماء ، فهذا رجل محب للبصرة ، مفرط في حبهـا ، لا يقدم على علمائها عالم ، وهذا كوفي متعصب لنحو الكوفة ولعلم الكوفة ، لا يقدم على أهل الكوفة أحداً . ثم زاد هذا التعصب التعصب للعلماء ، فهذا تلميذ عالم يتعصب له ، ويأخذ برأيه كأنه رأى نزل من السماء ، وهذا عالم كبير يعيب عـلم عالم

منافس له ، ويتهجم هو وتلامذته عليه ، وهذا نحوي يعيب نحو الآخرين ، وقد دفعت هذه العصبية ، بعض العلماء الى الابتعاد عن العلم ، باللجوء الى الوضع والافتعال والاتهام ، لإفحام الخصوم ، حتى جاء بعضهم بشواهد نحوية وصرفية مفتعلة ، ويشهود من الأعراب ، تكلموا باطلاً لتأييد عالم على عالم ، وفي المسألة الزنبورية التي وقعت بين سيبويه والكسائي ، وفي مجالس الجدل التي تجادل فيها العلماء في محضر الخلفاء في قضايا النحو واللغة والشعر أمثلة عديدة على ما أقول[1] .

وعندي أن ما نسب الى بعض الشعراء الجاهليين من وقوعهم في أغلاط نحوية أو لغوية أو شعرية ، لم يكن خطأً بالنسبة لهم ، وإنما بان الخطأ عند علماء العربية ، حين قاسوا الشعر بمقياس واحد ، هو العربية التي جمعوا قواعدها ودونوها في الاسلام ، والعروض الذي ضبطه (الخليل) ومن جاء بعده ، ولو كانوا قد درسوا لهجات القبائل ، وعلموا أن الشعراء ، كلهم أو بعضهم كان ينظم شعره بلسانه ، وان الشعر الجاهلي ، جاء بألسنة متعددة ، لعلموا إذن سرّ وقوع هذا الاختلاف في الشعر ، ولأراحوا أنفسهم من دراسة كثير من هذا الغريب والشاذ الذي أدخلوه كتب النحو واللغة ، بعد صقل الشعر وتهذيبه . وقد فطن الى ذلك (المعري) ، فاعتذر عما نسب الى (امرىء القيس) من خروج عن القواعد بسوء الرواية وبالتصحيف[2] ، وبأنهم في الجاهلية كانوا لا يعدّون ذلك خروجاً على قاعدة ، وانما كان ذلك شيئاً مألوفاً عندهم،فلما جاء « المعلمون في الاسلام » « غيروه على حسب ما يريدون »[3] ، وجعله يقول عن (الاقوياء) : « لا نكرة عندنا في الإقواء[4] واعتذر عما نسب الى غيره من الشعراء من عيوب أحصاها علماء الاسلام عليهم ، بأن قال إن هذه لم تكن من العيوب في أيامهم ، وإنما هي صارت عيوباً في الإسلام .

لقد اعتمد علماء العربية على الشعر الجاهلي وعلى لغات العرب التي وثقوا منها في جمع قواعد العربية وتثبيتها ، كما استشهدوا بالقرآن ، الذي نزل بلسان عربي مبين ، والذي ثبت العربية . أما (الحديث) ، فقد اختلفوا في جواز الاستشهاد

---

١ راجع مجالس العلماء
٢ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعدها) .
٣ رسالة (٣١٧ وما بعدها) .
٤ رسالة (٣٢٠) .

به ، وذلك لأن الحديث لم ينقل كما سمع من النبي وانما روي بالمعنى ، ولهذا فإن أئمة النحو المتقدمين من المصريين : البصرة والكوفة لم يحتجوا بشيء منه ، وقد جوز بعض العلماء الاستشهاد به على تقدير التسليم بأن النقل كان بالمعنى ، انما كان في الصدر الأول ، وقبل تدوينه في الكتب وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ ، ولهذا يجوز الاحتجاج به ، لأن السلائق العربية لم تكن قد فسدت بعد. وموضوع الخلاف ، هو ان النقل لم يكن بالحرف ، وانما بالمعنى ، ولو كان بالأول لما وقع الخلاف في وجوب الاستشهاد به ، ولجرى ذلك مجرى القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية بموجبه. قال « سفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقوني ، انما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى »[1] . وقد وقع اللحن كثيراً فيما روي من الحديث لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو، فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون، ودخل في كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب ، فدخل من ثم هذا اللحن في الحديث، ولهذا امتنع علماء المصريين من الاستشهاد بالحديث في النحو . وقد جوز بعض المتأخرين الاستشهاد بالأحاديث والأمثال النبوية الفصيحة ، ولم يجوزوا الاستشهاد في غير ذلك[2] للسبب المذكور .

هذا وقد ألّف العلماء كتباً عديدة في إعراب القرآن وفي معانيه وغريبه، وصل بعض منها الينا . وقد أشار (ابن النديم) الى أسماء عدد من تلك المؤلفات[3] . وهي مرجع هام بالنسبة لعلماء العربية ، لورود آراء لغوية ونحوية قيّمة فيها، تفيد في شرح النحو العربي .

---

١ الخزانة (١/٥ وما بعدها) .

٢ الخزانة (١/٦ وما بعدها) .

٣ الفهرست (٦٠) .

الفصل الخامس والاربعون بعد المئة

النحو

والنحو في اللغة الطريق والجهة والقصد،ومنه نحو العربية . وهو اعراب الكلام العربي . أخذ من قولهم : انتحاه إذا قصده . وهو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره ليلحق به من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها ، وإن لم يكن منهم أو ان شذ بعضهم عنها ردّ به اليها . وهو في الأصل مصدر شائع ، أي نحوت نحواً ، كقولك قصدت قصداً ثم خص به انتحاء هذا القبيل مع العلم . وقيل لقول علي بن أبي طالب بعدما علم الأسود الاسم والفعل وأبواباً من العربية : « انح هذا النحو »[1] . أو لأن أبا الأسود لما وضع ما وضع في النحو وعرضه على (علي) ، قال (علي) له : « ما أحسن هذا النحو الذي نحوتَ ! ولذلك سمي النحو نحواً »[2] . ولكننا نجد (الجاحظ) يشير الى وجود اللفظة في أيام (عمر) ، إذ يقول : « وقال عُمر رضي الله عنه: تعلموا النحو كما تعلّمون السنن والفرائض »[3] ، ويشبه هذا الخبر خبراً آخر نسب

---

١ اللسان (١٥/ ٣١٠) ، (نحا) ، تاج العروس (١٠/ ٣٦٠) ، (نحا) ، الفهرست (ص ٦٥) ، (المقالة الثانية من كتاب الفهرست) ، (ابن الانباري نزهة) (٣ وما بعدها) ، المثل السائر (٧) ، الجمحي ، طبقات (ص ٥) ، ابن خلكان (١/ ٢٤٠)، ارشاد (١/ ٢٨٠) .

٢ ابن الانباري ، نزهة (٤ وما بعدها) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ، (القاهرة ١٩٦٧ م) .

٣ البيان والتبيين (٢/ ٢١٩) .

اليه أيضاً ، فقد ذكروا أنه قال : « تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه »[1] ، وانه قال : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن ، كما تعلمون القرآن »[2] . ويظهر أن الكتّاب قد صحفوا في خبر (عمر) ، فخلطوا بين (اللحن) و (النحو) ، وعلى كل فإن بين اللفظتين صلة . وإذا صح خبر (الجاحظ) ، واعتبرنا لفظة (النحو) لفظة صحيحة غير محرفة ، دلت على وجود هذه التسمية علماً لهذا العلم في أيامه ، وقبل أيامه ، أي في أيام الجاهليين .

والجمهور من أهل الرواية ان النحو علم ظهر في الاسلام . ظهر بظهور الحاجة الماسة اليه لضبط اللسان وصيانته من الخطأ ، ولتعليم الأعاجم نمط الكلام بالعربية. ورجع أكثرهم مصدره وأساسه الى الإمام (علي بن أبي طالب) ، ويقولون ان أبا الأسود الدؤلي (٦٩ هـ) أخذ هذا العلم عنه . وان الإمام ألقى عليه شيئاً من أصول النحو . فاستأذن التلميذ أستاذه أن يصنع نحو ما صنع ، فأذن له به، فسمي ذلك نحواً[3] . وذكر بعضهم ان الإمام دفع الى أبي الأسود رقعة مكتوباً فيها : « الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما انبىء به ، والحرف ما أفاد معنى . واعلم ان الأسماء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر . ثم وضع أبو الأسود بابي العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام ، الى أن وصل الى باب إن وأخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضها على عليّ أمره بضم لكن اليها ، وكلما وضع باباً من أبواب النحو عرضه عليه »[4] . وذكر بعض آخر ان أول من أسس العربية وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ، أبو الأسود الدؤلي ، وضع العربية « حين اضطرب كلام العرب فغلُبت السليقة ، فكان سراة الناس يلحنون ، فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب ،

---

١ الزينة (١١٧ وما بعدها) .

٢ الامالي ، للقالي (١/٥) ، الاتقان (٢/٢٦٠) .

٣ الفهرست (٦٦) ، الروض الانف (١/٩٦) ، ابن خلكان (١/٦٦٢) ، الحلبي ، الزبيدي ، طبقات (١٣ وما بعدها) ، الفائق (١/٦١١) ، طبقات ، ابن سلام (٥)، ياقوت ارشاد (٤/٢٨٠) ، المثل السائر (٧) .

٤ ضحى الاسلام (٢/٢٨٥) ، (القاهرة ١٩٦١) ، ابن الانباري ، نزهة (٤ وما بعدها) .

والجزم »[1] . وقال (ابن قتيبة) : « وهو أول من وضع العربية »[2] . وذكر (ابن حجر) ، انه أول من وضع العربية ونقط المصاحف[3] . وروى (ابن النديم) ان أربعة أوراق ، وجدت فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود الدؤلي ، وكانت بخط (يحيى بن يعمر) ، وتحت هذا خط علان النحوي ، وتحته هذا خط النضر بن شميل[4] . ففي هذه الأوراق دلالة على ان هذه الأوراق من كلام (أبي الأسود) ، وانه كان صاحب علم النحو .

وروى (ابن النديم) رواية أخرى ، ذكر فيها أن (الطبري) قال : « إنما سمي النحو نحواً لأن أبا الأسود الدؤلي قال لعلي عليه السلام ، وقد ألقى عليه شيئاً من أصول النحو . قال أبو الأسود : واستأذنته أن أصنع نحو ما صنع » فسمي ذلك نحواً . وقد اختلف الناس في السبب الذي دعا أبا الأسود الى ما رسمه من النحو . فقال أبو عبيدة أخذ النحو عن علي بن أبي طالب أبو الأسود ، وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن عليّ كرم الله وجهه الى أحد ، حتى بعث اليه زياد أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً ويعرف به كتاب الله ، فاستعفاه من ذلك حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ إن الله بريء من المشركين ورسولِه بالكسر ، فقال : ما ظننت أن أمر الناس آل الى هذا فرجع الى زياد ، فقال : افعل ما أمر به الأمير فليبغني كاتباً لقناً يفعل ما أقول ، فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر . قال أبو العباس المبرد أحسبه منهم ، فقال أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت في بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وان ضممت في فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف . فهذا نقط أبي الأسود . قال أبو سعيد رضي الله عنه ويقال : إن السبب في ذلك أيضاً أنه مرّ بأبي الأسود سعد ، وكان رجلاً فارسياً من أهل زندخان ، كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فدنوا من قدامة بن مظعون وادعوا أنهم أسلموا على يديه ، وانهم بذلك من مواليه . فر سعد هذا بأبي الأسود وهو يقود فرسه . فقال : مالك يا سعد لمَ لا تركب ؟ قال : إن فرسي ضالع أراد

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧) .
٢ المعارف (ص ٣٣٤) .
٣ الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٤ الفهرست (ص ٦٧ وما بعدها) .

ظالعاً . قال فضحك به بعض من حضره . فقال أبو الأسود هؤلاء الموالي قد رغبوا في الاسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة ، فلو عملنا لهم الكلام . فوضع باب الفاعل والمفعول »[1] .

« وقيل لأبي الأسود : من أين لك هذا العلم ؟ – يعنون النحو – فقال : لقنت حدوده من عليّ بن أبي طالب – عليه السلام – وكان أبو الأسود من القراء ، قرأ على أمير المؤمنين عليه السلام »[2] .

وتذكر رواية أخرى ، ان (أبا الأسود) دخل على (علي) فوجده مطرقاً مفكراً ، فسأله عن سبب ما به ، فذكر له أمر اللحن وما فشا من الخطأ في ألسنة الناس ، وانه يريد أن يصنع كتاباً في أصول العربية ، فانصرف عنه ، وهو مغموم ، ثم عاد اليه بعد أمد ، فألقى الإمام عليه رقعة كتب فيها : « الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى » ، ثم أمره أن ينحو نحوه ، وان يزيد عليه ، فجمع (أبو الأسود) أشياء وعرضها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكر منها : إن ، وأن ، وليت ، ولعل ، وكأن ، ولم يذكر لكن ، فأشار الإمام عليه بإدخالها عليها[3] .

وذكر (ابن الأنباري) (٥٧٧ هـ) ، « ان من وضع علم العربية ، وأسس قواعده ، وحدد حدوده ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأخذ عنه أبو الأسود » . « وسبب وضع علي رضي الله عنه لهذا العلم ، ما روى أبو الأسود ، قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فوجدت في يده رقعة ، فقلت : ما هذه يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : اني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء – يعني الأعاجم – فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون اليه ، ويعتمدون عليه ، ثم ألقى إليّ الرقعة ، وفيها

---

١ الفهرست (٦٥ وما بعدها) ، القفطي ، انباه الرواة (١/٦) ، (ذكر أول من وضع النحو) ، أخبار النحويين ، للسيرافي (١٦ وما بعدها) ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (٤٣٢٩) .

٢ القفطي ، انباه الرواة (١/١٥) .

٣ القفطي (١/٤) ، (ذكر أول من وضع النحو) ، معجم الادباء (١٤/٤٩) ، ابن الانباري ، نزهة الالباء (٥) .

مكتوب : الكلام كله اسم ، وفعل ، وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما جاء لمعنى . وقال لي : أنــح هذا النحو ، وأضف اليه ما وقع اليك ، واعلم يا أبا الأسود ان الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم .

قال أبو الأسود: فكان ما وقع إلي : إن وأخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضتها على علي رضي الله عنه ، قال لي : وأين لكنّ ؟ فقال ما حسبتها منها،فقال : هي منها فألحقها ، ثم قال : ما أحسن هذا النحو الــذي نحوت ، فلذلك سمي النحو نحواً[1] .

وتذكر روايـة أن (أبا الأسود) ، وضع بابي العطف والنعت ، ثم بابـي التعجب والاستفهام ؛ الى أن وصل الى باب إن وأخواتها[2] .

وهناك رواية تنسب الى الأصمعي تذكر أنه قال : « سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : جاء أعرابي الى علي عليه السلام ، فقال ، السلام عليك يا أمير المؤمنين. كيف تقرأ هذه الحروف ؟ لا يأكله إلا الخاطون ، كلنا والله يخطو ، قـال : فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال : يا أعرابي : لا يأكله إلا الخاطئون . قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان الله ليظلم عباده ، ثم التفت أمير المؤمنين الى أبـي الأسود الدؤلي ، فقال : إن الأعاجم قد دخلت في الدين كافة فضع للناس شيئاً يستدلون بــه على صلاح ألسنتهم ، ورسم لــه الرفع والنصب والخفض »[3] .

و « روي من حديث علي رضي الله عنه مع الأعرابـي الذي أقرأه المقرىء : إن الله بريء من المشركين ورسولِه : حتى قال الأعرابـي : برئت مـن رسول

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٤ وما بعدها) .
٢ ابن الانباري ، نزهة (٥) ، (حاشية رقم ٢) .
٣ الزينة في الكلمات الاسلامية والعربية ، لابي حاتم أحمد بن حمدان الرازي (٧٢) ، (تحقيق حسين بن فيض الله الحرازي) ، (دار الكتاب العربي) ، (١٩٥٧) ، عبد العال سالم مكرم ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٢) ، ابن الانباري، نزهة (٨) .

الله ، فأنكر ذلك علي عليه السلام ، ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه ما لا يجهل موضعه »[1] .

ونجد رواية أخرى تذكر أن (أبا الأسود) ، كان أول من وضع العربية ، وأول من أملى في الفاعل والمفعول به ، والمضاف ، والنصب ، والرفع ، والجر ، والجزم . وكان قد أخذ العلم من (عليّ بن أبي طالب) . وحدث ان ابنته لحنت في فعل التعجب ، فقالت لأبيها وكان اليوم حاراً شديد الحرّ : « ما أشدُّ الحر » ، وكانت تقصد « ما أشدَّ الحر » ، أي على باب التعجب . فلما علم (أبو الأسود) بخطأها ، نبهها الى موضع الخطأ . ثم ذهب الى (زياد) والي البصرة ، وطلب منه السماح بوضع علم النحو ، فلم يسمح له . ولما أخطأ رجل أمام (زياد) ، كبر عليه ذلك فوضع (أبو الأسود) قواعد النحو . فأخذ عنه (الليثي) هذا العلم ووسعه ، ثم وسعه (عيسى بن عمر) في كتابيه الجامع والمكمل[2] .

ورويت قصة وضع النحو بشكل آخر ، « روي أيضاً ان زياد بن أبيه بعث الى أبي الأسود ، وقال له : يا أبا الأسود،إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب ، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ، ويعرب به كتاب الله تعالى ! فأبى أبو الأسود ، وكَرِه إجابة زياد الى ما سأل ، فوجه زياد رجلاً وقال له : اقعد على طريق أبي الأسود ، فإذا مر بك ، فاقرأ شيئاً من القرآن ، وتعمّد اللحن فيه . فقعد الرجل على طريق أبي الأسود ، فلما مر به رفع صوته فقرأ : ان الله بريء من المشركين ورسولِه » بالجر ، فاستعظم أبو الأسود ذلك ، وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ! ورجع من حاله الى زياد ، وقال : يا هذا ، قد أجبتك الى ما سألت ، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن ، فابعث إلي ثلاثين رجلاً ، فأحضرهم زياد ، فاختار منهم أبو الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس ، فقال :

---

١ الخصائص (٩/٢) .

٢ القفطي ، انباه الرواة على أنباه النحاة (١٦/١) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ، (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م) ، الزبيدي ، طبقات النحويين واللغات (١٣) ، (القاهرة ١٩٥٤) ، طبقات ، لابن سلام (٥) ، العسكري ، المصون (١١٨) ، John A. Haywood, Arabic Lexicography, Leiden, 1965, p. 12. f.

خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد ، فإذا فتحتُ شفتي فانقط واحدة فوق الحرف ، واذا ضممتها فاجعل النقطة الى جانب الحرف ، واذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله ، فإن أتبعتُ شيئاً من هذه الحركات غُنة فانقط نقطتين »[1] .

« وقيل : إنه دخل الى منزله ، فقالت له بعض بناته : ما أحسنُ السماء ! قال : أي بنية نجومها ، فقالت : إني لم أرد أي شيء منها أحسن ؟ وإنما تعجبت من حسنها ؛ فقال : إذاً فقولي ما أحسنَ السماء ! فحينئذ وضع كتاباً »[2]. و « قيل : وأتى أبو الأسود عبد الله بن عباس ، فقال : إني أرى ألسنة العرب قد فسدت ؛ فأردت أن أضع شيئاً لهم يقوّمون به ألسنتهم . قال : لعلك تريد النحو ؛ أما إنه حق ، واستعن بسورة يوسف »[3] . و « قال أبو حرب بن أبي الأسود : أول باب رسم أبي من النحو باب التعجب . وقيل : أول باب رسم باب الفاعل والمفعول ، والمضاف ، وحروف الرفع والنصب والجر والجزم»[4].

« ومن الرواة من يقول : إن أبا الأسود هو أول من استنبط النحو ، واستخرجه من العدم الى الوجود ، وأنه رأى بخطه ما استخرجه ، ولم يعزه الى أحد قبله »[5] . وكان « أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها »[6] . وروي عن (أبي سلمة موسى بن اسماعيل) « عن أبيه ، قال : كان أبو الأسود أول من وضع النحو بالبصرة »[7] .

وتذكر رواية ان (أبا الأسود) الدؤلي ، انما وضع النحو بأمر من الخليفة (عمر) ، روت ان أعرابياً قدم المدينة في خلافته ، فقال : « من يُقرئني شيئاً مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل سورة براءة ، فقال : « ان الله بريء من المشركين ورسولِه » بالجر ، فقال الأعرابي : أوَ قد بريء الله من رسوله ! إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ! فبلغ عمر رضي الله عنه مقالة الأعرابي ، فدعاه فقال : يا أعرابي : أتبرأ من رسول الله !

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٩) ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٢ القفطي ، انباه الرواة (١/١٦) ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٣ المصدر نفسه .
٤ كذلك .
٥ القفطي ، انباه الرواة (١/٧) .
٦ المصدر نفسه (١/١٤) .
٧ ابن الانباري ، نزهة (١٠) .

فقال : يا أمير المؤمنين ، اني قدمت المدينة ، ولا علم لي بالقرآن ، فسألت من يقرئني ، فأقرأني هذا سورة براءة ، فقال : إن الله بريء من المشركين ورسولِه، فقلت : أو قد برىء الله تعالى من رسوله ! إن يكن برىء من رسوله ، فأنا أبرأ منه . فقال له عمر رضي الله عنه : ليس هكذا يا أعرابي ، فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « ان الله بريء من المشركين ورسولُه » ، فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ ممن برىء الله ورسوله منه . فأمر عمر رضي الله ألا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود أن يضع النحو »[1] .

وذكر أن (عمر بن الخطاب) كتب الى (أبي موسى) الأشعري ، كتاباً فيه : « أما بعد : فتفقهوا في الدين وتعلموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرّية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب»[2].

ويفهم من هذا الكتاب ، أن (أبا الأسود) ، كان على علم بالنحو وبالإعراب قبل أيام (علي) ، ولهذا طلب الخليفة من عامله أن يكلف (أبا الأسود) بتعليم أهل البصرة الإعراب .

ويظهر من الرواية التي ذكرتها عن التقاء (أبي الأسود) بعبدالله بن عباس، وقوله له : « إني أرى ألسنة العرب قد فسدت ؛ فأردت أن أضع شيئاً لهم يقوّمون به ألسنتهم » ومن رد (عبدالله بن عباس) عليه بقوله له : « لعلك تريد النحو »[3] ، أن (ابن عباس) ، كان على علم بالنحو ، ودليل ذلك نصه على اسمه ، مما يدل على أنه كان معروفاً . وذلك إن جاز لنا التصديق بصحة هذه الرواية ، التي أرى أنها من المصنوعات .

وكان (أبو الأسود) مثل غيره من العرب الفصحاء يكره اللحن واللحانين . روي عنه أنه ذكر اللحن ، فقال : « إني لأجد للحن غمزاً كغمز اللحم »[4] .

ولأبي الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ للهجرة ، وهو كما نعلم من مشاهير علماء اللغة ، رأي طريف في منشأ هذا العلم خلاصته : ان أبا الأسود كان

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٨) ، الكشاف ، للزمخشري (٢/١٩١) .
٢ القفطي ، انباه الرواة على انباه النحاة (١/١٦) ، خورشيد أحمد فارق ، حضرت عمركي سركاري خطوط (دهلي ١٩٥٩) ، (ص ١٣٩ وما بعدها) ، (القسم العربي) ، John A. Haywood, Arabic Lexicography, p. 14.
٣ القفطي (١/١٦) .
٤ عيون الاخبار (٢/١٥٨) .

أول من وضع العربية ، لكن هذا العلم قد كان قديماً ، وأتت عليه الأيام ،وقلّ في أيدي الناس ، ثم جدده هذا الإمام[1] . فأبو الأسود الدؤلي هو مجدد هذا العلم وباعثه ، وليس موجده ومخترعه .

فنحن اذن أمام رأي جديد ، رأي يرجع علم العربية الى ما قبل الاسلام وكفى لكنه لم يفصل ولم يشرح ولم يتعرض لموضوع متى كان ظهور هذا العلم في القديم وكيف وجد وهل كان للألسنة الأعجمية كاليونانية أو السريانية أثر في ظهوره ونشوئه ؟ ثم انه لم يتعرض للأسباب التي جعلت الأيام تأتي عليه حتى قلّ في أيدي الناس ، الى أن ظهر أبو الأسود فأعاده الى الوجود ، ولم يذكر كيف عثر أبو الأسود على هذا العلم ومن لقنه به حتى بعثه وجدده ؟

تعرض (ابن فارس) لبحث منشأ علم النحو في أثناء كلامه على الخط العربي فقال : «وزعم قوم ان العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً »[2] . وهو يرى ان رأيهم باطل ، وان بين العرب من كان يقرأ كما كان بينهم من كان أمياً ،وجاء بأمثلة في تفنيد دعواهم ، ثم خلص الى هذه النتيجة : « فإنا لم نزعم ان العرب كلها — مدراً ووبراً — قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم ، فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة »[3] . ثم قال : « والذي نقوله في الحروف ، هو قولنا في الإعراب والعروض،والدليل على صحة هذا وان القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة التي أولها :

شاقتك أظعان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها ، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية،

---

١ الصاحبي (ص ٣٧ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (ص ٣٥) .
٣ (ص ٣٦) .

وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول: إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأتت عليهما الأيام وقلاّ في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان . وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب[1] .

وقال (ابن فارس) : « ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم العربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء ، والهمز ، والمد ، والقصر ، فكتبوا ذوات الياء بالياء وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة اذا كان ما قبلها ساكناً في مثل : الخبء ، والدفء ، والملء »[2] .

وقد استخدم (ابن فارس) لفظة (العربية) في معنى : الإعراب . وذكر لفظة (النحو) قبل كلمة : (الإعراب) ، حيث قال كما ذكرت ذلك قبل قليل : « وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً ». وذكر غيره أيضاً ان (أبا الأسود) « أول من وضع العربيــة » ، و « أول من نقط المصحف ووضع العربية »[3]. وقد استنتج المرحوم (أحمد أمين) من ذلك الاستعمال انهم يعنون بالعربية هذه العلامات التي تدل على الرفع والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون والتي استعملها أبو الأسود في المصحف،وان هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعد وسمّوا كلامهم (نحواً) سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود وقالوا : انه واضع النحو للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا ، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً »[4] . ففرق (أحمد أمين) بين (العربية) و (النحو) ، وجعل للعربية سابقة على علم النحو ، وجعل النحو وليداً ولد من العربية . وهو رأي لا يتفق مع رأي (ابن فارس) ، الذي نص على النحو بذكر اسمه ، كما نص على الإعراب من بعده .

هذا هو المشهور المعروف المتداول بين أكثر الناس عن منشأ علم النحو . وقد تعرض (ابن النديم) لهـــذا الموضوع فقال : « قال محمد بن اسحاق : زعم أكثر العلماء ان النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وان أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام » ، ثم روى روايات أخرى ،

---

١ الصاحبي (ص ٣٧ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (٣٩) .
٣ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧) ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .
٤ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧) .

تذكر ان غيره قام برسم النحو ، إذ قال : « وقال آخرون رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلي ، ويقال الليثي . قرأت بخط أبي عبدالله بن مقلة عن ثعلب ، انه قال : روى ابن ابي لهيعة عن أبي النضر ، قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية ، وكان أعلم الناس بأنساب قريش وأخبارها وأحد القراء »[1].

وقد رد (ابن الأنباري) على من ذهب الى أن علم النحو من صنع رجل آخر غير (أبي الأسود) ، إذ قال : فأما زعم من زعم ان أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ونصر بن عاصم فليس بصحيح ، لأن عبد الرحمن بن هرمز ، أخذ النحو عن أبي الأسود ، وكذلك أيضاً نصر بن عاصم أخذه عن أبي الأسود ، ويقال عن ميمون الأقرن »[2] . وكان قد ذكر ما ورد في الأخبار من قيام (أبي الأسود به) ، ثم رجحها على غيرها بقوله : « والصحيح ان أول من وضع النحو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لأن الروايات كلها تُسنِد الى أبي الأسود ، وأبو الأسود يسند الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فإنه روي عن أبي الأسود انه سئل فقيل له : من أين لك هذا النحو ؟ فقال : لَفَقْتُ حدوده من علي بن أبي طالب رضي الله عنه »[3] .

ويلاحظ ان الذين رجعوا سبب وضع النحو الى الخطأ في قراءة الآية : « إن الله بريء من المشركين ورسوله »[4] ، قد اختلفوا فيما بينهم في العهد الذي لحن فيه قارىء الآية في قراءتها ، فمنهم من جعله في عهد (عمر)[5] ، ومنهم من صيره في عهد (علي)[6] ، ومنهم من رجعه الى أيام (زياد بن أبيه) ، فأنت أمام رواية واحدة ، لكنك تراها وقد نسبت الى ثلاثة عهود، ومثل هذا الاختلاف أمر غير غريب بالنسبة الى مراجعي الموارد الاسلامية ، إذ نجد فيها أمثلة كثيرة من أمثاله ، ويظهر ان الرواة تلاعبوا في الخبر ، فنسبه كل واحد منهم الى عهد لغاية أرادها ، من هذا التحريف والتغيير .

---

١ الفهرست (ص ٦٥) .
٢ نزهة الالباء (١٠) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) .
٣ المصدر نفسه (١١) .
٤ التوبة ، الآية ٣ .
٥ نزهة (٨) .
٦ الخصائص (٢/٩) .

وقد رجح (أحمد أمين) نسبة النحو الى أبي الأسود ، اذ يقول : « ويظهر لي ان نسبة النحو الى أبي الأسود لها أساس صحيح ، وذلك ان الرواة يكادون يتفقون على ان أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط،وانه ابتكر شكل المصحف ... وواضح ان هذه خطوة أولية في سبيل النحو تتمشى مع قانون النشوء ، ويمكن أن تأتي من أبي الأسود ، وواضح كذلك ان هذا يلفت النظر الى النحو .... وعلى هذا فمن قال ان أبا الأسود وضع النحو ، فقد كان يقصد شيئاً من هذا ، وهو انه وضع الأساس يضبط المصحف حتى لا تكون فتحة موضع كسرة ، ولا ضمة موضع فتحة ، فجاء بعدُ من أراد أن يفهم النحو على المعنى الدقيق ، فاخترع تقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف ، والاسم الى ظاهر ، ومضمر ، وغير ظاهر ولا مضمر ، وباب التعجب وباب إن »[1] .

وقال : « فاللذي يظهر انهم يعنون بالعربية هذه العلامات التي تدل على الرفع والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون والتي استعملها أبو الأسود في المصحف ، وان هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعد وسموا كلامهم نحواً سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود ، وقالوا : انه واضع النحو للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا ، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً ... فالظاهر ان عمله كان في أول الأمر ساذجاً بسيطاً ، وهو وضع علامات الرفع والنصب وما اليها ولم يزد على ذلك ، فلما سمى العلماء بعدُ بعض ضروب الرفع فاعلاً ، وبعض ضروب النصب مفعولاً ، قالوا : ان أبا الأسود وضع باب الفاعل والمفعول ، وان كان أبو الأسود نفسه لم يعرف فاعلاً ولا مفعولاً ، بل ربما لم يعرف أيضاً رفعاً ولا نصباً ، فإنهم يروون انه قال لكاتبه : اذا رأيتني قد فتحت في بالحرف فانقط نقطة فوقه ، وإن ضممت في فانقط بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت . وهو تعبير ساذج يتفق وزمن أبي الأسود »[2] .

ولإبراهيم مصطفى ، رأي قريب من رأي (أحمد أمين) . فهو يرى ان المصطلحات والقواعد التي ذكر ان (أبا الأسود) وضعها بأمر (علي) لا يمكن

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٦ وما بعدها) .

٢ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧ وما بعدها) .

أن تتفق وزمنه ، لأن المصطلحات النحوية انما ظهرت في وقت متأخر . ويذكر ان الآراء النحوية ، لم تظهر أيضاً في عهده ، بدليل اننا لا نجد في كتاب سيبويه ولا في كتب النحو الأخرى رأياً له . ويستنتج من ذلك ان عمل أبي الأسود ، كان وضع الإعراب وضبط المصحف[1] .

وقد درس المستشرقون موضوع نشأة علم النحو وأصله ، فمنهم من قال انه نقل من اليونان الى بلاد العرب ، وقال آخرون برأي علماء العربية،من انه عربي الأصل والنجار ، وقد نبت كما تنبت الشجرة في أرضها . وتوسط آخرون ، فقالوا : انه كان من إبداع العرب ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق ، تعلموا أيضاً شيئاً من النحو ، وهو النحو الذي كتبه (ارسطوطاليس) ، وبرهان هذا ان تقسيم الكلمة مختلف ، قال (سيبويه) : « فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل » ، وهذا تقسيم أصلي، أما الفلسفة فيقسم فيها الكلام الى اسم وكلمة ورباط ، أي الاسم هو الاسم ، والكلمة هي الفعل ، كما يقال له في اللغات الأوروبية Verb ، والرباط هو الحرف، كما يقال له في اللغة الأوروبية Conjunction أي ارتباط ، وهذه الكلمات اسم وفعل ورباط ، ترجمت من اليوناني الى السرياني ، ومن السرياني الى العربي ، فسميت هكذا في كتب الفلسفة لا في كتب النحو ، أما كلمات اسم وفعل وحرف فإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت[2] .

ثم ان (القياس) هو من أهم الأسس والأصول في المنطق اليوناني ، وحيث انه كان من أهم أدوات علماء النحو في تفريع علم النحو ، حتى صار من مميزات مدرسة البصرة ، والبصرة غير بعيدة عن (جنديسابور) وعن مدارس نصرانية ، كان فيها علماء يدرسون علوم اليونان ، ومنها المنطق والنحو ، فلا يستبعد تأثر (أبي الأسود) الدؤلي ومن جاء بعده بهذه الدراسات ، ودليل ذلك ، هو ظهور هذا العلم في البصرة دون سائر المدن الأخرى ، ومنها مدن الحجاز مهد الاسلام .

ويرى (فون كريمر) ، ان ما يقال من أن ظهور اللحن ، كان السبب في

---

١ مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر (ص ٧١) ، (دسمبر ١٩٤٨ م) .
٢ ضحى الاسلام (٢/٢٩٢ وما بعدها) .

وضع النحو ، دعوى لا يعول عليها ، ولا أساس لها ، وانما هو وليـد الحاجة التي أحس بها الأعاجم من آراميين وفرس ، لتعلم العربية ، وللتكلم بها على وجه صحيح[1] .

وقد ألف بعض المستشرقين بحوثاً في موضوع النحو العربي ومدارسه ، منهم المستشرق (فلوكـل)[2] ، و (هول)[3] ، و (رايت)[4] ، وغيرهم ، وقـد تطرقوا فيها الى قواعد العربية وآراء علمائها فيها .

وقد ذهب بعض المحدثين مذهب المستشرقين القائلين بتأثر النحو العربي بالنحو اليوناني ، وذلك لأمور ، منها : ان تقسيم الكلم المألوف المتبع في النحو ، هو تقسيم يوناني ، واعتبار القياس أصلاً من أصول النحو ، ووجود مدارس سريانية كانت تدرس علوم النحو في مدارسها عند ظهور الاسلام ، ووجود يونان وأديرة في العراق ، فهذه الأسباب وأشباهها تحمل الانسان على القول ان النحو العربي قد تأثر بالنحو اليوناني وبمنطق (ارسطو) خاصة ، لا سيما وان النحو قد ظهر في العراق ، وهو ملتقى الحضارات . وقد تأثر خاصة في عهد (الخليل بن أحمد) الذي كانت له صلات وثيقة مع العلماء السريان ، مثل حنين بن اسحاق وأضرابه ، حتى ذهب بعض الباحثين الى وقوف (الخليل) على اللغة اليونانية .

وقد ذهب (مصطفى نظيف) الى أن (يعقوب) الرهاوي ، كان من معاصري (أبي الأسود) الدؤلي ، وكان من تلامذة (سويرس سيبخت) ، ومن البارعين في الفلسفة والنحو والتأريخ ، ومن المؤلفين في النحو السرياني ، ومن الذين أدخلوا التنقيط والحركات . وكان في البصرة ، والبصرة ملتقى الثقافة ، وحولهـا أديرة ومدارس ، وهي غير بعيدة عن (جنديسابور) ، فلا يستبعد اذن تأثر (أبي الأسود) بهذه التيارات اليونانية التي كانت هناك[5] .

---

١ فون كريمر ، الحضارة الاسلامية ، (٩٠) ، (تعريب مصطفى بدر) .

٢ Flügel G., Die Grammatischen Schulen der Araber, 1862.

٣ M. S. Howell, Grammer of the Classical Arabic Language, 7 Vols., Allahabad, 1880-1911.

٤ W. Wright, Arabic Grammer, Cambridge, 1896-8.

٥ مجلة المجمع اللغوي ، المجلد السابع (ص ٢٤٨) ، عبد العال سالم مكرم ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٥) .

وأنا على رأي (ابن فارس) القائل ان الإعراب كان قديماً عند العرب ، قدم معرفتهم بالحروف ، وان علم العربية كان قديمـاً ، ثم جدده (أبو الأسود الدؤلي) على نحو ما حكيته من قوله في ذلك قبل قليل[1]. وعندي ان علم (العربية) كان معروفاً في العراق ، وانه كان يدرس في مدارس الحيرة وعين التمر والأنبار وربما في مواضع أخرى ، كانت غالبية سكانها من العرب النصارى، كان يدرسه لهم رجال الدين ، الذين كانوا يتقنون الإرمية ، وكانوا قد أخذوا علومهم في النحو من اليونـان ، بتأثير النصرانيـة ودراسة الأناجيل والكتب الدينية المؤلفـة باليونانية . ولما كان أهل المواضع المذكورة من العرب ، فلا يستبعد ظهور جماعة من رجال الدين النصارى العرب ، اتخذت من مبادىء النحو التي وضعت للسريانية والمنقولة عن اليونانية ، قواعد لضبط العربية بموجبها ، كما ضبطوا الكتابة بهـا بالأبجدية التي صارت الأبجدية التي انتشرت بين أهل مكة ويثرب وأماكن أخرى. وبين هذه الأبجدية وبين العربية ، من حيث هي قواعد صلة متينة . فلا يستبعد قيام رجال الدين بتعليم العربية والخط للعرب ، لأنهم كانوا يقومون بالتبشير ، وكان من مصلحتهم نشر الكتابة بين من يبشرون بينهم ، وتعليمهم أصول اللغة، ليكون في وسع من يعتنق النصرانية تثقيف المشركين ، وكانت هذه طريقتهم في التبشير في المواضع الأخرى من العالم .

وأنا لا أستبعد احتمال وقوف (علي بن أبي طالب) ، أو (أبو الأسود) الدؤلي على تقسيم الكلم الى اسم وفعل وحرف . وقفا عليـه باتصالهم بالحيرة أو بعلماء من أهل العراق كانوا على علم النحو وعلوم اللغة في ذلك العهد ، وقد كان ذلك في الأسس والمبادىء ، فلما جاء الاسلام ، وأخذ المسلمون علـم العربية عن المتقدمين ، زادوا فيه وفرّعوا واستقصوا وقاسوا ، وأخذوا من كلام العرب ومن الشعر ، حتى تضخم النحو فبرز على الصورة التي نجدها في (كتاب) سيبويـه وفي الكتب التي وضعت بعده .

ومما يؤسف له كثيراً ان المؤرخين اليونان واللاتين والسريان لم يذكروا أي شيء عن علوم العربية عند العرب ، وفي ضمنهم المؤرخون الذين أرخوا تأريخ الكنيسة والنصرانية ، بسبب انهم لم يكونوا يحفلون كثيراً بأمور العرب، وأكثر ما ذكروه

---

١ الصاحبي (٣٨ وما بعدها) .

عنهم انما تناول الغزوات التي كانت تقوم بها القبائل على حدود الانبراطوريتين ، فأضاعوا علينا بذلك فوائد كبيرة ، كان يمكن الاستفادة منها في تدوين تاريخ ظهور الكتابة وعلوم العربية عند العرب . أما الموارد الاسلامية ، فقد رأينا رأيها في أول ظهور النحو ، وقد رأيناه حاصل روايات مضطربة ، يكتنفها غموض ، ثم هي عاجزة في النهاية عن بيان كيفية توصل الإمام (علي) أو (أبو الأسود) الى استنباط هذا التقسيم الثلاثي للكلم ، ثم البحث في (العطف) و (النعت) والتعجب والاستفهام ، وباب إن وأخواتها ، والفاعل والمفعول ، ونحو ذلك من قواعد ، لا يمكن لإنسان استنباطها بمفرده من غير علم سابق له بقواعد اللغات ، مهما أوتي ذلك الانسان من ذكاء خارق وقوة إبداع !

وأنا لا أستطيع أن أتصور ان انساناً يستطيع أن يجلس بمفرده ثم يجيل النظر في محيط اللغة التي يتكلم بها قومه ، وهو غير مسلح بعلم سابق باللغات ولا بمعرفة مسبقة بقواعدها . ثم تنثال عليه المعرفة ويستخرج منها بنفسه القواعد المذكورة ، ثم يضع لأبوابها تلك الأسماء التي لا يمكن لأحد وضعها إلا اذا كان ذا علم بقواعد اللغات عند الأمم الأخرى ، لأنها مصطلحات علمية منطقية ، لا يمكن أن تخرج من فم رجل لا علم له بمصطلحات علوم اللغة والمنطق، ولأنها ليست من الألفاظ الاصطلاحية البسيطة التي يمكن أن يستخرجها الانسان من اللغة بكل سهولة وبساطة حتى نقول انها حاصل ذكاء وعقل متقد . وكيف يعقل أن يتوصل رجل الى استنباط ان الكلمة إما اسم ، أو فعل ، أو حرف ، ثم يقوم بحصرها هذا الحصر الذي لم يتغير ولم يتبدل حتى اليوم ، بمجرد إجالة نظر وإعمال فكر ، من دون أن يكون له علم بهذا التقسيم الذي تعود جذوره الى ما قبل الميلاد . ثم كيف يتوصل الى إدراك القواعد المعقدة الأخرى التي لم يبتدعها انسان واحد ، وانما هي من وضع أجيال وأجيال ، اذا لم يكن له علم بفلسفة الفعل وعمل الفاعل وما يقع منه الفعل على المفعول ، وكذلك الأبواب المذكورة التي لا يمكن أن يتوصل اليها عقل انسان واحد أبداً .

لقد كان للبابليين ولغيرهم من أهل العراق علم باللغات ، وكان لهم أساس في النحو وفي دراسة اللغة ، كما كان لليونان ولغيرهم علم بالمنطق والنحو واللغات ، وصل الى العراقيين قبل النصرانية وبعدها ، بطرق لا مجال للتحدث عنها في هذا المكان . وبقي هذا العلم العراقي اليوناني الى الاسلام ، ومنه جاء في نظري علم

النحو وعلوم العربية ، وبسببه صار العراق القطر الاسلامي الأول الذي نبت فيه علم العربية والنحو ، لا بسبب لحن وقع من أعاجم ، أو من أعراب جهلاء ، ولا بسبب تلك القصص التي ساقوها في أسباب اختراع النحو ، وانما بسبب وجود علم سابق في العربية عند أهل الحيرة والأنبار والقرى العربية الأخرى ، وبسبب ظهور الحاجة اليه ، لتعليم العرب وغيرهم أصول لغتهم وكيفية صيانة اللسان من الوقوع في الخطأ ، فكان ما كان من وقوف (علي) أو (أبو الأسود) ، وهما من أصحاب الذكاء الخارق والتعطش الى البحث والاستقصاء ، فأخذا به ، وتوسع من جاء بعدهما في تفريعه وفي تثبيته في كتب ، كملت وتمت بالتدريج ، فهي من حاصل ذلك التراث العربي الجاهلي .

ولسابقة العراق هذه في الجاهلية بَزّ سائر الأقطار الاسلامية في علوم العربية ، حتى (يثرب) و (مكة) ، وهما موطنا الاسلام ومهبطه ، لم ينافساه فيها . قال (السيوطي) : « فأما مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا نعلم بها إماماً في العربية . قال الأصمعي : أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة . وكان بها ابن دأب ، يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكلاماً ينسبه الى العرب ، فسقط وذهب علمه ، وخفيت روايته »[1] . « وممن كان بالمدينة أيضاً عليّ الملقب بالجمل ، وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً[2]. وأما مكة ، فكان بها رجل من الموالي يقال له : ابن قسطنطين ، شدا شيئاً من النحو ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً » . وفي انفراد العراق ، وتفوقه على غيره من الأمصار في هذه العلوم ، دلالة على وجود البذور القديمة لها في هذه الأرض قبل الاسلام ، فلما دخل العراق في الاسلام أينعت واتسعت ، فكان ما كان من ظهورها فيه .

وقد تأثر النحاة والمناطقة في الاسلام بمنطق (أرسطو) . هذا الإمام (الشافعي) يشير الى تأثر القوم بمنطقه، إذ قال: « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ، وميلهم الى لسان أرسطوطاليس »[3] . وقد توفي الشافعي سنة (٢٠٤)

---

١ المزهر (٤١٣/٢ وما بعدها) .
٢ المزهر (٤١٤/٢) .
٣ السيوطي ، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام (١٥) ، (علي سامي النشار)، (مطبعة السعادة) .

الهجرة[١] ، فلا بد اذن من أن يكون ميل الناس الى هذا المنطق قد كان هذا العهد . ولعله قصد بـ (لسان أرسطوطاليس) العلوم اللسانية التي كان قد برع بها اليونان . فتكلموا عن أقسام الكلمة وعن بناء التركيب القياسي وعن الموضوع والمحمول وأنواع الإعراب بحسب لغتهم وعن النعت والضمائر والأفعال وما الى ذلك من قواعد .

و (أبو الأسود) الدؤلي ، هو (ظالم بن عمرو بن سفيان) ، أو (عمرو ابن ظالم بن سفيان) أو (عويمر بن ظليم) ، من أشياع (علي بن أبي طالب) ومن أصحابه . استعمله (عمر) و (عثمان) على البصرة ، ثم استعمله (علي) عليها بعد (ابن عباس) . وقد ذكر (أبو عبيدة) ، انه كان كاتباً لابن عباس على البصرة ، وكان (ابن عباس) يكرم (أبا الأسود) لما كان عاملاً بالبصرة لعليّ ويقضي حوائجه . وقد اشترك مع (علي) في وقعة صفين . ويذكر انه توفي في وباء سنة (تسع وستين) ، وقيل مات بعد ذلك ، توفي بالبصرة . قال عنه (الجاحظ) : « أبو الأسود الديلي ، معدود في طبقات الناس ، وهو فيها كلها مقدم ، ومأثور عنه الفضل في جميعها . كان معدوداً في التابعين والفقهاء والمحدثين والشعراء والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحويين ، والحاضري الجواب ، والشيعة ، والبخلاء ، والصلع الأشراف »[٢] . وله أجوبة مسكتة مع معاوية ، ومع أشخاص آخرين أرادوا التحرش به[٣] ، تدل على بديهة وذكاء .

ولأبي الأسود الدؤلي شعر ، وقد طبع شعره في ديوان ، وقد استشهد به في شواهد اللغة والنحو ، ونجد نتفاً منه في الكتب التي تعرضت لسيرته[٤] ، وليس

---

١ الفهرست (٣٠٩) .

٢ وقد اختلف في اسمه ، فقيل أيضا « عمرو بن عمران » ، و « عثمان بن عمرو » ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، رقم ٤٣٢٩ ، أدب الكاتب ، لابن قتيبة (٦١١) ، الخزانة (١/١٣٦) ، (بولاق) ، الاغاني (١١/١٠٥ وما بعدها) ، انباه الرواة (١/١٢ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٢٤٠) ، السمط (٦٦) ، تهذيب ابن عساكر (٧/١٠٤) ، الشعر والشعراء (١/٦١٥) .

٣ امالي المرتضى (١/٢٩٣ وما بعدها) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٤٢ وما بعدها ، ٩٣٤) ، الخزانة (١/١٣٦ وما بعدها) ، كتاب خلق الانسان ، لابي محمد ثابت بن ثابت (٢٤١) ، (الكويت ١٩٦٥) ، (عبد الستار أحمد فراج) ، خلق الانسان ، للاصمعي (٢١٢) ، المخصص (٢/١٨) .

شعره على مستوى رفيع من الوجهة الفنية ، ولا يتعرض للأحداث التأريخيـــة التي وقعت في أيامه[1] .

وقد أخذ عن أبي الأسود جماعة من التلامذة ، صاروا من مؤسسي علم النحو عند العرب ، ومن مبوبيه ومصنفيه . منهم ابنه (عطاء) . وكان قد بعج العربية وبرز بها[2] . ومنهم (يحيى بن يعمر) وهو من عدوان بن قيس ، وكان عدده في (بني ليث بن كنانة) ، ولقي ابن عباس وابن عمر ، وروى عنه قتادة . ومنهم (عنبسة بن معدان) ، المعروف بـ (عنبسة الفيل) ، ويقال ان (نصر ابن عاصم) أخذ عن أبـي الأسود[3] ، وأخذ عن (نصر) (أبو عمرو بن العلاء) البصري ، وأخذ عن (أبـي عمرو) (الخليل بن أحمـد) ، وأخذ عن الخليل (سيبويه) ، وأخذ عن سيبويه (الأخفش)[4] . وممن أخذ عن أبـي الأسود : (ميمون الأقرن) ، و (عبد الرحمن بن هرمز)[5] .

وفي رواية : ان الذي برع بعد أبي الأسود ميمون الأقرن ، وبعـــد ميمون عنبسة الفيل ، وبعده عبدالله بن أبـي اسحاق ، فقاس وأكثر ، ثم بـــرع بعده أبو عمرو بن العلاء ، ولحقه الخليل بن أحمد ، إلا أن نظر أبـي عمرو أقدم من نظر الخليل .

ثم أتى الخليل في النحو بما لم يأت بمثله أحد قبله في تصحيح القياس، واللطافة والتصريف .

وكان يونس في عصر الخليل ، وبقي بعده مدة طويلة ، ويقـــال ان سيبويه مات قبل يونس .

وكان عيسى بن عمر في عهد أبـي عمرو وعهد الخليل ، وكان بارعاً أيضاً[6] .

وكان (عنبسة) الفيل ، من أبرع أصحاب (أبـي الأسود) الذين كانوا

---

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١٧٢) .
٢ القفطي ، انباه الرواة (١/٢١) .
٣ الفهرست (٦٨) ، (تسمية من أخذ النحو عن أبي الاسود الدؤلي) .
٤ القفطي (١/٦) .
٥ ابن الانباري ، نزهة (١١) ، طبقات ، لابن سلام (٥) .
٦ العسكري ، المصون (١١٩) .

يتعلمون منه العربية[1] . وذكر ان الناس اختلفوا إليه بعد (أبي الأسود) ، وكان من بينهم (ميمون الأقرن) اللذي كان من أبرع أصحابه . وقد ذكرت رواية تنسب الى (أبي عبيدة) اسم (ميمون الأقرن) قبل عنبسة[2] .

وأما (نصر بن عاصم) الليثي (٨٩ هـ) (٩٠ هـ) ، فإنه كان فقيهاً عالماً بالعربية ، فصيحاً قرأ القرآن على (أبي الأسود) ، وقرأ (أبو الأسود) على (عليّ) ، فكان (أبو الأسود) أستاذه في القراءة[3] .

و (ابن أبي اسحاق) الحضرمي ، هو (أبو بحر عبدالله بن أبي اسحاق) (١١٧ هـ) ، وكان قيّماً بالعربية والقراءة ، شديد التجريد للقياس . ويقال انه كان أشد تجريداً للقياس من (أبي عمرو بن العلاء) ، وكان (أبو عمرو ابن العلاء) أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها . ويقال انه أول من علل النحو . وكان قد قرأ على (يحي بن يعمر) ، وعلى (نصر بن عاصم) ، وزعم انه كان أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل[4] .

وأما (يحي بن يعمر) العدواني ، (١٢٩ هـ) ، فكان عالماً بالعربية والحديث ، لقي (عبدالله بن عمر) ، و (عبدالله بن عباس) وغيرهما من الصحابة . وكان يستعمل الغريب في كلامه[5] . وقد لحق بخراسان ، وكتب ليزيد ابن المهلب ، ألحقه بها (الحجاج)[6] .

وكان (عيسى بن عمر) الثقفي (١٤٩ هـ) ، ثقة عالماً بالعربية والنحو والقراءة ، وصنف كتابين في النحو ، يسمى أحدهما : الجامع ، والآخر الإكمال ، وقد ذكرهما (الخليل بن أحمد) بقوله :

---

١ ابن الانباري ، نزهة (١٢ وما بعدها) ، انباه الرواة (٢/٣٨١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢/٢٣٣) .
٢ ابن الانباري ، نزهة (١٣ ، ٤٠٦) .
٣ ابن الانباري ، نزهة (١٤) ، انباه الرواة (٣/٣٤٣) ، بغية الوعاة (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٤ ابن الانباري ، نزهة (١٨ وما بعدها) ، انباه الرواة (٢/١٠٤ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢/٤٠) ، المزهر (٢/٣٩٨ ، ٤٢٣) ، طبقات ، لابن سلام (٦) .
٥ بغية الوعاة (٢/٣٤٥) ، المزهر (٢/٣٩٨ وما بعدها) ، ابن الانباري ، نزهة (١٦ وما بعدها) .
٦ طبقات ، لابن سلام (٦) .

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عُمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر[1]

وبلغ النحو درجة كبيرة من التقدم ، حين انتقلت الزعامة فيه الى (الخليل ابن أحمد) الفراهيدي ، الذي « كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس »[2] . « فهو الذي بسط النحو ومدّ أطنابه وسبب علله ، وفتق معانيه ، وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده . ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً أو يرسم منه رسماً ... واكتفى في ذلك بما أوحى الى سيبويه من علمه، ولقنه من دقائق نظره ونتائج فكره ، ولطائف حكمته ، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده ، وألّف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم قبله ، وامتنع على من تأخر بعده »[3] : وقد كان علم الخليل ، في جملة المنابع التي غرف منها (سيبويه) في كتابه : الكتاب . وقد ذكر (سيبويه) اسمه في (٤١٠) مواضع من كتابه ، وأشار الى آرائه دون أن يذكر اسمه في (١٧٤) مكاناً آخر ، وهو وان لم يشر الى اسمه ، لكن العلماء ذكروا انه قصده[4] .

وأورد (سيبويه) له في كتابه آراء استاذه في إعراب آيات من القرآن الكريم ، وتأويلها ، كما جاء له بشواهد من الشعر في شرح قواعد نحوية ، منها أشعار نص على أسماء قائليها ، مثل أمية بن أبي الصلت ، وطرفة والنابغة والأعشى ، وغيرهم . ومنها أشعار لشعراء مخضرمين واسلاميين ، ومنها أشعار لم يذكر أسماء أصحابها[5] .

ونعت بأنه « نحوي عروضي ، استنبط من العروض وعلله ما لم يستخرجه أحد ، ولم يسبقه الى علمه سابق من العلماء كلهم . وقيل انه دعا بمكة أن يرزق

---

١ ابن الانباري ، نزهة (٢١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢٣٧/١ وما بعدها) .
٢ الفهرست (٧٠) .
٣ « كلما قال سيبويه سألته ، أو قال : قال من غير أن يذكر قائله ، فهو الخليل » ، ابن الانباري ، نزهة (٥٥) ، السيوطي ، بغية (٢٤٤) .
٤ Wofgang Reuschel, Al-Halil ibn Ahmad der Lehrer Sibawaih's, Als Grammatiker, Berlin, 1959, S. 9.
وسأرمز اليه بـ : Reuschel.
٥ Reuschel, S. 55, 59.

علماً لم يسبق اليه أحد ، ولا يؤخذ إلا عنه ، فرجع من حجه ، ففتح عليه بالعروض »[1]. وذكر انه كان « الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله » ، « وكان أول من حصر أشعار العرب » . دخل عليه ولده وهو يقطع العروض ، فخرج الى الناس وقال : إن أبي قد جنّ ، فدخل الناس عليه فرأوه يقطع العروض ، فأخبروه بما قال ابنه ، فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنتَ تعلم ما تقولُ عذلتكا
لكن جهلتَ مقالتي فعذلتني وعلمتُ أنك جاهل فعذلتكا[2]

ويظهر من دراسة (كتاب) (سيبويه) ان أثر (الخليل) عليه كان كبيراً، لا يدانيه أثر أي عالم آخر عليه ، وان علم الخليل بالنحو ، كان غزيراً جداً ، يؤيده استشهاد (سيبويه) بآرائه أكثر من استشهاده برأي أي عالم آخر من علماء هذا العلم ، مثل (أبو عمرو بن العلاء) (١٥٤ هـ) ، و (عيسى بن عمر الثقفي) ، (١٤٩ هـ) ، و (يونس بن حبيب) ، (١٨٢ هـ) . ويظهر ان (الخليل) لم يدون علمه بالنحو في رسائل أو كتب ، وانما كان يعلم من يقصده مشافهة[3] ، فكان تلامذته يسمعونه ويحملون العلم عنه ، وذلك على طريقة أكثر العلماء في ذلك العهد .

وللخليل بعد ، آراء خاصة في النحو ، ونجد (الخوارزمي) يتكلم في الفصل الثاني من فصول النحو ، بقوله : « في وجوه الإعراب وما يتبعها على ما يحكى عن الخليل بن أحمد »[4] ، مما يشير الى وجود آراء خاصة له به ، أشير اليها في كتب النحو ، وربما وضعها بعضهم في مؤلفات خاصة بآرائه في النحو . ومن آرائه استعماله مصطلح الرفع في الاسم المضموم المنون ، ومصطلح الخفض في الاسم المجرور المنون ، والنصب في الاسم المفتوح المنون، على حين يسمي بقية الحركات

---

١ القفطي ، انباه الرواة (١/٣٤٢) .

٢ ابن الانباري ، نزهة (٤٥ وما بعدها) ، انباه الرواة (١/٣٤١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (١/٥٥٧ وما بعدها) ، المزهر (٢/٤٠١ وما بعدها) ، مراتب النحويين (٢٧ وما بعدها) .

٣ Reuschel, S. 63, f, John Sib, Sibawaihs Buch über die Grammatik, Berlin, 1884 — 1900, Bd., I, 2, I, 2.

٤ مفاتيح العلوم (٣٠) .

العارية من التنوين في الأحوال والصيغ المختلفة بأسماء الحركات العامة ، أي : الضم ، والكسر ، والفتح ، كما انه يسمى بالجر حركة الكسر التي تربط بين آخر الصيغة الفعلية وبين همزة الوصل . ولا يوجد عنده ما يدل على تأثر النظرية القائلة بأن اختلاف حركات الكلمات المتصرفة متوقف على العامل النحوي ، إلا في التفرقة التي جعلها بين التوقيف ، أي علم الحركة في أواخر الحروف وما شاكلها ، والجزم ، أي سكون الفعل المجزوم[1] :

وكان سند علماء العربية ومنبعهم الذي أخذوا منه علمهم في وضع قواعد العربية كتاب الله والشعر وكلام العرب . ويكون كلام العرب ، المنبع الأول الذي استمدا منه علمهم في اللغة وفي وضع القواعد ، وهو ما أخذ عن القبائل والأفراد ، ونجد للهجات أهل الحجاز وتميم أهمية كبرى في كتب الشواهد والقواعد[2] . ونظراً لاعتماد العلماء على هذا المورد أكثر من غيره ، وقعوا في مشاكل ، جعلتهم يتحايلون في حلها ، ويرجعون الى التأويل والتفسير ، من ذلك ما وقعوا فيه من عدم تمكنهم من التوفيق بين القواعد التي وضعوها ، وبين ما جاء في القرآن أو الشعر من أمور لا تنسجم مع هذه القواعد . وكل هذه الموارد المذكورة ، هي موارد أخذ منها بالسماع ، وهناك قواعد وضعها العلماء قياساً على كلام العرب ، استنبطوها بطريق (القياس) . و (القياس) من أهم الميزات التي ميزت البصرة على الكوفة في وضع قواعد اللغة .

والقياس ركن من ركنين مهمين ، قام عليهما علم النحو . أما الركن الأول ، فهو السماع . وللدور الخطير الذي قام به القياس في تكوين أصول وقواعد النحو ، قال المستشرقون وغيرهم بتأثر النحو العربي بمنطق (ارسطو) . وممن أخذ وعمل به في النحو (عبدالله بن أبي اسحاق) الحضرمي ، قيل عنه « وكان شديد التجريد للقياس . ويقال انه كان أشد تجريداً للقياس من أبي عمرو بن العلاء »[3] . وفرع النحو وقاسه[4] ، وكان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل[5] .

---

[1] مفاتيح العلوم (٣٠) ، يوهان فك ، العربية (١١) .
[2] Reuschel, S. 63.
[3] نزهة (١٨) ، مراتب النحويين (١٨) ، بغية (٢/ ٤٠) .
[4] المزهر (٢/٣٩٨) .
[5] ابن سلام ، طبقات (٦ وما بعدها) .

وكان (الخليل بن أحمد) رأس العاملين بالقيـاس في فتاوى النحو . كان قياساً بارعاً فيه . قيل عنه « انه سيد قومه ، وكاشف قناع القياس في علمه»[1]. وقد تأثر (سيبويه) بقياس الخليل ، فاستعمله في تثبيت العربيـة . فتجد في كتابـه جملاً مثل : « والقياس كذا » أو « والقياس يأباه » و « سألت الخليـل عن قول العرب ما أميلحه ، فقال : لم يكن ينبغي أن يكون في القياس لأن الفعـل لا يحقر ، وانما تحقر الأسماء »[2].

وقد انقسم علماء اللغة والنحو الى فئتين بالنسبة لاستعمال القياس في اللغة والنحو. ولكن الأغلبية معه ، وقد وقع فعلاً ، وأثر في وضع القواعد أثراً خطيراً . فبه أوجد النحاة كليات القواعد . « قال ابن الأنباري : اعلم ان انكار القيـاس في النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس ، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو ، ولا يعلم أحد من العلماء أنكره . وينسب الى الكسائي انه قال :

انما النحو قياس يتبـع وبه في كل أمرٍ ينتفع[3]

ولعلماء اللغة ، كلام طويل في مدى جواز استعمال القياس ، وفي حالة ورود السماع ، لأن اللغة في نظر بعض منهم سماع ، فإذا كانت سماعاً ، وجب الأخذ بالسماع ، فإذا ورد السماع بطل القياس[4] . وقـد تحدث العلمـاء عنه . قال (ابن فارس): « أجمع أهل اللغة — إلا من شذ عنهم — ان للغة العرب قياساً ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض » . غير انه قال : « وليس لنـا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها ، ونكتة الباب ان اللغة لا تؤخـذ قياساً نقيسه الآن نحن »[5] .

ولابن جني رأي في القياس . قال : « واعلم انه اذا أداك القياس الى شيء ما ، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت

---

١ الخصائص (١/٣٦٦ وما بعدها) .
٢ ضحى الاسلام (٢/٢٩٢) .
٣ ضحى الاسلام (٢/٢٨١) .
٤ البغدادي ، خزانة (٣/٥٥٩) ، احمد تيمور باشا ، السماع والقياس (١١) .
٥ الصاحبي (٦٧) ، المزهر (١/٣٤٥ وما بعدها) .

عليه الى ما هم عليه ، فإن سمعت من آخر مثل ما أجزته ، فأنت فيه مخير ، تستعمل أيهما شئت ، فإن صح عندك ان العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعوا عليه البتة وأعددت ما كان قياسك أداك اليه لشاعر مولد ، أو لساجع ، أو لضرورة ، لأنه على قياس كلامهم »[1] .

والاجماع ان النحو لم يجمع ولم يرتب ترتيباً علمياً إلا في الاسلام ، وإلا في أيام العباسين ، حيث أظهر علماء العربية نشاطاً عظيماً في تتبع القواعد واستنباطها من المظان التي أشرت اليها . وقد استقر وثبت ، بعد أخذ وردّ بين علمائه في المسائل الفرعية التي أثارت الاختلاف فيما بينهم ، فكانت ردود وتخطئة بعض منهم لبعض ، ثم استقر في كتب تمثل اليوم ثروة قيّمة تقدر في هذه اللغة الواسعة الثرية بألفاظها وبقواعدها .

ولا بد في نظري لمن يريد فهم النحو العربي فهماً صحيحاً واضحاً ، من دراسة نحو اللغات الجاهلية من عربية جنوبية ومن ثمودية ولحيانية وصفوية ونبطية ، لأنها وإن فارقت العربية القرآنية في أمور ، إلا انها عربية في النهاية ، ودراستها تفيدنا فائدة كبيرة في الوقوف على تأريخ تطور عربيتنا والعربيات البعيدة عن الاسلام ، وهي كما نعلم من أقدم اللهجات العربية التي أفادتنا في تقديم كتابات مدونة في تلك الأيام ، يعود تأريخ بعض منها الى ما قبل الميلاد . وقد تحدثت عن نحو اللهجات العربية الجاهلية وعن أمور من صرفها في الجزء السابع من كتابي الأول المعروف بتأريخ العرب قبل الاسلام ، المطبوع ببغداد .

هذا وقد عثر حديثاً على آثار في إمارة (أبي ظبي) وفي مواضع أخرى من سواحل الخليج ، قد تقدم لنا علماً جديداً عن لهجات عربية قديمة لا نعرف اليوم من أمرها شيئاً ، وبذلك يتسع علمنا عن لهجات العرب قبل الاسلام ، وقد نستطيع بواسطتها الوقوف على كيفية تطور اللغة العربية القرآنية وعلى حصر المواضع التي كان سكانها يتكلمون بها ، أو بلهجات قريبة منها .

بل أرى ضرورة دراسة اللغات السامية للاستفادة من هذه الدراسة المقارنة في فهم خصائص اللغة العربية ولحل بعض مشاكلها في النحو والصرف والألفاظ . وقد بذل المستشرقون ــ والحق يقال ــ جهوداً يشكرون عليها في دراسة هذه اللغات دراسة مقارنة . ولدينا اليوم مؤلفات كثيرة في هذه الدراسة ، تعرضت

---

١ الخصائص (١/١٢٦) .

الحروف بنوعيها، الحروف الصامتة « The Consonant Sounds » ، والحروف المتحركة « The Vowels » ، والضمائر، وللأسماء الموصولة وأدوات الوصل، وللأسماء، وللجموع وللأفعال ، ولحروف الجر ، وغير ذلك من الموضوعات التي تجدها في الكتب التي بحثت عنها[1] .

ومن أهم الموضوعات التي يجب توجيه العناية اليها ، موضوع : علم الأصوات (Phonology) بالنسبة الى اللغات السامية ، مثل دراسة مخارج الحروف، والحركات، والإمالة، والتفخيم، والإشمام في العربية على وجه خاص ، ثم دراسة صرف هذه اللغات « Morphology » ، مثل جذور الألفاظ التي يغلب عليها الطابع الثلاثي « Triconsonantal » المكون من الحروف الصامتة ، بينما تقل فيها الجذور المكونة من حرفين صامتين أو من أربعة حروف صامتة . ومثل دراسة كيفية تكوين الأسماء ، وأبنيتها ، ودراسة الجنس في هذه اللغات ، والعلامات التي تميز الجنس : المؤنث عن المذكر ، ثم العدد : المفرد ، والمثنى ، والجمع . جموع التذكير وجموع التأنيث ، وجموع التكسير ، ثم الظرف ، وحروف الجر ، والعطف ، ودراسة الأفعال بأنواعها ، وحالات الجمل ، وغير ذلك من أمور تخص علم اللغات[2] .

---

١ E. Renan, Histoire Générale des Langues Semitigues, Paris, 1855, William Wright, Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Amsterdam, 1966, Zimmern Verleichende Grammer D. Semitischen Sprache, Berlin, 1898, De Lacy O'leary, Comparative Grammar the Smitic Languages, London, 1923.

٢ وللوقوف على أسماء المؤلفات الموضوعة في مثل هذه الدراسات أرجع الرجوع الى المصادر الاتية :

H Zimmern, Vergleichende Grammatic der Semitischen Sprachen, Berlin, 1898, Barth J., Sprachwissenschaftliche Untersuchungen zum Semitischen, Leipzing, 1907-11, G. Bergsträsser, Einfuhrung in die Semitischen Sprachen, München, 1928, C. Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, 2 Bande, Semitische Sprachwissenschaft 2 Auflage, Leipzig, 1916, P. Dhorme, Langues et Ecritures Sémitiques, Paris, 1930, Fleisch, Introduction à l'étude des Langues Sémitiques, Paris, 1947, L. H. Gray, Introduction to Semitic Comparative Linguistics, New York, 1934, B. Spuler, Handbuch der Orientalistik, III, Semitistik, Leiden, 1953-54, J. H. Kramers, De Semietische Talen, Leiden, 1949, Levi Della Vida, Linguistica Semitica, Roma, 1961, Nöldeke, Beiträge zur Semitischen Sprachwissenschaft, Strsbourg, 1904, Neue Beiträge zur Semitischen Sprachwissenschaft, Strasbourg, 1910, G. Rolandi, Le Lingue Semitiche, Torino, 1954, Sabatino Moscti, An Introduction to the Comparative Grammer of the Semitic Languages, Phonology and Morphology, Wiesbaden, 1964.

وقد عالج بعض العلماء موضوعات خاصة من موضوعات النحو والصرف، مثل موضوع الفعل في اللغات السامية [1] . وموضوع الصلة بين العربيات الجنوبية وبين اللغة الحبشية [2] . والصلة بين العربية وبين اللغات السامية الأخرى ، أو بين لغـــة سامية ولغة سامية أخرى من حيث قواعد النحو والصرف [3] .

---

١ G Bertin, Suggestions on The Voice — Formation of the Semitic Verb, In Journal of the Royal Asiatic, vol. XV, 4. Frithiof Rundgren, Erneurung des Verbalaspekts' im Semitischen Funktionell-Diachronische Studien zur Semitischen Verblehre, Upsala, 1963, G. R. Castellino, The Akkadian Personal Pronouns and Verbal System in the light of Semitic and Hamitic, 1962, Barth J., Die Nominalbidung in den Semitischen Sprache, Leipzig, 1894, Hurwitz, Root Determinatives in Semitic Speech, New York, 1913.

٢ A. Murtonen, Early Semitic, A Diachronical Inquiry into the Relationship of Ethiopic to the other So-Called South-East Semitic Languages, Leiden, 1967.

٣ De Lagarde, Ubersicht Uber die im Aramaischen, Arabischen und Hebraischen Ubliche Bildung der Nomina, Gottingen, 1889 Barth, Die Nominalbildung in den Semitischen Sprachen, Leipzig, 1889.

الفصل السادس والاربعون بعد المئة

الشعر

الشعر والحكم والكهانة والخطابة وأضرابها ، هي أهم المظاهر التي تحدد لنا معالم العقلية الجاهلية ، وتعطينا فكرة عامة عن العقل الجاهلي .

أما الشعر الجاهلي ، فلم يصل الينا من الجاهلية مدوناً قط ، وانما وصل الينا مدوناً في الاسلام . وأقصد اننا لم نعثر حتى الآن على أي شيء منه مكتوباً بقلم جاهلي ، أو محفوراً على نص جاهلي . وكل ما نحفظه ونعرفه من ذلك الشعر ، هو مما وصل الينا بتقول الاسلاميين .

وللعلماء ، من اسلاميين قدامى ومحدثين ، ومن مستشرقين ، آراء في هـذا الشعر . منهم من يبالغ في اليقين ، فيرى ان كل ما وصل الينا منه صحيح ، ومنهم من يبالـغ في الشك ، فيرى ان أكثر ما وصل هو شعر منتحـل فاسد موضوع ، وضع لأغراض عديدة يذكرونها : دينية وسياسية وجنسية وغير ذلك ، ومنهم من يتوسط فيرى أن فيه الصحيح وفيه الفاسد المدسوس ، وان من الخير البحث فيه من نواحٍ متعددة ودرسه دراسة علمية حديثة ونقده نقداً علمياً لتمييز صحيحه من فاسده ، ولكل فريق حجج وأدلة مدونة ، وكتب أفردوها ، فيها رأيهم وحججهم ، اليها استحسن رجوع من يريد الوقوف على تلك الآراء .

ومن الكتب المؤلفة في الأدب الجاهلي ، واشتهرت خاصة بين أدباء العربيـة بنقد الشعر الجاهلي وبتوجيه الشك الى صحة أكثره ، فأثارت للذلك ضجة كبيرة

كتاب ألفه الدكتور طه حسين في العربية بعنوان : « في الأدب العربي » . وقد ردّ عليه أدباء عديدون في مصر وغيرها من البلاد العربية الأخرى . وقد أوضح الدكتور في كتابه العوامل التي حملته على تكوين رأيه المذكور في الأدب الجاهلي .

وليس مرجع هذا الاختلاف هو في حقيقة وجود شعر جاهلي أصلاً ، أو في علم وجوده . فوجود شعر للجاهليين ، حقيقة لا يشك فيها أبداً ، لأن الجاهليين هم مثل سائر الناس ، لهم حسّ ولهم شعور ، وما دام الحس موجوداً ، فلا بد أن يظهر على شكل شعر أو نثر . وإنما الاختلاف هو في هذا الشعر المروي لنا ، والمدون في بطون الكتب . هل هو جاهلي حقاً ، أو هو منحول فاسد محمول على الجاهليين ؟ أو وسط بين بين ، وفي كمية الصحيح منه ، بالنسبة الى مقدار الفاسد منه ؟ هذا موضع الاختلاف بين العلماء .

وقد وصف القديس (نيلوس) المتوفى حوالى السنة ٤٣٠ للميلاد غارة بدوية على دير سيناء ، وقعت سنة ٤١٠ م ، وتحدث عن تغني الأعراب بأشعارهم وهم يستقون الماء[١] . كما أشار المؤرخ (سوزيموس) الى تغني العرب بأشعارهم وذلك في المعارك التي وقعت بينهم وبين الروم في حوالى سنة (٤٤٠ م) ، وهي أغانٍ تشبه الأشعار التي كان يتغنى بها الأعراب في حروبهم وغزواتهم ، مثل يوم ذي قار[٢] ، والمعارك التي وقعت في فتوح العراق والشأم . ولا زال الأعراب يترنمون بالشعر عند غزوهم بعضهم بعضاً، لأن الشعر عندهم سلاح مهم من أسلحة القتال .

ثم إن شعر المخضرمين ، هو في حد ذاته دليل على وجود شعر سابق جاهلي، فشعر مثل هذا لا يمكن أن يكون قد ظهر فجأة من غير شعر سابق ومن غير شعراء ماضين مهدوا الجادة لمن جاء بعدهم ووضعوا لهم البحور المعروفة ، وقد وجدها المخضرمون ، فنظموا عليها .

وفي القرآن الكريم سورة تسمى (سورة الشعراء)[٣] ، وهي تدل على كثرة الشعراء ، وعلى تأثر الناس بهم ، وعلى تأثير شعرهم في النفوس وتلاعبه بأفئدة

---

١ غرونباوم (١٣٣) .
٢ غروبناوم (١٣٤) ، Die Araber, II, S. 330.
٣ رقم السورة (٢٦) .

الجاهليين . وتجاسر بعض الكفار على الرسول ، فوصفوه بأنه شاعر . ووصفه بهذه الصفة دليل على ما كان للشعر من أثر في نفوس القوم . وقد ورد في الحديث : ان الرسول قال : « إن من البيان لسحراً ، وان من الشعر لحكماً » ، أو ان من الشعر لحكمة[1] . وفي الأخبار انه كان يرفع أناساً ويُذل آخرين ، وان من الناس من كان يشتري ألسنة الشعراء . وورد في الحديث ، ان الرسول ذكر الشعر فقال : « إن من الشعر لحكمة ، فإذا ألْبَسَ عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإنه عربي »[2] . ووردت عنه أحاديث أخرى في حق الشعر[3] .

وورد في خبر آخر ان (العلاء بن الحضرمي) ، لما وفد على رسول الله ، قال له الرسول : أتقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقرأ سورة عبس ، ثم زاد فيها من عنده : وهو الذي أخرج من الحبلى نسمة تسعى بين شراسيف وحشى ، فقال رسول الله كف فإن السورة كافية ، ثم قال : أتقول شيئاً من الشعر ؟ فأنشده:

وحيّ ذوي الأضغان تسب قلوبهم   تحيتك الأدنى فقد يدبغ النعل
فإن دحسوا بالكره فاعفُ تكرماً   وإن أخنسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذي يؤذيك منه استماعه   وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي : إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكماً[4] .

وورد أن الرسول كان يسأل الصحابة أن يسمعوه شعراً ، سأل مرة (الشريد ابن سويد) الثقفي أن ينشده شيئاً من شعر أمية بن أبي الصلت ، فأنشده مائة بيت ، فقال الرسول : كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم ، أو ان كاد ليسلم[5]. وكان الرسول يقول : أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد : ألا كل شيء

---

١ بلوغ الارب (١٣٤/٣) .
٢ اللسان (٤١٠/٤) ، (شعر) ، العمدة (ص ٢٧) ، (اذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في الشعر) ، مجالس ثعلب (٣١٧) .
٣ العمدة (ص ٢٧) .
٤ بلوغ الارب (١٣٣/٣ وما بعدها) ، (ان من الشعر حكما ، وان من البيان سحرا) وفي هذه الابيات روايات متباينة ، عيون الاخبار (١٨/٢) ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، كنز العمال (١٧٨/٢) .
٥ ارشاد الساري (١٠٠/٩ وما بعدها) ، الاصابة (١٤٦/٢) ، (رقم ٣٨٩٢) ، المزهر (٣٠٩/٢) ، (مائة قافية) ، ابن سعد ، (٣٧٦/٥) . صحيح مسلم (٤٨/٧) . (كتاب الشعر) .

ما خلا الله باطل ، أو ان أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل[1] .

وورد أنه استشهد ببيت شعر لطرفة بن العبد ، هو :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود[2]

وورد أنه جلس في مجلس من الخزرج ، فاستنشدهم شعر : (قيس بن الخطيم) ، فأنشدوه بعض شعره[3] . وللرواة أخبار عديدة تشير الى سماع الرسول الشعر والى وقوفه عليه وعلمه به ، وأنه كان يكلف الصحابة بأن ينشدوه من شعر الشعراء ، وذكر أنه نهى من رواية رثاء (أمية بن أبي الصلت) قتلى قريش في معركة بدر ، لما فيها من رثاء لمشركين ومن تحريض على الإسلام[4] . وورد أن الشاعر (العباس بن مرداس) ، شهد مع النبي حنيناً على فرسه (العُبيد) ، فأعطاه النبي أربع قلايص ، فقال :

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
وكانت نهاباً تلافيتها بكري على المهر في الأجرع

فقال الرسول : اقطعوا عنا لسانه[5] . ولسانه هو شعره .

وروي عن (عمر) قوله : « نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم ، مع ما للشعر من عظم المزية ، وشرف الأبية ، وعزّ الأنفة ، وسلطان القدرة[6] » .

وقديماً قال ابن عباس : « إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه في

---

١ ارشاد الساري (٩/١٠١ وما بعدها) ، صحيح مسلم (٧/٤٩) ، (كتاب الشعر)
٢ معجم الشعراء (٢٠٢) .
٣ الاغاني (٣/٧) .
٤ الاغاني (٤/١٢٢ وما بعدها) ، الفائق (٣/٥٢) ، الاغاني (٨/٢٤٣) ، ابن سعد (٥/٣٧٦) ، المزهر (٢/٣٠٩) .
٥ الشعر والشعراء (٢/٦٣٤) ، الاشتقاق (١٨٨) .
٦ بلوغ الارب (٣/٨٢) .

الشعر ، فإنه ديوان العرب »[1] . وقيل إنه — أي ابن عباس — ما فسر آية من كتاب الله ، إلا نزع فيها بيتاً من الشعر . وروي أن غيره كان يحفظ شيئاً وافراً من الشعر ، الشعر المروي عن أناس عاشوا قبل الاسلام وأناس أدركوا الاسلام، وأنهم كانوا يتداولونه ويتطارحونه ويحفظونه لصلته بكل فرد منهم . ففيه أخبار القبائل وأيام العرب وما قيل فيهم من مدح أو ذم ، والحق أننا بفضل هذا الشعر حصلنا على كثير من هذا القصص المنسوب الى أهل الجاهلية ، وبفضله عرفنا أخبار الشعراء والقبائل والأيام والحروب ، فهو كما قلت في الجزء الأول من هذا الكتاب مورد مهم رئيسي يرد منه المؤرخ في تدوينه تأريخ العرب قبل الإسلام .

ونحن لا نكاد نقرأ قصة من قصص (أيام العرب) ، إلا ونجد فيها شعراً، ينسب الى بطل من الأبطال الذين ساهموا فيها ، أو من شاعر يذكر قومه أو خصوم قومه أو خصومه بالأيام التي انتصروا فيها على خصومهم . وقد ساعد هذا الشعر على تثبيت تلك الأيام في ذاكرة رواتها ، حتى وصلت الى أيام التدوين فدونت ، على نحو ما نقرأها في هذا اليوم .

ثم ان كتب الأدب بأنواعها مملوءة بأخبار المساجلات والمطارحات التي وقعت بين الشعراء قبيل الاسلام وفي أيام الرسول والخلفاء. وقد رويت فيها أشعار وقصائد لشعراء جاهليين ، ولشعراء مخضرمين. وقد تحدث معظم المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام عن ذكرياتهم في الجاهلية ، ورووا ما نظموه فيها من أشعار وما وعوه من المناسبات التي نظموا فيها . ثم ان هذه الكتب مملوءة أيضاً بأخبار مجالس سمر تناولت الحوادث والأيام والشعر والشعراء ، وفيها نقد ومفاضلات لما ذكر في تلك المجالس من شعر . وقد روي : ان الرسول كان يجالس أصحابه ويتحدث معهم ويصغي اليهم ، ويستمع الى ما يروونه وما يتذاكرونه من الشعر[2]؛ وروي : ان الحطيئة ، وهو شاعر معروف ، كان يتذاكر الشعراء ويحفظ أشعارهم[3].

وقيل للحسن البصري : « أكان أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

---

١ المزهر (٢/٤٧٠) ، الاخبار الطوال (٣٣٢) ، طبقات الشعراء ، للجمحي (ص ١٠) بلوغ الارب (٣/٨٢) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٣٦) ، العمدة (٣٠) ، التبريزي ، شرح الحماسة (١ وما بعدها) .
٢ الاغاني (١٥/٥٥) .
٣ الاغاني (١٥/٩٤) .

يمزحون ؟ قال : نعم ويتقارضون ، أي يقولون القريض وينشدونه . والقريض الشعر »[1] . وروي أن أصحاب رسول الله ، كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم ، وأن رسول الله كان يجالسهم في المسجد ، وهم يتناشدون الشعر وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم[2] . وعن (أبي سلمة) : « لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متحزقين ولا متماوتين، كانوا يتناشدون الأشعار، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحدهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون »[3] .

وقد ذُكر أن من الأعاجم من تعلم الشعر العربي ورواه وعشقه ، فزعم (ابن الكلبي) مثلاً أن (خُرَّخسرة) ، وهو ابن (المروزان) ، كان قد تعرب ، أعجبته العربية فتعلمها وروى الشعر ، وكان والياً على اليمن في عهد (كسرى) ، ثم بلغ (كسرى) تعربه ، وروايته الشعر ، وتأدبه بأدب العرب، فعزله ، وولى باذان[4] .

وللشعر أثر خطير في نفوس العرب ، كان يهز عواطفهم هزاً ، ويفعل فيهم فعل السحر ، فلا عجب اذا ما قرن (رؤبة) الشعر بالسحر ، وجعله مثله في التأثير لتلك العلة :

لقد خشيتُ أن تكون ساحرا   راوية مَرّاً ومَرّاً شاعرا[5]

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم اليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر[6] .

وقد بقي أثر الشعر هذا في نفوس الناس حتى بعد زوال الجاهلية ودخول الناس في الاسلام . فكان مدح الشاعر لقوم ، من المآثر والمفاخر ، وكان ذمه

---

١ اللسان (٢١٩/٧) ، الفائق (٣٣٩/٢) .
٢ ابن سعد ، الطبقات (٢/١ ص ٩٥ وما بعدها) .
٣ الفائق (٢٥٧/١) .
٤ الطبري (٢١٥/٢) ، (دار المعارف) .
٥ العمدة (٢٧/١) .
٦ البيان والتبيين (٨٣/٤) .

مما يشين ويسيء الى المهجو . فلما هجا (جرير) (بني نمير) بقوله :

فغض الطرف انك من نميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

أخذ بنو نمير ينتسبون الى (عامر بن صعصعة) ، ويتجاوزون أباهم نميراً الى أبيه ، هرباً من ذكر (نمير) وفراراً مما وسم به من الفضيحة والوصمة . مع انهم كانوا قبل ذلك اذا سئل أحدهم ممن الرجل فخم لفظه ومدّ صوته وقال : من بني نمير ، وكانوا جمرة من جمرات العرب . وكان أحدهم اذا رأى نميرياً وأراد نبزه والإساءة اليه قال له : غمض وإلا جاءك ما تكره ، وهو انشاد هذا البيت[1] . وصار الرجل من بني نمير اذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني عامر[2] !

قال الجاحظ : « وفي نمير شرف كثير. وهل أهلك عنزة ، وجرماً ، وعُكلاً ، وسلولَ ، وباهلة ، وغنياً ، إلا الهجاء ؟!

وهذه قبائل فيها فضلٌ كثيرٌ وبعض النقص ، فمحق ذلك الفضل كله هجاء الشعراء . وهل فضح الحبطات ، مع شرف حسكة بن عتاب ، وعبّاد بن الحصين وولده ، إلا قول الشاعر :

رأيت الحُمر من شر المطايا كما الحبطات شر بني تميم[3]

وقد هُجيت فزارة بأكل أير الحمار ، وبكثرة شعر القفا . وكان (حذف) الفزارى قد أطعم جُردان الحمار ، فقتل الذي أطعمه . وقال : طاح مرقه ، فذهبت مثلاً . ففزارة تعير بذلك الى اليوم . قال الشاعر :

إنّ بني فزارة بن ذبيان قد سبقوا الناس بأكل الجُردان

وقال آخر :

أصيحانيــة عُلّت بزُبد أحب اليك أم أير الحمار[4] ؟

---

١ الخزانة (١/٣٥ وما بعدها) ، (بولاق) ، البيان والتبيين (٤/٣٥) .
٢ البيان والتبيين (٤/٣٥ ، ٣٨) .
٣ البيان والتبيين (٤/٣٦ وما بعدها) .
٤ الاشتقاق (١/١٧٣ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٤/٣٨ وما بعدها) ، الخزانة (١/٣٩٥) ، سمط اللآلئ (٨٦٠) .

وبين الشعر والسحر صلة ، حتى ذهب بعض الباحثين في الشعر الى أن الشعر هو فن من الفنون التي كـــان يمارسها السحرة في التأثير في مشاعر الناس ، إذ كانوا يتخذونه وسيلة من وسائل التأثير في النفوس ، لما يستعملونه فيه من كلام مؤثر ساحر يترك أثراً خطيراً في نفس سامعه . ولهذا عدّوا السحرة في جملة أوائل من كان ينظم الشعر من القدماء ، كما ذهب بعض الباحثين الى أن الشعراء كانوا (أهل المعرفة) والفهم ، لما كان لهم من ذكاء وصفاء ذهن في فهم تجـــارب الحياة ، وفي نظم خلاصة تلك التجارب على شكل علم أو حكم تفيد في التهذيب وفي التوجيه وفي وعظ الناس،ولهذا كان لهم رأي في السياسة في السلم وفي الحرب.

وفي كتب الأدب والأخبار أمثلة كثيرة عن أثر الشعر في القبائل وفي الأشخاص من مدح وذم ، يرينا كيف كان العرب يتأثرون به ، وكيف كان يلعب دوراً خطيراً في حياتهم ، والعرب قوم عاطفيون ، تلعب العاطفة دوراً خطيراً في حياتهم ، وما الشعر إلا نتيجة لهـــذا الطبع المتوارث في العربي . وقد كان أثر الشعر في المغازي وفي الحروب أثر السيف في الخصوم ، يحرض المقاتلين على الاستبسال في القتال . ولما وقعت الوقائع بين المسلمين والفرس ، لعب الشعر والنثر دوراً خطيراً فيها ، ففي يوم (أرماث) مثلاً ، أرسل سعد الى قادة الكلام ، من رجـــال النثر والشعر ، يدعوهم الى استخدام سلاحهم في هذه المعارك ، فكان ممن حضر عنده : (طليحـــة) ، و (قيس بن هبيرة) الأسدي ، و (حذيفـــة) ، و (غالب) ، و (عمرو بن معديكرب) ، و (ابن الهـــذيل) الأسدي ، و (عاصم بن عمرو) ، و (ربيع بن البلاد) السعدي ، و (ربعي بن عامر) وهم من الخطباء ، و (الشماخ) ، و (الحطيئـــة) ، (أوس بن مغراء) ، و (عبدة بن الطيب) وأمثالهم ، وهم من الشعراء ، فلما تجمعوا ، قـــال لهم (سعد) : « قوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم ، عند مواطن البأس، فإنكم من العرب بالمكـــان الذي أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا في الناس ، فذكروهم وحرضوهم على القتال»[1]. فالشعر سلاح ماض عند العرب ، مثل الأسلحة الأخرى وربما كان أمضى منها أثراً في نفوسهم لما كان يفعله فيهم ، وكذلك النثر من أثر في النفـــوس يحملهم

١ الطبري (٣/٥٣٣) .

على الإقدام وعدم التهيب من الموت .

ونحن لا نعرف حرباً أو غزواً وقع للعرب ، ثم لم يقترن خبره بشعر أو بأبيات منه ، فقد كان المحاربون ، يحاربون خصومهم بألسنتهم وبسيوفهم وبسهامهم ورماحهم في الوقت نفسه ، وقد رأينا أنه قد كان للشعر الفضل الأكبر في كثير من الأحايين في حفظ أخبار الحروب وبقاء ذكرها الى هذا اليوم . ونستطيع القول بأن قسطاً كبيراً من الشعر الجاهلي ، هو من شعر القتال . ولذلك نستطيع جعله صنفاً قائماً بذاته نسميه شعر القتال والحروب .

ومن هذا الأثر الذي كان يعرفه الشعراء حق المعرفة ، كانوا يستعلون ويترفعون به عن غيرهم ، كتب (هوذة بن عليّ) الحنفي ، الى النبي يجيبه على رسالته التي أرسلها اليه : « ما أحسن ما تدعو اليه واجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك »[1] ، فهو شاعر قومه وخطيبهم ، وله مكانة في العرب ، فهو يرى ان يميز عن غيره بميزات تمنح له ، وكان الشعراء يمنّون على قومهم بأنهم ألسنتهم المخرسة الناطقة المهاجمة المدافعة ، فهم من الطبقة المثقفة الممتازة التي حظيت بالتقدير ونالت الاحترام ، بسبب قدرة اللسان ، وأثر الشعر في الناس .

ولا زال الشاعر ينال مكانة محترمة عند أهل الحضر وعند أهل الوبر ، فهو لسان القبيلة حتى اليوم ، يدافع عنها ، ويهجو أعداءها ، ويردّ على شعرائها ، ويشيد بفعال قومه . وللهجاء عندهم مكانة ، إلا انها أخذت تتزلزل عن مكانها ، بفعل التحضر الذي أخذ يغزو البوادي ، وتغير العقلية ، وعدم الاهتمام بالقيل والقال ، مما أثر على مكانة الشعر والشاعر أيضاً ، فلم يعد الناس يخشون لسان الشاعر ، كما كانوا يخشونه أيام الجاهلية ، يوم كانوا يسترضون الأعشى والحطيئة ، خوفاً من لسانيهما السليطين .

ويطلق على الشعر الذي قيل قبل الاسلام : الشعر الجاهلي ، لأنه قيل في الجاهلية التي شرحنا معناها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وأصحابه كلهم ممن عاشوا وماتوا قبل الاسلام . أما الذين أدركوا الاسلام وأسلموا ، فهم الشعراء المخضرمون

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٢) ، (ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) .

لأنهم أدركوا عهدين ، فعاشوا ردحاً من عمرهم في الجاهلية، وقضوا البقية الباقية من حياتهم في الاسلام .

واذا قلنا الشعر الجاهلي ، أو شعر الجاهليين ، فلا نريد أو يريد أحـد منا الغض من شأنـه ، أو الحط من قدره ، فإننا عـلى العكس ، نجد علماء الشعر والأدب ، يرفعون من قدره ، ويرون انه الأوج الذي بلغـه العرب في الشعر ، ولا سيما الشعر المختار منه مثل المعلقات ، فقد بلغ القمة في نظرهم ، وقد بلغ من تقدير بعضهم للشعر الجاهلي ، انهم كانوا « أحياناً يذهبون بعيداً في تدقيقهم الى حد التهوين من قيمة شاعر لا يمكن إنكار تفوقـه ، لمجرد أن ولادته كانت بعد ظهور الاسلام »[1] .

وروي أن عمر قـال : « الشعر علم قوم ٍ لم يكن لهم علمٌ أعلم منه » وأنه كتب الى (أبـي موسى الأشعري) : « مُر مَنْ قِبَلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب »[2] . ولقد قال الجاحظ: « وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد في ذلك عـلى الشعر الموزون ، والكلام المقفى،وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أن الشعر يُفيد فضيلة البيان ، على الشاعر الراغب ، والمادح ، وفضيلة المأثرة ، عـلى السيد المرغوب اليه ، والممدوح به »[3] . وقال العسكري : « لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها ، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتهـا ومستنبط آدابها ومستودع علومها »[4] ، والشعر هو ديوان تسجيل من لا تسجيـل له ، لجأت اليه الشعوب القديمة حين لم تعرف الكتابة ، ليقوم مقـام الكتابة في تخليد المآثر والأحداث وما يستجد لها من أمور عظام ، بما فيه من أثر عـلى القلب ، ومن نغم يساعد على الحفظ ، فقام الشعر عند العرب مقام الكتابة ، قبل أن تتفشى الكتابة بينهم[5] .

والواقع ان هذا الشعر الجاهلي قد أفاد المؤرخ الباحث في تأريخ الجاهلية فائدة

---

١ بروكلمن (١/٣٦) .
٢ العمدة (٢٨) .
٣ الحيوان (١/٧٢) ، (عبد السلام محمد هارون) ، المحاسن والاضداد (٣) .
٤ كتاب الصناعتين (١٠٤) .
٥ كارلو نالينو (٩٥ وما بعدها) .

لا تقدر بثمن ، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التأريخية على فائدته من الوجهة الأدبية ، لأنه حوى أموراً مهمة من أحداث العرب الجاهليين ، لم يكن في وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر[1] .

ولكن كثيراً من هذا التراث الذي أريد تخليد عمل العرب به قد ضاع ، قبل الإسلام ، بسبب عدم تدوينه وتخليده في كتاب واعتماد الناس في روايته على الحافظة وحدها ، والحافظة لا تحفظ المحفوظ لأمد طويل ، فضاع منه ما ضاع، ووصل بعض منه بصورة يرتاب منها ، وآفة كل ذلك هو المرض الذي يصيب الذاكرة : مرض النسيان . « قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري ؛ فالكتاب أحب إليّ من الحفظ . لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناسَ ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »[2] .

والشعراء الجاهليون كثيرون ، ونجد في كتب اللغة والمعاجم ، أسماء شعراء ، لم يرد لهم خبر في موارد أخرى ، ذكروا لمناسبة الاستشهاد بشعرهم ، ونجد في كتب السير والرجال أسماء رجال لهم شعر ، لم يرد اسمهم في كتب الشعر . قال (ابن قتيبة) : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام،أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم ؛ واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[3] .

وأنت اذا قرأت بعض الكتب مثل كتاب : (الاشتقاق) ، و (المحبر) ، وكتب المجالس والأمالي والشواهد ، تجد أمامك أسماء عدد كثير من الشعراء الجاهليين ، لم يرد اسمهم في كتب الشعر الجاهلي ، ولم يحفل بهم علماء الشعر مع انهم كانوا في أيامهم من الشعراء المعروفين ، وقد نص على انهم كانوا من الشعراء .

---

١ Charles James Lyall, Ancient Arabian Poetry, London, 1930, p. Introduction.

٢ الحيوان (٤١/١) ، (نعت الكتاب) .

٣ الشعر والشعراء (٨/١) .

ولا أجد في كلام قدماء العلماء القائل ان الذي وصل الينا من أمر الشعر الجاهلي والشعراء الجاهليين ، هو قليل جداً من كثير جداً ، وأن الذي فات عن علم العلماء من أمر الشعراء الجاهليين أكثر بكثير مما بقي ، أية مبالغة أو تهويل ، لأننا نجد في الموارد التي تتحدث عن الصحابة أو عن الأخبار ، أسماء رجال كانوا شعراء، لا نجد لها وجوداً في كتب الشعر ، ثم ان علماء الشعر أنفسهم يعترفون في كتبهم ودفاترهم ، انهم لم يدونوا من أسماء الشعراء إلا من اشتهر أمره وعرف بغزارة شعره ، أما من كان دون هؤلاء ، فإنهم لم يتحرشوا بهم ، إذ لو تعرضوا بهم لاحتاجوا الى تدوين كتب ضخمة في الشعر والشعراء. أضف الى ذلك موت ذكر كثير من الشعراء ، بسبب عدم وجودِ التدوين قبل أيام التدوين وعجز الذاكرة عن المحافظة على أسماء الشعراء وعلى شعرهم الى أمد طويل . ثم ان الشعر سليقة عند العرب ، وبديهة ، وقلما نقرأ اسم رجل من أهل الجاهلية ، إلا وقد نسب له أهل الأخبار البيت أو البيتين ، أو أكثر من ذلك من الشعر .

ونحن لا نذكر هنا من الشعراء إلا من نبه منهم،وترك أثراً في الأدب العربي الى يومنا هذا .

وقد جرت العادة بأن يدرس الشعر الجاهلي على أسلوب الجادة القديمة ، بالاعتماد على الروايات المدوّنة عنه في الموارد الإسلامية القديمة ، وهي روايات لاقت رواجاً كبيراً بين المعنيين في الشعر الجاهلي ، حتى صارت في درجة القضايا البديهية المسلم بصحتها ، مع أنها في الواقع أخبار آحاد ، وردت في كتب اسلامية قديمة نقلها عنها المؤلفون المتأخرون عن المؤلفين القدماء . مع أن الصحيح هو في وجوب درس الشعر الجاهلي ، على ضوء شعر المخضرمين والشعراء الاسلاميين الذين عاشوا في صدر الاسلام ، وعلى ضوء الدراسات المعروفة عن الشعر عند الساميين ، مثل شعر السريان الذي يأخذ أيضاً بالوزن والقافية وله مصطلحات قديمة في الشعر تعود الى ما قبل الاسلام ، ثم الشعر العبراني والشعر البابلي وشعر بقية الساميين .

وفي دراسة شعر القبائل الحاضرة المنزوية في جزيرة العرب ، فائدة كبيرة في تشخيص الشعر الجاهلي ، لأنها — ولا سيما القبائل القابعة في العربية الجنوبية — لا زالت تنظم الشعر متأثرة بالقوالب القديمة وببحور جاهلية لم يحفل بها (الخليل) أو أنه لم يقف عليها ، ففات أمرها على العلماء ، وعدت من الشعر العامي المبتذل .

الذي لا يليق بالعالم المتزن أن يحفل به . وقد تفيدنا دراسة شعر القبائل العربية ، الناطقة بلهجات بعيدة عن عربيتنا بعض البعد ، فائدة كبيرة في الحكم على طبيعة ونوع الشعر عند العرب الجنوبيين قبل الاسلام ، فألسنة هذه القبائل هي من وحي الألسنة العربية الجنوبية الجاهلية ، ونظم الشعر بها بأسلوب خاص وبيحور متميزة ، هو دليل قاطع على وجود الشعر عند العرب الجنوبيين ، وهو شعر لا نعرف اليوم من أمره أي شيء ، لعدم وصول نماذج مدوّنة منه الينا حتى الآن، ولعدم اهتمام العلماء القدامى به ، لاختلافه عن عربية القرآن الكريم ، وفي الشعر اليماني القديم الذي نجد نماذج منه في المؤلفات اليمانية ، مثل مؤلفات (الهمداني) ، فائدة في تشخيص الشعر اليماني الجاهلي ، وإن كان هذا الشعر قد صيغ وفقاً للشعر العربي القرآني ، بفعل دخول أهل العربية الجنوبية في الاسلام ، وأخذهم بلغة القرآن الكريم .

ولا استبعد احتمال ترك علماء الشعر واللغة كثيراً من الشعر الجاهلي ، لأنه شعر لم ينظم وفق عربية القرآن الكريم أو وفق البحور (الكلاسيكية) المعروفة التي اعتبرت الصور الرفيعة لبحور الشعر العربي الصحيح ، نبذوه لأنه كان في أعينهم من الشعر العامي المبتذل الذي لا يليق بالعالم المدقق توجيه عنايته اليه ، على نحو ما فعلوه بالنسبة الى اللهجات العربية الأخرى التي كانت تختلف عن العربية المألوفة التي أخذوها من أفواه القبائل التي اعتبروا لسانها هو اللسان العربي الفصيح ، وأما ما سواها فألسنة رديئة لا يؤخذ بها ولا يحتج بما ورد فيها من نثر أو نظم .

خبر شعراء الجاهلية :

وقد حصلنا على أسماء شعراء الجاهلية من الموارد الاسلامية ، فقد ذكرتُ ان النصوص الجاهلية لم تتعرض لأمر الشعر الجاهلي ولا للشعراء الجاهليين . ونجد أسماء هؤلاء الشعراء في مختلف الموارد ، في كتب الأدب وفي ضمنها دواوين الشعر ، وفي كتب النثر الباحثة عن الشعر ، وفي كتب التفسير والحديث واللغة والمعاجم ، بل وفي الشعر الجاهلي كذلك ، إذ ذكر بعض اسماء الشعراء . ونجد في شعر بعض الشعراء الذين ظهروا في العصر الأموي أسماء شعراء جاهليين ، فنجد في شعر الفرزدق أسماء شعراء جاهليين ، إذ يقول :

وهبَ القصائد لي النوابغُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول
والفحل علقمةُ الـذي كانت له حلل الملوك كلامه لا ينحل
وأخو بني قيسٍ وهن قتلنـه ومهلهل الشعراء ذاك الأول
والأعشيـان كلاهمـا ومرقش وأخو قضاعة قوله يتمثـل
وأخو بني أسدٍ عبيدٌ إذ مضى وأبو دُواد قولـه يتنخـل
وابنا أبـي سلمى زهير وابنه وابن الفريعة حين جدَّ المقول
والجعفـري وكان بشر قبلـه لي من قصائده الكتاب المجمل
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقاً كالسم خالط جانبيه الحنظل
والحارثي أخو الحمـاس ورثته صدعاً كما صدع الصفاة المعول[1]

ونجد في شعر (جرير) الذي نقض على الفرزدق قصيدته المذكورة ، وفي شعر (سراقة) البارقي ، ذكراً لأسماء بعض الشعراء الجاهليين إذ يقول :

ولقد أصبت من القريض طريقةً أعيت مصادرها قرين مُهلهل
بعد امرىء القيس المُنوّه باسمه أيام يَهْذي بالدخول فحومل
وأبو دُواد كان شاعر أمةٍ أفلَتْ نجومهم ولمـا يأفل
وأبو ذؤيب قد أذل صعابـه لا ينصبنّك رابض لم يذلل
وأرادهـا حسان يوم تعرضت بردى يصفق بالرحيق السلسل
ثم ابنه من بعـده فتمنعت وإخالُ أنّ قرينه لم يخذل
وبنو أبي سُلمى يقصر سعيهم عنّا كما قصرت ذراعاً جَرول
وأبو بصير ثم لم يُبصر بها إذ حلّ من وادى القريض بمحفل
واذكر لبيداً في الفحول وحاتماً يلومك الشعراء إن لم تفعل
ومُعقّرا فاذكر وإن ألوى به ريب المنون وطائر بالأخيل
وأميّـة البحر الـذي في شعره حكم كوحي في الزبور مُفصل
واليذمري عـلى تقادم عهـده ممن قضيتُ له قضاء الفيصل

١ ديوان الفرزدق (٧٢٠) ، النقائض (١٨٩/١ وما بعدها) .

واقذف أبا الطمحان وسط خوانهم   وابن الطرامة شاعر لم يُجهل
لا والذي حجت قريش بيته   لو شئت إذ حدثتكم لم آتل
ما نال بحري منهم من شاعرٍ   ممن سمعت به ولا مستعجل[1]

وجمع رواة الشعر شعر الشعراء الجاهليين وأخبارهم من موارد متعددة ، من الشعراء أنفسهم ، مثل الحطيئة الذي أدرك الاسلام ، ومثل حسان وبقية الشعراء المخضرمين ، فقد أمدّوا الخلفاء وعشاق الشعر بأخبار من تقدم عليهم من الشعراء ، وبما حفظوه من شعرهم ، وبما استحسنوه من أشعارهم ، كما موّنوهم بأخبارهم التي بقيت عالقة في أذهانهم عن الجاهلية ، وعن أيامهم في الإسلام . كما جمعوا أخبارهم من أبناء الشعراء الجاهليين ومن ذوي رحمهم وآلهم ، ونجد في كتب الأخبار والأدب أخباراً كثيرة من شعراء جاهليين ، نقلها الرواة من أبناء أولئك الشعراء ، أو من ذوي قرابتهم ، فقد جاء قسط كبير من شعر الشاعر (تميم ابن مقبل) عن ابنته أم شريك ، وجاء جزء من شعر (حاتم) وأخباره عن ابنه (عدي)[2] .

وأخذ الرواة شعر الشعراء الجاهليين من قبائلهم كذلك ، فقد كان في القبيلة من يحفظ شعر شعرائها أو شعر البارزين منهم . وقد رأينا كيف استعزت تغلب بقصيدة (عمرو بن كلثوم) فكانت ترددها دوماً حتى عيبت على ذلك[3] ، وكان في القبائل الأخرى من حفظ شعر شعرائها ، ونجد كتب الأدب والأخبار تنص على أسمائهم ، فتذكر اسم الشخص ، وتنص على اسم قبيلته ، وقد تذكر جملاً مثل « سمع أشياخاً من طيء »[4] ، أو « حدثني الطائيون »[5] ، وأمثال ذلك ، من جمل تنص على اسم المورد الذي استقى منه الرواية خبره أو شعر الشاعر من القبيلة .

ونجد في كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ) ، وفي

---

١ ديوان سراقة (٦٤ وما بعدها) .
٢ ديوان حاتم (٣١) .
٣ الاغاني (١١/٥٤) .
٤ المعمرون (٧٢) .
٥ ديوان حاتم (٣٠) .

كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، أسماء شعراء جاهليين ، وقد أخذا علمها بهم ممن تقـدم عليهم فألف قبلهم في موضوع الشعر والشعراء ، ودوّن (اليعقوبي) في تأريخه جريدة بأسماء شعراء العرب ، وقد جعل أولهم (امرىء القيس) ، وذكر (النابغة) الذبياني بعده ، وانتهى بالمخضرمين[1] ، ولكنـه لم ينص على اسم المورد الذي أخذ تلك الأسماء منه .

ولا نجد بين أسماء الشعراء الجاهليين اسم شاعر واحد نظـم شعره وعاش في العربية الجنوبية أو نظم بلهجة متأثرة باللهجات العربية الجنوبية،فأكثر من ذكروهم من الشعراء انما هم من الشعراء الذين قضوا أكثر حياتهم خارج العربية الجنوبية، وقد كان في هذه العربية شعراء ولا بد ، فليس من المعقول خلوها من الشعـر والشعراء ، ولكن علماء العربية لم يعتنوا إلا بشعراء القبائل التي احتكوا بها والتي أخذوا العربية عنها ، والتي اعتبروا لسانها من أفصح ألسنة العرب ، فضاع بسبب ذلك شعر القبائل التي كانت بعيدة عنهم أو التي كان لسانها بعيداً بعض البعد عن العربية التي ارتضوها والتي نزل بها القرآن الكريم .

ولا نجد في الشعر الجاهلي الواصل الينا شعراً نظم في أغراض دينيـة وثنية ، أي في عبادات القوم قبل الاسلام ، اللهم إلا ما نسب الى بعض الشعراء الأحناف من شعر فيـه تحنف ، وإلا ما نسب الى بعض آخر من شعر فيه اشارات عابرة الى عقائد يهودية أو نصرانية . أما شعر وثني خالص، من شعر فيه ترنيم بالأصنام والأوثان ، وتحميد لها وتقديس ، أو وصف لطقوس دينية وثنية ، فهو شعر لم يصل الينا منه شيء ، وسبب عدم وصوله الينا هو الاسلام ، الذي اجتث كـل ما يمت الى الوثنية بصلة قريبة ، وقضى عليه ، فامتنع المسلمون من روايـة هذا النوع من الشعر .

الشاعر :

والشاعر متعاطي الشعر ومحترفه ومن يقوله ، أو يكثر القول منه . ذكر علماء اللغة أنه إنما سمي شاعراً ، لأنه يشعر ما لا يشعر غيره ، أي يعلم ، أو لفطنته[2].

---

١ اليعقوبي (١/ ٢٣٠ وما بعدها) ، (شعراء العرب) .
٢ تاج العروس (٣/ ٣٠١) ، (شعر) ، العمدة (١/ ١١٦) .

ومن هنا قال البعض ان الشعراء في الجاهلية كانوا أهل المعرفة ، يعنون أنهم كانوا من أثقف أهل زمانهم ، وأنهم كانوا على مستوى عالٍ في الفكر والرأي وفي فهم الأمور[1] .

وجعلوا للشعراء مزايا ، ومنحهم العلماء امتيازات خاصة ، وقالوا عنهم : « الشعراء أمراء الكلام ، يقصرون الممدود ، ويمدّون المقصور ، ويقدمون ويؤخرون ، ويؤشرون ويُشيرون ، ويختلسون ويُعيرون ويَستعيرون . فاما لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج صواب ، فليس لهم ذلك »[2] .

وفي كتب أهل الأخبار أخبار تدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرقي العقلي ، وعلى تقدير الناس لمدارك الشعراء . جاء أن « الطفيل الدوسي قدم مكة ورسول الله بها ، فحذره رجال من قريش من سماع النبي حتى لا يتأثر بقوله . قال الطفيل : فما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ، ثم قلت في نفسي : واثكل أمي ! والله إني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني من أن أسمع هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وان كان قبيحاً تركته »[3] ، وجاء في خبر آخر ، « ان الطفيل لما قدم مكة ، ذكر له ناس من قريش أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وسألوه أن يختبر حاله فأتاه فأنشده شعره ، فتلا النبي الإخلاص والمعوذتين فأسلم »[4] . وفي هذا الخبر ان صح دلالة على تقدير الناس لفطنة الشاعر ولسمو مداركه . وقد رأينا ما كتبه (هوذة بن علي) الحنفي ، للرسول من أنه شاعر قومه وسيدهم ، ونجد في خبر (جلاس بن سويد) الصامت الأنصاري، أن قومه أتوا عليه « فقالوا: إنك امرؤ شاعر ..»[5] ، وفي هذه الأخبار وغيرها دلالة على أن الشعراء كانوا يرون أنفسهم فوق الناس في الفطنة والفهم ، وأن الناس كانوا يرون هذا الرأي فيهم ، لما يجدونه فيهم من فطنة وذكاء .

---

١ فجر الاسلام (٥٥ وما بعدها) .

٢ المزهر (٢/٤٧١) .

٣ ابن هشام ، سيرة (١/٢٣٥) ، فجر الاسلام (٥٦) .

٤ الاصابة (٢/٢١٧) ، (رقم ٤٢٥٤) ، الاستيعاب (٢/٢٢٣) ، (حاشية على الاصابة) .

٥ الاصابة (١/٢٤٣) ، (رقم ١١٧٦) .

ولا يعني هذا ان الشعراء كانوا كلهم من أرقى الناس عقــلاً ، ومن أفهم الناس إدراكاً ، ومن أعلمهم بالأمور وأبصرهم بالمعرفة ، فبينهم ولا شك تفاوت في الإدراك ، وفي مجتمعهم من هو أرقى منهم عقلاً وأكثر منهم إدراكاً ، وهم مع ذلك لا يقولون الشعر أو لا يمارسونه ، مثل الحكام والكهنة ،وأصحاب الآراء. وانما الشعر ، ملكة ، لا تكون إلا عند صاحب حس مرهف ، ولا تظهر إلا في انسان ذكي فطن لبيب ، يذلل الألفاظ والأبيات ، لتنصاع لإرادته ، فيخرجها أبياتاً وقصائد تعبر عن مشاعره ومداركه . فالشاعر من هنا من أذكى النـاس ، ومن أهل الإدراك والمعرفة .

والشعراء ككل البارزين من طبقات مختلفــة تباينت في السويات ، منهم من نبت من عائلة شريفة ، ومنهم من نبت من عائلة أعرابية ، ومنهم من نبغ من بيت فقير . وقد سمى أهل الأخبــار شعراء بأسمائهم كانوا من أشراف قومهم ، وسمّوا شعراء كانوا من أوساط أقوامهم ، أو من النابتة . فالنبوغ لا يختص بجماعة دون جماعة ، ولا بطبقة دون طبقة .

وشعر الشاعر هو دليل عقليته ومقدار مداركه ، ولهذا تباين واختلف ، فنجد في شعر شعراء البادية الروح الأعرابية والخشونة تتجسم في المعاني وفي الألفاظ ، ونجد في شعر الحضر أثر النفس الحضريـــة ، ونرى في شعر الجوابين القاصدين للملوك ، والذاهبين الى الحضر والأعاجم ، أثر اختلاطهم بهم في شعرهم ، كما هو في شعر الأعشى .

والشعراء الجاهليون ، هم من قبائل متعددة ذات لهجات وحروف في الكلام مختلفة ، ولكننا نرى أن لغة شعرهم وطريقة نظمهـم واحدة ، لا فرق فيها بين قحطاني وعدناني ، ولا بين شاعر من عرب العراق أو بلاد الشأم وشاعر من أهل اليمن أو الحجاز أو نجد . ومعنى هذا ان الشعراء كانوا اذا نظموا شعراً، نظموه ببحور معروفة مقررة ، وبلغة عالية ، سمت فوق لهجات القبائل، على نحو ما نفعل في الزمن الحاضر من استعمال لغة عربية فصيحة هي لغة القرآن الكريم في النظــم والنثر والاذاعة وما شابه ذلك من وسائل الإيضاح والإعلان ، ومن استعمال لهجات محلية في الحياة اليومية الاعتيادية في مثل البيت والسوق والتفاهم بين الناس .

ولكن هــذا لا يعني أن الشعراء لم يكونوا ينظمون الشعر بألسنتهم القبلية ،

ووفق قواعد منطقهم ، فقد ثبت من أقوال علماء الشعر ، ومن أخبار أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا ينظمون بلهجاتهم ، وكان نظمهم مفهوماً عند غيرهم ، وقد تحتاج الاذن الى تأمل وتفكير ، لإدراك كلمات ومعاني ذلك الشعر . قال (ابن هشام) في شرح الشواهد : « كانت العربُ ينشد بعضهم شعرَ بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات »[1] . فالشاعر التميمي ، ينظم بلهجته ، والشاعر الأسدي ينظم بلهجة بني أسد قومه الذين ولد بينهم ، والشاعر الثقفي ينظم بلهجة ثقيف ، ولكنه إذا أنشده في غير قومه ، فهم وعرف معناه ، وان احتيج الى ترقيع أو تعديل في بعض الأحيان .

ودليل ما أقول : هو ما نجده في شعر الشواهد من اضطراب في القواعد ، وخروج على أصول النحو والصرف ، وورود ألفاظ في الشعر الجاهلي دعاها علماء اللغة غريبة أو وحشية ، أو ألفاظ خاصة ذكروا أنها وردت في شعر الشاعر ، لأنها من ألفاظ قبيلته، التي انفردت بها دون سائر القبائل ، ولو كان نظم الشعر بغير لغة القبائل ، لما شاهدنا فيه هذه الخصائص اللسانية التي وجدها علماء اللغة في شعر بعض الشعراء ، ولجاء الشعر كله بلا خصائص قبلية وبلا ألفاظ غريبة ، أما وقد صقل العلماء الشعر وحسنوا في بعض ألفاظه ، ونقحوا منه ما نقحوه ، فإن ذلك دليل في حد ذاته على أن الشعراء كانوا ينظمون الشعر بألسنتهم ، وهي غير متباينة تبايناً كبيراً ، فلما ضبطه العلماء ، ودونوه ، هذبوا ما شذّ منه وفق القواعد التي تثبتت في الاسلام . ففي الأخبار أن رواة الشعر ، كانوا يجرون تغييراً في نصوص الشعر ، لتحسين الشعر وتصليحه ، فقد رووا أن (الأصمعي) رفع لفظة (زنديه) من هذا البيت المنسوب الى (امرىء القيس) :

رب رام من بني ثعلٍ　　مخرج زنديه من ستره

فجعله كفيه[2] ، ورووا اجراء اصلاحات أخرى ، أدخلها علماء اللغة على شعر امرىء القيس وغيره ، اقتضتها قواعد الاعراب أو البلاغة والبيان[3] .

---

١ المزهر (١/٢٦١) ، (النوع السادس عشر) .
٢ الموشح (٢٢) .
٣ الموشح (٢٢ ، ٢٨ ، ٨٥ ، ٩٥) ، مجالس ثعلب (٤٨١) .

وتجد في (رسالة الغفران) ملاحظة طريفة عن التغيير الذي كان يجريه (المعلمون) في نصوص الشعر ، فقد تصور ان (امرىء القيس) قد سئل عن كيفية وجود (الزحاف) في شعره ، ثم أجاب على لسانه بقوله : « فيقول امرؤ القيس : أما أنا فما قلت في الجاهلية إلا بزحاف :

لك منهن صالحٍ

وأما المعلمون في الاسلام ، فغيّروه على حسب ما يريدون »[١] .

وورد ان رواة الشعر كانوا ينقحون حتى في شعر الشعراء الاسلاميين،وحجتهم في ذلك ان « الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء »[٢] . وقد يقوم بذلك رواة الشاعر نفسه . ورد ان رواة الفرزدق كانوا « يعدلون ما انحرف من شعره » ، وأن رواة جرير ، فعلوا مثل فعلهم في إصلاح شعر صاحبهم[٣] .

والتصحيح المذكور،وان كان جزئياً ، تناول ألفاظاً في الأكثر، لكنه في الواقع تحريف وتزييف ، وتغيير للنصوص وتبديل لها ، حرمنا من الوقوف على قواعد اللهجات العربية عند الجاهليين ، بسبب ان المعدلين المصححين ، لم يشيروا في كثير من الأحايين الى المواضع التي غيّروها وأجروا التصحيح فيها ، ولو فعلوا ذلك ، لكان الأمر علينا سهلاً هيناً ، إذ يكون في وسعنا إرجاع الأمور الى نصابها والوقوف على النصوص،وإن كان عملهم هذا هو عمل مخالف للذمة وللحق، حتى في هذه الحالة ، لأن من قواعد الأمانة وجوب المحافظة على الأصل .

وعندي أن اللغة التي نظم بها الشعر الجاهلي هي لغة الأعراب ، وهي أصل اللغة العربية ، ولغة أهل البوادي والقرى التي غذتها البادية بالسكان . ولهذا قال (الجاحظ) : « ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابياً »[٤] ، دلالة على ما للبادية والبداوة من صلة به . ولهذا أيضاً جعل العلماء مقياس الشعر أن يكون عربياً بألفاظ نجدية ، أي أعرابية خالصة ، وهذه العربية كانت تمتد فتشمل لغة أعراب بادية الشأم ، بما في ذلك قرى الفرات العربية ، التي جاء سكانها العرب

---

١ رسالة الغفران (٣١٨) .
٢ الموشح (١٢٥) .
٣ الاغاني (٤/٢٥٨) .
٤ البيان والتبيين (١/٩٤) .

من البادية . ولهذا أيضاً حفلوا بالشعر الصلب الصلد ، المنظوم بألفاظ بدوية صميمة تمثل الغلظة والشدة والمتانة ، ولم يميلوا الى شعر شعراء أهل القرى ، لأنه شعر سهل سلس ، خال من صلابة البوادي ومن غلظة الشعر الأعرابي .

وشعراء الجاهلية بعد ، إما شعراء ظهروا بين أهل الوبر ، فهم شعراء أعراب يمثل شعرهم تَنَفّس البادية : وطبيعة البداوة وعقليتها ، وإما شعر أهل مدر ، وهم الحضر ، المستقرون ، وسكان القرى . ولشعر شعرائهم طابع خاص يمثل الطبيعة الحضرية حسب درجاتها ومراتبها واختلاط أهلها بالأعاجم ، أو انعزالهم في مستوطنات حضرية ظهرت في البادية . فمن سافر من شعرائهم واختلط بالأعاجم ، وشاهد بلاد الشأم والعراق ، تأثر بما شاهده ، فبان ذلك الأثر في شعره ، كما يظهر ذلك في شعر الأعشى ، وعدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصلت .

وطبيعي أن يكون بين الشعراء تنافس وتحاسد وتقدم وتأخير وتفضيل . وفي كتب الأدب أمثلة على منافرات ومناظرات جرت بين شعراء ، لبيان رأيهم في شعر شعراء آخرين . وطبيعي أيضاً أن يكون بين شعراء الجاهلية كالذي وقع في كل زمان ومكان ، شعراء فحول ، وشعراء دونهم في المنزلة والدرجة وفي القدرة في الشعر .

وذكر أن شعراء الجاهلية كانوا يتفاخرون بعضهم على بعض ، ويتعارضون في قول الشعر ، ويمالطون . والمالطة : أن يقول رجل نصف بيت ليتمه الآخر ، ويقال لذلك التمليط ، وأن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسيماً وهذا قسيماً ، لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه[1] ، وهو نوع من التفاخر والتنافر والتعجيز وإظهار النفس بالتغلب على المنافس .

والشعراء بعد منازل في قول الشعر ، فمنهم الشاعر الفحل ، الذي لا يبارى ، ذكر أنهم كانوا لا يسمون الشاعر فحلاً ، إلا إذا كانت له حكمة . ومنهم الشاعر الخنذيذ . والخنذيذ : الفحل ، والشاعر المجيد المفلق ، وتطلق اللفظة أيضاً على الخطيب البليغ المفوه المصقع وعلى العالم بأيام العرب وأشعارهم[2] . وقيل :

---

١ العمدة (١/٢٠٢) ، (٢/٩١) ، « مالط فلان فلانا اذا قال هذا نصف بيت واتمه الاخر بيتا . يقال ملط له تمليطا » ، اللسان (٧/٤٠٩) ، (ملط) .
٢ تاج العروس (٨/٥٦١) ، (الخنذيذ) ، المزهر (٢/٤٨٩) .

الشاعر الخنذيذ ، هو الذي يجمع الى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره . والمفلق ، هو الذي لا رواية له ، إلاّ أنه مجود كالخنذيذ في شعره ، وقيل : هو الذي يأتي في شعره بالفلق ، وهو العجب . ثم يليه الشاعر فقط ، وعرّفوا الشاعر ، أنه الذي لم ينعته علماء الشعر بنعت من هذه النعوت ومن كان فوق الرديء بدرجة . وأما الشعرور ، فهو لا شيء ، والشويعر ، هو من كان دون الشاعر في الشعر[1] . ويذكرون أن الشعراء أربعة . ذكروا في شعر ، ينسبه بعضهم الى الحطيئة ، هو :

الشعراء فاعلمن أربعه فشاعر لا يرتجى لمنفعه
وشاعر ينشد وسط المعمعه وشاعر آخر لا يجرى معه
وشاعر يقال خمر في دعه

وقالوا : رابع الشعراء ، إزدراء وتحقيراً :

يا رابع الشعراء كيف هجوتني وزعمت أني مفحم لا أنطق[2]

وقسم بعض العلماء الشعراء : ثلاث طبقات : شاعر ، وشويعر ، وشعرور[3] .

ورووا : أن امرأ القيس بن حجر أطلق لفظة (الشويعر) على (محمد بن حمران بن أبي حمران) ، وهو ممن سُمي محمداً في الجاهلية ، وهو شاعر قديم ، فقال فيه :

أبلغا عنّي الشويعر أنّي عمد عين نكبتهن حزيما

فسمي بهذا البيت الشويعر[4] .

قال (الجاحظ) : « والشعراء عندهم أربع طبقات . فأولهم : الفحل الخنذيذ . والخنذيذ هو التام . قال الأصمعي : قال رؤبة : الفحولة هم الرواة . ودون الفحل

1 العمدة (١/١١٤ وما بعدها) .
2 العمدة (١/١١٤ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢/٩) ، المزهر (٢/٤٩٠ وما بعدها) .
3 البيان والتبيين (٢/١٠) ، الخزانة (١/١٣٠) .
4 البيان والتبيين (٢/١٠) الآمدي ، المؤتلف (١٤١) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٦) .

الخنذيذ الشاعر المُفلق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعرور . ولذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء :

يا رابع الشعراء كيف هجوتني وزعمتَ أني مفحم لا أنطق

فجعله سكيتاً مخلفاً ومسبوقاً مؤخراً .

وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعراء ثلاث : شاعر ، وشويعر ، وشعرور . قال : والشويعر مثل محمد بن حُمران بن أبي حمران ، سمّاه بذلك امرؤ القيس بن حجر »[1] .

ويظهر من القول المنسوب الى (رؤبة) ، ان الشعراء الرواة ، كانوا في نظره أرفع منزلة من بقية الشعراء ، ولعل ذلك بسبب طول حفظهم للشعر ، مما أكسبهم علماً وخبرة ومراناً به ، فصارت صياغتهم له أعلى من صياغة الشعراء الذين لم يكونوا يحفظون شعر غيرهم من الشعراء ، ولم يكن لهم علم بأساليب غيرهم من الشعراء . فبسبب الحفظ ، طوّعوا الشعر والكلم وركبوا ظهره بكل سهولة، حتى صار طوع أيديهم .

والتقسيم المذكور هو تقسيم اسلامي ، كما ان تقسيمهم الشعراء الى سبع طبقات هو تقسيم اسلامي كذلك . فقد قسموهم الى أصحاب المعلقات ، وأصحاب المجمهرات ، وأصحاب المنتقيات ، وأصحاب المذهبات ، وأصحاب المراثي ، وأصحاب المشوبات ، وأصحاب الملحمات[2] .

عدد الشعراء :

وقد أحصى بعض الباحثين المحدثين عدد أسماء الشعراء الجاهليين الذين ذكروا في كتب الأدب ، فبلغ عدد ما أحصوه (١٢٥) شاعراً[3] . وهناك أسماء جاهليين استشهد الرواة ببيت أو بأبيات من شعرهم في كتب الأدب واللغة ، لو أحصوا

---

١ البيان والتبيين (٢/ ٩ وما بعدها) .
٢ زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/ ٧٩ وما بعدها) .
٣ زيدان ، (١/ ٧٧) تأريخ آداب اللغة العربية (١/ ٧٥) .

واعتبرناهم من ضمن الشعراء ، لاضطررنا إلى تغيير هذا الرقم ، بإضافة هؤلاء عليهم . ومع ذلك ، فإننا لا نستطيع القول بأن هذا الرقم هو رقم نهائي ومضبوط لشعراء الجاهلية ، فالمنطق يحملنا على تصور وجود عدد آخر من الشعراء فات خبرهم عن رواة الشعر ، لأسباب عديدة ، منها قدم أولئك الشعراء ، بحيث لم تتمكن ذاكرة حفظة الشعر من استيعابهم ، ثم بُعد بعضهم عن الأرضين التي حصر علماء الشعر فيها نشاط بحثهم عن الشعر الجاهلي وعن شعرائه ، ثم كون قسم منهم من الشعراء المحليين ، أو الشعراء المقلين الذين لم ينتشر شعرهم بين الناس .

وقد فطن الى ذلك القدماء ، فقال (أبو عمرو بن العلاء) : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[1] . وذكر غيره ان العلماء على حرصهم على العناية بجمع شعر الشعراء ، لم يتمكنوا مع ذلك من جمع أشعار قبيلة واحدة ، فكيف بشعر كل القبائل[2] ! والواقع ان في العرب قابلية على قول الشعر ، وبين الصحابة عدد كبير نظموا شعراً روي في الكتب،ومع ذلك ، فلم يعدّهم العلماء في جملة الشعراء ، وكذلك الحال بالنسبة الى أهل الجاهلية ، فقد كان بينهم عدد كبير ينظم الشعر .

انشاد الشعر :

وللشعراء طريقة خاصة في انشاد الشعر . يذكرون ان الشاعر منهم كان اذا أراد إلقاء شعر ، تهيأ لذلك واستعد له ، وأظهر للناس انه يريد إلقاء شعر. ومن أصولهم في الإلقاء أن ينشد الشاعر شعره وهو قائم[3] . وأن يلبس الوشي والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر[4] .

وذكر أن من عادة الشعراء في الهجاء ، أن أحدهم كان إذا أراد الهجاء

---

١ المزهر (٢/٤٧٤) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٨ وما بعدها) .
٣ العمدة (١/٢٦) .
٤ البيان والتبيين (٦٠) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (٣/١١٥) ، (هارون) .

« دهن أحد شقي رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلاً واحدة »[1] . وقد ذكر (المرتضى) ، في خبر وفود العامريين على النعمان بن المنذر ، وكان فيهم (لبيد ابن ربيعة) ، وهو يومئذ غلام له ذؤابة ، وكان القيسيون قد صدوا وجه النعمان عنهم ، فأرادوا تقديم (لبيد) ليرجز بالربيع بن زياد رجزاً مؤلماً ممضاً ، وكان هو الـذي صرف الملك بالطعن فيهم وذكر معايبهم ، فحلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين وألبسوه حلة وغدوا به معهم ، فدخلوا على النعمان . فقام وقد دهن أحد شقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلاً واحدة على فعل شعراء الجاهلية إذا أرادت الهجاء ، ثم أنشد رجزه الذي أثر في النعمان ، حتى صار سبباً في ابعـاد (الربيع ابن زياد) عنه[2] .

واذا أراد شاعر انشاد شعر ،وقف وأنشد شعره ، بأسلوبه الخاص في الإنشاد[3]. وقد يترنمون في انشادهم ليكون الإلقاء أوقع أثراً في نفوس السامعين . وقد يلقي راوية الشاعر شعر شاعره إذا كان أقدر منه على الإنشاد . وذكر أن (النشيد) هو الشعر المتناشد بين القوم ينشد بعضهم بعضاً ، ومنه نشد الشعر وأنشده ، إذا رفعه . وأنشد بهم ، هجاهم . « وفي الخبر أن السلّيطين قالوا لغسان : هــذا جرير ينشد بنا ، أي يهجونا »[4] . ولا يخلو الانشاد من الترنم على اللحن الـذي يتسمح به الطبع ، ومن مدّ الصوت ، ليكون للشعر وقع على نفوس سامعيـه ، وتأثير جميل على المنصتين له .

وذكر ان الشعراء كانوا لا ينشدون إلا قيامـاً ، وقـد يعلو أحدهم موضعاً مشرفاً ، أو يركب ناقته ، ليدل على نفسه ، ويعلم انه المتكلم دون غيره، وكذلك كان يفعل الخطيب[5] . وقد استدل بعض المستشرقين من هــذا الوصف على أن الشعراء انما أخذوا تقليدهم هذا من السحرة : الشعراء الأوائل ومن الكهنة ، لأن السحرة والكهنة كانوا ينظمون الشعر وينشدونه على هيأة خاصة،يلبسون فيها أردية خاصة ويقفون في وضع خاص حين إنشاد الشعر .

---

١ أمالي المرتضى (١٩١/١) .
٢ أمالي المرتضى (١٩١/١) ، الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٢٣/٣) .
٣ العمدة (٢٦/١) .
٤ اللسان (٤٢٢/٣ وما بعدها) ، (نشد) .
٥ العمدة (٢٦/١) .

وذكر ان الملوك كانوا يجلسون خلف الستور حين يستمعون الى شاعر. فروي ان (عمرو بن هند) كان يسمع الشعراء من وراء سبعة ستور[1] . وان الشاعر (الحارث بن حلزة) اليشكري لما طلب قومه منه انشاد قصيدته أمام (عمرو بن هند) ، قال لهم : « والله إني لأكره أن آتي الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور ، وينضح أثري بالماء ، اذا انصرفت عنه ، وذلك لبرص كان به » . فلما سمع قصيدته أمر برفع الستور ستراً ستراً ، حتى صار مع الملك في مجلسه ، وأمر أن لا ينضح أثره بالماء .. » « وأمره أن لا ينشد قصيدته إلا متوضئاً »[2] .

ولكن العادة أن الشاعر يقف أمام الملك ، الذي قد يكون جالساً على سرير ، فينشده شعره بعد أن يكون قد استأذنه بذلك . وقد يكون في المجلس جملة شعراء، أذن لهم بالدخول عليه جملة واحدة ، لينشدوا الملك شعرهم وما جاءوا به من شعر في مديحه . ويكون المجلس عامراً بأهل الحظوة من المقربين الى الملك ومن الشعراء الملازمين له . وكانت مجالس ملوك الحيرة ، عامرة بهذه المناسبات ، أكثر بكثير من مجالس الغساسنة ، لغلبة النزعة الأعرابية على ملوك الحيرة وقلة تأثرهم بالحضارة ، وتغلب الحياة الحضرية على الغساسنة وتأثرهم بالحياة اليومية لأهل الشام، وبنزعة الروم في الحكم وفي آداب السلوك ، حتى أنهم كانوا يتلذذون في الاستماع الى غنائهم ، ولهم قيان في قصورهم وبيوتهم يغنّين لهم بغناء الروم .

وكان من عادة الأعراب الطواف حول قبة الملك مع رفع الصوت بالرجز ، ليسمع الملك صوت الراجز ، فإذا عرفه أو أعجبه رجزه ، اذن له بالدخول . وكان الملوك يضربون قبة على أبوابهم ، يقعد فيها الناس حتى يؤذن لهم[3] وقد يكون هذا الرجز مقدمة لدخول الشاعر على الملك حتى يلقي عليه ما يكون نظمه في مدحه وفي مدح آله من شعر .

وكان من عادة الملوك وسادات القوم والأشراف انهم اذا سمعوا الشاعر ، واستحسنوا شعره ، طربوا حتى يظهر الطرب عليهم وأظهروا استجادتهم لشعره ، وربما شربوا اذا كانوا في مجلس الشرب ، وأدنوا الشاعر اليهم ، وأسقوه من

---

١ شرح المعلقات ، للزوزني (١٥٤) ، (صادر) .
٢ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (ص ٣٧٩ وما بعدها) ، (معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي) .
٣ الخزانة (١٥٨/٤) ، (بولاق) ، (الشاهد الثامن والثمانون بعد السبعمائة) .

شرابهم حتى يطرب : وقد يطلبون من الشاعر إعادة إنشاد الأبيـات المستجادة . وكان الشاعر يستأذن صاحب المجلس أولاً ليسمح له بانشاده شعره . ولما استأذن (النابغة) الجعدي رسول الله ، أن ينشده شعره ، قال له الرسول : أجدت لا يفضض الله فاك ، أي لا يكسر أسنانك ، والفم هنا الأسنان[1] . ولا زال الناس يرددون هذه العبارة وعبارة : أعـده أحسنت وأجدت ، أو أعد أعد ، يقولونها بحماس وبصوت مرتفع ارتفاعاً يتناسب مع حس الاستحسان اذا قال الشاعر قولاً يستجيده العارفون بالشعر .

سوق عكاظ :

ومن مرويات أهل الأخبار ، ان الشعراء الجاهليين كانوا يغدون الى عكاظ ، « فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، ثم يتفرقون »[2]. وذكر ان (النابغة) الذبياني ، كان ممن يأتيها ، فتضرب له قبة حمراء من أدم ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، وكان ممن تحاكم اليه ، الأعشى ، أبو بصير ، فأنشده ، ثم أنشده (حسان بن ثابت) ، ثم الشعراء ، ثم جاءت (الخنساء) فأنشدته ، فقال لها (النابغة) : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت انك أشعر الجن والإنس . فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك . فقبض النابغة على يده ، ثم قال : يا ابن أخي ، انك لا تحسن أن تقول مثل قولي :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

ثم قال للخنساء : أنشديه ، فأنشدته ، فقال : والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك ، فقالت له الخنساء : والله ولا ذا خصيين »[3] .

---

١ تاج العروس (٥/٦٩) ، (فض) .

٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) ، معجم البلـدان (٦/٢٠٣) ، البلـدان (٣/٧٠٤) ، اللسان (٧/٤٤٧) ، (عكظ) .

٣ الشعر والشعراء (١/٢٦١) ، الاغاني (٨/١٩٤) ، السيوطي ، شرح شواهـد (١/٢٥٦ وما بعدها) ، تاج العروس (٥/٢٥٥) .

وروي أن (حسان) كان قد أنشده شعره :

لنا الجفنات الغُر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً واكرم بنا ابنما

فقال له (النابغة) : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفناتك وسيوفك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[1] .

وهو خبر مصنوع ، شك فيه العلماء ، « قال أبو علي : هذا خبر مجهول لا أصل له »[2] . وقد روي عن الآمدي قوله : « أجمعت العرب على فضل النابغة الذبياني ، وسألته أن يضرب قبة بعكاظ ، فيقضي بين الناس في أشعارهم لبصره بمعاني الشعر ، فضرب القبة وأتته وفود الشعراء من كل أوب » . ثم ذكر القصة ، وروي أن الذي فنّد حساناً وعاب عليه بيته ، هو الخنساء[3] . والقصة مطعون فيها . « حكى ابن جنى عن أبي علي الفارسي ، أنه طعن في صحة هذه الحكاية »[4] . فالقصة موضوعة، وما هذا القصص المروي عن (عكاظ)، إلا من روايات أهل الأخبار ، وضعوه مع قصصهم الموضوع عن اختيار قريش للغة ، وتخيرها أحسن الألفاظ ، وتحكيمها في الشعر .

وذكر أن (عمرو بن كلثوم) كان ممن حضر سوق عكاظ ، وقد أنشد فيها قصيدته الشهيرة :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تُبقي خمور الأندرينا

وهي معلقته الشهيرة ، وهي قصيدة طويلة ، ذهب الكثير منها ، قيل إنها كانت تزيد على ألف بيت . وقد ذكر أن الرسول سمع الشاعر ينشد قصيدته هذه بسوق عكاظ[5] .

---

١ العسكري ، المصون (٣ وما بعدها) ، خزانة الادب (٣/٤٣٠ وما بعدها) ، ديوان حسان (٣٧١ وما بعدها) ، الاغاني (٧/١٨٠) .
٢ خزانة الادب (٣/٤٣١) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٦ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٧) .
٥ الاغاني (١١/٥٤) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٢٢) .

ولم نسمع ان أحداً من الشعراء حكم في الشعر في سوق عكاظ قبل (النابغة) ولا بعده . وسوق عكاظ سوق لم تقم إلا قبيل الاسلام ، ولعل هذا التحكيم من القصص الذي أوجده أهل الأخبار ، وقد يكون (النابغة) قد نظر حقاً في شعر (حسان) ، ولكن ذلك لا يمكن أن يعد حكومة دائمة لسوق عكاظ ، اختصاصها النظر والتحكيم في شعر الشعراء الجاهليين ، واذا كان (النابغة) حاكم سوق عكاظ حقاً ، فلمَ لم نسمع بأحكام أخرى له في حق شعر شعراء آخرين ، ما دام كان يحضرها في كل عام ، وتضرب له قبة من أدم ، يجعلها مقراً له ولحكومته ، ولمن يحضر اليه من الشعراء رجاء النظر في شعره .

وذكر ان القبائل كانت تفد الى (عكاظ) وتبحث عن مختلف الأشياء وتتداول أشياء قبيحة أو محمودة ، وان الرسول حضرها ، للدعوة الى الاسلام[1] .

ولم نسمع بأن الشعراء كانوا يتوافدون الى مكة موسم الحج ، لإنشاد شعرهم، على نحو ما ذكر عن سوق عكاظ ، مع أن موسم الحج من المواسم المعهودة بالنسبة الى قريش والى من كان يعيش حولها من قبائل ، وشرف إلقاء الشعر في موسم الحج أسمى ولا شك من شرف إلقائه بسوق عكاظ وفي الأسواق الأخرى ، فلو كان الشعراء كما زعم أهل الأخبار يقيمون وزناً كبيراً لحكم قريش في أشعارهم ، فلمَ لا نجد في أخبارهم خبراً يشير الى تجمع الشعراء في مكة للتباري في انشاد الشعر وفي الحصول على شرف التقدير والتقييم من قريش ، ليتباهى الفائز بالتقدير على سائر أقرانه الشعراء ؟ ثم لمَ لم نسمع بأسماء القصائد التي نالت منهم شرف التقدير والتعظيم ، خلا المعلقات السبع ، التي شك في صحة تعليقها حتى المحافظين من أمثال المرحوم (الرافعي) !

يثرب :

واذا كانت سوق عكاظ موضع تحكيم على النحو الذي رأيناه ، واذا كانت مكة ، قد نظرت في شعر شاعر ، أو شاعرين ، فقد كانت يثرب موضع تقدير

---

١ التاريخ الكبير (١/٢٢٣) ، البداية والنهاية (٣/١٤١) ، معجم البلدان (٣/٧٠٤) ، الاغاني (١١/٦) ، المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة (٣/١٥١٤ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٢) .

وتقييم للشعر كذلك . فقد ذكر أهل الأخبار ان « النابغة قدم المدينة ، فدخل السوق ، فنزل عن راحلته ، ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على عصاه ثم أنشأ يقول :

عرفت منازلاً بعريتنات فأعلى الجزع للحي المبن

حتى اذا انتهى من شعره ، قال ألا رجل ينشد ؟ فتقدم (قيس بن الخطيم) فجلس بين يديه وأنشده قصيدته التي مطلعها : « أتعرف رسماً كاطراد المذهب » حتى فرغ منها ، ثم استمع الى شعر حسان . وذكر انه قال لكل واحد منهما : « أنت أشعر الناس »[1] .

وروي ان (النبي) وضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي[2] ، وذلك لما كان للشعر من أثر في نفوس الناس آنذاك .

وقد تخصص أناس بإنشاد الشعر ، كانوا رواة شعر ، ينشدون شعر غيرهم أو شعرهم بأسلوب مؤثر ، ذكر ان منشداً أنشد يوماً رسول الله :

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم حتى تلاقي ما يمني لك الماني
فالخير والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديدان[3]

تطواف الشعراء :

وكان الشعراء يتنقلون من مكان الى مكان ، فكان (الأسود بن يعفر) ، « يكثر التنقل في العرب يجاورهم ، فيذم ويحمد »[4] ، وجاب (الأعشى) معظم أنحاء جزيرة العرب والعراق وبلاد الشأم ، وكان النابغة يتنقل ، فيزور ملوك الحيرة والغساسنة ، ويسافر الى مكة وسوق عكاظ ، وكان (عمرو بن كلثوم) من المتنقلة كذلك ، وقد علمت أمر (امرىء القيس) وتنقله بين القبائل، وأمر

---

١ الاغاني (٣/١٠) ، (دار الثقافة) .
٢ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) .
٣ الفائق (٣/٥٢) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .

(الصعاليك) ، اللذين كانوا يتنقلون من مكان الى مكان للحصول على رزقهم ، وأمر (حسان) وقصده ملوك الغساسنة ووصوله الى الحيرة ، بل اننا لا نكاد ندرس حياة شاعر جاهلي ، حتى نراه جواباً ، متنقلاً من مكان الى مكان، حتى صار التنقل من سيماء الشاعر عند الجاهليين ، وكان هدفهم في الدرجة الأولى ملوك الحيرة ثم ملوك الغساسنة ، أما ملوك اليمن ، فقلما نجد في أخبار الشعراء وصولهم اليهم وانشادهم شعرهم أمامهم ، وذلك بسبب أن لسانهم كان لا يشاكل لسان الشعراء ، وأما ما نسب اليهم من شعر ، وما قيل من مدح بعض الشعراء لهم ، فهو من القصص الذي لا يرجع الى أصل ، إلا ما ذكر من شعر في مدح بعض أذواء اليمن،فإن هؤلاء لم يكونوا ملوكاً ، وإنما كانوا سادة مواضع وقبائل تقع شمال اليمن في الغالب ، وقد كانت على صلة بالعرب الشماليين ، وبلغة (ال) في ذلك الحين ، ومع ذلك فإن صلتهم بهم لم تكن على نمط صلة الشعراء بسادات العرب الشماليين .

كان الشاعر يتنقل بين القبائل ، فينزل على ساداتها ويحل في ضيافتهم ، يقصد ملوك الحيرة خاصة ، لما كان لهم من نفوذ في جزيرة العرب ، ولينال عطاياهم، أو ليتوسط في حل ما بين الملوك وما بين قبيلة الشاعر، أو قبائل أخرى من أمور معقدة ومشكلات مستعصية ، كما كان يزور الريف والقرى للميرة ولنيل هبات ساداتها من تمور أو دقيق أو أي شيء آخر يكون عند الحضر . فيمدح ويذم ، وينشد شعره في أسواق القرى وفي نواديها ومجتمعاتها ، فكان سوق (يثرب) ، وهو المحل الذي يتجمع فيه الناس للبيع والشراء الموضع الذي يقصده الشاعر لإنشاد شعره به ، ثم حل مسجد الرسول محله في الاسلام .

وقد ورد في الشعر الجاهلي ذكر بعض المواضع التي نزل بها الشاعر ، أو التي ارتحل اليها ليزورها ، وقد طمست أسماء بعض منها ، وبقيت أسماء بعض آخر . وقد أمدتنا هذه الأسماء بمادة طيبة ، أفادتنا في الحصول على معارف تأريخية وجغرافية عنها . ففي شعر (الأعشى) ، وهو من الشعراء المتنقلة الذين أكثروا من الأسفار ، وتنقلوا من مكان الى مكان ، نجد أسماء أماكن عديدة وردت في شعره ، مثل (عانة) ، و (بابل) ، و (الحيرة) ، ومواضع في اليمامة وفي اليمن . وتطرق في شعره هذا الى أحوال من مر بهم ، وذكر أسماءهم وأسماء قبائلهم ، فصار شعره لذلك مورداً هاماً بالنسبة لنا ، أفادنا في الوقوف على

نواح مهمة من التأريخ الجاهلي .

رحل (الأعشى) الى الغساسنة ملوك عرب الشأم ، والى المناذرة ملوك عرب العراق ، والى (قيس بن معديكرب) ، والى (ذي فائش) في اليمن ، والى (بني الحارث بن كعب) في نجران ، فمدحهم ونال عطاءهم ،وأقـام عندهم يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي[1] ، مما يدل — إن صح هـذا الخبر — على تأثر سادة نجران بالثقافة الرومية ، التي ربما أخذوها عن طريق ارتباطهـم بالروم بروابط النصرانية ، وعلى وجود جالية من الروم في نجـران أو رجال دين من الروم ، عينتهم الكنيسة لتعليم الناس أمور الدين ، فقد كان الروم يرسلون رجال دينهم الى هذه المواضع والى غيرها للتبشير ، ولأغراض سياسية في الوقت نفسه .

ونجد في شعر (الصعاليك) أسماء المواضع التي غزوها ، والطرق التي سلكوها في طريقهم الى الغـارات ، أو في طرق عودتهم منها الى ديارهم ، ونظراً الى كثرة تنقلهم وخبرتهم بالمواضع ، وبأبعادها وبأصحابها ، لما في هـذه الخبرة من العلاقة بنجاح سوقهم وتجارتهم ، أفادتنا إشارتهم الى المواضع والقبائل فائدة كبيرة إذ حصلنا بواسطتها على معارف عن أحوال أهل الجاهلية ، ساعدتنا في سد بعض الثلم الكثيرة من ثلم بنيان التأريخ الجاهلي .

طباع الشعراء :

والشعراء في الطبع مختلفون ، منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من تتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل ، ومنهم من يحسن الوصف ، فإذا صار الى المديح والهجاء ، أو الى الحكم والموعظة ، خانه الطبع ، وتأخر عن غيره من الفحول[2] . ومن هنا لم يبرز فحول الجاهلية ، ومن عدّ في الطبقة العليـا من طبقات الشعراء في كل درب من دروب الشعر وطرقه وفنونه . بل ظهروا وبرزوا في أمور ، وتأخروا أو لم يبرزوا في أمور أخرى ، فذكروا مثلاً ان (النابغة) الجعدي ، كان أوصف الناس لفرس[3] . وورد عن (ابن الأعرابي) قولـه :

---

١ الاغاني (٦/٣٠) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣٧) ، (الثقافة) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .

« لم يصف أحد قط الخيل إلا احتـاج الى أبي دواد ، ولا وصف الحُمر إلا احتاج الى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد النعامة إلا احتاج الى علقمـة بن عبدة ، ولا اعتذر أحد في شعره إلا احتاج الى النابغة الذبياني[1] .

وقد قال من قدّم (امرأ القيس) على غيره من الشعراء ، انـه « سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعته فيهـا الشعراء ، منه استيقاف صحبه والبكاء في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبّه النساء بالظباء والبيض والخيل والعقبان والعصي ، وقيّد الأوابد ؛ وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[2] . فهذه هي المزايا التي ميزت شعره عن شعر غيره من الجاهليين .

وقال علماء الشعر الذين قدّموا النابغة على غيره ، انه كان أحسنهم ديباجـة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً ، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف[3] . وأما الذين قدّموا (زهيراً) على غيره ، فقالوا : « كان زهير أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة في المدح »[4] .

وقلما نجد الشاعر الجاهلي يعنى بوصف الطبيعة أو مظاهرها بشعر خاص ، كأن يصف المطر وحده ، أو الشمس والكواكب والأجرام السماويـة ، أو الجبال أو السهول أو الحيوانات أو النبـات ، وصفاً خاصاً لا يهرب منه الى أمور أخرى لا صلة لها بهذا الوصف ، ثم إنه قلما يتعمق في الوصف ، فيصف الأجزاء والفروع وكل ما في الموصوف من مميزات ، وهو إذا وصف الطبيعة ، أو تعرض لوصف مشهد بارز منها أثر عليه ، فإنه لا يفرد ذلك الوصف في كلمة خاصة به لا يشاركه فيها مشارك بحيث يكون شعره وصفياً خاصاً بالطبيعة ، وإنمـا يقحم الوصف في القصيدة جرياً على العرف الشعري الذي سار عليه الشعراء ، وليس عن عمد وتقصد لوصف ما يراد وصفه بالذات . ثم هو لا يصف من الشيء الموصوف ككل ، وإنما يصف منه ما يلفت نظره ، وما يؤثر على حسه وبصره . فهـو إذا وقف

---

١ الاغاني (١٥/٩٣) .
٢ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .
٣ ابن سلام ، طبقات (١٧) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٨) .

أمام شجرة لا ينظر اليها ككل ، إنما يستوقف نظره شيء خاص فيها ، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ؛ وإذا كان أمام بستان لا يحيطه بنظره ، ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه (الفوتوغرافيا) ، إنما يكون كالنحلة يطير من زهرة الى زهرة فيرتشف من كل رشفة .

هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف لك ما ترى في أدب العرب – حتى في العصور الإسلامية – من نقص ، وما ترى فيه من جمال .

فأما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة أدبية – نظماً أو نثراً – من ضعف المنطق ، وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وقلة ارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت الى القصيدة – وخاصة في الشعر الجاهلي – فحذفت منها جملة أبيات أو قدّمت متأخراً أو أخرت متقدماً ، لم يلحظ القارىء أو السامع ذلك – وإن كان أديباً – ما لم يكن قد قرأها من قبل[1] .

« وهذا النوع من النظر هو الذي قصّر نفَس الشاعر العربي ، فلم يستطع أن يأتي بالقصائد القصصية الوافية،ولا أن يضع الملاحم الطويلة كالإلياذة والأوديسا.

أما ما أفادهم هذا النوع من التفكير ، وخلع على آدابهم جمالاً خاصاً، فذلك ان هذا النظر لما انحصر في شيء جزئي خاص جعلهم ينفذون الى باطنه ، فيأتون بالمعاني البديعة الدقيقة التي تتصل به ، كما جعلهم يتعاورون على الشيء الواحد ، فيأتون فيه بالمعاني المختلفة من وجوه مختلفة ، من غير إحاطة ولا شمول ، فامتلأ أدبهم بالحكم القصار الرائعة والأمثال الحكيمة . وأتقنوا هذا النوع الى حد بعيد ، غنيَ به عقلهم ، وانطلقت به ألسنتهم ، حتى لينهض الخطيب فيأتي بخطبته كلها من هذه الأمثال الجيدة القصيرة ، والحكم الموجزة الممتعة ، فلكل جملة معان كثيرة تركزت في حبّة ، أو بخار منتشر تجمع في قطرة . ولما جاء الاسلام تقدمَ هذا النوع من الأدب ، واقتبسوا كثيراً من حكم الفرس والهند والروم »[2] .

وأكثر الوصف الوارد في الشعر الجاهلي ، وصف لم يرد لأن الشاعر قصده وأراده ، وإنما هو وصف ورد عرضاً في القصيدة على النسق الذي زعموا أن (امرأ القيس) وضعه وحاكاه فيه غيره ممن عاصره أو جاء بعده من الشعراء .

---

١ فجر الاسلام (٤٢ وما بعدها) ، (الطبعة العاشرة ١٩٦٥) .
٢ فجر الاسلام (٤٣ وما بعدها) .

فالشاعر يبدأ بتذكر الديار وبالبكاء على الأحبة وعلى من فارقهم ، فيدفعه ذلك الى الوصف ، بأبيات يجعلها مقدمة لغرض آخر ، فهي إذن مقدمة ، وليست غاية ، ثم هو إذا افتخر وأراد الاشادة بنفسه وبما قام به من عمل بطولي،لم يصف نفسه وصفاً شاملاً عاماً ، وإنما يصف من نفسه بعض ما يعجبه وما يريد التبجح به ، من مغامرات عجيبة قام بها ، ومن صبر وتحمل للجوع وللمشقات وللأهوال ومن عدم تهيب من اقتحام الصحارى الموحشة المخوفة ، وحده ، لأنه لا يرهب أحداً ، ولا يخشى وحشاً ، فإذا جابهه وحش ، وصفه وصفاً ، لا يتعدى النواحي الخاصة التي يراها تظهر شخصيته وتبرز شجاعته ثم يبالغ ويبالغ في وصف المخاطر والمهالك التي لم يبال بها ، للوصول الى هدفه[1] . وهو اذا اصطاد صيداً ، بالغ في الجهد الذي صرفه في صيده ، ونوه بجودة حصانه ، وبالطريقة التي صاد بها فريسته .

وهو اذا ما أراد مدح انسان ، قدم لمدحه مقدمة تزيد على شعر المدح في الغالب ، يذكر فيها الأهوال والمخاطر وحرّ الشوق ، والتلهف الشديد وما شاكل ذلك من أمور ، لتكون شرح حال له يبين مبلغ حبه له واخلاصه لمن سيمدحه، ذي الجود والكرم والسخاء ، الذي يجود بماله وبما عنده ، ولا يحسب لنفسه ولأهله حساباً ، يجود خاصة في السنة الجماد ، وفي مواسم القحط والبرد الشديد حيث تموت الماشية والأنعام ، ومع ذلك فإن الممدوح ، لا يعبأ بكل ذلك ، ويسخر من الخوف من العواقب السيئة التي ستحيق به إن بذر ماله . وقد يبالغ الشاعر نفسه في مدح نفسه ، ويشيد بسخائه وجوده ، ويتخذ من ذلك قصص شجار يقع بينه وبين زوجه في الغالب ، يشاركها ولدها فيه ، بسبب تبذير الرجل لما عنده من مال ، وعدم اهتمامه بما سيحيق بأهله من جوع وفقر .

وهو اذا تغزل ، فوصف محبوبته ، فإنما يصف منها ما يلفت نظره ، من أجزاء في الجسد ، أو لون أو ما شاكل ذلك مما يلفت نظره ، وقد يقارن بينها وبين بعض الحيوانات التي تعجبه مثل المها والظباء ، والخيل والعقبان ، وقد زعم

---

[1] غرونباوم (١٦٠ وما بعدها) ،
G. E. Von Grunebaum, Die Wirklichkeitweite der Fruh-arabisch Dichtung. Wien, 1937, S. 148. f.

أهل الأخبار ان (امرأ القيس) كان قد سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء ، منها انه شبّه النساء بالأمور المذكورة، فصار تشبيهه هذا لهن سنّة لمن جاء بعده من قالة الشعر[1]. وقد يصف الليل وشدة طوله وسهره فيه ومبلغ ما ألمّ به من أرق لفراق محبوبته ، أو من شدة تذكره لها ، وقد يذكر حزنه على فراقها وكيف انه كان يقضي لياليه ساهراً يناجي نجوم السماء ، ويعدها، ينتظر ذهاب كابوس ليله عنه حتى يتراءى له نور الصباح ، وفيه الأمل والرجاء. ووصفه كله ، ليس وصفاً كلياً عاماً محيطاً ، وانما وصف جزئي ، جاء تعبيراً عن خاطر الشاعر ومحاكاة للطريقة التقليدية التي توارثها الشعراء بعضهم عن بعض.

وقد برز بعض الشعراء في وصف بعض الحيوانات ، كما أشرت الى ذلك في مواضع سابقة ، فقد اشتهر (أبو دؤاد) بوصف الخيل ، حتى صُيّر بطل الشعراء في هذا الميدان ، واشتهر النابغة الجعدي بوصف الفرس ، واشتهر أوس ابن حجر بوصف الحمر ، وعرف علقمة بن عبدة بوصف النعامة[2] . وقد وصف غيرهم من الشعراء هذه الحيوانات وغيرها ، كما نجد ذلك في الأشعار المنسوبة اليهم .

ومن أبرز المواضيع التي تطرق اليها الشعراء في وصفهم لمظاهر الطبيعة: المطر، والنخيل،والسحب ، ومشاهد من فصول الشتاء ، والغدران ومواضع المياه والسيول والنحل والعسل البري ، وبعض الصخور الغريبة ، والطيور ، أما البحر والسفن ، فيردان على لسان الشعراء الساكنين على السواحل ، حيث يرون البحر وسفنه[3] . ولكننا لا نجد وصفاً خاصاً بهما ، يظهر فيه تأثر الشاعر وإحساسه بالبحر ، أو بالسفن ، من حيث هي سفينة ، وإنما ذكر وهما عرضاً على سبيل الفخر،ولأمور عرضية أخرى . فالوصف الجاهلي لعناصر الطبيعة خالياً من المشاعر الخاصة ، ومن التصورات المعبرة عن إلهام الشاعر الذاتي[4] .

وذكر أن من الشعراء من كان يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ، ولا يستبهر بالفواحش ولا يهتم في الهجاء ، ومنهم من كان ينعي على نفسه ويتعهر ،

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٢٧) ، الاغاني (٩٣/١٥) .
٣ غرونباوم (١٦٢) .
٤ غرونباوم (٦١) .

ومنهم امرؤ القيس والأعشى[1] ، وأن منهم من كان يأتي بالحكم في شعره ، مثل: زهير والأفوه الأودي ، وعلقمة بن عبدة ، وعبيد بن الأبرص ، وعدي بن رعلاء الغساني وغيرهم . والحكمة عندهم ، هي خلاصة تجارب الشاعر في هذه الحياة ، وما حصل عليه من رأي استوحاه من الواقع أو من أفواه الناس وتجاربهم. وهي بديهة من البديهيات صيغت شعراً . قد يبدع في صياغتها الشاعر فتسير بين الناس مثلاً ، كقول (عدي بن رعلاء) الغساني :

ليس من مات فاستراح بميْتٍ … إنما الميّتُ ميّتُ الأحياء[2]

ويظهر من بيت ينسب الى (زهير) ، هو :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً … أو مُعاداً من لفظنا مكرورا

إن شعراء الجاهلية كانوا قد وصلوا الى حالة جعلتهم يقلدون من سبقهم في الشعر ويحاكون طرقهم في النظم ، فهم يعيدون ويكررون ما قاله الشعراء قبلهم . وهو كلام يؤيده قول علماء الشعر في القصيدة ، من انها كانت تسير على هدى الشعراء السابقين في نظمها من بدء بذكر الديار والبكاء على الأحبة والأطلال الى غير ذلك من وصف ، حتى صارت هذه الجادة ، جادة يسير عليها كل شاعر، مما أثّر على البراعة والابتكار وجعل الشعر قوالب معروفة معينة ، يختار الشاعر قالباً منها ليعبر به عما يريد أن يقوله نظماً . ومن هنا ثار (أبو نواس) وأضرابه من الشعراء الاسلاميين على (التقليد) في النظم ، لتبدل العقلية وتغير الزمن ، وإن كنت أجد في هذه الثورة مبالغة وإفراطاً في الاتهام . فالقصيدة الجاهلية وإن غلب عليها التقليد والمحاكاة ، مما ضيق عليها المعاني ، إلا انها لم تكن كلها على نمط واحد على نحو ما يقوله علماء الشعر والأدب ، كان الشعراء يراعون الوزن والقافية والرويّ ، وهي أمور ميزت الشعر العربي عن غيره ، ولكنهم كانوا يتحللون فيما عدا ذلك ، فيأتون بالمعاني التي تدركها عقولهم ، وهي معان استمدت من المحيط ، وهو محيط واحد ، ألهم الشعراء شعرهم ، فمن ثم تقارب الإلهام وقربت المعاني ، ولو تعددت طبيعته ، لما غلب على شعر أولئك الشعراء ما نأخذه عليهم

١ ابن سلام ، طبقات (١٤) .
٢ الاصمعيات (١٧١) .

وقد كان تغير وتنوع معاني الشعر في الاسلام ، نتيجة حتمية لتغير المحيط .

المغلبون :

ومن الشعراء من كان لا يستطيع الوقوف أمام خصمه ، فيغلب ، فذكر ان (النابغة) الجعدي ، كان مختلف الشعر مغلَّباً . وكانت العرب اذا قالت مغلَّباً فهو مغلوب ، واذا قالب َغلـَبَ ، فهو غالب ، وقد غلبت عليه (ليلى الأخيلية) و (أوس بن مغراء) القريعي[1] . وذكروا ان (تميم بن أبي مقبل) وهو شاعر (خنذيذ) مُغلَّب عليه النجاشي ، ولم يكن اليه في الشعر ، وقد قهره في الهجاء، ثم هاجى النجاشي عبد الرحمان بن حسان فغلبه عبد الرحمان ، وكان « ابن مقبل جافياً في الدين . وكان في الاسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرها ، فقيل له تبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم ، فقال :

وما لي لا أبكي الديار وأهلها   وقد زارها زوار عك وحميرا
وجاء قطا الأجباب من كل جانب   فوقــع في اعطاننا ثم طيرا[2]

ومن المغلبين : الزبرقان ، غلبه عمرو بن الأهتم ، وغلبه المخبـل السعدي ، وغلبه الحطيئة ، وقد أجاب الإثنين ولم يجب الحطيئة[3] .

والهجــاء فن ، لا يستطيع كل شاعر أن يبرز فيه ، لما يجب أن يكون في الشاعر من ذكاء وسرعة خاطر وقابلية على إسكات الخصوم . ولهذا كان يخشى جانب الهجاء فلا يتعرض له إلاّ من وهب قابلية على الهجاء . وإلا غلب عـلى أمره ، وصار من المغلبين[4] ، وهو من أهم أبواب الشعر عند الجاهليين ، لما له من أثر في حياتهم ، حيث يغض من منزلة المهجو .

وذكر أن الشعراء كانوا ينازعون بعضهم بعضاً على التقدم في الشعر ، فذكر أن (امرأ القيس) نازع (الحارث بن التوأم) اليشكري ، فقال : إن كنت

---

١ ابن سلام ، طبقات (٢٦ وما بعدها) ، العمدة (١/١٠٤) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣٤) .
٣ العمدة (١/١٠٧) .
٤ العمدة (١/١١١ وما بعدها) .

شاعراً ، فأجز أنصاف ما أقول فأخذا يتسابقان في ذلك[1] . وذكر أن (عبيد بن الأبرص) الأسدي ، لقي (امرأ القيس) يوماً ، فقال له عبيد : كيف معرفتك بالأوابد ؟ فقال له : إلق ما شئت ، وأخذا يتسابقان . وكان آخر مـــا أجاب به (امرؤ القيس) هذا البيت :

تلك الموازين والرحمـــان أنزلها ربّ البرية بين الناس مقياسا[2]

وهو بيت مفضوح ، يحدثك عن أصله وفصله ، وعن هذه القصة ، وقـــد فات وضاع القصة أن هذا الشعر لا يمكن أن يقع من شاعر جاهلي ، لا سيما إذا كان على شاكلة امرىء القيس .

والأبيات الجيدة من الشعر ، في نظر نقدة الشعر هي الأبيات التي إذا سمعت صدر البيت فيها ، عرفت قافيته[3] .

بدء الشاعر :

يبدأ الشاعر بالشعر بعد إحساسه بوجود ميول له الى الشعر ، تدفعه دفعاً على الاقبال عليه ، فيبدأ يحفظ الشعر المقال ، وبنظمه ، ويكون هذا النظم نظمـــاً تجريبياً غير متقن في بادىء أمره ، ويقال لهذه المرحلة (الغرزمة) . و (الغرزمة) أن يقول الشاعر الشعر قبل أن يستحكم طبعه وتقوى قريحته[4] . فإذا قوي به وتمكن منه صار من الشعراء المجيدين .

وقد كان الشاعر الجاهلي مثل الشاعر الاسلامي ، يبدأ لكي يكون شاعراً بحفظ شعر غيره ، ولا سيما شعر المشهورين من الشعراء المتقدمين عليـــه ، حتى يرويه رواية ، وقد يتصل بشاعر يعجبه من شعراء قبيلته أو من غيرهم ، فيلازمه ويأخذ عنه شعره ، حتى يصير راوية له ، ومتى شعر هذا الراوية الحافظ لشعر غيره ، ان عوده قد استوى ، وأن له قابلية في النظم ، أظهر شعره للناس ، وربما بعد

---

١ الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر (١٦ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (١٧ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١/١١٦) .
٤ الخزانة (١/٢٢٠) .

أن يكون قد وجد التشجيع ممن اتصل بهم من الشعراء ومن المتذوقة للشعر ، العارفين به ، ولما كانت الشاعرية موهبة يصقلها المران ومرور الزمن ، فإن كثيراً من الشعراء نظموا الشعر وهم صغار ، ولا سيما أولئك الذين نشأوا في بيت برز به شاعر ، أو في بيوت عرفت بنبوغ جماعة من أفرادها بنظم الشعر،فهناك بيوت معرقة توارثت الشعر أباً عن جد . وقد سبق أن ذكرت قول (رؤبة) : «الفحولة هم الرواة»[1] ، أي ان فحول الشعراء هم الذين كانوا في بادىء أمرهم رواة شعر .

فحفظ الشعر وروايته هو مران كان لا بد منه لتهيئة شاعر فحل . وقد وجدت هذه النظرة عند الفرس كذلك ، قال صاحب (چهار مقالة) : «ولا يبلغ الشاعر هذه المنزلة إلا أن يحفظ في عنفوان الشباب وريق العمر عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين ويجعل نصب عينه عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين ويديم القراءة في دواوين الأئمة ويلتقط منها ليعلم كيف تصرفوا في مضايق القول ودقائق الكلام حتى يرتسم في طبعه صور الشعر وطرائقه ، ويتجلى له مزايا الشعر ونقائصه ، فيرتقي قوله ويعلو طبعه . فإذا رسخ طبعه في نظم الشعر ، وانقاد له الكلام عمد الى علم الشعر وقرأ العروض ... وقرأ نقد المعاني والألفاظ والسرقات والتراجم وأنواع هذه العلوم على أستاذ حاذقها ليكون جديراً بالأستاذية»[2] . وهذا الرأي الفارسي الاسلامي ، يمثل ولا شك رأي قدماء الفرس كذلك .

ولم يكن الشاعر الجاهلي يعرف بالطبع هذه العلوم والقيود التي عرفت وشاعت في الإسلام ، بل لم يكن الشاعر العربي الإسلامي ليحفل بالعروض وبعلوم البيان والبديع ، لأن الشعر طبع وموهبة ، وإذا لم تكن الموهبة موجودة في إنسان، فلن يكون هذا الشخص شاعراً موهوباً مرموقاً مهما حفظ من الشعر ، وبلغ من علم العروض ومن علوم الصناعة الأخرى التي لها مساس بالشعر . فقد برز شعراء جاهليون قالوا شعراً وهم بعد أحداث ، واشتهروا به بين قومهم وهم بعد شباب. وطرفة الشاعر المشهور ، كان لا زال شاباً حين قتل ، ومع ذلك ، نجد ترتيبه بعد امرىء القيس في ترتيب المعلقات ، وفي ترتيبه هذا دلالة على تقدير قصيدته، واشتهار أمره بالشعر . وقد نظم (الخليل بن أحمد) شعراً ، وهو صاحب

---

١ البيان والتبيين (٢/٩ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (٤٨) .

العروض ، ونظم غيره من فحول هذا العلم ، ومن فحول اللغة شعراً ، لم يعد من عيون الشعر العربي ، ونظم الفقهاء شعراً عرف بين نقاد الشعر ، وأهل البصر به بـ (شعر الفقهاء) ازدراء به . بل نجد الشعراء الإسلاميين يهزأون من قواعد العروض .

ألقاب الشعراء :

ويذكر أهل الأخبار ويؤكدون ان أهل الجاهلية لقبوا شعراءهم بألقاب ،مثل: المهلهل ، والمرقش ، وذا القروح ، والمثقب ، والمنخل ، والمتنخل ، والأفوه، والنابغة . قيل عن المهلهل ، انه انما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره ، أي رقته وخفته، وقيل لاختلافه ، وقيل : بل سمي بذلك لقوله :

لما توقل في الكراع شريدهم   هلهلت أثأر جابراً أو صنبلا

وقيل لأنه كان أول من هلهل الشعر وأرقه وألان ألفاظه[1] .

وذكر ان (المرقش) الأكبر ، انما عرف بذلك ، بقوله :

الدار قفر والرسوم كما   رقش في ظهر الأديم قلم

أو لأنه كان قد عني بتنميق شعره ورقشه[2] .

وروي ان لقب (المثقب) العبدي ، انما جاءه من قوله :

رددن تحية وكنن أخرى   وثقبن الوصاوص للعيون[3]

وعرف المتلمس بهذا الاسم بقوله :

فهذا أوان العرض حياً ذبابه   زنابيره والأزرق المتلمس[4]

---

١ العمدة (٨٦) ، (ويروي لماتوغر) و « لما توعر في الكلاب هجينهم » ، و (توعر) ، المزهر (٢/٤٣٤) ، الاغاني (٥/٥٧) .

٢ الشعر والشعراء (١/١٣٨) ، تاج العروس (٤/٣١٤) ، (رقش) ، البيان والتبيين (١/٣٧٥) ، المفضليات (١/٤١٠ ، ٤٨٥) .

٣ الشعر والشعراء (١/٣١١) .

٤ الشعر والشعراء (١/١١٤) ، البيان والتبيين (١/٣٧٥) .

وعرف الممزق بهذا اللقب لقوله :

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق[1]

وعرف (النابغة) بالنابغة بقوله :

وحلت في بني القين بن جسر وقد نبغت لنا منهم شؤون[2]

وذكر أن (منبه بن سعد) ، إنما عرف بـ (أعصر) ، بقوله :

أعمير إن أباك غيّر لونه مرّ الليالي واختلاف الأعصر

وان معاوية بن تميم ، إنما عرف بـ (الشقر) بقوله :

قد أحمل الرمح الأصم كُعوبُه به من دماء القوم كالشقرات[3]

وأن (خالد بن عمرو بن مرة) ، إنما قيل له (الشريد) ، بقوله :

وأنا الشريد لمن يعرفني حامي الحقيقة ما له مثل

وأن (صريم بن معشر) التغلبي ، إنما عرف بـ (أفنون) بقوله :

منّيتنا الودّ يا مضنون مضنونا أزماننا إن للشبان أفنونا[4]

وأن معاوية بن مالك ، سُمي معود الحكام لقوله :

أعوّد مثلها الحكّام بعدي إذا ما الأمر في الأشياع نابا[5]

وذكر (الجاحظ) ، أن (عمرو بن رباح) السلمي أبو خنساء ابنة عمرو ، غلب عليه الشريد ، لقوله :

تولى إخوتي وبقيت فرداً وحيداً في ديارهم شريدا[6]

---

١ الشعر والشعراء (٣١٤/١) ، البيان والتبيين (٣٧٥/١) .
٢ الشعر والشعراء (٩٨/١) ، المزهر (٤٣٢/٢ ، ٤٣٦) .
٣ المزهر (٤٣٤/٢) .
٤ المزهر (٤٣٥/٢) .
٥ المزهر (٤٣٦/٢) .
٦ البيان والتبيين (٣٧٥/١) .

وعرف (خداش بن بشر) ، (خداش بن لبيد بن بيبة) ، (خداش بن بشر بن خالد بن بيبة) من بني مجاشع بالبعيث ، لقوله :

تبعث مني ما تبعثَ بعدما أمرت حبالي كل مرتها شزارا [1]

وذكروا ان (الفند) ، واسمه (شهل بن شيبان) ، انما سمي الفند ، لأنه قال يوم (قضة) : أما ترضون أن أكون لكم فِنـــداً . وأن طفيلاً الغنوى ، انما عرف بالمحبر ، لتحسينه الشعر [2] ، وأن علقمة بن عبدة ، انما لقب بالفحل، لأنه تزوج امرأة امرىء القيس ، بعد أن حكمت له بتفوقه على زوجها في الشعر أو لأنه كان في قومه علقمة آخر عرف بـ (علقمة) الخصي ، وان (الأعشى) انما عرف بصنّاجة العرب ، لكثرة ما تغنت العرب بشعره [3]،وأن عنترة انما لقب بالفلحاء لفلحة كانت به [4] .

وأما الأغربة من الشعراء ، فهم عنترة ، وخفاف بن ندبة السلمي ، وأبو عمير ابن الحباب السلمي ، وسليك بن السلكة ، وتأبط شراً ، والشنفرى ، وكلهم من الشعراء الجاهليين [5] .

الى آخر ما ذكروه من تعليلات عن أسباب تلقيب الشعراء الجاهليين بألقابهم التي عرفوا بها ، تجد بقيتها مدونة في كتب الأدب واللغة والأخبار [6] .

ولعلماء الشعر بعد ، آراء في أحسن وأجود ما قيل من شعر في فن واحد من فنون الشعر ، فقيل أرثى بيت قيل في الجاهلية ، قول أوس بن حجر :

أيتها النفس اجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

---

١ وقيل : سمي البعيث لقوله :
تبعث مني ما تبعث بعدما استمر فؤادي واستمر عزيمي
البيان والتبيين (٢٠٤/١ ، ٣٧٤) ، المؤتلف (٥٦) .
٢ المزهر (٤٣٠/٢) .
٣ المزهر (٤٣١/٢) .
٤ المزهر (٤٣٢/٢) .
٥ المزهر (٤٣١/٢) .
٦ المزهر (٤٣٦/٢ وما بعدها) .

وهذا على رأي الأصمعي[1] ، وقدم غيره قول عبدة :

فما كان قيسٌ هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدّمـــا[2]

ومنهم من قدم شعر الخنساء[3] .

وقيل إن قول امرىء القيس في الماء ، هو أحسن ما قيل فيه[4] . وان وصف (أوس بن حجر) للسحاب ، هو أحسن ما قيل فيه[5] ، وان أهجى بيت قالته العرب ، قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[6]

وأن أمدح بيت قالته العرب قول زهير :

تراه إذا ما جئتـــه متهلـــلاً كأنك معطيه الذي أنت سائله

وبيت النابغة :

بأنك شمس والملوك كـــواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[7]

ولكنك لو أطلت النظر في كتب الأدب ، تراها تختلف في هذا الاختيار وفي اسم الشاعر ، وسبب ذلك اختلاف أمزجة العلماء ، واختلاف وجهات نظرهم في نقد الشعر[8] .

وللعلماء كلام في أوصف الشعراء للدرع ، أو للفرس ، أو للنجوم والكواكب ، أو للدنيا الى غير ذلك من أشياء[9]

---

١ ديوان أوس (١٣) ، المصون (١٦) .
٢ المصون (١٦) .
٣ المصون (١٧) .
٤ المصون (١٨) ، ديوان امرىء القيس (١١١) .
٥ المصون (١٩) .
٦ ديوان الاعشى (١٩) .
٧ « كأنك » ، (لانك) ، ديوان النابغة (١٣) ، المصون (٢١ وما بعدها) .
٨ راجع المصون (٢٢ وما بعدها) ، ترى العلماء يختلفون في أمدح بيت ورد في شعر الجاهليين .
٩ المصون (ص ٢٤ فما بعدها) .

وقد عرفت القصائد التي يكون الشاعر فيها منصفاً في شعره ، بالمنصفات ، والمنصفة هي القصيدة التي يكون الشاعر فيها قد أنصفَ من تحدث عنه ، فإذا كان في فخر واستعلاء على قوم ، فخر بقومه ، وذكر في الوقت نفسه فضائل خصوم قومه ، وشجاعتهم واستبسالهم في معاركهم مع قومه . ومن المنصفات قصيدة (العباس بن مرداس) السينية التي قالها في يوم (تثليث) ، حيث غزت (سُليم) مراداً ، فجمع لهم (عمرو بن معديكرب) ، فالتقوا بتثليث ، فصبر الفريقان ، ولم تظفر طائفة منهما بالأخرى ، فصنع العباس بن مرداس قصيدته المذكورة[1] .

وزعم علماء الشعر ، ان الشعراء الجاهليين كانوا في سرقة الشعر مثل الشعراء الاسلاميين ، فقد كان منهم من يسطو على شعر غيره ، فيدخله في شعره ، وينحله نفسه ، أو يضمن شعره من معانيه ، ولهم في ذلك بحوث . وذكروا ان من الشعراء الاسلاميين من سطا على شعر الشعراء الجاهليين ، أو أخذ منه[2] .

الشهرة بالشعر

يقول الرواة والعلماء بالشعر : من أراد الغريب فعليه بشعر هذيل ، ومن أراد النسيب والغزل من شعر العرب الصلب ، فعليه بأشعار عُذرة والأنصار ، ومن أراد طرف الشعر وما يحتاج الى مثله عند محاورة الناس وكلامهم فذلك في شعر الفرسان .

وأشعر الفرسان : دريد بن الصمة ، وعنترة ، وخفاف بن ندبة ، والزبرقان ابن بدر ، وعروة بن الورد ، ونهيكة بن إساف ، وقيس بن زهير ، وصخر ابن عمرو ، والسليك بن سلكة ، وأنس بن مدركة ، ومالك بن نويرة ، ويزيد ابن الصعق ، ويعدّ من الفرسان الأشراف ، ويزيد بن سنان بن أبي حارثة[3] .

---

١ العمدة (٢/٢١٧) .
٢ المصون (٦٦ وما بعدها) .
٣ المصون (١٧٣ وما بعدها) .

يذكر أهل الأخبار أن العرب كانت لا تتكسب بالشعر ، أنفة وتعززاً ، وإنما يصنع أحدهم ما يصنع مكافأة عن يد لا تستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها . بقوا على ذلك دهراً ، حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وقد كان أشرف بني ذبيـان ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته ، وله مال يكفيه ، فسقطت منزلته ، وكسب مالاً جزيلاً حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيها من عطايا الملوك . وذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر ما فيه قبح من مجاعلة الحاجب ومجاملتـه والتودد اليه تقرباً وتزلفاً ليوصله الى النعمان ، ومن دس الندماء على ذكره بين يديه ، وما أشبه ذلك[1] . هذا ، وإنما امتدح ملكاً ، فكيف بشاعر يمدح من هم دون الملوك والأشراف من السوقـة وسواد الناس ، طمعاً في صلة وعطاء[2] !

وتكسب زهير بن أبي سُلمى يسيراً مع (هرم بن سنان) ، ونال (أميـة ابن أبـي الصلت) عطايا (عبدالله بن جدعان) لمدحه اياه ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلاد ، وقصد حتى ملك العجم فأثابه ، لعلمـه بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه ، على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له ، بل استخف به واستهجنه لكنه حذا حذو ملوك العرب[3] .

ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه ، حتى مقت وذل أهله ، واستصغر شأنه ، وعرف بتكسبه بشعره[4] .

وقد عيب « من تكسب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة ، وجوائز الملوك والسادة ، في قصائد السماطين »[5] . وانما المقبول ما جاء بما لا يزري بقدر ولا مروءة ، مثل الفلتة النادرة ، والمهمة العظيمـة ، وعن باب التودد والتلطف

---

١ بلوغ الارب (٣/٩٠ وما بعدها) ، العمدة (١/٨٠) .
٢ العمدة (١/٤٠ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/٩١) ، العمدة (١/٨١) .
٤ العمدة (١/٨١) .
٥ البيان والتبيين (٢/١٣ وما بعدها) .

والتذكر ، فأما من وجود الكفاف والبلغة فلا وجه لسؤاله بالشعر[1] .

ومن هنا زعم أهل الأخبار ان أشراف أهل الجاهلية ، كانوا يأنفون من قول الشعر ، وكانوا ينهون أولادهم من قوله ، فلما خالف (امرؤ القيس) ، وهو شريف وابن ملك ، أمر والده من وجوب ترك الشعر ، واستمر على قوله ، طرده بسببه من بيته ، وأخرجه من داره ، فصار من الضلّيلين ، وهو زعم عارضه (ابن رشيق) وردّ عليه بقوله : « وقد غفل أكثر الناس عن السبب ، وذلك انه كان خليعاً ، متهتكاً ، شبب بنساء أبيه ، وبدأ بهذا الشر العظيم ، واشتغل بالخمر والزنا عن الملك والرياسة ، فكان اليه من أبيه ما كان ، ليس من جهة الشعر ، لكن من جهة الغي والبطالة ، فهذه العلة ، وقد جازت كثيراً من الناس ومرت عليهم صفحاً »[2] . فلم يكن طرد امرىء القيس من بيت أبيه اذن بسبب قوله الشعر ، وإصراره عليه ، وانما بسبب أعماله من خلاعة وتهتك واستهتار ، وهي أعمال تنافي أخلاق الأشراف .

وقد قيل في الشعر إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل ، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل . وإنـه أسنى مروءة الدني ، وأدنى مروءة السريّ . وقيل ان الشريف كان يتحاشى قول الشعر ، ويمنع أولاده من قولـه . لأن قول الشعر مثلبة للرجل الشريف . وقـد فسر هذا الزعم بعض العلماء بقوله : « إن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا مدح به ، مثل ما يضع من قـدر الشريف إذا اتخذه مكسباً ، كالذي يؤثر من سقوط النابغة الذبياني بامتداحه النعمان بن المنذر ، وتكسبه عنده بالشعر ، وقد كان أشرف بني ذبيان ، هذا ، وانما امتدح قاهر العرب ، وصاحب البؤس والنعيم »[3] . مدحه ولم يكن في حاجة اليـه ، وكان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك . وبـين الشعراء الجاهليين من كان من السادة الأشراف ، ولم يجد مع ذلك غضاضة في قوله الشعر ،

---

١ بلوغ الارب (٩١/٣ وما بعدها) .

٢ العمدة (٤٣/١) .

٣ في قول « ابن رشيق » « وصاحب البؤس والنعيم » هفـوة ، لان صاحب البؤس والنعيم ، هو « المنذر بن ماء السماء » ، وصاحب النابغة هو « النعمان بن المنذر » ، العمدة (٤١/١) ، البيان والتبيين (٢٤١/١) .

ومن غض من قدره ، هو من استجدى بشعره ، واتخذ شعره سبباً من أسباب التكسب .

وما يقوله أهل الأخبار عن التكسب بالشعر يمثل وجهة نظرهم حسب ، وهو رأي لا أساس له ، بسبب أن علمهم بالشعر لا يستند الى دليل جاهلي مكتوب، وإنما هو من رواية ولدت في الإسلام لاكتها الألسن ، وتناولتها الكتب ، حتى صارت في حكم الإجماع ، يردده الخلف عن السلف الى هذا اليوم . والشعراء في نظرنا قبل النابغة وبعده بشر ، فيهم المترفع وفيهم المستجدي الذليل ، الذي لا يبالي أن تمتهن كرامته في سبيل الحصول على مال . وإذا كان في هذا اليوم شعراء يمدحون ويذمون لغاية الكسب والحصول على مغنم ، فلم نجعل شعراء ما قبل أيام النابغة الذبياني ملائكة ، لا يمدحون إلا الشريف المستحق للمدح ، ولا يذمون إلا الحقير الذي يستحق الذم ، وما شعراء تلك الأيام ، إلا كشعراء أيام النابغة ، وما بعده ، فيهم الشاعر المترفع ، وفيهم الشاعر المترذل ، وفيهم من لا يبالي بشعره ، يمدح اليوم هذا ، ثم لا يبالي من ذمه بعد حين . وفي حقهم جميعاً جاء في القرآن : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون »[1] ، ونحن نظلم (النابغة) ان جعلناه أول المتكسبين بالشعر ، ونخرج عن المنطق ان ذهبنا هذا المذهب .

وذكر ان ممن رفعه الشعر من القدماء : (الحارث بن حلزة) اليشكري ، وكان أبرص ، فلما أنشد الملك (عمرو بن هند) قصيدته :

آذنتنا ببينها أسماء رُبّ ثاوٍ يملّ منه الثواء

وبينه وبينه سبعة حجب ، فما زال يرفعها حجاباً فحجاباً لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينهما حجاب ، ثم أدناه وقربه . وأمثاله ممن رفع من قدرهم الشعر كثير[2] .

ورووا ان المحلق كان ممن رفعه الشعر بعد الخمول،وذلك ان الأعشى قدم مكة

---

١ سورة الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .

٢ العمدة (٤٣/١ وما بعدها) .

وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ، وقيل بل أم ، وكان المحلق فقيراً خامل الذكر ، ذا بنات ، فأشارت عليه ، أن يكون أسبق الناس اليه في دعوته الى الضيافة ، ليمدحهم ، ففعل ، فلما أكل الأعشى وشرب ، وأخذت منه الكأس ، عرف منه انه فقير الحال ، وانه ذا عيال ، فلما ذهب الأعشى الى عكاظ أنشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق   وما بي من سقم وما بي معشق

ثم مدح المحلق ، فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون الى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه جرياً يخطبون بناته ، لمكان شعر الأعشى[1].

هذا ما يرويه أهل الأخبار عن أثر الشعر في الناس . وروي أن الأعشى أنشد قصيدته المذكورة (كسرى) ، فقال : « إن كان سهر من غير سقمٍ ولا عشق فهو لص »[2] .

« قال أبو عمرو بن العلاء : كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يُقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة ، وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » « ولقد وضع قولُ الشعر من قدر النابغة الذبياني ، ولو كان في الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة البيان »[3] .

ويذكر الرواة أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر احتفلت به ، وفرحت بنبوغه ، وأتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر ، وتباشروا به لأنه حماية لهم ، ولسانهم الذاب عنهم المدافع عن أعراضهم وأحسابهم وشرفهم بين الناس . وكانوا لا يهنأون إلا بغلام يولد أو فرس تُنتج

---

١ العمدة (١/٤٩) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٨٠) .
٣ البيان والتبيين (١/٢٤١) ، العمدة (١/٨٢ وما بعدها) .

أو شاعر ينبغ فيهم[1] . فالشاعر هو صحيفة القبيلة و (محطة إذاعتها) ، وصوته يحط ويرفع ويخلد لا سيما إذا كان مؤثراً ، فيرويه الناس جيلاً بعد جيل .

وكان أثره في الناس أثر السيف في الحروب ، بل استخدمه المحاربون أول سلاح في المعارك . فيبدأ الفارس بالرجز ، ثم يعمد الى السيف أو الرمح أو آلات القتال الأخرى . ولأثره هذا ، ورد في الحديث عن الرسول قوله : « والذي نفسي بيده ، لكأنما تنضحونهم بالنيل بما تقولون لهم من الشعر »[2] مخاطباً بذلك شعراء المسلمين ، الذين حاربوا الوثنيين بهذا السلاح الفتاك ، سلاح الشعر . وقد كان الوثنيون قد أشهروه أيضاً وحاربوا به المسلمين .

وطالما قام الشعراء بدور السفارة والوساطة في النزاع الذي كان يقع بين الملوك وبين القبائل ، أو بين القبائل والقبائل ، فلما أسر (الحارث بن أبي شمر) الغساني (شأس بن عبدة) في تسعين رجلاً من (بني تميم) ، وبلغ ذلك أخاه (علقمة بن عبدة) ، قصد (الحارث) ، فمدحه بقصيدته :

طحا بك قلبٌ بالحسان طروب بُعيد الشباب عصر حان مشيب

فلما بلغ طلبه بالعفو عن أخيه وعن بقية المأسورين ، قال الحارث : نعم وأذنبة، وأطلق له شأساً أخاه ، وجماعة أسرى بني تميم ، ومن سأل فيه أو عرفه من غيرهم[3] .

ولم يقلّ أثر الشاعر في السلم وفي الحرب عن أثر الفارس ، الشاعر يدافع عن قومه بلسانه ، يهاجم خصومهم ويهجو سادتهم ، ويحث المحاربين على الاستماتة في القتال ، ويبعث فيهم الشهامة والنخوة للإقدام على الموت حتى النصر ، والفارس يدافع عن قومه بسيفه ، وكلاهما ذاب عنهم محارب في النتيجة . بل قد يقدم الشاعر على الفارس ، لما يتركه الشعر من أثر دائم في نفوس العرب، يبقى محفوظاً في الذاكرة وفي اللسان ، يرويه الخلف عن السلف ، بينما يذهب أثر السيف .

---

١ بلوغ الارب (٣/٨٤) ، العمدة ، (١/٤٩ ، ٦٥) ، المزهر (٣/٢٣٦) ، العقد الفريد (٣/٩٣) .

٢ الاغاني (١٥/٢٦) .

٣ العمدة (١/٥٧) ، (أسرة الحارث بن أبي شمر الغساني مع سبعين رجلا من بني تميم) ، الشعر والشعراء (١/١٤٧ وما بعدها) .

بذهاب فعله في المعركة ، فلا يترك ما يتركه شعر المديح أو الهجاء من أثر في النفوس ، يهيجها حين يذكر ، وكان من أثره ان القبائل كانت اذا تحاربت جاءت بشعرائها ، لتستعين بهم في القتال . فلما كان يوم (أحد) ، قال (صفوان ابن أمية) لأبي عزة عمرو بن عبدالله الجمحي : « يا أبا عزة انك امرؤ شاعر فأعنّا بلسانك ، فاخرج معنا . فقال : إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه . قال : فاعنا بنفسك فلك الله علي إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبوعزة يسير في تهامة ويدعو بني كنانة » شعراً الى السير مع قريش لمحاربة المسلمين[1] .

وكان للرسول شاعره (حسان بن ثابت) يدافع عن الإسلام والمسلمين ، وكان للمشركين من أهل مكة شاعرهم (عبدالله بن الزبعرى) يرد عليه ويهاجم المسلمين في السلم وفي المعارك ، وقد دوّنت كتب السير والأخبار والتواريخ أشعارهم وما قاله أحدهم في الآخر ، وقد فات منه شيء كثير ، نص رواة الشعر على أنهم تركوه لما كان فيه من سوء أدب وخروج على المروءة. وكان الى جانب الشاعرين شعراء آخرون ، منهم من ناصر المسلمين لأنه كان منهم ، ومنهم من ناصر المشركين لأنه كان منهم . بل كان المحاربون إذا حاربوا ، فلا بد وأن يبدأوا حربهم بتنشيطها وبتصعيد نارها برجز أو بقريض .

ومن خوفهم من لسان الشاعر ، ما روي من فزع (أبو سفيان) ، لما سمع من عزم (الأعشى) على الذهاب الى يثرب ومن اعداده شعراً في مدح الرسول، ومن رغبته في الدخول في الإسلام . فجمع قومه عندئذ ، وتكلم فيما سيتركه شعر هذا الشاعر من أثر في الاسلام وفي قريش خاصة إن هو أسلم ، ولهذا نصحهم أن يتعاونوا معه في شراء لسانه وفي منعه من الدخول في الإسلام بإعطائه مائة ناقة فوافقوا على رأيه وجمعوا له ما طلبه ، وتمكن أبو سفيان من التأثير عليه ، فعاد الى بلده (منفوحة) ومات بها دون أن يسلم[2] .

قال (الجاحظ) : « ويبلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السبّ عليهم ، وتخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب ، ويسبّ به الأحياء والأموات ، انهم

---

١ الروض الانف (١٢٦/٢ وما بعدها) ، (غزوة أحد) .
٢ الشعر والشعراء (١٣٦ وما بعدها) ، زيدان ، آداب (١١٩/١) .

اذا أسَروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق ، وربما شدوا لسانه بنسعة ، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقّاص الحارثي حين أسرته بنو تيم يوم الكلاب[1] . و (عبد يغوث ابن وقاص) شاعر قحطاني ، كان شاعراً من شعراء الجاهلية ، فارساً سيد قومه من (بني الحارث بن كعب) ، وهو الذي قادهم يوم الكــلاب الثاني فأسرته بنو تيم وقتلته . وهو من أهل بيت شعر معروف في الجاهلية والاسلام ، منهــم (اللجلاج) الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه (مسهر) فارس شاعر ، ومنهم من أدرك الاسلام : (جعفر بن علبة بن ربيعة بن الحارث ابن عبد يغوث) ، وكان شاعراً صعلوكاً[2] .

ولما مدح (الحطيئة) (بغيض بن عامر بن لاي بن شماس بن لاي بن أنف الناقة) ، واسمه (جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم) ، وهجا (الزبرقان) ، واسمه (الحصين بن بـدر بن امرىء القيس بن خلف بن عوف بن كعب) ، صاروا يفخرون ويتباهون بأن يقـال لهم (أنف الناقة) ، وكانوا يعيرون به ويغضبون منه ، ويفرقون من هذا الاسم ، حتّى ان الرجل منهم كان يسأل ممن هو فيقول من (بني قريــع) فيتجاوز جعفراً أنف الناقة ، ويلغي ذكره فراراً من هذا اللقب ، الى أن قال (الحطيئة) هذا الشعر فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة ، إذ قال :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم   ومن يُسوّي بأنف الناقة الذنبا[3]

وقد تعزز الأعشى على قومه ، وبين مكان فضله عليهم ، إذْ كـان لسانهم الذاب عنهم المدافع عن أعراضهم ، الهاجي لأعدائهم بشعر هو كالمقراض يقرض أعداء قومه قرضاً .

وادفع عن أعراضكم وأعــيركم   لساناً كمقراض الخفاجي ملحبا[4]

---

١ البيان والتبيين (٤/٤٥) .
٢ الخزانة (١/٣١٧) ، (بولاق) .
٣ قوم هم الانف والاذناب غيرهم   ومن يساوي بانف الناقة الذنبا
البيان والتبيين (٤/٣٨) ، (هارون) ، الاشتقاق (١٥٦) ، زهر الاداب (١/١٩)، الخزانة (١/٥٦٧) ، العمدة (١/٥٠) .
٤ ديوان الاعشى (١١٧) ، القصيدة ١٤ ، البيت ٣١ .

وذكر أن (بني تغلب) كانوا يعظمون معلقة (عمرو بن كلثوم) ويروونها صغاراً وكباراً ، حتى هجاهم شاعر من شعراء خصومهم ومنافسيهم : بكر بن وائل ، إذ قال :

ألهى بني تغلب عن كلّ مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مُذْ كان أولهم   يا للرجال لشعرٍ غير مسئومِ[1]

ولسلاطة ألسنة بعض الشعراء ، ولعدم تورع بعضهم من شتم الناس ومن هتك الأعراض ، ومن التكلم عنهم بالباطل ، تجنب الناس قدر امكانهم الإحتكاك بهم ، وملاحاتهم والتحرش في أمورهم ، خوفاً من كلمة فاحشة قد تصدر منهم ، تجرح الشخص الشريف فتدميه ، و « جُرْحُ اللسان كجرح اليد » ، كما عبر عن ذلك (امرؤ القيس) أحسن تعبير[2] . ولأمر ما قال طرفة :

رأيت القوافي تتلجن موالجاً   تَضَايَقُ عنها أن تَوَلّجها الإبر

وفي هذا المعنى دوّن (الجاحظ) هذه الأبيات :

وللشعراء ألسنةٌ حدادٌ   على العوراتِ موفية دليله
ومن عقل الكريم اذا اتقاهم   وداراهم مدارةً جميله
اذا وضعوا مكاويهم عليه   وإن كذبوا فليس لهن حيله[3]

و « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عالماً بالشعر ، قليل التعرض لأهله : استعداه رهط تميم بن أبي مقبل على النجاشي لما هجاهم ، فأسلم النظر في أمرهم الى حسان بن ثابت ، فراراً من التعرض لأحدهما ، فلما حكم حسان أنفذ عمر حكمه على النجاشي كالمقلد من جهة الصناعة ، ولم يكن حسان — على علمه بالشعر — أبصر من عمر رضي الله عنه بوجه الحكم ، وان اعتل فيه بما اعتل »[4].

---

١ الاغاني (١١/٥٤) ، الاشتقاق (٢٠٤) ، وقد روى هذا الشعر بأوجه مختلفة ، البيان والتبيين (٤/٤١) .
٢ العمدة (١/٧٨) .
٣ العمدة (١/٧٨) .
٤ العمدة (١/٥٢ ، ٧٦) ، (باب تعرض الشعراء) .

« وكذلك صنع في هجاء الحطيئة الزبرقان بن بدر : سأل حسان ، ثم قضى على الحطيئة بالسجن »[1] ، وقد كان عمر قد كره أن يتعرض للشعراء ، فاستشهد حساناً ، فلما بيّن حسان رأيه في الشعر ، انفذ حكمه ، فتخلص (عمر) بعرضه سليماً[2] .

و (تميم بن مقبل بن عوف بن حنيف) العجلاني ، من الشعراء الذين أدركوا الاسلام فأسلم ، وكان يهاجي (النجاشي) ، فهجاه (النجاشي) يوماً ، فاستعدى (تميم) (عمر) عليه . فلما قرأ (النجاشي) على (عمر) ما قاله في (تميم) أمر بضربه وحبسه . وكان يبكي أهل الجاهلية[3] .

« وسئل أبو عبيدة : أي الرجلين أشعر : أبو نُواس ، أم ابن أبـي عيينة؟ فقال : أنا لا أحكم بين الشعراء الأحياء ، فقيل له : سبحـان الله كأن هذا مـا تبين لك ! فقـال : أنا ممن لم يتبين له هذا ؟! »[4] وذلك خوفاً ولا شك من لسان الشاعر الحي . « ولسير الشعر على الأفواه هذا المسير تجنب الأشراف ُممازحة الشاعر خوف لفظة تسمع منه مزحاً فتعود جداً »[5]

وكانوا يهابون الشاعر الهجّاء البذيء اللسان المتمكن من شعر الهجـاء ، أكثر من غيره من بقية الشعراء ، لما كان يتركه هجاؤه من أثر فيهم ، حتى الشعراء البارزون كانوا يتقون شر الشاعر الهجاء ويبتعدون عنهم . فلما هجـا (عبدالله بن الزبعرى) ، بني قصيّ ، خاف قومه من هجاء (الزبير بن عبد المطلب) ، فرفعوه برمته الى (عتبة بن ربيعة) ، فلما وصل اليهم أطلقه (حمزة بن عبـد المطلب) وكساه ، وكان (الزبير) غائباً بالطائف ، فلما وصل مكة وبلغه الخبر هجا قوم (ابن الزبعرى) هجاء مراً[6] ، بقوله :

فلولا نحن لم يلبس رجال ثيابَ أعزة حتى يموتوا

---

١ العمدة (٧٦/١) ، ابن سلام ، طبقات (٢٥) .
٢ البيان والتبيين (٢٤٠/١) .
٣ الاصابة (١٨٩/١) ، (رقم ٨٦٢) ، البيان (٢٣٩/١) ، الخزانة (١١٣/١) .
٤ العمدة (٧٦/١) .
٥ العمدة (٧٧/١) .
٦ العمدة (٦٥/١ وما بعدها) .

ثيابهم سِمالٌ أو طمارٌ بها دسم كما دسم الحَميت
ولكنّا خلقنا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت

وكان عبدالله بن الزبعرى قد قال حين أطلقه حمزة :

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فودّ جناة الشرّ أن سيوفنا بأيماننا مسلولة لا نشيمها
فإن قصياً أهل عزّ ونجدة وأهل فعالٍ لا يرام قديمها
همُ منعوا يومي عُكاظ نساءنا كما منع الشول المجان قرومها[1]

ونظراً لأثر شعر الهجاء في الناس ، من أفراد وقبائل ، صاروا يصطنعون الشعراء ويحسنون جهدهم اليهم خشية ألسنتهم ، يفعلون ذلك بشعرائهم وبشعراء القبائل الأخرى ممن يخشون سلاطة ألسنتهم . يفعلون ذلك حتى اذا كان الشاعر قد أساء اليهم ، على أمل التكفير عن ذنبه ، بمدحهم بشعر ينفي أثر ما قاله فيهم من هجاء . حتى انهم كانوا يعفون عن شاعر قد يقع أسيراً في أيديهم ، اذا أعطاهم العهود والمواثيق ألا يعود الى هجوهم ، وألا يقول شعراً في ذمهم . وقد يغدقون عليه بالهدايا والألطاف تأليفاً للسانه ، وأملاً في مدحه لهم ، والقاعدة عندهم ان أثر الهجاء يمحوه المدح .

وبين الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي فروق واضحة في الأسلوب وفي الاتجاه وفي الجزالة واختيار الكلمات ، اقتضتها طبيعة اختلاف الزمان وتغير الحال واتصال العرب بغيرهم ، وخلود أكثرهم الى الحضارة ، الى غير ذلك من أسباب .

ومما امتاز فيه الشعر الجاهلي عن الشعر الاسلامي ، هو أن شعراءه كانوا من العرب ، إلا بضعة شعراء ، كانوا من أصل خليط ، مثل الأغربة ، الذين كانت أمهاتهم من أصل افريقي . ولا أعلم اسم شاعر جاهلي ، يرجع أصله الى فارس أو الروم ، إلا ما ذكره (ابن الكلبي) من أمر (خرخسرة) . أما في الاسلام فقد زاحم الفرس بصورة خاصة العرب على تراثهم التليد ، وهو الشعر ، برّز منهم فيه فحول ، طوروا الشعر ولوّنوه ، وأضافوا اليه معاني جديدة ، اقتضتها

---

١ بلوغ الارب (٣/٨٤ وما بعدها) .

طبيعة الامتزاج بين العقليتين والتطور الاجتماعي الجديد الذي ظهر في المجتمع الجديد، مجتمع العرب والموالي .

ولعلماء الشعر آراء في الشعر الجاهلي وفي شعراء الجاهلية ، وفي شعرهم وفي الاستشهاد بالشعر الجاهلي . ولهم آراء في ذلك دوّنوها في كتبهم . من ذلك أن العرب كانت لا تروي شعر شاعر ، أو لا تعجب به إذا كانت ألفاظه ليست نجدية . ذكروا أن « العرب لا تروي شعر أبي دواد وعدي بن زيد . وذلك لأن ألفاظهما ليست بنجدية »[1] . وذكروا عن شعر (عدي بن زيد العبادي) ، أن « العرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية . وكان نصرانياً من عباد الحيرة قد قرأ الكتب »[2] . وقالوا عنه أيضاً « وكان يسكن بالحيرة ، ويدخل الأرياف ، فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة »[3] .

وجزالة الألفاظ وشدة وقعها على الأسماع وغرابتها ، هي من أهم المعايير التي اتخذها علماء الشعر في تقدير قيم الشعر الجاهلي،والقصيدة الجيدة الحسنة هي القصيدة الجزلة الفخمة الألفاظ التي لا تتسم بالسهولة والليونة ، والتي لا تفهم إلا بالرجوع الى الشروح والتعليقات والايماءات والإشارات . ومن هنا فوّقــوا شعر الأعراب على شعر الحضر ، لوجود لين في شعر أهل المدر ، ولسهولته ، ومن هنا قالوا: إن في شعر قريش ليناً وسهولة ، وفي شعر أهل الحيرة وأهل القرى مثل ذلك .

وقد تعرض (ابن رشيق) لموضوع الشعر الجاهلي القديم والشعر الإسلامي المحدث ، فقال : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأا هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن »[4] .

الخمر والشعر :

وقد كان الشعراء يقبلون على شرب الخمر ، إقبال أكثر الجاهليين على شربها

1 الشعر والشعراء (١٢١) .
2 الشعر والشعراء (١١٥) ، الاغاني (٩٣/١٥) .
3 الشعر والشعراء (١١١) .
4 العمدة (٥٧/١) .

لتنسيهم همومهم وفقرهم ، حتّى أن منهم من كان يبيع ما عنده ليشتري الخمر . وقد كان الشعراء يشربون ليستوحوا الوحي من الشرب ، حتّى ان الأعشى لما قدم ليسلم ، فقيل له ان الاسلام يحرم الخمر ، توقف ، ولم يسلم ، إذ شق عليه هذا التحريم ، ولم يتمكن بعضهم من تركها ، فحدّوا على شربها . وقد هرب (ربيعة بن أمية بن خلف) الجحمي ، من بلاد الاسلام ولحق بالروم ، لأن عمر جلده الحدّ في الخمر ، وكان من آنف العرب وأسخاهم ، فحلف أن لا يقيم بأرض حد فيها ولا يدين من حده ، فحمله الأنف الى أن أتى الروم فمات بها نصرانياً[1] . ويروى انه قال :

لحقت بأرض الروم غير مفكر بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركوني من صبوح مدامة فما حرم الله السلاف من الخمر
اذا أمرت تيم بن مرة فيكمُ فلا خير في أرض الحجاز ولا مصر
فإن يك اسلامي هو الحق والهدى فإني قد خلّيته لأبي بكر

ويذكر (المعري) انه قد جرى له مع (أبي بكر) خطب ، فلحق بالروم[2].

شيطان الشاعر :

ولا بد لي هنا من أن أشير الى ما كان يعتقده الجاهليون من أن الشعراء كانوا يستلهمون وحيهم بالشعر من (شيطان) ، كنّوا عنه بـ (شيطان الشاعر) . فقالوا : « لكل شاعر شيطان » . وهم يعبرون بذلك عن الحس الذي يصيب كل انسان حساس شاعر عندما يهز مشاعره وإحساسه شيء ما يؤثر عليه فيستولي على عقله وشعوره ويستهويه ، ولا يتركه يستقر ويهجع حتّى يعبر عن شعوره هذا الذي سيطر عليه وملكه ، بشعر يأتيه وكأنه وحي ينزل عليه تنزيلاً ، وعندئذ فقط يستقر ويهجع ، بعد أن يكون قد نسب هذا الشعور المرهف الذي ألمّ به الى وحي (شياطين الشعر) .

---

١ الاشتقاق (٨٠ وما بعدها) ، الاغاني (١٣/١١٢) .

٢ رسالة الغفران (٤٤٠ وما بعدها) .

وكان الكهناء ، يقولون في الجاهلية : إن الشياطين كانت تأتيهم[1] ، فهم مثل الشعراء يعتقدون بأن وحياً يوحى اليهم بما يقولونه للناس ، يتجلى لهم على صورة (رئي) ، الرئي يقول سجعاً ، والشيطان ينظم شعراً .

وقد بلغ من اعتقاد بعضهم بوجود (شياطين الشاعر) أن رووا قصصاً تذكر كيف أن (شياطين الشعر) كانوا يعلمون الشعراء قول الشعر حين ينحبس الشعر عنهم وحين تقف قريحتهم حتى ليصعب على الشاعر أن ينظم بيتاً واحداً ، حتى إذا حار في أمره ، استجار بشيطانه وتوسل اليه لإنقاذه من محنته ، فيرق شيطانه عليه ، ويلقي عليــه الشعر إلقاء فيأتي على لسان الشاعر وكأنه سيل متدفــق . ولاعتقاد الشعراء هذا بوجود قرين لهم من الشياطين،أو من الجن ، سموا شياطينهم بأسماء ، فكان اسم شيطان الأعشى (مسحلاً) ، وقيل هو تابعه وجنّيــه الذي كان يوحي اليه بالشعر . كما أشار هو اليه في شعره :

دعوت خليلي مسحلاً ، ودعوا له   جهنام ، جدعــاً للهجين المذمّم[2]

وللأعشى أشعــار أخرى ذكر فيها فضل شيطانه عليه في قول الشعر . من ذلك قوله :

وما كنت ذا قول ولكن حسبتني   إذا مسحل يبري لي القول أنطـق
خليــلان فيما بيننــا من مـودةٍ   شريكان جنّي وإنس موفــق[3]

وجنّيه هو الذي حباه بموهبة الشعر ، وبفيض الخواطر ، ينظمه كلاماً محبوكاً، فهو يشكره ويفديه بنفسه :

حباني أخي الجــنّي نفسي فداؤه   بأفيح جيّــاش العشيّات مرجم[4]

واسم هاجس الأعشى وشيطانه (مسحل بن أوثاثة) ، وكان هو الذي يلقي الشعر على لسان الأعشى . وقد رآه (الأعشى) ودخل خباءه وهو من شَعر ،

---

١ مجالس ثعلب (٢٠) .
٢ اللسان (٣٣١/١١) ، ثمار القلوب (٧٠) ، (جهنام جدعا) الحيوان (٢٢٦/٦) .
٣ ثمار القلوب (٧٠) .
٤ ثمار القلوب (٧٠) ، الحيوان (٢٢٦/٦) .

وكان الأعشى في أول أرض اليمن يريد الذهاب الى (قيس بن معدي كرب) بحضرموت . فضل طريقه ، فأبصر هذا الخباء ، فذهب اليه ، وسأله الشيخ أن ينشده شعراً ، فكان اذا تلا عليه مطلع القصيدة أوقفه ، واستدعى جارية من جواريه لتتلو عليه بقية القصيدة ، حتى سقط في يدي الأعشى وتحير ، واغتشته رعدة ، فلما رأى الشيخ ما حل به ، قال : « ليفرج روعك أبا بصير ، انا هاجسك مسحل بن أوثاثة الذي ألقى على لسانك الشعر » . ثم ودعه وأرشده الطريق[1] .

وكان للأعشى شيطان ، اسمه (جهنّام) ، وهو تابعة ، أي شيطانة أنثى . وكان لقب (عمرو بن قطن) من (بني سعد بن قيس بن ثعلبة) ، وكان يهاجي الأعشى ، وقال فيه الأعشى :

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنام جدعاً للهجين المذلل[2]

وقيل إن (جهنام) كان شيطان الأعشى الأول ، ثم اتخذ الأعشى مسحلاً بعده[3] .

وزعم ان (امرىء القيس) كانت له قصائد ومطارحات مع (عمرو الجني). وان اسم شيطان (امرىء القيس) هو (لافظ بن لاحظ) . وان اسم شيطان (عبيد بن الأبرص) هو (هبيد) ، وهو اسم شيطان (بشير بن أبي خازم ؟) (بشر بن أبي خازم) كذلك . وان اسم شيطان (النابغة) الذبياني ، هو (هاذر بن ماهر) . وان اسم شيطان (المخبل) السعدي ، هو (عمرو)[4] .

وقد بقي هذا الاعتقاد في شياطين الشعراء الى الإسلام ، فكان الشيطان الذي يلقي الشعر الى (جرير) ، هو (ابليس الأباليس) ، وكان اسم شيطان الفرزدق (عمرو) ، واسم شيطان بشار بن برد (شنقناق) . وكان جني (حسان) وصاحبه الذي يوحي اليه الشعر من (بني شيصبان) ، « وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر ، وتلقنها إياه ، وتعينها عليه ، وتدعي أن

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٦٨ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٨/٢٣٥) ، (جهنام) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٣/٥٠) .
٤ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٣/٥١) ، الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر (٨) .

لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود »[1] ، وورد أن (الفرزدق) كان يرى أن للشعر شيطانين ، يدعى أحدهما (الهوبر) والآخر (الهوجل) ، فمن انفرد به (الهوبر) جاد شعره وصح كلامه ، ومن انفرد به (الهوجل) فسد شعره[2] .

وقد زعم (أبو النجم) أن شيطانه الذي يوحي اليه الشعر شيطان ذكر ، أما شياطين بقية الشعراء فأناث :

إني وكلّ شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
فما يراني شاعر إلا استتَرْ   فِعلَ نجوم الليل عاينّ القمر[3]

وقال آخر :

إنّي وإن كنتُ صغير السنّ   وكان في العين نبوّ عنّي
فإن شيطاني أميرُ الجنّ   يذهبُ بي في الشعر كلّ فنّ[4]

وروي ان السعلاة لقيت (حسان بن ثابت) في بعض طرقات المدينة ، وهو غلام قبل أن يقول الشعر ، فبركت على صدره ، وقالت أنت الذي يرجو قومك أن تكون شاعرهم ؟ قال : نعم . قالت : فأنشدني ثلاثة أبيات على روي واحد وإلا قتلتك ، فقال :

اذا ما ترعرع فينا الغلام   فما أن يقال له من هوه
اذا لم يسد قبل شد الازار   فذلك فينا الذي لاهوه
ولي صاحب من بني الشيصبان   فحيناً أقول وحيناً هوه[5]

فخلت سبيله . فهذه الأبيات هي على زعم أهل الأخبار أول شعر حسان . قالها بوحي من شيطانه : (الشيصبان) .

---

١ ثمار القلوب (٦٩ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/ ٥١) .
٣ الحيوان (٦/ ٢٢٩) ، ثمار القلوب (٧١) ، ديوان المعاني (١/ ١١٣) ، الراغب ، محاضرات (١/ ٢٨٠) .
٤ ثمار القلوب (٧٢) . الخصائص (١/ ٢٢٥) .
٥ الخزانة (١/ ٤١٨ وما بعدها) ، (بولاق) .

وليس هذا الشيطان الذي تصوره الجاهليون ، يلهم الشعراء وحيهم ويلقي اليهم الشعر إلقاء بقذفه في قلوبهم ، ليخرج على ألسنتهم ، هو من وحي الجاهليين ومن تخيلاتهم وتخرصاتهم وحدهم ، بل هو شيء معروف عند غيرهم أيضاً . فقد تصور اليونان أن للشعر آلهة تقذف الشعر في نفوس الشعراء ، فينطلق على ألسنتهم[1]. والرئي الذي يوحي الى (الكاهن) علمه بالكهانة ، هو ضرب من هذه الشياطين التي تخيلوها للشعراء ، فبفضل (الرئي) يقول الكاهن سجعه لمن يطلب منه أن يتكهن عن أمر سأله عنه ، وهو يجيب السائل بما يلقيه رئيه عليه . يلقيه سجعاً، أما شيطان الشاعر ، فيلقيه على شاعره شعراً ، ومن هنا وقع الفرق بين قول الشاعر وبين قول الكاهن .

وكانوا يسمون الشعراء (كلاب الحي) ، وهم الذين ينبحون دونهم،ويحمون أعراضهم . وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

وقد هرّت كلاب الحيّ منّا وشذبنا قتادة من يلينا[2]

وأما (كلاب الجن) ، فشعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ويحمون أعراضهم[3] .

---

١ B. Snell, Die Entdeckung des Geistes, Hamburg, 1946, S. 117. ff.

٢ الحيوان (١/٣٥٠) .

٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٥٢) .

الفصل السابع والاربعون بعد المئة

حد الشعر

عرّف علماء العربية الشعر بقولهم : « الشعر : منظوم القول ، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل علم شعراً من حيث غلب الفقه على علم الشعر » . وعرّف (الأزهري) الشعر بقوله : « الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، والجمع أشعار ، وقائله شاعر ، لأنه يشعر ما لا يشعر غيره ، أي يعلم »[1] . وعرّفه (ابن خلدون) بقوله : « الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العربية المخصوصة به » . فهو يجعل التقفية والوزن من شروط الشعر ، ويشترط أيضاً استقلال كل بيت منها بغرضه[2] .

وعرف بأنـه الكلام المقفى الموزون قصداً ، والتقييد بالقصد مخرج ما وقع موزوناً إتفاقاً ، فلا يسمى شعراً[3] . وقد قصد بهذا التعريف الإسلامي ، إخراج من قال الشعر إتفاقاً لا عن قصد واحتراف . بل عفواً وسجيّة . ولمـا جاء في القرآن الكريم ، من رمي المشركين للرسول بأنه شاعر بقول الشعر ، فنزل الوحي

١ اللسان (٤/٤١٠) ، (صادر) ، (شعر) ، الصاحبي ، (٢٧٣) .
٢ زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/٥٩) .
٣ ارشاد الساري (٩/٨٨) .

بتغي ذلك عنه . وحدذ العلماء صفة الشاعر بأنه الذي يحترف الشعر ويقوله قصداً، حتى لا تنطبق هذه الصفة على من يقول سطراً بوزن اتفاقاً من غير قصد[1] .

وقد عرفه بعضهم بقوله : « الشعر كلام موزون مقفى ، دال على معنى ، ويكون أكثر من بيت »[2] . وهو تعريف وضعه علماء الشعر في الإسلام ، وهو لا ينطبق بالطبع على وصف الشعر عند الأعاجم من الآريين والساميين ، لأن للشعر عند هذه الأمم مفاهيم أخرى ، تختلف باختلاف وجهة نظرها الى الشعر . فقد يكون الشعر سجعاً عند الأمم الأخرى ، وتعد الأمثال عند بعض الشعوب في جملة أبواب الشعر[3] ، كما أنه لا يمكن أن ينطبق على الشعر الجاهلي القديم ، إذ ليس في استطاعة أحد حق التحدث عن الشعر الجاهلي المتقدم على شعر أقدم من وصل اسمه إلينا من الشعراء الجاهليين ، لعدم وجود نصوص مدونة أو مروية عن ذلك الشعر ،وما دمنا لا نملك نصوصاً منه ، فلا حق لنا اذن في التحدث عنه.

وعندي ان الشعر الجاهلي المروي والمدون في المؤلفات الاسلامية ببحوره المعروفة انما يمثل المرحلة الأخيرة من مراحل تطور هذا الشعر ، أي مرحلة الكلام الموزون المقفى الدال على معنى ، ولكننا لا نستطيع كما قلت سابقاً الزعم بأن الشعر الجاهلي الأقدم كان على نفس هذه البحور ، أي انه كان متمسكاً بالوزن والقافية إذ من الجائز أن يكون قد كان على شاكلة الشعر القديم الذي نظمه الشعراء الساميون ، من عدم تقيد بالقافية وبوزن الأبيات ، كما نجد ذلك في العبرانية وفي اللغات السامية الأخرى وانما كانوا يراعون فيه النغم ، بحيث يتغنى بـه ، أو التأثير في العواطف ، بمراعاة نسق الكلام المبني على البلاغة . ولهذا عد السجع نوعاً من أنواع الشعر ، لأن في السجع من الوصف والعاطفة والحس ومعالجة الموضوع ، ما يجعله شعراً ، وفي بعضه نغم يجعله صالحاً لأن يتغنى به ، وبين الغناء والشعر صلة ونسب . وقد جعل بعض العلماء الشعر وليداً من أولاد الغناء ، لأن الشعوب القديمة كالبابليين ، والمصريين ، واليونان ، والعبرانيين ، كانت تقرن شعرها بالموسيقى ، وعرف هذا الشعر بالإنشاد ، وقد كان الإنشاد في المعابد ، نوعاً من

---

١ الصاحبي (٢٧٣) .

٢ المزهر (٢/٤٦٩) ، (النوع التاسع والاربعون : معرفة الشعر والشعراء) .

٣ The Bible Dictionary, II, p. 305.

التراتيل الموجهة الى الآلهة ، كما كان يستخدم في الحروب . ولهذا رأى العلماء ان الموسيقى ، أولدت الإنشاد ، والإنشاد هو والد الشعر .

والشعر معروف عند كل شعوب العالم ، معروف موجود حتّى عند الشعوب البدائية ، لأنه نوع من أنواع التعبير عن الحس . والإنسان مهما كانت ثقافته ومنزلته لا بد له من التعبير عن إحساساته بمختلف الصور ، وبشتّى الوسائل ، من كلام أو تدوين أو نقش أو صراخ أو غناء أو رمز ، الى غير ذلك من الأنواع ، وفي جملتها الشعر . فهو لا يخص إذن شعباً معيناً ، ولا جنساً خاصاً، إنما هو تعبير إنساني ، يؤديه كل إنسان ، متى كانت عنده المواهب ووجد عنده الحس المرهف الذي يدفعه الى تأليف الشعر دفعاً ، يؤديه على نحو ما يتأثر به إحساسه وذوقه ، في أسلوب يختلف عن الكلام المعتاد المألوف ، ولكنه ليس على نمط واحد عند جميع البشر ، فقد يكون الشعر شعراً عند أمة ، وهو ليس شعراً عند أمم أخرى ، والمصطلح العربي الذي ذكرته للشعر ، يختلف عن المصطلح المفهوم للشعر عند اليونان مثلاً أو عند الرومان أو عند البابليين ، كما أن أبوابه وأنواعه قد تختلف بين أمة وأخرى .

فقد كان العبرانيون يحبون الشعر ، حب العرب له ، ويقولون له : (هـ ـ ش) ، أي الشعر وكانوا ينظمون أشعاراً رتلوها في مختلف المناسبات،في الأفراح وفي الأتراح في المدح وفي الهجاء ، وفي الغزل وفي الوصف ، وفي تمجيد الرب، وكانوا يستعينون بالشعر في القتال ، ينشدونه في قتالهم ويجعلونه عوناً لهم في شحذ الهمم وفي تقوية العزائم للنصر ، كما نرى ذلك في أسفار التوراة[1] . ونجد ثلث التوراة شعراً ، لا سيا في أسفار أيوب والمزامير والأمثال والجامعة ونشيد الانشاد . وفي مواضع من (التكوين) وكتب الأنبياء . ولكن شعرهم ليس وزناً وقافية ، على نمط الشعر العربي،بل هو شعر من طراز آخر . هو شعر بالنسبة للعبرانيين ، وهو ليس بشعر بالنسبة لمصطلحنا المحدد للشعر .

وقد بدأ الشعر بداية متحررة ، فلم يكن الإنسان في بادىء أمره بالشعر يتقيد بالوزن والقافية ، وإنما كان يميز بينه وبين النثر بالنغم الذي يجعله فيه ، وبالنبرات

---

١ الخروج ، الاصحاح ١٥ ، والقضاة ، الاصحاح الخامس وفي المزامير .

التي يخرجها مخارج الغناء ، ولهذا نجد المقطوعات الشعرية القديمة التي وصلت الينا مدونة في كتابات مختلف الشعوب لا تشبه الشعر المعروف ، إذ فيه تحرر ، وفيه اعتماد على الترنم والإنشاد وعلى فن الإلقاء ، أما الاعتبارات الفنية المعروفة ، فهي من عمل الشعراء المتأخرين الذين أحلّوا الوزن محل الإلقاء ، ووضعوا قواعد فنّية في نظم الشعر . فلم تكن الأبيات الشعرية في الشعر القديم متساوية ، ولم تكن هناك قوافي بالضرورة ، حتى أنك لا تستطيع تمييز القطعة الشعرية عن غيرها ، إلا بالإنشاد[1]

والشعر من أقدم الأحاسيس التي عبر بها الانسان عن نفسه ، فهو يعبر عن عواطفه وعن أحاسيسه ، من سرور أو حزن ، أو ألم ، وعن اهتمامه بالأمور وعن تصوراته ، وعن كل ما يدور في رأسه من أمور تسترعي حسه ، فيشعر عندئذ بالترفيه عنه بإخراجها كلاماً فيه نغم « Rhythm » ، أي إيقاع ووزن ، وفيه توازن ونظام بين أجزائه ، على غرار ما يفعله الراقص في رقصه ، من اقتران رقصه بحركات موزونة . وهو من العواطف المولودة في الانسان . ولهذا تعدّ العواطف التي يعبر بها الانسان عن نفسه شعراً ، وإن خرجت بغير بحور ، وبدون وزن ولا قافية . ففي كلام (سارة) : « وقالت سارة قد أنشأ الله لي فرحاً فكل من سمع يفرح لي ، وقالت من كان يقول لإبراهيم إن سارة سترضع ابناً . فقد ولدت ابناً في شيخوخته »[2] ، وفي الآيات : « ثم أخذت مريم النبية أخت هارون الدفّ في يدها وخرجت النساء كلهن وراءها بدفوف ورقص . فجاوبتهن مريم : سبّحوا الرب ، لأنه قد تعظم بالمجد . الفرس وراكبه طرحهما في البحر »[3] ، وفي مباركة يعقوب أبنائه عند شعوره بدنو أجله ، وفي كلام موسى حين قهر (فرعون) ، معان شعرية ، وتعد من أقدم أنواع الشعر السامي التصويري .

وذلك لأن الشعر السامي القديم ، لم يكن يتقيد بالقافية (Rhyme) ، ولا بالتفعيلات (Feets) أو بالمقاطع القصيرة «Short Syllables» ، وإن حاول ولا سيما

---

١ Hastings, Dictionary of the Bible, Vol., IV, p. 7.

٢ التكوين ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٦ وما بعدها .

٣ الخروج ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ٢٠ وما بعدها .

فيا بعد ، أن يضع في كل شطر أو بيت عدداً من الكلمات أو المقاطع ، يعادل ما يضعه في الشطر أو البيت الثاني منها ، ليتولد من ذلك الوزن[١] .

ويقسم الغربيون الشعر عادة الى « Epic » ، وهو شعر الملاحم ، حيث عتاز بطول قصائده وفخامة أسلوبه،وبقصصه الذي يدور حول أبطال الملحمة والأحداث التي تعرض لها هذا النوع من الشعر . وشعر يقال له « Dramatic » ، وهو شعر مسرحي ، أي تمثيلي . وشعر يقال له « Lyric » ، وهو شعر غنائـي . وشعر يقال له « Didactic » ، وهو شعر تعليمي ، أريد به التعلم ووعظ الانسان . ونجد النوع الأول منه عند اليونان والرومان والهنود والفرس والألمان وهم من الشعوب الهندوأوروبية ، أي الشعوب الآرية .

ولا نجد من شعر الملاحم ، ومن شعر (الدراما) في التوراة ، ولكننا نجد ما يشبه (الدراما) « Semi Dramatic » في سفر أيوب . ويكثر الشعر (الغنائي) المعدّ للترتيل والترنيم Lyric فيه . ففي كلمات موسى على البحر الأحمر ، التي تمثل غناء النصر « Triumphal Odes » ، وفي غناء (دبوره) « Deborah » ، وفي المزامير ، أشعار غنائية معدة للترتيل[٢] .

وقد أشير إلى إنشاد الشعر جماعة في التوراة ، فلما وصل العبرانيون الى (البئر) التي قال الرب فيها لموسى اجمع الشعب حتى أعطيهم ماءً، «حينئذ ترنم اسرائيل بهذا النشيد : اصعدي يا بئر تجاوبوا لها . بئر احتفرها الرؤساء ، احتفرها أشراف الشعب بمخصرة عصيهم »[٣] . وقد لازم الترنم الشعر منذ أوائل أيامه ، ففي الترنم به تقوية له . وما النغم سوى (ايقاع) يجعله نوعاً من أنواع الغنـاء (نوطته) التفعيلات التي تكون بحوره في الأدب العربـي . ولهذا نجـد الشعر قد رافق الغناء بل هو نوع منه منذ نشأته .

ونجد القديس (نيلوس) « Nilus » (المتوفى حوالى سنة ٤٣٠ م) ، يصف غارة بدوية على دير سيناء وقعت سنة ٤١٠ م ، وتحدث في أثناء حديثه عنها عن إنشاد الأعراب أناشيـد بترانيم عندما كانوا يأخذون المـاء ، وهي ترانيم لم يشر

---

١ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, London, 1958, p. 616.

٢ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.

٣ العدد ، الاصحاح ٢١ ، الآية ١٦ وما بعدها .

القديس الى نوعهـــا ، ولكني لا استبعد أن تكون من الرجز ، الذي يقـال في المناسبات ، في استنباط الماء ، وفي حفر الآبار ، أو رفع الأثقال ، أو في بناء، وأمثال ذلك مما لا يزال مألوفاً ، ويشاهد حتّى بين أهل القرى . وان كان بعضها ترانيم غير فنية ولا مصقولة ، ولكنها ذات ايقاع على كل حال[1] .

ومن هذا القبيل الأشعار التي أنشدها العرب في انتصارهم على الرومان سنـــة ٣٧٢ م ، والتي أشار اليها المؤرخ (سوزومن) في كتابه (تأريخ الكنيسة) ، فقد ذكر أن العرب كانوا ينشدون الشعر في قتالهم هذا مع الرومـــان[2] . والواقع أننا لا نكاد نقرأ خبر معركة إلا ونجد الشعر فيها في مقدمة الأسلحة التي تستخدم فيها ، وقد يسبق السيف في الضرب ، حيث يخرج الفارس وهـو يرتجز رجزاً يشيد فيه بنفسه ، وبقومه ، مهوناً من أمر من سينازله ثم يقابله من يتبارى معه برجز آخر ، يشيد فيه بنفسه ، رداً على خصمه .

والشعر العبراني القديم نوعان : النوع المعدّ للترتيل ، والنوع التعليمي . ومن النوع الأول المزامـــير ، ومن النوع الثاني الأقسام الشعريـــة من كتب الأنبياء . والمزامير « Psalms » ، هي من أفصح الأشعـار الدينيـة في التوراة ، وهي تعبر عن الحس الديني عند الانسان ، وعن شعور البشر تجاه خالقهـــم ، وهي تمجيد وحمد له ، واعتراف بضعف الانسان تجاه خالقه ، فهو يرتل فيها حمد الله والثناء عليه . أما الأمثال والجامعة ، وبعض أقسام كتب الأنبياء ، فهي وإن كانت دينية في الأصل ، إلا انها وضعت لغايات تعليمية ، لإرشاد الناس وتقديم النصح لهم .

ولا توجد القوافي والبحور في هذا الشعر ، ومع ان بعض الأشعار العبرانية قد نظمت أحياناً على الحروف الأبجدية ، لكن أشطرها لم تتضمن عدداً مماثـــلاً من المقاطع ، ليتولد منها الوزن ، أي النغم . وانمـــا نظمت على مقابلة الأفكار في الشطر الأول والثاني ، أو في الشطرين الأولين والثالث . وقد يشرح فكر الشاعر على نوع مقابلة فكرين ، إما لوجه المشابهة بينهما ، وإما لوجه المخالفـة بينهما . ومن أمثلة أوجه المشابهة :

---

١ غرونباوم (١٣٣ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (١٣٤) .

فمن هو الانسان حتى تذكره
أو ابن آدم حتى تفتقده[1]

وما جاء في المزمور التاسع عشر من قوله :

السموات تحـدث بمجد الله
والفلك يخبر بعمل يديـه
يوم الى يوم يذيع كلامـا
وليـل الى ليل يبدي علما[2]

ومن أوجه المخالفة بينهما :

لأن عامـلي الشر يقطعون
والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض[3]

وما جاء في الأمثال :

الجواب اللين يصرف الغضب
والكلام الموجع يهيج السخط
لسان الحكماء يحسن المعرفـة
وفم الجهـال ينبع حماقـة[4]

وقد ذهب بعض العلماء الى وجود (التفاعيل) « Feet » و(الوزن) « Metre » في الشعر العبراني،وذهب بعض آخر الى علم وجود التفاعيل فيه ، وذهب بعض الى وجود القافية « Rhyme » والـوزن « Rhythm » في الشعر العبراني . وهـو شعر يختلف عن شعرنا المألوف ، وهو وإن أمكن تقسيمه الى أشطر وأبيـات ، إلا أن له خصائص يختلف بها عن الشعر العربي . فنرى مثلاً أن الأبيـات في

---

١ المزامير ، المزمور الثامن ، الآية ٤ .
٢ الآية ١ وما بعدها .
٣ المزمور ٣٧ ، الآية ٩ .
٤ الامثال ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١ وما بعدها .

القصيدة العبرانية غير متساوية ، فقد يطول فيها بيت ، وقد يقصر فيها بيت آخر . وقد ترتب الأبيات على ترتيب حروف الهجاء ، كما في الأمثال وفي المزامير[1] .

ومن أهم أبواب الشعر العبراني،باب يقال له : « Parallelism » في الانكليزية ، أي التطابق . وهو أنواع . وقد بحث فيه العلماء[2] .

وقد يكون الشعر على صورة أفكار متسلسلة متتابعة ، فتتقدم الفكرة تدريجياً، وتوضح الأبيات التالية السابقة مثل :

ناموس الرب كامـــل يرد النفس
شهادات الرب صادقة تصير الجاهل حكيماً
وصايا الرب مستقيمة تفرّح القلب
أمـــر الرب طاهـــر ينير العينين
خوف الرب نقي ثابت الى الأبد
أحكـــام الرب حق عادلة كلهـا
أشهى من الذهب والابريز الكثير
وأحلى من العسل وقطـــر الشهاد[3]

ومن أنواع الشعـــر في التوراة ، ما نقول له (ترادف المتطابقـــات) « Synonymous Parallelism » ، وذلك أن تكون فكرة الشطرين مترادفة ، وكذلك المصطلحات الواردة فيها ، فترتبط فكرة الشطر الأول بالشطر الثاني من البيت ، مثل : « وقال لآمك لامرأته عادة وصلّة : اسمعا قولي يا امرأتي لآمك واصغيا لكلامي . اني قتلت رجلاً لجُرحي وفتًى لشدخي »[4] ، فالشطـــر الأول هو : « وقال لآمك ... الـخ » ، والشطر الثاني المتمم هو : « اني قتلت رجـــلاً لجرحي » ، ومثل : « انقذ من السيف نفسي . من يد الكلب وحيدتي، خلصني من فم الأسد ومن قرون بقر الوحش استجب لي »[5] . ومثل :

١ The Bible Dictionary, Vol., II, p. 305. ff.

٢ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p 616.

٣ المزمور ١٩ ، الآية ٧ ــ ١٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٦٢١/١) .

٤ التكوين ، الاصحاح الرابع ، الآية ٢٣ .

٥ المزامير ، المزمور ٢٢ ، الآية ٢٠ وما بعدها .

كيف ألعن من لم يلعنه الله
وكيف اشتم من لم يشتمه الرب[1]

وما نقول لـه بـ (تناقض المتطابقات) ، أو (تضاد المتطابقات) « Antithetic Parallelism » . وذلك أن يكون الشطر الثاني مثل الشطر الأول في احتوائه على الحقيقة ، أي الفكرة ، ولكنه جاء بها بصورة أخرى ، أي متضادة Contrast . فالشكل متطابق تماماً ، وأحد جزئي الشطر مترادف ، أما الجزءان الآخران ، فمتعارضان . وأكثر ما يقع ذلك في المثل :

الابن الحكيم يسرّ أباه
والابن الجاهل حزن أمه[2]

ونوع آخر يقال له (الايقاع المتصاعد) ، أو (الوزن الصاعد) ، « Ascending Rhythm » « Stair-like » ، وهو شعر يرد في الشطر الثاني منه جزء مما ورد في الشطر الأول ، أو مختصر الشطر الأول ، ليضاف عليه شيء جديد . مثل :

حتى يعبر شعبك يا يهوه
حتى يعبر الشعب الذي اقتنيته[3]

ونوع يقال له(المتطابقات المركبة) « Synthetic Parallelism » أو « Constructive » وذلك بأن يكون ما يرد في الشطر الثاني مخالفاً ، أو على الأكثر لما ورد في الشطر الأول . على ان المتطابقات في الشرطين تكون موجودة . مثل :

لا تجاوب الجاهل حسب حماقته
لئلا تعدله انت
جاوب الجاهل حسب حماقته
لئلا يكون حكيماً في عيني نفسه[4]

---

١ العدد ، الاصحاح ٢٣ ، الآية ٨ ،
٢ الامثال ، الاصحاح العاشر ، الآية ١ .
٣ الخروج ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١٦ .
٤ الامثال ، الاصحاح ٢٦ ، الآية ٤ .

ومثل : ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارفعنها أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد .

من هو هذا ملك المجد . رب الجنود هو ملك المجد . سلاه[1] :

ومن النوع المعروف بـ « Progressive Parallelism » ، ما ورد في (أيوب) من قوله : « هناك يكف المنافقون عن الشغب وهناك يستريح المتعبون . الأسرى يطمئنون جميعاً ، لا يسمعون صوت المسخر . الصغير كما الكبير ، والعبد حرّ من سيده »[2] . وقد جاء الشطر الثاني بمعان ايضاحية جديدة ، لها صلة بما ورد في الشطر الأول من معنى[3] .

ومن النوع الذي يقال له: « Climatic Parallelism » ، ما ورد في (المزامير) : « صوت الرب يولد الأيل ، ويكشف الوعور وفي هيكله الكل قائل المجد . الرب بالطوفان جلس ويجلس الرب ملكاً الى الأبد . الربّ يعطي عزاً لشعبه ، الرب يبارك شعبه بالسلام »[4] ، وقوله : صوت الرب بالقوة . صوت الرب بالجلال . صوت الرب مكسر الأرز ويكسر الربّ أرز لبنان ، ويمرحها مثل عجل . لبنان وسِريون مثل غرير البقر الوحشي »[5] . حيث تعاد الألفاظ فيه حسب سلم ارتفاع المعاني .

ويتكون الـ « Parallelism » في العادة من بيتين ، أو شطرين ، فهو من نوع (دوبيت) ، « Distich » ، غير أنه يتكون أحياناً من ثلاثة أبيات « Tristichs » ، ومن أربعة أبيات « Tetrastichs » ، ومن خمسة أبيات « Pentastichs » .

ولا يرد الشعر العبراني على صورة مقطوعات أو قصائد بالضرورة ، ومع ذلك فقد ورد في بعض المزامير على شكل قصيدة مكوّنة من ثلاثة أقسام متساوية يربط بين أجزائها رابط ، هو بيت مكرر « Recurring Verse » . ونرى أن أحد المزامير قد تألف من ثلاث مقطوعات ، كل قطعة منها بثلاثة أبيات ، وفي

١ المزامير ، المزمور ٢٤ ، الآية ٩ وما بعدها .
٢ أيوب ، الاصحاح الثالث ، الآية ١٧ وما بعدها .
٣ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.
٤ المزامير ، المزمور ، ٢٩ ، الآية ٩ وما بعدها .
٥ المزامير ، المزمور ٢٩ ، الآية ٥ وما بعدها .

نهاية كل مجموعة علامة (سلاه) « Selah »[1] . وقد تنتهي المجموعتان بعبارة تتكرر على نحو موصول في قصيدة أو أغنية « Refrain » .

ونجد في المزامير شعراً ورد منظوماً على ترتيب الأبجدية ، فقد ورد مكوناً من اثنين وعشرين قطعة ، أي بعدد حروف الهجاء ، تكونت كل قطعة منها من ثمانية أبيات « Verses » ، وتبدأ كل قطعة بالحرف العددي . ونجد ان الـ « Lamentations » ، قد رتب على الحروف[2] ، وهي مقاطع شعرية حزينة ومراثي « Eligies » تمثل شعر المراثي الأصيل « Threnody » في العبرانية . ويتوقف وزنها على بناء كل بيت . ولكن البيت فيها لا يشبه بيت الشعر في اللغة اللاتينية من نوع الأبيات المكونة من ستة تفاعيل « Hexameter » ، أو من الخماسي التفاعيل « Pentameter » ، وانما يتكون من خمسة ألفاظ أو ستة أو سبعة ،مكونة ما يعادل أحد عشر مقطعاً « Syllables » . يتكون كل بيت منها من شطرين غير متساويين أحدهما من ستة ، والآخر من خمسة ، أو من أربعة والآخر من ثلاثة ، يفصل بينهما الاحساس والقواعد النحوية[3] .

ونجد Sirach من أسفار (الأبوكريفا) « Apocrypha » ، وقد نظم على هيأة (دوبيت) Stichoi من حيث الوزن وعدد المقاطع . وهو من الشعر التعليمي: « Diadactic »[4] .

وقد قسّم بعض العلماء الشعر العبراني الوارد في التوراة الى أقسام : شعر يتمثل بما ورد منه في أسفار (أيوب) « Job » وفي نشيد (سليمان) ، ونوع يتمثل بما جاء في (المزامير) وهو شعر غنائي ، أي يتغنى به ، وقد ينشد على إيقاع (المزمار) ، وهو يقال له « Lyric » في الإنكليزية ، وشعر ثالث يتمثل في (الأمثال) وفي أسفار الحكمة « Ecclesiaticus » التي هي في التهذيب وفي تعليم الإنسان « Didactic » ، وفي الحكم الموجزة المفيدة (Sententious) . والنوع الأول هو شعر فني ، وأما النوع الثاني فمختصر موجز ، نظم لينشد ، ولكل قسم طرق وبحور[5] .

---

١ المزامير ، المزمور الرابع والعشرون ، المزمور السادس والثلاثون .

٢ John D. Davis, A Dictionary of the Bible, p. 616.

٣ Hastings, p. 527

٤ Hastings, Vol., 4, p. 7.

٥ The Bible Dictionary, Vol., II, p. 305.

ولأجل إحلال الإيقاع أو النغم في الشعر، فقد يضطر أحياناً إلى مزج كلمتين قصيرتين ، ليتلفظ بهما ككلمة واحدة . كما يفعل ذلك لأسباب أخرى منها مراعاة (القافية) التي يقال لها (ميقف) (مقف) « Maqqeph » في العبرانية . أما إذا كان العكس ، وذلك بأن تكون الكلمة ثقيلة وطويلة ، فقد تقرأ وكأنها ذات مقطعين ، أو جزءين .

وإذا كان الشعر مؤلفاً من أبيات عديدة ، تكون وحدة واحدة ، فيطلق عليها (مقطوعة شعرية) « Strophe » . ولكن المراد بها في الغالب القطعة الكبيرة من الشعر ، أي (القصيدة) . وأما الشعر القصير ، المؤلف من بيتين ، أي من (دوبيت) وهو يقال له « Couplet » أو « Distich » في الانكيزية ، فإنه يكون الطابع الغالب على الشعر في هذه اللغة . يتكون من « Parallelism » ، أي (موازنات) أو (متطابقات) . وقد نظمت الأشطر والأبيات ، بحيث تتناسب فيما بينها في الألفاظ والجمل والمعاني . فيرد في الشطر الثاني جزء مما ورد في الشطر الأول بنصه أو باختيار لفظة منه ، لتذكير القارىء بالشطر المتقدم، فيتخرط مراد ذلك الشطر[1]

ونجد في التوراة قطعاً عدّها العلماء مقطعات شعرية ، بينما هي خالية من النغم، أي الوزن ، ونجد قطعاً ذات نغمة موسيقية ، أي ذات وزن ، فهي من الشعر الصحيح ، المقرون بنغم . والنوع الأول هو نثر « Prose » خالص ، لكنه يمتاز عن النثر المألوف باستعماله المجاز والاستعارة والكناية والتعابير الفنية والألفاظ المؤثرة في التعبير عن الرأي . فهو يعبر عن شعور عميق كامن في النفس بأسلوب أدبي رفيع لذلك عدّ من الشعر ، مع انه نثر في الواقع .

ويتكون البيت من شطرين . ومن مقاطع « Stanza » ومن « Strophe » ، أي مقطوعة . ويتكون الشطر والبيت من مقاطع ، أي من ألفاظ نظمت بعضها الى بعض بحيث اذا ما قرئت بصوت مرتفع ، فإنها تقرأ بنغمه ، وبموسيقى مؤثرة. ويقتضي ذلك تنظيم الألفاظ والمقاطع بشكل منسق ذي نغم ، لتتولد منه موسيقية الشعر . فللشعر ارتباط وثيق بالموسيقى والغناء . ونجد موسيقى الأشطر والأبيات متناسبة ومن ايقاع واحد ، أي من (بحر) واحد ، وتحافظ القطعة الشعرية ،

---

١ Hastings, p. 737, «Poetry».

على هذه الموسيقى ، حتى لا يقع تنافر فيها ، فتبدو متنافرة نابية على السمع ، فلا تعد شعراً من صميم الشعر .

ويدخل (الترنيم) في باب الشعر الذي يقرأ مع الموسيقى ، وتعد (الأمثال) في جملة أنواع الشعر . ونظراً لعدم وجود نصوص شعرية في العبرانية ، وفي اللغات السامية ، مدونة بصورة واضحة تبين مقاطعها كيفية التغني أو النطق بها، ونظراً لجهلنا أصول الايقاع عند القدماء وطرق الغناء التي تغنى بها ، ليس من السهل علينا في الوقت الحاضر ابداء رأي واضح عن الشعر عند قدماء الساميين ، وفي جملتهم العرب بالطبع .

فنحن لا نعرف اليوم عن الشعر العربي القديم ، الذي سبق الإسلام بعصور كثيرة ، أي شيء . وليس في النصوص الجاهلية التي وصلت الينا ، نص فيه شعر أو فيه تلميح عنه . وكل ما يقال عنه ، هو حدس وتخمين وظن وقياس قيس على ما نعرفه عن الشعر عند بقية الساميين ، وما نعرفه عن ذلك الشعر هو بحد ذاته شيء قليل . وما لم يعثر على نصوص شعرية جاهلية ، فإن من غير الممكن التحدث عنه بشيء ذي بال .

والشعر هو شعور وتعبير عن أحاسيس وخواطر قائله ، واذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن يتناسب مستواه من الرقي أو السذاجة مع مستوى الشاعر العقلي . ومعنى هذا انه بدأ ساذجاً بسيطاً ، ثم نما وتطور بنمو وبتطور عقل قائله. وعلى هذا فشعر كل أمة بدأ كما يبدأ كل مولود ساذجاً بسيطاً ، ثم نما وتطور، وهو لا يزال يتطور ما دام العقل الانساني خاضعاً لسنة التطور ، وما دام الانسان حياً. ولد من هذا الكلام الاعتيادي المرسل المنثور ، بأن ميز عنه بعض التمييز ، ثم زادت هذه الميزات أو العلامات الفارقة ، حتى صار صنواً للنثر ، بحيث صار الكلام : نثراً ونظماً .

وقد أشير الى (الشعراء) في العهد الجديد ، أي في الانجيل . ورد في (أعمال الرسل) « لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد . كما قال بعض شعرائكم أيضاً »[1] . مما يدل على أهمية الشعراء في ذلك العهد .

---

١ أعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ٢٨ .

والشعر أوقع أثراً على النفس من النثر ، لما فيه من سحر النغم ومن جاذبية في الموسيقى ، ومن توازن وتطابق في بنائه ، ومن انسجام في تكوين أجزائه ، بحيث إذا أسقط جزء من شطر بيت أو وضع جزء غريب في موضع الساقط ، وهو ليس في وزنه اختل التوازن فيه أي النغم : ولهذا اقترن الشعر بالغناء ، لوجود النغم فيه ، والنغم من أسس الغناء . فكان الشاعر يترنم بشعره ويتغنى به، ويقرأه بنغمة خاصة ليؤثر بذلك على سامعيه ، وقد يقرن ترنيمه هذا بتحريك رأسه أو يديه أو جسمه من شدة انفعاله وتأثره بشعوره ، ليؤثر بذلك في السامعين فيشبه موقفه هذا موقف السحرة في الأيام القديمة . ونظراً لتغني اليونان والرومان عند تلاوتهم أشعارهم ، قالوا : غنى شعراً ، بمعنى نظم شعراً [1] ، أو قال شعراً أو صنع شعراً . ونحن نقول في عربيتنا « أنشد شعراً ، نريد : قال شعراً ، وقرأ شعراً ، وأنشد الشعر ، قرأه ، وأنشد بهم ، أي هجاهم . « وفي الخبر أن السليطين قالوا لغسان هذا جرير ينشد بنا ، أي يهجونا . وتناشدوا أنشد بعضهم بعضاً »[2] . و « النشيد رفع الصوت . قال أبو منصور : وإنما قيل للطالب ناشد لرفع صوته بالطلب ، وكذلك المعرّف يرفع صوته بالتعريف يسمى منشداً . ومن هذا انشاد الشعر ، إنما هو رفع الصوت »[3] . وفي هذا التفسير دلالة على أن الشعراء كانوا يرفعون صوتهم عند قولهم الشعر ويترنمون به،والترنيم والترتيل والإنشاد من ألوان الغناء . ولا استبعد كون قدماء الشعراء الجاهليين كانوا يترنمون في أشعارهم ، أي أنهم كانوا ينشدونها انشاداً ، بطريقة غنائية ، قد تصاحب بآلة موسيقية ، وربما كانوا يتغنون بالشعر أمام الأصنام ، تمجيداً لها وتقرباً اليها ، ومن هنا جاء مصطلح : « أنشد شعراً » ولا استبعد أن يكون هذا شأن العرب الجنوبيين في معابدهم ، نظراً لما كان لهم من معابد ضخمة وطقوس دينية وتقرب الى الأصنام .

ولا يستبعد احتمال ترنيم بعض الشعراء الجاهليين شعرهم على نغم آلة من آلات الطرب ، على نحو ما يفعله اليوم بعض الشعراء الذين ينشدون أشعارهم بالعامية على (الرباب) (الربابة) ، ينشدونه عند أبواب البيوت في الأعياد وفي المناسبات ،

---

١ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٦٤/١) .
٢ تاج العروس (٥١٤/٢) ، (نشد) .
٣ تاج العروس (٥١٤/٢) ، (نشد) .

يستجدون به أصحاب البيت والناس الذين قد يجتمعون حولهم لسماع الغناء . وقد يكون هؤلاء من ترسبات أولئك الشعراء الجاهليين .

وقد بدأ الشعر بداية أي شعر آخر ، بدأ بداية بسيطة ، بدأ جملاً مقفاة ، الكلام فيه يوالي بعضه بعضاً على روي واحد ، أي سجعاً [1] . أو كلاماً يشبهه ، فيه نغم وايقاع وتعبير عن إحساس . ثم تفنن فيه ، وزيدت أنغامه ، أي بحوره وأغلبها من الأنغام البسيطة السهلة ، المتناسبة مع الحياة الأولية ، ثم تقـدم بتقدم الحياة ، واتخذ صوراً متعددة تتناسب مع حياة الأمم وظروفها وعقلياتها ، وماتت أوزان ، وتولدت أوزان ، وظهرت فيه أساليب عند أمة ، لم تعـرف عند أمم أخرى ، لاختلاف الحياة والأذواق والأجواء التي يولد فيها الانسان .

والشعر الجاهلي الواصل الينا ، إما أبيات ، نسبت الى شعراء ، وقد لا تنسب ، وإما جملة أبيات يقال لها (قطعة) « Fragment » ، وإما (قصيدة) « Ode » وهي ما زاد عدد أبياتها على حدود القطعة التي رسمها لها علماء الشعر .

وقد لعب (السجع) دوراً هاماً في حياة الجاهليين ، تكلم به الكهان بصورة خاصة ، ولهذا اشتهر وعرف باسمهم فقيل : « سجع الكهان » . ونطق به الخطباء ، وقد تعمقوا فيه فاستعملوا أقصى ما ملكته بلاغتهم من أساليب التأثير على النفوس ، لسحر عقول المستمعين لهم . فصار نوع من أنواع الكلام المقفى ، ظاهره القافية والروي ، وباطنه سحر معاني الشعر . فهو في الواقع شعـر مقفى ينقصه الوزن ليكون شعراً تاماً . و (الروي) ، حرف القافيـة ، الحرف الـذي تبنى عليه القصيدة ، ويلزم في كل بيت منها في موضع واحـد [2] . فلما أضيف اليه النغم ، أي الوزن صار شعراً ، له أوزان وبحور ، على نغمها ينظم الشاعر شعره .

والسجع ،وان ظهر في عربيتنا كلام مقفى خال من الوزن ، إلا أنـه في الواقع كلام موزون ، روعي فيه ، أن يكون الشطر الثاني من الجملة مواز أي مساو للشطر الأول منها ، بحيث يكون بوزنه وبقافيته . ومن هنا عدّ شعراً عند الأمم الأخرى لأنك إذا قرأت السجع الأصيل المعتنى به ، أو السجع الـذي استرسلت به السليقة ، والخارج من قلب إنسان ذي حس مرهف ، تجد فيه الميزان الصحيح

---

١ تاج العروس (٣٧٥/٥) ، (سجع) .
٢ تاج العروس (١٥٩/١٠) ، (روى) .

والمقابلة التامة والمطابقة الصحيحة بين الأجزاء ، كل كلمة فيه تقابل كلمة مثلها، وكل عيار فيه يقابله عيار في وزنه وثقله . وفي معانيه معان شعرية وسحر بيان ، ثم إنك إذا قرأته بصوت مرتفع،وبحركات صوتية ذات ترنم ، بنغم فيه حركات وسكنات ، صار شعراً . ومن هنا رمت قريش الرسول بقول الشعر ، وبأنه شاعر لما سمعت القرآن . فرد عليهم بقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له »[1] . و « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون »[2] .

وما كانت قريش لترمي الرسول بقول الشعر ، وتزعم ان القرآن شعر أو أن فيه شعراً ، لو انها كانت تعتبر الشعر الكلام الموزون المقفى حسب ولا غير ولا تدخل التخيل فيه ، أي المعنى الشعري . ومن هنا قال المفسرون : « لأن انتفاء الشعرية عن القرآن أمر كالبين المحسوس . أما من حيث اللفظ فظاهر ، لأن الشعر كلام موزون مقفى ، وألفاظ القرآن ليست كذلك ، إلا ما هو في غاية الندرة بطريق الاتفاق من غير تعمد . وأما من جهة التخيل ، فلأن القرآن فيه أصول كل المعارف والحقائق والبراهين والدلائل المفيدة للتصديق اذا كان المكلف ممن يصدق ولا يعاند . وانتفاء الكهانة عنه أمر يفتقر الى أدنى تأمل يوقف على ان كلام الكهان أسجاع لا معاني تحتها وأوضاع تنبو الطباع عنها »[3] . وهذا المذهب الذي ذهبت قريش فيه في تفسير الشعر،هو الذي حمل علماء التفسير على الاحتراس كثيراً في تفسير معنى الشعر وفي تحديده ، وتحديد مفهوم الشاعر . فقالوا : «الشعر وهو الكلام المقفى الموزون قصداً . والتقييد بالقصد مخرج ما وقع موزوناً اتفاقاً، فلا يسمى شعراً ، وما يجوز من الرجز ، وهو نوع من الشعر عند الأكثر »[4] .

على أن علماء العربية لم يغفلوا أو لم يشاءوا أن يخفوا حقيقة واقعة ، هي أن

---

١ سورة يس ، الآية ٦٩ ، تفسير الطبري (٢٣/ ١٨) ، ابن كثير ، تفسير (٣/ ٥٧٨ وما بعدها) .

٢ الحاقة ، الآية ٤٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٢٩/ ٤١) .

٣ تفسير النيسابوري ، (٢٩/ ٣٧) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، (بولاق) ، (وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال) ، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٨) ، (في تفسير سورة يس) .

٤ ارشاد الساري (٩/ ٨٨) .

في القرآن آيات ، إذا تأملت فيهـــا وجدتها وكأنها شعر منظوم ، أو من قبيل الشعر المنثور . مثل سورة الانفطار :

إذا السماء انفطرت
وإذا الكواكب انتثرت
وإذا البحار فجرت
وإذا القبور بعثرت
علمت نفسٌ ما قدمت وأخرت[1]

والجواب على ذلك،ان ما نجده في القرآن من آيات تبدو وكأنها شعر موزون ، هو من قبيل ما يقع في كلام الناس عفواً ومن غير تعمد من كلام ، لو تأملت فيه وجدته كلاماً موزوناً ، ولكن لم يقصد به أن يكون شعراً ، والشعر لا يعدّ شعراً إلا إذا كان قد صدر عن تفكر وعمل خاطر ، وإعمال رأي ، ومن رجل اتخذ الشعر صنعة له .

وليس لدى أي أحد علم بكيفية تطور الشعر العربي من حالته البداثية الى بلوغه درجـــة البحور . ولا يستطيع أحد اثبات أن هذه البحور التي ثبتها (الخليل) والأخفش ، وحددها ، هي كل بحور الشعر الجاهلي ، فربما وجدت بحور أخرى لم يصل خبرها الى علم هذين العالمين أو غيرهما ، ولا سيما في الشعر القبلي التي لم يشتهر أمره ، ولم يعرف إلا بين السواد ، ومنه الشعر العامي ، أي الشعبي ، أو المحلي ، المنظوم باللهجات الخاصة ، إذ لا يعقل عدم وجـــود شعر شعبي في ذلك العهد ، نظمه سواد الناس ، على غرار الشعر العامي الذي يقـــال له الشعر النبطي في جزيرة العرب ، فالشعر هو شعور ، ولا يقتصر الشعور على طبقة من الناس دون أخرى .

ونحن لا نملك في الوقت الحاضر تعريفاً علمياً للشعر ، نستطيع أن نقول بجزم وبتأكيد انه من تحديد الجاهليـين له . والتعريف المألوف له ، هو كما ذكـــرت تعريف اسلامي محض . وقد رأينا كيف احترس علماء التفسير في تعريفه، فقيّدوه بكونه « الكلام المقفى الموزون قصداً » لإخراج ما وقع موزوناً من الكلام اتفاقاً

---

١ سورة الانفطار ، ٨٢ ، الآية ١ ــ ٥ .

من الشعر ، وهو ما وقع في القرآن وفي كلام الرسول ، مما يدل على ان العرب في أيام الرسول كانوا أوسع إدراكاً لمفهوم الشعر من الاسلاميين ، وانهم كانوا يدخلون فيه ما أخرجه من جاء بعدهم في الاسلام منه ، بسبب فرية قريش على القرآن والرسول . وبسبب هذه الفرية ، وقع جدل فيما بين الاسلاميين في موضوع الرجز ، هل هو شعر ، أو هو باب خاص من أبواب الكلام لا يدخل في باب الشعر ، لثبوت ورود الرجز على لسان الرسول !

وقد أدرك العلماء ان هنالك فروقاً بين العرب وبين العجم في نظرتهم الى الشعر. قال (الجاحظ) في معرض كلامه على ميزات اللسان العربي وتفوقه على ألسنة الأعاجم : « والأمثال التي ضربت فيها أجود وأسير . والدليل ان البديهة مقصور عليها ، وان الارتجال والاقتضاب خاص فيها ، وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الروم والفرس شعراً ، وكيف صار النسيب في أشعارهم وفي كلامهم الذي أدخلوه في غنائهم وفي ألحانهم انما يقال على ألسنة نسائهم ، وهذا لا يصاب في العرب إلا القليل اليسير،وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة ، فتضع موزوناً على موزون ، والعجم تمطّط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون »[1] . فهذا رأي (الجاحظ) في الشعر العربي وفي الشعر عند الأعاجم .

وللشعر أوزان ، هي بحوره . ضبطها (الخليل بن أحمد) الفراهيدي في الاسلام ثم من جاء بعده . استنبطت من الشعر المألوف الذي كان سائداً في أيامه، وضبطت بأوزان هي (التفعيلات) . بيد أننا لا نستطيع أن نقول إن الأوزان التي ضبطها الاسلاميون ، تمثل جميع بحور الشعر الجاهلي ، وأن علماء الشعر كانوا قد استعرضوا كل ذلك الشعر ، وحصروه حصراً ، ودرسوه درساً ، فوجدوه لا يخرج خارج هذا الحصر ، فلم يفتهم منه ولا بحر واحد . فقول مثل هذا لا يمكن أن يقال ، وهل هنالك من دليل يؤيده ويسنده ؟ وأنا لا استبعد احتمال عدم وقوف علماء الشعر على بحور أخرى ، لم يصل علمها اليهم بسبب موتها قبل الإسلام ، أو لقلة من كان ينظم بها ، ألا لأنها كانت من الأشعار التي لم يصل علمها الى علماء الشعر ، لكونها من أشعار العرب الجنوبيين الذين كانوا يتكلمون

---

١ البيان والتبيين (٣٣) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

باللهجات العربية الجنوبية، أو لكونها أشعار مناطق بعيدة لم يألف علماء اللغة والشعر الذهاب اليها ، أو لأنها من الشعر (العامي) ، البعيد عن العربيـة المصطفاة ، ولأسباب أخرى .

ونجد في خبر : (لهيب بن مالك) اللهبي ، المعروف بـ (لهب) ، سجعاً ورجزاً ، نستطيع أن نقول انه – إن صح – يمثل مرحلة من مراحل الشعر عند الجاهليين ، تفيدنا دراستها فائدة كبيرة في الوقوف على تطور الشعر الجاهلي . فقد ذكر انه سمع الكاهن (خطر بن مالك) ، وكان من أعلم كهان (بني لهب) ، يقول :

عودوا الى السحر   ائتوني بسحـــر
أخبركم الخـــبر   ألخير أم ضرر
أم لأمن أو حذر

وذكر انه سمع الكاهن يقول :

أصابه أصابـــه   خامره عقابـــه
عاجله عذابـــه   أحرقه شهابـــه
زايله جوابـــه   يا ويله ما حاله
بلبلـــه بلبالـــه   عاوده خبالـــه
فقطعت حبالـــه   وغيرت أحواله

ثم أمسك طويلاً ، وهو يقول :

يا معشر بني قحطان   أخبركم بالحق والبيان
أقسمت بالكعبة والأركان   والبلد المؤمن والسدان
قد منع السمع عتاة الجان   بثاقب بكف ذي سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشان   يبعث بالتنزيل والقرآن
وبالهدى وفاصل الفرقان   تبطل به عبادة الأوثان

ثم قال خطر :

أرى لقومي ما أرى لنفسي   أن يتبعوا خير نبي الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس[1]

---

١ الاصابة (٣/٣١٢) ، (رقـــم ٧٥٦٤) ، الاستيعاب (٣/٣١٢ وما بعدهـــا) ، (حاشية على الاصابة) .

وهو كلام مصنوع ، لكنه يفيدنا مع ذلك في الوقوف على نماذج من الشعر، روعي في صنعه محاكاة طريقة الكهان في نظم الكلام . فهو يفيدنا من هنا في الوقوف على أسلوب من أساليب نظم الكهان في أيام الجاهلية ، كما انه يفيدنا في دراسة موضوع صلة الكهانة والسحر بالشعر .

والشعر بعد ، تعبير عن الخواطر والأحاسيس وخوالج النفوس ، فلا يمكن أن تنحصر أغراضه في غرض واحد ، لأن التعبير عن الحياة العامة للإنسان يحتاج الى ألوان كثيرة من ألوان التعبير الشعري ، والشعر الجاهلي على كونه ضيقاً ، لضيق أفق الحياة الجاهلية وبساطتها ، فقد تنوعت فنونه ، تنوعاً انبثق من صميم حياة الجاهليين ، وأدى بذلك المعاني التي كانت تتطلبها حياتهم أداءً يتناسب مع درجة عقليتهم ومستواهم المعاشي وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية . وقد استعرض الإسلاميون تلك الأغراض التي قيل الشعر فيها فحصرها (أبو تمام) وهو نفسه من مشاهير الشعراء في الاسلام في عشرة أبواب: هي الحماسة ، والمراثي ، والأدب، والتشبيب (النسيب) ، والهجاء ، والإضافات ، والصفات ، والسير ، والملح ، ومعرفة النساء . وجعلها غيره : الغزل ، والوصف ، والفخر ، والمدح، والهجاء، والعتاب ، والاعتذار ، والأدب ، والخمريات ، والأهديات ، والمراثي ،والبشارة، والتهاني ، والوعيد ، والتحذير ، والتحريض ، والملح ، وباب مفرد للسؤال والجواب[1] . وحصرها (ابن رشيق) في النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء، والإقتضاء ، والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد ، والانذار ، والهجاء ، والاعتذار[2]. وورد في (ديوان المعاني) ان « أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح ، والهجاء، والوصف ، والتشبيه ، والمراثي ، حتى زاد النابغة فيها قسماً سادساً وهو الإعتذار، فأحسن فيه »[3] .

وقد تعرض (أبو العباس ثعلب) ، لهذه الأغراض فجعلها : الأمر والنهي، والإخبار ، والاستفهام . وهذه الأغراض الأساسية للشعر تتفرع الى المديح ، والهجاء ، والرثاء ، والإعتذار ، والغزل ، والتشبيه ، والوصف[4] . وجعل

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/٧١) .
٢ العمدة (٢/١١٣ وما بعدها) ، (باب في أغراض الشعر وصنوفه) .
٣ ديوان المعاني (١/٩١) .
٤ جوستاف فون جرونباوم ، حضارة الاسلام (٣٣٣) .

(أبو هلال العسكري) أغراض الشعر : المديح ، والهجاء ، والفخر ، والغزل، وجعلها : المديح ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل، والوصف ، في موضع آخر[1] .

ونلاحظ ان بعض هذه الأبواب مثل الفخر والمدح والهجاء ، عامرة ، وبعض منها فقيرة ، حتى لا نكاد نجد فيها مما يخص الشعر القصصي Epique غير نزر يسير ، وفي هذا القليل ما هو مشكوك في صحته . وأما الشعر الديني الخاص بالأصنام والأوثان ، فلا نجد منه في الشعر الواصل الينا لا قطعة ولا قصيدة . ولا يعقل بالطبع ألا يكون للجاهليين شعر في هذا الباب ، إذ كانوا يتوسلون ويلوذون بها ويتقربون اليها بالنذور ، فلا يعقل ألا يكون لهم شعر في آلهتهم . ولا يعقل أيضاً قول من قال إن الجاهلي رجل مادي ، لم يحفل بالدين ولا بالمعاني الروحية ولا بالآلهة ، وهو من أبعد الناس عن الدين والتدين ، لذا لم يحفل بها في شعره. فلو كان الجاهلي على هذا النحو المذكور من الابتعاد عن الدين والتدين ، لما تقرب اليها بالنذور وبالقرابين وهو فقير محتاج ، وبالحج ، وهي عبادات لا يمكن أن ينكر وجودها عند الجاهليين أحد ، لورود ذكرها في النصوص الجاهلية ، وفي القرآن الكريم . والذي أراه ان سبب عدم وصول شيء من الشعر الديني الوثني الجاهلي الينا ، لا يعود الى تقصير الجاهليين في هذا الباب ، بل الى انصراف الرواة عنه ، وامتناعهم من تدوينه بسبب الاسلام،لأنه من صميم ديانة أهل الجاهلية التي اجتثها الاسلام ، إلا أن يكون ذلك الشعر من النوع الذي يتفق مع مبادىء الاسلام ، أو لا يتعارض معها ، فلم يجدوا غضاضة من روايته ، ولذلك رووه.

وقد ذكر علماء الشعر « أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين ، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم من ماء الى ماء ، وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه »[2] . وذكر أن (امرأ القيس) « أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى في الدمن،ووصف

---

١ ديوان المعاني (١/٣١ ، ٩١) ، حضارة الاسلام (٣٣٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٠) .

ما فيها ، ثم قال : دع ذا – رغبة عن المنسبة – فتبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا واللقوة والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف » . وكان أول من بكى الديار[1] .

والشاعر المجيد عندهم « من سلك هذه الأساليب ، وعدّل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منهـا أغلب على الشعر ، ولم يطل فيملّ السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمـأ الى المزيد »[2] . « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هـذه الأقسام ، فيقف على منزل عامرٍ ، أو يبكي عند مُشَيَّد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر ، والرسم العافي ، أو يرحل على حمارٍ أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد عـلى المياه العذاب الجواري ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة »[3] .

وقد جعل علماء الشعر (النسيب) باباً من أبواب الشعـر ، ودعاه بعضهم (التشبيب) ، وجعل بعضهم (الغزل) باباً من أبواب الشعر ، بأن أدخـل (النسيب) فيه[4] . وطالما نجد الناس يخلطون بين الغزل والنسيب والتشبيب . والغزل في رأي بعض علماء اللغة اللهو مع النساء ، وقيل محادثة النساء ، وقيل : الغـزل والنسيب هو مدح الأعضاء الظاهرة من المحبوب أو ذكر أيام الوصل والهجر أو نحو ذلك ، وذكر بعضهم ان الغزل والنسيب والتشبب كلها بمعنى واحد ، وقيل : إن النسيب والتشبيب ، والغزل ثلاثتها متقاربة ، ولهذا يعسر الفرق بينها حتى يظن انها واحد[5] . وذكر ان النسيب التغزل ، وان قول الرجل نسب الشاعر بالمرأة ، بمعنى شبب بها في الشعر وتغزل وذلك في أول القصيدة ، ثم يخرج الى المديح ، والنسب هو الغزل في الشعر ، والنسيب في الشعر ، هو التشبيب فيه[6] ، والتشبيب : ذكر أيام الشباب واللهو والغزل ، ويكون في ابتداء القصائد ، وسمي ابتداؤهـا

---

١ الشعر والشعراء (١/٦٨) ، (دار الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢١) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٢) .
٤ العمدة (١/١٢٠ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٨/٤٣) ، (غزل) .
٦ تاج العروس (١/٤٨٣) ، (نسب) .

مطلقاً وإن لم يكن فيه ذكر الشباب. وقيل تشبيب الشعر ترقيق أوله بذكر النساء[1].

ولو دققنا النظر في معاني هذه المصطلحات ، نجد أن هناك فرقاً بين الغزل وبين النسيب ، والتشبيب في الأصل ، غير أن الناس خلطوا بين معانيها ، فلم يفرقوا بينها . فالنسيب مصطلح استعمل في الشعر للتعبير عن ذكر الديار والأحبة في ابتداء القصيدة ، فكأنه أخذ من النسب ، حيث يقص الشاعر نسب أحبته ومكانهم ، ومرابع الأحباب ومنازلهم واشتياق المحب الى لقائهم ووصالهم وغير ذلك مما فصلوه وسموه التشبيب[2] ، فهو ليس بغزل إذن ، فقول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لا يعدّ غزلاً بالمعنى المفهوم من الغزل ، وإنما هو تذكر وتوجع على الأحبة والأصدقاء ، لمفارقته الديار ، وتركه الأحباب . أما الغزل ، فهو شيء آخر ، يمثل عاطفة الحب نحو المرأة ، وما يتعلق بها ، وهو ما يقال له : Love Poem في الانكليزية . وأما التشبيب ، فهو تذكر أيام الصبا والشباب ، والغزل فيه لما فيه من المغازلة والمنادمة[3] ، ونظراً لما بين هذه الأمور من تداخل ، تداخلت المعاني في الإسلام ، وأخذت تعني معاني متقاربة ، أو شيئاً واحداً .

وشعر الهجاء « Lampoon » ، هو من أهم أبواب الشعر المهمة عند الجاهليين. ويتناول هجاء الاشخاص وهجاء القبائل . ونظراً لما كان يتركه الهجاء من أثر في النفوس ، كان قوم الشاعر يروونه ويحفظونه للحط من شأن المهجو . ولهذا الأثر الخطير الذي كان يتركه الهجاء في المهجو من كسر في الاسم وتحطيم في المنزلة ، فسّر (كولدزيهر) لفظة (قافية) بمعنى (تحطيم القفى) ، أي (تحطيم الجمجمة). وذهب الى ان القافية ، كانت بهذا المعنى في الأصل ، ثم فسرها العلماء بعد ذلك تفسيرهم المألوف ، وهو تفسير مخالف للأصل[4] .

قال أهل الأخبار : « وليس في العرب قبيلة إلا وقد نيل منها ، وهجيت ،

---

١ تاج العروس (٣٠٨/١) ، (شبب) .
٢ تاج العروس (١٦/١) ، (نسب) .
٣ تاج العروس (٤٨٣/١) ، (نسب) .
٤ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 9.

وعيرت ، فحطّ الشعر بعضاً منهم بموافقة الحقيقة ، ومضى صفحاً عن الآخرين لما لم يوافق الحقيقة ، ولا صادف موضع الرمية .

فمن الذين لم يُحك فيهم هجاء إلا قليلاً على كثرة ما قيل فيهم: تميم بن مرة، وبكر بن وائل ، وأسد بن خزيمة ، ونظراؤهم من قبائل اليمن .

ومن الذين شقُوا بالهجاء ، ومزقوا كل ممزق – على تقدمهم في الشجاعة والفضل – أحياء من قيس : (نحو غنى وباهلة) ، (ونحو محارب بن خصفة ابن قيس عيلان ، وجسر بن محارب) ، (ومن ولد طابخة بن الياس بن مضر: تيم وعُكل ابنا عبد مناة بن أد) ، (وعدي بن عبد مناة) ، كانوا قطيناً لحاجب بن زرارة،وأراد أن يستملكهم ملك رق بسجل من قبل المنذر، والحبطات». ولم تمدح قبيلة قط في الجاهلية من قريش كما مدحت مخزوم[1] .

وقد تعرض (الجاحظ) لهجاء الشعراء للأشراف ، فقال : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال ، حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه . ومن طلب عيباً وجده . فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره ، وجد من يغلظ فيه ويحمله عنه . ولذلك هُجِي حصن بن حذيفة ، وهُجي زرارة بن عدس ، وهجي عبدالله بن جدعان ، وهجي حاجب بن زرارة»[2]. فالحسد في نظر (الجاحظ) من جملة عوامل الهجاء . فالنباهة والشرف والظهور في المجتمع من العوامل التي تكون سبباً دافعاً إلى الهجاء ، بسبب داء الحسد ، ولهذا أمن الخامل من هجاء الهجائين ، وسلم من أن يضرب به المثل في قلة ونذالة وبخل ، إذ ليس فيه ما يحمل الشاعر على النيل منه وعلى ما يغيظه ، ولا يحسده حاسد ، حتى يدفع الشاعر على التحرش به وهجائه . وقد هجيت قبائل بأقذع أنواع الهجاء مع ما لها من شرف وفضل ومكانة وخير عميم ، بسبب حسد الحساد ، وغيظ القبائل الضعيفة ، أو التي لا خير فيها منها ، فتحرش شعراؤها بها ، ودفع الحسد الهجائين إلى هجائها ، على كونهم من غمار الناس ومن الخاملين في الحسب والنسب[3] .

---

١ العمدة (١٨٢/٢ وما بعدها) .
٢ الحيوان (٩٣/٢) .
٣ الحيوان (٣٥٧/١ وما بعدها) .

وقد هجيت الملوك ، فتناولتهم ألسنة الهجائين ، ولا سيا أولئك الملوك الذين رزقوا طبعاً حاداً ، وعصباً حساساً متوتراً ، مثل عمرو بن هند ، والنعمان بن المنذر الذي نال أكبر نصيب من الهجاء . ومما قيل فيه :

ملكٌ يلاعب أمه وقطينَهُ   رخو المفاصل أيره كالمرود

وقد نسب قوله الى (النابغة) الذبياني ، ويمكن أن يكون قد صنعه غيره ودسه عليه حسداً له ، للإيقاع به عند الملك . ونسب اليه قوله :

قبح الله ثم ثنى بلعن   وارث الصائغ الجبانَ الجهولا
من يضر الأدنى ويعجز عن ضر   الأقاصي ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو   ثم لا يرزأ العدوَّ فتيلا[1]

وقيل ان قائل تلك الأبيات هو : (عبد قيس بن خفاف) التميمي ، قاله على لسانه للايقاع بينه وبين النعمان[2] .

وللهجاء عند الجاهليين وقع شديد . ولقد بكى قوم من الأشراف من شدة هول الهجاء عليهم[3] . ولما أمعنت قريش في هجاء الرسول والمسلمين ، وجندت الشعراء للنيل من الاسلام ، أعد الرسول (حسان بن ثابت) ، و (كعب بن مالك) ، و (عبدالله بن رواحة) للرد عليهم ، وقد قال الرسول لحسان : « اهجهم — أو هاجهم — وجبريل معك »[4] ، وقال : « إن قوله فيهم أشد عليهم من وقع النبل »[5] . « وكان حسان وكعب بن مالك يعارضانهم بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر ويذكران مثالبهم . وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر وعبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، فكان قوله يومئذ أهون القول عليهم . وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم . فلما أسلموا وفقهوا ، كان أشد القول عليهم ،

---

١ الشعر والشعراء (١/٩٩) ، (لعن الله ثم ثنى بلعن) ، الحيوان (٤/٣٧٩) ، الاغاني (٩/١٥٨) .
٢ الشعر والشعراء (١/٩٩) ، الحيوان (٤/٣٧٩) .
٣ الحيوان (١/٣٥٧ وما بعدها) .
٤ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) .
٥ الاستيعاب (١/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .

قول عبدالله بن رواحة »[1] . وورد ان الرسول قال لحسان : « هيج الغطاريف على بني عبد مناف ، والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام ، في غبش الظلام »[2]، وفي هذا المعنى ورد في شعر (عبد قيس بن خفاف) البرجمي :

فأصبحتُ أعددت للنائبـا ت عِرضاً بريئاً وعضباً صقيلا
ووقع لسان كحـد السنان ورمحاً طويل القناة عسولا[3]

وفي هذا المعنى ورد أيضاً قول طرفة :

بحسام سيفك أو لسانك والكلمُ الأصيل كأرغب الكلِم[4]

وقول امرىء القيس الكندي :

ولو عن نثاً غيره جاءني وجُرْح اللسان كجرح اليد[5]

وقول طرفة :

رأيت القوافي يتلجن موالجاً تضايقُ عنها أن تَوَلَّجها الإبَر[6]

وعكس (الهجاء) هو شعر الفخر والمدح ، وله أهمية عند العرب لا تقل عن أهمية الهجاء ، لما له من مكانة في المجتمع . وقد لعب دوراً خطيراً في السياسة كذلك ، ولا زال يلعب دوره هذا فيها الى هذا اليوم . ولا يعني هذا المدح أن الشاعر كان صادق اللهجة في مدحه ، مخلصاً في مدحه لمن مدحه ، انما المدح هو في مقابل إحسان أو طلب إحسان في الغالب ، فإذا قطع المحسن إحسانه عن الشاعر أو اذا حرض انسان الشاعر على من مدحه وأعطاه ليهجوه ، هجاه ، وقد يهجوه بأقذع هجاء ، ومن هنا كان الأشراف وأصحاب التستّر ، يبتعدون عن الشعراء، لا يريدون مدحهم ولا حمدهم ، لأنهم لا يعلمون متى سينقلب الشاعر عليهم ،

---

١ الاستيعاب (١/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٧٣) .
٣ المفضليات (٣٨٦) .
٤ الحيوان (١/١٥٦) ، ديوان طرفة (٦١) .
٥ الحيوان (١/١٥٦) .
٦ الحيوان (١/١٥٨) .

فيهجوهم بأشد هجاء ، أو ينهش أعراضهم ، لتقصيرهم في اعطائه المال . ومن هنا نعتوا بالتلون وبالكذب : « والشعراء يتّبعهم الغاوون . ألم ترَ انهم في كل وادٍ يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون »[1] .

وسبب هذا التلون عامل اقتصادي ، فقد كان الشاعر مثل غيره من الناس يتعيش بشعره ، يبذله لمن يعطيه ، ويحجبه عمن لا يعطيه ، وإذا مدح أمل الإثابة ، ليعيش عليها ، وإن حرم منها ، أو وجد أن شاعراً آخر نال من ممدوحه أكثر مما أعطاه غضب ، وقلب مدحه ذماً ، فيشتمه وينتقص من شأنه وان كان قد أغرق بالأمس في مدحه له . وقد يثيره حساد الممدوح ، بأن يعطوه أكثر مما أعطاه ممدوحه ، فيغريه المال ، ولا يجد عندئذ رادعاً أخلاقياً يمنعه من التهجم عليه ومن هجائه بأقبح هجاء ، فالموضوع موضوع مال ، ولو كان للشعراء ثراء وغنى أو سوق رائجة تباع فيها دواوينهم ، لما ركب الشاعر ولا شك هذا المركب ، ولما تزلف وتقرّب ، ولكان حاله حال الشعراء الغربيين . يعتمدون على الرأي والفكرة والإبداع والفن ، فيشتري الناس شعرهم للاستمتاع به ، فما يهمهم لذلك مدح هذا أو ذاك .

ويرى (بروكلمن) أن « كثيراً ما كان الشاعر يتجه بفنه أيضاً الى مدح بطل أو أمير من قبيلته ، ولكنه لم يكن يفكر قديماً في الجائزة الرنانة ، التي نزلت بمكانة شعراء المديح المحترفين في بعض الأحيان – منذ عهد النبي – الى درك المتسولين بالغناء »[2] . وهو يجاري بذلك أهل الأخبار القائلين بأن الشعراء المتقدمين لم يكونوا يمدحون طمعاً في مغنم ومال ، وإنما كانوا يمدحون عن رأي، وان أول من تسول بشعره الأعشى ، فحط بعمله هذا من قدر الشعراء ، ثم أفرط الحطيئة في ذلك ، حتى أهان نفسه ، فصيروا المتقدمين من الشعراء ملائكة، ورموا الأعشى بخطيئة التسول ، بأن جعلوه رأس المتسولين ، وما الأعشى إلاّ بشر ، وما المتقدمين عليه إلا بشر مثله ، فإن تسول الأعشى ، فمن يثبت أنه كان أول من تسول ، وإن خطيئة التسول لم تكن معروفة بين المتقدمين عليه .

والرثاء Elegy من سنن الجاهليين القديمة ، يقال رثيت الميت رثياً ورثاء

---

١ سورة الشعراء ، رقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .
٢ بروكلمن (٥٧/١) .

ورثاية ، ومرثاة ، ومرثية ، بمعنى بكيته وعددت محاسنه ، أو نظمت فيه شعراً، والمراد به المدح[1] . وهو من أبواب الشعر المهمة كذلك ، لما كان لرثاء الميت من أهمية كبيرة عند أهل الجاهلية . وقد كانوا يوصون أهلهم بأن يقيموا (النياحة) عليهم ، ليقال فيها ما يقال من الشعر في حقهم[2] . ونجد في الشعر الجاهلي قصائد وأشعاراً في الرثاء . وقد نبغت النساء الراثيات في هذا الباب، واستنبطن فيه أساليب بديعة لم يتنبه لها الفحول لما طبعن عليه من رقة الطباع وشدة الجزع في المصائب، وصدق الحس ، ورقة العاطفة[3] . وقد جمع الأب (لويس شيخو) مراثي الشاعرات الجاهليات ، في كتاب ، جمع فيه مراثي احدى وستين شاعرة عدا شعر الخنساء . والخنساء ، هي من أشهر شاعرات الرثاء، اشتهرت برثاء أخويها: صخر ومعاوية[4] .

وشعر الرثاء وإن كان من واجب النساء النائحات في الغالب ، وقد بلغ الغاية في شعر (الخنساء)،إلا أنه كان من واجب الشعراء كذلك . فلكثير من الشعراء رثاء لآبائهم ولاخوانهم ولأقاربهم ولأصدقائهم ولذوي الفضل عليهم ، وقد ترك (أوس بن حجر) جملة مراثي رائعة،وترك غيره قصائد في رثاء الملوك وسادات القبائل والآباء والاخوة ، ويلاحظ أن رثاء الشعراء إنما كان في رثاء الأموات الرجال في الغالب ، وذلك نابع عن طبيعة المجتمع ، التي تمجد الرجل، ولا ترى ذكر النساء الحرائر إلا في المدح والفخر .

أما شعر التوجع والتألم « Elegies » و « Threnody » الذي نجده في كتاب (المراثي) « Lamentations Book » ، المنظوم في الكارثة التي أنزلها (بختنصر) في اليهود عام (٥٨٦) قبل الميلاد ، فلا نجد مثله في الشعر الجاهلي ؛ إنما نجد أبياتاً في النكبات التي كانت تحلّ بالقبائل بسبب الغارات والغزوات ، وأروعه ما جاء في رثاء قتلى بدر . وهو ذو طابع شخصي في أكثر الأحيان ، إذ يدور حول انفعال الشاعر وتأثره لمصرع شخص كان يحبّه أو يقدره . ويدخل ما وضع

---

١ تاج العروس (١٤٤/١٠) ، (رثى) .

٢ Goldziher, History of classical Arabic Literature, p. 9.

٣ لويس شيخو ، رياض الادب في مراثي شواعر العرب (ص ١) ، (بيروت ١٨٩٧ م) .

٤ كارلو نالينو (٨١) .

من شعر حول تخرب سدّ مأرب ، وأمثال ذلك في هذا الباب بالطبع .

وقد رثى بعض الشعراء أنفسهم حين شعروا بدنو أجلهم ، ونجـــد في كتب الشعر والأدب شعراً من هذا النوع ، فكأن الشاعر أراد أن يفتتح به رثاء الراثيات والنائحات ، ليكون لهن مقدمة ينسجن عليها شعرهن في رثائه .

وتعدّ (المراثي) من عيون الشعر والتّراث الخالد عند الشعوب القديمة ، ولا زال الناس يقيمون للرثاء وزناً كبيراً ، لأنه تخليد وتقدير لشأن الميت . ونجد في الأدب القديم مكانة كبيرة له فيه . وفي التوراة وصف لرثاء الناس لموتاهم . وهو سجع أو رجز يناسب ظروف الميت وحاله ومكانته ، يرنم بأنغام حزينة مؤثرة ، ومنه جاء شعر المراثي . ويلاحظ ان شعر الرثاء في العربية لا يختلف من حيث الوزن عن بقية الشعر ، فهو يقال في كل البحور ، والفرق بينه وبين غيره هو في المعنى ، وفي غلبة التوجع والألم فيه على المعاني الأخرى .

ولم يصل الينا شعر جاهلي طويل ، مؤلف من مئات أو آلاف من الأبيات ، مثل الشعر القصصي الذي نجده عند الشعوب (الآريـة) في سرد حكايات الآلهة والأبطال والحروب ونحو ذلك ، ومثل الشعر الغنائي « Lyrique » ، ومثل الشعر التمثيلي « Dramatique » ، الذي يستند على التمثيل والحوار والغناء ، وشعـــر الجاهليين شعر قصير في الغالب ، لا تتجاوز القصيدة فيه ، وهي أطول قطعة من الشعر مائة بيت .

أما القصة الشعرية القصيرة ، فنجدها في قصيدة الأعشى التي وصف فيها وفاء السموأل . ونجد في شعر (عدي بن زيد) قصصاً قصيرة عن أحداث تأريخية ، أوردها في شعره على سبيل العظة والاعتبار ، كما نجد في شعر (أمية بن أبي الصلت) قصصاً ، أخذ بعضه من قصص أهل الكتاب ، وأخذ بعض آخر منه من أساطير العرب القديمة . وكل هؤلاء هم ممن نستطيع أن نقول عنهم إنهم من الحضر ، أو من المتأثرين بعقلية أهـــل القرى والحضارة . ويمكن عدّ قصة الأعشى عن السموأل من هذا النوع المسمى « Ballad » في الانكليزية . ويرى (بروكلمن) أن « محاولة الأعشى إنشاء شعر القصة La Ballade واختراع أسلوب الملحمة ، في إشادته بوفاء السموأل ، فقد بقيت عملاً فذاً لم ينسج أحد على منواله »[1] .

---

١ بروكلمن (٦٢/١) .

ونجد في شعر للنابغة قصة (زرقاء اليمامة) ، وقصة الحية ، إذ يقول :

تذكر أنّى يجعل الله فرصةً فيصبحَ مال ويقتلَ واتره
فلما وقاها الله ضربةَ فأسه وللبر عين لا تغمضُ ناظره
فقالت: معاذ الله أعطيك إنني رأيتك غدّاراً يمينكُ فاجره
أبى لي قبرٌ لا يزال مُقابلي وضربة فأسٍ فوق رأسي فاقره

والقصة : ان بلدة امتنعت على أهلها بسبب حيّة غلبت عليها ، فخرج أخوان يريدانها ، فوثبت على أحدهما فقتلته ، فتمكن لها أخوه في السلاح ، فقالت : هل لك أن تؤمنني فأعطيك كل يوم ديناراً ؟

فأجابها الى ذلك حتى أثرى ، ثم ذكر أخاه ، فقال : كيف يهنؤني العيش بعد أخي ؟ فأخذ فأساً وصار الى جُحرها ، فتمكن لها ، فلما خرجت ضربها على رأسها ، فأثر فيه ولم يمعن ، ثم طلب الدينار حين فاته قتلها ! فقالت : إنه ما دام هذا القبر بفنائي وهذه الضربة برأسي فلست آمنك على نفسي ! وكانت العرب تضرب أمثالاً على ألسنة الهوام[1] .

وللحيّة قصص عند الشعوب القديمة ، وقد صوروها بصور مختلفة، وأشير اليها في التوراة . وقد جعلت رمزاً للحيل والإغراء والشر والغدر[2] ، والأرجح ان واضع القصة التي نظمها شعراً على لسان النابغة ، انما أخذها من أهل الكتاب .

ونجد لـ (عمرو بن آلة بن الخنساء) شعراً حكى فيه قصة (سابور) ، و (الحضر) ، منه :

ألم ينبئك والأنباء تنمي بما لاقت سراة بني العبيد
ومصرع ضيزن وبني أبيه وأحلاس الكتائب من شريد
أتاهم بالفيول مجللات وبالأبطال سابور الجنود
فهدم من أواسي الحضر صخراً كأن ثقاله زبر الحديد[3]

---

١ الشعر والشعراء (١/٩٦) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٠٠) .
٣ الروض الانف (١/٥٩) .

وقد لعبت قصة فتح (سابور) (شابور) للحضر ، دوراً خطيراً في قصص الجاهليين . فقد وردت في شعر (أبي دواد) ، الذي يقول :

وأرى الموت قد تدلى من الحضر على رب أهله الساطرون
صرعته الأيام من بعد ملك ونعيم وجوهر مكنون[1]

ونجد (عدي بن زيد) العبادي ، يذكر قصة الحضر في شعره كذلك. ذكرها في القصيدة التي تنسب اليه ومطلعها :

أرواح مودع أم بكور فانظر لأي ذاك تصير

ثم يذكر القصة ، ويصف قصر الحضر ، ثم يذكر قصصاً آخر أورده على سبيل العظة والاعتبار ، قالها وهو في سجنه ، للتأثير على النعمان لحمله على العفو عنه[2] .

وذكر (عدي بن زيد) الحضر في شعر آخر ينسب اليه ، منه :

والحضر صابت عليه داهية من فوقه أيد مناكبها
ربية لم توق والدها لحينها إذ أضاع راقبها
إذ غبقته صهباء صافية والخمر وهل يهيم شاربها
فكان حظ العروس إذ جشر الصبح دماء تجري سبائبها
وخرب الحضر واستبيح وقد أحرق في خدرها مشاجبها[3]

وقد ورد في هذه القصيدة :

ما بعد صنعاء كان يعمرها ولاة ملك جزل مواهبها
رفعها من بنى لدى قزع المزن وتندى مسكاً محاربها
محفوفة بالجبال دون عرى الكائد ما ترتقي غواربها
يأنس فيها صوت النهام إذا جاوبها بالعشي قاصبها
ساقت اليه الأسباب جند بني الأحرار فرسانها مواكبها

---

١ الروض الانف (٥٦/١) .
٢ الروض الانف (٥٨/١) .
٣ ابن هشام ، سيرة (٥٩/١) ، (حاشية على الروض) .

وفوزت بالبغـــال توسق بالحتف وتسعى بها توالبهـــا
حتى رآها الأقوال من طرف المنقل مخضرة كتائبهـــا
يومـــاً ينـــادون آل بربر واليكسوم لا يفلحن هاربهـــا
وكان يومـــاً باقي الحديث وزالت أمة ثابت مرتبهـــا
وبـــدل الفيح بالزرافـــة والأيام جون جمّ عجائبهـــا
بعـــد بني تبـــع نخاورة قد اطمأنت بها مرازبهـــا[1]

والأعشى ، ممن أدخل قصة الحضر في شعره أيضـاً ، تطرق في شعره الى محاصرة المدينة ، وكيفية عشق (نضيرة بنت الضيزن) لسابور لما أبصرته، فقال:

أقفر الحضر من نضيرة فالمرباع منها فجانب الثرثار[2]

ثم تطرق الى اقامة (شاهبور) (شابور) (سابور) حولين في الحضر ، ثم الى ما لاقته (نضيرة) من جزاء ، بسبب خيانتها لوالدها ، وذلك بقوله :

ألم ترَ للحضر إذ أهلـــه بنعمي وهل خالد من نعم
أقام بـه شاهبور الجنو د حولين تضرب فيه القدم
فلما دعـــا ربه دعـــوة أناب اليـه فلم ينتقم[3]

ونجد قصة (الغار) مسجلة في شعر . ومجمل القصة ان رجلاً من (بني ضبة) كان له في الجاهلية سبعة بنون ، فخرجوا بأكلب لهم يقتنصون ، فأووا الى غار فهوت عليهم صخرة فأتت عليهم جميعاً ، فلـــما استراث أبوهم أخبارهم اقتفى آثارهم حتى أتى الى الغار فانقطع الأثر ، فأيقن بالشر ، فرجع وأنشأ يقول :

أسبعة أطواد وسبعة أبحر أسبعة آساد أسبعة أنجم
رزئتهم في ساعةٍ جرّعتهم كؤوس المنايا تحت صخر مرضم

وتأتي أبيات بعدهم في وصف حزنه ، ثم لم يلبث أن مات كمداً[4] .

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٥٣ وما بعدها) .
٢ الروض الانف (١/٥٦) .
٣ . سيرة ابن هشام (١/٥٩) .
٤ الامالي ، للقالي (١/٦١) .

ويجب ألا ننسى شعر المعارك والحروب ، وهو شعر نستطيع أن نسميه شعر (الحماسة) . فالعادة عند العرب أنهم ينشدون الشعر عند الغزو وفي أثنائه ، وفي المعارك والحروب . فالمقاتل حين يندفع بين المحاربين ليقاتل خصمه ، ينشد شعراً يفتخر فيه بنفسه وبعشيرته وبقبيلته ، ويكون في الغالب من الرجز ، لأنه شعر سهل مطاوع ، يصلح لمثل هذه المواقف ، ونجد في أخبار الأيام وفي الفتوح الإسلامية شعراً وافراً من شعر المعارك من الرجز ومن بحور الشعر الأخرى .

ومن أبواب الشعر عندهم : شعر الوصايا والحكم . فنجد بين الشعر المنسوب الى الجاهليين شعراً فيه وصايا يوصي الشاعر بها ولده وأقاربه أو عشيرته بخلاصة ما حصل عليه ذلك الشاعر في حياته من تجارب . كما نجد بينه حكماً عرف بها بعض الشعراء مثل زهير بن أبي سُلمى ، والأفوه الأودي وآخرون .

وقد تغنى الجاهليون بشعرهم ، فكانوا ينشدونه بنغم خاص، قد يصحب بآلة موسيقية ، وقد يشربون ويغنون ، أو يسمعون مغنياً يغنيهم بشعر . فلما انتهى (خالد بن الوليد) الى (سوى) وأهله من بهراء ، وجد ناساً منهم يشربون خمراً لهم في جفنة قد اجتمعوا عليها ، ومغنيهم يقول :

ألا علّلاني قبل جيش أبي بكر لعلّ منايانا قريب وما ندري[1]

ونجد في الأخبار ان ملوك الحيرة والغساسنة والأثرياء كانوا يستمعون الى الغناء وهو شعر ينشد على نغم ، توقعه قينة على آلة من آلات الموسيقى ، مثل الصنج والبربط ، والدف ، والمزهر ، وآلات أخرى أخذت من الروم والفرس ، وقد سبق أن تحدثت عن وجود قينتين بمكة كانتا لعبدالله بن جدعان ، تغنيان له ، واتخذ غيره من الموسرين والشعراء قياناً ، يغنين لهم الأغاني ، وأكثرهن من الموالي من روم وفرس .

والغناء كلام يجب أن يتماشى مع النغم ، ولهذا ينظم نظماً يتناسب مع الإيقاع. ونجد عند اليونانيين شعراً ينظم للغناء خاصة ، يقال له (الشعر الغنائي) « Lyric » ،

---

١ الطبري (٤١٧/٣) ، فتوح البلدان (١١٨) ، (ذكر شخوص خالد بن الوليد الى الشام وما فتح في طريقه) .

وهو يختلف عن الشعر المألوف الذي لا يمكن أن يتغنى به دائماً لثقله ، وعدم اتساقه مع الإيقاع . ونجد في التوراة شعراً نظم خصيصاً للإنشاد وللتغني به ، وهو يختلف في نظمه عن الشعر المألوف .

ولم يشر أهل الأخبار الى وجود شعر من هذا النوع عند الجاهليين ، وإن ذكروا ان الجاهليين كانوا يتغنون بالشعر ، وكانت قيانهم يتغنين بشعر الشعراء . ومعنى هذا انهم كانوا يغنون ببحور الشعر المألوفة ، لا بشعر غنائي خاص . ونجد في خبر (أحد) ان (هنداً) قامت في النسوة اللواتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرضونهم ، فقالت (هند) فيما تقول:

إن تقبلوا نُعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نُفارق فراق غير وامق

وتقول :

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار[1]

فهذا شعر ، ينسجم التغني به مع الإيقاع على الدفوف ، ووزنه يناسب ذلك النغم ، لكنه ليس من شعر الغناء الخالص ، الذي يتناسب مع الألحان المبنية على ارتفاع وانخفاض الصوت ، وعلى التغيير في النبرات ، وعلى الجرّ والمطّ ، والقصر والجزم ، وما شاكل ذلك من حركات يقتضيها إيقاع اشتراك جملة آلات دفعة مع الشعر الذي يتغنى به في وقت واحد ، وربما اشترك في الغناء جملة مغنّين .

ويذكر أهل الأخبار أن الغناء قديم في الفرس والروم ، ولم يكن للعرب إلا (الحداء) و (النشيد) وكانوا يسمونه (الركبانية) ، « وأول من نقل الغناء العجمي الى العربي من أهل مكة سعيد بن مسجح ، ومن أهل المدينة سائب خاثر ، وأول من صنع المزج طويس »[2] ، وهو كلام قصد به أن الغناء العربي

---

١ الطبري (٢/٥١٢) .
٢ نهاية الارب (٤/٢٣٩) .

قبل الإسلام لم يكن كثير التنويع ، وإنمــا كان مقصوراً على طرق معينة ، ثم تطور في الإسلام بدخول الأعاجم فيه ، وباحتكاك العرب بهم . فالشعر الجاهلي إنما كان يتغنى به بتلك الطرق المحدودة . ونحن لا نستطيع البت في هذا الموضوع، لأنه من أخبار أهل الأخبار ، ولكن لا يعقل في نظري أن يقتصر غنــاء الحضر على هذه الأنغام البدوية ، وبينهم مغنون أعاجم وقيان استوردن من فارس والروم، وكنّ يحسنّ الغناء ، ويتغنّين بالشعر ، فكان لعبدالله بن جدعان قينتان أعجميتان، تغنيان له ولضيوفه ، وكان لغيره قيان ، وقد ورد أن بعضهن كن يغنين بهجاء الرسول. ثم إن ملوك الحيرة كانوا على اتصال بغناء الفرس وغناء بني إرم والنبط، فلا يعقل الا يتأثروا بضروب غناء الأعاجم ، فيدخلوها في غنائهم ، ويتنوعوا في التغني بالشعر ، والا يبرز بينهم من يضع أشعاراً تنسجم مع ألحان الغناء .

وكان من غناء العرب (النصب) ، وقد عرف به الأعراب ، وهو غناء يشبه الحداء ، إلا أنه أرق منه . وهو العقيرة . يقال : رفع عقيرتــه إذا غنى النصب[1] . فهو غناء يتغنى به بشعر على طريقة معلومة ، اشتهرت بها العرب ، أهل البوادي .

وقد لعب الجمل دوراً خطيراً في الشعر الجاهلي ، وكيف لا يستأثر بمكانــة مهمة في الشعر الجاهلي ، وهو مرافق الأعرابي ، والحيوان الوحيد الذي رضي بمصاحبته ومرافقته في الصحاري الموحشة المتعبة ، ولهذا نال حقه من المدح والثناء عليه ، كما ألهب مشاعر الأعرابي فجعله يصفه في شعره ، وصفاً كاد يحيط بجميع أجزاء جسمه[2] ، وحظيت الخيل بمكان مرموق أيضاً في مملكة الحيوان المذكورة في الشعر ، فالفارس لا يكون فارساً إلا بفرسه ، وكان يقدم فرسه على نفسه وأهله في الطعام ، لأهمية الفرس في حياته ، فلا عجب اذا ما أبدع الشاعر الجاهلي في وصف الفرس ، وأشاد بذكر الخيل في شعره . وحظيت الحيوانات الوحشية مثل المها والظباء ، والحمار الوحشي ، والأسود ، على مكانة في الشعر الجاهلي كذلك، لما لها من صلة بحياة العربي .

يقول (بروكلمن) : « والقصيدة ، المؤلفة على نظام دقيق ، ينبغي استهلالها

---

١ اللسان (١/٧٦١ وما بعدها) ، (نصب) .
٢ بروكلمن (١/٥٦) .

بالنسيب ، والحنين الى الحبيبة النائية ، ذلك الحنين الذي يعتري الشاعر عند رؤية أطلالها الدائرة وهو راكب في القفار . ثم يتحول الشاعر في تخلص نموذجي من موطن لوعته وذكرياته الى وصف مسيره في المفاوز دون انقطاع ، وهو وصف قد يخرج أحياناً الى مجرد تعداد لأسماء ما يجتازه من أماكن . ثم يخلص من ذلك الى وصف راحلته ، فإذا هو عمد في هذا الوصف الى تشبيه راحلته ببعض حيوان الوحش استطرد أحياناً الى وصف هذا الحيوان وصفاً شاملاً . ثم لا يتجه الشاعر الى التعبير عن حقيقة قصده إلا في آخر القصيدة .

هذا المنهج لا بد أن يكون قد رسخ منذ زمن طويل . وقد ذكر امرؤ القيس سلفاً له في الشكوى والبكاء على الأطلال ، يدعى : ابن خذام ، وإن لم يستطع أدباء العصر العباسي تعيين هذا الشاعر . وتبع المتأخرون هذا المنهج ولم يكادوا يجسرون على تغييره »[1] .

وقد أكثر الشعراء من استعمال بعض الجمل في افتتاح شعرهم ، مثل (بانت سعاد) . ذكر أن (بندر الأصبهاني) كان يحفظ تسعمائة قصيدة أول كل منها (بانت سعاد)[2] .

والشعر الجاهلي ، شعر صلد متين، يميل الى الرصانة والى استعمال اللفظ الرصين، الذي يغلب عليه طابع البداوة ، وشعر هذا طابعه ، لا يمكن أن يتحرر ، وأن يعبر عن المعاني بحرية ، إذ يكون الشاعر مقيداً بقيود الخضوع للعرف وللشكليات التي اصطلح عليها الشعراء والناس ، ولهذا لم يتمكن الشعراء من التطرق الى مختلف المعاني والتصورات الإنسانية ، وصار الطابع الغالب عليه هو الطابع اللغوي، فخشونة الشعر ، وجزالته وغرابته ، من مميزات هذا الشعر ومن محبباته الى النفوس، وكلما كان الشعر غريباً وبألفاظ غريبة ، نال التقدير والاستحسان ، لقد عمل (الأصمعي) قطعة كبيرة من أشعار العرب ، لكنها لم تنل الاستحسان ولم يرض عنها العلماء « لقلة غربتها واختصار روايتها »[3] . والشعر الذي ينال التقدير ، هو الشعر الخشن ، الذي روي بألفاظ نجدية ، ولذلك لم يحفل العلماء بشعر عدي بن زيد ،

---

١ بروكلمن (١/٦٠) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٢٩) .
٣ الفهرست (٨٩) .

لأن فيه ليونة[1] ، والعلماء يبحثون عن الشعر الخشن ، الذي على العالم أن يفكر فيه ويعمل رأيه فيه طويلاً ، ويفكر ويغوص فيه حتى يجد معناه .

واشتهر بعض الشعر بشهرة عرف ونعت بها ، مثل قصيدة : (سويد بن أبي كاهل) ، واسمه (عطيف بن حارثة) اليشكري ويقال الوائلي ، ويقال الغطفاني ، التي عرفت بـ (اليتيمة) ، وهي قصيدة عينية . قيل عرفت بذلك لما اشتملت عليه من الأمثال . وهو من الشعراء المخضرمين[2] . وعرفت القصيدة التي نظمها (خداش بن زهير) ، في هشام والوليد ابنا (المغيرة) المخزوميان، وفي (عبدالله بن جدعان) بالمنصفة[3] . وذلك لإنصافه خصومه في شعره . ومن المنصفات قول (المفضل) النكري :

كأن هزيزنا يوم التقينا ... هزيز أباءة فيها حريق
وكم من سيد منا ومنهم ... بذي الطرفاء منطقه شهيق[4]

لقد مر الشعر بمراحل ، سنة كل شيء في هذه الدنيا . بدأ بدائياً لبداءة أصحابه ، ثم تطور بتطور الناس ، تطور من حيث معانيه وأفكاره ، وتطور من حيث قوالبه وأشكاله ، أي بحوره . واقتضى هذا التطور ومرور الزمن وتغير الانسان ، ظهور أوزان جديدة ، أوجدها الشعراء هروباً من التقليد ، وخروجاً على التقاليد ، وابتداعاً من الشاعرية ، لتقدم لعشاق الشعر لوناً جديداً من ألوان النظم ، يمتاز على المعروف المألوف المتوارث ، بنفس جديد ، وبموسيقية حديثة تناسب الزمان والمكان ، كما هو شأن الشعر عند كل أمة ، فتعددت ألوانه وبحوره، حتى اذا كان الاسلام ضبطت ألوانه في بحور جمعها (علم العروض) المعروف .

أما أسماء أولئك المجددين في الشعر الجاهلي ، فقضية لا يمكن البت بها ، ولا اصدار حكم فيها . فنحن لا نعرف من أمر الشعر الجاهلي إلا هذا الذي يرويه أهل الأخبار عنه ، وهو لا يستند – كما قلنا – الى سند جاهلي مدون، ولا الى كتاب من كتب أهل الجاهلية ولا الى ديوان من دواوينهم ، بل روي رواية وحكى

---

١ الشعر والشعراء (١/ ١٥٠) ، (دار الثقافة) .
٢ الاغاني (١١/ ١٦٥) ، الاصابة (٢/ ١١٧) ، (رقم ٣٧٢١) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .
٤ الاصمعيات (٢٣٣) .

حكاية ، وأقام الاسلاميون على هذا المروي قواعد نظرياتهم في الشعر الجاهلي . ولم يرد في هذا المروي أي شيء عن كيفية ظهور بحور الشعر الجاهلي ، ولا عمن جدد وأوجد هذه البحور . وليس لنا أي أمل في إمكان الحصول في المستقبل على علم جديد عن تطور ذلك الشعر وعن ابتكار رجاله الجاهليين فيه ، ما دام سند علمنا هذا المورد القائم على الرواية القديمة . أما اذا عثر على نصوص مدفونة عربية جاهلية أو أعجمية فيها بحوث عن الكلام المنظوم عند العرب ، فذلك شيء آخر بالطبع . ومثل هذه النصوص هي التي يكون في وسعها وحدها تقديم صورة علمية واضحة عن الشعر الجاهلي .

ومن رأى بعض أهل الأدب ، « أن مُقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربعَ ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ... ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ... لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم ، حلال أو حرام . فإذا استوثق من الاصغاء اليه ، والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل وحرَّ الهجير ، وانضاء الراحلة والبعير . فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح ، وفضله على الأشباه ، وصغر في قدره الجزيل .

فالشاعرُ المجيد من سلك هذه الأساليبَ ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل ، فيمل السامعين ، ولم يقطع بالنفوس ظمأ الى المزيد »[1] .

وزعموا ان هذا كان نهج شعراء الجاهلية في نظم شعرهم ، ونهج شعراء صدر الاسلام ، حتى اختلط العرب بالعجم ، وانتقل العرب من حياة الى حياة، وظهر الشعراء الأعاجم الذين لم يتمكنوا من غسل أدمغتهم من المعاني الأعجمية ، ومن التفكير الأعجمي ، فنظموا الشعر بالعربية ، ولكن بمعان أعجمية جديدة ، وجاءوا

١ الشعر والشعراء (١/ ٢٠ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .

ومن تأثر بالحضارة العربية الجديدة التي ظهرت في البلاد المفتوحة بآراء مستجدة ، وظهر التجديد في الشعر العربي ، وابتعد بذلك عن أسلوب الشعر الجاهلي .

ويتوقف طول الشعر وقصره على (نفس الشاعر) ، أي على الظروف النفسية التي تحيط بالشاعر حين ينظم شعره ، وبالمؤثرات التي أثرت عليه . وقد سئل (أبو عمرو بن العلاء) ، « هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ليسمع منها. قيل : هل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها . ويستحب عندهم الإطالة عند الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب والإصلاح بين القبائل كما فعل زهير والحارث بن حلزة ومن شابههما ، وإلا فالقطع أطير في بعض المواضع والطوال للمواقف المشهورة »[1] .

وقد ذهب (غرونباوم) الى امكانية تقسيم الشعر الجاهلي الى مدارس أدبية متميزة ، جعلها ستة مدارس أو اتجاهات أو مذاهب بتعبير أصح . تضم الشعراء الذين ولدوا ما بين سنة ٤٤٠ و ٥٣٠ م على وجه التقريب . « وليس معنى هذا أنه ليس هنالك شعراء تتجافى طبيعتهم نفسها عن مثل هذا التقسيم وتشذّ عنه . فإن الشاعرين الصعلوكين الشهيرين تأبط شراً والشنفرى ، هما المثلان البارزان على مثل هذه المواهب الفردية . ولعل من أمتع الأمور ، ما يتجلى في آثار تلك الفئة من الشعراء ، الذين عاشوا في بلاط الحيرة ، من مظاهر الحضارة الساسانية . فأبو دؤاد الايادي (حوالى ٤٨٠ – ٥٥٠ م) ، والشاعر النصراني عديّ بن زيد (حوالى ٥٤٥ – ٥٨٥ م) ، يتجلى في شعرهما خليط من العقلية البدوية والتفكير الحضري . وطرفة (حوالى ٥٣٥ – ٥٣٨ م) وكذلك الأعشى ، ينقلان الى العراق سياقاً فنياً آخر لمدرسة أخرى ينتمي أعلامها الى قبيلة قيس بن ثعلبة ، من بني بكر بن وائل ، هذا وليس من شك في أن الأعشى هو أكبر مالك لأزمة اللغة بين شعراء الجاهلية ، وان المشاهد البهجة في قصائده تنمّ عن تأثير الشعراء الساسانيين . ثم إن امرأ القيس بن حجر الأمير الكندي (حوالى ٥٠٠ – ٥٤٠م) أشهر شعراء العرب الجاهليين وأبعدهم أثراً،قد كان نظير طرفة ، صاحب احدى القصائد النموذجية المعروفة بالمعلقات . ومعاصره عبيد بن الأبرص يمثل قمة مدرسة أخرى من هذه المدارس .

---

١ العمدة (١/١٢٤) ، بلوغ الارب (٣/٨٣) .

وقبل أن يتجرم القرن السادس ، كانت وحدة اللغة واتساق الاسلوب ، قد قطعا مرحلة واسعة نحو التبلور . وقد تداخلت هذه المدارس عن طريق تجمع المفردات وتوارد الصور الشعرية ، لكن هذا التطور لم يتسع فيشمل جماعات الشعراء التي عاشت الى جانب التيار الرئيسي الذي جرى فيه الشعر العربي . وأهم مدارس هذا العصر المتأخر هي مدرسة الشعراء الهذليين التي برزت آثارها ما بين سنة ٥٥٠ – ٧٠٠ م . وكان من الموضوعات التي اختصت بها هذه الجماعة وصف النحل والعسل . ومثل هذه الأوصاف قد استتبعت ضرباً من الخصوبة في مشاهد الطبيعة لا سيما حيث ألحت بالشاعر الرغبة في جمع العسل البري .

ويشتمل ديوان الهذليين على قصائد كثيرة لأفراد ما نظموا الشعر إلا لماماً . ولا بد ههنا من التأكيد أنه كان الى جانب الشعراء (المحترفين) ، عدد عظيم من الشعراء (الهواة) والذين عمدوا ، بين الفينة والفينة ، الى التعبير بالشعر عن عواطفهم ورغباتهم . وهذا يعلل لنا ما نجده دائماً من أبيات هي من حيث التأريخ وليدة عصر واحد ، لكنها ليست كذلك من حيث درجة الاتقان . فشعر غير المحترفين يغلب أن يكون دون شعر المحترفين بنحو من جيل على أقل تقدير . ولما لم تكن هذه الظواهر قد أخذت حتى الآن بالاعتبار الكافي ، فقد ساعد ذلك على استمرار الاعتقاد بجمود الشعر القديم في سياقه الموحد . وقد بقي في مؤخرة الركب – لكن ثقافياً لا فنياً – الرجز الذي هو أقرب الى الأدب الشعبي . على أن الفاصل ما بين الرجز والقريض – وهو الشعر بالمعنى المعروف – قد ظل حاداً الى عهد متأخر جداً »[١] .

وبعد،فهناك مسائل تتصل بتطور الشعر الجاهلي أرى ان من المستحيل حلها في الوقت الحاضر ، لعدم وجود أدلة علمية مقبولة يمكن أن يركن اليها لحل ما عندنا من عقد مستعصية ، مثل نشأة وتطور الشعر العربي ، وكيف نشأت القصيدة ، وعدد الأوزان والبحور العروضية التي سار عليها الجاهليون في وزن الشعر، والتزام القافية أو عدم التقيد بها في الشعر ، ومتى نشأت القصيدة ، ثم هل كانت لغة الشعر لغة واحدة ، خاصة كما نراها في الشعر الجاهلي المدون ، أم لم تكن، وانما كان الشعراء ينظمون بلهجاتهم من الوجهة اللفظية والنحوية والصرفية ، ولكن علماء

---

١ غرونباوم (١٤٠ وما بعدها) .

الشعر في الاسلام ، هذّبوا تلك الأشعار حتى جعلوها بلهجة واحدة ، هي اللهجة التي وصلت الينا ، واذا كان هذا هو ما جرى ، فما هي نسبة التحوير التي أوقعها العلماء على ذلك الشعر ؟

القديم والحديث :

مشكلة القديم والحديث ، وتصادم الحديث مع القديم ، وتفضيل الناس القديم على الحديث ، من المشاكل التي شغلت الانسان منذ ظهوره على سطح الأرض حتى اليوم . فالحديث ينافس القديم ، ليحل محله ، والقديم يصر على حقه في البقاء وفي جدارته في الخلود . والجيل الجديد يريد أخذ القيادة من الجيل القديم ، والجيل القديم لا يريد إعطاءها لأحد إلا اذا كان من جيله ، لأنه أقدر في نظره على إدراك الأمور ،وأكثر تجارباً وخبرة وحكمة من الأحداث جماع الجيل الجديد، مع ان كل قديم هو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله ، وكل جديد سيصير قديماً بالنسبة الى من يأتي بعده ، ولسبب آخر ، هو ان القديم،هو الحاَ المتنفذ ، فلا يهون عليه التنازل عن حقه لمستجد .

وقد شغلت هذه المشكلة أذهان الجاهليين ولا شك ، كما شغلت أذهان الاسلاميين. فشعراء العصر الأموي ، كانوا يرون في شعرهم إبداعاً لم يكن عند من سبقهم من المخضرمين والجاهليين ، غير ان الناس في أيامهم ، لم يكونوا يعطون شعرهم من التقدير ما أعطوه للشعر القديم ، كانوا يرونه (مولداً) بالاضافة الى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين[1] .

وكان الشعر القديم ، هو الشعر الممتاز المقدم عند علماء الشعر واللغة ، فكان (أبو عمرو بن العلاء) يقول : « لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته » لكنه لم يستشهد به ، ولم يجعل الجيد الممتاز من الشعر المولد في منزلة الشعر القديم ، لسبب واحد هو قدم الشعر الجاهلي . « قال الأصمعي : جلست اليه ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي ، وسئل عن المولدين ، فقال : ما كان من حَسَن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم،

---

١ العمدة (٩٠/١) .

ليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح ، وقطعة نطع . هــذا مذهب أبي عمرو وأصحابه : الأصمعي ، وابن الأعرابي ، أعني أن كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ، ويقدم مَنْ قبلهم ، وليس ذلك الشيء إلا لحاجتهم الى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ، ثم صارت لجاجة »[1].

وقد رجّع (الجــاحظ) سبب هذا الركض وراء الشعر الجاهلي الى لجاجة علماء اللغة في البحث عن كل شعر يستفاد منه في الشواهد ، إذ يقــول : « ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلاّ كل شعر فيه الشاهد والمثل »[2] . ويقول : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي ، فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، (الألفاظ والمعاني العربية) ، فسألت الأخفش ، فلم يعرف إلا إعرابه ، فسألت أبا عبيدة فرأيته لا ينقد إلا فيما اتصل بالأخبار ؛ ولم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب وغيره »[3] .

لقد كان القدم ، هو المقياس الأول في تقدير الشعر في ذلك الحين . فالشعر القديم محبوب مطلوب ، مقـدم على الحديث ، مهـما كان في الشعر الحديث من إبداع في المعنى وفي القالب . قال عبدالله التميمي : « كنا عند ابن الأعرابي ، فأنشده رجل شعراً لأبي نواس أحسن فيه فسكت . فقال له الرجـل : أما هذا من أحسن الشعر ؟ قال : فقال : بلى ، ولكن القديم أحب الي »[4] .

وقد بلغ من تعظيم بعضهم للقديم،انهم كانوا يرون المعاني على مقادير أصحابها من الشعراء ، فالمعنى الذي يكون لامرىء القيس يكون كامرىء القيس في اعتباره وإجلاله وتحاميه أن يتلقى بالرد والمواجهة ، ولذا فشا الغلط بينهم في تفسير الشعر وأخذ منه التصحيف كل مأخذ[5] .

فالقدم وحاجة العلماء الى الشعر القديم للاستشهاد به ، والبحث عن الغريب ، كانت كلها من العوامل التي أعطت للشعر القديم منزلة لم ينلها شعر المعاصرين ،

---

١ العمدة (١/ ٩٠ وما بعدها) ، الخزانة (١/ ٣ وما بعدها) .
٢ البيان (٤/ ٢٤) .
٣ الرافعي (١/ ٤٢١) .
٤ الموشح ، للمرزباني (٣٨٤) .
٥ الرافعي (١/ ٤٢٠) .

فأغاظ ذلك الشعراء المحدثين ، وجعلهم يحنقون على علماء اللغة ، ويسخرون منهم ومن عروضهم ونحوهم ، ولم يخفف من غلواء هؤلاء العلماء إلا تغير الزمن، وبروز الأدباء الذين نظروا الى الأدب نظرة أخرى ، نظرة تقدر (الجيد) من الشعر من غير نظر الى زمانه أو قائله .

ولابن قتيبة رأي في الشعر يخالف رأي (أبي عمرو بن العلاء) وأصحابه ، رأيه في قيمة الشعر رأي الجاحظ الذي ذكرته ، وقد عرضه بقوله : « رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا انه قيل في زمانه ، أو انه رأى قائله .

ولم يقصر الله العلمَ والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية في أوله » .

وقال : « ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيلَ من قلّد ، أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين. وأعطيت كلاً حظه ، ووفرت عليه حقه »[1] .

قال خلف الأحمر : قال لي شيخ من أهل الكوفة : أما عجبتَ من الشاعر قال :

أنبتَ قيصوماً وجُثجاثا

فاحتُمِلَ له ، وقلت أنا :

أنبتَ إجاصاً وتفاحا

فلم يُحتمل لي ؟ »[2] .

ومن شدة عجب الناس بالشعر الجاهلي انهم جعلوه انموذجاً لشعرهم ودليلاً لهم

---

١ الشعر والشعراء (١/ ١٠ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (١/ ٢٢) .

وهادياً في أصول نظم الشعر ، من محافظة على مظهر القصيدة وعلى (عمود الشعر). وجعلوا الشكل الخارجي ، الذي رسم للقصيدة من ذكر الديار والدمن والآثار الى آخر ما قالوه عن ترتيب المراحل التي يجب أن تمر بها القصيدة ، ثم عمود الشعر مقياسين ، قاسوا بموجبها الشعر الجيد من الشعر الرديء ، وميزوا بينها بهذين المقياسين . « فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدّل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيملّ السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد »[١] .

وكان (الجاحظ) وهو من شيوخ الأدباء ، يرى مذهب الأديب في تقدير الشعر وتثمينه ، يرى أن الشعر بمواضع الحسن منه ، وبالمعاني الجليلة التي فيه ، وعلى الألفاظ العذبة التي تشتمله ، وفي ذلك يقول: « وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين ؛ ومن لم يروِ أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة — فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الأحاديث والقصائد والفقر والنتف من كل شيء ، ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب عباس بن الأحنف ، فما هو إلاّ أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ، ثم رأيتهم منذ سُنيات وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ فيَ طلب الشعر أو فتياني متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نُجيم وأبي مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد الى شعر في النسيب فأنشده ، وكان خلف يجمع ذلك كله .

ولم أرَ غاية النحويين إلاّ كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل ، ورأيت عامتهم — فقد طالت مشاهداتي لهم — لا يقفون على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك

---

١ الشعر والشعراء (٢١/١) .

الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي ان صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت الى حسان المعاني . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعر أظهر ؛ ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر ، وربما خُيل إليّ أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أن يقولوا شعراً جيداً ، لمكان إغراقهم في أولئك الآباء ، ولولا أن أكون عيّاباً ثم للعلماء خاصة، لصورت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعتُ من أبي عبيدة ، ومن هو أبعدُ في وهمك من أبي عبيدة »[1] .

وكانت نظرة المبالغة هذه في تقدير الشعر القديم من جملة العوامل التي حملت جهابذة العلماء الخبراء بأساليب الشعر الجاهلي المتقنين له على وضع الشعر على ألسنة الجاهليين وعلى اذاعته ونشره بين الناس . فقد وجدوا ان سوقه رائجة ، وان ما يقدمونه منه لطلابه يقدر تقديراً عظيماً ، وان ما ينظمونه هم وينشرونه باسمهم لا ينال مثل ذلك التقدير . وقد يحفل به . وان بعض خلفاء بني أمية كان لهم عشق خاص بشعر الجاهلية ، وانهم كانوا يبحثون عنه ، واذا سمعوا بوجود راوية عرف بحفظه ذلك الشعر ، أرسلوا اليه ، ليتحفهم بما عنده ، ثم يجزلون له العطاء ، على حين كانوا لا يعطون على الشعر الذي ينظمونه أو ينظمه الشعراء الأحياء إلا قليلاً ، وإلا اذا كان مدحاً لهم وتزلفاً اليهم . فدفعهم حرصهم المادي هذا على صنع الشعر وإسناده الى الشعراء الجاهليين . وهم لو نسبوه اليهم لصار فخراً لهم ، يثمنه لهم من يجيء بعدهم ، ولكنهم ما كانوا ليحصلوا عليه شيئاً مغرياً ، ففضلوا المادة على الشهرة التي تأتي اليهم بعد الموت .

وقد اتخذ بعض علماء الشعر ورجال الأدب موقفاً وسطاً بين المحدثين ، من الشعراء الذين قيل لشعرهم : المولد، وبين الشعراء المتقدمين ، فقال (ابن رشيق) : « ليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقاً سفسافاً ، ولا بارداً غثاً ، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون حُوشياً خشناً ، ولا أعرابياً جافاً ، ولكن حال بين حالين .

---

١ البيان والتبيين (٤/٢٣ وما بعدها) ، الرافعي (١/٤٢٣ وما بعدها) .

ولم يتقــدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاوته ، مع البعد من السخف والركاكة ، علـى أنهم لو أغربوا لكـان ذلك محمولاً عنهم ، إذ هو طبع من طباعهم ، فالمولد المحدث ـ على هذا ـ إذا صح كان لصاحبه الفضل البين بحسن الاتباع ، ومعرفة الصواب ، مع أنه أرق حَوْكاً ، وأحسن ديباجة [1] .

---

١ العمدة (٩٣/١) .

الفصل الثامن والاربعون بعد المئة

القريض والرجز والقصيد

ويقال للشعر : القريض وهو الاسم كالقصيد ، والقرض : قول الشعر خاصة، والتقريض صناعته . وقد فرّق (الأغلب العجلي) بين الرجز والقريض بقوله :

أرجزاً تريد أم قريضا ؟   كليهما أجِدُ مستريضا [1]

وقد ورد أن أصحاب رسول الله كانوا يتقارضون ، أي يقولون القريض وينشدونه . وورد أن (المنذر) ملك الحيرة حين أراد قتل (عبيد بن الأبرص) قال له : أنشدني من قولك ، فقال عبيد : حال الجريض دون القريض، فذهب قوله مثلاً [2] . و « قال النحاس : القريض عند أهل اللغة العربية الشعر الذي ليس برجز » [3] .

ويلاحظ ان العرب وإن قالوا : « نظمتُ الشعر ونظمته » ، وقصدوا

---

١ اللسان (٢١٨/٧ وما بعدها ،
ارجزا تريد أم قصيدا   لقد طلبت هينا موجودا
الأغاني (٩٧/١٤) ، تاج العروس (٧٥/٥) ، (قرض) .

٢ اللسان (٢١٨/٧ وما بعدها) ، (قرض) .

٣ العمدة (١٨٤/١) .

بـ (النظم) الشعر ، وعرّفوا الشعر بأنه « منظوم الكلام »[1] ، غير انهم كانوا يقولون أيضاً : « قال شعراً » ، و « وهو يقول الشعر » ، وفي القـرآن : « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون »[2] ، و « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل وادٍ يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون »[3] . ويقولون : قول شاعر .

والشعر في تعريف علمائه : « منظوم القول،غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية »، وهو « الكلام المقفى الموزون قصداً »[4] ، ومن صيروا الكـلام نوعين : كلام منظوم ، وكلام منثور . والفرق بينهما هو في وجود الوزن والقافيـة في الشعر ، وفي عدم وجودهما في الكـلام المنثور . وتوجد هـذه النظرة عند (أفلاطون) ، و (فيثاغورس) ، وهي تختلف بعض الاختلاف عن رأي (ارسطو) في الشعر[5].

« وزعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً أو قطعاً ، وأنه إنما قُصِّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصّده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة . ذكر ذلك الجمحي وغيره . وأول من طول الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلي شيئاً يسيراً ، وكان على عهـد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ثم أتى العجّاج فافتنّ فيه فالأغلب العجلي والعجاج في الرجز كامرىء القيس ومهلهل في القصيد »[6] .

والقصيد من الشعر ما تمّ شطر أبياته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه . قال (ابن جني) : « سمي قصيداً لأنه قصد واعتمد وإن كان ما قصر منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً . وذلك ان ما تمّ من الشعر وتوفر آثر عندهم وأشدّ تقدماً في أنفسهم مما قصر واختـل ، فسمّوا ما طال ووفـر قصيداً ، أي مراداً مقصوداً ، وإن كان الرمل والرجز أيضاً مرادين مقصودين،

---

١ اللسان (٥٧٨/٠) .
٢ الحاقة ، الآية ٤١ .
٣ الشعراء ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .
٤ اللسان (٤١٠/٤) ، (شعر) ، الصاحبي (٢٧٣) ، ارساد الساري (٨٨/٩) .
٥ Poetics, C. I, (1447A), Borinski, Die Antike in Poetik und Kunstheorie, I, 43.
٦ بلوغ الأرب (٨٣/٣) ، العمدة (٨٩/١ وما بعدها) ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .

والجمع قصائد »[1] . وذكر علماء الشعر : « سمي الشعر التام قصيداً ، لأن قائله جعله من باله قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روّى فيه خاطره واجتهد في تجويده ، ولم يقتضبه اقتضاباً ، فهو فعل من القصد». « وقالوا شعر قصيد اذا نقح وجوّد وهذب »[2] .

جاء في قول شاعر :

قد وردت مثل اليماني الهزهاز تدفع عن أعناقها بالاعجاز
أعيت على مقصدنا والرجّاز

يقال : أقصد الشاعر وأرمل وأهزج وأرجز ، من القصيد والرمل والهزج والرجز[3] .

والرجز عند العرب كل ما كان على ثلاثة أجزاء ، وهو الذي يترنمون به في عملهم وسَوْقهم ويَحْدُون به . هذا هو تعريفه عند بعض العلماء . وعرّفه بعضهم: أنه بحر من بحور الشعر معروف ونوع من أنواعه يكون كل مصراع منه مفرداً، وتسمى قصائده أراجيز ، واحدتها أرجوزة ، وهي كهيئة السجع إلا أنه في وزن الشعر ، ويسمى قائله راجزاً كما يسمى قائل بحور الشعر شاعراً وعرفه آخرون أنه شعر ابتداء أجزائه سببان ثم وتد،وهو وزن يسهل في السمع ويقع في النفس[4]. وذكر أن كل شعر تركيب تركيب الرجز سُمي رجزاً[5] . والرجز في الوقع سجع موزون . ونجد شبهاً في التوراة ، حيث ورد على ألسنة الحكماء العبرانيين في سفر الأمثال[6] وعلى لسان بلعام الحكيم[7] ، الذي جعله بعض العلماء لقمان الحكيم المذكور في القرآن .

---

١ تاج العروس (٢/٤٦٧) .
٢ المصدر نفسه (٢/٤٦٨) .
٣ تاج العروس (٢/٤٦٦) .
٤ اللسان (٥/٣٥٠ وما بعدها) ، (رجز) ، البيان والتبيين (٢/١٨٤) ، (١٣١٣)، العمدة (١/١٢١ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (١٨٦) .
٥ اللسان (٥/٣٥١) .
٦ الامثال ، الاصحاح ٢١ ، الآية ٢٧ وما بعدها .
٧ العدد ، الاصحاح ٢٢ ، الآية ٥ وما بعدها .

وذكر بعض العلماء ان الرجز انما سمي رجزاً لأنه تتوالى فيه في أوله حركة وسكون ثم حركة وسكون الى أن تنتهي أجزاؤه ، يشبه بالرجز في رجل الناقة ورعدتها ، وهو أن تتحرك وتسكن ثم تتحرك وتسكن[1] ، وقيل سمي بذلك لتقارب أجزائه واضطرابها وقلة حروفه ، وقيل لأنه صدور بلا أعجاز. وقيل الرجز ضرب من الشعر معروف وزنه مستفعلن ست مرات ، فابتداء أجزائه سببان ثم وتد ، ولذلك جاز أن يقع فيه المشطور وهو الذي ذهب شطره والمنهوك ، وهو الذي قد ذهب منه أربعة أجزاء وبقي جزءان[2] . وذهب بعض العلماء الى ان الرجز ثلاثة أنواع غير المشطور ، والمنهوك ، والمقطع[3] .

وهو تام ومختصر . والمختصر ، أنواع : المجزوء والمشطور والمنهوك . وذُكر ان الذي جرى على لسان الرسول من الرجز ضربان : المنهوك والمشطور[4] .

والأرجوزة القصيدة من الرجز ، وهي كهيأة السجع إلا انه في وزن الشعر ، والجمع أراجيز . ويسمى قائله راجزاً ورجّازاً ، ورجازة ، ومرتجز[5] . وقد فرّق علماء الشعر بين الشاعر والراجز ، فأطلقوا لفظة (الشاعر) على من ينظم الشعر ، أي (القصيد) ، وأطلقوا كلمة (الراجز) على من يرتجز الرجز . فنجدهم يقولون : الأغلب الراجز ، والعجاج الراجز ، وأبو الزحف الراجز ودكين الراجز وغيرهم[6] .

وقد اختلف العلماء في طبيعة الرجز ، فنهم من جعله شعراً صحيحاً ، وضرباً من الشعر ، معروف وزنه ، ومنهم من جعله صنفاً من أصناف الكلام قائماً بنفسه ليس بشعر ، ولا بسجع ، وإنما مجازه مجاز الشعر . ونسب الى (الخليل) قوله : الرجز شعر صحيح في رواية ، وقوله : إنه ليس بشعر ، وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث في رواية أخرى[7] . ومردّ اختلافهم فيه هو ما ورد على لسان الرسول من الرجز المنهوك والمشطور ، وما ورد في القرآن الكريم من قوله : « وما علمناه

---

١ اللسان (٥/٣٥١) ، (رجز) .
٢ تاج العروس (٤/٣٦) ، (رجز) .
٣ العمدة (١/١٨٢) .
٤ اللسان (٥/٣٥١) .
٥ تاج العروس (٤/٣٧) ، (رجز) .
٦ الشعر والشعراء (٢/٤٩٣ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥٧٨) .
٧ تاج العروس (٤/٣٦) ، (رجز) ، اللسان (٥/٣٥٠) ، (رجز) .

الشعر وما ينبغي له »[1] ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »[2] . وما ورد في كتب الحديث والأخبار من أن الرسول لم يكن ينشد الشعر ولا يقوله وينظمه ، لأنه لم يكن شاعراً وما كان له أن يقوله ، وأنه إذا استشهد بالشعر ، لم يقمه على وزنه، وإنما كان ينشد الصدر أو العجز ، ثم يجيء بالنصف الثاني على غير تأليف الشعر ، لأن نصف البيت لا يقال له شعر ولا بيت ، ولو جاز أن يقال لنصف البيت شعراً لقيل لجزء منه شعر . وقد جرى على لسان النبي : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . فلو كان شعراً لم يجر على لسانه[3] . وجاء على لسانه .

هل أنتِ إلا اصبعٌ دميت　　　وفي سبيل الله ما لقيت[4]

فالرجز اذن ليس بشعر .

وقد ردّ من يقول إن الرجز شعر على قول من يقول إنه ليس بشعر ، بقوله: « معنى قول الله عزّ وجلّ : وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، أي لم نعلمه الشعر فيقوله ويتدرب فيه حتى ينشيء منه كتباً ، وليس في انشاده صلى الله عليه وسلم البيت والبيتين لغيره ما يبطل هذا لأن المعنى فيه أنا لم نجعله شاعراً »[5] ، مطبوعاً على نظم الشعر وقوله ، ولهذا فلا صلة لموضوع أصل الرجز ، هل هو نوع من الشعر ، أو ليس بنوع منه مع ما جاء من نفي الشعر عن الرسول .

وورد في الحديث ، ان الرسول كان يرتجز برجز (عبدالله بن رواحة الأنصاري) الشاعر النقيب ، وهو ينقل التراب يوم الخندق ويقول :

---

١ سورة يس ، الآية ٦٩ ، تفسير الطبري (٢٣/١٨) ، تفسير الألوسي (٢٣/٤٣) .

٢ الحاقة ، الآية ٤٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٢٩/٤١) ، تفسير الألوسي (٢٩/٥٢) .

٣ تاج العروس (٤/٣٦) ، (رجز) ، ارشاد الساري (٩/٨٨) ، اللسان (٥/٣٥٠)، (رجز) .

٤ العمدة (١/١٨٥) .

٥ تاج العروس (٤/٣٦ وما بعدها) ، (رجز) ، اللسان (٥/٣٥٠ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٥/٥٢ وما بعدها) .

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنــا ولا صلينا
فأنزلـن سكينــة علينـــا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنــة أبينا [1]

ورويت الأبيات بصورة أخرى . فقد روي انه « لما خرج عامر بن الأكوع الى خيبر جعل يرجز بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسوق به الركاب ، وهو يقول :

تا الله لولا الله ما اهتدينا وما تصدقنــا ولا صلينا
الكافرون قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنـــة أبينـــا
ونحن عن فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينـــا
وأنزلن سكينة علينا [2]

وموضوع أصل الرجز اذن ، موضوع ظهر في الاسلام ، لما ورد في الأخبار من ارتجاز الرسول بعض الرجز ، ولما ورد في القرآن الكريم وفي الحديث من نفي قول الشعر ونظمه عنه . فرأى فريق من العلماء إخراج الرجز من الشعر ، لما بينته من أسباب . ورأى فريق آخر ، ان الرجز جزء من الشعر ، وان ارتجاز الرسول الرجز ، لا يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم ، لأن الرسول لم يتدرب عليه ولم يتعلمه ولم ينشأ منه أراجيز ، وانما ارتجز منه قليلاً من غير قصد ولا عمد ، ولا علاقة لذلك بالانكباب على تعلم الشعر والتخصص به . والدليل على ان الرجز نوع من أنواع الشعر ، هو ما يرويه أهل الأخبار أنفسهم من أن قريشاً اجتمعوا الى (الوليد بن المغيرة) وكان ذا سن فيهم ، ليتدبروا أمــر الناس اذا حضر الموسم ، ولإيجاد جواب موحد لهم في أمر القرآن وفيا يجب قولهم فيه . فلما قالوا له : نقول انه قول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهــان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعــر كله رجزه وهزجه وقريضه

١ ارشاد الساري (١٥٧/٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٦/١ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٧/١) .

ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر »[1] . فالرجز – إن صح هذا الخبر – هو مثل الهزج والقريض والمقبوض والمبسوط صنف من أصناف الشعر ، ولون من ألوانه، ومن هذه الأصناف المذكورة تكون الشعر في نظر الجاهليين .

فالرجز إذن صنف من أصناف الشعر ، وبحر من بحوره ، له وزن وإيقاع ، هكذا كانت نظرة أهل الجاهلية اليه . وهو في الواقع شعر . و « الرجّاز شعراء عند العرب وفي متعارف اللسان »[2] .

« وليس يمتنع الرجز على المقصّد امتناع القصيد على الراجز ، ألا ترى أن كل مقصد يستطيع أن يرجز وان صعب عليه بعض الصعوبة ، وليس كل راجز يستطيع أن يقصّد ، واسم الشاعر وإن عمّ المقصد والراجز فهو بالمقصد أعلق ، وعليه أوقع ، فقيل لهذا شاعر ، ولذلك راجز ، كأنه ليس بشاعر ، كما يقال خطيب أو مرسل أو نحو ذلك »[3] .

ولسهولة الرجز على اللسان لم ينظر اليه نظرة إكبار مثل نظرتهم الى الشعر . هذا (أبو العلاء) المعري ، يجعل جنة الشعراء جنّة سامقة ، لها بيوت عالية ، أما جنة الرجز ، فجنة أبياتها ليس لها سموق أبيات الجنة ، جعل فيها : أغلب بني عجل ، والعجاج ، ورؤبة ، وأبو النجم ، وحميد الأرقط ، وعُذافر بن أوس ، وأبو نخيلة ، ثم يقول : « تبارك العزيز الوهابُ ! لقد صدق الحديث المروي : إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها . وإن الرجز لمن سفساف القريض ، قصرتم أيها النفر فقصر بكم »[4] .

ويعد الرجز من أقدم أنواع الشعر ، ومن أبسطه وأيسره على الإنسان . ثم هو خفيف على النفس ، فيه طرب وتأثير ، وهو مطاوع يؤدي أغراضاً مختلفة ، ويصلح لأن يعبر عن أحاسيس متنوعة ، حتى يكاد أن يكون مطيّة الشعراء ، يركبها كل من له طبع وذوق وحس مرهف ، ومن هنا صار شعر من كان لا يقول الشعر أو لا يحضره إلا في الملمات والأزمات .

---

١ الروض الأنف (١/١٧٣) ، اللسان (٥/٣٥٠) .
٢ العمدة (١/١٨٥) .
٣ العمدة (١/١٨٦) .
٤ رسالة الغفران (٣٧٣ وما بعدها) .

وهو في نظري أقدم من (القصيد) ، لأنه أبسط منه وأسهل على النظم ، فهو يمثل المرحلة الأولى من مراحل الشعر المألوف . وقد تكون سهولته في النظم، هي التي جعلت كبار الشعراء يأنفون من النظم به ، فهو باب يمكن أن يلجه الشعراء الصغار ، وربما يتغلبون به على كبار أهل القصيد ، ولعل سهولته هذه قصرت في عمره ، إذ جعلت الذاكرة تنساه بسرعة ، لسهولته هذه ، كما يسرع نسيان السجع والكلام الاعتيادي من الذاكرة . فضاع بسبب ذلك الرجز الجاهلي ، ولم تبق منه غير بقية قليلة .

واستعمل الرجز في أحوال البديهة والارتجال ، وقد ارتجز في القتال ، وفي الحداء والمفاخرة ، وما جرى هذا المجرى ، واستعمل في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط واثارة همم ، لما فيه من ملاءمة لذلك . فلما بنى المسلمون مسجد الرسول بالمدينة ، وكان الرسول يحمل (اللبن) معهم ، كان الصحابة يرتجزون الرجز لإثارة الهمم وللتخفيف من وطأة العمل . قال « أبو عبيدة : انما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، اذا حارب أو شاتم أو فاخر ،حتى كان العجاج أول من أطاله وقصّده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ووصف ما فيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد . فكان في الرجّاز كامرىء القيس في الشعراء ... وقال غيره : أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي ، وهو قديم ، وزعم الجمحي وغيره انه أول من رجز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ، لأنه انما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك »[1] .

ويعد (الأغلب بن جشم بن عمر بن عبيدة بن حارثة العجلي) أول من نحا بالرجز منحى القصيد ، فأسبغه وأطاله . وهو من المخضرمين . وقد قتل بنهاوند سنة (٢١ هـ).. وهو الذي جاء الى (المغيرة بن شعبة) ، فقال له :

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد طلبت هينا موجودا

وكان الخليفة (عمر) – على ما يذكره أهل الأخبار – كتب الى المغيرة وهو

---

١ العمدة (٨٩/١ وما بعدها) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ، الأغاني (١٦٤/١٨) .

على الكوفة أن استنشد من قبلك من الشعراء عما قالوه في الإسلام مكان الشعر ، فكتب بذلك الى (عمر) فكتب اليه أن أنقص من عطاء الأغلب خمسمائة فزدها في عطاء لبيد[1] .

وروي أن (العجـــاج) ، وهو (عبدالله بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن عمرو) أبو الشعثاء التميمي ، والد الشاعر (رؤبة) ، هو أول من رفع الرجز وشبهه بالقصيد ، وجعل له أوائل[2] . وهو من شعراء الإسلام، وكان يفد على ملوك بني أمية من أمثال الوليد بن عبد الملك[3]،وسليمان بن عبد الملك[4] .

وهو قليل الورود في شعر الشعراء الجاهليين ، فقلما استعمل (نوابغ الشعراء في زمان الجاهلية) « الرجز ، كأنه ليس أهلاً لمنزلتهم. ففي ديوان امرىء القيس لا نعثر إلا على أربع مقطعات صغيرة منه . أعني اثنتين من المشطور واثنتين من غير المشطور . وأكثر من امرىء القيس ارتجازاً لبيد بن ربيعة من الذين أدركوا الاسلام تنسب اليه خمس عشرة مقطعة في الرجز المشطور ، تدور عـــلى المفاخرة والحكمـة والمعاتبة والمديـح والرثاء ، وتشتمل إحداها وهي أطولها على ستة عشر بيتـاً .

أما دواوين النابغـة الذبيانـي ، وزهـــير بن أبـي سُلمى، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة الفحل ، فلا شيء فيها من الرجز . وعلى كل حال لم يكن الارتجاز في زمان الجاهلية إلا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً في الهجاء أو في الحرب وعند اللقاء . أما في القرن الأول للهجرة ، فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظمون الشعر في ذلك البحر المحتقر فإلى هذا التغير أشار ابن رشيق القيرواني في كتاب العمدة حين قال : قال أبو عبيدة انما كان الشاعر يقول من الرجـــز البيتين والثلاثة ونحو ذلك اذا حارب أو شاتم أو فاخر حتى كان العجاج أول من أطاله وقصّده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب عليهـا ووصف ما فيها

---

١ المؤتلـــف والمختلف (٢٢) ، طبقات الشعراء (١٤٨ وما بعدهـــا) ، الأغانـي (١٦٤/١٨ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الأدب العربي (٢٢٥/١) ، الشعر والشعراء (٥١١/٢) ، الاصابة (٧١/١) ، (رقم ٢٢٥) ، الخزانة (٢٣٣/١) ، أسد الغابة (١٠٥/١) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٤٩/١) .

٣ بروكلمن (٢٢٦/١) .

٤ الشعر والشعراء (٤٩٣/٢) .

ويبكي على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد ، فكان في الرجّاز كامرىء القيس في الشعراء . وقال غيره أول من طوّل الرجز الأغلب العجلي ، وهو قديم . وزعم الجمحي وغيره انه أول من رجز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ، لأنه انما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك .

ولكن لا شكّ في وقوع سهو في آخر كلام ابن رشيق ، لأنه من الواضح أن الجمحي إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز في نظم الشعر مثل القصائد ، فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتأريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحي جهل ما هو متداول عند كل العلماء أن الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهلية . وقول الجمحي صواب تؤيده عدة نصوص منها شهادة العجاج من أشهر شعراء الأراجيز الذي قال مفتخراً :

وإن يكُن أمسى شبابي قد حسر وفـتّرت منّي البواني وفتر
إني أنا الأغلبُ أضحى قد نُشِرْ

يعني أنه أحيا طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جشم العجلي عاش في الجاهلية مدة وأدرك الاسلام وأسلم وله شعر في سجاح لما تزوجت مسيلمة الكذاب »[1] .

و (الهزج) نوع من أعاريض الشعر ، من الأغاني وفيه ترنم[2] . وهو باب معروف من أبواب الشعر عند الجاهليين ، كباب الرجز ، بدليل جعل (الوليد ابن المغيرة) اياه صنفاً من أصناف الشعر.وقد عرف من كان يقول الهزج بـ (الهزاج) و (أهزج) إذا هزج الهزج ، أي قال به . والهزاجون طبقة امتازت عن غيرها بقولها الهزج ، وكانوا يرددونه ترديد الغناء ، ولذلك عدّ من الأغاني ، وقالوا : الهزج صوت مطرب . قيل سمي بذلك تشبيهاً بهزج الصوت ، وقيل لطيبه لأن الهزج من الأغاني[3] . فهي إذن من الشعر الغنائي « Lyric » .

---

١ كارلو نالينو ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٨٦ وما بعدها) .
٢ اللسان (٣٩٠/٢ وما بعدها) ، (هزج) .
٣ تاج العروس (١١٦/٢) ، (هزج) .

وقد استعمل العرب الهزج في أناشيد التنشيط للقتال ، وفي المناسبات العامة ، مثل الأفراح ، والتجمعات ، حيث يترنم القوم جماعة بأنغام الهزج ، فالهزج شعر مقرون بغناء وترنيم .

و (الرمل) من الشعر كل شعر مهزول غير مؤتلف البناء . قال بعض العلماء عنه : « وأما الرمل فإن العرب وضعت فيه اللفظة نفسها ، عبارة عندهم عن الشعر الذي وضعه أهل الصناعة ، لم ينقلوه نقلاً علمياً ولا نقلاً تشبيهياً . وبالجملة فإن الرمل كل ما كان غير القصيد من الشعر وغير الرجز »[1] . وقد أخذ علماء العروض اللفظة والمعنى كما سمعوها من العرب ولم يحدثوا عليها أي تغيير . مما يدل على انه كان من الأبواب المميزة المعروفة عند الجاهليين . وذلك مثل الرجز والقصيد[2] ، والمقبوض والمبسوط ، على نحو ما ذكرت قبل قليل .

وأما (القصيد) من الشعر ، فما تم شطر أبياته أو شطر أبنيته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه . سمي قصيداً لأنه قصد واعتمد ، وإن كان ما قصر منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً ، وذلك ان ما تم من الشعر وتوفر آثر عندهم وأشد تقدماً في أنفسهم مما قصر واختل ، فسمّوا ما طال ووفر قصيداً ، أي مراداً مقصوداً ، وإن كان الرمل والرجز أيضاً مرادين مقصودين[3] . وقيل « القصيد من الشعر المنقح المجوّد المهذب الذي قد أعمل فيه الشاعر فكرته ولم يقتضبه اقتضاباً كالقصيدة »[4] .

والقصيد ، جمع القصيدة ، وقيل : الجمع قصائد وقصيد . سُمي قصيداً لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد والمعنى المختار ، وقالوا : سمي الشعر التام قصيداً لأن قائله جعله من باله فقصد له قصداً ولم يحتسه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روي فيه خاطره واجتهد في تجويده ولم يقتضبه اقتضاباً[5] . ويقال قصد الشاعر وأقصد ، اذا أطال وواصل عمل القصائد . والذي في العادة أن يُسمى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر قطعة ، فأما ما زاد

---

١ اللسان (٢٩٦/١١) ، تاج العروس (٣٥١/٧) ، (رمل) .
٢ اللسان (٢٩٦/١١) .
٣ اللسان (٣٥٤/٣) ، (قصد) ، تاج العروس (٤٦٧/٢) ، (قصد) .
٤ تاج العروس (٤٦٨/٢) .
٥ اللسان (٣٥٤/٣) ، (قصد) .

على ذلك فإنما تسميه العرب قصيدة[1] . « وقيل : إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس .. ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو بيبيت واحد . ويستحسنون أن تكون القصيدة وتراً ، وأن يتجاوز بها العقد ، أو توقف دونه »[2] . فالقصيدة اذن كلمة طويلة بالنسبة الى القطعة ، فيها وحدة أطول هي وحدة القصيدة، التي تعرف بقافيتها[3] . ويعبر عنها بلفظة (كلمة) (الكلمة) مجازاً ، كما عبر عنها في المؤلفات القديمة[4] .

وينسب الى (الأخفش) قوله : « القصيد من الشعر هو الطويل ، والبسيط التام ، والكامل التام ، والمديد التام ، والوافر التام ، والرجز التام ، والخفيف التام ، وهو كل ما تغنى به الركبان، ولم نسمعهم يتغنون بالخفيف »[5] . و(القصد) مواصلة الشاعر عمل القصائد وإطالته كالإقصاد . قال الشاعر :

قد وردت مثل اليماني الهزهاز ... تدفع عن أعناقها بالاعجاز
أعيت على مقصدنا والرجاز[6]

وكلمة (قصيدة) من الكلمات المستعملة في الشعر الجاهلي . جاء ان أحد شعراء (بكر بن وائل) سخر من تغلب لما كانت تتباهى به من ترديدها لقصيدة شاعرها (عمرو بن كلثوم) في مدح نفسه وقومه ، فقال :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مسئوم[7]

وورد في شعر للمسيب بن علس قوله :

فلأهدين مع الرياح قصيدة ... مني مغلغلة الى القعقاع[8]

---

١ اللسان (٣/٣٥٥) ، تاج العروس (٢/٤٦٧) ، (قصد) .
٢ العمدة (١/١٨٩) .
٣ بروكلمن (١/٥٨) .
٤ الآمدي ، المؤتلف (١٠٦) ، ابن سلام ، طبقات (٢٧) ، ابن سعد (٣/١٧٦) .
٥ تاج العروس (٢/٤٦٧) ، (قصد) .
٦ تاج العروس (٢/٤٦٦) ، (قصد) .
٧ الاغاني (١١/٥٤) .
٨ المفضليات (٦٢) .

فاللفظة إذن من الألفاظ التي استعملها الجاهليون ، بمعناها المفهوم . وقد بحث في أصلها علماء اللغة ، وذهبوا في تفسيرها مذاهب[1] . وللمستشرقين كلام في أصلها وفي معناها . ذهب بعض منهم إلى أنهـا من القصد والغرض ، وانها قيلت في شعر الطلب أولاً ، ثم أطلقت على كل شعر آخر ، ولهذا اقترح بعضهم ترجمتها بـ (شعر الطلب) أو (شعر التسول) ، وعارض هذا التفسير بعض آخر ، لأن التسول في رأيهم لم يكن الغرض الأول من نظم الشعر ، وإنما كان غرضاً من أغراضه ، ثم إن أقدم الشعراء الذين قصّدوا القصائد لم يكونـوا من الشعراء المتسولين ، وإنما كانوا من المترفعين المتعالين ، ولهذا رفضوا تفسير القصيد بشعر التسول والطلب[1]،وقال (بروكلمن) : « إذا صح أن لفظ القصيد بعيد القدم، فمن الممكن أن يكون الغرض والقصد بحسب الأصل غرضاً من أغراض السحر ، وكثيراً ما صار غرضاً سياسياً في وقت متأخر ، ثم صار يستعمل بأوسع معـاني الكلمة في جميع أغراض الحياة الاجتماعية ، وان كان من الحق أنه استعمل أيضاً منذ عهد قديم في أغراض أنانية محضة »[2] .

وتعرف (القصيدة) بـ (القافية) كذلك . واستشهد العلماء على ذلك بقول الخنساء :

فنحـكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

وبقول آخر :

نبئت قافيـة قيلت تناشدها قوم سأترك في أعراضهم ندبا

وذكروا ان (القافية) في قول حسان بن ثابت :

فنحـكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

قد تعني (القصيدة) ، وقد تعني البيت منهـا . « قال الأزهري : العرب

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٥٩) ،
Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 10.

٢ بروكلمن (١/٥٩) .

تسمي البيت من الشعر قافية ، وربما سمّوا القصيدة قافية ، ويقولون رويت لفلان كذا وكذا قافية[1] . والقافية هي (ميقف) في العبرانية .

وأطلقت على القصيدة لفظة (كلمة) ، وقد استعملها (ابن سلام) في مواضع من كتابه (طبقات الشعراء) . فتجده يقول : « ومن شعر حسان الرائع الجيد ما مدح به بني جفنة من غسان ملوك الشأم في كلمة » ، ثم ذكر القصيدة، ثم يقول : « وقوله في الكلمة الأخرى الطويلة »[2] ، و « قال في يوم أحد كلمة قال فيها »[3] ، ويقول « وكان أبو الصلت يمدح أهل فارس حين قتلوا الحبشة في كلمة قال فيها »[4] ، و « السموأل بن عادياء يقول في كلمة له طويلة »[5] ، ووردت في مواضع عديدة أخرى بهذا المعنى وفي بقية كتب الشعر والأدب .

وتتألف القصيدة من أبيات . والبيت هو بيت الشعر[6] . ويتكون البيت من شطرين . و (الشطر) نصف الشيء . فشطر البيت نصفه[7] . والبيت في القصيدة الجاهلية وحدة معنوية مستقلة قائمة بذاتها ، إذا انتزعت بيتاً منها ، أو تركت بيتاً ، أو قدمت فيها بيتاً على بيت ، أو أخرت في أبياتها ، فإنك لا تكاد تفصم عرى القصيدة ولا تؤثر على ترابط معناها في الغالب ، لأن كل بيت منها وحدة قائمة بذاتها لا تتصل بما قبلها أو بما بعدها إلا بسبب الوزن والقافية .

وقد عرفت بعض الأبيات بالأوابد . والأوابد من الشعر : الأبيات السائرة كالأمثال[8] . وذكر أن الأوابد الشوارد من القوافي[9] ، ورد في كتب اللغة : « ومن المجاز أبد الشاعر يأبد أبوداً ، إذا أتى العويص في شعره . وهي الأوابد والغرائب وما لا يعرف معناه على بادىء الرأي »[10] .

---

١ تاج العروس (١٠/٣٠٠) ، (قفو) .
٢ (ص ٥٣ ، ٥٤) .
٣ طبقات (٥٨) .
٤ طبقات (٦٦) .
٥ طبقات (٧١) .
٦ تاج العروس (١/٥٣٠) ، (بيت) .
٧ تاج العروس (٣/٢٩٨) ، (شطر) .
٨ العمدة (٢/١٨٥) .
٩ اللسان (٣/٦٩) ، (ابد) .
١٠ تاج العروس (٢/٢٨٦ وما بعدها) ، (ابد) .

وتكون القصائد طويلة في الغالب ، أما (القطع) ، فهي أقصر من القصيدة . وقد كان (ابن الزبعرى) ، لا ينظم القصائد الطوال ، ويميل الى القطع ، وكان عذره « ان القصار أولج في المسامع ، وأجول في المحافل » . وللشعراء الطوال والقصار ، كل حسب المناسبة[1] . وقد اختتمت بعض القصائد الجاهلية بالحكم والأمثال وبالأقوال المأثورة . وللقصائد الطوال المحبوكة حبكاً حسناً ، والمنظومة نظماً جيداً ، سابقة وقدم على مثيلاتها من القصائد الوسط أو القصيرة ، ومن هنا اختار (حماد) الراوية (السبع الطوال) (السبع الطول) من الشعر الجاهلي ، وزعم في أصلها ما زعم . ونظم القصيدة الطويلة ، يحتاج الى نفس طويل ، والى تمكن من الشعر ، وإلا أصابها الوهن والعجز ، ومن هنا عدّ أصحاب المطوّلات الجيدة من أحسن الشعراء .

وقد ذهب (غرونباوم) الى أن القصيدة العاشرة من القصائد المنسوبة الى (عمرو بن قميئة) ، ربما تكون أقدم قصيدة تامة وصلت الينا من الشعر الجاهلي ، « على أنها لم تكن بعد تفي بجميع مقتضيات النقاد النظريين ، لأنها لا تشمل ، في الأبيات التسعة عشر التي تلي النسيب ، إلا على وصف سحابة ممطرة ، ومدح رجل يدعى امرأ القيس بن عمرة . ولو أن هذه القصيدة تأخرت عن العصر ، بوقت قصير ، لاعتبرت أثراً غثاً . وليس السبب في ذلك أن عدد أبيات القصيدة من بعد قد ازداد الى ضعفين أو ثلاثة أضعاف ، أو بلغ أو جاوز المائة ، وإنما هو في كثرة المشاهد التي حشدت حتى تحققت هذه المنظومات الرائعة . ومن شواهد ذلك قصيدتان للأعشى (حوالى ٥٦٥ — ٦٢٩ م) هما الأولى والسادسة من ديوانه ، وأولى قصائد أبي ذويب الهذلي (ت حوالى ٦٥٠ م) ، وفيها تصوير لسلطة القدر المحتوم في ثلاثة مشاهد مؤثرة تمثل مصرع حمار الوحش القوي وثور الوحش الهائج ، والفارس الشاكي السلاح المستجن بدرعه . وإذ كان الحافز لقول القصيدة هو وفاة ابن الشاعر ، فقد جمعت هذه القصيدة جمعاً موفقاً بين مزايا المرثية وخصائص القصيدة »[2] .

وقد بلغ الشعر الجاهلي ذروته عند ظهور الاسلام . كان الشعراء في هذا العهد ينظمون القصيد ببحوره التي ضبطت وثبتت في الاسلام ، في مقاصد أشرت اليها

---

١ العمدة (١/١٨٦ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (١٣٩) .

في موضع آخر من هذا الجزء من الكتاب ، كما كانوا قد طوّروا الرجز وتفننوا فيه . وقد أدى ظهور الاسلام الى إحداث تغير في نمط نظم القصائد ، لأن الاسلام حدث تأريخي جاء برأي في شؤون الحياة جديد ، فكان لا بد للشعراء من مجاراة هذا التيار الفكري ، لا سيما بعد خروج العرب من جزيرتهم وانتشارهم في أرضين جديدة غنية ، وحكمهم لأقوام كانت لهم حضارة ، فكان لا بد من تأثر النفس بالوضع الجديد ، والشعر تعبير عن النفوس والأحاسيس .

والقافية من الشعر الذي يقفو البيت ، سميت قافية لأنها تقفوه، أو لأن بعضها يتبع أثر بعض . وقيل : هي آخر كلمة في البيت ، أو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة ، وهو المسمى روياً . وعرّف (الخليل) القافية بقوله : « القافية من آخر حرف ساكن فيه ، أي في البيت ، الى أول ساكن يليه مع الحركة التي قبل الساكن »[١] . وأرى ان هذا التعريف قد أخذه (الخليل) من أهـل الكتاب . فالقافية بهذا التعريف تقابل Maqqeph (مقف) (مقيف) عند العبرانيين[٢] ، و (المقيفات) هي التي تحدد الشعر ، وتجعل من الكلام المؤلف من (مقيفات) شعراً ، ولا يستبعد استعمال الجاهليين لهذا المصطلح استعمال العبرانيين والسريان له، فلما دوّن (الخليل) علم العروض أخذ هذا المصطلح منهم ، ودليل ذلك ورود لفظة (قافية) و (القوافي) في الشعر قبل أيام الخليل[٣] ، ثم اختلاف العلـماء وتباين آرائهم في معنى القافية[٤] .

ويذكر أهل الأخبار أن (مهلهل بن ربيعة) ، وهو خال (امرىء القيس) الشاعر ، وجدّ (عمرو بن كلثوم) هو أول من قصد القصائد . وقـد قال (الفرزدق) فيه :

ومهلهل الشعراء ذاك الأول[٥]

فهو أول شعراء القصائد ، وهو متقدم على (امرىء القيس) .

---

١ تاج العروس (٣٠٠/١٠) ، (قفو) .
٢ Hastings, p. 737.
٣ تاج العروس (٣٠٠/١٠) ، (قفو) .
٤ نزهة الجليس (١٢٠/١) .
٥ العمدة (٨٧) ، الشعر والشعراء (١٦٤) .

ويرى (فون غرونباوم) ان الشعراء حرصوا منذ حوالى السنة ٥٠٠ م على التصريع في المطلع ، ثم التزم قافية واحدة في جميع أبيات القصيدة ، من أولها الى آخرها ، بحيث يسوغ القول : إن القافية الواحدة أدل على وحدة القطعة الشعرية من المعاني الواردة فيها .

« ويتجلى في أقدم المحفوظ من الشعر العربي تنويع عظيم في الوزن ، وصقل بارع في التعبير اللغوي . وهذا يعني أنه كان قد نشأ ، قبل ذلك ، مذهب شعري ينص على التنويع والصقل المشار اليها . وأخذت الأقطار المختلفة تؤثر أوزاناً مختلفة ، ويكاد يكون من المرجح أن الفرس قد تركوا ، في شعر الأقدمين من شعراء العراق ، تأثيراً بالغاً في الطريقة الفنية . فهنالك وزنان على الأقل ، امتاز بهما هؤلاء الشعراء هما الرمل والمتقارب ، وربما زدنا اليهما الخفيف . ويبدو أنها جميعاً اقتبست من أصول فارسية بهلوية ، وحورت بما يلائم الأوضاع العربية .

وربما كان للسريان فضل ما في وضع المصطلحات الفنية الأولى مثل كلمة (البيت) أي (الخيمة) لتدل على الوحدة الجزئية من القصيدة . لكن كان لنظرية الفن العروضي ، على العموم نشأة مستقلة ، فالخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ — ٧٩١ م) ، وضع قواعد العروض العربي بعد ذلك بزمن طويل ، وقد بقيت قواعده معتمد الأدباء عبر القرون . فقد أقر الخليل ستة عشر وزناً ، واطرح بعض الأوزان المزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها . ثم إنه جرى على طريقة ، جرى عليها النحاة من بعد في الرمز الى صيغة اللفظة ، فأشار الى وحدة الإيقاع الشعري بصيغة مشتقة من فعل »[1] .

وقد تكلف الناس كثيراً ، وحمّلوا أنفسهم حملاً ثقيلاً ، باعتذارهم عن أمور متكلفة وردت في شعر زعم انه كان للقدماء من الشعراء ، فالتصريع مثلاً ، اذا كثر استعماله في القصيدة دل في نظر العلماء بالشعر على التكلف ، إن كان من المحدثين ، أما اذا كان من المتقدمين ، فلا يعد متكلفاً في نظرهم ، واعتذروا عنه بأنه جرى على عادة الناس ، لئلا يخرج عن المتعارف . ومن هذا القبيل التصريع المنسوب الى امرىء القيس :

---

١ غرونباوم (١٣٤ وما بعدها) .

تروح من الحي أم تبتكــر　　وماذا عليك بأن تنتظــر
أمرخٌ خيامهــم أم عشر　　أم القلب في إثرهم منحدر
وشاقك بين الخليط الشطر　　وفيمن أقام من الحي هر[1].

ونسبوا الى (امرىء القيس) (المسمط) من الشعر . والشعر المسمط الذي يكون في صدر البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة ، وتجمعها قافية مخالفــة لازمة للقصيدة حتّى تنقضي . وقيل : أبيات مشطورة تجمعها قافية واحدة ، وهو الذي يقال له عند المولدين (المخمس) . ومن أنواعه المسبع والمثمن ، وقيل المسمط من الشعر أبيات تجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافي الأبيات . وقيل المسمط من الشعر ما قفى أرباع بيوته وسمط قافية مخالفة . يقال : قصيدة مسمطة وسمطيــة . ومن الشعر المسمط المنسوب الى امرىء القيس قوله :

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله　　أقمت بعضب ذي سفاسق ميّله
فجعتُ به في ملتقى الخيل خيله　　تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على أثوابه نضح جريال

ونسب له قوله :

توهمت من هنــد معالم أطلال　　عفاهنّ طول الدهر في الزمن الخالي
مرابع من هند خلت ومصايفُ　　يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيَّرها هوجُ الرياح العواصف　　وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطّال[2]

وتعرض (المعري) للتسميط في رسالة الغفران ، حين التقى بامرىء القيس ، فسأله : « أخبرني عن التسميط المنسوب اليك ، أصحيح هــو عنك ؟ وينشده الذي يرويه بعض الناس :

---

١ العمدة (١/١٧٤) .
٢ تاج العروس (٥/١٦١) ، (سمط) ، (كأن على سرباله ، نضح جريال) ، اللسان (٧/٣٢٢ وما بعدها) ، (سمط) .

يا صحبنا عرّجوا نقف بكم أمج
مهرية دُلُج في سيرها مُعج
طالت بها الرحل

فعرّجوا كلهم والهم يشغلهم
والعيس تحملهم ليست تعللهم
وعاجت الرمل

يا قوم إن الهوى إذا أصاب الفتى
في القلب ثم ارتقى فهدّ بعض القوى
فقد هوى الرجل

فيجيب (المعري) على لسانه بقوله : « لا والله ما سمعت هذا قط ، وإنه لقرى لم أسلكه ، وان الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام ، ولقد ظلمني وأساء إليّ ! أبعد كلمتي التي أولها:

ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصُر الخالي

وقولي :

خليلي مرّا بي على أم جندب لأقضي حاجات الفؤاد المعذب

يقال لي مثل ذلك ؟ والرجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز »[1] .

ونسبوا اليه كثرة التصريع في غير أول القصيدة ، وكثرة استعمال الضرب المقبوض في الطويل ، وكثرة الإقواء في القافية[2] . ويعد الاقواء من عيوب الشعر، غير أننا لا نستطيع مجاراة علماء العروض في هذا الرأي ، إذ يجوز ألا يكون الاقواء عيباً عند أهل الجاهلية ، وإنما صار عيباً في الإسلام ، بعد تثبيت قواعد اللغة والبحور . ونجد هذا الرأي مثبتاً في رسالة الغفران .

---

١ رسالة الغفران (٣١٩ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/٩٩) .

ولا يمكن أن نتصور ان القصائد الجاهلية الطويلة قد نظمت على نحو ما يرويها أهل الأخبار ، دون اجراء أي تغيير أو تحوير عليها . فقد كان الشاعر ينفعل فينظم قصيدته ويحفظها راويته ويذيعها بين الناس ، ثم يحدث أن تخطر له خواطر أو يسمع نقداً لبعض أبياتها ، أو توجيهاً يبديه له بعض أصدقائه أو يسمع تنبيهاً موجهاً اليه بوجود شيء في قصيدته غفل عنه ، فيجري بعض التغيير عليهـــا من تعديل أو زيادة أو نقصان ، قد يحفظ ويروى ، وقد يهمل ويترك ، ولهذا فنحن لا نستطيع الإدعاء : ان نظم القصائد كان نظماً تاماً ، لم يشمله أي تعديـــل أو تبديل،وان الشاعر لم يكن ينشد قصيدته إلا بعد أن يكون قد اطمأن منها وضبطها ضبطاً تاماً .

« ومن الشعراء من يُحكم القريض ولا يحسن من الرجز شيئاً ، ففي الجاهلية منهم : زهير ، والنابغة ، والأعشى . وأما من يجمعها فامرؤ القيس وله شيء من الرجز ، وطرفة وله كمثل ذلك ، ولبيد وقد أكثر »[1] .

وليس في مستطاع أحد اثبات ان البحور المدونة في علم العروض ، هي كل بحور الشعر الجاهلي وأوزانه ، لم يُهمل منها وزن ، ولم ينس منها بحـــر ، لأن على من يدعي هذه الدعوى ، إثبات ان الاسلاميين الذين جاءوا بعد الجاهليين قد أحاطوا علماً بكل الشعر الجاهلي ، وانهم أحصوه عدداً ، فلم يتركوا منه بيتاً ولا قطعة ولا قصيدة . وعلماء الشعر ينفون ذلك ويقولون : « والشعـــراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهليـة والاسلام ، أكثر من أن يحيط بهـــم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقـير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنـا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[2] .

ويرى (غرونباوم) أن الشعر الجاهلي قد تطور : « وتتجلى فيه معالم التطور بصورة واضحة : فمن ذوبان اللهجات المتعددة في لغة واحدة ، تجمّع فيها تراث المدارس المختلفة واللهجات المتباينة بصورة متزايدة حتى تحقق حوالى سنة ٦٠٠ ، الى زيادة القيود في نظام العروض الفني ، فإن ظفر بعض الفئات باستنباط تعابير

١ البيان والتبيين (٨٤/٤) .
٢ الشعر والشعراء (٧ وما بعدها) ، (دار الثقافة) .

جديدة لم تلبث أن شاعت تدريجيـاً في أوساط أخرى ، وأخيراً الى اتجاه سياق الشعر نحو الإتساع وعدد أبيات القصيدة الى الازدياد . إن تحليل هذا النمو السريع نسبياً ، على ضوء ما نعرفه عن المخلفات القديمة ليحملنا على الاعتقـاد بأن وضع تأريخ معين محدد بدء الشعر العربي الفني أمر متعذر ، ولكن الغالب عـلى الظن أن أوائل هذا الشعر لا تتخطى أقدم المدوّنات التي بلغتنا بزمن طويل . وهـذا الحكم إنما ينطبق على الطبقة الشعرية الثالثة والأخيرة لا غير . ولئن تعاصرت هذه الطبقات الشعرية الثلاث معاً في الفترة الجاهلية المذكورة ، فمن البدهي أنها لم تبرز الى الوجود في وقت واحد »[1] .

التمليط :

وهو أن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسياً وهذا قسياً لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه[2] ، وفي الحكاية أن امرأ القيس قال للتوأم اليشكري : إن كنت شاعـراً كما تقول فملّط أنصاف ما أقول فأجزها ، قال نعم . فقال امرؤ القيس :

أحار ترى بريقـاً هبّ وهنا

فقال التوأم اليشكري :

كنـار مجوسٍ تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس :

أرقت لـه ونامَ أبو شريـح

فقال التوأم :

إذا ما قلتُ قد هـدأ استطارا

فقال امرؤ القيس :

كأن هزيمـه بوراء غيـثٍ

---

١ غرونباوم (١٣٥ وما بعدها) .

٢ اللسان (٧/٤٠٩) ، (ملط) .

فقال التوأم :

عشارٌ وإلـــهٌ لاقت عشارا

فقال امرؤ القيس :

فلما أن عــلا كتفي أضــاخ

فقال التوأم :

وهت أعجازُ ريّـهِ فحــارا

فقال امرؤ القيس :

فــلم يترك بذات السر ظبياً

وقال التوأم :

ولم يـترك بجهلتهــا حــارا

فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن في ذلك الحَرْسِ من يماتنه ، آلى ألا ينازع الشعر أحداً آخر الدهر .

وذكر ان شعر التوأم في هذا التمليط ، أقوى من شعر امرىء القيس ، لأن امرأ القيس مبتدىء ما شاء ، وهو في فسحة مما أراد ، والتوأم محكوم عليه بأول البيت ، مضطر في القافية التي عليها مدارها جميعاً ، ومن ههنا عرف له امرؤ القيس من حق المماتنة ما عرف . ونازع أيضاً علقمة بن عبدة ، فكان من غلبة علقمة عليه ما كان[1] .

والمماتنة المعارضة في جدل أو خصومة ، والمباهاة في الجري أو في الشعر ، بأن يماتن شاعران أو أكثر ليتبين أيهم أشعر[2] .

وقد يمتحن الشعراء بعضهم بعضاً قول الشعر ،كأن يقول أحدهم بيتاً أو نصف بيت ، ثم يقول لصاحبه : أجز ، ليقدم مثله ، قيل : قال زهير بن أبي سلمى بيتاً ثم أكدى ، ومرّ به النابغة الذبياني ، فقال له : يا أبا أمامة ، أجز ، قال : ماذا ؟ قال :

---

١ العمدة (٢٠٢/١ وما بعدها) ، (٩١/٢) .
٢ تاج العروس (٢٤٠/٩) ، (متن) .

تزال الأرض إما مت خِفاً وتحيا ما خييت بها ثقيلا
نزلتَ بمستقر العز منها . . . .

فماذا قال ؟ فأكدى النابغة أيضاً ، وأقبل كعب بن زهير ، وهو غلام ، فقال له أبوه : أجز يا بُني ، فقال : ماذا ؟ فأنشده البيت الأول ومن الثاني قوله : نزلت بمستقر العز منها ، فقال كعب :

فتمنع جانبيها أن يزولا[1]

ومن الإجازة قول حسان بن ثابت :

متاريك أرباب الأمور اذا اعترت أخذنا الفروع واجتنبنا أصولها

وأجبل ، فقالت ابنته : يا أبت ، ألا أجيز عنك ، فقال : أو عندك ذاك؟ قالت : بلى ، قال : فافعلي ، فقالت :

مقاويل للمعروف خرس عن الخنا كِرامٌ يعاطون العشيرة سُولها

فحمي حسان عند ذاك ، فقال :

وقافية مثل السنان ردفتها تناولتُ من جوّ السماء نزولها

فقالت ابنته :

يراها الذي لا ينطق الشعر عنده ويعجز عن أمثالها أن يقولها[2]

---

١ امالي المرتضى (١/٩٧ وما بعدها) .
٢ العمدة (٢/٨٩) .

الفصل التاسع والاربعون بعد المئة

العروض

والعروض ميزان الشعر، سُمي به لأنه به يظهر المتزن من المنكسر عند المعارضة بها . وذكر الأخباريون جملة تفسيرات لسبب تسميتهم العروض عروضاً ، منها أنه علم الشعر ، ألهم الخليل به بمكة ، ومكة من العروض ، فقيل لهذا العلم عروضاً[1] ، ومنها أنه انما سمي عروضاً لأن الشعر يعرض عليه ، ومنها أنه انما عرف بعروض الشعر ، بقولهم : فواصل أنصاف الشعر ، وهو آخر النصف الأول من البيت . فالنصف الأول عروض ، لأن الثاني يبنى على الأول، والنصف الأخير الشطر . أو لأن العروض طرائق الشعر وعموده مثل الطويل ، فيقال هو عروض واحد. واختلاف قوافيه يسمى ضروباً[2] . أو لأنه إن عرف نصف البيت، وهو العروض سهل تقطيع البيت حينئذ ، ولذلك قيل له العروض[3] . وذهب البعض الى أنه إنما عرف بذلك من العرض ، لأن الشعر يعرض على هذه الأوزان فما وافق كان صحيحاً وما خالف كان سقيماً . وقيل من العروض ، أي الطريق التي في الجبل ، والمراد الطريق التي سلكتها العرب ، وقيل لما شبهوا البيت من الشعر ببيت الشعر ، شبهوا العروض الذي يقيم وزنه بالعروض ، وهي الخشبة المعترضة

١ تاج العروس (٥/٤١) ، (عرض) .
٢ اللسان (٧/١٨٤) ، (عرض) .
٣ الخوارزمي ، مفتاح العلوم (٥١) .

في سقف البيت ، كما شبهوا الأسبـــاب بالأسباب والأوتاد بالأوتاد ، والفواصل بالفواصل[1] . وعلم العروض ، هو علم الشعر والقافية ، ويرادفه علم الوزن : وزن الشعر ، ويدل اختلافهم الشديد في تعريفه على عدم وجود رأي واضح عند العلماء عن منشأه وعن كيفية ظهوره[2] .

وعندي ان في اختلاف العلماء هذا الاختلاف الشديد في سبب تسمية العروض عروضاً ، دلالة على ان اللفظة من الألفاظ التي كانت مستعملة قبل الاسلام،وانها لم تكن من وضع (الخليل) ، وانما كانت لفظة قديمة جاهلية قصد بها النظر في الشعر والتبصر بدروبه وأبوابه وطرقه ، فلو كانت الكلمـــة اسلامية ومن وضع (الخليل) لما وقع بينهم هذا الاختلاف ، وما كان (الخليل) ليهمل السبب الذي حمله على اختيار هذه التسمية ، ولسأله العلماء حتماً عن السبب الذي جعله يسمي هذا العلم عروضاً ، فقد عوّدنا العلماء ، انهم اذا وقفوا أمام أمر قديم جاهلي ، وهم لا يعرفون من خبره شيئاً ، جاءوا بآراء متباينة وبتعليلات مختلفة ، لبيـــان العلـــل والأسباب . ولـو كان العروض من العلـوم أو المسميات التي وضعت في الاسلام ، لما اختلفوا في تعريفه هذا الاختلاف ، وفي اختلافهم هذا الاختلاف في تعريفه ، دلالة على قدمه قياساً على ما عرفناه عنهم ، من اختلافهـــم في تفسير المصطلحات والمسميات القديمة .

وقد قال قوم في الإسلام لا حاجة الى العروض ، لأن من نظم بالعروض شق ذلك عليه وأتى به متكلفاً ، ومن نظم بالطبع السليم والسليقة جاء شعره طبيعيـــاً سليماً[3] . ولا بـــد وأن تكون هذه المعارضة قد ظهرت بعد ظهور علم العروض وتدوينه وتثبيت قواعده ، ومحاولة العروضيين فرض سلطان قواعدهم عـــلى الشعر والشعراء ، ولمـــا كان الشعراء ينظمون الشعر بسليقتهم وفق عرفهم الذي ألفوه وتعودوا عليه ، وعن طبع وموهبة فيهم ، لم يحفلوا بالعروض ، وصار العروض علماً يحفظه من لا يقرض الشعر الرفيع العالي المنبعث عن شاعرية وعاطفة وهيجان خاطر ، وصار شعر العروضي شعراً متكلفاً في الغالب ، لا يداني شعـر الشعراء

---

١ نزهة الجليس (١/١١٥) .

٢ Ency., Vol., I, p. 463.

٣ نزهة الجليس (١/١١٦) .

الذين يقولون الشعر ، وهم أحرار طلقاء ، لعدم وجود الموهبة الشعرية فيهم ، والبصر بالعروض يجعل من حافظه شاعراً .

والمعروف بين الناس أن العروض وضع في الإسلام ، وضعه (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم) الفراهيدي الأزدي اليحمدي (١٠٠ — ١٧٠ ، ١٧٥)[١] . استخرج الأوزان ، ودوّن البحور ، « وكان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس . وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب »[٢] . وقد عرف بـ (صاحب العروض)[٣] . وقيل عنه : كان « الغاية في تصحيح القياس ، واستخراج مسائل النحو وتعليله »[٤] ، « وهو أول من استخرج علم العروض ، وضبط اللغة ... وكان أول من حصر أشعار العرب ... روي عنه أنه كان يقطع العروض فدخل عليه ولده في تلك الحالة فخرج الى الناس وقال : إن أبي قد جُنّ . فدخل الناس عليه وهو يقطع العروض فأخبروه بما قال ابنه ، فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني　　　أو كنت تعلم ما أقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني　　　وعلمت أنك جاهل فعذلتكا »[٥]

و (الخليل) نفسه من الشعراء ، وقد أورد العلماء له شعراً[٦] . وقد أورد (ابن قتيبة) له أبياتاً ، عقب عليها بقوله : « وهذا الشعر بيّن التكلف رديء الصنعة . وكذلك أشعار العلماء ، ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة ، كشعر الأصمعي ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً[٧] .

وقد تعرض (أبو الحسين أحمد بن فارس) لموضوع نشأة النحو والعروض في الاسلام ، فقال : « فإنا لم نزعم ان العرب كلها — مدراً ووبراً — قد عرفوا

---

١ الفهرست (٦٩ وما بعدها) ، (المقالة الثانية) ، القفطي ، انباه الرواة (١/٣٤٢)
٢ الفهرست (٧٠) .
٣ السيوطي ، بغية (٢٤٣) ، ياقوت ، ارشاد (٤/١٨١) ، ابن الانباري ، نزهة (٥٥) .
٤ نزهة الالباء ، لابن الانباري (٢٩) ، (بغداد ١٩٥٩ م) .
٥ نزهة الالباء (٢٩ وما بعدها) ، (بغداد ١٩٥٩ م) .
٦ المحاسن والاضداد (٥٠) ، الشعر والشعراء (١/١٦) ، (٢/٦٣٠) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٦) .

الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم : فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة ، وأبو حيّة كان أمس ، وقد كان قبله بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ ، وكان في أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كاتبون » . « أفيكون جهل أبي حيّة بالكتابة حجة على هؤلاء الأئمة ؟

والذي نقوله في الحروف ، هو قولنا في الإعراب والعروض . والدليل على صحة هذا وان القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة التي أولها:

شاقتك أظعان لليـ ـلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية، وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأتت عليهما الأيام ، وقلاّ في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان ، وقد تقدم دليلنا في معنى الإعراب . وأما العروض فمن الدليل على انه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على ان المشركين لما سمعوا القرآن قالوا — أو من قال منهم — انه شعر . فقال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم، لقد عرضت ما يقرأه محمد على أقراء الشعر : هزجه ورجزه وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك . أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ وقد زعم ناسٌ ان علوماً كانت في القرون الأوائل والزمن المتقادم ، وانها درست وجددت منذ زمان قريب ، وترجمت وأصلحت منقولة من لغة الى لغة . وليس ما قالوا ببعيد »[1] .

« ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر . فكتبوا ذوات

---

١ الصاحبي (ص ٣٦ وما بعدها) .

الياء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة اذا كان ما قبلها ساكناً في مثل (الخبء) و (الدفء) و (الملء) فصار ذلك كله حجة ، وحتى كره العلماء ترك أتباع المصحف من كره »[1] .

فابن فارس إذن من الذين رأوا أن العرب الجاهليين كانوا على علم بالعربية وبعروض الشعر ، قبل (أبي الأسود الدؤلي) و (الخليل بن أحمد الفراهيدي). وأن فضل الرجلين على العلم ، إنما هو في جمع علم الأوائل وتثبيته وتدوينه،وهو فضل لا ينتقصه عليها منتقص . وهو استنتاج يتفق مع قواعد المنطق تمام الاتفاق . لأن من غير المعقول أن يضع إنسان قواعد لغة أو قواعد شعر ، من غير أن يكون له علم سابق بأنواع الكلام وباختلاف الاقراء وبالأسس اللغوية والنحوية التي لا بد من تعلمها حتى يتمكن المرء من بناء قواعد أساسية عليها ومن حصر دائرة العلم والإحاطة بأغصان شجرة ذلك العلم ، ويكاد يكون من المستحيل وضع قواعد العربية ، أو علم العروض على النحو الذي يعرضه علينا علماء اللغة والشعر ، من رجل لا علم مسبق له بقواعد اللغة وبأمور الشعر .

وفي خبر أن رسول الله دخل المسجد فرأى رجلاً يحدث الناس بأنساب العرب وأيامها وبالأشعار ، والعربية ، فقال رسول الله : « ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه ، وانما العلم ثلاثة : آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاها فهو فضل »[2] . والأمور المذكورة هي مما كان يتحدث به أهل العلم والثقافة من الجاهليين . والشعر في طليعة تلك الموضوعات ، ولا يراد به انشاده فقط ، بل كانوا ينشدونه ويذكرون المناسبات المتعلقة به ومزاياه وعيوبه ، ولا أعتقد ان المراد بالعربية مجرد تفسير المفردات ، بل كل ما يخصها من أمور . وفي جملة ذلك أخطاء القول ، وقواعد العرب في القول .

ويذكر أهل الأخبار ان الذي حمل (الخليل) على وضع العروض ، هو انه مر بسوق الصفارين أو بحارة القصارين ، فسمع الدق بأصوات مختلفة ، فأعجبه ، وقال : والله لأضعن على هذا المعنى علماً غامضاً، فصنع هذا العروض على حدود

---

١ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (٣٨ وما بعدها) .

٢ الكليني (١٢) .

الشعر وجعل بحورها ستة عشر بحراً[1] . وهي قصة باردة من قصص أهل الأخبار، فقد كانوا يضعون مثل هذا القصص حين يُسألون عن أمور ، لا يكون لهم علم بها ، وهل يعقل أخذ الخليل بحوره من دق مطارق الصفارين المزعجة ، التي تخرش الأذن ، وتبعد الانسان عن التفكير ، وتطير من الدماغ ما قد يكون فيه من علم . فالقصة من مخترعات أهل الأخبار وضعوها في ايجاد سبب لوضع هذا العلم ، فربطوا بين دق مطارق الصفارين وبين تقطيع الشعر .

ولا يعقل في نظري أن يكون الخليل قد وضع العروض من غير علم مسبق بأصول نظم الشعر عند أهل الجاهلية . اذ لا يمكن للحس المرهف وحده أن يبتكر العلم ابتكاراً من غير علم مسبق وقواعد سابقة وأصول مقررة معروفة . ولا يعقل أن يكون الخليل قد وضع الأسماء والمصطلحات والتعاريف بنفسه من غير رجوع الى علم سبق للشعراء الجاهليين أن وضعوه ، ومن رجوع الى قواعد ومصطلحات سبق ان كانت مقررة ، ففي أخبار أهل الأخبار أن أهل الجاهلية كان لهم علم بالشعر ، كالذي ذكرته من مثل « حال الجريض دون القريض » ، وما روي على لسان (الوليد بن المغيرة) من قوله في اتهام قريش للرسول من أنه شاعر : « لقد عرفت الشعر ورجزه وهزجه وقريضه فما هو به »[2] . وما روي عن إسلام (أبي ذر الغفاري) : ومن قول أخيه (أنيس) له : « لقيت رجلاً على دينك يزعم أن الله أرسله » فلما سأله (أبو ذر) « فما يقول الناس ؟ قال : يقولون ساحر كاهن شاعر . وكان أنيس أحد الشعراء ، فقال : والله لقد وضعت قوله على اقراء الشعر فلا يلتئم على لسان أحد ، أي على طريق الشعر وبحوره »[3]. وقد ورد أن أهل (يثرب) كانوا يعرفون (الاقواء) و (الإكفاء) في الشعر، وكانوا يعدّونهما من عيوب الشعر[4] . وقد علمنا أن مصطلح (الرجز) و(الهزج) و (الرمل) و (القصيد) وأمثال ذلك هي من مصطلحات أهل الجاهلية . ثم إن أكثر مصطلحات العروض هي مصطلحات كانت معروفة في الجاهلية ، وقد أخذت

---

١ نزهة الجليس (١/١٢٤) .
٢ اللسان (٥/٣٥٠) .
٣ الطبقات (٤/٢٢٠) « صادر » ، تاج العروس (١/٣٧١) « الكويت » ، الفائق (١/٥١٨) ، تاج العروس (١/١٠٣) ، (قرأ) ، الاصابة (١/٨٨) ، (رقم ٢٨٩) .
٤ الموشح (٥٩) .

من حياتهم ، فهي ليست بمصطلحات مبتكرة ، حتى نقول إن الخليل أوجدها من عنده ، وان علم العروض علم مستحدث نتيجة لذلك ، أوجده الخليل بملاحظاته وذكائه من دون علم سابق بأصول الشعر .

وورد أيضاً ، ان (عتبة بن ربيعة) لما مدح القرآن ، لما تلاه رسول الله ، قالت له قريش : هو شعر ، قال : لا لأني عرضته على أقراء الشعر ، فليس هو بشعر . أقراء الشعر : طرائقه وأنواعه[1] . وسئل (الحطيئة) عن (زهير بن أبي سلمى) ، فقال : « ما رأيت مثله في تكفيه على أكتاف القوافي ، وأخذه بأعنتها حيث شاء »[2] . وكلام مثل هذا لا يمكن أن يصدر إلا من رجال لهم علم بالشعر وبدروبه وبحوره وأنواعه .

والذي أراه،ان شعراء الجاهلية كان لهم علم سابق بالشعر وضعوه قبل الاسلام، ولهم قواعد ورثوها من أسلافهم القدماء في كيفية نظم الشعر ببحور . كانوا يعرفون البحور ، وربما كانوا قد وضعوا لها أسماء ، على نحو ما يفعله شعراء الشعر العامي في هذا اليوم ، وأكثرهم ممن لا يحسن الكتابة والقراءة ، غير انهم يعرفون طرق الشعر العامي ودروبه ، سمّوها بأسماء ، وعرّفوها ، ووضعوا لها أوزاناً وزنوا بها شعرهم ، وحكموا بموجبها حكمهم على الشعر، فتراهم ينتقدون شاعراً فيرفعون شعره ، أو يذمونه ، يزنون حكمهم بميزان علمهم المتوارث والمتعارف عليه عن الشعر . وقد وضع بعض المحدثين كتباً في هذا الشعر ، وفي ضبط دروبه وتسجيل قواعده . والذي فعله (الخليل) لا يخرج عن هذا العمل، حصر وسجل ما كان معروفاً بين الشعراء عن بحور الشعر وأبوابه وقواعده ، ثم جمعه في كتاب فعدّ بعمله هذا مؤسس علم العروض . وانما هو في الواقع جامع شتات هذا العلم ومسجل قواعد الشعر وبحوره . فهو بذلك أول من فعل هذا الفعل على ما أعلم . وهو عمل يشكر بالطبع عليه .

والذي أعانه وساعده على هذا الحصر والجمع ، هو وجوده في العراق، وكان أهل العراق يتدارسون النحو والشعر واللغة قبل الاسلام . كانوا قد نقلوا الى

---

١ اللسان (١٧٥/١٥) ، (قرا) ، (اقرأ الشعر أنواعه وطرقه وبحوره) ، تاج العروس (١٠٣/١) ، (قرأ) ، الفائق (٥١٨/١) ، ابن سعد ، طبقات (١/٤ ص ١١٦ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (٨١/١) .

السريانية – لغة الثقافة والعلم – علم اليونان باللغة والنحو والشعر ، فساعدهم هذا النقل على تهذيب ما ورثوه من رجالهم من علم بهــذه المعارف ، وقاسوه بأقيسة ونظموه تنظيماً علمياً ، وظلوا يتداولونه ، فلما دخل منهم من دخل في الاسلام، أو احتك بالمسلمين ، وكان عند العرب كلام في اللغة وفي الشعر ، ولا سيما عند عرب العراق النصارى ، فلا يستبعد عرض هؤلاء ما كان عندهم من علم باللغة والشعر الى من كان له ميل لمثل هذه الدراسات ، كأبي الأسود الدؤلي والخليل ابن أحمد ، فصار هذا العرض سبباً لظهور الأسس في النحو وفي العروض . وقد أدرك ذلك العلماء ، فقال (الصفدي) : « إن الشعر اليوناني له وزن مخصوص ولليونان عروض لبحور الشعر . والتفاعيل عندهم تسمى الأيدي والأرجل ، قلت ولا يبعد أن يكون وصل الى الخليـــل بن أحمد شيء من ذلك أعانـــه على ابراز العروض الى الوجود »[١] . فهو من ثم « أول من استخرج علم العروض وحصر أشعار العرب فيها »[٢] ، ولكنه لم يكن مخترع هذا العلم وموجده من العدم . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان (عروض) Prosody (أرسطو) هو الذي علّم (الخليل) طريقة وضع (العروض) واستنباط تفاعيل الشعر وبحوره[٣] .

ولابن خلكان رأي طريف في المنبع الذي استمد منه (الخليل) علم العروض، تراه يتحدث عنه فيقول : « وله معرفة بالإيقاع والنغم ، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض ، فإنهما متقاربان في المأخــذ »[٤] . وكان الخليل صاحب عـــلم بالموسيقى ، ومن بين كتبه (كتاب النغم) ، فرجل ذو علم بالموسيقى،وبتقاطيعها وأوزانها ، يكون له ميل الى الشعر وأوزانه،خاصة وأن بين الشعر والغناء والموسيقى روابط قديمة . فقـــد « كانت العرب تغني النصب ، وتمدّ أصواتها بالنشيد ، وتزن الشعر بالغناء . فقال حسان :

تغنّ بالشعر إمّا أنت قائله   إن الغناء لهذا الشعر مضمار»[٥]

---

١ نزهة الجليس (١١٦/١) .

٢ نزهة الجليس (١٢٤/١) .

٣ Freytag. Darstellung d. Arabi, Verskunst, S., 18, William Lindsay Alexander, A Cyclopaedia of Biblical Literature, Vol., I, p. 188.

٤ ابن خلكان (٢١٦/١ وما بعدها) .

٥ المرزباني ، الموشح (٣٩) .

وروي أن الخليفة (عمر) قال يوماً للنابغة الجعدي : « أسمعني بعض ما عفا الله لكَ عنه من غنائك . فأسمعه كلمة له ، قال له : وإنك قائلهــا ؟ قال : نعم . قال : لطالما غنيت بها خلف جمال الخطّاب »[1] . فإذا كان العرب قـد وزنوا الشعر بالغناء،فلا يستبعد أن يكون الخليل قد ألهم من فعل العرب هذا قبله.

وقد ذكرت في الجزء الخامس من هذا الكتاب[2] ، أنه قد كان للشعر علاقة كبيرة بالغناء ، فالغناء هو التغني بالشعر ، ولذلك قالوا : تغنى بالشعر ، وفلان يتغنى بفلانة إذا صنع فيها شعراً . وله علاقة بالحداء أيضاً . قالوا : حدا به ، إذا عمل فيه شعراً[3] . فالغناء نغم ووزن ويكون لذلك بكلام موزون . وهو الشعر الذي يناسب نغم الغناء . قال (الجاحظ) : « العرب تقطع الألحان الموزونة ، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في الوزن اللحن ، فتضع موزوناً على غير موزون[4] . وقال (ابن رشيق) : « وزعم صاحب الموسيقى أن ألـذ الملاذ كلها اللحن ، ونحن نعلم أن الأوزان قواعد الألحان والأشعار معايير الأوتار لا محالة ، مع أن صنعة صاحب الألحان واضعة من قدره ، مستخدمة له ، نازلة به مسقطة لمروءته . ورتبة الشاعر لا مهانة فيها عليه ، بل تكسبه مهابة العلم ، وتكسوه جلالة الحكمة »[5] .

ولا يستبعد تغني الشعراء الجاهليين بشعرهم ، واستعمالهم آلات الموسيقى مثل الرباب لترافق غناهم بشعرهم ، كما يفعل شعراء البادية في هذه الأيام . وقد ذكر ان الشاعر (عروة بن أذينة) ، وهو من شعراء العصر الأموي « كان شاعـراً لبقاً في شعره ، غزلاً . وكان يصوغ الألحان والغناء على شعره في حداثته وينحلها المغنّين »[6] . وكان من شعراء المدينة[7] .

---

١ العقد الفريد (٩٠/٤) .
٢ (ص ١٠٥ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٣٥/١٥) ، (غنى) ، تاج العروس (٢٧٢/١٠) .
٤ رسائل الجاحظ (١٥٨/٢) .
٥ العمدة (٢٦/١) .
٦ العقد الفريد (٩٦/٤) .
٧ الاغاني (١٠٥/٢١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٤٨٣/٢ وما بعدها) ، المرتضى ، أمالي (٤٠٨/١ وما بعدها) ، السمط (٢٣٦) ، درة الغواص (١٣٥) ، المعارف (٤٩٢) .

ومن آيات علم الجاهليين بصناعة الشعر وبفنونه وحذقهم بأساليبه ، استعمالهم بحور الشعر حسب المواقف والمناسبات واتخاذهم الايقاع والنغم وجرس الألفاظ أساساً في النظم ليكون الشعر مطابقاً للمناسبة التي سينظم لها . فللغناء بحور ، وللقتال بحور تثير القلوب وتلهبها ، وللسفر وزن ، وللمناسبات المؤلمة مثل الرثاء والتوجع وزن يناسبها ، وكل ذلك ناتج عن طبع وتطبع وعلم بالمناسبة ، وقد أشير الى هذا الاستعمال في الأخبار . وهذه المناسبات هي التي خلقت تلك البحور .

ومن آيات علم الجاهليين بالشعر ، ما نقرأه في الأخبار عن علم أهل الجاهلية بطرائق الشعر وأبوابه وبعيوبه وضعفه ، ومن أخذهم على الشعراء في أيام الجاهلية وقوعهم في الأخطاء ، أو مخالفتهم لأصوله ونغمه وخروجه على ما هو متعارف عليه . وأمثال ذلك مما يدل على ان الشاعر وإن كان ينظم الشعر عن طبع وسليقة ، وعن موهبة كامنة فيه ، لكنه كان يراعي في نظمه قواعد موروثة معلومة ، وأصولاً محفوظة ، على نحو ما نراه اليوم عند الشعراء الشعبيين ، الذين ينظمون الشعر العامي (الشعر النبطي) ، المقال باللهجات العامية ، وفق قواعد مقررة عندهم معروفة ، وأبواب مسماة عندهم موسومة ، يحفظونها حفظاً ، لأنها هي غير مدونة ، ثم إن أكثرهم ممن لا يقرأ ولا يكتب .

ومما يؤيد هذا الرأي ما جاء في (لسان العرب) : « قال أبو الحسن الأخفش : النصبُ في القوافي ، أن تسلم القافية من الفساد ، وتكون تامة البناء ، فإذا جاء ذلك في الشعر المجزوء ، لم يُسم نصباً ، وإن كانت قافيته قد تمت ، قال : سمعنا ذلك من العرب ، قال : وليس هذا مما سمى الخليلُ ، وإنما تؤخذ الأسماء عن العرب »[1] . فالأسماء والأصول أخذت من العرب ، ومعنى هذا أنه قد كان للعرب علم سابق بأصول الشعر وبقواعده ، وقد تمكن (الخليل) بذكائه وبتتبعه للعلوم من جمع تلك القواعد ، في العروض ومن أخذ ما كان عند الشعراء والعارفين بفنونه من مصطلحات وعلم ، فكوّن من كل ذلك : العروض .

هذا وان المعلوم أن (أرسطو) كان قد ألف كتاباً في الشعر وفي العروض Prosody وقد تطرق فيه الى الوزن Metre أي وزن الأبيات والقصيدة ، كما تكلم عن (التفعيلات) ، وعن أنواع النظم ، وقد درس كتابه علماء ذلك الوقت ،

---

[1] اللسان (١/٧٦١) ، (نصب) .

ووقف عليه السريان قبل الإسلام ، ونقل الى العربية في الإسلام ، قال (ابن النديم) : « الكلام على أبوطيقا : ومعناه الشعر، نقله أبو بشر متّى من السرياني الى العربي ، ونقله يحيى بن عدي »[1] . وتوجد ترجمة كتاب (الشعر) ، في العربية مطبوعة في هذا اليوم ، وثبت أيضاً ان البابليين وغيرهم من أهل العراق، كانوا قد وضعوا قواعد في نظم الأشعار وفي تأليف أبياتها ، وفي أصول نظمها ، فلا استبعد وصولها الى المتأخرين من العراقيين الذين عاشوا الى أيام الإسلام ، فوقف عليها (الخليل) ، واستنبط منها فكرته في وضع العروض .

والذي أراه أن للبت في منشأ علم العروض ، لا بد من البحث عن المصطلحات العربية الجاهلية التي كانت شائعة عند العرب في الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، عن تكوين الشعر وأصول نظمه ، ثم تتبع مصطلحات الشعر عند الساميين ، مثل الكلدانيين والعبرانيين ومقارنة مسمياتها بالمسميات العربية المنسوبة الى (الخليل) ، لمعرفة صلتها بعضها ببعض . ومن دراسة البحور ، وتفاعيلها ، وأصول نظمها، فقد ثبت أن لتلك الشعوب قواعد في نظم الشعر ، راعاها الشعراء في نظمهم شعرهم[2] .

ولفظة (بحر) و (البحور) المستعملة في العروض ، هي من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين . ورد في كتب اللغة ان الشاعر اذا اتسع في القول، قالوا استبحر[3]. ولما جاء (الحارث بن معاذ بن عفراء) على (حسان بن ثابت) ليستحثه في هجاء (النجاشي) الذي هجا الأنصار ، ألقى عليه (حسان) ثمانية أبيات ، ثم توقف ومكث طويلاً على الباب يقول : والله ما أعرت[4] . وذكر ان (أبا بكر) كان يقدم النابغة على غيره من الشعراء ، فلما سئل عن ذلك قال : « هو أحسنهم شعراً، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً »[5] . ومن هذا المعنى أخذ مصطلح (بحر) و (بحور الشعر) و (بحور العروض) .

وكان الجاهليون أصحاب علم اذن بطرق الشعر وببحوره وبمقاصده وانحائه ،

---

١ الفهرست (ص ٣٦٣ وما بعدها) .

٢ Otto Weber, Die Literatur der Babylonier und Assyrer, Leipzig, 1907, S. 35.

٣ اللسان (٤/٤٤) .

٤ خزانة الادب (٤/٥٥ وما بعدها) ، ديوان حسان (١٣١ وما بعدها) .

٥ العمدة (ص ٩٥ ، ١٣٦ وما بعدها) .

وكانوا يطلقون على أنواعه وعلى ما ذكرت (أقراء الشعر)[1] . وكانوا ينقحونه ويحككون به حتى يرضون عنه . ويقال للشعر الذي لم يحكم ولم يجود (شعر خشيب) و (شعر مخشوب) ، عكس الشعر المنقح المجوّد . ورد على لسان (جندل بن المثنى) قوله :

قد علم الراسخ في الشعر الأرب
والشعراء أنـني لا أختشب
حسرى رذاياهم ولكن اقتضب[2]

والاقراء في الشعر طرائقه وأنواعه ، واحدها قرو وقرى[3] .

والإكفاء أحد عيوب القافية الستة التي هي : الإيطاء ، والتضمين ، والإقواء ، والاصراف ، والإكفاء ، والسناد . وقد عرفه العرب الفصحاء ، بأنه الفساد في آخر البيت والاختلاف . وكانوا يقولون لمن يخالف بين حركات الروي : (أكفأ) أو (أكفأ الشاعر) . وقد كان (النابغة) يكفيء في شعره . وقـد نبّه الى ذلك ، فتجنب بعضه وهذّبه[4] .

والإقواء عيب آخر من عيوب الشعر . وللنابغة في هذا خبر . فلما دخل (يثرب) وأنشد داليته المشهورة ، عيب عليه فيها ، فـلم يفهم موطن العيب فيه ، وهو (الإقواء) ، فلما غنته المغنية بالقصيدة مطلت واو الوصل ، فأحس بالإقواء واعتذر منه وغيره فيما يقال الى قوله :

وبذاك تنعاب الغراب الأسودِ

ثم قال : « دخلت يثرب وفي شعري صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعـر العرب »[5] . وكان (بشر بن أبي خازم) يقوي في شعره كذلك[6] . وذكر ان

---

١ تاج العروس (٣٧١/١) « الكويت » .
٢ تاج العروس (٣٥٤/٢) .
٣ تاج العروس (٢٩٣/١٠) ، (قرو) .
٤ تاج العروس (٣٩٦/١) « الكويت » ، العمدة (١٦٤/١ وما بعدها) ، الموشح (٦٠) .
٥ اللسان (٢٠٩/١٥ وما بعدها) ، الشعر والشعـراء (٣٩/١ ، ١٩٠) ، (دار الثقافة) ، الموشح (٥٩ وما بعدها) .
٦ الموشح (٦٠) .

أخاه قال له : انك تقوي[1] .

وبينما ترى أهل الأخبار يرمون (النابغة) بالوقوع في الإكفاء وفي الإقواء ، وبعدم إدراكه للإقواء مع تلميح الناس له ، حتى دبر أهل يثرب حيلة ، أظهرت إقواءه له ، فعلمه ، وخرج ، وهو يقول : « دخلت وفي شعري صنعة ، ثم خرجت منها وأنا أشعر العرب » ، يذكرون ان (أبا ذكوان) ، وهو من العلماء بالشعر يقول : « ما رأيت أعلم بالشعر منه . ثم قال : لو أراد كاتب بليغ ان ينثر من هذه المعاني ما نظمه النابغة ما جاء بـه إلا في أضعاف كلامه . وكان يفضل هذا الشعر على جميع أشعار الناس »[2] .

والإقواء أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور. وقيل نقصان الحرف من الفاصلة يعني من عروض البيت . وأقـوى في الشعر ، خالف بين قوافيه . وقيل هو رفع بيت وجر آخر . وذكر ان الاقواء كثير في كلام العرب ، لكن ذلك في اجتماع الرفع مع الجر وأما الإقواء وان كان عيبـاً لاختلاف الصوت به ، فإنه قـد كثر في كلامهم »[3] ، وكان « أبو عمرو بن العلاء يذكر أن الاقواء : هـو اختلاف الإعراب في القوافي ، وذلك أن تكون قافية مرفوعة ، وأخرى مخفوضة . كقول النابغة :

قالت بنو عامرٍ : خالوا بني أسدٍ ... يا بؤس للجهـل ضراراً لأقوامِ

وقال فيها :

تبدو كواكبُه والشمس طالعـة ... لا النور نور ولا الإظلام إظلامُ »[4]

« وبعض الناس يسمي هذا الإكفاء : ويزعم أن الإقواء نقصانُ حرفٍ من فاصلة البيت، كقول حَجْل بن نضلة ، وكان أسر بنت عمرو بن كلثوم وركب بها المفاوز ، واسمها النوار :

---

١ الشعر والشعراء (١٤٦) .

٢ انباه الرواة (٣/ ١٠) ، ديوان المعاني (١/ ١٧) ، المصون (١٥٦) ، بغية الوعاة (٣٧٥) .

٣ تاج العروس (١٠/ ٣٠٧) ، (قوو) .

٤ الشعر والشعراء (١/ ٣٩) ، (دار الثقافة) .

حنَّت نوار ولاتَ هنّا حنت وبدا الذي كانت نوار أجنّتِ
لمـا رأت مـاء السَّلا مشروباً والفرثَ يُعصرُ في الإناء أرنتِ

سمي اقواء لأنه نقص من عروضه قوة » . « وكان يستوى البيت بأن تقول: متشرباً »[1] .

وقد تعرض (المعري) لموضوع الاقواء وأمثاله في رسالة الغفران ، إذ يسأل (امرأ القيس) عنه ، ثم يجيب على لسانه . يقول للشاعر : « كيف يُنشد :

جالت لتصرعني فقلت لها:قري إني امرؤ صرعي عليك حرامِ

أتقول : حرامُ فتقوي ؟ أم تقول : حرامِ فتخرجه مخرج حذامِ وقطامِ ؟ وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الاقواء عليك . فيقـول امرؤ القيس : لا نكرة عندنا في الاقواء »[2] . فهو يرى ان الاقواء لم يكن منكراً عند أهل الجاهلية : وإنما عيب عليه في الإسلام .

ومن مصطلحات علماء الشعر : (الإيطاء) ، قال العلماء : أطأ كرر القافية لفظاً ومعنى مع الاتحاد في التعريف والتنكير ، فإن اتفق اللفظ واختلف المعنى فليس بإيطاء ، وكذا لو اختلفا تعريفاً وتنكيراً . وقال بعضهم الإيطاء رد كلمة قـد قفيت بها مرة نحو قافية على رجل وأخرى على رجل فهـذا عيب عند العرب ، لا يختلفون فيه ، وقد يقولونه مع ذلك . ووجه استقباح العرب الإيطاء، انه دال عندهم على قلة مادة الشاعر ونزارة ما عنده حتى اضطر الى إعادة القافية الواحدة في القصيدة بلفظها ومعناها فيجري هذا عندهم مجرى العي والحصر ، وأصله أن يطأ الانسان في طريقه على أثر وطيء قبله فيعيد الوطء عـلى ذلك الموضع ، وكذلك إعادة القافية من هذا . وقال (أبو عمرو بن العلاء) : «الإيطاء ليس بعيب عنـد العرب ، وهو إعادة القافية مرتين » ، أما اذا كثر الإيطاء في قصيدة مرات فهو عيب عندهم[3] .

---

١ الشعر والشعراء (١/٣٩ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٣٢٠) .
٣ اللسان (١/٢٠٠) ، (وطيء) ، تاج العروس (١/١٣٥) ، (وطيء) ، الشعر والشعراء (١/٤١) .

والمضمن من الشعر ما لا يتم معناه إلا في البيت الذي بعده . وقد اختلف العلماء فيه ، فنهم من عدّه عيباً ، ومنهم من لم يعدّه عيباً ، ويراه مذهباً أجازه العرب لسببين : السماع ، والآخر القياس . أما السماع فلكثرة ما يرد عنهم من التضمين ، وأما القياس فلأن العرب قد وضعت الشعر وضعاً دلت به علـى جواز التضمين عندهم . وحجة من قال بتقبيح التضمين : ان كل بيت من القصيدة شعر قائم بنفسه ، فمن هنا قبح التضمين شيئاً . وقد أوردوا للنابغة ولغيره من الشعراء أمثلة من التضمين[1] . وهو بهذا المعنى معروف عند غير العرب من الساميين والآريين ، إذ ان الأبيات عندهم ترتبط معانيها بعضها ببعض ، فـلا يفهم معنى بيت إلا بالبيت الذي يليه . ولهذا تكون أبيات القطعة أو القصيدة مرتبطة بعضها ببعض ، ولا سيما في أشعار الملاحم والغناء .

والإصراف في الشعر ، إذا أقوي فيه وخولف بين القافيتين[2] . وأما السناد ، فاختلاف الأرداف . وقال (الأخفش) أما مـا سمعت من العرب في السناد ، فإنهم يجعلونه كـل فساد في آخر الشعر ولا يحدّون في ذلك شيئاً وهو عندهم عيب » . وقد أشير اليه في قول الشاعر :

فيه سناد واقواء وتحريد[3] .

وتحريد الشيء تعويجه .

وقيل : السناد : هو أن يختلف إردافُ القوافي ، كقولك علينا في قافيـة وفينا في أخرى[4] .

وقد تحدث (الجاحظ) عن الأوتاد ، والأسباب ، والخرم والزحاف، فقال: « وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقاباً لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، كما ذكر الطويل ، والبسيط ، والمديد ، والوافر ، والكامل ، وأشباه ذلك ، وكما ذكر

---

١ اللسان (٢٥٨/١٣ وما بعدها) ، (ضمن) ، تاج العروس (٤٦٥/٩) ، (ضمن) ، العمدة (٨٤/٢) ، (باب التضمين والاجازة) .
٢ اللسان (١٩٣/٩) .
٣ اللسان (٢٢٣/٣) .
٤ الشعر والشعراء (٤٠/١) .

الأوتادَ ، والأسباب ، والخرم ، والزحاف . وقد ذكرت العرب في أشعارها السِناد ، والإقواء ، والإكفاء ، ولم أسمع بالإيطاء . وقالوا في القصيد ، والرجز ، والسجع ، والخطب ، وذكروا حروف الروي والقوافي ، وقالوا هذا بيتٌ وهذا مصراع »[1] .

وقد أباح علماء الشعر للشاعر ما لم يبيحوه للناثر من (ضرورة) دعوها : (ضرورة الشعر) . وقد جاءوا بأمثلة على ذلك ، اعتذروا عن بعضها ، وأوجدوا لها مخارج في الإعراب ، وعدّوا بعضاً منها من (العيب في الإعراب)[2] ، وورد: « الشعراء أمراء الكلام ، يقصّرون الممدود ، ويمدّون المقصور ، ويقدّمون ويؤخرون ، ويومئون ويشيرون ، ويختلسون ويُعيرون ويستعيرون . فأما لحن في إعراب ، أو إزالة كلمة عن نهج صواب فليس لهم ذلك »[3] .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع (العروض) ، فقال : « وعلى الرغم من انه لا تزال تعوزنا بحوث شاملة لفن العروض عند قدامى الشعراء ، يمكن أن نقرر اليوم بحق ان هذا الفن كان يعتمد عندهم على قواعد ثابتة . نعم نجد في بعض قصائد الشعراء الأقدمين أبياتاً خارجة عن العروض الذي وضعه الخليل بن أحمد ، وما وضعه سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط في كتابه العروض ، كما في قصائد المرقش الأكبر ، وعبيد ، وعمرو بن قميئة ، وامرىء القيس ، وسلمى ابن ربيعة . ويبدو ان هذه الظواهر آثار قليلة لمرحلة من النمو لم نقف على كنهها بعد .

وبذل الشعراء المتأخرون محاولات للتخلص من قوانين العروض العربي ولكنهم قلما خرجوا عليه[4] .

وقد تعرض (الهمداني) لموضوع الشعر العربي وقواعد العروض ، وخروج الشعر على سلطة هذا العلم ، فقال : « أنشدني سعيد بن أبجر الهمداني ، وكان شاعراً بدوياً مطبوعاً :

---

١ البيان والتبيين (١/١٣٩) .
٢ الشعر والشعراء (١/٤٢ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢/٤٧١) .
٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٥٤) .

يا سمع يا بصري لو جاءكم خبري لكان في علر ناع عـلى كُور
وفي بني عامر ناع عـلى خاطرٍ وفي قرى صـافر حزن وتثبـير

وكان للجاهلية الجهلاء مذهب في الشعر من الأزحاف وغيره ما يستنكره الناس اليوم كقول علقمة :

ومنّا الذي نودي بسبعة آلاف غـلاماً صغيراً مـا يشد إزارا

وكقوله :

كأن بـه سيد حلاحـل تُصر مـن دونـه الطروق

وقول بعض حمير في أيام جديس ، النصف الأول من روي والنصف الآخر من روي ، قصيدته :

للهِ عينا من رأى حسان قتيـلاً في سالف الأحقاب

ومن ذلك شعر مـالك بن الحصيب اللعوي ، وهو قديم في حلف ربيعة ، وأوله :

أنا مالك وأنا الذي جددت حلفا لكنـدة قبلنا قـد كان سلفا

الشعر ، وفي وزنه زيادة حرفين »[1] .

وقد يحسن العلماء في المستقبل بدراستهم لما ورد في مؤلفات الهمداني وغيره من شعر قديم ينسب الى قدماء شعراء اليمن والى الشعراء اليمانين والعرب الجنوبيين عامة الذين نظموا بأسلوبهم الخاص ، لما في هذه الدراسة من فائدة كبيرة في إعادة بناء نظريات العلماء الحالية عن الشعر الجاهلي .

وفي الدواوين وكتب الأدب أمثلة على أمور خرج فيها الشعر على قواعد العروض أو النحو . من ذلك قول امرىء القيس :

كأن أباناً في أفانين ودْقهِ كبير أناس في بجاد مزمّل

---

١ الاكليل (٤٩/٢ وما بعدها) .

فقد ضم اللام في نهاية البيت ، وهي مكسورة في المعلقة جميعها[1] . ورووا أموراً أخرى وقعت في شعره أيضاً[2] ، وفي قصيدة (عبيد بن الأبرص) :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطبيــاتُ فالذنوبُ

فهي من مخلع البسيط ، قلما يخلو بيت منهــا من حذف في بعض تفاعيله أو زيادة[3] . وفي قصيدة المرقش الأكبر :

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ لو كان رسمٌ ناطقاً كلّمْ

فهي من السريع ، وقد خرجت شطور أبياتها على هذا الوزن ، كالشطر الثاني من هذا البيت :

ما ذنبنا في أن غـزا ملكٌ من آل جفنة حازمٌ مرغم

فإنه من الكامل[4] . ورووا اضطراباً وقع في شعر (عدي بن زيد العبادي) ، على النحو المذكور ، خرج فيه من السريــع الى وزن المديد[5] ، وفي شعر غيره كذلك مثل نونية (سُلميّ بن ربيعة) :

إن شــواءً ونشوة وخبب البازل الأمون

فهي خارجة عن عروض الخليل[6] .

ورووا وقوع مثل ذلك في قصيدة عدي بن زيد العبادي :

تعرف أمس من لميس الطلَلْ من الكتاب الدارس الأحولْ

---

١ دكتور شوقي ضيف : العصر الجاهلي (١٨٥) .

٢ راجع قصيدته :

عيناك دمعهما سجال كأن شأنيهما أوشال

ديوانه ١٨٩ ، العصر الجاهلي (١٨٤) .

٣ العصر الجاهلي (١٨٤) .

٤ المصدر نفسه .

٥ كذلـك .

٦ كذلك (ص ١٨٥) .

فهي من وزن السريع ، وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت :

أنعم صباحاً علقمَ بن عدي أثويتَ اليومَ أم ترحلْ

فإنه من وزن المديد[1] .

وتستحق هذه الأمور وأمثالها أن تكون موضع دراسة خاصة ، لما لها من أهمية في تكوين رأي علمي دقيق عن تطور العروض في الجاهلية . ولا يعقل في نظري أن يكون الشاعر الجاهلي قد كان بغفلة عن تلك الأمور التي عدّها الإسلاميون من مواطن الاضطراب والخروج عن القواعد . وإذا قسنا هذا الخروج في الوزن على مقاييس وزن الشعر عند الساميين ، نرى أنه لم يكن خروجاً ، لعدم تقيد ذلك الشعر بالوزن في كل القطعة أو القصيدة ، وإنما كانوا يتقيدون بوزن البيت، فالقطعة أو القصيدة عندهم منسجمة ذات نغم ووزن وإن تكونت من بحر أو من جملة بحور ، وربما كان هذا شأن القصيدة عند الجاهليين كذلك . ثم انه في هذه الاضطرابات دلالة على أن في العروض الجاهلي ما فات أمره عن علم (الخليل)، وأن العروض الاسلامي لا يمثل كل عروض الشعر الجاهلي .

وللخليل كتاب في العروض ، اسمه (كتاب العروض) لا أعرف من أمره شيئاً . وهو أول كتاب ألف في هذا الباب ، وحمل هذا الاسم ، على ما أعلم ، وله كتاب اسمه (كتاب النغم) ، وكتاب آخر اسمه (كتاب الإيقاع)، وكتاب اسمه : (كتاب الشواهد) ، وكتاب اسمه (كتاب النقط والشكل) ، وكتاب باسم (كتاب فائت العين)[2] .

ولأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (٢١٥ ﻫ) ، (٢٢١ ﻫ) ، وهو أحد أصحاب (سيبويه) ، كتاب في العروض ، اسمه : (كتاب العروض)[3] .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٨٥) .

٢ الفهرست (٧١) .

٣ الفهرست (٨٤) .

وعرف (الخليل) بسعة علمه باللغة ، واليه ينسب وضع أول معجم في اللغة العربية ، هو كتاب (العين) . وقد نظمت حروفه على ما يخرج من الحلق واللهوات[1] . وهو ترتيب يرى بعض المستشرقين احتمال أخذ (الخليل) له من ترتيب الأبجدية السنسكريتية وذلك عن طريق (خراسان) التي لها صلة وثيقة بثقافة الهند[2] . وقد نسب بعض العلماء كتاب العين الى غيره ، نسبه الى (الليث بن نصر بن سيّار) الخراساني ، ومنهم من زعم أن (الخليل) عمل قطعة من كتاب العين من أوله الى حرف الغين وكمله (الليث) ولهذا لا يشبه أوله آخره[3] .

وقد كان للهنود حب شديد للشعر ، وقد نظمت كتبهم الدينية شعراً ، وقد أدرك (البيروني) الواسع الاطلاع بأحوال الهند هذا الحب الشديد له ، فقال : « أكثر الهنود يهتّرون لمنظومهم ويحرصون على قراءته ، وإن لم يعرفوا معناه ، ويفرقعون أصابعهم فرحاً به ، واستجادة له ، ولا يرغبون في المنثور وإن سهلت معرفته » . وقد كانوا يزنون شعرهم بميزان ، فـ « عملوا من التفعيلات قوالب لأبنية الشعر ، وأرقاماً للمتحرك منها والساكن ، يعبرون بها عن الموزون، فكذلك سمى الهند لما تركب من الخفيف والثقيل » أسماء يشيرون بها الى الوزن المفروض[4]. فإذا كانت للهنود تفعيلات وزنوا بها شعرهم ، وهي أقدم عهداً من تفعيلات (الخليل) ، أفلا يجوز أن يكون (الخليل) قد اقتبس تفعيلاته من تلك التفعيلات ، وبين الهند و (الابلة) التي حلت البصرة محلها في الاسلام اتصال جد قديم ، وقد كان بين سكانها عدد كبير جاءوا قبل الاسلام من الهند .

وحيث أن العلماء ينصون على أن (الخليل) ، هو موجد البحور المعروفة في العروض ، وهو وازنها ، وحيث أن أساس المعايير التي قيست بها الأبيات ، للوقوف على البحور هي (فعل) فيجب أن تكون هذه التسمية من ابتكاراته إذن . ولم أجد أحداً وضح كيف اهتدى الخليل الى إيجاد هذا المعيار ، ولِمَ

---

١ الفهرست (٧٠ وما بعدها) .

٢ John A. Haywood, Arabic Lexicography, p. 8.

٣ القفطي ، انباه الرواة (١/٣٤٣) ، المزهر (١/٧٦) .

٤ البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة (٦٦) .

سمّاه بهذه التسمية ، إن من المستحسن في نظري الاهتمام بهذا الموضوع ، ودراسة موازين الشعر عند الهنود ، لمعرفة أسماء معايير الشعر عندهم ، للوقوف عليها ، فقد تكون لهذه التفعيلات صلة بتفعيلات شعر الهنود . ويلاحظ أن (ابن جنّي)، كنّى بالتفعيـل عن تقطيع البيت الشعري ، لأنه إنما نزنه بأجزاء مادتّها كلها (فعل)[1] .

---

١ تاج العروس (٦٥/٨) ، (فعل) .

الفصل الخمسون بعد المئة

البصرة والكوفة

لا بد لنا من التعرض لأثر البصرة والكوفة في عمل القواعد وفي رواية الشعر الجاهلي ، إن أردنا فهم هذا الشعر وكيف جمع ودوّن ، وكيف نحل المنحول منه ، فقد كان للمدينتين الأثر الأكبر في جمع هذا الشعر وفي تدوينه ونحله .

ولا بد من التحدث أولاً عن أثر العصبية القبلية في هاتين المدينتين. فقد بنيتا على أساس هذه العصبية . فلما بنيت الكوفة ، جعلت قسمين : قسم لليمن ، وقسم لنزار ، وكانت الأغلبية لليمن . ووزعت المحلات والسكك حسب القبائل[1] ، وكذلك كان الأمر بالبصرة حين شرع ببنائها ، فقد روعي في بنائها ، توزيع أحيائها على حسب النسب والقبائل[2] ، فكانت عصبية الحي للعشيرة أولاً ، وللقبيلة ثانياً ، ثم للمدينة ثالثاً . وهكذا غرست بذور العصبية في أرض المدينتين ، منذ شرع بوضع أساس التأسيس .

وتجسمت العصبية القبلية في العصبية للمدينة ، فتعصب عرب الكوفة ومواليها للكوفة ،وتعصب عرب البصرة ومواليها للبصرة ، « يفخر كل منها بطبيعة الأرض وموقعها الجغرافي ، ويفخر كل بما كان على يده من فتوح البلدان ، ويفخر كل بمن نزل عندهم من صحابة رسول الله ، ويعير كل الآخر بما نبت عنده من

---

١ البلاذري ، فتوح البلدان (٢٧٤) ، (تمصير الكوفة) ، (طبعة رضوان محمد رضوان) .

٢ البلاذري (٣٤١) ، (تمصير البصرة) .

دعاة الضلالة ، وأخيراً كانوا يتفاخرون بالعلم . وظهرت هذه المفاخرات العلمية والمناظرات وتعصب كل مدينة لعلمائها ، ظهوراً بيناً في كثير من فروع العلم ، فالبصريون والكوفيون في المذاهب الدينية وعلم الكلام ، والبصريون والكوفيون في الأدب ؛ يقول أعشى همدان :

اكسع البصريَّ إن لاقيته   إنما يكسع من قلَّ وذلّ
واجعل الكوفي في الخيل ولا   تجعل البصريَّ إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا   ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثنونه   وفتى أبيض وضاحٍ رفل
جاءنا يخطر في سابغة   فذبحناه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا   وكفرتم نعمة الله الأجل[1]

والكوفة بظاهر الحيرة . المدينة التي كان يقصدها الشعراء والتجار ، وفيهم تجار مكة وأشرافها ، مثل عبدالله بن جدعان ، وأبو سفيان . ومنها انتقل الخط الى مكة،على حد قول أهل الأخبار،ومنها انتقلت النسطورية الى العرب النساطرة ، وقد اشتهرت برجال برزوا فيها في العلوم الدينية النصرانية وبالعلوم اللسانية في لغة بني إرم ، وبكنائسها وبأديرتها التي كانت تعلم الأطفال مبادىء القراءة والكتابة ، وتهيىء الطلاب للتبحر في علوم الدين وفي العلوم الدنيوية المعروفة في ذلك الوقت، ولما أنشئت الكوفة انتقلت اليها بأبنيتها وأناسها،فقد هدمت منازلها ونقلت حجارتها الى الكوفة ، لتبنى بيوتها بها ، وانتقل أهلها الى الكوفة ، لأنها أخذت مكانها في الحكم ، وصارت مقر الولاة ، فشايع أهلها أهل الكوفة في السكن وفي الالتفاف حول قصر الوالي ، وانتقل ما كان قد تبقى من بقية علم من الحيرة الى الكوفة كذلك ، وتجسم في هذا الذي نسميه بعلم أهل ، أو بمدرسة الكوفة .

وقد كان في أهل الحيرة قوم من النبط ، أي من بني إرم أهل العراق ، وقوم من الفرس ، فتأثر لسان أهلها العرب بلسان النبط وبلسان العجم، كما تأثروا بحياة الحضارة والاستقرار ، فلان لسانهم وسهل منطقهم[2] ، وثقل نطقهم بالعربية،

---

١ فجر الاسلام (١٨١) ، البلدان ، لابن الفقيه (١٦٣ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣١) .

فلم يعد ينطق لسانهم نطق الأعراب من حيث الوضوح والإفصاح[1] . والذي عند علماء العربية ان في لسان الأعراب جفاء وشدة وغلظة ، دخلت عليه من خشونة البادية ومن طباعها ، فإذا خالط أهل البادية البلديين والأعاجم ، لان جفاؤهم وسهل لسانهم ، فيبتعد بذلك عن اللسان العربي القح ، ولهذا طلب علماء اللغة ُجفاة الأعراب وأهل الطبائع المتوقحة ، وأخذوا عن القبائل التي بعدت عن أطراف الجزيرة ، وبقيت في سرة البادية أو فاضت حواليها ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف[2] .

أما البصرة ، فأخذت مكانة (الأبلة) المدينة الشهيرة المعروفة باسم (أبولم) Ubulum في الكتابات الأكادية ، وبـ Apologus (أبولوكس) في النصوص الكلاسيكية[3] ، وهي أقرب الى جزيرة العرب من الكوفة ، ولها اتصال ببلاد الخليج وبالهند ، فكانت سفن الهند وسيلان تأوي اليها ، وسكن قوم من الهند بها ، كما سكن بها قوم من الفرس ، خالطوا العرب ، ولعلّي لا أخطىء اذا قلت ان شأن الموالي بالبصرة كان أقوى منه بالكوفة ، لاتصال البصرة بالهند وببلاد فارس ، وبعد الكوفة عنها ، وقد أثّر هذا الاتصال في لسان عرب البصرة ، مما أدى الى ظهور اللحن في الكلام ، وظهور أثر للغات أهل الهند في لسان أهل (الأبلة) ثم البصرة ، بسبب نزوح جاليات كبيرة من الهند الى (الأبلة) ، وذلك قبل الاسلام .

وأما (بغداد) التي ظهرت بعد المدينتين بأمد ، فقد أسسها (أبو جعفر المنصور) العباسي ، فإنها كانت مدينة مُلك ، ولم تكن مدينة علم ، وما فيها من العلم ، فمجلوب للخلفاء وأتباعهم ، « قال أبو حاتم : أهل بغداد حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يُوثق به في كلام العرب ، ولا من تُرتضى روايته ، فإن ادعى أحد منهم شيئاً رأيته مخلطاً صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة »[4] . وللأصمعي كلام يستهزىء به على علم أهل بغداد . قال « خرجت الى بغداد وما فيها أحد

١ الشعر والشعراء (١/١٥٠) ، (وكان « عدى بن زيد » يسكن بالحيرة ، ويدخل الارياف ، فثقل لسانه) .
٢ الرافعي (١/٣٤٣) .
٣ كتابي هذا ، الجزء الثاني (ص ٢٠) .
٤ المزهر (٢/٤١٤) .

يحسن شيئاً من العلم ، لقد جاءني قوم يسألوني عن الجعطرى ، فأخبرتهم أنه المكتل . قالوا : وما المكتل ؟ قلت : هو المعضل ! قالوا : وما المعضل ؟ وكان بقربي بقال ضخم ، فقلت : هو مثل ذلك البقال ! فرووا عني »[1] .

ونجد (المعري) يتهم رواة بغداد بعدم الفهم في الشعر ، ترى رأيه هذا فيهم في رسالة الغفران ، حيث يسأل (امرأ القيس) : « يا أبا هند ، ان رواة البغداديين ينشدون في قفا نبك ، هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها ، أعني قولك :

وكأن ذرى رأس المجيمر غدوة
وكأن مكاكي الجواء
وكأن السباع فيه غرقى

فيقول : أبعد الله أولئك ! لقد أساءوا الرواية . وإذا فعلوا ذلك فأي فرق يقع بين النظم والنثر ؟ وانما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض ، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم ، وهيهات هيهات »[2] .

وأما المدن الأخرى ، فلم تبلغ في العلم شأو البصرة والكوفة ثم بغداد . فلم يعترف أحد من علماء العربية بوجود امام في العربية بدمشق أو يثرب أو مكة . وقد زعم (الأصمعي) ، انه أقام بالمدينة زماناً ما رأى بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة ، وكان بها (عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب) المعروف بابن دأب ، يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر . وكان بها (علي) الملقب بالجمل ، وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً .

« وأما مكة ، فكان بها رجل من الموالي ، يقال له : ابن قسطنطين ، شدا شيئاً من النحو ، ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً »[3] .

وقد دفعت العصبية الى المدن ، أهل المدينتين على التحاسد والتفاخر والتنافر ، فادعى أهل كل مدينة انهم أرسخ علماً من أهل المدينة الثانية ، وانهم أكثر إحاطة

---

١ الرافعي (١/٤٠٤) .
٢ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢/٤١٣ وما بعدها) .

به من خصومهم ، ومن ثم صار أهل الكوفة يتمرأون بخصومهم ، فينتقصونهم ويلصقون بعلمهم وبعلمائهم التهم ، ويغمزون فيهم ، وصار أهل البصرة يكيدون لأهل الكوفة وينتقصونهم ، وكانوا « يرون ان أصحابهم لو ركبوا في نصاب رجل واحد ما بلغوا أن يعدلوا أضعف رجل في البصرة ، وقد رموهم في باب الكذب بقمص الحناجر ، والأخذ عن كل بر في الرواية وفاجر ، وجعلوهم من علماء الأسواق ، وتلامذة الأوراق »[1] . ووجدت هذه المنافسة أرضاً صالحة في قصور الخلفاء والوزراء والأكابر ببغداد ، حتى تحولت الى مؤامرات ومهاترات ، ابتعدت عن أدب العلم والعلماء ، حتى نزلت أحياناً الى درك مهاترات العامة ، والى التزوير ، والاستعانة بالشهود الزور لتأييد عالم على عالم ، كالذي وقع في المسألة الزنبورية في الخلاف الذي كان بين سيبويه والكسائي .

وقد وقعت العصبية بين المدينتين حتى في قراءة القرآن ، ففضل أهل كل مدينة قارىء مدينتهم ، واعتبروا قراءة صاحبهم أحسن القراءات ، فأهل الكوفة يتعصبون لقراءة (عبدالله بن مسعود) ويرون أن مصحفه أصح المصاحف،وأهل البصرة يتعصبون لأبي موسى الأشعري ، ويأخذون بقراءته وبلحنه ، « وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب »[2] . والكوفيون يكتبون والضحى بالياء ، وأهل البصرة يكتبونها بالألف[3] .

وكانت أولية العربية بالبصرة ، « لأن أبا الأسود الدؤلي قد نزل بها وأخذ عنه جماعة هناك ، فكان كل أصحابه الذين شققوا العربية بعده بصريين ، ثم انتقل النحو الى الكوفة » . ثم استفاض نحو الكوفيين ، فنبغ فيه من سكنة الكوفة أبو جعفر الرؤاسي ، ومعاذ الهرّاء ، واضع التصريف ، والكسائي ، والفراء[4] . وذكر أنه لم يعلم أن أحداً من علماء البصريين أخذ شيئاً من النحو واللغة عن أحد من أهل الكوفة ، بينما أخذ الكوفيون عن أهل البصرة ، وما من أساتذتهم أحد إلا وقد تلمذ لبصري[5] . وقد قدم (ابن سلام) أهل البصرة على غيرهم في

---

١ الرافعي (١/٤٢٩) .
٢ الرافعي (٢/١٧) .
٣ المقتنع (٣٥) ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٣٥) .
٤ الرافعي (١/٤٣٠ وما بعدها) .
٥ الرافعي (١/٤٣٢ وما بعدها) .

العربية ، قال : « وكان لأهل البصرة في العربية قدمة بالنحو وبلغات العرب والغريب عناية »[1] . و (ابن سلام) نفسه من علماء البصرة ، ومن المتعصبين لها على أهل الكوفة .

وروي أن (أبا الخطاب) المعروف بالأخفش ، وهو من علماء البصرة ، كان أول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها[2] ، فلأهل البصرة قدمة على أهل الكوفة في هذا المضمار .

ومن أهم ميزات أهل البصرة ، هو استعمالهم القياس في النحو ، فقد سبقوا به أهل الكوفة . أما أهل الكوفة ، فقد أخذوا بالقياس في الفقه . فالقياس من أهم وسائل استنباط الأحكام الشرعية في فقه (أبي حنيفة) ، وهو من علماء الكوفة . كان علماء البصرة يطبقون القياس على النحو واللغة ، فما يسمعونه يقيسونه على ما جمعوه من قواعد استنبطوها من القرآن ومن الشعر ومن لغة العرب ، ثم يحكمون حكمهم عليه . أما أهل الكوفة ، فقد تحرروا منه ، وكانوا على ما قيل عنهم ، يأخذون بالشاذ والغريب ، ولو خالف القياس. ومن هنا اتهموا بالضعف، وبعدم التروي في البحث والاستقصاء ، وبالأخذ بالخبر من غير نقد ولا تمحيص. وهو اتهام ، قد يكون للعاطفة يد فيه . وقد صار هذا القياس سبباً في إخضاع اللغة الى حكم قواعد ثابتة اتفق عليها ، استنبطت من الاستقراء ، ومن تطبيق حكم القياس عليها ، إلا انه صار في الوقت نفسه سبباً في إهمال اللهجات المخالفة التي سمّاها العلماء لغات شاذة أو غريبة ، وتركها لعدم استحقاقها في نظرهم شرف التسجيل والتثبيت ، ولم يقدّروا آنذاك أهميتها بالنسبة لمن يريد تتبع تأريخ لغات العرب وتطورها منذ الجاهلية الى الاسلام .

وكان لأهل البصرة ميزة قربهم من أعراب نجد والبوادي ، فكانوا يأخذون منهم القواعد واللغة ، أما أهل الكوفة ، فقد اعتمدوا على أشباه الأعراب من المقيمين في أطراف البادية ، وهم ممن رفض أهل البصرة الأخذ عنهم ، لأنهم

---

١ طبقات (٥) .

٢ المزهر (٢/ ٤٠٠) .

ممن خالط أهل الريف ، وأقاموا على أطراف الحواضر[1] . كما أن قياس أهل البصرة في النحو ، بني على قواعد بنوها هم وأقاموها ، وفق دراساتهم ، وأخذهم عن الأعراب من نثر وشعر ، ولهذا سخروا من علم أهل الكوفة ومن علم علمائهم في النحو ، وتتجلى سخريتهم في أشعار نظموها في أهل الكوفة وفي شيخهم(الكسائي). ترى استهزاء أهل البصرة بعلم وبقياس وبعلماء أهل الكوفة في مثل هذا الشعر :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
فجـاء أقوام يقيسونـه على لغى أشياخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما به يصاب الحق لا يأتلي
إن الكسائـي وأشياعـه يرقون في النحو الى أسفل[2]

وتراه في شعر آخر ، هو :

وقل لمن يطلب علماً ألا نـاد بأعـلى شرف ناد
يا ضيعة النحو ، به مُغرب عنقاء أودت ذات إصعاد
أفسده قوم وأزروا بـه من بين أغتام وأوغاد
ذوي مراء وذوي لكنة لئـام آبـاء وأجـداد
لهم قيـاس أحدثوه همُ قياسُ سوء غير منقاد
فهم من النحو ، وإن عمروا أعمارَ عاد ، في أبي جاد[1]

والكسائي ، الذي طعن البصريون في علمه ، وقدموا صاحبهم (سيبويه) عليه، ناظر خصمه بحضرة (الرشيد) أو في مجلس البرامكة على رواية ، وغلبه بمؤامرة يقال إنها حكيت، للإيقاع به . وذلك في المسألة التي عرفت بـ (المسألة الزنبورية) في كتب العلماء[3] . وكان (الكسائي) قد أخذ النحو عن (أبي جعفر) الرؤاسي، وهو أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو ، وقيل إن كل ما في كتـاب سيبويه : « وقال الكوفي كذا ... » إنما عنى به الرؤاسي هذا ، وكتابه يقـال

---

١ نزهة الالباء (١٠٨) ، بغية ، للسيوطي (٣٣٦) ، ارشاد (٧/ ٢٩٠) ، يوهان فك (٦٢) .
٢ السيرافي ، أخبار النحويين (٢٣) ، يوهان فك (٦٢) .
٣ مجالس العلماء (٨ وما بعدها) ، السيوطي ، الاشباه والنظائر (٣/ ١٥) .

له الفيصل ، وكان له عم يقال له معاذ بن مسلم الهرّاء ، وهو نحوي مشهور ، وهو أول من وضع التصريف . وقد طعن رواة البصرة في علم (الرؤاسي) . قال (أبو حاتم) : « كان بالكوفة نحوي يقال له : أبو جعفر الرؤاسي ، وهو مطروح العلم ليس بشيء ، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ، ويزعمون أن كثيراً من علومهم وقراءتهم مأخوذ عنه »[1] .

وسبقت الكوفةُ البصرةَ في رواية الشعر ، وقد خاطب (علي بن أبي طالب) أهل الكوفة بقوله : « إذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقا عزين ، تضربون الأمثال، وتناشدون الأشعار »[2] ، فالأمثال والشعر من أهم الموضوعات التي كان يتدارسها أهل الكوفة في أيام نشأتها الأولى ، فهم على سنن الجاهليين في ضرب الأمثال ورواية الشعر . روي أن المفضل كان يروي للأسود بن يعفر ثلاثين ومائة قصيدة، وكان أهل الكوفة يروون له أكثر من غيرهم ، ويتجوزون فيه أكثر من غيرهم[3]، وقد انفردوا برواية شعر امرىء القيس ، خلا نتف أخذت من أبي عمرو بن العلاء وبعض الرواة الأعراب[4] . وروي أن « الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة،ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله ، وذلك بيّن في دواوينهم»[5]. وقد زعم أهل الكوفة ، أن علمهم بالشعر القديم ، إنما ورد اليهم من (الطنوج)، وهي الكراريس التي أمر (النعمان بن المنذر) بتدوين أشعار العرب عليها ، وما مدح به هو وأهل بيته ، ثم أمر بدفنها في القصر الأبيض ، فلما كان (المختار ابن أبي عبيد) ، احتفرها ، « فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثمّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[6] .

وكان حماد الراوية رأس أهل الكوفة في راوية الشعر وتدوينه ، فقد بلغ الغاية في العلم بشعر الجاهليين . يقابله فيه (خلف الأحمر) عند أهل البصرة ، وكان خلف أول من أحدث السماع في البصرة ، «وذلك انه جاء الى حماد الراوية فسمع

---

١ المزهر (٢/٤٠٠) .
٢ الرافعي (١/٣٨٢) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٣٤) .
٤ الرافعي (١/٤٣٢) .
٥ المزهر (٢/٤٠٧) .
٦ الخصائص ، لابن جني (١/٣٩٢) .

منه الشعر ، ثم تابعه البصريون فأخذوا عن حماد بعد ذلك ، لانفراده بروايات من الشعر ، فإنه هو الذي أخذ عنه كل شعر امرىء القيس ، إلا شيئاً أخذوه عن أبي عمرو بن العلاء »[1] . وذكر ان (الخثعمي) ، و (أبا البلاد) كانا من رواة أهل الكوفة في الشعر قبل (حماد) ، وكانا في خلافة عبد الملك بن مروان[2] .

ونسب الى بعض العلماء اضافتهم البيت أو الأبيات على ألسنة الشعراء ، لتوجيه الحجة وتزيين الخبر ، والاستشهاد على قاعدة نحوية أو صرفية . وذكر ان بعضاً منهم قد اعترف بذلك ، وأقر الوضع[3] . وفي هذه الاعترافات المنسوبة اليهم ، ما هو باطل مصنوع ، صنعه عليهم حسادهم ومنافسوهم في الصنعة ، ورموه بين الناس على انه إقرار من أولئك العلماء بالوضع ،ولا يعقل صدور مثل هذه الاعترافات منهم ، لشهرتهم ولمكانتهم بين الناس ، ولخوفهم من السمعة السيئة ، واشتهارهم بالكذب والانتحال . وليس معنى هذا انهم لم يضعوا ولم يصنعوا شيئاً على الشعر الجاهلي ، انما أشك في صحة ما قيل على ألسنتهم من اعترافهم بالدس والوضع .

وذكر أن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والنابغة[4] . وقد كان من اللازم أن يتعصب أهل الكوفة لامرىء القيس ، فقد روى أكثر شعره حمّاد ورواة آخرون من أهل الكوفة . وقد كان (يونس بن حبيب) ، وهو من البصريين ومن المتعصبين لمدينته يقول : « يا عجباً للناس ، كيف يكتبون عن حمّاد وهو يصحّف ويكذب ويلحن ويكسر »[5] .

وقد اتهم الكوفيون بأنهم كانوا أكثر الناس وضعاً للأشعار التي يستشهد بها ، « لضعف مذاهبهم وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها » . « وأول من سنّ لهم هذه الطريقة شيخهم الكسائي ، قال ابن درستويه : كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه ، فأفسد النحو بذلك » . و « قال الأندلسي في شرح المفصل : والكوفيون لو سمعوا

١ الرافعي (١/٤٣٢) .
٢ المصدر نفسه .
٣ الرافعي (١/٣٨٣ وما بعدها) .
٤ طبقات ، ابن سلام (١٦) .
٥ رسائل الجاحظ (١/٢٢٦) ، (كتاب البغال) .

بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه ، بخلاف البصريين »[1] .

واتهموا أنهم كانوا يصنعون الشاهد من الشعر فيما لا يصيبون له شاهداً اذا كانت العرب على خلافهم ، ولذلك تجد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر[2] ، وربما أخذوا من العرب المتحضرة ، « ومن أجل هذا وأمثاله كان البصريون يفتخرون على الكوفيين فيقولون : نحن نأخذ اللغة عن حَرَشَةِ الضِّباب وأكلة اليرابيع وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز والكوامخ[3] . ومن الأعراب الذين أخذ (الفرّاء) ، عالم الكوفة بعد الكسائي عنهم اللغة ، (أبي الجراح) ، و (أبي مروان) ، وأهل البصرة يمتنعون من الأخذ عن أمثال هؤلاء الأعراب ، ولا يرون في قولهم حجة . «قال أبو حاتم : اذا فسرتُ حروف القرآن المختلف فيها ، وحكيت عن العرب شيئاً، فإنما أحكيه عن الثقات منهم ، مثل أبي زيد ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم ، ولا التفت الى رواية الكسائي ، والأحمر والأموي ، والفراء ، ونحوهم »[4] .

واتهموا بأنهم كانوا يكثرون من الشعر ، يقولونه على ألسنة الشعراء ، قال (ابن سلام) في أثناء حديثه عن (الأسود بن يعفر) الشاعر الجاهلي : « وذكر بعض أصحابنا انه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومائة قصيدة ، ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه . وقد علمت ان أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي ، ويتجوزون في ذلك أكثر من تجوزنا »[5] . وكان الأسود ، يكثر التنقل في العرب يجاورهم ، فيذم ويحمد . وله في ذلك أشعار . له قصيدة جيدة ، طويلة رائعة تعد من أول الشعر ، وهي :

نام الخليّ فما أحس رقادي والهمّ محتضر لديّ وسادي[6]

---

١ الرافعي (١/ ٣٧٠) .
٢ الرافعي (١/ ٣٧٠ وما بعدها) .
٣ الرافعي (١/ ٣٧١) .
٤ المزهر (٢/ ٤١٠) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٣٣ وما بعدها) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٣٣) .

ونسمع قصصاً عن تغليط علماء البصرة والكوفة بعضهم البعض ، فنجد خلفاً الأحمر ، وهو شيخ البصرة في الشعر ، يذكر أنه أخذ على (المفضل) الضبي في يوم واحد تصحيف ثلاثة أبيات[1] . ونجد (الأصمعي) ، وهو من علماء البصرة كذلك ، يحمل على علم (الضبي) في الشعر ، ويرميه بعدم الفهم[2] . وتجد قصصاً روي عن علماء مشاهير مثل (ثعلب) وغيره ، يحمل فيه أولئك العلماء بعضهم على بعض ، وينتقص بعضهم على البعض الآخر[3] .

ونحن إذا أردنا الوقوف موقفاً علمياً ، فلا نستطيع إلا أن نقول: إننا لا نستطيع تبرئة أهل الكوفة من الصنعة والوضع ، كما لا نستطيع تبرئة أهل البصرة منها ، لأن في كل مدينة من المدينتين منافسات بين العلماء ، وتزاحم على الرئاسة، وحسد، يدفع الإنسان على الوضع والصنعة والأخذ بالخبر مهما كان شأنه لإفحام الخصوم ، والتغلب عليهم . فإذا كان (حمّاد) عالم الكوفة في الشعر من الوضاعين ، وكان يصحف ويكذب ويلحن ويكسر[4] ، فقد كان (خلف الأحمر) ، وهو عالم البصرة ، مثله في الصنعة والوضع والكذب . وكان (شَوكَر) وهو من أهل البصرة ، ومن رجال المائة الثانية ، ممن يضع الأخبار والأشعار ، وفيه يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفها شوكر   وأخرى مؤلفة لابن دأب[5]

وقد نقح علماء الشعر من المدرستين والمدارس الأخرى ما أخذوه من الشعر الجاهلي ، وأجروا على ما لا يتفق منه والقواعد التي ثبتوها للنحو والعروض تهذيباً وتشذيباً ، وعابوا منه أموراً مثل الإقواء والزحاف ، واختلال الوزن ، وما شاكل ذلك . وقد تحدث عن ذلك (المعري) في رسالة الغفران ، وهو شاعر ومن نقدة

---

١ المصون (١٩١ وما بعدها) .
٢ المصون (١٩٢ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢٠٢/١ وما بعدها) .
٤ رسائل الجاحظ (٢٢٦/١) ، (كتاب البغال) .
٥ لسان الميزان (١٥٨/٣) ، (٤٠٩/٤) ، رسائل الجاحظ (٢٢٥/١) ، (كتاب البغال) .

الشعر ، في أحاديثه التي وضعها على ألسنة الشعراء في الجنة أو في النار ، وفي أسئلته التي وجهها اليهم ، أو وجهها غيره اليهم . كما في استفساره من (امرىء القيس) عن رواة أهل بغداد في انشادهم أبياتاً من قصيدته : « قفا نبك بزيادة الواو في أولها ، فوضع الجواب على لسانه ، بقوله : « أبعد الله أولئك ! لقد أساءوا الرواية . واذا فعلوا ذلك فأي فرق يقع بين النظم والنثر ؟ وانما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض ، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم، وهيهات هيهات ! »[1] . ثم يقول : « لو شرحتُ لكَ ما قال النحويون في ذلك لعجبت »[2] .

ونرى (المعري) يوجه أسئلة الى (امرىء القيس) ، فيقول له : « أخبرني عن كلمتك (الصادية) ، و (الضادية) ، و (النونية) التي أولها :

لمن طلـــل أبصرتـــه فشجاني كخطّ زبور في عسيب يمانِ ؟

لقد جئت فيها بأشياء ينكرها السمعُ ، كقولك :

فإن أمسِ مكروباً فيا ربّ غارةٍ شهدتُ على أقبّ رِخوِ اللّبانِ

وكذلك قولك في الكلمة الصادية :

على نقنق هيــقٍ له ولعرسه بمنقطع الوعْساء بيضٌ رصيص

وقولك :

فأسقي به أختي ضعيفةَ إذ نأت وإذ بَعُدَ المزدارُ غيرِ القريضِ

في أشباه لذلك ، هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة ؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون عما يقع فيه ؟ كما أنه لا ريب أن زهيراً كان يعرف مكان الزحاف في قوله :

---

١ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعده) .

٢ رسالة الغفران (٣١٤) .

يطلب شأوَ امرأين قدّما حسباً نالا الملوك ، وبدّا هذه السُّوقا

فإن الغزائز تحسُّ بهذه المواضع »[1] .

ثم يجيب (المعري) على لسان (امرىء القيس) بقوله : « أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجيء ذلك ، ولا أدري ما شجن عنه « فأما أنا وطبقتي فكنا نمرّ في البيت حتى نأتي إلى آخره ، فإذا فني وقارب ، تبين أمره للسامع»[2].

ثم نراه يسأل (امرىء القيس) عن قوله :

ألا ربّ يومٍ لك منهن صالحٍ ولا سيما يوم بـــدارة جلجل

أتنشده : لك منهن صالحٍ ؟ أم تنشده على الرواية الأخرى . فيجيب عـلى لسانه بقوله : « أما أنا فما قلتُ في الجاهلية إلا بزحاف :

لك منهن صالحٍ

وأما المعلمون في الإسلام ، فغيروه على حسب ما يريدون »[3] .

وقد سأله (المعري) عن الشعر المسمط المنسوب اليه ، فأنكر على لسانه أن يكون قد سمع به قط ، قائلاً « وانه لقرى لم أسلكه ، وان الكـذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الاسلام ، ولقد ظلمني وأساء إلي »[4] . ولما سأله عن (الإقواء) في شعره ، قائلاً له : « وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الإقواء عليك » ، أجاب على لسانه : « لا نكرة عندنا في الإقواء »[5].

وقد كان من أصعب الأشياء على بعض رجال المدرستين ألا يجيبوا على أسئلة توجه اليهم إجابة تفيد بوجود علم لهم عنها ، ولهذا كانوا يعمدون الى الصنعـة والافتعال . نجد ذلك عند أهل الأخبار ، وعـلى رأسهم (ابن الكلبي) ، كـما نجد ذلك عند رواة الشعر مثل حماد الراوية ، وخلف الأحمر ، كما نجده عند علماء

---

١ رسالة الغفران (٣١٥ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٣١٧) .
٣ رسالة الغفران (٣١٧ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (٣١٩) .
٥ رسالة الغفران (٣٢٠) .

اللغة . وقد أشرت في صفحات هذا الكتاب الى أمثلة عديدة من هذا القبيل ، اضطر فيها المجيب على افتعال جواب وصنعه ، ليظهر نفسه بمظهر العارف بكل شيء .

ويجب الانتباه الى ان علماء البصرة أو الكوفة أو غيرهم ، مهما سموا في العلم وارتفعوا ، فإنهم بشر ، لم يرزقوا العصمة ، وهم في التأثر والانفعال مثل أي كائن حي ، فقد يتأثر عالم من عالم متقدم عليه ، فيحاول الغمز في علمه أو الطعن به . قال علي بن العباس : « رآني البحتريُّ ومعي دفتر ، فقال : ما هذا ؟ فقلتُ شعر الشنفرى . قال : والى أين تمضي ؟ قلت أقرأه على أبي العباس أحمد بن يحيى . قال : رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام ، فلم أر له علماً بالشعر مرضياً ، ولا تقداً له ، ورأيته ينشد أبياتاً صالحة ويعيدها ، إلا انها لا تستوجب الترديد والإعجاب فيها »[1] . وروى (أحمد بن يحيى ثعلب) ، خبر مناظرات وقعت بين (أبي عمرو الشيباني) ، والأصمعي ، ترينا مبلغ التنافس الذي كان بين العالمين ، واستهتار الأصمعي بخصمه ، استهتاراً تجاوز الحد[2] .

وقد حاول (السيوطي) ايجاد عذر لغمز العلماء بعضهم في بعض ، بأن قال : « فإن قلت : فإنا نجد علماء هذا الشأن من البلدين ، والمتحلّين به من المصرين كثيراً ما يهجن بعضهم بعضاً ، فلا يترك له في ذلك سماءً ولا أرضاً ؟ قيل : هذا أدل دليل على كرم هذا الأمر ونزاهة هذا العلم ، ألا ترى انه إذا سبق الى أحدهم ظنة ، أو توجهت نحوه شبهة سُبّ بها ، وبرىء الى الله منه لمكانها ، ولعل أكثر ما يُرمى بسقطة في رواية ، أو غمزة في حكاية ، محمي جانب الصدق فيها ، بريء عند الله من تبعتها ؛ لكن أخذت عنه إما لاعتناق شبهة عرضت له ، أو لمن أخذ عنه ، وإما لأن ثالبه ومتعيبه مقصر عن مغزاه ، مغموض الطرف دون مداه ، وقد عرض الشبهة للفريقين ، ويعترض على كلا الطريقين» ، ثم أخذ يعتذر عن ذلك ، بأنه وقع في سبيل العلم والحق ، ثم قال : « وإذا كانت هذه المناقضات والمنافسات موجودة بين السلف القديم ... جاز مثل ذلك أيضاً في علم العرب »[3] .

---

١ المصون (٤) .
٢ المصون (١٩٣ وما بعد) .
٣ المزهر (٤١٦/٢ وما بعدها) .

ومن هنا يجب الاحتراس كثيراً حين قراءتنا الطعون التي ترد على ألسنة العلماء يطعن فيها بعضهم ببعض ، فأكثر هذا المروي عنهم ، صادر عن طبيعة بشرية ، تظهر بين الزعماء نتيجة التنافس الذي يقع بينهم على الزعامة والصدارة ، ولو في زعامة العلم . ولا تقتصر هذه الطعون والمغامز على طعن علماء البصرة بعلماء أهـل الكوفة ، أو العكس ، بل نجدها بين علماء المدينة الواحدة أيضاً ، لأن الموضوع موضوع زعامة ورئاسة ، والتحاسد بين المتحاسدين لا ينحصر بقوم دون قـوم ، وقد يقع بين الاخوة الاشقاء .

الفصل الحادي والخمسون بعد المئة

العصبية والشعر

رأيت أن أهل الكوفة كانوا يفضلون بعض الشعراء الجاهليين على غيرهم ، وأن أهل البصرة كانوا يرجحون غيرهم عليهم ، فلا يرون التقدمة لمن اختارهم أهل الكوفة ، ورأيت أن أهل الحجاز يقدمون شعراء آخرين على الشعراء الذين قدمهم أهل الكوفة أو أهل البصرة .

وموضوع من هو أشعر شعراء أهل الجاهلية ، موضوع تضاربت فيه الآراء كثيراً ، وكثرت فيه الأقوال ، لما له من تماس بروح العصبية ، والعصبية اذا دخلت قضية أفسدتها . ثم انه قائم على أحكام الأذواق ، وأذواق الناس في الشعر وفي الذوق والتذوق متفاوتة متباينة ، ثم هو لا يستند الى أسس مقررة تعود الى أيام الجاهلية ، كنقد علمي ودراسة عامة شاملة قام بها الجاهليون في أيامهم ، وانما مرجعه أقوال قيل انها صدرت من خبراء الشعر وعلمائه ، لا أدري مقدار ما فيها من صدق أو كذب . وكل ما أستطيع ان أقوله : انها آراء دونت في الاسلام ، وهي مرسلة ، محمولة على المبالغة في الاستحسان لقصيدة أو لقطعة أو لبيت ، بل ولنصف بيت أحياناً ، وهي تمثل استذواقاً شخصياً ، لحالة من الحالات ، لا لغالب شعر الشاعر وعامة ما روى عنه ، ولما فيه من فن وإبداع، ثم انك تجدها أحياناً متناقضة متضاربة ، تجد رواية تقول إن الشاعر الفلاني ، أو عالم الشعر فلان قال : أشعر الناس فلاناً ، ثم تجد رواية ثانية تذكر انه قدم شاعراً آخر محله فجعله أشعر الشعراء ، ثم لا تلبث أن تجد رواية ثالثة ، تذكر

أنه اختار شاعراً غيرهما ، فجعله أشعر شعراء الجاهلية ، وأشعر الناس ، فتحتار في أمر هذا التناقض ، كيف وقع ، وكيف حدث والحاكم رجل واحد ؟ هل وقع هذا حقاً ، أو أنه كان من وضع المتعصبين للشعراء ، أرادوا تقديم شاعر لهم على سائر الشعراء ، فاحتاجوا الى حجة وسند واثبات ، لإثبات دعواهم ، وتأكيدها ، فاختلقوا قولاً نسبوه الى عالم معروف وصنع قوم غيرهم مثل ما صنعوا ، فاختلقوا قولاً نسبوه الى هذا العالم أيضاً ، فمن ثم تعددت الأقوال وتصادمت ، فليس للعلماء اذن يد في هذا التناقض أو أي ذنب ، وإنما الذنب هو ذنب المختلقين الذين دسوا دسهم على العلماء .

وقد لا يكون للإختلاق يد في ظهور هذا التناقض ، وإنما سببه ، أن شخصاً يُسأل عن شاعر ، فيخطر بباله خاطر عن شعره ، جعله يستعذبه أو يستعذب جزءاً منه ، يراه أنه أحسن ما قيل من نحوه ، فيرجحه على الجميع ، ويحكم من هذه الناحية على أنه أشعر الناس ، ثم يمضي وقت ، ينسى فيه ما قال ، فيسأله أشخاص : من أشعر الناس : فيتخطر خاطراً ، أو يحمله المجلس الذي كان يدور فيه الحديث إذ ذاك على خاطر ، يحمله على الحكم بتفوق شاعر آخر ، وهكذا ومن هنا كان سبب هذا التناقض والاختلاف في الرأي .

وقد كان من السهل وقوع مثل هذا التناقض ، لأن العلم كان بالمشافهة ، ولم يكن عن تدوين وقراءة كتب ، وكان بالذاكرة والتذكر ، وكان حكمهم بنصف البيت وبالبيت وبالقطعة وبالقصيدة ، أو بجملة قصائد ، لا بمراجعة شعر كل شاعر ، وبمقابلته بشعر الشعراء الآخرين ، واستنباط ما في مجموع شعر كل شاعر من مزايا ، للمقابلة بينها ، ثم للحكم للمتفوق الأجود . فذلك أمر لم يكن من الممكن حدوثه : لعدم وجود التدوين عندهم ، ثم إنه لم يكن معروفاً عندهم . فلما وقع التدوين ، وأخذ علماء الشعر في التنقير في كل جهة بحثاً عن الشعر وما قيل فيه ، ظهر ذلك التناقض وبان ، ودوّن كل ما أمكن تدوينه ، بعد أن ضاع من الشعر ومن الآراء التي قيلت عنه ما ضاع ،وكانت الخلاصة هذا الواصل الينا .

وقد أشار أهل الأخبار الى ما كان للعصبية من أثرها في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض : عصبية قبلية،وعصبية محلية ، وعصبية منافسة وتراكض على الزعامة . فالقبائل تقدم شعراءها على شعراء غيرها وتجعل في أيديهم ألوية الشعر،وقيادة الشعراء في معارك القصيد ، وأهل العصبية الى عدنان ، يقدمون شعر (ربيعة) وأولهم

(المهلهل) على غيره،ويرون أنه مفتق الشعر ومهلهله ، وأول من قصد القصائد[1]، وأهل اليمن يرون تقدمة الشعر لليمن ، يزعمون أنه بدأ في الجاهلية بامرىء القيس، وفي الإسلام بحسان بن ثابت ، وفي المولـدين بالحسن بن هانيء ، وأصحابه : مسلم بن الوليد ، وأبي الشيص ، ودعبل ، وكلهم من اليمن ، وفي الطبقة التي تليهم بالطائيين : حبيب ، والبحتري ، ويختمون الشعر بأبي الطيب ، وهو خاتمة الشعراء لا محالة ، ويرجعون نسبه الى اليمن[2] .

قال (ابن رشيق) في (العمدة) : « والشعراء أكثر من أن يحـاط بهم عدداً ، ومنهم مشاهير قد طارت أسماؤهم ، وسار شعرهم ، وكـثر ذكرهم ، حتى غلبوا على سائر من كان في أزمانهم،ولكل أحد منهم طائفة تفضله وتتعصب له ، وقلّ ما يجتمع على واحد ، إلا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في امرىء القيس أنه أشعر الشعراء ... »[3] .

وكان علماء البصرة يقـدمون امرأ القيس ، أما أهل الكوفة فكانوا يقدمون الأعشى ، وأما أهل الحجاز والبادية ، فقدموا زهيراً والنابغة . وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً ، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً . وهـذا ما أتت به الرواية عن (يونس بن حبيب) النحوي[4] .

ولكنك إذا تتبعت وأحصيت ما قيـل على ألسنة أهل البصرة أو الكوفـة أو الحجاز من أقوال ، ترى تناقضاً بين هذه الرواية وبين ما حصلت عليه من دراسة تلك الأقوال . تناقضاً ينبئك أن هذا المروي ، هو وجهات نظر وآراء أشخاص ، ولا يمثل إجماع أهل الكوفة ، أو اجماع أهـل البصرة ولا اجماع أهل الحجاز ، أو اجماع أهل البادية ، ثم هو كله آراء وردت في الإسلام ، وان حاولت إرجاع أصلها الى الجاهلية .

ويذكر من يقدم (امرأ القيس) على غيره ، أن الرسول ذكره يوماً ، فقال: « ذلك رجل مذكور في الدنيا ، منسيّ في الآخرة ، يجيء يوم القيامة وبيـده

---

١ العمدة (١/٨٦ وما بعدها) ، (باب تنقل الشعر في القبائل) .
٢ راجع راي علماء الشعر في أصل نسب المتنبي ، العمدة (١/٨٩ وما بعدها) .
٣ العمدة (١/٩٤) ، المزهر (٢/٤٧٨) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٦) ، العمدة (١/٩٨) ، المزهر (٢/٤٨٢) .

لواء الشعراء يقودهم الى النار »[1] . أو أنه قال : « إنه أشعر الشعراء، وقائدهم الى النار . يعني شعراء الجاهلية والمشركين »[2] .

وروي أن (عمر بن الخطاب) كان يفضل (امرأ القيس) على غيره ، ذكر أنه قال للعباس بن عبد المطلب ، « وقد سأله عن الشعراء : امرؤ القيس سابقهم : خسَفَ لهم عين الشعر ، فافتقر عن معانٍ عور أصح بصر »[3] . « يريد أنه أول من فتق صناعة الشعر وفنن معانيها واحتذى الشعر على مثاله »[4]. وذكر أن (علي بن أبي طالب) كان يرى له التقدم على غيره ، وذلك بقوله: « رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة »[5] . فأنت ترى أن الرسول وعمر وعليّ ، قدّموا (امرأ القيس) على غيره ، وهم من أهل الحجاز . ولكننا نجد في الوقت نفسه رواية تذكر أن (ابن عباس) « قال : قال لي عمر : أنشدني لأشعر شعرائكم . قلت من هو يا أمير المؤمنين؟ قال : زهير ، قلت : ولِمَ كان ذلك ؟ قال : كان لا يعاضل بين الكلام ، ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه »[6] . فهو يفضل في هذه الرواية زهيراً على غيره ، بما فيهم امرىء القيس ، إذ لم يشر اليه باستثناء .

ثم نجد رواية أخرى تذكر أن (عمر بن الخطاب قال : أي شعرائكم يقول:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

قالوا : النابغة . قال هو : أشعرهم »[7] . « وكان أبو بكر رضي الله عنه، يقدم النابغة ، ويقول : هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً »[8]. فأبو بكر وعمر في هذا الموقف سواء ، فضلا النابغة على سائر الشعراء .

---

١ بلوغ الارب (٩٣/٣) ، المزهر (٤٧٨/٢) .
٢ العمدة (٩٤/١) .
٣ العمدة (٩٤/١) ، الفائق (٣٤٣/١) .
٤ تاج العروس (٤٧٥/٣) ، (فقر) .
٥ العمدة (٤١/١ وما بعدها ، ٩٤) ، تاج العروس (٤١٢/٧) ، (ضلل) .
٦ طبقات ابن سلام (١٨) ، العمدة (٩٨/١) ، الفائق (١٦٥/٢) ، الشعر والشعراء (٧٦/١) .
٧ ابن سلام ، طبقات (١٧) ، السيوطي ، شرح شواهد (٧٩/١ وما بعدها) .
٨ العمدة (٩٥/١) .

ولو استعرضنا رأي الشعراء في أشعر الشعراء ، وجدناه غير متفق ، فقد يفضل شاعر شاعراً ، وقد يخالفه فيه شاعر آخر ، وقد ينسب لشاعر رأي ، ثم ينسب له رأي مخالف . سئل (لبيد) : « من أشعر الناس ؟ قال : الملك الضليل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشاب القتيل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشيخ أبو عقيل — يعني نفسه »[1] . و « روى الجمحي أن سائلاً سأل الفرزدق : من أشعر الناس ؟ قال : ذو القروح ، قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول :

وقاهم جدهم ببني أبيهم   وبالأشقين ما كان العقابُ

وأما دعبل فقدمه بقوله في وصف عقاب :

ويلُمّها من هواء الجوّ طالبةً   ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب

وهذا عنده أشعر بيت قالته العرب »[2] .

وقد سئل الفرزدق مرة : « من أشعر العرب ؟ فقال : بشر بن أبي حازم ، قيل له : بماذا ؟ قال : بقوله :

ثوى في ملحدٍ لا بُدَّ منه   كفى بالموت نأياً واغترابا

ثم سئل جرير ، فقال : بشر بن أبي خازم ، قال : بماذا ؟ قال: بقوله:

رهين بلى ، وكل فتى سيبلى   فَشُقّي الجيب وانتحبي انتحابا

فاتفقا على بشر بن أبي خازم كما ترى »[3] . وقد رأيت أن الفرزدق كان قد سئل السؤال نفسه : من أشعر الناس ؟ فأجاب : ذو القروح ، أي امرىء القيس . بسبب بيت فوّقه به على غيره من الشعراء . بينما هو يقدم (بشر بن أبي خازم في هذه الرواية . وينسب أهل الأخبار لجرير رواية أخرى تزعم أنه سئل من أشعر الناس ، فقال : النابغة[4] . فخالفت هذه الرواية ما جاء في الرواية الأخرى .

---

١ العمدة (٩٥/١) ، المزهر (٤٧٩/٢) ، ابن سلام ، طبقات (١٦) .
٢ العمدة (٩٥/١) ، ابن سلام ، طبقات (١٦) ، المزهر (٤٨١/٢) .
٣ العمدة (٩٦/١) .
٤ العمدة (٩٧/١) .

« وكتب الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يسأله عن أشعر الشعراء في الجاهلية وأشعر شعراء وقته ، فقال : أشعر شعراء الجاهلية امرؤ القيس،وأضربهم مثلاً طرفة . وأما شعراء الوقت ، فالفرزدق أفخرهم ، وجرير أهجاهم ، والأخطل أوصفهم »[1] . « وفضل النقاد العرب طرفة على سائر الشعراء بإجادته وصف الناقة في معلقته على نحو لم يسبق اليه ، ويميل بعضهم الى عده أشعر شعراء الجاهلية »[2] .

« وقيل لكثير أو لنصيب : من أشعر العرب ؟ فقال : امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا شرب »[3] . فهو رأي قدم الشعراء المذكورين على غيرهم في حالات معينة ، ولم يقدم (امرأ القيس) على غيره بصورة مطلقة . و « زعم ابن أبي الخطاب أن أبا عمرو كان يقول: أشعر الناس أربعة : امرؤ القيس ، والنابغة ، وطرفة ، ومهلهل »[4] .

« وقالت طائفة من المتعقبين : الشعراء ثلاثة : جاهلي : واسلامي ، ومولد؛ فالجاهلي امرؤ القيس ، والاسلامي ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز . وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر »[5] .

وحجة من قدم أمرأ القيس على غيره « ان امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق الى أشياء فاستحسنها الشعراء ، واتبعوه فيها ، لأنه أول من لطّف المعاني ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيد ، وقرّب مأخذ الكلام ، فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه »[6] ، « وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[7] .

---

١ العمدة (١/٩٦) ، المزهر (٢/٤٨١) .
٢ بروكلمن (١/٩٢) .
٣ العمدة (١/٩٥) .
٤ العمدة (١/٩٧) ، المزهر (٢/٤٨١) .
٥ العمدة (١/١٠٠) .
٦ الشعر والشعراء (١/٤٧٨ وما بعدها) ، العمدة (١/٩٤) ، ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) ، الرواية ترجع الى « يونس » وقد دونها « ابن سلام » و « ابن قتيبة » المتوفى بعده (٢٧٦ هـ) ، مع شيء يسير من الاختلاف في النص .
٧ ابن سلام ، طبقات (١٦ وما بعدها) .

ووجد (زهير) له أنصاراً وأعواناً ، من المعجبين بـه في الاسلام بالطبع ، قدّموه على غيره من شعراء الجاهلية . وقد سبق أن أشرت الى رواية زعمت أن (عمر) فضله عـلى غيره من شعراء أهل الجاهلية[1] . وذكر أن (عكرمة بن جرير) سأل أباه جريراً : من أشعر النـاس ؟ قال : أعن الجاهلية تسألني أم الإسلام ؟ قـال : ما أردت إلا الإسلام ؟ فإذا ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلها ، قال : زهير شاعرهم »[2] . وزعم أن (ابن عباس) سأل (الحطيئة) عن أشعر الناس ، فقال : الذي يقول :

ومن يجعل المعروفَ من دون عرضه   يفره ومن لا يتـق الشتم يشتم

وليس الذي يقول :

ولستَ بمستبق أخـاً لا تلمه   على شعث أي الرجال المهذب ؟

يدونه ، ولكن الضراعة أفسدته ، كما أفسدت جرولاً ، والله لـولا الجشع لكنت أشعر الماضين ، وأما الباقون فلا شك اني أشعرهم . قال ابن عبّـاس : كذلك أنت يا أبا مليكـة »[3] . وقائل البيت الأول زهير ، وقائل البيت الثاني هو النابغة .

ولكنّا نقرأ في رواية أخرى ما يخالف هذا الرأي ، تقرأ فيها أن سائلاً سأل الحطيئة عن أشعر الناس ، فقال أبو دؤاد حيث يقول :

لا أعُدّ الإقتار عُدماً ، ولكن   فَقْدُ من قـد رزئته الإعدام

وهو رأي لم يقبل به أحد من النقاد[4] . وجعل بعده (عبيداً)[5] .

ورجح بعضهم (الأعشى) على غيره ، رجحه الشاعر (الأخطل) مثلاً ، فزعم أنه قال : « الأعشى أشعر الناس »[6] . وكان خلف الأحمر يقول : الأعشى

---

١ العمدة (١/٩٨) .
٢ العمدة (١/٩٦) .
٣ العمدة (١/٩٧) ، المزهر (٢/٤٨١) .
٤ العمدة (١/٩٧) ، المزهر (٢/٤٨١) .
٥ الشعر والشعراء (١/٢٤٢) ، (دار الثقافة ، بيروت) .
٦ العمدة (١/٩٧) ، المزهر (٢/٤٨١) .

أجمعهم . وقال أبو عمرو بن العلاء مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره، وكان أبو الخطاب الأخفش يقدمه جداً ، لا يقدمُ عليه أحداً »[1] . « وقال بعض متقدمي العلماء : الأعشى أشعر الأربعة »[2] ، والأربعة ، هم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، أو زهير ، والنابغة ، والأعشى ، وعنترة[3] . « حكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب ، وعنترة إذا كلب . وزاد قوم : وجرير إذا غضب » ، « وقيل لكثير ، أو لنصيب ، من أشعر العرب؟ فقال : امرؤ القيس إذا ركب، وزهير اذا رغب ، والنابغة إذا رهب،والأعشى إذا شرب »[4] .

وحجة من قدم (الأعشى) ، أنه كان « أكثرهم عروضاً وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحاً وهجاء ونظراً وصفة كل ذلك عنده »[5] .

ووجد (النابغة) من فضله على غيره من شعراء الجاهلية ، وفيهم الخليفة (أبو بكر) الذي كان يقول عنه « هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً »[6] و (عمر)[7] والشاعر (جرير)[8] ، وحجة من قدم النابغة على غيره أنه : « كان أحسنهم ديباجة شعرٍ ، وأكثرهم رونق كلام ، وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة ، ومدحاً ، وهجاء،وفخراً ، وصفة »[9] ، « وأجزلهم بيتاً . كان شعره كلام ليس فيه تكلف »[10] .

وزعم أن (الكميت) كان يقول : (عمرو بن كلثوم أشعر الناس) ،

---

١ العمدة (١/٩٥) .
٢ العمدة (١/٩٩) .
٣ العمدة (١/٩٥) .
٤ العمدة (١/٩٥) .
٥ ابن سلام ، طبقات (١/١٨) .
٦ العمدة (١/٩٥) .
٧ ابن سلام ، طبقات (١٧) .
٨ « وقال جرير : النابغة أشعر الناس » ، المزهر (٢/٤٨١) .
٩ العمدة (١/٩٩) .
١٠ ابن سلام ، طبقات (١٧) .

وأن الشاعر (ذو الرمة) فضل (لبيداً) على كل الشعراء [1] .

و « كان ابن أبي اسحاق ، وهو عالم ، ناقد ، ومتقدم مشهور ، يقول : « أشعر الجاهلية مُرَقش » ، وسأل عبد الملك بن مروان الأخطل : من أشعر الناس ؟ فقال : العبد العَجْلاني ، يعني تميم بن أبيّ بن مقبل » [2] ، وهو من المخضرمين [3] ، « وقيل لنصيب مرة : من أشعر العرب ؟ فقال : أخو تميم ، يعني علقمة بن عبدة ، وقيل أوس بن حجر ، وليس لأحد من الشعراء بعد امرىء القيس ، ما لزهير والنابغة ، والأعشى في النفوس » [4] .

وذكر (ابن سلام) أن (أبا عمرو بن العلاء) كان يرى أن (خداش ابن زهير) « أشعر في قريحة الشعر من لبيد ، وأبى الناس إلا تقدمة لبيد . وكان يهجو قريشاً » [5] . ولعل هذا الهجاء هو الذي جعل الناس يأبون تقديمه في الشعر .

وروي عن (الأصمعي) ، أن (أبا عمرو بن العلاء) كان يقول : « كان أوس بن حجر فحل العرب ، فلما أنشأ النابغة طأطأ منه) ، وذكر عنه أيضاً ، وقد سُئل عن النابغة وزهير ، أنه قال : « ما كان زهير يصلح أن يكون أخيذاً للنابغة ، يعني راوياً عنه » . وروي أن أهل البصرة أجمعوا على امرىء القيس وطرفة بن العبد ، وأجمع أهل الكوفة على بشر بن أبي خازم والأعشى الهمداني ، وأجمع أهل الحجاز على النابغة وزهير [6] .

وليونس النحوي رأي في أشعر الشعراء ، قيل إنه سئل « عن أشعر الناس فقال : لا أومىء الى رجل بعينه ، ولكني أقول : امرؤ القيس إذا غضب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا غضب » [7] . فربط الشاعرية بحالة من الحالات النفسية . وورد التفضيل على هذا النحو : « أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ،

---

١ المزهر (٢/٤٨١) .
٢ العمدة (١/٩٧) ، ابن سلام ، طبقات (١٦) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣٦٦) .
٤ العمدة (١/٩٧ وما بعدها) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٣٢ وما بعدها) .
٦ السيوطي ، شرح شواهد (١/٨٠) .
٧ ياقوت ، ارشاد (٧/٣١٠) .

وزهير إذا رغب ، والنابغه إذا رهب ، والأعشى إذا طرب . وكان زهير أجمع الناس للكثير من المعاني في القليل من الألفاظ، وأحسنهم تصرفاً في المدح والحكمة»[1].

ترى مما تقدم أن موضوع من كان أشعر شعراء الجاهلية موضوع حساس ، لما كان للعصبية وللذوق الشخصي دخل فيه ، ثم إنهم لم يكونوا يحكمون من دراسة الكلّ ، أي بدراسة كل ما ينسب الى الشاعر من شعر ، وانما كانوا ربما حكموا على الشاعر ببيت أو ببيتين ، وحكم مثل هذا لا يمكن أن يتخذ حكماً علمياً ، أضف الى ذلك أنهم لم يميزوا بين ما نسب الى الشاعر من شعر ، وبين ما صح له من شعر ، ولا يكون الحكم في مثل هذه الأمور حكماً علمياً، إلا بدراسة عميقة لشعر كل شعر ، بعد تمييز صحيحه من فاسده ، ثم مطابقته ومقابلته بشعر الشعراء الآخرين . الى أمور أخرى من هذا القبيل ، يطرقها نقاد الشعر والأدب ، بمقاييس ثابتة ، أما مقاييس تلك الأيام فقد اختلفت، وخضعت للعواطف والأهواء ، و (السيوطي) على حق حين يقول في هذا الموضوع : « وهذا يدلك على اختلاف الأهواء وقلة الاتفاق »[2] .

وقد يعمد علماء الشعر الى بيت من شعر ، فيجعلونه أحسن بيت قيل في الجاهلية ، أو عند العرب ، فقد قالوا : ان الاتفاق قد وقع على أن أمدح بيت للجاهلية ، هو قول زهير :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله[3]

ولكنهم قالوا ان الشاعر (دعبل) قال : إن أمدح بيتٍ قالته العرب في الجاهلية قول أبي الطمحان القيني :

وإن بني أوس بن لأم أرومة علت فوق صعب لا ترام مراقبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظّم الجزع ثاقبه[4]

---

١ بلوغ الارب (٩٨/٣) .
٢ المزهر (٤٨٢/٢) .
٣ بلوغ الارب (٩٩/٣) .
٤ بلوغ الارب (١٢٨/٣) .

وروي عن الأصمعي قوله إن بيت (أبي ذؤيب) الهذلي :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تردّ الى قليل تقنع

هو أبرع بيت قالته العرب[1] .

وقد كان (بشار بن برد) حذراً حين سئل : أخبرنا عن أجود بيت قالته العرب ؟ فقال : إن تفضيل بيت واحد على الشعر كله لشديدٌ ، ولكن قد أحسن كل الإحسان لبيد في قوله :

وأكذب النفسَ إذا حدّثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل
وإذا رمت رحيلاً فارتحل واعصى من يأمر توصيم الكسل[2]

وقد ذهب علماء الشعر الى أن أشعر أهل المدر ، أهل يثرب ، ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف (أمية بن أبي الصلت) . أما أشعر أهل يثرب، فهو حسان بن ثابت في نظر كثير من رواة الشعر . وورد في بعض الأخبار أنه أشعر أهل المدر[3] .

نقد الشعر :

وذكر أن الشعراء الجاهليين ، كانوا يراجعون شعر بعضهم بعضاً ، وينقدونه لما كان بينهم من تسابق على نيل الشهرة والاسم ، أو لما كانوا يجدونه في شعر الشاعر من هنة أو غفلة أو هفوة ، كالذي ذكروه من أمر الشاعر (المتلمس) ، ذكر أن (طرفة بن العبد) ، سمع قوله :

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

وكان إذ ذاك صبياً ، فقال : استنوق الجمل فصار مثلاً[4] .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٤٠) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٣١) .
٣ الاغاني (٣/١٨٠) ، (٤/٣) ، العمدة (١/٨٩) ، (باب تنقل الشعر في القبائل) .
٤ الشعر والشعراء (١/١١٥)، ونسب هذا البيت خطأ الى المسيب بن علس ، الموشح (٧٦) ، الاغاني (٢٣/٥٥٩) .

أو أنهم كانوا ينقدونه عند التحكيم . ليقتنع الشعراء بصحة حكم الحكم، كالذي كان من أمر (النابغـة) في سوق عكاظ ، وكالذي روي من تنازع (امرؤ القيس) مع (علقمة) الفحل على الشعر ، وقول كل واحد منهما لصاحبه : « أنا أشعر منك » ، ومن قبولهما بتحكيم (أم جندب) ، زوج (امرىء القيس) بينهما . وقبول (أم جندب) الحكم بينهما . فذكر أنها قالت لهما : « قولا شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد وقافية واحدة » ، فأنشداها ، ثم حكمت بترجيح شعر علقمة على شعر زوجها ، وأظهرت لها العوامل التي حملتها على هذا الترجيح ، فغضب امرؤ القيس عليها وطلقها ، فخلف عليها (علقمة)[1]. وهي قصة من هذا القصص الموضوع على (امرىء القيس) .

ويقتضي ذلك أن الشعراء كانوا يحفظون شعر غيرهم ، فقد كان منهم من إذا قابل شاعراً ، وجادله في شعره ، أنشده شعره ، وبين له ما يراه فيه من عيوب . وقد رأيت كيف زعموا أن (النابغة) لما جاء (يثرب) ، أراد أهلها أن يظهروا له ما في شعره من (إقواء) ، وهو من عيوب الشعر ، فأمروا قينة فغنت به ، وأبانت له موطن الإقواء ، فأحس به ، ويقال له إنه تركه من يومئذ .

أما استحسان العلماء لشعر شاعر ، أو تخبيثه أو تسخيفه ونقده ، فقد خضع عندهم لعوامل عديدة، قامت في بادىء أمرها على الذوق والمزاج ، فهذا يستحسن شعراً لورود بيت فيه استحسنه واستعذبه على حين يرى آخر أنه لا يساوي شيئاً ، وليس فيه ما يدعو الى المدح والثناء عليه ، ثم على العروض ، فنرى العسكري يعترض على اختيار الأصمعي لميمية المرقش ، وقد سبق لابن قتيبة أن اعترض على اختيار الأصمعي القصيدة أيضاً ، وقال الآمدي انه ليس بحاجة الى ذكر العيوب العروضية فيها لكثرتها[2]، ثم على النحو والبيان والبديع وغير ذلك من علوم الصناعة التي وضعت في الاسلام ، وقد كان عليهم ملاحظة أن هذه العلوم إنما وضعت أو ثبتت في الإسلام ، وان الذوق الجاهلي يختلف عن الذوق الإسلامي ، وان

---

١ الشعر والشعراء (١٤٦/١ وما بعدها) ، (علقمة بن عبدة) ، الاغاني (٢٢٥/٢١ وما بعدها) ، الموازنة (٣٧/١) .

٢ الصناعتين (٤) ، غرونباوم (١١٢) .

(الخليل) لم يجمع كل بحور الشعر الجاهلي ، بل طرح بعض الأوزان المزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها[1] ، ولعله لم يتمكن من الوقوف على أوزان أخرى ، لأنها لم تكن مألوفة بين عرب العراق ، أو لأنها صيغت بلهجات قبائل لم يرتح من شعرها ، لأنه من الشعر القبلي الخاص .

وفضل العلماء الشعر الذي يكون فيه البيت تاماً مستغنياً بمعناه عن غيره ، وقالوا لذلك : البيت المقلد . لأنه قائم بذاته غني عن غيره ، يضرب به المثل[2] . ولهذا رأوا في القصيدة الجيدة ، أن تكون أبياتها مقلدة ، إذا قدمت بيتاً منها على بيت أو أبيات ، أو اذا أخرت بيتاً منهـا ، أو حذفت بيتاً منها أو أكثر ، فإنهـا لا تتأثر بهذا التغيير والتبديل . ولعل لهذا الرأي صلة بقولهم : « ومقلدات الشعر وقلائده البواقي على الدهر »[3] .

وقد أورد (الجاحظ) رأياً في القصيدة لخلف الأحمر ، فقال : « أمـا قول خلف الأحمر :

وبعض قريض القوم أولاد علة

فإنه يقول : إذا كان الشعر مستكرهاً ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلاّت . وإذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختها مرضياً موافقاً ، كان على اللسان عنـد إنشاد ذلك الشعر مؤونة .

قال : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً ، وسُبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان »[4] .

وقد رأينا أمثلة كثـيرة في استحسان شعر شاعر ، أو في المفاضلة بين شعر الشعراء ، والموازنة بينهم ، وقد بنيت على أبيات ، أعجبت الناقـد المفاضل ،

---

١ غرونباوم (١٣٥) .
٢ ابن سلام ، طبقات (١٢٧ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، الجرجاني ، الوساطة (٣٣) .
٣ تاج العروس (٤٧٥/٢) ، (قلد) .
٤ البيان والتبيين (٦٦ وما بعدها) .

ففضل شاعره الذي جعله أشعر الشعراء على غيره ، ثم رأيناه نفسه ، لكن في موقف آخر يفضل غيره عليه ، بسبب بيت أو أبيات أعجبه أو أعجبته . وقد تبدلت هذه النظرة في أيام العباسيين، فنجد لابن سلام مقاييس جديدة في النقد، وفي وضع الشعراء وتصنيفهم الى طبقات . ونجد لابن قتيبة رأياً في النقد يستند على آراء من تقدم عليه وعلى ملاحظاته الشخصية في النقد والموازنة بين الشعراء ، وقد يخالف غيره على رأيه. خذ ما قاله من نقد مرير في (الاصمعي) حيث يقول: « ومن هذا الضرب أيضاً قول المرقش :

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ   لو أن حياً ناطقاً كلّمْ
يأبى الشباب الأقورين ولا   تغبط أخاك أن يقال حكم

والعجب عندي من الأصمعي ، إذ أدخله في متخيره ، وهو شعر ليس بصحيح الوزن ، ولا حسن الروي ، ولا متخير اللفظ ، ولا لطيف المعنى ، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

النشر مسكٌ والوجوه دنا   نير وأطراف الأكف عنم »[1]

ويذكر أهل الأخبار أن من الشعراء من كان يستحسن بيت شاعر ، فيسطو عليه . ونجد (ابن قتيبة) يذكر في كتابه (الشعر والشعراء) ما أخذه الشعراء بعضهم من بعض ، فذكر مثلاً أن (طرفة) ، و (النابغة) الجعدي، والشمّاخ ، و (أوس بن حجر) ، و (النجاشي) ، وزهير ، والمسيب ، وزيد الخيل أخذوا من شعر (امرىء القيس) ، فنظموه في شعرهم[2] . وإذا صح ذلك ، كان معناه أن أولئك الشعراء كانوا قد حفظوا شعر (امرىء القيس) ، وأنهم كانوا يحفظون أشعار غيرهم من الشعراء المتقدمين عليهم أو المعاصرين لهم، وبذلك سطوا على ذلك الشعر أو على معناه .

غير أننا لو درسنا الأمثلة التي ذكرها (ابن قتيبة) وغيره على أنها من سرقات الشعر ، نرى أن أكثرها لا يمكن أن يعد سرقة ، لأن للسرقة الشعرية علامات

١ الشعر والشعراء (١/١٨ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٦٨ وما بعدها) .

ولا نكاد نلمس من هذه العلامات شيئاً في الشعر المتهم بأنه شعر مسروق . وإنما نجده من قبيل توارد الخاطر لا غير ، أسرع نقاد الشعر ، فجعلوه سطواً وسرقة .

ونحن لا نعلم من أمر نقد الشعر عند الجاهليين إلا ما جاء في الموارد الاسلامية وهو شيء قليل ، وهو شيء لا ندري أيضاً مكانه من الصحة ، وكل ما لدينا من تقسيم للشعراء الى طبقات ومن تفضيل شاعر على شاعر ، ومن تفضيل شعر على شعر هو مما عمل في الاسلام،صنع وفق قواعد نقد دوّنها العلماء . وقد ظهرت بواكير النقد العلمي للشعر الجاهلي عند علماء اللغة والنحو والعروض ، ثم تولاها علماء راعوا أصول البيان والبلاغة والبديع في نقد الشعر ، ولما كان هذا النقد لا يخص موضوعنا بالذات ، وقد كتب عنه المتخصصون ، فأنا أترك أمره اليهم، وقد وضعت فيه مؤلفات حديثة ، وضعها عرب ومستشرقون .

أشعر الناس حياً :

ويروي أهل الأخبار أن أشعر الناس حيّاً هذيل . وقيل : « أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم أهل السروات ، وهن ثلاث . وهي : الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن ؛ فأولها هذيل ، وهي تلي السهل من تهامة ، ثم بجيلة في السراة الوسطى وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ، ثم سراة الأزد ، أزد شنوءة ، وهم : بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نصر بن الأزد . وقيل : أفصح الناس : عليا تميم وسفلى قيس ، وقيل:سافلة العالية وعالية السافلة ، يعني : عجز هوازن. وأهل العالية : أهل المدينة ومن حولها ومن يليها ودنا منها ، ولغتهم ليست بتلك عند (أبي زيد)[1] .

ويلاحظ أن هنالك قبائل كثيرة لم يرو علماء الشعر لها شعراً ، أو أنهم رووا شعراً قليلاً لها ، بينها قبائل كبيرة معروفة ، كان لها تقدم ونفوذ ، مثل : (الغساسنة) و (تنوخ) و (لخم) و (بهراء) ، و (كلب) ، ولا يعقل أن يكون الله قد حرم هذه القبائل من قول الشعر ، فلم ينبت في أرضها شاعر ، ولم يقم بينها من جارى القبائل الأخرى في قول الشعر ، وهم عرب مثل غيرهم،

---

١ العمدة (١/٨٨ وما بعدها) .

لهم حس وشعور ، فلا يعقل عدم ظهور شعراء بينهم ، ويظهر أن سبب اهمال رواة الشعر لشعر هذه القبائل هو اعتبارهم هذه القبائل دون القبائـل الأخرى في اللغة والفصاحة ، لأنهم كانوا على اتصال بالحضر ، فلم يسائلوهم ، ولم يقيمـوا لشعرهم وزناً ، ولهذا لم يصل منه الينا شيء ، أو إلا القليل منه ، فظهرت تلك القبائل في جملة القبائل المقلة في الشعر .

وقد روي لبعض الشعراء شعر كثير ، فيــه قصائد طويلة ، وصل لنا في دواوين ، أو في كتب الشعر والأدب ، فوقفنا بذلك على شعرهم . وهناك شعراء اشتهر أمرهم وعرف ذكرهم ، إلا أن معظم شعرهم قد ذهب معهم ، فلم يبق منه إلا القليل ، بحيث لا يتناسب هذا الباقي منه مع الشهرة التي أحاطت بهم . وقد عرف هؤلاء بالشعراء المقلين[1] .

ومن المقلين في الشعر : طرفة بن العبد،وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل، وعدي بن زيد ، وطرفة أفضل الناس واحدة عند العلماء . وهي المعلقة :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

وله سواها يسير.ومن المقلين المحكمين سلامة بن جندل ، وحصين بن الحُمام المري ، والمتلمس ، والمسيب بن علس، ومنهم عنترة ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، وعمرو بن معدي كرب ، والأسعر بن أبي حمران الجعفي ، وسويد بن أبي كاهل ، والأسود بن يعفر[2] .

الشعر والاسلام :

ورد في الحديث : لأن يمتلىء جوف الرجل قيحاً يَريه ، خير من أن يمتلىء شعراً » ، وورد أن رسول الله بينا كان بالعرج ، إذ عرض شاعر ينشد . فقال رسول الله : خذوا الشيطان ، أو امسكوا الشيطان لأن يمتلىء جوف الرجل قيحاً، خير له من أن يمتلىء شعراً »[3] . وفي القرآن : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له

---

١ المزهر (٢/٤٨٥) ، (المقلون من الشعراء) .
٢ العمدة (١/١٠٢ وما بعدها) .
٣ صحيح مسلم (٧/٥٠) ، (كتاب الشعر) ، زاد المسلم (١/٣٥٠ وما بعدها) ، كتاب خلق الانسان (٢٧٥ وما بعدها) ، (لابن أبي ثابت) .

إن هو إلا ذكر وقرآن مبين »[1] ، و « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون »[2] ، و « يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون »[3] ، و « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون »[4] ، و « ما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون »[5] ، و « الشعراء يتبعهم الغاوون . ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا اللهَ كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »[6] .

وورد عن (عائشة) قولها ، وقد قيل لها : « هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث اليه . غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل آخره أوله ، وأوله آخره . فقال له أبو بكر : إنه ليس هكذا ! فقال نبي الله : إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي »[7] . وورد في تفسير : « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر » . « بل قال بعضهم هو أهاويل رؤيا رآها في النوم . وقال بعضهم : هو فرية واختلاق افتراه واختلقه من قبل نفسه ، وقال بعضهم : بل محمد شاعر . وهذا الذي جاءكم به شعر »[8] . وورد في معنى : « ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » ، أن قريشاً قالوا : « أنترك عبادة آلهتنا لشاعر مجنون ... يعنون بذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم »[9] . وقالوا في معنى « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » ، « قال ذلك قائلون من الناس : تربصوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الموت يكفيكموه كما كفاكم شاعر بني فلان وشاعر بني فلان » ، و « قال قائل منهم احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى

١ سورة يس ، الرقم ٣٦ ، الآية ٦٩ .
٢ الانبياء ، الرقم ٢١ ، الآية ٥ .
٣ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية (٣٦) .
٤ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٠ .
٥ الحاقة ، الرقم ٦٩ ، الآية ٤١ .
٦ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ٢٢٤ وما بعدها .
٧ تفسير الطبري (١٩/٢٣) ، (بولاق) ، صحيح مسلم (٤٨/٧ وما بعدها) .
٨ تفسير الطبري (٣/١٧) .
٩ تفسير الطبري (٣٣/٢٣) .

يهلك كما هلك من قبله الشعراء زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم »[1] . وفسر قوله تعالى : « ومـا هو بقول شاعر » ، بـ « ما هذا القرآن بقول شاعر ، لأن محمداً لا يحسن قيل الشعر فتقولوا هو شعر »[2] ، وقولـه : « والشعراء يتبعهم الغاوون » ، « الغاوون الرواة » ، وذكر أنهم في كل لغـو يخوضون ، وان الله استثنى منهم شعراء المؤمنين[3] .

وقد كره ناس الشعر لما ورد عنه في القرآن الكريم وفي الحديث ، وامتنع بعض الشعراء من قوله كالذي ذكروه من ترك لبيد الشعر بعد دخوله في الإسلام، ومن قوله للخليفة (عمر) أو لعامله على الكوفة ، وقد سأله عما قالـه من الشعر في الإسلام : « ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران»[4]. وأهمل بعض الصحابة رواية الشعر ، لما فيها من تذكير بأمر الجاهليـة وبأيامها ، وأقبل آخرون عـلى القرآن يحفظونه بدلاً من الشعر الجاهلي ، ورأى آخرون أن في حفظه وفي انشاده إثارة لنعرة الجاهليـة بعد أن حرمها الله ، كراهية وقوع الفتنة ، وحدوث القتال كالذي كان يقع في الجاهلية ، لا سيما ما يتعلق منه بالمدح وبالهجاء وبالأيام ، ولهـذا قال (عمر) لحسان بن ثابت يوم مرّ به وهو ينشد الشعر بمسجد رسول الله : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير عليّ ذلك ، فقال عمر : صدقت »[5] .

فهذا الشعر المفرق المسبب للفتن أو الثالب للأعراض ، هو الشعر الـذي كره الناس روايته أو نظمه ، ولهذا كان (عمر) يحاسب الهجائين،فلما هجا (الحطيئة) (الزبرقان بن بدر) ، وشكاه (الزبرقان) عليه ، حكّم (عمر) (حسان بن ثابت) فيه ، فحكم عليه أنه « لم يهجه ، ولكن سلح عليه » ، فهو أشد إيلاماً من الهجاء ، فحبسه (عمر) ، وقال: « يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين»[6]،

---

١ تفسير الطبري (٢٧/٢٩) .
٢ تفسير الطبري (٢٩/٤٢) .
٣ تفسير الطبري (١٩/٧٩ وما بعدها) ، الصاحبي (٢٧٣ وما بعدها) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٩٥ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٥ العمدة (١/٢٨) .
٦ الشعر والشعراء (١/٢٤٤) ، (الخطيئة) ، (قال : ذرق عليـه) ، ابن سلام طبقات (٢٥) .

ولما هجا (النجاشي) (بني العجلان) ، فشكوه الى (عمر) ، حكم (عمر) (حسّان بن ثابت) ، و (الحطيئة) في أمر هذا الهجاء ، فلما حكما بأنه هجاهم، قال له (عمر) : « إن عدت قطعت لسانك »[1] . وروي أن رجلاً مرّ بباب رجل ، وقد كان فتمثل :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم

فاستعدى رب البيت عليه (عمر) ، فأمر به (عمر) فحد[2] .

وذكر أن النبي قال : « من قال في الاسلام هجاء مقذعاً فلسانه هدر »[3] . وأنه لما بلغه هجاء الأعشى (علقمة بن علاثة العامري)، نهى أصحابه أن يرووا هجاءه[4] . وروي أن المنع عن رواية الشعر ، كان خاصاً بالشعر الذي هجي به النبي[5] .

ولما هجا (ضابىء بن الحارث) وكان رجلاً بذياً كثير الشر ، وكان بالمدينة صاحب صيد وصاحب خيل ، قوماً من (بني نهشل) استعدوا عليه (عثمان) فحبسه[6] . فكان حبسه لهجائه لا لشعره .

ومع ذلك ، فقد تهاجى الشعراء في أيام الأمويين وتنازعوا فيما بينهم، وتطاول بعضهم على بعض ، وجرأت السياسة هذا الهجاء وأمدته بوقود يزيد في حدته حدة ، لعصبيات وسياسة ، وتجرأ البعض في هجاء الحكومة وفي هجاء المعارضين، وحرض (يزيد بن معاويــة) الشاعر (الأخطل) على هجاء الأنصار ، وفي محيط مثل هــذا المحيط ، انقسم الى أحزاب وفرق ، متخاصمة شديدة عنيفة في الخصومة ، لا بد وأن يجد الشعر فيه أرضاً طيبة ، ومنبتاً خصباً مساعداً . فكانت للشعراء حرية في النيل بعضهم من بعض ، واستفاد خلفاء بني أمية من ذلك ، بتحريض شعرائهم على عض خصومهم ، مما لا مجال للبحث عنه في هذا المكان .

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٤٨) ، (النجاشي) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣٦) .
٣ العمدة (١/١٧٠) .
٤ الفائق (١/٦٦٤) .
٥ الفائق (٢/٣٨٩) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٤٠) .

وكان (عمر) قد نهى الشعراء عن ذكر النساء في أشعارهم ، لما في ذلك من الفضيحة ، وكان الشعراء يكنون عن النساء بالشجر وبالنخلة ، لئلا تشهر المرأة ، وخوفاً من أهلها وقرابتها [1] .

أما الشعر الآخر ، الذي لم يكن ينال الناس ، ولا يتذكر الأصنام والأوثان وأمور الجاهلية التي حرمها الإسلام ، فلم يتعرض له الإسلام بسوء ، بل كان الرسول نفسه يسمع الشعر، ويطلب من الصحابة انشاده له ، وقد ورد أن الرسول سمع (عمرو بن كلثوم) ، وهو بعكاظ ينشد معلقته الشهيرة [2] ، وسمع شعر (أمية بن أبي الصلت) كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، واستمع الى شعر (قيس بن الخطيم) ، والى شعر شعراء آخرين ، وكان يستملحه ويستعذبه ، ولا سيا شعر الحكمة والإرشاد . « جاء النابغة الجعدي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفا الله عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدني منه ، فأنشده :

وإنا لقوم ما نعوّد خيلنا   إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا »

فلما أنشده قوله :

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له   حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا
ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له   بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

قال رسول الله : « لا فض الله فاك » [3] .

ومن سيماء اهتمام الاسلام بأمر الشعر ، أن الشعر الجاهلي انما دون وثبت في أيامه . وأن الصحابة كانوا يحفظونه ويروونه ، وأن دواوينه ، إنما ظهرت في أيام الأمويين . فلم يحرم الاسلام الشعر ، ولم يظهر كرهه له ، وإنما كره الشعر الوثني الذي مجد الوثنية ، فطرح ولم يرو ، ولعل هذا هو السبب الذي جعلنا لا نقرأ في كتب الأدب والأخبار شعراً فيه إشادة بصنم ، أو بأمر من أمور

١ الخزانة (٢/١٩٣ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٩/١٧١ وما بعدها) ، (ساسي) ، (١١/٥٤) .
٣ رسائل الجاحظ (١/٣٦٣ وما بعدها) ، (كتاب فصل ما بين العداوة والحسد) .

الجاهلية المناهضة للإسلام . وقد روي عن النبي قوله : « إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة ، أو قال : حكماً »[1] ، وأنه أمر حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحه ، وكعب بن مالك بهجاء قريش . وأنه قال لحسان : اهجوا قريشاً ، فإنه أشد عليها من رشق النبل[2] .

وقد اعتذر العلماء عن سبب نفي الشعر عن الرسول ، بأن الشاعر ، لا يكاد يكون إلا مادحاً ضارعاً ، أو هاجياً ذا قذع ، وهذه أوصاف لا تصلح للنبي ، ثم إن فيه إيقاعاً، والايقاع ضرب من الملاهي ، ومن هنا لم يصلح الشعر للرسول[3] . وقد بحث (القرطبي) في موضوع نفي الشعر عن الرسول ، فرجع ذلك الى أربع مسائل : الأولى أنه كان لا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه ، وإنما كان يحرز المعاني فقط ، وذلك رداً لقول من قال من الكفار انه شاعر ، وإن القرآن شعر . وقد كان ربما أنشد البيت المستقيم في النادر[4] .

الثانية : اصابته الوزن أحياناً لا يوجب انه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحياناً من نثر كلامه ما يدخل في وزن ، كقوله يوم حنين وغيره :

هل أنتِ إلا إصبعٌ دميت   وفي سبيل الله ما لقيتِ

وقوله :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن ، وفي كل كلام ، وليس ذلك شعر ولا في معناه ، كقوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »،وقوله: « نصر من الله وفتح قريب » ، وقوله : « وجفان كالجواب وقدور راسات» الى غير ذلك من الآيات[5] .

---

١ الصاحبي (٢٧٤) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٨٥٢/٢) .
٣ المزهر (٤٦٩/٢ وما بعدها) .
٤ تفسير القرطبي (٥١/١٥ وما بعدها) .
٥ تفسير القرطبي (٥٢/١٥ وما بعدها) .

الثالثة : إن ما روي من عدم قوله الشعر ، لا يعني عيب الشعر ، وإنما لنفي الظنة عنه من أنه كان يقول الشعر .

الرابعة : ان قوله تعالى : « وما ينبغي له » ، يعني نفي الشعر عنه ، لئلا يظن أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر[1]

فالرسول لم يكره الشعر لكونه شعراً ، ولم يعبه أو نهى عن قوله ، وإنما كان النهي خاصاً به . قال « الخليل بن أحمد : كان الشعر أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من كثير من الكلام ، ولكن لا يتأتى له »[2] .

---

١ المصدر نفسه (١٥/٥٤ وما بعدها) .
٢ كذلك (١٥/٥٢) .

الفصل الثاني والخمسون بعد المئة

تدوين الشعر الجاهلي

ليس في الشعر الجاهلي بيت واحد يستطاع أن يثبت انه كان مدوناً في الجاهلية وان رواة الشعر وحفظته وجدوه مكتوباً بأبجدية جاهلية ، فنقلوه عنها . ولم يتجاسر على ما أعلم أحد من رواة الشعر أو حافظ من حفّاظه على الادعاء بأنه نقل ما عنده من شعر جاهلي من ديوان جاهلي ، أو من قراطيس جاهلية ، أو من مادة مكتوبة أخرى تعود أيامها الى الجاهلية . فكل ما وصل الينا من هذه البضاعة ، انما هو من عهد الكتابة والتدوين ، وعهد التدوين لم يبدأ إلا في الاسلام ، وأول تدوين للشعر ، انما كان في عهد الأمين .

وعدم وصول شعر جاهلي الينا مدون في أيام الجاهلية ، أو منقول عن مكتوبات جاهلية ، ثم عدم ادعاء أحد من قدماء الرواة انه قد نقل من دواوين أو قراطيس جاهلية ، يحملنا على القول بعدم تدوين الجاهليين لشعرهم وبعدم اهتمامهم بتسجيله. فلمَ وقع ذلك ؟ ولمَ أحجم الجاهليون عن تدوين شعرهم ، وهو تراثهم الخالد وسجلهم وديوانهم الذي به حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله ، وآثار صحابته والتابعين ؟ وقال علماء الشعر : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح ، واطمأن العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب

مكتوب ، وألقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقلّ ذلك ، وذهب عنهم كثير »[1] . « قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[2] .

ومعنى هذا ان الشعر الجاهلي لم يكن مدوناً ، وانما كان محفوظاً في الصدور ، وقد ورد رواية باللسان ، فكانوا يتلونه حفظاً لا عن صحيفة أو كتاب ، يؤيد ذلك ما ورد في الأخبار من ان (بني أمية) ، وقد كانوا شغوفين جداً بالشعر القديم ، ربما اختلف الرجلان منهم في بيت شعر ، فيرسلان راكباً الى (قتادة) يسأله ، عن خبر ، أو نسب ، أو شعر ، وكان قتادة أجمع الناس . ولقد قدم عليه رجل من عند بعض أولاد الخلفاء من بني مروان ، فقال لقتادة : من قتل عمراً وعامراً التغلبيين يوم قِضة ؟ فقال : قتلها (جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) . قال فشخص بها ثم عاد اليه . فقال : أجل قتلها جحدر ، ولكن جميعاً ؟ فقال : اعتوراه فطعن هذا بالسنان ، وهذا بالزج فعادى بينهما[3] . وعلى ما في هذا الخبر من أثر الصنعة والتكلف ، فإن فيه دلالة على شغف الأمويين بسماع أخبار الأيام الماضية ، وبعدم وجود مدونات في ذلك الوقت ، تضم الشعر والأخبار والنسب ، لذلك ، كانوا يرسلون الى خاصتهم ومن يرون فيه العلم بهذه الأمور للاستفسار منهم عما يريدون الوقوف عليه .

ويؤيد ذلك أيضاً ما ورد من أن الرسول كان اذا أراد سماع شعر شاعر ، سأل من كان في حضرته من يحفظ من شعر فلان ؟ فينشده عليه من قد يكون حافظاً له ، ثم ما يروى من ان الصحابة كانوا يحفظون الشعر ، ومن انهم كانوا اذا أرادوا الوقوف على شعر شاعر لم يحفظوا شعره ، سألوا غيرهم ممن يحفظه عنه . ولم نسمع في الأخبار ، ان أحداً من الصحابة ، كان يملك ديواناً ، أو كتاباً فيه شعر ، أو خبر ، أو نسب ، وانهم كانوا يرجعون الى المدونات ، في مثل هذه الحالات .

ولكن ما ذهبنا اليه من عدم وجود تدوين للشعر الجاهلي وللأخبار الجاهلية ،

---

١ المزهر (٢/٤٧٣ وما بعدها) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) .
٢ المزهر (٢/٤٧٤) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) .
٣ العسكري ، التصحيف والتحريف (٤) ، مصادر الشعر الجاهلي (١٩٨) .

تنفيه روايات تزعم ان الجاهليين كانوا يدونون أشعارهم ، فقد روي ان (النعمان ابن المنذر) أمر « فنُسخت له أشعار العرب في الطنوج وهي الكراريس ، ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن عبيد الثقفي ، قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[1] . وروايات تذكر انه « قد كان عند آل النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بني مروان أو ما صار منه »[2] . وروايات تقول ان العرب كانت شديدة العناية بشعرها ، مبالغة في المحافظة على الجيد منه ، فأمرت بكتابتها بماء الذهب على القباطي وبتعليقها على الكعبة ، إعجاباً بها وإشادة بذكرها . وقد عرفت تلك القصائد بالمذهبات وبالمعلقات وبالسموط[3] . وروايات تذكر ان الملك كان اذا استجديت قصيدة يقول: « علّقوا لنا هذه لتكون في خزانته »[4] .

وتنفيه أيضاً روايات أخرى تفيد أن بعض الشعراء الجاهليين كانوا يقرأون ويكتبون ، كالذي جاء عن (عدي بن زيد) العبادي ، وعن (المرقش الأكبر) من أنه كان قد تعلم الكتابة من رجل من أهل الحيرة ، فصار يكتب أشعاره ؛ وكالذي يظهر من بيت لابن مقبل يفيد أن عرب أواسط جزيرة العرب كانوا يدوّنون أشعار الشعراء[5] .. وقد ذكر أن (سعد بن مالك) والد (المرقش) ، أرسله وأخاه الى رجل من أهل الحيرة فعلمها الكتابة[6] . وروي أنه كان يكتب بالحميرية[7] ، فلا يعقل إذن أن يدوّن أمثال هؤلاء الشعراء الكتاب القرّاء شعرهم ، أو بعض شعرهم المستجاد على الأقل !

وتنفيه الرواية القائلة إن (لقيط بن يعمر) الإيادي ، كتب قصيدة وأرسلها

---

١ المزهر (١/٢٤٩) ، (النوع الخامس عشر . معرفة المفاريد) ، ابن جني ، الخصائص (١/٣٩٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/٧٠) ، (الطنوج) .
٢ المزهر (٢/٤٧٤) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) ، تاج العروس (٢/٧٠) ، الجمحي طبقات (١٠) .
٣ المزهر (٢/٤٨٠) ، (مشاهير الشعراء) .
٤ المزهر (٢/٤٨٠) ، (مشاهير الشعراء) ، العمدة ، لابن رشيق (١/٩٦) .
٥ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٣) ، مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد الرابع ، الجزء الثاني) ، (١٩٥٦ م) ، (ص ٥٢٢) .
٦ الاغاني (٦/١٣٠) ، المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٣٩) .

الى قومه (إياد) يحذرهم فيها من مجيء جيش كسرى اليهم ، للإيقاع بهم ، وذلك في قصيدته التي استهلها بقوله :

سلام في الصحيفة من لقيط الى مَنْ بالجزيرة من إياد[1]

وتنفيه روايات أخرى تشير الى أن العرب في صدر الإسلام ، كانوا يدوّنون الشعر ويوزعونه بين الناس لينتشر بينهم ، فلما هجا (النجاشي) الأنصار ، اجتمع سادتهم وتذاكروا أمره ، ثم ذهب قوم الى (حسان) ، فنظم شعراً في هجائه ، كتبه غلمان الكتاب[2] ، وما كانت الغاية من تدوين الغلمان له ، إلا اذاعته ونشره بين الناس . وروي أن (عبدالله بن الزبعرى) ، و (ضرار بن الخطاب) الفهري ، قدما المدينة فتلاحيا مع (حسان) ، في أمر الشعر ، وقالا شعراً مما كانا قالاه في الأنصار ، وكان عمر قد نهى عن رواية شعر الهجاء حذر الفتنة ، فغضب (حسان) منهما ، وذهب الى (عمر) ، فأخبره بما وقع ، فأرسل وراءهما ، وطلب من حسان أن ينشدهما مما قاله لهما ، فأنشدهما ، فلما انتهى من إنشاده كتب ذلك ، وحفظ مع شعر الأنصار ، وكانوا يكتبونه حذر بلاه[3] . وروي أن (طلحة) ، أنشد قصيدة ، فما زال شانقاً ناقته حتى كتبت له[4] .

غير اننا اذا ما تتبعنا تأريخ ورود هذا الذي ذكرته عن وجود التدوين في الحيرة وارتفعنا به حتى نصل به الى أصله ، نجد انه جاء كله نقلاً ، وقد أخذه المتأخرون عن المتقدمين ، والمتقدمون عن طبقة أقدم ، حتى نصل الى مرجع واحد هو آخر سلسلة السند ، الذي ينتهي بـ (حماد الراوية) و (ابن الكلبي) . فحماد هو صاحب الزعم المتقدم ، القائل ان النعمان بن المنذر ، أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج[5] ، وابن الكلبي هو صاحب الخبر القائل ان العرب علقت القصائد السبع على الكعبة ، وان العرب اختارتها من بين القصائد الجاهلية الكثيرة فوضعتها على أركان الكعبة ، إعجاباً بها وإشادة بذكرها !

---

١ الشعر والشعراء (١/١٢٩) ، الاغاني (٢٠/٢٣) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (١٢٥) .
٣ الاغاني (٤/١٤٠ وما بعدها) .
٤ الزمخشري ، الفائق (١/٦٧٧) .
٥ المزهر (١/٢٤٩) ، (النوع الخامس عشر) .

وهناك رواية أخرى مشابهة لرواية حماد عن تعليق المعلقات ، يرجع سندها الى (ابن الكلبي) ، هذا نصها : « قال ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ وقيل سنة ٢٠٦ : أول شعر علق في الجاهلية شعر امرىء القيس ، علّق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتّى نظر اليه ، ثم أحدر فعلقت الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدّوا من علق شعره سبعة نفر ، إلا ان عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة »[1] . « وزاد بعضهم انهم كانوا يسجدون لها كما يسجدون لأصنامهم »[2] . ولابن الكلبي زعم آخر له علاقة بهذا الموضوع ، فقد ذكر انه كان يقول : « كنت أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى ، وتأريخ نسبهم ، من كتبهم بالحيرة »[3] .

فنحن اذن أمام رجلين يرجع اليهما خبر وجود تدوين للشعر الجاهلي ، كان أحدهما من أمرس الناس بالشعر الجاهلي ، وكان ثانيهما من أشهر رجال الأخبار . ولا نعرف أحداً تقدم عليهما : زعم هذا الزعم ، أو ادعى هذه الدعوى ! ثم اننا لا نجد في مؤلف من المؤلفات الاسلامية التي وصلت الينا ما يفيد ان أحداً قد نقل شيئاً من مدون جاهلي ، أو قرأ فيه ، خلا ما ورد عن (ابن الكلبي) من انه كان يستخرج أنساب آل نصر وتأريخ من حكم منهم ومدد أعمارهم وما الى ذلك من بيع الحيرة[4] .

ولا يعقل بالطبع تصور انفراد حمّاد وحده بمعرفة أمر ديوان النعمان بن المنذر ، دون سائر الرواة وعشاق الشعر ، وبينهم من كان لا يقل حرصاً ولا تتبعاً له عن حمّاد . ولا يعقل أيضاً تصور بلوغ الحرص والأنانية بآل مروان درجة جعلتهم يضنون حتّى بالتلويح أو باراءة ذلك الديوان الجاهلي بعضهم بعضاً . ولو كان عند آل مروان ذلك الديوان حقاً ، لافتخروا بوجوده لديهم ، ولعرضوه على الناس ، ولأخذوا منه الشعر القديم ، ولما استعانوا بالرواة من حمّاد وأمثاله ليرووا لهم الشعر الجاهلي وليجمعوا لهم ذلك الشعر ، وحمّاد نفسه شاهد على ذلك.

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٣/١٨٧ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٣/١٨٦) .
٣ تأريخ الطبري (٢/٣٧) .
٤ تأريخ الطبري (٢/٣٧) .

حيث كانوا يستدعونه من العراق ليسألوه أمـــر شعر ، خفي عليهم ، أو شعر لا يعرفون عنه شيئاً ، ثم كيف يسكت رواة أهـــل الكوفة عن هذا الديوان ، فلا يشيرون في أخبارهم ورواياتهم اليه ، ولا يلحقون به سندهم في روايتهم للشعر؟ قال (ابن النديم) : « قال أبو العباس ثعلب : جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وردّ الديوان الى حمّاد وجناد »[1] ، فلو كـــان لدى آل مروان ديوان جاهلي قديم ، فهل يعقل ترك الوليد ذلك الديوان وذهابه الى حمّاد وجنّاد يستعين بما عندهما من دواوين شعر ، أو من ديوان شعر ليجمع له ديواناً بأشعار القدماء ، فلما جمع له ديواناً من ديواني حماد وجنّاد أعادهما عليها ! ولو فرضنا أنـه كان قد استعان بهما ، لأنهما كانا قد جمعا شعر شعراء لم يكن عنده شعرهم ، فإن الرواة ما كانوا ليسكتوا هـذا السكوت المطبق عن ذلك،ولقالوا على الأقل إنه قد كان عنده ديوان شعر جاهلي، لكنه لم يكن تاماً ، يضم كل أشعار الجاهليين ، فاستعان بهما لسدّ هذا النقص. ولو كان ديوان حمّاد أو ديوان جناد من دواوين أهل الجاهلية ، لما سكت العلماء عن ذلك ، ولما سكت حماد نفسه ، أو جنّاد من التنويه به ، لما لهذا التنويه من أهمية بالنسبة لهما ، ولإثبات أنهما كانا صادقين في رواية الشعر ، وانهما استقيـــا الشعر من منابع أصيلة لا يرتقي اليها الشك .

ثم انه لو كان لحماد أو غيره من أهـــل الكوفة ديوان جاهـلي ، أو ان أهل الكوفة كانوا قد وقفوا على ديوان النعمان بن المنذر أو على كتب من كتب أهل الحيرة في الشعر أو في التواريخ والأخبار ، لما سكتوا عن ذلك أبداً،ولأسندوا روايتهم الى تلك المدونات ، رداً بذلك على أهل البصرة الذين اتهموهم بالافتعال وبنحل الشعر على ألسنة الشعراء الجاهليين ، وبأخذهم من أفواه أعراب لا يطمئن اليهم ، على الأقل .

إن سكوت الرواة وعلماء الشعر عن أمر هذا الديوان ، واقتصار خبر وجوده على روايات حماد ، يحملنا هذا السكوت الغريب ، على الشك في هذا المروي عنه وعلى التريث ولو مؤقتاً في تصديقه ، حتى يقوم دليل جديد مقنع بوصول شيء من مكتوبات أهل الحيرة الى الاسلاميين يمكننا من إبداء رأي علمي واضح في هذا الموضوع .

---

[1] الفهرست (١٤٠) .

وقد سكتت كل الأخبار التي تحدثت عن (طنوج) النعمان بن المنذر ، عن الجهة التي دخل الديوان في ملكها . كما سكتت عن مصيره النهائي . فأين ذهب يا ترى ذلك الديوان ؟ ولِمَ لم ينقل منه أحد ؟ ولِمَ لم يشر الى وجوده شخص آخر غير حمّاد ؟

ولم أعثر حتى الآن علـى خبر يفيد علم أحد من المتقدمين على حماد بوجود ديوان شعر جاهلي مدوّن ، ولا ينقل أحد من الرواة وبضمنهم حماد نفسه من هذا الديوان أو من ديوان آخر يعود تأريخه إلى أيام الجاهلية . مع أن بين عشاق الكتب من كان يقتني الكتب والقراطيس القديمة ، ويتهالك ويستهتر في المحافظة عليها وفي العناية بها ، وبينهم من كان يملك ما شاء الله منها . وقد قص (ابن النديم) الورّاق المتهالك في البحث عـن الكتب قصصاً عن القراطيس والكتب القديمة وعن استهتـار الناس بجمع الخطوط العتيقة ، ولم يشر الى عثوره هو أو غيره على صفحة واحدة مكتوبة قبل الإسلام في الشعر أو في النثر . ولـو كان قد سمع بهذه الأوراق ، لما تركها تمرّ سبيلها ، فلا يراها أو يسمع عنهـا ممن وقف عليها ورآها على الأقل[1] . نعم : ذكر أنه « كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعا ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والملكان . وكان الخط شبه خط النساء »[2] . وهو خبر تظهر عليه آثار الصنعة ، والوضع .

وقد يكون خبر الديوان ، وخبر (الطنوج) من مفتعلات (حماد) و (ابن الكلبي) ، لإظهار سبب تفوق أهل الكوفة على أهل البصرة بالعلم بالشعر ، كما يظهر ذلك جلياً من نص الخبر ، وهو « ومن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[3] ، ولإظهار سبب تفوق (ابن الكلبي) على غيره من أهل الأخبار في رواية أخبار ملوك الحيرة ، غير اني لا أستبعد مع ذلك وجود دفاتر وكتب في خزائن ملوك الحيرة وفي قصورها وكنائسها ، قد كان فيها شعر ونثر وأخبار

---

١ الفهرست (٦٧) ، (المقالة الثانية من كتاب الفهرست) .

٢ الفهرست (ص ١٣ وما بعدها) ، (الكلام على القلم العربي) .

٣ الخصائص (٣٩٢/١) .

ومراسلات وسجلات بالأموال وما شابه ذلك ، لوجود ديوان حكومي عندهم تولاه (عدي بن زيد) ، ووجود علماء ورجال دين عندهم ألّفوا الكتب في أمور الدين وفي العلوم التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، لكنها تلفت وهلكت بسبب الأحداث التي وقعت في الحيرة أيام الفتح الاسلامي لها ، وارتحال الناس عنها وفي جملتها رجال الدين ، وتهدم كنائسها وبيوتها بسبب نقل حجارتها الى الكوفة لبناء بيوتها بها ، مما سبب تلف تلك المدونات المكتوبة على أدم وقراطيس سهلة التلف ، والتي لا يمكن لها مقاومة مثل هذه الأحداث . ولا يستغرب ذلك، فقد تلفت نسخ القرآن الأولى مثل نسخة (حفصة بنت عمر) ، ونسخة (عثمان) وهلكت رسائل الرسول وكتبه على أهميتها ، وذهبت الصحف القديمة التي دوّن بها الحديث أو سيرة الرسول ، وغير ذلك،في أيام الراشدين وبني أمية ، فهل يستغرب بعد ذلك ذهاب ما دوّن في أيام ملوك الحيرة وانطماس أثره !

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع تدوين الشعر أو عدم تدوينه عند الجاهليين، فقال : « ومن ثم يعد خطأ من مركليوث وطه حسين ان أنكرا استعمال الكتابة في شمال الجزيرة العربية قبل الاسلام بالكلية ، ورتبا على ذلك ما ذهبا اليه من ان جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم ، ومنحولة لأسمائهم .

ولكن بديهياً ان الكتابة لم تقض قضاء كلياً على الرواية الشفوية . فقد كان لكل شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية يصحبه ، يروي عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس ، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده. وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً .

وعن الرواة كانت تنتشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل ، بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه . ولهذا لم يمكن التحرز عن السقط والتحريف ، وإن لاحظنا ان ذاكرة العرب الغضة في الزمن القديم كانت أقدر قدرة لا تحد على الحفظ والاستيعاب من ذاكرة العالم الحديث »[1] .

وقد تعرض المستشرق (كرنكو) لموضوع الكتابة والتدوين عند العرب ، وقد ذهب الى أن نظم الشعر مرتبط بالكتابة ، بدليل أن بعض القوافي تظهر حقيقتها

---

١ بروكلمن (١/٦٥) .

للعيان أكثر منه للسمع ، بحيث أن الحروف وليست الأصوات ، هي التي تلعب دوراً هامــاً في الشعر[1] . غير أن رأيه هذا لم ينل تأييداً من غالبية المستشرقين . وذهب (كولدزيهر) ، الى احتمال تدوين العرب لشعر الهجاء ، لما لهذا النوع من الشعر من أهمية عندهم ، فإن في شعر الشاعرة (ليلى) الأخيلية :

أتاني من الأنبـاء أن عشيرة بشوران يزجون المطي المذللا
يروح ويغدو وفدهم بصحيفة ليستجلدوا لي،ساء ذلك معملا[2]

وفي شعر ابن مقبل :

بني عامر ، ما تأمرون بشاعر تخيّـر بابات الكتاب هجائيا[3]

غير أن بعضهم يرى صعوبة تصور ذلك ، لعدم وجود أدلة مقنعة تثبت هذا الرأي[4] .

وقد توقف (بلاشير) أيضاً في قضية تدوين الرواة لشعر الشاعر الذي تخصصوا به ، أو برواية شعر أي شاعر كان . يرى احتمال تــدوين بعض الرواة الحضر لبعض عيـــون الشعر ، غير أنه يعود ، فيرى أن ذلك مجرد احتمال ، وإن من الصعب اثباته بأدلة مقنعة ، ويذهب الى أن رواية الرواة ، كانت رواية شفويـة كذلك[5] .

ولا استبعد احتمال تدوين الشعراء الجاهليين الذين كانوا يحسنون الكتابة والقراءة لأشعارهم ، كما لا استبعد احتمال تدوين رواة الشعر للشعر ، ولا سيما ما نبــه وشرف منه ، غير أننـــا لا يمكن أن نقول إن الشاعر كان إذ ذاك يدوّن كل شعره ، أو أن الرواة ، كانوا يدونون كل ما حفظوه من الشعر ، لأن هـــذا النوع من التدوين لم يكن مألوفاً عندهم ، كما كان يكلف ثمناً باهظاً ، لا قبــل للشاعر أو للراوية بتحمله ، ثم إن القرطاس كان نادراً عندهم ، والتدوين عـلى

---

١ بلاشير ، تاريخ الادب العربي (٩٤ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (ص ٩٨) .
٣ العمدة (١٥٩/٢ وما بعدها) ، الحيوان (١١٢/٧) ، ديوان ابن مقبل (٤١٠) .
٤ بلاشير (٩٨ وما بعدها) .
٥ بلاشير (١٠١) .

الأدم ، غالياً ، ينـــوء بثمنه الشاعر أو الراوية ، ويأخذ مكاناً ، ولا سيما اذا كان الشاعر من الأعراب ، وأنا لا استبعد احتمال وجود مثل هذه المدوّنات عند الحضر ، مثل أهل الحـــيرة ، لانتشار الكتابة بينهم ولشيوع التدوين عندهم ، ولكن الأحداث وعوامل الطبيعة أتلفت تلك المدوّنات ، فلم تسقط لهـــذا السبب في أيدي رواة الشعر والأخبار .

ولا تزال الرواية الشفوية مستعملة حتى اليوم ، مع وجود التدوين وكثرة الورق. فلأغلب شعراء العراق اليوم مثلاً رواة يدونون شعر الشاعـــر ويحفظونه في الوقت نفسه حفظاً ، فإذا حضروا مجلساً ، وجاء ذكـــر الشعر ، أو شعر شاعر يروون شعره تلوه حفظاً على السامعـــين . وفي النجف رواة شعر ، دونوا شعر شعرائها المحدثين مثل الحبّوبي وغيره في دواوين ، وحفظوه في الوقت نفسه حفظـــاً في قلوبهم ، ومنهم من حفظ شعره من غير تدوين له ، وقد يزيد ما يحفظونه على ما هو مدون ، بسبب ان الشاعر قد يحضر مناسبة تهزه فيقول فيها شيئاً، فيحفظه رواته والمعجبون به ، وقد يفوت تسجيله على رواته الذين يلازمون الشاعر ، فلا يقفون على خبره ، ويدفع الإعجاب بالشاعر المعجبين به على التقاط شعره وحفظه في أدمغتهم حتى كأنهم أشرطة تسجيل حساسة ، لا يفوتها من التسجيل أي شيء.

وبسبب عدم لجوء الجاهليين الى تدوين شعرهم في الغالب ، لأسباب عديدة ، منها ندرة الورق ، وغلائه ، واعتمادهم في حفظه على الذاكـــرة ، هلك أكثره بموت حفّاظه ، وأصيب قسم منه بتحريف وتغيير ، وزيد بعض منه ، ونقص منه بعض آخر ، وصنع شعر على المتقدمين لأغراض مختلفة ، ونسب الشعر الى جملة شعراء ، ورويت أبيات بروايات مختلفة ، وما كان ذلك ليحدث ، لو انهم كانوا قد عمدوا الى تدوينه وتثبيته . « قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير . ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه ، قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، والذي صح لهما قصائد بقدر عشر ، وان لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة . وإن كان ما يروى من الغثاء لهما فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة . ونرى ان غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير ان الذي نالهما من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذلك ، فلما قلّ كلامهما

حُمل عليها حمل كثير »[1] . وقد ذكر (ابن سلام) ان « عبيد بن الأبرص قديم الذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب لا أعرف له إلا قوله :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذّنوب

ولا أدري ما بعد ذلك[2] ».

وذكر أنه قد سقط من شعر شعراء القبائل الشيء الكثير ، وفات على علماء الشعر منه ما شاء الله ، مما لم يحمله الينا العلماء والنقلة . وقيل عن الأصمعي : « كان ثلاثة اخوة من بني سعد لم يأتوا الأمصار ، فذهب رجزهم ، يقال لهم : منذر ونذير ومتنذر ، ويقال إن قصيدة (رؤبة) التي أولها :

وقاتم الأعماق خاوي المخترق

لمتنذر »[3] .

وينسب الى (أبي عمرو بن العلاء) قوله : « لما راجعت العربُ في الإسلام رواية الشعر بعد أن اشتغلت عنه بالجهاد والغزو ، واستقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قومٌ قلت وقائعهم وأشعارهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ؟ فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواية بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولّدون ؛ وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الأشكال»[4] .

وقال (ابن قتيبة) : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام ، أكثر من أن يحيط بهم مُحيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو انفد عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال .

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٠) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣٦) .
٣ الشعر والشعراء (٩) .
٤ المزهر (١/١٧٤ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (١٤) .

ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[1] .

وورد عن (أبي عبيدة) قوله : « ان ابن دؤاد بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب والميرة ، فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته ، فلما فقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ، ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علينا علمنا أنه يفتعله »[2] .

وقد ينسب قوم شعراً لشاعر ، بينما ينسبه قوم لشاعر آخر ، وقد يختلف في ذلك أهل البادية عن أهل الحاضرة ، فقد روي مثلاً ان أهل البادية من(بني سعد) يروون البيت :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مربض المستنفر الحامي

للزبرقان بن بدر ، بينما يرويه غيرهم للنابغة . وقد ذكر الرواة ، ان من المحتمل أن يكون (الزبرقان) استزاده في شعره كالمثل حين جاء موضعه لا مجتلباً له ، وقد تفعل ذلك العرب ، لا يريدون به السرقة[3] . وقد حدث مثل ذلك في بيت شعر هو لأبي الصلت بن أبي ربيعة ، هو :

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

بينما ترويه بنو عامر للنابغة الجعدي[4] .

ونسب :

وبعد غدٍ ، يا لهف نفسي من غدٍ إذا راح أصحابي ولست برائح

الى (هدبة بن خشرم) ، وعزاه آخرون الى (أبي الطمحان) من

---

١ الشعر والشعراء (٨) .
٢ المزهر (١/١٧٥) ، ابن سلام ، طبقات (١٤) .
٣ ابن سلام ، طبقات (١٧) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٧) .

المخضرمين ، ثرب الزبير بن عبد المطلب[1] .

وروي أن البيت :

الحمد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

وهو بيت بنسب الى (أمية بن أبي الصلت) ، وكان معروفاً عند حفظة الشعر مثل (الحسن بن علي بن أبي طالب) أنه له ، إلا أن الرواة يذكرون أن (النابغة) الجعدي ، قال للحسن : « يا ابن رسول الله ، والله اني لأول الناس قالها ، وان السروق من سرق أمية شعره »[2] . وروي أيضاً أن البيت :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ   يبنون من دون سيله العرما

هو من قصيدة للنابغة الجعدي ، غير أن قسماً من علماء الشعر يروبها لأمية بن أبي الصلت ، وقسماً آخر ، كان متردداً ، فقد ذكر أن راوية سأل (خلف الأحمر) عن القصيدة ، فقال : للنابغة ، وقد يقال لأمية[3] . ويظهر من هذين المثلين ، أن الرواة كانوا يخلطون بين شعري الشاعرين .

ومن ذلك نسبة الشعر الذي فيه :

دانٍ مُسفٌّ فريق الأرض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بعقوته   والمشتكي كمن يمشي بقرواح

الى عبيد بن الأبرص ، أو أوس بن حجر[4] .

ونسبة الشعر :

والشعر صعب وطويل سلمه   اذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

الى رؤبة والى الحطيئة[5] .

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٧٤ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .
٤ الحيوان (٦/١٣٢) .
٥ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .

ويقع من ذلك شيء كثير مذكور في كتب الشعر والأدب ، وهو يدل على ان الشعر لم يكن مدوناً في بادىء أمره ، وانما كان يروى حفظاً ، ولو كان قد أخذ من كتاب لما جاز عقلاً وقوع مثل هذا الخطأ والاشتباه .

ويحدث ان شاعرين يصنعان قصيدتين من بحر واحد وروي واحد ، فيختلط أمرهما على الرواة ، يدخلون أبياتاً من هذه في تلك ، فتختلط نسبة الأبيات[1] .

وقد وضع على لسان (عدي بن زيد) العبادي شعر كثير . وقد علل (ابن سلام) سبب ذلك بقوله : « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد، واضطرب فيه خلف ، وخلط فيه المفضل فأكثر . وله أربع قصائد غرر وروائع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن »[2] . وقد تكون للعصبية يد في هذا الوضع . فعدي من أهل الحيرة ، وقد تعصب أهل الكوفة للحيرة ، إذ انتقل أكثر أهل الحيرة الى الكوفة فأقاموا بها ، وتعصبوا لتأريخهم القديم ، فلعل هذه العصبية هي التي حملتهم على وضع الشعر على لسانه لرفع شأن نصارى الحيرة في الشعر .

ومع اشتهار الحيرة بالكتابة ، واشتهار (عدي) بها خاصة ، إذ كان من كتاب (كسرى) بالعربية ، فإننا لم نعثر على خبر يفيد ان الرواة أخذوا شعر (عدي) عن ورقة جاهلية ، أو ديوان جاهلي مدون . ولو كان لعدي ديوان مدون ، لما وقع في شعره ما قاله (ابن سلام) .

وقد يسأل سائل : كيف يعقل أن يضع شاعر مثل حمّاد الراوية شعراً فخماً جزلاً يستعز به ثم ينسبه الى الجاهليين ؟ ولو نسبه الى نفسه لكان اليوم فخراً له ولعدّ من أكابر الشعراء فأقول : كان طلب آل مروان للشعر الجاهلي شديداً . وهذا ما صير رواية الشعر من الحرف النافعة التي كانت تدر أرباحاً طيبة لأصحابها تزيد على الأرباح التي يحصل عليها الشاعر من شعره . وقد كسب حمّاد من حرفته هذه مالاً حسناً . غير أن الإلحاح في طلب هذا الشعر والإغراء الذي أبداه عشاق الرواة ، أفسد الرواة ، وحملهم على وضع الشعر وحمله على القدماء للحصول على الأجر ، ولنيل الحظوة ، ولإظهار العلم وسعة الحفظ . وقد زاد في هذا الوضع

---

١ الحيوان (٦/١٣٢) ، (حاشية رقم ٣) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣١) .

المنافسة الشديدة التي كانت بين الرواة ، فخلقت هذه الظروف وأمثالها شعراً جديداً منحولاً حسب على ملاك شعر الجاهليين .

ونجد في ثنايـا كتب الأدب وفي كتب الشعر أشعاراً كثيرة منحولة وضعت قديماً على ألسنة الجاهليين، وضعت لأن الناس كانوا يومئذ في شوق عظيم وتعطش الى سماع أشعار من قبلهم،كانوا يقبلون عليها أكثر من إقبالهم على شعر معاصريهم من الشعراء ، ويجزلون لـه العطاء أكثر من إجزالهم لسماع شعر شاعر معاصر ، إلا ما قد يكون منه في المدح والذم . وكان ربح الراويـة القدر المتبحر بالشعر الجاهلي المتجر به العارف بنظم الشعر لا يقـل عن ربح الشاعر العظيم ان لم يزد عليه في أكثر الأحيان . والعادة أن مكافأة الشاعر المعاصر على شعره ، لا تكون إلا في أمور لها صلة بالمجتمع، مثل المدح والهجاء والهزل والاستخفاف والتضحيك، أما في غير ذلك فتقديره الى العلماء وأصحاب الذوق ، وهم لا يثيبون على هـذه الأمور إلا قليلاً ، ولهذا يكون تقدير الشاعر الذي لا يمدح ولا يهجو ولا يتقرب لأحد بالأمور المذكورة ، بعد موته في الغالب ، فلا ينال مثل هـذا الشاعر من العيش ما يكفيه . ثم إن الراوية مطلوب في كل وقت ، مرغوب فيه ، وسوقه رائجة . فإذا غنّت مغنية بيتاً قديماً ، أراد السامعون معرفة صاحبـه ، وأكثر الناس خبرة بأصحاب الشعر القديم هم الرواة ، وهم قلة ، لمـا يجب أن يكون في الراوية من خصائص تجعله من نوادر الرجال . فالذكاء الخارق ، والعلم بالشعر وبأساليبه ، والتمكن من العربية بمفرداتها وبلهجاتها وبالقبائل وبأيام العرب وبأمثال ذلك ، هي من اللوازم التي لا تتهيأ لكل إنسان ، ولذلك لم يكن أمثال هؤلاء الرواة إلا أفراداً نص العلماء على أسمائهم نصاً . وقد نالوا في أيامهم شهرة لم تكن أقل منزلة من شهرة أفذاذ الشعراء ، وقد تدرب عليهم فحول الشعراء ، وتخرج من مدرستهم أعاظم شعراء العرب في الإسلام . فرواية الشعر إذن وحفظه وصنعه، لم تكن حرفة سهلة يسيرة ، ولا منزلة صغيرة بالنسبة الى منزلة الشاعر ، إنهـا لا تقل في السمو عن أرفع منزلة وصل اليهـا الشعراء في ذلك العهد . ولم يقل دخل الراوية من عطايا الملوك وهداياهم بأقل من دخل الشاعر ، إن لم يزد عليه في بعض الأحيان ، ولهذا فليس بغريب إذا ما رأينا الشاعر ينسب شعره للجاهليين، ويرويه على أنه من شعر شاعر جاهلي قديم ، ولا ينسبه لنفسه .

وآفة ما تقدم عدم التدوين والتقييد ، ولو كان الشعر مدوناً في صحف وكتب،

ومقيداً على حجر ، لما ضاع هذا الضياع ، ولما اعتوره هذا التغيير ، الخطير ، فحوّر فيه وغيّر ، وقد أدرك أثر هذا المرض على الشعر ، شاعر اسلامي ، هو ذو الرمة ، فقال : « لعيسى بن عمر : اكتب شعري ، فالكتاب أحب إلي من الحفظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام»[1].

وقد كان للشعراء الذين ظهروا في أيام الأمويين رواة ، يروون شعرهم ، كما كانوا يهذبونه وينقحونه ويدخلون بعض التغيير عليه ، بعلم الشاعر وبموافقته ، لعلة فاتت عليه ، فقد كان لجرير رواته ، وكان للفرزدق رواته ، وكانوا يقوّمون ما انحرف من شعرهم وما قد يكون فيه من سناد وعيوب ، خفي أمرها على الشاعر ، فأدرك أمرها الرواة[2] .

رواة الشعر :

وقد ذكر علماء الشعر ان الشعراء في الجاهلية كانوا يتخذون لهم رواة يحفظونهم شعرهم حفظاً ويروونه رواية.ومعنى هذا ان أولئك الرواة كانوا يلازمون الشعراء، فإذا نظم الشاعر شعراً تلاه على راويته ليحفظه فلا ينساه ، واذا غيّر الشاعر في شعره أو عدّل فيه أشار على راويته بما غيّر وعدّل حتى يعدّل هو ويغيّر في الذي حفظه . فراوية الشاعر ، هو نسخة ثانية حافظة لشعر الشاعر ، أما النسخة الأولى ، فهو الشاعر نفسه . وقد يتهيأ للشاعر جملة رواة . ويقال لمن يحفظ الكثير من الشعر ، وللكثير الرواية هو « راوية للشعر »[3] .

وأولئك الرواة ، هم دواوين شعر ناطقة ، تحفظ المتون ،أي أصول الشعر ، كما تحفظ المناسبات ، أي الظروف التي قيل فيها ذلك الشعر . وهم أنفسهم ذوو حس مرهف ، وفهم عالٍ للشعر . إذ لا يقبل على رواية الشعر وحفظه إلا أصحاب الحس المرهف الموهوبون ، الذين لهم طبع شاعري ، وميل غريزي فيهم اليه . ولهذا تنتهي الرواية بالراوية في الأغلب الى قول الشعر ونظمه ، فيكون في

---

١ الحيوان (١/٤١) ، (عبد السلام محمد هارون) .
٢ الاغاني (٤/٢٥٦ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١٠/١٥٨) ، (روى) .

عداد فحول الشعراء . والرواية هي تمرين وإعداد لقول الشعر ، ولفهم دروبه ، تساعد الموهوب في إظهار مواهبه . « فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة لمن فوقه من الشعراء ، فيقولون : فلان شاعر راوية ، يريدون انه اذا كان راوية عرف المقاصد،وسهُل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضق به المذهب ، واذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم ، وربما طلب المعنى فلم يصل اليه وهو ماثل بين يديه ، لضعف آلته : كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة .

وقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء ، فقال : هو الراوية ، يريد أنه إذا روى استفحل .

قال يونس بن حبيب:وإنما ذلك لأنه يجمع الى جيد شعره معرفة جيد غيره ، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة ... وقال الأصمعي : لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب »[1] .

والشعراء جميعاً ، هم في أول أمرهم بالشعر رواة شعر ، ولا يكون الشاعر منهم شاعراً حتى يحفظ الشعر ويرويه،لأن الحفظ يساعده على قول الشعر ونظمه ، ويكون تمريناً له ، ولا زال أمر الشعراء عندنا على هذا النحو ، فأكثر شعرائنا هذا اليوم هم رواة في الأصل ، حفظوا من الشعر ما ساعدهم على النظم،يضاف اليه موهبة الشاعر وسليقته فيه . وقد يقال إن الشاعر الراوية أمكن في الشعر وأقدر عليه من الشاعر ، الذي لا يروي من الشعر إلا يسيراً ، أو لا يحفظ منه شيئاً ، لأن الشاعر الراوية يتعلم من فنون الأقدمين ومن خبرتهم وتجاربهم في النظم ما يخفى على من ليس له علم سابق به .

الشعراء الرواة :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من شعراء الجاهلية ، بدأوا حياتهم في قول الشعر بروايته وحفظه ، ثم صاروا من أكابر الشعراء . منهم زهير بن أبي سلمى ، فقد بدأ حياته في الشعر راوية لشعر (أوس بن حجر) ، وكان أوس راوية

---

١ العمدة (١/١٩٧ وما بعدها) ، (باب في آداب الشاعر) .

الطفيل الغنوي وتلميذه[1] . ومنهم (كعب بن زهير بن أبي سلمى) ، فقد كان راوية لوالده ، ثم (الحطيئة) ، فقد بدأ الشعر برواية شعر (زهير) وآل زهير[2]. وكان (زهير) راوية (طفيل) الغنوي أيضاً ، وكان (امرؤ القيس) راويـة (أبي دُواد) الإيادي[3] ، وكان الأعشى راوية لشعر (المسيب بن علس) ، والمسيب خال الأعشى[4] .

ولا نكاد نجد شاعراً لم يحفظ شعر غيره من الشعراء المتقدمين عليه ، أو من المعاصرين له . والشاعر العربي حتى اليوم ، لا يكون شاعراً فحلاً في الشعر ، إلا اذا حفظ من شعر غيره من الشعراء الفحول ، فحفظ الشعر يدربه ويقويـه على نظم الشعر ، وكذلك كان أمر الشعراء الجاهليين . ويؤيد هذا الرأي ما نجده في الأخبار من حفظ الشعراء شعر غيرهم ومن مناقشتهم للشعراء في شعرهم ، مما يدل بالطبع على حفظهم له .

قال « رؤبة : الفحولة هم الرواة » ، « يريد الذين يروون شعر غيرهم ، فيكثر تصرفهم في الشعر ويقوون على القول »[5] ، فروايتهم للشعر أكسبتهم علماً بأبوابه وبفنونه ، ومكنتهم منه حتى صار يخرج على ألسنتهم سهلاً قوياً جيداً ، لما صار لهم من علم به ومران في حفظه .

ويكاد يكون لكل شاعر جاهلي راوية يصحبه ، « يروي عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس . وربما احتذى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده . وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابـة إلا نادراً »[6] . ومن رواة (الأعشى) ، الراوية (عبيد) ، وكان يصحب الأعشى ويروي شعره ، وكان عالماً بالإبل ، وكان يسأله عن شعره وعن معانيه وألفاظه ، وعنه أخذ الرواة مثل (سماك) أخبار الأعشى وشعره[7] . و (سماك) ، هو (سماك بن حرب) ، وهو من مشاهير الرواة .

---

١ الشعر والشعراء (١/٧٦) ، بروكلمن (١/٩٥) .
٢ الاغاني (٢/١٦٥) ، (دار الكتب) ، (٨/٩١) .
٣ العمدة (١/١٩٨) ، بروكلمن (١/٩٥) .
٤ الموشح (٥١) ، الشعر والشعراء (١/١٠٧) .
٥ البيان والتبيين (٢/٩) ، العمدة (١/١١٤) ، (باب في الشعراء والشعر) .
٦ بروكلمن (١/٦٤ وما بعدها) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٨١) .

وكان من رواة (الأعشى) (يحيى بن متى) ، وهـو من أهل الحيرة ، وكان نصرانياً عبادياً معمراً[1] ، وله راوية آخر اسمه (يونس بن متى)[2] ، وهو كما يظهر من اسمه من النصارى كذلك ، وقد يكون هذا الشخص ، هـو الأول أي (يحيى) ، حرف النسّاخ اسمه ، فصار (يونس)[3] .

ولما كان بعض الرواة من الكتبة ، فلا استبعد أن يكون من بينهم من دوّن شعر شاعره الى جانب حفظه لشعره ، وذلك ليرجع اليه فيما إذا خانته حافظته ، أو شك في شيء منه ، أو لإجراء تنقيح في شعر شاعره ، وتوجد روايات تشير الى وقوع مثل هذا التدوين ، غير أننا لا نستطيع أن نسلم بتأكيدها أو أن نقوم بنفيها في الوقت الحاضر ، فمثل هذه الأحكام تحتاج الى أدلة قوية مقنعة ، ولا يمكن لنا التسليم بصحة تلك الروايات أو بردها في الوقت الحاضر[4] .

وقد تخصص بعض الناس برواية شعر جملة شعراء ، وتخصص آخرون برواية شعر قبيلة ، أو شعر جملة قبائل .

ويظهر ان أسلوب الحفظ والتسجيل في الذاكرة ، كان الأسلوب الشائع بين الجاهليين في ذلك الزمن في الإبقاء على النثر أو الشعر ، وقد كان هذا الأسلوب متبعاً عند غير العرب في تلك الأيام ، إذ كانوا يقيمون وزناً كبيراً للرواية ، حتى انهم كانوا يفضلون الحفظ على القراءة عن كتاب أو صحيفة ، ولا سيما بالنسبة للكتب المقدسة والكتب الدينية الأخرى وفي الأمور النابهة مثل الشعر . يرون ان في القراءة ثواباً وأجراً عظيماً ، وتعظيماً لشأن المقروء . ولا أستبعد أن تكون هذه النظرة هي التي جعلت أصحاب الرسول يحفظون القرآن ويتلونه تلاوة من غير قراءة عن كتاب ولا نظر في صحيفة ، يتلونه أمام الرسول وبين أنفسهم وبين الناس ، ولا يقرأونه عن كتاب ، مع ان منهم من كان يقرأ ويكتب وقد جمع القرآن . وكان تقدير العالم آنذاك بحفظه ، لا بما يكتبه من صحف وبما يؤلفه من مؤلفات ، ولهذا اشتهر كثير من العلماء بسعة علمهم ، مع انهم لم يتركوا أثراً مكتوباً ، لأن العلم بالحفظ لا بالتدوين ، وقد ينتقص من شأن العالم اذا تلا علمه عن كتاب ،

---

١ الاغاني (٩/١١٢) .
٢ المعرب ، للجواليقي (٤٦) .
٣ الشعر والشعراء (٢١٦ حاشية ١) ، مصادر الشعر الجاهلي (٢٤٠ وما بعدها) .
٤ بلاشير (١٠١) .

حتّى ان كان ذلك الكتاب كتابه ، لأن القراءة عن كتاب لا تدل على وجود علم عند القارىء ، وشأنه اذن دون شأن الحافظ ، الخازن للعلم في دماغه المملي للعلم إملاءً ، وكانوا اذا انتقصوا عالماً قالوا : انه يتلو عن صحيفـــة ، أو يقرأ عن صحيفة أو كتاب ، ومن هنا قيـــل للـذي يقرأ في صحيفـــة ويخطىء في قراءتها المصحفون ، قال (ابن سلام) : « فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحاق ومثل ما يروي الصحفيون ما كانت اليه حاجة ، ولا كان فيه دليل على علم »[1]. وقد حمل « ابن سلام على رواة الشعر الذين تداولوه من كتاب الى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وانما العلم علم العلماء بالشعر وأهل الرواية الصحيحة ، أما أهل الصحف ، الذين يروون من صحيفـة ، فلا يروى عنهم ، إذ لا يروى عن صحفي»[2]. وانتقصوا من علم (القاسم بن محمد بن بشار) الأنباري ، ومن روى عنه مثل (أحمد بن عبيد) الملقب (أبا عصيدة) ، لأن هؤلاء (رواةٌ أصحاب أسفار) ، فهم لا يذكرون مع العلماء حفظة العلم[3] ؛ والرواة أصحاب السفر ، والصحفيون ، انما كانوا يعتمدون على الصحف، ويحملون منها ، ولذلك فقد يقع اللحن أو الخطأ منهم سهواً ، أما الرواة الحفاظ، فلا يقع ذلك منهم إلا في النادر ، ثم انهم ينشدون الشعر من مخارجه وحروفه ، وهذا هو تفسير قول (ابن سلام) وأضرابه : « ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ، ولا يروى من صحفي »[4] . وفي جملة ما آخذ به (ابن سلام) الصحفيـين ، أي الذين يكتبون ويدونون ما يقال لهم ، دون نقد ، انهم لم يكونوا أصحاب رأي وعلم ، بل كانوا يقبلون كل ما يقال لهم ، كما هو واضح من قوله في (ابن اسحـــاق) : « فلو كان الشعر مثل مـــا وُضع لابن اسحاق ، ومثل ما رواه الصحفيون ، ما كانت اليه حاجة ، ولا فيه دليل على علم »[5] ؛

ولهؤلاء الرواة فضل كبير ولا شك على الشعر الجاهلي وعلينا أيضاً، فبحفظهم لذلك التّراث القيم وبإذاعته وبنشره بين أبناء زمانهم ، أمكن وصوله الى من جاء بعدهم من عشاق الشعر والمتيمين به ، حتّى وصل الى أيدي المدوّنين فدوّنوه .

---

١ المزهر (١/١٧٤) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٥ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢/٤١٣) .
٤ طبقات (٥ وما بعدها) .
٥ طبقات (١١) .

وصل بأفواه متعددة ، ومن الصدور ، ولهذا تعددت الروايات واختلفت القراءات وهذا شيء لا بد أن يحدث ، وهو أمر غير مستغرب ، فحفظ الصدور لا يكون كحفظ السطور . ولو كان الشعر قد دوّن في ذلك العهد ، وسجل في صحف ودواوين لما اختلف الرواة الإسلاميون في تدوينه يوم شرعوا في جمع ذلك الشعر وتدوينه في دواوين . فنجد الرواة قد يختلفون في عدد أبيات القصيدة وفي ترتيبها وفي نص البيت ، فترى روايات متعددة تمس بيتاً واحداً ، لا تمس شكل الكلمة، بحيث نرجع ذلك الى خطأ النسّاخ ، وإنما تمس اللفظة نفسها ، أو جملة ألفاظ شطر البيت أو البيت نفسه ، وكتب الشعر والأدب مليئة بأمثال هذه الأمور التي هي من حاصل الاعتماد على الرواية الشفوية في حفظ الشعر .

ومتى أنشد شاعر شعره ، وأذاع روايته بين الناس ، حفظ وطار بين طلاب الشعر وعشاقه ، لا سيما إذا كان ممـا يتصل بالناس . هذا (عميرة بن جعيل) (عميرة بن جعل) ، يهجو قومه ، ثم يندم على ما قال ، فيقول :

ندمت على شتم العشيرة بعدما ... مضت واستتبت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أستطيع دفعاً لما مضى ... كما لا يرد الدر في الضرع حالبه[1]

وفي هذا المعنى جاء شعر : (المسيب بن علس) :

فلأهدين مع الرياح قصيدة ... مني مغلغلة الى القعقاع
ترد المياه فما تزال غريبة ... في القوم بين تمثل وسماع[2]

فالشعر تحمله الرياح وتنشره بين الناس ، فيحفظ ، ويرويه الرواة .

وكما كان لهم فضل على الشعر في تدوينه وتخليده ، فكذلك كان لهم يد في إفساده وفي غشه وتزييفه . فقد كان منهم من يخلط في الشعر ، ومنهم من كان يضيف عليه أو ينقص منه ، أو يصنع الشعر فينحله الشعراء ، ولما قيل للحطيئة، وهو من المخضرمين أوص قال : « ويل للشعر من الرواة السوء »[3] . وفي قول

---

١ الشعر والشعراء (١/٥٤٤) ، المفضلية رقم (٦٣) .
٢ المفضليات (٦٢) ، العصر الجاهلي (١٤٢) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٣٩) . (دار الثقافة ، بيروت) .

هذا الشاعر الخبير بدروب الشعر وفنونه ، شهادة كافية على ما كان لرواة الشعر من أثر في رواية الشعر ، غير أن منهم من كان يحسن الشعر ويقومه ، ذكر عن (ابن مقبل) قوله : « إني لأرسل البيوت عوجاً ، فتأتي الرواة بها قد أقامتها »[1] .

وقد تحدث (الجاحظ) عن رواة الشعر في أيامه ، وعن ألوان الشعر التي كان الرواة يبحثون عنها ، فقال : « وقد أدركتُ رواة المسجديِّين والمربديين ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة ، فإنهم كانوا لا يعدّونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الحديث والقصائد ، والفقر والنتف من كل شيء . ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهوهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنيّات ، وما يروي عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السنّ قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فتياني متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة ، والأصمعي ، ويحيى بن المنجم ، وأبي مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد الى شعرٍ في النسيب فأنشده ، وكان خلف يجمع ذلك كله .

ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب . ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلى كل شعر فيه الشاهد والمثل »[2] .

التصحيف والتحريف :

أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب . وقد وقع فيه جماعةٌ من الأجلاء من أئمة اللغة

---

١ مجالس ثعلب (٤٨١) .
٢ البيان والتبيين (٢٣/٣ وما بعدها) .

وأئمة الحديث، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل : من يعرى من الخطأ والتصحيف؟

قال ابن دريد : صحّف الخليل بن أحمد ، فقال : يوم بُغاث بالغين المعجمة ، وانما هو بالمهملة . أورده (ابن الجوزي)[1] . وهو شيء لا يمكن وقوعه من الخليل ، صاحب العلم الغزير بأحوال العرب ، وقد يكون من فعل النساخ ، إن صح كلام (ابن الجوزي) ، فنسب التصحيف الى الخليل .

وسببه الخط ، إما لتشابه الحروف ، وإما بسبب عدم وجود الحركات ، فمن النوع الأول حديث ينسب الى الرسول هو : « تسمعون جرش طير الجنة » ، وكان (الأصمعي) قد سمعه في مجلس (شُعبة) ، فقال : (جرس) بالسين لا بالشين[2] . ومن هذا القبيل : ما وقع من تصحيف في شعر للحطيئة هو قوله:

وغررتني وزعمت انك لابن بالصيف تامر

أي كثير اللبن والتمر ، وقد قرأ :

وغررتني وزعمت انك لا تني بالضيف تامر

أي لا تتوانى عن ضيفك بتعجيل القرى اليه .

ومثل ذلك تصحيف الأصمعي في بيت لأوس :

يا عام لو صادفت أرماحنا لكان مثوى خدك الأخرما

فقرأه (الأحزما) ، وانما هو (الأخرما) بالراء ، وهو طرف أسفل الكتف[3] .

ومن ذلك ما وقع بين الأصمعي والمفضل عند (عيسى بن جعفر) ، فقد ناظر (المفضل) الأصمعي ، بأن أنشد بيت أوس بن حجر :

وذات هدمٍ عارٍ نواشرها تُصمِت بالماء تولباً جدعا

فقال له الأصمعي : « هذا تصحيف ، لا يوصف التولب بالإجداع ، وانما

---

١ المزهر (٢/٣٥٣ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٣٥٤) .
٣ المزهر (٢/٣٥٥) .

هو جلدعا . الجدع : السيء الغذاء . قال : فجعل المفضل يشغب ، فقلت له : تكلم كلام النمل وأصب . لو نفخت في شبور يهودي ما نفعك شيئاً »[1] .

وقرىء يوماً على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب :

بأسفل ذات الدبر أفرد جحشها

فقال أعرابي حضر المجلس للقارىء ضل ضلالك أيها القارىء ! انما هي ذات الدبر ، وهي ثنيةٌ عندنا ، فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد[2] .

وقد أوردت الكتب أمثلة كثيرة على التصحيف ، وقع فيه كثير من العلماء ، من ذلك ما وقع لأبي عمرو وللأصمعي ، ولأبي حاتم ولكبار علماء اللغة ، ويعود سببه الى التنقيط ، فالحروف مثل الجيم، والحاء ، والخاء ، تميز بينهـا النقط ، فإذا أخطأ الكاتب في وضع النقطة في محلها ، وقع التصحيف . وقد يقع ، ولا يقع خلل في القراءة ، وإنما يتبدل المعنى ، دون أن يشعر القارىء بوجود ارتباك في معنى المقروء ، وقد يقع في الأعلام من أسماء الرجال والنساء والأمكنة ، وقد وقع التصحيف في الكتب بسبب السهو في النسخ ، أو جهل النساخ ، ومن ذلك ما وقع في كتاب (العين) وفي كتب لغوية وأدبية ثمينة ، أمكن رد بعضه الى الصحيح ، ولم يمكن تصحيح بعض آخر ، لصعوبة تعيين المراد[3] .

وقد روى (العسكري) قصة طريفة على التصحيف والتحريف ، ذكر أنه « كان حيّان بن بشر قد وُلي قضاء بغداد ، وكان من جملة أصحاب الحديث فروى يوماً أن عرفجة قطع أنفه يوم الكِلاب ، فقال له مستمليه : أيها القاضي، انما هو يوم الكُلاب ، فأمر بحبسه ، فدخل اليه الناس ، فقالوا : ما دهاك ؟ قال : قطع أنف عرفجة في الجاهلية ، وابتليت به أنا في الإسلام »[4] .

---

١ مجالس العلماء ، للزجاجي (١٤) ، العسكري ، التصحيف والتحريف (١٠٤) ، الفاضل والمفضول (٨٢) ، المصون (١٩٢) ، الحيوان (٤/٢٥) ، انباه الرواة (٣/٣٠٢) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٧) .
٣ المزهر (٢/٣٥٣ وما بعدها) ، النوع الثالث والاربعون معرفة التصحيف والتحريف) .
٤ المزهر (٢/٣٥٣) .

الخلط بين الأشعار :

وبسبب اعتماد الرواة على الذاكرة في حفظ الشعر وروايته ، وأنفة المتقدمين منهم من تدوينه ، ومن الرجوع الى الصحف ، وقع الخلط في شعر الشعراء ، فصاروا ينسبون شعراً لشاعر ، بينما هو من شعر شاعر آخر . ونجد في كتب الأدب أشعاراً تنسب الى شاعر ، ثم تنسب الى شاعر آخر ، أو الى شاعر ثالث في موضع آخر من الكتاب ، أو في كتب أخرى . وما كان ذلك ليقع ، لو كان القدماء قد أخذوا العلم بطريق الكتابة والتدوين . من ذلك مثلاً الشعر :

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

فإنه ينسب لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ، وينسبه بنو عامر للنابغة الجعدي[1] . ومن ذلك قصيدة :

تطاول ليلكِ بالأثمد   ونام الخلي[4] ولم ترقد

فقد نسبت لامرىء القيس الكندي ، ونسبت لعمرو بن معدي كرب ، ونسبت لامرىء القيس بن عانس[2] .

وللسبب المتقدم وقع خلط في عدد أبيات الشعر ، فقد زاد بعض الرواة في قصيدة شاعر ، بينما نقص رواة آخرون عدد أبياتها ، وقد يدخلون في القصيدة ما ليس منها بسبب اختلاط الشعر على الراوية ، وما كان هذا ليقع لو ورد الشعر مدوناً منذ أيام الجاهلية .

ومن ذلك أيضاً ورود الشعر بروايات وبأوجه مختلفة ، فقد ورد الشعر المنسوب لأفنون التغلبي :

لو أنني كنت من عادٍ ومن ارم   غذى سخل ولقمانا وذا جدن

بروايات مختلفة ، كما قرئت بعض ألفاظه بأوجه مختلفة من أوجه الإعراب[3] ،

---

١ المزهر (١/١٨٣) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧٣١) .
٣ مجالس العلماء (٤٢ وما بعدها) .

وما كان ليقع هذا الإختلاف لو كان الشعر قد ورد مدوّناً أولاً ومشكولاً ثانياً، فلما جاء رواية بالألسن وقع فيه هذا الاختلاف . ونجد العلماء يغلط بعضهم بعضاً في اعراب ألفاظ الشعر ، تتغير معانيه بقراءتها بأوجه متعددة من الأعراب ، كما غلط بعضهم بعضاً وهاجم بعضهم بعضاً هجوماً عنيفاً خرج على حدود الأدب واللياقة بسبب الاعجام ، كما في (تعتّر) و (تعتز) في بيت الحارث بن الحلزة :

عنتـــاً باطلاً وظلماً كـــما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباء [1]

ونجد علماء الشعر والأدب يروون شعر شاعر بصور متباينة في كتبهم ، فتجد (الجاحظ) مثلاً ، يروي أبيات شعر لشاعر ، ثم يرويها بشكل يختلف عمـــا ذكره لذلك الشاعر في موضع آخر من كتابه ، وذلك إما سهواً ، وإما باختلاف رواية ، واما من وقوع الزلل في اللسان . وتجد وقوع مثل ذلك في كتب اللغة ، فقد ذكر (ابن منظور) بيتاً للأعشى هو :

فأصبح لم يمنعـــه كيد وحيلة بساباط حتّى مات وهو محرزق

ثم ذكره بعد سطرين على هذه الصورة :

هنالك ما أغنته عزة ملكـــه بساباط،حتّى مات وهو محرزق [2]

وقد يقع ذلك عن تعمد ، بسبب الاستشهاد في تأييد مسألة نحوية أو لغوية . فقد روي أن سائلاً سأل (أبا عمرو بن العلاء) عن جمع يـــد من الإنسان ، فقال : أيـــد ، وأنكر أن تكون الأيادي إلا في النعم ، وقال (الأخفش) : « أما إنها في علمه ، غـــير أنها لم تحضره ، ثم أنشد بيت (عـــدي بن زيد العبادي) :

أنكرت ما تبينت في أياديـ ـنا واشناقهـــا الى الأعناق

بينما يروى :

ساءها ما بنا تبين في الأيدي واشناقهـــا الى الأعناق [3]

---

١ مجالس العلماء (١٨) .
٢ اللسان (٣١١/٧) ، (سبعط) .
٣ مجالس العلماء ، للزجاجي (١٦٢) .

وقد كان العلماء يتحذلقون في مثل الأمور،ويبحثون جهدهم عن الشاذ والغريب في الشعر ، بل أخذ بعضهم يفتعل الغريب ، ويضع الشاذ ، فينسبه الى المتقدمين لإفحام الخصم ، ولإظهار مقدرته العلمية وبراعته في علوم اللغة أمام الخلفاء والحكام وهذا مما أساء بالطبع الى العلم ، إذ أدى الى دخول المصنوع في الشعر ، والى الإساءة الى سمعة العلماء . وتجد في (مجالس العلماء) للزجاجي ، مجالس فيها من استهتار كبار العلماء بعضهم ببعض ، ومن وضع أحدهم على الآخر ، ما يبعث على الشفقة على حال قسم منهم ، لما بلغوه في كلامهم وفي تصرفاتهم من الإسفاف بسبب محاولتهم التقدم عند الحكام ، بالمنزلة والجاه ونيل المال .

على كل حال ، فقد خفت فوضى الرواية ، بعد إقبال الناس على التدوين ، وتحبير الشعر وأمالي المجالس وأقوال العلماء وآرائهم على القراطيس ، خاصة بعد شيوع الاستنساخ وظهور جملة نسخ للكتاب الواحد ، فضبطت بهذه الطريقة الرواية بعض الضبط ، وصرنا أمام روايات متعددة للقطعة أو للقصيدة ، وقد سدد هذه الطريقة وزاد في تثبيتها إقبال العلماء على نشر المخطوطات نشراً حديثاً بواسطة الطباعة فوفرت هذه الطريقة نسخ المخطوطات القديمة للباحثين ، ويسرت لهم بذلك الوقوف عليها مما مكنهم من إبداء نظرهم على ما جاء فيها من روايات عن الشعر العربي القديم .

الفصل الثالث والخمسون بعد المئة

أشهر رواة الشعر

اشتهر (مخرمة بن نوفل بن أهيب « وهيب » بن عبد مناف بن زهرة) ، وهو من قريش برواية الشعر وبالعلم به . « وكان من مسلمة الفتح ، وله سن وعلم ، كان يؤخذ عنـه النسب[1] ، ولا سيما نسب قريش إذ كان من العالمين به . وكان عالماً بأنصاب الحرم . فبعثه (عمر) هو وسعيد بن يربوع ، وأزهر ابن عبد عوف ، وحويطب بن عبد العزى ، فجددوها . وكانت أمه (رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف) شاعرة ، وكانت لدة عبد المطلب[2] .

وعرف (أبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبدالله بن عوف) بالعلم بالشعر . وهو من (بني عدي) . وكان من معمري قريش ومن مشيختهم ، وكان أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسب . وكان شديد العارضة ، وكان (عمر) يمنعه حتى كف من لسانه . وكان من مسلمة الفتح ، وكان مقدماً في قريش معظماً ، وكانت فيه وفي بنيه شدة وعرامة[3] .

وكان (أبو بكر) من الحافظين للشعر الراوين له ، روى (المطلب بن المطلب

---

١ كتاب نسب قريش (٢٦٢) ، (وهيب) ، زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/١٠١) .

٢ الاصابة (٣/٣٧٠) ، (رقم ٧٨٤٢) .

٣ الاصابة (٤/٣٥ وما بعدها) ، (رقم ٢٠٧) ، الاستيعاب (٤/٣١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، نسب قريش (٣٦٩ ، ٣٧٢) .

ابن أبي وداعة) عن جده قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم،وأبا بكر رضي الله تعالى عنه عند باب بني شيبة ، فمرّ رجلٌ وهو يقول :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد الدار
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقتار

قال : فالتفتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى أبي بكر فقال : أهكذا قال الشاعر ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ، لكنه قال :

يا أيها الرجل المحوّل رحله ألا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقراف
الخالطين فقيرهم بغنيهم حتّى يعود فقيرهم كالكافي
ويُكلّلون جفانهم بسديفهم حتّى تغيب الشمس في الرجّاف
منهم عليّ والنبي محمد القائلان هلم للأضياف

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « هكذا سمعت الرواة ينشدونه »[1] .

وكان أبو بكر أحد العلماء بالنسب في قريش ، وكانوا إذا أرادوا الوقوف على نسب رجل جاءوا اليه يسألونه ، فهو عالم من علماء قريش فيه .

وكان (عمر بن الخطاب) ممن يحفظون الشعر ، ووصف بأنه كان عالماً به[2] وبأنه « كان أعلم الناس بالشعر » ، وكان يحكم على الشعر وينتقده ، ولا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر[3] ، وأنه كان بصيراً به ، حتّى قيل عنه إنه كان « لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »[4] ، ورووا له أمثلة كثيرة من حفظه للشعر ومن حسن نقده له ، ونفاذه في باطن معانيه ومحاسنه[5] .

---

١ الامالي ، للقالي (١/٢٤١ وما بعدها) .
٢ العمدة (١/٧٦) ، البيان والتبيين (١/٢٣٩) .
٣ البيان والتبيين (١/٢٤١ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (١/٢٤١) .
٥ العقد الفريد (٦/١٢٠ وما بعدها) .

وذكر أنه كان يقدم (امرأ القيس) على بقية الشعراء[1] .

وكانت (عائشة) من رواة الشعر ، وكانت تحفظ منه ما شاء الله ، قيل انها قالت : « إني لأروي ألف بيت للبيد ، وانه أقل مما أروي لغيره[2] . وانها كانت تحفظ من شعر كعب بن مالك شعراً كثيراً ، منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك[3] ، وكانت تتمثل بالأشعار ، وربما دخل عليها رسول الله ، فوجدها تنشد الشعر[4] . قال (أبو الزناد) : « ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة . فقيل له : ما أرواك ، فقال : روايتي في رواية عائشة ، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً » ، وورد عن (عروة) قوله : « ما رأيت أحداً أعلم بفقه ، ولا بطب ، ولا بشعر من عائشة »[5] . وروي انها كانت تحث على تعلم الشعر وروايته ، بقولها : « رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم »[6] .

وكان (ابن عباس) من رواة الشعر وحفّاظه . سأله (عمر) أن ينشده شعراً ، فطلب منه أن يذكر له اسم شاعر لينشد له شعره ، فقال زهير بن أبي سلمى ، فأنشده « الى ان برق الصبح »[7] ، وزعم انه كان يفسر كلمات كتاب الله بالشعر ، قال (أبو عبيد) « انه كان يُسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر »[8]. وزعم أهل الأخبار ان (نافع بن الأزرق) ، و (نجدة بن عويمر) ، سألا (ابن عباس) عن كلمات واردة في القرآن ، فجلس لهما بفناء الكعبة ، وأخذ (نافع) يسأله الكلمة تلو الكلمة وهو يشرحها لهم بشعر ، وقد دوّن نصها العلماء ، أخرج بعضها (ابن الأنباري) في كتاب الوقف ، والطبراني في معجمه الكبير ، ويرجع سند (ابن الأنباري) الى (ميمون بن مهران) ، ويرجع سند (الطبراني) الى (الضحاك بن مزاحم) ، وقد أخذ (السيوطي) بالروايتين وسجلها في كتابه

---

١ الاغاني (١٩٩/٨) ، الفائق (٣٤٣/١) .
٢ العقد (١٢٥/٦) .
٣ المزهر (٣٠٩/٢) .
٤ الاغاني (١١٧/٣) .
٥ الاصابة (٣٤٩/٤) ، (رقم ٧٠٤) ، الاستيعاب (٣٤٨/٤ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ العقد (١٢٥/٦) .
٧ الاغاني (٢٩١/١٠) .
٨ السيوطي ، الاتقان (٥٥/٢) .

(الاتقان في علوم القرآن) ، بعد أن حذف منها نحو بضعة عشر سؤالاً[1] . وقد وردت هذه الرواية بصور مختلفة[2] ، وذكر ان (أبا عبيدة معمر بن المثنى) ، أخذ أسئلة نافع وأدخلها في كتابه في غريب القرآن[3] .

وكان (معاوية) ممن يروي ويحفظ الشعر الجاهلي ، وقد رووا عن حفظه للشعر الجاهلي واستشهاده به في كلامه شيئاً كثيراً ، فزعموا أنه كان يمتحن الناس بأشعار الجاهليين ، فإذا وجد في أحدهم علماً بها زاد في عطائه وقدمه عنده وأجزل عليه[4] . ورووا أنه كتب الى (زياد) بشأن ابنه ، وقد وجده عالماً بكل ما سأله عنه إلا الشعر : « ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله إن كان العاق ليرويه فيبر ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليريه فيقاتل[5] . ويروى أنه سأل (عبدالله بن زياد) ، ما منعك من روايته ؟ قال : كرهت أن أجمع كلام الله وكلام الشيطان في صدري ، فقال : أعزب ! والله لقد وضعت رجلي في الركاب يوم صفّين مراراً ، ما يمنعني من الإنهزام إلا أبيات ابن الإطنابة ، وتمثل بها ، ثم كتب الى أبيه أن روّه الشعر ، فروّاه فما كان يسقط عليه منه شيء[6] .

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع الشعر الجاهلي فقال : « والعرب أوعى لما تسمع ، وأحفظ لما تأثر ، ولها الأشعار التي تقيد عليها مآثرها ، وتخلد لها محاسنها. وجرت من ذلك في إسلامها على مثل عادتها في جاهليتها ، فبنت بذلك لبني مروان شرفاً كثيراً ومجداً كبيراً وتدبيراً لا يحصى »[7] . وقد كان لبني سفيان وآل مروان

---

١ الاتقان (٢/٥٥ ــ ٨٨) .
٢ الكامل ، للمبرد (٥٦٦ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، الوسائل في مسامرة الاوائل (١١٢) ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية(٢٤٣) .
٤ الاغاني (٣/١٠٠ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٣٣) ، (٣/٩) ، الفائق (١/٢٤٠) .
٥ العقد الفريد (٦/١٢٥) .
٦ المزهر (٢/٣١٠ وما بعدها) ، وتروى هذه القصة بروايات أخرى ، راجع المصون ، للعسكري (١٣٦) ، مجالس ثعلب (٨٢)الامالي ، للقالي (١/١٥٨) ، عيون الاخبار (١/١٢٦) ، ديوان المعاني (١/١١٤) ، المرزباني ، معجم (٩) ، (فراج) ، عيون الاخبار (٣/١٥٩) . مجالس ثعلب (٦٧) ، (عبد السلام محمد هارون) .
٧ البيان والتبيين (٨٨) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ١٩٥٩ م ، المطبعة الكاثوليكية) .

عناية فائقة بالشعر الجاهلي ، فقد كان (معاوية) كما ذكرت يحفظ كثيراً من ذلك الشعر ، وينقب عنه ، وكان يسأل من يجد فيه العلم عنه ، حتى زعم أنه ذكر قصيدتي (عمرو بن كلثوم) و (الحارث بن حلزة) اليشكري ، وقال كانتا : « من مفاخر العرب ، وكانتا معلقتين بالكعبة دهراً »[1] . وزعم أن (بني أمية) « كانوا ربما اختلفوا وهم بالشأم في بيت من الشعر ، أو خبر ، أو يوم من أيام العرب ، فيبردون فيه بريداً الى العراق »[2] ، وأنهم كانوا يسألون الوافدين عليهم من سادات القبائل ومن الأعراب ومن العارفين بالشعر عن الشعراء، وقد يذكرون بيتاً أو شعراً حفظوه لا يدرون اسم قائله ، فكانوا يستفسرون عن قائله ، وعن المناسبة التي قال الشاعر شعره فيها ، ويحسنون جائزة من له علم بالشعر والأخبار[3] .

وكان (عبد الملك بن مروان) من العلماء بالشعر الجاهلي ، قيل انه كان يمتحن الناس به ، ومنهم (الحجاج بن أبي يوسف) الثقفي[4] . وقد ذكر انه استدعى اليه (عامر بن شراحيل) الشعبي ، ليحدثه عن الحلال والحرام ، وعن أشعار العرب وأخبارهم ، وكان (الشعبي) من ذلك الطراز البارع في الشعر وفي أخبار العرب وفي الحلال والحرام[5] ، وروي ان (عبد الملك) ، كان قد طرح أربعة من شعراء المعلقات ، وأثبت مكانهم أربعة[6] ، واذا صح هذا الخبر دل على وجود القصائد المسماة بالمعلقات في ذلك العهد .

وروي انه كان يقول : اذا أردتم الشعر الجيد ، فعليكم بالزرق من بني قيس ابن ثعلبة ، وبأصحاب النخيل من يثرب ، وأصحاب الشعف من هذيل[7]. ويظهر انه كان من المعجبين بشعر (الأعشى) ، روي انه قال لمؤدب ولده : « أدبهم برواية شعر الأعشى فإن لكلامه عذوبة »[8] . والأعشى هو من بني قيس بن ثعلبة،

---

١ الخزانة (٣/ ١٦٢) .
٢ العسكري ، التصحيف والتحريف (٤) .
٣ الاغاني (٣/ ٩١) .
٤ ياقوت ، ارشاد (١/ ٢٧) ، الامالي ، للقالي (١/ ١٥) .
٥ ارشاد (١/ ٩٦ وما بعدها) ، الخزانة (٢/ ٢٥٠) ، (هارون) .
٦ الخزانة (١/ ٦١) ، الخزانة (١/ ٢٨٨) ، (بولاق) .
٧ العقد (٦/ ١٢٤) .
٨ جمهرة اشعار العرب (٦٣) .

وقد كان يقيم وزناً كبيراً للشعر في تأديب الأولاد . فكانت وصيته لمؤدب ولده : « روهم الشعر ، روهم الشعر ، يمجدوا وينجدوا »[1] . وروي انه تمثـل وهو بمرضه الذي مات فيه بشعر (ابن قميئـة) ، وذلك أمام (الشعبي) ، فأنشده (الشعبي) شعراً من شعر (لبيد)[2] .

ونجد في الأخبار أن عبد الملك ، كان إذا شك في شعر ، أو أراد الوقوف عليه وعلى ظروفه ، كتب الى العلماء به ، يسألهم عنه ، أو يستدعي مـن يعرف أن له علماً به ، فيسأله عنه ، أو يسأل آل الشعر أو أحد أفراد قبيلتـه عنه . وكان كثير الحفظ له ، حتى كاد لا يدانيه فيه كثير من حفاظ الشعر ، وكان يجمع اليه الشعراء في يوم ، حتى يستمتع بإنشاد شعرهم ، وشعر المتقدمين عليهم. وكان له ذوق في الشعر ونقد دقيق له ، ذكر أنه قال يوماً للشعراء وقد اجتمعوا عنده : « تشبهوننا بالأسد والأسد أبخر ، وبالبحر والبحر أجاج ، وبالجبل مرة والجبل أوعر ، أقلتم كما قال أيمن بن خريم » ، ثم ذكر شعره في بني هاشم[3] . وقال للأخطل ، وقد كان قـد قال له : « يا أمير المؤمنين ، قـد امتدحتك فاستمع مني » ، « إن كنت إنما شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي في مدحتك، وإن كنت كما قالت أخت بني الشريد[4] لأخيها صخر فهات . فقـال الأخطل : وما قالت يا أمير المؤمنين ؟ قال : هي التي تقول :

وما بلغت كفُّ امرىء متناولٍ من المجد إلا حيث ما نلت أطول»[5]

ثم قرأ عليه الأبيات . ولما دخل (جرثومةُ) الشاعر على عبد الملك بن مروان، فأنشده والأخطل حاضر ، « قال عبد الملك للأخطل : هـذا المدح ويلك يا ابن النصرانية »[6] .

وكان يجمع بـين الشعراء ، ويستمع الى شعرهم ، يجمعهم حتى إن كانوا

---

١ العقد (٦/١٣٥) .
٢ الخزانة (٢/٢٥١) ، (هارون) .
٣ المصون في الادب ، لابي أحمد الحسن بن عبدالله العسكري (ص ٦٢) ، (تحقيق عبدالسلام محمد هارون) ، (الكويت ١٩٦٠ م) .
٤ يعني الخنساء .
٥ المصون (٦٣) .
٦ المصون (٦٤) .

متعادين متنافسين ، فقد جمع بين جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، في مجلس واحد ، وذكر أنه سأل أعرابياً شاعراً عن أهجى بيت في الإسلام ، وعن أرق بيت في الإسلام ، فأشار الى أبيات لجرير،وفضل جريراً عليها ، فأيده عبد الملك في هذا الرأي[1] .

وقد وصف (عامر) الشعبي ، (عبد الملك بن مروان) وصفاً يدل على شدة إعجابه به ، إذ يقول في وصفه له : « فلما فرغ من الطعام وقعد في مجلسه واندفعنا في الحديث ، وذهبت لأتكلم ، فما ابتدأت بشيء من الحديث إلا استلبه مني فحدث الناس به ، وربما زاد فيه على ما عندي ، ولا أنشدته شعراً إلا فعل مثل ذلك . فغمّني ذلك ، وانكسر بالي له ، فما زلنا على ذلك بقية نهارنا ، فلما كان آخر وقتنا التفت إلي وقال : يا شعبي ، قد والله تبينت الكراهية في وجهك لما فعلتُ ، وتدري أي شيء حملني على ذلك ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : لئلا تقول : لئن فازوا بالملك أولاً لقد فزنا نحن بالعلم ، فأردت أن أعرّفك أنّا فُزنا بالملك وشاركناك فيما أنت فيه »[2] ، ولهذا اجتمع اليه الشعراء وعلماء الأخبار ورواة الناس ، حتى حفلت بهم مجالسه ، وكان يذاكرهم ويحادثهم وينوه بهم ويدني مجالسهم[3] . وذكر ان عبد الملك أرسل الى الحجاج أن يرسل اليه (الشعبي) ، فأرسله اليه ، فلما دخل عليه كان (الأخطل) عنده ، فأخذ يسأله عن الشعر ، ويسأل الأخطل عنه ، حتى اذا انتهى ، قال له : يا شعبي ، انما أعلمناك هذا ، لأنه بلغني ان أهل العراق يتطاولون على أهل الشام ويقولون : إن كانوا غلبونا على الدولة ، فلن يغلبونا على العلم والرواية ، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق من أهل العراق »[4] . وكان الشعبي قد جعل الخنساء أشعر النساء أما عبد الملك ففضل ليلى الأخيلية عليها . فشق ذلك على الشعبي ، فقال له ذلك القول ، وردد عليه أبيات الأخيلية حتى حفظها . والرواية المتقدمة التي أخذتها من (الرافعي) هي هذه الرواية بشيء من التغيير .

وكان يتمثل بالشعر الجيد ، ويثني على الحسن منه ، ويحسن نقده . تمثل بشعر

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٥ وما بعدها) .
٢ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٠٩) .
٣ الرافعي (١/٤٠٧) .
٤ امالي المرتضى (٢/١٦ وما بعدها) .

لهذيل بن مشجعة البولاني ، وقال : « هذا والله شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسدَ واللؤم والانتقام عند الإمكان ، والمسألة عند الحاجة »[1] . وله مجالس كان يسأل فيها الناس عن الشعر ، يمتحنهم ، وذكر أنه سأل رجلاً وهو بالكوفة عن شعر (ذي الاصبع العدواني) وعن أخباره ، وكان من عدوان ، فلما وجده جاهلاً حط من عطائه[2] ، وذكر أنه اجتمع بالربيع بن ضبيع الفزاري ، وسأله عن أخباره[3]،وأنه كان يبدي ملاحظات قيمة على أشعار الشعراء الجاهليين والمعاصرين له[4] . وروي أنه كان يبحث عن شعر الشعراء بما فيهم الشعراء المعاصرون له ، فلما قدم (الأجرد) (الأحرد) ، وهو من شعراء ثقيف في نفر من الشعراء ، قال له : إنه ما من شاعر إلاّ وقد سبق الينا من شعره قبل رؤيته فما قلتَ »[5] .

وكان (الوليد) و (سليمان) ابنا (عبد الملك) من المولعين بالشعر كذلك ، وذكر أن (الوليد) كان يقدم (النابغة) على غيره من الشعراء ، وكان (سليمان) يقدم (امرأ القيس) ، فذكر ذلك لعبد الملك ، فبعث الى أعرابي فصيح ، ليكون الحكم بينهما[6] . ورويت القصة بشكل آخر ، ورد فيها أن (الوليد بن عبد الملك) تشاجر مع أخيه (مسلمة) في شعر (امرىء القيس) و (النابغة) الذبياني في وصف طول الليل أيهما أجود ، فرضيا بالشعبي فأحضر ، فصار الحكم بينهما[7] .

وكان (هشام بن عبد الملك) من المولعين بالشعر كذلك ، ذكر أنه كتب الى عامله في أشخاص (حماد) الراوية اليه لبيت سمعه لم يعرف اسم قائله .

وكان (الوليد بن يزيد) من المتيمين بالشعر ، وهو نفسه شاعر مجيد ، وكان يستدعي (حماد) الراوية ليسأله عن الشعر ، وقد قتل في سنة ست وعشرين ومائة . وكان منهمكاً في اللهو وشرب الخمر وسماع الغناء ، ذكر انه استفتح

---

١ رسائل الجاحظ (٣٦٢/١ وما بعدها) ، (كتاب فصل ما بين العداوة والحسد) .
٢ أمالي المرتضى (٢٤٩/١ وما بعدها) .
٣ أمالي المرتضى (٢٥٣/١) .
٤ أمالي المرتضى (٢٧٨/١) .
٥ الشعر والشعراء (٦٢٠/٢) .
٦ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٧٢) .
٧ الخزانة (٣٢٥/٢ وما بعدها) .

القرآن ، فخرج له : « واستفتحوا وخاب كــل جبار عنيد »[1] ، فألقاه ونصبه غرضاً ورماه بالسهام ، وقال :

تهدّدني بجبــارٍ عنيــد فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يومَ حشرٍ فقل: يا رب مزّقني الوليد[2]

وكان اذا أراد الاستفسار عن شعر جاهلي خفي أمره عليه ، أرسل الى (حماد) يسأله عنه[3] ، كما كان يسأل غيره عنه كذلك .

وروي انه نشر يوماً المصحف ، وجعل يرميه بالسهام ، وهو يقول :

تذكرني الحساب ولستُ أدري أحقاً ما تقول من الحساب
فقــل للهِ يمنعني طعامــي وقــل لله يمنعني شرابي

وانه قال :

اسقياني وابن حرب واسترانــا بــإزار
فلقد أيقنت انــي غير مبعوث لنار
واتركا من طلب الجنّة يسعى في خسار
سأسوس الناس حتّى يركبوا دين الحمار[4]

الى غير ذلك من أشعار وأخبار ، وروايات تتهجم عليه ، نسبت بعضها الى أهله وأقاربه ، بل زعم ان الرسول لعنه في حديثه[5] ، ومثل هذه الأحاديث من الحديث الموضوع .

---

١ ابراهيم ، الآية ١٥ .
٢ الخزانة (٢/٢٢٨) ، (هارون) ، الخزانة (١/٣٢٨) ، (بولاق) .
٣ الخزانة (٤/١٢٩) ، (بولاق) ، وورد بصورة أخرى تختلف بعض الاختلاف عن هذه الرواية ، أمالي المرتضى (١/١٣٠) .
٤ أمالي المرتضى (١/١٢٩) ، ورويت بصور أخرى ، الاغاني (٧/٤٦) ، رسالــة الغفران (٤٤٤) .
٥ أمالي المرتضى (١/١٢٩) ، راجع رسالة الغفران حيث تجد بعض اشعاره (٤٤٤ وما بعدها) .

وفي شعر الوليد سلاسة وطبع ، وعدم مبالاة ، فالحياة في نظره ، سماع غناء، وخمر طيب ، أما الحكم والملك ، فلا يساويان شيئاً :

أنا الأمامُ الوليـــد مفتخراً أجر بُردي ، وأسمع الغزلا
أسحب ذيلي الى منازلهـــا ولا أبالي من لام أو عذلا
ما العيش إلا سماع مُحسنة وقهوة تترك الفتى ثَمــلا
لا أرتجي الحور في الخلود وهل يأمل حور الجنان من عقلا ؟
إذا حبتك الوصال غانيـــة فجازها بـــلها كمن وصلا

ويقال إنه لما أحيط به ، دخل القصر وأغلق بابه وقال :

دعوا لي هنداً والرباب وفرتني ومسمعة ، حسبي بذلك مــالا
خلوا ملككم،لا ثبت الله ملككم فليس يساوي بعد ذاك عقالا
وخلّوا سبيلي قبل عير وما جرى ولا تحسدوني أن أموت هزالا[1]

وكان (ابن شهاب الزهري) من رواة الشعر ، وكان من المؤلفين ، وقد توفي سنة (١٢٤ هـ)[2] ، وكان راويـــة للشعر ، يحفظ الكثير منه ، حتى كان الأمويون إذا أشكل عليهم أمر من أمور الشعر ، أرسلوا اليه يسألونه عنه[3] .

وكان (عروة بن الزبير) من رواة الشعر ، ويعد من أشهر رواته عند أهل الحجاز ، روى عن عائشة ، وكان يقول : « روايتي في رواية عائشة »[4] ، وقد روى عن اختها (أسماء) بنت أبي بكر ، روى عنها شعراً لزيد بن عمرو بن نفيل ، ولورقة بن نوفل[5] ، وكان يزور آل مروان ، رآه الحجاج « قاعداً مع عبد الملك بن مروان ، فقال عروة : أنا لا أم لي ! وأنا ابن عجائز الجنة ! ولكن إن شئت أخبرتك من لا أم له يا ابن المتمنية ! فقال عبد الملك : أقسمت عليك أن تفعل ، فكفّ عروة . والمتمنية ، هي الفُريعة بنت همام ، أم الحجاج

---

١ رسالة الغفران (٤٤٤ وما بعدها) ، الاغاني (٤٦/٧ ، ٧٣) .
٢ المعارف (٤٧٢) .
٣ الاغاني (٢٤٨/٤) .
٤ الاصابة (٣٤٩/٤) ، (رقم ٧٠٤) .
٥ الاغاني (١٢٤/٣ وما بعدها) .

وهي القائلة :

هل من سبيل الى خمرٍ فأشربها　　أم من سبيل الى نصر بن حجاج[1]

وللمتمنية قصة ، لا تخلو أن تكون من وضع أعداء الحجاج .

وقد نسب أهل الأخبار الى بعض رواة الشعر حفـظ الشيء الكثير من ذلك الشعر ، نسبوا الى بعضهم حفظ آلاف القصائد عدا القطع والأراجيز . ذكروا مثلاً ان (حماداً) الراوية كان يحفظ (٢٧) قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة[2] . وان (الأصمعي) ، كان يحفظ (١٦) ألف أرجوزة[3] ، وان (أبا ضمضم) ، كان يروي لمائة شاعر اسم كل منهم (عمرو)[4] ، وأن (أبا تمام) حفظ (١٤) ألف أرجوزة من أراجيز الجاهلية غير القصائد والمقاطيع[5] ، الى أمثال ذلك من أرقام لا تخلو من مبالغات أهل الأخبار .

وروي أن فتياناً جاءوا الى (أبي ضمضم) بعد العشاء ، فقال لهم : مـا جاء بكم يا خبثاء ؟ قالوا : جئناك نتحدث ، قال : كذبتم ، ولكن قلتم كبر الشيخ فنتلعبه عسى أن نأخذ عليه سقطة ! فأنشدهم لمائة شاعر ، وقال مرة أخرى لثمانين ، كلهم اسمه عمرو[6] . وقال (الأصمعي) : « فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين . فهذا ما حفظه أبو ضمضم ، ولم يكن بأروى الناس ، وما أقرب أن يكون من لا يعرفه من المسمّين بهذا الإسم أكثر ما عرفه » .

ولما نشأ التدوين بالمعنى المفهوم من هذه اللفظـة في الإسلام ، كان الشعر في طليعة الموضوعات التي عني الناس بهـا في أيام الأمويين فما بعد . فجمعوا شعر الشعراء على انفراد ، وجمعوا شعر جماعة منهم ، أو شعر قبيلة أو قبائل ، وجمعوا

١　الفائق (٣/٥٢ وما بعدها) .
٢　النجوم الزاهرة (١/٤٢٠) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/٧٧) .
٣　ابن خلكان (١/١٢١) ، طبقات الادباء (١٥١) ، زيدان (١/٧٧) .
٤　الشعر والشعراء (٤) . زيدان (١/٧٧) .
٥　ابن خلكان (١/١٢١) ، زيدان (١/٧٧) .
٦　الشعر والشعراء (٩) ، (الثقافة) .

شعر طبقة من الطبقات الاجتماعية ، كما عنوا بالاختيارات وغير ذلك[1] .

وقد أخذ بعض رواة الشعر الجاهلي من منابعه ، أي من القبائل ، « قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب : دخل أبو عمرو اسحاق بن مرار البادية ومعه دستيجان من حبر ،فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب »[2] . (وأبو عمرو) هذا ، هو أبو عمرو الشيباني .

وقد أشار (ابن النديم) والعلماء الذين عنوا بالشعر الى أسماء نفر من العلماء عنوا واشتغلوا بجمع الشعر ، وذكروا أسماء كتبهم واختياراتهم . وقد وصل الينا بعض ما اشتغلوا فيه وجمعوه ، فطبع ، ومنه ما لا زال مخطوطاً محفوظاً في خزائن الكتب . وهو معروف يعرف الناس المواضع التي يوجد فيها ، وقد يهيأ له من يقوم بطبعه وتيسيره بذلك للناس ، غير أننا لا نزال نجهل مصير عدد كبير من الدواوين والأشعار والاختيارات التي ذكر (ابن النديم) وغيره أسماءها مع أسماء جامعيها ، لا ندري إذا كانت اليوم في خزائن الكتب لا يعرف الناس من أمرها شيئاً ، لعدم إحاطة المسؤولين بأمر تلك الخزائن العلم بها ، أو أنها عند أسر لا تعرف من أمر المخطوطات شيئاً ، لجهلها بها وبالعلم ، أو أنها تلفت وولت لعوامل عديدة ، فلا أمل إذن من بعثها ونشرها .

وقد تحرش (الجاحظ) بنموذج من رواة الشعر بالبصرة ، فقال : « وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة ، فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الحديث والقصائد ، والفقر والنتف من كل شيء . ولقد شهدتم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنيات ، وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فتياني متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة ، والأصمعي ، ويحي بن المنجم ، وأبي مالك

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٦٧/١) .
٢ نزهة الالباء (ص ٦١ وما بعدها) .

عمرو بن كركرة ، مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد الى شعر في النسيب فأنشده . وكان خلف يجمع ذلك كله »[1] .

ولم يقتصر عمل الراوية على رواية الشعر وإنشاده للناس ، بل كان يقوم أيضاً بشرح غامض ألفاظه وبإجلاء ما قد يكون في الشعر من معان خفيــة غامضة ، كما كان يقوم بشرح الظروف والمناسبات التي نظم الشعر فيها ، الى غــير ذلك من أمور تتعلق بالشعر . ولهذا فإن راوية الشاعر ، هو ديوان حي للشاعر ، فيه كل ما يتعلق بشعر ذلك الشاعر .

ولم يقتصر جمع الشعر على عشاقه ورواته والعلماء به ، أو على الرواة الشعراء، بل ساهم فيه أناس تخصصوا بأمور أخرى، كان لاختصاصهم اتصال متين بالشعر ، مثل علماء النسب وعلماء الأيام والأخبار . فقد أمدنا هؤلاء بمادة لا بـأس بها من الشعر الجاهلي ، في الجاهلية وفي الاسلام . كانوا إذا تحدثوا عن نسب قبيلة أو عن نسب رجـــل معروف ، ذكروا ما قيل في حقها أو في حقه من مدح أو هجاء ، وكانوا إذا تكلموا عن أيام الجاهلية ، اضطروا الى سرد ما قال فيهـــا أبطالها وفرسانها من شعر . فقد كان من عادة الأبطال إنشاد شعر التبجح بالنفس وبمفاخرها وبمفاخر القبيلة حين نزولهم ساحة القتال ، وكان من عــادة المنتصر تخليد نصره بأشعار ينشدها أبناء القبيلة ، لتكون تسجيلاً لمفاخره بين الناس .

وساهم علماء العربية : علماء اللغة والنحو والتفسير والحديث مساهمة تذكر في تخليد الشعر الجاهلي ، بما جمعوه من شواهد في اللغة وفي النحو وفي الصرف،وفي تفسير القرآن والحديث من أبيات وقطع بل قصائد أحياناً . فقدموا لنا بفعلهم هذا مادة ساعدتنا في زيادة معارفنا عن شعر ما قبل الاسلام ، وفي ضبط الشعر الوارد في المصادر الأخرى ، وتصحيح ما قد يكون قد وقـع في الروايات المتضاربة من أوهام ، كما أمدتنا بمادة لا بأس بها ، بل جديدة ونادرة أحيانـــاً عن أصحاب الشعر وعن المناسبات التي قيل فيها .

وقد تعرض (الجاحظ) لأمر هؤلاء في الشعر ، فقال : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب . ولم أر غاية رواة الشعر إلا كل شعـر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم أ، غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيـه

---

١ البيان والتبيين (١٠٠) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

الشاهد والمثل »[1] .

يقول (بروكلمن) : « ولم يبدأ جمع الشعر إلا في عصر الأمويين ، وإن لم يبلغ هذا الجمع ذروته إلا على أيدي العلماء في عصر العباسيين ، بيد ان معنى التحري في وثوق الرواية ، والتدقيق في النقل اللغوي على النحو الذي نعرفه في عصرنا هذا ، كان أمراً غريباً بعد على جمّاع ذلك العصر . ولما كان كثير من هؤلاء الجماع أنفسهم شعراء ، فقد ظنوا انه ليس من حقهم فقط ، بل ربما كان واجباً عليهم أيضاً في بعض الأحيان أن يصلحوا ما رووه للشعراء القدماء أو يزيدوا عليه . فلا عجب اذا لم يبالوا أيضاً بالوضع والاختراع لتوثيق رواياتهم . وقد أراد حماد الراوية أن يفسر تفوقه ، والتفوق المزعوم لأصحابه الكوفيين في الدراية بالشعر القديم ، فزعم انه وجد الشعر الذي كتب بأمر النعمان ودفن في قصره الأبيض بالحيرة ، ثم كشف في أيام المختار بن أبي عبيد .

لقد غيّر الرواة بعض أشعار الجاهلية عمداً ، ونسبوا الأشعار القديمة الى شعراء من الجاهلية الأولى ، كما يمكن أن يكون وضع أشعار قديمة، منحولة على مشاهير الأبطال في الزمن الأول لتمجيد بعض القبائل ، أكثر مما نستطيع إثباته .

على أنه بالرغم من كل العيوب التي لم يكن منها بد في المصادر القديمة ، يبدو أن القصد الى التشويه والتحريف لم يلعب إلا دوراً ثانوياً . وقد روى علماء المسلمين أشعاراً للجاهليين تشتمل على أسماء أصنام وعبادتها ، وأن أسقطوا أيضاً أبياتاً أخرى لشبهات دينية ، وذلك في حالات يبدو أنها قليلة ، لأن الشعور الديني لم يكن غالباً على نفوس العرب في الجاهلية »[2] .

ويعود الفضل في جمع الشعر الجاهلي وتدوينه وتخليده الى مدينتين اشتهرتا بالعلم، هما : الكوفة والبصرة ، فقد كان علماء هاتين المدينتين في طليعة من عني بجمع الشعر الجاهلي وتقصيه ، ولا نكاد نجد مدينة إسلامية ، بلغت مبلغها في هذه الناحية ، أو تمكنت من مزاحمتها في جمع شتات هذا الشعر وحصره في كتب مدونة صارت مرجعاً للعلماء ولعشاق هذا الشعر الى يومنا هذا . ونكاد لا نجد كتاباً في الشعر أو في الأدب ، إلا وهو عيال على علم علماء هاتين المدينتين .

---

١ البيان والتبيين (١٠١) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٩ م) .

٢ بروكلمن (١/٦٥ وما بعدها) .

الغساسنة ، ليجد له مأوى عندهم ، كما فعل النابغة والمتلمس . ولما كان الغساسنة قد تأثروا بالحياة الحضرية ، أكثر من ملوك الحيرة،وقد تشربوا بالثقافة البيزنطية، فعاشوا في بيوت بدمشق بين الحضر ، وبنوا القصور الكبيرة في القرى التابعة لهم، وهي مواضع خصبة ، وقد أثثوها على الطريقة الرومية ، وكانوا يسمعون الغناء الرومي ، وكانت مصالحهم بالأعراب وبجزيرة العرب – كما قلت – غير ذات بال ، لم يحفلوا بالشعراء الوافدين عليهم احتفال ملوك الحيرة بهم ، ولم يغدقوا إغداق المناذرة عليهم ، فصار عدد الشعراء الوافدين عليهم قليلاً إذا قيس بعدد من كان يذهب منهم الى قصور الحيرة ، كما يظهر ذلك جلياً من كتب الأخبار والأدب التي تحدثت عن الشعراء الجاهليين ، ولعل هذا الصدّ عن الشعراء هـو الذي حمل (النابغة) على ألا يمكث عند الغساسنة طويلاً ، فحمل حمله ، وعاد الى الحيرة معتذراً الى النعمان عما بدر منه من خطأ ، رامياً سبب مـا وقع بينهما من قطيعة الى عمل الوشاة الحساد . ولعله كان أيضاً في جملة العوامل التي جعلت العراق يتقدم على الشأم في رواية الشعر الجاهلي وفي نشره ، فنحن لا نكاد نعرف رجلاً من أهل الشأم الصميمين ، قام بالشعر الجاهـلي ، أو بأمر شعراء العرب في الشأم من أهل الجاهلية ، كما قام به أهل العراق . ولم تشتهر (دمشق) ولا غيرها من مدن بلاد الشأم بما قامت به مدن العراق من جمع الشعر الجاهلي على الرغم من تحمس الأمويين وكلفهم في جمعه وتدوينه .

وقد تعرض العلماء لأمر (المدينة) ، فقالوا : « فأما مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فلا نعلم بها إماماً في العربية . قال الأصمعي : أقمت بالمدينـة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة .

وكان بها ابن دأب ، يضع الشعر وأحاديث السمر، وكلاماً ينسبه الى العرب، فسقط وذهب علمه وخفيت روايته ، وهو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب ، يكنى أبا الوليد ، وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر[1] . وذكر ان في جملة ما صحفه من الشعر ، قول (الحارث بن حلزة) اليشكري :

أيها الكاذب المبلغ عنا عبد عمرو وهل بذاك انتهاء

---

١ المزهر (٤١٣/٢ وما بعدها) .

وانما هو : عند عمرو[1] .

وأقدم ما لدينا من مدونات الشعر الجاهلي ، الاختيارات التي جمعها (حماد) الراوية ، المعروفة بـ (المعلقات) ، والتي عرفت بالسموط . ولعلها الديوان الذي ذكر (ابن النديم) انه أرسله الى (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) ، فاستعان به مع ديوان آخر بعثه اليه (جناد) ، ليجمع منها ومن غيرهما ديوان العرب وأشعارها[2] ، وقد يكون ديواناً آخر أوسع من هذا المجموع .

ويلي هذه الاختيارات ، اختيارات أخرى جمعها رجل من أهل الكوفة أيضاً، وراوية من رواة الشعر المعروفين هو (المفضل بن محمد بن يعلى) الضبي ، المتوفى سنة (١٦٤ هـ) (٧٨٠ م) ، أو (١٦٨) ، أو (١٧٠ هـ) ، على اختلاف الروايات . وقد اتخذه (المنصور) مؤدباً لابنه (المهدي) فعمل له الأشعار المختارة المسماة المفضليات ، وهي مائة وثمانٍ وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص ، وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه ، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي . قال : وأول النسخة التي لتأبط شراً :

يا عيد مالك من شوق وابراق ومرّ طيف على الأهوال طراق[3]

[هذا وقد وقع في الجزء الأول من هذا الكتاب سهو، إذ سقطت لفظة(مائة) من « وهي مائة وثمانٍ وعشرون قصيدة » ، فصارت على هذا النحو : « وهي ثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص »[4] ، ولذلك أحببت أن ألفت نظر القراء لإصلاح هذه الهفوة] .

ويلي هذه الاختيارات اختيارات أخرى جمعها (الأصمعي) ، سأتحدث عنها أثناء حديثي عنه بعد قليل، ثم اختيارات أخرى عرفت بـ (جمهرة أشعار العرب) ، قد جمعت في أواخر المائة الثالثة للهجرة . « وهي مجموعة سباعية تشتمل على سبعة أقسام ، أولها المعلقات السبع، وتحمل الأقسام الستة الباقية حلى من العناوين المختارة

---

١ المزهر (٢/٣٦٢) .
٢ الفهرست (١٤٠) .
٣ الفهرست (١٠٨) ، الاغاني (٥/١٢٥) ، بروكلمن (١/٧٣) .
٤ (٦٨) .

وهي : المجمهرات ، المنتقيات ، المذهبات ، المراثي ، المشوبات ، الملحمات »[1].

« ويسمى جامعها أبا زيد القرشي ، وقيل إن سند رواية أبي زيد هــذا ، وهو المفضل ، كان في المرتبة السادسة من سلالة الخليفة عمر بن الخطاب ، واذاً فلا بد أن حياته كانت في أواخر القرن الثالث الهجري . على ان كلا الرجلين : أبي زيد والمفضل ، مجهول بالكلية فيما عدا ذلك . ويبدو لنا ان تسميتها موضوعة على اسمي كل من أبي زيد الأنصاري النحوي المشهور وشيخه المفضل . ولكن لما كان كتاب الجمهرة معروفاً لابن رشيق (٣٩٠ – ٤٥٦ هـ / ١٠٠٠–١٠٦٤م) ، فقد يكون تم تأليفه في ملتقى القرنين الثالث والرابع للهجرة »[2] .

وهناك مجموعات أخرى مثل ديوان الحماسة لأبي تمام (المتوفى ٢٣١ هـ) ، وديوان الحماسة للبحتري (٢٠٥ – ٢٨٤ هـ) ، وحماسة (الخالديين) ، أو كتاب الأشباه والنظائر ، للأخوين : أبي عثمان سعيــد (المتوفى حوالى ٣٥٠ هـ) ، وأبي بكر محمد (المتوفى ٣٨٠ هـ) ، ومجموعات أخرى معروفة ، مثل كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الاصبهاني ، ذكرها (بروكلمن) و (جرجي زيدان) ، وغيرهما ممن بحث عن الشعر الجاهــلي ، فلا حاجة بي اذن الى ذكرها في هذا المكان .

ولم يلزم رواة الشعر الأول وعلماء اللغة والنحو أنفسهم النص على اسم المنبــع الذي غرفوا الشعر أو الخبر منه ، فصار من الصعب علينا ، بل من غير الممكن التعرف على السبيل الــذي سلكه هذا الشعر الجاهــلي من الجاهلية حتّى وصل الى (حماد) الراوية ، أو (خلف) الأحمر ، أو غيرهما من رواة الشعــر . ولو كانوا قد نصوا عليه ، لأمكن التثبت من صحة الشعر ، بنقد سلسلة السند ، أو المصدر المكتوب إن كان مكتوباً ، فيخفف بذلك من هذا الشك الذي يحوم حول صحة المصادر التي أخذ الرواة منها معينهم عن هذا التّراث الخالد الجاهلي .

وقد اكتفى الرواة أحياناً بذكر اسم (أعرابي) ، نسبوا أخــذ شعرهم أو خبرهم اليه ، اتصلوا به أثناء قدومه البصرة أو الكوفة ، أو في أثناء ذهابهم الى البادية لجمع العلم بأخبار العرب وبشعرها القديم منها ، ومعظمهم من قبائل مختارة

---

١ بروكلمن (١/٧٥) .
٢ بروكلمن (١/٧٥) .

نصوا على اسمها ، مثل تميم ، وأسد ، وهي القبائل التي ارتضى علماء اللغة الأخذ عنها ، وكان بعضهم ممن ترك البادية وعاش في الحاضرتين ، وأظهروا مقدرة وكفاءة في الرد على أسئلة العلماء ، استوجبت توثيقهم وتقديمهم ، حتّى صار بعضهم من طبقة العلماء .

ولم يشر العلماء أحياناً الى اسم الأعرابي ، أو الأعراب الذين أخذوا عنهم ، بل اكتفوا بالاشارة الى أنهم سمعوا ما ذكروه من (أعرابي) ، أو من (أعرابي) فصيح ، أو من (فصحاء الأعراب) ، أو (فصحاء العرب) . ولا ندري حال هؤلاء الأعراب وحظهم من العلم والمعرفة بعلوم اللغة ، وبأمور القبيلة في الجاهلية ، وقد يصح الأخذ منهم في أمور لغوية تخص لهجة قبيلتهم ، أما في موضوع الشعر والأخبار ، فهناك مشاكل شائكة تجعل من الصعب قبول روايتهم، لمجرد أنهم أعراب ، وأنهم أعلم من الحضر بأمور قبيلتهم ، فبينهم من كان لا يبالي من التحقق بإجابته ، فيجيب حسب مزاجه وهواه .

وقد اشتهر وعرف بعض الأعراب ، حتّى دخلت أسماؤهم في الكتب ، وقد دوّن (ابن النديم) أسماء جماعة منهم في باب دعاه : « أسماء فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء ، وشيء من أخبارهم وأنسابهم »[1] . وقد ذكر ان من بين هؤلاء من كان معلماً ، يعلم الصبيان بأجرة ، ويؤخذ منه العلم ، وكان شاعراً ، مثل (أبو البيداء) الرباحي ، وهو أعرابي نزل البصرة ، وعلم بها ، و (أبو مالك عمرو بن كركرة) ، وكان يعلم في البادية ويورق في الحضر مولى بني سعد ، راوية أبي البيداء ، وكان عالماً باللغة ، وله رأي طريف : « يزعم ان الأغنياء عند الله أكرم من الفقراء »[2] ، و (أبو عرار) ، وهو أعرابي من (بني عجل) ، قريب من (أبي مالك) في غزارة علم اللغة ، وكان شاعراً ، وكان ممن يتصل به (جناد) و (اسحاق بن الجصاص)[3] . ولبعضهم مؤلفات،ذكر أسماءها (ابن النديم) . وقد أقام معظمهم بين الحضر ، في المدن المشهورة التي كانت تبحث عن أمثال هؤلاء ، مثل البصرة والكوفة ، ثم بغداد ، وكان أكثرهم ينظم الشعر ، ومنهم من كان كاتباً قارئاً ، طابت له

---

١ الفهرست (ص ٧١ وما بعدها) .
٢ الفهرست (ص ٧٢) .
٣ الفهرست (ص ٧٢) .

الاقامة بين الحضر ، ووجد له الرزق بينهم ، ففضل الراحة وطلب المـــال على الاقامة في أرض الشح والفقر .

بعض رواة الشعر :

هناك رجال غلبت عليهم رواية الشعر ، فاشتهروا بها ، مثل حماد الراويـــة وخلف الأحمر . غير ان هناك رجالاً ، اشتغلوا بالعربية والنحو ، لا يقل جهدهم في جمع الشعر الجاهلي عن جهد رواة الشعر ، منهم من جمعه لتفسير كلام الله، ومنهم من حفظه للاستشهاد به في ضبط اللغة وقواعد النحو ، حتى اننا لنجد في كتب اللغة والمعاجم وشواهد النحو ، أبيات شعر وقطع لشعـراء جاهليين فات خبرها عن رواة الشعر ، ولهذا فنحن لا نستطيع فصل عمل هؤلاء عن عمل رواة الشعر ، وعدم الاشارة اليهم في أثناء حديثنا عن العلماء الذين كان لهم فضل جمع الشعر الجاهلي .

ومن أعرف رواة الشعر الجاهلي ، عامر بن شراحيل الشعبي ، المولود سنـــة (٩) للهجرة والمتوفى سنة (١٠٤) أو (١٠٥) للهجرة ، و (أبو عمرو بن العلاء) المتوفى ما بين السنة (١٥١) والسنة (١٥٩) للهجرة،وحماد الراوية ، والمفضل الضبي ، وخلف الأحمر ، وأبـــو عمرو الشيباني ، المتوفى سنة (٢٠٥) أو (٢٠٦) ، أو (٢١٣) للهجرة ، وأبو عبيدة ، ومحمد بن السائب الكلبي المتوفى سنـــة (١٤٦) للهجرة ، وابنه (هشام بن محمد بن السائب) الكلبي ، وابن الأعرابي ، وابن السكّيت ، المتوفى سنـــة (٢٤٤) أو (٢٤٦) للهجرة ، والطوسي ، المتوفى في حوالى السنة (٢٥٠) للهجرة ، والسكّري،المتوفى سنة (٢٧٠) أو (٢٧٥) للهجرة والمبرد ، المتوفى سنة (٢٨٢) ، أو (٢٨٥) ، أو (٢٨٦) للهجرة[١] ، وغـــيرهم ممن تجد اسماءهم في (الفهرست) لابن النديم وفي الموارد الأخرى. ويعد (أبو عمرو ابن العلاء بن عمّار بن العريان) من (خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم) المتوفى سنة (١٥٤هـ)[٢] . من أعلم زمانه في الشعر واللغة ، وقـــد ذكر أن

---

١ Ch. J. Lyall, Ancient Arabian Poetry, pp. XXXIX.

٢ المعارف (٥٤٠) ، أخبار النحويين ، للسيرافي (٢٨ وما بعدها) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (١١٢/١٠) ، تهذيب الاسماء واللغات (٢٦٢/١) .

اسمه (زبّان بن العلاء بن عمار) المازني[1] . وكان عالماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها ، وكان مشهوراً في علم القراءة والحديث واللغة والعربية[2] . وقد أخذ الشعر عن أعراب أدركوا الجاهلية ، واثنى عليه (الجاحظ) ، وأطرى على علمه ، فقال : « كان أعلم الناس بأمور العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان. حدثني الأصمعي ، قال : جلستُ الى أبي عمرو عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي . قال : وقال مرة : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته . يعني شعر جرير والفرزدق وأشباههما . وحدثني أبو عبيدة قال : كان أبو عمرو أعلم الناس بالغريب والعربية ، وبالقرآن والشعر ، وبأيام العرب وأيام الناس » ، « وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء ، قد ملأت بيتاً له الى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ[3] فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد الى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »[4] .

وقد فسر بعض المستشرقين إحراق (أبو عمرو بن العلاء) لكتبه ، على انه كان تحت تأثير أزمة دينية تدل « على ان أوساط التدين في العراق لا تنظر بعين الارتياح الى التنقيب عن بقايا الوثنية »[5] . وأشار بعض منهم الى ان الحرق تناول ما جمعه من الشعر الجاهلي ، وانه كان في أزمة زهدية لينصرف الى دراسة القرآن[6] . وهو تفسير غريب ، استنتجوه من لفظة (تقرأ) ، أي (تنسك) على ما يظهر ، وليس لهذه اللفظة صلة بالوثنية وبالشعر الجاهلي ، ولو كان الشعر الجاهلي ممقوتاً ، وجمعه وحفظه مذمومين ، لما حفظه الصحابة وترنموا واستشهدوا به ، ثم ان غيره من الزهاد مثل (أبو الأسود) الدؤلي ، كان يحفظ هذا الشعر ويستشهد به ، وقد رأينا ان الرسول ، كان يسمعه ويستشهد بـه ، ثم ان خبر

---

1 المزهر (٢/٣٠٤) ، البيان والتبيين (١/٣٢١) ، الفهرست (٤٨) ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٢٧٠) .

2 نزهة الالباء (٢٤) ، المقتبس ، للمرزباني (٢٥ وما بعدها) ، ابن خلكان (١/٣٨٦ وما بعدها) ، الذهبي ، العبر (١/٢٢٣) .

3 تقرأ ، تنسك .

4 البيان والتبيين (١/٣٢٠ وما بعدها) ، ابن خلكان (١/٣٧٦) .

5 ريجيس بلاشير ، تأريخ الادب العربي (١١٠) .

6 المصدر نفسه (الحاشية رقم ٤) .

إحراق الكتب ، لا يشير لا تصريحاً ولا تلميحاً الى علاقته بالشعر ، ولعله خبر موضوع ، وضعه (أبو عبيدة) ، لغرض ما ، كأنه كان يريد من وضعه المبالغة في علمه وفي زهده ، أو ان حريقاً غير متعمد أصاب بعض كتبه ، فضخمه ووسعه ، وجعله إحراقاً متعمداً ، إذ لا يعقل أن يقوم هو بإحراق كتبه كلها ، ثم إن قوله : « وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء ، قد ملأت له بيتاً الى قريب من السقف ، ثم انه تقرأ فأحرقها كلها » لا يخلو من مبالغة ، فليس من السهل على رجل كتابة هذا القدر من الكتب بالنسبة لذلك الوقت ، حيث كان الورق غالياً ، بحيث تملأ بيتاً الى قريب من السقف، ثم قيامه بإحراقها كلها بمثل هذه البساطة والسذاجة ، فهي في نظري قصة مصطنعة ، لا حقيقة فيها. ومما يؤيد سذاجة هذه القصة ، هو ان صاحبها عاد فقال انه رجع بعد الى علمه الأول ، فلم يكن أمامه عنده إلا ما حفظه بقلبه[1] ، مما يثبت انه أراد من وضعها المبالغة في علمه ، بزعمه انه كان قد حفظ ما شاء الله من العلم ، ومنه الشعر الجاهلي الذي كان يمجده ، ويرى انه وحده هو الشعر ، ولهذا لم يستشهد أو يحتج ببيت اسلامي ، مهما بلغ الشعر الاسلامي من الجودة والحسن ، لأنه شعر محدث ، والمحدث لا يقاس بالشعر الجاهلي الأصيل ، مهما بلغ من الاتقان .

وقد زعم أنه قال : « ما زدت في شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعني ما يروى للأعشى من قوله :

وأنكرتني ومـا كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا »[2]

ولا ندري بالطبع إذا كان هذا الكلام المنسوب الى (أبي عمرو) هو من كلامه حقاً ، أو كان من الكلام المصنوع المنحول عليه . واذا كان صحيحاً ، فان فيه تلميحاً الى أن هناك من قد اتهمه بالوضع ، جرياً على العادة التي كانت اذ ذاك من اتهام العلماء بعضهم بعضاً بالوضع ، فروي هذا الخبر في تبرير ذمته من الوضع ، وإنه لم يضع في حياته إلا البيت المذكور .

و (عوانة بن الحكم بن عياض) الكلبي ، ويكنى (أبا الحكم) ، من هذه

---

١ البيان والتبيين (٣٢١/١) .
٢ المزهر (٤١٥/٢) ، الاغاني (١٤٣/٣) .

الرعيل الذي كان له فضل في جمع الشعر . كان من علماء الكوفة،راوية للأخبار عالماً بالشعر والنسب ، وكان فصيحاً ضريراً . وله كتب . منهـا كتاب التأريخ وكتاب سيرة معاوية وبني أمية ، وقد ذكر بعضهم أنه (لمنجاب بن الحارث)، غير أن (ابن النديم) ، نص على أنه لعوانة ، وليس لمنجاب . وذكر (ابن النديم) أنه قرأ بخط (أبي عبدالله بن مقلة) « قال أبو العبّاس ثعلب : جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وردّ الديوان الى حماد وجناد »[1] . مما يدل على أن (الوليد) كان قد استعـار منهما ديواناً كان عندهما في أشعار العرب . ولعل كل واحد منهما كان قد جمع ديواناً خاصاً به ، فاستعان (الوليد) بهما في اخراج ديوان واحد يضم مـا جاء في الديوانين من شعر . وكانت وفاة (عوانة) سنة (١٤٧ هـ) .

و (المفضل بن محمد بن يعلى الضبي) الكوفي ، المتوفى سنة (١٦٤ هـ)، (١٦٨ هـ) ، (١٧٠ هـ) ، هو من أصحاب العلم بالشعر ، وكان قد انضم الى جماعة (ابراهيم بن عبدالله بن الحسن) العلوي ، فظفر به المنصور ، وعفا عنه ، وألزمه ابنه (المهدي) ، وجعله مؤدباً له . وللمهدي عمل الأشعار المختارة المسماة (المفضليات) ، « وهي مائة وثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه. والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي. قال : وأول النسخة لتأبط شراً :

يا عبد مالك من شوق وابراق ومرّ طيف على الأهوال طراق[2]

وذكر (ابن النديم) ان له من الكتب : (كتاب الاختيارات. وقد ذكرناه. كتاب الأمثال . كتاب العروض . كتاب معاني الشعر . كتاب الألفـاظ)[3] . وكتاب الاختيارات ، هو (المفضليات) ، ويظهر انه عرف بـ (المفضليات) نسبة الى الجامع ، فطغت هذه التسمية على الاسم الأصل[4] .

---

١ الفهرست (١٤٠) .
٢ الفهرست (ص ١٠٨) ، الاغاني (١٢٥/٥) ، ياقوت ، ارشاد (١٧١/٧) ، بغية الوعاة (٢٩٧/٢ وما بعدها) ، انباه الرواة (٢٩٨/٣ وما بعدها) ، ابن الانباري نزهة (٥٦) ، المعارف (٥٤٥) .
٣ الفهرست (١٠٨) .
٤ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (٧٢/١ وما بعدها) .

وكان المفضل عالماً بالشعر ، وكان أوثق من روى الشعر من الكوفيين . ولم يكن أعلمهم باللغة والنحو ، انما كان يختص بالشعر . وقد روى عنه (أبو زيد) شعراً كثيراً[١] .

وليست هذه القصائد التي يضمها كتاب المفضليات كلها من جمع المفضل وترتيبه على ما جاء في بعض الموارد ، وليس في هذه القصائد المطبوعة في المفضليات إلا سبعون قصيدة هي من اختيار المفضل. أما بقيتها ، فهي زيادات وإضافات وضعت على تلك القصائد[٢] . وليس للمفضل منها على ما جاء في مورد آخر إلا ثمانون قصيدة هي التي أخرجها للمهدي . وأما ما تبقى منها ، فهي من اختيارات الأصمعي ، وهي أربعون قصيدة من مجموع عشرين ومئة[٣] . فيكون ثلثاها على وفق هذه الرواية من اختيار المفضل . وأما الثلث الباقي ، فمن اختيار الأصمعي[٤] . ولم يذكروا شيئاً عن القصائد الثماني الباقية ، وقد نص (ذيل الأماني) على أنها مائة وعشرون[٥] .

ويدل هذا الإختلاف على ان رواة المفضليات لم يعتمدوا في روايتهم للكتاب على النسخة الأم ، وهي النسخة التي اختارها المفضل للمهدي . وإلا لما حدث اختلاف بين الروايات في ترتيب القصائد وفي عددها،أو أن المفضل نفسه لم يدوّن اختياراته تلك في كتاب ، وإنما اختار ما اختاره دون تدوين ، فكان يمليه على المهدي مجلساً مجلساً ، حتى أكمل تلك الإختيارات ، وأنه ألقى اختياراته هذه على من كان يحضر مجلسه طلباً للشعر في مجالس أيضاً ، فمن هنا وقع هذا الاختلاف . وقد كان يكتفي بإلقاء المختار على طلابه دون شرح . أما الشرح المطبوع، فليس من شرح الضبي وتفسيره ، وإنما هو من عمل رواة آخرين ورد ذكرهم في مقدمة الكتاب ، وليس للمفضل فيه إلا الاختيارات[٦] .

---

١ المزهر (٢/٤٠٥ وما بعدها) .

٢ مقاتل الطالبيين (١١٩) ، « طبعة طهران » ، المفضليات (الترجمة الانكليزية) . Vol, II, p. XIV.

٣ ذيل الامالي (١٣٠) ، (دار الكتب المصرية) .

٤ المفضليات (الترجمة الانكليزية) . Vol, II, p. XIV.

٥ ذيل الامالي (١٣٠) .

٦ راجع النص العربي للمفضليات (طبعة لايل) ، (١) .

والشرح المطبوع هو من صنع أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري وجمعه ، وقد أخذه من موارد متعددة أشار اليها في الكتاب . وقد رواه عنه ابنه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، وعنه أبو بكر أحمد بن محمد الجراح الخزاز . وفي جملة من اعتمد عليه أبو محمد صاحب هذا الشرح من شيوخه ، عامر بن عمران أبو عكرمة الضبي ، وقد أملى عليه القصائد المختارة المنسوبة الى المفضل « إمـلاءً ، مجلساً مجلساً ، من أولها الى آخرها وذكر أنه أخذها عن أبي عبدالله محمد بن زياد الأعرابي ، وذكر أنه أخذها عن المفضل الضبي »[1] : كما كان في جملتهم أبو عمرو بندار الكرخي ، وأبو بكر العبدي ، وأبو عبدالله محمد بن رستم ، والطوسي ، وأبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح . من هؤلاء ومن أمثالهم جمع الأنباري هذا الشرح ، وفيهم من هو من الكوفة وفيهم من هو من أهل البصرة وهم من أتباع الأصمعي ، ولهذا نجد رواياته تتداخل فيه من أبيات شعر أو قصائد لم يخترها المفضل ، ومن شرح أو تفسير لكلم غريب .

فالمفضليات وإن نسبت الى المفضل ، غير انها في الواقع من جمع الأنباري المذكور ، وقد جمعها من أفواه جملة رجال ، كل واحد منهم له فيها عمل ويد . وفق الأنباري بين تلك القصائد والأشعار وبين هذه الروايات والمعارف الواردة عن الشعر ، وأخرج منها هذا الكتاب الثمين الكبير[2] .

وللمفضل أقوال حفظت في كتب أخرى غير هذا الكتاب ، فنجد أبا زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب يذكره في مواضع من كتابه ، ويذكر نتفاً من روايات مستندة اليه[3] ، كما نجد الأصبهاني يورد له أخباراً في الشعر في مواضع عديدة من كتابه الأغاني ، ونجد غيرهما من رجال الأدب يشيرون اليه . وفي الموارد التي أشاروا اليها ما يدل على علم واسع له في الشعر وعلى إدراك في النقد .

واذا كان ما ذكره (ابن النديم) عن المفضليات من قوله : « هي مائة

---

١ المفضليات (١) (طبعة لايل) ، (النص العربي) .

٢ جواد علي ، تدوين الشعر الجاهلي ، مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد السابع) (الجزء الثاني ص ٥٢٠ وما بعدها) ، (١٩٥٦) .

٣ جمهرة أشعار العرب (القاهرة ١٩٢٦ م) .

وثمانٍ وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم وتتأخر ، بحسب الرواية ، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي ، قال : وأول النسخة لتأبط شراً :

يا عيد مالك من شوق وإبراق ومر طيف على الأهوال طراق[1]

تكون هذه النسخة أصح الروايات اذن ، وكان (ابن الأعرابي) المتوفى سنة (٢٣١ هـ) قد سمع المفضل ، وكان يذكر انه ربيب المفضل ، كانت أمه تحته[2] ، فلا يستبعد أن تكون نسخته ، هي النسخة الصحيحة ، لاتصاله به .

وقد ذكر (أبو جعفر محمد بن الليث الأصفهاني قال : أملى علينا أبو عكرمة الضبي المفضليات من أولها الى آخرها ، وذكر ان المفضل أخرج منها ثمانين قصيدة للمهدي ، وقرئت بعد على الأصمعي فصارت مائة وعشرين . قال ابو الحسن[3] : أخبرنا أبو العباس ثعلب ان أبا العالية الأنطاكي والسدري ، وعافية بن شبيب ، وهؤلاء كلهم بصريون من أصحاب الأصمعي ، أخبروه انهم قرأوا عليه المفضليات ثم استقرأوا الشعر فأخذوا من كل شاعر خيار شعره ، وضموه الى المفضليات وسألوه عما فيه مما أشكل عليهم من معاني الشعر وغريبه فكثرت جداً »[4]. وروي عن (أبي عكرمة) قوله : « مرّ أبو جعفر المنصور بالمهدي ، وهو ينشد المفضل قصيدة المسيب التي أولها أرحلت ... فلم يزل واقفاً من حيث لا يشعر به حتى استوفى سماعها ، ثم صار الى مجلس له وأمر بإحضارهما ، فحدث المفضل بوقوفه واستماعه لقصيدة المسيب واستحسانه اياها ، وقال له : لو عمدت الى أشعار الشعراء المقلين واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال ، لكان ذلك صواباً ! ففعل المفضل »[5] .

ويلاحظ ان الرواة يختلفون فيما بينهم في عدد قصائد وقطع المفضليات ، فنهم من جعلها مائة وثمانٍ وعشرين قصيدة وقطعة ، كما هي رواية (ابن النديم) ،

---

١ الفهرست (١٠٨) .
٢ الفهرست (١٠٨ وما بعدها) .
٣ الاخفش .
٤ ذيل الامالي (١٣٠) .
٥ ذيل الامالي (١٣٠ وما بعدها) .

ومنهم من صيرها مائة وعشرين[1] .

وأما (جنّاد) (أبو محمد بن واصل) الكوفي مولى بني أسد ، فقد كان على حدّ وصف (ابن النديم) : « أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها » ، غير أنه « لم يكن له علم بالنحو » ، و « كان يلحن كثيراً »[2] . وهو يعـــدّ من الكوفيين ، وقد ذكروا أنه كثير الحفظ في قياس حمّاد الراوية ، وأن أهل الكوفة كانوا يلجأون اليه حين يشكون في شعر وحين يعزب عنهم اسم شاعر فيجدونـــه حافظاً وبما أرادوه عارفاً . غير أنهم مجمعون على أنه كان لحاناً ، « كثير اللحن جداً ، فوق لحن حمّاد » . وقد ذكروا أمثلة على لحنه ، وعلى عدم وقوفه على العروض ، فكان يخطيء فيه ويخلط في الأشعار[3] . وممن كان ينتقص علمه ويرى قلة بضاعته في العربية وفي الشعر أيضاً ، (يونس بن حبيب) (١٨٣ ﻫ) ، وهو كما رأينا من المتحاملين أيضاً على (حمّـــاد) ومن المتعصبين للبصرة على الكوفة ؛ ولهذا يكون لتحامله على (جناد) أثر من التعصب للبصريين .

وقد أخذ (الثوري) على أهل الكوفة روايتهم عن (حماد) ، و (جنّاد) واتكالهم عليها ، وهما رجلان « كانا يرويـان ولا يدريان ، كثرت روايتّهما ، وقلّ علمها » ، ومن ثم فسدت روايتهم عن الرجلين . غير أن علينا أن نكون حذرين في تقبل هذه المؤاخذة على الكوفيين في رواية الشعر ، فقد كان (الثوري) من جماعة (الأصمعي) حتى كان ينسب اليه . وكان الأصمعي يحمل على حمّاد ، وعلى أهل الكوفة ، لأنه كان بصرياً ، فلا يستبعد تحمل التلميذ لاستاذه ، وتأثره به ، فقال ما قال جناد وحماد بداعي العاطفة والتعصب للبصريين على الكوفيين .

وقد أشرت الى ورود رواية تنسب الى (ثعلب) ذكرت أن (الوليد بن يزيد ابن عبد الملك) « جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها ولغاتها ... ورد الديوان الى حماد وجناد »[4] ، مما يدل وجود ديوان للشعر عند (جناد) ، لعلـــه كان من جمعه .

---

١ الفهرست (١٠٨) ، ذيل الامالي (١٣٠) .

٢ « من رواة الاخبار والأشعار ، لا علم له بالعربية ، وكان يصحف ويكسر الشعر ، ولا يميز بين الاعاريض المختلفة ، فيخلط بعضهـــا ببعض » ، ياقـــوت ، ارشاد (٤٢٥/٢) .

٣ الارشاد (٤٢٥/٢) ، الفهرست (١٤١) .

٤ الفهرست (١٤٠) ، (أخبار عوانة) .

و (يونس بن حبيب) ، ويكنى (أبا عبد الرحمن) ، المتوفى سنة(١٨٢هـ) (١٨٣ هـ) من رواة الشعر كذلك ، وان غلب النحو عليه[١] . ذكر انه كان مولى لبني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وذكر انـه من موالي ضبة . وقيل عنه : « كان أعلم الناس بتصاريف النحو ». وهو من أصحاب (أبي عمرو ابن العلاء) ، وكانت حلقته بالبصرة ، ينتابها طلاب العلم وأهل الأدب وفصحاء الأعراب ووفود البادية[٢] . وكان له مذاهب وأقيسة تفرد بها[٣] .

وذكر ان (أبا عمرو) ، وهو (اسحاق بن مراد) ، المعروف بـ (الشيباني) مولى (بني شيبان) ، كان عالماً بشعر القبائل . « أخذ عنه دواوين أشعار القبائل كلها » . ولما جمع أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة . وقد توفي سنة (٢٠٦ هـ) ، وقيل سنة (٢١٣ هـ)[٤] . وكان قد خرج الى البادية ليأخذ عن الأعراب ، فكان يدون ما يأخذ منهم[٥] .

و (أبو عبيدة : معمر بن المثنى) التيمي ، هو من رواة الشعر وعلمائه ، كما كان من علماء اللغة وأخبار العرب وأنسابها ، وقد عرف بالطعن في أنساب الناس وبالبحث عن المثالب ، لذلك كرهه الناس ، فلما مات لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يكن يسلم منه شريف ولا غيره . وقد توفي سنة ثمان وقيل تسع ، وقيل عشر وقيل إحدى عشرة ومائتين وقيل ثلاث عشرة ومائتين « وكان ديوان العرب في بيته »[٦] . وله كتب في الأخبار والحوادث والبيوت والنسب والشعر. وفي جملة مؤلفاته شرح ديوان المتلمس[٧] . ونجد له أخباراً عن أيام العرب ، مشتتة في بعض كتب الأدب[٨] ، وآراء في الشعر مدونة في تلك الكتب أيضاً .

---

١ المعارف (٥٤١) ، بغية الوعاة (٣٦٥/٢) ، مراتب النحويين (٢١ وما بعدها) ، المزهر (٣٩٩/٢ ، ٤٢٣) ، ابن خلكان (٤١٦/٢ وما بعدها) .

٢ الفهرست (٦٩) .

٣ ابن الانباري ، نزهة (٤٩ وما بعدها) .

٤ الفهرست (١٠٧ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٢/١) .

٥ ابن الانباري ، نزهة (٩٣ وما بعدها) ، انباه الرواة (٢٢١/١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٤٣٩/١ وما بعدها) ، المزهر (٤١١/٢ وما بعدها) ، شذرات الذهب (٢٣/٢ وما بعدها) .

٦ الفهرست (٨٥) ، المزهر (٤٠٢/٢ وما بعدها) ، المعارف (٥٤٣) ، انباه الرواة (٢٧٦/٣ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٢٩٤/٢ وما بعدها) .

٧ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٤/١) .

٨ بروكلمن (١٢٨/١) ، ابن الانباري ، نزهة (١٠٤ وما بعدها) .

و (الأصمعي) (عبد الملك بن قريب بن عبد الملك)،المتوفى سنة (٢١٣هـ) (٢١٦هـ) ، (٢١٧هـ) ، من العلماء الحفاظ للشعر ، وقد بالغ مترجموه في الثناء عليه ، فزعموا أنه كان يروي على روي كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة ، وذكر (ابن النديم) أنه عمل « قطعة كبيرة من أشعار العرب، ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبتها واختصار روايتها »[١] . ولا تشتمل (الأصمعيات) إلا على (٧٢) قصيدة وقطعة ، ومجموع أبياتها (١١٦٣) بيتاً ، لكثرة ما فيها من المقطوعات . وعدد شعرائها واحد وستون شاعراً ، لم يسم ثلاثة منهم . وبقي خمسة مجهولين لا تعرف أسماؤهم في الموارد الأخرى . وأكثر الباقين من الجاهليين، وليس فيها إلا أربعة عشر شاعراً من المخضرمين والإسلاميين . وفيها قصيدة لكل من امرىء القيس وطرفة[٢] . وقد نسب (ابن النديم) له كتاباً دعاه : «مصادر كتاب القصائد الست »[٣] . وربما كان هو الكتاب الذي نشره (آلورد) برواية الأعلم الشمنتري بعنوان : دواوين الشعراء الستة[٤] .

وذكر أن (الأصمعي) جمع أشعار (بني جعدة) ، وأشعار الأنصار[٥] وأنه جمع (ديوان المتلمس)[٦]،وديوان امرىء القيس ، وأنه روى شرح هذا الديوان لأبي عمرو الشيباني[٧] . وجمع ديوان الفرزدق وجرير[٨] .

وروي ان الأصمعي كان « أتقن القوم باللغة ، وأعلمهم بالشعر ، وأحضرهم

---

١ الفهرست (٨٨ وما بعدها) ، ابن الانباري ، نزهة (١١٢ وما بعدها) ، بغية الوعاة (١١٢/٢ وما بعدها) ، المزهر (٤٠٤/٢ وما بعدها) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٧٤/١ وما بعدها) ، المعارف (٥٤٣) ، « وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهي موزعة على ٧١ شاعرا ، منهم نحو ٤٠ جاهليا » ، العصر الجاهلي ، لشوقي ضيف (١٧٨) .

٣ الفهرست (٨٨) .

٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٨/١) ، W Ahlward, The Diwan of the six ancient Arabic Poets, London, 1870.

٥ الاغاني (١٧١/٥) ، (٨٢/١٩ وما بعدها) ، بروكلمن (٨٤/١) .

٦ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٤/١) .

٧ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٠/١) .

٨ المصدر نفسه (٢١٢/١ ، ٢١٣ ، ٢٢٢) .

حفظاً ، وكان قد تعلم نقد الشعر من خلف الأحمر »[1] . وروي انه كان يقول أحفظ عشرة آلاف أرجوزة . وان الرشيد يسميه شيطان الشعر ، وروي انه كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة[2] .

و (ابن الأعرابي) ، (أبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابي) ، ممن سمع من (المفضل) الضبي ، وكان يذكر انه ربيب المفضل . كانت أمه تحته . ومات سنة (٢٣١ هـ) . فروايته للاختيارات ، يجب أن تعدّ من أصدق الروايات ، لاتصاله بالمفضل ، ولصلته به . وكان له مجلس ، يحضره طلاب العلم ، يسألونه فيه ويقرأ عليه ، فيجيب من غير كتاب . وكان ممن لازمه بضع عشرة سنة (أبو العباس) ثعلب . ويذكر (ثعلب) ان شيخه هذا « قد أملى على الناس ما يحمل على أجمال . لم ير أحد في الشعر أغزر منه »[3] . وقد أورد (ابن النديم) له جملة كتب ، روى بعضها عنه جماعة من مشاهير العلماء ، مثل (الطوسي) و (ثعلب)[4] . وذكر ان روايته للمفضليات تعدّ من أصح الروايات[5] . وقد سمع من المفضل الدواوين وصححها ، واعتبر رأساً في كلام العرب ، وكان من أكابر علماء اللغة المشار اليهم في معرفتها[6] .

وقد رمي بعض من جمع الشعر بالوضع وبانتحال الشعر وإدخاله في شعر القدماء ، واتهموا بدس القصائد عليهم ، أو بزيادتها أو بتنقيص أبيات منها ، أو بإجراء تغيير عليها . وقد تمكن بعض علماء الشعر من الإشارة الى بعض الشعر المصنوع ، أو المدخول ، ولم يتمكنوا من الإشارة الى البعض الآخر منه . ومن هؤلاء الذين عرفوا واشتهروا برواية الشعر وبعلمهم به ، وبصنعهم له ، ودسه بين الناس على أنه شعر قديم : حماد الراوية وخلف الأحمر .

فأما (حماد) الراوية فعلى رأس مشاهير رواة الشعر الجاهلي وحفاظه . وقد كان هو نفسه شاعراً مجيداً يضع الشعر على ألسنة المتقدمين ، لكنه اشتهر بالرواية

---

١ المزهر (٤٠٣/٢) .
٢ الرافعي (١٥/٣) .
٣ الفهرست (١٠٨ وما بعدها) .
٤ الفهرست (١٠٩) .
٥ ابن الانباري ، نزهة (٥٦) .
٦ ابن الانباري ، نزهة (١٥٠ وما بعدها) ، بغية الوعاة (١٠٥/١ وما بعدها) ، المعارف (٥٤٦) ، المزهر (٤١١/٢) ، مراتب النحويين (١٤٩ وما بعدها) ، ابن الاثير ، الكامل (٢٧٥/٥) .

أكثر من اشتهاره بكونه شاعراً . ولد سنة (٧٥) للهجرة (٦٩٤ م) بالكوفة، وهو من (الديلم) في الأصل ، وعرف بـ (أبي القاسم) . وعرف والده بـ (سابور ابن المبارك بن عبيد) . سباه (ابن عروة بن زيد الخيل) ، ووهبه لابنته (ليلى) فخدمها خمسين سنة ، ثم ماتت فبيع بمائتي درهم ، فاشتراه (عامر بن مطر الشيباني) وأعتقه . وقيل إن اسم أبي (ليلى) (ميسرة) . وكان حماد ربما لحن في الشيء . وقيل إنه كان لصاً في شبابه ، يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فوجد في بعض سرقاته جزءاً من شعر الأنصار ، فقرأه واستعذبه وحفظه ، ثم اندفع في طلب الشعر وأيام الناس ولغات العرب[1] . وأخذ ينظم الشعر يشبه به مذهب شاعر من الشعراء ويدخله في شعره ، وكان هو بالشعر القديم بصيراً ، وحمل ذلك عنه في الآفاق ، فاختلط شعره بشعر الشعراء الجاهليين، وذاع بين الناس على أنه لهم ، حتى صار من الصعب حتى على نقاد ذلك الشعر والعالمين به ، تمييز الفاسد منه من الصحيح[2] .

وذكر ان (حماداً) ، هو (حماد بن هرمز) ، وكان (هرمز) من سبي (مكنف بن زيد الخيل) وكان ديلمياً ، يكنى (أبا ليلى)[3] . واذا أخذنا برواية (ابن النديم) من ان مولد (حماد) كان سنة (خمس وسبعين) ، ومن أن وفاته كانت سنة ست وخمسين ومائة[4] ، فيكون حينئذ قد عمر (٨١) سنة .

ويذكر (ابن النديم) ان (حماداً) كان في أيام (الوليد بن عبد الملك) ، وعاش الى سنة (١٥٦ هـ) ، وانه كان يقول : « كنت أنشد الوليد الشعر الجيد ، فيطلب مني السفساف فأنشده فيطرب ، فأعلم ان الأمر مدبر ، ثم أنشد المهدي السفساف ، فيطلب مني الجيد الفحل ، فأعلم ان أمرهم مقبل »[5] . وذكر عنه انه كان يجالس (المهدي) . وذكر ان « الوليد بن يزيد بن عبد الملك

---

١ الاغاني (٦ /٨٧) ، الخزانة (٤/١٣١ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٢٤٥ وما بعدها) ، الفهرست ، لابن النديم (١٤٠) ، الاغاني (٥/١٦٣) ، ابن خلكان (١/٢٠٥) ، (في ترجمة حماد) ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، تدوين الشعر الجاهلي ، المجلد الرابع (حـ ٢/٥٢٧ وما بعدها) ، (١٩٥٦ م) .
٢ المعارف (٥٤١) ، ابن الانباري ، نزهة (٣٥ وما بعدها) ، الاغاني (٦/٧٠ وما بعدها) ، خزانة الادب (٤/١٢٩ وما بعدها) ، المزهر (٢/٤٠٦) .
٤ الفهرست (ص ١٤٠) .
٥ الفهرست (ص ١٤٠ وما بعدها) .

جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ورد الديوان الى حماد وجناد »[1]. ولم يشر (ابن النديم) الذي روى هذا الخبر نقلاً عن رواية تنسب الى (ثعلب) الى ديوان حماد المذكور في أثناء تحدثه عنه . فلعله قصد (الاختيارات) ، أي القصائد السبع ، وقد يكون قصد ديواناً آخر . ولم نسمع أي خبر عن مصير الديوان الذي جمعه الوليد بن يزيد .

ويذكر (ابن النديم) أنه « لم يرَ لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده »[2] . وهو خبر يظهر أن حمّاداً لم يؤلف كتباً ، وإنما كان يروي الشعر رواية ، وعليه املاء على طلاب الشعر ، فيدوّنونه . أما أن تصنيف الكتب لم يكن معروفاً آنذاك ، وانما الناس صنفت الكتب بعده ، فيناقضه ما قاله (ابن النديم) نفسه ، من أن (زياد بن أبيه) ، ألف كتاباً في المثالب ، ودفعه الى ولده ، وقال ، استظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم[3] ، ومن أن (عبيد ابن شرية) الجرهمي ، ألف كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين[4] ، وقد طبع له كتاباً في (حيدر آباد) بالهند ، بعنوان : أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ، وهو يشتمل على أسئلة لمعاوية وأجوبة عبيد عليها ، وما قاله من أن (صحاراً) العبدي له كتاب اسمه كتاب الأمثال[5]، وما قاله من أن لعوانة بن الحكم بن عياض الكلبي ، المتوفى سنة (١٤٧ ﻫ) ، أي قبل (حمّاد) من الكتب : كتاب التأريخ ، كتاب سيرة معاوية وبني أمية[6] ، أضف الى ذلك ما ألفه (وهب بن منبه) المتوفى سنة (١١٤ ﻫ)[7]، و(أبو مخنف)، و (ابن شهاب) الزهري ، و (ابن سيرين) وغيرهم[8] .

وقد روى أهل الأخبار قصصاً عن مدى علم (حماد) بالشعر الجاهلي. وزعموا

---

١ الفهرست (ص ١٤٠) .

٢ الفهرست (ص ١٤٠) .

٣ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) ، المعارف (١٧٦) ، النووي ، تهذيب الاسماء واللغات (١/٢٥٩) .

٤ الفهرست (ص ١٣٨) .

٥ الفهرست (ص ١٣٨) .

٦ الفهرست (١٤٠) .

٧ بروكلمن (١/٢٥١ وما بعدها) .

٨ راجع أخبارهم في بروكلمن (١/٢٥٣ وما بعدها) .

ان خلفاء بني أمية كانوا اذا أشكل عليهم مشكل في الشعر سألوه ، وانهم كانوا يكتبون الى عمالهم بإرساله اليهم لاستفتائه في أمر شعر جاهلي أشكل خبره عليهم وعلى من عندهم من أهل العلم بالشعر . من ذلك ما رووه عن (حماد) قوله :

« كان انقطاعي الى يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافته . وكان أخوه هشام يجفوني لذلك ، فلما مات يزيد وأفضت الخلافة الى هشام خفته ومكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من اخواني سراً ، فلما لم أسمع أحداً ذكرني في السنة أمنت وخرجت وصليت الجمعة في الرصافة ، فإذا شرطيان قد وقفا عليّ وقالا : يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي ، وكان والياً على العراق : فقلت في نفسي من هذا كنت أخاف. ثم قلت لهما تدعاني حتى آتي أهلي وأودعهم ثم أسير معكما ! فقالا : ما الى ذلك من سبيل . فاستسلمت في أيديهما ، ثم صرت الى يوسف بن عمر ، وهو في الإيوان الأحمر ، فسلّمت عليه ، فردّ عليّ السلام ورمى إلي بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله هشام أمير المؤمنين الى يوسف بن عمر . أما بعد ، فإذا قرأت كتابي هذا فابعث الى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع وادفع له خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه ثنتي عشرة ليلة الى دمشق . فأخذت الدنانير ونظرت ، فإذا جمل مرحول فركبت وسرت حتى وافيت دمشق في ثنتي عشرة ليلة ، فنزلت على باب هشام، واستأذنت فأذن لي فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب من حرير أحمر وقد ضمخ بالمسك ، فسلمت عليه ، فردّ عليّ السلام ، واستدناني فدنوت منه حتى قبلت رجله ، فإذا جاريتان لم أر أحسن منهما قط . فقال : كيف أنت وكيف حالك ؟ فقلت بخير يا أمير المؤمنين . فقال : أتدري فيما بعثت اليك ؟ فقلت : لا . قال : بعثت اليك بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله . قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

ودّعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها ابريق

فقلت يقوله عدي بن يزيد (؟) العبادي في قصيدة . قال : أنشدنيها ، فأنشدته:

بكر العاذلون في وضح الصبـ ـح يقولون لي أما تستفيق
ويلومون فيك يا ابنة عبدالله والقلب عنكم موثوق
لست أدري إذا كثر العذل فيها أعذول يلومني أم صديق

قال حمّاد : فانتهيت فيها الى قوله :

ودّعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينهـــا ابريق
قدمته عـــلى عقار كعين الـ ديك صفى سلافها الرووق
مرة قبل مزجها ، فإذا مـــا مزجت لذّ طعمها من يلوق

قال : فطرب هشام ، ثم قال : أحسنت يا حمّاد ، سلْ حاجتك ؟ قلت : احدى الجاريتين . قال : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما ، فأقام عنـده مدة ، ثم وصله بمائة ألف درهم »[1].

وكل من تحدث عن حمّاد من مبغض ومحبّ ، مجمع على سعة حفظـه للشعر وإحاطته به . وحفظه هذا الشعر هو الذي وسمه بسمة عرف بها طَوال حياته وبعد وفاته ، حتى صار لا يعرف إلا بها ، هي : (الراوية) ، فقيل له حماد الراوية. ولو جرّد حماد من هـــذا النعت ، لما صار في الإمكان التعرف عليه . قيل إن الخليفة (الوليد بن يزيد) قال لحماد الراوية : بمَ استحققت هذا اللقب ، فقيل لك الراوية ؟ فقال : بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشـد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث . فقال ، إن هذا العلم وأبيك كثير ! فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثيراً ، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام . قـــال : سأمتحنك في هـــذا ، وأمره بالانشاد . فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليـــه ، فأنشده ألفين وتسع مئة قصيـــدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمئة ألف درهم[2] .

وفي الأغاني خـــبر آخر من هذا النوع يطري علم حماد ويثني عليه ، روي

---

١ ثمرات الاوراق ، لابن حجة الحموي (١/٨١) ، (حاشية على المستطرف) ، ابن الانباري ، نزهة (٣٥ وما بعدها) ، الاغاني (٦/٧٠ وما بعدها) .

٢ الاغاني (٦/٧١) ، ابن خلكان (٥/١٢٠ وما بعدها) ، الخزانة (٤/١٢٩ ومـــا بعدها) ، (بولاق) ، ياقوت ، ارشاد (١٠/٢٥٩) .

عن الشاعر (مروان بن أبي حفصة) . زعم أنه رآه عند (الوليد بن يزيد). وكان قد دخل عليه في جماعة من الشعراء ، « وهو في فرش قد غاب فيهـا ، وإذا رجل عنده ، كلما أنشد شاعر شعراً ، وقف الوليدَ بن يزيد على بيت من شعره ، وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعر ، فقلت : من هـذا ؟ فقالوا : حماد الراوية . فلما وقفت بين يدي الوليد أنشده ، قلت : مـا كلام هذا في مجلس أمير المؤمنين، وهو لُحنة لحّانة ؟ فأقبل الشيخ علي وقال : يا ابن أخي ، إني رجل أكلم العامة فأتكلم بكلامها ، فهل تروي من أشعار العرب شيئاً؟ فذهب عني الشعر كله إلا شعر ابن مقبل ، فقلت له : نعم ، شعر ابن مقبل، قال : أنشد ، فأنشدته قوله :

سل الدار من جَنْبي حِـبرٍ فواهبٍ إذا ما رأى هَضْبَ القليب المُضجع

ثم جزتُ ، فقال لي : قف ، فوقفت ، فقال لي : ماذا يقول ؟ فلم أدرِ ما يقول ! فقال لي حماد : يا ابن أخي ، أنا أعلم الناس بكلام العرب . يقال تراءى الموضعان إذا تقابلا »[1] .

وقد كان الخليفة (الوليد بن يزيد) يعطف على حماد كثيراً ، ويشمله برعايته، ويجالسه ، ويتباحث معه في الشعر . وقد كانت إحاطة حماد بالشعر هي السبب في تقديمه الى الخليفة ، إذ كان الوليد من العاشقين للشعر ومن الواقفين عليه المعروفين بسعة العلم به ، وكان هو نفسه شاعراً مجيداً[2] . وقد ذكـر عنه انه كان يمتلك ديواناً فيه أشعار الفحول ، أو جملة دواوين جمعت أشعار العرب ، كما سبق أن أشرت الى ذلك .

ويروى عن حماد انه كان ذا ذاكرة عجيبة ، وحافظة قوية غريبة في سرعة الحفظ . روي ان (الطرمّاح بن حكيم) قصّ على ابنه هذه القصة ، قال :

---

١ الاغاني (٦/٧٢) ، الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٧ وما بعدها) .

٢ جمع شعر الوليد بن يزيد ورتبه المستشرق الايطالي ف . جبريالي ، ونشره المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣٧ م ، بعنوان : ديوان الوليد بن يزيد ، وقدم له المرحوم خليل مردم بك .

أنشدت حماداً الراوية في مسجد الكوفة — وكان أذكى الناس وأحفظهم — قولي:

بان الخليط بسحرة فتبددوا

وهي ستون بيتاً : فسكت ساعة ولا أدري ما يريد ، ثم أقبل عليّ فقال : أهذه لك ؟ قلت : نعم ، قال : ليس الأمر كما تقول ، ثم ردها عليّ كلها وزيادة عشرين بيتاً زادها فيها في وقته ، فقلت له : ويحك ! إن هذا الشعر قلته منذ أيام ، ما اطلع عليه أحد ، قال : قد والله قلت أنا هذا الشعر منذ عشرين سنة ، وإلا فعليّ وعليّ ، فقلت : لله عليّ حجة حافياً راجلاً إن جالستك بعد هذا أبداً . فأخذ قبضة من حصى المسجد وقال : لله عليّ بكل حصاة من هذا الحصى مئة حجة إن كنت أبالي ، فقلت ، أنت رجل ماجن، والكلام معك ضائع . ثم انصرفت »[1] .

وقد أخذ عن (حماد) أهل المصرين : الكوفة والبصرة ، ومنهم : خلف الأحمر ، وروى عنه الأصمعي شيئاً من شعره . ونسب الى (الأصمعي) قوله : « كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس ، فهو عن حماد الراوية إلا شيئاً سمعناه من أبي عمرو بن العلاء »[2] .

وللهيثم بن عدي خبر يشيد فيه بعلم حماد وبسعة حفظه له . وهناك أخبار أخرى في سعة حفظ حماد للشعر ، مدونة في كتب الأدب ، قد يخرجنا سردها من صلب هذا الموضوع[3] .

وقد عرف حماد كذلك بسعة علمه بالعربية ، فقالوا انه « كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها » . وورد عن الهيثم بن عدي قوله فيه : « ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد »[4] ، والهيثم راويته وصاحبه. وروي أن عمرو بن العلاء كان يقدم حماداً على نفسه ، وكان حماد يقدم عمراً على نفسه[5] ، وعمرو بن العلاء نفسه من شيوخ علماء العربية في ذلك العهد .

---

١ الاغاني (٩٤/٦ وما بعدها) .
٢ المزهر (٤٠٦/٢) ، ابن الانباري ، نزهة (٥٩) .
٣ الاغاني (٢٠٩/٢ وما بعدها) ، (٧٢/٦) ، (٤٥/٧ ، ٥٦ وما بعدها) .
٤ الاغاني (٧٠/٦ وما بعدها) ، ياقوت ، ارشاد (٢٦٥/١٠) .
٥ الاغاني (٧٣/٦) .

غير أن هنالك أخباراً تزعم أنه كان « قليل البضاعة من العربية » ، وأنه كان لحّاناً ، وأنه « حفظ القرآن الكريم من المصحف ، فصحف في نيف وثلاثين حرفاً »[1] ، وأنه قرأ « الغاديات ضبحاً » (بالغين المعجمة) ، فسعى به الى (عقبة بن مسلم بن قتيبة) الباهلي ، فامتحنه بالقراءة في المصحف، فصحف في عدة آيات[2] . ولا استبعد وقوع اللحن منه ، إذ كان من الموالي ، بعد أن وقع اللحن من عرب خلص ومن أنبل الأسر العربية ومن بعض كبار رجال الدولة في ذلك العهد . غير أن في هذا الوارد عن قلة بضاعته في العربية وفي كثرة لحنه وتصحيفه في القرآن الكريم، مبالغات وزيادات ، وضعها عليه حساده ومنافسوه ولا شك ؛ إذ لا يعقل وقوع مثل هذه الأغلاط الشنيعة من رجل وصل الى الخلفاء برواية الشعر وبتفسيره وتفسير غريبه، وعرف بين العلماء بسعة علمه بلغات العرب ، حتى كانوا يلجأون اليه في حل مشكلها وغريبها . ولو كان على مثل ما ذكر من اللحن في الكلام والتصحيف فيه ومن قلة بضاعته في العربية ، لما وصل الى الوليد بن يزيد والى هشام والى خلفاء آخرين ، وقد كانوا لا يختارون في الشعر واللغة إلا الفطاحل القديرين . قال المدائني : « وكانت ملوك بني أمية تقدمه ، وتؤثره ، وتستزيده ، فيفد عليهم ، ويسأله عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته » .

ولم يكن (حماد) عند أهل البصرة ثقة ولا مأموناً ، وكانوا يضعفونه . ذكروا انه كان يصنع الشعر ويقتني المصنوع منه وينسبه الى غير أهله . ورووا ان أعرابياً جاء مجلس (حماد) فأنشده قصيدة لم تعرف ، ولم يدر لمن هي ، فقال حماد : اكتبوها ، فلما كتبوها ، وقام الأعرابي ، قال : لمن ترون أن نجعلها ؟ فقالوا أقوالاً ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة[3] . وروي انه قدم البصرة على (بلال بن أبي بردة) ، فقال ما أطرفتني شيئاً ، فعاد اليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبي موسى . فقال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به وأنا أروي للحطيئة ولكن دعها تذهب في الناس[4] .

---

١ ابن خلكان (٢٠٧/١) .
٢ ابن خلكان (١٢٩/٥) ، (حاشية رقم ١) ، (طبعة الدكتور أحمد فريد رفاعي) ، الموشح للمرزباني (١٩٥) ، (القاهرة ١٣٤٣) .
٣ المزهر (٤٠٦/٢) .
٤ طبقات ، لابن سلام (١٥) .

وقد اتهم (حماد) بالوضع ، قال (محمــد بن سلام الجمحي) : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ، حماد الراوية ، وكان غير موثوق به . وكان ينحل الشعر غيره ، ويزيد في الأشعار »[1] ، وقــال : (يونس بن حبيب) : « إني لأعجب كيف أخذ الناس عن حماد ، وكان يكذب ويلحن ويكسر الشعر ، ويصحف ويكذب »[2] . وروي عن الأصمعي قوله : « جالست حماداً الراوية ، فلم آخذ عنه ثلاثمائه حرف ، ولم أرض روايته وكان قارئاً »[3] . وروي عنه أيضاً قوله : « كان حماد أعلم الناس إذا نصح » ، يعني إذا لم يزد وينقص في الأشعار والأخبار ، فــإنه كان متهماً بأنه يقول الشعر وينحله شعراء العرب . وهؤلاء كلهم من رؤساء البصرة في العلم ، وقد كان علماء هذه المدينة، يطعنون كما سبق أن قلت في علمه وفي أمانته ، ولكنهم يعترفون مع ذلك بقابليته ومواهبه في الشعر ، حتى زعموا أنه كان إذا صنع الشعر على لسان شاعر جاهلي ، صعب حتى على العلماء ، استخراجه من الصحيح .

وقد أدخله الشريف (المرتضى) في عداد الزنادقة الملحدين المتهمين في دينهم ، ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وحماد الراويــة ، وحماد بن الزبرقان ، وحماد عجرد ، وعبدالله بن المقفع ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، وبشار بن برد ، ومطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد الحارثي ، وصالح بن عبــد القدوس الأزدي ، وعلي بن خليل الشيباني ، وقال عن (حماد) : « وأما حماد الراوية ، فكان منسلخاً من الدين ، زاريــاً على أهله ، مدمنــاً لشرب الخمور وارتكاب الفجور »[4] . ونقل عن (الجاحظ) انه كان يجتمع مع أمثاله « على الشرب وقول الشعر ، ويهجو بعضهم بعضاً ، وكل منهم متهم في دينه » . وقال عنه : « وكان حماد مشهوراً بالكذب في الرواية وعمل الشعر ، واضافته الى الشعراء المتقدمين ودسه في أشعارهم ، حتى إن كثيراً من الرواة قالوا : قد أفسد حماد الشعر ، لأنه كان رجلاً يقدر على صنعته فيدس في شعر كل رجل منهم ما يشاكل طريقته ، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم »[5] .

---

١ طبقات الشعراء (١٤) .
٢ طبقات ابن سلام (١٥) ، المزهر (٢/٤٠٦) .
٣ المعارف (٥٤١) ، المزهر (٢/٤٠٧) .
٤ أمالي المرتضى (١/١٢٨ ، ١٣١ وما بعدها) .
٥ أمالي المرتضى (١/١٣١ وما بعدها) .

و « روي أن هارون الرشيد قال للمفضل بن محمد : كيف بدأ زهير بقوله:

دع ذا وعد القول في هرم

ولم يتقدم قبل ذلك شيء ينصرف عنه . فقال المفضل : قد جرت عادة الشعراء بأن يقدموا قبل المديح نسيباً ، ووصف إبل وركوب فلوات ، ونحو ذلك . فكأن زهيراً همّ بذلك ، ثم قال لنفسه : دع هذا الذي هممت به مما جرت به العادة، واصرف قولك الى مدح هرم . فهو أولى من صرف اليه القول ونظم ، وأحق من بدىء بذكره الكلام وختم . فاستحسن الرشيد قوله . وكان حماد الراوية حاضراً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ليس هذا أول الشعر ، ولكن قبله :

لمن الديار بقنة الحجر

وذكر الأبيات الثلاثة . فالتفت الرشيد الى المفضل وقال : ألم تقل إن (دع ذا ...) أول الشعر ، فقال : ما سمعت بهذه الزيادة إلا يومي ، ويوشك أن تكون مصنوعة . فقال الرشيد لحماد : أصدقني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا زدت هذه الأبيات . فقال الرشيد : من أراد الثقة والرواية الصحيحة فعليه بالمفضل ، ومن أراد الاستكثار والتوسع فعليه بحماد »[1] .

والقصة بهذا الشكل مصنوعة ، فالمعروف ان وفاة (حماد) كانت سنة (١٥٦هـ) وان ولاية (الرشيد) للخلافة كانت سنة (١٧٠ هـ) . فلا يعقل التقاء (حماد) بالرشيد أيام خلافته . ومخاطبته له بـ (يا أمير المؤمنين) . ثم إن من الصعب تصور اعتراف (حماد) بإضافة أشعار من عنده على شعر الجاهليين بمثل هذه الصورة والبساطة ، وهو في حضرة خليفة . والأغلب انها وضعت على حماد من خصومه ، للطعن به ، وللرفع من شأن (المفضل بن محمد) الضبي .

وقد وردت هذه القصة بشكل آخر ، وردت انها وقعت في أيام (المهدي) ، روي ان جماعة من العلماء « كانوا في دار أمير المؤمنين المهدي بعيساباذ ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبي الراوية ، فدخل ، فمكث ملياً ،

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧٥٤) .

ثم خرج الينا ، ومعه حماد والمفضل جميعاً ، وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معهما ، فقال: يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم انه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته . فن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فسألنا عن السبب ، فأخبرنا ان المهدي قال للمفضل لما دعا به وحده: اني رأيت زهير بن أبي سلمى افتتح قصيدته بأن قال :

دع ذا وعدّ القول في هرم

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذي أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً ، إلا أني توهمته كان يفكر في قول يقوله ، أو يروى في أن يقول شعراً ، فعدل عنه الى مدح هرم وقال: (دع ذا)، أو كان مفكراً في شيء من شأنه فتركه وقال : « دع ذا » ، أي دع ما أنت فيه من الفكر وعدّ القول في هرم ، فأمسك عنه . ثم دعا بحماد ، فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ، قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لمن الديار بقنة الحجر أقوين مذ حجج ومذ دهر ؟
قفر بمندفع النحائت من ضفوى أولات الضال والسدر
دع ذا وعدّ القول في هرم خير الكهول وسيد الحضر

قال : فأطرق المهدي ساعة،ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه . ثم استحلفه بإيمان البيعة وكل يمين محرجة ليصدقنه عن كل ما يسأله عنه ، فحلف له بما توثق منه . قال له : أصدقني عن حال هذه الأبيات ومن أضافها الى زهير ، فأقر له حينئذ أنه قائلها . فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه »[1] .

١ الاغاني (٦/٨٩ وما بعدها) . الخزانة (٤/١٢٨ وما بعدها) ، (بولاق) .

فأنت ترى أن هذه القصة تكاد تكون القصة السابقة نفسها ، لولا ما أدخل عليها من ذكر اسم (المهدي) بدل الرشيد ومن ترويقـات ، وهي أقرب الى الواقع من حيث الزمن من الأولى ، فقد أدرك (حماد) أيام خلافـة المهدي . أما من حيث الصحة أو الكذب ، فربما كانت من وضع أعداء حماد عليه ، أو من وضع المتعصبين للمفضل الضبي المرجحين علمه على علم حماد .

وفي القصة الثانية موطن شك أيضاً ، فالمعروف أن خلافة المهـدي كانت سنة (١٥٨ هـ) ، وانه اتخذ داره بعيساباذ بعد توليه الخلافة ، وقـد كانت وفاة حماد سنة (١٥٦ هـ) ، أي قبل توليه امارة المؤمنين . فيظهر أنها من الموضوعات التي وضعت على حماد ، ربما وضعها أصحاب (المفضل) لتعظيم أمر صاحبهم،وللحط من شأن حماد . وقـد كان (المفضل) يكره (حماداً) الراوية ، ويطعن في علمه ، بسبب تنافس الرجلين على الزعامة في العلم .

وأكثر هذه التهم التي وجهت الى علم حماد والى جهله بالعربية ، وبالعروض، إنما هي تهم وجهها اليه أهل البصرة ، عصبية لمدينتهم ولرجالهم ، ومـا اتهام (ابن سلام) و (يونس بن حبيب) لحماد ، بالتهم المذكورة ، سوى ترديد لهذه العصبية الضيقة ، وللخصومة على الزعامة التي كانت بين المدينتين . و(يونس ابن حبيب) الذي يحمل على حماد ، ويتهمه باللحن ، قد اتهم نفسه بتهمة اللحن، اتهمه خصومه أهل الكوفة بالطبع ، ونجـد مثل هذه الاتهامات من تجهيل العلماء بعضهم بعضاً بقواعد العربية وبالوقوع في اللحن ، في صفحات الكتب الباحثة في المناظرات وفي التراجم،وفي كتب الأخبار والأدب ، حتى يكاد يكون من الصعب علينا العثور على عالم ، نقول إنه سلم من سهم من سهام النقد والتجريح .

ويظهر ان المنافسة على الزعامة في العلم بالشعر الجاهلي ، جعلت (المفضل الضبي) ينال من (حماد) ، ويظهر أثر هذه المنافسة فيا ينسب الى (الضبي) من أقوال ذكر انه قالها في (حماد) مثل قوله : « قد سُلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً » . فقيل له : « وكيف ذلك ؟ أيخطىء في رواية أم يلحن ؟ قال : « ليته كان كذلك ، فإن أهل العـلم يردون من أخطأ الى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فـلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عنـد عالم

ناقد ، وأين ذلك ؟ »[1] .

و (ابن الأعرابي) ، الذي يروي انتقاص (المفضل) الضبي لحماد ، هو على ما يذكر ربيب المفضل ، كانت أمه تحته[2] ، فلا أستبعد تأثره بحنق الضبي على حماد ، بسبب المنافسة التي كانت بينه وبين حماد .

وقد اتّهم حماد بالزندقة ، كما اتهم بها حماد عجرد ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وعلي بن الخليل ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار ، وأبي نواس. وقد وصف (الجاحظ) الزنادقة بقوله : « ربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له ، ان الزنادقة ظرفاء ، وانهم عقلاء وأدباء ، وانهم عبّاد وأصحاب اجتهاد ، وان لهم البصائر في دينهم ، والبذل لمهجهم ، وان هناك علماً وتمييزاً، وإنصافاً وتحصيلاً ، فيسري اليهم مسرى المهر الأرن ، ويحن اليهم حنين الواله العجول ، ويتصبب فيهم صبابة العاشق المتيم ، ويرى انه متى اتّهم بهم ، فقد قضى لهم بذلك كله ، فلا يزال كذلك حتى يسهل في طباعه ، ويرجح عنده أن يزعم انه زنديق » . وذكر انه « ما منهم في الظاهر إلا نظيف البزة ، جميل الشكل ، ظاهر المروءة ، فصيح اللهجة ، ظريف التفصيل والجملة ، والله أعلم ببواطنهم وضمائرهم . قال أبو نواس ، وكان أيضاً زنديقاً يعدّ فيهم :

تيه مغن وظرف زنديق »[3]

وكان حماد صديقاً لحمادين آخرين هما حماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان ، وكانوا « يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا يرمون بالزندقة »[4] . وقد هجا (حماد بن الزبرقان) (حماداً) الراوية ، فقال :

نعم الفتى لو كان يعرف ربّه ويقيم وقت صلاته حمادُ
هدلت مشافره الدنان فأنفه مثل القدوم يسنها الحدّاد

---

١ ياقوت ، ارشاد (٤/١٤٠) ، (تحقيق مركليوث) ، الاغاني (٦/٨٩) .
٢ الفهرست (١٠٨ وما بعدها) .
٣ ثمار القلوب (١٧٦ وما بعدها) ، ديوان ابي نواس (٨٩) .
٤ الاغاني (٦/٧٤ وما بعدها) ، الحيوان (٤/٤٤٧ وما بعدها) .

وأبيض من شرب المُدامة وجهه　　فبياضه يــوم الحساب سواد[1]

غير أن علينا باعتبارنا من المؤرخين أن نحترز احترازاً شديداً في تقبل كل ما يروى من الأخبار ،ولا سيا في المسائل الشخصية،وفي القضايا التي تكتنفها الخصومات في مثل هذه الحالة . فقد كان لحماد خصوم كثيرون من أهل هذا الشأن ، وقد حسدوه على تقدمه وشهرته ، كما كان هو يحسد غيره ولا شك ان تقدم عليه . والانسان مهما تقدم وترفع ، فإنه لا يستطيع أن يجرد نفسه من العاطفة ، ولا سيا عاطفة الدفاع عن النفس وإثبات الشخصية والتنافس مع الآخرين. وقد كان المفضل الضبي – كما ذكرت – في جملة خصوم حماد ، وهو من رؤوس رواة الشعر في تلك الأيام ، وهو نفسه لم يكن من الناجين من هذه التهمة التي اتّهم بها حماد .

غير أن هذا لا يعني أن حماداً كان صادقاً في كل ما قاله وفي كل ما رواه، فوضعه للشعر ، وصنعه له ، وحمله على القدماء من المسائل المتواترة التي لا سبيل الى نكرانها ، إنما أريد هنا أن أنبه على ضرورة التأني والتقصي في أثناء مجابهتنا لمثل هذه الأخبار ، لنخرج ما قد بولغ أو زيد فيه ، حتّى يكون حكمنا حكماً محايداً ، أو قريباً من الواقع .

وكما استدعى خلفاء بني أمية حماداً للاستفادة منه في الشعر ، كذلك استدعاه خلفاء بني العباس الأوائل ، كالمنصور والمهدي ، ليروي لهم ما كان يحفظه من الشعر والأخبار ، وليتحدث اليهم فيما أشكل عليهم من غريب الشعر. وقد استدعاه الخليفة المنصور مرة ، فأحضر من البصرة . غير أن صلاته بهم لم تكن على ما يظهر على نحو صلاته بالأمويين ، حيث حسب عليهم . واستدعى الى المهدي، كما ذكرت ذلك . ونقرأ في رواية ان (حماداً) قال لإياس بن مطيع ، وقد ذكر صلاته بالعباسيين : « دعني فإن دولتي كانت في بني أمية ، وما لي عند هؤلاء خير »[2] ، مما يخبر انه كان مجفواً عند بني العباس ، وذكر انه قال لمروان بن أبي حفصة : « ذهب ويحك ما كنت تعهد »[3] . وقد يكون لتقدم (حماد)

---

١ الحيوان (٤/٤٤٥) .

٢ الاغاني (٦/٨١) ، (٨/٢٥٣) .

٣ « ذهب ويحك ما كنت تعهد ، ذاك زمان ، وهذا زمان » ، الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٨) ، الخزانة (٤/١٣٠) ، (بولاق) .

في العمر دخل في هذا البعد ، فقد كان قد جاوز السبعين من العمر في أيام المهدي، والعمر يؤثر بالطبع في مثل هذه الاتصالات ، التي تحتاج الى همة ونشاط ، وجواب حاضر وبديهة ، وردّ على منافسين وحساد .

وعاش حماد فشهد سقوط دولة (بني أمية) ، إذ توفي سنة (١٥٦ هـ) ، وذكر انه أبطل روايته فيما دسه على غيره من الشعر[١] .

ومن شعر (حماد) قوله :

اذا سرت في عجل فسر في صحابة ... وكندة فاحذرها حذارك للخسفِ
وفي شيمــة الأعمى زيار وغيلةٌ ... وقشب وإعمالٌ لجندلة القَذْفِ
وكلّهم شرٌّ عـلى ان رأسهم ... حميدة والميلاء حاضنة الكِسْفِ
متى كنت في حيَّيْ بجيلة فاستمع ... فإن لهم قصفاً يدل على حتفِ
اذا اعتزموا يوماً على خنقِ زائرٍ ... تداعوا عليه بالنباح وبالعزف[٢]

وقوله مخاطباً الشاعر أبـي عطاء السندي :

فـــا صفراء تكنى أمّ عوفٍ ... كـــأن رُجَيْلتيهـــا منجـــلان

وروي أن (أبا العطاء) أحسّ بدس حماد له ، فأجابه :

أردت زرارة وأزن زنـــا ... بأنك ما أردت سوى لساني

أي أردت جرادة ، وأظن ظناً بأنك ما أردت إلا أن تستخرج رطانتي . وكان في لسانه لكنة شديدة ولثغة[٣] .

ويعدّ (ابن كناسة) أبو يحيي محمد بن عبدالله بن عبد الأعـلى الأسدي (٢٠٧ هـ) في جملـة الرجال الذين اتصلوا بحماد ورووا عنه . ونجد في الأغاني جملة أخبار رويت عـــن حماد في الشعر والأخبار . وابن كناسة نفسه من علماء

---

١ ارشاد ، لياقوت (٤/١٣٧ وما بعدها) ، شرح المفضليات (٢/٨) ، (لايـــل) ، (مقدمة) ، الاغـــاني (٥/١٦٤ وما بعدهـــا) ، الفهرست (١٤٠) ، بروكلمـــن (١/٢٤٦) .
٢ الحيوان (٢/٢٦٦) .
٣ الحيوان (٥/٥٥٨) .

أيامه بالعربية وأيام الناس والشعر ، وقد سمع هشام بن عروة ، وسليمان الأعشى ، وروى عنه أحمد بن حنبل ومحمد بن اسحاق الصاغاني[1]. كذلك كان أبو أيوب المديني في جملة من رأى حماداً وروى عنه[2] .

ومن أصحاب حماد : سالم بن أبي السمحاء[3] ، والشاعر عمار بن عمرو بن عبد الأكبر المعروف بـ (ذي كناز) ، وهو من الشعراء المجان المعاقرين للشراب المتهتكين القائلين للشعر الطريف المضحك المستخدمين للسخف فيه لأجل الإضحاك[4]، وابن عياش[5] ، والحسين بن يحيى[6] ، ومعاوية بن بكر الباهلي[7] .

ومن أشهر رواة الكوفة بعد حماد (خالد بن كلثوم) الكلبي ، وله صنعة في الأشعار المدونة على القبائل[8] . وكان لغوياً راوية لأشعار القبائل وأخبارها ، عارفاً بالأنساب والألقاب وأيام الناس . له كتاب أشعار القبائل يحتوي على عدة قبائل[9] .

وأما « خلف الأحمر » ، الذي توفي بعد (حماد) ، سنة (١٨٠ هـ) على رواية : فذكر العلماء انه « لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر : كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء فلا يتميز عن مقولهم ، ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك مالاً جزيلاً على أن يتكلم في بيت من الشعر شكّوا فيه فأبى »[10] . وقيل عنه « كان من أمرس الناس لبيت شعر ، وكان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم ...

---

١ الاغاني (١٣٥/١) .
٢ الاغاني (٢٦٦/٣) .
٣ الاغاني (٢٦٢/٥) .
٤ الاغاني (٥٦/٧ وما بعدها) .
٥ الاغاني (٦٧/٧) .
٦ الاغاني (٢٨٥/٨) .
٧ الاغاني (٧/١١) .
٨ الرافعي (٣٨٣/١) .
٩ القفطي ، انباه الرواة (٣٥٢/١) .
١٠ المستطرف (٦٠/١) ، (وكان من أمرس الناس لبيت شعر . وكان شاعرا ، يعمل الشعر على لسان العرب وينحله اياهم) ، الفهرست (٨٠) ، (أخبار خلف الاحمر)، انباه الرواة (٣٤٨/١ وما بعدها) ، بغية الوعاة (٥٥٤/١) ، المزهر (٤٠٣/٢).

وله من الكتب : كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر »[1] . واسمه (خلف بن حيان) ، وعرف بـ (أبي محرز) ، وكان مولى لأبي موسى الأشعري،وقيل مولى بني أمية ، وأصله من (خراسان)[2] . وقيل مولى (أبي بردة بن أبي موسى الأشعري) أعتقه وأعتق أبويه ، وكانا فرغانيين[3] . وقد ذكر (ابن قتيبة) ان في شعر العلماء تكلف ، وهو رديء الصنعة ، ليس فيه شيء جاء عن إسماح وسهولة ، كشعر الأصمعي ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً[4] . وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار ، شاعراً كثير الشعر جيده ، ولم يكن في نظرائه من أهل العلم أكثر شعراً منه . وكان يقول الشعر وينحله المتقدمين . ويكثر قول الشعر في وصف الحيّات ، وأراجيزه في ذلك كثيرة[5] .

وقد ذكر عنه أنه كان يتلاعب بالشعر الجاهلي ، فيزيد فيه وينقص . يروى أنه زاد البيت الأول والثالث من قصيدة (زهير بن أبي سلمى) (رقم ٤) في الديوان[6] . ونسب بعضهم اليه صنع المرثية التي رثى (تأبط شراً) بها أقاربه[7] . وقد نسب بعض العلماء اليه صنع لأمية الشنفرى[8] ، المشهورة بلامية العرب التي أولها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني الى قوم سواكم لأميل

وروي عن (الأصمعي) قوله : سمعت خلفاً يقول : أنا وضعت على النابغة هذه القصيده التي فيها :

خيلٌ صيامٌ وخيل غيرُ صائمة تحت العجاج،وأخرى تعلك اللجما[9]

---

١ الفهرست (٨٠) ، المعارف (٥٤٤) ، تهذيب اللغة ، للازهري (٤٠ وما بعدها) ، طبقات ، لابن سلام (٦) .

٢ الفهرست (٨٠) .

٣ المعارف (٥٤٤) ، المزهر (٢/٤٠٣) ، الشعر والشعراء (٢/٦٧٣) .

٤ الشعر والشعراء (١/١٦) .

٥ الشعر والشعراء (٢/٦٧٣ وما بعدها) ، ياقوت ، ارشاد (١١/٦٦) ، نزهة الالباء (٣٧) ، الامالي ، للقالي (١/١٥٤) ، الزبيدي ، طبقات (١١٣) .

٦ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٦٥) .

٧ المصدر نفسه (١/١٠٤) ، (حاشية رقم ١) .

٨ الامالي ، للقالي (١/١٥٧) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٠٦) .

٩ الرافعي (١/٣٨١) .

وله قصائد أخرى نص على بعضها العلماء وبينوا أنها مصنوعة ، وقد وضع على شعراء عبد القيس شعراً كثيراً [1] ، وقال الجاحظ : إنه هو الذي أورد على الناس نسيب الأعراب ، وهذا النسب من أرق الشعر قاطبة وما أحراه أن يكون مصنوعاً [2] . ولما توفي خلف رثاه أبو نواس بشعر فيه :

أودى جميع العلم مذ أودى خلف   من لا يعدُّ العلمِ إلا ما عرف
قليذمٌ من العيالم الخسف   كنّا متى نشاء منه نغترف
رواية لا تجتني من الصحف [3]

وهو أحد رواة الغريب واللغة والشعر ونقاده والعلماء به وبقائليه وصناعته . وله صنعة فيه . وهو أحد الشعراء المحسنين ، ليس في رواة الشعر أحدٌ أشعر منه .

وكان يبلغ من حذقه واقتداره على الشعر أن يشبّه شعره بشعر القدماء ، حتى يشبه بذلك على جلّة الرواة ، ولا يفرقون بينه وبين الشعر القديم ، من ذلك قصيدته التي نحلها ابن أخت تأبط شراً ، التي أولها :

إن بالشعب الذي دون سلع   لقتيلاً دمه ما يطل [4]

جازت على جميع الرواة ، فما فُطِن بها إلا بعد دهر طويل بقوله :

خبرٌ ما نابنا مُصمئل   جلّ حتى دقّ فيه الأجل

فقال بعضهم :

جلّ حتى دق فيه الأجل

من كلام المولدين . فحينئذ أقر بها خلف ¸[5] .

---

١ المزهر (٢/٤٠٣) .
٢ الرافعي (١/٣٨١ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (٢/٦٧٣) ، الحيوان (٣/١٥٤) .
٤ وتنسب أيضا الى تابط شرا ، ديوان الحماسة (٢/٣١٣) ، العقد الفريد (٦/١٥٧) ، الاغاني (٦/٨٧) ، (ان بالشعب الى جنب سلع) ، الامالي (١/١٥٦) ، أمالي المرتضى (٢/٢٨٠) ، الشعر والشعراء (٢/٦٧٤) .
٥ القفطي ، انباه الرواة (١/٣٤٨ وما بعدها) .

كان (خلف الأحمر) رأس البصرة في رواية الشعر وفي البصر به. كما كان (حماد) زعيم الكوفة في هذا العلم . وكان (خلف) نفسه ممن أخذ هذا العلم عن (حماد) ، فهو من أحد تلامذته ورواته وسامعيه . وكان المقدم عند أهل البصرة ، حتى كانوا لا يصدرون الرأي في شعر دونه ، واذا اختلف علماؤهم في شيء منه ، عرضوا خلافهم عليه للبت فيه[1] . وروي انه كان أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك انه جاء الى حماد الراوية ، فسمع منه[2] .

وقيل عنه إنه كان شاعراً مجيداً جيد الشعر كثيره ، لم يكن في نظرائه أحد يقول مثله الشعر[3] . ووضع على شعراء (عبد القيس) شعراً كثيراً موضوعاً وعلى غيرهم ، وأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة . وكان (خلف) أخذ النحو عن (عيسى بن عمر) ، وأخذ اللغة عن (أبي عمرو) . « ولم يُرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان يضرب به المثل في عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ، ثم نسك فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك مالاً عظيماً خطيراً على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه ، فأبى ذلك . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية ، لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه . وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد. فلما نسك خرج الى أهل الكوفة فعرّفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقي ذلك في دواوينهم الى اليوم »[4] . وروي عن خلف قوله : « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب،وأعطيه المنحول، فيقبل ذلك مني ، ويدخله في أشعارها ، وكان فيه حمق »[5] .

ويصعب في الواقع تصديق هذه الرواية المنسوبة الى خلف الأحمر ، فلم يكن حماد بإجماع المنافسين له على شيء من الغفلة والحمق ، حتى نصدق ما ورد في هذا الخبر الآحاد ، الذي هو خبر من أخبار رواة البصرة ، بل نرى من الأخبار

---

١ الرافعي (١/٣٨١) .
٢ ابن الانباري ، نزهة (٥٨ وما بعدها) .
٣ المعارف (٥٤٤) .
٤ المزهر (٢/٤٠٣) .
٥ الاغاني (٦/٩٢) ، (٩/١٢٤) .

الواردة عنهم العكس ، نرى فيه الفطنة والخبث الى آخر أيامه . ثم انه كان أقدم وأشهر وأعرف وأحفظ من خلف الأحمر ، وهو في معرفة الشعر وتمييزه أمرس من صاحبه خلف ، فلا يعقل فوات ما نحله (خلف) القدماء على حماد . وقد كان الرواة أنفسهم يتعجبون من مقدرة حماد على التمييز بين الصحيح والفاسد من الشعر ، وعلى إحاطته بأساليب الجاهليين في نظم القريض ، وعلى إتقانه تلك الأساليب ، حتى صار من الصعب على عشاق الشعر التمييز بين ما كان يصنعه حماد على ألسنة الشعراء الجاهليين وبين ما كان من نظمهم حقاً . ولهذه الأسباب يصعب التصديق بهذا الخبر ، ورأيي انه من وضع أهل البصرة ، وضعوه على حماد ، كرهاً له وللكوفيين . ورواته هم من البصريين .

وما خبر توبة (خلف الأحمر) ، وخروجه الى أهل الكوفة ، ليعرفهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس ، والتي أدخلها أهل الكوفة في دواوينهم ، وأبوا إصلاحها ، أو حذفها ، سوى قصة فيها الطعن والسخرية بعلم أهل الكوفة وبفهمهم للشعر ، وفيه مدح وتفخيم لعلم خلف بالشعر ، وإن كان لا يخلو من تجريح لخلف نفسه،وفيه مدح لعلم أهل البصرة. ولصدقهم في رواية الشعر والأخبار استهزاء اذن وتعريض بأهل الكوفة ، ليس فوقه استهزاء ، وضعه رجل فيه دعابة وتعصب وتحامل على الكوفيين .

وقد اختص (خلف) بالفروع التي اختص بها حماد بالكوفة ، وبذلك جعل البصرة تنافس الكوفة فيها . اختص بالشعر القديم ، وباللغة ، وبشيء آخر مهم جداً هو وضع الشعر وحمله على ألسنة القدماء ، فصار في هذا الباب بطل البصرة وممثلها ، كما كان حماد بطل الكوفة وزعيم الوضاعين . وقد امتاز خلف على الأصمعي العالم البصري ومعاصره بقدرته على نظم الشعر ، إذ كان هو نفسه شاعراً متمكناً في الشعر ، متقناً لفنونه ، كان من حذقه واقتداره في الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء فلا يفرق بينه وبين القديم . أما الأصمعي ، فلم يبلغ مبلغه فيه، وإن كان من علماء اللغة والأدب والنحو ومن حفظة الشعر ورواته .

وهناك روايات تنسب الصدق الى خلف ، ثم لا تكتفي بذلك حتى تجعله أعرف الناس وأعلمهم بالشعر.وروايات تذكر أنه كان أول من أحدث السماع بالبصرة ، وأنه تعلم ذلك من حماد[1] .

---

١ ياقوت ، ارشاد (١٧٩/٤) .

وكان (الأصمعي) ، وهو من علماء البصرة ، كما ذكرت ، غير راض عن (خلف) ، إذ كان يغمز فيه ، ويتهمه بالكذب . ويظهر أن ذلك بسبب المنافسة على الزعامة في العلم . روي عنه أنه قال في خلف : « رواة غير منقحين ، أنشدوني أربعين قصيدة لأبي دُواد الإيادي قالها خلف الأحمر . وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، اليها يرجعون ، وبها يفتخرون »[1] . ويريد بهم أهل الكوفة . وذكر (الأصمعي) أيضاً أن خلفاً الأحمر « وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً ، وعلى غيرهم ، عبثاً بهم ، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة »[2] .

وينسب الى الأصمعي قوله أنه حضر مأدبة « وأبو محرز خلف الأحمر ، وابن مناذر معنا ، فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ان يكن امرؤ القيس، والنابغة ، وزهير ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعري الى شعرهم . قال : فأخذ صفحة مملوءة مرقاً ، فرمى به عليه فملأه ، فقام ابن مناذر مغضباً ، وأظنه هجاه بعد ذلك »[3] . وهذه القصة — إن صحت — تشير الى وجود غلظة في طبع خلف. وهناك أخبار أخرى تؤيد هذا الرأي[4] .

وقد أشار (ابن النديم) الى كتاب لخلف الأحمر ، أسماه : (كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر)[5] . وذكر ياقوت الحموي له كتابين : ديوان شعر حمله عنه أبو نواس ، وكتاب جبال العرب[6] .

ومما يؤسف له حقاً، هو أن حماداً الراوية ، أو غير حماد ممن رووا عنه ، أو أخذوا عن غيره ، لم يشيروا الى الموارد التي أخذ حماد منها هذا الفيض من الشعر ، كما أنهم لم يشيروا الى الموارد التي استقى بقية رواة الشعر منها ما رووه

---

١ الموشح (٢٠١ وما بعدها) .

٢ مراتب النحويين (٧٥) .

٣ الموشح (٢٩٦) ، الاغاني (١١/١٧) ، ياقوت ، ارشاد (٤/١٧٩) .

٤ « حدثني عمر بن شبة ، قال : أنشد أبو عبيدة خلفا الاحمر شعرا له ، فقال له خلف : يا أبا عبيدة ، اخبأ هذه كما تخبأ السنور خرءها » الموشح (٣٦٦ وما بعدها) .

٥ الفهرست (٧٤) .

٦ ياقوت ، ارشاد (٤/١٧٩) .

من الشعر الجاهلي . ولو ذكروه لأفادونا ولا شك بذلك كثيراً ، إذ يكون في مقدورنا التوصل الى معرفة الأشخاص الذين كان لهم فضل حمل هذه الثروة العظيمة من ذلك الشعر . ومما يؤسف له أيضاً هو أن معظم دواوين الشعراء الجاهليين لا يرتفع سندها الى رواة يتقدم عهدهم على عهد حماد . ولو ارتفعت لاستفدنا منها بالطبع كثيراً في معرفة أسماء رواة الشعر الجاهلي وحفّاظه وجامعيه وكتبته قبل أيام حماد ، ولعرفنا بذلك شيئاً عن الموارد التي أخذ منها هذا الراوية ذلك الكنز الثمين .

ولا بد من ذكر (السكري) في هذا المكان . وهو (أبو سعيد الحسن بن الحسين) السكري اللغوي ، المتوفى سنة (٢٧٥ هـ) . فله مؤلفات عديدة عن الشعر ، وشروح للدواوين . منها : شرح أشعار هذيل[١] ، وديوان أبي كبير الهذلي بشرح السكري[٢] ، وكتاب أخبار اللصوص ، جمع فيه أشعار لصوص البدو المشهورين[٣] ، وأشعار اليهود[٤] ، وشرح ديوان زهير[٥] ، وديوان امرىء القيس ، بروايته[٦] ، وشرح ديوان حسان ، وقد نقل منه (البغدادي)[٧] ، وديوان الحطيئة ، وهو روايته عن ابن حبيب[٨] ، وديوان أبي ذؤيب الهذلي[٩] ، وشرحه على ديوان عبدالله بن قيس الرقيات[١٠] ، وديوان الأخطل ، وهو روايته عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي[١١] ، وديوان الفرزدق[١٢] .

وقد أخذ السكري من الموارد التي ألفت قبله ؛ كما أخذ من علماء المصرين : البصرة والكوفة ، دون تعصب أو تحزّب ، وكان راوية البصريين[١٣] .

---

١ خزانة (٢/٣١٧) .
٢ بروكلمن (١/٨٤) .
٣ بروكلمن (١/٨٥) .
٤ بروكلمن (١/٨٤) .
٥ بروكلمن (١/٩٦) .
٦ بروكلمن (١/١٠٠) .
٧ خزانة (٣/٣٣٣) ، (٤/٤٤) .
٨ بروكلمن (١/١٦٨) .
٩ بروكلمن (١/١٦٩) .
١٠ بروكلمن (١/١٩٣) .
١١ بروكلمن (١/٢٠٨) .
١٢ بروكلمن (١/٢١٣) .
١٣ نزهة الالباء (١٤٤ وما بعدها) .

الفصل الرابع والخمسون بعد المئة

تنقيح الشعر والدواوين

والذي يطالع كتب الأدب والأخبار،ويقرأ ما ورد فيها عن الشعراء الجاهليين، يخرج منها بانطباع خلاصته ان أكثر شعراء الجاهلية ، لم يكونوا يهذبون شعرهم ، ولم يكونوا يثقفونه ، ولم يكونوا يجرون عليه تحويراً أو تغييراً أو تعديلاً ، بعد انشادهم له ، وان أغلبهم كان يقول شعره ارتجالاً من غير تحضير سابق ولا تهيئة، فهو من عفو الخاطر . جرت على ذلك سنة الشعراء في الجاهلية ، فكان شاعرهم يرتجل شعره حسب الظروف والمناسبات .

وتصدق دعوى أهل الأخبار هذه في شعر المناسبات وفي المفاجآت ، أي في الحالات التي لا يكون الشاعر فيها على علم مسبق بأنه سيقول فيها شيئاً من الشعر فتضطره المناسبة الى قول شيء منه ، أما في الحالات الأخرى ،فإن دعواهم هذه لا يمكن قبولها ، بسبب اننا نجدهم يذكرون ان الشاعر كان يهيء شعره قبل إلقائه ، وانه كان اذا نظم يحفظه رواته ، أو يدونه على صحيفة ، وقد ينقح فيه ويجوّد ، وان من الشعراء من كان يحرص على ألا يذيع شعره إلا بعد أمد، وإلا بعد أن يعرضه على خاصته ليروا رأيهم فيه ، فيغير فيه ويبدل ، فإذا سمع آراءهم وملاحظاتهم ووجدها وجيهة ، أخذ بها ، وصقل شعره بموجبها ، وعندئذ يذيعه ويعطيه راويته لينشره بين الناس .

جاء في (طبقات الشعراء) أن الرسول سأل (عبدالله بن رواحة) : « كيف تقول الشعر إذا قلت ؟ » فأجابه : « أنظر في ذلك ثم أقول » . فأمره أن

يقول شعراً تقتضيه الساعة ، وأخذ ينظر اليه : فانبعث عبدالله يقول شعراً ، ثم قال : « ولم أكن أعددت شيئاً »[1] . وجاء في كتاب « الشعر والشعراء » عن (الحارث بن حلزة) ، وهو القائل :

آذنتنـــا ببينها أسمـــاء ربّ ثاوٍ يملّ منه الثواء

ويقال إنه ارتجلها بين يدي عمرو بن هند ارتجالاً » .ثم قال : « قال الأصمعي: قد أقوى الحارث بن حلزة في قصيدته التي ارتجلها ، قال :

فملكنا بذلك الناسَ إذ ما ملك المنذر بن ماء السماء

قال أبو محمد:ولن يضر ذلك في هذه القصيدة،لأنه ارتجلها فكانت كالخطبة[2]». فاعتذر عن الإقواء بالارتجال ، ومعنى هذا أنه لو كان قد هيأها وأعدها من قبل، كما هي العادة لما وقع في الاقواء .

وفي جواب (عبدالله بن رواحة) « لم أكن أعددت شيئاً » ، وفي اعتذار المعتذر عن إقواء (الحارث بن حلزة) ، دلالة بينة على أن الشعراء كانو يهيئون شعرهم وينقحونه قبل إنشاده ، وأنهم كانوا لا يقولون شيئاً منه إلا بعد أن يكون قد اختمر في رؤوسهم ورضوا عنه ، حتى يكون سديداً ، اللهم إلا في المناسبات وفي الظروف الحرجة التي تهز الشاعر فتحمله على نظم الشعر .

وورد أن (الحارث بن حلزة) اليشكري ، قال لقومه ، « وهو رئيس بكر ابن وائل : إني قد قلت قصيدة ، فمن قام بها ظفر بحجته وفلج على خصمه ، فروّاها ناساً منهم ، فلما قاموا بين يديه لم يرضهم ، فحين علم أنه لا يقوم بها أحد مقامه ، قال لهم : والله اني لأكره أن آتي الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور ، وينضح أثري بالماء إذا انصرفت عنه ، وكان لبرص كان به ، غير اني لا أرى أحداً يقوم بها مقامي ، وأنا محتمل ذلك لكم »[3] ، مما يدل على أنه كان قد أعدّها ونظمها بعد تروٍ ودراسة ، ثم ألقاها على الملك ، مع أننا

---

١ طبقات (٥٥) ، شرح شواهد ، للسيوطي (٢٩٣/١) ، العمدة (٢١٠/١) .
٢ الشعر والشعراء (١٢٧/١ وما بعدها) ، العمدة (١٩٠/١) .
٣ الخزانة (٥١٩/١) .

نرى الكتب ، تذكر أنه ارتجلها ارتجالاً ، بمعنى أنها كانت من وحي الموقف والساعة ، ولم تكن مهيأة من قبل : لأن الارتجال في الكلام ، التكلم من غير تدبر ولا تهيئة سابقة ، وقيل من غير روية ولا فكر[1] . ويظهر أنهم قصدوا بالارتجال إلقاء الكلام من غير نظر الى صحيفة ، وذلك أوقع في النفس عندهم من الإلقاء عن شيء مكتوب ، على الرغم من كون صاحبه قد أعده من قبل وقد حفظه ، كما يفعل شعراء هذا اليوم من إنشادهم شعرهم المنظوم سابقاً من غير نظر في صحيفة ، ليظهر الشاعر وكأنه يرتجله ارتجالاً .

ولا يعقل أن يكون الشعر كله من نتاج المصادفة والمفاجأة ، وانه كان يحفظ على نحو ما قيل وأنشد ، فلم يجر عليه قلم ، ولم ينله تهذيب ولا تشذيب، ولا سيما بالنسبة للقصائد . فقد كان الشاعر ينظم شعره مقدماً في الغالب ، ثم ينشده رواته وجماعته ، لئلا ينساه ، ثم يرى رأيهم فيه ، وقد يزيد هو عليه شيئاً ، وقد ينقص منه شيئاً ، ومن هنا نجد رواية أكثر القصائد لا تثبت على ترتيب واحد، وليست لها وحدة مستقلة ولا ترتيب متكامل ، إلا في أحوال نادرة ، ومن ثم اختلفت الرواية عن الشاعر ، فقد يكون أحد الرواة ، قد افترق عن الشاعر وابتعد عنه ، وهو يحفظ شعره على نحو ما سمعه منه ، على حين يكون الشاعر قد أضاف على شعراً شيئاً جديداً ، حفظه عنه غيره من الرواة ، فتسبب ذلك في ظهور الاختلاف في القصيدة الواحدة ، وتكون الرواية القديمة أقصر من الرواية الحديثة في العادة ، لعدم دخول الزيادة التي ترد متأخرة بالطبع على الشعر[2]. روي عن (ابن مقبل) قوله : « اني لأرسل البيوت عوجاً ، فتأتي الرواة بها قد أقامتها »[3] . فللرواة إن صح هذا الخبر ، يد في إصلاح الشعر، وفي تغييره ، وفي إقامة ما قد يكون فيه من اعوجاج .

ولا بد للشاعر من إعداد الشعر (القصيد) وتهيئته والنظر فيه قبل انشاده ، كما في شعر المدح والهجاء ، لما يجب أن يتفنن فيه الشاعر ، وهو على علم أن من سيقصده لمدحه ، قد قصده غيره للغاية نفسها ، وقد يصادف انشاده لشعره

---

١ تاج العروس (٣٣٧/٧) ، (رجل) ·

٢ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (٦١/١) ·

٣ مجالس ثعلب (٤٨١) ·

– وهو ما يقع في الغالب – بحضور عدد آخر من الشعــراء المحترفين للشعر ، المتفننين فيه ، فإذا هو لم يهيء شعره من قبل ولم يعرضه على أحد ولم يتفنن فيه ، ويأتي فيه بغرائب الفنون ، ضاع شعره بين بقية الأشعار . فهو مضطر اذن على إعداد شعره إعداداً حسناً قبل إنشاده أمام الممدوح ، وحكّه وتشذيبه لينال المكانة المرجوة بين بقية الشعر .

ونجد في شعر ينسب الى (امرىء القيس) ، يذكر فيــه ان المعاني كانت تنثال عليه ، فكان يعمل رأيه فيها ، فيؤخر ويقدم ، ويتخير ما يستجاد من غرر الأبيات :

أذود القوافي عني ذياداً ذياد غلام جــريء جرادا
فلـما كــثّرن وعنينــني تخيرت منهــن ستا جيادا
فأعزل مرجانهــا جانبــاً وآخذ من درها المستجادا[1]

وقد نسب بعض الرواة هذه الأبيات الى غيره .

ولا بد في شعر الهجاء من إعداد ، ولا سيا في شعر الهجاء الذي يعدّ للردّ على شاعر هجّاه ، أو على شعر هجاء سابق ، إذ يجب في هذه الحالــة اعداده بعناية لتحطيم الهاجي وإسقاطه وإخماله ، ويستدعي ذلك عمل الروّية فيــه والتأمل طويلاً ، وإنشاد الشعر مراراً وتكراراً على الرواة والعارفين بالشعر لأخذ رأيهـم فيه . وقد يزيدون عليه وقد ينقصون منه ، فإذا رضي الشاعر عنه ، وقنع به ، أنشده أمام الناس ، وقد يكون في المواسم ليسير بين القبائل ، وقد يرسل مكتوباً الى من يهمهم الأمر ليصل اليهم ذلك الهجاء . وقد يكون الشاعر (تميم بن مقبل) (تميم بن أبيّ بن مقبل) ، قد عنى هذا المعنى في البيت المنسوب قوله اليه :

بني عامر ، ما تأمرون بشاعر تخــير بابات الكتاب هجائيا[2]

وبابات الكتاب ، سطوره ، وهو بيت لا يخلو من غموض ، حتى ان علماء

---

١ ديوان امرىء القيس (٦٣) .
٢ ديوانه (ص ٤١٠) ، (الدكتور عزة حسن) ، « تخير آيات » ، العمدة (٢/١٦٧) ، الحيوان (٧/١١٢) .

اللغة اختلفوا في تفسيره ، اختلافاً كبيراً ، وقد يفهم منه أن الشاعر كان قد تخير هجاءه ودونه في وجوه الكتاب ، أي أن الهجاء كان مدوّناً بسطور ومكتوباً، وقد يكون قد أنذر به وتوعد ، بأن من سيهجوهم إذا لم يكفوا عن سفههم ، فإنه سيدوّن هجاءه ويثبته في سطور وينشره بين الناس ، فهو ينذرهم به ويتوعدهم وقد أدخله صاحب (العمدة) في « باب الوعيد والانذار » ، وقال : « كان العقلاء من الشعراء وذوو الحزم يتوعدون بالهجاء ، ويحذرون من سوء الاحدوثة ، ولا يمضون القول إلا لضرورة لا يحسن السكوت معها »[1]. وقد اتخذ (كولدتزيهر) هذا البيت دليلاً على وجود التدوين في شعر الهجاء عند العرب ، كما اتخذ من شعر (ليلى الأخيلية) :

أتاني من الأنباء أن عشيرة بشوران يزجون المطي المذللا

يروح ويغدو وفدهم بصحيفة ليستجلدوا لي،ساء ذلك معملا[2]

دليلاً آخر على تدوين الهجاء .

وتنقيح الشعر تهذيبه . وأنقح شعره اذا حككه ، أي أزال عيوبه . ولهذا قيل : خير الشعر الحولي المنقح[3] . فكان الشاعر اذا نظم شعراً أجال بصره به ، ليرى ما فيه من نشاز وعيوب ، فيحك منه ما يحتاج الى حك ، ويجيل بصره به الى أن يعجبه ويرضيه ، فيقوله للناس . وقد ينقحه بعد إلقائه ، إذ قد يسمع نقداً يراه من شاعر أو من العارفين بالشعر ، صائباً ، فينقح الموضع المنتقد . وقد ينتبه الشاعر وهو يقرأ شعره على الملأ ، الى أفكار لم تكن تخطر على باله ساعة نظم شعره ، فينظمها ويضيفها الى ما نظمه .

وكان من الشعراء من يكتب ويقرأ ويدون شعره . ومن هؤلاء (عدي بن زيد العبادي) ، الذي كان يتولى مكاتبة العرب عند (كسرى) ، والذي كان قد حذق الكتابة بالعربية والفارسية[4] . وهو من شعراء (الحيرة) ، والشاعر

---

١ العمدة (١٦٧/٢) .
٢ ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربي (٩٨) .
٣ تاج العروس (٢٤٢/٢) ، (نقح) ، (١٢٢/٧) ، (حك) .
٤ الاغاني (١٠١/٢ وما بعدها) .

(سويد بن صامت الأوسي) ، و (عبدالله بن رواحـة) ، و (كعب بن مالك الأنصاري) ، وهم من شعراء يثرب[1] ، ولهذا فلا يستبعد وقوع التدوين والتنقيح من هؤلاء الشعراء ومن أمثالهم الذين كانوا يقرأون ويكتبون ، يكتبون شعرهم ، ثم يجيلون النظر فيه ، فيغيرون منه ما شاءوا ويبدلون ما لا يعجبهم منه حتى يستوي ، فيذاع .

ولو ذهبنا هذا المذهب وقلنا بصحة المذكور في هذه الروايات ، حق علينا أن نقول إن الشعراء الجاهليين ان لم يكن أكثرهم فبعضهم على الأقل كانوا ينقحون شعرهم ويعدلون فيه ويحبرونه ، حتى يستقيم في نظرهم ويستوي . فـإذا رضوا عنه ، أذاعوه عندئذ ، وأنشدوه حين تدعو الداعية إلى الإنشاد . وقد يطول هذا التنقيح ، وقد ينقص . قد يقع في أيام ، وقد يقع في شهر أو شهور أو حول أو أكثر . ومثل هذا التنقيح والتحكيك ، يستدعي وجود تدوين في الغالب ، بأن يدون الشاعر أو راويته الشعر ، ثم يجري التنقيح على المكتوب .

ذكر (ابن قتيبة) ، ان من الشعراء المتكلف والمطبوع . « فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر ، كزهير والحطيئة . وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . وكان الحطيئة يقول : « خير الشعر الحوليّ المنقح المحكك » ، وكان زهير يسمى كُبَرَ قصائده: (الحوليات)[2]

وقد أشار بعض الشعراء الى تنقيحه شعره والى تهذيبه له ، وتحكيكه فيه . منهم الشاعر المخضرم (سويد بن كراع) من (عطل)[3] ، وكان شاعراً محكماً[4]. فقال في أبيات يذكر تنقيحه شعره :

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نزعا
أكالئها حتى أعرس بعدما يكون سُحَيْراً أو بُعيد فأهجعا

---

١ ابن سعد ، الطبقات (٣/٢ ص ٧٩) ، المحبر (٢٧١ وما بعدها) ، الاغاني (٢٥/٣) .
٢ الشعر والشعراء (٢٢/١ وما بعدها) ، (الثقافة) ، البيان والتبيين (١٣/٢ ، ٢٠٤) ، (لجنة) ، البيان والتبيين (٢٠٤/١) ، (هارون) .
٣ الاغاني (١٢١/١١) ، الشعر والشعراء (٥٣٠/٢) ، (الثقافة) .
٤ الاصابة (١١٧/٢) ، (رقم ٣٧٢٢) .

إذا خفت أن تُروى علي رددتها   وراء التراقي خشيةً أن تَطلّعا
وجشّمني خوف ابن عفّان ردها   فثقفتها حولاً جريداً ومَربَعا
وقد كان في نفسي عليها زيادة   فلم أرَ إلاّ أن أطيع وأسمعا [1]

وكان هجا قومه ، فاستعدوا عليه عثمان ، فأوعده ، وأخذ عليه ألا يعود [2] . فأخذ يهذب شعره ويثقفه خشية الوقوع فيما لا يحمد عليه .

وذكر (ابن قتيبة) أن « المتكلف من الشعر وإن كان جيداً محكماً ، فليس به خفاءٌ على ذوي العلم ، لتبيّنهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر ، وشدة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة اليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه » [3] .

وقال : « والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة ، وإذا لم يتلعثم ولم يتزحر » [4] .

والتكلف في نظم الشعر شيء ممجوج ما في ذلك شك ، لما فيه من تصنع وتنطع ، وخروج على عفو الخاطر ، وعلى الطبع . أما تهذيب الشعر ومراجعته وتشذيبه ، والتأني فيه ، والنظر فيه ، لتعبيده وتشذيبه ، حتى يكون عذباً نقياً، نابعاً عن شاعرية وسليقة ، خالياً من الشطحات والنزوات ، يعجب السامع ، فأمر آخر ، على ألا يتجاوز الحد ، بحيث يخضع الشعور لاستبداد الصنعة ، فهو عندئذ معيب . وقد رأى (الأصمعي) ، وهو من نقدة الشعر وعلمائه ، في تثقيف الشعر وحكّه وتشذيبه عبودية للشعر ، انتقد (زهيراً) و (الحطيئة) عليها ، فقال: « زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما ، عبيد الشعر . وكذلك كل من جوّد في جميع شعره ، ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة . وكان يقال : لولا ان الشعر قد كان استعبدهم واستخرج مجهودهم ، حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ،

---

1 الشعر والشعراء (١/٢٣) ، (الثقافة) .
2 الشعر والشعراء (٢/٥٣٠) ، (الثقافة) .
3 الشعر والشعراء (١/٣٢) ، (الثقافة) .
4 المصدر نفسه (١/٣٤) .

ومن يلتمس قهر الكلام ، واغتصاب الألفاظ ، لذهبوا مذهب المطبوعين ، الذين تأتيهم المعاني سهواً ورهواً ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً ، وانما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي .. ولذلك قالوا في شعره : مطرفٌ بآلاف ، وخمار بواف. وقد كان يخالف في ذلك جميع الرواة والشعراء »[1] . وقد فسر (ابن قتيبة) الجملة الأخيرة المتعلقة بالنابغة الجعدي ، بقوله : « وكان العلماء يقولون في شعره خمار بواف ، ومطرفٌ بآلاف . يريدون ان في شعره تفاوتاً ، فبعضه حد مبرز ، وبعضه رديء ساقط »[2] .

وجاء في (العمدة) (لابن رشيق) : « وكان الأصمعي يقول : زهير والنابغة من عبيد الشعر ، يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ، ويشغلان به حواسهما وخواطرهما»[3]، فوضع (النابغة) في موضع (الحطيئة) المذكور في (البيان والتبيين) وفي الموارد الأخرى .

قال (السيوطي) : « قال الجاحظ في البيان : كان الشاعر من العرب يمكث في القصيدة الحول ، ويسمون تلك القصائد الحوليّات والمنقحات والمحكمات ، يصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً »[4]. فالقصيدة الحولية المنقحة المُحكمة ، هي القصيدة التي يتأنى بها صاحبها ، فيهذب فيها ويشذب ، حتى يحكمها ، لتصير متماسكة بينة متينة ، ومن هنا قال (الحطيئة) : « خير الشعر الحوليّ المنقح » ، أو « خير الشعر الحولي المحكك »[5] . وكانوا يسمون تلك القصائد أيضاً المقلدات[6] ، والحوليات ، والمنقحات ، والمحكمات. وقد أوجز (السيوطي) كلام (الجاحظ) ، الذي أدرك ما كان يفعله الشاعر بشعره من تغيير وتبديل ومن تنقيح وتجويد ، حتى يرضى عنه . فقال أكثر مما نقله (السيوطي) عنه ، قال إن من الشعراء « من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً وزمناً طويلاً ، يردّد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه ، إتهاماً لعقله ، وتتبعاً على

---

١ البيان والتبيين (٢/١٣) « لجنة » ، الشعر والشعراء (١/٢٢ وما بعدها) ، (بيروت ، دار الثقافة) ، (١/٨١ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢١٠) .
٣ العمدة (١/١٣٣) .
٤ شرح شواهد (١/٢٦) ، باختلاف اللفظ ، البيان والتبيين (٢/١٣) .
٥ البيان والتبيين (١/٢٠٤) ، (٢/١٣) .
٦ البيان والتبيين (٢/٢٦) ، (٢/٩) ، (لجنة) .

نفسه ، فيجعل عقله زماناً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره »[1] . يفعلون ذلك ليخرج شعرهم بليغاً بيّناً ، خالصاً نقياً ، حتّى ينالوا منه ما يريدون من التأثير في السامع ، ومن استهواء الناس اليهم « وكانوا إذا احتاجوا الى الرأي في معاظم التدبير ومهمات الأمـــور ميّثوا الكلام في صدورهم وقيّدوه على أنفسهم ، فإذا قوّمه الثقاف وأُدخل الكير وقام على الخلاص أبرزوه محكماً منقّحاً ومُصفّى من الأدناس مهذباً »[2] ، وقال : « وكانوا يُسمون تلك القصائد الحوليّات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً »[3] .

والحوليات ، هي القصائد التي يحول عليها الحول . والمقلدات ، البواقي من الشعر على الدهر وقلائده[4] . والمنقحات ، القصائد المنقحة المهذبة المحككة . يقال: خير الشعر الحولي المنقح ، وأنقح شعره اذا حككه ، وأحسن النظر فيه،وأصلحه وأزال عيوبه[5] . وقد كان الشاعر يجيل النظر في شعره ، ويفكر فيه ويصلح منه، قبل أن يعرضه على الناس ، حتّى لا يعاب عليه ، فيغض من قدره ، وتهبــط منزلته بين الناس ، وتطمع فيه الشعراء . فهؤلاء الشعـراء ، هم أصحاب فن ، لا يهمهم الإخراج الكثير ، بل الشعر المحكك المنسق المنقـــح ، ولذلك يمكثون أمداً يعيدون النظر فيه حتّى يعجبهم نظمه ، فيذيعونه عندئذ بين الناس .

وقد عرف (طفيل الغنوي) في الجاهلية بالمحبر ، وذهب علماء الشعر الى انه انما عرف بذلك لحسن شعره[6] ، وكان مثل زهير والنابغة « في التنقيح وفي التثقيف والتحكيك »[7] . وقد عرف (ربيعة بن سفيان) الشاعر الفارس بالمحبر «لتحبيره شعره وتزيينه كأنه حبر »[8] . و (الحطيئة) ، و (النمر بن ثعلب) من هذه الطبقة التي تأنقت في شعرها وثقفته[9] . وقد عرف (النمر بن تولب) بالكيس

١ البيان والتبيين (٩/٢) .
٢ البيان والتبيين (١٤/٢) ، (٩/٢) ، (هارون) .
٣ البيان والتبيين (١٤/٢) .
٤ تاج العروس (٤٧٥/٢) ، (قلد) .
٥ تاج العروس (٢٤٢/٢) ، (نقح) .
٦ العمدة (١٣٣/١) ، الشعر والشعراء (٣٦٤/١) .
٧ العمدة (١٣٣/٩) ، تاج العروس (١١٩/٣) ، (حبر) .
٨ تاج العروس (١١٩/٣) ، (حبر) .
٩ العمدة (١٣٣/١) .

لحسن شعره[1] . وورد في رواية أخرى انه انما قيل له المحبر لقوله :

سماوته أسمال برد محبر ... وسائره من أتحمى معصب[2]

وكان (طفيل بن عوف بن كعب) (طفيل بن كعب) الغنوي ، أحد نعات الخيل من الجاهليين ، فعرف بطفيل الخيل لكثرة وصفه اياها ، قيل انه كان من أوصف الناس للخيل[3] ، وقد أخذ عنه بعض الشعراء ، مثل النابغة وزهير . وقيل انه كان ثالث الشعراء الوصافين للخيل[4] . وقد نشر (كرنكو) ديواني طفيل والطرماح مع ترجمتها الى الانكليزية ، وذلك ضمن سلسلة منشورات (جب)[5] .

ذكر أن أبا بكر قال يوماً للأنصار : زادكم الله عنا يا معشر الأنصار خيراً، فما مثلنا ومثلكم إلا كما قال طفيل الغنوي :

جزى الله عنّا جعفراً حين أزلقت ... بنا نعلنا في الواطئين فزلّتِ
أبوا أن يملّونا ولو أن أمّنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملّتِ

وروي أن معاوية قال : دعوا لي طفيلاً وسائر الشعراء لكم ، وأن عبد الملك ابن مروان ، قال : من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل .

ومن جيد الشعر المنسوب له ، قوله :

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٢٧) ، العمدة (١/١٣٣) .

٢ الخزانة (٣/٦٤٣) .

٣ « طفيل بن عوف بن خلف بن ضبيس بن مالك بن سعد بن عوف بن كعب بن جلان ابن غنى بن أعصر » ، الخزانة (٣/٦٤٣) ، الاغاني (١٦/٨٥ وما بعدها) ، (ساسي) ، الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (٢٧٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٦٢) ، ديوان طفيل والطرماح ، (كرنكو) ، (لندن ١٩٢٧) ، بروكلمن تاريخ الادب العربي (١/١٢٠) ، الشعر والشعراء (١/٣٦٤ وما بعدها) ، (الثقافة) ، السمط (٢١٠) ، المؤتلف (١٤٧) .

٤ بروكلمن (١/١١٩) .

٥ The Poems of T.B. 'A. al-Gh. and at-Tirimmah, ed and transl. by F. Krenkow, London, 1927 (E. J. W. Gibb Mem. XXV).

إني، وإن قلّ مـالي لا يفارقني ... مثل النعامة في أوصالهـا طول
أو قارح في الغرابيات ذو نسب ... وفي الجراء مِسَحٌ الشدّ إجفيل
إن النساء كأشجار نبتن معـاً ... منها المرار، وبعض النبت مأكول
إن النساء متى يُنهين عن خلق ... فإنـه واجب لا بـدّ مفعول
لا ينصرفن لرشدٍ إن دعين له ... وهن بعـد ملائيم مخاذيـل[1]

ومن شعره :

وللخيل أيامٌ فمن يصطبر لهـا ... ويعرف لها أيامها الخـير تعقب

وقد شرح ديوانه (يعقوب بن السكيت) ، وقد رجع اليه (البغدادي)[2] .

وقد قسم (ابن رشيق) الشعر الى مطبوع ومصنوع . و « المطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً ، وعليه المدار . والمصنوع وان وقع عليه هذا الاسم ، فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سمّوه صنعة من غير قصد ولا تمثل ، لكن بطباع القوم عفـواً : فاستحسنوه ومالوا اليه بعض الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف : يصنع القصيدة ، ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب، بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصّد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك ، والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وابرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القوافي ، وتلاحم الكلم بعضه ببعض حتى عدّوا من فضل صنعة الحطيئـة حسنَ نسَقِه الكلام بعضه على بعض »[3] .

ولم يعب علماء الشعر الشعر المنمق المحكك ، إذا لم تؤثر فيه الكلفة، ولم يظهر عليه التعمل ، ولم يخرج عن حدود الطبع . ومن هنا قال بعض الحذّاق بالكلام: « قل من الشعر مـا يخدمك ، ولا تقل منه ما تخدمه . وهـذا هو معنى قول

١ الشعر والشعراء (٣٦٤/١ وما بعدها) .
٢ الخزانة (٦٤٢/٣) .
٣ العمدة (١٢٩/١) ، (باب في المطبوع والمصنوع) .

الأصمعي »[1] ، وهو أيضاً معنى (ابن رشيق) وغيره من علماء الشعر ، الذين يريدون شعراً طبيعياً صدر من القلب وعن عفو الخاطر،لا تعمّل فيه ولا ترويق يخرجه من الطبع الى الصنعة ، فيكون ثقيل الظل لا تستسيغه الطباع .

ويرى (بروكلمن) أن « القصائد الطوال كالمعلقات ، لم يتم نظمها دفعة واحدة . ومهما كانت القافية كثيراً ما تهدي الشاعر في نظم شعره ، فإنه يجدر بنا أن نتصور نشأة القصيدة في الزمن القديم على غرار ما وصفه (موزل) عند شعراء البادية المحدثين . وعلى ذلك فلا يستبعد بحال من الأحوال أن تكون القصيدة من نتاج حول كامل.ومن هنا وجدنا رواية أكثر القصائد لا تثبت على ترتيب واحد. فقد ينشد الشاعر شعراً لرواته وأحبائه أول الأمر لئلا ينساه ، ثم يزيد عليه ، لا سيما إذا ذكره أحباؤه بشيء غفل عنه،وربما بدل بعض أبياته بعد ذلك بأخرى لم يسمعها ذووه الأولون ، فتختلف الرواية عن الشاعر . ولا يأبى الشاعر نفسه أن يعترف بأن كل ذلك من بنات أفكاره . وقد يكون ذلك أيضاً هو السبب في أن كثيراً من الشعر القديم لم تبق منه إلا قطع متفرقة »[2] .

ولا يختلف الشاعر الجاهلي عن الشاعر الاسلامي في نظري في تهذيب شعره وتنقيحه . فقد كان للفرزدق الشاعر المشهور الذي حفظ وروى شعر عدد كبير من الشعراء المتقدمين رواة ، كانوا يعدلون ما انحرف من شعره ، ويهذبون ما يحتاج منه الى تهذيب ، وكانوا يروونه . وكان لجرير ، الشاعر الآخر ، وهو خصم الفرزدق ومنافسه في قول الشعر ، رواته ومعدلو شعره . كانوا يقوّمون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد[3] . واذا كان هذا شأن شعراء أيام الأمويين الذين ورثوا تقاليد الشعراء المخضرمين والجاهليين ، وساروا على هديهم في الشعر، لا نستبعد اذن لجوء الشاعر الجاهلي ورواته الى التحكيك والتعديل واجراء التهذيب على شعره ، لغفلة قد تكون وقعت له ، وقد فاتت عليه ، أو لمعنى فات عليه، أدركه رواته عند إنشاده له ، أو غمز به خصومه فاضطر الى اجراء تنقيح عليه لإخراجه بالشكل الذي رآه يصلح فيه .

---

١ العمدة (١/١٣٣ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/٦١) .
٣ الاغاني (٤/٢٥٦ وما بعدها) ، (دار الكتب) .

وقد حكك ونقح علماء الشعر ورواته ، ما سمعوه وأخذوه من شعر ، لأنهم وجدوا أنه في حاجة الى تحكيك،أو أنهم رأوا أن فيه خللاً ، وان عليهم واجب إصلاحه وتقويمه . أجروا مثل هذا التنقيح حتى في شعر الشعراء الإسلاميين. روي عن (الأصمعي) قوله : « قرأت على خلف شعر جرير ، فلما بلغت قوله :

فيا لك يوماً خيره قبل شرّه تغيب واشيه وأقصي عاذله

فقال : ويله ! وما ينفعه خير يؤول الى شر ؟ قلت له : هكذا قرأته على أبي عمرو . فقال لي : صدقت وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح ، مشرّد الألفاظ ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع . فقلت : فكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود له لو قال : فيا لك يوماً خيره دون شرّه .

فاروه هكذا ، فقد كانت الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء ، فقلت : لا أرويه بعد هذا إلاّ هكذا »[1] .

وقد اضطر علماء الشعر الى تنقيح ألفاظ في الشعر بسبب تصحيف أو تحريف وقع عليها بفعل النسّاخ ، ومثل هذا التنقيح مستساغ بالطبع ، بل واجب لأن فيه اعادة الشعر الى الصواب ، على أن ينص على الأصل الذي كان مكتوباً به ، والتصحيح الذي أدخل عليه ، وعلى السبب الذي حمل العالم على اجرائه عليه .

دواوين الشعر الجاهلي :

ودواوين الشعراء الجاهليين ، الموجودة عندنا هي كلها وبغير استثناء من جمع علماء الشعر الاسلاميين . فلا يوجد من بينها ديوان واحد ذكر انه كان من جمع أهل الجاهلية . وقد شرع بصنع هذه الدواوين في العصر الأموي . وبلغت العناية بها ذروتها في القرن الثالث للهجرة . وقد أبدى علماء العراق من موالي وعرب تفوقاً كبيراً على غيرهم من علماء الأمصار الاسلامية في هذا الباب .

وقد نسب الى (ابن عباس) قوله : « إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله،

---

١ ديوان جرير (٤٨٠) ، المرزباني ، الموشح (١٢٥) ، بروكلمن (٦٥/١) .

فاطلبوه في الشعر فإنه ديوان العرب »[1] . وإذا صح أن هذا الكلام الذي رواه (عكرمة) عن (عبدالله بن عباس) هو من كلامه نكون قد حصلنا لأول مرة على لفظة (الديوان) ، بالمعنى المفهوم من اللفظة في عرف علماء الشعر والناس. وذكر أن لفظة (الديوان) قد وردت في حديث : « لا يجمعهم ديوان حافظ »[2]. وإذا صح هذا الحديث وثبت ، يكون ورود اللفظة فيه قبل ورودها في كلام (ابن عباس) ، ومعنى هذا أنها كانت معروفة عند أهل الجاهلية . غير أن ورودها في هذا الحديث لا يعني ديوان شعر ، وإنما الجمع والاحصاء ، وبمعنى كتاب وسجل تدون فيه الأشياء .

وروي أيضاً أن الخليفة (عمر) سأل الصحابة عن هذه الآية : « أو يأخذهم على تخوّف ، فإن ربكم لرؤوف رحيم »[3] ، فخاضوا في معناها ، فخرج رجل ممن كان حاضراً فلقي أعرابياً ، فقال التخوف : التنقص ، وكان ذلك الأعرابي من هذيل ، فقال له : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم ، قال شاعرنا أبو كبير الهذليّ :

تخوف الرحل منها تامكاً قرداً   كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال: شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم[4] .

ويقال لمجموع الشعر المدون في دفتر أو كتاب (ديوان شعر) . فيقال (ديوان الشاعر) و (دواوين الشعراء) ، و (ديوان فلان) ، و (ديوان طيء) ، و (ديوان الأنصار) ، و (ديوان الشعراء الجاهليين) ، الى غير

---

١ « واخرج ابو بكر الانباري في كتاب الوقف من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : اذا سالتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فان الشعر ديوان العرب » المزهر (٢/٣٠٢) ، (٢/٤٧٠) الاخبار الطوال (٣٣٢) ، (اذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه ، فاطلبوه في أشعار العرب ، فان الشعر ديوان العرب . وكان اذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا) ، العمدة (١/٣٠).

٢ تاج العروس (٩/٢٠٤) ، (دون) .

٣ النحل ، الآية ٤٦ .

٤ تفسير الطبري (١٤/٧٧) ، تفسير النيسابوري ، (١٤/٧٠ وما بعدها) ، وورد فيه أن اسم الشاعر : « زهير » .

ذلك . ويقصدون بذلك مجموعة أشعار جمعت في مجموع . وذكر بعض علماء اللغة ان الديوان « الدفتر ، ثم قيل لكل كتاب ، وقد يخص بشعر شاعر معين مجازاً حتى جاء حقيقة فيه . فمعانيه خمسة : الكتبة ومحلهم والدفتر وكل كتاب ومجموع الشعر » . والديوان في الأصل الكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية. وأول من وضعه عمر . ويرى علماء اللغة ان اللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، وان كسرى كان قد رتب الدواوين لكتّابه ولمعاملاتهم ، فلما جاء الاسلام،وظهرت الحاجة الى تنظيم العمل . أمر الخليفة (عمر) باتخاذ الدواوين[1] .

واذا حملنا قول أهل الأخبار انه قد كان عند النعمان بن المنذر « ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته »[2] ، وقولهم ان النعمان ملك العرب كان قد أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ، وهي الكراريس ، ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد ، قيل له : ان تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار[3] ، على محمل الأخبار التي ظهرت في أيام الأمويين ، التي صنعها وروّجها بين الرواة حماد الراوية وأضرابه فإننا نثبت بذلك وجود الدواوين بالمعنى المفهوم من الديوان في أيام (حماد) ، وقبل أيامه . ولدينا أخبار أخرى تفيد ان الدواوين قد عرفت قبل أيام حماد .

ويظهر من قول (ابن سلام) : « وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون واليه يصيرون . وقال ابن عوف عن ابن سيرين ، قال : قال عمر بن الخطّاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته،فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار،راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مُدوّن ، ولا كتاب مكتوب ... »[4] أن الدواوين لم تكن موجودة ، وأن الشعر لم يكن مكتوباً في صدر الإسلام ، ولهذا ضاع أكثر الشعر الجاهلي بسبب انهماك حفّاظه في الحروب

---

١ تاج العروس (٩/٢٠٤) ، (دون) ، غرائب اللغة (٢٢٩) .
٢ طبقات الشعراء (١٠) ، المزهر (٢/٤٧٤) .
٣ الخصائص (١/٣٩٣) ، تاج العروس (٢/٧٠) ، (طنج) ، اللسان (٣/١٤٢)، (طنج) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٠) .

وهلاك بعضهم فيها ، ومنها حروب الردّة ، التي هلك فيها جمع من حفاظ الشعر من مسلمين ومن مشركين .

ويظهر مثل ذلك من رواية يرجع سندها الى (ابن سلام) تذكر أنه « كان الرجلان من بني مروان يختلفان في الشعر فيرسلان راكباً فينخ ببابه يعني قتادة بن دعامة ، فيسأله عنـه ثم يشخص »[1] ، ويظهر من هذه الرواية إن صحت أن (قتادة) ، كان من الحافظين للشعر ، وقد عرف بأنه كان صاحب علم بأيام العرب وأنسابها وأحاديثها[2] ، وله أخبار في تفسير القرآن[3] ، ونعت بأنه كان من الحفاظ ، قال عنه (السيوطي) : « ولم يأتنا عن أحد من علم العرب أصح من شيء أتانا عن قتادة »[4] . وهو من التابعين ، روي عـن أنس وابن المسيب ، والحسن البصري ، وروى عنه (سعيد بن أبي عروبة)[5] . وقد ضرب الجاحظ به المثل في الحفظ ، إذ قال : « كان يقال ، زهد الحسن ، وورع ابن سيرين ، وعقل مطرف ، وحفظ قتادة ، وكلهم من البصرة »[6] . ويظهر أنه كان يروي الإسرائيليـات[7] . وجمع (سليمان بن عبد الملك) بين قتادة والزهري ، فغلب (قتادة) (الزهري) ، فقيل لسليمان في ذلك ، فقال : إنه فقيه مليح . فقال القحذمي[8] : لا ، ولكـنه تعصب للقرشية ، ولانقطاعه كان اليهم ، ولروايتـه فضائلهم[9] . وقد عرف بالنسب[10] ، وهو أحد رواة (رسالة عمر بن الخطاب) الى (أبي موسى) الأشعري في أصول القضاء[11] .

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٧ وما بعدها) ، المزهر (٢/٣٣٤) .
٢ ابن سلام ، طبقات (١٨) .
٣ المزهر (١/٢٩) .
٤ المزهر (٢/٣٣٤) .
٥ المصدر نفسه (حاشية ١) .
٦ البيان والتبيين (١/٢٤٢) ، ثمار القلوب (٩٠) .
٧ البيان والتبيين (١/١٠٤ ، ٢٥٨) ، عيون الاخبار (٢/١٧٩) .
٨ القحذمي : أبو عبد الرحمن بن هشام بن قحذم القحذمي ، من أهل البصرة توفي سنة (٢٢٢) ، لسان الميزان (٦/٢٢٧) .
٩ البيان والتبيين (١/٢٤٣) .
١٠ البيان والتبيين (١/٣٥٦) ، الحيوان (٣/٢١٠) .
١١ البيان والتبيين (٢/٤٨) .

وروى (الجاحظ) « ان رجلاً قتل أخوين في نقاب ، أحدهما بعالية الرمح ، والآخر بسافلته . وقدم في ذلك راكب من قبل بني مروان على قتادة يستثبت الخبر من قبله ، فأثبته »[1] . وهو يروى عن (ابن عباس)[2] ، وعن (أبي موسى)[3] ، ويظهر من الأخبار المنسوبة اليه انه من طراز القصاص ، الذين يروون الأخبار من دون نقد[4] .

وورد ان الخطاط الشهير (خالد بن أبي الهيجا) ، وهو أول من كتب المصاحف في الصدر الأول ، وكان من أحسن الخطاطين في زمانه ، كتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك »[5] . واذا صح هذا الخبر، نكون قد وقفنا على جمع قديم للشعر ، هو في مقدمة المجموعات القديمة للشعر .

لكننا نجد في رواية تذكر ان حماداً الراوية سرق جزءاً من أشعار الأنصار ، فقرأه فاستحلاه وحفظه ، فمن ثم صار يطلب الأدب ويحفظ الشعر[6] . وهي رواية أشك في صحتها ، يظهر انها من موضوعات أعداء حماد ، ولو صحت لكانت دليلاً على وجود ديوان شعر ضم شعر الأنصار . كما نجد في خبر استدعاء (الوليد بن يزيد) له وإرساله اليه عماتي دينار ، وأمره عامله (يوسف بن عمر) أن يحمله اليه على البريد ، وقوله في نفسه : « لا يسألني إلا عن طرفيه: قريش وثقيف : فنظرت في كتابي قريش وثقيف . فلما قدمت اليه سألني عن أشعار بلي »[7] ، دلالة على وجود ديوانين كانا عند (حماد) أحدهما ديوان شعر قريش ، والآخر ديوان شعر ثقيف . غير اننا لا نستطيع التأكد من صحة هذا الخبر ، وإن كنت لا أستبعده أيضاً ، لظهور التدوين قبل هذا العهد ، في أيام معاوية مثلاً .

واذا صح ما ذكره (ابن النديم) من قوله : « قال أبو العباس ثعلب جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك ورد

١ البيان والتبيين (٣/٢٧) .
٢ الحيوان (١/١٨٠) .
٣ الحيوان (١/٢٩٦) .
٤ الحيوان (٥/٥٣٦ ، ٥٣٧) ، (٤/٢٩٣ وما بعدها) .
٥ الفهرست (١٥) ، (خطوط المصاحف) .
٦ الاغاني (٥/١٦٣) .
٧ الاغاني (٦/٩٤) .

الديوان الى حماد وجناد »[1] ، فيكون معنى ذلك ، انه قد كان عند (حماد) و (جناد) ديوانان أو دواوين للشعر ، استعارهما منها (الوليد) ، وجمع منها ديوان العرب وأشعارهم ، ثم أعاد الديوانين الى صاحبيهما، ونكون بذلك قد وقفنا على وجود لفظة (ديوان) بالمعنى الاصطلاحي المعروف في أيام الأمويين، ووثقنا من وجود دواوين الشعر في تلك الأيام .

ولم أجد في الدواوين التي وصلت الينا أو في كتب الأدب إشارات الى اقتباس رواة الشعر وحفظته وجماعه والمعنيين به من هذا الديوان ولا وصفاً لمحتوياته ولما كان بين دفتيه من قصائد وأشعار . ولو وصل الينا شيء من هذا ، لأفادنا ولا شك كثيراً في التعرف على ذلك الديوان الملكي الذي يجب أن نعده أول ديوان شعر عربي وصل خبره الينا بكل تأكيد حتى الآن .

ويذكر أن بعض شعراء العصر الأموي كانوا يملكون دواوين شعر لشعراء جاهليين . ذكر مثلاً أن (الفرزدق) كان يمتلك نسخة من ديوان الشاعر (زهير ابن أبي سلمى)[2] .

وقد أطلق القدماء مصطلح (دفاتر أشعار العرب) على مدوّنات الشعر . والدفتر جماعة الصحف المضمومة[3] ، وقسم (البغدادي) هذه الدفاتر الى قسمين: دواوين ومجاميع . فالدواوين ، هي دواوين الشعراء ، والمجاميع مثل أشعار بني محارب للشيباني ، والمفضليات للمفضل الضبي ، وأشعار الهذليين للسكري، وأشعار لصوص العرب للسكري ، ومختار شعر الشعراء الست : امرىء القيس ، والنابغة، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة وشرحها للأعلم الشنتمري وغيرها[4] .

ويظهر أن أول اختيار مدوّن للشعر عند العرب، كان القصائد المعروفة بالمعلقات اختارها حماد الراوية ، ثم سار من جاء بعده مثل (المفضل) الضبي ، وأبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ثم من جاء بعدهما على منهجه في اختيار وانتقاء الشعر والقصائد وجمعها في مجموعات . وقد ذكر (الجمحي) أن (حماداً)

---

١ الفهرست (١٤٠) .
٢ بلاشير (١٠٦) .
٣ تاج العروس (٢٠٩/٣) ، (دفتر) ، المصون (٤) .
٤ خزانة الادب (٩/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

« كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ... وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار »[1] .

ولم أجد في الكتب المطبوعة التي تحدثت عن حماد ما يفيد اشتغال حماد بتدوين الشعر وإثباته في دواوين . وفي الفهرست عبارة تقطع بعدم ورود كتاب ولا ديوان كان من تأليف حماد أو جمعه ، إذ يقول : « ولم يُرَ لحماد كتاب ، وانما روى عنه الناس ، وصنفت الكتب بعده »[2] . ويفهم بالطبع من كلام (ابن النديم) هذا ان حماداً كان راوية حسب ، يروي للناس ما حفظه من شعر دون أن يعتني هو نفسه بإثباته لما يحفظه في حروف وكلمات . غير انه يجب الاحتراز كثيراً في الأخذ برواية ابن النديم هذه ، إذ لا يعقل إهمال حماد ترتيب ما كان يحفظه من شعر كثير ، وتدوينه وإملاءه . وقد أهمل ابن النديم أسماء كتب عديدة لمؤلفين معروفين ، كما ذكر أسماء علماء لم يشر الى مؤلفات لهم ، مع ان غيره أشار الى مؤلفاتهم ، وقد وصلت بعض منها الينا وطبعت ، فـلا أستبعد أن يكون قول ابن النديم هذا من هذا القبيل .

ومما يقوي هذا الرأي ويؤيده ، ما ورد في مختارات (ابن الشجرى) عن أبي حاتم السجستاني من وجود كتاب لحماد الراوية ، إذ قال : « قال أبو حاتم: هذا آخرها ، وفي كتاب حماد الراوية زيادة » ، وقوله : « قال السجستاني : وفي كتاب حماد الراوية زيادة بعد هذا البيت أربعة أبيات ، كتبتها ليعرف المصنوع»[3]. وقد أورد ابن الشجرى قولَي السجستاني عند إيراده شعر الحطيئة. وكان السجستاني قد أشار الى كتاب حماد هذا ، لوجود أبيات فيه لم يجدها في رواية الأصمعي التي اعتمد عليها لشعر الحطيئة . وقد أورد تلك الزيادات ، ذاكراً انها مع ذكره لها من المصنوعات المردودات[4] .

وفي عبارة (ابن النديم) : « ولم يُرَ لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس

---

١ طبقات ، لابن سلام (١٤) .
٢ الفهرست (ص ١٣٥) ، « أخبار حماد » .
٣ مختارات ابن الشجري ، القسم الثالث (ص ١٢ ، ١٦) ، « تحقيق محمود حسن زناتي » ، القاهرة ١٩٢٦ م .
٤ المورد المذكور .

وصنفت الكتب بعده »[1] ، هفوة . فقد ذكر (ابن النديم) نفسه حين كلامه عن (عوانة) ، أن الخليفة (الوليد بن يزيد) « جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ... ورد الديوان الى حماد وجناد »[2] ، وفي هذه الإشارة دلالة على أنه كان لحماد ديوان ، ثم نجده يذكر أنه كان لعوانة بن الحكم كتاب التأريخ ، وكتاب سيرة معاوية وبني أمية ، وقد توفي (عوانة) سنة (١٤٧هـ) ، أي قبل (حماد) المتوفى سنة (١٥٦م)[3] ، ونجده يذكر لعبيد بن شرية الجرهمي كتاب الأمثال ، ويذكر لصحار العبدي كتاباً في الأمثال كذلك ، وقد عاشا قبل عوانة وحماد[4] .

ودواوين الشعر أنواع : فقد يكون الديوان مجموع شعر شاعر واحد . وقد يكون مجموع شعر شعراء قبيلة ، أو مجموع شعر قبائل ، أو شعر جماعة مثل الأنصار ، وقد يكون مجموع شعر شعراء ، جمعت أشعارهم على شكل طبقات ، أو فن امتازوا به ، أو اختيارات أو أسباب أخرى تذكر في مقدمة الدواوين . ومن النوع الأول دواوين بعض الشعراء الجاهليين ، مثل ديوان امرىء القيس ، وديوان النابغة الذبياني ، وديوان عنترة ، وديوان المتلمس وغيرهم . وقد يجمع ديوان شاعر واحد عدة علماء ، فيرد الديوان بروايات مختلفة . وقد تختلف النسخ في ترتيب أبيات القصيدة ، وفي عدد القصائد ، وقد تزيد بعضها أشعاراً ، وقد تنقص بعض منها أشعاراً ، وقد تختلف نسخ الديوان الذي هو من جمع عالم واحد ، بسبب أن العلماء كانوا يملون علمهم املاءً على تلامذتهم ، في مجالس املائهم ، فيقوم تلامذتهم بتدوين ما يملي عليهم . ويحدث أن العالم يسمع كتابة من بعض طلابه أو من كتابه ، فيصحح فيه ،وقد يزيد عليه ما فات عن ذاكرته يوم إملائه في المرة الأولى ، فيأمر بتدوينه ، وقد يحذف منه شيئاً ، لم يرض عنه ، فتتعدد بتلك النسخ ، ويحدث ذلك في الكتب الأخرى ومن هنا تتعدد الروايات للديوان أو للكتاب ، مع أن جامعه أو مؤلفه رجل واحد .

وقد يأخذ الطالب هذا الديوان ، ثم يزيد عليه ما يسمعه من شيوخ آخرين ،

---

١ الفهرست (ص ١٣٥) ، (أخبار حماد) ، (١٤٠) ، (الاستقامة) .
٢ الفهرست (١٤٠) ، (أخبار عوانة) .
٣ الفهرست (١٤٠) .
٤ الفهرست (١٢٨) .

وقد يعلق عليه ويزيد على شرحه ، شروحاً سمعها من رجال آخرين . وبذلك تتولد نسخ جديدة ، تختلف عن النسخ الأم[1] .

وقد جمع العلماء دواوين الشعراء ، وقد وصل بعض منها ، وفقد البعض الآخر . وقد ذكر (العيني) انه كان قد حصل على ما ينيف على مائة ديوان شعر، من بينها ديوان امرىء القيس، وديوان النابغة الذبياني ، وديوان علقمة بن عبدة التميمي ، وديوان زهير بن أبي سلمى ، وديوان طرفة بن العبد ، وديوان عنترة ابن شداد العبسي ، وديوان الأعشى ميمون ، وديوان الحطيئة ، وديوان أبي دؤاد، وديوان كعب بن زهير ، وديوان لبيد العامري ، وديوان الشنفرى ، وديوان الحارث بن حلزة ، وديوان أبي ذؤيب الهذلي ، وديوان أبي كبير الهذلي ، وديوان ساعدة بن جؤية الهذلي ، وديوان أبي خراش الهذلي ، وديوان أبي المثلم ، وديوان صخر الغي ، وديوان المتنخل ، وديوان أبي العيال ، وديوان السموأل ابن عادياء ، وديوان سحيم عبد بني الحسحاس ، وديوان عمرو بن قميئة ، وديوان عمرو بن كلثوم ، وديوان أوس بن حجر ، وديوان النمر بن تولب ، وديوان أبي الطمحان القيني[2] ، وغير ذلك من دواوين لم أشر اليها . ومما يؤسف له انه لم يذكر أسماء رواة هذه الدواوين .

ومن النوع الثاني ، دواوين القبائل ، أو أشعار القبائل ، وقد ضمت شعر شعراء قبيلة أو شعر بعض من شعرائها ، ممن اشتهر وعرف ، وتحتوي بالإضافة الى الشعر كلاماً يتصل بالشعر وبالشاعر وبالمناسبة التي قيل الشعر فيها ، وبنسب الشاعر وقبيلته ، على نحو ما نجده في الدواوين الخاصة ، فتكون بذلك وثائق مهمة جامعة لأمور شتى من حياة الجاهليين . وقد سميت هذه المجموعات بأشعار القبائل ، مثل : « أشعار الأزد » ، وأشعار حمير ، وأشعار الرباب ، وأشعار بني عامر بن صعصعة ، وأشعار فهم ، وشعر بني يشكر ، وأشعار بني عوف ابن همام ، وشعر هذيل[3] . وأشعار تغلب للسكري ، وقد رجع اليه (البغدادي)[4].

---

١ راجع في هذا الباب مصادر الشعر الجاهلي ، الباب الخامس وما بعده . (ص ٤٧٩ فما بعدها) .
٢ (٥٩٦/٤) ، (حاشية على الخزانة) .
٣ مصادر الشعر الجاهلي (ص ٥٤٣ وما بعدها) .
٤ خزانة (٣٠٤/١) .

وقد هلك أكثر ما جمع من أشعار القبائل ، ولم يصل الينا مطبوعاً من هذه المجموعات إلا ديوان هذيل ، وأكثر شعراء هذا الديوان إسلاميون . وقد نال شعراء هذيل بذلك حظاً من العناية، كما نشرت لشعراء هذه القبيلة جملة دواوين[1] .

وقد أطلق (ابن النديم) جملة (أشعار العرب) على معنى ديوان أشعار العرب ، فذكر مثلاً ان (الأصمعي) ، عمل « قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها »[2] ، وذكر ان (خالد ابن كلثوم) الكلابي ، كان من رواة الأشعار والقبائل ، وله صنعة في الأشعار والقبائل ، وله من الكتب كتاب الشعراء المذكورين وكتاب أشعار القبائل،ويحتوي على عدة قبائل[3] . وذكر ان (أبا عمرو الشيباني) (٢٠٦ هـ) ، كان عالماً بأشعار القبائل ، وقد أخذ العلماء عنه دواوين أشعار القبائل ، وكان قد جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة[4] . وذكر أيضاً انه قد كان في بيت (أبي عبيدة) (٢١٠ هـ) (٢١١ هـ) (٢٠٨ هـ) ، (ديوان العرب)[5] ، ويظهر انه قصد به ديواناً ضم أشعار القبائل . فهو مجموع أشعار شعراء .

ومن النوع الثالث ، أي الكتب التي جمعت أشعار طبقة معينة من طبقات الشعراء أو المجتمع ، ما ذكره (ابن النديم) من أن (أبا العباس ثعلب) ، صنع قطعة من أشعار الفحول وغيرهم ، منهم الأعشى والنابغتان وطفيل والطرماح[6]. ومن أن (أبا بكر محمد بن القاسم) الأنباري ، وهو ممن أخذ عن (ثعلب) ، كان قد عمل عدة دواوين من أشعار العرب الفحول ، منه شعر زهير ، والنابغة، والجعدي ، والأعشى[7] . وقد عمل (محمد بن حبيب) قطعة من أشعار العرب ، وكتاباً سمّاه : (كتاب أخبار الشعراء وطبقاتهم)[8] ، وألّف (ابن سلام) (٢٣١هـ)

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٨٢ وما بعدها) .
٢ الفهرست (٨٩) .
٣ الفهرست (١٠٤) .
٤ الفهرست (١٠٧) .
٥ الفهرست (٨٥) .
٦ الفهرست (١١٧) .
٧ الفهرست (١١٨) .
٨ الفهرست (١٦١) .

كتاباً في طبقات الشعراء ، عرف بـ (طبقات الشعراء) ، وهو مطبوع معروف. ولعمر بن شبة كتاب في الطبقات اسمه : (كتاب طبقات الشعراء)[1] .

هذا ونقرأ في كتاب (الفهرست) لابن النديم ، وفي مؤلفات أخرى أن من العلماء من ألف كتباً في القبائل ، مثل: « كتاب الأوس والخزرج » لأبي عبيدة[2]: وكتاب إياد ، وكتاب كنانة ، وكتاب بني نهشل ، وكتاب بني محارب ، وكتاب بني الحارث ، وكتاب بني مرة ، وأشعار حمير ، وكتاب بني القين ابن حسر ، وكتاب بني حنيفة وغيرها من كتب كان (الآمدي) قد رجع اليها وأخذ منها . وقد درست هذه الكتب ، ولم يتحدث (الآمدي) بشيء عما احتوته ، لذلك لا نستطيع أن نتحدث عن موضوعاتها ، بيد أن (الآمدي) يشير أحياناً ، الى مواضع اقتبس منها بعض الأشياء ، لها صلة بالشعر والشعراء ، مما يحملنا على القول بأن الكتب المذكورة كانت في الشعر : في شعر القبائل ، وفيمن نبغ بينها من شعراء ، كما يشير الى أمور أخذها من هذه الموارد التي لم يشر الى أسماء مؤلفيها ، تدل على أنها خاصة بأخبار القبائل وأنسابها ، ونظراً الى ورود أسماء قسم من هذه المؤلفات التي لم يذكر (الآمدي) أسماء مؤلفيها في (الفهرست) لابن النديم ، وفي موارد أخرى نقلت منها وأشارت الى أسماء مؤلفيها ، فإن في الإمكان التعرف بهذه الطريقة على أسماء مؤلفي تلك الكتب . وقد أشار (الآمدي) الى أسماء المؤلفين وأسماء مؤلفاتهم التي استقى أخباره منها في مواضع أخرى .

وعلى كثرة ما ألف من دواوين ، فإننا لا نملك منها سوى قسم قليل من ذلك الكثير . ويرى (بلاشير) ان الدواوين القديمة المهمة لا تحتوي وسطياً أكثر من عشرين صفحة ، وان أطولها كدواوين النابغة وزهير وامرىء القيس لا تتجاوز أبداً الثلاثين صفحة في الأصل ، غير ان المتأخرين زادوا فيها قصائد ومقطعات عثروا عليها في موارد أخرى ، فتضخمت تلك الدواوين حتى صارت أضعاف ما كانت عليه في الأصل[3] .

وجمع بعض علماء الشعر أشعار طوائف من المجتمعات مثل شعر اللصوص ،

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٤٤) .
٢ الفهرست (٨٦) .
٣ ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربي (١٦٢) .

فللسكري ديوان دعاه : أشعار لصوص العرب . ومثل شعر الصعاليك ، وشعر الشعراء المغتالين ، وأخبار من نسب الى أمه من الشعراء ، وأخبـار المتيمين من الشعراء في الجاهلية وفي الاسلام ، الى غير ذلك من مؤلفات في أخبار الشعراء وفي شعرهم[1] .

ويظهر أن مؤلفي الدواوين لم يحفلوا في أيامهم بموضوع شرح المناسبات التي من أجلها نظم الشعر ، ولهذا جاءت خالية في الغالب من ذكر المناسبة ، وهي إذا ذكرتها فإنما تذكرها بإيجاز واختصار . أما الشروح التي قد ترد في الديوان، فإنها شروح لغوية ونحوية في الغالب ، لم تتمكن من تقديم صورة واضحة عن الشاعر وعن المناسبات التي من أجلها نظم الشعر . وقد انبرى علماء آخرون بشرح هـذه الدواوين ، إلا أن شروحهم لم تخرج أيضاً عن مألوف ذلك الـزمن من الاهتمام باللغة والنحو وجمع الشواهد والنادر والغريب ، فضاع التأريخ نتيجه لهذه الطريقة .

وقد ذكر (ابن النديم) أن شعر (امرىء القيس) قد عمله جملة علماء ، منهم أبو عمرو الشيباني ، والأصمعي ، وخالد بن كلثوم ، ومحمد بن حبيب ، وأبو سعيد السكري الذي صنعه من جميع الروايات . وقد صنعه أبو العباس الأحول ولم يتمه وعمله ابن السكيت[2] . ويلاحظ أن جامعي هـذه الدواوين لم يشيروا الى المورد الذي استقوا منه شعرهم . صحيح ان منهم من ذكر السند، إلا انه لم يذكر كيف حصل المرجع الذي ينتهي السند عنده على هـذا الشعر . ولم يحفل الرجال الذين تنتهي الأسانيد بهم بذلك ، مع أن لذكر السند كاملاً أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ . إذ نتمكن بهذا التشخيص من الوقوف على معين هذا الشعر .

وقد دوّن (ابن النديم) جريدة بأسماء علماء الشعر الذين اشتغلوا بعمل دواوين الجاهليين . وقد استعمل لفظة (صنع) و (عمل) و (صنعة) في معنى (جمع) و (ألف) و (تأليف) . واستعمل جملة « صنعه من جميع الروايات » بعد اسم الجامع وقبل اسم الشاعر للإشارة الى ان جامع الديوان قد اعتمد على المجموعات

---

١ الخزانة (١/١٠) ،(بولاق) راجع الفهرست لابن النديم ، حيث تراه يذكر أسماء مؤلفات عديدة بهذا الموضوع .

٢ الفهرست (٢٢٩) .

الشعرية التي صنعت قبله ، وأوجد من مجموعها ديوانه . فقد تقدم رواية قصيدة على قصيدة ، وقد تؤخر أخرى قصيدة متقدمة ، فتقدم عليها قصيدة متأخرة ، وقد يقدم ديوان بعض أبيات قصيدة ، وقد يرتبها ديوان آخر ترتيباً آخر ، لاعتماده على مورد آخر ، روى القصيدة بصورة أخرى ، وقد يذكر ديوان شعراً وقطعاً وقصائد أو قصيدة لا تكون موجودة في الدواوين الأخرى أو في بعض منها،ولهذا يأتي جامع جديد ، تقع عنده تلك الدواوين،أو تكون عنده كتب شواهد ونوادر وأخبار ، فيها من شعر الشاعر ما لم يرد في ديوانه فيضمه اليه ، ويكون من المجموع ديواناً جديداً ، برواية جديدة ، تنسب اليه ، كما فعل (السكري) بالنسبة لشعر امرىء القيس .

ومن أعرف من اشتغل بجمع أشعار القبائل : أبو عمرو الشيباني ، وخالد بن كلثوم ، والطوسي ، والأصمعي ، وابن الأعرابي ، ومحمد بن حبيب[1] . ونظراً لحفظهم أشعار القبائل ، حفظوا بالطبع أشعار الشعراء الجاهليين، وحملهم ذلك على جمع أشعارهم في دواوين خاصة . وقد أضاف (ابن النديم) عليهم ، اسم (ابن السكيت) ، وثعلب[2] . وكان (الطوسي) عدواً لابن السكيت ، لأنهما أخذا عن (نصران) الخراساني ، واختلفا في كتبه بعد موته . وكانت كتب نصران لابن السكيت حفظاً وللطوسي سماعاً »[3] .

ولم يرتب صناع الدواوين الشعر على حسب الترتيب الزمني ، وإنما رتبوه على ترتيب القوافي ، أي وفقاً لترتيب أبجدية القوافي . وقد يسر هذا الترتيب للقارىء الرجوع الى الشعر الذي يريده ، لكنه حرمه من شيء ثمين جداً ، هو معرفة زمن نظم الشعر . وللزمن أثر كبير في الوقوف على تطور شعر الشاعر ، وعلى مدى تقدمه أو تأخره في نظم الشعر ، كما حرمه من الوقوف على العوامل التأريخية التي أثرت على الشاعر وعلى مجتمعه فدفعته على نظم شعره . ومع وجود بعض المراجع المساعدة من مثل كتب الأخبار والأدب والشواهد ، فإن هنالك أموراً تأريخية تخص الشعراء الجاهليين والشعر الجاهلي ، بقيت خافية علينا ، بسبب عدم

---

١ الفهرست (٢٢٩) ، (المقالة الرابعة) .

٢ الفهرست (٢٣٠) .

٣ الفهرست (١١٢ وما بعدها) .

اهتمام علماء الشعر آنذاك بموضوع ترتيب الشعر ترتيباً زمنياً ، ولعدم اهتمامهم بذكر أسباب نظم كل بيت أو قطعة أو شعر ، أو قصيدة ، مع بيان الزمن الذي نظم الشاعر فيه شعره .

وقد ظهر قوم دوّنوا الشعر في الصحف ، وقرأوه منها ، ونظراً لمكانة الحفظ عند العلماء ، ولقياسهم علم الإنسان بمقدار حفظه ، لا بما كان يشرحه أو يفسره من الصحف والكتب ، لذلك لم ينظر إلى مدوّني الصحف نظرة تجلة وتقدير ، لأنهم في نظرهم قراء صحف لا غير . قال (ابن قتيبة) : « يرويه المصحفون والآخذون عن الدفاتر »[1] ، ذكر ذلك في معرض الاستخفاف بعلمهم ، لكونهم لا يميزون بين الشعر الصحيح من الفاسد ، والرديء من الجيد ، لأنهم يقرأون عن صحف ، وينطقون بحروف وكلم مكتوبة ، لا عن فهم ودراية مثل رواة الشعر ، الذين خزنوا علمهم في أدمغتهم ، فإذا سئلوا عن شيء أجابوا عن روية وفكر ، لا عن صحيفة مكتوبة .

وقد ساعدت الكتب المؤلفة في أخبار القبائل مساعدة كبيرة في جمع الشعر الجاهلي ، ونجد في كتاب (الفهرست) لابن النديم أسماء مؤلفات كثيرة ، في القبائل ، وفي أمور أخرى لها صلة بالشعر ، ذكرها أثناء تحدثه عن الأشخاص الذين ذكرهم في كتابه . وقد هلكت أكثر المؤلفات المذكورة ، ولكننا نجد نقولاً منها في بعض الكتب التي كتب لها البقاء والتي قدر لها أن تطبع .

ولا أجد في نفسي حاجة الى ذكر الموارد الأخرى التي أفادتنا كثيراً في جمع الشعر الجاهلي وفي الوقوف عليه ، لأن لقارىء هذا الكتاب إلماماً بها ، قد يزيد على إلمامي بها . وعلى رأس هذه الموارد كتب الأدب ، مثل مؤلفات الجاحظ ، وكتاب الأغاني للأصبهاني ، وكتب الأمالي والمجالس وغيرها ، ففي هذه الموارد مادة قد لا نجدها في كتب الشعر ، وقد ذكرت أسماء مصادر قديمة نقلت منها لا نعرف اليوم من أمرها شيئاً .

ولا بد من الإشارة أيضاً الى كتب النحو والشواهد ، فقد جاءت بأشعار جاهلية استشهد بها على إثبات قاعدة نحوية ، أو شاهد رأي جاء به عالم لإثبات

---

١ الشعر والشعراء (٢٨/١) .

رأيه في موضوع لغوي أو نحوي . وقد نص على اسم أو أسماء الشعراء في بعض الأحيان ، ولم ينص على الأسماء في أحيان أخرى . وقد يمكن معرفة بعض الأشعار التي لم ينص على اسم قائلهـا ، بالرجوع الى المـوارد الأخرى التي نسبتها الى قائليها ، غير ان الحظ لا يساعد في أحيان أخرى على معرفة اسم قائل الشاهد ، لعدم وجوده في موارد أخرى . وقد يكون شاهداً مفتعلاً ، فلا يمكن التوصل الى أصله بالطبع .

الفصل الخامس والخمسون بعد المئة

الشعر المصنوع

ليس البحث في معرفة المصنوع من الشعر ، وفي أسباب وضعه ، من البحوث الجديدة ، التي أوجدها المستشرقون ، أو من أخذ عنهم من الباحثين المحدثين ، بل هو بحث قديم ، أتقنه أهل الجاهلية ، وأخذه عنهم أهل الإسلام . وفي هذا المعنى قال الشاعر الشهير (الحطيئة) : « ويل للشعر من الرواة السوء »[1] . فرواة الشعر ، آفة بالنسبة للشعر وللشعراء ، قد يزيدون فيه ، وقد ينقصون ، وقد يصحفون ، وقد يفتعلون ويصنعون الشعر على ألسنة غيرهم ، ولو لم يكن هذا المرض معروفاً في أيام الحطيئة وقبلها لما ورد هذا القول عنه .

ومعنى انتحله وتنحله ادعاه لنفسه ، وهو لغيره . يقال : انتحل فلان شعر فلان أو قوله ادعاه انه قائله ، وتنحله ادعاه وهو لغيره . قال الأعشى :

فكيف أنا وانتحال القوا في بعد المشيب كفى ذاك عارا
وقيدني الشعر في بيته كما قيد الأسرات الحمارا

« ويقال نحل الشاعر قصيدة ، اذا نسبت اليه ، وهي من قبل غيره . ومنه حديث قتادة بن النعمان : كان بشير بن أبيرق يقول الشعر ويهجو به أصحاب

---

١ الشعر والشعراء (٢٣٩/١) ، (دار الثقافة ، بيروت) .

النبي صلى الله عليه وسلم ، وينحله بعض العرب »[1] . ولم يكن (بشير) أول من فعل ذلك بالطبع من العرب،فهناك غيره ممن سبقه وممن عاش في أيامه صنعوا صنيعه في نحل الشعر وإضافته الى الشعراء لمآرب مختلفة . ويظهر من الشعر المتقدم المنسوب الى الأعشى ، انه قد اتهم بانتحال الشعر ، بأخذ شعر غيره وادعائه لنفسه ، فنفى عنه تلك التهمة .

ويروى ان (النعمان بن المنذر) ، كان يرى به هذا الرأي ، فقد ذكروا انه قال له : « لعلك تستعين على شعرك هذا ؟ فقال له الأعشى : احبسني في بيت حتى أقول ، فحبسه في بيت ، فقال قصيدته التي أولها :

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا وشطّت على ذي هوى أن تزارا »

ثم ذكر فيها البيتين المتقدمين[2] . وورد ان الذي قال له ذلك ، هو (قيس ابن معديكرب) الكندي[3] .

وكان السطو على الشعر ، معروفاً في الجاهلية كما كان معروفاً في الإسلام . قال الفرزدق :

إذا ما قلتُ قافيةً شروداً تنحّلها ابن حمراء العِجان

وقال ابن هرمة :

ولم أتنحل الأشعارَ فيها ولم تُعْجِزني المِدَحُ الجياد[4]

يقال تنحل الشاعر قصيدة ، إذا نسبها الى نفسه ، وهي من قبل غيره . قال يزيد بن الحكم :

ومسترق القصائد والمضاهي سواء عند علاّم الرجال[5]

---

١ تاج العروس (٨/١٢٩) ، (نحل) ، اللسان (١١/٦٥١) ، (نحل) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٨٠ وما بعدها) ، ديوانه (رقم ٤١) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٨٠) ، (حاشية رقم ٦) .
٤ تاج العروس (٨/١٢٩) ، (نحل) ، اللسان (١١/٦٥١) ، (نحل) .
٥ تاج العروس (٨/٤٠٥) ، (علم) .

ويقال ان (الأعشى) ، وضع في شعره ان (هرم بن قطبة) حكم لعامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة ، وتزيد بذلك على (هرم) ، وأشاعه بين الناس[1] . والتزيد تكلف الزيادة في الكلام وغيره . وورد ان من الشعراء الجاهليين من كان ينتحل شعر غيره ، أو يجتلب منه . قال الراجز :

يا أيها الزاعم أني أجتلب　　وأنني غير عضاهي أنتجب
كذبت إنّ شر ما قيل الكذب ![2]

فهو ينكر انه يجتلب الشعر من غيره . واجتلب الشاعر ، اذا استوق الشعر من غيره واستمده . قال جرير :

ألم يعلم مسرحي القوافي　　فلا عيا بهن ولا اجتلابا

أي لا أعيا بالقوافي ولا اجتلبهن ممن سواي ، بل أنا في غنى بما لدي منها[3] .

وقد نحل على الأعشى ، فنسب له الرواة ما ليس من شعره ، مثل قصيدته التي قالها في مدح (سلامة ذا فائش) ، فقد روى (ابن قتيبة) الأبيات الأربعة الأولى منها ، ثم قال : « وهذا الشعر منحول ، لا أعرف فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

يا خير من يركب المطي ولا　　يشرب كأساً بكف من بخلا »[4]

وروي عن (الخليل) قوله : « إن النحارير من العرب ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ، إرادة اللّبس والتعنيت »[5] . وحمل الكلام على الغير شيء مألوف ، كما أن أخذ شخص كلام غيره وادعائه لنفسه شيء مألوف كذلك . وقد اشار جهابذة العلماء الى أن في الشعر مصنوعاً وفيه مفتعل موضوع . وهو كثير لا خير فيه ولا حجة في عربيته . وقد انبرى لـه العلماء فنقدوا الشعر

---

١ مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٦٥ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (١/٣٦٦) .
٣ تاج العروس (١/١٨٤) ، (جلب) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٥) ، ديوان الأعشى (٢٣٢ وما بعدها) ، (القصيدة رقم ٣٥) .
٥ المزهر (١/١٧١) .

لاستخراج الصحيح منه من الفاسد ، وتمكنوا قدر إمكانهم من ضبط بعض الفاسد المنحول ومن الإشارة اليه[1] . قال (ابن سلام) : « وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم ، أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الأشكال »[2] .

وقد ذكروا أن قوماً تداولوا هذا الشعر المصنوع « من كتاب الى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي »[3] . فقياس الصحة في نظرهم ، هو الرواية والأخذ عن أهل البادية ، وقول علماء الشعر في الشعر ، أما الشعر المدوّن والمنقول من الصحف ، فلا قيمة له ، مع أن التدوين أصدق وأكثر صحة من النقل والرواية ، وإذا كانوا قد خافوا التزوير في التدوين ، فإن التزوير في الرواية لا يقل خطراً عن التزوير في التدوين . وقد عدّوا الصحفيين ، قوماً لا علم لهم بالشعر ، وإنما هم نقلة ، يقرأون ما هو مكتوب ، وليس في القراءة دليل على علم[4] ، وذلك لأنهم كانوا يصحفون في القراءة ، ويلحنون ، بينما الراوية الذي يعتمد على علمه وعلى حافظته وعلى ذوقه وطبعه ، لا يصحف ولا يقع في اللحن ، ولهذا قيل لهؤلاء الصحفيين المصحفين .

« قال خلاّد بن يزيد الباهلي لخلف بن حيان أبي محرز — وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله — بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تروى ؟ قال له : هل تعلم أنت منها ما انه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك ما لا تعرفه أنت . وقال قائل لخلف : اذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك. فقال له: اذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته ،

---

١ المزهر (١٧١/١) .
٢ طبقات (١٤) .
٣ المزهر (١٧١/١) .
٤ المزهر (١٧٤/١) .

فقال لك الصراف : انه رديء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ »[1] .

وقد افتخر رواة الشعر بأنفسهم ، وزعموا انهم أكثر فهماً في النقد من رواة الحديث ، قال (يحيى بن سعيد القطان) : « رواة الشعر أعقل من رواة الحديث، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون : هذا مصنوع »[2] . يعيبون رواة الحديث على روايتهم الحديث المصنوع ، مع ان وضعهم للشعر لا يقل عن وضع رواة الحديث للحديث على لسان الرسول ، ونقدهم له لا يرتفع كثيراً عن نقد رجال الحديث للحديث .

وقد تعرض (ابن سلام) لموضوع إفساد الشعر ونحله ، فقال : « وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء : محمد بن اسحاق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف . وكان من علماء الناس بالسير، فنقل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها . ويقول : لا علم لي بالشعر ، إنما أوتى به ، فأحمله ولم يكن ذلك له عذراً ، فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود . أفلا يرجع الى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ؟ ومن أدّاه منذ ألوف من السنين ؟ والله يقول : وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى . وقال في عاد : فهل ترى لهم من باقية . وقال : وعاداً وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله »[3] .

فهو يتهم (ابن اسحاق) بالجهل بالشعر ، وهو جهل استغله صنّاع الشعر فجاءوا اليه بشعر غثاء فاسد ، وبشعر مصنوع ، فأدخله ، وبشعر مفتعل وضع على ألسنة الماضين فقبله . فكان جهله من عوامل إفساد الشعر .

وهذا الشعر بيّن الفساد ، يمكن لكل ذوي عقل رفضه ، ولكن الذي أفسد الشعر وهجنه ، هم علماء الشعر وصناعه من أصحاب الحرفة ، الذين وضعوا على ألسنة الشعراء ، شعراً صعب حتى على نقدة الشعر رده الى أصله ، لأنهم وضعوه وصاغوه على ألسنة الشعراء صياغة محبوكة من نمط الشعر الصحيح المحفوظ عن أهل الجاهلية ، ومن هنا هان عمل (ابن اسحاق) بالنسبة الى عمل (حماد) الراوية و (خلف الأحمر) وغيرهما من صاغة الشعر .

---

١ ابن سلام ، طبقات (٣ وما بعدها) ، المزهر (١/١٧٢ وما بعدها) .
٢ المزهر (١/١٧٥) ، ذيل الأمالي (١٠٥) .
٣ طبقات (٣ وما بعدها) ، المزهر (١/١٧٣ وما بعدها) .

وقال (ابن سلام) : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار ، وليس يُشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون ، وانما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال »[1] .

وروى (ابن سلام) خبراً طريفاً من أخبار النحل في الشعر ، فقال : « أخبرني أبو عبيدة ان داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلب والميرة ، فنزل النحيت ، فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيدفي الأشعار، ويضعها لنا ، واذا كلام دون كلام متمم ، واذا هو يحتذى على كلامه، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علينا علمنا انه يفتعله »[2] .

وتحاشياً من الوضع ، امتحنوا من كان يقدم عليهم ، للأخذ منه ، أو من كان يتصل بهم من الأعراب ، حتى يتأكدوا من أمانتهم ومن علمهم بما سيسألونهم عنه . إذ ثبت عند العلماء بالشعر ان بعض الأعراب كانوا يفتعلون الشعر ويضعون الأخبار ويجيبون عن غير علم . وقد أفرد (أبو العباس) المبرد لبعض منهم باباً خصصه بأكاذيب الأعراب . ومما كانوا يروونه من أساطير وخرافات[3] ، ومع ذلك فقد فات عليهم الكثير من هذه الأكاذيب ، ودخلت كتبهم، ويمكنك التعرض على البعض منه ، من دون حاجة الى بذل مشقة أو جهد .

وقد أورد علماء الشعر امثلة على المصنوع من الشعر من ذلك ما ذكره (أبو عبيدة) من أنه أنشد (بشار بن برد) ، البيت :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

---

١ طبقات (١٤) .
٢ طبقات (١٤) ، المزهر (١٧٥/١) .
٣ المزهر (٥٠٤/٢) ، (أكاذيب الأعراب) .

وهو بيت وضعه (أبو عمرو) الشيباني على لسان الأعشى ، فقال بعلمه بالشعر وبألفاظ العرب : « كأن هذا ليس من لفظ الأعشى »[1] ، وقد كان (بشار) الشاعر المعروف حاذقاً بأشعار العرب ملماً بأساليبهم ، فأدرك بسليقته وبعلمه بشعر الأعشى أن هذا البيت ليس من شعره ، وقد روى الرواة أن (أبا عمرو) هو الذي وضعه على لسان الأعشى ، وأنه اعترف بصنعه له .

وقد جاء (المعري) في (رسالة الغفران) بأمثلة كثيرة من أمثلة الشعر المنحول الذي صنع على ألسنة الشعراء الجاهليين . كما أشار الى التحوير والتغيير الذي أدخله «المعلمون في الإسلام» على الشعر « فغيّروه على حسب ما يريدون »[2].

وروي ان قريشاً كانوا أول من وضع الشعر من القبائل في الاسلام . نظروا الى أنفسهم ، فإذا حظهم في الشعر قليل في الجاهلية ، فاستكثروا منه في الاسلام. قال (ابن سلام) : « وقريش تزيد في أشعارها تريد بذلك الأنصار والرد على حسان »[3] . ولم يكتف القرشيون بإضافة الشعر اليهم ، وباستكثاره ، بل عملوا الشعر على لسان شعراء المدينة للغض منهم ، وذلك لما كان بينهم وبين أهل يثرب من تحاسد يعود الى ما قبل الاسلام . وقد ذكر ان (قتادة بن موسى) الجمحي هجا (حسان بن ثابت) ونحلها (أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب)[4] ، صنعوا الشعر الغث الضعيف وأضافوه الى شعراء الأنصار للغض من منزلتهم في الشعر .

وقد أشار (السيوطي) الى أشعار ، ذكر ان علماء الشعر يروون انها من صنع (خلف الأحمر) ، صنعها على ألسنة الشعراء الجاهليين . من ذلك اللامية المنسوبة الى (الشنفرى)[5] ، والقصيدة التي فيها :

خيلٌ صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

---

١ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٣٥ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٣١٧ وما بعدها) .
٣ طبقات (٦٢) .
٤ الاصابة (٣/٢١٧) ، (٧٠٧٧) .
٥ طبقات النحويين ، للزبيدي (١٧٨ وما بعدها) ، المزهر (١/١٧٦) .

وقد نسبها للنابغة [1] . والقصيدة التي فيها :

قل لعمرو : يا بن هند لو رأيت القوم شنّا
لرأت عينـــاك منهم كل ما كنت تمنّى [2]

كما روى أبياتاً ذكر أنها من صنع (حماد) . من ذلك قصيدة نسبها لهنـــد ابنة النعمان ، من أبياتها :

ألا من مبلغ بكراً رسولاً فقـــد جدّ النفير بعنقفـير

وقد قال الأصمعي ، إنها مصنوعة ، لم يعرفها أبو بردة ، ولا أبو الزّعراء، ولا أبو فراس ، ولا أبو سُريرة ، ولا الأغطش ، وهي مع نقيضة لها أخذت عن حمّاد الراوية [3] .

وروي عن (الأصمعي) قوله : « كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حمّاد الراوية إلاّ نتفاً سمعتها من الأعراب وأبـي عمرو بن العلاء » [4] .

ومرد نحل الشعر عند (ابن سلام) : إما الى عصبية قبلية ، وإما الى رواة شعر . أما عصبية القبائل ، فقد دوّنت رأيه في سببها . وأما عن رواة الشعر ، فأول المزيفين للشعر في نظره (حماد) الراوية ، الذي قال عنه : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثهـــا حماد الراوية ، وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار . أخبرني أبو عبيدة عن يونس. قال : قدم حمادٌ البصرة على بلال بن أبي بردة ، فقـــال ما أطرفتني شيئاً ! فعاد اليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبو موسى . فقال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى ، لا أعلم به ، وأنا أروي للحطيئة . ولكن دعها تذهب بين الناس . وأخبرنا ابن سلام ، قال : سمعتُ يونس يقول : العجب لمن يأخذ عن حماد،وكان يكذب ويلحن ويكسر » [5] . وحماد وأضرابه في نظر (ابن سلام)

---

١ المزهر (١/١٧٧) .
٢ المزهر (١/١٧٩) .
٣ المزهر (١/١٨٠) .
٤ مراتب النحويين (٧٢) ، شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٧٤) .
٥ طبقات (١٤ وما بعدها) .

مزيفون ماهرون يزيفون الشعر ويصنعونه ، فهم أصحاب صنعة محترفون للتزييف.
أما (محمد بن اسحاق) ، فإنه في نظره نمط آخر ، نمط رجل جاهل بالشعر، دفع اليه الناس المصنوع من الشعر وكل غثاء منه ، فحمله ، وأدخله في السيرة ، وحمل الناس عنه الأشعار ، وكان عذره أنه لا علم له بالشعر ، إنما يؤتى به اليه فيحمله ويدوّنه ، ولكنه لامه على هـذا الاعتذار بقوله : « ولم يكن له ذلك عذراً ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط . وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ، والله تبارك وتعالى يقول : فقطع دابر القوم الذين ظلموا ... الخ »[1] ، وقد اتهمه غيره بأنه « كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ، ويسأل أن يدخلها في كتابه السيرة ، فيفعل فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ، وأخطأ في النسب الذي أورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتابه أهل العلم الأول، وأصحاب الحديث يضعفونه »[2] . وألحق بهـذا الصنف من رواة الشعر ومدوّنيه جماعة الصحفيين ، الذين لم يكونوا يميزون بين الشعر ، ويحملون كل ما يعطى لهم ، من شعر غث أو زائف ، وقد يصحفون في تدوينه ، لعـدم وجود علم لهم به ، فهم أيضاً في جملة من أفسد الشعر .

و (ابن سلام) الجمحي ، من علماء البصرة ، وأكثر حملة الشعر البصريين يتحاملون عليه ، عصبية منهم لمدينتهم ، لأنه من أهل الكوفة ، وكان أهل الكوفة يغضون أيضاً من شأن رجال العلم البصريين ويتحاملون عليهم . وكل ينسب الى خصمه التزييف ونحل الشعر على ألسنة الشعراء المتقدمين ، وكل منهم يتهم الآخر بالتهمة التي يوجهها لخصمه من التزييف والجهل .

ولم يكن (ابن سلام) أول من نبه الى وجود النحل في الشعر ، ولم يكن هو أيضاً آخر من وضع رأياً في النقد ، فتوقف الناس بعده . فقد سبقه الأعشى وغيره الى هذا الرأي . ثم جاء بعده علماء كانت لهم آراء قيمة في هذا الشعر وفي

---

١ طبقات (١٤) ، الفهرست ،(١٤٢) .
٢ الفهرست (١٤٢) .

شعرائه ، نجدها مدونة في كتبهم ، وفي الكتب التي اعتمدت عليها ، وقد نبهت ملاحظات أولئك العلماء المستشرقين الذين ظهروا في القرن التاسع عشر فما بعد ، فعمدوا الى دراستها وتحليلها ، واستنبطوا منها آراءهم التي أبدوها عن الشعر الجاهلي.

وقد نبه (أبو العلاء) المعري الى وجود الشعر المصنوع في (رسالة الغفران) وأشار اليه وشخّص قسماً منه ، وذكر اسم صانعيه في بعض الأحيان ، فذكر الشعر المنسوب الى (آدم) مثلاً :

نحن بنو الأرض وسكانها   منها خلقنا ، واليها نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه   والنحس تمحوه ليالي السعود

وقال على لسانه : « إن هذا القول حق ، وما نطقه إلا بعض الحكماء ، ولكني لم أسمع به حتى الساعة »[1] .

ويقول (أبو العلاء) مخاطباً (آدم) : « وكذلك يروون لك — صلى الله عليك — لما قتل (هابيلُ) (قابيلَ) :

تغيرت البلاد ومن عليها   فوجه الأرض مغبر قبيح
وأودى ربع أهليها فبانوا   وغودر في الثرى الوجه المليح

وبعضهم ينشد :

وزال بشاشة الوجه المليح[2]

ثم يضع الجواب على لسان آدم ، فيقول له : « أعزز عليّ بكم معشر أبيني ! انكم في الضلالة متهوكون ! آليت ما نطقت هذا النظم ، ولا نُطق في عصري وانما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! كذبتم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواء أمكم ، وكذب بعضكم على بعض ، ومآلكم في ذلك الى الأرض »[3] .

---

١ رسالة الغفران (٣٦٠) .
٢ رسالة الغفران (٣٦٢ وما بعدها) .
٣ رسالة الغفران (ص ٣٦٤) .

وسأل (المعري) (آدم) عن لسانه ، ثم أجاب عنه بقوله : « انما كنت أتكلم بالعربية وأنا في الجنة ، فلما هبطت الى الأرض ، نُقل لساني الى السريانية، فلم أنطق بغيرها الى ان هلكت ، فلما ردني الله – سبحانه وتعالى – الى الجنة ، عادت على العربية ، فأي حين نظمت هذا الشعر : في العاجلة أم الآجلة ؟ »[1].

ثم تراه يتحدث عن الشعر المنسوب الى الجن ، والى أشعار أخرى ، فتراه يردّها وينتقدها ، ويشير الى وجود شعر مصنوع وضع على الإنس والجن. تراه يقول : « وكنت بمدينة السلام ، فشاهدتُ بعض الورّاقين يسأل عن قافية (عدي ابن زيد) التي أولها :

بكر العاذلات في غلس الصبـ ـح يعـاتبنه أمـا تستفيق
ودعا بالصبوح فجراً ، فجاءت قينـةٌ في يمينهـا إبريق

وزعم الورّاق أن (ابن حاجب النعمان) سأل عن هـذه القصيدة وطلبت في نسخ من ديوان عدي ، فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلاً من أهل استراباذ يقرأ هذه القافية في ديوان العبادي ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم »[2] .
وقد تحدث (أبو العلاء) المعري في (رسالة الغفران) عن القصيدة التي أولها:

ألِمّا عـلى المطورة المُتأبدة أقامت بها في المربع المتجردة
مضمّخة بالمسك مخضوبة الشوى بدُرّ وياقوت لهـا متقلدة
كأن ثناياها – وما ذقت طعمها – مُجاجة نحل في كُميت مبردة
ليقرر بها النعمان عيناً فإنّهـا له نعمة ، في كل يوم مجددة

فقال إنها من الشعر المنحول ، نحلت على النابغة ونسبت اليه . وقال على لسانه: « فيقول أبا أمامة : ما أذكر أني سلكت هذا القريّ قط . فيقول مولاي الشيخ زين الله أيامه ببقائه : إن ذلك لعجبٌ ، فن الذي تطوّع فنسبها إليك ؟ فيقول إنها لم تنسب إليّ على سبيل التطوع ، ولكن على معنى الغلط والتوهم ، ولعلّها

---

١ رسالة الغفران (٣٦١ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (١٤٦ وما بعدها) .

لرجل من بني ثعلبة بن سعد[1] فيقول نابغة بني جعدة : صحبني شابٌ في الجاهلية ونحن نريد الحيرة ، فأنشدني هذه القصيدة لنفسه ، وذكر أنه من ثعلبة بن عكابة، وصادف قدومه شكاة من النعمان فلم يصل اليه . فيقول : نابغة بني ذُبيان : ما أجدر ذلك أن يكون ! »[2] . فردّ هذا الشعر ، وأنكر كونه من شعر النابغة ، وبين بأسلوب جميل رأيه فيمن نحله عليه .

وتحدث عن الكلمة الشينية المنسوبة للنابغة الجعدي ، التي يقول فيها :

ولقــد أغدُو بشرب أنف قبل أن يظهر في الأرض ربش
معنــا زقّ الى سُمّتهــة تسق الآكال من رطب وهش

وبعد أن دوّنها قال : « فيقول نابغة بني جعــدة : ما جعلت الشينَ قطّ روياً ، وفي هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قط : ربش ، وسُمّتهة ، وخششش »[3].

وتراه يتحدث عن قصيدة نسبت للأعشى ، فيقول عــلى لسان سائل يسأل (أعشى قيس) في الجنة عن قوله :

أمِنْ قتلة بالأنقــاء دارٌ غــير محلوله
كأن لم تصحب الحي بها بيضاء عطبوله
أناة ينــزل القومي منها منظــر هوله

الى أن يكمل القصيدة ، ثم يقول : « فيقول أعشى قيس : ما هذه مما رصد عني ، وانك منذ اليوم لمولع بالمنحولات »[4] .

وفي (رسالة الغفران) مواضع أخرى كثيرة تعرض فيها (المعري) لنقــد الشعر ، ولبيان الصحيح منه من الفاسد ، تجعل الكتاب من الكتب الجيدة القديمة التي نبهت الى وجود الصنعة والنحل في الشعر الجاهلي ، والتي مهدت الجادة لمن جاء بعده من المستشرقين والمحدثين فتكلموا عن هذا الموضوع بلغة العصر الجديد.

---

١ رسالة الغفران (٢٠٧) .
٢ رسالة الغفران (٢٠٧ وما بعدها) .
٣ رسالة الغفران (٢٠٨ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (٢١١ وما بعدها) .

وما ذكره (المعري) في رسالته يمثل رأيه ورأي من تقدم عليه من علماء الشعر في مواضع الانتحال في الشعر الجاهلي وفي نقد الشعر .

ونبه (الجاحظ) في كتبه الى وجود شعر منحول ، وقد نص عليه ، وأشار الى اسم من نسب له ، من ذلك قوله :

« وفي منحول شعر النابغة :

فألفيت الأمانة لم تخنْها كذلك كان نوح لا يخون

وليس لهذا الكلام وجه ، وانما ذلك كقولهم كان داودُ لا يخون ، وكذلك كان موسى لا يخون »[1] .

والنحل في الشعر ليس بأمر غريب ، إذ وقع في غير الشعر كذلك ، وقع ذلك طلباً للغريب وللنادر ، « ذكر بعض مشايخنا رحمهم الله انه رأى مصحفاً منسوباً الى أبي خالف بعض حروفه حروف هذا المصحف ، لكننا لا نأمن أن يكون ذلك من جهة بعض من يحب الافتخار بالغريب ، فإن هذه بلية قد أضرت بالدين وأخلت بمصالح المسلمين ، وطرقت الملحدين الى الطعن في أركان الاسلام ، وسهلت عليهم الشغب في أمره ، وقد نرى من المفتتنين نواب الملوك ، وعبيد أرباب الأموال ، وأبناء الدنيا اذا لم يجدوا للقرآن وعلوم الدين عندهم موقعاً فيتقربون اليهم بغرائب الكتب ، واذا أعوزهم الغريب الذي يستذرع به أخذوا بعض الكتب المعروفة يزيدون فيها وينقصون ، ويقدمون ويؤخرون ويعنونونه بعنوان بعيد ليتسببوا بذلك الى استخراج شيء منهم .

فعلى هذا النحو لا يؤمن أحدهم ان يعمد الى مصحف فيقدم منه سوراً ويؤخر أخرى ، ويحرّف ألفاظاً ، ثم يزعم انه مصحف عليّ أو عبدالله أو مصحف أبي ، وليس غرض البائس من ذلك إلا أن يحمله الى بعض الملوك فيقول : إنّ خزانة مثلك يجب ألا تخلو من نسخة من كل مصحف ليستخرج من حطامه شيئاً ، ولا يبالي بما كان من جناية على الدين وأهله »[2] .

---

١ الحيوان (٢٤٦/٢) .

٢ مقدمتان في علوم القرآن (٤٧ وما بعدها) ، (آرثر جفري) ، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (١٥) .

ولم يقع نحل الشعر عند العرب وحدهم ، وإنما وقع عند غيرهم كذلك . فقد وقع عند اليونان وعند الرومان وعند الفرس والعبرانيين ، وهو آفة لا تزال حيّة منهم من يضع على ألسنة المتقدمين ، ومنهم من يسرق قول غيره فينسبه نفسه ، وقد ضيقت وسائل النشر والإذاعة من سرقة آراء وأقوال الغير ، وتسجيلها باسم سارق نسبها لنفسه ، غير أن مشكلة تعيين أصول الشعر الجاهلي والنحل القديم ، لا تزال من المشاكل المستعصية ، لأن الوسائل الحديثة لا تتمكن من إحياء من في القبور واستنطاقهم عن المنحول والمسروق !

وقد وضع (ابن سلام) قاعدة في كيفية قبول الشعر والأخذ به ، فقال : « قد اختلف العلماء في بعض الشعر ، كما اختلفت في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه » ، وبقوله : « وليس لأحد ، إذا اجتمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شي منه ، أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي »[1] . وقد أبدى ملاحظات قيمة في نقد الشعر ، فأشار الى المزيف منه ، وأظهر تحفظاً في قبول بعض الأشعار ، لأنها منتحلة ، فلما تطرق الى شعر (طرفة) قال فيه : وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

اقفر من أهله ملحوبُ　　　فالقطبيّات فالذنوب

ولا أدري ما بعد ذلك »[2] . وذكر أن رواة الشعر وضعوا شعراً كثيراً على (طرفة) و (عبيد بن الأبرص) ، وكانا من أقدم الفحول ، وقد ضاع معظم شعرهما لذلك ، فوضعوا عليهما الأشعار[3] .

وأنكر أن يكون (النابغة) قد قال :

فألفيتُ الأمانة لم تخنها　　　كذلك كان نوح لا يخون

وذكر ان أهل العلم أجمعوا على انه لم يقل هذا الشعر[4] ، وله ملاحظات أخرى

---

١ طبقات (٦) .
٢ طبقات (١١٦) .
٣ طبقات (٢٣) .
٤ ابن سلام (٤٩ وما بعدها) .

من هذا القبيل ، تجدها في طبقاته ، فقد شك في أكثر شعر (عبيد بن الأبرص)، ولم يثبت لديه من شعره إلا ثلاث قصائد[1] .

وطريقة (ابن سلام) في قبول الشعر وفي صحته ، هو إجماع علماء الشعر واجتهادهم ، فإذا قرر علماء الشعر قبول شعر ووثقوا بـه وثبتوه ، صار مقبولاً في نظره ، لأنهم هم الذين يميزون بين الصحيح وبين الفاسد ، « وليس يشكل على أهل العلم زيادة الزواة ، ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون » . فالعلماء هم صيارفة الشعر يستطيعون نقده ، واستخراج الزائف منه ورميه ، وهو لا يبالي بعد ذلك بما روى (ابن اسحاق) وأمثاله من شعر « لا خير فيه ولا حجة في عربيته ، ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب : ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسب مستطرف »[2] .

أما ما روي من شعر على ألسنة ملوك حمير وأقيال اليمن وأذوائها ، فإن العارفين بالشعر الجاهلي وبأساليبه وبروايته ، يرون انه شعر لا يطمأن الى صحته ، وضع على ألسنة من نسب اليهم . وقد رواه أناس من أهل اليمن ، عرف معظمهم برواية القصص والأساطير ، وعرف بعضهم بروايتهم القصص الاسرائيلي . أما المعروفون بأنهم حملة الشعر الجاهلي وروايته من القدامى ، فلم يرووا شيئاً يذكر من ذلك الشعر . وأما رجال العلم بالنحو وبقواعد العربية ، فلم يستشهدوا به في شواهدهم ، مما يدل على ان لهم رأياً فيه . وقد ذكر أهل الأخبار ان ابن مفرغ يزيد بن ربيعة ، وكان يزعم انه من حمير ، وضع سيرة تُبَّع وأشعاره[3] .

وكان أول من لفت الأنظار ومهد الجادة لمن جاء بعده من المستشرقين الراغبين في دراسة الشعر الجاهلي العالم الألماني (نولدكه) (Theodor Nöldeke) في كتابه ، (Beiträge zur Kenntniss der Poesie der Alten Araber) الذي طبعه سنة (١٨٦٤م). وقد تطرق في مقدمته الى تأريخ ونقد الشعر الجاهلي ، وإلى ما ورد عن مبدأ هذا الشعر ، وعن ابتدائه بالرجز . وقد ذهب الى أن هذا الشعر الجاهلي الواصل الينا ، والمحفوظ في الكتب ، لا يمكن أن يرتقي الى أكثر من السنة (٥٠٠) للميلاد . ثم تطرق الى التطور الذي أحاق بالأفكار والآراء والمعاني الواردة في

---

١ ابن سلام (٧٦ وما بعدها ، ١١٦) .
٢ ابن سلام (٥ وما بعدها ، ٤٠) .
٣ الأغاني (١٧/٥٢) .

الشعر المقال في أيام الأمويين ، فأبعده من هذه الناحية عن الشعر الجاهلي ، فعراه الى الحياة الجديدة التي دخل فيها العرب في هذا العهد ، والى التغير الروحي الذي ظهر بين العرب نتيجــة خروجهم من البوادي ودخولهم أرضين خصبة ، ذات عمران وحضارة ، وهو تغير يفوق في نظره أثر الدين الجديد ، أي الإسلام في العرب . فبينا كان الشعر الجاهلي ، شعر بدوي ، ظهر وترعرع بين الأعراب وفي البوادي ، وكان أبطالــه ورجاله ، يراجعون الإمارتين الصغيرتين : امارة المناذرة وامارة الغساسنة ، نرى هذا الشعر ينمو ويظهر في قصور الخلفاء والولاة والحكام ، وهي كثيرة ، فيها البذخ والمال والترف والنعيم ، وحياة هذه طرازها لا بد وأن تؤثر على مشاعر الشاعر ، فتجعل شعره يختلف في معانيه وفي شعوره عن معاني وشعور الشعر الجاهلي ، وان حاول الشعراء جهدهم المحافظة على القوالب الجاهلية للشعر ، والتمسك بجزالة ذلك الشعر[1] .

ثم تحدث في مقدمته هذه عن الصعوبات التي يواجهها المرء حين يريد فهم هذا الشعر ، ثم أشار الى عمل المستشرقين الذين سبقوه في نشر وترجمــة ذلك الشعر الى لغاتهم ، ثم تحدث عن تضارب الروايات واختلافها في نصوصها وعن رواة الشعر الجاهلي ، وعن تداخل الشعر بعضه في بعض في بعض الأحيــان ، بحيث يدخل شعر شاعر في شعر غيره ، أو ينسب شعر شاعر لغيره[2] ، ثم عن تغييــر وتحوير الأشعار المقالة بلهجات القبائل لجعلها موافقة للعربية الفصحى ، وإن كانت هذه الفروق التي كانت بين اللهجات الشمالية لم تكن كبيرة عند ظهور الإسلام . وتحدث بعد ذلك عن الشعر الوثني وعن ورود أسماء الأصنام فيـه ، وعن تجنب الرواة ايرادها ، أو تحويرها بعض التحوير . ثم تحدث عن تعمد الرواة نحــل الشعر ، وحمله على ألسنة الشعراء الجاهليين ، وعلى ألسنة الماضين ، وعلى ألسنة الجن والملائكة .

وتطرق أيضاً الى رأي علماء العربية في الشعر الجاهلي ، وفي المعلقات ، ورأي (النحاس) فيها ، ثم تحدث عن تصنيف علماء الشعر للشعراء الى طبقات، وعن

---

١ Beitrage, S. I. f.

٢ المصدر نفسه (ص VIII) .

الأسس التي وضعوها في هذا التصنيف[1] .

وبعد هذه المقدمة التي أخذت (٢٤) صفحة من الكتاب ، ترجم الصفحات الأولى من كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، الى باب (العيب في الإعراب) ، وانتهى منه بقول القائل :

قل لسُليمى اذا لاقيتها	هل تبلغنّ بلدة إلا بزاد
قل للصعاليك لا تستحسروا	من التماسٍ وسيرٍ في البلاد
فالغزو أحجى ما خيّلت	من اضطجاع على غيرِ وساد
لو وصل الغيث أبناء امرىءٍ	كانت له قبة سحق بجاد
وبلدة مقفرٍ غيطانهـــا	أصداؤها مغرب الشمس تناد
قطعتها صاحبي حوشيـــة	في مرفقيها عن الزور تعاد[2]

ثم تطرق في كتابه الى شعر يهود جزيرة العرب ، ثم الى شعر مالك ومتمم ابنا نويرة ، فشعر الخنساء ، ودوّن بعض النماذج من الشعر .

وقد تهيأت للمستشرقين الذين جاءوا بعد (نولدكه) موارد جديدة لم تكن معروفة في أيامه ، بفضل جهود العلماء الذين بعثوها ، بإخراجها مطبوعة ، بعد ان كانت مخطوطة ، قابعة في زوايا النسيان ، بعيدة عن متناول اليـد ، فزاد علمهم بالشعر الجاهلي ، وأحاطوا بما فات وخفي عن علم ذلك المستشرق الكبير العالم ، وكوّنوا لهم آراءهم عنه ، نشروها في مقدمات الدواوين ومجموعات الشعر التي أخرجوها ، أو في كتبهم التي وضعوها في الأدب الجاهلي ، وفي مقالاتهم التي نشروها في المجلات . وقد ترجمت بعض منها الى العربية ، ولخصت بعض

---

١ Beiträge, S. IX. وما بعدها

٢ الشعر والشعراء (٤٦/٦) ، Beiträge, 1-42.

منها ، في الكتب العربية التي تناولت الأدب الجاهلي[1] .

وللمستشرق (آلورد) « W. Ahlwardt » ملاحظات قيّمة عن الشعر الجاهلي من حيث الصحة والصنعة والإصالة[2] .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع الشعر المنحول ، فأشار الى أثر الروايـة الشفوية في الوضع ، والى موضوع التدوين وعدم وجوده في الجاهلية ، وأثره في فقدانه على انتحال الشعر ، ثم قال : « ومن ثم يعد خطأ من مرجليوث وطـه حسين أن أنكرا استعمال الكتابة في شمالي الجزيرة العربية قبـل الاسلام بالكلية ، ورتبا على ذلك ما ذهبا اليه من أن جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم ، ومنحولة لأسمائهم .

ولكن بديهياً أن الكتابة لم تقض قضاء كلياً على الرواية الشفوية . فقـد كان لكل شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية يصحبه ، يروي عنـه أشعاره ، وينشرها بين الناس ، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده.

---

١ للوقوف على آراء بعض المستشرقين راجع الفصل الثالث من كتاب : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، تأليف الدكتور ناصرالدين الاسد (ص ٣٥٢ وما بعدها) ، وكتاب تاريخ الادب العربي : العصر الجاهلي ، تأليف الدكتور ريجيس بلاشير ، تعريب الدكتور ابراهيم كيلاني (بيروت : دار الفكر) ،

Th. Nöldeke, Die Semitischen sprachen, S. 47.
Th. Nöldeke, Funf Mo'allaqat, Wien, 1899, 1900, D. S. Margoliouth, The Origine of Arabic Poetry, In Journal Royal Asiatic Society, 1925, pp. 417-449, Encyclopaedae of Religion and Ethics, Vol, 8, p. 874, G. Richter, Zur Entstehungs Geschichte der Altarabischen Quaside, In ZDMG., XCII, (1938), W. Muir, Ancient Arabic Poetry, In JRAS, (1875), Krenkow, The Use of the Writing for the Preservation of Ancient Arabic Poetry, Cambridge, 1022, E. Bräunlich, Versuch einer Literargeschichtlichen betrachtungsweise Altarabischer Poesien, In Der Islam, XXIV, 1937, S. 201-269, G. Von Grunebaum, Die Wirklichkeite der Früharabischen Dichtung, Wien, 1937, G. Von Grunebaum, Zur Chronologie der Früharabischen Dichtung, In Orientalia, VIII, 1939, pp. 328-345, Ahlwardt, The Diwans of the Six Ancient's Arabic Poets, London, 1870, R. Geyer, Beiträge zur Kenntnis Altarabischer Dichter, in Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes, XVIII, 1904, S. 5, Delitzsch, Jüdisch-Arabische Poesien aus Vormuhammedanischer Zeit, Leipzig, 1874.

٢ W Ahlwardt, Bemerkungen über die Echtheit der Alten Arabische Gedichte, Greifswald, 1872.

وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً .

وعن الرواة كانت تنتشر الدرايـة بالشعر في أوساط أوسع وأشمل ، بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه . ولهذا لم يمكن التحرز عن السقط والتحريف ، وإن لاحظنا أن ذاكرة العرب الغضة في الزمن القديم كانت أقدر قدرة لا تحدّ عـلى الحفظ والاستيعاب من ذاكرة العالم الحديث .

ولم يبدأ جمع الشعر العربـي إلا في عصر الأمويين ، وإن لم يبلغ هذا الجمع ذروته إلا على أيدي العلماء في عصر العباسيين ، بيد أن معنى التحري في وثـوق الرواية ، والتدقيق في النقل اللغوي على النحو الذي نعرفه في عصرنا هذا ، كان أمراً غريباً بعد على جماع ذلك العصر . ولما كان كثير من هؤلاء الجمّاع أنفسهم شعراء ، فقد ظنوا أنه ليس من حقهم فقط ، بل ربما كان واجباً عليهم أيضاً في بعض الأحيان أن يصلحوا ما رووه للشعراء القدماء أو يزيدوا عليه . فلا عجب إذا لم يبالوا أيضاً بالوضع والإختراع لتوثيق رواياتهم . وقد أراد حماد الراوية أن يفسر تفوقه ، والتفوق المزعوم لأصحابه الكوفيين في الدراية بالشعر القديم ، فزعم أنه وجد الشعر الذي كتب بأمر النعمان ودفن في قصره الأبيض بالحيرة ، ثم كشف في أيام المختار بن أبي عبيد .

لقد غير الرواة بعض أشعار الجاهلية عمداً ، ونـسبوا بعض الأشعار القديمة الى شعراء من الجاهلية الأولى ، كما يمكن أن يكون وضع أشعار قديمة ، منحولـة على مشاهير الأبطال في الزمن الأول لتمجيد بعض القبائل،أكثر مما نـستطيع اثباته .

على أنه بالرغم من كل العيوب التي لم يكن منهـا بد في المصادر القديمة ، يبدو أن القصد الى التشويه والتحريف لم يلعب إلا دوراً ثانوياً . وقد روى علماء المسلمين أشعاراً للجاهليين تشتمل على أسماء الأصنام وعبادتها ، وإن أسقطوا أيضاً أبياتاً أخرى لشبهات دينية ، وذلك في حالات يبدو أنها قليلة ، لأن الشعور الديني لم يكن غالباً على نفوس العرب في الجاهلية »[1] .

وقد جاء المستشرق (كارلو نالينو) في محاضراته التي ألقاها بالجامعة المصرية في سنة ١٩١٠ ــ ١٩١١ م ، بشيء جديد في طريقة التحدث عن الأدب العربي

---

١ بروكلمن (١/ ٦٤ وما بعدها) .

من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، فقد عرضه عرضاً جميلاً واضحاً ، مستعملاً ملاحظات أئمة العربية عنه ، مع بيان ملاحظاته وآرائه فيه ، وقد أحدثت محاضراته هذه أثراً في كيفية دراسة الأدب العربي ، لا بمصر وحدها ، بل في الأقطار العربية التي كانت تتابع ما يحدث في مصر من تطور ثقافي[1] .

وهو وإن لم يأت في كتابه برأي جديد مثير ، إذ كانت أفكاره وسطاً في الواقع بين القديم وبين الجديد ، إلا ان طريقة عرضه لآرائه وأسلوبه في بحثه وفي تحدثه عن الشعراء ، كانت طريقة جديدة غريبة بالنسبة لدارسي الأدب العربي في ذلك الوقت ، ولدت شوقاً في نفوس الدارسين للأدب العربي في ذلك الوقت الى السير على الطريقة الغربية في نقد الأدب وفي تقبله وتحليله ، وأولدت الشك في الوقت نفسه في الروايات القديمة المروية عن الأدب العربي ، التي كان يتمسك بها القدماء تمسكهم بنصوص كتاب سماوي مقدس ، باعتبار انها روايات تتعلق بالماضي وبالتراث . ومن التجني على العربية والاسلام التعرض لها بأي سوء ، وفي جملة ذلك الشك في صحتها والنيل منها وإلحاق الأذى بها .

وتطرق المستشرق الانكليزي (مركليوث) في بحثه : (أصول الشعر العربي) « The Origins of Arabic Poetry » الى الشعر الجاهلي ، وقد ذهب الى ان أكثر هذا الشعر منحول ، صنع في الاسلام ووضع على ألسنة الجاهليين . وقد أورد فيه الأدلة والبراهين التي استدل بها على إثبات رأيه . وقد لخصت آراؤه هذه ونقلت الى العربية ، فلا أجد حاجة الى البحث عنها ، ما دام غيري قد سبقني الى هذا العمل[2] .

وقد رأى بعض المستشرقين ان علماء اللغة أدخلوا تغييراً على نصوص الشعر الجاهلي ، لما وجدوا ان قواعدها لا تتفق مع القواعد التي استنبطوها من القرآن والحديث ، أي من لغة قريش ، ولذلك عدّلوها ليكون إعرابها ملائماً لما وضعوه من قواعد النحو . وهو رأي يتناقض مع رأي المستشرقين القائلين بأن القرآن انما نزل بلغة عربية مبينة كانت فوق اللهجات وفوق اللغات ، ولم ينزل بلهجة قريش ،

---

١ كارلو نالينو ، تأريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية ، (دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٧٠ م) .

٢ مصادر الشعر الجاهلي (٣٥٢ وما بعدها) ، ريجيس بلاشير ، تأريخ الادب العربي (١٧٧ وما بعدها) .

ورأيهم ان ما ورد من نزول القرآن بلسان قريش ، انما هو رأي ظهر في الاسلام، ظهر ببروز النزاع الذي كان بين الأنصار والمهاجرين ، أدى الى التعصب لقريش والى تقديمهم على كل العرب بحجة ان الرسول منهم ، وانه ولد بينهم ، فيجب أن تكون لغته لغتهم ، وان يكون نزول الوحـــي بلسانهم ، فهو رأي برز عن نوازع دينية وسياسية ، مجدت قريشاً ، لأن في تمجيدهم تمجيد على رأيهم لرسالة الاسلام[1] .

ونظرية وقوع التعديل والتغيير والاصلاح في أصول الشعر الجاهلي ، رأي قال به علماء العربية قبل المستشرقين ، إذ نجد في كتبهم إشارات الى تعديل أو تهذيب أو تغيير أحدثه (أبو عمرو) ، أو (الأصمعي) أو غيرهما على لفظة أو بيت ، لاعتقادهم بعدم انسجام أصل ما غيروه مع المعنى أو مع قواعد اللغة ، أو لمخالفته للعروض ، أو لوقوع تصحيف ، فصححوا ما صححوه ، بدافـــع عدم إمكان صدوره من شاعر جاهلي قديم . وفي رسالة الغفران ، لأبي العلاء المعري ، أمثلة كثيرة على ذلك ، وقد خطأ الاقدام على التعديل ، ودافـــع عن وقوع الزحاف والإقواء في الشعر الجاهلي ، معتبراً ذلك شيئاً لم يكن عيباً في الشعر عند الجاهليين، لأنه كان أمراً مألوفاً عندهم ، وقد ذكرت رأيه في مواضع من هذا الكتاب .

وتتبع المرحوم (مصطفى صادق الرافعي) ، ما جاء في التراث العربي عن الأدب العربي ، فدوّنه في كتابه (تأريخ آداب العرب) تدويناً يدل على إحاطة جيدة بما جـــاء في كتب الأسلاف من أخبار عن الشعر وأصحابه وعن انتحاله والعوامل التي دعت الى الغش فيه ، وإدخال ما ليس منه فيه ، وقد خالف رأي من قال بتعليق (المعلقات) ، ومخالفته هذه تعدّ فتنة بالنسبة لرواد الشعر وللمعجبين به بالنسبة لذلك اليوم[2] . ويعـــدّ كتابه من الكتب القيمة المدوّنة بالعربية بالنسبة لتلك الأيام ، فهو رصين حوى خلاصة ما ذكره السلف عن أدب العرب ، وإذا نظرنا الى عمره يوم ألفه والى أسلوب دراسته ، نجد أنه كان من نوادر المؤلفين في ذلك العهد .

وأحدث كتاب الدكتور (طه حسين) : « في الشعر الجاهلي » رجّة عنيفة

---

١ Nicholson, A Literary History of The Arabs, p. 134.

٢ تأريخ آداب العرب (١/٣٦٥ – ٣٩١) ، (٣/١٨٦ وما بعدها) .

في مصر وفي البلاد العربية الأخرى ، لما جاء فيه من آراء خالفت المألوف والمتعارف عليه عند علماء العربية آنذاك الذين كانوا يسيرون على الجادة القديمة في دراسة أدب العرب،ولما تضمنه من عبارات اعتبرت نابية فيها تهجم على المقدسات. فشكي الى الحكومة ، ورفع أمره الى القضاء ، فكان أن غير عنوانه بعض التغيير فصار : « في الأدب الجاهلي » ، وحذف منه فصل ، وأثبت مكانه فصل ، وأضيفت اليه فصول[1] . وقد لقي الكتاب نقداً شديداً في مصر وفي خارجها ، من جانب المحافظين الحروفيين ، إذ رأوا فيه هدماً للتراث العربي وللمألوف المتوارث ، بينما لقي قبولاً حسناً من جانب الشباب والجيل الجديد ، الذين تأثروا بالمؤثرات الثقافية الحديثة وأخذوا يجاهرون بنقد الأوضاع القائمة الجامدة، وسرعان ما دخل هذا النقد ميدان العراك الذي كان قد وقع آنذاك بين المحافظين وبين المصلحين الذين كانوا يدعون الى اصلاح المجتمع بصورة عامة وإيقاظ العقل من سباته ، والذين كانوا ينادون بإصلاح كل ما يخص هذه الحياة من مادة وروح .

ووجود شعر جاهلي منحول ، أو وجود شعر منحول ، صنع وصيغ على ألسنة الجاهليين بتعبير أصح ، قول لا يختلف فيه أحد ، لا يختلف فيه علماء العربية عن المستشرقين ، ولا القدماء عن المحدثين ، ولا المحافظون المتزمتون عن المدعين بالتقدمية والتجديد ، فكلهم مجمعون على وجوده، وكل منهم أثبت وجوده بطرقه وبأساليبه التي كانت متبعة في زمانه في طرق النقد ، فهم في هذه القضية متفقون تماماً ولا خلاف بينهم فيه ، اللهم إلا في شيء واحد ، هو : سعة حجم المصنوع بالنسبة الى حجم الصحيح من الشعر ، فمنهم من يزيد في نسبة حجم المصنوع حتى يغلبه على الصحيح ، بل يجعل الصحيح منه شيئاً ضئيلاً ، بالنسبة اليه ، ومنهم من يقلل هذه النسب الى درجات قد يصيرها بعضهم دون الشعر الصحيح بكثير .

وأول أسباب نحل الشعر : العصبيات التي عبر عنها (ابن سلام) بقوله : « قال ابن سلام : فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم،وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار،فقالوا على ألسن شعرائهم،

---

[1] (مقدمة الطبعة الثانية) ، (القاهرة ١٩٢٧ م) .

ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار »[1] . من ذلك ما فعلته (قريش) ، الذين كانوا – كما يذكر أهل الأخبار – أقل العرب شعراً وشعراء ، فلما نظروا فإذا حظهم من الشعر قليل في الجاهلية ، استكثروا منه في الاسلام[2] .

ومن هذا القبيل ما نسب الى قدماء أهل اليمن من شعر ، وما أضافوه من شعراء وشعر ، فجعلوا للتبابعة شعراً فيه تبجح بأعمالهم وبما قاموا بـه من فتوح هزت الدنيا في يومها امتدت من أقصى طرف من الأرض الى أقصى طرفها الآخر من (الصين) الى) (روما) ، والى آخر المعمور الممتد على البحر المظلم ، وفيه إيمان بالله وبملائكته ، وتبشير بظهور الرسول ، وأسف شديد لأنهم ولدوا قبل زمانه ، فلم يسعدهم الحظ بإدراكه ، وهم لو أدركوه لكانوا أول المؤمنين به ، وأول المدافعين عنه ، وحيث حرموا من هذه النعمة ، نعمة ملاقاته لإعلان إيمانهم به أمامه ، فهم يدعون من يأتي بعدهم ممن سيدرك أيامه الى الذب عنه والدخول في دينه . فيقول (الرائش) منهم ، وهو (الحارث) ، في شعر له ، ذكر فيه من يملك منهم ومن غيرهم :

ويملك بعدهم رجل عظيم   نبي لا يرخص في الحرام
يُسمّى أحمداً يا ليت أني   أعمر بعد مخرجه بعام[3]

وإذا عرفت أن هذا (الرائش) ، كان قد حكم قبل (بلقيس) ، وبلقيس معاصرة (سليمان) على زعم أهل الأخبار ، وقد كان حكم (سليمان) في حوالى السنة (٩٦٩) قبل الميلاد[4] ، أدركت كم سيكون إذن عمر هذا الشعر المنسوب الى (الحارث) الرائش ، الذي لقب بهذا اللقب ، لأنه كان أول من راش الناس ، أي أول من غزا من أهل اليمن ، وأول من أصاب الغنائم والسبي ، وأدخلها اليمن ، فراش الناس[5] .

---

١ طبقات (١٤) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٦٢) ، الرافعي (١/٣٦٧) ، في الادب الجاهلي (١٢٢) .

٣ المعارف (٦٢٧) .

٤ Hastings, p. 868.

٥ المعارف (٦٢٦) .

وبالمعنى المتقدم نطق (التبع) : (تبع بن كليكرب) ، حيث قال :

شهدتُ على أحمد انه رسولٌ من الله باري النسم
فلو مُدّ عمري الى عمره لكنت وزيراً له وابن عم

ولم يكتف أهل الأخبار بكل هذا ، بل زعموا انه كان كسا البيت وانه قال في ذلك :

وكسوت بيت الله غير كسائه حذر العقاب ليرحم الرحمن
ومقالة الحبرين واليوم الذي يتلى الكتاب وينصب الميزان[1]

وزعموا ان التبع (تبع بن حسان) ، أو (تبع الأوسط) كسا البيت الحرام وأطعم الناس بمكة ، وقوّلوه هذا البيت :

فكسونا البيتَ الذي حرم اللـ ـه ملاءً معضداً وبرودا[2]

فالتبابعة هم أول من كسا البيت ، وأول من آمن بالله وبرسوله ، كانوا مسلمين قبل ظهور الاسلام ، وقبل ميلاد الرسول بعشرات المئات من السنين .

ونسبوا لذي جدن الحميري الملك شعراً ، ذكر فيه الموت ، حيث يقول :

لكل جنبٍ اجتبي مضطجع والموت لا ينفع منه الجزع
اليوم تجّزون بأعمالكم كلُّ امرىء يحصد مما زرع
لو كان شيء مفلتاً حتفه أفلت منه في الجبال الصّدع

ونسبوا له أشعاراً أخرى[3] . وذو جدن من أذواء اليمن ، والأذواء بعضهم ملوك وبعضهم أقيال ، والقيل دون الملك ، والمقوّل : القيل أيضاً بلغة أهل اليمن . وقد ذكر صاحب (خزانة الأدب) أسماء عدد من الأقيال[4] . فذو جدن هذا شاعر ، متفلسف يذكر الناس بالموت وبما بعد الموت ، حيث تجزى كل نفس

١ المعارف (٦٣١) .
٢ المعارف (٦٣٥) .
٣ الخزانة (٢٨٧/٢ وما بعدها) .
٤ الخزانة (٢٨٩ وما بعدها) .

عما كسبت ، ويحصد كل امرىء ما زرعه بيديه في دنيـاه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ ، ولن يفلت أحد من الموت ، وهيهات له ذلك .

ونجد في شعر التبابعة أشعاراً في الحكم وفي الحث على مكارم الأخلاق ، وفي حروبهم وفتوحاتهم التي تشبه فتوحات الإسكندر والفتوحات الإسلامية فيما بعد ، فتوحات سبقت الفتوحات الإسلامية بمئات من السنين ، حاول صانعوها المبالغة فيها ، حتى صيروا الفتح الاسلامي وكأنه ذيل لتلك الفتوح القحطانية التي زرعت (حمير) في الصين وفي تركستان ، صنعوا ذلك في الإسلام ، لما تبجح عليهم العدنانيون بالإسلام وببلوغه الصين والمحيط الأطلسي .

وذكر أن الشاعر (يزيد بن ربيعة بن مفرغ) الحميري[1] ، كان ممن أذاع أسطورة (تبع) ، وكان يتعصب الى اليمن[2] ، ولعله هو الذي وضع أكثر الشعر المنسوب الى (التبابعة) ، وكان (عبيد بن شرية) الجرهمي ، ممن صنع الشعر على ألسنة التبابعة وغيرهم ، وأضافه اليهم[3] . ونجد في كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني وفي الإكليل ، وهو من كتبه أيضاً ، شعراً كثيراً يرويه على أنـه من شعر التبابعة ، ومن شعر عاد وثمود ، وسادات حمير ، وهو مصنوع من دون شك ، صنعه المتعصبون لليمن من اليمانية ، وقد كانت العصبية قد أخذت مأخذها في الإسلام . والهمداني نفسه من المتعصبين لليمن قبله . وأدخله في كتبه دون أن يُسائل نفسه عن كيفية وصول ذلك الشعر من أفواه قائليه اليه ، مع بعد الزمن وتقادم العهد ، وتكلم أهل اليمن في القديم بكلام لا يشابه كلام الشعراء .

ويدخل في هذه العصبية الشعر المنسوب الى الشعراء في هجاء قحطان أو عدنان أي في هجاء القحطانية أو العدنانية بتعبير أدق ، من ذلك القصيدة التي صنعوها على لسان (الأفوه الأودي) الشاعر الجاهلي ، الذي هو من (مذحج) ، ومذحج من اليمن ، التي أولها :

إن ترى رأسي فيه نزع   وشواي خلة فيها دوار[4]

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٧٦) ، الاغاني (١٧/٥١) ، الخزانة (٢/٢١٠ ، ٥١٤) .
٢ الاغاني (١٧/٥٢) .
٣ Von Kremer, Die Südarabische Sage, S. VII, 78, Nicholson, A Literary History of the Arabs, p. 19.
٤ الشعر والشعراء (١/١٤٩) ، العيني (١/٤٢١) ، الاغاني (١١/٤١) ، معاهد التنصيص (٢/١٥٩) .

وهي قصيدة فيها هجاء لبني نزار ولبني هاجر ، صنعت ولا شك في الاسلام. وقد زعم ان النبي نهى عن روايتها . واذا كانت القصيدة مصنوعة ، أو ان أبيات الهجاء منها مصنوعة على الأقل ، كان حديث النهي عن روايتها مصنوعاً أيضاً ، لأن هذا الصنع انما وقع في الاسلام .

ومن فرسان العصبية اليمانية الشاعر (حسان بن ثابت) ، فقد كان من المتحاملين على قريش ، ومن المتعصبين ليثرب ولليمن على قريش ومعدّ . مع ان الرسول نهى عن أمر الجاهلية ، فكان يجالس قريشاً وهو في اسلامه،وينشد الناس ما قالته الأوس والخزرج في قريش ليشفي بذلك غليله . وكان الخليفة (عمر) قد نهى أن ينشد الناس شيئاً من شعر الهجاء الذي كان بين الأنصار ومشركي قريش حذر تجديد الضغائن ، ومع ذلك فإن عصبية حسان لمدينته ولليمن كانت تدفعه على مخالفة ما أمر به[1] .

ومن هذا القبيل ما فعلته قريش بشعر حسان . فقد « حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاضهت قريش ، واستبت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به »[2] ، وقد وضعت قريش وأشياعها المتعصبون للعدنانية أشعاراً أخرى على ألسنة بقية شعراء يثرب ، أرادت من وضعها الحط من شأنهم ، وإلحاق السخف والركة بشعرهم وبهم ، وفعل غيرهم فعلهم في إضافة الشعر الى من كانوا يكرهونه ، للنيل منه ، فنسبوا اليهم شعراً سخيفاً مشيناً ، أو فيه تحامل وقدح على بعض الناس ، للإساءة اليهم بظهور هذا الشعر وانتشاره .

وقد ذكر (ابن سلام) أن (قدامة بن عمر بن قدامة) الجمحي ، نحل شعراً على (أبي سفيان بن الحارث) للنيل منه ، وأن قريشاً تزيد في أشعارها تريد بذلك الأنصار والردّ على حسان[3] . وورد أن (قتادة بن موسى) الجمحي هجا (حسان بن ثابت) بأبيات ونحلها (أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب)[4].

وكان الأنصار يقظون،واقفون لقريش بالمرصاد ، وكانت قريش يقظة كذلك، إذا سمعت شاعراً مدح الأنصار ولم يمدحها استاءت منه . فلما قدم (كعب بن

---

١ الاستيعاب (١/٣٣٧ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٥٢) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٦٢) .
٤ الاصابة (٣/٢١٧) ، (رقم ٧٠٧٧) .

زهير) يثرب معتذراً عن كفره ، معلناً إسلامه أمام الرسول ، مدح قريشاً وعرّض بعض التعريض بالأنصار لغلظتهم كانت عليه ، تجهمته الأنصار وغلظت عليه ، ولانت له قريش ، غير أنها لم ترض عن مدحه ، إذ وجدته قليلاً ، وأنكرت عليه ما قال ، إذ قالت له : « لم تمدحنا إذ هجوتهم ، ولم يقبلوا ذلك » منه[1] . ولما قدم (الحطيئة) المدينة أرصدت له قريش العطايا ، فعلت ذلك ليخلص لها في المدح ، وليصرف مدحه عن الأنصار[2] .

وندخل في هذه العصبية ، العصبية الى البيوتات ، فقد كان قوم (سعيد بن العاص بن أمية) يذكرون أن (سعيداً) كان اذا اعتمّ لم يعتمّ قرشي إعظاماً له ، وينشدون :

أبو أحيحة من يعتمّ عِمّته يُضرَبْ وإن كان ذا مال وذا عددِ

ويذكر (الزبيريون) ان هذا البيت باطل مصنوع[3] .

ولم تتورع العصبية والخصومات من الكذب عمداً على الناس ومن الطعن في الأنساب . فلما اعترض (مزرد) أخو الشمّاخ ، وكان عريضاً ، (كعب بن زهير) عزاه الى (مزينة) ، وكان (أبو سُلمى) وأهل بيته في (غطفان) ، فقال كعب بن زهير شعراً يثبت انه من مزينة ، « وقد كانت العرب تفعل ذلك ، لا يعزى الرجل الى قبيلة غير التي هو منها ، إلا قال : أنا من الذين عنيت . كان أبو ضمرة يزيد بن سنان بن أبي حارثة لاحى النابغة فنماه الى قضاعة » ، فقال شعراً يثبت انه منها[4] . وهناك أمثلة عديدة من هذا القبيل ، أدت الى وقوع النسابين في أخطاء بسبب هذه الأكاذيب .

وقد ساهم الخلفاء الأمويون في هذه العصبية ، ساهموا حتى في التزام العلماء والشعراء . « جمع سليمان بن عبد الملك بين قتادة والزهري ، فغلب قتادة الزهري ، فقيل لسليمان في ذلك ، فقال : انه فقيه مليح . فقال (القحذمي) : لا ، ولكنه

---

١ ابن سلام ، طبقات (٢٠ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٢٤) .
٣ المزهر (١/١٨١) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٢١ وما بعدها) .

تعصبٌ للقرشية ، ولانقطاعه كان اليهم ، ولروايته فضائلهم »[1] .

وكان (معاوية) يتعصب لليمن على قيس، وذلك بسبب زواجه من (كلبية)، مع أنه من عدنان . حتى صار من فرط تعصبه لليمن لا يفرض إلا لهم، ولم يزل كذلك حتى كثرت اليمن وعزت قحطان ، وضعفت عدنان ، فبلغ معاوية أن رجلاً من اليمن قال : هممت أن لا أحل حبوتي حتى أخرج كل نزاري بالشام ، ففرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس . وكان معاوية يغزي اليمن في البحر وتميماً في البر ، وفي ذلك يقول (النجاشي) شاعر اليمن :

ألا أيها الناس الذين تجمعوا بعكا أناس أنتم أم أباعر
أيترك قيساً آمنين بدارهم ونركب ظهر البحر والبحر زاخر
فوالله ما أدري وإني لسائل أهمدان تحمي ضيمها أم يحابر
أم الشرف الأعلى من أولاد حمير بنو مالك أن تستمر المرائر
أأوصى أبوهم بينهم أن تواصلوا وأوصى أبوكم بينكم أن تدابروا

فرجع القوم جميعاً عن وجههم ، فبلغ ذلك معاوية ، فسكن منهم . وقال : أنا أغزيكم في البحر لأنه أرفق من الخيل وأقل مؤونة ، وأنا أعاقبكم في البر والبحر ففعل ذلك[2] .

وأوجدت هذه العصبية كثيراً من الشعر المصنوع ، روي على انه من شعر التبابعة ، صنع ولا شك في الاسلام ، حين بلغت العصبية العدنانية والقحطانية ذروتها في أيام الأمويين فما بعد . فلما نظر اليمانيون الى أنفسهم ، واذا بالحكم لغيرهم . وقد كانت لهم دولة قبل الاسلام ، ثم إذ بهم يحكمهم من كان دونهم في الجاهلية ، أخذتهم العزة ، ودفعتهم العصبية على الاحتماء بالماضي ، وإعادة ذكرياته ، وما كان لهم من مآثر ، ولأجل توكيد ذلك وتثبيته ، لجأوا الى الشعر، ولم يكن لهم شعر في الجاهلية بهذه العربية التي نعرفها ، لأنها لم تكن عربيتهم ، فصنعوا شعراً كثيراً بهذه العربية ، نسبوه الى التبابعة ، وارتفعوا به الى عهود جاوزت الحد المألوف الذي حدده علماء الشعر ، لتأريخ ظهور (القصيد) عند

١ البيان والتبيين (١/٢٤٣) .
٢ الخزانة (١/٤٦٦ وما بعدها) .

الجاهليين ، تجد الكثير منه مدوناً في الكتب التي تتعاطف مع اليمانية ، مثل كتب الهمداني ، ونشوان بن سعيد الحميري .

ولما كان هذا الشعر هو في ذكريات أيام اليمن الماضية وأحوالها القديمة ، وفي أخبار ملوك حمير وأعمالهم ، اتخذ أسلوب القص والفخر ، فكثرت أبيات القصائد أحياناً ، وارتبطت الأبيات في المعاني بعضها ببعض ، نظراً لاقتضاء طبيعة القص والأساطير ذلك ، وهو يفيدنا من ناحية الوقوف على الأساطير اليمانية القديمة التي أوجدتها مخيلتهم عن تأريخهم القديم ، وفي تطور أسلوب القص في الشعر .

ويظهر من عبارة (الآمدي) : « وهي أبيات تروى لامرىء القيس بن حجر الكندي ، وذلك باطل ، إنما هن لامرىء القيس الحميري ، وهي ثابتة في أشعار حمير »[1] ، أنه قد كان لحمير ديوان فيه أشعارهم ، أو أن قوماً منهم أو من غيرهم جمعوا شعر حمير ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن يكون هذا الجمع قد وقع في الإسلام ، وأن ما فيه من شعر جاهلي ، هو من الشعر المصنوع .

ومن العصبيات عصبية قريش على ثقيف . فقد كانت بين قريش وبين ثقيف خصومة ، بسبب طمع أهل مكة في الطائف ، وشراء سادات قريش الملك في الطائف لاستغلاله ، مما جعل ثقيفاً يكرهون أهل مكة . ثم عامل آخر ، ظهر في الاسلام ، هو كره أهل العراق للحجاج ، مما جعلهم يذمونه ويذمون ثقيفاً معه . فزعموا أن قومه من بقايا ثمود ، وذلك في أيام الحجاج . « رووا أن الحجاج قال على المنبر يوماً : تزعمون أنا من بقايا ثمود ، وقد قال الله عز وجل : وثموداً فما أبقى »[2] . وذكر (الجاحظ) ، زعم الناس هذا في أصل ثقيف ، وذكر أن مثل ثمود كمثل (بني الناصور) ، فقد هلكوا في الجاهلية ، كما هلك غيرهم من الأمم البائدة ، وذكر أن هناك من قال إن أصل (بني الناصور) من الروم[3] .

وقد وجدت العصبية مرتعاً خصباً بين الموالي والعبيد ، فساهموا فيها أيضاً . فلما رأى (جرير) (الحَيْقُطان) يوم عيد في قميص أبيض وهو أسود ، قال:

---

١ المؤتلف والمختلف (٩) ، (عبدالستار أحمد فراج) .
٢ البيان والتبيين (١٨٧/١ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١٨٧/١) .

كأنه لما بدا للناس أير حمار لُفّ في قرطاس

فلما سمع بذلك (الحيقطان) وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال شعراً افتخر فيه بالنجاشي وبالسودان ، وبلقمان وبأبرهة وذم قريشاً ومضرَ ، وتحامل عليهما ، ففرحت اليمانية به ، وأخذت تحتج به على العدنانية ، واحتج بها العجم والحبش على العرب[1] .

ويلاحظ ان الحبش قد تعصبوا أيضاً على العرب في الاسلام،وتفاخروا بملوكهم وبأبرهة ، وقد كان لازدراء الأغنياء لهم ، وتسخير أصحاب المال لهم في أداء الأعمال الحقيرة ، ونظرتهم اليهم نظرة ازدراء وتحقير ، فلم يصاهروهم، ولم يروا انهم أكفاء لهم ، مثل العجم على الأقل ، أثر في إثارة هذه الضغينة في نفوسهم وفي وقوفهم موقف الضد من العرب . وقد تعرض (الجاحظ) لذلك ، فقال : « وقد قالت الزنج : من جهلكم انكم رأيتمونا لكم أكفاء في الجاهلية في نسائكم، فلما جاء عدل الاسلام رأيتم ذلك فاسداً » . ثم روى على لسانهم ما قاله بعض الشعراء مثل النمر بن تولب ، ولبيد من مدح أبرهة ، ثم أعقب ذلك بذكر من برز وظهر من الزنوج[2] .

ومن أسباب النحل دوافع نشأت عن عاطفة دينية ، رأت أن في نحل الشعر على ألسنة الجاهليين ، عملاً ليس فيه ضرر ولا اساءة ، بل فيه منفعة من ناحية التوعية الدينية والحث على التدين والتزهد ، وعمل الخير والإيمان بدين الله،فروت الأشعار على ألسنة المتقدمين في التبشير بظهور الرسول ، قبل ميلاده بأمد ، وفي الحث على نبذ الوثنية والإيمان بإله واحد . نظم على لسان القحطانيين وعلى لسان العدنانيين ، الذين عاشوا قبل الإسلام،كما نظم على ألسنة الجن والهواتف والكهنة .

ومن هذا القبيل ما قيل من شعر في التوحيد وفي الذب عن الاسلام على لسان (أبي طالب) وغيره ، وفي مدح قريش ، وجعلها القبيلة المختارة التي اصطفاها الله من بين سائر العرب ففضلها على العالمين ، بأن جعلها الصفوة ، وجعل لسانها اللسان الذي نزل به القرآن ، فعل أصحاب الصنعة ذلك لنوازع مذهبية، ولعصبية

١ رسائل الجاحظ (١/١٨٢ وما بعدها) ، (فخر السودان على البيضان) .
٢ رسائل الجاحظ (١/١٩٧ وما بعدها) ، (فخر السودان على البيضان) .

قبلية سياسية ، ذات صلة بالعواطف الدينية ، فلم يكن يهن على أهل يثرب مثلاً التسليم بسيادة قريش عليهم ، فكان ما كان من وضع قريش الحجج التي تؤيد قريشاً في الجاهلية ، وتجعلهم أفضل العرب على الاطلاق،وما كان الأنصار ليقبلوا ذلك بالطبع،فأوجد صناعهم فخراً وسبقاً لهم على قريش ، بأن قالوا إنهم الأنصار وأنهم نصروا رسول الله منذ سمعوا بالإسلام ، فلما سمع (أبو قيس بن الاسلت) وهو من الأوس ، مقالة (أبي طالب) :

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

حين أرادوا منه تسليمهم النبي ، أرسل اليهم قصيدة ينهى فيها قريشاً عن الحرب، ويأمرهم بالكفّ عن رسول الله ، إذ يقول :

يا راكباً اما عرضت فبلغن مغلغلة عني لؤي بن غالب

وهي قصيدة طويلة دوّنها (ابن هشام) في سيرته[1] ، اذا قرأتها خرجت منها ان صاحبها انما أراد من صنعها على لسان (ابن الأسلت) إظهار ان أهل يثرب كانوا أول من دافع عن الرسول والاسلام ، وانهم كانوا أول المؤمنين به ، إذ كفرت قريش بدين الله. مع انه مات مشركاً ، ولم يثبت انه دخل في الاسلام[2] .

والقصيدة بعد من صنع أناس من الأنصار ، لعلهم كانوا من صلبه ، وجدوا ان من السهل وضع الشعر على لسانه ، فقد كان شاعراً معروفاً ، وكان من سادة يثرب ومن الوافدين على مكة ، وله فيها أصحاب ودالة ، وفي صنع هذا الشعر فخر للأنصار عظيم ، فنسبوا له تلك القصيدة ، وجعلوها جواباً لاستغاثة (أبي طالب) في قصيدته التي قال ما قال فيها في حق قريش وفي تعنتها تجاه الرسول والاسلام .

ومن هذا القبيل ، تطويلهم القصيدة المنسوبة الى أبي طالب التي قيل انه قالها في النبي ، وهي :

---

١ سيرة (١/١٨٠) ، (حاشية على الروض) .
٢ الاصابة (٤/١٦٠) ، (رقم ٩٤٤) ، الاستيعاب (٤/١٥٩ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقد زيد فيها وطولت ، بحيث صار لا يعرف أين منتهاها [1] . وقد أورد ابن هشام أشعاراً نسبها الى (أبي طالب) منها قصيدته التي رد فيها على قريش حين عرضت عليه تسليم النبي لهم ، على أن يعطوه في مقابله (عمارة بن الوليد) ، وقد دوّنها (ابن هشام) ، وذكر انه ترك منها بيتين أقذع فيها [2] . ومنها قصيدته :

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وهي قصيدة طويلة ، قال عنها (ابن هشام) : « وبعض أهل العلم ينكر أكثرها » [3] .

ومن هذا القبيل ما وضع من شعر في الأحداث التي وقعت بين المسلمين والمشركين في أيام الرسول ، مثل معركة بدر ، وبقية المعارك . فقد وضع الناس شعراً كثيراً على لسان المسلمين والمشركين ، ونجد (ابن هشام) يقول في تعليقه على شعر لأبي أسامة معاوية بن زهير ، وكان مشركاً ، وقد مرّ بهبيرة بن أبي رهم ، وهو منهزم : « وهذه أصح أشعار بدر » [4] ، ونجد (ابن هشام) ، يعلق ويصحح ويشكك في صحة بعض هذا الشعر الذي أخذه من (ابن اسحاق) ، وقد طُعن على (ابن اسحاق) ، لأنه أخذ مثل هذا الشعر فأدخله في السيرة ، مع أنه شعر مصنوع [5] .

ومن هذا القبيل ما روي من أن امرأة من حضرموت ثم من (تنعة) صنعت لرسول الله كسوة ، أرسلتها مع ابنها (كليب بن أسد بن كليب) الى رسول الى ، فأتاه بها وأسلم ، فدعا له ، فقال حين أتى النبي :

من وشز برهوت تهوى بي عذافرة اليك يا خير من يحفى وينتعل
تجوب بي صفصفاً غبراً مناهله تزداد عفواً إذا ماكلت الإبل

١ ابن سلام ، طبقات (٦٠) ، المزهر (١٧٩/١) .
٢ ابن هشام (١٧١/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .
٣ ابن هشام (١٧٩/١) ، (حاشية على الروض) .
٤ ابن هشام (١١٥/٢) ، (حاشية على الروض الأنف) .
٥ الروض الأنف (١٠٧/٢ وما بعدها) .

شهرين أعملها نصاً على وجل أرجو بذاك ثواب الله يا رجل
أنت النبي الذي كنّا نُخبره وبشرتنا بك التوراة والرسل[1]

والذي نعرفه أن لسان أهل حضرموت لم يكن في هذا العهد على هذا البيان والعربية ، وإنما كان على عربية حضرموت ، ولا أدري إذا كان هذا الرجل يعرف شيئاً عن التوراة والرسل ، أو سمع باسم التوراة وبالرسل حتى يذكرها ويذكر رسل الله في هذا الشعر .

ومن هذا النوع ما روي من شعر الجن والهواتف : من مثل الشعر المبشر بقرب ظهور نبي ، كما في قصة : (راشد بن عبد ربه) السلمي التي رواها عن سبب إسلامه ، وما سمعه من هاتف يصرخ من جوف الصنم ، بظهور نبي[2]، أو من شعر آخر ، قيل على ألسنة الجن ، في أغراض مختلفة وهو كثير ، من ذلك قولهم :

وقبر حربٍ بمكانٍ قفر وليس قرب قبر حربٍ قبر

وقائله مجهول . فلما رأوا ان من الصعب إنشاده ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج ، قيل لهم انه من شعر الجن . فصدقوا بذلك[3] .

وذكر أهل الأخبار اسم شاعر من الجن ، قالوا له : (مالك بن مالك) الجني . فقد زعموا ان (خريم بن فاتك) الأسدي ، خرج في بغاء إبل له ، فأصابها بالأبرق ، فقال : أعوذ بعظيم هذا الوادي ، فإذا هاتف يهتف :

ويحك عذ بالله ذي الجلال منزل الحلال والحرام

فقال خريم :

يا أيها الداعي فما تحيل أرشد عندك أم تضليل

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/ ٣٥٠) ، (وفد حضرموت) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/ ٣١٧) .
٣ البيان والتبيين (١/ ٦٥) .

فقال الهاتف :

هذا رسول الله ذو الخيرات   جــاء بياسين وحاميات
محرمــات ومحلــلات   يأمرنا بالصوم والصــلاة

فقال خريم : من أنت يرحمك الله ؟ فقــال : أنا مالك بن مالك ، بعثني رسول الله على جن أهل نجد[1] .

وروى أهل الأخبار شعراً لشاعر آخر من الجن اسمه ، (مالك بن مهلهل بن إياد) ويقال (دثار) ، زعموا انه أحد من أسلم من الجن ، رووا له قصة مع (رافع بن عمير) التميمي المعروف بـ (دعموص الرمل) ، لأنه كان أعرف الناس لطريق وأسراهم بليل ، وأهجمهم على هول ، وقعت له برمل عالج ، لما قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن أن أوذي أو أهاج . فهتف به هذا الجني الشاعر ، وأمره أن يذهب الى يثرب ، ليسلم أمام الرسول[2] .

ومن ذلك ما روي من حديث عن (قس بن ساعدة) ، وما رواه صاحب الحديث من صوت هاتف يقول :

يا أيها الراقد في الليل الأحم   قد بعث الله نبياً في الحرم
من هاشم أهل الوفاء والكرم   يجلو دجنات الليالي البهم

ثم قول صاحب الحديث للهاتف :

يا أيها الهاتف في دجى الظلم   أهلاً وسهلاً بك من طيف ألم
بين هداك الله في لحن الكلم   من الذي تدعو اليه تغتنم

ثم جواب الهاتف عن سؤاله بقوله :

الحمــد لله الــذي   لم يخلق الخلق عبث
ولم يخلنــا ســدى   من بعد عيسى واكترث
أرسل فينا أحمــدا   خير نبي قد بعث
صلى عليه الله مــا   حج له ركب وحث[3] .

---

١ الاصابة (٣/٣٣٣) ، (رقم ٧٦٨٤) ، (١/٤٢٣) ، (رقم ٢٢٤٦) .
٢ الاصابة (٣/٣٣٥) ، (رقم ٧٦٩٢) .
٣ الخزانة (١/٢٦٤) ، (بولاق) .

وللجن أشعار ، ولها مع الإنس حوار . وللأعراب خاصة في الجن قصص وحكايات ، وقد ذكر (الجاحظ) أن الأعراب يتزيدون في هذا الباب[1] . والحديث عن الجن من الأحاديث التي يميل لسماعها الناس لما فيها من غريب وطريف واختراع ، مالوا الى سماعها في الجاهلية وفي الإسلام ، ونجد لأبي المطراد (المطراب) (عبيد بن أيوب) العنبري ، وهو شاعر إسلامي ، وكان لصاً قد جنى جناية فنذر السلطان دمه وخلعه قومه ، قصص وأشعار كثيرة عن الجن والوحوش . أخبر « في شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ، ويبايت الذئاب والأفاعي ، ويأكل مع الظباء »[2] . ونجد في كتاب (الحيوان) وفي كتب الأخبار والأدب والسير ، طرف من أشعار الجن والغيلان والسعالى ، وطرف من أخبارهم وأحاديثهم مع الإنس .

ومن هذا القبيل ما نسب الى (جذع بن سنان) من شعر زعم انه جرى له من الجن ، وهو :

أتوا ناري فقلت منون أنتم   فقالوا : الجن قلت عموا صباحا
نزلت بشعب وادي الجن لما   رأيت الليل قد نشر الجناحا
أتيتهم وللأقدار حتم   تلاقي المرء صبحاً أو رواحا

وجذع شاعر جاهلي قديم ، من غسان ، وهو الذي ضرب به المثل بقولهم : خذ من جذع ما أعطاك . والشعر المذكور من أكاذيب العرب[3] .

وللأعشى إشارة الى الجن ، بقوله :

وسخر من جن الملائك سبعة   قياماً لديه يعملون بلا أجر[4]

وفي شعره مواضع أخرى تعرض فيها الى ذكر الجن .

وقد تحدث (المعري) عن (شعر الجن) ، تحدث عنهم في رسالة الغفران

---

١ الحيوان (٦/١٦٤) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦٦٨) ، الخزانة (٣/٢١٣) ، الحيوان (٦/١٦٥) .
٣ وهي من قصيدة تجدها في الخزانة (٣/٦) ، (بولاق) .
٤ الخزانة (٢/٦) ، (بولاق) .

فكلم أحدهم واسمه (الخيتعور) ، أحد (بني الشيصبان) ، فقال له : « أخبرني عن شعر الجن ، فقد جمع منها المعروف بالمرزباني قطعة صالحـة ، فيقول ذلك الشيخ : انما ذلك هذيان لا معتمد عليه ، وهـل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض ؟ وانما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قل ما يعدوها القائلون ، وان لنا آلاف أوزان ما سمع بها الإنس »[1] . ثم يقول الجني له إن في الجن شعراء ، من لا يعدل (امرىء القيس) أضعفهم شعراً ، ثم يروي قصيدة للمتكلم معه ، وهو (أبو هدرش)[2] .

وروى حديثاً في رسالة الغفران عن قصص (تأبط شراً) مع الغيـلان ، ثم أجاب على لسانه ، قال له : « أحق ما روي عنك من نكاح الغيـلان ؟ » ، ثم أجاب على لسانه بقوله : « لقد كنّا في الجاهلية نتقول ونتخرص ، فما جاءك عنّا مما ينكره المعقول،فإنه من الأكاذيب » . ثم روى الشعر المنسوب اليه، وهو:

أنا الذي نكح الغيلان في بلدٍ ما طلّ فيه سماكيٌّ ولا جادا[3]

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب يعتقدون بالجن ، وقد تصوروهم — كما سبق أن تحدثت عن ذلك — مثلهم ، قبائل وعشائر ، لهم ملوك وسادات فما كانوا يروونه عنهم وعن اتصالهم بهم ، يمثل حقيقـة في نظرهم ، وما كان يضعه الوضاعون من شعر على ألسنتهم ، يقبـل ويصدق عندهم ، ويسمع اليـه بتلهف ، ولا سيما القسم الغريب منه ، إذ كانوا يتلذذون بسماعه ، ويذكر معه في العادة قصص لشرح المناسبة التي قيل فيها الشعر ، على طريقتهم في رواية أخبار (الأيام) . فالقصص المتعلق بالجن ، باب من أبواب التسلية التي كان يتسلى بها أهل الجاهلية ، بل بقي من القصص المستملح المطلوب سماعه حتى اليوم .

ومن هذا القبيل ، ما ورد في أيام العرب من شعر ، ففي هذا الشعر ما شاء الله من المنحول . نحل تمجيداً لقبيلة أو لبطل من أبطالهـا ، أو للغض من شأن قبيلة معادية ، اشتركت معها في قتال ، وفي أخبار هذه الأيام تعصب وتحزب ، ولذلك يجب النظر اليها بحذر شديد .

---

١ رسالة الغفران (٢٩١) .
٢ رسالة الغفران (٢٩٥ وما بعدها) .
٣ رسالة الغفران (٣٥٩) .

وشعر الشواهد من الأبواب التي فتحت المجال لنحل الشعر . قال عنه (الرافعي) : « وهو النوع الذي يدخل فيه أكثر الموضوع ، لحاجة العلماء الى الشواهد في تفسير الغريب ومسائل النحو »[1] . وقد كانوا يستشهدون بأشعار الجاهليين والمخضرمين : ونظراً لوجود عنصر التفوق والتغلب على الخصوم واظهار العلم ، ولوجود العصبية اندفع البعض إلى افتعال الشواهد والإتيان بالغريب وبما هو غير معروف. وقد اتّهم الكوفيون بأنهم كانوا أكثر الناس وضعاً للأشعار التي يستشهد بها،لضعف مذاهبهم وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها . ولهذا واشباهه اضطروا الى الوضع فيما لا يصيبون له شاهداً إذا كانت العرب على خلافهم ، وتجـد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله ، بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر . ومن أجل هذا كان البصريون يفتمزون على الكوفيين . فيقولون: نحن نأخذ اللغة عـن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وأنتم تأخذونها عن أكلـة الشواريز والكواميخ[2] . على أن البصريين ، لم يكونوا ملائكة بالنسبة الى افتعـال الشواهد ، فقد أدلوا فيه بدلوهم كذلك ، وإن قيل إنهم كانوا أقلّ فعـلاً في ذلك مـن الكوفيين . ذكر أن (سيبويه) سأل (اللاحقي) هل تحفظ العرب شاهداً على إعمال (فَعِلٌ) (الصفة) ؟ قال (اللاحقي) ، فوضعت له هـذا البيت :

حَذِرٌ أموراً لا تضيرُ ، وآمنٌ ما ليس منجيه من الأعداء[3]

ومن ذلك ما رواه (الزجاجي) في (مجالس العلماء) ، من نزاع وقع بين (الطبري) وبين (أبـي عثمان) في السكين : مذكر أم مؤنث ، ومن استشهاد (أبو عثمان) بشعر رواه الفراء ، هو :

فعيّث في السنام غداةَ قُرٍّ بسكين موثقة النصاب

وجوابه : « لمن هذا ومن صاحبه ؟ وما أراه إلا أخـرج من الكم ، وأين صاحب هذا عن أبـي ذؤيب حيث يقول :

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/ ٣٧٠) .
٢ الرافعي (١/ ٣٧١) .
٣ المزهر (١/ ١٨٠) ، الرافعي (١/ ٣٧١ وما بعدها) .

فذلك سكين على الحلق حاذق »[1] .

ومن ذلك ما ذكره (خلف الأحمر) على ألسنة القدماء في ورود لفظة (عشار) في كلام العرب ، إذ روى هذه الأبيات :

قل لعمرو يا ابن هند لو رأيت اليوم شنا
لرأت عيناك منهم كل ما كنت تمنى
إذ أتتنا فيلق شهبا من هنا وهنا
وأتت دوسر والملحاء سيراً مطمئنا
ومشى القوم الى القوم أحادى ومثنى
وثلاثاً ورباعاً وخماساً فأطعنا
وسداساً وسباعا وثماناً فاجتلدنا
وتساعاً وعشاراً فأصبنا وأصبنا
لا ترى إلا كمياً قاتلاً منهم ومنّا

« ودلائل الوضع في هذه الأبيات ظاهره. وكان خلف الأحمر متهماً بالوضع »[2].

ويدخل في باب نحل الشعر عامل آخر ، هو الاستشهاد بالشعر لتأييد الخلافات القائمة بين المذاهب في اثبات رأي ، أو في تفسير آية ، تفسيراً يؤيد رأي ذلك المذهب . فقد زعم أن المعتزلة ، قالت في تفسير الآية: « وسع كرسيه السموات والأرض » ، أي علمه ، وأنهم جاءوا على ذلك بشاهد لا يُعرف وهو قول الشاعر :

ولا يُكَرسِئُ علم الله مخلوق[3]

وهو قول وإن روي عنهم وقيل ، لا أدري ، إذا كان قد صدر منهم ، أو أنه صنع عليهم ، وقد ورد في خبر أن (عبدالله بن عباس) ، كان يقول، الكرسي : العلم . وأنه فسر الآية بهذا المعنى . على كل فقد فسر المفسرون لفظة

---

١ مجالس العلماء (ص ١٢٩) ، (الكويت ١٩٦٢) ، (عبدالسلام محمد هارون) .
٢ الخزانة (١/٨٢) ، (بولاق) .
٣ الرافعي (١/٣٧٣) .

(الكرسي) تفاسير مختلفة ، وذلك تحاشياً من الوقوع في التشبيه ، من كونه تعالى يجلس على كرسي شبه كراسينا ، ولذلك مالوا الى التأويل . وذكر في رواية أخرى : أن (ابن عباس) كان يرى أن الكرسي موضع القدمين ، « ومن روي عنه في الكرسي أنه العلم ، فقد أبطل »[1] .

ونظراً الى ما كان للمذهبية من أثر في الناس في ذلك العهد، فلا أستبعد احتمال الوضع على ألسنة المذاهب، لذا يجب الحذر من الإسراع في التصديق بصحة الشواهد المقالة على لسان مذهب ، ونقدها نقداً علمياً دقيقاً ، بالتفتيش عنها في كتب أهل ذلك المذهب ، فقد يجوز أن تكون قد وضعت عليهم وضعاً ، ومثل هذا الوضع شيء معروف .

ومن أبواب نحل الشعر ما قيل على لسان آدم فمن دونه من الأنبياء من شعر. فقد زعموا مثلاً ان (قابيل) حين قتل أخاه (هابيل) رثاه أبوه (آدم) ، فقال :

تغيرت البلاد ومَن عليها فوجه الأرض مغبرٌّ قبيح
تغيّرَ كلُّ ذي طعمٍ ولونٍ وقلَّ بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم :

أبا هابيل قد قُتِلا جميعاً وصار الحيُّ كالميت الذبيح
وجاء بشرة قد كان منها على خوف فجاء بها يصيح[2]

ثم ما قيل على لسان الأمم البائدة ، والشعوب الهالكة مثل عاد وثمود وقوم تبع ، وطسم وجديس ، وزرقاء اليمامة ، من أشعار زعم انهم قالوها ، وهي من نظم القصاصين وأصحاب السمر والحكايات ، وعشاق الأساطير والخرافات ، لما وجدوا ميلاً عند الناس الى الاستماع لمثل هذه الأشعار . فكانوا « يأتون بمثل تلك الأشعار على وهنها وتداعيها ويعزونها الى القدماء ، ثم يزعمون انهم أخذوها من

---

١ تاج العروس (٢٣٢/٤) ، (كرس) .

٢ تاريخ الطبري (١٤٥/١) ، تفسير الطبري (١٢٢/١) ، (طبعة بولاق) .

الصحف ، ويروونها للأمم البائدة وغيرهم »[1] . من ذلك ما نسبوه من شعر الى (معاوية بن بكر) ، وكان في أيام (عاد) ، مقيماً بظاهر مكة خارجاً من الحرم ، زعموا انه قاله لما استثقل طول مكث وفد (عاد) وفيه (لقمان بن عاد) عليه ، وألهمه الى قينتيه لتغنيا به أمام الوفد ، وهو :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عادٍ ، إنّ عاداً قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عياما
وإن الوحش تأتيهم جهاراً ولا تخشى لعادي سهاما
وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قومٍ ولا لُقُّوا التحية والسلاما

فأجابه (جلهمة بن الخيبري) :

أبا سعدٍ فإنك من قبيلٍ ذوي كرمٍ وأمك من ثمود
فإنا لن نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك آل رفد وزمل وآل صد والعبود
ونترك دين آباء كرامٍ ذوي رأيٍ ونتبع دين هود[2]

ومن ذلك ما نسبوه من شعر الى (مرثد بن سعد بن عفير) زعموا أنه قال حين سمع خبر هلاك عاد ، إذ قال :

عصت عاد رسولهمُ فأمسوا عِطاشاً ما تبلهم السماء
وسيّر وفدهم شهراً ليُسقوا فأردفهم من العطش العماء
بكفرهم بربهم جهاراً على آثار عادِهِمُ العفاء
ألا نزع الإلـه حُلومَ عادٍ فإن قلوبهم قفر هواء

---

١ الرافعي (١/٣٧٥ وما بعدها) ، الخزانة (٤/٢٠٢) ، (بولاق) .
٢ الطبري (١/٢٢٠ وما بعدها) ، (ذكر الاحداث التي كانت بين نوح وابراهيم) ، تفسير الطبري (٨/١٥٤) ، جمهرة أشعار العرب (٤١) .

من الخبرِ المُبيَّن أن يَحُوهُ | ومـا تغني النصيحة والشفاء
فنفسي وابنتايَ وأم ولـدي | لنفسِ نبينـا هودٍ فداء
أتانا والقلـوب مصمـدات | على ظلم ، وقد ذهبَ الضياء
لنـا صنمٌ يقـال له صمود | يقابله صـداء والهبـاء
فأبصره الذين لـه أنابوا | وأدرك من يكذّبه الشقـاء
فإني سوف ألحق آل هودٍ | واخوته إذا جـنّ المساء[1]

فلما هلكت عاد ، فلم يبق منهم إلاّ (الخلجان) ، قال :

لم يبقَ إلا الخلجـان نفسُهُ | يا لك من يومٍ دهاني أمسه
بثابت الوطء شديـد وطسه | لو لم يجئني جئتــه أجسه[2]

ورووا شعراً لأحد شعراء ثمود اسمه (مهوس بن عنمة بن الدميل) هو قوله:

وكانت عصبة من آل عمرو | الى دين النبي دعوا شهـابا
عزيز ثمــود كلهم جميعاً | فهمّ بأن نجيب ولـو أجابا
لأصبح صـالح فينــا عزيزاً | وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغـواة من آل حجر | تولوا بعـد رشدهم ذئابا[3]

ويروي أهل الأخبار انه قد كان لأهل الجاهلية شعر كثير قيل في عاد وثمود وأمورهم ، يأتون به دليلاً على شهرة أمرهم عند العرب في الجاهلية والاسلام[4] . من ذلك ما أوردوه على لسان (أفنون) التغلبي ، من قوله :

لو انني كنت من عادٍ ومن إرمٍ | غذيّ سخْلٍ ولقمانا وذا جدان[5]

ومن هذا القبيـل ما نسب الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرهمي ، والى (الحارث بن مضاض) ، من شعر . وهو عند أهل الأخبار أحد المعمرين

---

١ الطبري (١/٢٢٣ وما بعدها) .
٢ الطبري (١/٢٢٤) .
٣ تفسير الطبري (٨/١٥٩) ، (بولاق) .
٤ الطبري (١/٢٣٢) .
٥ الزجاجي ، مجالس العلماء (٤٢) .

القدماء ، زعموا انه قال شعراً لما أجلت (خزاعة) جرهماً عن الحرم ، هو :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا   صروف الليالي والجدود العواثر

وزعموا انه مدّ في عمره الى أن أدرك الاسلام[1] .

ونجد في شعر (النمر بن تولب) ذكر (لقمان)[2] . ونجد في أشعار شعراء آخرين إشارات الى هؤلاء وغيرهم ممن كان تذكرهم الأساطير وتروي أخبارهم الناس ، على نحو ما نسمعه من العجائز عن قصص الماضين ، وقد أشرت الى أسماء بعض منهم في ثنايا هذا الكتاب .

وقد سبق أن ذكرت ان هذا النوع من الأساطير ، لم يفت على بال بعض العلماء النقدة ،وانهم أشاروا الى انه من صنع جماعة من صناع الأساطير والقصص ، فقد قال (ابن سلام) : « وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل منه كل غثاء محمد بن اسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير والمغازي ، قبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، انما أوتي به فأحمله ، ولم يكن له ذلك عذراً ، فكتب في السيرة من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء ، فضلاً عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر انما هو كلام مؤلف معقود بقوافي ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ ألوف من السنين ؟ والله تعالى يقول: فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، أي لا بقية لهم . وقال أيضاً : وانه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى . وقال في عاد : فهل ترى لهم من باقية . وقال : وقروناً بين ذلك كثيراً »[3] .

ولكن أوسع وأظهر أبواب نحل الشعر ، هو ما وضعه رواة الشعر على ألسنة الشعراء الجاهليين ، وهو ما دعاه (الرافعي) : بـ « الإتساع في الرواية » .

---

١ المرزباني ، معجم (١٠) ، ابن هشام ، سيرة (١/٨٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الأنف) ، الروض الأنف (١/٨٠ وما بعدها) .
٢ الخزانة (٤/٤٤١) ، (بولاق) .
٣ المزهر (١/١٧٣) ، (النوع الثامن : معرفة المصنوع) .

ونقصد به ما صنعه الرواة من وضعهم قطعاً وقصائد على ألسنة الشعراء الجاهليين لم يقولوها ، ومن اضافتهم أشعاراً على قصائد الجاهليين ، أو ادخال شعر شاعر في شعر غيره : هوى وتعنتاً [1] . فهذا الباب هو أخطر أبواب نحل الشعر وأوسعها وأهمها ، ويغطي معظم الشعر المنحول . صنعوه ، لرواج سوق الشعر الجاهلي في تلك الأيام ، وللطلب الكثير الذي كان إذ ذاك عليه . وللربح الذي كان يجنيه حامله من روايته ، مما حمل الرواة على وضع الشعر بصوغه على قوالب الشعر الجاهلي وعلى مضامينه وطرقه في التنقل في القصيدة ، وقد أجاد فيه أساتذة الصنعة من أمثال (حماد) الراوية و (خلف) الأحمر ، وليس في الرواة جميعاً من يدانيهما في الصنعة وإحكامها ، فهما طبقة في التأريخ كله [2] .

ومن أمثلة المصنوع أبياتاً مطلعها :

قل لعمرو : يا بن هند   لو رأيت القوم شنّا

أنشدها خلف الأحمر ، وهي مصنوعة [3] .

ومن أمثلة التطويل في الشعر ، ما فعلوه بأبيات الطيرة للحارث بن حلزة ، وهي أربعة أبيات ، ولكنهم جعلوها قصيدة طويلة . والأبيات هي :

يا أيها المُزمع ثم انثني   لا يثنك الحادي ولا الشاحجُ
ولا قعيد أعضب قَرنُهُ   هاج له من مَربع هائج
بينا الفتى يَسْعَى ويُسعى له   تاح له من أمره خالجُ
يترك ما رقح من عيشه   يعيش منه همج هائج [4]

وروي ان قول الأعشى :

كتميل النشوان يـر   فل في البقيرة وفي الإزارة

---

١ الرافعي (١/٣٧٩) .
٢ الرافعي (١/٣٨٣) .
٣ المزهر (١/١٧٨ وما بعدها) .
٤ الرافعي (١/٣٨٤) .

هو من قصيدة مصنوعة[1] . وروى (أبو عبيدة) عن (أبي عمرو) ، انه قال : « والله ما كذبت فيا رويته حرفاً قط ، ولا زدت فيه شيئاً إلا بيتاً في شعر الأعشى ، فإني زدته ، فقلت :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيبَ والصلعا »[2]

وروي ان « حماداً كان يقول : ما من شاعر إلا وقد حققت في شعره أبياتاً فجازت عنه ، إلا الأعشى ، أعشى بكر ، فإني لم أزد في شعره قط غير بيت. قيل له : وما البيت ؟ فقال :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت »[3] .

فأنت أمام روايتين متناقضتين ، رواية تنسب وضع البيت الى (أبي عمرو بن العلاء) ، ورواية تنسب وضع ذلك البيت الى (حماد) . وسبب التناقض العصبية ولا شك .

ويجب أن نضيف على الشعر المصنوع على ألسنة الجاهليين ، الشعر الذي وضع على ألسنة الصعاليك واللصوص ، فقد كان الناس يتسقطون أخبار هؤلاء ويتلذذون بسماع مغامراتهم وسطوهم ، شأن الناس في كل وقت ومكان من الميل الى التلذذ بسماع مثل هذه الأخبار ، وهذا ما حمل صناع الأخبار والأساطير على وضع الشعر على ألسنة الصعاليك واللصوص لتزيين أخبارهم وترصيعها بـه ، على طريقتهم في رواية أيام العرب وأخبارهم ، وفي شعر هذه الطبقة شعر كثير مصنوع .

وهناك شعر وضع للتسلية وللهو من ذلك شعر الفسق والمجون ، من ذلك مـا نسب الى (ابنة الخس) من قول ، هو :

سلوا نساء أشجع   أي الأيور أنفع
أألطويل النعنــع   أم القصير المِردَع
أم الذي لا يرفع   أم الأساك الأصمع

١ الزجاجي ، مجالس العلماء (١٣٠) .
٢ الزجاجي ، مجالس العلماء (٢٣٥) .
٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣٨٣/١ وما بعدها) .

في كل شيء يطمع حتى القريص يصنع[1]

وابنة الخس ، في زعم أهل الأخبـار ، جاهلية قديمة من إياد ، أدركت القلمس ، أحد حكام العرب ، « ولها أسجاع كثـيرة وشعر قليل . وكانت تحاجي الرجال » الى أن حاجها رجل ، فقال لها قولاً بذيئاً أخجلها ، فتركت المحاجاة[2] . وأورد الشريف (المرتضى) لها أجوبة عن أسئلة معضلـة محيرة ، لتحزر جوابها ، وذكر أجوبتها ، رواية عن (ابن الأعرابي)[3] .

والشعر الذي نسبه (أبو محمد ثابت بن أبي ثابت) اليها ، هـو من الشعر المصنوع بالطبع ، وضع على لسان (ابنة الخس) ، وقد نص (تاج العروس) على أن قائله (جارية كانت جلعة)[4] ، وهو من وضع المجّان ، الذين كانوا يتلذذون بسماع هذا النوع من المجون .

وكان (ابن أبي كريعة) ، يصنع الشعر وينحله بعض شعراء البادية ، كما صنع في قصيدة له في وصف الفأر ، نحلها (يزيد بن ناجية) السعدي ، «وكان لقي من الفأر جهداً ، فدعا عليهن بالسنانير » ، وكان يصطنع شعر الفكاهة ، ويحاكي فيه (الحكم بن عبدل) الأسدي[5] . وهناك كثير من اضرابه ، ممن وضع الشعر للتسلية وللتفكهة على ألسنة الأعراب والشعراء الجاهليين .

وقد وضع (خلف) الأحمر قصائد عدة على فحول الشعراء ، ذكروا منهـا قصيدة الشنفرى المشهورة بلامية العرب . وروي عن الأصمعي قوله : سمعت خلفاً يقول : أنا وضعت على النابغة هذه القصيدة التي فيها :

خيل صيامٌ وخيل غير صائمـةٍ تحت العجاج ، وأخرى تعلك اللجما[6]

---

١ كتاب خلق الانسان (٢٧٩) ، (لابن أبي ثابت) ، المخصص (٣١/٢) ، اللسان (٢٧١/٨) ، (قرصع) ، (لم يذكر اسم قائله) ، (٣٥٨/٨) ، (ولم يذكر اسم قائله كذلك) ، تاج العروس (٤٦٠/٥) ، (قرصع) ، (قاله أبو عمرو . وأنشد لجارية كانت جلعة) ، (٥٢٧/٥) ، (نعنع) .
٢ بلوغ الارب (٢٣٩/١) .
٣ امالي المرتضى (٢٢٠/١) .
٤ تاج العروس (٥٢٧/٥) ، (نعنع) .
٥ البخلاء (٢٨٢ وما بعدها) ، « الحكم بن عبدل » من شعراء أيام الامويين .
٦ الرافعي (٣٨١/١) .

ومما يدخل في هذا الباب اننا نجد بيتاً أو أبياتاً تنسب في أحد الموارد لشاعر، بينما نرى ديوانه خالياً منه أو منها ، من ذلك ما رواه (المعري) ، من انه لما كان ببغداد ، شاهد بعض الورّاقين يسأل عن قافية (عدي بن زيد) التي أولها:

بكر العاذلات في غلس الصبـ ـح يعاتبنه أما تستفيق

وزعم الورّاق ان بعض طلاب شعر هذا الشاعر سأل عن هـذه القصيدة ، وطلبت في نسخ من ديوان (عدي) فلم توجد . ثم سمع بعد ذلك رجلاً من أهل (استراباذ) يقرأ هذه القافية في ديوان (العبادي) ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم[1]. وذكر أشياء أخرى من هذا القبيل ، تراها في كتاب أو في نسخة من نسخ ديوان الشاعر ، بينما لا تراها في نسخ الديوان الأخرى ، مما يدل على ان الدواوين لم تكن متفقة في النص ، وانها رويت بروايات مختلفـة ، وان في بعضها ما يزيد على البعض الآخر[2] .

ونحل الشعر ، وإن وقع وحدث ، غير ان أمره لم يفت على بال العلماء المهرة الحاذقين ، ودليل ذلك ، ما نجده في كتبهم من الإشارات الى المنحول والمصنوع من الشعر ، ومن نصهم عليه ، وإن فات عليهم بعضه،ومن نصهم على المنحول ومن ملاحظاتهم تلك أخذ المستشرقون والمحدثون من العرب آراءهم في الشعر الجاهلي، فما أورده (ماركليوث) مثلاً من نقد على الشعر الجاهلي ، أو ما أورده (الدكتور طه حسين) من رأي فيه ، ليس فيه شيء جديد ، وجديده الوحيد ، هو في التهويل بمقدار المغشوش من هذا الشعر ، أما من حيث المبـدأ ، أي من حيث وجود شعر منحول فاسد ، في الشعر الجاهلي ، فالقدماء والمحدثون والمستشرقون متفقون في ذلك ، وخلافهم الوحيد ، هو في مقدار نسبة الفاسد من الشعر بالنسبة الى الصحيح .

فما قيل عن نحل الشعر إذن هو قول قديم . روي عن الأصمعي أنـه قال : « كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس ، فهو من حماد الراوية إلا نتفـاً سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء »[3]. وروي عن (حماد) الراوية قوله:

---

١ رسالة الغفران (١٤٦ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (٥١٣) .
٣ مراتب النحويين ، لابي الطيب اللغوي (ص ٧٢) .

« دخل علينا ذو الرمة الكوفة ، فلم نر أحسن ولا أفصح ولا أعلم بغريب منه . فغم ذلك كثيراً من أهل المدينه » ، فأرادوا الكيد له بامتحانه ، فصنعوا شعراً على ألسنة بعض الجاهليين ، وأنشدوه إياها ، فعلم ذلك (ذو الرمة) بعلمه وبمعرفته للشعر الجاهلي ، أنه شعر مصنوع ، فقال لهم : « ما أحسب أن هذا من كلام العرب »[1] .

وقد زيد في شعر (امرىء القيس) كثيراً ، وقد عدّه علماء الشعر من المقلّين، وجعل بعضهم الصحيح من شعره نيفاً وعشرين شعراً بين طويل وقطعة[2] . وفي جملة ما نسب اليه القصيدة المسمطة ، وهي :

توهمت من هنـد معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مرابعُ من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطالِ[3]

ونرى (ابن سلام) يقول : « ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد . والذي صح لهما قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهن ، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة ، وإن كان ما يروى من الغثاء لهما فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة . ونرى ان غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير ان الذي نالهما من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذلك . فلما قل كلامهما حُمل عليهما حمل كثير ، ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة »[4] . ولما تحدث عن (عبيد بن الأبرص) قال : « وعبيد بن الأبرص ، قديم عظيم الذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

---

١ الاغاني (١٦/١١٧) .
٢ العمدة (١/١٠٥) .
٣ العمدة (١/١٧٦) .
٤ طبقات (١٠ وما بعدها) .

ولا أدري ما بعد ذلك »[1] . فهو مع علمه الواسع بالشعر ، واستشهاد العلماء بكلامه وبآرائه في الشعر ، لا يعرف لعبيد غير هذا الشعر ، مع العلم بأنه قد توفي سنة (٢٣١ هـ) ، وفي أيامه كان الناس يموتون في طلب الشعر الجاهلي . ونجد (ابن قتيبة) المتوفى بعده (٢٧٠ هـ) ، يذكر له شعراً مطلعه :

يا عين فابكي بني أسدٍ هم أهل الندامة[2]

ثم قوله مخاطباً امرأ القيس :

يا ذا المخوّفنا بقتل أبيه إذلالاً وحيْنا
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذباً ومينا[3]

ثم قوله :

هلا سألت جموع كندة يوم ولّوا هاربينا[4]

وقد ذكر (ابن سلام) أن الرواة قد وضعوا على (عدي بن زيد) شعراً كثيراً ، وعلل ذلك بقوله : « وعدي بن زيـد ، كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد. واضطرب فيه خلف ، وخلط فيه المفضل فأكثر . وله أربع قصائد غرر روائع مبرزات،وله بعدهن شعر حسن »[5] . ولابن قتيبة هذا الرأي فيه ، حيث يقول : « وكان يسكن بالحيرة ، ويدخل الأرياف ، فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة . وله أربع قصائد غرر »[6] . وذكر نقلاً عن (أبي عبيدة) عن (أبي عمرو بن العلاء) أن « العرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية ، وكان نصرانياً من عباد الحيرة ، قد قرأ الكتب »[7] .

---

١ طبقات (١١ ، ٣١) .
٢ الشعر والشعراء (١/٥٠) ، ديوان عبيد (١٢٥) .
٣ الشعر والشعراء (١/٥٢) ، ديوان عبيد (١٣٦) .
٤ الشعر والشعراء (١/٥٨) .
٥ طبقات (٣١) ، العمدة (١/١٠٤) .
٦ الشعر والشعراء (١/١٥٠) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٥٤) .

وقد تعرض القدماء لموضوع الشعر المقال على ألسنة الأمم القديمة وملوكها ، فرفض (ابن سلام) ذلك الشعر ، بقوله : « وإنما قصدت القصائد وطُوِّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، وذلك يدل على إسقاط عاد وثمود وحمير وتبع »[1] . إذن فما أضيف الى هؤلاء والى أهل اليمن هو شعر منتحل.

ومن أصحاب البصر والنظر في الشعر : (خلف الأحمر) . « وقد كان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الأحمر في حلبة هذه الصناعة ، أعني النقد ، ولا يشقون له غباراً ، لنفاذه فيها ، وحذقه بها ، وإجادته لها »[2]. وعلمه بالشعر ، جعله من كبار الوضاعين له على ألسنة الجاهليين .

وبعد ، فإننا لا نستطيع بالطبع التصديق بصحة الشعر المنسوب الى آدم والجن والتبابعة وأهل العربية الجنوبية وغيرهم ممن لا يعقل قولهم الشعر العربي ، وإن نص على صحة ذلك الشعر ، ورواه العلماء . أما سبب رفضنا قبول الشعر المنسوب الى أهل العربية الجنوبية من ملوك وأقيال ورؤساء، فلأنهم كانوا يتكلمون ويكتبون كما هو ثابت لدينا من نصوصهم بلغة تختلف عن لغة الشعر المألوفة، ولو تصورنا انهم كانوا ينظمون الشعر بلغة الشعر المعروفة ، ويكتبون ويتكلمون بلغة أخرى : فإننا نكون قد قلنا برأي مخالف للمعقول وللمنطق ، ونكون قد أوجدنا لهم لغة للشعر ولغة للنثر ، وهو افتراض لا يمكن لأحد إثباته ، ثم إن لغة التدوين تكون في العادة لغة الأدب عامة من شعر ومن نثر ، لذا فإذا قلنا بوجود شعر جاهلي للعرب الجنوبيين ، قلنا يجب أن يكون هذا الشعر بلغتهم ، لا بلغة هذا الشعر الجاهلي الذي نتحدث عنه .

وبعد ، فلعل قائلاً يقول : وما فائدة الشعر الجاهلي اذن ، اذا كان هذا شأنه فيه المنحول والفاسد ، وما يشك في أصله ؟ والجواب : ان العلماء ، وان اختلفوا فيه ، مجمعون ومتفقون على ان رواة هذا الشعر وحملته كانوا من أعلم الناس بالجاهلية : بأخبارها وبأيامها وبأنسابها ، وبأنهم كانوا من أمرس الناس بالشعر الجاهلي وبطرقه ودروبه ، فهم إن وضعوا ولفقوا ، أو كيفوا ، فإنهم لا يضعون عن جهل وعمى ، بل عن علم وفهم بالجاهليين وبمذاهبهم في نظم

---

١ طبقات (١١) .
٢ العمدة (١/١١٧) .

الشعر والتفسير ، ولا سيما ان العهد بينهم وبين الجاهلية لم يكن طويلاً ،وان الأخذ عمن شهد الجاهلية أو أخذ منهم وسمع كان ممكناً يسيراً ، ومن هنا كان ما رووه من شعر جاهلي مادة مهمة للمؤرخ مهما قيل في أمره .

ثم إننا حين نروي الشعر الجاهلي ، فلا نرويه أو ننشده ، أو نحفظه لأنه شعر مقدس ، لا يجوز أن يمسه أحد بسوء ، وانه تراث خالد ، إذا تعرض له إنسان أو تحرش به ، فإنما هو يتعرض لأثر تأريخي قديم من آثار هذه الأمة ، وإنما نرويه على أنه من مرويات العلماء ، وأنه مهما قيل فيه وفي أصله ، فإنه يحاول أن يصوّر لنا أحوال زمن سبق الإسلام ، وهو زمن مهم جداً بالنسبة لنا ، لاتصاله بالاسلام ، ولقيام الاسلام عليه ، ولكونه فصولاً متقدمة مجهولة من كتاب ناقص ، ضاعت فصوله الأولى ، هو كتاب في تأريخ العرب منذ القدم الى هذا اليوم ، فإذا فقدنا الأصول ، فلا بأس بالتسلي بما نسبه المتأخرون على الأقل الى المتقدمين ، مهما كان بعد هذا المنسوب عن الصحة والحق ، ومهما كانت نسبة الباطل فيه كبيرة ، وحتى إذا كانت النسبة مائة بالمائة ، وهي نسبة نبالغ فيها بالطبع ، لا أعتقد أن أحداً سيراها ، مهما بلغ به الشك والحذر بالنسبة الى أصالة الشعر الجاهلي ، ومن هنا فإن النزاع الدائر حول صحة الشعر الجاهلي ، والذي سيبقى مثاراً قائماً ، حتى يظهر أثر جاهلي مكتوب ، وعندئذ فقد يحسم شيئاً من مواضع الخلاف المؤلفة لهذا النزاع ، يجب ألا يحملنا على الابتعاد عن هذا الشعر ، باعتبار أنه لا يمثل الجاهلية تمثيلاً صحيحاً ، وانه شعر مكذوب منحول ، وإنما يجب أن يدفعنا — على العكس — الى الاهتمام به ، باعتبار أنه من أقدم الآثار التي وصلت الينا ، المدوّنة في الاسلام . وأنها إن كانت منحولة ، فان نحلها على ألسنة الجاهليين ، نحل قديم ، يعتبر تأريخياً من أقدم المنحولات الواصلة الينا في المدوّنات الاسلامية ، وأنها تمثل صنعة وصناعة صنّاع ، حاولوا تقليد الماضي ، على ما وصل خبره اليهم ، فصاغوه على تلك الصياغة ، فهو أثر أصيل لأقدم مصنوعات ومحاكاة وتقليد لآثار قديمة لها صلة بتأريخ العرب القديم .

وأرى في الوقت نفسه ان من الضروري وجوب تقصي الأخبار عن الشعر المصنوع ، وتتبع المراجع للوصول الى أقدم مرجع ورد فيه كل شعر مصنوع ، وتسجيل الأبيات والقطع والقصائد التي ترد لأول مرة في أقدم مورد من الموارد ، والنص على اسم المورد ، وعلى سنده إن كان مذكوراً ، لنتمكن بهذه الدراسة

من الوصول الى اسم صانع الشعر ، أو الزمن الذي ظهر فيه ذلك الشعر ان كان الاسم مجهولاً ، كما نقوم بتسجيل الموارد التي يرد فيها شعر الشعراء ، وما اختلفت فيه بعضها عن بعض من حيث الألفاظ ، أو ترتيب الأبيات ، أو عددها ، ثم أسماء من نسبت اليهم تلك الأشعار ، فقد ينسب الشعر الواحد الى جملة شعراء ، وتسجيل أسماء من روى ذلك ، واسم المصدر ،وبذلك نكون قد قمنا بدراسة علمية قيّمة عن الشعر المصنوع وعن الشعر الأصيل الذي لم يشك في أصالته عالم من علماء الشعر ، ثم نعرض النتائج للبحث بأساليب النقد الحديثة لاستخراج الزائف منه ، ولاستبعاد صدور بعضه من الشعراء الجاهليين،نفعل ذلك حتى في حالة علم وورود رواية لعالم قديم تشك في صحة شعـر ، لأن سكوت العلماء عن الشك في شعر ، لا يكون حجة على صحة ذلك الشعر .

الفصل السادس والخمسون بعد المئة

أولية الشعر الجاهلي

لا نملك نصوصاً جاهلية مدونة عن مبدأ الشعر عند العرب،وعن كيفية ظهوره وتطوره الى بلوغه المرحلة التي وصلها عند ظهور الاسلام . ولم يعثر العلماء على شعر مدون بقلم جاهلي ، ليكون لنا نبراساً يعيننا في تكوين صورة عن ذلك الشعر وعن هيكله ومادته التي تكوّن منها . وكل ما نعرفه عن هذا الشعر مستمد من موارد اسلامية،أخذت علمها به من أفواه الرواة ، فلما جاء التدوين دوّن ما وعته الذاكرة مما أخذته عن المتقدمين بالرواية ، فتثبت واستقر ، بعد أن كان المروي عرضة للتغيير والتحريف كلما تنقل من لسان الى لسان ، ومن وقت الى وقت .

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع قدم الشعر العربي وتأريخه ، فقال: « وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق اليه، امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له الى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام »[1] . وذهب (عمر بن شبة) الى أن « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه ، وقد اختلف في ذلك العلماء ، وادعت القبائل كل قبيلة لشاعرها أنه الأول.. فادعت اليمانية لامرىء القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلهل ، وبكر لعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر ، وإياد لأبي دؤاد ... وزعم بعضهم أن

---

١ الحيوان (٧٤/١) .

الأفوه الأودي أقدم من هؤلاء ، وانه أول من قصد القصيد ، قال : وهؤلاء النفر المدعى لهم التقدم في الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها »[1] . وذهب (الأصمعي) الى ان بين أول شاعر معروف ، قال كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر ، وهو (مهلهل) ، وبين الاسلام أربعمائة سنة . « وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير »[2] .

وقال (الأصمعي) في رواية تنسب اليه ، « ان أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة ، رجل من بني كنانة ، والأضبط بن قريع . قال : وكان بين هؤلاء وبين الاسلام أربعمائة سنة ، وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير »[3] . « وزعم أبو عمرو بن العلاء : ان الشعر فتح بامرىء القيس وختم بذي الرمة »[4] .

وذكر انه « لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات التي يقولها الرجل في حاجته ، وانما قصدت القصائد ، وطول الشعر على عهد عبد المطلب ، أو هاشم ابن عبد مناف »[5] .

وذكر (المرزباني) ، أن (بكر بن وائل) ، تزعم أن (عمر الضائع) « أول من قال الشعر وقصد القصيد ، وكان امرؤ القيس بن حجر استصحبه لما شخص الى قيصر يستمده على بني أسد ، فمات في سفره ذلك فسمته بكر عمراً الضائع »[6] . فعمرو الضائع ، هو أول من قال الشعر وقصد القصيد على رأي بكر بن وائل على رواية (المرزباني) .

وقد أورد (ابن اسحاق) شعراً نسبه الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرهمي ، زعم أنه قاله لما خرج بقومه من مكة الى اليمن ، أوله :

وقائلة والدمع سكب مبادر وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما يلجلجه بين الجناحين طائر

---

١ المزهر (٤٧٧/٢) ، ابن سلام ، طبقات (٣) ، المرزباني ، الموشح (٧٤) .
٢ المزهر (٤٧٧/٢) .
٣ المزهر (٤٧٧/٢) .
٤ البيان والتبيين (١١٥) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .
٥ المزهر (٤٧٧/٢) .
٦ معجم (٤) .

الى آخــر القصيدة التي يتوجع فيها لمفارقته مع قومه مكة ، ونسب لــه أبياتاً أخرى هي :

يا أيها الناس سيروا ان قصركم أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
حثوا المطايا وأرخوا من أزمتهـا قبل الممات وقضوا مـــا تقضونا
كنّا أناساً كما كنتم فغيرنـــا دهر فأنتم كما كنّـــا تكونونا

وقد ذكر (ابن هشام) ان « هذا ما صح له منها » وان بعض أهل العلم بالشعر يقول إن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب[1] .

ودون (السهيلي) صاحب (الروض الأنف) شعراً أخذه من كتاب (أبي بحر سفيان بن العاصي) زعم أنه وجد في بئر باليمامة ، وهي بئر طسم وجديس ، في قرية يقال لها (معنق) بينها وبين الحجر ميل[2] ، وكان مكتوباً على ثلاثـــة أحجار ، كتبها قوم من بقايا عاد ، غزاهم تبع ، كتب على الحجر الأول :

يا أيها الملك الذي بالملك ساعده زمانـــه
ما أنت أول من علا وعلا شؤون الناس شانه
أقصر عليك مراقباً فالدهر مخـــذول أمانه
كم من أشم معصب بالتاج مرهوب مكانه
قد كان ساعده الزما ن وكان ذا خفض جنانه
تجري الجداول حوله للجنـــد مترعة جفانه
وقــد فاجأته منيـــة لم ينجه منها اكتنانه
وتفرقـــت أجنـــاده عنــه وناح بــه قيانه
والدهر من يعلق به يطحنــه مفترشاً جرانه
والناس شتّى في الهوى كالمرء مختلف بنانـــه
والصدق أفضل شيمة والمـــرء يقتلــه لسانــه
والصمت أسعد للفتى ولقـــد يشرفه بيانـه

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٨٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .

٢ الروض الانف (١/٨٢ وما بعدها) .

وكتب على الحجر الثاني :

كــل عيش تعله[1] ليس للدهــر خله
يوم بؤس ونعمى واجــتماع وقلــه
حبنا العيش والتكا ثر جهــل وضلــه
بينما المــرء ناعم في قصور مظلــه
في ظــلال ونعمة ساحباً ذيل حله
لا يرى الشمس ملغضا رة إذ زال زله
لم يقلهــا وبدلت عزة المــرء ذله
آفة العيش والنعـ ـيم كرور الأهله
وصل يــوم بليلة واعتراض بعلــه
والمنايــا جــواثم كالقصور المدلــه
بالذي تكــره النفـ ـوس عليها مطله

ووجد في الحجر الثالث مكتوباً :

يا أيها الناس سيروا ان قصركم أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
حثوا المطيّ وأرخوا من أزمتها قبل الممات وقضوا ما تقضونا
كنــا أناساً كــما كنتم فغيرنا دهر فأنتم كما كنّا تكونونا[1]

وقد أضاف (الأزرقي) زيادات على هذه الأبيات الأخيرة .

والأبيات التي زعم أنها وجدت مدوّنة على الحجر الثالث ، هي نفس الأبيات التي نسبها (ابن اسحاق) الى (عمرو بن الحارث بن مضاض) الجرهمي كما رأيت . ويظهر أن واضع هذه الأبيات قد استعان بالأبيات التي وجدت في سيرة (ابن هشام) ، أو أنه أخذها من سيرة (ابن اسحاق) . ويلاحظ أنهــا في الحث على الزهد والترغيب في الآخرة . ولو لم يكن هذا الشعر من النوع المصنوع، لكان من أقدم ما وصل الينا من الشعر الجاهلي ولا شك .

و « العلماء من العرب الذين قالوا بعدة مائة وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي،

---

١ الروض الانف (١/٨٢ وما بعدها) .

لم يبعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ما وصل الينا من الأشعار القديمة »[1] ، بمعنى أن أقدم ما وصل الى علمنا من ذلك الشعر بصورة لا يرتاب بصحتها ، لا يمكن أن يرتقي عهده أكثر من قرن أو قرن ونصف عن الهجرة على أكثر تقدير ، وأن أقدم اسم شاعر جاهلي وصل الى سمعنا لا يرتقي عهده عن هذا التقدير . أما إذا كان قصدهم أن نظم القصيد كان قد بدأ في هذا الوقت ، وأن الشعر بالمعنى الاصطلاحي المفهوم منه لم يظهر عند العرب ، إلا قبل قرن أو قرنين عن الإسلام ، فذلك خطل في الرأي ، وفساد في الحكم . فالشعر أقدم من هذا العهد بكثير ، وقد أشار المؤرخ (سوزيموس) « Zosimus » الى وجود الشعر عند العرب ، وهو من رجال القرن الخامس للميلاد ، الى تغني العرب بأشعارهم ، وترنيمهم في غزواتهم بها[2] ، وفي إشارته الى الشعر عند العرب دلالة على قدم وجوده عندهم ، واشتهاره شهرة بلغت مسامع الأعاجم ، فذكره في تأريخه . وفي سيرة القديس (نيلوس) « Nilus » المتوفى حوالى السنة (٤٣٠) بعد الميلاد ، أن أعراب طور سيناء كانوا يغنون أغاني وهم يستقون من البئر . وهي أشعار ترنم بإيقاع ، تشبه أناشيد العبرانيين عند استقائهم الماء من الآبار . « حينئذ ترنم اسرائيل بهذا النشيد : اصعدي أيتها البئر أجيبوا لها ، بئر حفرها رؤساء ، حفرها شرفاء الشعب بصولجان بعصيهم »[3] ، والأشعار المروية في كتب التواريخ والأدب عن حفر آبار مكة وغيرها من هذا القبيل ، فقد روي أن (عبد المطلب) لما حفر بئر (زمزم) ، قالت (خالدة بنت هاشم) :

نحن وهبنا لعدي سجله في تربة ذات عذاة سهله
تروي الحجيج زعلة فزعله

وأن (عبد شمس) قال :

حفرت خمّا وحفرت رما حتى أرى المجد لنا قد تما

---

١ كارلو نالينو ، تأريخ الاداب العربية (ص ٦٨ وما بعدها) ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م ، دار المعارف بمصر) .

٢ Die Araber, II, S. 330.

٣ العدد ، الاصحاح ٢١ ، الآية ١٧ .

وان (سبيعة) بنت (عبد شمس) قالت في الطوى :

إن الطوى إذا شربتم ماءها صوب الغمام عذوبة وصفاء

وان (الحويرث بن أسد) ، قال في (شفية) :

ماء شفية كماء المزن وليس ماؤها بطرق أجن

وان (أميمة بنت عميلة بن السباق بن عبد الدار) قالت في حفر بئر (أم أحراد) :

نحن حفرنا البحر أم أحراد ليست كبذر النثر والجماد

فأجابتها (صفية بنت عبد المطلب) :

نحن حفرنا بــذر تروي الحجيج الأكبر
من مقبـل ومدبر وأم أحـــراد بشـر
فيها الجراد والذر وقــذر لا يذكــر

ولما حفر بنو جمح (السنبلة) ، وهي بئر (خلف بن وهب) الجمحي ، قال قائلهم :

نحن حفرنا للحجيج سنبله صوب سحاب ذو الجلال أنزله

وحفر بنو سهم الغمر ، وهي بئر العاصي بن وائل ، قال ابن الربعي أو غيره:

نحن حفرنا الغمر للحجيج تثـج ماء أيمــا ثجيــج

وحفرت بنو عدي (الحفير) فقال شاعرهم :

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا بحـراً يجيش ماؤه غزيرا [1]

وورد ان (قصياً) لما احتفر (العجول) ، قال شاعرهم :

نروي على العجول ثم ننطلق إن قصياً قد وفى وقد صدق

---

١ البلاذري ، فتوح البلدان (٦٠ وما بعدها) ، (ذكر حفائر مكة) ، الروض الانف (١٠١/١ وما بعدها) . ويرد الشعر بروايات مختلفة بعض الاختلاف .

وان قصياً لما احتفر (سجلة) ، قال :

أنا قصيٌ وحفرت سجلة تروي الحجيج زغلة فزغلة

وقيل بل حفرها (هاشم) ، ووهبها (أسد بن هاشم) لعدي بن نوفل ، فقالت : خلدة بنت هاشم :

نحن وهبنا لعدي سجلة تروي الحجيج زغلة فزغلة

ونجد في كتب السير شعراً قيل في حفر بئر زمزم[1] ، وفي آبار أخرى ، مما يدل على ان العرب كانوا قبل هذا العهد ، اذا حفروا بئراً ، قالوا شعراً فيها ، وهو شعر يمكن أن نسميه شعر الآبار ، وهو يعود ولا شك الى عرف قديم ، قد يتقدم على الميلاد بكثير ، وهو يجب أن يكون من أقدم ما قيل من الشعر ، لما للبئر من أهمية في حياة العرب .

ولم يقتصر التغني بالشعر على حفر الآبار وحدها ، وإنما تغني به عند بنائهم بناء أو حفرهم خندقاً ، أو اقامتهم سوراً ، أو قيامهم بزرع أو حصاد ، وفي أعمال أخرى يناط القيام بها الى جماعة في الغالب ، وكذلك في الغارات وفي الحروب. ولما شرع المسلمون يبنون مسجد الرسول بالمدينة ، قال قائل منهم :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منّا العمل المضلل

فارتجز المسلمون وهم يبنون ، يقولون :

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم فارحم الأنصار والمهاجرة

وقال (ابن هشام) : هذا كلام وليس برجز[2] ، وسبب ذلك كون قائله هو الرسول .

وقيل إنه قال :

اللهم لا عيشَ إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

---

١ ابن هشام ، سيرة (٩٧/١) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٩٧/١) .
٢ ابن هشام ، سيرة (١٢/٢) ، (حاشية على الروض) .

وجعل يقول :

هذا الجمال لا جمال خيبر هذا أبرّ ، ربنا ، وأطهر[1]

ويروي أهل الأخبار أن (المهلهل) ، كان يتغنى في شعره حين قال :

طفلةٌ ما ابنةُ المحلل بيضا ءُ لعوبٌ لذيذة في العناقِ[2]

ورووا أن من الشعراء الجاهليين من كان يتغنى بشعره ، وان حسّان بن ثابت أشار الى التغني بالشعر بقوله :

تَغَنَّ بالشعر إما كنتَ قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمارُ[3]

وقد قصد بذلك ، ترنيم الشعر وإنشاده على نغم مؤثر ، وهو الغناء . وما زال الشعراء ، يترنمون بشعرهم ، وينشدونه بأسلوب خاص يميزه عن أسلوب إلقاء النثر .

ونجد في أخبار غزوة أحد ، أن هنداً بنت عتبة ، زوجة أبي سفيان،ونسوة من قريش كنّ يضربن على الدفوف ويتغنين بالشعر ، حيث يقولون :

نحن بناتُ طارقْ إن تُقْبلوا نعانق
ونبسط النمارق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وتقول :

وَيهاً بني عبد الدار وَيهاً حماة الأدبار
ضرباً بكلّ بتار[4]

ولا بد وأن تكون في الأهازيج وفي أشعار الحج ، أنغام يرنم على وقعها الشعر ،

---

١ ابن سعد طبقات (١/٢٤٠) ، (صادر) .
٢ الاغاني (٥/٥١) .
٣ العمدة (٢/٢٤١) .
٤ الطبري (٢/٥١٠ ، ٥١٢) .

الذي هو شعر الغناء. فإننا نجد في النتف الباقية من الجمل التي كان يقولها الحجاج أثناء حجهم ، آثار شعر قد كان مقروناً بالغناء .

ونظراً لوجود تماس مباشر بين هذا الشعر وبين الحياة العامة، فإن في استطاعتنا القول ، انه قد يكون من أقدم أنواع الشعر عند العرب ، وهو شعر لم ينبع من ألسنة الشعراء المحترفين ، وانما خرج على كل لسان ، وساهم فيه كل شخص : رجل أو امرأة ، مثقف أو جاهل ، حكيم أو سوقي . وهو بعد نابع من صميم الحياة ، ومن باطن القلب ، للترفيه عن النفس ، ولتخفيف التعب ، ولا زال الناس يتغنون عند وقوع مثل هذه الأمور لهم ، وهو غناء لم يحظ ويا للأسف بالرعاية والعناية ، لذلك لا نجد له ذكراً في الكتب إلا بالمناسبات .

ويرى العلماء المشتغلون بموضوع الشعر من الغربيين ، ان بين الشعر والسحر صلة كبيرة ، بل رأى بعض منهم ان الغرض الذي قصد اليه من الشعر في الأصل هو السحر ، ودليل ذلك ان الغناء عند الشعوب البدائية ، ليس متسقاً مع نغم العمل وايقاع اليد العاملة ، فنجد الغناء عند البناء أو الجر أو الحفر ، أو الزرع لا يتسق مع نوع حركة العمل ، وانما كان يسلّي العمال ويسعفهم بقوى سحرية، وهو الغرض من جميع فن القول عند البدائيين، أي تشجيع العمل بطريق سحري[1].

وقد ذهب (بروكلمن) و (كولدتزيهر) الى ان هذا الأثر السحري لا يظهر في الشعر العربي القديم إلا في شعر الهجاء ، « فمن قبل أن ينحدر الهجاء الى شعر السخرية والاستهزاء ، كان في يد الشاعر سحراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري . ومن ثم كان الشاعر ، اذا تهيأ لإطلاق مثل ذلك اللعن ، يلبس زياً خاصاً شبيهاً بزي الكاهن . ومن هنا أيضاً تسميته بالشاعر ، أي العالم ، لا بمعنى انه كان عالماً بخصائص فن أو صناعة معينة ، بل بمعنى انه كان شاعراً بقوة شعره السحرية ، كما ان قصيدته كانت هي القالب المادي لذلك الشعر »[2] .

وكانت غاية الأغاني القصيرة ، التي يرددها البدائي في المواقف الكبرى للحياة

---

١ بروكلمن (١/٤٥) ،
K. Th. Preuss, Die Geistige Kultur der Naturvölker, Leipzig — Berlin, 1914, S. 85.

٢ بروكلمن (١/٤٦) ، I. Goldziher, Abhand. Zur Arab. Philologie, I, I.

الانسانية ، أن تحدث آثاراً سحرية ، وكذلك كانت غاية الرثاء الأصلية أيضاً هي السحر ، « فقد كان الغرض من المرثية أن تطفىء غضب المقتول وتنهاه أن يرجع الى الحياة ، فيلحق الأضرار بالأحياء الباقين ، ولكن هذا المعنى تلاشى تقريباً في الجزيرة العربية أمام الشعور الانساني بالحزن الممض . على ان إظهار الحزن لم يكن يناسب رجال القبيلة كما كان لائقاً بنسائها ، وخاصة بالأخوات ، ومن ثم بقي تعهد الرثاء الفني من مقاصدهن حتى عصر التسجيل التأريخي »[1] .

وقد لعبت الأغاني دوراً كبيراً في الصيد والحرب ، فقد رافقتها منذ أوائل انشغال الإنسان بهما . ولم يكن الصيد متعة وتسلية ورياضة عند العرب حسب ، بل كان لسدّ حاجة وللتغلب على شغف العيش أيضاً ، ونجد في الشعر الجاهلي شعراً جعل الصيد ، نوعاً من الرياضة والتسلية ، واظهار الرجولة في التغلب على الوحش الكاسر ، والحيوان المتوحش ، وأكثر أصحابه من المترفين والمتمكنين ، من أصحاب الخيل السريعة، مثل الملوك وسادات القبائل ، والشعراء الذين يرافقونهم في رحلات صيدهم ، أو يقومون هم أنفسهم برياضة الصيد .

ويلعب الغزو دوراً خطيراً في حياة الجاهليين ، فقد كان الغزو في الواقع نوعاً من أنواع الكفاح في سبيل الحياة، عليه معاشهم ، وبواسطته يحافظون على حياتهم وأموالهم ، وقد أنتج ضرباً من ضروب الشجاعة والمغامرة ، يتجلى في الشعر الحماسي ، الذي يقال قبل القتال وفي أثناء احتدامه . ونكاد لا نقرأ خبر يوم من أيام العرب أو غزو ، أو قتال إلا ونجد للشعر فيه دوراً ومكاناً في هذه الأحداث. يستوي في ذلك شعر الجاهلية والشعر الذي قيل في الأحداث التي وقعت في صدر الإسلام .

ونجد للنسيب ، والغزل مكانة في الشعر الجاهلي ، وقد نجد فيه وصفاً للجمال الحسي لأعضاء الجسد . وقد آخذ العلماء امرأ القيس والأعشى على مجاهرتهما بالفحش وبالزنا في شعرهما . والمجاهرة بالاتصال الجنسي بصورة عارية مكشوفة من الأمور التي لا ترد بكثرة في الشعر الجاهلي[2] .

ولا بد وأن يكون الشعر قد مر في مراحل ، لعل أقدمها مرحلة السجع ،

---

١ بروكلمن (٤٧/١ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (٤٩/١ وما بعدها) .

أي النثر المقفى المجرد من الوزن ، الذي تخصص فيه الكهان عند ظهور الاسلام. وهو والد (الرجز) ، أبسط أبواب الشعر ، ومن الرجز نشأ بناء بحور العروض ، التي يظهر أثر الموسيقى على صياغتها على رأي بعض المستشرقين[1] ، وهو أثر يدل على ما كان للغناء من صلة بالشعر . ولعل هذه الصلة هي التي حملت العلماء على القول بأن بحور الشعر نشأت في الأصل من سير الإبل ، من ترنيم الشاعر شعره على ايقاع سير الإبل . غير ان البحث عن هذا الموضوع وعن موضوع كيفية نشوء بحور العروض وصلتها بعضها ببعض لا تزال من الدراسات العويصة المشكلة الشائكة التي لا يمكن الاتفاق عليها ، لعدم وجود أسس ثابتة يرتكز عليها الجدل القائم بين الباحثين في كيفية تطور الشعر الجاهلي[2] . أما ان هذه البحور ، قد نشأت من سير الإبل[3] ، فكلام لا يقوم على علم ، وهو من باب حدس الحداس، فلدى الشعوب الأخرى شعر ، له ترانيم وبحور ، ومع ذلك ، فإنها لم تكن تركب الإبل ، ولا تعرف ايقاع أرجلها عند المشي .

وقد قام المستشرقون بدراسة البحور التي نظم الشعراء الجاهليون بها شعرهم ، فوجدوا أن البحر الطويل يأتي في المرتبة الأولى من البحور ، يليه الكامل، فالوافر، فالبسيط . أما المتقارب فيوجد عند امرىء القيس ، كما يوجد عنده المنسرح قليلاً . واستعمل (طرفة) الرمل في قصيدة يبلغ طولها (٧٤) بيتاً، ترتيبها الخامس في ديوانه[4] ، كما استعمل السريع في قصيدتين[5] ، واستعمل كل من امرىء القيس وطرفة المديد في قصيدة واحدة[6] ، وأما الخفيف ، فقد وجد في شعر المرقشين، وعبيد بن الأبرص ، وعامر بن الطفيل ، والأعشى ، ولا يوجد الهزج إلا في قطعتين منحولتين ، واحدة لطرفة ، وأخرى لامرىء القيس[7] .

وقد ذهب (غرونباوم) الى أننا نجد تفنناً في شعر شعراء العراق وفي شعر من احتك بالحيرة من شعراء أكثر مما نجده في شعر أي مكان آخر . وذكر أن شعر

---

١ بروكلمن (١/٥١ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/٥١ وما بعدها) .
٣ G. Jacob, Studien in Arabische Dichtem, II, S. 106.
٤ بروكلمن (١/٥٣) .
٥ رقم ٢ و ٣ من الديوان .
٦ بروكلمن (١/٥٣) .
٧ بروكلمن (١/٥٣) .

(أبي دؤاد) الإيادي قد جاء على اثني عشر بحراً ، ثم يرى أن المدرسة العراقية قد أكثرت من بحر الرمل ، ولا يستعمل هذا البحر في الشعر القديم إلا أبو دؤاد في ثلاث قصائد ، وطرفة في ثلاث قصائد ، وعدي في سبع قصائد ، والمثقب في قصيدة واحـــدة ، والأعشى في قصيدتين . واستعمله امرؤ القيس في قصيدة واحـــدة ، ورأى في ذلك دلالة على تأثر امرىء القيس بأبي دؤاد ، وتأييداً للرواية التي ترى أنه كان راوية لأبي دؤاد[1] .

ويجيء امرؤ القيس وعدي والأعشى بعد أبي دؤاد في تنويـــع البحور التي نظموا بها ، فقد نظم كل واحد منهم في عشرة أوزان . وتـدل الدراسات التي قام بها (فرايتاك) على قلة ورود النظم في بحري الرمل والخفيف بالنسبة الى البحور الأخرى[2] . ويظن ان الشعر الوارد في كتاب : (البخلاء) للجاحظ ، وهو :

واعلمن علماً يقيناً انه ليس يرجى لك من ليس معك

المنسوب لعبيد بن الأبرص[3] ، هو من الموضوعات .

ويرى (غرونباوم) ان من خصائص المدرسة العراقية نزوعها الى بحر الخفيف ، وعند أبي دؤاد الايادي خمس عشرة قصيدة بهذا الوزن ، وعند عدي سبع ، وعند الأعشى خمس ، « ولم يستعمل هذا البحر عند سائر الشعراء المعاصرين إلا على نحو عارض »[4] . فورد عند عمرو بن قميئة ، وعند المرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وعامر بن الطفيل ، والحارث بن حلزة اليشكري[5] .

ويظهر مما أورده المفسرون وأهل السير من قول (الوليد بن المغيرة)في الرسول وفي القرآن : « ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر »[6] ، « فجعل الرجز والهزج من أوزان

---

١ غرونباوم (٢٦٥ وما بعدها) .

٢ E. Bräunlich, in Der Islam, XXIV, 1937, S. 248. f., Freitag, Darstallung der Arabischen Verskunst, S. 15, J. Jacob, Altarabisches Beduinenleben, S. 190. f., (1897).

٣ الجاحظ ، البخلاء (١٩٠) ، (طه الحاجري) ، غرونباوم (٨٦) .

٤ غرونباوم (٢٦٦) .

٥ غرونباوم (٢٧٩) ، بروكلمن (١/٥٣) .

٦ ابن هشام ، سيرة (١/١٧٣) ، (حاشية على الروض الانف) .

الشعر ، وقرن بها أسماء غير محددة ، ويبدو أن تحديد هذه المعاني كلها عند العرب كان مختلفاً عن اصطلاحات العروضيين ، وإلا فإن القبض في العروض من عيوب الزحاف ، وهو حذف الحرف الخامس الساكن »[1] . وورد في رواية عن (أبي ذر) : « لقد وضعت قوله على اقراء الشعر ، فلا يلتئم على لسان » ، وقد اختلفوا في المراد من الإقراء[2] ، وفي هذين الخبرين وأمثالها دلالة على أنه قد كان لأهل الجاهلية قواعد ثابتة بالنسبة للشعر ، وأن الشعر كان يعتمد عندهم عليها . وأن علماء العروض : (الخليل بن أحمد) و (الأخفش) لم يتمكنا من ضبط كل بحور الشعر التي كانت عند الجاهليين ، بدليل أننا نجد أبياتاً خارجة عن العروض الذي وضعاه،ويظهر أن هذا الخروج يمثل مرحلة من مراحل الشعر، لم نقف على كنهها بعد[3] . وقد وجد (العيني) أن في الأصمعية المرقة بـ (٧٢) تشعيثاً ، قال عنه (غرونباوم) : « ومثل هذا لا يعدّ خطأ ، بل هو مظهر من مظاهر التطور الفني في هذا الوزن ، مظهراً استنكر أو نسي مع الزمن ، حين وضع علم العروض ، بعد حوالى قرنين من وفاة أبي دؤاد »[4] . وقد ذهب (غرونباوم) الى أن (الخليل) ، أقر « ستة عشر وزناً ، واطرح بعض الأوزان المزيلة التي كان القدماء قد استنبطوها »[5]، والواقع أننا لا نستطيع الزعم، بأن الخليل قد أحاط علماً بكل أنواع العروض العربي الجاهلي .

ومن يفحص الشعر الجاهلي ، يجد ان في بعضه اضطراباً وخروجاً وشذوذاً على قواعد (العروض) ، وقد وجد هذا الشذوذ في شعر شعراء يعدون من الفحول ، مثل (امرىء القيس) ، في القصيدة التي مطلعها :

عيناك دمعها سِجالُ كأن شأنيها أوشالُ

ومثل عبيد بن الأبرص في قوله :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطبيات فالذنوب

---

١ اللسان (٩/ ٨٠) ، بروكلمن (١/ ٥٣) .
٢ النهاية . لابن الاثير (٣/ ٢٣٨) ، بروكلمن (١/ ٥٣) .
٣ بروكلمن (١/ ٥٤) .
٤ غرونباوم (٢٦٨) .
٥ غرونباوم (١٣٥) .

فقلما يخلو بيت من هذه القصيدة من حذف في بعض التفاعيل ، أو زيادة ، كما في الشطر الأول من هذا المطلع .

ومثل ما نسب الى المرقش الأكبر ، وعدي بن زيد العبادي ، وغيرهم ، من خروج على الوزن في بعض الشطور ، وإخلال في الوزن ، حتى زعم بعض العلماء ، ان في نونية (سلمى بن ربيعة) خروجاً عن العروض : عروض الخليل[1] . وقد أشرت في مكان آخر الى وقوع الإقواء والإكفاء والزحاف في شعر بعض الشعراء ، مثل امرىء القيس ، والنابغة ، وبشر بن أبي خازم ، وهي أمور تلفت النظر ، لا ندري أكانت قد وقعت من الشعراء حقاً ، أم من الرواية والرواة ، أم انها لم تكن عيباً بالنسبة لعروض الجاهليين ، وانما عدت من العيوب بالنسبة الى العروض الذي ضبط في الاسلام ، أو انه وقع بسبب تعديل أو تبديل أدخله العلماء على الأصل ، ليلائم قواعد العربية ، فوقع من ثم ما قيل له عيباً . واني لا أستبعد وقوع السهو في نظم الشعر من شاعر مهما كان فحلاً ، فقد روي ان بعض الفحول من شعراء العصر الأموي كالكميت والفرزدق والأخطل ، قد وقعوا في أخطاء ، وان رواتهم كانوا يجرون تنقيحاً وتغييراً على أشعارهم ، ليقوّموا بذلك ما انحرف في شعرهم وما فيه من السناد[2] ، ولكن وقوع ما نشير اليه يدل على ان ما نعدّ اليوم عيباً أو خروجاً على القواعد والعروض ، لم يكن ينظر اليه هذه النظرة عند الجاهليين وفي صدر الاسلام ، وإلا دل ذلك على جهل أولئك الشعراء بقواعد اللغة وعلم الشعر ، وحاشا وقوع ذلك منهم ، وشعرهم نفسه كان في جملة المواد الأساسية التي استعان بها علماء القواعد والعروض في بناء النحو والعروض .

وقد قصر علماء الشعر فحولة الشعر في الجاهلية على الشعراء المعروفين بالنظم بالبحور المشهورة ، فيما عدا الرجز ، أما قالة الرجز ، فهم طبقة خاصة ، عرفت عندهم بالرجّاز . ويظهر من القول المنسوب الى (الوليد بن المغيرة) : « لقد عرفنا الشعر كله : رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه »[3] ، أن الشعر في نظر أهل مكة : رجز ، أو هزج ، أو قريض ، أو مقبوض ، أو مبسوط ، وأن من يقول الرجز ، فهو راجز ورجّاز ، ولم يكن الرجز كما

---

١ العصر الجاهلي ، شوقي ضيف (١٨٤ وما بعدها) .

٢ الاغاني (٤/٢٥٦) .

٣ ابن هشام (١/١٧٣) ، (حاشية على الروض) .

يقول علماء الشعر طويل النفس ، وإنما كان أبياتاً ، وقد بقي هذا حاله حتى أيام الأمويين ، فطول ولقي عناية خاصة عند كثير من الشعراء ، فأخذوا يذهبون به مذهب القصيد ، فقصدوه ، بأن جعلوه قصائد ، وعمدوا الى تخفيف ما تركه بساطة العروض وسهولته في النفس من ملل،بأن لجأوا الى استعمال العبارات البعيدة المأخذ ، والألفاظ الغريبة ، والاختراعات اللطيفة ، حتى تمكنوا من إدخاله الى قصور الخلفاء الأمويين ، ومن نيل الجوائز والألطاف منهم[1] .

ويعود الفضل في رفع مستوى الرجز في الإسلام ، الى رجلين من (بني عجل)، هما : (الأغلب بن عمرو) العجلي ، (٢١هـ) ، و (أبو النجم الفضل بن قدامة) العجلي ، والى رجال من (تميم) ، على رأسهم : (العجاج) (٩٧هـ) وابنه (رؤبة) المتوفى سنة (١٤٥ هـ) وقيل (١٤٧ هـ) ، و (عقبة) ابن (رؤبة) هذا ، و (أبو المرقال الزفيان)، و (دكين بن رجاء) الفقيمي ، و (محمد ابن ذؤيب) الفقيمي العماني[2] .

ولا نملك شعراً يمكن أن يقال عنه انه أقدم ما وصل الينا من مراحل الشعر الجاهلي . حتى هذا الرجز ، الذي ينظر اليه المستشرقون على انه أول مرحلة من مراحل الشعر الجاهلي ، لبساطته ولسهولته ، ولكونه وسطاً بين السجع والشعر ، لا نملك نماذج منه ، يمكن أن نطمئن الى انها كانت من الشعر القديم ، الذي يصلح للاستشهاد به على انه من قديم الشعر ، إذ لم يحفل علماء الشعر بالرجز لاعتبارهم اياه دون الشعر ، فلم يدونوا منه شيئاً يذكر ، ولذلك نجد نسبته بالنسبة الى كمية الشعر الآخر (التقليدي) نسبة ضئيلة جداً ، وهذا ما جعل علمنا بالرجز الجاهلي قليلاً جداً .

ولسهولة الرجز ، ولقابليته على الخروج على كل لسان ، أرى انه كان أكثر نظماً من الشعر المألوف ، ودليل ذلك اننا لو درسنا أخبار الأيام وأخبار الغزو والمعارك نجد للرجز فيها مكانة كبيرة ، فالمحارب الذي يقارع خصمه ويتجالد معه يرتجز رجزاً في الغالب لسهولته على اللسان ولمناسبته لمقارعة السيوف ، وللوقت القصير الذي يكون عنده ليقضي فيه المحارب على من يحاربه ، ثم ان في استطاعة

---

١ بروكلمن (٢٢٥/١) .
٢ بروكلمن (٢٢٨/١ وما بعدها) .

غير الشعراء الارتجاز ، وليس في استطاعتهم نظم الشعر ، لذلك كان الرجز أكثر كمية من الشعر ، ولكن كثرته هذه وسهولته ، قصرتا في عمره ، وربما صارتا من العوامل التي جعلت الناس لا تقدم على حفظه .

ولما كان الشعر تعبيراً عن عواطف جياشة وعن حس مرهف ، وعن نفس حساسة تريد التعبير عن نفسها بأي أسلوب كان ، فإن في استطاعتنا القول انه لازم البشرية منذ عرفت نفسها ، وأخذت تعبر عن احساسها بأية طريقة كانت : بطريقة بدائية أو بطريقة متطورة . فبدأ الشعر كما بدأ الانسان نفسه ، بداية بسيطة ساذجة بدائية ، ثم تطور بتطور مدارك الانسان ، وتعددت طرقه وبحوره ، بتطور العقل والمدارك ، وبارتفاع مستوى الحياة ، فكان لذة يلتذ بها المسافر ، وهو يقطع الطرق الصعبة ، والصحارى الموحشة ، يعبر عنها بغناء ذي نغم ، وبألفاظ تناسب ذلك الغناء ، كما كان يعبر عنها في التشوق والتحبب الى الآلهة والقوى الطبيعية التي كان يرى انها تؤثر في حياته ، وفي مناسبات التقرب الى الملوك والحكام : لينال منهم لقمة عيش ، وشيئاً من مال ، كما عبر عنها في الأفراح وفي الأتراح. وفي الفخر والمدح والذم ، وهو الهجاء ، وفي الظروف التي تؤثر عليه ، فتجعله يفرح من رؤيتها ويرتاح ، مثل المناظر الطبيعية الجميلة ، والأصوات الجميلة وجمال الانسان .

والشعر الجاهلي الصحيح ، هو حاصل تطور طويل مستمر ، لا يمكن تحديد أوله ، إذ بدأ الشعر مذ بدأ الإنسان يشعر بالفرح وبالسرور وبالتعبير عن عواطفه. وقد فقد القديم منه بسبب عدم تدوينه في حينه ، وبسبب صعوبة بقائه في الذاكرة الى أمد طويل ، ولم يصل منه الينا إلا هذا القليل الذي قيل في عهد لا يرتقي كثيراً عن الإسلام ، وهذا القليل الباقي ، هو الصفحات القليلة الأخيرة من كتاب لا نستطيع أبداً تقدير حجمه ، هو كتاب الشعر الجاهلي ، الذي ختم بتغلب الإسلام على الشرك ، وبموت الجاهلية وظهور دين الله .

أما قول القائلين إنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قصدت القصائد في عهد مهلهل ، أو هاشم ، أو عبد المطلب، فرأي لا يقوم على دليل ، وليس له سناد تأريخي ، وإنما هو مجرد رواية رواها رواة الشعر في الإسلام . إذ لا يعقل أن تكون قريحة الجاهليين الذين عاشوا قبل

الإسلام بقرنين أو بقرن ونصف قرن ، قريحة محبوسة محصورة ، حددت بحدود لم تتعدها ولم تتخطها ، فإذا هاجت وماجت بالأحاسيس وبالشعور المرهف ، صاغت حسها هذا ببيت أو ببيتين أو ثلاثة ، ثم توقفت عند هذا الحدّ لا تتجاوزه أبداً . وإذا كان الشعر طبع في الإنسان كما يقولون ونقول ، وهو نوع من أنواع التعبير عن الخاطر ، وجب تصور أن صياغته في قوالب من أبيات شعر ، إنما تكون صياغة منسجمة مع طول وعرض الخاطر صغيراً ، ضئيلاً ، صيغ ببيت أو بأبيات ، وإذا كان طويلاً مبعوثاً عن حس ملتهب جياش ، صيغ بأبيات تزيد عن تلك يتناسب عددها مع حجم ذلك الخاطر . فمن هنا لا نستطيع أن نقول إن شعر قدماء الجاهليين كان أبياتاً لا تزيد على ثلاثة ، وإنهم لم يكونوا يملكون القدرة على نظم ما يزيد على ذلك ، إلى أن جاء (عدي بن ربيعة) التغلبي ، الملقب بالمهلهل ، فوسع الشعر وزاد الأبيات وقصد القصائد . فقول مثل هذا وإن قال به علماء هم أعلم منّا بفنون الشعر وبدروبه ، قول لا يمكن الأخذ به لما ذكرته . أفلم يكن للذين سبقوا المهلهل من العرب لسان مثل لسانه وحس مثل حسه ؟ إذا كان لهم مثل ما كان له ، فيفترض أن يكون تعبيرهم عن عواطفهم ، مثل تعبيره عنها سواء بسواء ، قد يكون قليلاً وقد يكون كثيراً من غير تغيير أو تحديد ولا تقنين ، لأن التحديد يتوقف على طول وقصر الحس الذي يستولي على الشاعر فيصوغه شعراً .

أما اذا قصدوا من قولهم المذكور معنى ان المهلهل كان أول شاعر وصل شعره الينا أبياتاً زاد عددها على عدد ما وصل الينا من شعر أي شاعر تقدم عليه، وانه أول من رويت له كلمة بلغت ثلاثين بيتاً[1]، فذلك أمر آخر لا صلة له بدعواهم ان الشعر كان قبل المهلهل رجزاً وقطعاً ، فقصده مهلهل ، ثم امرؤ القيس من بعده . وظل الرجز على قصره بمقدار ما تمتح الدلاء ، أو يتنفس المنشد في الحداء حتى كان الأغلب العجلي،وهو على عهد النبي ، فطوّله شيئاً يسيراً وجعله كالقصيد[2].

وهذا معناه عندي ان شعر (المهلهل)،هو أول شعر طويل وصل الى علماء الأخبار من شعر قدماء الشعراء الجاهليين،وأما شعر من سبقه ، فقد فُقد وضاع معظمه،

---

١ الرافعي (٣/١٤) ، المزهر (٢/٤٧٧) .
٢ الرافعي (٣/١٥) .

وموجدوه ، أما (اليمن) ، فإنهم قد ساهموا فيه أيضاً ، حسب زعم أهل الأخبار والأنساب ، لكنهم لم يبلغوا فيه مبلغ ربيعة ومضر .

ويزعم أهل الأخبار ، ان من شعراء ربيعة : (المهلهل) ، والمرقشان ، وسعد بن مالك ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسيب بن علس . وان من شعراء (قيس) النابغتان، وزهير بن أبي سلمى ، وابنه كعب ، ولبيد ، والحطيئة ، والشماخ ، وأخوه مزرد . وان من شعراء (تميم) (أوس بن حجر) شاعر مضر في الجاهلية ، ولم يتقدمه أحد منهم ، حتى نشأ (النابغة) ، و (زهير) فأخملاه ، وبقي شاعر (تميم) في الجاهلية غير مدافع[1] .

ولا يمثل هذا التنقل المزعوم ترتيباً زمنياً ، بمعنى ان الشعر بدأ بربيعة أولاً ، ثم انتقل منها الى قيس ، ثم انتقل بعدها الى تميم ، إذ يتعارض ذلك مع ما يرويه أهل الأخبار وعلماء الشعر من تعاصر أكثر الشعراء ، ومن نبوغ معظمهم في وقت واحد ، وانما هو قول من أقوال أهل الأخبار المألوفة ، أصله رأي رجل واحد، حمل عنه بالنص بذكر اسمه أحياناً ، وبدون ذكره أحياناً أخرى ، فلما تواتر في الكتب ، صار في حكم الإجماع ، يقال دون نقد ولا مناقشة الى هذا اليوم .

وما ذكرته عن تنقل الشعر يمثل رأي الرواة العدنانيين ، أما اليمانية ، فترى « تقدمة الشعر لليمن : في الجاهلية بامرىء القيس ، وفي الإسلام بحسان بن ثابت» . « وقال آخرون : بل رجع الشعر الى ربيعة فختم بها كما بدىء بها »[2] . وهو رأي يتعلق بالنسبة الى النسب الأكبر للقبائل،وترى في الرأيين أثر العصبية للعدنانية أو لليمانية ، فقد صعب على القحطانية المناهضة للعدنانية ، الاعتراف بالتفوق عليها حتى في الشعر ، فزعمت أن الشعر بدأ بها ، وأنه كان من مكارمها القديمة ، وكل مكرمة إنما بدأت بقحطان ، وما عدنان إلا مستعربة أخذت عربيتها من (يعرب بن قحطان) ، وهي دون القحطانية في كل شيء .

وحكم مثل هذا لا يمكن إصداره بالطبع إلا بسند علمي ، وليس في يد أحد حتى يومنا هذا سند جاهلي ، يؤيد رأي هذا أو ذاك ، وقد لا يأتي يوم يمكن

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٣) ، العمدة (٨٦/١) ، المزهر (٤٧٦/٢) .
٢ العمدة (٨٩/١) .

اعطاء رأي علمي فيه . أما ما ذكرته ، فهو نقل لآراء أهل الأخبار ، ورأينا في آرائهم في هذه الأمور معروف ، فنحن لا نأخذ آراءهم مأخذ الجدّ، ولا نثق بها ، وكلها في نظرنا حاصل عصبية ، وقد لعبت العاطفة القبلية دوراً خطيراً في ظهورها ، ونحن لا نستطيع تقديم ربيعة على مضر في الشعر ، ولا تقديم مضر على ربيعة فيه ، لعدم وجود دليل لدينا نتخذه سنداً ومستمسكاً في أيدينا لإثبات أي رأي من هذين الرأيين . أما أن يكون قد بدأ باليمن ، فالمسند ، يعارضه ويناقضه ، إلا إذا اعتبرنا اليمن ، القبائل الساكنة في الشمال ، أي خارج العربية الجنوبية ، والتي يرجع النسّابون نسبها عادة الى اليمن ، وهي قبائل كانت تتكلم بلهجات عربية شمالية ، فذلك أمر آخر ، وأمرها عندنا حينئذ مثل أمر ربيعة ومضر ، لا نستطيع تقديمها على ربيعة ولا على مضر ، ولا نستطيع تقديم ربيعة أو مضر ، للسبب المتقدم ، وهو عدم وجود أدلة لدينا تعيننا في الحكم بتقديم فريق على فريق ، واعطائه الأولوية في قول الشعر .

والشعر في نظرنا موهبة انسانية عامة ، لم تختص بقوم دون قوم ، ولا بأمة دون أمة ، وهي على هذه السجية بين العرب ، لم تختص بربيعة ، حتى تقول ان الشعر بدأ أول ما بدأ بها ، ولا بمضر حتى تقول انه ظهر أول ما ظهر عندها ولا باليمن ، حتى تقول انه بدأ بها وختم بها . وانما هو نتاج قرائح كل موهوب وذي حس شاعري من كل القبائل والعشائر . والشعر كما قلت مراراً شعور وتعبير عن عواطف تخالج النفس ، فكل انسان يكون عنده حس مرهف ، واستعداد طبيعي ، وذوق موسيقي ، يمكن أن يكون شاعراً من أي حي كان ، ولهذا كان الشعراء من قبائل مختلفة ، واذا تقدمت قبيلة على أخرى في كثرة عدد شعرائهم، فليس مردّ ذلك ان تلك القبيلة كانت ذات حس مرهف، واستعداد فطري لقول الشعر ، وان بقية القبائل كانت قبائل غبية بليدة الحس والعواطف، فلم ينبغ بينها مثل ذلك العدد من الشعراء ، فقد تكون هنالك أسباب أخرى نجهلها في هذا اليوم . جعلتنا نتصور انها كانت متخلفة في الشعر ، كأن تكون منازل تلك القبائل بعيدة منعزلة ، لم يتصل بها أحد من جمّاع الشعر ورواته . وهم بين كوفي وبصري ، فلم يصل شعرها اليهم ، فانقطع نتيجة لذلك عنّا ، أو ان تلك القبائل كانت قبائل صغيرة ، لم يكن لها شأن يذكر ، فانحصر شعرها في حدودها ولم يخرج عنها ، فخمل ذكره ، ولم ينتشر خبره بين القبائل الأخرى ، فلما ظهر

الاسلام ، كان قد خفي ومات .

ودليلنا اننا إذا دققنا في هذا الشعر الجاهلي الواصل الينا في الكتب،نجد انه شعر قبائل كبيرة ، لعبت في الغالب دوراً خطيراً في مجتمع ذلك اليوم ، مثل : كندة وبكر ، وأسد ، وتميم ، وتغلب ، ثم هو شعر شعراء كان لهم اتصال وثيق بالعراق في الدرجة الأولى ، أي بملوك الحيرة ، الذين كان نفوذهم يشمل أرضين واسعة ، مثل البحرين ونجد واليمامة في بعض الأحيان ، فكان لقبائل هذه الأرضين اتصال بحكام الحيرة ، ولها مواقف معهم : حسنة أحياناً وسيئة أحياناً أخرى ، وفي مثل هذه المواقف ، يكون للشعراء دور خطير فيها ، فهم بين مادح ، أو ذام قادح ، أو رسول قوم جاء الى الملوك في وفادة لفك أسير ، أو لإصلاح ذات بين ، أو جاء لنيل عطاء ، ونحن لا نكاد نجد شاعراً من الفحول أو من الشعراء المشهورين ، إلا وله صلة بملك أو أكثر من هؤلاء الملوك ، حتى لا يكاد يفلت منهم شاعر . أما ملوك الغساسنة ، فلهم بعد أولئك الملوك صلة بالشعراء ، بل هم دونهم اتصالاً بالشعراء ومرجع ذلك في نظري ان حكم الغساسنة لم يتجاوز بادية الشأم وحدود مملكة البيزنطيين ، فلم يكن لهم لذلك اتصال بقبائل البادية البعيدة عن منطقة نفوذهم ، ولا بقبائل الحجاز ونجد واليمامة والبحرين ، فتقلص مجال اتصالهم بالشعراء ، ولم يصل اليهم إلا الشعراء من أصحاب الحاجات، الذين كانوا يطوفون البلاد ، ويقصدون الموسرين الكرماء أينما كانوا لنيل صلاتهم ثمناً لمدحهم لهم ، وإلا الشعراء الذين غضب ملوك الحيرة عليهم ، أو لم ينالوا منهم تحقيق مطمع وحل مشكل ، أو فك أسير ، فجاءوا لذلك الى الغساسنة خصومهم نكاية بهم ، وإلا بالشعراء الذين أغار قومهم على أرض الغساسنة ، فوقع نفر منهم في أسرهم ، فأرسلهم أهلهم وسطاء ورسلاً عنهم ، للتوسل اليهم بفك أسراهم .

ونحن لو ثبتنا أسماء مواطن شعراء الجاهلية على صورة جزيرة العرب نرى أنها كانت في الحجاز ونجد واليمامة ، والبحرين والعراق . أما بلاد الشأم فقد كانت فقيرة جداً بهم ، بل لا نكاد نجد فيها شاعراً لامع الاسم ، ترك أثراً في الشعر . ويلفت هذا الجدب في الشعر النظر اليه حقاً ، فقد عاشت ببلاد الشأم قبائل كبيرة كان لها شأن كبير في تلك البلاد قبل الاسلام وفي الإسلام ، مثل غسان،وبهراء، وكلب ، وقضاعة ، وتنوخ ، وتغلب ، وقبائل أخرى لعبت دوراً خطيراً في الحروب مع عرب الحيرة ، وفي مساعدة الروم ، كما لعبت دوراً خطيراً في

الفتوحات الإسلامية،فقد ساعدت الروم أولاً ، ثم انضمت الى المسلمين في قتالهم مع البيزنطيين ، وقبائل هذا شأنها لا يعقل الا يكون لها شعر وألاّ ينبغ من بينها شعراء لكثرة عددها ولمنافستها لعرب العراق ، ولكون لسانها هذا اللسان العربي الشمالي . فهل كان عند تلك القبائل شعراء ، لم يصل اسمهم الى علماء الشعر ، فلم يذكروهم لجهلهم بهم في عداد شعراء الجاهلية ؟ فصرنا لذلك لا نعرف من أمرهم شيئاً ! أو أنها كانت مجدبة حقاً لأنها كانت بمنأى عن الشعر والشعراء ، لتحضرها وتأثرها بالنصرانية وبثقافة بني إرم ، فلم توائم تربتها الشعر ، لذلك أجدبت فيه ، ولم ينبت فيها شاعر لامع الاسم !

يقول علماء اللغة : « والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

وبالجملة ، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ؛ فإنه لم يؤخذ من لخم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان ، وإياد ، لمجاورتهم أهل الشأم ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب[1] . فالقبائل المذكورة ، وإن كانت من القبائل العربية الكبيرة المرموقة ، إلا أن اقامتها ببلاد الشأم إقامة طويلة ومجاورتها أهل الشأم ، وتأثرها بلسانهم ، واعتناقها النصرانية، وأخذها ديانتها بالسريانية التي سماها أهل الأخبار خطأ العبرانية ، وتحضرها وقرارها والتهائها بالزرع والرعي ، صيرت كل هذه الأمور وأمثالها لسانها عربياً مشوباً برطانة ، ولهذا عرفت بـ « العرب المستعربة » وبـ « مستعربة الشأم » ، عند المسلمين، حتى صارت تلك الرطانة سبباً لإعراض علماء اللغة عن الاحتجاج بلغتها في شواهد القرآن والشعر على نحو ما رأيت .

وقد يكون لتلك القبائل شعر،غير ان علماء اللغة قاطعوه للسبب المذكور ، ولكني لا أستطيع الجزم بذلك ، لعدم ورود إشارة الى هذه الناحية في كتب أولئك

---

١ المزهر (١/٢١١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١/١٥٤) .

العلماء ولا في كتب أهل الأخبار . ثم اني لاحظت ان أخبار فتوح الشأم لا تذكر شيئاً من شعر القبائل المستعربة التي حاربت مع الروم المسلمين ، أو التي حاربت مع المسلمين الروم،وحيث اننا نعرف ان من عادة العرب الاستعانة بالشعر والرجز أثناء غزوها وقتالها ، لذلك تلفت هذه الملاحظة الأنظار ، وتحمل المرء على البحث في سبب وجود هذا الفقر في شعر القتال في فتوح الشأم ، بينما نجد شعراً غزيراً وافراً أنتجته قرائح المتقاتلين في حروب العراق نظمه المحاربون المسلمون ، ومحاربو القبائل العراقية الوثنيـة والمتنصرة التي حاربت مـع الفرس ، أو التي حاربت مع المسلمين أو تلك التي انضمت الى المسلمين فيما بعد .

وسبب هذا الفقر في نظري ، ان قبائل بلاد الشأم ، كانت قد تأثرت بلغـة وبثقافة أهل الشأم ، وبالنصرانية المتأثرة بالسريانية وبالرومية وقد غلبت عليها نزعة الاستقرار ، فاستقرت في حواضر حضريـة كبيرة مثـل دمشق وحمص وحلب ، وقنسرين[1] ، وغيرها ، وهي حواضر معظم سكانها من السوريين والروم ، لا من العرب ، وكانت نصرانية ، صلواتها بالسريانية ، وثقافتها سريانية يونانية فتأثرت بثقافة من عاشت بينهم ، وانصرفت الى الزراعـة ورعي الماشية ، وشابت لهجتها رطانة إرمية ، ولم تحفل بالشعر احتفال بقية العرب به . لذلك لم يظهر من بينها شاعر فحل .

أما عرب العراق ، فقد كانوا عرباً وأعراباً ، عربهم في قرى عربية،حكامها من العرب ورجال دينها نصارى ، ولكنهم نصارى عرب أو مستعربـة ، علموا العربية في كنائسهم ، ونشروا الخط العربي في خارج العراق ، وتفقهوا في علوم العربية ، وفي جملة هـــذه العربية الشعر . وأما أعرابهم ، فقد كان قوم منهم نصارى والباقون على الشرك وعلى سمة الأعراب منذ وجدوا من الميل الى الاستقلال وعدم الخضوع لحكم أحد ، ومن الاعتزاز بالنفس والتعبير عن الأحاسيس المرهفة بقول الشعر ، وأما حكامهم ، وهم ملوك الحيرة ، فكانوا على سنة كبار سادات القبائل من استقبال الشعراء والإستماع الى إنشادهم ، وتلبيـة طلباتهم ، وكان من صالحهم اصطناع الشعراء لامتداد ملكهم الى نجد واليمامة أحياناً والى البحرين وهي من أهم مواطن الشعر في الجاهلية ، والشعراء أبواق الدعاية في ذلك العهد ، وقد

---

١ فتوح البلدان (١٥٠) .

كان ملوك الحيرة شعراء ، ينظمون الشعر ،ولهم اطلاع ووقوف على شعر الشعراء، وكان من اتصل بهم من سادة الحيرة شعراء كذلك ، لهم شعر ملوّن في كتب الأدب ، وفيه ما قالوه في فتوح المسلمين للعراق ، فمن هنا ظهر الشعر في العراق، على حين خمل في بلاد الشأم .

ولم تكن القبائل سواء في الشعر وفي عدد شعرائها ، وهـذا شيء طبيعي ، لا يختلف فيه اثنان . وقد لاحظ ذلك علماء الشعر ، فأشاروا الى أسماء قبائل أنجبت في الشعر وأخصبت في الشعراء ، وكان (الجاحظ) الكاتب الذكي ممن لاحظ ذلك ، فقال : « وبنو حنيفة مع كثرة عددهم ، وشدة بأسهم ، وكثرة وقائعهم ، وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكراً كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي إخوتهم عجل قصيد ورجز ، وشعراء رجازون . وليس ذلك لمكان الخصب وانهم أهل مدر ، وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم في الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد تعرف ان طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة .

وثقيف أهل دارٍ ناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقلّ ، فإن ذلك القليل يدل على طبعٍ في الشعر عجيب ، وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وانما ذلك عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والاعراق مكانها .

وبنو الحارث بن كعب قبيل شريف ، يجرون مجاري ملوك اليمن ، ومجاري سادات أعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر . ولهم في الاسلام شعراء مفلقون .

وبنو بدر كانوا مفحمين ، وكان ما أطلق الله به ألسنة العرب خيراً لهم من تصيير الشعر في أنفسهم .

وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . ولم تمدح قبيلة في الجاهلية ، من قريش ، كما مُدحت مخزوم ، ولم يتهيأ من الشاهد والمثل لمادحٍ في أحد من العرب ، ما تهيأ لبني بدر .

وقد كان في ولد زرارة لصلبه ، شعر كثير ، كشعر لقيط وحاجب وغيرهما

من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا لحصن ، ولا عيينة بن حصن ، ولا لحمل بن بدر شعر مذكور[1] .

وقال (يونس بن حبيب) الضبي : « ليس في بني أسد إلا خطيب أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس ، وليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو »[2] . وذكر (الجاحظ) أن (عبد القيس) بعد محاربة (إياد) تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيلة في العرب . ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة[3] ؛ ولابن سلام رأي في هذا الموضوع إذ يقول : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان »[4] .

وجاء أن أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم أهل السروات ، وهن ثلاث ، وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن ، فأولها هذيل ، وهي تلي السهل من تهامة ، ثم بجيلة السراة الوسطى ، وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ، ثم سراة الأزد ، أزد شنوءة ، وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نضر بن الأزد[5] . وذكر أن قبيلة (هذيل) هي في طليعة القبائل عدداً في الشعراء ، فقد روى العلماء لأربعين شاعراً منهم في الجاهلية والإسلام ، وهو عدد قياسي بالنسبة الى عدد الشعراء الذين أنجبتهم القبائل الأخرى[6] ، وقيل عنها إنها أعرقت في الشعر[7] . وروي أن سائلاً سأل (حسان بن ثابت) : « من أشعر العرب ؟ فقال : أراحلاً أم حياً ؟ قيل : بل حياً ؛ قال : أشعر الناس حياً هذيل »[8] . وكان (الشافعي) يحفظ

---

١ الحيوان (٣٨١/٤ وما بعدها) .
٢ الرافعي (٢٠/٣) .
٣ الرافعي (١٩/٣) .
٤ ابن سلام (٢١٧) .
٥ الرافعي (١٨/٣) ، المزهر (٤٨٣/٢) .
٦ الرافعي (١٩/٣) .
٧ تاج العروس (١٦٦/٨) ، (هذل) .
٨ المزهر (٤٨٣/٢) .

عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها وغريبها ومعانيها »[1] . وقد عدّت (هذيل) أشعر القبائل في رأي بعض العلماء[2] .

وذكر الأخباريون ان العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء إلا في الشعر ، فإنها كانت لا تقر لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرت له الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها[3] . وقالوا : إن قريشاً كانت أقل العرب شعراً في الجاهلية ، فاضطرها ذلك أن تكون أكثر العرب انتحالاً للشعر في الاسلام[4] .

وروي عن (معاوية) انه كان يقول : فضل المزنيون الشعراء في الجاهلية والاسلام . وكان يقول : أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى ، وأشعر أهل الاسلام ابنه كعب ، و (معن بن أوس) . و (معن) شاعر مجيد من مخضرمي الجاهلية والاسلام[5] .

فبعض العرب مخصبين في الشعر ، وبعضهم أقل خصباً ، وقد رجع (الجاحظ) سبب ذلك الى الموهبة والطبع ، فكما ان النبوغ يتفاوت بين انسان وانسان ، كذلك يتفاوت الشعر بين قبيلة وقبيلة ، ورجع (ابن سلام) ذلك الى عامل البداوة والحضارة ، فالأعراب متشاجرون مكثرون من الغارات يغزو بعضهم بعضاً ، والشعر يكثر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، أما الحضر ، فإنهم لا يميلون الى الحروب والمعارك ، ولذلك يقلّ شعرهم على رأيه . ولهذا السبب قلّ شعر قريش ، لأنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا . فالحرب تهيج العواطف ، وتحمل الناس على التحمس لها والدفاع عن أنفسهم وتكديس كل القوى للتغلب على العدو ، والشعر من أهم وسائل تسعير نار الحرب .

وقد أشار أهل الأخبار الى بيوت ذكروا أنها اشتهرت بقول الشعر ، وبظهور المعرقين فيها . وضربوا أمثلة عليها ببيت (أبي سلمى) . فقد كان شاعراً واسمه ربيعة ، وابنه زهير بن أبي سلمى ، وله خؤولة في الشعر : خاله بشّامة بن الغدير ، وكان كعب وبجير ابنا زهير شاعرين ، وجماعة من أبنائهما .

---

١ المزهر (١/١٦٠) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٤٠) .
٣ الاغاني (١/٣٥) .
٤ طبقات الشعراء (١٠) .
٥ الاصابة (٣/٤٧٥) ، (رقم ٨٤٥٢) .

وضربوا المثل ببيت (حسان بن ثابت) ، فقد كان أبوه وجده وأبو جده شعراء ، وابنه عبد الرحمن شاعر ، وسعيد بن عبد الرحمن شاعر .

ومن البيوتات التي عرفت بالشعر : بيت (نهشل بن حريّ بن ضمرة بن جابر بن قطن) ، ستة ليس يتوالى في بني تميم مثلهم شعراً ، وكذلك بيت (النعمان بن بشير) ، وكانت أمه (عمرة بنت رواحة) شاعرة ، وخاله (عبدالله ابن رواحة) أحد شعراء الرسول[1] .

ومن بيوتات الشعر المعرقة في الجاهلية والإسلام ، (آل الحارثي) ، منهم (عبد يغوث بن الحارث بن وقاص) الحارثي . وكان شاعراً من شعراء الجاهلية، فارساً سيّد قومه من (بني الحارث بن كعب) ، وهو الذي كان قائدهم يوم (الكلاب) الثاني فأسرته (تيم) وقتلته . ومنهم (اللجّلاج) الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه (مُسهر) فارس شاعر ، وهو الذي طعن (عامر بن الطفيل) في عينه يوم (فيفَ الريح) . ومنهم ممن أدرك الإسلام (جعفر بن عُلْبة بن ربيعة بن الحارث بن عبد يغوث) وكان شاعراً صعلوكاً ، أخذ في دمٍ فحبس في المدينة ثم قتل صبراً[2] .

وقد تعرض (جرجي زيدان) لموضوع تنقل الشعر في الأقاليم ، فقال : « واذا أحصيت شعراء الجاهلية الذين بلغنا خبرهم بالنظر الى المواطن ، رأيت نحو خمسيهم من نجد ، والخمس الثالث من الحجاز ، والرابع من اليمن والباقي من العراق ، وفئة قليلة من البحرين واليمامة وتهامة »[3] ، وذلك على اعتبار ان القبائل: (كندة) ، و (أسد) ، و (مزينة) ، و (عبس) ، و (سلم) ، و (عامر) ، و (طيء) ، و (جشم) ، و (ضبيعة) ، و (سعد) ، و (ضبة) ، و (جعدة) ، و (باهلة) ، و (تميم) ، و (عكل) ، و (بكر) ، و (مرة) ، و (نبهان) ، من قبائل نجد ، وان (ذبيان) ، و (هذيل) ، و (الأوس) ، و (الأزد) من الحجاز ، وان (يشكر)، و (تغلب) ، و (العباد) ، و (تيم) ، و (بكر) ، و (إياد) ،

---

١ العمدة (٢/٣٠٦) .
٢ الخزانة (٢/٢٠٢ وما بعدها) .
٣ تاريخ آداب اللغة العربية (١/٧٤) .

من العراق ، وان (بكراً) ، و (ضبعاً) ، من البحرين ، وان (بني ثعلبة) من اليمامة ، وان (فهماً) ، و (مزينة) من تهامة[1] . وهو تقيم لا يمكن الأخذ به في هذا اليوم ، وفيه أخطاء ، وقد بني على روايات لأهل الأخبار ، تعارضها روايات أخرى لهم ، لم يقابلها أو يطابق بعضها ببعض ، فوقع لذلك في أوهام .

ونلاحظ أنه سار على رواية أهل الأخبار في تنقل الشعر في القبائل ، فجعل (ربيعة) أول من نبغ في الشعر ، ثم حوله إلى قيس فتميم . ثم ظهر الشعر بعد ذلك على رأيه في بطون مدركة من مضر ، وهي : هذيل ، وقريش ، وأسد ، وكنانة ، والدئل وغيرهم . وكلهم من أهل البادية ، أما أهل المدن ، فقلما نبغ بينهم شاعر فحل ، وأشعرهم (حسان بن ثابت)[2] .

ومن أهم قبائل ربيعة وبطونها : بكر ، وتغلب ، وعبد القيس ، والنمر بن قاسط ، ويشكر ، وعجل ، و (جشم) ، وحنيفة ، وقيس بن ثعلبة، وضبيعة ، وشيبان ، وذهل ، وسدوس . ومن أشهر شعراء هذه المجموعة المرقشان الأكبر والأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس ، خال طرفة ، والأعشى ، والمسيب بن علس وآخرون . وقد جعل (زيدان) عددهم (٢١) شاعراً[3] .

وقد نزل بنو قيس بن ثعلبة وبنو حنيفة اليمامة . ومن بطون قيس بن ثعلبة : سعد بن ضبيعة ، رهط الأعشى ، ومن ديارهم (منفوحة) . وكانوا بين الحياة الحضرية والحياة الأعرابية ، يرعون الإبل والغنم ، إلا أنهم أصحاب نخيل . أما حنيفة ، فكانت تزرع وترعى ، وقريتهم الكبرى (حجر) ، وكانوا يزرعون الحبوب ، ويمونون الأعراب ومكة بها . وكانت النصرانية قد وجدت سبيلها بينهم ، وقد افتخر (الأعشى) بقومه على (إياد) ، لأنهم أصحاب مال ، أما (إياد) ، فأصحاب زرع ينتظرون حصاد حبهم ، وذلك في هجائه لهم بقوله :

---

١ راجع (الصفحة ٨٠ فما بعدها الى انتهاء ٨٤) من الجزء الاول .
٢ تاريخ آداب اللغة العربية (١/٧٤ وما بعدها) .
٣ العمدة (١/٨٦ وما بعدها) ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/٧٤ وما بعدها) ، (تنقل الشعر في القبائل) .

لسنا كمن جعلت إيادٌ دارها تكريت تنظر حبّها أن يُحصدا
جعل الإلهُ طعامنا في مالنـا رزقاً تضمنه لنا أن ينفـدا
مثـلَ الهضاب جزارة لسوفنا فإذا تُراع فإنها لـن تطردا
ضمنت لنـا أعجازهن قدورنا وضروعهن لنا الصريح الأجردا [1]

وقيس قبيلة كبيرة من بطونها : عبس ، وذبيان ، وغطفان ، وعدوان ، وهوازن ، وسليم ، وثقيف ، وعامر بن صعصعة ، ونمير ، وجعدة ، وقشير ، وعقيل . وكانت هذه القبائل في نجد وأعالي الحجاز ، وقد نبغ فيها جماعة من فحول الشعراء ، منهم النابغتان ، وزهير بن أبي سلمى ، وكعب بن زهير ابنه ، ولبيد ، والحطيئة ، والشماخ ، وأخوه (مزرد) ، وخداش بن زهير ، وعنترة العبسي وغيرهم . وعندهم ان أشعر قيس الملقبون من بني عامر والمنسوبون الى أمهاتهم من غطفان[2] . وقد جعل (زيدان) عدد شعراء قيس (٣٠) شاعراً . وقال : « اذا اعتبرت عدد شعراء الجاهلية بالنظر الى القبائل، كانت قيس أكثرها شعراء ، تليها اليمن فربيعة ، فضر فقريش فقضاعة فإياد »[3] .

وأما (تميم) ، فقبائل كثيرة من مضر ، أشهرها : مازن ، ومالك ، وسعد ، ودارم ، وبهدلة ، ويربوع ، وكعب ، ومجاشع ، وزرارة . وكانت منازلها في القديم تهامة ، ثم نزحت الى مواضع أخرى من جزيرة العرب ، فسكن بعض منها في اليمامة ، وبعض في العربية الشرقية ، وقسم بنجد ، ونزح قوم منهم الى العراق ، وأقاموا في البادية . وقد لعبت تميم شأن القبائل الكبيرة دوراً خطيراً في أحداث الجاهلية القريبة من الاسلام . ومن شعرائها : أوس بن حجر[4] . وجعل (زيدان) عدد شعرائها (١٢) شاعراً[5] . ولكنك لو سجلت أسماء الشعراء الذين وردت أسماؤهم في كتب الأدب والتأريخ ، لوجدت ان عدد شعراء تميم

---

١ ديوان الاعشى ، القصيدة رقم ٣٤ ، العصر الجاهلي (٣٣٤) .
٢ الاغاني (٩٢/٢) ، زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) ، العمدة (٨٨/١) .
٣ تأريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .
٤ العمدة (٨٨/١) .
٥ تأريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .

يزيد على العدد المذكور بكثير . فتميم من القبائل المخصبة بالنثر وبالنظم. ولكلامها رأي ومقام عند علماء اللغة .

ومن مضر أيضاً : هذيل ، وأسد ، وكنانة ، وقريش ، والدئل . وهذيل من القبائل الساكنة في هضاب وجبال غير بعيدة عن مكة ، وقد عدّ لسانها من الألسنة العربية الجيدة ، واشتهرت بكثرة شعرها وبجودته ، وقد جمع في دواوين، وعني العلماء بجمعه وبشرحه ، وبقيت منه بقية طبعت[1] .

وأما القبائل التي يرجع النسابون نسبها الى اليمن ، فهي : كندة ، وطيء ، والأشعر ، وجذام ، والأزد ، ولخم ، ومذحج ، وخزاعة ، وهمدان ، وغسان والأوس والخزرج[2] . ولبعض منها شعر وشعراء وردت أسماؤهم في ثنايا هذا الكتاب .

أما ميزات لغاتهم وخصائص نحوهم وصرفهم ، فلا نعرف عنها غير قليل . لعدم تطرق علماء اللغة الى هذه المميزات ، خلا ما ذكروه من أمور اختلفت فيها (طيء) عن غيرها في مثل (ذي) الطائية ، وغير ما ذكروه من تفردهم في تفسير معاني بعض الألفاظ ، مثل (التخوف) بمعنى التنقّص في لغة أزد شنوءة[3] .

ولدراسة شعر هذه القبائل ، دراسة لغوية مقارنة ، أهمية كبيرة بالنسبة للباحث في لغة العرب ، إذ يستطيع بها من الوقوف على مزاياها ومفارقاتها بالنسبة الى العربية المعهودة ، ومن الوقوف على الروابط اللغوية التي تجمع بين هذه اللغات التي يرجع أهل الأنساب والأخبار أصل المتكلمين بها الى اليمن .

وأما مجموعة قضاعة ، فجهينة ، وضجعم ، وتنوخ ، وكلب[4]. وهي مجموعة لم تنجب عدداً كبيراً من الشعراء ، ولم يحفل علماء اللغة بلغتها ، إذ لا نجد للهجتها ذكراً خطيراً في كتب اللغة ، فلم يشيروا اليها في جملة القبائل التي ركنوا الى الأخذ بلسانها للاستشهاد به في شواهد اللغة والنحو والصرف. ويظهر ان احتكاكها

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٨٢ وما بعدها ، ١٠٤) .
٢ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٧٦) .
٣ تفسير الطبري (١٤/٧٧) ، (بولاق) .
٤ تاريخ آداب اللغة العربية (١/٧٦) .

بالنبط وبالآراميين وأمثالهم ، قد عرض لسانها الى الأخذ من ألسنتهم والى التأثر بهم ، حتى بان ذلك عليه ، وهذا ما حمل علماء اللغة على عدم الاستشهاد به في جملة الشواهد . وأنا لا أستبعد احتمال وجود خصائص به ، ميزته عن العربية القرآنية ، بدليل ان أعراب الصفا (الصفاة) ، وهم من أعراب بلاد الشأم ، كانوا يتكلمون ويكتبون بعربية مباينة لعربيتنا ، وقد تكلمت عن عربيتهم في الجزء السابع من كتابي القديم : تأريخ العرب قبل الاسلام ، وأرض الصفا هي من مواطن تلك المجموعة .

وذهب (جرجي زيدان) ، كما سبق أن قلت ، الى أن قيساً أكثر القبائل عدداً في شعرائها ، تليها اليمن ، فربيعة ، فمضر ، فقريش ، فإياد . وقدر عدد شعراء الجاهلية الذين وصلتنا أخبارهم بـ (١٢٥) شاعراً ، وزّعهم على هذا النحو : ثلاثين شاعراً في قيس ، وثلاثة وعشرين شاعراً في اليمن ، وواحداً وعشرين شاعراً في ربيعة ، وستة عشر شاعراً في مضر ، واثني عشر شاعراً في تميم ، وعشرة شعراء في قريش ، وأربعة شعراء في قضاعة ، وشاعرين في إياد ، وشاعر واحد من أصل غير عربي ، أي مولى[١] .

وقد سمى (أبو الفرج) لمضر سبعة وستين شاعراً ، ولليمن أربعين ، ولربيعة ثلاثة عشر : وسمّى شعراء آخرين ، منهم من يتصل بجديس ، ومنهم من يتصل بجرهم[٢] .

نرى مما تقدم أن الشعراء كانوا من مضر ، ومن ربيعة ، وهما من عدنان ، كما كانوا في القبائل القحطانية . ويذكر أهل الأخبار أن حظ القبائل المضرية من الشعر ، كان أحسن حالاً من حظ ربيعة وقحطان ، وأن حظ قبائل كل مجموعة من هذه المجاميع الثلاث كان متفاوتاً ، فبينها المكثر ، وبينها المقل . ولا نستطيع إرجاع سبب تفوق القبائل المضرية على قبائل ربيعة أو قحطان الى اللغة ، لأننا لا نملك حتى الآن صورة واضحة علمية عن أصل اللغة العربية التي نظم بها الشعر والتي نزل بها القرآن ، حتى نستطيع البت بموجبها في موضوع هذا التفوق . وإذا جارينا أهل الأنساب في تقسيمهم العرب الى عدنانيين وقحطانيين ، جاز لنا حينئذ

١ تأريخ آداب اللغة العربية (٧٥/١) .
٢ طه حسين ، في الادب الجاهلي (٢٥٦) .

القول ، بأن شعر القبائل القحطانية قد قلّ عن شعر عدنان من مضر وربيعة ، بسبب استعراب هذه القبائل ، أي أخذها لغة العدنانيين لغة لها ، وتركها لغتها الأصلية لغة أهل اليمن ، بسبب اتصالها بالقبائل العدنانية ، فمن ثم قلّ شعرها بسبب هذا الاستعراب . ولكن ماذا يكون جوابنا عن تخلف ربيعة في الشعر عن مضر ، وربيعة أخت مضر ، في عرف النسابين ، ولغتها مثل لغة مضر ؟

والذي أراه ، ان البت في مثل هذه المشكلات ، هو أمر لا يمكن أن يكون علمياً في الوقت الحاضر ، فقد رأيت ان الأنساب حاصل تكتلات سياسية ، وتجمعات قبلية ، وانها لم تكن حاصل نسب بالمعنى المفهوم من لفظة (نسب) ، بمعنى الانحدار من صلب والديْن ، ورأيت ان العرب كانوا يتكلمون قبل الاسلام بلهجات متباينة ، حصرناها في مجموعات استنبطناها من الكتابات الجاهلية ، ولكننا لا نستطيع أن نقول انها تشمل كل لهجات العرب ، فقد عثر حديثاً على كتابات جديدة لم تدرس بعد دراسة علمية كافية حتى نقول رأينا فيها ، وقد يعثر في المستقبل على كتابات أخرى ، قد تزيد في عدد ما نعرفه من المجموعات اللغوية العربية الجاهلية . وفي ظروف كهذه يكون من الصعب علينا الموافقة على ما يذهب اليه أهل الأخبار وما يذهب اليه التابعون لهم من المحدثين من تنقل الشعر في القبائل ومن توزع الشعراء بين مضر وربيعة وقحطان . والرأي عندي ان من الواجب علينا في الوقت الحاضر لزوم اجراء مسح علمي دقيق للهجات العرب في جزيرة العرب ، بالبحث في كل مكان عن الكتابات الجاهلية وعن كتابات صدر الاسلام ، وبدراسة كل ما كتبه علماء اللغة عن اللغات العربية في الكتب المعروفة وفي الكتب التي قد تكون مؤلفة بلهجات أهل العربية الجنوبية أو غيرها في الاسلام ، وبدراسة اللهجات الباقية ، ولا سيما اللهجات المنعزلة المتميزة بميزات خاصة ، واستنباط مزاياها وعلاقتها باللهجات القديمة ، ثم غربلة كل هذه الدراسات لاستخلاص المجاميع اللغوية منها ، وتحديد المواضع التي كانت تتكلم بهذه المجموعات ، وبذلك نستطيع تكوين رأي عن لغة الشعر ، وعن القبائل التي كانت تتكلم بها ، وصارت لهجتها لهجة الشعر عند ظهور الاسلام .

وأغلب شعراء الجاهلية من أهل الوبر ، أما شعراء أهل المدر فأقل منهم عدداً . ولم يظهر بين شعراء أهل المدر شاعر رفعه علماء الشعر وعشاق الشعر الجاهلي الى

مرتبة الشعراء الفحول من رجال الطبقة الأولى[1] من طبقات الشعراء الجاهليين. وهم يقدمون شعراء البادية على شعراء الأرياف ، ولا سيما شعراء الريف المتصل بالنبط والأعاجم . ولهذه النظرة التي تحمل طابع الغمز في صحة ألسنة عرب الأرياف ، تحفظ أكثر علماء العربية في موضوع جواز الاستشهاد بشعر شعراء الحيرة مثلاً ، لاتصال أهلها بالنبط ولاختلاطهم بالأعاجم .

١ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/ ٧٥) .

الفصل السابع والخمسون بعد المئة

أوائل الشعراء

يقول علماء الشعر : « لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة »[1] . ثم تزايد عدد الأبيات وتنوعت طرق الشعراء في نظم الشعر ، بتقدم الزمان،وبازدياد الخبرة والمران ، وبتقدم الفكر ، فظهرت القصائد المقصدة الطويلة ، التي توّجت بالمعلقات . « قال الأصمعي : أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم، ثم ضمرة ، رجل من بني كنانة ، والأضبط بن قريع » . فهؤلاء هم أوائل الشعراء الجاهليين في نظر (الأصمعي) ، ممن نظم كلمة بلغ عدد أبياتها ثلاثين بيتاً فما بعدها . « وقال ابن خالويه في كتاب ليس : أول من قال الشعر ابن خدام »[2] .

وذكر بعض العلماء ان القصائد انما قصدت ، والشعر انما طول في عهد (عبد المطلب) أو (هاشم بن عبد مناف) ، وذلك يدل على إسقاط عاد وثمود وحمير وتبع[3] . ولم يذكروا اسم أول من قصد القصائد وطوّل الشعر ، ولكن رأى معظم علماء الشعر ان « المهلهل ، هو أول من قصّد القصائد وأول من قال كلمة تبلغ

---

١ الشعر والشعراء (٤٨/١) ، (دار الثقافة) ، المزهر (٤٧٤/٢) ، (أولية الشعر) .

٢ المزهر (٤٧٧/٢) .

٣ المزهر (٤٧٤/٢) .

ثلاثين بيتاً من الشعر . وزعم بعضهم ان الأفوه الأودي ، أقدم من المهلهل ، وهو أول من قصد القصيد[1] . واذا ذهبنا مذهب من يقول إن القصائد انما ظهرت في أيام (عبد المطلب) أو (هاشم) ، فيكون ذلك قبل الهجرة بمائة سنة على الأكثر[2] .

وزعمت بكر بن وائل ان أول من قال الشعر وقصد القصيد ، هو (عمرو بن قيئة) ، وكان في عصر (مهلهل بن ربيعة) ، وعُمر حتى جاوز التسعين . وكان (امرؤ القيس) ، قد استصحبه لما شخص الى قيصر ، فمات في سفره ذلك[3] .

وذكر (ابن قتيبة) ان من قديم الشعر قول (دويد بن نهد القضاعي) :

البوم يبنى لدويد بيته   لو كان للدهر بلىً أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته   يا رب نهب صالح حويته
وربَّ عبل خشن لويته

وذكر من بعده اسم : (أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان) ، ثم الحارث ابن كعب[4] .

ولم يكن المذكورون أول من قصد القصيد ، وتفنن في أبواب الشعر ، وإنما هم أقدم من وصل اسمه الى مسامع علماء الشعر ، فصاروا من ثم أقدم شعراء الجاهلية . وقد نسب الى (زهير بن أبي سلمى) قوله :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً   أو معاداً من قولنا مكرورا

وإذا صح ان هذا البيت هو من شعره حقاً ، دلَّ على اعتقاد الشاعر ومن كان في أيامه بقدم الشعر ، وبتقدمه وبتطوره ، وبتفنن الشعراء الذين عاشوا قبله ، في طرق الشعر وذهابهم فيه كل مذهب ، حتى صار من جاء بعدهم من الشعراء عالة عليهم فلا يقول إلا معاراً ، أو معاداً من الشعر مكروراً . والى هذا المعنى ذهب (عنترة) في قوله :

١ المزهر (٤٧٧/٢) .
٢ الرافعي (١٤/٣) .
٣ المرزباني ، معجم (٣ وما بعدها) .
٤ الشعر والشعراء (٤٨/١ وما بعدها) .

هـــل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدارَ بعد توهم

فقد سبق الشعراء (عنترة) في قول الشعر ، وفي الإبداع والتفنّن به ، حتى لم يتركوا له شيئاً جديداً ليقوله .

ونجد الشاعر (لبيداً) ، يشير في شعره الى الشعراء الذين تقدموا عليه، ويقول عنهم انهم سلكوا طريق مرقش ومهلهل ، حيث يقول :

والشاعرون الناطقـــون أراهم سلكوا طريق مرقش ومهلهل[1]

ولقـــد تعرض (الفرزدق) في قصيد له الى من تقدم عليه من الشعراء ، فقال :

وهب القصائدَ لي النوابغُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجَرولُ
والفحل علقمةُ الذي كانت لـه حلل الملوك كلامه لا ينحـــل
وأخو بـني قيسٍ وهن قَتَلْنَه ومهلهـــل الشعراء ذاك الأول
والأعشيـــان كلاهمـــا ومرقش وأخو قضاعة قـــول يُتَمثّل
وأخو بني أسد عبيدٌ إذ مضى وأبو دُؤادٍ قوله يتنخـــل
وابنا أبـي سُلْمى زهيرٌ وابنـه وابن الفريعـــة حين جد المقول
والجعفريُّ وكـــان بشر قبله لي من قصائده الكتابُ المجمل
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقاً كالسّمَ خالط جانبيه الحنظـــل
والحارثي أخو الحماس ورثتـــه صَدْعاً كما صدع الصّفاة المعول[2]

فهؤلاء هم من أقدم الشعراء العرب الذين وصل خبرهم الينا علـى وفق هذه الأخبار والروايات . وهم ونفر آخر من أمثالهم قد عاشوا في أيام لا نستطيع أن نبتعد بها عن الاسلام بأكثر من قرن أو قرن ونصف قرن. وقد عسر على الذاكرة حفظ شيء عن أخبارهم وأيامهم ، فلم تذكر عنهم غير أسمائهم وغير شيء يسير جداً عنهم ، وخلا أبيات ، لا ندري أهي من نظمهـم حقاً ، أم هي من نظم

---

١ البيان والتبيين (٢/١٨٣) .
٢ ديوان الفرزدق (٧٢٠) ، نقائض (٢٠٠) .

من تحدث عنهم ! وعلى موجب روايات أهل الأخبار تكون تلك الأبيات أقدم ما عندنا من شعر عربي .

وقد ولع بعض المحدثين على وضع سنين لتثبيت سنين مواليد ووفيات الشعراء، واكتفى بعضهم بوضع سنين لوفياتهم ، وفعلهم هذا لا يستند الى أساس علمي ، لأننا لا نملك أدلة مقبولة صحيحة ، تخولنا حتى وضع مثل هذه الأرقام ، ثم إن في الكثير من هذا المروي عن حياة الشعراء ما هو غير صحيح ، ولهذا فليس من المعقول أبداً ، وضع سنين لتحديد مواليد ووفيات أولئك الشعراء ، والشيء الوحيد الذي نستطيع فعله هذا اليوم هو أن نشير الى زمان من عاصروهم من الملوك كملوك الحيرة والغساسنة ، فنحن على شيء من العلم بأوقات حكمهم ، وأن نربط بين أيامهم وبين الحوادث الجسام التي أدركوها أو ساهموا فيها .

ونحن لا نستطيع ترتيب الشعراء ترتيباً زمنياً يستند على سنوات الوفيات، فنقدم شاعراً على شاعر آخر استناداً الى سنة الوفاة ، لأننا لا نملك نصوصاً فيها سني الوفاة . ثم إن حياة أقدم شاعر جاهلي لا يمكن أن تتجاوز المائة والخمسين سنة عن الاسلام على أكثر تقدير ، وان أكثرهم قد كانوا متعاصرين ، وان بين حياة الشاعر القديم منهم ، وبين الشاعر المتأخر ، فترات غير طويلة ، تتطاول على العشرة سنين أو العشرين ، وهي أزمنة لا تعدّ شيئاً بالنسبة الى تأريخ هذا الشعر القصير الأجل .

ويجب ألا تخدعنا بعض العبارات التي نقرأها في كتب الأدب مثل قولهم : « وهو شاعر جاهلي قديم » ، أو « هو شاعر قديم » ، أو « هما قديمان »[1]، أو « وهو جاهلي قديم »[2] ، وأمثال ذلك من تعابير تشير الى قدم الشاعر أو الشعراء ، فنأخذها على الصحة ، ونقول بقدم الشاعر ، أو الشاعرين ، أو الشعراء، فإن أكثر من ذكر أهل الأخبار أنهم من الشعراء القدماء ، هم من الذين كانوا في أيام حكم الملك (عمرو بن هند) ، وقد كان حكم هذا الملك فيما بين السنة (٥٥٤) والسنة (٥٦٩) للميلاد . وإذا ما تذكرنا أن ميلاد الرسول كان في سنة (٥٧٠) أو (٥٧١) للميلاد ، عرفنا إذن أي قدم هو هذا القدم الذي توهموه .

---

١ الشعر والشعراء (٣٠٢/١) .
٢ الشعر والشعراء (١٩٢/١ ، ٢٩٤) .

خذ ما قاله (ابن قتيبة) مثلاً عن (زهير بن جناب) سيد (كلب) وهو في نظره من الشعراء المعمرين ، تراه يقـول : « وهو جاهلي قديم . ولما قدمت الحبشة تريد هدم البيت خرج زهـير فلقي ملكهم ، فأكرمه ووجهه الى ناحيـة العراق يدعوهم الى الدخول في طاعته ... »[1] . ولو جاريناه وأخذنا بصحة الخبر المزعوم ، نكون قد جعلناه حيـاً في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، فقدوم الحبشة تريد هدم البيت ، كان في عام الفيل ، أي سنة (٥٧٠) أو(٥٧١) للميلاد ، أي العام الذي ولد فيه الرسول ، فهل يعد (زهير بن جناب) اذن (جاهلي قديم) ؟ وقد أدرك على حد قول (ابن قتيبة) ميلاد الرسول ؟ ثم خذ ما قاله عن (ابني خذاق) ، تراه يقول : « وهما قديمان ، كانا في زمن عمرو بن هند »[2] ، ثم خذ ما قاله عن (سلامة بن جندل) ، إذ قال عنه : « جاهلي قديم » ، وجعل أيامه في عهد (عمرو بن هند)[3] ، وقـد عرفنا أيام حكم (عمرو بن هند) .

ثم خذ ما قاله عن (عبيـد بن الأبرص) ، تراه يقول : « وكان عبيـد شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين ، وشهد مقتل حجـر أبي امرىء القيس »[4] ، أو خذ ما ذكره عن (عمرو بن قميئة) ، حيث يقول : « وهو قديم جاهلي، كان مع حجر أبي امرىء القيس »[5] : بل خذ ما ذكـره عن (امرىء القيس ابن حارثة بن الحمام بن معاوية) المعروف بـ (ابن حمام) أو (ابن حزام) ، أو (ابن خذام) ، الذي يقول عنه الشعراء انه أول من بكى الديار عند العرب، وانه عاش قبل امرىء القيس[6] ، ترى أهل الأخبار يذكرون انـه كان معاصراً للشاعر (المهلهل)[7] ، خال (امرىء القيس) الكندي . واذا علمنا ان حكم ملوك كندة للحيرة ، كان ما بين السنة (٥٢٥) والسنة (٥٢٨) للميلاد ، وان وفاة (الحارث) والد (حجر) والد (امرىء القيس) الشاعر الكندي ، أي

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٩٤) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣٠٢) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٩٢) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٨٧) .
٥ الشعر والشعراء (١/٢٩٢) .
٦ الشعر والشعراء (١/٦٨ وما بعدها) .
٧ الخزانة (٢/٢٣٥) ، (بولاق) .

جد الشاعر ، قد كانت في سنة (٥٢٨) للميلاد ، وان قتل (حجر) قد وقع بعده ، استطعنا الحكم بأن أولئك الشعراء المذكورين قد عاشوا في النصف الأول من القرن السادس للميلاد ، وان حياة أقدم واحد منهم ، لا يمكن أن تتجاوز قرناً واحداً قبل الاسلام ، مها بالغنا في التقدير .

وأما ما زعمه أهل الأخبار عن بعض أولئك الشعراء ، من انهم كانوا من المعمرين ، وان منهم من عمّر أكثر من ثلثمائة سنة ، وان المعمر في نظرهم لا يعدّ معمراً إلا اذا زاد عمره على المائة والعشرين عاماً ، فأترك أمر تصديقه الى القارىء ، إن شاء أخذ به ، متمنيـاً له أيضاً عمر المعمرين وزيادة ، وإن شاء رفضه ، أما أنا ، فلست من حزب الذين يعتقدون برأي أهل الأخبار في العمر وفي المعمرين ، ولا أريد أبداً أن أكون من أولئك المعمرين .

وقد قسم (محمد بن سلام) الجمحي المتوفى سنة (٢٣٢) الشعراء الى طبقات، ضمت كل طبقة جماعة من الشعراء،رأى أن بينها تشابهاً وتقارباً فجمعهم لذلك في طبقة واحدة ، أما (ابن قتيبة) فقد بدأ بأوائل الشعراء ، وهم : (دويد بن نهد) القضاعي ، ثم (أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان) ، ثم (الحارث ابن كعب)، وقد تحدث عنهم حديثاً قصيراً جداً ، ثم تكلم عن بقية الشعراء ، وعلى رأسهم (امرؤ القيس) فزهير بن أبي سلمى ، ولم يسر في كتابه على طريقة (ابن سلام) في عرضه الشعراء على طبقات ، كما لم يسر على الترتيب الأبجدي لأسماء الشعراء أو على شهرتهم أو كناهم ، كما سار غيره في مؤلفاتهم عن الشعراء .

وقد سار (جرجي زيدان) على مبدأ تقسيم الشعراء على وفق الأغراض التي نظموا شعرهم بها والتي غلبت طباعهم عليها . فجعلهم : أصحاب المعلقات ، وعددهم (١٠) ، والشعراء الأمراء ، وجمعهم في (١٤) رجلاً ، والشعراء الفرسان ، ومجموعهم (٢٨)،والشعراء الحكماء، وحاصلهم (٤) ، والشعراء العشاق وعددهم (٨) ، والشعراء الصعاليك وهم (٧) ، والمغنون ، وهم (١) ، والنساء الشواعر ، وعددهن (٤) ، والهجاءون ، وعددهم (٤) ، والوصافون للخيل ، وعددهم (٤) ، والموالي ، وعددهم (١) ، وسائر الشعراء ومجموعهم (٢٦) ، ومجموع الجميع (١٢١) شاعراً[١] .

---

١ تاريخ آداب اللغة العربية (١٠٢/١) .

وقسّم (كارلو نالينو) الشعراء الجاهليين الى أربعة أصناف : الصنف الأول ما نسجه أهل البادية أو من تقرب منهم سواء كانوا وثنيين أم يهود من شعر ، الثاني : أشعار الوثنيين الذين قصدوا ملوك الحيرة وبني غسان وجالسوهم ، الثالث: أشعار النصارى بالحيرة أو في مملكة بني غسان ، الرابع : أشعار أهل الحضر الوثنيين في مدن الحجاز[1] . وقد أدخل في الصنف الأول : تأبط شراً والشنفرى وأمثالهم، لأنهم رجال بادية عوائدهم أقرب للهمجية المحضة منها لأحوال أهل بلد ذات نظام اجتماعي ، فسمّوا (أولئك الرجال) الصعاليك[2] ، وأدخل في هذا الصنف أيضاً أصحاب المعلقات ، وحاتم الطائي ، وعروة بن الورد ، والأفوه الأودي، ودريد ابن الصمة[3] . وأدخل في الصنف الثاني (زهير بن جناب) الكلبي ، وطرفة بن العبد ، وهو من أصحاب المعلقات ، وأوس بن حجر ، وبقية من كان لهم اتصال بملوك الحيرة والغساسنة[4] ، وأدخل في الصنف الثالث : أبو دُؤاد الإيادي ، وعدي بن زيد العبادي ، وأدخل في الصنف الرابع قيس بن الخطيم ، وأمية بن أبي الصلت[5] .

واقدم من ذكرهم علماء الشعر من شعراء أهل الجاهلية : دويد بن نهد القضاعي ، وأعصر بن سعد بن قيس بن عيلان ، والحارث بن كعب[6] ، والعنبر ابن عمرو بن تميم ، والمستوغر بن ربيعة بن كعب بن نهد ، وزهير بن جناب الكلبي ، وجذعة الأبرش ، والجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، وابن حذام[7] ، والأفوه الأودي ، وذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، وضمرة ، رجل من كنانة ، والأضبط بن قريع . وقيل: « أول من قال الشعر ابن حذام »[8].

ولهؤلاء البيت والبيتان والأبيات ، ولم ترد لهم قصائد ، لأن أول من قصد القصائد ، ووضع القصيد هو المهلهل ، على ما يزعمه أهل الأخبار .

---

١ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (٧١) .
٢ المصدر نفسه (ص ٧٢) .
٣ كذلك (ص ٧٤ وما بعدها) .
٤ كذلك (ص ٨١) .
٥ كذلك (ص ٩٢ وما بعدها) .
٦ الشعر والشعراء (١/٤٨ وما بعدها) .
٧ المزهر (٢/٤٧٥ وما بعدها) .
٨ المزهر (٢/٤٧٧) .

وقد قدم (ابن قتيبة) (دويـد بن نهد) القضاعي على سائر الشعراء ، وقال : « لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة . فمن قديم الشعر قول دويد بن نهيد القضاعي :

اليوم يبنى لدويد بيتــه لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته يا رب نهب صالح حويته
ورب عبل خشن لويته »[1]

وقال بعد ذلك : « وقال الآخر :

ألقى عليّ الدهر رجلاً ويدا والدهر ما أصلح يوماً أفسدا
يصلحه اليوم ويفسده غدا »[2]

وهو رجز نسبه (ابن سلام) وغيره لدويد نفسه[3] .

وزعم أهل الأخبار انه لما حضرته الوفاة ، جمع آله ، وقال يوصيهم : « أوصيكم بالناس شراً ، لا ترحموا لهم عبرة ، ولا تقيلوهم عثرة ، قصّروا الأعنة وطوّلوا الأسنة ، واطعنوا شزراً ، واضربوا هبراً .. » الى آخر وصيته ، ثم قال:

اليوم يبنى لدويد بيتــه يا رب نهب صالح حويته
وربّ قرن بطل أرديته وربّ غيل حسن لويته
ومعصم مخضب ثنيتــه لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته[4]

---

١ الشعر والشعراء (١/٤٨) ، (الثقافة) ، ابـن سلام ، طبقات الشعراء (٢٧) ، السجستاني ، المعمرون (١٩) ، ابن سلام ، طبقات (١١) ، (طبعة ليدن) ، المزهر (٢/٤٧٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/٤٨) ، (حاشية رقم ٣) ، وورد :
يفسد ما أصلحه اليوم غدا
أمالي المرتضى (١/٢٣٧) .
٣ الشعر والشعراء (١/٤٨) ، (حاشية رقم ٣) .
٤ أمالي المرتضى (١/٢٣٧) ، وروى على هذه الصورة :
اليـوم يبنى لدويـد بيتـه لـو كان للدهـر بـلى أبليتـه
أو كـان قرني واحـدا كفيتـه يـا رب نهـب صالـح حويتـه
ورب غيـل حسـن لويتـه ومعصـم مخضـب ثنيتـه
تاج العروس (٢/٣٤٧) ، (داد) ، المزهر (٢/٤٧٥) .

وهو كلام يشعرك أنه نص لوصية الشاعر، ضبط ضبطاً ، يشعرك أن ضابطه كان حاضراً إذ ذاك ، وأنه سجله سجل المسجل للصوت ، حتى وصل الينا أصيلاً كاملاً لا تغيير فيه ولا تحوير . أما رأيي فيه،فهو أنه من هذه النصوص الكثيرة التي وضعها أهل الأخبار على ألسنة المتقدمين عليهم ، والتي لا يمكن أن يركن اليها ، ولا أن يؤخذ بها ، ومن في استطاعته اثبات أنه نص أصيل ، وليس لديه دليل قطعي يثبت تلك الإصالة .

ومن قدماء الشعراء : (أعصر بن سعد بن قيس عيلان) ، وهو (منبه بن سعد) أبو باهلة وغني والطفاوة . وهو القائل :

قالت عميرة ما لرأسك بعد ما　　نفد الزمان أتى بلون منكر
أعمير إن أباك شيب رأسه　　كر الغداة واختلاف الأعصر[1]

وذكر (ابن قتيبة) بعد (أعصر) اسم (الحارث بن كعب) وقال عنه: « وكان قديماً » ، وروى له هذه الأبيات :

أكلت شبابي فأفنيته　　وأفنيت بعد شهور شهورا
ثلاثة أهلين صاحبتُهُم　　فبانوا وأصبحت شيخاً كبيراً
قليل الطعام عسير القيا　　م قد ترك القيد خطوي قصيرا
أبيت أراعي نجوم السماء　　أقلب أمري بطونا ظهورا[2]

والحارث بن كعب ، هو (الحارث بن كعب بن عمرو بن وعلة بن خالد ابن مالك بن أدد) المذحجي ، وهو من المعمرين ، وقد نسبوا له وصية زعموا أنه لما حضرته الوفاة ، جمع ولده ، فخطبهم يوصيهم ، وكان مما جاء فيها أنه على دين (شعيب) النبي ، « وما عليه أحد من العرب غيري ، وغير (أسد بن

١　المزهر (٢/٤٧٥) ، الشعر والشعراء (١/٤٨ وما بعدها) ، (الثقافة) ، ابن سلام ، طبقات (٢٨) .

قالت عميرة ما لرأسك بعدما　　نفد الشباب أتى بلون منكر
أعمير ان اباك شيب رأسه　　مر الليالي واختلاف الاعصر

الشعر والشعراء (١/٤٩) .

٢　الشعر والشعراء (١/٤٩) .

خزيمة) و (تميم بن مرة) » ، ثم أوصاهم بوصيته ، على الطريقة المألوفة التي نراها في الوصايا التي تنسب في العادة الى المعمرين ، ثم ختمها بإنشاده الأبيات المذكورة [1] .

(والمستوغر بن ربيعة بن كعب بن نهد) ، من قدماء المعمرين ، بقي بقاء طويلاً حتى قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وازددتُ من عدد السنين مئينا
مائة أتت من بعدها مائتان لي ... وازددت من عدد الشهور سنينا [2]

وذكر (ابن دريد) ان (المستوغر) عاش ثلثماية وعشرين سنة ، ولقّب (المستوغر) لقوله :

ينش الماء في الرّبلاتِ منها ... نشيش الرضف في اللبن الوغير [3]

وذكر انه أدرك الاسلام ، أو كاد يدرك أوله . ونسبوا له قوله :

إذا ما المرءُ صمّ فلم يكلّم ... وأودى سمعه إلا ندايا
ولاعب بالعشيّ بني بنيه ... كفعل الهرّ يحترشُ العظايا
يلاعبهم وودّوا لو سقوه ... من الذيفان مترعةً ملايا
فلا ذاق النعيمَ ولا شراباً ... ولا يشفى من المرض الشفايا [4]

وزعم « ان المستوغر مرّ مرة بعكاظ يقود ابن ابنه خرفاً ، فقال له رجل:

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٣٢) .
٢ ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة حدتها بعدها مئتان لي ... وازددت من بعد الشهور سنينا
هل ما بقي الا كما قد فاتني ... يوم يمر وليلة تحدونا
الشعر والشعراء (١/٣٠٠) .
المزهر (٢/٤٧٥) ، (وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ابن حر بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر) ، أمالي المرتضى ، (١/٢٣٤) ، المعمرون (٧) ، المرزباني ، معجم (٣١٣) .
٣ الاشتقاق (١/١٥٤) ، الشعر والشعراء (١/٣٠٠) .
٤ أمالي المرتضى (١/٢٣٥) ، ابن سلام ، طبقات (٣٠) .

يا عبدالله أحسن اليه،فطالما أحسنَ اليك ! قال : أو تدري من هو ؟ قال : نعم هو أبوك أو جدك ، قال : هو والله ابن ابني ! قال الرجل : لم أرَ كاليوم في الكذب ولا مستوغر بن ربيعة !! قال : فأنا المستوغر بن ربيعة » . « قال أبو عمرو بن العلاء : عاش المستوغر ثلاثَ مائة سنة وعشرين سنة »[1] .

وقد ذكره (ابن حجر) في الصحابة ، وقال عنه : « المستوعز،بعين مهملة ثم زاي ، ابن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدي،أبو بيهس، واسمه عمرو ، والمستوعز لقب » . وكان من فرسان العرب في الجاهلية ، وقال (المرزباني) انه عاش في أيام معاوية ، ويقال مات في صدر الاسلام[2] . والأغلب ان وفاته كانت قبل الاسلام ، وانه لا يمكن لذلك عدّه في الصحابة .

والأفوه الأودي ، هو (صلاءة بن عمرو بن مالك) من (مذحج) ، ومذحج من اليمن ، فهو من اليمانيين ، وكان من سادات قومه وقائدهم في حروبهم ، وكانوا يصدرون عن رأيه ، والعرب تعده من حكمائها ، بما اشتمل عليه شعره من الحكمة[3] . وقد اشتهر بقصيدته :

فينا معاشر لم يبنوا لقومهم ... وان بنى قومُهم ما أفسدوا عادوا
لا يَرْشُدُون ولن يرعوا لمرشدهم ... فالجهل منهم معاً والغيّ ميعاد
أضحوا كقيل بن عمرو في عشيرته ... إذ أهلكت بالذي سدّى لها عاد
أو بعده كقدار حين تابعه ... على الغواية أقوامٌ فقد بادوا
والبيت لا يُبتنى إلاّ له عمدٌ ... ولا عماد إذا لم ترس أوتادُ
فإن تجمع أوتادٌ وأعمدة ... وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا
وإن تجمع أقوام ذوو حسب ... اصطاد أمرهم بالرشد مصطادُ
لا يصلح الناسُ فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جُهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فإن تولت فبالأشرار تنقاد

---

١ الشعر والشعراء (١/٣٠١) ، الاصابة (٣/٤٦٨) ، (رقم ٨٤٠٧) .
٢ الاصابة (٣/٤٦٨) ، (٨٤٠٧) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٤٩) ، الاغاني (١١/٤١) ، العيني (١/٤٢١) ، تاج العروس (٩/٤٠٥) ، (فوه) ، معاهد التنصيص (٢/١٥٩) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١١٧) .

إذا تولى سراة القوم أمرهم نما على ذاك أمرُ القوم فازدادوا
امارة الغيّ أن يُلقى الجميع لذي الإبرام للأمر والأذنابُ أكتادُ
حان الرحيل الى قوم وان بعدوا فيهم صلاحٌ لمرتاد وارشادُ
فسوف أجعل بُعد الأرض دونكمُ وإن دنت رحمٌ منكم وميلاد
إن النجاء إذا ما كنت ذا نفر من أجّة الغيّ إبعادٌ فابعادُ
فالخير تزداد منه ما لقيت به والشرّ يكفيك منه قلما زادُ

وقد رويت بعض الأبيات بصور مختلفة . فلابن دريد ، قراءة ، ولأبي بكر ابن الأنباري قراءة . وقد نص (القالي) على القراءتين[1] ومن أبياتها :

كيف الرشاد إذا ما كنت في نفر لهم عن الرشد أغلال وأقياد
أعطوا غواتهم جهلاً مقادتهم فكلهم في حبال الغيّ منقاد[2]

وله قصيدة تعدّ من جيد شعره ، أولها :

إن ترى رأسي فيه نزعٌ وشوايَ خلّة فيها دُوار
انما نعمة قوم متعة وحياة المرء ثوب مستعار
ولياليه إلالٌ للقوى ومدى قد تجتليها وشفار
وصروف الدهر في اطباقه خلفةٌ فيها ارتفاع وانحدار
بينا الناس على عليائها إذ هوَوا في هُوّة منها فغاروا[3]
حتَمَ الدهرُ علينا أنه ظلفٌ ما نال منّا وجبار

وهو القائل :

والمرءُ ما يُصلح له ليلةٌ بالسعد تُفسِدُه ليالي النحوس
والخيرُ لا يأتي ابتغاءٌ به والشرّ لايفنيه ضَرحالشموس[4]

---

١ الامالي (٢٢٤/٢ وما بعدها) ، العقد الفريد (٥/١) ، الشعر والشعراء (١٤٩/١) .
٢ بلوغ الارب (١٠٦/٣) .
٣ بلوغ الارب (١٠٥/٣ وما بعدها) .
٤ الشعر والشعراء (١٤٩/١) .

وله ديوان مطبوع[1] .

وذكر ان النبي نهى عن إنشاد قصيدة الأفوه :

إن ترى رأسي فيه نزع وشواي خلة فيها دوار

وذلك لوَرود ذم فيها لبني هاجر مثل قوله :

يا بني هاجر ، ساءت خطة أن تروموا النصف منا ونجار
ان يجل مُهري منكم جولة فعليه الكر فيكم والغوار
نحن أود ، ولأود سنة شرفٌ ليس لنا عنها قصار
سنة أورثناها مذحجٌ قبل أن ينسب للناس نزار[2]

وهي قصيدة يمانية ، فيها تعصب ليمن ، وتهجم على (نزار) أبناء هاجر ، أي العدنانيين ، ولهذا ذكر الرواة ان النبي نهى عن روايتها ، وهي من موضوعات الصراع القحطاني النزاري المعروف ، أرادت النزارية طمسها ، فروت ان النبي نهى عن روايتها ، والنهي والقصيدة — في نظري — من المصنوعات التي ظهرت بعد وفاة النبي ، وأسلوب نظم القصيدة يتجسس على أصالتها ، يتحدث انه من النظم الاسلامي .

وأورد (المعري) له هذا البيت :

كشهاب القذف يرميكم به فارسٌ ، في كفه للحرب نار

وهو بيت من (رائيته) التي يعدونها من أجود الشعر العربي[3] .

وهي قصيدة يقول عنها (الجاحظ) : « وما وجدنا أحداً من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة »[4] .. ونظراً لإشارة (الجاحظ) اليها ، فإن صنعها يجب

---

١ طبعه عبد العزيز الميمني في الطرائف الادبية ، (القاهرة ١٩٣٧ م) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٧/١) .
٢ راجع ديوانه ، (القاهرة ١٩٣٧ م) .
٣ رسالة الغفران (٢٩٧) ، (رقم الحاشية ٥) .
٤ الحيوان (٢٨٠/٦) ، النوادر (١٦٩/١) ، معاهد التنصيص (٩٥/٤) .

أن يكون قبل أيامه، في الإسلام على أثر ظهور العصبية النزارية في أيام الأمويين، فوضعها أحدهم على لسان الأفوه في التعريض بالنزاريين .

ونسب (الجاحظ) له قوله :

أضحت قُرينةُ قد تغير بشرها   وتجهّمت بتحية القوم العدا
ألوت بإصبعها وقالت إنما   يكفيك مما لا ترى ما قد ترى[1]

كما نسب له قوله :

نُبئنا لثعلبة بن قيس جفنة   يأوي اليها في الشتاء الجوع
ومذانب لا تستعار وخيمة   سوداء عيب نسيجها لا يُرفع
وكأنما فيها المذانب حلقة   وذم الدلاء على دلوج تنزع[2]

وقد نسبت اليه أبيات ورد فيها ذكر (التبابعة والمثامنة وأولاد نوح : سام وحام ويافث) ، هي :

فلو دام الخلود إذن جدودي   وأسلافي بنو قحطان داموا
ودام لهم تبابعهم ملوكاً   ولم تمت المثامنة الكرام
وعاش الملك ذو الأذعار عمرو   وعمرو حوله اللجبُ اللهام
وخلّد ذو المنار وما تردّى   أبوه الرائش الملك الهمام
ملوك أدّت الدنيا اليها   أتاوتها ودان لها الأنام
ولمّا يعصها سام وحام   ويافث حيث ما حلت ولامُ[3]

ونسبت اليه أبيات في مدح (مذحج) ، وفي الاشادة بكرمها ، أولها :

تعظم النار إذ النار التي   شبّها عنس خبت أو صعصعة[4]

والشعر المتقدم من الشعر المصنوع ولا شك، وضعه قوم من المتعصبين للقحطانية على النزاريين ، أي العدنانيين .

---

١ البيان والتبيين (١/١٩٧ وما بعدها) .
٢ البخلاء (٢٢٣ وما بعدها) .
٣ تاريخ ملوك العرب الاولية (٢٨ وما بعدها) .
٤ المصدر نفسه (ص ١٣٧) .

ومن الشعراء القدماء : (زهير بن جناب) الكلبي ،سيد بني كلب وقائدهم، وكان شجاعاً مظفراً ميمون النقيبة في غزواته[1] . ذكر انه لما قدمت الحبشة تريد هدم البيت خرج (زهير) فلقي ملكهم ، فأكرمه ووجهه الى ناحية العراق يدعوهم الى الدخول في طاعته ، فلما صار في أرض (بكر بن وائل) لقيه رجل منهم فطعنه ، لكنه نجا وفر هارباً ، وعمر طويلاً . وقد مات منتحراً . شرب الخمر صرفاً حتى قتلته . وفي الشعر المنسوب اليه ما يشك بصحة نسبته اليه . وقد ذكر انه كان في أيام (داوود بن هبُالة) ، الـذي كان أول ملك للعرب في بلاد الشأم ، فغلبه ملك الروم على ملكه ، فصالحه داوود على أن يقره في منازله ويدعه فيكون تحت يده ، ففعل . فكان يغير بمن معه ، ثم تنصر وكره الدماء وبنى ديراً ، سُمي (دير اللثق) ، وأنزله الرهبان . ثم ان ملك الروم طلب منه أن يغزو بمن معه من العرب ، ففعل وكان معه في جيشه زهير بن جناب . فقتـل زهير بن جناب (هدّاج بن مالك) سيد عبد القيس ، فتواعد رجلان من قضاعة على قتل (داوود) ، وكان اذا سار ليلاً ، سار وأمامه شمعة ، فقتلاه[2] .

« قال أبو حاتم : عاش زهير بن جناب مائتي سنة وعشرين سنة ، وأوقـع مائتي وقعة ، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه ، ويقال : كانت فيه عشر خصال لم يجتمعن في غـيره من أهل زمانه ، كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم وشاعرهم ، ووافدهم الى الملوك ، وطبيبهم — والطب في ذلك الزمان شرف — وحازى قومـه — والحُزاة الكهان — وكان فارس قومه ، وله البيت فيهم ، والعدد منهم » .

ونسبوا له وصيـة ، ذكروا أنه أوصى بها بنيه حين حضرته الوفاة ، وذلك على طريقتهم عند تحدثهم عن المعمرين .

وقد أورد أهل الأخبار له شعراً ، في العمر وفي النساء وفي مخاطبـة أولاده[1] . وقد نسبوا له هذا الشعر :

---

١ الاغاني (٢١/٩٣ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (٣٠) ، جمهرة ابن حزم (٤٢٦)، المؤتلف (١٣٠) ، المحبـر (٢٥٠) ، المعمرون (٢٤) ، الشعر والشعراء (١/٢٩٤ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تأريخ الآداب العربية (٨٢) ، المزهر (٢/٤٧٥ ومـا بعدهـا) .

٢ أسماء المغتالين (١٢٧) .

٣ امالي المرتضى (١/٢٣٨ وما بعدها) .

لقد عُمّرتُ حتى لا أبالي أحتفي في صباحي أو مسائي
وحق لمن أتت مائتان عاماً عليه أن يملّ من الثواء
شهدتُ الموقدين على خزازى وبالسلاّن جمعاً ذا زُهاء
ونادمت الملوك من آل عمرو وبعدهم بني ماء السماء [1]

ومن جيد شعره قوله :

ارفع ضعيفك لا يَحُر بك ضعفه يوماً فتدركه عواقبُ ما جنى
يجزيك أو يُثني عليك ، وإن من أثنى عليك بما فعلتَ كمن جزى

وهو شعر نسبه (ابن قتيبة) اليه ، غير أن من العلماء من نسبه لورقة بن نوفل ، ومنهم من نسبه لغريض اليهودي ، وقيل لابنه (سعية) ، ومنهم من نسبه لشعراء آخرين [2] .

أما المهلهل ، فهو امرؤ القيس بن ربيعة بن مرة بن الحارث بن زهير بن جشم، وانما سُمي مهلهلاً لبيت قاله لزهير بن جناب الكلبي :

لمّا توعر في الكراع هجينهم هلهلتُ أثأر جابراً أو صنبلا

وقيل ان اسمه كان عدياً،وقد ذكره (امرؤ القيس) في شعره [3] . ولقّب مهلهلاً لطيب شعره ورقّته ، أو لأنه أول من أرق المراثي ، أو لأنه أول من قصّد القصائد ، وقال الغزل ، فقيل : هلهل الشعر أي أرقه [4] . وفيه يقول الفرزدق:

---

١ المعمرون (٢٦ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٩٦) ، (حاشية رقم ٧) .
٣ رفعت رأسها الي وقالت يا عديا لقد وقتك الاواقي
ضربت صدرها الي وقالت يا عدي لقد وقتك الاواقي
، وقال الصاغاني في التكملة : وليس البيت لمهلهل وانما هو لأخيه عدي ، ويروى البيت : ضربت صدرها ، (السيوطي شرح شواهد المغنى ٦٥٦) ، (حاشية ٤) ، الخزانة (١/٣٠٠) ، (بولاق) ، الاغاني (٤/١٣٩) .
ضربت صدرها الي وقالت يا امرأ القيس حان وقت الفراق
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٥٦ وما بعدها) .

ومهلهل الشعراء ذاك الأول[1]

وزعم انه كان به خنث[2] . وهو أخو (كليب وائل) الذي هاجت بمقتله حرب بكر وتغلب . وهو جدّ (عمرو بن كلثوم) ، أبو أمه (ليلى) ، وخال امرىء القيس الشاعر[3] .

وقد تطرق (المعري) في (رسالة الغفران) الى سبب اشتهار (المهلهل) بهذا النعت ، فجعل أحد الأشخاص يسأله : « أخبرني لم سميت مهلهلاً ؟ فقد قيل » : إنك سميت بذلك ، لأنك أول من هلهل الشعر ، أي رققه »:

فيقول : إن الكذب لكثير . وإنما كان لي أخ يقال له امرؤ القيس ، فأغار علينا زهير بن جناب الكلبي ، فتبعه أخي في زرافة من قومه ، فقال في ذلك :

لمّا توقل في الكراع هجينهم هلهلت أثأر مالكاً أو صنبلا
وكأنه باز علتــهُ كبرة يهدي بشكته الرعيل الأولا »[4]

وقد أورد (المعري) له بيتاً ، هو أول بيت من قصيدة تنسب اليه، هو .

أليلتنا بــذي حُسم انــيرى إذا أنت انقضيت فلا تحوري[5]
فــإن يك بالذنائب طال ليل فقد أبكى من الليــل القصير

وأورد له بيتاً آخر هو :

أرعَدوا ساعــة الهياج وأبرقـ نا كما توعد الفحول الفحولا

وذكر أن (الأصمعي) كان ينكره ويقــول : إنه مولد . وكان أبو زيد

---

١ ديوان الفرزدق (٧٢) ، الشعر والشعراء (٢٥٦) ، (٢١٥/١) ، (الثقافــــة) ، ديوان الفرزدق (١٥٩/٢) .
٢ الشعر والشعراء (٢١٥/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (١٦٤/٢) ، (هارون) .
٣ الشعر والشعراء (٢١٥/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (١٦٤/٢) ، (هارون) ، ابن سلام ، طبقات (٣٣ وما بعدها) ، الاغاني (١٤٠/٤) ، المرزباني ، معجــم (٢٤٨) ، اللآلىء (١١١) ، الاغاني (٣٤/٥) ، (دار الكتب) ، الاصمعيات (١٧٤).
٤ رسالة الغفران (٣٥٤) .
٥ رسالة الغفران (٣٥٣) .

يستشهد به ويثبته[1] .

« وزعم الرواة ان الشعر كله انما كان رجزاً وقطعاً ، وانه انما قُصِّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصَّده مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الاسلام مائة ونيف وخمسون سنة . ذكر ذلك الجمحي وغيره »[2] ؛ وقيل انه كان أول شاعر بلغت قصائده ثلاثون بيتاً من الشعر ، فاحتذى من جاء بعده حذوه . وان أول قصيدة قالها كانت في قتل أخيه كليب[3] . وانه كان أول من كذب في شعره ، بقوله :

فلولا الريحُ أسمعَ من بِحُجْرٍ صليلَ البيض تقرع بالذكور

ويذكرون ان هذا البيت هو من أول كذب العرب ، وكانت العرب قبل ذلك لا تكذب في أشعارها ، وكان بين الموضع الذي كانت فيه هذه الواقعة وهي بالجزيرة وبين حجر وهي قصبة اليمامة مسافة بعيدة ، فأخرجه هذا الشاعر بقوة متنه ونفاذ فطنته الى معنى آخر مستظرف في بابه[4] . وقد اتهمه البعض بأنه كان يتكثر ويدعي قوله بأكثر من فعله[5] .

وزعم انه أحد البغاة ، لقوله :

قل لبني حصنٍ يردّونه أو يصبروا للصيلم الخَنْفَقيق
من شاء دلى النفسَ في هوة ضنكٍ ، ولكن من له بالمضيق[6]

أمرهم ان يردّوا كليباً وقد قتل ، وأعلمهم انه لا يرضى بشيء غير ذلك .

---

١ رسالة الغفران (٣٥٤) .
٢ العمدة (١٨٩/١) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٣ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٦٧/١) ،
ولولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيض تقرع بالذكور
الشعر والشعراء (٢١٦/١) ، (الثقافة) ، البيان والتبيين (١٢٤/١) ، الحيوان (٤١٨/٦) ، العمدة (٥٠/٢) ، الاغاني (١٤٦/٤) ، المرزباني ، معجم (٣٣١) ، نقد الشعر ، لقدامة (٨٤) ، الموشح (٧٤) .
٤ زهر الاداب (٢٣٤/١) ، الشعر والشعراء (٢١٦/١) ، الاغاني (١٥٢/١٤) ، خزانة الادب (٣٠٢/١ وما بعدها) .
٥ السيوطي ، شرح (٦٥٧/٢) .
٦ الشعر والشعراء (٢١٦/١) ، (الثقافة) .

وهو أحد أصحاب المنتقيات السبع ، المدونة في كتاب : (جمهرة أشعار العرب) .

وقد ذكره (لبيد) في شعره ، فجعله و (مرقشاً) من الشعراء الذين مهدوا السبيل لمن جاء بعدهم في نظم الشعر ، فالشاعرون الناطقون الذين جاؤا بعدهما إنما سلكوا دروبهما في نظم الشعر :

والشاعرون الناطقون أراهم   سلكوا سبيل مرقش ومهلهل[1]

وكان مهلهل القائم بالحرب ورئيس تغلب ، فلما كان يوم قضة ، وهو آخر أيامهم ، وكان على تغلب ، أسر (الحارث بن عبّاد) مهلهلا وهو لا يعرفه ، فقال له الحارث : تدلني على عدي بن ربيعة المهلهل وأنت آمن ؟ فقال له (المهلهل) : ان دللتك على عدي فأنا آمن ولي دمي ؟ قال : الحارث : نعم ، قال : فأنا عدي ا فجز ناصيته وخلاّه ، وقال : لم أعرف . وفي ذلك يقول الحارث بن عباد :

لهفَ نفسي على عديّ ولم أعرف عدياً إذ أمكنتني اليدان
طلَّ من طلَّ في الحروب ولم يطلل قتيل أباته ابن أبان[2]

ثم خرج (مهلهل) فلحق باليمن ، فنزل في (جنب)[3] ، فخطب اليه رجل منهم ابنته ، فقال : إني طريد غريب فيكم ، ومتى أنكحتكم قال الناس اعتسروه ، فأكرهوه حتى زوّجها ، وكان المهر أدماً ، فقال :

أنكحَهَا فَقدُها الاراقمَ في جَنْبٍ ، وكان الحباء من أدم
لو بأبانين جاء يخطبها رُمِّل ما أنف خاطبٍ بدمِ

ثم انحدر ، فلقيه (عوف بن مالك بن ضبيعة) ، وهو أبو أسماء صاحبة

---

١ ديوان لبيد (٢٧٦) ، (٣٩) ، البيان والتبيين (٢/١٨٣) .

٢ الشعر والشعراء (١/٢١٦ وما بعدها) .

٣ حي من اليمن .

المرقش الأكبر ، فأسره فمات في أساره[1] . وللأخباريين قصص عن كيفية موته[2].

ونسبوا له قصيدة رثى بها أخاه كليباً ، بقوله :

أليلتنا بذي حُسُمٍ أنيري ... اذا أنتِ انقضيتِ فلا تحوري

وفيها :

على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا طرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا رجف العِضاه من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا خرجت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا ما أعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلاً من كليب ... غداة تلاتل الأمر الكبير
على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا ما خام جار المستجير[3]

وأورد المرتضى (مرثية) لليلى الأخيلية رثت فيها : ثوبة بن الحمير ، لها أسلوب خاص في الرثاء ، حيث ترد جملة : (لنعم الفتى) و (نعم الفتى) في أوائل أربعة أبيات من القصيدة ، تلتها « لعمري لأنت المرء أبكي لفقده » أربع مرات مكونة الأنصاف الأولى من الأبيات ، ثم « أبى لك ذم الناس يا ثوب كلما » مرتين ، ثم : « فلا يبعدنك الله يا ثوب انما » ، ثم « ولا يبعدنك الله يا ثوب انها » مرة ، ثم : « ولا يبعدنك الله يا ثوب والتقت » . فخرجت من تكرار الى تكرار لاختلاف المعاني[4] .

وروى قصيدة أخرى لابنة عم للنعمان بن بشير رثت فيها زوجها ، أنصاف أبياتها الأولى : « وحدثني أصحابه ان مالكاً » ، أما القافية فهي على اللام[5] .

---

١ الشعر والشعراء (٢١٦/١ وما بعدها) ، الخزانة (١٧٣/٢) .
٢ أسماء المغتالين (٢٠٨) .
٣ أمالي المرتضى (١٢٣/١ وما بعدها) .
٤ أمالي المرتضى (١٢٤/١ وما بعدها) .
٥ أمالي المرتضى (١٢٦/١) .

ومن معاصري (مهلهل) الشاعر (امرؤ القيس بن حمام بن عبيدة بن هبل) ابن أخي (زهير بن جناب بن هبل) ، وزعم بعضهم أنه الذي عنى (امرؤ القيس) بقوله : نبكي الديار كما بكى ابن حذام . وكان مهلهل تبعه (يوم الكلاب) ففاته ابن حمام بعد أن تناوله (مهلهل) بالرمح . وكان (ابن حمام) أغار على (بني تغلب) مع زهير بن جناب فقتل جابراً وصنبلاً . وفيها يقول مهلهل :

لمّا توعر في الكلاب هجينهم   هلهلتُ أثأر جابراً أو صنبلا

و (امرؤ القيس بن حارثة بن الحُمام بن معاوية) ، أو (امرؤ القيس بن حارثة بن خذام بن معاوية) على رواية أخرى ، أو (ابن خذام) ، أو (ابن حذام) ، هو شاعر سبق (امرأ القيس) الكنـــدي في البكاء على الديار وتذكر الأطلال ، استنتجوا ذلك من شعر ينسب لامرىء القيس ، هو :

يا صاحبيَّ قفا النواعجَ ساعة   نبكي الديارَ كما بكى ابنِ حمام

أو (ابن خذام) في رواية (أبي عبيدة) .

ومن بيت آخر هو :

عوجا على الطلل المحُيل، لعلّنا   نبكي الديار كما بكى ابن خذام[2]

وابن (خذام) ، و (ابن حمام) ، و (ابن حزام) و (ابن حذام)، اسم الشاعر ، وهو اسم واحد، تحرف بالرواية وبالنسخ ، فصار على هذه الصور .

ومن شعراء ربيعة (سعد بن مالك) ، الذي يقول :

يا بؤس للحـرب التي   وضعت أراهط فاستراحوا[3]

---

١ الخزانة (٢/٢٣٥) ، (بولاق) .
٢ الشعر والشعراء (١/٦٨ وما بعدها) ، المزهر (٢/٢٣٨) ،
عوجـا على الطلـل المحيـل ، لاننـــا   نبكـي الديار كما بكى ابـن خـــذام
الآمدي ، المؤتلف (١٠٩) ، ديوان امرىء القيس (١١٤) ، المـــزهر (٢/٤٧٧) ، بروكلمن (١/٦٠) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٥٧) .

قال هذا البيت في قصيدة يعرض فيهـا بـ (الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) من حكام (ربيعة) وفرسانها المعدودين ، وكان اعتزل حرب (بني وائل) وتنحى بأهله وولده وولد اخوته وأقاربه ، وحل وتر قوسه ، ونزع سنان رمحه ، ولم يساهم في الحرب التي هاجت بين بكر وتغلب ابني وائل ، وهي حرب البسوس :

وسعد ، هو (سعد بن مالك بن ضبيعـة بن قيس بن ثعلبـة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر وائل) . وكان أحد سادات بكر بن وائل وفرسانها في الجاهلية . وكان شاعراً ، وله أشعار جياد في كتاب بني قيس بن ثعلبة [1] .

وفي رواية تنسب الى (دغفل) النسّابة انه كان جد (طرفة بن العبد)[2] . وطرفة ، هو : (عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة)[3] ، واذا أخذنا بهذا النسب نرى ان (سعد بن مالك) ، هو جد (العبد) والد (طرفة) . واذا أخذنا برواية من جعل نسب الشاعـر (عمرو بن قميئة) على هذه الصورة : (عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة) ، فيجب عدّه ابناً من أبناء (سعد بن مالك) ، أمـا اذا اعتبرنا نسبه على هذه الصورة : « عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك) ، فنكون بذلك قد جعلناه حفيداً له ، ويكون (ذريحا) ابناً من أبناء هذا الشاعر[4] .

ويظهر من نسب المرقش الأكبر ، وهو (ربيعة بن سعد بن مالك)،ويقال: « بل هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة »[5] ، أنـه كان ابناً ، لسعد بن مالك ، الشاعر الذي نتحدث عنه ، وإذا ذهبنا مذهب من يقول ان المرقش الأصغر كان أخاً للمرقش الأكبر ، فيكون بذلك ابناً من أبناء (سعد ابن مالك) ، وأما إذا أخذنا برواية من يذكر أنه كان ابن أخي المرقش الأكبر ، وانه (عمرو بن حرملة) ، أو (ربيعة بن سفيان) فيكون ابن ابن (سعد بن

---

١ الخزانة (٢٢٣/١ وما بعدها) .
٢ ذيل الامالي (ص ٢٦) .
٣ شرح القصائد العشر (ص ٩) ، (اخراج محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٤ راجع نسبه في الخزانة (٢٥٠/٢) وفي المراجع الاخرى التي ذكرتها في أثناء حديثي عنـه .
٥ الشعر والشعراء (١٣٨/١) ، (دار الثقافة) .

مالك) ، أي حفيده ، ويكون المرقش الأكبر عمه إذن ، ويكون بيت (سعد ابن مالك) من البيوت التي عرفت بالشعر .

وروي أن الشاعر (خزز بن لوذان) السدوسي ، كان قبل امرىء القيس. وقد نسب بعض أهل الأخبار له قوله :

يا ليت زوجك قد غدا متقلداً سيفاً ورمحـاً

ونسب هذا الشعر لغيره من الشعراء[1] .

ونسب له قوله :

كذب العتيق وماء شن بارد إن كنت سائلتي غبوقاً فاذهبي
لا تذكري مهري وما أطعمته فيكون لونك مثل لون الأجرب

وكانت له فرس اسمها ابن النعامة ، ورد ذكرها في هذا الشعر[2] .

ويجب أن نضيف الى الشعراء المتقدمين شاعراً يظهر من روايات أهل الأخبار، انه لم يكن من فحول الشعراء ، ولا من أوساطهم وانما كان «شويعراً» ، ولذلك عرف بـ (الشويعر) . ويذكر أهل الأخبار انه كان أحد من سمي (محمداً) في الجاهلية ، وهم سبعة ، واسمه الكامل : (محمد بن حمران بن أبي حمران). وهو قديم[3] . كان (امرؤ القيس) أرسل اليـه في فرس يبتاعهـا منه ، فأبى فقال فيه :

أبلغا عني الشويعر اني عمد عين قلدتهن حريما

وحريم ، هو جد الشويعر[4] . فقال الشويعر مخاطباً امرأ القيس :

أتتني أمور فكذبتها وقد نميت لي عاماً فعاما
بأن امرىء القيس أمسى كثيبا على آله ما يذوق الطعاما

---

١ ونسب لعبدالله بن الزبعري الخزانة (٢/٢٣١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٩/٨٣) ، (نعم) .
٣ المؤتلف (١٤١ وما بعدها) ، (٢٠٨) ، (فراج) .
٤ البيان (٢/١٠) ، الآمدي ، المؤتلف (١٤١) .

لعمر أبيك الذي لا يهان ... لقد كان عرضك مني حراما
وقالوا : هجوت ، ولم أهجه ... وهل يجدن هاج فيك مراما[1]

وذكر الشاعر (ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم) ، بعد مهلهل في تقصيد القصائد ، وهو (عمرو بن تميم) ، وهو من تميم ، قيل انه كان شاعراً قديماً، وهو الذي يقول :

يا كعب إن أباك منحمق ... إن لم تكن بك مرة كعب

وهي أبيات قديمة يقول فيها :

جانيك من يجني عليك وقد ... تعدي الصحاح مبارك الجرب[2]

والأضبط بن قريع ، هو (الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم) ، فهو من (بني تميم) . وقد عدّ في المعمرين[3] . وقد أورد (الجاحظ) له شعراً منه :

لكلّ همٍّ من الهموم سَعَه ... والمُسْيُ والصبح لا فلاح معه
فصلْ حبالَ البعيد إن وصل الـ ... حبل وأقصِ القريبَ إن قطعه
وخذ من الدهر ما أتاك به ... من قرّ عيناً بعيشه نفعه
لا تحقرن الفقير علّكَ أن ... تركع يوماً والدهر قد رفعه
قد يجمع المالَ غيرُ آكله ... ويأكل المالَ غير من جمعه[4]

وقد روي الشعر على هذا النحو :

يا قومِ من عاذري من الخدعه ... والمسي والصبح لا فلاح معه
فصل حبالَ البعيد إنْ وصل الحبـل ، واقصِ القريبَ إن قطعه

١ تاج العروس (٣/٣٠١) ، (شعر) .
٢ الاشتقاق (١٢٤) ، المزهر (٢/٤٧٧) .
٣ السجستاني ، (٨) ، البيان والتبيين (٣/٣٤١) ، الاغاني (١٦/١٥٤ وما بعدها) ، الامالي (١/١٠٧) ، الخزانة (٤/٥٨٩) ، المثل السائر (١/٢٦) ، مجالس ثعلب (٤٨٠) .
٤ البيان والتبيين (٣/٣٤١) .

واقنع من العيش ما أتاك به من قرّ عيناً بعيشه نفعه
قد يجمعُ المالَ غير آكله ويأكل المالَ غير من جمعه
لا تهين الفقير علّك أن تخشعَ يوماً والدهر قد رفعه[1]

وقد أورد هذا الشعر القالي في أماليه عن (ابن دريد) عن (ابن الأنباري) عن ثعلب . وقد قال ثعلب : انه قيل قبل الاسلام بدهر طويل . ورواه أيضاً (ابن الأعرابي) ، والجاحظ ، وصاحب الحماسة البصرية ، والشريف في حماسته، وابن قتيبة في كتاب الشعراء وصاحب الأغاني وغيرهم ، بتقديم بعضها على بعض وطرح أبيات منها[2] .

وقال (السيوطي) : « عزاه ابن الأعرابي في نوادره للأضبط بن قريع من أبيات هي :

لكلّ ضيق من الأمور سعه والمسي والصبح لا بقاء معه
لا تهين الفقير علّك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه
وصل حبال البعيد إنْ وصل الـ حبل واقص القريب ان قطعه
واقبل من الدهر ما أتاك بـه من قَرّ عيناً بعيشه نفعه
قد يجمع المـال غير آكله ويأكل المالَ غير من جمعه
ما بال من غيّهُ مُصيبك لا تملك شيئاً من أمره فدعـه
حتى إذا انجلت عمايته أقبل يلحي وغيّه فجعه
أذودُ عـن نفسه ويخدعني يا قوم من عاذري من الخدعه

قيل إن هذه الأبيات قيلت قبل الإسلام بدهر طويل . وقال في الحماسة البصرية هي للأضبط بن قريع السعدي من شعراء الدولة الأموية »[3] ؛

وزعم ان هذا الشعر قيل قبل الاسلام بخمسمائة عام . » فقد نقل الشيخ خالد في التصريح ان هذا الشعر قيل قبل الاسلام بخمسمائة عام . وكان سبب هذا الشعر

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٩٨ وما بعدها) ، الاغاني (١٦/١٥٩) ، اللآلىء (٣٢٦) ، السمط (٣٢٦) ، بلوغ الارب (٣/١١٨) .
٢ الخزانة (٤/٥٨٩) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٤٥٣) ، (شواهد على) .

على ما في الأغاني عن أبي محلم : ان أم الأضبط كانت عجيبة (عجبة) بنت دارم بن مالك بن حنظلة ، وخالته : الطموح بنت دارم ، فحارب بنو الطموح قوماً من بني سعد،فجعل الأضبط يدس اليهم الخيل والسلاح ولا يصرح بنصرهم خوفاً من أن يتحزب قومه حزبين معه وعليه . وكان يشير عليهم بالرأي ، فإذا أبرمه نقضوه وخالفوا عليه ، وأروه مع ذلك انهم على رأيه فقال في ذلك هذه الأبيات . وهو الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وقريع ، بضم القاف وفتح الراء ، هو أبو جعفر ، الملقب بأنف الناقة » ، « وهو جاهلي قديم »[1] .

وكان من فرسان العرب ، « وكان أغار على بني الحارث بن كعب ، فقتل منهم وأسر وجدع وخصى ، ثم بنى أطماً ، وبنت الملوك حول ذلك الأطم مدينة صنعاء ، فهي اليوم قصبتها »[2] . وهو شاعر قديم ، يزعم بنو تميم انه أول من رأس فيهم[3] .

وروي أنه هو صاحب المثل : « بكل وادٍ بنو سعد » . وهو شبيه بالمثل : « بكل واد أثر من ثعلبة » . الميداني (٨٤/١ ، ٩٤) ، وكان الأضبط قد تأثر من قومه بني سعد ، فتحول عنهم الى آخرين ، فلما رأى ظلمهم وعسفهم قال: « بكل وادٍ بنو سعد »[4] ، أو أنه قال : « أينما أوجه ألق سعداً » .

والمعمر في نظر العرب ، هو من عاش فوق المائة . « ولا تعدّ العرب معمراً إلا من عاش مائة وعشرين سنة فصاعداً »[5] . والعادة عندهم ، أنهم إذا وصلوا الى نهاية حياة المعمر ، ينصبون له مجلس توديع ، يجمعون فيه ولده وآله وأقاربه وسادات قبيلته أحياناً ، ليوصيهم بما حصل عليه من حكم الأيام وتجاربها ، ثم قد يختمونها بشعر . وهي متشابهة في المعاني ، لأنها في موضوع نصح وحكم ،

---

١ الخزانة (٥٩٠/٤) .
٢ الشعر والشعراء (٢٩٨/١) .
٣ تاج العروس (١٧٥/٥) ، (ضبط) .
٤ البيان والتبيين (٢٩٤/٣) ، الحيوان (٣٥٨/١) ، (١٠٤/٣) ، (٣٩٤/٤) ، البخلاء (١٨٩) ، الشعر والشعراء (٢٩٨/١) ، أمثال الضبى (٦) ، الاغاني (١٥٤/١٦) ، شرح شواهد ، للسيوطي (١٥٥/١) ، الخزانة (٥٨٨/٤) ، المحبر (١٨٢) .
٥ أمالي المرتضى (٢٣٦/١) .

أما أسلوبها فهو السجع ، الأسلوب المتبع عند الكهان والخطباء ، وهو وسط بين الكلام المرسل وبين الشعر .

و « أوس بن حجر بن معبد بن حزن بن خلف بن نمير بن أسيد بن عمرو » التميمي من شعراء تميم كذلك ، وقد جعله بعضهم من الطبقة الثالثة وقرنه بالحطيئة ونابغة بني جعدة . ذكر انه كان شاعر بني تميم في الجاهلية غير مدافع ، وكان فحل العرب فلما نشأ النابغة طأطأ رأسه . وله ديوان مشروح[1] . وورد عن (أبي عمرو بن العلاء) قوله : « كان أوس فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه »[2].
وقال عنه أبو ذؤيب: «وكان أوس عاقلاً في شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق، وهو من أوصفهم للحُمُر والسلاح ولا سيما للقوس ، وسبق الى دقيق المعاني والى أمثال كثيرة »[3] . وكان شاعر تميم في الجاهلية غير مدافع[4] . وكان غزلاً مغرماً بالنساء[5] ، وكان قد بلغ الغاية في الصيد والقنص،يقضي الليل مع الوحش ليصطاد شيئاً منها ، وفي ذلك يقول :

قصيٌّ مبيت الليلِ للصيد مُطعم   لأسهمه غارٍ وبارٍ وراصف[6]

ويظهر من الشعر المنسوب اليه ، أنه كان على اتصال بالحضر وبالنصارى ، وقد جاء في شعره بمعان وبتعابير وألفاظ لم يستعملها غيره من الشعراء الجاهليين . فقد ذكر (الهر) والديك والخنزير في شعره ، مثل قوله :

كأن هراً جنيباً عند غرفتها   والتف ديكٌ برجليها وخنزير

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/١١٣ وما بعدها ، ٣٩٩) ، الموشح (٦٣) ، رسالة الغفران (٢٧٤) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٣١) ، الاغاني (١٠/٥ وما بعدها) ، الخزانة (٢/٢٣٥) الموشح (٦٣) ، (كان أوس شاعر مضر ، حتى أسقطه النابغة وزهير) ، الشعر والشعراء (١/١٣٤) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٣١) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٣٤) .
٥ الخزانة (٢/٢٣٤ وما بعدها) ، (بولاق) .
٦ ديوان أوس (ص ٧١) ، رسائل الجاحظ (١/٧٢ وما بعدها ، ٧٦) ، (مناقب الترك) .

وجمع ثلاثة ألفاظ أعجمية في بيت واحد ، فقال :

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها   من الفصافص بالنمى سِفْسير

وله أشعار جيدة . « قال الأصمعي : ولم أسمع قط ابتداء مرثية بأحسن من ابتداء مرثيته :

أيتها النفس اجملي جزعاً   إن الذي تحذرين قد وقعا »[1]

وله شعر في مدح (أبي دليجة) ، وهو (فضالة بن كلدة) . وكان قد جبر كسراً ألم به لما صرعته ناقته ، فآواه وداواه حتى برأ ، فتذكر منته عليه[2]. ومن شعره في مدح (فضالة بن كلدة) :

أريب أديب أخو مأزق   نقاباً يخبر بالغائب[3]

ولأوس شعر في (حليمة بنت فضالة بن كلدة) التي مرضته وعاونته مع والدها حتى شفي وبرأ . وهو من باب الشكر والحمد[4] .

وورد البيت على هذه الصورة :

نجيح ، مليح ، أخو مأقط   نقاب يحدث بالغائب[5]

ولما توفي (فضالة) رثاه (أوس بن حجر) في قصيدة جعلها (أبو الفرج الأصبهاني) : « من فاضل مراثيه اياه ونادرها » . ومما جاء فيها :

الألمعي الذي يظن لك الظـ   ـن كأن قد رأى وقد سمعا[6]

---

١ الشعر والشعراء (١/١٣٥) ، رسالة الغفران (٣٣٩) .
٢ الخزانة (٢/٢٣٦) ، (بولاق) .
٣ ديوان أوس (١٢) ، رسائل الجاحظ (١/٣٠٢) ، (رسائل في نفي التشبيه) ، الحيوان (٣/٦٠) .
٤ الحيوان (٣/٧١) ، الاغاني (١٠/٧) ، البيان والتبيين (٣/٣٢٠) ، ديوان أوس (٢٧) .
٥ تهذيب الالفاظ (١٦٤) .
٦ ديوان أوس بن حجر (٥٣) ، البيان والتبيين (٤/٦٨) ، الحيوان (٣/٥٩) ، الاغاني (١٠/٨) ، رسائل الجاحظ (١/٣٠٢) ، (رسائل في نفي التشبيه) ، رسالة الغفران (٤٥٢) .

وهذا البيت من نفس القصيدة التي قال (الأصمعي) عنها : « لم أسمع قط ابتداء مرثية أحسن من ابتداء مرثيته :

أيتها النفس اجملي جزعاً   إنّ الذي تحذرين قد وقعا »[1]

ومن شعر أوس بن حجر ، قوله :

فانقض كالدرّيّ يتبعه   نقعٌ يثور تخاله طنبا
يخفى وأحياناً يلوح كما   رفع المشير بكفه لهبا

وقد علّق الجاحظ عليه بقوله : « وهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر ، وشريح بن أوس »[2] . وشريح بن أوس ، هو ابن هذا الشاعر ، وقد ذكر الجاحظ له بيتاً يهجو فيه أبا المهوش الأسدي ، وهو من الشعراء المخضرمين[3] ، وهذا البيت هو :

وعيّرتنا تمر العراق وبره   وزادُك أير الكلب شيطه الجمر[4]

وقد ذكر (المعري) قصيدة حائية ، ذكر أنها تروى لعبيد مرة ، ولأوس أخرى.وتختلف في رواية المعري في الترتيب عما جاء في الديوان . ومما جاء فيها :

قاتلها الله ، تلحاني وقد علمت   اني لنفسي إفسادي وإصلاحي
أن أشرب الخمر أو أرزأ لها ثمناً   فلا محالة يوماً انني صاح
ولا محالة من قبر بمحنية   أو في مليع كظهر الترس وضاح[5]

وجاء فيها ذكر (يهودي) ، إذ يقول :

قد نمتَ عني ،وبات البرقُ يسهرني   كما استضاء يهوديٌّ بمصباح[6]

---

١ الشعر والشعراء (١/١٣٥) .
٢ الجاحظ ، الحيوان (٦/٢٧٤ ، ٢٧٩) .
٣ الجاحظ ، الحيوان (٦/٢٧٩) ، بروكلمن (١/١١٢) .
٤ الحيوان (١/٢٦٨) ، وورد (ونخله بدلا من وبره) ، (١/٣١٩) .
٥ رسالة الغفران (٢٧٤ وما بعدها) ، ديوان عبيد (٧٥) ، الامالي (١/١٧٧) .
٦ رسالة الغفران (٢٧٦) .

وقد خلط الرواة بين شعر (أوس) و (عبيد بن الأبرص) ، ولكنهم نبهوا على ذلك وأشاروا اليه[1] .

وأوس بن حجر من معاصري الملك (عمرو بن هند) ، وهو تميمي ، قتل أبوه يوم (الحجار) المصادف لسنة (٥٥٤ م) ، وكان مولده بالبحرين ، وقد طاف بشعره نجداً والعراق ، فمدح ملوك الحيرة ونادمهم ، ونال شعره شهرة في الصيد والسلاح[2] ، وله وصف للصحارى والسهول المقفرة ، ولمنابع المياه المتدفقة من الكهوف التي يكثر حولها ريش النعام[3] ، ولمسالك البادية[4] ، والنجاد والروابي والجبال[5] ، وللرياض[6] ، كما اشتهر بوصفه للحمير : قال « ابن الأعرابي : لم يصف أحد قط الخيل ، إلا احتاج الى أبي دؤاد ، ولا وصف الحمر إلا احتاج الى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد نعامة إلا احتاج الى علقمة بن عبدة »[7] . ولأوس شعر وصف فيه ثوراً وحشياً بقوله :

فانصاع كالدُرّي يتبعه نقع يثور ، تخاله طنبا[8]

ومن أمثاله السائرة قوله :

فإنكما يا ابنيْ جناب وجدتما كمن دبَّ يستخفي وفي الحلق جلجل

وقوله :

ولست بخابىء لغدٍ طعاماً حذار غد لكلّ غد طعام[9]

وقد أشار (أوس بن حجر) في شعره الى (المنخّل) اليشكري ، الذي اتهم بالمتجردة ، فزعم أن النعمان قتله أو حبسه ، ثم غمض خبره ، فلم يعرف

---

١ رسالة الغفران (٢٧٤ وما بعدها) ، ابن سلام (٧٦ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١/١١٢) .
٣ غرونباوم (١٧٩ وما بعدها) .
٤ غرونباوم (١٦٢ ، ١٨٣) .
٥ غرونباوم (١٦٣ ، ١٨٤) .
٦ غرونباوم (١٦٦ ، ١٨٦) .
٧ الاغاني (١٥/٩٦) ، غرونباوم (٢٧٧) .
٨ رسالة الغفران (٢٩٨) .
٩ بلوغ الارب (٣/١٠٤) .

أمره ، وضرب المثل به ، فقيل : « حتى يؤوب المنخل » . يقـال إن أوساً قال :

فجئت ببيعي مولياً لا أزيده عليه بها ، حتى يؤوب المنخل[1]

وإذا صح أن هذا الشعر ، هو من شعر (أوس) حقاً ، وأن (المنخل) هو (المنخل) اليشكري الشاعر لا غيره ، فيجب أن يكون أوس قد عاش بعده ، وأن يكون من المتأخرين عنه .

واذا كان أوس بن حجر من شعراء مضر ، ومن الوصافين ، فقد كان : (علقمة بن عبده) المشهور بالفحل من شعراء مضر كذلك ، وهو مثل (أوس) من تميم ، وقد اشتهر بوصف النعام . وكان ينادم (الحارث) الأصغر الغساني، والنعمان أبا قابوس اللخمي ، وكان له أخ اسمه (شأس) ، أسره (الحارث بن أبي شمر) الغساني المذكور مع سبعين رجلاً من تميم ، فأتاه علقمة ومدحه بقصيدة أولها :

طحابك قلب في الحسان طروب بُعيد الشباب عصر حان مشيب

الى الحارث الوهاب أعملتُ ناقتي لكلكلها والقُصْريَيْن وجيب

فلما بلغ هذا البيت :

وفي كل حي قد خبطتَ بنعمة فحق لشأسٍ من نداك ذَنوب

فقال الحارث : نعم وأذنبة . وفك أسره ومن أسر معه من (بني تميم) . ويقال ان شأساً هو ابن أخي علقمة[2] .

قيل انه إنما لقب بـ (الفحل) ، لأنه احتكم مع امرىء القيس ، الى امرأته (أم جندب) لتحكم بينهما في أيهما أشعر ، فقالت: قولا شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد ، وقافية واحدة ، فلما قالا وانتهيا ، حكمت لعلقمة بأنه أشعر من زوجها (امرىء القيس) فغضب عليهـا وطلقها ، فخلف عليها علقمة ،

---

١ رسالة الغفران (٣٤٠) .

٢ الشعر والشعراء (١/١٤٧ وما بعدها) ، رسالة الغفران (٣٢٧) .

فسمي بذلك : (الفحل)[1] . وهي اسطورة . وقيل انه لقب بالفحل تمييزاً له عن (علقمة بن سهل) من رهطــه ، وكان يعرف بالخصي ، ففرقوا بينهما بهذا الاسم . و (علقمة) الخصي ممن أدرك الإسلام . وكان يكنى (أبا الوضاح)، وقد أسلم ، وكان شاعراً . وهو القائل :

يقول رجال من صديق وصاحب أراك أبا الوضاح أصبحت ثاويا
فلا يعــدم البانون بيتاً يكنهم ولا يعدم الميراث مني المواليــا
وخفت عيون الباكيات واقبلـوا الى بالهم قد بنت عنه بماليــا
حراصاً على ما كنت أجمع قبلهم هنيئاً لهم جمعي وما كنت آليا[2]

ومن شعره في النساء :

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طبيبُ
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المالِ حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب[3]

ومما ينسب اليه قوله :

وكل حصنٍ وإن دامت سلامته على دعائمه لا بد مهدوم
ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامته لا بد مشؤوم
ومعظم الغُنم يوم الغُنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم
وكل قوم وإن عزوا وإن كثُروا عريفهم بأثافي الشر مرجوم[4]

وقد اشتهر (علقمة) بثلاث قصائد قال فيهن (ابن سلام) : « ولابن عبدة ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر »[5] ، منها قصيدته الميمية التي مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم[6]

---

١ الشعر والشعراء (١/١٤٥) ، ابن سلام ، طبقات (١١٦) ، الاغاني (٢١/١٧٢)، الخزانة (١/٥٦٥) .
٢ الخزانة (١/٥٦٥) .
٣ رسالة الغفران (٣٢٨) ، الشعر والشعراء (١/١٤٦) .
٤ بلوغ الارب (٣/١١٣) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٣١) .
٦ رسالة الغفران (١٤٢) .

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

ويلم ء أيام الشباب معيشة مع الكثر يعطاه الفتى المتلف الندى

وقد نسبه بعضهم لابنه : خالد بن علقمة بن عبدة ، ونسبه غيرهم لشعراء آخرين[1] .

وقد ذكر (ابن حجر) في كتابه (الإصابة) اسم رجل دعاه (علي بن علقمة بن عبدة) التميمي ، قال عنه انه ولد (علقمة) الشاعر المشهور الذي يعرف بعلقمة الفحل . وكان من شعراء الجاهلية من أقران امرىء القيس، ولعلّ هذا ولد اسمه (عبد الرحمن) ذكره المرزباني في معجم الشعراء ، فيلزم من ذلك أن يكون أبوه من أهل هذا القسم ، لأن عبد الرحمن لم يدرك النبي ، وعبد الرحمن هو القائل :

وشامت بي لا يخفي عداوته إذا حمامي ساقته المقادير
فلا يغرّنك جرّ الثوب معتجراً إني امرؤ لي عند الجدّ تشمير[2]

وعدّ (العنبر بن عمرو بن تميم) من قدماء الشعراء . وجعل (ابن سلام) قوله :

قد رابني من دلوي اضطرابها والنأي في بهراء واغترابها
أن لا تجيء ملأى يجيء قرابها

من قديم الشعر الصحيح[3] .

وكان سعد ومالك ابنا زيد مناة بن تميم ، ممن قالوا الشعر[4] ، وكذلك (حجر ابن معاوية) آكل المرار[5] . وقد أورد (الجاحظ) بيتين من الشعر لسعد بن ربيعة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم ، ثم قال : « وهذا من قديم الشعر » ، وذكر

---

١ الخزانة (٥٦٣/١) .
٢ الاصابة (١١١/٣) ، (رقم ٦٤٦٠) ، الخزانة (٥٦٦/١) .
٣ ابن سلام ، طبقات (١١) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١١) .
٥ البيان والتبيين (٣٢٨/٣) .

في موضع آخر انه « من قديم الشعر وصحيحه »[1] .

ومن شعراء تميم : (عبد القيس بن خفاف) (عبد قيس)، البرجمي التميمي وكان معاصراً لحاتم الطائي ، فأتاه ذات يوم في دماء حملها عن قومه وعجز عنها، فأعطاه حاتم مرباعاً له من غارة على بني تميم[2] .

ويقال انه قال شعراً على لسان النابغة في هجاء النعمان بن المنذر أبي قابوس ملك الحيرة ، ليكيد به الى النابغة ، حسداً له ، وقد فعل فعله في هذا الدس شاعر آخر هو (مرّة بن ربيعة) السعدي[3] .

وينسب له قوله :

فالله فاتقه وأوف بنذره	وإذا حلفت ممارياً فتحلل
واعلم بأن الضيفَ مكرم أهله	بمبيت ليلته وإن لم يسأل
والضيف اكرمه فإن مبيته	حقٌ ولا تك لعنة للنزل
وصل المواصلَ ما صفا لك وده	واحزز حبال الخائن المتبدل
واترك محل السوء لا تحلل به	وإذ نبا بك منزل فتحوّل
دار الهوان لمن رآها داره	أفراحلٌ عنها كمن لم يرحل؟
وإذا هممت بأمر شرّ فاتئد	وإذا هممت بأمر خير فاعجل
وإذا أتتك من العدوّ قوارص	فاقرص هناك ولا تقل لم أفعل[4]

ومن شعراء تميم : (عوف بن عطيّة بن الخرع) التميمي . وكان سيد قومه يوم (رحرحان) . ذكر (البغدادي) أنه كان له ديوان صغير موجود عنده[5] .

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٠٠ ، ٣٤١) .
٢ بروكلمن (١/١١٦) .
٣ الشعر والشعراء (١/٩٩ وما بعدها) ، (النابغة الذبياني) ، الاغاني (٧/١٤٥)، المفضلية رقم ١١٦ ورقم ١١٧ ، الحيوان (٤/٣٧٩) ، المرزباني ، معجم (٣٢٥) ، الحماسة (١/١١٣) ، نوادر أبي زيد (١١٣ وما بعدها ، ١٢٦) ، الاغاني (٩/١٥٨) ، (ساسي) .
٤ بلوغ الارب (٣/١٢٥) .
٥ الخزانة (٣/٨٣) ، المرزباني (٢٢٦) ، بروكلمن (١/١١٨) .

و (سلامة بن جندل) من شعراء تميم ، ويظهر من قصيدة رثا بها (النعمان أبي قابوس) انه عاش بعده . قال عنه (ابن قتيبة) : هو شاعر جاهلي قديم من فرسان تميم المعدودين . وأخوه (أحمر بن جندل) من الشعراء والفرسان . وكان (عمرو بن كلثوم) أغار على حي من بني سعد بن زيد مناة ، فأصاب منهم ، وكان فيمن أصاب (أحمر بن جندل)[1] . ويدل شعره في رثاء (النعمان) انه مات في عهد قريب من الاسلام . وله ديوان صغير مطبوع، أكثره في الحماسة والفخر ، مع شيء جميل من الوصف والتشبيه[2] .

ومن قوله في الشيب :

ولّى الشبابُ وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه ركض اليعاقيب[3]

ومن شعره قوله :

ليس بأسفى ولا اقنى ولا سغل يعطي دواء قفيّ السكن مربوب[4]

وكان أحد من يصف الخيل ، فيحسن ، وأجود شعره قصيدته التي أولها :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيب ولّى وذلك شأو غير مطلوب[5]

وقد زعم (آلورد) أنه أسلم ، « لأنه ذكر اسم الله : الرحمن . وهذا بعيد الاحتمال . كما ظنه لويس شيخو من أنه كان نصرانياً »[6] . وقد طبع (شيخو) ديوانه في بيروت سنة (١٩١٠) .

و (طريف بن تميم) العنبري ، من الشعراء الفرسان ، وكانت الفرسان لا تشهد عكاظ إلا مبرقعة مخافة الثؤرة ، وكان طريف لا يتبرقع كما يتبرقعون ،

---

١ الشعر والشعراء (١/١٩٢ وما بعدها) ، الاصمعيات رقم ٤٢ ، الخزانة (٢/٨٦) ، بروكلمن (١/١١٩) ، الامالي للقالي (١/١٠) .
٢ كارلو نالينو (٨٠) ، طبعة « كليمان هوار » في المجلة الاسيوية ، وطبعة « لويس شيخو » في « بيروت » سنة ١٩٢١ م .
٣ الامالي للقالي (١/١٨٥) .
٤ ذيل الامالي (٢٠٩) ، ابن سلام ، طبقات (١٣١) .
٥ الشعر والشعراء (١/١٩٢ وما بعدها) ، الخزانة (٢/٨٦) .
٦ بروكلمن (١/١١٩) .

وكان قد أغار في (بني العنبر) (عائذة) حلفاء لبني (أبي ربيعة بن ذهل)، فرماه (حصيصه بن شراحيل) الشيباني ، فقتله . وهو القائل :

أو كلما وردت عكاظَ قبيلةٌ بعثوا إليَّ عريفهم يتوسم[1]

مفتخراً بشجاعته على أعدائه وعلى الذين كانوا يتعقبون خطاه لقتله ، أخذاً بالثأر منه .

و (الأسود بن يعفر بن عبد القيس بن نهشل) النهشلي،من الشعراء المتقدمين في الجاهلية . وهو تميمي دارمي ، وقد عدّت قصيدته التي أولها :

نام الخليُ وما أحس رقادي والهم محتضر لديَّ وسادي

من أجود الشعر ومن مختار أشعار العرب . وقد عدّه (ابن سلام) في الطبقة الثانية من طبقات الشعراء[2] . وقد عرف بـ (ذي الآثار) ، لما كان يتركه هجاؤه من أثر في المهجوين[3] . وقد وردت في قصيدته المذكورة شواهد نحوية وردت في كتب الشواهد،وتعدّ القصيدة من مختار أشعار العرب وحكمها المأثورة . وكان ينادم (النعمان بن المنذر) ، وابنه الجرّاح وأخوه حطائط شاعران[4] ، وكان يكنى بابنه ، فعرف بـ (أبي الجرّاح)[5] .

ومن شعره قوله :

ومن الحوادثِ لا أبالك انني ضُرِبَتْ عليَّ الأرضُ بالأسداد
لا أهتدي فيها لمدفع تلعةٍ بين العذيب وبين أرض مرادِ

وفيها يقول :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم ، وبعد إياد

---

١ اسماء المغتالين (المجموعة السادسة) ، (ص ٢١٨ وما بعدها) ، تاج العروس (١٧٨/٦) ، (طرف) .
٢ الشعر والشعراء (١٧٦٨) ، الاغاني (١٢٩/١١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٥٥٣/٢) ، المعارف (٦٤٦ وما بعدها) .
٣ المفضليات (رقم ٥٥ ، و ١٢٥) ، الاغاني (١٤/١٣ وما بعدها) ، (دار الكتب) .
٤ الخزانة (١٩٥/١) ، (بولاق) .
٥ الشعر والشعراء (١٧٦/١) .

أهـل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد
نزلوا بأنقمـة يسيل عليهم مـاء الفرات يجيء من أطـواد
أرض تخيرها لطيب مقيلهـا كعب بن مامة وابن أم دواد
جرت الرياح على محلّ ديارهم فكأنمـا كانوا على ميعاد
فإذا النعيم وكلّ ما يلهى به يومـاً يصير الى بلى ونفاد[1]

وهو جيد العبارة ، ليس بالمكثر ، ينزع في شعره الى الحكمة . يكثر التنقل في العرب ، يجاورهم فيذم ويحمد[2] .

ومن شعر (حطائط) قوله :

أريني جواداً مات هزلاً لعلني أرى ما ترين أو بخيلاً مخلدا
ذريني أكن للمال ربّاً ولا يكن لي المال ربّاً تحمدي غبه غدا
ذريني يكن مالي لعرضي وقاية ففي المال عرضي قبل أن يتبددا[3]

والشاعر (عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة)، وقيل : (عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك) ، ويكنى (أبا كعب)، هو من (بني سعد بن مالك) ، رهط (طرفة بن العبد) وهو من (بني قيس ابن ثعلبة) . وكان في عصر (مهلهل بن ربيعة) . وقد نعت بأنه قديم جاهلي. وتزعم (بكر) ، انه أول من قال الشعر وقصّد القصيد ، وذكر انه كان أول من بكى على شبابه . وكان مع (حجر) أبي (امرىء القيس) ، فلما خرج (امرؤ القيس) الى بلاد الروم يستمد قيصر على بني أسد ، استصحبه ، فمات في سفره ذلك ، فسمته (بكر) (عمراً الضائـع) . واياه عنى امرؤ القيس بقوله :

---

١ المحاسن والاضداد (٨٨) ، الشعر والشعراء (١/١٧٦ وما بعدها) ، طبقات ابن سلام (١٢٣) ، ويوجد اختلاف في رواية بعض الفاظ هذا الشعر .

٢ البخلاء (٦٦ ، ٣٣٩) ، الاغاني (١١/١٣٤) ، الآمـدي ، المؤتلف (١٦ ومـا بعدها) .

٣ الخزانة (١/١٩٥ وما بعدها) .

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك انما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا[1]

وهو ابن أخي المرقش الأكبر ، وخال المرقش الأصغر ، وجدّ طرفة لأمه. وذكر انه عمّر حتى جاوز التسعين ، وقال :

كأني وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عني عـذار لجام[2]

وذكر (الجاحظ) أنه هو القائل :

شرّكم حـاضر وخيركم د رّ خروس من الأرانب بكر[3]

وذكر قبله أبياتاً هي :

ليس طُعمي طُعمَ الأنامل إذ قلّص درّ اللقـاح في الصنبر
ورأيت الإمـاء كالجعثن البـا لي عكوفاً على قُرارة قـدر
ورأيت الدخان كالودع الأهـ جن ينبـاع من وراء الستر[4]

وذكر (ابن قتيبة) ، أن (عمرو بن قميئة) ، كان من خدم (حجر) والد (امرىء القيس) ، وأنه بكى لما سار معه الى بلاد الروم ، وقال له : « غورت بنا »[5] . ولا يعقل أن يكون (عمرو) من خدم (حجر) ، فهـو وإن نشأ يتيماً في كفالة عمه (مرثد بن سعد) ، كما تذكر بعض الروايات[6] ،

---

١ المرزباني ، معجم الشعراء (٣ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٦٠) ، (عبد الستـار أحمد فراج) ، الشعر والشعراء (١/٢٩٢ وما بعدها) ، الاغاني (١٦/١٥٨ وما بعدها) ، طبقات الشعراء (٥٩) ، المؤتلف (٨٦٨) ، الجرجاني (١٢٩) ، البيـان والتبيين (٢/١٨) ، المعمرون للسجستاني (٨٩) ، الخزانـة (٢/٢٤٩ ومـا بعدها) ، البيان والتبيين (٣/٢٤١) .
٢ المرزباني ، معجم (٣) ، الشعر والشعراء (١/٢٩٣) ، المرزباني ، معجـم (ص ٢٠٠) ، (القدسي ١٣٥٤ هـ) ، بروكلمن (١/١١٧) ، أمالي المرتضى (١/٤٥) .
٣ البخلاء (٢١٤) ، (الحاجري) .
٤ الحيوان (٥/٧٣) ، (عبد السلام هارون) ،
بسر يطعم الارامل اذ قلص در اللقاح في الصنبر
رسائل الجاحظ (٢/٣٥٧) ، (كتاب البغال) .
٥ الشعر والشعراء (١/٦٠) ، (الثقافة) .
٦ الاغاني (١٦/١٥٨) ، البخلاء (٤١٢) ، (الحاجري) .

إلا أن أسرته لم تكن من طبقة وضيعة ، حتى يصير (عمرو) من خلم (حجر). بل روي أنه كان عاملاً لحجر[1] .

وورد انه في شعراء ربيعة الذين ابتدأ الشعر بهم قبل أن يتحول في قيس ، كالمرقشين وطرفة بن العبد والحارث بن حلزة[2] . و (عمرو) هو القائل يبكي شبابه :

لا تغبط المرءَ أن يقال له   أمسى فلان لعمره حكما
إن يُمْسِ في خفض عيشه فلقد   أخنى على الوجه طول ما سلما
قد كنتُ في ميعةٍ أسرّ بها   أمنع ضيمي وأهبط العصما
يا لهفَ نفسي على الشباب ولم   أفقد به إذ فقدته أمما[3]

وأورد الجاحظ من شعره قوله :

وأهون كفٍ لا تضيرك ضيرةً   يدٌ بين أيدٍ في إناء طعام
يدٌ من قريبٍ أو غريب بقفرةٍ   أتتك بها غبّراء ذاتُ قتام[4]

وقد استشهد ببيت من شعر نسب اليه ، هو :

ولما رأت ساتيدَ ما استعبرت   للهِ در اليوم من لامها

والشعر هو :

قد سألتني بنت عمرو عن   الأرض التي تنكر أعلامها
لما رأت ساتيد ما استعبرت   للهِ در اليوم من لامها
تذكرت أرضاً بها أهلها   أخوالهـا فيها وأعمامـها[5]

وأما قصة رحيله مع (امرىء القيس) الى قيصر ، ووفاته ، وهو في سفره

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١١٧) .
٢ طبقات الشعراء ، لابن سلام (٣٤) ، (دار المعارف) ، (١٩٥٢) ، البخلاء (٤١٢) ، (الحاجري) .
٣ المرزباني ، معجم (٤) ، (فراج) .
٤ البيان والتبيين (٣/٢٤١) .
٥ الخزانة (٢/٢٤٧ وما بعدها) .

معه ، فجزء من أسطورة سفر (امرىء القيس) الى الروم[1] .

وكان (عبيد بن الأبرص) شاعر (بني أسد) من المعاصرين لامرىء القيس، وله شعر يخاطبه فيه ، لما أظهره من تهديد ووعيد لبني أسد ، ويرد فيه عليه[2] . وقد انجبت (بنو أسد) جملة شعراء . وذكر أنه كان لدةّ لـ (عبد المطلب) جدّ النبي ، وأنه مـات قبل (عبد المطلب) بعشرين سنة . قتله (المنذر) أبو (النعمان بن المنذر)[3] . وإذا أخذنا بهذه الرواية واعتبرناها صحيحة، ورجعنا الى تأريخ وفاة (عبد المطب) التي كانت بعد الفيل بثماني سنين[4] ، وإذا جارينا المستشرقين واعتبرنا أن عام الفيـل ، يقابل السنة (٥٧٠) للميلاد ، تكون وفاة (عبد المطلب) في حوالى السنة (٥٧٨) للميلاد،فيكون قتل (عبيد بن الأبرص) في حوالى السنة (٥٥٨) للميلاد على هذا التقدير . ولكن الذي نعرفه من روايات أهل الأخبار أن (عبيد) هذا قد قتله (المنذر بن امرىء القيس) المعروف بالمنذر ابن ماء السماء ، الذي تولى الملك في حوالى السنة (٥٠٨) للميلاد وقتل سنة (٥٥٤) للميلاد[5] . فيجب أن يكون مقتل (عبيد) قبل السنة (٥٥٤) للميلاد لا بعدها ، على حسب تقدير الرواية السابقة .

وهو (عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم) من (بني ثعلبة بن دودان) من (بني أسد) . قال عنه (ابن قتيبة) : « وكان عبيد شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين ، وشهد مقتل حجر أبي امرىء القيس . وهو القائل لامرىء القيس:

يا ذا المخوّفنا بقتل أبيـه إذلالاً وحيّنـا
أزعمت أنك قد قتلتَ سراتنا كذباً ومينا »[6]

ويجب أن يكون مقتل (حجر) بعد السنة (٥٢٨) للميلاد . وهي السنة التي توفي فيها (الحارث) والد (حجر) على غالب الروايات[7] . ولا نعرف متى

---

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١١٧) .
٢ الخزانة (١/٣٢٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ الروض الانف (١/٥) .
٤ تأريخ الطبري (٢/٢٧٧) ، (ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسبابه) .
٥ الجزء الثالث (ص ٢١٩) من هذا الكتاب .
٦ الشعر والشعراء (١/١٨٧) ، الخزانة (١/٣٢٢) .
٧ الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٣٤٢ وما بعدها) .

قتل (حجر) على وجه صحيح ، غير أننا نستطيع أن نقول إن حكمه لم يدم طويلاً على (بني أسد) الذين انتهزوا فرصة وفاة (الحارث) وعودة الحكم الى ملوك الحيرة ، أيام (المنذر بن ماء السماء) الذي أخذ يتعقب آل الحارث ، ليقتلهم ، فثاروا على (حجر) وقتلوه .

وذكر ان (المنذر بن ماء السماء) هو الذي قتل عبيداً ، قتله يوم بؤسه . وكان يقتل فيه أول من يطلع عليه . فلما رآه المنذر ، قال له : هلاّ كان هذا لغيرك يا عبيد ! أنشدني ، فربما أعجبني شعرك ! فقال له عبيد : حال الجريض دون القريض . قال : أنشدني : أقفر من أهله ملحوب ، فأنشده عبيد :

أقفر من أهله عبيد   فاليوم لا يبدي ولا يعيد

فسأله أي قتلة يختار ؟ قال عبيد : أسقني من الراح حتى أثمل ، ثم افصدني الأكحل ، ففعل ذلك به ، ولطخ بدمه الغريين . والغريان طربالان كان يلطخهما بدماء القتلى يوم بؤسه . وكان بناهما على نديمين له ، وهما : خالد بن نضلة الفقعسي ، وعمرو بن مسعود[1] .

وذكر الرواة ان الملك قال لعبيد : أي قتلة يختار ؟ أنشأ يقول :

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه   خصالاً أرى في كلها الموت قد برق
كما خيرت عاد من الدهر مرة   سحائب ما فيها لذي خيرة أنق
سحائب ريح لم توكل ببلدة   فتتركها إلا كما ليلة طلق[2]

وقد ذكر (ابن قتيبة) أن « قصيدته التي يقول فيها: أقفر من أهله ملحوب، وهي إحدى السبع » ، هي من أجود شعره[3] .

---

١ الشعر والشعراء (١/١٨٨) ، وقد أخطأ « ابن قتيبة » اذ جعل قاتله « النعمان بن المنذر » ، وقد ذهب الى هذا المذهب أيضا في كتاب شمس العلوم (الجزء الاول ، القسم الثاني ص ٣٢٠) .

٢ الخزانة (١/٣٢٤) .

٣ الشعر والشعرا (١/١٨٨) .

ومن أمثاله السائرة قوله :

من يسأل الناس يحرموه   وسائل الله لا يخيب
وكل ذي غيبة يؤوب   وغائب الموت لا يؤوب

وقوله :

الخير يبقى وإن طال الزمانُ به   والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

وقوله :

الخير لا يأتي على عجلٍ   والشرّ يسبق سيله مطره[1]

ويعد (عبيد) في جملة المعمرين ، فقد جعل (ابن قتيبة) عمره أكثر من ثلثمائة سنة[2] ، وجعل (السجستاني) عمره مائتي سنة وعشرين ، ويقال بل ثلثمائة سنة[3] . ولتأييد رأيهم في أنه عاش هذا العمر حقاً ، أوجدوا شعراً زعموا أنه قاله ، هو :

ولتأتينْ بعدي قرون جمة   ترعى مخارم أيكة ولدودا
فالشمس طالعة وليل كاسف   والنجم يجري انحسار سعودا
حتى يقال لمن تعرق دهره   يا ذا الزمانة هل رأيت عبيدا
مائتي زمان كامل وبضعة   عشرين عشت معمراً محمودا
أدركت أول ملك نصر ناشئاً   وبناء شداد وكان أبيدا
وطلبت ذا القرنين حتى فاتني   ركضاً وكدت بأن أرى داوودا
ما تبتغيْ من بعد هذا عيشة   إلا الخلود ولن تنال خلودا
وليَفنين هذا وذاك كلاهما   إلا الإله ووجهه المعبودا[4]

وهو شعر يجعل عمر (عبيد) أكثر من ألف عام ، لا مائتي سنة وعشرين

---

١ بلوغ الارب (٣/١٠٧) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٨٨) ، الخزانة (١/٣٢٣) .
٣ الخزانة (١/٣٢٣) .
٤ الخزانة (١/٣٢٣) .

ويجعله فيمن ولد قبل الميلاد بزمان . وقد شاء صانعه أن يجعل شاعره من المؤمنين بالله الموحدين ، على نحو ما ترى في البيت الأخير من الشعر المزعوم :

ويجب أن نضيف الى الشعراء المذكورين الشاعر المعروف بـ (مرة بن الرواع الأسدي) ، أحد بني (حي بن مالك) . وهو شاعر قديم يقول أهل الأخبار انه كان في عصر (امرىء القيس) ، وان (امرىء القيس) كان يعلّم قيانه أشعار (ابن الرواع)[1] .

وهو القائل :

أشاقك من فكيهتك ادّلاجُ وبُتّ الحبل وانقطع الخلاجُ

من قصيدة طويلة . وقوله :

إن الخليط أجدوا البين وادّلجوا وهمّ كذلك في آثارهم لحجُ[2]

و (المنقذ بنَ الطمّاح) الأسدي ، شاعر جاهلي من الفرسان المعدودين . وقد أغار على إبل المنذر بن ماء السماء[3] . وقد عرف بـ (الجميح) ، وينسب اليه قوله :

يأبى الذكاء ويأبى أن شيخكم لن يعطي الآن من ضربٍ وتأديب[4]

و (عبد يغوث بن صلاءة ، وقيل ابن الحارث بن وقاص بن صلاءة بن المعقل) واسمه (ربيعة بن كعب) من شعراء الجاهلية فارس ، سيد قومه من (بني الحارث بن كعب) من اليمن . وكان قائدهم في يوم الكلاب الثاني الى بني تميم وفي ذلك اليوم أسر فقتل . وله قصيدة قالها وهو في أسره أولها :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فما لكما في اللومِ خير ولا ليا

---

١ المرزباني ، معجم الشعراء (ص ٣٨٢) .
٢ المرزباني ، معجم الشعراء (٢٩٤) ، (عبد الستار فراج) .
٣ معجم الشعراء (٣٢٩) ، الاصمعيات (٨٠) ، المفضليات (١٠٩) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٦٨/١) .
٤ المفضليات رقم ٤ من القصيدة ٤ ، بروكلمن (٧٨/١) .

ذكر ان الذي أسره غلام أهوج من (بني عمرو بن عبد شمس) ، فانطلق به اهله ، فقالت له أم الغلام : من أنت ؟ قال : أنا سيد القوم ! فضحكت وقالت : قبحك الله من سيد قوم حين أسرك هذا الأهوج ، والى هذا أشار بقوله :

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا [١]

وذكر أنه خاطب الشيخة بقوله : أيتها الحرة ، هل لكِ الى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : أعطي ابنك مائة من الإبل وينطلق بي الى الأهتم ، فإني أخاف أن تنتزعني سعد والرباب منه ، فضمن لها مائة من الإبل ، وأرسل الى (بني الحارث) فوجهوا بها اليه فقبضها العبشمي ، وانطلق به الى الأهتم ، فقال عبد يغوث :

أأهتم يا خير البرية والـداً ورهطاً إذا ما الناس عدّوا المساعيا

فشت سعد والرباب الى الأهتم فيه ، فقالت الرباب : قتل فارسنا ، وهو النعمان بن جساس ، ولم يقتل لكم فارس ، فدفعه اليهم ، فأخذه (عصمة بن أبير) التيمي ، فانطلق به الى منزله ، فقال عبد يغوث : يا بني تيم،اقتلوني قتلة كريمة . فقال عصمة : وما تلك القتلة ؟ قال : اسقوني الخمر ودعوني أنوح على نفسي ، فجاءه عصمة بالشراب ، فسقاه ، ثم قطع عرقه الأكحل ، وتركه ينزف ، ومضى وجعل معه رجلين ، فقالا لعبد يغوث : جمعت أهل اليمن ، ثم جئت لتصطلحنا ، كيف رأيت صنع الله بك فقال هذه القصيدة :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فما لكما في اللوم خير ولا ليا [٢]

ومما جاء في هذه القصيدة قوله :

أقول وقد شدّوا لساني بنسعة أمعشر تيمٍ أطلقوا عن لسانيا

وقد ذهب العلماء مذهبين في تفسيره ، منهم من قال : انه أراد افعلوا بي

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٧٦) ، الخزانة (١/٣١٦) ، (بولاق) ، الاغاني (١٥/٧٣) ، زيدان تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٣٦ وما بعدها) .
٢ الخزانة (١/٣١٤) .

خيراً لينطلق لساني بشكركم ، وانكم ما لم تفعلوا فلساني مشدود لا أقدر على مدحكم ، لأن اللسان لا يشد بنسعة ، ومنهم من قال : انهم شدّوه بنسعة حقيقة، بأنهم ربطوه بنسعة مخافة أن يهجوهم وكانوا سمعوه ينشد شعراً ، فقال : اطلقوا لي عن لساني أذمّ أصحابي وأنوح على نفسي ، فقالوا : انك شاعر ، ونحذر أن تهجونا ، فعاهدهم على أن لا يهجوهم ، فأطلقوا له عن لسانه . « قال الجاحظ : وبلغ خوفهم من الهجاء أن يبقى ذكرهم في الأعقاب ، ويسبّ به الأحياء والأموات ، انهم اذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق ، وربما شدّوا لسانه بنسعة كما صنعوا بعبد يغوث »[1] .

وكان (عبد يغوث) شاعراً من شعراء الجاهلية ، من أهل بيت شعر معروف في الجاهلية والإسلام ، منهم : اللجلاج الحارثي ، وهو طفيل بن زيد بن عبد يغوث ، وأخوه : مسهر ، فارس شاعر ، وهو الذي طعن (عامر بن الطفيل) في عينه يوم (فيف الريح) ، ومنهم من أدرك الإسلام : (جعفر بن علبة بن ربيعة بن الحارث بن عبد يغوث)،وكان شاعراً صعلوكاً ، أخذ في دم فحبس بالمدينة ، ثم قتل صبراً[2] .

« قال الجاحظ في البيان والتبيين : وليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد ، وعبد يغوث ، فإن قسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما ، فلم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية »[3] .

ومن الشعراء المعمرين (ذو الاصبع العدواني) ، واسمه (حرثان بن محرث ابن الحارث) أو (حرثان بن الحارث بن عمرو بن عبادة بن يشكر) اليشكري العدواني ، لقب بذي الإصبع لأن حيّة نهشته على اصبعه فشلّت ، فسمي بذلك . زعم انه عاش مائة وسبعين سنة ، واستقل هذا العدد (أبو حاتم) ، فجعله ثلاثمائة سنة ، وهو عمر لا بأس به ! وكان أحد حكّام العرب ، وله قصة مع بناته الأربع ، في موضوع الزواج، وصفات الزوج ، ورغبة المرأة في الازدواج، رووا ان (عبد الملك بن مروان) كان يحفظ شعره ، وانه سأل رجلاً من

---

١ البيان والتبيين (٤/٤٥) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الخزانة (١/٣١٦) .
٢ الخزانة (١/٣١٧) ، (بولاق) ، الاشتقاق (٢/٢٣٩) .
٣ البيان والتبيين (٢/٢٦٨) ، الحيوان (٧/١٥٧) ، الخزانة (١/٣١٧) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٧٦) .

(عدوان) عن شعره وأخباره ، فلم يعرف من أمره شيئاً،فحط من عطائه ثلاثمائة، زادها في عطاء رجل آخر ، كان يعرف شعره[1] . ومن شعره المزعوم في وصف حاله :

أصبحت شيخاً أرى الشخصين أربعة والشخص شخصين لما مسني الكبر
لا أسمع الصوت حتى أستدير له ليلاً وإن هو ناغاني به القمر[2]

ومن شعر (ذي الاصبع) قوله :

جلبنا الخيل من بقران قبا تجوب الأرض فجاً بعد فج

وقوله يذكر عدة من ديارهم :

إن داري بمرهب فبصعر فعور فوخدة فالمرار
ولنا منزل برقبة لا يسمع فيه تهاذي الأخبار
منزل أحرز الحواضن فيه كل قرم متوج جبار
ثم بالفرع قد نزلنا قبيلاً دار صدق قليلة الأقدار
ذات حرز وعزة ونجاة وامتناع من جحفل جرار
ماؤنا الفيض لا يُعدّ بنا القيظ ولا النزع بالرشاء المغار[3]

ومن شعره قوله :

لي ابن عم على ما كان من خلق مخالف لي أقليه ويقليني
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا فخالني دونه بل خلته دوني

---

١ « حرثان بن السموأل » « حرثان بن محارب » ، « حرثان بن الحارث بن محرث » ، ابن الشجري (١/٣٦٣) ٠ العقد الفريد (٢/٣٢٨ ، ٣٦٣) ، الامالي للقالي (١/٢٥٤) ، الخزانة (٣/٢٢٢) ، الاغاني (٣/٩١ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (١/٢٤٤ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٦٣) ، المعمرون (٩٠) ، الخزانة (٢/٤٠٦ وما بعدها) ، (بولاق) ، (حرثان بن السموأل) ، اللآلي (٢٨٩) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢/٤٣٠) ، الامالي (١/٩٣) ٠

٢ الخزانة (٢/٤٠٨) ، بولاق ، المؤتلف ، للامدي (١١٨) ، الشعر والشعراء (٢/٥٩٧ وما بعدها) ٠

٣ الصفة (١٢٣) ٠

إنكَ الا تـدع شتمي ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسقوني
إني لعمري ما بيتي بذي غلـقٍ على الصديقِ ولا خيري بممنون
ولا لساني عـلى الأدنى بمنبسطٍ بالفاحشات ، ولا فتكي بمأمون
عني اليكَ فما أمي براعيـة ترعى المخاض ولا رأيـي بمغبون
لا يخرج الكرهُ مني غير مأبيةٍ ولا ألـينُ لمن لا يبتغي ليني

وله قوله :

عذير الحيّ من عدوا ن كانوا حية الأرض
عـلا بعضهم بعضاً فلم يرُعو عـلى بعض
ومنهم كانـت السادا ت والموفون بالقرض
ومنهم حـكمٌ يقضي فلا ينقض مـا يقضي
إذا ما ولَـدوا أشبوا بسر الحسب المحض[1]

ومن شعراء (بني يشكر) : (المنخل بن عُبيد بن عامر) ، « وهو قديم جاهلي ، وكان يشبب بهند أخت عمرو بن هند » . وذكر انه اتّهم بـ(المتجردة) (امرأة النعمان بن المنذر) ، وهو الذي وشى الى (النعمان) بالنابغة ، لما وصف المتجردة ، وكان أيضاً يتهم بامرأة (عمرو بن هند) . وكان جميلاً ، وقد يكون جماله هذا هو الذي أولد هذا القصص المقال حوله من اتصاله بأخت (عمرو ابن هند) ، وبزوجته ، وبزوجة النعمان . ويذكر (ابن قتيبة) ان (عمرو بن هند) قتله ، وانه قال قبيل قتله :

طل وسط العباد قتلي بلاجر مٍ ، وقومي ينتجون السخالا
لا رعيتم بطناً خصيبا ، ولا زر تُمْ عدواً ، ولا رزأتم قبالا[2]

وهذا الخبر ، يناقض الأخبار التي تذكر انه كان يتهم بالمتجردة ، وانه وشى بالنابغة عند النعمان ، وان (النعمان) خرج يتصيد ، فعمدت الى قيد فجعلت رجلها في احدى حلقتيه ، ورجل المنخل في الأخرى شغفاً به ، وجاء النعـمان

١ الشعر والشعراء (٢/٥٩٧ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣١٨) ، المؤتلف (١٧٨) ، الاغاني (٩/١٦٦) .

فألقاهما على حالها ، فأمر بالمنخل فقتل ، فضربت به العرب المثل ، فقال أوس ابن حجر :

فجئت ربيعي مُوليّاً لا أزيده عليه بها حتى يؤوب المنخّل[1]

وقد أشار ذو الرمة الى المنخل بقوله :

تقارب حتى يطمع التأي في الهوى وليست بأدنى من إياب المنخل[2]

وقد ورد اسمه على هذه الصورة في (تاج العروس) : « والمنخل بن خليل اليشكري ، كمعظم : شاعر . ومنه لا أفعله حتى يؤوب المنخل . مثل للتأبيد ، يضرب في الغائب الذي لا يرجى إيابه ، كما يقال : حتى يؤوب القارظ العنزي ، واسمه عامر بن رهم بن هميم . وقال الأصمعي : المنخل رجل أرسل في حاجة ، فلم يرجع ، فصار مثلاً في كل ما لا يرجى »[3] .

وقد اشتهر بقصيدته :

ولقد دخلتُ على الفتا ة الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت مشي القطاة الى الغدير
وعطفتها فتعطفت كتعطف الظبي الغرير
فثّرت وقالت : يا منخل ما بجسمك من فتور[4]

ومن المعمرين (معدي كرب) الحميري من آل (ذي رُعين) ، رووا له شعراً منه :

أراني كلما أفنيت يوماً أتاني بعده يومٌ جديدُ
يعود بياضه في كل فجرٍ ويابى لي شبابي ما يعود[5]

١ أسماء المغتالين (المجموعة السابعة من نوادر المخطوطات) ، (ص ٢٣٩) .
٢ ديوانه (٥٠٩) ، الاغاني (١٥٣/١٨) ، أسماء المغتالين (٢٣٩) .
٣ تاج العروس (١٣١/٨) ، (نخل) .
٤ الشعر والشعراء (٣١٧/١ وما بعدها) .
٥ أمالي المرتضى (٢٥٣/١) .

و (بشر بن أبي خازم) شاعر جاهلي قديم ، من بني أسد ، شهد حرب أسد وطيء ، وشهد هو وابنه نوفل بن بشر الحلف بينهما . وكان في أول أمره يهجو (أوس بن حارثة بن لأم) الطائي ، فأسرته بنو نبهان من طيء، فركب (أوس) اليهم فاستوهبه منهم ، وكان قد نذر ليحرقنه إن قدر عليه ، فوهبوه له ، ثم شفعت له أم أوس ، ففك أسره ، فجعل بشر مكان كل قصيدة هجاء قصيدة مدح ، لأن الهجاء لا يمحى عند العرب إلا بمـدح ، يمحو أثره ، في قصة يروونها عن كيفية وقوعه في الأسر[1] .

وروي انه لما طعن ، طعنه غلام من (بني واثلة) بسهم فأثخنه ، وأخذ يجود بنفسه ، قال قصيدة يخاطب بها ابنته عميرة :

أسائلة عميرة عن أبيها   خلال الجيش تعترف الركابا

وهي قصيدة روى بعض أبياتها الشريف المرتضى في أماليه[2]. وكان بشر قد أغار في مقنب من قومه على (الأبناء) من بني صعصعة بن معاوية ، وكل (بني صعصعة) إلا (عامر بن صعصعة) يدعون الأبناء ، وهم واثلة ، ومازن ، وسلول ، فلما جالت الخيل مر (بشر) بغلام من (بني واثلة) فقال له (بشر) استأسر ، فقال له الوائلي : لتذهبن أو لأرشقنك بسهم من كنانتي ، فأبى بشر إلا أسره، فرماه بسهم ، فاعتنق بشر فرسه وأخذ الغلام فأوثقه ، فلما كان في الليـل أطلقه بشر من وثاقه وخلّى سبيله ، وقال : اعلم قومك انك قتلت بشراً ، وهو قوله :

وان الوائليّ أصاب قلـبي   بسهم لم يكن نكساً لغابا[3]

ومن هذه القصيدة قوله :

تسائل عن أبيها كل ركـبٍ   ولم تعـلم بأن السهم صابا
فرجي الخير وانتظري إيابي   إذا ما القارظُ العنزي آبـا

---

١ الشعر والشعراء (١/١٩٠ وما بعدها) ، المفضلية (٩٨) ، أسماء المغتالين (٢١٤) ، (المجموعة السادسة من نوادر المخطوطات) ، رسالة الغفران (١٦٦) .
٢ أمالي المرتضى (١/٣٤١) ، الخزانة (٢/٢٦٢) ، مختارات ابن الشجري (٨١ وما بعدها) ، الاغاني (١١/١٠) ، المؤتلف (٦٠) .
٣ الخزانة (٢/٢٦٢) ، (بولاق) .

والقارظان من عنزة ، يقال إنهما خرجا في طلب القراظ يجتنيانه ، فلم يرجعا فضرب بهما المثل فقالوا : « لا آتيك أو يؤوب القارظان » ، يضرب في انقطاع الغيبة . وفي هذا المثل قال أبو ذؤيب :

وحتى يؤوب القارظان كلاهما وينشر في القتلى كليب ووائل[1]

وقد رُمي (بشر) بالإقواء في شعره[2] ، وقد نشر ديوانه[3] . ومن أمثاله السائرة قوله :

ألم ترَ أنّ طول العهد يُسلي وينسى مثلما نسيت جذام

وقوله :

يكن لك في قومي يد يشكرونها وأيدي الندى في الصالحين فروض[4]

وذكر أنه أوصى ابنته بأن تذري الدمع عليه ، وأن تبكي عليه البكاء الذي يستحقه ، وكان من عادة أهل الجاهلية ، التأكيد بلزوم البكاء والنوح على الميت، ويؤكدون الوصية بفعله ، وفي هذا المعنى قول طرفة بن العبد :

فإن مت فانعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يا أم معبد[5]

و (عمرو بن حممة بن رافع بن حارث) الدوسي ، أحد حكام العرب من الأزد ، شاعر قديم ، ذكروا أنه عاش ثلاثمائة وتسعين سنة : وذكروا له شعراً، قالوا إنه قال فيه انه جاوز الثلاثمائة من العمر ، وانه قد كبر ، ولا بد وأن يأتيه يوم يموت فيه[6] . وفي رواية أنه وفد على النبي ، وهي خطأ لأنه مات في

---

١ بلوغ الارب (٣/١٠٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٩٠) .
٣ نشره الدكتور عزة حسن بدمشق ، سنة ١٩٦٠ م .
٤ بلوغ الارب (٣/١٠٤ وما بعدها) .
٥ أمالي المرتضى (١/٣٤٠ وما بعدها) .
٦ المرزباني ، معجم (١٧) ، (فراج) .

الجاهلية[1] . وله ولد اسمه (جندب) أسلم ، قتل يوم (أجنادين)[2] . وذكر أنه الذي كان يقال له : ذو الحكم ، وضربت به العرب المثل في قرع العصا ، لأنه بعد أن كبر صار يذهل فاتخذوا له من يوقظه فيقرع العصا ، فيرجع اليه فهمه. واليه أشار الحارث بن وعلة بقوله :

إن العصا قرعت لذي الحكم

ومن شعره الذي قاله في كبره :

أخبر أخبار القرون التي مضت ولا بد يوماً أن أطار لمصرعي[3]

وقد أنجبت (دوس) جملة شعراء ، منهم : (وهب بن عبدالله بن دوس ابن أبي خالد بن زهير) الشاعر في أول الاسلام ، و (جندب بن طريف) الشاعر الذي يقال له ابن الغامدية ، ومنهم : (أبو غُنيش) الشاعر ، جاهلي من بني مبدول (مندول ؟)[4] .

وقد اختلف في (جران العود) النميري ، فذهب (كرنكو) الى انه من شعراء العصر الأموي ، وانه من معاصري عبد الملك بن مروان . وقد نص (البغدادي) على انه شاعر جاهلي من (بني ضنة بن نمير بن عامر بن صعصعة) . واسمه : (عامر بن الحرث بن كلفة) ، وقيل (كلدة) ، وانما سمي (جران العود) لقوله يخاطب امرأتيه :

عمدت لعود فالتحيت جرانه وللكيس أمضى في الأمور وأنجح
خذا حذراً يا ضرتيّ فإنني رأيت جران العود قد كان يصلح[5]

وجران العود أحد من وصف القوّادة في شعره[6] . وقد روى (السكري) ديوان هذا الشاعر ، وقد تحدث في ديوانه عن (حمامة نوح) ، وورد فيه شعر

---

١ الاصابة (٢/٥٢٦) ، (رقم ٥٨٢١) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٢/٢٩٦) .
٢ الاصابة (١/٢٥٠ وما بعدها) ، (رقم ١٢٢٦) .
٣ الاصابة (٢/٥٢٧) ، (رقم ٥٨٢١) .
٤ الاشتقاق (٢/٢٩٦) .
٥ الخزانة (٤/١٩٨) ، الحيوان (١/٤٠) .
٦ الشعر والشعراء (٢/٦٠٥ وما بعدها) .

للرحال ، وكان خدن جران ، وتزوج كل واحد منهما امرأتين ، فلقيا منهما مكروهاً[1] . وقد طبع الديوان مع شرح عليه[2] .

ومن الشعر المنسوب اليه هذا الشعر :

حملن جران العود حتى وضعنه بعلياء في أرجائها الجن تعزف

وذكر (المعري) انه ينسب أيضاً (لسحيم)[3] .

ونجد في شعر ينسب اليه اشارة الى الكتابة والى الوشوم ، تكون بأيدي الروم، إذ يقول :

تُركْنَ برجلة الروحاء حتى تنكرت الديارُ على البصير
كوحي في الحجارة أو وشومٍ بأيدي الروم باقية النثور[4]

وذكر (الجاحظ) له قوله :

وكان فؤادي قد صحا ثم هاجه حمائم ورق بالمدائن هُتف
كأن الهديل الظالع الرجل وسطها من البغي شريب يغرد مترف[5]

وله شعر في وصف (الذئب)[6]،وفي أصوات الطيور والحمام وبقية الحيوانات[7] ، وفي الطيرة ، إذ يقول :

جرى يوم رحنا بالجمال نزفها عقابٌ وشحاج من البين يبرح
فأما العقاب فهي منها عقوبة وأما الغراب فالغريب المطوّح[8]

وقد أورد (الجاحظ) له أشعاراً نثرها في كتابه (الحيوان)[9] .

---

١ الشعر والشعراء (٢/٦٠٥) .
٢ بروكلمن (١/١١٦) .
٣ رسالة الغفران (٢٧٧) .
٤ الحيوان (١/٤٠) .
٥ الحيوان (٢/٢٠٩) .
٦ الحيوان (٢/٢١٣) .
٧ الحيوان (٢/٢٩٧) ، (٣/٢٤٠) .
٨ الحيوان (٣/٤٤١) .
٩ الحيوان (٧/٣٨٦) .

وقد وصف نفسه وعشيقته بقوله :

فأصبحَ من حيث التقينا غديبة سوار وخلخال ومرط ومُطرف
ومنقطعاتٌ من عقود تركتهـا كجمر الغضا في بعض ما تتخطرف[1]

ونجد شعره شعراً حضرياً ، فيه ذكر البقل ، كما في هذين البيتين :

فنلنا سقاطاً من حديث كأنــه جنَى النحل أو أبكار كرم يقطف
حديثاً لو أن البقل يُولى بمثله زها البقل واخضرّ العضاه المصنف[2]

ومن شعراء الجاهلية : (الحادرة) الذبياني ، وهو (قطبة بن أوس بن محصن ابن جرول) من (بني ثعلبة بن سعد) الغطفاني ، وهو شاعر جاهلي مجيـد مقل ، كان يهاجي (زبان بن سيار) الفزاري ، وقد بقيت أشعاره القليلة برواية (أبي عبدالله) اليزيدي ، المتوفى سنة (٣١٠ هـ)[3] . وكانت له صاحبة اسمهـا (سمية) تغزل بها في شعره :

بكرت سميّة غـدوة فتمتعِ وغدت غدوٌ مفارق لم يربع[4]

ومن شعراء الجاهلية : (سويد بن عامر) المصطلقي . ينسب له قوله :

لا تأمنَن وإن أمسيت في حرمٍ إن المنايا بكفَّي كل انسان
واسلك طريقاً تمشي غير مختشع حتى تبيَّنَ ما يمني لك الماني
فكل ذي صاحب يوماً يفارقه وكل زادٍ وإن أبقيته فان
والخير والشر مقرونان في قرن بكل ذلكَ يأتيك الجديدان[5]

ونسب البيت الأول والثاني والرابع الى أبي قلادة الهذلي ، من قصيدة أولها:

---

١ البخلاء (٢٣٣) .
٢ البيان والتبيين (٢٨١/١) .
٣ رسالة الغفران (٢٨٢) ، الاغاني (٨٢/٣ وما بعدها) ، بروكلمن (١١٠/١) ، البيان والتبيين (٣٢٠/٣) ، الحيوان (٤٧٥/٣) .
٤ رسالة الغفران (٢٨٢ ، ٤٠١) .
٥ أمالي المرتضى (٣٦٨/١) .

يا دارُ أعرفها وحشاً منازلها بين القوائم من رهط فألبان

مع اختلاف في روايتها وترتيبها [1] .

ومن شعراء خزاعة : (مطرود بن كعب) الخزاعي ، له شعر في رثاء عبد المطلب بن عبد مناف ، أوله :

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد منافِ
هبلتك أمك لو نزلتَ عليهم ضمنوك من جوع ومن اقرافِ
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيــلاف
والمطعمون اذا الرياحُ تناوحت ورجال مكة مستنون عجاف
والمفضلون اذا المحول ترادفت والقائلون هلُمَّ للأضيــاف
والخالطون غنيّهم بفقيرهـــم حتى يكون فقيرهم كالكافي
كانت قريش بيضةً فتفلقت فالمُحُّ خالصة لعبد مناف [2]

ومن شعراء هذيل (أبو كبير) . وهو (عامر بن الحليس) ، وقيل (ابن جمرة) . وهو جاهلي ، تزوج أمّ (تأبط شراً) ، ثم تركها في قصة يرويها أهل الأخبار [3] . قال (ابن قتيبــة) : « وله أربع قصائد ، أولها كلها شيء واحد ، ولا نعرف أحداً من الشعراء فعل ذلك . احداهن :

أزهيرِ هل عن شيبة من مَعْدل أم لا سبيــل الى الشباب الأول

والثانية :

أزهيرِ هل عن شيبة من مقصر أم لا سبيل الى الشباب المــدبر

والثالثة :

أزهيرِ هل عن شيبة من مصرف أم لا خلــود لبــاذل متكلفِ

---

١ أمالي المرتضى (٣٦٨/١ تعليق رقم ١) .
٢ أمالي المرتضى (٢٦٨/٢) ، المرزباني ، معجم (٣٧٥) ، ابن هشام (١١٧/١٠) (حاشية على الروض) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢٣١/١) ، الخزانة (٤٦٦/٣) ، السمط (٣٨٧) ، رسالة الغفران (٣٣٤) ، ديوان الهذليين (٩٢/٢) .

والرابعة :

أزهير هل عن شيبة من معكمِ أم لا خلود لبــاذل متكرم[1]

وتنسب له قصيدة فيها :

ولقد سريتُ على الظلام بمغشم جلد من الفتيــان غير مُهبّل
ممن حملن به وهنّ عواقــد حُبُكَ النطاق ، فعاش غير مثقل

ونسبها بعض العلماء الى (تأبط شراً) ، وتتناول قصة حب ، وقعت بين صاحب القصيدة وامرأة ، كان لها ابن ذكي ، هددها بقتلها إن بقيت تواصل الرجل ، فأشارت المرأة على الشاعر بقتله ، لأنها تحبه ، ولا تريد مفارقته ، وفضلت قتله على فراق الشاعر ، في قصة جميلة من قصص الحب[2] . فالقصيدة إذن من الشعر القصصي الذي يتعلق بالحب والغرام .

وقد نسبها بعضهم الى (أبي كبير) ، وجعل الغلام (تأبط شراً) في قصة طريفة من قصص الحب[3] .

وقد روي أنه أدرك الإسلام ، ثم أتى النبي ، « فقال له أحل لي الزنا . فقال : أتحب أن يؤتى اليك مثل ذلك ؟ قال : لا . قال : فارض لأخيك ما ترضى لنفسك . قال : فادع الله لي أن يذهب عني »[4] . والأصح أنه جاهلي لم يدرك الإسلام .

ولهذيل شعر جيد وشعراء مجيدين . وتعد من القبائل المخصبة في الشعر ، ومن شعرائها : (المتنخل) : (مالك بن عمرو بن عُثم بن سويد بن حنش بن خناعة) (مالك بن عويمر) من (لحيان)[5] . اشتهر بقصيدته التي يقول فيها :

---

١ الشعر والشعراء (٢/٥٦١) ، الحماسة شرح التبريزي (١/٤٢) ، الامالي (٢/٣٢) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٦٢ وما بعدها) ، (غير مثقل) ، الخزانة (٣/٤٦٦) .
٣ الخزانة (٣/٤٦٧ وما بعدها) ، شرح الحماسة ، للتبريزي (١/٤٢) .
٤ الخزانة (٣/٤٧٣) ، (فقال : أحل لي الربا) ، الاصابة (٤/١٦٥) ، (رقم ٩٦١) .
٥ الشعر والشعراء (٢/٥٥٢) ، الاغاني (٢٠/١٤٥) ، المؤتلف (١٧٨) ، الخزانة (٢/١٣٥) ، السمط (٧٢٤) ، ديوان الهذليين (٢/١٥) .

يا ليت شعري وهمّ المرء ينصبه　والمرء ليس له في العيش تحريز
هل أجزينّكما يوماً بقرضكما　والقرض بالقرض مجزيّ ومجلوز

« قال الأصمعي : ما قيلت قصيدة على الزاي أجود من قصيدة الشمّاخ في صفة القوس ، ولو طالت قصيدة المتنخل كانت أجود »[1] . وهو من الجاهليين .

ومن شعره :

لا ينسىء الله منّا معشراً شهدوا　يوم الأميلح لا عاشوا ولا مرحوا
عقوا بسهم فلم يشعر له أحد　ثم استفاؤوا وقالوا : حبذا الوضح

التعقية : الاعتذار . وأصل هذا أن يقتل الرجل رجلاً من قبيلته ، فيطلب القاتل بدمه ، فتجتمع جماعة من الرؤساء الى أولياء المقتول بدية مكملة ويسألونهم العفو وقبول الدية ، فإن كان أولياؤه ذوي قوى أبوا ذلك ، وإلا قالوا لهم : بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي ، فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون أن نأخذ سهماً فنرمي به نحو السماء ، فإن رجع الينا مضرجاً بالدم ، فقد نهينا عن أخذ الدية ، وإن رجع كما صعد ، فقد أمرنا بأخذها ، وحينئذ مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية ، وكان مسح اللحية علامة للصلح . قال الأشعر الجعفي:

عقوا بسهم ثم قالوا : سالموا　يا ليتني في القوم إذ مسحوا اللحى[2]

وأورد (المرتضى) له شعراً في رثاء أبيه أو أخيه أوله :

لعمرك ما إنْ أبو مالكٍ　بوانٍ ولا بضعيف قواه

ومنه :

أبو مالكٍ قاصرٌ فقرهُ　على نفسه ومشيع غناه[3]

ومن شعره في الضيف :

ولا والله نادى الحيّ ضيفي　هدوءاً بالمساءة والعلاط

1　الشعر والشعراء (٢/٥٥٢) .
2　الخزانة (٢/١٣٧) .
3　أمالي المرتضى (١/٣٠٦ وما بعدها) .

سأبدؤهم بمشمعة وأثني بجهدي من طعامٍ أو بساطِ[1]

ومن شعراء (هذيل) : (خويلد بن مطحل) الهذلي ، أحد (بني سهم ابن معاوية) ، وكان سيد هذيل في زمانه ، وابنه من بعده ، (معقل بن خويلد) . وكان شاعراً معدوداً في شعراء هذيل ، ووفد الى أرض الحبشة ، فكلم ملكهم في من عنده من أسرى العرب ، فأطلقهم له . وهو القائل :

لَعمرك لليأس غيرُ المريث خيرٌ من الطمع الكاذبِ
وللريث تحفزه بالنجا حِ خيرٌ من الأمل الخائبِ
يرى الحاضر الشاهدُ المطمئن من الأمر ما لا يرى الغائبِ[2]

وورد في (الإصابة) اسم (معقل بن خويلد بن واثلة بن عمرو بن عبد يا ليل) الهذلي ، وكان شاعراً ، وكان أبوه رفيق (عبد المطلب) الى أبرهة، وكان بين أبي سفيان وبين معقل بن خويلد ، خلاف في سلب رجل من قريش. فقال النبي : « يا معقل بن خويلد اتق معارضة قريش » . وذكره (المرزباني) في الشعراء المخضرمين[3] .

ومن بقية شعراء الجاهلية (ذو الخرق) الطهوي ، وهو (دينار بن هلال). ويقال إن اسمه (قرط) ، وإنما سمي بذي الخرق لقوله :

جاءت عِجافاً عليها الريش والخرق[4]

وهو من الشعراء الفرسان[5] .

و (سراج بن قرة) (سراج بن قوّة) العامري ، أحد بني الصموت بن عبدالله بن كلاب من الشعراء الجاهليين . ذكر (المرزباني) في معجم الشعراء له شعراً قاله في يوم من أيام الجاهلية ، وقد نسب على هذه الصورة : (سراج

١ أمالي المرتضى (٤٩٣/١) .
٢ الشعر والشعراء (٥٥٦/٢) ، ديوان الهذليين (٦٨/٣ وما بعدها) .
٣ الاصابة (٤٢٥/٣) ، (رقم ٨١٣٧) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١٦٢/١) .
٥ تاج العروس (٣٢٩/٦) ، (خرق) .

ابن قرة (قوّة) بن ربعي بن زرعة بن الكاهن بن عمرو بن عوف بن أبي ربيعة ابن الصموت بن عبدالله بن كلاب) . وقد زعم أن له وفادة على النبي ، ولا يوجد دليل يؤيده[1] .

و (السندري بن يزيد الكلابي) شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان (لبيد) الشاعر مع (عامر بن طفيل) ، فدعى لبيداً الى مهاجاته فأبى[2] .

ومن شعراء تغلب في الجاهلية (المهلهل) و (عمرو بن كلثوم) التغلبي ، و (أفنون) التغلبي ، واسمه (ظالم) ، وقيل : (صريم بن معشر بن ذهل بن تيم بن عمرو بن مالك) التغلبي . يقال انه مات بموضع يقال له (إلاهة) بطريق الشأم ، بلدغة حية ، وان كاهناً كان قد قال له : انك تموت بمكـان يقال له إلاهة ، فمات به .

ومما ينسب له من الشعر هذا البيت :

مَنّيتنا الوُدّ يا مضنون مضنونا   أزمانَنا إن للشبان أفنونـا[3]

وله مقطوعة أولها :

أبلغ حُبيباً وخلّل في سراتهم   ان الفؤاد انطوى منهم على حزن
قد كنت أسبق من جاروا على مهلٍ   من ولد آدم ما لم يخلعوا رسَني
قالوا عليّ ولم أملك فيالتهم   حتى انتحيت على الأرساغ والثنن
لو أنني كنت من عادٍ ومن إرمٍ   ربيت فيهم ولقمان ومن جدن[4]

ذكروا أنه انما عرف بأفنون لقوله من قطعة :

منيتنا الودّ يا مضنون مضنونا   أيامنـا إن للشبان أفنونا

---

١ الاصابة (٢/١٦) ، (رقم ٣١٠١) .
٢ تاج العروس (٣/٢٨١) ، (السندرة) ، ديوان لبيد (١٤) ، (مقدمة) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٤٦) ، وقيل اسمه « ظالـم » المؤتلف (١٥١) ، السمط (٦٨٤) ، القاب الشعراء (٣١٧) ، الاشتقاق (٢/٢٠٣) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٤٤ وما بعدها) ، المفضلية رقـم (٦٦) ، الامالي (٢/٥١) ، أمالي ابن الشجري (١/٣٧) ، البيان والتبيين (١/٢٣) ، الخزانة (٤/٤٥٥ وما بعدها) .

وأنه لما قال له الكاهن تموت بمكان يقال له إلاهة ، مكث مـا شاء الله ثم سار الى الشأم في تجارة ، ثم رجع في ركبٍ من (بني تغلب) فضلوا الطريق، ثم نزلوا (إلاهة) ، قارة بالسماوة ، فلما أتوها نزل أصحابه ، وقالوا : انزل. فقال: والله لا أنزل! فجعلت ناقته ترتعي عرفجاً فلدغتها أفعى في مشفرها، فاحتكت بساقه والحية بمشفرها فلدغته في ساقه ، فقال لأخ معه احفر لي قبراً فاني ميت، ثم رفع صوته بأبيات منها :

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي   إذا هو لم يجعل لـه الله واقيا
كفى حزناً أن يرحل الحيّ غدوة   وأصبح في أعلى إلاهة ثاويا[1]

ومات من ساعته ، فقبره هناك . وهو القائل :

لعمرك ما عمرو بن هند إذا دعا   لتخـدم أمي امه بموفق[2]

ومـن شعـراء تغلب : (الأخنس بن شهـاب) التغلبي ، فارس العصا[3] . وينسب له قوله :

يظلّ بها ربد النعام كأنها   اماءٌ تزجّى بالعشيّ حواطب[4]

وقد قال (الأخنس) في أول القصيدة :

لابنة حطّان بن عوف منازل   كما رقّش العنوان في الرق كاتبُ

وذكر (الأعلم الشفتمري) قبله :

فمن يك أمسى في بلادٍ مقامه   يسائل أطلالاً بها ما تجاوب
فلابنة حطان بن عوفٍ منازل   كما رقش العنوان في الرق كاتب

وفي جملة أبياتها :

فوارسها من تغلب ابنة وائل   حماة كماة ليس فيها أشائب

---

١ الخزانة (٤/٤٦٠) ، (بولاق) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٥٩ ، ٣٣١ وما بعدها) ، الحيـوان (٣/١٣٥) ، شرح النقائض (٨٨٦) .
٣ الاشتقاق (٢/٢٠٣) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٠٢) ، المفضلية رقم (٤١) ، الموشح (٤٤) .

وعدتها ما بين ثلاث وعشرين الى ثلاثين بيتاً ، حسب اختلاف الروايات[1] .

و (البرج بن الجلاء بن الطائي) من شعراء طيء ، وكان خليلاً للحصين ابن الحمام ونديمه على الشراب . ذكر أنه وقع على أخت له وهو سكران فافتضها فلما أفاق ندم واستكتم ذلك قومه ، ثم أنه وقع بينه وبين الحصين فعيّره بذلك في أبيات ، وجرت بينهما الحرب ، فأسره (الحصين) ثم منّ عليه لتقدم صداقته، فلحق ببلاد الروم ، وقيل بل شرب الخمر صرفاً حتى قتلته[2] .

ومن شعراء (طيء) في الجاهلية : (عمرو بن عمّار) الطائي ، وكان شاعراً خطيباً ، فبلغ النعمان حسن حديثه فحمله على منادمته ، وكان النعمان أحمر العينين والجلد والشعر ، شديـــد العربدة ، قتالاً للندماء ، فنهاه (أبو قردودة) عن منادمته ، لكنه لم ينته ، فغضب عليه النعمان وقتله ، فرثاه (أبو قردودة) بقوله :

إني نهيت ابن عمّارٍ وقلت له لا تأمـنن أحمر العينين والشعره
إن الملوك متى تنزلْ بساحتهـم تطر بنـارك من نيرانهم شرره
يا جفنة كإزاء الحوض قد هدمت ومنطقاً مثل وشي اليمنة الحبره[3]

وأبو (قردودة) الطائي ، شاعر ، رأى (سعد القرقرة) أكل عند النعمان مسلوخاً بعظامه ، فقال :

بين النعامِ وبين الكلب منبته وفي الذئاب له ظئر وأخوال[4]

وله قصيدة أولها :

كُبيشة عِرسي تريد الطلاقا وتسألني بعـــد وهـــنٍ فراقا[5]

و (دريد بن الصمة) من سادات (جشم) ، ويكنى (أبا قرة) ، وهو أحد الفرسان الشجعان المشهورين ، وذوي الرأي في الجاهلية . وشهد معركة (حنين)

---

١ الخزانة (٣/١٦٥) ، (بولاق) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٨٠ وما بعدها) .
٣ الحيوان (٤/٢٤٣) ، (٥/٣٣٢) ، البيان والتبيين (١/٢٢٢ ، ٣٤٩) ، المرزباني معجم (٢٣٦) ،محاضرات الراغب الاصبهاني (١/٩٢) .
٤ الحيوان (١/١٤٧) .
٥ الحيوان (٥/٤٦٣) .

مع (هوازن) ، وهو شيخ كبير ، فقتل مع من قتل من المشركين[1]. وقيل انه قال في هذه المعركة :

يا ليتني فيها جذع أخب[4] فيها وأضع
أقود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع

ومن جيد شعره قوله :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم ، وانني غير مهتدي
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

وله أشعار أخرى ، ذكر (ابن قتيبة) بعضاً منها[2] .

وأمه (ريحانة) بنت (معدي كرب) ، أخت (عمرو بن معدي كرب)[3] .

وله قصيدة في رثاء (معاوية) أخي الخنساء ، مما جاء فيها :

فإن الرزء يوم وقفت أدعو فلم يسمع معاوية بن عمرو
رأيت مكانه فعطفت زوراً وأي مكان زور يا ابن بكر
على ارم وأحجار وصير وأغصان من السلمات سمر
وبنيان القبور أتى عليها طوال الدهر من سنة وشهر
ولو أسمعته لأتاك ركضاً سريع السعي أو لأتاك يجري
بشكة حازم لا عيب فيه إذا لبس الكماة جلود نمر
فإما تمس في جدث مقيماً بمسهكة من الأرواح قفر
فعز علي هلكك يا ابن عمرو ومالي عنك من عزم وصبر[4]

---

١ الاغاني (٩/٢ وما بعدها) ، الخزانة (٤/٤٤٢ وما بعدها) ، أسماء المغتالين (٢٢٣) ، المعمرون (٢٠) ، ابن هشام ، سيرة (٢/٤٢٩) ، المقريزي ، امتاع الاسماع (١/٤٠٢) ، عيون الاثر (٢/١٨٨) .

٢ الشعر والشعراء (٢/٦٣٥ وما بعدها) ، بروكلمن (١/١٦٤) ، كارلو نالينو (٨٠) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٣٨ وما بعدها) .

٤ الخزانة (٤/٤٤٤) .

وقد وصف بأنه شجاع شاعر فحل : «أول شعراء الفرسان ، أطول الفرسان الشعراء غزواً وأكثرهم ظفراً وأيمنهم نقيبة عند العرب وأشعرهم»[1] . غزا نحو مائة غزوة وما أخفق في واحدة منهــا ، وأدرك الإسلام ولم يسلم ، وخرج مع قومه يوم حنين مظاهراً للمشركين ولا فضل فيه للحرب ، وانما أخرجوه تيمنــاً به وليقتبسوا من رأيه ، فقتل على شركه . وكان قد رأس قومه : (مالك بن عوف)،فلما سأله (دريد) عن خطته في الحرب ، سفه رأيه وأشار عليه بالرجوع فخالفه (مالك) ، فلما التقوا بالمسلمين حلت الهزيمة بهم . وقتل (دريد)[2] .

وكان (دريد) فارس (غطفــان) ، وقُتل أخوه (عبدالله) ، فقتَل به (ذُوّاب بن أسماء بن زيد بن قارب) ، وقال :

قتلــت بعبدالله خــير لداته ذواب بن أسماء بن زيد بن قارب[3]

و (عامر بن الطفيل) من (بني عامر بن صعصعة) من الشعراء الذيــن أدركوا الاسلام ، وقد وفد على الرسول ، وهو يريد الغدر به ، ثم رجع كافراً فمات وهو في طريقه الى دياره بالطاعون[4] . ورد في روايــة انه قال للرسول : « تجعل لي نصف ثمار المدينة ، وتجعلني وليّ الأمر من بعد وأسلم ؟! »[5] . وهو الذي نافر (علقمة بن علاثة) الى (هرم بن قطبة) الفزاريّ ، حين أهتر عمه عامر بن مالك ملاعب الأسنة .

وكان فارس قيس ، أعور عقيماً لا يولد له ، ولم يعقب ، مغروراً فخوراً بنفسه : ومن شعره قوله :

فإني وإن كنتُ ابن فارس عامرٍ وسيّدها المشهور في كل موكب

---

١ الخزانة (٤/٤٤٦) .
٢ الخزانة (٤/٤٤٦ وما بعدها) .
٣ الاشتقاق (٢/١٧٨) .
٤ الطبري (٣/١٤٤) ، (وفد بني عامر) ، ابن هشــام ، سيرة (١/٣٣٧ ومــا بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الخزانة (١/٤٧٣) ، المعمرون (٦٠) ، ابن كثير ، تاريخ (٥/٥٦) .
٥ الشعر والشعراء (١/٢٥٢) .

فما سوّدتني عامر عن وراثة أبى الله ان أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها ، وأتقي أذاها ، وأرمي من رماها بمنكب[1]

وله شعر يفخر به بقومه قيس عيلان ، يجعل الأرض قيس عيلان وحدهم ، لهم السهول والحزوم ، وقد نال مجدهم آفاق السموات ، ولهم الصحو منها والغيوم[2] .

وكان (عامر) شديداً قوياً ، يرى لنفسه الزعامة بفضل قبيلته ، وبقوة شخصيته ، وتذكر بعض الأخبار انه لما وفد مع (بني عامر) ، كان غليظاً في كلامه ، حتّى ان الرسول امتعض منه ، وكان يستهين أمر الرسول ، ويقول : « لقد كنت آليت ألا أنتهي حتّى تتبع العرب عقبي ، أفأتبع أنا عقب هذا الفتى من قريش ؟ » يقولها لما كانوا يلحون عليه في الدخول في الاسلام . ولما سأل الرسول أن يجعل له ميزة فيتفق معه على أن يكون هو سيد أهل الوبر ، وان يكون الرسول سيد أهل المدر ، وأبى الرسول ذلك عليه ، خرج من يثرب غاضباً مهدداً ، قائلاً للرسول : « لأملأنها عليك خيلاً جرداً ، ورجالاً مرداً . ولأربطن بكل نخلة فرساً » ، مما جعل الرسول يدعو الله أن يكفيه شره . وكان الرسول يقول : « والذي نفسي بيده لو أسلم فأسلمت بنو عامر لزاحموا قريشاً على منابرهم »[3] .

وبنو عامر بن صعصعة من القبائل القوية ، وهي من (هوازن) ، وقد كانت منازلها بنجد ، وقد ساهمت في حروب عبس وذبيان ، فساعدت عبس على ذبيان ، ولعب عامر بن صعصعة دوراً مهماً فيها .

وقد طبع ديوانه ، طبعه المستشرق (لايل) في سلسلة (جب) التذكارية سنة (١٩١٣) مع ديوان عبيد بن الأبرص[4] .

ومن شعراء (بني بارق) : (معقر بن حمار) البارقي ، واسمه (سفيان بن أوس بن حمار) ، سمي معقراً بقوله :

---

١ الشعر والشعراء (٢٥٣/١) .
٢ الشعر والشعراء (٢٥٢/١) .
٣ الاغاني (١٣١/١٥ وما بعدها) .
٤ بروكلمن (١١٧/١) .

له ناهض في الوكر قد مهدت له	كما مهدت للبعـل حسناء عاقر

وقوم (معقر) ، وهم (بارق) من اليمن في الأصل ، ينتهي نسبهم بالأزد. وكانوا قـد حالفوا (بني نمير بن عامر) لدم أصابوه منهم ، وشهـدوا يوم (جبلة) . وهـو يوم كانت فيه وقعة بين (بني ذبيان) و (بني عامر) ، فظهرت (بنو عامر) على (بني ذبيان) . وكان (معقر) من فرسان قومه ومن شعرائهم يوم (جبلة) وقد حدد ذلك اليوم بوقوعه قبل الإسلام بتسع وخمسين سنة ، وبتسع عشرة سنة قبل المولد النبوي[1] .

ومن شعره :

الشعرُ لبُّ المـرء يعرضُه	والقول مثـل مواقع النبل
منهـا المقصر عن رميتـه	ونوافـذ يذهبن بالخصل[2]

ومن شعره المشهور :

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى	كما قرّ عيناً بالإياب المسافر[3]

ومن شعراء الجاهلية ، شاعر لا نعرف من أمره شيئاً يذكر ، اسمه : (عمرو ابن عبد الجن)[4] ، (عمرو بن عبد الحق)[5] ، وينسب له قوله :

أما ودمـاء مائرات تخالها	على قنة العزى وبالنسر عندما
وما سبح الرهبان في كل بيعة	أبيل الأبيلين المسيح بن مريما

---

١ الخزانة (٢/ ٢٩٠ وما بعدها) ، (ومعقر بن أويس) البارقي ، كمحدث ، شاعر . هكذا نسبه « ابن الكلبي » . ويقال هو : معقر بن حمار البارقي حليف بني نمير . وبارق هو سعد بن عدي بن حارثة بن عمرو بن عامر ، تاج العروس (٣/ ٤١٨) ، (عقر) .

٢ الحيوان (٣/ ٦١ وما بعدها) .

٣ المؤتلف (٩٢) ، المرزباني ، معجم (٢٠٤) .

٤ المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية ، للعيني (١/ ٥٠٠) ، (حاشية على الخزانة) ، (بولاق) ، اللسان (١١/ ٦ وما بعدها) ، (أبل) .

٥ تاج العروس (٧/ ١٩٨) ، (أبل) ، شيخو ، النصرانية (٢/ ١ ص ١٨٦) .

لقد ذاق منا عامر يوم لعلع حساماً اذا ما هز بالكف صمّما[1]

ومن شعراء (قيس) المجيدين في الجاهلية : (خداش بن زهير بن ربيعة ابن عمرو بن عامر بن صعصعة) ، قال (أبو عمرو بن العلاء) : « خداش ابن زهير أشعر في عَظْمِ الشعر ، يعني نَفَس الشعر ، من لبيد ، انما كان لبيد صاحب صفات » . وجدّه (عمرو بن عامر) ، يقال له (فارس الضحياء) ، والضحياء فرسه . وفيه يقول :

أبـي فارس الضحياء عمرو بن عامر أبـى اللؤمَ واختار الوفاءَ على الغدر

ومما يتمثل به من شعره قوله :

ولن أكون كمن ألقى رِحالته على الحمار وخلّى صهوة الفرس

وقوله :

فإن يكُ أوس حيّة مستميتة فذرني وأوساً ، إن رقيته مَعي[2]

وذكر أنه كان من الصحابة ، وأنه شهد حنيناً مع المشركين ، ثم أسلم بعد ذلك . ويرى (المرزباني) أنه جاهلي لم يدرك الإسلام ، وأغلب أهل الأخبار على هذا الرأي . وينسب اليه قوله :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

و (سخينة) قريش . وكانت تعير بإكثارها من أكلها السخينة[3] .

ومن شعره :

فيا راكباً أمـا عرضت فبلّغنْ عقيلاً إذا لاقيتــه وأبا بكر
بأنكم من خير قوم لقومكم على أن قولاً في المجالس كالهجر

---

١ العيني (١/٥٠٠) ، اللسان (٦/١١ وما بعدها) ، (أبل) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٤٠) ، المؤتلف (١٠٧) ، السمط (٧٠١) ، الخزانة (٢٣٣/٣) ، (٣٣٨/٤) .
٣ الخزانة (٢٣٣/٣) ، الاصابة (٤٥٥/١) ، (٢٣٢٧) .

دعوا جانباً إنا سنترك جانبـاً   لكم واسعاً بين اليمامـة والظهر[1]

و (الحصين بن الحمام) المريّ ، شاعر جاهلي ، وهو من (بني مرة) ، يعد من أوفياء العرب[2] . وهو أحد الشعراء المقلّين . « قال أبو عبيدة : واتفقوا على أن أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة : المتلمس ، والمسيب بن علس، والحصين ابن الحمام المري »[3]. وقد أدخله بعضهم في الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الإسلام. وقد احتجوا بإسلامه بما نسب اليه من الشعر من قوله :

أعوذ بربـي من المخزيات   يوم ترى النفس أعمالهـا
وخف الموازيـن بالكافرين   وزلزلت الأرض زلزالها

والأصح أنه جاهلي لم يدرك الإسلام[4] .

وأما (المفضل بن معشر بن أسحم) ، فهو من (نُكرة) من (لكيز) ، فضلته قصيدته التي يقال لها (المنصفة) ، وأولها :

ألم تَرَ أن جيرتنا استقلوا   فنيتنـا ونيتهم فريـق[5]

وقد ولع بعض العلماء في وضع تواريخ للشعراء المتقدمين ولغيرهم ، تحدد سني ميلادهم وسني وفاتهم ، وسني الحوادث التي وقعت في أيامهـم والمذكورة في أشعارهم . وهو ولع لا يستند على أسس علمية . لأن أغلب الروايات الواردة عن هؤلاء الشعراء هي غير ثابتة ، وقد تتناقض أحياناً ، وقد يثبت بطلانها بعد نقدها نقداً علمياً ، ثم إن فيها ما هو موضوع مصنوع ظاهر الصنعة ، بيّن التكلف ، ولهذا فأنا أحاول جهد إمكاني تجنيب نفسي من توريطها في وضع أرقام تمثل

---

١ الخزانة (٣٣٨/٤) .
٢ الخزانة (٩/١) ، (بولاق) ، الشعر والشعراء (١١٥/١) ، (٥٤٢/٢) ، الخزانة (٧/٢) ، (٣٥٢/٣) ، الاغاني (١١٨/١٢) ، المؤتلف (٩١) ، السمط (١١٧) .
٣ الشعر والشعراء (١١٥/١) .
٤ الاصابة (٣٣٥/١) ، (١٧٣٢) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٧٠) .

مواليد الشعراء الجاهليين أو سني وفاتهم ، أو تواريخ الحوادث المذكورة في شعرهم ، لعدم امكانية التثبت من ذلك ، بل اني أرى لزوم الابتعاد جهد الإمكان من وضع التواريخ لسني حكم الملوك ولسني وفاتهم لصعوبة اثبات ذلك ، والاكتفاء جهد الإمكان بتقريب أيامهم الينا بصور تقريبية . ولهذا السبب لم أحفل في هذا الفصل بترتيب الشعراء ترتيباً زمنياً على وفق ما ذهب اليه المولعون بتدوين التواريخ بالسنين ، إذ أرى صعوبة الأخذ بهذا الرأي في التوريخ .

الفصل الثامن والخمسون بعد المئة

المعلقات السبع

ومن الشعر الجاهلي قصائد عرفت بين الناس باسم (المعلقات السبع) وبـ (المعلقات) وبـ (المذهبات) وبـ (السموط) ، لزعم الرواة أن العرب اختارتها من بين سائر الشعر الجاهلي ، فكتبتها بماء الذهب على القباطي ، ثم علقتها على الكعبة إعجاباً بها واشادة بذكرها ، وقد بقي بعضها الى يوم الفتح ، وذهب ببعضها حريق أصاب الكعبة قبل الاسلام[1] .

والمعلقات السبع هي سبع قصائد طويلة اختيرت من الشعر الجاهلي ، فعرفت لذلك بين الناس بـ (السبع) وبالسبع الطوال ، وبالسبع الطول ، وبالقصائد المختارة، وبالسبعيات ، وعرفت أيضاً باختيارات حماد ، وبالسمط ، وبالسموط ، وبالمذهبات. ويظهر ان لفظة (السبع) ، هي من الألفاظ القديمة التي أطلقت على اختيارات (حماد) ، فقد ذكر (محمد بن أبي الخطاب في كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب : ان أبا عبيدة قال : أصحابُ السبع التي تسمى السمط : امرؤ القيس، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو ، وطرفة . قال : وقال المفضل : من زعم أنّ في السبع التي تسمى السمط لأحد غير هؤلاء فقد

---

١ المزهر (٢/٤٨٠) ، الجزء الاول من تأريخ العرب قبل الاسلام (١/٣٧) ، العمدة (٩٦) ، العقد الفريد (٦/١٦٩) .

أبطل »[1] . ولما تحدث (ابن قتيبة) عن معلقة (عمرو بن كلثوم) ، قال : « وهي من جيد شعر العرب القديم ، واحدى السبع »[2]. فالسبع ، تسمية أخذت من حقيقة ان القصائد المذكورة المختارة كانت سبع قصائد .

وأما تسمية المعلقات بـ (السبع الطوال) و (السبع الطوال) ، فلكون هذه القصائد السبعة ، هي من أطول ما ورد في الشعر الجاهلي من قصائد . ونجد هذه التسمية واردة على لسان (المفضل) حيث نسب اليه قوله : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال »[3] . وقد أطلقها (ابن كيسان) المتوفى سنة (٢٩٩ هـ) (٩١١)[4] ، (٣٢٠ هـ) (٩٣٢)[5] ، على شرحه لتلك القصائد حيث سمّاه بـ (شرح السبع الطوال الجاهلية)[6] ، وأطلق (أبو جعفر أحمد بن محمد) النحّاس (٣٣٨) هذا العنوان عليها ، إذ ذكرها بقوله : « ان حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من انها كانت معلقة على الكعبة »[7] ، وأطلقه على شرحه لها[8] .

وعرفت أيضاً بـ (القصائد السبع) وبـ (القصائد السبع الطوال) وبـ (القصائد)[8]. وبـ (القصائد التسع) ، وبـ (القصائد التسع المشهورة) ، وذلك بالنسبة لمن أضاف على القصائد المذكورة قصيدتين أخريين[9] ، وبـ (القصائد العشر) ، وذلك بالنسبة لمن أضاف ثلاث قصائد عليها[10] .

ويظهر أن مصطلح (السبع الطوال) ، هو أنسب المصطلحات تعبيراً عن هذه القصائد ، لأنها تمثل في الواقع أطول ما وصل الينا من الشعر الجاهلي . فإن عدد أبيات أقصر قصيدة من قصائدها هو (٦٤) بيتاً ، أما عدد أبيات أطول

---

١ المزهر (٢/٤٨٠) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٥٨) ، (عمرو بن كلثوم) .
٣ الجمهرة (٤٥) .
٤ بلاشير (١٥٥) .
٥ بروكلمن (١/٧٠) .
٦ ياقوت ، ارشاد (٤/١٤٠) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/٣٧) .
٧ بلاشير (١٥٥) .
٨ الاغاني (٨/١١ ، ٤٢) ، بلاشير (١٥٥) ، شرح القصائد السبع الطوال) للانباري، (تحقيق عبد السلام محمد هارون) ، (القاهرة ١٩٦٢ م) ، (دار المعارف) .
٩ بروكلمن (١/٦٨) .
١٠ شرح القصائد العشر ، للتبريزي ، بروكلمن (١/٧١) .

قصيدة منها ، فهو (١٠٤) ، ومعدل أبيات المعلقات (٨٥) بيتاً[١] .

وعرفت هذه القصائد بـ (القصائد المختارة) لطبيعة كونها قصائد اختيرت من قصائد الشعر الجاهلي ، وانتخبت منه انتخاباً[٢] . ونجد مجموعة أخرى عرفت بـ « شعر الشعراء الست » ، وهم امرؤ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة . وقد أشار (البغدادي) الى كتاب دعاه : « مختار شعر الشعراء الست : امرؤ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة. وشرحها للأعلم الشنتمري »[٣] .

ولم نجد في الكتب التي وصلت الينا ، الاسم الصحيح الأول الذي أطلقه جامع هذه القصائد ومختارها عليها . وقد ورد في مقدمة شرح التبريزي (٥٠٢هـ) على (القصائد العشر) : « سألتني – أدام الله توفيقك – أن ألخص لك شرح القصائد السبع ، مع القصيدتين اللتين أضافهما اليها أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحوي – قصيدة النابغة الذبياني الدالية ، وقصيدة الأعشى اللامية – وقصيدة عبيد بن الأبرص تمام العشر »[٤] . فيظهر منها أن جملة (القصائد السبع) ، كانت غالبة على تلك القصائد ، من حقيقة كونها سبع قصائد في الأصل .

ولا نعلم اسم أول من أطلق مصطلح (المعلقات السبع) على هذه القصائد ، وفي أي وقت أطلقه عليها . ولا يستطيع أحد إثبات ان (حماداً) الراوية هو الذي أطلقه على منتقياته . وقد ذكر (بلاشير) ان (ابن قتيبة) لما تكلم عن قصيدة (عمرو بن كلثوم) التي تدخل في المعلقات قال عنها انها (احدى السبع المعلقات)[٥]. وقد رجعت الى النص فوجدته يقول : « وهي من جيد شعر العرب القديم ، واحدى السبع »[٦] ، ولما كنت لا أملك النسخة الافرنسية لكتاب (بلاشير) ، لذلك لا أدري اذا كانت تلك النسخة قد استخدمت جملة (احدى السبع المعلقات) ، كما وردت في الترجمة العربية ، أم ان الترجمة العربية هي التي استعملتها تصرفاً،

---

١ Ch. J. Lyall, Ancient Arabian Poetry, p. XX.

٢ (شرح القصائد المختارة للتبريزي) ، السيوطي ، شرح شواهد المغني (١/١١) ، (مقدمة) .

٣ الخزانة (١/١٠) ، (بولاق) .

٤ شرح القصائد العشر (ص ٤٥) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٥ بلاشير (١٥٤) .

٦ الشعر والشعراء (١/١٥٩) .

وانها لم ترد في النص الأصل . واني أستبعد احتمال أخذ (بلاشير) من نسخة أخرى استعملت جملة (احدى السبع المعلقات) بدلاً من (احدى السبع) الواردة في النص الذي اعتمدت عليه ، المطبوع ببيروت سنة ١٩٦٤ م .

والعلماء مختلفون في القصائد التي تعدّ من المعلقات وفي عددها ، ولكنهم متفقون على خمس منها ، هي معلقات امرىء القيس ، وطرفة ، وزهير ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم . أما بقيتها ، فمنهم من يعد من بينها معلقة عنترة والحارث بن حلزة ، ومنهم من يدخل فيها قصيدتي النابغة والأعشى . وقد أضاف بعض العلماء القصيدتين اللتين اختارهما المفضل الضبي ، وهما قصيدتا النابغة والأعشى ، الى المعلقات السبع التي هي من اختيار حماد ، فجعلها تسع معلقات . ويرى (نولدكه) ان لولاء حماد لبكر بن وائل علاقة بإدخال حماد قصيدة الحارث بن حلزة اليشكري في جملة المعلقات ، وذلك ان حماداً كان مولى لبكر بن وائل ، وكانت هذه القبيلة في عداء مع تغلب ، ولما كانت قصيدة (عمرو بن كلثوم) التغلبي قد لقيت شهرة واسعة ، لم يسع حماد أن يعدل عن اختيارها ، فاختارها ، واختار معها قصيدة الحارث إرضاء لمن انتمى اليهم بالولاء ، مع قلة شهرتها بالنسبة الى القصائد الأخرى[1] .

ونجد في (الفهرست) اسم كتاب ذكر (ابن النديم) انه من مؤلفات (الأصمعي) ، دعاه (كتاب القصائد الست)[2] . ولهذه التسمية أهمية كبيرة ، لأنها تدل على ان (الأصمعي) ، كان قد اختار من القصائد المعروفة ست قصائد ، وضمها بين دفتي كتاب . ولم يشر (ابن النديم) الى أسماء القصائد الست المختارة ، ولكني لا أستبعد احتمال اسقاطه قصيدة واحدة من بين القصائد السبع التي اختارها (حماد) ، فصار العدد ست قصائد . كما أشار (البغدادي) الى كتاب دعاه : (مختار شعر الشعراء الست : امرىء القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة) ، والى شرحها للأعلم الشنتمري[3] .

وأشار (السيوطي) أثناء حديثه في مقدمته لكتابه : « شرح شواهد المغني »

---

١ Brockelmann, I, S. 16, Char. Lyall, Translations of Ancient Arabian Poetry, London, 1885.

٢ الفهرست (٨٨) ، (الاصمعي) .

٣ خزانة (١/١٠) ، (بولاق) .

الى « شرح المعلقات السبع ، وما ضم اليها للتبريزي ولأبي جعفر النحاس،وشرح السبع العاليات للكميت ، وشرح القصائد المختارة للتبريزي »[1] . وتلفت جملة : « وشرح السبع العاليات للكميت » النظر ، لأنها جاءت في أثناء تحدث (السيوطي) عن الكتب التي رجع اليها في جمع مادة كتابه ، وفي أثناء تحدثه على المعلقات السبع وما ضمّ اليها للتبريزي ولأبي جعفر النحاس ، مما يدل على أنه قصد بشرح السبع العاليات للكميت ، قصائد سبعاً مختارة لها صلة بهذه المعلقات السبع ، ولا سيا وقد ذكر بعد هذا الشرح اسم شرح القصائد المختارة للتبريزي ، التي هي المعلقات العشر ، وأنه لم يقصد بالقصائد السبع (الهاشميات) ، (هاشميات) الكميت وهي أيضاً سبع قصائد ، من شعر هذا الشاعر ، عرفت بالهاشميات . ولو كان قصدها بالذات لدعاها باسمها الذي عرفت به ، وهو (الهاشميات)[2] ، وإنما قصد كتاباً آخر ، اسمه : (شرح السبع العاليات) ، ولفظة (العاليات) نعت للقصائد السبع . ولم يتحدث السيوطي ويا للأسف عن هذا الشرح بأي شيء،فهل يكون الكميت المتوفى سنة (١٢٦ هـ) ، أي قبل (حمّاد) ، قد اختار سبع قصائد جاهلية وضمها في ديوان عرف بـ (السبع العاليات) وقف عليها (حماد) أو صارت اليه ، فأملاها فنسبت اليه،على عادة القدماء في ذلك الوقت ، من أخذهم الكتب والروايات القديمة ، ثم املاءها على تلامذتهم ، فتنسب اليهم ، فتكون المعلقات اذن من جمع الكميت ، رواية حماد !

ويفهم من خبر مذكور في (خزانة الأدب) أن الخليفة (عبد الملك بن مروان) أمر فطرح شعر أربعة من أصحاب المعلقات ، وأثبت مكانهم أربعة . ومعنى هذا الخبر هو وجود المعلقات قبل أيام عبد الملك . وفي الكتاب خبر آخر هو أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار ، فسماها المعلقات[3] ، وفي رواية أخرى : المعلقات الثواني[4] . ولم يعين المورد الشخص الذي أمر باختيار تلك الأشعار ، ولا الشخص الذي قام بالاختيار . ولعله قصد الوليد وحماداً ،

---

١ السيوطي ، شرح (١١) .
٢ القصائد الهاشميات ، للكميت (مطبعة الموسوعات بمصر ، ١٣٢١ هـ) ، بروكلمن (٢٤٣/١) ، وطبعت بليدن سنة ١٩٠٤ م ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٣١٦/١) .
٣ خزانة الادب ، للبغدادي (٦١/١) .
٤ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٨٧/٣) .

فإليها ينصرف الذهن ، لما للوليد من ولع بالشعر ، ولما لحمّاد من علم به .

ولم يشر (البغدادي) صاحب (خزانة الأدب) الى اسم المورد الذى استقى منه خبره عن طرح (عبد الملك) شعر أربعة من أصحاب المعلقات ، واثباتـه أربعة مكانهم . كما أنه لم يشر الى أسماء أصحاب المعلقات الذين طرحت معلقاتهم، ولا إلى أسماء الشعراء الأربعة الذين أثبتت قصائدهم مكان القصائد الأربع المطروحة .

وروي أن (معاوية)،تذكر قصيدة (عمرو بن كلثوم) ، وقصيدة (الحارث ابن حلزة) فقال « قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة ، من مفاخر العرب ، كانتا معلقتين بالكعبة دهراً »[1] .

والمعروف اليوم ، ان حماداً الراوية ، هو الذي جمع القصائد السبع المذكورة، وأذاعها بين الناس . وهو من حفظة الشعر ورواته وممن اشتهروا وعرفوا برواية الشعر القديم . وكان من المتكسبين بالشعر. وقد اتّهم بالوضع وبالدس على الجاهليين وبالكذب عليهم : وهو نفسه لم ينكـر ذلك ، ولم يبرىء نفسه من الدس عـلى الجاهليين والوضع عليهم . ولكنه كان بإجماع أنصاره وخصومه من أفرس الناس بالشعر ، ومن أعلمهم بالشعر الجاهلي وبطرقه ودروبه وأساليبه ، ولعل علمه هذا بالشعر ، ورغبته في التفوق والتصدر على أقرانه المتعيشين مثله على رواية الشعر ، كانا في رأس الأسباب التي حملته على الوضع والدس والافتعال .

ووضع (المفضل) الضبي قصيدتي النابغـة والأعشى مكـان قصيدتي عنترة والحارث بن حلزة اليشكري في الاختيارات الشهيرة للمعلقات . وضم (أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل) النحوي قصيدتي النابغة والأعشى على اختيارات (حماد) فصار العدد تسع معلقات ، أضاف عليها بعض العلماء قصيدة (عبيد بن الأبرص) فصارت عشراً ، وقد شرحها (التبريزي)[2] . وجعل بعضهم العدد ثمانية . ولكن المشهور المعروف بين علماء الشعر الجاهلي انها سبع قصائد : وهي في رأيهم أفضل ما قيل من الشعر في زمان الجاهلية [3] .

ولأهل الأخبار قصص وحكايات عن سبب تسمية المعلقات بالمعلقات . فذكر

---

١ الخزانة (٣/١٦٢) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٦٨) ، شرح التبريزي (٤٥) ، (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٣ العقد الفريد (٣/٩٣) ، ابن خلدون (١/٥٠٩) .

(أحمد بن عبد ربه) مثلاً أن العرب كلفت بقصائد خاصة من الشعر الجاهلي وفضلتها على غيرها ، وعمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع ، ويقال لها المعلقات[1] . وورد : يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره . وقال (ابن رشيق) : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان ، إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : علقوا لنا هذه ، لتكون في خزانته »[2] .

وذهب (السيوطي) هذا المذهب كذلك ، إذ قال : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ؛ فلذلك يقال : مذهبة فلان اذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك اذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه لتكون في خزانته »[3] . وهو رأي أخذه من (ابن رشيق) ، من كتابه (العمدة) . وكتاب العمدة من الموارد التي استقى منها (السيوطي) ، يشير اليه أحياناً ، ولا يشير اليه أحياناً أخرى ، كما هو الحال في هذه الجمل ، التي هي عبارة (ابن رشيق) بحروفها كما جاء في العمدة . وقد توفي (ابن رشيق) سنة (٤٥٦ هـ) .

وزعم بعض آخر أن العرب كانوا في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فلا يعبأ به ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش ، فإن استحسنوه روي ، وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر اليه ، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب . وقال « أبو عمرو بن العلاء : كانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش[4] » .وذهب (ابن خلدون) الى أن العرب

---

١ العقد الفريد (١١٦/٣) ، (١١٩/٦) ، (لجنة) .
٢ العمدة (٩٦/١) ، الخزانة (٦١/١) .
٣ السيوطي ، المزهر (٤٨٠/٢) .
٤ خزانة الأدب (٦١/١) .

كانوا يعلقون أشعارهم بأركان البيت كما فعل أصحاب المعلقات السبع ، وإنما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر[1] . وذكر أن « أول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس وبعده علقت الشعراء ، وعدد من علق شعره سبعة . ثانيهم طرفة بن العبد . ثالثهم زهير بن أبي سلمى ، رابعهم لبيد بن ربيعة ، خامسهم عنترة ، سادسهم الحارث بن حلزة ، سابعهم عمرو بن كلثوم . هذا هو المشهور »[2] . وروي عن (معاوية) قوله : « قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة من مفاخر العرب كانتا معلقتين بالكعبة دهراً »[3] .

وعن (ابن الكلبي) انه قال : « أول شعر علق في الجاهلية شعر امرىء القيس علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر اليه ، ثم أحدِرَ فعلقت الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدّوا من علق شعره سبعة نفر ، إلا ان عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة »[4] .

ولا بد وأن يكون ظهور قصة التعليق قد حدث قبل أيام (ابن عبد ربه) المتوفى سنة (٣٢٨ هـ) ، لورودها في (العقد الفريد)[5] . (وابن عبد ربه) من معاصري (أبي جعفر أحمد بن محمد) النحاس ، المتوفى بعده بعشر سنوات ، أي سنة (٣٣٨هـ) ، الذي ذكر القصة أيضاً ، لكنه أنكر تعليق المعلقات، فعنده « أن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة »[6] . وذكر أنه قال في شرحه على المعلقات ما نصه : « واختلفوا في جمع القصائد السبع ، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي » ، وقال أبو جعفر : « وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » ، « وهو يستند في رأيه هذا ، إلى أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر ، جمع لهم هذه القصائد السبع ، وقال هذه هي

---

١ مقدمة ابن خلدون (٥١١) ، (٥٠٩/١) .
٢ الخزانة (٦١/١) .
٣ الخزانة (٥١٩/١) ، (بولاق) .
٤ الرافعي (١٨٧/٢) .
٥ زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١٠٦/١) .
٦ ياقوت ، ارشاد (١٤٠/٤) .

المشهورات ! فسميت القصائد المشهورة »[1] .

وقد مشت اسطورة التعليق هذه بين الناس ، حتى صارت رأياً اعتقد به كثير من المحدّثين ، الى درجة أن منهم من صار يغضب ويثور إذا قرأ رأياً يخالف هذا الرأي ، لاعتقاده أن في هذا الإنكار غضاً وتعريفاً بأخلد تراث من تراث العرب القديم ، وأن فيه انتقاصاً من قدر الأدب العربي التليد .

وقد تعرض المستشرقون منذ أيام (بوكوك) لموضوع المعلقات ، وقد رأى كثير منهم ان قصة التعليق قصة مصطنعة وان الموضوع مصنوع موضوع . ويرى (نولدكه) ان اختلاف رواة الشعر في ضبط أبيات تلك المعلقات ، دليل في حد ذاته على عدم صحة التعليق ، إذ لو كانت تلك القصائد معلقة ومشهورة وكانت مكتوبة لما وقع علماء الشعر في هذا الاختلاف . ثم يرى سبباً آخر يحمله على الشك في صحة ما يقال عن المعلقات . هو ان كل الذين كتبوا عن فتح مكة مثل الأزرقي وابن هشام والسهيلي وغيرهم وغيرهم ، أشاروا الى ان الرسول أمر بطمس الصور وكسر الأوثان والأصنام ، ولم يشيروا أبداً الى المعلقات ، ولو كانت المعلقات موجودة كلاً أو بعضاً لما غض أهل الأخبار أنظارهم عنها ، ولما سكتوا عن ذكرها ، لأهميتها عند العرب[2] .

ثم يرى (نولدكه) ان هذه القصائد لو كانت معلقة حقاً ، وكانت على الشهرة التي يذكرها أهل الأخبار لما أغفل أمرها في القرآن الكريم وفي كتب الحديث وفي كتب الأدب مثل كتاب الأغاني وأمثاله ، ولأشير اليها ، ولهذا يرى ان ما يروى عن المعلقات هو من القصص الذي نشأ عن التسمية وعن اختيارات حماد لها ، فلما أشاعها بين الناس ، أوجد الرواة لها قصة التعليق[3] .

وقد استدل (نولدكه) من عبارة : « وقال المفضل : القول عندنا ما قاله

---

١ محمد هاشم عطية ، الادب العربي وتاريخه (١٢٤) .

٢ Theodor Nöldeke, Beiträge zur Kenntniss der Poesie der Alten Araber, Hannover, 1864, S. XVIII. f.

راجع وصف دخول الرسول الكعبة ، وأمره بطمس الصور وكسر الاصنام والاوثان، ارشاد الساري (٣٩٣/٦ وما بعدها) .

٣ Nöldeke, Beiträge, S. XVII, XX.

بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٦٧/١) .

أبو عبيدة في ترتيب طبقاتهم : وهو ان أول طبقاتهم أصحاب السبع معلقات . وهم : امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد . قال المفضل : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب بالسموط، ومن زعم غير ذلك ، فقد خالف جمهور العلماء »[1] ، على ان الأدباء أوجدوا قصة تعليق المعلقات في الكعبة ، نظراً الى ما يقال من تفاخر الشعراء بعكاظ ، وتحكيم المحكمين فيما بينهم ، فرأى رواة الشعر أن يجعلوا المختار من الشعر ، وهو القصائد السبع الطوال سيد الشعر الجاهلي ، ولما كانت مكة ذات قدسية ، وجدوا انها أصلح مكان لأن يربط بينه وبين هذا المختار من عيون الشعر ، فأوجدوا حكاية التعليق[2] .

وبين المستشرقين فريق ذهبوا مذهب (نولدكه) في رفض قصة التعليق ، ورأوا أن القصة أسطورة لا أصل لها ولا فصل . وفريق أيد التعليق ، وهم أقلية ، وذهب مذهب المثبتين له من علماء الشعر الجاهلي . أما علماء العربية في أيامنا ، فهم أيضاً بين مؤيد وبين مخالف ، ولكل رأي .

وقد تعرض (الرافعي) لموضوع تعليق المعلقات ، فذهب الى أن قصة التعليق على الكعبة قصة مفتعلة ، وأن (ابن الكلبي) هو الذي ذكر خبر تعليقها على الكعبة ،وأن مَنْ عدا ابن الكلبي ممن هم أوثق في رواية الشعر وأخباره لم يذكروا من ذلك شيئاً ، بل جملة كلامهم ترمي الى أن القصائد لم تخرج عن سبيل ما يختار من الشعر ، وأن المتأخرين هم الذين بنوا على خبر التعليق ما ذكروه من أمر الكتابة بالذهب أو بمائه في الحرير أو في القباطي ؛ وأن العرب بقيت تسجد لها (١٥٠) سنة حتى ظهر الإسلام ، تسجد لها كما يسجدون لأصنامهم[3] . (وابن الكلبي) على رأيه « هو أول من افترى خبر كتابة القصائد السبع المعلقات وتعليقها على الكعبة »[4] .

وتعرض (الرافعي) أيضاً الى رأي من ينكر أن هذه القصائد صحيحة النسبة الى قائليها ، مرجحاً أنها منحولة وضعها مثل حمّاد الراوية ، أو خلف الأحمر ،

---

١ Beiträge, S. XX.

٢ Nöldeke, Beiträge, S. XXII.

٣ الرافعي (١٨٦/٢ ، ١٩٢) .

٤ الرافعي (٤١٦/١) ، (١٩٢/٢) .

فرأى أنه رأي قائل ، لأن الروايات قد تواردت على نسبتها ، وتجد أشياء منها في الصدر الأول ، غير أنه مما لا شك فيه أن تلك القصائد لا تخلو من الزيادة وتعارض الألسنة ، قل ذلك أو كثر ، أما أن تكون بجملتها مولـدة فدون هذا البناء نقض التأريخ[1] .

ولم أجد بين الموارد التي وصلت الينا من موارد مطبوعة أو مخطوطـة مورداً واحداً ذكر ان الرسول حينما فتح مكة ، وأمر بتحطـيم ما كان بها من أصنام وأوثان وبطمس ما كان بها من صور ، وجد معلقة واحدة أو جزءاً من معلقة أو أي شعر آخر وجد مكتوباً ومعلقاً على أركان الكعبة أو على أستارها ، كما اني لم أجد في أخبار بناء الكعبة خبراً يشير الى انهـم علقوا المعلقات على الكعبـة حينما أشادوها وبنوها من جديد . ولو كانت تلك القصائد قد علقت، لما سكت الرواة عنها وأغفلوا أمرها اغفالاً تاماً . ثم إن أهل الأخبار الذيـن أشاروا الى الحريق الذي أصاب الكعبة ، والذي أدى الى اعـادة بنائها ، لم يشيروا أبداً الى احتراق المعلقات كلها أو جزء منها في هذا الحريق ، ولو كانت موجودة ومعلقـة على الكعبة كما زعموا ، لما سكتوا عن ذكر هذا الحدث الهام . ثم اني لم أسمـع ان أحداً من حملة الشعر الجاهلي من الصحابة أو التابعين ، ولا غيرهم من رواة شعر الجاهلية وحفظته ، وكلهم كانوا يتلذذون بروايته وبسماعه، أشار الى وجود معلقات ومذهبات وقصائد سبع مختارة ، ولو كان لهم علم بها لمـا أخفوا ذلك عمن جاء بعدهم أبداً . وتعليق المعلقات قصة ، لا أستبعد أن تكون من صنع (حماد) جامعها، أو من عمل من جاء بعده ، في تعليل سبب ذلك الاختيار .

وأما ما زعم من أن معاوية قال : « قصيدة عمـرو بن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة ، كانتا معلقتين بالكعبة دهراً »[2] ، فخبر لا يوثق به .

ومن (السمط) جاءت فكرة تعليق المعلقات . فالسمط : خيط النظم لأنـه يعلق ، وقيل قلادة أطول من المخنقـة ، والخيط ما دام فيـه الخرز ، وجمعه (سموط)[3] . فالسمط يعلق ، وقد دعيت القصائد المذكورة بـ (السمط)، وقالوا

---

١ الرافعي (١٩٣/٢) .
٢ الخزانة (٥١٩/١) ، (بولاق) .
٣ اللسان (٣٢٢/٧) .

من ثم بتعليق تلك القصائد ، وتعليقها على الكعبة أو على استارها هو خبر مكان يناسب المقام الذي وضعوه لتلك المنظومات .

وتلفت جملة : « وقال المفضل : من زعم أن في السبع التي تسمى السمط لأحد غير هؤلاء ، فقد أبطل » النظر حقاً [1] . فقد استعمل لفظة (السمط) ، فقط ، وقصد بها المعلقات،وهذا الاستعمال يدل على نعت العلماء للقصائد المذكورة بأن كل قصيدة منها وكأنها خيط من اللؤلؤ منظوم يتلو بعضه بعضاً ، وأن تلك القصائد السبع قد اختيرت من بين قصائد الشعر الجاهلي ، وأن من يزيد على ذلك العدد قصيدة ، فقد أخطأ .

وقد روي أن العرب كانت تسمي القصائد الطويلة الجيدة المقلدات والمسمطات[2]. و « مقلدات الشعر وقلائده البواقي على الدهر »[3] . « وسمط الشيء تسميطاً علقه بالسموط ، وهي السيور » ، ومن هـذا المعنى أخذ اختراع تعليق المعلقات في رأي بعض الباحثين[4] .

ويذكر علماء اللغة والشعر أن (المسمط) من الشعر ، أبيات تجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافي الأبيات . ويقال قصيدة مسمطة،شبهت أبياتها المقفاة بالسموط . وذكر بعضهم : الشعر المسمط الذي يكون في صدر البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مقفاة وتجمعها قافية مخالفة لازمة القصيدة حتى تنقضي . وهو الذي يقال له عند المولدين : المخمس ، والمسبع ، والمثمن . وذكر بعض علماء الشعر ان لامرىء القيس قصيدتان سمطيتان[5] .

وأرى ان الذي أوحى الى أهل الأخبار بفكرة المعلقات السبع هو ما جاء في القرآن الكريم : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم »[6] ، وما جاء في الحديث من قوله : « أوتيت السبع الطول »[7] . وقد ذكر علماء التفسير ان (السبع الطول) من سور القرآن : سبع سور ، وهي سورة البقرة وسورة آل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، واختلف في السابعة ، فمنهم من قال السابعة

---

١ العمدة (ص ٩٦) .
٢ البيان والتبيين (٢/٩) .
٣ تاج العروس (٢/٤٧٥) ، (قلد) .
٤ تاج العروس (٥/١٦١) ، (سمط) .
٥ تاج العروس (٥/١٦١) ، (سمط) .
٦ الحجر الآية ٨٧ .
٧ اللسان (١١/٤١٠) .

الأنفال ، ومنهم من جعل السابعة يونس ، ومنهم من قال انها سورة (الفاتحة) وانها « السبع المثاني » ، لأنها تتألف من سبع آيات[1] . فمن السبع المثاني التي قصد بها السور السبع الطوال المذكورة ، والتي ذكر المفسرون انها خصت بهذه التسمية بسبب كونها أطول السور ولاحتوائها على أكثر الأحكام أخذ رواة الشعر في رأيي فكرتهم في المعلقات السبع ، التي نعتوها أيضاً بـ (الطوال) وبـ (السبع الطوال) وهو نعت جاء في الحديث وفي كتب التفسير للسبع المثاني ، أي للسور المذكورة ، إذ عبّر عنها بـ (السبع الطوال) ، وورد في الحديث : « أوتيت السبع الطوال ».

ويلاحظ أن علماء الشعر مغرمون بعدد السبعة ، وأن نظام انتقائهم للأشعار قائم على سبع . فالمعلقات سبع ، ومنتقيات العرب والمذهبات التي للأوس والخزرج خاصة سبع كذلك ، وعيون المراثي سبع ، ومشوبات العرب وهي التي شابهن الكفر والإسلام سبع كذلك ، والملحمات سبع أيضاً . ومجموع هذه الاختيارات تسع وأربعون . وهي حاصل هذه المجموعات السبع التي تتألف كل مجموعة منها من سبعة أشعار[2] .

وهذا التقسيم السبعي لا بد أن يكون له أساس ، فليس من المعقول أن يكون اعتباطياً وعلى غير أساس . والمعروف أن التقسيم السبعي ، أو النظام السبعي ، تقسيم قديم يعود الى سنين طويلة قبل الميلاد ، فالسماوات والأرضون سبع ، والكواكب السيارة سبعة ، والأنغام الموسيقية سبعة ، وأيام الاسبوع سبعة. والعدد سبعة هو عدد مقدس عند بعض الشعوب القديمة .

وقد سبق لي أن تحدثت في مجلة المجمع العلمي العراقي عن المعلقات السبع ، وذكرت الأسباب التي حملت العلماء على تسميتها بالمعلقات .

---

١ تفسير الطبري (١٤/٣٥ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢/٥٥٧) ، تفسير الطبرسي (٣/٣٤٤) .
٢ الرافعي (٣/١٩٠ وما بعدها) .

الفصل التاسع والخمسون بعد المئة

أصحاب المعلقات

أصحاب السبع الطوال ، هم : امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبي سلمى ، ولبيد بن ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، والحارث ابن حلزة اليشكري . وهم الذين اختار (حماد) الراوية قصائدهم ، فألف منها اختياراته . وقد رتبتهم حسب الترتيب المألوف الذي يرد في دواوين المعلقات ، وإن كان هذا الترتيب يتعارض مع الترتيب الزمني . فلبيد مثلاً كان من الواجب علينا تأخيره ، بجعله آخر الشعراء المذكورين ، لأنه أدرك الاسلام ، فهو من المخضرمين ، وبعض منهم كان من اللازم تقديمه ، ليأخذ مكانه المناسب له من الناحية الزمنية ، بجعله في موضع من يؤخر لتأخره في الزمان .

وسأضيف على ما ذكرت الأعشى والنابغة وعبيد بن الأبرص ، مجاراة لمن زاد على ذلك العدد شاعراً أو شاعرين أو ثلاثة ، أو طرح منه شاعرين ، ووضع في محلها شاعرين آخرين . كما جرى الحديث عن ذلك حين تكلمت عن المعلقات . وسأبدأ لذلك بالكلام على أولهم ، وهو بإجماع علماء الشعر : امرؤ القيس .

وامرؤ القيس ، هو على رأس شعراء الجاهلية في الذكر والشهرة ، وعلى رأس أصحاب (المعلقات السبع) . وقد أوصله أهل الأخبار الى (قيصر) ، وجعلوا له معه حكايات ثم قبروه بـ (أنقرة) الى جانب قبر ابنة بعض الملوك الروم[1] .

---

١ نزهة الجليس (١٤٧/٢ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح (٢١) ، الاغاني (٦٢/٨ وما بعدها) ، (بولاق) ، الخزانة (٥٣٢/٣) .

وختموا حياته بخاتمة مؤلمة مفجعة ، وقالوا إنه عرف بـ (ذي القروح) ، لأن ملك الروم كساه حلة مسمومة فقرحته[1] ، أو لقوله :

وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة   لعل منايانا تحـوّلن أبؤسا[2]

ويرى (بروكلمن) ان قصة موت (امرىء القيس) ، بسبب الحلة المسمومة، أسطورة تشبه الأسطورة التي حصلت لهرقل البطل اليوناني الشهير[3] .

ودعوه بـ (الملك الضلّيل) ، و (الملك المضلل)[4] . وذكروا انه سعى وجدّ لإعادة ملك والده ، ولكنه باء بالفشل ، وكان آخر ما فعله في هذا الباب ، أن ذهب الى (القسطنطينية) لمقابلة (قيصر) لإقناعه بمساعدته في الحصول على حقه، وتقويته لينتقم من قتلة والده ، وليعيد الحكم الى كندة ، فكان مصيره ان جاءه الموت وهو في طريقه ، على نحو ما تقصه علينا قصص أهل الأخبار .

وما قصة موته من قروح أصيب بها من لبسه الحلة المسمومة ، إلا أسطورة . ويرى (بروكلمن) احتمال ظهورها من سوء فهم الأبيات ١٢-١٤ من القصيدة (٣٠) من ديوانه . ولعل هذه القصة هي التي أوجدت له اللقب الذي لقّب به ، وهو (ذو القروح) . وأنا لا أستبعد احتمال اصابته بدمامل أو بمرض جلدي آخر ، قرحت جلده ، ومات منها ، فعرف للملك بـ (ذي القروح) ، وأوجدت له قصة الحلة المسمومة على نحو ما أوجدته مخيلة أهل الأخبار .

ويذكر أهل الأخبار ان (امـرأ القيس) لما احتضر بأنقرة ، نظر الى قبر فسأل عنه ، فقالوا قبر امرأة غريبة ، فقال :

---

١ المستطرف (٣٥/٢) ، سرح العيون ، لابن نباتة (١٨١) ، (بولاق) ، العمـدة (٤١/١ وما بعدها ، ٩٧) ، شرح القصائد العشر (٧ ، ٤٦) ، المؤتلف والمختلف ، للامدي (٩ وما بعدها) ، قال الفرزدق :

وهب القصائد لي النوابغ اذ مضوا   وأبو يزيد وذو القـروح وجـرول

ديوان الفرزدق (٧٢٠ وما بعدها) ، النقائض (٢٠٠ وما بعدها) .

٢ شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، للشيخ أحمد بن الامين الشنقيطي (ص ٥) (طبعة دار الاندلس) .

٣ بروكلمن (٩٩/١) .

٤ تاج العروس (٤١٢/٧) ، (ضلل) ، الخزانة (١٦٠/١) ، (بولاق) .

أجارتنا إن الخطوب تنوب   وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنّا غريبان ههنا   وكل غريب للغريب نسيب
فإن تصلينا فالمودة بيننا   وان تهجرينا فالغريب غريب

وورد في كتاب : مقاتل الفرسان – لأبي عبيدة ، ان صخر بن عمرو الشريد أخا الخنساء ، قال لما أدركه الموت :

أجارتنا إن الخطوب تنوب   علينا وكل المخطئين مُصيب
أجارتنا لست الغداة بظاعن   وإني مقيم ما أقام عسيب

ومات فدفن بقرب عسيب . فلعلها توارداً[1] .

وتذكر قصة ، أن (امرأ القيس) دخل مع القيصر الحمام،فإذا قيصرأقلف ، فقال :

إني حلفت يميناً غير كاذبة   أنّكَ أقلفُ إلا ما جنى القمرُ
إذا طعنت به مالت عِمامته   كما تجمع تحت الفلكة الوبر

وتذكر القصة ان ابنة القيصر نظرت اليه فعشقته ، فكان يأتيها وتأتيه،وطَبِنَ (الطمّاح بن قيس) الأسدي لها ، وكان حجر قتل أباه ، فوشى به الى الملك، فخرج امرؤ القيس متسرعاً ، فبعث اليه قيصر بحلة مسمومة ، فتناثر لحمه وتفطر جسده . وكان يحمله (جابر بن حَنِي) التغلبي ، فذلك قوله :

فإما تريني في رحالة جابرٍ   على حرج كالقر تخفق أكفاني
فيا ربّ مكروب كررت وراءه   وعانٍ فككت الغلّ عنه ففداني
إذا المرء لم يخزن عليه لسانه   فليس على شيء سواه بخزّان[2]

ولم ينس (ابن الكلبي) من ذكر آخر كلمة قالها شاعرنا حين حضرته الوفاة، فقال إنه قال :

---

١ السيوطي ، شرح (٧١٥) ، نزهة الجليس (١٤٧/٢) .
٢ الشعر والشعراء (٥٢/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

وطعنة مُسحنفرة وجفنة متعنجرة تبقى غداً بأنقرة

فكان هذا آخر شيء تكلم به ، ثم مات[1] .

ورويت كلماته الأخيرة على هذه الصورة :

رب خطبة مسحنفره وطعنة مثعنجره
وجعبة متحيره تدفن غداً بأنقره

كما روى شعره الذي قاله يخاطب قبراً لامرأة زعم انها من بنات ملوك الروم، على هذا النحو :

أجارتنا إنّ المزارَ قريب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنّا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب[2]

وهكذا نجد الرواة يختلفون فيما بينهم في رواية هذه الأشعار التي صنعت على لسان الشاعر ، لتكون مادة مقومة للقصة . وكان آخر ما صنعوه لإتمام القصة ، أن أوجدوا له قبراً بأنقرة ، اتخذوه الى جانب قبر منفرد منعزل ، هو قبر إحدى بنات ملك من ملوك الروم ، أوصاهم به (امرؤ القيس) نفسه لما رأى دنو أجله . فكانت الخاتمة مؤلمة ، وكان الاختيار موفقاً جداً ، فالقبر قبر امرأة ، وكان صاحبنا متيماً يحب النساء ، وكانت المرأة بنتاً لملك من ملوك الروم ، فهي من طبقته ، وتصلح أن تكون جارة له ، وهو ابن ملك ، وكان صديقاً حميماً لقيصر الروم ، يدخل معه الحمام ، ويراه عارياً تماماً ، أقلف . فابنة ملك من ملوك الروم ، تصلح لأن تكون له جارة وصاحبة لهذا القبر ، وهكذا قبروا الاثنين في قبرين متجاورين .

وقد زعموا أن امرأ القيس كان « مئناثاً لا ذكر له ، وغيوراً شديد الغيرة ، فإذا ولدت له بنت وأدها ، فلما رأى ذلك نساؤه غيبن أولادهن في أحياء العرب، وبلغه ذلك فتتبعهن حتى قتلهن »[3] .

---

١ الشعر والشعراء (١/٥٣) ، (الثقافة) ، نزهة الجليس (٢/١٥٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٦٣) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (١/٦٣) ، (الثقافة) .

وزعموا أنه كان مع جماله ووسامتـه وحسنه « مُفرّكاً لا تريده النساء إذا جرّبنه . وقال لامرأة تزوّجها : ما يكره النساء مني ؟ قالت : يكرهن منك أنك ثقيل الصدر ، خفيف العجز ، سريع الاراقة ، بطيء الافاقة . وسأل أخرى عن مثل ذلك فقالت : يكرهن منك أنك إذا عَرِقْتَ فُحتَ بريح كلب ! فقال : أنت صدقتني ، إن أهلي أرضعوني بلبن كلبة . ولم تصبر عليه إلا امرأة من كندة يقال لها هند ، وكان أكثر ولده منها »[1] .

وتزعم قصة أن قيصر وجه معه جيشاً ، ليعاونه على استعادة ملكه ، فوشي به رجل من (بني أسد) يقال له (الطماح) ، فهمّ بقتلـه ، وأرسل اليه في أثره بحلة مسمومة مع رجل ، أدخله الحمام وكساه إياها بعد خروجه ، فلما لبسها تنفط بدنه[2] . وزعم (الجاحظ) أنه « راسل بنت قيصر وأراد أن يخدعها عن نفسها ، وبلغ ذلك قيصر وأراد أن يقتله ، فتذمم من ذلك ، وأمر بقميص فغمس في السم ، وقال لامرىء القيس : إلبس هذا القميص فإني أحببت أن أوثرك به على نفسي لحسنه وبهائه فعمل السم في جسمه وكثرت فيه القروح فمات منها ، فسمي ذا القروح . وقد كان قيل لقيصر قبل ذلك إنه هجاه ، فعندها يقول :

ظلمت له نفسي بأن جئت راغباً إليه وقد سيّرت فيه القوافيا
فإن أكُ مظلوماً فقدماً ظلمتـه وبالصاع يُجزى مثل ما قد جزانيا[3]

. قال علماء الشعر : كان (امرؤ القيس) ممن يتعهر في شعره[4] ، وقد سبق الشعراء الى أشياء ابتدعها ، واستحسنها العرب ، واتبعته عليها الشعراء ، من استيقافه صحبه في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ . وله تشبيهات مستجادة ، واجادة في صفة الفرس ، وفي الوصف[5] . « واجتمع عند (عبد الملك) أشراف من الناس والشعراء ، فسألهم عن أرق بيت قالته العرب ، فاجتمعوا على بيت امرىء القيس :

---

١ الشعر والشعراء (١/٦٣) ، (الثقافة) .
٢ نزهة الجليس (٢/١٥٢) .
٣ المحاسن والاضداد (١٤٣) .
٤ الشعر والشعراء (١/٥٣) ، (الثقافة) .
٥ الشعر والشعراء (١/٥٤ وما بعدها) ، (الثقافة) .

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي   بسهميك في أعشار قلب مقتل »[1]

وقال (أبو عبيدة معمر بن المثنى) : « من فضله ، انه أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى في الدمن ، ووصف ما فيها ، ثم قال : دع ذا ـ رغبة عن المنسية ـ فتبعوا أثره ، وهو أول من شبّه الخيل بالعصا واللقوة والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف »[2] .

وقال أبو عبيدة : هو أول من قيد الأوابد ، يعني في قوله في وصف الفرس (قيد الأوابد) فتبعه الناس على ذلك .

وقال غيره : هو أول من شبّه الثغر في لونه بشوك السيّال فقال :

منابته مثل السدوس ولونه   كشوك السيّال وهو عذبٌ يفيص

فاتبعه الناس . وأول من قال : « فعادى عداء » فاتبعه الناس . وأول من شبّه الحمار (بمقلاء الوليد) وهو عود القُلة و (بكرّ الأندري) ، والكر : الحبل . وشبّه الطلل (بوحي الزبور في العسيب) . والفرس بتيس الحُلّب »[3].

وأورد له علماء الشعر أشياء ذكروا انه انفرد بها ، ولم يتمكن أحد من مجاراته بها[4] ، وعابوا عليه أشياء ، دافع عنها بعض العلماء ، وردّوا العائبين عليها . ومما عابوه عليه تصريحه بالزنا والدبيب الى حُرم النساء ، وفجوره بالمتزوجات ، والشعراء تتوقى ذلك في الشعر وإن فعلته[5] . وقد فضله (لبيد بن ربيعة) على جميع الشعراء ، إذ قال : « أشعر الناس ذو القروح ، يعني امرأ القيس » .

وقد ذكر علماء الشعر أبيات شعر لامرىء القيس ، قالوا ان غيره من الشعراء أخذوها أخذاً ، مع تغيير بسيط وأدخلوها في شعرهم ، أو أخذوا أكثر ألفاظها أو معانيها فأضافوها الى شعرهم . من ذلك قول امرىء القيس :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم   يقولون : لا تهلك أسى وتجمل

---

١ الشعر والشعراء (١/٥٦) ، (الثقافة) ، ديوانه (١٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٦٨) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (١/٧٢ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (١/٧٣ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٥ الشعر والشعراء (١/٥٠) ، (الثقافة) .

أخذه طرفة فقال :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم يقولون : لا تهلك أسى وتجلد

ومثل قول امرىء القيس :

فلأياً بلأيٍ ما حملنا غلامنا على ظهر محبوك السراة محنّب

أخذه زهير ، فقال :

فلأياً بلأيٍ ما حملنا غلامنا على ظهر محبوك ظماءٍ مفاصله

الى غير ذلك من أمثلة ذكرها (ابن قتيبة) وغيره في مؤلفاتهم عن الشعر والشعراء[1] . إن صحت دلت على ان الشعراء الجاهليين كانوا يحفظون شعر من تقدم عليهم ، وشعر المعاصرين لهم ، وانهم كانوا يتبعونه ويستقصونه ليحفظوه، ولم يبالوا بعد ذلك اذا أخذوا شيئاً من شعر غيرهم . وهذا يدل أيضاً على ان الشعر الجاهلي كان محفوظاً في الصدور ، يحفظه الشعراء وغيرهم من عشاق الشعر، الى أن جاء الاسلام فدوّن بالقراطيس .

يقول علماء الشعر لم يتقدم امرؤ القيس الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا ، أو لأنه كان أول من ابتدأ بالشعر ووضع جادته ومهد سبيله ووضحه لمن جاء بعده من الشعراء ، لكنه سبق إلى أشياء طريفة فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها ، لأنه كان أول من لطف المعاني ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبيْض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيدة ، وقرب مآخذ الكلام ، فقيّد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه[2]. وقد ثمن (الباقلاني) شعره بقوله : « وأنتَ لا تشك في جودة شعر امرىء القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أموراً اتُبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها الى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والتميح الذي يوجد في شعره والتصرف

١ الشعر والشعراء (٦٩/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٢ الشعر والشعراء (٥٣/١ وما بعدها) .

الكثير الذي تصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح . وقد ترى الأدباء يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً » . ثم هو يؤاخذ الشاعر على عيوب ذكر أنها عوار في معلقته[1] .

ووضع أهل الأخبار (امرىء القيس) في رأس زمرة عشاق العرب والزناة . وذكروا له عشقه لـ (فاطمة بنت العُبيد بن ثعلبة) العذرية ، وعشقه لـ (أم الحارث) الكلبية ، وعشقه لـ (عنيزة) ، وهي صاحبة يوم (دارة جلجل)[2] ، ورووا له قصة طريفة حدثت له مع صاحبة يوم (دارة جلجل) ، تبين كيف مكر بابنة عمه (عنيزة) ، فأجبرها على أن تتجرد من لباسها ، لينظر اليها وهي تخرج من الغدير مقبلة ومدبرة ، حتى يمتع نظره برؤية جسدها العاري ، ثم كيف نحر ناقته ، وشوى لحمها ، وأخذ يطعم به البنات ، وكيف توسل الى ابنة عمه (عنيزة) لتحمله على غارب بعيرها بعد أن ذبح ناقته وشوى لحمها ليتخذ ذلك حجة له في مشاركة (عنيزة) بعيرها . ثم تروي القصة ، كيف أنه صار يجنح اليها فيدخل رأسه في خدرها فيقبلها . ثم تنتهي القصة بذكر الشعر الذي قاله في هذه المناسبة . حيث يقول :

ويوم عقرتُ للعـذارى مطيّتي فيا عجباً من رحلها المتحمَّل
يظل العذارى يرتمين بلحمهـا وشحمٍ كهدّاب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت: لك الويلات إنك مُرْجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً : عقرت بعيري يا امرىء القيس فانزل
فقلت لها : سيري وأرخي زمامه ولا تبعدينا من جنـاك المعلّل[3]

وراوي هذه القصة هو (محمد بن سلام) ، سمعها كما يقول من (أبي شفقل) راوية (الفرزدق) الشاعر الشهير ، وقد ذكر هذا الراوي أنه لم يرَ رجلاً كان أروى لأحاديث امرىء القيس وأشعاره من الفرزدق ، وذلك لأن (امرىء القيس)

---

١ اعجاز القران (٧٤ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (١/٦٤) .

٣ الشعر والشعراء (١/٦٦) ، الثقافة .

كان قد أقام في (بني دارم) رهط الفرزدق حيناً ، حين رأى من أبيه جفوة، فمن ثَمَّ أخذ (الفرزدق) علمه بأخبار (امرىء القيس) وأحاديثه وأشعاره[1] .

ويكثر (امرؤ القيس) من ذكر أسماء المواضع التي نزل بها ، وقد أفادنا بذلك في معرفة تلك المواضع . وفي جملة ما ذكره موضع (الحص) ، وقد اشتهر بالخمر . وهو قرية من أسفل الفرات :

كأن التّجار اصعدوا بسبيئة من الخص حتّى أنزلوها على يسر[2]

وقوله :

لمن الديار عرفتها بسحــام فعمايتين فهضب ذي أقدام
فصفا الأطيط فصاحتين فغاسم تمشي النعاج بها مع الآرام[3]

وقد ذكر عشرة مواضع من أرض البحرين بقوله :

غشيت ديار الحيّ بالبكرات فعارمــة فبرقــة العــيرات
فغول فحليت فنفي فمنعج الى عاقل فالجب ذي الأمرات[4]

وله أشعار أخرى كثر فيها ورود أسماء المواضع[5] .

ويذكر ان قوماً من أهل اليمن أقبلوا يريدون النبي ، فضلّوا ، ووقعوا على غير ماء ، فمكثوا ثلاثاً لا يقدرون على الماء ، وأوشكوا على الهلاك.فأنشد أحدهم بيتين من شعر امرىء القيس ، هما :

لما رأت ان الشريعة همّها وان البياضَ من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارجٍ يفيء عليها الظل عرمضها طامي

فقال أحدهم : ضارج عندكم ، وأشار اليه فمشوا على الركب، فإذا ماء غدق،

---

١ الشعر والشعراء (١/٦٤) ، (الثقافة) .
٢ الصفة (١٢٩) .
٣ الصفة (١٥١ ، ٢٢٦) .
٤ الصفة (٢٢٥) .
٥ الصفة (٢٢٩ ومابعدها) .

واذا عليه العَرمض ، والظل يفيء عليه ، فشربوا وحملوا ولولا ذلك لهلكوا[1] .
ولما بلغوا النبي ، أخبروه خبرهم ، فقال : « ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسي في الآخرة خامل فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النار»[2].
وروي عن (عمر) قوله في (امرىء القيس) : « سابق الشعراء ، خسف لهم عين الشعر »[3] . ونجد لهذا الشاعر ذكراً في كتب الحديث[4] .

وذكر أن (امرأ القيس) أشار الى (ابن مندلة) (ملك العرب) بقوله:

فأقسمت لا أعطي مليكاً ظلامة   ولا سوقة حتّى يؤوب ابن مندلة

وروي أن هذا البيت ، هو لعمرو بن جوين[5] .

وتذكر قصة رواهــا (أبو الحسين) النسابة ، أن (حجراً) والد امرىء القيس نهى ابنه عن قول الشعر ، فلما لم ينته عنه ، أمر أحد غلمانه أن يقتلــه ويأتيه بعينيه ، فانطلق به الغلام ، فاستودعه جبلاً منيفاً ، وعــلم أن أباه سيندم على قتله . وعمد الغــلام الى جؤذر كان عنده فنحره وامتلخ عينيه ، فأتى بهما حجراً ، فانفجر حجر من الغضب والندم،حتى همّ بقتل الغلام ، فأخبره الغلام، أنه لم يقتلــه ، وانه لا زال حياً ، وانه كان يعلم أن والده سيندم على قتله . فأمره عندئذ بالذهاب اليه ، والعودة به الى بيته ، فأتاه به . وكف امرؤ القيس من قول الشعر حتى قتل أبوه[6] . وهي قصة نجد أمثالها في أساطير الأمم الأخرى . والى هذه القصة أشار (امرؤ القيس) بقوله :

فــلا تتركني يا ربيعُ لهــذه   وكنت أراني قبلها بك واثقاً

---

١ الشعر والشعراء (١/٥٥) ، (الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (١/٦٧ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (١/٦٨) ، (الثقافة) .
٤ احمد بن حنبل ، مسند (٢/٢٢٨) ، طبقات الشافعية ، للسبكي (١/٢٥٦) ، (١٩٦٤ م) .
٥ تاج العروس (٨/١٣٢) ، (ندل) .
٦ شرح شواهد المغني ، للسيوطي (٢١) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٩٨)، « دعا مولى له يقال له ربيعة » ، الشعر والشعـراء ، (١/٥١) ، (الثقافــة) ، الخزانة (١/١٦٠ وما بعدها) .

وتذكر رواية أخرى ان أباه نهاه بعد عودته اليه من قول الشعر ، ثم انه قال:

ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي

فبلغ ذلك أباه فطرده[1] .

والمشهور بين علماء الشعر ، ان امرأ القيس انما طرد ، لأنه كان يقول الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فزجره أبوه ومنعه عن قوله ، فلما لم ينته طرده. فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذّاذ العرب من طيء وكلب وبكر ابن وائل ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام ، فذبح لمن معه في كل يوم وخرج الى الصيد فتصيّد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنّته قيانه ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه الى غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمّون من أرض اليمن ، فقال : ضيعني صغيراً وحمّلني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر ! ثم شرب سبعاً ، فلما صحا آلى أن لا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً، ولا يدّهن ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره . وهكذا صيروا (امرأ القيس) من الصعاليك ، وجعلوه في عدادهم ، فاتكاً كثير الغزل والولوع بالنساء ، يتنقل في أحياء العرب ويغير بهم ، فيصف الأوثان ، ويبكي على الدمن، ويذكر الرسوم والأطلال وغير ذلك[2] .

ويرجع سند أكثر الروايات المتقدمة والتي بعدها الى (ابن الكلبي) ، ولابن الكلبي كتاب يتصل بامرىء القيس اسمه : « كتاب تسمية ما في شعر امرىء القيس من أسماء الرجال والنساء »[3] ، وله روايات مدوّنة في الأغاني وفي كتب أدب أخرى عن هذا الشاعر وعن ملوك كندة ، ويظهر أنه قد اصطنع قصص امرىء القيس ، وأضاف على القصص شعراً ، ليكون له سنداً وتفسيراً ، وقد يكون أخذ القصص من أفواه الأعراب والرواة الذين حرفوا تأريخ امرىء القيس ووالده وحوروه وحوّلوه على طريقتهم المألوفة الى قصص وأساطير ، تميل نفوسهم الى الاستماع اليها . فنقلها عنهم كما سمعها . غير أن (ابن الكلبي) ، كان كما

---

١ الشعر والشعراء (١/٥٢) ، (الثقافة) .
٢ نزهة الجليس (٢/١٤٧ وما بعدها) .
٣ الفهرست (١٤٨) .

نعلم من الوضاعين ، وكان من العارفين بدروب الشعر ، وكان أيضاً مثل والده ممن يضع الشعر على ألسنة الناس .

وتذكر قصة (امرىء القيس) أنه انتقم من (بني أسد) قتلة والده،فقرت عيناه بأخذه الثأر منهم . وقد نظم ذلك في شعره[1] . وتذكر أنه خرج اليهم أول ما خرج مع بكر وتغلب ، وهم الذين كانوا معه ، فأدرك بني أسد ظهراً ، فكثرت الجرحى والقتلى ، وحجز الليل بينهم ، وهربت بنو أسد ، فلما أصبحت بكر وتغلب ، أبوا أن يتبعوهم وقالوا له : قد أصبت ثأرك . قال : والله ما فعلت ولا أصبتُ من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحداً ؛ قالوا : بلى ، ولكنك رجل مشؤوم ، وانصرفوا عنه ، فمشى هارباً لوجهه ، حتى أمده (مرثد الخير بن ذي جدن) الحميري ، وتبعه شذاذ من العرب ، واستأجر رجالاً من القبائل ، ثم خرج فظفر ببني أسد ، وألح المنذر في طلب امرىء القيس ووجه اليه الجيوش ، فتفرق من كان معه ونجا في عصبته . فكان ينزل على بعض العرب ويرحل حتى قدم على السموأل ، ثم على قيصر ، على نحو ما ذكرت[2] .

وتذكر رواية ان (امرأ القيس) لما مر ببكر بن وائل طالباً منهم النصرة ، سألهم عن شاعر محسن فيهم ، فأتوه بعمرو بن قميئة الضبعي ، وقد أسن، فأعجب به (امرؤ القيس) ، فأخذه معه ، حتى ذهب الى (الحارث بن أبي شمر) الغساني ، طالباً منه النجدة ، فقال له : اني لست أقدر على المسير الى العراق في هذا الوقت ، ولكني أسير معك الى الملك قيصر ، فهو أقوى مني على ما سألت، وكانت للحارث وفادة على الملك ، فأوفده معه[3] . فالذي أخذ (امرأ القيس) الى الروم هو (الحارث) ، على هذه الرواية . والمعروف من الروايات الأخرى ان هذا الملك طالب (السموأل) بأسلحة (امرىء القيس) التي أودعها عنده، فلما أبى السموأل إلا اعطاءها الى (آل امرىء القيس) الشرعيين وورثته، حاصره، وقتل ابنه ، فضربت العرب بالسموأل المثل في الوفاء[4] .

---

١ تاريخ ملوك العرب الاولية (ص ١٢٦ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١٩٥/٣ وما بعدها) .
٣ الخزانة (٦١٣/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ نزهة الجليس (١٥١/٢) .

وكنية امرىء القيس (أبو يزيد) ، ويقال : (أبو وهب) ، ويقال : (أبو الحارث) ، ويقال (أبو كبشة) . وأما اسمه ، فاختلف فيه ، فقيل : (عدي) ، وقيل (مليكة) ، وقيل (حندج) . وكان يقال له : (الملك الضليل) ، و (الضليل) ، و (ذو القروح)[1] .

ويذكر أهل الأخبار ان (امرأ القيس) كان معنّنا عرّيضاً ينازع كل من قال انه شاعر ، فنازع (التوأم اليشكري)، (الحارث بن التوءم)[2] ، فقال له : « إن كنت شاعراً فلّط أنصاف ما أقول وأجزها » . ونازع (عبيد بن الأبرص)[3].

وإذا ما أخذنا بآراء بعض المستشرقين عن سنة وفاة الشاعر (امرىء القيس) من أنها كانت بين السنة (٥٣٠) والسنة (٥٤٠) بعد الميلاد[4] ، فيكون عصر أقدم شعر جاهلي وصل الينا لا يزيد عمره على القرن السادس للميلاد ، أو أواخر القرن الخامس للميلاد . وهذا التقدير معقول يتناسب مع الأخبار المروية عن هذا الشاعر . روي أن رؤبة بن العجاج قال : حدثني أبي عن أبيه قال : حدثتني عمّي . قالت : سألت امرأ القيس ، ما معنى قولك : كرّك لأمين على نابل ؟ فقال : مررت بنابل وصاحبه يناوله الريش لُؤاماً وظُهاراً ، فما رأيت أسرع منه ولا أحسن ، فشبهت به[5] . ولو أخذنا بهذه الرواية وصدّقناها ، فلن نتمكن من الارتفاع بها من حيث الزمن الى أكثر من هذا التقدير .

وذكر أن (امرأ القيس) لمّا هرب من (المنذر بن ماء السماء) صار الى جبلي طيء : أجا وسلمى ، فتزوج أم جندب . وصادف أن جاءه (علقمة بن عبدة التميمي) ، فتذاكرا الشعر ، فقال امرؤ القيس:أنا أشعر منك ، وقال علقمة : بل أنا أشعر منك ! فتحاكما الى أم جندب ، فأخذ كل واحد منهما يقول شعراً وهي تسمع ، وتعلق عليه ، ففضلت أم جندب (علقمة) عليه ، فغضب (امرؤ القيس) وطلقها ، فخلف عليها علقمة ، فسمي علقمة الفحل[6].

---

١ السيوطي ، شرح (٢١ وما بعدها) .
٢ « قتادة بن التوأم اليشكري » ، اللسان (٢١٣/٦) ، (مجس) ، « لفي التوأم اليشكري ، واسمه الحارث بن قتادة » ، العمدة (٢٠٢/١) .
٣ اللسان (٢١٤/٦) ، (مجس) ، السيوطي ، شرح (٢٥) ، العمدة (١٧٦/١) ، (٨٧/٢) .
٤ تأريخ العرب قبل الاسلام (٢٦٥/٣) .
٥ التنبيهات على أغلاط الرواة (٤) .
٦ السيوطي ، شرح شواهد (٩٢ وما بعدها) .

وجاء في كتاب (الشعر والشعراء) : « وكان امرؤ القيس في زمان أنو شروان ملك العجم ، لأني وجدت الباعث في طلب سلاحه الحارث بن أبي شمر الغساني . وهو الحارث الأكبر . والحارث هو قاتل المنذر بن امرىء القيس الذي نصّبه أنو شروان بالحيرة . ووجدت بين أول ولاية أنو شروان وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، أربعين سنة ، كأنه ولد لثلاث سنين خلت من ولاية هرمز بن كسرى ، ومما يشهد لهذا ، ان عمرو بن المُسبّح الطائي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، الى المدينة في وفود العرب وهو ابن مائة وخمسين سنة وأسلم . وعمرو يومئذ أرمى العرب . وهو الذي ذكره امرؤ القيس »[1] .

و (عمرو بن المُسبّح) (المسيح؟) الطائي ، هو الذي عناه (امرؤ القيس) بقوله :

رُبَّ رامٍ من بني ثعل مخرج كفيه من سُترِه

وكان كما يزعم أهل الأخبار أرمى العرب يومئذ ومن فرسانهم المعروفين . ومن المعمرين . عمّر على ما يقولون مائة وخمسين سنة ، وجعلوه ممن أدرك أيام الرسول ، بل زعموا انه وفد عليه فأسلم . وجعل بعض أهل الأخبار وفاته في خلافة (عثمان) . وتوقف (ابن قتيبة) في (المعارف) ، فقال : « لا يدرى أقبض قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، أو بعده »[2] ، « ولست أدري أقبض قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، أم بعده »[3] .

وذكروا أنه هو القائل :

لقد عمرت حتّى شف عمري على عمرو بن علة وابن وهب[4]

ولا يعقل خبر بقاء (عمرو بن المسبح) الطائي الى أيام النبي ، ولا سيما خبر

---

١ الشعر والشعراء (٥٠ وما بعدها) ، (١/٦٦) ، (الثقافة) .
٢ الاصابة (٣/١٧) ، (رقم ٥٩٦٤) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٢٣٢) ، المعمرون (٨٦) ، الشعر والشعراء (١/٦٧) ، (الثقافة) ، الاستيعاب (٢/٥١٣) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ المعارف (٣١٤) .
٤ الاصابة (٣/١٧) ، (رقم ٥٩٦٤) .

من جعل موته في خلافة عثمان . ولعل شخصاً كان اسمه مثل هذا الإسم ، فاشتبه أمره على الرواة ، فظنوه صاحب امرىء القيس . ولو كان هو صاحبه لما سكت عشاق الشعر والباحثون عن شعر صاحبه عنه ، ولوجدنا له خبراً مع الرسول أو عمر عن حياة امرىء القيس .

وقد أشير الى (البريد) في شعر (امرىء القيس) ، إذ ذكر أنه نادم (قيصر) وأركبه البريد :

ونادمت قيصر في ملكه   فأوجهني وركبت البريدا
إذا ما ازدحمنا على سكة   سبقت الفُرانق سبقاً بعيدا[1]

وكانت البرد منظومة الى كسرى ، من أقصى بلاد اليمن الى بابه ، أيام وهرز ، وأيام قتل مسروق عظيم الحبشة،وكذلك كانت برد كسرى الى الحيرة: الى النعمان وآبائه ، وكذلك كانت برده الى البحرين : الى المكعبر مرزبان الزارة، والى مشكاب ، والى المنذر بن ساوى ، وكذلك كانت برده الى عمان ، الى الجلندى بن المستكبر ، فكانت بادية العرب وحاضرتها مغمورتين بـ ده ، إلا ما كان من ناحية الشام ، فإن تلك الناحية من مملكة خثعم وغسان الى الروم ، إلا أيام غلبت فارس على الروم »[2] .

ويرجع الفضل في تخليد شعر (امرىء القيس) الى (حماد) الراوية ، والى (أبي عمرو بن العلاء)[3] . وكان (أبو عمرو بن العلاء) يقول : « فتح الشعر بامرىء القيس وختم بذي الرمة »[4] . والى (الفرزدق) الذي كان من أروى الناس لأحاديثه وأشعاره[5] ، والى (ابن الكلبي) الذي نجد عنه نقولاً في كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، تخص (امرأ القيس)[6] ، وفي كتاب الأغاني ، وهو من أهم الأخباريين الراوين لأخبار كندة .

---

١ ديوانه (٢٦٢) ، رسائل الجاحظ (١/٢٧٥ ، ٢٩٠ وما بعدها) ، (كتاب البغال) .
٢ رسائل الجاحظ (١/٢٩١ وما بعدها) ، (كتاب البغال) .
٣ المزهر (٢/٢٥٣) ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٩٩) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٤٢) .
٥ الشعر والشعراء (١/٦٤) ، (الثقافة) .
٦ الشعر والشعراء (١/٥٣ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٦٨) .

وذكر (الرياشي) ان كثيراً من الشعر الوارد في ديوان امرىء القيس ، هو منحول عليه ، وهو لجماعة من أصحابه ، مثل عمرو بن قميئة[1]. وقد نص بعضهم على انه لم يصح له إلا نيف وعشرون شعراً بين طويل وقطعة[2] . وقد عُني علماء الشعر والأخبار بجمع أشعاره في ديوان ، فجمعه غير واحد منهم ، وشرحه كثيرون ، وطبع جملة طبعات ، وترجم الى مختلف اللغات[3] .

وقد اختلف رواة الشعر في ضبط عدد أبيات معلقة امرىء القيس، كما اختلفوا في تقديم وتأخير الأبيات ، « وفي رواية بعض الألفاظ ، بحيث لا تجتمع اثنتان منها على صورة واحدة »[4] . وذكر (البغدادي) : أن قصيـــدة امرىء القيس التي مطلعها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي

هي من عيون شعره ، وعدتها ستة وخمسون بيتاً ، وأكثرها وقعت شواهد في كتب المؤلفين ، وفي كتب النحو والمعاني[5] .

« وكان امرؤ القيس يروي شعر أبي دؤاد الإيادي ويتوكأ عليه . وهو فحل قديم كان أحد نعّات الخيل المجيدين » . « ثم هو كان يعرف أن امرأ القيس ابن حذام يبكي في شعره الطلول ، فأخذ ذلك عنه كما أخذ صفة الخيـــل عن أبي دؤاد ، وتراه يحاول أن يلحقه في إجادة نعتها والشهرة بذلك ، حتى لا يخلو أكثر شعره من هذا الوصف »[6] .

وقد كان يعاصره من الشعراء المعروفين : علقمة بن عبدة، وعبيد بن الأبرص، والشنفرى ، وسلامة بن جندل ، والمثقب العبدي ، والبراق بن روحان ، وتأبط شراً ، والتوءم اليشكري .

---

١ الموشح للمرزباني (٣٤) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٩٩/١) .
٢ العمدة (٦٧/١) ، الرافعي (٢٠٣/٣) .
٣ راجع التفاصيل في بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٠/١ وما بعدهــا) ، ودائرة المعارف الاسلامية .
٤ الرافعي (١٩٩/٣) .
٥ الخزانة (٢٨/١) ، (بولاق) .
٦ الرافعي (٢٠٤/٣) .

وزعم أن (التوءم) اليشكري لقي (امرأ القيس) يوماً فقال له : إن كنت شاعراً كما تقول فلط لي أنصاف ما أقول فأجزها ؛ قال : نعم : فقـال امرؤ القيس :

أحارِ ترى بريقاً هب وَهْناً

فقال التوءم : كنار مجوس تستعر استعارا

واستمرا على ذلك . ولما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن في أيامه من يطاوله ، آلى أن لا ينازع الشعر أحداً أبداً [1] .

ونجد للباقلاني صاحب كتاب (إعجاز القرآن) آراءً في بعض أشعار (امرىء القيس) ، حيث ينتقد بعض الأبيات ويبين ما فيها من عيوب[2] . كما نجد في كتب (النقد) آراءً في شعره ، وهي بين مستحسن ومستهجن لبعض الأبيات أو القصائد . « ومن الخصائص العروضية في شعره كثرة استعمال الضرب المقبوض في الطويل ، وكثرة الإقواء في القافية ، وكثرة التصريع في غير أول القصيدة »[3] .

وللقدماء ملاحظات عن شعر (امرىء القيس) ، وقد شك بعض منهم في كثير من شعره وذهبوا الى انه من الموضوعات ، وقد أشاروا اليـه ، ثم جاء المستشرقون ، فركنوا الى ما قاله القدمـاء عنـه ، وأبدوا رأيهم فيه . وتحدث المحدثون من العرب عنه ، وعلى رأسهم الدكتور طه حسين ، حيث أنكر شعره لحجج أوردها في كتابه في الأدب الجاهلي[4] .

وعاش في أيام (امرىء القيس) شاعر آخر عرف أيضاً بامرىء القيس ، هو (امرؤ القيس بن حمام بن عبيدة بن هبل بن أبي زهير بن جناب بن هبل)[5].

و (طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك)،من قيس بن ثعلبة . وهو ابن أخي (المرقش الأصغر) ، وكان من المقربيـن الى عمرو بن هند) ملك

---

١ الرافعي (٢٢٨/٢) .
٢ الباقلاني ، اعجاز القرآن .
٣ بروكلمن (٩٩/١) .
٤ راجع أيضا شوقي ضيف : العصر الجاهلي (ص ٢٤٨ وما بعدها) .
٥ السيوطي ، شرح شواهد (٢٦/١) .

الحيرة ، ومن المنـادمين لأخيه (أبو قابوس) . وهو ابن أخت (جرير بن عبد المسيح) المعروف بـ (المتلمس) . وقد قال الشعر وهو صغير السن، ومات أبوه وهو صغير ، وأكل أعمامه ماله ، وأبوا تقسيمه ، فهجاهم ، واشتهر بمعلقته الّتي عاتب بها ابن عمه (مالكاً) لأنه لم يُعِنْ أخاه (معبداً) في جمع شتات إبله . وقد قتل بالبحرين على ما يذكره أهل الأخبار في قصص متضارب، اختلف في سبكه الرواة[1] .

واسم (طرفة) عمرو ، وانما سمي طرفة لقوله :

لا تعجلا بالبكاء اليوم مطرفاً ولا أميريكما بالدار إذ وقفا

وقيل إن كنيته (أبو عمرو)[2] . وقد فضل بعض علماء الشعر شعره على شعر سائر الشعراء الجاهليين[3] .

وكان (طرفة) أحدث الشعراء سناً وأقلهم عمراً ، قتـل وهو ابن عشرين سنة . فيقال له (ابن العشرين) . وقيل بضع وعشرين سنة . وأمه (وردة) من رهط أبيه ، وفيها يقول لأخواله وقد ظلموها حقها ، بأن يعطوها حقها :

ما تنظرون بمال وردة فيكم صَغُرَ البنون ورهط وردة غيَّب[4]

ويقال إن أول شعر قاله (طرفة) انه خرج مع عمه في سفر ، فنصب فخاً، فلما أراد الرحيل قال :

يا لك من قبرة بمعمر خلا لكِ الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري قد رفع الفخ فماذا تحذري
لا بد يوماً أن تصادي فاصبري[5]

---

١ الخزانة (٤١٣/١) (بولاق) ، الاغاني (١٨٥/٢١) ، الموشح (٥٧) ، المرزباني، معجم (٢٠١) ، طبقات ابن سلام (١١٥) ، الشعر والشعراء (١١٧/١ وما بعدها) ، الخزانة (٤١٩/٢) ، (هارون) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٨٠٥/٢) ، المزهر (٤٤١/٢) .
٣ المصدر نفسه .
٤ الابيات في ديوانه (١١) ، الشعر والشعراء (١١٩/١) ، (الثقافة) .
٥ الشعر والشعراء (١٢٠/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (٤١٧/١) .

وروي ان أخته رثته بقولها :

عددنا له ستاً وعشرين حجة فلما توفاها استوى سيّداً ضخما
فُجعنا به لما رجونا إيابه على خير حال لا وليداً ولا قحما[1]

ورغم قلة ما نسب الى (طرفة) من الشعر ، فقد قدمه علماء الشعر على غيره من الشعراء بأن جعلوا ترتيبه الثاني بعد امرىء القيس ، ولهذا ثنوا بمعلقته. ذكر (ابن قتيبة) انه أجود الشعراء قصيدة[2] . وقد ذكر (ابن سلام) ان معظم شعر (طرفة) قد ضاع حتى لم يبق منه بأيدي المصححين لشعره إلا بقدر عشر قصائد ، مع انه كان من أقدم الفحول . وقد حمل عليه كثيراً من الشعر[3] .

وكان في حسب من قومه ، جريئاً على هجائهم وهجاء غيرهم . وكانت أخته عند (عبد عمرو بن بشر بن مرثد) ، وكان (عبد عمرو) سيد أهل زمانه ، فشكت أخت طرفة شيئاً من أمر زوجها اليه ، فقال :

ولا عيب فيه غير أنّ له غنى وإن له كشحاً ، إذا قام أهضما
وإن نساء الحي يعكفن حولــه يقلن ، عسيب من سرارةِ ملهما

فبلغ عمرو بن هند الشعر ، فأبلغه الى (عبد عمرو) وهو معه في صيد ، فقال (عبد عمرو) : أبيت اللعن ؛ الذي قال فيك أشدّ مما قال فيّ ، قال : وقد بلغ من أمره هذا ؟ قال نعم . فأرسل اليه ، وكتب له الى عامله بالبحرين فقتله . في قصة منمقة مدوّنة في أكثر كتب الأدب والأخبار . وقد تعرضت لها في مكان آخر من هذا الكتاب. ويقال ان الذي قتله (المُعلى بن حنش العبدي)، والذي تولى قتله بيده (معاوية بن مرّة الأيفلي) ، حيّ من طسم وجديس[4] . وقيل (الربيع بن حوثرة) عامله على البحرين[5] . وقيل إن قاتله : (عبد هند

---

١ الخزانة (٤١٦/١) .
٢ الشعر والشعراء (١١٧/١ وما بعدها) ، الخزانة (٤١٩/٢) ، (هارون) .
٣ طبقات (٢٣) .
٤ الشعر والشعراء (١١٧/١ وما بعدها) .
٥ الشعر والشعراء (١٢١/١) ، الخزانة (٤٢١/٢ وما بعدها) ، (هارون) ، الاغاني (١٢٥/٢١) ، نوادر المخطوطات (المجموعة السادسة) (ص ٢١٢ وما بعدها) .

ابن جرد بن جريّ بن جروة بن عمير) التغلبي ، عامل (عمرو بن هند) على البحرين . وان (عمرو بن هند) ، كان قد جعل (طرفة) و (المتلمس) في صحابة (قابوس) أخيه ، فكان (قابوس) يتصيد يوماً ، ويشرب يوماً ، فكان إذا خرج الى الصيد خرجا معه ، فنصبا وركضا يومهما ، فـإذا كان يوم لهوه وقفا على بابه يومهما كله ، فلما طال ذلك عليهما ، هجا طرفـة (عمرو بن هند) وأخاه ، فبلغ الهجاء الملك ، فقرر قتلهما [1] . وورد أن (عمرو بن هند) ، كان قد رشح أخاه (قابوس بن المنذر) ليملك بعده ، وانه جعـل (طرفة) و (المتلمس) في صحابة (قـابوس) وأمرهما بلزومه ، فكان قابوس شاباً يعجبه اللهو ، وكان يركب للصيد ، فيركض يتصيد ، وهما معه يركضان حتّى يرجعا عشية وقد تعبـا ، فيكون قابوس من الغداة في الشراب فيقفان بباب سرادقه الى العشي ، فضجرا منه فهجواه وهجوا عمراً معه ، فبلغ ذلك الهجاء (عمراً) ففعل بهما ما فعل [2] .

ويقال ان (طرفة) كان ينادم يوماً (عمرو بن هند) ، فأشرفت ذات يوم أخته ، فرأى طرفة ظلها في الجام الذي في يده ، فقال :

ألا يا بأبي الظبيّ الذي يبرقُ شنفاه
ولولا الملك القاعدُ قـد الثمني فاه

فحقد ذلك عليه ، وكان قال أيضاً :

وليتَ لنا مكان الملكِ عمرو رغوثاً حولَ قبتنا تدورُ
لعمرك إن قابوسَ بنَ هند ليخلط ملكه نوكٌ كثير

وقابوس هو أخو (عمرو بن هند) . وكان فيه لين . ويسمى قينة العرس . فحقد (عمرو بن هند) عليه واستدعاه ، وكتب له كتاباً ، وكتب بمثل ذلك (للمتلمس) ، وشكّ المتلمس في أمر الصحيفة ، ومزقها ، ومضى (طرفة) الى البحرين ، فأخذه (الربيـع بن حوثرة) فسقـاه الخمر حتّى أثمله ، ثم فصد أكحله ، فقبره بالبحرين . وكان لطرفة أخ يقال له (معبد بن العبد) ، فطلب

---

١ أسماء المقتالين (المجموعة السادسة) ، (ص ٢١١ وما بعدها) .
٢ الخزانة (٤١٢/١ وما بعدها) .

بديته ، فأخذها من الحوائر[1] .

ويرى (بروكلمن) أن (طرفة) لم ينادم أبا قابوس ، وإنما نادم (عمرو ابن مامة) أخ الملك من أبيه ، باليمامة . وكان قد التجأ الى (مراد) من عداوة أخيه . فعاقب الملك (طرفة) بأخذ إبله التي تركها في (تبالة) من ديار (لخم)، فهجاه طرفة[2] . وقد ذكر (المرتضى) رواية تذكر أن صاحب المتلمس وطرفة هو (النعمان بن المنذر) ، وذلك أشبه بقول طرفة :

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتي ولم أعطكم في الطوع مالي ولا عرضي
أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

وأبو منذر ، هو النعمان بن المنذر ، وكان النعمان بعد عمرو بن هند ، وقد مدح طرفة النعمان ، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله ، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان[3] .

وذكر « ان عائشة سئلت : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : لا ، إلا لبيت طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ

فجعل يقول : ويأتيك بالأخبار من لم تزود . فقال أبو بكر : ليس هكذا. فقال : اني لست بشاعر ، ولا ينبغي لي »[4] .

وينسب الى طرفة قوله :

عفا من آل ليلى السهـ ـب ، فالأملاح فالغمرُ
فعرق فالرماح فالـ ـلّوى من أهله قفر
وأبـلي ** الى الغـرّا ءِ فالماوان فالحجـر

---

١ الشعر والشعراء (١/١٢١) ، ' الثقافة) ، (فليت) ، الخـزانة (١/٤١٢ وما بعدها) .
٢ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٩٢) .
٣ أمالي المرتضى (١/١٨٥) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٨٠٤ وما بعدها) .

فأمواه الدنا فالنجـ ـد فالصحراء فالنسر
فلاة ترتعيهـا العيـ ـن فالظلمان فالعفـر

وينسب للخرنق أيضاً[1] .

ويقدم علماء الشعر (طرفة) على غيره من الشعراء ، بإجادته وصف الناقة في معلقته على نحو لم يسبق اليه[2] . وقد جعله (لبيـد) بعد (امرىء القيس) في الشعر ، وقال عنه « أبو عبيدة : طرفة أجودهم واحدة ، ولا يلحق بالبحور ، يعني امرأ القيس وزهيراً والنابغة ، ولكنه يوضع مع أصحابه : الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وسويد بن أبي كاهل » .

وقد ذكر علماء الشعر أبياتاً جيدة لطرفة سبق بها غيره من الشعراء ، فأخذها عنه الشعراء وضمنوها أو ضمنوا معناها شعرهم . وممن اقتبس منـه : (لبيد) و (الطرماح) و (عدي بن زيد) العبادي ، وعبدالله بـن نهيك بن أساف الأنصاري وغيرهم[3] .

وتعدّ (معلقة) (طرفة) أطول المعلقات أبياتاً ، فهي تتألف من (١٠٥) أبيات في شرح القصائد العشر للزوزني[4] ،وقد يزيد عليها بيتاً أو أكثر في بعض الروايات[5]. وتنتهي المعلقة بذكر الموت،وبالنصح ، وبأن الأيام معارة فما استطعت من معروفها فتزود بها ، ثم ختمها بقوله :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكلّ قرين بالمقـارن يقتدي

وهي حِكم ، لا تصدر في العادة إلا من شيخ شارف على الموت ومـن حكيم عرك الأيام ، ومن رجل خبير مجرب . والقصيدة نفسها من نفس رجل ، يجب أن يكون قد خبر الحياة ، ومارس الشعر زمناً ، فهل تكون من نظم شاب هو ابن عشرين سنة ، أو بضع وعشرين ؟

---

١ الصفة (٢٢٥) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٩٢) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٢١) ، (الثقافة) .
٤ (ص ١٣٣ وما بعدها) .
٥ نزهة الجليس (٢/١٥٨ وما بعدها) .

وفي معلقة (طرفة) أبيات تشير الى وقوفه على سفن الفرات ودجلة والبحر، إذ يقول فيها[1] :

كأن حدوج المالكيـــة غدوة خلايا سَفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن يجورُ بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حَباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفائل باليـد

ويقول فيها أيضاً[2] :

وأتلع نهــاضٌ إذا صعدت به كسُكّان بوصي بدجلة مصعد

وزهير بن أبي سلمى ، من هذا الرعيل الـذي عدت إحدى قصائده من المعلقات . وكان على ما يقال راوية لأوس بن حجر زوج أمـه ، وكان أوس راوية للطفيل الغنوي ، وهو والد (كعب بن زهير) الشاعر الشهير الذي كساه الرسول بردة له،بعد أن كان قد أمر بقتله لما بلغه من هجائه له. فلما سمع (كعب) بذلك جاء الى المدينة فأسلم ، وطلب العفو ، وقال قصيدته الشهيرة بحضرة الرسول فعفى عنه وأعطاه البردة . أما والده (زهـير) ، فقد توفي قبل المبعث ، ولا صحة لما ذكره البعض من انه لقي الرسول[3] . وقد كان يكنى بـ (أبي بجير)[4] . وأتى (بجير) النبي وأسلم . وقد زعم انه رأى رؤيا في منامه ، ان سبباً تدلى من السماء الى الأرض وكان الناس يمسكونه ، فأوله بنبي آخر الزمان ، وان مدته لا تصل الى زمن بعثه ، وأوصى بنيه أن يؤمنوا به عند ظهوره . ثم توفي قبل المبعث بسنة[5] .

وهو (زهير بن أبي سلمى) ، واسم (أبي سُلمى) ربيعـــة بن رياح المزني ، من مزينة بن أد بن طابخة ، وكانت محلتهم في بلاد (غطفان) ، فظن الناس أنه من غطفان . وقد ذهب (ابن قتيبة) الى أنه من (غطفان) وردّ على

---

١ المعلقة ، البيت (٣ ــ ٥) .
٢ المعلقة ، البيت (٢٨) .
٣ الاغاني (٩/١٥٠) ، الاصابة (٣/٢٧٩) ، (رقم ٧٤١٣) ، الخزانة (١/٤٣٦ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٣١) .
٥ الخزانة (٢/٣٢٥ وما بعدها) .

من زعم أنه من مزينة [1] . وهو أحد الشعراء الثلاثة الفحول ، المتقدمين على سائر الشعراء بالاتفاق ، وإنما الخلاف في تقديم أحدهم على الآخر ، وهم امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة الذبياني [2] . ويقال إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير [3] . وكان والد (زهير) شاعراً ، وأخته (سلمى) شاعرة ، وأخته (الخنساء) شاعرة ، وابناه كعب وبُجير شاعرين ، وابن ابنه (المضرب بن كعب) شاعراً [4] . وكان خال (زهير بن أبي سلمى): (أسعد بن الغدير) شاعراً ، وقد عرف بأمه، وكان أخوه : (بشامة بن الغدير) شاعراً ، كثير الشعر [5] .

ويظهر من شعر ينسب اليه انه عاش أكثر من مائة سنة ، إذ نراه يتأفف من هذه الحياة ، ومن مشقاتها ، حتى سئم منها ، إذ يقول :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً ، لا أبالكِ يسأم

ويقول :

بدا لي إن الله حق فزادني الى الحق ، تقوى الله ما كان باديا
بدا لي اني عشت تسعين حجة تباعاً وعشراً عشتها وثمانيا

أو :

ألم ترني عُمرت تسعين حجة وعشراً تباعاً عشتها ، وثمانيا [6]

ويظهر ان بيت بدا لي ان الله حق فزادني ، وما بعده من الشعر المنحول عليه . ولم يرد في رواية أبي العلاء ، والأصمعي ، والمفضل الضبي ، والسكري [7].

---

١ الخزانة (٢/٣٣٢) ، (هارون) ، (والناس ينسبونه الى مزينة ، وانما نسبه في غطفان) ، الشعر والشعراء (١/٧٦) ، الاغاني (٩/١٤٦) .
٢ الخزانة (٢/٣٣٢ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١/٧٦) .
٤ الخزانة (٢/٣٣٣).
٥ من نسب الى أمه من الشعراء ، نوادر المخطوطات ، (المجموعة الاولى) ، (ص ٩١) .
٦ رسالة الغفران (١٨٢ وما بعدها) .
٧ رسالة الغفران (١٨٣ رقم ١) .

وفي شعر زهير ، زهد ووعظ وتهذيب ، حملت بعض الباحثين على اعتباره نصرانياً ، ويشك (بروكلمن) في ذلك ، إذ يرى ان أثر النصرانية وإن كان واسع الانتشار في جزيرة العرب في ذلك الوقت ، بيد انه لا توجد لدينا أدلة تحملنا على جعله نصرانياً[1] . وقد ذكر علماء الشعر ان (زهيراً) كان يتأله ويتعفف في شعره . ويدل شعره على ايمانه بالبعث وذلك قوله :

يؤخر فيودع في كتابٍ فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم[2]

ومن جيد شعره في تحديد اليمين قوله :

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ يمين أو نِفار أو جلاء[3]

وقد ثمن شعره وقدره العلماء . قال (الثعالبي) فيه : « انـه أجمع الشعراء للكثير من المعاني في القليل من الألفاظ »[4] . وفي معلقته أبيات في نهايـة الحسن والجودة ، وقد جرت مجرى الأمثال الرائعة[5] .

وورد أن (عمر بن الخطاب) كان لا يقدم عليه أحداً . وذكر أن (عمر) قال لابن عباس : أنشدني لأشعر شعرائكم . قلت : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير . قيل بمَ كان ذلك ؟ قال : كان لا يعاظل بـين الكلام ، ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل بما لا يكون في الرجال . قال : فأنشدته حتى برق الصبح . وورد أن عمر كان جالساً « مع قوم يتذاكرون أشعـار العرب إذ أقبل ابن عبّاس ، فقال عمر : قد جاءكم أعلم الناس بالشعر ، فلما جلس قال : يا ابن عبّاس ، من أشعر العرب ؟ قال : زهير بن أبي سلمى . قـال فهل تنشد من قوله شيئـاً نستدل به على ما قلت ، قال : نعم ، امتدح قوماً من غطفان يقال لهم بنو سنان فقال :

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٩٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/٧٨) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (١/٧٩) ، (الثقافة) .
٤ خاص الخاص (٧٥) ، الاعجاز والايجاز (٣٧) .
٥ كارلو تالينو (٧٧) .

لو كان يقعد فوق الشمس من أحد قوم لأولهم يوماً إذا قعدوا
محسّدون على ما كان من نعم لا ينزع الله عنهم ماله حسدوا[1]

وورد في رواية أخرى ، ان (عمر) قال لابن عباس : « أنشدني لشاعر الشعراء ، الذي لم يعاظل بين القوافي ، ولم يتبع وحشي الكلام ، قال : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير »[2] .

وكان زهير أستاذ الحطيئة . وسئل عنه (الحطيئة) فقال : ما رأيت مثله في تكفيه على أكتاف القوافي ، وأخذه بأعنتها حيث شاء ، من اختلاف معانيها ، امتداحاً وذماً . قيل له : ثم من ؟ قال : ما أدري ، إلا أن تراني مسلنطحاً واضعاً إحدى رجلي على الأخرى رافعاً عقيرتي أعوي في أثر القوافي .

« قال أبو عبيدة : يقول من فضّل زهيراً على جميع الشعراء : انه أمدح القوم وأشدهم أسر شعر . قال وسمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : الفرزدق يشبّه بزهير . وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين . قال : وكان زهير يسمي كُبُرَ قصائده الحوليات .

وكان جيد شعره في هرم بن سنان المريّ . وقال عمر رضي الله عنه لبعض ولد هرم : أنشدني بعض ما قال فيكم زهير ، فأنشده ، فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن ، فقال : يا أمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل ! فقال عمر رضي الله عنه : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم »[3] . وقد عيب على (زهير) لأخذه عطايا (هرم بن سنان) ، إذ عد أهل الأخبار ذلك نوعاً من التكسب بالشعر، وهو مرذول عند العرب[4] .

وقد قدمه (الأخطل) كذلك ، وقال (ابن الأعرابي) : « كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره ، كان أبوه شاعراً وهو شاعر وخاله شاعر وأخته

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١٣١/١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٧٦/١) .
٢ الشعر والشعراء (٨١/١) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (٨١/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٤ العمدة (٤٩/١) .

سلمى شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعران ، وأخته الخنساء شاعرة »[1] . « ومن قدّم زهيراً قال : كان أحسنهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة في المدح ، وأكثرهم أمثالاً في شعره »[2] . وقيل ان أمدح بيت قالته العرب ، هو بيت زهير :

تراه إذا مـــا جئته متهللاً ... كأنك تعطيه اللذي أنت سائله[3]

ولزهير قصيدة أولها :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى ... من الأمر أو يبدو لهم مـــا بدا ليا

يقال إنه قالها لما طلب (كسرى) النعمان بن المنذر ، ففرّ فأتى طيئاً ، فسألهم أن يدخلوه جبلهم ، فأبوا ، فلقيه بنو رواحة من عبس ، فقالوا له : أقم فينا ، فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا . فقـــال : لا طاقة لكم بكسرى ، وأثنى عليهم خيراً . وورد أن (الأصمعي) أنكر كون هذه القصيدة لزهير . ونسبهـــا بعضهم (لصرمة بن أبي أنس الأنصاري) ، وهي لا تشبه كلام زهير[4] .

ولزهير شعر سبق به غيره ، فأخذه الشعراء منه وضمنوه شعرهم . وقد ذكر العلماء أمثلة على ذلك[5] . « ويروى أن لزهير سبع قصائد نظم كلاً منها في عام كامل ، ومن ثمّ سميت : الحوليات »[6] .

ومن أولاد زهير بن أبي سلمى ، كعب وبجير . وكان (بجير) قد أسلم قبل (كعب) . فبلغ ذلك كعباً ، فقال شعراً تعرض فيه بالرسول فهدر الرسول دمه ، فكتب (بجير) اليه شعراً يخوّفه فيه ويدعوه الى الاسلام ، فجاء وأسلم[7].

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١٣٣/١) .
٢ المصدر نفسه (١٣٢/١) .
٣ الشعر والشعراء (٧٧/١) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢٨٢/١ وما بعدها) ، ديوان زهير (٢٨٣ وما بعدها) ، الخزانة (٥٨٨/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .
٥ الشعر والشعراء (٨٣/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٦ الخصائص ، لابن جني (٣٣٠/١) ، بروكلمن (٩٥/١) .
٧ السيوطي ، شرح شواهد (٥٢٤/٢) ، العمدة (١٦٥/١) ، ابن هشام ، سيرة (٢٦/٣) ، الروض الانف (٣٠٥/٢) .

و (لكعب) ولد يقال له (المضرب بن كعب) . كان شاعراً[1] ، واسمه : (عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى) ، لقّب بالمضرب ، لأنه شبب بامرأة من بني أسد ، فضرب ، فسمي المضرب . روى له الشريف (المرتضى) شعراً[2] .

وكانت لزهير بنت كانت شاعرة كذلك . ذكر ان بنت زهير دخلت على (عائشة) ، وعندها بنت (هرم بن سنان) ، فسألت بنت هرم : بنت زهير من أنت ؟ قالت : أنا بنت زهير . قالت : أوَما أعطى أبي أباك ما أغناكم ؟ قالت : إن أباك أعطى أبي ما فني ، وإن أبي أعطى أباكِ ما بقي ، وأنشدت بنت زهير :

وإنك إن أعطيتني فن الغنى حمدت الذي أعطيت من ثمن الشكر
وإن يفنَ ما تعطيه في اليوم أوغدٍ فإن الذي أعطيك يبقى على الدهر[3]

والشاعر (لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب) العامري ، ويكنى (أبا عقيل) ، هو من أشراف قومه في الجاهلية والإسلام ، وكان سخياً من أسرة معروفة . وكان في شبابه من فرسان زمانه ، وقد شارك قبيلته في غاراتها على أعدائها ، وذب عنها بسيفه وبقلمه . وهو من الشعراء المترفعين الذين ترفعوا عن مدح الناس لنيل جوائزهم وصلاتهم كما كان من الشعراء المتقدمين في الشعر[4].

وقد عرف والده بـ (ربيعة المقترين) ، أو (ربيع المقترين) ، لسخائه ، وقد ذكره (لبيد) ابنه في شعره بقوله :

ولا من ربيع المقترين رزئته بذي علق فاقني حياءك واصبري

وتحدث عن كرمه ، فقال :

وأبي الذي كان الأرا مل في الشتاء له قطينا[5]

---

١ الخزانة (٢/٣٣٣) ، المؤتلف (٢٨١) .
٢ أمالي المرتضى (١/٤٥٨) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧٥٤ وما بعدها) .
٤ الخزانة (٢/٢٤٦) ، (هارون) ، (١/٣٣٧) ، (بولاق) .
٥ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري (١٧) ، (شرح الدكتور احسان عباس) ، (الكويت ١٩٦٢) .

وقد قتل والده وهو صغير السن ، فتكفل أعمامه بتربيته . ويرى (بروكلمن) احتمال مجيء (لبيد) الى هذه الدنيا في حوالى سنة (٥٦٠ م) . أما وفاته،فكانت سنة أربعين ، وقيل احدى وأربعين ، لما دخل معاوية الكوفة إذْ صالح (الحسن ابن علي) ونزل (النخيلة) ، وقيل إنه مات بالكوفة أيام (الوليد بن عقبة) في خلافة عثمان ، وقد رجح (ابن عبد البر) هـذه الرواية ، وورد أنه توفي سنة نيف وستين[1] .

وقد عُرِفت أم (ربيعة بن مالك) ، أي والد (لبيد) بـ (أم البنين) ، وهي بنت (عمرو بن عامر بن صعصعة) ، وكانت تحت (مالك بن جعفر بن كلاب) ، فولدت له منه (عامر بن مالك) مُلاعب الأسنة ، و (طفيل بن مالك) فارس قُرزل ، وهو أبو (عامر بن الطفيل) ، و (ربيعة بن مالك) أبا لبيد ، وهو ربيع المقترين ، و (معاوية بن مالك) معوّد الحكّام (معوّد الحكماء) ، وإنما سمي (معوّد الحكّام) (معوّد الحكماء) بقوله :

أعوّد مثلهـا الحكّام بعدي   إذا ما ألحق في الأشياعِ نابا[2]

وقيل انه لما مات دفن في صحراء (بني جعفر بن كلاب) رهطه ، وانه لما قدم الكوفة وأقام بها ، رجع بنوه الى البادية أعراباً[3] . وروي في خبر انـه مات بالكوفة أيام (الوليد بن عقبة) في خلافة (عثمان) ، فبعث (الوليد) الى منزله عشرين جزوراً فنحرت عنه . وقد رجح (ابن عبد البر) ، هـذه الرواية . وورد في رواية أخرى انه توفي في عهد (زياد) وفي خلافة معاوية[4] .

وقد ذكر من ترجم حياته انه كان فارساً شجاعاً سخياً،وقد جعله (ابن قتيبة)

---

١ الاستيعاب (٣/٣٠٧) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣/٣٠٧) ، (رقم ٧٥٤٣) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/١٥٢ وما بعدها) .

٢ أمالي المرتضي (١/١٩٣) ،
أعود مثلها الحكماء بعدي   اذا ما الحق في الحـدثان نابا
اللسان (١٤/٣٩٩) ، (سما) ، وورد « معوذ الحكماء » ، بالذال المعجمة ، تاج العروس (٢/٤٤٠) ، (عود) .

٣ المعارف (٣٣٢) .

٤ الاستيعاب (٣/٣٠٩) ، (هامش على الاصابة) ، الاصابة (٣/٣٠٨) ، (رقم ٧٥٤٣) .

في جملة المائة فارس الذين وجههـم (الحارث بن أبي شمر) الغساني ، وهو (الأعرج) الى (المنذر بن ماء السماء) لقتله ، فلما صاروا الى معسكر (المنذر) ، أظهروا انهم أتوه داخلين في طاعته ، فلما تمكنوا منـه قتلوه ، فقتل أكثرهم ، ونجا لبيد ، حتى أتى ملك غسان فأخبره الخبر . فحمل الغسانيون عـلى عسكر (المنذر) فهزموهم ، وهو يوم (حليمة) . وقد ذكر (ابن قتيبة) في كتابه (الشعر والشعراء) ان (الحارث) كان قد أمـّر (الوليد) على المائة فارس[1]، وذكر في كتابه (المعارف) ، انه كان غلاماً إذ ذاك[2] . وقد وقعت معركة (يوم حليمة) سنة (٥٥٤ م) ، فيجب أن يكون مولد (لبيد) قبل هذا العهد . ولو أخذنا برأي أهل الأخبار القائل انه عاش فوق المائة ، وانـه كان يوم توفي ابن مائة وثلاثـين سنـة ، أو مائة وأربعين ، أو مائة وسبـع وخمسين أو مائـة وستين[3] ، جاز لنا تصور اشتراك (لبيد) في ذلك اليوم ، غلاماً أو شاباً . ولم يذكر (ابن قتيبة) كيف جاء (لبيد) الى (الحارث) ، وهو في هذا العمر ، ولمَ اشترك مع من اشترك في اغتيال المنـذر . ولكننا نجد (الميداني) ، يسمي لبيداً الذي اشترك في اغتيال (المنذر) (لبيد بن عمرو)[4] ، أي شخصاً آخر، وهي رواية أدعى الى القبول من رواية (ابن قتيبة) .

وتقول قصة يرويها أهل الأخبار عن سبب نظم لبيد لأرجوزته الشهيرة ، التي أولها :

يا رب هيجا هيَ خير من دعه   إذْ لا تزال هـامتي مقزعـة

أن (لبيداً) كان غلاماً آنذاك ، وكان قد ذهب مع وفد (بني عامر) أبناء (أم البنين) ، وعليه (أبو البراء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب) ، وقد وضعوه على رحالهم يحفظ أمتعتهم ، ويغدو بإبلهم فيرعاها . وكان (النعمان) قد ضرب قبّة على (أبي براء) وأجرى عليه وعلى من كان معه النُزل ، وكان

---

١ الشعر والشعراء (١/١٩٤) ، (الثقافة) ، الخزانة (١/٣٣٧) ، (بولاق) .
٢ « فوجه اليهم مائة رجل ، فيهم « لبيد » الشاعر ، وهو غلام » ، المعارف (٦٤٢) .
٣ الاصابة (٣/٣٠٧) ، (رقم ٧٥٤٣) ، الاستيعاب (٣/٣٠٦ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ الميداني ، مجمع الامثال (٢/٢٩٥ وما بعدها) .

(الربيع بن زياد) العبسي ينادم النعمان ويتقدم على من سواه ، وكان يدعى (الكامل) ، وكان يعادي (بني جعفر) ، فأوغر صدر (النعمان) عليهم ، حتى صد عنهم ونزع القبة عن (أبي براء) . فلما وقف (لبيد) على خبرهم ، قال لهم : هل تقدرون أن تجمعوا بيني وبينه غداً حين يقعد الملك فأرجز به رجزاً ممضاً مؤلماً ، لا يلتفت اليه النعمان بعده أبداً ؟ قالوا وهل عندك ذلك ؟ قال : نعم ، قالوا : فإنا نبلوك بشتم هذه البقلة ، فقال فيها قولاً أعجبهم . فلما أصبحوا قالوا : أنت والله صاحبه ، فحلقوا له رأسه ، وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حلة ، وغدوا به معهم ، فدخلوا على النعمان فوجدوه يتغدّى ومعه (الربيع) ليس معه غيره ، والدار والمجالس مملوءة بالوفد . فلما فرغ من الغداء أذن للجعفريين فدخلوا عليه ، والربيع الى جانبه ، فذكروا للنعمان حاجتهم ، فاعترض الربيع في كلامهم ، فقام لبيد : وقد دهن أحد شقي رأسه ، وأرخى ازاره ، وانتعل نعلاً واحدة ، على عادة الشعراء في الجاهلية إذا أرادت الهجاء ، ثم قال رجزه حتى إذا بلغ قوله :

مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه　　إن استه من برص ملمعه
وإنه يدخل فيها اصبعه　　يدخلها حتى يواري أشجعه
كأنه يطلب شيئاً ضيعه

نفر (النعمان) من (الربيع) ورمقه شزراً ، وكره مجالسته لتأثير هذه الأبيات فيه ، وأعاد القبة على (أبي براء)[1] .

وقد أيد (ابن رشيق) رواية من ذكر ان (لبيداً) كان غلاماً يوم قال قصيدته المذكورة بقوله : « والربيع بن زياد ، كان من ندماء النعمان بن المنذر ، وكان فحاشاً عياباً بذياً سباباً لا يسلم منه أحد ممن يفد على النعمان ، فرمي بلبيد وهو غلام مراهق فنافسه »[2] . فجعل (لبيداً) غلاماً مراهقاً .

ويروي أهل الأخبار خبراً يؤيد الخبر المتقدم . يقول خبرهم : « نظر النابغة

---

١ الفاخر (ص ١٤١ وما بعدها) ، الاغاني (١٦/ ٢٢) ، نزهة الجليس (٢/ ٥٠٧ وما بعدها) ، امالي المرتضى (١/ ١٨٩ وما بعدها) ، العمدة (١/ ٢٧) ، الخزانة (٤/ ١١٧) ، مجالس ثعلب (٤٤٩ وما بعدها) .
٢ العمدة (١/ ٥١) .

الى لبيد بن ربيعة وهو صبي مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر ، فسأل عنه فنُسب له . فقال له : يا غلام ، إن عينيك لعينا شاعر ، أفتقرض من الشعر شيئاً ؟ قال : نعم يا عم ، قال : فأنشدني شيئاً مما قلته ، فأنشده قوله : « ألم تربع على الدمن الخوالي » فقال له : يا غلام أنت أشعر بني عامر . زدني يا بنيّ ، فأنشده : طلل لخولة بالرسيس قديم . فضرب بيديه الى جبينه وقال : اذهب فأنت أشعر من قيس كلها : أو قال : هوازن كلها » . ويقال : انه أنشده : عفت الديار محلها فمقامها ، فقال له : اذهب فأنت أشعر العرب[1] .

واذا أخذنا بالروايتين المذكورتين القائلتين ان (لبيداً) كان صبياً أو غلاماً في أيام حكم الملك النعمان ، وجب علينا افتراض ان ميلاده لم يكن بعيداً عن سنة (٥٨٠) أو (٥٨١) أو (٥٨٢ م) ، السنة التي تولى فيها (النعمان) الملك ، ومعنى هذا انه لم يعمر طويلاً ، وهو خلاف مايذكره أهل الأخبار ، وان كل ما يمكن أن نتصوره عن عمره ، انه كان في حوالى الثمانين حين داهمته منيته . وقد جعل (بروكلمن) مولده حوالى السنة (٥٦٠ م) ، وجعل وفاته سنة (٤٠هـ) أي حوالى السنة (٦٦٠ م) ، ومعنى هذا انه كان من أبناء المائة حين جاء أجله[2] .

وللبيد شعر في (النعمان بن المنذر) ، وصف فيه مجلسه . فذكر انه كان قاعداً كعتيق الطير يُغضي ويُجل ، والهبانيق قيام ، بأيديهم الأباريق ، تحسر الديباج عن أذرعهم ، ينتظرون أمراً يصدره اليهم . وهو شعر مدون في ديوانه يعدّ من جيد شعره[3] .

وله قصيدة في رثاء (النعمان) ، تعرض فيها للموت ولزوال النعيم ، ولعدم دوام الدنيا لأحد ، ثم تحدث عن النعمان وعن أعماله وتجارته ختمها بقوله :

وأمسى كأحلام النيام نعيمهم وأي نعيم خلته لا يزايل
ترد عليهم ليلة أهلكتهم وعام وعام يتبع العام قابل[4]

---

١ الاغاني (١٤/٩٧) ، شرح ديوان لبيد (٢١) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٤٥) .
٣ ديوان لبيد (١٩٥) ، الشعر والشعراء (١/٢٠٣) ، (الثقافة) .
٤ القصيدة رقم (٣٦) من الديوان ، شرح ديوان لبيد (ص ٢٦٦) ، الخزانة (١/٣٣٩ وما بعدها) ، (بولاق) .

وقد ذكر فيها (الله) بقوله :

أرى الناس لا يدرون ما قدرُ أمرهم بلى : كل ذي لب الى الله واسلُ
ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكلّ أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفرّ منها الأنامل
وكلّ امرىء يوماً سيعلم سعيه إذا كُشّفت عند الإله المحاصل[1]

وهي قصيدة أزيد من خمسين بيتاً . وأولها :

ألا تسألان المرءَ ماذا يحاول أنحبٌ فيقضى أم ضلال وباطل[2]

وروي أن لبيدا أنشد النبي قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال له صدقت ، فقال : وكل نعيم لا محالة زائل

فقال له: كذبتَ ،نعيم الآخرة لا يزول . وروي أن ذلك كان مع (أبي بكر)، وروي في خبر آخر أنه كان مع (عثمان بن مظعون)[3] .

وللبيد شعر يرثي به أخاه لأمه (أربد) ، وكان قد أصابته صاعقة فقتل . وكان (أربد) أكبر منه سناً . وأبوه (قيس بن جزء بن خالد بن جعفر) (أربد بن قيس بن مالك بن جعفر)[4] ، وكان يعطف على (لبيد) كثيراً وعلى ذوي رحمه ، فارساً كريماً ، فلما أصابته الصاعقة تألم (لبيد) مما ألم بأخيه كثيراً ، فرثاه برجز وبقصيد.وقد وجدت في النسخة العربية لتأريخ الأدب العربي لبروكلمن هذا النص : « ولما استقام السلطان للنبي بالمدينة ، سار لبيد يحمل رسالة اليه من عمه : أربد ، فأعجبه دينه »[5] . وهو وهم ، فأربد هو أخوه لا عمه . قال

---

١ القصيدة رقم (٣٦) ، البيت (٨) وما بعده .
٢ الخزانة (٢/٢٥٢) ، (هارون) .
٣ الخزانة (٢/٢٥٥ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/١٤٤) ، (وفد بني عامر بن صعصعة) ، الخزانة (٢/٢٥٠ وما بعدها) .
٥ بروكلمن (١/١٤٥) .

الطبري : « وكان أربد بن قيس أخا لبيد بن ربيعة لأمه »[1] . وكان من خبره انه قدم مع وفد (بني عامر بن صعصعة) على الرسول ، وفيه (عامر بن الطفيل) وثلاثون من رؤوس القوم وشياطينهم ، وفي رأس (عامر) الغدر بالرسول ، بأن يشاغله في الحديث ، فيعلو (أربد) النبي بالسيف ، فلم يتجاسر (أربد) على ضربه ، ورجع الوفد الى بلاده . فلما كان (عامر) ببعض الطريق أصيب بالطاعون فمات ، ومات (أربد) بعد ذلك بقليل بالصاعقة[2] .

وذكر أن (عامر) لما مات نصبت (بنو عامر) نصاباً ميلاً في ميل حِمىً على قبره ، لا تنشر فيه راعية ولا يُرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش ، وكان (جبار بن سلمى بن عامر بن مالك) غائباً ، فلما قدم قال : ما هذه الأنصاب؟ قالوا نصبناها حمى على قبر (عامر) ، فقال ضيقتم على أبي عليّ . إن أبا علي بان من الناس بثلاث . كان لا يعطش حتى يعطش الجمل ، وكان لا يضل حتى يضل النجم ، وكان لا يجبن حتى يجبن السيل[3] .

وفي اصابة (اربد) بالصاعقة يقول (لبيد) يبكيه :

ما ان تعرى المنون من أحد لا والد مشفق ولا ولد
أخشى على أربدَ الحتوف ولا ارهبُ نوء السِّماك والأسد
فجعني الرعد والصواعق بالفارس يوم الكريهة النجد[4]

وهي قصيدة دوّن أبياتها (ابن هشام)[5] .

وله قصيدة أخرى في رثاء (اربد) مطلعها :

ألا ذهب المحافظ والمحامي ومانع ضيمها يوم الخصام

---

١ الطبري (٣/١٤٥) ، ابن هشام ، سيرة (٢/٣٧٢) .
٢ الطبري (٣/١٤٤ وما بعدها) ، وروى « ابن سعد » خبر وفد « عامر بن صعصعة » بشكل اخر ، ذكر أنه طلب من الرسول أن يجعل له ميزة على غيره ان أسلم ، أو ان يجعل الامر اليه من بعده ، فلما رفض الرسول ذلك ، قال : لأملأنها عليك خيلا ورجالا ، ابن سعد ، الطبقات (١/٣١٠) ، (وفد عامر بن صعصعة) ، سيرة ابن هشام (٢/٣٣٧) ، (حاشية على الروض الانف) ، (الروض الانف (٢/٣٣٧) .
٣ الخزانة (١/٤٧٤) ، (بولاق) .
٤ الشعر والشعراء (١٩٨) ، ابن هشام (٢/٣٣٨) ، (حاشية على الروض الانف)، تفسير الطبري (١٣/٨٤ وما بعدها) .
٥ سيرة (٢/٣٣٨) .

وقد رواها (ابن هشام)[1] . وقصائد أخرى عديدة[2] ، تدل على شدة تأثره بوفاة (اربد) .

وقد اختلفت الروايات في زمن إسلام (لبيد) . قيل إنه أسلم سنة وفد قومه (بنو جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) فأسلم[3] . وقيل إن (لبيد بن ربيعة) و (علقمة بن علاثة) كانا من المؤلفة قلوبهم[4] . وقيل إنه وفد على الرسول بعد وفاة أخيه (أربد) فأسلم[5] .

وتجمع روايات أهل الأخبار وعلماء الشعر على إقبال (لبيد) على الاسلام من كل قلبه ، وعلى تمسكه بدينه تمسكاً شديداً ، ولا سيما حينما بدأ يشعر بتأثير وطأة الشيخوخة عليه وبقرب دنو أجله ، ويظهر ان شيخوخته قد أبعدته عن المساهمة في الأحداث السياسية التي وقعت في أيامه ، فابتعد عن السياسة وانزوى في بيته ، وابتعد عن الخوض في الأحداث ، ولهذا لا نجد في شعره شيئاً ، ولا فيما روي عنه من أخبار ، انه تحزب لأحد أو خاصم أحداً .

وروي ان (لبيداً) ترك الشعر في الاسلام وانصرف عنه . فلما كتب (عمر) الى عامله (المغيرة بن شعبة) على الكوفة يقول له : « استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الاسلام » ، أرسل الى (الأغلب) الراجز العجلي ، فقال له : انشدني ؟ فقال :

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد طلبت هيناً موجودا

ثم أرسل الى لبيد ، فقال : « انشدني ما قلته في الاسلام » ، فكتب سورة البقرة في صحيفة ، ثم أتى بها وقال : « أبدلني الله هذا في الاسلام مكان الشعر» فكتب المغيرة بذلك الى عمر ، فنقص من عطاء (الأغلب) خمسمائة وجعلها في عطاء لبيد[6] . وروي ان (عمر) كتب الى عامله بالكوفة : سل لبيداً والأغلب

---

١ سيرة (٢/٣٣٨) .
٢ ابن هشام ، سيرة (٢/٣٣٨ وما بعدها) .
٣ الاستيعاب (٣/٣٠٦) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ الاستيعاب (٣/٣٠٨) ، الخزانة (٢/٢٤٦) ، (هارون) .
٥ الاغاني (١٤/٩٠) .
٦ الاغاني (١٤/٩٧) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٢٠ وما بعدها) .

العجلي ما أحدثا من الشعر في الاسلام ؟ فقال لبيد : أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران . فزاد عمر في عطائه[1] .

وروي الخبر المتقدم بشكل آخر . روي أن (عمر بن الخطاب) قال للبيد : أنشدني ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد اذ علمني الله سورتي البقرة وآل عمران . فزاد عمر في عطائه خمس مائة ، وكان ألفين . فلما كان في زمن (معاوية) قال له (معاوية) : هذان الفودان فما بال العلاوة ؟ وأراد أن يحطه إياها ، فقال أموت الآن وتبقى لك العلاوة والفودان ! فرق له، وترك عطاءه على حاله ، ومات بعد يسير[2] . وورد في رواية أخرى أن (معاوية) كتب الى (زياد) أن اجعل أعطيات الناس في ألفين ، وكان عطاء (لبيد) ألفين وخمسمائة . فقال له (زياد) : « أبا عقيل هذان الخراجان ، فما بال هذه العلاوة ؟ قال : ألحق الخراجين بالعلاوة ، فإنك لا تلبث إلا قليلاً حتى يصير لك الخراجان والعلاوة ! فأكملها (زياد) » ولم يكملها لغيره . فما أخذ لبيد عطاء آخر حتى مات[3] .

وقيل إن لبيداً لم يقل في الاسلام إلا بيتاً واحداً ، هو :

ما عاتب الحرَّ الكريم كنفسه   والمرءُ ينفعه القرين الصالح[4]

في رواية . وورد على هذه الصورة :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه   والمرءُ يصلحه الجليس الصالح[5]

في رواية أخرى .

وقيل هو هذا البيت :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي   حتى كساني من الاسلام سربالا[6]

---

١ الاصابة (٣/٣٠٧) ، (رقم ٧٥٤٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٩٥ وما بعدها) ، الاستيعاب (٣/٣٠٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ الاصابة (٣/٣٠٨) ، (رقم ٧٥٤٣) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٥٥) ، الاصابة (٣/٣٠٧) ، (رقم ٧٥٤٣) .
٥ الشعر والشعراء (١/١٩٥) ، (الثقافة) .
٦ الشعر والشعراء (١/١٩٥) ، (الثقافة) .

وذكر بعض العلماء أن البيت :

الحمد لله إذْ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ليس للبيد ، بل هو لـ (قردة بن نفاثة)[1] .

ومن الشعر المستجاد المنسوب الى لبيد ، قصيدته :

إن تقوى ربّنا خير نفل وبإذن الله ريثي وعجل
أحمد الله فلا ندّ له بيديه الخير من شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البالِ ومن شاء أضل

وقد زعم بعض العلماء أنها قيلت في الجاهلية ، ولكنها لا يمكن أن تكون من شعر الجاهلية ، لما فيها من آراء اسلامية ، ثم انها قيلت بعد موت (اربد) ، وكان لبيد مسلماً آنذاك على ما جاء في بعض الأخبار[2] .

ومما جاء فيها :

اعقلي إن كنتِ لمّا تعقلي ولقد أفلح من كان عقل
إن ترى رأسي أمسى واضحاً سُلّط الشيب عليه فاشتعل

وقوله :

غير أن لا تكذبنها في التقى واخزُها بالبر لله الأجل

وهي قصيدة تبلغ عدتها (٨٥) بيتاً[3] ، بعض أبياتها لشعراء آخرين، وقد نسبها بعض العلماء اليه ، فأدخلت في القصيدة[4] .

---

١ الاصابة (٣/٣٠٧) ، (رقم ٧٥٤٣) ، الاستيعاب (٣/٣٠٧) ، (حاشية على الاصابة) .

٢ ديوان لبيد (١٧٤ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (١/٢١) .

٣ الخزانة (٢/٢٨) ، (بولاق) .

٤ ديوان لبيد (١٩٩ وما بعدها) .

ومما جاء فيها في حق (أربد) قوله :

من حياة قد مللنا طولها وجديرٌ طول عيش أن يمل
وأرى اربد قد فارقني ومن الأرزاء رزءٌ ذو جلل[1]

وقد عاب بعض العلماء عليه قوله :

ومقامٍ ضيق فرجته بمقامي ولساني وجدل
لو يقوم الفيل أو فيّاله زال عن مثل مقامي وزحل

« وقالوا : ليس للفيال من الخطابة والبيان ، ولا من القوة ، ما يجعله مثلاً لنفسه ، وانما ذهب الى ان الفيل أقوى البهائم ، فظن ان فيّاله أقوى الناس ! قال أبو محمد ، وأنا أراه أراد بقوله : لو يقوم الفيل أو فيّاله مع فيّاله ، فأقام (أو) مقام الواو »[2] .

وفي هذه القصيدة إشارة الى صلاة اليهود ، حيث يقول :

يلمس الأحلاس في منزله بيديه كاليهودي المُصل[3]

« قال أبو الحسن الطوسي : كأنه يهودي يصلي في جانب يسجد على جبينه . قال البغدادي : واليهودي يسجد على شق وجهه »[4] .

وقد تعرض (كارلو نالينو) لهذه القصيدة ، فقال : « ومن المشهور ما في ديوانه من العبارات الدينية ، بل الشبيهة بالعقائد الاسلامية » ، ثم ذكر أبياتاً منها ، ثم قال : « ولكن ليس كل ما ينسب اليه في ديوانه من هذا الباب صحيحاً ، بل لا اختلاف في بعض الأشعار انها مصنوعة »[5] .

---

١ البيتان (٧٩ ــ ٨٠) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٠٠ وما بعدها) .
٣ البيت رقم (٣٢) من القصيدة (٢٦) في ديوانه (ص ١٨٣) .
٤ ديوان لبيد (١٨٣) .
٥ كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧٨) .

ونسب له قوله :

من يبسط الله عليه اصبعا بالخير والشر بأيّ أولعا
يملأ له منه ذنوباً مُترعا [1]

وقوله :

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلّوها ، وغدواً بلاقع

وقوله :

تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر [3]

وفي هذه الأبيات إشارات الى رأي لبيد في الدنيا وفي الموت،وهي آراء يقولها في العادة المعمرون ، فإذا صح انها له ، فلا بد وأن تكون من شعره الذي قاله بعد تقدمه في السن .

ويظهر أن الكبر هـو الذي حمل (لبيداً) على ترك الشعر أو الاقلال منه ، فالتقدم في السن يوقف القريحة ويجمد الذهن . فلـما أرسل (الوليد بن عقبة) اليه شعراً ، ومعه مائة بكرة ، قال لبيد لابنته : اجيبيه فقد رأيتني وما أعيـا بجواب شاعر [4] . وفي هذا الجواب دلالة على توقف قريحته عن قول الشعر ، وأنه لم يعد باستطاعته نظمه ، وليس السبب هو الإسلام .

وكانت مناسبة إرسال (الوليد بن عقبة) الشعر والهدية اليه ، أنه (لبيد) كان آلى في الجاهلية ألا تهب الصبا إلا أطعم الناس حتّى تسكن ، وألزمـه نفسه في إسلامه . فهبت الصبا ، ولم يكن عند (لبيد) ما يعينه على الإطعـام ، فخطب (الوليد) الناس بالكوفة ، وقال : إنّ أخاكم لبيداً آلى ألا تهب لـه الصبا إلا أطعم الناس حتّى تسكن ، وهذا اليوم من أيامه ، فأعينوه ، وأنا أول من أعانه.

---

١ أمالي المرتضي (٣١٩/١) .
٢ أمالي المرتضي (٤٥٣/١) .
٣ أمالي المرتضي (٥٥/٢) .
٤ الشعر والشعراء (١٩٦/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

ونزل فبعث اليه بمائة بكرة وكتب اليه شعراً يمدحه فيه ويذكر له كرمه ونذره[1]

ويشك (بروكلمن) في صحة ما ورد من ترك (لبيد) الشعر بعد دخو في الإسلام . ويرى أن كثيراً من شعره مطبوع بطابع إسلامي ، ويبعد أن يكو مما صنع عليه ، وإن زيد عليه بعض الزيادات[2] .

ونجد في قصيدة (لبيد) الكبرى التي مطلعها :

عفت الديار محلّها فمقامها   بمنى تأبدَ غولها فرجامها[3]

أسماء مواضع كثيرة من نجد والحجاز[4] .

ولعلماء الشعر آراء في شعر لبيد ، من ذلك ما قالوه في قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه   والمرءُ يصلحه الجليسُ الصالح

فقالوا : إنه شعر جيد المعنى والسبك ، لكن ألفاظه قصرت عن معناه . فإ قليلُ الماء والرونق[5] .

وقد ذكروا له أشعاراً سبق بها غيره من الشعراء ، أخذها غيره عنه، فأعاده علماء الشعر الى أصلها . كما عابوا عليه بعض الأمور الصغيرة التي لا يمكن أ يفلت منها شاعر[6] .

و (عنترة بن شداد العبسي) ، هو (عنترة بن عمرو بن شداد بن قراد العبسي . وشداد جدّه أبو أبيه في رواية لابن الكلبي ، غلب على اسم أبيه فنسب اليه . وقال غيره : شداد عمه ، وكان عنترة نشأ في حجره فنسب اليه دون أبيه وكان يلقب بـ (عنترة الفلحاء) لتشقق شفتيه .

وانما ادعاه أبوه بعدَ الكبر ، وذلك انه كان لأمة سوداء يقال لها (زبيبة) .

---

١ الشعر والشعراء (١٩٦/١ وما بعدها) ، (الثقافة) ، الاغاني (١٥/ ٢٩٨) السيوطي ، شرح شواهد (١٥٥/١) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٥/١) .
٣ القصيدة رقم (٤٨) في الديوان ، شرح ديوان لبيد (ص ٢٩٧) .
٤ الاكليل (٢٢٣) .
٥ الشعر والشعراء (١٤/١) ، (الثقافة) .
٦ الشعر والشعراء (١٩٩/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

وكانت العرب في الجاهلية اذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبده ، وكان لعنترة اخوة من أمه عبيد . وكان سبب ادعاء أبي عنترة إياه ان بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من (بني عبس) ، فأصابوا منهم ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم عمّا معهم ، وعنترة فيهم ، فقال له أبوه : أو عمه في رواية أخرى : كرّ يا عنترة ! فقال عنترة : العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلابَ والصرّ . فقال : كر وأنت حر ، فكرّ وقاتل يومئذ حتى استنقذ ما بأيدي عدوّهم من الغنيمة ، فادعاه أبوه بعد ذلك ، وألحق به نسبه[1] .

وورد في رواية أن اخوته قالوا له : اذهب فارعَ الإبل والغنم واحلب وصر : فانطلق يرعى وباع منها ذوداً ، واشترى بثمنه سيفاً ورمحاً وترساً ودرعاً ومغفراً، ودفنها في الرمل . وكان له مهر يسقيه ألبان الإبل . وان في الجاهلية من غلب سبا . وأنه جاء ذات يوم الى الماء فلم يجد أحداً من الحي ، فبهت وتحير حتى هتف به هاتف : أدرك الحي في موضع كذا ، فعمد الى سلاحه فأخرجه والى مهره فأسرجه واتبع القوم الذين سبوا أهله فكرّ عليهم ففرق جمعهم وقتل منهم ثمانية نفر ، فقالوا : ما تريد ؟ فقال : أريد العجوز السوداء والشيخ الذي معها، يعني أمه وأباه ، فردّوهما عليه . فقال له عمه : يا بنيّ كرّ ، فقال : العبد لا يكر ، ولكن يحلب ويصر . فأعاد عليه القول ثلاثاً وهو يجيبه كذلك . قال له : إنك ابن أخي وقد زوّجتك ابنتي عبلة . فكرّ عليهم فأنقذه وابنته منهم . ثم قال : إنه لقبيح أن أرجع عنكم وجيراني في أيديكم : فأبوا،فكرّ عليهم حتى صرع منهم أربعين رجلاً قتلى وجرحى فردّوا عليه جيرانه . فأنشد :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفتَ الدار بعد توهم[2]

وروي انه كان من معاصري (امرىء القيس) ، وانه اجتمع به[3] ، وان امرأة (شداد) أبي (عنترة) ذكرت لشداد ان عنترة أرادها عن نفسها ، فأخذه أبوه فضربه ضرب التلف ، فقامت المرأة فألقت نفسها عليه لما رأت ما به

---

١ الشعر والشعراء (١/١٧١ وما بعدها) ، (الثقافة) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٨١ وما بعدها) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٧٩ وما بعدها) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٨٢) .

من الجراحات ، وبكته . وكان اسمها : (سميّة) ، فقال عنترة :

أمن سميّة دمع العين مذروف ... لو كان منك قبلَ اليوم معروف[1]

وذكر انه كان من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سابّه رجل من عبس ، فذكر سواد أمه واخوته ، وعيّره بذلك ، وبأنه لا يقول الشعر ، فاغتاظ منه وردّ عليه ، وهاجت قريحته فنظمت له قصيدة :

هل غادر الشعراء من متردم

وهي أجود شعره ، وكانوا يسمونها (المذهبة)[2] .

وله كأكثر الشعراء أبيات شعر ، استحسنها علماء الشعر ، وقالوا انه أجاد فيها وأحسن ، وما سبق اليه ولم ينازع فيه في بعض ذلك الشعر[3] .

وهو أحد أغربة العرب ، وهم ثلاثة : عنترة ، وأمه زبيبة ، سوداء ، وخفاف بن عمير الشريديّ ، من بني سُلَيم ، وأمه نَدْبة ، واليها ينسب ، وكانت سوداء ، والسليك بن عمير السعدي، (السليك بن سلكة) ، وأمه سلكة، واليها ينسب ، وكانت سوداء[4] . وذكر أنه كان يفخر بأخواله السود ، رهط أمه ، فدعاهم بـ (حام) حيث يقول :

إنّي لتعرف في الحروب مواطني ... في آل عبسٍ مشهدي وفعالي
منهم أبي حقاً فهم لي والدٌ ... والأم من حامٍ ، فهم أخوالي[5]

وإذا صح ان هذا الشعر هو لعنترة ، دلّ على وقوف الجاهليين على اسم (حام) ، الوارد في التوراة ، على أنه جدّ السودان . ولا بد أن تكون التسمية قد وردت الى الجاهليين عن طريق أهل الكتاب .

---

١ المحاسن والاضداد (١٤٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٧٢ وما بعدها) ، الزوزني (١٣٦) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٨١) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٧٤) ، (الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٧٢) ، (الثقافة) .
٥ الشعر والشعراء (١/١٧٥) .

وذكر أنه كان قد أغار على (بني نبهان) فرماه (وزر بن جابر بن سدوس ابن أصمع) النبهاني ، فقطع مطاه ، فتحامل بالرمية حتى أتى أهله فمات[1] .

ويعد (عمرو بن كلثوم) التغلبي من كبار شعراء الجاهلية ، وكان معاصراً للملك (عمرو بن هند) (٥٥٤ – ٥٦٨ م) ، وهو قاتله في خبر سبق أن تحدثت عنه . وهو من الشعراء الذين مالوا الى الحِكَم في نظم الشعر[2] . وقد عرف بـ (أبي الأسود)[3] . ويقال إن أخاه (مرة بن كلثوم) التغلبي ، هو قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر . وكان (عمرو بن كلثوم) سيد قومه، سادهم وهو ابن خمس عشرة ، ومات وله مائة وخمسون سنة[4] . وكان خطيباً حكيماً وشاعراً ، أوصى بنيه عند موته بوصية بليغة حسنة[5] ، ضبط نصها الرواة فيما بعد، وكأنهم كتبوها بخط يدهم .

وقصيدته الشهيرة التي هي إحدى السبع ، هي من جيد شعر العرب القديم ، ولشغف تغلب بها وكثرة روايتهم لها قال بعض الشعراء :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم   يا للرجال لفخرٍ غير مسؤوم[6]

وفي قتل (عمرو بن كلثوم) (عمرو بن هند) يقول أحد شعراء تغلب ، وهو (افنون بن صريم) التغلبي :

لعمرك ! ما عمرو بن هند وقد دعا   لتخدم ليلى أمه بموفّق
فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتاً   وأمسك من ندمانه بالمخنّق[7]

ويذكر في سبب نظم (عمرو بن كلثوم) قصيدته الشهيرة ، أن قبيلة (تغلب)

---

١ أسماء المغتالين (المجموعة السادسة من نوادر المخطوطات) ، (ص ٢١٠ وما بعدها) .
٢ بروكلمن (١٠٣/١) ، الاغاني (١٧٥/٩) ، الخزانة (٥٢/١) ، الشعر والشعراء (١٥٧/١ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٦ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١٢١/١) ، الخزانة (٥١٧/١ وما بعدها) .
٤ الاغاني (١٧٥/٩ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٧) .
٥ الاغاني (٥٩/١١) ، (بولاق) ، المرزباني ، معجم (٧) .
٦ الشعر والشعراء (١٥٩/١ وما بعدها) ، (لشعر غير مسؤوم) ، الخزانة (٥١٧/١ وما بعدها) ، الاغاني (٥٤/١١) ، (دار الكتب) ، الخزانة (٥١٩/١) ، (بولاق) .
٧ المحبر (٢٠٤) ، الاغاني (١٧٥/٩ وما بعدها) ، (٥٤/١١) ، (دار الكتب) .

كانت من أشد الناس في الجاهلية ، وكانت بينهم وبين (بكر) حزازات وعداوة، ويقال : جاء ناس من بني تغلب الى بكر بن وائل يستسقونهم فطردتهم بكر للحقد الذي كان بينهم فرجعوا ، فمات سبعون رجلاً عطشاً . فاجتمعت (تغلب) لحرب (بكر) ، واستعدت لهم (بكر) حتى إذا التقوا ، خافوا أن تعود الحرب بينهم كما كانت ، فدعا بعضهم بعضاً الى الصلح ، فتحاكموا في ذلك الى (عمرو ابن هند) . فجاءت تغلب يقودها (عمرو بن كلثوم) وجاءت بكر ، ومعها (الحارث بن حلزة اليشكري)، فألقى قصيدته :

آذنتنا ببينها أسماء   ربّ ثاوٍ يُملّ منه الثواء

وتأثر (عمرو بن هند) بها ، فحكم لبكر ، وأنشد (عمرو) قصيدته :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الأندرينا[1]

وفي جملة أبياتها :

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا[2]

ويذكر بعض الرواة أن (عمرو بن كلثوم) ارتجل قصيدته الشهيرة ارتجالاً، وأنها كانت تبلغ ألف بيت أو تزيد[3] . وان ما وصل الينا منها هو بعضها . وتبلغ (٩٦) بيتاً في كتاب (شرح القصائد العشر) للتبريزي[4] . يظهر من دراستها وامعان النظر فيها أنها لم تنظم دفعة واحدة ، وإنها لم تكن بهذا الطول يوم ألقاها الشاعر ، بل زيدت فيما بعد حسب المناسبات ، لأن فيها أبياتاً تمس أموراً وقعت فيما بعد ، في ظروف متأخرة ..

ويروى ان (عمرو بن كلثوم) ، جاء سوق عكاظ ، فألقى معلقته هناك . وروي ان (معاوية بن أبي سفيان) قال « ان قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلزة ، من مفاخر العرب ، وكانتا معلقتين بالكعبة دهراً »[5] .

---

١ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٣٧٩ وما بعدها) .
٢ أمالي المرتضي (٥٧/١ ، ٣٢٧) ، (١٤٧/٢) .
٣ شعراء النصرانية (١٩٧ وما بعدها) .
٤ (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد ح ، (ص ٣٨٠ – ٣٨٢) .
٥ الخزانة (٥١٧/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

ويلاحظ ان في معلقة (عمرو بن كلثوم) أبياتاً خرجت على رويّ القافية ، مثل قوله :

تركنا الخيل عاكفة عليه   مقلدة أعنتها صفونا [1]

وقوله :

ندافع عنهم الأعداء قدماً   ونحمل عنهم ما حمّلونا [2]

وقوله :

نحُزُّ رؤوسهم في غير برٍّ   فما يدرون ماذا يتقونا [3]

وقوله :

إذا ما عيّ بالإسناف حيٌّ   من الهولِ المشبه أن يكونا [4]

وقوله :

برأسٍ من بني جشم بن بكر   ندق به السهولة والحزونا [5]

وقوله :

إذا عضّ الثقاف بها اشمأزت   وولتهم عَشَوزنةً زبونا [6]

وقوله :

علينـا كلّ سابغـة دلاص   تَرى فوق النجـادِ لها غضونا
إذا وضعت عن الأبطال يومـاً   رأيتَ لها جلود القومِ جُونا [7]

---

١ البيت رقم (٢٤) من المعلقة ٠
٢ البيت رقم (٣١) ٠
٣ البيت رقم (٣٦) ٠
٤ البيت رقم (٣٩) ٠
٥ البيت رقم (٤٥) ٠
٦ البيت رقم (٥٠) ٠
٧ البيتان رقم (٧٠ وما بعده) ٠

وقوله :

وأنـا المانعون لما يلينـا إذا ما البيض زايلت الجفونا[1]

ومواضع أخرى من هذا القبيل[2] . وكان من اللازم مسايرة القافيـة التي هي (الأندرينا) .

ولعمرو أشعار ، فيها هجاء للنعمان بن المنذر . فقد ذكر أن النعمان توعـد (عمرو بن كلثوم) ، فبلغه ذلك ، فدعا كاتباً من العرب ، فكتب اليه :

ألا أبلغ النعمان عنّي رِسالـةً فمدحُكَ حوليٌّ وذمُّك قارحُ
متى تلقني في تَغْلِبَ ابنة وائل وأشياعهـا تَرْقى اليك المسالحُ

وهجاه في شعر آخر ، ذكر فيه أمه ، وعيّره بهـا ، وعيّره في شعر آخر بأن خاله صائغ يصوغ القروط والشنوف بيثرب ، ورماه فيه باللؤم[3] .

وتنسب لعمرو أبيات نظمها في البذل والسخاء وفي اعطاء المال ، أولها :

لا تلومـنّي فإني متلـف كلّ ما تحوي يميني وشمالي
لست إن أطرفت مالاً فرحاً وإذا أتلفتـه لست أبالي[4]

ولعمرو بن كلثوم ديوان صغير ، نشر في مجلة المشرق . وقد ترجمت معلقته الى الألمانية[5] . وفي معلقة (عمرو) أشعار مضطربة وتكرار ، وعدم تجانس في وحدة الموضوع . وقد يكون ذلك بسبب تلاعب الأيدي في القصيدة . واذا عثر على نصها القديم ، الذي زعم انه كان ألف بيت أو يزيد ، فإنها ستكون أطول قصيدة في تأريخ الشعر العربي نسبها علماء الشعر الى أحد من الجاهليين .

وذكر ان (عمرو بن كلثوم) ، أغار على (بني حنيفة) باليمامة ، فأسره

---

١ البيت رقم (٧٧) .
٢ الابيات (٨٠ ــ ٨٣) ، (٨٨) .
٣ الاغاني (٩/١٧٥ وما بعدها) ، (١١/٥٨) ، (دار الكتب) .
٤ المرزباني ، معجم (٧) .
٥ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٥٧ ، ٦٧ وما بعدها ، ١٠٣) ، المشـرق (١٩٢٢ م) ، (ص ٥٩١ وما بعدها) .

(يزيد بن عمرو الحنفي) ، ثم سقاه الخمر في قصر بـ (حجر) اليمامة ، حتى مات . وذكر ان (يزيد) أراد المثلة به ، بربطه بجمل ، ثم ضرب الجمل ، ليركض به ، فصاح : « يا لَ ربيعة ! أمثلة »[1] .

وتذكر رواية ان نهاية (عمرو بن كلثوم) كانت انتحاراً بشرب الخمر : وذلك ان الملوك كانت تبعث اليه بحبائه وهو في منزله من غير أن يفد اليها . فلما ساد ابنه (الأسود بن عمرو) بعث اليه بعض الملوك بحبائه كما بعث الى أبيه . فغضب (عمرو بن كلثوم) وقال : « ساواني بولي » ، فحلف لا يذوق دسماً حتى يموت . وجعل يشرب الخمر صرفاً على غير طعام . فلم يزل يشرب حتى مات[2] .

و (الحارث بن حلزة) اليشكري ، هو من (بني يشكر) ، من بكر بن وائل . وكان أبرص . وقد اشتهر بقصيدته التي هي احدى المعلقات ، كما اشتهر بمثلها (عمرو بن كلثوم) و (طرفة بن العبد) . يذكر أنه ارتجلها بين يدي (عمرو بن هند) ارتجالاً ، في شيء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، وكان ينشده من وراء السجف ، للبرص الذي كان به . وكان من عادة الملك أن يسمع الأبرص من وراء سبعة ستور ، وينضح أثره بالماء إذا انصرف عنه . فلما سمعت أم (عمرو بن هند) قصيدته ، قالت : « تالله ما رأيت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول يكلَّم من وراء سبعة ستور » ، فقال الملك : « ارفعوا ستراً وأدنوا الحارث » ، وكان كلما استحسن شيئاً منها أمر برفع ستر ، حتى رفعت الستور السبعة . واقعده الملك قريباً منه استحساناً لها وتقديراً له . وكان الحارث متوكئاً على عنزة فارتزت — كما يقول أهل الأخبار — في جسده وهو لا يشعر[3] . وقد زعم أنه قال قصيدته المشهورة وهو ابن مائة وخمس وثلاثين[4] .

والقصيدة من قصائد الفخر والتبجح بالمفاخر والمآثر ، وقد عرض فيها بقبيلة (تغلب) ، وعرض بـ (عمرو بن هند) كذلك . وقد ضرب به المثل بالفخر

---

١ الشعر والشعراء (٢٢٤ وما بعدها) .
٢ المحبر (٤٧٠ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١٢٧/١) ، الخزانة (١٥٨/١) ، (بولاق) .
٤ الخزانة (١٥٨/١) ، (بولاق) ، (٥١٩/١) ، (بولاق) .

فقيل : « أفخر من الحارث بن حلزة »[1] . ويرى (تولدكه) ان سبب اختيار (حماد) الراوية لهذه القصيدة وضمها الى القصائد الأخرى المختارة ، هو ان حماداً كان مولى لقبيلة (بكر بن وائل) ، وكانت هذه القبيلة في عداء مع قبيلة (تغلب) ، ولما كان (حماد) قد اختار قصيدة (عمرو بن كلثوم) التغلبي لشهرتها ، لم يسع حماداً أن يعدل عن اختيارها ، ولكنه اضطر على اختيار قصيدة أخرى الى جانبها تشيد بمدح (بكر بن وائل) سادته ، فاختار قصيدة (الحارث ابن حلزة) الذي لم يبلغ في الشهرة شهرة الشعراء الآخرين[2] .

ويزعم أهل الأخبار انه ارتجلها ارتجالاً أمام الملك ، بينما يذكرون انه كان قد قال لقومه قبل ارتجاله لها أمام الملك : « اني قد قلت قصيدة ، فمن قام بها ظفر بحجته وفلج على خصمه فروّاها ناساً منهم . فلما قاموا بين يديه لم يرضهم فحين علم انه لا يقوم بها أحد مقامه » ، احتملها وأنشدها أمام الملك[3] . وقد قالها لتكون حجة لقومه في نزاعهم السياسي مع قبيلة تغلب ، ودفاعاً عنهم أمام الملك[4] .

ويرى (بروكلمن) أن شعر (الحارث) أقل إصالة من شعر (عمرو بن كلثوم) . وهو قريب من شعر (زهير) في ميله الى مذهب التعليم والتهذيب[5] . وقد قدم (أبو عبيدة) شعره وجعله أحد ثلاثة نفر اشتهروا بجودة قصائدهم ، إذ قال: « أجود الشعراء قصيدةً واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر: عمرو بن كلثوم، والحارث ابن حلزة ، وطرفة بن العبد »[6] .

وللحارث بن حلزة شعر يذكر فيه (ابن مارية) ، وهو (أبو حسان) (قيس بن شراحيل بن مرة بن همام) ، وكان ممن سعى في الصلح بين بكر وتغلب . وفي جملة ما قاله فيه :

والى ابن مارية الجواد وهل شروى أبي حسان في الأنس[7]

---

١ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٢٥) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٦٧ وما بعدها) .
٣ الخزانة (١/٥١٩) .
٤ كارلو نالينو (٧٥) .
٥ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٠٣) .
٦ الخزانة (١/١٥٨) ، (بولاق) .
٧ المفضليات (٥٤) .

وفي قصيدة (الحارث بن حلزة) أسماء مواضع من محالهم ومحال حـلالهم . وهي قصيدته التي تبدأ بـ :

آذنتنـا ببينها أسمـاء   رب ثاو يمل منه الثواء[1]

وللحارث بن حلزة ديوان صغير[2] وأشعار منثورة في كتب الأدب والأخبار[3].

و (الأعشى) (ميمون بن قيس بن جندل) من (سعد بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة) ، ويكنى أبا بصير . وهو ممن عاش في الجاهليـة وأدرك الاسلام . ذكر (ابن قتيبة) انه (كان أعمى)[4] . وهو وهم ، وانما عمـي في أواخر أيامه ، كما يفهم ذلك من شعره ، بعد أن لعب به الكبر ،وتحكمت به الشيخوخة ، وصار عاجزاً ، يقوده قائد ، يوجهـه أنى يشاء ، تسيره عصاه ، وهو يخاف العثار[5] . وقد وصف شيخوخته هذه وصفاً مؤلماً ، صادراً من قلب متفطر حزين يبكي أيامه الأولى ، أيام اللذة والمتعة ، أيام اللهو والخمرة والنساء ، أيام مضت، حلت محلها أيام سود ، لا يفرق فيها الأبيض من الأسود ولا الليل والنهار ، ثم هو وحده ، لا خمر ولا امرأة ولا لحم دسم ، عافته المرأة ، لذهاب ماله وشبابه ، وتركه الزنا على رغم منه ، ولم يعد يرى في هذه الأيام إلا الهم والحزن والألم .

وأم الأعشى بنت (علس) أخت المسيب بن علس من بني (جماعة) ، ثم من بني (ضبيعة بن ربيعة بن نزار) ، ولد بقرية باليمامة يقال لها (منفوحة)، وفيها داره وبها قبره . ويقال إنه كان نصرانياً ، وهو أول من سأل بشعره[6] . ويسمى (صناجة العرب) . لأنه أول من ذكر الصنج في شعره فقال :

---

١ الصفة (٢٢٠) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٣/١) ، مجلة المشرق (١٩٢٢ م) (ص ٥٩١ وما بعدها) .

٣ الاغاني (١٧١/٩ وما بعدها) ، المفضليات رقم (٢٥) ، (٦٢) ، (١٢٧) .

٤ الشعر والشعراء (١٧٨/١) ، (الثقافـة) ، الخزانة (٨٤/١ وما بعدها) ، الاغاني (١٠٨/٩) ، رسالة الغفران (١٥٩) .

٥ القصيدة رقم (١٢) و (٢٨) من ديوانه ، المرزباني ، معجم (٤٠١) ، طبقات ابن سلام (١٥) ، الاغاني (١٠٨/٩) ، المؤتلف (١٢) ، رسالة الغفران ١٥٩ .

٦ المرزباني ، معجم (٣٢٥) ، (فراج) .

ومستجيب لصوت الصنج تسمعه إذا ترجّع فيــه القينة الفضُل[1]

وذكر أنه إنما عرف بصناجة العرب لكثرة ما تغنت العرب بشعره، أو لجودة شعره، أو لأن العرب كانت تتغنى بشعره على صوت الصنج، الى غــير ذلك من شروح وتفاسير[2].

وقد نشأ (الأعشى) راوية لشعر خاله (المسيب بن علس)، وهــو من شعراء الجاهلية المقلين. ثم نبغ هو في الشعر، فعلا اسمه على اسم خاله، حتى حلق في سماء الشعر، ولا سيما في وصف الخمر، حيث حظي الخمر عنده بموقع ممتاز في شعره، فأجاد في وصفه وفي أثره في النفس. وتفنن في وصف الخمر، حتى سبق بوصفه هذا سائر شعراء الجاهلية، ولم يلحق به في هــذه الناحية من الشعر أحد. وقد عدّه بعض علماء الشعر رابع الشعراء الأربعة، فهو يأتي بعد امرىء القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني[3]. وقد أجاد أيضاً في وصف القيان.

قيل: كان الأعشى يفد على ملوك فارس، ولذلك كثرت الفارسية في شعره[4]، وزُعم ان (كسرى) سمعه يوماً يُنشِدُ، فقال: من هذا؟ فقالوا: آمْروذ كويذ تازى، أي مغني العرب، فأنشد:

أرقتُ وما هذا السهاد المؤرقُ وما بيَ من سقمٍ وما بيَ معشق

فقال كسرى: فسروا لنا ما قال! فقالوا: ذكر انه سهر من غير سقم ولا عشق!

فقال كسرى: إن كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص!![5] الى غير ذلك من قصص مصنوع.

---

١ المرزباني، معجم (٣٢٥)، (فراج)، الشعر والشعراء (١/١٧٩)، (الثقافة)، السيوطي، شرح شواهد (٢٤٠).
٢ المزهر (٢/٤٣١)، الخزانة (١/٨٥)، (بولاق).
٣ رسالة الغفران (٢٢٩)، (بنت الشاطىء).
٤ الشعر والشعراء (١/١٧٩)، (الثقافة)، الخزانة (١/٨٥).
٥ الشعر والشعراء (١/١٨٠)، (الثقافة).

وكان يفد أيضاً على ملوك الحيرة ، ويمدح الأسود بن المنذر ، أخا النعمان[1]. وقال له (النعمان بن المنذر) : لعلك تستعين على شعرك هذا؟ فقال له الأعشى: احبسني في بيت حتى أقول ، فحبسه في بيت ، فقال قصيدته التي أولها :

أأزمعتَ من آل ليلى ابتكارا   وشطت على ذي هوى أن تزارا

وفيها يقول :

وقيدني الشعر في بيته   كما قيد الآسرات الحمارا[2]

وورد في شعر الأعشى قوله :

وكنت امرأً زمنـاً بالعراق   عفيف المُناخ طويل التغن[3]

وإذا كان ما نسب الى الأعشى من قوله :

لسنا كمن جعلت إيادٌ دارها   تكريت تنظر حبّها أن يحصدا
جعل الإله طعامنا في مالنـا   رزقاً تضمنه لنـا لن ينفدا
مثل الهضاب جزارة لسيوفنا   فإذا تُراع فإنها لن تطردا
ضمنت لنا أعجازهن قُدورنا   وضروعهن لنا الصريح الأجردا[4]

صحيحاً ، فـإنه يشير الى أرض يقال لها (تكريت) . وقد ذكر بعض علماء اللغة أن (تكريت) بنواحي الموصل ، سميت بتكريت بنت وائل ، أخت (قاسط)[5]. ويظهر أن الساسانيين قد أبعدوا بعض بطون (إياد) الى هذه الديار ، فأجبروهم على الإقامة بها ، وأما النسب المذكور ، فقد وضع فيما بعد . ويظهر من هـذا الشعر ان تلك البطون قد تعلمت الزراعة ، فزرعت الحب ، والزراعة مزدراة في نظر العرب ، ولهـذا تبجّح الشاعر عليها وافتخر ، بكون قومه أصحاب إبل

١ الشعر والشعراء (١/١٨٠) ، (الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٨٠ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٣ أمالي المرتضي (١/٣١ ، ٣٥) ، ديوانه (٢٢) .
٤ ديوان الاعشى رقم ٣٤ ، تاج العروس (١/٥٧٦) ، (كريت) .
٥ تاج العروس (١/٥٧٦) ، (كريت) .

ضخمة ، يعقرونها لمن ينزل بساحتهم من ضيوف ، أما إياد فهم أصحاب زراعة وحصاد .

وكان الأعشى ينادم (هوذة بن علي) الحنفي ، صاحب اليمامة ، وكان نصرانياً على ما يقال . وذكر ان (الأعشى) كان نصرانياً كذلك ، وكان يزور (الحيرة) كما كان يزور أسقف (نجران) . وله راوية يروي شعره اسمه (يحيى ابن متّى) من عبّاد الحيرة. وقد أشار في شعره الى أمور توراتية مثل حمامة نوح وأخبار سليمان . لا ندري اذا كان قد أخذها من التوراة ، أو انه سمعها من رجال الدين أو من قصص نصارى الحيرة[1] .

وله أشعار كثيرة في مدح (هوذة) (هوذة بن علي بن ثمامة) الحنفي ، منها قصيدته التي مطلعها :

أحيتك تيّا أم تركت بدائكا وكانت قتولاً للرجال كذلكا
وأقصرت عن ذكرى البطالة والصبا وكان سفيهاً ضلة من ضلالكا

الى أن قال :

الى هوذة الوهاب أهديت مدحتي أرجّي نوالاً فاضلاً من عطائكا
تجانف عن جوّ اليمامة ناقتي وما عمدت من أهلها لسوائكا

وهذه القصيدة تشبه أشعار المحدثين والمولدين في الرقة والانسجام[2] .

ومن شعره في مدح (هوذة) قوله :

له أكاليل بالياقوت زيّنها صواغها لا ترى عيباً ولا طبعا

وقوله :

وكلّ زوجٍ من الديباج يلبسها أبو قدامة مجبوراً بذاك معا[3]

---

١ راجع قصائده ١٣ ، و ٣٤ ، و ٧٩ من ديوانه ، وبروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١٤٧/١) ، الاغاني (٧٦/١٦) ، رسالة الغفران (١٧٤) .
٢ الخزانة (٦١/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ امالي المرتضى (١٧٢/٢) .

وكان يزور اليمن ، ويقف بأبواب أقيالها ، لينال منهم هداياهم . وفي خبر يرجع سنده الى (الأعشى) ، أنه قال : « أتيت سلامة ذا فايش (فائش) فأطلت المقامَ ببابه حتى وصلت اليه ، فأنشدته :

إن محلاً وإن مرتحلا وإن في شعر من مضى مثلا
استأثر الله بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا
الشعر قلدته سلامة ذا فائش والشيء حيث ما جُعلا

قال : صدقت ، الشيء حيث ما جعل ، وأمر لي بمائة من الإبل وكساني حللاً وأعطاني كرشاً مدبوغة مملوءة عنبراً ،فبعتها في الحيرة بثلاثمائة ناقة حمراء»[1]. والشعر المذكور هو من قصيدة رقمت برقم (٣٥) في ديوانه وتقع في (٢٤) بيتاً ، وفي ترتيب بعض أبياتها اختلاف . وقد شكك (ابن قتيبة) في صحة نسبتها الى الأعشى ، كما شك غيره في صحة نسبتها اليه ، لأسباب ذكروها[2] . وقد نسبها (الهمداني) الى الأعشى[3] .

ونسب (الهمداني) الى الأعشى قصيدة أخرى في مدح (سلامة) أولها :

رأيت سلامة ذا فائش إذا زاره الضيف حيّا وبش[4]
وقال لهم مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بهم وابتهش

وتنسب الى الأعشى قصيدة أخرى في مدح (سلامة ذا فائش) ، وهو : (سلامة ذو فائش) ابن يزيد بن مرة بن عريب بن مرثد بن حُرِيم الحميري[5]، وقد ذكر (الهمداني) أن (ذا فائش) هذا ، هو (ذو فائش الأصغر) ، واسمه (سلامة بن يهبر) القيل . وأورد أبياتاً في مدحه أولها :

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٣٩) ، الاغاني (٩/١٢٤) ، ديوان الاعشى الكبير (ص ٦٨ ، رقم القصيدة ٨) ، (شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين) ، رسالة الغفران (١٧٥) .
٢ ديوان الاعشى الكبير (٢٣٢) ، الاغاني (٨/٨٥) ، الامالي (٢/٩٩) .
٣ الاكليل (٢/١٩٨) .
٤ الاكليل (٢/١٩٥) .
٥ هي القصيدة التي رقمت برقم (٨) في ديوانه ، (ص ٦٨ وما بعدها) ، ديوان الاعشى (١٩) ، (أوربا) ، رسالة الغفران (٢١٨) .

تــؤم سلامــة ذا فائش هو اليوم حم[*] لميعادهــا
وكم دون بيتك من صفصف ودكداك رمل وأعقادهــا

وهي أبيات من القصيدة المرقة برقم (٨) في ديوان الأعشى ، وتقع في (٥٦) بيتاً .

ودوّن (الهمداني) أبيات شعر زعم أنها في مدح (ذي فائش) ، الـذي هو (سلامة بن يهبر) القيـل ، ذكر أن (ابراهيم بن المحابي) ، أنشدها إياه ، أولها :

وذو فائش قد زرته في ممنع من النيق فيه للوعول موارد[١]

وذكر (الهمداني) أبياتاً من الشعر في مدح (زرعة بن عمرو) (زرع بن عمرو) . وكان (زرعة بن عمرو) يتولى وآباؤه للتبابع أعمال (المعافر) و (مأرب) وحضرموت ، وكان قد حارب (مذحجاً) ، وفيه يقول (الأعشى) وقد وفد على بعض أولاده ومدحهم ، قصيدة أولها :

تسنّم في العلا زرع بن عمرو وشيّد مـا بنى عمرو وزادا[٢]

ودوّن (الهمداني) أبيـات شعر في مدح (حجر بن زرعة) ذكر أنهـا للأعشى ، وقال إنه كثيراً ما يفد الى المعافر ، ثم قال : وقيل إنها للمسيب بن علس . وأولها :

حللتُ على حجر بن زرعـة بعدما برى الجسم مني مشفقات العواذل[٣]

ونسب (الهمداني) أبيات شعر في مدح (فهد بن النعـمـان) ، وكان قيلاً بالمعافر . وقد وفد عليه . وأول هذه الأبيات :

ونادمت فهداً بالمعافر حقبة وفهد سماح لم تشبه المواعد[٤]

---

١ الاكليل (١٩٥/٢) .
٢ الاكليل (١١٥/٢) .
٣ الاكليل (١١٧/٥) .
٤ الاكليل (٣٦٣/٢) .

ونسب الرواة الى (الأعشى) قصيدة في مدح (مسروق بن وائل) الحضرمي . وهو ممن وفد الى (النبي) في وفد حضرموت فأكرمه[1] . وهي قصيدة رقمت برقم (٧٠) في ديوانه[2] .

وفي (يزيد بن مسهر بن أبي ثابت) الشيباني ، من سادة بني شيبان وذوي الرأي فيهم ، يقول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل   وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟

وهي لاميته الشهيرة التي تعدّ من المعلقات[3] . ومما جاء فيها في وصف مجلس الشرب والخمر :

نازعتُهُمُ قضب الريحان مرتفقا   وقهوة مــزة راووقها خضل
لا يستفيقون منها إلا وهي راهنة   إلا بهاتِ ، وإن علّوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات لها نطف   مقلص أسفل السربال ، معْتمل
ومستجيب لصوت الصنج يسمعه   إذا ترجع فيه القينة الفُضُل[4]

وكان يبغي من أسفاره هذه جمع المال للاستمتاع بلذة الحياة ، وللذة الحياة عنده : الخمر والطعام والنساء ، وقد جمعها بقوله :

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت   مالي وكنتُ بهن قدماً مُولعا
الخمر واللحم السمين مع الطلى   بالزعفران ولا أزال مُردّعا[5]

وهو من الشعراء الذين تعهروا في شعرهم ، على شاكلة (امرىء القيس) . وقد أبدع في وصف صاحبته (قُتيلة) . وهو لا يخشى من التصريح بأنه انما يحب النساء ، لأجل الاستمتاع بهن . فليست المرأة إلا أداة اللذة في هذه الحياة. فهو يبحث عنها ، ولا يبالي من أي نوع كانت ، جارية أم حرة ، عاهرة أم

---

١ الاصابة (٣/٣٨٨) ، (رقم ٧٩٣٥) .
٢ شرح ديوان الاعشى (٣٢٨ وما بعدها) ، الاكليل (٢/٣٧٦) .
٣ طبقات ابن سلام (٢٣) ، الاغاني (٨/١٠٠) ، رسالة الغفران (١٧٤) ، (حاشية) .
٤ رسالة الغفران (١٧١ وما بعدها) ، تهذيب الالفاظ ، لابن السكيت (٢٢٧) .
٥ ديوان الاعشى (ص) ، (دكتور م. محمد حسين) .

متزوجة،وهو على شاكلة (امرىء القيس) يطيب له أن يصور صاحبته متزوجة، تخون زوجها ، وتقدم له الحب واللذة ، لأن في الاتصال بالمتزوجة مجازفة من الرجل ومن المرأة ، والمجازفة من سيماء العشاق الفرسان الشجعان .

وقد تمكن الأعشى باتصاله بملوك الحيرة والغساسنة ، وبقيس بن معديكرب ، وسلامة ذي فائش ، وبسادة نجران ، وبهوذة ، وبأمثالهم من حكام وسادة — من الحصول على مال طيب،ومن التمتع بمشاهدة مجالس أولئك السادة ، ومن الشرب بصحاف الذهب والفضة ، ومن أكل أكلات الحضر ، التي لا يعرفها إلا أصحاب المال والترف ، ومن الاستمتاع بسماع الغناء العربي والأعجمي ، ومن التأثر بالحياة الرفيعة التي يحياها أهل الحضر . فأثرت تلك الحياة فيه ، وصار يقبل عليها ويبحث عنها في كل مكان . وما الحياة تلك إلا اللهو بالخمر والنساء والطعام الطيب ، حتى كان يتلف ماله في سبيلها ، إن عسر الحصول عليها بغير ثمن .

وهو في شعره صريح يعلن فيه حبّه لجمع المال ، لا يخشى من التصريح به أحداً ، ولعلّه كان يريد الإعلان عن ذلك ، ليرزقه الناس مما عندهم ، ويزيدوا في ماله . نراه يقول :

وطوّفت للمال آفاقها عمان وحمص فأوريشلم
أتيت النجاشي في داره وأرض النبيط وأرض العجم
فنجران فالسرو من حمير فأي مرام له لم أرم
ومن بعد ذاك الى حضرموت فأوفيت همّي وحيناً أهم[1]

ثم هو يعدد المواضع التي زارها فيقول :

ألم ترني جولتُ ما بين مأربٍ الى عدن فالشأم والشأم عاند
وذا فائش قد زرت في متمنّع من النيق فيه للوعول موارد
بيعدان أو ريمان أو رأس سلْيَةٍ شفاء لمن يشكو السمائم بارد
وبالقصر من أرياب لوْ بتَّ ليلة لجاءك مثلوج من الماء جامد
ونادمتُ فهداً بالمعافر حقبة وفهد سماحٌ لم تشبه المواعد

---

١ الصفة (٢٢٤) ، ديوان الاعشى القصيدة رقم (٤) ، والقصيدة رقم ٦٣ .

وقيساً بأعلى حضرموت انتجعتـــه   فنعم أبو الأضياف والليل راكد[1]

ويظهر من الشعر المتقدم انه طاف بلاداً كثيرة ، فيها أرض العجم ، وأرض النبط ، وبلغ حمص و (أورشليم) ، أي القدس ، وعمان ، وزار جزيرة العرب حتى وصل حضرموت واليمن ، وعبر الى (النجاشي) في داره . وهي أسفار بعيدة متعبة بالنسبة لذلك الوقت ، وربما كان هذا الشعر مما أقحم عليه .

وله أشعار كثيرة في مدح (قيس بن معديكرب)[2] ، الذي كان يرزقه ويغدق عليه المال ، وهو لا يجد غضاضة من التصريح في مدحه له أن لا يحرمه من نداه الجزيل . ولهذا عدّه علماء الشعر أول من سأل بشعره ، وابتذل نفسه في السؤال ، وأسرف في الترحال من أجل جمع المال . ومن شعره في (قيس) وفي الاستجداء منه ، قوله :

ونبئت قيساً ولم أبله   كما زعموا خير أهل اليمنْ
فجئتك مرتادَ ما خبّروا   ولولا الذي خبروا لم ترَنْ
فلا تحرمني نداك الجزيل   فإني امرؤ قبلكم لم أهن

وهي قصيدة نونية ، موجودة في ديوانه[3] .

وللأعشى قصيدة في مدح (أبي الأشعث بن قيس) الكنـــدي . والأشعث اسمه (معديكرب) كان أبداً أشعث الرأس فسمي الأشعث ، وهو من الصحابة ، وفد على النبي سنة عشر وأسلم ، وكان شريفاً مطاعاً جواداً شجاعاً ، وهو أول من مشت الرجال في خدمته وهو راكب ، وكان من أصحاب (علي) في وقعة صفين . ومن شعر الأعشى في مدح (أبي الأشعث) ، وهو (قيس بن معديكرب) قوله :

---

١ الصفة (١٠٠ ، ٢٢٥) ، الاكليل (١٠٢/٢) .
٢ تاريخ ملوك العرب الاولية (١٢٤) .
٣ ديوان الاعشى (١٥) ، (أوربا) ، شرح ديوان الاعشى (ش) ، رسالة الغفـــران (٢١٨) ، وله قصيدة مطلعها :
أأزمعت من آل ليـــلى ابتـــكارا   وشطت على ذي هـوى أن يزارا
في مدحه أيضا ، راجع ديوانه (ص ٣٥) ، (أوربا) ، رسالة الغفران (٢٢٧) .

من ديار هضْب كهضب القليب   فاض ماء الشؤون فيض الغروب
أخلفتني بهـــا قتيلة ميعـــا   دي وكان للوعد غير كذوب[1]

وكان الأعشى ، إذا زار اليمن تخرف بـ (أثافت) ، وكان له بها معصر للخمر يعصر فيه ما أجزل له أهل (أثافت) من أعنابهم . وقد ذكرها (الأعشى) في شعره ، إذ قال :

أحبُّ أثافيتَ وقت القطاف   ووقت عُصـــارة أعنابهـــا

وكانت تسمى (درني) في الجاهلية . وإياها التي ذكرها الأعشى بقوله :

أقول للشرب في درني وقد ثملوا   شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل[2]

وذكر غير (الهمداني) أن (درني) المذكورة في شعر الأعشى ، هي ناحية من شق اليمامة . قال الأعشى :

حلَّ أهلي ما بين درني فبادو   لي وحلّت علويـــة بالسخال

فهي ليست بـ (أثافت) ، كما ذكر ذلك (الهمداني)[3] . ونجد الهمداني يذكر (درنا) في مواضع اليمامة . ولمـــا كان (الهمداني) من العلماء بمواضع جزيرة العرب ، فلا أعتقد أنه وهم حين ذكر قول (الرئيس الكباري) ، أن (درني) هي (أثافت) ، فلعل (درني) غير (درنا) اليمامة[4] .

وقـــد هجـــا (الأعشى) (علقمة بن علاثة) من سادات (بني عامر) وأشرافهم . وكان سبب ذلك ، انه مدح (الأسود) العنسي ، فأعطاه خمسمائة

---

١ الخزانة (٢/٤٦٣ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ ديوان الاعشى (ف) ، (دكتور م. محمد حسين) ، (وأثافت وتسمى أثافه بالهـاء وبالتاء اكثر ، وخبرني الرئيس الكباري من أهل أثافت قـــال : كانـت تسمى في الجاهلية درني وإياها التي ذكرها الاعشى بقوله :
أقول للشـرب في درني وقد ثمـــلوا   شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل) ، الصفة ، للهمداني (٦٦) .
٣ تاج العروس (٩/١٩٨) ، (درن) .
٤ الصفة (١٣٧) .

مثقال ذهباً وخمسمائة حللاً وعنبراً ، فخرج ، فلما مر ببلاد (بني عامر) ، وهم قوم (علقمة) و (عامر بن الطفيل) ، خافهم على ما معه ، فأتى (علقمة ابن علاثة) ، فقال له : أجرني ! قال قد أجرتك من الجـن والأنس . قال الأعشى ومن الموت . قال : لا . فأتـى (عامر بن الطفيـل) ، فقال له : أجرني ! قال : قد أجرتك من الجن والأنس . قال الأعشى : ومن الموت ! قال عامر : ومن الموت أيضاً . قـال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : إن مت في جواري بعثت الى أهلك الدية . قال : الآن علمت انك قد أجرتني . فحرضه عامر على تنفيره على علقمة ، فغلّبه عليه بقصائد . فلما سمع علقمة نذر ليقتلنه إن ظفر به . فقال الأعشى قصيدة مطلعها :

شاقك من قيلة أطلالها   بالشط فالجزع الى حاجر

ولما نذر (علقمة) دم الأعشى جعل له على كل طريق رصداً . فاتفق ان الأعشى خرج يريد وجهاً ومعه دليل فأخطأ به الطريق ، فألقاه على ديار بني عامر ابن صعصعة ، فأخذه رهط (علقمة) فأتوه به . فقال له علقمة : الحمدلله الذي مكنني منك ، فقال الأعشى :

أعلقم قد صيرتني الأمورُ   اليكَ ، وما أنت لي مُنقصُ
فهبلي ذنوبي فدتك النفوس   ولا زلت تنمي ولا تنقصُ

في أبيات ، فعفا عنه ، فقال الأعشى ينقض ما قال أولاً :

علقم يا خير بني عامر   للضيف والصاحب والزائـر
والضاحك السن على همه   والغافـر العثرة للعاثـرِ[1]

وكان (عامر بن الطفيل) لما نافر (علقمة) خرج مع لبيد الشاعر والأعشى ، فحكّما (أبا سفيان) ، فأبى أن يحكم بينهما، فأتيا (عيينة بن حصن) فأبى، فأتيا (غيلان بن سلمة) الثقفي ، فردّهما الى (حرملـة بن الأشعر) المرّي ، فردهما الى (هرم بن قطبة) الفزاري ، فحكم بتساويهما في الشرف والمنزلـة ،

---

١ الشعر والشعراء (١٨٢/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (٤٣/٢ وما بعدها) .

ولم يفضل فانصرفا على ذلك[1] .

ويقال إن النبي قال لحسّان : يا حسان أنشدنا من شعر الجاهلية مـا عفا الله لنا فيه ؟ فأنشده حسان قصيدة الأعشى في علقمة بن علاثة :

علقم ما أنت الى عامر   الناقض الأوتار والواتر

فنهى النبي حسان من تلاوتها . وذكر أن النبي رخص في الأشعار كلهـا إلا هاتين الكلمتين : كلمة أمية بن أبي الصلت في أهل بدر ، وكلمة الأعشى في علقمة بن علاثة[2] .

وقد اختلفت الروايات في (علقمة) ، فرواية تذكر أنه أسلم وصحب الرسول، ورواية تذكر أنه لم يسلم،وأنه كان عند (قيصر) ، وأنه أثنى أمامه على الرسول حين كان عنده ، بينما تناول أبو سفيان منه ، ورواية تذكر أنه أسلم ثم ارتـد ولحق بالشام ، ثم عـاد الى الإسلام ، ورواية تذكر أن (عمر) استعمله على (حوران) ، فمات بها . وقد رثاه (الحطيئة) بقصيدة ، وكان قد ذهب اليـه لنيل نواه ، فوجده قد مات ، وقـد أوصى له بجائزة في حياته ، فأعطاه ابنه مائة ناقة يتبعها أولادها[3] .

ولما كان الأعشى تاجراً من تجار الشعر ، اتخذ الشعر متجراً يتاجر به، فيمدح من يعطيه ، ويهجو من لا يحسن اليه ويصله ، لذلك صار شعره في الرجال الذين اتصل بهم ، بين مدح وبين هجاء .

وقـد أفادنا (الأعشى) فائدة كبيرة في ذكره أسماء المواضع التي مر بها في شعره . وقد اقتبس (الهمداني) بعض شعـره المتعلق بهذا الموضوع . كما أورد شعراً لغيره يتعلق بالمواضع ، انفرد به في بعض الأحيان . ومما ذكـره من شعر الأعشى في بعض مواضع اليمامة ، قوله :

قالوا : نُمارٌ فبطن الخال جادَهما   فالعسجديـة فالأبلاء فالرجل

---

١ الاصابة (٤٩٦/٢ وما بعدها) ، (٥٦٧٦) .

٢ الخزانة (٤٣/٢) ، (بولاق) ، الاصابة (٤٩٦/٢) ، (رقم ٥٦٧٧) .

٣ الاصابة (٤٩٧/٢ وما بعدها) ، (رقم ٥٦٧٧) .

فالسَّفح يجري فخنزير فبُرْقته ... حتى تتابع فيه الوتر والحُبل[1]

ونجد في شعر الأعشى قصصاً من قصص أهل الجاهلية ، من ذلك ما رواه عن سد (مأرب) في قصيدته التي يقول فيها :

ففي ذلك للمؤتسي أسوة ... ومأرب قفّى عليها العرِمْ
رخام بنته لهم حمير ... إذا جاءه ماؤهم لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها ... على سعة ماؤُهم لم يرم[2]

وهي أبيات نظمت على طريقة ذلك الوقت في ذكر نكبات الماضي ، وما حل بالقبائل والمدن والقرى من مصير سيء ، لاتخاذها درساً وعبرة للأحياء . وهي لذلك تكون ذات صبغة أدبية أخلاقية ، لا يهتم فيها للتأريخ ولواقع الأحداث ، وانما للقص وللتأثير في العواطف والقلوب .

ومنها قصيدته التي ذكر فيها من أهلكه الدهر من الجبابرة ومطلعها :

ألم تروا إرماً وعادا ... أفناهم الليل والنهار
وقبلهم غالت المنايا ... طسماً فلم يُنجها الحذار
وحلّ بالحيّ من جديس ... يوم من الشرّ مستطار
وأهل جوّ أتت عليهم ... فأفسدت عيشهم فباروا
فصبّحتهم من الدواهي ... نائحة عقبها الدمار

وقد روى أهل الأخبار قصص هؤلاء الأقوام الذين ذكرهم الأعشى في شعره، وقد رصعوها على عادتهم بالشعر ، نسبوه الى أبطال ذلك القصص[3] .

وأشار (أبو العلاء) المعري الى شعر نسب للأعشى أوله :

أمِن قَتْلَةَ بالأنقاء ... ءِ دار غير محلوله
كأن لم تصحب الحيّ ... بها بيضاء عطبوله

---

١ الصفحة (١٣٧) .
٢ ديوان الاعشى البيت (٦٧) وما بعده من القصيدة رقم ٤ .
٣ الخزانة (١/٣٤٧ وما بعدها) ، (بولاق) .

أنـاة[*] يتزل القوسى منها منظر هولـه[*]
وما صهبـاء من عانة[*] في الدارع محمولـه
تولى كرمهـا اصهـب يسقيه ويغدو له
ثوت في الخرس أعواماً وجاءت وهي مقتولـه
بمـاء المزنة الغرّا ء راحت وهي مشموله
بأشهى منك للظمـآ ن لو أنك مبـذوله

فنفى على لسان الأعشى أن يكون من شعره ، أو أن يكون قد صدر عنه[1] .

وقد ورد في بعض الأخبار أن الأعشى كان نصرانيـاً . ويرى (بروكلمن) أن من الجائز أن يكون نصرانياً ، غير أن نصرانيته لم تكن مؤثرة عليه ، وهو إذا كان قد تحدث عن الله وعن البعث ، وعن الحساب ويوم الدين ، فقد تحدث غيره عن هذه الأمور أيضاً ، ولم يكن من النصارى[2] . ونحن لا نكـاد نجد في شعره ما يؤيد كونه نصرانياً صحيحاً قويم الدين ، له علم بأحكام شريعته ونواهيها ، ولعلّ نصرانيته الوحيدة البادية عليه ، هي في حلفه برهان دير هند ، وإشارتـه الى عيد الفصح والى طوفـان نوح ، وزيارته (بني الحارث بن كعب) سادة نجران ، وهم نصارى ، وتشبيهه (قيس بن معديكرب) بالرهبـان في عدله وتقواه[3] . وقوله :

وإني ورب الساجـدين عشيـة وما صك ناقوسَ النصارى أبيلها[4]

وقوله :

ربّي كريم لا يكـدر نعمة وإذا يناشَد بالمهـارق أنشدا[5]

---

١ رسالة الغفران (٢١١ وما بعدها) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٤٧ وما بعدها) ، القصيدة رقـم ١٥ حيث يحلف بثوب راهب اللج .

٣ ديوان الاعشى (دكتور م. محمد حسين) ، راجع القصيدة رقم ٥ من مدح قيس بن معديكرب الكندي ، والقصيدة رقم ١٥ .

٤ القصيدة رقم ٢٣ .

٥ القصيدة رقم ٣٤ .

ولكننا نجده يقسم بالكعبة إذ يقول :

إني لعمر اللذي خطت مناسمها تخدى وسيق اليه الباقر الغيل[1]

ويقول :

واني وثوبي راهب اللّج والتي بناها قصيّ والمضاض بن جرهم

ويقول :

وما جعل الرحمن بيتك في العلا بأجياد غربي الفناء المحرّم[2]

وورد ان الأعشى كان يقول بالقدر . ورد في كتاب (الأغاني) : « قال لي يحيى بن متى راوية الأعشى ، وكان نصرانياً عبادياً ، وكان معمراً ، قال : كان الأعشى قدرياً ، وكان لبيد مثبتاً ، قال لبيد :

من هداه سبلُ الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعـــدل وولّى الملامة الرجلا

قلت : فن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من قبل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك »[3] . وقد جعله (المرتضى) في عداد من كان على مذهب أهل العدل من شعراء الطبقة الأولى لقوله البيت المذكور[4] .

وقد نسب الأعشى هلاك الإنسان وموته الى فعل الدهر ، إذ يقول :

فاستأثر الـــدهرُ الغداة بهم والـــدهر يرميني ولا أرمي
يا دهر قد اكثرت فجعتنا بسراتنا ووقرت في العظم[5]

---

١ القصيدة رقم (٦) .
٢ القصيدة رقم ١٥ .
٣ الاغاني (٨/٧٩) .
٤ أمالي المرتضى (١/٢١) ، ديوانه (١٥٥) .
٥ أمالي المرتضى (١/٤٦) .

ومن شعره قوله :

وأرى الغواني لا يواصلن امرأً فقد الشبابَ وقد يصلن الأمردا[1]

وهو شعر يظهر أنه قاله بعد أن عبث به الكبر ، وفقد الشباب ، فقاله على عادة الشعراء في ذمهم المرأة حين بلوغهم هذه المرحلة من العمر .

وروي أنه مرّ بأبي سفيان بن حرب فسأله عن وجهه الذي قدم منه فعرّفه، ثم سأله : أين يقصد ؟ فقال : أريد محمداً . فقال : إنّه يحرم عليك الزنا والخمر والقمار . فقال له : أما الزنا فقد تركني ولم أتركه ، وأما الخمر فقد قضيت منه وطراً ، وأما القمار فلعلّي أن أصيب منه خلفاً . قال : فهل لك الى خير ؟ قال : وما هو ؟ قال : بيننا وبينه هدنة فترجع عامك هذا وتأخذ مائة ناقة حمراء ، فإن ظهر أتيته ، وإن ظهرنا كنت قد أصبت عوضاً من رحلتك . قال : لا أبالي . فانطلق به أبو سفيان الى منزله وجمع له أصحابه وقال: يا معشر قريش ، هذا أعشى بني قيس بن ثعلبة ، وقد عرفتم شعره ، ولئن وصل الى محمد ليضربن عليكم العرب بشعره ، فجمعوا له مائة ناقة وانصرف ، فلما كان بناحية اليمامة ألقاه بعيره فوقصه فمات[2] .

ويذكر علماء الشعر ، ان الأعشى كان قد هيأ قصيدة لينشدها أمام النبي ، في صلح الحديبية ، فلما صرفه (أبو سفيان) عن الذهاب الى يثرب لم يقرأها . ومطلع القصيدة :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبتّ كما بات السليم مسهدا[3]

وهي قصيدة نحلت عليه ، ولا يمكن أن تكون من شعر هذا الشاعر الذي لم يتعود على التعمق في جزئيات أمور الدين . ثم ان القسم الخاص بمدح النبي من

---

١ أمالي المرتضى (٦١٢/١) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢٤٠/١) ، الخزانة (٨٥/١) ، رسالة الغفران (١٧٢ وما بعدها) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٥٧٦/٢) ، القطعة رقم ١٧ من ديوان الاعشى ، الاكليل (٢٥٩/٢) ، الخزانة (٨٥/١ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١٧٨/١ وما بعدها) .

هذه القصيدة وبأحكام الاسلام ضعيف الحبك ، لا يتناسب مع المطلع ولا مع شعر الأعشى الآخر ، ولهذا ذهب أكثر المعاصرين الى انها من الشعر المصنوع[1]. وفيها أمور من المجرمات لا يمكن أن يكون الأعشى قد وقف عليها .

ومما جاء في هذه القصيدة :

ألا أيهذا السائلي أين يممت ... فإن لها في أهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفى ، حتى تلاقي محمدا
متى ما تُناخي عند باب ابن هاشم ... تراحي ، وتلقي من فواضله يدا
أجدَّكَ لم تسمع وَصاةَ محمد ... نبي الإلـه حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وأبصرت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد لما كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقربنها ... ولا تأخذن سهماً حديدا لتقصدا
ولا تقربنَّ جارة إن سرَّها ... عليك حرام فانكحن أو تأبدا
نبي يرى ما لا يرون، وذكرُهُ ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا[2]

وأنت اذا قرأت هذه الأبيات والأبيات الأخرى التي لم أذكرها ، فستخرج جازماً انها من الشعر المصنوع المنحول على الأعشى . ففيها نهي عن أكل الميتة، وعن عبادة الأوثان ، والحث على الصلاة ، وعلى ايصال السائل المحروم ، وغير ذلك من آراء اسلامية ، تجد جذورها في القرآن .

وذكر أن الأعشى سمّى قصيدته المحكمة حكيمة ، أي ذات حكمة . فقال :

وغريبة تأتي الملوك حكيمـــة ... قد قلتها ليقال من ذا قالها[3]

وقال بعض علماء الشعر : الأعشى أغزل الناس في بيت ، وأخنث الناس في

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٨/١) ، طه حسين ، في الادب الجـــاهلي (٢٥٨) ، فؤاد أفرام البستاني ، مجلة المشرق (المجلد ٣٠) ، (ص ٧٦٣ ومـــا بعدها) ، ديوان الاعشى (١٣٤) ، (الدكتور م. محمد حسين) .
٢ وفي رسالة الغفران بعض الاختلاف عما جاءت في ديوانه وفي كتب الادب ، رسالـة الغفران (١٧٨ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٢٥٥/٨) ، (حكم) .

بيت ، وأشجع الناس في بيت ، فأغزل بيت قوله :

غرّاء فرعــاء مصقول عوارضها   تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

وأخنث بيت قوله :

قالت هريرة لما جئتُ زائرهـا   ويــلي عليك وويلي منك يا رجل

وأشجع بيت قوله :

قالوا الطرادَ فقلنا تلك عادتنا   أو ينزلون فــإنا معشر نزل[1]

ومن جيد شعره قوله :

عهدي بها في الحيّ قد دُرِّعت   صفراء مثــل المُهرة الضامر
لو أسندت ميتاً الى نحرهــا   عــاش ولم يُنقل الى قابر
حتى يقول النــاس مما رأوا   يا عجباً للميت النــاشر[2]

وكان الأعشى سليط اللسان ، اذا هجا أقذع ، شديداً في هجائه، لذلك كان الناس يخشون جانبــه ، ويرهبون لسانه ، وكان مدّاحاً ، يمدح فينال عطــاء الممدوحين . وله أسلوب خاص في نظم الشعر ، وفي العرض والسبك ، وموسيقى النظم ، وفي شعره طلاوة ، وفي أبياته حلاوة . وقد أبدع في أمور، منها وصف الخمر ، ووصف الحمر الوحشية ، ولا نجد في شعره مكانــة للأطلال والديار ، وهو يطيل في النسيب[3] .

ومن أمثلة ما يروونه عن أثر شعره في الناس ، ان رجلاً بائساً مسكيناً اسمه (المحلّق) ، كان والد ثمان بنات ، ولا يملك شيئاً سوى ناقــة ، سمعت زوجته بذكر الأعشى وبمروره منهم في طريقه الى سوق (عكاظ) ، فأشارت على زوجها أن يركض الى الأعشى ليستضيفه ، لعله يمدحه ، فيزوج بناته وينال شرف مديحه

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٦٧ وما بعدهــا) ، الخزانــة (٣/٥١٨) ، (بولاق) .
٢ أمالي المرتضى (١/٤٥١) .
٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٤٨ وما بعدها) .

بين الناس . ففعل ، وذبح ناقته الوحيدة وأكرمه مع بناته غاية الإكرام ، فلما علم الأعشى بسوء حاله ، أعدّ له قصيدة ، ألقاها في عكاظ ، مطلعها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة   الى ضوء نار في يفاع تحرق

فلما رأى الناس (المحلق) ، وقد حيّاه الأعشى ، أقبل الناس يخطبون منه بناته ، فما قام من مقعده حتى خطبت بناته جميعاً[1] .

ولعلّ خفة عروض شعر الأعشى ومرونته ، وما في شعره من ترنيم ورنين، وما فيــه من سهولة ، تدل على براعة في الشعر ، هي التي حملت بعض علماء الشعر على تقديمه على غيره ، أو على رفع مكانته بوضعه في طبقة الشعراء الفحول من الطبقة الأولى ، غير أن من العلماء من انتقد شعره ، وانتقد اكثاره من ادخال الألفاظ الأعجمية في نظمه[2] .

وكان للأعشى راوية اسمه (عبيد) ، كان يصحبه ويروي شعره ، وكان عالماً بالإبل . ومنه أخذ الرواة أخبار الأعشى وشعره . وكان (سماك) أحــد الرواة المتصلين به ، وعنه أخذ (حماد) الراوية أخباره عن الأعشى . وعنه أيضاً أخذ (شعبة بن الحجاج) أخبــاره عن (الأعشى) . وعن (شعبة) روى (مؤرج بن عمرو السدوسي) (أبو فيد) أحد علماء البصرة المتوفى سنة (١٩٥ هـ). وعنه أخذ (الرياشي) أخباره عن (الأعشى) . و (الرياشي) هو (أبو الفضل) العباس بن الفرج مولى سليمان بن عليّ الهاشمي . وكان عالماً باللغة والشعر كثــير الرواية عن (الأصمعي) . وقد توفي الرياشي سنة (٢٥٧ هـ)[3] .

وقد شك علماء الشعر في صحة نسبة بعض الشعر الى (الأعشى) . فقد روى (أبو عبيدة) ان (أبا عمرو بن العلاء) زاد بيتاً على قصيدة :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا   واحتلت الغمر فالجدين فالفرعا

وهو البيت الثاني من هذه القصيدة . وروى غيره ان (حماد) الراوية ، هو

---

١ الخزانة (٢١١/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ الموشح (٤٩ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٤٩/١) .
٣ الشعر والشعراء (١٨١/١) ، الفهرست (٩٢) .

الذي دس ذلك البيت ، ولم يطمئن (المرزباني) من هذه القصيدة ، ثم هي « من الأشعار الغثة الألفاظ ، الباردة المعاني ، المتكلفة النسج ، القلقة القوافي ، المضادة للأشعار المختارة » ، ما خلا ستة أبيات[1] .

ولم يرض (المرزباني) عن قصيدة الأعشى الثانية المدونة في ديوانه ، ومطلعها:

لعمرك ما طولُ هذا الزمن   على المرء إلا عناءٌ معنّ[2]

وفي شعره قصائد تعد من المصنوعات[3] .

ويذكر أن الأعشى كان يهاجي شاعراً عرف بـ (جُهُنّام) ، وهو لقب (عمرو بن قطن) من بني سعد بن قيس بن ثعلبة[4] ، وذكر أنه هو القائل :

أبوك قتيل الجوع قيس بن جندلٍ   وخالك عبدٌ من خماعة راضع

قاله يهجو به الأعشى . إذ زعم أن والده دخل غاراً ، فوقعت عليه صخرة ، سدت فم الغار ، فمات فيه من الجوع[5] .

وفي حقه قال الأعشى :

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له   جُهُنّام جدعاً للهجين المذمم

وذكر ان (جهنام) تابعة للأعشى ، أي شيطانه ، كما يقال لكل شاعر شيطان[6] .

والنابغة ، هو (زياد بن معاوية بن ضباب) الذبياني ، أبو أمامة وقيل (أبو ثمامة) و (أبو عقرب) ، أحد شعراء الجاهلية المشهورين ، ومن أعيان فحولهم المذكورين . عدّه بعض العلماء من الطبقة الأولى بعد (امرىء القيس) .

---

١ الموشح (٤٩ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٤٩) ، ديوان الاعشى (١٠٠) ، (القصيدة ١٣) ، (دكتور م. محمد حسين) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٤٩) .
٣ العصر الجاهلي (٣٤٠ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٨/٢٣٥) ، (جهنام) .
٥ الاغاني (٩/١٠٨) .
٦ تاج العروس (٨/٢٣٥) .

وذكر أن الخليفة (عمر) قال: أشعر العرب النابغة. وأنه قال: «النابغة أشعر شعرائكم، وأعلم الناس بالشعر» أو أنه قال: «هذا أشعر شعرائكم»، وذلك لوفد كان قد قدم عليه، كان في جملة ما تحدث عنه موضوع الشعر، وموضوع أفضل شاعر جاهلي[1]. وقد فضله (ابن عباس) على غيره أيضاً في رواية تنسب اليه[2]. وذكر أن الشاعر (حسان بن ثابت) سئل من أشعر الناس؟ فقال: أبو أمامة، يعني النابغة الذبياني. وأن (أبا عمرو بن العلاء)، قال: «كان أوس بن حجر فحل العرب، فلما أنشأ النابغة طأطأ منه. وأنه قال أيضاً، وكان بعضهم قد ذكر النابغة وزهير: ما كان زهير يصلح أن يكون أخيذاً للنابغة، يعني راوياً عنه[3]. وقال بعضهم: «كان النابغة أحسنهم ديباجةَ شعر وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً، كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف، ونبغ في الشعر بعدما احتنك، وهلك قبل أن يُهتَر»[4]. «وقال أبو عبيدة: يقول من فضل النابغة على جميع الشعراء: هو أوضحهم كلاماً، وأقلهم سقطاً وحشواً، وأجودهم مقاطعَ، وأحسنهم مطالعَ، ولشعره ديباجة، ان شئت قلت: ليس بشعر مُؤلف، من تأنثه ولينه، وان شئت قلت: صخرة لو رديت بها الجبال لأزالتها»[5].

وذكر ان (النعمان) غني بشيء من دالية النابغة، فقال: هذا شعر علوي» أي عالي الطبقة أو من عليا نجد[6]. وقيل عن شعره: «ينسبُ اذا عشق ويثلب اذا حنق ويمدح اذا رغب، ويعتذر اذا رهب»[7]. وقد قال الأصمعي فيه وفي

---

١ السيوطي، شرح شواهد (١/٧٨ وما بعدها)، أمالي المرتضى (٢/١٧)، الخزانة (٢/٦)، طبقات الشعراء (٤٧ وما بعدها)، الشعر والشعراء (١٢٤)، ديوان النابغة (٥٧)، كنى الشعراء، لمحمد بن حبيب (٢٨٨)، (سلسلة نوادر المخطوطات)، (عبد السلام هارون).

٢ السيوطي، شرح شواهد (١/٨٠)، الخزانة (٢/٧)، الشعر والشعراء (١١٠، ١٢٣، ٣٠٣)، الخزانة (٢/٤٤٨)، (هارون).

٣ السيوطي، شرح شواهد (١/٨٠).

٤ الشعر والشعراء (١/٩٢)، (الثقافة).

٥ الشعر والشعراء (١/١٠١ وما بعدها)، جمهرة اشعار العرب (٢٦).

٦ تاج العروس (١٠/٢٥٣)، (علو).

٧ كارلو نالينو (٨٦).

غيره من الشعراء المشاهير : « كفاك من الشعراء أربعة : زهير اذا طرب ، والنابغة اذا رهب ، والأعشى اذا غضب ، وعنترة اذا كلب »[1] .

قيل انما سمي النابغة بقوله : فقد نبغت لنا منهم شؤون ، وانه كان شريفاً فغض منه الشعر . وكان مع النعمان بن المنذر ومع أبيه وجدّه ، وكانوا له مكرمين.

وروي ان أول ما تكلم به النابغة من الشعر ، انه حضر مع عمه عند رجل ، وكان عمه يشاهد به الناس ويخاف أن يكون عييا ، فوضع الرجل كأساً في يده وقال :

تطيب كؤوسنا لولا قذاها ويحتمل الجليس على أذاها

فقال النابغة : وحمي للذلك :

قذاها أن صاحبها بخيل يحاسب نفسه بكم اشتراها[2]

وقد أخذ عليه علماء الشعر تكسبه بشعره، فقد ذكروا ان العرب كانت لا تتكسب بالشعر ، وانما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها ، حتى نشأ النابغة ، فمدح الملوكَ وقبل الصلة على الشعر وخضع للنعمان بن المنذر،وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار اليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسّب مالاً جسيماً ، حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك[3] . وفي هذا القول الذي لا يخلو من مبالغة ، دلالة على ان النابغة قد كان موسراً نوعاً ما حسن الحال ، وان قسماً من ثرائه قد جاء اليه من مدحه للملوك .

وقد رمي بالإقواء ، فقيل انه كان يقوي في شعره ، فعيب ذلك عليه ، وأسمعوه في غناء :

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزوّد
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبّرنا الغداف الأسود

١ جمهرة أشعار العرب (٢٦) ، المزهر (٢/٢٩٧) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٨٠) .
٣ العمدة (١/٤٩) .

فقطن فلم يعد[1] . وذكر ان ذلك كان بيثرب . فقد كان قد دخلها ففني بشعره ، فقطن فلم يعد للإقواء[2] .

وقد أخذ العلماء عليه بعض مآخذ ، ذكرها (ابن قتيبة) في كتابه : (الشعر والشعراء)[3] ، وأخذوا عليه (الاكفاء) في بعض أشعاره[4] .

ونفى (المعري) في رسالة الغفران أن تكون الكلمة التي أولها :

ألما على المطورة المتأبده   أقامت بها في المربع المتجرده
مضمخة بالمسك مخضوبة الشوى   بدر وياقوت لها متقلده

من شعر النابغة ، إذ يقول على لسانه : « ما أذكر أني سلكت هذا القري قط » ، ثم ينسبها الى رجل من بني ثعلبة بن عكابة[5] .

والنابغة مثل غيره من أهل زمانه ، كان يعتقد بالجن ، فأشار في شعره الى (جنة البقار) . ونجد في شعر (زهير) إشارة الى (جنة عبقرية) ، و (جنة عبقر) مشهورة في أساطير الجاهليين . وذكر (لبيد) (جن البدي)[6] . وهو ممن ذكر بعض القصص والأساطير في شعره ، فقد ذكر (النعمان بن المنذر) ، بقصة زرقاء اليمامة ، وهي قصة يظهر أنها كانت شهيرة وشائعة بين الجاهليين ، ضربها مثلاً له ، وذكر قصة الحية ، وهي اسطورة في ذم الغدر والخيانة ، ضربت مثلاً ، لكل من يغدر ، ومثل هذه الأساطير معروفة عند الأمم الأخرى، ولا سيما قصص الإنسان مع الجن ، والحية من فصائل الجن في نظر أكثر الجاهليين. وكانت العرب تضرب أمثالاً على ألسنة الهوام[7] .

ويظهر من الشعر المنسوب الى النابغة انه كان لا يتبذل في مجون ، ولا يسرف في هجاء ، ولا يتدنى في سفاهة ، وقد نسب بعض المستشرقين هذا الخلق الرفيع

---

١ الشعر والشعراء (١/٩٣) ، (الثقافة) .
٢ المصدر نفسه (١/١٠٢) .
٣ (١/١٠٢ وما بعدها) .
٤ الشعر والشعراء (١/١٠٥) ، (الثقافة) .
٥ رسالة الغفران (٢٠٧ وما بعدها) .
٦ الصفة (١٢٨) .
٧ الشعر والشعراء (١/٩٦) .

الذي نراه فيه الى تنصره ، مستدلين على رأيهم هذا بما ورد في شعره من أمور نصرانية ، غير اننا لا نستطيع إثبات ذلك ، كما اني لا أستطيع نفيها عنه مستشهداً بالبيت :

فلا لعمر الذي قد زرته حججاً   وما هريق على الأنصاب من جسد[1]

فالقسم عند الجاهليين لا يشير دائماً الى عقيدة صاحب القسم ، فقد نسب الى (عدي بن زيد) العبادي القسم بمكة ، ولم يكن من عبّاد الأصنام ، ثم إن من المحتمل أن يكون من الشعر المصنوع ، واني أرى ان ما نسب الى (عدي) من هذا القسم موضوع عليه . فهو رجل نصراني ، وكان الملك وثنياً ، ثم صار نصرانياً ، ولم يكن عبّاد الأصنام من عرب الحيرة يحجون الى مكة حتى يقسم (عدي) بها مجاراة للوثنيين ، ولذلك أرى ان هذا الشعر مصنوع عليه ، صنع لإظهار ان الحج الى مكة كان عاماً عند جميع العرب ، حتى عرب العراق وبلاد الشأم ،وقد رأينا ان أهل الأخبار صيروا ملوك اليمن من أشد الناس تعلقاً بالكعبة ، جعلوهم يحجون اليها ، مع ان المسند يسخر من هذه الخزعبلات ، كما اننا لا نسمع بحج أحد من عرب العراق أو بلاد الشأم الى مكة ، ولو كانوا يحجون اليها لما سكت أهل الأخبار عن ذلك .

ونال النابغة الذبياني رزقاً كثيراً من النعمان بن المنذر . أعطاه مرة مئة ناقة من الإبل السود برعاتها ، لإنشاده قصيدته التي يقول فيها :

فإنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[2]

والإبل السود ، هي أغلى وأثمن الإبل عند العرب . وكاد ملوك الحيرة يحتكرون هذه الجمال ، ولا يسمحون لافتحال أحد فحلاً أسودَ . ولهذا كان هذا الحباء الذي أغدقه النعمان على النابغة حباءً ثميناً وعطاءً كبيراً ،وكان (النعمان) قد أعطى (النابغة) إبلاً وريشها ، أي بما يصلحها من الآلة والثياب[3] .

وروي عن الشاعر (حسان بن ثابت) ، أنه رحل الى (النعمان) ، فلقي

---

١ معلقته البيت رقم (٣٧) .
٢ العقد الفريد (٢/٢٢) « لجنة » .
٣ مجالس ثعلب (٣٥) .

رجلاً فقال : أين تريد ؟ فقلت : هذا الملك ، قال : فإنك إذا جئته متروك شهراً ، ثم يسأل عنك رأس الشهر ، ثم أنت متروك شهراً آخر ، ثم عسى أن يأذن لك ، فإن أنت خلوت به وأعجبته فأنت مصيب منه ، وان رأيت (أبا أمامة) النابغة فاظعن ، فإنه لا شيء لك . قال : فقدمت عليه ، ففعل بي ما قال ، ثم خلوت به وأصبت منه مالاً كثيراً ونادمته ، فبينا أنا معه في قبة إذ جاء رجل يرجز حول القبة :

أنمت أم تسمع ربّ القبة   يا أوهب الناس لعنس صُلْبة
ضرّابة بالمشفر الأذبّة   ذات هباب في يدها جُلْبة

فقال النعمان : أبو أمامة ! فأذنوا له ، فدخل فحيّاه وشرب معه ، ووردت النعم السود ، ولم يكن لأحد من العرب بعير أسود يُعلّمْ مكانه ، ولا يفتحل أحدٌ فحلاً أسود ، فاستأذنه أن ينشده ، فأنشده كلمته التي يقول فيها :

فإنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

فدفع اليه مائة ناقة من الإبل السود ، فيها رعاؤها ، فما حسدت أحداً حسدي النابغة ، لما رأيت من جزيل عطيته ، وسمعت من فضل شعره[1] .

وذكر انه نادم المنذر الثالث والمنذر الرابع من ملوك الحيرة ، وكان من المقربين جداً من النعمان بن المنذر ، المعروف بأبي قابوس . ثم وقعت نفرة بينهما ، أدت الى هروب (النابغة) من (النعمان) ، وذهابه الى (عمرو بن الحارث) ملك غسان والى ابنه (النعمان بن عمرو) . وسبب هروبه من ملك الحيرة على ما يزعمه أهل الأخبار ، ان (النابغة) تجاسر فوصف (المتجردة) امرأة النعمان بن المنذر ملك الحيرة[2] ، وتغزل بها ، مما أثار غضب النعمان عليه ، فخاف على نفسه ، وفر الى أعداء النعمان ملوك غسان . ويظهر ان النابغة ، كان يتصل بالغساسنة ويراجعهم ، وهم أعداء ملوك الحيرة ، أو ان جماعة من حساد النابغة وأعدائه دسوا ذلك الوصف عليه ، ونسبوه له ، ورووه وأوصلوه الى النعمان ،

١ الشعر والشعراء (٩٨/١ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (٨١/١) .
٢ تاج العروس (٣١٩/٢) ، (جرد) ، المحاسن والاضداد (١٤٣) .

وهو رجل عصبي المزاج ، حاد الطبع ، سريع التأثر والأخذ بأقوال الناس ، فأراد الفتك به ، فهرب النابغة الى مكان يكون بمأمن فيه ، وينال فيه التقدير ، فوقع اختياره على أرض الغساسنة . وعاش في كنف عمرو بن الحارث ، وفي ظل ابنه (النعمان) . فلما مات (النعمان بن عمرو بن الحارث) ، أخذ ينظم الشعر في مدح (النعمان بن المنذر) ، وفي الاعتذار منه ، وفي التنصل مما اتهمه به حساده ، حتى عفى الملك عنه ، فعاد الى الحيرة ، ولما مات (النعمان) في محبسه، رجع النابغة الى قبيلته ، وعاش بينها حتى مات هناك[1] .

ولأهل الأخبار قصص في سبب وقوع هذه النفرة ، فقال قوم : إنه هجاه فقال :

ملك يلاعبُ أمه وقطينه رخو المفاصل أيره كالمرود

وهجاه أيضاً فقال قصيدة فيها :

قبح الله ثم ثنى بلعن وارث الصائغ الجبان الجهولا
من يضر الأدنى ويعجز عن ضر الأقاصي ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدوّ فتيلا

ويقال إن هذا الشعر والذي قبله لم يقله النابغة ، وإنما قاله على لسانه قوم حسدوه ، منهم (عبد قيس بن خفاف) التميمي ، ومنهم (مرة بن ربيعة بن قرثع) السعدي[2] ، (مرة بن ربيعة بن قريع) وهو الذى سعى الى النعمان بالوشاية بالنابغة[3] .

ويقال ان النعمان قال للنابغة وعنده المتجردة امرأته : صفها لي في شعرك يا أبا أمامة ! فقال قصيدة[4] ذكر فيها بطنها وعكنها ومتنها وروادفها وفرجها ،

---

١ الشعر والشعراء (٧٠ وما بعدها) ، الاغاني (١٦٢/٩ وما بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٨٨/١ وما بعدها) ، تاريخ ملوك العرب الاولية (١٠٧ وما بعدها ، ١١١) .

٢ الشعر والشعراء (٩٩/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٣ « مرة بن ربيعة بن قريع » ، الخزانة (٣٢٢/٢) ، (هارون) .

٤ هي القصيدة التي أولها : « أمن آل مية رائح أو مغتد » ، الخزانة (٢٨٧/١ وما بعدها) ، (بولاق) ، (٤٢٧/١) ، (بولاق) .

وكان للنعمان نديم هو (المنخل) اليشكري ، يتهم بالمتجردة ويظن بولد النعمان منها أنهم منه ، وكان (المنخل) جميلاً ، وكان النعمان قصيراً دميماً أبرش ، فلما سمع المنخل هذا الشعر قال للنعمان : ما يستطيع أن يقول مثل هذا الشعر إلا من قد جرب ! فوقر ذلك في نفسه ، وبلغ النابغة ذلك فخافه فهرب الى غسان، فصار فيهم ، وانقطع الى (عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شمر الغساني) ، والى أخيه النعمان بن الحارث ، فأقام النابغة فيهم فامتدحهم ، فغمّ ذلك النعمان ، وبلغه أن الذي قذف به عنده باطل، فبعث اليه : إنك صرت الى قوم قتلوا جدي فأقمت فيهم تمدحهم ، ولو كنت صرت الى قومك لقد كان لك فيهم ممتنع وحصن ، إن كنا أردنا بك ما ظننت، وسأله أن يعود اليه ، فقال شعره الذي يعتذر فيه . وقدم عليه مع (زبّان بن سيّار) ، و (منظور بن سيار) الفزاريين ، وكان بينهما وبين النعمان دخلل ، فضرب لهما قبة ، ولا يشعر أن النابغة معهما . ودس النابغة أبياتاً من قصيدته :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند

فلما سمع النعمان الشعر ، أقسم بالله انه لشعر النابغة ، وسأل عنه فأخبر انه مع الفزاريين ، وكلّماه فيه فأمنه[1] . ويرى (بروكلمن) ان (النابغة) كان قد واصل بني غسان ، فظن (النعمان) به الغدر ، وعلم الوفاء له ، وهرب النابغة منه ، فوجد ملجأ في بلاط عمرو بن الحارث ، رجع النابغة الى الحيرة ، ونال عفو أبي قابوس وحظوته من جديد ، ولكنه لم يتمتع طويلاً بذلك ، لموت أبي قابوس في سجن كسرى ، فرجع الى قبيلته (بني ذبيان) ، حيث توفي بينها[2] .

وقد مدح (النابغة) (عمرو بن الحارث) الغساني ، والغساسنة بشعر حسن ، يعدّ من الشعر الحسن المتفوق في المديح ، من جملة ما ورد فيه :

مجلتهم ذات الإلـه ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب[3]

---

١ الشعر والشعراء (٩٩ وما بعدها) ، (الثقافة) .

٢ بروكلمن (٨٨/١ وما بعدها) .

٣ « محلتهم » ، كارلو نالينو (٨٥) .

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيّون بالريحان يوم السباسب
تحيّيهمُ بيض الولائد بينهم واكسية الإضريج فوق المشاجب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأردان خضر المناكب
ولا يحسبون الخير لا شرّ بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب
حبوتُ بها غسان إذ كنت لاحقاً بقومي وإذ أعيت عليّ المذاهب[1]

وهو مدح يختلف عن مدح شعراء البادية ، فيه رقة وجمال ، وفيه إبداع في وصف الغساسنة وعاداتهم في الاحتفال بأعيادهم النصرانية[2] .

وتروى للنابغة خطبة ، ذكر انه خاطب بها (الحارث) الغساني ، ليفك له أسرى قبيلته[3] .

ويروى ان العرب سألت النابغة أن يضرب قبة بعكاظ فيقضي بين الناس في أشعارهم لبصره بمعاني الشعر ، فضرب قبة حمراء من أدم وأتته وفود الشعراء من كل أوب ، فكان يستجيد الجيد من أشعارهم ، ويرذل ، فيكون قوله مسموعاً فيهم جميعاً ومأخوذاً به . فكان فيمن دخل عليه (الأعشى) وحسان بن ثابت والخنساء ، فأنشده الأعشى ، ثم أنشده حسان ، ثم أنشدته الخنساء ، فقال النابغة مخاطباً (حسان) : « لولا ان أبا بصير ، يعني الأعشى ، أنشدني لقلت انك أشعر الجن والأنس ، فقال حسان : أنا والله أشعر منك ومن أبيك ومنها ! » وهي قصة تروى بشرح أوفى ، قرن بالأسباب التي دعت بالنابغة الى تفضيل شعر الأعشى على شعر حسان . وهي قصة طعن في صحتها بعض علماء الشعر[4] .

وللنابغة شعر في هجاء (زرعة بن عمرو) الكلابي ، وكان لقي النابغة بعكاظ وأشار عليه أن يشير على قومه أن يغدروا بـ (بني أسد) ، وينقضوا حلفهم ، فأبى عليه النابغة ، فتوعده ، فقال النابغة :

---

١ ديوان النابغة عدد (١) .
٢ كارلو نالينو (٨٦) .
٣ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٨٩ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٧) .

نبتت زرعة والسفاهة كاسمها ... يهدى إليَّ غرائب الأشعار
فحلفت يا زرع بن عمرو انني ... مما يشق على العدو ضراري[1]

وله شعر يهجو به (عامر بن الطفيل) حيث يقول :

فإن يك عامر قد قال جهلاً ... فإن مطيّة الجهـل الشباب
فإنك سوف تحـكم أو تناهى ... إذا ما شبتَ أو شاب الغراب

يقول : هو معذور فإنه شاب ، ثم قال : سوف تحكم إذا شخت ، أو لعلك لا تحكم أبداً ، حتى يشيب الغراب ، وذلك لا يكون أبداً ، وتحكم ، أي تصير حكيماً[2] . ويلاحظ أن هجاء النابغة هو هجاء مؤدب لا جهالة فيه ولا سفاهة ، عف يؤثر في المهجو أكثر من أثر الهجاء الفاحش المليء بالسفاهة والسباب .

وقد نُعت شعراء آخرون بلفظة (النابغة) ، غير النابغة الذبيـاني. منهم : النابغة الجعدي : قيس بن عبـدالله الصابي ، والنابغة الحارثي زيد بن ابان ، والنابغة الشيباني : حمـل بن سعدانة ، والنابغة الذهلي : المخارق بن عبدالله ، والنابغة ابن لؤي بن مطيع الغنوي، والنابغة العدواني ، والنابغة ابن قتال بن يربوع الذبياني ، والنابغة التغلبي الحارث بن عدوان[3] .

وتبدأ معلقة (النابغة) بقوله :

يا دار ميّة بالعلياء فالسندِ ... أقوت، وطال عليها سالِفُ الأبد[4]

ولما تحدث (البغدادي) عن الشاهد التاسع والثمانين بعد المائة ، وهو :

كأنه خارجاً من جنب صفحته ... سفود شرب نسوه عند مفتأد

قال : « وهذا البيت من قصيدة للنابغة الذبياني ، يمدح بها النعمان بن المنذر، ويعتذر اليه فيها مما بلغه عنه » . ثم قال : « وهذه القصيـدة أضافها أبو جعفر

---

١ الخزانة (٣/٦٧ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ أمالي المرتضى (١/٥٥) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٨١) ، الخزانة (١/٢٨٩) ، (بولاق) .
٤ شرح القصائد العشر ، للزوزني (٥١٢ وما بعدها) .

أحمد بن محمد بن اسماعيل النحوي الى المعلقات السبع لجودتها وقد أورد الشارح المحقق في شرحه عدة أبيات منها ، وقبل هذا البيت :

كان رحلي وقد زال النهار بنا بذي الجليل على مستأنس وحد
من وحش وجرة موشّي أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد[1]

وهي قصيدة نعتها (البغدادي) بأنها طويلة[2] ، ويبلغ عدد أبياتها في المعلقات (٥٠) بيتاً[3] . وقد ورد فيها اسم النبي (سليمان) ، ذكر انه انما ذكره فيها ، لأنه كان له الملك مع النبوة ، يريد انه لا يشبهه أحد ممن أوتي الملك إلا سليمان النبي[4] . وتعدّ من أحسن شعر النابغة ، « ولهذا ألحقوها بالقصائد المعلقات »[5] .

ومن شعر النابغة قوله :

فلا زال قبر بين تبنى وجاسم عليـــه من الوسمي طل ووابل
فينبت حوذاناً وعوفاً منـــوراً سأتبعه من خير ما قال قائل

وذلك على مذهب العرب المعروف في ذلك ، لأنهم كانوا يستسقون السحائب لقبور من فقدوه من أعزائهم ، ويستنبتون لمواقع حفرهم الزهر والرياض.ويجرونه مجرى الاسترحام ، ونسب (ابن الأعرابي) الى (علي) قوله : « إن العرب انما تستسقي القبور لأنها اذا سقيت وعمّ القطر أعشب المكـــان ، فحضره القوم للرعي ، وترحموا على الموتى »[6] .

وكان النابغة صديقاً لزهير بن أبي سلمى ، « روى هشام بن المنذر قال : قال زهير بن أبي سُلمى المزني بيتاً ثم أكدى ، ومر به النابغة الذبياني فقال له : أجز ، قال : ماذا ؟ قال :

تزال الأرضُ إما متّ خفاً وتحيـــا ما حييت بها ثقيلا
نزلت بمستقر العـــز منهـــا . . . .

١ الخزانة (٥٢١/١) ، (بولاق) .
٢ الخزانة (٤٥/٢) ، (بولاق) .
٣ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٥٣٣) .
٤ الخزانة (٤٥/٢) ، (بولاق) .
٥ الخزانة (٣١٥/٢) ، (بولاق) .
٦ أمالي المرتضى (٥٤/١) .

فاذا قال ؟ فأكدى والله النابغة أيضاً ، وأقبل كعب بن زهير وهو غلام ، فقال له أبوه : أجز يا بني ، فقال : ماذا ؟ فأنشده البيت الأول ، ومن الثاني قوله : بمستقر العز منها ؛ فقال كعب :

فتمنع جانبيها أن تزولا

فقال زهير : أنت والله ابني »[1] .

و(عَبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم بن عامر بن زهير بن مالك بن الحارث) الأسدي ، شاعر مفلق من فحول شعراء الجاهلية . وكان معاصراً لامرىء القيس، إذ يروي أهل الأخبار له قصيدة يخاطب بها امرأ القيس بن حجر ، أولها :

ياذا المخوفنـا بقتـ ـل أبيه إذلالاً وحينا
أزعمت أنك قد قتلـ ـت سراتنا كذباً ومينا[2]

أو أنه قال :

يا ذا المخوفنا بمقتل شيخه حُجرٍ تمنّى صاحب الأحلام

يخاطب به امرأ القيس الشاعر ، الـذي هدد (بني أسد) قتلة أبيه ، فأجابه عنهم بأن جعل وعيده كاذباً وما تمناه من الإيقاع بهم ، كأضغاث أحلام[3] . فهو اذن من الرعيل القديم من الشعراء المعاصرين لامرىء القيس .

وذكر انه القائل :

سائل بنا حجر بن أم قطام إذ ظلت به السمرُ النواهل تلعب[4]

وقد قدّمه بعض علماء الشعر ، فجعله من طبقة (امرىء القيس) ، وجعله بعضهم من الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية، وقرن به طرفة، وعلقمة بن عبدة ،

---

١ أمالي المرتضى (١/٩٧ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٨) ، الخزانـة (١/٣٢٤) ، (بـولاق) ، (٢،٢/١٢) ، (هارون) ، الاغاني (١٩/٨٧) ، البخلاء (١٩٠) .
٣ الخزانة (٢/٢١٢ وما بعدها) ، (١/٣٢٤) ، (بولاق) .
٤ أمالي المرتضى (١/٥٦) .

وعدي بن زيد[1] . وأجود شعره قصيدته التي يقول فيهـــا : « أقفـــر من أهله ملحوبُ » . وهي احدى السبع[2] . وجعلوه في عداد المعمرين ، فجعـــل (ابن قتيبة) عمره يوم قتل أكثر من ثلاثمائة سنة[3] . وجعل (السجستاني) عمره مائتي سنة وعشرين ، ثم استدرك المقدار وقال : « ويقال بـل ثلثمائة سنة »[4] . ولكي يثبتوا صحة دعواهم في انه عاش هذا العمر ، رووا له شعراً زعموا انه قاله،هو :

ولتأتين بعدي قرون جمـــة ترعى محارم أيكة ولدودا
فالشمس طالعة وليل كاسف والنجم يجري أنحساً وسعودا
حتى يقال لمن تعرق دهره يا ذا الزمانة هل رأيت عبيدا
مائتي زمان كامل وبضعـــة عشرين عشت معمراً محمودا

أدركت أول ملك نَصرٍ ناشئاً وبنـــاء شـدّاد وكان أبيـــدا
وطلبت ذا القرنين حتى فاتني ركضاً وكدت بأن أرى داودا
ما تبتغي من بعـــد هذا عيشة إلا الخلـــود ولن تنال خلودا
وليفنين هـــذا وذاك كلاهمـــا إلا الإله ووجهـــه المعبودا

وزعم أنه هو القائل :

فنيت وأفناني الزمان وأصبحت لداتي بنو نعش وزهر الفراقـد

وأنه القائل :

تذكرت أهل الخير والباع والندى وأهل عتاق الخيل والخمر والطيب
فأصبح مني كل ذلك قد خلا وأي فتى في الناس ليس بمكذوب
ترى المرء يصبو للحياة وطيبهـا وفي طول عيش المرء برح بتعذيب[5]

وهو شعر لو أخذنا بحكم من ذكروا فيه ، إذن وجب أن يكون عمر (عبيد)

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٦٠) ، الخزانة (٢/٢١٥) ، ابن سلام ، طبقات (٣١) ، الاغاني (١٩/٨٤) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٨٨) ، (الثقافة) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٨٧ وما بعدها) .
٤ الخزانة (١/٣٢٣) ، (بولاق) .
٥ الخزانة (١/٣٢٣) .

قد جاوز الألف سنة بكثير ، ويكون أهل الأخبار قد ظلموه ، إذ جعلوا عمره أكثر من ثلثمائة سنة ، وهو دون هذا العمر بكثير .

وزعم أن (المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء اللخمي) المعروف بـ (ذي القرنين) ، لقي (عبيـــد بن الأبرص) في يوم بؤسه ، وكان يقتل أول من يرى في يوم بؤسه ، فلما رآه قال له : هلاّ كان المذبوح غيرك يا عبيد ! فقال: أتتك بحائن رجلاه ، وأرسله مثلاً ، فقال له : أنشدني يا عبيد ؛ فربما أعجبني شعرك ! فقال : حال الجريض دون القريض ، وبلغ الحزام الطبيين . وأرسلها مثلاً ، وبقي يسأله وهو يجيب ، فيصير جوابه مثلاً ، حتى أمر بقتله ، فقال :

وخيّرني ذو البؤس في يوم بؤسه خصالاً أرى في كلها الموت قد برق
كما خُيِّرت عادٌ من الدهر مرّة سحائب ما فيهـا لذي خيـرة أنق
سحائبَ ريـح لم توكّل ببلدة فتتركهـا إلاّ كما ليلـةِ الطلق

وزعم أنه سأله أي قتلة تختار ؟ قال عبيد : أسقني من الراح حتى أثمل ، ثم أفصدني الأكحل ، ففعل ذلك به ، ولطخ بدمه الغريين[1] .

وقد أخطأ (ابن قتيبة) ، إذ جعل قاتله (النعمان بن المنذر)[2] ، بينما هو (المنذر بن ماء السماء) ، في الموارد الأخرى .

ولعبيد بن الأبرص شعر يتباهى فيه ببني أسد قومه ، من ذلك قوله :

فاذهب اليك فإني من بني أسد أهل القباب وأهل الجرد والنادي[3]

وبقباب الأدم تتفاخر العرب ، وللقباب الحمر قالوا : مضر الحمراء،والجرد : الخيل القصيرة الشعر ، وانما ذكـر النادي لأن النادي من سماء السيادة والرئاسة وضخامة القبيلة ، حيث يجتمع ساداتها فيه .

---

١ الخزانة (٢/٢١٨ وما بعدها) ، (هارون) ، الخزانة (١/٣٢٤) ، (بـولاق) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٦٠) ، أسماء المغتالين (المجموعة السادسة مـن نوادر المخطوطات) ، (ص ٢١١) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٨٨) ، (دار الثقافة) .
٣ الحيوان (٥/٤٨٦) .

وله قصيدة قالها متشكياً فيها من إعراض صاحبته عنه ، إذ رأته وقد كبر وصار شيخاً ، تغير لون شعره ، وعلا الشيب مفرقيه ، وقلّ ماله ، منها هذه الأبيات :

تلك عرسي غضبى تريد زيالي ألبين تريدُ أم لدلالِ
إن يكن طلبك الفراق فلا أحفلُ أن تعطفي صدور الجمالِ
أو يكن طبُّك الدلال فلو في سالف الدهر والليالي الخوالي
كنتِ بيضاء كالمهاة وإذ آ تيك نشوانَ مُرخياً أذيالي
فاتركي مطّ حاجبيك وعيشي معنا بالرجاء والتأمال
زعمت أنني كبرتُ وأني قل مالي وضن عني الموالي
وصحا باطلي وأصبحت شيخاً لا يُؤاتي أمثالها أمثالي
إن تريني تغيّر الرأس مني وعلا الشيب مفرقي وقذالي[1]

---

١ البيان والتبيين (٢٣٦/١) .

الفصل الستون بعد المئة

الشعراء الصعاليك

قال صاحب (اللسان) : « الصعلوك : الفقير الذي لا مال له ، زاد الأزهري : ولا اعتماد . وقد تصعلك الرجل اذا كان كذلك ، قال حاتم طيء :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى ... فكلاً سقاناه ، بكأسيهما الدهرُ
فما زادنا بغياً على ذي قرابة ... غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقر »[1]

« والتصعلك : الفقر . وصعاليك العرب : ذؤبانها . وكان عروة بن الورد يسمى : عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه »[2]، وقيل : الصعلوك : الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات »[3] . والصعاليك ، قوم خرجوا على طاعة بيوتهم وعشائرهم وقبائلهم ، لأسباب عديدة ، منها عدم إدراك أهلهم أو قبيلتهم نفسياتهم ، مما سبب الى نفورهم منهم ، وخروجهم على طاعة مجتمعهم ، وهروبهم منه ، والعيش عيشة الذؤبان ، معتمدين على أنفسهم في الدفاع عن حياتهم ، وعلى قوتهم في تحصيل ما يعتاشون به ، بالإغارة على الطرق والمسالك ، وبمهاجمة أحياء العرب المبعثرة ، أفراداً أو طوائف . وهم أبداً في خوف من متعقب يتعقبهم ، لاسترداد ما أخذ أو سلب ، ومن متربص يتربص

---

١ اللسان (١٠/٤٥٥ وما بعدها) ، (صعلك) ، (صادر) .
٢ اللسان (١٠/٤٥٦) ، (صعلك) ، تاج العروس (٧/١٥٣) ، (صعلك) .
٣ جمهرة أشعار العرب (١١٥) .

بهم الدوائر ، ليأخذ منهم ما غنموه بالقوة من غيرهم أو ما قد يجده في أيديهم. ولهذا كانوا يتكتلون أحياناً ، بانضمام بعضهم الى بعض ، مكونـين جماعات ، جمعت بينها وحدة الهدف ، وغريزة حماية النفس ، والمصلحة المشتركة ، بعد أن حرمهم أهلهم ومجتمعهم من تقديم أية مساعدة أو حماية لهم ، وسحب منهم حق الأخذ بالثأر والانتقام ممن قد يعتدي عليهم ، بحق (العصبية) ، وبعد أن جعل دمهم هدراً ، وتبرأ منهم ومن كل جريرة يرتكبونها ، فلا يطالب أهلهم بدمهم، ولا يطالبونهم بأي دم قد يسفحه الصعلوك .

ولا استبعد أن تكون للمغامرة ولاثبات الشخصية ، دخـل أيضاً في حدوث الصعلكة وفي تمرد الشباب على مجتمعهم ، على غرار ما نجده اليوم من تمرد على مجتمعاتهم ، لإثبـات وجودهم وشخصيتهم في هذه المجتمعات ، بطريقة العبث بالعرف والعادات وبعدم المبـالاة لأوامر العائلة والمجتمع ، مما يجعلهم يسيرون سيرة الصعاليك في ذلك الوقت ، فلو نظرنا الى حالة الصعاليك نجد أن منهم من كان من أسرة متمكنة أو لا بأس بأحوالها المالية ، ومع ذلك عاش صعلوكاً ، لما وجد فيها من مغامرات ومجازفات ومطاردة وهجوم ودفاع . فحب المغامرة ، وإثبـات الشخصية ، من أسباب الصعلكة في الجاهلية كذلك .

والصعاليك بعد ، حاقدون على مجتمعهم، متمردون عليه ، للأسباب المذكورة، نبتت في أكثرهم عقد نفسية ، تكونت عندهم من سوء معاملة المجتمع لهم، ومن سوء فعلهم وتصرفهم الخاطىء تجاه مجتمعهم ، فهم حاقدون لا يبالون مـن شيء ولو كان ذلك سلباً ونهبـاً وقتل أبناء قبيلتهم وعشيرتهم ، لأنهم خلعوا منها ، وحرموا من حق الدم ، فكان خلعها لهم سبب شقائهم وبؤس حياتهم ، فأي حق بقي إذن يمنعهم من الحقـد على القبيلة ومن مهاجمة العشيرة ؟ ثم إنهم حاقدون على مجتمعهم ، لأن منهم فقراء معدمين ، لا شيء عندهم يعتاشون عليه ، ولا ملابس لديهم تقيهم من الحر أو البرد أو المطر ، وكل مـا تقع أعينهم عليه ، هو مفيد لهم نافع ، ومن حقهم بحكم فقرهم انتزاعه من مالكه ، وإن كان مالكه فقيراً معدماً مثلهم ، لأن النفس مقدمة على الغير ، وهم يعيبون الخامل منهم ، الذي يعيش صعلوكاً ذليلاً قانعاً بما كتب عليه من الذل والتشرد ، عائشاً عـلى صدقات الناس ،ويرون الخلاص من هذا الذل بالحصول على المال بالقنا وبالسيف، فمن استعمل سيفه نال ما يريد ، لا يبالي فيمن سيقع السيف عليه ، وإلا عـدّ

من (العيال) . قال (السليك) :

فــلا تصلي بصعلوك نئوم   إذا أمسى يُعد من العيالِ
ولكن كل صعلوك ضروبٍ   بنصل السيفِ هامات الرجال[1]

« ولذلك كان صعاليك العرب ولصوصهم وأرباب الغارة منهم يرون أن مـا يحوونه من النعم بالغـارة ، وينالونه بالسرق والسلة ، إنما ذلك مال منعت منه الحقوق ، ودفع عنه بالبخل والعقوق ، فأرسلهم الله اليه وسببه لهم رزقهم إياه، كما قال عروة الصعاليك :

لعلّ انطلاقي في البلاد وعزمتي   وشدّي حيازم المطيّـة بالرحل
سيدفعني يوماً الى رب هجمة   يدافع عنها بالعقوق وبالبخل »[2]

« وكما ان فيهم من يتمــدح ببذل القرى ومعاناة الطوى ، وتحمل الكلفــة ومواساة ذوي الخلة ، فكذلك فيهم البخيل الجامع ، واللئيم الراضع ، ومن يؤثر التفرد بناره والاستئثار بزاده دون ضيفه وجاره . وينشد لبعضهم :

أعددت للأضياف كلباً ضارياً   عندي وفضل هراوة من أرزن

وقال الآخر :

وإني لأجفو الضيف من غير بغضة   مخافة أن يغري بنا فيعود

وقال الأصمعي : مرّ ابن حمامة بالحطيئة ، فقــال : السلام عليك . قال : قلت ما لا ينكر . قال : إني أردت الظل . قال : دونك ، والجبل حتى يفيء عليك . قال : اني خرجت من عند أهلي بغير زادٍ . قال مـا ضمنت لأهلك قراك . قال : اني ابن حمامة . قال : كن ابن نعامة . فمضى عنه آيساً .

قال : وخرج الحطيئة يوماً من خبائه وبيده عصا ، فقال له رجل: ما هذه؟ قال : عجراء من سلم . قال : اني ضيف . قال : للضيف أعددتها »[3] .

---

١ الشعراء الصعاليك (٢٣٥) .
٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٦٢ وما بعدها) .
٣ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٦٠ وما بعدها) .

والحطيئة من الملحفين في السؤال المستجدين الذين لا يخجلون من الاستجداء . فكان يلح في شعره بالطلب ، ويحاول بكل الطرق جمع المال ، حتى أهان نفسه، ولم يترك رجلاً معروفاً إلا ذهب اليه يسأله أن يعطيه مما عنده . فلما عيّن (عمر) (علقمة بن علاثة) على حوران ، قصده (الحطيئة) ، فوجده قد مات ، فقال :

وما كان بيني لو لقيتك سالماً وبين الغنى إلا ليال قلائل[1]

فأعطاه ولده مائة ناقة مع أولادها .

وقد عاب (الأعشى) (علقمة بن علاثه) ، بقوله :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[2]

وقد وجد الصعاليك في الأغنياء البخلاء ، هدفاً صالحاً لهم . فهؤلاء أصحاب مال ، وهم أصحاب جوع ، ولا بد للجوعان من أن يعيش ، فلم يجدوا في مباغتة الأغنياء أي حرج يمنعهم من السطو على أموالهم ، لأنها زائدة عليهم ، وهم في حاجة إليها ، وبذلك يضمنون لأنفسهم ولاخوانهم الجياع الصعاليك أسباب الحياة ، فالحاجة عندهم تبرر الواسطة، وإذا امتنع إنسان على صعلوك وأبى تسليم ما عنده اليه ، فهو لا يبالي من قتله ، فالقتل ليس بشيء في نظره ، منظره مألوف ، والفقر ذاته قتل للإنسان ، بل أشد فتكاً به من القتل ، والصعلوك نفسه لا يدري متى يقتل ، فلا عجب إذا ما رأى القتل وكأنه شربة ماء .

وكان (أبو عبيدة) ، لا يستأنس بسماع شعر الصعاليك ، لأنهم فقراء ، قال (أبو حاتم) : « جئت أبا عبيدة يوماً ، ومعي شعر عروة بن الورد ، فقال : فارغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير »[3] ، فهو من المحبين للأغنياء ، وما الذي يجنيه من الفقراء ! وكان (أبو مالك عمرو بن كركرة) البصري ، مثل (أبي عبيدة) في الابتعاد عن الفقراء ، بل كان أشد منه تعصباً عليهم ،

---

١ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٨٨) .
٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٥٩) .
٣ أمالي المرتضى (١/٦٣٨) .

« قال الجاحظ : كان أحد الطياب ، يزعم أن الأغنياء عند الله أكرم من الفقراء. ويقول إن فرعون عند الله أكرم من موسى »[1] . و (ابن كركرة) أعرابي ، وكان مرجع الأعراب الوافدين الى البصرة ، وقد تحدث عنه (الجاحظ) في كتبه .

وقد عرف الصعاليك بـ (الذؤبان) وبـ (ذؤبان العرب) ، « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم وشطارهم الذين يتلصصون ويتصعلكون ، لأنهم كالذئاب»[2]. وعرفوا باللصوص لأنهم كانوا يتلصصون . واللص السارق ، في لغة طيء[3] ، وقيل لهم : (الشطّار) . « والشاطر من أعيى أهله ومؤدبه خبثاً ومكراً ، جمعه الشطار كرمّان . وهو مأخوذ من شطر عنهم ، اذا نزح مراغماً . وقد قيل انه مولد »[4] . وعرفوا بـ (الخلعاء) ، والخليع الشاطر ، « وهو مجاز سمي به ، لأنه خلعته عشيرته وتبرأوا منه ، أو لأنه خلع رسنه . ويقال : خلع من الدين والحياء»[5]. « وكان في الجاهلية اذا قال قائل منادياً في الموسم : يا أيها الناس ! هذا ابني قد خلعته ، وذلك اذا خاف منه خبثاً أو خيانة ، أو من هو بسبيل منه ،فيقولون: إنا قد خلعنا فلاناً ، أي فإن جر لم أضمن ، وإن جر اليه لم أطلب. يريد تبرأت منه . وكان لا يؤخذ بعد بجريرته وهو خليع »[6] . و (الخلعاء) جماعتهم « واختلعوه اذا ذهبوا بماله »[7] . ولعل لهذا التفسير صلة بالصعلكة التي تعني الفقر ،فالفقر والإملاق والجوع من أهم الملازمات التي لازمت ورافقت الصعاليك، وفي هذا المعنى أيضاً ما جاء في كتب اللغة : « وشفر المال تشفيراً : قلّ وذهب »[8]، ولعل للفظة (الشنفرى) ، صلة بهذا المعنى ، وقد تكون للفظة (الرجل) التي تعني البؤس والفقر[9] ، صلة بهذا المعنى كذلك . فقد عرف الصعاليك بـ (الرجليين)

---

١ الفهرست (٧٢) .

٢ تاج العروس (٢٤٨/١) ، (ذاب) ، الخزانة (٥٣٢/٣) .

٣ تاج العروس (٤٣٢/٤) ، (لص) .

٤ تاج العروس (٢٩٩/٣) ، (شطر) .

٥ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلع) .

٦ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلع) .

٧ تاج العروس (٣٢٢/٥) ، (خلع) .

٨ تاج العروس (٣٠٨/٣) ، (شفر) .

٩ تاج العروس (٣٣٨/٧) ، (رجل) .

وبـ (الرجيلاء) ، وعرف الواحد منهـم بـ (الرجلي ّ)[1] ، وقد تكون للفظة (الخلع) صلة بالفقر والإملاق كذلك ، بدليل ما ذكروه في تفسير (المعيل) من قولهم : « المعيل : الذي قصر ماله وعليه عيال »[2] . وقد عرف الصعاليك بـ (الرجليين) لاستعمالهم أرجلهم في الإقدام والهروب ، لأنهم فقراء لا يملكون غير أرجلهم تحملهم الى المواضع التي يريدون سرقتها ، إذ لا خيل لهم يركبونها لعجز أكثرهم عن شرائها ، فلا يكون أمامهم غير الاعتماد على الرجل .

والجوع حليف ملازم للصعاليك ، لم ينفر منهم ، ولم يبتعد عنهم لذلك كثر الحديث عنه في شعرهم وفي أخبارهم . وقد كانوا يهربون منه ، لكنهم لم يفلتوا منه . فقد كان ممسكاً بهم ، ملازماً لهم ، مـــا داموا صعالكـة ، فالجوع نفسه جزء من أجزاء الصعلكة . وفي شعر (عروة بن الورد) أن الجوع كان ينزل به ، حتى يكاد يهلكه ، أنزل به الهزال ، وأراه الموت ، لولا أنه كان يتهرب منه بالغارة ، لينال منهـــا البلغة ، فالمنايا خير من الهزال المقيت المميت[3] . وفي شعر للسليك بن السلكة ، أن الجوع كان يغشاه في الصيف ، حتى كان إذا قام تولاه اغماء شديد ، يريه الدنيا ظلاماً من أثر الجوع[4] .

وما دامت حياة الصعلكة جوع وفقر ، وإملاق وهروب من متعقب ، فالموت خير للصعلوك من حياة يعيشها فقيراً ، لا أقارب له تعطف عليه ، ولا أهـــل يشفقون عليه ، ولا قوم يراجعونه ويتعهدونه بالحماية[5] ، حياتـه موحشة قاسية ، تفور بالأخطار والتهلكة والمغامرات ، لا يدري متى يأتيه الموت ومن أين يأتيه ، إذا نام ، خاف من غادر قد يغدر به ، ومن متعقب يتعقب أثره ، ومن طالب ثأر يريد الأخذ بثأره منـــه ، ومن حيوان صعلوك مثله ، يريد أن يقضي على

---

١ تاج العروس (٧/٣٣٩) ، (رجل) ، (أجارت السليك بن السلكة السعدى ،وكان رجليا) ، المحبر (٤٣٣) .
٢ تاج العروس (٥/٣٢١) ، (خلع) .
٣ أقيموا بني لبنى صدور ركابكم فان منايا القوم خير من الهزل
ديوان عروة (١٠٦) .
٤ الاغاني (١٨/١٣٥) .
٥ اذا المرء لم يبعث سواما ولم يـرح عليـه ، ولـم تعطف عليـه أقاربـه
فللمـوت خـير للفتـى مـن حياتـه فقـيرا ، ومـن مولى تـدب عقاربـه
ديوان عروة (١٥٠) ، وينسبان لغيره ، حماسة أبي تمام (١/١٦٦ ، ١٦٧) .

جوعه بافتراسه ، وهو معذور في ذلك لأنه جـائع لا طعام له ، ومن هنا هان الموت في نظر الصعلوك ، فهو معه يتبعه مثل ظله وملازم له ، وتولدت في نفسه فلسفة (الآجال) : فلسفة ان لكل نفس أجل ، وأن كل نفس ذائقـة الموت، وأن الإنسان مهما عاش وعمر ، فلا بد من أن يلاقي الموت ويستجيب له،لن ينجيه منه قصر (رِيمان) ، ولا حرس أبوابه المدججون بالسلاح ، يمنعون الناس من دخوله ، فالموت لا يعرف حرس القصور ولا يحول بينه وبين من يريد الوصول اليه حائل مهما كان . قال أبو الطمحان القيني :

لو كنتُ في ريمان تحرس بابه　　أراجيل أحبوش وأغضف آلف
إذن لأتتني حيث كنت منيتي　　يخبُّ بها هــاد بأمري قائف[1]

ولقرب الموت من الصعاليك ، ولتعقب أصحاب الثـأر دوماً لهم ، لازموا سلاحهم ، فكانوا لا ينامون إلا وسيفهم معهم . كما لازمهم الرقاد والسهر بالليل، خشية مباغتة غادر لهم ، والليل رفيق الغدر . لذلك كان ليلهم قصيراً ، ونومهم قليلاً ، من شدة قلقهم ومن تحسبهم لتعقب طلاب الثأر لهم ، ونجد في شعرهم اشارات الى مظاهر القلق الذي كان يستولي عليهم ، فيحول بينهم وبين النوم .

ونجد في شعر للشنفرى توجع وتألم ومرارة ، وإن صيغ بصورة الاستهتار بالموت وبالحياة ، فهو إن جاءه الموت ، فلن يبالي ، ولمَ يبالي ، وهو انسان خليـع بائس ، إن مات لا يجد من يبكي عليه أحد . فأي توجع أشد من هذا التوجع المصوغ في هذا البيت الساخر :

اذا ما أتتني ميتي لم أبالها　　ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي[2]

ولكن الحياة على ما فيها من مرارة وشقاء ، مطلوبة محبوبة ، فربَّ لحظـة فيها حبور تنسي كل ما كابده الانسان من تعاسة وشقاء ، والموت مكروه ممقوت، وإن تمنّاه المتمني ، وما تمنيه له إلا لثورة طارئة في النفس ولضيق في الصدر ، فإذا بان الموت لمتمنيه ضاق صدره ، وتمنى لو مد في عمره . يدفعه الأمـل الى

١ الاغاني (١١/١٣٣) .
٢ الاغاني (٢١/١٣٩) ، الشعراء الصعاليك (٣٣) .

التفكير في احتمال تغير الأوضاع ، وتحسن الحال ، والحصول على الغنى والمال ، بشرط أن يسعى ويضرب في الأرض وأن يكون صادق العزيمة ، لا يخور أمام المصائب مهما كانت شديدة عاتية ولا ينهار منها :

فسرْ في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا [1]

وقد كان عماد الصعلوك في حياته ، قوته الجسدية وسلاحه الذي يحارب به ، وجماعته الذين يأوي اليهم ، وكان يقـاتل بضراوة ، قتال المستميت ، لأنه إن لم يدافع عن نفسه ، هلك ، إذ لا أمـل له في وجود عصبية تدافع عنه ، أو أهل يقومون بافتدائه وتخليصه من أسر إن وقع فيه ، وسبيله الوحيد لخلاصه عند قيامه بغارة : المباغتة والهرب بمـا قد يحصل عليه بسرعة ، كي يأمن العاقبة ، وعمل الحيلة في التخلص من المآزق ، لكيلا يقع في ايدي متعقبه ، فيكون بذلك هلاكه ، وفي جملة ذلك الفرار ، للنجاة بالنفس من موت محتم . وهو فرار يؤدي به الى معاودة الغارة والتلصص ، إذ لا مورد له في هذه الحياة يتعيش منه غـير هذين الموردين . فحاله في هذا الفرار حال (أبـي خراش) الهذلي حيث يقول:

فـإن تزعمي أني جبنتُ فإنني أفـر وأرمي مرة كـل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك [2]

ونظراً لفقر الصعاليك ، وعـدم وجود مال لديهم يكفـل لهم شراء فرس يركبونها في غاراتهم ، اعتمد أكثرهم على أرجلهم في طلب رزقهم،وفي الحصول على معاشهم ، وعلى خفة حركاتهم ، وسرعتهم في الهروب من تعقب المتعقبـين لهم في حالتي الفشل أو النجاح . وكان من بينهم من ضرب به المثل في زمانـه في شدة العدو ، وفي سرعة الركض ، ورويت عنه الأقاصيص في ذلك . منهم (سليك بن المقانب بن السلكة) ، وهو عدّاء بالغ . يقال : أعدى من السليك [3]. وقد عرفوا لذلك بـ (العدائين) لشدة عدوهم [4] ، جمع (عداء) ، ومنهم أيضاً

---

١ ديوان عروة (١٩١) .
٢ ديوان الهذليين (٢/١٦٩) ، الدكتور يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك (٤٠) .
٣ تاج العروس (١/٤٠٩) ، (غرب) .
٤ الخزانة (٢/١٧) .

(الشنفرى) : « شاعر عداء . ومنه المثل : أعدى من الشنفرى »[1] ، « وكان من العدائين . وفي المثل : أعدى من الشنفرى »[2] . كما عرفوا بـ (الرجليين) وبـ (الرجيلاء) ، وهم « قوم كانوا يعدون . كذا في العباب . ونص الأزهري: يغزون على أرجلهم ، الواحد رجليّ محركة أيضاً ... وهم سليك المقانب ، وهو ابن سلكة ، والمنتشر بن وهب الباهلي ، وأوفى بن مطر المازني »[3] ، «والرجلة بالفتح وبالكسر : شدة المشي ، أو بالضم القوة على المشي ، وفي المحكم : الرجلة بالضم المشي راجلاً »[4] . وقد صار العدو من أهم صفاتهم ومميزاتهم التي امتازوا بها عن غيرهم ، حتى قيل إن الخيل لم تكن تلحق بهم . ونعتوا بأنهم كانوا أشد الناس عدواً ، وانهم « لا يجارون عدواً » ، و« لا يلحقون »[5] . ومن العدائين : (تأبط شراً) ، و (عمرو بن البراق) ، و (أسيد بن جابر)[6]. وورد ان العرب كانت تضرب بالسليك المثل في العدو ، وتزعم انه والشنفرى أعدى من رئي[7] .

وضرب المثل بسرعة عدوهم ، واتخذ القصاص من شدة عدو الصعاليك مادة أدخلوها في قصصهم ، وبالغوا فيها لتناسب طابع القص واسلوبه ، وقد وجد بعضه سبيلاً الى كتب الأخبار والأدب والعجائب والنوادر . وتؤلف المبالغات في سرعتهم وعدوهم أهم عنصر في القصص الذي يتحدث عنهم ، نجد فيها أن الصعلوك يسابق الخيل ، فيسبقها ، هذا (أبو خراش) الهذلي ، يدخل مكة ، فوجد (الوليد بن المغيرة) المخزومي ، يهم بإرسال فرسين له الى (الحلبة) فيقول له : ما تجعل لي إن سبقتها ؟ قال : إن فعلت فهما لك ، فأرسلا وعدا بينهما فسبقهما فأخذهما »[8] . وهذا (تأبط شراً) يوصف بأنه « كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر

---

١ تاج العروس (٣١٨/٣) ، (الشنفيرة) .
٢ تاج العروس (٣٠٨/٣) ، (شنفر) .
٣ تاج العروس (٣٣٩/٧) ، (رجل) ، ثمار القلوب (١٣٥) .
٤ تاج العروس (٣٣٦/٧) ، (رجل) .
٥ الاغاني (٤٩/١٢) ، (١٣٣/١٨ وما بعدها) ، المرزباني ٤٦٨) ، الخزانة (١٦/٢) .
٦ تاج العروس (٣٠٨/٣ ، ٣١٨) ، (شفر) ، (شنفر) .
٧ ثمار القلوب (١٣٤) .
٨ الاغاني (٥٧/٢١) .

الى الظباء ، فينتقي على نظره أسمنها ، ثم يجري خلفه ، فلا يفوتـه حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله »[1] . الى غير ذلك من قصص وحكايات .

وقد فخر العداؤون بشدة عدوهم ، وتباهوا بمقدرتهم على العدو السريع، حتى أنهم نسبوا سبب نجاتهم من الموت الى عَدْوهم هذا ، لا الى قتالهم وشجاعتهم، وبالغوا في شعرهم به ، حتى ذكروا أنهم كانوا يسبقون الخيل والظباء بل الطير[2]. هو نوع من (البطولة) في مفهوم الصعاليك ، حتى أنهم – كما قلت – فضّلوه على الشجاعة، وإذا كانت الشجاعة ضرب من الإقدام وإظهار المقدرة والرجولية، فالركض فراراً ، نوع من البطولة أيضاً ، فيه مقدرة وشجاعة في ضبط الأعصاب وفي التصميم والإقدام عـلى السلامة والنجاة بالنفس وبقاء الحياة وهكذا أوجدوا لفرارهم عذراً اعتذروا به ، فهم إن اختاروا الفرار وفضلوه على المعاركة والقتال فإنما اختاروه لأن فيه أمل المعاودة الى قتال جديد ، ثم إنهم لا يرون سبباً يدعو الإنسان الى أن يرمي نفسه في المهالك ، وأن يكون طعامـاً للوحوش الكاسرة[3] . فليس في الهروب جـبن ، وليس في الاقدام شجاعة ، والعاقل من اتعظ فنجى نفسه من الموت ، وفي النجاة شجاعة .

وقد كان لسرعة عدو الصعاليك العدائين فضل كبير عليهـم في النجـاة من المهالك المحتمة ، هذا (تأبط شراً) ، يذكر في شعر له انه وقـع في فخ في موضع (العيكتين) ، وكاد يهلك ، لولا استعانته بالركض ، ولا أحد أسرع منه ، وبذلك نجا وخلص من الوقوع في داهية[4] . فلا عجب اذن ، اذا ما افتخروا بسرعة عدوهم ، وجاهروا بما لأرجلهم من فضل ومنة عليهم . فلولا العدو لما خرج (أبو خراش) سالماً من موت كان قـد أحاق به ، ولكنه غلب الموت بشدة عدوه وهروبه منه ، فعاد سالماً معافى الى حليلته ، فاستقبلته ابنته بقولها : « سلمتَ وما إن كدت بالأمس تسلم » ، وأنقذ بذلك ابنه (خراش) من الوقوع في اليتم[5] .

---

١ الاغاني (١٨/ ٢١٠) .
٢ الشعراء الصعاليك (٢٠٩ وما بعدها) .
٣ الشعراء الصعاليك (٢٠٩ وما بعدها) .
٤ المفضليات (٧ وما بعدها) ، الشعراء الصعاليك (٤٢) .
٥ الاغاني (٢١/ ٥٦ وما بعدها) ، ديوان الهذليين (٢/ ١٤٨) .

فلا عجب اذن ، إن رأينا (الحاجز الأزدي) ، يفدي رجليه بأمه وخالته، وهو فداء في نظرنا غريب ، لكنه ليس بغريب ، بالنسبة الى انسان رجلاه رأسماله في هذه الحياة ، بفضلهما سلم من المهالك ، وحصل على قوته ، ولولاهما لكان من الهالكين :

فدى لكما رجليّ أمي وخالتي   بسعيكما بين الصفا والأثائب[1]

وكان الصعاليك يغيرون فرساناً كذلك ، كانوا يجيدون ركوب الخيل والإغارة عليها ، وعدّ بعضهم من خيرة فرسان الجاهلية . ولعروة بن الورد فرس يسمى (قرمل)[2] ، وللسليك فرس يسمى (النحام)[3] ، وللشنفرى فرس يسمى (اليحموم)[4] ، وقد عرفت هذه الأفراس بشدة عدوها .

والسلاح للصعلوك ، هو الحماية الوحيدة التي يتقي بها أذى الناس ، ويستعين بها في القضاء على خصمه ، وهو السيف والقوس والرمح والدرع والمغفر ، وكان لا يفارق سلاحه ، لأنه لا يدري متى ينقض عليه عدوّ له فيقتله ، فكان لا بد له من حمل سيفه معه ، واعتناقه له حين نومه ، وقد عد (عروة بن الورد) ، و (عمرو بن براقة) السلاح رأسمالها الذي يتكلون عليه في هذه الحياة[5] .

ولصعوبة تصعلك الرجل بمفرده ، تكتل الصعاليك كتلاً ، وكوّنوا لهم فرقاً، تكوّنت من أشتات وأنماط من الرجال،فيهم الحرّ الثائر ، وفيهم الضال الغاوي، وفيهم الأسود العبد ، وفيهم القاتل الفاتك . وهم بالطبع من قبائل مختلفة ومن بطون متنافرة . فلا تجمعهم عصبية القبيلة ، ولا نخوة العشيرة ، ومع ذلك فبينهم رابطة قوية ، ووحـــدة جمعت بينهم ، هي وحدة الدفاع عن النفس ، والذب عنها ، والكفاح في سبيل المعيشة ، بأي سبيل ، وبأية طريقة وجدت ووقعت ، حتى بالقتل . فمن وجد شخصاً ومعه مال ، لا يجد الصعلوك والقاتل سبباً أخلاقياً

---

١ الاغاني (٥٢/١٢) .
٢ قال عروة :
كليلـــة شيبــاء التي لست ناسيــا   وليلتنـــا اذ مــن مـــا مـــن قرمـــل
تاج العروس (٧٩/٨) ، (القرمل) .
٣ ذيل الامالي ، للقالي (١٨٨) .
٤ ديوان الشنفرى ، تحقيق الميمني ، (لجنة) (ص ٤٠) .
٥ ديوان عروة (٢٠٧) ، الاغاني (١٧٥/٢١) .

يمنعه من قتله للحصول على ماله . فلما كان (عروة بن الورد) في أرض (بني القين) يتربص المارة ، فمرت به إبل ، فيها ظعينة ورجل يحرسها ، خرج اليه (عروة) فرمى الرجل بسهم في ظهره ، أرداه قتيلاً ، واستاق الإبل والظعينة[1]. ولما خرج (الأخينس) الجهني فلقي (الحُصين) العمري ، وكانا فاتكين ، وسارا حتى لقيا رجلاً من كندة في تجارة أصابها من مسك وثياب وغير ذلك ، طمعا به ، فاغتره (الحصين) فضرب بطنه بالسيف فقتله ، واقتسما ماله ، ثم ركبا ، وطمع (الأخينس) في مال (الحصين) فتربص به الفرص حتى أخذه على غرة فقتله واستولى على ما كان عنده ، في حكاية تروى، وفيه يقول الأخينس على لسان (صخرة) أخت (الحصين) :

تسائل عن حصينٍ كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين[2]

فالفاتك لا يجد مانعاً أخلاقياً يمنعه من الفتك بأي شخص إن وجد عنده المال ووجد له فرصة مؤاتية ، ثم هو لا يمتنع من الفتك حتى بزميله وصاحبه وشريكه في الإغارة والفتك ، والتاجر لا يأمن من حراسه ومن مرافقيه حتى يصل مقرّه، لأن الفقر لا يعرف أخاً ولا صديقاً وشريكاً ، قاتل الله الفقر ووقانا شرّه !

ونجد (تأبط شراً) ، يتبجح في شعر ينسب له ، فيقول انه لا يبيت الدهر إلا على فتى أسلبه ، أو على سرب أذعره[3] . ونجد صاحب (لامية العرب) ، إن صح انها للشنفرى ، يصف غارة ملأت الرعب في قلب من وقعت عليهم ، قام بها في ليلة باردة ، عاد منها سالماً معافى بغنائم ، وهو فرح بما تركه من قتل وسلب وألم في نفوس النساء والأطفال ، إذ يقول :

فأيمتُ نسوانا ، وأيتمت إلدةً وعدتُ كما أبدأتُ ، والليل أليلُ[4]

ونجد (السليك) يخرج مع صعلوكين يريدون الغارة ، فساروا حتى أتوا بيتاً متطرفاً ، ووجد شيخاً غطى وجهه من البرد ، وقد أخذته إغفاءة ، ومعه إبله

---

١ ديوان عروة (١١٣) ، (اخراج عبد المعين الملوحي) .
٢ عيون الاخبار (١/١٨١ وما بعدها) ، (طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي) .
٣ الاغاني (١٨/٢١٧) .
٤ الشعراء الصعاليك (٤٩) .

ترعى ، فأسرع اليه وضربه بسيفـه فقتله ، ونهبوا إبله ، وعادوا بها مسرعين فرحين ، خشية شعور الحي بأمرهم وتعقبهم لهم . قتله دون أن يشعر بوخـزة ضمير ، لقتله انساناً نائماً طاعناً في السن يرعى إبله ، وإن وجدناه يبرر فعلته هذه ، بأنه لم ينل هذه الإبل إلا بعد أن صكه الجوع ، واستولى عليه الفقر ، فهو قد قام به مضطراً[1] ، والضرورات تبيح المحظورات .

ونرى (صخر الغيّ) المزني ، يقول في شعر له ، انه قتل رجـلاً من (مزينة) وسلبه ماله ، ليقوى به مال رجل فقير ، لا يملك مالاً :

في المزني الذي حششت به مالَ ضريك تلاده النكد[2]

وعلى الرغم من هذا العنف،ومن هذه القساوة العنيفة ، التي تصل الى الوحشية ، نرى عند بعضهم ، روحاً إنسانية ، فيها العطف على الضعيف ومساعدة المحتاج وبذل المال والنجدة ، والبر للأهل والأقارب بل وللغريب أيضاً . بل نجـد هذه الروح أحياناً حتى عند القساة منهم ، وسبب ذلك أن الصعالكة في ثورات نفسية ، يعيشون عيشة قلقة مضطربة ، فإذا كانوا في ثورة جامحة من جوع وحاجـة وتألم مما حلّ بهم وعما هم فيه من سوء حال ، هاجوا فكفروا بكـل شيء ، وثاروا على كل شيء وعلى كل أحد ، وصاروا لا يبالون بعرف ولا سنة ، يقتلون لأتفه الأسباب ، لأنهم معرضون أنفسهم في كل لحظة للقتـل . ثم إن القتل لا شيء بالنسبة الى تلك الأيام ، وان تعاظم في نظرنا . فهم في ذلك مثل الأسود الجائعة ، لا تعبأ بشيء ، وكل همّها الحصول على فريسة لتأكلها فتعيش عليها ، فاذا وجد الصعلوك غنيمة ، وعاد الى مقره سالماً ارتخت أعصابه ، وهدأت سورته ، وتذكر نفسه وما يقاسيه من ألم وجوع ، فيعود إنساناً آخر ، باراً بأصحابه حنوناً عليهم ، نادماً على حياة يعيشها جعلته يعيش مثل الوحوش الكاسرة ، كريماً يعطي مما ناله بقوته وبسلاحه وبذكائه . هـذا (عروة بن الورد) و (أبو خراش) الهذلي

---

١ وما نلتها حتى تصعلكت حقبـة وكـدت لاسبـاب المنيـة أعـرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني اذا قمـت تغشاني ظـلال فاسـدف
الشعراء الصعاليك (١٨٢ وما بعدها) .

٢ الشعراء الصعاليك (٢٣٨) .

وغيرهما ، نجـد فيهم النقيضين ، نجد فيهم القسوة بل الوحشية ، ثم نجد فيهم العطف والشفقة والرحمة والاشفاق على الضعفاء ، وما الجمع بين النقيضين إلا من واقع هذه الظروف النفسية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية التي كانوا يعيشون فيها .

وفي شعر ينسب الى (أبي خراش) الهذلي ، امتداح للكرم ولكرامة الانسان في الحياة ، وترفع عن المذلة وتباه بإيثار الغير على نفسه ، مع انه فقير صعلوك، فهو يقول :

وإني لأُثوي الجوعَ حتى يملني فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبق المـاء القراح فأنتهي اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم
أرد شجاع البطن قد تعلمينه وأوثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيـا برغم وذلة وللموتُ خيرٌ من حياة على رغم[1]

وقد عاش هؤلاء على المباغتة والغارات ، فكانوا يتسترون في المواضع الوعرة، وفي مفارق الطرق وشعاب الجبال حتى اذا مر بهم مار ، ووجدوا أن في إمكانهم الحصول على غنيمة ، باغتوه ، وأخذوا منه ما هو عنده . وقـد يغيرون على الأحياء ليلاً ، فيأخذون ما يجدونه أمامهم ، ثم يجرون بسرعة حتى لا يدركهم أحد ، ليصلوا الى مواضع آمنة بعيدة عن التعقيب ، مثل الكهوف والمغاور والآكام، يأوون اليها ويعيشون بها عيشة الخائف المتشرد الهارب من مجتمعه ، الحاقد عليه ، لأن في قلبه حقداً عليه ، لأنه لم يفهمه ولم يفهم سبب نقمته على مجتمعه. وأكثرهم من الشباب الذين خرجوا على طاعة أوليائهم أو على عُرف مجتمعهم ، أو عوملوا معاملة أشعرتهم انها اذلتهم وجرحت كرامتهم،فانفصلوا بذلك عن أهلهم وعشيرتهم أو فصلهم أهلهم عنهم ، فلم يبق أمامهم من سبيل سوى التصعلك والتشرد .

وكان من هؤلاء مثل (عروة بن الورد) من جمع حوله الصعاليك، ولفّهم حوله ، فكان يغزو بالقوي الجسر منهم؛ فإذا أصابوا مغنماً جاءوا به الى أصحابهم الضعفاء ممن لا يتمكن أو لا يتجاسر على الغارة ، فيصيبونهم مما أصابوا ويعينونهم عما غنموا ، وحياة على مثل هذا الطراز ، هي حياة شديدة قاسية ولا شك .

---

١ ديوان الهذليين (٢/١٢٧) ، (دار الكتب) ، الاغاني (٢١/٤٢) .

وقد كانت المرتفعات الصعبة المشرفة على المسالك والطرق الضيقة من أهم الأماكن المحببة الى نفوس الصعاليك وقطاع الطرق ، يحتمون بالمواضع المشرفة منها على الطرق لمراقبة المارة ، من (مرقبة) تخفي معالمها لئلا يراها أو يفطن لوجودها سلاك الطرق ، فاذا مروا بها انقضوا عليها منها ، وكأنهم هبطوا عليهم من السماء . ونجد لها ذكراً في شعر الصعاليك واللصوص وقطاع الطرق[1] . وقد اشتهر جبل هذيل بمرقباته ، ورد : « والمرقبة جبل كان فيه رقباء هذيل »[2] .

ونجد في شعر (تأبط شراً) أنه كان يغير على (أهل المواشي) و (أهل الركيب) والحبّ ، وعلى (أرباب المخاض) ، فعند هؤلاء ما يطمع فيه الفقير الصعلوك من مال وحب يعتاش عليه ، ومن نوق حوامل[3] . ونرى (الأعلم) الهذلي ، يذكر أنه يغزو المترف السمين ، الذي يعيش بين الستائر والكنيف ، بينما هو وأمثاله لا يملكون شيئاً ، فاذا هاجموه ، خاف وانهدّ كيانه[4] . ولهذا صار الساكنون في الأرضين الخصبة والتجار والسابلة من خيرة الأهداف التي كان يترصدها الصعالكة ، لعلمهم بوجود شيء عند أصحابها ، أكثر مما يجدونه عند الأعراف الضاربين في البوادي النائية المكشوفة .

ويطمع الصعاليك أيضاً بعضهم في بعض ، فالحياة جوع وفقر ، والفقر كافر لا يعرف عرف (المهنة) ولا مجاملات الصنف ، ثم هم أبناء البادية ، ومن طبع البادية ، أن يغير أبناؤها بعضهم على بعض ، للحصول على لقمة العيش ، فكان الصعاليك تبعاً لهذه السنة يغير بعضهم على بعض، خاصة اذا كانوا صعاليك متعادية. فكان بين صعاليك هذيل وصعاليك فهم ، عداء شديد ، وحقد دفين ، بسبب العداوة بين الحيين[5] ، عداوة مرجعها تجاور الحيين ، واختلاف مصالحهما الحيوية، وطمع القبيلتين في (بجيلة) ، و (بجيلة) في جوار (الطائف) ، وهي غير

---

١ الشعراء الصعاليك (١٨٦ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (١/٢٧٦) ، (رقب) .

٣ فيوماً على أهل المواشي وتارة ... لاهل ركيب ذي ثميل وسنبل
ولكن أرباب المخاض يشفهم ... اذا اقتفروه واحداً أو مشيعا
الاغاني (١٨/٢١٧) ، حماسة أبي تمام (٢/٢٨) .

٤ الشعراء الصعاليك (٢٣٧) .

٥ شرح أشعار الهذليين (١/٢٣٣ وما بعدها) ، الشعراء الصعاليك (٤٨) .

بعيدة عن فهم ، ولا تبعد منازلها بعداً كبيراً أيضاً عن ديار هذيل[1] .

وكان بين (صخر الغي) الهذلي و (تأبط شراً) عداء شديد . وقد سمي (الهذلي) (تأبط شراً) بـ (ابن ترني) ازدراء به . ونجد في الشعر الوارد في هجاء الشاعرين بعضهما لبعض لوناً طريفاً من ألوان هذا الصراع الـذي كان يقع بين الصعاليك[2] ، وهو صراع أسبابه عديدة ، صراع متولد من عصبية قبلية ، أو من تنافس وتحاسد في الحرفة وعلى الرئاسة والزعامة والصيت والشهرة ، أو في طمع كل واحد منهم في الآخر للاستيلاء على ما حصل عليه من مال ليتعيش به.

وقد انتشر الصعاليك في كل موضع من جزيرة العرب ، ففي كل مكان منها جوع وفقر وصعلكة ، حتى صاروا قوة مرعبة مخوفة ، لشدة بأسهم في القتال ، ولمعرفتهم بالمسالك وبمنافذ الطرق وبمداخلها وبأسرار البوادي وخفايا النجاد والجبال ، فكانوا أن اتخذوا من الكهوف والمنحدرات والمسترات المشرفة على الأودية والطرق ، مواضع رصد واختفـاء ، يراقبون منها حركات المارة ، فإذا وجدوهم دخلوا موضعاً صعباً ، يمكـن حصرهم به ، انقضوا عليهم ، فأخذوا منهم ما يكون عندهم من متاع هذه الدنيا ، ثم هربوا بما غنموا الى مخابئهم حيث لا يصل اليهم أحد ، وإن وجدوا أن السابلة أقوى منهم وأشد بأساً ، اتخذوا من الفرار وسيلة للسلامة والنجاة ، فلا يلحقهم متعقب ، ولا يطمع أحـد في إصابتهم بمكروه ، وهم على علم واسع وخبرة عالية بمجاهل البوادي وبخبايا الأرض ، وهكذا يكونون في نأي عن التعقيب وفي منجاة من التعقب . ولما سدت السبل في وجه (النعمان ابن المنذر) بعد أن غضب كسرى عليه ، وأخذ يتنقل من مكـان الى مكان ، لجأ الى (هانىء بن قبيصة) الشيباني ، فأجاره ، وقال : لزمني ذمامك ، وإني مانعك مما أمنع نفسي وأهلي وان ذلك مهلكي ومهلكك ، وعندي رأي لست أشير به لأدفعك عما تريده من مجاورتي ، ولكنه الصواب ، فقال هاتـه ، قال : إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه ، إلا أن يكون بعد الملك سوقة . والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريماً خير من أن تتجرع الذل أو تبقي سوقـة بعد الملك . امض الى صاحبك واحمل عليه هدايا ومالاً والق نفسك بـين يديه ،

---

١ شرح اشعار الهذليين (٢٣٣/١ وما بعدها) .

٢ الشعراء الصعاليك (١٩٢) .

فإما أن يصفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، واما أن يصيبك ، فالموت خير من أن تتلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها »[1] ، وفي نصيحة هانيء، للنعمان، واشارته فيها الى (صعاليك العرب) دلالة على انتشارهم في كل مكان . وأنهم صاروا خطراً على الأمن ، يحسب له كل حساب .

ولما خلع (امرؤ القيس) ، وصار ضلّيلاً خليعاً ، « جمع جموعاً من حمير غيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها »[2] ، وأخذ يغير بهم على أحياء العرب ، ما كان (امرؤ القيس) ليجمع جمعهم ويحزبهم حزبه لو لم تكن في نفسه حاجة لهم ، فقد كانوا قوة ، وقد صاروا رعباً يخيف الناس ، كالذي كان في جبل (تهامة) من تكتل خليط من كنانة ومزينة والحكم والقارة والسودان ، من تكتلهم ولمّهم وأخذهم من كان يمر بالغارة والنهب والسلب ، بقوا على ذلك أمداً ثائرين على مجتمعهم ، حتى ظهور الاسلام ، فكاتبهم الرسول ، وأمنهم انهم ان آمنوا وأقاموا الصلاة ، وصدقوا ، « فعبدهم حر ، ومولاهم محمد ، ومن كان منهم من قبيلة لم يردّ اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان »[3] . فهم قوم متمردون ثائرون لا يعطون أحداً طاعة ، إلا طاعة أنفسهم والمترئس فيهم . ولعل هذا هو الذي حدا بأهل النسب والأخبار أن يقولوا : « والخلعاء: بطن من بني عامر بن صعصعة ... كانوا لا يعطون أحداً طاعة »[4] .

وهكذا وضع (الصعاليك) أنفسهم في خدمة من يريد استخدامهم لتحقيق أهدافه التي يريدها ، مقابل ترضيتهم وإعاشتهم ، كما يفعل الجنود المرتزقة هذا اليوم من خدمة الدول الأجنبية ، بانضمامهم الى الفرق الأجنبية ، كما هو الحال في (فرنسا) مثلاً لاستخدامهم في القتال .

وقد جعلت حياة التشرد والغارات والهروب والفرار الى مواضع بعيدة نائية وفي مجاهل البراري ، الصعاليك من أعلم الناس بدروب جزيرة العرب ، وبالمواضع

---

١ الاغاني (٢/١٢٦) ، الخزانة (١/١٨٥ وما بعدها) .
٢ الخزانة (٣/٥٣٢) ، (جمع جمعاً من بني بكر بن وائل وغيرهم من صعاليك العرب) ، معاهد التنصيص (١/٥) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٨) ، (صادر) .
٤ تاج العروس (٥/٣٢١) .

الصعبة منها بصورة خاصة . وقد وصف (السليك) ، (البعيد-الغارة) بأنه « أدل من قطاة » ، ونعت الصعاليك جميعاً بأنهم « أهدى من القطا »[1] ، وافتخر الصعالكة أنفسهم بأنهم كانوا يعرفون عن خفايا البوادي والجبال ما لا يعرفه أحد غيرهم ، وبذلك كانوا ينجون أنفسهم من تعقب المتعقبين لهم[2] .

ونجد لشذاذ العرب ، ذكراً في أخبار الغزو وفي أخبار الأخذ بالثأر ، وفي أخبار من كان يريد الانتقام من أعدائه ، فلما غزا (زيد الخيل) الطائي (بني عامر) ومن جاورهم من قبائل العرب من قيس ، « جمع طيئاً وأخلاطاً لهم ، وجموعاً من شذاذ العرب »[3] ولما غزا (زهير بن جناب) الكلبي ، بكراً وتغلب أخذ « من تجمع له من شذاذ العرب والقبائل » وغيرهم فغزا بهم[4] . وقد كان هؤلاء (الشذاذ) على استعداد لوضع أنفسهم في خدمة من يريد استخدامهم في مقابل أجر ، أو يتكفل بإعاشتهم وإرزاقهم ، أو من يرزقهم غنيمة من غارة يساهمون فيها ، فلما أراد (أبو جندب) الهذلي ، الأخذ بثأر جارين له قتلها (بنو لحيان) ، قدم مكة ، فأخذ جماعة من خلعاء بكر وخزاعة ، وخرج بهم على بني لحيان ، وكان قد « قدم مكة ، فواعد كل خليع وفاتك في الحرم أن يأتوه يوم كذا وكذا ، فيصيب بهم قومه » ، ليثأر لأخيه[5] .

وكانت مكة على ما يظهر من أخبار أهل الأخبار ، مكاناً أوى اليه ذؤبان العرب وخلعاؤهم وصعاليكهم ، حتى كثر عددهم بها ، لما وجدوه فيها من حماية ومعونة ، وكان أحدهم اذا جاءها ، نادى قريشاً نداء النخوة لتؤويه وتجيره ، فيقوم أشرافها بحمايته وتقديم الجوار له . ومن هنا نجد الفتاك وأهل الغي والضلال يجوسون خلالها في أمن وسلام ، لحرمة المدينة ولحرمة حقوق الجوار ، ولعل المصالح الاقتصادية التي كانت تجنيها قريش من هذا الإيواء ، كانت السبب الأول في جعل سراتها يقدمون العون والجوار لأولئك الذؤبان الفتاك الذين كانوا لا يتورعون من الإقدام على أي عمل مهما كان شأنه خطيراً ، حتى إن كان فيه هلاكهم ،

---

١ الاغاني (١٣٤/١٨) ، المرزباني (٤٦٨) ، الشعراء الصعاليك (٥٤) .
٢ الاصمعيات (٣٥/١) .
٣ الاغاني (٥٢/١٦) .
٤ الاغاني (٩٦/٢١) .
٥ الاغاني (٦٢/٢١ وما بعدها) ، شرح أشعار الهذليين (٨٣/١ وما بعدها) .

أو جاء بالأذى على من أحسن اليهم وأجارهم ، فهم قوم أصابهم طيش وركبهم التمرد والحقد على المجتمع ، فهم لا يبالون بارتكاب أية موبقة ولو وقعت منهم في الحرم ، فقد كان في وسع تجار قريش تأمين تجارتهم بالإحسان الى هؤلاء الذين كان في استطاعتهم مهاجمة القوافل ونهب ما معها من أموال ، كما كان بامكانهم استخدامهم حرّاساً يخرجون مع قوافلهم لحراستها من بقية الصعاليك الى وصولها الى الأماكن التي تريدها ، كما كان في استطاعتهم الاستفادة من الفتاك في الفتك بمن يناصبهم العداء ، وفي القضاء على كل من يريد التحرش بقرشي أو بأموال قريش أو حلفائهم . وبذلك تمكنوا من حماية تجارتهم من الصعاليك ومن الأعراب الذين قد تمر تجارة قريش بهم ، وإن كانت قريش قد أمنت جانبهم أيضاً بعقد حبالها مع سادات القبائل بإيلاف عرف بـ (إيلاف قريش) في القرآن الكريم .

وكان (البراض) ، وهو (رافع بن قيس) وهو من الفتاك ، قد لجأ الى مكة ، فحالف (بني سهم) من قريش ، فعدا على رجل من هذيل فقتله ، فخلعه (العاص بن وائل) فأتى (حرب بن أمية) فحالفه ، فعدا على رجل من خزاعة فقتله وهرب الى اليمن ، فخلعه (حرب) ، فلما ضاقت به السبل ذهب الى الحيرة ، وطلب من النعمان أن يجير له (لطيمته) ، فقال له (الرحال ابن عروة) : « أنت تجيرها على أهل الشيح والقيصوم ؟ وإنما أنت كلب خليع ! » فأعطاها (النعمان) الى (عروة) ، فخرج (البراض) في أثره ، فلما انتهى الى (أوارة) قتله وانتهب اللطيمة ، فكان بسببه حرب الفجار بين كنانة وقيس[1].

وبين الصعاليك قوم من (الغربان) (غربان العرب) ، وأغربة العرب سودانهم . شبهوا بالأغربة في لونهم ، وكلهم سرى اليهم السواد من أمهاتهم[2] . تصعلكوا لازدراء قومهم لهم ، ولانتقاص أهلهم لشأنهم ، وعدم اعتراف آبائهم ببنوتهم لهم ، لأنهم أبناء إماء . أو لفقرهم ، وظلم المجتمع لهم ، وعدهم طبقة مملوكة ، هم والحيوان المملوك سواء بسواء . ليس لأحدهم جسمه ، ولا أهله ولا نسله ، وكل ما يملكه أو ما يحصل عليه يكون ملك سيده ، ومن خالف أمره منهم ، جاز لسيده قتله ، ولسيده حق الاستمتاع بمملوكته وبجواره من غير

---

١ المحبر (١٩٥ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١/٤٠٩) ، (غرب) .

قيد ولا شرط . وهذا ما جعل بعض الرقيق يهرب من سيّده ، فراراً من ظلمه ، لينضم الى الصعاليك،أو ليكون عصابة تلجأ الى الجبال والكهوف ، تهاجم المارة ، والأحياء ، لتحصل عـلى ما تتعيش به . ولما ظهر أمر الرسول ، كتب لجماع كانوا في جبل تهامة قد غصبوا المارة،وهم خليط من كنانة ومزينة والحكم والقارة، ومن فرّ من سادته من العبيـد ، كتاباً ، فيه أنهم « إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فعبدهم حرّ ، ومولاهم محمد ، ومن كان منهم من قبيلة لم يردّ اليها ، وما كان فيهم من دمٍ أصابوه أو مالٍ أخذوه ، فهو لهم ، ومـا كان لهم من دين في الناس ردّ اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان »[1] .

وأغربة العرب ، أو أغربة الصعاليك بتعبير أصدق ، كثيرون ، فقد كانت عادة اتصال العرب بالزنجيات منتشرة في الجاهلية ، وقد أولدت طبقة من الهجناء امتازت بسرعة العدو وبالشجاعة ، وبتحمل المشقات ، وكلها من مولدات الظروف. ولكن أشهر أغربة الصعاليك : السليك بن السلكة ، وتأبط شراً . وقد جعـل (ابن قتيبة) أغربـة العرب ثلاثة : عنترة ، وخفاف بن عمـير الشريدي ، والسليك بن عمير السعدي[2] ، ولكن عددهم أكثر من ذلك بكثير ، يدخل فيهم الصعاليك وغيرهم .

أما الباقون ، فهم من شذاذ العرب ، ومن الخلعاء المطرودين المنبوذين، الذين طردوا من أهلهم أو من عشيرتهم وقبيلتهم ، وحرموا من (العصبية) ، فلا أحد يسأل عنهم ، ولا أحد يُسأل عن جرائرهم وأعمالهم ، فدمهم هدر ، ومسؤوليتهم على عاتقهم وحدهم . وهم من عشائر مختلفة ، فلا ينتسبون الى نسب واحد ، ونسبهم الوحيد الذي يربط بينهم ، هو الصعلكة ، والتمرد على المجتمع والتشرد في البوادي والهضاب والجبال ، ولهذا نجد الصعاليك من مختلف قبائـل وعشائر جزيرة العرب ، قد يتكتلون في مجموعات تضم صعاليك قبيلة واحدة ، وقد يتكتلون في جماعات تتكون من صعاليك قبائل مختلفة . وتكون الألفة بين صعاليك القبيلة الواحدة أشد وأقوى من الألفة التي تكون بين صعاليك القبائل المختلفة ، لما يكون

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٨) ، « ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام وما كتب به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لناس من العرب وغيرهم » .

٢ الشعر والشعراء (١/١٧٢) ، (دار الثقافة) ، (عنترة) ، الاغاني (٨/٢٤٠) .

للنسب والدم من أثر في نفوسهم ، وإن كفروا بعرف القبيلة وخرجوا على طاعتها. ونجد في شعر شعرائهم إشادة بأخوة (الصنف) و (الحرفة) تحل محل اخوة العشيرة والقبيلة ، اذا مات أحدهم أو قتل ، حزنوا عليه ، وإن مرض عالجوه، وان جاع قدموا له ما عندهم من طعام[1] .

وقد يستجير الخليع بمجير ، فيقبل جواره ، الى حين أو بغير أجل محدد ، أو على شروط ، ففي حديث خروج (امرىء القيس) مطالباً بدم أبيه ، أنه لجأ الى (عامر بن جوين) أحد الخلعاء الفتاك ، وعامر يومئذ خليع ، تبرأ قومه من جرائره وتنصل أهله منه[2] ، وفي حديث (البراض بن قيس) الكناني وكان خليعاً فاتكاً سكيراً ، لا ينزل بقوم ، إلا عمل منكراً فيهم – ، أنه لجأ الى بني (الديل) ، فشرب وجرّ جريرة ، استوجبت خلعه فخلعوه ، فأتى مكة ، فنزل على حرب بن أمية ، فحالفه وأحسن جواره ، ثم شرب بمكة وأساء على عادته ، حتى همّ حرب أن يخلعه[3] ، وفي حديث (أبي الطمحان) القيني، وكان خليعاً فاسقاً ، منهتكاً ، لا يعرف خلقاً ولا أدباً ، أنه نزل بمكة في جوار (الزبير بن عبد المطلب) ، « وكان ينزل عليه الخلعاء »[4] ، ونزل (مطرود ابن كعب) الخزاعي ، في جوار (عبد المطلب) ، فحماه وأحسن اليه ، وكان قد لجأ اليه لجناية كانت منه[5] ، ووجد (قيس بن الحدادية) من يؤويه ، مع أنه كان صعلوكاً خليعاً ، عجز هو وأهله عن دفع دية قتيل قتلوه، فخلعته قبيلته خزاعة ، فنزل عند بطن من خزاعة ، يقال لهم : (عدي بن عمرو بن خالد)، فأحسنوا اليه ، كما نزل في بجيلة على (أسد بن كرز) فأحسن اليه والى قومه[6].

ولا ينسى بعض الصعاليك ذكر من أحسن اليهم فأكرمهم ورعاهم وحماهم . هذا (أبو الطمحان) القيني ، يثني على من آووه وساعدوه حتى صيروه واحداً

---

١ الشعراء الصعاليك (٢٠٣ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٩٥/٩) ، الخزانة (٢٤/١) .
٣ الاغاني (٧٥/١٩) .
٤ الشعر والشعراء (٣٠٤/١) ، الاصابة (٣٨١/١) ، (رقم ٢٠١١) ، الاغاني (١٢٥/١١) .
٥ المرزباني ، معجم (٢٨٢) .
٦ الاغاني (٢/١٣ وما بعدها) .

منهم ، لا تتحرش به كلابهم ، لأنها عرفت ثيابه ، وتأكدت انه واحد منهم، فلا تهر عليه[1] . وهذا (حاجز) الأزدي ، يفخر بانتسابه الى (بني مخزوم) من قريش ، وهم قوم لا يخذلون أحداً اذا استنصر بهم ، وجعل حلفه فيهم ، اذا أصاب حليفهم مكروه ، هرعوا اليه لنجدته ، فهم أهل النجدة والكرم[2] . وهذا (قيس بن الحدادية) يثني على (آل عمرو بن خالد) أحسن ثناء ، ويدعو الله أن يجزيهم خيراً لما فعلوا من حميد الفعال لصعلوك خليع[3] .

والصعاليك كثيرون ، وقد خلدت أسماء جماعة منهم في كتب الأدب والأخبار ، أشهرهم وأبرزهم : (عروة بن الورد) ، و (الشنفرى) ، و (تأبط شراً) ، و (السليك بن السلكة) ، وآخرون .

وللصعاليك بعد قصص في الكتب ، وقد بولغ في قصصهم لتؤثر في المسامع ، ولتكون لذة للسامعين ومتعة يستمتعون بها أوائل الليل في أوقات سمرهم ، وقد رصعت بشعر ، على عادة العرب في رواية الأخبار . وفي بعض هذا القصص والشعر أثر الوضع المتعمد ، الذي صنع ليمثل الحالة الاجتماعية في ذلك الوقت ، حيث كان الأغنياء متخمين بالمال ، بينما جيرانهم يموتون جوعاً ، فكأن هذا القصص قد وضع ليتحدث عن ذلك الوضع . وقد عرف هذا القصص عند الغربيين كذلك ، حيث كان الغنى وكان الفقر ، فظهر الصعاليك ، وظهر قصصهم وبولغ فيه ، وما (روبن هود) الانكليزي الذي آثر التصعلك وغزو الأغنياء ، لإنفاق ما يحصل عليه على الفقراء لإعاشتهم ، إلا صورة من صور غارة (عروة بن الورد) وأمثاله من الصعاليك ، وقد دونت أخبارهم في قصص ، وصيغ بعض منها على صورة أشرطة (سينمائية) عرضت ولا تزال تعرض في دور (السينما) وفي (التلفزيون) ، لما فيها من بطولة ومروءة ومساعدة ضعفاء واستهتار في الحياة .

---

١ وقد عرفت كلابهم ثيابي   كأني منهم ونسيت أهلي
الحيوان (١/ ٣٨٠) ، الشعراء الصعاليك (٢٢٩) .

٢ قومي سلامان اذ ما كنت سائلة   وفي قريش كريم الحلف والنسب
اني متى أدع مخزوما ترى عنقا   لا يرعشون لضرب القوم من كثب
الاغاني (١٢/ ٤٩) .

٣ الشعراء الصعاليك (٢٢٩) .

وأما (عروة بن الورد) ، فهو من (عبس) وكان شاعراً فارساً وصعلوكاً مقدماً ، عرف بـ (عروة الصعاليك) « لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه »[1] . وهو شاعر بدوي قح ، وكان أبوه ممن كان له ذكر في حرب داحس والغبراء ، وقد مدحه (عنترة) ، وكانت أمه من (نهد) ، ولم تكن من أهل البيوتات . وكان لشعره أثر في قومه : حتى كانوا يرون أنه أشعر الشعراء[2] .

وذكر أنه إنما لقب بعروة الصعاليك لقوله :

لحى اللهُ صعلوكاً إذا جن ليله مُصافي المشاش آلفاً كل مجزر
يعدُّ الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاءً ثم يصبح قاعداً يحت الحصى عن جنبه المتعفر
ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلٌ على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر[3]

ويظهر من شعر لعروة ، انه كان نحيلاً ، شاحب الوجه هزيلاً ، فكانوا يعيرونه بذلك ، وكان يجيبهم بقوله :

إني امرؤٌ عافى انائي شركة وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحد
أتهزأ مني ان سمنتَ وان ترى بجسمي شحوبَ الحق ، والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرةٍ وأحسوا قراحَ الماء ، والماء بارد[4]

فهو نحيف نحيل شاحب الوجه ، لأنه يشرك الآخرين معه في أكله وشربه ،

---

١ تاج العروس (١٥٣/٧) ، (صعلك) .
٢ الاغاني (١٨٤/٢ وما بعدها) « دار الكتب » ، الخزانة (١٩٤/٤) بروكلمن ، (١٠٩/١ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (٥٦٦/٢) ، (الثقافة) ، من قصيدة مطلعها :
أقلي علي اللوم يا بنت منذر وناي ، وان لم تشتهي النوم ، فاسهري
ديوان عروة بن الورد (٦٦ وما بعدها) ، (اخراج عبد المعين الملوحي) ، (وزارة الثقافة والارشاد . الجمهورية العربية السورية) ، الاغاني (٩٧/١٦ وما بعدها) .
٤ ديوان عروة (٢) ، الاغاني (٧٢/٣ وما بعدها) ، الجمان في تشبيهات القران (٢٥٧) .

أما الهازىء به ، فهو أناني ، لا يشرك أحداً معه في أكله ، وإناؤه واحد ، لا يأكل به أحد غيره ، ولذلك سمن وتخن من التخمة ، أما هو ، وهو الوهاب فكان يقتر على نفسه ، ويجوع ، ليأكل غيره أكله ، فأصابه من ثم هذا الهزال. فهو انسان ، يقسم ما عنده وما يأتيه على نفسه وعلى غيره ، وقد يقدم غيره على نفسه . ومن هنا « كان يقال : من قال إن حاتماً أسمح العرب ، فقد ظلم عروة ابن الورد »[1] .

ويذكرون أنه أصاب في بعض غاراته امرأة من كنانة ، فاتخذها لنفسه، فأولدها، فلقيه قومها ، وقالوا : فادنا بصاحبتنا ، فإنا نكره أن تكون سبية عندك . قال: على شريطة ، قالوا : وما هي ؟ قال ! على أن نخيرها بعد الفداء ، فإن اختارت أهلها أقامت فيهم ، وإن اختارتني خرجت بها . وكان يرى أنها لا تختار عليه، فأجابوه الى ذلك ، وفادوا بها ، فلما خيّروها اختارت قومها ، وتركته فنظم في ذلك شعراً[2] .

وذكر أن (معاوية) تذكر (عروة بن الورد) ، فقال : « لو كان لعروة ابن الورد ولدٌ لأحببت أن أتزوج منهم » . وان (عبد الملك بن مروان) تذكره يوماً ، فقال : « ما يسرّني أن أحداً من العرب ممن ولدني لم يلدني إلا عروة بن الوردِ لقوله :

وإني امرؤ ، عافي إنائي شركةٌ   وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحدُ[3]

وهو بيت يمثل خلق هذا الشاعر ومروؤته التي أبت عليه إلا أن يشرك غيره من الضعفاء والمحتاجين فيما يحصل عليه وينا له من المتمكنين بالإكراه والقوة . إناؤه مليء لبناً ، حتى يفيض ويكثر ، فإن طرقه إنسان وجد اللبن أمامه ، يشرب منه وهو شريكه فيه ، شريكه في كل شيء عنده قلّ أو كثر ، وهو يفتخر بذلك ويتبجح بإشراكه غيره إنائه على من حرص على ماله ، وبخل بما عنده ، مثل (قيس بن زهير) ، الذي استأثر بما عنده ، فلم يعطِ لمحتاج شيئاً منه . فصار

---

١ الروض الانف (٢/١٨٠) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٦٧) .
٣ ديوان عروة (٢) ، الاغاني (٣/٧٢ وما بعدها) .

يسمن وغيره يجوع ، على حين كان (عروة) يختار الجوع ، ليأكل الجياع، لتعود اليهم القوة والحيـاة ، ولا يبالي هو بنفسه إن جاع ، وفي ذلك يقول :

إني امرؤ عافى إنائيَ شركةٌ   وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحد
أتهزأ مني إن سمنت وأن ترى   بوجهي شحوبَ الحق،والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرةٍ   وأحسو قراح الماء ، والماء بارد

وكان قد قال هذه الأبيات رداً على أبيات (قيس بن زهير) التي خاطب بها (عروة) بقوله :

أذنب علينا شتم عروةَ خالهِ   بغـــرة أحساء ويوماً بيديـــد
رأيتك ألافاً بيــوتَ معاشر   تزال يد في فضل قعب ومرفد[1]

وللأخفش حديث عن مروءة (عروة) وعن انسانيته فيقول : « عن ثعلب عن ابن الأعرابي ، قال : حدثني أبو فقعس ، قال : كان عروة اذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبـير والضعيف ؛ وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس ، من عشيرته في الشدة ، ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف ، ويكسبهم ، ومن قويَ منهم ، إمـا مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيباً ، حتى اذا أخصب الناس وألبنوا ، وذهبت السنة ، ألحق كـل انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموهـا ، وربما أتى الانسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمي : عروة الصعاليك »[2] .

ومن هنا عدَّ من أصحاب الكرم والسماحة والسخاء . حتى قيل إن عبد الملك قال : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس ، فقد ظلم عروة بن الورد »[3] . وقيل إنه بلغه عن رجل من بني (كنانة بن خزيمة) ، أنه من أبخل الناس وأكثرهم مالاً ، فبعث عليـــه عيوناً ، فأتوه بخبره فشدَّ على إبله فاستاقها ثم قسّمها في

١ ديوان عروة (٥١ وما بعدها) .
٢ ديوانه (٨ وما بعدها) ، الاغاني (٣/٧٨ وما بعدها) ، التبريزي ، شرح حماسة أبي تمام (٢/٩) ، جمهرة أشعار العرب (١١٤ وما بعدها) .
٣ ديوان عروة (٣) ، الاغاني (٣/٧٤) .

قومه . فقال عند ذلك :

ما بالثراء يسود كل مسوّدٍ مثرٍ ، ولكن بالفعال يسودُ
بل لا أكاثر صاحبي في يُسره وأصد إذ في عيشه تصريد
فإذا غنيتُ ، فإن جاري نيله من نائلي ، وميسّري معهود
وإذا افتقرت ، فلن أرى متخشعاً لأخي غنى ، معروفه مكدود[1]

فالسيد بفعاله ، وأعماله لا بالمال . وهو يقول في شعر له ، ان فراشه فراش الضيف ، وأن بيته بيت للضيوف ، يجالس الضيف ويحادثه ، فالحديث جزء من القرى :

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقنع
أحدثه ، إن الحديث من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

وفي خبر آخر ، ان سنين شديدة أصابت الناس ، فأهلكتهم ، وترك الناس الغزو لجدوبة الأرض ، وكان عروة في تلك السنين غائباً ، فرجع مخفقاً ، قد ذهبت إبله وخيله ، وجاء (الكنيف) ، أي الحظيرة والمأوى ، فوجد أصحابه وقد سقطوا من الإعياء والشدة ، فندب منهم رهطاً ، فنحر لهم بعيراً ، وحملوا سلاحهم على بعير آخر ، وقدّد لهم بعيراً ، فوزعه بينهم . وخرج بهم غازياً يلتمس الرزق . وهو يقول لهم : ان أصبنا رغبة فذلك الذي نريد ، وإن رجعنا خائبين ، كنا معذورين . قد أدينا ما علينا ، ولن نقعد عن الطلب . فهو يحثهم على الرزق والطلب ، دون تفكير في نجاح أو فشل ، فالحياة : نجاح وفشل ، ومن فشل ، عليه المواظبة حتى ينجح ويستعيد قواه ، وذلك قوله :

قلت لقوم في الكنيف : تروحوا عشية بتنا عند ماوان رزح[2]

الى آخر الأبيات .

وهو يصف في أبيات حالة الفقير وما يلقى من ظلم ، وحالة الغني وما يلقاه

---

[1] ديوان عروة (٤٨) ، شرح ديوان عروة (١٨١) .
[2] ديوانه (٢٠ ، ٣٩ وما بعدها) .

من إجلال . فيقول :

دعيني للغنى أسعى فإني | رأيت الناسَ شرّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم | وإن أمسى له حسبٌ وخير
ويقصيه النديّ وتزدريه | حليلته وينهره الصغير
ويلفى ذو الغنى وله جلال | يكاد فؤاد صاحبه يطير[1]

وله شعر يحث فيه الناس على السير في البلاد ، التماساً للرزق ، لأن من لم يطلب معاشاً لنفسه ، وقعد في داره دون أن يعمل شكا الفقر ، وصار كلاً على غيره، حتى على ذوي قرباه ، فيقول :

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه | شكا الفقر،أو لام الصديق فأكثرا
وصار على الأدنين كلاً،وأوشكت | صلات القربى لـه أن تنكّرا
وما طالب الحاجات،من كل جهة | من الناس إلا من أجدّ وشمّرا
فسر في بلاد الله، والتمس الغنى | تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا[2]

ومن شعره في المال والورثة قوله :

متى ما يجيء يوماً الى المال وارثي | يجد جمعَ كف غير ملأى ولا صفر
يجد فرساً مثل القناة وصارماً | حُساماً إذا ما هزّ لم يرض بالهبر[3]

ويقول في شعر آخر :

أليس ورائي ان أدبّ على العصا | فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي
رهينة قعر البيت كل عشيّة | يطيف بي الولدان أهوج كالرأل

يعني : أليس ورائي إن سالمت الناس ، وتركت مخاطر التصعلك، أن يلحقني الكبر فأهون ويضجر مني أهلي[4] . فهو يعتذر بذلك عن التصعلك واتخاذه الصعلكة حرفة له .

---

١ ديوانه (٩١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٣٤/١) ، وقد روي برواية تختلف عن رواية الديوان .
٢ ديوانه (٨٩) .
٣ كتاب العصا (٢٠٦) ، (نوادر المخطوطات ، المجموعة الثانية) .
٤ الحيوان (٣٥٦/٤) .

وقد زعم ان (عبدالله بن جعفر بن أبي طالب) ، « قال لمعلم ولده : لا تُروّهم قصيدة عروة التي يقول فيها :

دعيني للغنى أسعى فإني   رأيت الناس شرهمُ الفقير

ويقول : هذا يدعوهم الى الاغتراب عن أوطانهم »[1] .

وهو يرى ان الموت خير للفتى من حياته فقيراً . وان الأقارب اذا ضنوا عليه ولم يساعدوه ، فعليه بالرحيل عنهم ، والناس الفجاج ، فإنها عريضة ، اذا ضاقت عليه السبل . وهو لا يترك اخوانه أبداً ما عاش ، كما ان الانسان لا يتمكن من ترك شرب الماء :

إذا المرء لم يبعث سَواماً ولم يرح   عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته   فقيراً ، ومن مولى تدب عقاربه
وسائلةٍ : أين الرحيل ؟ وسائلٍ   ومن يسأل الصعلوك : أين مذاهبه
مذاهبه أن الفجـــاج عريضةٌ   إذا ضنّ عنه ، بالفعالِ ، أقاربه
فلا أترك الإخوان ما عشتُ للردى   كما أنه لا يترك الماءَ شاربه[2]

وهو يحث على المخاطرة بالنفس ، فإن القعود مع العيال قبيح ، حثّ عليها في أبيات نسبت اليه ، وقيل انها ليست له ، بل هي للنمر بن تولب ، هذا نصها :

قالت تماضر ، إذ رأت مـــالي خوى   وجفا الأقارب ، فالفؤادُ قريح
مـــالي رأيتك في النديّ منكّساً   وصبا ، كأنك في النديّ نطيح
خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة   ان القعود مع العيال قبيح
المال فيـــه مهابةٌ وتجلـــةٌ   والفقر فيـــه مذلة وفضوح[3]

والصعلوك الخامل ، القعود الذي يعين نساء الحي ، ولا يستعمل سيفه للحصول على رزقه ، هو خليق أن يكون ممن يهان ويزدرى ، والصعلوك العامل النشط ،

---

١ ديوانه (٣) .
٢ ديوانه (٢٩) .
٣ ديوانه (٤٣) .

هو الرجل الذي يستحق الحياة ، ويصلح أن يكون انموذجاً للرجال ، صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور ، مطلاً على أعدائه ، يهابونه ولا يستطيعون الاقتراب منه ، ان لقي منيته لقيها حميداً ، وان عاش واستغنى فنعمة كبرى ، ينفق منها على من يحتاج اليه من الناس[1] .

وتراه يقول في أبيات أخرى :

إذا آذاك مالك ، فامتهنه لجاديه ، وإن قرعَ المراحُ
وإن أخنى عليك ، فلم تجده فنبت الأرضِ والماء القراحُ
فرغم العيش إلفُ فناء قومٍ وإن آسوك ، والموت الرواح[2]

ومعناها : لا تبخل بمالك ، ولا تحرص عليه ، أعطِ منه السائل والمحروم والمحتاج ، ولا تخشَ الفقر ، فإن أخنى عليك ، وقلَّ مالك ، وتركك الأصحاب فلا تيأس ولا تخنع لأحد ، ولا تجزع ، ففي الأرض رزق لكل أحد ، ومتسع لكل نفس ، وإن كان ذلك نبات الأرض وماؤها ، ولا تهن نفسك ، وتذل كرامتك ، فتعيش على موائد غيرك ، من اللؤماء الحقراء ، فأكلك منهم ، هو الموت الرواح ، بل هو شر من الموت . فلا تقرب موائد أصحاب المنة ، وإن آسوك وساعدوك ، فمؤاساتهم كاذبة ، عن مظاهر ونفاق .

وفي أبيات شعر ، يذكر (عروة) (أصحاب الكنيف) والتواءهم عليه ، وكيف تمردوا عليه ، مع فضله عليهم ، وإشراكه لهم في كل ما كان يكسبه ويغنمه ، فيقول :

ألا إنَّ أصحاب الكنيف وجدتهم كما الناس لما أخصبوا وتموّلوا
وإني لمدفوعٌ إليَّ ولاؤهم بماوان إذ نمشي ، وإذ نتملل
وإذ ما يريح الحيَّ هرماء جونةٌ ينوس عليها رحلُها ما يحلل
موقعة الصفقين ، حدباء ، شارف تقيد أحياناً ، لديهم وترحل
عليها من الولدانِ ما قد رأيتم وتمشي بجنبيها أرامل عيل

---

١ ديوان عروة (٧٨ وما بعدها) .
٢ ديوانه (٤٢) .

وقلت لها يا أم بيضاء ، فتيةٌ طعامهمُ ، من القدور ، المعجّل
مضيغ من النيب المسان ، ومُسخن من الماء نعلوه بآخر من علُ
بدعومة ما إن تكاد ترى بها من الظمأ ، الكومَ الجلاد تنولُ
تنكر آياتُ البلاد لمالك وأيقنَ أن لا شيء فيها يُقَوّلُ [١]

وهي أبيات ، تعبر عن مرارة نفسه ، وعن ألمه مما لاقاه من أصحاب الكنيف ، مع افضاله عليهم ، وتقديمه لهم على نفسه ، وهو يواسي نفسه فيها ، فيقول انهم ناس ، ومن شأن الناس أنهم اذا اخصبوا وتموّلوا وتحسنت أحوالهم ، تنكروا لمن كان صاحب الفضل عليهم ، وتجاهلوا كل ما قام به من صنيع حسن نحوهم . أخرجتهم وأجسامهم هزال من شدة الجهد ، لا يقدرون على المشي من شدة الضعف والجوع ، وقمت بأمرهم ، حتى اذا قووا ، ودنوا من بلادهم وعشائرهم ، وأقبلت أقسم فيهم ما غنمته من إبل ، فأعطيتهم بالتساوي ، وأخذت لنفسي نصيب أحدهم ، تنكروا لي وصاروا كالأباعد ، ليس لهم شكر ، خاصموه وعارضوه. وكان من شأنهم : انه خرج مع صعاليكه يبحثون عن غنائم ، حتى نزل أرض (بني القين) ، فأقام مع أصحابه يوماً عند موضع ماء ، بانتظار مجيء الرعاة لاسقاء إبلهم ، ثم ورد عليهم فصيل ، فقالوا : دعنا فلنأخذه ، فلنأكل منه يوماً أو يومين ، فقال : إنكم إذن تنفرون أهله ، وان بعده إبلاً . فتركوه ثم ندموا على تركه ، وجعلوا يلومون عروة على الجوع الذي جهدهم . ثم وردت إبل بعده بخمس ، فيها ظعينة ورجل ، والإبل مائة ، فخرج (عروة) ورمى صاحبها في ظهره بسهم ، فخرّ ميتاً ، واستاق عروة الإبل والظعينة [٢] . وأتى بالإبل الكنيف فجعل يحلبها لهم ، ثم حملهم حتى اذا دنوا من بلادهم وعشائرهم ، أقبل يقسمها فيهم ، وأخذ مثل نصيب أحدهم ، واستخلص المرأة لنفسه ، فقالوا : لا والله لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيباً فمن شاء أخذها من سهمه ، فجعل عروة يهم أن يحمل عليهم فيقتلهم وينزع ما معهم ، ثم يتذكر صنيعه بهم ، وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان صنع ، ففكر طويلاً ثم أجابهم الى أن يردّ عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها امرأته ، فأبوا إلا أن يجعلوا الراحلة لهم ،

١ ديوانه (١١٩ وما بعدها) .
٢ ديوانه (١١٣ وما بعدها) .

فانتدب رجل منهم فجعل الراحلة من نصيبه وأفقرها عروة، أي منحها إياه منيحة اذا استغنى عنها ردّها ؛ فقال عروة يذكر أصحاب الكنيف والتواءهم عليه تلك الأبيات المتقدمة[1] .

فهو في الأبيات المتقدمة يذكر أن الإنسان ذليل كسير ما دام فقيراً ، يتقرب الى القوي ويتبصبص له ، ويتظاهر بحبه واخلاصه له ، فإذا نال حاجتــه ، أو اغتنى تبطر على من كان محتاجاً اليه ، وتعاظم عليه ، ونال منه .

وقد عرف (عروة) بـ (أبي الصعاليك) ، قيل ان النـــاس كانوا اذا أصابتهم السنة أتوه ، فجلسوا أمام بيتـه حتى اذا بصروا بــه صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا ، . فيخـــرج ليغزو بهم[2] . وقد كان يعـدّ صعاليكه (عياله)[3] ، وكان يرعاهم ويحدب عليهم حدب الوالد على عياله ، ويخرج بالقوي منهم للغزو ، بحثاً عن غنيمة ينالها لإشباع أتباعه الجياع الصعاليك،عال غني جمع غناه بالعقوق وبالبخل ، لأنه لا يرضى أن يرى اخواناً له يهلكون من الجوع ، ثم لا يجد ما يقدمه لهم لسد رمقهم[4] ، وهو يطوف للملك في البلاد باحثـاً عن غني ينفق منه على المعوزين وذوي الحاجات . وشر الناس في هذه الدنيا الفقير ، يباعده القريب لفقره ، وتزدريه حليلته ، ولا يحترمه أحـــد ؛ بينما يعظم الغني ويحترم ، لا لسبب إلا لماله ولغناه ، ذنبه قليل في نظر الناس ، لأنه غني ، وللغني رب غفور :

ذريني للغنى أسعى ، فإني ... رأيت الناس شرهم الفقيرُ
وأدناهم ، وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخير
يباعده القريب ، وتزدريه ... حليلته ، ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى ، وله جلال ... يكادُ فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه ، والذنب جمّ ... ولكن للغني ربٌّ غفورُ[5]

---

١ ديوانه (١١٨) ، الاغاني (٣/٧٩ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٣/٨١) .
٣ ديوان عروة (٩٩) ، حماسة أبي تمام (٢/٧) ، الشعراء الصعاليك (٣٢٢) .
٤ أيهلك معتم وزيد ولم أقم ... على ندب يوما ولى نفس مخطر
ديوان عروة (٨٣) ، الشعراء الصعاليك (٣٢٥) .
٥ العقد الفريد (٣/٢٩) ، عيون الاخبار (١/٢٤١ وما بعدها) ، البخلاء (١٨٣ ، ٣٩١) ، البيان والتبيين (١/٢٣٤) ، وتختلف نصوص هذه القصيدة باختلاف الموارد .

وفي قصيدته :

لحا الله صعلوكاً اذا جن ليله مصافي المشاش آلفاً كل مجزر
يعدّ الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاءً ثم يصبح طاوياً يحتُّ الحصى عن جنبه المتعفر
قليل التماس الزاد إلا لنفسه اذا هو أمسى كالعريش المجوّر
يُعِنُ نساء الحيّ ما يستعِنَّه فيمسي طليحاً كالبعير المحسر
ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مُطِلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المُشهر
فإن بَعُدوا لا يأمنون اقترابه تشوّف أهل الغائب المتنظر
فذلك إن يلق المنيّة يلقها حميداً وان يستغن يوماً فأجدر[1]

«معان سامية ، تعبر عن نفسية انسانية ، وعن عطف على الفقير والمحتاج والنساء » وصف فيها فضيلة الفقير الحر الباسل وذم الذي يستأجر شغله »[2] .

وفي شعر (عروة) اشارة الى الموت ، فهو يرى ان الحياة أجل ، وان الانسان غير خالد في هذه الدنيا ، حياته قصيرة ، ثم يكون أحاديث للناس . اذا جاء أجله خرجت منه هامة تعلو كل نشز :

أحاديث تبقى،والفتى غيرُ خالدٍ اذا هو أمسى هامة فوق صيّرِ
تجاوب أحجار الكناسِ ، وتشتكيّ الى كل معروف رأته ، ومنكرِ

ثم تجاوب هذه الهامة أحجار الكناس،وتشتكي الى كل معروف تراه ومنكر . أي تصوت في كل حالٍ اذا رأت من تعرف ومن تنكر[3] .

والموت ملازم للانسان ، وهو ثغر كل ثنيّة ، ولا مفر منه :

وأن المنايا ثغر كل ثنيّة فهل ذاك، عما يبتغي القوم محصر
وغبراء مخشى رداها مخوفةٍ أخوها ، بأسباب المنايا مغرر[4]

---

١ الخزانة (٤/١٩٦) ، (بولاق) .
٢ كارلو نالينو (٧٩) .
٣ ديوانه (٦٦ وما بعدها) .
٤ ديوانه (٧٧) .

وقد نسبت له قصيدة مطلعها :

لحا الله صعلوكاً مناه وهمه من الدهر أن يلقى لبوساً ومطعما
ينام الضحى حتى إذا الليل جنه تبيت مسلوب الفؤاد مورّما
ولكنّ صعلوكاً يساور همّه ويمضي على الهيجاء ليثاً مصمما
فذلك أن يلقى الكريهة يلقها حميداً وان يستغن يوماً فربما

وقد ذهب بعضهم الى أن هذه القصيدة لحاتم الطائي ، لأن قصيدة عروة رائية ، وليست هذه ، ولحاتم قصيدة على هذا الروي ، وليس فيها هذه الأبيات، وفيها ما يشبهها ، وهو :

وليل بهيم قد تسربلت هوله إذا الليل بالنكس الضعيف تجهما
ولن يكسب الصعلوك مالاً ولا غنى إذا هو لم يركب من الأمر معظما
يرى الخمص تعذيباً وان يلق شبعة يبت قلبه من قلة الهمّ مبهما
ولكن صعلوكاً يساور همه ويمضي على الأيام والدهر مقدما
يرى رمحه ونبله ومجنه وذا شطب بين المهذة مخذما
واحناء سرج قاتر ولجامه معداً لدى الهيجاء طرفاً مسوما
فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه وان يحي لا يقعد ضعيفاً ملوّما[1]

وفي كتاب (ذيل الأمالي والنوادر) للقالي ، أبيات على هذا النمط غير معزوة لقائلها ، أوردها على أثر تحدثه عن (الشيظم بن الحارث الغساني) ، وكان قد قتل رجلاً من قومه ، فخافهم ، فلحق بالحيرة متنكراً ، وكان من أهل بيت الملك ، فكان يتكفف الناس نهاره ويأوي الى خربة من خراب الحيرة ، فبينا هو ذات يوم في تطوافه إذ سمع قائلاً يقول :

لحا الله صعلوكاً اذا نال مَذْقة توسّد إحدى ساعديه فهوما
مقيماً بدار الهون غير مُناكرٍ اذا ضيم أغضى جفنه ثم برشما
يلوذ بأقراء المشاريب طامعاً يرى المنع والتعبيس من حيث يمما
يضن بنفسٍ كدر البؤس عيشها وجودٌ بها لو صانها كان أحزما

١ الخزانة (٤/١٩٤ وما بعدها) .

فذاك الذي إن عاش عاش بذلة وإن مات لم يشهد له الناس مأتما
بأرضك فاعرك جلد جنبك انني رأيت غريب القوم لحماً موضّما

فهي أبيات في المعاني المتقدمة ، لم يعرف اسم صاحبها[1] .

وهو يزجر امرأته سلمى لأنها تلومه على غاراته وغزواته ، لما تخشاه عليه من الوقوع في المهالك ، ومن ملاقاته حتفه . ويقول لها : إنه إنما يجازف ويخاطر في سبيلها ، حتى يغنيها فلا تذل بعده أو تستجدي أحداً ، ثم ان عليه حق الوفاء لأقاربه وللضعفاء ولإخوانه الصعاليك الذين يلوذون به ، فعليه مساعدتهم ، وهو لا يتمكن من تقديم المساعدات لهم ، إلا بهذه الغارات[2] .

وروي أن (عروة) كان يتردد على (بني النضير) فيستقرضهم إذا احتاج ويبيع منهم إذا غنم ، فرأوا عنده (سلمى) فأعجبتهم ، فسألوه أن يبيعها منهم فأبى ، فسقوه الخمر واحتالوا عليه حتى ابتاعوها منه وأشهدوا عليه ، وفي ذلك يقول :

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور

وروي أيضاً أن قومها افتدوها منه وكان يظن أنها لا تختار عليه أحداً ولا تفارقه ، فاختارت قومها فندم وكان له بنون منها ، ثم تزوجها بعده رجل من في النضير . وفيها يقول عروة :

أرقت وصحبتي بمضيق عمق لبرق في تهامة مستطير

وهي قصيدة أشار فيها الى (سلمى) ، ومفارقتها له ، عند (بني النضير)، حيث يقول :

وآخر معهد من أم وهب معرسنا فويق بني النضير

وفي هذه القصيدة البيت المتقدم ، الذي يشير الى أنهم سقوه الخمر ، واحتالوا عليه ، حتى ابتاعوها منه[3] .

---

١ ذيل الامالي (١٧٩) ، الخزانة (١٩٥/٤) .
٢ الاصمعيات (٣٥) .
٣ الروض الانف (١٨٠/٢ وما بعدها) .

وقد أشار (عروة) في شعر ينسب اليه الى (التعشير) ، وهو أن ينهق الانسان عشر مرات اذا أراد دخول (خيبر) لكي لا تصيبه الحمى . فقال :

وقالوا: أحبُ وانهق، لا تضيرك خيبر   وذلك من دين اليهود وُلوع
لعمري، لئن عشرت، من خشية الردى   نهاقَ الحمير انني لجزوع[1]

وقد رفض عروة ذلك ، وسخر من هذه الخرافة .

قال (الجاحظ) : « وكانوا اذا دخل أحدهم قرية خاف من جنّ أهلها، ومن وباء الحاضرة ، أشد الخوف ، إلا أن يقف على باب القرية فيعشر كما يعشر الحمار في نهيقه ، ويعلق عليه كعب أرنب . ولذلك قال قائلهم :

ولا ينفع التعشير في جنب جرمة   ولا دعدع يغني ولا كعب أرنب »

« وقد قال عروة بن الورد ، في التعشير ، حين دخل المدينة فقيل له : إن لم تعشر هلكت :

لعمري لئن عشرتُ من خيفة الردى   نهاقُ الحمير انني لجزوع »[2]

ولعروة شعر في يوم (ساحوق) ، وهو يوم لبني ذبيان على (بني عامر) ، إذ يقول :

ونحن صبحنا عامراً في ديارها   عُلالة أرماح وعضباً مُذكَّرا
بكل رقيق الشفرتين مهنـدٍ   ولَدْنٍ من الخَطي قد طُرّ أسمرا
عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم   ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا
يشدّ الحليمُ منهم عَقْدَ حبله   ألا إنما يأتي الذي كان حُذّرا

أي انهم كانوا ذوي غدر بين ، لو أنهم جاهدوا في الحرب وقتلوا ، أما الآن فلا عذر لهم بين الرجال في خنقهم أنفسهم . وكان (الحكم بن الطفيل) وأصحابه قد خنقوا أنفسهم ، بشد الحبل حول العنق[3] ، وذلك تحت شجرة بالمروراة ،

---

١ ديوانه (٩٥) ، الحيوان (٦/٣٥٩) .
٢ الحيوان (٦/٣٥٩) .
٣ الحيوان (٢/٢٧٣) ، الخزانة (٤/٢١٨) ، العقد الفريد (٢/٣١٨) .

خشية الوقوع في الأسر . و (الحكم بن الطفيل) هو أخو (عامر بن الطفيل)، وقد عرف يوم (المروراة) بيوم (التخانق)[1] .

وقد عدّت قصيدته التي تبدأ بـ :

أقلي عليّ اللوم يا ابنة منذر ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري

من القصائد (المنتقيات)[2] .

وأما شعر (عروة) ، فقد عد أشعر شعر (بني عبس) في رأي أبناء قبيلته. روي ان (عمر بن الخطاب) « قال للحطيئة : كم كنتم في حربكم ؟ قال : كنا ألفَ حازمٍ . قال : وكيف ؟ قال : فينا قيس بن زهير ، وكان حازماً وكنا لا نعصيه ، وكنا نقدم باقدام عنترة ، ونأتم بشعر عروة بن الورد ، وننقاد لأمر الربيع بن زياد »[3] :

ويرى (بروكلمن) ، انه كان بدوياً قحاً ، رويت له أشعار أكثر مما روي لتأبطَ شراً والشنفرى ، لكنه كان دونهما في تصوير حياة الجاهلية[4] .

ولعروة ديوان برواية (ابن السكيت) (٢٤٣ هـ) (٢٤٤ هـ) ، طبع جملة طبعات. وقد ترجم الى الألمانية والافرنسية[5] ، وقد جمع (الأصمعي) شعره في ديوان لم يصل الينا[6] .

وفي شعر عروة شعر مصنوع ، وضع عليه ، وفيه كما رأينا ما ليس له،وقد نسبه بعض العلماء الى غيره ، ونجد في شعره شعراً يمثل طبيعة مجتمع حضري غلبت عليه التفرقة الطبقية ، فيه غنى حضر ، وفقر أهل مدن ، يظهر أنه وضع على لسانه حكاية عن وضع الناس في ذلك الوقت ، خشيه ناظمه من تعرض الحكام

---

١ الخزانة (٤/٢١٦ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٢/١٩٠) ، الشعر والشعراء (٤٢٥) ، الجمهرة . (١١٤) ، زيدان ، تاريخ الادب العربي (١/١٦٤) .
٣ ديوان عروة (٣) .
٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٠٩) .
٥ راجع التفاصيل في بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٠٩) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٦٤) .
٦ الشعراء الصعاليك (١٥٨) .

أو الأغنياء له بسوء ، فيا لو نشره باسمه ، فآثر نظمه باسم (عروة) .

و (الشنفرى) ، وهو (ثابت بن أوس) الأزدي ، وقيل بل (الشنفرى) اسمه لا لقبه ، وقيل : بل هو : (عمرو بن مالك) الأزدي ، وقيل (عمرو ابن براق) ، وقيل غير ذلك ، من (بني الأواس بن الحجر بن الهنىء بن الأزد)[1] ، من اليمانية في عرف أهل النسب . وهو من الصعاليك ومن العدائين. وكان من المرافقين للشاعر (تأبط شراً) في كثير من غزواته . وكان أكبر منه سناً ، وتوفي قبله . وذكر أنه حلف يميناً أن يقتل من (بني سلامان) مائة رجل فقتل تسعة وتسعين ، فأمسك به رجل عدّاء ، هو (أسيد بن جابر) وهو عداء من العدائين وقتله . فمرّ به رجل من بني سلامان فركل جمجمته ، فدخلت شظية منها في رجله فمات . فوفي الشنفرى بقسمه ، وأتم العدد وهو ميت[2] . ويلاحظ أن أهل الأخبار يزعمون أن (عمرو بن هند) كان قد حلف يميناً أن يقتل من (بني دارم) مائة رجل ، وأن يلقي بهم في النار ، فسار اليهم فقتل تسعة وتسعين وأحرقهم بالنار ، وبقي عليه أن يبر بقسمه بقتل واحد آخر منهم حتى يكمل العدد ، فمر رجل من البراجم شمّ رائحة حريق القتلى ، فحسبه قتار الشواء ، فمال اليه ، فلما رآه (عمرو) ، قال له : ممن أنت ؟ قال : رجل من البراجم ، فقال : ان الشقي وافد البراجم ، وأمر فقتل وألقي في النار . فبرت به يمينه[3] . وقد يكون للقصتين ولقصص آخر من هذا النوع علاقة بطقوس أو بأساطير جاهلية قديمة ، تجعل الأبطال ، ينذرون نذوراً تختلف عن نذور سائر الناس ، هي قتل مائة نفس قربى الى الآلهة ، بدلاً من تقديم الضحايا من الحيوانات .

وكان (الشنفرى) يحقد على (بني سلامان) حقداً شديداً ، وسبب حقده عليهم ، انه كان قد وقع أسيراً وهو صبي في (بني شبابة بن فهم) ، فانتمى

---

1 الخزانة (٢/١٦ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣/٢٢٤) ، المفضليات (١/١٠٦ وما بعدها) ، مجالس ثعلب (٤٢٦) ، الحيوان (٣/١٠٨) ، (٦/٢٤٤) ، أمالي القالي (١/١٥٧) ، رسالة الغفران (٣٥١ وما بعدها) .

2 الشعر والشعراء (١/٢٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٣٠٨ ، ٣١٨) ، (شنفر) ، (الشنيفرة) ، الاغاني (٢١/٨٧) ، الخزانة (٢/١٤) « بولاق » ، ذيل الامالي (٢٠٨ وما بعدها) ، زيدان ، تاريخ آداب (١/١٦١) .

3 الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٢٥١) .

اليهم ، ثم وقع أحد (بني شبابــة) أسيراً في (بني سلامان بن مفرج) من الأزد ، ففدى (بنو شبابة) الأسير به . فصار (الشنفرى) فيهم ، وحسب منهم ، ثم انه أراد الزواج من ابنة رجل منهم ، فرده والدها رداً عنيفاً ، أثر فيه ، فعاد الى (بني فهم) ، وأخذ يغير على (بني سلامان) للإهانــة التي لحقته من الرجل ، والتي كانت سبب صعلكته[1] .

ويروى ان الشنفرى أغار مع (تأبط شراً) و (عمرو بن براق) عــلى (بجيلة) ، فوجدوا بجيلة قد أقعدوا لهم على الماء رصداً ، وقد علم (تأبط شراً) أنهم يريدونه ، فتآمر مع الشنفرى وعمرو بن براق ، على انقاذه إن وقــع في أيديهم ، فلما جاء الماء قبضوا عليه ، فعمد الشنفرى وابن براق الى حيلة كانوا قد اتفقوا عليها لغش بجيلة ، فأنقذوه ، وهربوا ساخرين من بجيلة التي خدعت بها[2] . وللعرب قصص ترويه عن بساطة (بجيلة) ، وسرعة انخداعها بالحيل .

وهو كما سبق أن ذكرت ، أحد أغربة العرب ، ويظهر ان الملامح الافريقية كانت بارزة عليه ، بدليــل تلقيبه بالشنفرى ، و (الشنفرى) الغليظ الشفاه ، ويظهر انه أخذ ملامحه من أمه السوداء . وأخباره متناقضة متضاربة ، يظهر منها ان أباه قد قتله قاتل من (الأزد) ، قتله (حرام بن جابر) ، وكان قــد قدم (منى) فقيل له : هذا قاتل أبيك ، فشد عليه فقتله[3] . فحقد على قتلة أبيه ، وقرر الانتقام منهم شر انتقام ، وأن لا يكف عنهم ما دام حياً ، فكان يكثر من الغارة عليهم ، يغير مع من معه من صعاليك ، وقد يغير عليهم وحده[4] .

ويروى في قتله ، انه قتل من (بني سلامان بن مفرج) تسعة وتسعين رجلاً ، فأقعدت له رجالاً يرصدونه ، فلما دنا من ماء ليشرب ، قبض عليه رجلان من (بني البقوم) من الأزد ، فقبضا عليه ، وأصبحا بــه في (بني سلامان) . فربطوه الى شجرة ، فقالوا : قف أنشدنا ، فقــال الإنشاد على حين المسرة ، ثم قال :

---

١ بروكلمن (١/١٠٥) ، الاغاني (٢١/١٣٤) .
٢ الخزانة (٢/١٧) .
٣ الاغاني (٢١/١٣٧) ، الخزانة (٢/١٦) .
٤ الاغاني (٢١/١٣٥) .

فـلا تدفنوني إن دفني محرمٌ   عليكم ولكن خامري أم عـامر
إذا حملوا رأسي وفي الرأس أكثري   وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرني   سمـير الليالي مُبسلاً بالجرائر[1]

وذكر (المرتضى) أن هناك من نسب هذا الشعر الى تأبط شراً[2] . وقد نسبه (الجاحظ) الى (تأبط شراً) ، إذ قال : « وقال تأبط شراً :

فلا تقبروني إن قبري محرمٌ   عليكم ولكن خـامري أم عامر
إذا ضربوا رأسي وفي الرأس أكثري   وغودر عنـد الملتقى ثم سائري
هنالك لا أبغي حياةً تسرني   سمير الليالي مبسلاً بالجرائر »[3]

ويختلف نص هذا الشعر بعض الاختلاف عن النصوص الأخرى[4] .

ويذكر أنه لمّا وقع بأيدي أعدائه ، تفننوا في قتله ، وأروه أصناف العذاب . قطعوا يده ، وصاروا يسخرون منه ، ويسألونه أين يدفنونه . فرد عليهم بمقطوعة رائعة ، كما رثا يده بأرجوزة لما قطعوها ، وقد ذكر أنه طلب منهم ألا يدفن، وإنما يلقى بجسده الى الضباع[5] . وروي أن رجلاً من (بني سلامان) رماه بسهم في عينه فقتله ، فقال (جزء بن الحارث) في قتله :

لعمرك للساعي أسيدُ بن جابر   أحق بها منكم بني عقب الكلب[6]

---

١ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (١/٢٥) ، (دار الثقافة) ،
ولا تقبرونـي ان قبـري محـرم   عليـكم ولكن ابشـري ام عامـر
اذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري   وغودر عند الملتقى ثم سائـرى
هنالك لا ارجـو حيـاة تسرنـي   سجيس الليالي مبسلا بالجرائـر
حماسة أبي تمام (٢/٢٤ وما بعدها بولاق) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧٣) ، الخزانة (٢/١٨) ، امالي المرتضى (٢/٧٢ وما بعدها) ، (اذا احتملت رأسي) ، أسماء المغتالين (٢٣٢) ، (المجموعة السادسة) .
٢ أمالي المرتضى (٢/٧٢ وما بعدها) .
٣ الحيوان (٦/٤٥٠) .
٤ راجع العقد الفريد (١/٥٣) ، (٤/٢١٩) ، الحماسة (١/١٨٨) ، المخصص (٣/٢٥٨) .
٥ الشعراء الصعاليك (٣٣٥) .
٦ أسماء المغتالين (المجموعة السادسة) ، (ص ٢٣٢) .

وقد ضاع أكثر شعر (الشنفرى) . وقد طبعت لاميته ، وللعلماء شروح وبحوث عليها . وهي في الفخر والحماسة ، ولم يعرف كثير من قدماء علماء الشعر القديم هذه اللامية ، ومن بينهم مؤلف كتاب (الأغاني) . وقد تعرض (القالي) لموضوع (اللامية) ، فقال : « حدثني أبو بكر بن دريد : ان القصيدة المنسوبة الى الشنفرى التي أولها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني الى قوم سواكم لأميل

له ، وهي من المقدمات في الحسن والفصاحة والطول ، فكان أقدر الناس على قافية »[1] . ويعود الضمير (له) الى خلف الأحمر . أي ان القصيدة هي من صنعه وعمله . وعدة القصيدة ثمانية وستون بيتاً . وممن شرحها : الخطيب التبريزي، والزمخشري ، وابن الشجرى ، وابن اكرم وغيرهم[2] . وقد ورد في (تأريخ الآداب العربية) لكارلو نالينو : « أما الشنفرى الأزدي فصاحب اللامية المشهورة التي يفتخر فيها بانفراده من قومه ووحشة عيشه في البراري كأنه لم يعاشر إلا السباع . وهي قصيدة غاية في الجمال تنطق بلسان حال الشاعر وان كان بعض النحويين يزعمون انها من مصنوعات حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ »[3] . وفي قوله: « وان كان بعض النحويين يزعمون انها من مصنوعات حماد الراوية » وهم ، لا أدري أوقع منه ، أم من الترجمة ، لأن غالبية العلماء تنسبها الى خلف الأحمر، لا الى حماد . كما ان وفاته كانت سنة (١٥٦ هـ)[4] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الذين بحثوا أمر هذه القصيدة ، الى أن القصائد التي نحلها (خلف الأحمر) احتفظت دائماً بعمود الشعر القديم وطابعه ، أما هذه القصيدة ، فلها طابع خاص يجعل من الصعب تصور صدورها من (خلف الأحمر)[5].

---

١ الامالي (١/١٥٦ وما بعدها) ، الاغاني (٢١/٨٧) ، الخزانة (٢/١٦) ، زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٦١ وما بعدها) .

٢ الخزانة (٢/١٥) ، (بولاق) ، اللاميتان : لامية العرب ولامية العجم ، من شروح الزمخشري والصفدي ، علق عليهما وأعدهما : عبد المعين الملوحي ، دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومي ، رقم ١٣ .

٣ (ص ٧٣) .

٤ الفهرست (١٤٠) .

٥ بروكلمن (١/١٠٦ وما بعدها) .

وذهب بعض آخر الى جواز كونها من نظم (الشنفرى)[1]،وذكر أنها من مصنوعات (جمّاد) الراوية[2] .

وفي (المفضليات) قصيدة طويلة له ، هي قصيدة تائية ، ومقطعات ، وفي قصيدته وصف لحياته ولبعض غاراته،وكيف كان يقود صعاليكه في طرق وعرة، وهم على أرجلهم ، ثم يصف حاله ، فهي قصيدة فيها بعض تأريخ هذا الشاعر وقصص غزوه وتعامله مع رفاقه[3] .

وقد طبع الأستاذ (عبد العزيز) الميمني ، ديوان الشنفرى في (الطرائف الأدبية)[4] ، وتوجد أشعاره أيضاً في (ديوان الهذليين)[5] . وقد كان عند العيني ديوان للشنفرى في جملة دواوين عديدة كانت في حوزته[6] . وقد كتب عدد من المستشرقين عن الشنفرى وشعره بمختلف اللغات[7] .

وأما (تأبط شراً) ، وهو (ثابت بن جابر بن سفيان) ، وقيل (ثابت بن عسل) فهو من فهم ، وكان من أغربة العرب ، لأن أمه أمة سوداء . وكان من العدائين المعروفين عند العرب . وله أخبار كثيرة في ذلك ، وله مغامرات تحمل طابع القصص والأساطير . وله قصيدة في وصف (الغول) ذكر فيها كيف طير بسيفه قحف ابنة الجن[8] . وكان أحد رآبيل العرب . وذكر علماء اللغة ان الرئبال هو الذي ولدته أمه وحده[9] ، وبه سميت رآبيل العرب،ومن السباع الكثير اللحم الحديث السن ، والذئب الخبيث ، وترأبلوا : تلصصوا أو أغاروا على الناس

---

١ بروكلمن (١٠٧/١) .
٢ تاريخ الآداب العربية (٧٣) ، الاغاني (٥/١٣) .
٣ العصر الجاهلي (٣٨٠ وما بعدها) .
٤ بروكلمن (١٠٥/١ ، ١٠٩) ، طبع لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٧ م.
٥ الشعراء الصعاليك (١٥٩ وما بعدها) .
٦ العيني ، كتاب المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية (٥٩٦/٤) .
٧ راجع بروكلمن (١٠٧/١) .
٨ الشعر والشعراء (١٧٤) ، الاغاني (٢٠٩/١٨) « بولاق » ، خزانة الادب (٦٦/١) ، بروكلمن (١٠٤/١ وما بعدها) ، شرح شواهد المغنى ، للسيوطي (١٩) ، المفضليات (٢٧ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٢٣٠/١ وما بعدها) ، (دار الثقافة ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١٠٤/١) .
٩ تاج العروس (١٠٠/٥) ، (أبط) ، السيوطي ، شرح شواهد المغني (٥٠/١ وما بعدها) ، (أحمد ظافر كوجان) .

وفعلوا فعل الأسد ، أو غزوا على أرجلهم وحدهم بلا والٍ عليهم[1] . وهذا المعنى هو أقرب المعاني وأقرب الى الصحة في تفسير (رآبيل العربّ) . فهم الصعاليك الذين نبحث عنهم .

ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، وأن أمه التي كانت أمة سوداء على أغلب الروايات ، أو أمة حرة في رواية ، تزوجت الشاعر (أبا كبير) الهذلي ، وهو من الصعاليك ، من صعاليك هذيل ، وأن أبناء قبيلته كانوا يعيرونـه بسواده ، مما ترك أثراً في نفسه ، فتصعلك ، وأخذ يرافق الصعالكة ، ومنهم صعلوك شهير آخر ، هو (الشنفرى) الذي رافقه في كثير من غزواته . وقـد نعت (تأبط شراً) بأنه كان شاعراً بئيساً ، يغزو على رجليه[2] .

ومما يروى من قصصه أنه كـان يشتار عسلاً من جبل ليس له غير طريق واحد ، فأخذت لحيان عليه ذلك الموضع ، وخيّروه النزول على حكمهم أو إلقاء نفسه من الموضع الذي ظنوا أنه لا يسلم . فصب العسل الذي معه على الصفا وشدّ صدره على الزق ثم لصق على العسل ، فلم يبرح يتزلق عليـه حتى نزل سالماً ، فنظم في ذلك قصيدة مطلعها :

إذا المرءُ لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو مُدبر[3]

ولعلماء الشعر قصص في تفسير تسمية هذا الشاعر بـ (تأبـط شراً) ، فزعم بعض منهم أنه « إنما سمّي تأبط شراً لأنه أخذ سيفاً وخرج ، فقيل لأمـه أين هو ؟ قالت : لا أدري ، تأبط شراً وخرج . وقيل أخذ سكيناً تحت أبطه وخرج الى نادي قومه فوجأ بعضهم ، فقيل تأبط شراً . وزعم بعض آخر أن أم تأبط شراً قالت له يوماً : إن الغلمان يجنون لأهلهم الكمأة فهلا فعلت كفعلهم ، فأخذ جرابه ومضى فملأه أفاعي وأتى متأبطاً به ، فألقاه بين يديها فخرجت الأفاعي منه

---

١ تاج العروس (٣٣٣/٧) ، (ربل) ، الاشتقاق (١٦٢ ومـا بعدها) ، اللآلىء (١٥٨ وما بعدها) ، التيجان (٢٤٢ وما بعدها) ، أسماء المغتالين (٢١٥) .

٢ الشعر والشعراء (٢٢٩/١) ، (دار الثقافة) ، الاغاني (٢١٥/١٨ وما بعدها) ، Baur, in ZDMG, X, 7, 17, ff.

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٩٧٥/٢) ، الاغـاني (٢١٥/١٨) ، شرح ديوان الحماسة (٣٨/١) ، المحبر (١٩٧ وما بعدها) ، الخزانة (٣٥٧/٣) .

تسعى فولت هاربة . فقال لها نساء الحيّ : ما الذي كان ابنك متأبطاً له ؟ فقالت: تأبط شراً ! وقيل : إنه رأى كبشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه ، فجعل يبول عليه طول طريقه ، فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش ، فرمى به ، فإذا هو الغول . فقال له قومه : ما كنت متأبطاً يا ثابت ؟ قال : الغول . قالوا : لقد تأبطت شراً ، فسمي بذلك . وانه قال في ذلك :

تأبط شراً ثم راح أو اغتـــدى   يوائم غنماً أو يشيف على ذحل

وقيل سمّي بهذا البيت . قال رجل لتأبط شراً : بمَ تغلب الرجال وأنت دميم ضئيل ؟ قال : باسمي ، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبط شراً، فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت »[1] . وقيل إنما سمي (تأبط شراً) ، لأن أمه رأته وقد تأبط جفير سهام وأخـــذ قوساً ، فقالت له : هذا تأبط شراً ، أو تأبط سكيناً فأتى ناديهم فوجأ بعضهم ، فسمي بـــه لذلك ، وكان لا يفارقه سيفه . قتلته هذيل في رواية ، وقالت أخته ترثيه :

نعم الفتى غادرتم برخمان   بثابت بن جابر بن سنان

وكانت تسمى (ريطة) . وذكر أن أمه هي التي رثته . وقد ذكر في أشعار هذيل[2] .

وكان سبب قتله ، انه خرج غازياً في نفر من قومه ، إذ عرض لهـم بيت من هذيل ، بين صدى جبل ، فأراد مهاجمته ، فمنعه من كان معه من مباغتته، لخروج ضبع اعتافوا منه ، فلم يبال بتشاؤمهم ، فلما قارب البيت رآه غـلام ، فهرب الى الجبل ، فهجم تأبط شراً مع جماعته على البيت ، فقتلوا شيخاً وعجوزاً،

---

١ الاغاني (٢١/١٤٦) ، شرح حماسة أبي تمام (١/٧٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٥٢) .

٢ تاج العروس (٥/١٠٠) ، (أبط) قال مليح الهذلي :

ونحن قتلنا مقبـــلا غير مدبر   تابط ، ما ترهق بنا الحرب ترهق

اللسان (٧/٢٥٤) ، (أبط) .

ويل أم طـرف قتلوا برخمـان   بثامت بن جابر بن صنان

الشعر والشعراء (١/٢٢٩) ، (دار الثقافة) ، الاغاني (١٨/٢٠٩) ، (بولاق) ، المغتالين (٢١٥) ، الخزانة (١/٦٦) .

وحازوا جاريتين وإبلاً ، ثم أبصر تأبط شراً بالغلام ، فاتبعه ، فرماه الغلام بسهم أصاب قلبه ، وحمل على الغلام فقتله ، ثم مات هو من السهم ، وترك جثة ، فاحتملته هذيل ، وطرحته في غار يقال له غار (رخمان) . فرثته أخته (ريطة) بقولها :

نعم الفتى غادرتم برخمان ثابت بن جابر بن سفيان
قد يقتل القرن ويروي الندمان[1]

وفي بيت شعر ينسب الى تأبط شراً ، هو :

ولست أبيت الدهرَ إلا على فتى أسلّبه أو أذعر السرب أجمعا[2]

معنى يفيد انه كان يغـير على القادم والآيب ، يسلبه ويأخذ ما عنده ، لا يبالي بشيء إلا بحصوله على غنيمة السلب ، وهو ان قابل قافلة ، فلم يتمكن منها ، يكون قد رضي من فعله بما ألقاه من رعب وذعر في قلوب أصحابها ، ويكون قد اشتفى بذلك منها . فهو رجل منتقم ، يريد أن يفرج عما ولد في قلبه من غلّ ، بأية طريقة كانت ، غلّ ، ولد فيه ، من سواد لونه ، ومن ازدراء قومه له ، ومن فقره وسوء حاله في هذه الحياة ، وذلك فيما لو صح ان هـذا الشعر هو من قوله .

ونسب قوم من الرواة الى (تأبط شراً) قصيدة مطلعها :

ولقد سريتُ على الظلام بمغشمٍ جلد من الفتيان غير مهبل

وهي قصيدة نسبها غيرهم الى (أبي كبير) الهذلي ، ووضعوا حولها قصة في شرح السبب الذي حمل (أبا كبير) أو (تأبط شراً) على نظمها[3] .

قال (الجاحظ) في كتابه (الحيوان) : « وقال تأبط شراً – إن كان قالها – :

---

١ اسماء المغتالين (٢١٥ وما بعدها) .
٢ الاغاني (١٨/٢١٧) .
٣ الشعر والشعراء (٢/٥٦٢ وما بعدها) ، (الثقافة) .

شامس في القرّ حتى اذا ما ذكت الشعـرى فبرد وظل
وله طعـمان أرْيٌ وشريٌ وكلا الطعمين قد ذاق كل ء[1]

مما يدل على انه في شك من أمر نسبة هذه القصيدة اليه .

وأشعار (تأبط شراً) متناثرة في كتب الأدب . ولم يطبع لـه ديوان بعد . ومن شعره أبيات ، يذكر فيها أن (عذّالة) لامته حتى أكثرت من لومه ، فكادت تخرق جلده أي تخراق ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

يا مـن لعذّالة خذّالة نشبٍ خرقت باللوم جلدي أي تخراق
تقول : أهلكتَ مالاً لو ضننتَ به من ثوب عزٍ ومن بزٍ وأعلاق
سدّد خلالك من مال تجمعه حتى تلاقي ما كلّ امرىء لاق
عاذلتا انّ بعضَ اللوم معنفـة وهل متـاع وإن بقيته باق[2]

وهذه هي مشكلة أولئك الصعاليك ، كانوا يخاطرون بحياتهم ، للحصول على مال ، فإذا حصلوا عليه ، ونجوا من تعقب الناس لهم ، أهلكوه . يتلفونه على ملذاتهم ، أو على أصدقائهم . وإذا بهم في حاجة الى مال ، وفي عسر وضيق .

ومن شعره قوله :

لتَقرعنّ عليّ السنّ من ندمٍ إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي[3]

وله شعر يصف فيه حاله ، بقوله :

قليل التشكّي للمهم يُصيبه كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالكِ
يظلّ بمَوماة ويمسي بغيرهـا جحيشاً ويَعْرورْي ظهورَ المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي بمنخرق من شدة المتـدارك
اذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالىءٌ من قلب شيحان فاتك

---

١ الحيوان (٣/٦٨ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٣٠) ، (دار الثقافة) ، أبو تمام ديوان الحماسة (٣٨٢ وما بعدها) .
٣ الحيوان (١/٦٣) .

ويجعل عينيه ربيئة قلبه إلى سلة من حدٍّ أخلق صائكِ
اذا هزّه في عظم قرنٍ تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك[1]

وهي قصيدة مدح بها عمه (شمس بن مالك)[2] .

وقد شك (الجاحظ) في نسبة هذه القصيدة الى (تأبط شراً) ، إذ قال : « ومن هذا الباب قول تأبط شراً ، أو قول قائل فيه في كلمة له »[3] . وتنسب أيضاً الى (السليك بن السلكة) أحد غرابيب العرب[4] .

وله قصيدة ذكر فيها أنه التقى بالغول ، وصار جاراً للغيلان ، وقد وصف حاله معها ، حيث قال :

وأدهم قد جبت جلبابَهُ كما اجتابت الكاعبُ الخيعلا
الى أن حدا الصبحُ أثناءهُ ومزق جلبابه الأليلا
على شيم نارٍ تنورتها فبت لها مدبراً مقبلا
فأصبحت والغول لي جارة فيا جارتا أنتِ ما أهولا
وطالبتُها بعضها فالتوت بوجه تهول فاستهولا

وهي قصيدة ذكرها (ابن قتيبة) ، وقد اكتفيت منها بالأبيات المتقدمة[5] .
وقد عمل (ابن جني) ديوان (تأبط شراً)[6] ، ونشرت بعض أشعاره وترجمت بلغات أعجمية[7] .

---

١ الحماسة ، لابي تمام (٤٦/١ وما بعدها) ، (بولاق) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧٣) ، (اذا خاص) ، (اذا خاط) ، الحيوان (٤٦٧/٦) .
٢ كارلو نالينو ، (٧٣) .
٣ الحيوان (٢٥٥/٦) ، وتجد اختلافا بين نص الجاحظ لها ، وبين نصها في الموارد الاخرى .
٤ الحماسة (٢٢/١) ، القالي ، أمالي (١٣٨/٢) ، التيجان (٢٤٢) ، زهر الاداب (١٨/٢) ، الصناعتين (٢٧٩ ، ٣١٠) ، ثمار القلوب (٢٠٤) ، الحيوان (٢٥٦/٦) .
٥ الشعر والشعراء (٢٣٠/١ وما بعدها) . اعجاز القرآن ، للباقلاني (٢٢) ، مروج الذهب (١٣٤/٢ وما بعدها) ، (ذكر أقاويل العرب في الغيلان والتغول) .
٦ بروكلمن (١٠٤/١ وما بعدها) .
٧ Ch. Lyell; Four Poems by T. Sh. the Poet, brigand, JRAS, 1918, 211-227.

وأما (السليك بن السلكة) ، فهو من تميم . وأمه أمة سوداء ، وكان يغير على القبائل ، ولا سيما القبائل اليانية وقبائل ربيعة . وكان من العارفين باقتفاء الأثر . ومن العالمين بالمسالك وبالطرق وبالأرض . يذكرون أنه كان اذا جاء الشتاء استودع بيض النعام ماء السماء ثم دفنه ، فإذا كان الصيف ، وأغار واحتاج الى الماء ، جاء الى مواضع البيض ، فاستخرج البيض منها وشرب ما فيه من ماء[1] .

وقد نسب (سليك) على هذا النحو : « سليك بن يثربي بن سنان بن عمير ابن الحرث ، وهو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن سلكة ، وهي أمه . ولذا قيل : (ابن السلكه) وقيل اسم والده : (عمرو بن يثربي) ، ويقال (عمير) ، وهو شاعر لص فتاك عدّاء . يقال : «أعدى من سليك » ، ويقال له : (سليك المقانب) . قال قرّان الأسدي ، وقيل أنس ابن مدرك :

لَخُطابُ ليلى يالَ برثن منكم على الهول ،أمضى من سليك المقانب[2]

وقال أهل الأخبار عنه ،انه أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم ورجيلاتهم ، وكان له بأس ونجدة . وكان أدل الناس بالأرض وأجودهم عدواً على رجليه ، وكان لا تعلق به الخيل . وتذكر قصة انه خرج رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر عليه ، فيذهب بإبله ، وبينا هو نائم ، واذا برجل يجثم عليه ، ويقول له : استأسر ، فتمكن منه السليك ، ووجده صعلوكاً فقيراً جاء مثله لعله يصيب شيئاً ، فاتفق معه على أن يغزوا معاً ، فلما سارا وجدا رجلاً صعلوكاً انضم اليهما ، واتفقوا على الغزو ، ولما كانوا في جوف (مراد) ، وجدوا نعماً ، فطلب (سليك) من رفيقيه الانتظار والتربص ريثما يذهب الى الرعاء فيلهيهما ، ثم يغيرا على النعم . فلما وصل الى الرعاء ، تودد اليهم ، ثم قال لهم : ألا أغنّيكم ؟ قالوا : بلى ، فأخذ يغني :

---

١ زيدان ، تاريخ آداب (١٦٣/١) ، الاغـاني (١٣٣/١٨) ، الشعر والشعراء (٢١٣) .

٢ اللسان (٤٤٣/١٠) ، (سلك) ، تاج العروس (١٤٤/٧) ، (سلك) ، (السليك ابن سنان بن سلكة) ، تحفة الابيه فيمن نسب الى غير أبيه (١٠٥ وما بعدها) ، (نوادر المخطوطات ، المجموعة الاولى) .

يا صاحبيَّ ألا لا حيَّ بالوادي   إلا عبيد وآم بين أذواد
أتنظرانِ قليلاً ريث غفلتهم   أم تعدوان فإن الريح للعادي

فلما سمعا ذلك أطردا الإبل فذهبا بها[1] .

وذكر ان (بكر بن وائل) سارت للإغارة على (تميم) . ورأته طلائعها، فأرادت القبض عليه ، حتى لا يذهب اليهم فيخبرهم بزحفهم عليهم . ولكنه ركض مسرعاً ، ففلت منهم ، وأخبر قومه بغزوهم ، فكذبوه . فقال في ذلك شعراً ، وجاءت (بكر بن وائل) فأغارت عليهم[2] .

وقد وصفه (عمرو بن معدي كرب) في شعر منه :

وسيريَّ حتى قال في القوم قائل: عليك أبا ثورٍ سُلَيّكَ المقانب[3]

ومرَّ (سليك) في بعض غزواته ببيت من (خثعم) ، أهله خلوف ، فرأى فيهم امرأة بضة شابة ، فتسنّمها ومضى ، فأخبرت القوم ، فركب (أنس بن مدرك الخثعمي) في أثره فقتله ، وطولب بديته ، فقال : واللهِ لا أديه ابنَ إفال ، وقال :

إني وقتلي سليكا يوم أعقله   كالثور يضرب لما عافت البقر
غضبتُ للمرء إذْ نيكت حليلته   وإذ يشدُّ على وجعائها الثغر[4]

وقد ورد البيتان على هذه الصورة :

إني وقتلي سليكاً ثم أعقله   كالثور يضرب لما عافت البقرُ
أنفت للمرءِ إذ نيكت حليلته   وأن يشد على وجعائها الثغر[5]

ومن بقية الشعراء الصعاليك ، (حاجز) الأسدي ، و(قيس بن الحدادية)

---

١ الشعر والشعراء (٢٨٢/١ وما بعدها) ، (الثقافة) ، الاغاني (١٣٤/١٨) .
٢ الشعر والشعراء (٢٨٤/١) ، (الثقافة) ، الخزانة (١٧/٢) ، (بولاق) .
٣ الشعر والشعراء (٢٨٤/١) ، (الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (٢٨٥/١) ، (الثقافة) اسماء المغتالين (٢٢٠ ، ٢٢٦ وما بعدها) ، الاغاني (١٣٣/١٨) ، المؤتلف (١٣٧) ، الخزانة (١٧/٢) .
٥ الحيوان (١٨/١) .

الأزدي ، و(أبو الطمحان) القيني ، (وأبو[*] خراش) الهذلي ، وصخر الغي الهذلي[1] ، وأخوه الأعلم الهذلي[2] ، وعمرو ذو الكلب [3] .

فأما (قيس بن الحدادية) ، فهو (قيس بن منقذ بن عبيد بن أصرم بن ضاطر بن حُبشية بن سلول) ، وله مع (عامر بن الظرب) حديث . وصفه (المرزباني) بـ « شاعر قديم كثير الشعر »[4] . وأمه من (بني حُداد) كنانة ، وقوم يجعلونها من حداد محارب . وكان صعلوكاً خليعاً[5] ، ساهم مع جماعة من أهله في قتل رجل من قبيلتهم ، وعجز قومه من دفع ديته،فولوا هاربين ، فنزلوا في (فراس بن غنم) ثم لم يلبثوا أن قتلوا منهم رجلاً ، فهربوا ، فنزلوا على (أسد بن كرز) من (بجيلة) ، فأحسن اليهم وتحمل عنهم ما أصابوا في خزاعة وفي فراس[6] . وقد نسب (قيس) الى أمه الحُدادية ، وهي حضرمية من محارب[7] . وورد ان أمه من (محارب بن خصفة) . و (حداد) من كنانة . ومن شعره :

أنا الذي أطرده مواليه[*] وكلهم بعد الصفاء قاليه[8]

ولا نجد في بطون الكتب شعراً كثيراً لقيس بن الحدادية ، بحيث تنطبق عليه جملة (كثير الشعر) التي أطلقها (المرزباني) على شعر هذا الشاعر ، مما يبعث على الاحتمال بضياعه منذ عهد طويل .

وألف (قيس بن الحدادية) ، عصابة ضمت « شذاذاً من العرب وفتاكاً

---

١ شرح اشعار الهذليين (١/١٢) ، الاغاني (٢٠/١٩) ، الشعر والشعراء (٢/٥٥٩) ، ديوان الهذليين (٢/٥٧) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٥٩) .
٣ الاغاني (٢٠/١٩) .
٤ زيدان ، تاريخ آداب (١/١٦٤) .
٥ المرزباني ، معجم (٢٠٢) ، الاغاني (١٣/٦) .
٦ الاغاني (١٣/٢ وما بعدها) ، الشعراء الصعاليك (٩٦ وما بعدها) .
٧ كتاب من نسب الى امه من الشعراء (٨٦ وما بعدها) ، (نوادر المخطوطات ، المجموعة الاولى) .
٨ كتاب من نسب الى أمه من الشعراء (٨٧) ، الاشتقاق (٢٧٧) ، القاب الشعراء ، لابن حبيب (١٣٩) .

من قومه ، وأخذ يغير على عشيرته بسبب خلعها له ، وبقي شريداً متمرداً يغزو بصعاليكه ، الى أن قتل صعلوكاً[1] .

وأما (أبو الطمحان) القيني ، فهو (حنظلة بن الشرقي) من بني كنانة بن القين ، وكان فاسقاً ، نازلاً بمكة على الزبير بن عبد المطلب ، وكان ينزل عليه الخلعاء ، وكان نديماً له في الجاهلية . اختلف فيه ، فنهم من قال إنه جاهلي ، ومنهم من قال إنه أدرك الإسلام . وقد زعم بعضهم أنه عاش مائتي سنة ، وأنه ندم على ما اقترفه من الذنوب كالزنا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والسرقة ، ورووا له شعراً تبرأ فيه من الذنوب . ذكر أنه قيل له : ما أدنى ذنوبك؟قال : ليلة الدير ، قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلتُ بديرانية ، فأكلت عندها طفشيلاً بلحم خنزير ، وشربت من خمرها ، وزنيت بها ، وسرقت كساءها ، ومضيت !؟ وكانت له ناقة يقال لها (المرقال) ، وله إبل استقاها قوم نزلوا ضيوفاً عليه وشربوا من ألبانها ثم أخذوها معهم ، فقال في ذلك شعراً منه :

واني لأرجو ملحها في بطونكم وما بسطت من جلد أشعث أغبر[2]

وذلك أنه جاورهم ، فكان يسقيهم اللبن ؛ فقال أرجو أن تشكروا لي ردّ إبلي ، على ما شربتم من ألبانها ، وما بسطت من جلد أشعث أغبر ، كأنه يقول: كنتم مهازيل فبسط ذلك من جلودكم[3] .

وروي أنه كان من المعمرين ، عاش على حدّ قول بعضهم مائتي سنة . فقال في ذلك :

حنتني حانيات الدهر حتى كأني خاتل أدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رآني ولست مقيداً أني بقيد[4]

---

١ الشعراء الصعاليك (٩٧ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (١/٣٠٤ وما بعدها) ، الاصابة (١/٣٨١) ، (رقم ٢٠١١) ، الاغاني (١١/١٢٥) ، الخزانة (٣/٤٢٦) ، المعمرون للسجستاني (٦٢) ، المؤتلف (١٤٩) ، امالي المرتضى (١/٢٥٧ وما بعدها) .

٣ الحيوان (٤/٤٧٣) .

٤ أمالي المرتضى (١/٢٥٧) .

ونسب (المرتضى) له قوله :

وإني من القوم الذين همُ همُ إذا مات منهم ميت قام صاحبه
نجوم سماء كلما غـاب كوكب بدا كوكبٌ تأوي اليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نَظَّم الجزع ثاقبه
وما زال منهم حيث كان مسودٌ تسير المنايا حيث سارت كتائبه[1]

وقد لاقى (أبو الطمحان) مصاعب عديدة ، وكان لا يكاد يجد له مكاناً يستقر فيه ، حتى تقع له حادثة توقعه في مشكلات عويصة وفي شدة ومحنـة ، فكان يتنقل من جار الى جار ، ثم يهم بالعودة الى أهله لولا خوفـه من أداء الدية التي عليه أن يدفعها ، فيحجم عن الذهاب اليهم ، حتى استقر أخيراً في (بني فزارة) في جوار رجل يقال له (مالك بن سعد) أحد (بني شمخ) ، وكان كريماً ، فآواه ، وأعطاه إبلاً لتكون دية جنايته وزاد عليها ، وكان قد لمح له انه يريد العودة الى أهله لولا هذه الدية ، فلما وجد هذا السخاء من مالك، بقي عنده ، وصار أحد عشيرته حتى هلك فيها ، وهو طاعن في السن[2]. فذكره (السجستاني) لذلك في المعمرين ، وأعطاه مائتي سنة من عمر مديد[3] !

ونسب الى (أبي الطمحان) قوله :

إن الزمان ولا تفنى عجائبه فيه تقطع ألافٍ وأقران
أمست بنو القين أفراقاً موزّعة كأنهم من بقايا حي لقمان[4]

وله شعر في مدح (مالك بن حمار) الشمخي ، وكان شريفـاً من أشراف العرب قتله (خفاف بن ندمة) السلمي[5] ، يقول فيه :

---

١ أمالي المرتضى (٢٥٧/١) .
٢ الاغاني (١٣٢/١١ وما بعدها) .
٣ المعمرون (٦٢).
٤ البيان والتبيين (١٨٧/١) .
٥ الاشتقاق (١٧٢/٢) ، البيان والتبيين (٢٣٥/٣) ، وقد اخطأ السيـد عبـد السلام محمد هارون في الجزء الاول من كتاب الحيوان الـذي حققه ، اذ قال : « وهو يمدح مالك بن حماد الشمخي » ، ثم علق عليه برقم (٤) حاشية ، ثم قال في الحاشية : « هو قاتل خفاف بن ندبة » ، (ص ٣٨٠) ، الاغاني (١٣٤/١٣) .

سأمدح مالكاً في كل ركبٍ لقيتهم وأترك كل رذل
فما أنا والبكارة من مخاضٍ عظامٍ جلة سدس وبزل
وقد عرفت كلابُكم ثيابي كأني منكمُ ونسيتُ أهلي
نمتكم من بني شمخٍ زناد لها ما شئت من فرعٍ وأصل[1]

وله أيضاً :

فكم فيهم من سيد وابن سيّد وفيٍّ بعقد الجار حين يفارقه
يكاد الغمامُ الغرّ يرعب إن رأى وجوه بني لأم وينهـــل بارقه[2]

وله في (بني نمير) قوله :

مهلاً نمـيرُ فإنكم أسيتم منّــا بثغر ثنيّـــةٍ لم تُستر
سُوداً كأنكم ذئاب خطيطــةٍ مُطِرَ البلاد وحيرُها لم يُمطر
يحبُون ما بين أجا وبرقة عالجٍ حبو الضباب الى أصول السخبر
وتركتم قصب الشُريف طوامياً تهوى ثنيته كعين الأعور[3]

وله في الإتعاظ والاعتبار بدروس الغابرين ، قوله :

ألا ترى مأرباً ما كان أحصنه ومـــا حواليه من سور وبنيان
ظلّ العبادي يسقي فوق قُلّته ولم يهب ريب دهرٍ حق خوّان
حتى تناوله من بعد ما هجعوا يرقى إليه على أسباب كتّان[4]

ولما في حياة الصعالكة من غرابة وطرافة ومغامرات ، تستلذ لسماعها الآذان ، وضع الوضاعون عليهم أخباراً كثيرة وأشعاراً عديدة ، تجـــد بعضها تحكي الأيام

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٣٥) .
٢ البيان والتبيين (٣/٣٣٧) .
كم فيهم من سيد وابن سيـد وفي بعقد الجار ، حين يفــارقه
يكاد الغمام الغر يرعـد ان رأى وجوه بني لام وينهل بارقـه
الحيوان (٣/٩٣) .
٣ الحيوان (٦/١١٣) .
٤ الحيوان (٦/١٥٤) .

التي وضع الوضاعون فيها تلك الأشعار ، من حيث الطعن في الأغنياء ، وتفضيل الفقراء عليهم ، وترجيح الفقير على الغني ، لشعوره بشعور انساني حرم منه الغني الذي لم يكن يفكر إلا بنفسه ، كما ان في كثير من الشعر المصنوع طابـع حياة المغامرات . وهو يختلف نصاً من مؤلف الى مؤلف،مما يدل على تعدد الروايات، وانه أخذ من ألسنة متعددة ، فتعدد بعددها .

الفصل الحادي والستون بعد المئة

شعراء القرى العربية

والقرى العربية في نظر (ابن سلام) خمس هن: مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين[1] . و (القرية) في تفسير علماء العربية المصر الجامع ، وقيل كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً وتقع على المدن وغيرها[2] . وقد جاءت اللفظة في مواضع عديدة من القرآن . كما وردت فيه : (القريتين) ، بمعنى مكة والطائف[3] ، و (أم القرى) ، بمعنى (مكة)[4] ، و (أهل القرى) ، و (القرى) . ومكة والمدينة والطائف قرى ، أما (اليمامة) ، فمصر جامع ، ضم قرى ، وكذلك البحرين . ولم تدخل (الحيرة) ، أو الأنبار ، في القرى العربية لكونهما خارج حدود جزيرة العرب في عرف العلماء .

وذكر (ابن سلام) ان أشعر أهل القرى الخمس ، أهل قرية (المدينة) ، أي (يثرب) . وقد أخرجت خمسة من الفحول : ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس . فمن الخزرج من (بني النجار) : حسان بن ثابت ، ومن بني سلمة : (كعب بن مالك) ، ومن (بلحارث بن الخزرج) (عبدالله بن رواحة) .

---

١ طبقات (٥٢) .

٢ تاج العروس (١٠/٢٩٠) ، (قرى) .

٣ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الاية ٣١ ، تفسير الطبري (٢٥/٣٩) .

٤ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٢ ، تفسير الطبري (٧/١٨٠) .

ومن (الأوس) : قيس بن الخطيم ، من (بني ظفر) ، (و (أبو قيس ابن الأسلت) من (بني عمرو بن عوف)[1] .

وروي عن (أبي عبيدة) قوله : « اجتمعت العرب على ان أشعر أهل المدر : يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف ، وعلى ان أشعر أهل المدر : حسان بن ثابت ، ثم قال : « حسان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر اليمن في الاسلام ، وهو شاعر أهل القرى » . وروي انه كان أشعر أهل الحضر[2] .

وقال (ابن سلام) في حديثه عن مكة : « وبمكة شعراء »[3] ووصف أشعار قريش بأنها أشعار فيها لين[4] ، وهي سهلة سلسة اذا قيست بأشعار أهل البادية ، يتغلب عليها طابع الحضارة ، وكذلك شعر باقي القرى . وقال عن (الطائف) ، وبها شعراء وليس بالكثير . وعلل ذلك بقوله : « وانما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم. والذي قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم ثائرة ، ولم يحاربوا . وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف »[5] . وقال عن (البحرين) : « وفي البحرين شعر كثير جيد وفصاحة »[6] . وقال عن (اليمامة) : « ولا أعرف باليمامة شاعراً مشهوراً »[7] .

ولم تنفرد أشعار قريش وحدها باللين ، وإنما الليونة والسهولة في الشعر من طبائع الشعر الحضري أجمع . ففي طبيعة الحياة في الحاضرة سهولة غير موجودة في حياة البداوة ، وراحة ودعة واستقرار ، وهي أمور لا توجد في البادية ، ثم فيها اجتماع واحتكاك بعالم خارجي ، وميل الى جمع المال والاستمتاع به،والابتعاد عن الغزو والحرب ، وكراهة القتال وتعريض النفس للخطر ، والنفس عزيزة غالية عند الحضر ، وهي هينة رخيصة عند الأعراب ، وما الذي يجعل الأعرابي يحرص على حياته حرص أهل الحواضر ، وكل ما عنده جوع وفقر وطبيعة قاسية

---

١ ابن سلام ، طبقات (٥٢) .
٢ الاستيعاب (١/٣٣٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ طبقات (٥٧) .
٤ طبقات (٦٠) .
٥ المصدر نفسه (٦٥ وما بعدها) .
٦ كذلك (٦٦) .
٧ كذلك (٧٠) .

تجعله لا يحصل على قوته إلا بالإغارة على غيره لاستلاب ما عنده من رزق . فلا غرابة إذا ما غلظ شعره وخشن شعوره المتمثل في نظمه ، ولأن شعر الحضري في مقابله .

ولم يذكر (ابن سلام) السبب الذي جعل (اليمامة) فقيرة في الشعر ، حيث يقول : « ولا أعرف باليمامة شاعراً مشهوراً »[1] ، ولا الأسباب التي حملته على القول بعدم وقوفه على شاعر شهير فيها ، مع أن (الأعشى) منها ، وهو شاعر شهير ، والمرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وهما شاعران مشهوران من (قيس ابن ثعلبة)، و (قيس بن ثعلبة) من القبائل النازلة باليمامة ، وقد ذكرها (ابن سلام) في طبقاته ، كما ذكر (المتلمس) ، في طبقاته ، وهو شاعر معروف من شعراء اليمامة كذلك . ويظهر أنه نسي أسماءهم ، لأنه كان يعلم أن الغلبة كانت لبني حنيفة على اليمامة عند ظهور الإسلام ، ولم يحفظ الرواة – لسبب لا نعرفه – شعراً لشعراء من بني (حنيفة) ، فعمم قوله على كل اليمامة، والحكم بالتعميم شيء مألوف بين أهل الأخبار .

وقد ذهب (الجاحظ) الى ان (بني حنيفة) أهل اليمامة ، كانوا أقل الناس شعراً ، إذ يقول : « وبنو حنيفة مع كثرة عددهم ، وشدة بأسهم ، وكثرة وقائعهم ، وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكراً كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي اخوتهم عجل قصيد ورجز ، وشعراء ورجّازون » . وقد أنكر أن يكون ذلك بسبب مكان الخصب وانهم أهل مدر ، أي حضر ، وانما رجع ذلك الى الطبع، والى « قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والأعراق مكانها »[2].

ويلاحظ أن علماء اللغة ، جعلوا (اليمامة) في جملة الأرضين التي لم يرجعوا الى لغاتها ، فذكروا أنهم لم يأخذوا اللغة « لا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمجاورتهم تجار اليمن المقيمين عندهم »[3] ، وذلك في الإسلام بالطبع ، لأن تدوين اللغة لم يبدأ به إلا في هذا الحين . وهو رأي صحيح ، لأن لغات أهل اليمامة متأثرة باللهجات العربية الجنوبية، كما كانت كتابتهم

---

١ طبقات (٧٠) .
٢ الحيوان (٣٨٠/٤ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢١٢/١) .

بالمسند ، بدليل عثور المستشرقين على كتابات عديدة في مواضع من اليمامة ، مدوّنة بهذا القلم ، وبلغة عربية جنوبية متأثرة بلهجات خاصة بعض التأثر ، ولهذا فنحن نستطيع أن نقول إن كتابات اليمامة التي عثر عليها الآن والتي سيعثر عليها في المستقبل ، تكون مجموعة فريدة مهمة من الكتابات الجاهلية وقد تكون جسراً بين العربيات الجنوبية القحة ، وبين اللغات العربية الشمالية ، وقد تكون هذه الخصائص اللغوية الفريدة هي التي جعلت (ابن سلام) يقول في طبقاته : « ولا أعرف باليمامة شاعراً مشهوراً »[1] ، إذ سمع أن شعراء اليمامة كانوا يقولون الشعر بلهجاتهم التي تختلف عن اللهجة التي نظم بها شعراء مجموعة (ال) ، فأهمل لذلك شعرهم ، أو أن شعرهم لكونه شعراً محلياً خاصاً ، لم ينتشر خارج قبائل اليمامة ، فلم يصل الى علمه منه شيء ، فقال لذلك قوله المذكور ، ولم يعده من الشعر المألوف ، الذي تعورف عليه بين علماء الشعر ، ولما كان (الأعشى)و(المرقش) الأكبر ، والمرقش الأصغر ، والمتلمس ، قد نظموا الشعر باللهجة المألوفة ، ولكونهم من المتنقلة الذين تنقلوا بين العرب ، وقضوا أكثر أوقاتهم خارج اليمامة، لم يدخلهم لذلك في شعراء اليمامة ، لا جهلاً منه بأصلهم،وإنما لما بينته من أسباب.

ولعل لكثرة وجود العبيد والموالي بها دخل في هذا الباب ، فاليمامة أرض خصبة ذات مياه ، استقر أهلها وأقاموا في القرى وزرعوا واستعانوا بالموالي وبالعبيد وبأهل اليمن لاستغلال أرضهم ، فصاروا من أصحاب الزراعة في جزيرة العرب، كما استغلوا معادنها ، واستعانوا في استغلالها بالأعاجم ، فذكر انه كان في معدن (شمام) ألف أو يزيد من المجوس ، لهم بيت نار[2] . ولعل (آل كرمان) ، و (الأحمر) في الحرملية ، هم من الأعاجم الذين كانوا قد ولجوا هذه المواضع للعمل بها قبل الاسلام[3] ، أضف الى ذلك وجود عدد كبير آخر من الموالي في أكثر قرى اليمامة ، شغلوا في الزراعة وفي استغلال المعادن وفي تصنيعها ، وهي أمور يأنف منها الأعرابي ويزدريها . ولهذا قيل لهم أهل (ريف) ، وقد وصفهم جرير بقوله :

---

١ طبقات (٧٠) .

٢ الصفة (١٤٢) .

٣ لغدة (٣٠٢ وما بعدها ، ٣٥٩) .

صارت حنيفة أثلاثاً فثلثهم من العبيد وثلث من مواليها [١]

وذلك تعبيراً عن كثرة من كان في اليمامة من العبيد والموالي الذين لعبوا دوراً كبيراً في اقتصاد اليمامة ، حيث شغلوا في الزراعة وفي الرعي وفي استغلال المعادن والصناعة ، وانشاء القرى ، حتى صارت أرضها بين قرى وأرض استغلت بزرعها سيحاً ، أي على مياه الأمطار . وأما القرى ، فقد أقيمت على الآبار والعيون والمياه الجارية وعلى حافات الأودية. وقد حفر الرقيق أكثر هذه الآبار، كما استغلت الآبار العادية ، أي الآبار القديمة التي تنسب الى ما قبل مجيء قبائل (ربيعة) الى اليمامة. ونجد في الكتب التي وصفت اليمامة ذكراً لمواضع كثيرة ، توفرت بها المياه ، فصارت أرضين خصبة ، موّنت اليمامة وغيرها بالحنطة والتمور والخضر .

وكان جلّ أهل (اليمامة) عند ظهور الإسلام من (بكر بن وائل) ، وبكر ابن وائل من (ربيعة) ، فهم ليسوا من (مضر) اذن ، الذين أخذ عنهم علماء العربية اللغة في الإسلام . فقوم الأعشى ، وهم (بنو قيس بن ثعلبة) من بكر بن وائل ، وبنو حنيفة ، وهم قوم (مسيلمة) من (بني لجيم بن صعب ابن علي بن بكر بن وائل)[٢] ، فإلى ربيعة كانت الغلبة في هذا العهد ، وأما بطون (تميم) التي كانت تقيم في مناطق من اليمامة ، فلم تكن تكوّن الكثرة الى جانب ربيعة ، وتميم من مضر في عرف أهل الأخبار .

واليمامة اقليم مشهور عرف بعذوبة مياهه ، وبخصبه وبكثرة قراه ، وباشتغال أهله بالزراعة ، زراعة النخيل والأشجار المثمرة والحنطة ، كما عرف بتربيته للإبل والبقر والغنم ، ولذلك وفرت اللحوم به ، وقد استقر أهله ، وصاروا حضراً وأشباه حضر ، ولعلّ لصلتهم باليمن ولنزوح أهلها القدامى من اليمن ، وهم أهل زرع وضرع ، ثم توفر الماء والتربة الخصبة في اليمامة ، جعلت كل هذه الأمور أهلها حضراً على مستوى عالٍ من الحياة بالنسبة الى من كان يقيم في البوادي من القبائل ، اعتمدوا في الدفاع عن أنفسهم على الحصون والبتل التي لا تزال آثار بعضها قائمة الى هذا اليوم ، فكانوا إذا بوغتوا بهجوم ، أسرعوا الى بتلهم وقصورهم ، فتحصنوا بها . وهي من أهم ما يميز أهل الحضر عن

١ الخزانة (٣٠٠/٢) ، (بولاق) .
٢ تاج العروس (٧٨/٦) ، (حنف) .

أهل الوبر . ولهذا نجد مستوطنات أهل المدر ، مكوّنــة من أطم كما تسمى في (يثرب) ، أو قصور كما تسمى في الحيرة وفي قرى عرب العراق ، وبتل كما عرفت في اليمامة ، وبفضل هذا النظام الدفاعي ، حموا أنفسهم من هجمات الأعراب عليهم .

ولطابع الاستقرار الغالب على أهل اليمامة أثر في شعر شعراء اليمامة . يظهر في أساليب شعرائها السهلة وفي البحور التي نظموا بها شعرهم ، وهم يقربون بذلك من شعراء عرب العراق أو الشعراء الذيـن تأثروا بالشعر العراقي ، كما يظهر هذا الطابع في المعاني التي تطرقوا اليها ، وسبب قربهم في المعاني وفي الصياغة من أهل العراق ، هو تشابه الحياة بين عرب الحيرة مثلاً وبين أهل اليمامة . فأهل الحيرة حضر أو أشباه حضر ، وأهل اليمامة حضر مثلهم أو أشباه حضر ، لهم زراعة ، ولهم حرف قد احترفوها منذ أمد طويل ، ثم ان النصرانية كانت قد انتشرت بين عرب العراق ، وقد انتشرت بـين أهــل اليمامة كذلك ، وجذورها وإن لم تكن عميقة راسخة في المحيطين ، لكنها كانت قد تأثرت بعقلية أهلها على كل حال .

ومن شعراء اليمامة (المرقش) الأكبر ، وهو (ربيعة بن سعد بن مالك) ، ويقال : بل هو عمرو بن سعد بن مالك ، وقيل (عوف بن سعد بن مالك) من (بني قيس بن ثعلبة) من قبائل اليمامة المعروفة ، وكان أبوه سيد قومه في حرب البسوس، وهو خال (عمرو بن قميئة) ، وله صهر مع طرفة والأعشى ميمون[1] . ذكر انه انما عرف بالمرقش بهذا البيت :

الدار قفر والرسوم كما   رقش في ظهر الأديم قلم[2]

ويعدّ (المرقش) الأكبر من الشعراء العشاق ، وله قصة عن حبه لابنة عمه ، وعن زواجها أثناء غيابه ، ثم بحثه عنها ، ونزوله كهفاً أسفل (نجران) ، ثم احتياله في الوصول اليها ، ووفاته بعد ذلك . وهي قصة نجد لها مثيلاً في قصص

---

١ بروكلمن (١/١٠٢) ، المزهر (٢/٤٧٦ وما بعدها ، ٤٨١) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٣٨) ، (دار الثقافة) ، المرزباني ، معجم (٢٠١) ، الاغاني (٥/١٩٩)، السيوطي ،شرح شواهد (٢/٨٨٩) ، اللسان (٨/١٩٥) الاغاني (٦/١٢٧) ، المؤتلف (١٨٤) ، المفضليات (١١١) ، رسالة الغفران (٣٣٧ وما بعدها ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٥٦٠) ، البيان والتبيين (١/٣٧٤) .

وحكايات الأمم الأخرى[1] . وقيل ان صاحبته (أسماء بنت عوف بن مالك) ، كان أبوها زوّجها رجلاً من مراد ، والمرقش غائب ، فلما رجع أخبر بذلك ، فخرج يريدها ومعه عسيف له من (غفيلة) ، فلما صار في بعض الطريق مرض ، حتى ما يحمل إلا معروضاً ، فتركه الغفيلي هناك في غار ، وانصرف الى أهله ، فخبرهم انه مات ، فأخذوه وضربوه حتى أقر ، فقتلوه ، ويقال إن أسماء وقفت على أمره ، فبعثت اليه فحمل اليها ، وقد أكلت السباع أنفه . فقال :

يا راكباً أمــا عرضتَ فبلغــن   أنس بن عمرو حيث كان وحرملا

وقد وصف في هذه الأبيات ما لاقاه في سفره،وهروب الغفيلي منه ، وذهاب السباع بأنفه . ويقال إنه كتبها على خشبِ الرحل بالحميرية ، وكان يكتب بها، فقرأها قومه ، فلذلك ضربوا الغفيلي حتى أقر[2] . وفي أكل السباع أنفه يقول :

من مبلغ الفتيــان أن مرقشاً   أضحى على الأصحاب عبئاً مثقلا
ذهب السبــاع بأنفه فتركنه   ينهشن منه في القفــار مجدلا[3]

ونسب له قوله :

ومن يلقَ خيراً يحمد الناسُ أمرهُ   ومَنْ يغوَ لا يعدم على الغيّ لائما
أخوك الــذي إن أحرجتك ملمةٌ   من الدهر لم يبرح لهـا الدهر واجما
وليس أخــوك بالذي إن تشعبت   عليك أمور ظــلّ يلحاك دائماً[4]

وقد تعرض (المعري) لكلمة (المرقش) :

هل بالديار أن تجيب صمم ؟   لو كان حيــاً ناطقاً كلَّم

وقال بعد ذلك : « على أن مرقشاً خلط في كلمته فقال :

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٢/١) .
٢ الشعر والشعراء (١٣٨/١ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٣ رسالة الغفران (٣٥٥) ، الاغاني (١٢٧/٦) .
٤ بلوغ الارب (١٠٧/٣ وما بعدها) .

ماذا علينــا ان غزا ملك   من آل جفنة ظالم مُرغِم

وهذا خروج عما ذهب اليه الخليل »[1]

وتعرض بعد ذلك له ، بأن تصور نفسه وهو يقول له وقد زاره في أطباق العذاب: « ان قوماً من أهل الإسلام كانوا يستزرون بقصيدتك الميمية التي أولها :

هل بالديار أن تجيب صمم   لو كان حياً ناطقاً كلّم

وإنها عندي لمن المفردات . وكان بعض الأدباء يرى أنها والميمية التي قالها المرقش الأصغر ناقصتان عن القصائد المفضليات ، ولقد وهم صاحب هذه المقالة. وبعض الناس يروي هذا الشعر لك :

تخيّرت من نعمان عود أراكة   لهند ، ولكن من يُبلغه هندا ؟
خليليّ جُورا بارك الله فيكما   وإن لم تكن هندٌ لأرضكما قصدا
وقولا لها : ليس الضلال أجارنا   ولكننــا جرنا لنلقاكُمُ عمدا

ولم أجدها في ديوانك فهل ما حُكي صحيحٌ عنك ؟

فيقول : لقد قلت أشياء كثيرة ، منها ما نُقل اليكم ، ومنها لم ينقل . وقد يجوز أن أكون قلتُ هذه الأبيات ولكني سَرِفتها لطول الأبد ولعلك تنكر انها في هند ، وان صاحبتي أسماء ، فلا تنفر من ذلك ، فقد ينتقل المشبب من الاسم الى الاسم ، ويكون في بعض عمره مستهتراً بشخص من الناس ، ثم ينصرف الى شخص آخر ، ألا تسمع الى قولي :

سفه تذَكّرُهُ خويلة بعدما   حالت ذرا نجران دون لقائها »[2]

ومن القصيدة الميمية المنسوبة اليه قوله :

النشر مسك والوجوه دنــا   نيرٌ ، وأطراف الأكف عنم[3]

١ رسالة الغفران (٣٣٧ وما بعدها) .

٢ رسالة الغفران (٣٥٥ وما بعدها) .

٣ رسالة الغفران (٥٦٠) ، أمالي المرتضى (٢/٢٥٥ ، ٢٥٧) .

وقوله :

ليس على طول الحياة نَدَمْ ومِن وراء المــرء ما يعلم[1]

ولم يبق من شعر المرقش الأكبر إلا (١٢) قطعة ، وفي بعض شعره اضطراب، والقطعة (٥٤) من الأصمعيات من بحر عروض لم يهتــد المتأخرون الى تحديده[2] . ونجد بحر الخفيف عنده[3] .

وأما المرقش الأصغر ، فهو (عمرو بن حرملــة) ، وقيل : (ربيعة بن سفيان) ، وقيل (عمرو بن سفيان) وهو من بني سعد بن مالك بن ضبيعة ، أحد عشاق العرب المشهورين . وورد في رواية أنه أخو المرقش الأكبر ، ويقال إنه ابن اخيه . وقد اشتهر بقصة غرامه بفاطمة بنت المنذر الثــالث ملك الحيرة[4] وكانت لها خادمة تجمع بينهما ، يقال لها (هند بنت عجلان) ، وكان للمرقش ابن عمّ يقال له (جناب بن عوف بن مالك) ، لا يؤثر عليه أحداً ، وكان لا يكتمه شيئاً من أمره ، فألح عليه أن يخافه ليلة عند صاحبته ، فامتنع عليــه زماناً ، ثم انه أجابــه الى ذلك ، فعلمه كيف يصنع اذا دخل عليها ، فلما دنا منها أنكرت عليه مسّه ، فنحته عنها ، وقالت : لعن الله سراً عند المُعيدي ، وجاءت الوليدة فأخرجته ، فأتى المرقش فأخبره ، فعضّ على إبهامه فقطعها أسفاً وهام على وجهه حياءً . وخلد القصة في شعر[5] .

وكان هرب من المنذر وأتى الشام ، فقال :

أبلغ المنذر المنقبَ عني غير مستعتب ولا مستعين

لاتَ هنّا وليتني طرفَ الزّ ج وأهلي بالشأم ذات القرون[6]

١ أمالي المرتضى (٢/٧٨) .

٢ بروكلمن (١/١٠٢) .

٣ غرونباوم (٢٧٩) .

٤ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (١٠٥ وما بعدها) ، الاغاني (٥/١٩٣ وما بعدها) ، للمرزباني (٢٠١) ، بروكلمن (١/١٠٣) ، (٤ وما بعدهــا) ، (فراج) ، المؤتلف (١٨٤) ، المفضليات (١١٤) ، الاغاني (٦/١٣٦ وما بعدها) ، رسالة الغفران (٣٥٧) .

٥ الشعر والشعراء (١/١٤٣) ، (الثقافة) .

٦ الشعر والشعراء (١/١٤٤) ، (الثقافة) .

وصاحبته بنت عجلان ، أمة كانت لبنت (عمرو بن هند) ، وفيها يقول:

يا بنت عجلان ما أصبرني على خطوب كنحت بالقدوم

ومن شعره المشهور هذا البيت :

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمرهُ ومن يغوِ لا يعدم على الغي لائما [1]

ويعد المرقش الأصغر أشعر من عمه ، ويغلب على شعره الغزل ، وهو أكثر صقلاً ، وأقرب مطابقة لأسلوب المتأخرين [2] .

ومن شعراء اليمامة : (المتلمس) ، وهو (جرير عبد المسيح) ، وقيل (جرير بن عبد العزى) ، وقيل غير ذلك ، وهو من بني ضبيعة ، وأخواله (بنو يشكر) . وهو خال (طرفة) ، لقّب بالمتلمس لبيت قاله ، هو :

فهذا أوان العرض حيّا ذبابه زنابيره والأزرقُ المتلمس

وقيل ان اسم أبيه (عبد العزى) ، وهو من أسماء الوثنيين،ويظهر انه تنصر فسمى نفسه عبد المسيح [3] .

وكان ينادم (عمرو بن هند) ملك الحيرة هو وطرفة بن العبد ، فبلغه انهما هجواه ، فكتب لهما الى عامله بالبحرين كتابين ، أوهمهما انه أمر لهما فيهما بجوائز، وكتب اليه يأمره بقتلهما ، فاسترّاب (المتلمس) من الكتابين وعرض كتابه على غلام من أهل الحيرة ، فقرأه فإذا فيه أمر بقطع يديه ورجليه ، ودفنه حياً ، فزقه ، ورماه في نهر الحيرة ، وقال لطرفة : ادفع اليه صحيفتك يقرأها ، فأبى وذهب الى البحرين فقتله عامل (عمرو بن هند) . وهرب المتلمس الى بصرى

---

١ الشعر والشعراء (١٤٣/١ وما بعدها) ، (فمن يلق خيرا) ، أمالي المرتضى (٢٤٦/٢) .

٢ بروكلمن (١٠٣/١) .

٣ بروكلمن ، تاريخ الآداب العربية (٩٣/١) ، الشعر والشعراء (١١٢/١ وما بعدها) ، الخزانة (٧٣/٣) ، (بولاق) .
فهذا أوان العرض جن ذبابه زنابيره والازرق المتلمس
السيوطي ، شرح شواهد (٢٩٨/١) ، الاشتقاق (١٩٣/١) ، البيان (٣٧٥/١).

واستقر هناك الى أن مات بها . وضرب المثل بصحيفة المتلمس[1] .

و (المتلمس) من (ضبيعة أضجم) ، وقد نسبت الى (الحارث الأضجم) ، وكان قديم السؤدد فيهم ، كانت تجبى اليه أتاوتهم[2] .

وقد ذكر (العيني) أن البيت المنسوب الى (المتلمس) ، وهو البيت الذي ضرب به المثل ، فقيل صحيفة المتلمس ، ونصه :

ألقي الصحيفة كي يخفف رحله   والزاد حتى نعله ألقاها

ليس من نظم المتلمس ، ولم يقع في ديوان شعره ، وإنما هو لأبي مروان النحوي ، قاله في قصة المتلمس حين فرّ من عمرو بن هند . وكان قد هجا عمرو بن هند ، وهجاه أيضاً طرفة بن العبد ، فقتل طرفة وفرّ المتلمس . وبعد البيت المذكور :

ومضى يظن بريد عمرو خلفه   خوفاً وفارق أرضه وقلاها[3]

ويحتمل على رأي (بروكلمن) أن تكون قصة الصحيفة مختلفة ، وكذلك القصيدة التي ورد فيها ذلك البيت[4] .

قال الشريف (المرتضى) : « ويقال ان صاحب المتلمس وطرفة في هذه القصة هو النعمان بن المنذر ، وذلك أشبه بقول طرفة :

أبا منذر كانت غروراً صحيفتي   ولم أعطكم في الطوع مالي ولا عرضي
أبا منذر أفنيتَ فاستبق بعضنا   حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

وأبو منذر هو النعمان بن المنذر ، وكان النعمان بعد عمرو بن هند ، وقد مدح

---

١ الشعر والشعراء (١/١١٢ وما بعدها) ، الاغاني (٢١/١٢٠) ، الخزانة (١/٤٤٦) ، (بولاق) ، الميداني ، أمثال (١/٢٧٠) ، أمالي المرتضى (١/١٨٣ وما بعدها) .
٢ الاشتقاق (١/١٩٢) .
٣ العيني ، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية (٤/١٣٤) ، (حاشية على خزانة الادب) .
٤ بروكلمن (١/٩٤) .

طرفة النعمان ، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله ، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان»[1].

وفي شعر المتلمس ما يتعلق بأخبار القبائل ، وفيه هجاء لعمرو بن هند. وهو من الشعراء المقلين . « قال أبو عبيدة : واتفقوا على ان أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة : المتلمس ، والمسيب بن علس ، وحصين بن الحمام المري »[2] . وذكر انه أخذ يهجو (عمرو بن هند) من منفاه ، ويحرض قوم طرفة على الطلب بدمه. فمن جملة ما قاله قصيدته :

إن العراق وأهله كانوا الهوى فإذا نأى بي ودهم فليبعد

ولما تهدده (عمرو) ، وحلف ان وجده بالعراق ليقتلنه وان لا يطعمه حب العراق ، قال المتلمس :

آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس
لم تدر بصرى بما آليت من قسم ولا دمشق اذا ديس الكراديس[3]

وبقي ببصرى حتى هلك بها ، وكان له ابن يقال له : عبد المدان ، أدرك الاسلام ، وكان شاعراً ، هلك ببصرى ولا عقب له[4] .

وكان طرفة بن العبد وخاله المتلمس وفدا على (عمرو بن هند) ، فنزلا منه خاصة ونادماه ، ثم انهما هجواه بعد ذلك ، فكتب لهما كتابين الى البحرين وقال لهما : إني قد كتبت لكما بصلة ، فاشخصا لتقبضاها . فخرجا من عنده،والكتابان في أيديهما ، فمرّا بشيخ جالس على ظهر الطريق منكشفاً يقضي حاجته ، وهو مع ذلك يأكل ويتفلى ، فقال أحدهما لصاحبه: هل رأيت أعجب من هذا الشيخ ؟ فسمع الشيخ مقالته فقال : ما ترى من عجبي ؟ أخرج خبيثاً ، وأدخل طيباً ، وأقتل عدواً ، وان أعجب مني لمن يحمل حتفه وهو لا يدري . فأوجس المتلمس في نفسه خيفة وارتاب بكتابه . ولقيه غلام من الحيرة فقال : أتقرأ يا غلام ؟

---

١ أمالي المرتضى (١٨٥/١) .
٢ الشعر والشعراء (١١٥/١) .
٣ الخزانة (٧٥/٣) ، (بولاق) .
٤ الشعر والشعراء (١١٥/١) ، (دار الثقافة) .

قال : نعم . ففض خاتم كتابه ودفعه الى الغلام فقرأه عليه ، فإذا فيه : إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه واصلبه حياً . فأقبل على طرفة فقال : تعلم والله، لقد كتب فيك بمثل هذا . فلم يلتفت الى قول المتلمس ، وألقى المتلمس كتابه في نهر الحيرة وهرب الى الشام ، وأخذ يهجو عمرو بن هند[1] .

ورويت القصة بشكل آخر خال من التزويق والتنميق نوعاً ما . ذكرت ان « المتلمس وطرفة بن العبد هجوا عمرو بن هند ، فبلغه ذلك ، فلم يظهر لهما شيئاً ، ثم مدحاه فكتب لكل منهما كتاباً الى عامله بالحيرة (؟) ، وأوهم انه كتب لهما فيه بصلة . فلما وصلا الحيرة ، قال المتلمس لطرفة : إنا هجوناه ، ولعله اطلع على ذلك ، ولو أراد أن يصلنا لأعطانا ! فهلم ندفع الكتابين الى من يقرأهما ، فإن كان خيراً وإلا ندرنا . فامتنع طرفة ، ونظر المتلمس الى غلام قد خرج من المكتب فقال : أتحسن القراءة ؟ قال : نعم . فأعطاه الكتاب ففتحه، فإذا فيه قتله . ففر المتلمس الى الشام وهجا عمراً هجاءً قذعاً . وأتى طرفة الى عامل الحيرة بالكتاب فقتله »[2]. وقد حلت الحيرة في هذه القصة في محل البحرين، وصار العامل القاتل عامل الحيرة ، وخلت من ذكر الشيخ .

وطرفة هو القائل في قصيدة له :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وكان النبي إذا استراث الخبر يتمثل بعجز هذا البيت من هذه القصيدة[3] .

ومن الشعر المنسوب اليه ، قوله :

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثيرُ على الفساد
وحفظ المالِ خير من بُغاه وجولٍ في البلاد بغير زاد

وقوله :

ولا يقيم على ذل يُراد به إلا الأذلان : غير الحي،والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثي له أحد

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٩٥ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٥) ، (فراج).
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٧١) ، الشعر والشعراء (١/١١٢) .
٣ المرزباني ، معجم (٦) .

وقوله :

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وما كنت إلا مثل قاطع كفه بكف له أخرى فأصبح أجذما[1]

وذكر أن النبي كتب لعيينة بن حصن كتاباً ، فقال : يا محمد أتراني حاملاً الى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس . أي لا أحمل الى قومي كتاباً لا علم لي بما فيه . وقد أشير الى (صحيفة المتلمس) في شعر الفرزدق[2] ، وفي شعر شعراء آخرين[3] .

ونسب الى (المتلمس) قوله :

وأعلم علم حق غير ظن وتقوى الله من خير العتاد
لحفظ المال أيسر من بغاه وضرب في البلاد بغير زاد
وإصلاح القليل يزيد فيه ولا يبقى الكثير مع الفساد[4]

وله شعر في الأقارب ذكره له الجاحظ في كتاب الحيوان[5] .

والمسيب بن علس ، واسمه (زهير بن علس) ، وانما لقب بالمسيب بقوله:

فإن سركم ألا تؤوب لقاحكم غزاراً فقولوا للمسيب يلحق[6]

و (المسيب بن علس بن مالك بن عمرو بن قامة) ، هو من (جماعة) ، وهم من (بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار) ، ويكنى (أبا الفضة) ، وهو خال الأعشى ، وكان الأعشى راويته . واسمه : (زهير بن علس) . وانما سمي (المسيب) لبيت قاله ، هو :

فإن سركم ألا تؤوب لقاحكم غزاراً فقولوا للمسيب يلحق

---

١ بلوغ الارب (٣/١١٢ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٩٧) .
٣ الحيوان (٢/٨٥) .
٤ الحيوان (٣/٤٧) .
٥ (٣/١٣٦) .
٦ الشعر والشعراء (١/١٠٨) .

وهو جاهلي لم يدرك الاسلام ، من شعراء بكر بن وائل المعدودين . وكان امتدح بعض الأعاجم ، فأعطاه ، ثم أتى عدواً له من الأعاجم يسأله ، فسمّه فات ، ولا عقب له[1] .

وقد ذكر (الهمداني) ان الأعشى يحتذي في شعره على مثال (المسيب) ، وكان الأعشى راويته[2] .

وله قصيدة قالها في (القعقاع بن معبد بن زرارة) ، فيها :

فلأهدين مع الرياح قصيدة مني مغلغلة الى القعقاع
أنت الذي زعمت معد أنه أهل التكرم والندى والباع[3]

وقد أورد (الهمداني) له قصيدة زعم أنه قالها في مدح (زيد بن مرب)، أو في مدح ابن ابنه (زيد بن قيس بن زيد) أولها :

كلفت بليلي خدين الشباب وعالجت منها زماناً خبالا
لها العين والجيد من مغزل تلاعب في القفرات الغزالا[4]

وقد ذكر (الجاحظ) شعراً قال انه لغيلان بن سلمة الثقفي ، هو :

في الآلِ يخفضها ويرفعها ربعٌ كأن متونه السحلُ
عقلاً ورقماً ثم أردفه كِلَلٌ على ألوانها الخملُ
كدم الرعاف على مآزرها وكأنهن ضوامراً إجلُ

وعقب عليه بقوله : « وهذا الشعر عندنا للمسيب بن علس »[5] .

وقد نشر ديوان (المسيب بن علس) في سلسلة نشريات (كب) Gibb بلندن سنة (١٩٢٨م)[6] .

---

١ الاشتقاق (٣١٦) ، الخزانة (١/٥٤٥) ، الشعر والشعراء (١/١٠٧) ، ابن سلام ، طبقات (٣٦) ، القاب الشعراء (٣١٥) ، الخزانة (٢/٩) ، (بولاق) .
٢ الاكليل (٢/٣٠٧) ، الشعر والشعراء (١/١٠٨) ، أمالي المرتضى (١/٥٦٠) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٣٦) .
٤ الاكليل (٢/٣٠٤ وما بعدها) .
٥ الحيوان (٦/٣٣٥) .
٦ بروكلمن (١/١٥١) . Gibb, Memorial, London 1928.

ومن شعراء اليمامة : (ذو الكف الأشل) ، واسمه (عمرو بن عبدالله بن حنيفة) من بني قيس بن ثعلبة ، يكنى أبا جلان ، فارس شاعر جاهلي،توعدته (بنو حنيفة) فقال فيها شعراً[1] .

و (الفند) ، هو (شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمّان بن مالك بن صعب) الزمّاني من شعراء الجاهلية. وله قصيدة في حرب البسوس[2]. وهو من (بني حنيفة): وكان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب،أي حرب البسوس، فكتب بنو بكر بن وائل الى بني حنيفة يستنصرونهم ، فأمدوهم بالفند الزماني في سبعين رجلاً ، وكتبوا اليهم إنا قد بعثنا اليكم ألف رجل[3] .

ومن الشعر المنسوب اليه ، قوله :

كففنا عن بني هند وقلنا : القومُ إخوانُ
عسى الأيام ترجعهم جميعاً كالذي كانوا
فلما صرح الشرّ وأضحى وهو عريان
شددنا شدة الليث عدا والليث غضبان
بضرب فيه تفجيع وتوهينٌ وارنان
وطعن كفم الزق وهى والزق ملان[4]

وقد وردت هذه الأبيات في (الخزانة) بشيء من الاختلاف[5] .

و (عمرو بن عبد العُزى بن سحيم بن مرّ بن الدئل) الحنفي ، من بني حنيفة ، وهو شاعر جاهلي[6] ، وكذلك كان (عمرو بن الذارع) الحنفي من الشعراء الجاهليين[7] .

---

١ المرزباني ، معجم (١٤) .
٢ الحماسة (١/٢١) ، الخزانة (٢/٥٧) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩٤٤) ، الاغاني (٢٠/١٤٣ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٠٧) ، الحماسة ، للبحتري (٧٤) الحماسة لابي تمام (١/٦) .
٣ الخزانة (٢/٥٧ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٦/٤١٥ وما بعدها) ، الامالي ، للقالي (١/٢٦٠) .
٥ الخزانة (٢/٥٨) .
٦ المعجم ، للمرزباني (٤٠) .
٧ المعجم ، للمرزباني (٤١) .

ومن شعراء اليمامة أيضاً (موسى بن جابر بن أرقم بن سلمة بن عُبيد) الحنفي اليمامي . وكان جاهلياً نصرانياً ، يلقب بـ (أزيرق) اليمامة . ويعرف بـ (ابن ليلى) ، وهي أمه . وهو شاعر كثير الشعر[1] ، وعرف أيضاً بـ (ابن الفريعة)[2] . وورد أنه كان من الشعراء الاسلاميين[3] .

ومن شعراء اليمامة : (مجاعه بن مرارة بن سلمى[4] بن زيد بن عبيد بن ثعلبة ابن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة) الحنفي اليمامي ، وكان من رؤساء حنيفة ، وأسلم ووفد ، وأعطاه الرسول أرضاً باليمامة يقال لها (العورة) ، وكتب له كتاباً بذلك ، وكان بليغاً حكيماً ، وكان ممن أسر يوم القيامة ، فأشير على (خالد) باستبقائه فأبقاه ، وكان قد انضم الى (مسيلمة)[5] .

ومن شعراء اليمامة (ثمامة بن اثال) ، وكان من سادتها ، ولما أسلم قطع الميرة عن أهل مكة ، وكانوا قد عتبوا عليه لدخوله في الاسلام ، حتى شق عليهم ذلك ، فكتبوا الى الرسول : انك تأمر بصلة الرحم ، وإنا قد هلكنا ، فكتب الى ثمامة ان خل اليهم الحمل ، فخلاه اليهم . وكان قد ثبت على الاسلام ، ولم يرتد مع مسيلمة . وتوفي سنة (١٢) للهجرة[6] . وذكر من شعره قوله :

دعانا الى ترك الديانة والهدى مسيلمة الكذاب اذا جاء يسجع
فيا عجباً من معشر قد تتابعوا له في سبيل الغي والغي أشنع[7]

وأشير الى شاعرة من شاعرات (بني عجل) اسمها (حسينة) ، وكان (عمرو بن الحارث بن أقيش) العكلي ، قد أسرها ، في يوم العذاب في الجاهلية، وهو يوم أغارت فيه (بنو عبد مناة بن أد بن طابخة) على عجل وحنيفة بأرض

---

١ المرزباني (٢٨٥) ، شرح الحماسة ، للمرزوقي (٣٢٦) .
٢ الخزانة (١٤٦/١) ، (بولاق) ، المؤتلف (١٦٥) ، الاغاني (١٠٧/١٠) ، الحيوان (٢٨٠/٤) .
٣ الحيوان (٢٨٠/٤) ، (حاشية ٥) .
٤ وقيل سليم .
٥ الاصابة (٢٤٢/٣) ، (رقم ٧٧٢٤) ، المرزباني ، معجم (٤٤٢) ، خليفة بن خياط كتاب الطبقات (٦٦) .
٦ الاصابة (٢٠٤/١) ، (رقم ٩٦١) ، الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن ناقيا البغدادي (٢٨٣) .
٧ الاستيعاب (٢٠٨/١) ، (حاشية على الاصابة) .

جو باليامة ، ففاداها أخوها (أبجر بن جابر بن بجير بن شريط) العجلي بمائة من الإبل وخمسة أفراس[1] .

واذا تجوزنا فأدخلنا (الحيرة) في جملة هذه القرى ، وجب اعتبار (عدي ابن زيد) العبادي ممثلها الأول ، إذ لم يبلغ أحد مبلغه في الشعر من بين رجال هذه المدينة . فهو المقدم على جميع شعراء الحيرة التي كان يفد اليها الشعراء ، ولأكثرهم ذكريات مع ملوكها ، الذين كانوا يجزلون العطاء لمن يمدحهم ويكيل لهم بالثناء ، لا لمجرد حب الاستماع الى المدح والثناء والإطراء ، بل لما لشعر المديح ولشعر الهجاء من أثر كبير في حياة ذلك اليوم ، فالشعر هو من أهم وسائل الإعلام في ذلك الوقت ، وللدعاية والإعلام وجلب الناس نحو الممدوح أهمية كبيرة بالنسبة الى رجال الحكم والسياسة في كل زمان ومكان ، إن كذباً وان صدقاً ، فالسياسي يريد تحقيق سياسته ، بأية وسيلة كانت ، حتى إن كانت بالكذب والغش والتزوير ، فالشعر من وسائل الخدمة السياسية التي استعان بها ملوك الحيرة في بسط نفوذهم في جزيرة العرب .

و (عدي بن زيد) العبادي هو ابن الحيرة ، فهو لسان هذه المدينة ، أما بقية الشعراء ، فقد كانوا يأتون هذه المدينة ، لنيل صلة أو لقضاء أمر ، ثم يعودون الى ديارهم ، ومنهم من كان يطيل المقام بها ، فيتأثر بثقافتها وبمحيطها حسب قابلياته وسرعة استجابته للمؤثرات الخارجية . ويظهر انه كان لأهل الحيرة ولعرب العراق عامة ذوق خاص في الشعر ، ولهم حب لتنويع البحور ، والتزام البحور السهلة المؤثرة ، وميل الى التنوع في الوزن ، والتعبير أحياناً عن بعض أفكار مستمدة من البداوة ، والظهور بلون محدد من التراث المحلي[2] .

يقول (غرونباوم) : « وليس من الغريب أن نجد التفنن في الأوزان الشعرية في العراق أغنى مما كان عليه في أي مكان آخر ، وذلك لأن أجيالاً كثيرة هي التي عاشت في المدينة وفي البلاط ، ونزعت بطبيعة وضعها الى التحسين في تلك الفنون ، ولكن الغريب المدهش حقاً ان نرى أبا دؤاد يعرض علينا أغنى تنوع عروضي في الشعر العربي القديم ، لأن شعره جاء على اثني عشر بحراً . واذا

١ المرزباني ، معجم (٣٧) .
٢ غرونباوم (٢٦٤) .

عدينا أمر التنويع في الأوزان ، وجدنا هذه المدرسة قد أكثرت من بحر الرمل ، ولا يستعمل هذا البحر في الشعر القديم إلا أبو دؤاد في ثلاث قصائد ، وطرفة في ثلاث قصائد ، وعدي في سبع قصائد ، والمثقب في واحدة ، والأعشى في اثنتين. ولا يستثنى من هذا الحكم أيضاً إلا امرؤ القيس ، القصيدة ١٨ . وأقول ان هذه الحقيقة تقوي الرواية التي تقول انه كان راوية لأبي دؤاد »[١] .

وقد لفت نظره وجود هذا البحر : بحر الرمل في العراق ، ونموه بالحيرة بصورة خاصة ، وعلل ذلك بقوله : « ان الرمل استعير من الوزن البهلوي الثماني مقاطع كما صوّره(بنفينيسته) (المجلة الآسيوية ٢ : ٢٢١ ، ١٩٣٠) ، وانه عدل على نحو يلائم العروض العربي . والحق ان ليس من عقبة داخلية تقف دون القول بوجود أثر فارسي في النسق الشعري العربي ، في المناطق المجاورة للدولة الفارسية والتابعة لها ، ولأؤيد هذه النظرية أحيل القارىء على بحر المتقارب ، فقد أثبت (بنفينيسته) انه مشتق من البحر البهلوي Hendekasyllabic ذي الأحد عشر مقطعاً اثباتاً يكاد لا يقبل الشك »[٢] .

ولاحظ (غرونباوم) أن الخاصية العروضية الثانية لمدرسة الحيرة هي نزوعها الى بحر الخفيف ، وعند أبي دؤاد منه خمس عشرة قصيدة ، وعند عدي سبع ، وعند الأعشى خمس ، ولم يستعمل هذا البحر عند الشعراء المعاصرين إلا على نحو عارض[٣] . ولكننا نجد بحر الخفيف في شعر (عمرو بن قيئة)[٤] ، وفي شعر للمرقش الأكبر[٥] ، والمرقش الأصغر[٦] ، وفي شعر لعبيد[٧] ، وفي شعر ينسب لعامر ابن الطفيل[٨] ، ومعلقة الحارث بن حلزة[٩] .

ويعتبر (شوارتز) بحري الرمل والخفيف نوعاً من الإيقاع الفارسي ، انتقل الى العربية . أما تأثير الشعر الساساني في الأعشى فيشهد به قطعة (بهلفية) طبعها

---

١ غرونباوم (٢٦٥ وما بعدها) .
٢ غرونباوم (٢٦٥ وما بعدها) .
٣ غرونباوم (٢٦٦) .
٤ القصيدة ٦ و ٩ (لايل) .
٥ المفضليات (٤٨) .
٦ المفضليات (٥٩) .
٧ عبيد (١١) و (٢٧) .
٨ القصيدة (٥) ، والقطعة (١٤) ، (لايل) .
٩ غرونباوم (٢٧٧) .

(بنفينيسته) وترجمها، وقطعة أبي دؤاد ١٤[1] ، و ١٨[2]، وما فيها من إشارة الى البيزرة ، تدلان على أثر الحضارة الساسانية في العراق .

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع تأثر الشعر الجاهلي بمؤثرات أجنبية ، فأنكر ذلك ، إذ قال : « وأما ما زعمه بعض العلماء من أن مؤثرات أجنبيـة أثرت في فن الشعر القديم ، فليس هناك ما يؤيده ، نعم يريـد بورداخ أن يرجع النسيب العربي الى شعر القصور اليونانية بالاسكندرية ، لأن أكثر النسيب العربي يقـال في عشق النساء المتزوجات ، كما هو الحال عند شعراء ملوك الإسكندرية،ويتصور انتقال هذه الصناعة الى العرب عن طريق شعراء الملوك في الشأم والعراق . ولكن مثل هذه الأبيات الغزلية ، التي تشبه النسيب في مطلع القصائد وإن لم تبلغ بعـد نمواً كاملاً ، يعرفها أيضاً شعر التكرية في أوائل القصائد المطولة وفي أواخرها .

ولا شك أنه من قبيل المصادفة والاتفاق أن يبدو في قصيدة للمسيب بن علس، يتكرر فيها ست مرات هذا الخطاب : ولأنت ، صدى ورنين لأسلوب الأنشودة القديم الذي يتميز به أكنوستوس تيوس . كما وضح ذلك الأستاذ نوردن[3] .

ونرى في الشعر العراقي وفي شعر سواحل الخليج ، أي العربية الشرقية ، ذكراً للبحر والسفن . وفي شعر طرفة قوله :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دَدِ
عدولية أو من سفين ابن يامن يجورُ بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حَباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد[4]

وصف للبحر ولسفن رجل يظهر انه كان يهودياً صاحب سفن ، ولا نجد هذا الوصف أو الالتفاتة الى البحر في شعر الشعراء القاطنين البوادي، أو الذين لم يروا النهرين الكبيرين في العراق أو ساحل الخليج . فهـذا الوصف هو من خصائص

---

١ فانتحى مثل ما انتحى باز دجن جوعته القناص للدراج
الاغاني (١٥/٩٥) ، من الخفيف .
٢ اذا شاء فارسه ضمه كما ضم باز اليه الجناح
غرونباوم (٣٠٢) .
٣ بروكلمن (١/٦٢) .
٤ البيت رقم (٣) وما بعده من معلقته .

البلاد التي تكون على سواحل البحار .

وليس وجود السهولة في الشعر العراقي مثل شعر (عدي بن زيد) ، أو في شعر أهل القرى ، بأمر غريب . وقد عبر عنها باللبونة كذلك . فالحضارة ، أي الحياة في القرية أو في المدينة ، أو حياة أهل المدر ، هي ليونة وسهولة في حد ذاتها بالنسبة الى حياة البوادي والبراري ، حيث الخشونة والغلظة في الحياة ، ومن ثم صار الأعرابي غليظاً فظاً خشناً،يتكلم بعنجهية لا يفهمها أهل المدر والاستقرار، فيتصورونها فظاظة منه وغلظة ، وانسان على هذا النحو من الطبع أو التطبع،لا بد وأن يكون شعره خشناً مثله ، فالشعر تعبير عن احساس نفسي ، وعن انعكاس لثقافة المرء ولتربيته الناتجة عن محيطه ، ولهذا نجد شعر شعراء القرى يختلف عن شعر أهل البوادي ، بألفاظه وبأسلوب نظمه وبمعانيه وبروحه الحضرية .

وقد وصف شعر (عدي) بالليونة ، ونسبوا ذلك الى سكنه الحضر . « وأما عدي بن زيد فلقربه من الريف وسكناه الحيرة في حيز النعمان بن المنذر لانت ألفاظه فحمل عليه كثير ، وإلا فهو مقل »[1] . وقالوا عنه « وعدي من الشعراء مثل سُهيل في النجوم : يعارضها ، ولا يجري معها . هؤلاء أشعارهم كثيرة في ذاتها ، قليلة في أيدي الناس ، ذهبت بذهاب الرواة الذين يحملونها »[2] . وقيل عن شعره : « والعرب لا تروي شعره ، لأن ألفاظه ليست بنجدية،وكان نصرانياً من عباد الحيرة ، قد قرأ الكتب »[3] . وقد أرادوا بالكتب ، الكتب المقدسة التوراة والأناجيل والكتب النصرانية الأخرى . ولم يشيروا الى لغتها ، والأغلب أنها كانت بالإرمية التي كانت شائعة في العراق وبين نصارى المشرق ، ولكني لا استبعد احتمال وجود بعض منها باللغة العربية ، لأن غالبية أهل الحيرة كانت تتكلم بها ، ولا سيا الطبقة الحاكمة التي هي من صلب عربي . فلا يستبعد احتمال ترجمة بعض الكتب لهم بالعربية ، للوقوف عليها .

قال (أبو عبيدة) « إن العرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد ، لأن ألفاظها ليست بنجدية ، فلا بد أن يكون أساس الشعر عندهم على صميم العربية

---

١ العمدة (١٠٤/١) .
٢ العمدة (١٠٤/١) ، الاغاني (١٨/٢) .
٣ الشعر والشعراء (١٥٤/١) ، (الثقافة) .

من لسان مضر ، وما عدا ذلك فهو مما تبعث عليه فطرة صاحبه ، ولكن العرب لا يبالون به ولا يروونه ، وعلى هذا مشى المتأخرون في الاحتجاج بالشعر العربي، فالعلماء لا يرون شعر عدي بن زيد حجة ، لأنه كان يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف ، فثقل لسانه ؛ وهذا الاعتبار يحدد لنا منشأ الشعر »[1] . ولكننا لو تصفحنا شعر الشواهد،نجد أن فيه شعراً من شعر عدي ، استشهد به في القواعد[2]، وقد ذكر (الجاحظ) أن (أبا إياس) النصري ، وكان أنسب الناس ، كان يقول : « كانوا يقولون : أشعر العرب أبو دُواد الإيادي ، وعدي بن زيد العبادي »[3] .

والواقع ان شعر (عدي) أقرب الينا من شعر أهل البادية ، وأسهل فهماً ، وفيه معان حضرية لا نعثر عليها في شعر شعراء أهل الوبر ، ونجد في شعره ألفاظاً معربة ، استشهد بها (الجواليقي) في كتابه المعرب ، وذلك دليل على تأثره بمحيطه وببلدته التي كانت عربية نبطية فارسية ، تلعب بها تيارات ثقافية متباينة، وهو يخالف شعراء البوادي،في ابتعاده عن الأعاريض الطويلة،وميله الى الأعاريض القصيرة ، ثم في أسلوب خمرياته الشبيهة بخمريات الأعشى وحسان بن ثابت ، ثم يخالف شعراء نجد في أفكار الزهد والتصوف التي ترد في شعره ، والتي لا ترد ولا تخطر على بال الشاعر الأعرابي[4] .

وعدي بن زيد العبادي ، هو (عدي بن زيد بن حماد بن أيوب) ، وقيل: (عدي بن زيد بن حمار (حماز) بن زيد بن أيوب بن مجروف (محروف) ابن عامر بن عصبة (عصية) بن امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم) ، وقيل : عدي بن زيد بن أيوب بن حمار (حماد) (جمار) ، أحد بني (امرىء

---

١ الرافعي (٢/٨ وما بعدها) ، الاغاني (١٥/٩٧) ، الشعر والشعراء (١٥٠ وما بعدها ، ١٦٢) .
٢ شرح شواهد المغني ، للسيوطي (٢/٦٥٨) .
٣ البيان والتبيين (١/٣٢٣) .
٤ كارلو نالينو (٩٠ وما بعدها) .

القيس بن زيد مناة بن تميم)[1] . وكان كاتباً لكسرى على ما يجتبي من الغور ، وكان سبب ملك النعمان بن المنذر . وكان كسرى مكرماً له محباً ، وكان عدي أنبل أهل الحيرة وأجودهم منزلة ولو أراد أن يملكه كسرى على الحيرة ملكه ، ولكن كان يحب الصيد واللهو ، ولم يكن راغباً في ملك العرب[2] . وعرف بـ (أبي سوادة)[3] .

وجدّ عدي أول من سمي من العرب بأيوب ، وجده (جبار) (حمار) (حماد) (حماز) أول من كتب من العرب ، لأنه نزل الحيرة فتعلم الكتابة منها . وذكره الجمحي في الطبقة الرابعة من شعراء الجاهلية ، وقال : هم أربعة رهط ، فحول شعراء ، موضعهم من الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة، طرفة وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وعدي بن زيد[4] . وذكر أن (حمازاً)، كان أول من تعلم الكتابة (من بني أيوب) وكتب للنعمان الأكبر[5] .

وكان لعدي بن زيد عدوّ من أهل الحيرة يقال له : (عدي بن أوس) من (بني مرينا) ، سبق أن تحدثت عنه ، أوغر صدر (النعمان) على عدي حتى حبسه بالصنّين ، سجن بظاهر الكوفة ، فقال عدي بن زيد شعره كله أو أكثره في الحبس حتى مات به[6] . وكان موته من جملة أسباب القضاء على حكم النعمان[7] .

---

١ وتجد اختلافا بين النسخ المطبوعة في ضبط الاعلام ، في مثل « حماد » و « مجروف » و « عصبة » ، وذلك بسبب ، اختلاف النسخ الخطية الاصلية في ضبط هذه الاسماء لتحريف وقع بها من النساخ ، فأخذ كل محقق ما وجده في نسخته ، أو في النسخ ، وبسبب الاخطاء المطبعية ، راجع الشعر والشعراء (١٥٠/١ ، ١٥٣) ، (الثقافة) ، (حماد) ، و « حمار » في معجم الشعراء ، للمرزباني (٨٠) ، (اخراج عبد الستار أحمد فراج) ، (حمار) ، (كذاني ا وهي احدى روايتين في اسمه، وجعلهاالشنقيطي « حماد » بالدال ، ويروى « حماز » و « خمار ») ، اسماء المغتالين (١٤٠) ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، طبقات ابن سلام (١١٧) ، الاغاني (١٧/٢) ، الخزانة (١٨٤/١) ، الموشح (٧٢) .

٢ المرزباني ، معجم (٨٠ وما بعدها) ، (فراج) ، طبقات ابن سلام (٣١) ، رسالة الغفران (١٤٦ وما بعدها) .

٣ رسالة الغفران (١٨٦ ، ٢٠٣) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٤٧١/١ وما بعدها) .

٥ الشعر والشعراء (١٥٣/١) .

٦ كتاب أسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام ، لمحمد بن حبيب (١٤٠ وما بعدها) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

٧ السيوطي ، شرح شواهد (٦٥٨/٢ وما بعدها) .

وقد ذكر عنه علماء الشعر ، انه كان نصرانياً هو وأهله ، وليس معدوداً من الفحول ، وعيب عليه أشياء . « وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان : عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم ، يعارضها ولا يجري معها. وكذلك عندهم أمية بن أبي الصلت . ومثلها عندهم من الاسلاميين الكميت والطرماح »[1] . وقيل عنه انه « كان يسكن بالحيرة ، ويدخل الأرياف ، فثقل لسانه ، واحتمل عنه شيء كثير جداً ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة ، وله أربع قصائد غرر احداهن :

أرواح مودع أم بُكـور   لكَ ؟ فاعمد لأي حال تصير »

والثانية :

أتعرفُ رسم الدار من أم معبدِ   نعم ، فرماك الشوق قبل التجلد

والثالثة :

لم أرَ مثلَ الفتيان في غبن الـ   أيام ينسون ما عواقبها

والرابعة :

طـال ليلي أراقب التنويرا   أرقب الليل بالصباح بصيرا[2]

ومن شعره :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه   فـإن القرين بالمقارن مقتـدي

يقال ان رسول الله قال : كلمـة نبي ألقيت على لسان شاعر : إن القرين بالمقارن مقتدي[3] .

ومن الأخباريين من نسب القصيدة التي مطلعها :

طال ليـلي أراقب التنويرا   أرقب الليل بالصباح بصيرا

---

١ السيوطي ،شرح شواهد (١/٤٧١) ، الخزانة (١/١٨٤) ، (بولاق) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٥٠ وما بعدها) ، (الثقافة) .
٣ المرزباني ، معجم (٨٢) ، (فراج) .

الى (سوادة بن عدي) ، غير أن معظمهم يرى أنها لعدي[1] .

وذكر (أبو العلاء) المعري ، أنه شاهد بعض الورّاقين ببغداد ، يسأل عن قافية (عدي بن زيد) العبادي ، التي أولها :

بكر العاذلات في غلس الصبـ ـح يعـاتبنه أمـا تستفيق

وأن (ابن حاجب النعمان) ، وهو أبو الحسين عبد العزيز بن ابراهيم ، سأل عن هذه القصيدة وطُلبت في نسخ من ديوان عدي ، فلم توجد ، ثم سمع بعد ذلك أن رجلاً من أهل (أستراباذ) ، يقرأ هذه القافية في ديوان (العبادي) ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم[2] . وقد أورد (المعري) قصائد من شعره في رسالة الغفران[3] ، وأشار الى بعض ما نحل عليه ، والى بعض ما نسب اليه ، ونسب الى غيره[4] .

وقال الأصمعي : كان عدي لا يحسن أن ينعت الخيل ، وأخذ عليه قوله في صفة الفرس : فارهاً متتابعاً . وقال : لا يقال للفرس (فاره) انمـا يقال له جواد وعتيق،ويقال للكودن والبغل والحمار : فاره »[5] . ووصف الخمر بالخضرة، ولم يعلم أحد وصفها بذلك . وهو أول من شبه أباريق الخمر بالظباء[6] . وقالوا عنه انه ممن أقر على نفسه بالزنا . وأوردوا له أبيات شعر في ذلك[7] .

وفي شعر (عدي بن زيد) ، زهد الرهبان وتصوف المتصوفين ، فيه تذكير بالآخرة وتزهيد في الدنيا ، ووعظ بمصير محزن يلحق المغرورين العتاة المتجبرين كالمصير الذي لحق الملوك الطغـاة والأقوام الخالية ، ولا سيا في القصيـدة التي يقول فيها :

---

١ الخزانة (١٨٣/١ وما بعدها) .
٢ رسالة الغفران (١٧٣ وما بعدها) .
٣ (ص ١٨٦ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (٣٣٥) .
٥ الشعر والشعراء (١٥٤/١) ، (الثقافة) .
٦ الشعر والشعراء (١٥٥/١) ، (الثقافة) .
٧ الشعر والشعراء (١٥٦/١) ، (الثقافة) .

أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وان ؟ أم أين قبله سابور ؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك الر وم ؟ لم يبق منهم مذكور
وأخو الحَضْر إذ بناه وإذ دجلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمــراً وجلله كلساً فللطير في ذراه وكــور
لم يهبه ريب المنون فبان الملك عنه فبابه مهجور
وتبين ربّ الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدي تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غِبْطَةُ حيّ الى الممات يصير ؟
ثم بعد الفلاح والملك والنعمة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور[1]

وورد أن (هشام بن عبد الملك) ، كان في مجلس فخم ، فحدثه (خالد ابن صفوان) بحديث ملك الحيرة الذي اغترّ بهذه الدنيا ، ثم أنشده قصيدة عدي ابن زيد) ، التي منها :

أيها الشامت المعيّر بالدهر أأنت المــبرأ الموفـور ؟
أم لديك العهد الوثيق من الأ يام ، بل أنت جاهل مغرور

حتى أتم انشادها عليه ، فبكى وتأثر[2] . وورد في رواية أخرى أن قائل هذا الشعر هو : أحد بني تميم (عــدي بن سالم) المري العدوي . وقد ذكر ذلك (السهيلي) ، لكنه عاد بعد ذكره الشعر ، فقال : « والذي ذكره عــدي بن زيد في هذا الشعر هــو النعمان بن امرىء القيس جدّ النعمان بن المنذر . وأول هذا الشعر :

أرواح مودع أم بكور فانظر لأي ذاك تصير

قاله عدي وهو في سجن النعمان بن المنذر وفيه قتل »[3] . وروي أن (يونس

---

١ العقد الفريد (٣/١٩١) ، ابن هشام ، سيرة (١/٥٦) ، (حاشية على الروض) ،
٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٣٠٤ وما بعدها) .
٣ الروض الانف (١/٥٨) .

النحوي) ، كان يقول : « لو تمنيت أن أقول شعراً ما تمنيت إلا هذا »[1] ، أي القصيدة المذكورة .

وفي شعره الذي قيل انه قاله للنعمان بن المنذر ، وكان قد نزل معه في ظل شجرة مونقة ليلهو النعمان هناك ، مثال على الحث على الزهد والابتعاد عن الدنيا والاقناع بنبذها والترهب في هذه الحياة . تحدث فيه على لسان الشجرة ، مخاطباً الملك ، قائلاً له بعد أن أرى ما عليه من الأنس والحبور : أيها الملك ؟ أبيت اللعن ، أتدري ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : وما الذي تقول ؟ قال : تقول:

من رآنا فليحدث نفسه ... انه مُوفٍ على قرن زوالِ
وصروف الدهر لا يبقى لها ... ولِما تأتي به صُمُّ الجبال
ربَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا ... يمزجون الخمرَ بالماء الزلال

الى أن يقول :

ثم أضحوا عَصَفَ الدهرُ بهم ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

قالوا : فتنغص النعمان ، ونزع ملكه ، وخلعه عنه ، وترهب. الى غير ذلك من أشعار له ، فيها هذا المعنى من الترغيب في الزهد والابعاد عن لذائذ الدنيا[2].

و « حكي عن النعمان بن المنذر ،أنه خرج متصيداً ومعه عدي بن زيد العبادي فمر بآرام – وهي القبور ، فقال عدي : أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه الآرام؟ قال : لا . قال : إنها تقول :

أيهــا الركب المخبـو ... ن على الأرض تمرون
لكمَا كنتم فكنّـــا ... وكما كنّـــا تكونون[3]

والشعر المنسوب الى (عدي) الــذي أدى على حدّ قول علماء الأخبار الى

---

١ بلوغ الارب (٣/١١٩) .

٢ المبرد ، الكامل (١/٢٩٤) ، العمدة (١/٢٢٣) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٣٠٨) ، المحاسن والاضداد (٣٦) .

٣ المحاسن والاضداد (٣٥) .

أعراض (النعمان) السائح عن ملكه، وهروبه الى البراري ليعيش فيها عيشة الرهبان، هو شعر لا يمكن أن يكون من شعر (عدي)، لأن شاعرنا لم يكن كبير السن آنذاك حتى يصدر منه مثل هذا الشعر، كما أنه لم يكن على اتصال وثيق بذلك الملك في ذلك العهد. ولعلّه من الشعر المصنوع، الذي وضع عليه. وهو شيء كثير. ولو قالوا إنه نظمه، وهو في سجنه حكاية عن قصة قديمة، لكان كلامهم هذا أقرب الى العقل وأسهل للتصديق، لأنه كان قد كبر في العمر، وفي موقف يمكن أن يصدر منه مثل هذا الشعر.

وهو شعر سلس سهل جميـــل ذو معان عميقة لطيفة، تتحدث عن تجارب رجل خبر الأيام، وعاش في نعيم ورفاه، حتى وصل مركزاً عالياً في بلده، وإذا به يجد طريقــه الى المقابر، فيقبر بها وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً، فمن رأى الثاوين فيها، ومن نظر الى القبور، فليحدث نفسه، أنه سيكون مثلهم، وانه موف على قرن زوال، وصروف الدهر لا يبقى لها، ولا تدوم حال على حال. وقد صار اسلوبه هذا نموذجاً لمن مال الى الزهد والتصوف في الإسلام، وربما كان الشاعر (أبو العتاهية) ممن تأثر بهذا الشعر المنسوب الى (عدي).

ولعلّ الأحداث التي وقعت له، والأيام التي قضاها في سجنه، حتى جاءته منيته، وهو فيه، قد أثرت في نفسيته فجعلته، يكثر من الزهد في هذه الحياة، ومن وعظ الإنسان، بأن يغتر ويتجبر ويتكبر، فالسعادة لا تدوم لأحد، والملك لا يخلد لملك أو مالك، والحياة مهما كانت سعيدة ناعمة، فإنها قصيرة تمر مرّ البرق خاطفة، فعلى المتجبر أن يتعلم العبر من حياة الماضين ومن الأمم العظيمة، ومن الجبابرة، من أمثال: الأكاسرة وملوك الروم، وصاحب الحضر، ومن حياة من شـــاد القصور، وإذا به يتركها لغيره، ثم يدفن في حفرة ضيقة، فيخاطب النعمان صاحبه والشامتين به، الحساد الذين وشوا به حتى أصابه ما أصابه، ويقول لهم جميعاً، وهو قابع في سجنه[1]:

أيها الشامت المعيرُ بالدهـ ـــر أأنت المبرأ الموفـــور
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ـام بل أنت جاهل مغرور

---

١ الاغاني (٣٦/٢)، العقد الفريد (١٩١/٣).

من رأيت المنونَ خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى: كسرى الملوك أنو شر وان أين قبله سابور ؟

الى أن ينتهي منها ، بقوله :

ثم صاروا كأنهم ورق جـَ ـفَّ فألوت به الصبا والدبور

وهي قصيدة نظمت بالبحر الخفيف .

قال (الجاحظ) : « وقال عدي بن زيد العبادي ، وهو أحد من قد حُمِل على شعره الحَمْل الكثير ، ولأهل الحيرة بشعره عناية ، وقال أبو زيد النحوي : لو تمنيت أن أقول الشعر ما قلت إلا شعر عدي بن زيد :

كفى زاجراً للمرء أيام عمره تروحُ له بالواعظات وتغتدي
فنفسك فاحفظها من الغي والردى متى تغوها تغو الذي بك يقتدي
فإن كانت النعماء عندك لامرىء فمثلاً بها فاجز المطالب أو زد
عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن مقتــدي
ستدرك من ذي الجهل حقَّك كله بحلمك في رفق ولما تشدّد
وظلم ذوي القربى أشدّ عداوة على المرء من وقع الحسام المهنّد
وفي كثرة الأيدي عن الظلم زاجر اذا خطرت أيدي الرجال بمشهدِ[١]

وورد ان (عمر بن الخطاب) تمثل بشعر عدي :

كدمى العاج في المحاريب أو كالـ ـبيض في الروض زهره مستنير[٢]

ومن شعراء الحيرة (ابن بقيلة) ، وله شعر ذكر فيه حال الحيرة بعد فتح المسلمين لها ، إذ يقول :

أبعد المُنذِرين أرى سَواماً تــروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى قلوصاً بين مرّة والحفير

١ الحيوان (٧/١٥٠) .
٢ البيان والتبيين (١/٤٥) .

فصرنا بعد هلك أبي قبيس كجرب المعز في اليوم المطير
تقسّمنا القبائل من معــد علانيــةً كأيسار الجزور
وكنا لا يرامُ لنا حــريم فنحن كضرّة الضرع الفخور
نؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجــال فيوم من مساءة أو سرور[1]

فهو يتأسف على ما وقع للحيرة ، من تسلط قبائــل (معد) عليها ، ومن دخولهم في حكمهم ، بعد أن كانوا يحكمون تلك القبائل ، ويجبون الجبايات ، ويظهر من ذكر (قريظة) والنضير في هذا الشعر ، ان حكم الحيرة قد بلغ أرض هاتين القبيلتين ، وذلك إن صح بالطبع ان هذا الشعر هو من شعره ، وانه أصيل غير مصنوع .

وهو (عبد المسيح بن بقيلة) الغساني ، أو (عبد المسيح بن عمرو بن قيس ابن حيان بن بقيلة) ، وبُقيلة اسمه (ثعلبة) ، وقيل : (الحارث) . وقــد حشر في جملة المعمرين الذين عاشوا ثلاثمائة سنة وخمسين سنة ، وأدرك الإسلام، فلم يسلم ، وكان نصرانياً . وله حديث مع خالد ، حين طلب من أهل الحــيرة إرسال رجل من عقــلائهم ليكلمه في أمر المدينة ، فلما جاء اليه قال له : أنعم صباحاً أيها الملك . فقال خالد : قد أغنانا الله عن تحيتك هذه ، ثم سأله أسئلة أخرى ، ثم قــال له . أعرب أنتم أم نبيط ؟ قال : عرب استنبطنا ، ونبيط استعربنا[2] ، في حديث منمق ، يرويه أهل الأخبار ، وكأنهم كانوا مع خــالد وابن بقيلة يسجلون حديثهما بالكلم والحروف .

وقد تطرق (الجاحظ) الى خبر التقاء (عبد المسيح) بخالد بن الوليــد ، وروى حديثه معه[3] . وذكر (المرتضى) أنه لما بنى قصره المعروف بقصر ابن بقيلة قال :

---

١ الطبري (٣/٣٦٢) ، وتجد هذه الأبيات في أمالي المرتضى مع بعض الاختلاف (١/٢٦٢) .
٢ الطبري (٣/٣٦٢) ، امالي المرتضى (١/٢٦٠ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢/١٤٧ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (٢/١٤٧ وما بعدها) .

لقـــد بنيت للحدثان حصناً   لو أن المرءَ تنفعه الحصون
طويل الرأس أقعس مشمخراً   لأنواع الرياح بـــه حنين[1]

وروى (المرتضى) « أن بعض مشايخ أهل الحيرة خرج الى ظهرها يختط ديراً ، فلما احتفر موضع الأساس ، وأمعن في الأحتفار أصاب كهيئـــة البيت ، فدخله فإذا رجـــلٌ على سرير من رخام ، وعند رأسه كتابـة : أنا عبد المسيح ابن بقيلة :

حلبتُ الدهر أشطرهُ حياتي   ونلت من المنى بلغ المزيد
وكافحت الأمور وكـافحتني   فلم أحفـــل بمعضلة كئود
وكدت أنال في الشرف الثريا   ولكن لا سبيل الى الخلود »[2]

ومن شعره في الناس وفي تهافتهم والتفافهم حول الغني قوله :

والناس أبناء علّاتٍ فمن علموا   ان قد أقل فمجفوٌّ ومهجور
وهم بنون لأم إن رأوا نشباً   فذاك بالغيب محفوظ ومخفور

وهذا يشبه قول أوس بن حجر :

بني أم ذي المالِ الكثير يرونه   وان كان عبداً سيد الأمر جحفلا
وهم لمقل المالِ أولاد علة   وإن كان محضاً في العُمومة مخولا[3]

ومن شعراء (تنوخ) (عمرو بن عبد الجن بن عائذ الله بن أسعد بن سعد ابن كثير بن غالب) ، وكان فارساً في الجاهلية ، و (بنو عبد الجن) أسرة معروفة ، كان لها بقية في الكوفة . ومن شعره :

أما والدماء المائرات تخالهـــا   على قنة العُزّى وبالنسر عندما

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٦٢) .
٢ أمالي (١/٢٦٣) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٦٢ وما بعدها) .

ثم :

وما سبح الرهبان في كل ليلة أبيل الأبيلين المسيح بن مريما[1]

وأدخلوا في هذه الطبقة (جذيمة) الأبرش، و (الجيم بن صعب بن علي بن بكر ابن وائل) ، وهو القائل :

من كل ما نال الفتى قد نلتــه إلا التحية[2]

وجذيمة الأبرش ، هو (جذيمة بن مالك بن فهم بن عمرو) ملك الحيرة ، والأبرش لقب له ، ويقال له الوضاح[3] ، وهو خال (عمرو بن عدي)،وكان ينادم عدياً ، وكان له نديمان هما : مالك ، وعقيل ، بقيا معه أربعين سنة ، ثم قتلهما وندم ، ويضرب بهما المثل لطول ما نادماه . وقد قتلت الزباء جذيمة[4] . وقد شاء أهل الأخبار عدّه شاعراً من الشعراء وأوردوا له شعراً ، كما سبق أن تحدثت عنه في أثناء حديثي عن مملكة الحيرة ، وعن اسطورة صلته بالزباء . ولو جعلناه شاعراً : لوجب علينا تقديمه على كل الشعراء الجاهليين .

وقصة شعره اسطورة من أساطير أهل الأخبار ، فلو كان له شعر ، لوجب أن يكون بعربية أخرى ، هي العربية التي دوّن بها شاهد قبر (امرىء القيس) ملك الحيرة ، الذي توفي سنة (٣٢٨) للميلاد أي بعد (جذيمة) بأمد ، وشعره هو من شعر تبابعة اليمن وآدم والجن من صنع الرواة وأهل الأخبار .

وترى في شعر الأعشى ، وأمية بن أبي الصلت ، و (عدي بن زيد) ، وكلهم من شعراء القرى ، قصصاً ، لا تجده في الشعر المنسوب الى غيرهم من الشعراء . قصصاً نصرانياً وقصصاً يرد عند اليهود ، وقصصاً من قصص الأساطير والخرافات ، أو ممــا يتعلق بالأشخاص ، كالذي ينسب الى الأعشى من سرده حكاية السموأل وقصره في قصيدته التي يقول فيها :

---

١ الخزانة (٣/٣٤٠ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ المزهر (٢/٤٧٦) ، أسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام ، نوادر المخطوطات (المجموعة السادسة) (ص ١١٢ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١/٣٦٢) .
٤ رسالة الغفران (١٧٠ ، ٢٧٨) .

كن كالسموأل اذ طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار[1]

وقد وصف فيها السموأل وحصنه ، وقصة وفائه ، وما كان قد جرى من حوار بينه وبين الملك الغساني المطالب بأدرع الكندي ، وترى من قراءتك لها ان النظم نمط غير مألوف في شعر غيره من الشعراء ، الأبيات فيها مكملة لما قبلها متصلة بعضها ببعض ، بحيث لا يمكن أن تفصل بينها ، وإلا اختل المعنى ،وظهر فراغ فيه . وهو شيء غير مألوف عند غيره . فالبيت على حد قول علماء الشعر شعر مستقل قائم بنفسه ، لا يؤثر حذفه أو تقديمه أو تأخيره على المعنى ولا على ارتباط الأبيات بعضها ببعض ، أما في هذه القصيدة ،فكل بيت فيها تابع لسابقه ، متصل معناه بمعناه ، لأنه جزء منه ، فلا يمكن حذف شيء من القصيدة دون ان يؤثر في معناها .

ونجد في شعره قصصاً عن سد مأرب ، وعن تهدمه وإغراقه من كان يسكن عنده بالمـاء ، ذكر ذلك ليكون عبرة وأسوة للمؤتسي ، وهو قصص بني على حادث تهدم ذلك السد[2] .

وفي شعر الأعشى قصص إرم وعاد وطسم وجديس ، وأهل جوّ ، ووبار[3]. وهو قصص رصعه الأخباريون بشعر نسبوه الى (هُزيلة) امرأة من (جديس) ، والى (عميرة بنت غفار الجديسية) ، في قصص عن الملوك القدمـاء ، وكيف انهم كانوا يدخلون على العذارى قبل ادخالهم على أزواجهم ، في قصص ينسب الى ملوك آخرين ، مثل ملوك اليمن[4] . وهو قصص نجـد له مشابه عند الأمم الأخرى .

ومن شعراء (غسان) : (الشيظم بن الحارث) الغساني ، وهو من الأسرة الحاكمة ، كان قـد قتل رجلاً من قومه ، وكان المقتول ذا أسرة ، فخافهم

---

١ الزمخشري ، المستقصى في امثال العرب (١/٤٣٦) .
٢ راجع البيت (٦٧ فما بعده) من القصيدة رقم (٤) ، وديوانه (ص ٤٣) .
٣ الخزانة (٢/٢٧٠ وما بعدها) ، (هارون) .
٤ الخزانة (٢/٢٧١ وما بعدها) ، (هارون) .

فلحق بالحيرة ، فكان يتكفف الناس نهاره ويأوي الى خربة من خراب الحيرة ، فبينا هو ذات يوم في تطوافه إذ سمع قائلاً يقول :

لحـا الله صعلوكاً إذا نال مذقة توسد احـدى ساعديه فهوّما
مقيماً بـدار الهون غير مناكر إذا ضيمَ أغضى جفنه ثم برشما
يلوذ بأذراء المشاريب طامعـاً يرى المنع والتعبيس من حيث يمما
يضنُّ بنفس كدَّرَ البؤس عَيشها وجودٌ بها لو صانها كان أحزما
فذاك الذي إن عاش عاش بذلة وإن مات لم يشهد له الناس مأتما
بأرضك فاعرك جلد جنبك إنني رأيت غريب القوم لحماً مُوضما

فكأنه نبهه من رقدة ، فتحايل الى صاحب خيل المنذر ، وتقرب اليه، وأظهر له أنه رجل من أهل (خيبر) ، أقبل الى هذه البلدة بتجارة فأصاب بها ، وله بصر بسياسة الخيل ، فضمه الى بعض أصحابه ، حتى إذا وافق غرة من القوم ، ركب فرساً جواداً من خيل المنذر وخرج من الحيرة يتعسف الأرض ، حتى نزل بحي من بهراء فأخبرهم بشأنـه ، فأعطوه زاداً ورمحاً وسيفاً ، وخرج حتى أتى الشأم فصادف الملك متبدياً ، وكان إذا تبدى لا يُحجب أحد عنـه ، فأتى قبـة الملك فقام قريباً منه ، وأنشأ يقول :

يا صاحب الخيل الجياد المقربه وصاحب الكتيبـة المكوكبـه
والقبّـة المنيعة المحجبـه وواهـب المُضمرة المُربيه
والكاعب البهكنه المؤتبـه والمائـة المُدفأة المُنتخبـه
والضارب الكبش فويق الرقبـه تحت عجاج الكَبَّة المُكتّبه
هـذا مقام من رأي مُطّلَبه لديك إذ عَمّى الضلال مذهبـه
وخال أنّ حتفه قد كربه

فأذن له الملك ، فدخل عليـه ، وقص قصته ، ثم بعث الى أوليـاء المقتول فأرضاهم عن صاحبهم[1] .

---

[1] ذيل الامالي (١٧٩ وما بعدها) .

وفي شعر شعراء القرى ، ميزة امتازوا بها عن شعر شعراء أهل البوادي، هي ان أبيات القصيدة عندهم ليست على نحو أبيات القصيدة عند بقيـــة الشعراء من استقلال الأبيات بنفسها ، وقيامها بذاتها بحيث يمكن رفـــع الأبيات من مواضعها وتقديمها أو تأخيرها ، أو حذفها ، دون أن يؤثر ذلك على وحـــدة القصيدة أو المعنى . ففي شعر (الأعشى) مثلاً ، ترابط بين الأبيات واتصال بين البيت المتقدم والبيت الذي يليه ، بحيث لا يمكن حذف أحدهما ورفعه ، دون أن يؤثر حذفه على المعنى ، كذلك يتعذر علينا في بعض شعره نقل البيت عن موضعه ، وقد يأتي الأعشى بالفعل في بيت ثم يأتي بفاعله أو بمفعوله في البيت التالي ، أو يأتي بفعل الشرط في بيت ويأتي بخبره بعد بيت أو بيتين[1] . ويرد التضمـــين في شعره ، كما نجد (الاستدارة) فيه كذلك ، والاستدارة توالي مجموعة متلاحمة من الأبيات تجري على نظام متسق ، يقوم فيه كل بيت بنفسه في معناه ، ولكن المعنى التام لا يتم إلا بالبيت الأخير منها . وهو أسلوب يثير السامع ويشوقه ، ويجعله يتتبع الكلام حتى يبلغ منتهاه[2] .

وأشعر شعراء (البحرين) الذين ذكرهم (ابن سلام) : المثقب العبدي ، والممزق العبدي ، والمفضل بن معشر[3] .

و (المثقب العبدي) واسمه (عائذ بن محصن بن ثعلبة) ، من (بني عبد القيس) ، من شعراء الجاهلية ، وإنما سمي مثقباً لقوله :

ظهرن بكلة وسدلن أخرى وثقـــبن الوصاوص للعيون[4]

وذكر (ابن قتيبة) ان اسمه (محصن بن ثعلبة)[5] ، وقيل اسمه شأس بن عائذ

---

١ ديوان الاعشى ، المقدمة (ص ط) .
٢ ديوان الاعشى ، (غ) .
٣ طبقات (٦٩) .
٤ رددن تحية وكنن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون
الشعر والشعراء (٣٥٦) ، طبقات الشعراء (٢٢٩) ، الخزانة (٤/٤٣١) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/١٩٠ وما بعدها) .
ظهرن بكلة وسدلن رقما وثقبن الوصاوص للعيون
تاج العروس (١/١٦٦) ، (ثقب) ، القاب الشعراء (٣١٦) .
٥ الشعر والشعراء (١/٣١١) ، (طبعة دار الثقافة) .

ابن محصن ، وقيل اسمه نهار بن شأس ، وكان يكنى أبا واثلة . وهو من شعراء البحرين[1] .

« وكان أبو عمرو بن العلاء يستجيد هذه القصيدة له ، ويقول : لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه ، وفيها يقول :

أفاطم قبل بينكِ متعيني ومنعكِ ما سألتكِ أن تبيني
ولا تَعِدي مواعد كاذبات تمرّ بها رياح الصيف دوني
فإني لو تعانـد في شمالي عنادك ما وصلت بها يميني
إذاً لقطعتهـا ولقلت بيني كذلك اجتوى من يجتويني
فإما أن تكونَ أخي بحقٍ فأعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطّرحني واتخذني عـدواً أتقيك وتتقيني
فما أدرى إذا يممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشرّ الذي هو يبتغيني[2] ؟

وتحدث عنه (ابن قتيبة) ، فقال : « وهو قديم جاهلي ، كان في زمن عمرو بن هند ، واياه عنى بقوله :

الى عمرو ومن عمروٍ أتتني أخي الفعلات والحِلْم الرزين

وله يقول :

غلبتَ ملوكَ الناس بالحزم والنهى وأنت الفتى في سورة المجد ترتقي
وأنجب به من آل نصرٍ سميدعٍ أغرّ كلون الهندوانيّ رونق »[3]

ويرى (بروكلمن) ، ان (ابن قتيبة) انما أخذ رأيه المذكور من البيت المتقدم المذكور في المفضليات ، ولكن الأصمعي يعارض ذلك ، فقد مدح المثقب أبا قابوس النعمان بن المنذر[4] .

---

١ المرزباني ، معجم (١٦٧) ، الخزانة (٤/٤٢٩ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣١١ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣١٢) ، المرزباني ، معجم (٣٠٣) .
٤ بروكلمن ، (١/١١٥) ، البيت ٤١ من القصيدة ٧٦ ، المفضليات .
فان أبا قابوس عندي بلاؤها جزاء بنعمي لا يحل كنودها
البيت ١٤ من القصيدة ٢٨ في المفضليات .

وللمثقب العبدي ديوان مطبوع ، كما يوجد له شرح[1] . ومن شعره :

لا تقولن إذا ما لم ترد أن تتم الوعد في شيء نعم
حسن قول نعم من بعد لا وقبيح قول لا بعد نعم
إن لا بعد نعم فاحشة فبلا فابدأ إذا خفت الندم
فإذا قلت نعم فاصبر لها بنجاح القول إن الخلف ذم[2]
واعلم بأن الذم نقص للفتى ومتى لا تتقي الذم تلم
اكرم الجار وراع حقه إن عرفان الفتى الحق كرم
لا تراني راتعاً في مجلس في لحوم الناس كالسبع الضرم
إن شر الناس من يكشر لي حين يلقاني وإن غبت شتم
وكلام سيء قد وقرت عنه أذناي وما بي من صمم
فتعديت خشاة أن يرى جاهل أني كما كان زعم
ولبعض الصفح والإعراض عن ذي الخنى أبقى وان كان ظلم[3]

وأما (الممزق) العبدي ، فاسمه (شأس بن نهار بن أسود) ، وانما سمي (الممزق) ببيت قاله :

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق[4]

وهو ابن أخي المثقب العبدي ، وكان معاصراً لأبي قابوس النعمان بن المنذر[5] . قال عنه (ابن قتيبة) : « وهو جاهلي قديم ، قال البيت المذكور في قصيدة قالها لبعض ملوك الحيرة[6] . وذكر انه قالها للملك عمرو بن هند ، حين هم بغزو عبد القيس ، فلما بلغته القصيدة انصرف عن عزمه[7] . وقيل انه عرف بالممزق ببيته :

---

١ حققه الشيخ محمد حسن آل يسين ، (بغداد ١٩٥٦ م) ، بروكلمن (١/١١٥) .
٢ الخزانة (٤/٤٣١) ، (بولاق) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٢٤) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٧٠) ، الاشتقاق (٣٣٠) ، الامدي ، المؤتلف (١٨٥) ، القاب الشعراء (٣١٦) ، المفضليات (٢/٢٣٢) .
٥ بروكلمن (١/١١٩) ، القاب الشعراء (٣١٦) ، المرزباني (٤٩٥) ، المزهر (٢/٤٣٥ وما بعدها) ، الحيوان (٢/٢٩٨) ، (٥/٤٤١) .
٦ الشعر والشعراء (١/٣١٤) ، المرزباني ، معجم (٤٨١) ، الاصمعيات رقم (٥٠)
٧ البيان والتبيين (١/٣٧٥ وحاشية رقم ٤) ، جمهرة ابن حزم (٢٨٢) .

فمن مبلغ النعمان ان ابن أخته على العين يعتاد الصفا ويعزق[1]

وقد نسبه (السيوطي) على هذه الصورة : (شأس بن نهار بن الأسود بن جريل بن عباس بن حي بن عوف بن سود بن عذرة بن منبه بن بكـرة) العبدي ، ثم البكري[2] . ومن شعره :

أحقاً أبيت اللعن إن ابن فرتنا على غير إجرامٍ بريقي مُشرقي
فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولمّـا أمزق
فأنت عميد الناس مهما تقل نقل ومهما تضع من باطلٍ لا يحقق
أكلّفتني أدواء قومٍ تركتهم فألا تداركني من البحر أغرق
فإن يعمنوا أشئم خلافاً عليهم وإن يتهموا مستحقبي الحرب أعنق[3]

ومما ينسب اليه :

هل للفتى من بنات الدهرِ من واقِ أم هل له من حمام الموت من واقِ

وقوله :

هون عليك ولا تولع باشفاقٍ فإنمـا مالنـا للوارث الباقي[4]

ونجده يذكر في شعره صراخ الديك ، ولا نجد للديك ذكراً عند الأعراب ، لأنهم لا يربون الدجاج ، وتربية الدجاج من خصائص الحضر . تراه يقول :

وقد تخلت رجلاي في جنب غرزها نسيفاً كأفحوص القطـاة المطرّق
أنيخت بجوٍّ يصرخ الديك عندهـا وباتت بقـاعٍ كادىء النبت سملق[5]

وذكر (المرتضى) أن من شعره قوله :

ألا مَنْ لعينٍ قد نآها حميمها وأرّقني بعد المنام همومهـا

---

١ بلوغ الارب (١٢٤/٣) .
٢ شرح شواهد (٦٨٠/٢ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (٣١٤/١) .
٤ بلوغ الارب (١٢٥/٣) .
٥ الحيوان (٢٩٨/٢) .

فباتت لها نفسان شتّى همومهـا فنفسٌ تعزيها ونفس تلومهـا

وذكر أن من العلماء من ينسبه لمعقر بن حمار البارقي[1] .

ومن شعراء (عبد القيس) : (سويد) و (يزيد) ابنا (خذاق) . قال عنهما (ابن قتيبة): « وهما قديمان ، كانا في زمن عمرو بن هند . ويزيد القائل:

نعمانُ إنك غادرٌ خدِعٌ يخفي ضميرك غير ما تُبدي
فإذا بدا لك نحْتُ أثلتنا فعليكها إن كنتَ ذا جدِّ
وهززتَ سيفك كي تحاربنا فانظر بسيفك من به تردي

وله شعر في الموت وفي ذم الدنيـا ، قال عنه (أبو عمرو بن العلاء) إنه « أول شعرٍ قيل في ذم الدنيا »[2]

وكان يزيد قد هجا (النعمان بن المنذر) فبعث اليهم النعمان كتيبته (الدوسر) فاستباحتهم ، فقال أخوه سويد :

ضربت دوسرُ فينـا ضربة أثبتت أوتاد مُلْك فاستقر
فجزاك الله من ذي نعمة وجزاه الله من عبد كفر[3]

ومن شعره قوله في (عمرو بن هند) :

أبى القلبُ أن يأتي السديرَ وأهلهُ وإن قيل عيشٌ بالسدير غزيرُ
به البق والحُمّى وأسدُ خفيّة وعمرو بن هند يعتدي ويجورُ

وهو القائل أيضاً :

جزى الله قابوسَ بن هند بفعله بنـا وأخاه غـدرة وأثاما
بما فجّرا يوم العُطيف وفرّقا قبائل أحلافاً وحيّاً حراما
لعلّ لبُون الملك تمنع درها ويبعث صرف الدهر قوماً نياما
وإلا تغاديـني المنيّة أغشكم على عُدَواء الدهر جيشاً لهاما[4]

---

١ امالي المرتضى (١/٣٢٥) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣٠٢) .
٣ الاشتقاق (٢/٢٠٠) .
٤ الشعر والشعراء (١/٣٠٢ وما بعدها) .

وكانت عبد القيس وتميم على اتصال بملوك المناذرة الذين كان نفوذهم يمتد الى البحرين واليمامة في بعض الأحايين ، فكانت جيوش الحيرة في نزاع مستمر مع هذه القبائل التي كانت تنفر من دفع الإتاوة ومن الخضوع لآل لخم. ونجد أخبار هذا النزاع في شعر شعرائها ، وهي أخبار لا نجدها في كتب التواريخ المألوفة ، التي لم تحفل بالشعر ، فضاع عليها قسط كبير من تأريخ الحيرة ، حصلنا عليه لحسن حظنا من كتب الشعر والأدب التي دونت أخبار الشعراء ودونت المناسبات التي قيل فيها ذلك الشعر .

الفصل الثاني والستون بعد المئة

شعراء قريش

ويزعم أهل الأخبار أن العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلا في الشعر ، فإنها كانت لا تقر لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها[1] . وذُكر أن قريشاً كانت أقل العرب شعراً في الجاهلية ، فاضطرها ذلك الى أن تكون أكثر العرب انتحالاً للشعر في الاسلام . ويؤيد هذا الرأي أننا نجد أكثر من ذكر الرواة أسماءهم وأشعارهم من الشعراء الجاهليين إنما هم من غير قريش[2] .

وذكر أهل الأخبار ان المنافسة التي كانت بين قريش والأوس والخزرج ، أهل يثرب ، دفعت أهل مكة على صنع الأشعار لتتغلب بها على الأنصار . « يروي الناس لأبي سفيان بن الحارث قولاً يقوله لحسان :

أبوك أبو سُوء وخالك مثله ولست بخير من أبيك وخالكا
وان أحق الناس ان لا تلومه على اللوم من ألقى أباه كذلكا

أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا محمد بن سلام ، قال : وأخبرني أهل العلم من

---

١ الاغاني (١/٢٥) ، ابن سلام ، طبقات الشعراء (١٠) .
٢ مجلة المجمع العلمي العراقي ، جواد علي ، لهجة القرآن الكريم (المجلد الثالث) (الجزء الثاني ١٩٥٥ م) ، (ص ٢٧٨) .

أهل المدينة ان قدامة بن موسى بن عمر بن قدامة بن مطعون الجمحي قالها ونحلها أبا سفيان . وقريش تزيد في أشعارها تريد بذلك الأنصار والرد على حسان »[1] . وهناك أخبار أخرى في هذا المعنى تفيد نحل الشعر وضمه الى شعراء مكة، لتتباهى به على يثرب .

ولا نجد بين الشعراء البارزين من أصحاب المعلقات شاعراً واحداً هو من قريش؛ كذلك لا نجد من بين شعراء الطبقات المتقدمة من فحول الشعراء الذين قدمهم علماء الشعر على غيرهم شاعراً هو من أهل مكة . . وهذا هو تفسير قول أهل الأخبار المتقدم ، الدال على تأخر قريش بالنسبة الى بقية العرب في قول الشعر ، أما لو أخذنا قولهم المذكور ، وصرفناه على أهل القرى ، فإننا نجد مكة متقدمة فيه ، لأنها انجبت عدداً لا بأس به من الشعراء بالقياس الى الطائف، التي اشتهرت بشعر شاعرها (أمية بن أبي الصلت) ، ولكنها لا تداني مكة في عدد من ظهر بها من الشعراء ، وبالقياس الى (نجران) والى قرى اليمامة . أما بالنسبة الى يثرب ، فقد برز بيثرب شعراء ، هم أكثر عدداً وشهرة من شعراء مكة .

وقد وصف (ابن سلام) شعر قريش بقوله : « وأشعار قريش أشعار فيها لين يشكل بعض الأشكال »[2] . وذلك حين تحدث عن شعر (أبي طالب) وعن شعر (الزبير بن عبد المطلب) ، وعما وضع الناس من شعر عليهما .

ويذكر أهل الأخبار ، ان قريشاً كانت في الجاهلية دون غيرها من العرب ، تعاقب شعراءها اذا هجا بعضهم بعضاً ، كما كانت ترمي من يروي المثالب ويقع في أعراض الناس بالحمق ، فتسقط منزلته بين الناس، ولهذا قل فيها شعر الهجاء[3]. ويذكرون ان أهل مكة لما أصبحوا يوماً وعلى باب الندوة مكتوب :

ألهى قُصياً عن المجد الأساطيرُ ورشوة مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحمَ بحتاً لا خليط له وقولها رحلت عير أتت عير

أنكر الناس ذلك ، وقالوا ما قالها إلا (ابن الزبعرى) ، وأجمع على ذلك

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦٢) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٦٠ وما بعدها) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٤١٣/١) .

رأيهم ، فمشوا الى (بني سهم) ، وكان مما تنكر قريش وتعاقب عليه أن يهجو بعضها بعضاً ، فقالوا لبني سهم : ادفعوه الينا نحكم فيه بحكمنا . قالوا : وما الحكم فيه ؟ قالوا قطع لسانه ، قالوا : فشأنكم . واعلموا والله انه لا يهجونا رجل منكم إلا فعلنا به مثل ذلك . وكان (الزبير بن عبد المطلب) يومئذ غائباً نحو اليمن ، فخاف بنو قصي أن يقول شيئاً من هجاء ، فيؤتى اليه مثل ما أتى الى ابن الزبعرى ، وكانوا أهل تناصف ، فأجمعوا على تخليته فخلوه[1] .

وقد أحصى (جرجي زيدان) عدد الشعراء الجاهليين بنحو من (١٢٠) شاعراً على اختلاف القبائل والبطون . وقد وجد أن عشرة شعراء منهم هم من قريش[2]. معظمهم ان لم نقل كلهم كان ممن عاش عند ظهور الإسلام ، وقد اشتهر بالشعر وعرف به لموقفه المعادي من الإسلام ، ولاضطراره على مهاجاة النبي والمسلمين دفاعاً عن عقيدته ، ولهذا كان معظم شعره في هجاء المسلمين ، وفي الردّ عليهم وفي الفخر بقومة وتعديد مآثرهم ومناقبهم والدفاع عنهم .

قال (ابن سلام) : « وبمكة شعراء ، فأبرعهم شعراً عبدالله بن الزبعرى ابن قيس بن عدي بن ربيعة بن سعد بن سهم ، وأبو طالب بن عبد المطلب ، شاعر ، وأبو سفيان بن الحارث ، شاعر ، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية ، شاعر ، وضرار بن الخطّاب ، شاعر ، وأبو عزة الجمحي ، شاعر ، واسمه عمر بن عبدالله ، وعبدالله بن حذافة السهمي المزق ، وهُبيرة بن أبي وهب ابن عامر بن عائذ بن عمران بن مخزوم »[3] .

ونجد في كتب السيرة والأخبار شعراً لعبد المطلب ، من جملته قوله :

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبنِ صليبهم ومحالهم غدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرٌ ما بدا لك[4]

---

١ ابن سلام ، طبقات (٥٧ وما بعدها) .

٢ تأريخ آداب اللغة العربية (١/٢٧٥) وما بعدها) ، (شعراء العصر الاموي) .

٣ طبقات (٥٧) .

٤ ابن هشام ، سيرة (١/٤٤ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الحيوان (٧/١٩٨ وما بعدها) ، ويختلف النص في الموارد .

ومن شعراء قريش (أبو لبيد بن عبدة بن جابر) ، وكان أحد فرسانها في الجاهلية [1]

و (أبو طالب) ، عم النبي . وقد أدخلناه في عداد الشعراء ، لوجود شعر ينسب اليه ، ورد أكثره في سيرة (ابن اسحاق) ، ولوجود ديوان مطبوع نسب اليه . واسمه (عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي) ، وقيل اسمه (عمران) ، وقيل اسمه كنيته[2] . قال عنه (ابن سلام) : «وكان أبو طالب شاعراً جيّد الكلام ، وأبرع ما قال قصيدته الّتي مدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل»[3]

ولد قبل النبي بخمس وثلاثين سنة ، ولما مات (عبد المطلب) وصي بالنبي اليه ، فكفله ، وسافر به الى الشام،وهو شاب ، ولما بُعث الرسول كان لا زال حياً ، وقد اختلف في اسلامه[4] ، وتوفي في السنة العاشرة من المبعث[5] .

وقد ذكر (ابن هشام) قصيدة لأبي طالب ، قال انه قالها في (المطعم بن عدي) يعرض به ، ويعم من خذله من بني عبد مناف ومن عاداه من قبائل قريش منها قوله :

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ألا ليت حظي من حياطتكم بكر
من الخور حبحاب كثير رغاؤه يرش على الساقين من بوله قطر[6]

وأورد (ابن هشام) له قصيدة أخرى ، ذكر انه قالها في مدح قريش ، لما رأى (أبو طالب) من قومه ما سره في جهدهم معه وحدبهم عليه . فقال :

---

١ الاشتقاق (٧١) .
٢ الاصابة (٤/١١٥ وما بعدها) ، (رقم ٦٨٥) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٦٠) .
٤ الخزانة (٢/٧٥) ، (عبد السلام محمد هارون) ، (١/٢٥١ وما بعدها) ، (بولاق) .
٥ الخزانة (١/٢٦١) ، (بولاق) .
٦ سيرة ابن هشام (١/١٧١) ، (حاشية على الروض الانف) .

اذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر   فعبـــد مناف سرها وصميمها
فإن حصلت أشراف عبد منافها   ففي هاشم أشرافها وقديمها [1]

ونسبت له قصيدة ذُكر انه قالها لما خشي (أبو طالب) دهماء العرب أن يركبوه مع قومه ، تعوذ بها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره انه غير مسلم الرسول ولا تاركه أبداً حتى يهلك دونه . إذ يقول :

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم   وقد قطّعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى   وقد طاوعوا أمر العدو المُزايل [2]

وهي قصيدة طويلة ، قال (ابن هشام) في آخرها : « هذا ما صح لي من هذه القصيدة وبعض أهل العلم ينكر أكثرها »[3]. ويظهر انها وردت بصورة أطول في سيرة (ابن اسحاق) ، إلا ان (ابن هشام) طرح منها ما شك في أصله وما لم يثبت عنده انه من شعر (أبي طالب) ، واكتفى بهذا القدر الذي دوّنه في سيرته .

وفي جملة ما جاء في القصيدة المذكورة قوله :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وقد ذهب (ابن سلام) الى أن الرواة زادوا في قصيدة أبي طالب وطولوها فأبعدوا آخرها عن أولها . وتعرض لها (الرافعي) فقال : « وقد يزيدون في القصيدة ويبعدون بآخرها متى وجدوا لذلك باعثاً ، كقصيدة أبي طالب التي قالها في النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي مشهورة أولها :

خليليّ مـا أذني لأول عاذل   بصغواء في حق ولا عند باطل [4]

---

١ سيرة ابن هشام (١/١٧٢) ، (حاشية على الروض) .
٢ سيرة ابن هشام (١/١٧٣ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الخزانة (٢/٥٧ وما بعدها) ، وقد دون القصيدة وشرح أبياتها (عبد السلام محمد هارون)
٣ سيرة ابن هشام (١/١٧٨ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .
٤ طبقات ، (٦٠) .

قال ابن سلام : زاد الناس في قصيدة أبي طالب وطولت بحيث لا يدرى أين منتهاها ، وقد سألني الأصمعي عنها فقلت صحيحة ، فقال: أتدري أين منتهاها قلت لا ، قلنا : وإنما طُوّلت هذه القصيدة معارضة للطوال المعروفة بالمعلقات حتى لا يكون من شعر الجاهلية ما هو خير مما قاله عم النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولكن في أصلها أبياتاً هاشمية تفي بكثير من الطوال »[1] .

وقد تعرض (ابن سلام) — كما قلت — لهذه القصيدة فقال : « وقد زيد فيها وطولت . رأيت في كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة : وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ، فلا أدري أين منتهاها . وسألني الأصمعي عنها ، فقلت صحيحة . قال : أتدري أين منتهاها ؟ قلت لا أدري »[2].

ونسب أهل الأخبار لأبي طالب شعراً زعموا أنه قاله لأبي لهب يحرضه فيه على نصرته ونصرة الرسول ، فيه :

ان امرءاً أبو عتيبة عمه   لفي روضة ما ان يسام المظالما[3]

ونسبوا له قصيدة (دالية) ذكروا انه نظمها لما مزقت (الصحيفة) : صحيفة قريش ، التي كتبوها في مقاطعة (بني هاشم) ، أولها :

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا   على نأيهم والله بالناس أرود
فيخبرهم ان الصحيفة مزقت   وان كل ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها افك وسحر مجمع   ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد[4]

وقد أورد (الزبيري) منها هذه الأبيات :

جزى الله رهطاً من لؤي تتابعوا   على ملأ يهدى لحزم ويرشد
قعوداً لدى جنب الحطيم كأنهم   مقاولةٌ ، بل هم أعز وأمجد
هُمُ رجعوا سهلَ بن بيضاء راضياً   فسرّ أبو بكر بها ومحمد
ألم يأتكم ان الصحيفة مُزقت   وإن كان ما لم يرضه الله يفسد

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٨٤ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٦٠ وما بعدها) .
٣ سيرة ابن هشام (١/٢٣٠) ، (حاشية على الروض) .
٤ سيرة ابن هشام (١/٢٣٣ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .

أعان عليها كل صقرٍ كأنه شهـاب بكفّي قابس يتوقد
جريٌّ على حل الأمور كأنه اذا ما مشى في رفرف الدرع أجود[1]

وهي من الشعر المصنوع .

ونسبوا له قوله :

ودعوتني وزعمتَ انك صادقٌ ولقد صدقت وكنتَ قبل أمينا[2]
ولقد علمتُ بأن دين محمد من خير أديان البريّة دينا

وقوله :

ألا أبلغا عني على ذات بيننا لؤياً وخُصّـاً من لؤي بني كعب
ألم تعلموا انا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطٌ في أول الكتب
وان عليه في العباد مودّةً وخيّر فيمن خصه الله بالحب[3]

ولأبي طالب شعر ، رثى به (أبا أميـة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم) ، وكان قد خرج تاجراً الى الشأم ، فمات في موضع يقال له : «سرو سحيم» . وكان (أبو أمية بن المغيرة بن عبدالله) من (أزواد الركب) في قريش ، وهم ثلاثة : هو و (مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس)، و (زمعة بن الأسود بن عبـد المطلب) ، وكانوا إذا سافروا لم يتزود معهم أحد[4] . وله شعر في رثاء (مسافر)[5] .

وفي الديوان المطبوع شعر يمكن أن يكون صحيحاً ، ولكن أكثره شعر منحول، ولا سيما القصيدة (اللامية) الطويلة . فإن القسم الأكبر منها ، لا يمكن أن يكون من الشعر الأصيل . ويرى (بروكلمن) أن سبب الوضع ، هو رغبة من وضعه على تزيين سيرة الرسول بمكة ، وفي أوائل عهد النبوة ، بكثير من الأشعار ،

---

١ نسب قريش (٤٣١) .
٢ الروض الانف (١/٢٢١) ، الخزانة (١/٥٧١ وما بعدها) ، (بولاق) ، (ودعوتني وزعمت أنك ناصح) .
٣ الروض الانف (١/٢٢١) ، الخزانة (٢/٧٦) ، (عبد السلام محمد هارون) .
٤ الخزانة (٣/٤٤٦ وما بعدها) ، (بولاق) .
٥ الخزانة (٤/٣٨٦ وما بعدها) ، (بولاق) .

بعد أن كثرت الأشعار في سيرته بالمدينة . كما أن للشيعة يداً في وضع هذا الشعر على لسان (أبي طالب) لإظهاره بمظهر المعاون للنبي المؤيد له ، المؤمن بدعوته في قلبه ولسانه ، تأييداً للإمام (علي) ، الذي هو ابن (أبي طالب)[1] .

ونسب (الجاحظ) له قوله :

أمن أجل حبلٍ لا أباك علوته   بمنسأة قــد جاء حبل وأحبل[2]

ويروى لعلي بن أبي طالب شعر كثير[3] . ولا يوجد شك في ان علياً كان مطبوعاً على قول الشعر ، وانه كان ذا شاعرية ، وله مواهب تؤهله لنظمه، كما كان من الحفّاظ للشعر ، وقد أورد له أهل الأخبار والأدب شعراً ذكروه في المواضع المناسبة ، كما جمع بعض الأدباء شعره في ديوان ، فهو صاحب شعر ، نظم في المناسبات ، غير انه لم يكن شاعراً بمعنى انه اتخذ الشعر صناعة له ، وانما كان يقوله في المناسبة ، ثم ان في المنسوب اليه ، شعراً كثيراً ، هو موضوع . صنع وحمل عليه . وأكثر ما جاء في الديوان الذي يحمل اسمه هو من هذا القبيل[4] .

ونظراً الى ما لعلي بن أبي طالب من المكانة في نفوس المسلمين ، ولوجود شيعة له ، فقد اهتم الناس بأمر ديوانه ، وشرحوه شروحاً عديدة ، وترجموه الى لغات مختلفة ، وطبع جملة طبعات ، بحيث نستطيع ان نقول دون مبالغة ، ان ديوان (علي) نال من المكانة والتقدير ما لم ينله أي ديوان آخر ، ليس لما فيه من شعر أو من بلاغة ، بل لحرمة ولمكانة صاحبه . ففي هذا الديوان غث كثير ، وفيه ما لا يمكن ارجاعه الى (علي) أبداً[5] . قال (أبو عثمان) المازني : « لم يصح عندنا ان علياً تكلم من الشعر إلا هذين البيتين » :

تلــكم قريش تمنّاني لتقتلني   فلا وربّك ما برّوا وما ظفروا
فإن هلكتُ فرهنٌ ذمّتي لهم   بذات رَوْقين لا يعفو لها أثر[6]

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/ ١٧٥) .
٢ البيان والتبيين (٣/ ٣٠) .
٣ المرزباني ، معجم (١٣٠) ، (عبد الستار أحمد فراج) .
٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/ ١٧٥ وما بعدها) .
٥ راجع التفاصيل في بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/ ١٧٥ وما بعدها) .
٦ الفائق (١/ ٥١٢) .

ونسبوا لعليّ قصيدة في الأيام السبعة منها :

أرى الأحد المبارك يوم سعد ... لغرس العــود يصلح والبناء
وفي الإثنــين للتعليم أمن ... وبالبركات يعرف والرخــاء
وإن رمت الحجامة في الثلاثا ... فذاك اليوم إهراق الدمــاء
وإن أحببت أن تسقي دواء ... فنعم اليوم يوم الأربعاء
وفي يوم الخميس طلاب رزق ... لإدراك الفوائد والغنــاء
ويوم الجمعة التزويج فيه ... وللذات الرجال مع النساء
ويوم السبت إن سافرت فيه ... وقيت من المكاره والعنــاء

وقد رويت القصيدة بروايات أخرى[1] .

ونسبوا (لورقة بن نوفل) شعراً ، زعموا أنه قاله حين رآهم يعذبون بلالاً على إسلامه . منه :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير فــلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلاهاً غــير خالقكم ... فإن دعيتم فقولوا دونه حــدد
سبحان ذي العرش لا شيء يعادله ... رب البرية فرد واحد صمـد[2]

وورقة ، هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزى بن قصي ، يجتمع مع النبي في جدّ جدّه . ذكر أنه كره عبادة الأوثان وطلب الدين في الآفــاق وقرأ الكتب ، وأنه كان حنيفاً عــلى ملة ابراهيم ، وذكر أنه كان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ، ومات في فترة الوحي قبل نزول الفرائض والأحكام، وروى بعضهم أنــه آمن بالرسول وجعله من الصحابة ، وشدد الإنكار على من أنكر صحبته ، وجمع الأخبار الشاهدة له بأنه في الجنة . وهكذا نجــد الروايات تجمع على نبذه عبادة الأوثان ، ثم تختلف في أنه كان حنيفاً على ملة الأحناف ، أو نصرانياً . أما زعم إيمانه بالرسول ، ومــا رووه من الشعر من ذكره اسم الرسول وإيمانه به ، ومن أخباره عنه ، فإنه من الشعر الموضوع المصنوع ، الذي وضع على لسان غيره أيضاً ، بزعم اثبات نبوة الرسول . وفي أكــثره ركة .

---

١ نزهة الجليس (١/٢٥١) .
٢ الخزانة (٢/٣٧) ، (بولاق) ، نسب قريش (٢٠٨) .

وقد نسب بعضه مثل قوله :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم   أنا النذير فلا يغرركم أحد

الى غيره . فقيل إنه لأمية بن أبي الصلت ، وقيل انه لزيد بن عمرو بن نفيل . غير أن (السهيلي) ، و (أبا الربيع) الكلاعي ، والبغدادي يرون أنه له [1] .

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

ارفع ضعيفك لا يَحُرْ بك ضعفه   يوماً فتدركه العواقب قد نمى
يجزيك أو يثني عليك وإن من   أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

وقد نسبا أيضاً لزهير بن جناب [2] .

ولزيد بن عمرو بن نفيل ، وهو أحد الأحناف شعر ، وهو من المتألهين الذين حاربوا عن مكة طلباً للعلم والمعرفة والدين ، ذهب الى بلاد الشأم . وهناك احتك بالنصارى ، فتعلم منهم أمور الدين . ولعله تعلم السريانية والرومية بها ونظر في كتب النصرانية ، لما يذكره أهل الأخبار من تعلمه للغتين . وفارق شأن بقية الأحناف قومه ، وعاب الأصنام والأوثان ، ونسب أهل الأخبار اليه انه كان يسند ظهره الى الكعبة ثم يقول : يا معشر قريش ، والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيري . وكان مثل بقية الأحناف أمثال ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد بن جحش وغيرهم ، قد خالفوا قريشاً ، وقالوا : انكم تعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام وعابوا عليهم ما هم عليه من التقرب الى الحجارة . وقد أورد من ترجم حياته شيئاً من شعره ، واستشهدوا ببعضه في الشواهد [3] .

ومن شعر (زيد بن عمرو بن نفيل) في الأصنام قوله :

تركتُ اللات والعُزى جميعاً   كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العُزى أدين ولا ابنتيها   ولا صنمي بني غنم أزور

---

١ الخزانة (٣٨/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ نسب قريش (٢٠٧ وما بعدها) .
٣ الخزانة (٩٧/٣ وما بعدها) ، (بولاق) .

ولا هبلاً أزور وكان ربّاً   لنا في الدهر إذ حلمي صغير[1]

و (سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل) ، المعروف بـ (أبي الأعور) ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الصحابة الذين أسلموا قديماً ، من الشعراء وهو ابن (زيد بن عمرو) المذكور . وكان اسلامه قديماً وقبل عمر ، وكان إسلام (عمر) عنده في بيته ، لأنه كان زوج أخته فاطمة ، وقد توفي سنة خمسين ، أو إحدى وخمسين ، وقيل اثنتين وخمسين[2] . ومن شعره قوله :

تلك عرساي تنطقان على عمْد لي اليوم قول زورٍ وهتر
سالتاني الطلاق ان رأتا ما   لي قليلاً قد جئتماني بنكرِ
فلعلّي أن يكثر المال عندي   ويعرى من المغارم ظهري
وترى أعبدٌ لنا وأواقٍ   ومناصيف من خوادم عشر
ونجر الأذيال في نعمة زو   ل تقولان ضع عصاك لدهر
وَيْ كأن من لم يكن له نشبٌ يُحْبَبْ ومن يفتقر يعش عيش ضرّ
ويجنب سرّ النجيّ ولكن أخا المال محضر كل سرّ[3]

وكان (نبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب) شاعراً ، وكان هو وأخوه (منبه) من وجوه قريش وذوي النباهة فيهم ، وقتلا ببدر كافرين ، وكانا من المطعمين يوم بدر . وقد رثاهما (الأعشى بن نباش بن زرارة) التميمي ، حليف بني عبد الدار . وكان مدّاحاً لنبيه بن الحجاج[4] .

وقد أورد (الزبيري) له شعراً منه قوله :

تلك عرساي تنطقان بهجر   وتقولان قول زورٍ وهتر
تسألان الطلاق إذ رأتاني   قل مالي قد جئتماني بنكر

١ الخزانة (٣/٢٤٤) ، (بولاق) .
٢ الاصابة (٢/٤٤) ، (رقم ٣٢٦١) .
٣ البيان (١/٢٣٥) ، الخزانة (٣/٩٩) ، الشمنتري (٢/١٧٠) ، عيون الاخبار (١/٢٤٢) .
٤ الخزانة (٣/١٠١) ، (بولاق) .

فلعلي أن يكثر المال عندي وتخلى من المغانم ظهري
وترى أعبد لنا وأواق ومناصيف من ولائد عشر[1]

وقال (الزبيري) إن له أشعاراً كثيرة[2] . وقد رأينا أن هذا الشعر الذي نسب لنبيه ، قد نسب أيضاً لزيد . وقد نسب صاحب (الخزانة) الشعر لزيد ، ثم عاد فنسبه لنبيه .

وكان (أبو العاصي) المعروف بـ (الأمين) من حكماء وشعراء قريش ، ومما نسب اليه من شعر قوله :

أبلغ لديك بني أمية آية نصحاً مبينا
انا خلقنا مصلحين وما خلقنا مفسدينا
إني أعادي معشراً كانوا لنا حصناً حصينا
خلقوا مع الجوزاء إذ خلقوا ووالنجم أبونا[3]

وهو العاصي بن وائل ، وكان من أشراف قريش ، وفيه يقول ابن الزبعرى:

أصاب ابن سلمى خلة من صديقه ولولا ابن سلمى لم يكن لك راتق
فآوى وحيا إذ أتاه بخلة وأعرض عنه الأقربون الأصادق
فإما أصب يوماً من الدهر نصرة أتتك وإني بابن سلمى لصادق
وإلا تكن إلا لساني فإنه بحسن الذي أسديت عني لناطق
ثمال يعيش المقترون بفضله وسيب ربيع ليس فيه صواعق[4]

وعبدالله بن الزبعرى بن قيس بن عدي بن ربيعة بن سعيد بن سهم القرشي السهمي ، من « أشعر قريش »[5] ، وكان شديداً على المسلمين ، ثم أسلم في الفتح. وذكر أنه لما فتح رسول الله مكة ، هرب الى (نجران) ، ثم أسلم ومدح النبي،

---

١ الاغاني (١٦/٦٢) ، نسب قريش (٤٠٣ وما بعدها) .
٢ نسب قريش (٤٠٤) .
٣ نسب قريش (٩٩) .
٤ نسب قريش (٤٠٨ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٣/٢٣٤) ، (زبعر) ، العمدة (١/٢٣) .

فأمر له بحلة[1] . وكان يهاجي حسان بن ثابت وكعب بن مالك . وذكر أنه وكان من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أصحابه بلسانه ونفسه. وكان من أشعر الناس وأبلغهم . يقولون إنه أشعر قريش قاطبة . قال محمد بن سلام : بمكه شعراء فأبرعهم شعراً عبدالله بن الزبعرى ، قال الزبير : كذلك يقول رواة قريش انه كان أشعرهم في الجاهلية . وأما ما سقط الينا من شعره وشعر ضرار بن الخطّاب ، فضرار عندي أشعر منه ، وأقل سقطاً »[2] .

كان (ابن الزبعرى) من المؤذين للرسول ، قام يوماً فأخذ فرثاً ودماً فلطخ به وجه النبي ، فانفتل النبي من صلاتـه ، ثم أتى (أبا طالب) عمه فقال : يا عم ألا ترى الى ما فعل بي ؟ فأخذ (أبو طالب) فرثاً ودماً فلطخ به وجوه القوم الذين كان (ابن الزبعرى) بينهم . وبقي على عداوته هـذه للرسول وفي هجائه له وللمسلمين الى عام الفتح ، فأسلم[3] .

وقد أشرت الى ما ذكره (ابن سلام) من أمر البيتين اللذين وجدا مكتوبين على باب الندوة ، وهما :

ألهى قصيّاً عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحمُ بحتاً لا خليط له وقولها رحلت عيرٌ أتت عير

وما كان من إجماع أهل مكة على انهما من قول (ابن الزبعرى) ليس غير. وذلك مما أهاج أولاد قصي خاصة ، فمشوا الى (بني سهم) رهط (ابن الزبعرى) طالبين منهم تسليمه لهم ليحكموا فيه حكمهم[4] .

وفي البيتين ، هجاء مرّ لقصي ولآل قصي ، الذين ألهتهم الأساطير عن المجد، وكانوا يرشون ويرتشون مثل ما ترشى السفاسير ، وهم السماسرة ، أولئك الذين يأكلون اللحم . ولا يعرفون إلا كلام : رحلت عيرٌ ، أتت عيرٌ . كلام التجار. فلا يفهمون قولاً غير هذا القول .

---

١ الاصابة (٢/٣٠٠) ، (رقم ٤٦٧٩) .
٢ الاستيعاب (٢/٣٠٠ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، كتاب نسب قريش (٢٥١ ، ٣٠٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ وما بعدها) .
٣ تفسير القرطبي (٦/٤٠٦ وما بعدها) .
٤ طبقات (٥٨) .

ومن شعر (ابن الزبعرى) قصيدته وفي وقعة أحد ، ومطلعها :

يا غراب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيئاً قـد فُعل

قال وهو مشرك ، فلما أسلم قال :

يا رسول المليك إنّ لساني راتق ما فتقتُ إذ أنا بورُ [1]

وقد أشار في قصيدته في يوم أحد،الى انتصاف أهل مكة من المسلمين بقوله :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
حين ألقت بقُباء بركهـا وعدلنا ميل بدر فاعتدل [2]

وقصيدته في (أحد) من القصائد الجيدة ، وقد دوّنها (ابن هشام) في جملة ما دوّن من الشعر الذي قيل في هذه المعركة . وقد ردّ عليه (حسان بن ثابت) بقصيدة دوّنها (ابن هشام) بعدها [3] .

وله شعر في مدح النبي ، فيه :

منع الرقاد بلابلٌ وهموم والليل معتلجُ الرواق بهيم
مما أتاني ان أحمد لامني فيـه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها عيرانة سرح اليدين رسوم
إني لمعتذر اليك من الذي أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة سهمٌ وتأمرني بها مخزوم
فاغفر فدى لك والديّ كلاهما ذنبي فإنك راحم مرحوم
وعليك من أثر المليك علامةٌ نور أضاء وخاتم مختوم
مضت العداوة فانقضت أسبابها ودعت أواصر بيننا وحلوم [4]

وهي أبيات نظمها معتذراً فيها عما كان منه من هجاء الرسول والمسلمين ،

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٤٩ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٥٨) .
٣ سيرة (٢/١٥٧) ، (حاشية على الروض) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٥٩ وما بعدها) .

ومن وقوفه مع المشركين في مواقفهم المعروفة ، بعد أن سمع بما حل بغيره ممن هجا الرسول من قتل .

ويذكر أهل الأخبار أن (عبدالله بن الزبعرى) و (ضرار بن الخطاب) الفهري ، قدما المدينة أيام (عمر بن الخطاب) ، فأتيا (أبا أحمد بن جحش) الأسدي، وكان مكفوفاً ، وكان مألفاً يُجتمع اليه ويتحدث عنه ، ويقول الشعر، فقالا له : أتيناك لترسل الى حسان بن ثابت فتناشده ونذاكره ، فإنه كان يقول في الإسلام ويقول في الكفر ، فأرسل اليه ، فجاء فقال : يا أبا الوليد أخواك تطرّبا إليك : ابن الزبعرى وضرار يُذاكِرانك ويناشدانك . قال : نعم إن شئتما بدأت وان شئتما فابدآ . قال : نبدأ . فأنشداه حتّى اذا صار كالمرجل يفور قعدا على رواحلها . فخرج حسان حتّى لقي عمر بن الخطاب ، وتمثل ببيت ذكره ابن جُعدبة لا أذكره . فقال عمر : وما ذاك ؟ فأخبره خبرهما . فقال: لا جرم والله لا يفوتانك . فأرسل في أثرهما فردّا . وقال لحسان أنشد . فأنشد حسان حاجته . قال له : اكتفيت ؟ قال : نعم . قال شأنكما الآن ، ان شئتما فارحلا وان شئتما فأقيما »[1] .

ومن شعره قوله :

ألا لله قوم و لدت أخت بني سهم
هشام وأبو عبد مناف مدره الخصم
وذو الرمحين أشبالٌ على القوة والحزم
فإن أحلف وبيت الله لا أحلف على إثم
لما أن اخوةٌ بين قصور الروم والروم
بأزكى من بني ريطة أو أوزن في حلم[2]

وكان (الزبير بن عبد المطلب) من فرسان قريش ومن شعرائها[3] ، وقد روى (ابن كثير) له شعراً ، ذكر انه قاله فيما كان من أمر الحية التي كانت

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦٠) .
٢ نسب قريش (٣٠٠) .
٣ الاشتقاق (٣٠) .

قريش تهاب بنيان الكعبة لها ، هو :

عجبت لما تصوبت العقاب الى الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش وأحياناً يكون لها وثاب
اذا قمنا الى التأسيس شدت تهيبنـا البناء وقد تهاب
فلما ان خشينا الرجز جاءت عقاب تتلئب لها انصباب
فضمتها اليهـا ثم خلت لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين الى بنـاء لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منـه وليس على مساوينا ثياب
أعز به المليك بني لؤي فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدي ومرة قد تقدمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عـزاً وعند الله يلتمس الثواب[1]

وقد وردت هذه الأبيات في سيرة (ابن هشام)[2] ، أخذت من سيرة (ابن اسحاق) . وهي ولا شك من ذلك الشعر المصنوع الذي انتحل على الشعراء ، وأعطى الى (ابن اسحاق) فأدخله في سيرته ، أسلوبهـا يتحدث عن نفسه ، ونظمها بعيد عن نظم شاعر عاش في ذلك الوقت .

وقد تعرض (ابن سلام) لشعر (الزبير) ، فقال عنه : « وأجمع الناس على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر ، والحاصل من شعره قليل . فما صح عنه قوله :

ولولا الحبْش لم يلبس رجالٌ ثيابَ أعـزة حتى يموتوا »

ويقال ان :

إذا كنت في حاجـة مرسلاً فأرسل حليماً ولا توصـه

للزبير[3] .

---

١ تفسير ابن كثير (١/١٨١) .
٢ سيرة ابن هشام (١/١٣٢) ، (حاشية على الروض الانف) .
٣ طبقات (٦١) .

وكان (الزبير) شاعراً مفلقاً شديد العارضة مقذع الهجاء ، ولما جاء (عبدالله ابن الزبعرى) السهمي (بني قصي) رفعوه برمته الى (عتبة بن ربيعة) خوفاً من هجاء (الزبير) فلما وصل (عبدالله) اليهم أطلقه (حمزة بن عبد المطلب) وكساه ، فمدحه . وكان (الزبير) غائباً بالطائف أو باليمن ، فلما وصل الى مكة وبلغه الخبر قال :

فلولا نحن لم يلبس رجالٌ   ثياب أعزة حتى يموتوا
ثيابهم سمالٌ أو طمارٌ   بها ودكٌ كما دسم الحميت
ولكنّا خلقنا إذْ خلقنا   لنا الحبرات والمسك الفتيت[1]

وقد كان الخلعاء ينزلون على (الزبير بن عبد المطلب)،ومنهم (أبو الطمحان) القيني ، وكان فاسقاً ومن الشعراء[2] .

وكان (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم القرشي) الهاشمي ، ابن عم الرسول وأخيه من الرضاعة من شعراء قريش المطبوعين . وكان ممن يؤذي النبي والمسلمين ، ويهجو رسول الله ، وقد عارضه (حسان بن ثابت) ، ثم أسلم . وكان إسلامه يوم الفتح قبل دخول رسول الله مكة[3] . قال (ابن سلام): « ولأبي سفيان بن الحارث شعر ، كان يقوله في الجاهلية فسقط ، ولم يصل الينا منه إلا القليل ، ولسنا نعدّ ما يروي ابن اسحاق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم . قال أبو سفيان :

لعمرك إني يوم أحمل راية   لتغلبُ خيلُ اللاتِ خيل محمدِ
أنا المدلجُ الحيران أظلم ليلُهُ   بعيد أرجى حين أهدى واهتدي
هداني هادٍ غيرُ نفسي وقادني   الى الله من طردت كل مطّردِ »[4]

---

1 العمدة (١/٦٦) .

2 الشعر والشعراء (١/٣٠٤) ، (دار الثقافة) .

3 الاصابة (٤/٩٠) ، (رقم ٥٣٨) ، الاستيعاب (٤/٨٣) ، (حاشية على الاصابة) الاشتقاق (٢/٢٦٠) .

4 ابن سلام ، طبقات (٦١) ، المرزباني ، معجم (٢٧١) ، ابن سعد ، طبقات (٤/٥١)، (صادر) ، وتجد فيه بعض الاختلاف في الشعر .

ورُوي له شعر قاله يوم تعرض المسلمون بقافلة (أبي سفيان) ، ويوم أحد، وفي المناسبات الأخرى[1] . وله شعر في يوم أحد ، وقد رد عليه حسان بن ثابت[2] وبقية شعراء المسلمين حيث كانت بينهم وبين شعراء مكة مساجلات .

وكان نديماً لعمرو بن العاص السهمي ، وكان الحارث بن حرب بن أمية ، نديماً للحارث بن عبد المطلب[3] ، وكان الحارث بن عبد المطلب من المؤلفة قلوبهم[4].

ولمّا توفي الرسول رثاه (أبو سفيان بن الحارث) بقصيدة مطلعها :

أرقت فبات ليلي لا يزول　　وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما　　أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت　　عشية قيل قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها　　تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحي والتنزيل فينا　　يروح به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه　　نفوس الناس أو كربت تسيل
نبيّ كان يجلو الشك عنّا　　بما يوحى اليه ومـا يقول
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً　　علينا والرسول لنا دليل
أفاطم إن جزعت فذاك غدر　　وان لم تجزعي ذاك السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر　　وفيه سيد الناس الرسول[5]

وقد وضعت أشعار على لسان (أبي سفيان) في هجاء (حسان بن ثابت) . فقد هجا (قتادة بن موسى) الجمحي حسان بن ثابت بأبيات ونحلها (أبا سفيان). وقتادة من الشعراء المخضرمين[6] .

وضرار بن الخطاب بن مرداس بن كثير بن عمرو بن سفيان بن محارب بن فهر القرشي الفهري من ظواهر قريش ، وكان لا يكون بالبطحاء إلا قليلاً .

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦١ وما بعدها) .
٢ ابن سلام (٦٢) ، امالي المرتضى (٦٣٢/١) .
٣ المحبر (١٧٧) .
٤ المحبر (٤٧٣) .
٥ الروض الانف (٣٧٩/٢ وما بعدها) .
٦ الاصابة (٢١٧/٣) ، (رقم ٧٠٧٧) .

وكان أبوه رئيس بني فهر في زمانه ، وكان يأخذ المرباع لقومه . وقد قدّمه بعض رواة الشعر من قريش على (عبدالله بن الزبعرى) ، وعدّوه من الشعراء المطبوعين المجودين . قاتل المسلمين في الوقائع أشد القتال ، ثم أسلم في الفتح[1] . وهو من الأشراف[2] . وذكر انه « كان من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المجودين ، حتى قالوا : ضرار بن الخطاب فارس قريش وشاعرهم .. قال الزبير بن بكّار : لم يكن في قريش أشعر منه ومن ابن الزبعرى . قال الزبير : ويقدمونه على ابن الزبعرى ، لأنه أقل منه سقطاً ، وأحسن صنعة »[3] . وكان من فرسان قريش يوم الخندق .

ولضرار شعر قاله في يوم (بدر)[4] ، وشعر في رثاء (أبي جهل)[5] . وأشعار أخرى في أحد وفي الوقائع الأخرى تجدها في سيرة (ابن هشام) .

وكان ضرار جمع من حُلفاء قريش ومن مُرّاق كنانة ناساً ، فكان يأكل بهم ويُغير ويَسبي ، ويأخذ المال . وكان خرج في الجاهلية في ركب من قريش فرّوا ببلاد دَوْس ، وهم يطالبون قريشاً بدم (أبي أزيهر) ، قتله (هشام ابن المغيرة) ، فثاروا بهم وقتلوا فيهم ، فقاتلهم ضرار ، ثم لجأ الى امرأة منهم، يقال لها : (أم غيلان) مقينة تقين العرائس ، فساعدته وساعده بنوها وبناتها ، فسلم . ولقي ضرار يوم أحد (عمر بن الخطاب) ، فضربه بعارضة سيفه ، وقال : انج يا ابن الخطاب ، لأنه كان قد آلى أن لا يقتل يومئذ قرشياً ، فلما ولي (عمر) الخلافة ، وسمعت (أم غيلان) بذكر (ابن الخطاب) ظنته ضراراً، فقدمت المدينة ، فتوسط لها (ضرار) عند الخليفة فأثابها[6] .

---

١ الاصابة (٢/٢٠١) ، (رقم ٤١٧٣) ، الاستيعاب (٢/٢٠١) ، (حاشية على الاصابة) ، تاج العروس (٣/٢٣٤) ، (زبعر) ، كتاب نسب قريش (١٢٦ ، ٢٦٤ ، ٤٣٣ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٣/٣٥٠) ، (ضرر) .

٣ الاستيعاب (٢/٢٠١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ سيرة ابن هشام (٢/١٠٩) ، (حاشية على الروض الانف) .

٥ سيرة ابن هشام (٢/١١٣) ، (حاشية على الروض الانف) .

٦ ابن سلام ، طبقات (٦٣) .

وكان من مسلمة الفتح ، ومن شعره في يوم الفتح ، قوله :

يا نبيّ الهدى اليك لجا حي قريش وأنت خير لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو م ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعداً يريد قاصمة الظهر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغيـ ـظ رمانا بالنسر والعواء
وغر الصدر لا يهم بشيء غير سفك الدماء وسبي النساء
قد تلظى على البطاح وجاءت عنه هند بالسوءة السوءاء
إذ تنادى بذل حيّ قريش وابن حرب بدا من الشهداء
فلئن أقحم اللواء ونادى يا حماة اللواء أهل اللواء
ثم ثابت اليه من بُهم الخز رج والأوس أنجم الهيجاء
لتكونن بالبطاح قريش فقعة القاع في كف الإماء
فانهينه فإنه أسد الأسـد لدى الغاب والغ في الدماء
انه مطرق يدير لنا الأمـ ـر سكوناً كالحيّة الصماء[1]

ومن الشعراء الذين هجوا الرسول والإسلام (هبيرة بن أبي وهب) المخزومي . من فرسان قريش وشعرائها ، وكان مثل (ابن الزبعرى) ممن يؤذون الإسلام،فهدر النبي دمه ، فهرب الى (نجران) حتى مات بها كافراً . وكانت عنده (أم هانيء) ابنة (أبي طالب) فأسلمت عام الفتح،فقال حين بلغه اسلامها قصيدة من بينها هذه الأبيات :

أشاقتكَ هند أم نآكَ سؤالها كذاك النوى أسبابها وانفتالها
وقد أرقت في رأس حصن ممرد بنجران يسري بعد نوم خيالها
وإن كنتِ قد تابعت دين محمدٍ وعطفت الأرحام منك حبالها

وهي قصيدة رويت في موارد متعددة مع شيء من الاختلاف[2] .

---

١ الاستيعاب (٢/٢٦ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ كتاب نسب قريش (٣٩ ، ٣٤٤) ، الشعر والشعراء (٨٠) ، الاشتقاق (٩٥) ، البيان والتبيين (٢/٢٠٣) ، العمدة (١/٢٣) .

وأورد (ابن هشام) قصيدة لـ (هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ) المخزومي ، في معركة (أحد)[1] . وذكر (ابن سلام) أن (هبيرة) ، كان شاعراً من رجال قريش المعدودين ، وكان شديد العداوة لله ولرسوله ، فاخمله الله ودحقه ، وهو الذي يقول يوم أحد :

قدنا كنانة من أكناف ذي يمن عرض البلاد على ما كان يُزجيها
قالت كنانة أنى تذهبون بنـا قُلنا النخيل فأموها وما فيها

وله شعر كثير وحديث »[2] .

و (الحارث بن هشام بن المغيرة) المخزومي ، أخو (أبي جهل) وابن عم (خالد بن الوليد) ، كان من أشراف قومه ، وقد مدحه (كعب بن الأشرف) اليهودي . وكان فيمن شهد بدراً مع المشركين ، وفرّ حينئذ وقتل أخوه أبو جهل ، فعير بفراره ، فما قيل فيه قول حسان بن ثابت :

إن كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجـا برأس طمرّة ولجام

فأجابه الحارث :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا فرسي بأشقر مزبد
فعلمت أني إن أقاتل واحداً أقتل ولا يبكي عدوي مشهدي
ففررت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد

ويرى علماء الشعر ان هذه الأبيات أحسن ما قيل في الاعتذار من الفرار[3] .

---

١ ابن هشام ، سيرة (٢/١٥٥) ، (حاشية على الروض) .
٢ طبقات (٦٥) .
٣ الاصابة (١/٢٩٣) ، (رقم ١٥٠٤) ، « فاعتذر اليه الحارث بن هشام من فراره يومئذ ، بما زعم الاصمعي أنه لم يسمع بأحسن من اعتذاره ذلـك مـن فراره » ، الاستيعاب (١/٣٠٨) ، (حاشية على الاصابة) ، نسب قريش (٣٠١ وما بعدها) ، وقد روى الشعر بصور مختلفة .

وكان الحارث يضرب به المثل في السؤدد حتى قال الشاعر

أظننت ان أباك حين تسبّني في المجد كان الحارث بن هشام
أولى قريش بالمكارم والندى في الجاهليـة كان والاسلام[1]

وله أشعار في بدر وفي المناسبات الأخرى التي وقعت مع المسلمين ، وله شعر في رثاء أخيه (أبي جهل) . وذكر (ابن هشام) أن بعض أهل العلم بالشعر ينكر بعض هذا الشعر[2] .

وقد شهد (أحد) مشركاً حتى أسلم يوم فتح مكة،وكان من المؤلفة قلوبهم، وشهد مع النبي حنيناً فأعطاه مائة من الإبل كما أعطى المؤلفة قلوبهم ، وكان من المطعمين بمكة . وخرج الى الشام في زمن (عمر) ، فتبعه أهل مكة يبكون فراقه. وتوفي هناك بطاعون عمواس سنة ثماني عشرة في رواية ، أو بيوم اليرموك رجب سنة خمس عشرة في رواية أخرى[3] .

ومن شعراء قريش : (مالك بن عُميلة بن السبّاق بن عبد الدار بن قصي) القرشي ، وهو جاهلي ، من معاصري (هشام بن المغيرة) المخزومي[4] .

ومن شعراء قريش الذين أدركوا الاسلام وصاروا عليه ، (ابن خطل) (عبدالله بن خطل) ، أو (آدم) القرشي الأدرمي . وهو من ولد (تيم بن غالب) . وكان ممن يهجو الرسول والاسلام ، ويأمر قينتين له بأن تغنيا بهجاء الرسول . فأهدر النبي دمه ولو وجد تحت أستار الكعبة . وانما أمـر بقتله لأنه كان مسلماً ، ثم ارتد مشركاً ، وكانت له قينتـان : فرتني وأخرى معها ، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ، فأمر بقتلها معه . فقتله (أبو برزة) الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة[5]

---

١ الاصابة (١/٢٩٣) ، (رقم ١٥٠٤) .

٢ ابن هشام ، سيرة (٢/١١٣) ، (حاشية على الروض) .

٣ الاصابة (١/٢٩٣) ، (رقم ١٥٠٤) ، الاستيعاب (١/٣٠٧) ، (حاشيـة على الاصابة) ، ابن سلام ، طبقات (٣٣ وما بعدها) .

٤ المرزباني ، معجم (٢٥٥) .

٥ الطبري (٣/٥٩) ، (فتح مكة) ، العمدة (١/٢٣) .

ومن شعراء قريش (أبو العاصي بن أمية الأكبر بن عبـد شمس) ، كان يقال له (الأمين) ، وكان من حكماء قريش . وينسب اليه قوله :

أبلغ لديك بني أميـة آية نصحاً مبينا
إنا خلقنا مصاحين وما خلقنا مفسدينا
اني أعادي معشراً كانوا لنا حصناً حصينا
خلقوا مع الجوزاء إذ خلقوا ووالدهم أبونا[1]

وكان (أبو عزة) واسمه (عمرو بن عبدالله بن عمير) ، شاعراً ، وكان مملقاً ذا عيال،فأسر يوم بدر كافراً ، فمن عليه الرسول على أن لا يهجو المسلمين، فعاهده وأطلقه . فلما كان يوم أحد،أطمعه (صفوان بن أمية بن خلف الجمحي)، وكان محتاجاً ، والمحتاج يطمع ، فأخذ يحرض الناس عـلى الإسلام ، فقتل . وقيل إنه برص بعد ما أسنّ ، وكانت قريش تكره الأبرص ، وتخاف العدوى، فكانوا لا يؤاكلونه ولا يشاربونه ولا يجالسونه ، فكبر ذلك عليه ، فصعد جبـل حراء ، يريد قتل نفسه ، فطعن بها في بطنه ، فسال ماء أصفر ، وذهب مـا كان به ، فقال في ذلك شعراً[2] . وذكر (الزبيري) أنه أسر يوم (بدر) وكان ذا بنات ؟ فقال : « دعني لبناتي » فرحمه ، وأخذ عليه ألا يكثر عليه بعدها، فلما جمعت قريش لرسول الله لتسير اليه ، كلّمه (صفوان بن أميه) وسأله أن يخرج الى (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، وهم حلفاء قريش، فيسألهم النصر ، فأبى عليه ، وقال : « إن محمـداً قدْ منّ عليّ وأعطيته ألاّ أكثر عليه » ، فلم يزل صفوان يكلمه حتى خرج الى بني الحارث ، يحرضهم عـلى الخروج مع قريش والنصر لهم ، فقال في ذلك :

أنتم بنو الحارث والناس الهام أنتم بنو عبد منـاة الرّزام
أنتم حمـاة وأبوكم حـام لا تعدوني نصركم بعد العام
لا تسلموني لا يحل إسلام

---

١ كتاب نسب قريش (٩٨ وما بعدها) .

٢ ابن سلام ، طبقات (٦٣ وما بعدها) .

فلما انصرفت قريش من أحد ، تبعهم رسول الله حتى بلغ (حمراء الأسد)، فأصاب بها (عمراً) ؛ فقال له : « يا محمد ! عفوك ! » فقال له الرسول ، « لا تمسح سبلتيك بمكة ، تقول : خدعتُ محمداً مرتين ! » « لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين » ، وقتله صبراً »[1].

ومن شعراء قريش (حرب بن أمية)[2] ، وهو من بني أميــة[3] ، وكان رئيساً بعد المطلب[4] ، وهو والد (أبي سفيان بن حرب) ، وقد زعم ان الجن قتلته ، وأنشدوا في ذلك شعراً ذكروا ان الجن قالته ، هو :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر[5]

وقد زعموا ان الجن خنقته[6] . وقد نسبوا له هذه الأبيات :

أبا مَطرٍ هلُمّ الى صلاحٍ فتكفيكَ الندامى من قريش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هُديت لخير عيش
وتنزل بلدة عزت قديماً وتأمن أن يزورك ربُّ جيش

قالوا انه قالها مخاطباً بها (أبا مطر) الحضرمي ، يدعوه الى حلفه ونزول مكة[7] .

ومن شعراء قريش الذين أدركوا الاسلام : (أبو زمعة) ، واسمه (الأسود ابن المطلب) . له شعر رثا به من قُتل ببدر ، منه :

تُبَكّي أن يضل لها بعيرٌ ويمنعها من النوم السهود

---

١ نسب قريش (٣٩٧ وما بعدها) .
٢ نسب قريش (١٥٧) .
٣ المحبر (١٣٢) .
٤ المحبر (١٦٥) .
٥ الحيوان (٢٠٧/٦) ، معاهد التنصيص (١٢/١ وما بعدها) ، المعارف (٣٢) .
٦ الحيوان (٣٠٢/١) .
٧ الحيوان (١٤١/٣) .

فلا تبكي على بكرٍ ولكن   على بدر تقاصرت الجدود
على بدرٍ سراة بني هُصَيْص   ومخزومٍ ورهطِ أبي الوليد
وبكّي إن بكيتِ على عَقيلٍ   وبكي حارثاً أسد الأسود
وبكّي إن بكيتهم جميعاً   وما لأبي حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجالٌ   ولولا يوم بدرٍ لم يسودوا [1]

---

١ نسب قريش (٢١٨ وما بعدها) .

الفصل الثالث والستون بعد المئة

شعراء يثرب

قال (ابن سلام) : « شعراؤها الفحول خمسة : ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس . فمن الخزرج ، من بني النجار حسان بن ثابت ، ومن بني سلمة، كعب بن مالك ، ومن بلحارث بن الخزرج : عبدالله بن رواحة ، ومن الأوس: قيس بن الخطيم من بني ظفر ، وأبو قيس بن الأسلت من بني عمرو بن عوف»[1]. وهناك شعراء آخرون لكنهم لم يبلغوا مبلغ هؤلاء في الشعر ، منهم : (أحيحة بن الجلاح) و (سويد بن الصامت) ، و (أبو قيس مالك بن الحارث)وآخرون .

ونسبوا لأبي آمنة جدّ النبي قوله :

وإذا أتيت معاشراً في مجلسٍ فاختَر مجالسهم ولمـا تقعدِ
ولكل أمر يستعـاد ضراوة فالصالحات من الأمور تعوّدِ[2]

ويعد (مالك بن العجلان) الخزرجي في جملة شعراء يثرب ، ذكر انه القائل للربيع بن أبي الحقيق اليهودي من أبيات :

إني امرؤ من بني سالم كريم وأنت امرؤ من يهود

---

١ طبقات (٥٢) .
٢ المصون (١٨٩) .

فأجابه الربيع من أبيات أولها :

أتسفه قيلة أحلامهـــا   وحان بقيلة عثر الجدود[1]

وفيه يقول الشاعر (عمرو بن امرىء القيس) من بني الحارث بن الخزرج، من شعراء الجاهلية :

يا مالِ والسيد المعمم قد   يبطره بعد رأيه السرفُ
نحن بما عندنا وأنت بما عندكَ راضٍ   والرأي مختلفُ[2]

وهو من مشاهير سادة (يثرب) ، وله ذكر في نزاع أهل يثرب مع اليهود ، وفي حرب (سمير) بين الأوس والخزرج . وهو قاتل (الفطيون)[3] .

وعمرو بن الإطنابة من شعراء (يثرب) ، وهو من الخزرج ، وهو شاعر فارسي قديم ، خرجت الخزرج معه وخرجت الأوس وأحلافها مع (مُعاذ بن النعمان) في حرب كانت بين الأوس والخزرج . وذكر ان حسان بن ثابت جعله أشعر الناس ، لقوله :

إني من القوم الذين اذا انتدوا   بدأوا بحق الله ثم النائل
المانعين من الخنا جيرانهم   والحاشدين على طعام النازل
والخالطين فقيرهم بغنيهـــم   والباذلـــين عطاءهم للسائل
لا يطبعون وهم على أحسابهم   يشفون بالأحلام داء الجاهل
القائلين ولا يعاب خطيبُهم   يومَ المقامة بالكلام الفاصل

ومن شعره :

أبت لي عفتي وأبى بلائي   وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإكراهي على المكروه نفسي   وضربي هامة البطل المشيح

---

١ المرزباني ، معجم (٢٥٦) .

٢ والشعر يختلط أبياته بأبيات قصيدة أخرى لقيس بن الخطيم ، وأخرى لمالـــك بن العجلان ، البيان والتبيين (٣/١٠٠) ، جمهرة اشعار العرب (١٢٧ وما بعدها) ، الجمهرة (١٢٢) ، ديوان قيس بن الخطيم (١٦ وما بعدها) .

٣ الاشتقاق (٢/٢٧٠) .

ويقال إن معاوية قال : « لقد وضعت رجلي في الركاب يوم صفين وهممت بالفرار ، فما منعني من ذلك إلا قول ابن الإطنابة » الشعر المذكور[1] .

ونسب (أبو الفرج) الاصبهاني الى (أحيحة بن الجلاح بن الحريش «الجريش؟» ابن جحجبي بن كلفة) الأوسي قوله :

لتبكني قنيـــة ومزمرها ولتبكني قهوة وشاربها
ولتبكني ناقة إذا رحلت وغاب في سربخ مناكبها

وهي أبيات قبلها :

يشتاق قلبي الى مليكـــة لو أمست قريباً لمـــن يطالبها
ما أحسن الجيد من مليكة والـ ـلبّات إذ زانها ترائبهـــا

وقد نسبها بعض آخر لعدي بن زيد العبادي،ونسبها بعض آخر لبعض الأنصار[2]. و (أحيحة بن الجلاح) ، من سادات الأوس . وكان سيدهم في زمانه . وكان شاعراً . وكانت عنده (سلمى بنت عمرو) من بني النجـار ، وأولاده منهـا اخوة (عبد المطلب)[3] وهو من أصحاب المذهبات[4] .

وقد ذكر (ابن الشجري) ، أنه وجد في كتاب لغوي أن الشعر المذكور منسوب الى (عدي بن زيد) ، وقد تصفح نسختين من ديوان عدي فلم يجده فيها ، وإنما وجد له قصيدة على هذا الوزن وهذه القافية أولها :

لم أرَ مثل الأقوام في غبن الأيام ينسون ما عواقبها

وذكر (البغدادي) أن (الأصبهاني) اقتبسه في (الأغاني) لأحيحة[5] .

وقد ذكر أهل الأخبـــار أن (أحيحة) كان في أيام التبع (أبو كرب بن حسان بن تبع بن أسعد) الحميري ، وأن هـــذا التبع لما عاد من العراق يريد

---

١ المرزباني ، معجم (٨ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٤١٧/١) .
٣ الاشتقاق (٢٦٢) .
٤ الاغاني (١١٩/١٣) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٤٩/١) .
٥ الخزانة (٢٠/٢ وما بعدها) .

(يثرب) لقتل أهلها ابناً له بها ، وهو مجمع على خرابها وقطع نخلها واستئصال أهلها وسبي الذريــة ، نزل بسفح (أحد) فاحتفر بها بئراً ، عرفت بـ (بئر الملك) ، ثم أرسل الى أشرافها ليأتوه ، فكان ممن أتاه (زيد بن ضبيعة) وابن عمه (زيد بن أمية بن عبيد) ، وكانوا يسمون (الأزياد) ، و (أحيحة بن الجلاح) . فلما جــاء رسول التبع ، ذهب الأزياد اليه ، وكان (أحيحة) له تابع من الجن ، أخبره أنه يريد قتلهم جميعاً ، وكان لا يقول إلا صواباً ، فلما قابل التبع تحدث معه عن أمواله وعن أموال المدينة ، ثم خرج من عنده ودخل خباءه ، وكان (تبع) قد أوكل حراساً به ، فشرب وقرض أبياتاً مطلعها :

يشتاق قلبي الى مليكة أمسى قريباً لمن يطالبها

وأمر قينته أن تغنيه حتى استغفل الحرس ، ففر منهم الى أطمه (الضحيان) ، وقيل (المستظل) ، فجرد الملك كتيبة عليه ، ثم حاصر المدينة ، فلم يتمكن منها ، إذ اعتصم أهلها من الأوس والخزرج واليهود بأطمهم ، ثم أقنعه (حبران) من أحبار يهود بكف الحصار عنها ، فرجع[1] .

وكان (أحيحـة) سيد الأوس في الجاهلية ، وكان كثير المال شحيحاً عليه يبيع بيع الربا بالمدينة ، حتى كاد يحيط بأموالهـم ، وكان له تسع وتسعون بعيراً كلها ينطح عليها ، وكان له أطمان ، أطم في قومه يقال له (المستظل) ، وأطم يقال له (الضحيان) بالعصبة في أرضه التي يقال لها الغابة ، بناه بحجارة سود ، ويزعمون انه لما بناه هو وغلام له أشرف ، ثم قال : لقد بنيت حصناً حصيناً ما بنى مثله رجل من العرب أمنع منه ، ولقد عرفت موضع حجر منه لو نزع وقع جميعاً . فقال غلامه : أنا أعرفه . قال : فأرنيه يا بني ؟ قال : هو ذا ، وصرف اليه رأسه . فلما رأى أحيحة انه قد عرفه دفعه من رأس الأطم ، فوقع على رأسه فمات[2] . وهي قصة تشبه قصة (سنمار) ، ولها شبه عنـــد اليونان . ويذكرون انه لما بناه قال :

بنيت بعد مستظل ضاحيا بنيتــه بعصبة من ماليا

---

١ الخزانة (٢/ ٢١ وما بعدها) ، (بولاق) ، الاغاني (١٣/ ١١٩) .
٢ الخزانة (٢/ ٢٣) ، (بولاق) .

للستر مما يتبع القواضيا أخشى ركيباً أو رجيلاً غاديا [1]

وينسب لأحيحة قوله :

استغن أو مت ولا يغررك ذو نشب من ابن عمّ ولا عمّ ولا خال
إني مقيم على الزوراء أعمرها إن الحبيب الى الإخوان ذو المال

وقوله :

ومـا يدري الفقير متى غناه ولا يدري الغني متى يعيل [2]

و (سويد بن صامت) أخو (عمرو بن عوف) من الأوس ومن (الكملة) ومن الأشراف أصحاب النسب ، ومن الشعراء . وكانت له أشعار كثيرة . وهو الذي ذهب اليه النبي يوم قدم مكة حاجاً أو معتمراً ليدعوه الى الإسلام ، فلما كلمه النبي قال له (سويد) فلعل الذي معك مثل الذي معي ! فقال له رسول الله وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان . فقال له رسول الله : اعرضها عليّ ! فعرضها عليه ، فقال : إن هذا لكلام حسن والذي معي أفضل من هذا : قرآن أنزله الله تعالى عليّ ، هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه الى الإسلام ، فلم يبعد منه . وقال : إن هذا لقول حسن ، ثم انصرف عنه . فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج [3] . ويشك في إسلامه [4] .

و (أبو قيس بن الأسلت) (أبو قيس بن عامر بن جشم) و (عامر) هو الأسلت ، شاعر من الأوس . اختلف في اسمه ، فقيل (صيفي) وقيل (الحرث) (الحارث) ، وقيل (عبدالله) ، وقيل (صرمة) ، واختلف في اسلامه . ذكر انه كان يدعى (الحنيف) لتحنفه . ولم يكن أحد من الأوس والخزرج أوصف لدين الحنيفية ولا أكثر مساءلة عنها منه. وكان يسأل من اليهود عن دينهم ،

---

١ الخزانة (٢/٢٣) ، (بولاق) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٢٧) .
٣ الروض الانف (١/٢٦٥ وما بعدها) ، ابن هشام ، سيرة (١/٢٦٥ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الاغاني (٢/١٦٩) .
٤ الاصابة (٢/١٣٢) ، (رقم ٣٨١٨) ، الاستيعاب (٢/٥٩٣) ، رسالة الغفران (١٣٧) .

فكان يقاربهم ، ثم خرج الى الشأم فنزل على (آل جفنة) فأكرموه ووصلوه، وسأل الرهبان والأحبار ، فدعوه الى دينهم فامتنع ، ثم خرج الى مكة معتمراً ، فبلغ (زيد بن عمرو بن نفيل) فكلمه ، فكان يقول ليس أحد على دين ابراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو بن نفيل . ولما قدم النبي الى المدينة جاء اليه فقال : إلام تدعو ؟ فذكر له شرائع الاسلام . فقال : ما أحسن هذا وأجمله ! فلقيه (عبدالله ابن أبيّ بن سلول) ، فقال : لقد لذت من حزبنا كل ملاذ ، تارة تخالف قريشاً ، وتارة تتبع محمداً . فقال : لا جرم لأتبعنه الى آخر الناس . وقد اختلف في اسلامه ، والأغلب انه لم يسلم[1] . وذكر انه كاد أن يسلم ، لما اجتمع برسول الله ، ولكن كلام (عبدالله بن أبي) أثر عليه ، فقال : والله لا أسلم سنة . ثم انصرف الى منزله ، حتى مات قبل الحول ، وذلك في ذي الحجة على رأس عشرة أشهر من الهجرة[2] .

وفي سيرة (ابن هشام) قصيدة نسبت الى (أبي قيس بن الأسلت) زعم أنه وجهها لقريش ينهى فيها عن الحرب ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض ، ويذكر فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف عن رسول الله ، ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم الفيل وكيده عنهم . وأول القصيدة :

يا راكباً امــا عرضت فبلغن   مغلغلة عنّي لــؤي بن غالب
رسول امرىء قد راعه ذات بينكم   على النائي محزون بذلك ناصب[3]

وهو من أصحاب المذهبات ، ومطلع مذهبته :

قالت ولم تقصد لقول الخنى   مهــلاً فقد أبلغت أسماعي[4]

ونسب له قوله :

ولو شا ربنــا كنّا يهوداً   وما دين اليهود بذي شكول

١ الاصابة (٤/ ١٦٠ وما بعدها) ، (رقم ٩٤٤) ، الاستيعاب (٤/ ١٥٩ وما بعدها)، (حاشية على الاصابة) ، ابن سلام ، طبقات (٥٦) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٤/ ٣٨٥) .
٣ سيرة ابن هشام (١/ ١٨٠) ، (حاشية على الروض) .
٤ الاغاني (١٥/ ١٦٠) ، الجمهرة (١٢٦) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربيــة (١/ ١٣٩) .

ولو شا ربنا كنّا نصارى   مع الرهبان في جبل الجليل
ولكنّا خلقنا إذ خلقنا   حنيفاً ديننا عن كل جيل
نسوق الهدى ترسفُ مذعنات   تكشف عن مناكبها الجُلول[1]

وكان (أبو قيس بن الأسلت) الأنصاري يهاجي حسان بن ثابت . وهو من الأوس ، وحسان من الخزرج ، فكانا يتهاجيان . وكان بين الحيين هجاء ، فكان شعراء كل حي ، يهاجون شعراء الحي الثاني ، عصبية ، لما كان بينهما من تحاسد وتنافر[2] .

والأسلت لقب (عامر بن جشم بن وائل بن يزيد) والد الشاعر المتقدم من الأوس ، وهو شاعر من شعراء الجاهلية ، وكانت الأوس قد أسندت أمرها في يوم (بعاث) الى (أبي قيس بن الأسلت) ، فقام في حربهم وآثرها على كل أمر آخر ، حتى أنهكته وشحب لونه . وقال (ابن حجر) ان اسم (أبي قيس ابن الأسلت) (صيفي) ، وقيل (الحارث) ، وقيل (عبدالله) ، وقيل (صرفة) ، وقيل غير ذلك . واختلف في اسلامه . فمنهم من صيره مسلماً ، وجعله في عداد الصحابة ، ومنهم من جعله متألهاً حنيفاً على دين ابراهيم ، وكان يقول : ليس أحد على دين ابراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو بن نفيل ، ومنهم من زعم انه قال : والله لا أسلم الى سنة ، فمات قبل الحول على رأس عشرة أشهر من الهجرة بشهرين ، وذكر انه هرب الى مكة فأقام بها مع قريش الى عام الفتح[3]. وللعصبية دور في هذه الروايات ، ترد في رجال آخرين من أهل يثرب ومن أهل مكة ، تقدم روايات منها رجالاً في الاسلام ، وتؤخرهم أخرى ، وتنفي عنهم بعضها الدخول في دين الله ، لما لهذا التأخير أو التقديم ، أو البقاء على الشرك من أهمية كبيرة بالنسبة لهم في ذلك الوقت .

وذكر أن (أبا قيس بن الأسلت) كان يعدل (بقيس بن الخطيم) في الشجاعة والشعر[4] . وقيس بن الخطيم ، شاعر فارس من الأوس . معدود من

---

١ ابن سعد ، طبقات (٤/٣٨٥) .
٢ الخزانة (٤/٦٨) ، (بولاق) .
٣ الخزانة (٢/٤٧ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ الاصابة (٤/١٦١) ، (رقم ٩٤٤) ، « واسم الاسلت عامر . فهو لقب له » ، تاج العروس (١/٥٥٤) ، (سلت) .

أصحاب (المذهّبات) . وتبدأ مذهبته بقوله :

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب   لعمرة وحشاً غير موقف راكبِ

وكان يلاحي الخزرج ، قتل أبوه وهو صغير . قتله رجل من الخزرج، وعلم أن جدّه قتله رجل من (عبد القيس) . فتعقب القاتلَين ، حتى ظفر بقاتل والده بيثرب ، وظفر بقاتل جده بذي المجاز فقتله[1] . أدرك الإسلام ، ولكنه لم يسلم . ذكر أنه قدم على النبي بمكة قبل الهجرة ، فعرض النبي عليه الإسلام، فقال : إني لأعلم أن الذي تأمرني به خير مما تأمرني به نفسي ، وفيها بقية من ذاك ، فاذهب فاستمتع من النساء والخمر وتقدم بلدنا فأتبعك . فقتل قبل أن يتبعه. أصابه سهم وهو راكب أمام أطم لرجل من الخزرج[2] .

وهو الذي يقول في حرب كانت بينهم وبين الخزرج :

قد حصت البيضة رأسي فما   أطعم نوماً غيرَ تهجاع
أسعى على جلّ بني مالكٍ   كل امرىءٍ في أمره ساعي[3]

وذكر (المرزباني) ان قيس بن الخطيم ، شاعر مجيد فحل ، من الناس من يفضله على حسان شعراً . وقال حسان : إنا اذا نافرتنا العربُ فأردنا أن نخرج الحبرات من شعرنا أتينا بشعر قيس بن الخطيم[4] . وله ديوان مطبوع[5] . وهو الذي يقول في يوم بعاث :

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب   لعمرة قفر غير موقف راكبِ

وله أشعار جيدة أخرى[6] .

---

١ الاشتقاق (٢٦٤) ، الاغاني (٢/١٥٩ وما بعدها) ، الخزانة (٣/١٦٨) ، المرزباني ، معجم (١٩٦) .
٢ المرزباني ، معجم (١٩٦) ، ديوان الحماسة (٣/١٠٤) ، بروكلمن تاريخ الادب العربي (١/١١٤ وما بعدها) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٥٦) .
٤ المرزباني ، معجم (١٩٦) ، ابن سلام ، طبقات (٥٦) .
٥ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١١٥) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٥٦ وما بعدها) .

وذكر انه كان مقيماً على شركه، وأسلمت امرأته، وكان يقال لها (حواء)، وكان يصدها عن الاسلام، ويعبث بها. وكان رسول الله وهو بمكة قبل الهجرة يخبر عن أمور الأنصار، وعن حالهم فأخبر باسلامها وبما تلقى من قيس، فلما كان الموسم، وحضر مكة، أتاه النبي في مضربه، فلما رأى النبي رحب به وأعظمه، فأخبره النبي بما تلاقي امرأته منه بسبب اسلامها، وقال له: أحب أن لا تعرض لها، فكف عن أذاها [1]، ويقال ان النبي دعاه الى الاسلام وتلا عليه القرآن، فقال: اني لأسمع كلاماً عجباً فدعني أنظر في أمري هذه السنة ثم أعود اليك فمات قبل الحول [2].

وذكر انه كان سيداً شاعراً، فلما هدأت حرب الأنصار، تذاكرت الخزرج قيس بن الخطيم ونكايته، فتذامروا وتواعدوا قتله، فلما مر بأطم (بني حارثة)، رمي بثلاثة أسهم، فصاح صيحةً أسمعها رهطه، فجاءوه فحملوه الى منزله، فلم يروا له كفواً إلا (أبا صعصعة بن زيد) النجاري، فاندس اليه رجل حتى اغتاله في منزله فضرب عنقه، وجاء برأسه، ووضعه أمام (قيس) وكان به رمق، فما لبث أن مات [3].

وله قصيدة متينة، قالها حين ظفر بقاتل أبيه وقاتل جده، فقتلها، من أبياتها:

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة ثائر　　لها نفذٌ لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفيّ فأنهرت فتقها　　يرى قائم من دونها ما وراءها
يهون عليّ أن ترد جراحها　　عيون الأواسي إذ حمدت بلاءها
وكنت امرءاً لا اسمع الدهر سبّة　　أسب بها إلا كشفت غطاءها
فاني في الحرب الضروس موكلٌ　　بإقدام نفسٍ ما أريد بقاءها
متى يأتِ هذا الموت لاتلف حاجةٌ　　لنفسي إلا قد قضيت قضاءها
ثأرت عدياً والخطيم فلم أضع　　ولاية أشياخ جعلت إزاءها [4]

---

١ ابن سلام، طبقات (٥٧).
٢ الاصابة (٣/٢٦٦)، (رقم ٧٣٥٠).
٣ أسماء المقتالين، (المجموعة السابعة من نوادر المخطوطات)، (٢٧٤).
٤ حماسة أبي تمام (١/٩٤ وما بعدها)، (بولاق)، الاغاني (٢/٦٠)، ديوانه (٣ وما بعدها)، (طبعة لايبزك ١٩١٤).

وله غزل ، نابع من غزل أهل الحضر ، تغزل فيه بعمرة بنت رواحة[1] .

و (أبو قيس) (مالك بن الحارث) ، وقيل « صرمة بن أبي أنس بن مالك) من بني النجار،شاعر كذلك . كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابـة ، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً فاتخذه مسجداً لا يدخل عليه طامث ولا جنب . وقال : أعبد رب ابراهيم، فلما قـدم الرسول يثرب أسلم فحسن إسلامه ، وهو شيخ كبير . وكان قوّالاً بالحق معظماً له . يقول في الجاهلية أشعاراً حساناً . وقـد ذكر (ابن اسحاق) أشعاراً له ، في الوصايا ، وفيها حث على مكارم الأخلاق والأمر بالمعروف وفي انصاف اليتيم وغير ذلك من شعر المواعظ[2] .

ومن شعراء يثرب : (عمرو بن امرىء القيس) ، الذي سبق أن ذكرته ، وهو جدّ (عبدالله بن رواحة) وهو شاعر خزرجي جاهلي . وله شعر في القتال الذي وقع بين الأوس والخزرج بسبب (سمير) الذي عدا على (بجير) مولى (مالك بن العجلان) فقتله ، فوقعت الحرب من أجل ذلك بين الحيين،فحكموا (عمرو بن امرىء القيس) ، فحكم بدية المولى لمالك ، فلما رفض الحكم هاجت الحرب . فلما طالت حكموا فيها (ثابت بن المنذر) والـد حسان وبذلك انتهى النزاع[3] .

وحسان بن ثابت من المخضرمين ، من شعـراء الخزرج ، واسمه حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام . وهو شاعر رسول الله وشاعر الاسلام . وأمه (الفريعة) بنت (خالد بن حبيش بن لوذان) . وهي من الخزرج أيضاً . أدركت الاسلام أيضاً فأسلمت ، وقيل هي أخت (خالد) لا ابنته ، ويكنى (أبا الوليد) ، وأبا المضرب ، وأبا الحسام ، وأبا عبد الرحمن . « قال أبو عبيدة : فضل حسان ابن ثابت على الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهليـة ، وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في أيام النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام . وكان مع

---

١ كارلو نالينو (٩٣) .

٢ الاستيعاب (١٥٧/٤ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (١٧٩/٢)، (رقم ٤٠٦١) .

٣ الخزانة (١٨٨/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .

ذلك جباناً »[1] . ولم يشهد مع النبي مشهداً لأنه كان يجبن[2] . وذكر انه كان لسناً شجاعاً ، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن ، فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر الى قتال ولا يشهده[3] . وروي عن (أبي عبيدة) قوله : « اجتمعت العرب على أن أشعر أهل المدر يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف . وعلى ان أشعر أهل المدر حسان بن ثابت » . « وقال الأصمعي : حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء . فقال له أبو حاتم : تأتي له أشعار لينة . فقال الأصمعي : تنسب له أشياء لا تصح عنه »[4] .

وورد ان رسول الله قال : « ليس شعر حسان بن ثابت ، ولا كعب بن مالك ، ولا عبدالله بن رواحة شعراً ، ولكنه حكمة »[5] . وذكر ان (الحارث المرّي) ، قال للنبي : « اني أعوذ بالله وبك من هذا ، إن شعر هذا لو مزج بماء البحر لمزجه » . وكان حسان قد رآه جالساً مع الرسول ، فقال فيه شعراً مطلعه :

يا حار من يغدر بذمة جاره   منكم فإن محمداً لا يغدر[6]

ويروى أنه كان إذا عالج شعراً ، وعصي عليه ، ثم أحكمه وأعجبه ، طرب به وربما صاح من الطرب ومن فرحة الانتهاء من الشعر . قال أحدهم : وسمعت حسان بن ثابت في جوف الليل وهو ينوّه بأسمائه ويقول : أنا حسان بن ثابت، أنا ابن الفريعة، أنا الحسام . فلما أصبحت غدوت عليه فقلت له : سمعتك البارحة تنوّه بأسمائك ، فما الذي أعجبك ؟ قال : عالجت بيتاً من الشعر ، فلما أحكمته نوّهت بأسمائي ! فقلت وما البيت ؟ قال : قلت :

---

١ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٤) ، المحاسن والاضداد (٤٨) .

٢ الشعر والشعراء (٢٦٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٣) ، الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن ناقيا البغدادي (١٩٢ ، ٣٤٣) ، (بغداد ١٩٦٨) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٤) .

٤ الاستيعاب (١/٣٣٨) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٤) ، الاغاني (٤/١٣٤) ، المؤتلف (٨٩) ، المرزباني ، معجم (٤٠١) .

٥ المصدر نفسه (١/٣٣٥) .

٦ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٥) .

وإنّ امرءاً يمسي ويصبحُ سالماً من الناس إلا ما جنَى لسعيدُ[1]

وروي أيضاً أنه قام من جوف الليل فصاح : يا آل الخزرج ، فجاءوه وقد فزعوا ، فقالوا : مالك ؟ قال : بيت قلته فخشيت أن أموت قبل أن أصبح فيذهب ضيعة خلوه عني ، قالوا : وما قلت ؟ قال : قلت :

ربّ حلم أضاعه عدم الما لِ وجهلٍ غطّى عليه النعيمُ[2]

وقد حمل على (حسان) شعر كثير ، بسبب تحامله على قريش ، فأرادت قريش النكاية به ، فوضعت شعراً على لسانه ليحط من مكانته . قال (ابن سلام) : « وأشعرهم حسان بن ثابت ، هو كثير الشعر جيده . وقد حمل عليه مالم يحمل على أحد . لمّا تعاضهت قريش واستبّت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به »[3].

وأكثر علماء الشعر ان شعر (حسان) في الجاهلية أقوى منه في الاسلام ، قال (الأصمعي) : « الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل ، فإذا دخل في الخير ضعف ولان . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الاسلام سقط شعره. وقال مرة أخرى : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر . وقيل لحسان لان شعرك أو هرم في الاسلام يا أبا الحسام ! فقال للقائل : يا ابن أخي ان الاسلام يحجز عن الكذب ، أو يمنع من الكذب ، وان الشعر يزينه الكذب . يعني ان شأن التجويد في الشعر الإفراط في الوصف والتزيين بغير الحق وذلك كله كذب »[4] . وقال (الثعالبي) : « من عجائب أمر حسان انه كان رضي الله عنه يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً ويغبر في نواصي الفحول ويدعي ان له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء في ذلك ... فلما أدرك الاسلام وتبدل الشيطان الملك تراجع شعره وكاد يرك قوله ، ليعلم ان الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك »[5] . وما قوة شعر (حسان) في الجاهلية ، إلا بسبب قوة شبابه

١ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٥/١ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٦/١) .
٣ طبقات (٥٢) .
٤ الاستيعاب (٣٣٨/١ وما بعدها) ، أسد الغابة (٥/٢) ، الشعر والشعراء (٢٢٤/١) ، بروكلمن (١٥٣/١) .
٥ خاص الخاص (٨٠) ، الموشح ، للمرزباني (٦٥) .

آنذاك ، واندفاعه على الشراب وسماع القيان ، فلما كــبر وشاخ ، وذهبت قوة شبابه ، وامتنع من الشرب بسبب تحريم الاسلام له ، لم تبق له قريحة الشباب ، واندفاع ذلك الوقت ، فضعف شعره لذلك ، وللسن دخل في حيوية الانسان وفي نتاجه العقلي ، ومنه الشعر .

ونسب الى (الحطيئة) قوله : « أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقال عبد الملك بن مروان : أمدح بيت قالته العرب بيت حسان هذا »[1] .

وكان حسان قد أدرك النابغة وأنشده ، وأنشد الأعشى ، وكلاهما قال لــه إنك شاعر[2] . وله حديث مع النابغة .

ووُصِفَ بأنه كان صاحب لسان طويل ، « وكان يضرب بلسانه روثة أنفه ، من طوله ، ويقول ، ما يسرني به مقول أحد من العرب ، والله لو وضعته على شعر لحلقه ، أو على صخر لفلقه »[3] . وكانت له ناصية يسدلها بين عينيه[4] .

وكان أبوه (ثابت بن المنذر) من سادة قومه وأشرافهم ، وكان (المنذر) الحــاكم بين الأوس والخزرج في يوم (سميحة) ، وكانوا حكّموا في دمائهم يومئذ (مالك بن العجلان بن سالم بن عوف) ، فتعدّى في مولى له قتل يومئذ ، وقال : لا آخذ إلا دية الصريح ، فأبوا أن يرضوا بحكمــه ، فحكّموا (المنذر ابن حرام) . فحكم بأن أهدر دماء قومه الخزرج ، واحتمل دماء الأوس[5] .

وكان حسان في أول أيامه يتنقل في الأرض طلباً للمال والعطايا والهبات ، فكان يراجع ملوك الحيرة ، ويعاود آل غسان . وكان هواه مع الغساسنة أقوى منه مع آل لخم ، حتى أنه كان يذكرهم بخير ويمدحهم وهو في الإسلام . وقد أكرموه كثيراً ، وأنعموا عليه أكثر مما أنعم ملوك الحيرة عليه . والظاهر أن لبعد الشقة

---

١ الاستيعاب (١/٣٣٩) .
٢ الاستيعاب (١/٣٤٢) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٢٣) ، الفائق (١/٥١٢) .
٤ الشعر والشعراء (١/٢٢٣) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٥٢) .

التي تفصل يثرب عن الحيرة ، ولكثرة ما كان يفد من الشعراء على آل لخم ، وفيهم من هو أشعر من حسان ، وأكثر منه مكانة في الشعر بين العرب ، دخل في انصرافه الى مدح آل غسان وذهابه في الأكثر اليهم طلباً للمال في مقابل مدحه لهم.

ويروى عن (حسان) ان السعالى نصحته بمدارسة الشعر ، فقد روي عنه انه قال : « خرجت أريد عمرو بن الحارث بن أبي شمر الغساني ، فلما كنت في بعض الطريق وقفت على السعلاة صاحبة النابغة ، وأخت المعلاة صاحبة (علقمة ابن عبدة) ، فقالت واني مقترحة عليك بيتاً ، فإن أنت أجزته شفعت لك الى أختي ، وإن لم تجزه قتلتك . فقلت هات . فقالت :

اذا ما ترعرع فينا الغلام فما أن يقال له من هوه

قال : فتبعتها من ساعتي ، فقلت :

فإن لم يسد قبل شد الإزار فذلك فينـــا الذي لاهـوه
ولي صاحب من بني الشيصبان فحيناً أقول وحينـــاً هوه

فقالت : أولى لك ، نجوت ، فاسمع مقالتي واحفظها عليك بمدارسة الشعر ، فإنه أشرف الآداب وأكرمها وأنورها ، به يسخو الرجل ، وبه يتظرف ، وبه يجالس الملوك ، وبه يخدم ، وبتركه يتصنع . ثم قالت : إنك إذا وردت على الملك وجدت عنده النابغة ، وسأصرف عنك معرّته ، وعلقمة بن عبدة ، وسأكلم المعلاة حتى تردّ عنك سورته . قال حسان فقدمت على عمرو بن الحارث فاعتاص عليّ الوصول إليه فقلت للحاجب ، بعد مدة : إن أذنت لي عليه، وإلا هجوت اليمن كلها . ثم انتقلت عنها . فأذن لي عليه؛ فلما وقفت بين يديه وجدت النابغة جالساً عن يمينه ، وعلقمة جالساً عن يساره ، فقال لي : يا ابن الفريعة ، قد عرفت عيصك ونسبك في غسان ، فارجع فإنـــي باعث اليك بصلة سنيّة ، ولا أحتاج الى الشعر ، فإني أخاف عليك هذين السبعين أن يفضحـــاك ، وفضيحتك فضيحتي ، وأنت اليوم لا تحسن أن تقول :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيّون بالريحان يوم السباسب

فقلت : لا بد منه . فقال : ذاك الى عميك فقلت : أسألكما بحـــق الملك ،

الجواب : الا ما قدمتماني عليكما ؟ فقالا : قد فعلنا ، هات ، فأنشأت أقــول والقلب وجل :

أسألتَ رسم الدار أم لم تسألِ بين الجوابي فالبضيع فحوملِ

حتى أتيت على آخرها . فلم يزل عمرو بن الحارث يزحل عن مجلسه سروراً حتى شاطر البيت ، وهو يقول : هذه واللهِ البتارة التي قد بترت المدائح ، هذا وأبيك الشعر ، لا مــا تعللاني به منذ اليوم . يا غلام ألف دينار مرجوحة ، فأعطيت ألف دينار ، في كل دينار عشرة دنانير . ثم قال : لكَ عليّ مثلها في كل سنة، ثم أقبل على النابغة فقال : قم يا زياد بني ذبيان فهات الثناء المسجوع، فقام النابغة فقال :

ألا أنعم صباحاً أيها الملك المبارك ، السماء غطاؤك ، والأرض وطاؤك ، ووالداي فداؤك ، والعرب وقاؤك ، والعجم حماؤك ، والحكماء وزراؤك ، والعلماء جلساؤك، والمقاول سمّارك ، والعقل شعارك ، والحلم دثارك ، والصدق رداؤك ، واليُمْنُ حذاؤك ، والبرُّ فراشك ، وأشرف الآباء آباؤك ، وأطهـر الأمهات أمهاتك ، وأفخر الشبان أبناؤك ، وأعف النساء حلائلك ، وأعلى البنيات بنياتك ، وأكرم الأجداد أجدادك ، وأفضل الأخوال أخوالك ، وأنزه الحدائق حدائقك ، وأعذب المياه مياهك ، وحالف الإضريج عاتقك ، ولاءَم المسك مسكك ، وجاورَ العنبر ترائبكَ ، العسجد قواريرك ، واللجين صحائفك ، والشهد إدامك ، والخرطوم شرابك ، والأبكار مُستَراحك ، والعبير بنواسك ، والخـير بفنائك ، والشر في ساحة أعدائك ، والذهب عطاؤك ، وألف دينارٌ مرجوحة إعاؤك ، وألف دينار مرهوجة ابتاؤك ، والنصر منوط بلوائك ، زين قولك فعلك ، وطحطح عدوّك غضبك ، وهزم مقانبهم مشهدك . وسار في الناس عدلك ، وسكّن تباريح البلاد ظفرك . أيفاخرك ابن المنذر اللخمي ؟ فوالله لقفاك خير من وجهـه ، ولشمالك خير من يمينه ، ولصمتك خير من كلامه : ولأمك خير من أبيه، ولخدمك خير من علية قومه . فهب لي أسارى قومي ، واسترهن بذلك شكـري ، فإنك من أشراف قحطان وأنا من سروات عدنان .

فرفع عمرو بن الحارث رأسه الى جارية كانت على رأسه قائمــة ، فقال :

مثل ابن الفريعة فليمدح الملوك ، ومثل ابن زياد فليثن على الملوك »[1] . وهكذا دبج أهل الأخبار هذا الثناء في كتبهم ، وكان رواتهم قد سجلوه ساعة وقوعه على شريط مسجل .

وتعد قصيدة (حسان) :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل   بين الجوابي فالبضيع فحومل

من جيد شعره ، وأشهر قصائده ، فهي لينة الألفاظ أسهل فهماً من قصائد شعراء الصنف الأول ، وفيها من المديح ما يليق بملوك أهل المدر ، المتمتعين بأنواع الترف والرفاهية ، ثم إن أطناب الشاعر في وصف الخمر يبعد عن أسلوب شعراء أهل البادية ، كما يبعد عنه أيضاً الافتخار بقومه المقصور في بلاغة خطابهم ووفدهم على أبواب الملوك . وقد أبدع فيها في وصف معيشة ملوك غسان ، وفي حياتهم الحضرية التي كانوا يحيونها ، كما افتخر فيها بعشيرته الخزرج[2] .

وخير شعر حسان هو ما قيل في مدح ملوك غسان .. وكان هواه فيهم ، وكانوا هم يغدقون عليه العطايا والأموال ، ولا يؤخرونه من الدخول الى مجالسهم ، ويؤثرونه بالمودة ، فخصص جيد شعره بهم . وقد مدح ملوك الحيرة أيضاً ، غير أن مدحه لهم ، هو دون مدحه لمنافسيهم الغساسنة ، الذين كان يكثر التردد عليهم ، على حين لم يكن يقصد المناذرة إلا لحاجة شديدة ولطلب . ولعل ذلك بسبب بعد الحيرة عن يثرب ، وكثرة ذهاب الشعراء الى ملوك الحيرة ، واستدراج هؤلاء الملوك للشعر واغداقهم عليهم ، للاستفادة منهم في نشر الدعاية لهم بين الأعراب .

ومن جيد شعره في ملوك الغساسنة قوله :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم   قبر ابن مارية الكريم المفضل
يَسقون مَنْ ورد البريص عليهم   بَرَدَى يصفق بالرحيل السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم   لا يسألون عن السواد المقبل

---

١ الاغاني (١٥/١٢٣ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٧٩ وما بعدها) .
٢ كارلو نالينو (٨٧ وما بعدها) .

وابن مارية هو الحارث الأعرج بن أبي شمر الغساني ، وكان أثيراً عندهم، ولذلك يقول :

قد أراني هنـــاك حق مكـين عند ذي التاجِ مقعدي ومكاني[1]

وذكر أنه دخل يوماً على (جبلة بن الأيهم) الغساني ، فأذن لـه ، فجلس بين يديه وعن يمينه رجل له ضفيرتان ، وعن يساره رجل ، وكان الأول هـو النابغة ، وكان الثـاني ، هو (علقمة بن عبدة) . فاستنشدهم جبلة ، فأنشد النابغة قوله :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

قال حسان فذهب نصفي . ثم قال لعلقمة أنشد ، فأنشد :

طحابك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

قال حسان ، فذهب نصفي الآخر . ثم قال (جبلة) لحسان ، أنت أعلم الآن إن شئت سكت ، وإن شئت أنشدت ، فأنشد :

أبناء جفنة عند قبر أبيهم قبر ابن مارية الجواد المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم كأساً تصفق بالرحيل السلسل

فأدناه منه ، ثم أمر له بثلثمائة دينار وعشرة أقمصة لها جيب واحد . وقال : هذا لك عندنا في كل عام . وذكر (أبو عمرو الشيباني) هذه القصة لحسان مع (عمرو بن الحارث) الأعرج[2] . ونجد الرواة يختلفون في مثل هـذه القصص ، بسبب ركونهم الى رواة مختلفين ، لم يدونوا الأخبار وانما سمعوها سماعاً، وأكثرها من المخترعات .

ويظهر انه قد تمكن من جمع ثروة مكنته من السكن في حصن حصين بيثرب

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٢٤) .

٢ الخزانة (٢/٢٤٠ وما بعدها) ، (بولاق) .

عرف بـ (فارع)[1] . وكان الرسول اذا خرج لغزوة أو معركة أودع أهله حصن حسان ، لأنه كان حصناً حصيناً . وتذكر (صفيــة بنت عبد المطلب) ، ان حسان كان في حصنه مع النساء والصبيان فر يهودي به ، وجعل يطيف حوله ، فقالت (صفية) لحسان إن هذا اليهودي لا آمنه أن يدل على عوراتنا فانزل اليه فاقتله ! فقال : يغفر الله لكِ يا بنت عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، فنزلت صفية وأخذت عموداً وقتلت اليهــودي . فقالت : يا حسان انزل فاسلبه ! فقال ما لي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب[2] . وقد دفع بعض العلماء الجبن عن حسان ، بحجة انه لو كان جباناً على نحو ما يقولون لمــا سكت عن تعييره به خصومه ممن كان يهاجيهم كضرار وابن الزبعرى ، وعللوا عـدم نزوله من حصنه لقتل اليهودي بحجة انه ربما كان معتــلاً في ذلك اليــوم . وأنكــر بعضهم أن يكون هذا الخبر صحيحاً[3] . على كلٍ ، صح هذا الخبر أم لم يصح فإنا لا نجد لحسان ذكراً في مغازي الرسول ولا في سراياه . بل نجد العلماء مجمعين على انه « لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشهداً ، لأنه كان جباناً »[4] .

ولحسان شعر في رثاء (المطعم بن عدي) والد (جبير بن مطعم) ، مات ولم يسلم . وكان (مطعم) أجار النبي حين قدم الطائف لما دعا ثقيفاً الى الإسلام، وهو أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش عـلى بني هاشم وبني المطلب . وكان فيما قاله في رثاء (المطعم) :

فلو كان مجداً يخلدُ الدهر واحداً ... من الناسِ أبقى مجده الدهر مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا ... عبيدك ما لبى مهلٌ وأحرمــا[5]

ومن شعره :

أهوى حديث الندمان في فلق الصـ ... ـبح وصــوت المغرِّد الغرد

---

١ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) ، (فارع حصن بالمدينة ، يقال انه حصــن حسان بن ثابت) ، تاج العروس (٥/٤٤٩) ، (فرع) .
٢ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) ، سيرة ابن هشام (٢/١٩٣) ، (حاشيــة على الروض الانف) ، الروض الانف (٢/١٩٣) .
٣ الروض الانف (٢/١٩٤) .
٤ الشعر والشعراء .
٥ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٨٧٥) .

ذكر ان بعض أهل المدينة كان يقول : ما ذكرت بيت حسان هذا إلا عدت في الفتوة[1] .

وذكر أن الناس كانوا يتمثلون بـ « فشرّكما لخيركما الفـــداء » ، وهو عجز بيت لحسان . هو :

أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء[2]

وهو من قصيدة يقول بعض الرواة إن مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء الى عذراء منزلها خلاء

هجا فيها (أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) . « قال مصعب الزبيري: هذه القصيدة ، قال حسان صدرها في الجاهلية وآخرها في الإسلام »[3] .

وينسب الى (حسان) قوله :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا فصرتم معربين ذوي نفر

وهو بيت تليه أبيات أخرى في الفخر بيعرب ، وبفضله على العرب ، لأنه هو صاحب العربية ، ومنـــه تعلم العرب عربيتهم . وقد دونت هذه الأبيات في كتاب : تأريخ ملوك العرب الأولية للأصمعي[4] . وقد دوّن هذا الكتاب أبياتاً من قصيدته الشهيرة في مدح الغساسنة[5] . وأبياتاً في مدح (جبلة بن الأيهم) الذي فرّ الى بلاد الروم ، وواصل مع ذلك بره لحسان[6] . وهو شعر أراه مصنوعاً ، ولا يتفق مع مذهب (حسان) في النظم .

وقد ذكر (حسان) قصر دومة ، أي دومة الجندل في شعره ، إذ قال :

---

١ الشعر والشعراء (٢٢٥/١) .

٢ الشعر والشعراء (٢٢٦/١) ، « أتهجوه ولست له بكفء » الاستيعاب (٣٣٦/١) .

٣ الاستيعاب (٣٣٦/١) .

٤ (ص ٨) .

٥ (ص ١٠٢) .

٦ (ص ١١٣)

أما ترى رأسي تغـير لونه شمطاً فأصبح كالثغام المجول
فلقد يراني صاحباي كأنني في قصر دومة أو سواء الهيكل[1]

وورد ان الرسول لما « قدم المدينة ، فهجته قريش ، وهجوا الأنصار معه ، فأتى المسلمون كعب بن مالك (؟) فقالوا : أجب عنا ، فقال : استأذنوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ادعوه ، فأتى حسان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اني أخاف أن تصيبني معهم تهجو من بني عمي ، فقال حسان : لأسلنّك منهم سل الشعرة من العجين ، ولي مقول ما أحب ان لي به مقول أحد من العرب ، وانه ليفري ما لا تفريه الحربة . ثم أخرج لسانه فضرب به أنفه كأنه لسان حية بطرفه شامة سوداء ، ثم ضرب به ذقنه ، فأذن له رسول الله »[2] . وورد « ان النبي صلى الله عليه وسلم لمّا قدم المدينة ، تناولته قريش بالهجاء ، فقال لعبدالله بن رواحة : ردّ عني . فذهب في قديمهم وأولهم ، ولم يصنع في الهجاء شيئاً . فأمر كعب بن مالك » « ولم يصنع في الهجاء شيئاً، فدعا حسان بن ثابت فقال : اهجهم ، وائتِ أبا بكر يخبرك بمعايب القوم . فأخرج حسان لسانه حتى ضرب به على صدره ، وقال : والله يا رسول الله ، ما أحب ان لي به مقولاً في العرب ، فصبّ على قريش منه شآبيب شر . فقال رسول الله : اهجهم ، كأنك تنضحهم بالنبل »[3] .

وروي أن الرسول لما هجاه (عبدالله بن الزبعرى) ، و (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) ، و (عمرو بن العاص) ، و (ضرار بن الخطاب) قال : « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان : أنا لها وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي ؟ فقال : والله لأسلنك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين ، فقال له : ائت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك . فكان يمضي الى أبي بكر ليقفه على أنسابهم . وكان

١ الاصابة (١/١٣٢) ، (رقم ٥٤٩) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٤) ، « كعب بن مالك » « هكذا » ، بينما الحال يستدعي ذكر « حسان بن ثابت » .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٥٤ وما بعدها) .

يقول : كف عن فلانة وفلانة واذكر فلانة وفلانة ، فجعل حسان يهجوهم . فلما سمعت قريش شعر حسان ، قالوا: إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة ، أو مَنِ شعر ابن أبي قحافة .

فمن شعر حسان في أبي سفيان بن الحرث :

وإن سنام المجد في آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعباس ولا كابن أمه ولكن لئيم لا يقوم له زند
وان امرءاً كانت سمية أمه وسمراء مغمور اذا بلغ الجهد
وأنت هجين نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان ، قال : هذا كلام لم يغب عنه ابن أبي قحافة[1] .

وذكر ان الرسول جعله شاعره الناطق باسمه اذا جاءته الوفود ، وتبارى الشعراء أمامه ، قام هو للرد عليهم . فحين قدم وفد (بني تميم) بخطيبهم وشاعرهم ، ونادوه من الحجرات ان اخرج الينا يا محمد ، وخطب خطيبهم مفتخراً ، ثم قام شاعرهم وهو (الزبرقان بن بدر) ، فقال :

نحن الملوك فلا حيّ يقاربنا فينا العلاء وفينا تنصب البيع

قال رسول الله لحسان : قم ، فقام وقال :

إن الذوائب من فهرٍ واخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

الى آخر الأبيات . « فقال التميميون عند ذلكم : وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا ، وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا » ، ويعد شعره هذا من جيد شعره[2] .

وقد روي أن النبي كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو

---

١ الاستيعاب (١/٣٣٤ وما بعدها) .
٢ الاستيعاب (١/٣٤١) .

الذين كانوا يهجون النبي[1] . وقد شك (كيتاني) وكذلك (بروكلمن) في صحة هذا الخبر . ولكن الروايات تؤكد أن الرسول كان يستدعيه أحياناً للرد على شعراء الوفود ، وأنه كان يجلس في المسجد ينشد الشعر ، والرسول يسمعه . وأن (عمر) مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ، ثم قال : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشدُ في هذا المسجد من هو خير منك ، فما يغير عليّ ذلك ، فقال عمر : صدقت[2] . أو أن (عمر) مرّ على (حسان) ، وهو ينشد الشعر في المسجد ، فقال أفي مسجد رسول الله تنشد الشعر ؟ فقال : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك . أو ما أشبه ذلك[3] . وروي أن (عمر) ، نهى أن ينشد الناس شيئاً من مناقضة الانصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحي والميت وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام[4] .

وذكر أن أول شعر قاله (حسان بن ثابت) في الإسلام ، هو قوله :

فانا ومن يهدي القصائد نحونا   كمستبضع تمراً الى أهل خيبر[5]

ولما أسرت (هذيل) بعض المسلمين وباعتهم من قريش ، هجاهم (حسان) هجاءً مراً ، وصفهم فيه باللؤم ، واللؤم عند العرب من أقبح المعيبات ، إذ قال فيهم :

لو خُلق اللؤمُ انساناً يكلمهم   لكان خير هُذيل حين يأتيها
ترى من اللؤم رقماً بين أعينهم   كما لوى أذرع العانات كاويها
تبكي القبور اذا ما مات سيدهم   حتى يصيح بمن في الأرض داعيها
مثل القنافذ تخزي أن تفاجئها   شد النهار ويلقى الليل ساريها[6]

---

١ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) ، السيوطي ، شرح شواهد المغني (١١٤) .
٢ العمدة (١/٢٨) .
٣ الاصابة (١/٣٢٥) ، (رقم ١٧٠٤) .
٤ الاستيعاب (١/٣٣٨) .
٥ تاج العروس (٥/٢٧٨) .
٦ ديوان حسان (٦٧) ، (لندن ١٩١٠) .

وهي أبيات شديدة الهجاء ، موجعة ، تفنن فيها الشاعر وأبدع في وصف من هجاهم باللؤم وبالأمور المخزية الأخرى .

ويشك بعض المستشرقين في صحة الشعـــر المنسوب الى (حسان) الوارد في التفجع على مقتـل (عثمان) وفي الحث على الأخذ بثأره . وذلك لأن هذا الشعر شعر ملتهب فيه قوة وحيوية ونفس شباب ، فيبعد أن يكون من شعر شيخ قد تقدمت به السن[1] .

وروي « عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج وقد فرش حسان فناء أطمـــه ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سماطين وبينهم جارية لحسان يقال لها (شرين) ومعها مزهر تغنّيهم ، وهي تقـــول في غنائها :

هل عـــليّ ويحكم   إن لهوت من حرج

فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا حرج »[2] .

و (شرين) لفظة فارسية بمعنى (حلو) و (جميل) ، فيكون اسم الجاريـة من الأسماء الفارسية ، معناه في العربية (حلوة) و (جميلة) . ولا يستبعـــد أن تكون من أصل فارسي ، وإن نص أهل الأخبار على أنها قبطية .

و (شرين) ، هي (سيرين) جارية أعطاها رسول الله لحسان لذبّـه بلسانه عنه في هجاء المشركين ، وقيل لضربة (صفوان بن المعطل) له بالسيف . وهي أخت (مارية) القبطية . وذكر أن الرسول أعطى حسان الموضع الذي بالمدينة ، وهو قصر بني (جديلة)[3] .

وقد اختلف الناس في سنة وفاة (حسان) الذي كان قد عمي لما تقدمت به السن . فقيل : توفي قبل الأربعين ، وقيل سنة أربعين ، وقيل خمسين ، وقيل أربع وخمسين من سني الهجرة ، والجمهور على انه عاش مائـــة وعشرين سنة ، ولكن منهم من ذهب الى انه عاش دون المائة أو ما بين المائة والمائة والعشرين .

---

١ بروكلمن (١/١٥٣) ، Th. Nöldecke, Die Ghassan., S. 41.

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٣٤ وما بعدها) .

٣ الاستيعاب (١/٣٤٠) .

وقد قال (ابن سعد) انه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الاسلام ستين ، ومات وهو ابن عشرين ومائة [1] . وذكر انه مات في أيام معاوية [2] .

وقد كان حسان ممن مشى بين الناس بحديث الإفك ، وهو ممن نزلت بحقه الآية : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم . والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » [3] ، لأنه مشى بالإفك مع من مشى به . وهم (عبدالله بن أبي) رأس المنافقين بالمدينة ، ومسطح ، وحمنة بنت جحش . وقال بعضهم إن الذي تولى كبره منهم (حسان بن ثابت) . قيل لعائشة ، وقد دخل عليها (حسان بن ثابت) : « أليس الله يقول : والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . قالت: أليس قد أصابه عذاب عظيم . أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف ! » [4] . وروي انه جلد مع (مسطح) بسبب الإفك [5] .

واعتذر (حسان) من قوله في الإفك بقوله :

فإن كنت قد قلتُ الذي قد زعمتم فلا رفعت سوطي إليّ أناملي

ثم يقول :

فإن الذي قد قيل ليس بلائط ولكنه قول امرىء بيّ ماحل [6]

وقد أسرف (حسان) في افكه بحديث الفك ، حتى آلم النبي ، ويظهر أنه لم يكن من أولئك الأشخاص الذين كانوا يتحرجون من الهجوم على أقرب الناس اليهم ، في حالة تسرعه وتأثره ، فهو شاعر ، ومن عادة الشعراء عدم الاستقرار. وكان عليه أن يدافع عن (عائشة) ، باعتباره شاعر نبيه ، لا أن يساهم مع

---

١ الاصابة (١/٣٢٥) ، (١٧٠٤) ، الاستيعاب (١/٣٤٢) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٢٣) ، (الثقافة) .
٣ سورة النور ، الرقم ٢٤ ، الاية ١١ .
٤ تفسير الطبري (١٨/٦٨ وما بعدها) ، تفسير الالوسي (١٨/١٠٠) ، تفسير ابن كثير (٣/٢٧١) .
٥ رسالة الغفران (٢٣٥) .
٦ العمدة (١/٢٤ وما بعدها) .

من استغل الحادث لايلام الرسول من المنافقين والذين لم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم ، وان عمن في الإفك وفي إيلام الرسول ، وقد اعتذر بعد ذلك كما رأينا بعذر بارد ، حاول أن يتنصل فيه عمّا قاله في الإفك ، مع أنه كان صنواً لعبدالله ابن أبي في ذلك الحديث .

ولما انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ، قال حسان قصيدته :

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد[1]

وقال قصيدة أخرى مطلعها :

ما بال عينك لا تنام كأنما كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعت على المهدي أصبح ثاوياً يا خير من وطيء الحصى لا تبعد

وقال قصائد أخرى في رثائه[2] .

وكان حسان من المتعصبين ليثرب على مكة ، ونجد في شعره عصبية لليمن ، وتفاخراً شديداً بالأزد ، والأزد من اليمن ، وبنو غسان من الأزد . وهي عصبية قديمة ، تعود الى ما قبل الاسلام . يظهر ان سببها اختلاف ما بين المدينتين في الطباع وفي الطبيعة والأحوال الاقتصادية والزعامة ، وقد فرح ولا شك حين كلفه الرسول بالرد على شعراء قريش ، وهو حاقد عليهم منذ أيام الجاهلية . وقد بقيت هذه العصبية كامنة في نفسه حتى في الاسلام ، وكاد أن يؤجج نارها مراراً بين الأنصار والمهاجرين ، وقد نهاه عمر من التعرض لأمور الجاهلية وأيامها ومن إنشاد ما كان قد قيل من شعر في الجاهلية بين أهل يثرب وقريش ، حذر الفتنة ، وعودة العصبية الجاهلية الأولى . وكان (عمر) قد نهى أن ينشد الناس شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحي والميت وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الاسلام[3] . ويظهر انه لم يكن مثالياً بدليل هذه النزوات التي صدرت منه وهو في الإسلام وكادت تثير فتن الجاهلية ه

---

١ ابن هشام ، سيرة (٣٧٨/٢) ، (حاشية على الروض) .
٢ سيرة ابن هشام (٣٧٩/٢ وما بعدها) .
٣ الاستيعاب (٣٣٧/١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

وكان حسان يهاجي (أميــة بن خلف) الخزاعي . وكان خلف قد هجا حسان بقوله :

أليس أبوك فينـا كان قيناً لدى القينات،فسلا في الحفاظ؟
يمـانياً يظل يشد كيراً وينفخ دائباً لهب الشواظ[1]

وكان قد قال :

ألا من مبلـغ حسان عني مغلغلة تـدب الى عكاظ ؟

فأجابه حسان :

أتاني عن أمية زور قـول وما هو في المغيب بذي حفاظ
سأنشر إن بقيت لكم كلاماً ينشر في المجنـة مع عكاظ
قوافي كالسلاح إذا استمرت من الصم المعجرفـة الغلاظ
تزورك إن شتوت بكل أرض وترضخ في محلك بالمقـاظ
بنيت عليك أبياتاً صلاباً كأمر الوسق قعض بالشظاظ
مجللـة تعممـه شناراً مضرمـة تأجج كالشواظ
كهمزة ضيغم يحمي عريناً شديد مغارز الأضلاع خاظي
تغض الطرف ان ألقاك دوني وترمي حـين أدبر باللحاظ[2]

وقد هاجى (حسان بن ثابت) النجاشي ، واسمه (قيس بن عمـرو) من رهط (الحارث بن كعب) ، وكان قد هجا الأنصار فرد عليه (حسان بن ثابت) ، ثم أمر بأن يكتب رده غلمان الكتاب ، ليوزع على الناس . وقد كان النجاشي قد هاجى (عبد الرحمن بن حسان) ، واشتد هجاؤه عليه فأعانه والده عليه[3] . وكان مما قاله حسان في (الحارث بن كعب) رهط النجاشي قوله :

لا بأس بالقوم من طول ومن عرض جسم البغال وأحلام العصافير[4]

---

١ اللسان (٧/٤٤٦) ، (شوظ) ، تاج العروس (٥/٢٥٣) ، (تشاوظ) .
٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) .
٣ الخزانة (٢/١٠٥ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ ديوان حسان (٢١٤) ، رسائل الجاحظ (٢/٣٤٣) ، (كتاب البغال) .

ويلاحظ ان أهل الأخبار نسبوا الى ابنه (عبد الرحمن) ، والى حفيده (سعيد ابن عبد الرحمن) مثل هذا الذي نسبوه الى (حسان) . إذ ذكروا ان (عبد الرحمن) أوقد ناراً حتى اجتمع اليه الحي ، ثم قال : قد قلت بيتاً ، فخفت أن يسقط بحدث يحدث عليّ فجمعتكم لتسمعوه ، وان ابنه (سعيد) فعل فعله[1] . ويلاحظ ان الأبيات التي ذكروها هي على وزن واحد وعلى قافية واحدة . وقد تكون من وضع الرواة .

وأم (عبد الرحمن بن حسان) ، أخت مارية القبطية أم ابراهيم ابن الرسول. وكانت تسمى (سيرين) (شيرين) (شرين) . وكان عبد الرحمن شاعراً كذلك . ذكر ان والده أشار اليه بقوله :

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت[2]

ونسب الى حسان أو ابنه عبد الرحمن قوله : قلت شعراً لم أقل مثله ، وهو:

وان امرءاً أمسى وأصبح سالماً من الناس ، إلا ما جنى ، لسعيد[3]

وكانت لحسان بنت شاعرة ، أرق حسان ذات ليلة فعنّ له الشعر فقال :

متاريك أذناب الأمور إذا اعترت أخذنا الفروع واجتثثنا أصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئاً ، فقالت له بنته : كأنك قد أجبلت يا أبه ؟! قال : أجل ، قالت ، فهل لك أن أجيز عنك ؟ قال : وهل عندك ذلك ! قالت : نعم ، قال : فافعلي ، قالت :

مقاويل بالمعروف خُرسٌ عن الخنا كرام يعاطون العشيرةَ سولها

فحمي حسان فقال :

وقافية مثل السنان رزئتها تناولت من جوّ السماء نزولها

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٦/١) .
٢ الاصابة (٦٧/٣ وما بعدها) ، رقم ٦٢٠٥ .
٣ الشعر والشعراء (٢٢٦/١) .

فقالت :

يراها الذي لا ينطق الشعر عنده ويعجز عن أمثالها أن يقولها

فقال حسان : لا أقول بيت شعر وأنت حية ، قالت : أوَ أومنك ؟ قال: وتفعلين ؟ قالت نعم ، لا أقول بيت شعر ما دمتَ حياً[1] .

ولحسان ديوان شعر مطبوع . طبع جملة مرّات . وقد شرح أيضاً ، وطبعت الشروح كذلك[2] .

وكعب بن مالك من شعراء يثرب كذلك . ويكنى أبا عبدالله وقيل أبا عبد الرحمن ، وهو ممن شهد العقبة ، وكان أحد شعراء رسول الله الذين كانوا يردّون الأذى عنه ، وكان مجوداً مطبوعاً قد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر . وذكر انه كان أحد الثلاثة الأنصار الذين قال الله فيهم : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض »[3] ، وهم كعب بن مالك الشاعر هذا ، وهلال ابن أمية ، ومرارة بن ربيعة تخلفوا عن غزوة (تبوك) فتاب الله عليهم وعذرهم ، وكانوا كلهم من الأنصار[4] .

وكعب بن مالك من أسرة أظهرت جملة شعراء ، فمالك والد كعب كان شاعراً ، وعمه قيس كان شاعراً كذلك . وكان أولاد كعب وأحفاده شعراء « مجيدون مقدمون في الشعر »[5] .

وقد ذكر (ابن سيرين) ان كعباً قال بيتين كانا سبب إسلام دوس وهما :

قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أغمدنا السيوفا
تخبرنا ولو نطقت لقالت قواطعهن دوساً أو ثقيفا

---

١ الشعر والشعراء (٢٢٦/١) .
٢ للوقوف على مواضع طبع الديوان والشروح راجع بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٥٣/١ وما بعدها) .
٣ التوبة ، الاية ١١٨ .
٤ تفسير الطبري (٤١/١١) ، الاصابة (٢٨٥/٣ وما بعدها) ، (رقم ٧٤٣٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٣٧/١) ، الخزانة (٢٠٠/١) ، (بولاق) ، البيان والتبيين (٢٦/٣) .
٥ الاغاني (٣٧/١٥) .

فلما بلغ ذلك دوساً ، قالوا : خلوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف[1] .

وقال (ابن سيرين) أيضاً : « كان شعراء المسلمين : حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك . فكان كعب يخوفهم الحرب ، وعبدالله يعيرهم بالكفر ، وكان حسان يقبل على الأنساب » ، وأما شعراء المشركين : فعمرو بن العاص ، وعبدالله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث ، وضرار بن الخطاب[2] .

ولكعب شعر في يوم أحد ، فيه :

فجِئنا الى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصية ... ثلاث مئين إن كثرنا أو أربع
فراحوا سِراعاً مُرجعين كأنهم ... جهامٌ هَرَاقت ماءه الريح مقلع
ورُحنا وأخرانا بطاء كأننا ... أسود على لحمٍ ببيشة ظلع

وله شعر في أيام الخندق ، وفي يوم بدر وفي المعارك الأخرى[3] .

ومن شعر كعب بن مالك قوله :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... فليغلبن مغالب الغالب

وفي رواية :

جاءت سخينة كي تغالب ربها ... فليغلبن مغالب الغلاب[4]

وكانت العرب تعير قريشاً بها ، لأنهم كانوا يكثرون من أكلها ، ولذا كانت تعير به . والسخينة حساء يؤكل في الجدب . مازح (معاوية) الأحنف بن قيس فقال : ما الشيء الملفف في البجاد ؟ فقال : هو السخينة يا أمير المؤمنين . والملفف في البجاد وطب اللبن يلف به ليحمى ويدرك ، وكانت تميم تعير به .

---

١ الاصابة (٣/٢٨٦) ، (رقم ٧٤٣٤) .
٢ الاستيعاب (٣/٢٧٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٥٣ وما بعدها) ، الخزانة (١/٢٠٠ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ الاستيعاب (٣/٢٧٤) .

فلما مازحه معاوية بما يعاب به قومه ، مازحه الأحنف بمثله[1] . وروي أن رسول الله قال لكعب : أترى الله نسي قولك :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبنّ مغـالب الغلاب[2]

وجاء في رواية يضعفها العلماء ، ان (حسان بن ثابت) وكعب بن مالك ، والنعمان بن بشير ، دخلوا على (علي) فناظروه في شأن (عثمان) وأنشده كعب شعراً في رثاء عـثمان ، ثم خرجوا من عنده ، فتوجهوا الى معاويـة فأكرمهم . وروي أنـه كان ممن رثى عثمان ، ولم يرد في الأخبـار أنه ساهم في حرب علي ومعاوية[3] . وذكر أنه فقد بصره في آخر عمره ، وتوفي في زمن معاوية سنـة خمسين ، وقيل ثلاث وخمسين[4] .

و (عبدالله بن رواحة) من الخزرج ، وهو أبو محمد ، ويقال أبو رواحة ، ويقال أبو عمرو ، وكان من شعراء يثرب المعروفين : وهو أحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدراً ، وكان ممن يكتب للنبي ، وكان ممن يكتب في الجاهلية ، وهو الذي جاء ببشارة وقعة بدر الى المدينة ، وبعثه رسول الله في ثلاثين راكباً الى (أسير ابن رقرام) (يسير بن رزام) اليهودي بخيبر فقتله . وقد استشهد بمؤتة سنة سبع[5] . وليس له عقب . وهو خال (النعمان بن بشير) الأنصاري . وكان عظيم القدر في قومه ، سيداً في الجاهلية ، ليس في طبقته أسود منه . وكان في حروبهم في الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم[6] .

وهو يختلف عن حسان في كونه محارباً ، اشترك مع الرسول في معاركـه ، ومات قتيلاً محارباً[7] .

---

١ تاج العروس (٢٣٢/٩) ، (سخن) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٥٤) .
٣ الاصابة (٢٨٦/٣) ، (رقم ٧٤٣٤) ، الاغاني (٢٨/١٥ وما بعدها) .
٤ الاستيعاب (٢٧٢/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الاصابة (٢٩٨/٢ وما بعدهـا) ، (رقـم ٤٦٧٦) ، شرح شواهد ، للسيوطي (٢٨٨/١) ، اعلام النبلاء (١٦٦/١) ، ابن حبيـب ، كنى الشعراء (٢٨٩) ، « أسير بن زارم » ، المحبر (١١٩) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٥٤) ، الخزانة (٣٠٤/٢ وما بعدها) ، (هارون) .
٧ المحبر (١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٤٢١) .

وأكثر ما روي من شعره ، هو من الشعر الذي قاله في الإسلام . ولا سيما في معركة (مؤتة) . وروي أن الرسول قال له يوماً : قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر اليك . فانبعث مكانه يقول :

إني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم ان ما خانني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب لقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

وفي رواية ابن هشام :

إني تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالفت فيك الذي نظروا
أنت النبي ومن يحرم نوافله والوجه منه ، فقد أزرى به القدر[1]

وروي ان الرسول دعاه ، فقال له : كيف تقول الشعر اذا قلت ؟ قال أنظر في ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين . فأنشده :

فخبّروني أثمان العبـــاء متى كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر

فظهرت الكراهة في وجه الرسول ، ان جعل قومه أثمان العباء ، فقال :

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم فينا النبي وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأنّا ليس يغلبنا حي من الناس إن عزوا وإن كثروا
يا هاشم الخير إنّ اللهّ فضلكم على البريّة فضلاً ما له غير
إني تفرست فيك الخير أعرفه فراسة خالفتهم في الذي نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم في جل أمرك ما آووا ولا نصروا
فثبّت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فتبسم الرسول وسرّ به[2] .

وروى « هشام بن عروة عن أبيه . قال : ما سمعت بأحد أجرأ ولا أسرع شعراً من عبدالله بن رواحة ، يوم يقول له رسول الله صلى الله عليـــه وسلم :

١ الاستيعاب (٢/٢٨٧) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٥٥) .

قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر اليك ، ثم أبدّه بصره ، فانبعث عبدالله بن رواحة يقول :

إني تفرست فيك الخير أعرفه   والله يعلم ما إن خانني بصري[1]

وروي أن الرسول قال « لعبدالله بن رواحة : ما الشعر ؟ قال : شيء يختلج في صدر الرجل ، فيخرجه على لسانه شعراً »[2] . وقد ذكر (ابن سلام) البيت المذكور وما بعده في قصيدة مطلعها :

فخـبروني أثمان العبـاء متى   كنتم بطارق أو دانت لكم مضر

ذكره في ضمن القصيدة ، ولم يجعله مطلعها[3] .

ولما دخل رسول الله مكة في عمرة القضاء ، وابن رواحة بين يديه وهو يقول:

خلّوا بني الكفّار عن سبيله   اليوم نضربكم عـلى تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيلـه   ويذهل الخليل عن خليله

قال عمر : يا ابن رواحة في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول الشعر ؟ فقال النبي : خل عنه يا عمر ، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشدّ عليهم من وقع النبل[4] . وقد كانت عمرة القضاء سنة ست من الهجرة[5] .

وقد روي هذا الرجز بزيادة واختلاف[6] . وقد ذكر (ابن هشام) ، بعد إيراده هذه الأبيات هذه الملاحظة : « نحن قتلناكم على تأويله الى آخر الأبيات : لعمار بن ياسر في غير هـذا اليوم ، والدليل على ذلك أن ابن رواحة إنما أراد المشركين،والمشركون لم يقروا بالتنزيل،وإنما يقتل على التأويل من أقر بالتنزيل »[7].

---

١ شرح شواهد ، للسيوطي (٢٩٣/١) .
٢ المصدر نفسه (٢٨٩/١) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٥٥) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢٩٠/١) .
٥ ابن هشام ، سيرة (٢٥٤/٢) ، (حاشية على الروض) .
٦ ابن هشام ، سيرة (٢٥٥/٢) ، (حاشيـة على الروض) ، ابـن سيد النـاس (١٤٩/٢) ، اعلام النبلاء (١٦٩/١) ، ابن سعد ، طبقات (٣ القسم الثاني ٨٠)، الروض الانف (٢٥٥/٢) .
٧ ابن هشام ، سيرة (٢٥٥/٢) .

وكان (النعمان بن العجلان) الزرقي لسان الأنصار وشاعرهم ، وكان رجلا أحمر قصيراً تزدريه العين ، وكان سيداً ، وله شعر يفخر بقومه على قريش من جملته :

فقل لقريش نحن أصحاب مكة ويوم حنين والفوارس في بدر

* * *

نصرنا وآوينا النبي ولم نخف صروف الليالي والعظيم من الأمر
وقلنا لقوم هاجروا مرحباً بكم وأهلاً وسهلاً قد أمنتم من الفقرِ
نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمة أيسار الجزور على الشطرِ

ثم تعرض لموضوع الخلافة ، وقصة انتخاب (سعد) لها ، وتعيين قريش أبا بكر خليفة ، ثم تعرض لحق علي فيها [١] .

وكان (علي بن أبي طالب) استعمل (النعمان) هذا على البحرين ، فجعل يعطي كل من جاء من (بني زريق) ، فقال فيه (أبو الأسود) الدؤلي :

أرى فتنة قد ألهت الناس عنكم فندلا زريق المال ندل الثعالب
فإن ابن عجلان الذي قد علمتم يبدد مال الله فعل المناهب [٢]

---

١ الاستيعاب (٥٢١/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاصابة (٥٣٢/٣) ، (رقم ٨٧٤٨) .

الفصل الرابع والستون بعد المئة

شعراء ثقيف

وثقيف من القبائل التي لم تنجب عدداً يذكر من الشعراء . وشاعرهم الوحيد الذي نال شهرة ، وظهر أمره هو (أمية بن أبي الصلت) الثقفي . وقد علل (ابن سلام) قلة الشعر بالطائف بقوله : « وبالطائف شعراء ، وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُمان وأهل الطائف »[1] .

وقد عرفت ثقيف بفصاحة لسانها ، وبمقدرتها في الكتابة ، ولهذا ورد ذكرها في حادث تدوين القرآن .

ومن شعراء ثقيف (أبو الصلت بن أبي ربيعة) ، وهو والد (أمية بن أبي الصلت) ، وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل[2] ، وأبو محجن الثقفي. وكانت زوجة (أبي الصلت) : (رُقيّة بنت عبد شمس بن عبد مناف)، فهي من قريش . وهي والدة (أمية)[3] .

ونسبت الى (أبي الصلت) قصيدة زعم أنه مدح فيها أهل فارس حين

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦٥ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٦٦) .
٣ الشعر والشعراء (١/ ٣٦٩) .

قتلوا الحبشة ، ومدح (سيف بن ذي يزن) ، وهنأه فيها لتوليه الملك[1] ، وقد أشار فيها الى قصة (سيف) ، وكيف ذهب الى (هرقل) يستنجده على الحبشة، فلم يجد عنده ما طلب ، ثم كيف ذهب الى (كسرى) ، وبقي عند بابه تسع سنوات حتى أمده بالجنود وعلى رأسهم باذان ووهرز ، الى آخر القصة التي ترد في كتب الأخبار والتواريخ . وقد نسبها بعض الرواة الى ابنه (أمية) .

وأمية بن أبي الصلت من الشعراء الذين رغبوا عن عبادة الأوثان وآمنوا بالله وبالبعث ، ووقف على كتب أهل الكتاب فتأثر بها ، وكان يجالسهم ويختلط بهم. وكان أبوه شاعراً ، روى رواة الشعر شيئاً من شعره ، وكان ابنه (القاسم بن أمية بن أبي الصلت) شاعراً كذلك وله صحبة . وذكر ان العرب اتفقت على ان (أمية) كان أشعر ثقيف[2] .

ذكر انه كان في الجاهلية نظر الكتب وقرأها وليس المسوح وتعبد أولاً بذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية وحرّم الخمر وتجنب الأوثان . ولما ظهر الاسلام حسد النبي ، فلم يسلم ، لأنه كان طمع في النبوة ، أو انه أراد أن يسلم ، فلما سمع بقتلى بدر ، توقف ورثى قتلى المشركين ، وذهب الى الطائف فمات بها . وقد اختلف في سنة وفاته ، فقيل انه توفي سنة تسع من الهجرة ، وقيل قبل ذلك وورد في رواية انه مات في الجاهلية ولم يدركه الاسلام . وقد صدقه النبي في بعض شعره ، وقال : قد كاد أمية أن يسلم[3] . وقد كان يكنى بـ (أبي عثمان) وبـ (أبي القاسم)[4] .

وورد في بعض الروايات ان في حقه نزلت الآية : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين »[5] . ويرجع سند القائلين بذلك الى (عبدالله بن عمرو) والى (ابن الكلبي)[6] .

---

١ ابن سلام ، طبقات (٦٦) ، ابن قتيبة ، الشعر (١ / ٣٧١) .
٢ الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) ، الاغاني (٣/١٧٩ وما بعدها) ، (١٦/٦٩)، خزانة (١/١١٨) ، بروكلمن (١/١١٣ وما بعدها) .
٣ الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) ، الخزانة (١/١١٩ وما بعدها) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٨٤ ، ٣٨٤)
٤ كنى الشعراء ومن غلبت كنيته عليه (٢٨٩) ، (نوادر المخطوطات) .
٥ سورة الاعراف ، الآية ١٧٥ .
٦ تفسير الطبري (٩/٨٢) ، تفسير الالوسي (٩/ ٩٨)

وروي أن النبي سأل (الرشيد بن سويد) أن ينشده من شعر أمية ، فأنشده إياه ، فقال : كاد ليسلم . وأن النبي أنشد قول أميّة :

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال : صدق ، وهذه صفة حملة العرش . وذكر أن معظم شعر أمية كان في الآخرة ، كما كان معظم شعر عنترة بذكر الحرب[1] .

وقد دوّن (ابن هشام) قصيدة (أمية) التي نظمها يرثي من أصيب من قريش يوم بدر ، ومطلعها :

ماذا ببـدر بالعقنـ قل من مرازبة جحاجح
ألا بكيت عـلى الكرا م بني الكرام أولى المدائح
كبكا الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الجوانح[2]

وذكر أن النبي نهى عن روايتها لما ورد فيها من رثاء قتلى بدر[3] ، ولكني أشك في صحة صدور هذا النهي من الرسول ، إذ لو كان الرسول قد نهى عن إنشادها ، فكيف دونها (ابن هشام) وغيره ، ولا تزال مدوّنة ، وقد قال (ابن هشام) أنه دوّن القصيدة إلا بيتين نال فيها من أصحاب الرسول[4] .

ودوّن (ابن هشام) قصيدة أخرى لأمية قالها يرثي ويبكي (زمعة بن الأسود) وقتلى (بني أسد)[5] من أبياتها :

عينُ بكّي بالمُسبلات أباالعا صي ولا تذكري على زمعه
لبني مُسلمٍ لهم خرّت الجو زاء لا خانة ولا خدعه
وهم الهامة الوسيطة من كعـبٍ ومن هُمْ كذروة القمعه

---

١ الخزانة (١/١٢٠ وما بعدها) .
٢ ابن هشام ، سيرة (٢/١١٤) ، (حاشية على الروض الانف) ، البيان والتبيين (١/٢٩١) .
٣ الحيوان ، للجاحظ (١/٢٩١) ، (عبد السلام محمد هارون) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١١٣) .
٤ ابن هشام ، سيرة (٢/١١٤) .
٥ ابن هشام ، سيرة (٢/١١٤) ، (حاشية على الروض الانف) .

أنبتوا من معاشر شعر الرأ س وقـد بلّغوهم المنعه
وهم المطعمون إن قحط القط ـر وأصحت فلا ترى قزعه
أمسى بنو عمهم اذا جلس النا دي عليهم أكبادهم وجعه[1]

ومن شعره الذي قاله في التحريض على رسول الله قوله :

لله درُّ بني عـليّ أيّمٌ منهم وناكـح
إن لم يغيروا غـارةً شعواء تحجر كلّ نابح
بزهاء ألفٍ أو بألـ ف بين ذي بدن ورامح[2]

وروي انه كان يحكي في شعره قصص الأنبياء ، ويأتي بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، يأخذها من الكتب المتقدمة ، وبأحاديث من أحاديث أهل الكتاب[3] . وكان يسمي السماء في شعره : (صاقورة) و (حاقورة) ، و (بِرْقِع) . ويقول في الله عز وجل :

هو السليط فوق الأرض مقتدر

ويقول : وأبدت الثغرورا ، يريد الثغر[4] .

وفي شعر (أميّة) إشارة الى قصة أصحاب الفيل ، إذ قال :

إن آيات ربّنا بيّنـات لا يماري بهنّ إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتّى ظل يمشي كأنه معقور[5]
كل دين يومَ القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور[6]

ونسبت الى (أمية) قصيدة طويلة عدتّها تسعة وسبعون بيتاً ، ذكر فيها شيئاً من قصص الأنبياء : داوود ، وسليمان ، ونوح ، وموسى ، وذكر قصة ابراهيم

---

١ نسب قريش (٢٠٦) .
٢ نسب قريش (١٠ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١/٣٦٩) ، (دار الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (١/٣٧١) .
٥ الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن ناقيا البغدادي ، (٣٨٤) .
٦ رسالة الغفران (٥٤٢) .

واسحاق ، وزعم أنه هو الذبيح ، وقد وردت في ديوانه الذي جمعه (محمد بن حبيب) ، وفي أبياتها بيت هو :

ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال[1]

وقد وجد هذا البيت في قصيدة رواها (الأصمعي) لأبي قيس اليهودي، وقيل هي لابن صرمة الأنصاري مطلعها :

سبحوا للمليك كل صباح   طلعت شمسه وكل هلال

ووجد أيضاً في أبيات لحنيف بن عمير اليشكري ، قالها لما قتل محكم بن الطفيل يوم اليمامة في أبيات هي :

يا سعاد الفؤاد بنت أثال   طال ليلي بفتنة الرحال
أنها يا سعاد من حدث الدهر   عليكم كفتنة الدجال
إنّ دين الرسول ديني وفي القو   م رجال على الهدى أمثالي
أهلك القوم محكم بن طفيل   ورجال ليسوا لنا برجال
ربما يجزع النفوس من الأمـر   له فرجة كحل العقال[2]

وقد تحدث (أمية) في قصيدته اللامية عن الخلق وعن كيفية تكوّن الأرض وظهور الأنهار والعيون ، ثم عن الموت والبعث والنشر ، وهي قصيدة أرى انها منحولة ، وهي لا يمكن أن تكون من شعر تلك الأيام ، وقد نحل على لسان (أمية) وأظن ان ذلك في أيام الحجاج ، الذي كان يتعصب له لكونه شاعر ثقيف ، وهو منها[3] .

ومما نسب الى أمية هذا الشعر :

والأرض معقلنا وكانت أمّنا   فيها مقامتنا وفيها نولد

---

١ ربما تكره النفوس من الشر له فرجة كحل العقال .

٢ الخزانة (٥٤٣/٢ وما بعدها) ، (بولاق) ،
ربما تكره النفوس من الامـ   ـر له فرجة كحل العقال
أمالي المرتضى (٤٨٦/١) .

٣ راجع ديوان أمية طبعة « شولتس »، « Shulthes » ، وطبعة بشير يموت .

وبها تلاميذ عـــلى قـذُفاتها حبسوا قياماً فالفرائص ترعد

وهذا الشعر :

صاغ السماء فلم يخفض مواضعها لم ينتقص علمه جهلٌ ولا هرم
لاكشّفت مرةٌ عنّا ولا بليت فيها تلاميذ في أقفائهم دغم

وهذا البيت ، الذي هو من الشعر الأول :

فمضى وأصعد واستبدّ إقامة بأولى قوى فبتــل ومتلمد[1]

وروى أهل الأخبار قصصاً عنه ، هو من نوع القصص الذي يروى وقوعه للأنبياء ، مثل تكليم الجن له ، ووقوع طير على صدره ، وشقه له ، لتنظيف قلبه ، في قصة أخذت من خبر غسل قلب الرسول ولا شك . ثم حكاية شعوره بدنو أجله ، ووفاته[2] . وقد حاول وضاع هذا القصص تبجيل (أمية) واعطائه قدسية خاصة وإظهاره بمظهر الصالحين حتّى كاد الوحي ينزل عليــه لولا ظهور الرسول . وقد حاول بعض أهل الأخبار تخفيف أثر ما روي عن معارضة (أمية) للإسلام ، ومنهم من أماته قبل الإسلام ، وبذلك خلصه من تهمـــة اشتراكه مع المشركين في محاربة الإسلام . وهي روايات يظهر أنها ظهرت في أيام الحجاج ، وبتأثير منه .

وأكثر ما نسب اليه من شعره محمول عليه ، ونجد في كتاب (البدء والتأريخ) لمطهر بن طاهر المقدسي شعراً فيه عبارات وألفاظ قرآنية،لا شك في أنها مصنوعة، وقد حملت عليه . وقد ذهب (كليمان هوار) أن شعره كان من مصادر القرآن، ومعنى هذا أنه شعر صحيح ، قاله (أميّة) قبل الإسلام ، فتعلمه الرسول منه، ونزل به الوحي . وقد عارضه (بروكلمن) وآخرون من طائفة المستشرقين ، وهم يرون أن هذا الشعر قد صنع ونسب اليه في عهد مبكر ، ربما كان في القرن

---

١ رسالة التلميذ ، لعبد القادر بن عمر البغدادي (٢٢٢ وما بعدها) ، من « نوادر المخطوطات » ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، (المجموعة الثانية ، القاهرة ١٩٥١م)

٢ الاصابة (١٣٥/١) .

الأول للهجرة . وقد أدخل فيه قصص أخذ من القرآن[1] .

وتعدّ قصيدة (أمية) التي مطلعها :

عرفتُ الدار قد أقوت سنينا   لزينب إذ تحلّ بها قطينا

في المجمهرات .

ونسب لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ، والد أمية قوله :

لن يطلب الوتر أمثالُ ابن ذي يزن   لجج في البحرِ للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامته   فلم يجد عنده القول الذي قالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد تاسعة   من السنين ، لقد أبعدتَ إيغالا
حتى أتى ببني الأحرار يحملهم   انك عمري لقد أسرعت قَلقالا
من مثل كسرى وباذان الجنود له   ومثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
لله درهم من عصبةٍ خرجوا   ما ان ترى لهم في الناس أمثالا
غُلبا جحاجحة بيضاً مراجحةً   أسداً تربب في الغيضات أشبالا
يرمون عن عَتَلٍ كأنها غبط   بزمخر يُعْجل المرمى إعجالا
أرسلتَ أسداً على سود الكلاب فقد   أضحى شريدهم في الأرض فلاّلا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً   في رأس غمدان داراً منك محلالا
ثم أطل المسكَ إذ شالت نعامتهم   واسبلِ اليومَ من بُرديك إسبالا
تلك المكارم قعبان من لبنٍ   شيبا بماءٍ فعادا بعد أبولا[2]

وهي قصيدة زعم انه قالها في (سيف بن ذي يزن) ، وزعم انها لابنه (أمية بن أبي الصلت) . وقد رواها (الطبري) في تأريخه ، على هذه الصورة:

---

١ Cl Huart, in JA., Ser., X, I, IV, (1904), p. 125, Tor Andrae, Der ursprung d. Islam und d. Christentum, Stockholm, (1926), S. 48.

بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١١٣) .

٢ الشعر والشعراء (١/٣٧١ وما بعدها) ، التيجان (٣٠٥) ، الاغاني (١٦/٧٣) ، الروض الانف (١/٥٢) ، ابن سلام ، طبقات (٢١٨) ، البحتري ، حماسة (١٦) .

ليطلب الوتر أمثال ابن ذي يزن ... رَيَّمَ في البحر للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامتهم ... فلم يجد عنده بعض الذي قالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد سابعة ... من السنين ، لقد أبعدت إيغالا
حتى أتى ببني الأحرار يحملهم ... إنك لعمري لقد أطولت قلقالا
من مثل كسرى شهنشاه الملوك له ... أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
لله درهم من عصبة خرجوا ... ما إن ترى لهم في الناس أمثالا
غُرٌّ جحاجحةٌ ، بيضٌ مرازبة ... أسد تربب في الغيضات أشبالا
يرمون عن شدُفٍ كأنها غبط ... في زمخرٍ يعجل المرمي إعجالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد ... أضحى شريدهم في الأرض فلالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج متكئاً ... في رأس غمدان داراً منك محلالا
وأطْلِ بالمسك إذ شالت نعامتهم ... واسبل اليوم في برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا [1]

وقد نسبها لوالد أمية .

وقد ذكر (ابن هشام) ، ان (ابن اسحاق) نسب هذه القصيدة لأبي الصلت ابن أبي ربيعة ، ويروي انها لامية . وقد رواها على هذا النحو :

ليطلب الوتر أمثال ابن ذي يزن ... رَيَّمَ في البحر للأعداء أحوالا
يممَ قيصرَ لما حان رحلته ... فلم يجد عنده بعض الذي سالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرة ... من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببني الأحرار يحملهم ... إنك عمري لقد أسرعت قلقالا
لله درهم من عصبة خرجوا ... ما ان أرى لهم في الناس أمثالا
بيضاً مرازبة غلباً أساورة ... أسداً تربب في الغيضات أشبالا
يرمون عن شدف كأنها غبط ... بزمجر يعجل المرمى إعجالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد ... أضحى شريدهم في الأرض فلالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً ... في رأس غمدان داراً منك محلالا
وأشرب هنيئاً فقد شالت نعامتهم ... واسبل اليوم في برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

---

١ الطبري (٢/١٤٧ وما بعدها) .

وقد ذكر (ابن هشام) ان « هذا ما صح له مما روى ابن اسحاق منها ، إلا آخرها بيتاً : تلك المكارم لا قعبان من لبن . فإنه للنابغة الجعدي »[1] .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً ، ولا له إلمام بأمور التأريخ ، فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمنّ ربّ العبا   د أنت المليك وأنت الحكم

هي قصيدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعر لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه . خذ هذا البيت منها مثلاً :

محمداً أرسله بالهدى   فعاش غنياً ولم يهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطاء من الله أعطيته   وخص به الله أهل الحرم
وقد علموا أنه خيّرهم   وفي بيتهم ذي الندى والكرم
يعيبون ما قال لما دعا   وقد فرج الله إحدى البُهَم
به وهو يدعو بصدق الحديـ   ـث الى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عباد الإلـ   ـه تنجون من شرّ يوم ألم
تنجون من ظلمات العذاب   ومن حرّ نار على من ظلم
دعاني النبي به خاتم   فمن لم يجبه أسرّ الندم
نبيٌّ هدىً صادق طيب   رحيم رؤوف بوصل الرحم
به ختم الله من قبله   ومن بعده من نبيّ ختم
يموت كما مات من قد قضى   يردّ الى الله باري النسم
مع الأنبياء في جنان الخلود   هم أهلها غير حل القسم
وقدس فينا بحب الصلاة   جميعاً وعلّم خط القلم
كتاباً من الله نقرأ به   فمن يعتريه فقدماً أثم[2]

---

١ ابن هشام (٥٢/١ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (٣٧١/١) .

٢ ديوان أمية ، قصيدة رقم ٢٣ في طبعة « فردرش شولثيس » ، (ص ٢٣ وما بعدها) ، و (ص ٥٥ وما بعدها) من (طبعة بشير يموت) ، الخزانة (١٢٢/١) ، (بولاق) .

اقرأ هذه المنظومة ، ثم أحكم على صاحبها ، هل تستطيع أن تقول انه كان شاعراً مغاضباً للرسول ، وانه مات كافراً ، وان صاحبها رثى كفّار قريش في معركة بدر ، وانه قال ما قال في الاسلام وفي الرسول ؟ اللهم ، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً ، فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الايمان ، هو واعظ ومبشر يخاطب قومه فيدعوهم الى الاسلام والى طاعة الله والرسول . انه مؤمن قلباً ولساناً، مع انهم يذكرون ان الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، ولم يقصد الرسول ايمان أمية بالله وبرسوله ، وانما ايمان لسانه وشعره بالله ، وكفره برسوله ، إذ لم يؤمن به ، فمات على كفره وعناده وبغضه للرسول. ثم ان صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، ويريد تثبيت الناس على الايمان به بعد أن انتقل الى الرفيق الأعلى ، فظهر من تزلزل ايمانه بسبب وفاته، مع ان أمية ، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، أي قبل وفاة الرسول، فهل يعقل أن يكون اذن هو صاحبها وناظمها [1] ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها اذن دليلاً على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه في شعر أمية . نحمد الله على ان صنّاعها لم يتقنوا صنعتها ، فقضحوا أنفسهم بها ، ودلّوا على مقاتل النظم .

وروي ان بعض الرواة نسبوا الى أمية بيتاً في قصيدة هو :

الحمد لله لا شريك لهُ   من لم يقلها فنفسه ظلما

وفي القصيدة ضروب من التوحيد والإقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار غير أن العارفين بالشعر ينكرون أن تكون لأمية ، وإنما نسبوها الى النابغة الجعدي ، وذكروا أن هذا البيت هو من شعر النابغة الذي كان يتأله في الجاهلية وأنكر الخمر وهجر الأزلام واجتنب الأوثان ، وذكر دين ابراهيم [2] .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأميّة ، وهي في وصف الجنّة والنار استهلت بهذا البيت :

---

١ « وكانت وفاة أمية بن أبي الصلت قبل ذلك بيقين سنة تسع من الهجرة » ، الاصابة (٤٩٣/١) ، (رقم ٢٥٩٠) .

٢ ابن سلام (١٠٦) ، الاصابة (٥٠٩/٣) ، (رقم ٨٦٤١) .

جهنم لا تبقي بغيّاً وعدنٌ لا يطالعها رجيمُ

ثم استمر في قراءتهـا ، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم أنعم النظر في عبارات هذه الأبيات :

فذا عسل وذا لـبن وخمرٌ وقمح في منابتـه صريمُ
ونخل ساقط الأكتاف عـد خلال اصوله رطب قميمُ
وتفاحٌ ورمّانٌ ومـوزٌ وماء بارد عـذبٌ سليم
وفيهـا لحم ساهرة وبحر ومـا فاهوا به لهُمُ مقيم
وحُورٌ لا يَرين الشمس فيها على صُور الدُّمى فيها سُهوم
نواعمُ في الأرائك قاصرات فهنّ عقـائل وَهُمُ قروم
على سرر تُرى متقـابلات ألا ، ثم النضـارةُ والنعيم
عليهم سندسٌ وجيادُ ريطٍ وديباج يرى فيهـا قتوم
وحُلّوا من أساور من لُجينٍ ومن ذهب ، وعسجد كريم
ولا لغوٌ ولا تأثيمَ فيهـا ولا غولٌ ولا فيهـا مُليم
وكأس لا تصدع شاربيهـا يلذّ بحسن رؤيتهـا النديم
تصفّق في صحاف من لجينٍ ومن ذهب مباركة رذوم[1]

ثم احكم بعـد ذلك على صاحب هذه الأبيات . لقد حاول ناظمها إدخال بعض الكلمات الجاهلية فيها ، لإلباسها ثوباً جاهلياً ، ولإظهارها بمظهر الشعر الجاهـلي الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، بل صيرها في الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الاسلام. وما بـي حاجة الى أن أحيلك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن .

ومن الغريب ان بعض الباحثين اتخـذ هذا النظم وأمثاله حجـة لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلاً ان العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء ، وأن منهم

---

١ تجد اختلافا في كلمات هذه القصيدة وابياتها ، وكذلك في قصائد هـذا الشاعر الاخرى ، فارجع في ذلك الى طبعات ديوانه والى كتب الادب لمعرفة مواضع الاختلاف، كتاب البدء والتأريخ (٢٠٢/١ وما بعدها) ، ثم ديوانه .

من نظر في الكتب وكان مُقراً بالجنة والنار. وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة الى أمية ، مع انها من الشعر المزيف المصنوع !

ثم خذ قصيدته في (عيسى بن مريم) وحمل أمه به[1] ، وسائر قصائده الأخرى، تجد عليها هذه المسحة الاسلامية بارزة ظاهرة ، ومن الممكن إدراك هذا المصنوع المزيف بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره ، وبهذه الطريقة نتمكن من استخلاص الأصيل من شعره من الهجين .

ولأمية شعر في الموت ، حيث يقول :

من لم يمت عبطة يمت هرماً　　للموت كأسٌ، والمرء ذائقها[2]

ويروى له قوله في الله :

واشهد أن اللهَ لا شيء فوقه　　علياً وأمسى ذكره متعالياً[3]

وزعم أن أميّة ، قال عند موته :

إن تغفر اللهم تغفر جمّا　　وأيّ عبد لك لا ألمّا

وقد تمثل به النبي وصار من جملة الأحاديث . قالوا في ذلك : يجوز إنشاد الشعر للنبي ، وإنما المحرم انشاؤه . وقد زعم أن البيت لأبي خراش الهذلي ، وذكر أنه لا يعرف قائله ولا بقيته ، وقد أخذه أبو خراش وضمّه الى بيت آخر ، وكان يقولها ، وهو يسعى بين الصفا والمروة[4] .

ومن شعر أمية قوله :

زعم ابن جدعان بن عمرو أنني يوماً مُدابر
ومسافرٌ سفراً بعيداً ، لا يؤوب له مسافر[5]

---

١ ديوان أمية (٥٨) ، (بشير يموت) .
٢ امالي المرتضى (١/٥٣٣) .
٣ امالي المرتضى (٢/١٦٨) .
٤ الخزانة (٢/٢٩٥) ، (هارون) .
٥ اللسان (٤/٢٧٥) ، (دبر) .

ومن ولد (أمية بن أبي الصلت) : عمرو ، وربيعة ، ووهب ، والقاسم. وكان ربيعة والقاسم شاعرين[1] . وذكر انه نظم شعراً رد به على أبيه في انتسابه، منها :

وإنا معشر من جلم قيس فنسبتنا ونسبتهم سواء[2]

وهو القائل :

وإن يك حيّا من إياد فإننا وقيساً سواء ما بقينا وما بقوا
ونحن خيار الناس طراً بطانة لقيس ، وهم خير لنا إن هم بقوا [3]

ولا نعرف من أمر (القاسم بن أمية بن أبي الصلت) شيئاً يذكر . وقد أورد له (المرزباني) شعراً في مدح (بني دهمان)[4] . وذكر انه رثى (عثمان ابن عفان) في قصيدة منها :

لعمري لبئس الذبح ضحيتم به خلاف رسول الله يوم الأضاحي
فطيبوا نفوساً بالقصاص فإنه سيسعى به الرحمن سعي نجاح[5]

وأورد له (ابن قتيبة) أربعة أبيات مطلعها :

قومٌ إذا نزل الغريب بدارهم تركوه ربّ صواهل وقيان[6]

ورويت له مرثية في عثمان بن عفان منها :

لعمري لبئس الذبح ضحيتم به خلاف رسول الله يوم الأضاحي
فطيبوا نفوساً بالقصاص فإنــه سيسعى به الرحمن سعي نجاح[7]

---

١ رسائل الجاحظ (١/٢٥٨) .
٢ الاصابة (١/٤٩٣) ، (رقم ٢٥٩٠) .
٣ رسائل الجاحظ (١/٢٥٨) ، الاغاني (٣/١٧٩ وما بعدها) ، « ربيعة بن ابي الصلت ، صاحب ربيعتان نهر بقرب الابلة ، ومن ولده : كلدة بن ربيعة ، كان من رجال أهل البصرة » ، الاشتقاق (١/١٨٥) .
٤ الشعر والشعراء (١/٣٧٢) ، (دار الثقافة) ، المرزباني ، معجم (٢١٣) ، الاغاني (٣/١٧٩) ، الحيوان ، للجاحظ (١/٦٤) .
٥ الاصابة (٣/٢١٣) ، (رقم ٧٠٥٢) .
٦ الشعر والشعراء (١/٣٧٢) .
٧ الاصابة (٣/٢١٣) ، (٧٠٥٢) .

وله موعظة في أسلوب يشبه أسلوب أعشى بني ربيعة ، نشرها (كاير) في ديوان الأعشى[1] .

ومن شعراء ثقيف (عوف بن عامر بن حسان بن مالك بن حطائط بن جشم ابن ثقيف) الكاهن ، وكان جاهلياً كاهناً شاعراً[2] ، و (كنانة بن عبد ياليل ابن سالم بن مالك بن حطائط بن جشم بن ثقيف) ، وكان يمدح النعمان بن المنذر[3] ؛ و (كنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عُمير بن عوف بن عقدة بن غيَرة بن عوف بن ثقيف) ، وهو شاعر ذكره (ابن سلام)[4] .

ومسعود بن معتب بن مالك الثقفي من شعراء ثقيف ، وهو جاهلي . وابنه عروة بن مسعود ، الذي دعا قومه الى الاسلام ، فقتلوه . وكان (مسعود) غنياً ، وكان يخشى عليها من أن تباع الى قريش بعد وفاته ، وكانت قريش تشتري الأرض والأموال بالطائف ، فخشي أن يبيع ورثته ملكه لقريش[5] .

و (أبو محجن الثقفي) واسمه مالك ، وقيل عبدالله بن حُبيب بن عمرو بن عمير بن عوف ، وقيل اسمه كنيته ، هو من الشعراء المطبوعين ، وكان كريماً منهمكاً في الشراب لا يكاد يقلع عنه ، أسلم مع ثقيف . جلده (عمر) مرّات ثم نفاه الى جزيرة، وبعث معه رجلاً فهرب منه ولحق بسعد بن أبي وقاص، يوم القادسية فكتب عمر الى (سعد) أن يحبسه فحبسه . فأرسل الى امرأة سعد من يقول لها : اطلقيني ولك عليّ ان سلمني الله أن أرجع حتى أضع رجليّ في القيد، وان قتلت استرحتم مني . فأطلقته ، فوثب على فرس لسعد ، ثم أخذ رمحاً ثم خرج يهاجم الفرس ، فجعل لا يحمل على ناحية من العدوّ إلا هزمهم ، وجعل الناس يقولون هذا ملَك ، لما يرونه يصنع ، فلما هزم الفرس ، رجع فوضع رجله في القيد، وترك الخمر قائلاً : قد كنت أشربها إذ يقام عليّ الحدّ وأطهر منها ، فأما الآن

---

١ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١١٤) .

٢ المرزباني ، معجم (١٢٥) .

٣ المرزباني ، معجم (٢٤٦) .

٤ المرزباني ، معجم (٢٤٦) .

٥ المرزباني ، معجم (٢٨٣) .

فلا والله لا أشربها أبداً[1] .

ومن شعره :

إذا مت فادفني الى جنب كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها
أباكرها عند الشروق وتارة ... يعاجلني عند المساء غبوقها
وللكأس والصهباء حق معظم ... فمن حقها أن لا تضاع حقوقها

وحدّث من رأى قبر (أبي محجن) أنه نبتت عليه ثلاثة أصول كرم وقد طالت وأثمرت وهي معرشة على قبره . ولكنهم عندما تحدثوا عن موضع قبره ، اختلفوا فيه ، فقال بعض منهم إنه في نواحي أذربيجان ، وقال قوم بجرجان[2] . ويظهر أنهم اختلقوا قصة ظهور الكرم على قبره من الشعر المتقدم .

وذكر بعض الرواة ان (أبا محجن) هوى امرأة من الأنصار ، يقال لها (شموس) فحاول النظر اليها ، فلم يقدر ، فآجر نفسه من بنّاء يبني بيتاً بجانب منزلها فأشرف عليها من كوّة فأنشد :

ولقد نظرت الى الشموس ودونها ... حرج من الرحمن غير قليل

فاستعدى زوجها عمر فنفاه ، وبعث معه رجلاً يقال له أبو جهراء ، فلما رأى (أبو جهراء) من أبي محجن سيفاً هرب منه الى عمر ، فكتب (عمر) الى (سعد) يأمره بسجنه فسجنه[3] .

وذكر (بروكلمن) ان (أبا محجن) لم يزل يشرب الخمر حتى نفاه (عمر) الى (باصع) ، وهي مدينة (مصوع) على ساحل الحبشة . وتوفي بها بعد مدة

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٠١ وما بعدها) ، الاغاني (٢١/١٣٧) ، الخزانة (٣/٥٥٠) ابن سلام ، طبقات (٢٢٥) ، المؤتلف (٩٥) ، الاصابة (٤/١٧٣) (رقم ١٠١٧) ، الشعر والشعراء (١/٣٣٦ وما بعدها) ، طبقات ابن سلام (٦٨ وما بعدها) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٠٣) ، (الى أصل كرمة) ، ديوانه (ص ١٤) ، (ليدن ١٨٨٧ م) ، (تحقيق Abel) ، عيون الاخبار ، لابن قتيبة (١/٣٨) ، (القاهرة ١٣٢٤) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٩) ، الاستيعاب (٤/١٨١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ الاصابة (٤/١٧٤) ، (رقم ١٠١٧) .

وجيزة[1] . وهو خبر غريب ، يخالفه كل من تعرض لأمر هذا الشاعر . فقد ذكروا جميعاً انه ترك الخمر منذ يوم (القادسية) ولم يعد اليها ، ولم يذكر أحد انه عاد اليها ، حتّى نفترض انه عاد بعد ذلك الى المدينة وعاد اليها فنفاه ، وقصة نفيه الى جزيرة في البحر ، ترد قبل ذهابه الى العراق ، بعد أن فرّ منه حارسه ، وكان قد أحس انه يريد قتله ، فأمر (عمر) سعداً عندئذ بحبسه فحبس ، ثم خرج فقاتل ، فلما انتصر المسلمون ، رجع الى محبسه ، ففك (سعد) قيوده وأطلقه.

وقد جمع شعر (أبي محجن) في ديوان ، طبع ، كما نجد له قطعاً من أشعاره في مختلف كتب الأدب ومن تعرض لسيرته من رجال الأخبار[2] .

وكان (غيلان بن سلمة) من الأشراف ، ذكر (الجمحي) ، انه كان قسم ماله كله بين ولده وطلق نساءه ، فنهاه (عمر) عن ذلك ، ففعل بما أمر به[3].

---

١ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٧/١) .

٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٧/١ وما بعدها) .

٣ ابن سلام ، طبقات (٦٩) .

الفصل الخامس والستون بعد المئة

الشعراء اليهود

لا نعرف نصاً جاهلياً جاء فيه خبر عن شعر يهودي ، أو عن شاعر يهودي عاش في بلاد العرب . وكل ما ورد الينا عن شعر يهود ، مستقى من الموارد الإسلامية حسب . كذلك لا نعرف مصدراً عبرانياً أو غير عبراني ، تعرض لأمر شعر اليهود في جزيرة العرب . ولهذا فحديثي عن شعر يهود في أيام الجاهلية مستمد من الموارد الإسلامية وحدها .

ومن يلقِ نظرة على أشعار اليهود لا يجد فيها أي أثر لليهودية ، ولا أية مصطلحات تشعر أن صاحبها يهودي . فلا نجد فيها شيئاً من قصص التوراة أو التلمود أو المشنا أو (الكبارة) أو أي شيء له صلة بعقيدة يهودية . مع اننا قد وجدنا شيئاً من قصص العهد القديم في شعر (أمية بن أبي الصلت) ، وهو غير يهودي . فهل يعني هذا أن شعراء اليهود لم يكن لهم ميل الى التحدث في أمور الدين ، والنظر في أحكام الشريعة ، وفي التفكير في خلق السماوات والأرض والإنسان وفي الموت والفناء ، أو أنهم كانوا في جهل بها ، وكان أمرها عندهم الى رجال دينهم ، هم يبحثون فيها ، ولهذا لم يحملوا أنفسهم مشقة التعرض لها والبحث فيها ، أو أنهم كانوا قد تطرقوا فعلاً الى هذه الأمور ، وجاؤوا في شعرهم بأشياء مما يختص بدينهم ويميزهم عن غيرهم ، وتطرقوا الى عاداتهم وأشادوا بذكر أنبيائهم ، غير أن الرواة المسلمين لم يحفلوا بشعرهم لأنه شعر يهودي ،

فضاع ، كما ضاع شعر الوثنيين إذ لم يرو منه القليل[1] .

وقد ذهب (ولفنسون) الى ان السبب في قلة ما وصل الينا من شعر اليهود في الجاهلية ومن أسماء شعرائهم ، انما يرجع الى ضعف إقبال اليهود على اعتناق الاسلام . والذي حافظ على القليل الذي وصل الينا هم اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ، ومن تناسل منهم تخليداً لما كان لأجدادهم من مجد أثيل وشرف عظيم. ولو لم يسلم بعض الأفراد من ذرية السموأل ، لكان من الجائز عدم وصول أي شيء من شعره الينا[2] .

وذهب (الدكتور طه حسين) الى ان اليهود قالوا كثيراً من الشعر في الدين وهجاء العرب ، وانهم انتحلوا وصنعوا شعراً لإثبات وجود لهم في الشعر ، فنسبوه الى شعراء يهود ، ولكن الرواة العرب لم يحفلوا به فضاع[3] .

وقد أدخل (كارلو نالينو) الشعراء اليهود مع الشعراء الوثنيين ، وجعلهم في الصنف الأول من أصناف طبقات الشعراء على حسب تصنيفه لهم الى أربع طبقات . وقال : « لا تستغربوا عدم الفرق بين الوثنيين واليهود من أهل البادية ووجوده بين الوثنيين والنصارى من أهل الحضر ، لأنكم اذا اطلعتم على ما وصل الينا من أشعار اليهود قبل الاسلام ما ألفيتم فيها شيئاً أو عبارة يميزها من سائر أهل البادية. فمن طالع مثلاً أبيات السموأل بن عادياء (مع قطع النظر عن قصيدة واضحة التزوير منسوبة اليه لم تعرف ولم تطبع إلا حديثاً) لما توهم ان صاحبها تابع لدين اليهود . والأمر كذلك أيضاً في سائر أشعار يهود جزيرة العرب مثل شعبة بن غريض ، والربيع بن أبي الحقيق وغيرهما التي اعتنى بجمعها (نولدكه) و (فرانز دلتش) ليس من المستحيل ان ما فقد من أشعارهم (وهو كثير بالإضافة الى ما حفظ) ، قد حوى أشياء مما يختص بدينهم وليس من المحال أيضاً ان الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ، ولكن لا يجوز لنا الحكم إلا في الموجود المعروف الذي لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيين لا لغة ولا أسلوباً ولا مأخذاً ، كأن دينهم لم يؤثر في شعرهم البتة »[4] .

---

١ كارلو نالينو ، تأريخ الآداب العربية (٧١) .
٢ تاريخ اليهود في بلاد العرب (٢٤ وما بعدها) .
٣ المصدر نفسه .
٤ كارلو نالينو (ص ٧١) .

ولكنني أجد من مطالعتي لشعرهم نفساً يختلف عن النفس الذي نجده في شعر شعراء البادية، ذلك هو ميل هذا الشعر الى التحدث عن المثل الأخلاقية، كالإنصاف والحكم بالعدل ، والحلم ، والصداقة ، واحترام حق الصديق ، والاتعاظ بالموت وبحوادث الدهر ، وبوجوب الوفاء ، خذ الأبيات المنسوبة الى (الربيع بن أبي الحقيق) ، وهي :

سائل بنا خابِرَ أكمائنا والعلم قد يُلقى لدى السائل
لسنا إذا جارت دواعي الهوى واستمع المنصت للقائل
واعتلج القوم بألبابهم بقائل الجود ولا الفاعل
إنا إذا نحكم في ديننا نرضى بحكم العادل الفاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا نلط دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الخامل[1]

ففيها إشارة الى دين يأمر بالعدل والإنصاف ، وبعدم مزج الباطل بالحق ، ينهى عن الظلم ويأمر بالحق وفيها – ان صح بالطبع أنها من شعرهم – منطق واستماع الى صوت متظلم ، يعمد الى رفع شكواه الى المنصفين لإنصافه ، فينصف، فأخذ الحق هنا هو بحكم الدين وقواعد العدالة لا بالسيف وبحكم العصبية والأخذ بالثأر ، ونجد مثل ذلك في بقية شعرهم ، وتحمل هذه الظاهرة المرء على التفكير في سبب ظهور هذا النوع من الشعر ، وهل هو شعر جاهلي يهودي أصيل ، أم أنه شعر مصنوع ، وضع عليهم في الإسلام ، لمآرب مختلفة ، مثل المآرب الذي حمل الرواة على نسبة القصيدة المشهورة :

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤم عِرضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

الى السموأل ، وكذلك بعض الأشعار الأخرى !

وقد ذكر (ابن سلام) أسماء فحول شعراء يهود ، فجعلهم : السموأل بن الغريض بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وشُرَيح ابن عمران ، وشُعية بن غريض ، وأبو قيس بن رفاعة ، وأبو الذيّال، ودرهم

---

١ ابن سلام ، طبقات (٧١) .

ابن زيد[1] . وأضاف غيره اليهم : أوس بن دني، وسماك ، والغريض بن السموأل[2] و (سلام بن مشكم) و (كنانة بن أبي الحقيق)[3] .

والسموأل ، هو أشهر شاعر يهودي . وهو على ما يقوله لنا الأخباريون يهودي ثري شاعر ، عرف بـ (السموأل بن عاديا) ، وبـ (السموأل بن عادياء) الأزدي ، وبـ (السموأل بن غريض بن عاديا « عادياء » اليهودي)[4] ، وبـ (السموأل بن حيان بن عادياء)[5] ، وبـ (السموأل بن عادياء بن حيا)[6] ، وبـ (السموأل بن حيا بن عادياء بن رفاعة بن الحارث بن ثعلبة بن كعب)[7] ، وبـ (السموأل بن أوفى بن عادياء)[8] ، وبـ (السموأل بن أوفى بن عادياء بن رفاعة بن جفنة) ، وبـ (السموأل بن غريض بن عاديا بن حبا) . واختلفوا في نسب (عادياء) (عاديا) ، فقالوا : (عادياء بن حباء) ، وقالوا : (عادياء بن رفاعة بن جفنة) ، وقالوا : انه من ولد (الكاهن ابن هارون بن عمران)[9] ، وقالوا انه من (بني غسان) ، ونسبه (دارم بن عقال) ، الى (رفاعة بن كعب بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء) . وهو نسب أنكره (أبو الفرج الأصبهاني) حيث قال : « وهذا عندي محال ، لأن الأعشى أدرك شريح بن السموأل ، وأدرك الاسلام ، وعمرو مزيقيا قديم لا يجوز أن يكون بينه وبين السموأل ثلاثة آباء ولا عشرة ولا أكثر ... وقد قيل ان أمه كانت من غسان »[10] . ونسب السموأل أيضاً الى الأزد[11] . وذكر (ابن دريد) ان السموأل

---

١ طبقات ، ابن سلام (٧٠) .

٢ الاغاني (١٩/٩٤ وما بعدها) .

٣ الاستيعاب (٤/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ « عادياء » الاغاني (١٩/٩٨) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣٥) ، « طبعة دار المعارف» ، « تحقيق محمود محمد شاكر » ، تاج العروس (٧/٣٨٢) ، « سمل » ، شرح شواهد المغني (٢/٥٣٥) ، Ency., IV, p. 133.

٥ الميداني ، الامثال (٢/٢٧٦) ، المشرق ، السنة الثانية عشرة ، ١٩٠٩ م ، العدد ٣ آذار (ص ١٦٢) .

٦ المعرب ، للجواليقي (١٨٨) .

٧ ابن دريد ، الاشتقاق (٢٥٩) .

٨ المشرق ، العدد المذكور (١٦٢) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٣١) ، الاغاني (٣/١٢) .

٩ معاهد التنصيص (١/١٣١) ، المشرق ، العدد المذكور .

١٠ الاغاني (١٩/٩٨) ، المشرق ، العدد المذكور .

١١ المعرب (١٨٨) .

من (بني غسان) ، ولكنه ذكر أيضاً انه كان يهودياً[1] ، ونسبه (محمد بن حبيب) الى غسان كذلك ، ولم يشر الى تهوده[2] . وقد جعل (ابن قتيبة) السموأل ملكاً على تيماء[3] .

والسموأل جدّ (صفية بنت حيي بن أخطب) لأمها . وهي يهودية ، وقد تزوّجها الرسول[4] . وقد نسبها (ابن عبد البر) على هذه الصورة : صفية بنت حيي بن أخطب بن سعنة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب ابن النضير بن النحام بن تخوم من بني اسرائيل من سبط هارون بن عمران . وأمها (برة بنت سموأل)[5] . وكانت عند (سلام بن مشكم) ، وكان شاعراً ، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق ، وهو شاعر ، فقتل يوم خيبر ، وتزوجها رسول الله ، في سنة سبع من الهجرة .

وقد اشتهر السموأل بالوفاء ، أكثر من اشتهاره بالشعر ، ولا زال العرب يتبجحون بوفائه ويضربون به المثل في الوفاء . واشتهر بقصره الذي ضرب به المثل بالضخامة والجسامة ، وهو (الأبلق) بـ (تيماء) ، أو على مقربة منها . حتى زعم أهل الأخبار أنه من أبنية (سليمان بن داوود) بناه بتيماء ، واستشهدوا على صحة دعواهم ببيت شعر زعموا أنه من شعر الأعشى ، هو :

ولا عاديا لم يمنع الموت ما له   وورد بتيماء اليهودي أبلق
بناه سليمان بن داوود حقبة   له أزج صم وطي موثق[6]

لكنهم يذكرون أيضاً انه من بناء (عاديا) والد السموأل ، ويستشهدون على صحة روايتهم بشعر ذكروا انه للسموأل نفسه ، يقول فيه :

---

١ الاشتقاق (٢٥٩) .
٢ المحبر (٣٤٩) .
٣ الشعر والشعراء (١/ ٦٠ ، ٦١) .
٤ الاصابة (٤/ ٣٣٧ وما بعدها) ، (رقم ٦٥٠)
٥ الاستيعاب (٤/ ٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ تاج العروس (٦/ ٢٩٨) ، (بلق) ، راجع قصيدة الاعشى رقم ٢٥ في ديوانه ، « له جندل صم وطي موثق » ، (له أزج عال وطي موثق) ، الحيوان (٦/ ١٨٨) ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، المشرق ، الجزء المذكور (١٦٣) .

بنى لي عاديا حصناً حصيناً وعيناً كلما شئت استقيت
وأطماً تزلق العقبان عنــه اذا ما ضامني أمر أبيت[1]

وقد زعموا انه عرف بـ (الأبلق الفرد) . أخذوا ذلك من شعر نسبوه الى السموأل ، هو :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعز على من رامه ويطول[2]

وذكروا انه انما عرف بالأبلق ، لأنه كان في بنائه بياض وحمرة ، وقيل لأنه بني من حجارة مختلفة الألوان[3] . وقد ذكر في شعر للأعشى :

وحصن بتيماء اليهودي أبلق[4]

وفي شعر آخر له أيضاً هو :

بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين ، وجار غير ختار[5]

وزعم أهل الأخبار ، أن الزباء (ملكة الجزيرة) قصدته فعجزت عنه وعن مارد ، فقالت : « تمرد مــارد وعز الأبلق » ، فسيرته مثلاً[6] . ولا أستبعد كــون حصن السموأل من الحصون أو القصور القديمة التي كانت بتيماء . ورثه (السموأل) من آبائه وأجداده ، فقد كان البابليون قد بنوا بها قصوراً وحصوناً، لما اتخذت عاصمة لهم ، وسكنها ملكهم ، ثم انها كانت من المدن القديمة العامرة، وقد كانت الأسر الكبيرة الغنية تبني القصور الضخمة في المدن للتحصن بهــا من الغزو ومن غارات الأعداء عليها ، كما كانت الحكومات ، ولا سيما حكومــات المدن تقيم الحصون القوية المنيعة في المدن ، للدفاع عنها ، ولتكون مقراً للحكام، وتشاهد الى اليوم آثار القصور والأبنية الضخمة التي كانت في تيماء . ومما يؤيــد

١ تاج العروس (٢٩٨/٦) ، (بلق) .
٢ تاج العروس (٢٩٨/٦) ، (بلق) .
٣ تاج العروس (٢٩٨/٦) ، (بلق) .
٤ اللسان (٢٦/١٠) ، (بلق) .
٥ « غير غدار » ، اللسان (٢٦/١٠) ، (بلق) .
٦ تاج العروس (٢٩٨/٦) ، (بلق) .

رأيي في أن قصر (السموأل) ، أي حصنه من الحصون القديمة هو ما ورد في شعر (الأعشى) من أنه من أبنية (سليمان) ومن ورود لفظة (عاديا) في شعر الأعشى كذلك ، وفي شعر السموأل :

بنى لي عاديا حصناً حصيناً وعيناً كلما شئت استقيت

ولفظة (عاديا) ، وإن صيرت اسم علم لرجل ، لكني أعتقد انها ليست علماً ، وانما تعني القدم ، فالعادي عند العرب القديم جداً ، ولو كان (عاديا) جدّ (السموأل) ، فكيف نوفق بين الشعر المذكور المنسوب الى الأعشى الذي يزعم انه من أبنية سليمان ، ثم قولهم ان (عاديا) من أجداد السموأل ، ثم قولهم انه من الحصون القديمة ، وانه تعزز على (الزباء) لما أرادت فتحه ، في الأسطورة التي يرويها أهل الأخبار ، والتي تدل على قدم الحصن . ولكن ليس من المستبعد أن يكون أحد أجداد السموأل ، قد جدد في بنائه ورممه لإصلاح ما أفسده الزمان منه ، وأما الحصن نفسه فربما كان من بقايا أبنية البابليين بتيماء ، فقد كانت (تيماء) معروفة في أيام (البابليين) ، وموجودة قبل أيامهم ، بدليل ان (نبونيد) ملك بابل جاء اليها فاتخذها أمداً عاصمة له .

وقصة وفاء السموأل قصة مشهورة ، وقد تحدثت عنها ، وذكر أن السموأل لما أبى دفع الدروع الى الملك ، وشاهد منظر ذبح ابنه ، قال في ذلك :

وفيت بأدرع الكنديّ إني إذا ما خان أقوامٌ وفيت
وقالوا عنده كنز رغيب فلا وأبيك أغدر ما مشيت
بنى لي عاديا حصناً حصيناً وبئراً كلما شئت استقيت[1]

وتعدّ قصيدة السموأل التي مطلعها :

إذا المرء لم يَدْنَسْ من اللُّؤم عِرضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

من أجمل القصائد السلسة المنظومة في الوفاء وفي الفخر . وقد سجلت ثمانية أبيات منها في الكتاب المسمى : « تأريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم »

---

١ المحاسن والاضداد (٣٦ وما بعدها) .

المنسوب (لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي) ، رواية (أبي يوسف يعقوب بن السكيت) . وقد تم استنساخاً في عاشر شوّال سنة ثلاث وأربعين ومائتين[1] . وهو كتاب لم يشر (ابن النديم) اليه ، لا في أثناء حديثه عن (الأصمعي) ولا في أثناء كلامه على (ابن السكيت) .

وأول هذه الأبيات المدوّنة فيه :

تعيرنا أنا قليل عديدنا   فقلت لها إن الكرام قليل[2]

وقد اختلف العلماء في قائل القصيدة ، فمنهم من نسبها الى السموأل ، ومنهم من نسبها لابنه (شريح)[3] ، ومنهم من جعلها لدكين[4] ، ومنهم من نسبها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي[5] ، ومنهم من جعلها للجلاح الحارثي[6] . ورجح (بروكلمن) نسبتها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، وهو شاعر اسلامي[7] . ويقول (التبريزي) في شرحه للبيت :

فإن بني الديّان قطبٌ لقومهم   تدور رحاهم حولهم وتجول

وهو من أبيات هذه القصيدة ، يذكر انه لعبدالله الحارثي لا للسموأل[8] .

ويلاحظ ان (أبا الفرج الاصبهاني) ، قد نسب القصيدة المذكورة للسموأل ثم نسبها الى (شريح) ، الذي هو ابن السموأل في موضع آخر ، ثم نسبها الى

---

١ نشرة الشيخ محمد حسن ال ياسين ، بعنوان : تاريخ العرب قبل الاسلام (بغداد ١٩٥٩ م) ، وتجد القصيدة في ديوان الحماسة (ص ٣٩) ، (طبعة اوربة) ، وفي نزهة الجليس (٢/١٤٩ وما بعدها) .

٢ طبع ديوانه مرارا ، وطبع ببغداد سنة ١٩٥٥ م ، راجع عن شعره ، شرح شواهد المغنى (٢/٥٣١ وما بعدها) ، الحماسة (١/١٠٨) ، الامالي (١/٢٦٩) ، البيان والتبيين (٣/١٨٥) ، ديوان الحماسة (١/٢٧) ، أمالي القالي (١/٢٦٩ وما بعدها) ، الاغاني (٦/٧٦ وما بعدها) ، عيون الاخبار (٣/١٧٣) .

٣ ديوان الحماسة (٣٩) ، (طبعة أوربة) ، الحماسة (١/١٠٨) ، الامالي (١/٢٦٩) .

٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٣١) ، الاغاني (٩/٢٥٣) .

٥ شرح شواهد (٢/٥٣١) .

٦ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٣١) .

٧ بروكلمن (١/١٢١) .

٨ ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٢٧) .

(دكين العذري) في موضع ثالث[1] ، مما يدل على انه أخذ من مصادر مختلفة، اختلفت فيما بينها في نسبة القصيدة الى صاحبها[2] . كما نجد الرواة يختلفون فيما بينهم في ترتيب أبيات القصيدة ، فمنهم من يقدم فيها ، ومنهم من يؤخر ، ويبعث هذا الاختلاف الريبة في صحة نسبة القصيدة الى السموأل[3] .

ولما تحدث (ابن قتيبة) عن الشاعر (دكين بن رجاء) من بني فُقَيم الراجز، وهو من شعراء العصر الأموي ، ومن المتصلين بـ (عمر بن عبد العزيز) ، قال عنه : إنه هو القائل :

إذا المرءُ لم يدنس من اللؤم عِرضه فكلّ رداءٍ يرتديه جميل
وإن هو لم يُضرع عن اللؤم نفسه فليس الى حسن الثناء سبيل[4]

ويرى (ونكلر) أن قصة الوفاء هذه هي أسطورةٍ استمدت مادتها من أسفار (صموئيل الأول) في التوراة،ومن الأساطير العربية القديمة نظمت على هذه الصورة فجعل بطلها شخصان هما : (السموأل) ، و (امرؤ القيس)[5] .

وإذا تتبعنا الروايات الواردة في قصة وفاء السموأل ، وذبح ابنه ، وامتناعه عن تأدية الأمانة المودعة لديه ، إلا لأصحابها الشرعيين ، نجد أنهـا ترجع الى موردين رئيسين : قصة (دارم بن عقال) وشعر الأعشى .

وذكر (ابن سلام) ، ان للسموأل (كلمة له طويلة) ، يقول فيها :

إن حلمي اذا تغيب عني فاعلمي انني عظيماً رزيت[6]

وقد وردت في الأصمعيات[7] ، وهي تتحدث عن نشأة الانسان وحياته وبعثه بعد

---

١ الاغاني (٦٧/٦) ، (١٥٥/٨) .
٢ ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣١) .
٣ المصدر نفسه .
٤ الشعر والشعراء (٥٠٨/٢ وما بعدها) .
٥ H. Winckler, Araabisch-Orientalisch., In Mittei. Vorder. Asai. Gesellschaft, (1901) 6 Jahrgang, S., 112.
٦ طبقات (٧١) .
٧ الاصمعيات (٨٤) ، (دار المعارف) .

موته ، ويظن انها مصنوعة [1] . وفي جملة ما قاله :

ميتاً خلقت ولم أكن من قبلها   شيئاً يموت فمت حين حييت [2]

وقد طبع الأب (لويس شيخو) ديوان السموأل برواية (نفطويه) (٣٢٣ هـ)، وقد ترجم (ابن النديم) نفطويه ،وذكر أسماء كتبه ، ولكنه لم يذكر من بينها اسم هذا الديوان [3] ، وترجمه غيره ، ولم ينسب له هذا الديوان [4] . ويرى (بروكلمن) احتمال كون الشعر المرقم (١ — ٦) من الديوان من الشعر الأصيل ، أي من شعر السموأل ، أما الشعر الباقي المنشور في الديوان ، فهو لشعراء يهود متأخرين [5] . ويرى غيره أصالة قصيدتين فقط من شعر هذا الديوان. وذكر بعضهم ان القصيدة رقم (٧) ليست للسموأل ، وانما لأحد يهود المدينة [6] .

وقد تحدث المستشرقون عن شعر (السموأل) ولهم فيه كلام ، فنهم من يؤيد أصالة أكثره ، ومنهم من لا يعترف إلا بأصالة القليل [7] منه . والواقع أن موضوع وجود (السموأل) نفسه قضية فيها نظر ، ولا استبعد أن تكون هذه القصة من وضع (دارم بن عقال) ، وهو من ولد (السموأل) ، أو من وضع أناس آخرين رووا عنه . و (دارم) هو راوي خبر قصة الوفاء ، والأشعار المنسوبة الى(امرىء القيس) المتعلقة بهذا الموضوع.وقد أشار الى ذلك مؤلف كتاب (الأغاني) في أثناء كلامه على قصيدة نسبت الى (امرىء القيس) ، ابتداؤها :

طرقتك هند بعد طول تجنب   وهناً ولم تك قبل ذلك تطرق

---

١ العصر الجاهلي (٣٨٩) .
٢ البيان والتبيين (١٢٧/٣) .
٣ الفهرست (١٢٧) ، شيخو ، ديوان السموأل ، بيروت ١٩٠٩ م ، المشرق ، السنة الثانية عشرة ، العدد ٣ اذار ١٩٠٩ م (ص ١٦١ وما بعدها) .
٤ نزهة الالباء في طبقات الادباء ، لابن الانباري (١٧٨ وما بعدها) ، (تحقيق : ابراهيم السامرائي) ، ابن القفطي ، الانباه (١٨٠/١) .
٥ بروكلمن (١٢٢/١) .
٦ بروكلمن (١٢٢/١ وما بعدها) .
٧ Margoliouth, The Relations., p. 71, Ency., IV., p. 133, Fr. Delitzch, Jüdisch-Arabische Poesien aus vor Muhammedanischer Zeit, Leipzing, 1874, Nöldeke, Beiträge, zur Kenntnis der Poesies der alten Araber, Hanover, 1864, M. Steinschneider, Die Arabische Literatur der Juden, Frankfurt am Main, 1900, Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literatur, I, S. 28, Suppl., I, S. 60.

فقال : « وهي قصيدة طويلة ، وأظنها منحولة ، لأنها لا تشاكل كلام امرىء القيس ، والتوليد فيها بين ، وما دوّنها في ديوانه أحد من الثقات ، وأحسبها مما صنعه دارم ، لأنه من ولد السموأل ، ومما صنعه من روي عنه من ذلك فلم تكتب هنا »[1] .

ويلاحظ أن في شعر الأعشى كثيراً من أخبار السموأل ، ومن شعره أخذ الأخباريون (تيماء اليهودي)[2] و (الأبلق الفرد) ، حيث يقول :

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به　　في جحفل كقريع الليل جرّار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله　　حصن حصين وجار غير غدّار
خيّره خطّتي خسف فقال له　　مهما تقولنّ فإني سامعٌ حار
فقال ثكل وغدرٌ أنت بينهما　　فاختر فما فيها حظ لمختار
فشكّ غير طويل ثم قال له　　اقتل أسيرك إني مانع جاري[3]

ومن ولد السموأل (شريح) و (الغريض بن السموأل) ، وكانا شاعرين كذلك[4] . و (برة) في رواية من جعلها ابنة للسموأل ، ووالدة (صفية) زوج الرسول[5] .

وللأعشى الشاعر الشهير شعر يرويه الرواة في مدح (الشريح بن السموأل) (شريح بن السموأل) . وقد ورد في قصيدته الرائية اسم ولدين للسموأل ، هما: (حوط) و (منذر)[6] . ولم يذكر الأخباريون اسم الولد الذي زعم ان (الحارث بن أبي شمر) ، أو (الحارث بن ظالم) قتله لرفض السموأل دفع أدرع الكندي اليه ، على نحو ما يذكره الرواة في قصة الوفاء . ونجد مضمون هذه القصة في هذه القصيدة المذكورة للأعشى ، الموجودة في ديوانه . وهي قصيدة تتألف من واحد وعشرين بيتاً ، يروي الرواة انه قالها مستجيراً بـ (شريح بن

---

١ الاغاني (٨/٧٠) .
٢ البلدان (٣/٤٤٢) ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٣/٢٧٢) .
٣ نزهة الجليس (٢/١٥١) ، المحاسن والاضداد (٣٧) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٣١) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٢٢).
٥ الاستيعاب (٤/٣٣٧) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ المشرق ، العدد المذكور (١٦٣) .

السموأل) ليفكه من الأسر . وكان الأعشى على ما يقوله الرواة قد هجا رجلاً من (كلب) ، فظفر به الكلبي وأسره ، وهو لا يعرفه ، فنزل بشريح بن السموأل وأحسن ضيافته ، ومرّ بالأسرى ، فناداه الأعشى بهذه القصيدة ، فجاء شريح الى الكلبي ، وتوسل اليه بأن يهبه ، فوهبه اياه ، فأطلقه . وقال له : أقم عندي حتى أكرمك وأحبوك ، فقال له الأعشى : « ان تمام احسانك اليّ ان تعطيني ناقة ناجية ، وتخلّيني الساعة ، فأعطاه ناقة ناجية ، فركبها ومضى من ساعته . وبلغ الكلبي ان الذي وهبه لشريح هو الأعشى ، فأرسل الى شريح ابعث اليّ الأسير الذي وهبت لك حتى أحبوه ، فقال : قد مضى ، فأرسل الكلبي في أثره ، فلم يلحقه»[1] .

وقد اختلف في اسم (شريح) الذي خلّص (الأعشى) من الأسر ، فقد ذكر انه (شريح بن حصن بن عمران بن السموأل) ، وذكر انه (شريح بن عمرو الكلبي) لا كما دعاه بذلك (ابن قتيبة)[2] .

وذكر (بروكلمن) اسم شاعر آخر من شعراء (آل عاديا) ، هو الشاعر (سعيد بن الغريض) (سعيد بن غريض) ، أخي السموأل . كما ذكر اسم (شعبة) حفيد السموأل[3] . وقد ذهب (نولدكه) الى أن (الغريض) لم يكن أخاً للسموأل ، بل ابناً له ، وأن ما ذهب اليه (أبو الفرج الاصبهاني) ، من أن (غريضاً) كان أخاً له ، خطأ ، لأن (شعبة) ، كان قد اعتنق الإسلام وعاش الى زمن الخليفة (معاوية) ، أي الى زمن بعيد عن (السموأل) ، وهذا يجعل من الصعب تصور أن (شعبة) كان ابن أخي (السموأل) ، بل لا بد من أن يكون حفيداً له . أي ان الغريض كان ابناً للسموأل ، وقد جعله يعيش في حوالى السنة (٦٠٠) للميلاد ، وجعل أيام (السموأل) في حوالى السنة (٥٥٠) للميلاد[4] .

---

١ الاغاني (١٩/٩٩ وما بعدها) ، ديوان الاعشى (١٢٦ وما بعدها) ، (تحقيق رودلف كاير) ، (Rudolf Geyer) ، (لندن ١٩٢٨ م) ، ديوان الاعشى الكبير (١٧٩) ، (تحقيق الدكتور م. محمد حسين) .

٢ الشعر والشعراء (١/١٨٢ وما بعدها) .

٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٢٢) ، تاريخ دمشق ، لابن عساكر (٤/١٥٧) .

٤ Th. Nöldeke, Beiträge Zur Kenntniss der Poesie der Alten Araber, S. 64, Hannouver, 1864.

ونسبت لشعبة بن غريض بن السموأل قصيدة هي :

لبـاب يا أختَ بني مالكٍ لا تشتري العاجلَ بالآجل
لبـاب داويني ولا تقتلي قد فضل الشافي على القاتـل
لبـاب هل عندك من نائلٍ لعاشق ذي حاجة سائل
عللته منك بمـا لم ينل يا ربما عللت بالباطل
إن تسألي بي فأسألي خابراً فالعلم قد يكفي لدى السائل
ينبيك من كان بنا عالمـاً عنّا وما العـالم كالجاهل
انا إذا جارت دواعي الهوى وأنصت السامـعُ للقائل
واعتلـج القوم بألبابهم في المنطق الفاصل والقـائل
لا نجعل الباطل حقاً ولا نَلِط دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامُنا فنخمل الدهر مع الخامل[1]

كما نسبت له أبيات أولها:

يا دار سعدى بمفضى تلعة النعم حُييت داراً على الاقواء والقدم[2]

ونسبوا له أبياتاً في الخلان هي :

أرى الخلان لمّا قلّ مالي وأجحفت النوائب ودعوني
فلما ان غنيت وعاد مالي أراهم لا أبالك راجعوني
وكان القوم خلاناً لمـالي وإخواناً لما خولت دوني
فلما مـرّ مالي باعدوني ولمّا عاد مالي عاودوني[3]

وروى أهل الأخبار ان (شعبة بن غريض) ، عاش فأدرك أيام معاويـة ، وان معاوية لما حج رأى شيخاً يصلي في المسجد الحرام عليه ثوبان أبيضان، فقال: من هذا ؟ فقالوا : شعبة بن غريض ، فأرسل اليه يدعوه ، فأتاه رسوله، فقال: أجب أمير المؤمنين ! قال : أو ليس قد مات ! قيل فأجب معاوية . فأتاه فلم يسلم عليه بالخلافة . فقال له معاوية : ما فعلت أرضك التي تكسي منها العاري

١ Nöldeke, Beiträge, S. 65. f.
٢ المصدر نفسه (ص ٦٦) .
٣ المصدر نفسه (ص ٦٧) .

ويرد فضلها على الجار ؟ قال : باقية . قال : أتبيعها ؟ قال : نعم . قال : بكم ؟ قال بستين ألف دينار ولولا خلة أصابت الحي لم أبعها . قال: لقد أغليت ! قال : أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمائة ألف ، ثم لم تبال . قال : أجل . قال : فإذا بخلت بأرضك فأنشدني شعر أبيك الذي يرثي به نفسه . قال : قال أبي :

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ماذا تؤبنني بـه أنواحي
أيقلن لا تبعد فرب كريهة فرجتهـا بشجاعة وسمـاح
ولقد ضربتُ بفضل مالي حقه عنـد الشتاء وهبة الأرواح
ولقد أخذت الحق غير مخاصمٍ ولقد رددت الحق غير مُلاحي
وإذا دعيت لصعبة سهلتها ادعـي بأفلح مرة ونجاح[1]

فقال : أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك ! قال : كذبت ولولا مت . قال : أما كذبت فنعم . وأما لولا مت فكيف ولمَ ؟ قال : لأنك أنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام . أما في الجاهلية فقاتلت النبي صلى الله عليـه وسلم ، وكذبت الوحي حتى جعل الله تعالى كيدك المردود . وأما في الاسلام ، فنعت ولد النبي صلى الله عليه وسلم الخلافة وما أنت وهي ! وأنت طليق . فقال معاوية : قد خرف الشيخ فأقيموه . فأخذ بيده فأقيم[2] .

وقد ذكر (ابن حجر) موجز هذه القصة ، أخذه من (ابن أبي طيء) ، وقد رواها (عمر بن شبة) بسنده الى (الهيثم بن عدي) ، وذكر ان اسمـه (سعنة بن عريض بن عاديا) التيماوي ، نسبة لتيماء ، وهو ابن أخي السموأل ؛ ثم قال : « وحكى الخلاف في سعنة هل هو بالنون أو الياء ؟ ووردت له أشعار في مجالس ثعلب ، وروي ان من شعره قوله :

معتقة كانت قريش تعافها فلما استحلوا قتل عثمان حلت[3]

وقد نسب (ابن نباته) في شرحه لرسالة (ابن زيدون) القصيدة المذكورة

---

١ تجد هذه الابيات بشكل اخر في طبقات ابن سلام (٧٢) .
٢ Th. Noldeke, Beiträge.
٣ الاصابة (٢/٤١) ، (رقم ٣٢٤٥) ، (٢/١١٣) ، (٣٦٨٦) .

للسموأل[1] . وأثبت (ابن سلام) الأبيات المذكورة في طبقاته ، على أنها من شعر (شُعبة بن غريض)[2] .

و (شعبة) تصحيف (سيعة) ، و (سيعة) من أسماء يهود[3] .

وأشير في حماسة (البحتري) الى رجل من هـذه الأسرة دعي (عُريض بن شعبة) ، وذكرت له هذه الأبيات :

ليس يعطى القوي فضلاً من الرز ق ولا يحرم الضعيف الخبيث
بل لكلٍ من رزقه ما قضى اللـه ولو كـدّ نفسه المستميت[4]

ومن شعراء يهود (الربيع بن أبي الحقيق) ، وهو من (بني قريظة) على ما جاء في كتاب الأغاني ، غير أننا نجد (ابن هشام) صاحب السيرة، يذكر: (سلام بن أبي الحقيق) ، وهو شقيق (الربيع) ، و (كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق) ، وهو أحد أبناء (الربيع) في جملة سادات (بني النضير)[5] . مما يدل على أن (الربيع بن أبي الحقيق) هو من (بني النضير) . وقد قتل ابن أبي الحقيق بعد (الخندق) ، وذلك أن (الأوس) لما أصابت (كعب بن الأشرف) ، قالت الخزرج ، والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً ، فاستأذنوا النبي في قتل (ابن أبي الحقيق) ، وهو بخيبر ، فأذن لهم فقتلوه[6] . وقد جعله (ابن سلام) من بني النضير ، ونسب له أبياتاً دوّنتها في أول هذا الفصل[7] .

وذكر أن (الربيع بن أبي الحقيق) كان على رأس قومه يوم (بعاث) . وذكر أنه كان قد التقى مع (النابغة) ، وقد تسابقا في نظم أنصاف الأبيات[8] .

---

١ شرح رسالة ابن زيدون (٥٤) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣١) .
٢ طبقات (٧٢) .
٣ Levi Della Vida, in Rivista degli Orientali, VIII Roma, 1919-1921, and Levi Della Vida, A Proposito di AS-Samaw'al, In Rivista degli Orientali, XIII, 1931-1932, p. 52.
٤ الحماسة (٢٣٢) . Th. Nöldeke Beiträge, S. 71.
٥ ابن هشام ، سيرة (١٧٨/٢) ، (حاشية على الروض الانف) ، الاغاني (٦١/٢١)، البيان (٢١٣/١) ، (هارون) .
٦ ابن هشام ، سيرة (٢٠٩/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (٢٠٩/٢ وما بعدها) .
٧ طبقات (٧١) ، (ليدن) .
٨ الاغاني (٦١/٢١) .

ونسب الى (الربيع بن أبي الحقيق) شعر ، هو :

سئمت وأمسيت رهن الفرا ش من جُرم قومي ومن مغرم
ومن سفه الرأي بعد النهى وعيب الرشاد ولم يفهم
فلو أن قومي أطاعوا الحليـ ـم لم يتعدّوا ولم يظلم
ولكنّ قومي أطاعوا الغُوا ة حتّى تعكس أهل الدم
فأوى السفيه برأي الحليـ ـم وانتشر الأمر لم يبرم[1]

وقد نسب (المرزباني) هذا الشعر الى (كنانة بن أبي الحقيق)[2] ، من بني النضير ، وهو أخ الربيع .

ومن شعر الربيع قوله :

فلا تكثر النجوى وأنت محاربٌ تؤامر فيها كل نكسٍ مُقصّر

قاله يخاطب (أبا ياسر) النضيري ، وهو أخو حيي بن أخطب ، وكان من العلماء بالتوراة . وفيه وفي عبدالله بن صوريا ، ووهب بن يهودا ، نزل قوله: « ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب »[3] .

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

إذا مات منّا سيد قام بعده له خلف يكفي السيادة بارع
من أبنائنا والعرق ينصر فرعه على أصله والعرق للفرع فارع

وقوله :

يرمي إليّ بأطراف الهوان وما كانت ركابي له مرحولة ذللا
أنا ابن عمك إن نابتك نائبة ولست منك اذا ما لعبك اعتدلا

---

١ الاغاني (٢١/٩٢) ، وهناك بعض الاختلاف في الروايات .
٢ المرزباني ، معجم (٢٤٦) ، (فراج) .
٣ البيان والتبيين (٢/١٤) .

وقوله :

ترجو الغلامَ وقد أعياك والده	وفي أرومته ما ينبت العود

وله أشعار أخرى في بني النجار[1] .

ولكعب بن الأشرف،وهو من سادة يهود الذين كانوا يحرضون قريشاً وغيرهم على الرسول ، أشعار في الحث على الانتقام من المسلمين لما أوقعوه بأهل مكة من قتل يوم بدر . ذكرت في سيرة (ابن هشام)[2] . وله أشعار أخرى افتخر بها بأهله وبماله وبنخيله التي تخرج التمر كأمثال الأكف ، جاء فيها :

رُبَّ خالٍ لي لو أبصرته	سبط المشية اباء أنف
لين الجانبِ في أقربــه	وعلى الأعداء كالسم الزعف
وكرام لم يشنهم حسب	أهل عزٍّ وحفاظ وشرف
يبذلون المال فيما نابهم	لحقوق تعتريهم وعرف
وليوث حين يشتد الوغى	غير أنكاس ولا ميل كسف[3]

ومن شعره في رثاء قتلى بدر قوله :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله	ولمثل بــدرٍ تستهل الأدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم	لا تبعدوا إنّ الملوك تصرع[4]

ويشك (ولفنسون) في صحة نسبة هذه الأبيات الى (كعب) ويرى احتمال كونها من الشعر المحمول عليه[5] .

---

١ Beiträge, S. 75. ff.

٢ ابن هشام ، سيرة (٢/١٢٣ وما بعدها) ، الاغاني (١٩/١٠٦) ، الجمان في تشبيهات القرآن (١٣١ ، ٣٣٣) ، ديوان المعاني (٢/٣٩) ، نهاية الارب (١١/١٢٥) ، ابن هشام (٢/١٢٥) ، (حاشية على الروض الانف) .

٣ الروض الانف (٢/١٢٥) ، (الزعف) ، ابن سلام ، طبقات (٧١) ، (وعلى الاعداء سم كالزعف) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٢) ، المرزباني ، معجم (٢٣١) ، ابن الاثير (٢/٥٣) .

٤ ابن هشام (٢/٣٣٨) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٣) ، ابن هشام (٢/١٢٣) ، (حاشية على الروض الانف) .

٥ ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٣) .

وقد ردّ على شعر (كعب) هذا حسان بن ثابت ، وامرأة من المسلمين ، قالت :

تحنن هذا العبد كل تحنن يبكي على قتلى وليس بناصب
بكت عين من بكى لبدر وأهله وعلت بمثليها لؤي بن غالب

إلى آخر الأبيات .

فأجابها كعب بن الأشرف بقوله :

ألا فازجروا منكم سفيهاً لتسلموا عن القول يأتي منه غير مقارب
أتشتمني إن كنت أبكي بعبرة لقوم أتاني ودهم غير كاذب
فإني لباكٍ ما بقيت وذاكر مآثر قوم مجدهم بالجباجب[1]

ويقال إن والده من (طيء) . أما أمه ، فمن بني النضير ، وانه شبب بنساء النبي ونساء المسلمين ، فأمر الرسول بقتله ، فقتله محمد بن مسلمة ورهط معه من الأنصار[2] . وله مناقضات وهجاء مع (حسان بن ثابت) وغيره في الأيام التي وقعت بين الأوس والخزرج[3] .

ومن شعره الذي شبب فيه بأم الفضل بنت الحارث قوله :

أراحلٌ أنتَ لم تحلل بمنقبة وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت من ذي القوارير والحنّاء والكتم
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها إذا تأتت قياماً ثم لم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا والحبل منها متين غير منجذم
احدى بني عامل جنّ الفؤاد بها ولو تشاء شفَتْ كعباً من السقم
فرع النساء وفرع القوم والدها أهل التحلة والإيفاء بالذمم
لم أرَ شمساً بليل قبلها طلعت حتى تجلت لنا في ليلة الظلم[4]

---

١ ابن هشام (١٢٣/٢) ، (حاشية على الروض) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٧١) ، المرزباني ، معجم (٢٣١) ، المقريزي ، امتاع الاسماع (١٠٧/١ وما بعدها) .
٣ الاغاني (١٠٦/١٩) .
٤ الطبري (٤٨٨/٢) .

ونسب له شعر في مدح (الحارث بن هشام) ، هو :

نبئت أن الحـــارث بـن هشام   في الناس يبني المكرمات ويجمع
ليزور أثربَ بالجموع وإنمـــا   يبنى على الحسب القديم الأرفع[1]

ومن شعراء يهود (أوس بن دنى) القرظي . ذكر أن زوجته اعتنقت الإسلام في حياة الرسول ، وطلبت منه اعتناقه كذلك ، فقال :

دعتني إلى الإسلام يومَ لقيتها   فقلت لها لا بل تعالي تهودي
فنحن على توراة موسى ودينه   ونعم لعمر الدين دين محمـد
كــلانا يرى أن الرشادة دينه   ومن يهد أبواب المراشد يرشد[2]

وله أبيات أخرى ذكرها (نولدكه) في أثناء حديثه عن الشعراء اليهود[3] .

ولا نعرف من أمر (شريح بن عمران) شيئاً يذكر ، وقد روى له (ابن سلام) أربعة أبيات في المؤاخاة والصداقة ، والبخل والمال[4] . وروى (نولدكه) له بيتين من قافية أخرى في الصداقة والصديق وحفظ العهد ، هما :

آخ الكرام اذا وجدت الى اخائهم سبيلا
واشرب بكأسهم وان تشرب به السم الثميلا[5]

وروى له قوله :

تجلي منك اذا ما خنتني   ليس لي في وصل خوان ارب
لا أحب المرء إلا حافظاً   ربقة العهد على كل سبب[6]

---

١ نسب قريش (٣٠١) .
٢ الاغاني (٩٤/١٩) ، زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (١٦٥/١) ، Nöldeke, & Beiträge, S. 76.
٣ Nöldeke, Beiträge, S. 77.
٤ ابن سلام ، طبقات (٧٢) .
٥ Nöldeke, Beiträge, S. 79. f.
٦ Nöldeke, Beiträge, S. 80.

وروى (ابن سلام) أبياتاً من قصيدة تنسب الى (أبي قيس بن رفاعة)[١] ، قال (البكرى) : اسمه دينار ، وقيل انه : (أبا قيس بن رفاعة) الأنصاري ، فهو ليس من يهود . ومن شعره :

منّا الذي هو ما إن طرّ شاربه والعانسون ومنّا المرد والمشيب

ونسب لأبي قيس بن الأسلت الأومي[٢] .

وروى (ابن سلام) قصيدة على قافية الدال مطلعها :

هل تعرف الدار خفّ ساكنها بالحجر فالمستوى الى الثمد
دارٌ لبهنانةٍ خدلجةٍ تبسم عن مثل بارد البردِ

ذكر أنها لأبي الذيّال[٣] . وأورد (البكري) له هذه الأبيات :

لم ترَ مثل يوم رأيته برعبل ما احمر الأراك واثمرا
وأيامنا بالكبس قد كان طولُها قصيراً وأيام برعبل أقصرا
فلم أرَ من آل السموأل عُصبة حسان الوجوه يخلفون المعذرا[٤]

ودرهم بن زيد الذي يقول :

هجرت الرباب وجاراتها وهمك بالشوق قد يطرح
يمانية نازح دارها تقيم بغمدان لا تبرح[٥]

وأورد (ابن هشام) قصيدة لرجل من يهود سمّاه (سمال) اليهودي ، يذكر فيها (بني النضير) مطلعها :

غداة غدوتم على حتفه ولم يأت غدراً ولم يخلف
بقتل النضير وأحلافها وعقر النخيل ولم تقطف

---

١ طبقات (٧٢) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧١٦) ، الامالي (٢/٦٧) .
٣ طبقات (٧٣) ، Nöldeke, Beiträge, S. 77. f
٤ Nöldeke, Beiträge, S. 79.
٥ ابن سلام ، طبقات (٧٤) .

وقد ردّ بها على قصيدة نسبت لعليّ بن أبي طالب على رأي ابن اسحاق ، أو لغيره من المسلمين على رأي (ابن هشام) مطلعها :

عرفت ومن يعتدل يعرف وأيقنت حقاً ولم أصدف[1]

ولما قال (كعب بن مالك) شعراً في اجلاء (بني النضير) وقتل (كعب ابن الأشرف) مطلعه :

لقد خزيت بغدرتها الحبور كذاك الدهر ذو صرف يدور

أجابه (سمال) اليهودي ، بقوله :

أرقت وضافني همّ كبير بليــل غيره ليل قصير
أرى الأحبار تنكره جميعاً وكلهــم له عــلم خبير
وكانوا الدارسين لكل علم بـه التوراة تنطق والزبور
قتلتم سيد الأحبار كعباً وقدماً كان يأمن من يجير
تدلى نحو محمود أخيــه ومحمــود سريرته الفجور[2]

وكان (مرحب) اليهودي من الشعراء ، ولما حاصر المسلمون (خيبر) خرج من حصنهم قد جمع سلاحه ، وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر اني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحينــاً أضرب إذا الليــوث أقبلت تحزب
إن حماي للحمى لا يقرب[3]

ونسب الى أحد اليهود بيت شعر ، خاطب فيه (مالك بن العجلان) بقوله:

تسقيت قبلــه أخلافهــا ففيمن بقيت وفيمن تسود

فأجابه (مالك) بقوله :

إني امرؤ من بني سالم بن عوف وأنت امرؤ من يهود

---

١ ابن هشام (٢/١٧٩) ، (حاشية على الروض) .
٢ ابن هشام (٢/١٨٠) ، (حاشية على الروض الانف) .
٣ ابن هشام (٢/٢٣٨) ، (حاشية على الروض الانف) .

ولما هرب اليهود الى بيعهم وكنائسهم ، قال مالك :

تحانى اليهود بتلعانهـــا تحاني الحمير بأبوالهـــا
فماذا علي بأن يلعنوا وتأتي المنايا بأذلالها [1]

وفي المفضليات قصيدة لرجل يهودي لم يذكر اسمه مطلعها :

سلا ربة الخدر مـــا شأنها ومن أي مـــا فاتنا تعجب
فلسنا بـأول مـــن فاته على رفقة بعض ما يطلب [2]

ومن شعراء يهـــود (أبو أثاية) القرظي[3] ، و (أبو ياسر) النضيري[4] ، وأبو القرثع اليهودي[5] . و (عمرو بن أبي صخر بن أبـي جُرثوم) اليهودي ، (أبو حفصة) . وله شعر في الجيران[6] ، و (كعب بن أسد بن سعيد) القرظي اليهودي ، من بني قريظة ، جاهلي ، له مع قيس بن الخطيم في يـوم (بُعاث) مناقضات[7] ، و (مالك بن عمر النضيري) ، وهو جاهلي[8] .

وذكر (المعري) اسم شاعر يهودي ، ذكر ان اسمه (بُسمير بن أدكن) (سمير بن أدكن) ، من أهل خيبر ، قال شعراً لما أمر (عمر) باجلاء أهل الكتاب من جزيرة العرب ، هو :

يصول أبو حفص علينا بدرة رويدك ان المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة ما قط لتشبع ، إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتم علينا ، ولكن دولة ثم تذهب

---

١ Th. Nöldeke, Beiträge, S. 63. ff.
٢ Th. Nöldeke, Beiträge, S. 64. f.
٣ المرزباني ، معجم (٥٠٧) .
٤ المرزباني ، معجم (٥١٥) .
٥ المرزباني ، معجم (٥١٣) .
٦ المرزباني (٥٩) .
٧ المرزباني ، معجم (٢٣٢) .
٨ المرزباني ، معجم (٢٦١) .

ونحن سبقناكم الى اليمن فاعرفوا لنا رتبة البادي هو أكذب
مشيّم على آثارنا في طريقنا وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا[1]

وذكر ان (جبل بن جوال بن صفوان بن بلال بن أصرم بن إياس بن عبد غنم بن جحاش بن مجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان) الشاعر الذبياني ثم الثعلبي ، كان يهودياً مع (بني قريظة) وكان قد رثى (حيي بن أخطب) بأبيات منها :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل

وقال بعض الناس انها لحيي بن أخطب نفسه . وذكر انه من ذرية (العطيون ابن عامر بن ثعلبة) (الفطيون ؟) ، وكان يهودياً فأسلم ، وهو القائل لما فتح النبي خيبر :

رميت نطاة من النبي بفيلق شهباء ذات مناقب وفقار

وذكر انه هو القائل :

ألا يا سعد سعد بني معاذ لما فعلت قريظة والنضير
تركتم قدركم لا شيء فيها وقدر القوم حامية تفور

وزاد المرزباني فيها :

ولكن لا خلود مع المنايا تخطف ثم تضمنها القبور
كأنهم غنائم يوم عيد تذبح وهي ليس لها نكير

فأجابه حسان :

تعاهد معشراً نصروا علينا فليس لهم ببلدتهم نصير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه فهم عمي عن التوراة بور
كذبتم بالقرآن وقد أبيتم بتصديق الذي قال النذير
وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير[2]

---

١ رسالة الغفران (٤٤١ وما بعدها) ، (بنت الشاطىء) .
٢ الاصابة (١/٢٢٣ وما بعدها) ، (رقم ١٠٧١) .

وأورد (أبو الفرج الاصبهاني) أبيات شعر، نسبها الى شاعرة يهودية سمّاها (سارة) القريظية ، ذكر أنها قالتها في رثاء قومها بعد أن قتل (أبو جبيلة) أشراف اليهود :

بنفسي أمة لم تغـن شيئاً   بذي حُرُض تعفيها الرياح
كهول من قريظة أتلفتهـا   سيوف الخزرجيـة والرماح
رزئنا والرزيـة ذات ثقل   عر لأهلهـا الماء القراح
ولو أربُوا بأمرهم لجالت   هنالك دونهم جأوى رداح[1]

وذكر (الجاحظ) بيتين نسبهما لشاعرة يهودية ، قالتهما في نفث الرقيةوالعثار،هما:

وليس لوالدة نفثها   ولا قولها لابنها دعدع
تداري غراء أحواله   وربك أعلم بالمصرع[2]

وقد جمع (ديلتج) أشعار يهود وتحدث عن أصحابها[3] .

---

١ الاغاني (١٩/٩٦) ، ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (٣٤) ،
Nöldeke, Beiträge, S. 52. ff.

٢ الحيوان (٦/٣٥٩) .

٣ Delitzsch, Jüdisch — Arabische Poesien aus Vormuhammedanischer Zeit, Lepzig, 1874.

الفصل السادس والستون بعد المئة

الشعراء النصارى

وحديثنا عن الشعر النصراني ، مستمد من الموارد الإسلامية . أما النصوص الجاهلية ، فليس فيها أي شيء عن هذا الموضوع . وأما النصوص الأعجمية ، فلم تحفل به أيضاً ، ولم تتطرق الموارد الإسلامية الى الشعر النصراني نفسه ، من حيث طبيعته ومادته ، وما امتاز به عن الشعر الوثني ، أو شعر الشعراء اليهود ، وما سنذكره عن الشعراء النصارى ، مستمد من أسماء آبائهم ومن أسمائهم التي تدل على كونهم من النصارى ومن الشعر المنسوب اليهم .

والشعراء النصارى الذين نص على نصرانيتهم أهل الأخبار ، مثل (عدي بن زيد) العبادي ، أو لم ينص على نصرانيتهم ، وانما يفهم من شعرهم ومن مواطنهم انهم كانوا نصارى ، هم من الحضر ، من سكان القرى ومن قبائل اشتهرت بتنصرها ، وقد وجدت النصرانية سبيلها الى مواطن الحضر والأعراب فأقامت (بيعاً) وكنائس للتبشير بالنصرانية ، ولتعليم أتباعها أمور الديانة ، وللإشراف على ادارة شؤونهم الدينية ، وقد كان أكثر من قام بالتبشير من غير العرب في بادىء الأمر ، من روم ومن (بني إرم) ، ثم انضم اليهم رجال دين عرب ، كانوا قد تعلموا النصرانية في المدارس ، وأظهروا فهماً ونباهة فيها ، فعينوا مبشرين ومعلمين لتعليم العرب والأعراب أصول النصرانية ، ولنشرها في جزيرة العرب ، وكان من المبشرين من يتنقل مع الأعراب ، لهم خيامهم ، يرتحلون بها من مكان الى مكان ، فعرفوا لذلك برهبان الخيام .

« وكانت تنوخ في المرتبة الأولى بين عرب البادية الذين عرفوا النصرانية قبل الإسلام بزمن طويل . وقامت جماعة تنوخ على أساس حلف عقده بنو فهم وبنو تيم اللات مع قبائل من التراوين وغيرهم . ومن شعراء تنوخ أسد بن ناعسة التنوخي ، اللذي كان معاصراً لعنترة ، وكان مولعاً بالاكثار من الألفاظ الغريبة في قصائده ، حتى كان الخليل نفسه يتشكك في تفسيرها في كتاب العين »[1] .

وقد كانت النصرانية واسعة الانتشار على عهد الرسول ، في قضاعة ، وربيعة وتميم ، وطيء ، وكان لها أتباع في القرى العربية ، وبين الأعراب، وبواسطتهم عرف العرب شيئاً عن النصرانية وعن رجالها الذين كانوا يقيمون في البيع ، أو يسيحون في البلاد ، ويرتحلون مع الأعراب طمعاً في تنصيرهم،وفي تعليم المتنصرين منهم أمور الدين . فقد كان بمكة نفر من التجار النصارى ، وجماعة من الرقيق الأسود والأبيض ، كانوا على النصرانية[2] ، وكان بيثرب بعض النصارى كذلك، وكذلك بالطائف . أما نجران ، فكانت من مراكز النصرانية المهمة في ذلك العهد؛ وقد ورد ان (طلق بن علي بن طلق بن عمرو) السحيمي الحنفي ، وهو من سادة بني حنيفة باليمامة ، كان نصرانياً ، فلما ذهب الى المدينة وشاهد الرسول أسلم أمامه ، فلما أراد العودة أخبر رسول الله ان بأرضهم بيعة ، فقال له الرسول ولمن معه : « اذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم وابنوها مسجداً » ، فكسروا بيعتهم واتخذوها مسجداً ، ونضحوها بماء فضل طهور رسول الله ، وكانوا قد جاءوا به في اداوة ، وكان يدير البيعة راهب من طيء ، فارتحل عنهم .

واذا صح هذا البيت المنسوب الى حسان :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد[3]

فإن فيه دلالة على وجود نصارى ويهود بالمدينة عند وفاة الرسول .

ونحن لا نستطيع في الوقت الحاضر التحدث عن مدى تغلغل النصرانية في قلوب

---

١ بروكلمن (١/١٢٤) .
٢ الاستيعاب (٢/٢٣١) ، (حاشية على الاصابة) ، (طلق بن علي بن المنذر بن قيس ...) ، خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (٦٥) ، ابن سعد ، طبقات (٥/٤٠٢) ، أسد الغابة (٣/٦٣) .
٣ ديوان حسان (٥٩) ، (هرشفلد) .

النصارى العرب . ولكننا نستطيع أن نقول قياساً على ما نعرفه من أحوال الأعراب وأحوال أهل القرى ، أي الحضر ، أن النصرانية كانت أوضح وأعمق جذوراً في نفوس أهل المدر ، منها في نفوس أهل الوبر . أما الأعراب فكانت نصرانيتهم اسمية في الغالب شأنهم شأن أعراب هذا اليوم ، وأعراب كل زمان ، متدينون بدين ، ولكنهم لا يعرفون من دينهم إلا الاسم ، دينهم الصحيح ، الذي يغلب على نفوسهم هو دين الفطرة ، أعني العرف الذي ولدوا ونشأوا عليه . ولكن الرهبان ورجال الدين كانوا يتنقلون بين القبائل لتنصيرهم، حاولوا جهدهم تعليمهم قواعد النصرانية وأصولها ، ومنها : عدم اغارة بعضهم على بعض ، والعيش بعضهم مع بعض بسلام ، حتى أنهم أثروا على بعض ساداتهم فحملوهم على الزهد والدخول في الرهبنة وكره الدماء ، فذكر مثلاً أنهم أثروا على (داوود ابن هبالة) سيد (بني سليح) ، من قضاعة ، فأدخلوه في النصرانية ، وكره الدماء وبنى ديراً ، فكان ينقل الطين على ظهره والماء ، فسمي اللثق ، فنسب الدير اليه ، وأنزله الرهبان ، واعتزل الغزو الى أن أمره ملك الروم به ، فلم يجد بداً من أن يفعل[1] . وقد كانت العرب تتهم القبائل العربية المتنصرة بعدم قدرتها على القتال ، وتستهين بها إذا ما التحمت بها في قتال .

والشعر النصراني ، شعر سهل لين بالنسبة الى شعر الشعراء الأعراب ، وقد علل علماء الشعر ذلك بكون هؤلاء الشعراء من سكنة القرى والأرياف ، ومن سكن القرية أو الريف لان لسانه ورق كلامه ، ولهذا قالوا إن في شعر شعراء القرى لا مثل أهل مكة ويثرب ليونة ، لأنهم لم ينبتوا في البوادي ، ولم يقاسوا ما يقاسيه الأعراب من خشونة وشدة وضنك في الحياة ، بل عاشوا في استقرار وأمان في حياة ناعمة بالقياس الى حياة الأعراب ، ولهذا لان لسانهم ، وسهل شعرهم ، وصار من السهل على صناع الشعر ومزوّريه صنع الشعر على ألسنتهم ، كالذي فعلوه من وضع شعر كثير على لسان (عدي بن زيد) العبادي النصراني ، وعلى شعر أمية بن أبي الصلت ، وهو من شعراء ثقيف ، وعلى شعر (حسان ابن ثابت) ، وهو من شعراء يثرب .

ولا يختلف الشعر النصراني عن شعر الشعراء الوثنيين بشيء ، اللهم في تطرق

---

١ أسماء المغتالين (المجموعة السادسة من نوادر المخطوطات) (ص ١٢٧) .

شعر (عدي بن زيد) وأضرابه الى معان دينية ، والى إشارات الى بعض معالم نصرانية . اما فلسفة نصرانية ، أو حديث عن التثليث أو عن العقائد النصرانية الأساسية التي تميز النصراني المتدين عن غيره ، فلا نجد لها ولا لأمثالها موضعاً في هذا الشعر . نعم لقد تطرق (عدي بن زيد) ، وكذلك الأعشى الى قصص مستمد من أصول نصرانية ، كما تطرق الى أعياد نصرانية ، ولكننا نجد في شعر غيرهم إشارات الى الأديرة والكنائس والرهبان والرهبنة ومصطلحات نصرانية وأشياء أخرى عرفوها من احتكاكهم بالنصارى ، ومن سماعهم شيئاً عن النصرانية من النصارى العرب ، تجعل من الصعب على الباحث أن يجد فرقاً كبيراً بين شعر الشعراء النصارى وشعر الشعراء الوثنيين . ولهذا ذهب بعض المستشرقين الى ان من الصعب التحدث عن وجود شعر نصراني عربي له ميزات امتاز بها عن الشعر الوثني قبل الاسلام[١] .

ومن النصارى (العباد) ، وهم عرب تنصروا ، ولم يكونوا من قبيلة واحدة، وانما كانوا من مختلف العرب . ولفظة (العباد) لفظة خصصت بنصارى الحيرة خاصة . ويذكر في « الحديث المسند : أبعد الناس عن الاسلام : الروم والعباد »[٢]. ويظهر ان مرد ذلك ، هو ان الروم والعباد ، كانوا أصحاب ديانة ورجال دين ومؤسسات دينية منظمة ، ومدارس ، وثقافة ، فكان من الصعب عليهم وكلهم نصارى ، نبذ دينهم والدخول في الاسلام ، لا على نحو العرب الوثنيين ، الذين لم تكن لهم كتب دينية ، ولا منظمات دينية، وكل ما كان عندهم عرف وعادات وتمسك بأصنام جبلوا على عبادتها ، ولهذا كان تحولهم عنها أسهل من تحول العباد عن دينهم . وفي جملة (العباد) (بنو امرىء القيس بن زيد مناة) واليهم ينسب (عدي بن زيد)[٣] .

وقد أدخل (كارلو نالينو) (أبا دؤاد) الإيادي في عداد الشعراء النصارى[٤]،

---

١ George Graf, Geschichte der christlichen Arabischen Literatur, I, S. 32, Siegmund Fränkel, Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Leiden, 1886, S. 267, Tor Andrae, Der Ursprung der Islams, S. 32. ff.

٢ الروض الانف (١/٥٣) .

٣ سيرة ابن هشام (١/٥٣) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (١/٥٣) .

٤ كارلو نالينو (٨٩) .

ولكني لم أجد في شعره الى ما يشير الى تنصره ، فلعلّه أدخله في النصرانية ، لما عرف عن انتشارها بين إياد ، وهو (أبو دؤاد جارية بن الحجاج) ، ويقال: (جويرية بن الحجّاج بن حمر بن عصام بن منبّه بن حذافة بن زهر بن إياد بن نزار بن معد) ، وقيل : (حنظلة بن الشرقي) شاعر قديم من شعراء الجاهلية، ركان وصّافاً للخيل ، وأكثر أشعاره في وصفها . ذكر أهل الأخبار أن « ثلاثة كانوا يصفون الخيل لا يقاربهم أحد : طفيل،وأبو دؤاد ، والنابغة الجعدي . فأما أبو دؤاد ، فإنه كان على خيل المنذر بن النعمان بن المنذر ، وأما طفيل فإنه كان يركبها ، وأما الجعدي فإنه سمع من الشعراء فأخذ عنهم » . وقال (أبو عبيدة) : « أبو دؤاد أوصف الناس للفرس في الجاهلية والإسلام ، وبعده طفيل الغنوي والنابغة الجعدي »[1] . وله شعر في المدح والفخر ، لكن شعره في الخيل أكثر[2] . ومما يلفت النظر ، أن يكون أكثر شعر أبي دؤاد في وصف الخيل ، ثم يكون مدحه لقومه بأنهم (أهل البغال) . حيث ورد في شعر هو :

نشدتكم بالله يا أهل البلد هل سابق فيكم لمجد من أحد

إلا إياد بن نزار بن معد أهل البغال والقباب والعدد

ما سامهم في الدهر ملك بحقد[3]

وإني أشك في هذا الشعر،فأسلوبه لا يدل على أنه من أساليب شعراء الجاهلية، ولا سيا الشطر الأول من البيت الأول ، ثم إن هذا النسب المسطور في الشطر لأول من البيت الثاني ، هو نسب ظهر في الإسلام ، وعرف في أيام الأمويين .

وذكر ان (الحجاج) كان معروفاً بـ (حمران) . ولذلك قيل لأبي دؤاد : (جارية بن حمران) . وقيل له : (حارثة بن الحجاج) ، كما قيل له : (جريرة) ، و (حوثرة) ، ويظهر ان مصدر هذا الاختلاف هو وقوع النساخ في أخطاء في أثناء تدوين الاسم ، فاختلط الأمر عليهم بين (جارية) و (حارثة) ،

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٥٩) ، تاج العروس (٢/٣٤٧) ، (داد) ، الاغاني (١٥/٩١) ، الخزانة (٤/١٩٠) ، المؤتلف والمختلف (١١٥) ، الموشح (٧٣) ، الاغاني (١٦/٩١ وما بعدها) ، (ساسي) ، الشعر والشعراء (١/١٦١ وما بعدها) ، العيني (٢/٣٩١) .

٢ الاغاني (١٥/٩٥) ، غرونباوم (٢٦٢) .

٣ غرونباوم (٣٠٢) ، وهو من الرجز ، منقول من جمهرة ابن الكلبي ، الورقة ٣١ .

وبين (جويرة) ، و (جريرة) ، و (حوثرة)[1] ، وهو اختلاف طالما نجده في أسماء وفي ألقاب الأشخاص الجاهليين ، يقع بسبب التصحيف .

وهو من (بني حذاقة) ، كما يظهر من شعر ينسب لطرفة ، وقد أشار (أبو دؤاد) في القصيدة الميمية التي تنسب اليه الى (حذاق) بقوله :

من رجال من الأقارب فادوا من حُذاق، هم الرؤوس الكرام[2]

وحذاق قبيلة من إياد .

وكان شاعرنا من إياد ، وقد تزوج امرأة من قبيلته ، ماتت بعد أن تركت له صبياً اسمه (دؤاد) ، فتزوج امرأة أخرى ، طلقها لأنها كانت تمقت ابنه ، وكان ابنه شاعراً ، رثى والده يوم وفاته . وقد تزوج (أبو دؤاد) امرأة أخرى هي (أم حبتر) لكنها طلقته لتبذيره وإسرافه ، وللخصومات التي كانت تقع بينهما[3] . ويظهر انه ترك ابنة اسمها (دؤادة)[4] .

وقد ذهب (بروكلمن) الى انه كان من المعاصرين للمنذر بن ماء السماء،الذي قدر وقته فيما بين حوالى (٥٠٦) و (٥٥٤) للميلاد[5] . وذهب (فون غرونباوم) الى انه كان حياً من سنة ٤٨٠ الى حوالى (٥٤٠ — ٥٥٠) للميلاد[6] .

وقد ورد اسم (أبو دؤاد) في شعر (طرفة) ، كما ذكره (الأسود بن يعفر) ، الشاعر نديم (النعمان بن المنذر) ، حيث يقول :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم ، وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

---

١ « وأبو دؤاد الايادي ، وهو حوثرة بن الحارث بن الحجاج » ، اليعقوبي (٢٣٣/١) ، (طبعة النجف) ، العيني (٤٤٥/٣) ، غوستاف فون غرونباوم ، دراسات في الادب العربي (ص ٢٥٥) .

٢ الشعر والشعراء (١٦٢/١) ، الخزانة (١٩١/٤) ، (بولاق) .

٣ الاغاني (٩٥/١٥ وما بعدها) ، غرونباوم ، دراسات (٢٥٨) ، الامدي ، المؤتلف (١١٦) .

٤ الاغاني (٩٨/١٥ وما بعدها) ، غرونباوم ، دراسات (٢٥٨ وما بعدها) .

٥ بروكلمن (١١٨/١) .

٦ دراسات في الادب العربي (٢٥٦ وما بعدها) .

نزلوا بأنقرةٍ يسيلُ عليهمُ ماء الفرات يجيء من أطواد
أرض تخيرها لطيب مقيلها كعب بن مامة وابن أم دؤاد[1]

وكعب بن مامة من إياد،وابن أم دواد ، هو الشاعر أبو دؤاد (أبو دواد) الإيادي . و (انقرة) موضع بالعراق على مقربة من الحيرة[2] . ويظهر من هذه الشعر ، أن (إياداً) ، أو فرعاً منها ، نزلوا بأنقرة ، بزعامة كعب بن مامة والشاعر أبو دؤاد .

وكان في عصر (كعب بن مامة) الإيادي ، الذي آثر بنصيبه من الماء رفيقه (النميري) فمات عطشاً ، فضرب به المثل في الجود ، وبلغه عنه شيء فقال :

وأتاني تقحيم كعبٍ الى المنطقِ إن النكيثة الأقحام
في نظام ما كنت فيه فلا عزنك قولٌ ، لكل حسناء ذام
ولقد رابني ابن عمي كعبٌ إنه قد يروم ما لا يرام
غير ذنب بني كنانة مني ان أفارق فإنني مجذام

وكان بعض الملوك أخافه ، فصار الى بعض ملوك اليمن فأجاره فأحسن اليه، فضرب المثل بجار أبي دؤاد ، قال طرفة :

إني كفاني من همٍ هممت به جار كجارِ الحذاقي الذي انتصفا

والحذاقي هو (أبو دؤاد) ، والحذاق قبيلة من إياد .

ويقال : انما أجاره الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ، وذلك ان قباذ سرّح جيشاً الى إياد ، فيهم الحارث بن همام ، فاستجار به قوم من إياد فيهم أبو دؤاد ، فأجارهم .

وذكر ان جار (أبي دؤاد) هو كعب بن مامة[3] ، وكان (أبو عبيدة)

---

١ الشعر والشعراء (١٧٦/١) ، (الاسود بن يعفر) .
٢ تاج العروس (٥٨٢/٢) ، (نقر) .
٣ الشعر والشعراء (١٦١/١ وما بعدها) ، الخزانة (٤٠٨/١ وما بعدها) ، (بولاق) .

يذكر ان جار (أبي دؤاد) ، هو (كعب بن مامة) ، وأنشد لقيس بن زهير ابن جذيمة في ربيعة بن قُرط :

أحاول ما أحاول ثم آوي الى جارٍ كجارِ أبي دؤاد[1]

ويظهر أن (قباذ) لما أرسل جيشاً على (إياد) هربت من مواطنها فأجارها (الحارث بن همام) . وورد في رواية أن جَدَباً حل بإياد ، فاضطرت بطونها على الارتحـال الى مواضع أخرى ، وكانت لهم ناقة اسمها (الزباء) ، كانوا يتبركون بها ، فخرجت تلتمس لهم الخصب والمرعى ، حتى بركت بالحارث بن همام ، فنزلت إياد عنده ، وأجارهم[2] .

وتذكر رواية أن (الحارث بن همام) ودى ابناً لأبي دؤاد : غرق حين كان أبو دؤاد في جواره ، فدحـه . فحلف الحارث أنه لا يموت لأبي دؤاد ولد ، إلا وداه ، ولا يذهب له مال إلا أخلفه عليه[3] .

ويرى (غرونباوم) أن (أبا عبيدة) ، هو الذي صيّر (كعب بن مامة) الإيادي جار (أبي دؤاد) ، وقد تابعه من جاء بعده على ذلك ، فصار (كعب) بذلك مجير شاعرنا ، بينما هو (الحارث بن همام)[4] . وسبب ذلك أن (كعباً) كان قد اشتهر بالكرم والإيثار وتقديم الغريب على نفسه ، حتى أنه ضحى بنفسه في سبيل صاحبه (النميري) حتى فضله بعض أهل الأخبار على (حاتم) الطائي في الجود[5] . ثم إن كعباً من إياد ، فربما فضل بنو إياد أن يكون منهم أسخى وأكرم رجل في العرب ، عـلى أن يكون من غيرهم ، ولذلك افتخروا به ، فنسبوا الجوار له ، وحذفوه من (الحارث بن همام) ، وهو من (بني شيبان).

وهناك رواية تجعل (المنذر) جاراً لأبي دؤاد ، لأنه ودى أبناء (أبي دؤاد)، ودى كل ابن عائي بعير ، حينما قتلهم (رقبة بن عامر) البهراني ، وكان رقبة

---

١ الشعر والشعراء (١٦٢/١) .
٢ غرونباوم ، دراسات (٢٥٩) .
٣ المصدر نفسه (٢٥٩) .
٤ غرونباوم ، دراسات (٢٥٩ وما بعدها) .
٥ البخلاء ، للجاحظ (١٥٨ ، ٢١٨ ، ٣٨٢) ، ثمـار القلوب (٩٨ ومـا بعدها) ، المحاسن والاضداد (٥٤) ، الحيوان (٣٧/٢) ، البيان والتبيين (١١٢/١) .

في جوار المنذر[1] . وذكر (البغدادي) ، ان أحد الملوك أحسن الى (أبي دؤاد) وأجاره ، فضرب المثل بجار (أبي دؤاد) ، ولم يذكر اسم الملك . قال طرفة:

إني كفاني من أمر هممت به جار كجار الحذاقي الذي انتصفا[2]

وقد ذكر (البغدادي) في الجزء الأول من الخزانة في تفسير بيت قيس بن زهير بن جذيمة :

أطوّف ما أطوّف ثم آوي الى جار كجار أبي دواد

« وأبو دواد ، هو أبو دواد الإيادي الشاعر المشهور ، وجاره كعب بن مامة الإيادي ، الجواد المشهور ، وقيل : بل هو الحارث بن همام بن مرة ، وكان أسر أبا دواد ناساً من قومه ، فأطلقهم وأكرم أبا دواد وأجاره فمدحه أبو دواد وأعطاه ، وحلف أن لا يذهب له شيء إلا أخلفه له . ويقال ان ولد أبي دواد لعب مع صبيان في غدير فغمسوه فات ، فقال الحارث : لا يبقى صبي في الحي إلا غرق . فودى ابنه بديات كثيرة »[3] .

ونسب بعض رواة الشعر اليه القصيدة التي أولها :

أعنّي على برقٍ أراه وميض يضيء حبياً في شماريخ بيض

وهي قصيدة تنسب أيضاً الى (امرىء القيس)[4] .

ونسب (الأصمعي) له قوله :

ويصيخ أحياناً كما استمع المضل دعـــاء ناشد[5]

وقد تمثل بشعره ، ومما تمثل به قوله :

أكل امرىء تحسبـــين امرءاً ونارٍ تحرق بالليـــل نارا

---

١ الاغاني (١٥/٩٩) ، غرونباوم (٢٦٠) .
٢ الخزانة (٤/١٩١) .
٣ الخزانة (١/٤٠٨) ، (بولاق) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٠٣) .
٥ رسالة الغفران (٤٠٩) .

وقوله :

الماء يجري ولا نظام له   لو وجدَ الماء مخرقاً خرقه[1]

ومن شعره :

ترى جارنا آمنــاً وسطنا   يروح بعقد وثيق السبب
إذا ما عقدنا له ذمــة   شددنا العناجَ وعقد الكرب

أخذه الحطيئة ، فقال :

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم   شدّوا العناج وشدّوا فوقه الكربا

وكان الحطيئة من المقدرين لشعره . قيل له من أشعر الناس ؟ فقال : الذي يقول :

لا أعد الإقتارَ عَدماً ولكن   فقدُ من قد رزئتــه الأعدام

من قصيدة تعدّ من أجود شعره[2] .

ومن شعره قطعة هجا فيها رجــلاً اسمه (امرؤ القيس بن أروى) ، إذ يقول فيه :

امرأ القيس بن أروى مُولياً   ان رآني لأبوأنْ بسبــد
قلت بجلاً ،قلت قولاً كاذباً   إنما يمنعني سيفي ويد[3]

وقد وضع (غرونباوم) قبل هذين البيتين : بيتاً هو :

وفتو حسن أوجههــم   من إياد بن نزار بن معد[4]

---

١ الشعر والشعراء (١/١٦٣) ، (الثقافة) .
٢ الشعر والشعراء (١/١٦٢) ، (الثقافة) .
٣ اللسان (٣/٢٠٢) ، (بحرا) ، (سبد) ، (بجرا) ، تاج العروس (٢/٣٧٠) ، (سبد) . وقد ورد البيتان على هذه الصورة : « قال أبو دؤاد الايادي :
امرؤ القيس بن أروى مقسم   ان رآنــي لأبــوأن بفنــــد
قلت بجلا قلت قــولا كاذبا   انما يمنعني سيــف ويــد »
تاج العروس (٧/٢٣١) ، (بجل) .
٤ غرونباوم ، دراسات (٣٠٥) .

وقد ورد في (اللسان) وفي (التاج) على هذه الصورة :

في فتو حسن أوجههـــم من إياد بن نزار بن مضر[1]

وعندي ان هذا البيت من الشعر المصنوع ، لأن هذا النسب ، لم يعرف إلا في الاسلام ، ولا يوجد دليل يثبت وقوف الجاهليين عليه . وهو عـــلى الصورة التي ورد عليها في لسان العرب وفي تاج العروس خطأ ، لأن نزاراً ليس ابن مضر في عرف أهل الأنساب ، كما سبق أن تحدثت عن ذلك في باب العرب المتعربة .

وقد نسب هذا البيت الى (الحارث بن دوس الإيادي)[2] .

ونجد الشاعر يرثي رجلاً اسمه (أبو بجاد) ، نعته بـ (أبي الأضياف في السنة الجماد) ، وهذا الوصف هو من الأوصاف الدالة على غاية الكرم ، إذ يلجأ الناس اليه في أيام الجوع وانحباس المطر وحصول القحط ، حيث يجب أن يبخل الانسان بماله من الإسراف في انفاقه ، أما هو فلكرمه لا يحفل بسنة المحل سنة الجماد ، بل يعطي وينفق على كل من يلجأ اليه مستجيراً . ولا نعـــلم من خبر (أبي بجاد) هذا شيئاً يذكر[3] . وقد ورد في (تاج العروس) : « وأبو البجاد شاعر سمي ببيت قاله :

فويل الركب إذ آبوا جياعاً ولا يدرون ما تحت البجاد »[4]

ولكن هل توجد صلة بين (أبي بجاد) الممدوح ، وبين (أبي البجاد) الشاعر ؟ وجوابي : لا .

وقد أشار (أبو دؤاد) الى قتال وقع بين (بني شهران) وبين قوم آخرين لم يشر الى اسمهم ، وذلك في هذا البيت :

وكّت رجال بني شهران تتبعها خضراء يرمونها بالليل من شمم[5]

---

١ اللسان (٣/٧٧) ، (أيد) ، تاج العروس (٢/٢٩٣) ، (آد) .
٢ العمدة (٢/٧٩) .
٣ تاج العروس (٥/٩٩) ، (حض) ، اللسان (٩/١١٦) ، (حض) .
٤ تاج العروس (٢/٢٩٤) ، (بجد) .
٥ غرونباوم ، دراسات (٥٦) .

وينسب رواة الشعر له شعراً زعم أنه قال فيه :

ضربنا علـى تُبع جزية   جياد البرود وخرج الذهب
وولى أبو كرب هـارباً   وكان جباناً كثير الكذب
واتبعتـه فهوى للجبين   وكان العزيزُ لها من غلب[1]

وتبع ، لقب يطلقه العرب على ملك حمير ، فيقولون تبابعة اليمن ، يريدون ملوك اليمن . والتبع (أبو كرب) هو الملك : (أبو كرب أسعد) وهو ابن الملك (ملك كرب يهأمن) ، الـذي حكم من سنة (٣٨٥) حتى السنة (٤٢٠) للميلاد[2] . ولكـن كيف ضربت (إياد) الجزية على (تبع) ، وكيف وصل الشاعر الى اليمن البعيدة عن إياد ؟ قد يقال إنه أشار الى غزو قام به أحد ملوك الحيرة على (أبي كرب أسعد) ، تبع اليمن ، انتصر فيه ملك الحيرة عـلى التبع ، وكان هو وقومه قد ساهموا فيه ، ولكننا لا نستطيع التأكـد من ذلك ، إذ من يثبت لنا أن هذا الشعر هو شعر صحيح ، لم تصنعه العدنانية عـلى لسانه في الإسلام حتى نصدق بصحة الخبر !

ونجد في شعره إشارة الى (قباذ) ، والى (الحضر) ، إذ يقول :

أين ذو التاج والسرير قبـاذ   خبنته الأيام فبادَ احدى الحُبون
ولقد عاش آمنـاً للدواهي   ذا عتاد وجـوهر مخزون
وأرى الموت قد تدلى من الحضر على ربِّ أهلـه الساطرون
صرعته الأيام من بعد ملكٍ   ونعيمٍ وجـوهر مكنـون
ملك الحضر والفرات فا دجلةً   شرقـاً فالطور من عابديـن
ولقـد كان في كتائب خُضر   وبـلاطٍ يشاد بالآجـرون[3]

و (قباذ) ملك من الساسانيين حكم من سنة (٤٨٣ — ٥٣١) بعد الميلاد ، وأما (الساطرون) فقد تحدثت عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب[4] .

---

١ غرونباوم ، دراسات (٢٩١) .
٢ راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب (ص ٥٧٤) .
٣ حماسة البحتري (٨٧) ، تـاج العروس (٢/٢٦١) ، (٩/٢١٤) ، الامـالي ، للشجري (١/١٠٠ ، ٣٦١) ، غرونباوم ، دراسات (٣٤٥) .
٤ (٦١٥ وما بعدها) .

ولدينا قطعة من الشعر نسبت اليه ، وردت فيها أسماء مواضع مثل : (هضب ذي الأسناد) ، و (السيلحين) ، و (برقة الأثماد) ، ثم أشار الى معركة وقعت بين (إياد) قومه وبين (تنوخ) انتصفت فيها (إياد) من تنوخ ، إذ يقول :

ولقد صبّبن على تنوخٍ صبّة فجزينهم يوماً بيوم قحاد[1]

وكان علماء العربية لا يستشهدون بشعر (أبي دؤاد) ولا بشعر (عدي بن زيد العبادي) ، لأن ألفاظها ليست بنجدية[2] .

ذكر (الجاحظ) ان (أبا إياس) النصري ، وكان أنسب الناس ، كان يقول : « كانوا يقولون : أشعر العرب أبو دواد الإيادي ، وعدي بن زيد العبادي »[3] . ويروي (الأصمعي) ان الرواة لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد ، لأن ألفاظها ليست بنجدية ، ولمخالفتها مذاهب الشعراء[4] ، ولم يكن (الأصمعي) ممن يهوى اليه كثيراً ، بدليل انه جعل شعره صالحاً غير انه لم يجعله في عداد فحول الشعراء[5] .

وورد في الأخبار ان (الحطيئة) ، كان يرى انه أشعر الناس . فقد ورد ان (سعيد بن العاص) سأل (الحطيئة) : أي الناس أشعر ؟ قال : الذي يقول:

لا أعد الإقتار عُدماً ولكن فقد من قد رزئته الأيام

وقائل هذا البيت ، هو أبو دواد الإيادي[6] .

وكان (أبو الأسود) الدؤلي ، وهو من الحذّاق العالمين بالشعر ، يتعصب له[7].

---

١ غرونباوم (٣١٠ وما بعدها) ، وقد أشار الى الموارد التي أخذ منها تلك الابيات .

٢ الشعر والشعراء (١٢٠) ، الاغاني (٩١/١٦ وما بعدها) ، الموشح ، للمرزباني (٧٣) ، الجرجاني ، الوساطة (٤٧) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١١٩/١ ، ١٢٦) ، الشعر والشعراء (١٦٢/١) ، (دار الثقافة) .

٣ البيان والتبيين (٣٢٣/١) .

٤ الاغاني (٩٧/١٥) ، الخزانة (١٩١/٤) ، الموشح (٧٣) .

٥ غرونباوم (٢٦١) .

٦ رسالة الغفران (٥٧٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (٣٦٠/١) .

٧ غرونباوم (٢٦١) .

وكانت (إياد) تفخر بشاعرها (أبي دؤاد) ، وتقول : منّا أجود العرب : كعب بن مامة ، ومنّا أشعر الناس : أبو دؤاد ، ومنّا أنكح الناس: ابن الغز[1] . وقد ادعت إياد أن الشعر بدأ بها ، لأنه بدأ بأبي دؤاد[2] .

وقد استشهد علماء شواهد النحو ببيت له ، هو :

ربما الجامل المؤبل فيهم وعناجيج بينهن المهار

وقد ذكر السيوطي أنه من قصيدة طويلة عدتها ثمانية وسبعون بيتاً[3] .

وقد عدّه بعض أهل الأخبار في الشعراء المقلين[4] . ونجد له شواهد في الاتعاظ والأمثال وفي الشعر الجيد وفي أمور النحو ، وفي البديع[5] . « ولدينا أحد عشر مطلعاً لإحدى عشرة قصيدة من قصائد أبي دؤاد وكلها مصرّعة »[6] . ويرى (غرونباوم) قلة ما في شعر (أبي دؤاد) من الإقواء ، فلم يقف في شعره إلا على اقواءين ، ووجد بيتين ، أحدهما من الرجز والآخر من الوافر ، يبدو فيهما شيء من عدم الاستواء . وله مزايا خاصة استعملها في تفعيلات الخفيف . وأرى أن التشعيث الذي لاحظه (العيني) في الأصمعية (٧٢) ، « لا يعد خطأ ، بل هو مظهر من مظاهر التطور الفني في هذا الوزن ، مظهر استنكر أو نسي مع الزمن حين ظهر علم العروض ، بعد حوالى قرنين من وفاة أبي دؤاد »[7] .

وقد شرح ديوان (أبي دؤاد) العالم (ابن السكيت) ، وقد نقل منه (البغدادي) في الخزانة[8] . وقد ذكر (البغدادي) ان (لأبي دؤاد) ديواناً وقف عليه وأخذ منه ، غير انه لم يذكر اسم جامعه[9] . وفي الشعر المنسوب اليه

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٥٩) ، الاغاني (١٥/٩٧ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٤٧٧) ، (تنقل الشعر في القبائل) .
٣ الخزانة (٤/١٨٩ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ المزهر (٢/٤٨٦) ، (المقلون من الشعراء) .
٥ راجع البيت الخامس عشر من الاصمعية ٢٩ ، والبيت الثالث من القطعة (٤٨) ، غرونباوم (٢٦٢) ، الباقلاني ، اعجاز (٧٩) ، النويري (٧/١١٢) .
٦ غرونباوم (٢٦٦) .
٧ غرونباوم (٢٦٧ وما بعدها) .
٨ الخزانة (٤/١٩٠) .
٩ الخزانة (١/٩) .

شعر مصنوع ، وقد ذُكر ان (خلف الأحمر) صنع على أبي دؤاد أربعين قصيدة[1] . ونجد في الشعر الذي جمعه (غرونباوم) لأبي دؤاد شعراً لا يصح انه من شعره ، كما ان في شعره ما نسب لغيره ، ومنهم شعراء من إياد ، مثل (أبي المنذر) الإيادي[2] .

ومن شعراء (إياد) : (لقيط بن يعمر) ، وقيل (معمر) الإيادي . وإياد من قبائل (نزار) ، ومن أكثر قبائل هذا الحلف عدداً ، قيل انهم كانوا لقاحاً لا يؤدون خرجاً ، وهم أول معدي خرج من تهامة ، فنزلوا السواد ، وغلبوا على ما بين البحرين الى (سنداد) و (الخورنق) . وكانوا أغاروا على أموال لأنوشروان فأخذوها ، فجهز اليهم الجيوش ، فهزموهم مرة بعد مرة ، ثم ان إياداً ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة ، فوجه اليهم كسرى بعد ذلك ستين ألفاً في السلاح ، وكان (لقيط) متخلفاً عنهم بالحيرة ، فكتب اليهم :

سلام في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من إياد
بأن الليث كسرى قد أتاكم فلا يشغلكم سوق النقاد
أتاكم منهمُ ستون ألفاً يزُجون الكتائب كالجراد

فاستعدت إياد لمحاربة جنود كسرى ، ثم التقوا ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، أصيب فيه من الفريقين ، ورجعت عنهم الخيل ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فلحقت فرقةٌ بالشام ، وفرقة رجعت الى السواد ، وأقامت فرقة بالجزيرة . ونسبوا له قصيدة أخرى ، ذكروا انه نظمها في هذه القصيدة[3] . من جملة ما ورد فيها :

قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا
هيهات ما زالت الأموال من أبد لأهلها إن اصيبوا مرة تبعا

ومنها قوله في اختيار الرئيس وتدبير الحرب والانصياع للقائد :

وقلدوا أمركم لله درّكمُ رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

---

١ غرونباوم (٢٦٠) ، الموشح (٢٥٢) .
٢ غرونباوم (٢٨١ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١٢٩/١ وما بعدها) ، الاغاني (٢٣/٢٠) ، بروكلمن (١١٢/١) .

لا مترفاً إنْ رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به جزعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعاً طوراً ومتّبعا
حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم السنّ لا قحماً ولا ضرعا[1]

وأنا إذ أذكر (لقيط بن يعمر) في هذا الفصل ، فلا أريد بذلك اثبات انه كان من الشعراء النصارى ، لأني لا أملك نصاً بذلك ، إنما أدخلته هنا لمجرد أنه شاعر من شعراء إياد ، كما أدخلت (أبا دؤاد) الإيادي فيه لما ذهب (نالينو) الى أنه من النصارى ، وقد كانت النصرانية متفشية في إياد وتغلب ، وقبائل أخرى من قبائل العراق وبلاد الشأم ، والبادية التي بينهما .

أما (عدي بن زيد) العبادي ، فهو نصراني من غير شك ، فالعباديون ، نصارى ، وقد أطلقت اللفظة عند العرب على النصارى ، نصارى الحيرة ، كما نص أهل الأخبار على تنصره . وقد كان شعره سهلاً ليناً ، بعيداً عن شعر شعراء نجد ، قال (الأصمعي) : « كانت الرواة لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد لمخالفتها مذاهب الشعراء »[2] أو « لأن ألفاظها ليست بنجدية »[3] . وقد روى (الجواليقي) له شعراً في كتابه (المعرب)،وهو كتاب ألفه في المعربات، وفي استشهاده بشعره دلالة على تأثره بالآرامية وبالفارسية التي درسها في (الكتاب)[4].

واذا أخذنا بمذهب (الأصمعي) من ان الرواة كانت لا تروي شعر أبي دؤاد ولا عدي بن زيد ، لمخالفتها مذاهب الشعراء ، وما ذكره غيره لأن ألفاظها ليست نجدية ، ولأن عدياً سكن الريف ، فلان شعره وبان ذلك على لسانه ، ولأنه تأثر بلغة أهل الحيرة ، واستعمل ألفاظهم ، وما شاكل ذلك من حجج ، وجب علينا رفض الاستشهاد بشعر (أمية بن أبي الصلت) كذلك ، فقد كان من أهل قرية ، وقد استعمل في شعره ألفاظاً لم تعرفها العرب ، وقرأ الكتب ، كما يجب إدخال (الأعشى) معها أيضاً ، لأنه خالط أهل الريف ، واتصل بالحضر وبالأعاجم ، واستعمل في شعره ألفاظاً معربة ، كما اختلف مذهبه في الشعر عن

---

١ بلوغ الارب (١١٤/٣ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١٣٠/١) .
٢ الاغاني (١٨/٢) ، (٩١/١٥ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (١٦٢/١) .
٤ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (٩٠) .

مذهب شعراء البادية الأعراب ، فضلاً عن كونه من أهل اليمامة ، وأهل اليمامة ممن اختلط لسانهم بلسان أهل اليمن ، وتأثر بهم .

ويخالف شعر (عدي) شعر شعراء نجد في ابتعاده عن الأعاريض الطويلة وميله الى الأعاريض القصيرة ، كما يخالفهم في أسلوب خمرياته ، فهو في وصفه الخمر قريب من أسلوب (الأعشى) في الخمريات . وله أوصاف بديعة للخمر ، تعبر عن معان حضرية ، نابعة من طبيعة القرى والريف ، وبهذا الوصف اختلف عن وصف امرىء القيس أو غيره من الشعراء للخمر . كما امتاز بوصفه القيان ومجالس الشرب ، وما كانت تولده له من نشوة وطرب ، واتخذ (عدي) من الخمر ، فلسفة دفعته الى الزهد ونبذ الغرور ، لأن الدنيا زائلة ، وكل شيء فيها لا بد وأن ينتهي الى زوال . وهو شعر انبثق من طبيعة (عدي بن زيد) ثم من الأحوال التي مرت عليه ، والتي انتهت به الى السجن ، بعد أن وصل أعلى ما يصل اليه إنسان في زمانه وفي مكانه .

واتخذ (عدي) من القصص القديم عبراً وجهها من سجنه الى (النعمان) والى الشامتين به ، الحاسدين له ، الذين كانوا سبب نكبته ، بأن قال :

أيها الشامت المعير بالدهـ ـر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ـام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وان أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرامُ ملوك الـ ـروم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ـلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلـ ـساً فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ـملك عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ شـ ـرّف يوماً وللهدى تفكير
سرّه ماله وكثرة ما يـ ـملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال : وما غبـ ـطة حي الى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأ مـة وارتهم هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جـ ـف فألوت به الصَّبا والدبور[1]

---

[1] الشعر والشعراء (١٥٠/١ وما بعدها) .

وله شعر آخر أوله :

أتعرف رسم الدار من أم معبد   نعم ، فرماك الشوق قبل التجلد

قال فيه :

أعاذل ما يـــدريك أن منيّتي   الى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
ذريني فإني انمـــا ليّ ما مضى   أماميّ من مالي إذا خف عودي
وحمّت لميقـــات اليّ منيـــتي   وغودرت قد وسدت أو لم أوسّد[1]

وهو شعر نبع من واقع حاله الذي صار اليه ، فهو لا يدري متى وفي أيـــة ساعة ستأتيه منيته . ومن زج في سجن مثل سجنه ، وصار في حال مثل حاله ، يكون قلقاً لا يدري ما الذي سيكون مصيره ، فهو شعر يعبر عن شعور انساني ينتاب الانسان في مثل هذه المواقف ، ليس له علاقة بنصرانية أو بدين .

والشعر المذكور إن صح انه من شعر (عدي) ، وانه غير مصنوع ولا معمول عليه ، يكون قد قدم لنا قصصاً قديماً من قصص أهل الجاهلية، وحكايات كانوا يروونها من حكايات التأريخ ، ويكون بذلك شاهداً على ان أهل الحيرة، والمثقفين منهم بصورة خاصة كانوا يعرفون تأريخ الماضين ، وقد وقفوا على تأريخ الفرس وتأريخ الروم ، والحضر ، وتأريخ غيرهم من شعوب معاصرة لهم، ومن شعوب غابرة ، وردت أخبارها في الكتب القديمة ، ولا سيا في الكتب المقدسة وفي كتب التواريخ . فنحن نجد له قصيدة أشار فيها الى خطيئة آدم ، وهذه الخطيئة تلعب دوراً خطيراً في كل الأديان السماوية المعروفـة التي أقرت بالكتب المقدسة ، وقد صاغ قصتها على هذا النحو :

قضى لستـة أيّام خليقتـــه   وكان آخرها أن صوّر الرجلا
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له   بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
ثُمتَ أورثهُ الفردوسَ يعمرها   وزوجه صنعة من ضلعه جعلا
لم ينههُ ربّهُ عن غير واحدة   من شجرٍ طيّب: أن شَمّ أو أكلا
فكانت الحيّة الرقشاء إذْ خلقت   كما ترى ناقة في الخلق أو جملا
فعَمدا للتي عن أكلها نُهيـــا   بأمر حواءَ لم تأخذ له الدّغلا
كلاهما خـــاط إذْ بزّا لبوسهما   مِنْ ورق التين ثوباً لم يكن غزلا

فلاطَها الله إذ أغوت خليفتهُ طول الليالي ولم يجعل لها أجلا
تمشي على بطنها في الدهر ما عمِرت والترب تأكله حزناً وإن سهُلاً
فأتعبا أبوانا في حياتهما وأوجدا الجوع والأوصاب والعِللا
وأوتيا الملكَ والانجيل نقرأه نشفي بحكمته أحلامنا عللا
من غير ما حاجة إلا ليجعلنا فوق البرية أرباباً كما فعلا[1]

والشعر هذا مذكور في كتاب (الحيوان) للجاحظ ، وفي ذكره له ، دلالة على أنه قد كان معروفاً في أيامه ، وهو يستند على ما ورد في (سفر التكوين) السفر الأول من أسفار التوراة ، وفيه قصة الخليقة ، ونجد قصة (الحية) في في شعر (أمية بن أبي الصلت) ، حيث يقول :

كذي الأفعى تَربَّبَها لديه وذي الجنى أرسلها تساب
فلا ربَّ البريّة يأمنها ولا الجني أصبح يستتاب

وقد دوّن هذين البيتين (الجاحظ) كذلك في كتابه : (الحيوان) ، مما يدل على أنهما كانا معروفين ، وهما من قصيدة ذكرها الجاحظ قبلها في رطوبة الحجارة ، وأن كل شيء قد كان ينطق ، ثم عن منادمة الديك الغراب ،واشتراط الحمامة على نوح[2] :

وقصة (عدي) قصة أوضح وأقرب الى الأصل المذكور في الاصحاحات الثلاثة الأولى من سفر التكوين ، من القصة المذكورة في الشعر المنسوب الى (أمية) . يظهر أن ناظمها قد صاغها عن مطالعة وعن إلمام عام بها . فهي في الواقع قصيدة شملت قصة دينية ، ضمت اسطورة الخلق كما جاءت في الاصحاحات المذكورة ، مع بعض (الرتوش) والإصلاحات التي اقتضتها طبيعة نظم الشعر ، وقد لخصها تلخيصاً حسناً قريباً من الأصل ، يدل على إحاطة به . ولعلّه من وضع شاعر أحب صوغ هذه القصة في شعر ، فنظمها ونسبها الى (عدي بن زيد) .

وقد ظل العباد يتغنون بخمريات وبشعر (عدي) أمداً طويلاً بعد وفاته . وقد كان (القاسم بن الطويل) العبادي ، أحد ندماء (الوليد) الثاني ممن يروون

١ الحيوان (١٩٧/٤ وما بعدها) .
٢ الحيوان (١٩٧/٤) .

شعره ، وحبذه الى الخليفة ، الذي كان شاعراً يحب الخمر ، وينظم الشعر فيها، مما صار باب من أبواب الخمريات في الشعر الإسلامي[1] . ومن شعره قوله :

أيها القلب تعلل بددن   إنّ همي في سماع واذن[2]

ومن الشعراء النصارى الذين نص أهل الأخبار على تنصرهم : (موسى بن جابر بن أرقم بن سلمة بن عبيد) الحنفي اليامي ، المعروف بـ (أزيرق اليمامة) ، وبابن ليلى ، وهي أمه ، وكان نصرانياً . قال عنه (المرزباني) انه شاعر كثير الشعر ، وقد أورد له نتفاً من شعره[3] ، ويمتاز ما ذكره بالبساطة والسهولة والليونة وهو يختلف بأسلوبه عن شعر الأعراب .

أما (الأعشى) ، وقد تحدثت عنه ، فهو من اليمامة ، وقد كان معظم أهل اليمامة على النصرانية عند ظهور الاسلام ، ولذلك فقد يكون على النصرانية ، غير اننا لا نستطيع أن نأتي بدليل مقبول يثبت تنصره ، وقد رأينا ان أهل الأخبار كانوا قد جعلوه في عداد (القدرية) و (أهل العدل) ، زعموا انه أخذها من (الحيرة) ، وكانوا عبّاداً ، وكان يزورهم يشرب الخمر عندهم ، كما كان راويته (يحيى بن متّى) نصرانياً ، ولكن النصرانية لا تعني القدرية ، وكون راويته نصرانياً ، لا يعني انه كان نفسه نصرانياً ، وأما ما جاء في شعره من قصص وأمور معروفة عند النصارى ، فلا يكون دليلاً على تنصره ، فقد وردت مثل هذه الأمور في شعر غيره ، ولم ينص أحد على تنصرهم ، ثم ان شعره لا ينم على تعمق في نصرانية[4] ، لكني لا أريد أن أثبت انه كان وثنياً ، فوثنية الأعشى أو نصرانيته تخصه وحده ، وأنا لا أريد أن أنقص عدد النصارى ، وأن أزيد في عدد الوثنيين ، وانما هو رأي واستنتاج ليس غير .

ومن شعره الذي تطرق فيه الى أمور نصرانية قوله :

فما أيبلى على هيكل   بناه وصلّب فيه وصارا

---

١ بروكلمن (١/١٢٥) .
٢ امالي المرتضى (١/٣٣) .
٣ المعجم (٢٨٥) ، (فراج) ، شرح الحماسة ، للمرزوقي (٣٢٦) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الاغاني (١٠/١١٣) ، الخزانة (١/١٢٦) .
٤ G. Graf, Geschichte der Christlichen Arabischen Literatur, I, S. 33.

يراوح من صلوات المليك طوراً سُجوداً وطوراً جُوّارا
بأعظم منك تقي في الحساب اذا النسمات نفضن الغبارا

وهي من قصيدة مدح فيها (قيس بن معد يكرب) الكندي . وقد اتخذ (المعري) هذا الشعر دليلاً على ايمان الأعشى بالله وبالحساب وبالبعث ، مما استوجب إدخاله في الجنة [1] .

وهناك أفكار نصرانية نجدها في شعر (النابغة) وفي شعر (زهير)،و (لبيد)، غير أننا لا نستطيع أن نقول إنهم كانوا نصارى ، لوجود هذه الأفكار في شعرهم، فمن الجائز أن يكون ورودها في شعرهم نتيجة لاختلاطهم بالنصارى ، وقد كانوا يكثرون من الذهاب الى الحيرة ، لمدح ملوكها طمعاً في نيل عطاياهم ، فاحتكوا بذلك بنصاراها ، وورد قصص نصراني في شعر أو نثر لا يدل حتماً على تنصر الناثر أو الشاعر ، كما أن وقوف شخص على دين من الأديان ، لا يدل حتماً على اعتناقه لذلك الدين . ومن هنا أخطأ الأب (لويس شيخو) في دعواه بتنصر أكثر الشعراء الجاهليين [2] .

ونجد في شعر امرىء القيس إشارات الى معالم نصرانية،مثل الرهبان وصلواتهم وسهرهم ، والى مصابيحهم ، مثل قوله :

نظرت اليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال [3]

ولكننا لا نستطيع إثبات أنه كان من النصارى .

و (حاتم الطائي) من شعراء طيء ، وقد مات قبل الاسلام ، وقبر بـ (عُوارض) جبل فيه قبره ببلاد طيء [4] . وهو (حاتم بن عبدالله بن سعد ابن الحشرج بن امرىء القيس بن عدي) ، ويكنى (أبا سفانة) بابنته، وابنه (عدي بن حاتم) من الصحابة . واليه ينسب المثل « لو غير ذات سوار لطمتني». وسبب قوله اياه – كما يقول ذلك الرواة – ان حاتم الطائي كان أسيراً في (عنزة) ،

---

١ رسالة الغفران (١٨١) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٢٧/١) ، (الطبعة الثانية) .
٣ الخزانة (٣٣/١) ، (بولاق) .
٤ تاج العروس (٤٨/٥) ، (عرض) ، الحيوان (٢٢٩/١) .

فقالت له امرأة يوماً : قم فافصد لنا هذه الناقة ! وكان الفصد عندهم ان يقطع عرقاً من عروق الناقة ، ثم يجمع الدم فيشوى . فقام حاتم الى الناقة فنحرها ، فلطمته المرأة . فقال حاتم : « لو غير ذات سوار لطمتني » فذهب قوله مثلاً [1]. وروي أيضاً انه قال : « هذا فصدي » ، يريد انه لا يصنع إلا ما تصنع الكرام. وقد نسب هذا المثل لكعب بن مامة ، وذلك انه كان أسيراً في عنزة فأمرته أم منزله أن يفصد لها ناقة ، فنحرها ، فلامته على نحره اياها ، فقال : هكذا فصدي [2].

ويلاحظ ان (الجاحظ) وغيره يقدمون (كعب بن مامه) على حاتم الطائي في الجود ، « لأن كعباً بذل نفسه في أعطية الكرم وبذل المجهود فساوى حاتماً من هذا الوجه ، وباينه يبذل المهجة » [3] . كما نلاحظ ان بعض أخبار الجود المنسوبة الى (حاتم) تنسب الى (كعب بن مامة) كالذي رأيته في تفسير المثل : « هكذا فصدي » .

ولما بلغ حاتم قول المتلمس :

قليل المــال يصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفسادِ
وحفظ المالِ خير من فناه وعسف في البلاد بغير زاد

قال قطع الله لسانه ، حمل الناس على البخل فهلا قال :

فلا الجود يفني المال قبل ذهابه ولا البخل في مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس مــالاً بعيش مُقَتّر لكل غدٍ رزق يعود جديـــد
ألم ترَ أن الرزق غـادٍ ورائح وأنّ الذيّ أعطاك سوف يعيد [4]

وذكر أن (زيد الخيل) عير حاتماً الطائي في خروجه من طيء ومن حرب

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٠٩) ، الخزانة (١/٤٩٤) ،لاغاني (١٦/٩٦) ، الشعر والشعراء (١/١٦٤ وما بعدها) ، الامالي ، للقالي (٣/١٥٤ وما بعدها) ، بروكلمن (١/١١١ وما بعدها) .
٢ الميداني ، أمثال (٢/٣١٧) ، الحيوان (٤/٢٧٤) ، الاغـــاني (١٦/١٠٢) ، الحيوان (٥/٣٣) ، البخلاء (١٥٨ ، ٣٨٢ وما بعدها) ، ثمار القلوب (٩٨ومـا بعدها) .
٣ الحيوان (٢/١٠٧ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٠٩) ، وتجد بعض الاختلاف في الروايات الاخرى ، المحاسن والاضداد (٤١) .

الفساد التي وقعت بين جديلة والغوث الى (بني بدر) حيث يقول :

وفرّ من الحرب العوان ولم يكن بهـا حاتم طبّاً ولا متطببـا
وريب حصناً بعد أن كان آبياً أبوة حصنٍ فاستقال واعتبـا
أقم في بني بدر ولا ما يهمنا إذا ما تقضت حربنا أن تطربا[1]

وقد أسره (ثوب بن شحمة) العنبري ، وكان شريفاً في قومه ، وكان يقال له (مجير الطير) ، لأنه أجار الطير في أرضه ، فكان لا يثار ولا يصاد بأرضه[2]. فقال حاتم :

إذا ما بخيل الناس هرّت كلابه وشقّ على الضيف الغريب عقورها
فإني جبـان الكلب بيتي موطأٌ جواد إذا ما النفس شحّ ضميرها
ولكن كلابي قد أقرت وعُوّدت قليل على من يعتريها هريرهـا[3]

وظل (حاتم) أسيراً عنده زماناً ، وقـد عُيّر (ثوب بن شحمة) بأنه وقومه أكلوا لحم المرأة ، فقال شاعر :

عجلتم ما صادكم علاج من العنوق ومن الدجاج
حتى أكلتم طفلة كالعاج[4]

وقد وصفت ابنته أباها للرسول ، وكان قد سألها عن أبيها على هذه الصفة : « كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ، ويقري الضيف ، ويشبع الجائع ،ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط » . ووصفه (ابن الأعرابي) بقوله : « كان جواداً يشبه شعره جوده ، ويصدق قوله فعله ... إذا غنم أنهب وإذا سئل وهب ... وإذا أسر أطلق »[5] . ويجب أن تكون وفاة (حاتم) غير بعيدة عن ظهور الإسلام .

---

١ الحيوان (٣٢٩/١) .
٢ الحيوان (٢٦٩/١) .
٣ الحيوان (٣٨٣/١) .
٤ البخلاء (٢٣٥ ، ٣٧٤) .
٥ الاغاني (٩٧/١٦ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تاريـخ الاداب العربيـة (٧٩) ، الخزانة (٤٩٤/١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٨/٢) .

ولأهل الأخبار قصص عن جود حاتم وكرمه ، ويبدأون به غلاماً ، يرعى إبل والده ، فمرّ به (عبيد الأبرص) ، و (بشر بن أبي خازم)، و (النابغة الذبياني) ، وهم يريدون (النعمان) فنحر لهم ثلاثة من الإبل ، وهو لا يعرفهم، ثم سألهم عن أسمائهم ، فتسمّوا له ، ففرق فيهم الإبل كلها، وبلغ أباه ما فعل، فاعتزله . ثم يروون انه ذبح فرسه،لما جاءته جارة له ، فشوى لحمها لها ولأولادها الجياع ، ثم استدعى بقية جيرانه فأطعمهم ، وبقي هو وأهله جياعاً ، ولم يكن لديه آنذاك غير فرسه هذه . ثم يروون قصصاً آخـر مشابهاً ، يمتد الى ما بعد وفاته ، حيث يذكرون قصة رجل اسمه (أبو خيبرى) ، ذكروا انه مرّ بقبر (حاتم) ، وأخذ يناديه : « يا أبا عدي أقرِ أضيافك ! فلما كان في السحر وثب أبو خيبرى يصيح : وارحلتاه ! فقال له أصحابه : ما شأنك ؟ فقال : خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر اليه ، فنظروا الى راحلته فإذا هي لا تنبعث ، فقالوا : قد والله قراك ، فنحروها وظلوا يأكلون من لحمها ، ثم أردفوه وانطلقوا ، فبيناهم كذلك في مسيرهم ، طلع عليهم (عدي بن حاتم) ومعه جمل أسود قد قرنه ببعيره ، فقال : ان حاتماً جاءني في المنام فذكر لي شتمك اياه ، وانه قراك وأصحابك راحلتك ، وقد قال في ذلك أبياتاً ، ورددها عليّ حتى حفظتها :

أبا خيبريّ وأنت امرؤٌ حسود العشيرة لوّامها
فماذا أردت الى رمّة بداوية صخب هامها
تُبَغّي أذاها وإعسارها وحولك عوفٌ وأنعامها

وأمرني بدفع جمل مكانها اليك ، فخذه ، فأخذه[1] .

ولأهل الأخبار قصة في كيفية تزوج (حاتم) (ماويـة بنت عفزر) ، وكيف وجد عندها (النابغة) ، ورجلاً من النبيت ، يريدان الزواج منها ، لما وصل اليها ، وكيف امتحنتهم بقولها لهم : انقلبوا الى رحالكم، وليقل كل رجل منكم شعراً يذكر فيه فعاله ومنصبه فإني متزوجة أكرمكم وأشعركم، ثم تذكر القصة تفصيل ما وقـع بأسلوب منمق مقروناً بشعر وقرار (ماويـة) بتفضيل حاتم

---

١ الشعر والشعراء (١٧٠/١) ، الخزانـة (٤٩٤/١ وما بعدهـا) ، (بولاق) ، المحاسن والاضداد (٤١ وما بعدها) .

عليها[1] . وتذكر قصة أخرى ان (ماوية) كانت ابنة من بنات ملوك اليمن ، وكانت ذات جمال وكمال ومال ، فآلت ألا تزوج نفسها إلا من كرام الناس ، فقدم عليها حاتم ، وزيد الخيل،وأوس بن حارثة لأم ، فتقدم كل واحد يخطبها، فقالت ليصف كل واحد منكم نفسه في شعره ، فلما أنشدوا فضلت (حاتم) الطائي عليها ، فزوجت نفسها منه . وذكر ان (معاوية) كان يهوى حديث (ماوية)[2] .

وهم يذكرون أن جود (حاتم) جـاء اليه من أمه (عنبة) ، التي كانت سخية الى حدّ الإسراف ، حتى حبسها اخوتها سنة في بيت لعلّها تكف عما كانت عليه ، إذا ذاقت طعم البؤس وعرفت فضل الغنى ، ثم أخرجوها ودفعوا اليها صرمة من مالها ، فأتتها امرأة فسألتها ، فقالت لها : دونك الصرمة ، فقد والله مسني الجوع ما آليت معه ألا أمنعَ الدهرَ سائلاً شيئاً ! ثم أنشأت تقول:

لعمري لقدماً عضني الجوعُ عضة   فآليت ألاّ أمنع الدهر جـائعا
فقولا لهـذا اللائمي الآنَ أعفني   وإن أنتَ لم تفعل فعض الأصابعا
ولا مـا ترون اليوم إلاّ طبيعة   فكيف بتركي، يا ابنَ أم ،الطبائعا[3]

ونسب لحاتم قوله :

واني لاستحي حيـاءً يسرني   إذا اللؤمُ من بعض الرجال تطلعا
إذا كان أصحاب الإناء ثلاثـة   حيياً ومستحيا وكلبـاً مُجَشَّعا
فإني لأستحي أكيـلي أن يرى   مكانَ يدي من جانب الزاد أقرعا
أكفُّ يدي من أن تمس أكفهم   إذا نحن أهوينا وحاجتنا معـا
وإنك مهما تعط بطنك سؤله   وفرجك نالا منتهى اللم أجمعا[4]

وتنسب له قصيدة طويلة هي :

وعاذلتين هبتا بعـد هجعة   تلومان متلافاً مفيداً ملوما
تلومان لمّا غوّر النجم ضلة   فتى لايرى الانفاق في الحمدمغرما

---

١ الشعر والشعراء (١/١٦٧ وما بعدها) ، الخزانــة (٢/١٦٤ ومـا بعدها) ، (بـولاق) .
٢ الخزانة (٢/١٦٤ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ الشعر والشعراء (١/١٦٥ وما بعدها) .
٤ البيان (٣/٣٠٧ وما بعدها) .

الى أن يقول :

ولن يكسب الصعلوك حمداً ولا غنى | إذا هو لم يركب من الأمر معظما
لحا الله صعلوكاً مناه وهمّه | من العيش أن يلقي لبوسا ومغنما
ينام الضحى حتى إذا نومه استوى | تنبه مثلوج الفؤاد مورما
مقيماً مع المثرين ليس ببارح | إذا نال جدوى من طعام ومجثما
ولله صعلوك يساور همه | ويمضي على الأحداث والدهر مقدما
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة | ولا شبعة إن نالها عدّ مغنما
يرى الخمص تعذيباً ولم يلق شبعة | يبت قلبه من قلة الهم مبهما [1]

وهي أبيات أرى أنها من هذا الشعر الذي يشك في أكثره ، مثل الشعر المقال على لسان عروة والصعاليك ، يظهر أن الظروف الاجتماعية جعلت الأدباء ينظمون على لسانهم ، يتشكون فيها من ظلم الأغنياء ، لما كانوا يرونه من قسوة أصحاب المال على المعدمين والبائسين .

ويشك في كثير من شعر حاتم . وقد صار حاتم بالقصص الوارد عنه من الأبطال المعروفين عند غير العرب أيضاً ، فنجد له ذكراً في الفارسية وفي التركية ، وألف فيه في اللغات الأوروبية ، وطبع ديوانه جملة طبعات [2] . وكان يشبه شعر النمر بن تولب بشعر حاتم الطائي ، وكانا يشتركان في الجود وإتلاف الأموال وأريحية الطبع والتغني بذلك في الشعر [3] .

وكان (حاتم) على النصرانية على ما يظن ، وقد كان ابنه (عدي) عليها [4] .

و (جابر بن حُنَيّ بن حارثة بن عمرو بن بكر) من شعراء تغلب . وله قصيدة مطلعها :

ألا يا لقومي للجديد المصرم | وللحلم بعد الزلّة ، المتوهم
وللمرء يعتاد الصبابة بعدما | أتى دونها ما فرطُ حول مجرّم

---

١ الخزانة (١/ ٤٩٢) .
٢ بروكلمن (١/ ١١١ وما بعدها) .
٣ البخلاء (٣٨٤) .
٤ الاصابة (٢/ ٤٦٠) ، (رقم ٥٤٧٧) .

ذكر ان سبب قوله لها ، ان (المنذر بن ماء السماء) كان يبعث (عمرو بن مرثد بن سعيد بن مالك) ، و (قيس بن زهير) الجشمي ، على إتاوة ربيعة، وكانت ربيعة تحسدهما ، فجاء (عمرو) يوماً ، فقال جلساء الملك حسداً له : انه يمشي كأنه لا يرى أحداً أفضل منه ! فجاء فحيّا الملك بتحية ، فقال جابر هذه القصيدة [1] . وقد أدخله (بروكلمن) في عداد الشعراء النصارى [2] .

ويذكر انه هو (جابر) المذكور في البيت المنسوب لامرىء القيس ، وهو:

فإما تريني في رحالة جابر على حرج كالقر تخفق أكفاني [3]

وكان امرؤ القيس آنذاك مريضاً ، فكان (جابر) و (عمرو بن قميئة) يحملانه على الرحالة ، وهي خشبات ، وهي الحرج .

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٦٢ وما بعدها) ، اللآلي (٨٤٢) ، المفضليات (٢٠٨) .

٢ بروكلمن (١/٧٣) .

٣ من قصيدة :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ ازمان

ديوان امرىء القيس (٨٩ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٧٤) ، الشعر والشعراء (١/٥٣) .

الفصل السابع والستون بعد المئة

آراء الشعراء الجاهليين

والشعر الجاهلي مادة مهمة تعيننا في الوقوف على آراء الجاهليين ، على الرغم من كون أكثره قد ورد في أمور لا صلة مباشرة لها بالرأي ، أعني بالتفكير في خلق الكون وفي الانسان نفسه ، لِمَ جاء ولِمَ يموت ، وما هي الغاية من ظهوره على هذه الأرض ، وعن الخلق والخالق ، من إثبات أو عدم ، وعن النظم وأصول الحكم والمجتمع والمعرفة والثقافة وما شاكل ذلك من أمور لها صلة بالتأمل والتفلسف . ومع ذلك فإن في هذا الشعر المذكور ، ما يكفي لاستنباط شيء منه عن الرأي عند الجاهليين .

لقد حمل خلو الشعر الجاهلي من العاطفة الدينية ، بعض المستشرقين على الحكم بأن الجاهليين لم يكونوا يملكون حساً دينياً ، وان دينهم سنتهم ، وسنتهم ما ألفوه عن آبائهم وأجدادهم وأعراف قبيلتهم ، وهي أعراف ورثوها وحافظوا عليها ، محافظتهم على حياتهم ، وقاوموا كل من كان يخرج عليها أو يتطاول عليها. ونجد الشعراء يمجدونها ويذكرونها على حين لا نشعر بوجود حس ديني في شعرهم ، اللهم إلا في شعر عدد قليل من الشعراء[1] .

والشعر الجاهلي خلو من الشعر الديني الذي يجب أن ينظم في المناسبات الدينية، مثل الحج . ولما كان الحج من المناسبات المؤثرة المثيرة ، التي تجمع الناس ،

---

١ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 25.

فتثير في الشاعر شعوراً بروعة المناسبة وبروعة الاجتماع ، فلا بد وأن ينظم الشعراء شعراً فيه ، لإنشاده على المتجمعين حول الصنم ، غير أننا لا نملك أي شعر قيل فيه ولا في المناسبات الدينية المماثلة التي تدفع الإنسان إلى إظهار شعوره فيها؟ . وهو أمر يلفت اليه النظر حقاً ، ويجعلنا نفكر في الأسباب التي أدت الى عدم ظهور الروح الدينية في هذا الشعر ، هل هي طبيعة العربي في عدم اهتمامه بأمور الدين أم هي بسبب كره الإسلام رواية وحفظ ذلك الشعر الوثني !

لقد نسب بعض المستشرقين خلو الشعر الجاهلي من الوثنية ، الى ترك المسلمين تعمداً رواية ذلك الشعر ، بسبب دخولهم في الإسلام واجتثاث دين الله لمعالم الشرك فلم يجد المسلم أن من الهيّن عليه ، حفظ شعر فيه تنويه بما أبطله وحرمه كتاب الله ، فرموا منه ما كان ثقيل الوثنية ، وهذبوا منه ما كان خفيف الوزن ، بأن رفعوا أسماء الأصنام ، وأحلوا محلها اسم الله إن ناسب الإسم المعنى ، أو شذبوا فيه وأضافوا شيئاً عليه لإزالة معالم الوثنيـة منه . لأن من الصعب تصور إعراض الشاعر الجاهلي عن ذكر أصنامه في شعره ، بينما هو يتوسل ويتقرب اليها، وينذر لها. فالوثني مهما كان رقيق الدين ، بعيداً عن التفكير فيه ، فإنه لا بد وأن يلجأ اليه ساعـة الشدة وأيام المحن ، حيث يبحث عن يساعده للخروج من محنته ، شأنـه في ذلك شأن أي إنسان آخر ، حين تنزل به النوازل ، فيلجأ حينئذ الى إلهه أو آلهته وأصنامه والى القوى الطبيعية يستمد منها المساعدة والعون[1] .

وأنا لا أستبعد احتمال موت هذا النوع من الشعر الوثني بسبب الاسلام ، فليس من المعقول إبقاء الاسلام له ، وفيه ما فيه من أمر الأصنام والوثنية المناهضة لدين الله . وعندي ان الجاهلي ، مهما قيل عنه من إعراضه عن الدين ومن عدم احتفاله به ، ومن بعده عنه ، إلا انه كان مع ذلك شديد التمسك به في الأمور التي تمس حياته ، مثل التوسل الى الآلهة بأن تبارك في إبله ، وأن تمنحه الغيث ، وأن تشفيه من مرضه ، الى غير ذلك من أمور ، ذات صلة بالمصالح الشخصية للانسان . ودليل ذلك ، هو ان معظم ما نجده في نصوص المسنـد من كتابات ، خلدت أسماء الأصنام ، انما دونت فيها الأسماء لمثل هذه الأمور . فإذا كان الأمر كذلك فنحن لا نستطيع استثناء الشعر الجاهلي من ذكر الأصنام في أمثال هذه المناسبات

١ Goldziher, History of Classical Arabic Poetry, p. 25.

على الأقل ، فالشاعر مثل أي انسان آخر ، لا بد وأن يشعر في يوم ما بعجزه وبحاجته الى مخاطبة أربابه وأن يتوسل اليها لتنفعه أو لتمنّ عليه بالصحة والعافية وبالمال ، يتوسل اليها شعراً ، فيمدحها ويشيد بذكرها ، ويسترضيها ، اقتداء بفعله مع الملوك وسادات القبائل ، حيث يكيل المدح لهم شعراً لأنهم أحسنوا اليه .

وقد ورد اسم (الله) في الشعر وفي النثر الجاهليين ، على نحو ما ذكرت في الجزء السادس من هذا الكتاب . لقد ذكرتُ هناك أن غالبية المستشرقين شكت في صحة ورود اسم الله في هذا الشعر ، ورأت أن رواة الشعر وحملته في الإسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر ، وذلك أنهم حذفوا منه أسماء الأصنام ، وأحلّوا محلها اسم الله . فما جاء فيه اسم (اللات) حل محله اسم الله وهكذا[1] . وذلك لاعتقادهم أن الوثنيين لم يكونوا يؤمنون بالله ، فلا يعقل ورود اسمه في شعرهم . وهو رأي لا أقرهم عليه ، لأن الجاهليين كانوا يؤمنون بالله ، ولم يكونوا ينكرون وجوده أبداً ، بدليل ما نجده في القرآن من تأكيد بأنهم كانوا يؤمنون به ، وانهم كانوا إذا سألهم سائل من خلق الكون ليقولون الله . وقد ذكرت في حينه كل الآيات الواردة في القرآن الكريم عن هذا الموضوع[2] . وبينت أن أهل مكة وغيرهم من العرب الشماليين ، كانوا يؤمنون بإلّه واحد هو الله ، ولم يكن بينهم وبين الإسلام خلاف فيه ، وخلافهم معه هو في تقربهم الى الأصنام والأوثان ، لتشفع لهم ، بزعمهم ، الى الله زلفى . مع أنها أجسام جامدة وأحجار لا حياة فيها ، فمن هنا حمل الإسلام عليها ، واعتبرها شركاً بالله ، لأنهم بتقربهم اليها يكونون قد أشركوها مع الله في ألوهيته ، وهذا هو الكفر والضلال في نظر الإسلام . ولذلك أمر بالابتعاد عنها وبنبذها وبنبذ كل ما يتصل بها من عبادة ، كما أمر بطمس الصور ، ومحوها لأنها من دلائل هذه الوثنية ومن معالمها .

وقريش نفسها لم تنكر على الرسول تعبده لله ، ولم تمنعه من الصلاة في بيت الله ، ومن ذكره وحمده له ، لأنها لم تختلف معه في عبادته ، وإنما اختلفت معه ، فيما هو دون الله من أصنام وأوثان ، وذلك حين عابها وسفه أحلامهم بتقربهم اليها وهي جامدة مخلوقة مصنوعة ، عندئذ هاجت وماجت واشتكت الى أعمام رسول

---

١ (ص ١٠٢ وما بعدها) .

٢ (ص ١٠٣ وما بعدها) .

الله والى ذوي رحمه ، ومن هنـــا كان عناد قريش وكفرها وعداوتها للرسول . كما نص على ذلك صراحة في القرآن وفي كتب السير[1] . وأخذت تؤذيه وتؤذي المسلمين كلما ازداد هجوم الإسلام على الأصنام والأوثان .

ويشبه هذا النزاع ما وقع في النصرانية من هجوم على تقديس التماثيل والصور التي تمثل (الثالوث) ، و (المسيح) ، حيث اعتبرها البعض شركاً ، مما سبب وقوع شقاق في الكنيسة . فقد اعتبر بعض رجال الدين الـ (ايقونات) شركاً ، ولذلك حاربوا التماثيل والتصاوير . وقد كانت هذه المشكلة قد بدأت في الكنيسة نتيجة الصراع الذي وقع بين رجال الدين حول طبيعة المسيح .

ولو أخذنا بصدق ما نسب الى الجاهليين من شعر ورد فيه اسم الله ، وجب إدخال عدد من شعراء الجاهلية في المتألهين ، القائلين بوجود إلـه ، هو (الله) . ففي شعر ينسب الى (عروة بن الورد) ، نجد اسم الله مذكوراً فيه ، إذ يقول:

فسر في بلاد الله والتمس الغنى   تعش ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا[2]

ويجب عدّ (امرىء القيس) من المتألهين أيضاً ، فقد زعموا ان العرب كانت لا تعدّ الشاعر فحلاً ، حتى يأتي ببعض الحكمة في شعره ، فلما قال :

والله أنجح ما طلبت به   والبر خير حقيبة الرجل

عدّوه فحلاً[3] . وهكذا أدخلوه بهذه الحكمة في جملة الفحول .

وقد ورد اسم الله في معلقته ، في البيت :

فقالت يمين اللهِ ما لك حيلة   وما إن أرى عنك الغواية تنجلي[4]

ونجده يحلف بالله ، فيقول : « يمين الله » ، و « حلفت لها بالله » ، وتقول

---

١ ابن هشام ، سيرة (١٧٠/١) ، (حاشية على الروض)

٢ ديوان عروة (١٩١)

٣ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٦١)

٤ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٨٢)

له صاحبته : « سباك الله »[1] ، مما يدل على انه كان مؤمناً معتقداً به . ونجده يذكر الله في أشعاره الأخرى[2] .

وزعم أهل الأخبار ان (الأفوه بن مالك) الأودي ، كان من المتألهين كذلك ، وانه لما شعر بدنو أجله ، أوصى قومه : ملحج ، بتقوى الله ، وصلة الأرحام ، وحسن التعزي عن الدنيا بالصبر[3] .

وورد في معلقة (عبيد بن الأبرص) قوله :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب[4]

ويجب إدخال زهير في جملة المتألهين أيضاً ، فقد ذكر انه كان يتأله ويتعفف في شعره ويؤمن بالبعث ، ونسبوا له قوله :

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم[5]

وهو يقسم في معلقته بالبيت ، فيقول :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم[6]

فهو مؤمن بالله العلاّم بما في نفوس الناس ، فلا تخفى عليه خافية ، ومهما حاول الانسان كتمان سره في قرارة نفسه ، فإن الله لا يخفى عليه سره ، ولا يفوته أبداً[7] .

وتنسب لزهير قصيدة مطلعها :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي ان الناس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٤١)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٧٥)
٣ المزهر (١/١٦٤)
٤ رسالة الغفران (١٨٦)
٥ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٨ وما بعدها ، ١١٦)
٦ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١١٤)
٧ الخزانة (١/٤٣٦ وما بعدها)

وهي قصيدة ذكر فيها أنه عاش أكثر من مائة سنة ، ثم ذكر الله ، وانه حق ، وأنه كان مؤمناً به ، وأن أيامنا معدودات ، ولا يدوم ويبقى إلا الله الذي أهلك تبعاً ولقمان بن عاد وعاديا ، وأهلك ذا القرنين ، وفرعون ؛ ثم ذكر النعمان، وكيف حكم،ثم جاء يوم غير كل شيء . وقد قال الأصمعي ، أنها ليست لزهير ، ويقال هي لصرمة الأنصاري، ولا تشبه كلام زهير[1] . وربما كانت من المصنوعات، صنعها من صنع من أمثالها من شعر الوعظ والإرشاد ، فنسبه الى الجاهليين .

ونجد (أبا طالب) يقسم بالله في شعره ، فيقول في قصيدة له ، يخاطب بها الرسول ، انك جئت بدين سمح،هو من خير أديان البرية ديناً ، ولولا الملامة ، أو حذار مسبّة ، لوجدتني سمحاً بذاك مبينا[2] .

وروي ان (لبيد بن ربيعة) الشاعر المخضرم ، كان من المتألهين في الجاهلية وانه نظم قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكـــل نعيم لا محالة زائل

قبل الاسلام ، أو عند ظهوره . وان الرسول قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل[3] .

وروي ان له أبياتاً تشير الى التوحيد والصلاح ، والخير ، هي :

إن تقوى ربنا خيرُ نَفَل وبـــإذن الله ريثي وعجل

وقوله :

أحمد الله فلا ندّ له بيديه الخير ، ما شاء فعل

وقوله :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ، ومن شاء أضل[4]

---

١ الخزانة (٣/٥٨٨ وما بعدها) ، (بولاق)
٢ لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٨٦ وما بعدها)
٣ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٣٥ ، ٣٨)
٤ رسالة الغفران (٢٦٧)

و (النابغة) الذبياني من المتألهين كذلك ، فقد نسبوا له شعراً ، ذكر أنه اعترف فيه بوجود الله ، إذ قال :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب[1]

ونجده في معلقته يقول :

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البريّة فاحددها عن الفند[2]

ونراه يذكر مكة في شعره :

والمؤمن العائذات الطير تمسحها ركبان مكة بين الغيل والسعد[3]

وورد اسم الله في قوله :

أبى اللهُ : إلا عدله ووفاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

أي ما يريد الله إلاّ عدل النعمان بن المنذر ، وإلا وفاءه ، فلا يدعه أن يجور ولا أن يغدر ، فلا النكر يعرفه النعمان ، ولا الجميل يضيع عنده[4] . ومعنى هذا أن النابغة كان يرى أن الله هو الذي يقدر الأمور للناس ، وأن الإنسان مسير بأمر الله .

و (الحارث بن حلزة) اليشكري من هذا الفريق كذلك ، لقوله :

فهداهم بالأسودين وأمر اللهِ بلغٌ تشقى به الأشقياء[5]

ولقوله :

وفعلنا بهم كما علم الله وما إن للحائنين دماء[6]

---

١ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٦٤)
٢ الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٠٨)
٣ كذلك (ص ٢١٣)
٤ الخزانة (٤٦٨/٢) ، (هارون)
٥ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١٧٧)
٦ الشنقيطي ، شرح المعلقات (١٧٩)

واذا صدقنا معلقة (عبيد بن الأبرص) ، وأخذنا بصدق الأبيات :

من يسأل الناس يحرموه   وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير   والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك   علام ما أخفت القلوب[1]

بل يجب عدّه من الأحناف الموحدين ، الذين آمنوا بإله واحد لا شريك له. وهو في نظري شعر اسلامي ، ويبعد أن يكون من نظم ومن نفس شاعر جاهلي. وقد ذهب (ابن الأعرابي) ، الى ان البيت الأول هو لشاعر آخر ، هو : يزيد بن ضبّة الثقفي[2] .

و (عمرو بن الإطنابة) سيد الخزرج في أيامه من هذا الرعيل الذي ذكر اسم الله في شعره ، إذ ذكره بقوله :

إني من القوم الذين اذا انتدوا   بدأوا بحق الله ثم النائل

وانتدوا : جلسوا في النادي . فهو يبدأ بذكر الله ، وبحقه ، اذا ما جلس في النادي[3] .

وورد اسم (الله) في شعر لخداش بن زهير :

تقوه أيها الفتيان إني   رأيتُ اللهَ قد غلب الجدودا[4]

ونجد ذكر الله في شعر (صريم بن معشر بن ذهل) التغلبي ، وكان قد لقي كاهناً ، فسأله عن موته ، فقال له : انك تموت في موضع يقال له (إلاهة) ، فمكث زماناً ثم سار الى الشام في تجارة ثم رجع في ركب من (بني تغلب) ، فضلّوا الطريق ، ثم أتوا موضعاً اسمه (إلاهة) قارة بالسماوة ، فلدغته حية ، ثم تذكر قول الكاهن ، فقال :

---

١ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٥٤١ وما بعدها) ، البيت (١٨ وما بعده) من المعلقة ، الحيوان (٣/ ٨٩)
الشنقيطي ، شرح المعلقات (٢٢١) ، السيوطي ، شرح الشواهد (١/ ٢٦٦)
٢ الشنقيطي (٢٢١) ، الخطيب التبريزي ، شرح القصائد العشر (٥٤١) .
٣ المرزباني ، معجم (٨) ، (قراج)
٤ العمدة (٢/ ٢٧١)

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي اذا هو لم يجعل له الله واقيا
كفى حزناً أن يرحل الحي غدوة وأصبح في أعلى الإلاهة ثاويا [1]

وهو شعر إن صح انه له ، دل على ان صاحبه كان يؤمن بأن لكل انسان أجل ، وانه اذا جاء الأجل ، فلا مردّ له ، وانه لا مرد لقضاء الله وقدره .

وفي شعر (قيس بن الحدادية) ، إيمان بالله ، وأن الله هو الذي يقدر الأمور ، إذ يقول :

فقلت لها والله يدري مسافرٌ اذا أضمرته الأرض ما الله صانع

ويروى :

فقلت لها والله ما من مسافر يحيط بعلم الله ما الله صانع [2]

وفي شعر (النمر بن تولب) ، وهو من المخضرمين قوله :

سلام الإلَه وريحانه ورحمته وسماءٌ درر

و (العرب تقول : « سبحان الله وريحانه ، أي : واسترزاقه » [3] .

ونجد في شعر للأعشى أنه كان يؤمن بالرحمن ، اذ يقول :

وما جعل الرحمن بيتك في العُلى بأجياد غَرْبي الصفا والمحرم [4]

ويقول :

وإن تقى الرحمن لا شيء مثله فصبراً إذا تلقى السحاق الغراثيا

ثم يبين بعده إيمانه بإلَه واحد لا شريك له ، اذ يقول :

وربك لا تشرك به ان تشركه يحط من الخيرات تلك البواقيا

---

١ الخزانة (٤/٤٦٠) ، (بولاق)
٢ المرزباني ، معجم (٢٠٢)
٣ الجمان في تشبيهات القران (٣٨٣)
٤ القصيدة رقم ١٥ ، البيت ٣٦ ، ديوانه (١٢٣)

بل الله فاعبد لا شريك لوجهه يكن لك فيا تكدح اليوم راعيا
وإياك والميتات لا تقربنهـا كفى بكلام الله عن ذاك ناهيا[1]

ونجده في القصيدة رقم (١٥) التي فيها البيت الأول ، يحلف ، برب الراقصات الى منى ، ثم يذكر (ماء زمزم) ، أي مكة ، بينما نجده في القصيدة الثانيـة مؤمن بالرحمن ، مؤله له ، موحد ، لا يشرك بربه أحداً . وهو شعر روي عن (أبي عمرو الشيباني) ، ركيك ضعيف ، موضوع عليه[2] .

وروي ان (الشنفرى) كان ممن آمن بالرحمن ، وذكره في شعره ، إذ قال:

لقد لطمت تلك الفتاة هجينها ألا بتّر الرحمن ربي يمينها

ولكنه بيت يشك في صحته ، ولم ينقله الثقات[3] .

وقد سبق لي أن تحدثت في الجزء السادس من هذا الكتاب عن عبادة الرحمن، وقلت ان قريشاً قالت للرسول لما نزل الوحي بـ « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» : « أتدرون ما الرحمن الذي يذكره محمد ، هو كاهن باليمامة »[4] ، وانها قالت : « دق فوك ، انما تذكر مسيلمة رحمن اليمامة » ، وكان قد تسمى بالرحمن قبـل مولد عبدالله والد الرسول[5] .

وقد زعم أهل الأخبار ان الأعشى كان قدرياً ، وانه أخذ رأيه هذا من أهل الحيرة . واستشهدوا على رأيه بالقدر بقوله :

استأثر اللهُ بالوفاء وبالعدل وولى الملامة الرجلا[6]

---

١ القصيدة رقم ٦٦ ، البيت رقم ٨ وما بعده ، ديوانه (ص ٣٢٩)
٢ ديوانه (٣٢٨)
٣ الاشتقاق (٣٧)
٤ الاشتقاق (٣٧)
٥ الحيوان (٨٩/٤) ، تفسير الطبري (٥٧/١) ، مغازي ، الواقدي (٨٢/١) ، ابن كثير ، البداية (٣٢٦/٦) ، تابع العروس (٣٠٧/٨) ، (رحم) ، الروض الانف (٣٤٠/٢) ، ابن سعد ، طبقات (ج ١ ، ق ١ ، ص ١٠٩)
٦ راجع ديوان الاعشى (١٥٥)، امالي المرتضى (٢١/١) ، (دار الكتاب العربي) ، شرح ديوان الاعشى (٢٣٣) ، (القصيدة رقم ٣٥) ، وورد (وبالحمد) بدلا من « وبالعدل » ، الاغاني (٧٦/٨)

وأبي الشريف (المرتضى) إلا أن يجعله على مذاهب أهل العدل[1] ، أي على مثل ما ذهب اليه (المعتزلة) والشيعة الإمامية الاثني عشرية في الاسلام . وعلل بعض أهل الأخبار سبب تحول الأعشى الى القدرية ، انه كان يأتي أهل الحيرة في الجاهلية ، وكانوا نصارى ، يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك[2] . ورد في كتاب (الأغاني) : « قال لي يحيى بن متى راوية الأعشى وكان نصرانياً عبادياً ، وكان معمراً ، قال : كان الأعشى قدرياً ، وكان لبيد مثبتاً . قال لبيد :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعمَ البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفـــاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا

قلت : فن أين أخذ الأعشى ملحبه ؟ قال : من قبل العباديين نصارى الحيرة، وكان يأتيهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك »[3].

والبيت المذكور هو من قصيدة مدح فيها (سلامة ذا فائش) مطلعها :

إن مَحَلاً وإن مرتحـــلا وان في السفر ما مضى مهلا
استأثر اللهُ بالوفـــاء وبالـ ـعدل وولى الملامـــة الرجلا[4]

شك في صحتها (ابن قتيبة) ، فقال : « وهذا الشعر منحول »[5]، والصنعة في الواقع بينة على القصيدة ، واذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن يكون القدرى صاحبها ، ذلك الرجل الذي نحلها الأعشى ، لا الشاعر الأعشى .

ويذكر أهل الأخبار أن الأعشى كان ممن أقر بالملكين الكاتبـــين في شعره ، إذ يقول :

---

١ أمالي المرتضى (١/٢١) ، (دار الكتاب العربي)
٢ الاغاني (٨/٧٦)
٣ الاغاني (٨/٧٩)
٤ « وبالحمد » ، ديوان الاعشى ، القصيدة رقم (٣٥) ، (ص ٢٣٣) ، ابن قتيبة ، الشعر (١/١٥)
٥ ابن قتيبة ، الشعر (١/١٥)

فـلا تحسبني كافراً لك نعمة   على شاهدي يا شاهد الله ، فاشهد

وشاهدي ، يعني لساني ، ويا شاهد الله ، يريد الملك الموكل بـه . وكان هذا من ايمان العرب بالملكين . وقد نسبوا هذه العقيدة الى بقية من دين اسماعيل[1] ، وزعموا أن العرب ممن أقام على دين اسماعيل ، إذا حلفت تقول : وحق الملكين ، فكان الأعشى ممن أقام على دين اسماعيل والقول بالأنبياء . « والأعشى ممن اعتزل وقال بالعدل في الجاهلية »[2] .

ونسب الى (لبيد) العكس ، أي القول بالجبر ، واستدل من نسبه الى الجبر ، بقوله :

إنّ تقوى ربنا خير نفل   وباذن الله ريثي والعجل
أحمد اللهَ فلا نـد له   بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى   ناعم البال ومن شاء أضل[3]

وقد قال بعض العلماء : ان هذه الأبيات لا تشير حتمـاً الى مذهب لبيد في الجبر ، وانها لا تكون سبباً في نسبة الجبر اليه ، وقد تأولها ، وأوجد لها مخارج في ابعاد القول بالجبر عنـه . ثم قال : « اللهـم إلا أن يكون مذهب لبيد في الاجبار معروفاً بغير هذه الأبيات ، فلا يتأول له هذا التأويل ، بل يحمل على مراده على موافقة المعروف من مذهبه »[4] .

وينسب الى (زهير بن أبي سلمى) قوله :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم[5]

---

١ الشعر والشعراء (١/١٨٦) ، الشنقيطي ،شرح المعلقات (٦١)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٤١)
٣ امالي المرتضى (١/٢١) ، (دار الكتاب العربي) ، ديوان لبيـد (١٧٤) ، (رقم ٢٦) ، وورد :
من هداه سبل الخير اهتدى   ناعم البال ومـن شاء أضل
الاغاني (٨/٧٦) ، ديوان لبيد (١٣) ، (رقم ٣٩) ، رسالة الغفران (٢٦٧)
٤ الخزانة (٢/٣٠) ، (بولاق) ، الامالي للمرتضى (١/٢١)
٥ ديوان زهير (١٨)

وذكر انه كان يتأله ويتعفف في شعره، ويدل شعره المذكور على ايمانه بالبعث وبالحساب وبالثواب وبالعقاب[1] .

ومن رأي الجاهليين ان الموت مكتوب على جبين الانسان ، ولا بد له من أن يواجهه في يوم محتوم مكتوب عليه . ومن لم يمت عبطة ، مات هرماً. وفي ذلك يقول أمية :

من لم يمتْ عبطة يمت هرماً   والموت كأس ، والمرء ذائقها[2]

ويقول الأعشى :

ولو كنتَ في جب ثمانين قامةً   ورُقيتَ أسباب السماء بسلم[3]

ونجد رأي الجاهليين في الروح واضحاً في أشعارهم وفي أقوالهم عن الموت ، فالموت – كما سبق أن تحدثت عنه – في نظرهم مفارقة الروح للجسد ، فإذا فارقته صارت (هامة) ترفرف فوق قبر صاحبها . هذا (عروة بن الورد) ، يذكر الموت ، ثم يذكر ما سيقوله الناس عنه ، بقوله :

أحاديث تبقى ، والفتى غيرُ خالد   اذا هو أمسى هامة فوق صيّر[4]

وقد أشير الى (العتائر) التي تقدم في (رجب) ، في شعر (طرفة) :

عنتاً باطلاً وظلماً كما تعـ   ـتر عن حجرة الرّبيض الظباء[5]

وكان الرجل من العرب ينذر نذراً على شائه اذا بلغت مائة أن يذبح عن كل عشرة منها شاة في رجب، وكانت تسمى تلك الذبائح الرجبية ، وهي العتائر .

١ الشعر والشعراء (٧٨/١) ، الخزانة (٣٧٦/١) ، (بولاق)
٢ امالي المرتضي (٥٣٣/١)
٣ رسالة الغفران (٥٧١)
٤ ديوانه (٦٤) ، « قال ابو عمرو : بالهزر الف صير ، يعنى قبورا من قبور أهل الجاهلية » ، اللسان (٤٧٧/٤) ، (صير) ، تاج العروس (٣٤٦/٣) ، (صير)
٥ مجالس العلماء (١٨ وما بعدها) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٤٦٣ وما بعدها)

وكان الرجل منهم ربما بخل بشائه فيصيد ظباء فيذبحها عن غنمه في رجب ليوفي نذره[1] .

ومن الشعراء من غلبت عليهم نزعة التبرم من هذه الدنيـا ، وذكر الموت ، والاتعاظ به ، وعلى رأس هؤلاء (عدي بن زيد) العبادي ، النصراني ، وهو خير من يمثل هذه النزعة التصوفية ، التي ترى أن اللذة لا تدوم ، وأن السعادة موقتة زائلة ، وان على الانسان أن يتعظ بمن عاش قبله من الملوك العظام، والأمم القوية ، وممن نزع هذا المنزع وان كان دون (عدي) بكثير (الأسود بن يعفر)، في قوله :

ماذا أؤمل بعـد آل محرق   تركوا منازلهم ، وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق   والقصر ذي الشرفات من سنداد

الى أن قال :

أين الذين بنوا فطال بناؤهم   وتمتعوا بالأهـل والأولاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به   يوماً يصير الى بلى ونفـاد

وآخرها :

فإذا وذلك لا نفـاد لذكره   والدهر يعقب صالحاً بفساد[2]

غير ان هذه النزعة ، لم تكن ناتجة عن رأي وعن فلسفة ودراسة تأمل لهذه الحياة ، وانما هي نزعة نجدها عند من أصيب بنكبة وعند من حلت به مصيبة ، وعند المسنين الذين غلب العمر عليهم ، فجعلهم حطاماً وكومة عظام،لا يستطيعون الوقوف على أرجلهم ، فهم متعبون لا يجدون من يصغي اليهـم أو من يعطف عليهم ، أو من يساعدهم في الخروج من المآزق التي وقعوا فيها ، فتبرموا لذلك من الحياة ، وأخذوا يلمونها ، وانما هم يلمونها لأنهم صاروا في حال لا يتمكنون

---

١ مجالس العلماء (٢٠)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٣٨) ، (٢/٥٥٢ وما بعدها) ، المفضليات (٢١٦) الاغاني (١١/١٢٩) ، ابن سلام (١١٩) ، الشعر والشعراء (١/١٧٦ وما بعدها) الجمان في تشبيهات القران (٣٠٨)

فيها من التلذذ بها ومن التمتع بنعم الحياة التي هي هي لا تتغير وانما الذي يتغير هو الشخص ، الذي كبر وعجز فصار يذم الدنيا ، لأنه لم يعد قادراً على فعل ما كان يفعله أيام كان شاباً قوياً يحب الدنيا ، فتقبل الدنيا عليه .

ونجد في شعر ينسب للأعشى إشارة الى التطير ، إذ يقول :

ما تعيف اليوم في الطير الروح من غراب البين أو تيس برح[1]

وكان (النابغة) الذبياني من المتطيرين . خرج مرة مع (زبان بن منظور) الفزاري غازياً ، فسقطت عليه جرادة ، فتطير منها ، فرجع من الغزو ، ومضى زبان فظفر وغنم ، فقال :

تعلم أنه لا طيرَ إلا على متطير ، وهي الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا ، وباطله كثير

وقال خرز بن لوذان ، ويقال مرقش السدوسي :

لا يمنعنك من بغا ء الخير تعقاد التمائم
لا ، والتشاؤمُ بالعطا س ، ولا التيامن بالمقاسم
ولقد غدوت وكنتُ لا أغدو على واق وحاتم
واذا الأشائم كالأيا من ، والأيامن كالأشائم
قد خط ذلك في الزبو ر الأوليات القدائم[2]

وفي شعر (عبيد بن الأبرص) القائل :

نبئت أن بني جديلة أوعبوا نفراء من سلمى لنا وتكتّبوا
ولقد جرى لهم فلم يتعيفوا تيسٌ قعيد كالهراوة أعضب
وأبو الفراخ على خشاش هشيمة متنكب إبط الشمائل ينعب
طَعنوا بمُرّان الوشيجِ فما ترى خلف الأسنة غير عرق يشجب
وتبدلوا اليعبوب بعد إلههم صنماً فقرّوا يا جديل وأعذبوا[3]

---

١ العمدة (٢/٢٦٠)
٢ العمدة (٢/٢٦١ وما بعدها)
٣ الحيوان (٣/١٠٠) ، العمدة (٢/٢٠٢) ، الخزانة (٣/٢٥٦)

كـــلام عن العيافة ، فأشار الى تيس قعيد من الظباء ، والقعيد الذي يأتي من الخلف ، والأعضب المكسور القرن ، وهو مما يتشاءم بـه العرب . وأبو الفراخ عني به الغراب ، واليعبوب صنم لجديلة ، وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد، رهط (عبيد بن الأبرص) ، فتبدلوا اليعبوب بدله .

وقد أشير الى التشاؤم بالغراب في شعر ينسب لعلقمة الفحل :

ومن تعرض للغربان يزجرها   على سلامته لا بد مشؤوم[1]

ونجد في شعر (أبي ذؤيب) الهذلي ، وهو من الشعراء المخضرمين ، اشارة الى تشاؤم العرب بطير الشمال ، إذ يقول :

زجرتُ لها طيرَ الشمال فإن تكـن   هواك الذي تهوى يُصبك اجتنابها[2]

والعرب تتشام من (طير الشّمال) ، على نحو ما تحدثت عن ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب .

وكان (خزز بن لوذان) السدوسي على مذهب من ينكر الطيرة ولا يعتقـد بها ، وينسب اليه قوله :

لا يمنعنك من بُغـا   ء الخـير تعقاد التمائم
ولقد غدوت وكنتُ لا   أغدو على واقٍ وحاتم
فإذا الأشائم كالأيـا   من والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خـير ولا   شرّ على أحد بدائم
قد خطّ ذلك في الزبو   ر الأوليـات القدائم[3]

وفي شعر (عبيد بن الأبرص) إشارة الى رأي العرب في الحمامة ، فالعرب تقول : « أخرق من حمامة » ، وعبيد يقول في ذلك :

عيُّوا بأمرهُمُ كـما   عيت ببيضتهـا الحمامة
جعلت لها عودين من   نشمٍ وآخر من ثمامة

١ رسالة الغفران (٤٧٨)
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/ ٢٧)
٣ المؤتلف والمختلف (١٠٢) ، تاج العروس (٤/ ٣٤) ، (خزز) ، الخزانة (٣/ ١١)

قال ذلك تعبيراً عن حمقها. فالنشم شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي، والثامة نبت قصير يضرب به المثل في الضعف، وذلك حمقها: أن تجمع بين ضعيف وقوي، فينكسر عشها ويقع البيض فينكسر[1].

وقد تطرق (العبّاس بن مرداس) الى ذكر (الغول)، فقال:

أصابت العامَ رِعلاً غول قومهم وسط البيوت ولون الغول ألوان

وهو يشير بذلك الى تلون الغول[2].

وفي شعر (زيد الخيل) اشارات الى عادة تعليق الحليّ، وخشخشة الخلاخيل على السليم، ليبرأ ويشفى، اذ يقول:

أيم يكون النعل منه ضجيعه كما عُلّقت فوق السليم الخلاخل

ونجد مثل ذلك في أشعار شعراء آخرين[3].

ومن مذاهب أهل الجاهلية المذكورة في الشعر، أنهم كانوا يستسقون السحائب لقبور من فقدوه من أعزائهم، ويستنبتون لمواقع حُفرهم الزهر والرياض، قال النابغة:

فلا زال قبر بينَ تبنى وجاسمٍ عليه من الوسمي طلّ ووابلُ
فينبت حَوْذاناً وعوفاً منوراً سأتبعه من خير ما قال قائل

وكانوا يجرون هذا الدعاء مجرى الاسترحام[4].

وفي شعر بعض الشعراء أن الحياة لا تدوم، وان المال وان كان أساس هذه الحياة، لكنه متاع أيام وكل ذاهب. فبينا هو يجمعه ويحرص عليه، إذا به يعيث همج هامج، وما المال إلا عارة فاخلف وأتلف، فكله مع الدهر ذاهب، هذا (الحارث بن حلزة) اليشكري، يقول:

---

١ الحيوان (٣/١٨٩)، (حاشية رقم ٤)، ادب الكاتب (٥٥)، ثمار القلوب (٣٦٩) الميداني، أمثال (١/٢٣٤)، عيون الاخبار (١/٧٢)
٢ الحيوان (٦/١٦١)، المعارف (٣٦)
٣ الحيوان (٤/٢٤٧ وما بعدها)
٤ أمالي المرتضى (١/٥٤)

بينا الفتى يَسعى ويُسعى له   تاح له من أمره خـــالج
يترك ما رقّح من عيشه   يعيث فيــه همج هامج
لا تكسَع الشول بأغبارها   إنك لا تدري من الناتج

وهذا تميم بن مقبل يقول :

فاخلف واتلف انما المالُ عارة   وكله مع الدهر الذي هو آكله[1]

ونجد في شعر الشعراء الجاهليين ، ذم للأغنياء الذين يملكون ولا يعطون شيئاً منه الفقير والبائس والمحتـاج ، وللذين يكبرون من شأن الكبير لماله ، ويبتعدون عن الفقير لفقره ، ويعظمون الغني على كثرة عيوبه ونواقصه ، لا لشيء إلا لماله وغناه ، فنرى (عروة بن الورد) ، يقول :

ذريني للغنى أسعى فإني   رأيتُ الناس شرّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهـــم   وان أمسى له حسب وخير
يباعده النديّ وتزدريـــه   حليلتــه وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال   يكـاد فؤاد صاحبه يطير
قليل عيبه والعيب جـــمّ   ولكنّ الغني ربّ غفور[2]

وللشعراء الجاهليين رأي في النساء . رأى أغلبهم ان المرأة متعة للرجل ، يلهو بها ، ويقضي حاجته منها ، خلقت للبيت وللولادة ، وهي دون الرجل . وهي تحب الشاب القوي ، والغني الكثير المال . ونجد هذا الرأي عنـــد أكثر الشعراء اتصالاً بالمرأة ، وعند أكثرهم لهواً بها مثل (امرىء القيس) حيث يقول :

فيا ربّ يوم قد أروح مرجّلاً   حبيباً الى البيض الأوانس أملسا
أراهن لا يحببن من قلّ ماله   ولا من رأين الشيب فيه وقوسا[3]

---

١ البخلاء (١٦٤ وما بعدها)
٢ أمالي المرتضى (١/٥٠) ، ديوان عروة (١٩٨) ، العقد (١/٢١٢) ، (ولكن للغنى) ، وتجد اختلافا في الالفاظ وفي ترتيب الابيات حسب المراجع ، البيـــان (١/٢٣٤) ، (عبد السلام محمد هارون)
٣ ديوانه (١٠٦ وما بعدها) ، رسائل الجاحظ (١/٩٨ ، ١١٤) (مفاخرة الجواري والغلمان)

ونجد الأعشى يقول :

وأرى الغواني لا يواصلن أمرءاً   فقد الشباب وقد يصلن الأمردا[1]

وفي شعر علقمة بن عبدة ترديد لرأي امرىء القيس وزيادة :

فإن تسألوني بالنساء فإنني   بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله   فليس له في ودّهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه   وشرخ الشباب عندهن عجيب[2]

١ ديوانه (١٥١) ، رسائل الجاحظ (١/٩٨) ، (مفاخرة الجواري والغلمان) .
٢ ديوانه (١٣١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣/٢٣٩) ، المفضليات (١٣١ وما بعدها) ، رسائل الجاحظ (١/٩٩ ، ١١٤) ، (مفاخرة الجواري والغلمان)

الفصل الثامن والستون بعد المئة

شعر المخضرمين

المخضرم هو الذي أدرك الجاهلية والإسلام[1] . والشعراء المخضرمون هم الذين عاشوا في الجاهلية وفي الإسلام ونظموا الشعر في العهدين : الجاهلية والإسلام . والمخضرم من يدرك عهدين متناقضين .

والشائع بين الناس أن الإسلام قد سبب في انصراف النـاس عن الشعر وعن روايته « بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملّة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره. وسمعه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه »[2] . وقـد نسب الى (عمر) قوله : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته »[3]، « فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأن العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم

---

١ تاج العروس (٨/٢٨١) ، (الخضرم) ، الخزانة (١/١٢٩) ، (بولاق)

٢ مقدمة ابن خلدون (٥٨١) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٣)

٣ ابن سلام ، طبقات (١٠) ، المزهر (٢/٤٧٣) ،

كثير »[1] . والشائع بينهم أيضاً أن الشعر قد أصيب بسبب ما تقدم بنكسة ، فذبل وضعف وذهبت عنه قوة وسورة وجزالة وشدة الشعر الجاهلي ، وأعرض بعض الشعراء مثل (لبيد) عن الشعر ، اذ رأوا أن في كلام الله ما يغنيهم عنه ، وقلّ بذلك عدد الشعراء ولا سيما الشعراء الفحول بالنسبة الى أيام الجاهلية ، وغلبت الليونة على الشعر الجديد ، فصار شعر (حسان) الذي قاله في الإسلام ضعيفاً ليناً بالنسبة الى شعره الجزل المتين الذي قاله في جاهليته .

وجوابي على هذه الدعاوى : صحيح ان الشعر الجاهلي قد نقص حجمه وضاع قسم كبير منه ، ولكن ضياعه ذلك لم يكن بسبب الاسلام ، وانما بسبب الأحداث والتطورات التي طرأت على جزيرة العرب ، بسبب دخولها في الاسلام ، كحروب الردة مثلاً والفتوح ، وانفتاح أرض الله الواسعة أمام المسلمين ، وفرار الكثير من أهل جزيرة العرب نحو الخارج بحثاً عن أرض أخصب وماء أوفر ، وجوّ أطيب وثراء وعيشة راضية . أما حروب الردة ، فقد أكلت من المسلمين ومن المرتدين جماعة عرفت برواية الشعر وبحفظها له ، وبنظم الشعر أيضاً ، فقلّ بهلاكهم عدد حفّاظ الشعر ، كما قلّ في الوقت نفسه عدد حفّاظ القرآن . وأما الفتوح ، فقد قتل فيها قوم من الشعراء ومن حفّاظ الشعر ، فهلك بموتهم شطر من الشعر الجاهلي ، وتقلص عدد العلماء به . كما ألهت الناس عن الشعر ، بما فتحت لهم من آفاق الأرض وبما درّت عليهم من أموال وأشغال ، قلصت من فراغهم الذي كان يكوّن معظم حياتهم في البوادي ، فجعلتهم في الأرضين الجديدة يصرفون معظم وقتهم في استغلال الأرضين التي صارت من نصيبهم ، وفي إحياء الموات ، وفي تربية المواشي ، والاشتغال بالزراعة ، وهي أشغال تستبد بوقت الانسان ، وتصرف ذهنه اليها لمعالجتها ، فلا يشعر في مثل هذه الحالة بما كان يشعر به يوم كان في براديه فارغ البال ، يقضي وقته بالتعبير عن نفسه بشعر يقتل به فراغه ، ويسلي به نفسه بالتغني به لأصدقائه ، ثم هو قد يتعيش منه ، بما يناله من قبيلته من مال واحترام ، وبما قد يحصل عليه من مدحه للملوك وللسادات من عطايا وهبات ثمناً للمدح . ومحيط فيه شغل وعمل ، وفيه تعب جسماني وعقلي لا يساعد على نمو الشعر فيه ، ومن هنا كان إقبال أهل الحضر مثل أهل مكة وأهل يثرب

---

١ المزهر (٢/٤٧٤)

وأهل الطائف وأهل اليمامة على الشعر ، ونبوغهم فيه أقل من إقبال أهل البوادي عليه ، بسبب انشغال أهل القرى والحضر عامة بتدبير أمور الحيــاة ، وبالحرف وباستغلال الأرض والمال والاتجار ، وبسبب تكتلهم وتجمعهم وتلاصق بيوتهم بعضها ببعض ، مما يجعلهم يطلعون على أحوال جيرانهم وعلى عوراتهــم ، ويقفون على أسرار حياتهم في الشعب وفي القرية ، فلا يكون للهجاء عندهم لهذا الأثر الــذي يكون له عند الأعراب ، ولا يكون للمدح عندهم ما يكون له من أثر عند أهل البادية . ومن هنا نجد دولة الشعر وقد قلّ نفوذها في العالم العربي في هذا اليوم عما كان عليه نفوذها قبل ثلاثين سنة أو أكثر ، بسبب التطور الحضاري الــذي أخذ يغزو العالم العربي ، وهو تطور يقلص من فراغ الانسان ، ويستبد بـه ، جاء له بهموم وبمشاكل نفسية وبأمراض الحضارة التي تريد المزيد من التمتع بمتع الحياة من جنسية ومادية ، ليتمتع بها الانسان في هذه الحياة التي لن يعود اليهــا مرة ثانية ، فصار يفكر في الحصول على المادة جهد طاقته ، ولو عن طريق إماتة أعصابه ، ليستمتع بأقصى حد ممكن باللذة الحسية ، التي صار يراها انها سبب هذا الوجود ، وذلك قبل فواتها منه ، بموت يخترمه منها ، فزاد الإقبال على المتعة ، وعلى رأسها الاستمتاع باللذة الجنسية ، وبلذة الشرب والتدخين ، وقلّ الإقبال على الاستمتاع باللذات النفسية ، وفي جملتها الشعــر ، فلا تجد اليوم له في أوروبة ما كان له من مكانة قبل عشرات السنين ، وغلب النثر عليه ، وقلّ عدد من كان يحفظ شعر الشعراء الماضين والمعاصرين ، وعلى هذا النحو صار حالنا اليوم ، فتناقص عدد حفّاظ الشعر في النجف مثلاً تناقصاً كبيراً من حيث العدد والكم ، والنجف في الشعر والأدب كوفة العراق بالأمس أيام الأمويين والعباسيين. فالإعراض الذي لاقاه الشعر في صدر الاسلام ، لم يكن بسبب كره الاسلام له ، وانما بسبب التطور الذي طرأ على حياتهم ، فغيرها من جميع الوجوه ، نتيجة لخروجهم من جزيرتهم ، ولاختلاطهم بأمم أعجمية ذات نظم أخرى ، ونظرات متباينة مــع نظرات العرب الى مفهوم الحياة .

أما إعراض (لبيد) عن قول الشعر بعد اعتناقه الإسلام ، فليس مرده اعتقاده بكره الإسلام للشعر ، وانما هو في رأيي بسبب تقدمه في السن ، والانسان متى تقدم في العمر خفتت مواهبه وبرد احساسه ، ووهنت عواطفه التي تكون متقدمة في أيام المراهقة والشباب ، أو قد يكون هذا العامل وعامل آخر ، هــو سلطان

الدين الذي استولى عليه وهو في سن الشيخوخة ، بحيث صيره يشعر بوجوب الإنصراف نحو العبادة وحفظ ودراسة كتاب الله ، ومع ذلك فهناك روايات روت أن معظم شعره الذي فيه تدين وزهد وحث على العمل الصالح ، هو شعر قاله في الإسلام ، وان ما زعم من أنه ترك الشعر ، وانكب كلية على قراءة القرآن زعم غير صحيح .

وأما اعراض (بشار بن عدي بن عمرو بن سويد) الطائي عن الشعر،فيظهر أنه عن وازع نفسي ديني ، حمله على التفرغ لدراسة كتاب الله ، وعلى الزهد، وقد يكون ذلك بسبب تقدمه في السن . وفي تركه الشعر يقول :

تركت الشعر واستبدلت منه كتاب الله ليس له شريك
وودعت المدامة والندامى اذا داعى منادي الصبح ديك[1]

وأما إعراض (مالك بن عمير) السلمي عن الشعر[2] ، فهو حادث فردي كذلك، لا يعلم مبلغ درجته من الصحة ، ومع ذلك ، فإن كل من ترك الشعر من الشعراء لا يصل عددهم الى عشرة ، وهم قلة بالنسبة الى عدد الشعراء المخضرمين الذين استمروا في نظمه في الإسلام .

وأما ما قالوه عن الضعف الذي ألمّ بشعر (حسان) الذي قاله في الإسلام ، وعن متانة شعره وجزالته في الجاهلية ، فلا يعقل إرجاع سببه إلى الإسلام ، فقد اتخذ الرسول (حساناً) شاعراً له ، يجيبُ عنه وعن الإسلام المشركين ، كما شجع غيره في الردّ على شعراء الشرك ، وكان الرسول يستصوب الشعر الصلد الجزل المتين ذا المعاني الجيدة العميقة ، ومصدر ضعف (حسان) في شعره في الاسلام ، هو بسبب تقدمه في السن ، والتقدم في السن — كما سبق أن قلت — يضعف المواهب ، ومنها الشاعرية ، ويخمل العواطف ، فقد كان حسان في جاهليته شاباً ورجلاً ، قوي الجسم ككل رجل ، متقيد الحس ، متألق الحس ، متألق العاطفة ، ذا شاعرية حساسة ثائرة ، يشرب ويلهو ويسمع الغناء ويحضر مجالس الطرب ، فلما جاء الاسلام ، ودخل فيه مع من دخل ، كان قد تقدم في السن،

---

١ الاصابة (١٧٤/١) ، (رقم ٧٦٧)
٢ الاصابة (٣٣١/٣) ، (رقم ٧٦٧٢)

فبرد حسه ، وضعف شعره في المعاني التي قالها في الجاهلية ، وفي الدروب التي سلكها من دروب الشعر الجاهلي ، ولكنه تألق في معان أخرى تنسجم مع عمره ومع المثل التي اعتنقها ، فمن ثم صار شعره يختلف عن شعره في الجاهلية . ولم يقع ذلك لحسان وحده ، وإنما وقع هذا الحادث لكل شاعر هجم عليه العمر ،واستبدت به الأعوام .

ومما وقع للشعر في الاسلام ، ان الزعامة انتقلت فيه من البوادي الى الحواضر ، فبعد أن كان شعر الأعراب ، بجزالته وبخشونته وبصلادته ، هو المقدم عند علماء الشعر والمحبين له ، وبعد أن كانت القبائل هي التي تنجب الفحـول ، صارت الحواضر هي التي تنبت الفحول ، لتبدل الزمن ، ووقوع تغير في الذوق ،ولتغلب الحضارة على البداوة ، ولاهتمام الناس بالمعاني ، أكثر من اهتمامهم بالشكل وبمظهر القوالب فقل شعر الشعراء الأعراب الفصحاء ، ثم انحسر الشعر من موطنه ، كما انحسر أكـثر سكان البوادي عن بواديهم ، ليلحقوا بخير الحضر ، وصار الشعر العربي الفصيح من حصة الحضر في هذه الأيام . كما حلت الكوفة ثم (دمشق) ثم بغداد فبقية الحواضر محل (الحيرة) وقصور الغساسنة ومضارب سادات القبائل في استقبال الشعراء وفي الانعام عليهم بالهدايا والألطاف . ولتغير الذوق بتغـير المجتمع ، تغير الشعر كذلك ، ولا سيما في أيام بني العباس .

وفي شعر المخضرمين شعر قيل في الرسول وفي حوادث الاسلام ، وفي الرد على المشركين وتسفيه مقالتهم في دينهم ونيلهم من دين الله . قاله الشعراء بعد دخولهم في الاسلام . وعلى رأس هؤلاء من ذكرت من شعراء يثرب ، يتقدمهم (حسان ابن ثابت) شاعر الرسول ، الذي كان يستدعيه الرسول في المناسبات ليجيب على شعر الشعراء الوافدين عليه ، كالذي كان من أمره مع شاعر وفد (تميم) الزبرقان ابن بدر .

وكان لرد شعراء يثرب على شعراء قريش ومن لف لفهـم ، أثر كبير في نفوس المشركين . يروى ان النبي قال لحسان بن ثابت : اهجهم ، يعني قريشاً ، فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام ، في غلس الظـلام ، اهجهم ومعك جبريل روح القدس[1] . وقد كان هجاؤه شديداً عليهم ، له وقع في نفوسهم أشد

---

١ العمدة (١٢/١) ، الاغاني (٧/٤) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٧)

من وقع شعر بقية الشعراء عليهم . فقد كان لسانه حاداً قاطعاً ، لا سيا اذا ما تناول ناحية الهجاء وما يتعلق منه بالوقائع والأيام والنزاع القديم الذي كان بين أهل مكة ويثرب . فيجيد في ذلك كل الإجادة ، ويتفوق بهذه الناحية على شعراء قريش .

وكان حسان وكعب يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبدالله بن رواحة يعيّرهم بالكفر وينسبهم الى الكفر، ويعلم انه ليس فيهم شر من الكفر ، فكانوا في ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول حسان وكعب ، وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام ، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة [1] .

وأما شعر شعراء مكة الى عام الفتح ، فكان في إيذاء الرسول والإسلام، وفي هجاء المسلمين ، وتمجيد قريش ورثاء من قتل من المشركين وتعظيم أمر الجاهلية وسنة الآباء وما ألفوه عن آبائهم من أمور . وقد حفظت كتب السير والمغازي والتواريخ شيئاً من شعرهم ، من النوع الذي لم يتضمن قذعاً شديداً بالاسلام ، ولا شتماً عنيفاً وهجاءً غليظاً بالرسول وبالمسلمين . أما النوع الثاني الذي أفحش فيه أولئك الشعراء،وجاءوا فيه بشتائم وسباب ، فقد أنف أصحاب السير والمغازي والتأريخ من روايته ، فتركوه ، ولو جمع الباقي من شعرهم مع ما ردّ عليه ، لكوّن منه ديواناً ثميناً في المعارضة التي كانت بين المشركين والمسلمين في مبدأ ظهور الاسلام ، ولكان سجلاً قيماً لتأريخ ذلك الصراع ، ولكيفية تغلب الاسلام على الشرك . فهو وثائق تأريخية من الدرجة الأولى ، على أن يغربل ويفحص فحصاً علمياً للتيقن من درجة صفائه ونقائه بالطبع .

ونوع آخر من أنواع الشعر كان عند المخضرمين ، هو شعر القتال . القتال الذي وقع بين المسلمين والمشركين واليهود ، الى أن انتصر الإسلام . فاختفى صوت الشرك وصوت يهود ، وبقي صوت الإسلام وحده ، لا يعارضه أحد ، ولا يجابهه صوت . فقد كان من عادة العرب ، أنهم اذا تقاتلوا أنشدوا شعراً يفتخرون فيه بأنفسهم وبقبيلتهم وبشجاعتهم ، ولا سيا حين يخرج فارس لمبارزة فارس آخر ،وقد يقف الشعراء في صفوف المحاربين يحرضونهم على القتال والاستبسال .

---

١ الاغاني (١٥/٢٩)

ونجد في بطون كتب السير والمغازي والتواريخ ، نماذج طيبة من هـذا الشعر : شعر القتال. قال المحاربون عند خروجهم من صفوف المقاتلين لمقابلهم من سيخرج لمبارزتهم من الجانب الثاني .

وتولد من هذا النوع من الشعر شعر آخر قيل في معارك الفتوح . في المعارك التي وقعت مع عرب الحيرة ، ثم مع الفرس ، وفي المعارك التي حدثت بين المسلمين وبين الغساسنة ، وبين المسلمين والروم ، ثم في الفتوحات الأخرى. فقد ساهم في هذا القتال شعراء مخضرمون ، حاربوا في الجاهلية ، وحاربوا في الاسلام. وحافظوا على تقاليدهم وأعرافهم القديمة التي كانت لهم في الجاهلية عند القتال ، من التحمس في القتال والاندفاع من الصفوف الى الأمام لمبارزة من قد يبرز لهم لمقاتلتهم ، ومن التغني بالقتال ومبارزة العدو . ونجد في كتب الفتوح والتأريخ والأخبار ، نماذج من هذا الشعر . ونجد في شعر (قيس بن مكشوح) المرادي وصفاً ليوم القادسية ، وفخراً بسيره مع جمع من قومه من (صنعاء) الى وادي القرى فديار كلب ، الى اليرموك ، فالشأم ، ثم القادسية بعد شهر ، ثم مقابلته جمع كسرى وأبناء المرازبة ، وهجومه على رأس الفرس[1] . ولو جمعنا هذا الشعر الذي قيل في هذا القتال لكوّنا منه ديواناً[2] ، يصور هجرة القبائل العربية من مواطنها الى البلاد المفتوحة ، ويتحدث عن الأبطال الذين ساهموا في جمع هذا الديوان،والملحمة الشعرية التي تروي قصص الفتوح ، وما قام به المحاربون الشجعان في حروب الفتح[3] .

وهناك شعراء أسلموا ، لكن قلوبهم بقيت على ما كانت عليه قبل الاسلام ، من عدم الاهتمام بأمور الدين ، فلم يحفلوا بالاسلام ، ولم يذكروا الرسول ، وهم شعراء أهل البادية الأعراب .

وطالما كان يأتـي الشعراء الى (يثرب) على طريقتهم في الجاهلية في إنشاد شعرهم أمام رجل منهم عظيم ، مثل ملوك الحيرة أو الغساسنة ، أو سادات القبائل. فيقف الشاعر أمام الرسول لينشده شعره الذي أعده لهذه المناسبة ، أو ليقول شعراً

---

١ الاصابة (٣/٢٦١) ، (رقم ٧٣١٥) ، الاستيعاب (٣/٢٣٥)
٢ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١١٦)
٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٧٣)

بالمناسبة . ولما قدم وفد (تميم) ، المدينة ، ودخلوا المسجد ، وقالوا : « يا محمد ، جئناك لتفاخرك ، فائذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : نعم ، أذنت لخطيبكم فليقل ، فخطب : (عطارد بن حاجب) ، فلما انتهى قال الرسول لثابت بن قيس بن شماس ، أجبه ، فأجابه . ثم قالوا : يا محمد ، ائذن لشاعرنا ، فقال : نعم ، فقام الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا   منّا الملوك وفينا تنصب البيعُ

فلما انتهى منها ، أجابه حسان ، فحكموا ان خطيب المسلمين أخطب من خطيب تميم ، وان شاعر الرسول أشعر من شاعرهم[1] .

وعادة التفاخر في مجالس الملوك وسادات القبائل ، وإنشاد الشعر في ذلك ، وردّ الشعراء بعضهم على بعض ، دفاعاً عن قومهم ، من العادات الجاهلية القديمة ، التي بقيت في الاسلام كذلك ، ولما أخذت الوفود تفد على الرسول بعد فتح مكة ، كان في أعضائها من يخطب على طريقتهم في الخطابة ، ومنهم من ينشد الشعر ، ثم يعلنون إسلامهم ، ومنهم من يشترط شروطاً ، وكان من بين المسلمين من يتولى الردّ عليهم ، وقد يجيبهم الرسول بنفسه .

وقد كره الاسلام من الشعر الجاهلي الشعر الذي يتعرض بالأعراض ويتحرش بعورات الناس ، والشعر الذي يهيج الفتن ، ويلقي البغضاء بين الاخوة ، فيعيدها فتنة جاهلية ، ومن هنا جاء النهي عنه في قوله : « لأن يمتلىء جوف رجل قيحاً يَرِيه خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً »[2] ، ولم يأت في عامة الشعر . وآخذ الخلفاء الشعراء الهجائين متى اقذعوا في شعرهم ، وتحاملوا فيه على الناس ، تحاملاً يغض منهم . وهنا حبس (عمر) الحطيئة ، وكان يقف بالمرصاد لمن يفعل فعله في نهش أعراض الناس. ولذلك تخوف المخضرمون في شعرهم من شعر الهجاء واحترسوا فيه امتثالاً للمثل الإسلامية التي تأمر بالابتعاد عن ذكر المثالب والامتناع عن إيذاء الناس ، وخوفاً من تأديب الخلفاء لهم إن نهشوا أعراض المسلمين .

---

١ الطبري (٣/١١٥) ، (قدوم وفد تميم ونزول سورة الحجرات)

٢ البخاري ، (كتاب الزكاة ، باب قوله تعالى : لا يسألون الناس الحافا) ، وفي أبواب أخرى ، شرح النووي على صحيح مسلم (٩/١٠٠ وما بعدها) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، زاد المسلم (١/٣٥٠ وما بعدها) .

والقديم من شعر المخضرمين ، ولا سيما شعر المتقدمين منهم في السن ، هو استمرار في الواقع للشعر الجاهلي ، نظم على طريقة أهل الجاهلية وأساليبهم في نظم الشعر وعلى معانيهم التي كانوا يتطرقون اليها في شعرهم في الغالب ، فقد ولدوا في الجاهلية وقضى بعض منهم أكثر سني حياته فيها، ونظموا أكثر شعرهم في تلك الأيام وفي الأحداث التي وقعت فيها . ولذلك صار شعرهم يختلف عن شعر الشعراء الاسلاميين ، لأنهم لم يشهدوا الجاهلية ولم يدركوها ، وهم من ثم لم يتأثروا بعقليتها كثيراً ، ومن هنا يجب علينا أن نوجه لشعر الشعراء المخضرمين المسنين الذين قضوا أكثر أيام حياتهم في الجاهلية عناية خاصة ، وأن نقوم بدراسته دراسة نقد دقيقة ، إذ نتمكن بها من الوقوف على تطور الشعر الجاهلي ومكانته عند ظهور الاسلام .

ومن الشعراء المخضرمين من لقي الرسول وصحبه ومدحه وروى عنه ، ومنهم من صحبه ، لكنه لم يرو عنه ، ومنهم من لم يره لكنه دخل في الإسلام . وقد ذكر بعض العلماء أسماء الشعراء الذين صحبوا الرسول ورووا عنه ، منهم (حسان ابن ثابت) ، و (كعب بن مالك) ، و (عبدالله بن رواحة) ، و (عدي ابن حاتم) الطائي ، و (عباس بن مرداس) السلمي ، و (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) ، و (حميد بن ثور) الهلالي ، و (أبو الطفيل عامر ابن واثلة) ، و (أيمن بن خريم) الأسدي ، و (أعشى) بني مازن ، و (الأسود بن سريع) ، و (الحارث بن هشام) ، و (عمرو بن شاس)، و (ضرار بن الأزور) ، و (خفاف بن ندبة) ، و (لبيد بن ربيعة) ، و (ضرار بن الخطاب) ، و (عبدالله بن الزبعرى) ، ولم تكن للبيد ، ولا لضرار ولا لابن الزبعرى رواية عنه . وكذلك (أبو ذؤيب) الهذلي ، و (الشماخ ابن ضرار) ، وأخوه (مزرد بن ضرار)[1] .

وقد عدّ (ابن سلام) (النابغة) الجعدي ، والشماخ بن ضرار ، ولبيد ، وأبو ذؤيب الهذلي طبقة ، وقال : وكان الشماخ أشد متوناً من لبيد ، ولبيد أحسن منه منطقاً[2] .

---

١ الاستيعاب (٣/٥٦١) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاستيعاب (٣/٥٦١) ، (حاشية على الاصابة) .

و (النابغة) الجعدي ، هو : (أبو ليلى عبدالله بن قيس) ، أو (قيس بن عبدالله بن عدس) ، وقيل : (حبّان بن قيس) ، (حيان بن قيس) ، وغير ذلك . قيل له (النابغة) ، لأنه كان يقول الشعر ثم تركه في الجاهلية ، ثم عاد اليه بعد أن أسلم ، فقيل : نبغ . قيل انه كان قديماً شاعراً مفلقاً طويل العمر في الجاهلية وفي الاسلام ، ، حتى زعم انه كان أسنّ من النابغة الذبياني ، واستدلوا على طول عمره بأبيات زعموا انه قالها هي :

ألا زعمت بنو أسد بأني أبو ولد كبير السن فاني
فمن يك سائلاً عني فإني من الفتيان أيام الختان
أتت مائة لعام ولدت فيه وعشر بعد ذاك وحجتان
وقد أبقت صروف الدهر مني كما أبقت من السيف اليماني[1]

وذكر (السجستاني) في كتاب المعمرين ، انه عاش مائتي سنة . وهو القائل:

قال (؟) أمامة كم عمرت زمانه وذبحت من عنز على الأوثان
ولقد شهدت عكاظ قبل محلّها فيها وكنت أعد من الفتيان
والمنذر بن محرّق في ملكه وشهدت يوم هجائن النعمان
وعمرت حتى جاء أحمد بالهدى وقوارع تتلى من القرآن
ولبست في الإسلام ثوباً واسعاً من سيب لا حرم ولا منان[2]

وهو عند الأخباريين أسن من النابغة الذبياني وأكبر ، واستدلوا على أنه أكبر من النابغة الذبياني ، بأن النابغة الذبياني كان مع النعمان بن المنذر ، وكان النعمان ابن المنذر بن محرق . وقد أدرك النابغة الجعدي المنذرَ بن محرق ونادمه ، ولكن النابغة الذبياني مات قبله ، وعمّر بعده عمراً طويلاً . ذكر بعضهم أنه عمّر مائة وثمانين وذكر بعضهم أنه عمر أكثر من ذلك حتى ذكر بعض منهم انه عمّر مائتين

---

١ تختلف هذه الابيات في النظم وفي الترتيب في كتاب الاصابة عنها في الاستيعاب وفي الكتب الاخرى ، الاصابة (٣/٥٠٨ وما بعدها) ، (رقم ٨٦٤١) ، الاستيعاب (٣/٥٥٢) ، (حاشية على الاصابة) ، ابن هشام (١/٥٣) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (١/٥٣) .

٢ الاصابة (٣/٥٠٨) ، (رقم ٨٦٤١) ، البخلاء (٢٠٢ وما بعدها ، ٢٠٨ وما بعدها ، ومواضع أخرى راجع ص ٦١٢) .

وعشرين سنة . وذكروا أن (عمر) قال له : كم لبثت مع كل أهل ؟ قال ستين سنة . وأنشده قوله :

لقيت أناساً فأفنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا
ثلاثة أهلين أفنيتهم وكان الإلـه هو المستآسا[1]

وجعل بعضهم عمره (٢٤٠) سنة ، وكان أكثرها في الجاهلية[2] .

وهو من (الفلج) جنوب نجد ، وكان يزور بني لخم في الحيرة . وكان شاعراً مغلّباً ، ما هاجى قط إلا غلب ، هاجى أوس بن مغراء ، وليلى الأخيلية ، وكعب بن جميل فغلبوه جميعاً . وذكر انه مكث الى أيام (عبدالله بن الزبير)[3] .

وذكروا انه كان يذكر في الجاهلية دين ابراهيم والحنيفية ويصوم ويستغفر . وقال في الجاهلية كلمته التي أولها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

وفيها ضروب من دلائل التوحيد والإقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار وصفة بعض ذلك على نحو شعر أمية بن أبي الصلت ، وقد قيل ان هذا الشعر له ، ولكنه قد صححه علماء العشر مثل : يونس بن حبيب ، وحماد الراوية ، ومحمد ابن سلام ، وعلي بن سليمان الأخفش للنابغة الجعدي[4] .

وروي انه كان ممن فكر في الجاهلية وأنكر الخمر والسكر وهجر الأزلام واجتنب الأوثان وذكر دين ابراهيم[5] .

---

١ الاستيعاب (٣/٥٥٢) ، (حاشية على الاصابة) ، الاغاني (٤/١٢٨) ، الخزانة (١/٥١٢) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢٠٨) ، الموشح (٦٤) ، ابـن سـلام ، طبقات (٢٦) ، مجالس ثعلب (٦٦٣) ، الاشتقاق (٣٣٨) .

٢ الروض الانف (١/٥٣) ، (لبست أناسا) ، أمالي المرتضى (١/٢٦٤) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦١٤ وما بعدها) ، الاغاني (٥/١ وما بعدهـا) ، (دار الكتب) ، الجمحي ، طبقات (٢٦ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١٥٨ وما بعدها) ، المعجم ، للمرزباني (٣٢١) ، السيوطي ، شرح شواهـد (٢/٦١٤) ، المعمرون ، للسجستاني (٦٦) ، الخزانة (١/٥١٢) ، اسد الغابة (٥/٢ ومـا بعدها) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٢٣٢) ، البخلاء (٢٤٣) .

٤ الاستيعاب (٣/٥٥٢) ، (حاشية على الاصابة) ، الخزانة (١/٥١٤ وما بعدها) ، رسالة الغفران (٢٠٢) .

٥ الاصابة (٣/٥٠٩) ، (رقم ٨٦٤١) .

وذكر ان (النابغة) قدم على (عثمان) يستأذنه في السفر الى البادية ، لأن نفسه اشتاقت اليها ، ليشرب من ألبانها ، وليشرب من شيح البادية ، فقال له عثمان : « أما علمت ان التعرب بعد الهجرة لا يصلح ؟ قال : لا والله ما علمت وما كنت لأخرج حتى استأذنك ، فأذن له ، وضرب له أجلاً » . ثم دخـل على (الحسن بن علي) فودعه ، فقال له : أنشدنا من بعض شعرك ، فأنشده :

الحمد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال : يا أبا ليلى ما كنا نروي هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت ؟ قال : يا ابن بنت رسول الله ، والله اني لأول الناس قالها وان السروق من سرق أمية شعره »[1] .

وذكر أنه كان من أصحاب (علي) وحارب معه يوم صفين ، وله مع (معاوية) أخبار . ومات معمراً بأصبهان سنة (٦٥ هـ) (٦٨٤ م) . وكان معاوية سيره اليها مع (الحرث بن عبدالله بن عوف بن أصرم) . وكان ولي اصبهان من قبل علي[2] .

وقد وفد النابغة على النبي وأنشده قصيدته الرائية التي فيها :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى   ويتلو كتاباً بالمجرة نيرا

الى أن بلغ قوله :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا[3]

فقال رسول الله : إلى أين أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة . فقال رسول الله : نعم إن شاء الله[4] .

---

١ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .

٢ الاصابة (٣/٥٠٩) ، (رقم ٨٦٤١) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/٢٣٢) ، الاصابة (٣/٥١٠) .

٣ تختلف الروايات في ضبط هذه الابيات ، ولعلماء الشعر روايات مختلفة عنهـا ، رسالة الغفران (٢٢٨) ، أمالي المرتضى (١/٢٦٦) ، الاغاني (٤/٥٣٩) .

٤ الاصابة (٣/٥٠٩) ، (رقم ٨٦٤١) ، الاستيعاب (٣/٥٥٢ وما بعدها) .

ولما أنشده :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكـدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فاستحسنه الرسول وقال : لا يفضض الله فاك . وذكر أن كلمة النابغة هذه قصيد مطوّل نحو مائتي بيت أوله :

خليـلي غضا ساعـة وتهجرا ولو ما على ما أحدث الدهر أو ذرا

وهو من أحسن ما قيل من الشعر في الفخر بالشجاعة سباطة ونقاوة وجزالـة وحلاوة[1] . وقد تعرض فيها بأمور الجاهلية والاسلام .

وأسلم وحسن إسلامه وكان يرد على الخلفاء ورد على عمر ثم على (عثمان) .

ويظهر ان القصيدة قد طوّلت على (النابغة) فيما بعد ، وانها لم تكن على هذا النحو من الطول لما أنشدها على الرسول . وقد روى بعض العلماء منها أربعة وعشرين بيتاً[2] ، لعلها هي الأبيات التي أنشدها أمام النبي .

وذكر انه كان بالبصرة ، فرعت (بنو عامر) في الزرع ، فبعث (أبو موسى) الأشعري في طلبهم ، فتصارخوا يا آل عامر ! فخرج النابغة الجعدي ومعه عصبة له . فضربه أسواطاً . فقال النابغة في ذلك :

رأيت البكر بكر بني ثمود وأنت أراك بكر الأشعرينا
فإن تك لابن عفّان أميناً فلم يبعث بك البر الأمينا
فيا قبر النبي وصاحبيـه ألا ياغوثنـا لو تسمعونا
ألا صلى إلهـكم عليـكم ولا صلى على الأمراء فينا[3]

وقد مدح (النابغـة) الجعدي عبدالله بن الزبير ، ويظهر انه كان في ضيق وعسر ، إذ يقول فيها :

---

١ الاستيعاب (٣/٥٥٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، وتجد أبياتا منها في الاستيعاب ، الاغاني (٥/٨) .
٢ الاصابة (٣/٥١٠) ، (رقم ٨٦٤١) .
٣ الاستيعاب (٣/٥٥٦ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

أتاك أبو ليلى تجوب به الدجى　　دجى الليل جوّاب الفلاة عرمرم
لتجبر منه جانباً دعدعت به　　صروف الليالي والزمان المصمم

فأعطاه قلائص سبعاً وفرساً وخيلاً ، وأوقر له الركاب براً وتمراً وثياباً[1] .

ومن جيد شعره قوله :

فتى كملت خيراته غير أنه　　جواد فما يبقى من المال باقيا
فتى تمّ فيه ما يسر صديقه　　على أن فيه ما يسوء الأعاديا[2]

قال العلماء في شعر (النابغة) : « خمارٌ بوافٍ ، ومطرف بآلاف . يريدون أن في شعره تفاوتاً ، فبعضه جدّ مبرّز وبعضه رديء ساقط »[3] . ونسب الى (الفرزدق) قوله في النابغة الجعدي : « صاحب خُلقان ، يكون عنده مطرف بألف دينار ، وخمار بواف»[4] .

وقد ذكر (أبو العلاء) المعري قصيدة النابغة التي يقول فيها :

ولقد أغدو بشرب أنف　　قبل أن يظهر في الأرض ربش

فقال على لسان (النابغة) الجعدي : « ما جعلت الشين قط روياً ، وفي هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قط »[5] .

وروى (المعري) له قصيدة ، استحسن منها قوله :

طيبة النشر ، والبداهة ، والـ　　ـعِلاّت ، عند الرُقاد والنسم[6]

ومن شعره قوله في (زياد بن الأشهب بن أدد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة) العامري الجعدي :

مقام زياد عند باب ابن هاشم　　يريد صلاحاً بينكم ويقرب

١　الاستيعاب (٣/٥٥٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٢　الاستيعاب (٣/٥٥٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٣　الشعر والشعراء (١/٢١٠) ، (دار الثقافة) ، البيان والتبيين (١/٢٠٦) .
٤　أمالي المرتضى (١/٢٦٩) .
٥　رسالة الغفران (٢٠٩) .
٦　رسالة الغفران (٢١٩ وما بعدها) ، تهذيب الالفاظ (٦٣١) ، السمط (٤٣١) .

وكان قد مشى في الصلح بين علي ومعاوية . وكان من أشراف أهـل الشأم ومن المقربين الى معاوية[1] .

و (الطفيل بن عمرو بن طريف) الدوسي ، من الشعـراء الأشراف . كان شاعراً لبيباً . تذكر رواية انه أسلم حين كان الرسول بمكة ، وانه لما أتى مكة ذكر ناس من قريش أمر النبي ، وسألوه أن يختبر حاله ، فأتاه فأنشده من شعره، فتلا النبي الاخلاص والمعوذتين فأسلم في الحال وعاد الى قومه . وتذكر رواية انه عاد مرة أخرى الى مكة ، ثم عاد الى قومه حتى هاجر الرسول الى المدينة، فجاء على رأس وفد من دوس ممن أسلم ، فوصل والرسول محاصر (خيبر) ، فمكث بالمدينة حتى اذا فتحت مكة ، بعثه الرسول الى (ذي الكفين) صنم (عمرو بن حممة) حتى أحرقه . وقد أورد (المرزباني) شيئاً من شعره[2] .

وأعشى بن مازن ، أو الأعشى المازني ، هو (عبدالله بن الأعور) ، وقيل ان اسم (الأعور) (رؤبة بن فزارة بن غضبان بن حبيب بن سفيان بن مكرز ابن الحرماز بن مالك بن عمرو بن تميم) . يكنى (أبا شيئة) . « وقال أهل الحديث : يقولون المازني وانما هو الحرمازي ، وليس في بني مازن أعشى » . وذكر انه أتى النبي فأنشده :

يا مالك الناس وديّان العرب   اني لقيت ذربة من الذرب

وفيه قصة امرأته وهربها[3] .

فكتب النبي الى (مطرف بن نهصل) ، وكانت امرأتـه عنده ، ان يعيدها اليه ، فأعادها ، فقال :

---

١ الاصابة (١/٥٦٢) ، (رقم ٢٩٨٥) .
٢ الاصابة (٢/٢١٦ وما بعدها) ، (رقـم ٤٢٥٤) ، الاستيعاب (٢/٢٢١ ومـا بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، سيرة ابن هشام (١/٢٣٤ وما بعدها) .
٣ الاصابة (٢/٢٦٧ وما بعدها) ، (رقم ٤٥٣٥) . ورويت الابيات على هذا النحو :

يا سيد النـاس وديان العرب   أشكو اليك ذربـة مـن الذرب
كالذئبـة الغبساء في ظل السرب   خرجت أبغيها الطعـام في رجب
فخالفتني بنـزاع وهـرب   أخلفت العهـد ولطـت بالذنب
وهن شر غالب لمن غلب .

الاستيعاب (٢/٢٥٧) ، (حاشية على الاصابة) ، (١/١٢٢) .

لعمرك ما حبي معاذة بالذي يغيره الواشي ولا قدم العهد
ولا سوء ما جاءت به إذ أزلها غواة رجال إذ ينادونها بعدي[1]

وذكر صاحب (الاستيعاب) ، ان اسم والد (أعشى) مازن ، هو (الأطول). وقيل اسم الأطول أو الأعور : (عبدالله)[2] .

وروى ان اسمه (عبد بن لبيد) الأعور . وقيل : (الأعور بن قراد بن سفيان) . وكان قد خرج في (رجب) يمير أهله من هجر ، فهربت امرأته بعده ناشزاً عليه ، فعاذت برجل منهم . فجاء (الأعشى) الى الرسول وعاذ به . وأنشأ يقول قصيدته[3] .

ومن شعره :

يا حكم بن المنذر بن الجارود سرادق المجد عليك ممدود
أنت الجواد ابن الجواد المحمود نبت في الجود وفي بيت الجود
والعود قد ينبت في أصل العود[4]

و (الحطيئة) ، وهو (جرول بن أوس بن مالك بن « حيوة » جؤية بن مخزوم بن مالك) العبسي ، ويكنى (أبا مليكة) « من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم ، وكان يتصرف في جميع فنون الشعر من مدح وهجاء وفخر ونسب ويجيد في جميع ذلك . وكان ذا شر وسفه ، وكان اذا غضب على قبيلة انتمى الى أخرى ، زعم مرة انه ابن عمرو بن علقمة من بني الحارث بن سدوس . وانتمى مرة الى ذهل بن ثعلبة ، وأخرى الى بني عمرو بن عوف . وله في ذلك أخبار مع كل قبيلة وأشعار مذكورة في ديوانه . وكان كثير الهجاء حتى هجا أباه وأمه وأخاه وزوجته ونفسه ، وهو مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام . وكان أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ثم أسر وعاد الى

---

١ الاستيعاب (٢/٢٥٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاستيعاب (٢/٢٥٦) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ الفائق (١/٤٢٢ وما بعدها) .
٤ الاصابة (٢/٢٦٨) ، (رقم ٤٥٣٥) .

الاسلام[1] . وكان ملحفاً شديد البخل ، لا يقف إلحافه في السؤال عند حد ، ولا يخجل من التصريح في الاستكداء وفي إذلال نفسه في الحصول على مال . طاف في الآفاق يمتدح الأماثل ويستجديهم . وقد عدّ في البخلاء . « قيل بخلاء العرب أربعة : الحطيئة ، وحميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلي ، وخالد بن صفوان »[2]. وقيل عنه انه كان « دنيء الطبع ، لئيم النفس ، كثير الطمع ، جعل الشعر متجراً ، فكان له من الهجاء معاش ومكسبٌ لأن الناس كانوا يهدون له الهدايا خوفاً من شره . فقال الأصمعي : كان الحطيئة جشعاً سؤولاً ملحفاً دنيء النفس، كثير الشر قليل الخير ، بخيلاً قبيح المنظر ، رث الهيئة مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول في شعر شاعر ما من عيب إلا وجدته فيه ، وقلما تجد ذلك في شعره »[3] ، كان لا يبالي من هجو من سبق أن مدحه وأثنى عليه ، لاغداقه المال عليه ، بل يظهر انه كان من ذلك الفريق من الناس المرضى النفوس الذين كانوا يسيئون الى من أحسن اليهم ، بل كانوا أول من يسيء الى من أحسن اليه ، لعقدة مستحصية في النفس .

وكان قصير القامة، ولقصره هذا لقب بالحطيئة . وكان ذمياً ، قبيح الوجه، سيء الهيئة ، ولعل هذه الأمور هي التي صيرته سيء الطبع ، هجاءً لكل أحد، فلا يسلم من لسانه أحد . فلما هجا أباه ، بأبيات قاسية شديدة منها :

فنعم الشيخ أنت لدى المخازي وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعت اللؤم، لاحيّاك ربي ، وأبواب السفاهة والضلال

قيل : « كان الحطيئة يرعى غنماً له ، وفي يده عصا . فمرّ به رجلٌ فقال: يا راعي الغنم ما عندك ؟ قال : عجراء من سلم . يعني عصاه . قال : إني ضيف . فقال الحطيئة للضيفان أعددتها »[4] .

---

١ الاصابة (١/٣٧٧ وما بعدها) ، (رقم ١٩٩١) ، العمدة (١/٨١ وما بعدها) ، البيان (٢/١٣ وما بعدها) ، الخزانة (١/٤٠٨) ، الاغاني (٢/٤١ وما بعدها) ، (١٦/٣٨) ، الطبقات ، لابن سلام (٩٢ وما بعدها) ، ديوان الاعشى (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (.نعمان أمين طه) ، الخزانة (٢/٤٠٦) ، (هارون) ، (١/٤٠٩) ، (بولاق) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٧٧ وما بعدها) .
٣ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١٠٩ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (٢/١٤٧) ، (٣/٨٠) .

وهجا أمه بشعر موجع منه قوله :

تنحي فاقعدي مني بعيداً ... أراح الله منك العالمينا
ألم أوضح لك البغضاء مني ... ولكن لا أخالك تعقلينا
أغربالاً إذا استودعت سراً ... وكانوناً على المتحدثينا
جزاك الله شراً من عجوز ... ولقاك العقوق من البنينا
حياتك ما علمت حياةُ سوء ... وموتك قد يسر الصالحينا

ثم هجا أخاه وزوجته ، فلما لم يبق أمامه أحد سلم من هجائه إلا نفسه ، اذ اطلع في حوض فرأى وجهه فقال :

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما ... بسوء فما أدرى لمن أنا قائله
أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه ... فقبح من وجه وقبح حامله[1]

وقد جعل (المعري) هذا الشعر ، سبباً دخل به الجنة ، لقوله بالصدق[2] .

وله قصيدة (سينية) مشهورة ، هجا فيها (الزبرقان بن بدر) ، فسجنه (عمر) عليها ، منها قوله :

ملوا قراه ، وهرته كلابهم ... وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد، فإنك أنت الطاعم الكاسي

وفيها :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس[3]

وقد قال (أبو عمرو بن العلاء) عن هذا البيت : « لم تقل العرب قط بيتاً ، أصدق » منه[4] »

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٤٠) ، (والحطيئة الرجل الدميم أو القصير ، ومنه لقب جرول الشاعر العبسي لدمامته . قاله الجوهري . وقيل : كان يلعب مع الصبيان فسمع منه صوت ، فضحكوا . فقال : ما لكم ! انما كانت حطيئة ، فلزمته نبزا ، وقيل غير ذلك) ، تاج العروس (١/٥٧) ، (حطأ) ، الخزانة (٢/٤٠٩) ، (هارون) .
٢ رسالة الغفران (٣٠٧) .
٣ رسالة الغفران (٣٠٧) .
٤ الاغاني (٢/١٨٤ وما بعدها) ، السيوطي شرح شواهد (٢/٩١٦ وما بعدها) .

وقد حملت دمامة خلقة الحطيئة ورثة هيئته وسوء ملبسه الناس على ازدراء شأنه وعدم الاهتمام به عند حضوره مجلساً لا يعرفه فيه أحد ، والى وقوعه في مشاكل معهم . وقد يكون من الصعب عليهم رتق الخرق بعد وقوعه وإصلاح حاله . غير أن منهم من كان يجد سبيلاً الى ذلك ، باسترضائه بتقديم المال له ، وهو مـا يطلبه ، فينسيه ما أصابه من ازدراء وإهمـال[1] . وزعم أنه كا مغمور النسب ، وأنه كان من أولاد الزنا الذين شرفوا[2] .

وقد غلب الهجاء على طبعه ، حتى عدّ من أنبغ الشعراء المتقدمين فيه . وقد ذهب (بروكلمن) الى أن للهجاء الفضل في بقاء شعر الحطيئة[3] . فالهجاء باب له منفذ واسع الى العواطف حفظه الأعداء والحساد للنيل ممن قيل بحقهم من أعدائهم وحسادهم ، فحفظه الناس جيلاً عن جيل .

ويقال ان (عمر) لما لقي الحطيئة قال له : « كأني بك عند بعض الملوك تغنّيه بأعراض الناس . أي تغني بذمهم وذم أسلافهم في شعرك وثلبهم »[4] . ولما هجا (الحطيئة) (الزبرقان بن بدر) استعدى عليه (عمر) ، فدعا (حسان بن ثابت) فقال : أتراه هجاه ؟ قال : نعم وسلح عليه فحبسه ، فقال وهو في حبسه شعراً يستعطف به (عمر) حتى رق عليه ، وشفع له (عمرو بن العاص) ، فأطلقه على ألا يهجو أحداً[5] . ويقال انه كتب الى عمر شعراً يتوسل فيـه العفو عنه ، وأن يرحم حال أولاده الصغار بذي مرخ ، فيه :

ماذا تقول لأفراخ بـذي مرخٍ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمـة فاغفر عليك سلامُ الله يا عمـر

---

١ راجع قصته مع « عتيبة بن النهاس العجلي » ، ثم قصة حضوره مجلس « سعيد بن العاص » « سعيد بن العاصي » ، وقصصا أخرى ، وهي تتحدث عـن ازدراء شأن الحطيئة لهيئته ولجهلهم به ، ثم عن استرضائهم له بعد وقوفهم على أمره ، الشعر والشعراء (١/٢٤٠ وما بعدها) .

٢ الخزانة (٢/٤٠٧) ، (هارون) ، (١/٤٠٩) ، (بولاق) .

٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٦٨) .

٤ اللسان (٧/١٧١) ، (عرض) .

٥ الاصابة (١/٣٧٨) ، (رقم ١٩٩١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٢/٩١٦ ومـا بعدها) ، الشعر والشعراء (١/٢٤٤ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٢٤٠) .

أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ألقى اليك مقاليدَ النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لهـا لكن لأنفسهم كانت بها الخير[1]

واذا صح ما روي من أن الحطيئة لما قدم المدينة ، يريد الرسول ، أرصدت له قريش العطاء ، خوفاً من شره[2] ، فيجب أن يكون قدومه قبل عـام الفتح ، وغلبة المسلمين عـلى المشركين . ولكننا نجد بعض الرواة يشكون في دخوله في الإسلام حياة الرسول . يقـول (ابن قتيبة) : « ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأني لم أسمع له بذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب ، إلا اني وجدته يقول في أول خلافة أبي بكر رضي الله عنه حـين ارتدت العرب :

أطعنا رسولَ الله إذ كان حاضراً فيا لهفتي مـا بال دين أبي بكر
أيورثها بكراً إذا مـات بعـده فتلك ، وبيت الله ، قاصمة الظهرِ

وقد يجوز أن يكون أراد بقوله : أطعنا رسول الله ، قومه أو العرب. وكيف ما كان فإنه كان رقيقَ الإسلام ، لئيم الطعم »[3] .

وقد مدح شعر الحطيئة ، فذكر عنه (أبو الفرج الأصبهاني) انه « كان من فحول الشعراء ومقدميهم وفصائحهم . وكان يتصرف في جميـع فنون الشعر من مدح وهجاء وفخر ونسيب ، ويجيد في جميـع ذلك » . وقال (الأصمعي) : « وما تشاء أن تقول في شعر شاعر مـا من عيب إلا وجدته فيه ، إلا الحطيئة، فقلما تجد ذلك في شعره » . وروي عن (اسحاق الموصلي) قوله : « ما أزعم ان أحداً من الشعراء بعد زهير أشعر من الحطيئة »[4] . قال (الجاحظ) : وكان الأصمعي يقول : « الحطيئة عبدٌ لشعره . عاب شعره حين وجـده كله متخيَّراً منتخباً مستوياً ، لمكان الصنعة والتكلف ، والقيام عليه »[5] ، ونسب للأصمعي قوله:

---

١ ديوانه (رقم ٣٤) ، الشعر والشعراء (٢٤٥/١) ، البيان والتبيين (٣١٨/٢) .
٢ الاصابة (٣٧٨/١) ، (رقم ١٩٩١) .
٣ الشعر والشعراء (٢٣٨/١ وما بعدها) ، (دار الثقافة) ، الخزانة (٤٠٨/٢) .
٤ الاصابة (٣٧٧/١ وما بعدها) ، (رقم ١٩٩١) ، الاغاني (٤٣/٢) .
٥ البيان والتبيين (٢٠٦/١) .

« زهير بن أبي سلمى ، والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر »[1] .

وكان (الحطيئة) راوية كعب بن زهير ، بل يقال انه كان راوية زهير ابن أبي سلمى[2] . وله ديوان برواية (السكري) عن (محمد بن حبيب) ، طبع مراراً[3] . وذكر انه « قال لكعب بن زهير : قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً ، فإن الناس لأشعاركم أروى . فقال كعب :

فمن للقوافي شأنها من يحوكها اذا ما ثوى كعب وفوز جرول »[4]

وروي « أن أعرابياً وقف على حسان وهو ينشد ، فقال له كيف تسمع ؟ قال ما أسمع بأساً ، فغضب حسان . فقال له : من أنت ؟ قال : أبو مليكة . قال : ما كنتَ قط أهون عليّ منك حتى اكتنيت بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : الحطيئة ، فأطرق حسان ، ثم قال : إمض بسلام »[5] .

وذكر بعض الرواة أن (الحطيئة) لما حضرته الوفاة اجتمع اليه قومه فقالوا : يا أبا مليكة ، أوصِ . فقال : ويل الشعر من راوية السوء . قالوا أوصِ ، يرحمك الله . قال : من الذي يقول :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

قالوا : الشماخ . قال أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب . وتستمر الرواية على هذا النوع من طلب قومه منه أن يوصي ، ومن إجابته أجوبة لا صلة لها بالوصية. حتى انتهت بأنهم حملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون وهو عليها حتى مات ، وهو يقول :

---

١ البيان والتبيين (٢/ ١٣) .
٢ كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١١٠) .
٣ طبع سنة (١٨٩٣ م) بمدينة (لايبزك) ، وطبع ببيروت ، والقاهرة مع شروح ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٨/١) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٧٠/١) .
٤ ابن سلام ، طبقات (٢١) .
٥ الاصابة (٣٧٨/١) .

لا أحد الأم من حطيئة   هجا بنيه وهجا المُريئة
من لؤمه مات على الفريئة[1]

وروى (ابن قتيبة) القصة على هذا النحو : « قيل له حين حضرته الوفاة: أوصِ يا أبا مليكة . فقال : مالي للذكور دون الأناث ، فقالوا : ان الله لم يأمر بهذا ، فقال : لكني آمر به ! ثم قال : ويل للشعر من الرواة السوء ، وقيل له : أوصِ للمساكين بشيء ، فقال : أوصيهم بالمسألة ما عاشوا ، فإنها تجارة لن تبور ! وقيل له : اعتق عبدك يساراً ، فقال : اشهدوا انه عبد ما بقي عبسيّ ! وقيل له : فلان اليتيم ما توصي له ؟ فقال : أوصي بأن تأكلوا ماله وتنيكوا أمه ! قالوا : فليس إلا هذا ؟! قال : احملوني على حمار فإنه لم يمت عليه كريمٌ ، لعلي أنجو ! ثم تمثل :

لكل جديد لذة غير أنني   رأيت جديدَ الموت غير لذيذ
له خبطة في الحلق ليست بسُكَّرٍ   ولا طعمَ راح يُشتهي ونبيذ

ومات مكانه »[2] .

وهي قصة لا تخلو من أثر الوضع والصنعة ، قيلت على لسانه ، لما عرف عنه من اللؤم والبخل والتعرض بالناس . وقد رويت بصور مختلفة[3] .

وقد ذكر (الحطيئة) (سعيدَ بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية) ، القرشي الأموي في شعره ، وكان سعيد ممن ندبه عثمان لكتابة القرآن . وكان جواداً ، ولم ينزع قميصه قط ، وكان أسود نحيفاً ، وكان يقال له : (عكة العسل) ، قال الحطيئة فيه :

سعيدٌ فلا يغررك قلة لحمه   تخدد عنه اللحم فهو صليبُ[4]

---

١ الاغاني (٢/١٩٥ وما بعدها) ، (الدار) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٧٥ وما بعدها) ، الخزانة (١/١٤١) ، (بولاق) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٣٩) .
٣ الخزانة (٢/٤١٢ وما بعدها) ، (هارون) .
٤ البيان والتبيين (١/٣١٤ وما بعدها) ، (٣/١١٦) .

ومن شعر (الحطيئة) المشهور قوله :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يُساوي بأنف الناقة الذنبا

وكان الرجل من (بني أنف الناقة) اذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني قريع ، فلما مدحهم (الحطيئة) بهذا الشعر صار الرجل منهم اذا قيل له : ممن أنت ؟ قال : من بني أنف الناقة افتخاراً ، في قصة سبق أن تحدثت عنها [1].

ومن جيد شعره قوله :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره تجد خيرَ نارٍ عندها خير موقد [2]

والشاعر (كعب بن زهير) هو ابن الشاعر الجاهلي (زهير بن أبي سلمى) . فهو شاعر ابن شاعر ، وأبو شعراء . فقد كان ولدا (كعب) وهما: (عقبة) ، و (العوام) شاعرين . وقد ذكر أن (بجيراً) أخو (كعب) ، فارق أخاه عندما بلغا (أبرق) العراق ، وذهب الى الرسول لما سمع من خبره ، فأسلم . فلما بلغ (كعباً) خبر إسلامه ، ذمّ أخاه لمفارقته سنة آبائه وأجداده ، وخروجه على ما ألف عليه أباه وأمه . بشعر قال فيه :

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة على أي شيء أنت منزل ذلكا
على خلق لم تلف أماً ولا أباً عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا [3]

أو :

ألا ابلغا عني بجيراً رسالة على أي شيء ريب غيرك دلكا
على خلق لم تلف أماً ولا أباً عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا
سقاك أبو بكر بكأس روية فأنهلك المأمور منها وعلكا [4]

---

١ البيان والتبيين (٣٨/٤) .
٢ ديوان الحطيئة (٢٥) ، الاغاني (٥٩/٢) ، البيان والتبيين (٢٩/٢) .
٣ الاستيعاب (٢٨١/٣) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ الاصابة (٢٧٩/٣) ، (رقم ٧٤١٣) . وجاءت الابيات على هذا النحو :
ففارقت أسباب الهدى واتبعته على أي شيء ويب غيرك دلكا
على منهب لم تلف اما ولا أبا عليه ولم تعرف عليه أخا لكا
كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١١٤) . (الطبعة الثانية ١٩٧٠ م) .

ورويت الأبيات على هذه الصورة أيضاً :

ألا ابلغا عـني بجيراً رسالةً فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا
سُقيت بكأس عند آل محمـد فأنهلك المأمون منهـا وعلّكا
فخالفت أسباب الهدى وتبعتـه على أي شيء ويْبَ غيرك دلّكا[1]

ووردت بصورة أخرى[2] ، مما يدل على اختلاف الرواية ، ووقوع خطأ في الاستنساخ . وقد لام فيها قومه لدخول أكثرهم في الإسلام، وهجاهم هجاء مراً[3] .

فبلغت أبياته رسول الله فأهدر دمه . وكتب بجـير بذلك اليه ، ويقول له النجاء ، ثم كتب اليه انه لا يأتيه أحد مسلماً إلا قبل منه وأسقط ما كان قبل ذلك ، ولما انتهى الى (كعب) قتل (ابن خطل) ، قدم المدينة فسأل عن أرق أصحاب النبي ، فدل على (أبي بكر) ، فأخبره خبره ، فمشى (أبو بكر) وكعب على أثره وقد التثم حتى صار بين يدي النبي فقال : رجل يبايعك . فمدّ النبي يده ، فمد كعب يده فبايعه وأسفر عن وجهه فأنشده قصيدته التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّمٌ إثرها لم يجزَ مكبول

وهي قصيدته الشهيرة التي طبعت مراراً وشرحت شروحاً كثيرة ، وتعدّ من (المشوبات) . فكساه النبي بردة له ، فاشتراها (معاويـة) من ولده بعشرين ألف درهم ، وهي التي يلبسها الخلفاء في الأعياد[4] .

وهي قصيدة نظمها على نفس شعراء البادية وطريقتهم في مدح الملوك وسادات القبائل ، ولولا الأبيات :

---

١ الشعر والشعراء (١/٨٠) ، ابن هشام (٨٨٩) ، (طبعة أوربـة) ، الاغـاني (١٥/١٤٧ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٣٤٣) ، بروكلمن ، تاريـخ الادب العربي (١/١٥٦) ، الخزانة (٤/٨) .

٢ المصون (٢٠٠ وما بعدها) ، كارلو نالينو (١١٤) .

٣ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٥٦) .

٤ الشعر والشعراء (١/٨٩ وما بعدها) ، (دار الثقافة) ، طبقات ابن سلام (٨٣) ، المرزباني ، معجم (٣٤٣) ، الاغاني (١٥/١٤٧) ، الاصابة (٣/٢٧٩) ، (رقـم ٧٤١٣) .

نبئت ان رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيه مواعيظ وتفصيل

والبيت :

إن الرسول لنورٌ يستضاء به مهندٌ من سيوف الله مسلول

لقلنا : انه انما أراد ملكاً أو سيد قبيلة لا نبياً ، جاء يعلن دخوله في دينه ، واقتناعه بنبوته[1] .

ويذكر علماء الشعر أن (الحطيئة) قال لكعب : قد علمتم روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي اليكم ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ثم تذكرني بعدك ، فإن الناس أروى لأشعاركم ، فقال :

فمن للقوافي شأنها من يحوكها إذا ما مضى كعب وفوّز جرول
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً تنخّل منهـا كل ما يتنخّل
يثقفها حتى تلـين كعوبها فيقصر عنها من يسيء ويعمل[2]

وقد ذكر (ابن قتيبة) هذه الأبيات في أثناء ترجمته (زهيراً) على هذه الصورة :

ومن للقوافي شأنها من يحوكها إذا ما ثوى كعب وفوّز جرول
يقولُ فلا يعيا بشيء يقولـه ومن قائليها من يُسيء ويعمل
يقومها حتى تلين متونها فيقصر عنها كـل ما يتمثل
كفيتك لا تلقى من الناس شاعراً تنخّل منها مثل مـا أتنخل[3]

« قيل لخلف الأحمر : زهير أشعر أم ابنه كعب ، قال : لولا أبيات لزهير أكبرها الناسُ لقلت ان كعباً أشعر منه »[4] .

---

١ كارلو نالينو (١٠٤ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (١/٩١) ، الاصابة (٣/٢٨٠) ، (رقم ٧٤١٣) .
٣ الشعر والشعراء (١/٨٨) .
٤ الشعر والشعراء (١/٧٧ وما بعدها) ، الاصابة (٣/٢٨٠) .

وكان لكعب ابن يقال له : (عقبة بن كعب) ، شاعرٌ ، وولد لعقبة العوّام ، وهو شاعر كذلك[1] . فنحن اذن أمام بيت توارث نظم الشعر .

وقد جمع علماء الشعر شعر (كعب) في ديوان ، كما شرحوا وفسروا قصيدة (بانت سعاد) التي نالت عندهم مكانة كبيرة ، لأنها قيلت في مدح الرسول ، ولتقدير الرسول لها واعطائه البردة ، تقديراً لقيمتها ، حتى عرفت بقصيدة البردة، فصارت من أشهر أشعار العرب ، التي يتغنى بها في المناسبات ، حتى تفنن المغنون في غنائها ، وخلدت اسم الشاعر حتى اليوم. وقد ترجمت الى عدة لغات أعجمية، وشطرت وخمست ، لما صار لها من مكانة في أعين الشعراء[2] .

ومن الشعراء المخضرمين : (العبّاس بن مرداس) من (بني سليم) ، وأمه (الخنساء) . أسلم قبل فتح مكة بيسير . ولما فرغ الرسول من ردّ سبايا (حنين) الى أهلها ، أعطى المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافاً يتألفهم ويتألف بهم قومهم ، فأعطى أبا سفيان وابنه معاوية ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن كلدة، والحارث ابن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العُزّى ، وصفوان بن أمية، وكل هؤلاء من أشراف قريش ، والأقرع بن حابس بن عنان بن محمد بن سفيان المجاشعي التميمي ، وعيينة بن حصن الفزاري ، ومالك بن عوف النصري، أعطى كل واحد من هؤلاء مائة بعير ، وأعطى دون المائة رجالاً من قريش ، وأعطى العباس بن مرداس دون المائة ، أو أباعر ، فسخطها ، وقام بين يدي الرسول يعاتبه ، فقال :

أتجعل نهبي ونهبَ العبيد بين عيينة والأقرع

وأبياتاً أخرى . فلما أنشد هذه الأبيات بين يديه ، قال : اقطعوا عني لسانه، فأعطي حتى رضي . وقيل أعطي مائة[3] .

---

١ الشعر والشعراء (١/ ٨٠ وما بعدها) .

٢ للوقوف على التفاصيل المتعلقة بقصيدة البردة خاصة ، وبشعر كعب ، راجع بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/ ١٥٦ وما بعدها) ، وزيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/ ١٨٣ وما بعدها) ، ودائرة المعارف الاسلامية .

٣ الخزانة (١/ ٧٣ وما بعدها) ، المرزباني ، معجم (٢٦٢) ، الشعر والشعراء (١/ ٢١٨) ، (٢/ ٦٣٢ وما بعدها) ، الطبري (٣/ ١٣٧) ، اللآلي (٣٢) .

ورويت الأبيات على هذه الصورة :

كانت نهاباً تلافيتُها وكرّي على القوم بالأجرع
وحثي الجنود لكي يدلجوا اذا هجع القومُ لم أهجع
فأصبح نهبي ونهب العُبَيْدِ بين عيينه والأقرع
إلا أفائل أعطيتها عديد قوائمه الأربع
وما كان بدر ولا حابسٌ يفوقان مرداسَ في المجمع
وقد كنت في الحرب ذا تُدْرأ فلم أعط شيئاً ولم أمنع
وما كنت دون امرىءٍ منهما ومن تضع اليومَ لا ترفع[1]

ولما بلغ زوجة العباس بن مرداس نبأ إسلامه ، قالت :

لعمري لئن تابعتَ دين محمد وفارقت إخوان الصفا والصنائع
لبدلّتَ تلك النفس ذلاً بعزة غداة اختلاف المُرهفات القواطع[2]

ومن شعره قصيدته :

لأسماء رسم أصبح اليوم دارساً وأقفر إلا رحرحان وراكسا

وتعدّ من (المنصفات)[3] .

وروي أن (حرب بن أمية) جدّ معاوية لما انصرف من حرب عكاظ هو وإخوته مر بالقرية ، وهي إذ ذاك غيضة شجر ملتف لا يرام، فقال له (مرداس) والد العبّاس : أما ترى هذا الموضع ! قال : بلى فما له ؟ قال : نعم المزدرع هو ، فهل لك أن تكون شريكي فيه ، ونحرق هذه الغيضة ثم نزرعه بعد ذلك ؟ قال : نعم . فأضرما النار في الغيضة ، فلما استطارت وعلا لهبها سمع من الغيضة أنيناً وضجيجاً ، ثم ظهرت منها حيّات بيض تطير وخرجت منها . ولم يلبث حرب ومرداس أن ماتا : فأما مرداس فدفن بالقرية ، ثم ادعاها بعد ذلك

---

١ ابن سعد ، طبقات (٤/٢٧٢) ، (صادر) ، وقد رويت بشيء من التغيير في كتاب الشعر والشعراء (٢/٦٣٤) .
٢ الاغاني (١٣/٦٦) .
٣ الخزانة (٣/٥١٨) ، الحماسة (١/١٦٨) ، البيان والتبيين (٣/٦١) .

(كليب بن أبي عهمة) الظفري ، فقال في ذلك عباس بن مرداس :

أكليب مالك كل يوم ظالما   والظلم أنكد وجهه ملعون
عجباً لقومك يحسبونك سيداً   وإخال إنك سيد معيون
فإذا رجعت الى نسائك فادّهن   إن المسالم رأسه مدهون
وافعل بقومك ما أراد بوائل   يوم الغدير سميّك المطعون[1]

وكان للعباس ولد اسمه (جاهمة) أسلم وصحب النبي[2] .

وكان زيد الخيل بن مهلهل بن زيد) الطائي ممن وفد على رسول الله سنة تسع ، فسماه النبي : (زيد الخير) . وكان شاعراً خطيباً شجاعاً يكنى (أبا مكنف). وأمه من (كلب) . وكان أحد شعراء الجاهلية وفرسانهم المعدودين ، وكان جسيماً طويلاً . مات (زيد الخيل) منصرفه من عند النبي ، وقيل في خلافة عمر[3] .

ذكر انه مر بغلام ، فسأله من أنت ؟ قال : أنا بجير بن زهير ، فحمله على ناقة ، ثم أرسل به الى أبيه . فأراد (زهير بن أبى سلمى) والد الغلام إثابته ، فأرسل اليه فرس ابنه (كعب) وكانت من جياد خيل العرب ، فاستاء (كعب) من ذلك ، وقال شعراً ليوقع بين قوم (زهير) وبين قوم (زيد الخيل) ، وهجا زيداً[4] .

وكان لزيد الخيل ابنان ، يقال لهما مكنف وحريث ، أسلما وصحبا النبي وشهدا قتال (الردة) مع (خالد بن الوليد) . وحماد الراوية مولى (مكنف) . ولحريث شعر في رثاء (أوس بن خالد) ، وكان قد قتل في حرب[5] .

وكان (مكنف) أكبر ولد أبيه ، وبه كان يكنى . وأسلم وحسن إسلامه ، وشهد قتال أهل الردّة مع (خالد بن الوليد) . وكان أسلم هو وأخوه (حريث

---

١ الحيوان (١٤٣/٢) ، الاغاني (٨٩/٤) ، معاهد التنصيص (١٣/١) ، الحيوان (٢٠٨/٦) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧٤/٤) ، الاصابة (٢٢٠/١ وما بعدها) ، (رقم ١٠٥٢) .
٣ الاصابة (٥٥٥/١) ، (رقم ٢٩٤١) ، الاغاني (٦/١٦) ، الخزانة (٤٤٦/٢) ، عيون الاثر (٢٣٦/٢) ، الشعر والشعراء (٢٠٥/١) ، (الثقافة) ، الحيوان (٢٠٤/٢ وما بعدها) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (٤٨٤/١ وما بعدها) .
٥ الشعر والشعراء (٢٠٥/١ وما بعدها) .

ابن زيد الخيل) ويقال له أيضاً (الحارث) ، وصحبا النبي . وشهـدا قتال أهل الردة مع (خالد) واشترك (مكنف) في قتال (بني أسد) لما ارتدوا مع (طليحة) الأسدي . ونسبت له هذه الأبيات في قتال طليحة :

ضلوا وغرهم طليحة بالمنى كذباً وداعي ربنا لا يكذب
لما رأونا بالفضاء كتائباً يدعو إلى رب الرسول ويرغب
ولّوا فراراً والرماح تؤزهم وبكل وجه وجهوا نترقب[1]

و (حميد بن ثور بن حزن) الهلالي ، من الشعراء المخضرمين الفصحاء ، وكان كل من هاجاه غلبه . وقد وفد على النبي ، فأنشده شعراً فيه :

أصبح قلبي من سليمى مقصداً إن خطأً منها وإن تعمدا
حتى أتيت المصطفى محمداً يتلو من الله كتاباً مرشدا

وذكر أنه كان في عداد الصحابة الذين رووا عن الرسول ، وضعفه بعضهم. قيل إنه عاش الى خلافة عثمان . وذكر بعض العلماء أنه عاش الى ما بعد ذلك ، وأنه دخل على بعض خلفاء بني أمية ، فقال له : ما جاء بك ؟ فقال :

أتاك بي الله الذي فوق من ترى وبرّك معروف عليك دليل[2]

وقد عدّه (ابن قتيبة) في الإسلاميين[3] .

و (الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة) التميمي السعدي ، ممن رأى الرسول وغزا معه وروى عنه . وكان شاعراً توفي في أيام (معاوية) ، وذكر أنه توفي سنة (٤٢ هـ) . وقيل فقد يوم الجمل ، وقيل ركب سفينة وحمل معه أهله وعياله، لما قتل (عثمان) ، فما رؤي بعد . وكان قاصاً ، قيل إنه كان أول من قص في مسجد البصرة[4] .

---

١ الاصابة (٤٣٦/٣) ، (رقم ٨١٩٩) .
٢ الاصابة (٣٥٥/١) ، (١٨٣٤) ، تهذيب ابن عساكر (٤٦٠/٤) ، ياقوت ، ارشاد (١٥٣/٤) ، العيني (١٧٧/١) ، الاغاني (٩٧/٤) ، السيوطي ، شرح شواهد (٧٣) ، ديوانه ، (دار الكتب المصرية ١٩٥١ م) الفائق (٣٥٤/٢) .
٣ الشعر والشعراء (٣٠٦/١ وما بعدها) .
٤ الاصابة (٥٩/١ وما بعدها) ، (رقم ١٦١) ، الاستيعاب (٧٢/٢) ، (حاشية على الاصابة) .

وكان (ضرار بن الأزور بن مرداس) الأسدي ، فارساً شجاعاً وشاعراً مطبوعاً ، استشهد يوم اليمامة ، وقيل بعد ذلك . وقد أتى النبي فأنشده :

خلعت القداح وعزف القيا ن والخمر أشربها والثمالا
وكرى المجبر في غمرة وجهدي على المشركين القتالا
وقالت جميلة بددتنا وطرحت أهلك شتى شمالا
فيا ربّ لا أغبنن صفقة فقد بعت أهلي ومالي بدالا [1]

ولضرار قصيدة قالها في يوم الردة ، لما بلغه ارتداد قومه من (بني أسد) ، منها:

بني أسد قد ساءني ما صنعتم وليس لقوم حاربوا الله محرم
وأعلم حقاً انكم قد غويتم بني أسد فاستأخروا أو تقدموا
نهيتكم أن تنهبوا صدقاتكم وقلتُ لكم : يا آل ثعلبة اعلموا
عصيتم ذوي أحلامكم وأطعتم ضجيماً وأمر ابن اللقيطة أشأم
وقد بعثوا وفداً الى أهل دومة فقبح من وفد ومن يتيمم
ولو سئلت عنا جنوب لخبرت عشية سالت عقرباء بها الدم

وضجيم هو (طلحة بن خويلد) ، وكانت أمه حميرية أخيذة ، وابن اللقيطة: (عيينة بن حصن) ، وقوله : يا آل ثعلبة ، أراد ثعلبة الحلاف بن دودان بن أسد . وعقرباء بأرض اليمامة [2] . وكان (عيينة) قد انضم الى (طلحة) الذي تسميه الموارد (طليحة) استصغاراً لشأنه ، كما دعت (مسلمة) (مسيلمة) ، وقال : « والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب الينا من أن نتبع نبياً من قريش ؛ وقد مات محمد ، وبقي (طليحة) ، وقاتل معه حتى هرب . وكان يدير المعركة وهو متلفف في كساء له بفناء بيت له من شعر ، يتنبأ لهم ، والناس يقتتلون ، حتى جاءه الوحي بقوله : « ان لك رحا كرحاه ، وحديثاً لا تنساه » ، ثم لم يصمد ، فهرب [3] .

وضرار هو الذي قتل (مالك بن نويرة) بأمر (خالد بن الوليد) [4] .

١ الاصابة (٢/٢٠٠) ، (رقم ٤١٧٢) ، الاستيعاب (٢/٢٠٣) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الخزانة (٢/٥ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ الطبري (٣/٢٥٦) .
٤ الخزانة (٢/٨ وما بعدها) ، (بولاق) .

وكان (هوذة بن علي) الحنفي شاعراً وخطيباً ، ذكر أنه كتب الى الرسول كتاباً يقول فيه : « ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك » . وقد مات عام الفتح[1]. وهو شاعر يجب إدخاله في الجاهليين ، لأنه لم يعتنق الإسلام ، وقد تحدثت عنه هنا ، لأنه من المتأخرين ، وله خبر مع الرسول .

و (فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة) المرادي ، شاعر ، وهو صحابي مخضرم . وكان من أشراف قومه ، قدم على رسول الله ، مفارقاً لملوك كندة ، فبايعه ، ونزل على (سعد بن عبادة) ، فكان يحضر مجلس رسول الله ، ويتعلم القرآن وفرائض الإسلام . ثم استعمله الرسول على مراد وزبيد ومذحج كلها ، وكتب معه كتاباً الى الأبناء باليمن يدعوهم الى الإسلام ، فأقام فيهم حتى توفي رسول الله . وذكر أن النبي ، أجاز (فروة) باثني عشر أوقية ، وحمله على بعير نجيب وأعطاه حلة من نسج عمان . واستعمله (عمر) — كما جاء في رواية — على صدقات مذحج[2] .

وقد جمع شعر (فروة) في ديوان ، رجع (السيوطي) اليه ، ونقل منه[3] .

و (عمرو بن معديكرب) الزبيدي من أشراف اليمن وساداتهم ، وقد اشتهر وعرف بالشجاعة ، قال عنه « أبو عمرو بن العلاء : لا يفضل عليه فارس في العرب » . وكان فحلاً في الشجاعة والشعر . وأكثر شعره في الحماسة . وقد اشتهر بسيفه (الصمصامة) ، والأرجح انه شهد (القادسية) ، وكان له أثر فيها . واختلف في صحبته للنبي ، فمن العلماء من ذكر انه لم يلق الرسول ، وانما قدم المدينة بعد وفاته ، ومنهم من ذكر انه قدم المدينة في وفد (زبيد) ، فأسلم سنة تسع أو عشر ، وصحب الرسول . ولا تخلو أقوال الرواة فيه من أثر العصبية لليمن أو عليها ، وقد اختلف في عمره ، وأكثرهم انه مات بعد أن تجاوز المائة ، ومنهم من جعل عمره فوق المائة والخمسين[4] . وهو ابن خالة (الزبرقان بن بدر)

---

١ ابن سعد ، الطبقات (٢٦٢/١) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٨٢/١ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٨٢/١) .
٤ الاصابة (١٨/٣ وما بعدها) ، (رقم ٥٩٧٢) ، الاغاني (٢٤/١٤) ، المؤتلف (١٥٦) ، المرزباني ، معجم (٢٠٨) ، الخزانة (٤٢٢/١) ، (٤٦٠/٣) ، الشعر والشعراء (٢٨٦/١ وما بعدها) .

التميمي ، وأخته (ريحانة بنت معدي كرب) والدة (دريد بن الصمة) ، و (عبدالله ابن الصمة) . وكانت تحت (الصمة بن الحارث)[1] .

وورد في بعض الروايات ، أنه قدم على رسول الله المدينة فأسلم ، ثم ارتد بعد وفاته فيمن ارتد باليمن ، ثم عاد الى المدينة فشهد اليرموك ثم هاجر الى العراق فأسلم ، وشهد القادسية ، وله بها أثره وبلاؤه ، وشهد مع النعمان بن مقرّن المزني فتح نهاوند ، فقتل هنالك ، مع النعمان وطليحة بن خويلد ، فقبورهم بموضع يقال له : (الاسفيذهان)[2] .

ومن شعره الذي يتمثل به ، قوله :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه الى ما تستطيع

وقوله :

أريد حباءه ويريد قتلي   عذيرك من خليلك من مراد

وتمثل به علي بن أبي طالب ، لما رأى عبد الرحمان بن ملجم المرادي[3] .

ولعمرو بن معديكرب ، ديوان برواية (أبي عمرو الشيباني) رآه (ابن حجر) وقال عنه « ورأيت في ديوانه رواية أبي عمرو الشيباني من نسخة فيها خط أبي الفتح بن جني قصيدة يقول فيها :

والقادسية حين زاحم رستم   كنّا الكماة نهز كالاسطان
ومضى ربيع بالجنود مشرقاً   ينوي الجهاد وطاعة الرحمن[4]

وأورد (ابن حجر) له أشعاراً أخرى .

ونجد لعمرو بن معدي كرب شعراً في وصف الحرب ، ذكر أن (عمر) سأله:

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٨٩) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٨٩ وما بعدها) ، الخزانة (١/٤٢٥ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ المرزباني ، معجم (١٦) ، (مراح) .
٤ الاصابة (٣/٢٠) ، (رقم ٥٩٧٢) ، الاغاني (١٤/٢٤) ، الخزانة (١/٤٢٥) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٤١٩) .

« أخبرني عن الحرب » ، فقال : هي كما قال الشاعر :

الحرب أول ما تكون فتيةٌ تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا استعرت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكرت مكروهة للضم والتقبيل

وهي في بعض الروايات من شعره[1] .

ومن شعر (عمرو بن معدي كرب) قوله :

سوى أنّ أصواباً باعقق لم يزل بها آنسٌ من أهلها غير بارح
وجدنا به العَمْرين عمرُ بن عُدية وعمرو بن عمرو في حلال سُلاطح
وجدنا بني عمرو ثمانين فارساً لكل صباحٍ كاشر الناب كالح
وكان الغدانيون تحت رماحهم رماح بني عمرو غداة المصابح
مصافين أصهاراً ورحماً وجيرة وما كان فيهم فارس غير جامح[2]

وقوله :

وجدّك مخصيٌ على الوجه ناعسٌ تشير به الركبان ما قام أفرع[3]

وله أشعار قالها في حروبه في العراق مع جيش الفتح .

و (ساعدة بن جؤية) (ساعدة بن جؤين) (جؤية) ، هو من الشعراء المخضرمين . أدرك الجاهلية والاسلام ، وأسلم . وليست له صحبة . قيل عن شعره انه محشو بالغريب والمعاني الغامضة[4] . وهو شاعر من شعراء مضر، محسن ، قيل عن شعره انه ليس فيه من الملح ما يصلح للمذاكرة[5] .

---

١ شرح ديوان الحماسة (١/٢٥٢ ، ٣٦٨ ، ٤٠٨) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٣٣٩) .
٢ الصفة (١١٥) .
٣ الصفة (١٢٦) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٩ ، ١٥٦) ، ديوان الهذليين (١/١٦٧) ، الخزانة (١/٢٦٧ وما بعدها) ، (ساعدة بن جوين ويقال ابن حرية ... قال أبو القاسم الحسن بن بشر الامدي : ساعدة بن حوية) ، الاصابة (٢/١٠٦) ، (رقم ٣٦٥٠) .
٥ الخزانة (١/٤٧٦) ، (بولاق) .

و (أبو ذؤيب) (خويلد بن خالد بن محرّث) ، شاعر مخضرم ، مجيد. وهو من (هذيل) . ورحل الى المدينة ، فوصلها والرسول مسجى ، فكان ممن صلى عليه وشهد دفنه . « سئل حسان من أشعر الناس ؟ فقال حياً أم رجلاً ؟ قالوا حياً ، قال : هذيل ، وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب . وتقدم أبو ذؤيب على جميع شعراء هذيل بقصيدته العينية التي أولها :

أمن المنون وريبها تتوجع »[1] ، التي يرثي بها بنيه .

وقد قال عنه بعض المؤرخين انه شاعر مجيد مخضرم كان أشعر هذيل، وهذيل أشعر أحياء العرب[2] . وقال المرزباني عنه : كان فصيحاً كثير الغريب متمكناً في الشعر ، وعاش في الجاهلية دهراً وأدرك الاسلام ، وأسلم . وعامـــة ما قال من الشعر في إسلامه[3] . هلك في زمان عثمان وقيل في زمن (عمر)[4] .

وكان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي[5] .

وتعدّ قصيدته المذكورة التي قالها في رثاء بنيه الخمسة أو الثمانية الذين قتلوا أو هلكوا بالطاعون في عام واحد ، من أجود شعره . وهي قصيدة تفيض بالأسى والحنان على بنيه الذين ترك فراقهم أسى وحسرة في قلبه . وأولها :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومن أبياتها الجيدة :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيتَ كل تميمة لا تنفع[6]

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٩) ، الشعر والشعراء (٢/٥٤٧ وما بعدها) ، الاغاني (٦/٥٦ وما بعدها) ، الخزانة (١/٢٠١) ، المؤتلف (١١٩) ، ابن سلام ، طبقات (١١٠) ، معاهد التنصيص (٢/١٦٥) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٠) ، ديوان الهذليين (١/١٥٨) ، (دار الكتب المصرية) .

٣ الاصابة (٤/٦٦) ، (رقم ٢٨٨) ، حسن المحاضرة (١/١١٣) ، أسد الغابــة (٥/١٨٨) ، ياقوت ، ارشاد (٤/١٨٥ وما بعدها) .

٤ السيوطي ، شرح (١/٣٠ وما بعدها) ، الاصابة (٤/٦٦) ، (رقــــم ٢٨٨) ، رسالة الغفران (١٥١ ، ١٦٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠) .

٥ الشعر والشعراء (٢/٥٤٧ وما بعدها) .

٦ جمهرة أشعار العرب (١٢٨ وما بعدها) ، (بولاق) ، السيوطي ، شرح شواهد (٩٢ وما بعدها) ، كارلو نالينو ، تاريخ الاداب العربية (١١١ وما بعدها) .

وقد وصف فيها حاله ، وكيف أن جسمه صار شاحباً من الوجد على ما حل ببنيه ، وكيف أنه صار لا يعرف طعم الراحة ولا النوم ، حتى صار بعيش ناصب ، يخال نفسه إنه لاحق بهم مستتبع ، ولقد حرص بأن يدافع عنهم ، ولكن المنيّة متى أقبلت فلا دافع لها :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنيّة أقبلت لا تدفع
وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ولأبي ذؤيب شعر في رثاء الرسول وردت أبيات منها في (الاستيعاب) . وقد اختلف في المكان الذي توفي به هذا الشاعر ، كما اختلف في سنة وفاته[1] . وقد طبع ديوانه[2] . وكان أبو ذؤيب ، شاعراً فحلاً ، لا غميزة فيه ولا وهن[3] . ومن شعره في رثاء الرسول قوله :

لما رأيت الناس في عسلانهم من بين ملحود له ومضرح
متبادرين لشرجع بأكفهم نص الرقاب لفقد أبيض أروح
فهناك صرتُ الى الهموم ومن يبت جار الهموم يبيت غير مروح
كسفت لمصرعه النجوم وبدرها وتزعزعت آطام بطن الأبطح
وتزعزعت أجبال يثرب كلها ونخيلها لحلول خطب مفدح
ولقد زجرتُ الطير قبل وفاته بمصابه وزجرت سعد الأذبح[4]

وكان لأبي ذؤيب ابن يقال له (مازن بن خويلد) ، ويكنى أبا شهاب ، وهو أحد شعراء هذيل[5] .

و (أبو خِراش) ، (خويلد بن مرة الهذلي) من شعراء هذيل ، وهو شاعر مشهور ، أدرك الإسلام شيخاً كبيراً ووفد على (عمر) وفي أيامه كانت وفاته . وكان أحد الفصحاء . يقال إنه كان سريع الجري . دخل مكة

---

١ الاستيعاب (٦٧/٤) ، (حاشية على الاصابة) ، الخزانة (٢٠٣/١) ، (بولاق) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٦٩/١ وما بعدها) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٢٩) ، (ليدن) ، أمالي المرتضى (٢١٧/١ ، ٢٥٩ ، ٢٩٣ ، ٤٩٢ ، ٦١٦) .
٤ الروض الانف (٣٧٩/٢) .
٥ الشعر والشعراء (٥٥٠/٢) .

في الجاهلية ، وللوليد بن المغيرة فرسان ، فقال : ما تجعل لي إن سبقتها عدواً؟ قال : إن فعلت فهما لك ، فسبقها . يقال إن ضيوفاً من اليمن نزلوا عليه، فذهب يستقي لهم الماء فنهشته حية ، فأقبل مسرعاً حتى أعطاهم الماء ، ولم يعلمهم ما أصابه . فباتوا يأكلون ، فلما أصبحوا وجدوه في الموت ، فأقاموا حتى دفنوه . فبلغ عمر خبره ، فكتب الى عامله أن يأخذ النفر الذين نزلوا بأبي خراش فيغرمهم ديته[1] .

ومن شعره :

لا هم هذا رابع إن تمّا   أتمه الله وقد أتما
إن تغفر اللهم تغفر جمّا   وأي عبد لك لا ألمّا

قاله وهو يسعى بين الصفا والمروة ، وثم شجر يومئذ[2] .

ولأبي خراش أخ يقال له : (عروة بن مرة) ، من شعراء هذيل المعدودين، وأخ آخر اسمه (أبو جندب بن مرة) ، أحد شعراء هذيل المعدودين أيضاً[3] .

و (صخر) الغي ، هو (صخر بن عبدالله) الخيثمي الهذلي ، من شعراء الخلاعة ، وقد عرف بشدة بأسه وكثرة شره ، وله صاحبة اسمها (دهماء) . وقد ذكرها في قصيدته :

إني بدهماء عزّ ما أجدُ   يعتادني من حبابها زؤد
عاودني حبها وقد شحطت   صرف نواياها فانني كمد[4]

---

١ الاصابة (١/٤٥٧) ، (رقم ٢٣٤٥) ، الخزانة (٣/٢٣٢) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٢٣) ، الاغاني (٢١/٥٤) ، طبع ديوانه في مجموعة الشعراء الهذليين ، الخزانة (١/٢١٢ وما بعدها) ، (بولاق) ،
J. Hell, Neue Hudhailiten Diwane, 2 Leipzig, 1933.
كارلو نالينو ، تأريخ الاداب العربية (١١١) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٢٥) ، الخزانة (١/٢١١) .
٣ الشعر والشعراء (٢/٥٥٤ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (٣٤٥) ، الشعر والشعراء (٢/٥٥٩) ، الاغاني (٢٠/١٩) ، ديوان الهذليين (٢/٥٧) ، الاصابة (٢/١٩٢) ، (رقم ٤١٢٧) .

وهو على رأي (المرزباني) من المخضرمين[1] .

و (النمر بن تولب بن زهير بن أقيش) ، شاعر مخضرم ، يكنى (أبا ربيعة) ويسمى (الكيّس) ، أدرك الاسلام وهو كبير ، وهو من (الصحابة) . وهو من (بني عكل) . وصف بأنه كان جواداً واسع القرى ، كثير الأضياف ، وهّاباً لماله . وانه كان أفتى الشعراء ، شاعراً فصيحاً جريئاً على المنطق[2] . قال عنه (المرزباني) : « كان شاعراً فصيحاً ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، وكتب له النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً ، ونزل البصرة بعد ذلك . وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيّس لجودة شعره وكثرة أمثاله . وكان جواداً وعمر طويلاً حتى أنكر عقله ، فيقال انه عمر مائتي سنة . وهو القائل :

يحبّ الفتى طول السلامة جاهداً فكيف يرى طول السلامة يفعل

وله شعر يخاطب به النبي منه :

إنّا أتيناك وقد طال السفر أقود خيلاً وجعا فيها ضرر[3]

وفرق (ابن حزم) بين (النمر بن تولب بن أقيش) العكلي ، وبين (النمر بن تولب) وبين (النمر بن قاسط) . وقال إنه الذي عاش حتى خرف. ويقال إن للنمر بن تولب العكلي ابناً يقال له (ربيعة) هاجر الى الكوفة[4] .

وكان (النمر) شاعر الرباب في الجاهلية، ولم يمدح أحداً ولا هجا، واستحسن من شعره قوله :

---

١ الاصابة (٢/١٩٢) ، (رقم ٤١٢٧) .

٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/١٨١ وما بعدها) ، الاغاني (٢٢/٢٨٧) ، طبقات الشعراء (١٣٤) ، الشعر والشعراء (٢٦٨) ، العمدة (٢/١١٨) ، الشعر والشعراء (١/٢٢٧ وما بعدها) ، (دار الثقافة) ، الاغاني (١٩/١٥٧) ، (ساسي) ، المعمرون (٧٠ ، ٨٧) ، الخزانة (١/١٥٢) ، ابن سلام ، طبقات (١٣٣) ، (٣٧) ، (ليدن) ، البيان والتبيين (١/٣ ، ١٢ ، ٥٥ ، ١٥٤ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٨٤ ، ٤٠٨)، (٢/١٣٤) ، (٣/٤٤) ، البخلاء (١٦٣ ، ٢٢٩ ، ٣٨٤) ، رسالة الغفران (١٥٣).

٣ تختلف روايات هذا الشعر ، الاصابة (٣/٥٤٢) ، (رقم ٨٨٠٤) ، الاستيعاب (٣/٥٤٩ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ الاصابة (٣/٥٤٣) ، (رقم ٨٨٠٤) .

تدارك ما قبل الشباب وبعده   حوادث أيام تمر وأغفل
يود الفتى طول السلامة والغنى   فكيف يرى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة   ينوء اذا رام القيام ويحمل[1]

ومن الشعر المنسوب اليه قوله :

خاطر بنفسك كي تنالَ رغيبةً   إنّ القعود مع العيال قبيح
إن المخاطر مالكٌ أو هالك   والجدّ يجلي مرة فيريح

وقوله :

ومتى تصبك خصاصةٌ فارجُ الغنى   وإلى الذي يهب الرغائب فارغب
لا تغضبن على امرىء في ماله   وعلى كرائم أصل مالك فاغضبِ[2]

وقد تعرض (النمر بن تولب) في شعره الى قصة (زرقاء) اليمامة وجديس، والى قصة غزو (تبع) لجديس واستباحته اليمامة[3] . وقد ورد ذكر (عادياء) في شعره بقوله :

هلا سألتِ بعادياء وبيته   والخيل والخمر التي لم تمنع[4]

وفي شعره قصص عن (لقمان) وعن (لقيم بن لقمان) من أخته[5] ، ويظهر أنه كان من الأشخاص الذين كانوا يهتمون بالقصص والحكايات المروية عن الجاهليين ، فأدبج شيئاً منه في شعره .

و (الخنساء بنت عمرو بن الشريد بن رياح بن ثعلبة بن عُصيّة بن خفاف ابن امرىء القيس بن بهثة بن سليم) السلمية ، واسمها (تماضر) ، ممن أدركن الاسلام . وقد أسلمت فعدّت صحابية . و (الخنساء) لقبها ، قدمت على رسول الله مع قومها فأسلمت . وذكر ان الرسول كان يستنشدها ويعجبه شعرها .

---

١ الاستيعاب (٣/٥٥١) ، الخزانة (١/١٥٦) ، (بولاق) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٣٤ وما بعدها) .
٣ الخزانة (١/١٥٥ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ البخلاء (١٦٤) .
٥ البيان والتبيين (١/١٨٤) .

« وأجمع أهل العلم بالشعر على انه لم يكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها . وكانت أول أمرها تقول البيتين والثلاثة حتى قتل أخوها معاوية ثم أخوها صخر، فأكثرت من الشعر وأجادت »[1] . وهي أم الشاعر (العباس بن مرداس) ، وأم اخوته الثلاثة وكلهم شاعر . ولم تلد إلا شاعراً ، وذكر (الكلبي) ان أم ولد (مرداس) جميعاً الخنساء ، إلا العباس ، فإنها ليست أمه ، ولم يذكر من أمه . غير ان (أبا فرج الأصبهاني) ذكر انها أمه . وكان النبي يعجبه شعرها ويستنشدها ويقول هيه يا خناس ويومىء بيده[2] .

روي انها كانت تقول الشعر في زمن النابغة الذبياني ، وكان النابغة تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، وكانت (الخنساء) ممن أنشدته شعرها ، ويقال انه لما سمع شعرها ، قال : « والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك،فقالت له الخنساء: والله ولا ذا خصيين»[3]. ومن جيد شعرها ، قولها في (صخر) أخيها :

لا بد من ميتة في صرفها غِيَر والدهر من شأنه حول واضرار
وان صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار[4]

وذكر أنها كانت سوّمت هودجها براية في الموسم ، وعاظمت العرب بمصيبتها بابنها (عمرو) وبأخويها صخر ومعاوية ، وجعلت تشهد الموسم وتبكيهم ، وأن هنداً ابنة عتبة لما قتل ببدر أبوها وعمّها شيبة وأخوها الوليد فعلت كذلك وقالت: اقرنوا جملي بجمل الخنساء ، فصارتا تبكيان وتتناشدان[5] .

وروي أن رسول الله كان يستحسن قول الخنساء في صخر أخيها :

لا بد من ميتةٍ في صرفها غِيَر والدهر من شأنه حولٌ وإضرارُ

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٣ وما بعدها) ، الخزانة (١/٢٠٩) ، (بولاق)، الاغاني (١٣/١٩) ، الخزانة (٣/٤٠٣) ، بروكلمن (١/١٦٤ وما بعدها) .
٢ الخزانة (١/٢٠٨ وما بعدها) ، (بولاق) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٦٠ وما بعدها) .
٤ المحاسن والاضداد (٩٣) ، (اشم أبلج تأتم الهداة به) ، الشعر والشعراء (١/٢٦٣) .
٥ السيوطي ، شرح شواهد (٢٥٥) .

وإن صخراً لتأتم الهداة بــه كأنه علـم في رأسـه نار

وذكر أنها زارت (عائشة) وتحدثت معها[1] :

وروي أنها حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال ، فحثتهم على القتال والاستماتة فقتلوا جميعاً ، فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم . وكان (عمر) أمر أن تعطى الخنساء أرزاق أولادها الأربعة حتى توفي[2] ، وله قصة معها ، وذكر أنه لما طلب منها أن تكف عن البكاء ، قال لهـا : « ما الذي أقرح ما في عينيك ؟ قالت : البكاء على سادات مضر ، قال : إنهم هلكوا في الجاهلية ، وهم أعضاد اللهب وحشو جهنم . قالت: فداك أبي وأمي فذلك الذي زادني وجعاً » . ثم طلب منها أن تنشده من شعرها ، فأنشدته :

سقى جدثاً أعراق غمرة دونه وبيشة ديمات الربيع ووابله[3]

و (خفاف بن ندبة) ، هو (خفاف بن عُمير بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصية) ويكنى أبا خراشة ، وهو ابن عم الخنساء و (ندبة) أمه . وهو شاعر مشهور من المخضرمين ، وله شعر يمدح بــه (أبا بكر) ، وبقي الى زمن (عمــر) ، وكان أسود حالكاً[4] . شهد الفتح وكان معه لواء (بني سليم) ، وذكر (الأصمعي) ، انه ودريد أشعر الفرسان . وله يقول : العباس بن مرداس :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع[5]

ويعدّ من فرسان قيس وشعرائها المذكورين .

وضابىء بن الحارث بن أرطاة البرجمي ، وسويد بن كراع العكلي،والحويدرة الذبياني ، واسمه قطبة بن أوس بن محصن بن جرول ، وسُحيم عبد بني الحسحاس الأسديين ، من طبقة واحدة ، تكون الطبقة التاسعة في (طبقات الشعراء) ،

---

١ المحاسن والاضداد (٩٣) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٥٤) .
٣ المحاسن والاضداد (٩٤) .
٤ السيوطي ، شرح شواهد (١/٣٢٥) .
٥ الاصابة (١/٤٤٨) ، (رقم ٢٢٧٣) .

لابن سلام[1] . وكان (ضابىء) ، رجلاً بذياً كثير الشر ، وكان بالمدينة ، صاحب صيد وصاحب خيل ، وقد حبسه عثمان ، وبقي في سجنه حتى مات[2] .

و (سحيم) عبد بني الحسحاس ، شاعر مشهور مخضرم ، أدرك النبي ، وتمثل النبي بشيء من شعره . وكان عبداً أسود شديد السواد أعجمياً . وذكر ان اسم (عبد بني الحسحاس) (حيمة) ، وقيل (سُحيم) ، وانه شبب بنساء قومه ، ثم ببنت سيده فقتله سيده . وقيل ان قتله كان في خلافة عثمان[3] . وله ديوان مطبوع[4] . وورد ان (عمر) أمر بقتله لأبيات فاحشة . وذكر انه حُفر له أخدود وضع فيه وألقى عليه الحطب ثم أحرق[5] . وورد ان (عمر) استنشده شعره ، وانه أنشده قصيدته :

ودع سليمى إن تجهزت غاديا كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا[6]

وكان سحيم حبشياً معلطاً قبيحاً ، وهو القائل في نفسه :

أتيت نساء الحارثيين غدوةً بوجه براه الله غير جميل
فشبهني كلباً ولستُ بفوقه ولا دونه إن كان غير قليل

اشتراه (عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي) ، وكتب الى (عثمان) : « إني قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً ، فكتب اليه عثمان : لا حاجة بنا اليه ، فاردده ، فإنما حظ أهل العبد الشاعر منه إذا شبع أن يشبب بنسائهم ، وإذا جاع أن يهجوهم » . « ويقال سمعه عمر بن الخطاب ينشد :

ولقد تحدر من كريمة بعضهم عرقٌ على جنب الفراش وطيب

---

١ (ص ٣٩ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٤٠) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٣٢٧/١) ، الخزانة (٢٧٣/١) ، الاغاني (٩/٢٠) ، الخزانة (٢٧١/١) ، ابن سلام ، طبقات (١٥٦) ، أسماء المقتالين (٢٧٢) ، ديوان المعاني ، للعسكري (١٦٦/٢) ، الخزانة (١٢٨/١ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ ديوان سحيم عبد بني الحسحاس (تحقيق عبد العزيز الميمني) ، (دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م) .
٥ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧١/١) .
٦ الاصابة (١٠٨/٢) ، (رقم ٣٦٦٤) .

فقال له : إنك مقتول ، فسقوه الخمر ثم عرضوا عليه نسوة ، فلما مرّت به التي كان يتهم بها أهوى اليها ، فقتلوه » ، الى غير ذلك من قصص[1] .

و (سحيم بن وثيل بن أعيقر بن أبي عمرو بن إهاب بن حميري) الرياحي، شاعر مخضرم ، تفاخر هو وغالب بن صعصعة والد الفرزدق ، فتناحرا الإبل . وقد وصف بأنه شاعر خنذيذ شريف مشهور الذكر في الجاهلية والإسلام . وله قصيدة مطلعها :

أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني
ومـاذا يدرك الشعراء مني   وقد جاوزت حدّ الأربعين[2]

و (ربيعة بن مقروم بن قيس بن جابر بن خالد) الضبي ، أحد الشعراء المخضرمين . وكان أحد شعراء مضر . ذكر أنه وفد على كسرى في الجاهلية ، ثم عاش الى أن أسلم[3] . «وذكره دعبل في طبقات الشعراء ، وقال مخضرم حبسه كسرى بالمشقر ثم أدرك القادسية »[4] . وكانت عبد القيس أسرته ، ثم منت عليه بعد دهر[5] .

والشاعر (أبو زيد ، حرملة بن المنذر بن معديكرب بن حنظلة) الطائي من شعراء طيء ، وكان نصرانياً ومات على دينه بعد خلافة عثمان[6] . وكان نديم

---

١ الشعر والشعراء (١/٣٢٠ وما بعدها) ، الخزانة (٢/١٠٢ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) ، المحاسن والاضداد (١٤٣ وما بعدها) .
٢ الخزانة (١/١٢٣) ، البيان والتبيين (٢/٢٤٦) ، الامالي (١/٢٤٦) ، الاشتقاق (٢٢٤) ، الشعر والشعراء (٦٢٦) ، الاصمعيات (رقم ١) ، السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٥٩ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٢/٥٣٨) ، (دار الثقافة) ، ابن سلام ، طبقات (٤٨٩) ، ذيل الامالي (٣/٥٢) ، الاغاني (١٩/٥)، الاصابة (٢/١٠٩) ، (رقم ٣٦٦٥) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (١/٤٦٧) ، (٢/٨٦٠) ، شرح المفضليات (٣٥٥) ، الخزانة (٣/٥٦٩) ، الاغاني (١٩/٩٠) ، السمط (٣٧) .
٤ الاصابة (١/٥١١) ، (رقم ٢٧٣٦) .
٥ الشعر والشعراء (١/٢٣٦ وما بعدها) .
٦ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٦٤٠ وما بعدها) ، الاغاني (١١/٢٣) ، ابن سلام ، طبقات (١٣٢ وما بعدها) ، الخزانة (٢/١٥٥) ، الامالي ، للقالي (٣/١٨٣) ، جمهرة اشعار العرب (١٣٨) .

(الوليد بن عقبة) ، يشرب الخمر معه ، ولما صار (الوليد بن عقبة) الى (الرقة) ، سار (أبو زيد) اليه ، فكان ينادمه ، وكان يحمل في كل يوم أحد الى البيعة ، فيحضر مع النصارى ، ويشرب ، ولما مات دفن على (البليخ) ، وهناك أيضاً قبر (الوليد بن عقبة)[١] . وقد اشتهر بوصف الأسد ، وكان مغرى بوصفه في شعره[٢] . وورد في رواية انه أسلم بتأثير (الوليد بن عقبة) عليه . لكن الأغلب انه بقي على نصرانيته ، وقد استعمله (عمر) على صدقات قومه ، ولم يستعمل نصرانياً غيره . قيل انه رثى (علي بن أبي طالب). وكان له أخ (من خلصة ملوك العجم) . وذكر انه بقي الى أيام معاوية[٣] .

و (الشماخ بن ضرار) الذبياني من الشعراء كذلك ، أدرك الجاهلية والإسلام. و (الشماخ) لقب ، واسمه (معقل)، وقيل (الهيثم) . « قال ابن الكلبي: كان الشماخ أوصف الناس للخمر والقوس » ، وأرجز الناس على بديهة ، وهو كثير الهجاء ، له مهاجاة مع (الحليج بن سعد) التغلبي . وله شعر في مدح (عرابة) الأوسي ، وكان قدم المدينة ، فأوقر له عرابة راحلته تمراً وبراً وكساه وأكرمه[٤] . وكان له أخوان : مزرداً وجزءاً ، رويت مقطعات صغيرة من شعرهما . وللشماخ ديوان شعر مطبوع[٥] . قال عنه (ابن سلام) : « فأما الشماخ: فكان شديد متون الشعر ، أشد أسر الكلام من لبيد ، وفيه كزازة . ولبيد أسهل منه منطقاً ، وكان للشماخ اخوة ، وهو أفحلهم ، ومزرد هو أشبههم به[٦]. ذكر ان (الوليد بن عبد الملك) أنشد شيئاً من شعره في وصف الحمير ، فقال : ما أوصفه لها ، اني لأحسب ان أحد أبويه كان حماراً . قيل : كان يهجو قومه

---

١ الشعر والشعراء (٢٢١/١) .
٢ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٧٣/١) .
٣ الاصابة (٨٠/٤) .
٤ الاصابة (١٥١/٢ وما بعدها) ، (رقم ٣٩١٨) ، الشعر والشعراء (٢٣٤/١ وما بعدها) ، السيوطي ، شرح شواهد (٨٩٦/٢) .
٥ الشعر والشعراء (٢٣٢/١ وما بعدها) ، الاغاني (٩٧/٨) ، الخزانة (٥٢٦/١) ، الموشح (٦٧) ، ابن سلام ، طبقات (١١٠) ، المؤتلف (١٣٨) ، ديوانه ، (طبعة أحمد بن الامين الشنقيطي) ، (القاهرة ١٣٢٧ هـ) ، بروكلمن (١٧٠/١) ، كارلو نالينو ، تاريخ آداب العرب (١١٠ وما بعدها) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٢٩) .

وضيفه وعنّ عليهم بقراه ، وهو أرجز الناس على البديهة . وجعله (الجمحي) في الطبقة الثانية من شعراء الاسلام ، وقرنه بالنابغة الجعدي ، ولبيد ، وأبي ذؤيب الهذلي . وقال : انه كان شديد متون الشعر ، أشد كلاماً من لبيد[1] . وكان معاصراً للحطيئة . ويروى ان (الحطيئة) كان يعدّه أشعر بني غطفان[2] .

وأخوه (مزرد) ، واسمه (جزء بن ضرار) . وقيل يزيد وجزء أخوهما . وهو (مزرد بن ضرار بن سنان بن عمر بن جحاش بن بجالة الغطفاني) الثعلبي . يقال مزرد لقب له ، لقب به لقوله :

فقلت تزردها عبيد فإنني   لزرد الشيوخ في الشباب مزرد

وكان يكنى (أبا ضرار) ، وقيل : (أبا الحسن) ، وهو أسن من الشماخ ، وكان هجاء حلف أن لا ينزل به ضيف إلا هجاه ، ولا سكب سنه ولا بيت بيته إلا هجاه ، ثم أدرك الاسلام فأسلم . قدم على رسول الله فأنشد له أبياتاً منها :

تعلم رسول الله لم أر مثلهم   أحسن على الأدنى وأقرب للفضل
تعلم رسول الله أنا كأننا   أفأنا بأنمار ثعالب ذي غسل

وأنمار رهطه ، وكان يهجوهم .

وورد عن (عائشة) انها قالت : من صاحب هذه الأبيات : تعني التي في عمر لما مات :

جزى الله خيراً من أمير وباركت
يد الله في ذاك الأديم الممزق

قالوا : مزرد ، فسألت من مزرد ؟ فحلف بالله انه لم يشهد الموسم تلك السنة ، ومنهم من نسب هذه الأبيات التي قبلها للشماخ[3] .

---

١ الخزانة (٥٢٦/١) ، (بولاق) .
٢ بروكلمن ، (١٧٠/١) .
٣ الاصابة (٣٨٥/٣) ، (٧٩٢١) .

ومعن بن أوس بن نصر بن زياد المزني ، شاعر مجيد فحل من المخضرمين . عمّر الى أيام ابن الزبير[1] ، وهو من شعراء مضر . ذكر (المرزباني) ، أنه كان رضيع (عبدالله بن الزبير) ، وكان مصاحبـاً له ، وكفّ في آخر عمره[2] .

و (سويد بن أبي كاهل) أو (سويد بن غطيف) وقيل اسمه : (غطيف ابن حارثة) اليشكري ، ويقـال (الوائلي) ، ويقال (الغطفاني) ، ويكنى (أبا سعيد) ، هو شاعر مخضرم . وهو صاحب قصيدة مطلعها :

بسطت رابعة الحَبْلَ لنـا فوصلنا الحَبْل منها ما اتسع

وهي قصيدة من أغـلى الشعر وأنفسه في نظر علماء الشعر ، ذكر أن العرب كانت تفضلها وتقدّمها ، وتعدّها من حكمها،وكانت في الجاهلية تسميها (اليتيمة) لما اشتملت عليه من الأمثـال . وللشاعر شعر كثير ، ولكن برزت هـذه على شعره[3] .

ذكر أنه كان إذا غضب عـلى قومه ، ادعى الى غطفان ، فقال رجل من (بني شيبان) :

من يشتّري مسجدي ذبيان إذا ظعنوا
الى فزارة أو من يشتّري الـدارا

فأجابه سويد :

إن المساجد لا تبـاع وإنما باعت كحيلة بظرها البيطارا[4]

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٨٠٨) ، جعل « زيدان » وفاته سنة « ٢٩ هـ » ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/١٨٤) ،

٢ الاغاني (١٠/١٦٤) ، الخزانة (٢/٢٥٨) ، المرزباني ، معجـم الشعراء (ص ٣٢٢) ، راجع معاهد التنصيص (٦٩٤) ، عيون الاخبار (٣/١٨) ، شرح الحماسة، للمرزوقي (١١٢٦) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٧٢ وما بعدها) ، معن ابن أوس ، لمصطفى كمال ، القاهرة (١٩٢٧ م) .

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧٤٠ ، حاشية ٢) ، الشعر والشعراء (١٢١٨ ، ١٨٤) ، (١/٣٣٤) « دار الثقافة » ، الخزانة (٢/٥٤٦) ، الاغاني (١١/١٧١) ، شعراء النصرانية (٤٢٥) ، طبقات ابن سلام (٣٥ ، ١٢٨) ، المزهر (٢/٤٨٧) ، الاصابة (٢/١١٧) ، (رقم ٣٧٢٠) .

٤ الاشتقاق (٢٠٥) .

وعدّ من المعمرين ، ذكر أنه عمّر في الإسلام ستين سنة بعد الهجرة[1] .

وقد وضعه (ابن سلام) مع الحارث بن حلزة ، وعنترة ، وعمرو بن كلثوم في الطبقة السادسة من شعراء الجاهلية[2] .

و (الزبرقان بن بدر) شاعر تميم من الشعراء المخضرمين . وكان اسمه (الحصين) . ولما قدم وفد (تميم) الى المدينة في أشرافهم ، كان الزبرقان أحدهم ، ولما تفاخروا بأنفسهم وتباهوا بفعالهم ، قالوا للرسول : يا محمد ائذن لشاعرنا ، فقال : نعم ، فقام الزبرقان بن بدر ، فقال قصيدته التي مطلعها :

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا   منّا الملوك وفينا تنصب البيع[3]

وذكر أن الرسول ولاّه صدقات قومه فأداها في الردّة الى أبي بكر فأقره ، ثم الى عمر[4] .

وقد هجا (الحطيئةُ) الزبرقان بن بدر ، وكان سبب ذلك أن الحطيئة لقي الزبرقان بـ (قرقرى) ومعه ابناه أوس وسوادة وبناته وامرأته فعرفه الزبرقان وسأله أين تريد ؟ قال : العراق لأصادف من يكفيني عيالي وأصفيه مدحي ، فقال له : لقيته ، قال : من ؟ قال : أنا ، قال : من أنت ؟ قال الزبرقان ابن بدر . وكتب له كتاباً الى امرأته ، لتعطيه وتنفق عليه ، فبلغ ذلك : (بغيض ابن عامر) واخوته وبني عمه ، وكانوا ينازعون (الزبرقان) الرياسة ، فدسو الى (أم بدرة) امرأة الزبرقان أن الزبرقان يريد أن يتزوج بنت الحطيئة،وللملك أمرك ان تكرميه ، فجفته أم بدرة ، فأرسل بغيض وأهله الى (الحطيئة) ان ائتنا فنحن أحسن لك جواراً من الزبرقان ، وأطمعوه ووعدوه ، فتحول اليهم ، فلما جاء (الزبرقان) بلغه الخبر فركب اليهم ، فقال لهم : ردوا عليّ جاري ، فأبوا حتى كاد أن يكون بينهم حرب ، فحضرهم أهل الحي فاصطلحوا على أن يخيروه

---

١ الخزانة (٥٤٦/٢ وما بعدها) ، (بولاق) .

٢ الطبقات (٣٥) ، رسالة الغفران (١٣٧) .

٣ الطبري (١١٦/٣) ، (دار المعارف) ، (قدوم وفد بني تميم ونزول سورة الحجرات) .

٤ الاصابة (٥٢٤/١ وما بعدها) ، (رقم ٢٧٨٢) .

فاختار بغيضاً ورهطه ، فجعل الحطيئة يمدحهم من غير أن يتعرض بالزبرقان ، فلم يزل كذلك حتى أرسل الزبرقان الى شاعر من (النمر بن قاسط) يقال له : (دثار بن شيبان) فهجا بغيضاً وآل بيته ، فلما سمع الحطيئة شعر دثار ، حمى لجيرانه ، فقال شعره في الزبرقان معرضاً به ، فاستعدى الزبرقان (عمر) عليه ، فحبس الحطيئة أياماً ، فقال وهو محبوس :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر

وشفع له (عمرو بن العاص) فأطلقه[1] .

وقيس بن عاصم بن سنان المنقري ، من الصحابة ومن الشعراء الفرسان الشجعان . ومن الحلماء . قدم في وفد تميم على النبي ، فقال رسول الله : « هذا سيد أهل الوبر »[2] . وقد عاش بعد الرسول[3] .

و (عمرو بن سنان بن سُمي بن سنان بن خالد بن منقر) المنقري ، من (بني منقر) ، فهو من شعراء تميم . ويعرف بـ (عمرو بن الأهتم) ، سمي أبوه سنان الأهتمَ ، لأن (قيس بن عاصم) المنقري ضربه بقوس فهتم فمه . وكانت أم سنان سبيّة من الحيرة ، يقال إنها سُبيت وهي حامل . قال قيس ابن عاصم :

نحن سبينا أمكم مُقرِباً يوم صبحنا الحيرَتين المنون
جاءت بكم غفرة من أرضها حيريةٌ ليست كما تزعمون
لولا دفاعي كنتم أعبدا منزلها الحيرة والسيلحون

و (غفرة) هي أم سنان .

---

١ الاصابة (١/١٧٧) ، (رقم ٧٨١ في ترجمة بغيض بن عامر بن شماس) ، (رقم ١٩٩١) ، (في ترجمة الحطيئة) .
٢ الاصابة (٣/٢٤٢ وما بعدها) ، (رقم ٧١٩٦) .
٣ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٥٨٧) .

وأخو (عمرو بن الأهتم) ، عبدالله بن الأهتم ، جدُّ خالد بن صفوان بن عبدالله بن الأهتم الخطيب . وآل الأهتم خطباء[1] ، وكلهم من البلغاء المشهورين[2].

وعمرو بن الأهتم ، ممن وفد على رسول الله ، وكان في الجاهلية يدعى (المُكَحَّل) لجماله ، وكان له ابن يقال له (نعيم بن عمرو) من أجمل الناس ، وفيه تأنيث ، وله يقول عبد الرحمن بن حسان :

قل للذي كادَ لولا خط لحيته
يكون أنثى عليها الدرّ والمسك
هل أنتَ إلا فتاة الحي إن أمِنُوا
يوماً ، وأنت اذا ما حاربوا دُعك[3]

ومن شعره قوله في حق الزبرقان بن بدر ، وكان ينافسه :

ظللت مفترشَ العلياء تشتمني
عند النبي فلم تصدق ولم تصب
إن تبغضونا فإن الروم أصلكم
والروم لا تملك البغضاء للعرب
فإن سوددنا عود وسوددكم
مؤخر عند أصل العجب والذنب[4]

و (نافع بن الأسود بن قطبة بن مالك) التميمي ثم الأسيدي ، شاعر مخضرم يكنى (أبا نجيد) . وقد شهد فتوح العراق ، وأنشد له (سيف) في الفتوح

١ الشعر والشعراء (٥٢٨/٢) ، المرزباني ، معجم (٢١) .
٢ الاصابة (٥١٧/٢) ، (رقم ٥٧٧٢) .
٣ الاغاني (١٥٥/٤) ، (٨٣/١٤) ، المفضليات (رقم ٢٣) ، الميداني (٥/١) ، الامثال ، للعسكري (٥/١) .
٤ الاصابة (مفترش الهلباء) ، (٥١٨/٢) ، الاستيعاب (٥٣٠/٢) ، (حاشية على الاصابة) .

أشعاراً كثيرة ، يفتخر فيها بقومه ، ويذكر فيها مشاهده في فتوح الشأم والعراق[1] .

ومن شعراء تميم المخضرمين : (متمم بن نويرة) اليربوعي ، صاحب المراثي المشهورة في أخيه (مالك بن نويرة) الذي قتله (خالد بن الوليد) لما سار لقتال أهل الردة ، وتزوج امرأته ، مما أدى الى غضب بعض الصحابة ومنهم (عمر) على (خالد) ، لأمور أخذوها في قتله عليه . ومن شعره المشهور في رثاء (مالك) قوله :

أبى الصبر آياتٌ أراها وانني ... أرى كل حبل بعد حبلك أقطعا
واني متى ما ادعُ باسمك لا تجب ... وكنتَ جديراً أن تجيب وتسمعا
وكنّا كندماني جذيمةَ حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلمّا تفرّقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماعٍ لم نبت ليلة معا
فإن تكن الأيامُ فرقن بيننا ... فقد بان محموداً أخي يوم ودعا
أقول وقد طار السنا في ربابه ... وغيث يُسحّ الماءَ حتى تريعا
سقى الله أرضاً حلّها قبر مالك ... ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا
وآثرَ سيلَ الواديين بديمة ... ترشح وسمياً من النبت خروعا[2]

وهي قصيدة مؤثرة تعد من المراثي الجيدة القوية ، تعبر عن قلب متفطر من شدة ما حلّ به من ألم . قيل ان (عمر) قال لمتمم لما دخل عليه أنشدني بعض ما قلتَ في أخيك فأنشده شعره المتقدم ، قال له (عمر) : « يا متمم ، لو كنت أقول الشعر لسرّني أن أقول في زيد بن الخطّاب مثل ما قلت في أخيك، قال متمم : يا أمير المؤمنين ، لو قتل أخي قتلة أخيك ما قلتُ فيه شعراً أبداً، فقال عمر : يا متمم ما عزّاني أحدٌ في أخي بأحسن مما عزيتني به »[3] . وقد ضربت الشعراء الأمثال به وبأخيه مالك في أشعارهم .

---

١ الاصابة (٣/٥٥٠) ، (٨٨٥٠) .
٢ المفضليات (٢/٣٢) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٥٥) ، ابن سلام ، طبقات (١٦٩ وما بعدها) ، الخزانة (١/٢٣٤) ، المرزباني ، معجم (٤٦١) .

ومما سبق اليه مالك ، وأخذه الناس منه قوله :

جزينـا بني شيبان أمسِ بقرضهم
وعُدنا بمثل البدء ، والعود أحمـد

فقال الناس : العود أحمد[1] .

« يروى ان عمر قال للحطيئة : هل رأيت أو سمعت بأبكى من هذا ؟ قال : لا والله ما بكى بكاء عربي قط ولا يبكيه »[2] . وكان عمر يستمع الى قوله في رثاء أخيه .

ومن شعره المشهور قوله :

وكل فتى في الناس بعد ابن أمه كساقطة احدى يديه من الخبل[3]

وكان (مالك بن نويرة) من الشعراء كذلك . وقد عرف بـ (فارس ذي الخمار) . وذو الخمار فرسه[4] . ولقب بـ (الجفول) . وهو من شعراء وفرسان (بني يربوع) المعدودين . وكان من أشرافهم ومن أرداف الملوك . استعمله النبي على صدقات قومه ، وبقي عليها الى وفاة الرسول ، فيقال انه لمّا بلغه خبر وفاته أمسك الصدقة وفرقها في قومه وقال في ذلك :

فقلت : خذوا أموالـكم غير خائف
ولا ناظر فـيما يجيء من الغد
فإن قام بالدين المحوق قائـم
أطعنا وقلنا الدين دين محمـد

وقد قتل خالد بن الوليد ، مالكاً ، في قصة ترد في كتب الـردة والفتوح

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٥٦) .
٢ الاصابة (٣/٣٤٠) ، (رقم ٧٧١٩) .
٣ الاصابة (٣/٣٤٠) ، (رقم ٧٧١٩) .
٤ الشعر والشعراء (١/٢٥٤ وما بعدها) ، ابن حزم ، جمهرة (٢٢٤) ، ابن سلام ، طبقات (٤٨) ، الاغاني (١٥/٢٣٩) ، فوات الوفيات (٢/٢٩٥) .

والتأريخ ، وتزوج امرأته ، وكانت فائقة في الجمال ، مما حمل بعض الصحابة على مؤاخذته على هذا العمل ، ومنهم (عمر)[1] .

ومن المخضرمين (النجاشي) (قيس بن عمرو) الحارثي[2] ، وكان ممن لازم علياً وشهد معه (صفين) ، ومدحه . وقد بلغ (علياً) وهو بالكوفة انه كان سكرانَ في شهر (رمضان) مع (أبي سماك) الأسدي ، فهرب (أبو سماك) ، وقبض على (النجاشي) فحدّه (علي) ثمانين سوطاً ، ثم زاده عشرين ، فقال له : ما هذه العلاوة ؟ فقال : لجرأتك على الله في شهر رمضان ، ثم وقفه للناس ليروه ، فهرب الى (معاوية) وهجا (علياً) على ما يقال ، وهجا أهل الكوفة . وكان هجّاء ، هجا (بني العجلان) ، فاستعدوا عليه (عمر) . فهدّد (عمر) النجاشي ، وقال له : إن عدت قطعت لسانك . وهجا قريشاً هجاء مراً . وهجا (عبد الرحمن بن حسان بن ثابت) ، ولما مات (الحسن بن علي) رثاه النجاشي ، وتوفي بعد ذلك بقليل .

وروي أنه هاجى (تميم بن مقبل) من (بني العجلان) ، وهو من شعراء الجاهلية ، الذين أدركوا الاسلام ، وعمر طويلاً . وكان يتهاجى مع (النجاشي) ، فاستعدى (تميم) (عمر) على النجاشي ، فسمع (عمر) ما قال فيه وفي بني قومه ، فلما وصل الى بيته :

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللئيم ورهط العاجز المتذلل
وما سمي العجلان إلا لقوله خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

قال عمر : أما هذا فلا أعذرك عليه فحبسه وضربه[3] . وكان (عمر) قد

---

١ الاصابة (٣/٣٣٦) ، (رقم ٧٦٩٧) ، ابن الاثير ، الكامل (٢/٢٣٧ وما بعدها) ، المحبر (١٢٦) ، المرزباني ، معجم (٢٦٠) .

٢ الشعر والشعراء (١/٢٤٦ وما بعدها) ، الاصابة (٣/٥٥١ وما بعدها) ، (رقم ٨٨٥٥) ، الخزانة (٤/٣٦٨) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١/١٧٣ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٢٣٩) .

٣ الاصابة (١/١٨٩ وما بعدها) ، (رقم ٨٦٢) ، ابن سلام ، طبقات (٣٤) ، ديوان تميم بن مقبل (١١ مقدمة) .

حكم (حساناً) في هجاء (النجاشي) لتميم ، فلما حكم (حسان) بإقذاعه في هجائه له حبس (النجاشي) عليه . وقد جمع (أبو سعيد) السكري شعر (تميم بن مقبل)[1] ، وجمعه غيره من العلماء . وهو (تميم بن أبي بن مقبل) . وقد اشتهر بوصف القداح ، حتى جعل من أوصف العرب للقدح ، ولذلك يقال : (قدح ابن مقبل)[2] .

ويعدّ (تميم بن مقبل) من عوران قيس ، وعددهم خمسة شعراء ، وهم : تميم بن مقبل ، وعمرو بن أحمر الباهلي ، والشماخ معقل بن ضرار ، وراعي الإبل عُبيد بن حصين النميري ، وحميد بن ثور الهلالي[3] . وهو من الجاهليين الذين أدركوا الاسلام ، فأسلم ، فهو من المخضرمين . وقد أدرك زمن معاوية ، وكان هواه مثل هوى قبيلته مع (معاوية) على (علي) . وكان عثمانياً له قصيدة في رثاء أهل الجاهلية ، وكان يتذكر الجاهلية ويترحم على أيامها ، ويحن اليها ، ويرى ان الزمان قد تغير ، وان الأرض قد تغيرت ، وتبدلت أخلاق الناس ، فصار يرى نفسه غريباً في مجتمع غريب عنه ، له مُثل تختلف عن مثل أهل الجاهلية ، فصار يحن الى أيام ما قبل الاسلام .

قيل لتميم بن مقبل : تبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم : فقال :

وماليَ لا أبكي الديار وأهلها
وقد زارها زوّار عكٍّ وحميرا
وجاء قطا الأجباب من كل جانب
فوقّع في أعطافنا ثم طيّرا

وفي هذه القصيدة المؤلفة من خمسين بيتاً ، والمنشورة في ديوانه ، والتي وردت بروايات مختلفة، حنين ظاهر إلى أيام الجاهلية ، وتوجع بيّن للتغير الذي حدث فاجتث ذكريات الأيام القديمة ، إذ باد أهلها ، وتنكر الناس لها ، وبرز من

---

١ ابن النديم ، الفهرست (١٢٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٣٦٦ وما بعدها) ، الاصابة (١/١٩٥) ، الخزانة (١/١١٣) طبقات ابن سلام (١٢٥) .
٣ رسالة الغفران (٢٣٧) ، الجمهرة (٢/٣٦٠) ، المعارف (٢٥٣) .

لم يكن معروفاً إذ ذاك من الناس . فهو يرى أن الجاهلية بأيامها وبمثلها وبرجالها وبقبائلها ، وبمروءتها ، أحسن حالاً من الأيام الجديدة التي أخذت مكانها، والتي أحلت الموالي ونكرات الناس محل السادة الأشراف[1] .

وكان قد تزوج (الدهماء) زوجة أبيه في الجاهلية ، على عادتهم في تزوج نساء الآباء ، وأحبها حباً شديداً ، فلما جاء الاسلام وحرم هذا الزواج ، اضطر الى تطليقها ، وهو مكره ، فكان يقول :

هل عاشق نال من دهماء حاجته
في الجاهلية قبل الدين مرحوم[2]

ولعل هذا الطلاق ، كان في جملة العوامل التي جعلته يحن الى الجاهلية ويذكرها بخير .

ومما ينسب اليه قوله :

فاخلف وأتلف انما المال عارة
وكله مع الدهر الذي هو آكله
وأيسر مفقودٍ وأهون هالكٍ
على الحيّ من لا يبلغ الحي نائله

وقوله :

خليليّ لا تستعجلا وانظرا غداً
عسى أن يكون الرفق في الأمر أرشدا[3]

---

١ اولهـا :
تأمل خليلي هل ترى ضوء بارق ... يمان ، مرته ريح نجد ففترا
وفيها يقول :
أجدى ارى هذا الزمان تغيرا ... وبطن الركاه من موالى اقفرا
وكائن ترى من منهل باد أهله ... وعيد على معروفه ، فتنكرا
ديوان تميم بن مقبل (ص ١٢٩ وما بعدها) ، (تحقيق الدكتور عزة حسن) .
٢ ديوان ابن مقبل (المقدمة) ، (تحقيق الدكتور عزة حسن) ، (دمشق ١٩٦٢) .
٣ بلوغ الارب (٢/١٤٣) .

وكان (عبد الرحمن بن حسل) الجمحي من الشعراء الهجائين . كان أبـوه من أهل اليمن ، فسقط الى مكة ، فولد له بها : (كلدة) و (عبد الرحمن)، وكانا ملازمين لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي ، فنسبا الى (بني جمح) . وذكر أنهما كانا أخوي (صفوان) لأمه . وذكر أنه كان بعسكر (يزيد بن أبي سفيان)،وأنه كان من سلمة الفتح . وقد هجا (عثمان) لما أعطى مروان خمسمائة ألف من خمس (إفريقية) فقال :

وأحلف بالله جهد اليمين ... ما ترك الله أمراً سدى
ولكن جعلت لنـا فتنة ... لكي نبتلي بك أو تبتلى
دعـوت الطريد فأدنيتـه ... خلافاً لمـا سنّه المصطفى
ووليت قرباك أمـر العباد ... خلافاً لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس الغنيمـة آثرتـه وحميت الحمى
ومالاً أتاك بـه الأشعري ... من الفيء أعطيته مـن دنا
فإن الأمينين قد بيّنا ... منار الطريق عليـه الهدى
فما أخـذا درهماً غيلة ... ولا قسّما درهماً في هوى[1]

فأمر (عثمان) به فحبس بخيبر . وقيل ان (علياً) كـلم (عثمان) فيه فأطلقه وشهد الجمـل مـع علي ، ثم صفين فقتـل بها . وذكر انه قال وهو في السجن :

الى الله أشكو لا الى الناس ما عدا
أبا حسن غـلا شديـداً أكابـده
بخيبر في قعـر الغموص كأنهـا
جوانب قبر أعمق اللحـد لاحده
أإن قلت حقاً أو نشدت أمانـة
قتلت فمن للحق إن مات ناشده[2]

---

[1] تختلف هذه الابيات بعض الاختلاف عنها في كتاب الاصابة ، الاصابة (٣٨٧/٢ وما بعدها) ، (رقم ٥١٠٨) ، الاستيعاب (٤٠٦/٢ وما بعدها) ، وقد دعاه صاحب الاستيعاب « عبد الرحمن بن حنبل » .

[2] الاصابة (٣٨٧/٢ وما بعدها) ، (رقم ٥١٠٨) .

و (أنس بن أبي أناس بن زنيم) الكناني ، هو من الشعراء الذين كانوا قد هجوا الرسول فأهدر النبي دمه ، فبلغه ذلك ، فقدم عليه معتذراً ، وأنشده شعراً مدحه به . وكلمه فيه (نوفل بن معاوية) الديلي ، فعفا عنه ، قائلاً الرسول : « أنت أولى بالعفو ، ومن منا لم يؤذك ولم يعادك ، وكنا في الجاهلية لا ندري ما نأخذ وما ندع حتى هدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة ؟ فقال : قد عفوت عنه . فقال : فداك أبي وأمي . وأول القصيدة يقول فيها :

فما حملت من ناقة فوق رحلها
أبــرّ وأوفى ذمة من محمـــد

ويقول فيها :

ونبي رسول الله اني هجوتــه
فلا رفعت سوطي اليّ اذاً يدي
فإني لا عرضاً خرقت ولا دماً
هرقت فذكر عالم الحق واقصد »[1]

وقد ذكر (ابن قتيبة) ، ان (أبا أناس) ، والد (أنس) ، هو القائل في رسول الله :

فما حَمَلَتْ من ناقة فوق رحلها
أعف وأوفى ذمة من محمــد[2]

وقد قال (دعبل بن علي) في طبقــات الشعراء ، هذا أصدق بيت قالته العرب . وفي جملة ما جاء في هذه القصيدة التي تنسب الى أنس بن زنيم قوله:

ونبي رسول الله أني هجوتــه
فلا رفعت سوطي اليّ إذاً يدي
فإني لا عرضــاً خرقت ولا دماً
هرقت فذكر عالم الحق واقصد[3]

١ الاصابة (١/٨١ وما بعدها) ، (رقم ٢٦٧) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦٢٣) .
٣ الاصابة (١/٨٢) ، (٢٦٧) .

وذكر أن (عبيدالله بن زياد) كان يحرش بين الشعراء ، فأمر (حارثة) أن يهجو (أنس بن زنيم) ، فقال فيه أبياتاً ، منها قوله :

وخبرت عن أنس أنه قليل الأمانة خوّانها

فأجابه أنس بأبيات أولها :

أتتني رسالة مستنكر فكان جوابي غفرانها[1]

وأنس هو القائل لعبدالله بن الزبير ، حين تزوج مصعبُ عائشةَ بنت طلحة على ألف ألف درهم :

أبلغ أميرَ المؤمنين رسالةً من ناصحٍ لكَ لا يُريدُ خِداعا
بضع الفتاة بألفِ ألفٍ كاملٍ وتبيتُ سادات الجنود جياعا
لوْ لأبي حفص أقول مقالتي وأقص شأن حديثكم لارتاعا[2]

وكان (أسيد بن أبي اياس بن زنيم) الكناني ابن اخي (سارية) الكناني ، ممن هجوا الرسول أيضاً ، فأهدر النبي دمه ، فخرج الى (الطائف) وأقام بها ، مثل غيره ممن هجوا الرسول فخافوا على أنفسهم ، فلجأوا الى ثقيف . فلما كان عام الفتح ، خرج مع (سارية بن زنيم) ، وقدم على الرسول فأسلم . ومدح بشعر . وذكر انه كان قد رثى قتلى بدر ، فأهدر النبي دمه . وروي انه قال في علي بن أبي طالب وفي مخاطبة قريش :

في كل مجمع غاية أخزاكم صدع يفوق على المذاكي القرح
هذا ابن فاطمة الذي أفناكم ذبحاً وقتلاً بعضه لم يرتح
لله دركم ألما تذكروا قد يذكر الحر الكريم ويستحي[3]

وورد في رواية انه كان قد أسلم وأدرك (أحداً) . وتشابه قصته في هدر

---

١ الاصابة (١/٨٢) ، (رقم ٢٦٧) .
٢ الشعر والشعراء (٦٢٣/٢ وما بعدها) .
٣ الاصابة (١/٦٢) ، (رقم ١٧٥) .

النبي دمه وفي هجائه للرسول قصة (أنس بن زنيم) الكناني ، المتقدم ، وهو ابن أخي (أسيد) على رواية (الإصابة)[1] .

وروي أن (سارية بن زنيم) الكنـاني ، كان ممن هجا الرسول كذلك ، فبلغ ذلك الرسول ، فتوعده . فجاء اليه معتذراً فأنشد :

تعلم رسول الله أنك قـادر على كل حيّ من تهام ومنجد
تعلم رسول الله انك مـدركي وأن وعيداً منك كالأخذ باليد
تعلم بأن الركب إلا عـويمراً هم الكاذبون المخلفو كل موعد
ونبي رسول الله أني هجوتـه فلا رفعت سوطي إليّ اذاً يدي[2]

وتليها أبيات أخرى ، نسبت كلها الى (انس بن زنيم) . ويظهر أن التباساً قد وقع عند الرواة ، فخلطوا بين الثلاثة من (آل زنيم) .

وقد ذكر أن (سارية) هذا كان خليعاً في الجاهلية ، لصاً كثير الغارة ، وأنه كان يسبق الفرس عدواً على رجليه ، ثم أسلم . وأرسله (عمر) فيمن أرسله من المسلمين لفتح فارس[3] .

وكان (بشير بن أبيرق) (بشر بن أبيرق) الشاعر يقول الشعر ويهجو به أصحاب النبي ، وينحله بعض العرب[4] .

وجعل (ابن سلام) : (أمية بن حرثان بن الأشكر) (أمية بن الأسكر) و (حريث بن مُحَفَّض) ، و (الكميت بن معرور بن الكميت) الأسدي ، و (عمرو بن شأس) الأسدي ، طبقة واحدة ، هي الطبقة العاشرة من طبقاته. وكلهم ممن عاش في الجاهلية والإسلام[5] ، وكان (أمية بن الأسكر) الكناني من سادات قومه وفرسانهم ، وله أيام ، وابنه (كلاب بن أمية) ، أدرك النـبي

---

١ الاصابة (١/٦٢ ، ٨١) .
٢ الاصابة (١/٨١) ، (٢/٢) ، (رقم ٣٠٣٤) .
٣ الاصابة (٢/٣) .
٤ الاشتقاق (٢٦٤) ، تاج العروس (٨/١٢٩) ، (نحل) .
٥ (ص ٤٤ وما بعدها) .

فأسلم مع أبيه . وقد سكن (كلاب) البصرة[1] . وروى لأمية شعراً في حروب الفجار[2] .

و (حريث بن محفض) (حريث بن مخفص) ، المازني من بني تميم ، من (خزاعي بن مازن) . وهو مخضرم له في الجاهلية أشعار ، وتمثل الحجاج بأبيات من شعره ، مثلاً لأهل الشام في طاعتهم وبأسهم ، وهي قوله :

ألم ترَ قومي إن دعوا لِمُلمّةٍ
أجابوا وإنْ أغضبْ على القومِ يغضبوا
بني الحربِ لم تقعد بهم أمهاتهم
وآباؤهم آباء صِدقٍ فأنجبوا
فإن يك طعن بالرُدينيّ يطعنوا
وإن يك ضرب بالمناصل يضربوا[3]

و (عمرو بن شأس) الأسدي ، المكنى بـ (أبي عرار) ، شاعر كثير الشعر مقدم ، شهد القادسية[4] ، ومنهم المستوغر ، واسمه (عمرو بن ربيعة) ، ويكنى (أبا بهنس) ، وهو من تميم ، زعم انه عاش ثلاثين وثلاثمائة سنة ، وأدرك أيام معاوية[5] . وذكر ان (عمرو بن شاس) عاش حتى أدرك أيام عبد الملك بن مروان[6] .

ومن الشعراء المخضرمين (المنذر بن رومانس) الكلبي ، وهو أخو النعمان بن المنذر لأمه ، وأمها (رومانس) . وله شعر قاله بعد فتح الحيرة ، يتذكر فيه أيام الحيرة الأولى ، وكيف كانوا يحكمون العراق ونجداً[7] :

---

١ الخزانة (٢/٥٠٦ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ الاصابة (١/٧٨) ، (رقم ٢٥٣) .
٣ الشعر والشعراء (٢/٥٦١) ، الاصابة (١/٣٧٥) ، (رقم ١٩٧٢) .
٤ المرزباني ، معجم (٢٢ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (١٦٤) ، الاغاني (١٠/٦٠) .
٥ المرزباني ، معجم (٢٣) .
٦ الشعر والشعراء (١/٣٣٨ وما بعدها) .
٧ المرزباني ، معجم (٢٦٩) .

ومن المخضرمين (أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل) ، وهو أحد الصحابة الذين أسلموا قديماً ، وفي بيته أسلم (عمر) ، لأنه كان زوج أخته فاطمة ، توفي سنة (٥٠) ، وقد أورد الجاحظ له شعراً ، وهو شعر نسب أيضاً لوالده ، وتروى كذلك لنبيه بن الحجاج[١] .

و (سالم بن دارة من الشعراء المخضرمين) وهو (سالم بن مسافع «مسافح» ابن عقبة بن يربوع بن كعب بن عدي) من (غطفان) . وكان رجلاً هجاء وبسببه قتل . قتله (زميل بن أبير) (زميل بن عبد مناف) ، (زميل بن أبرد) ، (زميل بن وبير) من بني فزارة وكان (سالم) قد أمعن في هجاء فزارة ، وألح عليها في الهجاء ، فقال في جملة ما قاله :

حَدَبْدبا بَدَبْدبا منك الآن   استمعوا أنشدكم يا ولدان
إنّ بني فزارة بن ذبيان   قد طرّقت ناقتهم بإنسان
مُشَيَّإٍ أعجِب بخلق الرحمن   غلبتم الناس بأكل الجُردان
كلّ مثلّ كالعمود جوْفان   وسرق الجار ونيك البعران

الى غير ذلك من شعر مقذع ، فلما أمعن في الهجاء ، تعقبه (زميل بن أبير) (زميل بن أم دينار) الفزاري ، فلحق به وضربه بالسيف ضربة جرحته ، وكان قد خرج من المدينة ، فعاد اليها ، يتداوى ، فدفعه (عثمان) الى طبيب نصراني ، ويقال إن (أم البنين) (بسرة بنت عيينة بن حصن) الفزاري ، وكانت عند (عثمان) ، جعلت للطبيب جعلاً حتى سمّه فمات[٢] .

ومن شعره في هجاء فزارة قوله :

لا تأمنن فزاريّاً خلوت به
على قلوصك واكتبها بأسيار

وله شعر يخاطب به (عيينة بن حصن) الفزاري ، وكان قد ارتد في خلافة

---

١ البيان والتبيين (٢٣٥/١) ، الخزانة (٩٩/٣) ، عيون الاخبار (٢٤٢/١) .
٢ الخزانة (١٤٤/٢ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) ، نوادر المخطوطات (١٠١/٢ ، ١٥٦ وما بعدها) ، الحيوان (٢٦٧/١) .

(أبي بكر) ثم عاد الى الاسلام ، وقال لأبي بكر : قصتي وقصة الأشعث ابن قيس الكندي واحدة ، فما بالكم أكرمتموه وزوجتموه ، ولم تفعلوا ذلك بي، فأجاب سالم عن ذلك بقوله :

يا عيينة بن حصن آل عدي أنت من قومك الصميم صميم
لست كالأشعث المعصب بالتا ج غلاماً قد ساد وهو فطيم
جدّه آكل المرار وقيس خطبه في الملوك خطب عظيم
إن تكونا أتيتما خطب العذ ر سواكما تقد الأديم
فله هيبة الملوك وللأشعث إن حان حادث قديم
إن للأشعث بن قيس بن معدي كرب عزة وأنت بهيم[1]

وأتى (سالم بن دارة) عدي بن حاتم ، فدحه ، فشاطره (عدي) ماله[2] .

والأغلب بن عمرو بن عبيدة بن حارثة بن دُلف بن جشم بن قيس بن سعد ابن عجل بن لجيم بن الصعب بن عليّ بن بكر بن وائل ، من الشعراء المخضرمين ، ويعد من أرجز الرُجّاز ، وأرصنهم كلاماً وأصحهم معاني . وهو أول من أطال الرجز ، وكان الرجل قبله يقول البيت والبيتين إذا فاخر أو شاتم . وذكر أنه استشهد بنهاوند[3] . وله ديوان[4] . وقيل ان الخليفة (عمر) كتب الى (المغيرة ابن شعبة) وهو على الكوفة ، أن استنشد من قبلك من الشعراء عما قالوه في الاسلام ، فكتب الى لبيد ، فكتب لبيد اليه سورة البقرة في صحيفة ، وقال : قد أبدلني الله بهذه في الاسلام مكان الشعر ، وجاء (الأغلب) الى المغيرة ، فقال له :

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد طلبت هيناً موجودا

فكتب بذلك الى (عمر) ، فكتب اليه أن انقص من عطاء الأغلب خمسمائة

---

١ الاصابة (٢/١٠٧) ، (٢٦٥٧) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٣١٥ وما بعدها) .
٣ « الاغلب بن جشم بن عمرو بن عبيدة » ، الاصابة (١/٧١) ، (رقم ٢٢٥) ، الخزانة (٢/٢٣٩) ، المؤتلف (٢٢) ، الاغاني (١٨/١٦٤) .
٤ الخزانة (٢/٢٥٨) ، (بولاق) .

فزدها في عطاء لبيد ، وله قوله :

المرء توّاق الى ما لم ينل والموت يتلوه ويلهيه الأمل

وأنشد له (أبو الفرج) أرجوزة يهجو فيها سجاح التي ادعت النبوة وتزوجت بمسيلمة الكذّاب[1] .

وكان (هرم بن جواس) التميمي، يهاجي (الأغلب) ، وهو من المخضرمين، وافقه بسوق عكاظ ، فقال له :

قبحت من سالفة ومن قفا عبد إذا ما رسب القوم طفا
فما صفا عدوّكم ولا صفا كما شرار البقل أطراف السفا

فقال له : من أنت ويلك ؟ قال :

أنا غلام من بني مقاعس الضاربين فلك الفوارس[2]

ومن الشعراء المخضرمين : (عقيبة بن هُبيرة) الأسدي . وكان جريئاً ، وفد على معاوية بن أبي سفيان ، فدفع اليه رقعة فيها :

فهبنا أمة ذهبت ضياعاً يزيد أميرها وأبو يزيد
أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد
أتطمع في الخلود اذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود
ذروا خون الخلافة، واستقيموا وتأمير الأراذل والعبيد
وأعطونا السويّة لا تزركم جنود مردفات بالجنود

فقال له معاوية : ما جرّأك عليّ ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك ! فقال : ما أظنك إلا صادقاً ! فقضى حوائجه[3] .

ومنهم (حضرمي بن عامر بن مجمع بن موألة «موّلة») من بني أسد ،

---

١ الاصابة (١/٧١) ، (رقم ٢٢٥) .
٢ الاصابة (٣/٥٨٤) ، رقم (٩٠٤٩) .
٣ الخزانة (٢/٢٦٠ وما بعدها) ، (هارون) ، (١/٣٤٣ وما بعدها) ، (بولاق) .

وهو شاعر فارس سيد ، له في كتاب (بني أسد) أشعار وأخبار . وقدم مع وفد (بني أسد) ، وفيهم ضرار بن الأزور ، وسلمة بن حبيش ، وقتادة بن القائف ، وأبو مكعب ، وكتب لهم الرسول كتاباً . فتعلم (حضرمي) سورة (عبس وتولى) ، فزاد فيها : « وهو الذي أنعم على الحبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى » ، فقال له النبي : « لا تزد فيها » . وورد ان السورة هي سورة : سبح اسم ربك الأعلى . وكان يكنى : (أبا كدام) ؛ وله شعر في حرب الأعاجم ، أنشد بعضه (عمر بن الخطاب) ، وقد نقل عنه (سيف بن عمر) في الفتوح بعض أخبار مسيلمة والردة [1] .

ومن المخضرمين (حنيف بن عمير) اليشكري ، قاتل (محكم بن الطفيل) يوم اليمامة . وله شعر في قتله [2] .

ومن المخضرمين : (ربيعة بن مقروم بن قيس) ، وكان ممن أصفق عليه (كسرى) ، ثم عاش في الإسلام زماناً . شهد القادسية وجلولاء ، وهو من شعراء (مضر) المعدودين [3] .

ومن الشعراء المخضرمين : (أبو بكر بن الأسود بن شعوب) الليثي ، وهو (شداد بن الأسود) [4] . وقيل اسمه : (عمرو بن سُمي بن كعب بن عبد شمس) الكناني ، وأمه (شعوب) من بني خزاعة ، وله شعر كثير قاله وهو كافر ، ثم أسلم بعد . ومن شعره ، قصيدة في رثاء قتلى المشركين ببدر ، يقول فيها :

فماذا بالقليب قليب بــدر   من القينات والشرب الكرام

الى أن يقول :

يخبرنا الرسول لسوف نحيـا   وكيف حياة أصداء وهام [5]

---

١ الاصابة (١/٣٤٠) ، (رقم ١٧٥٩) ، الخزانة (٢/٥٦) ، (بولاق) .
٢ الاصابة (١/٣٨١) ، (رقم ٢٠١٦) ، الخزانة (٢/٥٤٤ وما بعدها) .
٣ الخزانة (٣/٥٦٥ وما بعدها) ، (بولاق) .
٤ ابن هشام (٢/١١٣) ، (حاشية على الروض الانف) .
٥ هناك اختلاف في رواية ابيات هذه القصيدة وفي الفاظهـا ، ابن هشام ، سيرة (٢/١١٣) ، (حاشية على الروض الانف) ، نوادر المخطوطات ، كتاب من نسب الى أمه من الشعراء (المجموعة الاولى) (ص ٨٣ وما بعدها) .

ومن المخضرمين : (قطبة بن الزبعرى) ، وهي أمه. وهو (قطبة بن زيد ابن سعد بن امرىء القيس بن ثعلبة) من بني القين بن جسر. وكان سيد قضاعة في الجاهلية وأول الاسلام . وله مفتخراً :

حيتُ القوم قد علمت معدٌ   ومن للقوم من مولى وجار
حبوت بها قضاعة إن مثلي   حقيق أن يذب عن الذمار
ولست كمن يُغمز جانباه   كغمز التين تجنيه الجواري[1]

ومن المخضرمين (عبدة بن الطبيب)[2] ، (عبدة بن الطيب)[3] ، وهو من (بني عبشمس بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم) . ومن جيد شعره في رثاء قيس بن عاصم ، قوله :

عليك سلام الله قيسَ بن عاصمٍ
ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية من ألبسته منك نعمة
اذا زار عن شحط بلادك سلما
فلم يك قيس هلكه هلك واحدٍ
ولكنه بنيان قوم تهدما[4]

وقوله :

والمرءُ ساع لأمر ليس يدركه
والعيش شح واشفاق وتأميل[5]

وقد أعجب (عمر) بهذه القصيدة الطويلة التي على اللام[6] .

---

١ من نسب الى أمه (٨٦) ، نوادر المخطوطات ، (المجموعة الاولى) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦١٣) ، البيان والتبيين (١/١٢٢) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٤٣) .
٤ الشعر والشعراء (٢/٦١٤) ، وتختلف هذه الابيات عما ورد في الاصابة (٣/١٠٠) ، (رقم ٦٣٩٢) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٤٣) .
٦ البيان والتبيين (١/٢٤٠) .

« واسم الطيب : يزيد بن عمرو بن علي بن أنس بن عبدالله بن عبد تميم بن جشم بن عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم) . وهو من مشاهير الشعراء، وقد ساهم في فتوح العراق ، وهو القائل في قتال الفرس :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول
أم أنتَ عنها بعيد الدار مشغول

ثم يقول :

يقارعون رؤوس الفرس ضاحية   منهم فوارس لا عزل ولا ميل

وكان (أبو عمرو بن العلاء) يقول : قول عبدة :

وما كان قيس هلكه هلك واحد   ولكنه بنيان قومٍ تهدما

أرثى بيت قيل :

ومن شعره قوله :

ولقد علمت بأن قصري حفرة   غبراء يحملن اليها شرجع
فبكت بناتي شجوهن وزوجتي   والأقربون إليّ ثم تصدعوا
وتركت في غبراء يكره وردها   تسفي عليّ الريح حين أودع[1]

وقوله :

لمّا نزلنا نصبنا ظلّ أخبية   وفار للقوم باللحم المراجيلُ
ورْداً وأشقر لم ينهئه طابخهُ   ما غيّر الغلي منه فهو مأكول
ثُمّتَ قمنا الى جُرْدٍ مسومة   أعرافهن لأيدينا مناديل[2]

ومن المخضرمين (عدي بن عمرو بن سويد بن زبان) الطائي ، المعروف بالأعرج . وهو القائل :

---

١ الاصابة (٣/١٠٠ وما بعدها) ، (رقم ٦٣٩٢) .
٢ ثمار القلوب (٢١٩) .

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعي صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والندامى[1]

ومن الشعراء المعمرين : (أبو الطمحان) القيني ، واسمه حنظلة بن الشرقي من بني كنانة بن القين . زعم أنه عاش مائتي سنة ، فقال في ذلك :

حنتني حانيات الدهر حتى كأني خاتل أدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رآني — ولست مقيداً — أني بقيد
تقارب خطو رجلك يا سويد وقيدك الزمان بشر قيد[2]

ونسب اليه قوله :

إن الزمان ولا تفنى عجائبه فيه تقطع ألاف وأقران
أمست بنو القين أفراقاً موزعة كأنهم من بقايا حي لقمان[3]

وقد اختلف فيه ، فزعم بعض أنه جاهلي لم يدرك الإسلام ، وزعم بعض آخر أنه أدركه . وانه قال شعراً يتبرأ فيه من الذنوب كالزنا وشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، والسرقة ، وكان نديماً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية ، ونسب له قوله :

واني من القوم الذين همُ همُ إذا مات منهم ميت قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوي اليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه[4]

١ الاصابة (٣/١٠٤ وما بعدها) ، (رقم ٦٤١٧) ، المزرباني ، معجم (٢٥١) ، البيان والتبيين (١/٢٤٦) .
٢ امالي المرتضى (١/٢٥٧) .
٣ البيان والتبيين (١/١٨٧) ، (٣/٢٣٥) .
٤ امالي المرتضى (١/٢٥٧) ، الاصابة (١/٣٨١) ، (رقم ٢٠١١) ، الخزانة (٣/٤٢٦) ، المعمرون (٥٧) ، المؤتلف (١٤٩) .

ومن[٦] المعمرين الشعراء : (الربيع بن ضبع) الفـزاري ، زعم انه أدرك أيام (عبد الملك بن مروان) وانه دخل عليه فقال له : « يا ربيع ، أخبرني عما أدركت من العمر والمدى ورأيت من الخطوب الماضية ، قال : أنا الذي أقول :

هأنذا آمل الخلود وقد أدرك عقلي ومولدي حجرا

فقال عبد الملك : قد رويت هذا من شعرك وأنا صبي ، قال : وأنا القائل :

اذا عاش الفتى مائتين عاماً فقد ذهبَ اللذاذةُ والفتاء

قال : قد رويت هذا من شعرك ، وأنا غلام ، وأبيك يا ربيع ، لقد طلبك جد غير عاثر ، فقصل لي عمرك ، قال : عشتُ مائتي سنة في فترة عيسى عليه السلام ، وعشرين ومائة في الجاهلية وستين سنة في الاسلام » . وأخذ عبد الملك يسأله ، وهو يجيب . وقد علّق (المرتضى) على هذا الخبر بقوله : « ان كان هذا الخبر صحيحاً فيشبه أن يكون سؤال عبد الملك له انما كان في أيام معاوية ، لا في أيام ولايته ، لأن الربيع يقول في الخبر : عشت في الاسلام ستين سنة . وعبد الملك ولي في سنة خمس وستين من الهجرة ، فإن كان صحيحاً فلا بد مما ذكرنا ، فقد روي ان الربيع أدرك أيام معاوية »[١] .

وزعم انه قال شعراً لما بلغ مائتي سنة ، وشعراً آخر لما بلغ مائتين وأربعين[٢] . وهو مثل شعر المعمرين في العمر وفي ذهاب الشباب ، وتقدم السن ، وفي عدم تحمّل السنين والشيخوخة ، وغير ذلك من الأعراض التي تلازم الشيوخ .

ومن شعراء بني تميم : (حارثة بن بـدر بن حصين بن قطن بن غدانة) الغداني من (بني يربوع) ، كان من فرسان (بني تميم) ووجوهها وسادتها ، وكان يعارض الشعراء نظراءه في الشعر ، ولم يكن معدوداً في فحول الشعراء[٣] .

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٥٣ وما بعدها) ، الخزانة (٣/٣٠٦) .

٢ أمالي المرتضى (١/٢٥٤ وما بعدها) ، المعمرون (٦ وما بعدها) ، ذيل الامالي (٢١٤) ، الخزانة (٣/٣٠٦) ، شرح أدب الكاتب ، للجواليقي (٢٦٦) .

٣ أمالي المرتضى (١/٣٨٠ وما بعدها) ، الاغاني (٢١/١٣ وما بعدها) ، الاصابة (١/٣٧٠) ، (رقم ١٩٣٧) .

وقد نسبوا له قوله :

لعمرك ما أبقى لي الدهر من أخٍ حفيّ ولا ذي خلّة لي أواصله
ولا من خليل ليس فيه غوائل فشرّ الأخلاء الكثير غوائله
وقل لفؤادٍ إنْ نزا بك نزوة من الروع أفرخ، أكثر الروع باطله

وروى الشريف (المرتضى) أشعاراً أخرى ، أكثرها في المنايا ، وفي الصدق والاخلاص ، والنصح ، وتجنب أمكنة السوء ، وفي تجاوز الأقرباء على حقوق القريب وفي الوقوع في الفقر حيث يقول :

وإذا افتقرتَ فلا تكن متخشعاً ترجو الفواضلَ عند غير المفضل
واستغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تكون خصاصة فتجمل[1]

وقد كان في أيام (زياد بن أبيه) ، وكان مستهتراً بالشراب[2] . وله شعر عاتب به (عبيد الله بن زياد) لما تغير عليه بعد اختصاصه بأبيه[3] .

ومما استحسن من شعره قوله :

يا كعبُ ما راح من قوم ولا ابتكروا إلا وللموت في آثارهم حادي
يا كعبُ ما طلعت شمس ولا غربت إلا تقربُ آجالاً لميعاد[4]

وكانت لخفاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفي ، وفادة على النبي ، وفد عليه فقال :

إني أتاني في المنام مخبر من جنّ وجرة في الأمور موات
يدعو اليك لياليا ولياليا ثم احزأل وقال لست بآت
فركبت ناجية أضر بمتنها جمر تحث به على الأكمات
حتى وردت الى المدينة جاهداً كيما أراك فتفرج الكربات

١ أمالي المرتضى (١/٣٨٣) .
٢ أمالي المرتضى (١/٣٨٤) .
٣ أمالي المرتضى (١/٣٨٦) .
٤ أمالي المرتضى (٢/٢٢٨) .

ويروى ان النبي استحسنها ، وقال : ان من البيان لسحراً وان من الشعر كالحكم[1] .

و (بشر بن قطبة بن سنان) الفقعسي ، من الشعراء الفرسان ، شهد اليمامة مع (خالد بن الوليد) ، وقال في ذلك :

أروح وأغدو في كتيبة خالد على شطبة قد ضمها الغزو خيفق

ومنها :

اذا قال سيف الله كرّوا عليهم كررنا ولم نجعل وصاة المعوق
أقول لنفسي بعدما رقّ بالما رويدك لما تشققي حين تشفقي
وكوني مع الراعي وصاة محمد وإن كذبت نفس المنافق فاصدق[2]

ومن شعراء (بني أشجع) : (بقيلة) الأشجعي ، وكان سيداً كبيراً شاعراً. ومن شعره :

إلبس قريبك إن أطماره خلقت ولا جديد لمن لا يلبس الخلقا
فإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا
وانما الشعر لبّ المرء يعرضه على المجالس إن كيساً وان حمقا[3]

وكان (امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن معاوية الأكرمين) الكندي،من الشعراء ، وكان ممن حضر حصار حصن (النجير)، فلما أخرج المرتدون ليقتلوا ، وثب على عمه ليقتله ، فقال له عمه : ويحك أتقتلني وأنا عمك ؟ قال : أنت عمّي والله ربي ، فقتله . وكان ممن ثبت على الاسلام، وأنكر على الأشعث ارتداده . وقد كتب الى (أبـي بكر) في الردة :

ألا ابلغ أبا بكر رسولاً وبلغهـا جميع المسلمينـا
فليس مجاوراً بيتي بيوتاً بما قال النبي مكذبينـا[4]

---

١ الاصابة (٤٤٨/١) ، (رقم ٢٢٧٤) .
٢ الاصابة (١٧٦/١) ، (رقم ٧٧٥) .
٣ الاصابة (١٦٦/١) ، (رقم ٧٢١) .
٤ الاصابة (٧٧/١ وما بعدها) ، (رقم ٢٥٠) ، أسد الغابة (١١٥/١) ، الاستيعاب (٩٤/١ وما بعدها) . (حاشية على الاصابة) .

ومن شعره :

قف بالديار وقوف حابس وتأنَّ إنك غيرُ آيس
ماذا عليك من الوقو ف بهامد الطللين دارس
لعبت بهن العاصفا ت الرائحات من الروامس

وقد أخذه الكميت كله غير القافية فقال :

قف بالديار وقوف زائر وتأيَّ إنك غير صاغر [1]

ومن الشعر المنسوب اليه ، المعروف بخفة رويه ، قوله :

يا تملكُ يا تملي صليني وذري عذلي
ذريني وسلاحي ثم شدي الكف بالغزل
ونَبلي وفقاها كعراقيب قطا طُحل
ومني نظرةٌ بعدي ومني نظرةٌ قبلي
وثوباي جديدان وأرخي شرك النعلِ
وإما متُّ يا تملي فكوني حرة مثلي

وتروى هذه الأبيات للفند الزماني[2] .

وشداد بن عارض الجشمي من الشعراء المشهورين ، ذكره (ابن اسحاق) في المغازي ، ولما سار رسول الله الى الطائف ، قال في ذلك :

لا تنصروا اللاتَ إن اللهَ مهلكها وكيف ينصر من هو ليس ينتصر
إن الرسول متى ينزل بلادكم يظعن وليس بها من أهلها بشر[3]

و (هوذة بن الحرث بن عجرة بن عبدالله بن يقظة) السلمي المعروف بـ (ابن الحمامة) ، وهي أمه ، من الشعراء المخضرمين ، قال لعمر بن الخطاب لما قدم أناساً عليه في العطاء :

---

١ الشعر والشعراء (٢/٤٨٦) ، تهذيب ابن عساكر (٣/١١٣) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٩) ، السمط (٥٠٤) .
٣ الاصابة (٢/١٣٩) ، (رقم ٣٨٥٢) .

لقد دار هذا الأمر في غير أهله فأبصر أمين الله كيف تريد
أيدعى خثيم والشريد أمامنـــا ويدعى ربـــاح قبلنا وطرود
فإن كان هذا في الكتاب فهم اذاً ملوك بني حرّ ونحن عبيد[1]

ولمالك بن عامر بن هانىء بن خفاف الأشعري ، قصيـدة طويلة يشرح فيها أحواله ، مذ كان في الجاهلية الى دخوله في الاسلام ، ومجيئه النبي ، ثم اشتراكه في الفتوح كالقادسية ، ثم مساهمته في حرب صفين مع (علي) . وقد ختمها بقوله :

كأن الفتى لم يعش ليلة اذا صار رمساً على صور
وطول بقاء الفتى فتنة فأطول لعمرك أو أقصر

وقيل انه أول من عبر دجلة يوم المدائن ، وله في ذلك قصيدة رجز[2] .

ولقصيدة (مالك) الطويلة أهمية خاصة بالنسبة لدارسي الأدب العربي ، لأنها تتناول ترجمة حياة الشاعر ، وتسجل سيرته بشعر ، وهو نموذج لم يتطرق اليه شعراء العربية بكثرة .

و (مالك بن عمير) السلمي من الشعراء المعروفين ، ذكر انه جاء الى النبي فقال : « يا رسول الله إني امرؤ شاعر ، فافتني في الشعر ؟ فقال : لأن يمتلىء ما بين لبتك الى عاتقك قيحـــاً خير لك من أن تمتلىء شعراً » ويذكر الخبر أنه قال للرسول : « فامسح عني الخطيئة » ، فمسح الرسول يده على رأسه ثم أمرها على كبده ثم على بطنه ، وترك بعد ذلك الشعر[3] .

ومن المخضرمين (شبيل بن ورقاء) (شبيل بن وفاء) من زيد بن كليب ابن يربوع ، وكان شاعراً مذكوراً جاهلياً ، فأدرك الإسلام وأسلم إسلام سوء . وكان لا يصوم رمضان ، فقالت له بنته : ألا تصوم ؟ فقال :

تأمرني بالصوم لا درّ درها وفي القبر صومٌ يا لبال طويل[4]

---

١ الاصابة (٣/٥٨٥) ، (رقم ٩٠٥٩) .
٢ الاصابة (٣/٣٢٦) ، (رقم ٧٦٤٢) .
٣ الاصابة (٣/٣٣١) ، (رقم ٧٦٧٢) .
٤ « لا أباك » ، الشعر والشعراء (١/٦٣٣) ، الاشتقاق (١٤٢) .

و (أنس بن مدرك بن كعب بن عمرو بن سعـد بن عوف) الخثعمي ثم الأكلبي ، والمعروف بـ (أبي سفيان) هو من الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الاسلام . وكان شاعراً وقد رأس ، إذ كان سيد خثعم في الجاهليـة ، كما كان فارسها . وذكر أنه قتل (السليك بن سلكة) الشاعر المعروف، وكان قد اعتدى على امرأة من خثعم ، فلحقه وقتله ، فطالب (عبد ملك بن مويلك) الخثعمي بدية (السليك) ، وكان (السليك) يعطيه إتاوة من غنيمته عـلى الحيرة ، فأبى (أنس) أن يديه لفجوره ، كما كانت له أخبار مع (دريد بـن الصمة) في الجاهلية . وقد عاش طويلاً فزعموا أنه عاش مائة وأربعاً وخمسين سنة[1] .

وكان (سواد بن قارب) الدوسي من الشعراء ، وكان يتكهـن في الجاهلية ثم أسلم . ورووا له أبياتاً فيها إشارة الى (الرئي) والجن[2] .

---

١ الاصابة (١/٨٥) ، (رقم ٢٨٠) .

٢ الاستيعاب (٢/١٢٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

الفهرست

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

الجزء العاشر

المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء العاشر

○ الطبعة الثانية ○

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفهارس

إعداد

نديم مرعشلي

فهرس الاعلام

ـ الالف ـ

ـ الباء ـ

ـ التاء ـ

ــ الثاء ــ

ـ الجيم ـ

ـ الحاء ـ

— خ —

ـ الدال ـ

— الذال —

ـ الراء ـ

ـ الـزاي ـ

ـ السين ـ

— الشين —

ـ الصاد ـ

ـ الضاد ـ

— الطاء —

ـ الظاء ـ

ـ العين ـ

— الغين —

ـ الفاء ـ

— القاف —

ـ الكاف ـ

ـ اللام ـ

ـ الميم ـ

ــ النون ــ

ــ الهاء ــ

– الواو –

ـ الياء ـ

فهرس

الأمم والشعوب والقبائل والجماعات

ـ الألف ـ

ـ الباء ـ

– التاء –

— الثاء —

– الجيم –

— الحاء —

— الخاء —

ــ الـدال ــ

– الذال –

ـ الراء ـ

ـ الزاي ـ

ـ السين ـ

– الشين –

ـ الصـــاد ـ

ــ الضاد ــ

ـ الطاء ـ

– الظاء –

– العين –

ـ الغين ـ

ـ الفـاء ـ

ـ القاف ـ

— الكاف —

ـ اللام ـ

ـ الميم ـ

ـ النون ـ

ـ الهاء ـ

ـ الياء ـ

فهرس
الدول والممالك والاماكن

ـ الألف ـ

ـ البـاء ـ

ــ التــاء ــ

ـ الثاء ـ

– الجيم –

ـ الخاء ـ

— الدال —

- الذال -

ـ الراء ـ

ـ الزاي ـ

ـ السين ـ

ـ الشين ـ

ـ الصاد ـ

ـ الضاد ـ

ـ الطاء ـ

ـ الظاء ـ

ـ العين ـ

٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦
— ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٨٦
٣٩٣ — ٣٩٤ ، ٤١٤ ، ٤٢١
٤٢٠ ، ٤٢٢ — ٤٢٣ ، ٤٥١
٤٥٥ ، ٤٧٠ — ٤٧٢ ، ٤٧٧
٤٨٤ ، ٤٩٩ : ٥٠٥ ، ٥٢٦
٥٢٣ ، ٥٤٨ ، ٥٧٠ ، ٥٩٠
٥٩٢ ، ٦٢٤ ، ٦٣٣
(ج٦) ١١ ، ١٢ : ٢٦ : ٢٨ ،
٢٤ ، ٣٧ ، ٥٢ — ٥٣ : ٥٥
٨١ ، ٨٨ ، ١١٧ : ١٧٥ ،
٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٦٤ ، ٢٨١
٣٠٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٤٠٦
٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٤٧
٤٥٨ ، ٤٧١ ، ٤٨١ ، ٥٠١
٥٠٨ ، ٥١١ — ٥١٦ ، ٥٢٣ ،
٥٢٦ ، ٥٣١ — ٥٣٣ ، ٥٣٧
٥٤١ ، ٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٧
— ٥٦١ ، ٥٦٥ — ٥٦٧ ، ٥٧٩
٥٨٢ ، ٥٨٦ — ٥٩٠ ، ٥٩٤
— ٥٩٥ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠٢
٦٠٥ — ٦٠٦ ، ٦١٢ ، ٦٢٠
— ٦٢١ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٨
٦٣٤ ، ٦٤٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٧
٧١١ ، ٧٤٠
(ج٧) ٦ — ٨ ، ١٢ — ١٧ ،
١٩ — ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٦ — ٣٨
٤٠ ، ٤٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ — ٧٠ ، ٧٢
— ٧٥ ، ٧٧ — ٧٨ ، ٨٢ ،
٩٧ ، ١٠٦ ، ١٠٨ — ١١٠
١١٥ ، ١٢٣ — ١٢٤ ، ١٣٠
١٣٢ — ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٥٠
١٥٣ ، ١٥٨ — ١٦٣ ، ١٦٥
— ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٦ — ١٧٨
١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٥ ، ١٩٧
٢٠١ ، ٢٠٧ — ٢٠٩ ، ٢١٣
— ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢
— ٢٣٣ ، ٢٣٦ — ٢٣٧ ، ٢٤٢

٢٤٤ : ٢٥٦ — ٢٥٨ : ٢٦١
— ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧
٢٧٩ ، ٢٨٤ — ٢٨٥ ، ٢٩٣
٢٩٦ ، ٣٠٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٠
— ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ — ٣٣٢
٣٣٤ ، ٣٤٣ ، ٣٦٩ — ٣٧٠
٣٧٣ ، ٤٠٦ ، ٤٢٢ ، ٤٥٤
٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٨ ، ٤٨٠
٤٨٢ — ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٩٥
٥٠٧ ، ٥١١ — ٥١٢ ، ٥١٤
٥٢٢ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠
٥٣٣ ، ٥٣٤ — ٥٣٥ ، ٥٣٨
٥٤٣ ، ٥٤٥ — ٥٤٦ ، ٥٤٨
٥٥٣ — ٥٥٦ ، ٥٦١ ، ٥٦٤
٥٧٠ ، ٥٧٦ ، ٥٨٣ ، ٥٨٧ ،
٥٩٦ — ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠١
— ٦٠٢ ، ٦٠٩ ، ٦١٦ ، ٦٣١
(ج٨) ٥ ، ٩ — ١٠ ، ٢٠٢ ، ٤٢
٥٠ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٨٣ ، ٨٧
٩٢ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٢٤ ،
١٤١ — ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٣
١٥٦ ، ١٦٩ — ١٧٠ ، ١٧٤
١٧٩ — ١٨٠ ، ١٩٤ ، ١٩٦
٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١١
— ٢١٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥
— ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤
— ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٢٢
٣٦٨ ، ٣٨٧ ، ٤٠٥ ، ٤٢٢
٤٢٤ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ — ٤٤٣
٤٧٧ — ٤٧٨ ، ٥٠٦ — ٥٠٧
٥٤١ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٦٠
٥٦٣ — ٥٦٤ ، ٥٨٨ ، ٥٩٢
٦٠٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠
٦٤٤ — ٦٤٥ ، ٦٤٧ — ٦٥٣
٦٧٣ ، ٦٨٠ ، ٦٨٢ ، ٦٨٧
— ٦٨٨ ، ٦٩١ ، ٦٩٣ ، ٧٠١
— ٧٠٣ ، ٧١٢ ، ٧١٥ ، ٧٢٢
٧٢٨ ، ٧٧٥
(ج٩) ٢٨ ، ٧٣ ، ٩١ — ٩٢

حرف الغين

ـ حرف الفاء ـ

ـ القاف ـ

ـ الكاف ـ

– اللام –

ـ الميم ـ

ـ النون ـ

ـ الهاء ـ

— الواو —

ـ الياء ـ

فهرس
الاحداث والتواريخ

ـ الالف ـ

ـ الباء ـ

ـ التاء ـ

ـ الثاء ـ

ـ الجيم ـ

ـ الحاء ـ

— الخاء —

ـ الدال ـ

ـ الذال ـ

ـ الراء ـ

ـ الزاي ـ

ـ السين ـ

ـ الشين ـ

ـ الصاد ـ

ـ الضاد ـ

ـ الطاء ـ

ـ الظاء ـ

ـ العين ـ

ــ الغين ــ

ــ الفاء ــ

– القاف –

— الكاف —

— اللام —

ـ الميم ـ

ـ النون ـ

— الهاء —

— الواو —

ـ الياء ـ

فهرس
المذاهب والفنون والمنسوبات والطوائف واللغات

ـ الالف ـ

– الباء –

ـ التاء ـ

ـ الثاء ـ

— الجيم —

– الحاء –

ـ الخاء ـ

ـ الدال ـ

ـ الراء ـ

ـ الزاي ـ

ـ السين ـ

ـ الشين ـ

ـ الصاد ـ

ــ الطاء ــ

— العين —

– الغين –

– الفاء –

ـ القاف ـ

ـ الكاف ـ

— اللام —

– الميم –

ـ النون ـ

ـ الهـاء ـ

ـ الـواو ـ

ـ الياء ـ

فهرس
السور القرآنية

ـ الالف ـ

— الباء —

— التاء —

ـ الجيم ـ

ـ الحاء ـ

ـ الدال ـ

ـ الذال ـ

ـ الراء ـ

ـ الزاي ـ

ـ السين ـ

ـ الشين ـ

ـ الصاد ـ

ـ الضاد ـ

ـ الطاء ـ

ـ العين ـ

ـ الغين ـ

ـ الفاء ـ

ـ القاف ـ

ـ الكاف ـ

ـ اللام ـ

ـ الميم ـ

- النون -

— الهاء —

— الواو —

ـ الياء ـ

فهرس
الاصنام

ـ الالف ـ

— الباء —

ـ التاء ـ

ـ الثاء ـ

ـ الجيم ـ

ـ الحاء ـ

ـ الدال ـ

ـ الذال ـ

ـ الراء ـ

ـ الزاي ـ

ـ السين ـ

ـ الشين ـ

ـ الصاد ـ

ـ الضاد ـ

ـ الطاء ـ

ـ العين ـ

— الغين —

— الفاء —

ـ القاف ـ

ـ الكاف ـ

ـ اللام ـ

ـ الميم ـ

ــ النون ــ

ــ الهاء ــ

— الواو —

ـ الياء ـ

فهرس
الخيول والحيوانات الاخرى

الاسلحة

فهرس
المجامع والشركات والبعثات

فهرس
الطباعة والمطبوعات

ـ الالف ـ

٥٦١

ـ الباء ـ

ـ التاء ـ

ـ الثاء ـ

– الجيم –

ـ الحاء ـ

— الخاء —

ــ الدال ــ

– الذال –

— الراء —

ـ الزاي ـ

ـ السين ـ

ـ الشين ـ

ــ الصاد ــ

ـ الضاد ـ

ـ الطاء ـ

ـ العين ـ

ـ الغين ـ

ـ الفاء ـ

ـ القـاف ـ

ـ الكاف ـ

ــ اللام ــ

– الميم –

ـ النون ـ

ـ الهـاء ـ

ـ الواو ـ

ــ اليـاء ــ

فهرس الموضوعات

المجلد الاول

المجلد الثاني

المجلد الثالث

المجلد الرابع

المجلد الخامس

المجلد السادس

المجلد السابع

المجلد الثامن

المجلد التاسع

فهرس الفهارس

المجلد العاشر